الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد السابع والثلاثون

الاجزاء من ٧٢٤ الى ٧٤٦

ٱلْحَاوِي فِي ٱلتَّقْسِيمِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞

وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
724	سورة الذاريات	فصول مهمة	2
725	=	الآية 1 الى الآية 23	148
726	=	الآية 24 الى الآية 55	515
727	=	الآية 56 الى الآية 60	847
728	سورة الطور	فصول مهمة	1385
729	=	الآية 1 الى الآية 28	1503
730	=	الآية 29 الى الآية 49	1784
731	سورة النجم	فصول مهمة	2323
732	=	الآية 1 الى الآية 18	2515
733	=	الآية 19 الى الآية 41	2796
734	=	الآية 42 الى الآية 62	3152
735	سورة القمر	فصول مهمة	3925
736	=	الآية 1 الى الآية 32	4076
737	=	الآية 33 الى الآية 55	4784
738	سورة الرحمن "جل جلاله "	فصول مهمة	5426
739	=	الآية 1 الى الآية 32	5610
740	=	الآية 33 الى الآية 61	6026
741	=	الآية 62 الى الآية 78	6314
742	سورة الواقعة	فصول مهمة	7010
743	=	الآية 1 الى الآية 48	7281
744	=	الآية 49 الى الآية 87	7621
745	=	الآية 88 الى الآية 96	8359
746	سورة الحديد	فصول مهمة	9098

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والعشرون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/724)

الجزء الرابع والعشرون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الذاريات)

(4/724)

(سورة الذاريات)

(5/724)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

(سورة الذاريات)

مقصودها الدلالة على صدق ما أنذرت به سورة ق تصريحا وبشرت به تلويحا ولا سيما آخرها من مصاب الدنيا وعذاب الآخرة ، واسمها الذاريات ظاهر في ذلك بملاحظة جواب القسم فإنه مع القسم لشدة الارتباط كالآية الواحدة وإن كان خمسا ، والتعبير عن

الرياح بالذاريات أتم إشارة إلى ذلك ، فإن تكذيبهم بالوعيد لكونهم لا يشعرون بشيء من أسبابه وإن كانت موجودة معهم كما أن ما يأتي من السحاب من الرحمة والنقمة أسبابه وإن كانت موجودة ، وهي الرياح وإن كانوا لا يرونها ، واريح من شأنها الذرء وهو التفريق ، فإذا أراد الله جمعت فكان ما أراد ، فإنها تفرق الأبخرة ، فإذا أراد الله سبحانه جمعها فحملها ما أوجد فيها فأوقرها به فأجراها إجراء سهلا ، فقسم منها ما أراد تارة برقا وأخرى رعدا ، يصل صليل الحديد على الحديد ، أو الحجر على مثله مع لطافة السحاب ، كل ما يشاهد فيه من الأسباب ، وآونة مطرا شديد الانصباب ومرة بردا ومرة ثلجا يرجى ويهاب نن وحينا صواعق ونيرانا لها أي التهاب ، ووقتا جواهر ومرجانا بديعة الإعجاب ، فتكون مرة سرورا ورضوانا ، وأخرى غموما وأحزانا ، وغبنا وخسرانا ، على أنهم أخيل الناس في بعض ذلك ، يعرفون السحاب الذي يخيل المطر والذي لا يخليه والذي مطرهع دان ، والذي لم يئن له أن يمطر . إلى غير ذلك من أشياء ذكرها أهل الأدب وحملها أهل اللغة عنهم ، وكل ذلك بتصريف الملائكة عن أمر الله ، ولذلك . والله أعلم . سن أن يقال عنمد سماع الرعد : سبحان الله سبوح قدوس ، بيانا لأن المصرف الحق هو الله تعالى) رب الملائكة) أي الذي أقيموا لهذا) الروح (الذي يحمله هذا الجسم من مطر أو نار أو غيرهما والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 269 ﴾

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . والذاريات)

السّورة مَكِّيّ ، عدد آياتها ستُّون .

وكلماتها ثلثمائة وستُّون .

وحروفها أَلْف ومائتان وسبع وثمانون .

مجموع فواصل آياتها (قفاك معن) سمّيت بالذَّاريات لمفتتحها .

معظم مقصود السّورة : ذكر القَسَم بحقِّيّة البعث والقيامة ، والإِشارة إِلى عذاب أَهل الضَّلالة ، وثواب أَرباب الهداية ، وحُجّة الوحدانيّة ، وكرامة إِبراهيم فى باب الضِّيافة ، وفى إِسحاق له بالبشارة ، ولقوم لوط بالهلاكة ، ولفرعون وأَهله من الملامة ، ولعاد وثمود وقوم نوح من الدمار والخسارة ، وخَلْق السّماءِ والأَرض للنَّفع والإِفادة ، وزوْجيَّة المخلوقات ؛ لأَجل الدّلالة ، وتكذيب المشركين لما فيه للرّسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – من التسلية ، وتخليق الخَلْق لأَجل العبادة ، وتعجيل المنكرين بالعذاب والعقوبة فى قوله : ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوْنَ ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

فيها من المنسوخ آيتان ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ م ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى ﴾ ن ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ ﴾ م (آية الزكاة) ن .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ ﴾ وفى الطُّور ﴿ جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ ﴾ ليس بتكرار ؛ لأَن ما فى هذه السّورة متَّصل بذكر ما به يصل الإنسان إليها ، وهو قوله ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ ، وفى الطَّور متَّصل بما ينال الإنسانُ فيها إذا وَصَل إليها ، وهو قوله : ﴿ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ الآيات .

قوله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ وبعده : ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ليس بتكرار ؛ لأَنَّ كلّ واحد منهما متعلق بغير ما يتعلَّق به الآخر .

فالأَوّل متعلّق بترك الطَّاعة إلى المعصية ، والثانى متعلق بالشرك بالله تعالى .

فضل السّورة

(7/724)

فيه من الأَحاديث الضعيفة حديث أُبىّ : مَنء قرأَ (والذَّاريات) أُعطِىَ من الأَجر عشرَ حسنات ، بعدد كلّ ريح هبّت ، وجرَت فى الدنيا ، وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَ

(والذَّاريات) رضى الله عنه ويَشَمَّ ريح الجنَّة من مسيرة خمسمائة عام ، وله بكلّ آية قرأَها مثل ثواب فاطمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 439. 440 ﴾

(8/724)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الذاريات

418 - مسألة :

قوله تعالى (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

ثم قال تعالى بعد في ما ختم به الآية الثانية : (إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) فكرر ختم الآيتين بذلك ؟ .

جوابه :

أن الفرار الأول ، من المعاصى إلى الطاعات ، والإنذار فيه من عقوبة المعاصرى .

والإنذار الثاني : من عقوبة الشرك ، وللدلالة على أن الطاعات مع الشرك غير نافعة من العذاب عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 343.344 ﴾

(9/724)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

سورة الذاريات

تسمى هذه السورة والذاريات بإثبات الواو تسمية لها بحكاية الكلمتين الواقعتين في أولها .

وبهذا عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه وابن عطية في تفسيره والكواشي في تلخيص التفسير والقرطبي .

وتسمى أيضا سورة الذاريات بدون الواو اقتصارا على الكلمة التي لم تقع في غيرها من سور القرآن .

وكذلك عنونها الترمذي في جامعه وجمهور المفسرين .

وكذلك هي في المصاحف التي وقفنا عليها من مشرقية ومغربية قديمة .

ووجه التسمية أن هذه الكلمة لم تقع بهذه الصيغة في غيرها من سور القرآن .

وهي مكية بالاتفاق .

وقد عدت السورة السادسة والستين في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد .

نزلت بعد سورة الأحقاف وقبل سورة الغاشية .

واتفق أهل عد الآيات على أن آيها ستون آية .

أغراض هذه السورة

احتوت على تحقيق وقوع البعث والجزاء .

وإبطال مزاعم المكذبين به وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ورميهم بأنهم يقولون بغير تثبت .

ووعيدهم بعذاب يفتنهم .

ووعد المؤمنين بنعيم الخلد وذكر ما استحقوا به تلك الدرجة من الإيمان والإحسان .

ثم الاستدلال على وحدانية الله والاستدلال على إمكان البعث وعلى أنه واقع لا محالة بما في بعض المخلوقات التي يشاهدونها ويحسون بها دالة على سعة قدرة الله تعالى وحكمته على ما هو أعظم من إعادة خلق الإنسان بعد فنائه وعلى أنه لم يخلق إلا لجزائه .

والتعريض بالإنذار بما حاق بالأمم التي كذبت رسل الله ، وبيان الشبه التام بينهم وبين

أولئك .

وتلقين هؤلاء المكذبين الرجوع إلى الله وتصديق النبي صلى الله عليه وسلم ونبذ الشرك .

ومعذرة الرسول صلى الله عليه وسلم من تبعة إعراضهم والتسجيل عليهم بكفران نعمة الخلق والرزق .

ووعيدهم على ذلك بمثل ما حل بأمثالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 27 صـ 6.5﴾

(11/724)

وقال الشيخ سيد قطب :

تقديم لسورة الذاريات

هذه السورة ذات جو خاص . فهي تبدأ بذكر قوى أربعة . . من أمر الله . . في لفظ مبهم الدلالة , يوقع في الحس لأول وهلة أنه أمام أمور ذات سر . يقسم الله – تعالى – على أمر: والذاريات ذروا , فالحاملات وقرا , فالجاريات يسرا , فالمقسمات أمرا . إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع . .

والذاريات . والحاملات . والجاريات . والمقسمات . . مدلولاتها ليست متعارفة , وهي غامضة تحتاج إلى السؤال والاستفسار , كما أنها بذاتها تلقي في الحس ذلك الظل . ولعله هو المقصود الأول منها في جو هذه السورة .

وما يكاد القسم الأول ينتهي حتى يعقبه قسم آخر بالسماء :(والسماء ذات الحبك) . . يقسم بها الله تعالى . على أمر :(إنكم لفي قول مختلف) . . لا استقرار له ولا تناسق فيه , قائم على التخرصات والظنون , لا على العلم واليقين . .

هذه السورة: بافتتاحها على هذا النحو , ثم بسياقها كله , تستهدف أمرا واضحا في سياقها كله . . ربط القلب البشري بالسماء ; وتعليقه بغيب الله المكنون ; وتخليصه من أوهاق الأرض , وإطلاقه من كل عائق يحول بينه وبين التجرد لعبادة الله , والانطلاق إليه جملة , والفرار إليه كلية , استجابة لقوله في السورة: (ففروا إلى الله) . . وتحقيقا لإرادته في عباده:(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) . .

(12/724)

ولما كان الانشغال بالرزق وما يخبئه القدر عنه هو أكثف تلك العوائق وأشدها فقد عني في هذه السورة بإطلاق الحس من إساره , وتطمين النفس من جهته , وتعليق القلب بالسماء

في شأنه , لا بالأرض وأسبابها القريبة . وتكررت الإشارة إلى هذا الأمر في السورة في مواضع متفرقة منها . إما مباشرة كقوله تعالى:(وفي السماء رزقكم وما توعدون) . .(إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) . . وإما تعريضا كقوله يصور حال عباده المتقين مع المال:(وفي أموالهم حق للسائل والمحروم) . . ووصفه لجود إبراهيم وسخائه وهو يقري ضيوفه القلائل – أو من حسبهم ضيوفه من الملائكة – بعجل سمين , يسارع به إليهم عقب وفودهم إليه , وبمجرد إلقاء السلام عليه , وهو لم يعرفهم إلا منذ لحظة !

فتخليص القلب من أوهاق الأرض , وإطلاقه من إسار الرزق , وتعليقه بالسماء , ترف أشواقه حولها , ويتطلع إلى خالقها في علاه , بلا عائق يحول بينه وبين الانطلاق , ويعوقه عن الفرار إلى الله . هو محور السورة بكل موضوعاتها وقضاياها التي تطرقها . ومن ثم كان هذا الافتتاح , وكان ذلك الإيقاع الغامض في أولها , وكان القسم بعده بالسماء , وكان تكرار الإشارة إلى السماء أيضا . .

وفي هذا كانت صورة المتقين التي يرسمها في مطلع السورة:(إن المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم) . . فهي صورة التطلع إلى الله , والتجرد له , والقيام في عبادته بالليل , والتوجه إليه في الأسحار . مع إرخاص المال , والتخلص من ضغطه , وجعل نصيب السائل والمحروم حقا فيه .

وفي هذا كان التوجيه إلى آيات الله في الأرض وفي الأنفس مع تعليق القلوب بالسماء في شأن الرزق , لا بالأرض وما فيها من أسبابه القريبة: (وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون . وفي السماء رزقكم وما توعدون) . .

(13/724)

وفي هذا كانت الإشارة إلى بناء الله للسماء على سعة , وتمهيده للأرض في يسر , وخلقه ما فيها من أزواج , والتعقيب على هذا كله بالفرار إلى الله: (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين) . .

وفي هذا كان الإيقاع الأخير البارز في السورة , عن إرادة الله سبحانه في خلق الجن والإنس , ووظيفتهما الرئيسية الأولى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) . .

فهو إيقاع واحد مطرد . ذو نغمات متعددة . ولكنها كلها تؤلف ذلك الإيقاع , وتطلق ذلك الحداء . الحداء بالقلب البشري إلى السماء !

وقد وردت إشارات سريعة إلى حلقة من قصة إبراهيم ولوط , وقصة موسى , وقصة عاد

, وقصة ثمود , وقصة قوم نوح . وفي الإشارة إلى قصة إبراهيم تلك اللمحة عن المال ; كما أن فيها لمحة عن الغيب المكنون في تبشيره بغلام عليم , ورزقه هو وامرأته به على غير ما توقع ولا انتظار . وفي بقية القصص إشارة إلى تصديق وعد الله الذي أقسم عليه في أول السورة: (إنما توعدون لصادق) والذي أشار إليه في ختامها إنذارا للمشركين: (فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون) . . بعد ما ذكر أن أجيال المكذبين كأنما تواصت على التكذيب: (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا: ساحر أو مجنون . أتواصوا به ? بل هم قوم طاغون !) . .

فالقصص في السورة – على هذا النحو – مرتبط بموضوعها الأصيل . وهو تجريد القلب لعبادة الله , وتخليصه من جميع العوائق , ووصله بالسماء . بالإيمان أولا واليقين . ثم برفع الحواجز والشواغل دون الرفرفة والانطلاق إلى ذلك الأفق الكريم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 3372 . 3374 ﴾

(14/724)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الذاريات

مكية وآياتها ستون آية

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المكية التي تقوم على تشييد دعائم الإيمان ، وتوجيه الأبصار إلى قدرة الله الواحد القهار ، وبناء العقيدة الراسخة على أسس التقوى والإيمان

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن الرياح التى تذرو الغبار ، وتسير المراكب في البحار ، وعن السحب التي تحمل مياه الأمطار ، وعن السفن الجارية على سطح الماء بقدرة الواحد الأحد ، وعن الملائكة الأطهار المكلفين بتدبير شئون الخلق ، وأقسمت بهذه الأمور الأربعة على أن الحشر كائن لا محالة ، وأنه لابد من البعث والجزاء [والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا إنما توعدون لصادق . وأن الدين لواقع] الآيات .

* ثم انتقلت إلى الحديث عن كفار مكة ، المكذبين بالقرآن وبالدار الآخرة ، فبينت حالهم في الدنيا ، وما لهم في الآخرة ، حيث يعرضون على نار جهنم ، فيصلون عذابها ونكالها [قتل الخراصون . الذين هم في خوض ساهون . يسألون أيان يوم الدين ؟ يوم هم على النار يفتنون . ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون] الآيات .

* ثم تحدثت عن المؤمنين المتقين ، وما أعد الله لهم من النعيم والكرامة في الآخرة ، لأنهم كانوا في الدنيا محسنين ، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب ، والإعذار والإنذار [

إن المتقين في جنات وعيون . آخذين ما أتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . .] الآيات .

* ثم تحدثت عن دلائل القدرة والوحدانية ، في هذا الكون الفسيح ، في سمائه وأرضه ، وجباله ووهاده ، وفي خلق الإنسان في أبدع صورة وأجمل تكوين ، وكلها دلائل على قدرة رب العالمين [وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ وفي السماء رزقكم وما توعدون . .] الآيات .

(15/724)

---

* ثم انتقلت للحديث عن قصص الرسل الكرام ، وعن موقف الأمم الطاغية من أنبيائهم ، وما حل بهم من العذاب والدمار ، فذكرت قصة (إبراهيم) و(لوط) وقصة (موسى) وقصة الطغاة المتجبرين من قوم عاد وثمود وقوم نوح ، وفي ذكر القصص وتكراره في القرآن تسلية للرسل الكرام ، وعبرة لأولى الأبصار ، يعتبر بها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد [هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ؟ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون . .] الآيات .

* وختمت السورة الكريمة ببيان الغاية من خلق الإنس والجن ، وهي معرفة الله جل وعلا

، وعبادته وتوحيده ، وإفراده بالإخلاص والتوجه لوجهه الكريم ، بأنواع القربات والعبادات [وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين . .] الآيات إلى نهاية السورة الكريمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 250 . 251 ﴾

(16/724)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الذاريات

الذاريات : الرياح تذرو التراب وغيره : أي تفرقه ، والوقر : حمل البعير وجمعه أوقار : أي أثقال ، والحاملات وقرا : هى الرياح الحاملات للسحاب المشبع ببخار الماء ، واليسر : السهولة ، والجاريات يسرا : هى الرياح الجارية فى مهابّها بسهولة ، والمقسمات أمرا : هى الرياح التي تقسم الأمطار بتصريف السحاب ، وما توعدون : هو البعث والحشر للحساب والجزاء ، والدين : الجزاء ، وواقع : أي حاصل ، والحبك : الطرق واحدها حبيكة ، مختلف : أي متناقض مضطرب فى شأن اللّه ، فبينا تقولون إنه خالق

السموات تقولون بصحة عبادة الأوثان معه ، وفى شأن الرسول فتارة تقولون إنه مجنون وتارة تقولون إنه ساحر ، وفى شأن الحشر فتارة تقولون لا حشر ولا بعث ، وأخرى تقولون : الأصنام شفعاؤنا عند اللّه يوم القيامة ، يؤفك عنه من أفك : أي يصرف عن القول المختلف : أي بسببه من صرف عن الإيمان ، والخرّاصون : أي الكذابون من أصحاب القول المختلف ، فى غمرة : أي فى جهل يشملهم ويغمرهم شمول الماء الغامر ، ساهون : أي غافلون عما أمروا به ، أيان يوم الدين : أي متى يوم الجزاء : أي متى حصوله ، يفتنون : أي يحرقون ، وأصل الفتن : إذابة الجوهر ليعرف غشه ، فاستعمل فى الإحراق والتعذيب ، فتنتكم : أي عذابكم المعدّ لكم .

فى جنات وعيون : أي فى بساتين تجرى من تحتها الأنهار ، محسنين : أي مجوّدين لأعمالهم ، والهجوع : النوم ليلا والهجعة النومة الخفيفة ، والأسحار : واحدها سحر وهو السدس الأخير من الليل ، حق : أي نصيب وافر يوجبونه على أنفسهم تقربا إلى ربهم وإشفاقا على عباده ، والسائل : هو المستجدى الطالب العطاء ، والمحروم : هو المتعفف

(17/724)

الذي يحسبه الجاهل غنيا فيحرم الصدقة من أكثر الناس ، آيات : أي دلائل على قدرته تعالى من وجود المعادن والنبات والحيوان ، والدحو فى بعض المواضع والارتفاع فى بعضها الآخر عن الماء ، واختلاف أجزائها فى الكيفيات والخواص . للموقنين : أي للموحدين الذين سلكوا الطريق الموصل إلى معرفة اللّه ، فهم نظارون بعيون باصرة ، وأفهام نافذة ، وما توعدون : أي والذي توعدونه من خير أو شر .

الضيف : لفظ يستعمل للواحد والكثير ، المكرمين : أي عند إبراهيم إذ خدمهم هو وزوجه وعجل لهم القرى وأجلسهم فى أكرم موضع ، قوم منكرون : أي قوم لا عهد لنا بكم من قبل ، وقد قال ذلك إبراهيم عليه السلام للتعرف بهم كما تقول لمن لقيته وسلم عليك : أنا لا أعرفك ، تريد عرّف لى نفسك وصفها ، فراغ إلى أهله : أي ذهب إليهم خفية من ضيفه ، سمين : أي ممتلىء بالشحم واللحم ، فقربه إليهم : أي وضعه لديهم ، فأوجس منهم خيفة : أي أضمر فى نفسه الخوف منهم ، امرأته هى سارّة لما سمعت بشارتهم له ، صرّة : أي صيحة ، فصكت وجهها : أي ضربت بيدها على جبهتها وقالت : يا ويلتا ، عجوز عقيم : أي أنا كبيرة السن لا ألد .

الخطب : الشأن الخطير ، أي فما شأنكم الذي أرسلتم لأجله سوى البشارة ، إلى قوم مجرمين : هم قوم لوط ، من طين : أي من طين متحجر وهو السجيل ، مسومة : أي معلّمة من السّومة وهى العلامة ، للمسرفين : أي المجاوزين الحد فى الفجور ، من المؤمنين

: أي ممن آمن بلوط ، غير بيت : أي غير أهل بيت ، والمراد بهم لوط وابنتاه آية : أي علامة دالة على ما أصابهم من العذاب .

بسلطان مبين : أي بحجة واضحة هى معجزاته الظاهرة كاليد والعصا ، والركن : ما يركن إليه الشيء ويتقوّى به ، والمراد هنا جنوده وأعوانه ووزراؤه كما جاء فى سورة هود " أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ " ، فأخذناه : أي أخذ غضب وانتقام ، نبذناهم :

(18/724)

أي طرحناهم ، فى اليمّ : أي فى البحر ، مليم : أي آت بما يلام عليه ، والعقيم : أي التي لا خير فيها ولا بركة ، فلا تلقح شجرا ولا تحمل مطرا ، سميت عقيما لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم ، الرميم : البالي من عظم ونبات وغير ذلك ، فعتوا : أي فاستكبروا عن الامتثال ، والصاعقة : نار تنزل بالاحتكاكات الكهربية ، منتصرين : أي ممتنعين من عذاب اللّه بغيرهم ممن أهلكهم ، فاسقين : أي خارجين من طاعة اللّه ، متجاوزين حدوده .

الأيد والآد : القوة ، لموسعون : أي لذو سعة يخلقها وخلق غيرها من الوسع بمعنى الطاقة ، فرشناها : أي بسطناها ومهدناها من مهدت الفراش إذا بسطته ووطّأته ،

وتمهيد الأمور : تسويتها وإصلاحها ، ومن كل شىء : أي ومن كل جنس من الحيوان ،

زوجين : أي ذكر وأنثى ، ففروا إلى اللّه : أي اعتصموا بحبل اللّه وأقروا بوحدانيته ، إنى لكم منه نذير مبين : أي إنى لكم من عقابه منذر ومخوّف .

فتول عنهم : أي أعرض عن جدلهم ، وذكّر : أي دم على التذكير والموعظة ، إلا ليعبدون : أي إلا لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجى إليهم ، المتين : أي الشديد القوة ، ذنوبا : أي نصيبا من العذاب ، وأصل الذنوب : الدلو العظيمة الممتلئة ماء ، أصحابهم :

أي نظرائهم ، فويل للذين كفروا : أي هلاك لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 26 صـ 173 : حـ 27 صـ 11 ﴾ . باختصار .

(19/724)

وقال الفراء :

سورة (الذاريات)

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً ﴾

قوله عز وجل: ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً . . . ﴾ .

يعنى: الرياح.

﴿ فَالْحَامِلاَتِ وِقْراً ﴾

﴿ فَالْحَامِلاَتِ وِقْراً . . . ﴾

يعنى: السحاب لحملها الماء .

﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً ﴾

﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً . . . ﴾ ، وهى السفن تجرى ميسّرَة ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً . . . ﴾ : الملائكة تأتى بأمر مختلف: جبريل صاحب الغلظة ، وميكائيل صاحب الرحمة ، وملك الموت يأتى بالموت ، فتلك قسمة الأمور .

﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾

وقوله: ﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ . . . ﴾ .

الحُبك: تكسُّر كل شىء ، كالرملة إذا مرت بها الريح الساكنة ، والماء القائم إذا مرت به الريح ، والدرع درع الحديد لها حُبُك أيضا ، والشَّعرة الجَعدة تكسُّرُها حبك ، وواحد الحبك: حِباك ، وحَبيكة .

﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ . . . ﴾ .

جواب للقسم ، والقول المختلف: تكذيب بعضهم بالقرآن وبمحمد ، وإيمان بعضهم .

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾

وقوله: ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ . . . ﴾ .

يريد : يُصرف عن القرآن والإيمان من صُرف كما قال: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا ﴾ يقول: لتصرفنا عن آلهتنا ، وتصُدَّنا .

﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾

وقوله: ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ . . . ﴾ .

يقول: لُعن الكذابون الذين قالوا : محمد صلى الله عليه: مجنون ، شاعر ، كذاب ، ساحر . خرّصوا مالا علم لهم به .

﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾

وقوله: ﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ . . . ﴾ .

(20/724)

متى يوم الدين ؟ قال الله: ﴿ يوم الدّين . يَوْمَ هُمْ على النار يُفْتَنُون ﴾ وإنما نصبت (يومَ هُمْ) لأنك أضفته إلى شيئين ، وإذا أضيف اليوم والليلة إلى اسم له فعل ، فارتفعا نصب اليوم ، وإن كان فى موضع خفض أو رفع ، وإذا أضيف إلى فَعَل أو يفعَل أو إذا كان كذلك ورفعه فى موضع الرفع ، وخفضه فى موضع الخفض يجوز ، فلو قيل: يومُ هم على النار يفتنون ؛ فرفع يوم لكان وجها ، ولم يقرأ به أحد من القراء .

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾

وقوله: ﴿ يُفْتَنُونَ . . . ﴾ يحرقون ويعذبون بالنار .

﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَاذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ . . . ﴾ يقول: ذوقوا عذابكم الذى كنتم به تستعجلون فى الدنيا .

﴿ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾

وقوله: ﴿ آخِذِينَ . . . ﴾ "وفاكهين" .

نصبتا على القطع ، ولو كانتا [/ب] رفعاً كان صوابا ، ورفعهما على أن تكونا خبرا ، ورفع آخر أيضاً على الاستئناف .

﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾

وقوله: ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . . . ﴾ .

إن شئت جعلت ما فى موضع رفع ، وكان المعنى: كانوا قليلا هجوعهم . والهجوع: النوم . وإن شئت جعلت ما صلة لا موضع لها ، ونصبت قليلا بيهجعون . أردت: كانوا يهجعون قليلا من الليل .

﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . . . ﴾ يُصَلون .

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾

وقوله: ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ . . . ﴾ .

فأما السائل فالطوّاف على الأبواب ، وأما المحروم فالمحارَفُ أو الذى لا سهم له فى الغنائم .

﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ . . . ﴾ .

فآيات الأرض جبالها ، واختلاف نباتها وأنهارها ، والخلق الذين فيها .

(21/724)

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ . . . ﴾ .

آيات أيضاً إن أحدكم يأكل ويشرب فى مدخل واحد ، ويُخْرِج من موضعين ، ثم عنّفهم فقال: ﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ ؟

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ . . . ﴾ .

أقسم عز وجل بنفسه: أن الذى قلت لكم لَحق مثل ما أنكم تنطقون . وقد يقول القائل:

كيف اجتمعت ما ، وأنّ وقد يكتفى بإحداهما من الأخرى ؟ وفيه وجهان: أحدهما : أن العرب تجمع بين الشيئين من الأسماء والأدوات إذا اختلف لفظهما ، فمن الأَسماء قول الشاعر:

من النّفر اللائى الذين إذا همُ * يَهاب اللئامُ حلقةَ البابِ قَعْقَعوا

فجمع بين اللائى والذين ، وأحدهما مجزىء من الآخر .

وأما فى الأدوات فقوله:

ما إِنْ رأيتُ ولا سمعت به * كاليوم طالى أيْنُق جُرْب

فجمع بين ما ، وبين إن ، وهما جحدان أحدهما يجزى من الآخر .

وأمّا الوجه الآخر ، فإن المعنى لو أفرد بما لكان كأنّ المنطق فى نفسه حق لا كذب: ولم يُرَد به ذلك . إنما أرادوا أنه لحق كما حقٌّ أن الآدمى ناطق .

ألا ترى أن قولك أحقٌّ منطقك معناه: أحقٌّ هو أم كذب ؟ وأن قولك: أحقٌّ أنك تنطق ؟ معناه: أللانسان النطق لا لغيره . فأدخلتَ أنَّ ليُفرَق بها بين المعنيين ، وهذا أعجب الوجهين إلىَّ .

وقد رفع عاصم والأعمش (مثلَ) ونصبها أهل الحجاز والحسن ، فمن رفعها جعلها نعتا للحق ومن نصبها جعلها فى مذهب المصدر كقولك: إنه لحق حقا . وإن العرب لتنصبها إذا رفع بها الاسم فيقولون: مثلَ من عبد الله ؟ ويقولون: عبد الله [/١] مثلَك ، وأنت مثلَه .

وعلة النصب فيها أن الكاف قد تكون داخلة عليها ؛ فتُنصب إذا ألقيت الكاف . فإن قال قائل: أفيجوز أن تقول: زيدٌ الأسدَ شدةً ، فتنصب الأسد إذا ألقيت الكاف ؟ قلت: لا ؛ وذلك أن مثلَ تؤدى عن الكاف ؛ والأسدُ لا يؤدى عنها ؛ ألا ترى قول الشاعر:

(22/724)

وزعتُ بكالهراوة أعوجيٍّ * إذا وَنَتِ الرِّكاب جرى وثابا

أن الكاف قد أجزأت من مثل ، وأن العرب تجمع بينهما ؛ فيقولون: زيد كمثلك ، وقال الله جل وعز: ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ، واجتماعهما دليل على أن معناهما واحد كما أخبرتك فى ما وإن ولا وغيره .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾

وقوله: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ . . . ﴾ .

لم يكن عَلِمه النبى ـ صلى الله عليه ـ حتى أنزله الله عليه .

وقوله: ﴿ الْمُكْرَمِينَ . . . ﴾ .

أكرمهم بالعمل الذى قرّبه .

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ . . . ﴾ .

رفع بضمير: أنتم قوم منكرون .

وهذا يقوله إبراهيم عليه السلام للملائكة .

﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾

وقوله: ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ . . . ﴾ .

رجع إليهم ، والروغ وإن كان على هذا المعنى فإنه لا يُنطق به حتى يكون صاحبه مُخْفياً لذهابه [أو مجيئه] ألا ترى أنك لا تقول: قد راغ أهل مكة ، وأنت تريد رجعوا أو صدروا ؟ فلو أَخفى راجع رجوعه حسنت فيه: راغ ويروغ .

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ . . . ﴾ .

إذا كبر ، وكان بعض مشيختنا يقول: إذا كان العِلْم منتظراً [لمن] يوصف به قلت فى العليم إذا لم يعلم: إنه لعالم عن قيل وفاقِهٌ ، وفى السيد : سائد ، والكريم: كارم . والذى قال حسن ، وهذا كلام عربى حسن ، قد قاله الله فى عليم ، وحليم ، وميت .

وكان المشيخة يقولون للذى لما يَمُت وسيموت: هو مائت عن قليل ، وقول الله عز وجل أصوب من قيلهم ، وقال الشاعر فيما احتجوا به:

كريم كصفو الماء ليس بباخل * بشيء ، ولا مهد ملاما لباخل

يريد : بخيل ، فجعله باخل ؛ لأنه لم يبخل بعد .

(23/724)

﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ . . . ﴾ .

فى صيحة ، ولم تقبل من موضع إلى موضع إنما هون كقولك: أقبل يشتمنى ، أخذ فى شتمى فذكروا أن الصيحة: أوّه ، وقال بعضهم: كانت يا ويلتا .

وقوله: ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا . . . ﴾ .

هكذا أى جمعت أصابعها ، فضربت جبهتها ، ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ . . . ﴾ أتلد عجوز عقيم ؟ ورفعت بالضيمر بتلد .

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

وقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً . . . ﴾ .

معناه: تركناها آية وأنت قائل للسماء فيها آية ، وأنت تريد هى الآية بعينها .

﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾

وقوله: ﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ . . . ﴾ .

يقال: تولى أى أعرض عن الذكْرِ بقوته فى نفسه ، ويقالُ: فتولى بركنه بمن معه لأَنَّهُم قوّته .

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ . . . ﴾ .

أتى باللائمة وقد ألام ، وقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ هم الآيات وفعلهم .

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾

وقولُه عز وجل: ﴿ كَالرَّمِيمِ . . . ﴾ .

والرميمُ: نباتُ الأرض إذا يَبِسَ ودَبِسَ فهو رَمِيمٌ .

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّى حِينٍ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ تَمَتَّعُواْ حَتَّى حِينٍ . . . ﴾ .

كان ذِلكَ الحينُ ثلاثةَ أيام .

﴿ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ . . . ﴾ .

قرأها العوامُ [الصاعقة] بالألف .

قالَ حدثنا محمدُ بن الجهم قالَ حدثنا الفراءُ قالَ: وحدثنى قيس بن الربيع عن السُّدّى عن عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب: أنه قرأ (الصَّعقة) بغير ألف، وهم ينظرون.

﴿ فَمَا اسْتَطَاعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُواْ مِن قِيَامٍ . . . ﴾.

يقولُ: فما قاموا لها ولو كانت: فما استطاعُوا من إقامةٍ لكان صَوَاباً.

وطرحُ الألفِ منها، كقوله جلّ وعز: ﴿ واللهُ أَنبَتَكُم مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ﴾ ولو كانت - إنباتا - كان صَوابا.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾

وقوله جل ذكره: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ . . . ﴾.

نَصبها القراءُ [/1] إلاّ الأعمشَ وأصحابه، فإنهم خفضوها لأنها فى قراءةِ عبدالله فيما أعلم: وفى قوم نوح.

ومن نصبها فعلى وجهين: أخذتهم الصعقة، وأخذت قومَ نوح.

وإن شئت: أهلكناهم، وأهلكنا قومَ نوح. ووجه آخرُ ليسَ بأبغَضَ إلىّ من هذين الوجهين: أن تُضمَر فعلا - واذكر لهم قوم نوح، كما قال عز وجل: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾

﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ ﴾ فى كثير من القرآن معناه: أنبئهم واذكر لهم الأنبياء

وأخبارهم.

﴿ وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ بِأَيْيْدٍ . . . ﴾ بقوةٍ.

وقوله عز وجل: ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . . . ﴾ . أي إنا لذو وسَعَةٍ لخَلْقِنا . وكذلك قوله جل ذكره: ﴿ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ ﴾ .

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ . . . ﴾ .

الزَّوجان من جميع الحيوانِ: الذكَرُ والأُنثى ، ومِن سوى ذِلكَ: اختلافُ ألوان النبات ، وطُعومِ الثمار ، وبعضٌ حلوٌ ، وبعضٌ حامضٌ ، فذانِك زوجان .

﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

وقوله: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ . . . ﴾ .

(25/724)

معناه: فرُّوا إليه إلى طاعتِه من معصيته .

﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾

وقوله تبارك وتعالى ﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِ . . . ﴾ .

معناه: أتواصى به [/ب] أهل مكة ، والأُمم الماضية ، إذْ قالوا لك كما قالت الأُمَمُ لرُسلها .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ . . . ﴾ .

إلا ليوحّدونى ، وهذه خاصّة يقول: وما خلقت أهل السعادة من الفريقين إلا ليُوحّدُونى .

وقال بعضهم: خلقهم ليفعلوا ففعل بعضهم وترك بعضٌ ، وليس فيه لأهل القدر حُجّةٌ ، وقد فُسّر .

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ . . . ﴾ .

يقول: ما أريدُ منهم أن يرزقوا أنفسهم ، ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ . . . ﴾ أن يُطعموا أحداً من خلقى ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ . . . ﴾ .

قرأ يحيى بن وثّاب (المتين) بالخفض جعله من نعتٍ ـ القوة ، وإن كانت أُنثى فى اللفظ ، فإنَّهُ ذهب إلى الحبل وإلى الشىء المفْتول .

أنشد بعض العرب:

لكل دَهْرٍ قد لَبِسْتُ أَثْوباً * من ريطةٍ واليُمنةَ المُعَصَّبا

فجعل المُعَصَّبَ نعتاً لليُمْنَة ، وهى مؤنثةٌ فى اللفظ لأن اليُمنة ضربٌ وصِنْفٌ من الثياب:

الوَشى ، فذهبَ إليه .

وقرأ الناس ـ (المتينُ) رفعٌ من صِفةِ الله تبارك وَتعالى .

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ ﴾

وقوله: [/ا] عز وَجل: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوباً . . . ﴾ .

والذنوب فى كلام العرب: الدَلو العظيمة ولَكن العربَ تذهَبُ بها إلى النَّصِيب وَالحظِّ .

(26/724)

وَبذِلكَ أتى التفسيرُ: فإنَّ للذين ظَلموا حظًّا من العذابِ ، كما نزَلَ بالذين من قبلهم ، وَقَالَ الشاعرُ:

لنَا ذَنوبٌ ولَكمْ ذَنوبُ * فإنْ أبيتمْ فلنا القَليبُ

وَالذنوبُ: يُذكَّرُ ، ويؤَنَّثُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 82 .

90 ﴾

(27/724)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الذاريات

(والذاريات) [1] الرياح. (فالحاملات) [2] السحاب. (فالجاريات) [3] السفن. (فالمقسمات) [4] الملائكة. وقد حمل بعضهم الذاريات والحاملات على الرياح، فتكون مقدمة السحاب [تثيرها] وتسوقها، والثانية تدرها. والجاريات والمقسمات حملها على السحاب، لأنها تقسم الحظوظ والأرزاق وتجري بيسر وسهولة في مسير، كما قال الأعشى:

1122- غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشي الهوينا كما يمشي [الوجى الوحل]

1123- كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل. وهذه أقسام، والواو التي فيها واو القسم، وجاز أن يقسم الله بها، ولا يجوز أن يقسم الخلق إلا بالله، لأن قسم الخلق استشهاد على صحة قولهم بمن يعلم السر والعلانية، وليس ذلك إلا الله. وقسم الخالق إرادة تأكيد الخبر في نفوسهم مما جرت به العادة بينهم، فيقسم ببعض خلقه على وجه يوجب الاعتبار، وإحضار القلب عند التنبيه على عجائب الفطرة وبدائع القدرة. (ذات الحبك) [7] طرائق الغيم، وأثر حسن الصنعة فيه، وهو في البيض الحبيك، وفي الشعر، وجماح الحمام: الحباك. قال الشماخ:

1124- قد وكلت بالهدى إنسان ساهمة كأنه من تمام الطميء مسمول/1125-

حتى استغاث بأحوى فوقه حبك تدعو هديلاً به [العزف العزاهيل] . (إنكم لفي قول مختلف) [8] أمر مختلف ، واحد مؤمن ، وآخر كافر ، وواحد مطيع وآخر عاص ، وواحد يقول إنه ساحر ، وآخر يقول: شاعر ، وآخر: مجنون . (يؤفك عنه من أفك) [9] يصرف عن هذه الأفعال من صرف . وقيل: يصرف عن الجزاء . (قتل الخراصون) [10] لعن الكذابون . (على النار يفتنون) [13] [يحرقون] ، كما يفتن الذهب بالنار . (ءاخذين ما آتاهم ربهم) [16] من الفرائض . وقيل: من الثواب . (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون) [17] أي: قليلاً هجوعهم ، إذ "ما" مع "الفعل" بمعنى المصدر .

(28/724)

(والمحروم) [19] الذي لا يسأل تعففاً وحياءً فيحرم . وقالت عائشة: "هو [المحارف] الذي نبا عنه مكسبه" . (وفي السماء رزقكم) [22] الأمطار . أو تقدير رزقكم ، وما قسم لكم .

(وما توعدون) من خير أو شر . (مثل ما أنكم تنطقون) [23] لو جاء: "مثل ما تنطقون" ، لفهم منه أنه حق مثل ما أن نطقكم حق ، [ويكون] في نطقهم غير حق . وإذ قال: (مثل ما أنكم تنطقون) ، كان معناه: مثل صحة كونكم ناطقين ، كاذبين أو صادقين . ونصب

(مثل) : على الحال ، أي: إنه لحق مماثلاً لكونكم ناطقين ، أو على أنه وصف مصدر محذوف ، أي: إنه لحق حقاً يقيناً مثل [نطقكم] ، ويجوز أن يبني مثل مع ما .

(قوم منكرون) [25] غرباء لا يعرفون . (فراغ [إلى] أهله) [26] [مال] في خفية . والصرة: الرنة . وقيل: الصيحة من الصرير . (حجارة من طين) [33] محجر ، كقوله: (من سجيل) . (وفي موسى) [38] أي: آية فيه ، عطف على قوله: (وتركنا فيها آية) . (فتولى/بركنه) [39] أعرض بجموعه وجنوده . وقيل: بجانبه ، ومنه الركون بمعنى الميل ، لأنه يكون إلى جانب . (الريح العقيم) [41] هي الدبور: لأنها لا تلقح بل تقشع السحاب ، وهذا أصح مما روى ابن أبي ذئب: "أنها الجنوب" ، ومما روى ابن جريج عن مجاهد : "إنها الصبا" ، لأن كل واحدة من الصبا والجنوب تلقح وتدر ولا تعقم ، ولذلك [تحب وتؤثر ،] كما قال حميد بن ثور: 1126- فلا يبعد الله الشباب وقولنا إذا ما صبونا صبوة [سنتوب] 1127- ليالي أبصار الغواني وسمعها إلي وإذ ريحي لهن جنوب . وقال الأعشى: 1128- وما عنده فضل تليد ولا له من الريح فضل لا الجنوب ولا الصبا . أي: لم ينل نائلاً ، فيكون كالجنوب في مجيئه بالمطر ، ولم ينفس عن [أ]حد كربة فيكون كالصبا في التنفيس ، هذا قول أبي علي فيه ، [وأن] الظاهر منه: أمر الصبا الإلقاح والإثارة ، ومن الجنوب: الإمطار والإدرار .

(كالرميم) [42] كالتراب. وقيل: كالرماد. وقيل: هو الشيء البالي الفاني. ويشهد للجميع قول أبي حية النميري: 1129- رمتني وستر الله بيني وبينها عشية آرام الظباء رميم 1130- ألا رب يوم لو رمتني رميتها ولكن عهدي بالنضال قديم.

(فما استطاعوا من قيام) [45] أي: ما نهضوا بعذاب الله، وما قدروا على دفاع. (وإنا لموسعون) [47] أي: ذو سعة وقدرة. وقيل: قادرون على أوسع من السماء. وقيل: لموسعون الرزق على الخلق. وقيل: [لموسعون] ما بين السماء والأرض/. (ومن كل شيء خلقنا زوجين) [49] أي: ضدين غنى وفقراً، وحسناً وقبحاً، وموتاً وحياة، ونحوها. (بل هم قوم طاغون) [53] هذا هو الموضع الذي يقول البصريون: إن "أم" المنقطعة بمعنى "بل"، للترك والتحول، إلا أن ما بعد "بل" متيقن، وما بعد "أم" مشكوك فيه ومسؤول عنه.

(ذو القوة المتين) [58] المتين: القوي. ولا يفسر بالشديد، لأن الشديد ليس في أسماء الله، والقوي منها، فكأن القول: ذو القوة التي يعطيها خلقه، القوي في نفسه، فخولف بين اللفظين والمعنى واحد -وإن كان المراد بها مختلفاً- لتحسين النظم. (ذنوباً) [59] نصيباً، وأصله الدلو فيها ماء. كما قال حسان:

1131- لا يبعدن ربيعة بن مكدم وسقى الغوادي قبر[ه] بذنوب .

[تمت سورة الذاريات] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1364.1376 ﴾

(30/724)

وقال الأخفش :

سورة (الذاريات)

﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾

قال ﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ واحدها "الحِباك" .

﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾

وقال ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ [172] ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ أي: مَتَى يَوْمُ الدِّينِ . فقيل لهم: في يومِ هُمْ على النارِ يُفْتَنون . لأنّ ذلك اليوم يوم طويل فيه الحساب وفيه فتنتُهم على النار .

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ ﴾

وقال ﴿ ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ أي: سَجْلاً* من العذاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 524 ﴾

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الذاريات

مكية كلها

1 - وَالذَّارِياتِ [ذَرْواً] : الرياح «1» . يقال : ذرت [الريح التراب] تذرو [ه] ذروا ، [وتذريه ذريا] . ومنه قوله : فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ [سورة الكهف آية : 45] .

2 - فَالْحامِلاتِ وِقْراً : السحاب تحمل الماء .

3 - فَالْجارِياتِ يُسْراً أي السفن تجري في الماء جريا سهلا .

ويقال : تجري ميسرة ، أي مسخرة .

4 - فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً : الملائكة . هذا أو نحوه يؤثر عن علي رضي اللّه عنه .

6 - وَإِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ يعني الجزاء بالأعمال والقصاص . ومنه يقال : دننته بما صنع .

7 - وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ : ذات الطرائق . ويقال للماء القائم - إذا ضربته الريح ، فصارت فيه طرائق - : له حبك . وكذلك الرمل : إذا هبت عليه الريح ، فرأيت فيه كالطرائق - فذلك : حبكه .

(1) وهو قول الإمام علي كرم اللّه وجهه .

(32/724)

---

9 - يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ أي [يصرف عنه ، و] يحرمه من حرمه يعني : القرآن .

10 - قُتِلَ الْخرَّاصُونَ أي لعن الكذابون الذين قالوا في النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : كاذب وشاعر وساحر ، خرصوا ما لا علم لهم به .

13 - يُفْتَنُونَ : يعذبون .

14 - ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ أي ذوقوا عذابكم . . . الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ في الدنيا .

17 - يَهْجَعُونَ أي ينامون .

18 - وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ أي يصلون .

19 - وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ يعني : الطواف ، وَالْمَحْرُومِ المحارف ، [وهو] : المقتر عليه [في الرزق] . وقيل : الذي لا سهم له في الغنائم .

26 - فَراغَ إِلى أَهْلِهِ أي عدل إليهم في خفية . ولا يكون «الرواغ» إلا ان تخفي ذهابك ومجيئك .

28 - فَأَوْجَسَ في نفسه . . . خِيفَةً أي أضمرها .

وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ إذا كبر.

29 - فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ أي في صحية. ولم تأت من موضع إلى موضع، إنما هو كقولك: أقبل يصيح، وأقبل يتكلم. فَصَكَّتْ وَجْهَهَا أي ضربت بجميع أصابعها جبهتها، وَقالَتْ: أتلد عَجُوزٌ عَقِيمٌ؟!.

33 - لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ، قال ابن عباس: هو الآجر.

(33/724)

---

34 - مُسَوَّمَةً أي معلمة.

39 - فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ و«بجانبه» سواء، أي اعرض.

40 - هُوَ مُلِيمٌ

أي مذنب. يقال: ألام الرجل، إذا اتى بذنب يلام عليه. قال الشاعر:

ومن يخذل أخاه فقد ألاما

45 - فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ أي ما استطاعوا ان يقوموا لعذاب اللّه.

47 - وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ أي بقوة وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ أي قادرون. ومنه قوله: عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ [سورة البقرة آية: 236].

49 - وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ أي ضدين : ذكرا وأنثى ، وحلوا وحامضا ، وأشباه ذلك .

56 - وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ يعني المؤمنين منهم ، أي ليوحدوني .

ومثله قوله : فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ [سورة الزخرف آية : 81] ، أي الموحدين .

57 - ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ أي ما أريد ان يرزقوا أنفسهم ، وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ أي يطعموا أحدا من خلقي .

58 - وَالْمَتِينُ : الشديد القوي .

59 - و(الذنوب) : الحظ والنصيب . وأصله : الدلو العظيمة .

وكانوا يستقون ، فيكون لكل واحد ذنوب . فجعل «الذنوب» مكان «الحظ والنصيب» : على الاستعارة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 363. 365 ﴾

(34/724)

وقال الغزنوى :

سورة والذاريات

1 وَالذَّارِياتِ : الرياح «1» .

2 فَالْحامِلاتِ : السحاب «2» .

3 فَالْجارِياتِ : السفن «3» .

4 فَالْمُقَسِّماتِ : الملائكة «4» . وهذه أقسام يقسم اللّه بها ولا يقسم بها الخلق لأنّ قسم الخلق استشهاد على صحة قولهم بمن يعلم السّرّ كالعلانية وهو اللّه ، وقسم الخالق إرادة تأكيد الخبر في نفوسهم ، فيقسم ببعض بدائع خلقه على وجه يوجب الاعتبار ويدل على توحيده .

فالرياح بهبوبها وسكونها لتأليف السّحاب ، وتذرية الطّعام واختلاف «5» الهواء وبعصوفها «6» مرّة ولينها أخرى . والسّحاب بنحو وقوفها مثقلات بالماء من غير عماد ، وصرفها في وقت الغنى عنها بما لو دامت لأهلكت ، ولو انقطعت/ لم يقدر أحد على قطرة منها ، وبتفريق المطر ، وإلّا [91/أ]

---

(1) معاني القرآن للفراء : 3/ 82 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 225 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 420 ، ومعاني الزجاج : 5/ 51 ، وتفسير المشكل لمكي : 321 .

(2) المصادر السابقة .

(3) المصادر السابقة .

(4) المصادر السابقة . [. . . . .]

(5) في «ك» : وإصلاح الهواء .

(6) عصوف الريح : هبوبها بشدة .

اللسان : 9/ 248 (عصف) .

(35/724)

لأهلك الحرث والنّسل ، والسّفن فبتسخير البحر لجريانها ، وتقدير الريح لها بما لو زاد لغرق ، ولو ركد لأهلك . والملائكة بتقسيم الأمور بأمر ربّها .

6 وَإِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ : الجزاء على الأعمال «1» .

7 الْحُبُكِ : طرائق الغيم وأثر حسن الصّنعة فيه «2» .

و«المحبوك» : ما أجيد عمله «3» .

8 لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ : أمر مختلف واحد مؤمن وآخر كافر ، ومطيع وعاصي «4» . أو قائل إنّه ساحر ، وآخر إنّه شاعر ، وآخر [إنه] «5» مجنون ، وفائدته أنّ أحدهما في هذه الاختلاف مبطل لأنّه اختلاف تناقض .

9 يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ : يصرف عن هذه الأقوال من صرف .

10 قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ : لعن الكذّابون . من «الخرص» ، والخرص :

القطع «6» ، فالخرّاص يقتطع الكلام من أصل لا يصحّ .

13 عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ : يحرقون كما يفتن الذهب بها .

16 آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ : من الفرائض «7» ، أم من الثواب «8» .

---

(1) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 420 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 26/ 188 عن قتادة .

وانظر معاني القرآن للزجاج : 5/ 51 ، وتفسير الماوردي : 4/ 97 .

(2) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 224 ، وتفسير غريب القرآن : 420 ، وتفسير الطبري :

26/ 189 ، والمفردات للراغب : 106 .

(3) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 5/ 52 .

وانظر اللسان : 10/ 408 (حبك) .

(4) ينظر تفسير الماوردي : 4/ 98 ، وتفسير البغوي : 4/ 229 ، وتفسير القرطبي : 17/ 33 ، وتفسير ابن كثير : 7/ 393 .

(5) ساقط من الأصل ، والمثبت في النص عن «ك» و«ج» .

(6) اللسان : 7/ 21 (خرص) .

(7) ورد هذا القول في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 26/ 196 عن ابن عباس رضي

اللّه عنهما .

ونقله القرطبي في تفسيره : 17/ 35 عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير .

(8) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 99 عن الضحاك ، وكذا القرطبي في تفسيره

:

17/ 35 .

(36/724)

---

19 وَالْمَحْرُومِ : الذي لا يسأل حياء «1» . وقيل : المحارف «2» الذي نبا عنه مكسبه .

21 أَفَلا تُبْصِرُونَ : لا تنظرون بقلوبكم نظر من كأنّه يرى الحقّ بعينه .

22 وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ : الأمطار «3» ، أو تقدير رزقكم «4» .

وَما تُوعَدُونَ : من خير أو شرّ «5» . وقيل «6» : الجنّة لأنّها في السّماء الرابعة .

ونصب مِثْلَ على الحال ، أي : إنّه لحق مماثلا لكونكم ناطقين .

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 26/ 202 عن قتادة ، والزهري .

ونقله البغوي في تفسيره : 4/ 231 عن قتادة ، والزهري ، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير

: 8/ 32 ، والقرطبي في تفسيره : 17/ 38 .

(2) قال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 421 : «و هو المقتر عليه في الرزق .

وقيل : الذي لا سهم له في الغنائم» .

وعقب الطبري – رحمه اللّه – على الأقوال التي قيلت في «المحروم» بقوله : «و الصواب من القول في ذلك عندي أنه الذي قد حرم الرزق واحتاج ، وقد يكون ذلك بذهاب ماله وثمره ، فصار ممن حرمه اللّه ذلك ، وقد يكون بسبب تعففه وتركه المسألة ، ويكون بأنه لا سهم له في الغنيمة لغيبته عن الوقعة ، فلا قول في ذلك أولى بالصواب من أن تعم ، كما قال جل ثناؤه : وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ اه – .

(3) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 26/ 205 عن مجاهد ، والضحاك .

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 34 ، وقال : «رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وليث عن مجاهد ، وهو قول الجمهور» .

(4) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 4/ 102 ، وذكره – أيضا – القرطبي في تفسيره :

17/ 41 . [. . . . .]

(5) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (26/ 205 ، 206) عن مجاهد ، ورجحه : «لأن اللّه عم الخبر بقوله : وَمَا تُوعَدُونَ عن كل ما وعدنا من خير أو شر ، ولم يخصص

بذلك بعضا دون بعض ، فهو على عمومه كما عمه اللّه جل ثناؤه» .

(6) أخرجه الطبري في تفسيره : 26/ 206 عن سفيان بن عيينة .

ونقله القرطبي في تفسيره : 17/ 41 عن سفيان بن عيينة أيضا .

(37/724)

أو التقدير : إنه لحق حقا مثل نطقكم «1» . ومن رفع «2» جعله صفة لَحَقٌّ ، والمعنى في الجميع : إنه لحق مثل أنكم ممّن ينطق حق .

25 قَوْمٌ مُنْكَرُونَ : غرباء لا تعرفون .

26 فَراغَ : مال في خفية «3» .

و«الصرّة» «4» : الصّيحة «5» ، من «الصّرير» .

33 حِجارَةً مِنْ طِينٍ : محجّر ، كقوله «6» : مِنْ سِجِّيلٍ لا من حجارة البرد التي أصلها الماء .

38 وَفِي مُوسى : أي : آية فيه «7» ، عطف على وَتَرَكْنا فِيها آيَةً .

39 فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ : أعرض بجموعه وجنوده «8» .

41 الرِّيحَ الْعَقِيمَ : الدّبور «9» ، لا تلقح وتقشع السّحاب .

---

(1) ينظر توجيه هذه القراءة في معاني القرآن للفراء : 3/ 85 ، ومعاني الزجاج : 5/ 54 ، والكشف لمكي : 2/ 287 .

(2) قراءة حمزة ، والكسائي ، وشعبة عن عاصم .

السبعة لابن مجاهد : 609 ، والتبصرة لمكي : 335 ، والتيسير للداني : 203 .

(3) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 86 ، وتفسير الطبري : 26/ 208 ، ومعاني الزجاج : 5/ 54 ، والمفردات : 208 .

(4) من قوله تعالى : فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا . . . [آية : 29] .

(5) معاني القرآن : 3/ 87 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 421 ، وتفسير الطبري :

26/ 209 ، والمفردات : 279 .

(6) بعض آية : 82 ، سورة هود ، وآية : 74 ، سورة الحجر ، وآية : 4 سورة الفيل .

(7) إعراب القرآن للنحاس : 4/ 246 ، وتفسير القرطبي : 17/ 49 ، والبحر المحيط : 8/ 140 .

(8) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 422 ، والطبري في تفسيره : 27/ 3 . ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 105 ، والقرطبي في تفسيره : 17/ 49 عن ابن زيد .

(9) يدل عليه الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم عن ابن عباس مرفوعا : «نصرت

بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور» .

صحيح مسلم : 2/ 617 ، كتاب صلاة الاستسقاء ، باب في ريح الصّبا والدبور» .

وانظر تفسير الطبري : 27/ 4 ، وتفسير الماوردي : 4/ 106 ، وتفسير البغوي : 4/ 233 .

(38/724)

---

42 كَالرَّمِيمِ : كالتراب «1» . وقيل «2» : كل بال فان .

45 فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ : ما نهضوا بالعذاب وما قدروا على دفاع .

47 لَمُوسِعُونَ : / ذو سعة وقدرة ، أو لموسعون السّماء أو الرزق . [91/ ب]

49 خَلَقْنا زَوْجَيْنِ : ضدين : غنى وفقرا ، وحسنا وقبحا ، وحياة وموتا .

58 ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ : المتين : القويّ ، ولا يفسّر ب «الشّديد» لأنّه ليس في أسماء اللّه ، فكأنه ذو القوة التي يعطيها خلقه ، القويّ في نفسه ، فخولف بين اللّفظين لتحسين النّظم «3» .

59 ذَنُوباً : نصيبا «4» مثل نصيب أصحابهم الذين أهلكوا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 763. 767 ﴾

(1) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 106 عن السدي .

وعزاه القرطبي في تفسيره : 17/ 51 إلى أبي العالية ، والسدي .

(2) تفسير الطبري : 27/ 6 ، وتفسير البغوي : 4/ 234 ، وتفسير القرطبي : 17/ 52 .

(3) تفسير الفخر الرازي : 28/ 237 . [. . . . .]

(4) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 90 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 228 ، وتفسير غريب القرآن : 423 ، ومعاني الزجاج : 5/ 59 ، والمفردات للراغب : 181 .

(39/724)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الذاريات

عدد 17 - 67 - 51

نزلت بمكة بعد سورة الأحقاف وهي ستون آية ، وثلاثمئة وستون كلمة ، وألف ومئتان وتسعة وثلاثون حرفا ، لا يوجد سورة مبدوءة بما بدئت به ولا مثلها في عدد الآي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "وَالذَّارِياتِ ذَرْواً" 1 الرياح التي تذر التراب وغيره فتفرقة وتبدده تشبيها بتذرية الهشيم لاجتماع التفرق في كل "فَالْحامِلاتِ وِقْراً" 2 السحب التي تحمل المياه حملا ثقيلا "فَالْجارِياتِ يُسْراً"

3 الفلك التي تجريها الرياح على الماء بسهولة وتؤده ، كما يشعر به قوله يسرا ، ويراد بها السفن ذات الشراع "فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً" 4 الرياح التي تقسم الأمطار وتفرق السحب إلى حيث يشاء اللّه وبالمقدار الذي يعلمه الكائن بأمره ، لا دخل ولا تأثير لها ولا لغيرها بشيء منه .

هذا ، وقد أقسم اللّه تعالى بهذه الأشياء لعظم منافعها وجواب القسم قوله "إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ" حق لا خلف فيه فكل ما أخبركم به الرسول من البعث والحساب والثواب والعقاب والجنة والنار صدق لا مرية فيه "وَإِنَّ الدِّينَ" الجزاء على الأعمال وغيرها حسنها وسيئها والحساب عليها "لَواقِعٌ" 6 حتما والوعد به منجز حقا ثم أكد قسمه بقسم آخر فقال "وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ" 7 البناء المتقن الرصين الذي لا تفاوت فيه المستوي الحسن البديع الخلق ، المزيّن بالنجوم البديعة وقيل الطرق ، قال زهير :

مكلل بأصول النجم تنسجه ريح فريق لضاحي مائه حبك

جمع حبكة كطريقة يقال حبك الماء للتكسّر الجاري فيه إذا ضربته الريح ، ويؤيد الأول قوله تعالى في الآية 47 الآتية (وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ) والآية 5 من سورة والشمس (وَالسَّماءِ وَما بَناها) في ج 1 ، وقوله (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها) الآية 27 من النازعات الآتية وأقسم تعالى بها لحسن خلقها وجواب القسم قوله "إِنَّكُمْ" يا أهل مكة ويا أيها الناس أجمع "لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ" 8 فيما أنزلناه على رسولنا فمنكم من يقول ساحر ومنكم من يقول كاهن ومن يقول شاعر ومن يقول أساطير الأولين في حق القرآن وكهانة وسحر أيضا ، ومنكم من يقول افتراه من نفسه وتعلمه من الغير ، ومنهم من يقول لو نشاء لقلنا مثل هذا "يُؤْفَكُ" يصرف "عَنْهُ" عن الإيمان به "مَنْ أُفِكَ" 9 من صرفه اللّه عن خيره وحرمه من هداه ومنعه من رشده بسبب اختلاق هذه الأكاذيب "قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ" 10 الكذابون المبهتون

"الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ" غفلة وجهالة وعمى "ساهُونَ" 11 عن التعرض لنفحات نور القرآن لاهون عن التفكر في معناه معرضون عن الإيمان به لشدة انهماكهم في زخارف الدنيا وتوغلهم في شهواتها "يَسْئَلُونَ" سؤال سخرية واستهزاء "أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ" 12 الذي تذكره لنا يا محمد ، كأنهم أعماهم اللّه

يريدون أن يريهم إياه عيانا ، فقل لهم يا سيد الرسل يرون اليوم الذي يسألون عنه "يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ" 13 يحرقون فيها ، يقال فتنت الشيء أحرقته وأزلت خبثه لتطهر خلاصته ، وسيعرفونه حقا يوم تقول لهم خزنة جهنم "ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ" عذابكم المعد لكم الذي هو نتيجة كفركم بالرسل ومرسلهم والكتب والبعث والحساب والعقاب والجنة والنار ونمرة جحودكم بذلك التي اقتطفتموها بأيديكم الأثيمة ويقال لهم أيضا "هذَا" الإحراق والتعذيب هو "الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ" 14 وتسألون عنه في الدنيا "إِنَّ الْمُتَّقِينَ" في ذلك اليوم "فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ" 15 جارية بينها "آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ" من الكرامة وحسن القبول لأن الأخذ قبول عن قصد "إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ" في حالة الدنيا قبل دخولهم الجنة "مُحْسِنِينَ" 16 في أعمالهم ومعاملاتهم مع أنفسهم وغيرهم .

مطلب قيام الليل وتقسيم الأعمال والصدقات والتهجد وآيات اللّه في سمائه وأرضه :

ثم وصف معاملتهم معه جل جلاله بقوله "كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ" 17 لأنهم يؤثرون عبادة اللّه على النوم فيستغرقون أكثره بالصلاة والذكر "وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ" 18 ربهم عن تقصيرهم بالنهار أيضا لأنهم عرفوا أنهم مهما عبدوه لا يؤدون بعض شكره ، على

حد قول الشيخ بشير الغزي دفين حلب رحمه اللّه :

لو أن كل الكائنات السنه تثني علي علاه طول الأزمنه

لم تقدر الرحمن حق قدره ولم تؤد موجبات شكره

(42/724)

إلخ ما جاء في أرجوزته في نظم الشمسية في علم المنطق ، وهؤلاء الكرام دعموا إيمانهم بالعمل الصالح الجثماني والمالي أيضا ، يفيده قوله عز قوله "وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ" منها معلوم لديهم يعطونه "لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ" 19 الذي ليس عنده شيء ولا يجري عليه شيء من الزكاة المفروضة ومن صدقة الفطر والتطوع ، إذ يجوز فيها انفاق ما زاد على الحاجة كما في الآية 22 من سورة البقرة في ج 3 المنبه عن إنفاق الفضل عن الحاجة ، وهذا الإنفاق رغبة وعن طيب نفس طلبا لما عند اللّه من الثواب ، لأن الأعمال الصالحة ثلاثة : مالي فقط وهو الزكاة ، وجثماني فقط وهو الصلاة والذكر ، ومالي وجثماني وهو الحج .

والمحروم هنا يراد به واللّه أعلم

المتعفف الذي لا يسال بدليل قرنه بالسائل ، ولهذا نبه اللّه عليه ، لأن الناس غالبا لا يعطون إلا من يسأل ولا يكادون يعطون المتعفف لظنهم أنه مكتف ، ولكن اللّه تعالى ذمّ الذين لا

يعرفونهم إذ يجب على الأغنياء تفقد أمثالهم لأن التصدق عليهم أفضل منها على غيرهم ، وقد جاء بالخبر : اختاروا لصدقاتكم كما تختارون لنطفكم ، قال تعالى (يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ . . .

(43/724)

لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً) الآية 271 من البقرة في ج 3 فقد جعل جل شأنه الذين لا يتفقدون المتعففين جهلاء ليتقضوا لذلك ويرفعوا عنهم وصمة الجهل وليتعظ الذين يريدون وجه اللّه في صدقاتهم ، وإنما خص الأسحار بالاستغفار لأنها في ثلث الليل الأخير وهو وقت مبارك فيه يطلع اللّه تعالى على عباده وهو وقت غفلة أكثر الناس ، ولهذا فإن العارفين سارعوا إلى التهجد فيه ، لأنهم يعرفون ما فيه ، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ .

ولمسلم قال : فيقول أنا الملك أنا الملك ، وذكر الحديثين ، وفيه حتى يضيء الفجر ، وزاد في رواية من يقرضني غير عديم ولا ظلوم ؟ يريد نفسه تقدست وعلت .

فمالكم أيها الناس معرضون عن التعرض لهذه النفحات القدسية والرحمات الرحمونية ، فهلموا إليها اغتنموها ولا تضيعوا أوقاتكم سدى وتهملوا أنفسكم فيفوتكم هذا الخير في هذا الوقت فهو مظنة القبول ، والإجابة إذا صحت النية وخلصت من الأهواء وكانت الرغبة إلى اللّه متوفرة ، وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال : كان النبي صلّى اللّه عليه وسلم إذا قام من الليل يتهجد قال اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله

(44/724)

إلا أنت لا إله غيرك ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم .

وروى البخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : من

تعارّ في الليل (يقال تعار الرجل من ذنوبه إذا انتبه وله صوت) فقال لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، الحمد للّه وسبحان اللّه ، واللّه أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، ثم قال اللهم اغفر لي أو قال دعا استجيب له ، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته .

ولهذا جعلت صلاة الليل من السنن المؤكدة لما فيها من الثواب العظيم في الدنيا بتنوير القلب وتطهيره ، وبالآخرة بالفوز في جنات النعيم .

(45/724)

واعلم أن المراد من هذا الحق حق الزكاة المفروضة لأن هذه الآية جاءت بمعرض الإخبار عن أوصاف المتقين فلا يقصد منها الإنشاء فيقال إن السورة مكية والزكاة لم تفرض إلا في المدينة ، وسبق أن ذكرنا غير مرة بأن الزكاة لا على قدر المفروض بالمدينة ، كانت متعارفة قديما قبل الإسلام وبعده ، راجع الآية 7 من سورة فصلت المارة ، وكذلك الصلاة كانت متعارفة إذ لم تخل أمة منهما ، إلا أن القدر والهيئة لم يكونا على ما نفعله الآن ، وان اللّه تعالى لم يبين في كتابه ذلك وإنما أبانه حضرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم أما الأصل فقد تعبد اللّه به الأمم كافة بواسطة رسله ، قال تعالى "وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ" واضحات عظيمات الدلائل

على وجود الإله القادر وحكمته البالغة وتدبيره الباهر لما فيها من الجبال والأودية والأنهار والعيون والبحار والمسالك والفجاج والطرق للسائرين فيها ، فمنها السهل والوعر والصعب والرخو والرملة والعذبة والسبخة والمعادن المتنوعة والدواب المنبثة المختلفة في الصورة والشكل واللون والكبر والصغر ، فمنها الطيب والخبيث ، والمفترس والهادئ ، والنفور والألوف ، وفيها أنواع النبات والأشجار المثمرة وغيرها ، المتباينة في الجنس والنوع والفصل والضر والنفع والطعم والرائحة وغير ذلك "لِلْمُوقِنِينَ" 20 بالله المصدقين بكتبه ورسله واليوم الآخر المستدلين بها على مبدعها ، الآخذين العظات والعبر من كيفياتها وكمياتها وماهيتها .

"وَفِي أَنْفُسِكُمْ" أيها الناس آيات جليلة وعظيمة وعظات كبيرة "أَفَلا تُبْصِرُونَ" 21 إبصار ناظر مدقق ونظر مبصر محقق يستعين بعين بصره على عين بصيرته فيتعظ بما

انطوى عليه جسمه من البراهين الدالة على الخالق إذ ليس في العالم من شيء إلا وفي ذات الإنسان له نظير ، وذلك مثل انفراده في هذه الهيئة النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة ، والتمكن من الأفعال البديعة واستنباط الصنايع المختلفة ، واستجماع الكمالات

المتنوعة ، واحتياره على سائر الحيوانات بالنطق واعتدال القامة ، وكما أن الإختلاف في الأرض والمياه والحيوان والطير والحوت والحشرات فكذلك هو الإنسان ، فمنه الأسود ومنه الأحمر والأبيض والأصفر وما بين ذلك ، ومنه الاختلاف في المأكل والمشرب والملبس والمنام ، ومنه اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع ، فمنها ما هو من أصل واحد ، ومنها ما هو من أصول متنوعة ، ومنها ما هو موافق للحيوان بسبيل الطعام ومجرى الشراب ومخرجهما ، وقد بيّنا مراتب خلق الإنسان في الآيتين 64/ 67 من سورة المؤمن ، فراجعهما واعتبر وتيقظ .

ويكفي على عظمة الخالق وكمال قدرته خلق أصلك من تراب وأنت من نطفة فعلقة فمضغة فلحم ودم وعظم ، ثم روح وحركة وكلام وسمع وبصر وعقل وشباب وكهولة وشيخوخة وهرم ، وكذلك في الغذاء فمنه موافق لغذاء الحيوان كالحضروات والحبوب واللحم ، ومنها ما هو مباين كالتبن والشوك والحشيش وغيره .

واعلم أن اللّه تعالى جمع في الإنسان ما لم يجمعه في الحيوان ، لأن الحيوان الذي يأكل اللحم لا يأكل النبات والذي يأكل النبات لا يأكل اللحم غالبا ، والإنسان يأكلهما معا ، وجمع فيه ما لم يجمعه في الملائكة ، ولا في الحيوان ، لأن الملك له عقل بلا شهوة ، والحيوان له شهوة بلا عقل ، والإنسان جامع لهما ، فسبحان من أودع في كل خلقه عظات لا تحصى وعبرا لا تستقصى ، وللّه در القائل :

دواؤك منك ولا تشعر وداؤك فيك ولا تبصر

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

مطلب في الرزق وأنواعه وحكاية الأصمعي ، وفي ضيف إبراهيم عليه السلام :

(47/724)

قال تعالى "وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ" 22 به مقدر عند اللّه تعالى على تعاطي الأسباب ، فقد يكون عفوا وبتسخير الغير ، قال تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ) الآية 2/ 3 من سورة الطلاق

في ج 3 ، راجع هذا البحث في تفسيرها وفي كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي تجد ما لا يخطر ببالك .

واعلموا أيها الناس أن ما قدر لكم لا حق بكم لا محالة وإن أعرضتم عنه ، أما غير المقدر فلو طلبتموه بجميع أسباب السعي فلن تدركوه ، فدع أيها العاقل همك واهتمامك فيه :

الذي إليك حاصل لديك والذي لغيرك لم يصل إليك

ومن الرزق ما هو مقسوم ، قال تعالى (نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ) الآية 32 من سورة الزخرف المارة ، ومنه ما هو مضمون وهو ما به قوام البنية لأن اللّه قدره له عند خلقه ،

ويطلق الرزق على المطر لأنه سببه من إطلاق السبب وإرادة المسبب عنه ، ولأنه نفسه رزق ، لأن الماء من أعظم الأرزاق وأنفعها ، راجع الآية 13 من سورة المؤمن والآية 5 من سورة الجاثية المارتين ، وكذلك فإن ما أودعه اللّه فيها من الزّين والكواكب والمطالع والمغارب التي ينشأ عنها اختلاف الفصول من مبادئ الرزق أيضا ، والعلم بسيرها ومنازلها وبروجها وما أودعه اللّه فيها من التأثير لنضج الأثمار والحبوب وتلوينها وطعمها والشفاء من الأمراض والعاهات رزق أيضا ، فكل ما توعدون به أيها الناس في الدنيا والآخرة من خير وشر ونفع وخسر رزق أيضا ، فابتغوا عند اللّه الرزق ، وخذوا من كل شيء أحسنه لتفوزوا وتنجوا .

(48/724)

قال تعالى مقسما بذاته العالية "فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ" إن كل ما توعدون به على لسان رسلكم "لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ" 23 وهنا جواب القسم الثالث العظيم من لدن حضرة الرب العظيم ، أي فكما كل إنسان ينطق بلسانه ولا يتمكن من النطق بلسان غيره فكذلك يأتيه رزقه الذي قسم وقدر له في الدنيا ولا يقدر أن يأكل رزقه غيره ، وان ما وعده به رسوله في الآخرة من البعث والحساب والعقاب والثواب واقع لا ريب فيه ، كما أنه لا

شك لكم في نطقكم ، فلا تظنوا خلافه ، وهذا من قبيل ضرب المثل كقولك (إن هذا الأمر كما ترى وتسمع) أي كما أنك لا تشك أنك ترى وتسمع فلا تشك في هذا الأمر .

قال الأصمعي أقبلت من جامع البصرة ، فطلع علي أعرابي على قعود ، فقال ممن الرجل ؟ فقلت من بني أصمع ، قال من أين أقبلت ؟ قلت من

موقع يتلى فيه كتاب اللّه ، قال أتل على شيئا منه ، فتلوت (وَالذَّارِياتِ) إلى قوله تعالى (وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ) الآية ، قال حسبك ، فقام على قعوده ونحره ووزع لحمه على من أقبل وأدبر ، وعمد إلى قوسه وسيفه فكسرهما وولى .

وقد عجبنا جميعا من حاله وفعله وإدباره ، ثم بعد سنين حججت مع الرشيد وطفقت أطوف البيت ، وإذا بمن يهتف بي بصوت رقيق ، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي ، وإذا قد نحل جسمه واصفر لونه ، فسلم علي واستقرأني السورة ، فقرأتها حتى بلغت الآية ، فصاح وقال قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، ثم قال وهل غير ذلك ؟

قلت بلى ، قال زدني ، فقرأت (فَوَرَبِّ السَّماءِ) الآية ، فصاح وقال يا سبحان اللّه من الذي أغضب الجليل الجبار حتى خلف ، ألم يصدقوه حتى حلف ؟ وكرر هذه الجملة ثلاثا وخرجت معها نفسه .

رحمه اللّه رحمة واسعة ورزقنا التصديق بآيات اللّه تعالى على ما يريده .

ثم شرع يقص لحبيبه ما وقع لجده ، وهذه القصة ولو أن فيها بعض ما قصه سابقا إلا أن القصص المكررة كل واحدة منها فيها ما لم يكن في غيرها ولنفي بالمقصود ، وهذا من بلاغة القرآن العظيم وفوائد التكرار :

قالوا لمسلم فضل قلت البخاري أولى

قالوا البخاري مكرر قلت المكرر أحلى

فقال تعالى قوله يا سيد الرسل "هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ" 24 وصفهم بالكرم لأنهم ملائكة كرام عليه أو لأن إبراهيم الكريم أكرمهم أو لأنهم ضيوفه وهو مكرم على اللّه ، ولفظ ضيف يطلق على الواحد والجمع ولذلك جاء وصفه جمعا كالصوم والزور ، قيل كانوا تسعة عاشرهم جبريل عليه السلام ، راجع قصتهم في الآية 69 من سورة هود المارة .

واذكر لقومك يا حبيبي "إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً" عليك يا إبراهيم يا خليل الرحمن "قَالَ سَلَامٌ" ثم سكت وصار يتملأ بهم ويتعجب من حالتهم إذ دخلوا عليه بلا استئذان ، ورأى أن عملهم هذا منكر ، فقال أنتم "قَوْمٌ مُنْكَرُونَ" 25 لأن دخلو لكم قبل أن نأذن لكم وقبل أن تستأذنوا عندنا منكر ، ولم يجر في عرفنا وأنتم غرباء عن هذه البلاد ولا معرفة لنا بكم ، فكيف تجاسرتم على هذا ، أولا تعرفون أن عوائدنا هنا عدم

جواز الدخول إلا برخصة من صاحب البيت ، أنبهم عليه السلام من جهة عدم مراعاتهم العوائد المتعارفة ، ولكنه عذرهم بكونهم غرباء عن بلاده ، ولأنهم سكتوا ولم يردوا عليه بشيء بما استدل به على أنهم عرفوا تقصيرهم ، لأنه لم يشك بهم أنهم غير بشر لمجيئهم بصفة البشر ولم يسألهم عن هويتهم وهم لم يذكروا له شيئا "فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ" ذهب بانسلال حتى لا يحسوا به أنه ذهب ليحضر لهم قراهم وهكذا عادة الكرام إذا نزل بهم الضيف ينسلون من أمامه ليهيئوا له قراه من حيث لا يشعر ولئلا يمنعوه من ذلك ، فأسرع وذبح وطهى ، كما يدل عليه قوله "فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ" 26 مشوي لقوله في الآية 69 من سورة هود المارة (بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) والقرآن يفسر بعضه ، فحمل عليه كما يحمل المقيد على المطلق ، راجع الآية 45 من سورة الأنعام المارة "فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ" زيادة في إكرامهم لأنه لم يدعهم إليه بل وضعه أمامهم ، وهذا من آداب الضيافة التي شرحناها في الآية المذكورة من سورة هود المارة ، فرآهم لم يأكلوا "قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ" 27 بلين ولطف كما تدل عليه أداة الطلب الخاصة بالرفق والاحترام ، لأنه أراد تلافي ما بدر منه عند دخولهم ، ولا سيما أنهم لم يجادلوه ، فلم يترك شيئا من آداب الضيافة قولا وفعلا إلا فعله معهم ، ولما رآهم لم يجيبوا دعوته ولم يمدوا

أيديهم لأكله وهو من خير ما يقدم للضيف خشي منهم ووجل وساوره الخوف ، لأنه أنبهم ولم يعرفهم وأصروا على عدم الأكل "فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً" لأن عدم الأكل يدل على سوء الظن ، وهو أمارة على الضغائن ، وهذه عادة معروفة عندهم ولا تزال حتى الآن فصار يدخل ويخرج فلما أحسوا به أنه قلق من عدم أكلهم ووقع في قلبه الرهبة منهم وهم جماعة وهو واحد "قَالُوا لَا تَخَفْ" وأخبروه بأنهم ملائكة الله "وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ" 28 كثير العلم "فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ" لما سمعت قولهم هذا "فِي صَرَّةٍ"

(51/724)

صيحة مأخوذة من صرير القلم والباب والهودج والرحل ، أي صارت تولول كعادة النساء إذا سمعن شيئا ، وصرتها هذه هي قولها في آية هود المارة (يا وَيْلَتى) وقيل الصرة الجماعة المنضمين لبعضهم ، كأنها جاءت مع نسوة ينظرن الملائكة الكرام "فَصَكَّتْ وَجْهَهَا" عند سماعها تلك البشارة ،

أي ضربت يديها على وجهها تعجبا ، وهذه أيضا من عادتهن عند ما يسمعن ما ينكرنه "وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ" 29 لم تلد قط فكيف بعد هرمها وهي مع عقمها عجوز "قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ" وقضى أن تلدي ولدا مع كبرك وعقمك هذا "إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ" فيما يفعل

والحكيم لا يصعب عليه ما يريده "الْعَلِيمُ" 30 فيما أنت عليه من العقم والكبر وهرم زوجك أيضا وسائر مخلوقاته ، وختمت آية هود 73 المارة بقوله (حَمِيدٌ مَجِيدٌ) لأن الحكاية هناك أبسط منها هنا ، فذكروا ما يدفع الاستبعاد بقوله (أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) ولما صدقت أرشدت إلى القيا بشكر اللّه وذكر نعمته بقولهم (حَمِيدٌ مَجِيدٌ) وهنا لم يقولوا (أَتَعْجَبِينَ) فتبهوها إلى ما يدفع تعجبها بقولهم (الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) ومن كان حكيما عليما لا يقال له كيف عمل ولم عمل ، تدبر .

(52/724)

هذا واعلم أنه عليه السلام لما عرفهم ملائكة وهو يعلم أنهم لا يأتون إلا لمهمّة ، خاطبهم بقوله كما حكى اللّه عنه "قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ" 31 فما شأنكم بعد هذه البشارة لأنه عرف أن الأمر ليس مقصورا عليها ولا بد من أمر عظيم جاءوا لتنفيذه "قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ" 32 متوغلين بالإجرام القبيحة وهم قوم لوط ، قال وما تفعلون بهم قالوا "لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ" 33 مرسلة "مُسَوَّمَةً" من سوّمت الماشية إذا أرسلتها في المرعى أو معلّمة بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا بل هي "عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ" 34 بحقوق اللّه المتجاوزين ما سنه لهم نبيّهم ولم يقنعوا بما أبيح لهم ،

فجادلهم إبراهيم بذلك كما سيأتي في الآية 33 من العنكبوت الآية ، ولد مر منه في الآية 73 من سورة هود المارة فأعلموه أنه لا مناص من إهلاكهم وتركوه وتوجهوا إلى قرى قوم لوط فلما وصلوها ، قال تعالى "فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" 35 بلوط عليه السلام قالوا "فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ" 36 أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد أن أهل البيت لوط وابنتاه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنهم كانوا ثلاثة عشر واستدل في هذه الآية على اتحاد الإيمان والإسلام للاستثناء المعنوي ، أي لم يكن المخرج إلا أهل بيت واحد ، وإلا لم يستقم الكلام ، فإن الإيمان والإسلام

صادق على الأمر الواحد كالناطق والإنسان ، أما على الاتحاد المفهوم وهو المختلف فيه عند أهل الأصول والحديث فلا ، وإنما خصهم بالإيمان أولا لأنه أهم من الإسلام إذ لا يكون مؤمن إلا وهو مسلم ، لأن الإسلام أعم من الإيمان ، وإطلاق العام على الخاص لا مانع منه ، وقد يكون مسلما لا مؤمنا ، قال تعالى (قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا) الآية 14 من سورة الحجرات ج 3 ، لأن الإسلام مطلق الانقياد بخلاف الإيمان ، تدبر .

وسيأتي تمام هذا البحث في تفسير الآية المذكورة آنفا "وَتَرَكْنا فِيها آيَةً" علامة من آثارهم ظاهرة "لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ" 37 ليستدل بها على تدميرهم وإهلاكهم من يأتي بعدهم ، فيمتنعون عما يوجب إيقاع مثله فيهم ، قال تعالى "وَفِي مُوسى " تركنا في أراضي القبط الذين كذبوه آية أيضا ليعتبر من خلفهم بهم فيرتدعوا عن معاصي اللّه "إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ" ملك مصر "بِسُلْطانٍ مُبِينٍ" 38 برهان ظاهر وحجة قاطعة ودليل ساطع كاليد والعصا والآيات المبينة في الآية 130 من سورة الأعراف في ج 1 ، "فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ" أعرض الخبيث عنه بجنبه وهو أشد من الإعراض بالوجه وأكثر احتقارا وأعظم أنفة واستكبارا عنه ، أو مع ركنه الذي يتقوى به من ملائه ووزرائه وجنوده ، والأول أولى "وَقالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ" 39 فلا نطيعه ولا نركن إليه ، وبعد أن أظهر لهم جميع تلك الآيات وقابلوه بالإصرار على الكفر "أَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ" هو وقومه "وَهُوَ مُلِيمٌ"

40 حالة إتيانه بما يلام عليه من الكفر والعناد ، راجع تفصيل هذه القصة في الآية 63 من الشعراء في ج 1 ،

قال تعالى "وَفِي عادٍ" تركنا أيضا أثارا وعبرا لما كذبوا نبيهم هودا عليه السلام "إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ" 41 التي لا تلقح شجرا ولا تحمل مطرا ولا خير فيها ولا بركة إذ هي المستأصلة المهلكة لجميع من أرسلت عليهم دون أن تترك منهم أحدا ، قال تعالى في وصفها "ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ" 41 القش المكسر البالي المفتت وهو كل يابس دريس من نبات الأرض ، راجع قصتهم في الآية 72 من سورة الأعراف المذكورة وفي الآية 58 من سورة هود المارة ، "وَفِي ثَمُودَ" تركنا عبرا ومتعظا عند ما كذبوا نبيهم صالحا "إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ" 43 انقضاء الأجل المضروب لنزول العذاب فيكم وهو ثلاثة أيام بعد عقر الناقة "فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ" تكبرا وتجبرا عن طاعته وطاعة رسوله "فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ" 44 راجع قصتهم في الآية 39 من سورة الأعراف في ج 1 ، "فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ" من عليهم عند مشاهدتهم نزول العذاب ولا من قعود إذ هلك القائم قائما والقاعد قاعدا "وَما كانُوا مُنْتَصِرِينَ" 45 إذ لا دافع لعذاب اللّه ، ولا مانع منه ، ولا رافع له ، ولا قوة لأحد على مقابلته "وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ" هؤلاء الأمم المهلكة أهلكناهم غرقا لأنهم كذبوا نبيهم "إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ" 46 خارجين عن الطاعة ، راجع قصتهم في الآية 39 من سورة هود المارة .

هذا ، وبعد أن قص اللّه على نبيه أخبار هؤلاء المهلكين بصورة مجملة بعد أن قصها عليه بالسورة المذكورة مفصلة من باب ذكر المجمل بعد المفصل أحد أنواع علم البديع المستحسنة وذكر ما يتعلق بالحشر والنشر ، شرع يذكر له أفعاله العظيمة فيما يتعلق بالتوحيد والوحدانية ويؤدى إليهما مما هو نعمة للإنسان والحيوان ، فقال جل قوله "وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ" بقوة وقدرة خارجة عن طوق المخلوقين وخارقة للعادة ، وما قيل إنه جمع يد تضعيف وليس هنا استعمال المجاز مكان الحقيقة لأن الأيدي معناها الحقيقي القوة ، قال تعالى في وصف أنبيائه (أُولِي الْأَيْدِي) الآية 45 ، وقال تعالى (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ) الآية 17 من سورة ص ج 1 ، إذ لا يراد بها الجارحة البتة ، وبناؤها شيء عظيم خارج عن تصور البشر وإحاطته دال على عظمة منشئه القائل "وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ" 47 بناءها بحيث تكون الأرض بالنسبة لها كحلقة ملقاة في فلاة ، وهذا من معجزات القرآن لأنه قبل اكتشاف النجوم ذوات الأذناب الطويلة بالآلات الرصدية ما كان أحد يعلم إن الفضاء واسع لا نهاية له مدركة ، حتى انه وسع تلك الكواكب التي تحتاج إلى محيط لا يحده عقل البشر ، والآيات الدالة على أن السماء مبنيّة كثيرة منها ما ذكرناه آنفا في تفسير الآية 7 المارة ، ومنها ما جاء في الآية 32 من سورة البقرة في ج 3 ، وفي الآية 12 من سورة النبأ الآتية وغيرها "وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا"

بسطناها ومددناها "فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ" 48 نحن الإله الكبير العظيم ، وهذه الآية لا تنافي كرويتها ، لأن كل قسم منها بالنسبة لمن هو عليه مفروش ممهد ، وفي قوله تعالى (مَدَدْنَاهَا) في الآية 19 من سورة الحجر المارة معجزة أخرى ، إذ لا يعلم أحد في عهد نزول القرآن أنها ذات طول غير الله تعالى ، راجع الآية 15 من سورة الحجر المذكورة "وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ" صنفين اثنين ذكر وأنثى ، حقيقة ومجازا مادة ومعنى "لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" 49 صنع الله فالسماء والأرض زوجان ، وكذلك الشمس والقمر ، والليل والنهار ، والبر والبحر ، والسهل والجبل ، والحر والبرد ، والصيف والشتاء ، والخريف والربيع ، والنور والظلمة ، والحلو والحامض ، والمالح والباهت ، والإنس والجن ، والذكر والأنثى من الحيوان والنبات ، والوحش والطير ، والحوت والحشرات ، والإيمان والكفر ، والحق والباطل ، والسعادة والشقاوة وغيرها ، أفلا توجب الذكرى أيها الناس فتستدلوا بها على مبدعها وتؤمنوا به وتصدقوا رسله وكتبه "فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ" اهربوا من عذابه طلبا لثوابه ومن معصيته إلى طاعته بالإذعان لأوامره ونواهيه والانقياد لما يرضى بكليتكم "إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ" 50 لما جئتكم به من الحجج القاطعة والأدلة القوية والبراهين الساطعة والأمارات الظاهرة

"وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ" تشركونه بعبادته وتسمونه إلها زورا وإفكا ، لأنه لا شريك له ولا وزير ، فاحذروا هذا كل الحذر "إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ" 51 كرر جل جلاله على لسان رسوله صلّى اللّه عليه وسلم الشطر الأخير من هذه الآية عند النهي عن الشرك ، لأن الأولى عند الأمر بالطاعة إعلاما بأن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل ، كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان ، والغرض من ذلك زيادة الحث على التوحيد والمبالغة في الفصيحة .

(57/724)

قال تعالى "كَذَٰلِكَ" مثل ما كذبك قومك ووضعوك بما لا يليق ، فإنه "مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا" فيه قومه مثل ما قاله قومك فيك "سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ" 52 وهذا من قبيل التسلية له صلّى اللّه عليه وسلم من ربه عز وجل ليوطن نفسه الكريمة على تحمل الأذى والطعن فيه ، أسوة بإخوانه الأنبياء ، ولهذا قال تعالى مقرعا لهم وموبخا

(58/724)

صنيعهم معه بقوله عز قوله "أَتَوَاصَوْا بِهِ" أي هل وصى بعضهم بعضا بهذه الألفاظ الدالة على التكذيب والإهانة للرسل حتى تناقلوها جيلا بعد جيل ، كلا "بَلْ هُمْ" أنفسهم "قَوْمٌ طَاغُونَ" 53 حملهم بغيهم على ذلك وتشابهت قلوبهم فوقرت وملئت من كراهية الحق فنطقت بتلك الألفاظ كما تكلم بها أسلافهم لا أنهم تواصوا بها ، لأنه إذا توجد التواصي من القوم بعضهم لبعض كقوم نوح عليه السلام إذ طال أمده فيهم فصاروا يوصي بعضهم بعضا بعدم طاعته لأنه ساحر إلخ ، فلا يوجد من الأقوام الماضية لغيرهم ، إذ أن عذاب الاستئصال الذي أوقعه بهم يحول دون ذلك ، لعدم بقاء من ينقل ما وقع منهم ، ولهذا جاء القول علي طريق الاستفهام الإنكاري والتعجب من اتفاقهم على كلمات : ساحر كاهن مجنون مختلق شاعر متعلم وغيرها ، والأشنع من هذا توغلهم كلهم بالطغيان على أنفسهم وغيرهم وخاصة الأنبياء ، ومن كان كذلك لا جرم يصدر منه كل قبيح ، وإذ كان قومك يا سيد الرسل من هذا القبيل "فَتَوَلَّ عَنْهُمْ" واتركهم ولا يهمنك شأنهم "فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ" 54 على عدم إيمانهم ، لأنك بلغت وأنذرت وبذلت جهدك في نصحهم ، فما عليك أن لا يؤمنوا ، فحزن صلّى اللّه عليه وسلم عند نزول هذه الآية وظن أصحابه أن الوحي انتهى وأن العذاب قرب أوان نزوله ، فأنزل بعدها "وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ" 55 الذين هم في علم اللّه تعالى أنهم يؤمنون ، فيؤمنون وتزيد المؤمنين إيمانا ، فسري عنه صلّى اللّه عليه

وسلم وابتهج أصحابه ، وفرحوا بذلك وقرت أعينهم وطابت نفوسهم وقوي أمله صلّى اللّه عليه وسلم ، وصار يبالغ في إرشادهم ونصحهم وتذكيرهم .

(59/724)

قال تعالى "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" 56 ويوحدوني ويعرفوني أني ربهم وخالقهم ومحييهم ومميتهم "ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ" يرزقونه أحدا من خلقي ولا أن يرزقوا أنفسهم أيضا ، لأني أنا الكفيل بأرزاق الخلق كلهم "وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ" 57 أسند جل شأنه الإطعام لذاته الكريمة ، والمراد عياله الفقراء ، لأن من أطعمهم لأجله فكأنما أطعمه ، وإلا فهو المنزه عن الطعام والشراب ، وكل ما هو من صفات المخلوقين وحوائجهم .

والآية تبين أن شأنه جل شأنه مع عباده ليس كشأن السادة مع عبيدهم ، لأنهم يملكونهم للاستفادة منهم ، واللّه مالكهم ليعبدوه لأنه خلقهم لعبادته فقط وليعلموا استحقاقه العبادة ويعملوا بما يوصلهم إليه ، وقد صح في حديث أبي هريرة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : إن اللّه عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ، قال يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ، أما علمت لو أنك عدته لوجدتني عنده ، يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني ، قال يا رب كيف أطعمك وأنت

رب العالمين ؟ قال أما علمت أن فلانا استطعمك فلم تطعمه ، أما علمت لو أنك أطعمته لوجدت ذلك عندي ، يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني ، قال يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال أما علمت أن عبدي فلانا استسقاك فلم تسقه ، أما علمت لو أنك أسقيته لوجدت ذلك عندي .

(60/724)

أخرجه مسلم ، والمعنى أن اللّه تعالى يقول إني خلقت العباد للعبادة ليعلموا أنهم مخلوقون لها ، وأنه تعالى غير محتاج لهم ولا لعبادتهم ولا يريد الاستعانة منهم كما يستعين ملاك العبيد بعبيدهم لمصالحهم ، لأن اللّه غني عن كل خلقه "إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ" لهم جميعا وأن الترازق الذي يجري بينهم لبعضهم بتسخيره وتقديره وجعله الأسباب مرتبة على المسببات ، وإلا فكل يأخذ رزقه الذي قدره له اللّه ، "ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ" 58 الشديد الذي لا يلحقه في أفعاله تعب ولا نصب ولا مشقة ، فيوصل أرزاق عباده إليهم ولو لم يطلبوها أو يعملوا لأجلها "فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا" من كفار مكة الذين أفنوا عمرهم بغير ما خلقوا له وأشركوا به غيره في الدنيا "ذَنُوبًا" حظا وافيا ونصيبا ضافيا من العذاب يوم القيامة "مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ" الكفار من الأمم الماضية الهالكة قبلهم "فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ" 59 بإنزاله فليترقبوا وليتربصوا له رويدا فهو

نازل بهم لا محالة إن أصروا على ظلمهم وحينئذ يطلبون تأخيره فلا يمهلون لحظة واحدة ، وفي هذه الجملة تهديد عظيم لهؤلاء الكفار لو عقلوه .

واعلم أن استعمال الذنوب بفتح الذال بمعنى الحظ والنصيب شائع في العربية ، قال علقمة بن عبد التيميّ يمدح الحارث بن أبي شمر الغساني وكان أسر أخاه شاسا :

وفي كل حي قد ضبطت بنعمة فحق لشاس من نداك ذنوب

فلما سمعه قال نعم وأذنبة وأطلقه من أسره ، وقال الآخر :

لعمرك والمنايا طارقات ولكل بني أب منها ذنوب

وقيد قوله بابن الأب لاستثناء عيسى عليه السلام ، لأنه لم يمت ، على أنه عليه السلام قد يكون له نصيب من المنايا بعد نزوله كما صح في الأخبار ، راجع الآية 58 من سورة الزخرف المارة ، وهو من الأصل الدلو الذي يستسقى به الماء في البئر ويقتسم به الماء ، قال الراجز :

إنا إذا نازلنا غريب له ذنوب ولنا ذنوب

وإذ أبيتم قلنا القليب .

قال تعالى "فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ" 60 به على لسان رسلهم ، وهذا وعيد لهم بالويل والثبور من هول وفظاعة ما يلاقونه في الآخرة من العذاب على ما فعلوه بالدنيا من العصيان والكفر ، وختمت هذه السورة بما ذكر أولها في قوله (إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ) فقال (فَوَيْلٌ) إلخ ، أي مما يوعدون إذا لم يتوبوا ويرجعوا عمّا هم عليه ، إذ يكون مصيرهم الهلاك الذي ما فوقه هلاك .

هذا والله أعلم ، واستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ، والحمد لله رب العالمين . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 141.156 ﴾

(62/724)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة والذاريات

مكية

قوله والذاريات والمعطوفات عليها أقسام وجوابها إنما توعدون لصادق والوقف عليه تام

إن جعل ما بعده مستقلا وليس بوقف إن جعل معطوفا عليه وهو الأجود لواقع تام وكذا من أفك يوم الدين كاف وكذا يفتنون وذوقوا فتنتكم تستعجلون تام ربهم كاف وكذا محسنين كانوا قليلا من الليل ما يهجعون قيل ما مصدرية أي كان هجوعهم من الليل قليلا وقيل نافية أي كان عددهم قليلا ما يهجعون أي لا ينامون من الليل فالوقف في الأول على ما يهجعون وفي الثاني على قليلا ثم على ما يهجعون وهما صالحان والأحسن الوقف على يستغفرون والمحروم كاف وكذا للموقنين والأحسن وفي أنفسكم تبصرون كاف توعدون حسن تنطقون تام فقالوا سلاما حسن وكذا قال سلام وقال أبو عمرو فيهما كاف منكرون كاف أي أنتم قوم منكرون ألا تأكلون وكذا لا تخف وبغلام عليم قال ربك تام العليم حسن المرسلون كاف من طين جائز للمسرفين كاف وكذا من المسلمين الأليم حسن أو مجنون صالح مليم كاف وكذا كالرميم ينظرون صالح منتصرين كاف فاسقين حسن لموسعون صالح فرشناها جائز الماهدون كاف وكذا تذكرون مبين حسن وقال أبو عمرو تام إلها آخر كاف مبين حسن وكذا أي الأمر كذلك أو مجنون حسن وقياس ما مر صالح أتوا صوابه كاف وكذا طاغون المؤمنين تام ليعبدون حسن وكذا يطمون المتين كاف وكذا يستعجلون آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المقصد صـ ﴾

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الذَّاريات

مكية ستون آية ولا وقف من أوَّلها إلى إنَّما توعدون لصادق والواو في و الذّاريات للقسم وما بعدها للعطف وجواب القسم إنَّما توعدون لصادق وهو تام وحكي عن سيبويه أنَّه سأل الخليل بن أحمد لِمَ لَمْ تكن الواو التي بعد واو القسم كواو القسم فأجابه بقوله لو كانت قسماً لكان لكل واحدة من الواوات جواب فلذلك صارت هذه الأشياء قسماً في أوائل السور وإن طال النسق فلو قلت والله لا أكلم زيداً غداً ولا أرافقه ولا أشاركه ولا أبيعه من غير إعادة لفظ الجلالة ثم فعلت جميع ذلك فكفارة واحدة بالفعل الأوَّل ولا شيء عليك فيما بعده لأنَّ المعطوف على القسم من غير إعادة لفظ الجلالة غير قسم وشرط التمام في لصادق أن يجعل ما بعده مستقبلاً وليس بوقف إن عطف على ما قبله وداخلاً في الجواب ومن تتمته لأنَّ شأن القسم إذا ابتدئ به لابدَّ أن يكون له جواب وأما لو توسط نحو ضرب والله زيد أو تأخر نحو ضرب زيدٌ عمراً والله فلا يحتاج إلى جواب .

لواقع (تام) إن جعل ما بعده مستأنفاً قسماً ثانياً فيكون قد أقسم بالذَّاريات فالحاملات فالجاريات فالمقسمات فجعل مجموعها قسماً واحداً وفصل أبو حيان حيث قال والَّذي يظهر أنَّ المقسم به شيآن فإنَّ العطف بالواو أشعر بالتغاير وإن جاء بالفاء دل على أنَّها

لموصوف واحد كقوله والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً فالمغيرات صبحاً فهي راجعة إلى العاديات وهي الخيل انظره في المرسلات وليس بوقف إن جعل ما بعده داخلاً في جواب القسم والقسم الثاني في قوله والسماء ذات الحبك وجوابه إنَّكم لفي قول مختلف ومختلف ليس بوقف إن جعل يؤفك في موضع جر صفة لقول وإن جعل مستأنفاً حسن الوقف على مختلف

من أُفك (تام) على الوجهين

(64/724)

ساهون ليس بوقف لأنَّ يسألون صفة الذين و أيَّان يوم الدين مبتدأ وخبران قيل هما ظرفان فكيف يقع أحد الظرفين في الآخر أجيب بأنَّه على حذف مضاف أي أيَّان وقوع يوم الدين قاله السمين .

يوم الدين (كاف) لأنَّ يوم مبتدأ وهم خبره وقيل ليس بوقف لأنَّ يوم في موضع رفع إلاَّ أنَّه مبني على الفتح وهو بدل من قوله يوم الدين وقرأ ابن أبي عبلة يوم هم بالرفع ويؤيد بالقول بالبدلية ورسموا يوم هم كلمتين يوم وحدها كلمة وهم وحدها كلمة فهما كلمتان كما ترى

يفتنون (كاف)

فتنتكم (حسن) لأنَّ هذا مبتدأ والذي خبره أي هذا العذاب

تستعجلون (تام) للابتداء بإنْ وعيون ليس بوقف لأنَّ آخذين حال من الضمير في وعيون ولو قرئ آخذون بالرفع لساغ عربية وذلك أنَّ الظرف قد قام مقام الاستقرار والرفع على أنَّه خبر إنْ ويكون الظرف ملغى كقوله إنَّ المجرمين في عذاب جهنم خالدون قاله العبادي

ما آتاهم ربُّهم (كاف) ومثله محسنين وكذا ما يهجعون قيل ما مصدرية وقيل نافية فعلى أنَّها مصدرية فالوقف على يهجعون وفي الثاني على قليلاً والتقدير على أنَّها مصدرية كان هجوعهم من الليل قليلاً وعلى أنَّها نافية كان عددهم قليلاً ما يهجعون أي لا ينامون من الليل قال يعقوب الحضرمي اختلف في تفسيرها فقيل كانوا قليلاً أي كان عددهم يسيراً ثم ابتدأ فقال من الليل ما يهجعون وهذا فاسد لأنَّ الآية إنَّما تدل على قلة نومهم لا على قلة عددهم وقال السمين نفي هجوعهم لا يظهر من حيث المعنى ولا من حيث الصناعة أما الأول فلابد أن يهجعوا ولا يتصور نفي هجوعهم وأما الصناعة فلأنَّ ما في حيز النفي لا يتقدم عليه لأنَّ مالا يعمل ما بعدها فيما قبلها عند البصريين تقول زيداً لم أضرب ولا تقول زيداً ما ضربت هذا إن جعلتها نافية وإن جعلتها نافية وإن جعلتها مصدرية صار التقدير كان هجوعهم من الليل قليلاً ولا فائدة فيه لأنَّ غيرهم من سائر الناس بهذه المثابة

يستغفرون (كاف) ومثله المحروم وكذا للموقنين

وفي أنفسكم (أكفى) منه

تبصرون (كاف) ومثله توعدون وقرأ ابن محيصن وفي السماء رازقكم اسم فاعل والله

سبحانه وتعالى متعال عن الجهة ولا يوقف على رزقكم لأنَّ قوله وما توعدون موضعه رفع

بالعطف كأنَّه قال وفي السماء رزقكم وما وموعدكم والموعود به الجنة لأنَّها فوق السماء

السابعة أو هو الموت والرزق المطر وقيل وما توعدون مستأنف خبره فورب السماء

والأرض وقوله إنَّه لحق جواب القسم وعليه فالوقف على رزقكم

توعدون (كاف)

فورب السماء والأرض إنَّه لحقٌّ ليس بوقف على قراءة من قرأ مثل بالرفع لأنَّ مثل نعت لحق

كأنَّه قال حق مثل نطقكم وبهذه القراءة قرأ حمزة والكسائي وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو

وابن عامر وحفص مثل ما بنصب مثل على الحال من الضمير في لحق أو حال من نفس حق

أو هي حركة بناء لما أضيف إلى مبنى بنى كما بنيت غير في قوله

لم يمنع الشرب منها غير أنْ نطقت حمامة في غصون ذات أوقال

تنطقون (تام)

المكرمين (جائز) إن نصب إذ بمقدر وليس بوقف إن نصب بحديث بتقدير هل أتاك

حديثهم الواقع في وقت دخولهم عليه ولا يجوز نصبه بأتاك لاختلاف الزمانين وقرأ العامة المكرمين بالتخفيف وعكرمة بالتشديد ونصب سلاماً بتقدير فعل أي سلمنا سلاماً أو هو نعت لمصدر محذوف أي فقالوا قولاً سلاماً لا بالقول لأنَّه لا ينصب إلاَّ بثلاثة أشياء الجمل نحو قال إنِّي عبد الله والمفرد المراد به لفظة نحو يقال له إبراهيم والمفرد المراد به الجملة نحو قلت قصيدة وشعراً ورفع سلام بتقدير عليكم سلام

فقالوا سلاماً (حسن) ومثله قال سلام ثم تبتدئ قوم منكرون أي أنتم قوم منكرون وهو كاف ومثله سمين على استئناف ما بعده وليس بوقف إن عطف ما بعده على ما قبله

فقربه إليهم (حسن) ومثله تأكلون

خيفة (جائز) ومثله لا تخف

بغلامٍ عليم (كاف)

فصّكت وجهها (جائز)

عقيم (كاف) ومثله قال ربك وتام عند أبي حاتم

العليم (تام)

أيها المرسلون (كاف) ولا وقف من قوله قالوا إنَّا أرسلنا إلى للمسرفين فلا يوقف على

مجرمين لأنَّ بعده لام كي ولا على من طين لأنَّ مسّومة من نعت حجارة كأنَّه قال حجارة

مسومة أي معلمة عليها اسم صاحبها ومن حيث كونه رأس آية يجوز

للمسرفين (كاف) على استئناف ما بعده

من المؤمنين (جائز) مع العطف بالفاء واتصال المعنى وإنَّما جاز مع ذلك لكونه رأس آية

من المسلمين (كاف)

الأليم (تام) لتناهي القصة

مبين (جائز) ومثله أو مجنون

مليم (تام) على استئناف ما بعده

العقيم (جائز)

كالرميم (كاف)

حين (جائز)

ينظرون (كاف) ومثله منتصرين لمن قرأ وقوم نوح بالنصب بفعل مضمر أي وأهلكنا قوم نوح

وليس بوقف إن عطف على مفعول فأخذناه أو عطف على مفعول فنبذناهم أو عطف

على مفعول فأخذتهم الصاعقة أو جر عطفاً على محل وفي ثمود ومن حيث كونه رأس آية

يجوز قرأ الأخوان وأبو عمرو وقوم نوح بجر الميم عطفاً على ثمود فعلى قراءتهم لا يوقف على

حين ولا على ينظرون ولا على منتصرين لأنَّ الكلام متصل فلا يقطع بعضه عن بعض

والباقون بالنصب

من قبل (جائز)

فاسقين (تام)

بأيد (جائز) ورسموا بأيد بياءين بعد الألف كما ترى

لموسعون (كاف)

فرشناها (جائز)

الماهدون (تام)

تذكرون (كاف) ومثله إلى الله وكذا مبين وكذا الها آخر وكذا مبين الثاني

كذلك (أكفى) فالكاف في محل رفع أي الأمر كذلك فالتشبيه من تمام الكلام فالكاف خبر مبتدأ محذوف أو في محل نصب أي مثل تكذيب قومك إياك مثل تكذيب الأمم السابقة لأنبيائهم ولا يجوز نصب الكاف يأتي لأنَّها ليست متصلة بشيء بعدها لأنَّ ما إذا كانت نافية لم يعمل ما بعدها في شيء قبلها ولو أتى موضع ما بلم لجاز أن تنصب الكاف باتي لأنَّ المعنى يسوغ عليه والتقدير كذبت قريش تكذيباً مثل تكذيب الأمم السابقة رسلهم

أو مجنون (حسن)

أو تواصوا به (أحسن) مما قبله

طاغون (تام)

فتول عنهم (جائز)

(67/724)

بملوم (كاف) على استئناف ما بعده فإن جعل داخلاً فيما أمر به الرسول لأنَّه أمر بالتولي والتذكير كان الوقف التام على المؤمنين

إلاَّ ليعبدون (حسن) أي من أردت منهم العبادة فلا ينافي أنَّ بعضهم لم يعبده ولو خلقهم لإرادة العبادة منهم لكانوا عن آخرهم كذلك لأنَّه لا يقع في ملكه ما لا يريد ولو خلقهم للعبادة لما عصوه طرفة عين وبعضهم جعل اللام للصيرورة والمآل وهي أن يكون ما بعدها نقيضاً لما قبلها

من رزق (جائز)

أن يطعمون (تام) للابتداء بإنْ

هو الرزاق (حسن) إنْ جعل ما بعده مستأنفاً وليس بوقف إن جعل صفة المتين (تام) نعت لذو وللرزق أو نعت لاسم إن على المحل وهو مذهب الفراء أو خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف وعلى كل تقدير فهو تأكيد لأنَّ ذو القوة يفيد فائدته

أصحابهم (جائز)

فلا يستعجلون (كاف)

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(68/724)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الذاريات :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قراءة الحسن : "الْحُبُك1" ، مضمومة الحاء ، ساكنة الباء .

وروي عنه : "الْحُبُك" ، بكسر الحاء ، ووقف الباء .

وكذلك قرأ أبو مالك الغفاري2 :

وروي عنه : "الْحُبُك" ، بكسر الحاء ، وضم الباء .

وروي عنه : "الْحُبُك" .

وروي عنه : "الْحُبُك" .

الوجه السادس قراءة الناس3 .

وروى عن عكرمة وجه سابع ، وهو : "الْحُبُك" [151ظ] .

قال أبو الفتح : جميعه هو طرائق الغيم ، وأثر حسن الصنعة فيه ، وهو الحبيك في البيض .

قال :

الضاربون حبيك البيض إذ لحقوا لا ينكصون إذا ما استلحموا وحموا4

ويقال : حبيكة الرمل ، وحبائك . فهذا كسفينة ، وسفن ، وسفائن . وكذلك أيضا حبك الماء لطرائقه .

---

1 سورة الذاريات : 7 .

2 أورده صاحب أسد الغابة ، ونقل حديثا بسنده مرويا عنه . أسد الغابة : 5 : 288 .

3 وهي ضم الحاء والباء .

4 حبيك البيض للرأس : طرائق حديده ، استلحم : روهق في القتال . وحمى : سخن وعرق . رواه اللسان "حبك" ولم ينسبه .

قال زهير :

مكلل بأصول النبت تنسجه ريح خريق لضاحي مائه حبك1

فأما "الحبك" فمخفف من "الحبك" ، وهي لغة بني تميم ، كرسل وعمد ، في رسل وعمد .

وأما "الحبك" ففعل ، وذلك قليل ، منه : إبل ، وإطل2 ، وامرأة بلز3 ، وبأسنانه حبر4 .

وأما "الحبك" فمخفف منه ، كإبل ، وإطل .

وأما "الحبك" بكسر الحاء ، وضم الباء فأحسبه سهوا . وذلك أنه ليس في كلامهم فعل أصلا ، بكسر الفاء ، وضم العين . وهو المثال الثاني عشر من تركيب الثلاثي ، فإنه ليس ف اسم ولا فعل أصلا والبتة . أو لعل الذي قرأ به تداخلت عليه القراءتان : بالكسر ، والضم . فكأنه كسر الحاء يريد "الحبك" ، وأدركه ضم الباء على صورة "الحبك" وقد يعرض هذا التداخل في اللفظة الواحدة ، قال بلال بن جرير :

إذا جئتهم أو سآيلتهم وجدت بهم علة حاضرة5

أراد : أو سألتهم ، أو ساءلتهم ، أو لغة من قال : سايلتهم ، فأبدلت ، فتداخلت الثلاث عليه فخلط ، فقال : سآيلتهم ، فوزنها إذا فعاعلتهم ؛ لأن الياء في سايلتهم بدل من الهمزة في ساءلتهم . فجمع بين اللغتين في موضعين على تلفته إلى اللغتين . كذلك أيضا نظر في "الحبك" إلى "الحبك" ، و"الحبك" ، فجمع بين أول اللفظة على هذه القراءة ، وبين آخرها على القراءة الأخرى6 .

---

1 روي "النجم" مكان "النبت" . والنجم : كل نبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل أو هو نبات له أرومة وأصل ، لكنه قصير . ريح خريق : شديدة الهبوب . والضاحي : البارز للشمس . يصف ماء فيقول : إذا مرت به الريح علته طرائق من كثرته تبدو على ما بدا منه للشمس . وانظر الديوان : 176 .

2 الأطل : الخاصرة .

3 امرأة بلز : ضخمة .

4 الحبر : صفرة تشوب الأسنان .

5 انظر الصفحة 175 من الجزء الأول .

6 يأخذ الرضى على أبي الفتح في شرح الشافية "1 : 39" أن الحبك – بضمتين – جمع الحباك – وهو الطريقة في الرمل ونحوه ، والحبك – بكسرتين – مفرد ، وأنه يبعد تركيب اسم من مفرد وجمع . وهذا الذي يقوله الرضى مسلم في التركيب من لغتين ، لأنه حينئذ أخذ من مفرد وجمع . أما التركيب من قراءتين – أن صح الأخذ به – فلا يبدو بعيدا ، لأن قراءتي الجمع والمفرد مرويتان ، والقارئ بالتركيت منهما يريد أن يروي ما يؤثر لا التعبير عما يريد التعبير عنه .

فإما "الحبك" فكأن واحدتها حبكة ، كطرقة1 وطرق ، وعقبة وعقب .

وأما "الحبك" فعلى حبكة ، كطرقة وطرق ، وبرقة2 وبرق . ولا يجوز أن يكون "حبك" معدولا إليها عن "حبك" تخفيفا ، إنما ذلك شيء يستسهل في المضاعف خاصة ، كقولهم في جدد : جدد ، وفي سرر : سرر ، وفي قلل : قلل .

ومن ذلك قراءة السلمي : "أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ3" .

قال أبو الفتح : هذه لغة في "أيان" ، وينبغي أن يكون "أيان" م لفظ أي ، لا من لفظ أين ؛ لأمرين :

أحدهما أن أين مكان ، و"أيان" زمان .

والآخر أن يكون قلة فعال في الأسماء مع كثرة فعلان .

فلو سميت رجلا بأيان لم تصرفه كحمدان ، ولسنا ندعى أن أين مما يحسن اشتقاقها والاشتقاق منها ؛ لأنها مبنية كالحرف ، إلا أنها مع هذا الاسم ، وهي أخت أنى ، وقد جاءت فيها الإمالة التي لاحظ للإمالة فيها ، وإنما الإمالة للأفعال والأسماء ؛ إذ كانت ضربا من التصرف . والحروف لا تصرف فيها .

ومعنى أي : أنها بعض من كل ، فهي تصلح للأزمنة صلاحها لغيرها ؛ إذ كان البعض شاملا لذلك كله . قال أمية :

والناس راث عليهم أمر يومهم فكلهم قائل : أيان أيانا 4

فإن سميت 5 بأيان سقط الكلام في حسن تصريفها ، للحاقها - بالتسمية بها - ببقية الأسماء المنصرفة .

---

1 الطرقة : حبالة الصائد .

2 البرقة : أرض غليظة فيها حجارة ورمل وطين .

3 سورة الذاريات : 12 .

4 راث عليهم : أبطأ .

5 في ك : فإن شئت ، وهو تحريف .

(71/724)

ومن ذلك قراءة يحيى والأعمش : "ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ 1" .

قال أبو الفتح : يحتمل أمرين :

أحدهما أن يكون وصفا [152و] للقوة ، فذكره على معنى الحبل ، ويريد : قوى الحبل ؛ لقوله : ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا 2 ﴾ .

والآخر أن يكون أراد الرفع وصفا للرزاق ، إلا أنه جاء على لفظ القوة لجوارها إياه ، على

قولهم : هذا حجر ضب خرب ، وعلى هذا في النكرة – على ما فيه – أسهل منه في المعرفة ؛ وذلك أن النكرة أشد حاجة إلى الصفة . فبقدر قوة حاجتها إليها تتشبث بالأقرب إليها . فيجوز هذا حجر ضب خرب ؛ لقوة حاجة النكرة إلى الصفة . فأما المعرفة فتقل حاجتها إلى الصفة ، فبقدر ذلك لا يسوغ التشبث بما يقرب منها لاستغنائها في غالب الأمر عنها . ألا ترى أنه قد كان يجب ألا توصف المعرف ، لكنه لما كثرت المعرفة تداخلت فيما بعد ، فجاز وصفها ، وليس كذلك النكرة لأنها في أول وضعها محتاجة – لإبهامها – إلى وصفها .

فإن قلت : إن القوة مؤنثة ، والمتين مذكر . فكيف جاز أن تجريها عليها على الخلاف بينهما ؟ أو لا ترى أن من قال : هذا حجر ضب خرب لا يقول : هذان حجرا ضب خربين لمخالفة الاثنين الواحد ؟

قيل : قد تقدم أن القوة هنا إنما المفهوم منها الحبل ، على ما تقدم فكأنه قال : إن الله هو الرزاق ذو الحبل المتين ، وهذا واضح .

وأيضا فإن المتين فعيل ، وقد كثر مجيء فعيل مذكرا وصفا للمؤنث ، كقولهم : حلة خصيف3 ، وملحفة جديد ، وناقة حسير وسديس4 ، وريح خريق 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 285. 288﴾

---

1 سورة الذاريات : 58 .

2 سورة البقرة : 256 .

3 حلة خصيف : ذات لونين : أبيض ، وأسود .

4 ناقة حسير : مجهدة . وناقة سديس : أنت عليها السنة السادسة .

5 ريح خريق : باردة شديدة هبابة .

(72/724)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الذاريات

مكية وآيها ستون إجماعا القراآت أدغم تاء والذاريات ذروا أبو عمرو بخلفه وحمزة وكذا يعقوب من المصباح كما مر

وقرأ (يسرا) الآية 3 بضم السين أبو جعفر بخلف عن ابن وردان ومر بالبقرة وعن الحسن الحبك بكسر الحاء والباء ورويت عن أبي عمرو وهو اسم مفرد لا جمع لأن فعل ليس من أبنية الجموع فينبغي أن تعد مع إبل فيما جاء على فعل بكسر الفاء والعين وعن المطوعي إيان بكسر الهمزة وكسر عين عيون ابن كثير وابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائي ومر بالبقرة

وأمال ما أتاهم حمزة والكسائي وخلف ومر للأزرق في نظيرها خمس طرق بالنظر إلى تثليث مد البدل وتقليل الألف المنقلبة عن الياء وفتحها الأولى قصر البدل مع فتح الألف الثانية التوسط مع الفتح الثالثة المد مع الفتح الرابعة المد مع التقليل الخامسة التوسط مع التقليل ومر في الإمالة تفصيل الطرق وعن ابن محيصن من المبهج من رواية البزي وفي السماء رازقكم اسم فاعل وهو نظير ينزل ربنا إلى سماء الدنيا الحديث فلا ينافي في تعاليه سبحانه عن الجهة وعنه من رواية غير البزي من المفردة أرزاقكم جمع رزق

واختلف في ( ) مثل ما (الآية 23 فأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف بالرفع صفة لحق ولا يضر تقدير إضافتها إلى معرفة لأنها لا تتعرف بذلك لإبهامها أو خبر ثان أو أنه مع ما قبله خبر واحد نحو هذا حلو حامض وافقهم الأعمش والباقون بالنصب على الحال من المستكن في لحق لأنه من المصادر التي لا توصف والعامل فيها حق أو الوصف لمصدر محذوف أي لأنه لحق حقا مثل نطقكم وقيل هو نعت لحق وبني على الفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو ما إن كانت بمعنى شيء وإن وما في حيزها إن جعلت مزيدة للتأكيد

وقرأ ﴿ إبراهام) ﴾ الآية 24 بالألف ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان وأدغم ذال إذ

دخلوا أبو عمرو وهشام وابن ذكوان من طريق الأخفش وحمزة والكسائي وخلف وقرأ سلام بكسر السين وسكون اللام بلا ألف حمزة والكسائي والباقون سلام بفتح السين واللام وألف ومر بهود وكسر الهاء والميم من عليهم الريح وصلا أبو عمرو وضمهما كذلك حمزة والكسائي ويعقوب وخلف وكسر الهاء وضم الميم الباقون وضم الهاء وقفا حمزة ويعقوب وأشم القاف من قيل هشام والكسائي ورويس

واختلف في ﴿ الصعقة ﴾ الآية 44 فالكسائي بحذف الألف وسكون العين على إرادة الصوت الذي يصحب الصاعقة وافقه ابن محيصن بخلف عنه وعن الحسن الصواعق بتقديم القاف على العين والباقون بالألف بعد الصاد وكسر العين على إرادة النار النازلة من السماء للعقوبة

واختلف في ( ) وقوم نوح (الآية 46 فأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف بجر الميم عطفا على الهاء في وتركنا فيها آية كالتوابع أو على أحدها وجعل في الأصل عطفه على ثمود أولى لقربه وافقهم اليزيدي والحسن والأعمش وابن محيصن بخلفه والباقون بنصبها أي أهلكنا قوم نوح لأن ما قبله يدل عليه أو اذكر ويجوز أن يكون عطفا على مفعول فأخذناه أو على معنى فأخذتهم أي فأهلكناهم وأهلكنا قوم نوح ويوقف لحمزة على بايد بوجهين التخفيف والتسهيل بإبدال الهمزة ياء مفتوحة لأنه متوسط بزائد

وقرأ (تذكرون) الآية 49 بتخفيف الدال حفص وحمزة والكسائي وخلف

وأمال) ما أتى (الآية 52 وقفا حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وأثبت الياء في ليعبدون في الحالين يعقوب وعن ابن محيصن بخلفه هو الرازق بوزن فاعل وأثبت الياء في يطعمون في الحالين يعقوب وعن الأعمش المتين بالجر صفة للقوة وذكر الوصف للتأنيث غير حقيقي وقيل إنها في معنى الأيد والجمهور بالرفع صفة للرزاق وأثبت الياء في فلا يستعجلونك في الحالين يعقوب

(74/724)

المرسوم اتفقوا على كتابة بنيناها بأيد بياءين قبل الدال وعلى قطع يوم هم على النار يفتنون زوائدها ثلاث (ليعبدون) الآية 56 ( ) أن يطعمون (الآية 57 ( ) فلا يستعجلون ( ) الآية 59 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(75/724)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الذاريات "

" وقرا " لا يرقق ورش راءه للفصل بحرف الاستعلاء .

" يسرا " ضم السين أبو جعفر ، وأسكنها غيره .

" وعيون " كسر العين المكي وابن ذكوان وشعبة والأخوان ، وضمها غيرهم .

" يستغفرون " تبصرون ، رقق الراء فيهما ورش .

" مثل " رفع اللام شعبة والأخوان وخلف ، ونصبها غيرهم .

" ضيف إبراهيم " قرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها وغيره بكسرها وياء بعدها .

" قال سلام " قرأ الأخوان بكسر السين وإسكان اللام ، وغيرهما بفتح السين واللام وألف بعدها ، ولا خلاف بينهم في سلاما الذي قبله أنه بفتح السين واللام وألف بعدها .

" العليم " آخر الربع .

الممال

جاء ، فجاء لابن ذكوان وخلف وحمزة ، لذكرى بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش ، ألقى لدى الوقف ، وآتاهم وأتاك بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه .

بجبار والنار وبالأسحار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش .

المدغم

" الصغير " إذ دخلوا للبصري والشامي والأخوين وخلف .

" الكبير " قال لا تختصموا ، القول لدي ، نقول لجهنم ، ربك قبل ، نحن نحيى ، أعلم بما ،

والذاريات ذروا ، أنك قتل ، حديث ضيف ، كذلك قال ، قال ربك ، إنه هو ، وقد وافقه حمزة على إدغام والذاريات ذروا ، ولكن لا يجوز له قصر ولا توسط ولا روم بل لابد من الإدغام المحض مع المد المشبع كما تقدم في: والصافات صفا .

" عليهم " غير ، قيل شيء خلقنا ، ففروا ، منه ، نذير ، ساحر ، ظلموا ، جلي .

" عليهم الريح " قرأ البصري وصلا بكسر الهاء والميم وحمزة ويعقوب وخلف والكسائي بضمهما وصلا ، والباقون بكسر الهاء وضم الميم وصلا كذلك ، وأما عند الوقف فكلهم يكسرون الهاء ويسكنون الميم إلا حمزة ويعقوب فيضمون الهاء ويسكنون الميم ولا خلاف بين العشرة في قراءة الريح بالإفراد .

" الصاعقة " قرأ الكسائي بحذف الألف بعد الصاد مع إسكان العين ، وغيره بإثبات الألف مع كسر العين .

" وقوم " قرأ البصري والأخوان وخلف بخفض الميم ، والباقون بنصبها .

(76/724)

" بأيد " لحمزة في الوقف عليه تحقيق الهمزة وإبدالها ياء خالصة .

" تذكرون " خفف الذال حفص والأخوان وخلف ، وشددها غيرهم .

" ليعبدون " يطعمون ، يستعجلون ، أثبت يعقوب الياء في الحالين وحذفها غيره كذلك .

" يومهم الذي " قرأ البصريان وصلا بكسر الهاء والميم والأخوان وخلف وصلا بضمهما والباقون بكسر الهاء وضم الميم ، وأما عند الوقف فالجميع يكسرون الهاء ويسكنون الميم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 310 . 311 ﴾

(77/724)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الذاريات

قوله تعالى ﴿ لحق مثل ما ﴾ يقرأ بالرفع والنصب فالحجة لمن رفع انه جعله صفة للحق والحجة لمن نصب انه بناه مع ما بناء لا رجل عندك

فإن قيل كيف جعل نطقهم حقا وهم كفرة فقل معناه انه لحق مثل نطقكم كما تقول انه لحق كما انك ها هنا

قوله تعالى ﴿ الصاعقة ﴾ يقرأ بإثبات الالف بين الصاد والعين وحذفها فالحجة لمن اثبت انه اراد الاسم من الفعل والحجة لمن حذف انه اراد المصدر او المرة من الفعل

قوله تعالى ﴿ وقوم نوح من قبل ﴾ يقرأ بالنصب والخفض فالحجة لمن نصب انه رده على قوله ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ﴾ أي واغرقنا قوم نوح او اهلكنا قوم نوح والحجة لمن حفض انه رده على قوله ﴿ وفي ثمود ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 332.331 ﴾

(78/724)

وقال ابن زنجلة :

51 - سورة الذاريات

فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون 23

قرأ حمزة والكسائي وابو بكر إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون برفع اللام وقرأ الباقون بالنصب فمن رفع مثل فهي من صفة الحق المعنى أنه مثل نطقكم ومن نصب فعلى ضربين أحدهما أن يكون في موضع رفع إلا أنه لما أضاف إلى أن فتح ويجوز أن يكون منصوبا على التوكيد على معنى إنه لحق حقا مثل نطقكم

إذ دخلوا عليه فقالو سلما قال سلم قوم منكرون 25

قرأ حمزة والكسائي قالوا سلاما قال سلم بغير ألف أي أمري سلم أي لا بأس علينا

وقرأ الباقون قال سلام قال الزجاج من قرأ سلام فهو على وجهين على معنى قال سلام عليكم ويجوز أن يكون على معنى أمرنا سلام

فأخذتهم الصعقة وهم ينظرون 44

قرأ الكسائي فأخذتهم الصعقة بغير ألف وهي مصدر صعق يصعق صعقا وصعقة واحدة وحجته أن الصعقة هي المرة الواحدة بدلالة قوله أخذتهم الرجفة ولم يقل الراجفة وقوله ومنهم من أخذته الصيحة يعني المرة الواحدة فلما كان المعنى في الصيحة المرة الواحدة رد ما اختلف فيه إلى ما أجمع عليه

وقرأ الباقون الصاعقة بالألف وحجتهم أن جميع ما في القرآن من ذكر الصاعقة جاء على هذا الوزن مثل الراجفة والرادفة والطامة والصاخة فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمع عليه

وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فسقين 46

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وقوم نوح بالكسر حملوه على قوله وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون وفي قوم نوح وقوله وفي موسى أي أرسلنا إلى فرعون عطف على أحد شيئين إما أن يكون على قوله وتركنا فيها آية للذين يخافون 37 وفي موسى أو على قوله وفي الأرض آيات للموقنين 20 وفي موسى أي في إرسال آيات بينة وحجج واضحة وفي قوم نوح آية

وقرأ الباقون وقوم نوح بالنصب قال الزجاج ومن نصب فهو عطف على معنى فأخذتهم الصاعقة ومعنى أخذتهم الصاعقة أهلكناهم وأهلكنا قوم نوح فالأحسن والله أعلم أن يكون محمولا على قوله تعالى فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم 40 ألا ترى أن هذا الكلام يدل على أغرقنا فكأنه قال أغرقناه وجنوده وأغرقنا قوم نوح. انتهى انتهى. ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 679. 681﴾

(80/724)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة والذاريات 51

مكية وقد ذكر نظيرتها في غير المدني الأخير والمكي ولا نظير لها فيهما

وكلمها ثلاث مئة وستون كلمة ككلم والنجم

وحروفها ألف ومائتان وسبعة وثمانون حرفا

وهي ستون آية في جميع العدد ليس فيها اختلاف ولا مما يشبه الفواصل شيء

ورؤوس الآي

ذروا

1 وقرا

2 يسرا

3 أمرا

4 لصادق

5 لواقع

6 الحبك

7 مختلف

8 أفك

9 الخراصون

10 ساهون

11 الدين

12 يفتنون

13 تستعجلون

14 وعيون

15 محسنين

16 يهجعون

17 يستغفرون

18 والمحروم

19 للموقنين

20 تبصرون

21 توعدون

22 تنطقون

23 المكرمين

24 منكرون

25 سمين

26 تأكلون

27 عليم

28 عقيم

29 العليم

30 المرسلون

31 مجرمين

32 طين

33 للمسرفين

34 المؤمنين

35 المسلمين

36 الأليم

37 مبين

38 أو مجنون

39 مليم

40 العقيم

41 كالرميم

42 حين

43 ينظرون

44 منتصرين

45 فاسقين

46 لموسعون

47 الماهدون

48 تذكرون

49 مبين

50 مبين

51 أو مجنون

52 طاغون

53 بملوم

54 المؤمنين

55 ليعبدون

56 يطعمون

57 المتين

58 يستعجلون

59 يوعدون

60 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 232﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة والذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (ذروا) مصدر العامل فيه اسم الفاعل ، و (وقرا) مفعول الحاملات و (يسرا) مصدر في موضع الحال: أي ميسرة ، و (أمرا) مفعول المقسمات .

قوله تعالى (يؤفك عنه) الهاء عائدة على الدين ، أو على ما توعدون ، وقيل على قول مختلف: أي يصرف عن ذلك من صرف عن الحق .

قوله تعالى (يوم هم) هو مبنى على الفتح لإضافته إلى الجملة وموضعه رفع: أي هو يومهم ، وقيل هو معرب وفتح على حكم الظرف ، وقيل موضعه نصب: أي أعنى يومهم ، وقيل هو ظرف للدين: أي يوم الجزاء ، وقيل التقدير: يجازون يوم هم ، وهم مبتدأ ، و (يفتنون) الخبر وعداه بعلى ، لأن المعنى يجبرون على النار ، وقيل هو بمعنى في ، و (آخذين) حال من الضمير في الظرف ، والظرف خبر إن .

فإن قيل: كيف جاء الظرف هنا خبرا ، وآخذين حالا ، وعكس ذلك في قوله " إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون " ؟ قيل: الخبر مقصود الجملة ، والغرض من ذكر المجرمين الإخبار

عن تخليدهم ، ، لأن المؤمن قد يكون في النار ، ولكن يخرج منها ، فأما " إن المتقين " فجعل الظرف فيها خبرا لأنهم يأمنون الخروج منها ، فجعل آخذين فضلة .

قوله تعالى (كانوا قليلا) في خبر كان وجهان: أحدهما (ما يهجعون) وفى " ما " على هذا وجهان: أحدهما هي زائدة أي كانوا يهجعون قليلا ، وقليلا

نعت لظرف أو مصدر: أي زمانا قليلا أو هجوعا قليلا .

والثانى هي نافية ذكره بعض النحويين ، ورد ذلك عليه لأن النفى لا يتقدم عليه ما في حيزه وقليلا من حيزه .

والثانى أن قليلا خبر كان ، و " ما " مصدرية: أي كانوا قليلا هجوعهم كما تقول كانوا يقل هجوعهم ، ويجوز على هذا أن يكون ما يهجعون بدلا من اسم كان بدل

الاشتمال ، ومن الليل لا يجوز أن يتعلق بيهجعون على هذا القول لما فيه من تقديم معمول المصدر عليه ، وإنما هو منصوب على التبيين: أي يتعلق بفعل محذوف يفسره يهجعون .

(82/724)

وقال بعضهم: تم الكلام على قوله قليلا ، ثم استأنف فقال: من الليل ما يهجعون ، وفيه بعد ، لأنك إن جعلت " ما " نافية فسد لما ذكرنا ، وإن جعلتها مصدرية لم يكن فيه مدح ، لأن

كل الناس يهجعون في الليل و (بالأسحار) الباء بمعنى في .

قوله تعالى (وفى أنفسكم) المبتدأ محذوف: أي وفي أنفسكم آيات ، ومن رفع بالظرف جعل ضمير الآيات في الظرف ، وقيل يتعلق ب (تبصرون) وهذا ضعيف لأن الاستفهام والفاء يمنعان من ذلك .

قوله تعالى (وفي السماء رزقكم) أي سبب رزقكم يعنى المطر .

قوله تعالى (مثل ما) يقرأ بالرفع على أنه نعت لحق أو خبر ثان ، أو على أنهما خبر واحد مثل حلو حامض ، و " ما " زائدة على الأوجه الثلاثة ، ويقرأ بالفتح وفيه وجهان: أحدهما هو معرب ، ثم في نصبه على هذا أوجه: إما هو حال من النكرة ، أو من الضمير فيها ، أو على إضمار أعنى ، أو على أنه مرفوع الموضع ، ولكنه فتح كما فتح الظرف في قوله " لقد تقطع بينكم " على قول الأخفش ، و " ما " على هذه الاوجه زائدة أيضا .

والوجه الثاني هو مبنى .

وفى كيفية بنائه وجهان: أحدهما أنه ركب مع " ما " كخمسة عشر ، و " ما " على هذا يجوز أن تكون زائدة وأن تكون

نكرة موصوفة .

والثانى أن تكون بنيت لأنها أضيفت إلى مبهم ، وفيها نفسها إبهام ، وقد ذكر مثله في قوله تعالى " ومن خزى يومئذ " فتكون " ما " على هذا أيضا إما زائدة وإما بمعنى شئ ، وأما

(أنكم) فيجوز أن يكون موضعها جرا بالإضافة إذا جعلت " ما " زائدة ، وأن تكون بدلا منها إذا كانت بمعنى شئ ، ويجوز أن تكون في موضع نصب بإضمار أعنى ، أو رفع على تقدير هو أنكم .

قوله تعالى (إذ دخلوا) " إذ " ظرف لحديث أو لضيف أو لمكرمين لا لأتاك ، وقد ذكر القول في (سلاما) في هود .

قوله تعالى (في صرة) هو حال من الفاعل ، و (كذلك) في موضع نصب ب (قال) الثانية .

قوله تعالى (مسومة) هو نعت لحجارة أو حال من الضمير في الجار ، و (عند) ظرف لمسومة .

(83/724)

قوله تعالى (وفي موسى) أي وتركنا في موسى آية ، و (إذ) ظرف لآية أو لتركنا أو نعت لها ، و (بسلطان) حال من موسى أو من ضميره ، و (بركنه) حال من ضمير فرعون (وفي عاد وفي ثمود) أي وتركنا آية .

قوله تعالى (وقوم نوح) يقرأ بالجر عطفا على ثمود ، وبالنصب على تقدير : وأهلكنا ، ودل عليه ما تقدم من إهلاك الأمم المذكورين ، ويجوز أن يعطف على موضع " وفي موسى "

وبالرفع على الابتداء ، والخبر ما بعده ، أو على تقدير أهلكوا (والسماء) منصوبة بفعل محذوف: أي ورفعنا السماء ، وهو أقوى من الرفع لأنه معطوف على ما عمل فيه الفعل (والارض) مثله ، وبأيد حال من الفعل ، و (نعم الماهدون) أي نحن ، فحذف المخصوص بالمدح (ومن كل شئ) متعلق ب (خلقنا) ويجوز أن يكون نعتا (لزوجين) قدم فصار حالا .

قوله تعالى (كذلك) أي الأمر كذلك .

قوله تعالى (المتين) بالرفع على النعت لله سبحانه ، وقيل هو خبر مبتدأ محذوف أي هو المتين ، وهو هنا كناية عن معنى القوة إذ معناها البطش ، وهذا في معنى القراءة بالجر ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(84/724)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الذاريات

[سورة الذاريات (51) : الآيات 1 الى 12]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِياتِ ذَرْواً (1) فَالْحامِلاتِ وِقْراً (2) فَالْجارِياتِ يُسْراً (3) فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً (4)

إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ (6) وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9)

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ (11) يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12)

(85/724)

"وَالذَّارِياتِ" الواو حرف قسم وجر والذاريات مقسم به مجرور والجار والمجرور متعلقان بفعل قسم محذوف "ذَرْواً" مفعول مطلق والجملة ابتدائية لا محل لها "فَالْحامِلاتِ" معطوف على الذاريات "وِقْراً" مفعول به لاسم الفاعل "فَالْجارِياتِ" معطوف على ما قبله "يُسْراً" حال "فَالْمُقَسِّماتِ" معطوف على ما قبله "أَمْراً" مفعول به لاسم الفاعل "إِنَّما" إن حرف مشبه بالفعل وما اسمها "تُوعَدُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة "لَصادِقٌ" اللام المزحلقة وصادق خبر إن والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها "وَإِنَّ" الواو حرف عطف وإن حرف مشبه بالفعل "الدِّينَ" اسمها "لَواقِعٌ" اللام المزحلقة وواقع خبر إن والجملة معطوفة "وَالسَّماءِ" الواو حرف قسم وجر والسماء مجرور والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم "ذاتِ" صفة السماء "الْحُبُكِ" مضاف إليه "إِنَّكُمْ" إن واسمها "لَفِي قَوْلٍ" اللام المزحلقة وجار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر إن

"مُخْتَلِفٍ" صفة قول والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها "يُؤْفَكُ" مضارع مبني للمجهول "عَنْهُ" متعلقان بالفعل "مَنْ" نائب فاعل "أُفِكَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة صلة من وجملة يؤفك مستأنفة "قُتِلَ" ماض مبني للمجهو "الْخَرَّاصُونَ" نائب فاعل مرفوع بالواو والجملة مستأنفة "الَّذِينَ" بدل من الخراصون "هُمْ" مبتدأ "فِي غَمْرَةٍ" متعلقان بما بعدهما "ساهُونَ" خبر والجملة الاسمية صلة الذين لا محل لها "يَسْئَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "أَيَّانَ" اسم استفهام في محل نصب على الظرفية الزمانية متعلق بمحذوف خبر مقدم "يَوْمُ" مبتدأ مؤخر "الدِّينِ" مضاف إليه والجملة الاسمية سدت مسد مفعولي يسألون والجملة الفعلية مستأنفة.

[سورة الذاريات (51) : الآيات 13 الى 20]

(86/724)

يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ (17)

وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19) وَفِي الْأَرْضِ

آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20)

"يَوْمَ" ظرف زمان "هُمْ" مبتدأ "عَلَى النَّارِ" متعلقان ما بعدهما "يُفْتَنُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب والجملة الفعلية خبر هم والجملة الاسمية في محل جر بالإضافة "ذُوقُوا" أمر مبني على حذف

(87/724)

النون والواو فاعله والجملة مقول قول محذوف "فِتْنَتَكُمْ" مفعول به "هذَا" مبتدأ "الَّذِي" خبره والجملة الاسمية تعليل "كُنْتُمْ" كان واسمها "بِهِ" متعلقان بما بعدهما "تَسْتَعْجِلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كنتم وجملة كنتم صلة الذي لا محل لها "إِنَّ الْمُتَّقِينَ" إن واسمها "فِي جَنَّاتٍ" خبرها "وَعُيُونٍ" معطوف على جنات "آخِذِينَ" حال "ما" مفعول به لآخذين "آتَاهُمْ" ماض ومفعوله "رَبُّهُمْ" فاعله والجملة مستأنفة "إِنَّهُمْ" إن واسمها "كَانُوا" كان واسمها والجملة الفعلية خبر إن "قَبْلَ" ظرف زمان "ذلِكَ" مضاف إليه "مُحْسِنِينَ" خبر كانوا والجملة الاسمية تعليل "كَانُوا" كان واسمها "قَلِيلًا" صفة مفعول مطلق محذوف "مِنَ اللَّيْلِ" متعلقان بقليلا "ما" زائدة "يَهْجَعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر كانوا وجملة كانوا بدل من سابقتها "وَبِالْأَسْحارِ" الواو حرف عطف وبالأسحار

متعلقان بيستغفرون "هُمْ" مبتدأ "يَسْتَغْفِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ "وَفِي أَمْوالِهِمْ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "حَقٌّ" مبتدأ مؤخر "لِلسَّائِلِ" متعلقان بحق "وَالْمَحْرُومِ" معطوف على السائل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَفِي الْأَرْضِ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "آياتٌ" مبتدأ مؤخر "لِلْمُوقِنِينَ" متعلقان بمحذوف صفة آيات والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 21 الى 27]

وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (21) وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23) هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25)

فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَلا تَأْكُلُونَ (27)

"وَفِي أَنْفُسِكُمْ" الواو حرف عطف وفي أنفسكم متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف تقديره آيات "أَفَلا" الهمزة للاستفهام والفاء حرف استئناف ولا نافية "تُبْصِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية مستأنفة "وَفِي السَّماءِ" الواو حرف عطف وفي السماء

خبر مقدم "رِزْقُكُمْ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "وَما" معطوفة على رزقكم "تُوعَدُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة ما لا محل لها "فَوَ رَبِّ" الفاء حرف استئناف والواو حرف قسم وجر ورب مجرور بالواو "السَّماءِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السماء "إِنَّهُ" إن واسمها "لَحَقٌّ" اللام المزحلقة وحق خبرها والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها "مِثْلَ" حال منصوبة "ما" زائدة "أَنَّكُمْ" أن واسمها "تَنْطِقُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر أن والجملة الاسمية في محل جر بالإضافة "هَلْ" حرف استفهام "أَتاكَ" ماض ومفعوله "حَدِيثُ" فاعله "ضَيْفِ" مضاف إليه "إِبْراهِيمَ" مضاف إليه "الْمُكْرَمِينَ" صفة ضيف والجملة مستأنفة "إِذْ" ظرف زمان "دَخَلُوا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "فَقالُوا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله "سَلاماً" مفعول مطلق

(89/724)

و الجملة معطوفة على ما قبلها "قالَ" ماض فاعله مستتر "سَلامٌ" مبتدأ خبره محذوف والجملة الاسمية مقول القول "قَوْمٌ" خبر لمبتدأ محذوف "مُنْكَرُونَ" صفة قوم والجملة الاسمية مقول القول "فَراغَ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "إِلى أَهْلِهِ" متعلقان بالفعل

"فَجاءَ" ماض فاعله مستتر "بِعِجْلٍ" متعلقان بالفعل "سَمِينٍ" صفة عجل والجملة معطوفة على ما قبلها "فَقَرَّبَهُ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "إِلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "قالَ" ماض فاعله مستتر "أَلا" حرف تحضيض "تَأْكُلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مقول القول وجملة قال حالية.

[سورة الذاريات (51) : الآيات 28 الى 30]

فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها وَقالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30)

(90/724)

"فَأَوْجَسَ" الفاء حرف استئناف وماض فاعله مستتر "مِنْهُمْ" متعلقان بالفعل "خِيفَةً" مفعول به والجملة مستأنفة "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "لا تَخَفْ" مضارع مجزوم بلا والفاعل مستتر والجملة مقول القول "وَبَشَّرُوهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على قالوا "بِغُلامٍ" متعلقان بالفعل "عَلِيمٍ" صفة "فَأَقْبَلَتِ" حرف عطف وماض "امْرَأَتُهُ" فاعل "فِي صَرَّةٍ" متعلقان بمحذوف حال "فَصَكَّتْ" حرف عطف وماض "وَجْهَها"

مفعول به والجملة معطوفة على أقبلت "وَقالَتْ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "عَجُوزٌ" خبر لمبتدأ محذوف "عَقِيمٌ" صفة عجوز والجملة الاسمية مقول القول "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "كَذلِكَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "قالَ رَبُّكِ" ماض وفاعله والجملة مقول القول "إِنَّهُ" إن واسمها "هُوَ" ضمير فصل "الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ" خبران والجملة الاسمية مقول القول.

[سورة الذاريات (51) : الآيات 31 الى 33]

قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ (33)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "فَما" الفاء الفصيحة وما اسم استفهام مبتدأ "خَطْبُكُمْ" خبر والجملة مقول القول "أَيُّهَا" منادى "الْمُرْسَلُونَ" بدل من أي وجملة قال مستأنفة "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "إِنَّا" إن واسمها "أُرْسِلْنا" ماض مبني للمجهول ونا نائب فاعل والجملة خبر إن "إِلى قَوْمٍ" متعلقان بالفعل "مُجْرِمِينَ" صفة والجملة الاسمية مقول القول "لِنُرْسِلَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر

"عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "حِجارَةً" مفعول به "مِنْ طِينٍ" متعلقان بمحذوف صفة حجارة والمصدر المؤول من أن ما وبعدها في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بأرسلنا .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 34 الى 39]

مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) وَتَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ (37) وَفِي مُوسى إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (38)

فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39)

(92/724)

"مُسَوَّمَةً" صفة ثانية لحجارة "عِنْدَ" ظرف مكان "رَبِّكَ" مضاف إليه "لِلْمُسْرِفِينَ" متعلقان بمسومة "فَأَخْرَجْنا" الفاء حرف استئناف وماض وفاعله "مَنْ" مفعوله والجملة مستأنفة "كانَ" ماض ناقص واسمه محذوف "فِيها" متعلقان بمحذوف خبر كان "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" متعلقان بمحذوف حال وجملة كان صلة من "فَما" الفاء حرف عطف وما نافية "وَجَدْنا" ماض وفاعله "فِيها" متعلقان بالفعل "غَيْرَ" مفعول به "بَيْتٍ" مضاف إليه "مِنَ الْمُسْلِمِينَ" صفة بيت والجملة معطوفة على ما قبلها "وَتَرَكْنا" حرف عطف وماض وفاعله "فِيها"

متعلقان بالفعل "آيَةً" مفعول به "لِلَّذِينَ" متعلقان بمحذوف صفة آية "يَخافُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "الْعَذابَ" مفعول به "الْأَلِيمَ" صفة وجملة يخافون صلة الذين "وَفِي مُوسى" الواو حرف عطف والجار والمجرور معطوفان على فيها "إِذْ" ظرف زمان "أَرْسَلْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "إِلى فِرْعَوْنَ" متعلقان بالفعل "بِسُلْطانٍ" متعلقان بالفعل أيضا "مُبِينٍ" صفة "فَتَوَلَّى" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "بِرُكْنِهِ" متعلقان بالفعل "وَقالَ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "ساحِرٌ" خبر لمبتدأ محذوف "أَوْ" حرف عطف "مَجْنُونٌ" معطوف على ساحر والجملة مقول القول.

[سورة الذاريات (51) : الآيات 40 الى 44]

فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40) وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (42) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44)

"أَخَذْناهُ"

حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "جُنُودَهُ"

معطوف على الضمير فهو منصوب مثله "نَبَذْنَاهُمْ"

حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "الْيَمِّ"

متعلقان بالفعل "هُوَ"

الواو حالية ومبتدأ "مُلِيمٌ"

خبره والجملة حال "وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا" سبق إعرابه "عَلَيْهِمُ" متعلقان بالفعل "الرِّيحَ"

مفعول به "الْعَقِيمَ" صفة "ما تَذَرُ" ما نافية ومضارع فاعله مستتر "مِنْ شَيْءٍ" من حرف

جر زائد ومجرور لفظا منصوب محلا مفعول تذر "أَتَتْ" ماض فاعله مستتر "عَلَيْهِ" متعلقان

بالفعل والجملة صفة شيء "إِلَّا" حرف حصر "جَعَلَتْهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر

والجملة في محل نصب مفعول به ثان لتذر "كَالرَّمِيمِ" الكاف بمعنى مثل مفعول به ثان لجعلته

والرميم مضاف إليه وجملة ما تذر حال "وَفِي ثَمُودَ إِذْ" سبق إعراب مثيلها "قِيلَ" ماض

مبني للمجهول "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "تَمَتَّعُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله

والجملة مقول القول "حَتَّى حِينٍ" متعلقان بالفعل "فَعَتَوْا" حرف عطف وماض وفاعله

والجملة معطوفة على قيل "فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ" ماض ومفعوله والصاعقة فاعله والجملة

معطوفة على عتوا "وَهُمْ" الواو حالية وهم مبتدأ "يَنْظُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله

والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية حال.

[سورة الذاريات (51) : الآيات 45 الى 51]

فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ وَما كانُوا مُنْتَصِرِينَ (45) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (46) وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) وَالْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ (48) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49)

(94/724)

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (51)

"فَمَا" الفاء حرف استئناف وما نافية "اسْتَطاعُوا" ماض وفاعله "مِنْ قِيامٍ" من حرف جر زائد ومجرور لفظا منصوب محلا مفعول به والجملة مستأنفة "وَما" حرف عطف وما نافية "كانُوا" كان واسمها "مُنْتَصِرِينَ" خبرها والجملة معطوفة على ما قبلها "وَقَوْمَ" الواو حرف عطف وقوم منصوب بفعل مقدر أهلكنا "نُوحٍ" مضاف إليه "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بالفعل المقدر "إِنَّهُمْ" إن واسمها "كانُوا" كان واسمها "قَوْماً" خبرها والجملة الفعلية خبر إن "فاسِقِينَ" حال والجملة الاسمية تعليل "وَالسَّماءَ" الواو حرف استئناف والسماء منصوب على الاشتغال تقديره بنينا السماء والجملة الفعلية مستأنفة "بَنَيْناها" ماض وفاعله

ومفعوله "بِأَيْدٍ" متعلقان بالفعل والجملة مفسرة للجملة المقدرة لا محل لها "وَإِنَّا" الواو حالية وإن واسمها "لَمُوسِعُونَ" اللام المزحلقة وخبر إن والجملة الاسمية حال "وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا" معطوف على السماء بنيناها "فَنِعْمَ" الفاء حرف عطف وماض جامد لإنشاء المدح "الْمَاهِدُونَ" فاعل "وَمِنْ كُلِّ" الواو حرف استئناف وجار ومجرور متعلقان بخلقنا "شَيْءٍ" مضاف إليه "خَلَقْنَا" ماض وفاعله "زَوْجَيْنِ" مفعول به والجملة مستأنفة "لَعَلَّكُمْ" لعل واسمها "تَذَكَّرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر

(95/724)

لعل والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها "فَفِرُّوا" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله "إِلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بإلى وهما متعلقان بالفعل والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "إِنِّي" إن واسمها "لَكُمْ" متعلقان بنذير "مِنْهُ" متعلقان بنذير أيضا "نَذِيرٌ" خبر إن "مُبِينٌ" صفة والجملة الاسمية تعليل "وَلَا" الواو حرف عطف ولا ناهية "تَجْعَلُوا" مضارع مجزوم والواو فاعله "مَعَ" ظرف مكان "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "إِلَهًا" مفعول به "آخَرَ" صفة له والجملة معطوفة على ما قبلها "إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ" سبق إعرابها .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 52 الى 55]

كَذَلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52) أَتَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (53) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ (54) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55)

(96/724)

"كَذَلِكَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "ما" نافية "أَتَى الَّذِينَ" ماض ومفعوله "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "مِنْ رَسُولٍ" حرف جر زائد ومجرور لفظا مرفوع محلا فاعل أتى "إِلَّا" حرف حصر "قالُوا" ماض وفاعله "ساحِرٌ" خبر لمبتدأ محذوف "أَوْ" حرف عطف "مَجْنُونٌ" معطوف على ساحر وجملة قالوا حال وجملة ما أتى تفسيرية لا محل لها "أَتَواصَوْا" الهمزة حرف استفهام وتوبيخ وماض وفاعله "بِهِ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة "بَلْ" حرف عطف وإضراب "هُمْ قَوْمٌ" مبتدأ وخبره "طاغُونَ" صفة قوم والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "فَتَوَلَّ" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر "عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "فَما" الفاء حرف تعليل وما نافية عاملة عمل ليس "أَنْتَ" اسمها "بِمَلُومٍ" الباء حرف جر زائد وملوم مجرور لفظا منصوب محلا لأنه خبر ما والجملة تعليلية لا

محل لها "وَذَكِّرْ" الواو حرف عطف وأمر فاعله مستتر "فَإِنَّ الذِّكْرى" الفاء حرف تعليل وإن واسمها "تَنْفَعُ" مضارع فاعله مستتر "الْمُؤْمِنِينَ" مفعول به والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 56 الى 60]

وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (56) ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (59) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (60)

(97/724)

"وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "خَلَقْتُ" ماض وفاعله "الْجِنَّ" مفعول به "وَالْإِنْسَ" معطوف على الجن والجملة مستأنفة "إِلَّا" حرف حصر "لِيَعْبُدُونِ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام العاقبة والواو فاعله والنون للوقاية وياء المتكلم المحذوف مفعول به والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بخلقت "ما" نافية "أُرِيدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة حالية "مِنْهُمْ" متعلقان بالفعل "مِنْ رِزْقٍ" من حرف جر زائد ورزق مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به "وَما أُرِيدُ" الواو حرف عطف وما

أريد معطوف على مثيله "أَنْ يُطْعِمُونِ" مضارع منصوب بأن والواو فاعله والنون للوقاية وياء المتكلم المحذوفة مفعول به والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل نصب مفعول به لأريد "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "هُوَ" ضمير فصل "الرَّزَّاقُ" خبره وجملة هو الرزاق خبر إن وجملة إن الله مستأنفة "ذُو" خبر ثان "الْقُوَّةِ" مضاف إليه "الْمَتِينُ" صفة الرزاق "فَإِنَّ" الفاء حرف استئناف وحرف مشبه بالفعل "لِلَّذِينَ" خبر إن المقدم "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "ذَنُوباً" اسم إن المؤخر "مِثْلَ" صفة ذنوبا "ذَنُوبِ" مضاف إليه "أَصْحابِهِمْ" مضاف إليه "فَلا" حرف عطف ولا ناهية "يَسْتَعْجِلُونِ" مضارع مجزوم بلا والواو فاعله والنون للوقاية وياء المتكلم المحذوفة مفعول به "فَوَيْلٌ" حرف استئناف ومبتدأ "لِلَّذِينَ" خبر والجملة الاسمية مستأنفة "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْ يَوْمِهِمُ" متعلقان بمحذوف صفة ويل "الَّذِي" صفة يومهم "يُوعَدُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 262 ﴿268.

(98/724)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الذاريات

ذكر فِيهَا حديثين

1255 - قَوْله

عَن عَلّي بن أبي طَالب أَنه قَالَ عَلَى الْمِنْبَر سلوني قبل أَلا تَسْأَلُونِي وَلَنْ تسألوا بعدِي مثلي فَقَامَ ابْن الْكواء فَقَالَ مَا الذاريات قَالَ الرِّيَاح قَالَ فَالْحَامِلَات وقرا قَالَ السَّحَاب قَالَ فَالْجَارِيَات يسرا قَالَ الْفلك قَالَ (فَالْمُقَسّمَات أمرا) قَالَ الْمَلَائِكَة وَكَذَا عَن ابْن عَبَّاس قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك من حَدِيث أبي الطُّفَيْل قَالَ رَأَيْت أَمِير الْمُؤمنِينَ عَلّي بن أبي طَالب قَامَ عَلَى الْمِنْبَر فَقَالَ سلوني قبل أَلا تَسْأَلُونِي وَلَنْ تسألوا بعدِي مثلي إِلَى آخِره سَوَاء وَزَاد قَالَ فَمن الَّذين بدلُوا نعْمَة الله كفرا وَأَحلُّوا قومهمْ دَار الْبَوَار قَالَ مُنَافِقُو قُرَيْش انْتَهَى قَالَ حَدِيث صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجاهُ انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرِيّ وَعبد الرَّزَّاق فِي تفسيريهما

وَرَوَى الْبَزَّار فِي مُسْنده نَحوه مَرْفُوعا فَقَالَ حَدثنَا إِبْرَاهِيم بن هَانِئ ثَنَا سعيد بن سَلام الْعَطَّار ثَنَا أَبو بكر بن أبي سُبْرَة عَن يَحْيَى بن سعيد عَن سعيد ابْن الْمسيب قَالَ جَاءَ صبيغ بن عَسَلِي التَّمِيمِي إِلَى عمر بن الْخطاب فَقَالَ يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ أَخْبرنِي عَن الذاريات

ذَروا قَالَ هِيَ الرِّيَاح وَلَوْلَا أَنِّي سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُوله مَا قلته قَالَ فَأَخْبِرنِي عَن الْحَامِلَات وقرا قَالَ

(99/724)

هِيَ السَّحَاب وَلَوْلَا أَنِّي سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُوله مَا قلته قَالَ فَأَخْبِرنِي عَن الْجَارِيَات يسرا قَالَ هِيَ السفن وَلَوْلَا أَنِّي سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُوله مَا قلته قَالَ ثمَّ أَمر بِهِ عمر فَضرب مائَة وَجعله فِي بَيت فَلَمَّا برأ دَعَا بِهِ فَضَربهُ مائَة أُخْرَى وَحمله عَلَى قتب وَكتب إِلَى أبي مُوسَى الْأَشْعَرِيّ أَن امْنَعْ النَّاس عَن مُجَالَسَته فَلم يزل كَذَلِك حَتَّى أَتَى صبيغ أَبَا مُوسَى فَحلف لَهُ بِالْإِيمَان الْمُغَلَّظَة أَنه مَا يجد فِي نَفسه مِمَّا كَانَ يجد شَيْئًا فَكتب فِي ذَلِك إِلَى عمر فَكتب عمر مَا إِخَاله إِلَّا قد صدق فَخل بَينه وَبَين النَّاس انْتَهَى ثمَّ قَالَ هَذَا حَدِيث لَا نعلمهُ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَّا من هَذَا الْوَجْه وَإِنَّمَا ذكرته لأبين علته فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَتَى من جِهَة ابن أبي سُبْرَة فِيمَا أَحسب وَابْن أبي سبره لين الْحَدِيث وَسَعِيد بن سَلام لم يكن من أَصْحَاب الْحَدِيث انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مردويه فِي تَفْسِيره من حَدِيث عبد الله بن مُوسَى عَن ابْن أبي سُبْرَة بِهِ سندا ومتنا

وَأما حَدِيث ابْن عَبَّاس فَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ ثني مُحَمَّد بن سعد ثني أبي ثني عمي ثني أبي عَن أَبِيه عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى والذاريات قَالَ هِيَ الرِّيَاح (فَالْحَامِلَات وقرا) قَالَ السَّحَاب فَالْجَارِيَات قَالَ هِيَ السفن فَالْمُقَسّمَات أمرا قَالَ هِيَ الْمَلَائِكَة انْتَهَى

1256 - الحَدِيث الأول

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (لَيْسَ الْمِسْكِين الَّذِي ترده الْأُكلَة وَالْأُكْلَتَان وَالتَّمْرَة وَالتَّمْرَتَانِ) قَالُوا فَمَا هُوَ قَالَ (الَّذِي لَا يجد وَلَا يتَصَدَّق عَلَيْهِ)

(100/724)

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي الزَّكَاة من حَدِيث الْأَعْرَج عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لَيْسَ الْمِسْكِين الَّذِي يطوف عَلَى النَّاس فَتَرده اللُّقْمَة وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَة وَالتَّمْرَتَانِ) قَالُوا فَمَا الْمِسْكِين يَا رَسُول الله قَالَ (الَّذِي لَا يجد غنى يُغْنِيه وَلَا يفْطن لَهُ فَيَتَصَدَّق عَلَيْهِ) انْتَهَى

1257 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من قَرَأَ سُورَة الذاريات أعطَاهُ الله عشر حَسَنَات بِعَدَد كل ريح هبت وَجَرت فِي الدُّنْيَا)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث نوح بن أبي مَرْيَم عَن عَلّي بن زيد عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب قَال قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قَرَأَ سُورَة الذاريات) إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه الْمَذْكُورين فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم قي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 365 . 367 ﴾

(101/724)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الذاريات

قوله تعالى : (كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ) ، الآية/ 17 .

ورد في صلاة الليل ، وأنهم كانوا لا يزورون .

قوله تعالى : (وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) ، الآية/ 18 .

قال : مدوا الصلاة إلى السحر ، ثم جلسوا في الدعاء والاستكانة والاستغفار .

قوله تعالى : (وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) ، الآية/ 19 .

هو الزكاة ، إذ لا فرض في المال سواها ، ووراء ذلك ربما وجبت حقوق مثل النفقات وضروب المواساة :

قوله تعالى : (لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) :

الذي يطلب فلا يرزق ، ويكون مجازفا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 389 ﴾

(102/724)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الذاريات» (51)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«وَالذَّارِياتِ ذَرْواً» (1) هى الريح وناس يقولون : المذريات للريح ، ذر وأذرت لغتان . .

«فَالْحامِلاتِ وِقْراً» (2) السحاب . .

«فَالْجارِياتِ يُسْراً» (3) السّفن . .

«فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً» (4) الملائكة . .

«وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ» (7) الطرائق ومنها سمّى حباك الحائط الإطار وحباك الحمام

طرائق على جناحيه ، وطرائق الماء حبكه وقال زهير :

مكلل بأصول النّجم تنسجه ريح خريق لضاحى مائه حبك

«1» [864] .

«يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ» (9) يدفع عنه ويحرمه كما تؤفك الأرض . .

«قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ» (10) المتكهّنون . .

«يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ» (12) يوم الحساب ، متى يوم الدين . «2»

---

(1) . - 864 : ديوانه ص 176 والقرطبي 17/ 32 وشواهد الكشاف 209 .

(2) . - 865 : ديوانه ص 599 .

«ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ» (14) تم الكلام ثم جاء هذا بعد ائتناف . .

«إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ» (15 - 16) انتصب لأن الكلام قد تم خبره فإن

شئت رفعته وإن شئت أخرجته إلى النصب . .

«كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ» (17) أي يهجعون قليلا من الليل . .

«وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ» (22) فيه مضمر مجازه : عند من فى السماء رزقكم وعنده ما توعدون ، وفى آية أخرى : «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ» (12/ 70) ، «و سل القرية» (12/ 82) فهذا كله فيه إضمار والعرب تفعل ذلك قال نابغة بنى ذبيان :

كأنك من جمال بنى أقيش يقعقع خلف رجليه بشنّ

(54) أراد كأنك جمل من جمال بنى أقيش . وقال الأسدىّ :

كذبتم وبيت اللّه لا تنكحونها بنى شاب قرناها تصرّ وتحلب

(55) فيه ضمير «التي» شاب قرناها . وقوله «و سل القرية» سل من فى القرية . .

«إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ» (23) مجازها : كما أنكم تنطقون . .

«هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ» (24 - 25) ضيف مثل خصم يقع على الواحد والجميع . .

«فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ» (25) قال تجىء للحكاية وفى موضع فعل يعمل فجاءت المنصوبة وقد عمل فيها «قالوا» وجاء المرفوع كأنه حكاية . .

«فَراغَ إِلى أَهْلِهِ» (26) عدل «1» إلى أهله .

(1) . - 18 «فراغ . . . عدل» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 460) .

(104/724)

«فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً» (28) أضمر خيفة أي خوفا . .

«فِي صَرَّةٍ» (29) شدة صوت ، يقال : أقبل فلان يصطر أي يصوت صوتا شديدا «1» . .

«قالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ» (29) مختصر أي أنا عجوز عقيم .

«مُسَوَّمَةً» (34) معلمة ويقال : إنه كان عليها مثل الخواتيم «2» . .

«فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ» (39) وبجانبه سواء إنما هى ناحيته . «وَقالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» (39) أو ها هنا فى موضع الواو التي للموالاة لأنهم قد قالوهما جميعا له قال جرير :

أثعلبة الفوارس أو رياحا عدلت بهم طهيّة والخشابا «3»

(738) الخشاب «4» بنو رزام بن مالك وربيعة وكعب بن مالك بن حنظلة . .

«أَتَواصَوْا بِهِ» (53) أتواطئوا «5» عليه وأخذه بعضهم عن بعض وإذا كانت

---

(1) . - 2 صرة . . . شديدا : رواه ابن حجر عنه (فتح الباري 8/ 460) .

(2) . – 4 «الخواتيم» : جمع الخاتام : وفى اللسان : وقال سيبويه : الذين قالوا خواتيم إنما جعلوه تكسير فاعال وإن لم يكن فى كلامهم وهذا دليل على أن سيبويه لم يعرف خاتاما .

(3) . – 6 – 8 «أوهاهنا . . . والخشابا» : رواه الطبري (27/ 3) عن أبى عبيدة .

(4) . – 8 «الخشاب» : قال الجوهري : وبنو رزام بن مالك بن حنظلة يقال لهم الخشاب (خشب) .

وقال أبو عبيدة : والخشاب ربيعة ورزام أخوتهم بنو مالك بن حنظلة من غير طهية (النقائض ص 434) .

(5) . – 10 «تواصو به تواطئوا» : أخذ البخاري هذا الكلام بعد ذكره : وقال غيره . . . الكلام وقال ابن حجر : سقط هذا لأبى ذر وقد أخرجه ابن المنذر من طريق أبى عبيدة قول أتواصوا . . . كأنما تواصوا به (فتح الباري 8/ 461) .

(105/724)

شيمة غالبة على قوم قيل كأنما تواصوا بكذا وكذا . .

«فَتَوَلَّ عَنْهُمْ» (54) أي أعرض عنهم واتركهم قال حصين بن ضمضم

أمّا بنو عبس فإنّ هجينهم ولّى فوارسه وأفلت أعورا

«1» [867] والأعور الذي قد عوّر فلم يقض حاجته ولم يصب ما طلب «2» قال العجّاج:

وعوّر الرحمن من ولّى العور

«3» [868] وليس هو من عور العين ويقال للمستجيز الذي يطلب الماء فإذا لم يسقه قيل:

قد عوّرت شربه «4» قال الفرزدق:

متى ما ترد يوما سفار تجد به أديهم يرمى المستجيز المعوّرا

«5» [869].

«فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ» (59) أي نصيبا قال علقمة بن عبدة:

وفى كل يوم قد خبطت بنائل فحقّ لشأش من نداك ذنوب

«6» [870]

---

(1). - 867: «حصين بن ضمضم»: له ذكر فى الأغانى 9/ 142 - 143. والبيت فى الطبري 27/ 7.

(2). - 4 «والأعور... طلب»: هذا الكلام فى الطبري (27/ 7) ببعض نقص وزيادة.

(3). - 868: ديوانه ص 15 واللسان (عور).

(4) . - 6 - 7 «ويقال . . . شربه» : رواه الجوهري عن أبى عبيدة (عور) .

(5) . - 869 : فى الصحاح واللسان (عور) ومعجم البلدان 3/ 95 وشواهد المغني ص 99 .

(6) . - 870 : ديوانه من الستة ص 107 والكتاب 2/ 473 والطبري 27/ 8 والشنتمرى 2/ 423 والقرطبي 17/ 57 وشواهد الكشاف 43 . [. . . . .]

(106/724)

فقال الملك وأذنبة «1» ، أي نصيب . وإنما أصلها من الدلو والذنوب والسّجل واحد وهو ملء الدلو وأقل قابلا . قال الفضل بن عبّاس بن عتبة بن أبى لهب :

من يساجلنى يساجل ماجدا يملأ الدلو إلى عقد الكرب

«2» [871] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 225. 229 ﴾

---

(1) . - 1 «فقال . . . أذنبة» : هذا قول الحارث بن أبى شمس الغساني : وكان قد أوقع بينى تميم وأسر منهم تسعون رجلا فيهم شأس بن عبدة أخو علقمة فوفد عليه علقمة مادحا له وراغبا فى أخيه فلما أنشد القصيدة وانتهى منها إلى هذا البيت قال الحارث نعم وأذنبة . . . (الشنتمرى) .

(2) . - 871 : فى الكامل ص 110 والأغانى 14/ 171 ، 15/ 3 والسمط ص 700 .

(107/724)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الذاريات»

[سورة الذاريات (51) : آية 34]

مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34)

قوله سبحانه فى صفة حجارة القذف : مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ [34] وهذه استعارة . والمسوّمة : المعلمة . وأصل ذلك مستعمل فى تسويم الخيل للحرب . أي تعليمها بعلامات تتميز بها من خيل العدو . شبّهت هذه الحجارة بها لأنها معلّمة بعلامات تدلّ على مكروه المصابين ، وضرر المعاقبين ، كما كانت الخيل المسوّمة تدل على ذلك فى لقاء الأعداء . وإرسال هذه للعراك كإرسال تلك للهلاك .

وقيل : إن التسويم فى تلك الحجارة هو أن تجعل نكتة سوداء فى الحجر الأبيض ، أو نكتة

بيضاء فى الحجر الأسود .

وقيل : كان عليها أمثال الطوابيع والخواتيم . وقد تكلمنا على نظير هذه الاستعارة فى «هود» .

والمراد بقوله تعالى : عِنْدَ رَبِّكَ أي خلقها سبحانه كذلك من غير أن يفعلها فاعل ، أو يجعلها جاعل . فلأجل هذه الحال وجب أن يجعل لها تعالى هذا الاختصاص بقوله : عِنْدَ رَبِّكَ .

وقد يجوز أيضا أن يكون المراد بذلك أنها مسوّمة فى سلطان اللّه تعالى وملكوته . وفى موضع العقاب المعدّ للمذنبين من خلقه .

[سورة الذاريات (51) : آية 39]

فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39)

وقوله تعالى : فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ [39] وهذه استعارة .

وقد قيل : إن المراد بها أنه أعرض بجنوده الذين هم كالركن له ، والحجارة

دونه . وقد يسمّى أعوان المرء وأنصاره أركانه واعتماده «1» ، إذ كان بهم يصول ، وإليهم يؤول .

وقيل أيضا معنى ذلك فتولّى «2» وسلطانه ، فإن ذلك كالركن له والمانع منه . ونظيره قوله سبحانه حاكيا عن لوط عليه السلام : لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ «3» أي إلى عزّ دافع ، وسلطان قامع .

[سورة الذاريات (51) : آية 41]

وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41)

وقوله سبحانه : وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ [41] وهذه استعارة . ومعنى العقيم ها هنا التي لا تحمل القطار ، ولا تلقح الأشجار ، ولا تعود بخير ، ولا تنكشف عن عواقب نفع . فهى كالمرأة التي لا يرجى ولدها ، ولا ينمى عددها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 313.314 ﴾

---

(1) هكذا بالأصل . ولعلها «وأعماده» .

(2) بياض بالأصل .

(3) سورة هود . الآية رقم 80 .

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الذاريات

بدأت سورة الذريات بعدة أقسام تحتاج إلى التأمل ، أولها القسم بالرياح ، فإننا لو حُرمنا الهواء اختنقنا ومتنا . وقد تساءلت عما يملأ صدرى من هذا الهواء : هل نتبادله نحن البشر ؟ هل ما تخرجه رئتاى من هواء يذهب إلى آخرين ؟ إن تيارات الهواء تصعد وتهبط فوق طهر الأرض ، ثم تهب الرياح فتذهب بها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ! وقد يذهب ما ملأ صدرى منها إلى شخص آخر فى أوربا أو أسيا ! ! من يعلم ذلك ويحدده ويتابعه ؟ الله وحده ! ثم إن هذه الرياح تحمل السحب التى ينتظرها العطاش من البشر والدواب ، أو تنتظرها الأرض الميتة لتحيا . ونحن فى مصر لا نعول على الأمطار فى معايشنا . إن النيل يحمل لنا ما يروينا ، لكن من أين ؟ الأمطار الرسمية القادمة من المحيط الهندى تهمى سيلا بعد سيل ، ويتصل عبابها شاقا طريقه من وسط إفريقية إلى شمالها ، فنشرب فى القاهرة والإسكندرية من هذا الغيث الذى قطع آلاف الأميال إلى أفواهنا . . إن الهواء الرقيق الخفيف يحمل هذه المقادير من المياه التى يجرى بها نهر كبير ! " والذاريات ذروا * فالحاملات وقرا * فالجاريات يسرا * فالمقسمات أمرا * إنما توعدون لصادق * وإن الدين لواقع " . لقد كنت أعجب من أن الهواء فى إطارات السيارة يحمل أثقالا

باهظة ، حتى التفت إلى أن أنهار الأرض يحملها هذا الهواء سحُبا قبل أن تنزل إلينا مطرا . وقد أقسم الله بالرياح على أن الجزاء حق ، وأن البشر مسئولون بعد قليل عما قدموا وأخّروا ! ثم جاءت بعد ذلك أقسام أخرى "والسماء ذات الحبك * إنكم لفي قول مختلف" . إن آفاق السماء محبوكة لا تسيب فيها ولا فوضى ، وما يسبح فيها يتم وفق نظام رتيب .

(110/724)

وندع السماء إلى الأرض " وفي الأرض آيات للموقنين " . قلت: ما أثقلنا على ظهر الأرض ، وما أثقل الأرض نفسها فى الفضاء . ومع ذلك تنطلق بما تحمل لا تنوء ولا تزيغ ! " وفي أنفسكم أفلا تبصرون * وفي السماء رزقكم وما توعدون * فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون " . إن جسم الإنسان جهاز بالغ التعقيد ، سبحان من خلقه وصوره وشق فيه سمعه وبصره . ومع ذلك يجلس على أريكته امرؤ مغرور يقول: لا إله والحياة مادة ! إذا كانت مادة ، فمن بناها وضبطها ووضع لها نظمها ؟ إننا ندع وسط السورة لننظر فى خواتيمها جواب هذا التساؤل " والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون * والأرض فرشناها فنعم الماهدون * ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون " . إن

الملحد بغبائه وغفلته يوشك أن تدهمه كارثة تودى به ، ولذلك يقول الله له ولمثله " ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين * ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم منه نذير مبين" . لكن الكافرين أوتوا من سلاطة اللسان بقدر ما حرموا من نعمة التوفيق ؟ فهم يصفون الدعاة إلى الله بالسحر والجمود والتخلف العقلى ! "كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون" . وطغيانهم هو الذى أودى بهم بعد مرحلة من الابتلاء . وقد وصفت سورة الذاريات فى وسطها مصاير عدد من هؤلاء الأقوام ، وبدأت بحديث عن ضيف إبراهيم المكرمين ، وهو حديث يكشف عن سوء فهم الكتابيين للألوهية ، وتأثر عقولهم بالفكر الوثنى ! لقد كان ضيوف إبراهيم عددا من الملائكة جاءوا بأنباء سارة عن أن الله سيرزقه بغلام عليم ، كما أخبروه أن الله سيدمر القرى النجسة التى عجز لوط عن إصلاحها . . . لكن العهد القديم ساق القصة على نحو آخر ، فذكر أن الله هو الذى تناول الغداء مع إبراهيم ، وأن إبراهيم قدم لرب العالمين مائدة فاخرة عليها عجل مشوى وخبز ، وأن الله أكل حتى امتلأ ! ! هذا ما ذكره الكتاب المقدس .

(111/724)

أما القرآن المتهم عند أهل الكتاب ، فقد تنزه عن هذا السياق جملة وتفصيلا ! لأنه لم يقدر الله حق قدره . . . ! ! يقضى على المرء فى أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن ! وتحدثت السورة عن فرعون وجيشه ، وكيف استباحوا بنى إسرائيل " فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم" – ارتكب ما يلام عليه – لقد رمى فى البحر كما تلقى النواة ، ما كلف القدر جهدا ، وما بكت عليهم السموات والأرض . . وذكرت عاد التى كانت تتساءل: من أشد منا قوة ؟ " وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم * ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم" . لقد بادوا دون مقاومة . . وكذلك غيرهم من القرى الظالمة ، إن الله بعث إليهم من يعرفهم به ويذكرهم بلقائه ويطالبهم بحقوقه ، بيد أنهم عتوا واستكبروا فأبيدوا . . إن الله لا يحتاج إلى خلقه ، إنه عنهم غنى ، وعندما يكلفهم بعبادته ، فما يكلفهم إلا شكر نعمته والشعور بعظمته والفقر إليه ، فهل هذا تكليف معنت ؟ " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين " . على أن الكنود الذى يبديه الناس نحو ربهم لن يمردون مؤاخذة ، سيلقون ما لقيه آباؤهم الأقدمون . " فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون" . إنه عقاب واحد ومصير مشترك " فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 412.410 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والعشرون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخامس والعشرون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الذاريات

وحتى الآية ﴿ 23 ﴾ من السورة

(4/725)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/725)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الذاريات

أقول: لما ختمت (ق) بذكر البعث ، واشتملت على ذكر الجزاء ، والجنة والنار ، وغير ذلك من أحوال القيامة ، افتتح هذه السورة بالإقسام على أن ما توعدون من ذلك لصادق ، وإن الدين - وهو الجزاء - لواقع ونظير ذلك: افتتاح المرسلات بذلك ، بعد ذكر الوعد

والوعيد والجزاء في سورة الإنسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 132﴾

(6/725)

قوله تعالى ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (3) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (4) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (11) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) المحيط بصفات الكمال فهو لا يخلف الميعاد (الرحمن) الذي عم الخلائق بنعمة الإيجاد (الرحيم) الذي خص من اختاره بالتوفيق لما يرضاه من المراد .

لما ختم سبحانه ق بالتذكير بالوعيد ، افتتح هذه بالقسم البالغ على صدقه ، فقال مناسباً بين القسم والمقسم عليه : ﴿ والذاريات ﴾ أي الرياح التي من شأنها الإطارة والرمي

والتفريق والإذهاب ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ ذرواً ﴾ أي بما تصرفها فيه الملائكة ، قال الأصبهاني : الرياح تحت أجنحة الكروبيين حملة العرش ، فتهيج من ثم فتقع بعجلة الشمس ثم تهيج عن عجلة الشمس فتقع برؤوس الجبال ، ثم من رؤوس الجبال تقع في البر ، فأما الشمال فإنها تمر تحت عدن فتأخذ من عرف طيبها فتمر على أرواح الصديقين ، ثم تأخذ حدها من كرسي بنات نعش إلى مغرب الشمس ، وتأتي الدبور حدها من مغرب الشمس إلى مطلع سهيل ، وتأتي الجنوب حدها من مطلع سهيل إلى مطلع الشمس ، وتأتي الصبا حدها من مطلع الشمس إلى كرسي بنات نعش ، فلا تدخل هذه في حد هذه ولا هذه في حد هذه .

(7/725)

ولما كانت غاية الذرو التهيئة للحمل ، قال مسبباً ومعقباً : ﴿ فالحاملات ﴾ أي من السحب التي فرقت الريح أصلها وهو الأبخرة ، وأطارته في الجو في جهة العلو ثم جمعته ، فانعقد سحاباً فبسطه مع الالتئام فحمله الله ما أوجد فيه من مراده من الماء والصواعق وغيرها ﴿ وقراً ﴾ أي حملاً ثقيلاً ، وقد كان قبل ذلك لا يرى شيء منه ولا من محموله ، فتحققوا قدرة الله على كل ما يريد وإن لم تروا أسبابه ، ولا يغرنكم بالله الغرور .

ولما كان الحمل إنما هو الوضع في الأماكن التي يراد ضرها أو نفعها ، وكان سير الغمام بعد الحمل في ساحة الجو وباحة الأفق من غير ممسك يرى أدل على القدرة ، ولا سيما إذا كان مع الجري الذي يضرب به لسرعته المثل ، وكذا جري السفن في باحة البحر بعد ثقلها بالوسق قال : ﴿ فالجاريات يسراً ﴾ أي جرياً ذا سهولة .

ولما كان في غاية الدلالة على تمام القدرة بغريق محمولها في الأراضي المجتاحة ولا سيما إن تباعدت أماكن صبه ومواطن سكبه ، وكان ذلك التفريق هو غاية الجري المترتب على الحمل المترتب على الذرو ، قال مسبباً معقباً مشيراً بالتفعيل ، إلى غرابة فصلها لقطراتها وبداعة تفريقها لرحمتها من عذابها ، وغير ذلك من أحوال الجاريات وتصريف الساريات : ﴿ فالمقسمات ﴾ أي من السحب بما تصرفها فيه الملائكة عليهم السلام ، وكذا السفن بما يصرفها الله به من الرياح اللينة أو العاصفة من سلامة وعطب وسرعة وإبطاء ، وكذا غيرهما من كل أمر تصرفه الملائكة بين العباد وتقسمه .

(8/725)

ولما كان المحمول مختلفاً كما تقدم ، قال جامعاً لذلك : ﴿ أمراً ﴾ أي من الرحمة أو العذاب ، قال الرازي في اللوامع : وهذه أقسام يقسم الله بها ولا يقسم بها الخلق لأن قسم الخلق

استشهاد على صحة قولهم بمن يعلم السر كالعلانية وهو الله تعالى ، وقسم الخالق إرادة تأكيد الخبر في نفوسهم فيقسم ببعض بدائع خلقه على وجه يوجب الاعتبار ويدل على توحيده ، فالرياح بهبوبها وسكونها لتأليف السحاب وتذرية الطعام واختلاف الهواء وعصوفها مرة ولينها أخرى والسحاب بنحو وقوفها مثقلات بالماء من غير عماد وصرفها في وقت الغنى عنها بما لو دامت لأهلكت ، ولو انقطعت لم يقدر أحد على قطرة منها ، وبتفريق المطر وإلا هلك الحرث والنسل ، والسفن بتسخير البحر لجريانها وتقدير الريح لها بما لو زاد لغرق ، ولو ركد لأهلك ، والملائكة تقسم الأمور بأمر ربها ، كل ذلك دليل على وجود الصانع الحكيم ، والفاطر العليم ، القادر الماجد الكريم .

ولما كانوا يكذبون بالوعيد ، أكد الجواب بعد التأكيد بنفس القسم فقال : ﴿ إنما ﴾ أي الذي ﴿ توعدون ﴾ أي من الوعد للطائع والوعيد للعاصي ، وإن لم تروا أسبابه ، ولما كان ما توعدوا به لتحقق وقوعه وقربه كأنه موجود يخاطبهم عن نفسه ، عبر عن المصدر باسم الفاعل فقال : ﴿ لصادق ﴾ أي مطابق الإخبار به للواقع ، وسترون مطابقته له إذا وقع ، وتعلمون أن ذلك الواقع حق ثابت لا خيال لمطابقته للخبر ، قال ابن برجان : واعلم أن الله عز وجل ما أقسم بقسم إلا مطابقاً معناه لمعان في المقسم من أجله بسراج منير يهدي به الله تعالى من يشاء ، وإنما يعمي عن رؤية ذلك ظواهر إشخاص للمحسوسات ، ويصم عن إسماع ندائها ضوضاء المشاهدات ، ولولا ذلك لنودوا بها من مكان قريب ، وقال

البيضاوي : كأنه استدل باقتداره على هذه الأشياء العجيبة المخالفة لمقتضى الطبيعة على اقتداره على البعث .

(9/725)

ولما كان أجل وعيدهم وما يتعلق بالجزاء يوم القيامة وكانوا ينكرونه ، قال : ﴿ وإن الدين ﴾ أي المجازاة لكل أحد بما كسب يوم البعث ، والشرع الذي أرسلت به هذا النبي الكريم ﴿ لواقع ﴾ لا بد منه وإن أنكرتم ذلك ، فيظهر دينه على الدين كله كما وعد بذلك ، ثم نقيم الناس كلهم للحساب .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير في برهانه : لما ذكر سبحانه المواعيد الأخروية في سورة ق وعظيم تلك الأحوال من لدن قوله ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾ إلى آخر السورة ، أتبع سبحانه ذلك بالقسم على وقوعه وصدقه فقال : ﴿ والذاريات ذروا ً ﴾ إلى قوله : ﴿ إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع ﴾ والدين الجزاء ، أي أنهم سيجازون على ما كان منهم ويوفون قسط أعمالهم ﴿ فلا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾ ﴿ إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ً ﴾ .

(10/725)

ولما أقسم الله على صدق وعده ووقوع الجزاء ، عقب ذلك بتكذيبهم بالجزاء وازدرائهم فقال ﴿ يسألون أيان يوم الدين ﴾ ثم ذكر تعالى حال الفريقين وانتهاء الطريقين إلى قوله : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ فوبخ تعالى من لم يعمل فكره ولا بسط نظره فيما أودع سبحانه في العالم من العجائب ، وأعقب بذكر إشارات إلى أحوال الأمم وما أعقبهم تكذيبهم ، وكل هذا تنبيه لبسط النظر إلى قوله : ﴿ ومن كل شيء خلقنا ﴾ بقوله : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ أي إن هذا دأبهم وعادتهم حتى كأنهم تعاهدوا عليه وألقاء بعضهم إلى بعض فقال تعالى : ﴿ تواصوا به أم هم قوم طاغون ﴾ أي عجباً لهم في جريهم على التكذيب والفساد في مضمار واحد ، ثم قال تعالى : ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾ أي أن علة تكذيبهم هي التي اتحدت فاتحد معلولها ، والعلة طغيانهم وإظلام قلوبهم بما سبق ﴿ ولو شئنا لأتينا كل نفس هداها ﴾ ثم زاد نبيه عليه السلام أشياء مما ورد على طريقة تخييره عليه السلام في أمرهم من قوله تعالى : ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ ثم أشار تعالى بقوله : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ إلى أن إحراز أجره عليه السلام إنما هو في التذكار والدعاء إلى الله تعالى ، ثم ينفع الله بذلك من سبقت له السعادة ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ ثم أخبر نبيه عليه الصلاة والسلام بأن تكذيبه سينالهم قسط ونصيب مما نال غيرهم من ارتكب مرتكبهم ، وسلك

مسلكهم ، فقال تعالى ﴿ وإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم ﴾ إلى آخر السورة – انتهى .

(11/725)

ولما أخبر سبحانه عن ثبات خبره ، أتبعه الإخبار عن وهي كلامهم ، فقال مقسماً عليه لمبالغتهم في تأكيد مضامينه مع التناقض بفعله الجميل وصنعه الجليل ، إشارة إلى أنهم لم يتخلقوا من أخلاقه الحسنى بقول ولا فعل : ﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ أي الآيات المحتبكة بطرائق النجوم المحكمة ، الحسنة الصنعة ، الجيدة الرصف والزينة ، حتى كأنها منسوجة ، الجميلة الصنعة الجليلة الآثار ، الجامعة بين القطع والاختلاط والاتفاق والاختلاف ، وأصل الحبك الإحكام في امتداد واطراد – قاله الرازي في اللوامع .

﴿ إنكم ﴾ يا معشر قريش ﴿ لفي قول ﴾ محيط بكم في أمر القرآن والآتي به وجميع أمر دينكم وغيره مما تريدون به إبطال الدين الحق ﴿ مختلف ﴾ كاختلاف طرائق السماء التي لا تكاد تنتظم ، ولا يعرف أولها من آخرها ، واختلاف هذه الأشياء المقسم بها من أول السورة واختلاف غاياتها لكنه مع ذلك متدافع ، وإن كنتم تجتهدون في تزيينه وتقريبه للأفهام وتحسينه فإنه لا يكاد إذا عرضه الناقد على الفكر النافذ ينضبط بضابط ولا

يرتبط برابط ، بل تارة تقولون : هذا شعر فيلزمكم وصفه بما تصفون به الشعر من الاتساق بالوزن المجرد والروي المتحد ، والعذوبة والرشاقة ، وتارة تقولون : هذا سحر فيلزمكم مع الإقرار بالعجز عنه أنه لا حقائق له والواقع أنه لا يتأمله ذو فهم إلا رأى حقائقه أثبت من الجبال ، وتارة تقولون : أضغاث أحلام ، فيلزمكم أنه لا ينضبط بضابط ، ولا يكون له مفهوم يحصل ، ولا يعجز أحد عن تلفيق مثله ، فقد أبطلتم قولكم : إنه شعر وإنه سحر .

(12/725)

وتارة تقولون : إنه كهانة فيلزمكم أن تعتقدوا منه ما تعتقدون في أقوال الكهان من الإخبار بالمغيبات وإظهار الخبء وفصل الحكم ، فأبطلتم ما مضى من قولكم أضغاث أحلام وسحر وشعر ، وتارة تقولون ، إنه جنون ، فقد نقضتم جميع أقوالكم الماضية وناديتم على أنفسكم بالمباهتة ، تقولون في الآتي به : إنه شاعر وساحر ومجنون وكاهن وكاذب ، وكل قول منها ينقض الآخر ، وأنتم تدعون أنكم أصدق الناس وأبعدهم عن عار الكذب ، وأنكم أعقل الناس وأنصفهم ، فقد تباعد أولاً ما بين أقوالكم ، ثم ما بينها وبين أفعالكم ، فكان اختلاف طرائق النجوم دالاًّ على مانع مختار تام العلم كامل القدرة ، وكذا اختلاف قولكم على هذا الوجه مع ما لكم من العقول دالّ على قاهر لكم على ذلك ، فهما آيتان في

الآفاق وفي أنفسكم .

ولما كان هذا الاختلاف مما لا يكاد يصدق لأنه لا يقع فيه عاقل ، بين سببه بأنهم مغلوبون عليه بقهر يد القدرة فقال : ﴿ يؤفك ﴾ أي يصرف بأيسر أمر وأسهله عن سنن الاستقامة ، ويقلب من وجهه لقفاه ﴿ عنه ﴾ أي يصدر صرفه عن هذا القول مجازاً لما يلزمه من عاره ، فهو لأجل ذلك يقوله ﴿ من أفك ﴾ أي قلبه قلب قاهر أي تبين بهذا الصرف الذي هو أعظم الصرف أنه حكم في الأزل حكماً ثابتاً جامعاً ، فصار لا يصد عنه قول ولا فعل إلا كان مقلوباً وجهه إلى قفاه لا يمكن أن يأتي منه بشيء على وجهه ، فكأنه لا مأفوك سواه لشدة افكه وعجيب أمره .

(13/725)

ولما كان الكذب الإخبار بما لا حقيقة له وتعمد الافتراء ، وكان الخرص الكذب والافتراء والاختلاف وكل قول بالظن ، قال معلماً بما لهم على قولهم هذا : قتلوا أو قتلتم – هكذا كان الأصل ولكنه أظهر الوصف الذي استحقوه بقولهم : ﴿ قتل الخراصون ﴾ أي حصل بأيسر أمر قتل الكذابين ولا محالة من كل قاتل ، والمتقولين بالظن المنقطعين للكلام من أصل لا يصلح للخرص وهو القطع ، وهم الذين يقولون عن غير سند من كتاب أو سنة أو أثارة من

علم ، وهو دعاء أو خبر لأنه مجاب : ﴿ الذين هم ﴾ خاصة ﴿ في غمرة ﴾ أي أعماق من العمى والضلال ، غارقون في سكرهم وجهلهم الذي غمرهم ، ولذلك هم مضطربون اضطراب من هو يمشي في معظم البحر فهو لا يكاد ينتظم له أمر من قول ولا فعل ولا حال ﴿ ساهون ﴾ أي عريقون في السهو وهو النسيان والغفلة والحيرة وذهاب القلب إلى غيره ما يهمه ، ففاعل ذلك ذو ألوان متخالفة من هول ما هو فيه وشدة كربه .

ولما حكم بسهوهم ، دل عليه بقوله : ﴿ يسئلون ﴾ أي حيناً بعد حين على سبيل الاستمرار استهزاء بقولهم : ﴿ أيان ﴾ أي متى وأي حين ﴿ يوم الدين ﴾ أي وقوع الجزاء الذي يخبرنا به ، ولولا أنهم بهذه الحالة لتذكروا من أنفسهم أنه ليس أحد منهم يبث عبيده أو أجراءه في عمل من الأعمال إلا وهو يحاسبهم على أعمالهم ، وينظر قطعاً في أحوالهم ، ويحكم بينهم في أقوالهم وأفعالهم فكيف يظن بأحكم الحاكمين أن يترك عبيدة الذين خلقهم على هذا النظام المحكم وأبدع لهم هذين الخافقين وهيأ لأجلهم فيهما ما لا ضرورة لهم في التزود للمعاد إلى سواه فيتركهم سدى يوجدهم عبثاً .

ولما تقرر أمر القيامة بالتعبير بساهون قال : ﴿ يوم ﴾ أي نقول يوم ﴿ هم على النار يفتنون ﴾ أي يرمون فيحرقون ويعذبون ويصبحون .

من الاختلاف مقولاً لهم على سبيل القرع والتوبيخ : ﴿ ذوقوا فتنتكم ﴾ .

العقوبة من الفتنة المحيطة . . .

واستعجالكم ما توعدون استهزاء وتكذيباً ﴿ هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴾ أي تطلبون عجلته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 269.274 ﴾

(14/725)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ والذاريات ذرواً ﴾ بإدغام التاء في الذال : حمزة وأبو عمرو ﴿ ومثل ما ﴾ بالضم : حمزة وعلي وخلف وعاصم سوى حفص . الباقون : ﴿ مثل ﴾ بالفتح على البناء لإضافته إلى غير متمكن ، أو على أنه لحق حقاً مثل نطقكم ﴿ سلم ﴾ بكسر السين وسكون اللام : حمزة علي وخلف والمفضل ﴿ والصعقة ﴾ بسكون العين للمرة : علي ﴿ وقوم نوح ﴾ بالجر : أبو عمرو وعلي وخلف

(15/725)

الوقوف: ﴿ ذرواً ﴾ ط ﴿ وقراً ﴾ ه لا ﴿ يسراً ﴾ ه لا ﴿ أمراً ﴾ ه ط ﴿ لصادق ﴾ ه لا ﴿ لواقع ﴾ ه ﴿ الحبك ﴾ ه لا ﴿ مختلف ﴾ ه لا ﴿ أفك ﴾ ه ط ﴿ الخراصون ﴾ ه لا ﴿ ساهون ﴾ ه لا لأن ﴿ يسألون ﴾ صلة بعد صلة، ﴿ الدين ﴾ ه ط بناء على أن عامل يوم منتظر أي يقال لهم ذوقوا ﴿ يفتنون ﴾ ه ﴿ فتنتكم ﴾ ط ﴿ تستعجلون ﴾ ه ﴿ وعيون ﴾ ه لا ﴿ ربهم ﴾ ط ﴿ محسنين ﴾ ه ط ﴿ يهجعون ﴾ ه ﴿ يستغفرون ﴾ ه ﴿ والمحروم ﴾ ه ﴿ للموقنين ﴾ ه ط للعطف ﴿ أنفسكم ﴾ ط ﴿ تبصرون ﴾ ه ﴿ توعدون ﴾ ه ﴿ تنطقون ﴾ ه ﴿ المكرمين ﴾ ه م لأن عامل "إذ" محذوف وهو "اذكر" ولو وصل لأوهم أنه ظرف للإتيان ﴿ سلاماً ﴾ ط ﴿ سلام ﴾ ج ﴿ لحق ﴾ المحذوف مع اتحاد القائل أي أنتم قوم ﴿ منكرون ﴾ ه ﴿ سمين ﴾ ه لا للعطف ﴿ تأكلون ﴾ ه للآية مع العطف ﴿ خيفة ﴾ ط ﴿ لا تخف ﴾ ه ﴿ عليم ﴾ ه ﴿ عقيم ﴾ ه ﴿ كذلك ﴾ لا للتعلق بما بعده ﴿ ربك ﴾ ط ﴿ العليم ﴾ ه ﴿ المرسلون ﴾ ه ﴿ مجرمين ﴾ ه ﴿ طين ﴾ ه ﴿ للمفسرين ﴾ ه ﴿ المؤمنين ﴾ ه ج للآية مع العطف بالفاء واتصال المعنى ﴿ المسلمين ﴾ ه ط كذلك ﴿ الأليم ﴾ ه لتناهي القصة وحكم العربية ولو وصل للعطف على قوله ﴿ وفي الأرض آيات ﴾ ﴿ مبين ﴾ ه ﴿ مجنون ﴾ ه ﴿ مليم ﴾ ه كما مر ﴿ العقيم ﴾ ه ج لاحتمال ما بعده الاستئناف والحال أي غير تاركته ﴿ كالرميم ﴾ ه ﴿ حين ﴾ ه ﴿ ينظرون ﴾ ه ﴿ منتصرين ﴾ ه لا على

القراءتين فيما بعده للعطف أي وفي قوم نوح أو وأخذنا قوم نوح ولو قدر واذكر قوم نوح فالوقف ﴿ قبل ﴾ ج ﴿ فاسقين ﴾ ه ﴿ لموسعون ﴾ ه ﴿ الماهدون ﴾ ه ﴿ تذكرون ﴾ ه ﴿ إلى الله ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ ه للآية مع العطف ﴿ آخر ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ ه ﴿ أو مجنون ﴾ ه ﴿ أتواصوا به ﴾ ج لأن " بل " للإضراب معنى مع العطف لفظاً ﴿ طاغون ﴾ ه ﴿ بملوم ﴾ ه لا للآية مع اتفاق الجملتين ﴿ المؤمنين ﴾ ه ﴿ ليعبدون ﴾ ه ﴿ يطعمون ﴾ ه ﴿ المتين ﴾ ه ﴿ يستعجلون ﴾ ه ﴿ يوعدون ﴾ ه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 183.184 ﴾

(16/725)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1) ﴾

أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها ، وذلك لأنه تعالى لما بيّن الحشر بدلائله وقال : ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيراً ﴾ [ق : 44] وقال : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ [ق : 45] أي تجبرهم وتلجئهم إلى الإيمان إشارة إلى إصرارهم على الكفر بعد إقامة البرهان

وتلاوة القرآن عليهم لم يبق إلا اليمين فقال : ﴿ والذارياتِ ذَرْواً . . .

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ وأول هذه السورة وآخرها متناسبان حيث قال في أولها : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لصادق ﴾ [الذاريات : 5] وقال في آخرها : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ الذى يُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات : 60] وفي تفسير الآيات مسائل :

المسألة الأولى :

قد ذكرنا الحكمة وهي في القسم من المسائل الشريفة والمطالب العظيمة في سورة والصافات ، ونعيدها ههنا وفيها وجوه .

الأول : أن الكفار كانوا في بعض الأوقات يعترفون بكون النبي صلى الله عليه وسلم غالباً في إقامة الدليل وكانوا ينسبونه إلى المجادلة وإلى أنه عارف في نفسه بفساد ما يقوله ، وإنه يغلبنا بقوة الجدل لا بصدق المقال ، كما أن بعض الناس إذا أقام عليه الخصم الدليل ولم يبق له حجة ، يقول إنه غلبني لعلمه بطريق الجدل وعجزي عن ذلك ، وهو في نفسه يعلم أن الحق بيدي فلا يبقى للمتكلم المبرهن طريق غير اليمين ، فيقول والله إن الأمر كما أقول ، ولا أجادلك بالباطل ، وذلك لأنه لو سلك طريقاً آخر من ذكر دليل آخر ، فإذا تم الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ما قال في الأول إن ذلك تقرير بقوة علم الجدل فلا يبقى إلا السكوت أو التمسك بالإيمان وترك إقامة البرهان .

الثاني : هو أن العرب كانت تحترز عن الأيمان الكاذبة وتعتقد أنها تدع الديار بلافع ، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من الأيمان بكل شريف ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتاً ، وكان يحصل لهم العلم بأنه لا يحلف بها كاذباً ، وإلا لأصابه شؤم الإيمان ولناله المكروه في بعض الأزمان .

الثالث : وهو أن الأيمان التي حلف الله تعالى بها كلها دلائل أخرجها في صورة الأيمان مثاله قول القائل لمنعمه : وحق نعمك الكثيرة إني لا أزال أشكرك فيذكر النعم وهي سبب مفيد لدوام الشكر ويسلك مسلك القسم ، كذلك هذه الأشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الإعادة ، فإن قيل فلم أخرجها مخرج الإيمان ؟ نقول لأن المتكلم إذا شرع في أول كلامه بحلف بعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم فيصغي إليه أكثر من أن يصغي إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر فبدأ بالحلف وأدرج الدليل في صورة اليمين حتى أقبل القوم على سماعه فخرج لهم البرهان المبين ، والتبيان المتين في صورة اليمين ، وقد استوفينا الكلام في سورة والصافات .

المسألة الثانية :

في جميع السور التي أقسم الله في ابتدائها بغير الحروف كان القسم لإثبات أحد الأصول الثلاثة وهي : الوحدانية والرسالة والحشر ، وهي التي يتم بها الإيمان ، ثم إنه تعالى لم يقسم

لإثبات الوحدانية إلا في سورة واحدة من تلك السور وهي ﴿ والصافات ﴾ حيث قال فيها :

(18/725)

﴿ إِنَّ إِلهكم لَوَاحِدٌ ﴾ [الصافات : 4] وذلك لأنهم وإن كانوا يقولون : ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها واحدا ﴾ [ص : 5] على سبيل الإنكار ، وكانوا يبالغون في الشرك ، لكنهم في تضاعيف أقوالهم ، وتصاريف أحوالهم كانوا يصرحون بالتوحيد ، وكانوا يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : 3] وقال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [الزمر : 38] فلم يبالغوا في الحقيقة في إنكار المطلوب الأول ، فاكتفى بالبرهان ، ولم يكثر من الأيمان ، وفي سورتين منها أقسم لإثبات صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وكونه رسولاً في إحداهما بأمر واحد ، وهو قوله تعالى : ﴿ والنجم إِذَا هوى * مَا ضَلَّ صاحبكم ﴾ [النجم : 1 ، 2] وفي الثانية بأمرين وهو قوله تعالى : ﴿ والضحى * والليل إِذَا سجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ [الضحى : 1 3] وذلك لأن القسم على إثبات رسالته قد كثر بالحروف والقرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿ يس * والقرءان الحكيم * إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ [ياس : 1 3] وقد ذكرنا الحكم فيه أن

معجزات النبي صلى الله عليه وسلم القرآن ، فأقسم به ليكون في القسم الإشارة واقعة إلى البرهان ، وفي باقي السور كان المقسم عليه الحشر والجزاء وما يتعلق به لكون إنكارهم في ذلك خارجاً عن الحد ، وعدم استيفاء ذلك في صورة القسم بالحروف .

المسألة الثالثة :

أقسم الله تعالى بجموع السلامة المؤنثة في سور خمس ، ولم يقسم بجموع السلامة المذكورة في سورة أصلاً ، فلم يقل : والصالحين من عبادي ، ولا المقربين إلى غير ذلك ، مع أن المذكر أشرف ، وذلك لأن جموع السلام بالواو والنون في الأمر الغالب لمن يعقل ، وقد ذكرنا أن القسم بهذه الأشياء ليس لبيان التوحيد إلا في صورة ظهور الأمر فيه ، وحصول الاعتراف منهم به ، ولا للرسالة لحصول ذلك في صور القسم بالحروف والقرآن .

(19/725)

بقي أن يكون المقصود إثبات الحشر والجزاء ، لكن إثبات الحشر لثواب الصالح ، وعذاب الصالح ، ففائدة ذلك راجع إلى من يعقل ، فكان الأمر يقتضي أن يكون القسم بغيرهم ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

في السورة التي أقسم لإثبات الوحدانية ، أقسم في أول الأمر بالساكنات حيث قال :

﴿ والصافات ﴾ [الصافات : 1] وفي السور الأربع الباقية أقسم بالمتحركات ، فقال :

﴿ والذريات ﴾ وقال : ﴿ والمرسلات ﴾ [المرسلات : 1] وقال : ﴿ والنازعات ﴾ [

النازعات : 1] ويؤيده قوله تعالى : ﴿ والسابحات . . .

فالسابقات ﴾ [النازعات : 3 ، 4] وقال : ﴿ والعاديات ﴾ [العاديات : 1] وذلك

لأن الحشر فيه جمع وتفريق ، وذلك بالحركة أليق ، أو أن نقول في جميع السور الأربع أقسم

بالرياح على ما بين وهي التي تجمع وتفرق ، فالقادر على تأليف السحاب المتفرق بالرياح

الذارية والمرسلة ، قادر على تأليف الأجزاء المتفرقة بطريق من الطرق التي يختارها

بمشيئته تعالى .

المسألة الخامسة :

في الذاريات أقوال .

الأول : هي الرياح تذرو التراب وغيره ، كما قال تعالى : ﴿ تَذْرُوهُ الرياح ﴾ [الكهف :

45] .

الثاني : هي الكواكب من ذرا يذرو إذا أسرع .

الثالث : هي الملائكة .

الرابع : رب الذاريات ، والأول أصح .

المسألة السادسة :

الأمور الأربعة جاز أن تكون أموراً متباينة ، وجاز أن تكون أمراً له أربع اعتبارات .

والأول : هي ما روي عن علي عليه السلام ، أن الذاريات هي الرياح والحاملات هي السحاب ، والجاريات هي السفن ، والمقسمات هي الملائكة الذين يقسمون الأرزاق .

(20/725)

والثاني : وهو الأقرب أن هذه صفات أربع للرياح ، فالذاريات هي الرياح التي تنشىء السحاب أولاً ، والحاملات هي الرياح التي تحمل السحب التي هي بخار المياه التي إذا سحت جرت السيول العظيمة ، وهي أوقار أثقل من جبال ، والجاريات هي الرياح التي تجري بالسحب بعد حملها ، والمقسمات هي الرياح التي تفرق الأمطار على الأقطار ، ويحتمل أن يقال هذه أمور أربعة مذكورة في مقابلة أمور أربعة بها تتم الإعادة ، وذلك لأن الأجزاء التي تفرقت بعضها في تخوم الأرضين ، وبعضها في قعور البحور ، وبعضها في جو الهواء ، وهي الأجزاء اللطيفة البخارية التي تنفصل عن الأبدان ، فقوله تعالى : ﴿ والذريات ﴾ يعني الجامع للذاريات من الأرض ، على أن الذارية هي التي تذرو التراب عن وجه الأرض ، وقوله تعالى : ﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ هي التي تجمع الأجزاء من الجو

وتحمله حملاً ، فإن التراب لا ترفعه الرياح حملاً ، بل تنقله من موضع ، وترميه في موضع بخلاف السحاب ، فإنه يحمله وينقله في الجو حملاً لا يقع منه شيء ، وقوله : ﴿ فالجاريات يُسْراً ﴾ إشارة إلى الجامع من الماء ، فإن من يجري السفن الثقيلة من تيار البحار إلى السواحل يقدر على نقل الأجزاء من البحر إلى البر ، فإذا تبين أن الجمع من الأرض ، وجو الهواء ووسط البحار ممكن ، وإذا اجتمع يبقى نفخ الروح لكن الروح من أمر الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء : 85] فقال : ﴿ فالمقسمات أَمْراً ﴾ الملائكة التي تنفخ الروح في الجسد بأمر الله ، وإنما ذكرهم بالمقسمات ، لأن الإنسان في الأجزاء الجسمية غير مخالف تخالفاً بيناً ، فإن لكل أحد رأساً ورجلاً ، والناس متقاربة في الأعداد والأقدار ، لكن التفاوت الكثير في النفوس ، فإن الشريفة والخسيسة بينهما غاية الخلاف ، وتلك القسمة المتفاوتة تتقسم بمقسم مختار ومأمور مختار فقال : ﴿ فالمقسمات أَمْراً ﴾ .

المسألة السابعة :

(21/725)

ما هذه المنصوبات من حيث النحو ؟ فنقول أما ﴿ ذَرْواً ﴾ فلا شك في كونه منصوباً على أنه مصدر ، وأما ﴿ وِقْراً ﴾ فهو مفعول به ، كما يقال : حمل فلان عدلاً ثقيلاً ، ويحتمل أن يكون اسماً أقيم مقام المصدر ، كما يقال : ضربه سوطاً يؤيده قراءة من قرأ بفتح الواو .

وأما ﴿ يُسْراً ﴾ فهو أيضاً منصوب على أنه صفة مصدر ، تقديره جرياً ذا يسر ، وأما ﴿ المقسمات أمْراً ﴾ فهو إما مفعول به ، كما يقال : فلان قسم الرزق أو المال وإما حال أتى على صورة المصدر ، كما يقال : قتلته صبراً ، أي مصبوراً كذلك ههنا ﴿ المقسمات أمْراً ﴾ أي مأمورة ، فإن قيل : إن كان ﴿ وِقْراً ﴾ مفعوله به فلم لم يجمع ، ومما قيل : والحاملات أوقاراً ؟ نقول : لأن الحاملات على ما ذكرنا صفة الرياح ، وهي تتوارد على وقر واحد ، فإن ريحاً تهب وتسوق السحابة فتسبق السحاب ، فتهب أخرى وتسوقها ، وربما تتحول عنه يمنة ويسرة بسبب اختلاف الرياح ، وكذلك القول في المقسمات أمراً ، إذا قلنا هو مفعول به ، لأن جماعة يكونون مأمورين تنقسم أمراً واحداً ، أو نقول هو في تقدير التكرير كأنه قال : فالحاملات وقراً وقراً ، والمقسمات أمراً أمراً .

المسألة الثامنة :

ما فائدة الفاء ؟ نقول : إن قلنا إنها صفات الرياح فلبيان ترتيب الأمور في الوجود ، فإن الذاريات تنشىء السحاب فتقسم الأمطار على الأمطار ، وإن قلنا إنها أمور أربعة فالفاء للترتيب في القسم لا للترتيب في القسم لا للترتيب في المقسم به ، كأنه يقول : أقسم بالرياح الذاريات ثم بالسحب الحاملات ثم بالسفن الجاريات ثم بالملائكة المقسمات ، وقوله : ﴿ فالحاملات ﴾ وقوله : ﴿ فالجاريات ﴾ إشارة إلى بيان ما في الرياح من الفوائد ، أما في البر فإنشاء السحب ، وأما في البحر فإجراء السفن ، ثم المقسمات إشارة إلى ما يترتب على حمل السحب وجري السفن من الأرزاق ، والأرياح التي تكون بقسمة الله تعالى فتجري سفن بعض الناس كما يشتهي ولا تربح وبعضهم تربح وهو غافل عنه ، كما قال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ ﴾ [الزخرف : 32] .

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5)

(ما) يحتمل أن يكون مصدرية معناه الإيعاد صادق و (إن) تكون موصولة أي الذي توعدون صادق ، والصادق معناه ذو صدق كعيشة راضية ووصف المصدر بما يوصف به الفاعل بالمصدر فيه إفادة مبالغة ، فكما أن من قال فلان لطف محض وحلم يجب أن يكون قد بالغ كذلك من قال كلام صادق وبرهان قاهر للخصم أو غير ذلك يكون قد بالغ ، والوجه فيه هو أنه إذا قال هو لطف بدل قوله لطيف فكأنه قال اللطيف شيء له لطف ففي اللطيف لطف وشيء آخر ، فأراد أن يبين كثرة اللطف فجعله كله لطفاً ، وفي الثاني لما كان

الصدق يقوم بالمتكلم بسبب كلامه ، فكأنه قال هذا الكلام لا يحوج إلى شيء آخر حتى يصح إطلاق الصادق عليه ، بل هو كاف في إطلاق الصادق لكونه سبباً قوياً وقوله تعالى : ﴿ تُوعَدُونَ ﴾ يحتمل أن يكون من وعد ويحتمل أن يكون من أوعد ، والثاني هو الحق لأن اليمين مع المنكر بوعيد لا بوعد .

وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6)

(23/725)

أي الجزاء كائن ، وعلى هذا فالإبعاد بالحشر في الموعد هو الحساب والجزاء هو العقاب ، فكأنه بيّن بقوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لصادق * وَإِنَّ الدين لَوَاقِعٌ ﴾ أن الحساب يستوفى والعقاب يوفى .

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8)

وفي تفسيره مباحث :

الأول : ﴿ والسماء ذَاتِ الحبك ﴾ قيل : الطرائق ، وعلى هذا فيحتمل أن يكون المراد طرائق الكواكب وممراتها كما يقال في المحابك ، ويحتمل أن يكون المراد ما في السماء من الأشكال بسبب النجوم ، فإن في سمت كواكبها طريق التنين والعقرب والنسر الذي يقول به

أصحاب الصور ومنطقة الجوزاء وغير ذلك كالطرائق ، وعلى هذا فالمراد به السماء المزينة بزينة الكواكب ، ومثله قوله تعالى : ﴿ والسماء ذَاتِ البروج ﴾ [البروج : 1] وقيل : حبكها صفاقها يقال في الثوب الصفيق حسن الحبك وعلى هذا فهو كقوله تعالى : ﴿ والسماء ذَاتِ الرجع ﴾ [الطارق : 11] لشدتها وقوتها وهذا ما قيل فيه .

البحث الثاني : في المقسم عليه وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ وفي تفسيره أقوال مختلفة كلها محكمة .

الأول : إنكم لفي قول مختلف ، في حق محمد صلى الله عليه وسلم ، تارة يقولون إنه أمين وأخرى إنه كاذب ، وتارة تنسبونه إلى الجنون ، وتارة تقولون إنه كاهن وشاعر وساحر ، وهذا محتمل لكنه ضعيف إذ لا حاجة إلى اليمين على هذا ، لأنهم كانوا يقولون ذلك من غير إنكار حتى يؤكد بيمين .

(24/725)

الثاني : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ أي غير ثابتين على أمر ومن لا يثبت على قول لا يكون متيقناً في اعتقاده فيكون كأنه قال تعالى ، والسماء إنكم غير جازمين في اعتقادكم وإنما تظهرون الجزم لشدة عنادكم وعلى هذا القول فيه فائدة وهي أنهم لما قالوا للنبي صلى الله

عليه وسلم إنك تعلم أنك غير صادق في قولك ، وإنما تجادل ونحن نعجز عن الجدل قال : ﴿ والذريات ذَرْواً ﴾ أي أنك صادق ولست معانداً ، ثم قال تعالى : بل أنتم والله جازمون بأني صادق فعكس الأمر عليهم .

الثالث : إنك لفي قول مختلف ، أي متناقض ، أما في الحشر فلأنكم تقولون لا حشر ولا حياة بعد الموت ثم تقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة ، فإذا كان لا حياة بعد الموت ولا شعور للميت ، فماذا يصيب آباءكم إذا خالفتموهم ؟ وإنما يصح هذا ممن يقولون بأن بعد الموت عذاباً فلو علمنا شيئاً يكرهه الميت يبدي فلا معنى لقولكم إنا لا ننسب آباءنا بعد موتهم إلى الضلال ، وكيف وأنتم تربطون الركائب على قبور الأكابر ، وأما في التوحيد فتقولون خالق السموات والأرض هو الله تعالى لا غيره ثم تقولون هو إله الآلهة وترجعون إلى الشرك ، وأما في قول النبي صلى الله عليه وسلم فتقولون إنه مجنون ثم تقولون له إنك تغلبنا بقوة جدلك ، والمجنون كيف يقدر على الكلام المنتظم المعجز ، إلى غير ذلك من الأمور المتناقضة .

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9)

وفيه وجوه .

أحدها : أنه مدح للمؤمنين ، أي يؤفك عن القول المختلف ويصرف من صرف عن ذلك القول ويرشد إلى القول المستوي .

وثانيها : أنه ذم معناه يؤفك عن الرسول .

ثالثها : يؤفك عن القول بالحشر .

رابعها : يؤفك عن القرآن ، وقرىء يؤفن عنه من أفن ، أي يحرم ، وقرىء يؤفك عنه من أفك ، أي كذب .

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10)

(25/725)

وهذا يدل على أن المراد من قوله : ﴿ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ [الذاريات : 8] أنهم غير ثابتين على أمر وغير جازمين بل هم يظنون ويخرصون ، ومعناه لعن الخراصون دعاء عليهم بمكروه .

ثم وصفهم فقال :

الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (11)

وفيه مسألتان إحداهما لفظية والأخرى معنوية .

أما اللفظية : فقوله : ﴿ ساهون ﴾ يحتمل أن يكون خبراً بعد خبر ، والمبتدأ هو قوله : ﴿ هُمْ ﴾ وتقديره هم كائنون في غمرة ساهون ، كما يقال زيد جاهل جائز لا على قصد وصف الجاهل بالجائز ، بل الإخبار بالوصفين عن زيد ، ويحتمل أن يكون ﴿ ساهون ﴾

خبراً و ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ ظرف له كما يقال : زيد في بيته قاعد يكون الخبر هو القاعد لا غير وفي بيته لبيان ظرف القعود كذلك ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ لبيان ظرف السهو الذي يصحح وصف المعرفة بالجملة ، ولولاها لما جاز وصف المعرفة بالجملة .

وأما المعنوية : فهي أن وصف الخراص بالسهو والانهماك في الباطل ، يحقق ذلك كون الخراص صفة ذم ، وذلك لأن ما لا سبيل إليه إلا الظن إذا خرص الخارص وأطلق عليه الخراص لا يكون ذلك مفيد نقص ، كما يقال في خراص الفواكه والعساكر وغير ذلك ، وأما الخرص في محل المعرفة واليقين فهو ذم فقال : قتل الخراصون الذين هم جاهلون ساهلون لا الذين تعين طريقهم في التخمين والحزر وقوله تعالى : ﴿ساهون﴾ بعد قوله : ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ يفيد أنهم وقعوا في جهل وباطل ونسوا أنفسهم فيه فلم يرجعوا عنه .

يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12)

(26/725)

فإن قيل : الزمان يجعل ظرف الأفعال ولا يمكن أن يكون الزمان ظرفاً لظرف آخر ، وههنا جعل أيان ظرف اليوم فقال : ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدين﴾ ويقال متى يقدم زيد ، فيقال : يوم الجمعة ولا يقال : متى يوم الجمعة ، فالجواب : التقدير متى يكون يوم الجمعة وأيان يكون يوم الدين ،

وأيان من المركبات ركب من أي التي يقع بها الاستفهام وآن التي هي الزمان أو من أي وأوان فكأنه قال أي أوان فلما ركب بني وهذا منهم جواب لقوله : ﴿ وَإِنَّ الدين لَوَاقِعٌ ﴾ فكأنهم قالوا أيان يقع استهزاء وترك المسؤول في قوله : ﴿ يُسْئَلُونَ ﴾ حيث لم يقل يسألون من ، يدل على أن غرضهم ليس بالجواب وإنما يسألون استهزاء .

يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13)

يحتمل وجهين .

أحدهما : أن يكون جواباً عن قولهم ﴿ أَيَّانَ ﴾ يقع وحينئذ كما أنهم لم يسألوا سؤال مستفهم طالب لحصول العلم كذلك لم يجبهم جواب مجيب معلم مبين حيث قال : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ وجهلهم بالثاني أقوى من جهلهم بالأول ، ولا يجوز أن يكون الجواب بالأخفى ، فإذا قال قائل متى يقدم زيد فلو قال المجيب يوم يقدم رفيقه ولا يعلم يوم قدوم الرفيق ، لا يصح هذا الجواب إلا إذا كان الكلام في صورة جواب ، ولا يكون جواباً كما أن القائل إذا قال كم تعد عداتي تخلفها إلى متى هذا الإخلاف فيغضب ويقول إلى أشأم يوم عليك ، الكلامان في صورة سؤال وجواب ولا الأول يريد به السؤال ، ولا الثاني يريد به الجواب ، فكذلك ههنا قال : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ مقابلة استهزائهم بالإيعاد لا على وجه الإتيان .

والثاني : أن يكون ذلك ابتداء كلام تمامه .

ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14)

(27/725)

فإن قيل : هذا يفضي إلى الإضمار ، نقول الإضمار لا بد منه لأن قوله : ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ غير متصل بما قبله إلا بإضمار ، يقال : ويفتنون قيل معناه : يحرقون ، والأولى أن يقال معناه يعرضون على النار عرض المجرب الذهب على النار كلمة على تناسب ذلك ، ولو كان المراد يحرقون لكان بالنار أو في النار أليق لأن الفتنة هي التجربة ، وأما ما يقال من اختبره ومن أنه تجربة الحجارة فعنى بذلك المعنى مصدر الفتن ، وههنا يقال : ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ والفتنة الامتحان ، فإن قيل : فإذا جعلت ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ مقولاً لهم ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ فما قوله : ﴿ هذا الذى كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ؟ قلنا : يحتمل أن يكون المراد كنتم تستعجلون بصريح القول كما في قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ رَبَّنَا عَجّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ [ص : 16] وقوله : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ [الأعراف : 70] إلى غير ذلك يدله عليه ههنا قوله تعالى : ﴿ يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدين ﴾ [الذاريات : 12] فإنه نوع استعجال

، ويحتمل أن يكون المراد الاستعجال بالفعل وهو الإصرار على العناد وإظهار الفساد فإنه يعجل العقوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 166.172 ﴾

(28/725)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والذاريات ذَرْواً ﴾

قال أبو بكر الأنباري : حدّثنا عبد الله بن ناجية ، حدّثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدّثنا مكي بن إبراهيم ، حدّثنا الجعيد بن عبد الرحمن ، عن يزيد بن خصيفة ، عن السائب ابن يزيد أن رجلاً قال لعمر رضي الله عنه : إني مررت برجل يسأل عن تفسير مشكل القرآن ، فقال عمر : اللهم أمكني منه ؛ فدخل الرجل على عمر يوماً وهو لابس ثياباً وعمامة وعمر يقرأ القرآن ، فلما فرغ قام إليه الرجل فقال : يا أمير المؤمنين ما ﴿ والذاريات ذَرْواً ﴾ فقام عمر فحسر عن ذراعيه وجعل يجلِده ، ثم قال : ألبسوه ثيابه واحملوه على قَتَب وأبلغوا به حَيَّه ، ثم ليقم خطيباً فليقل : إن صَبيغاً طلب العلم فأخطأه ، فلم يزل وضيعاً في قومه بعد أن كان سيداً فيهم .

وعن عامر بن واثلة أن ابن الكوّاء سأل علياً رضي الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين ما ﴿

والذاريات ذَرْواً ﴾ (قال) : ويلك سَلْ تَفَقُّهاً ولا تسأل تَعَنُّتاً ﴿ والذاريات ذَرْواً ﴾ الرياح ﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ السحاب ﴿ فالجاريات يُسْراً ﴾ السفن ﴿ فالمقسمات أَمْراً ﴾ الملائكة.

وروى الحرث عن علي رضي الله عنه ﴿ والذاريات ذَرْواً ﴾ قال: الرياح ﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ قال: السحاب تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع الوقر ﴿ فالجاريات يُسْراً ﴾ قال: السفن موقرة ﴿ فالمقسمات أَمْراً ﴾ قال: الملائكة تأتي بأمر مختلف؛ جبريل بالغلظة، وميكائيل صاحب الرحمة، وملك الموت يأتي بالموت.

وقال الفراء: وقيل تأتي بأمر مختلف من الخِصب والجَدْب والمطر والموت والحوادث.

ويقال: ذَرَتِ الرِّيحُ التراب تَذْرُوه ذَرْواً وتَذْرِيه ذَرْياً.

ثم قيل: "وَالذَّارِيَاتِ" وما بعده أقسام، وإذا أقسم الرب بشيء أثبت له شرفاً.

(29/725)

وقيل: المعنى ورب الذارياتِ، والجواب ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ أي الذي توعدونه من الخير والشر والثواب والعقاب ﴿ لَصَادِقٌ ﴾ لا كذب فيه؛ ومعنى "لَصَادِقٌ" لصدق؛ وقع الاسم موقع المصدر.

﴿ وَإِنَّ الدين لَوَاقِعٌ ﴾ يعني : الجزاء نازل بكم .

ثم ابتدأ قسماً آخر فقال : ﴿ والسمآء ذَاتِ الحبك * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ وقيل : إن الذاريات النساء الولودات لأن في ذرايتهنّ ذرو الخلق ؛ لأنهنّ يذرين الأولاد فصرن ذاريات ؛ وأقسم بهنّ لما في ترائبهنّ من خيرة عباده الصالحين .

وخص النساء بذلك دون الرجال وإن كان كل واحد منهما ذارياً لأمرين : أحدهما لأنهن أوعية دون الرجال ، فلاجتماع الذّروين فيهنّ خصصن بالذكر .

الثاني أن الذّرو فيهنّ أطول زماناً ، وهنّ بالمباشرة أقرب عهداً .

﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ السحابّ وقيل : الحاملات من النساء إذا ثقلن بالحمل .

والوِقر بكسر الواو ثقل الحمل على ظهر أو في بطن ، يقال : جاء يحمل وِقره وقد أوقر بعيرَه .

وأكثر ما يستعمل الوِقر في حمل البغل والحمار ، والوَسْق في حمل البعير .

وهذه امرأة مُوقَرة بفتح القاف إذا حملت حملاً ثقيلاً .

وأوقرت النخلة كثر حَمْلُها ؛ يقال : نخلة مُوقِرة وموقِر ومُوقَرة ، وحكي مُوقَر وهو على غير القياس ، لأن الفعل للنخلة .

وإنما قيل : مُوقِر بكسر القاف على قياس قولك امرأة حامل ، لأن حمل الشجر مشبه بحمل النساء ؛ فأما مُوقَر بالفتح فشاذ ، وقد روي في قول لبِيد يصف نخيلاً

عَصَبٌ كَوارِعُ في خليج مُحَلِّمٍ . . .

حَمَلتْ فمنها موقَرٌ مَكْمُومُ

والجمع مواقِر .

فأما الوَقْر بالفتح فهو ثقل الأذن ، وقد وقرت أذنه تَوْقر وَقْراً أي صَمَّت ، وقياس مصدره التحريك إلا أنه جاء بالتسكين وقد تقدّم في "الأنعام" القول فيه .

﴿ فالجاريات يُسْراً ﴾ السفن تجري بالرياح يسراً إلى حيث سيرت .

(30/725)

وقيل : السحاب ؛ وفي جريها يسراً على هذا القول وجهان : أحدهما إلى حيث يسيرها الله تعالى من البلاد والبقاع .

الثاني هو سهولة تسييرها ؛ وذلك معروف عند العرب ، كما قال الأعشى :

كأنّ مِشْيَتَها مِنْ بيتِ جارتها . . .

مَشْيُ السَّحَابَةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

قوله تعالى : ﴿ والسمآء ذَاتِ الحبك ﴾ قيل : المراد بالسماء هاهنا السُّحُب التي تظل الأرض .

وقيل : السماء المرفوعة .

ابن عمر : هي السماء السابعة ؛ ذكره المهدوي والثعلبي والماوردي وغيرهم .

وفي "الْحُبُكِ" أقوال سبعة : الأول قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والربيع : ذات الخَلق الحسن المستوي .

وقاله عكرمة ؛ قال : ألم تر إلى النساج إذا نسج الثوب فأجاد نسجه ؛ يقال منه حَبَك الثوبَ يَحبِكُه بالكسر حَبْكاً أي أجاد نسجه .

قال ابن الأعرابي : كل شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد احتبكته .

والثاني ذات الزينة ؛ قاله الحسن وسعيد بن جبير ، وعن الحسن أيضاً : ذات النجوم وهو الثالث .

الرابع قال الضحاك : ذات الطرائق ؛ يقال لما تراه في الماء والرمل إذا أصابته الريح حُبُك .

ونحوه قول الفراء ؛ قال : الحُبُك تَكسُّر كل شيء كالرمل إذا مرت به الريح الساكنة ، والماء القائم إذا مرت به الريح ، ودرع الحديد لها حُبُك ، والشعرة الجَعْدة تكسّرها حُبُك .

وفي حديث الدجَّال .

إنّ شعره حُبُك .

قال زهير :

مُكَلَّلٌ بأصولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ . . .

رِيحٌ خَرِيقٌ لِضاحِي مائِهِ حُبُكُ

ولكنها تبعد من العباد فلا يرونها .

الخامس ذات الشدة ، قاله ابن زيد ، وقرأ ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ .

والمحبوك الشديد الخَلْق من الفرس وغيره ، قال امرؤ القيس :

قد غَدَا يَحْمِلُني في أَنْفِهِ . . .

لاَحِقُ الإِطْلَيْنِ مَحْبُوكٌ مُمَرْ

وقال آخر :

مَرِجَ الدِّينَ فأَعددتُ لَهُ . . .

مُشْرِفَ الحارِكِ مَحْبُوكَ الْكَتَدْ

(31/725)

وفي الحديث : أن عائشة رضي الله عنها كانت تحتبك تحت الدِّرْع في الصلاة ؛ أي تشدّ الإزار وتحكمه .

السادس ذات الصفّاقة ؛ قاله خَصِيف ، ومنه ثوب صفِيق ووجه صفيق بين الصفاقة .

السابع أن المراد بالطرق المَجرّة التي في السماء ؛ سميت بذلك لأنها كأثر المَجَرّ .

و"الْحُبُك" جمع حِباك ، قال الراجز :

كأنّما جَلَّلها الْحُوَّاكُ . . .

طنفسة في وَشْيها حِبَاكُ

والحبَاك والحَبيكة الطريقة في الرّمل ونحوه .

وجمع الحِبَاك حُبُك وجمع الحَبيكة حبَائك ، والْحَبَكَة مثل العَبَكة وهي الحبّة من السويق ، عن الجوهري .

وروي عن الحسن في قوله : "ذَاتِ الْحُبُكِ" "الْحُبْكِ" و"الحِبكِ" و"الحِبْكِ" .

و"الحِبَك والحِبُك (وقرأ أيضاً "الْحُبُك") كالجماعة .

وروي عن عِكْرمة وأبي مِجْلَز "الحُبك" .

و"الحُبُك" واحدتها حَبيكة ؛ "والْحبُكْ" مخفّف منه .

و"الحِبَك" واحدتها حِبْكة .

ومن قرأ "الْحُبَكِ" فالواحدة حُبْكَة كبُرقة وبُرَق أو حُبُكة كظُلُمة وظُلَم .

ومن قرأ "الحِبكِ" فهو كإبلٍ وإطِل و"الحِبْك" مخففة منه .

ومن قرأ "الحِبُك" فهو شاذ إذ ليس في كلام العرب فِعُلٌ ، وهو محمول على تداخل اللغات ، كأنه كسر الحاء ليكسر الباء ثم تصوّر "الْحُبُك" فضم الباء .

وقال جميعه المهدوي .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ هذا جواب القسم الذي هو "والسَّمَاءِ" أي

إنكم يا أهل مكة "فِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ" في محمد والقرآن فمن مصدّق ومكذّب .

وقيل : نزلت في المقتسمين .

وقيل : اختلافهم قولهم ساحر بل شاعر بل افتراه بل هو مجنون بل هو كاهن بل هو أساطير الأوّلين .

وقيل : اختلافهم أن منهم من نفى الحشر ومنهم من شك فيه .

وقيل : المراد عبدة الأوثان والأصنام يقرون بأن الله خالقهم ويعبدون غيره .

قوله تعالى : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي يصرف عن الإيمان بمحمد والقرآن من صُرِف ؛ عن الحسن وغيره .

(32/725)

وقيل : المعنى يُصرَف عن الإيمان من أراده بقولهم هو سحر وكهانة وأساطير الأوّلين .

وقيل : المعنى يُصرَف عن ذلك الاختلاف مَن عصمه الله .

أَفَكَه يَأْفِكُه أَفْكاً أي قلبه وصرفه عن الشيء ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا ﴾ [الأحقاف : 22] .

وقال مجاهد : معنى "يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ" يُؤفَن عنه من أُفِن ، والأَفْنَ فساد العقل .

الزمخشري : وقرىء "يُؤْفَنُ عَنْهُ مَنْ أُفِنَ" أي يحرمه من حرم ؛ من أَفَن الضَّرْعَ إذا أنكهه حَلْباً .

وقال قُطْرُب : يُخدَع عنه من خُدِع .

وقال اليزيدي : يُدفَع عنه من دُفِع .

والمعنى واحد وكله راجع إلى معنى الصرف .

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الخراصون ﴾ في التفسير : لُعِن الكذّابون .

وقال ابن عباس : أي قُتِل المرتابون ؛ يعني الكهنة .

وقال الحسن : هم الذين يقولون لسنا نبعث .

ومعنى "قُتِلَ" أي هؤلاء ممن يجب أن يدعى عليهم بالقتل على أيدي المؤمنين .

وقال الفرّاء : معنى "قُتِلَ" لُعِن ؛ قال : و"الْخَرَّاصُونَ" الكذابون الذين يتخرّصون بما لا يعلمون ؛ فيقولون : إن محمداً مجنون كذّاب ساحر شاعر ؛ وهذا دعاء عليهم ؛ لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك .

قال ابن الأنباري : علّمنا الدعاء عليهم ؛ أي قولوا : ﴿ قُتِلَ الخراصون ﴾ وهو جمع خارص والْخَرْص الكذب والْخَرَّاص الكذّاب ، وقد خَرَص يَخْرُص بالضم خَرْصا أي كَذَب ؛ يقال : خَرَص واخترص ، وخَلَقَ واختلق ، وبَشَك وابتشك ، وسَرَج واسترج ، ومان ، بمعنى كذب ، حكاه النحاس .

والْخَرْص أيضاً حَزْر ما على النخل من الرطب تمراً .

وقد خَرَصتُ النخلَ والاسم الخِرْص بالكسر ؛ يقال : كم خِرْص نخلك والخرّاص الذي يخرصها فهو مشترك .

(33/725)

وأصل الخُرْص القطع على ما تقدّم بيانه في "الأنعام" ومنه الْخَرِيص للخليج ؛ لأنه ينقطع إليه الماء ، والخُرِصُ حبّة القُرْط إذا كانت منفردة ؛ لانقطاعها عن أخواتها ، والخُرْص العود ؛ لانقطاعه عن نظائره بطيب رائحته .

والْخَرِص الذي به جوع وبَرْد لأنه ينقطع به ، يقال : خَرِص الرجلُ بالكسر فهو خَرِص ، أي جائع مقرور ، ولا يقال للجوع بلا برد خَرَص .

ويقال للبرد بلا جوع خَرَص .

والْخُرْص بالضم والكسر الحلقة من الذهب أو الفضة والجمع الخِرْصان .

ويدخل في الْخَرْص قول المنجمين وكل من يدّعي الحَدْس والتخمين .

وقال ابن عباس : هم المقتسمون الذين اقتسموا أعقاب مكة ، واقتسموا القول في نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ؛ ليصرفوا الناس عن الإيمان به .

قوله تعالى : ﴿ الذين هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ الغمرة ما ستر الشيء وغطّاه .

ومنه نهر غَمْر أي يغْمُر من دخله ، ومن غَمَرات الموت .

"سَاهُونَ" أي لاهون غافلون عن أمر الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدين ﴾ أي متى يوم الحساب ؛ يقولون ذلك استهزاء وشَكًّا في القيامة .

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ نصب "يَوْم" على تقدير الجزاء أي هذا الجزاء "يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ" أي يُحرَقون ، وهو من قولهم : فتنت الذهب أي أحرقته لتختبره ؛ وأصل الفتنة الاختبار .

وقيل : إنه مبنيّ بني لإضافته إلى غير متمكن ، وموضعه نصب على التقدير المتقدّم ، أو رفع على البدل من ﴿ يَوْمُ الدين ﴾ .

وقال الزجاج : يقول يعجبني يومُ أنت قائم ويومُ أنت تقوم ، وإن شئت فتحت وهو في موضع رفع ، فإنما انتصب هذا وهو في المعنى رفع .

وقال ابن عباس : ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ يُعذَّبون .

ومنه قول الشاعر :

كلُّ امرىء من عبادِ اللَّهِ مُضطَهدٌ . . .

بِبطنِ مكةَ مقهورٌ ومفتونُ

قوله تعالى : ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ أي يقال لهم ذوقوا عذابكم ؛ قاله ابن زيد .

مجاهد : حريقكم .

(34/725)

ابن عباس : أي تكذيبكم يعني جزاءكم .

الفرّاء : أي عذابكم ﴿ الذي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ في الدنيا .

وقال : "هَذَا" ولم يقل هذه ؛ لأن الفتنة هنا بمعنى العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(35/725)

وقال الآلوسى :

بسْم الله الرحمن الرحيم

﴿ والذريات ذَرْواً ﴾

أي الرياح التي تذروا التراب وغيره من ذرا المعتل بمعنى فرق وبدد ما رفعه عن مكانه .

﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ أي حملاً وهي السحب الحاملة للمطر .

﴿ فالجاريات يُسْراً ﴾ أي جرياً سهلاً إلى حيث سيرت وهي السفن

﴿ فالمقسمات أَمْراً ﴾ هي الملائكة الذين يقسمون الأمور بين الخلق على ما أمروا به ، وتفسير كل بما به قد صح روايته من طرق عن علي كرم الله تعالى وجهه ، وفي بعض الروايات أن ابن الكواء سأله عن ذلك وهو رضي الله تعالى عنه يخطب على المنبر فأجاب بما ذكر ، وفي بعض الأخبار ما يدل على أنه تفسير مأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أخرج البزار .

والدارقطني في "الافراد" .

وابن مردويه .

وابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال : "جاء صبيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقال : أخبرني عن ﴿ والذريات ذَرْواً ﴾ قال : هي الرياح ، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته ، قال : فأخبرني عن ﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ قال : هي السحاب ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته ، قال : فأخبرني عن ﴿ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾ قال : هي السفن ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته ، قال : فأخبرني عن ﴿ لَكَ أَمْراً ﴾ قال : هي الملائكة ولولا

أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته ثم أمر به فضرب مائة وجعل في بيت فلما برأ دعاه فضربه مائة أخرى وحمله على قتل وكتب إلى أبي موسى الأشعري امنع الناس من مجالسته فلم يزالوا كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف له بالايمان المغلظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئاً فكتب إلى عمر رضي الله تعالى عنه ما أخاله إلا قد صدق فخلى بينه وبين مجالسة الناس" .

ويدل هذا أن الرجل لم يكن سليم القلب وأن سؤاله لم يكن طلباً للعلم وإلا لم يصنع به عمر رضي الله تعالى عنه ما صنع .

(36/725)

وفي رواية عن ابن عباس أن الحاملات هي السفن الموقرة بالناس وأمتعتهم ، وقيل : هي الحوامل من جميع الحيوانات ، وقيل : الجاريات السحب تجري وتسير إلى حيث شاء الله عز وجل ، وقيل : هي الكواكب التي تجري في منازلها وكلها لها حركة وإن اختلفت سرعة وبطأ كما بين في موضعه ، وقيل : هي الكواكب السبعة الشهيرة وتسمى السيارة ، وقيل : ﴿ الذاريات ﴾ النساء الولود فإنهن يذرين الأولاد كأنه شبه تتابع الأولاد بما يتطاير من الرياح ، وباقي المتعاطفات على ما سمعت أولاً ، وقيل : ﴿ الذاريات ﴾ هي الأسباب

التي تذري الخلائق على تشبيه الأسباب المعدة للبروز من العدم بالرياح المفرقة للحبوب ونحوها ، وقيل : الحاملات الرياح الحاملة للسحاب ، وقيل : هي الأسباب الحاملة لمسبباتها مجازاً ، وقيل : الجاريات الرياح تجري في مهابها ، وقيل : المقسمات السحب يقسم الله تعالى بها أرزاق العباد ، وقيل : هي الكواكب السبعة السيارة وقول باطل لا يقول به إلا من زعم أنها مدبرة لعالم الكون والفساد ، وفي "صحيح البخاري" عن قتادة " خلق الله تعالى هذه النجوم لثلاث جعلها زينة للسماء .

ورجوماً للشياطين .

(37/725)

وعلامات يهتدي بها فمن تأوّل فيها بغير ذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا يعلم " وزاد رزين " وما لا علم له به وما عجز عن علمه الأنبياء والملائكة " وعن الربيع مثله وزاد " والله ما جعل الله تعالى في نجم حياة أحد ولا رزقه ولا موته وإنما يفترون على الله تعالى الكذب ويتعللون بالنجوم " ذكره "صاحب جامع الأصول" ، وقد مر الكلام في إبطال ما قاله المنجمون مفصلاً فتذكر ، ولعله سيأتي إن شاء الله تعالى شيء من ذلك ، وجوز أن يراد بالجميع الرياح فإنها كما تذر وما تذروه تثير السحاب وتحمله ، وتجري في الجوّ جرياً

سهلاً وتقسم الأمطار بتصريف السحاب في الأقطار والمعول عليه ما روى عن عمر رضي الله تعالى عنه سامعاً له من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاله باب مدينة العلم كرم الله تعالى وجهه على المنبر وإليه كما نقل عن الزجاج ذهب جميع المفسرين أي المعتبرين ، وقول الإمام بعد نقله له عن الأمير : الأقرب أن تحمل هذه الصفات الأربع على الرياح جسارة عظيمة على ما لا يسلم له ، وجهل منه بما رواه ابن المسيب من الخبر الدال على أن ذلك تفسير النبي صلى الله عليه وسلم فأين منه الإمام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه .

(38/725)

وقول "صاحب الكشف" : إنه شديد الطباق للمقام ولذا آثره الإمام لا أسله له أيضاً إذا صح الحديث ثم إذا حملت هذه الصفات على أمور مختلفة متغايرة بالذات كما في المعول عليه فالفاء للترتيب في الأقسام ذكراً ورتبة باعتبار تفاوت مراتبها في الدلالة على كمال قدرته عز وجل ، وهذا التفاوت إما على الترقي أو التنزل لما في كل منها من الصفات التي تجعلها أعلى من وجه وأدنى من آخر إذا نظر لها ذو نظر صحيح ، وقيل : الترتيب بالنظر إلى الأقرب فالأقرب منا ، وإن حملت على واحد وهو الرياح فهي لترتيب الأفعال والصفات إذ الريح تذر الأبخرة إلى الجو أولاً حتى تنعقد سحاباً فتحمله ثانياً وتجري به ثالثاً ناشرة

وسائقة له إلى حيث أمرها الله تعالى ثم تقسم أمطاره ، وقيل : إذا حملت الذاريات والحاملات على النساء ، فالظاهر أنها للتفاوت في الدلالة على كمال القدرة فتدبر .

ونصب ﴿ والذريات ذَرْواً ﴾ على أنه مفعول مطلق ، ﴿ ووقراً ﴾ على أنه مفعول به ، وجوز الإمام أن يكون من باب ضربته سوطاً ، و ﴿ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾ على أنه صفة مصدر محذوف بتقدير مضاف أي جرياً ذا يسر ، أو على أنه حال أي ميسرة كما نقل عن سيبويه ، و ﴿ أَمْراً ﴾ على أنه مفعوله به وهو واحد الأمور ، وقد أريد به الجمع ولم يعبر به لأن الفرد أنسب برؤوس الآي مع ظهور الأمر ، وقيل : على أنه حال أي مأمورة ، والمفعول به محذوف أو الوصف منزل منزلة اللازم أي تفعل التقسيم مأمورة ، وقرأ أبو عمرو .

وحمزة ﴿ والذريات ذَرْواً ﴾ بادغام التاء في الذال ، وقرىء ﴿ وِقْراً ﴾ بفتح الواو على أنه مصدر وقره إذا حمله كما أفاده كلام الزمخشري وناهيك به إماماً في اللغة ، وعلى هذا هو منصوب على أنه مفعول به أيضاً على تسمية المحمول بالمصدر أو على أنه مفعول مطلق لحاملات من معناها كأنه قيل : فالحاملات حملاً .

وقوله تعالى شأنه :

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لصادق وَإِنَّ الدين لَوَاقِعٌ ﴾

جواب للقسم ، و ﴿ مَا ﴾ موصولة والعائد محذوف أي إن الذي توعدونه ، أو توعدون به ، ويحتمل أن تكون مصدرية أي إن وعدكم ، أو وعيدكم إذ توعدون يحتمل أن يكون مضارع وعد ، وأن يكون مضارع أوعد ، ولعل الثاني أنسب لقوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ بالقرءان مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : 45] ولأن المقصود التخويف والتهويل ، وعن مجاهد أن الآية في الكفار وهو يؤيد الوعيد ومعنى صدقه تحقق وقوعه ، وفي "الكشاف" وعد صادق كعيشة راضية و ﴿ الدين ﴾ الجزاء ووقوعه حصوله ، والأكثرون على أن الموعود هو البعث ، وفي تخصيص المذكورات بالإقسام بها رمز إلى شهادتها بتحقق الجملة المقسم عليها من حيث أنها أمور بديعة فمن قدر عليها فهو قادر على تحقيق البعث الموعود .

﴿ والسماء ذَاتِ الحبك ﴾

أي الطرق جمع حبيكة كطريقة ، أو حباك كمثال ومثل ، ويقال : حبك الماء للتكسر الجاري فيه إذ مرت عليه الريح ، وعليه قول زهير يصف غديراً

: مكلل بأصول النجم تنسجه . . .

ريح خريق لضاحي مائه حبك

وحبك الشعر لآثار تثنيه وتكسره ، وتفسيرها بذلك مروي عن مقاتل .

والكلبي .

والضحاك ، والمراد بها إما الطرق المحسوسة التي تسير فيها الكواكب ، أو المعقولة التي تدرك بالبصيرة وهي ما تدل على وحدة الصانع وقدرته وعلمه وحكمته جل شأنه إذا تأملها الناظر ، وقال ابن عباس .

وقتادة .

وعكرمة .

ومجاهد .

(40/725)

والربيع : ذات الخلق المستوى الجيد ، وفي رواية أخرى عن مجاهد المتقنة البنيان ، وقيل : ذات الصفاقة وهي أقوال متقاربة وكأن الحبك عليها من قولهم : حبكت الشيء أحكمته وأحسنت عمله وحبكت العقدة أوثقتها ، وفرس محبوك المعاقم وهي المفاصل أي محكمها ، وفي "الكشف" أصل الحباكة الصفاقة وجودة الأثر ، وعن الحسن حبكها نجومها ، والظاهر أن إطلاق الحبك على النجوم مجاز لأنها تزين السماء كما يزين الثوب الموشى حبكه وطرائق وشيه فكأنه قيل : ذات النجوم التي هي كالحبك أي الطرائق في التزيين ،

واستظهر في السماء أنه جنس أريد به جميع السموات وكون كل واحدة منها ذات حبك بمعنى مستوية الخلق جيدته ، أو متقنة البنيان أو صفيقة ، أو ذات طرق معقولة ظاهر ، وأما كون كل منها كذلك بمعنى ذات طرق محسوسة فباعتبار أن الكواكب في أي سماء كانت تسير مسامتة لسائر السموات ، فممراتها باعتبار المسامتة طرق ، وبمعنى ذات النجوم فباعتبار أن النجوم في أي سماء كانت تشاهد في سائر السموات بناءاً على أن السموات شفافة لا يحجب كل منها إدراك ما وراءه ، وأخرج ابن منيع عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال : هي السماء السابعة ، وعن عبد الله بن عمرو مثله فتدبر ولا تغفل .

وقرأ ابن عباس .

والحسن بخلاف عنه .

وأبو مالك الغفاري .

وأبو حيوة .

وابن أبي عبلة .

وأبو السماء .

ونعيم عن أبي عمرو الحبك بإسكان الباء على زنة القفل ، وعكرمة بفتحها جمع حبكة مثل طرفة وطرف وبرقة وبرق ، وأبو مالك الغفاري .

والحسن بخلاف عنه أيضاً بكسر الحاء والباء كالإبل وهو على ما ذكر الخفاجي اسم مفرد

ورد على هذا الوزن شذوذاً وليس جمعاً ، وأبو مالك .

والحسن .

وأبو حيوة أيضاً بكسر الحاء وإسكان الباء كالسلك وهو تخفيف فعل مكسور الفاء والعين وهو اسم مفرد لا جمع لأن فعللاً ليس من أبنية الجموع قاله في البحر وابن عباس .

(41/725)

وأبو مالك أيضاً بفتحهما كالجبل قال أبو الفضل الرازي فهو جمع حبكة مثل عقبة وعقب ، والحسن أيضاً بكسر الحاء وفتح الباء كالنعم ، وأبو مالك أيضاً بكسر الحاء وضم الباء وذكرها ابن عطية عن الحسن أيضاً ثم قال : هي قراءة شاذة غير متوجهة وكأن بعد أن كسر الحاء توهم قراءة الجمهور فضم التاء وهذا من تداخل اللغات وليس في كلام العرب هذا البناء أي لأن فيه الانتقال من خفة إلى ثقل على عكس ضرب مبنياً للمفعول ، وقال "صاحب اللوامح" : هو عديم النظير في العربية في أبنيتها وأوزانها ولا أدري ما وراءه انتهى .

وعلى التداخل تأول النحاة هذه القراءة ، وقال أبو حيان : الأحسن عندي أن يكون ذلك مما أتبع فيه حركة الحاء لحركة تاء ﴿ ذَاتُ ﴾ في الكسر ولم يعتد بالام الساكنة لأن الساكن

حاجز غير حصين .

﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾

أي متخالف متناقض في أمر الله عز وجل حيث تقولون : إنه جل شأنه خالق السموات والأرض وتقولون بصحة عبادة الأصنام معه سبحانه ، وفي أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فتقولون : تارة إنه مجنون ، وأخرى إنه ساحر ولا يكون الساحر إلا عاقلاً ، وفي أمر الحشر فتقولون : تارة لا حشر ولا حياة بعد الموت أصلاً ، وتزعمون أخرى أن أصنامكم شفعاؤكم عند الله تعالى يوم القيامة إلى غير ذلك من الأقوال المتخالفة فيما كلفوا بالايمان به ، واقتصر بعضهم على كون القول المختلف في أمره صلى الله عليه وسلم ، والجملة جواب القسم ولعل النكتة في ذلك القسم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بطرائق السموات في تباعدها واختلاف هيآتها ، أو الإشارة إلى أنها ليست مستوية جيدة ، أو ليست قوية محكمة ، أو ليس فيها ما يزينها بل فيها ما يشينها من التناقض .

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾

أي يصرف عن الايمان بما كلفوا الايمان به لدلالة الكلام السابق عليه ، وقال الحسن .

وقتادة : عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال غير واحد : عن القرآن ، والكلام السابق مشعر بكل من صرف الصرف الذي لا أشد منه وأعظم ؛ ووجه المبالغة من إسناد الفعل إلى من وصف به فلولا غرض المبالغة لكان من توضيح الواضح فكأنه أثبت للمصروف صرف آخر حيث قيل : ﴿ يُصْرَفْ عَنْهُ ﴾ المصروف فجاءت المبالغة من المضاعفة ثم الإطلاق في المقام الخطابي له مدخل في تقوية أمر المضاعفة وكذلك الإبهام الذي في الموصول ، وهو قريب من قوله تعالى : ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : 87] وقيل : المراد ﴿ يُصْرَفْ عَنْهُ ﴾ في الوجود الخارجي من ﴿ صَرَفَ عَنْهُ ﴾ في علم الله تعالى وقضائه سبحانه ، وتعقب بأنه ليس فيه كثير فائدة لأن كل ما هو كائن معلوم أنه ثابت في سابق علمه تعالى الأزلي وليس فيه المبالغة السابقة ، وأجيب عن الأول بأن فيه الإشارة إلى أن الحجة البالغة لله عز وجل في صرفه وكفى بذلك فائدة وهو مبني أن العلم تابع للمعلوم فافهمه ، وحكى الزهراوي أنه يجوز أن يكون الضمير ﴿ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات : 5] أو للدين أقسم سبحانه بالذاريات على أن وقوع أمر القيامة حق ثم أقسم بالسماء على أنهم في ﴿ قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ في وقوعه ، فمنهم شاك ، ومنهم جاحد ثم قال جل وعلا : ﴿ يُؤْفَكُ ﴾ عن الإقرار بأمر القيامة من هو المأفوك ، وذكر ذلك الزمخشري ولم يعزه ، وادعى "صاحب الكشف" أنه أوجه لتلاؤم الكلام ، وقيل : يجوز أن يكون الضمير لقول مختلف وعن للتعليل كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ [

هود : 53]

) .

ينهون عن أكل وعن شرب . . .

مثل المها يرتعن في خصب

(43/725)

أي يصرف بسبب ذلك القول المختلف من أراد الإسلام ، وقال الزمخشري : حقيقته يصدر إفكهم عن القول المختلف ، وهذا محتمل لبقاء عن على أصلها من المجاوزة واعتبار التضمين ، وفيه ارتكاب خلاف الظاهر من غير داع مع ذهاب تلك المبالغة ، وجوز ابن عطية رجوع الضمير إلى القول إلا أنه قال : المعنى يصرف عن ذلك القول المختلف بتوفيق الله تعالى للإسلام من غلبت سعادته ، وتعقبه بأن فيه مخالفة للعرف فإن عرف الاستعمال في الإفك الصرف من خير إلى شر فلذلك لا تجده إلا في المذمومين ، ثم إن ذلك على كون الخطاب في أنكم للكفار وهو الذي ذهب إليه ابن زيد وغيره واستظهر أبو حيان كونه عاماً للمسلم والكافر ، واستظهر العموم فيما سبق أيضاً ، والقول المخلف حينئذ قول المسلمين بصدق الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقول الكفار بنقيض ذلك ، وقرأ ابن جبير .

وقتادة ﴿ مَنْ أُفِكَ ﴾ مبنياً للفاعل أي من أفك الناس عنه وهم قريش ، وقرأ زيد بن علي يأفك عنه من أفك أي يصرف الناس عنه من هو أفاك كذاب ، وقرىء يؤفن عنه من أفن بالنون فيهما أي يحرمه من حرم من أفن الضرع إذا أنهكه حلباً .

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10)

أي الكذابون من أصحاب القول المختلف ، وأصل الخرص الظن والتخمين ثم تجوز به عن الكذب لأنه في الغالب يكون منشأ له ، وقال الراغب : حقيقة ذلك أن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال له : خرص سواء كان مطابقاً للشيء أو مخالفاً له من حيث أن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع بل اعتمد فيه على الظن والتخمين كفعل خارص الثمرة في خرصه ، وكل من قال قولاً على هذا النحو قد يسمى كاذباً وإن كان قوله مطابقاً للمقول المخبر به كما في قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءكَ المنافقون ﴾ [المنافقون : 1] الآية انتهى .

وفيه بحث وحقيقة القتل معروفة ، والمراد بقتل الدعاء عليهم مع قطع النظر عن المعنى الحقيقي .

وعن ابن عباس تفسيره باللعن قال ابن الأنباري : وإنما كان القتل بمعنى اللعن هنا لأن من لعنه الله تعالى بمنزلة المقتول الهالك ، وقرىء قتل الخراصين أي قتل الله الخراصين .

﴿ الذين هُمْ فِى غَمْرَةٍ ﴾ في جهل عظيم يغمرهم ويشملهم شمول الماء الغامر لما فيه ﴿ ساهون ﴾ غافلون عما أمروا به ، فالمراد بالسهو مطلق الغفلة .

يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12)

﴿ يُسْئَلُونَ ﴾ أي بطريق الاستعجال استهزاءاً ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الدين ﴾ معمول ليسألون على أنه جار مجرى يقولون لما فيه من معنى القول ، أو لقول مصدر أي فيقولون متى وقوع يوم الجزاء وقدر الوقوع ليكون السؤال عن الحدث كما هو المعروف في ﴿ أَيَّانَ ﴾ ولا ضير في جعل الزمان زمانياً فإن اليوم لما جعل موعوداً ومنتظراً في نحو قوله تعالى : ﴿ فارتقب يَوْمَ تَأْتِى السماء ﴾ [الدخان : 10] صار ملحقاً بالزمانيات وكذلك كل يوم له شأن مثل يوم العيد .

والنيروز وهذا جار في عرفي العرب والعجم على أنه يجوز عند الأشاعرة أن يكون للزمان زمان على ما فصل في مكانه ، وقرىء ﴿ أَيَّانَ ﴾ بكسر الهمزة وهي لغة .

(45/725)

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ أي يحرقون ، وأصل الفتن إذابة الجوهر ليظهر غشه ثم استعمل في الإحراق والتعذيب ونحو ذلك ، و﴿ يَوْمٍ ﴾ نصب على الظرفية لمحذوف دل عليه وقوع الكلام جواباً للسؤال مضاف للجملة الاسمية بعده أي يقع يوم الدين يوم هم على النار الخ ، وقال الزجاج : ظرف لمحذوف وقع خبراً لمبتدأ كذلك أي هو واقع ، أو كائن يوم الخ ، وجوز أن يكون هو نفسه خبر مبتدأ محذوف ، والفتحة فتحة بناء لإضافته إلى غير ، وهي الجملة الاسمية فإن الجمل بحسب الأصل كذلك على كلام فيه بين البصريين والكوفيين مفصل في "شرح التسهيل" أي هو يوم هم الخ ، والضمير قيل : راجع إلى وقت الوقوع فيكون هذا الكلام قائماً مقام الجواب على نحو سيقولون لله في جواب ﴿ مَن رَّبُّ السموات والأرض ﴾ [الرعد : 16] لأن تقدير السؤال في أي وقت يقع ، وجوابه الأصلي في يوم كذا ، وإذا قلت : وقت يوم كذا كان قائماً مقامه ، ويجوز أن يكون الضمير لليوم والكلام جواب بحسب المعنى ، فالتقدير يوم الجزاء يوم تعذيب الكفار ويؤيد كونه مرفوع المحل خبراً لمبتدأ محذوف قراءة ابن أبي عبلة .

والزعفراني (يوم هم) بالرفع ، وزعم بعض النحاة أن يوم بدل من ﴿ يَوْمِ الدين ﴾ وفتحته على قراءة الجمهور فتحة بناء ، و﴿ يَوْمٍ ﴾ وما في حيزه من جملة كلام السائلين قالوه استهزاءاً ، وحكى على المعنى ، ولو حكى على اللفظ لقيل : يوم نحن على النار نفتن ، وهو في غاية البعد كما لا يخفى ، وقوله تعالى :

(46/725)

﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ بتقدير قول وقع حالاً من ضمير ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات : 13] أي مقولاً لهم ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ أي عذابكم المعدّ لكم ، وقد يسمى مايحصل عنه العذاب كالكفر فتنة ، وجوز أن يكون منه ما هنا كأنه قيل : ذوقوا كفركم أي جزاء كفركم أو يجعل الكفر نفس العذاب مجازاً وهو كما ترى ﴿ هذا الذى كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ جملة من مبتدأ وخبر داخلة تحت القول المضمر أي هذا العذاب الذي كنتم تستعجلون به بطريق الاستهزاء وجوز أن يكون هذا بدلاً من ﴿ فِتْنَتَكُمْ ﴾ بتأويل العذاب ، وفيه بعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(47/725)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1) ﴾

القَسَم المفتتح به مراد منه تحقيق المقسم عليه وتأكيد وقوعه وقد أقسم الله بعظيم من

مخلوقاته وهو في المعنى قسم بقدرته وحكمته ومتضمن تشريف تلك المخلوقات بما في أحوالها من نعم ودلالةٍ على الهدى والصلاح ، وفي ضمن ذلك تذكير بنعمة الله فيما أوجد فيها .

والمُقْسَم بها الصفات تقتضي موصفاتها ، فآل إلى القَسَم بالموصوفات لأجل تلك الصفات العظيمة .

وفي ذلك إيجاز دقيق ، على أن في طي ذكر الموصوفات توفيراً لما تؤذن به الصفات من موصوفات صالحة بها لتذهب أفهام السامعين في تقديرها كل مذهب ممكن .

وعطف تلك الصفات بالفاء يقتضي تناسبها وتجانسها ، فيجوز أن تكون صفات لجنس واحد وهو الغالب في عطف الصفات بالفاء ، كقول ابن زيَّابة:

يا لهف زيَابَةَ للحارث الصَابح فالغانم فالآيب . . .

ويجوز أن تكون مختلفة الموصوفات إلا أن موصوفاتها متقاربة متجانسة كقول امرىء القيس:

بسِقط اللِوى بين الدَّخول فَحَوْمَل فتوضح فالمقراة . . .

. . .

. . .

.

وقول لبيد :

بمشارق الجبلين أو بمُحجر فتَضَمَّنتْها فَردة فرُخَامها فصَوائق إن

أيمنت . . . . . .البيت

ويكثر ذلك في عطف البقاع المتجاورة ، وقد تقدم ذلك في سورة الصافات .

واختلف أئمة السلف في محمل هذه الأوصاف وموصوفاتها .

وأشهر ما رُوي عنهم في ذلك ما روي عن علي بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد أن ﴿ الذاريات ﴾ الرياح لأنها تذرو التراب ، و ﴿ الحاملات وِقْراً ﴾ : السحاب ، و ﴿ الجاريات ﴾ : السفن ، و ﴿ المُقسِّمات أمراً ﴾ الملائكة ، وهو يقتضي اختلاف الأجناس المقسم بها .

وتأويله أن كل معطوفٍ عليه يُسبب ذكر المعطوف لالتقائهما في الجامع الخيالي ، فالرياح تذكِّر بالسحاب ، وحمل السحاب وِقْرَ الماء يذكر بحمل السفن ، والكل يذكر بالملائكة .

(48/725)

ومن المفسرين من جعل هذه الصفات الأربع وصفاً للرياح قاله في "الكشاف" ونقل بعضه عن الحسن واستحسنه الفخر ، وهو الأنسب لعطف الصفات بالفاء .

فالأحسن أن يُحمل الذرو على نشر قطع السحاب نَشراً يشبه الذرو .

وحقيقة الذرو رَمي أشياء مجتمعة تُرمى في الهواء لتقع على الأرض مثل الحَب عند الزرع ومثل الصوف وأصله ذرو الرياح التراب فشبه به دفع الريح قطع السحاب حتى تجتمع فتصير سحاباً كاملاً فالذاريات تنشر السحاب ابتداء كما قال تعالى : ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ﴾ [الروم : 48] .

والذرو وإن كان من صفة الرياح فإنّ كون المذرو سحاباً يؤول إلى أنه من أحوال السحاب وقيل ذروها التراب وذلك قبل نَشرها السحب وهو مقدمة لنشر السحاب .

ونُصب ﴿ ذَرْواً ﴾ على المفعول المطلق لإرادة تفخيمه بالتنوين ، ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى المفعول ، أي المَذْرو ، ويكون نصبه على المفعول به .

و ﴿ الحاملات وقراً ﴾ هي الرياح حين تجمع السحاب وقد ثَقُل بالماء ، شبه جمعها إياه بالحَمل لأن شأن الشيء الثقيل أن يحمله الحامل ، وهذا في معنى قوله تعالى:

﴿ ويَجْعَلُه كِسَفاً فترى الودقَ يخرج من خلاله ﴾ [الروم : 48] الآية .

وقوله : ﴿ وينشىء السحاب الثِّقال ﴾ [الرعد : 12] وقوله : ﴿ ألم تر أن الله يُزْجي سحاباً ثم يُؤَلّف بينه ثم يجعله رُكاماً فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ [النور : 43] .

والوِقر بكسر الواو : الشيء الثقيل .

ويجوز أن تكون الحاملات الأسحبة التي ملئت ببخار الماء الذي يصير مطراً ، عطفت

بالفاء على الذاريات بمعنى الرياح لأنها ناشئة عنها فكأنها هي .

و﴿ الجاريات يُسْراً ﴾ : الرياح تجري بالسحاب بعد تراكمه وقد صار ثقيلاً بماء المطر ، فالتقدير : فالجاري بذلك الوقر يُسراً .

ومعنى اليسر : اللِين والهُون ، أي الجاريات جرياً لَيّناً هيّناً شأن السير بالثقل ، كما قال الأعشى:

(49/725)

كأنّ مِشيتها من بيت جارتها مَشيُ السحابة لا رَيثٌ ولا عَجَل . . .

ف ﴿ يُسراً ﴾ وصف لمصدر محذوف نصب على النيابة عن المفعول المطلق .

و﴿ المقسمات أمراً ﴾ الرياح التي تنتهي بالسحاب إلى الموضع الذي يبلغ عنده نزول ما في السحاب من الماء أو هي السحب التي تُنزل ما فيها من المطر على مواضع مختلفة .

وإسناد التقسيم إليها على المعنيين مجاز بالمشابهة .

وروي عن الحسن ﴿ المقسمات ﴾ السحب بقَسم الله بها أرزاق العباد " أ هـ .

يريد قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء مباركاً ﴾ إلى قوله : ﴿ رِزقاً للعباد ﴾ في سورة ق (119) .

ومن رشاقة هذا التفسير أن فيه مناسبة بين المُقْسَم به والمقسم عليه وهو قوله : إنما توعدون لصادِق وإن الدين لواقع ﴾ فإن أحوال الرياح المذكورة هنا مبدؤها : نفخ ، فتكوين ، فإحياء ، وكذلك البعث مبدؤه : نفخ في الصور ، فالتئام أجساد الناس التي كانت معدومة أو متفرقة ، فبثُّ الأرواح فيها فإذا هم قيام ينظرون .

وقد يكون قوله تعالى : ﴿ أمراً ﴾ إشارة إلى ما يقابله في المثال من أسباب الحياة وهو الروح لقوله : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ [الإسراء : 85] .

و(مَا) من قوله : ﴿ إنما توعدون ﴾ موصولة ، أي إن الذي توعدونه لصادق .

والخطاب في ﴿ تُوعدون ﴾ للمشركين كما هو مقتضى التأكيد بالقسم وكما يقتضيه تعقيبه بقوله : ﴿ إنكم لفي قول مختلف ﴾ [الذاريات : 8] .

فيتعين أن يكون ﴿ توعدون ﴾ مشتقاً من الوعيد الذي ماضيه (أوعد) ، وهو يبنى للمجهول فأصل ﴿ توعدون ﴾ تُوَوْعَدون بهمزة مفتوحة بعد تاء المضارعة وواوٍ بعد الهمزة هي عين فعل (أوعد) وبفتح العين لأجل البناء المجهول فحذفت الهمزة على ما هو المطّرد من حذف همزة أفْعَل في المضارع مثل تُكرمون ، وسكنت الواو سكوناً مَيتاً لأجل وقوع الضمة قبلها بعد أن كان سكونها حَيّاً فصار ﴿ تُوعَدون ﴾ ووزنه تافعلون .

والذي أوُعِدوه عذاب الآخرة وعذاب الدنيا مثل الجوع في سني القحط السبع الذي هو دَعوة النبيء صلى الله عليه وسلم عليهم بقوله : " اللهمّ اجعلها عليهم سنيناً كسنينِ يوسف " وهو الذي أشار إليه قوله تعالى : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴾ الآية في سورة الدخان (10 ، 11) .

ومثل عذاب السيف والأسر يوم بدر الذي توعدهم الله به في قوله : ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾

[الدخان : 16] .

ويجوز أن يكون توعدون من الوعد ، أي الإخبار بشيء يقع في المستقبل مثل قوله : ﴿ إن وعد الله حق ﴾ [لقمان : 33] فوزنه تُفْعَلُون .

والمراد بالوعد الوعد بالبعث .

ووصف ﴿ لصادق ﴾ مجاز عقلي إذ الصادق هو المُوعد به على نحو ﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ [الحاثية : 21] .

والدين : الجزاء .

والمراد إثبات البعث الذي أنكروه .

ومعنى ﴿ لواقع ﴾ واقع في المستقبل بقرينة جعله مرتباً في الذكر على ما يوعدون وإنما

يكون حصول الموعود به في الزمن المستقبل وفي ذكر الجزاء زيادة على الكناية به عن إثبات البعث تعريض بالوعيد على إنكار البعث .

وكتب في المصاحف ﴿ إنما ﴾ متصلةً وهو على غير قياس الرسم المصطلح عليه من بعد لأنهما كلمتان لم تَصيرا كلمة واحدة ، بخلاف ﴿ إنما ﴾ التي هي للقصر .

ولم يكن الرسم في زمن كتابة المصاحف في أيام الخليفة عثمان قد بلغ تمام ضبطه .

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7)

هذا قَسَم أيضاً لتحقيق اضطراب أقوالهم في الطعن في الدين وهو كالتذييل للذي قبله ، لأن ما قبله خاص بإثبات الجزاء .

وهذا يعم إبطال أقوالهم الضالّة فالقسم لتأكيد المقسم عليه لأنهم غير شاعرين بحالهم المقسمِ على وقوعه ، ومُتَهالكون على الاستزادة منه ، فهم منكرون لما في أقوالهم من اختلاف واضطراب جاهلون به جهلاً مركَّبا والجهل المركب إنكار للعلم الصحيح .

والقول في القسم بـ ﴿ السماء ﴾ كالقول في القسم بـ ﴿ الذاريات ﴾ [الذاريات : 1] .

(51/725)

ومناسبة هذا القسم للمقسم عليه في وصف السماء بأنها ذات حُبُك ، أي طرائق لأن المقسم عليه : إن قولهم مختلف طرائق قِدداً ولذلك وصف المقسم به ليكون إيماء إلى نوع جواب القسم .

والحُبك : بضمتين جمع حِباك ككِتاب وكُتب ومِثال ومُثُل ، أو جمع حبيكة مثل طَريقة وطُرق ، وهي مشتقة من الحَبْك بفتح فسكون وهو إجادة النسج وإتقانُ الصنع .

فيجوز أن يكون المراد بحُبك السماء نُجومُها لأنها تشبه الطرائق الموشاة في الثوب المحبوك المتقن .

وروي عن الحسن وسعيد بن جبير وقيل الحبك : طرائق المجرّة التي تبدو ليلاً في قبة الجو .

وقيل : طرائق السحاب .

وفسر الحبك بإتقان الخلق .

روي عن ابن عباس وعكرمة وقتادة .

وهذا يقتضي أنهم جعلوا الحبك مصدراً أو اسم مصدر ، ولعله من النادر .

وإجراء هذا الوصف على السماء إدماج أدمج به الاستدلال على قدرة الله تعالى مع الامتنان بحسن المرأى .

واعلم أن رواية رويت عن الحسن البصري أنه قرأ ﴿ الحِبُك ﴾ بكسر الحاء وضم الباء وهي غير جارية على لغة من لغات العرب .

وجعل بعض أئمة اللغة الحِبُك شاذاً فالظن أن راويها أخطأ لأن وزن فِعُل بكسر الفاء وضم العين وزن مهمل في لغة العرب كلّهم لشدة ثقل الانتقال من الكسر إلى الضم مما سلمت منه اللغة العربية .

ووجهت هذه القراءة بأنها من تداخل اللغات وهو توجيه ضعيف لأن إعمال تداخل اللغتين إنما يقبل إذا لم يفض إلى زنة مهجورة لأنها إذا هجرت بالأصالة فهجرها في التداخل أجدر ووجهها أبو حيان باتباع حركة الحاء لحركة تاء ﴿ ذاتِ ﴾ وهو أضعف من توجيه تداخل اللغتين فلا جدوى في التكلف .

(52/725)

والقول المختلف : المتناقض الذي يخالف بعضه بعضاً فيقتضي بعضه إبطال بعض الذي هم فيه هو جميع أقوالهم والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك أقوالهم في دين الإشراك فإنها مختلفة مضطربة متناقضة فقالوا القرآنُ : سِحْرٌ وشعر ، وقالوا ﴿ أساطير الأولين اكتتبها ﴾ [الفرقان : 5] ، وقالوا ﴿ إنْ هذا إلا اختلاق ﴾ [ص : 7] ، وقالوا ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ [الأنفال : 31] وقالوا : مرة ﴿ في آذاننا وَقْر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ [فصلت : 5] وغير ذلك ، وقالوا : وحي الشياطين .

وقالوا في الرسول صلى الله عليه وسلم أقوالاً : شاعر ، ساحر ، مجنون ، كاهن ، يعلمه بشر ، بعد أن كانوا يلقبونه الأمين .

وقالوا في أصول شركهم بتعدد الآلهة مع اعترافهم بأن الله خالق كل شيء وقالوا : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله ﴾ [الزمر : 3] ، ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾ [الأعراف : 28] .

و(في) للظرفية المجازية وهي شدة الملابسة الشبيهة بملابسة الظرف للمظروف مثل ﴿ ويُمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾ [البقرة : 15] .

والمقصود بقوله : ﴿ إنكم لفي قول مختلف ﴾ الكناية عن لازم الاختلاف وهو التردد في الاعتقاد ، ويلزمُه بطلان قولهم وذلك مصبّ التأكيد بالقسم وحرف (إن) واللام .

و ﴿ يؤفك ﴾ : يصرف .

والأفك بفتح الهمزة وسكون الفاء : الصرف .

وأكثر ما يستعمل في الصرف عن أمر حسن ، قاله مجاهد كما في "اللسان" ، وهو ظاهر كلام أئمة اللغة والفراء وشمّر وذلك مدلوله في مواقعه من القرآن .

وجملة ﴿ يؤفك عنه من أفك ﴾ يجوز أن تكون في محل صفة ثانية ل ﴿ قولٍ مختلف ﴾ ، ويجوز أن تكون مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن قوله : ﴿ وإن الدين لواقع ﴾ [

الذاريات : 6] ، فتكون جملة ﴿ والسماء ذاتِ الحبك إنكم لفي قول مختلف ﴾ معترضة بين الجملة البيانية والجملة المبيَّن عنها .

(53/725)

ثم إن لفظ ﴿ قول ﴾ يقتضي شيئاً مقولاً في شأنه فإذ لم يذكر بعد ﴿ قول ﴾ ما يدل على مقول صلَح لجميع أقوالهم التي اختلقوها في شأنه للقرآن ودعوة الإسلام كما تقدم .

فلما جاء ضميرُ غيبة بعد لفظ ﴿ قول ﴾ احتمل أن يعود الضمير إلى ﴿ قولٍ ﴾ لأنه مذكور ، وأن يعود إلى أحوال المقول في شأنه فقيل ضمير ﴿ عنه ﴾ عائد إلى ﴿ قول مختلف ﴾ وأن معنى ﴿ يؤفك عنه ﴾ يصرف بسببه ، أي يصرف المصروفون عن الإيمان فتكون (عن) للتعليل كقوله تعالى : ﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ﴾ [هود : 53] وقوله تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاّ عن موعدة وعدها إياه ﴾ [التوبة : 114] ، وقيل ضمير ﴿ عنه ﴾ عائد إلى ﴿ ما توعدون ﴾ [الذاريات : 22] أو عائد إلى ﴿ الدين ﴾ [الذاريات : 6] ، أي الجزاء أن يؤفك عن الإيمان بالبعث والجزاء من أفك .

وعن الحسن وقتادة : أنه عائد إلى القرآن أو إلى الدين ، أي لأنهما مما جرى القول في شأنهما

، وحرف (عن) للمجاوزة .

وعلى كل فالمراد بقوله ﴿ من أفك ﴾ المشركون المصروفون عن التصديق .

والمراد بالذي فعل الأفك المجهول المشركون الصارفون لقومهم عن الإيمان ، وهما الفريقان اللذان تضمنهما قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والْغَوْا فيه لعلكم تغلِبُون ﴾ [فصلت : 26] .

وإنما حذف فاعل ﴿ يؤفك ﴾ وأبهم مفعوله بالموصولية للاستيعاب مع الإيجاز .

وقد حمَّلهم الله بهاتين الجملتين تبعةَ أنفسهم وتبعة المغرورين بأقوالهم كما قال تعالى : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ [العنكبوت : 13] .

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10)

دعاء بالهلاك على أصحاب ذلك القول المختلف لأن المقصود بقتلهم أن الله يهلكهم ، ولذلك يكثر أن يقال : قاتله الله ، ثم أجري مجرى اللعن والتحقير والتعجيب من سوء أحوال المدعو عليه بمثل هذا .

وجملة الدعاء لا تعطف لأنها شديدة الاتصال بما قبلها مما أوجب ذلك الوصف لدخولهم في هذا الدعاء ، كما كان تعقيب الجمل التي قبلها بها إيماء إلى أن ما قبلها سبب للدعاء عليهم ، وهذا من بديع الإيجاز .

والخرص : الظن الذي لا حجة لصاحبه على ظنه ، فهو معرَّض للخطأ في ظنه ، وذلك كناية عن الضلال عمداً أو تساهلاً ، فالخرّاصون هم أصحاب القول المختلف ، فأفاد أن قولهم المختلف ناشىء عن خواطر لا دليل عليها .

وقد تقدم في الأنعام (116) ﴿ إن يتّبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ فالمراد هنا الخرص بالقول في ذات الله وصفاته .

واعلم أن الخرص في أصول الاعتقاد مذموم لأنها لا تبنى إلا على اليقين لخطر أمرها وهو أصل محل الذم في هذه الآية .

وأما الخرص في المعاملات بين الناس فلا يذم هذا الذمَّ وبعضه مذموم إذا أدى إلى المخاطرة والمقامرة .

وقد أذن في بعض الخرص للحاجة .

ففي الموطأ ﴾ عن زيد بن ثابت وأبي هريرة "أن النبيء صلى الله عليه وسلم رخّص في بيع العرايا بخرصها" يعني في بيع ثمرة النخلات المعطاة على وجهة العَرِيَّة وهي هبة مالك النخل ثمر بعض نخله لشخص لسنة معينة فإن الأصل أن يقبِض ثمرتها عند جذاذ النخل فإذا بَدَا

لصاحب الحائط شراءُ تلك الثمرة قبل طيبها رخص أن يبيعها المُعْرَى (بالفتح) للمُعْرِي بالكسر إذا أراد المعري ذلك فيخرص ما تحمِله النخلات من الثمر على أن يعطيه عند الجذاذِ ما يساوي ذلك المخروص إذا لم يكن كثيراً وحُدد بخمسة أوسق فأقل ليدفع صاحب النخل عن نفسه تطرق غيره لحائطه ، وذلك لأن أصلها عطية فلم يدخل إضرار على المُعرِي من ذلك .

والغمرة : المرة من الغمر ، وهو الإحاة ويفسرها ما تضاف إليه كقوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ﴾ [الأنعام : 93] فإذا لم تقيد بإضافة فإن تعيينها بحسب المقام كقوله تعالى : ﴿ فذرهم في غمرتهم حتى حين ﴾ في سورة المؤمنين (54) .

(55/725)

والمراد : في شغل ، أي مَا يشغلهم من معاداة الإسلام شغلاً لا يستطيعون معه أن يتدبروا في دعوة النبيء .

والسهو : الغفلة .

والمراد أنهم معرِضون إعراضاً كإعراض الغافل وما هم بغافلين فإن دعوة القرآن تقرع أسماعهم كل حين واستعمال مادة السهو في هذا المعنى نظير استعمالها في قوله تعالى : ﴿

الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ [الماعون : 5] .

يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12)

هذه الجملة يجوز أن تكون حالاً من ضمير ﴿ الخراصون ﴾ [الذاريات : 10] وأن تكون استئنافاً بيانياً ناشئاً عن جملة ﴿ قتل الخراصون ﴾ [الذاريات : 10] لأن جملة ﴿ قتل الخراصون ﴾ أفادت تعجيباً من سوء عقولهم وأحْوالهم فهو مثار سؤال في نفس السامع يتطلب البيان ، فأجيب بأنهم يسألون عن يوم الدين سؤال متهكمين ، يعنون أنه لا وقوع ليوم الدين كقوله تعالى : ﴿ عمّ يتساءلون * عن النبأ العظيم * الذي هم فيه مختلفون ﴾ [النبأ : 31] .

و ﴿ أيان يوم الدين ﴾ مقول قول محذوف دلّ عليه ﴿ يسألون ﴾ لأن في فعل السؤال معنى القول .

فتقدير الكلام : يقولون : أيان يوم الدين .

ولك أن تجعل جملة ﴿ أيان يوم الدين ﴾ بدلاً من جملة ﴿ يسألون ﴾ لتفصيل إجماله وهو من نوع البدل المطابق .

و ﴿ أيان ﴾ اسم استفهام عن زمان فعل وهو في محل نصب مبنيّ على الفتح ، أي متى يوم الدين ، ويوم الدين زمان فالسؤال عن زمانه آيل إلى السؤال باعتبار وقوعه ، فالتقدير : أيان

وقوع يوم الدين ، أو حلوله ، كما تقول : متى يوم رمَضان أي متى ثبوته لأن أسماء الزمان حقها أن تقع ظروفاً للأحداث لا للأزمنة .

(56/725)

وجملة ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ جواب لسؤالهم جرى على الأسلوب الحكيم من تلقي السائل بغير ما يتطلب إذ هم حين قالوا : أيّان يوم الدين ، أرادوا التهكم والإحالة فتُلقِّي كلامُهم بغير مرادهم لأن في الجواب ما يشفي وقع تهكمهم على طريقة قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيتُ للناس والحج ﴾ [البقرة : 189] .

والمعنى : يوم الدين يقع يوم تُصْلَوْن النار ويقال لكم : ذوقوا فتنتكم .

وانتصب ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ على الظرفية وهو خبر عن مبتدأ محذوف دل عليه السؤال عنه بقولهم : أيام يوم الدين .

والتقدير : يومُ الدين يومَ هم على النار يفتنون .

والفَتْن : التعذيب والتحريق ، أي يوم هم يعذبون على نار جهنم وأصل الفَتْن الاختيار .

وشاع إطلاقه على معان منها إذابة الذهب على النار في البُوتَقة لاختيار ما فيه من معدن غيرِ ذهب ، ولا يذاب إلا بحرارة نار شديدة فهو هنا كناية عن الإحراق الشديد .

وجملة ﴿ ذوقوا فتنتكم ﴾ مقول قول محذوف دل عليه الخطاب ، أي يقال لهم حينئذٍ ، أو مقولاً لهم ذوقوا فتنتكم ، أي عذابكم .

والأمر في قوله : ﴿ ذوقوا ﴾ مستعمل في التنكيل .

والذوق : مستعار للإحساس القوي لأن اللسان أشد الأعضاء إحساساً .

وإضافة فتنة إلى ضمير المخاطبين يومئذ من إضافة المصدر إلى مفعوله .

وفي الإضافة دلالة على اختصاصها لهم لأنهم استحقوها بكفرهم ، ويجوز أن تكون الإضافة من إضافة المصدر إلى فاعله .

والمعنى : ذوقوا جزاء فتنتكم .

قال ابن عباس : أي تكذيبكم .

ويقوم من هذا الوجه أن يجعل الكلام موجَّهاً بتذكير المخاطبين في ذلك اليوم ما كانوا يفتنون به المؤمنين من التعذيب مثل ما فتنوا بلالاً وخبَّاباً وعَماراً وشميسة وغيرهم ، أي هذا جزاء فتنتكم .

(57/725)

وجعل المذوق فتنتهم إظهاراً لكونه جزاء عن فتنتهم المؤمنين ليزدادوا ندامة قال تعالى موعداً إياهم ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ [البروج : 10] .

وإطلاق اسم العمل على جزائه وارد في القرآن كثيراً كقوله تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تُكذّبون ﴾ [الواقعة : 82] أي تجعلون جزاء رزق الله إياكم أنكم تُكذّبون وحدانيته .

والإشارة في قوله : ﴿ هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴾ إلى الشيء الحاضر نصب أعينهم ، وهكذا الشأن في مثله تذكير اسم الإشارة كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ إنها بقرة لا فارض ولا بِكْر عَوَانٌ بين ذلك ﴾ في سورة البقرة (68) .

ومعنى ﴿ كنتم به تستعجلون ﴾ كنتم تطلبون تعجيله فالسين والتاء للطلب ، أي كنتم في الدنيا تسألون تعجيله وهو طلب يريدون به أن ذلك محال غير واقع .

وأقوالهم في هذا كثيرة حكاها القرآن كقوله : ﴿ ويقولون متى هذ الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [الملك : 25] .

والجملة استئناف في مقام التوبيخ وتعديد المجارم ، كما يقال للمجرم : فعلت كذا ، وهي من مقول القول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

16. والسماء ذات الحبك *

بقلم الدكتور : زغلول النجار

يستهل ربنا (تبارك وتعالي) سورة الذاريات بالقسم بعدد من آياته الكونية , الدالة علي طلاقة قدرته , وكمال علمه , وتمام حكمته , وشمول سلطانه علي أن ما وعد به خلقه من البعث والحساب , هو وعد صادق , وأن الجزاء علي كل ما يفعله العبد في هذه الحياة الدنيا أمر محقق , واقع , لا فكاك منه , ولا هروب عنه . . . ! ! !

ثم يعاود ربنا (تبارك وتعالي) القسم مرة أخري , في نفس السورة بالسماء ذات الحبك علي أن الناس - بصفة عامة - وكفار قريش - بصفة خاصة - مختلفون في أمور الدين اختلافا كبيرا , وذلك لانطلاقهم فيه من منطلق التخرصات والظنون , والخلط بين ميراث البشرية من بقايا الهدايات الربانية القديمة , والانحرافات البشرية المبتدعة عن بواعث الهوي

والضلال , فقد كان كفار قريش يعترفون بأن الله (تعالي) هو خالق السماوات والأرض , وخالق كل شيء , ولكنهم كانوا في نفس الوقت يعبدون الأصنام بدعوي أنها تقربهم الي الله زلفي , ويزعم أنها تشفع لهم عند الله (تعالي) , كما كانوا يعرفون عن سيدنا محمد (صلي الله عليه وسلم) أنه الصادق الأمين , وصاحب الخلق العظيم , ولكن تغير حكمهم فجأة حين جاءهم بوحي السماء , فألقوا عليه من التهم الباطلة ما يتنافي مع كل ما عرفوه عنه فاتهموه (شرفه الله تعالي وكرمه) بالسحر , والشعوذة , وبالشعر ,

والكهانة , بل بالجنون , وكان ذلك كله في محاولة يائسة لصرف الناس عن التوحيد الخالص لله الخالق - بغير شريك ولا شبيه ولا منازع - وعن التسليم لهذا الدين الخاتم , ومن ركائزه الإيمان بحتمية البعث والحساب ,

ثم الخلود في حياة

أبدية قادمة , إما في الجنة أبدا أو في النار أبدا . . . ! !

(59/725)

وصرف الناس عن الحق إضلال لهم , وهدر لحياتهم , وإفشال لدورهم في هذه الحياة , ومن هنا كانت جريمة من أفظع الجرائم وأقبحها عند الله , ولذلك وصفها (تبارك وتعالي)

بـالإفك , وهو صرف الشيء عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه من مثل الانصراف عن الحق الي الباطل في الاعتقاد , وعن الصدق الي الكذب في المقال , وعن الجميل الي القبيح في الأفعال . . . ! ! !

ومن هنا , كان التعبير بـالمأفوك في اللغة عمن صرف عقله , أي ضاع عقله منه , فأصبح فاقد العقل والمنطق .

ومن هنا أيضا كان هذا القسم القرآني :

والسماء ذات الحبك * إنكم لفي قول مختلف * يؤفك عنه من أفك * قتل الخراصون * الذين هم في غمرة ساهون * يسألون أيان يوم الدين * يوم هم علي النار يفتنون * ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون (الذاريات : 7 ـ 14) .

ومعني ذلك أن الكافرين في قول مختلف , مضطرب , وحيرة بالغة , وقلق دائم , وأوهام مفزعة , وظنون مضيعة في أمر الدين ـ بصفة عامة ـ وفي أمر الآخرة ـ بصفة خاصة ـ وما تستلزمه من بعث وحساب , وجنة ونار . . . ! ! !

ومع التسليم الكامل بأن الله (تعالي) غني عن القسم لعباده , وبأن القسم إنما يأتي في القرآن الكريم من قبيل تنبيهنا الي أهمية الأمر المقسوم به في تنظيم الكون , واستقامة الحياة علي الأرض , أو فيهما معا يبقي السؤال : ما المقصود بالسماء ذات الحبك التي استوجبت هذا القسم القرآني العظيم ؟

وللإجابة علي ذلك , نبدأ بشرح المدلول اللغوي للفظة الحبك

الحبك في اللغة العربية

لفظة (الحبك) مستمدة من الفعل (حبك) , بمعني شد وأحكم يقال :(حبك) الأمر (يحبكه

)(حبكا) , كما يقال :(أحبك) الأمر (يحبكه)(حبكا) و (إحباكا) أي شده وأحكمه .

ويقال :(حبك) النساج الثوب , أي أجاد نسجه , و (حبك) الحائك الثوب أي

أجاد صنعه , وضبط أبعاده , فالأمر (المحبوك) المحكم الصنعة , وكذلك (الحبيك) و (الحبيكة) أي (المحبوك) و (المحبوكة) , قال ابن الأعرابي : كل شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد (أحبكته) .

كذلك يقال في اللغة :(حبك) الأمر (يحبكه)(تحبيكا) , أي وثقه وشدده ويقال :(تحبك) ثوبه أي التف به وشد (الحبكة) , و (احتبك) الثوب أي (حبكه) حول جسده , و (احتبك) بالإزار أي احتزم به , و (الحبكة) هي مشد الإزار أو ما يشد به الوسط , و (

المحبك) هو مكان شد الإزار من الجسم , و (الاحتباك) شد الإزار , و (الحبكة)

والحبيكة تطلق علي الحظيرة تكون بقصبات تعرض ثم تشد أو هي الطريقة في الرمل ونحوه

اذا هبت عليه رياح لطيفة أو أمواج متحركة , والجمع (حباك) و (حبك) و (حبائك) ,

فالتموجات التي تظهر علي صفحة الرمل اذا هبت عليه الرياح أو جرت عليه التيارات

المائية تسمي (حبكا) و (حبائك) ومفردها (حبيكة) أو ما يطلق عليه اليوم اسم

علامات النيم , ودرع الحديد لها حبك .

و(الحبيكة) وجمعها (حبائك) و (حبك) هي الطريق من خصل الشعر ونحوه , فالشعرة

الجعدة تكسرها (حبك) , وفي حديث الدجال أن شعره (حبك) , وعلي ذلك يقال :

فلان رأسه (حبك) أي شعر رأسه متكسر من الجعودة .

وقد جاءت لفظة (الحبك) في القرآن الكريم مرة واحدة فقط , وذلك في قول الحق (تبارك

وتعالي) :

والسماء ذات الحبك ❊

ومن الاستعراض اللغوي السابق , يتضح أن من معاني ذلك :

1 ـ السماء ذات الصنع المحكم والإبداع في الخلق .

2 ـ السماء ذات الروابط الشديدة والنسيج المحكم .

3 ـ السماء ذات التباين الواضح في كثافة المادة المكونة لها .

4 ـ السماء ذات المدارات المحددة لجميع الأجرام الجارية فيها .

آراء

المفسرين

في تفسير القسم القرآني : والسماء ذات الحبك ذكر ابن كثير (

(61/725)

يرحمه الله) قول ابن عباس (رضي الله تبارك وتعالي عنهما) : ذات الحبك أي ذات الجمال والبهاء , والحسن والاستواء , أي ذات الخلق الحسن المستوي , وهو ما قال به أيضا كل من مجاهد , وعكرمة , وسعيد بن جبير , والسدي , وقتادة وغيرهم من قدامي المفسرين (يرحمهم الله جميعا) .

كذلك أشار ابن كثير الي قول الضحاك (يرحمه الله) : الرمل والزرع اذا ضربته الريح فينسج بعضه بعضا طرائق طرائق , فذلك الحبك , والي قول أبي صالح (يرحمه الله) ان ذات الحبك أي ذات الشدة , والي قول خصيف (رحمة الله عليه) ان ذات الحبك , تعني ذات الصفاقة أي الشفافية والرقة , والي قول الحسن البصري (رضي الله عنه) أنها حبكت بالنجوم , والي قول عبد الله بن عمرو (رحمه الله) : والسماء ذات الحبك , يعني السماء

السابعة , ويلخص ابن كثير كل هذه الأقوال بأنها ترجع الي شيء واحد وهو الحسن والبهاء كما قال ابن عباس (رضي الله تبارك وتعالي عنهما) , فإنها من حسنها مرتفعة , شفافة , صفيقة , شديدة البناء , متسعة الأرجاء , أنيقة البهاء , مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات , موشحة بالكواكب الزاهرات .

وذكر مخلوف (يرحمه الله) أن الله (تعالي) : أقسم بالسماء ذات الطرق التي تسير فيها الكواكب , وهي من بدائع الصنع , جمع (حبيكة) , كطريقة وزنا ومعني , أو (حباك) كمثل ومثال , و (الحبيكة) و (الحباك) : الطريقة في الرمل ونحوه , ويقال :(حبك) لما يري في الماء أو الرمل اذا مرت به الريح اللينة من التكسر والتثني , أو ذات الخلق السوي الجيد , من قولهم (حبك) الثوب (يحبكه) (حبكا) , أجاد نسجه , وكل شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد (احتبكته) , وجواب القسم : إنكم لفي قول مختلف * . . . .

وذكر صاحب الظلال (يرحمه الله) : يقسم بالسماء المنسقة المحكمة التركيب , كتنسيق الزرد (أي الدرع) المتشابك

المتداخل الحلقات . . . , وقد تكون هذه إحدي هيئات السحب في السماء حين تكون موشاة كالزرد , مجعدة تجعد الماء والرمل اذا ضربته الريح , وقد يكون هذا وضعا دائما لتركيب الأفلاك ومداراتها المتشابكة المتناسقة .

وذكر الصابوني (أمد الله في عمره) في شرح قول الحق (سبحانه وتعالي) :

والسماء ذات الحبك : أي وأقسم بالسماء ذات الطرائق المحكمة والبنيان المتقن .

السماء ذات الحبك في المفهوم العلمي

تفيد المعلومات المتوفرة عن الجزء المدرك من السماء الدنيا , أن لتلك السماء من الصفات مايلي :

(أ) أنها شاسعة الاتساع , عظيمة البناء , متقنة الخلق والصنعة .

(ب) أنها ذات ترابط محكم شديد في كل جزئية من جزئياتها .

(ج) أنها ذات كثافات متباينة في مختلف أجزائها .

(د) أنها ذات مدارات محددة لكل جرم من أجرامها , علي الرغم من تعاظم أعدادها واستمرارية سبحها .

(أ) والسماء ذات الحبك , بمعني ذات الإحكام في الخلق

يحصي علماء الفلك في الجزء المدرك من الكون مائتي بليون مجرة علي الأقل , وتتفاوت هذه المجرات في الشكل , وفي الحجم , وفي الكتلة , وفي سرعة الدوران حول محورها , وسرعة

الجري في تباعدها عنا , وفي مراحل تطور نجومها , وفي ميلاد تلك النجوم واندثارها , فمنها المجرات البيضانية , والحلزونية , وغير المنتظمة والغريبة في الشكل , ومنها المجرات القزمة (التي لا يكاد قطرها يتعدي 3200 سنة ضوئية) , ومنها المجرات العملاقة (التي يصل طول قطرها الي 750,000 سنة ضوئية) , وتقدر كتلة أصغر المجرات المعروفة لنا بنحو مليون مرة قدر كتلة شمسنا , بينما تصل كتلة أكبر المجرات المعروفة لنا بنحو تريليون (أي مليون مليون) مرة قدر كتلة شمسنا , وتبلغ كتلة مجرتنا (الطريق اللبني) حوالي 230 بليون مرة قدر كتلة شمسنا .

وتتجمع المجرات في مجموعات محلية

(LocalGroups)

تضم العشرات من

المجرات

(Galaxies),

وتلتقي المجموعات المحلية في وحدات أكبر تسمي باسم التجمعات المجرية

GalacticClusters),

التي تضم مئات الي عشرات الآلاف من مختلف أنواع المجرات , والتي تعرف العلماء علي

آلاف منها , وتلتقي تلك في وحدات أكبر تعرف باسم (المجموعات المحلية العظمي)

(TheLocalSupergrups)

التي تتجمع بدورها في وحدات أكبر تعرف باسم التجمعات المجرية العظمي

(GalacticSuperclusters)

والتي تحوي مائة تجمع مجري , وقد حصي علماء الفلك منها 16 تجمعا في مسافة تقدر

بحوالي عشرين بليون سنة ضوئية منا , وترتقي التجمعات المجرية العظمي الي وحدات

أعظم , تعرف باسم تجمعات التجمعات المجرية العظمي

(ClustersofGalacticSuperclusters)

الي نهاية لا يعلمها إلا الله (تعالي) .

أ- شدة تماسك اجزاء السماء من مرحلة الايونات الى مرحلة الذرات الى بداية الاندماج

النووى وتخليق العناصر وتكون المجرات

ب- مدارات كواكب المجموعة الشمسية شديدة الاحكام

والتجمع المجري الأعظم الذي تنتسب إليه مجرتنا يضم مائة من التجمعات المجرية علي هيئة

قرص يبلغ قطره مائة مليون من السنين الضوئية , وسمكه عشر ذلك (أي عشرة ملايين من السنين الضوئية) وهي نفس النسبة بين طول قطر مجرتنا وسمكها .

وقد اكتشف مؤخرا تجمع مجري عظيم يبلغ طوله بليون ونصف البليون من السنين الضوئية , ومائتي مليون سنة ضوئية في أقصر أبعاده .

وتدرس السماء الدنيا في شرائح تقدر أبعادها بحوالي 150 مليونا *100 مليون *15 مليونا من السنين الضوئية , ووصل أطولها الي 250 مليون سنة ضوئية , وتسمي باسم الحائط العظيم

(TheGreatWall)

وبعد إطلاق القمر الصنعي المعروف باسم مستكشف الخلفية الإشعاعية للكون في سنة 1989 م تمكن العلماء من إدراك ستة نطق متمركزة حول ما يعتقد بأنه مركز الانفجار العظيم الذي نشأ عنه الكون , وذلك علي النحو التالي :

(1) نطاق الانفجار العظيم (نطاق كرة النار الأولي) :

ويمتد بقطر يقدر بحوالي بليون سنة ضوئية حول نقطة يعتقد بأنها مركز الانفجار الكوني العظيم .

(2) النطاق الغامض : ويضم سحبا بيضاء كثيفة تحيط نطاق الانفجار العظيم بسمك يصل الي بليوني سنة ضوئية .

(3) النطاق بعد النطاق الغامض : ويضم سحبا من دخان السماء تغلف النطاق الغامض بسمك يتراوح بين بليونين الي ثلاثة بلايين من السنين الضوئية .

(4) نطاق أشباه النجوم السحيقة : ويضم أكثر أشباه النجوم بعدا عنا , ويمتد بسمك يقدر بحوالي خمسة بلايين من السنين الضوئية حول النطاق السابق .

(5) نطاق أشباه النجوم القديمة : ويضم أقرب أشباه النجوم إلينا , ويمتد بسمك يقدر بحوالي سبعة بلايين من السنين الضوئية حول نطاق أشباه النجوم السحيقة .

(6) نطاق المجرات : ويحيط النطق السابقة كلها بسمك يقدر بحوالي أربعة بلايين من السنين الضوئية .

وعلي ذلك , فإن قطر الجزء المدرك من السماء الدنيا يقدر

بحوالي 23 بليون سنة ضوئية علي الأقل .

ومجرتنا (سكة التبانة أو درب اللبانة أو الطريق اللبني) تعتبر في هذا الحشد هباءة منثورة في السماء الدنيا , التي لا يعلم حدودها إلا الله (تعالي) . وهي عبارة عن قرص مفرطح

يبلغ طول قطره حوالي مائة ألف سنة ضوئية , ويبلغ سمكه عشرة آلاف من السنين الضوئية , ويضم ما بين مائة بليون الي تريليون (مليون مليون) نجم في مراحل مختلفة من العمر , منها نجوم النسق العادي كشمسنا , ومنها العماليق الحمر , والعماليق الكبار , ومنها النجوم الزرقاء شديدة الحرارة , ومنها الأقزام البيض الباردة نسبيا , ومنها النجوم النيوترونية , والنجوم الخانسة الكانسة (الثقوب السود) ومنها أشباه النجوم وغيرها .

وكما أن لشمسنا توابع من الكواكب والكويكبات , والأقمار والمذنبات التي تكون مجموعتنا الشمسية , فإنه من المنطقي أن يكون لكل نجم من هذه الملايين من النجوم توابعه الخاصة به .

(65/725)

وتقدر كتلة مجرتنا (سكة التبانة) بحوالي 4,6*3810 طن ,[أي بمائتين وثلاثين بليون مرة قدر كتلة شمسنا (والمقدرة بحوالي 333,000 مرة قدر كتلة الأرض والمقدرة بحوالي ستة آلاف مليون مليون مليون طن)] .

وتدور مجرتنا دورة كاملة حول مركزها في مدة تقدر بحوالي 250 مليون سنة من سنيننا , وهذا هو يومها .

والنجوم في مجرتنا إما مفردة أو ثنائية أو عديدة , وهي تدور جميعا حول مركز المجرة بطريقة موازية أو متعامدة أو مائلة علي خط استواء المجرة .

ولمجرتنا نواة تحتوي علي حشد كثيف من النجوم , وحلقة من غاز الإيدروجين تدور حوله , ويمتد قطر النواة لعشرات السنين الضوئية حول المركز الهندسي للمجرة , والنواة ذات نشاط إشعاعي واضح بما يشير الي وجود نجم خانس كانس (ثقب أسود) في مركزها تقدر كتلته بمائة مليون مرة قدر كتلة شمسنا , ويحيط بنواة المجرة انبعاج يعرف باسم الانبعاج المجري , كما يحيط

بالانبعاج المجري قرص المجرة بسمك يصل الي ستين ألف سنة ضوئية , ويتكون من نجوم وغازات وأتربة (دخان) تزيد كتلتها عن نصف كتلة المجرة , وتبعد شمسنا عن مركز القرص بمسافة ثلاثين ألف سنة ضوئية , وعن أقرب أطراف المجرة بمسافة عشرين ألف سنة ضوئية , وتجري شمسنا ومعها مجموعتها الشمسية (شمس + تسع كواكب علي الأقل +61 قمرا + عدد من الكويكبات والمذنبات) حول مركز المجرة بسرعة تقدر بثلاثمائة كيلومتر في الثانية , لتتم دورتها في مائتي مليون سنة , ولمجرتنا أربعة أذرع حلزونية تبلغ سمك أطرافها 2600 من السنين الضوئية , ويحيط بها هالة اسطوانية تمتد الي مائتي ألف سنة ضوئية طولا , وعشرين ألف سنة ضوئية سمكا .

وهالة مجرتنا تنقسم الي نطاق داخلي يضم عددا من النجوم المتباعدة عن بعضها البعض ,

ونطاق وسطي سميك يتكون من مادة قاتمة وغازات منخفضة الكثافة , ونطاق خارجي علي هيئة حزام إشعاعي يمتد الي مسافات شاسعة .

(66/725)

وتجري مجموعتنا الشمسية في وضع مائل علي خط استواء المجرة , دون تصادم أو خروج عن مداراتها المحددة .

ويعتقد بوجود أكثر من نجم خانس كانس في مجرتنا , بالإضافة الي الموجود في مركزها , تم اكتشاف أحدها في سنة 1971 م في كوكبة الدجاجة مع نجم مرئي مرافق تقدر كتلته بحوالي ثلاثين مرة قدر كتلة الشمس .

وكل من المادة والطاقة يتحرك في مجرتنا . كما يتحرك في كل الجزء المدرك من السماء الدنيا . من أجرام تلك السماء الي دخانها وبالعكس في حركة شديدة الانضباط والإحكام , فالنجوم الابتدائية تتولد من التكثف الشديد لدخان السماء فيما يعرف باسم السحب الجزيئية فتنكمش تلك السحب الكثيفة , وتنهار مادتها في المركز بمعدل أسرع من انهيارها في الأطراف , ولأن النواة المنهارة تدور بسرعات فائقة , فإن أجزاءها الخارجية تتشكل علي هيئة قرص , وتظل عملية تكثيف المادة وتراكمها في تصاعد مما يؤدي الي ارتفاع

درجة حرارة

النواة باطراد , حتي تصل الي الدرجة اللازمة لبدء التفاعلات النووية , فيولد النجم .

ونجوم النسق الرئيسي تمثل المرحلة الأساسية في حياة نجوم السماء الدنيا (حيث تمثل 90 من حياة النجم) , وعند الشيخوخة تسلك النجوم الهرمة مسلكا من اثنين حسب كتلة المادة والطاقة فيها , فإذا كانت كتلة النجم في حدود 1,4 من كتلة الشمس , فإنه يتوهج بدرجة فائقة علي هيئة عملاق أحمر ثم يتحول الي نجم أزرق شديد الحرارة وسط هالة من الايدروجين المتأين (أي الحامل لشحنة كهربائية) يعرف باسم السديم الكوكبي الذي سرعان ما يتبرد وينكمش علي هيئة تعرف باسم القزم الأبيض , وقد تدب الحياة مرة أخري في ذلك القزم الأبيض , فيعاود الانفجار علي هيئة عملاق أحمر , ويعود قزما أبيض أكثر من مرة حتي ينتهي به العمر فينفجر علي هيئة مستعر أعظم من النسق الأول وتنتهي مادته وطاقته الي دخان السماء فتدخل أو لا تدخل في دورة ميلاد نجم جديد .

(67/725)

أما اذا تراوحت كتلة النجم بين 1,4 من كتلة الشمس الي ثلاثة أضعاف كتلة الشمس , فإن توهجه يزداد زيادة ملحوظة في شيخوخته متحولا الي عملاق أعظم

(Supergiant),

ثم ينفجر علي هيئة مستعر أعظم من النسق الثاني

(TypeIISupernova)

عائدا جزئيا الي دخان السماء علي هيئة بقايا المستعر الأعظم

(SupernovaRemnants),

ومكدسا جزءا من كتلته علي هيئة ما يعرف باسم النجم النيوتروني

(NeutronStar)

وهو نجم قزم , منكدر , لا يتعدي قطره ستة عشر كيلومترا , سريع الدوران حول محوره بمعدلات فائقة , تنتج أحيانا تيارا من الموجات الراديوية التي يمكن الاستدلال عليه بها , لما تبثه من نبضات راديوية منتظمة يمكن تسجيلها بواسطة المرقاب الراديوي .

واذا تعدي حجم النجم ثلاثة أضعاف كتلة الشمس , فإن ناتج الانفجار يكون نجما خانسا كانسا (ثقبا أسود) .

هذه الصورة للجزء المدرك من الكون تعكس شيئًا عن ضخامة ذلك البناء , ودقة بنائه , وشساعة أبعاده , واتقان صنعته , وروعة خلقه , وإحكام كل جزئية فيه وهي من معاني (حبك) الصنعة , ومن هنا كان وصف السماء بأنها ذات (حبك) .

(ب) السماء ذات الحبك بمعني ذات الترابط المحكم الشديد :

ج- شدة الترابط فى داخل نواة ذرة الكربون 10- 11 ملليمتر

د - مجرة حلزونية بها بلايين النجوم المرتبطة بالجاذبية

هذه الأعداد المذهلة مما عرفنا من أجرام الجزء المدرك من السماء الدنيا (وهي لا تمثل أكثر من 10

من مجموع كتلة ذلك الجزء المدرك) , لابد لها من قوي تعمل علي إحكام تماسكها بشدة , وتماسك مختلف الأجرام وصور المادة وأشكال الطاقة فيها , وإلا لزالت وانهارت ,

وسبحان القائل :

إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا *)(فاطر : 41) .

ولله في إمساك السماوات والأرض عدد من السنن , والقوي التي استطاع الإنسان التعرف علي شيء منها , كمايلي :

(1) القوة الشديدة أو القوة النووية

وهي القوة التي تقوم بربط الجسيمات الأولية للمادة في داخل نواة الذرة (من مثل البروتونات والنيوترونات) , وعلي التحام نوي الذرات مع بعضها البعض في عمليات الاندماج النووي (التي تتم بداخل النجوم) , وهي أشد أنواع القوي المعروفة لنا في مادة الجزء المدرك من الكون , ولو أن هذه الشدة البالغة عبر الأبعاد الضئيلة تتضاءل بشدة عبر المسافات الكبيرة , فدورها يكاد يكون منحصرا في داخل نوي الذرات , وبين تلك النوي ومثيلاتها , وتحمل هذه القوة علي جسيمات تسمي اللاحمة أو جليون

(Gluon)

لم تكتشف إلا في أواخر السبعينيات من القرن العشرين .

(2) القوة الضعيفة : وتساوي 10 . 13 من شدة القوة النووية الشديدة , وتعمل علي تفكك الجسيمات الأولية للمادة في داخل الذرة , كما يحدث في تحلل العناصر المشعة , وتؤثر علي جميع أنواع تلك الجسيمات , وتحمل هذه

القوة علي جسيمات تسمي البوزونات

(Bosons)

وهي إما سالبة أو عديمة الشحنة .

(3) القوة الكهرومغناطيسية : وتساوي 1/137 من شدة القوة النووية الشديدة , وتؤدي الي حدوث الاشعاع الكهرومغناطيسي علي هيئة فوتونات أو ما يعرف باسم الكم

الضوئي تنطلق بسرعة الضوء لتؤثر علي جميع الجسيمات التي تحمل شحنات كهربية ومن ثم فهي تؤثر في جميع التفاعلات الكيميائية .

(69/725)

---

(4) قوة الجاذبية : وهي أضعف القوي المعروفة علي المدي القصير (10 . 39 من القوة النووية الشديدة) , ولكن نظرا لطبيعتها التراكمية فإنها تتزايد باستمرار علي البعد حتي تصبح القوة الحاكمة علي اتساع السماء والأرض (أي علي اتساع الكون) بعد ارادة الله الخالق (سبحانه وتعالي) , حيث تمسك بمختلف أجرام السماء وتجمعاتها من الكواكب وأقمارها , والنجوم ومجموعاتها , والتجمعات النجمية بمختلف مراتبها (المجرات , التجمعات المحلية , التجمعات المجرية , التجمعات المحلية العظمي , التجمعات المجرية العظمي الي نهاية لا يعلمها إلا الله) , وأشباه النجوم , والسدم , وغير ذلك من مختلف صور المادة والطاقة التي تملأ صفحة السماء , ولولا هذا الرباط الذي أوجده الخالق (سبحانه وتعالي) لانفرط عقد الكون .

ويفترض وجود قوة الجاذبية علي هيئة جسيمات خاصة في داخل الذرة لم تكتشف بعد , اقترح لها اسم الجسيم الجاذب أو الجرافيتون

(Graviton),

ويعتقد أنه يتحرك بسرعة الضوء .

وسبحان الذي أنزل من قبل أربعة عشر قرنا قوله الحق :

الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها . . . *

(الرعد :2)

وذلك قبل تعرف الإنسان علي قوة الجاذبية بأكثر من عشرة قرون .

وكما تم توحيد قوتي الكهرباء والمغناطيسية في قوة واحدة هي القوة الكهرومغناطيسية ,

يحاول العلماء جمع كل من القوة الكهرومغناطيسية والقوة النووية الضعيفة فيما يسمي باسم

القوة الكهربائية الضعيفة , حيث لا يمكن فصل

(70/725)

هاتين القوتين في درجات الحرارة العليا , كما يحاولون جمع كل من القوة الكهربية الضعيفة

والقوة النووية في قوة واحدة في عدد من النظريات تسمي نظريات التوحيد الكبري , وجمع

كل ذلك مع الجاذبية فيما يسمي بالجاذبية العظمي يعتقد العلماء أنها كانت القوة الوحيدة

السائدة في درجات الحرارة العليا عند بدء الخلق , ثم تمايزت الي القوي الأربع المعروفة لنا

اليوم , والتي ليست سوي أوجه أربعة لتلك القوة الكونية الواحدة , التي تشهد لله الخالق بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه .

وفي محاولة لجمع كل القوي المعروفة لنا في قوة واحدة اقترح علماء الفيزياء النظرية , مايعرف باسم نظرية الخيوط العظمي والتي تفترض أن اللبنات الأساسية للمادة تتكون من خيوط طولية في حدود 10 . 35 من المتر , تلتف حول ذواتها فتبدو كما لو كانت نقاطا متناهية في الصغر , وتقترح النظرية وجود مادة خفية تتعامل مع المادة العادية عبر الجاذبية .

وهنا يتضح جانب من الوصف القرآني للسماء , بأنها ذات حبك أي ذات ترابط محكم شديد يربط بين جميع مكوناتها , من أدق دقائقها وهي اللبنات الأولية في داخل نواة الذرة , الي أكبر وحداتها وهي التجمعات المجرية العظمي الي كل الكون .

(ج) والسماء ذات الحبك بمعني ذات الكثافات المتباينة في مختلف أجزائها .

يتفاوت متوسط كثافة المادة في صفحة السماء الدنيا , بين واحد من ألف مليون مليون من الجرام للسنتيمتر المكعب (1*10 . 15 جرام / سم 3) في أشباه النجوم , الي حوالي 14 من ألف من الجرام للسنتيمتر المكعب في العماليق العظام (أي واحد من مائة من كثافة الشمس) الي 1,41 جرام للسنتيمتر المكعب في شمسنا , الي طن واحد للسنتيمتر المكعب (610 جرامات / سم 3) في الأقزام البيض , الي بليون طن للسنتيمتر المكعب (1510 جرامات / سم 3) في النجوم النيوترونية , الي أضعاف مضاعفة لتلك الكثافة

في النجوم الخانسة

الكانسة (الثقوب السود) .

(71/725)

واذا انتقلنا من أجرام السماء الي المادة بين كل من النجوم والمجرات , والمادة في السدم وفي دخان السماء , وجدنا درجة أخري من التباين في كثافة المادة السماوية , يجعلها تبدو مجعدة كتجعد الرمل وغيره من الفتات الصخري , اذا مرت به أمواج المياه المندفعة , أو تيارات الرياح اللينة فتحدث بها من التكسر والتثني ما ينطبق مع المدلول اللغوي للفظة (الحبك) .

وتتجسد هذه الصورة في داخل مختلف هيئات تجمع المادة في صفحة السماء من المجموعات النجمية من مثل مجموعتنا الشمسية الي المجرات , الي التجمعات المجرية العظمي في داخل كل وحدة من تلك الوحدات البانية للسماء الدنيا , وبين كل وحدة والوحدات المشابهة لها والأعلي منها رتبة .

(د) والسماء ذات الحبك بمعني ذات المدارات (الطرق) المحددة لكل جرم من أجرامها .

من الأمور المبهرة حقا في الجزء المدرك من السماء الدنيا , كثرة الأجرام فيها بصورة لا يكاد

الإنسان يحصيها , وتعدد مسارات تلك الأجرام , وتباين مستوياتها , دون أدني قدر من التضارب أو الاصطدام إلا بالقدر المقنن والمحسوب بدقة بالغة لحكمة بالغة , حتي في لحظات احتضار النجوم وانكدارها , وطمسها , ثم انفجارها وتناثر أشلائها , وتبخر مادتها , وكذلك في لحظات انفجار الكواكب وتناثرها علي الرغم من كثرة المسارات وتعدد الحركات للجرم الواحد .

ومن هنا نفهم من القسم القرآني بـ والسماء ذات الحبك شمول تلك المدارات المخططة بدقة فائقة , بالإضافة الي روعة البناء , وإحكام الترابط , وتباين الكثافات , وكلها من معاني هذا الوصف المعجز ذات الحبك .

فسبحان الذي أنزل هذا الوصف القرآني من فوق سبع سماوات , ومن قبل ألف وأربعمائة من السنين , أنزله بعلمه الشامل , الكامل , المحيط , ليصف بلفظة (الحبك) هذا الكم من صفات السماء , التي لم تعرف إلا في العقود المتأخرة من القرن

(72/725)

العشرين , ولايمكن لعاقل أن يتصور مصدرا لها غير الإله الخالق (سبحانه وتعالي) .

وقد يري القادمون في هذا الوصف القرآني ما لا نراه الآن , لتظل اللفظة القرآنية مهيمنة علي

المعرفة الانسانية مهما اتسعت دوائرها وتظل دلالاتها تتسع مع الزمن ومع اتساع معرفة الإنسان في تكامل لا يعرف التضاد , وليس هذا لغير كلام الله . . . ! ! !

وتبقي هذه اللمحات الكونية في كتاب الله ـ في اتساع دلالاتها مع الزمن في تكامل لا يعرف التضاد ـ مصدقة لقول الحق (تبارك وتعالي) :

ولتعلمن نبأه بعد حين *(ص : 88)

ولقوله (عز من قائل) :

لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون *(الأنعام : 67)

ولقوله (سبحانه) :

سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه علي كل شيء شهيد *(فصلت : 53)

وتبقي أيضا تصديقا لنبوءة المصطفي (صلي الله عليه وسلم) في وصفه للقرآن الكريم بأنه لا يخلق علي كثرة الترداد , ولا تنقضي عجائبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى وقع)

الوُقوع : مصدر وَقَعَ الشىءُ يَقَعُ وُقوعاً أَى هُوِيّاً .

والوَقْعُ : وَقْعةُ الضَرْبِ بالشىءِ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ أَى واجب على الكفار ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم ﴾ أَى وجب وقيل : ثَبَتَت الحُجَّة عليهم ، وقيل معناه : إذا ظهرت أَماراتُ القِيامة التى تقدّم القول فيها .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ ﴾ أَى ثَبَتَ .

وفى الحديث : "اتَّقُوا النَّارَ ولو بشِقِّ تَمْرة ، فإِنَّها تَقَعُ من الجائع مَوْقِعهَا من الشَبْعان" ، قال بعضهم : أَراد أَنْ شِقّ التمرة لا يُغْنِى من الجُوع ولا يتبيّن له موقع على الجائِع إذا تناوله ، كما لا يتبيّن على الشبْعان إذا أَكله ، فلا تَعْجِزُوا / أَن تَتصدّقوا به .

وقيل : لأَنَّه يَسْأَل هذا شِقَّ تَمْره وذا شِقَّ تمره ، والثالثَ والرابعَ ، فيجتمع له ما يَسُدّ جَوْعته .

ويقال للطَّير على شجر أَو على أَرض : هنّ وُقوعٌ ووُقَّعٌ ، قال المَرَّار بن سعيد الفَقْعَسِىّ :

*أَنا ابْنُ التارك البَكْرى بشْر * عَلَيْه الطَيْرُ تَأْكُله وُقُوعا *

والواقِعَةُ لا تُقال إلاَّ فى الشّدة والمكروه .

وأَكثر ما جاءَ فى القرآن من لفظ وَقَعَ جاءَ فى العذاب والشدائد ، نحو : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ أَى القيامة .

ووُقوع القَوْل : حُصُول مُتضمَّنِه ، قال تعالى : ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيهِم بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ أَى وجب العذاب الَّذى وُعِدُوا لظلمهم ، وقوله تعالى : ﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ استعمال لفظ على مع الوقوع ها هنا تأكيد للوُجوب كاستعمال : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ عبارةٌ عن مُبادَرَتهم إلى السُجود .

والوَقْعَةُ فى

الحَرْب : صَدْمَةٌ بعد صَدْمة .

والاسمُ الوَقِيعَة والواقِعَة .

(74/725)

ووقائع العَرَب أَيامها التى كانت فيها حُروبهم .

والواقِعَة : النازِلَة من شدائد الدّهر .

ومَواقِعُ الغَيْث : مُساقِطَه ، وفى الحديث : "يُوشِكُ أَن يكون خَيْرُ مالِ المُسْلم غَنَماً يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجِبال ومَواقِعَ القَطْر ، يَفِرّ بدِينه مِن الفِتَن"

والوَقْع [و] بكسر القاف : السّحاب الرّقيق .

وبالتحريك : الحِجارَةُ والحَفاءُ ، وقد وَقِعَ كَفَرِحَ .

ورجلٌ وَقَّاعٌ ووَقَّاعَةٌ : يَغْتابُ النّاسَ كثيراً .

وأَوْقَعَ بالقوم : بالَغَ فى قِتالهم .

والرّوضة : أَمسكت الماءَ .

وطريقٌ مُوَقَّع : مُذلَّل ، ورجُلٌ مُوقَّع : أَصابته البَلايا .

ووَقَعَ القَوْمُ : عَرَّسُوا قال ذو الرّمة :

*إذا وَقَّعُوا وَهْناً كَسَوْا حَيْثُ مَوَّتَتْ * من الجَهْد أَنْفاسُ الرّياح الحَواشِكِ*

والاسْتِيقاع : تخوُّف ما يَقَع به ، وهو شبه التَوَقُّع .

[والوِقاعُ] والمواقَعَةُ : المُحاربة ، قال القطامىّ :

*ولو يُسْتَخْبَرُ العُلَماء عَنَّا * ومَنْ شَهِدَ المَلاحِمَ والوِقاعا*

*بِتَغْلِبَ فى الحُروب أَلَمْ يَكُونوا * أَشدَّ قَبائِلِ العُرْب امتناعا*

وقال :

*وكُلُّ قبيلةٍ نَظَرُوا إِلَيْنا * وخَلَّوْا بَيْنَنا كَرِهُوا الوِقاعا*

وواقع المرأَة : خالطها وباضَعها .

وتوقَّعه : انتظر كَوْنَه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 251 .

253 ﴾

(75/725)

فصل

قال الإمام ابن قتيبة :

باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه

من ذلك الدعاء على جهة الذم لا يراد به الوقوع :

كقول اللّه عز وجل : قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10) [الذاريات : 10] ، وقُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ (17) [عبس : 17] ، وقاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ [التوبة : 30] وأشباه ذلك .

ومنه

قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، للمرأة : "عقرى حلقى" "1"

، أي عقرها اللّه ، وأصابها بوجع في حلقها .

وقد يراد بهذا أيضا التعجب من إصابة الرجل في منطقه ، أو في شعره ، أو رميه ، فيقال :

قاتله اللّه ما أحسن ما قال ، وأخزاه اللّه ما أشعره ، وللّه درّه ما أحسن ما احتج به .

ومن هذا قول امرئ القيس في وصف رام أصاب "2" :

فهو لا تنمي رميّته ما له لا عدّ من نفره

يقول : إذا عدّ نفره – أي قومه – لم يعدّ معهم ، كأنه قال : قاتله اللّه ، أماته اللّه .

وكذلك قولهم : هوت أمّه ، وهبلته ، وثكلته .

قال كعب بن سعد الغنوي "3" :

هوت أمّه ما يبعث الصّبح غاديا وما ذا يؤدّي اللّيل حين يؤوب

---

(1) أخرجه البخاري في الحج باب 34 ، 145 ، 151 ، والطلاق باب 43 ، والأدب باب 93 ، ومسلم في الحج حديث 387 ، والبر حديث 8 ، وابن ماجه في المناسك باب 83 ، والدارمي في المناسك باب 73 ، وأحمد في المسند 6/ 123 ، 175 ، 24 ، 253 ، 266 ، والبيهقي في السنن الكبرى 5/ 163 ، وأبو حنيفة في جامع المسانيد 1/ 502 ، والبغوي في شرح السنة 5/ 15 ، وابن حجر في فتح الباري 10/ 550 .

(2) البيت من المديد ، وهو لامرىء القيس في ديوانه ص 125 ، ولسان العرب (نفر) ، (نمي) ، وتهذيب اللغة 15/ 518 ، وتاج العروس (نمي) ، وكتاب العين 8/ 293 ، وأساس البلاغة (نمي) ، والمعاني الكبير 2/ 786 ، 836 ، وبلا نسبة في مقاييس اللغة 5/ 480 .

(3) البيت من الطويل ، وهو لكعب بن سعد الغنوي في الأصمعيات ص 95 ، ولسان العرب (أمم) ، (هوا) ، وتهذيب اللغة 15/ 602 ، 641 ، وجمهرة اللغة ص 229 ، وسمط اللآلي ص 773 ، وجمهرة أشعار العرب ص 703 ، وتاج العروس (أم) ، (هوى) ، وبلا نسبة في تهذيب اللغة 6/ 492 ، 14/ 274 ، والمخصص 12/ 182 ، ولسان العرب (هبل) .

(76/725)

ومن ذلك الجزاء عن الفعل بمثل لفظه والمعنيان مختلفان :

نحو قول اللّه تعالى : إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ [البقرة : 14 ، 15] ، أي يجازيهم جزاء الاستهزاء .

وكذلك : سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ [التوبة : 79] ، وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ [آل عمران : 54] ، وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها [الشورى : 40] ، هي من المبتدئ سيئة ، ومن اللّه ، جل وعز ، جزاء .

وقوله : فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ [البقرة : 194] :

فالعدوان الأول : ظلم ، والثاني : جزاء ، والجزاء لا يكون ظلما ، وإن كان لفظه كلفظ الأول .

ومنه

(قول النبي) صلّى اللّه عليه وسلم : "اللهم إنّ فلانا هجاني ، وهو يعلم أني لست بشاعر ، اللهم والعنه عدد ما هجاني ، أو مكان ما هجاني" "1"

، أي جازه جزاء الهجاء .

وكذلك قوله : نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ [التوبة : 67] .

ومنه أن يأتي الكلام على مذهب الاستفهام وهو تقرير :

كقوله سبحانه : أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ [المائدة : 116] ، وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى (17) [طه : 17] ، وما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ [القصص : 65] ، قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ [الأنبياء : 42] .

ومنه أن يأتي على مذهب الاستفهام وهو تعجب :

كقوله : عَمَّ يَتَساءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) [النبأ : 1 ، 2] ، كأنه قال : عمّ يتساءلون يا محمد ؟ ثم قال : عن النبأ العظيم يتساءلون .

وقوله : لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12) [المرسلات : 12] على التعجب ، ثم قال : لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13) [المرسلات : 13] أجّلت .

---

(1) أخرجه ابن أبي حاتم الرازي في علل الحديث 2283 ، والطحاوي في مشكل الآثار 4/ 300 ، 324 ، والجرح والتعديل 23/ 2 ، 391 ، والبخاري في التاريخ الكبير

4/ 1 ، 44 ، 3/ 2/ 391 ، والعقيلي في الضعفاء 355 ، والذهبي في تاريخ الإسلام 4/ 277 ، والمزي في تهذيب الكمال 446 ، وميزان الاعتدال 3/ 61/ 317 ، وتهذيب التهذيب 7/ 165 ، 8/ 218 .

(77/725)

وأن يأتي على مذهب الاستفهام وهو توبيخ :

كقوله : أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ (165) [الشعراء : 165] .

ومنه أن يأتي الكلام على لفظ الأمر وهو تهديد :

كقوله : اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ [فصلت : 40] .

وأن يأتي على لفظ الأمر وهو تأديب :

كقوله : وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ [الطلاق : 2] ، وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ [النساء : 34] .

وعلى لفظ الأمر وهو إباحة :

كقوله : فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً [النور : 33] ، فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ [الجمعة : 10] .

وعلى لفظ الأمر وهو فرض :

كقوله : وَاتَّقُوا اللَّهَ [البقرة : 282] ، وأَقِيمُوا الصَّلاةَ [الأنعام : 72] ، ووآتُوا الزَّكاةَ [البقرة : 43] .

ومنه عام يراد به خاص :

كقوله سبحانه حكاية عن النبي ، صلّى اللّه عليه وسلم : وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ [الأنعام : 163] ، وحكاية عن موسى : وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ [الأعراف : 143] ولم يرد كل المسلمين والمؤمنين ، لأن الأنبياء قبلهما كانوا مؤمنين ومسلمين ، وإنما أراد مؤمني زمانه ومسلميه .

(78/725)

وكقوله سبحانه : إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ (33) [آل عمران : 33] ، ولم يصطفهم على ، محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، ولا أممهم على أمّته ، ألا تراه يقول : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ [آل عمران : 110] ، وإنما أراد عالمي أزمنتهم .

وكقوله سبحانه : قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا [الحجرات : 14] ، وإنما قاله فريق من الأعراب .

وقوله : وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) [الشعراء : 224] ولم يرد كل الشعراء .

ومنه قوله سبحانه : الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ [آل عمران : 173] ، وإنما قاله نعيم بن مسعود لأصحاب محمد ، صلّى اللّه عليه وسلم إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ، يعني : أبا سفيان ، وعيينة بن حصن ، ومالك بن عوف .

وقوله : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) [الذاريات : 56] ، يريد المؤمنين منهم . يدلك على ذلك قوله في موضع آخر : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ [الأعراف : 179] ، أي خلقنا .

وقوله : يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً [المؤمنون : 51] ، يريد النبي ، صلّى اللّه عليه وسلم ، وحده .

ومنه جمع يراد به واحد واثنان :

كقوله : وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [النور : 2] : واحد واثنان فما فوق .

وقال قتادة في قوله تعالى : إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ [التوبة : 66] - : كان رجل من القوم لا يمالئهم على أقاويلهم في النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، ويسير مجانبا لهم ، فسماه اللّه طائفة وهو واحد .

وكان "قتادة" يقول في قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ [الحجرات : 4] :

هو رجل واحد ناداه : يا محمد ، إنّ مدحي زين ، وإنّ شتمي شين .

فخرج إليه النبي ، صلّى اللّه عليه وسلم

فقال : "ويلك ، ذاك اللّه جل وعز"

ونزلت الآية "1" .

وقوله سبحانه : فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ [النساء : 11] ، أي أخوان فصاعدا .

قوله سبحانه : وَأَلْقَى الْأَلْواحَ [الأعراف : 150] ، جاء في التفسير : أنهما لوحان .

وقوله : إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما [التحريم : 4] ، وهما قلبان .

وقوله : أُولئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمَّا يَقُولُونَ [النور : 26] ، يعني عائشة وصفوان بن المعطّل .

وقال : بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ [النمل : 35] ، وهو واحد ، يدلك على ذلك قوله :

ارْجِعْ إِلَيْهِمْ [النمل : 37] .

ومنه واحد يراد به جميع :

كقوله : هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ [الحجر : 68] ، وقوله : نَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ

[الشعراء : 16] . وقوله : نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا [الحج : 5] .

(1) أخرجه الترمذي في تفسير سورة 49 ، باب 2 ، وأحمد في المسند 3/ 488 ، 6/ 394 .

(80/725)

وقوله : لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ [البقرة : 285] والتفريق لا يكون إلا بين اثنين فصاعدا .

وقوله : فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ (47) [الحاقة : 47] .

والعرب تقول : فلان كثير الدرهم والدينار ، يريدون الدراهم والدنانير .

وقال الشاعر "1" :

هم المولى وإن جنفوا علينا وإنّا من لقائهم لزور

وقال اللّه عز وجل : هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ [المنافقون : 4] ، أي الأعداء ، وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً [النساء : 69] ، أي رفقاء .

وقال الشاعر "2" :

فقلنا : أسلموا إنّا أخوكم وقد برئت من الإحن الصّدور

ومنه أن تصف الجميع صفة الواحد :

نحو قوله : وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا [المائدة : 6] . وقوله : وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ [التحريم : 4] .

وتقول : قوم عدل . قال زهير "3" :

من يشتجر قوم يقل سرواتهم : هم بيننا فهم رضا وهم عدل

وقال الشاعر "4" :

---

(1) البيت من الوافر ، وهو لعامر الخصفي في لسان العرب (جنف) ، (ولى) ، وتاج العروس (ولي) ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة 1/ 66 ، . 67

(2) البيت من الوافر ، وهو لعباس بن مرداس في ديوانه ص 52 ، ولسان العرب (أخا) ، والمقتضب 2/ 174 ، ومجاز القرآن 1/ 79 ، 131 ، 2/ 44 ، 195 ، ومجمع البيان 1/ 365 ، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر 4/ 285 ، وتذكرة النحاة ص 144 ، وجمهرة اللغة ص 1307 ، وخزانة الأدب 4/ 478 ، والخصائص 2/ 422 .

[. . . . .]

(3) البيت من الطويل ، وهو لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص 107 ، والأشباه والنظائر 2/ 385 ، والأضداد ص 75 ، والخصائص 2/ 202 ، وشرح شواهد الإيضاح ص 507 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 213 ، ولسان العرب (رضي) ، وبلا نسبة في المحتسب 2/ 107 .

(4) صدر البيت : يا عاذلاتي لا تردن ملامتي والبيت من الكامل ، وهو بلا نسبة في الخصائص 3/ 174 ، وشرح شواهد المغني 2/ 561 ، ومغني اللبيب 1/ 232 ، ولسان العرب (عذل) ، وتفسير الطبري 19/ 34 ، ومجاز القرآن 2/ 245 .

(81/725)

إنّ العواذل ليس لي بأمير وقال آخر "1" :

المال هدي والنّساء طوالق

ومنه أن يوصف الواحد بالجمع :

نحو قولهم : برمة أعشار وثوب أهدام وأسمال ، ونعل أسماط ، أي غير مطبقة .

قال الشاعر "2" :

جاء الشّتاء وقميصي أخلاق

ومنه أن يجتمع شيئان ولأحدهما فعل فيجعل الفعل لهما :

كقوله سبحانه : فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما [الكهف : 61] .

روي في التفسير : أن النّاسي كان يوشع بن نون ويدلّك قوله لموسى ، صلّى اللّه عليه وسلم : فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ [الكهف : 63] .

وقوله : ا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ

[الأنعام : 130] والرسل من الإنس دون الجن .

وقوله : مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ (19) بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ (20) [الرحمن : 19 ، 20] ثم قال : يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ (22) [الرحمن : 22] . واللؤلؤ والمرجان إنما يخرجان من الماء الملح لا من العذب .

وكذلك قوله : وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها [فاطر : 12] .

وقد غلط في هذا المعنى أبو ذؤيب الهذليّ ولا أدري أمن جهة هذه الآيات غلط

---

(1) الشطر من الكامل ، وهو بلا نسبة في الصاحبي في فقه اللغة ص 181 ، 351 .

(2) يليه :

شراذم يعجب منه التوّاق والرجز بلا نسبة في الأزهية ص 30 ، وجمهرة اللغة ص 619 ، وخزانة الأدب 1/ 234 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 213 ، ولسان العرب (توق) ، (خلق) ، (شرذم) ، وتهذيب اللغة 7/ 30 ، 9/ 256 ، وتاج العروس (خلق) ، (شرذم) ، وجمهرة اللغة ص 619 ، وكتاب العين 6/ 302 ، والاقتضاب ص 12 ، وتفسير الطبري 14/ 14 ، 19/ 47 ، والجمهرة 2/ 240 ، ومعاني القرآن للفراء 1/ 427 .

أم من غيرها ؟ قال يذكر الدّرّة "1" :

فجاء بها ما شئت من لطميّة يدوم الفرات فوقها ويموج

والفرات لا يدوم فوقها وإنما يدوم الأجاج.

ومنه أن يجتمع شيئان فيجعل الفعل لأحدهما ، أو تنسبه إلى أحدهما وهو لهما :

كقوله : وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها [الجمعة : 11] .

وقوله : وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ [التوبة : 62] .

وقوله : وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ (45) [البقرة : 45] .

وقال : عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ [ق : 17] أراد : عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد .

وقال الشاعر "2" :

إنّ شرخ الشّباب والشّعر الأسود ما لم يعاص كان جنونا

وقال آخر "3" :

---

(1) البيت من الطويل ، وهو لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص 134 ،

والمعاني الكبير ص 883 ، وتاج العروس (فرت) ، (لطم) ، وللهذلي في مقاييس اللغة 2/ 256 ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص 1328 ، والمزهر 2/ 502 ، ويروى عجز البيت بلفظ :

تدور البحار فوقها وتموج وهو بهذا اللفظ في شرح أشعار الهذليين ص 134 ، ولسان العرب (دوم) ، (لطم) ، وتاج العروس (دوم) .

(2) البيت من الخفيف ، وهو لحسان بن ثابت في ديوانه ص 282 ، ولسان العرب (شرخ) ، وتهذيب اللغة 7/ 81 ، وجمهرة اللغة ص 92 ، 585 ، وتاج العروس (شرخ) ، وديوان الأدب 1/ 101 ، وأمالي ابن الشجري 1/ 277 ، والكامل 2/ 79 ، ولحسان بن ثابت أو لابنه عبد الرحمن في كتاب الحيوان 3/ 108 ، وكتاب الصناعتين ص 152 ، وبلا نسبة في مقاييس اللغة 3/ 269 ، والمخصص 1/ 38 ، وكتاب الحيوان 6/ 244 ، وكتاب الصناعتين ص 145 ، ومجاز القرآن 1/ 258 ، 2/ 161 ، 3/ 2 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 186 ، ومجمع البيان 1/ 100 ، وتفسير البحر المحيط 1/ 185 ، ومعاني القرآن للفراء 1/ 468 .

)

3) البيت من المنسرح ، وهو لقيس بن الخطيم في ملحق ديوانه ص 239 ، وتخليص الشواهد ص 205 ، والدرر 5/ 314 ، والكتاب 1/ 75 ، والمقاصد النحوية 1/

557 ، ولعمرو بن امرئ القيس الخزرجي في الدرر 1/ 147 ، وشرح أبيات سيبويه 1/ 279 ، وشرح شواهد الإيضاح ص 128 ، ولدرهم بن زيد الأنصاري في الإنصاف 1/ 95 ، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر 3/ 100 ، 6/ 65 ، 7/ 116 ، وأمالي ابن الحاجب 2/ 726 ، وخزانة الأدب 10/ 295 ، 476 ، وشرح

(83/725)

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف

ومنه أن تخاطب الشاهد بشيء ثم تجعل الخطاب له على لفظ الغائب :

كقوله عز وجل : حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها [يونس : 22] .

وقوله : وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39) [الروم : 39] .

وقوله : وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ [الحجرات : 7] ثم قال : أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ [الحجرات : 7] .

قال الشاعر "1" :

يا دار ميّة بالعلياء فالسّند أقوت وطال عليها سالف الأبد

وكذلك أيضا تجعل خطاب الغائب للشاهد :

كقول الهذليّ "2" :

يا ويح نفسي كان جدّة خالد وبياض وجهك للتّراب الأعفر

ومنه أن يخاطب الرجل بشيء ثم يجعل الخطاب لغيره :

كقوله : فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ [هود : 14] ، الخطاب للنبي ، صلّى اللّه عليه وسلم ، ثم قال للكفار :

فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ [هود : 14] يدلك على ذلك قوله :

الأشموني 1/ 453 ، وشرح ابن عقيل ص 125 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 218 ، ولسان العرب (قعد) ، ومغني اللبيب 2/ 622 ، والمقتضب 3/ 112 ، 4/ 73 ، وهمع الهوامع 2/ 109 ، وأمالي ابن الشجري 1/ 265 ، 278 ، وتفسير البحر المحيط 2/ 323 ، 3/ 128 ، ومجمع البيان 1/ 89 ، 100 ، ومعاني القرآن للفراء 1/ 434 ، 445 .

(1) البيت من البسيط ، وهو للنابغة الذبياني في ديوانه ص 14 ، والأغاني 11/ 27 ، والدرر 1/ 274 ، 6/ 326 ، وشرح أبيات سيبويه 2/ 54 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 215 ، والكتاب 2/ 321 ، والمحتسب 1/ 251 ، والمقاصد النحوية 4/

315 ، ولسان العرب (قصد) ، وبلا نسبة في أوضح المسالك 4/ 92 ، ورصف المباني ص 452 ، وشرح الأشموني 2/ 493 ، وشرح التصريح 1/ 140 ، ولسان العرب (سند) ، (جرا) ، (يا) .

(2) البيت من الكامل ، وهو لأبي كبير الهذلي في ديوان الهذليين ص 101 ، وأمالي ابن الشجري 1/ 102 ، وتفسير البحر المحيط 1/ 24 ، ومجمع البيان 1/ 27 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 183 ، وأمالي المرتضى 4/ 139 ، وتفسير الطبري 1/ 52 .

(84/725)

فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [هود : 14] .

وقال : فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى ؟ [طه : 49] .

وقال : فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى [طه : 117] .

وقال : إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (8) [الفتح : 8] ، ثم قال : لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ [الفتح : 9] .

وقال : إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ [النجم : 32] ، يريد أباكم آدم ، صلّى اللّه عليه وسلم .

ومنه أن تأمر الواحد والاثنين والثلاثة فما فوق أمرك الاثنين : فتقول :

افعلا .

قال اللّه تعالى : أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) [ق : 24] ، والخطاب لخزنة جهنم ، أو زبانيتها .

قال الفراء : والعرب تقول : ويلك ارحلاها وازجراها ، وأنشد لبعضهم "1" :

فقلت لصاحبي لا تحبسانا بنزع أصوله واجتزّ شيحا

قال الشاعر "2" :

فإن تزجراني يا ابن عفّان أنزجر وإن تدعاني أحم عرضا ممنّعا

قال الفراء : ونرى أصل ذلك أنّ الرّفقة أدنى ما تكون : ثلاثة نفر ، فجرى كلام الواحد على صاحبيه ، ألا ترى أنّ الشعراء أكثر شيء قيلا : يا صاحبيّ ، ويا خليليّ .

وقال غير الفراء : قال النبي ، صلّى اللّه عليه وسلم : "الواحد شيطان والاثنان شيطانان ، والثلاثة ركب" "3" .

---

(1) البيت من الوافر ، وهو لمضرس بن ربعي في شرح شواهد الشافية ص 481 ، وله أو ليزيد بن الطثرية في لسان العرب (جزز) ، والمقاصد النحوية 4/ 591 ، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر 8/ 85 ، وخزانة الأدب 11/ 17 ، وسر صناعة الإعراب ص 187 ، وشرح الأشموني 3/ 874 ، وشرح شافية ابن الحاجب 3/ 228 ، وشرح المفصل

10/ 49 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 109 ، 218 ، ولسان العرب (جرر) ، والمقرب 2/ 166 ، والممتع في التصريف 1/ 357 .

(2) البيت من الطويل ، وهو لسويد بن كراع في لسان العرب (جزز) ، والتنبيه والإيضاح 2/ 239 ، وتاج العروس (جزز) ، وشرح شواهد الشافية ص 484 ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص 839 ، والمخصص 2/ 5 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 186 ، وتفسير الطبري 26/ 103 .

(3) أخرجه بهذا اللفظ ابن خزيمة في صحيحه 2570 ، وابن أبي شيبة في مصنفه 12/ 522 ، والمنذري في الترغيب والترهيب 4/ 71 ، والمتقي الهندي في كنز العمال 17571 ، وأخرجه بلفظ : "الراكب شيطان والراكبان شيطانان ، والثلاثة ركب" . مالك في الاستئذان حديث 35 ، وأبو داود في الجهاد باب 79 ، وأحمد في المسند 2/ 186 ، 214 .

(85/725)

وتوعّد معاوية روح بن زنباع فاعتذر روح فقال معاوية خلّيا عنه "1" :

إذا اللّه سنّى عقد شيء تيسّرا وقوله : سنّى : أي فتح .

قالوا : وأدنى ما يكون الآمر والنّاهي بين الأعوان اثنان ، فجرى كلامهم على ذلك ، ووكّل اللّه ، عز وجل ، بكل عبد ملكين ، وأمر في الشهادة بشاهدين .

ومنه أن يخاطب الواحد بلفظ الجميع :

كقوله سبحانه : قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ [المؤمنون : 99] ، وأكثر من يخاطب بهذا الملوك ، لأنّ من مذاهبهم أن يقولوا : نحن فعلنا . بقوله الواحد منهم يعني نفسه ، فخوطبوا بمثل ألفاظهم .

يقول اللّه عز وجل : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ [يوسف : 3] ، وإِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ (49) [القمر : 49] .

(86/725)

ومن هذا قوله عز وجل : عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ [يونس : 83] ، وقوله : فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ [هود : 14] ، وقوله : فَأْتُوا بِآبائِنا [الدخان : 36] .

ومنه أن يتصل الكلام بما قبله حتى يكون كأنه قول واحد وهو قولان :

نحو قوله : إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً ، ثم قال : وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ [النمل : 34] ، وليس هذا من قولها ، وانقطع الكلام عند قوله : أَذِلَّةً ، ثم قال اللّه تعالى : وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ .

وقوله : الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ [يوسف : 51] ، هذا قول المرأة ، ثم قال يوسف : ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ [يوسف : 52] ، أي ليعلم الملك أني لم أخن العزيز بالغيب .

وقوله : يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا ، وانقطع الكلام ، ثم قالت الملائكة : هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ [يس : 52] .

---

(1) صدر البيت :

فلا تيأسا واستغورا اللّه إنّه والبيت من الطويل ، وهو بلا نسبة في لسان العرب (غور) ، (سنا) ، وتهذيب اللغة 13/ 78 ، وأساس البلاغة (سنو) ، (غور) ، وتاج العروس (غور) ، (سنا) ، والمعاني الكبير 1/ 74 ، وأمالي القالي 1/ 235 ، وتهذيب الألفاظ ص 77 . [. . . . .]

(87/725)

قوله حكاية عن ملأ فرعون : يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ، هذا قول الملأ ، ثم قال فرعون : فَما ذا تَأْمُرُونَ [الأعراف : 110] .

ومنه أن يأتي الفعل على بنية الماضي وهو دائم ، أو مستقبل :

كقوله : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ [آل عمران : 110] ، أي أنتم خير أمّة .

وقوله : وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ [المائدة : 116] ، أي وإذ يقول اللّه يوم القيامة . يدلك على ذلك قوله سبحانه : هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ [المائدة : 119] .

وقوله : أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ [النحل : 1] ، يريد يوم القيامة . أي سيأتي قريبا فلا تستعجلوه .

وقوله : قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا [مريم : 29] ، أي من هو صبيّ في المهد .

وكذلك قوله : وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً [النساء : 134] ، وكذلك قوله : وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً [الأحزاب : 27] .

إنما هو : اللّه سميع بصير ، واللّه على كل شيء قدير .

وقوله : وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ [فاطر : 9] ، أي فنسوقه .

في أشباه لهذا كثيرة في القرآن .

ومنه أن يجيء المفعول به على لفظ الفاعل :

كقوله سبحانه : لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ [هود : 43] ، أي لا معصوم من أمره .

وقوله : خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ (6) [الطارق : 6] ، أي مدفوق .

وقوله : فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ [الحاقة : 21] ، أي مرضيّ بها .

وقوله : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَما آمِناً [العنكبوت : 67] ، أي مأمونا فيه .

وقوله : وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً [الإسراء : 12] ، أي مبصرا بها .

والعرب تقول : ليل نائم ، وسرّ كاتم ، قال وعلة الجرميّ "1" :

ولما رأيت الخيل تترى أثايجا علمت بأنّ اليوم أحمس فاجر

أي يوم صعب مفجور فيه .

وأن يأتي فعيل بمعنى مفعل :

---

(1) البيت من الطويل ، وهو للحارث بن وعلة في شرح اختيارات المفضل 2/ 780 ، والمفضليات ص 166 ، والأزمنة والأمكنة 2/ 308 ، 3/ 312 ، ولوعلة الجرمي في المعاني الكبير ص 946 ، والأصمعيات ص 198 ، والمعاني الكبير 2/ 946 ، والعقد الفريد 5/ 231 ، والأغاني 15/ 77 ، والنقائض 1/ 155 ، والخزانة 1/ 199 ، وبلا نسبة في الإنصاف 1/ 244 .

نحو قوله : بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ [البقرة : 117] ، أي مبدعها .

وكذلك : عَذابٌ أَلِيمٌ [البقرة : 10] ، أي مؤلم .

وقال عمرو بن معديكرب "1" :

أمن ريحانة الدّاعي السميع يؤرّقني وأصحابي هجوع ؟

يريد الداعي المسمع .

وفعيل ، يراد به فاعل :

نحو : حفيظ ، وقدير ، وسميع ، وبصير ، وعليم ، ومجيد ، وبديء الخلق ، أي بادئه ، من قولك : بدأ اللّه الخلق .

وبصير في هذا المعنى من بصر ، وإن لم يستعمل منه فاعل إلا في موضع واحد ، وهو قولهم : أريته لمحا باصرا . أي نظرا شديدا باستقصاء وتحديق .

ومنه أن يأتي الفاعل على لفظ المفعول به ، وهو قليل :

كقوله : إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا [مريم : 61] ، أي آتيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 170 . 181 ﴾

---

(1) البيت من الوافر ، وهو لعمرو بن معديكرب في ديوانه ص 140 ، والأصمعيات ص 172 ، والأغاني 10/ 4 ، وخزانة الأدب 8/ 178 ، 179 ، 181 ، 182 ، 187 ، 11/ 119 ، وسمط اللآلي ص 40 ، والشعر والشعراء 1/ 379 ، ولسان

العرب (سمع) ، والأضداد للسجستاني ص 133 ، وبلا نسبة في لسان العرب (أنق) ، وتفسير الطبري 1/ 95 ، وتفسير البحر المحيط 1/ 364 ، وصدره في الصاحبي في فقه اللغة ص 201 ، ومجاز القرآن 1/ 282 .

(89/725)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ إن المتقين ﴾ أي الذين كانت التقوى لهم وصفاً ثابتاً ﴿ في جنات ﴾ أي بساتين عظيمة نحن داخلها .

﴿ وعيون آخذين ما ﴾ أي كل شيء ﴿ آتاهم ربهم ﴾ أي المحسن إليهم .

بتمام علمه وشامل قدرته وهو لا يدع لهم لذة إلا أنحفهم بها فيقبلونها بغاية الرغبة لأنها في غاية النفاسة .

ولما كان هذا أمراً عظيماً يذهب الوهم في سببه كل مذهب ، علله بقوله مؤكداً لنسبة الكفار لهم إلى الإساءة : ﴿ إنهم كانوا ﴾ أي كوناً هو كالجبلة .

ولما كان الإنسان إما يكون مطيعاً في مجموع عمره أو في بعضه .

(90/725)

على الطاعة ، وكانت الطاعة تجبُّ ما قبلها ، وتكون سبباً في تبديل السيئات حسنات فضلاً منه سبحانه ، فكان كل من القسمين مطيعاً في جميع زمانه ، نزع الجارّ فقال : ﴿ قبل ذلك ﴾ أي في دار العمل ، وقيل : أخذوا ما فرض عليهم بغاية القبول لأنهم كانوا قبل فرض الفرائض يعملون على المحبة وهو معنى ﴿ محسنين ﴾ أي في معاملة الخالق والخلائق ، يعبدون الله كأنهم يرونه ، ثم فسر إحسانهم معبراً عنه بما هو في غاية المبالغة بقوله : ﴿ كانوا ﴾ أي لما عندهم من الإجلال له والحب فيه بحيث كأنهم مطبوعون عليه ، ولغاية التأكيد وقع الإسناد إليهم مرتين ﴿ قليلاً من الليل ﴾ الذي هو وقت الراحات وقضاء الشهوات ، وأكد المعنى بإثبات " ما " فقال : ﴿ ما يهجعون ﴾ أي يفعلون الهجوع وهو النوم

الخفيف القليل ، فما ظنك بما فوقه لأن الجملة تثبت هجوعهم وهو النوم للراحة ، وكسر التعب وما ينفيه ، وذكر الليل لتحقق المعنى فإن الهجوع النوم ليلاً ، فالمعنى أنهم يحيون أكثر الليل وينامون أقله .

(91/725)

ولما كان المحسن لا يرى نفسه إلا مقصراً ، قال دالاًّ على ذلك وعلى أن تهجدهم يتصل بآخر الليل مؤكداً بالإسناد مرتين أيضاً : ﴿ وبالأسحار ﴾ قال ابن زيد : السحر : السدس الأخير من الليل ﴿ هم ﴾ أي دائماً بظواهرهم وبواطنهم ﴿ يستغفرون ﴾ أي يعدون مع هذا الاجتهاد أنفسهم مذنبين ويسألون غفران ذنوبهم لوفور علمهم بالله وأنهم لا يقدرون على أن يقدروه حق قدره وإن اجتهدوا لقول سيد الخلق " لا أحصي ثناء عليك " وإبراز الضمير دال على أن غيرهم لو فعل هذا ليلة لأعجب بنفسه ورأى أنه لا أحد أفضل منه ، وعلى أن استغفارهم في الكثرة يقتضي أنهم يكونون بحيث يظن أنهم أحق بالتذلل من المصرين على المعاصي ، فإن استغفارهم ذلك على بصيرة لأنهم نظروا ما له سبحانه في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات والحكم البالغة التي لا تحصى فعلموا أنه أهل لأن يطاع ويخشى فاجتهدوا وتركوا الهجوع ، وأجروا الدموع ، ثم قابلوا ذلك بنعمه فإذا الأعمال في غاية

التقصير فأقبلوا على الاستغفار عالمين بأنه لا يمكن أن يقدر حق قدره .

ولما ذكر معاملتهم للخالق ، أتبعه المعاملة للخلائق تكميلاً لحقيقة الإحسان فقال : ﴿ وفي أموالهم ﴾ أي كل أصنافها ﴿ حق ﴾ أي نصيب ثابت .

ولما كان السياق هنا للإحسان ، فكان إحسانهم لفرط محبتهم إلى عباد الله لا يوقفهم عن الواجب بخلاف ما في " سأل " من سياق المصلين مطلقاً ترك وصفه بالمعلومية فقال : ﴿ للسائل ﴾ أي الذي ينبه على حاجته بسؤال الناس وهو المتكفف ﴿ والمحروم ﴾ وهو المتعفف الذي لا يجد ما يغنيه ، ولا يسأل الناس ولا يفطن له ليتصدق عليه ، وهذه صفة أهل الصفة ـ رضى الله عنه ـ م ، فالمحسنون يعرفون صاحب هذا الوصف لما لهم من نافذ البصيرة ولله بهم من العناية .

(92/725)

ولما دل إقسامه بالسماء وما قبلها من الذاريات على ما له في العلويات من الآيات إلى أن ختم بالأموال التي تنبتها الأرض ، فكان التقدير : ففي السماوات آيات للمؤمنين دالات على عظمته واستحقاقه للعبادة بغاية الخضوع رغباً ورهباً ، عطف عليه قوله : ﴿ وفي الأرض ﴾ مما فيه أيضاً من الاختلاف بالمعادن الكثيرة المتباينة مع اتحاد أصلها والنبات

والحيوان والجماد والبر والبحر وغير ذلك من الأسرار الدالة على الفاعل المختار

﴿ آيات ﴾ أي دلالات عظيمات هي مع وضوحها بعد التأمل خفيات ﴿ للموقنين ﴾

الذين صار الإيقان لهم غريزة ثابتة ، فهم لذلك يتفطنون لرؤية ما فيها مع ما يلابسهم منها من الأسباب فيشغلهم ولا يرون أكثر أسباب ما فيها من الآيات فأداهم ذلك إلى الإيقان بما نبهت عليه الرسل مما تستقل به العقول من البعث وغيره ، قال القشيري : من الآيات فيها أنها تحمل كل شيء ، فكذلك العارف يحمل كل أحد ومن استثقل أحداً أو تبرم برؤيته أحداً فلغيبته عن الحقيقة ومطالعة الخلق بعين التفرقة .

وأهل الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة ، ومن الآيات فيها أنه يلقى عليها كل قذارة وقمامة فتنبت كل زهر ونور وكذلك العارف يتشرب ما يلقى من الجفاء ولا يترشح إلا بكل خلق عليّ وشيمة زكية .

ولما أشار إلى آيات الآفاق ، أتبعها آيات الأنفس فقال : ﴿ وفي أنفسكم ﴾ أي من الآيات التي شاركتم بها الجماد ، ثم فارقتموه بالنمو ثم بالحس ثم فارقتم الحيوان الخسيس بالعقل الموصل إلى بدائع العلوم ودقائق الفهوم .

(93/725)

ولما كانت أظهر الآيات ، سبب عن التنبيه عليها الإنكار عليهم في ترك الاعتبار بها فقال : ﴿ أفلا تبصرون ﴾ أي بأبصاركم وبصائركم فتتأملوا ما في ذلك من الآيات وتتفكروا هل ترون أسباب أكثرها ، فإن كل هذه آيات دالة على قدرة الصانع على كل ما يريد واختياره ، وأنه ما خلق هذا الخلق سدى ، فلا بد أن يجمعهم إليه للعرض عليه ، فالموقنون لا يزالون ينظرون في أمثال هذا بعيون باصرة وأفهام نافذة ، فكلما رأوا آية اعتبروا بها ، فازدادوا إيماناً إلى إيمانهم ، وإيقاناً مع إيقانهم ، وأول نظرهم فما أودعوا من الآيات الحاجة ، فمن تأملها علم أنه عبد ، ومتى علم ذلك علم أن له رباً غير محتاج ، ومن أبصر جميع الصفات والأسماء فنفذ فهمه في شفاف الكائنات ، فارتقى إلى أعلى الدرجات .

(94/725)

ولما بان بما قدمته في ﴿ المقسمات أمراً ﴾ ما في جهة العلو من الأسباب الموجبة للنعمة والعذاب ، قال : ﴿ وفي السماء ﴾ أي جهة العلو ﴿ رزقكم ﴾ بما يأتي من المطر والرياح والحر والبرد وغير ذلك مما رتبه سبحانه لمنافع العباد ﴿ وما توعدون ﴾ وجميع ما أتتكم به الرسل من الوعد والوعيد والصعقة والزلزال وغير ذلك من الأهوال وموجبات النكال ، وكذا الرحمة والخير والنعمة وكل ما يتعلق به الآمال ، فكما أنكم تصدقون بذلك وأنتم لا

ترونه فكذلك صدقوا بالجنة والنار وإن لم تروها ، فإنه لا فرق بين ماء ينزله الله فيكون منه رياض وجنات وشوك وأدواء ومرارات ، وسموم وعقارب وحيات ، وخشاش وسباع وحشرات ، وبين ماء يعيد به الأموات ، ثم يحشرهم إلى جنان ونيران ، فكما أنه لا مرية في إظهار هذا الغيب فكذلك لا لبس في إظهار ذلك الغيب ، ومن المعنى أيضاً أنك لا تشتغل برزق فإنه في السماء ، ولا سبيل لك إلى العروج إليها ، واشتغل بما كلفته من الخدمة لمن عنده الرزق ففي السماء الرزق وإليها يرفع العمل ، فإن أردت أن ينزل إليك رزقك فأصعد إليها الصالح من عملك ، ولهذا قالوا : الصلاة فرع باب الرزق ﴿ واصطبر عليها لا نسئلك رزقاً نحن نرزقك ﴾ .

(95/725)

ولما أقسم بما له من المقدورات لمن وقف مع المحسوسات المشهورات ، فترقوا بذلك إلى أعلى الدرجات ، وانكشف ما له من الكمال انكشافاً تاماً ، وعلم أن في خزائنه سبحانه كل ما أخبرت عنه به الرسل من وعد ووعيد ، سبب عنه قوله مقسماً بنفسه الأقدس لكن بصفة مألوفة فقال : ﴿ فورب ﴾ أي مبدع ومدبر ﴿ السماء والأرض ﴾ بما أودع فيهما مما علمتموه وما لم تعلموه ﴿ إنه ﴾ أي الذي توعدونه من الخير والشر والجنة والنار

وتقدم الإقسام عليه أنه صادق ﴿ لحق ﴾ أي ثابت يطابقه الواقع فقد جمع الحق مع الصدق ﴿ مثل ما أنكم ﴾ أي وأنتم مساوون لبقية ما في الأرض من الجمادات وغيرها ﴿ تنطقون ﴾ نطقاً مجدداً في كل وقت مستمراً ، ليس هو بخيال ولا سحر ، أي أن ذلك لحق مثل ما أن هذا حق ، فالذي جعل لكم قوة النطق من بين ما في الأرض بأسباب لا ترونها وتحصونها ، ومع ما عداكم من ذلك بأسباب مثل ذلك قادر على الإتيان بوعده من الرزق وغيره ما دمتم تحتاجون إلى ذلك بما جعل فيكم من الحياة التي يصح بها العلم الناشىء عنه النطق المحوج إلى الرزق من أي جهة أرادوا ، وإن لم تروا أسبابه كما أنه لو أراد لأنطق جميع من في السماوات والأرض من الجمادات بما يقيمه لها من الأسباب التي أقامها لكم وإن لم تروا ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 274. 277 ﴾

(96/725)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) ﴾

بعد بيان حال المغترين المجرمين بين حال المحق المتقي ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قد ذكرنا أن المتقي له مقامات أدناها أن يتقي الشرك ، وأعلاها أن يتقي ما سوى الله ، وأدنى درجات المتقي الجنة ، فما من مكلف اجتنب الكفر إلا ويدخل الجنة فيرزق نعيمها .

المسألة الثانية :

الجنة تارة وحدها كما قال تعالى : ﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون ﴾ [الرعد : 35] وأخرى جمعها كما في هذا المقام قال : ﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات ﴾ وتارة ثناها فقال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] فما الحكمة فيه ؟ نقول : أما الجنة عند التوحيد فلأنها لاتصال المنازل والأشجار والأنهار كجنة واحدة ، وأما حكمة الجمع فلأنها بالنسبة إلى الدنيا وبالإضافة إلى جنانها جنات لا يحصرها عدد ، وأما التثنية فسنذكرها في سورة الرحمن غير أنا نقول ههنا الله تعالى عند الوعد وحَّد الجنة ، وكذلك عند الشراء حيث قال : ﴿ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وأموالهم بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ [التوبة : 111] وعند الإعطاء جمعها إشارة إلى أن الزيادة في الوعد موجودة والخلاف ما لو وعد بجنات ، ثم كان يقول إنه في جنة لأنه دون الموعود .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ يقتضي أن يكون المتقي فيها ولا لذة في كون الإنسان في ماء أو غير ذلك من المائعات ، نقول معناه في خلال العيون ، وذلك بين الأنهار بدليل أن قوله

تعالى : ﴿ فِي جنات ﴾ ليس معناه إلا بين جنات وفي خلالها لأن الجنة هي الأشجار ، وإنما يكون بينها كذلك القول في العيون والتنكير ، مع أنها معرفة للتعظيم يقال فلان رجل أي عظيم في الرجولية .

آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16)

وقوله تعالى : ﴿ ءاخِذِينَ مَا ءاتاهم رَبُّهُمْ ﴾ فيه مسائل ولطائف ، أما المسائل :

(97/725)

فالأولى منها : ما معنى آخذين ؟ نقول فيه وجهان أحدهما : قابضين ما آتاهم شيئاً فشيئاً ولا يستوفونه بكماله لامتناع استيفاء ما لا نهاية له .

ثانيها : آخذين قابلين قبول راض كما قال تعالى : ﴿ وَيَأْخُذُ الصدقات ﴾ [التوبة : 104] أي يقبلها ، وهذا ذكره الزمخشري وفيه وجه ثالث : وهو أن قوله : ﴿ فِي جنات ﴾ يدل على السكنى فحسب وقوله : ﴿ ءاخِذِينَ ﴾ يدل على التملك ولذا يقال أخذ بلاد كذا وقلعة كذا إذا دخلها متملكاً لها ، وكذلك يقال لمن اشترى داراً أو بستاناً أخذه بثمن قليل أي تملكه ، وإن لم يكن هناك قبض حساً ولا قبول برضا ، وحينئذ فائدته بيان أن دخولهم فيها ليس دخول مستعير أو ضعف يسترد منه ذلك ، بل هو ملكه الذي اشتراه بماله ونفسه

من الله تعالى وقوله : ﴿ ءاتاهم ﴾ يكون لبيان أن أخذهم ذلك لم يكن عنوة وفتوحاً ، وإنما كان بإعطاء الله تعالى ، وعلى هذا الوجه ﴿ مَا ﴾ راجعة إلى الجنّات والعيون .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ إشارة إلى ثمنها أي أخذوها وملكوها بالإحسان ، كما قال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى ﴾ [يونس : 26] بلام الملك وهي الجنة .

المسألة الثانية :

(98/725)

﴿ ءاخِذِينَ ﴾ حال وهو في معنى قول القائل يأخذون فكيف قال ما آتاهم ولم يقل ما يؤتيهم ليتفق اللفظان ، ويوافق المعنى لأن قوله : ﴿ ءاتاهم ﴾ ينبىء عن الانقراض وقوله : ﴿ يُؤْتِيهِمْ ﴾ تنبيه على الدوام وإيتاء الله في الجنة كل يوم متجدد ولا نهاية له ، ولا سيما إذا فسرنا الأخذ بالقبول ، كيف يصح أن يقال فلان يقبل اليوم ما آتاه زيد أمس ؟ نقول : أما على ما ذكرنا من التفسير لا يرد لأن معناه يتملكون ما أعطاهم ، وقد يوجد الإعطاء أمس ويتملك اليوم ، وأما على ما ذكروه فنقول الله تعالى أعطى المؤمن الجنة وهو في الدنيا غير أنه لم يكن جنى ثمارها فهو يدخلها على هيئة الآخذ وربما يأخذ خيراً مما أتاه ، ولا ينافي ذلك

كونه داخلاً على تلك الهيئة ، يقول القائل : جئتك خائفاً فإذا أنا آمن وما ذكرتم إنما يلزم أن لو كان أخذهم مقتصراً على ما آتاهم من قبل ، وليس كذلك وإنما هم دخلوها على ذلك ولم يخطر ببالهم غيره فيؤتيهم الله ما لم يخطر ببالهم فيأخذون ما يؤتيهم الله وإن دخلوها ليأخذوا ما آتاهم ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَصحاب الجنة اليوم فِى شُغُلٍ ﴾ [ياس : 55] هو أخذهم ما آتاهم وقد ذكرناه في سورة ياس (55) .

المسألة الثالثة :

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ماذا ؟ نقول : يحتمل وجهين أحدهما : قبل دخولهم لأن قوله تعالى : ﴿ فِي جنات ﴾ فيه معنى الدخول يعني قبل دخولهم الجنة أحسنوا ثانيهما : قبل إيتاء الله ما آتاهم الحسنى وهي الجنة فأخذوها ، وفيه وجوه أُخر ، وهو أن ذلك إشارة إلى يوم الدين وقد تقدم .

وأما اللطائف فقد سبق بعضها ، ومنها أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المتقين ﴾ لما كان إشارة إلى التقوى من الشرك كان كأنه قال الذين آمنوا لكن الإيمان مع العمل الصالح يفيد سعادتين ، ولذلك دلالة أتم من قول القائل أنهم أحسنوا .

(99/725)

اللطيفة الثانية : أما التقوى فلأنه لما قال لا إله فقد اتقى الشرك ، وأما الإحسان فلأنه لما قال إلا الله فقد أتى بالإحسان ، ولهذا قيل في معنى كلمة التقوى إنها لا إله إلا الله وفي الإحسان قال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى الله ﴾ [فصلت : 33] وقيل في تفسير : ﴿ هَلْ جَزَاء الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ [الرحمن : 60] إن الإحسان هو الإتيان بكلمة لا إله إلا الله وهما حينئذ لا يتفاصلان بل هما متلازمان .

كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17)

كالتفسير لكونهم محسنين ، تقول حاتم كان سخياً كان يبذل موجوده ولا يترك مجهوده ، وفيه مباحث :

(100/725)

الأول : ﴿ قليلاً ﴾ منصوب على الظرف تقديره يهجعون قليلاً تقول قام بعض الليل فتنصب بعض على الظرف وخبر كان هو قوله : ﴿ يَهْجَعُونَ ﴾ و (ما) زائدة هذا هو المشهور وفيه وجه آخر وهو أن يقال كانوا قليلاً ، معناه نفي النوم عنهم وهذا منقول عن الضحاك ومقاتل ، وأنكر الزمخشري كون ما نافية ، وقال : لا يجوز أن تكون نافية لأن بعد ما

لا يعمل فيما قبلها لا تقول زيداً ما ضربت ويجوز أن يعمل ما بعد لم فيما تقول زيداً لم أضرب ، وسبب ذلك هو أن الفعل المتعدي إنما يفعل في النفي حملاً له على الإثبات لأنك إذا قلت ضرب زيد عمراً ثبت تعلق فعله بعمرو فإذا قلت ما ضربه لم يوجد منه فعل حتى يتعلق به ويتعدى إليه لكن المنفي محمول على الإثبات ، فإذا ثبت هذا فالنفي بالنسبة إلى الإثبات كاسم الفاعل بالنسبة إلى الفعل فإنه يعمل عمل الفعل ، لكن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضي لا يعمل ، فلا تقول زيد ضارب عمراً أمس ، وتقول : زيد ضارب عمراً غداً واليوم والآن ، لأن الماضي لم يبق موجوداً ولا متوقع الوجود فلا يتعلق بالمفعول حقيقة لكن الفعل لقوته يعمل واسم الفاعل لضعفه لم يعمل ، إذا عرفت هذا فنقول ما ضرب للنفي في المضي فاجتمع فيه النفي والمضي فضعف ، وأما لم أضرب وإن كان يقلب المستقبل إلى الماضي لكن الصيغة صيغة المستقبل فوجد فيه ما يوجد في قول القائل زيد ضارب عمراً غداً فاعمل هذا بيان قوله غير أن القائل بذلك القول يقول : ﴿ قَلِيلاً ﴾ ليس منصوباً بقوله : ﴿ يَهْجَعُونَ ﴾ وإنما ذلك خبر كانوا أي كانوا قليلين ، ثم قال : ﴿ وَمِنَ الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ أي ما يهجعون أصلاً بل يحيون الليل جميعه ومن يكون لبيان الجنس لا للتبعيض ، وهذا الوجه حينئذ فيه معنى قوله تعالى : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ﴾ [ص : 24] وذلك لأنا ذكرنا أن قوله : ﴿ إِنَّ المتقين ﴾ [الذاريات : 16] فيه معنى الذين آمنوا ، وقوله : ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ فيه معنى الذين

عملوا الصالحات ، وقوله : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً ﴾ فيه معنى قوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ .

البحث الثاني : على القول المشهور وهو أن ما زائدة يحتمل أن يكون قليلاً صفة مصدر تقديره يهجعون هجوعاً قليلاً .

البحث الثالث : يمكن أن يقال : ﴿ قَلِيلاً ﴾ منصوب على أنه خبر كان و (ما) مصدرية تقديره كان هجوعهم من الليل قليلاً فيكون فاعل ﴿ كانوا ﴾ هو الهجوع ، ويكون ذلك من باب بدل الاشتمال لأن هجوعهم متصل بهم فكأنه قال كان هجوعهم قليلاً كما يقال : كان زيد خلقه حسناً ، فلا يحتاج إلى القول بزيادة ، واعلم أن النحاة لا يقولون فيه إنه بدل فيفرقون بين قول القائل زيد حسن وجهه أو الوجه وبين قوله زيد وجهه حسن فيقولون في الأول صفة وفي الثاني بدل ونحن حيث قلنا إنه من باب بدل الاشتمال أردنا به معنى لا اصطلاحاً ، وإلا فقليلاً عند التقديم ليس في النحو مثله عند التأخير حتى قولك فلان قليل هجوعه ليس ببدل ، وفلان هجوعه قليل بدل ، وعلى هذا يمكن أن تكون ما موصولة معناه كان ما يهجعون فيه قليلاً من الليل ، هذا ما يتعلق باللفظ ، أما ما يتعلق بالمعنى فنقول تقديم قليلاً في الذكر ليس لمجرد السجع حتى يقع يهجعون ويستغفرون في أواخر الآيات ، بل

فيه فائدتان .

الأولى : هي أن الهجوع راحة لهم ، وكان المقصود بيان اجتهادهم وتحملهم السهر لله تعالى فلو قال كانوا يهجعون كان المذكور أولاً راحتهم ثم يصفه بالقلة وربما يغفل الإنسان السامع عما بعد الكلام فيقول إحسانهم وكونهم محسنين بسبب أنهم يهجعون وإذا قدم قوله : ﴿ قَلِيلاً ﴾ يكون السابق إلى الفهم قلة الهجوع ، وهذه الفائدة من يراعيها يقول فلان قليل الهجوع ولا يقول هجوعه قليل ، لأن الغرض بيان قلة الهجوع لا بيان الهجوع بوصف القلة أو الكثرة ، فإن الهجوع لو لم يكن لكان نفي القلة أولى ولا كذلك قلة الهجوع لأنها لو لم تكن لكان بدلها الكثرة في الظاهر .

(102/725)

الفائدة الثانية : في قوله تعالى : ﴿ مِّنَ الليل ﴾ وذلك لأن النوم القليل بالنهار قد يوجد من كل أحد ، وأما الليل فهو زمان النوم لا يسهره في الطاعة إلا متعبد مقبل ، فإن قيل الهجوع لا يكون إلا بالليل والنوم نهاراً ، لا يقال له الهجوع قلنا ذكر الأمر العام وإرادة التخصيص حسن فنقول : رأيت حيواناً ناطقاً فصيحاً ، وذكر الخاص وإرادة العام لا يحسن إلا في بعض المواضع فلا نقول رأيت فصيحاً ناطقاً حيواناً ، إذا عرفت هذا فنقول في قوله تعالى :

﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مّن الليل ﴾ ذكر أمراً هو كالعام يحتمل أن يكون بعده : كانوا من الليل يسبحون ويستغفرون أو يسهرون أو غير ذلك ، فإذا قال يهجعون فكأنه خصص ذلك العام المحتمل له ولغيره فلا إشكال فيه .

وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18)

إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون ويجتهدون يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك وأخلص منه ويستغفرون من التقصير وهذا سيرة الكريم يأتي بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ويعتذر من التقصير ، واللئيم يأتي بالقليل ويستكثره ويمن به .

وفيه وجه آخر ألطف منه ، وهو أنه تعالى لما بيّن أنهم يهجعون قليلاً ، والهجوع مقتضى الطبع ، قال : ﴿ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أي من ذلك القدر من النوم القليل ، وفيه لطيفة أخرى تنبيهاً في جواب سؤال ، وهو أنه تعالى مدحهم بقلة الهجوع ، ولم يمدحهم بكثرة السهر ، وما قال : كانوا كثيراً من الليل ما يسهرون ، فما الحكمة فيه ، مع أن السهر هو الكلفة والاجتهاد لا الهجوع ؟ نقول : إشارة إلى أن نومهم عبادة ، حيث مدحهم الله تعالى بكونهم هاجعين قليلاً ، وذلك الهجوع أورثهم لاشتغال بعبادة أخرى ، وهو الاستغفار في وجوه الأسحار ، ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم والاستكبار .

وفيه مباحث :

البحث الأول : في الباء فإنها استعملت للظرف ههنا ، وهي ليست للظرف ، نقول : قال بعض النحاة : إن حروف الجر ينوب بعضها مناب بعض ، يقال في الظرف خرجت لعشر بقين وبالليل وفي شهر رمضان ، فيستعمل اللام والباء وفي ، وكذلك في المكان ، نقول : أقمت بالمدينة كذا وفيها ، ورأيته ببلدة كذا وفيها ، فإن قيل ما التحقيق فيه ؟ نقول : الحروف لها معاني مختلفة ، كما أن الأسماء والأفعال كذلك ، غير أن الحروف غير مستقلة بإفادة المعنى ، والاسم والفعل مستقلان ، لكن بين بعض الحروف وبعضها تناف وتباعد ، كما في الأسماء والأفعال ، فإن البيت والمسكن مختلفان متفاوتان ، وكذلك سكن ومكث ، ولا كذلك كل اسمين يفرض أو كل فعلين يوجد ، إذا عرفت هذا فنقول : بين الباء واللام وفي مشاركة ، أما الباء فإنها للإلصاق ، والمتمكن في مكان ملتصق به متصل ، وكذلك الفعل بالنسبة إلى الزمان ، فإذا قال : سار بالنهار معناه ذهب ذهاباً متصلاً بالنهار ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أي استغفاراً متصلاً بالأسحار مقترناً بها ، لأن الكائن فيها مقترناً بها ، فإن قيل : فهل يكون بينهما في المعنى تفاوت ؟ نقول : نعم ، وذلك لأن من قال : قمت بالليل واستغفر بالأسحار أخبر عن الأمرين ، وذلك أدل على وجود الفعل مع أول جزء من أجزاء الوقت من قوله : قمت في الليل ، لأنه يستدعي احتواش الزمان بالفعل وكذلك قول القائل : أقمت ببلد كذا ، لا يفيد أنه كان محاطاً بالبلد ، وقوله :

أقمت فيها يدل على إحاطتها به ، فإذن قول القائل : أقمت بالبلدة ودعوت بالأسحار ، أعم من قوله : قمت فيه ، لأن القائم فيه قائم به ، والقائم به ليس قائماً فيه من كل بد ، إذا علمت هذا فقوله تعالى : ﴿ وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ إشارة إلى أنهم لا يخلون وقتاً عن العبادة ، فإنهم بالليل لا يهجعون ، ومع أول جزء من السحر يستغفرون ، فيكون فيه بيان كونهم مستغفرين من غير أن يسبق

(104/725)

منهم ذنب ، لأنهم وقت الانتباه في الأسحار لم يخلو الوقت للذنب ، فإن قيل : زدنا بياناً فإن من الأزمان أزماناً لا تجعل ظروفاً بالباء ، فلا يقال خرجت بيوم الجمعة ويقال بفي ، نقول : إن كل فعل جار في زمان فهو متصل به ، فالخروج يوم الجمعة متصل مقترن بذلك الزمان ، ولم يستعمل خرجت بيوم الجمعة ، نقول الفارق بينهما الإطلاق والتقييد ، بدليل أنك إن قلت : خرجت بنهارنا وبليلة الجمعة لم يحسن ، ولو قلت : خرجت بيوم سعد ، وخرج هو بيوم نحس حسن ، فالنهار والليل لما لم يكن فيهما خصوص وتقييد جاز استعمال الباء فيهما ، فإذا قيدتهما وخصصتهما زال ذلك الجواز ، ويوم الجمعة لما كان فيه خصوص لم يجز استعمال الباء ، وحيث زال الخصوص بالتنكير ، وقلت خرت بيوم كذا عاد الجواز ،

والسر فيه أن مثل يوم الجمعة ، وهذه الساعة ، وتلك الليلة وجد فيها أمر غير الزمان وهو خصوصيات ، وخصوصية الشيء في الحقيقة أمور كثيرة غير محصورة عند العاقل على وجه التفصيل لكنها محصورة على الإجمال ، مثاله إذا قلت هذا الرجل فالعام فيه هو الرجل ، ثم إنك لو قلت الرجل الطويل ، ما كان يصير مخصصاً ، لكنه يقرب من الخصوص ، ويخرج من القصار ، فإن قلت العالم لم يصر مخصصاً لكنه يخرج عن الجهال ، فإذا قلت الزاهد فكذلك ، فإذا قلت ابن عمرو خرج عن أبناء زيد وبكر وخالد وغيرهم ، فإذا قلت هذا يتناول تلك المخصصات التي بأجمعها لا تجتمع إلا في ذلك ، فإذن الزمان المتعين فيه أمور غير الزمان ، والفعل حدث مقترن بزمان لا ناشىء عن الزمان ، وأما في فصحيح ، لأن ما حصل في العام فهو في الخاص ، لأن العام أمر داخل في الخاص ، وأما في فيدخل في الذي فيه الشيء ، فصح أن يقال : في يوم الجمعة ، وفي هذه الساعة ، وأما بحث اللام فنؤخره إلى موضعه ، وقد تقدم بعضه في تفسير قوله تعالى :

(105/725)

﴿ والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ [يس : 38] وقوله : ﴿ هُمْ ﴾ غير خال عن فائدة ، قال الزمخشري : فائدته انحصار المستغفرين ، أي لكما لهم في الاستغفار ، كأن غيرهم ليس

بمستغفر ، فهم المستغفرون لا غير ، يقال فلان هو العالم لكماله في العلم كأنه تفرد به وهو جيد ، ولكن فيه فائدة أخرى ، وهي أن الله تعالى لما عطف ﴿ وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ على قوله : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات : 17] فلو لم يؤكد معنى الإثبات بكلمة ﴿ هُمْ ﴾ لصلح أن يكون معناه : وبالأسحار قليلاً ما يستغفرون ، تقول فلان قليلاً ما يؤذي وإلى الناس يحسن قد يفهم أنه قليل الإيذاء قليل الإحسان ، فإذا قلت قليلاً ما يؤذي وهو يحسن زال ذلك الفهم وظهر فيه معنى قوله : قليل الإيذاء كثير الإحسان ، والاستغفار يحتمل وجوهاً .

أحدها : طلب المغفرة بالذكر بقولهم ربنا اغفر لنا .

الثاني : طلب المغفرة بالفعل ، أي بالأسحار يأتون بفعل آخر طلباً للغفران ، وهو الصلاة أو غيرها من العبادات .

الثالث : وهو أغربها الاستغفار من باب استحصد الزرع إذا جاء أوان حصاده ، فكأنهم بالأسحار يستحقون المغفرة ويأتيهم أوان المغفرة ، فإن قيل : فالله لم يؤخر مغفرتهم إلى السحر ؟ نقول وقت السحر تجتمع ملائكة الليل والنهار ، وهو الوقت المشهود ، فيقول الله على ملأ منهم : إني غفرت لعبدي ، والأول أظهر ، والثاني عند المفسرين أشهر .

ثم قال تعالى :

وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19)

وقد ذكرنا مراراً أن الله تعالى بعد ذكر تعظيم نفسه يذكر الشفقة على خلقه ، ولا شك أن قليل الهجوع المستغفر في وجوه الأسحار وجد منه التعظيم العظيم ، فأشار إلى الشفقة بقوله : ﴿ وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(106/725)

أضاف المال إليهم ، وقال في مواضع : ﴿ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ﴾ [يس : 47] وقال : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى : 38] نقول سببه أن في تلك المواضع كان الذكر للحث ، فذكر معه ما يدفع الحث ويرفع المانع ، فقال : هو رزق الله والله يرزقكم فلا تخافوا الفقر وأعطوا ، وأما ههنا فمدح على ما فعلوه فلم يكن إلى الحرص حاجة .

المسألة الثانية :

المشهور في الحق أنه هو القدر الذي علم شرعاً وهو الزكاة وحينئذ لا يبقى هذا صفة مدح ، لأن كون المسلم في ماله حق وهو الزكاة ليس صفة مدح لأن كل مسلم كذلك ، بل الكافر إذا قلنا إنه مخاطب بفروع الإسلام في ماله حق معلوم غير أنه إذا أسلم سقط عنه وإن مات

عوقب على تركه ، وإن أدى من غير الإسلام لا يقع الموقع ، فكيف يفهم كونه مدحاً ؟ نقول الجواب عنه من وجوه .

(107/725)

أحدها : أنا نفسر بمن يطلب شرعاً ، والمحروم الذي لا مكنة له من الطلب ومنعه الشارع من المطالبة ، ثم إن المنع قد يكون لكون الطالب غير مستحق ، وقد يكون لكون المطلوب منه لم يبق عليه حق فلا يطالب فقال تعالى في ماله حق للطالب وهو الزكاة ولغير الطالب وهو الصدقة المتطوع بها فإن ذلك المالك لا يطالب بها ويحرم الطالب منه طلباً على سبيل الجزية والزكاة ، بل يسأل سؤالاً اختيارياً فيكون حينئذ كأنه قال في ماله زكاة وصدقة والصدقة في المال لا تكون إلا بفرضه هو ذلك وتقديره وإفرازه للفقراء والمساكين ، الجواب الثاني : هو أن قوله : ﴿ وَفِى أَموالهم حَقٌّ لِّلسَّائِلِ ﴾ أي مالهم ظرف لحقوقهم فإن كلمة في للظرفية لكن الظرف لا يطلب إلا للمظروف فكأنه تعالى قال هم لا يطلبون المال ولا يجمعونه إلا ويجعلونه ظرفاً للحق ، ولا شك أن المطلوب من الظرف هو المظروف والظرف مالهم فجعل مالهم ظرفاً للحقوق ولا يكون فوق هذا مدح فإن قيل فلو قيل مالهم للسائل هل كان أبلغ ؟ قلنا : لا وذلك لأن من يكون له أربعون ديناراً فتصدق بها لا تكون صدقته دائمة

لكن إذا اجتهد واتجر وعاش سنين وأدى الزكاة والصدقة يكون مقدار المؤدى أكثر وهذا كما في الصلاة والصوم ولو أضعف واحد نفسه بهما حتى عجز عنهما لا يكون مثل من اقتصد فيهما ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : " إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى "

وفي السائل والمحروم وجوه .

أحدها : أن السائل هو الناطق وهو الآدمي والمحروم كل ذي روح غيره من الحيوانات المحرومة قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لكل كبد حرى أجر " وثانيها : وهو الأظهر والأشهر ، أن السائل هو الذي يسأل ، والمحروم المتعفف الذي يحسبه بعض الناس غنياً فلا يعطيه شيئاً .

والأول : كقوله تعالى : ﴿ كُلُواْ وارعوا أنعامكم ﴾ [طه : 54] .

(108/725)

والثاني : كقوله : ﴿ وَأَطْعِمُواْ القانع والمعتر ﴾ [الحج : 36] فالقانع كالمحروم فإن قيل على الوجه الأول الترتيب في غاية الحسن ، فإن دفع حاجة الناطق مقدم على دفع حاجة البهائم ، فما وجه الترتيب في الوجه الثاني ؟ نقول فيه وجهان .

أحدهما : أن السائل اندفاع حاجته قبل اندفاع حاجة المحروم في الوجود لأنه يعرف حاله بمقاله ويطلب لقلة ماله فيقدم بدفع حاجته ، والمحروم غير معلوم فلا تندفع حاجته إلا بعد الاطلاع عليه ، فكان الذكر على الترتيب الواقع .

وثانيهما : هو أن ذلك إشارة إلى كثرة العطاء فيقول يعطي السائل فإذا لم يجدهم يسأل هو عن المحتاجين فيكون سائلاً ومسؤولاً .

(109/725)

الثالث : هو أن المحاسن اللفظية غير مهجورة في الكلام الحكمي ، فإن قول القائل إن رجوعهم إلينا وعلينا حسابهم ليس كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ [الغاشية : 26] والكلام له جسم وهو اللفظ وله روح وهو المعنى ، وكما أن الإنسان الذي نور روحه بالمعرفة ينبغي أن ينور جسمه الظاهر بالنظافة ، كذلك الكلام ورب كلمة حكمية لا تؤثر في النفوس لركاكة لفظها ، إذا عرفت هذا فقوله : ﴿ وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِى أموالهم حَقٌّ للسَّائِلِ والمحروم ﴾ أحسن من حيث اللفظ من قولنا وبالأسحار هم يستغفرون ، وفي أموالهم حق للمحروم والسائل ، فإن قيل قدم السائل على المحروم ههنا لما ذكرت من الوجوه ، ولم قدم المحروم على السائل في قوله : ﴿ القانع والمعتر ﴾

لأن القانع هو الذي لا يسأل ﴿ والمعتر ﴾ السائل ؟ نقول قد قيل إن القانع هو السائل والمعتر الذي لا يسأل ، فلا فرق بين الموضعين ، وقيل بأن القانع والمعتر كلاهما لا يسأل لكن القانع لا يتعرض ولا يخرج من بيته والمعتر يتعرض للأخذ بالسلام والتردد ولا يسأل ، وقيل بأن القانع لا يسأل والمعتر يسأل ، فعلى هذا فلحم البدنة يفرق من غير مطالبة ساع أو مستحق مطالبة جزية ، والزكاة لها طالب وسائل هو الساعي والإمام ، فقوله : ﴿ لِّلسَّائِلِ ﴾ إشارة إلى الزكاة وقوله : ﴿ والمحروم ﴾ أي الممنوع إشارة إلى الصدقة المتطوع بها واحدهما قبل الأخرى بخلاف إعطاء اللحم .

وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (20)

وهو يحتمل وجهين .

أحدهما : أن يكون متعلقاً بقوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لصادق * وَإِنَّ الدين لَوَاقِعٌ * وَفِى الأرض ءايات لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ تدلهم على أن الحشر كائن كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءاياته أَنَّكَ تَرَى الأرض خاشعة ﴾ إلى أن قال : ﴿ إِنَّ الذى أحياها لمحيي الموتى ﴾ [فصلت : 39] .

(110/725)

وثانيهما : أن يكون متعلقاً بأفعال المتقين ، فإنهم خافوا الله فعظموه فأظهروا الشفقة على عباده ، وكان لهم آيات في الأرض ، وفي أنفسهم على إصابتهم الحق في ذلك ، فإن من يكون له في الأرض الآيات العجيبة يكون له القدرة التامة فيخشى ويتقى ، ومن له من أنفس الناس حكم بالغة ونعم سابغة يستحق أن يعبد ويترك الهجوع لعبادته ، وإذا قابل العبد العبادة بالنعمة يجدها دون حد الشكر فيستغفر على التقصير ، وإذا علم أن الرزق من السماء لا يبخل بماله ، فالآيات الثلاثة المتأخرة فيها تقرير ما تقدم ، وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السماء والأرض ﴾ [الذاريات : 23] يكون عود الكلام بعد اعتراض الكلام الأول أقوى وأظهر ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

كيف خصص الموقنين بكون الآيات لهم مع أن الآيات حاصلة للكل قال تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الأرض الميتة أحييناها ﴾ [ياس : 33] نقول قد ذكرنا أن اليمين آخر ما يأتي به المبرهن وذلك لأنه أولاً يأتي بالبرهان ، فإن صدق فذلك وإن لم يصدق لا بد له من أن ينسبه الخصم إلى إصرار على الباطل لأنه إذا لم يقدر على قدح فيه ولم يصدقه يعترف له بقوة الجدل وينسبه إلى المكابرة فيتعين طريقه في اليمين ، فإذا آيات الأرض لم تفدهم لأن اليمين بقوله : ﴿ والذريات ذَرْواً ﴾ [الذاريات : 1] دلت على سبق إقامة البينات وذكر الآيات ولم يفد فقال فيها : ﴿ وَفِى الأرض ءايات لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ وإن لم يحصل للمصر المعاند منها فائدة ،

وأما في سورة ياس وغيرها من الموانع التي جعل فيها آيات الأرض للعامة لم يحصل فيها اليمين وذكر الآيات قبله فجاز أن يقال إن الأرض آيات لمن ينظر فيها .

الجواب الثاني : وهو الأصح أن هنا الآيات بالفعل والاعتبار للمؤمنين أي حصل ذلك لهم وحيث قال لكل معناه إن فيها آيات لهم إن نظروا وتأملوا .

المسألة الثانية :

(111/725)

ههنا قال : ﴿ وَفِى الأَرض ءايات ﴾ وقال هناك : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ الأَرض ﴾ [ياس : 33] نقول لما جعل الآية ﴿ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ ذكر بلفظ الجمع لأن الموقن لا يغفل عن الله تعالى في حال ويرى في كل شيء آيات دالة ، وأما الغافل فلا يتنبه إلا بأمور كثيرة فيكون الكل له كالآية الواحدة .

وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21)

إشارة إلى دليل الأنفس ، وهو كقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءاياتنا فِى الآفاق وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت : 53] وإنما اختار من دلائل الآفاق ما في الأرض لظهورها لمن على ظهورها فإن في أطرافها وأكنافها ما لا يمكن عد أصنافها فدليل الأنفس في قوله : ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ ﴾

عام ويحتمل أن يكون مع المؤمنين ، وإنما أتى بصيغة الخطاب لأنها أظهر لكون علم الإنسان بما في نفسه أتم وقوله تعالى : ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون المراد وفيكم ، يقال الحجارة في نفسها صلبة ولا يراد بها النفس التي هي منبع الحياة والحس والحركات ، ويحتمل أن يكون المراد وفي نفوسكم التي بها حياتكم آيات وقوله : ﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ بالاستفهام إشارة إلى ظهورها .

وقوله تعالى : ﴿ وَفِى السماء رِزْقُكُمْ ﴾ فيه وجوه .

أحدها : في السحاب المطر .

ثانيها : ﴿ فِى السماء رِزْقُكُمْ ﴾ مكتوب .

ثالثها : تقدير الأرزاق كلها من السماء ولولاه لما حصل في الأرض حبة قوت ، وفي الآيات الثلاث ترتيب حسن وذلك لأن الإنسان له أمور يحتاج إليها لا بد من سبقها حتى يوجد هو في نفسه وأمور تقارنه في الوجود وأمور تلحقه وتوجد بعده ليبقى بها ، فالأرض هي المكان وإليه يحتاج الإنسان ولا بد من سبقها فقال : ﴿ وَفِى الأرض ءايات ﴾ ثم في نفس الإنسان أمور من الأجسام والأعراض فقال : ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ ﴾ ثم بقاؤه بالرزق فقال : ﴿ وَفِى السماء رِزْقُكُمْ ﴾ ولولا السماء لما كان للناس البقاء .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ فيه وجوه .

أحدها : الجنة الموعود بها لأنها في السماء .

ثانيها : هو من الإيعاد لأن البناء للمفعول من أوعد يوعد أي وما توعدون إما من الجنة والنار في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار ﴾ [الذاريات : 13] وقوله : ﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات ﴾ [الذاريات : 15] فيكون إيعاداً عاماً ، وأما من العذاب وحينئذ يكون الخطاب مع الكفار فيكون كأنه تعالى قال : وفي الأرض آيات للموقنين كافية ، وأما أنتم أيها الكافرون ففي أنفسكم آيات هي أظهر الآيات وتكفرون لها لحطام الدنيا وحب الرياسة ، وفي السماء الأرزاق ، فلو نظرتم وتأملتم حق التأمل ، لما تركتم الحق لأجل الرزق ، فإنه واصل بكل طريق ولاجتنبتم الباطل اتقاء لما توعدون من العذاب النازل .

فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23)

وفي المقسم عليه وجوه أحدها : ﴿ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ أي ما توعدون لحق يؤيده قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لصادق ﴾ [الذاريات : 5] وعلى هذا يعود كل ما قلناه من وجوه ﴿ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ إن قلنا إن ذلك هو الجنة فالمقسم عليه هو هي .

ثانيها : الضمير راجع إلى القرآن أي أن القرآن حق وفيما ذكرناه في قوله تعالى : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ ﴾ [الذاريات : 9] دليل هذه وعلى هذا فقوله : ﴿ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ معناه

تكلم به الملك النازل من عند الله به مثل ما أنكم تتكلمون وسنذكره .

ثالثها : أنه راجع إلى الدين كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدين لَوَاقِعٌ ﴾ [الذاريات : 6] .

رابعها : أنه راجع إلى اليوم المذكور في قوله : ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الدين ﴾ [الذاريات : 12] يدل عليه وصف الله اليوم بالحق في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ اليوم الحق ﴾ [النبأ : 39] .

خامسها : أنه راجع إلى القول الذي يقال : ﴿ هذا الذى كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الذاريات : 14] وفي التفسير مباحث :

الأول : الفاء تستدعي تعقيب أمر لأمر فما الأمر المتقدم ؟ نقول فيه وجهان .

(113/725)

أحدهما : الدليل المتقدم كأنه تعالى يقول : إن ما توعدون لحق بالبرهان المبين ، ثم بالقسم واليمين .

ثانيهما : القسم المتقدم كأنه تعالى يقول : ﴿ والذريات ﴾ ثم ﴿ وَرَبُّ السماء والأرض ﴾ وعلى هذا يكون الفاء حرف عطف أعيد معه حرف القسم كما يعاد الفعل إذ يصح أن يقال ومررت بعمرو ، فقوله : ﴿ والذريات ذَرْواً فالحاملات وِقْراً ﴾ [الذاريات : 1 ، 2] عطف من غير إعادة حرف القسم ، وقوله : ﴿ فَوَرَبِّ السماء ﴾ مع إعادة حرفه ،

والسبب فيه وقوع الفصل بين القسمين ، ويحتمل أن يقال الأمر المتقدم هو بيان الثواب في قوله : ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات : 13] وقوله : ﴿إِنَّ المتقين فِى جنات﴾ [الذاريات : 15] وفيه فائدة ، وهو أن الفاء تكون تنبيهاً على أن لا حاجة إلى اليمين مع ما تقدم من الكشف المبين ، فكأنه يقول ورب السماء والأرض إنه لحق ، كما يقول القائل بعد ما يظهر دعواه هذا والله إن الأمر كما ذكرت فيؤكد قوله باليمين ، ويشير إلى ثبوته من غير يمين .

البحث الثاني : أقسم من قبل بالأمور الأرضية وهي الرياح وبالسماء في قوله : ﴿والسماء ذَاتِ الحبك﴾ [الذاريات : 7] ولم يقسم بربها ، وههنا أقسم بربها نقول كذلك الترتيب يقسم المتكلم أولاً بالأدنى فإن لم يصدق به يرتقي إلى الأعلى ، ولهذا قال بعض الناس إذا قال قائل وحياتك ، والله لا يكفر وإذا قال : والله وحياتك لا شك يكفر وهذا استشهاد ، وإن كان الأمر على خلاف ما قاله ذلك القائل لأن الكفر إما بالقلب ، أو باللفظ الظاهر في أمر القلب ، أو بالفعل الظاهر ، وما ذكره ليس بظاهر في تعظيم جانب غير الله ، والعجب من ذلك القائل أنه لا يجعل التأخير في الذكر مفيداً للترتيب في الوضوء وغيره .

(114/725)

البحث الثالث : قرىء مثل بالرفع وحينئذ يكون وصفاً لقوله لحق ومثل وإن أضيف إلى المعرفة لا يخرجه عن جواز وصف المنكر به ، تقول رأيت رجلاً مثل عمرو ، لأنه لا يفيده تعريفاً لأنه في غاية الإبهام وقرىء : ﴿ مَثَلُ ﴾ بالنصب ، ويحتمل وجهين .

أحدهما : أن يكون مفتوحاً لإضافته إلى ما هو ضعيف وإلا جاز أن يقال زيد قاتل من يعرفه أو ضارب من يشتمه .

ثانيهما : أن يكون منصوباً على البيان تقديره لحق حقاً مثل ، ويحتمل أن يقال إنه منصوب على أنه صفة مصدر معلوم غير مذكور ، ووجهه أنا دللنا أن المراد من الضمير في قوله : ﴿ إِنَّهُ ﴾ هو القرآن فكأنه قال إن القرآن لحق نطق به الملك نطقاً ﴿ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ وما مجرور لا شك فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 172 .

﴿ 180

(115/725)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1) ﴾

أقسم الله تعالى بهذه المخلوقات تنبيهاً عليها وتشريفاً لها ودلالة على الاعتبار فيها حتى

يصير الناظر فيها إلى توحيد الله تعالى .

﴿ والذاريات ﴾ الرياح بإجماع من المتأولين ، يقال : ذرت الريح وأذرت بمعنى : وفي الرياح معتبر من شدتها حيناً ، ولينها حيناً وكونها مرة رحمة ومرة عذاباً إلى غير ذلك .

و﴿ ذرواً ﴾ نصب على المصدر . و: ﴿ الحاملات وقراً ﴾ قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه هي السحاب الموقرة بالماء . وقال ابن عباس وغيره هي السفن الموقرة بالناس وأمتاعهم . وقال جماعة من العلماء هي أيضاً مع هذا جميع الحيوان الحامل ، وفي جميع ذلك معتبر . و: ﴿ وقراً ﴾ مفعول صريح ، و: ﴿ الجاريات يسراً ﴾ قال علي بن أبي طالب وغيره : هي السفن في البحر وقال آخرون : هي السحاب بالريح وقال آخرون : هي الجواري من الكواكب ، واللفظ يقتضي جميع هذا . و﴿ يسراً ﴾ نعت لمصدر محذوف وصفات المصادر المحذوفة تعود أحوالاً . و: ﴿ يسراً ﴾ معناه : بسهولة وقلة تكلف ، و: ﴿ المقسمات أمراً ﴾ الملائكة والأمر هنا اسم الجنس ، فكأنه قال : والجماعات التي تقسم أمور الملكوت من الأرزاق والآجال والخلق في الأرحام وأمر الرياح والجبال وغير ذلك ، لأن كل هذا إنما هو بملائكة تخدمه ، فالآية تتضمن جميع الملائكة لأنهم كلهم في أمور مختلفة ، وأنث ﴿ المقسمات ﴾ من حيث أراد الجماعات .

وقال أبو طفيل عامر بن واثلة كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه على المنبر فقال : لا

تسألوني عن آية من كتاب الله أو سنة ماضية إلا قلت ، فقام إليه ابن الكواء فسأله عن هذه ، فقال : ﴿ الذاريات ﴾ الرياح.

(116/725)

و ﴿ الحاملات ﴾ السحاب ، و ﴿ الجاريات ﴾ السفن ، و ﴿ المقسمات ﴾ الملائكة.

ثم قال له سل سؤال تعلم ولا تسأل سؤال تعنت وهذا القسم واقع على قوله : ﴿ إنما توعدون لصادق ﴾ ، و ﴿ توعدون ﴾ يحتمل أن يكون من الإيعاد ، ويحتمل أن يكون من الوعد ، وأيها كان فالوصف له بالصدق صحيح و: ﴿ صادق ﴾ هنا موضوع بدل صدق ، ووضع الاسم موضع المصدر . و: ﴿ الدين ﴾ الجزاء . وقال مجاهد الحساب ، والأظهر في الآية أنها للكفار وأنها وعيد محض بيوم القيامة.

ثم أقسم تعالى بمخلوق آخر فقال : ﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ فظاهر لفظة ﴿ السماء ﴾ أنها لجميع السماوات ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاصي : هي السماء السابعة . و: ﴿ الحُبُك ﴾ بضم الحاء والباء : الطرائق التي هي على نظام في الأجرام ، فحبك الرمان والماء : الطرائق التي تصنع فيها الريح الهابة عليها ، ومنه قول زهير :

مكلل بعميم النبت تنسجه . . . ريح خريف لضاحي مائه حبك

وحبك الدرع : الطرائق المتصلة في موضع اتصال الحلق بعضها ببعض ، وفي بعض أجنحة الطير حبك على نحو هذا ، ويقال لتكسر الشعر حبك ، وفي الحديث : " أن من ورائكم الكذاب المضل ، وأن من ورائه حبكاً حبكاً "

(117/725)

يعني جعودة شعره فهو يكسره ، ويظهر في المنسوجات من الأكسية وغيرها طرائق في موضع تداخل الخيوط هي حبك ، ويقال نسج الثوب فأجاد حبكه ، فهذه هي الحبك في اللغة . وقال منذر بن سعيد : إن في السماء في تألق جرمها هي هكذا لها حبك ، وذلك لجودة خلقتها وإتقان صنعتها ، ولذلك عبر ابن عباس في تفسير قوله ﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ بأن قال : حبكها حسن خلقتها ، وقال ابن جبير : ﴿ الحبك ﴾ : الزينة . وقال الحسن : حبكها كواكبها ، وقال ابن زيد : ﴿ الحبك ﴾ : الشدة ، وحبكت شدت ، وقرأ ﴿ سبعاً شداداً ﴾ [النبأ : 12] وقال ابن جني : ﴿ الحبك ﴾ طرائق الغيم ونحو هذا ، وواحد ﴿ الحبك ﴾ : حباك ، ويقال للظفيرة التي يشد بها حظار القصب ونحوه ، وهي مستطيلة تمنع في ترجيب الغرسات المصطفة حباك وقد يكون واحد ﴿ الحبك ﴾ حبيكة ، وقال الراجز : [الوافر]

كأنما جللها الحواك ، . . . طنفسة في وشيها حباك

وقرأ جمهور الناس : " الحُبُك " بضم الحاء والباء . وقرأ الحسن بن أبي الحسن وأبو مالك الغفاري بضم الحاء وسكون الباء تخفيفاً ، وهي لغة بني تميم كرسل في رسل ، وهي قراءة أبي حيوة وأبي السمال . وقرأ الحسن أيضاً وأبو مالك الغفاري : " الحِبك " بكسر الحاء والباء على أنها لغة كإبل وإطل .

(118/725)

وقرأ الحسن أيضاً فيما روي عنه : " الحِبْك " بكسر الحاء وسكون الباء كما قالوا على جهة التخفيف : إبل وإطل بسكون الباء والطاء . وقرأ ابن عباس : " الحَبَك " بفتح الحاء والباء . وقرأ الحسن أيضاً فيما روي عنه " الحِبُك " بكسر الحاء وضم الباء وهي لغة شاذة غير متوجهة ، وكأنه أراد كسرهما ثم توهم " الحِبُك " قراءة الضم بعد أن كسر الحاء فضم الباء ، وهذا على تداخل اللغات وليس في كلام العرب هذا البناء . وقرأ عكرمة " الحُبَك " بضم الحاء وفتح الباء جمع حبكة ، وهذه كلها لغات والمعنى ما ذكرناه . والفرس المحبوك الشديد الخلقة الذي له حبك في مواضع من منابت شعره ، وذلك دليل على حسن بنيته . وقوله تعالى : ﴿ إنكم لفي قول مختلف ﴾ ، يحتمل أن يكون خطاباً لجميع الناس مؤمن

وكافر ، أي اختلفتم بأن قال فريق منكم : آمنا بمحمد وكتابه ، وقال فريق آخر : كفرنا ، وهذا قول قتادة . ويحتمل أن يكون خطاباً للكفرة فقط ، أي : أنتم في جنس من الأقوال مختلف في نفسه ، قوم منكم يقولون : ساحر ، وقوم : كاهن ، وقوم : شاعر ، وقوم : مجنون إلى غير ذلك ، وهذا قول ابن زيد والضمير في : ﴿ عنه ﴾ قال الحسن وقتادة : هو عائد على محمد أو كتابه وشرعه . و: ﴿ يؤفك ﴾ معناه : يصرف ، فالمعنى : يصرف عن كتاب الله من صرف ممن غلبت شقاوته ، وكان قتادة يقول : المأفوك منا اليوم عن كتاب الله كثيراً ، ويحتمل أن يعود الضمير على القول ، أي : يصرف بسببه من أراد الإسلام ، بأن يقال له هو سحر ، هو كهانة ؛ وهذا حكاه الزهراوي .

ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿ عنه ﴾ على القول ، أي يصرف عنه بتوفيق الله إلى الإسلام من غلبت سعادته ، وهذا على أن يكون قوله : ﴿ إنكم لفي قول مختلف ﴾ للكفار فقط .

(119/725)

قال القاضي أبو محمد : وهذا وجه حسن لا يُخِلُّ به ، إلا أن عُرْفَ الاستعمال في " أَفَكَ " ، إنما هو في الصرف من خير إلى شر ، وتأمل ذلك تجدْها أبداً في المصروفين المذمومين ،

وحكى أبو عمرو عن قتادة أنه قرأ " من أَفَكَ " بفتح الهمزة والفاء .

وقوله تعالى : ﴿ قتل الخراصون ﴾ دعاء عليهم ، كما تقول : قاتلك الله وقتلك الله ، وعقرى حلقى ونحوه ، وقال بعض المفسرين معناه : لعن الخراصون ، وهذا تفسير لا تعطيه اللفظة . والخراص : المخمن القائل بظنه فتحته الكاهن والمرتاب وغيره ممن لا يقين له ، والإشارة إلى مكذبي محمد على كل جهة من طروقهم . والغمرة : ما يغشى الإنسان ويغطيه كغمرة الماء ، والمعنى في غمرة من الجهالة . و: ﴿ ساهون ﴾ معناه عن أنهم ﴿ في غمرة ﴾ وعن غير ذلك من وجوه النظر .

وقوله تعالى : ﴿ يسألون أيان يوم الدين ﴾ معناه : يقولون متى يوم الدين ؟ على معنى التكذيب ، وجائز أن يقترن بذلك من بعضهم هزء وأن لا يقترن .

وقرأ السلمي والأعمش : " إِيَان " بكسر الهمزة وفتح الياء المخففة .

وقوله تعالى : ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ قال الزجاج : نصبوا ﴿ يوم ﴾ على الظرف من مقدر تقديره : هو كائن ﴿ يوم هم على النار ﴾ ونحو هذا ، وقال الخليل وسيبويه : نصبه على البناء لما أضيف إلى غير متمكن . قال بعض النحاة : وهو في موضع رفع على البدل من ﴿ يوم الدين ﴾ . و: ﴿ يفتنون ﴾ معناه : يحرقون ويعذبون في النار ، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة والجميع ، ومنه قيل للحرة : فتين ، كأن الشمس أحرقت حجارتها .

ومنه قول كعب بن مالك :

معاطي تهوى إليها الحقو . . . ق يحسبها من وراءها الفتينا

(120/725)

وفتنت الذهب أحرقته ، ولما كان لا يحرق إلا لمعنى الاختبار قيل لكل اختبار فتنة ، واستعملوا : فتن ، بمعنى اختبر ، وعلى هنا موصلة إلى معنى في ، وفي قوله تعالى : ﴿ ذوقوا فتنتكم ﴾ معناه : يقال لهم ذوقوا حرقكم وعذابكم ، قاله قتادة وغيره ، والذوق : هنا استعارة ، وهذا إشارة إلى حرقهم واستعجالهم : هو قولهم : ﴿ أيان يوم الدين ﴾ وغير ذلك من الآيات التي تقتضي استعجالهم على جهة التكذيب منهم .

ولما ذكر تعالى حالة الكفرة وما يلقون من عذاب الله ، عقب ذلك بذكر المتقين وما يلقون من النعيم ليبين الفرق ويتبع الناس طريق الهدى ، والجنات والعيون معروف . والمتقي في الآية مطلق في اتقاء الكفر والمعاصي .

وقوله تعالى : ﴿ آخذين ﴾ نصب على الحال . وقرأ ابن أبي عبلة : " آخذون " بواو .

وقال ابن عباس المعنى : ﴿ آخذين ﴾ في دنياهم ﴿ ما آتاهم ربهم ﴾ من أوامره ونواهيه وفرائضه وشرعه ، فالحال على هذا محكية وهي متقدمة في الزمان على كذبهم في

جنات وعيون . وقال جماعة من المفسرين معنى قوله : ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ أي محصلين لنعم الله التي أعطاهم من جنته ورضوانه ، وهذه حال متصلة في المعنى بكونهم في الجنات . وهذا التأويل أرجح عندي لاستقامة الكلام به . وقوله : ﴿ قبل ذلك ﴾ يريد في الدنيا محسنين بالطاعة والعمل الصالح .

كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17)

معنى قوله عز وجل : ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ أن نومهم كان قليلاً لاشتغالهم بالصلاة والعبادة ، فالمراد من كل ليلة ، والهجوع : النوم .

(121/725)

وقال الأحنف بن قيس : لست من أهل هذه الآية ، وهذا إنصاف منه . وقيل لبعض التابعين مدح الله قوماً ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ ، ونحن قليل من الليل ما نقوم ، فقال رحم الله عبداً رقد ، إذا نعس ، وأطاع ربه إذا استيقظ . وفسر أنس بن مالك هذه الآية بأنهم كانوا ينتفلون بين المغرب والعشاء ، وقال الربيع بن خيثم ، المعنى : كانوا يصيبون من الليل حظاً . وقال مطرف بن عبد الله ، المعنى : قل ليلة أتت عليهم هجوعها كله ، وقاله ابن أبي نجيح ومجاهد ، فالمراد عند هؤلاء بقوله : ﴿ من الليل ﴾ أي من الليالي .

وظاهر الآية عندي أنهم كانوا يقومون الأكثر من ليلهم ، أي من كل ليلة وقد قال الحسن في تفسير هذه الآية : كابدوا قيام الليل لا ينامون منه إلا قليلاً .

وأما إعراب الآية : فقال الضحاك في كتاب الطبري ما يقتضي أن المعنى ﴿ كانوا قليلاً ﴾ في عددهم وتم خبر كان ، ثم ابتدأ ﴿ من الليل ما يهجعون ﴾ ف ﴿ ما ﴾ : نافية . و ﴿ قليلاً ﴾ وقف حسن .

وقال بعض النحاة : ﴿ ما ﴾ زائدة ، و ﴿ قليلاً ﴾ مفعول مقدم ب ﴿ يهجعون ﴾ .

وقال جمهور النحويين ﴿ ما ﴾ مصدرية و ﴿ قليلاً ﴾ خبر "كان" ، والمعنى كانوا قليلاً من الليل هجوعهم . والهجوع مرتفع ب " قليل " على أنه فاعل ، وعلى هذا الإعراب يجيء قول الحسن وغيره ، وهو الظاهر عندي أن المراد كان هجوعهم من الليل قليلاً . وفسر ابن عمر والضحاك ﴿ يستغفرون ﴾ ب " يصلون " . وقال الحسن معناه : يدعون في طلب المغفرة ، و" الأسحار " مظنة الاستغفار . ويروى أن أبواب الجنة تفتح سحر كل يوم . وفي قصة يعقوب عليه السلام في قوله : ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ [يوسف : 98] قال أخر الاستغفار لهم إلى السحر . قال ابن زيد في كتاب الطبري : السحر : السدس الآخر من الليل .

وقوله تعالى : ﴿ وفي أموالهم حق ﴾ الصحيح أنها محكمة ، وأن هذا الحق هو على وجه الندب ، لا على وجه الفرض ، و: ﴿ معلوم ﴾ يراد به متعارف ، وكذلك قيام الليل الذي مدح به ليس من الفرائض ، وأكثر ما تقع الفريضة بفعل المندوبات ، وقال منذر بن سعيد : هي الزكاة المفروضة وهذا ضعيف ، لأن السورة مكية وفرض الزكاة بالمدينة . وقال قوم من المتأولين : كان هذا ثم نسخ بالزكاة ، وهذا غير قوي وما شرع الله عز وجل بمكة قبل الهجرة شيئاً من أخذ الأموال .

واختلف الناس في ﴿ المحروم ﴾ اختلافاً ، هو عندي تخليط من المتأخرين ، إذ المعنى واحد ، وإنما عبر علماء السلف في ذلك بعبارات على جهة المثالات فجعلها المتأخرون أقوالاً وحصرها مكي ثمانية .

و: ﴿ المحروم ﴾ هو الذي تبعد عنه ممكنات الرزق بعد قربها منه فيناله حرمان وفاقة ، وهو مع ذلك لا يسأل ، فهذا هو الذي له حق في أموال الأغنياء كما للسائل حق ، قال الشعبي : أعياني أن أعلم ما ﴿ المحروم ﴾ ؟ وقال ابن عباس : ﴿ المحروم ﴾ : المعارف الذي ليس له في الإسلام سهم مال ، فهو ذو الحرفة المحدود . وقال أبو قلابة : جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل ، فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هذا ﴿ المحروم ﴾ . وقال زيد بن أسلم : هو الذي أجيحت ثمرته من المحرومين ، والمعنى الجامع

لهذه الأقوال أنه الذي لا مال له لحرمان أصابه ، وإلا فالذي أجيحت ثمرته وله مال كثير غيرها فليس في هذه الآية بإجماع ، وبعد هذا مقدر من الكلام تقديره : فكونوا مثلهم أيها الناس وعلى طريقتهم فإن النظر المؤدي إلى ذلك متوجه ، ف ﴿ في الأرض آيات ﴾ لمن اعتبر وأيقن .

قال القاضي أبو محمد : وهذه إشارة إلى لطائف الحكمة وعجائب الخلقة التي في الأرضين والجبال والمعادن والعيون وغير ذلك . وقرأ قتادة : " آية " على الإفراد .

(123/725)

وقوله تعالى : ﴿ وفي أنفسكم ﴾ إحالة على النظر في شخص الإنسان فإنه أكثر المخلوقات التي لدينا عبرة لما جعل الله فيه مع كونه من تراب من لطائف الحواس ومن أمر النفس وجهاتها ونطقها ، واتصال هذا الجزء منها بالعقل ، ومن هيئة الأعضاء واستعدادها لتنفع أو تجمل أو تعين . قال ابن زيد : إنما القلب مضغة في جوف ابن آدم جعل الله فيه العقل ، أفيدري أحد ما ذاك العقل ؟ وما صفته ؟ وكيف هو ؟ وقال الرماني : النفس خاصة : الشيء التي لو بطل ما سواها مما ليست مضمنة به لم تبطل ، وهذا تعمق لا أحمده . وقوله : ﴿ أفلا تبصرون ﴾ توقيف وتوبيخ .

وقوله تعالى : ﴿ وفي السماء رزقكم ﴾ . قال الضحاك وابن جبير : أراد المطر والثلج . وقال واصل الأحدب ومجاهد : أراد القضاء والقدر ، أي الرزق عند الله يأتي به كيف يشاء ، لا رب غيره . وقرأ ابن محيصن " وفي السماء رازقكم " .

و: ﴿ توعدون ﴾ يحتمل أن يكون من الوعد ، ويحتمل أن يكون من الوعيد ، والكل في السماء . قال الضحاك المراد : من الجنة والنار . وقال مجاهد المراد : الخير والشر . وقال ابن سيرين المراد : الساعة .

ثم أقسم تعالى بنفسه على صحة هذا القول والخبر وشبهه في اليقين به بالنطق من الإنسان ، وهو عنده في غاية الوضوح ، ولا يمكن أن يقع فيه اللبس ما يقع في الرؤية والسمع ، بل النطق أشد تخلصاً من هذه واختلف القراء في قوله : ﴿ مثل ما ﴾ ، فقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر " مثلُ " بالرفع ، ورويت عن الحسن وابن أبي إسحاق والأعمش بخلاف عنهم .

(124/725)

وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر وأهل المدينة وجل الناس : " مثلَ " بالنصب ، فوجه الأولى الرفع على النعت ، وجاز نعت النكرة بهذا الذي قد أضيف إلى

المعرفة من حرث كان لفظ مثل شائعاً عاماً لوجوه كثيرة ، فهو لا تعرفه الإضافة إلى معرفة ، لأنك إذا قلت : رأيت مثل زيد فلم تعرف شيئاً ، لأن وجوه المماثلة كثيرة ، فلما بقي الشياع جرى عليه حكم النكرة فنعتت به النكرة . و﴿ ما ﴾ زائدة تعطي تأكيداً ، وإضافة " مثل " هي إلى قوله : ﴿ إنكم ﴾ . ووجه قراءة النصب أحد ثلاثة وجوه : إما أن يكون مثل قد بني لما أضيف إلى غير متمكن وهو في موضع رفع على الصفة ﴿ لحق ﴾ ولحقه البناء ، لأن المضاف إليه قد يكسب المضاف بعض صفته كالتأنيث في قوله : شرقت صدر القناة . ونحوه ، وكالتعريف في غلام زيد إلى غير ذلك ، ويجري " مثلَ " حينئذ مجرى ﴿ عذاب يومئذ ﴾ [المعارج : 11] على قراءة من فتح الميم ، ومنه قول الشاعر [النابغة الذبياني] : [الطويل]

على حين عاتبت المشيب على الصبا . . . ومنه قول الآخر : [البسيط]

لم يمنع الشرب منها غير أن هتفت . . . ف " غير " فاعلة ولكنه فتحها . والوجه الثاني وهو قول المازني إن " مثلَ " بني لكونه مع ﴿ ما ﴾ شيئاً واحداً ، وتجيء على هذا في مضمار ويحما وأينما ، ومنه قول حميد بن ثور : [الطويل]

ألا هيما مما لقيت وهيما . . . وويهاً لمن لم يدر ما هن ويحما

فلولا البناء وجب أن يكون منوناً ، وكذلك قول الشاعر [حسان بن ثابت] : [الطويل]

فأكرم بنا أماً وأكرم بنا ابن ما . . . والوجه الثالث : أن تنصب " مثل " على الحال من قوله : ﴿ لحق ﴾ وهي حال من نكرة وفيه خلاف لكن جوز ذلك الجرمي ، وأما غيره فيراه حالاً من الذكر المرفوع في قوله ﴿ لحق ﴾ لأن التقدير ﴿ لحق ﴾ هو ، وفي هذا نظر . والنطق في هذه الآية : الكلام بالحروف والأصوات في ترتيب المعاني . وروي أن بعض الأعراب الفصحاء سمع هذه الآية فقال : من أحوج الكريم إلى أن يحلف ؟ والحكاية وقعت في كتاب الثعلبي وسبل الخيرات متممة عن الأصمعي ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قاتل الله قوماً أقسم لهم ربهم بنفسه فلم يصدقوه " وروى أبو سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو فر أحدكم من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت " وأحاديث الرزق والأشعار فيه كثيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(126/725)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾

لما ذكر مآل الكفار ذكر مآل المؤمنين أي هم في بساتين فيها عيون جارية على نهاية ما يتنزه

به .

﴿ آخِذِينَ ﴾ نصب على الحال .

﴿ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي ما أعطاهم من الثواب وأنواع الكرامات ؛ قاله الضحاك .

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : "آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ" أي عاملين بالفرائض .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ أي قبل دخولهم الجنة في الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ بالفرائض .

وقال ابن عباس : المعنى كانوا قبل أن يفرض عليهم الفرائض محسنين في أعمالهم .

كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17)

فيه خمس مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ معنى "يَهْجَعُونَ" ينامون ؛ والهجوع النوم ليلاً ، والتَّهْجاع النومة الخفيفة ؛ قال أبو قيس بن الأَسْلَت :

قد حصَّتِ البيضةُ رأسي فَمَا . . .

أَطْعَمُ نَوْماً غيرَ تَهْجاعِ

وقال عمرو بن مَعْدي كرِب يتشوّق أخته وكان أسرها الصِّمَّة أبو دُرَيد بن الصِّمَّة :

أَمِنْ رَيْحَانة الدّاعِي السَّميعُ . . .

يُؤَرِّقُنِي وأَصحابي هُجوعُ

يقال : هَجَعَ يَهْجَعَ هُجوعاً ، وهَبَغَ يَهْبَغُ هُبوغاً بالغين المعجمة إذا نام ؛ قاله الجوهري .

واختلف في "ما" فقيل : صلة زائدة قاله إبراهيم النخعي والتقدير كانوا قليلاً من الليل يهجعون ؛ أي ينامون قليلاً من الليل ويصلّون أكثره .

قال عطاء : وهذا لما أمروا بقيام الليل .

وكان أبو ذرّ يحتجِز ويأخذ العصا فيعتمد عليها حتى نزلت الرخصة ﴿ قُمِ الليل إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ الآية .

وقيل : ليس "ما" صلة بل الوقف عند قوله : "قَلِيلاً" ثم يبتدىء ﴿ مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ ف"ما" للنفي وهو نفي النوم عنهم البَتّةَ .

قال الحسن : كانوا لا ينامون من الليل إلا أقله وربما نَشِطوا فجدّوا إلى السحر .

(127/725)

روي عن يعقوب الحضرمي أنه قال : اختلفوا في تفسير هذه الآية فقال بعضهم : "كَانُوا قَلِيلاً" معناه كان عددهم يسيراً ثم ابتدأ فقال : ﴿ مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ على معنى من الليل يهجعون ؛ قال ابن الأنباري : وهذا فاسد ؛ لأن الآية إنما تدل على قلة نومهم لا على قلة عددهم ، وبعد فلوا ابتدأنا "مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ" على معنى من الليل يهجعون لم يكن في هذا مدح لهم ؛ لأن الناس كلهم يهجعون من الليل إلا أن تكون "ما" جَحْداً .

قلت : وعلى ما تأوّله بعض الناس وهو قول الضحاك من أن عددهم كان يسيراً يكون الكلام متصلاً بما قبل من قوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ أي كان المحسنون قليلاً ، ثم استأنف فقال : ﴿ مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ وعلى التأويل الأوّل والثاني يكون "كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ" خطاباً مستأنفاً بعد تمام ما تقدّمه ويكون الوقف على "مَا يَهْجَعُونَ" ، وكذلك إن جعلت "قَلِيلاً" خبر كان وترفع "ما" بقليل ؛ كأنه قال : كانوا قليلاً من الليل هجوعهم .

ف"ما" يجوز أن تكون نافية ، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدراً ، ويجوز أن تكون رفعاً على البدل من اسم كان ، التقدير كان هجوعهم قليلاً من الليل ، وانتصاب قوله : "قَلِيلاً" إن قدرت "ما" زائدة مؤكدة ب"يَهْجَعُونَ" على تقدير كانوا وقتاً قليلاً أو هجوعاً قليلاً يهجعون ، وإن لم تقدر "ما" زائدة كان قوله : "قَلِيلاً" خبر كان ولم يجز نصبه ب"يَهْجَعُونَ" ؛ لأنه إذا قدر نصبه ب"يَهْجَعُونَ" مع تقدير "ما" مصدراً قدمت الصلة على الموصول .

وقال أنس وقتادة في تأويل الآية : أي كانوا يصلّون بين العشاين : المغرب والعشاء .

أبو العالية : كانوا لا ينامون بين العشاءين .

وقاله ابن وهب .

وقال مجاهد : نزلت في الأنصار كانوا يصلون العشاءين في مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم يمضون إلى قُباء .

وقال محمد بن علي بن الحسين : كانوا لا ينامون حتى يصلوا العَتَمة .

قال الحسن : كأنه عَدَّ هجوعهم قليلاً في جنب يقظتهم للصلاة .

وقال ابن عباس ومُطرِّف : قَلّ ليلة لا تأتي عليهم إلا يصلّون لله فيها إما من أوّلها وإما من وسطها .

الثانية : روي عن بعض المتهجدين أنه أتاه آتٍ في منامه فأنشده :

وكيف تنامُ الليلَ عينٌ قريرةٌ . . .

ولم تَدرِ في أيّ المجالِسِ تنزِلُ

وروي عن رجل من الأزد أنه قال : كنت لا أنام الليل فنمت في آخر الليل ، فإذا أنا بشابين أحسن ما رأيت ومعهما حُلَل ، فوقفا على كل مصلّ وكسواه حلّة ، ثم انتهيا إلى النيام فلم يكسوهم ، فقلت لهما : اكسواني من حُللكما هذه ؛ فقالا لي : إنها ليست حُلّة لباس إنما هي رضوان الله يحلّ على كل مصلّ .

ويروى عن أبي خَلّاد أنه قال : حدّثني صاحب لي قال : فبينا أنا نائم ذات ليلة إذ مُثّلت لي القيامة ، فنظرت إلى أقوام من إخواني قد أضاءت وجوههم ، وأشرقت ألوانهم ، وعليهم

الحلل من دون الخلائق ، فقلت : ما بال هؤلاء مكتسون والناس عُراة ، ووجوههم مشرقة ووجوه الناس مغبرة ! فقال لي قائل : الذين رأيتهم مكتسون فهم المصلّون بين الأذان والإقامة ، والذين وجوههم مشرقة فأصحاب السهر والتهجد ، قال : ورأيت أقواماً على نجائب فقلت : ما بال هؤلاء ركباناً والناس مشاة حفاة ؟ فقال لي : هؤلاء الذين قاموا على أقدامهم تقرّبا لله تعالى فأعطاهم الله بذلك خير الثواب ؛ قال : فصِحت في منامي : واهاً للعابدين ، ما أشرف مقامهم ! ثم استيقظت من منامي وأنا خائف .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ مدح ثان ؛ أي يستغفرون من ذنوبهم ، قاله الحسن .

والسَّحَر وقت يرجى فيه إجابة الدعاء .

وقد مضى في "آل عمران" القول فيه .

وقال ابن عمر ومجاهد : أي يصلّون وقت السَّحَر فسمّوا الصلاة استغفارا .

(129/725)

وقال الحسن في قوله تعالى : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ مدّوا الصلاة من أوّل الليل إلى السحر ثم استغفروا في السحر .

ابن وهب : هي في الأنصار ؛ يعني أنهم كانوا يغدون من قُباء فيصلون في مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم .

ابن وهب عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب قالوا : كانوا يَنْضَحونِ لِنَاسٍ من الأنصار بالدلاء على الثمار ثم يهجعون قليلاً ، ثم يصلّون آخر الليل .

الضحاك : صلاة الفجر .

قال الأحنف بن قيس : عرضت عملي على أعمال أهل الجنة فإذا قوم قد باينونا بَوْناً بعيداً لا نبلغ أعمالهم "كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ" وعرضت عملي على أعمال أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم ، يكذبون بكتاب الله وبرسوله وبالبعث بعد الموت ، فوجدنا خيرنا منزلة قوماً خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ للسَّآئِلِ والمحروم ﴾ مدح ثالث .

قال محمد بن سيرين وقتادة : الحق هنا الزكاة المفروضة .

وقيل : إنه حقّ سوى الزكاة يصل به رَحِماً ، أو يَقري به ضيفاً ، أو يحمل به كَلاًّ ، أو يغني محروماً .

وقاله ابن عباس ؛ لأن السورة مكية وفرضت الزكاة بالمدينة .

ابن العربي : والأقوى في هذه الآية أنها الزكاة ؛ لقوله تعالى في سورة "سأل سائل" : ﴿ والذين في أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ والمحروم ﴾ والحق المعلوم هو الزكاة التي بيّن الشرع

قدرها وجنسها ووقتها ، فأما غيرها لمن يقول به فليس بمعلوم ؛ لأنه غير مقدّر ولا مجنّس ولا موقّت .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ لِّلسَّآئِلِ والمحروم ﴾ السائل الذي يسأل الناس لفاقته ؛ قاله ابن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما .

"وَالْمَحْرُومِ" الذي حُرِم المالَ .

واختلف في تعيينه ؛ فقال ابن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما : المحروم المُحارَف الذي ليس له في الإسلام سهم .

(130/725)

وقالت عائشة رضي الله عنها : المحروم المُحارَف الذي لا يتيسر له مكسبه ؛ يقال : رجل مُحارَف بفتح الراء أي محدود محروم ، وهو خلاف قولك مُبارَك .

وقد حورف كسبُ فلان إذا شُدِّد عليه في معاشه كأنه مِيلَ برزقه عنه .

وقال قتادة والزهري : المحروم المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً ولا يُعلِم بحاجته .

وقال الحسن ومحمد بن الحنفية : المحروم الذي يجيء بعد الغنيمة وليس له فيها سهم .

روي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث سَرِيّة فأصابوا وغنموا فجاء قوم بعد ما فرغوا

فنزلت هذه الآية ﴿ وفي أَمْوَالِهِمْ ﴾ .

وقال عِكرمة : المحروم الذي لا يبقى له مال .

وقال زيد بن أسلم : هو الذي أصيب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته .

وقال القُرَظيّ : المحروم الذي أصابته الجائحة ثم قرأ ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ نظيره في قصة أصحاب الجنة حيث قالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ وقال أبو قِلابة : كان رجل من أهل اليمامة له مال فجاء سيل فذهب بماله ، فقال رجل من أصحابه : هذا المحروم فأقسموا له .

وقيل : إنه الذي يطلب الدنيا وتُدبِر عنه .

وهو يروى عن ابن عباس أيضاً .

وقال عبد الرحمن بن حميد : المحروم المملوك .

وقيل : إنه الكلب ؛ روي أن عمر بن عبد العزيز كان في طريق مكة ، فجاء كلب فانتزع عمر رحمه الله كتف شاة فرمى بها إليه وقال : يقولون إنه المحروم .

وقيل : إنه من وجبت نفقته بالفقر من ذوي الأنساب ؛ لأنه قد حُرِم كسب نفسه حتى وجبت نفقته في مال غيره .

وروى ابن وهب عن مالك : أنه الذي يحرم الرزق ، وهذا قول حسن ؛ لأنه يعم جميع الأقوال .

وقال الشعبي : لي اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم فما أنا اليوم بأعلم مني فيه يومئذ .

رواه شعبة عن عاصم الأحول عن الشعبي .

وأصله في اللغة الممنوع ؛ من الحرمان وهو المنع .

قال علقمة :

ومُطْعَمُ الغُنْمِ يومَ الغُنْم مُطْعَمُهُ . . .

أَنَّى تَوَجَّه والمحرومُ محرومُ

(131/725)

وعن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " "ويلٌ للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم فيقول الله تعالى وعزتي وجلالي لأقربنكم ولأبعدنهم" ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ " ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي الأَرض آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾

لما ذكر أمر الفريقين بيّن أن في الأرض علامات تدل على قدرته على البعث والنشور ؛ فمنها

عود النبات بعد أن صار هشيماً ، ومنها أنه قدّر الأقوات فيها قِواماً للحيوانات ، ومنها سيرهم في البلدان التي يشاهدون فيها آثار الهلاك النازل بالأمم المكذّبة .

والموقنون هم العارفون المحقّقون وحدانية ربهم ، وصدق نبوّة نبيهم ؛ خصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بتلك الآيات وتدبرها .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ قيل : التقدير وفي الأرض وفي أنفسكم آيات للموقنين .

وقال قتادة : المعنى من سار في الأرض رأى آياتٍ وعبراً ، ومن تفكر في نفسه علم أنه خُلق ليعبد الله .

ابن الزبير ومجاهد : المراد سبيل الخلاء والبول .

وقال السائب بن شريك : يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين ؛ ولو شرب لبناً محضاً لخرج منه الماء ومنه الغائط ؛ فتلك الآية في النفس .

وقال ابن زيد : المعنى أنه خلقكم من تراب ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم : 20] .

السدي : "وَفِي أَنفُسِكُمْ" أي في حياتكم وموتكم ، وفيما يدخل ويخرج من طعامكم .

الحسن : وفي الهَرَم بعد الشباب ، والضعف بعد القوّة ، والشيب بعد السواد .

وقيل : المعنى وفي خلق أنفسكم من نطفة وعلقة ومضغة ولحم وعظم إلى نفخ الروح ، وفي اختلاف الألسنة والألوان والصُّوَر .

(132/725)

إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة ، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول ، وما خصّت به من أنواع المعاني والفنون ، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح ، وتأتِّيها لما خُلِقت له ، وما سَوَّى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني ، وأنه إذا جسا شيء منها جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذل ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] .

﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ يعني بصر القلب ليعرفوا كمال قدرته .

وقيل : إنه نُجْح العاجز ، وحرمان الحازم .

قلت : كل ما ذكر مراد في الاعتبار .

وقد قدّمنا في آية التوحيد من سورة "البقرة" أن ما في بدن الإنسان الذي هو العالَم الصغير شيء إلا وله نظير في العالَم الكبير ، وذكرنا هناك من الاعتبار ما يكفي ويغني لمن تدبر .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي السمآء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ قال سعيد بن جبير والضحاك :

الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق .

قال سعيد بن جبير : كل عين قائمة فإنها من الثلج .

وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه واللَّهِ رزقكم ولكنكم تُحرَمونه بخطاياكم .

وقال أهل المعاني : "وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ" معناه وفي المطر رزقكم ؛ سمى المطر سماء لأنه من السماء ينزل .

قال الشاعر :

إذا سقَط السماءُ بأرضِ قَوْمٍ . . .

رعيناه وإِنْ كانوا غِضَابَا

وقال ابن كيسان : يعني وعلى ربّ السماء رزقكم ؛ نظيره :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : 6] .

وقال سفيان الثوري : "وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ" أي عند الله في السماء رزقكم .

وقيل : المعنى وفي السماء تقدير رزقكم ، وما فيه لكم مكتوب في أم الكتاب .

وعن سفيان قال : قرأ واصل الأحدب ﴿ وَفِي السمآء رِزْقُكُمْ ﴾ فقال : ألا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض ! فدخل خَرِبة فمكث ثلاثاً لا يصيب شيئاً فإذا هو في الثالثة بدوخلةٍ رُطبٍ ، وكان له أخ أحسن نية منه فدخل معه فصارتا دوخلتين ، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرّق الله بالموت بينهما .

وقرأ ابن محيصن ومجاهد "وَفِي السَّمَاء رَازِقُكُمْ" بالألف وكذلك في آخرها "إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّازِقُ" .

﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ قال مجاهد : يعني من خير وشر .

وقال غيره : من خير خاصة .

وقيل : الشر خاصة .

وقيل : الجنة ؛ عن سفيان بن عيينة .

الضحاك : ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ من الجنة والنار .

وقال ابن سيرين : ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ من أمر الساعة .

وقاله الربيع .

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السمآء والأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ أكَّد ما أخبرهم به من البعث وما خلق في السماء من الرزق ، وأقسم عليه بأنه لحقٌّ ثم أكده بقوله : ﴿ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ وخصّ النطق من بين سائر الحواسّ ؛ لأن ما سواه من الحواسّ يدخله التشبيه ، كالذي يُرى

في المرآة ، واستحالة الذوق عند غلبة الصفراء ونحوها ، والدويّ والطنين في الأذن ، والنطق سالم من ذلك ، ولا يُعتَرض بالصَّدَى لأنه لا يكون إلا بعد حصول الكلام من الناطق غير مَشُوب بما يشكل به .

وقال بعض الحكماء : كما أن كل إنسان ينطق بنفسه ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره ، فكذلك كل إنسان يأكل رزقه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره .

وقال الحسن : بلغني أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم قال : " قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم بنفسه ثم لم يصدّقوه قال الله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السمآء والأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ " وقال الأصمعي : أقبلتُ ذات مرة من مسجد البصرة إذ طلع أعرابيّ جِلفٌ جافٍ على قعود له متقلّداً سيفه وبيده قوسه ، فدنا وسلّم وقال : ممن الرجل ؟ قلت من بني أَصْمَعَ ، قال : أنت الأصمَعي ؟ قلت : نعم .

(134/725)

قال : ومن أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يُتلَى فيه كلامُ الرحمن ؛ قال : وللرحمن كلام يتلوه الآدميون ؟ قلت : نعم ؛ قال : فاتل عليّ منه شيئاً ؛ فقرأت ﴿ والذاريات ذَرْواً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَفِي السمآء رِزْقُكُمْ ﴾ فقال : يا أصمعي حسبك ! ! ثم قام إلى ناقته فنحرها

وقطعها بجلدها ، وقال : أعنِّي على توزيعها ؛ ففرّقناها على من أقبل وأدبر ، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما ووضعهما تحت الرَّحل وولى نحو البادية وهو يقول : ﴿ وَفِي السمآء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ فمقتُّ نفسي ولمتُها ، ثم حججت مع الرشيد ، فبينما أنا أطوف إذا أنا بصوت رقيق ، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي وهو ناحل مصفر ، فسلّم عليّ وأخذ بيدي وقال : اتل عليّ كلام الرحمن ، وأجلسني من وراء المقام فقرأت "وَالذَّارِيَاتِ" حتى وصلت إلى قوله تعالى : ﴿ وَفِي السمآء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ فقال الأعرابي : لقد وجدنا ما وعدنا الرحمن حقًّا ، وقال : وهل غير هذا ؟ قلت : نعم ؛ يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السمآء والأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ قال فصاح الأعرابي وقال : يا سبحان الله ! من الذي أغضب الجليل حتى حلف ! ألم يصدقوه في قوله حتى ألجأوه إلى اليمين ؟ فقالها ثلاثاً وخرجت بها نفسه .

وقال يزيد بن مرثد : إن رجلاً جاع بمكان ليس فيه شيء فقال : اللهم رزقك الذي وعدتني فأتني به ؛ فشبِع ورَوِي من غير طعام ولا شراب .

وعن أبي سعيد الخدرِيّ قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لو أن أحدكم فرّ من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت " أسنده الثعلبي .

وفي سنن ابن ماجه عن حبة وسواءٍ ابني خالد قالا : دخلنا على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يعالج شيئاً فأعنّاه عليه ، فقال : " لا تيأسا من الرزق ما تهززت رؤوسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قِشر ثم يرزقه الله " وروى أن قوماً من الأعراب زرعوا زرعاً فأصابته جائحة فحزنوا لأجله ، فخرجت عليهم أعرابية فقالت : مالي أراكم قد نكستم رؤوسكم ، وضاقت صدوركم ، هو ربنا والعالم بنا ، رزقنا عليه يأتينا به حيث شاء ! ثم أنشأت تقول :

لو كان في صخرةٍ في البحر راسيةٍ . . .

صَمَّا مُلَمْلِمَةٍ مَلْسَا نَواحِيها

رِزْقٌ لنفسٍ بَرَاهَا الله لانفلقتْ . . .

حتى تؤدي إليها كُلَّ ما فيها

أو كان بين طِباقِ السبعِ مسلكها . . .

لَسَهَّلَ الله في المرقَى مَرَاقيها

حتّى تنالَ الذي في اللوح خُطَّ لها . . .

إنْ لم تَنلْه وإلا سوف يأتِيها

قلت : وفي هذا المعنى قصة الأشعريين حين أرسلوا رسولهم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم

، فسمع قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : 6] فرجع ولم يكلم النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال : ليس الأشعريون بأهون على الله من الدواب ؛ وقد ذكرناه في سورة "هود" .

وقال لقمان : ﴿ يا بني إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ [لقمان : 16] الآية .

وقد مضى في "لقمان" وقد استوفينا هذا الباب في كتاب (قمع الحرص بالزهد والقناعة) والحمد لله .

وهذا هو التوكل الحقيقي الذي لا يشوبه شيء ، وهو فراغ القلب مع الربّ ؛ رَزَقنا الله إياه ولا أحالنا على أحد سواه بمنّه وكرمه .

قوله تعالى : ﴿ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ قراءة العامة "مِثْلَ" بالنصب أي كمثل ﴿ مَآ أَنَّكُمْ ﴾ فهو منصوب على تقدير حذف الكاف أي كمثل نطقكم و"ما" زائدة ؛ قاله بعض الكوفيين .

وقال الزجاج والفراء : يجوز أن ينتصب على التوكيد ؛ أي لَحَقٌّ حقًّا مثل نطقك ؛ فكأنه نعت لمصدر محذوف .

وقول سيبويه : إنه مبني بُني حين أضيف إلى غير متمكن و "ما" زائدة للتوكيد .

المازني : "مِثْلَ" مع "ما" بمنزلة شيء واحد فبني على الفتح لذلك .

واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ قال : ولأن من العرب من يجعل مِثلا منصوباً أبداً ؛ فتقول : قال لي رجلٌ مثلك ، ومررت برجل مثلَك بنصب مثل على معنى كمثل .

وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي والأعمش "مِثلُ" بالرفع على أنه صفة لحقّ ؛ لأنه نكرة وإن أضيف إلى معرفة ، إذ لا يختص بالإضافة لكثرة الأشياء التي يقع بعدها التماثل بين المتماثلين .

و "مِثْلَ" مضاف إلى "أَنَّكُمْ" و "ما" زائدة ولا تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر إذ لا فعل معها تكون معه مصدراً .

ويجوز أن تكون بدلاً من "لَحَقٌّ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(137/725)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1) ﴾

هذه السورة مكية .

ومناسبتها لآخر ما قبلها أنه قال ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ وقال أول هذه بعد القسم : ﴿ إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع ﴾ .

﴿ والذاريات ﴾ : الرياح : .

﴿ فالحاملات ﴾ السحاب .

﴿ فالجاريات ﴾ الفلك .

﴿ فالمقسمات ﴾ : الملائكة ، هذا تفسير عليّ كرم الله وجهه على المنبر ، وقد سأله ابن الكوا ، قاله ابن عباس .

وقال ابن عباس أيضاً : ﴿ فالحاملات ﴾ هي السفن الموقرة بالناس وأمتاعهم .

وقيل : الحوامل من جميع الحيوان .

وقيل : الجاريات : السحاب بالرياح .

وقيل : الجواري من الكواكب ، وأدغم أبو عمرو وحمزة ﴿ والذاريات ﴾ في ذال ﴿ ذروا ﴾ ، وذروها : تفريقها للمطر أو للتراب .

وقرىء : بفتح الواو وتسمية للمحمول بالمصدر .

ومعنى ﴿ يسراً ﴾ : جرياً ذا يسر ، أي سهولة .

فيسراً مصدر وصف به على تقدير محذوف ، فهو على رأي سيبويه في موضع الحال .

﴿ أمراً ﴾ تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها ، فأمراً مفعول به .

وقيل : مصدر منصوب على الحال ، أي مأموره ، ومفعول المقسمات محذوف .

وقال مجاهد : يتولى أمر العباد جبريل للغلظة ، وميكائيل للرحمة ، وملك الموت لقبض الأرواح ، وإسرافيل للنفخ .

وجاء في الملائكة : فالمقسمات على معنى الجماعات .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد الرياح لا غير ، لأنها تنشىء السحاب وتقله وتصرفه وتجري في الجو جرياً سهلاً ، وتقسم الأمطار بتصريف الرياح . انتهى .

فإذا كان المدلول متغايراً ، فتكون أقساماً متعاقبة .

وإذا كان غير متغاير ، فهو قسم واحد ، وهو من عطف الصفات ، أي ذرت أول هبوبها التراب والحصباء ، فأقلت السحاب ، فجرت في الجو باسطة للسحاب ، فقسمت المطر .

فهذا كقوله :

يا لهف زيابة للحارث الص . . .

ابح فالغانم فالآيب

أي : الذي صبح العدو فغنم منهم ، فآب إلى قومه سالماً غانماً .

والجملة المقسم عليها ، وهي جواب القسم ، هي ﴿ إنما توعدون ﴾ ، وما موصولة بمعنى الذي ، والعائد محذوف ، أي توعدونه .

ويحتمل أن تكون مصدرية ، أي أنه وعدكم أو وعيدكم ، إذ يحتمل توعدون الأمرين أن يكون مضارع وعد ومضارع أوعد ، ويناسب أن يكون مضارع أوعد لقوله : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ ، ولأن المقصود التخويف والتهويل .

ومعنى صدقة : تحقق وقوعه ، والمتصف بالصدق حقيقة هو المخبر .

وقال تعالى : ﴿ ذلك وعد غير مكذوب ﴾ أي مصدوق فيه .

وقيل : ﴿ لصادق ﴾ ، ووضع اسم الفاعل موضع المصدر ، ولا حاجة إلى هذا التقدير .

وقال مجاهد : الأظهر أن الآية في الكفار ، وأنه وعيد محض .

﴿ وإن الدين ﴾ : أي الجزاء ، ﴿ لواقع ﴾ : أي صادر حقيقة على المكلفين من الإنس والجن .

والظاهر في السماء أنه جنس أريد به جميع السموات .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : هي السماء السابعة .

وقيل : السحاب الذي يظل الأرض .

﴿ ذات الحبك ﴾ : أي ذات الخلق المستوي الجيد ، قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة والربيع .

وقال الحسن ، وسعيد بن جبير : ﴿ ذات الحبك ﴾ : أي الزينة بالنجوم .

وقال الضحاك : ذات الطرائق ، يعني من المجرة التي في السماء .

وقال ابن زيد : ذات الشدة ، لقوله : ﴿ سبعاً شداداً ﴾ وقيل : ذات الصفاقة .

وقرأ الجمهور : الحبك بضمتين ؛ وابن عباس ، والحسن : بخلاف عنه ، وأبو مالك الغفاري ، وأبو حيوة ، وابن أبي عبلة ، وأبو السمال ، ونعيم عن أبي عمرو : بإسكان الباء ؛ وعكرمة : بفتحها ، جمع حبكة ، مثل : طرفة وطرف .

وأبو مالك الغفاري ، والحسن : بخلاف عنه ، بكسر الحاء والباء ؛ وأبو مالك الغفاري ، والحسن أيضاً ، وأبو حيوة : بكسر الحاء وإسكان الباء ، وهو تخفيف فعل المكسور هما وهو اسم مفرد لا جمع ، لأن فعلاً ليس من أبنية الجموع ، فينبغي أن يعد مع إبل فيما جاء من الأسماء على فعل بكسر الفاء والعين ؛ وابن عباس أيضاً ، وأبو مالك : بفتحهما .

(139/725)

قال أبو الفضل الرازي : فهو جمع حبكة ، مثل عقبة وعقب . انتهى .

والحسن أيضاً : الحبك بكسر الحاء وفتح الباء ، وقرأ أيضاً كالجمهور ، فصارت قراءته خمساً : الحبك الحبك الحبك الحبك الحبك .

وقرأ أبو مالك أيضاً : الحبك بكسر الحاء وضم الباء ، وذكرها ابن عطية عن الحسن ، فتصير له ست قراءات .

وقال صاحب اللوامح ، وهو عديم النظير في العربية : في أبنيتها وأوزانها ، ولا أدري ما رواه . انتهى .

وقال ابن عطية : هي قراءة شاذة غير متوجهة ، وكأنه أراد كسرها ، ثم توهم الحبك قراءة الضم بعد أن كسر الحاء وضم الباء ، وهذا على تداخل اللغات ، وليس في كلام العرب هذا البناء . انتهى .

وعلى هذا تأول النحاة هذه القراءات ، والأحسن عندي أن تكون مما اتبع فيه حركة الحاء لحركة ذات في الكسرة ، ولم يعتد باللام الساكنة ، لأن الساكن حاجز غير حصين .

وجواب القسم : ﴿ إنكم لفي قول مختلف ﴾ ، والظاهر أنه خطاب عام للمسلم والكافر ، كما أن جواب القسم السابق يشملهما ، واختلافهم كونهم مؤمناً بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وكتابه وكافراً .

وقال ابن زيد : خطاب للكفرة ، فيقولون : ساحر شاعر كاهن مجنون ، وقال الضحاك :

قول الكفرة لا يكون مستوياً ، إنما يكون متناقضاً مختلفاً .

وقيل : اختلافهم في الحشر ، منهم من ينفيه ، ومنهم من يشك فيه .

وقيل : اختلافهم : إقرارهم بأن الله تعالى أوجدهم وعبادتهم غيره والأقوال التي يقولونها في آلهتهم .

﴿ يؤفك ﴾ : أي يصرف عنه ، أي عن القرآن والرسول ، قاله الحسن وقتادة .

﴿ من أفك ﴾ : أي من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه وأعظم لقوله : لا يهلك على الله إلا هالك .

وقيل : من صرف في سابق علم الله تعالى أنه مأفوك عن الحق لا يرعوي .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون الضمير لما توعدون ، أو للذي أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه ، فمنهم شاك ومنهم جاحد .

ثم قال : يؤفك عن الإقرار بأمر القيامة من هو المأفوك .

(140/725)

وقيل : المأفوك عنه محذوف ، وعن هنا للسبب ، والضمير عائد على ﴿ قول مختلف ﴾ ، أي يصرف بسببه من أراد الإسلام بأن يقول : هو سحر هو كهانة ، حكاه الزهراوي

والزمخشري ، وأورده على عادته في إبداء ما هو محكي عن غيره أنه مخترعه .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يعود على ﴿ قول مختلف ﴾ ، والمعنى : يصرف عنه بتوفيق الله إلى الإسلام من غلبت سعادته ، وهذا على أن يكون في قول مختلف للكفار ، إلا أن عرف الاستعمال في إفكه الصرف من خير إلى شر ، فلذلك لا تجده إلا في المذمومين . انتهى ، وفيه بعض تلخيص .

وقرأ ابن جبير وقتادة : من أفك مبنياً للفاعل ، أي من أفك الناس عنه ، وهم قريش .

وقرأ زيد بن علي : يأفك عنه من أفك ، أي يصرف الناس عنه من هو مأفوك في نفسه .

وعنه أيضاً : يأفك عنه من أفك ، أي يصرف الناس عنه من هو أفاك كذاب .

وقرىء : يؤفن عنه من أفن بالنون فيهما ، أي يحرمه من حرم من أفن الضرع إذا نهكه حلباً .

﴿ قتل الخراصون ﴾ : أي قتل الله الخراصين ، وهم المقدرون ما لا يصح .

﴿ في غمرة ﴾ : في جهل يغمرهم ، ﴿ ساهون ﴾ : غافلون عن ما أمروا به .

﴿ أيان يوم الدين ﴾ : أي متى وقت الجزاء ؟ سؤال تكذيب واستهزاء ، وتقدمت قراءة من كسر الهمزة في قوله : ﴿ أيان مرساها ﴾ ﴿ وأيان يوم الدين ﴾ ، فيكون الظرف محلاً للمصدر ، وانتصب يومهم بمضمر تقديره : هو كائن ، أي الجزاء ، قاله الزجاج ، وجوزوا أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أي هو يومهم ، والفتحة فتحة بناء لإضافته إلى غير متمكن ، وهي الجملة الإسمية .

ويؤيده قراءة ابن أبي عبلة والزعفراني .

﴿ يوم هم ﴾ بالرفع ، وإذا كان ظرفاً جاز أن تكون الحركة فيه حركة إعراب وحركة بناء ، وتقدم الكلام على إضافة الظرف المستقبل إلى الجملة الإسمية في غافر في قوله تعالى : ﴿ يوم هم بارزون ﴾ وقال بعض النحاة : يومهم بدل من ﴿ يوم الدين ﴾ ، فيكون هنا حكاية من كلامهم على المعنى ، ويقولون ذلك على سبيل الاستهزاء .

(141/725)

ولو حكى لفظ قولهم ، لكان التركيب : يوم نحن على النار يفتنون .

﴿ ذوقوا فتنتكم ﴾ : أي يقال لهم ذوقوا .

﴿ هذا الذي ﴾ : مبتدأ وخبر .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون هذا بدلاً من فتنتكم ، أي ذوقوا هذا العذاب .

انتهى ، وفيه بعد ، والاستقلال خير من البدل .

ومعنى تفتنون : تعذبون في النار .

ولما ذكر حال الكفار ، ذكر حال المؤمنين ، وانتصب آخذين على الحال ، أي قابليه راضين به ، وذلك في الجنة .

وقال ابن عباس : ﴿ آخذين ﴾ : أي في دنياهم ، ﴿ ما آتاهم ربهم ﴾ من أوامره ونواهيه وشرعه ، فالحال محكية لتقدمها في الزمان على كونهم في الجنة .

والظاهر أن ﴿ قليلاً ﴾ ظرف ، وهو في الأصل صفة ، أي كانوا في قليل من الليل .

وجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف ، أي كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً ، وما زائدة في كلا الإعرابين .

وفسر أنس بن مالك ذلك فقال : كانوا يتنفلون بين المغرب والعشاء ، ولا يدل لفظ الآية على الاقتصار على هذا التفسير .

وقال الربيع بن خيثم : كانوا يصيبون من الليل حظاً .

وقال مطرف ، ومجاهد ، وابن أبي نجيح : قل ليلة أتت عليهم هجوعاً كلها .

وقال الحسن : كابدوا قيام الليل لا ينامون منه إلا قليلاً .

وقال الضحاك : ﴿ كانوا قليلاً ﴾ ، أي في عددهم ، وثم خبر كان ، ثم ابتدأ ﴿ من الليل ما يهجعون ﴾ ، فما نافية ، وقليلاً وقف حسن ، وهذا القول فيه تفكيك للكلام ، وتقدم معمول العامل المنفي بما على عامله ، وذلك لا يجوز عند البصريين ، ولو كان ظرفاً أو مجروراً .

وقد أجاز ذلك بعضهم ، وجاء في الشعر قوله :

إذا هي قامت حاسراً مشمعلة . . .

يحسب الفؤاد رأسها ما تقنع

فقدم رأسها على ما تقنع ، وهو منفي بما ، وجوزوا أن تكون ما مصدرية في موضع رفع بقليلاً ، أي كانوا قليلاً هجوعهم ، وهو إعراب سهل حسن ، وأن تكون ما موصولة بمعنى الذي ، والعائد محذوف تقديره : ﴿ كانوا قليلاً من الليل ﴾ من الوقت الذي يهجعون فيه ، وفيه تكلف .

(142/725)

ومن الليل يدل على أنهم مشغولون بالعبادة في أوقات الراحات ، وسكون الأنفس من مشاق النهار .

﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ ، فيه ظهور على أن تهجدهم يتصل بالأسحار ، فيأخذون في الاستغفار مما يمكن أن يقع فيه تقصير وكأنهم أجرموا في تلك الليالي ، والأسحار مظنة الاستغفار .

وقال ابن عمرو الضحاك : يستغفرون : يصلون .

وقال الحسن : يدعون في طلب المغفرة ، والظاهر أن قيام الليل وهذا الحق في المال هو من المندوبات ، وأكثر ما تقع زيادة الثواب بفعل المندوب .

وقال القاضي منذر بن سعيد : هذا الحق هو الزكاة المفروضة ، وضعف بأن السورة مكية ، وفرض الزكاة بالمدينة .

وقيل : كان فرضاً ، ثم نسخ وضعف بأنه تعالى لم يشرع شيئاً بمكة قبل الهجرة من أخد الأموال .

والسائل : الذي يستعطي ، والمحروم : لغة الممنوع من الشيء ، قال علقمة :

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمة . . .

أنى توجه والمحروم محروم

وأما في الآية ، فالذي يحسب غنياً فيحرم الصدقة لتعففه .

وقيل : الذي تبعد منه ممكنات الرزق بعد قربها منه فيناله الحرمان .

وقال ابن عباس : المحارب الذي ليس له في الإسلام سهم مال .

وقال زيد بن أسلم : هو الذي أجيحت ثمرته .

وقيل : الذي ماتت ماشيته .

وقال عمر بن عبد العزيز : هو الكلب .

وقيل : الذي لا ينمي له مال .

وقيل : المحارف الذي لا يكاد يكسب .

وقيل غير ذلك ، وكل هذه الأقوال على سبيل التمثيل لا التعيين ، ويجمعها أنه الذي لا مال له

لحرمان أصابه .

﴿ وفي الأرض آيات ﴾ تدل على الصانع وقدرته وتدبيره من حيث هي كالبساط لما فوقها ، وفيها الفجاج للسلاك ، وهي متجزئة من سهل ووعر وبحر وبر ، وقطع متجاورات من صلبة ورخوة ومنبتة وسبخة ، وتلقح بأنواع النبات ، وفيها العيون والمعادن والدواب المنبثة في بحرها وبرها المختلفة الأشكال .

(143/725)

وقرأ قتادة : آية على الإفراد ، ﴿ للموقنين ﴾ : وهم الذين نظروا النظر الصحيح ، وأداهم ذلك إلى إيقان ما جاءت به الرسل ، فأيقنوا لم يدخلهم ريب .

﴿ وفي أنفسكم ﴾ حال ابتدائها وانتقالها من حال إلى حال ، وما أودع في شكل الإنسان من لطائف الحواس ، وما ترتب على العقل الذي أوتيه من بدائع العلوم وغريب الصنائع ، وغير ذلك مما لا ينحصر .

﴿ وفي السماء رزقكم ﴾ ، قال الضحاك ومجاهد وابن جبير : المطر والثلج ، لأنه سبب الأقوات ، وكل عين دائمة من الثلج .

وقال مجاهد أيضاً وواصل الأحدب : أراد القضاء والقدر ، أي الرزق عند الله يأتي به

كيف شاء ، ﴿ وما توعدون ﴾ : الجنة ، أو هي النار ، أو أمر الساعة ، أو من خير وشر ، أو من ثواب وعقاب ، أقوال المراد بها التمثيل لا التعيين .

وقرأ ابن محيصن : أرزاقكم على الجمع ، والضمير في إنه عائد على القرآن ، أو إلى الدين الذي في قوله : ﴿ وإن الدين لواقع ﴾ ، أو إلى اليوم المذكور في قوله : ﴿ أيان يوم الدين ﴾ ، أو إلى الرزق ، أو إلى الله ، أو إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ، أقوال منقولة .

والذي يظهر أنه عائد على الإخبار السابق من الله تعالى فيما تقدم في هذه السورة من صدق الموعود ووقوع الجزاء ، وكونهم في ﴿ قول مختلف ﴾ ، و ﴿ قتل الخراصون ﴾ ، وكينونة المتقين في الجنة على ما وصف ، وذكر أوصافهم وما ذكر بعد ذلك ، ولذلك شبه في الحقيقة بما يصدر من نطق الإنسان بجامع ما اشتركا فيه من الكلام .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر ، والحسن ، وابن أبي إسحاق ، والأعم5 : بخلاف عن ثلاثتهم .

مثل بالرفع : صفة لقوله : ﴿ لحق ﴾ ؛ وباقي السبعة ، والجمهور : بالنصب ، وقيل : هي فتحة بناء ، وهو نعت كحاله في قراءة من رفع .

ولما أضيف إلى غير متمكن بنى ، وما على هذا الإعراب زائدة للتوكيد ، والإضافة هي إلى أنكم تنطقون .

وقال المازني : بنى مثل ، لأنه ركب مع ما ، فصار شيئاً واحداً ، ومثله : ويحما وهيما وابنما ، قال حميد بن ثور :

ألا هيما مما لقيت وهيما . . .

وويحاً لمن لم يلق منهن ويحما

قال : فلولا البناء لكان منوناً ، وقال الشاعر :

فأكرم بنا أو أماً وأكرم بنا ابنما . . .

انتهى هذا التخريج .

وابنما ليس ابنا بني مع ما ، بل هذا من باب زيادة الميم فيه ، واتباع ما في الآخر ، إذ جعل في الميم الإعراب .

تقول : هذا ابنم ، ورئت ابنما ، ومررت بابنم ، وليست ما في الثلاث في ابنما مركبة مع ما ، كما قال : الفتحة في ابنما حركة إعراب ، وهو منصوب على التمييز ، وأنشد النحويون في بناء الاسم مع الحرف قول الراجز :

أثور ما أصيدكم أو ثورين . . .

أم تيكم الجماء ذات القرنين

وقيل : هو نعت لمصدر محذوف تقديره : إنه لحق حقاً مثل ما أنكم ، فحركته حركة

إعراب .

وقيل : انتصب على أنه حال من الضمير المستكن في ﴿ لحق ﴾ .

وقيل : حال من لحق ، وإن كان نكرة ، فقد أجاز ذلك الجرمي وسيبويه في مواضع من كتابه .

والنطق هنا عبارة عن الكلام بالحروف والأصوات في ترتيب المعاني .

ويقول الناس : هذا حق ، كما أنك ههنا وهذا حق ، كما أنك ترى وتسمع ، وهذا كما في الآية .

وما زائدة بنص الخليل ، ولا يحفظ حذفها ، فتقول : ذا حق كأنك ههنا ، والكوفيون يجعلون مثلاً محلى ، فينصبونه على الظرف ، ويجيزون زيد مثلك بالنصب ، فعلى مذهبهم يجوز أن تكون مثل فيها منصوباً على الظرف ، واستدلالهم والرد عليهم مذكور في النحو .

ومن كلام بعض الأعراب : من ذا الذي أغضب الخليل حتى حلف ، لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(145/725)

وقال الثعالبى :

﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَعُيُونٍ . . . ﴾ الآية ،

روى الترمذيُّ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لاَ يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ ، حتى يَدَعَ مَا لاَ بَأْسَ بِهِ ؛ حَذَراً لِمَا بِهِ الْبَأْسُ " قال أبو عيسى : هذا حديث حسن ، انتهى ، وقوله سبحانه في المتقين : ﴿ ءَاخِذِينَ مَا ءاتاهم رَبُّهُمْ ﴾ أي : مُحَصِّلِينَ ما أعطاهم ربُّهم سبحانه من جناته ، ورضوانه ، وأنواع كراماته ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ : يريد في الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ : بالطاعات] والعمل الصالح .

(146/725)

---

* ت * : وروى التِّرْمِذِيُّ عن سعد بن أبي وَقَّاص ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ : " لَوْ أَنَّ مَا يُقِلُّ ظُفُرٌ مِمَّا في الجَنَّةِ بَدَا لَتَزَخْرَفَ لَهُ مَا بَيْنَ خَوَافِقِ السموات والأَرْضِ ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَ ، فَبَدَا أَسَاوِرُهُ ، لَطَمَسَ ضَوْءَ الشَّمْسِ ؛ كَمَا تَطْمِسُ الشَّمْسُ ضَوْءَ النُّجُومِ " انتهى ، ومعنى قوله : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ أَنَّ نومهم كان قليلاً ؛ لاشتغالهم بالصلاة والعبادةِ ، والهجوعُ : النومُ ، وقد قال الحسن في تفسير هذه الآية : كابَدُوا قيامَ الليل ، لا ينامون منه إلاَّ قليلاً ، وأَمَّا إعرابُ الآية فقال الضَّحَّاكُ في كتاب

الطبريّ : ما يقتضي أنَّ المعنى : كانوا قليلاً في عددهم ، وتَمَّ خبرُ «كان» ، ثم ابتدأ ﴿ مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ فما نافية و ﴿ قَلِيلاً ﴾ وقف حسن ، وقال جمهور النحويين : ما مصدريَّةٌ و ﴿ قَلِيلاً ﴾ خبرُ ﴿ كَانَ ﴾ ، والمعنى : كانوا قليلاً من الليل هجوعُهُم ، وعلى هذا الإعراب يجيء قولُ الحسن وغيرِه ، وهو الظاهر عندي أَنَّ المراد كان هُجُوعُهُمْ من الليل قليلاً ؛ قيل لبعض التابعين : مَدَحَ اللَّهُ قوماً ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ ونَحْنُ قليلاً من الليل ما نقوم ! فقال : رَحِمَ اللَّهُ امرأً رقد إذا نعس ، وأطاع ربَّه إذا استيقظ .

(147/725)

وقوله تعالى : ﴿ وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قال الحسن : معناه : يدعون في طَلَبِ المغفرة ، ويُرْوَى أَنَّ أبوابَ الجنة تُفْتَحُ سَحَرَ كُلَّ ليلة ، قال ابن زيد : السَّحَرُ : السُّدُسُ الآخر من الليل ، والباء في قوله ﴿ وبالأسحار ﴾ بمعنى في ؛ قاله أبو البقاء ، انتهى ، ومن كلام [ابن] الجوزي في «المُنْتَخَبِ» : يا أخي ، علامةُ المَحَبَّةِ طلبُ الخَلْوَةِ بالحبيب ، وبيداءُ اللَّيل فلواتُ الخلوات ، لَمَّا ستروا قيامَ الليل في ظلام الدُّجَى ؛ غَيْرَةً أَنْ يَطَّلِعَ الغيرُ عليهم سترهم سبحانه بسترٍ ، ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : 17] ، لَمَّا

صَفَتْ خلواتُ الدُّجَى ، ونادى أذان الوصال : أقم فلاناً ، وأنم فلاناً خرجت بالأسماء الجرائد ؛ وفاز الأحبابُ بالفوائد ، وأنت غافل راقد . آهِ لو كنتَ معهم ! أسفاً لك ! لو رأيتهم لأبصرتَ طلائِعَ الصِّدِّيقِينَ في أول القوم ، وشاهدتَ سَاقَةَ المستغفرين في الرَّكْبِ ، وسَمِعْتَ استغاثة المُحِبِّينَ في وسط الليل ، ، لو رأيتهم يا غافلُ ، وقد دارت كُؤوسُ المناجات ؛ بين مزاهر التلاوات ، فأسكَرَتْ قَلْبَ الواجدِ ، ورقمت في مصاحف الوجنات . تعرفهم بسيماهم ، يا طويلَ النوم ، فاتتك مِدْحَةُ ﴿ تتجافى ﴾ [السجدة : 16] وَحُرِمْتَ مِنْحَةَ ﴿ والمستغفرين ﴾ [آل عمران : 17] ، يا هذا ، إنَّ لله تعالى ريحاً تُسَمَّى الصَّبِيحَةَ مخزونةً تحتَ العرش ، تَهُبُّ عند الأسحار ، فتحمل الدعاء والأنين والاستغفار إلى حضرة العزيز الجَبَّارِ ، انتهى .

(148/725)

﴿ وَفِي أموالهم حَقٌّ . . . ﴾ الآية ، الصحيح أنَّها مُحْكَمَةٌ وأنَّ هذا الحق هو على وجه الندب ، و ﴿ مَّعْلُومٌ ﴾ [المعارج : 24] يُرَادُ به : مُتَعَارَفٌ ، وكذلك قيامُ الليل الذي مدح به ليس من الفرائض ، وأكثر ما تقع الفضيلةُ بفعل المندوبات ، والمحروم هو الذي تَبْعُدُ عنه مُمْكِنَاتُ الرزق بعد قربها منه ، فيناله حرمان وَفَاقَةٌ ، وهو مع ذلك لا يسأل ، فهذا هو

الذي له حَقٌّ في أموال الأغنياء ، كما للسائل حَقٌّ ، وما وقع من ذكر الخلاف فيه فيرجع إلى هذا ، وبعد هذا محذوف تقديره : فكونوا أيُّها الناسُ مثلَهم وعلى طريقهم ، و ﴿ فِى الأرض ءايات ﴾ : لمن اعتبر وأيقن .

وقوله سبحانه : ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ ﴾ إحالة على النظر في شخص الإنسان ، وما فيه العِبَرِ ، وأمرِ النفسِ ، وحياتِهَا ، ونطقِها ، واتصالِ هذا الجزء منها بالعقل ؛ قال ابن زيد : إنَّما القلب مُضْغَةٌ في جوف ابن آدم ، جَعَلَ اللَّه فيه العقل ، أفيدري أحد ما ذلك العقل ، وما صِفَتُه ، وكيف هو .

* ت * : قال ابن العربيّ في رحلته : اعلم أَنَّ معرفة العبد نَفْسَهُ من أولى ما عليه وآكدِهِ ؛ إذْ لاَ يَعْرِفُ رَبَّه إلاَّ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ ؛ قال تعالى : ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ وغير ما آية في ذلك ، ثم قال : ولا ينكر عاقل وُجُودَ الرُّوحِ من نفسه ، وإنْ كان لم يدركْ حقيقتَه ، كذلك لا يَقْدِرُ أنْ يُنْكِرَ وُجُودَ الباري سبحانه الذي دَلَّتْ أفعاله عليه ، وإنْ لم يدركْ حقيقته ، انتهى .

(149/725)

وقوله سبحانه : ﴿ وَفِي السماء رِزْقُكُمْ ﴾ قال مجاهد وغيره : هو المطر ، وقال واصل الأحدب : أراد القضاء والقدر ، أي : الرزق عند اللَّه يأتي به كيف شاء سبحانه لا رَبَّ غيرُه ، و ﴿ تُوعَدُونَ ﴾ يحتمل أَنْ يكونَ من الوعد ، ويحتمل أَنْ يكونَ من الوعيد ؛ قال الضَّحَّاكُ . المُرَادُ : من الجنة والنار ، وقال مجاهد : المرادُ : الخيرُ والشَّرُّ ، وقال ابن سيرين : المراد : الساعة ، ثم أقسم سبحانه بنفسه على صِحَّةِ هذا القول والخبر ، وشَبَّهَهُ في اليقين به بالنُّطْقِ من الإنسان ، وهو عنده في غاية الوضوح ، و«ما» زائدة تعطي تأكيداً ، والنطق في هذه الآية هو الكلام بالحروف والأصوات في ترتيب المعاني ، ورُوِيَ أَنَّ بَعْضَ الأعراب الفصحاء سَمِعَ هذه الآيةَ فقال : مَنْ أَحْوَجَ الكريمَ إلى أَنْ يحلف ؟ ! والحكاية بتمامها في كتاب الثعلبيِّ ، وسبل الخيرات ، ورُوِيَ أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : " قَاتَلَ اللَّهُ قَوْماً ، أَقْسَمَ لَهُمْ رَبُّهُمْ بِنَفْسِهِ فَلَمْ يُصَدِّقُوهُ " ورَوَى أبو سعيد الخُدْرِيُّ أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ : " لَوْ فَرَّ أَحَدُكُمْ مِنْ رِزْقِهِ لَتَبِعَهُ كَمَا يَتْبَعُهُ المَوْتُ " وأحاديث الرزق كثيرة ، ومن كتاب «القصد إلى اللَّه سبحانه» للْمُحَاسِبِيِّ : قال : قلتُ لشيخنا : من أين وقع الاضطرابُ في القلوب ، وقد جاءها الضمانُ من اللَّه عز وجل ؟ قال : من وجهين .

أحدهما : قِلَّةُ المعرفة بحُسْنِ الظَّنِ ، وإلقاءِ التُّهَمِ عن اللَّه عز وجل .

والوجه الثاني : أَنْ يعارضها خوفُ الفَوْت ، فتستجيبَ النفسُ للداعي ، ويَضْعُفَ اليقينُ ، ويَعْدِمَ الصبرُ ، فيظهرَ الجَزَعُ .

(150/725)

قلتُ : شيءٌ غيرُ هذا ؟ قال : نعم ، إنَّ اللَّه عز وجل وَعَدَ الأرزاق ، وضَمِنَ ، وغَيَّبَ الأوقات ؛ ليختبرَ أهلَ العقول ، ولولا ذلك لكان كُلُّ المؤمنين راضين صابرين متوكِّلين ، لكنَّ اللَّه عز وجل أعلمهم أَنَّهُ رازقهم ، وحَلَفَ لهم على ذلك ، وغَيَّبَ عنهم أوقاتَ العطاء ، فَمِنْ ها هنا عُرِفَ الخَاصّ من العامّ ، وتفاوت العبادُ في الصبر ، والرضا ، واليقين ، والتوكل ، والسكون ، فمنهم كما علمتَ ساكنٌ ، ومنهم متحرك ، ومنهم راض ، ومنهم ساخط ، ومنهم جَزِعٌ ، فعلى قَدْرِ ما تفاوتوا في المعرفة تفاوتوا في اليقين ، وعلى قَدْرِ ما تفاوتوا في اليقين تفاوتوا في السكون والرضا والصبر والتوكل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(151/725)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ والذريات ذَرْواً ﴾

أيِ الرياحِ التي تذرُو الترابَ وغيره وقرىء بإدغام التاء في الذال ﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ أيِ السحبِ الحاملةِ للمطرِ أو الرياحِ الحاملةِ للسحابِ وقُرِىءَ وَقْرا عَلى تسميةِ المحمولِ بالمصدرِ ﴿ فالجاريات يُسْراً ﴾ أيِ السفن الجاريةِ في البحرِ أو الرياحِ الجاريةِ في مهابّها أو السحبِ الجاريةِ في الجوّ بسوقِ الرياحِ أو الكواكبِ الجاريةِ في مجاريها ومنازِلها ويُسْراً صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ أيْ جرياً ذا يُسْرٍ ﴿ فالمقسمات أَمْراً ﴾ أي الملائكةِ الَّتي تقسّمُ الأمورَ منَ الأمطارِ والأرزاقِ وغيرِها أو السحبِ الَّتي يقسمُ اللهُ تعالَى بَها أرزاقَ العبادِ وَقَدْ جُوّزَ أنْ يرادَ بالكُلِّ الرياحُ تنزيلاً لاختلافِ العنوانِ منزلةِ اختلافِ الذاتِ فإنَّها كما تذرُو ما تذرُوه تثيرُ السحابَ وتحملُه وتجْري في الجوّ جرياً سهلاً وتقسمُ الأمطارَ بتصريفِ السحابِ في الأقطارِ ، فإنْ حُملت الأمورُ المقسمُ بها على ذواتٍ مختلفةٍ فالفاءُ لترتيبِ الإقسامِ باعتبارِ ما بينها من التفاوت في الدلالة على كمالِ القدرةِ وإلاَّ فهيَ لترتيبِ ما صدرَ عن الريحِ مِنَ الأفاعليلِ فإنَّها تذْرو الأبخرةَ إلى الجوّ حتَّى تنعقدَ سحاباً فتجريَ بِهِ باسطةً لهُ إلى ما أمرتْ بِهِ فتقسمُ المطرَ وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لصادق وَإِنَّ الدين لَوَاقِعٌ ﴾ جوابٌ للقسمِ ، وفي تخصيصِ الأمورِ المذكورةِ بالإقسامِ بَها رمزٌ إلى شهادتِها بتحققِ مضمونِ الجملةِ المقسمِ عليهَا منْ حيثُ إنَّها أمورٌ بديعةٌ مخالفةٌ لمقتضَى الطبيعةِ فمَنْ قدرَ عَلَيها فهُو قادرٌ عَلى البعثِ الموعودِ ، ومَا مَوْصُولةٌ أَوْ مَصدريةٌ ووصفُ الوعدِ بالصدقِ كوصفِ العيشةِ بالرِّضَا وَالدِّينُ الجزاءُ ووقوعُه حصولُه .

(152/725)

﴿ والسماء ذَاتِ الحبك ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ وقتادةُ وعكرمةُ ذاتُ الخَلْقِ المُستوي وقالَ سعيدُ بنُ جُبَيرٍ ذاتُ الزينةِ وقالَ مجاهدٌ هيَ المتقنةُ البنيانِ وقالَ مقاتلٌ والكلبيُّ والضَّحاكُ ذاتُ الطرائقِ والمرادُ إمَّا الطرائقُ المحسوسةُ التَّي هيَ مسيرُ الكواكبِ أوِ المعقولةُ التَّي يسلُكُها النظارُ أوِ النجومُ فإنَّ لهَا طرائقَ وعنِ الحسنِ حَبْكُها نُجُومُها حيثُ تزينُها كما تزينُ المُوشَّى طرائقُ الوَشْي . وهيَ إمَّا جمعُ حِبَاكٍ أو حَبيكةٍ كمِثَالٍ ومُثُلٍ وطَريقةٍ وطُرُق وقُرِيءَ الحُبْكِ بوزنِ القُفْلِ والحِبْكِ بوزنِ السِّلْكِ والحَبَكِ كالجَبَلِ والحَبْكِ كالبَرقِ والحِبَكِ كالنِّعَمِ والحِبكِ كالإبِلِ .

(153/725)

﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ أيْ متخالفٍ متناقضٍ وهُوَ قولُهم في حقِّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ تارةً شاعرٌ وأُخْرى ساحرٌ وأخرى مجنونٌ وفي شأنِ القرآنِ الكريمِ تارةً شعرٌ وأُخْرى سحرٌ وأُخْرى أساطيرُ ، وفي هَذا الجوابِ تأييدٌ لكونِ الحبكِ عبارةً عنْ الاستواءِ

كَما يلوحُ بِهِ ما نُقلَ عنِ الضَّحاكِ منْ أنَّ قولَ الكفرةِ لا يكونُ مستوياً إنَّما هُو متناقضٌ مختلفٌ ، وقيلَ : النكتةُ في هذا القسمِ تشبيهُ أقوالِهم في اختلافِها وتنافِي أغراضِها بطرائقِ السمواتِ في تباعدِها واختلافِ غاياتِها وليسَ بذاكَ . ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أيْ يُصرفُ عنِ القرآنِ أو الرسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ منْ صُرِفَ إذْ لا صرفَ أفظعُ منْهُ وأشدُّ وقيلَ : يَصرفُ عَنْهُ منْ صُرِفَ في علمِ اللهِ تعالَى وقضائِه ويجوزُ أنْ يكونَ الضميرُ للقولِ المختلفِ عَلى مَعْنى يصدرُ إفكُ منْ أفكَ عنْ ذلكَ القولِ وقُرِىءَ مَنْ أفكَ أيْ مَنْ أفكَ الناسَ وهُم قريشٌ حيثُ كانُوا يصدونَ الناسَ عنِ الإيمانِ . ﴿ قُتِلَ الخراصون ﴾ دعاءٌ عليهمْ كقولِه تعالَى : ﴿ قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ ﴾ وأصلُه الدعاءُ بالقتلِ والهلاكِ ثمَّ جَرى مَجرى اللعنِ والخرَّاصُونَ الكذَّابُونَ المقدرونَ ما لا صحةَ لهُ وهُم أصحابُ القولِ المختلفِ كأنَّه قيلَ قُتِلَ هؤلاءِ الخرَّاصُونَ وقُرِىءَ قَتَلَ الخرَّاصينَ أيْ قتلَ اللهُ ﴿ الذين هُمْ فِى غَمْرَةٍ ﴾ منَ الجهلِ والضَّلالِ ﴿ ساهون ﴾ غافلونَ عَمّا أُمروا بِهِ . ﴿ يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدين ﴾ أيْ مَتَى وقوعُ يومِ الجزاءِ لكنْ لا بطريقِ الاستعلامِ حقيقةً بلْ بطريقِ الاستعجالِ استهزاءً وقُرِىءَ إيَّانَ بكسرِ الهمزةِ ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ جوابٌ للسؤالِ أيْ يقعُ يومَ هُم عَلى النارِ يحرقونَ ويعذبونَ ويجوزُ أنْ يكونَ يومَ خبراً لمبتدأٍ محذوفٍ أيْ هُوَ يومَ هم الخ

والفتحُ لإضافتِه إلى غيرِ متمكنٍ ويؤيدُه أنَّه قُرِىءَ بالرفعِ .

﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ أيْ مقولاً لهمُ هَذا القولُ وَقولُه تعالَى ﴿ هذا الذى كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ جملةٌ من مبتدأٍ وخبرٍ داخلةٌ تحتَ القولِ المضمرِ أيْ هذَا ما كنتُم تستعجلونَ بِهِ بطريقِ الاستهزاءِ ويجوزُ أنْ يكونَ هَذا بدلاً منْ فتنتِكم بتأويلِ العذابِ والذي صفتُه .

﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ لا يُبلغُ كُنهُها ولا يُقادرُ قَدْرُهَا ﴿ ءاخِذِينَ مَا ءاتاهم رَبُّهُمْ ﴾ أي قابلينَ لما أعطاهُم راضينَ بِهِ عَلَى مَعْنى أنّ كُلَّ ما آتاهُم حسنٌ مَرضيٌّ يتلقى بحسنِ القبولِ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ في الدُّنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ أيْ لأعمالِهم الصالحةِ آتينَ بها عَلى ما ينبغي فلذلكَ نالُوا ما نالُوا منَ الفوزِ العظيمِ ومَعْنى الإحسانِ بالإجمالِ ما أشارَ إليهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بقولِه : " أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّه يراكَ " وقَدْ فُسِّر بقولِه تعالَى .

(155/725)

﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ أيْ كانُوا يهجعونَ في طائفةٍ قليلةٍ منَ الليلِ على أنَّ قليلاً ظرفٌ أوْ كانُوا يهجعونَ هجوعاً قليلاً على أنَّه صفةٌ للمصدرِ ومَا مزيدةٌ في الوجهين

ويجوز أن تكون مصدرية أو موصولة مرتفعة بقليلاً على الفاعلية أيْ كانُوا قليلاً منَ الليلِ هجوعُهم أوْ مَا يهجعونَ فيهِ ، وفيهِ مبالغاتٌ في تقليلِ نومِهم واستراحتِهم ذكرُ القليلِ والليلِ الذي هُوَ وقتَ الراحةِ والهجوعِ الذي هُو الغرارُ منَ النومِ وزيادةُ مَا ، ولا مساغَ لجعلِ ما نافيةً عَلى مَعْنى أنهُم لا يهجعونَ منَ الليلِ قليلاً بل يُحْيونَهُ كُلَّه لَما أنَّ مَا النافيةَ لا يعملُ ما بعدَهَا فيمَا قَبْلَها ﴿ وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أيْ هُم مع قلةِ هجوعِهم وكثرةِ تهجدِهمْ يداومونَ على الاستغفارِ في الأسحارِ كأنَّهم أسلفُوا ليلَهُم باقترافِ الجرائمِ ، وفي بناءِ الفعلِ على الضميرِ إشعارٌ بأنَّهُم الأحقاءُ بأنْ يوصفُوا بالاستغفارِ كأنَّهم المختصونَ بهِ لاستدامتِهم لهُ وإطنابِهم فيهِ .

﴿ وَفِى أموالهم حَقٌّ ﴾ أيْ نصيبٌ وافرٌ يستوجبونَهُ على أنفسِهم تقرباً إلى الله تعالى وإشفاقاً على النَّاسِ ﴿ لِّلسَّائِلِ والمحروم ﴾ للمستجدِي والمتعففِ الذَّي يحسبُهُ النَّاسُ غنياً فيحرمُ الصدقة ﴿ وَفِى الأرض ءايات لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ أيْ دلائلُ واضحةٌ عَلى شؤونه تعالَى عَلَى التفصيلِ منْ حيثُ إنَّها مدحوةٌ كالبساطِ الممهدِ وفيها مسالكُ وفجاجٌ للمتقلبينَ في أقطارِها والسالكينِ في مناكِبها وفيها سهلٌ وجبلٌ وبرٌّ وقطعٌ متجاوراتٌ وعيونٌ متفجرةٌ ومعادنُ مفتنةٌ وأنها تلقحُ بألوانِ النباتِ وأنواعِ الأشجارِ وأصنافِ الثمارِ المختلفةِ الألوانِ والطعومِ والروائحِ وفيها دوابٌّ مُنبثةٌ قد رتبَ كلُّها ودبرَ لمنافعِ ساكنيها ومصالحِهم في صحتِهم واعتلالِهم .

﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ ﴾ أي وفي أنفسكم آياتٌ إذ ليسَ في العالمِ شيءٌ إلاَّ وفي الأنفسِ له نظيرٌ يدلُّ دَلالتُه على ما نفردَ بهِ من الهيئاتِ النَّافعةِ والمناظرِ البهيةِ والتركيباتِ العجيبةِ والتمكنِ من الأفعالِ البديعةِ واستنباطِ الصنائعِ المختلفةِ واستجماعِ الكمالاتِ المتنوعةِ ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ ألا تنظرونَ فلا تبصرونَ بعينِ البصيرةِ .

﴿ وَفِى السماء رِزْقُكُمْ ﴾ أيْ أسبابُ رزقِكم أو تقديرُه وقيلَ : المرادُ بالسماءِ السحبُ وبالرزقِ المطرُ فإنَّه سببُ الأقواتِ ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ منَ الثوابِ لأنَّ الجنةَ في السماءِ السابعةِ أو لأنَّ الأعمالَ وثوابَها مكتوبةٌ مقدرةٌ في السماءِ وقيلَ : إنَّهُ مبتدأ خبرُهُ قولُه تعالَى : ﴿ فَوَرَبّ السماء والأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ عَلى أنَّ الضميرَ لَما وأمَّا عَلى الأول فإمَّا له وإمّا لَما ذكرَ منْ أمر الآياتِ والرزقِ عَلى أنَّه مستعارٌ لاسمِ الإشارةِ ﴿ مّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ أيْ كَما أنَّه لا شكَّ لكُم فِي أنكُم تنطقونَ ينبغِي أنْ لا تشكُّوا في حقّيتهِ ونصبُه عَلى الحاليةِ من المستكنِ في لحقٌّ أو عَلَى أنَّه وصفٌ لمصدر محذوفٍ أيْ إنَّه لحقٌّ حقاً مثلَ نطقِكم وقيلَ : إنَّه مبنيٌّ على الفتحِ لإضافتِه إلى غيرِ متمكنٍ وهُوَ مَا إنْ كانتْ عبارةً عنْ شيءٍ وأن بما في

حيزها إن جُعلت زائدة . ومحلُّه الرفعُ على أنه صفةٌ لحقٌّ ويؤيده القراءةُ بالرفع . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(157/725)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾

لا يبلغ كنهها ولا يقادر قدرها .

﴿ ءاخِذِينَ مَا ءاتاهم رَبُّهُمْ ﴾

أي قابلين لكل ما أعطاهم عز وجل راضين به على معنى إن كل ما آتاهم حسن مرضي يتلقى بحسن القبول ، والعموم مأخوذ من شيوع ما وإطلاقه في معرف المدح وإظهار مَنّهِ تعالى عليهم ، واعتبار الرضا لأن الأخذ قبول عن قصد ، ونصب ﴿ ءاخِذِينَ ﴾ على الحال من الضمير في الظرف ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ في الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ أي لأعمالهم الصالحة آتين بها على ما ينبغي فلذلك استحقوا ما استحقوا من الفوز العظيم ، وفسر إحسانهم بقوله تعالى : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ الخ على أن الجملة في محل رفع بدل من قوله تعالى : ﴿ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ [الذاريات : 16] حصل

بها تفيسره ، أو أنها جملة لا محل لها من الإعراب مفسرة كسائر الجمل التفسيرية ، وأخرج الفريابي .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في الآية : ﴿ ءاخِذِينَ مَا ءاتاهم رَبُّهُمْ ﴾ من الفرائض ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ [الذاريات : 16] أي كانوا قبل تنزل الفرائض يعملون ، ولا أظن صحة نسبته لذلك الحبر ، ولا يكاد تجعل جملة ﴿ كَانُواْ ﴾ الخ عليه تفسيراً إذا صح ما نقل عنه في تفسيرها ، وسيأتي إن شاء الله تعالى .

(158/725)

و الهجوع النوم ، وقيده الراغب بقوله : ليلاً ، وغيره بالقليل ، و ﴿ مَا ﴾ إما مزيدة فقليلاً معمول الفعل صفة لمصدر محذوف أي هجوعاً قليلاً و ﴿ مِّنَ الليل ﴾ صفة ، أو لغو متعلق بيهجعون و ﴿ مِنْ ﴾ للابتداء ، وجملة ﴿ يَهْجَعُونَ ﴾ خبر كان أو ﴿ قَلِيلاً ﴾ صفة لظرف محذوف أي زماناً قليلاً و ﴿ مِّنَ الليل ﴾ صفة على نحو قليل من المال عندي

وإما موصولة عائدها محذوف أي زماناً قليلاً و ﴿ مِّنَ الليل ﴾ صفة على نحو قليل من المال عندي وإما موصولة عائدها محذوف فهي فاعل ﴿ قَلِيلاً ﴾ وهو خبر كان و ﴿ مِّنَ الليل ﴾ حال من الموصول مقدم كأنه قيل : كانوا قد قل المقدار الذي يهجعون فيه كائناً ذلك المقدار ﴿ مِّنَ الليل ﴾ وإما مصدرية فالمصدر فاعل ﴿ قَلِيلاً ﴾ وهو خبر كان أيضاً ، و ﴿ مِّنَ الليل ﴾ بيان لا متعلق بما بعده لأن معمول المصدر لا يتقدم ، أو حال من المصدر ، و ﴿ مِنْ ﴾ للابتداء كذا في "الكشف" فهما من الكشاف ، وذهب بعضهم إلى أن ﴿ مِنْ ﴾ على زيادة ما بمعنى في كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِذَا نُودِىَ للصلاة ﴾ [الجمعة : 9] واعترض بن المنير احتمال مصدريتها بأن لا يجوز في ﴿ مِّنَ الليل ﴾ كونه صفة ، أو بياناً للقليل لأنه فيه واقع على الهجوع ولا صلة المصدر لتقدمه ، وأجيب بأنه بيان للزمان المبهم ؛ وحكى الطيبي أنه إما منصوب على التبيين أو متعلق بفعل يفسره ﴿ يَهْجَعُونَ ﴾ وجوز أن يكون ﴿ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ على ذلك الاحتمال بدلاً من اسم كان فكأنه قيل : كان هجوعهم قللاً وهو بعيد ، وجوز في ﴿ مَا ﴾ أن تكون نافية ، و ﴿ قَلِيلاً ﴾ منصوب بيهجعون والمعنى كانوا لا يهجعون من الليل قليلاً ويحيونه كله ورواه ابن أبي شيبة .

وأبو نصر عن مجاهد ، ورده الزمخشري بأن ﴿ مَا ﴾ النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها

لأن لها صدر الكلام وليس فيها التصرف الذي في أخواتها كلا فإنها قد تكون كجزء مما دخلت عليه نحو عوتب بلا جرم ولم .

(159/725)

ولن لاختصاصهما بالفعل كالجزء منه ، وأنت تعلم أن منع العمل هو مذهب البصريين ، وفي "شرح الهادي" أن بعض النحاة أجازه مطلقاً ، وبعضهم أجازه في الظرف خاصة للتوسع فيه ، واستدل عليه بقوله

: ونحن عن فضلك ما استغنينا . . .

نعم يرد على ذلك أن فيه كما في "الانتصاف" خللاً من حيث المعنى فإن طلب قيام الليل غير مستثنى منه جزء للهجوع وإن قل غير ثابت في الشرع ولا معهود اللهم إلا أن يدعي أن من ذهب إلى ذلك يقول : بأنه كان ثابتاً في الشرع ، فقد أخرج ابن أبي شيبة .

وابن المنذر عن عطاء أنه قال في الآية : كان ذلك إذا أمروا بقيام الليل كله فكان أبو ذكر يعتمد على العصار فمكثوا شهرين ثم نزلت الرخصة ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ [المزمل : 20] وقال الضحاك : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً ﴾ في عددهم ، وتم الكلام عند ﴿ قَلِيلاً ﴾ ثم ابتدأ ﴿ مّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ على أن ﴿ مَا ﴾ نافية ؛ وفهي ما تقدم مع زيادة تفكيك

للكلام ، ولعل أظهر الأوجه زيادة ﴿ مَا ﴾ ونصب ﴿ قَلِيلاً ﴾ على الظرفية ، و ﴿ مِّنَ الليل ﴾ صفة قيل : وفي الكلام مبالغات لفظ الهجوع بناءاً على أنه القليل من النوم ، وقوله تعالى : ﴿ قَلِيلاً ﴾ و ﴿ مِّنَ الليل ﴾ لأن الليل وقت السبات والراحة وزيادة ﴿ مَا ﴾ لأنها تؤكد مضمون الجملة فتؤكد القلة وتحققها باعتبار كونها قيداً فيها .

والغرض من الآية أنهم يكابدون العبادة في أوقات الراحة وسكون النفس ولا يستريحون من مشاق النهار إلا قليلاً ، قال الحسن : كابدوا قيام الليل لا ينامون منه إلا قليلاً ، وعن عبد الله بن رواحة هجعوا قليلاً ثم قاموا ، وفسر أنس بن مالك الآية كما رواه جماعة عنه وصححه "الحاكم" فقال : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء وهي لا تدل على الاقتصار على ذلك .

وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18)

(160/725)

أي هم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار في الأسحار كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم ولم يتفرغوا فيه للعبادة ، وفي بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم الأحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار كأنهم المختصون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه .

وفي الآية من الإشارة إلى مزيد خشيتهم وعدم اغترارهم بعبادتهم ما لا يخفى ، وحمل الاستغفار على حقيقته المشهورة هو الظاهر وبه قال الحسن .

أخرج عنه ابن جرير .

وغيره أنه قال : صلوا فلما كان السحر استغفروا ، وقيل : المراد طلبهم المغفرة بالصلاة ، وعليه ما أخرج ابن المنذر .

وجماعة عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال : ﴿ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ يصلون ، وأخرج ابن مردويه عنه ذلك مرفوعاً ولا أراه يصح ، وأخرج أيضاً عن أنس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن آخر الليل في التهجد أحب إليّ من أوله لأن الله تعالى يقول : ﴿ وبالاسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ " وهو محتمل لذلك التفسير والظاهر .

﴿ وَفِى أموالهم حَقٌّ ﴾ أي نصيب وافر يستوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله عز وجل وإشفاقاً على الناس فهو غير الزكاة كما قال ابن عباس .

ومجاهد .

وغيرهما .

﴿ لِّلسَّائِلِ ﴾ الطالب منهم ﴿ والمحروم ﴾ وهو المتعفف الذي يحسبه الجاهل غنياً فيحرم الصدقة من أكثر الناس .

أخرج ابن جرير .

وابن حبان .

(161/725)

وابن مردويه عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان والأكلة والأكلتان قيل : فمن المسكين ؟ قال : الذي ليس له ما يغنيه ولا يعلم مكانه فيتصدق عليه فذلك المحروم " وفسره ابن عباس بالمحارف الذي يطلب الدنيا وتدبر عنه ولا يسأل الناس ، وقيل : هو الذي يبعد منه ممكنات الرزق بعد قربها منه فيناله الحرمان ، وقال زيد بن أسلم : هو الذي اجتيحت ثمرته ، وقيل : من ماتت ماشيته ، وقيل : من ليس له سهم في الإسلام ، وقيل : الذي لا ينمو له مال ، وقيل : غير ذلك قال في البحر : وكل ذلك على سبيل التمثيل ويجمع الأقوال أنه الذي لا مال له لحرمان أصابه وأنا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول وقال منذر بن سعيد هذا الحق هو الزكاة المفروضة ، وتعقب بأن السورة مكية وفرض الزكاة بالمدينة ، وقيل : أصل فريضة الزكاة كان بمكة والذي كان بالمدينة القدر المعروف اليوم ، وعن ابن عمر أن رجلاً سأله عن هذا الحق فقال الزكاة وسوى ذلك حقوق فعمم ، والجمهور على الأول .

﴿ وَفِى الأَرض ءايات ﴾ دلائل من أنواع المعادن .

والنباتات .

والحيوانات ، أو وجوه دلالات من الدحو وارتفاع بعضها عن الماء ، واختلاف أجزائها في الكيفيات والخواص ، فالدليل على الأول ما في الأرض من الموجودات والظرفية حقيقية والجمع على ظاهره ، وعلى الثاني الدليل نفس الأرض ، والجمعية باعتبار وجوه الدلالة وأحوالها ، والظرفية من ظرفية الصفة في الموصوف والدلالة على وجود الصانع جل شأنه وعلمه وقدرته وإرادته ووحدته وفرط رحمته عز وجل ﴿ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ للموحدين الذين سلكوا الطريق السوي البرهاني الموصل إلى المعرفة فهم نظارون بعيون باصرة وأفهام نافذة ، وقرأ قتادة آية بالإفراد .

(162/725)

﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ ﴾ أي في ذواتكم آيات إذ ليس في العالم شيء إلا وفي ذات الإنسان له نظير يدل مثل دلالته على ما انفرد به من الهيآت النافعة والمناظرة البهية والتركيبات العجيبة والتمكن من الأفعال البديعة واستنباط الصنائع المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة ، وآيات الأنفس أكثر من أن تحصى ، وقيل : أريد بذلك اختلاف الألسنة والصور والألوان

والطبائع ، ورواه عطاء عن ابن عباس ، وقيل : سبيل الطعام وسبيل الشراب والحق أن لا حصر ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ أي ألا تنظرون فلا تبصرون بعين البصيرة ، وهو تعنيف على ترك النظر في الآيات الأرضية والنفسية ، وقيل : في الأخير .

﴿ وَفِى السماء رِزْقُكُمْ ﴾

أي تقديره وتعيينه ، أو أسباب رزقكم من النيرين والكواكب والمطالع والمغارب التي تختلف بها الفصول التي هي مبادىء الرزق إلى غير ذلك ، فالكلام على تقدير مضاف أو التجوز بجعل وجود الأسباب فيها كوجود المسبب ، وذهب غير واحد إلى أن السماء السحاب وهي سماء لغة ، والمراد بالرزق المطر فإنه سبب الأقوات وروى تفسيره بذلك مرفوعاً وقرأ ابن محيصن أرزاقكم على الجمع .

﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ عطف على رزقكم أي والذي توعدونه من خير وشر كما روي عن مجاهد ، وفي رواية أخرى عنه وعن الضحاك ما توعدون الجنة والنار وهو ظاهر في أن النار في السماء وفيه خلاف ، وقال بعضهم : هو الجنة وهي على ظهر السماء السابعة تحت العرش ، وقيل : أمر الساعة ، وقيل : الثواب والعقاب فإنهما مقدران معينان فيها ، وقيل : إنه مستأنف خبره .

﴿ فَوَرَبِّ السماء والأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ على أن ضمير ﴿ أَنَّهُ ﴾ ﴿ لَّمّاً ﴾ وعلى ما تقدم ، فإما له أو للرزق ، أو لله تعالى ، أو للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو للقرآن ، أو للدين في ﴿ إِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ [الذاريات : 6] أو لليوم المذكور في ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الدين ﴾ [الذاريات : 12] أو لجميع المذكور ﴿ أَمَّا مَا ﴾ ، واستظهر أبو حيان الأخير منها وهو مروى عن ابن جريج أي أن جميع ما ذكرناه من أول السورة إلى هنا لحق ﴿ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ أي مثل نطقكم كما أنه لا شك لكم في أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكوا في حقية ذلك وهذا كقول الناس : إن هذا لحق كما أنك ترى وتسمع ، ونصب ﴿ مِّثْلَ ﴾ على الحالية من المستكن في ﴿ لَحَقٌّ ﴾ وهو لا يتعرف بالإضافة لتوغله في التنكير ، أو على الوصف لمصدر محذوف أي إنه حق حقاً مثل نطقكم ، وقيل : إنه مبني على الفتح فقال المازني : لتركبه مع ﴿ مَا ﴾ حتى صارا شيئاً واحداً نحو ويحما وأنشدوا لبناء الاسم معها قول الشاعر

: أثور "ما" أصيدكم أم ثورين . . .

أم هذه الجماء ذات القرنين

وقال غيره : لإضافته إلى غير متمكن وهو ﴿ مَا ﴾ إن كانت نكرة موصوفة بمعنى شيء ، أو موصولة بمعنى الذي و ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ الخ خبر مبتدأ محذوف أي هو ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ الخ ،

والجملة صفة ، أو صلة ، أو هو أن بما في حيزها إن جعلت ﴿ مَا ﴾ زائدة ، وهو نص الخليل ومحله على البناء الرفع على أنه صفة ﴿ لَحَقٌّ ﴾ أو خبر ثان ويؤيده قراءة حمزة .

والكسائي .

وأبي بكر .

والحسن .

وابن أبي إسحاق .

والأعمش بخلاف عن ثلاثتهم ﴿ مَثَلُ ﴾ بالرفع ، وفي "البحر" أن الكوفيين يجعلون مثلاً ظرفاً فينصبونه على الظرفية ويجيزون زيد مثلك بالنصب ، وعليه يجوز أن يكون في قراءة الجمهور منصوباً على الظرفية واستدلالهم ، والرد عليهم مذكور في النحو وفي الآية من تأكيد حقية المذكور ما لا يخفى ، وأخرج ابن جرير .

(164/725)

وابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال فيها : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قاتل الله قوماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا " وعن الأصمعي أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود فقال : ممن الرجل ؟ قلت : من بني أصمع قال : من أين أقبلت : من موضع

يتلى فيه كلام الرحمن قال : اتل علي فتلوت ﴿ والذريات ﴾ [الذاريات : 1] فلما بلغت ﴿ وَفِى السماء رِزْقُكُمْ ﴾ [الذاريات : 22] قال : حسبك فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق فالتفت فإذا بالأعرابي قد نحل واصفر فسلم علي واستقرأ السورة فلما بلغت الآية صاح وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ثم قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت ﴿ فَوَرَبِّ السماء والأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ فصاح وقال : يا سبحان الله من ذا أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(165/725)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ والذريات ذَرْواً ﴾

يقال : ذرت الريح التراب تذروه ذرواً ، وأذرته تذريه ذرياً ، أقسم سبحانه بالرّياح التي تذري التراب ، وانتصاب ﴿ ذرواً ﴾ على المصدرية ، والعامل فيها اسم الفاعل ، والمفعول محذوف .

قرأ أبو عمرو ، وحمزة بإدغام تاء الذاريات في ذال ذرواً .

وقرأ الباقون بدون إدغام .

وقيل : المقسم به مقدّر وهو ربّ الذاريات وما بعدها ، والأوّل أولى ﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ هي السحاب تحمل الماء ، كما تحمل ذوات الأربع الوقر ، وانتصاب ﴿ وقراً ﴾ على أنه مفعول به ، كما يقال : حمل فلان عدلاً ثقيلاً .

قرأ الجمهور : ﴿ وقراً ﴾ بكسر الواو اسم ما يوقر أي : يحمل ، وقرىء بفتحها على أنه مصدر ، والعامل فيه اسم الفاعل ، أو على تسمية المحمول بالمصدر مبالغة ﴿ فالجاريات يُسْراً ﴾ هي السفن الجارية في البحر بالرّياح جرياً سهلاً ، وانتصاب ﴿ يسراً ﴾ على المصدرية ، أو صفة لمصدر محذوف ، أو على الحال ، أي : جرياً ذا يسر ، وقيل : هي الرّياح ، وقيل : السحاب ، والأوّل أولى .

واليسر : السهل في كل شيء ﴿ فالمقسمات أَمْراً ﴾ هي الملائكة التي تقسم الأمور .

قال الفرّاء : تأتي بأمر مختلف : جبريل بالغلظة ، وميكائيل صاحب الرحمة ، وملك الموت يأتي بالموت ، وقيل : تأتي بأمر مختلف من الجدب ، والخصب ، والمطر ، والموت ، والحوادث .

وقيل : هي السحب التي يقسم الله بها أمر العباد ، وقيل : إن المراد بالذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات : الرياح ، فإنها توصف بجميع ذلك ؛ لأنها تذرو التراب ، وتحمل

السحاب ، وتجري في الهواء ، وتقسم الأمطار ، وهو ضعيف جدًّا .

وانتصاب ﴿ أمراً ﴾ على المفعول به ، وقيل : على الحال ، أي : مأمورة ، والأوّل أولى ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لصادق ﴾ هذا جواب القسم ، أي : إنما توعدون من الثواب والعقاب ، لكائن لا محالة .

و" مَا " يجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف ، وأن تكون مصدرية .

(166/725)

ووجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها كونها أموراً بديعة مخالفة لمقتضى العادة ، فمن قدر عليها ، فهو قادر على البعث الموعود به .

﴿ والسماء ذَاتِ الحبك ﴾ قرأ الجمهور ﴿ الحبك ﴾ بضم الحاء والباء ، وقرىء بضم الحاء وسكون الباء ، وبكسر الحاء وفتح الباء ، وبكسر الحاء وضم الباء .

قال ابن عطية : هي لغات ، والمراد بالسماء هنا : هي المعروفة ، وقيل : المراد بها السحاب ، والأوّل أولى .

واختلف المفسرون في تفسير الحبك ؛ فقال مجاهد ، وقتادة ، والربيع ، وغيرهم : المعنى ذات الخلق المستوي الحسن .

قال ابن الأعرابي : كل شيء أحكمته وأحسنت عمله ، فقد حبكته واحتبكته .

وقال الحسن ، وسعيد بن جبير : ذات الزينة .

وروي عن الحسن أيضاً أنه قال : ذات النجوم .

وقال الضحاك : ذات الطرائق ، وبه قال الفرّاء ، يقال لما تراه من الماء والرّمل إذا أصابته الريح : حبك .

قال الفراء : الحبك بكسر : كل شيء كالرمل إذا مرّت به الريح الساكنة ، والماء إذا مرّت به الرّيح ، ويقال لدرع الحديد : حبك ، ومنه قول الشاعر :

كأنما جللها الحواك . . . طنفسة في وشيها حباك

أي : طرق ، وقيل : الحبك : الشدّة ، والمعنى : والسماء ذات الشدّة ، والمحبوك : الشديد الخلق من فرس أو غيره ، ومنه قول الشاعر :

قد غدا يحملني في أنفه . . . لاحق الأطلين محبوك ممرّ

وقول الآخر :

مرج الدين فأعددت له . . . مشرف الحارك محبوك الكتد

قال الواحدي بعد حكاية القول الأوّل : هذا قول الأكثرين ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ هذا جواب القسم بالسماء ذات الحبك أي : إنكم يا أهل مكة لفي قول مختلف متناقض في محمد صلى الله عليه وسلم .

بعضكم يقول : إنه شاعر .

وبعضكم يقول : إنه ساحر ، وبعضكم يقول : إنه مجنون .

ووجه تخصيص القسم بالسماء المتصفة بتلك الصفة تشبيه أقوالهم في اختلافها باختلاف طرائق السماء ، واستعمال الحبك في الطرائق هو الذي عليه أهل اللغة ، وإن كان الأكثر من المفسرين على خلافه .

(167/725)

على أنه يمكن أن ترجع تلك الأقوال في تفسير الحبك إلى هذا ، وذلك بأن يقال : إن ما في السماء من الطرائق يصح أن يكون سبباً لمزيد حسنها ، واستواء خلقها ، وحصول الزينة فيها ، ومزيد القوّة لها .

وقيل : إن المراد بكونهم في قول مختلف أن بعضهم ينفي الحشر ، وبعضهم يشكّ فيه ، وقيل : كونهم يقرّون أن الله خالقهم ، ويعبدون الأصنام ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي : يصرف عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، أو عن الحقّ ، وهو البعث والتوحيد من صرف .

وقيل : يصرف عن ذلك الاختلاف من صرفه الله عنه بالعصمة والتوفيق ، يقال : أفكه

يأفكه إفكاً أي : قلبه عن الشيء وصرفه عنه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا ﴾ [الأحقاف : 22] وقال مجاهد : يؤفن عنه من أفن ، والأفن : فساد العقل ، وقيل : يحرمه من حرم .

وقال قطرب : يجدع عنه من جدع .

وقال اليزيدي : يدفع عنه من دفع .

﴿ قُتِلَ الخراصون ﴾ هذا دعاء عليهم .

وحكى الواحدي عن المفسرين جميعاً أن المعنى : لعن الكذابون .

قال ابن الأنباري : والقتل إذا أخبر به عن الله كان بمعنى اللعن ؛ لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك .

قال الفرّاء : معنى ﴿ قتل ﴾ : لعن .

والخرّاصون : الكذابون الذين يتخرّصون فيما لا يعلمون ، فيقولون : إن محمداً مجنون كذاب شاعر ساحر .

(168/725)

قال الزجاج : الخرّاصون : هم الكذابون ، والخرص : حزر ما على النخل من الرّطب تمراً ، والخرّاص : الذي يخرصها ، وليس هو المراد هنا ، ثم قال : ﴿ الذين هُمْ فِى غَمْرَةٍ ساهون ﴾ أي : في غفلة وعمى جهالة عن أمور الآخرة ، ومعنى ساهون : لاهون غافلون ، والسهو : الغفلة عن الشيء وذهابه عن القلب ، وأصل الغمرة : ما ستر الشيء وغطاه ، ومنها غمرات الموت ﴿ يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدين ﴾ أي : يقولون متى يوم الجزاء تكذيباً منهم واستهزاءً ، ثم أخبر سبحانه عن ذلك اليوم ، فقال : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ أي : يحرقون ويعذبون ، يقال : فتنت الذهب : إذا أحرقته لتختبره ، وأصل الفتنة : الاختبار . قال عكرمة : ألم تر أن الذهب إذا أدخل النار قيل : فتن .

وانتصاب ﴿ يوم ﴾ بمضمر ، أي : الجزاء يوم هم على النار ، ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿ يوم الدين ﴾ ، والفتح للبناء لكونه مضافاً إلى الجملة ، وقيل : هو منصوب بتقدير أعني . وقرأ ابن أبي عبلة برفع : ﴿ يوم ﴾ على البدل من يوم الدين ، وجملة : ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ هي بتقدير القول ، أي : يقال لهم : ذوقوا عذابكم ، قاله ابن زيد .

وقال مجاهد : حريقكم ، ورجح الأوّل الفرّاء ، وجملة : ﴿ هذا الذى كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ من جملة ما هو محكيّ بالقول ، أي : هذا ما كنتم تطلبون تعجيله استهزاءً منكم ، وقيل : هي بدل من فتنتكم .

﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ لما ذكر سبحانه حال أهل النار ذكر حال أهل الجنة ،

أي : هم في بستانين فيها عيون جارية لا يبلغ وصفها الواصفون ﴿ ءاخِذِينَ مَا ءاتاهم رَبُّهُمْ ﴾ أي : قابلين ما أعطاهم ربهم من الخير والكرامة .

وجملة : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ تعليل لما قبلها ، أي : لأنهم كانوا في الدنيا محسنين في أعمالهم الصالحة من فعل ما أمروا به ، وترك ما نهوا عنه .

(169/725)

ثم بين إحسانهم الذي وصفهم به ، فقال : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ الهجوع : النوم بالليل دون النهار ، والمعنى : كانوا قليلاً ما ينامون من الليل ، و " ما " زائدة ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أو موصولة أي : كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ، أو ما يهجعون فيه ، ومن ذلك قول أبي قيس بن الأسلت :

قد حصت البيضة رأسي . . . فما أطعم نوماً غير تهجاع

والتهجاع : القليل من النوم ، ومن ذلك قول عمرو بن معدي كرب .

أمن ريحانة الداعي السميع . . . يهيجني وأصحابي هجوع

وقيل : " ما " نافية ، أي : ما كانوا ينامون قليلاً من الليل ، فكيف بالكثير منه ، وهذا ضعيف جدًّا .

وهذا قول من قال : إن المعنى كان عددهم قليلاً .

ثم ابتدأ فقال : ﴿ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ وبه قال ابن الأنباري ، وهو أضعف مما قبله .

وقال قتادة في تفسير هذه الآية : كانوا يصلون بين العشاءين ، وبه قال أبو العالية ، وابن وهب .

﴿ وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أي : يطلبون في أوقات السحر من الله سبحانه أن يغفر ذنوبهم .

قال الحسن : مدّوا الصلاة إلى الأسحار .

ثم أخذوا بالأسحار الاستغفار .

وقال الكلبي ، ومقاتل ، ومجاهد : هم بالأسحار يصلون ، وذلك أن صلاتهم طلب منهم للمغفرة .

وقال الضحاك : هي صلاة الفجر .

ثم ذكر سبحانه صدقاتهم فقال : ﴿ وفي أموالهم حَقٌّ للسَّائِلِ والمحروم ﴾ أي : يجعلون في أموالهم على أنفسهم حقاً للسائل والمحروم تقرّباً إلى الله عزّ وجلّ .

وقال محمد بن سيرين ، وقتادة : الحق هنا : الزكاة المفروضة ، والأوّل أولى ، فيحمل على صدقة النفل ، وصلة الرحم ، وقري الضيف ؛ لأن السورة مكية ، والزكاة لم تفرض إلاّ بالمدينة ، وسيأتي في سورة ﴿ سأل سائل ﴾ :

﴿ والذين فِى أموالهم حَقٌّ مَّعْلُومٌ للسَّائِلِ والمحروم ﴾ [المعارج : 24 ، 25] بزيادة معلوم ، والسائل هو : الذي يسأل الناس لفاقته .

(170/725)

واختلف في تفسير المحروم ، فقيل : هو الذي يتعفف عن السؤال حتى يحسبه الناس غنياً ، فلا يتصدّقون عليه ، وبه قال قتادة ، والزهري .

وقال الحسن ، ومحمد ابن الحنفية : هو الذي لا سهم له في الغنيمة ، ولا يجري عليه من الفيء شيء .

وقال زيد بن أسلم : هو الذي أصيب ثمره ، أو زرعه ، أو ماشيته .

قال القرطبي : هو الذي أصابته الجائحة .

وقيل : الذي لا يكتسب .

وقيل : هو الذي لا يجد غنى يغنيه ، وقيل : هو الذي يطلب الدنيا وتدبر عنه .

وقيل : هو المملوك .

وقيل : الكلب .

وقيل غير ذلك .

قال الشعبي : لي اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم ، فما أنا اليوم بأعلم مني فيه يومئذ ، والذي ينبغي التعويل عليه ما يدلّ عليه المعنى اللغوي ، والمحروم في اللغة : الممنوع ، من الحرمان وهو المنع ، فيدخل تحته من حرم الرزق من الأصل ، ومن أصيب ماله بجائحة أذهبته ، ومن حرم العطاء ، ومن حرم الصدقة لتعففه .

ثم ذكر سبحانه ما نصبه من الدلائل الدالة على توحيده ، وصدق وعده ووعيده ، فقال : ﴿ وَفِى الأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ أي : دلائل واضحة ، وعلامات ظاهرة من الجبال والبرّ والبحر والأشجار والأنهار والثمار ، وفيها آثار الهلاك للأمم الكافرة المكذّبة لما جاءت به رسل الله ودعتهم إليه ، وخص الموقنين بالله لأنهم الذين يعترفون بذلك ويتدبرون فيه ، فينتفعون به ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ أي : وفي أنفسكم آيات تدلّ على توحيد الله وصدق ما جاءت به الرّسل ، فإنه خلقهم نطفة ثم علقة ، ثم مضغة ثم عظماً ، إلى أن ينفخ فيه الروح .

ثم تختلف بعد ذلك صورهم ، وألوانهم ، وطبائعهم ، وألسنتهم ، ثم نفس خلقهم على هذه الصفة العجيبة الشأن من لحم ودم ، وعظم وأعضاء ، وحواسّ ومجاري ومنافس .

(171/725)

ومعنى ﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ : أفلا تنظرون بعين البصيرة ، فتستدلون بذلك على الخالق الرّازق المتفرّد بالألوهية ، وأنه لا شريك له ولا ضدّ ولا ندّ ، وأن وعده الحقّ ، وقوله الحقّ ، وأن ما جاءت إليكم به رسله هو الحقّ الذي لا شك فيه ، ولا شبهة تعتريه .

وقيل : المراد بالأنفس : الأرواح ، أي : وفي نفوسكم التي بها حياتكم آيات ﴿ وَفِى السماء رِزْقُكُمْ ﴾ أي : سبب رزقكم ، وهو المطر ، فإنه سبب الأرزاق .

قال سعيد بن جبير ، والضحاك : الرزق هنا : ما ينزل من السماء من مطر وثلج .

وقيل : المراد بالسماء : السحاب ، أي : وفي السحاب رزقكم ، وقيل : المراد بالسماء : المطر ، وسماه سماء ؛ لأنه ينزل من جهتها ، ومنه قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم . . . رعيناه وإن كانوا غضابا

وقال ابن كيسان : يعني : وعلى رب السماء رزقكم ، قال : ونظيره :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرض إِلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا ﴾ [هود : 6] وهو بعيد .

وقال سفيان الثوري : أي : عند الله في السماء رزقكم .

وقيل المعنى : وفي السماء تقدير رزقكم .

قرأ الجمهور ﴿ رزقكم ﴾ بالإفراد ، وقرأ يعقوب ، وابن محيصن ، ومجاهد (أرزاقكم) بالجمع ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ من الجنة والنار ، قاله مجاهد .

قال عطاء : من الثواب والعقاب ، وقال الكلبي : من الخير والشرّ ، قال ابن سيرين : ما

توعدون من أمر الساعة ، وبه قال الربيع .

والأولى الحمل على ما هو أعمّ من هذه الأقوال ، فإن جزاء الأعمال مكتوب في السماء ، والقضاء والقدر ينزل منها ، والجنة والنار فيها .

ثم أقسم سبحانه بنفسه ، فقال : ﴿ فَوَرَبِّ السماء والأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ أي : ما أخبركم به في هذه الآيات .

قال الزجاج : هو ما ذكر من أمر الرزق والآيات .

قال الكلبي : يعني : ما قصّ في الكتاب .

وقال مقاتل : يعني : من أمر الساعة .

(172/725)

وقيل : إن " مَا " في قوله : ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ مبتدأ ، وخبره : ﴿ فَوَرَبِّ السماء والأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ ، فيكون الضمير لما .

ثم قال سبحانه : ﴿ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ قرأ الجمهور بنصب ﴿ مثل ﴾ على تقدير : كمثل نطقكم و " ما " زائدة ، كذا قال بعض الكوفيون : إنه منصوب بنزع الخافض .

وقال الزجاج ، والفراء : يجوز أن ينتصب على التوكيد ، أي : لحق حقاً مثل نطقكم .

وقال المازني : إن "مثل" مع "ما" بمنزلة شيء واحد فبني على الفتح .

وقال سيبويه : هو مبنيّ لإضافته إلى غير متمكن ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وأبو حاتم .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر ، والأعمش : (مثل) بالرفع على أنه صفة لحقّ لأن مثل نكرة وإن أضيفت ، فهي لا تتعرّف بالإضافة كغير .

ورجح قول المازني أبو عليّ الفارسي قال : ومثله قول حميد :

وويحاً لمن لم يدر ما هنّ ويحما . . . فبني ويح مع ما ولم يلحقه التنوين ، ومعنى الآية تشبيه : تحقيق ما أخبر الله عنه بتحقيق نطق الآدمي ووجوده ، وهذا كما تقول : إنه لحق كما أنك ها هنا ، وإنه لحق كما أنك تتكلم ، والمعنى : أنه في صدقه ووجوده كالذي تعرفه ضرورة .

وقد أخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري ، والدارقطني في الأفراد ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب من طرق عن علي بن أبي طالب في قوله : ﴿ والذريات ذَرْواً ﴾ قال : الرياح ﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ قال : السحاب ﴿ فالجاريات يُسْراً ﴾ قال : السفن ﴿ فالمقسمات أَمْراً ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج البزار ، والدارقطني في الإفراد ، وابن مردويه ، وابن عساكر عن عمر بن الخطاب

مثله ، ورفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي إسناده أبو بكر بن سبرة ، وهو لين الحديث ، وسعيد بن سلام ، وليس من أصحاب الحديث ، كذا قال البزار .

(173/725)

قال ابن كثير : فهذا الحديث ضعيف رفعه ، وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر .

وأخرج الفريابي ، وابن مردويه عن ابن عباس مثل قول عليّ .

وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس ﴿ والسماء ذَاتِ الحبك ﴾ قال : حسنها واستواؤها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة عنه في الآية قال : ذات البهاء والجمال ، وإن بنيانها كالبرد المسلسل .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه قال : ذات الخلق الحسن .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن عمر مثله .

وأخرج ابن منيع عن عليّ قال : هي السماء السابعة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ قال : يضلّ عنه من ضلّ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ قُتِلَ الخرصون ﴾ قال : لعن المرتابون .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : هم الكهنة ﴿ الذين هُمْ فِى غَمْرَةٍ ساهون ﴾ قال : في غفلة لاهون .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : الغمرة : الكفر والشك .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه قال : في ضلالتهم يتمادون ، وفي قوله : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ قال : يعذبون .

وأخرج هؤلاء عنه أيضاً في قوله : ﴿ ءاخِذِينَ مَا ءاتاهم رَبُّهُمْ ﴾ قال : الفرائض ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ قال : قبل أن تنزل الفرائض يعملون .

وأخرج هؤلاء أيضاً ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عنه أيضاً ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مّن اليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ قال : ما تأتي عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا إلاّ يصلون فيها .

وأخرج ابن نصر ، وابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً في الآية يقول : قليلاً ما كانوا ينامون .

وأخرج أبو داود ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن أنس في الآية قال : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عمر ﴿ وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قال : يصلون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ فِى أموالهم حَقٌّ ﴾ قال : سوى الزكاة يصل بها رحماً ، أو يقري بها ضيفاً ، أو يعين بها محروماً .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه قال : السائل الذي يسأل الناس ، والمحروم الذي ليس له سهم من فيء المسلمين .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : المحروم هو المحارف الذي يطلب الدنيا وتدبر عنه ، ولا يسأل الناس ، فأمر الله المؤمنين برفده .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة في الآية قالت : هو المحارف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه .

وأخرج الترمذي ، والبيهقي في سننه عن فاطمة بنت قيس ، أنها سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية قال : " إن في المال حقاً سوى الزكاة " ، وتلا هذه الآية ﴿ لَّيْسَ البر أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَفِي الرقاب وَأَقَامَ الصلاة وَءاتَى الزكواة ﴾ [البقرة : 177] .

وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن الزبير في قوله : ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ قال : سبيل الغائط والبول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 82. 87 ﴾

(175/725)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1) ﴾

أكثر أهل العلم ، على أن المراد بالذاريات الرياح . وهو الحق إن شاء الله ، ويدل عليه أن الذرو صفة مشهورة من صفات الرياح .

ومنه قوله تعالى ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرياح ﴾ [الكهف : 45] ، ومعنى تذروه : ترفعه وتفرقه ، فهي تذرو التراب والمطر وغيرهما ، ومنه قول ذي الرمة :

ومنهل آجن قفر محاضره . . . تذرو الرياح على جماته البعرا

ولا يخفى سقوط قول من قال : إن الذاريات النساء .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ أكثر أهل العلم على أن المراد بالحاملات وقراً : السحاب . أي المزن تحمل وقراً ثقلاً من الماء .

ويدل لهذا القول تصريح الله جل وعلا بوصف السحاب بالثقال ، وهو جمع ثقيلة ، وذلك لثقل السحابة بوقر الماء الذي تحمله كقوله تعالى ﴿ وَيُنْشِئُ السحاب الثقال ﴾ [الرعد : 12] ، وهو جمع سحابة ثقيلة ، وقوله تعالى ﴿ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ [الأعراف : 57] .

وقال بعضهم : المراد بالحاملات وقراً : السفن تحمل الأثقال من الناس وأمتعتهم ، ولو قال قائل : إن الحاملات وقراً الرياح أيضاً كان وجهه ظاهراً .

ودلالة بعض الآيات عليه واضحة ، لأن الله تعالى صرح بأن الرياح تحمل السحاب الثقال بالماء ، وإذا كانت الرياح هي التي تحمل السحاب إلى حيث شاء الله ، فنسبه حمل ذلك الوقر إليها أظهر من نسبته إلى السحاب التي هي محمولة للرياح ، وذلك في قوله ﴿ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح بُشْرىً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ [الأعراف : 57] الآية .

(176/725)

فقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً ﴾ : أي حتى إذا حملت الرياح سحاباً ثقالاً ، فالإقلال الحمل ، وهو مستند إلى الريح . ودلالة هذا على أن الحاملات وقراً هي الرياح

ظاهرة كما ترى ، ويصح شمول الآية لجميع ذلك .

وقد قدمنا مراراً أنه هو الأجود في مثل ذلك ، وبينا كلام أهل الأصول فيه ، وكلامهم في حمل المشترك على معنييه أو معانيه ، في أول سورة النور وغيرها .

وقال بأن الحاملات وقراً : هي حوامل الأجنة من الإناث ، ظاهر السقوط ، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فالجاريات يُسْراً ﴾ [الذاريات : 3] أكثر أهل العلم على أن المراد بالجاريات يسراً : السفن تجري في البحر يسراً أي جرياً ذا يسر أي سهولة .

والأظهر أن هذا المصدر المنكر حال كما قدمنا نحوه مراراً : أي فالجاريات في حال كونها ميسرة مسخراً لها البحر ، ويدل لهذا القول كثرة إطلاق الوصف بالجري على السفن كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الجوار فِي البحر ﴾ [الشورى : 32] . الآية ، وقوله : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا المآء حَمَلْنَاكُمْ فِي الجارية ﴾ [الحاقة : 11] ، وقوله تعالى ﴿ والفلك تَجْرِي فِي البحر بِأَمْرِهِ ﴾ [الحج : 65] وقوله تعالى : ﴿ الله الذي سَخَّرَ لَكُمُ البحر لِتَجْرِيَ الفلك فِيهِ ﴾ [الجاثية : 12] إلى غير ذلك من الآيات .

وقيل الجاريات الرياح . وقيل غير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فالمقسمات أَمْراً ﴾ : هي الملائكة يرسلها الله في شؤون وأمور مختلفة ، ولذا عبر عنها بالمقسمات ، ويدل لهذا قوله تعالى :

﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ [النازعات : 5] ، فمنهم من يرسل لتسخير المطر والريح ، ومنهم

من يرسل لكتابة الأعمال ، ومنهم من يرسل لقبض الأرواح ، ومنهم من يرسل لإهلاك الأمم ، كما وقع لقوم صالح .

والتحقيق أن قوله : أمراً مفعول به للوصف الذي هو المقسمات ، وهو مفرد أريد به الجمع .

(177/725)

وقد أوضحنا أمثلة ذلك في القرآن العظيم ، وفي كلام العرب من تنكير المفرد كما هنا ، وتعريفه وإضافته في أول سورة الحج في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ [الحج : 5] ، والمقسم عليه بهذه الأقسام هو قوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدين لَوَاقِعٌ ﴾ [الذاريات : 5 – 6] والموجب لهذا التوكيد هو شدة إنكار الكفار للبعث الجزاء .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ ما ، فيه موصولة والعائد إلى الصلة محذوف ، والوصف بمعنى المصدر أي إن الذي توعدونه من الجزاء والحساب لصدق لا كذب فيه .

وقال بعض العلماء : ما ، مصدرية ، أي إن الوعد بالبعث والجزاء والحساب لصادق .

وقال بعضهم : إن صيغة اسم الفاعل في لصادق بمعنى اسم المفعول . أي إن الوعد أو الموعود به لمصدوق فيه لا مكذوب به ، ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾

[الحاقة : 21] أي مرضية .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من صدق ما يوعدونه جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الميعاد ﴾ [آل عمران : 9] . وقوله : ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [الأنعام : 134] . وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ [الواقعة : 2] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

والمراد بالدين هنا الجزاء ، أي وإن الجزاء يوم القيامة لواقع لا محالة كما قال تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحق ﴾ [النور : 25] اي جزاءهم بالعدل والإنصاف ، وكقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرى ثُمَّ يُجْزَاهُ الجزآء الأوفى ﴾ [النجم : 40 - 41] .

(178/725)

وقد نزه الله نفسه عن كونه خلق الخلق لا لبعث وجزاء ، وبين أن ذلك ظن الكافر ، وهددهم على ذلك الظن السيء بالويل من النار ، قال تعالى منكراً على من ظن عدم البعث والجزاء ، ومنزهاً نفسه عن أنه خلقهم . عبثاً لا لبعث وجزاء : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللهُ الملك الحق لاَ إله إِلاَّ هُوَ رَبُّ العرش الكريم ﴾ [المؤمنون : 115 - 116] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السمآء والأرض وَمَا

بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الذين كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النار ﴾ [ص : 27] ، في قوله في آية في ص هذه : باطلاً أي عبثاً لا لبعث وجزاء .

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9)

قوله تعالى : ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ فيه للعلماء أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً ، فذهب بعض أهل العلم ، إلى أن الحبك جمع حبيكة أو حباك ، وعليه فالمعنى ذات الحبك أي ذات الطرائق ، فما يبدو على سطح الماء الساكن أو الرمل من الطرائق إذا ضربته الريح هو الحبك ، وهو جمع حبيكة أو حباك ، قالوا : ولبعد السماء لا ترى طرائقها المعبر عنها بالحبك ، ومن هذا المعنى قول زهير :

مكلل بأصول النجم تنسجه . . . ريح خريق بضاحي مائة حبك

وقول الراجز :

كأنما جللها الحواك . . . طنفسة في وشيها حباك

وممن نقل عنه هذا القول الكلبي والضحاك .

وقال بعض أهل العلم : ذات الحبك أي ذات الخلق الحسن المحكم ، وممن قال به ابن عباس وعكرمة وقتادة .

وهذا الوجه يدل عليه قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ

الرحمن مِن تَفَاوُتٍ فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارجعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : 3 - 4] إلى غير ذلك من الآيات .

(179/725)

وعلى هذا القول فالحبك مصدر ، لأن كل عمل أتقنه عامله وأحسن صنعه ، تقول فيه العرب : حبكه حبكاً بالفتح على القياس . والحبك بضمتين بمعناه .

وقال بعض العلماء : ذات الحبك : أي الزينة .

وممن روي عنه هذا سعيد بن جبير والحسن ، وعلى هذا القول ، فالآية كقوله : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بِمَصَابِيحَ ﴾ [الملك : 5] ، وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في ق في الكلام على قوله ﴿ أَفَلَمْ ينظروا إِلَى السماء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا ﴾ [ق : 6] الآية .

وقال بعض العلماء : ذات الحبك أي ذات الشدة ، وهذا القول يدل هل قوله تعالى ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ [النبأ : 12] .

والعرب تسمى شدة الخلق حبكاً ، ومنه قيل للفرس الشديد الخلق : محبوك .

ومنه قول امرئ القيس .

قد غدا يحملني في أنفه . . . لاحق الأطلين محبوك ممر

والآية تشمل الجميع ، فكل الأقوال حق والمقسم عليه في هذه الآية هو قوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ [الذاريات : 8] أي إنكم أيها الكفار لفي قول مختلف في شأن النبي صلى الله عليه وسلم وشأن القرآن ، لأن بعض يقول : هو شعر ، وبعضهم يقول : سحر ، وبعضهم يقول : كهانة ، وبعضهم يقول : أساطير الأولين ، وقول من قال في قول مختلف أي لأن بعضهم مصدق ، وبعضهم مكذب خلاف التحقيق .

ويدل على أن الاختلاف إنما هو بين المكذبين دون المصدقين . قوله تعالى في ق ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالحق لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق : 5] أي مختلف . وقال بعضهم : مختلف ، والمعنى واحد .

(180/725)

وقوله تعالى : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذاريات : 9] أظهر الأقوال فيه عندي ولا ينبغي العدول عنه في نظري ، أن لفظه عن في الآية سببية كقوله تعالى : ﴿ وَمَا نَحْنُ بتاركي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ [هود : 53] أي بسبب قولك ، ومن أجله ، والضمير المجرور بعن راجع إلى القول المختلف ، والمعنى يؤفك أي يصرف عن الإيمان بالله ورسوله عنه ، أي

عن ذلك القول المختلف أي بسببه من أفك أي من سبقت له الشقاوة في الأزل ، فحرم الهدى وأفك عنه ، لأن هذا القول المختلف يكذب بعضه بعضاً ويناقضه .

ومن أوضح الأدلة على كذب القول وبطلانه اختلافه وتناقضه كما لا يخفى ، فهذا القول المختلف الذي يحاول كفار مكة أن يصدوا به الناس عن الإسلام ، الذي يقول فيه بعضهم : إن الرسول ساحر ، وبعضهم يقول شاعر ، وبعضهم يقول : كذاب . ظاهر البطلان لتناقضه وتكذيب بعضه لبعض ، فلا يصرف عن الإسلام بسببه غلا من صرف ، أي صرفه الله عن الحق لشقاوته في الأزل فمن لم يكتب عليه في سابق علم الله الشقاوة والكفر لا يصرفه عن الحق قول ظاهر الكذب والبطلان لتناقضه .

وهذا المعنى جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الجحيم ﴾ [الصافات : 161 - 163] ومعنى هذه الآية أن دين الكفار ، الذي هو الشرك بالله وعبادة الأوثان ، مع حرصهم على صد الناس عن دين الإسلام إليه ما هم بفاتنين ، أي ليسا بمضلين عليه أحداً لظهور فساده وبطلانه إلا من هو صال الجحيم ، أي إلا من قدر الله عليه الشقاوة وأنه من أهل النار في سابق علمه ، هذا هو الظاهر لنا في معنى هذه الآية الكريمة .

(181/725)

وأكثر المفسرين على أن الضمير في قوله : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ ﴾ راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو القرآن ، أي يصرف عن الإيمان بالنبي أو القرآن ، من أفك أي صرف عن الحق ، وحرم الهدي لشدة ظهور الحق في صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن القرآن منزل من الله ، وهذا خلاف ظاهر السياق كما ترى .

وقول من قال : يؤفك عنه . أي يصرف عن القول المختلف الباطل من أفك ، أي من صرف عن الباطل إلى الحق لا يخفى بعده وسقوطه .

والذين قالوا : هذا القول يزعمون أن الإفك يطلق على الصرف عن الحق إلى الباطل ، وعن الباطل إلى الحق ، ويبعد هذا أن القرآن لم يرد فيه مراد به إلا الصرف عن الخير إلى الشر دون عكسه .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15)

لا يخفى على من عنده علم بأصول الفقه أن هذه الآية الكريمة فيها الدلالة المعروفة عند أهل الأصول بدلالة الإيماء والتنبيه على أن سبب نيل هذه الجنات والعيون هو تقوى الله والسبب الشرعي هو العلة الشرعية على الأصح ، وكون التقوى سبب دخول الجنات الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة ، جاء موضحاً في آيات آخر في كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الجنة التي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِياً ﴾ [مريم : 63] وقد قدمنا الآيات

الموضحة لذلك في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ المتقين ﴾ [النحل : 31] .

وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الجاثية .

وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22)

(182/725)

اختلف العلماء في المراد بكون رزق الناس في السماء ، فذهبت جماعة من أهل العلم ، أن المراد أن جميع أرزاقهم منشؤها من المطر وهو أنزل من السماء ، ويكثر في القرآن إطلاق اسم الرزق على المطر ، لهذا المعنى كقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السمآء رِزْقاً ﴾ [غافر : 13] وقوله تعالى : ﴿ واختلاف الليل والنهار وَمَآ أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السمآء مِّن رِّزْقٍ ﴾ [الجاثية : 5] الآية .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة المؤمن .

وإنزاله تعالى الرزق من السماء بإنزال المطر من أعظم آياته الدالة على عظمته وأنه المعبود وحده ، ومن أعظم نعمه على خلقه في الدنيا ، ولذلك كثر الامتنان به في القرآن على

الخلق .

وقال بعض أهل العلم : معنى قوله : ﴿ وَفِي السمآء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ أن أرزاقكم مقدرة مكتوبة ، والله جل وعلا يدبر أمر الأرض من السماء ، كما قال تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السمآء إِلَى الأرض ثُمَّ يَعْرُجُ ﴾ [السجدة : 5] الآية . قوله تعالى : ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، ما ، في محل رفع عطف على قوله : ﴿ رِزْقُكُمْ ﴾ ، والمراد بما يوعدون ، قال بعض أهل العلم : الجنة ، لأن الجنة فوق السماوات ، فإطلاق كونها في السماء إطلاق عربي صحيح ، لأن العرب تطلق السماء على كل ما علاك كما قيل :

وقد يسمى سماء كل مرتفع . . . وإنما الفضل حيث الشمس والقمر

ولما حكى النابغة الجعدي شعره المشهور ، قال فيه :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا . . . وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

قال له صلى الله عليه وسلم " إلى أين يا أبي ليلى " قال : إلى الجنة ، قال : " نعم إن شاء الله " .

وقال بعض أهل العلم : وما توعدون من الخير والشر كله مقدر في السماء ، كما بيناه في القول الثاني في المراد بالرزق في الآية ، وهذا المعنى فيما يوعدون به أنسب لهذا القول الثاني في معنى الرزق .

وقد وردت قصص تدل على أنه هو الذي يتبادر إلى ذهن السامع ، فمن ذلك ما ذكره غير واحد عن سفيان الثوي أنه قال : قرأ واصل الأحدب هذه الآية ﴿ وَفِي السمآء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات : 22] فقال : ألا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض ، فدخل خربة يمكث ثلاثاً لا يصيب شيئاً ، فلما أن كان في اليوم الثالث إذا هو بدوخلة من رطب ، وكان له أخ أحسن منه نية ، فدخل معه فصارتا دوخلتين ، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق بينهما الموت .

ومن ذلك أيضاً : ما ذكره الزمخشري في تفسير هذه الآية قال : وعن الأصمعي قال : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود له ، فقال : ممن الرجل ؟ قلت : من بين أصمع . قال : من أين أقبلت ؟ قلت من موضع يتلى فيه كلام الرحمان . فقال : اتل علي فتلوت : والذاريات فلما بلغت قوله تعالى : ﴿ وَفِي السمآء رِزْقُكُمْ ﴾ قال : حسبك فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسة فكسرهما وولى ، فلما حججت مع الرشيد طفتق أطواف فإذا أنا بمن يهتف بن بصوت رقيق فالتفت ، فإذا أنا بالأعرابي قد نحل أصغر فسلم علي واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية صاح ، وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، ثم قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت ﴿ فَوَرَبِّ السمآء والأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات : 23] فصاح وقال : يا سبحان الله من ذا

الذي أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى الجؤوه إلى اليمين ، قائلاً ثلاثاً ، وخرجت معها نفسه انتهى . انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(184/725)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ » . .

هو بيان للجزاء الذي يجزى به الفريق الآخر ، الذي يقابل فريق الخرّاصين المكذبين . . فقد جاء قوله تعالى : « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ » مبينا موقف الناس من الإيمان بالبعث والجزاء ، وأنهم فريقان مختلفان ، مؤمنون وكافرون ، مصدقون ومكذبون . .

وقد جاء التعقيب على هذا ، بما يلقى الكافرون المكذبون ، من عذاب ونكال ، فأخذوا دون إمهال إلى جهنم . .

ثم جاء بعد ذلك المؤمنون ، المصدّقون بالبعث والجزاء ، ففتّحت لهم أبواب الجنة ، وسيق إليهم فيها ما تشتهى أنفسهم من نعيمها . .

وقوله تعالى : « آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ » . .

أي يتقبلون من ربهم ما يساق إليهم من ألطاف ، وما يقدم إليهم من ألوان النعيم ، مما لم يكن يخطر لهم على بال ، أو يقع لهم فى أحلام . .

وفى مدّ اللّه سبحانه وتعالى لهم يده الكريمة بهذا الإحسان ، وفى تناولهم هذا

(185/725)

الإحسان من ربهم - فى هذا ما فيه من تكريم لا يناله إلّا المقربون ، الذين رضى اللّه عنهم ، جعلنا اللّه سبحانه وتعالى منهم ، إنه ذو الفضل العظيم . .

وقوله تعالى : « إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ » هو بيان للأسباب والوسائل ، التي توسل بها هؤلاء المكرمون من عباد اللّه ، إلى هذا النعيم العظيم الذي هم فيه ، وذلك أنهم كانوا قبل ذلك اليوم ، أي يوم القيامة ، وهو الدنيا - كانوا محسنين ، فلقيهم اللّه بإحسان مضاعف ، كما يقول سبحانه : « هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ » (60 : الرحمن) .

قوله تعالى : « كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ » . .

هو بيان مفسّر لإحسان هؤلاء المحسنين . . فقد كان من إحسانهم أنهم يذكرون ربهم ، لا يكادون يغفلون عن ذكره ، ولا يعطون أنفسهم حظها من النوم . . فإذا نام الغافلون ، قطعوا هم ليلهم ترتيلا ، وتسبيحا ، وصلاة ، وذكرا . . والهجوع ، هو النوم القليل ، وهو ما

يسمى بالغرار ، كما يقول :

ما أذوق الليل إلا غرارا مثل حسو الطير ماء السّمال « 1 »

« وما » فى قوله تعالى : « ما يَهْجَعُونَ » .

. إما مصدرية ، أي كانوا على حال قليل فيها من الليل هجوعهم . وإما موصولة ، والمعنى : كانوا على حال قلّ فيها الزمن الذي يهجعون فيه من الليل .

---

(1) مال السمال : الماء فى الأرض السبخة ، فهو ماء مشوب بالملح

.

قوله تعالى : « وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » الأسحار ، جمع سحر ، وهو آخر الليل . . استغفارهم فى آخر الليل ، الذي قطعوه تسبيحا وذكرا ، وترتيلا وصلاة - إشارة إلى أنهم يرون أن ما قاموا به من تسبيح وذكر ، وصلاة ، وترتيل - لم يستوف ما للّه من حق عليهم ، فى عبادته وتسبيحه ، فهم لهذا يستغفرون ربهم ، ليتجاوز عن تقصيرهم فى حقه . .

قوله تعالى : « وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » أي ومن أعمال هؤلاء المؤمنين المصدقين باللّه ورسوله ، واليوم الآخر - أنهم يشاركون الناس فيما فى أيديهم من مال ،

ويرون أن فى هذا المال الذي أعطاهم اللّه ، حقّا لكل محتاج ، من سائل ، يطلب ، أو محروم يتعفف عن السؤال . .

قوله تعالى : « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ » مناسبة هذه الآية لما قبلها ، أنها تنعى على هؤلاء الضالين المكذبين ، كفرهم وضلالهم الذي فوّت عليهم هذا النعيم الذي أعده اللّه للمؤمنين ، وأنهم إذا كانوا قد استكبروا على أن ينقادوا لرسول اللّه ، وأن يستجيبوا لما يدعوهم إليه من هدى . أفلا كانت لهم عيون تنظر فى هذا الوجود ، وتطالع ما فيه من آيات تشهد بما للّه سبحانه وتعالى من قدرة وسلطان ، وعلم وحكمة ؟

(187/725)

إنه كما فى يد الرسول آيات ناطقة بالحق ، داعية إليه . كذلك هناك آيات أخرى فى الأرض ، وفى السماء ، وفى كل ما خلق اللّه ، تشهد بأن اللّه هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه الباطل . . ولكنهم لشقوتهم قد أصمّوا آذانهم عن سماع كلمات اللّه ، وأغمضوا أعينهم عن النظر فى كتاب الوجود ، فكفروا ، وضلّوا . . فكان مأواهم جهنم وساءت مصيرا .

وفى قوله تعالى « لِلْمُوقِنِينَ » . إشارة إلى أنه لا ينتفع بتلك الآيات الكونية ، ولا يقع على مواقع الهدى منها ، إلا أهل اليقين ، الذين يطلبون العلم والمعرفة ، بالبحث الجادّ ، والنظر

المتفحص ، فإذا وقع لهم من ذلك علم ، كان علمهم عن برهان وحجة ، فيقع منهم ذلك العلم موقع التثبت واليقين . . فهم ـ والحال كذلك ـ لا يتّبعون الأهواء ، ولا يتابعون أهل الضلال . .

قوله تعالى : « وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ » أي إذا كنتم أيها المكذبون الضالون ، قد كلّت أبصاركم عن أن تنظر فى صفحة هذا الوجود ، وأن تمتد إلى أبعد من مواطىء أقدامكم ، فإن ذلك لا يحول بينكم وبين الوصول إلى الدليل على قدرة اللّه وسلطانه القائم على الوجود ، وإنه ليكفى أن تنظروا فى ذات أنفسكم ، فإن فى أنفسكم عالما رحيبا ، وكونا فسيحا . . وإنه ليكفى أن يقيم أحدكم بصره على مسيرته فى الحياة ، من وجوده نطفة إلى أن صار رجلا . . إنكم ستجدون فى هذا سجلّا حافلا بالآيات الدالة على قدرة الخالق ، وعلى حكمته ، وعلى بديع صنعه ، وحكمة تدبيره . .

والاستفهام هنا توبيخ وتعنيف ، لهؤلاء الذي عموا عن مشاهد القدرة الإلهية ، وآثارها الناطقة فى كل ما خلق الخالق جلّ وعلا . .

(188/725)

قوله تعالى : «وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ» أي ، وانظروا فى السماء ، فهى أوضح صورة ، وأجلى بيانا مما فى الأرض أو فى أنفسكم . . إن فيها أسباب رزقكم ، وملاك حياتكم ، بما ينزل منها ماء ، وما يجرى فيها من شمس ، وقمر ، وكواكب ، ونجوم . . بل إن فيها عرش اللّه ، وفيها ملائكته ، وفيها مقدّرات الأمور . . فكل ما يجرى على الناس وغيرهم من شئون ، هو منزّل من علوّ . كما يقول سبحانه ، « وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً » (13 : غافر) وكما يقول جل شأنه : « يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ» (2 : النحل) . . والتنزيل لا يكون إلا من جهة عالية . . فالسماء هنا ، إشارة إلى جلال اللّه ، وعظمته ، وعلوّ مقامه ، وقيومته على هذا الوجود . .

قوله تعالى : « فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ . . إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ» بعد أن أقسم اللّه سبحانه وتعالى ببعض مخلوقاته ، توّج هذه الأقسام جميعها بالقسم بذاته العلية جلّ شأنه ، واصفا ذاته الكريمة ، بأنه رب السموات والأرض ومدبّر أمرهما . . والمقسم عليه هنا ، كلّ ما وقعت عليه الأقسام السابقة ، من صدق ما يوعد الناس به من بعث ودينونة ، وحساب وجزاء ، وما جاء من أخبار عن نعيم أهل الجنة ، وعذاب أهل النار ، ثم ما أخبر به جل شأنه ، من أنه المالك للأرزاق ، والمقدّر لها ، كما أنه مالك يوم الدين ، وما يلقى الناس فى هذا اليوم . .

فهذا كله حقّ لا امتراء فيه ، وهو واقع كما أخبر به الحقّ جلّ وعلا ، على سبيل القطع واليقين . .

وقوله تعالى « مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ » صفة لمصدر محذوف يقع مفعولا مطلقا لصفة محذوفة أيضا لخبر إن ، والمقام دالّ على هذين المحذوفين والتقدير :

فورب السماء والأرض إن ذلك كله لحق واقع وقوعا مماثلا لوجودكم الذي أنتم عليه ، والذي لا يمكن أن تنكروه . . وهل ينكر الإنسان وجوده ، وهو حى ناطق ؟

واختيار النطق صفة دالة على وجود الإنسان ، لأن المنطق هو الصفة المميزة للإنسان عن عالم الحيوان ، ولأن النطق كذلك يدلّ على أن وراءه إنسانا ذا حس وإدراك ، وأنه إذا غابت عنه المحسات والمدركات ، فلن يغيب عنه الإحساس بوجوده ، وإدراك أنه موجود . .

أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم عن الحسن أنه قال : بلغني أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : « قاتل اللّه قوما أقسم لهم ربهم ثم لم يصدّقوا » وروى عن الأصمعى أنه قال : أقبلت من جامع البصرة ، فطلع أعرابى على قعود ، فقال : ممن الرجل ؟ قلت : من بنى أصمع ، قال : من أين أقبلت ، قلت من موضع يتلى فيه كلام الرحمن قال : اتل علىّ ، فتلوت « والذاريات » فلما بلغت « وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ » قال : حسبك . . فقام

إلى ناقته فنحرها ووزعها ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسر هما ، وولىّ . .

يقول الأصمعى : فلما حججت مع الرشيد ، طفقت أطوف ، فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق ، فالتفتّ ، فإذا بالأعرابى قد نحل واصفرّ ، فسلّم علىّ ، واستقرأنى السورة ، فلما بلغت الآية : « وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ »

(190/725)

صاح ، وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّا . . ثم قال : وهل غير هذا ؟

فقرأت : « فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ » فصاح وقال : يا سبحان اللّه ، من ذا أغضب الجليل حتى حلف ؟ لم يصدّقوه بقوله حتى ألجئوه إلى اليمين ؟ قالها ثلاثا ، وخرجت معها نفسه ! ! » . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 13 صـ 514.508 ﴾

(191/725)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) ﴾

اعتراض قَابل به حال المؤمنين في يوم الدين جرى على عادة القرآن في اتباع النِّذارة بالبشارة ، والترهيب بالترغيب .

وقوله : ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ﴾ نظير قوله في سورة الدخان (51 ، 52) ﴿ إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون ﴾ وجمع ﴿ جنات ﴾ باعتبار جمع المتقين وهي جنات كثيرة مختلفة وفي الحديث : " إنها لِجنان كثيرة ، وإنه لفي الفردوس " وتنكير ﴿ جنات ﴾ للتعظيم .

ومعنى ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ : أنهم قابلون ما أعطاهم ، أي راضون به فالأخذ مستعمل في صريحه وكنايته كناية رمزية عن كون ما يؤتَوْنه أكمل في جنسه لأن مدارك الجماعات تختلف في الاستجادة حتى تبلغ نهاية الجودة فيستوي الناس في استجادته ، وهي كناية تلويحية .

وأيضاً فالأخذ مستعمل في حقيقته ومجازه لأن ما يؤتيهم الله بعضهم مما يُتناول باليد كالفواكه والشراب والرياحين ، وبعضه لا يتناول باليد كالمناظِر الجميلة والأصوات الرقيقة والكرامة والرضوان وذلك أكثر من الأول .

فإطلاق الأخذ على ذلك استعارة بتشبيه المعقول بالمحسوس كقوله تعالى : ﴿ خُذوا ما

آتيناكم بقوة ﴾ في سورة البقرة (63) ، وقوله : ﴿ وأمرْ قَومَك يأخذوا بأحسنها ﴾ في سورة الأعراف (145) .

فاجتمع في لفظ ﴿ آخذين ﴾ كنايتان ومجاز .

روى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن الله تعالى يقول : يا أهل الجنة .

فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخيرُ في يديك .

فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك فيقول : ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحُلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً " .

(192/725)

وفي إيثار التعبير عن الجلالة بوصف (ربّ) مضافٍ إلى ضمير المتقين معنى من اختصاصهم بالكرامة والإيماء إلى أن سبب ما آتاهم هو إيمانهم بربوبيته المختصة بهم وهي المطابقة لصفات الله تعالى في نفس الأمر .

وجملة ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ تعليل لجملة ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ﴾ ، أي كان ذلك جزاء لهم عن إحسانهم كما قيل للمشركين ﴿ ذوقوا فتنتكم ﴾ [الذاريات

: 14] .

والمحسنون : فاعلو الحسنات وهي الطاعات .

وفائدة الظرف في قوله : ﴿ قبلَ ذلك ﴾ أن يؤتى بالإشارة إلى ما ذكر من الجنات والعيون وما آتاهم ربهم مما لا عين رأتْ ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيحصل بسبب تلك الإشارة تعظيم شأن المشار إليه ، ثم يفاد بقوله ﴿ قبل ذلك ﴾ ، أي قبل التنعم به أنهم كانوا محسنين ، أي عاملين الحسنات كما فسره قوله : ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ الآية .

فالمعنى : أنهم كانوا في الدنيا مطيعين لله تعالى واثقين بوعده ولم يروه .

وجملة ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ بدل من جملة ﴿ كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ بدل بعض من كل لأن هذه الخصال الثلاث هي بعض من الإحسان في العمل .

وهذا كالمثال لأعظم إحسانهم فإن ما ذكر من أعمالهم دال على شدة طاعتهم لله ابتغاء مرضاته ببذل أشد ما يبذل على النفس وهو شيئان

أولهما : راحة النفس في وقت اشتداد حاجتها إلى الراحة وهو الليل كله وخاصة آخره ، إذ يكون فيه قائم الليل قد تعب واشتد طلبه للراحة .

وثانيهما : المال الذي تشحّ به النفوس غالباً ، وقد تضمنت هذه الأعمال الأربعة أصلَي إصلاح النفس وإصلاح الناس .

وذلك جماع ما يرمي إليه التكليف من الأعمال فإن صلاح النفس تزكية الباطن والظاهر

ففي قيام الليل إشارة إلى تزكية النفس باستجلاب رضى الله تعالى .

وفي الاستغفار تزكية الظاهر بالأقوال الطيبة الجالبة لمرضاة الله عز وجل .

وفي جعلهم الحق في أموالهم للسائلين نفع ظاهر للمحتاج المظهر لحاجته .

(193/725)

وفي جعلهم الحق للمَحروم نفع المحتاج المتعفّف عن إظهار حاجته الصابر على شدة الاحتياج.

وحرف ﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ مزيد للتأكيد .

وشاعت زيادة ﴿ ما ﴾ بعد اسم (قليل) و (كثير) وبعد فعل (قل) و (كثر) و (طال) .

والمعنى : كانوا يهجعون قليلاً من الليل .

وليست ﴿ ما ﴾ نافية .

والهجوع : النوم الخفيف وهو الغِرار .

ودلت الآية على أنهم كانوا يهجعون قليلاً من الليل وذلك اقتداء بأمر الله تعالى نبيئه صلى

الله عليه وسلم بقوله : ﴿ قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ﴾ [المزمل : 42] وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمرهم بذلك كما في حديث عبد الله بن عَمرو بن العاص " أن رسول الله قال له : لم أُخْبَر أنك تقوم الليل وتصوم النهار قال : نعم . قال : لا تفعل إنك إن فعلت ذلك نَفِهت النفس وهَجمت العين .

وقال له : قم ونَم ، فإن لنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً " .

وقد اشتملت هذه الجملة على خصائص من البلاغة:

أولاها : فعل الكون في قوله : ﴿ كانوا ﴾ الدال على أن خبرها سُنَّة متقررة .

الثاني : العدول عن أن يقال : كانوا يقيمون الليل ، أو كانوا يُصَلُّون في جوف الليل ، إلى قوله : ﴿ قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ لأن في ذكر الهجوع تذكيراً بالحالة التي تميل إليها النفوس فتغلبها وتصرفها عن ذكر الله تعالى وهو من قبيل قوله تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ [السجدة : 16] ، فكان في الآية إطناب اقتضاه تصوير تلك الحالة ، والبليغ قد يورد في كلامه ما لا تتوقف عليه استفادة المعنى إذا كان يرمي بذلك إلى تحصيل صور الألفاظ المزيدة .

الثالث : التصريح بقوله : ﴿ من الليل ﴾ للتذكير بأنهم تركوا النوم في الوقت الذي من شأنه استدعاء النفوس للنوم فيه زيادةً في تصوير جلال قيامهم الليل وإلا فإن قوله : ﴿ كانوا قليلاً ما يهجعون ﴾ يفيد أنه من الليل .

الرابع : تقييد الهجوع بالقليل للإشارة إلى أنهم لا يستكملون منتهى حقيقة الهجوع بل يأخذون منه قليلاً .

وهذه الخصوصية فاتت أبا قيس بن الأسلت في قوله:

قد حَصت البيضة راسِي فمَا . . .

أطعَم نوماً غير تَهْجاع

الخامس : المبالغة في تقليل هجوعهم لإفادة أنه أقل ما يُهجَهُه الهاجع .

وانتصب ﴿ قليلاً ﴾ على الظرف لأنه وُصف بالزمان بقوله : ﴿ من الليل ﴾ .

والتقدير : زمناً قليلاً من الليل ، والعامل في الظرف ﴿ يَهجعون ﴾ .

و﴿ من الليل ﴾ تبعيض .

ثم أتبع ذلك بأنهم يستغفرون في السحر ، أي فإذا آذن الليل بالانصرام سألوا الله أن يغفر لهم بعد أن قدّموا من التهجد ما يرجون أن يزلفهم إلى رضى الله تعالى .

وهذا دل على أن هجوعهم الذي يكون في خلال الليل قبل السحر .

فأما في السحر فهم يتهجدون ، ولذلك فسر ابن عمر ومجاهد الاستغفار بالصلاة في

السحر .

وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ [آل عمران : 17] ، وليس المقصود طلب الغفران بمجرد اللسان ولو كان المستغفر في مضجعه إذ لا تظهر حينئذٍ مزية لتقييد الاستغفار بالكون في الأسحار .

والأسحار : جمع سحر وهو آخر الليل .

وخص هذا الوقت لكونه يكثر فيه أن يغلب النوم على الإنسان فيه فصلاتهم واستغفارهم فيه أعجب من صلاتهم في أجزاء الليل الأخرى .

وجَمْع الأسحار باعتبار تكرر قيامهم في كل سحر .

وتقديم ﴿ بالأسحار ﴾ على ﴿ يستغفرون ﴾ للاهتمام به كما علمت .

وصيغ استغفارهم بأسلوب إظهار اسم المسند إليه دُون ضميره لقصد إظهار الاعتناء بهم وليقع الإخبار عن المسند إليه بالمسند الفعلي فيفيد تقوّي الخبر لأنه من الندّرة بحيث يقتضي التقوية لأن الاستغفار في السحر يشقّ على من يقوم الليل لأن ذلك وقت إعيائه .

فهذا الإسناد على طريقة قولهم : هو يعطي الجزيل .

(195/725)

وحق السائل والمحروم : هو النصيب الذي يعطُونه إياهما ، أطلق عليه لفظ الحق ، إمّا لأن الله أوجب على المسلمين الصدقة بما تيسَّر قبل أن يفرض عليهم الزكاة فإن الزكاة فرضت بعد الهجرة فصارت الصدقة حقا للسائل والمحروم ، أو لأنهم ألزموا ذلك أنفسهم حتى صار كالحق للسائل والمحروم .

وبذلك يتأوَّل قول من قال : إن هذا الحق هو الزكاة .

والسائل : الفقير المظهر فقره فهو يسأل الناس ، والمحروم : الفقير الذي لا يُعطَى الصدقة لظن الناس أنه غير محتاج من تعففه عن إظهار الفقر ، وهو الصنف الذي قال الله تعالى في شأنهم ﴿ يحسبهم الجاهل أُغنياء من التعفّف ﴾ [البقرة : 273] وقال النبي صلى الله عليه وسلم " ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان والأكلة والأكلتان ولكن المسكين الذي ليس له غنى ويستحيي ولا يسأل الناس إلحافاً " .

وإطلاق اسم المحروم ليس حقيقة لأنه لم يَسأل الناس ويحرموه ولكن لما كان مآل أمره إلى ما يؤول إليه أمر المحروم أطلق عليه لفظ المحروم تشبيهاً به في أنه لا تصل إليه ممكنات الرزق بعد قربها منه فكأنه ناله حرمان .

والمقصود من هذه الاستعارة ترقيق النفوس عليه وحثّ الناس على البحث عنه ليضعوا صدقاتهم في موضع يحب الله وضعها فيه ونظيرها في سورة المعارج .

قال ابن عطية : واختلف الناس في ﴿ المحروم ﴾ اختلافاً هو عندي تخليط من المتأخرين

إذ المعنى واحد عبر علماء السلف في ذلك بعبارات على جهة المثالات فجعلها المتأخرون أقوالاً .

قلت ذكر القرطبي أحد عشر قولاً كلها أمثلة لمعنى الحرمان ، وهي متفاوتة في القرب من سياق الآية فما صلح منها لأن يكون مثالاً للغرض قُبل وما لم يصلح فهو مردود ، مثل تفسير من فسر المحروم بالكلب .

وفي "تفسير ابن عطية" عن الشعبي : أعياني أن أعلم ما المحروم .

وزاد القرطبي في رواية عن الشعبي قال : لي اليوم سبعون سنة منذ احتملت أسأل عن المحروم فما أنا اليوم بأعلم مني فيه يومئذٍ .

(196/725)

وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20)

هذا متصل بالقَسَم وجوابه من قوله : ﴿ والذاريات ﴾ [الذاريات : 1] وقوله : ﴿ وإن الدين لواقع ﴾ إلى قوله : ﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ [الذاريات : 6 ، 7] فبعد أن حقق وقوع البعث بتأكيده بالقسم انتقل إلى تقريبه بالدليل لإبطال إحالتهم إياه ، فيكون هذا الاستدلال كقوله : ﴿ ومن آياته أنك تَرى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت

وربَتْ إن الذي أحياها لمُحيي الموتى ﴾ [فصلت : 39] .

وما بين هاتين الجملتين اعتراض ، فجملة ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ يجوز أن تكون معطوفة على جملة جواب القسم وهي ﴿ إن ما تُوعدون لصادق ﴾ [الذاريات : 5] .

والمعنى : وفي ما يشاهد من أحوال الأرض آيات للموقنين وهي الأحوال الدالة على إيجاد موجودات بعد إعدام أمثالها وأصولها مثل إنبات الزرع الجديد بعد أن بَاد الذي قبله وصار هشيماً .

وهذه دلائل واضحة متكررة لا تحتاج إلى غوص الفكر فلذلك لم تقرن هذه الآيات بما يدعو إلى التفكر كما قرن قوله : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الذاريات : 21] .

واعلم أن الآيات المرموقة من أحوال الأرض صالحة للدلالة أيضاً على تفرده تعالى بالإلهية في كيفية خلقها ودحْوها للحيوان والإنسان ، وكيف قسمت إلى سهل وجبال وبحر ، ونظام إنباتها الزرع والشجر ، وما يخرج من ذلك من منافع للناس ، ولهذا حذف تقييد آيات بمتعلِّق ليعمّ كل ما تصلح الآيات التي في الأرض أن تدل عليه .

وتقديم الخبر في قوله : ﴿ وفي الأرض ﴾ للاهتمام والتشويق إلى ذكر المبتدأ .

واللام في ﴿ للموقنين ﴾ معلق بـ ﴿ آيات ﴾ .

وخصت الآيات بـ ﴿ الموقنين ﴾ لأنهم الذين انتفعوا بدلالتها فأكسبتهم الإيقان بوقوع البعث .

وأوثر وصف الموقنين هنا دون الذين أيقنوا لإفادة أنهم عرفوا بالإيقان .

وهذا الوصف يقتضي مدحهم بثقوب الفهم لأن الإيقان لا يكون إلا عن دليل ودلائل هذا الأمر نظرية .

(197/725)

ومَدْحَهم أيضاً بالإنصاف وترك المكابرة لأن أكثر المنكرين للحق تحملهم المكابرة أو الحسد على إنكار حق من يتوجّسون منه أن يقضي على منافعهم .

وتقديم ﴿ في الأرض ﴾ على المبتدأ للاهتمام بالأرض باعتبارها آيات كثيرة .

وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21)

عطف على ﴿ في الأرض ﴾ [الذاريات : 20] .

فالتقدير : وفي أنفسكم آيات أفلا تبصرون .

تفريعاً على هذه الجملة المعطوفة فيقدر الوقف على ﴿ أنفسكم ﴾ .

وليس المجرور متعلقاً بـ ﴿ تبصرون ﴾ متقدماً عليه لأن وجود الفاء مانع من ذلك إذ يصير الكلام معطوفاً بحرفين .

والخطاب موجه إلى المشركين .

والاستفهام إنكاري ، أنكر عليهم عدم الإبصار للآيات .

والإبصار مستِعار للتدبر والتفكر ، أي كيف تتركون النظر في آيات كائنة في أنفسكم .

وتقديم ﴿ في أنفسكم ﴾ على متعلقه للاهتمام بالنظر في خلق أنفسهم وللرعاية على الفاصلة .

والمعنى : ألا تتفكرون في خلق أنفسكم : كيف أنشأكم الله من ماء وكيف خلقكم أطواراً ، أليس كل طور هو إيجادَ خلق لم يكن موجوداً قبل .

فالموجود في الصبي لم يكن موجوداً فيه حين كان جنيناً .

والموجود في الكهل لم يكن فيه حين كان غلاماً وما هي عند التأمل إلا مخلوقات مستجدة كانت معدومة فكذلك إنهاء الخلق بعد الموت .

وهذا التكوين العجيب كما يدل على إمكان الإيجاد بعد الموت يدل على تفرّد مكونة تعالى بالإلهية إذ لا يقدر على إيجادِ مثلِ الإنسان غيرُ الله تعالى فإن بَواطن أحوال الإنسان وظواهرها عجائِب من الانتظام والتناسب وأعجبها خلق العقل وحركاته واستخراج المعاني وخلق النطق والإهام إلى اللغة وخلق الحواس وحركة الدورة الدموية وانتساق الأعضاء الرئيسة وتفاعلها وتسوية المفاصل والعضلات والأعصاب والشرايين وحالها بين الارتخاء واليبس فإنه إذا غلب عليها التيبس جاء العجز وإذا غلب الارتخاء جاء الموت .

والخطاب للذين خوطبوا بقوله أول السورة ﴿ إن ما تُوعَدُون لصادق ﴾ [الذاريات : 5] .

وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22)

بعد أن ذكر دلائل الأرض ودلائل الأنفس التي هم من علائِق الأرض عُطف ذكر السماء للمناسبة ، وتمهيداً للقَسم الذي بعده بقوله : ﴿ فوربِّ السماء والأرض إنه لحق ﴾ [الذاريات : 23] .

ولما في السماء من آية المطر الذي به تنبت الأرض بعد الجفاف ، فالمعنى : وفي السماء آية المطر ، فعدل عن ذكر المطر إلى الرزق إدماجاً للامتنان في الاستدلال فإن الدليل في كونه مطراً يحيي الأرض بعد موتها .

وهذا قياس تمثيل للنبت ، أي في السماء المطر الذي ترزقون بسببه .

فالرزق : هو المطر الذي تحمله السحب والسماء هنا : طبقات الجو .

وتقديم المجرور على متعلقه للتشويق وللاهتمام بالمكان وللردّ على الفاصلة .

وعَطف ﴿ وما توعدون ﴾ إدماج بين أدلة إثبات البعث لقصد الموعظة الشاملة للوعيد على الإشراك والوعد على الإيمان إن آمنوا تعجيلاً بالموعظة عند سنوح فرصتها .

وفي إيثار صيغة ﴿ تُوعَدون ﴾ خصوصية من خصائص إعجاز القرآن ، فإن هذه

الصيغة صالحة لأن تكون مصوغة من الوعد فيكون وزن ﴿ توعدون ﴾ تفعلون مضارع وعَد مبنياً للنائب .

وأصله قبل البناء للنائب تَعدون وأصله تَوْعَدُون ، فلما بني للنائب ضُمّ حرف المضارعة فصارت الواو الساكنة مَدة مجانسة للضمة فصار : تُوعدون .

وصالحة لأن تكون من الإيعاد ووَزنه تأْفعَلُون مثل تصريف أكرم يكرم وبذلك صار ﴿ توعدون ﴾ مثل تُكرمَون ، فاحتملت للبشارة والإنذار .

وكون ذلك في السماء يجوز أن يكون معناه أنه محقق في علم أهل السماء ، أي الملائكة الموكلين بتصريفه .

ويجوز أن يكون المعنى : أن مَكان حصوله في السماء ، من جنة أو جهنم بناء على أن الجنة وجهنم موجودتان من قبل يوم القيامة ، وفي ذلك اختلاف لا حاجة إلى ذكره .

(199/725)

وفيه إيماء إلى أن ما أوعدوه يأتيهم من قِبَل السماء كما قال تعالى : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴾ [الدخان : 10 ، 11] .

فإن ذلك الدخان كان في طبقات الجو كما تقدم في سورة الدخان .

فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23)

بعد أن أكد الكلام بالقسم بـ ﴿ الذاريات ﴾ [الذاريات : 1] وما عطف عليها فرع على ذلك زيادة تأكيد بالقسم بخالق السماء والأرض على أن ما يوعدون حق فهو عطف على الكلام السابق ومناسبته قوله : ﴿ وما توعدون ﴾ [الذاريات : 22] .

وإظهار اسم السماء والأرض دون ذكر ضميرهما لإدخال المهابة في نفوس السامعين بعظمة الربّ سبحانه .

وضمير ﴿ إنه لحقّ ﴾ عائد إلى ﴿ ما توعدون ﴾ [الذاريات : 22] .

وهذا من ردّ العجز على المصدر لأنه رد على قوله أول السورة ﴿ إن ما توعدون لصادق ﴾ [الذاريات : 5] وانتهى الغرض .

وقوله : ﴿ مثل ما أنكم تنطقون ﴾ زيادة تقرير لوقوع ما أوعدوه بأن شبه بشيء معلوم كالضرورة لا امتراء في وقوعه وهو كون المخاطبين ينطقون .

وهذا نظير قولهم : كما أن قبلَ اليوم أمس ، أو كما أن بعد اليوم غداً .

وهو من التمثيل بالأمور المحسوسة ، ومنه تمثيل سرعة الوصول لقرب المكان في قول زهير :

فهن ووادِي الرسّ كاليد للفم . . .

وقولهم : مثل ما أنك ها هنا ، وقولهم : كما أنك ترى وتسمع .

وقرأ الجمهور ﴿ مثلَ ﴾ بالنصب على أنه صفة حال محذوف قصد منه التأكيد .

والتقدير : إنه لحق حقاً مثل ما أنكم تنطقون .

وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف مرفوعاً على الصفة ﴿ لحق ﴾ صفة أريد بها التشبيه .

و ﴿ ما ﴾ الواقعة بعد ﴿ مثل ﴾ زائدة للتوكيد .

وأردفت بـ (أنَّ) المفيدة للتأكيد تقوية لتحقيق حقية ما يوعدون .

(200/725)

واجتلب المضارع في ﴿ تنطقون ﴾ دون أن يقال : نطقكم ، يفيد التشبيه بنطقهم المتجدد وهو أقوى في الوقوع لأنه محسوس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(201/725)

فصل فى منزلة اليقين

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة اليقين

وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد وبه تفاضل العارفون وفيه تنافس المتنافسون وإليه شمر العاملون وعمل القوم إنما كان عليه وإشاراتهم كلها إليه وإذا تزوج الصبر باليقين: ولد بينهما حصول الإمامة في الدين قال الله تعالى وبقوله يهتدي المهتدون: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: 24] وخص سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين فقال وهو أصدق القائلين: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذرايات: 20] وخص أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: 4-5] وأخبر عن أهل النار: بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية: 32] ف اليقين روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال القلوب التي هي من أعمال الجوارح وهو حقيقة الصديقية وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره وروى خالد بن يزيد عن السفيانين عن التيمي عن خيثمة عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا ترضين أحدا بسخط الله ولا تحمدن أحدا على فضل الله ولا تذمن أحدا على ما لم يؤتك الله فإن ما رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص ولا يرده عنك كراهية كاره" وإن الله بعدله

وقسطه جعل الروح والفرح في الرضى واليقين وجعل الهم والحزن في الشك والسخط واليقين قرين التوكل ولهذا فسر التوكل بقوة اليقين

(202/725)

والصواب: أن التوكل ثمرته ونتيجته ولهذا حسن اقتران الهدى به قال الله تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ [النمل: 79] فالحق: هو اليقين وقالت رسل الله: ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم: 12] ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورا وإشراقا وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط وهم وغم فامتلأ محبة لله وخوفا منه ورضي به وشكرا له وتوكلا عليه وإنابة إليه فهو مادة جميع المقامات والحامل لها واختلف فيه: هل هو كسبي أو موهبي فقيل: هو العلم المستودع في القلوب يشير إلى أنه غير كسبي وقال سهل: اليقين من زيادة الإيمان ولا ريب أن الإيمان كسبي والتحقيق: أنه كسبي باعتبار أسبابه موهبي باعتبار نفسه وذاته قال سهل: ابتداؤه المكاشفة كما قال بعض السلف: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا ثم المعاينة والمشاهدة وقال ابن خفيف: هو تحقق الأسرار بأحكام المغيبات وقال أبو بكر بن طاهر: العلم تعارضه الشكوك واليقين لا شك فيه وعند القوم: اليقين لا يساكن قلبا فيه سكون إلى غير الله وقال ذو النون: اليقين

يدعو إلى قصر الأمل وقصر الأمل يدعو إلى الزهد والزهد يورث الحكمة وهي تورث النظر في العواقب قال: وثلاثة من أعلام اليقين: قلة مخالطة الناس في العشرة وترك المدح لهم في العطية والتنزه عن ذمهم عند المنع وثلاثة من أعلامه أيضا: النظر إلى الله في كل شيء والرجوع إليه في كل أمر والاستعانة به في كل حال وقال الجنيد: اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ولا يتغير في القلب وقال ابن عطاء: على قدر قربهم من التقوى أدركوا من اليقين

(203/725)

وأصل التقوى مباينة النهي وهو مباينة النفس فعلى قدر مفارقتهم النفس: وصلوا إلى اليقين وقيل: اليقين هو المكاشفة وهو على ثلاثة أوجه: مكاشفة في الأخبار ومكاشفة بإظهار القدرة ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان ومراد القوم بالمكاشفة: ظهور الشيء للقلب بحيث يصير نسبته إليه كنسبة المرئي إلى العين فلا يبقى معه شك ولا ريب أصلا وهذا نهاية الإيمان وهو مقام الإحسان وقد يريدون بها أمرا آخر وهو ما يراه أحدهم في برزخ بين النوم واليقظة عند أوائل تجرد الروح عن البدن ومن أشار منهم إلى غير هذين: فقد غلط ولبس عليه وقال السري: اليقين سكونك عند جولان الموارد في صدرك لتيقنك أن

حركتك فيها لا تنفعك ولا ترد عنك مقضيا وقال أبو بكر الوراق: اليقين ملاك القلب وبه كمال الإيمان وباليقين عرف الله وبالعقل عقل عن الله وقال الجنيد : قد مشى رجال باليقين على الماء ومات بالعطش من هو أفضل منهم يقينا وقد اختلف في تفضيل اليقين على الحضور والحضور على اليقين فقيل: الحضور أفضل لأنه وطنات واليقين خطرات وبعضهم رجح اليقين وقال: هو غاية الإيمان والأول: رأى أن اليقين ابتداء الحضور فكأنه جعل اليقين ابتداء والحضور دواما وهذا الخلاف لا يتبين فإن اليقين لا ينفك عن الحضور ولا الحضور عن

اليقين بل في اليقين من زيادة الإيمان ومعرفة تفاصيله وشعبه وتنزيلها منازلها : ما ليس في الحضور فهو أكمل منه من هذا الوجه وفي الحضور من الجمعية وعدم التفرقة والدخول في الفناء : ما قد ينفك عنه اليقين فاليقين أخص بالمعرفة والحضور أخص بالإرادة والله أعلم وقال النهرجوري: إذا استكمل العبد حقائق اليقين صار البلاء عنده نعمة والرخاء عنده مصيبة وقال أبو بكر الوراق: اليقين على ثلاثة أوجه: يقين خبر ويقين دلالة ويقين مشاهدة يريد بيقين الخبر: سكون القلب إلى خبر المخبر ووثقة به وبيقين الدلالة: ما هو فوقه: وهو

أن يقيم له مع وثوقه بصدقه الأدلة الدالة على ما أخبر به وهذا كعامة أخبار الإيمان والتوحيد والقرآن فإنه سبحانه مع كونه أصدق الصادقين يقيم لعباده الأدلة والأمثال والبراهين على صدق أخباره فيحصل لهم اليقين من الوجهين: من جهة الخبر ومن جهة الدليل

فيرتفعون من ذلك إلى الدرجة الثالثة وهي يقين المكاشفة بحيث يصير المخبر به لقلوبهم كالمرئي لعيونهم فنسبة الإيمان بالغيب حينئذ إلى القلب: كنسبة المرئي إلى العين وهذا أعلى أنواع المكاشفة وهي التي أشار إليها عامر بن عبد قيس في قوله: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا وليس هذا من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من قول علي كما يظنه من لا علم له بالمنقولات وقال بعضهم: رأيت الجنة والنار حقيقة قيل له: وكيف قال: رأيتهما بعيني رسول الله صلى الله عليه وسلم ورؤيتي لهما بعينيه: آثر عندي من رؤيتي لهما بعيني فإن بصري قد يطغى ويزيغ بخلاف بصره واليقين يحمله على الأهوال وركوب الأخطار وهو يأمر بالتقدم دائما فإن لم يقارنه العلم: حمل على المعاطب والعلم يأمر بالتأخر والإحجام فإن لم يصحبه اليقين قعد بصاحبه عن المكاسب والغنائم والله أعلم

فصل قال صاحب المنازل رحمه الله اليقين: مركب الآخذ في هذا الطريق

وهو غاية درجات العامة وقيل: أول خطوة للخاصة لما كان اليقين هو الذي يحمل السائر إلى الله كما قال أبو سعيد الخراز: العلم ما استعملك واليقين ما حملك سماه مركبا يركبه السائر إلى الله فإنه لولا اليقين ما سار ركب إلى الله ولا ثبت لأحد قدم في السلوك إلا به وإنما جعله آخر درجات العامة: لأنهم إليه ينتهون ثم حكى قول من قال: إنه أول خطوة للخاصة يعني: أنه ليس بمقام لهم وإنما هو مبدأ لسلوكهم فمنه يبتدئون سلوكهم وسيرهم وهذا لأن الخاصة عنده سائرون إلى عين الجمع والفناء في شهود الحقيقة لا تقف بهم دونها همة ولا يعرجون دونها على رسم فكل ما دونها فهو عندهم من مشاهد العامة ومنازلهم ومقاماتهم حتى المحبة وحسبك بجعل اليقين نهاية للعامة وبداية لهم قال: وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى: علم اليقين وهو قبول ما ظهر من الحق وقبول ما غاب للحق والوقوف على ما قام بالحق ذكر الشيخ رحمه الله في هذه الدرجة ثلاثة أشياء هي متعلق اليقين وأركانه الأولى: قبول ما ظهر من الحق تعالى والذي ظهر منه سبحانه: أوامره ونواهيه وشرعه ودينه الذي ظهر لنا منه على ألسنة رسله فنتلقاه بالقبول

(206/725)

والانقياد والاذعان والتسليم للربوبية والدخول تحت رقع العبودية الثاني: قبول ما غاب للحق وهو الإيمان بالغيب الذي أخبر به الحق سبحانه على لسان رسله من أمور المعاد وتفصيله والجنة والنار وما قبل ذلك: من الصراط والميزان والحساب وما قبل ذلك: من تشقق السماء وانفطارها وانتثار الكواكب ونسف الجبال وطي العالم وما قبل ذلك: من أمور البرزخ ونعيمه وعذابه فقبول هذا كله إيمانا وتصديقا وإيقانا هو اليقين بحيث لا يخالج القلب فيه شبهة ولا شك ولا تناس ولا غفلة عنه فإنه إن لم يهلك يقينه أفسده وأضعفه الثالث: الوقوف عل ما قام بالحق سبحانه من أسمائه وصفاته وأفعاله وهو علم التوحيد الذي أساسه: إثبات الأسماء والصفات وضده: التعطيل والنفي والتجهم فهذا التوحيد يقابله التعطيل وأما التوحيد القصدي الإرادي الذي هو إخلاص العمل لله وعبادته وحده: فيقابله الشرك والتعطيل شر من الشرك فإن المعطل جاحد للذات أو لكمالها وهو جحد لحقيقة الإلهية فإن ذاتا لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم ولا ترضى ولا تغضب ولا تفعل شيئا وليست داخل العالم ولا خارجه ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة ولا مجانية له ولا مباينة له ولا مجاورة ولا مجاوزة ولا فوق العرش ولا تحت العرش ولا خلفه ولا أمامه ولا عن يمينه ولا عن يساره: سواء هي والعدم والمشرك مقر بالله وصفاته لكن عبد معه غيره فهو خير من المعطل للذات والصفات

فاليقين هو الوقوف على ما قام بالحق من أسمائه وصفاته ونعوت كماله وتوحيده وهذه

الثلاثة أشرف علوم الخلائق: علم الأمر والنهي وعلم الأسماء والصفات والتوحيد وعلم المعاد واليوم الآخر والله أعلم

فصل قال: الدرجة الثانية: عين اليقين وهو المغني بالاستدلال عن

(207/725)

الاستدلال وعن الخبر بالعيان وخرق الشهود حجاب العلم الفرق بين علم اليقين وعين اليقين: كالفرق بين الخبر الصادق والعيان وحق اليقين: فوق هذا وقد مثلت المراتب الثلاثة بمن أخبرك: أن عنده عسلا وأنت لا تشك في صدقه ثم أراك إياه فازددت يقينا ثم ذقت منه فالأول: علم اليقين والثاني: عين اليقين والثالث: حق اليقين فعلمنا الآن بالجنة والنار: علم يقين فإذا أزلفت الجنة في الموقف للمتقين وشاهدها الخلائق وبرزت الجحيم للغاوين وعاينها الخلائق فذلك: عين اليقين فإذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار: فذلك حينئذ حق اليقين قوله: هو المغني بالاستدلال عن الاستدلال

يريد بالاستدلال: الإدراك والشهود يعني صاحبه قد استغنى به عن طلب الدليل فإنه إنما يطلب الدليل ليحصل له العلم بالمدلول فإذا كان المدلول مشاهدا له وقد أدركه بكشفه فأي حاجة به إلى الاستدلال وهذا معنى الاستغناء عن الخبر بالعيان وأما قوله: وخرق الشهود

حجاب العلم فيريد به: أن المعارف التي تحصل لصاحب هذه الدرجة: هي من الشهود الخارق لحجاب العلم فإن العلم حجاب عن الشهود ففي هذه الدرجة يرتفع الحجاب ويفضي إلى المعلوم بحيث يكافح بصيرته وقلبه مكافحة

فصل قال: الدرجة الثالثة: حق اليقين وهو إسفار صبح الكشف ثم الخلاص من كلفة اليقين ثم الفناء في حق اليقين

(208/725)

اعلم أن هذه الدرجة لا تنال في هذا العالم إلا للرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فإن نبينا صلى الله عليه وسلم رأى بعينه الجنة والنار وموسى عليه السلام سمع كلام الله منه إليه بلا واسطة وكلمه تكليما وتجلى للجبل وموسى ينظر فجعله دكا هشيما نعم يحصل لنا حق اليقين من مرتبة وهي ذوق ما أخبر به الرسول من حقائق الإيمان المتعلقة بالقلوب وأعمالها فإن القلب إذا باشرها وذاقها صارت في حقه حق يقين وأما في أمور الآخرة والمعاد ورؤية الله جهرة عيانا وسماع كلامه حقيقة بلا واسطة فحظ المؤمن منه في هذه الدار: الإيمان وعلم اليقين وحق اليقين: يتأخر إلى وقت اللقاء ولكن لما كان السالك عنده ينتهي إلى الفناء ويتحقق شهود الحقيقة ويصل إلى عين الجمع قال: حق اليقين: هو إسفار

يعنى: تحققه وثبوته وغلبة نوره على ظلمة ليل الحجاب فينتقل من طور العلم إلى الاستغراق في الشهود بالفناء عن الرسم بالكلية وقوله: ثم الخلاص من كلفة اليقين يعني: أن اليقين له حقوق يجب على صاحبه أن يؤديها ويقوم بها ويتحمل كلفها ومشاقها فأذا فني في التوحيد حصل له أمور أخرى رفيعة عالية جدا يصير فيها محمولا بعد أن كان حاملا وطائرا بعذ أن كان سائرا فتزول عنه كلفة حمل تلك الحقوق بل يبقى له كالنفس وكالماء للسمك وهذا أمر التحكم فيه إلى الذوق والإحساس فلا تسرع إلى إنكاره وتأمل حال ذلك الصحابي الذي أخذ تمراته وقعد يأكلها على حاجة وجوع وفاقة إليها فلما عاين سوق الشهادة قد قامت ألقى قوته من يده وقال: إنها لحياة طويلة إن بقيت حتى آكل هذه التمرات وألقاها من يده وقاتل حتى قتل وكذلك أحوال الصحابة رضي الله عنهم كانت مطابقة لما أشار إليه

(209/725)

ولكن بقيت نكتة عظيمة وهي موضع السجدة وهي أن فناءهم لم يكن في توحيد الربوبية وشهود الحقيقة التي يشير إليها أرباب الفناء بل في توحيد الإلهية ففنوا بحبه تعالى عن حب ما سواه وبمراده منهم عن مرادهم وحظوظهم فلم يكونوا عاملين على فناء ولا إلا استغراق

في الشهود بحيث يفنون به عن مراد محبوبهم منهم بل قد فنوا بمراده عن مرادهم فهم أهل بقاء في فناء وفرق في جمع وكثرة في وحدة وحقيقة كونية في حقيقة دينية

هم القوم لا قوم إلا هم . . . ولولاهم ما اهتدينا السبيلا

فنسبة أحوال من بعدهم الصحيحة الكاملة إلى أحوالهم: كنسبة ما يرشح من الظرف والقربة إلى ما في داخلها وأما الطريق المنحرفة الفاسدة: فسبيل غير سبيلهم والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 406.397 ﴾

(210/725)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى وعد)

الوَعْدُ يُسْتعمل فى الخَيْر والشرّ .

قال الفرّاءُ : يُقال وَعَدْتُه خَيْراً ووَعَدْتُه شَرّاً ، قال القطامى :

*أَلاَ عَلِّلاَنِى كُلُّ حَىٍّ مُعَلَّلُ * ولا تَعِدانِى الشَرَّ والخَيْر مُقْبِلُ*

والعِدَةُ : الوَعْدُ ، وفى الحديث : "العِدَةُ عَطِيَّة" ، و "العِدَةُ دَيْن" قال الرّاعى يمدح سَعِيدَ بنَ العاص :

*وأَنْضاءٍ أَنَخْنَ إلى سَعِيدٍ * طُرُوقاً ثُمَّ عَجَّلْن ابْتِكارَا *

*على أَكْوارِهنَّ بَنُو سَبِيل * قليلٌ نومُهم إلاَّ غِرارَا *

*حَمَدْنَ مَزارَهُ فلَقِينَ منهُ * عَطاءً لم يكنْ عِدَةً ضِمارَا *

والمَوْعِدَةُ ، والمِيعاد : المُواعَدَة ، والوَقْت ، لأَنَّ ما كان فاءُ الفعل منه واواً أَو ياءً ثمَّ سَقَطَتا فى المستقبل مثل يَعِدُ ويَزِنُ ويَهَبُ ، ويَضَعُ ، ويَئِل ، فإِنَّ المَفْعِل منه مكسورٌ فى الاسم والمصدر جميعاً ، ولا تُبالى مفتوحاً كان يَفْعل منه أَو مكسوراً بعد أَن تكون الواوُ منه ذاهبة ، إلاَّ أسماء / جاءَت نوادِرَ ، والقياس الكسر .

فإِن كانت الواو من يَفْعَل ثابتة نحو يَوْجَل ويَوْجَعُ ويَوْسَنُ ففيه الوجهان ، فإِن أردت به المكان أَو الاسم كَسَرْت ، وإِن أردتَ به المصدرَ فتحتَ ، فقلت : مَوْجَل ومَوْجِل .

وقوله تعالى : ﴿ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ ﴾ قال مجاهد : عَهْدك ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَخْلَفْتُمْ مَّوْعِدِي ﴾ أَى عهدى .

وقوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، رِزْقكم : المطر ، وما تُوعَدُون : الجَنَّة .

وقوله تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾ أَى يَخوِّفكم به فيَحمِلكم على مَنْع الزَكَوات .

قال الفرّاءُ : إذا أَسْقَطُوا الخيرَ والشرَّ قالوا فى الخَيْر : المَوْعِد والعِدَة ، وقالوا فى الشرّ : الوَعِيدُ والإِيعاد .

قال عامِر بن الطُّفَيْل :

(211/725)

---

*ولا يَرْهَبُ ابنُ العَمّ ما عشت صَوْلَتِى * ولا أَخْتَتِى من صَوْلَة المُتَهَدّدِ*

*وإِنّى وإِن أَوْعَدْتُه أَو وَعَدْتُه *

لَمُخْلِفُ إِيعادِى ومُنْجِزُ مَوْعِدِى*

وتَواعدَ القومُ : وَعَد بعضُهم بعضاً فى الخَيْر ، وأَمّا فى الشرّ فيقال اتَّعد : ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ .

وقال تعالى فى الوَعْد بالخير : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ .

ومن الوعد بالشرّ قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ .

وممّا يتضمّن الأَمرَيْن جميعاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

فهذا وعدٌ بالقيامة وجَزاء العِباد إِنْ خَيْراً فَخيْرٌ وإِنْ شَرّاً فشرٌّ .

والمُواعَدَة معروفة ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَاكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ أَى نِكاحاً ، وقال :

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ ، ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً ﴾ فثلاثين وأَرْبَعِين مفعولٌ لا ظرف ، أَى انقضاءَ ثلاثين .

قال الزجّاج : كان من الله الأَمر ومن موسى القَبولُ ، فلذلك ذكر بلفظ المُفاعَلَة .

وقرأَ أَبو عَمْرٍو وأَهلُ البصرة : وَعَدْنا من الوَعْد .

وقال تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ ﴾ وقوله : ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ يعنى القِيامَة ، كقوله تعالى : ﴿ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ .

ومن الإِيعاد قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ أَى أَوْعَدْت مَن عَصانى من العَذاب .

قال ابن عباس قالوا يا رَسُولَ الله لَوْ خَوَّفْتَنا فنزلت : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ .

(212/725)

فقولُه : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ تفسيرٌ للوَعْد ، كما أَنَّ قوله : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ تفسيرٌ للوَصِيَّة .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ فقولُه : أَنَّها لكم بدلٌ من إِحدَى الطَّائفتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 237 . 239 ﴾

(213/725)

بحث نفيس بعنوان :

المعجزات الموجودة في أجسامنا

للأستاذ : هارون يحيى .

0- نبذة عن الكاتب

من هو هارون يحيى ؟

ولد عدنان أوكطار في أنقرة عام 1956 ، وهو يعتبر من رجال الفكر البارزين في تركيا . ويولي عدنان أوكطار أهمية كبيرة للقيم الوطنية والأخلاقية، ويرى أن تبليغ هذه القيم المقدسة إلى الآخرين يعد رسالة إنسانية . وقد بدأ صراعه الفكري منذ عام 1979 عندما كان طالبا في كلية الفنون الجميلة جامعة المعمار سنان . وطوال فترته الدراسية كانت الفلسفات والإيديولوجيات المادية هي المسيطرة على الساحة من حوله . وفي هذا المناخ قام بأبحاث مفّصلة حول تناقضات هذه الإيديولوجيات، و توصل في النهاية إلى أن

الداروينية القائمة على نظرية "النشوء والارتقاء" هي التي تمثل تهديدا حقيقيا لقيمنا الوطنية واللأخلاقية ، وهي الأساس الذي بنيت عليه الإيديولوجيات المدّمرة، فأعدّ لذلك مجموعة من الكتب بيّن فيها الكوارث التي جلبتها هذه النظرية على تركيا والعالم، وأجاب فيها بشكل علمي على إدّعاءاتها الواهية وفضح تناقضاتها الصارخة .

وقد نشرت مجلة " New Scientist " في عددها الصادر في 22 أبريل 2000 مقالا ذكرت فيه أنّ عدنان أوكطار أصبح " بطلا عالميا " بفضل كشفه لزيف نظرية التطور وإثباته بالبراهين و الحجج لحقيقة الخلق . وقد ركز الكاتب في مؤلفاته كذلك على موضوعي الماسونية والصهيونية لما لهما من تأثير سلبي على تاريخ الإنسانية و السياسة العالمية . هذا , و قد ألف عدنان أوكطار كتبا دينية أخرى في مواضيع مختلفة مثل الإيمان والخلق القرآني ، وقد تجاوز عددها المائة كتاب .

(214/725)

استعمل عدنان أوكطار الاسم المستعار "جاويد يالجن" في بعض كتبه، ولكن القسم الأكبر منها نشره بالاسم المستعار هارون يحيى . وهذا الاسم المستعار " يتكون من اسمي نبيين كريمين في إشارة إلى ذكرى النبي هارون و النبي يحيى عليهما السلام اللّذيْن ناضلا ضد

أفكار الإلحاد والجحود " .

وأما خَتْمُ النبيّ عليه الصلاة والسلام الذي وضعه الكاتب على غلاف جميع كتبه فهو يشير إلى محتويات هذه الكتب وهو يرمز إلى أنّ القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية و أنّ النبي صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء . وسعى المؤلف في جميع كتبه إلى أن يكون القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما النبراس الذي يتحرك على ضوئه، وكان هدفه دائما هو زعزعة الأسس التي قامت عليها النظم الفكرية التي تتّسم بالإنكار والجحود ونقضها الواحدة تلو الأخرى وإسكاتها بتبين "كلمة الفصل" . وقد استعملَ ختم الرسول محمد صلى الله عليه و سلم –صاحب الحكمة والكمال– تبركا به ودلالة على أن رسالته هي الرسالة الخاتمة .

والهدف الثابت في جميع مؤلفات الكاتب هو إيصال رسالة القرآن إلى كافة الناس، وبالتالي دفعهم إلى التفكير في وجود الله تعالى ووحدانيته وتنبيههم إلى عاقبة المصير في الآخرة، وهي من القواعد الإيمانية الأساسية في القرآن .

يوجد إقبال كبير على قراءة كتب هارون يحيى في دول كثيرة من العالم، من الهند إلى أمريكا ، ومن إنجلترا إلى إندونيسيا ومن بولونيا إلى البوسنة وأسبانيا والبرازيل . وقد تمت ترجمة هذه الكتب إلى أغلب اللغات العالمية مثل الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية والأردية والعربية والألبانية والروسية والبوسنية والإيغورية

والإندونيسية وغيرها من اللغات . وقد أصبح هناك مُتابعون كثيرون ,في شتى أنحاء العالم, يَحرصون على قراءة كل كتاب جديد ينتجه المؤلف

(215/725)

وكانت هذه المؤلفات التي تلقى تقديرا منقطع النظير في أرجاء الأرض كلها وراء إيمان الكثير من الناس ، أو سببا في تثبيت إيمان عدد كبير آخر منهم . وكل شخص يقرأ هذه الكتب ويتأمل فيها يشعر بوقعها عليه ويتوصل بكل يسر إلى الحكمة البالغة التي هي ميزتها ويحسّ بحلاوة العمق الإيماني الكامن فيها ويتمتع بجمال أسلوبها ويقتنع بصدق مضمونها . ومن خصائصها أيضا سرعة تأثيرها في القلوب والعقول و ذلك لصحة ما جاء فيها فلا يمكن دحضها أوإبطالها . ويحتوي كل كتاب من هذه الكتب على حقائق دامغة مدعّمة بقوة الدليل فلا يمكن لأحد أن ينكرها . و يعطينا ذلك فكرة على ما يتمتّع به الكاتب من كمال الحكمة و رجاحة العقل و صدق الإيمان , نعم منّها الله عزّ و جل عليه ,فوّضفها بإخلاص مثالي و تفاني لا هوادة له و تضحيات مستمرة لكشف الحقائق الإلهية في الخلق وإذا جعلنا هذه الحقائق نصب أعيننا ، يصبح الحث على قراءة هذه الكتب وإيصالها إلى الآخرين لهدايتهم وتبصّرهم بالحق خدمة من أعظم الخدمات .

وللأسف، فبدل التعريف بهذه الكتب القيّمة يعمد بعض الناس إلى ترويج كتب لا تحمل أية فائدة، بل وتبث البلبلة والشكوك في العقول . وعلى هؤلاء الأشخاص أن يفكروا في حال المسلمين وفي البلاء الذي يجلبونه لهم . فلا حلّ للظلم الذي يتخبّط فيه العالم والفتن المنتشرة في كل مكان سوى الإلتزام بأخلاق القرآن الكريم ونشرها بين جميع الناس . وبفضل الله تعالى فإنّ مؤلفات الكاتب عدنان أوكتار تقوم بهذه الخدمة العظيمة، وبإذن الله تعالى سوف تكون، خلال القرن الواحد والعشرين وسيلة لإيصال الطمأنينة والسلام والصدق والعدل والجمال والسعادة إلى كافة الناس كما حثّ على ذلك القرآن الكريم .

.

.

.

0- المدخل

(216/725)

هلم معا أعزائي الأطفال للقيام برحلة في عالم مليء بالمعجزات، عالم يحتوي على الكثير مما يستوجب منكم معرفته والاطلاع على أسراره، وربما كان هذا العالم غير لافت

لانتباهكم، ولكن ينبغي أن تعرفوا بأن هذا العالم يعمل فيه تريليون من العمال دون توقف .

نعم تريليون من العمال، ولا تندهشوا من ضخامة هذا الرقم لأن العالم الذي نقصده ليس إلا خلايا أجسامكم التي تعمل من أجلكم . فكل جزء من أجزاء الجسم يتألف من هذه الخلايا . و تمارس هذه الخلايا وظائفها دون توقف، حتى وأنتم تقرأون هذا النص . فخلايا العين تؤدي وطائفها دون توقف كي نستطيع تمييز الكلمات التي نقرأها ، وكذلك خلايا اليدين حيث تؤدي وظائفها لكي نستطيع الإمساك بالكتاب الذي نقرأه .

وتؤدي خلايا المجاري التنفسية والرئتين وظائفها كي تتحقق عملية التنفس . وتؤدي خلايا المعدة في الوقت نفسه وظائفها لإتمام هضم الأغذية التي تناولتموها قبل ساعات .

وخلايا جسمنا تحت المجهر

خلية بصرية :

خلية عصبية:

خلية دموية:

إن الأمثلة التي ذكرناها ما هي إلا بعض من الوظائف التي تؤدى في أجسامكم على مدار الساعة دون توقف، إلا أنها تجري دون أن نشعر بحدوثها . تُرى، كيف استطاعت هذه التريليونات من الخلايا أن تتجمع مع بعض البعض ؟ وكيف استطاعت أن تعرف وظيفتها المتخصصة ؟ و كيف استطاعت أن تنسق فيما بينها من ناحية أداء الوظائف ؟ كيف

تحدث هذه الوظائف دون خلل أو خلط بينها ؟

وبمعنى آخر كيف لا تقوم أية خلية من خلايا الجسم بأداء وظيفة خاصة بخلية أخرى ؟ و لا تعترض أية خلية على أداء وظيفتها المتخصصة ؟ وفوق ذلك تجري جميع هذه الوظائف في أجسامنا و بسرعة مذهلة .

(217/725)

وسوف نرى معا عند تناولنا للوظائف الجسمية كالهضم والتنفس والرؤية والسمع مدى كونها ظواهر حياتية خارقة للغاية . وسوف نكتشف أيضا كيفية سلوك خلايا أجسامنا أثناء أدائها لهذه الوظائف سلوكا شبيها بالمهندس أحيانا وبالكيميائي أحيانا أخرى، وبالذي يعرف احتياجات غيره من الخلايا و يعمل عل توفيرها .

إنّ هذه الوظائف جميعا يتم القيام بها من قبل خلايا لا ترى بالعين المجردة، وهذا أمر محير للعقول فعلا، وبالإضافة إلى ذلك تؤدي هذه الخلايا وظائفها المذكورة دون أي مساعدة من جهة أخرى، ودون أن ترتكب أي خطأ .

والخلايا ليست كائنات مثلنا نحن، وهي لا تستطيع أن ترى بعضها البعض ولا أن تسمع ولا أن تقرر، فهي عديمة العقل والبصر و السمع، ولكنها كما سنرى لاحقا تستطيع تمييز

المركبات الكيميائية والحال أنها لم تتلق أي تعليم في مادة الكيمياء . فهي تستطيع إنتاج المواد المختلفة نسبة إلى هذه المركبات الكيميائية، وكذلك تستطيع تمييز هذه الظواهر الفيزيائية وهي كذلك لم تتلقّ أي تعليم في مادة الفيزياء . وبالرغم من ذلك تقوم هذه الخلايا بتعيين نسبة الضوء الداخلة إلى العين، وبالتالي تمكّننا من رؤية الأشياء . ونحن نسأل أنفسنا كيف تستطيع هذه الخلايا إنجاز جميع هذه الوظائف ؟

سيتبين لنا في الصفحات القادمة أن كل هذه الوظائف المحيرة لا تؤديها الخلايا بمحض إرادتها ، وربما أدركتم استحالة تعلمها لأداء هذه الوظائف بمرور الوقت و عن طريق المصادفة .

ونحن نستطيع العيش بفضل هذه الوظائف التي تقوم بها خلايا لا ترى بالعين المجردة . و تقودنا هذه الحقائق إلى أمر مهم . إن ثمة عقلا مدبرا و خارقا علّم الخلايا و ألهمها أداء هذه الوظائف، وصاحب هذا العقل المدبر الخارق هو الله سبحانه وتعالى الذي يحبنا ويعلم سرنا وعلانيتنا . وهو الذي صور كل شيء فأحسن تصويره .

تستطيع التريليونات من الخلايا الموجودة في أجسامنا أداء وظائفها المختلفة دون نقص أو خلل، وكل ذلك نتيجة المخطط الإلهي الخارق الذي ينظم عملها . لذلك نستطيع نحن كبشر أن نستمر في الحياة دون أية صعوبة . فاستيقاظكم من النوم وتناولكم لفطور الصباح وتذوقكم للعسل أو حتى لعبكم خارج البيت أو قراءتكم لكتاب ما لا يحدث إلا برحمة الله عز وجل .

تجري داخل كل خلية من خلايا أجسامنا فعاليات حيوية أكثر بكثير مما يجري داخل المختبرات التي ترى في الصورة إلى الأسفل .

فالله عز وجل هو الذي خلقنا وهيأ لنا من أسباب الحياة ما نحتاجه بالفعل، لذلك علينا أن نشكره ونحمده على النعم التي أنعم بها علينا ، وعلينا كذلك التفكر بعمق في هذه النعم والتأمل مليا في الآيات التي احتوى عليها القرآن الكريم، ذلك الكتاب الذي أنزله الله عزوجل ليكون هدى و رحمة للعالمين:

يري في الصورة محتويات الخلية، وفي مركز الخلية ترى النواة . أما ما حولها فهي باقي محتويات الخلية ذات الوظائف المختلفة .

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالفُلْكِ التِي تَجْرِي بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَى بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الآية

164- سورة البقرة)

وسنطلع معا عبر هذا الكتاب على أهم المعلومات المتعلقة بأجسامنا ، وسوف ندرك كيف أن الله تعالى خلق أجسامنا على أحسن صورة . وبعد قراءتكم للكتاب أعزائي الأطفال، سيزداد حبكم لله عز وجل وشكركم له سبحانه، وستزداد رغبتكم في إفهام من حولكم من الذين لا يفكرون فيما تعلمتموه من خلال اطلاعكم على ما في هذا الكتاب

.

.

.

0- الخلية ذلك المصنع العملاق الذي لا يُرى بالعين المجرة

(219/725)

لقد بينا في بداية الكتاب أن أجسامنا تتألف من تريليونات الخلايا ، إلا أن هذه المعلومة لا ينبغي أن نمر عليها سريعا لأن التريليون عدد ضخم جدا . فجسم كل إنسان يتألف من مئة تريليون خلية تقريبا . ولكن بسبب صغر حجم هذه الخلايا لا تكون أجسامنا ضخمة . وسنتوصل بعد إيراد المثال التالي إلى مدى صغر الخلايا التي نتحدث عنها . فلو جمعنا

مليون خلية من هذه الخلايا في مكان واحد لأصبح حجمها بقدر رأس الإبرة تقريبا .

وبالرغم من هذا الصغر فإن العلم لم يتوصل بالضبط إلى طبيعة تركيب الخلية . فلا يزال العلماء يبذلون جهودهم الحثيثة لمعرفة أسرار تركيب الخلية .

فالخلية الأولى التي يتشكل منها الانسان هي تلك الخلية الناتجة من اتحاد خلية قادمة من الأب بخلية قادمة من الأم و داخل جسمها فهذه الخلية الأولى تبدأ بالانقسام دون توقف كي تشكل بمرور الوقت قطعة لحم أو مضغة . و من ثم تبدأ هذه الخلايا الجديدة التي تتشكل منها قطعة اللحم بالانقسام لتنتج خلايا جديدة . و بالتالي يبدأ جسم الانسان بالتشكل و اتخاذ شكله النهائي .

إنّ الخلايا التي ترى في الصورة إلى الأعلى تنقسم فيما بينها لتشكل في النهاية أنواعا شبيهة بالتي توجد في الأسفل .

وكل خلية جديدة ناتجة من الانقسام تتخذ شكلا جديدا . فبعضها يغدو خلية من خلايا الدم والبعض الآخر يتحول إلى خلايا العظم وأخرى إلى خلايا عصبية مثلا . فأجسامنا تحتوي على مئتي نوع مختلف من الخلايا . وفي الحقيقة فإن هذه الأنواع كلها تتألف من التراكيب الأساسية نفسها . ولكنها تؤدي وظائف مختلفة عن بعضها البعض . فعلى سبيل المثال تساعدنا الخلايا العضلية في سيقاننا على المشي والجري والعدو .

إن الأسلاك التي ترى في الصورة هي من صنع خبراء مهرة، أي أنها نتاج لتصميم مسبق .

وهذه الخلايا العضلية، كما تبدو في الصورة إلى الجانب على هيئة حبال طولية منسوجة نسجا . وبسبب تكوينها هذا لا تتقطع عندما تتوتر بشدة خلال التحرك سواء أكانت عضلات في السيقان أو الأذرع . أما خلايا الدم الحمراء فذات شكل قرصي و وظيفتها حمل الأوكسيجين اللازم إلى كافة أنحاء الجسم عبر الأوعية الدموية، وبواسطة هذا الشكل القرصي تستطيع هذه الخلايا الحركة داخل الأوعية الدموية وهي محملة بالأوكسجين . أما خلايا الجلد فهي متصلة ببعضها البعض جنبا إلى جنب، ومن ثم لا يسمح الجلد بمرور الماء أو الجراثيم إلى داخل أجسامنا .

وعلى المنوال نفسه تكون الأنواع الأخرى من الخلايا ذات أشكال تتناسب مع طبيعة وظائفها ، ولكن هذه الأشكال المختلفة لم تحدث أو تتكون بمحض المصادفة طبعا ، فلا بد أن يكون هناك من صمم هذه الخلايا بهذه الأشكال وجعلها على ذلك النحو من التراكيب المختلفة لكي تؤدي وظائفها المتخصصة .

فالفنيون في مصنع ما هم الذين يخططون ويضعون التصميمات لصنع الآلات . فالسيارات التي تحمل الركاب والتلفزيونات التي تنقل الصوت والصورة معا تُصمم وتُصنع كي تؤدي هذه

المهام . وهذه الحقيقة ليست لازمة في صنع هذه المكائن فقط، بل في كل شيء نستخدمه كالمنضدة والكرسي والمبنى الذي نسكن فيه والقلم الذي نكتب به وكذلك الملعقة التي نأكل بها . . . إلخ

فكل هذه الأشياء ظهرت نتيجة تصميم سابق، فكل واحد منها نتج عن تفكير وتخطيط مسبق لكل تفصيل من التفاصيل اللازمة للاستخدام الأمثل . ولا يوجد محل للمصادفة أبدا في هذا الأمر . وتعلمون يقينا ضرورة وجود عقل مدبر مفكر يضع هذه التصاميم ومن ثم يقوم بإنتاج ما احتوت عليه هذه التصاميم .

(221/725)

عند هذا الحد نتوصل إلى كون خلايا أجسامنا أكثر تعقيدا من أجهزة التفزيون أو غيرها من ناحية التركيب والوظيفة . وبالإضافة إلى هذا فإن الخلايا تتميز بكونها حية على عكس الأجهزة التي تحدثنا عنها . وكما أوضحنا في السطور السابقة، لا يزال العلماء يبذلون جهودهم الحثيثة لمعرفة أسرار هذه الخلايا .

فهلا فكرتم في كيفية ظهور هذه الخلايا الصغيرة جدا والتي لها من الميزات والصفات ما لم يكشف أسرارها العقل الإنساني بعد ؟

إن هذه الحقيقة تعكس أمرا مهما وهو أن هذه الخلايا ظهرت إلى الوجود من قبل صانع وخالق ذي عقل خارق، وصاحب هذا العقل الخارق هو الله عز وجل الذي خلقنا وسوانا في أحسن تقويم .

.

.

.

.

0- الشبكة العملاقة التي تلف أجسامنا

هل حصل وأن سألتم أنفسكم الأسئلة التالية:

هل ينبغي عليّ التنفس الآن ؟

هل أنّ الدم الذي يضخه قلبي ذو مقدار كاف بالنسبة إليّ ؟

ما هي كمية الطاقة التي تحتاجها أية خلية أو عضو في أجسامنا ؟

متى تبدأ معدتي في هضم الطعام الذي تناولناه ؟

ما هي العضلات التي ينبغي أن أحركها كي أحقق حركة ذراعي ؟

ربما بدت هذه الأسئلة غريبة بعض الشيء على أسماعنا لأنها أسئلة عادة ما تكون غير

واردة في أحاديثنا ، بل إن أغلبنا لا يعلم شيئًا عن هذه الأفعال التي تجري داخل أجسامنا لأن أجسامنا تنجز هذه الأعمال بصورة تلقائية .

(222/725)

ولأجل قيام أجسامنا بهذه الوظائف أو الأعمال تُستخدم الشبكة العصبية التي تلف أجسامنا ، وتتألف هذه الشبكة من اتصال تريليونات من الخلايا العصبية التي ترون صورتها على هذه الصفحة . ويمكننا تشبيه هذه الشبكة التي تلف أجسامنا بشبكة من الطرق البرية السريعة المُبيّنة على هذه الصفحة أيضا . وبواسطة هذه الشبكة يتم تحقيق الاتصال بين خلايا المخ و خلايا سائر أنحاء الجسم، وبالتالي تستطيع كافة خلايا الجسم تحقيق الاتصال فيما بينها . غير أن هذه الشبكة العصبية تختلف عن شبكة الطرق البرية باحتوائها على عدد هائل من نقاط الارتباط والمنعطفات، و هي كذلك تتميز بكونها ذات أطوال تقدر بكيلومترات عديدة .

ومثلما تتحرك السيارات أو المركبات على الطرق للانتقال من منطقة إلى أخرى تتحرك الإيعازات العصبية منتقلة بين أجزاء الشبكة العصبية، وتقوم هذه الإيعازات بنقل المعلومات والإشارات العصبية من منطقة إلى أخرى داخل الجسم .

ويتميز انتقال هذه الايعازات العصبية بسرعة مدهشة بحيث يصعب علينا تخيلها . وعلى سبيل المثال لو أردتم تقليص عضلة الذّراع، فعندئذ تصدر إشارة عصبية من المخ متبعة طريقا شائكا ، إذ تصل إلى العمود الفقري، ومن ثم تتوجه إلى العضو المناسب بسرعة هائلة، وبالتالي تبدأ عضلة الذراع في التقلص . وكل هذه الأعمال تحدث خلال جزء من الألف في الثانية . وإذا افترضنا أن رمشة العين تحدث خلال ثانية واحدة عندئذ نعرف مدى قصر الفترة الزمنية التي تحدث فيها العملية المذكورة .

(223/725)

ويبين لنا المثال السابق أن الإيعازات تصل إلى كافة أنحاء الجسم بواسطة الشبكة العصبية، ويبين لنا أيضا أن الإشارات العصبية بدورها تصل من كافة أنحاء الجسم إلى المخ بواسطة الشبكة نفسها . وتتدفق هذه الإشارات إلى المخ بسرعة هائلة دون توقف، أي أن هذه الإشارات تجري داخل الشبكة فتمكنا من أن نعيش حياتنا بصورة طبيعية . فعندما نرى شيئا أو نتذوقه أو نتناوله، وكذلك عندما نتكلم أو نفكر أو نجري أو عندما نمارس أي نشاط آخر يحدث كل ذلك بصورة فورية بمساعدة الشبكة العصبية، أو بالأحرى بواسطة التكوين المذهل للمخ والجهاز العصبي .

تصل إلى المخ وباستمرار معلومات من كافة أنحاء الجسم وذلك بواسطة شبكة من الأعصاب التي تنتشر في الجسم . ويتولى المخ دوره من خلال تأويل وتقسيم هذه المعلومات وإصدار التعليمات اللازمة . فرؤيتنا للأشياء أو سمعنا للأصوات وحتى قيامنا بالحركة هي ردود على المعلومات القادمة .

وتعمل الإشارات العصبية عملها الآن عندما تلمسون بأصابعكم الكتاب الذي بين يديكم، فالأعصاب الموجودة في رؤوس أصابع اليدين تنقل إلى المخ المعلومات المتعلقة بوزن الكتاب وبالتالي تقومون بحمل الكتاب بجهد متوازن مع ثقله، وعلى المنوال نفسه تصل الإشارات العصبية من العينين والأذنين والأنف والقدمين وسائر أنحاء الجسم .

ويقوم المخ بتأويل الإشارات القادمة وإصدار إيعازاته العصبية لسائر أجزاء الجسم ومن ثم تقوم هذه الأجزاء بممارسة مهامها على ضوء هذه الإيعازات . ولنفكر مليا مرة أخرى في كل ما استعرضناه، فهناك العديد جدا من الأفعال الحيوية تحدث في أجسامنا في وقت واحد .

فنستطيع مثلا قراءة كتاب وسماع الصوت في الشارع والإحساس بالقطة وهي تتمسح بأقدامنا وتذوق طعم عصير الفواكه الذي نتناوله وأمور أخرى تحدث في وقت واحد .

ترى ما الذي كان يحدث لو طُلب منكم السيطرة على كل تلك الأفعال ؟ من الطبيعي استحالة السيطرة على كل هذه الأفعال خلال ثانية أو ثانيتين، ولكن هذه السيطرة تتحقق بواسطة التناغم بين المخ وسائر أنحاء الجسم . وهذا يعكس مدى عظمة الإبداع الإلهي في خلق الأشياء . فالإشارات العصبية تردُ من الجسم إلى المخ، وبدوره يقوم بتأويلها ليصدر إيعازاته المناسبة المتوجهة إلى باقي أنحاء الجسم . وبهذا الشكل نستطيع تذوق الأطعمة أو الإحساس بالروائح ورؤية الأشياء و لمسها . ولكن هل يمكن للمخ الذي هو عبارة عن قطعة لحم لا يتجاوز وزنها 1.5 كغ أن يمارس مهامه تلك من تلقاء نفسه ؟ مستحيل طبعا فالمخ يقوم بالسيطرة الفورية والآنية على كل هذه الأفعال الحيوية بواسطة تركيبته الخارقة التي تعكس تجلي القدرة الإلهية في الخلق والإبداع

إذا حدَث وأن جاء أحد الأصدقاء خفية وصفّق بيديه أمام أحدكم فإن عينيه ترمشان بشكل تلقائي، فهذه الرمشة هي ردّ فعل تجاه حدث فجائي، وهي تعتبر خارج نطاق سيطرتنا . وسبب حدوث هذه الرمشة بهذا الشكل التلقائي يرجع إلى تدخل العمود الفقري للاستجابة الفورية عوضا عن المخّ . وهذه الاستجابة التلقائية هي إحدى النعم التي أنعم بها الله عز وجل علينا ، فهذه الحركة تحمينا من بعض المخاطر التي قد تصادفنا فجأة .

فعلى سبيل المثال، نقوم بسحب أيدينا تلقائيا حالما تمس قدحا من الماء الساخن . لذلك كانت هذه الاستجابة التلقائية آلية من عند الله عز وجل لحماية أجسامنا من المخاطر . فبواسطة هذه النعمة الإلهية تنتقل الإيعازات العصبية داخل الجسم بسرعة 9 كم في الثانية لتمارس دورها في حمايتنا من الأخطار .

.

.

.

.

0- كيف يؤدي المخ وظائفه ؟

(225/725)

يرى إلى الجانب خلية عصبية مع استطالاتها المتوجهة إلى جهات مختلفة . وتتصل بلايين الخلايا العصبية فيما بينها بواسطة هذه الاستطالات، وبالتالي تستطيع أن تنتشر على شكل شبكة في جميع أنحاء الجسم . وتتولد فراغات في مناطق اتصال الاستطالات . وتنتشر الإيعازات العصبية عبر هذه الفراغات .

لنفترض أن هناك لعبة أحجية تتضمن قطعها معلومات متعلقة بعالمنا الذي نعيش فيه . ولنقم بتفريق هذه القطع التي تحتوي على معلومات مختلفة كالضوء والألوان والأصوات، ولنمارس معا عملية تجميع هذه القطع تجميعا صحيحا . إنّ المخ يقوم بمثل هذه العملية مئات المرات خلال الثانية الواحدة، وذلك بالإلهام الإلهي . ولكن كيف يقوم المخ بكل ذلك ؟

إنّ المخ يستلم الإشارات العصبية من الأعضاء الحسية كالعينين والأذنين والأنف والفم والجلد . وبالتالي يقوم بتأويل هذه الإشارات للحصول على نتيجة معينة . وهناك عدد هائل من الخلايا العصبية في المخ يقدر بـ100 مليار خلية عصبية تقوم بتأويل الإشارات، فهذه الخلايا تعمل على الدوام كي نستطيع مثلا تمييز لون التفاح الذي نأكله و تمييز صوت أحد الأصدقاء أو حتى تمييز رائحة البطاطس المقلية .

يُرى في الصورة على الصفحة المقابلة أحد الأطفال وهو يشم، والآخر وهو يتكلم وطفل آخر يسمع والآخر يتحرك والآخر ينام . وهذه الصورة خيالية بالطبع وتبين أن كل بقعة في المخ تتولى وظيفة معينة خاصة بها . وفي الحقيقة إن الذي يظهر من المخ تحت المجهر هو الخلايا العصبية المكونة له . ولكن هل تعتقدون أعزائي الأطفال أن هذه الخلايا تستطيع أن ترى أحب لعبة إلى قلوبكم أو أن تتذوق الأيس كريم بالشيكولاتة ؟ بالطبع لا، لأن الخلايا

العصبية ليست سوى قطعة لحم صغيرة جدا على شكل خيطي رفيع . إذن ينبغي أن يكون هناك خالق لهذا العالم الجميل الذي نعيش فيه .

(226/725)

إن هذا الخالق هو الله سبحانه وتعالى، فهو مالك كل شيء وخالق كل شيء، وعلينا إزاء هذه النعم أن نشكره ونحمده حقّ حمده . وقد بين سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ضرورة حمده وشكره على نعمائه، ومن بين أقرب تلك النعم عيوننا وآذاننا :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ) (المؤمنون: 78)

.

.

.

.

0- رحلة الطعام الذي نتناوله داخل أجسامنا

إن الطاقة اللاّزمة لأجسامنا نوفرها عن طريق ما نتناوله من مأكل ومشرب، فالمقرونة أو اللحم أو الموز الذي نتناوله ينبغي هضمه أولاً كي يصبح صالحا للاستخدام . فالمواد

الغذائية المهضومة تغدو صالحة للاستخدام من قبل خلايا الجسم . فالسّكر الموجود في التفاح أو الموز الذي نتناوله يوفر الطاقة لخلايانا . والزلال الموجود في اللحم يوفر المواد اللازمة لنمو أجسامنا . ولكي نستوعب أفضل ما نقول، ينبغي الرجوع قليلا إلى الماضي . أي إلى أيام الطفولة، بل إلى أيام الولادة الأولى، فعندما يولد الانسان يكون وزنه 2-3 كغ تقريبا . وعندما يبلغ العاشرة من عمره يصبح وزنه 30 - 35 كغ ويصبح وزنه 40 - 50 كغ في الخامسة عشرة من عمره . أما عند بلوغه السن 20- 25 عاما يصبح وزنه 50 - 60 كغ .

والفرق الشاسع بين هذه الأوزان نابع من إضافة محتويات الأغذية التي نتناولها إلى محتويات الجسم . ولكن جزءا من الأغذية ضروري لتوفير الطاقة لنا . وهي الطاقة التي نستخدمها خلال الحركة كركوب الدراجة أو الجري . والجزء الآخر يتم استخدامه لنمو الجسم حيث يضاف إلى اللحم والعظم . أما الجزء الذي لا يلزم الجسم فيتم طرحه إلى الخارج . وجميع هذه العمليات تجري داخل الجهاز الهضمي . وتتولى أعضاء مثل المعدة و الأمعاء والبنكرياس وظائف هامة في هذا الجهاز .

وعمل هذا الجهاز يشبه مصافي النفط . فالنفط الخام يتم تكريره في هذه المصافي ليتم تجزيئه إلى مواد صالحة للاستخدام . وكذلك المواد الغذائية التي نتناولها ، فهي تدخل المعدة على شكل مواد خام ومن ثم تجري عليها بعض الفعاليات الحيوية كي تصبح صالحة للاستخدام الجسمي، فالمواد الغذائية المهضومة في كل من المعدة والأمعاء تغدو صالحة للاستخدام من قبل خلايا الجسم حيث تنتقل عبر جهاز الدوران إلى كافة أنحاء الجسم .

فمثلما يصبح النفط الخام في مصافيه مجزأ إلى مواد ومُنتجات عديدة، كذلك الغذاء الذي نتناوله يصبح في الجهاز الهضمي مجزأ إلى سكر وكاربوهيدرات ودهن ليصبح ملائما للاستخدام الجسمي . وينبغي أن لا ننسى هنا بأن ما يجري على شطيرة تناولناها في معدتنا يختلف في تفاصيله عما يجري للنفط في مصافيه، وهي تفاصيل كثيرة جدا داخل حيز محدود عوضا عن مصانع عملاقة .

ويبلغ طول الطريق الذي تحدث خلاله عملية الهضم عشرة أمتار، وهو ما يعادل ستة إلى سبعة أضعاف طول الأسنان . واحتواء أجسامنا على مثل هذا الجهاز الطويل يعتبر أمرا خارقا بحد ذاته .

تُرى كيف يمكن وجود مثل هذا الجهاز الطويل داخل أبداننا ؟ والجواب يكمن في معجزة خلق جسم الإنسان بهذا الشكل البديع .

والصورة في الصفحة المقابلة توضح رسما تخطيطيا للقناة الهضمية وتشغل حيزا صغيرا

بالرغم من طولها نظرا لالتواءاتها الكثيرة داخل الجسم . ولا شك أن مثل هذا التصميم هو تصميم رائع حدث بقدرة الله عز وجل، وهو مثال بسيط لآيات القدرة الإلهية الموجودة في أجسامنا .

هل تعلمون لماذا تختلف أسناننا عن بعضها البعض من ناحية الشكل ؟

(228/725)

والجواب أن ذلك يحدث بسبب اختلاف وظائفها عن بعضها البعض . فالأسنان الأمامية حادة لأنها تستخدم في القضم، كقضم التفاح . ولكن ماذا كان يحصل لو كانت الأنياب محل القواطع الأمامية ؟ في هذه الحالة سوف يستحيل قضم التفاح . والشيء نفسه يُذكر لو كانت القواطع في الصفوف الخلفية للأسنان فيستحيل عندئذ مضغ الطعام .

فالأسنان مثلها مثل باقي أجزاء جسمنا رتبت على أحسن صورة، وكل ذلك بفعل قدرة الله عز وجل العليم القدير .

البكتيريا المفيدة الموجودة في مؤخرة اللسان

تعرف البكتيريا عموما على أنها مخلوقات ضارة . وينبغي الاهتمام بنظافة الجسم والمسكن كي نقي أنفسنا الإصابة بهذه الأضرار . غير أن العلماء اكتشفوا في السنوات

الأخيرة وجود بكتيريا مفيدة للأنسان موجودة في جسمه عند مؤخرة اللسان . نعم في مؤخرة لسانه، وهذه البكتيريا تقوم بالقضاء على الجراثيم الضارة في المعدة . ومن الطبيعي ألا تكون عملية قتل هذه الجراثيم عملية سهلة . فمن أجل تحقيقها ينبغي حدوث خطوات تدريجية متسلسلة . فعلى سبيل المثال تقوم هذه البكتريا بتحويل النترات الموجودة في الأغذية الخضراء إلى مادة النتريت خلف اللسان . ومن ثم يتفاعل اللعاب الموجود في الفم مع النتريت لينتج مادة قاتلة للجراثيم .

وهكذا تتولد هذه المادة بفعل البكتيريا الموجودة خلف اللسان . وكما نعلم فإن الجراثيم تتسبب في حدوث الأمراض المختلفة في أجسامنا ، وهنا يأتي دور بكتيريا خلف اللسان في القضاء على جزء كبير من هذه الجراثيم . وتعتبر هذه البكتريا المفيدة آية من آيات رحمة الله بعباده ورأفته بهم ونعمة من نعمه التي لا تحصى . يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) النحل: 18

كيف تهضم المعدة ما تناولناه من الطعام ؟

(229/725)

لقد ذكرنا شيئًا مختصرا عن الجهاز الهضمي في السطور السابقة . أما الآن فسنحاول أن نتناوله بشيء من التفصيل . ولنفكر مليا فيما نفعله يوميا من تنفس وحركة وتناول للطعام . فنحن نادرا ما نسأل أنفسنا عن كيفية حدوث ما نمارسه من نشاط يومي .

فأجسامنا بحاجة دائمة إلى الطاقة . وكما ذكرنا في الصفحات السابقة، فهذه الطاقة اللازمة يتم توفيرها من خلال الأغذية التي نتناولها . أما المواد الغذائية اللازمة للجسم فينبغي أن تكون صغيرة كي تستطيع الحركة عبر الدم . وإلا فإنها تعجز عن الدخول إلى خلايا الجسم المختلفة، ولكن المواد الغذائية التي نتناولها كبيرة الحجم .

إذن، فهناك حاجة ملحة لجهاز يقطع الغذاء ويحوله إلى أجزاء صغيرة جدا قابلة للامتصاص من قبل الجسم . ويمكننا أن نسمي هذا الجهاز بمطحنة أو مسحقة تقوم بطحن الطعام لتفتيته إلى أجزاء صغيرة جدا .

وهذا الجهاز الموجود في أجسامنا يسمى الجهاز الهضمي . وهو يتألف، مثل باقي المكائن الآلية من عدة أعضاء تعمل بدون خلل بالتكامل فيما بينها . والنتيجة هي هضم المواد الغذائية هضما صحيحا . وأهم شيء هنا هو كون أعضاء الجهاز الهضمي متلائمة مع بعضها البعض وموجودة ضن حيز مشترك في الجهاز، وإلاّ فإنه يفشل في أداء وظيفته .

ولنتمعن معا في المثال الآتي لتوضيح أهمية وجود الأعضاء في حيز مشترك وتكاملها فيما بينها .

فلنفترض أن هناك سيارة تعمل بالتحكم عن بعد وتتألف من العجلات وجهاز التحكم عن بعد والبطارية والعجلات المسننة والمحولات والهوائي وقطع كثيرة غيرها . وكذلك فالجهاز الهضمي يتألف من أجزاء عديدة مثل المعدة والمريء والأسنان واللسان والأمعاء .

ولنسأل أنفسنا هل يمكن للسيارة التي ذكرناها سابقا أن تتحرك بدون العجلات أو جهاز التحكم عن بعد ؟ بالطبع لا، لأنها لا تستطيع أن تتحرك إلا بوجود جميع أجزائها دفعة واحدة، والأمر نفسه بالنسبة إلى الجهاز الهضمي .

(230/725)

فبدون وجود المريء لا يفيد وجود المعدة شيئا لأن المريء هو الذي يوصل الطعام إلى المعدة، وبدون وجود المعدة لا يفيد وجود الأمعاء شيئا لأنها هي التي تتولى هضم الطعام الذي يُوزع عبر الأمعاء إلى الجسم . وتشير هذه الحقيقة إلى إلى أن الله عز وجل الذي خلق كل شيء خلق لنا جهازا للهضم خارق التكوين والوظائف، وتشير أيضا إلى عدم وجود إله غير الله سبحانه وتعالى، يقول تعالى:

(إِنَّمَا إِلَهُكُمْ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) طه: 98

وبدأ الجهاز الهضمي في العمل . . .

يبدأ هضم المواد الغذائية في الفم أولا حيث تتم تجزأة الكاربوهيدرات الموجودة في الطعام بواسطة لعاب الفم، وعلى سبيل المثال يتم هضم الخبز الذي نتناوله في الفطور الصباحي هضما أوليا في الفم، أما الجبن الذي نتناوله مع الخبز فيستغرق وقتا أطول في الهضم.

وتنتقل المواد الغذائية المهضومة هضما أوليا في الفم إلى المعدة عبر المريء. وعند بلوغها المعدة تُواجه وسطا خارقا آخر. فهذه المواد يتم هضمها في المعدة بفعل سائل ذي خاصية هضمية مدهشة. وكما تعلمون فإن الحوامض ذات خواص تفتيتية كبيرة. فهي تحرق السطح الذي تلامسه. والمواد التي تستخدمها أمك لفتح المجاري لمغسلة البيت تحتوي على مواد حمضية، وهي المواد التي تذيب وتفتت التراكمات الخانقة للمجاري.

(231/725)

والسائل الحامض في المعدة هو الذي يتولى تحويل المواد الغذائية الكبيرة إلى أجزاء صغيرة جدا. إلا أن هناك نقطة مهمة جدا ينبغي الوقوف عندها. فقد ذكرنا أن هذا السائل الحمضي يؤثر بقوة على الطعام ويحوله إلى أجزاء صغيرة جدا. ولكن كيف لا يؤثر على المعدة نفسها، وهي عبارة عن قطعة لحم أيضا؟ فكروا مثلا في اللحوم التي نتناولها، لماذا يؤثر السائل الحامضي عليها دون أن يؤثر على المعدة نفسها؟ وهنا تبرز أمامنا المعجزة

الإلهية في الخلق و الإبداع . فقد جعل الله تعالى في معدتنا ما يحميها من أثر هذا السائل الحمضي .

وتتمثل هذه الحماية في إفراز طبقة من مادة مخاطية تمنع تأثير حامض الهيدروكلوريك على المعدة خلال الهضم . وتغلف هذه المادة المخاطية بطانة المعدة بشكل كامل . وبذلك تمنع اتصال الحامض مع البطانة، وبالتالي تمنع هضم المعدة نفسها .

أما المحطة الثانية للمواد الغذائية فهي الأمعاء ، وهي تنقسم إلى قسمين أحدهما دقيق، والآخر غليظ . وتتجزأ المواد الغذائية داخل الأمعاء إلى أجزاء أصغر مما في المعدة .

وبالتالي تصبح جاهزة للاستخدام من قبل خلايا الجسم . وتمتص المواد القابلة للاستخدام من قبل بطانة الأمعاء . أما المواد غير قابلة للامتصاص فيتم لفظها عن طريق الإفراغ .

والمهم هنا أن نطلع على المراحل التي تمر بها المواد الغذائية خلال الأمعاء . فكما كانت المعدة وسطا لهضم الطعام كذلك تكون الأمعاء وسطا آخر لهضمه لأن المواد الغذائية يتم تجزئتها إلى أجزاء أصغر في الأمعاء وتصبح من الصغر إلى درجة تستطيع أن تخترق جدران الأمعاء متوجهة إلى الأوعية الدموية المحيطة بها . ومن ثم تأخذ طريقها نحو خلايا الجسم المختلفة .

ولو دققتم أعزائي الأطفال في مدى دقة وإتقان تركيب الجهاز الهضمي؛ فالطعام الذي نتناوله يبدأ رحلته من الفم ومن ثم المريء فالمعدة وأخيرا يصل إلى الأمعاء . ويمر خلال رحلته بمراحل متعددة من الهضم إلى أن يصبح جاهزا للامتصاص والتوجه نحو خلايا الجسم عبر جهاز الدوران . ولو لم يؤد هذا الجهاز الهضمي وظيفته بصورة صحيحة لما استطعنا هضم ما نتناوله . فلو لم توجد الأسنان لما استطعنا مضغ الطعام وبالتالي عجزنا عن ابتلاعه .

وحتى لو استطعنا ابتلاعه فإننا نجد صعوبة في حركته خلال المريء ، وربما أدى إلى إلحاق أضرار بليغة به . ولو لم تكن المعدة ذات قدرة على هضم الطعام لمكث في المعدة على شكل كتلة كبيرة تسبب لنا الإزعاج والأذى . ثم إن عدم القدرة على هضمه يشكل مشكلا خطرا على الجسم بسبب، فهو يجعل الجسم غير قادر على الحصول على المواد الغذائية اللازمة .

فالجسم الذي يفتقد إلى مثل هذه المواد سرعان ما يصيبه الخمول وتضمر خلاياه حتى الموت . ولكن كل هذه الافتراضات السلبية لا نعيشها في حياتنا الطبيعية لأن جميع أجهزتنا الجسمية، ومن ضمنها جهاز الهضم تؤدي وظائفها باستمرار دون أن نشعر بذلك . يقول الحقّ سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

(هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) (الآية 24 سورة الحشر)

.

.

.

.

0- رحلة الدم داخل الأوعية الدموية

لقد ذكرنا في صفحات سابقة وجود شبكة كثيفة من الأعصاب تلف أجسامنا ، وهناك شبكة أخرى تلف أجسامنا بشكل معجز، وهي شبكة الأوعية الدموية التي لها امتدادات في جميع أنحاء الجسم . وشبكة الأوعية الدموية مثلها مثل شبكة الخلايا العصبية تغطي أو تلف كافة أنحاء الجسم مهما صغر حجمها .

(233/725)

وهذه الشبكة من الأوعية الدموية طويلة إلى درجة أنها لو وصلت ببعضها البعض لبلغ طولها مئة ألف كم . وليس من الصعب علينا تمييز الانتشار الكثيف لهذه الأوعية في

أجسامنا لأن حدوث مجرد خدش بسيط يعتبر كافيا لتدفق الدم، وهو ما يثبت لنا وصول الدم إلى كافة أجزاء الجسم بواسطة هذه الأوعية . ووصول الدم إلى كافة أجزاء الجسم يعتبر أمرا مهما وحيويا ، والسبب هو الدور الحيوي الذي تلعبه هذه الأوعية في إيصال المواد الغذائية اللازمة إلى مختلف الخلايا .

وهذه الأوعية لا تحمل المواد الغذائية اللازمة للخلايا فقط، وإنما تحمل أيضا الأكسيجين اللازم لها . ويمكننا تشبيه حمل المواد الغذائية عبر الدم بالشحن البحري، فالبضائع ينبغي أن تحمل إلى ظهر السفينة أولا، وهنا يبرز الدور الأساسي للتغليف والترتيب كشرط لتحميل البضائع إلى السفينة . وبعد أن ينتهي التحميل تنطلق السفينة عبر البحر متوجهة صوب الميناء الهدف . وعندما تبلغ هذا الميناء الهدف تقترب منه ليتم إنزال الحمولة وبالتالي يتم التوجه بها نحو الهدف المقصود .

وتعتبر الأوعية الدموية محيطا مائيا عظيما تتوجه خلاله المواد الغذائية نحو الخلايا المحتاجة لها ، حيث تسبح خلال الدم الأحماض الأمينية والدهون والأكسيجين متوجهة نحو الخلايا . لكن هذه المواد تسبح في الدم وهي متغيرة بعض الشيء بما يشبه تغليف وترتيب البضاعة المكونة عبر السفن . ولا يتولد أي خطأ خلال عملية نقل هذه المواد الغذائية .

فكل مادة غذائية تصل إلى الخلية الهدف في اللحظة المناسبة وبالكمية المناسبة أيضا . ولو حدث خطأ كأن أعطيت الخلية دهنا بدلا من الأكسيجين لتعرضت تلك الخلية إلى الموت على الفور . مما يعني أن أي خطأ مهما كان ضئيلا يؤدي إلى أضرار جسيمة . إلا أن مثل هذا الخطأ لا يحدث لأن هذه الفعاليات جميعها لا تحدث بمحض المصادفة، وإنما خلقت الأجهزة الجسمية التي تجري فيها هذه الفعاليات الحيوية بقدرة الله الذي خلق كل شيء و سخره لخدمة الإنسان .

النقل

لقد تحدثنا فيما سبق عن كون الدم الوسيلة المتبعة لإيصال كافة الاحتياجات اللازمة إلى أنحاء الجسم المختلفة . وتقوم خلايا الدم أثناء عملية النقل بأخذ ثاني أوكسيد الكربون من الخلايا المختلفة ليتم طرحه فيما بعد كفظلات، أي أن الدم يعتبر أيضا جامعا للنفايات الجسمية . وبذلك يصل الدم يوميا إلى 100 تريليون خلية جسمية ليعطيها احتياجاتها اللازمة وليستلم منها فظلاتها .

ويتولى الدم أداء هذه الوظيفة الحساسة، وهذه المسؤولية الجسمية دون أي خطأ .

ويعرف ماهية المواد التي يتولى نقلها وفوائدها والأهداف التي يجب إيصالها إليها . وعلى سبيل المثال لا يقوم الدم بنقل ثاني أوكسيد الكربون الذي أخذه من خلية جسمية ما

كفظلات إلى خلية جسمية أخرى، فهو دائما يتولى منح الأوكسجين للخلايا آخذا منها ثاني أوكسيد الكربون . ويقوم بهذه المهمة دون كلل أو خلل . ويرجع سبب هذا الإتقان إلى كون الدم جزءا من النظام الدقيق الذي خلقت عليه أجسامنا من قبل الخالق عزّ وجل .

فالخلايا الجسمية تتبع هذا النظام الدقيق الذي خلقه ربنا عز وجل إتباعا صارما .

مقاتلو الدم

- يحتوي الدم على خلايا مختلفة من ناحية الوظيفة، وكما يرى في الصورة إلى الأعلى فإن بعض هذه الخلايا يتولى نقل المواد الغذائية والبعض الآخر يتولى الدفاع عن الجسم .

(235/725)

تقاوم أجسامنا يوميا البكتريا و الرواشح والجراثيم . وقسم من هذه المخلوقات يتم منعها من دخول أجسامنا ، والقسم الأخر ينجح في الدخول . وتحتوى أجسامنا على خلايا خاصة تقاتل ضد هذه الجراثيم . ونستطيع أن نسمي هذه الخلايا التي تدافع عن أجسامنا بالخلايا المقاتلة . وتوجد هذه الخلايا المقاتلة في الدم الذي تسبح فيه . فعندما تنجح الجراثيم في الدخول .

إلى أجسامنا سرعان ما تبدأ الخلايا المقاتلة بشن الهجوم على هذه الجراثيم والوصول إليها

عبر الأوعية الدموية . ولا يمكن أن تؤدي هذه الخلايا وظيفتها الدفاعية من تلقاء نفسها . فهي تعرف مهمتها بالضبط منذ اللحظة التي وجدت فيها . وهذه الحقيقة هي إحدى مظاهر الإبداع في خلق أجسامنا . فالله سبحانه هو الذي سخر هذه الخلايا التي لا ترى بالعين المجردة كي تتولى عملية الدفاع عنا ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

الاتصال

يعتبر الدم أيضا وسيلة من وسائل الاتصال وتبادل المعلومات بين خلايا الجسم . فهناك رسائل يتم حملها عبر الدم من جزء إلى آخر داخل الجسم . وهذه الرسائل تدعى بالهرمون . وتؤدي هذه الهرمونات وظائفها كما لو كانت كائنات عاقلة، فتحمل الرسائل التي تحتوي عليها إلى أهدافها دون أي خطأ . ونستطيع بواسطة هذه الرسائل أن نشم الرائح، وتستطيع أجسامنا أن تنمو وتحس بالعطش أو تتعرف على وظائف حيوية أخرى .

الدم الذي يداوي الجروح

(236/725)

لابد أنكم لاحظتم انقطاع النزيف الدموي بعد برهة من حدوث بعض الجروح الطفيفة . إن هذا الانقطاع التلقائي للنزيف أمر مثير حقا . وتكمن الغرابة في توقف السائل عن السيلان

من تلقاء نفسه، فالسوائل عادة تسيل من تلقائها إذا وجدت أي فتحة تمكنها من ذلك .

ولتسهيل الأمر عليكم أعزائي الصغار تعالوا نتخيل أننا نمسك بالونة مليئة بالماء، فإذا ثقبنا البالونة بإبرة دقيقة سرعان ما يبدأ الماء في الانسياب من ذلك الثقب . ولكن هل يتوقف انسياب الماء من البالونة دون تدخل منا ؟ بالطبع لا، فالانسياب يستمر حتى آخر قطرة من الماء داخل البالونة . وهذا الأمر يشمل جميع السوائل الموجودة داخل الأوعية المغلقة .

والدم سائل يوجد في محيط مغلق أي داخل الأوعية الدموية، وعند حدوث أي جرح يبدأ في السيلان .

ولكن توقف هذا السيلان أو النزيف يعتبر أمرا حيويا بالنسبة إلى أجسامنا، وربما سمعتم أن البعض تعرض للموت نتيجة جرح بليغ أو نزيف شديد خلال العمليات الجراحية . ولكن ما الذي يجعل الجرح يتوقف عن النزف ؟

إن آلية تخثر الدم عند حدوث الجروح هي التي توقف النزيف . وهذه الآلية تعتبر إحدى الأنظمة الدفاعية التي توجد في أجسامنا . فهناك مواد في الدم تعمل على سد الجروح، وهكذا تمنع تدفق المزيد من الدم خارج الجسم . وكما هو واضح من الصورة الجانبية تهرع بعض المواد الموجود في الدم إلى ناحية الجرح الذي أصاب الوعاء الدمعي،

وتبدأ هذه المواد في مرحلة أولى بالتراص مع بعضها البعض في فتحة الجرح، ثمّ تبدأ في تكوين

ما يشبه الشبكة لمنع تدفق الدم بسهولة، وبعد ذلك تتصلب الشبكة حتى تتحول إلى القشرة التي نراها فوق الجروح .

(237/725)

والآن لنفكر قليلا هل أن ما ذكرناه يحدث بالمصادفة ؟ من أين علمت الخلايا الدموية أن هناك جرحا حدث في مكان ما من عالم واسع وكبير بالنسبة إليها . ولماذا تسرع إلى مكان الجرح ؟ ولماذا تعمل على وقف النزيف ؟ وكيف تعلم أن وقف النزيف يتم عبر سد الجروح ؟ ومن الذي علم هذه الخلايا أن مهمتها هي إيقاف النزيف ؟

ومن المستحيل أن تعرف الخلايا هذه المهام أو أن تقوم بها بمحض جهودها عن طريق المصادفة . ومن المستحيل على الإنسان أن يوجد مثل هذا النظام الدفاعي في الجسم أو أن يكون هو الذي علم أجزاء هذه الخلايا وظائفها الحيوية هذه .

إن مثل هذا السلوك الواعي الذي تسلكه خلايا الدم ليس نابعا من الخلايا أنفسها ، بل الله سبحانه وتعالى هو الذي ألهمها ذلك، وبالتالي تعمل هذه الخلايا وفق هذا الإلهام الإلهي .

ويقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه المبين عن الأعجاز في خلقه ما يلي :

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ

تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ . الملك، 3-4

.

.

.

.

0- الدم السائل المعجزة الذي لا يمكن صنع مثيل له

لقد بذل العلماء جهودا كبيرة لإنتاج سائل شبيه بالدم إلاّ أن هذه الجهود باءت بالفشل، وأخيرا تركوا هذا المجال إلى مجالات علمية أخرى .

ويستحيل على العلماء تقليد الدم في مكوناته لأن الدم يتميز بتخثره حالما يخرج من الوعاء الدموي الذي يحويه، وبالتالي تتغير بنيته . وحتى إذا تم حفظ الدم داخل أوعية زجاجة لا يجدي نفعا في تقليده لأن خلايا الدم لا تبقى حية بصورة تامة في حالة حفظ الدم داخل هذه الأوعية الدموية .

ولهذا السبب اضطر الباحثون إلى أن يفرزوا مكونات الدم بمعزل عن بعضه البعض كي تَسهل معرفة خواصها . ومن هنا فشلت جهود العلماء بعد كل هذه السنوات في تقليد الدم . لذلك فليس من المنطقي أن يقال أن هذا السائل الخارق مثل الدم قد ظهر بالمصادفة ومن تلقاء نفسه . وربما كان مثل هذا القول من أكثر المقولات بعدا عن المنطق .

إذن فالدم سائل خلقه الله عز وجل بعلمه وقدرته . وخلايا الدم هي واحدة من المكونات الخارقة التي تتكون منها أجسامنا .

القلب : محرك الجسم

هل فكرتم في كيفية تحرك الدم داخل أجسامنا صعودا و نزولا دون توقف ؟ فكل جسم يحتاج في حركته إلى محرك يساعده على الحركة . فالسيارات مثلا، وكذلك الطائرات والسفن تحتاج في حركتها إلى محرك . إذن فهناك حاجة إلى محرك داخل أجسامنا يجعل الدم في حركة مستمرة داخل أجسامنا . وهذا المحرك هو القلب القابع داخل أجسامنا ، فهو لا يتوقف عن ضخ الدم ليلا ونهارا .

حاول أن تضم أصابعك بقوة لبرهة وبعدها أطلقها ، سترى كيفية ضخ القلب للدم .

والقلب ينبض سبعين مرة في الدقيقة ويضخ 300 مليون لتر من الدم تقريبا طوال عمر الإنسان . إن هذه الكمية تكفي لملء عشرة آلاف ناقلة للبترول . أليست هذه الأرقام مثيرة وخارقة ؟ وتخيل نفسك تحاول ملء دلو بقدح سبعين مرة في الدقيقة . ستشعر في

النهاية أن درجة حرارة عضلات الذراعين واليدين قد ارتفعتا إلى درجة قصوى، ولا بد أن تأخذ قسطا من الراحة . أما أن القلب فهو يقوم بهذه المهمة طوال العمر دون توقف ودون أن يتعب .

أفضل مضخة

إنّ القلب عبارة عن عضلة قوية إلى درجة مدهشة . وينبض القلب حوالي 70 مرة في الدقيقة الواحدة . ويضخ في كل مرة 59 سنتمترا مكعبا من الدم . وينبض القلب خلال 70 عاما 2500000 مرة يضخ خلايا 152000000 لترا من الدم . وهذه الكمية تساوي ما يعادل ملء خزان الوقود لعشر طائرات من طراز بوينغ 747 في كل عام .

(239/725)

إن أفضل مضخة توجود داخل الجزء الأيسر من صدورنا ، أي القلب الذي يستطيع أن يعمل باستمرار ليلا ونهارا محققا ألف دورة كاملة للدم في اليوم الواحد . وحجم القلب هو بمقدار قبضة اليد تقريبا . وهو عضو يتألف من اللحم فقط، ولكنه يعتبر أفضل وأقوى الآلات على الإطلاق . وهناك أسباب عديدة تجعلنا نصف القلب بهذه الأوصاف . فالقلب ذو قوة مدهشة في حالة ضخه للدم . فبواسطة هذه القوة يستطيع ضخ الدم

لارتفاع 3 أمتار . ويمكننا بيان قوة القلب بمثال موجز . فالقلب يبذل جهدا خلال ساعة واحدة يكفي لرفع سيارة متوسطة الحجم مترا واحدا عن مستوى سطح الأرض .

يسع خزان الوقود لطائرة من طراز بوينغ 747 217000 لترا من الوقود .

المضخات الأصلية للقلب

إنّ القلب الذي هو في حجم قبضة اليد يتألف –كما يلاحظ في الصورة الجانبية – من قسمين وبدورهما يتألفان من قسمين ثانويين وهما في الحقيقة في شكل مضختان . والمضخة اليسرى من القلب هي الأقوى، وهي تضخ الدم النقي إلى باقي أنحاء الجسم عدا الرئتين . أما المضخة اليمنى فتعتبر الأضعف، وتضخ الدم غير النقي إلى الرئتين . ورحلة الدم من القلب إلى الرئتين تعتبر أقصر طولا لذلك تسمى "الدورة الدموية الصغرى" . أما رحلته إلى باقي أنحاء الجسم فتدعى "الدورة الدموية الكبرى" .

ومضختا القلب تنقسمان بدورهما إلى جزأين ينتقل الدم من أحدهما إلى الآخر عبر الصمامات . وتعمل هذه المضخات بطاقة عالية دون توقف . وهكذا يستطيع الدم أن يكمل ألف دورة داخل الأوعية الدموية خلال اليوم الواحد .

الصيانة الذاتية للقلب

تحتاج المكائن التي تعمل باستمرار إلى إجراء الصيانة عليها ، وهذه الصيانة تشمل أجزاء المكائن أو تغيير هذه الأجزاء إن كانت الحاجة ملحة لذلك، وتحتاج المكائن بعد فترة من الاشتغال إلى عملية تزييت، وإلا فإنها تتعرض إلى تآكل نتيجة الاحتكاك . وكذلك، فإن القلب الذي يعمل باستمرار على شكل ماكينة يحتاج إلى صيانة، إلا أنه يقوم بإجراء الصيانة بطريقة ذاتية . وعلى سبيل المثال فهو يقوم بتزييت نفسه بنفسه .

ولكن كيف يقوم بتزييت نفسه بنفسه ؟ إن الجواب كامن في خلق القلب، فهو محاط من الخارج بغشاء ذي طبقتين . ويوجد سائل زيتي يفصل بين الطبقتين . وهذا السائل يساعد في تسهيل عمل القلب . ويعكس هذا الأمر مدى الإعجاز في خلق القلب، ويبين كذلك الإبداع الإلهي في التصوير جلت قدرته وعظمته سبحانه .

.

.

.

.

0- الهيكل العظمي المتكون من العظام

يحتوي جسم الإنسان على 206 عظم، ربما تتساءلون عن السبب في وجود مثل هذا

العدد الكبير من العظام في أجسامنا . ولكن المثال الآتي سيزيل علامات الاستفهام من مخيلتنا وسيقنعنا بأهمية هذا العدد من العظام . فلو كانت الأصابع تتألف من عظم واحد فقط لما استطعنا أبدا الإمساك بهذا الكتاب الذي بين أيدينا ، لماذا ؟ لأن عظما واحدا يجعل الإصبع منتصبا ، ولا يكون قابلا للانطواء ، وإذا حاولنا أن نطويها تتعرض للانكسار ، وبالتالي سوف نعجز عن الإمساك بالأشياء وحتى عن الكتابة أو تناول الطعام . فالذي يسهل علينا الإمساك بالكتابة أو الإمساك بالفاكهة التي نأكلها أو القيام بأي عمل آخر باستخدام أصابع اليد يرجع إلى تكون اليد والأصابع من 27 عظما .

(241/725)

وكما ذكرنا في السطور السابقة، يحتوي جسم الإنسان على 206 عظام مرتبطة مع بعضها البعض . وهذه العظام موزعة في أنحاء الجسم بصورة رائعة . ووفق هذا التوزيع نستطيع أن ننحني أو نلوي سيقاننا أو ندير رؤوسنا بسهولة ويسر ، إلا أن جميع هذه الأعمال لا نستطيع أن نقوم بها بواسطة العظام فقط لأن العظام صلبة ولا يمكن أن تنحني أو تنطوي . ولهذا فالعظام ترتبط ببعضها البعض بنقاط رابطة تدعى المفاصل . وبواسطة هذه المفاصل نستطيع بسهولة أن نطوي الذراع أو أن نرفع سيقاننا ونحرك أصابعنا .

ولأجل أن نفهم الأهمية الكبرى لوجود المفاصل في أجسامنا دعونا نطلع على المثال الآتي :

لنفرض أننا صنعنا دمية من خشب، فنحن في حاجة طبعا إلى جزء متحرك يربط كتف الدمية مع ذراعها وذلك لتسهيل تحريك هذا الذراع، وسنحتاج إلى جزء متحرك آخر يربط الساق بالجذع للسبب نفسه . وينبغي أن نفعل الشيء نفسه في صنع الذراعين والساقين، أي أن نجعلها متكونين من قطع مرتبطة ببعضها البعض بأجزاء متحركة، فعندئذ نستطيع أن نطوي ذراع الدمية من المرفق والرسغ وأن نطوي الساق من الركبة والكعب .

ومن هنا تتضح لنا أهمية تكون الهيكل العظمي من عدد كبير من العظام والمفاصل .

الخصائص الفريدة للعظام

هناك أنواع متعددة للمفاصل التي تربط العظام، فهناك مفصل يسهل على العظام الحركة للإمام والخلف، وأخرى تسمح بالحركة في جهة الجانب . ولنتفحص معا ولو بشكل مبسط جوف العظام والمفاصل .

كما تعلمون أعزائي الأطفال، إن العظام تقوم بحمل ثقل الجسم وحمايته، ولهذا السبب خلقت بالصلابة والقوة التي تتطلبها عملية الحمل . وتتميز عظامنا بكونها مجوفة على شاكلة خلية النحل المليئة بالثقوب، وبالتالي توصف عظامنا بأنها خفيفة نسبيا .

يرى في الصورة البناء المثقوب الذي يكسب العظام قوتها المعروفة . وقد شُيّد برج إيفل المعروف بأسلوب شبيه ببناء العظام الداخلي .

وهذه الثقوب العديدة تجعل عظامنا متينة وصلبة بالرغم من كونها خفيفة، ولكن هذا لا يعنى أن عظامنا سهلة الكسر . وبالعكس فهي أكثر قوة بخمسة أضعاف من الفولاذ . وعلى سبيل المثال يستطيع عظم الفخذ في حالة انتصابه أن يحمل ثقلا مقداره طنا كاملا، ويستطيع أن يحمل ثقلا مقداره ثلاثة أضعاف ثقل الجسم في حالة المشي . ولا يحدث شيء ضار بالنسبة إلينا بفضل القوة التي تتميز بها عظام هيكلنا العظمي

الجمجمة: العظم الواقي للمخ

تتولى الجمجمة حماية المخ وكذلك توفر نقاط ربط للعينين والأذنين والأنف والفم . وتبدو الجمجمة في شكلها بسيطة نوعا ما ، ولكنها في الحقيقة من أكثر عظام الهيكل العظمي تعقيدا لأنها تتألف بمفردها من 22 عظما ترتبط فيما بين بعضها البعض ارتباطا وثيقا . ولكن ما هو الشيء الذي يكسب عظامنا هذه الصلابة ؟ إن الجواب كامن في تكوين العظام نفسها . فجوف العظام يشبه خلية النحل من حيث الثقوب المتشعبة والمرتبطة ببعضها البعض . وهذا التركيب يجعل العظام خفيفة وصلبة في آن واحد . ولو حدث العكس، أي لو كانت العظام ممتلئة لأصبحت ثقيلة الوزن ولكانت سهلة الكسر وعديمة المرونة أمام

المؤثرات الخارجية . أي أن عظام ذراع الإنسان تصبح في هذه الحالة سهلة الكسر لو اصطدمت مثلا بزاوية دولاب الملابس التي توجد في الغرفة . ولكن العظام خلقت بالمرونة والمتانة المعروفة كي نستطيع أن نمارس الحركة والنشاط بكل سهولة ويسر . وكل ذلك بفضل الله عز وجل ورحمته الواسعة .

تبدأ العظام في النمو منذ لحظة الولادة وحتى سنّ البلوغ، ويكون هذا النمو شاملا لكل العظام وبالتناسب فيما بينها . وبسبب هذا التناسب يزداد طول جسم الإنسان كلما تقدم في العمر حتى سن البلوغ.

(243/725)

تتكون العظام من مادة خاصة يوليها العلماء اهتماما خاصا منذ أمد بعيد ويحاولون إنتاجها في مختبراتهم صناعيا . وتتميز هذه المادة بكونها خفيفة وقوية، والأهم من ذلك أنها قادرة على تنمية نفسها بنفسها . فغالبا ما لاحظتم أن هناك فرقا في الطول بين الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 4-5 أعوام وبين البالغين الذين تتراوح أعمارهم بين 19-20 عاما . ويرجع سبب هذا الفرق إلى اختلاف طول العظام حسب الفئة العُمْرية .

وبالإضافة إلى هذا فإنّ نمو العظام يحدث بتناسب فيما بينها . فعندما يحدث نمو في عظام

الساق يحدث في الوقت نفسه نمو في عظام الذراع وبشكل متناسب تماما . وكذلك تنمو عظام الأصابع بالتناسب فيما بينها سواء أكانت في اليدين أو القدمين . وهذه الخاصية لنمو العظام موجودة في جسم كل الإنسان .

وكما بينا سابقا فإن العلماء يبذلون جهدا حثيثا لإنتاج مادة شبيهة بمادة العظام، ولكن دون جدوى فلا أحد بإمكانه إنتاج مثل هذه المادة الفريدة في خصائصها ، وهي المادة التي تتكون منها العظام التي خلقها الله عز وجل بقدرته ورحمته كي نتحرك ونمارس نشاطات مختلفة بكل سهولة ويسر ودون ألم، فتبارك الله أحسن الخالقين .

مفاصلنا القادرة على صيانة نفسها بنفسها

قد أوضحنا فيما سبق أن العظام ترتبط ببعضها البعض بنقاط ربط تدعى المفاصل .

وعلى سبيل فالمرفق والركبة مفصلان من مفاصل الجسم التي بواسطتها نحرك أطرافنا بكل سهولة . ولا تحتاج هذه المفاصل إلى تزييت نتيجة حركتها المستمرة مدى الحياة، إلا أن ثمة آلات عملها شبيه بعمل المفاصل تحتاج إلى تزييت بصورة دورية . فعلى سبيل المثال تحتاج دواسات الدرجات الهوائية إلى التزييت مثلها مثل السلسلة المعدنية المرتبطة بها لأن الحركة الدائمة تؤدي إلى تقليل الزيت وبالتالي تصّعب حركتها .

أما مفاصل الجسم فلا تحتاج إلى تزييت بالرغم من تعرض رؤوسها إلى حركة دائمة متوازية مع حركة الجسم . ولكن لماذا ؟ إن هذا السؤال شغل بال العلماء كثيرا وبذلوا جهودا كبيرا من أجل التوصل إلى إجابة عليه، ثم اكتشفوا أن سطح المفاصل يتميز بتركيب رفيع ومثقوب . ويوجد سائل زيتي تحت هذا السطح مباشرة، فإذا ضغط العظم على إحدى نواحي المفصل يبدأ السائل الزيتي في التدفق من الثقوب ليصبح سطح المفصل زلقا ومرنا .

إن هذه الأمثلة تثبت لنا أن جسم الإنسان مخلوق بصفات وميزات فريدة ورائعة . وهو نتيجة لعلمية خلق إعجازية . ونحن إذ نمارس حياتنا اليومية بهذا النشاط والحيوية فإننا نستخدم عظام أجسامنا ومفاصلها للقيام بمختلف الحركات وفي جميع الاتجاهات .

والذي جعل العظام والمفاصل بهذه الخصائص هو الله العليم القدير، وقد دعا الإنسان إلى التفكر في كيفية خلق العظام فقال سبحانه :

وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . البقرة، 259

تؤدي الخلايا العظمية الهدمية وظائفها دون أي خطأ في المقاييس وكأنها نحات ماهر، فهي تعرف جيدا مقاييس العظام وأبعادها . وهي تتكاثر عند اللزوم وتتوقف عند الضرورة أيضا . والآن، فكروا قليلا فيما لو استمرت عظام اليدين أو الساقين في النمو . إنه شيء

مخيف حقا ، ولكن مثل هذا الأمر لا يحدث أبدا . وهذا الأمر يعكس حقيقة مهمة وهي أن الخلايا تمارس نشاطها بإلهام من الله تعالى جلت قدرته .

كيف يلتئم العظم المكسور ؟

لا يستوي أي عظم من عظام القدم مع أي عظم من عظام اليد ، فكل عظم في الجسم له شكله وسمكه وأبعاده الخاصة به . ولكنها جميعا نتاج نوع واحد من الخلايا وهي الخلايا البنائية العظمية .

(245/725)

لقد تحدثنا فيما سبق عن خصائص العظام ذات القوة والصلابة، ولكن هذه العظام قد تتعرض إلى كسر نتيجة بعض الصدمات والضربات الخارجية . ولكن ما الذي يحدث بعد انكسار العظم ؟ يبدأ العظم بترميم نفسه، وكل ما يفعله الأطباء في حالات الكسور هو إعادة العظم إلى موضعه الصحيح وإحاطته بطبقة من الجبس كي يلتئم في موضعه الصحيح من تلقاء نفسه . وهي حالة عجيبة بالفعل أن يرمم العظم نفسه وأن يرجع أقوى مما كان قبل الكسر . وهذه الحالة المعجزة تحدث على النحو الآتي :

قبل كل شيء يبدأ الدم المحيط بالعظم المكسور بالتخثر ، وتتكون طبقة كبيرة من الخثرة

الدموية تدعى "الهماتوم" . وهذه الطبقة تشبه القشرة التي تتكون على الجروح التي تعرفونها جيدا ، ومن ثم تبدأ الخلايا العظمية البنائية في تحويل هذه الطبقة إلى عظم، وبعدها تبدأ الخلايا العظمية الهدمية في العمل .

وينحصر عملها في إضفاء شكل معين للعظم الجديد عبر إفراز حامض الهيدروكلوريك . وتسلك هذه الخلايا الهدمية سلوك نحات ماهر يتفنن في إعطاء شكل معين لما ينحته . وتستمر هذه العملية حتى يتخذ العظم الجديد شكله السابق . وقد تستمر الخلايا العظيمة الهدمية في العمل لمدة سنة ما بعد حادث الكسر ودون أن نشعر وذلك كي يرجع العظم الجديد إلى حالته السابقة تماما .

وهي تشبه تماما النحات الماهر الذي يعمل بدأب وصبر كي ينحت الشيء ويعطيه شكله المناسب . ويتضح لنا أن عمل الخلايا العظمية بهذا الشكل الواعي هو دليل على كونها مخلوقات راقية بالرغم من كونها لا تملك عيونا مبصرة . والخلايا البنائية تعلم جيدا أين تبدأ بالعمل ومتى تنهيه . وبعدها يأتي الدور على الخلايا الهدمية التي تدرك جيدا أن العظم الجديد في حاجة إلى تهذيب . وتبدأ في تهذيبه مثل نحات ماهر يدرك ما يفعل وذلك باستخدام حامض الهيدروكلوريك بكمية زائدة هنا وكمية أقل هناك حتى يتخذ العظم شكله الطبيعي .

لقد تعرفنا على الخلايا العظمية بعد هذا العرض الموجز، وتعلمنا كيف ومتى وأين تتصرف بالشكل المطلوب والصحيح . وهذه الخلايا تعمل ضمن نظام رائع لترميم العظام وإعادتها إلى الشكل السابق الذي كان قبل حادث الكسر . ويحاول العلماء أيضا منذ سنوات عديدة تقليد الخلايا العظمية في عملها مختبريا ولكن دون جدوى .

ولكن من أين اكتسبت الخلايا العظيمة هذه القدرة على الترميم ؟ كيف تعرف الخلايا العظمية المواد اللازمة لبناء العظام ؟ وكيف تعرف الإجراءات اللازمة لتحقيق هذا البناء ؟ لقد اطلعنا معا على نوعين من الخلايا العظمية البنائية والهدمية . كيف قامت الخلايا العظمية بتوزيع المهام فيما بينها ؟ كيف لا يحدث تضارب أو خلط بين النوع الأول والثاني ؟ هل اكتسبت الخلايا العظمية هذه المزايا من تلقاء نفسها ؟

من المستحيل طبعا أن تكتسب الخلايا غير المرئية بالعين المجردة هذه المزايا من تلقاء نفسها ، ومن المستحيل أيضا أن تكون قد اكتسبتها بالمصادفة . إذن فالخلايا العظمية تسلك هذا سلوك النحات الماهر بفضل الإلهام الإلهي وتوجيهه جلت قدرته .

العظام ؟ مثلما ذكرنا سابقا فإن الجسم يحتوي على

هل فكرتم كيف تقوم خلايا الجسم بتكوين 206 عظام، إلا أن معظم هذه العظام تختلف فيما بينها من حيث الشكل , ويبدأ الاختلاف في الظهور في الأيام الأولى لتكونها ، أي

عندما يكون الإنسان جنينا في بطن أمه . فكلما ازدادت خلايا الجنين عددا ازدادت تخصصا واختلافا فيما بينها ، وكأنها تعرف مسْبقا الشكل والوظيفة اللذين ستتخذها . فبعض الخلايا تتحول إلى عظام والبعض الآخر تتحول إلى الكبد وهكذا بالنسبة إلى باقي الخلايا . إلا أن هذه الخلايا لا تكتفي بتشكيل الأعضاء الجسمية التي نعرفها بل إن الاختلاف بين الخلايا يحدث بين الخلايا المكونة للعضو الواحد أيضا . وعلى سبيل المثال تبدأ الخلايا العظمية باتخاذ الشكل المناسب في المكان المناسب من الجسم .

(247/725)

لعظام جمجمة الطفل فراغات بينية تمتلأ كلما تقدم في العمر .

فعظام القدم تتخذ شكلا مقوسا نحو الداخل بسلوك الخلايا العظمية المكونة لها ، ومثلها عظام الأصابع أيضا . وكذلك عظام الجمجمة التي تتخذ شكلا مناسبا مع حجم المخ الذي تحيط به . فلا هي صغيرة أكثر مما ينبغي وبذلك تحول دون الضغط على المخ، ولا هي كبيرة أكثر مما ينبغي بحيث تسبب قلقا للإنسان، إنها تمام مثلما ينبغي أن تكون .

ترى من أين تعلمت الخلايا هذا القياس الدقيق عند اتخاذ الشكل المناسب، وكيف عرفت أنها ينبغي أن تكون خلية عظمية وتكون ذات شكل معين ؟ إن الله عز وجل هو

الذي خلق هذه الخلايا وألهمها وظائفها بعلمه الواسع الذي ورد ذكره في القرآن الكريم :

تنمو عظام اليد مثلها مثل باقي عظام الجسم كلما تقدم العمر ، والملفت للنظر هنا هو نمو العظام بالتناسب فيما بينها .

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . الروم، 26-27

.

.

.

.

0- العضلات المحركات الجهرية في أجسامنا

تعتبر العضلات محطات للقوة داخل أجسامنا ، ووظيفتها هي تحويل الطاقة إلى قوة . وهي تقوم بهذه الوظيفة دون أي خلل أو تقصير مدى الحياة . ونحن نحس بهذه العضلات أحيانا ولا نحس بها أحيانا أخرى . وعلى سبيل المثال توجد بعض العضلات في جسم الإنسان تعمل دون أن يبذل أي جهد ومنها عضلات القلب والمعدة . فنحن لا نستطيع أن نتحكم في عمل هذه العضلات .

وتوجد عضلات أخرى نستطيع أن نتحكم في عملها بإرادتنا ، ويبلغ عدد هذه العضلات

650 عضلة في جسم الإنسان . وكلما مارسنا أو أدينا حركة ما تتقلص هذه العضلات وتنبسط وتسهل لنا مع العظام عملية الحركة .

(248/725)

وحركة العضلات تتم بواسطة الأوعية الدموية والأعصاب، فالأوعية الدموية توصل الدم المحمل بالأكسجين والمواد الغذائية إلى العضلات، أما الأعصاب فتقوم بتوصيل الإيعازات العصبية إلى هذه العضلات .

ترى ماذا كان يحدث لو جُعلت جميع العضلات تحت إرادة الإنسان ؟ على سبيل المثال ماذا يحدث لو كانت عضلة القلب تحت إرادة الإنسان ؟ في هذه الحالة، يترك المرء كل مشاغله ليتحكم في تقلص عضلة القلب وانبساطها لأن أي إهمال يؤدي لا محالة إلى الموت المحقق . أما في أوقات النوم فإن المرء يغفل عن هذه العملية، وبالتالي يكون مصيره الموت .

أما الواقع فهو غير ذلك، فالجسم يحتوي على آلية للتحكم اللاإرادي في عمل العضلات، وبالتالي ليست هناك ضرورة لكي نتابع نحن عملها ونتحكم فيها .

وكل ما علينا هو أن نحمد الله سبحانه وتعالى على أن منحنا هذه الآليات الخارقة في أجسامنا وأن نعمل على كسب مرضاته عز وجل في هذه الدنيا وأن نخلص له عبوديتنا

ونعمل بما جاء في الآية الكريمة التالية :

ذَلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . (الأنعام، 102)

الانسجام الكامل للعضلات في عملها

هل تعلم أن هناك 17 عضلة في الوجه تتقلص في آن واحد عندما نضحك ؟ ولو لم تتقلص عضلة واحدة منها لما استطعنا الضحك ويصبح وجه الإنسان ذا ملامح غريبة . وتوجد في الوجه 28 عضلة مسؤولة عن تحريك قسمات الوجه . ونستطيع أن نعبر عن مشاعر عديدة جدا من خلال تقليص هذه العضلات، كالغضب والحيرة والفرح والتبسم . وتعمل العضلات الأخرى في الجسم بالتعاون مع بعضها البعض مثلها مثل عضلات الوجه . وعلى سبيل المثال عندما نخطو مجرد خطوة واحدة تبدأ 54 عضلة في العمل مجتمعة في القدم والظهر .

يستطيع الإنسان أن يعبر عن مشاعره التي ترى أمثلة لها في الصور أعلاه بواسطة استخدام عضلات وجهه .

وهكذا مع مئات الأنواع من الحركات التي نمارسها في حياتنا والتي تتحقق بواسطة عضلات الجسم المختلفة . والآن علينا أن نفكر قليلا فيما اطلعنا عليه من المعلومات عن العضلات، فنحن لا نفعل أي شيء من أجل أن تمارس العضلات مهامها بصورة تامة . فلو لم تؤد العضلات مهامها بصورة تامة لعجزنا عن المشي والجري وركوب الدراجة ولعجزنا حتى عن القيام ولو بخطوة واحدة . ولكن يجب أن لا ننسي شيئا مهما وهو أن الله الخالق القدير هو الذي خلق أجسامنا بهذا الكمال، وعلينا أن نشكره ونحمده حق حمده على نعمائه وفضله علينا .

أيدينا التي تنجز جميع الأعمال بمهارة

هناك أعمال عديدة ننجزها باستخدام أيدينا كالإمساك بباب السيارة عندما نركب فيها ، وعندما نقلب صفحات كتاب نقرأه . . . إلخ، وهي أعمال نقوم بها بشكل طبيعي دون أية صعوبة .

ويد الإنسان قوية جدا لدرجة أنها قادرة على تسليط قوة مقدارها 45 كغم على شيء تضربه حتى لو كانت غير مضمومة . وإلى جانب هذه القوة نستطيع أن نستخدم أيدينا في القيام بأعمال غاية في الرقة والدقة كإدخال رأس الخيط في ثقب إبرة الخِياطة . فبينما هناك أعمال تتطلب القوة والشدة، هناك أعمال أخرى تتطلب الدقة . إلا أننا عند قيامنا بهذه الأعمال المختلفة لا نشعر بمدى أهمية اليد التي تستطيع إنجاز جميع هذه الأعمال، أي أننا لا

نفكر أبدا في عملية تسليط قوة مقدارها 500 غم على الورق الموضوع على المنضدة لأخذها بواسطة اليد .

ولا نفكر في تسليط قوة مقدارها 5 كغم على الكرة لأخذها بواسطة اليد أيضا . فكل هذه الأعمال ننجزها بأيدينا دون أن نفكر أو نشعر بالتفاصيل المذهلة التي تصاحبها لأن الله العلي القدير خلقنا على أحسن صورة . فهذه القدرة العجيبة التي نمتلكها في أيدينا واحدة من المعجزات التي أودعها الله عز وجل في أجسامنا .

(250/725)

فهل تعلم عزيزي الطفل أن العلماء بذلوا ومازالوا يبذلون جهودا حثيثة لصنع يد تشبه في قدراتها يد الإنسان الطبيعية ؟ ربما كانت اليد الآلية التي استطاعوا صنعها تشبه في تكوينها يد الإنسان، إلا أن هذه الأيدي الآلية تفتقر إلى حاسة اللمس والقدرة على فعل أعمال عديدة تماما كما تفعل يد الإنسان، وما يزال العلماء يجرون بحوثا لصنع آلية تستطيع إنجاز كافة الأعمال التي تقوم بها يد الإنسان . ويقول المهندس هانز جي . شنيبل الذي صنع يد آلية سماها "يد كارلس روخ" ما يلي :

نستطيع أن نمارس نشاطات عديدة باستخدام أيدينا مثل الكتابة أو تناول الطعام أو غسل

الوجه مثلا . وكل هذه الأعمال نقوم بها دون أية صعوبة . أما الأيدي الصناعية التي صنعها العلماء والمتخصصون بعد أبحاث مضنية فلا تستطيع القيام إلا بأعمال محدودة .

"كلما بذلت جهدا لإنتاج يد آلية زاد إعجابي بيد الإنسان الطبيعية، ومايزال أمامنا وقت طويل جدا لكي نستطيع صنع يد آلية تنجز جزءا مما تنجزه يد الإنسان الطبيعية "

. فيد الإنسان الطبيعية التي تعجز التقنية الحالية عن صنع شبيه لها مخلوقة بقدرة الله تعالى، وهي تعكس الإبداع الإلهي في الخلق . إنه لا خالق سوى الله عز وجل . ويقول الحق سبحانه وتعالى مخاطبا أولئك الغافلين :

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار . (الرعد، 16)

.

.

.

.

0- المكيفات التي تعمل دون توقف داخل أجسامنا

هناك عمل من الأعمال التي نقوم بها يوميا دون أن نشعر وهو التنفس . والتنفس يحدث بواسطة الجهاز التنفسي بما فيه من أعضاء كالقصبة الهوائية الرئتين . ولكن هناك مراحل كثيرة تحدث خلال حدوث عملية التنفس . والتنفس يعني حصول خلايا الجسم على الأكسجين اللازم . فلولا الأكسجين لما استطاعت الخلايا أن تستمر في الحياة . ولهذا السبب لا نستطيع البقاء دون تنفس إلا للحظات معدودة .

وعندما نتنفس تبدأ عملية تنقية الهواء الداخل إلى الأنف الذي يحتوي داخله على شعيرات تعمل مثل المرشحات المنظفة . وتتولى هذه الشعيرات تحويل الهواء الحار أو البارد أو الرطب إلى هواء ملائم قبل دخوله إلى الرئتين، فبواسطة هذه الشعيرات يتم تنظيف الهواء وترشيحه وترطيبه وحتى تدفئته إن لزم الأمر وإبعاد البكتيريا عنه قبل ذهابه إلى الرئتين .

ويستطيع جسم الإنسان بواسطة هذه الشعيرات الأنفية أن يزيل ما يقارب الـ 20 مليون جسيم غريب يوميا خلال التنفس .

إنّ هذا العدد الهائل أكثر بثلاث مرات تقريبا من عدد سكان استانبول أكثر المدن ازدحاما

في تركيا ، فقدرة الأنف على تمييز وتشخيص مثل هذا العدد الهائل من المواد أمر عجيب حقا . وليس من المصادفة أن يتم تمييز هذا العدد الهائل من المواد وحجزه دون الجسم من قبل الأنف .

إن هذه الحقيقة تعكس لنا قدرة الله عز وجل على الخلق والإبداع والتصوير، إلا أن هناك البعض يعتقد أن هذا الأمر إنما حدث بطريق المصادفة بالرغم من معرفته بهذه التفاصيل . وهؤلاء يؤمنون بنظرية التطور التي ترى بأن الكائنات الحية ومن بينها الإنسان – بما رأيناه من مظاهر الإعجاز الموجودة في جسمه – قد ظهرت في ويوم الأيام بمحض المصادفة ومن تلقاء نفسها .

(252/725)

ترى لماذا يفكرون مثل هذا التفكير ؟ ذلك لأن تبنيهم نظرية التطور أو المصادفة هو طريقهم الوحيد لإنكار وجود الله سبحانه وتعالى . ولكن قليلا من التفكير يكفي أن نثبت سذاجة نظريتهم تلك . وهلم معا نتناول النظام الدقيق الذي يحتوي عليه أنف الإنسان لنرَ سذاجة نظرية التطور .

يحتوى جهاز التنفس لدى الإنسان على آلية لتكييف الهواء الذي نتنفسه أرقى بكثير من

أفضل أجهزة التكييف في العالم .

إنّ نظام التكييف الموجود في أنف الإنسان يعتبر واحدا من الأنظمة الخارقة التي تعمل في أجسامنا . ومن المستحيل أن يظهر هذا النظام الدقيق بمحض المصادفة . ولفهم هذا الموضوع علينا أن نجري المقارنة التالية . لنفترض أن هناك جهازا للتكييف، فهل من الممكن لمثل هذا الجهاز الذي يقينا البرد أثناء الشتاء والحرّ في الصيف، ويعمل بواسطة جهاز التحكم عن بعد أن يظهر فجأة من تلقاء نفسه ؟ وهل يمكن لأجزاء هذا الجهاز أن تجتمع تلقائيا لتشكل جهازا للتكييف فيما إذا تركت لوحدها ؟

بالطبع لا، ينبغي أن يوجد عقل مفكر يضع تصاميم ومخططات لتركيب الجهاز، ولا يمكن أن نفكر في احتمال آخر غير ذلك . ونحن نحتاج إلى العقل ليس في صنع الأجهزة فقط، وإنما في لعبة الصور المجزأة أيضا . فلولا وجود العقل ما استطاع أي لاعب أن يجمع الأجزاء ليشكل منها صورة مقبولة . فجهاز التكييف وكذلك الأنف يتألف من أجزاء عديدة، وهو جهاز أرقى من أفضل أجهزة التكييف التي نعرفها في وقتنا الحالي . فمثلما يستحيل ظهور جهاز التكييف من تلقاء نفسه، يستحيل أيضا أن يظهر جهاز التكييف في أنف الإنسان من تلقاء نفسه . وهذا يثبت لنا أن أنف الإنسان، بما فيه من جهاز للتكييف يستحيل تقليده صناعيا – مخلوق بقدرة الله عز وجل . يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم :

هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (الحشر، 24)

الشعيرات الموجودة في القصبة الهوائية القادرة على تحديد الاتجاه

يتوجه الهواء بعد تنقيته في الأنف إلى الأجزاء الأخرى ونحو الأسفل أي إلى القصبة الهوائية، ولكن الهواء ما يزال يحتوي في هذه المرحلة على دقائق الغبار التي تكون ضارة بالنسبة إلى الجسم، لذلك ينبغي تنقية الهواء مرة أخرى قبل وصوله إلى الرئتين . ويتولى الغشاء المخاطي المبطن للقصبة الهوائية هذه المهمة .

إن المادة المخاطية التي يتألف منها الغشاء تلتصق بها دقائق الغبار الموجودة في الهواء الذي نتنفسه، وبالتالي تمنع انتقالها إلى الرئتين . ولكن الغشاء المخاطي ليس كافيا لالتقاط هذه الدقائق من الغبار . فينبغي دفع هذه الدقائق المتراكمة خارج الجسم . وهناك نظام آخر يتولى هذه المهمة، ويتألف من شعيرات دقيقة توجد في باطن القصبة الهوائية . وهذه الشعيرات تتحرك باستمرار نحو الأعلي أي نحو الفم . وتشبه حركتها تموجات سنابل القمح عندما تهب عليها الريح . وبفعل الحركة التموجية التي تقوم بها هذه الشعيرات يتم دفع الجسيمات الغريبة المتراكمة في القصبة الهوائية نحو الأعلى .

يرى في الصورة مقطع عرضي للقصبة الهوائية . وكما يتضح من الصورة تقوم الشعيرات المبطنة للقصبة الهوائية بالإمساك بكل الأجسام الغريبة التي قد تسبب لنا الأضرار .

(254/725)

وعندما تصل هذه الجسيمات المطرودة إلى الفم نشعر بحاجة إلى البلع، ومن ثم تجد طريقها إلى المعدة التي تذيبها بفعل إفرازاتها الحامضية . ولا تملك هذه الشعيرات الموجودة في القصبة الهوائية عيونا لترى بها ولا عقلا لتفكر به، ولكنها تستطيع بدقة تحديد اتجاه وجود البلعوم الذي يبعد عنها كيلومترات عديدة باستخدام المقاييس الدقيقة بالإضافة إلى أنها قادرة على تحديد هوية الجسيمات الضارة بالجسم وتمنعها من دخوله .

وبالرغم من الأبحاث المضنية التي يبذلها العلماء لمعرفة كيفية عمل هذه الشعيرات إلا أن الذي تم التوصل إليه ما يزال خطوة في بداية الطريق . وينبغي أن لا ننسى بأن هذه الشعيرات موجودة في جسم الإنسان إلى جانب الأجهزة الأخرى منذ وجد الإنسان على وجه الأرض .

لماذا يحمل الهواء الذي نتنفسه هذه الأهمية البالغة ؟ لماذا يتعرض الإنسان للموت عندما تتوقف عملية التنفس لمدة معينة ؟ ونستطيع أن نجيب على هذه الأسئلة كما يلي : يعتبر

الأكسجين المادة الأساسية اللازمة للجسم، فعضلات يدك عزيزي الطفل التي تمسك بها الكتاب في حاجة إلى أكسجين كي تمارس وظيفتها ، ولذلك فإننا بحاجة إلى التنفس لتوفير الأكسجين لخلايا الجسم .

الهواء الذي تنفسناه أصبح داخل الرئتين . . .

يجد الهواء الذي تتنفسه طريقه إلى الرئتين بعد تنقيته وترطيبه عند مروره بالقصبة الهوائية، ويجد الأكسجين طريقه من الرئتين إلى مختلف خلايا الجسم عبر جهاز الدوران . ويتولى جهاز الدوران أيضا ، من بين وظائفه العديدة، جمع ثاني أوكسيد الكربون الذي يظهر كفظلات من الخلايا الجسمية، ومن ثم يجد ثاني أوكسيد الكربون طريقه إلى الرئتين بواسطة جهاز الدوران . وبعدها يتم طرحه إلى الخارج بواسطة الزفير .

(255/725)

ربما تظنون أعزائي الأطفال أن عملية التنفس بسيطة جدا ، ولكنها في الحقيقة تمر بمراحل عديدة من بينها عملية التبادل الغازي في مختلف أنحاء الجسم . أي تبادل الأوكسجين وثاني أوكسيد الكربون للمواقع داخل خلايا الجسم . فكل هذه الفعاليات الحيوية تجري بواسطة أجهزة جسمية خلقها الله عز وجل وسخرها لنا ، إنها من بين النعم التي لا تحصي

.

وفكروا قليلا فيما لو أصبحتم تتحكمون في عملية التنفس، ففي هذه الحالة لا يكون لديكم عمل سوى ضبط إيقاع التنفس ضبطا دقيقا ، و إلا فإن أي إهمال سيكون نتيجته الهلاك . فالله عز وجل خلقنا ويعلم مدى عجزنا عن التحكم في هذه الفعاليات الحيوية، لذلك خلق لنا الأجهزة الجسمية الدقيقة التي تحدثنا عن بعضها في ثنايا هذا الكتاب . ولا شك أن جهاز التنفس هو من أعظم نعم الله على الإنسان . يقول الله عز وجل :

وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ . (إبراهيم، الآية 34)

.

.

.

.

0- ختاما

لقد شرحنا في هذا الكتاب، بإعطاء الكثير جدا من الأمثلة، كم أن هناك الكثير من العمليات التي تتم في جسمنا دون أن ندركها . فكل عضو من أعضاء جسمنا وكل خلية من خلايانا تعمل في نفس اللحظة بسرعة لا يتصورها العقل وبكل كمال . جميعها يؤدي

وظيفته المحددة له في توافق عظيم . يحمل الدم باستمرار الأغذية الأساسية التي تحتاجها الخلايا . وتقوم كل من المعدة والأمعاء بتفتيت هذه الأغذية الأساسية بحيث تتمكن الخلايا من الاستفادة منها . وترسل خلايا الأعصاب التنبيهات لكل مكان في الجسم . ويقوم عقلنا بتقييم هذه التنبيهات ونحن نرى، ونشعر، ونتذوق، ونسمع، وتتحقق العديد من الفعاليات المشابهة لهؤلاء .

(256/725)

وعندما تتعطل إحدى هذه العمليات؛ يحدث خلل كبير في نظام عمل الجسم . ولو تلفت خلايا الأعصاب، لعجزت يدنا وذراعنا عن الإمساك بالأشياء؛ ولو تتلف خلايا المعدة لفقدنا الشعور بطعم فطيرة الشيكولاتة، والبرتقال، والموز، والغُرّيبة التي نأكلها . إلا أنه لا يحدث أي من تلك الأشياء باستثناء بعض الحالات المرضية الخاصة . ويواصل جسمنا عمله بتوافق ودون توقف على الإطلاق بينما نحن نمارس حياتنا اليومية . لا بد وأن هناك مسببا لهذا الكمال المستمر في كل لحظة في حياتنا . ليس هناك شيء على الإطلاق يستطيع العمل من نفسه بآلية كاملة بهذا القدر .

إن هناك مصمما، ومنتجا للتلفاز، والثلاجة، والحاسوب الموجود في بيتكم، وللأقلام التي

تستخدمونها عند الكتابة؛ وبإيجاز لكل شيء . لا تستطيع طائرة، أو سيارة أن تكون من نفسها، وتعمل بنفسها . إن المهندسين الذين حققوا عمل هذه الأشياء دون قصور، وصمموها، وأنتجوها؛ هم تقنيون . وفي هذه الحالة فإنه من المستحيل بشكل قاطع أن تحدث بطريق المصادفة جميع الأنظمة دون نقص مثل جسم الإنسان .

وهنا سيخطر ببالكم أيضا تساؤل: "في هذه الحالة كيف يمكن أن يفكر بعض الناس أن أجسامهم نفسها تعمل على هذا النحو نتيجة مجموعة من المصادفات؟" حقا إن هذا أكثر زعم خروجا على المنطق يمكن طرحه على الساحة . إنه من المستحيل أن يتكون مصادفةً النظام المثالي الذي في جسمنا . هذا الكمال يبين لنا أن ثمة حكيما صمم جسمنا . إن جسمنا أثر من آثار خالق عظيم جدا . هذا الخالق العظيم هو الله ربنا . يخبرنا الله في القرآن أنه حليم جدا بنا نحن عباده . ويجب علينا نحن أيضا أن نخضع لله أمام حلمه ورحمته هذه، ونؤدي ما أمرنا به في القرآن دون نقص، ونشكره دائما من أجل جميع النعم التي منحنا إياها . ويخاطبنا الله تعالى في إحدى آياته قائلا:

ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . (سورة الأنعام 102)

(258/725)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والعشرون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/726)

الجزء السادس والعشرون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 24 ﴾ من سورة الذاريات

وحتى الآية ﴿ 55 ﴾ من السورة

(4/726)

قوله تعالى ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (27) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين بما مضى من القسم وما أتبعه من أنه أودع في السماوات والأرض وما بينهما أسباباً صالحة للإتيان بما وعدناه من الخير ، وما توعدنا به من الشر وإن كنا لم نرها وهو قادر مختار ، فصار ذلك كالمشاهد ، ولا وجه للتكذيب بوعد ولا وعيد ، دل عليه وصوره بما شوهد من أحوال الأمم وبدأ – لأن السياق للمحسنين – برأس المحسنين من أهل هذه الأنباء الذي أخبرته الملائكة عليهم السلام بما سببه معه وإن كان على غير العادة .

(5/726)

فتعجب زوجته من ذلك مع كونها أعلى نساء ذلك الزمان ، وأتبع قصته قصة لوط ابن أخيه عليهما السلام لاتصال ما بين قصتيهما في الزمان ، ولمناسبة عذابهم لما أقسم به في أول السورة ، فإنه سبحانه أمر الذاريات فاقتلعتهم بقراهم وحملتها كما تحمل السحاب ثم كبتهم فرجمتهم ، والأرض فخسفت بهم ، والملائكة الموكلة بمثل ذلك ، ففعلوا جميع ما أمروا به ورأوهم في قريتهم وقصدوهم بالمكر لأنهم خفي عليهم أمرهم ، وأتوا الخليل عليه السلام وهو أعلى ذلك الزمان وهم في ذلك ولم يعلم أول الأمر بشيء من حالهم ولا ظنهم إلا آدميين ، فقال مفخماً لأمر القصة بتخصيص الخطاب لأعلى الخلق وأنفذهم فهما إشارة إلى أنه لا يفهم هذا حق فهمه سواه على طريق الاستفهام على عادة العرب في الإعلام بالأمور

الماضية وإن كان المخبر عالماً بأن المخاطب لا علم له بذلك لأن المقصود ليس إلا التنبيه على أن ذلك الأمر مما ينبغي الاهتمام به والبحث فيه ليعرف ما فيه ، من الأمور الجليلة ؛ قال أبو حيان : تقرير لتجتمع نفس المخاطب كما تبدأ المرء إذا أردت أن تحدثه بعجيب فتقرره : هل سمعت ذلك أم لا ؟ فكأنك تقتضي بأن يقول : لا ، ويستطعمك الحديث - انتهى .

(6/726)

﴿ هل أتاك ﴾ يا أكمل الخلق ﴿ حديث ضيف ﴾ عبر عنهم بلفظ الواحد إشارة إلى اتحاد كلمتهم ﴿ إبراهيم ﴾ وهو خليلنا ، ودل على أنه لم يعرف شيئاً مما أتوا به دالاًّ على أنهم جمع ﴿ المكرمين ﴾ أي الذين هم أهل الكرامة ، وأكرمهم إبراهيم عليه السلام بقوله وفعله ، ففي حديثه ذلك آية بينة على ما بين في هذه السورة من قدرة الله تعالى وصدق وعده ووعيده ، مع ما فيه من التسلية لك ولمن تبعك ، والبشارة بإكرام المصدق وإهانة المكذب ، قال القشيري : وقيل : كان عددهم اثني عشر ملكاً ، وقيل : جبريل عليه السلام ، وكان معه تسعة ، وقيل : كانوا ثلاثة : ﴿ إذ ﴾ أي حديثهم حين ﴿ دخلوا عليه ﴾ أي دخول استعلاء مخالف لدخول بقية الضيوف ﴿ فقالوا سلاماً ﴾ أي نحدث ، ثم استأنف الأخبار عن جوابه بقوله : ﴿ قال ﴾ أي بلسانه : ﴿ سلام ﴾ أي ثابت دائم ، فهو أحسن

من تحيتهم .

ولما كان ما ذكر من دخولهم وسلامهم غير مستغرب عند المخاطبين بهذا ، وكانت القصة قد ابتدئت بما دل على غرابة ما يقص منها ، تشوف السامع إلى ما كان بعد هذا فأجيب بقوله : ﴿ قوم ﴾ أي ذوو قوة على ما يحاولونه ويقومون فيه ﴿ منكرون ﴾ أي حالهم لإلباسه أهل لأن ينكره المنكر ، وقدم هذا على موضعه الذي كان أليق به فيما يظهر بادي الرأي ، وإيضاحاً لأن السياق لخفاء الأسباب على الآدمي وبعدها وإن كانت في غاية الظهور والقرب ولو أنه غاية العلو فإن إنكاره لهم كان متأخراً عن إحضار الأكل لكونهم لم يأكلوا ، وهذا القول كان في نفسه ولم يواجههم به .

(7/726)

ولما أشار إلى أنه حين إنكاره لهم لم يعرف من أي نوع هم ولا خصوص ما هم فيه ، رتب على رده لسلامهم أنه أسرع غاية الإسراع في إحضار ما ينبغي للضيف على ظن أنهم آدميون فقال : ﴿ فراغ ﴾ أي ذهب في خفية وخفة ومواضع سترة عن أعينهم كما هو من آداب الضيافة خوفاً من أن يمنعوه أو يكدر عليهم الانتظار : ﴿ إلى أهله ﴾ أي الذين عندهم بقرة ﴿ فجاء بعجل ﴾ أي فتى من أولاد البقر ﴿ سمين ﴾ قد شواه وأنضجه ﴿ فقربه

إليهم ﴾ ولما أخبر بما ينبغي الإخبار به من أمر الضيافة إلا الأكل ، كان من المعلوم أن التقدير : فكان كأنه قيل : فماذا قال لهم حين لم يأكلوا ؟ قيل : ﴿ قال ﴾ أي متأدباً غاية التأدب ملوحاً بالإنكار : ﴿ ألا تأكلون ﴾ أي منه .

ولما كان كأنه قيل : فلم يأكلوا ، سبب عنه قوله : ﴿ فأوجس ﴾ أي أضمر إضمار الحال في جميع سره ﴿ منهم خيفة ﴾ لأجل إنكاره عدم أكلهم فإنه لما رأى إعراضهم عن الطعام ذهب وهمه في سبب إتيانهم إليه كل مذهب ﴿ قالوا ﴾ مؤنسين له : ﴿ لا تخف ﴾ وأعلموه بأنهم رسل الله ﴿ وبشروه بغلام ﴾ على شيخوخته ويأس امرأته بالطعن في السن بعد عقمها ، وهو إسحاق عليه السلام .

ولما كان السياق لخفاء الأسباب كان في الذروة وصفه بقوله : ﴿ عليم ﴾ أي مجبول جبلة مهيأة للعلم ولا يموت حتى يظهر علمه بالفعل في أوانه .

(8/726)

ولما كانا بعيدين عن قبول الولد ، تسبب عن ذلك قوله ، دالاًّ على أن الولد إسحاق مع الدلالة على أن خفاء الأسباب لا يؤثر في وجود المسببات : ﴿ فأقبلت ﴾ أي من سماع هذا الكلام ﴿ امرأته ﴾ ولما كانت قد امتلأت عجباً ، عبر بالظرف فقال : ﴿ في صرة ﴾

أي صيحة وكرب من الصرير قد أحاط بها ، فذهب وهمهما في ذلك كل مذهب ﴿ فصكت ﴾ أي ضربت بسبب تعجبها بأطراف أناملها فعل المتعجب ﴿ وجهها ﴾ لتلاشي أسباب الولد في علمها بسبب العادة مع معرفتها بأن العبرة في الأسباب وإن كانت سليمة بالمسبب لا بها ، قال البغوي : وأصل الصك ضرب الشيء بالشيء العريض ﴿ وقالت ﴾ تريد أن تستبين الأمر هل الولد منها أم من غيرها : ﴿ عجوز ﴾ ومع العجز ﴿ عقيم ﴾ فهي في حال شبابها لم تكن تقبل الحبل ، قال القشيري رحمه الله تعالى : قيل : إنها كانت يومئذ ابنة ثمان وتسعين سنة .

ولما كان في هذا أشد تشوف إلى الجواب ، استأنف تعالى الجواب بقوله : ﴿ قالوا كذلك ﴾ أي مثل ما قلناه من هذه البشرى العظيمة ﴿ قال ربك ﴾ أي المحسن إليك بتأهيلك لذلك على ما ذكرت من حالك وبتأهيلك من قبل الاتصال بخليله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ولما كان محط تعجبها أن ذلك كان بأيام شبابها أولى ، عللوا إخبارهم تأكيداً له مؤكدين لأن قولها وفعلها فعل المنكر وإن كانت ما أرادت به إلا الاستثبات : ﴿ إنه هو ﴾ أي وحده ﴿ العليم ﴾ الذي يضع الأشياء في أحق مواضعها فرتب عظمة هذا المولود على كل من عقمك وعجزك ؛ ثم عللوا ذلك بقولهم : ﴿ الحكيم ﴾ أي المحيط العلم فهو كذلك لا يعجزه شيء لما تقدم من البرهان في سورة طه أن إحاطة العلم مستلزم شمول القدرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 278 ـ 280 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) ﴾

إشارة إلى تسلية قلب النبي صلى الله عليه وسلم ببيان أن غيره من الأنبياء عليهم السلام كان مثله ، واختار إبراهيم لكونه شيخ المرسلين كون النبي عليه الصلاة والسلام على سنته في بعض الأشياء ، وإنذار لقومه بما جرى من الضيف ، ومن إنزال الحجارة على المذنبين المضلين ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

إذا كان المراد ما ذكرت من التسلية والإنذار فأي فائدة في حكاية الضيافة ؟ نقول ليكون ذلك إشارة إلى الفرج في حق الأنبياء ، والبلاء على الجهلة والأغبياء ، إذا جاءهم من حيث لا يحتسب .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ [الحشر : 2] فلم يكن عند إبراهيم عليه السلام خبر من إنزال العذاب مع ارتفاع مكانته .

المسألة الثانية :

كيف سماهم ضيفاً ولم يكونوا ؟ نقول لما حسبهم إبراهيم عليه السلام ضيفاً لم يكذبه الله تعالى في حسابه إكراماً له ، يقال في كلمات المحققين الصادق يكون ما يقول ، والصديق يقول ما يكون .

المسألة الثالثة :

ضيف لفظ واحد والمكرمين جمع ، فكيف وصف الواحد بالجمع ؟ نقول الضيف يقع على القوم ، يقال قوم ضيف ولأنه مصدر فيكون كلفظ الرزق مصدراً ، وإنما وصفهم بالمكرمين إما لكونهم عباداً مكرمين كما قال تعالى : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 26] وإما لإكرام إبراهيم عليه السلام إياهم ، فإن قيل : بماذا أكرمهم ؟ قلنا ببشاشة الوجه أولاً ، وبالإجلاس في أحسن المواضع وألطفها ثانياً ، وتعجيل القرى ثالثاً ، وبعد التكليف للضيف بالأكل والجلوس وكانوا عدة من الملائكة في قول ثلاثة جبريل وميكائيل وثالث ، وفي قول عشرة ، وفي آخر اثنا عشرة .

المسألة الرابعة :

هم أرسلوا للعذاب بدليل قولهم : ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ [الذاريات : 32]

وهم لم يكونوا من قوم إبراهيم عليه السلام ، وإنما كانوا من قوم لوط فما الحكمة في مجيئهم إلى إبراهيم عليه السلام ؟ نقول فيه حكمة بالغة ، وبيانها من وجهين .

أحدهما : أن إبراهيم عليه السلام شيخ المرسلين وكان لوط من قومه ومن إكرام الملك للذي في عهدته وتحت طاعته إذا كان يرسل رسول إلى غيره يقول له اعبر على فلان الملك وأخبره برسالتك وخذ فيها رأيه .

وثانيهما : هو أن الله تعالى لما قدر أن يهلك قوماً كثيراً وجماً غفيراً ، وكان ذلك مما يحزن إبراهيم عليه السلام شفقة منه على عباده قال لهم بشروه بغلام يخرج من صلبه أضعاف ما يهلك ، ويكون من صلبه خروج الأنبياء عليهم السلام .

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما العامل في إذ ؟ فيه وجوه .

أحدها : ما في المكرمين من الإشارة إلى الفعل إن قلنا وصفهم بكونهم مكرمين بناء على أن إبراهيم عليه السلام أكرمهم فيكون كأنه تعالى يقول : أكرموا إذ دخلوا ، وهذا من شأن الكريم أن يكرم ضيفه وقت الدخول .

ثانيها : ما في الضيف من الدلالة على الفعل ، لأنا قلنا إن الضيف مصدر فيكون كأنه يقول : أضافهم إذ دخلوا .

وثالثها : يحتمل أن يكون العامل فيه أتاك تقديره ما أتاك حديثهم وقت دخولهم ، فاسمع الآن ذلك ، لأن هل ليس للاستفهام في هذا الموضع حقيقة بل للإعلام ، وهذا أولى لأنه فعل مصرّح به ، ويحتمل أن يقال اذكر إذ دخلوا .

المسألة الثانية :

لماذا اختلف إعراب السلامين في القراءة المشهورة ؟ نقول : نبين أولاً وجوه النصب والرفع ، ثم نبيّن وجوه الاختلاف في الإعراب ، أما النصب فيحتمل وجوهاً :

أحدها : أن يكون المراد من السلام هو التحية وهو المشهور ، ونصبه حينئذ على المصدر تقديره نسلم سلاماً .

(11/726)

ثانيها : هو أن يكون السلام نوعاً من أنواع الكلام وهو كلام سلم به المتكلم من أن يلغو أو يأثم فكأنهم لما دخلوا عليه فقالوا حسناً سلموا من الإثم ، وحينئذ يكون مفعولاً للقول لأن مفعول القول هو الكلام ، يقال قال فلان كلاماً ، ولا يكون هذا من باب ضربه سوطاً لأن

المضروب هناك ليس هو السوط ، وههنا القول هو الكلام فسره قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] وقوله تعالى : ﴿ قِيلاً سلاما سلاما ﴾ [الواقعة : 21] .

(12/726)

ثالثها : أن يكون مفعول فعل محذوف تقديره نبلغك سلاماً ، لا يقال على هذا إن المراد لو كان ذلك لعلم كونهم رسل الله عند السلام فما كان يقول : ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ ولا كان يقرب إليهم الطعام ، ولما قال : ﴿ نَكِرَهُمْ وأوجس ﴾ [هود : 70] لأنا نقول جاز أن يقال إنهم قالوا : نبلغك سلاماً ولم يقولوا من الله تعالى إلى أن سألهم إبراهيم عليه السلام ممن تبلغون لي السلام ، وذلك لأن الحكيم لا يأتي بالأمر العظيم إلا بالتدريج فلما كانت هيبتهم عظيمة ، فلو ضموا إليه الأمر العظيم الذي هو السلام من الله تعالى لانزعج إبراهيم عليه السلام ، ثم إن إبراهيم عليه السلام اشتغل بإكرامهم عن سؤالهم وآخر السؤال إلى حين الفراغ فنكرهم بين السلام والسؤال عمن منه السلام هذا وجه النصب ، وأما الرفع فنقول يحتمل أن المراد منه السلام الذي هو التحية وهو المشهور أيضاً ، وحينئذ يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره سلام عليكم ، وكون المبتدأ نكرة يحتمل في قول القائل سلام عليكم وويل له ، أو خبر مبتدأ

محذوف تقديره قال جوابه سلام ، ويحتمل أن يكون المراد قولاً يسلم به أو ينبىء عن السلامة فيكون خبر مبتدأ محذوف تقديره أمري سلام بمعنى مسالمة لا تعلق بيني وبينكم لأني لا أعرفكم ، أو يكون المبتدأ قولكم ، وتقديره قولكم سلام ينبىء عن السلامة وأنتم قوم منكرون فما خطبكم فإن الأمر أشكل عليَّ وهذا ما يحتمل أن يقال في النصب والرفع ، وأما الفرق فنقول أما على التفسير المشهور وهو أن السلام في الموضعين بمعنى التحية فنقول الفرق بينهما من حيث اللفظ ومن حيث المعنى .

(13/726)

أما من حيث اللفظ : فنقول سلام عليك إنما جوز واستحسن لكونه مبتدأ وهو نكرة ، من حيث إنه كالمتروك على أصله لأن الأصل أن يكون منصوباً على تقدير أسلم سلاماً وعليك يكون لبيان من أريد بالسلام ، ولا يكون لعليك حظ من المعنى غير ذلك البيان فيكون كالخارج عن الكلام ، والكلام التام أسلم سلاماً ، كما أنك تقول ضربت زيداً على السطح يكون على السطح خارجاً عن الفعل والفاعل والمفعول لبيان مجرد الظرفية ، فإذا كان الأمر كذلك وكان السلام والأدعية كثير الوقوع ، قالوا نعدل عن الجملة الفعلية إلى الإسمية ونجعل لعليك حظاً في الكلام ، فنقول سلام عليك ، فتصير عليك لفائدة لا بد منها

، وهي الخبرية ، ويترك السلام نكرة كما كان حال النصب ، إذا علم هذا فالنصب أصل والرفع مأخوذ منه ، والأصل مقدم على المأخوذ منه ، فقال : ﴿ قَالُواْ سلاما قَالَ سلام ﴾ قدم الأصل على المتفرع منه .

(14/726)

وأما من حيث المعنى : فذلك لأن إبراهيم عليه السلام أراد أن يرد عليهم بالأحسن ، فأتى بالجملة الإسمية فإنها أدل على الدوام والاستمرار ، فإن قولنا جلس زيد لا ينبىء عنه لأن الفعل لا بد فيه من الإنباء عن التجدد والحدوث ولهذا لو قلت : الله موجود الآن لأثبت العقل الدوام إذ لا ينبىء عن التجدد ، ولو قال قائل : وجد الله الآن لكاد ينكره العاقل لما بينا فلما قالوا : سلاماً قال : سلام عليكم مستمر دائم ، وأما على قولنا المراد القول ذو السلامة فظاهر الفرق ، فإنهم قالوا قولاً ذا سلام ، وقال لهم إبراهيم عليه السلام : سلام أي قولكم ذو سلام وأنتم قوم منكرون فالتبس الأمر عليّ ، وإن قلنا المراد أمر مسالمة ومتاركة وهم سلموا عليه تسليماً ، فنقول فيه جمع بين أمرين : تعظيم جانب الله ، ورعاية قلب عباد الله ، فإنه لو قال : سلام عليكم وهو لم يعلم كونهم من عباد الله الصالحين كان يجوز أن يكونوا على غير ذلك ، فيكون الرسول قد أمنهم ، فإن السلام أمان وأمان الرسول أمان

المرسل فيكون فاعلاً للأمر من غير إذن الله نيابة عن الله فقال : أنتم سلمتم عليّ وأنا متوقف أمري متاركة لا تعلق بيننا إلى أن يتبين الحال ويدل على هذا هو أن الله تعالى قال : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] وقال في مثل هذا المعنى للنبي صلى الله عليه وسلم :

(15/726)

﴿ فاصفح عَنْهُمْ وَقُلْ سلام ﴾ [الزخرف : 89] ولم يقل قل سلاماً ، وذلك لأن الأخيار المذكورين في القرآن لو سلموا على الجاهلين لا يكون ذلك سبباً لحرمة التعرض إليهم ، وأما النبي صلى الله عليه وسلم لو سلم عليهم لصار ذلك سبباً لحرمة التعرض إليهم ، فقال : قل سلام أي أمري معكم متاركة تركناه إلى أن يأتي أمر الله بأمر ، وأما على قولنا بمعنى نبلغ سلاماً فنقول هم لما قالوا نبلغك سلاماً ولم يعلم إبراهيم عليه السلام أنه ممن قال سلام أي إن كان من الله فإن هذا منه قد ازداد به شرفي وإلا فقد بلغني منه سلام وبه شرفي ولا أتشرف بسلام غيره ، وهذا ما يمكن أن يقال فيه ، والله أعلم بمراده الأول والثاني عليهما الاعتماد فإنهما أقوى وقد قيل بهما .

المسألة الثالثة :

قال في سورة هود : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ [هود : 70] فدل على أن إنكارهم كان حاصلاً بعد تقريبه العجل منهم وقال ههنا : ﴿ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ . فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (27)

(16/726)

بفاء التعقيب فدل على أن تقريب الطعام منهم بعد حصول الإنكار لهم ، فما الوجه فيه ؟ نقول : جاز أن يحصل أولاً عنده منهم نكر ثم زاد عند إمساكهم ، والذي يدل على هذا هو أنهم كانوا على شكل وهيئة غير ما يكون عليه الناس وكانوا في أنفسهم عند كل أحد منكرين ، واشترك إبراهيم عليه السلام وغيره فيه ولهذا لم يقل أنكرتكم بل قال : أنتم منكرون في أنفسكم عند كل أحد منا ، ثم إن إبراهيم عليه السلام تفرد بمشاهدة أمر منهم هو الإمساك فنكرهم فوق ما كان منهم بالنسبة إلى الكل لكن الحالة في سورة هود محكية على وجه أبسط مما ذكره ههنا ، فإن ههنا لم يبين المبشر به ، وهناك ذكر باسمه وهو إسحاق ، ولم يقل ههنا إن القوم قوم من وهناك قال قوم لوط ، وفي الجملة من يتأمل السورتين يعلم أن الحكاية محكية هناك على وجه الإضافة أبسط ، فذكر فيها النكتة الزائدة ، ولم يذكر ههنا ولنعد إلى بيان ما أتى به من آداب الإضافة وما أتوا به من آداب الضيافة ،

فالإكرام أولاً ممن جاءه ضيف قبل أن يجتمع به ويسلم أحدهما على الآخر أنواع من الإكرام وهي اللقاء الحسن والخروج إليه والتهيؤ له ثم السلام من الضيف على الوجه الحسن الذي دل عليه النصب في قوله : ﴿ سَلاَماً ﴾ إما لكونه مؤكداً بالمصدر أو لكونه مبلغاً ممن هو أعظم منه ، ثم الرد الحسن الذي دل عليه الرفع والإمساك عن الكلام لا يكون فيه وفاء إن إبراهيم عليه السلام لم يقل سلام عليكم بل قال أمري مسالمة أو قولكم سلام وسلامكم منكر فإن ذلك وإن كان مخلاً بالإكرام ، لكن العذر ليس من شيم الكرام ومودة أعداء الله لا تليق بالأنبياء عليهم السلام ثم تعجيل القرى الذي دل عليه قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء ﴾ [هود : 69] وقوله ههنا : ﴿ فَرَاغَ ﴾ فإن الروغان يدل على السرعة والروغ الذي بمعنى النظر الخفي أو الرواح المخفي أيضاً كذلك ، ثم الإخفاء فإن المضيف إذا أحضر شيئاً ينبغي أن يخفيه عن الضيف كي لا يمنعه من

(17/726)

الإحضار بنفسه حيث راغ هو ولم يقل هاتوا ، وغيبة المضيف لحظة من الضيف مستحسن ليستريح ويأتي بدفع ما يحتاج إليه ويمنعه الحياء منه ثم اختيار الأجود بقوله : ﴿ سَمِينٍ ﴾ ثم تقديم الطعام إليهم لا نقلهم إلى الطعام بقوله : ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ لأن من قدم

الطعام إلى قوم يكون كل واحد مستقراً في مقره لا يختلف عليه المكان فإن نقلهم إلى مكان الطعام ربما يحصل هناك اختلاف جلوس فيقرب الأدنى ويضيق على الأعلى ثم العرض لا الأمر حيث قال : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ولم يقل كلوا ثم كون المضيف مسروراً بأكلهم غير مسرور بتركهم الطعام كما يوجد في بعض البخلاء المتكلفين الذين يحضرون طعاماً كثيراً ويكون نظره ونظر أهل بيته في الطعام متى يمسك الضيف يده عنه ، يدل عليه قوله تعالى : فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28)

ثم أدب الضيف أنه إذا أكل حفظ حق المؤاكلة ، يدل عليه أنه خافهم حيث لم يأكلوا ، ثم وجوب إظهار العذر عند الإمساك يدل عليه قوله : ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ ثم تحسين العبارة في العذر وذلك لأن من يكون محتمياً وأحضر لديه الطعام فهناك أمران .

أحدهما : أن الطعام لا يصلح له لكونه مضراً به .

(18/726)

الثاني : كونه ضعيف القوة عن هضم ذلك الطعام فينبغي أن لا يقول الضيف هذا طعام غليظ لا يصلح لي بل الحسن أن يأتي بالعبارة الأخرى ويقول : لي مانع من أكل الطعام وفي بيتي لا آكل أيضاً شيئاً ، يدل عليه قوله : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بغلام ﴾ حيث فهموه أنهم ليسوا ممن يأكلون

ولم يقولوا لا يصلح لنا الطعام والشراب ، ثم أدب آخر في البشارة أن لا يخبر الإنسان بما يسره دفعة فإنه يورث مرضاً يدل عليه أنهم جلسوا واستأنس بهم إبراهيم عليه السلام ثم قالوا نبشرك ثم ذكروا أشرف النوعين وهو الذكر ولم يقتنعوا به حتى وصفوه بأحسن الأوصاف فإن الابن يكون دون البنت إذا كانت البنت كاملة الخلقة حسنة الخلق والابن بالضد ، ثم إنهم تركوا سائر الأوصاف من الحسن والجمال والقوة والسلامة واختاروا العلم إشارة إلى أن العلم رأس الأوصاف ورئيس النعوت ، وقد ذكرنا فائدة تقديم البشارة على الإخبار عن إهلاكهم قوم لوط ، ليعلم أن الله تعالى يهلكهم إلى خلف ، ويأتي ببدلهم خيراً منهم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امرأته فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عجوزٌ عَقِيمٌ ﴾ .

أي أقبلت على أهلها ، وذلك لأنها كانت في خدمتهم ، فلما تكلموا مع زوجها بولادتها استحيت وأعرضت عنهم ، فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الإقبال على الأهل ، ولم يقل بلفظ الإدبار عن الملائكة ، وقوله تعالى : ﴿ فِى صَرَّةٍ ﴾ أي صيحة ، كما جرت عادة النساء حيث يسمعن شيئاً من أحوالهن يصحن صيحة معتادة لهن عند الاستحياء أو التعجب ، ويحتمل أن يقال تلك الصيحة كانت بقولها يا ويلتا ، تدل عليه الآية التي في سورة هود ، وصك الوجه أيضاً من عادتهن ، واستبعدت ذلك لوصفين من اجتماعهما .

أحدهما : كبر السن .

والثاني : العقم ، لأنها كانت لا تلد في صغر سنها ، وعنفوان شبابها ، ثم عجزت وأيست فاستبعدت ، فكأنها قالت : يا ليتكم دعوتم دعاءً قريباً من الإجابة ، ظناً منها أن ذلك منهم ، كما يصدر من الضيف على سبيل الأخبار من الأدعية كقول الداعي : الله يعطيك مالاً ويرزقك ولداً ، فقالوا : هذا منا ليس بدعاء .

وإنما ذلك قول الله تعالى : ﴿ قَالُواْ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ ثم دفعوا استبعادها بقولهم : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الحكيم العليم ﴾ .

وقد ذكرنا تفسيرهما مراراً ، فإن قيل لم قال ههنا ﴿ الحكيم العليم ﴾ وقال في هود : ﴿ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود : 73] نقول لما بينا أن الحكاية هناك أبسط ، فذكروا ما يدفع الاستبعاد بقولهم : ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ [هود : 73] ثم لما صدقت أرشدوهم إلى القيام بشكر نعم الله ، وذكروهم بنعمته بقولهم : ﴿ حَمِيدٌ ﴾ فإن الحميد هو الذي يتحقق منه الأفعال الحسنة ، وقولهم : ﴿ مَّجِيدٌ ﴾ إشارة إلى أن الفائق العالي الهمة لا يحمده لفعله الجميل ، وإنما يحمده ويسبح له لنفسه ، وههنا لما لم يقولوا : ﴿ أَتَعْجَبِينَ ﴾ إشارة إلى ما يدفع تعجبها من التنبيه على حكمه وعلمه ، وفيه لطيفة وهي أن هذا الترتيب مراعى في السورتين ، فالحميد يتعلق بالفعل ، والمجيد يتعلق بالقول ، وكذلك الحكيم هو الذي فعله ، كما ينبغي لعلمه قاصداً لذلك الوجه بخلاف من يتفق فعله موافقاً للمقصود اتفاقاً ، كمن

ينقلب على جنبه فيقتل حية وهو نائم ، فائدة لا يقال له حكيم ، وأما إذا فعل فعلاً قاصداً لقتلها بحيث يسلم عن نهشها ، يقال له حكيم فيه ، والعليم راجع إلى الذات إشارة إلى أنه يستحق الحمد بمجده ، وإن لم يفعل فعلاً وهو قاصد لعلمه ، وإن لم يفعل على وفق القاصد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 180.185 ﴾

(20/726)

وقال القرطبى :

قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28)

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المكرمين ﴾

ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ليبين بها أنه أهلك المكذب بآياته كما فعل بقوم لوط .

"هَلْ أَتَاكَ" أي ألم يأتك .

وقيل : "هَلْ" بمعنى قد ؛ كقوله تعالى : ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدهر ﴾ [الإنسان : 1] .

وقد مضى الكلام في ضيف إبراهيم في "هود" "والحجر" .

"الْمُكْرَمِينَ" أي عند الله ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 26]

قال ابن عباس : يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل زاد عثمان بن حَصِين ورفائيل عليه الصلاة والسلام .

وقال محمد بن كعب : كان جبريل ومعه تسعة .

وقال عطاء وجماعة : كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل ومعهما ملَك آخر .

قال ابن عباس : سماهم مكرمين لأنهم غير مدعورين .

وقال مجاهد : سماهم مكرمين لخدمة إبراهيم إياهم بنفسه .

قال عبد الوهاب : قال لي علي بن عياض : عندي هريسة ما رأيك فيها ؟ قلت : ما أحسن رأيي فيها ؛ قال : امض بنا ؛ فدخلت الدار فنادى الغلام فإذا هو غائب ، فما راعني إلا به ومعه القُمْقُمة والطَّسْت وعلى عاتقه المِنْدِيل ، فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، لو علمتُ يا أبا الحسن أن الأمر هكذا ؛ قال : هَوِّن عليك فإنك عندنا مُكرَم ، والمُكرم إنما يُخدم بالنفس ؛ انظر إلى قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المكرمين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَماً ﴾ تقدّم في "الحجر" .

﴿ قَالَ سَلاَمٌ ﴾ أي عليكم سلام .

ويجوز بمعنى أمري سلام أو ردّي لكم سلام .

وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً "سِلْمٌ" بكسر السين .

﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ أي أنتم قوم منكرون ؛ أي غرباء لا نعرفكم .

وقيل : لأنه رآهم على غير صورة البشر ، وعلى غير صورة الملائكة الذين كان يعرفهم فنكرهم ، فقال : ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ .

(21/726)

وقيل : أنكرهم لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان .

وقال أبو العالية : أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض .

وقيل : خافهم ؛ يقال : أنكرته إذا خفته ، قال الشاعر :

فَأَنْكَرَتْنِي وما كان الذي نَكِرَتْ . . .

مِنَ الحوادِثِ إلاَّ الشَّيْبَ والصَّلَعَا

قوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ قال الزجاج : أي عدل إلى أهله .

وقد مضى في "والصافات" .

ويقال : أراغ وارتاغ بمعنى طلب ، وماذا تُرِيغ أي تريد وتطلب ، وأراغ إلى كذا أي مال إليه سرًّا وحاد ، فعلى هذا يكون راغ وأراغ لغتين بمعنى .

﴿ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أي جاء ضيفه بعجل قد شواه لهم كان في "هود" : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : 69] .

ويقال : إن إبراهيم انطلق إلى منزله كالمستخفي من ضيفه ، لئلا يظهروا على ما يريد أن يتخذ لهم من الطعام .

قوله تعالى : ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ يعني العجل .

﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ قال قتادة : كان عامّة مالِ إبراهيم البقر ، واختاره لهم سميناً زيادة في إكرامهم .

وقيل : العِجل في بعض اللغات الشاة .

ذكره القشيري .

وفي الصحاح : العِجل ولد البقرة والعِجَّوْل مثله والجمع العَجاجيل والأنثى عِجْلة ، عن أبي الجراح ، وبقرة مُعْجِل ذات عِجْل ، وعِجْل قبيلة من ربيعة .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أي أحَسَّ منهم في نفسه خوفاً .

وقيل : أضمر لما لم يتَحرَّموا بطعامه .

ومن أخلاق الناس : أن من تَحرَّم بطعام إنسان أمنه .

وقال عمرو بن دينار : قالت الملائكة لا نأكل إلا بالثمن .

قال كلوا وأدّوا ثمنه .

قالوا : وما ثمنه ؟ قال : تسمُّون الله إذا أكلتم وتحمدونه إذا فرغتم .

فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : لهذا اتخذك الله خليلاً .

وقد تقدّم هذا في "هود" .

ولما رأوا ما بإبراهيم من الخوف ﴿ قَالُواْ لاَ تَخَفْ ﴾ وأعلموه أنهم ملائكة الله ورسله .

﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ ﴾ أي بولد يولد له من سارة زوجته .

(22/726)

وقيل : لما أخبروه أنهم ملائكة لم يصدّقهم ، فدعوا الله فأحيا العجل الذي قرّبه إليهم .

وروى عون بن أبي شدّاد : أن جبريل مسح العجل بجناحه ، فقام يدرج حتى لحق بأمه وأم العجل في الدار .

ومعنى "عَلِيمٍ" أي يكون بعد بلوغه من أولي العلم بالله وبدينه .

والجمهور على أن المبشَّر به هو إسحاق .

وقال مجاهد وحده : هو إسماعيل وليس بشيء فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ ﴾ [الصافات : 112] .

وهذا نص .

قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امرأته فِي صَرَّةٍ ﴾

أي في صيحة وضجة ؛ عن ابن عباس وغيره .

ومنه أخذ صرير الباب وهو صوته .

وقال عكرمة وقتادة : إنها الرَّنة والتأوّه ولم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان .

قال الفراء : وإنما هو كقولك أقبل يشتمني أي أخذ في شتمي .

وقيل : أقبلت في صَرَّة أي في جماعة من النساء تسمع كلام الملائكة .

قال الجوهري : الصّرة الضجّة والصيحة ، والصَّرة الجماعة ، والصَّرة الشدّة من كرب وغيره ، قال امرؤ القيس :

فَأَلْحَقَهُ بالهَادِيَاتِ ودونَهُ . . .

جَوَاحِرُها في صَرَّةٍ لم تَزَيَّلِ

يحتمل هذا البيت الوجوه الثلاثة .

وصرة القيظِ شدّة حَرِّه .

فلما سمعت سارة البشارة صَكَّت وجهها ؛ أي ضربت يدها على وجهها على عادة النّسوان عند التعجب ؛ قاله سفيان الثوري وغيره .

وقال ابن عباس : صَكَّت وجهها لطمته .

وأصل الصّك الضرب ؛ صكّه أي ضربه ؛ قال الراجز :

يا كَرَوَاناً صُكَّ فاكبأنا . . .

قال الأموي : كَبَن الظبي إذا لطأ بالأرض واكبأن انقبض .

﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي أتلد عجوز عقيم .

الزجاج : أي وقالت أنا عجوز عقيم فكيف ألد ، كما قالت : ﴿ يا ويلتا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾ [هود : 72] .

(23/726)

﴿ قَالُوا كَذَلِكِ ﴾ أي كما قلنا لك وأخبرناكِ ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ فلا تَشكّي فيه ، وكان بين البشارة والولادة سنة ، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك فولدت وهي بنت تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم يومئذ ابن مائة سنة وقد مضى هذا .

﴿ إِنَّهُ هُوَ الحكيم العليم ﴾ حكيم فيما يفعله عليم بمصالح خلقه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(24/726)

وقال الآلوسى :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إبراهيم ﴾

فيه تفخيم لشأن الحديث وتنبيه على أنه ليس مما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير طريق الوحي قاله غير واحد ، وفي "الكشف" فيه رمز إلى أنه لما فرغ من إثبات الجزاء لفظاً القسم ومعنى بما في المقسم به من التلويح إلى القدرة البالغة مدمجاً فيه صدق المبلغ ، وقضى الوطر من تفصيله مهد لإثبات النبوة وأن هذا الآتي الصادق حقيق بالاتباع لما معه من المعجزات الباهرة فقال سبحانه : ﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ الخ ، وضمن فيه تسليته عليه الصلاة والسلام بتكذيب قومه فله بسائر آبائه وإخوانه من الأنبياء عليهم السلام أسوة حسنة هذا إذا لم يجعل قوله تعالى : ﴿ وَفِى موسى ﴾ [الذاريات : 38] عطفاً على قوله سبحانه : ﴿ وَفِى الأرض ءايات ﴾ [الذاريات : 20] وأما على ذلك التقدير فوجهه أن يكون قصة الخليل .

ولوط عليهما السلام معترضة للتسلي بإبعاد مكذبيه وأنه مرحوم منجي مكرم بالاصطفاء مثل أبيه إبراهيم صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم والترجيح مع الأول انتهى وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يتعلق بقوله سبحانه : ﴿ وَفِى موسى ﴾ [الذاريات : 38] ، و ﴿ الضيف ﴾ في الأصل مصدر بمعنى الميل ولذلك يطلق على الواحد والمتعدد ، قيل : كانوا اثني عشر ملكاً ، وقيل : ثلاثة .

جبرائيل .

وميكائيل .

وإسرافيل عليهم السلام وسموا ضيفاً لأنهم كانوا في صورة الضيف ولأن إبراهيم عليه السلام حسبهم كذلك ، فالتسمية على مقتضى الظاهر والحسبان ، وبدأ بقصة إبراهيم وإن كانت متأخرة عن قصة عاد لأنها أقوى في غرض التسلية ﴿ مِنَ المكرمين ﴾ أي عند الله عز وجل كما قال الحسن فهو كقوله تعالى في الملائكة عليهم السلام : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 26] أو عند إبراهيم عليه السلام إذ خدمهم بنفسه وزوجته وعجل لهم القرى ورفع مجالسهم كما في بعض الآثار ، وقرأ عكرمة ﴿ المكرمين ﴾ بالتشديد .

(25/726)

﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ ظرف للحديث لأنه صفة في الأصل ، أو للضيف ، أو ﴿ لمكرمين ﴾ إن أريد إكرام إبراهيم لأن إكرام الله تعالى إياهم لا يتقيد ، أو منصوب بإضمار اذكر ﴿ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سلاما ﴾ أي نسلم عليك سلاماً ، وأوجب في "البحر" حذف الفعل لأن المصدر سادّ مسدّه فهو من المصادر التي يجب حذف أفعالها ، وقال ابن عطية : يتجه أن يعمل في ﴿ سَلاَماً ﴾ قالوا : على أن يجعل في معنى قولاً ويكون المعنى حينئذٍ أنهم قالوا : تحية وقولاً معناه ﴿ سلام ﴾ ونسب إلى مجاهد وليس بذاك .

﴿ قَالَ سلام ﴾ أي عليكم سلام عدل به إلى الرفع بالابتداء لقصد الثبات حتى يكون تحيته أحسن من تحيتهم أخذاً بمزيد الأدب والإكرام ، وقيل : ﴿ سلام ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي أمري ﴿ سلام ﴾ وقرئا مرفوعين ، وقرىء سلاماً قال سلما بكسر السين وإسكان اللام والنصب ، والسلم السلام ، وقرأ ابن وثاب .

والنخعي .

وابن جبير .

وطلحة سلاماً قال سلم بالكسر والإسكان والرفع ، وجعله في "البحر" على معنى نحن أو أنتم سلم ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ أنكرهم عليه السلام للسلام الذي هو علم الإسلام ، أو لأنهم عليهم السلام ليسوا ممن عهدهم من الناس ، أو لأن أوضاعهم وأشكالهم خلاف ما عليه الناس ، و ﴿ قَوْمٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف والأكثر على أن التقدير أنتم قوم منكرون وأنه عليه السلام قاله لهم للتعرف كقولك لمن لقيته : أنا لا أعرفك تريد عرف لي نفسك وصفها ، وذهب بعض المحققين إلى أن الذي يظهر أن التقدير هؤلاء ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ وأنه عليه السلام قاله في نفسه ، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه من غير أن يشعرهم بذلك فإنه الأنسب بحاله عليه السلام لأن في خطاب الضيف بنحو ذلك إيحاشاً مّا ، وطلبه به أن يعرفوه حالهم لعله لا يزيل ذلك .

وأيضاً لو كان مراده ذلك لكشفوا أحوالهم عند القول المذكور ولم يتصد عليه السلام لمقدمات الضيافة .

(26/726)

﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ أي ذهب إليهم على خفية من ضيفه ، نقل أبو عبيدة أنه لا يقال : راغ إلا إذا ذهب على خفية ، وقال : يقال روغ اللقمة إذا غمسها في السمن حتى تروى ، قال ابن المنير : وهو من هذا المعنى لأنها تذهب مغموسة في السمن حتى تخفى ، ومن مقلوب الروغ غور الأرض والجرح لخفائه وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى ، وقال الراغب : الروغ الميل على سبيل الاحتيال ، ومنه راغ الثعلب ، وراغ فلان إلى فلان مال نحوه لأمر يريده منه بالاحتيال ، ويعلم منه أن لاعتبار قيد الخفية وجهاً وهو أمر يقتضيه المقام أيضاً لأن من يذهب إلى أهله لتدارك الطعام يذهب كذلك غالباً ، وتشعر الفاء بأنه عليه السلام بادر بالذهاب ولم يمهل وقد ذكروا أن من أدب المضيف أن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف حذراً من أن يمنعه الضيف ، أو يصير منتظراً ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ ﴾ هو ولد البقرة كأنه سمي بذلك لتصور عجلته التي تعدم منه إذا صار ثوراً ﴿ سَمِينٍ ﴾ ممتلىء الجسد بالشحم واللحم يقال : سمن كسمع سمانة بالفتح وسمناً كعنب فهو سامن وسمين ، وكحسن

السمين خلقة كذا في "القاموس" ، وفي "البحر" يقال : سمن سمناً فهو سمين شذوذاً في المصدر ، واسم الفاعل .

والقياس سمن وسمن ، وقالوا : سامن إذا حدث له السمن انتهى ، والفاء فصيحة أفصحت عن جمل قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها ، وإيذاناً بكمال سرعة المجيء بالطعام أي فذبح عجلاً فحنذه فجاء به ، وقال بعضهم إنه كان معداً عنده حنيذاً قبل مجيئهم لمن يرد عليه من الضيوف فلا حاجة إلى تقدير ما ذكر ، والمشهور اليوم أن الذبح للضيف إذا ورد أبلغ في إكرامه من الإتيان بما هيء من الطعام قبل وروده ، وكان كما روي عن قتادة عامة ماله عليه السلام البقر ولو كان عنده أطيب لحماً منها لأكرمهم به .

(27/726)

﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ بأن وضعه لديهم ، وفيه دليل على أن من إكرام الضيف أن يقدم له أكثر مما يأكل وأن لا يوضع الطعام بموضع ويدعى الضيف إليه ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ، قيل : عرض للأكل فإن في ذلك تأنيساً للضيف ، وقيل : إنكار لعدم تعرضهم للأكل ، وفي بعض الآثار أنهم قالوا : إنا لا نأكل إلا ما أدينا ثمنه فقال عليه السلام : إني لا أبيحه لكم إلا بثمن قالوا : وما هو ؟ قال : أن تسموا الله تعالى عند الابتداء وتحمدوه عز وجل عند الفراغ

فقال بعضهم لبعض : بحق اتخذه الله تعالى خليلاً .

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ فأضمر في نفسه منهم خوفاً لما رأى عليه الصلاة والسلام إعراضهم عن طعامه وظن أن ذلك لشر يريدونه فإن أكل الضيف أمنة ؛ ودليل على انبساط نفسه وللطعام حرمة وذمام والامتناع منه وحشة موجبة لظن الشر .

(28/726)

وعن ابن عباس أنه عليه السلام وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب فخاف ﴿ قَالُواْ لاَ تَخَفْ ﴾ إنا رسل الله تعالى ، عن يحيى بن شداد مسح جبريل عليه السلام العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه فعرفهم وأمن منهم ، وعلى ما روي عن الخبر أن هذا لمجرد تأمينه عليه السلام ، وقيل : مع تحقيق أنهم ملائكة وعلمهم بما أضمر في نفسه إما باطلاع الله تعالى إياهم عليه ، أو إطلاع ملائكته الكرام الكاتبين عليه وإخبارهم به ، أو بظهور أمارته في وجهه الشريف فاستدلوا بذلك على الباطن ﴿ وَبَشَّرُوهُ ﴾ وفي سورة الصافات ﴿ وبشرناه ﴾ أي بواسطتهم ﴿ بغلام ﴾ هو عند الجمهور إسحاق بن سارة وهو الحق للتنصيص على أنه المبشر به في سورة هود ، والقصة واحدة ، وقال مجاهد : إسماعيل ابن هاجر كما رواه عنه ابن جرير وغيره ولا يكاد يصح ﴿ عَلِيمٍ ﴾ عند بلوغه

واستوائه ، وفيه تبشير بحياته وكانت البشارة بذكر لأنه أسر للنفس وأبهج ، ووصفه بالعلم لأنها الصفة التي يختص بها الإنسان الكامل لا الصورة والجميلة والقوة ونحوهما ، وهذا عند غير الأكثرين من أهل هذا الزمان فإن العلم عندهم لا سيما العلم الشرعي رذيلة لا تعادلها رذيلة والجهل فضيلة لا توازنها فضيلة ، وفي صيغة المبالغة مع حذف المعمول ما لا يخفى مما يوجب السرور ، وعن الحسن ﴿ عَلِيمٌ ﴾ نبي ووقعت البشارة بعد التأنيس ، وفي ذلك إشارة إلى أن درء المفسدة أهم من جلب المصلحة ، وذكر بعضهم أن علمه عليه السلام بأنهم ملائكة من حيث بشروه بغيب .

(29/726)

﴿ فَأَقْبَلَتِ امرأته ﴾ سارّة لما سمعت بشارتهم إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم ، وفي التفسير الكبير إنها كانت في خدمتهم فلما تكلموا مع زوجها بولادتها استحيت وأعرضت عنهم فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الإقبال على الأهل دون الإدبار على الملائكة ، وهو إن صح مثله عن نقل وأثر لا يأباه الخطاب الآتي لأنه يقتضي الإقبال دون الإدبار إذ يكفي لصحته أن يكون بمسمع منها وإن كانت مدبرة ، نعم في الكلام عليه استعارة ضدية ولا قرينة ههنا تصححها ، وقيل : أقبلت بمعنى أخذت كما تقول أخذ يشتمني ﴿ فِى صَرَّةٍ ﴾ في

صيحة من الصرير قاله ابن عباس ، وقال قتادة .

وعكرمة : صرتها رنتها ، وقيل : قولها أوه ، وقيل : يا ويلتي ، وقيل : في شدة ، وقيل : الصرة الجماعة المنضم بعضهم إلى بعض كأنهم صروا أي جمعوا في وعاء وإلى هذا ذهب ابن بحر قال : أي أقبلت في صرة من نسوة تبادرن نظراً إلى الملائكة عليهم السلام ، والجار والمجرور في موضع الحال ، أو المفعول به إن فسر ﴿ أقبلت ﴾ بأخذت قيل : إن ﴿ بهذا فِى ﴾ عليه زائدة كما في قوله

: يجرح في عراقيبها نصلي . . .

والتقدير أخذت صيحة ، وقيل : بل الجار والمجرور في موضع الخبر لأن الفعل حينئذٍ من أفعال المقاربة ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ قال مجاهد : ضربت بيدها على جبهتها وقالت : يا ويلتاه ، وقيل : إنها وجدت حرارة الدم فلطمت وجهها من الحياء ، وقيل : إنها لطمته تعجباً وهو فعل النساء إذا تعجبن من شيء ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ ﴾ أي أنا عجوز ﴿ عَقِيمٍ ﴾ عاقر فكيف ألد ، وعقيم فعيل قيل : بمعنى فاعل أو مفعول وأصل معنى العقم اليبس .

(30/726)

﴿ قَالُواْ كَذَلِكِ ﴾ أي مثل ذلك القول الكريم الذي أخبرنا به ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ وإنما نحن معبرون نخبرك به عنه عز وجل لا أنا نقوله من تلقاء أنفسنا ، وروي أن جبريل عليه السلام قال لها : انظري إلى سقف بيتك فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة ﴿ إِنَّهُ هُوَ الحكيم العليم ﴾ فيكون قوله عز وجل حقاً وفعله سبحانه متقناً لا محالة ، وهذه المفاوضة لم تكن مع سارة فقط بل كانت مع إبراهيم أيضاً حسبما تقدم في سورة الحجر ، وإنما لم يذكر ههنا اكتفاءاً بما ذكر هناك كما أنه لم يذكر هناك سارة اكتفاءاً بما ذكر ههنا وفي سورة هود . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 26 صـ ﴾

(31/726)

وقال ابن عاشور :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) ﴾

انتقال من الإنذار والموعظة والاستدلال إلى الاعتبار بأحوال الأمم الماضية المماثلة للمخاطبين المشركين في الكفر وتكذيب الرسل .

والجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً وغيّر أسلوب الكلام من خطاب المنذرين مواجهة إلى أسلوب التعريض تفنناً بذكر قصة إبراهيم لتكون توطئة للمقصود من ذكر ما حلّ بقوم لوط

حين كذبوا رسولهم ، فالمقصود هو ما بعد قوله ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ [الحجر : 57] .

وكان في الابتداء بذكر قوم لوط في هذه الآية على خلاف الترتيب الذي جرى عليه اصطلاح القرآن في ترتيب قصص الأمم المكذبة بابتدائها بقوم نوح ثم عاد ثم ثمود ثم قوم لوط أن المناسبة للانتقال من وعيد المشركين إلى العبرة بالأمم الماضية أن المشركين وصفوا آنفاً بأنهم في غمرة ساهون فكانوا في تلك الغمرة أشبه بقوم لوط إذ قال الله فيهم ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ [الحجر : 72] ، ولأن العذاب الذي عذب به قوم لوط كان حجارة أنزلت عليهم من السماء مشبهة بالمطر .

وقد سميت مطراً في قوله تعالى : ﴿ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطرَ السوء ﴾ [الفرقان : 40] وقوله : ﴿ وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ [هود : 82] ولأن في قصة حضور الملائكة عند إبراهيم وزوجه عبرة بإمكان البعث فقد تضمنت بشارتها بمولود يولد لها بعد اليأس من الولادة وذلك مثل البعث بالحياة بعد الممات .

ولمّا وجه الخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ هل أتاك ﴾ عُرف أن المقصود الأصلي تسليته على ما لقيه من تكذيب قومه .

ويتبع ذلك تعريض بالسامعين حين يُقرأ عليهم القرآن أو يبلغهم بأنهم صائرون إلى مِثل ذلك العذاب لاتحاد الأسباب .

وتقدم القول في نظير ﴿ هل أتاك حديث ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ وهل أتاك نبؤا الخصم ﴾ في سورة ص (21) ، وأنه يفتتح به الأخبار الفخمة المهمة .

(32/726)

والضيف : اسم يقال للواحد وللجمع لأن أصله مصدر ضَاف ، إذا مال فأطلق على الذي يميل إلى بيت أحد لينزل عنده .

ثم صار اسماً فإذا لوحظ أصله أطلق على الواحد وغيره ولم يؤنثوه ولا يجمعونه وإذا لوحظ الاسم جمعوه للجماعة وأنثوه للأنثى فقالوا أضيافٌ وضيوف وامرأة ضيفة وهو هنا اسم جمع ولذلك وصف بالمكْرمين ﴾ ، وتقدم في سورة الحجر (68) ﴿ قال إن هؤلاء ضيفي ﴾ والمعنيّ به الملائكة الذي أظهرهم الله لإبراهيم عليه السلام فأخبروه بأنهم مرسلون من الله لتنفيذ العذاب لقوم لوط وسماهم الله ضيفاً نظراً لصورة مجيئهم في هيئة الضيف كما سمى الملكين الذين جاءا داود خصماً في قوله تعالى : ﴿ وهل أتاك نبؤا الخصم ﴾ [ص : 21] ، وذلك من الاستعارة الصورية .

وفي سفر التكوين من التوراة : أنهم كانوا ثلاثة .

وعن ابن عباس : أنهم جبريل وميكائيل وإسرافيل .

وعن عطاء : جبريل وميكائيل ومعهما ملك آخر .

ولعل سبب إرسال ثلاثة ليقع تشكُّلهم في شكل الرجال لما تعارفه الناس في أسفارهم أن لا يقلّ ركب المسافرين عن ثلاثة رفاقٍ .

وذلك أصل جريان المخاطبة بصيغة المثنى في نحو : "قفا نبك" .

وفي الحديث " الواحدُ شيطان والاثنان شيطانان والثلاثة ركب " .

رواه الحاكم في "المستدرك" وذكر أن سنده صحيح .

وقد يكون سبب إرسالهم ثلاثةً أن عذاب قوم لو كان بأصناف مختلفة لكل صنف منها ملكَهُ الموكَّل به .

ووصفهم بالمكْرَمين كلام موجه لأنه يوهم أن ذلك لإكرام إبراهيم إياهم كما جرت عادته مع الضيف وهو الذي سنّ القِرى ، والمقصودُ : أن الله أكرمهم برفع الدرجة لأن الملائكة مقربون عند الله تعالى كما قال : ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ [الأنبياء : 26] وقال : ﴿ كِراماً كاتبين ﴾ [الانفطار : 11] .

وظرفُ ﴿ إذ دخلوا عليه ﴾ يتعلق بـ ﴿ حديثُ ﴾ لما فيه من معنى الفعل ، أي خَبرهم حين دخلوا عليه .

وقوله : ﴿ فقالوا سلاماً قال سلام ﴾ تقدم نظيره في سورة هود .

وقرأ الجمهور : ﴿ قال سلام ﴾ .

وقرأه حمزة والكسائي ﴿ قال سِلْم ﴾ بكسر السين وسكون اللام .

وقوله : ﴿ قوم منكرون ﴾ من كلام إبراهيم .

والظاهر أنه قاله خَفْتا إذ ليس من الإكرام أن يجاهرَ الزائر بذلك ، فالتقدير : هُم قوم منكرون .

والمنكر : الذي ينكره غيره ، أي لا يعرفه .

وأطلق هنا على من ينكّر حاله ويظن أنه حال غيرُ معتاد ، أي يخشى أنه مضمِر سوء ، كما قال في سورة هود (70) ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصِلُ إليه نَكرهم وأوجس منهم خِيفة ﴾

ومنه قول الأعشى:

وأنكرتني وما كان الذي نَكِرَتْ . . .

من الحوادث إلا الشيبَ والصَّلَعا

أي كرهت ذاتي .

وقصة ضيف إبراهيم تقدمت في سورة هود .

وراغ ﴾ مال في المشي إلى جانب ، ومنه : رَوغان الثعْلب .

والمعنى : أن إبراهيم حاد عن المكان الذي نزل فيه الضُيوف إلى أهله ، أي إلى بيته الذي فيه أهله .

وفي التوراة : أنه كان جالساً أمامَ باب خيمته تحت شجرة وأنه أنزل الضيوف تحت الشجرة .

وقال أبو عبيد القَاسم بن سلام : إن الروغان ميل في المشي عن الاستواء إلى الجانب مع إخفاء إرادته ذلك وتبعه على هذا التقييد الراغب والزمخشري وابن عطيّة فانتزع منه الزمخشري أن إخفاء إبراهيم ميله إلى أهله من حسن الضيافة كيلا يوهم الضيف أنه يريد أن يحضر لهم شيئاً فلعلّ الضيف أن يكُفّه عن ذلك ويعذره وهذا منزع لطيف .

وكان منزل إبراهيم الذي جرت عنده هذه القصة بموضع يسمّى (بلوطات مَمْرا) من أرض جبرون .

ووصُف العجل هنا بـ ﴿ سَمين ﴾ ، ووصف في سورة هود بحنيذ ، أي مشوي فهو عجل سمين شواه وقرّبه إليهم ، وكان الشِوا أسرع طبخ أهل البادية وقام امرؤ القيس يذكر الصيد :

فظل طهاةُ اللحم ما بين مُنضِج . . .

صَفيف شِواء أو قَدِيرٍ مُعَجَّل

فقيد (قدير) بـ (مُعَجّل) ولم يقيد (صفيف شواء) لأنه معلوم .

ومعنى ﴿ قربه ﴾ وضعه قريباً منهم ، أي لم ينقلهم من مجلسهم إلى موضع آخر بل جعل الطعام بين أيديهم .

(34/726)

وهذا من تمام الإكرام للضيف بخلاف ما يُطعمه العافي والسائِل فإنه يدعى إلى مكان الطعام كما قال الفرزدق:

فقلتُ إلى الطعام فقال مِنهم . . .

فريقٌ يحسد الأنس الطعاما

ومجيء الفاء لعطف أفعال ﴿ فراغ ﴾ ﴿ فجاء ﴾ ﴿ فقرّبه ﴾ للدلالة على أن هذه الأفعال وقعت في سرعة ، والإسراع بالقِرى من تمام الكرم ، وقد قيل : خير البر عاجله .

وجملة ﴿ قال ألا تأكلون ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ قربه إليهم ﴾ .

و ﴿ ألا ﴾ كلمة واحدة ، وهي حرف عَرْض ، أي رغبةٍ في حصول الفعل الذي تدخل عليه .

وهي هنا متعينة للعَرض لوقوع فعل القول بدلاً من فعل ﴿ قرّبه إليهم ﴾ ، ولا يحسن جعلها كلمتين من همزة استفهام للإنكار مع (لا) النافية .

والعرض على الضيف عقب وضع الطعام بين يديه زيادة في الإكرام بإظهار الحرص على ما ينفع الضيف وإن كان وضع الطعام بين يديه كافياً في تمكينه منه .

وقد اعتبر ذلك إذناً عند الفقهاء في الدعوة إلى الولائم بخلاف مجرد وجود مائدة طعام أو سُفرة ، إذ يجوز أن تكون قد أعدت لغير المدعوّ .

والفاء في ﴿ فأوجس منهم خيفة ﴾ فصيحة لإفصاحها عن جملة مقدرة يقتضيها ربط المعنى ، أي فلم يأكلوا فأوجس منهم خيفة ، كقوله : ﴿ أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ﴾ [الشعراء : 63] ، وقد صرح بذلك في سورة هود ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه (أي إلى العجل) نِكرهم وأوجس منهم خيفة ﴾ [هود : 70] .

و ﴿ أوجس ﴾ أحس في نفسه ولم يُظهر ، وتقدم نظيره في سورة هود .

وقولهم له ﴿ لا تخف ﴾ لأنهم علموا ما في نفسه مما ظهر على ملامحه من الخوف ، وتقدم نظيره في سورة هود .

(35/726)

والغلام الذي بَشروه به هو إسحاق لأنه هو ابن سارة ، وهو الذي وقعت البشارة به في هذه القصة في التوراة ، ووصف هنا بـ ﴿ عليم ﴾ ، وأما الذي ذُكرت البشارة به في سورة

الصافات (101) فهو إسماعيل ووُصف بـ ﴿ حليم ﴾ ولذلك فامرأة إبراهيم الحادث عنها هنا هي سارة ، وهي التي ولدت بعد أن أيست ، أما هاجر فقد كانت فتاةً ولَدت في مقتبل عمرها .

وأقبلت امرأته حين سمعت البشارة لها بغلام ، أي أقبلت على مجلس إبراهيم مع ضيفه ، قال تعالى في سورة هود (71) ﴿ وامرأتُه قائمة ﴾ وكان النساء يحضرن مجالس الرجال في بيوتَهن مع أزواجهن ويواكلنهم .

وفي الموطأ ﴾ : قال مَالك : لا بأس أن تحضر المرأة مع زوجها وضيفِه وتأكل معهم .

والصَّرة : الصياح ، ومنه اشتق الصرير .

و﴿ في ﴾ للظرفية المجازية وهي الملابسة .

والصك : اللطم ، وصَكّ الوجه عند التعجب عادة النساء أيامئذٍ ، ونظيره وضع اليد على الفم في قوله تعالى : ﴿ فردُّوا أيديهم في أفواههم ﴾ [إبراهيم : 9] .

وقولُها ﴿ عجوز عقيم ﴾ خبر محذوف ، أي أنا عجوز عقيم .

والعجوز : فعول بمعنى فاعل وهو يستوي في المذكر والمؤنث مشتق من العجز ويطلق على كبر السنّ لملازمة العجز له غالباً .

والعقيم : فعيل بمعنى مفعول ، وهو يستوي فيه المذكر والمؤنث إذا جرى على موصوف مؤنث ، مشتق من عَقمها الله ، إذا خلقها لا تحمل بجنين ، وكانت سارة لم تحمل قط .

وقول الملائكة ﴿ كذِلك قال ربكِ ﴾ الإشارة إلى الحادث وهو التبشير بغلام .

والكاف للتشبيه ، أي مثل قولنا : قال ربك فنحن بلّغنا ما أمرنا بتبليغه .

وجملة ﴿ إنه هو الحكيم العليم ﴾ تعليل لجملة ﴿ كذلك قال ربك ﴾ المتقضية أن الملائكة ما أخبروا إبراهيم إلا تبليغاً من الله وأن الله صادق وعده وأنه لا موقع لتعجب امرأة إبراهيم لأن الله حكيم يدبر تكوين ما يريده ، وعليم لا يخفى عليه حالها من العجز والعقم .

(36/726)

وهذه المحاورة بين الملائكة وسارة امرأة إبراهيم وقعَ مثلها بينهم وبين إبراهيم كما قُصّ في سورة الحجر ، فحُكي هنا ما دار بينهم وبين سارة ، وحكي هناك ما دار بينهم وبين إبراهيم والمَقام واحد ، والحالة واحدة كما بُيّن في سورة هود (72) ﴿ قالت يا ويلتى ءالِدُ وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إنّ هذا لشيء عجيب ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(37/726)

فائدة

قال ابن القيم :

يقول سبحانه ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ إلى اهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون ﴾ الذاريات 23 27

ففي هذا الثناء على إبراهيم من وجوه متعددة

أحدها انه وصف ضيفه بأنهم مكرمون وهذا على أحد القولين انه اكرام إبراهيم لهم انهم المكرمون عند الله ولا تنافي بين القولين فالاية تدل على المعنيين

الثاني قوله تعالى إذ دخلوا عليه فلم يذكر استئذانهم ففي هذا دليل على انه كان قد عرف بإكرام الضيفان واعتياد قراهم فبقي منزله مضيفة مطروقا لمن ورده لا يحتاج إلى الاستئذان بل استئذان الداخل دخوله وهذا غاية ما يكون من الكرم الثالث قوله لهم سلام بالرفع وهم سلموا عليه بالنصب والسلام بالرفع اكمل فإنه يدل على الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والتجدد والمنصوب يدل على الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد فإبراهيم حياهم احسن من تحيتهم فإن قولهم سلاما يدل على سلمنا سلاما وقوله سلام أي سلام عليكم الرابع انه حذف من قوله قوم منكرون فإنه لما انكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ

ينفر الضيف لو قال انتم قوم منكرون فحذف المبتدأ هنا من ألطف الكلام

الخامس انه بنى الفعل للمفعول وحذف فاعله فقال منكرون ولم يقل أني انكركم وهو احسن في هذا المقام وابعد من التنفير والمواجهة بالخشونة

السادس انه راغ إلى اهله ليجيئهم بنزلهم والروغان هو الذهاب في اختفاء بحيث لا يكاد يشعر به الضيف وهذا من كرم رب المنزل المضيف أن يذهب في اختفاء بحيث لا يشعر به الضيف فيشق عليه ويستحي فلا يشعر به إلا وقد جاءه بالطعام بخلاف من يسمع ضيفه ويقول له أو لمن حضر مكانكم حتى آتيكم بالطعام ونحو ذلك مما يوجب حياء الضيف واحتشامه

(38/726)

السابع انه ذهب إلى اهله فجاء بالضيافة فدل على أن ذلك كان معدا عندهم مهيئا للضيفان ولم يحتج أن يذهب إلى غيرهم من جيرانه أو غيرهم فيشتريه أو يستقرضه

الثامن قوله تعالى فجاء بعجل سمين دل على خدمته للضيف بنفسه ولم يقل فأمر لهم بل هو الذي ذهب وجاء به بنفسه ولم يبعثه مع خادمه وهذا ابلغ في اكرام الضيف

التاسع انه جاء بعجل كامل ولم يأت ببضعة منه وهذا من تمام كرمه

العاشر انه سمين لا هزيل ومعلوم أن ذلك من أفخر اموالهم ومثله يتخذ للاقتناء والتربية فآثر به ضيفانه

الحادي عشر انه قربه اليهم بنفسه ولم يأمر خادمه بذلك

الثاني عشر انه قربه ولم يقربهم اليه وهذا ابلغ في الكرامة أن يجلس الضيف ثم يقرب الطعام اليه ويحمله إلى حضرته ولا يضع الطعام في ناحية ثم يأمر الضيف بأن يتقرب اليه

الثالث عشر انه قال ألا تأكلون وهذا عرض وتلطف في القول وهو احسن من قوله كلوا أو مدوا ايديكم وهذا مما يعلم الناس بعقولهم حسنه ولطفه ولهذا يقولون بسم الله أو ألا تتصدق أو إلا تجبر ونحو ذلك

الرابع عشر انه إنما عرض عليهم الأكل لانه رآهم لا يأكلون ولم يكن ضيوفه يحتاجون معه إلى الآذن في الأكل بل كان إذا قدم اليهم الطعام اكلوا وهؤلاء الضيوف لما امتنعوا من الأكل قال لهم إلا تأكلون ولهذا اوجس منهم خيفة أي احسها واضمرها في نفسه ولم يبدها لهم وهو الوجه

الخامس عشر فإنهم لما امتنعوا من آكل طعامه خاف منهم ولم يظهر لهم ذلك فلما علمت الملائكة منه ذلك قالوا لا تخف وبشروه بالغلام

فقد جمعت هذه الاية اداب الضيافة التي هي اشرف الآداب وما عداها من التكلفات التي هي تخلف وتكلف إنما هي

من اوضاع الناس وعوائدهم وكفى بهذه الاداب شرفا وفخرا فصلى الله على نبينا وعلى إبراهيم وعلى آلهما وعلى سائر النبيين

وقد شهد الله سبحانه بأنه وفى ما أمر به فقال تعالى أم لم ينبأ بما في صحف موسى وابراهيم الذي وفى النجم 36 37

(39/726)

قال ابن عباس رضي الله عنهما وفي جميع شرائع الإسلام ووفى ما أمر به من تبليغ الرسالة وقال تعالى واذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال أني جاعلك للناس اماما البقرة 124 فلما أتم ما أمر به من الكلمات جعله الله اماما للخلائق يأتمون به

وكان كما قيل قلبه للرحمن وولده للقربان وبدنه للنيران وماله للضيفان

ولما اتخذه ربه خليلا والخلة هي كمال المحبة وهي مرتبة لا تقبل المشاركة والمزاحمة وكان قد سأل ربه أن يهب له ولدا صالحا فوهب له اسماعيل فأخذ هذا الولد شعبة من قلبه فغار الخليل على قلب خليله أن يكون فيه مكان لغيره فامتحنه بذبحه ليظهر سر الخلة في تقديمه محبة خليله على محبة ولده فلما استسلم لأمر ربه وعزم على فعله وظهر سلطان الخلة في الاقدام على ذبح الولد ايثارا لمحبة خليله على محبته نسخ الله ذلك عنه وفداه

بالذبح العظيم لأن المصلحة في الذبح كانت ناشئة من العزم وتوطين النفس على ما أمر به فلما حصلت هذه المصلحة عاد

الذبح مفسدة فنسخ في حقه فصارت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا سنة في اتباعه إلى يوم القيامة

وهو الذي فتح للأمة باب مناظرة المشركين واهل الباطل وكسر حججهم وقد ذكر الله سبحانه مناظراته في القرآن مع امام المعطلين ومناظرته مع قومه المشركين وكسر حجج الطائفتين بأحسن مناظرة واقربها إلى الفهم وحصول العلم

قال تعالى وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء الأنعام 83

قال زيد بن أسلم وغيره بالحجة والعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ جلاء الأفهام صـ 208 . 212 ﴾

(40/726)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الإضافة)

هى لغةً : الإِمالة .

فإِنَّ أَصل الضَّيف المَيْل ؛ تقول : ضِفْت إِلى كذا ، وأَضفت كذا إِلىّ ، وضافت الشمسُ للغروب ، وتضيّفَت ، وضاف السّهمُ عن الهَدَف ، وتضيّف .

والضَّيف : مَن مَال إِليك ؛ نُزُولاً بك .

وصارت الضِّيَافَةُ متعارَفة فى القِرَى ؛ لأَنّ كلّ أَحد يميل إِليه غالباً .

والضَّيف فى الأَصل مصدر ؛ ولذلك استوى فيه الواحد والجمع فى عامّة كلامهم .

وقد يقال : أَضياف .

وضُيوف ، وضِيفان .

وقد يقال : استضفت فلاناً فأَضافنى .

وقد ضِفته ضَيْفاً ، أى صرت ضيفاً له .

ويستعمل الإِضافة عند النّحاة فى اسم مجرور يُضَمّ إِليه اسم قبله .

وقيل : الإِضافة فى كلام العرب على عشرة أَنواع .

الأَوّل : إِضافة البعض إلى الكلّ ، كماءِ النّهر وماءِ البحر .

الثانى : إِضافة السّبب ؛ كآلة الخيّاط ، وأَداة الحياكة .

الثالث : إِضافة المِلْك ؛ كدار زيد ، وعبد عمرو .

الرّابع : إِضافة النّسب ، كابن جعفر ، وابن بكر .

الخامس : إِضافة الشركة ؛ كزوجة زيد وقرين عمرو .

السادس : إِضافة الجزءِ ، نحو يده ورجله .

السّابع : إضافة الصّفة ؛ نحو عِلمه وقدرته .

الثَّامن : إِضافة العمل إلى العامل ؛ نحو صلاته ، وصيامه .

التَّاسع : إِضافةُ المُكْنةِ والقُدْرَةِ : ﴿ عِبَادا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ .

العاشر : إِضافة التخصيص : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾ .

وقد أَضاف الله – عزَّ وجلّ – إِلى نفسه فى القرآن والسنَّة عشرين شيئاً على سبيل التشريف والتبجيل : كلماتُ القرآن : ﴿ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ العرش المجيد : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ ﴾ .

محمّد المصطفى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾ .

كلمة الحمد : الحَمْدُ لِله .

كلمات التحيّات : (التَّحِيَّاتُ للهِ) .

شهر رجب : رجب شهر الله .

النِّعمة والمِنَّة على الخَلْق ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾ ناقة صالح : ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ ﴾ .

المساجد : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ ﴾ .

دين الإِسلام ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ .

الكعبة

المعظَّمة .

﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ .

الاسم الشَّريف : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ﴾ الرّوح المطهَّر : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ .

خِلْقَة الخَلْق على ملَّة التوحيد : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ ﴾ .

عَلامَة الإِيمان على المؤمنين : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ صوم رمضان : الصّوم لى .

عيسى بن مريم : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ .

مُلْك الأَرض والسّماءِ : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .

الأَمر والخَلق : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ ، ﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ﴾ .

العشرون : العباد المطيعون والعصاة : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ ، و

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ ﴾ ﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 36 . 38 ﴾

(42/726)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ .

لا يخفى ما بين هذا النعت ومنعوته من التنافي في الظاهر لأن النعت صيغة جمع والمنعوت لفظ مفرد .

والجواب أن لفظة الضيف تطلق على الواحد والجمع لأن أصلها مصدر ضاف فنقلت من المصدرية إلى الاسمية كما تقدم في سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 274 ﴾

(43/726)

قوله تعالى ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34)

فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (37) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الخليل عليه السلام أعلم أهل زمانه بالأمور الإلهية ، علم أن اجتماع الملائكة على تلك الهيئة التي يراهم فيها ليس لهذه البشارة فقط ، فلذلك استأنف تعالى الجواب لمن كان كأنه قال : ما كان من حاله وحالهم بعد هذا ؟ بقوله : ﴿ قال ﴾ أي قال مسبباً عما رأى من حالهم : ﴿ فما خطبكم ﴾ أي خبركم العظيم ﴿ أيها المرسلون ﴾ أي لأمر عظيم ﴿ قالوا ﴾ قاطعين بالتأكيد بأن مضمون خبرهم حتم لا بد منه ، ولا مدخل للشفاعة فيه : ﴿ إنا أرسلنا ﴾ أي بإرسال من تعلم ﴿ إلى قوم مجرمين ﴾ أي هم في غاية القوة على ما يحاولونه وقد صرفوا ما أنعم الله به عليهم من القوة في قطع ما يحق وصله ووصل ما يحق قطعه ﴿ لنرسل عليهم ﴾ أي من السماء التي فيها ما وعد العباد به وتوعدوا ﴿ حجارة من طين ﴾ أي مهيأ للاحتراق والإحراق ﴿ مسومة ﴾ أي معلمة بعلامة العذاب المخصوص .

ولما كان قد رأوا اهتمامه بالعلم بخبرهم خشية من أن يكونوا أرسلوا لعذاب أحد يعز عليه أمره ، أمنوا خوفه بوصف الإحسان فقالوا : ﴿ عند ربك ﴾ أي المحسن إليك بهذه

البشارة وغيرها ﴿ للمسرفين ﴾ أي المتجاوزين للحدود غير قانعين بما أبيح لهم .

ولما كان من المعلوم أن القوم يكونون تارة في مدر وتارة في شعر ، وعلم من الآيات السالفة أن العذاب مختص بذوي الإسراف ، سبب عن ذلك مفصلاً لخبرهم قوله تعالى معلماً أنهم في مدر : ﴿ فأخرجنا ﴾ بما لنا من العظمة بعد أن ذهبت رسلنا إليهم ووقعت بينهم وبين لوط عليهم السلام محاولات معروفة لم تدع الحال هنا إلى ذكرها ، والملائكة سبب عذابهم ، وأهل القرية المحاولون في أمرهم لا يعرفون ذلك ، وهذه العبارة إن كانت إخباراً لنا كانت خبراً عما وقع لنعتبر به ، وإن كانت لإبراهيم عليه السلام كان معناها أن الحكم الأعظم وقع بإخراجهم بشارة له بنجاتهم ﴿ من كان فيها ﴾ أي قراها .

(44/726)

ولما كان القلب عماد البدن الذي به صلاحه أو فساده ، فكان عمله أفضل الأعمال أنه به يكون استسلام الأعضاء أو جماحها ، بدأ به فقال : ﴿ من المؤمنين ﴾ أي المصدقين بقلوبهم لأنا لا نسويهم بالمجرمين فخلصناهم من العذاب على قلتهم وضعفهم وقوة المخالفين وكثرتهم ، وسبب عن التعبس والستر والتعرض للظواهر والبواطن قوله : ﴿ فما وجدنا ﴾ أسند الأمر إليه تشريفاً لرسله إعلاماً بأن فعلهم فعله ﴿ فيها غير بيت ﴾

واحد وهو بيت لوط ابن أخي إبراهيم عليه السلام ، وقيل : كان عدة الناجين منهم ثلاثة عشر ، ولما كان الإسلام قد تطلق على الظاهر فقط وإن كان المراد هنا الأخص أخره فقال : ﴿ من المسلمين ﴾ أي العريقين في الإسلام الظاهر والباطن لله من غير اعتراض أصلاً وهم إبراهيم وآله عليهم السلام فإنهم أول من وجد منه الإسلام الأتم ، وتسموا به كما مضى في البقرة وسموا به أتباعهم ، فكان هذا البيت الواحد صادقاً عليه الإيمان الذي هو التصديق والإسلام الذي هو الانقياد ، قال البغوي : وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعاً لأنه ما آمن مؤمن إلا وهو مسلم .

يعني لما بينها من التلازم وإن اختلف المفهومان ، وقال الأصبهاني : وقيل : كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر .

(45/726)

ولما وكان إبقاء آثار المهلكين أدل على قدرة من أهلكهم قال : ﴿ وتركنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ فيها ﴾ أي تلك القرى بما أوقعنا بها من العذاب الذي كان مبدؤه أنسب شيء بفعل الذاريات من السحاب فإنا قلعنا قراهم كلها وصعدت في الجو كالغمام إلى عنان السماء ولم يشعر أحد من أهلها بشيء من ذلك ثم قلبت وأتبعت الحجارة ثم خسف بها

وغمرت بالماء الذي لا يشبه شيئاً من مياه الأرض كما أن خباثتهم لم تشبه خباثة أحد ممن تقدمهم من أهل الأرض ﴿آية﴾ أي علامة عظيمة على قدرتنا على ما نريد ﴿للذين يخافون﴾ كما تقدم آخر ق أنهم المقصودون في الحقيقة بالإنذار لأنهم المنتفعون به دون من قسا قلبه ولم يعتبر ﴿العذاب الأليم﴾ أي أن يحل بهم كما حل بهذه القرى في الدنيا من رفع الملائكة لهم في الهواء الذاري إلى عنان السماء وقلبهم وإتباعهم الحجارة المحرقة، وغمرهم بالماء المناسب لفعلهم بنتنه وعدم نفعه، وما ادخر لهم في الآخرة أعظم. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 7 صـ 280.282﴾

(46/726)

فصل

قال الفخر:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31)﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى:

لما علم حالهم بدليل قوله: ﴿مُنكِرُونَ﴾ [الذاريات: 25] لم يقنع بما بشروه لجواز أن

يكون نزولهم للبشارة لا غير ؟ نقول إبراهيم عليه السلام أتى بما هو من آداب المضيف حيث يقول لضيفه إذا استعجل في الخروج ما هذه العجلة ، وما شغلك الذي يمنعنا من التشرف بالاجتماع بك ، ولا يسكت عند خروجهم مخافة أن يكون سكوته يوهم استثقالهم ، ثم إنهم أتوا بما هو من آداب الصديق الذي لا يسر عن الصديق الصدوق ، لا سيما وكان ذلك بإذن الله تعالى لهم في إطلاع إبراهيم عليه السلام على إهلاكهم ، وجبر قلبه بتقديم البشارة بخير البدل ، وهو أبو الأنبياء إسحاق عليه السلام على الصحيح ، فإن قيل فما الذي اقتضى ذكره بالفاء ، ولو كان كما ذكرتم لقال ما هذا الاستعجال ، وما خطبكم المعجل لكم ؟ نقول : لو كان أوجس منهم خيفة وخرجوا من غير بشارة وإيناس ما كان يقول شيئاً ، فلما آنسوه قال : ما خطبكم ، أي بعد هذا الأنس العظيم ، ما هذا الإيحاش الأليم .

المسألة الثانية :

هل في الخطب فائدة لا توجد في غيره من الألفاظ ؟ نقول : نعم ، وذلك من حيث إن الألفاظ المفردة التي يقرب منها الشغل والأمر والفعل وأمثالها ، وكل ذلك لا يدل على عظم الأمر ، وأما الخطب فهو الأمر العظيم ، وعظم الشأن يدل على عظم من على يده ينقضي ، فقال : ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي لعظمتكم لا ترسلون إلا في عظيم ، ولو قال بلفظ مركب بأن

يقول ما شغلكم الخطير وأمركم العظيم للزم التطويل ، فالخطب أفاد التعظيم مع الإيجاز .

المسألة الثالثة :

(47/726)

من أين عرف كونهم مرسلين ، فنقول قالوا له بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : 70] وإنما لم يذكر ههنا لما بينا أن الحكاية ببسطها مذكورة في سورة هود ، أو نقول لما قالوا لامرأته : ﴿ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ [الذاريات : 30] علم كونهم منزلين من عند الله حيث كانوا يحكون قول الله تعالى ، يدل على هذا أن قولهم : ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ كان جواب سؤاله منهم .

قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32)

المسألة الرابعة :

(48/726)

هذه الحكاية بعينها هي المحكية في هود ، وهناك قالوا : ﴿ أَنَّا أَرْسَلْنَا ﴾ [هود : 70] بعد ما زال عنه الروع وبشروه ، وهنا قالوا : ﴿ أَنَّا أَرْسَلْنَا ﴾ بعد ما سألهم عن الخطب ، وأيضاً قالوا هناك : ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : 70] وقالوا ههنا : ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ والحكاية من قولهم ، فإن لم يقولوا ذلك ورد السؤال أيضاً ، فنقول إذا قال قائل حاكياً عن زيد : قال زيد عمرو خرج ، ثم يقول مرة أخرى : قال زيد إن بكراً خرج ، فإما أن يكون صدر من زيد قولان ، وإما أن لا يكون حاكياً مما قاله زيد ، والجواب عن الأول : هو أنه لما خاف جاز أنهم ما قالوا له ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ فلما قال لهم ماذا تفعلون بهم ، كان لهم أن يقولوا : ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ لنهلكهم ، كما يقول القائل : خرجت من البيت ، فيقال : لماذا خرجت ؟ فيقول : خرجت لأتجر ، لكن ههنا فائدة معنوية ، وهي أنهم إنما قالوا في جواب ما خطبكم نهلكهم ؟ بأمر الله ، لتعلم براءتهم عن إيلام البريء ، وإهمال الرديء فأعادوا لفظ الإرسال ، وأما عن الثاني : نقول الحكاية قد تكون حكاية اللفظ ، كما تقول : قال زيد بعمرو مررت ، فيحكي لفظه المحكي ، وقد يكون حكاية لكلامه بمعناه تقول : زيد قال عمرو خرج ، ولك أن تبدل مرة أخرى في غير تلك الحكاية بلفظة أخرى ، فتقول لما قال زيد بكر خرج ، قلت كيت وكيت ، كذلك ههنا القرآن لفظ معجز ، وما صدر ممن تقدم نبينا عليه السلام سواء كان منهم ، وسواء كان منزلاً عليهم لم يكن لفظه معجزاً ، فيلزم أن لا تكون هذه الحكايات بتلك الألفاظ ،

فكأنهم قالوا له : ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ وقالوا : ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ وله أن يقول ، إنا أرسلنا إلى قوم من آمن بك ، لأنه لا يحكي لفظهم حتى يكون ذلك واحداً ، بل يحكي كلامهم بمعناه

(49/726)

وله عبارات كثيرة .

ألا ترى أنه تعالى لما حكى لفظهم في السلام على أحد الوجوه في التفسير ، قال في الموضعين : سلاماً وسلام ثم بيّن ما لأجله أرسلوا بقوله :

لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33)

وقد فسرنا ذلك في العنكبوت ، وقلنا : إن ذلك دليل على وجوب الرمي بالحجارة على اللائط وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أي حاجة إلى قوم من الملائكة ، وواحد منهم كان يقلب المدائن بريشة من جناحه ؟ نقول الملك القادر قد يأمر الحقير بإهلاك الرجل الخطير ، ويأمر الرجل الخطير بخدمة الشخص الحقير ، إظهاراً لنفاذ أمره ، فحيث أهلك الخلق الكثير بالقمل والجراد والبعوض بل بالريح

التي بها الحياة ، كان أظهر في القدرة وحيث أمر آلاف من الملائكة بإهلاك أهل بدر مع قلتهم كان أظهر في نفاذ الأمر وفيه فائدة أخرى ، وهي أن من يكون تحت طاعة ملك عظيم ، ويظهر له عدو ويستعين بالملك فيعينه بأكابر عسكره ، يكون ذلك تعظيماً منه له وكلما كان العدو أكثر والمدد أوفر كان التعظيم أتم ، لكن الله تعالى أعان لوطاً بعشرة ونبينا عليه السلام بخمسة آلاف ، وبين العددين من التفاوت ما لا يخفى وقد ذكرنا نبذاً منه في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا على قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مّنَ السماء ﴾ [ياس : 28] .

المسألة الثانية :

(50/726)

ما الفائدة في تأكيد الحجارة بكونها من طين ؟ نقول : لأن بعض الناس يسمي البرد حجارة فقوله : ﴿ مِن طِينٍ ﴾ يدفع ذلك التوهم ، واعلم أن بعض من يدعي النظر يقول لا ينزل من السماء إلا حجارة من طين مدورات على هيئة البرد وهيئة البنادق التي يتخذها الرماة ، قالوا : وسبب ذلك هو أن الإعصار يصعد الغبار من الفلوات العظيمة التي لا عمارة فيها والرياح تسوقها إلى بعض البلاد ، ويتفق وصول ذلك إلى هواء ندي ، فيصير طيناً رطباً ، والرطب إذا نزل وتفرق واستدار ، بدليل أنك إذا رميت الماء إلى فوق ثم نظرت إليه رأيته

ينزل كرات مدورات كاللآلىء الكبار ، ثم في النزول إذا اتفق أن تضربه النيران التي في الجو ، جعلته حجارة كالآجر المطبوخ ، فينزل فيصيب من قدر الله هلاكه ، وقد ينزل كثيراً في المواضع التي لا عمارة بها فلا يرى ولا يدرى به ، ولهذا قال : ﴿ مِن طِينٍ ﴾ لأن ما لا يكون من طين كالحجر الذي في الصواعق لا يكون كثيراً بحيث يمطر وهذا تعسف ، ومن يكون كامل العقل يسند الفكر إلى ما قاله ذلك القائل ، فيقول ذلك الإعصار لما وقع فإن وقع بحادث آخر يلزم التسلسل ولا بد من الانتهاء إلى محدث ليس بحادث ، فذلك المحدث لا بد وأن يكون فاعلاً مختاراً ، والمختار له أن يفعل ما ذكر وله أن يخلق الحجارة من طين على وجه آخر من غير نار ولا غبار ، لكن العقل لا طريق له إلى الجزم بطريق إحداثه وما لا يصل العقل إليه يجب أخذه بالنقل ، والنص ورد به فأخذنا به ولا نعلم الكيفية وإنما المعلوم أن الحجارة التي من طين نزولها من السماء أغرب وأعجب من غيرها ، لأنها في العادة لا بد لها من مكث في النار .

مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34)

فيه وجوه أحدها : مكتوب على كل واحد اسم واحد يقتل به .

ثانيها : أنها خلقت باسمهم ولتعذيبهم بخلاف سائر الأحجار فإنها مخلوقة للانتفاع في الأبنية وغيرها .

ثالثها : مرسلة للمجرمين لأن الإرسال يقال في السوائم يقال أرسلها لترعى فيجوز أن يقول سومها بمعنى أرسلها وبهذا يفسر قوله تعالى : ﴿ والخيل المسومة ﴾ [آل عمران : 14] إشارة إلى الاستغناء عنها وأنها ليست للركوب ليكون أدل على الغنى ، كما قال : ﴿ والقناطير المقنطرة ﴾ [آل عمران : 14] وقوله تعالى : ﴿ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ إشارة إلى خلاف ما يقول الطبيعيون إن الحجارة إذا أصابت واحداً من الناس فذلك نوع من الاتفاق فإنها تنزل بطبعها يتفق شخص لها فتصيبه فقوله : ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ أي في أول ما خلق وأرسل إذا علم هذا فإنما كان ذلك على قصد إهلاك المسرفين ، فإن قيل : إذا كانت الحجارة مسومة للمسرفين فكيف قالوا : ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الذاريات : 32 ، 33] مع أن المسرف غير المجرم في اللغة ؟ نقول : المجرم هو الآتي بالذنب العظيم لأن الجرم فيه دلالة على العظم ومنه جرم الشيء لعظمة مقداره ، والمسرف هو الآتي بالكبيرة ، ومن أسرف ولو في الصغائر يصير مجرماً لأن الصغير إلى الصغير إذا انضم صار كبيراً ، ومن أجرم فقد أسرف لأنه أتى بالكبيرة ولو دفعة واحدة فالوصفان اجتمعا فيهم .

لكن فيه لطيفة معنوية ، وهي أن الله تعالى سومها للمسرف المصر الذي لا يترك الجرم والعلم بالأمور المستقبلة عند الله تعالى ، يعلم أنهم مسرفون فأمر الملائكة بإرسالها عليهم ، وأما الملائكة فعلمهم تعلق بالحاضر وهم كانوا مجرمون فقالوا : إنا أرسلنا إلى قوم نعلمهم مجرمين لنرسل عليهم حجارة خلقت لمن لا يؤمن ويصر ويسرف ولزم من هذا علمنا بأنهم لو عاشوا سنين لتمادوا في الإجرام ، فإن قيل اللام لتعريف الجنس أو لتعريف العهد ؟ نقول لتعريف العهد أي مسومة لهؤلاء المسرفين إذ ليس لكل مسرف حجارة مسومة ، فإن قيل ما إسرافهم ؟ نقول ما دل عليه قوله تعالى : ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مّن العالمين ﴾ [العنكبوت : 28] أي لم يبلغ مبلغكم أحد .

فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35)

فيه فائدتان :

إحداهما : بيان القدرة والاختيار فإن من يقول بالاتفاق يقول يصيب البر والفاجر فلما ميز الله المجرم عن المحسن دل على الاختيار .

ثانيها : بيان أنه ببركة المحسن ينجو المسيء فإن القرية ما دام فيها المؤمن لم تهلك ، والضمير عائد إلى القرية معلومة وإن لم تكن مذكورة .

فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36)

فيه إشارة إلى أن الكفر إذا غلب والفسق إذا فشا لا تنفع معه عبادة المؤمنين ، بخلاف ما لو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون ويزنون ، وقيل في مثاله إن العالم كبدن ووجود الصالحين كالأغذية الباردة والحارة والكفار والفساق كالسموم الواردة عليه الضارة ، ثم إن البدن إن خلا عن المنافع وفيه المضار هلك وإن خلا عن المضار وفيه المنافع طاب عيشه ونما ، وإن وجد فيه كلاهما فالحكم للغالب فكذلك البلاد والعباد والدلالة على أن المسلم بمعنى المؤمن ظاهرة ، والحق أن المسلم أعم من المؤمن وإطلاق العام على الخاص لا مانع منه ، فإذا سمي المؤمن مسلماً لا يدل على اتحاد مفهوميهما ، فكأنه تعالى قال أخرجنا المؤمنين فما وجدنا الأعم منهم إلا بيتاً من المسلمين ويلزم من هذا أن لا يكون هناك غيرهم من المؤمنين ، وهذا كما لو قال قائل لغيره : من في البيت من الناس ؟ فيقول له : ما في البيت من الحيوانات أحد غير زيد ، فيكون مخبراً له بخلو البيت عن كل إنسان غير زيد .

وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (37)

وفي الآية خلاف .

قيل : هو ماء أسود منتن انشقت أرضهم وخرج منها ذلك ، وقيل : حجارة مرمية في ديارهم وهي بين الشام والحجاز ، وقوله : ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ العذاب الأليم ﴾ أي المنتفع بها هو الخائف ، كما قال تعالى : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : 35] في سورة العنكبوت ، وبينهما في اللفظ فرق قال ههنا : ﴿ ءايَةً ﴾ وقال هناك : ﴿ آية بيّنة ﴾ وقال هناك : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وقال ههنا : ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ فهل في المعنى فرق ؟ نقول هناك مذكور بأبلغ وجه يدل عليه قوله تعالى : ﴿ آية بيّنة ﴾ حيث وصفها بالظهور ، وكذلك منها وفيها فإن من للتبعيض ، فكأنه تعالى قال : من نفسها لكم آية باقية ، وكذلك قال : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فإن العاقل أعم من الخائف ، فكانت الآية هناك أظهر ، وسببه ما ذكرنا أن القصد هناك تخويف القوم ، وههنا تسلية القلب ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ المؤمنين * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المسلمين ﴾ [الذاريات : 35 ، 36] وقال هناك : ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ [العنكبوت : 33] من غير بيان وافٍ بنجاة المسلمين والمؤمنين بأسرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 185 ﴾ 188.

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون ﴾

لما تيقن إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة بإحياء العجل والبشارة قال لهم : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ أي ما شأنكم وقصتكم ﴿ أَيُّهَا المرسلون ﴾ ﴿ قالوا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ يريد قوم لوط .

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ أي لنرجمهم بها .

﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ أي مُعَلَّمةً .

قيل : كانت مخططة بسواد وبياض .

وقيل : بسواد وحُمرة .

وقيل : "مُسَوَّمَةً" أي معروفة بأنها حجارة العذاب .

وقيل : على كل حجر اسم من يهلك به .

وقيل : عليها أمثال الخواتيم .

وقد مضى هذا كله في "هود" .

فجعلت الحجارة تتبع مسافريهم وشُذَّاذهم فلم يفلت منهم مخبر .

﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي عند الله وقد أعدّها لرجم من قضى برجمه .

ثم قيل : كانت مطبوخة طبخ الآجر ، قاله ابن زيد ؛ وهو معنى قوله تعالى : ﴿ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ على ما تقدّم بيانه في "هود" .

وقيل : هي الحجارة التي نراها وأصلها طين ، وإنما تصير حجارة بإحراق الشمس إياها على مر الدهور .

وإنما قال : "مِنْ طِينٍ" ليعلم أنها ليست حجارة الماء التي هي البَرَد .

حكاه القشيري .

قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ المؤمنين ﴾ أي لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان في قومه من المؤمنين ؛ لئلا يهلك المؤمنون ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ [هود : 81] .

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المسلمين ﴾ يعني لوطاً وبنتيه وفيه إضمار ؛ أي فما وجدنا فيها غير أهل بيت .

وقد يقال بيت شريف يراد به الأهل .

وقوله : "فِيهَا" كناية عن القرية ولم يتقدّم لها ذكر ؛ لأن المعنى مفهوم .

وأيضاً فقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ يدل على القرية ؛ لأن القوم إنما

يسكنون قرية .

وقيل : الضمير فيها للجماعة .

(56/726)

والمؤمنون والمسلمون هاهنا سواء فجنّس اللفظ لئلا يتكرر ، كما قال : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ ﴾ [يوسف : 86] .

وقيل : الإيمان تصديق القلب ، والإسلام الانقياد بالظاهر ، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً .

فسماهم في الآية الأولى مؤمنين ؛ لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم .

وقد مضى الكلام في هذا المعنى في "البقرة" وغيرها .

وقوله : ﴿ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ [الحجرات : 14] يدل على الفرق بين الإيمان والإسلام وهو مقتضى حديث جبريل عليه السلام في صحيح مسلم وغيره .

وقد بيناه في غير موضع .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ آيَةً ﴾ أي عبرة وعلامة لأهل ذلك الزمان ومن بعدهم ؛ نظيره : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : 35] .

ثم قيل : الآية المتروكة نفس القرية الخِربة .

وقيل : الحجارة المنضودة التي رُجِموا بها هي الآية .

﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ لأنهم المنتفعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(57/726)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ ﴾ أي إبراهيم عليه السلام لما علم أنهم ملائكة أرسلوا لأمر ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ أي شأنكم الخطير الذي لأجله أرسلتم سوى البشارة ﴿ أَيُّهَا المرسلون ﴾ .

﴿ قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾

يعنون قوم لوط عليه السلام .

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي بعد قلب قراهم عاليها سافلها حسبما فصل في سائر السور الكريمة ﴿ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ أي طين متحجر وهو السجيل ؛ وفي تقييد كونها من طين رفع توهم كونها برداً فإن بعض الناس يسمى البرد حجارة .

﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ معلمة من السومة وهي العلامة على كل واحدة منها اسم من يهلك بها ؛

وقيل : أعلمت بأنها من حجارة العذاب ، وقيل : بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا ، وقيل : مسومة مرسلة من أسمت الإبل في المرعى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل : 10] ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي في محل ظهور قدرته سبحانه وعظمته عز وجل ، والمراد إنها معلمة في أول خلقها ، وقيل : المعنى إنها في علم الله تعالى معدّة ﴿ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ المجاوزين الحد في الفجور ، وأل عند الإمام للعهد أي لهؤلاء المسرفين ، ووضع الظاهر موضع الضمير ذمّاً لهم بالإسراف بعد ذمّهم بالإجرام ، وإشارة إلى علة الحكم ، وقوله تعالى :

﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ إلى آخره حكاية من جهته تعالى لما جرى على قوم لوط عليه السلام بطريق الإجمال بعد حكاية ما جرى بين الملائكة وبين إبراهيم عليه السلام من الكلام ، والفاء فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت ثقة بذكرها في موضع آخر كأنه قيل : فقاموا منه وجاءوا لوطاً فجرى بينهم وبينه ما جرى فباشروا ما أمروا به فأخرجنا بقولنا : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ [هود : 81] الخ ﴿ مَن كَانَ فِيهَا ﴾ أي في قرى قوم لوط وإضمارها بغير ذكر لشهرتها .

﴿ مِنَ المؤمنين ﴾ ممن آمن بلوط عليه السلام .

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ ﴾ أي غير أهل بيت للبيان بقوله تعالى : ﴿ مِنَ المسلمين ﴾ فالكلام بتقدير مضاف ، وجوز أن يراد بالبيت نفسه الجماعة مجازاً ، والمراد بهم كما أخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن مجاهد لوط وابنتاه ، وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه قال : كانوا ثلاثة عشر ، واستدل بالآية على اتحاد الإيمان والإسلام للاستثناء المعنوي فإن المعنى فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فلم يكن المخرج إلا أهل بيت واحد وإلا لم يستقم الكلام ، وأنت تعلم أن هذا يدل على أنهما صادقان على الأمر الواحد لا ينفك أحدهما عن الآخر كالناطق والإنسان إما على الاتحاد في المفهوم وهو المختلف فيه عند أهل الأصول والحديث فلا ، فالاستدلال بها على اتحادهما فيه ضعيف ، نعم تدل على أنهما صفتا مدح من أوجه عديدة استحقاق الإخراج واختلاف الوصفين وجعل كل مستقلاً بأن يجعل سبب النجاة وما في قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ ﴾ [الذاريات : 35] أولاً ، و ﴿ غَيْرَ بَيْتٍ ﴾ ثانياً من الدلالة على المبالغة فإن صاحبهما محفوظ ﴿ مَن كَانَ ﴾ وأين كان إلى غير ذلك ، ومعنى الوجدان منسوباً إليه تعالى العلم على ما قاله الراغب ، وذهب بعض الأجلة إلى أنه لا يقال : ما وجدت كذا إلا بعد الفحص والتفتيش ، وجعل عليه معنى الآية فأخرج

ملائكتنا ﴿ مَن كَانَ فِيهَا مِنَ المؤمنين ﴾ فما وجد ملائكتنا فيها ﴿ غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المسلمين ﴾ أو في الكلام ضرب آخر من المجاز فلا تغفل .

(59/726)

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا ﴾ أي في القرى ﴿ ءايَةً ﴾ علامة دالة على ما أصابهم من العذاب ، قال ابن جريج : هي أحجار كثيرة منضودة ، وقيل : تلك الأحجار التي أهلكوا بها ، وقيل : ماء منتن قال الشهاب : كأنه بحيرة طبرية ، وجوز أبو حيان كون ضمير ﴿ فِيهَا ﴾ عائداً على الإهلاكة التي أهلكوها فإنها من أعاجيب الإهلاك بجعل أعالي القرية أسافل ، وإمطار الحجارة ، والظاهر هو الأول ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ العذاب الاليم ﴾ أي من شأنهم أن يخافوه لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم دون من عداهم من ذوي القلوب القاسية فإنهم لا يعتدون بها ولا يعدونها آية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(60/726)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إبراهيم المكرمين ﴾

ذكر سبحانه قصة إبراهيم ؛ ليبين أنه أهلك بسبب التكذيب من أهلك .

وفي الاستفهام تنبيه على أن هذا الحديث ليس مما قد علم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه إنما علمه بطريق الوحي .

وقيل : إن " هل " بمعنى " قد " ، كما في قوله : ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان حِينٌ مّنَ الدهر ﴾ [الإنسان : 1] والضيف مصدر يطلق على الواحد والاثنين والجماعة ، وقد تقدم الكلام على قصة ضيف إبراهيم في سورة هود ، وسورة الحجر ، والمراد بكونهم مكرمين : أنهم مكرمون عند الله سبحانه ؛ لأنهم ملائكة جاءوا إليه في صورة بني آدم ، كما قال تعالى في وصفهم في آية أخرى : " بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ " [الأنبياء : 26] وقيل : هم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل .

وقال مقاتل ، ومجاهد : أكرمهم إبراهيم وأحسن إليهم وقام على رؤوسهم ، وكان لا يقوم على رؤوس الضيف ، وأمر امرأته أن تخدمهم .

وقال الكلبي : أكرمهم بالعجل ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ العامل في الظرف ﴿ حديث ﴾ أي : هل أتاك حديثهم الواقع في وقت دخولهم عليه ، أو العامل فيه : ﴿ ضيف ﴾ لأنه مصدر ، أو العامل فيه : ﴿ المكرمين ﴾ ، أو العامل فيه : فعل مضمر أي : اذكر ﴿ فَقَالُواْ

سَلامًا ﴾ أي : نسلم عليك سلاماً ﴿ قَالَ سلام ﴾ أي : قال إبراهيم سلام .

قرأ الجمهور بنصب ﴿ سلاماً ﴾ الأول ، ورفع الثاني ، فنصب الأوّل على المصدرية بتقدير الفعل كما ذكرنا ، والمراد به : التحية ، ويحتمل أن يكون المعنى : فقالوا كلاماً حسناً ؛ لأنه كلام سلم به المتكلم من أن يلغو ، فيكون على هذا مفعولاً به .

(61/726)

وأما الثاني : فرفعه على أنه مبتدأ محذوف الخبر ، أي : عليكم سلام ، وعدل به إلى الرفع لقصد إفادة الجملة الاسمية للدوام والثبات ، بخلاف الفعلية فإنها لمجرد التجدّد والحدوث ، ولهذا قال أهل المعاني : إن سلام إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة ، وقرىء بالرفع في الموضعين ، وقرىء بالنصب فيهما .

وقرأ أهل الكوفة إلاّ عاصماً بكسر السين ، وقرىء (سلم) فيهما ، ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ ارتفاع قوم على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : أنتم قوم منكرون .

قيل : إنه قال هذا في نفسه ولم يخاطبهم به ؛ لأن ذلك يخالف الإكرام .

قيل : إنه أنكرهم لكونهم ابتدءوا بالسلام ، ولم يكن ذلك معهوداً عند قومه ، وقيل : لأنه رأى فيهم ما يخالف بعض الصور البشرية ، وقيل : لأنه رآهم على غير صورة الملائكة الذين

يعرفهم ، وقيل غير ذلك .

﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ قال الزجاج : أي : عدل إلى أهله ، وقيل : ذهب إليهم في خفية من ضيوفه ، والمعنى متقارب ، وقد تقدم تفسيره في سورة الصافات .

يقال : راغ وارتاغ بمعنى طلب ، وماذا يريغ أي : يريد ويطلب ، وأراغ إلى كذا : مال إليه سرًّا وحاد ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أي : فجاء ضيفه بعجل قد شواه لهم ، كما في سورة هود :

﴿ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : 69] وفي الكلام حذف تدل عليه الفاء الفصيحة ، أي : فذبح عجلاً فحنذه فجاء به ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ أي : قرّب العجل إليهم ووضعه بين أيديهم فقال : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ الاستفهام للإنكار ، وذلك أنه لما قربه إليهم لم يأكلوا منه .

قال في الصحاح : العجل : ولد البقر والعجول مثله ، والجمع العجاجيل ، والأنثى عجلة ، وقيل : العجل في بعض اللغات الشاة ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أي : أحسّ في نفسه خوفاً منهم لما لم يأكلوا مما قرّبه إليهم .

وقيل : معنى أوجس : أضمر ، وإنما وقع له ذلك لما لم يتحرموا بطعامه .

ومن أخلاق الناس أن من أكل من طعام إنسان صار آمناً منه ، فظن إبراهيم أنهم جاءوا للشرّ ، ولم يأتوا للخير .

وقيل : إنه وقع في قلبه أنهم ملائكة ، فلما رأوا ما ظهر عليه من أمارات الخوف قالوا : ﴿ لاَ تَخَفْ ﴾ وأعلموه أنهم ملائكة مرسلون إليه من جهة الله سبحانه ﴿ وَبَشَّرُوهُ بغلام عَلِيمٍ ﴾ أي : بشروه بغلام يولد له كثير العلم عند أن يبلغ مبالغ الرجال ، والمبشر به عند الجمهور هو إسحاق .

وقال مجاهد وحده : إنه إسماعيل ، وهو مردود بقوله : ﴿ وبشرناه بإسحاق ﴾ [الصافات : 112] وقد قدّمنا تحقيق هذا المقام بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره .

﴿ فَأَقْبَلَتِ امرأته فِى صَرَّةٍ ﴾ لم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان ، وإنما هو كقولك : أقبل يشتمني ، أي : أخذ في شتمي ، كذا قال الفراء ، وغيره .

والصرّة : الصيحة والضجة ، وقيل : الجماعة من الناس .

قال الجوهري : الصرّة : الضجة والصيحة ، والصرّة : الجماعة ، والصرّة : الشدّة من كرب أو غيره ، والمعنى : أنها أقبلت في صيحة ، أو في ضجة ، أو في جماعة من الناس يستمعون كلام الملائكة ، ومن هذا قول امرىء القيس :

فألحقه بالهاديات ودونه . . . جراجرها في صرّة لم تزيل

وقوله : ﴿ فِى صَرَّةٍ ﴾ في محل نصب على الحال ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ أي : ضربت

بيدها على وجهها ، كما جرت بذلك عادة النساء عند التعجب .

قال مقاتل ، والكلبي : جمعت أصابعها ، فضربت جبينها تعجباً .

(63/726)

ومعنى الصكّ : ضرب الشيء بالشيء العريض ، يقال : صكه أي : ضربه ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي : كيف ألد وأنا عجوز عقيم ؟ استبعدت ذلك لكبر سنها ؛ ولكونها عقيماً لا تلد ﴿ قَالُواْ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ أي : كما قلنا لك وأخبرناك قال ربك ، فلا تشكي في ذلك ولا تعجبي منه ، فإن ما أراده الله كائن لا محالة ، ولم نقل ذلك من جهة أنفسنا ، وقد كانت إذ ذاك بنت تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم ابن مائة سنة ، وقد سبق بيان هذا مستوفى ، وجملة : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الحكيم العليم ﴾ تعليل لما قبلها أي : حكيم في أفعاله وأقواله ، عليم بكل شيء .

وجملة : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون ﴾ مستأنفة جواباً عن سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قال إبراهيم بعد هذا القول من الملائكة ؟ والخطب : الشأن والقصة ، والمعنى : فما شأنكم وما قصتكم أيها المرسلون من جهة الله ، وما ذاك الأمر الذي لأجله أرسلكم سوى هذه البشارة ؟ ﴿ قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ يريدون : قوم لوط .

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ أي : لنرجمهم بحجارة من طين متحجر ، وانتصاب ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ على الصفة لحجارة ، أو على الحال في الضمير المستكنّ في الجار والمجرور ، أو من الحجارة ؛ لكونها قد وصفت بالجار والمجرور ، ومعنى ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ : معلمة بعلامات تعرف بها ، قيل : كانت مخططة بسواد وبياض ، وقيل : بسواد وحمرة ، وقيل : معروفة بأنها حجارة العذاب ، وقيل : مكتوب على كل حجر من يهلك بها ، وقوله : ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ ظرف لمسوّمة ، أي : معلمة عنده ﴿ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ المتمادين في الضلالة المجاوزين الحدّ في الفجور .

وقال مقاتل : للمشركين ، والشرك أسرف الذنوب وأعظمها .

(64/726)

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ المؤمنين ﴾ هذا كلام من جهة الله سبحانه ، أي : لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان في قرى قوم لوط من قومه المؤمنين به ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المسلمين ﴾ أي : غير أهل بيت .

(65/726)

يقال : بيت شريف ويراد به أهله ، قيل : وهم أهل بيت لوط ، والإسلام : الانقياد والاستسلام لأمر الله سبحانه ، فكل مؤمن مسلم ، ومن ذلك قوله : ﴿ قَالَتِ الأعراب ءامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قُولُواْ أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات : 14] وقد أوضح الفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الإسلام والإيمان في الحديث في الصحيحين ، وغيرهما الثابت من طرق أنه سئل عن الإسلام ، فقال : " أن تشهد أن لا إله إلاَّ الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتحج البيت ، وتصوم رمضان " ، وسئل عن الإيمان ، فقال : " أن تؤمن بالله ، وملائكته وكتبه ورسله ، والقدر خيره وشرّه " ، فالمرجع في الفرق بينهما هو هذا الذي قاله الصادق المصدوق ، ولا التفات إلى غيره مما قاله أهل العلم في رسم كل واحد منهما برسوم مضطربة مختلفة مختلة متناقضة ، وأما ما في الكتاب العزيز من اختلاف مواضع استعمال الإسلام والإيمان ، فذلك باعتبار المعاني اللغوية والاستعمالات العربية ، والواجب تقديم الحقيقة الشرعية على اللغوية ، والحقيقة الشرعية هي هذه التي أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأجاب سؤال السائل له عن ذلك بها ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا ءايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ العذاب الأليم ﴾ أي : وتركنا في تلك القرى علامة ، ودلالة تدل على ما أصابهم من العذاب ، كلّ من يخاف عذاب الله ، ويخشاه من أهل ذلك الزمان ومن بعدهم ، وهذه الآية هي آثار العذاب في تلك القرى ، فإنها ظاهرة بينة ، وقيل : هي الحجارة التي

رجموا بها ، وإنما خصّ الذين يخافون العذاب الأليم ؛ لأنهم الذين يتعظون بالمواعظ ، ويتفكرون في الآيات دون غيرهم ممن لا يخاف ذلك وهم المشركون المكذبون بالبعث ، والوعد والوعيد .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فِى صَرَّةٍ ﴾ قال : في صيحة ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ قال : لطمت .

(66/726)

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المسلمين ﴾ قال : لوط وابنتيه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : كانوا ثلاثة عشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 87.89 ﴾

(67/726)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) ﴾

علم إبراهيم من محاورتهم فيما ذكر في هذه الآية وما ورد ذكره في آيات أخرى أنهم ملائكة مرسلون من عند الله فسألهم عن الشأن الذي أرسلوا لأجله .

وإنما سألهم بعد أن قَراهم جرياً على سنة الضيافة أن لا يُسأل الضيف عن الغرض الذي أَورده ذلك المنزلَ إلا بعد استعداده للرحيل كيلا يتوهم سآمة مُضيِّفة من نزوله به ، وليعينه على أمره إن كان مستطيعاً ، وهم وإن كانوا قد بشروه بأمر عظيم إلا أنه لم يعلم هل ذلك هو قصارى ما جاءوا لأجله ؟

وحكي فعل القول بدون عاطف لأنه في مقاوله محاورة بينه وبين ضيفه .

والفاء فيما حُكي من كلام إبراهيم فصيحة مؤذنة بكلام محذوف ناشىء عن المحاورَة الواقعة بينه وبين ضيفه وهو من عطف كلام على كلام متكلم آخر ويقع كثيراً في العطف بالواو نحو قوله تعالى حكاية عن إبراهيم : ﴿ قال ومن ذريتي ﴾ [البقرة : 124] بعد قوله تعالى : ﴿ قال إني جاعلك للناس إماماً ﴾ [البقرة : 124] وقوله حكاية عن نوح : ﴿ قال وما علمي بما كانوا يعملون ﴾ [الشعراء : 112] .

فإبراهيم خاطب الملائكة بلغته ما يؤدي مثله بفصيح الكلام العربي بعبارة ﴿ فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ .

وتقدير المحذوف : إذ كنتم مرسلين من جانب الله تعالَى فما خطبكم الذي أُرسلتم لأجله .

وقد علم إبراهيم أن نزول الملائكة بتلك الصورة لا تكون لمجرد بشارته بابن يولد له ولزوجه إذ كانت البشارة تحصل له بالوحي ، فكان من عِلم النبوءة أن إرسال الملائكة إلى الأرض بتلك الصورة لا يكون إلا لخطب قال تعالى : ﴿ ما تنزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذن منظرين ﴾ [الحجر : 8] والخطب : الحدث العظيم والشأن المهمّ ، وإضافته إلى ضميرهم لأدنى ملابسة .

والمعنى : ما الخطب الذي أُرسلتم لأجله إذ لا تَنزل الملائكة إلا بالحق .

(68/726)

وخاطبهم بقوله : ﴿ أيها المرسلون ﴾ لأنه لا يعرف ما يسميهم به إلا وصف أنهم المرسلون ، والمرسلون من صفات الملائكة كما في قوله تعالى : ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ [المرسلات : 1] عن أحد تفسيرين .

والمراد بالقوم المجرمين أهل سَدوم وعَمُورية ، وهم قوم لوط ، وقد تقدمت قصتهم في سورة الأعراف وسورة هود .

والإِرسال الذي في قوله : ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين ﴾ مستعمل في الرمي مجازاً

كما يقال : أرسل سهمه على الصيد ، وهذا الإِرسال يكون بعد أن أصعدوا الحجارة إلى الجوّ وأرسلتها عليهم ، ولذلك سميت مطراً في بعض الآيات .

وحصل بين ﴿ أرسلنا ﴾ وبين ﴿ لنرسل ﴾ جناس لاختلاف معنى اللفظين .

والحجارة : اسم جمع للحجر ، ومعنى كون الحجارة من طين : أن أصلها طين تحجَّر بصهر النار ، وهي حجارة بركانية من كبريت قذفتها الأرض من الجهة التي صارت بحيرة تدعى اليوم بحيرة لوط ، وأصعدها ناموس إلهِي بضغط جعله الله يرفع الخارج من البركان إلى الجو فنزلت على قرى قوم لوط فأهلكتهم ، وذلك بأمر التكوين بواسطة القوى الملكية .

والمُسَوّمة : التي عليها السُّومة أي العلامة ، أي عليها علامات من ألوان تدل على أنها ليست من الحجارة المتعارفة .

ومعنى ﴿ عند ربك ﴾ أن علاماتها بخلق الله وتكوينه .

والمسرفون : المفرطون في العصيان ، وذلك بكفرهم وشيوع الفاحشة فيهم ، فالمسرفون : القوم المجرمون ، عدل عن ضميرهم إلى الوصف الظاهر ، لتسجيل إفراطهم في الإِجرام .

فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35)

هذه الجملة ليست من حكاية كلام الملائكة بل هي تذييل لقصة محاورة الملائكة مع إبراهيم ، والفاء في ﴿ فأخرجنا ﴾ فصيحة لأنها تفصح عن كلام مقدر هو ما ذُكر في سورة هود من مجيء الملائكة إلى لوط وما حدث بينه وبين قومه ، فالتقدير : فحَلُّوا بقرية لوط فأمرناهم

بإخراج من كان فيها من المؤمنين فأخرجوهم .

وضمير "أخرجنا" ضمير عظمة الجلالة .

(69/726)

وإسناد الإخراج إلى الله لأنه أمر به الملائكة أن يبلغوه لوطاً ، ولأن الله يسّر إخراج المؤمنين ونجاتهم إذْ أخّر نزول الحجارة إلى أن خرج المؤمنون وهم لوط وأهله إلا امرأته .

وعبر عنهم بـ ﴿ المؤمنين ﴾ للإشارة إلى أن إيمانهم هو سبب نجاتهم ، أي إيمانهم بلوط .

والتعبير عنه بـ ﴿ المسلمين ﴾ لأنهم آل نبيء وإيمان الأنبياء إسلام قال تعالى : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيّ إن اللَّه اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [البقرة : 132] .

وضمير ﴿ فيها ﴾ عائد إلى القرية ولم يتقدم لها ذكر لكونها معلومة من آيات أخرى كقوله : ﴿ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء ﴾ [الفرقان : 40] .

وتفريع ﴿ فما وجدنا ﴾ تفريع خبر على خبر ، وفعل ﴿ وجدنا ﴾ معنى علمنا لأن (وجد) من أخوات (ظن) فمفعوله الأول قوله : ﴿ من المسلمين ﴾ و (من) مزيدة لتأكيد النفي وقوله : ﴿ فيها ﴾ في محل المفعول الثاني .

وإنما قال : ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ دون أن يقول : فأخرجنا لوطاً وأهل بيته قصداً للتنويه بشأن الإِيمان والإِسلام ، أي أن الله نجّاهم من العذاب لأجل إيمانهم بما جاء به رسولهم لا لأجل أنهم أهل لوط ، وأن كونهم أهل بيت لوط لأنهم انحصر فيهم وصف ﴿ المؤمنين ﴾ في تلك القرية ، فكان كالكلي الذي انحصر في فرد معين .

والمؤمن : هو المصدق بما يجب التصديق به .

والمسلم المنقاد إلى مقتضى الإِيمان ولا نجاة إلا بمجموع الأمرين ، فحصل في الكلام مع التفنن في الألفاظ الإِشارة إلى التنويه بكليهما وإلى أن النجاة باجتماعهما .

(70/726)

والآية تشير إلى أن امرأة لوط كانت تظهر الانقياد لزوجها وتضمر الكفر ومما لأة أهل القرية على فسادهم ، قال تعالى : ﴿ ضرب اللَّه مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ﴾ [التحريم : 10] الآية ، فبيت لوط كان كله من المسلمين ولم يكن كله من المؤمنين فلذلك لم ينج منهم إلا الذين اتصفوا بالإِيمان والإِسلام معاً .

والوجدان في قوله : ﴿ فما وجدنا ﴾ مراد به تعلّق علم الله تعالى بالمعلوم بعد وقوعه وهو تعلق تنجيزي ، ووجدان الشيء إدراكه وتحصيله .

ومعنى ﴿ وتركنا فيها آية ﴾ : أن القرية بقيت خراباً لم تعمر ، فكان ما فيها من آثار الخراب آية للذين يخافون عذاب الله ، قال تعالى في سورة الحجر (76)

﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ أو يعود الضمير إلى ما يؤخذ من مجموع قوله : ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ [الذاريات : 32] على تأويل الكلام بالقصة ، أي تركنا في قصتهم .

والترك حقيقته : مفارقة شخص شيئاً حصل معه في مكان ففارق ذلك المكان وأبقى منه ما كان معه ، كقول عنترة:

فتركتُه جَزر السباع ينُشْنَه . . .

ويطلق على التسبب في إيجاد حالة تطول ، كقول النابغة:

فلا تتركَنّي بالوعيد كأنني . . .

إلى الناس مطليٌّ به القارُ أجرب

بتشبيه إبقاء تلك الحالة فيه بالشيء المتروك في مكان .

ووجه الشبه عدم التغير .

والترك في الآية : كناية عن إبقاء الشيء في موضع دون مفارقة التارك ، أو هو مجاز مرسل في ذلك فيكون نظير ما في بيت النابغة .

و﴿ الذين يخافون العذاب ﴾ هم المؤمنون بالبعث والجزاء من أهل الإِسلام وأهل الكتاب دون المشركين فإنهم لما لم ينتفعوا بدلالة مواقع الاستئصال على أسباب ذلك الاستئصال نُزلت دلالة آيته بالنسبة إليهم منزلةَ ما ليس بآية كما قال تعالى : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ [ق : 45] .

(71/726)

والمعنى : أن الذين يخافون اتعظوا بآية قوم لوط فاجتنبوا مثلَ أسباب إهلاكهم ، وأن الذين أشركوا لا يتعظون فيوشك أن ينزل عليهم عذاب أليم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(72/726)

قوله تعالى ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (42)

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (45) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (46) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قدم سبحانه أحق القصص الدالة على قسمه وما أقسم عليه بما فيها من خفاء الأسباب مع وجودها ، ثم ما فيها من إنزال ما به الوعيد من السماء بالنار والماء الذي أشير إليه بالمقسمات ، مع الفرقة بين المسلم والمجرم ، أتبعها قصة من أيده بحاملات فيها مطر وبرد ونار مضطرمة ، كما مضى بيانه في الأعراف ، ثم بعد ذلك بريح فرقت البحر ونشفت أرضه ودخله فرعون والقبط ، وهو واضح الأمر في أنه سبب لهلاكهم وهم لا يشعرون به ، فقال عاطفاً على المقدر في قصة إبراهيم عليه السلام أو الظاهر في ﴿ وفي الأرض ﴾ أو على " في " التي في قوله ﴿ وتركنا فيها آية للذين يخافون ﴾ وهذا أقرب من غيره وأولى : ﴿ وفي موسى ﴾ أي في قصته وأمره آية على ذلك عظيمة ﴿ إذ أرسلناه ﴾ بعظمتنا ﴿ إلى فرعون ﴾ الذي كان قد أساء إلى إبراهيم عليه السلام بعد عظيم إحسانهم إله وإلى جميع قومه بما أحس إليهم يوسف عليه السلام ﴿ بسلطان مبين ﴾ أي معجزات ظاهرة في نفسه منادية من شدة ظهورها بأنها معجزة ، فكان فيها دلالة واضحة على صدق وعيده

ومع ذلك فلم ينفعهم علمها ولذلك سبب عنه وعقب به قوله : ﴿ فتولى ﴾ أي كلف نفسه الإعراض بعد ما دعاه علمها إلى الإقبال إليها ، وأشار إلى توليه بقوله : ﴿ بركنه ﴾ أي بسب ما يركن إليه من القوة في نفسه وبأعوانه وجنوده أو بجميع جنوده – كناية عن المبالغة في الإعراض ، ﴿ وقال ﴾ معلماً بعجزه عما أتاه به وهو لا يشعر : ﴿ ساحر ﴾ ثم ناقض كمناقضتكم فقال بجهله عما يلزم على قوله : ﴿ أو مجنون ﴾ أي لاجترائه عليّ مع ما لي من عظيم الملك بمثل هذا الذي يدعو إليه ويتهدد عليه .

(73/726)

ولما وقعت التسلية بهذا للأولياء ، قال تعالى محذراً للأعداء : ﴿ فأخذناه ﴾ أي أخذ غضب وقهر بعظمتنا بما استدرجناه به وأوهناه به من العذاب الذي منه سحاب حامل ماء وبرداً وناراً وصواعق ﴿ وجنوده ﴾ أي كلهم ﴿ فنبذناهم ﴾ أي طرحناهم طرح مستهين بهم مستخف لهم كما تطرح الحصيات ﴿ في اليم ﴾ أي البحر الذي هو أهل لأن يقصد بعد أن سلطنا الريح فغرقته لما ضربه موسى عليه السلام بعصاه ونشفت أرضه ، فأيبست ما أبرزت فيه من الطرق لنجاة أوليائنا وهلاك أعدائنا ﴿ وهو ﴾ أي والحال أن فرعون ﴿ مليم ﴾ أي آتٍ بما هو بالغ في استحقاقه الملامة ، ويجوز أن يكون حالاً من

﴿ أليم ﴾ بمعنى أنه فعل بهم فعل اللائم من ألامه - إذا بالغ في عذله ، وصار ذا لائمة أي لهم ، من ألام - لازماً ، وأن يكون مخففاً من لأم المهموز فيكون المعنى : فهو مصلح أي فاعل فعل المصلحين في إنجاء الأولياء وإغراق الأعداء بالالتئام والانطباق عليهم ، قال في القاموس : اللوم العدل ، لام لوماً وألامه ولومه للمبالغة ، وألام : أتى ما يلام عليه أو صار ذا لائمة ، ولأمه بالهمز كمنعه ، نسبه إلى اللوم ، والسهم : أصلحه كألامه ولأمه فالتأم ، ولا يضر يونس عليه السلام أن يعبر في حقه بنحو هذه العبارة ، فإن أسباب اللوم تختلف كما أن أسباب المعاصي تختلف في قوله

﴿ وعصوا رسله ﴾ [هود : 59] ﴿ وعصى آدم ربه ﴾ [طه : 121] وبحسب ذلك يكون اختلاف نفس اللوام ونفس المعاصي .

(74/726)

ولما أتم قصة من جمع له السحاب والماء والنار والريح ، أتبعها قصة من أتاهم بريح ذارية لم يوجد قط مثلها ، وكان أصلها موجوداً بين ظهرانيهم وهم لا يشعرون ، بل قاربت الوصول إليهم وهم يظنونها مما ينفعهم : ﴿ وفي عاد ﴾ أي آية عظيمة ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ أرسلنا ﴾ بعظمتنا ﴿ عليهم ﴾ إرسال علو وأخذ ﴿ الريح ﴾ فأتتهم تحمل سحابة

سوداء وهي تذرو الرمل وترمي بالحجارة على كيفية لا تطاق ﴿ العقيم ﴾ أي التي لا ثمرة لها فلا تلقح شجراً ولا تنشىء سحاباً ولا تحمل مطراً ولا رحمة فيها ولا بركة فلذلك أهلكهم هلاك الاستئصال ، ثم بين عقمها وإعقامها بقوله : ﴿ ما تذر ﴾ أي تترك على حال ردية ، وأعرق في النفي فقال : ﴿ من شيء ﴾ ولما كان إهلاكها إنما هو بالفاعل المختار ، نبه على ذلك بأداة الاستعلاء فقال : ﴿ أتت عليه ﴾ أي إتيان إرادة مرسلها ، استعلاها على ظاهره وباطنه ، وأما من أريدت رحمته كهود عليه السلام ومن معه ـ رضى الله عنه ـ م فكان لهم روحاً وراحة لا عليهم ﴿ إلا جعلته كالرميم ﴾ أي الشيء البالي الذي ذهلته الأيام والليالي ، فصيره البلى إلى حالة الرماد ، وهو في كلامهم ما يبس من نبات الأرض ودثر – قاله ابن جريج ، وخرج بالتعبير ب " تذر " هود عليه السلام ومن معه من المؤمنين ـ رضى الله عنه ـ م أجمعين ، فإنهم تركتهم على حالة حسنة لم يمسهم منها سوء كما أشير إلى مثل ذلك بأداة الاستعلاء .

(75/726)

ولما تم ما اقتضاه سياق السورة من قصة أهل الريح الذارية ، أتبعها قصة من أهلكوا بما يحمله السحاب من الريح وما تحمله الريح من صوت الصيحة الراجفة الماحقة فقال :

﴿ وفي ثمود ﴾ أي قوم صالح عليه السلام آية عظيمة كذلك ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ قيل لهم ﴾ ممن لا يخلف المعياد : ﴿ تمتعوا ﴾ أي بلبن الناقة وغيره مما مكناكم فين من الزرع والنخيل والأبنية في الجبال والسهول وغير ذلك من جلائل الأمور الذي أمرناكم به ولا تطغوا ﴿ حتى حين ﴾ أي وقت ضربناه لآجالكم ﴿ فعتوا ﴾ أي أوقعوا بسبب إحساننا إليهم العتو ، وهو التكبر والإباء ﴿ عن أمر ربهم ﴾ أي مولاهم الذي أعظم إحسانه إليهم فعقروا الناقة وأرادوا قتل نبيه عليه السلام ﴿ فأخذتهم ﴾ بسبب عتوهم أخذ قهر وعذاب ﴿ الصاعقة ﴾ أي الصيحة العظيمة التي حملتها الريح ، فأوصلتها إلى مسامعهم بغاية العظمة ، ورجت ديارهم رجة أزالت أرواحهم بالصعق ، وقوله : ﴿ وهم ينظرون ﴾ دال على أنها كانت في غمام ، وكان فيها نار ، ويجوز – مع كونه من النظر – أن يكون أيضاً من الانتظار ، فإنهم وعدوا نزول العذاب بعد ثلاثة أيام ، وجعل لهم في كل يوم علامة وقعت بهم فتحققوا وقوعه اليوم الرابع ﴿ فما ﴾ أي فتسبب عن ذلك أنه ما ﴿ استطاعوا ﴾ أي تمكنوا ، وأكد النفي فقال : ﴿ من قيام ﴾ أي بعد مجيئها بأن عاجلتهم بإهلاكها عن القيام .

ولما كان الإنسان قد لا يتمكن من القيام لعارض في رجليه وينتصف من عدوه بما يرتبه من عقله ويدبره برأيه قال : ﴿ وما كانوا ﴾ أي كوناً ما ﴿ منتصرين ﴾ أي لم يكن فيهم أهلية

للانتصار بوجه ، لا بأنفسهم ولا بناصر ينصرهم فيطاوعونه في النصرة لأن تهيؤهم لذل سقط بكل اعتبار .

(76/726)

ولما أتم قصة من أهلكوا بما من شأنه الإهلاك وهو الصاعقة ، أتبعهم قصة من أهلكوا بما من شأنه الإحياء ، وهو الماء الذي جل ما يشتمل عليه الحلامات التي أثارتها الذاريات ، وقد كانوا موجودين في الأرض والسماء – وأسبابه مهيأة – وهم لا يحسون بشيء من ذلك ، وأما عبادنا المؤمنون فهيأنا لهم أسباب النجاة من السفينة وغيرها ، وأعلمناهم بها ، فكان كل ما أردنا وقاله عنا أولياؤنا فقال مغيراً للأسلوب تنبيهاً على العظمة بنفسه الإهلاك لكونه بما من شأن الإحياء والإبقاء والتصرف في الأسباب : ﴿ وقوم ﴾ أي وأهلكنا قوم ﴿ نوح ﴾ على ما كان فيهم من الكثرة وقوة المحاولة والقيام بما يريدونه ، ويجوز أن يكون معطوفاً على " فيها " أي وتركناهم آية ، ويحسن هذا الإعراب أنهم هلكوا جميعاً وكانوا جميع أهل الأرض ، وعم عذابهم جميع الأرض ، كانوا لهم الآية ، ويؤيد هذا الإعراب قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي بالجر عطفاً على ضمير " فيها " .

ولما كان إهلاكهم على عظمه وانتشاره في بعض الزمان ، أدخل الجارّ فقال : ﴿ من قبل ﴾

أي قبل هذه الأمم كلها ، ثم علل إهلاكهم بقوله : ﴿ إنهم كانوا ﴾ خلقاً وطبعاً ، لا حيلة لغيرنا من أهل الأسباب في صلاحهم ﴿ قوماً ﴾ أي أقوياء ﴿ فاسقين ﴾ أي عريقين في الخروج عن حظيرة الدين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 282 . 285 ﴾

(77/726)

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ وَفِى موسى ﴾

يحتمل أن يكون معطوفاً على معلوم ، ويحتمل أن يكون معطوفاً على مذكور ، أما الأول ففيه وجوه .

الأول : أن يكون المراد ذلك في إبراهيم وفي موسى ، لأن من ذكر إبراهيم يعلم ذلك .

الثاني : لقومك في لوط وقومه عبرة ، وفي موسى وفرعون .

الثالث : أن يكون هناك معنى قوله تعالى : تفكروا في إبراهيم ولوط وقومهما ، وفي موسى وفرعون ، والكل قريب بعضه من بعض ، وأما الثاني ففيه أيضاً وجوه .

أحدها : أنه عطف على قوله : ﴿ وَفِى الأَرض ءايات لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات : 20] ،

﴿ وَفِى موسى ﴾ وهو بعيد لبعده في الذكر ، ولعدم المناسبة بينهما .

ثانيها : أنه عطف على قوله : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا ءايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ [الذاريات : 37] ، ﴿ وَفِى موسى ﴾ أي وجعلنا في موسى على طريقة قولهم : علفتها تبناً وماءً بارداً ، وتقلدت سيفاً ورمحاً ، وهو أقرب ، ولا يخلو عن تعسف إذا قلنا بما قال به بعض المفسرين إن الضمير في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا ﴾ عائد إلى القرية .

ثالثها : أن نقول فيها راجع إلى الحكاية ، فيكون التقدير : وتركنا في حكايتهم آية أو في قصتهم ، فيكون : وفي قصة موسى آية ، وهو قريب من الاحتمال الأول ، وهو العطف على المعلوم .

رابعها : أن يكون عطفاً على ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إبراهيم ﴾ [الذاريات : 24] وتقديره : وفي موسى حديث إذ أرسلناه ، " وهو مناسب إذ جمع الله كثيراً من ذكر إبراهيم وموسى عليهما السلام ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ موسى وإبراهيم الذى وفى ﴾ [النجم : 36] وقال تعالى : ﴿ صُحُفِ إبراهيم وموسى ﴾ [الأعلى : 19] والسلطان القوة بالحجة والبرهان ، والمبين الفارق ، وقد ذكرنا أنه يحتمل أن يكون المراد منه ما كان معه من البراهين القاطعة التي حاج بها فرعون ، ويحتمل أن يكون المراد المعجز الفارق بين سحر الساحر وأمر المرسلين .

قوله تعالى : ﴿ فتولى بِرُكْنِهِ ﴾ فيه وجوه .

الأول : الباء للمصاحبة ، والركن إشارة إلى القوم كأنه تعالى يقول : أعرض مع قومه ، يقال نزل فلان بعسكره على كذا ، ويدل على هذا الوجه قوله تعالى : ﴿ فَأَرَاهُ الآية الكبرى * فَكَذَّبَ وعصى * ثُمَّ أَدْبَرَ يسعى ﴾ [النازعات : 20 22] قال : ﴿ أَدْبَرَ ﴾ وهو بمعنى تولى وقوله : ﴿ فَحَشَرَ فنادى ﴾ [النازعات : 23] وفي معنى قوله تعالى : ﴿ بِرُكْنِهِ ﴾ .

الثاني : ﴿ فتولى ﴾ أي اتخذ ولياً ، والباء للتعدية حينئذ يعني تقوى بجنده .

والثالث : تولى أمر موسى بقوته ، كأنه قال : أقتل موسى لئلا يبدل دينكم ، ولا يظهر في الأرض الفساد ، فتولى أمره بنفسه ، وحينئذ يكون المفعول غير مذكور ، وركنه هو نفسه القوية ، ويحتمل أن يكون المراد من ركنه هامان ، فإنه كان وزيره ، وعلى هذا الوجه الثاني أظهر .

﴿ وَقَالَ ساحر أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ أي هذا ساحر أو مجنون ، وقوله : ﴿ ساحر ﴾ أي يأتي الجن بسحره أو يقرب منهم ، والجن يقربون منه ويقصدونه إن كان هو لا يقصدهم ، فالساحر والمجنون كلاهما أمره مع الجن ، غير أن الساحر يأتيهم باختياره ، والمجنون يأتونه من غير اختياره ، فكأنه أراد صيانة كلامه عن الكذب فقال هو يسحر الجن أو يسحر ،

فإن كان ليس عنده منه خبر ، ولا يقصد ذلك فالجن يأتونه .

فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40)

(79/726)

وهو إشارة إلى بعض ما أتى به ، كأنه يقول : واتخذ الأولياء فلم ينفعوه ، وأخذه الله وأخذ أركانه وألقاهم جميعاً في اليم وهو البحر ، والحكاية مشهورة ، وقوله تعالى : ﴿ وهو مليم ﴾ نقول فيه شرف موسى عليه السلام وبشارة للمؤمنين ، أما شرفه فلأنه قال بأنه أتى بما يلام عليه بمجرد قوله : إني أُريد هلاك أعدائك يا إله العالمين ، فلم يكن له سبب إلا هذا ، أما فرعون فقال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 24] فكان سببه تلك ، وهذا كما قال القائل : فلان عيبه أنه سارق ، أو قاتل ، أو يعاشر الناس يؤذيهم ، وفلان عيبه أنه مشغول بنفسه لا يعاشر ، فتكون نسبة العيبين بعضهما إلى بعض سبباً لمدح أحدهما وذم الآخر .

وأما بشارة المؤمنين فهو بسبب أن من التقمه الحوت وهو مليم نجاه الله تعالى بتسبيحه ، ومن أهلكه الله بتعذيبه لم ينفعه إيمانه حين قال : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾ [يونس : 90] .

وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41)

وفيه ما ذكرنا من الوجوه التي ذكرناها في عطف موسى عليه السلام ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ذكر أن المقصود ههنا تسلية قلب النبي صلى الله عليه وسلم وتذكيره بحال الأنبياء ، ولم يذكر في عاد وثمود أنبياءهم ، كما ذكر إبراهيم وموسى عليهما السلام ، نقول في ذكر الآيات ست حكايات : حكاية إبراهيم عليه السلام وبشارته ، وحكاية قوم لوط ونجاة من كان فيها من المؤمنين ، وحكاية موسى عليه السلام ، وفي هذه الحكايات الثلاث ذكر الرسل والمؤمنين ، لأن الناجين فيهم كانوا كثيرين ، أما في حق إبراهيم وموسى عليهما السلام فظاهر ، وأما في قوم لوط فلأن الناجين ، وإن كانوا أهل بيت واحد ، ولكن المهلكين كانوا أيضاً أهل بقعة واحدة .

وأما عاد وثمود وقوم نوح فكان عدد المهلكين بالنسبة إلى الناجين أضعاف ما كان عدد المهلكين بالنسبة إلى الناجين من قوم لوط عليه السلام .

فذكر الحكايات الثلاثَ الأول للتسلية بالنجاة ، وذكر الثلاث المتأخرة للتسلية بإهلاك

العدو ، والكل مذكور للتسلية بدليل قوله تعالى في آخر هذه الآيات : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ إلى أن قال : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ [الذاريات : 54 ، 55] .

(81/726)

وفي هود قال بعد الحكايات : ﴿ ذلك مِنْ أَنْبَاء القرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظالمة إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : 100 102] فذكر بعدها ما يؤكد التهديد ، وذكر بعد الحكايات ههنا ما يفيد التسلي ، وقوله : ﴿ العقيم ﴾ أي ليست من اللواقح لأنها كانت تكسر وتقلع فكيف كانت تلقح والفعيل لا يلحق به تاء التأنيث إذا كان بمعنى مفعول وكذلك إذا كان بمعنى فاعل في بعض الصور ، وقد ذكرنا سببه أن فعيل لما جاء للمفعول والفاعل جميعاً ولم يتميز المفعول عن الفاعل فأولى أن لا يتميز المؤنث عن المذكر فيه لأنه لو تميز لتميز الفاعل عن المفعول قبل تميز المؤنث والمذكر لأن الفاعل جزء من الكلام محتاج إليه فأول ما يحصل في الفعل الفاعل ثم التذكير والتأنيث يصير كالصفة للفاعل والمفعول ، تقول فاعل وفاعلة ومفعول ومفعولة ، ويدل على ذلك أيضاً أن التمييز بين الفاعل والمفعول جعل بحرف ممازج للكلمة فقيل فاعل بألف فاصلة

بين الفاء والعين التي هي من أصل الكلمة ، وقيل مفعول بواو فاصلة بين العين واللام والتأنيث كان بحرف في آخر الكلمة فالمميز فيهما غير نظم الكلمة لشدة الحاجة وفي التأنيث لم يؤثر ، ولأن التمييز في الفاعل والمفعول كان بأمرين يختص كل واحد منهما بأحدهما فالألف بعد الفاء يختص بالفاعل والميم والواو يختص بالمفعول والتمييز في التذكير والتأنيث بحرف عند وجوده يميز المؤنث وعند عدمه يبقى اللفظ على أصل التذكير فإذا لم يكن فعيل يمتاز فيه الفاعل عن المفعول إلا بأمر منفصل كذلك المؤنث والمذكر لا يمتاز أحدهما عن الآخر إلا بحرف غير متصل به .

مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (42)

وفيه مباحث :

الأول : في إعرابه وفيه وجهان .

(82/726)

أحدهما : نصب على أنه صفة الريح بعد صفة العقيم ذكر الواحدي أنه وصف فإن قيل كيف يكون وصفاً والمعرفة لا توصف بالجمل وما تذر جملة ولا يوصف بها إلا النكرات ؟ نقول الجواب فيه من وجهين .

أحدهما : أنه يكون بإعادة الريح تقديراً كأنه يقول : وأرسلنا عليهم الريح العقيم ريحاً ما تذر .

ثانيهما : هو أن المعرف نكرة لأن تلك الريح منكرة كأنه يقول : وأرسلنا الريح التي لم تكن من الرياح التي تقع ولا وقع مثلها فهي لشدتها منكرة ، ولهذا أكثر ما ذكرها في القرآن ذكرها منكرة ووصفها بالجملة من جملتها قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف : 24] وقوله : ﴿ رِيحٌ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا ﴾ [الحاقة : 6 ، 7] إلى غير ذلك .

الوجه الثاني : وهو الأصح أنه نصب على الحال تقول جاءني ما يفهم شيئاً فعلمته وفهمته أي حاله كذا ، فإن قيل لم تكن حال الإرسال ما تذر والحال ينبغي أن يكون موجوداً مع ذي الحال وقت الفعل فلا يجوز أن يقال جاءني زيد أمس راكباً غداً ، والريح بعدما أرست بزمان صارت ما تذر شيئاً نقول المراد به البيان بالصلاحية أي أرسلناها وهي على قوة وصلاحية أن لا تذر ، نقول لمن جاء وأقام عندك أياماً ثم سألك شيئاً ، جئتني سائلاً أي قبل السؤال بالصلاحية والإمكان ، هذا إن قلنا إنه نصب وهو المشهور ، ويحتمل أنه رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هي ما تذر .

البحث الثاني : ﴿ مَا تَذَرُ ﴾ للنفي حال التكلم يقال ما يخرج زيد أي الآن ، وإذا أردت المستقبل تقول لا يخرج أو لن يخرج ، وأما الماضي تقول ما خرج ولم يخرج ، والريح حالة الكلام مع النبي صلى الله عليه وسلم كانت ما تركت شيئاً إلا جعلته كالرميم فكيف قال بلفظ الحالة ﴿ مَا تَذَرُ ﴾ نقول الحكاية مقدرة على أنها محكية حال الوقوع ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَلْبُهُمْ باسط ذِرَاعَيْهِ بالوصيد ﴾ [الكهف : 18] مع أن اسم الفاعل الماضي لا يعمل وإنما يعمل ما كان منه بمعنى الحال والاستقبال .

البحث الثالث : هل في قوله تعالى : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ ﴾ مبالغة ودخول تخصيص كما في قوله تعالى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف : 25] نقول هو كما وقع لأن قوله : ﴿ أَتَتْ عَلَيْهِ ﴾ وصف لقوله : ﴿ شَيْءٍ ﴾ كأنه قال كل شيء أتت عليه أو كل شيء تأتي عليه جعلته كالرميم ولا يدخل فيه السموات لأنها ما أتت عليها وإنما يدخل فيه الأجسام التي تهب عليها الرياح ، فإن قيل فالجبال والصخور أتت عليها وما جعلتها كالرميم ؟ نقول المراد أتت عليه قصداً وهو عاد وأبنيتهم وعروشهم وذلك لأنها كانت مأمورة بأمر من عند الله فكأنها كانت قاصدة إياهم فما تركت شيئاً من تلك الأشياء إلا جعلته كالرميم مع أن الصر الريح الباردة والمكرر لا ينفك عن المعنى الذي في اللفظ من غير تكرير ، تقول حث وحثحث وفيه ما في حث نقول فيه قولان .

أحدهما : أنها كانت باردة فكانت في أيام العجوز وهي ثمانية أيام من آخر شباط وأول آذار ، والريح الباردة من شدة بردها تحرق الأشجار والثمار وغيرهما وتسودهما .

والثاني : أنها كانت حارة والصر هو الشديد لا البارد وبالشدة فسّر قوله تعالى : ﴿ فِى صَرَّةٍ ﴾ [الذاريات : 29] أي في شدة من الحر .

(84/726)

البحث الرابع : في قوله تعالى : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كالرميم ﴾ لأن في قوله تعالى : ﴿ مَا تَذَرُ ﴾ نفي الترك مع إثبات الإتيان فكأنه تعالى قال تأتي على أشياء وما تتركها غير محرقة وقول القائل : ما أتى على شيء إلا جعله كذا يكون نفي الإتيان عما لم يجعله كذلك .

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43)

قوله تعالى : ﴿ وَفِى ثَمُودَ ﴾ والبحث فيه وفي عاد هو ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وَفِى موسى ﴾ [الذاريات : 38] .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حتى حِينٍ ﴾ قال بعض المفسرين : المراد منه هو ما أمهلهم الله ثلاثة أيام بعد قتلهم الناقة وكانت في تلك الأيام تتغير ألوانهم فتصفر وجوههم

وتسود ، وهو ضعيف لأن قوله تعالى : ﴿ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ [الذاريات : 44] بحرف الفاء دليل على أن العتو كان بعد قوله : ﴿ تَمَتَّعُواْ ﴾ فإن الظاهر أن المراد هو ما قدر الله للناس من الآجال ، فما من أحد إلا وهو ممهل مدة الأجل يقول له تمتع إلى آخر أجلك فإن أحسنت فقد حصل لك التمتع في الدارين وإلا فما لك في الآخرة من نصيب .

فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44)

فيه بحث وهو أن عتا يستعمل بعلى قال تعالى : ﴿ أيهم أشد على الرحمن عتياً ﴾ [مريم : 69] وههنا استعمل مع كلمة عن فنقول فيه معنى الاستعتاء فحيث قال تعالى : ﴿ عن أمر ربهم ﴾ كان كقوله : ﴿ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ [الأعراف : 206] وحيث قال على كان كقول القائل فلان يتكبر علينا ، والصاعقة فيه وجهان ذكرناهما هنا .

أحدها : أنها الواقعة .

(85/726)

والثاني : الصوت الشديد وقوله : ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ إشارة إلى أحد معنيين إما بمعنى تسليمهم وعدم قدرتهم على الدفع كما يقول القائل للمضروب يضربك فلان وأنت تنظر إشارة إلى أنه لا يدفع ، وإما بمعنى أن العذاب أتاهم لا على غفلة بل أنذروا به من قبل بثلاثة

أيام وانتظروه ، ولو كان على غفلة لكان لمتوهم أن يتوهم أنهم أخذوا على غفلة أخذ العاجل المحتاج ، كما يقول المبارز الشجاع أخبرتك بقصدي إياك فانتظرني .

فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (45)

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا استطاعوا مِن قِيَامٍ ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أنه لبيان عجزهم عن الهرب والفرار على سبيل المبالغة ، فإن من لا يقدر على قيام كيف يمشي فضلاً عن أن يهرب ، وعلى هذا فيه لطائف لفظية .

إحداها : قوله تعالى : ﴿ فَمَا استطاعوا ﴾ فإن الاستطاعة دون القدرة ، لأن في الاستطاعة دلالة الطلب وهو ينبىء عن عدم القدرة والاستقلال ، فمن استطاع شيئاً كان دون من يقدر عليه ، ولهذا يقول المتكلمون الاستطاعة مع الفعل أو قبل الفعل إشارة إلى قدرة مطلوبه من الله تعالى مأخوذة منه وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ [المائدة : 112] على قراءة من قرأ بالتاء وقوله : ﴿ فَمَا استطاعوا ﴾ أبلغ من قول القائل ما قدروا على قيام .

ثانيها : قوله تعالى : ﴿ مِن قِيَامٍ ﴾ بزيادة من ، وقد عرفت ما فيه من التأكيد .

ثالثها : قوله : ﴿ قِيَامٍ ﴾ بدل قوله هرب لما بينا أن العاجز عن القيام أولى أن يعجز عن الهرب .

الوجه الثاني : هو أن المراد من قيام القيام بالأمر ، أي ما استطاعوا من قيام به .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾ أي ما استطاعوا الهزيمة والهرب ، ومن لا يقدر عليه يقاتل وينتصر بكل ما يمكنه لأنه يدفع عن الروح وهم مع ذلك ما كانوا منتصرين ، وقد عرفت أن قول القائل ما هو بمنتصر أبلغ من قوله ما انتصر ولا ينتصر والجواب ترك مع كونه يجب تقديره وقوله : (ما انتصر) أي لشيء من شأنه ذلك ، كما تقول فلان لا ينصر أو فلان ليس ينصر .

ثم قال تعالى :

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (46)

قرىء : ﴿ قَوْمُ ﴾ بالجر والنصب فما وجههما ؟ نقول : أما الجر فظاهر عطفاً على ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وَفِى عَادٍ ﴾ [الذاريات : 41] ﴿ وَفِى موسى ﴾ [الذاريات : 38] ، تقول لك في فلان عبرة وفي فلان وفلان ، وأما النصب فعلى تقدير : وأهلكنا قوم نوح من قبل ، لأن ما تقدم دلّ على الهلاك فهو عطف على المحل ، وعلى هذا فقوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ معناه ظاهر كأنه يقول : (وأهلكنا قوم نوح من قبل) وأما على الوجه الأول فتقديره

: وفي قوم نوح لكم عبرة من قبل ثمود وعاد وغيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 189.193 ﴾

(87/726)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقوله : ﴿ هل أتاك ﴾

تقرير لتجتمع نفس المخاطب ، وهذا كما تبدأ المرء إذا أردت أن تحدثه بعجيب فتقرره هل سمع منك أم لا ؟ فكأنه تقتضي منه أن يقول لا ويستطعمك الحديث . و: ﴿ ضيف ﴾ اسم جنس يقع للجميع والواحد . وروي أن أضياف إبراهيم هؤلاء : جبريل ومكائيل وإسرافيل وأتباع لهم من الملائكة .

وجعلهم تعالى " مكرمين " إما لأنهم عنده كذلك ، وهذا قول الحسن . وإما من حيث أكرمهم إبراهيم وخدمهم هو وسارة . وذبح لهم العجل . وقيل من حيث رفع مجالسهم و: ﴿ سلاماً ﴾ منصوب على المصدر كأنهم قالوا : تسلم سلاماً ، أو سلمت سلاماً ، ويتجه فيه أن يعمل فيه ﴿ قالوا ﴾ على أن نجعل ﴿ سلاماً ﴾ بمنزلة قولاً . ويكون المعنى حينئذ أنهم قالوا تحية وقولاً معناه : ﴿ سلاماً ﴾ وهذا قول مجاهد .

وقوله : ﴿ سلام ﴾ مرتفع على خبر ابتداء . أي أمر ﴿ سلام ﴾ . أو واجب لكم ﴿ سلام ﴾ ، أو على الابتداء والخبر محذوف ، كأنه قال : سلام عليكم وإبراهيم عليه السلام قد حيا بأحسن لأن قولهم دعاء وقوله واجب قد تحصل لهم .

وقرأ ابن وثاب والنخعي وحمزة والكسائي وطلحة وابن جبير قال : " سِلْم " بكسر السين وسكون اللام . والمعنى نحن سلم وأنتم سلم .

وقوله : ﴿ قوم منكرون ﴾ معناه : لا نميزهم ولا عهد لنا بهم . وهذا أيضاً على تقدير : أنتم ﴿ قوم منكرون ﴾ وقال أبو العالية : أنكر سلامهم في تلك الأرض وفي ذلك الزمن و : " راغ " معناه مضى إثر حديثه تشبيه بالروغان المعروف ، لأن الرائغ يوهم أنه لم يزل . والعجل : هو الذي حنذه ، والقصة قد مضت مستوعبة في غير هذه السورة ، وروي عن قتادة أن أكثر مال إبراهيم كان البقر وكان مضيافاً . وحسبك أنه أوقف للضيافة أوقافاً تمضيها الأمم على اختلاف أديانها وأجناسها .

فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (27)

المعنى ﴿ فقربه إليهم ﴾ فأمسكوا عنه فقال : ﴿ ألا تأكلون ﴾ فيروى في الحديث أنهم قالوا : لا نأكل إلا ما أدينا ثمنه . فقال إبراهيم وأنا لا أبيحه لكم إلا بثمن . قالوا : وما هو ؟ قال : أن تسموا الله تعالى عند الابتداء وتحمدوه عند الفراغ من الأكل . فقال بعضهم لبعض : بحق اتخذه الله خليلاً . فلما استمروا على ترك الأكل ﴿ أوجس منهم خيفة ﴾ .

والوجيس تحسيس النفس وخواطرها في الحذر . وذلك أن أكل الضيف أمنة ودليل على انبساط نفسه والطعام حرمة وذمام . والامتناع منه وحشة . فخشي إبراهيم عليه السلام أن امتناعهم من أكل طعامه إنما هو لشر يريدونه ، فقالوا له : ﴿ لا تخف ﴾ وعرفوه أنهم ملائكة ، ﴿ وبشروه ﴾ وبشروا سارة معه ﴿ بغلام عليم ﴾ . أي عالم في حال تكليفه وتحصيله ، أي سيكون عليماً و: ﴿ عليم ﴾ بناء مبالغة . وجمهور الناس على أن الغلام هنا إسحاق ابن سارة الذي ذكرت البشارة به في غير موضع . وقال مجاهد ، هذا الغلام هو إسماعيل . والأول أرجح ، وهذا وهم . ويروى أنه إنما عرف كونهم ملائكة استدلالاً من بشارتهم إياه بغيب .

وقوله تعالى : ﴿ فأقبلت امرأته ﴾ يحتمل أن يكون قربت إليهم من ناحية من نواحي المنزل ، ويحتمل أن يكون هذا الإقبال كما تقول : أقبل فلان يشتمني ، أو يفعل كذا إذا جد في ذلك وتلبس به ، والصرة : الصيحة ، كذا فسره ابن عباس ومجاهد وسفيان والضحاك ، والمصطر الدي يصيح وقال قتادة معناه : في رقة . وقال الطبري قال بعضهم أوه بصياح

وتعجب . قال النحاس : وقيل : ﴿ في صرة ﴾ في جماعة نسوة يتبادرن نظراً إلى الملائكة .

(89/726)

وقوله : ﴿ فصكت وجهها ﴾ ، معناه : ضربت وجهها ، قال ابن عباس : لطمت ، وهذا مما يفعله الذي يرد عليه أمر يستهوله . وقال سفيان والسدي ومجاهد معناه : ضربت بكفها جبهتها وهذا مستعمل في الناس حتى الآن . وقولها : ﴿ عجوز عقيم ﴾ ، إما أن يكون تقديره : أنا ﴿ عجوز عقيم ﴾ فكيف ألد ؟ وإما أن يكون التقدير : ﴿ عجوز عقيم ﴾ تكون منها ولادة ، وقدره الطبري : أتلد ﴿ عجوز عقيم ﴾ . ويروى أنها كانت لم تلد قط . والعقيم من النساء التي لا تلد ، ومن الرياح التي لا تلقح شجراً ، فهي لا بركة فيها ، وقولهم : ﴿ كذلك قال ربك ﴾ أي كقولنا الذي أخبرناك قال ربك أن يكون . و: ﴿ الحكيم ﴾ ذو الحكمة . و: ﴿ العليم ﴾ معناه بالمصالح وغير ذلك من العلومات ثم قال إبراهيم عليه السلام للملائكة : ﴿ فما خطبكم ﴾ والخطب : الأمر المهم ، وقل ما يعبر به إلا عن الشدائد والمكاره حتى قالوا : خطوب الزمان ونحو هذا ، فكأنه يقول لهم : ما هذه الطامة التي جئتم لها ؟ فأخبروه حينئذ أنهم أرسلوا إلى سدوم قرية لوط بإهلاك أهلها

الكفرة العاصين المجرمين . والمجرم : فاعل الجرائم ، وهي صعاب المعاصي : كفر ونحوه واحدتها جريمة .

وقولهم : ﴿ لنرسل عليهم ﴾ أي لنهلكهم بهذه الحجارة . ومتى اتصلت " أرسل " ب " على " : فهي بمعنى المبالغة في المباشرة والعذاب . ومتى اتصلت ب " إلى " ، فهي أخف . وانظر ذلك تجده مطرداً .

(90/726)

وقوله تعالى : ﴿ حجارة من طين ﴾ بيان يخرج عن معتاد حجارة البرد التي هي من ماء . ويروى أنه طين طبخ في نار جهنم حتى صار حجارة كالآجر . و: ﴿ مسومة ﴾ نعت ل ﴿ حجارة ﴾ ، وقيل معناه متروكة وسومها من الإهلاك والأنصباب . وقيل معناه : معلمة بعلامتها من السيما والسومى وهي العلامة ، أي إنها ليست من حجارة الدنيا ، وقال الزهراوي والرماني ، وقيل معناه : على حجر اسم المضروب به . وقال الرماني وقيل كان عليها أمثال الخواتم . وقال ابن عباس : تسويمها إن كان في الحجارة السود نقط بيض وفي البيض سود . ويحتمل أن يكون المعنى : أنها بجملتها معلومة عند ربك لهذا المعنى معلمة له . لا أن كل واحد منها له علامة خاصة به . والمسرف : الذي يتعدى الطور ، فإذا

جاء مطابقاً فهو لأبعد الغايات الكفر فما دونه .

ثم أخبر تعالى أنه أخرج بأمره من كان في قرية لوط ﴿ من المؤمنين ﴾ منجياً لهم . وأعاد الضمير على القرية . ولم يصرح لها قبل ذلك بذكر لشهرة أمرها . ولأن القوم المجرمين معلوم أنهم في قرية ولا بد . قال المفسرون : ولا فرق بين تقدم ذكر المؤمنين وتأخره ، وإنما هما وصفان ذكرهم أولاً بأحدهما ثم آخر بالثاني . قال الرماني : الآية دالة على أن الإيمان هو الإسلام .

قال القاضي أبو محمد : ويظهر إليّ أن في المعنى زيادة تحسن التقديم للإيمان ، وذلك أنه ذكره مع الإخراج من القرية ، كأنه يقول : نفذ أمرنا بإخراج كل مؤمن ، ولا يشترط فيه أن يكون عاملاً بالطاعات . بل التصديق بالله فقط .

ثم لما ذكر حال الموحدين ذكرهم بالصفة التي كانوا عليها ، وهي الكاملة التصديق والأعمال ، والبيت من المسلمين : هو بيت لوط ، وكان هو وابنتاه ، وقيل وبنته . وفي كتاب الثعلبي : وقيل لوط وأهل بيته ثلاثة عشر ، وهلكت امرأته فيمن هلك ، وهذه القصة بجملتها ذكرت على جهة المثال لقريش . أي أنهم إذا كفروا وأصابهم مثل ما أصاب هؤلاء المذكورين .

وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (37)

المعنى : ﴿ وتركنا ﴾ في القرية المذكورة ، وهي سدوم أثراً من العذاب باقياً مؤرخاً لا يفنى ذكره فهو : ﴿ آية ﴾ أي علامة على قدرة الله وانتقامه من الكفرة . ويحتمل أن يكون . والمعنى : ﴿ وتركنا ﴾ في أمرها كما قال : ﴿ لقد كان في يوسف ﴾ [يوسف : 7] وقال ابن جريج : ترك فيها حجراً منضوداً كثيراً جداً . و : ﴿ للذين يخافون العذاب ﴾ هم العارفون بالله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وفي موسى ﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على قوله ﴿ فيها ﴾ أي وتركنا في موسى وقصته أثراً أيضاً هو آية . ويحتمل أن يكون عطفاً على قوله قيل : ﴿ وفي الأرض آيات ﴾ [الذاريات : 20] ، ﴿ وفي موسى ﴾ . و : ﴿ فرعون ﴾ هو صاحب مصر . والسلطان في هذه الآية الحجة و : ﴿ تولى ﴾ معناه : فأعرض وأدبر عن أمر الله و : ﴿ بركنه ﴾ بسلطانه وجنده وشدة أمره . وهو الأمر الذي يركن فرعون إليه ويسند في شدائده . قال ابن زيد : ﴿ بركنه ﴾ بجموعه قال قتادة : بقومه . وقول فرعون في موسى ﴿ ساحر أو مجنون ﴾ هو تقسيم ظن أن موسى لا بد أن يكون أحد هذين . وقال أبو عبيدة : ﴿ أو ﴾ هنا بمعنى الواو . واستشهد ببيت جرير : [الوافر]

أثعلبة الفوارس أو رياحاً . . . عدلت بهم طهية والخشابا

والخشاب : بيوت في بني تميم ، وقول أبي عبيدة ضعيف لا داعية إليه في هذا الموضع . و: ﴿ نبذناهم ﴾ معناه : طرحناهم و: ﴿ اليم ﴾ البحر . وفي مصحف ابن مسعود : " فنبذناه " ، و" المليم " : الذي أتى من المعاصي ونحوها ما يلام عليه وقال أمية بن أبي الصلت : [الوافر]

ومن يخذل أخاه فقد ألاما . . . وقوله : ﴿ وفي عاد ﴾ عطف على قوله : ﴿ وفي موسى ﴾ ، و﴿ عاد ﴾ هي قبيلة هود النبي عليه السلام .

(92/726)

و ﴿ العقيم ﴾ التي لا بركة فيها ولا تلقح شجراً ولا تسوق مطراً . وقال سعيد بن المسيب : كانت ريح الجنوب . وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : كانت نكباء . وهذا عندي لا يصح عن علي رضي الله عنه لأنه مردود بقوله صلى الله عليه وسلم : " نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور " و: ﴿ تذر ﴾ معناه : تدع . وقوله تعالى : ﴿ من شيء أتت عليه ﴾ يعني مما أذن لها في إهلاكه . و: ﴿ الرميم ﴾ الفاني المتقطع يبساً أو قدماً من الأشجار والورق والحبال والعظام ، ومنه قوله تعالى ﴿ من يحيي العظام وهي رميم ﴾ [يس : 78] أي في قوام الرمال وروي أن تلك الريح كانت تهب على الناس فيهم

العادي وغيره ، فتنتزع العادي من بين الناس وتذهب به .

وقوله تعالى : ﴿ وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾ يحتمل أن يريد إذ قيل لهم في أول بعث صالح آمنوا وأطيعوا فتمتعوا متاعاً حسناً إلى آجالكم ، وهو الحين على هذا التأويل وهو قول الحسن حكاه عن الرماني ، ويجيء قوله تعالى : ﴿ فعتوا ﴾ مرتباً لفظاً في الآية ومعنى في الوجود متأخراً عن القول لهم ﴿ تمتعوا ﴾ ، ويحتمل أن يريد : إذ قيل لهم بعد عقر الناقة : ﴿ تمتعوا ﴾ في داركم ثلاثة ، وهي الحين على هذا التأويل وهو قول الفراء ، ويجيء قوله : ﴿ فعتوا ﴾ غير مرتب المعنى في وجوده ، لأن عتوهم كان قبل أن يقال لهم ﴿ تمتعوا ﴾ وكأن المعنى فكان من أمرهم قبل هذه المقالة أن عتوا وهو السبب في أن قيل لهم ذلك وعذبوا .

وقرأ جمهور القراء : " الصاعقة " وقرأ الكسائي وهي قراءة عمر وعثمان " الصعقة " ، وهي على القراءتين الصيحة العظيمة ، ومنه يقال للوقعة الشديدة من الرعد : صاعقة . وهي التي تكون معها النار التي يروى في الحديث أنها من المخراق الذي بيد ملك يسوق السحاب .

وقوله : ﴿ وهم ينظرون ﴾ يحتمل أن يريد فجأة وهم يبصرون بعيونهم حالهم ، وهذا قول الطبري ويحتمل أن يريد : ﴿ وهم ينظرون ﴾ ذلك في تلك الأيام الثلاثة التي أعلموا به فيها ورأوا علاماته في تلونه ، وهذا قول مجاهد حسبما تقدم تفسيره ، وانتظارهم العذاب هو أشد من العذاب .

فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (45)

قال بعض المفسرين : ﴿ من قيام ﴾ معناه : ما استطاعوا أن يقوموا من مصارعهم . وقال قتادة وغيره معناه : ما قيام بالأمر ودفعه كما تقول : ما أن له بكذا وكذا قيام ، أي استضلاع وانتهاض .

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم : " وقوم نوح " بالنصب ، وهو عطف إما على الضمير في قوله : ﴿ فأخذتهم ﴾ [الذاريات : 44] إذ هو بمنزلة أهلكناهم ، وإما على الضمير في قوله : ﴿ فنبذناهم ﴾ [الذاريات : 40] ، وقرأ أبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث : " وقومُ نوح " بالرفع وذلك على الابتداء وإضمار الخبر وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي : " وقومِ " بالخفض عطفاً على ما تقدم من قوله : ﴿ وفي ثمود ﴾ [الذاريات : 43] وقد روي النصب عن أبي عمرو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَفِي موسى ﴾

أي وتركنا أيضاً في قصة موسى آية .

وقال الفراء : هو معطوف على قوله : ﴿ وَفِي الأرض آيَاتٌ ﴾ "وَفِي مُوسَى" .

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بحجة بيّنة وهي العصا .

وقيل : أي بالمعجزات من العصا وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ فتولى بِرُكْنِهِ ﴾ أي فرعون أعرض عن الإيمان "بِرُكْنِهِ" أي بجموعه وأجناده ؛ قاله ابن زيد .

وهو معنى قول مجاهد ، ومنه قوله : ﴿ أَوْ آوِي إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود : 80] يعني المنعة والعشيرة .

وقال ابن عباس وقتادة : بقوته .

ومنه قول عنترة :

فما أَوْهَى مِرَاسُ الْحَرْبِ رُكْنِي . . .

ولَكِنْ مَا تَقَادَمَ مِن زَمَانِي

وقيل : بنفسه .

وقال الأخفش : بجانبه ؛ كقوله تعالى : ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ [الإسراء : 83]

وقاله المؤرّج .

الجوهري : وركْن الشيء جانبه الأقوى ، وهو يأوي إلى ركن شديد أي عزة ومنعة .

القشيري : والركن جانب البدن .

وهذا عبارة عن المبالغة في الإعراض عن الشيء .

﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ "أو" بمعنى الواو ، لأنهم قالوها جميعاً .

قاله المؤرج والفراء ، وأنشد بيت جرير :

أَثَعْلَبَةَ الفَوَارِسَ أَو رِيَاحَا . . .

عَدَلْتَ بِهِم طُهَيَّةَ والْخِشَابَا

وقد توضع "أو" بمعنى الواو ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 24] والواو بمعنى أو ، كقوله تعالى : ﴿ فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء مثنى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ [النساء : 3] وقد تقدّم جميع هذا .

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ﴾ لكفرهم وتوليهم عن الإيمان .

﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ ﴾ أي طرحناهم ﴿ فِي اليم وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ يعني فرعون ، لأنه أتى ما يلام عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ ﴾ أي وتركنا في عاد آية لمن تأمل .

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِيحَ العقيم ﴾ وهي التي لا تُلْقح سحاباً ولا شجراً ، ولا رحمة فيها ولا بركة ولا منفعة ؛ ومنه امرأة عقيم لا تحمل ولا تلد .

ثم قيل : هي الجنوب .

روى ابن أبي ذئب عن الحرث بن عبد الرحمن عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " الريح العقِيم الجَنُوب " وقال مقاتل : هي الدبور كما في الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " نُصِرت بالصَّبَا وأهلِكت عاد بالدَّبور " وقال ابن عباس : هي النكباء .

وقال عُبيد بن عُمير : مسكنها الأرض الرابعة وما فتح على عاد منها إلا كقدر منخر الثور .

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أيضاً أنها الصَّبا ؛ فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كالرميم ﴾ أي كالشيء الهشيم ؛ يقال للنبت إذا يبس وتفتت : رميم وهشيم .

قال ابن عباس : كالشيء الهالك البالي ؛ وقاله مجاهد .

ومنه قول الشاعر :

تَرَكْتَنِي حِينَ كَفَّ الدَّهرُ مِنْ بَصَرِي . . .

وإذْ بَقِيتُ كَعَظْمِ الرِّمَّةِ الْبَالِي

وقال قتادة : إنه الذي دِيس من يابس النبات .

وقال أبو العالية والسدي : كالتراب المدقوق .

قُطْرب : الرَّمِيم الرَّماد .

وقال يمانٍ : ما رمته الماشية من الكلأ بمرمتها .

ويقال للشفة المِرَمَّة والمِقَمَّة بالكسر ، والْمَرَمَّة بالفتح لغة فيه .

وأصل الكلمة من رَمَّ العظمُ إذا بلي ؛ تقول منه : رَمَّ العظم يَرِمَّ بالكسر رِمَّة فهو رميم ، قال (الشاعر) :

ورَأَى عَواقِبَ خُلْفِ ذَاكَ مَذَمَّةً . . .

تَبْقَى عليهِ والعظامُ رَمِيمُ

والرِّمة بالكسر العظام البالية والجمع رِمم ورِمام .

ونظير هذه الآية : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ حسب ما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي ثَمُودَ ﴾ أي وفيهم أيضاً عبرة وآية حين قيل لهم عيشوا متمتعين بالدنيا ﴿ حتى حِينٍ ﴾ أي إلى وقت الهلاك وهو ثلاثة أيام كما في هود : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ﴾ [هود : 65] .

وقيل : معنى "تَمَتَّعُوا" أي أسلموا وتمتعوا إلى وقت فراغ آجالكم .

﴿ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي خالفوا أمر الله فعقروا الناقة ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة ﴾ أي الموت .

وقيل : هي كل عذاب مهلك .

قال الحسين بن واقد : كلّ صاعقة في القرآن فهو العذاب .

وقرأ عمر بن الخطاب وحميد وابن مُحَيْصِن ومجاهد والكسائي "الصَّعْقَةَ" يقال صَعِق الرجلُ صَعْقة وتَصْعاقاً أي غُشِي عليه .

وصَعَقتهم السماء أي ألقت عليهم الصاعقة .

والصاعقة أيضاً صيحة العذاب وقد مضى في "البقرة" وغيرها .

﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ إليها نهاراً .

﴿ فَمَا استطاعوا مِن قِيَامٍ ﴾ قيل : معناه من نهوض .

وقيل : ما أطاقوا أن يستقلوا بعذاب الله وأن يتحملوه ويقوموا به ويدفعوه عن أنفسهم ؛ تقول : لا أقوم لهذا الأمر أي لا أطيقه .

وقال ابن عباس : أي ذهبت أجسامهم وبقيت أرواحهم في العذاب .

﴿ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾ أي ممتنعين من العذاب حين أهلكوا ، أي ما كان لهم ناصر .

قوله تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾

قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو "وَقَوْمِ نُوحٍ" بالخفض ؛ أي وفي قوم نوح آية أيضاً .

الباقون بالنصب على معنى وأهلكنا قوم نوح ، أو يكون معطوفاً على الهاء والميم في "أَخَذَتْهُمْ" أو الهاء في "أَخَذْنَاهُ" أي فأخذتهم الصاعقة وأخذت قوم نوح ، أو "نَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ" ونبذنا قوم نوح ، أو يكون بمعنى اذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(97/726)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) ﴾

﴿ هل أتاك ﴾ : تقرير لتجتمع نفس المخاطب ، كما تبدأ المرء إذا أردت أن تحدثه بعجيب ، فتقرره هل سمع ذلك أم لا ، فكأنك تقتضي أن يقول لا .

ويستطعمك الحديث ، وفيه تفخيم للحديث وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله (

صلى الله عليه وسلم) ، وإنما عرفه بالوحي ، وضيف الواحد والجماعة فيه سواء .

وبدأ بقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وإن كانت متأخرة عن قصة عاد ، هزماً للعرب ، إذ كان أباهم الأعلى ، ولكون الرسل الذين وفدوا عليه جاءوا بإهلاك قوم لوط ، إذ كذبوه ، ففيه وعيد للعرب وتهديد واتعاظ وتسلية للرسول (صلى الله عليه وسلم) على ما يجري عليه من قومه .

ووصفهم بالمكرمين لكرامتهم عند الله تعالى ، كقوله تعالى في الملائكة : ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ قاله الحسن ، فهي صفة سابقة فيهم ، أو لإكرام إبراهيم إياهم ، إذ خدمهم بنفسه وزوجته سارة وعجل لهم القرا .

وقيل : لكونه رفع مجالسهم في صفة حادثة .

وقرأ عكرمة : المكرمين بالتشديد ، وأطلق عليهم ضيف ، لكونهم في صورة الضيف حيث أضافهم إبراهيم ، أو لحسبانه لذلك .

وتقدم ذكر عددهم في سورة هود .

وإذ معمولة للمكرمين إذا كانت صفة حادثة بفعل إبراهيم ، وإلا فبما في ضيف من معنى لفعل ، أو بإضمار اذكر ، وهذه أقوال منقولة .

وقرأ الجمهور : قالوا سلاماً ، بالنصب على المصدر الساد مسد فعله المستغنى به .

﴿ قال سلام ﴾ بالرفع ، وهو مبتدأ محذوف الخبر تقديره : عليكم سلام .

قصد أن يجيبهم بأحسن مما حيوه أخذاً بأدب الله تعالى ، إذ سلاماً دعاء .

وجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أي أمري سلام ، وسلام جملة خبرية قد تحصل مضمونها ووقع .

وقال ابن عطية : ويتجه أن يعمل في سلاماً قالوا ، على أن يجعل سلاماً في معنى قولاً ، ويكون المعنى حينئذ : أنهم قالوا تحية ؛ وقولاً معناه سلاماً ، وهذا قول مجاهد .

(98/726)

وقرأ ابن وثاب ، والنخعي ، وابن جبير ، وطلحة : قال سلم ، بكسر السين وإسكان اللام ، والمعنى : نحن سلم ، أو أنتم سلم ، وقرئا مرفوعين .

وقرىء : سلاماً قالوا سلماً ، بنصبهما وكسر سين الثاني وسكون لامه .

﴿ قوم منكرون ﴾ ، قال أبو العالية : أنكر سلامهم في تلك الأرض وذلك الزمان .

وقيل : لا نميزهم ولا عهد لنا بهم .

وقيل : كان هذا سؤالهم ، كأنه قال : أنتم قوم منكرون ، فعرّفوني من أنتم .

وقوم خبر مبتدأ محذوف قدره أنتم ، والذي يناسب حال إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه لا يخاطبهم بذلك ، إذ فيه من عدم الإنس ما لا يخفى ، بل يظهر أنه يكون التقدير : هؤلاء قوم

منكرون .

وقال ذلك مع نفسه ، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه بحيث لا يسمع ذلك الأضياف .

﴿ فراغ إلى أهله ﴾ : أي مضى أثناء حديثه ، مخفياً مضيه مستعجلاً ؛ ﴿ فجاء بعجل سمين ﴾ : ومن أدب المضيف أن يخفي أمره ، وأن يبادر بالقرا من غير أن يشعر به الضيف ، حذراً من أن يمنعه أن يجيء بالضيافة .

وكونه عطف ، فجاء على فراغ يدل على سرعة مجيئه بالقرا ، وأنه كان معداً عنده لمن يرد عليه .

وقال في سورة هود : ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ وهذا يدل أيضاً على أنه كان العجل سابقاً شيه قبل مجيئهم .

وقال قتادة : كان غالب ماله البقر ، وفيه دليل على أنه يحضر للضيف أكثر مما يأكل .

وكان عليه الصلاة والسلام مضيافاً ، وحسبك وقف للضيافة أوقافاً تمضيها الأمم على اختلاف أديانها وأجناسها .

﴿ فقربه إليهم ﴾ : فيه أدب المضيف من تقريب القرا لمن يأكل ، وفيه العرض على الأكل ؛ فإن في ذلك تأنيساً للآكل ، بخلاف من قدم طعاماً ولم يحث على أكله ، فإن الحاضر قد يتوهم أنه قدمه على سبيل التجمل ، عسى أن يمتنع الحاضر من الأكل ، وهذا موجود في طباع بعض الناس .

حتى أن بعضهم إذا لج الحاضر وتمادى في الأكل ، أخذ من أحسن ما أحضر وأجزله ، فيعطيه لغلامه برسم رفعه لوقت آخر يختص هو بأكله .

(99/726)

وقيل : الهمزة في ألا للإنكار ، وكأنه ثم محذوف تقديره : فامتنعوا من الأكل ، فأنكر عليهم ترك الأكل فقال : ﴿ ألا تأكلون ﴾ .

وفي الحديث : " إنهم قالوا إنا لا نأكل إلا ما أدينا ثمنه ، فقال لهم : وإني لا أبيحه لكم إلا بثمن ، قالوا : وما هو ؟ قال : أن تسموا الله عز وجل عند الابتداء وتحمدوه عند الفراغ من الأكل ، فقال بعضهم لبعض : بحق اتخذه الله خليلاً "

﴿ فأوجس منهم خيفة ﴾ : أي فلما استمروا على الامتناع من الأكل ، أوجس منهم خيفة ، وذلك أن أكل الضيف أمنة ودليل على انبساط نفسه ، وللطعام حرمة وذمام ، والامتناع منه وحشة .

فخشي إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن امتناعهم من أكل طعامهم إنما هو لشر يريدونه ، فقالوا لا تخف ، وعرفوه أنهم ملائكة .

وعن ابن عباس : وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب .

وعلمهم بما أضمر في نفسه من الخوف ، إنما يكون باطلاع الله ملائكته على ما في نفسه ، أو بظهور أمارته في الوجه ، فاستدلوا بذلك على الباطن .

وعن يحيى بن شداد : مسح جبريل عليه السلام بجناحه العجل ، فقام يدرج حتى لحق بأمه .

﴿ بغلام عليم ﴾ : أي سيكون عليماً ، وفيه تبشير بحياته حتى يكون من العلماء .

وعن الحسن : عليم نبي ؛ والجمهور : على أن المبشر به هو إسحاق بن سارة .

وقال مجاهد : هو إسماعيل .

وقيل : علم أنهم ملائكة من حيث بشروه بغيب ، ووقعت البشارة بعد التأنيس والجلوس ، وكانت البشارة بذكر ، لأنه أسر للنفس وأبهج ، ووصفه بعليم لأنها الصفة التي يختص بها الإنسان الكامل إلا بالصورة الجميلة والقوة .

﴿ فأقبلت امرأته في صرة ﴾ : أي إلى بيتها ، وكانت في زاوية تنظر إليهم وتسمع كلامهم .

وقيل : ﴿ فأقبلت ﴾ ، أي شرعت في الصياح .

قيل : وجدت حرارة الدم ، فلطمت وجهها من الحياء .

والصرة ، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وسفيان : الصيحة .

قال الشاعر :

فألحقنا بالهاديات ودونه . . .

حواجرها في صرة لم تزيل

وقال قتادة وعكرمة : الرنة .

(100/726)

قيل : قالت أوّه بصياح وتعجب .

وقال ابن بحر : الجماعة ، أي من النسوة تبادروا نظراً إلى الملائكة .

وقال الجوهري : الصرة : الصيحة والجماعة والشدة .

﴿ فصكت وجهها ﴾ : أي لطمته ، قاله ابن عباس ، وكذلك كما يفعله من يرد عليه أمر يستهوله ويتعجب منه ، وهو فعل النساء إذا تعجبن من شيء .

وقال السدي وسفيان : ضربت بكفها جبهتها ، وهذا مستعمل في الناس حتى الآن .

﴿ وقالت عجوز عقيم ﴾ : أي إنا قد اجتمع فيها أنها عجوز ، وذلك مانع من الولادة ، وأنها عقيم ، وهي التي لم تلد قط ، فكيف ألد ؟ تعجبت من ذلك .

﴿ قالوا كذلك ﴾ : أي مثل القول الذي أخبرناك به ، ﴿ قال ربك ﴾ : وهو القادر على إيجاد ما يستبعد .

وروي أن جبريل عليه السلام قال لها : انظري إلى سقف بيتك ، فنظرت ، فإذا جذوعه

مورقة مثمرة .

﴿ إنه هو الحكيم ﴾ : أي ذو الحكمة .

﴿ العليم ﴾ بالمصالح .

ولما علم إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنهم ملائكة ، وأنهم لا ينزلون إلا بإذن الله تعالى رسلاً ، قال ﴿ فما خطبكم ﴾ إلى : ﴿ قوم مجرمين ﴾ : أي ذوي جرائم ، وهي كبار المعاصي من كفر وغيره .

﴿ لنرسل عليهم ﴾ : أي لنهلكهم بها ، ﴿ حجارة من طين ﴾ : وهو السجيل ، طين يطبخ كما يطبخ الآجر حتى يصير في صلابة كالحجارة .

﴿ مسوّمة ﴾ : معلمة ، على كل واحد منها اسم صاحبه .

وقيل : معلمة أنها من حجارة العذاب .

وقيل : معلمة أنها ليست من حجارة الدنيا ، ﴿ للمسرفين ﴾ : وهم المجاوزون الحد في الكفر .

﴿ فأخرجنا من كان فيها ﴾ : في القرية التي حل العذاب بأهلها .

﴿ غير بيت ﴾ : هو بيت لوط عليه السلام ، وهو لوط وابنتاه فقط ، وقيل : ثلاثة عشر نفساً .

وقال الرماني : الآية تدل على أن الإيمان هو الإسلام ، وكذا قال الزمخشري ، وهما

معتزليان .

﴿ وتركنا فيها ﴾ : أي في القرية ، ﴿ آية ﴾ : علامة .

قال ابن جريج : حجراً كبيراً جدّاً منضوداً .

وقيل : ماء أسود منتن .

(101/726)

ويجوز أن يكون فيها عائداً على الإهلاكة التي أهلكوها ، فإنها من أعاجيب الإهلاك ، بجعل أعالي القرية أسافل وإمطار الحجارة .

والظاهر أن قوله : ﴿ وفي موسى ﴾ معطوف على ﴿ وتركنا فيها ﴾ : أي في قصة موسى .

وقال الزمخشري وابن عطية : ﴿ وفي موسى ﴾ يكون عطفاً على ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ ﴿ وفي موسى ﴾ ، وهذا بعيد جدّاً ، ينزه القرآن عن مثله .

وقال الزمخشري أيضاً : أو على قوله ، ﴿ وتركنا فيها آية ﴾ على معنى : وجعلنا في موسى آية ، كقوله :

علفتها تبناً وماء بارداً . . .

_@_انتهى ، ولا حاجة إلى إضمار ﴿ وتركنا ﴾ ، لأنه قد أمكن أن يكون العامل في المجرور ﴿ وتركنا ﴾ .

﴿ فتولى بركنه ﴾ : أي ازور وأعرض ، كما قال : ﴿ ونأى بجانبه ﴾ وقيل : بقوته وسلطانه .

وقال ابن زيد : بركنه : بمجموعه .

وقال قتادة : بقومه .

﴿ وقال ساحر أو مجنون ﴾ : ظن أحدهما ، أو تعمد الكذب ، وقد علم أنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حقاً .

وقال أبو عبيدة : أو بمعنى الواو ، ويدل على ذلك أنه قد قالهما ، قال : ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ و ﴿ قال إن رسولكم الذين إرسل إليكم لمجنون ﴾ واستشهد أبو عبيدة بقول جرير :

أثعلبة الفوارس أو رباحاً . . .

عدلت بهم طهية والحشايا

ولا ضرورة تدعو إلى جعل أو بمعنى الواو ، إذ يكون قالهما ، وأبهم على السامع ، فأو للإبهام .

﴿ هو مليم ﴾ : أي أتى من المعاصي ما يلام عليه .

﴿ العقيم ﴾ التي لا خير فيها ، من الشتاء مطر ، أو لقاح شجر .

وفي الصحيح : نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور .

فقول من ذهب إلى أنها الصبا ، أو الجنوب ، أو النكباء ، وهي ريح بين ريحين ، نكبت عن سمت القبلة ، فسميت نكباء ، ليس بصحيح ، لمعارضته للنص الثابت عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنها الدبور .

(102/726)

﴿ ما تذر من شيء أتت عليه ﴾ : وهو عام مخصوص ، كقوله : ﴿ تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ أي مما أراد الله تدميره وإهلاكه من ناس أو ديار أو شجر أو نبات ، لأنها لم يرد الله بها إهلاك الجبال والآكام والصخور ، ولا العالم الذي لم يكن من قوم عاد .

﴿ إلا جعلته كالرميم ﴾ : جملة حالية ، والرميم تقدّم تفسيره في يس ، وهنا قال السدّي : التراب ، وقتادة : الهشيم ، ومجاهد : البالي ، وقطرب : الرماد ، وابن عيسى : المنسحق الذي لا يرم ، جعل الهمزة في أرم للسلب .

روي أن الريح كانت تمر بالناس ، فيهم الرجل من قوم عاد ، فتنزعه من بينهم وتهلكه .

﴿ تمتعوا حتى حين ﴾ ، قال الحسن : هذا كان حين بعث إليهم صالح ، أمروا بالإيمان بما

جاء به ، والتمتع إلى أن تأتي آجالهم ، ثم إنهم عتوا بعد ذلك ، ولذلك جاء العطف بالفاء المقتضية تأخر العتو عن ما أمروا به ، فهو مطابق لفظاً ووجود .

وقال الفراء : هذا الأمر بالتمتع كان بعد عقر الناقة ، والحين ثلاثة أيام التي أوعدوا في تمامها بالعذاب .

فالعتو كان قد تقدم قبل أن يقال لهم تمتعوا ، ولا ضرورة تدعو إلى قول الفراء ، إذ هو غير مرتب في الوجود .

وقرأ الجمهور : الصاعقة ؛ وعمر وعثمان رضي الله تعالى عنهما ، والكسائي : الصعقة ، وهي الصيحة هنا .

وقرأ الحسن : الصاعقة ؛ وزيد بن علي كقراءة الكسائي .

﴿ وهم ينظرون ﴾ : أي فجأة ، وهم ينظرون بعيونهم ، قاله الطبري : وكانت نهاراً .

وقال مجاهد : ﴿ وهم ينظرون ﴾ ينتظرون ذلك في تلك الأيام الثلاثة التي أعلموه فيها ، ورأوا علاماته في قلوبهم ، وانتظار العذاب أشد من العذاب .

﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾ ، لقوله : ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ ونفي الاستطاعة أبلغ من نفي القدرة .

﴿ وما كانوا منتصرين ﴾ ، أبلغ من نفي الانتصار : أي فما قدروا على الهرب ، ولا كانوا ممن ينتصر لنفسه فيدفع ما حل به .

وقيل : ﴿ من قيام ﴾ ، هو من قولهم : ما يقوم به إذا عجز عن دفعه ، فليس المعنى انتصاب القامة ، قاله قتادة .

وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ وقوم ﴾ بالجر عطفاً على ما تقدم ، أي وفي قوم نوح ، وهي قراءة عبد الله .

وقرأ باقي السبعة ، وأبو عمرو في رواية : بالنصب .

قيل : عطفاً على الضمير في ﴿ فأخذتهم ﴾ ؛ وقيل : عطفاً على ﴿ فنبذناهم ﴾ ، لأن معنى كل منهما : فأهلكناهم .

وقيل : منصوب بإضمار فعل تقديره : وأهلكنا قوم نوح ، لدلالة معنى الكلام عليه .

وقيل : باذكر مضمرة .

وروى عبد الوارث ، ومحبوب ، والأصمعي عن أبي عمرو ، وأبو السمال ، وابن مقسم : وقوم نوح بالرفع على الابتداء ، والخبر محذوف ، أي أهلكناهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إبراهيم ﴾

تفخيمٌ لشأنِ الحديثِ وتنبيهٌ على أنَّهُ ليسَ مما عِلمهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بغيرِ طريقِ الوحي ، والضيفُ في الأصلِ مصدرُ ضافهُ ولذلكَ يطلقُ عَلى الواحدِ والجماعةِ كالزَّورِ والصَّوْمِ وكانُوا اثني عشرَ ملَكاً وقيلَ تسعةً عاشرُهم جبريلُ وقيلَ ثلاثةٌ جبريلُ وميكائلُ وملكٌ آخرُ معهمَا عليهمْ السَّلامُ وتسميتُهم ضيفاً لأنَّهم كانُوا في صورةِ الضَّيفِ حيثُ أضافَهُم إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ أو لأنهمُ كانوا في حسابِه كذلكَ ﴿ المكرمين ﴾ أي المكرمينَ عندَ الله تعالَى أو عندَ إبراهيمَ حيثُ خدمَهُم بنفسِه وبزوجتِه ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ ظرفٌ للحديثِ أو لما في الضيفِ منْ مَعْنى الفعلِ أو المكرمينَ إنْ فسَّر بإكرامِ إبراهيمَ ﴿ فَقَالُواْ سَلاَمًا ﴾ أي نسلم عليكَ سلاماً ﴿ قَالَ ﴾ أيْ إبراهيمُ ﴿ سلام ﴾ أيْ عليكُم سلامٌ ، عُدِلَ بهِ إلى الرفعِ بالابتداءِ للقصدِ إلى الثباتِ والدوامِ حتَّى تكونَ تحيتُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أحسنَ منْ تحيتهم وقُرئَا مرفوعينَ وقرىءَ سِلْمٌ وقرىء منصوباً والمعنى واحدٌ ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ أنكرهُمْ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ للسلامِ الذَّي هو عَلَمٌ للإسلامِ أو لأنَّهم ليسُوا ممنْ عهدَهُم منَ النَّاسِ أو لأنَّ أوضاعَهُم وأشكالَهمُ خلافُ ما عليه النَّاسُ ولعلَّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إنَّما قالَهُ في نفسِه من غيرِ أنْ يشعرَهُم بذلكَ لا أنَّه خاطبُهم بهِ جَهْراً أو سألُهم أنْ

يعرِّفوُه أنفسَهُم كَما قيلَ وإلاَّ لكشفُوا أحوالَهُم عندَ ذلكَ ولَمْ يتصدَّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لمقدماتِ الضيافةِ.

(105/726)

﴿ فَرَاغَ إلى أَهْلِهِ ﴾ أيْ ذهبَ إليهمْ عَلى خُفيةٍ منْ ضيفِه فإنَّ منْ أدبِ المضيفِ أنْ يبادَرهُ بالقِرى ويبادرَ بِهِ حذاراً مِنْ أن يكفَهُ ويعذرَهُ أو يصيرَ مُنتظراً والفاءُ في قولِه تعالَى : ﴿ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ فصيحةٌ مفصحةٌ عنْ جُمَلٍ قَدْ حُذفتْ ثقةً بدلالةِ الحالِ عَلَيْها وإيذاناً بكمالِ سرعةِ المجيءِ بالطعامِ كما في قولِه تعالَى : ﴿ أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق ﴾ أيْ فذبحَ عجلاً فحنذَهُ فجاءَ بِهِ ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ بأنْ وضعَهُ لديهم حسَبما هُو المعتادُ ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ إنْكاراً لعدمِ تعرضِهم للأكلِ ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ ﴾ أضمرَ في نفسِه ﴿ خِيفَةً ﴾ لتوهمِ أنَّهم جاءُوا للشرِّ وقيلَ وقعَ في قلبِه أنَّهم ملائكةٌ جاءوا للعذابِ ﴿ قَالُواْ لاَ تَخَفْ ﴾ قيلَ مسحَ جبريلُ عليهِ السلامُ العجلَ بجناحِه فقامَ يدرُجُ حتَّى لحقَ بأُمِّهِ فعرفَهُم وأمِنَ منهُم ﴿ وَبَشَّرُوهُ ﴾ وفي سورةِ الصافاتِ وبشرناهُ أيْ بواسطتِهم ﴿ بغلام ﴾ هو إسحاقُ عليهِ السَّلامُ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ عند بلوغِه واستوائِه ﴿ فَأَقْبَلَتِ امرأته ﴾ سارةُ لمَّا سمعتْ بشارتَهمُ إلي بيتِها وكانتْ في زاويةٍ تنظرُ إليهمْ ﴿ فِى صَرَّةٍ ﴾ في

صيحةٍ من الصريرِ ، ومحلُّه النَّصبُ عَلى الحاليّةِ أو المفعوليةِ إنْ جُعلَ أقبلتْ بمَعْنى أخذتْ كما يقالُ أقبلَ يشتُمنِي ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ أيْ لطمتْهُ منَ الحياءِ لما أنَّها وجدتْ حرارةَ دمِ الطمثِ وقيلَ ضربتْ بأطرافِ أصابعِها جبينَها كما يفعلُه المتعجب ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أيْ أنَا عجوزٌ عاقرٌ فكيفَ ألدُ .

(106/726)

﴿ قَالُواْ كَذَلِكِ ﴾ مثلَ ذلكَ القولِ الكريمِ ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ وَإنَّما نحنُ معبرونَ نخبركِ بهِ عنْهُ تعالَى لا أنَّا نقولُه منْ تِلقاءِ أنفسِنا ﴿ إِنَّهُ هُوَ الحكيم العليم ﴾ فيكونُ قولُه حقاً وفعلُه متقناً لا محالةَ . رُويَ أنَّ جبريلَ عليهِ السَّلامُ قالَ لَهَا انْظُري إلى سقفِ بيتك فنظرتْ فإذَا جذوعُه مورقةٌ مثمرةٌ ، ولَمْ تكُنْ هذهِ المفاوضةُ معَ سارةَ فقطْ بلْ معَ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ أيضاً حسبَما شُرِحَ في سورةِ الحِجْرِ وإنَّما لَمْ يُذكِرْ هَهُنا اكتفاءً بما ذكر هناك كما أنه لم يذكر هناك سارة اكتفاءً بما ذكر ههنا وفي سورةِ هودٍ .

(107/726)

﴿ قَالَ ﴾ أيْ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ لَمَّا عِلَم أنَّهم ملائكةٌ أُرسلوا لأمرٍ ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ أيْ شأنُكم الخطيرُ الذي لأجْلِه أرسلتُم سوى البشارةِ ﴿ أَيُّهَا المرسلون * قَالُوا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ يعنون قومَ لوطٍ ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ ﴾ أيْ بعدَ ما قلبنا قُراهُمْ وجعلنا عاليَها سافلَها حسبَما فُصِّلَ في سائرِ السورِ الكريمةِ ﴿ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ أيْ طينٍ متحجرٍ هُوَ السجيلُ ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ مُرسلةً منْ أسمتُ الماشيةَ أيْ أرسلتُها ، أو معلمةً منَ السُّومةِ وهيَ العلامةُ وقدْ مَرَّ تفصيلُه في سورةِ هُودٍ ﴿ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ المجاوزينَ الحدَّ في الفُجورِ وقولُه تعالَى ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ الخ حكايةٌ منْ جهتِه تعالَى لِمَا جَرى عَلى قومِ لُوطٍ عليهِ السَّلامُ بطريقِ الإجْمَالِ بعدَ حكايةِ ما جَرَى بينَ الملائكةِ وبينَ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ من الكلامِ والفاءُ فصيحةٌ مفصحةٌ عنْ جُملٍ قدْ حُذفتْ ثقةً بذكرِها في مواضعَ أُخرَ كأنَّه قيلَ فباشرُوا مَا أُمروا بهِ فأخرجنَا بقولِنا فأسرِ بأهلِكَ الخ ﴿ مَن كَانَ فِيهَا ﴾ أيْ في قُرى قومِ لُوطٍ وإضمارُهَا بغيرِ ذكرٍ لشهرتِها ﴿ مِنَ المؤمنين ﴾ ممنْ أمنَ بلوطٍ ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ ﴾ أيْ غيرَ أهْلِ بيتٍ ﴿ مِنَ المسلمين ﴾ قيلَ هُم لوطٌ وابنتاهُ وقيلَ كانَ لوطٌ وأهلُ بيتِه الذينَ نجَوا ثلاثةَ عشرَ ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا ﴾ أيْ في القريةِ ﴿ ءايَةً ﴾ أيْ علامةً دالةً على ما أصابهُم من العذابِ قيلَ هيَ تلكَ الأحجارُ أوْ صخرٌ منضودٌ فيهَا أَوْ ماءٌ منتنٌ ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ العذاب الأليم ﴾ أيْ مِنْ شأنِهم أنْ يخافُوه لسلامةِ فطرتِهم ورقةِ

قلوبِهم دونَ مَنْ عَداهُم منْ ذَوي القلوبِ القاسيةِ فإنَّهم لا يعتدونَ بَها ولاَ يعدونها آيةً ﴿ وَفِي موسى ﴾ عطفٌ عَلى قولِه تعالَى

(108/726)

وفِي الأرضِ أو عَلى قولِه تعالَى وتركنَا فيهَا آيةً عَلى مَعْنى وجعلنَا في مُوسى آيةً كقولِ منْ قالَ علفتُها تبناً وماءً بارداً . . . ﴿ إذْ أرسلناه ﴾ قيلَ هُو منصوبٌ بآيةً وَقيلَ بمحذوفٍ أيْ كائنةً وقتَ إرسالِنا وقيلَ بتركْنا ﴿ إلى فِرْعَوْنَ بسلطانٍ مُّبينٍ ﴾ هُو ما ظهرَ عَلى يديهِ منْ المعجزاتِ الباهرةِ ﴿ فتولى بركْنِهِ ﴾ أيْ فأعرضَ عنِ الإيمانِ بهِ وازورّ كقولِه تعالَى : ﴿ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ وقيلَ فتولَّى بما يتقوّى بهِ منْ مُلْكِه وَعساكِره فإنَّ الركنَ اسمٌ لمَا يركنُ إليهِ الشيءُ وَقُرِئَ بركُنِهِ بضمّ الكافِ ﴿ وَقَالَ ساحر ﴾ أيْ هُو ساحرٌ ﴿ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ كأَنَّه نسبَ ما ظهرَ على يديهِ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ من الخوارقِ العجيبةِ إلى الجنّ وترددَ في أَنَّه حصل باختيارِه وسعيهِ أو بغيرِهما .

(109/726)

﴿ فأخذناه وَجُنُودَهُ فنبذناهم فِي اليم ﴾ وفيهِ منَ الدلالةِ عَلى غايةِ عظمِ شأنِ القدرةِ الربانيةِ ونهايةِ قماءةِ فرعونَ وقومِه مَا لاَ يَخْفى ﴿ وَهُوَ مُليمٌ ﴾ أيْ آتٍ بما يلامُ عليه منَ الكفرِ والطغيانِ والجملةُ حالٌ منَ الضميرِ في فأخذناهُ ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الريح العقيم ﴾ وصفتْ بالعُقم لأنها أهلكتهم وقطعتْ دابرَهم أوْ لأنَّها لم تتضمنْ خيراً ما منْ إنشاءِ مطرٍ أو إلقاحِ شجرٍ وهي النكباءُ أو الدبُورُ أو الجنوبُ ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ ﴾ أيْ جرتْ عليهِ ﴿ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كالرميم ﴾ هو كُلُّ ما رَمَّ وبَلِيَ وتفتت منْ عظمٍ أو نباتٍ أو غيرِ ذلكَ ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حتى حِينٍ ﴾ وهُو قولُه تعالَى تمتعُوا في داركم ثلاثةَ أيامٍ قيلَ قالَ لَهُم صالحٌ عليهِ السَّلامُ تصبحُ وجوهُكُم غداً مصفرةً وبعدَ غدٍ محمرةً واليومَ الثالثَ مسودةً ثمَّ يصبحكُم العذابُ ﴿ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي فاستكبرُوا عن الامتثالِ بهِ ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة ﴾ قيلَ لَمَّا رأَوا العلاماتِ التي بيَّنها صالحٌ عليهِ السَّلامُ منَ اصفرارِ وجوهِهم واحمرارِها واسودادِها عمدُوا إلى قتلِه عليهِ السَّلامُ فنجاهُ اللهُ تعالَى إلى أرضِ فلسطينَ ، ولَمَّا كانَ ضحوةُ اليومِ الرابعِ تحنطُوا وتكفنُوا بالأنطاعِ فأتتهُم الصيحةُ فهلكُوا وقرىءَ الصَّعقةُ وهيَ المرةُ منَ الصَّعْقِ ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ إليهَا ويعاينونَها ﴿ فَمَا استطاعوا مِن قِيَامٍ ﴾ كقولِه تعالَى : ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جاثمين ﴾ ﴿ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾ بغيرِهم كَما لم يمتنعُوا بأنفسِهم .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ أيْ وأهلكنَا قومَ نوحٍ فإنَّ ما قبلَهُ يدلُّ عليه أَوْ وَاذكُرْ ويجوزُ أنْ يكونَ معطوفاً على محلِ في عادٍ ويؤيدُه القراءةُ بالجَرّ وقيلَ هُو معطوفٌ عَلَى مفعولِ فأخذناهُ ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أيْ منْ قبلِ هؤلاءِ المُهلَكين ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ خارجينَ عنِ الحدودِ فيمَا كانُوا فيهِ منَ الكفرِ وَالمعاصِي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(111/726)

وقال الآلوسى :

﴿ وَفِى موسى ﴾

عطف على ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا ﴾ [الذاريات : 37] بتقدير عامل له أي وجعلنا في موسى ، والجملة معطوفة على الجملة ، أو هو عطف على ﴿ فِيهَا ﴾ بتغليب معنى عامل الآية ، أو سلوك طريق المشاكلة في عطفه على الأوجه التي ذكرها النحاة في نحو

: علفتها تبناً وماءاً بارداً . . .

لا يصح تسليط الترك بمعنى الإبقاء على قوله سبحانه .

﴿ وَفِى موسى ﴾ فقول أبي حيان .

لا حاجة إلى إضمار ﴿ تَّرَكْنَا ﴾ [الذاريات : 37] لأنه قد أمكن العامل في المجرور تركنا الأول فيه بحث ، وقيل : ﴿ فِى موسى ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي ﴿ وَفِى موسى ﴾ آية ، وجوز ابن عطية .

وغيره أن يكون معطوفاً على قوله تعالى : ﴿ وَفِى الأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [الذاريات : 20] اعتراض لتسليته عليه الصلاة والسلام على ما مر ، وتعقبه في "البحر" بأنه بعيد جداً ينزه القرآن الكريم عن مثله ﴿ إِذْ أرسلناه ﴾ قيل : بدل من ﴿ موسى ﴾ ، وقيل : هو منصوب بآية ، وقيل : بمحذوف أي كائنة وقت إرسالنا ، وقيل : بتركنا .

﴿ إلى فِرْعَوْنَ بسلطان مُّبِينٍ ﴾ هو ما ظهر على يديه من المعجزات الباهرة ، والسلطان يطلق على ذلك مع شموله للواحد والمتعدد لأنه في الأصل مصدر .

(112/726)

﴿ فتولى بِرُكْنِهِ ﴾ فأعرض عن الإيمان بموسى عليه السلام على أن ركنه جانب بدنه وعطفه ، والتولي به كناية عن الإعراض ، والباء للتعدية لأن معناه ثني عطفه ، أو للملابسة ، وقال قتادة : تولى بقومه على أن الركن بمعنى القوم لأنه يركن إليهم ويتقوى بهم ، والباء

للمصاحبة أو الملابسة وكونها للسببية غير وجيه ، وقيل : تولى بقوته وسلطانه ، والركن يستعار للقوة كما قال الراغب وقرىء بركنه بضم الكاف اتباعاً للراء ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ ﴾ أي هو ساحر ﴿ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ كان اللعين جعل ما ظهر على يديه عليه السلام من الخوارق العجيبة منسوبة إلى الجن وتردد في أنه حصل باختياره فيكون سحراً ، أو بغير اختياره فيكون جنوناً ، وهذا مبني على زعمه الفاسد وإلا فالسحر ليس من الجن كما بين في محله فأو للشك ، وقيل : للإبهام ، وقال أبو عبيدة : هي بمعنى الواو لأن اللعين قال الأمرين قال : ﴿ إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ ﴾ [الشعراء : 34] وقال : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : 27] وأنت تعلم أن اللعين يتلون تلون الحرباء فلا ضرورة تدعو إلى جعلها بمعنى الواو .

﴿ فأخذناه وَجُنُودَهُ فنبذناهم ﴾ طرحناهم غير معتدّين بهم ﴿ فِي اليم ﴾ في البحر ، والمراد فأغرقناهم فيه ، وفي الكلام من الدلالة على غاية عظم شأن القدرة الربانية ونهاية قماءة فرعون وقومه ما لا يخفى ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان فالأفعال هنا للإتيان بما يقتضي معنى ثلاثية كأغرب إذا أتى أمراً غريباً ، وقيل : الصيغة للنسب ، أو الإسناد للسبب وهو كما ترى وكون الملام عليه هنا الكفر والطغيان هو الذي يقتضيه حال فرعون وهو مما يختلف باعتبار من وصف به فلا يتوهم أنه كيف وصف اللعين بما وصف به ذو النون عليه السلام .

﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا ﴾ على طرز ما تقدم ﴿ عَلَيْهِمُ الريح العقيم ﴾ الشديد التي لا تلقح شيئاً كما أخرجه جماعة عن ابن عباس وصححه الحاكم ، وفي لفظ هي ريح لا بركة فيها ولا منفعة ولا ينزل منها غيث ولا يلقح بها شجر كأنه شبه عدم تضمن المنفعة بعقم المرأة فعيل بمعى فاعل من اللازم وكون هذا المعنى لا يصح هنا مكابرة ، وقال بعضهم وهو حسن : سميت عقيماً لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم على أن هناك استعارة تبعية شبه إهلاكهم وقطع دابرهم بعقم النساء وعدم حملهن لما فيه من إذهاب النسل ثم أطلق المشبه به على المشبه واشتق منه العقيم ، وفعيل قيل : بمعنى فاعل أو مفعول ، وهذه الريح كانت الدبور لما صح من قوله صلى الله عليه وسلم : " نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور " وأخرج الفريابي .

وابن المنذر عن علي كرم الله تعالى وجهه أنها النكباء ، وأخرج ابن جرير وجماعة عن ابن المسيب أنها الجنوب ، وأخرج ابن المنذر عن مجاهد أنها الصبا ، والمعول عليه ما ذكرنا أولاً ، ولعل الخبر عن الأمير كرم الله تعالى وجهه غير صحيح .

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ ﴾ ما تدع شيئاً ﴿ أَتَتْ عَلَيْهِ ﴾ جرت عليه ﴿ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كالرميم

﴿ الشيء البالي من عظم ، أو نبات ، أو غير ذلك من رمّ الشيء بلي ، ويقال للبالي : رمام كغراب ، وأرم أيضاً لكن قال الراغب : يختص الرم بالفتات من الخشب والتبن ، والرمة بالكسر تختص بالعظم البالي ، والرمة بالضم بالحبل البالي ، وفسره السدي هنا بالتراب ، وقتادة بالهشيم ، وقطرب بالرماد ، وفسره ابن عيسى بالمنسحق الذي لا يرم أي لا يصلح كأنه جعل الهمزة في أرم للسلب ، والجملة بعد ﴿ إِلا ﴾ حالية ، والشيء هنا عام مخصوص أي من شيء أراد الله تعالى تدميره وإهلاكه من ناس .

أو ديار .

أو شجر .

أو غير ذلك ، روي أن الريح كانت تمر بالناس فيهم الرجل من عاد فتنتزعه من بينهم وتهلكه .

(114/726)

﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حتى حِينٍ ﴾ أخرج البيهقي في سننه عن قتادة أنه ثلاثة أيام وإليه ذهب الفراء .

وجماعة قال : تفسيره قوله تعالى : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثلاثة أَيَّامٍ ﴾ [هود : 56]

واستشكل بأن هذا التمتع مؤخر عن العتو لقوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ ﴾ الخ ، وقوله تعالى :

﴿ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ يدل على أن العتو مؤخر ، وأجيب بأن هذا مرتب على تمام القصة كأنه قيل : وجعلنا في زمان قولنا ذلك لثمود آية أو وفي زمان قولنا ذلك لثمود آية ، ثم أخذ في بيان كونه آية فقيل .

﴿ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي فاستكبروا عن الامتثال به إلى الآخر ، فالفاء للتفصيل قال في "الكشف" .

وهو الظاهر من هذا المساق ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ فتولى بِرُكْنِهِ ﴾ [الذاريات : 39] مرتب على القصة زمان إرسال موسى عليه السلام بالسلطان ، وإن كان هناك لا مانع من الترتب على الإرسال وذلك لأنه جيء بالظرف مجيء الفضلة حيث جعل فيه الآية ، والقصة من توليهم إلا هلاكهم انتهى ، وقال الحسن : هذا أي القول لهم ﴿ تمتعوا حتى حين ﴾ [الذاريات : 43] كان حين بعث إليهم صالح أمروا بالإيمان بما جاء به ، والتمتع إلى أن تأتي آجالهم ثم عتوا بعد ذلك قال في "البحر" ، ولذلك جاء العطف بالفاء المقتضية تأخر العتو عما أمروا به فهو مطابق لفظاً ووجوداً واختاره الإمام فقال .

قال بعض المفسرين : المراد بالحين الأيام الثلاثة التي أمهلوها بعد عقر الناقة وهو ضعيف لأن

ترتب فعتوا بالفاء دليل على أن العتو كان بعد القول المذكور ، فالظاهر أنه ما قدر الله تعالى من الآجال فما من أحد إلا وهو ممهل مدة الأجل كأنه يقول له .

(115/726)

تمتع إلى آخر أجلك فإن أحسنت فقد حصل لك التمتع في الدارين وإلا فمالك في الآخرة من نصيب انتهى ، وما تقدم أبعد مغزى ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة ﴾ أي أهلكتهم ، روي أن صالحاً عليه السلام وعدهم الهلاك بعد ثلاثة أيام ، وقال لهم : تصبح وجوهك غداً مصفرة .

وبعد غد محمرة .

واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب ، ولما رأوا الآيات التي بينها عليه السلام عمدوا إلى قتله فنجاه الله تعالى فذهب إلى أرض فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم الصاعقة وهي نار من السماء ، وقيل : صيحة منها فهلكوا ، وقرأ عمر .

وعثمان رضي الله تعالى عنهما .

والكسائي الصعقة وهي المرة من الصعق بمعنى الصاعقة أيضاً ، أو الصيحة ﴿ وَهُمْ

يَنظُرُونَ ﴾ إليها ويعاينونها ويحتاج إلى تنزيل المسموع منزلة المبصر على القول بأن الصاعقة الصيحة وأن المراد ينظرون إليها ، وقال مجاهد : ﴿ يُنظَرُونَ ﴾ بمعنى ينتظرون أي وهم ينتظرون الأخذ والعذاب في تلك الأيام الثلاثة التي رأوا فيها علاماته وانتظار العذاب أشد من العذاب .

﴿ فَمَا استطاعوا مِن قِيَامٍ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جاثمين ﴾ [الأعراف : 87] وقيل : هو من قولهم : ما يقوم فلان بكذا إذا عجز عن دفعه ، وروي ذلك عن قتادة فهو معنى مجازي ، أو كناية شاعت حتى التحقت بالحقيقة ﴿ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾ بغيرهم كما لم يتمنعوا بأنفسهم .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ أي وأهلكنا قوم ، فإن ما قبله يدل عليه ، أو واذكر ، وقيل : عطف على الضمير في ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ﴾ [الذاريات : 44] ، وقيل : في ﴿ فنبذناهم ﴾ [الذاريات : 40] لأن معنى كل فأهلكناهم هو كما ترى وجوز أن يكون عطفاً على محل ﴿ وَفِى عَادٍ ﴾ [الذاريات : 41] أو ﴿ وَفِى ثَمُودَ ﴾ [الذاريات : 43] وأيد بقراءة عبد الله .

وأبي عمرو .

وحمزة .

والكسائي .

وقوم بالجر ، وقرأ عبد الوارث .

ومحبوب .

والأصمعي عن أبي عمرو .

(116/726)

وأبو السمال .

وابن مقسم .

وقوم بالرفع والظاهر أنه على الابتداء ، والخبر محذوف أي أهلكناهم ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل هؤلاء المهلكين ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ خارجين عن الحدود فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(117/726)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) ﴾

قوله : ﴿ وفي موسى ﴾ عطف على قوله : ﴿ فيها آية ﴾ [الذاريات : 37] .

والتقدير : وتركنا في موسى آية ، فهذا العطف من عطف جملة على جملة لتقديرِ فعل : تَركْنا ، بعد واوِ العطف ، والكلام على حذف مضاف أي في قصة موسى حين أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين فتولى الخ ، فيكون الترك المقدر في حرف العطف مراداً به جعل الدلالة باقية فكأنها متروكة في الموضع لا تنقل منه كما تقدم آنفاً في بيت عنترة .

وأعقب قصة قوم لوط بقصة موسى وفرعون لشهرة أمر موسى وشريعته ، فالترك المقدر مستعمل في مجازيه المرسل والاستعارة .

وفي الواو استخدام مثل استخدام الضمير في قول معاوية بن مالك الملقب معوِّد الحكماء (لقبوه به لقوله في ذكر قصيدته) :

أعَوِّد مثلها الحكماء بعدي . . .

إذا ما ألحق في الحدثان نابا

إذا نزل السماء بأرض قوم . . .

رعيناه وإن كانوا غضابا

والمعنى : أن قصة موسى آية دائمة .

وعقبت قصة قوم لوط بقصة موسى وفرعون لما بينهما من تناسب في أن العذاب الذي عذب به الأُمّتان عذاب أرضي إذ عذب قوم لوط بالحجارة التي هي من طين ، وعذب قوم

فرعون بالغرق في البحر ، ثم ذكر عاد وثمود وكان عذابهما سماوياً إذ عذبت عاد بالريح وثمود بالصاعقة .

والسلطان المبين : الحجة الواضحة وهي المعجزات التي أظهرها لفرعون من انقلاب العصا حية ، وما تلاها من الآيات الثمان .

والتولي حقيقته : الانصراف عن المكان .

والركن حقيقته : ما يعتمد عليه من بناء ونحوه ، ويسمى الجسدُ ركناً لأنه عماد عمل الإنسان .

وقوله : ﴿ فتولى بركنه ﴾ تمثيل لهيئة رفضه دعوة موسى بهيئة المنصرف عن شخص .

وبإيرادِ قوله : ﴿ بركنه ﴾ تَمَّ التمثيل ولولاه لكان قوله : ﴿ تولى ﴾ مجرد استعارة .

والباء للملابسة ، أي ملابساً ركنه كما في قوله : ﴿ أعرض ونأى بجانبه ﴾ [الإسراء : 83] .

(118/726)

والمليم : الذي يجعل غيره لائماً عليه ، أي وهو مذنب ذنباً يلومه الله عليه ، أي يؤاخذه به .

والمعنى : أنه مستوجب العقاب كما قال : ﴿ فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ [إبراهيم :

22] .

والمعنى : أن في قصة موسى وفرعون آيةً للذين يخافون العذاب الأليم فيجتنبون مثل أسباب ما حل بفرعون وقومه من العذاب وهي الأسباب التي ظهرت في مكابرة فرعون عن تصديق الرسول الذي أرسل إليه ، وأن الذين لا يخافون العذاب لا يؤمنون بالبعث والجزاء لا يتعظون بذلك لأنهم لا يصدقون بالنواميس الإلهية ولا يتدبرون في دعوة أهل الحق فهم لا يزالون مُعرضين ساخرين عن دعوة رسولهم متكبرين عليه ، مُكابرين في دلائل صدقه ، فيوشك أن يحل بهم من مثل ما حلّ بفرعون وقومه ، لأن ما جاز على المثل يجوز على المماثل ، وقد كان المسلمون يقولون : إن أبا جهل فِرعون هذه الأمة .

وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41)

نظم هذه الآية مثل نظم قوله : ﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون ﴾ [الذاريات : 38] انتقل إلى العبرة بأمة من الأمم العربية وهم عاد وهم أشهر العرب البائدة .

و﴿ الريح العقيم ﴾ هي : الخليّة من المنافع التي تُرجى لها الرياح من إثارة السحاب وسوقه ، ومن إلقاح الأشجار بنقل غبرة الذكر من ثمار إلى الإِناث من أشجارها ، أي الريح التي لا نفع فيها ، أي هي ضارّة .

وهذا الوصف لما كان مشتقاً مما هو من خصائص الإِناث كان مستغنياً عن لحاق هاء التأنيث لأنها يُؤتى بها للفرق بين الصنفين .

والعرب يكرهون العقم في مواشيهم ، أي ريح كالناقة العقيم لا تثمر نسلاً ولا دَرًّا ، فوصف الريح بالعقيم تشبيه بليغ في الشؤم ، قال تعالى : ﴿ أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ [الحج : 55] .

وجملة ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ صفة ثانية ، أو حال ، فهو ارتقاء في مضرة هذا الريح فإنه لا ينفع وأنه يضر أضراراً عظيمة .

(119/726)

وصيغ ﴿ تذر ﴾ : بصيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة .

و﴿ شيء ﴾ في معنى المفعول ل ﴿ تذر ﴾ فإن (مِن) لتأكيد النفي والنكرة المجرورة بـ (من) هذه نص في نفي الجنس ولذلك كانت عامة ، إلا أن هذا العموم مخصص بدليل العقل لأن الريح إنما تُبلي الأشياء التي تمر عليها إذا كان شأنها أن يتطرق إليها البِلى ، فإن الريح لا تُبلي الجبال ولا البحار ولا الأودية وهي تمر عليها وإنما تُبلي الديار والأشجار والناس والبهائم ، ومثله قوله تعالى : ﴿ تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ [الأحقاف : 25] .

وجملة ﴿ جعلته كالرميم ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ الريح ﴾ مستثناة من عموم أحوال ﴿ شيء ﴾ يبين المعرف ، أي ما تذر من شيء أتت عليه في حال من أحوال

تدميرها إلا في حال قد جعلته كالرميم .

والرميم : العظم الذي بِلي .

يقال : رَمَّ العظم ، إذ بَلى ، أي جعلتْه مفتتاً .

والمعنى : وفي عاد آية للذين يخافون العذاب الأليم إذ أرسل الله عليهم الريح .

والمراد : أن الآية كائنة في أسباب إرسال الريح عليهم وهي أسباب تكذيبهم هوداً وإشراكهم بالله وقالوا : ﴿ من أشد منا قوة ﴾ [فصلت : 15] ، فيحذر من مثل ما حلّ بهم أهل الإيمان .

وأما الذين لا يخافون العذاب الأليم من أهل الشرك فهم مصرّون على كفرهم كما أصرت عاد فيوشك أن يحلّ بهم من جنس ما حلّ بعاد .

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43)

أتبعت قصة عاد بقصة ثمود لتقارنهما غالباً في القرآن من أجل أن ثمود عاصرت عاداً وخَلفتها في عظمة الأمم ، قال تعالى : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عَاد ﴾ [الأعراف : 74] ولاشتهارهما بين العرب .

و﴿ في ثمود ﴾ عطف على ﴿ في عاد ﴾ أو على ﴿ تركنا فيها آية ﴾ .

والمعنى : وتركنا آية للمؤمنين في ثمود في حال قد أخذتهم الصاعقة ، أي في دلالة أخذ الصاعقة إياهم ، على أن سببه هو إشراكهم وتكذيبهم وعتوّهم عن أمر ربهم ، فالمؤمنون اعتبروا بتلك فسلكوا مسلك النجاة من عواقبها ، وأما المشركون فإصرارهم على كفرهم سيوقعهم في عذاب من جنس ما وقعت فيه ثمود .

وهذا القول الذي ذكر هنا هو كلام جامع لما أنذرهم به صالح رسولهم وذكّرهم به من نحو قوله : ﴿ وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً ﴾ [الأعراف : 74] وقوله : ﴿ أتتركون فيما ها هنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ﴾ [الشعراء : 146 148] وقوله : ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ [هود : 61] .

ونحو ذلك مما يدل على أنهم أعطوا ما هو متاع ، أي نفع في الدنيا فإن منافع الدنيا زائلة ، فكانت الأقوال التي قالها رسولهم تذكيراً بنعمة الله عليهم بجمعها ﴿ تمتعوا حتى حين ﴾ ، على أنه يجوز أن يكون رسولهم قال لهم هذه الكلمة الجامعة ولم تُحك في القرآن إلا في هذا الموضع ، فقد علمتَ من المقدمة السابعة من مقدمات هذا التفسير أن أخبار الأمم تأتي مُوزعة على قصصهم في القرآن .

فقوله : ﴿ تمتعوا ﴾ أمر مستعمل في إباحة المتاع .

وقد جعل المتاع بمعنى النعمة في مواضع كثيرة كقوله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾ [الرعد : 26] قوله : ﴿ إن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ [الأنبياء : 111] .

والمراد بـ ﴿ حين ﴾ زمن مبهم ، جعل نهاية لما مُتّعوا به من النعم فإن نعم الدنيا زائلة ، وذلك الأجل : إما أن يراد به أجل كل واحد منهم الذي تنتهي إليه حياته ، وإمّا أن يراد به أجل الأمة الذي ينتهي إليه بقاؤها .

وهذا نحو قوله : ﴿ يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ﴾ [هود : 3] فكما قاله الله للناس على لسان محمد صلى الله عليه وسلم لعله قاله لثمود على لسان صالح عليه السلام .

(121/726)

وليس قوله : ﴿ إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾ بمشير إلى قوله في الآية الأخرى ﴿ فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ﴾ [هود : 65] ونحوه لأن ذلك الأمر مستعمل في الإِنذار والتأييس من النجاة بعد ثلاثة أيام فلا يكون لقوله بعده : ﴿ فعتوا عن أمر ربهم ﴾ مناسبة لتعقيبه به بالفاء لأن الترْتيب الذي تفيده الفاء يقتضي أن ما بعدها مرتب في

الوجود على ما قبلها .

والعتوّ : الكِبر والشدة .

وضمن "عَتَوْا" معنى : أَعرضوا ، فعدي بـ (عن) ، أي فأعرضوا عما أمرهم الله على لسان رسوله صالح عليه السلام .

وأخذ الصاعقة إياهم إصابتها إياهم إصابة تشبه أخذ العدوّ عدوه .

وجملة ﴿ وهم ينظرون ﴾ حال من ضمير النصْب في ﴿ أخذتهم ﴾ ، أي أخذتهم في حال نظرهم إلى نزولها ، لأنهم لما رأوا بوارقها الشديدة علموا أنها غير معتادة فاستشرفوا ينظرون إلى السحاب فنزلت عليهم الصاعقة وهم ينظرون ، وذلك هول عظيم زيادة في العذاب فإن النظر إلى النقمة يزيد صاحبها ألماً كما أن النظر إلى النعمة يزيد المنعم مسرّة ، قال تعالى : ﴿ وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ [البقرة : 50] .

وقرأ الكسائي ﴿ الصعقة ﴾ بدون ألف .

وقوله : ﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾ تفريع على ﴿ وهم ينظرون ﴾ ، أي فما استطاعوا أن يدفعوا ذلك حين رؤيتهم بوادرَه .

فالقيام مجاز للدفاع كما يقال : هذا أمر لا يقوم له أحد ، أي لا يدفعه أحد .

وفي الحديث " غَضِب غضباً لا يقوم له أحد " أي فما استطاعوا أيّ دفاع لذلك .

وقوله : ﴿ وما كانوا منتصرين ﴾ أي لم ينصرهم ناصر حتى يكونوا منتصرين لأن انتصر

مطاوع نصر ، أي ما نصرهم أحد فانتصروا .

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (46)

قرأ الجمهور ﴿ وقوم ﴾ بالنصب بتقدير (اذكر) ، أو بفعل محذوف يدلّ عليه ما ذكر من القصص قبله ، تقديره : وأهلكنا قوم نوح ، وهذا من عطف الجُمل وليس من عطف المفردات .

(122/726)

وقرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلَف بالجر عطفاً على ﴿ ثمود ﴾ [الذاريات : 43] على تقدير : وفي قوم نوح .

ومعنى ﴿ من قبل ﴾ أنهم أهلكوا قبل أولئك فهم أول الأمم المكذبين رسولهم أهلكوا .

وجملة ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ تعليل لما تضمّنه قوله : ﴿ وقوم نوح من قبل ﴾ .

وتقدير كونهم آية للذين يخافون العذاب : من كونهم عوقبوا وأن عقابهم لأنهم كانوا قوماً فاسقين .

وأخر الكلام على قوم نوح لما عرض من تجاذب المناسبات فيما أورد من آيات العذاب للأمم المذكورة آنفاً بما علمته سابقاً .

ولذلك كان قوله : ﴿ من قبل ﴾ تنبيهاً على وجه مخالفة عادة القرآن في ترتيب حكاية أحوال الأمم على حسب ترتيبهم في الوجود .

وقد أوماً قوله : ﴿ من قبل ﴾ إلى هذا ومثله قوله تعالى : ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى وثمودا فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾ [النجم : 50 52] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(123/726)

قوله تعالى ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (48) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (51) كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (53) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (54) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان إهلاكهم بالماء الذي نزل من السماء ، وطلع من الأرض بغير حساب ، كان ربما ظن ظان أن كان الخلل كان فيهما ، ثم أصلح بعد ذلك كما يقع لبعض من يصنع من الملوك صنعاً يبالغ في إتقانه فيختل ، قال عاطفاً على ما نصب " يوم " مبيناً أن فعل ذلك ما كان بالاختيار ، دالاًّ على وحدانيته لتمام القدرة الدالة على ما تقدم من أمر البعث : ﴿ والسماء بنيناها ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ بأيد ﴾ أي بقوة وشدة عظيمة لا يقدر قدرها .

(124/726)

ولما كانت السماء أليق لعظمتها وطهارتها بصفات الإلهية ، قال ، وأكد لما يلزم إنكارهم البعث من الطعن في القدرة : ﴿ وإنا ﴾ على عظمتنا مع ذلك ﴿ لموسعون ﴾ أي أغنياء وقادرون ذوو سعة لا تتناهى ، أي قدرة ، من الوسع وهو اللطافة ، وكذلك أوسعنا مقدار جرمها وما فيها من الرزق عن أهلها فالأرض كلها على اتساعها كالنقطة في وسط دائرة السماء بما اقتضته صفة الإلهية التي لا يصح فيها الشركة أصلاً ، ومطيقون لما لا يحصى من أمثال لك ، ومما هو أعظم منه مما لا يتناهى ، ومحيطون بكل شيء قدرة وعلماً ، وجديرون وحقيقون بأن يكون ذكل من أوصافنا فنوصف به لما يشاهد لنا من القوة على كل ما نريد ، فلسنا كمن يعرفون من الملوك لأنهم إذا فعلوا لا يقدرون على أعظم منه وإن قدروا كان ذلك

منهم بكلفة ومشقة ، وسترون في اليوم الآخر ما يتلاشى وما تريدون في جنبه ، ومن اتساعنا جعلها بلا عمد مع ما هي عليه من العظمة إلى غير ذلك من الأمور الخارقة للعوائد : ﴿ والأرض فرشناها ﴾ كذلك بما لنا من العظمة ، فصارت ممهدة جديرة بأن يستقر عليها الأشياء وهي آية على تمهيدنا لأرض الجنة وشقنا لأنهارها وغرسنا لأشجارها ﴿ فنعم ﴾ أي فتسبب عن ذلك أن يقال في وصفنا : نعم ﴿ الماهدون ﴾ أي نحن لكمال قدرتنا ، فما نزل من السماء شيء ولا نبع من الأرض شيء إلا بإرادتنا وتقديرنا واختيارنا من الأزل لأنا إذا صنعنا شيئاً علمنا ما يكون منه من حين إنشائه إلى حين إنباته ، ولا يكون شيء منه إلا بتقديرنا ، وذلك تذكير بالجنة والنار ، فما فوقها من خير فهو آية على الجنة ، وما فيها من جبال ووهاد وعر وخروبة فهو آية على النار .

ولما كان الأشياء المتضادة من الشيء الواحد أدل على القدرة من هذا الوجه ، قال : ﴿ ومن كل شيء ﴾ أي من الحيوان وغيره ﴿ خلقنا ﴾ بعظمتنا .

(125/726)

ولما كان الفلاسفة يقولون : لا ينشأ عن الواحد إلا واحد ، قال رداً عليهم : ﴿ زوجين ﴾ أي مثله شيئين كل منهما يراوح الآخر من وجه وإن خالفه من آخر ، ولا يتم نفع أحدهما إلا

بآخر من الحيوان والنبات وغيرها ويدخل فيه الأضداد من الغنى والفقر ، والحسن والقبح ، والحياة والموت ، والضياء والظلام ، والليل والنهار ، والصحة والسقم ، والبر والبحر ، والسهل والجبل ، والشمس والقمر ، والحر والبرد ، والسماوات والأرض ، وأن الحر والبرد من نفس جهنم آية بينة عليها ، وبناءهما على الاعتدال في بعض الأحوال آية على الجنة مذكرة بها مشوقة إليها .

ولما كان ذلك في غاية الدلالة على أن كلاً من الزوجين يحتاج إلى الآخر وأنه لا بد أن ينتهي الأمر إلى واحد لا مثل له وأنه لا يحتاج بعد ذلك التنبيه إلى تأمل كبير قال : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ فأدغم تاء التفعل الدالة على العلاج والاجتهاد والعمل فصار : فتكونوا عند من ينظر ذلك حق النظر على الرجاء من أن يتذكروا قليلاً من التذكر فيهديكم إلى سواء السبيل .

ولما كان كل شيء مما سواه لا بد له من ضد يضاده أو قرين يسد مسده ، وأما سبحانه فلا مثل له لأنه لو كان له مثل لنازعه ، فلم يقدر على كل ما يريد ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء : 22] وثبت أنه أهلك القرون الأولى بمخالفة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فثبت أن وراء المكلفين عذاباً يحق لهم الفرار منه ، وثبت أن كل شيء غيره محتاج إلى زوجه يثبت حاجة الكل إليه ، وأنه لا كفاية عند شيء في كل ما يرام منه ، وجب أن لا يفزع إلا إلى الواحد الغني فسبب عن ذلك قوله : ﴿ ففروا ﴾ أي أقبلوا وألجؤوا .

ولما درب عباده في هذه السورة بصفة الربوبية كثيراً ، فتأهلوا إلى النفوذ في الغيب ، وكانت العبادة لا تكون خالصة إلا إن علقت بالذات لا لشيء آخر ، ذكر اسم الذات فقال : ﴿ إلى الله ﴾ أي إلى الذي لا مسمى له من مكافىء ، وله الكمال كله ، فهو في غاية العلو ، فلا يقر ويسكن أحد إلى محتاج مثله فإن المحتاج لا غنى عنده ، ولا يقر سبحانه .

إلا من تجرد عن حضيض عوائقه الجسمية إلى أوج صفاته الروحانية ، وذلك من وعيده إلى وعده اللذين دل عليهما بالزوجين ، فتنقل السياق بالتحذير والاستعطاف والاستدعاء ، فهو من باب " لا ملجأ منك إلا إليك أعوذ بك منك " واستمر إلى آخر السورة في ذكره إشارة إلى علي أمره ، ثم علل بقوله مؤكداً لما لهم من الإنكار : ﴿ إني لكم منه ﴾ أي لا من غيره ﴿ نذير ﴾ أي من أن يفر أحد إلى غيره فإنه لا يحصل له قصده .

لما أقام الدليل العقلي الظاهر جداً بما يعلمه أحد في نفسه على ما قاله في هذا الكلام الوحيد قال : ﴿ مبين ﴾ ففرار العامة من الجهل إلى العلم عقداً وسعياً ، ومن الكسل إلى التشمير حذراً وحزماً ، ومن الضيق إلى السعة ثقة ورجاء ، وفرار الخاصة من الخير إلى الشهود ، ومن الرسوم إلى الأصول ، ومن الحظوظ إلى التجريد ، وفرار خاصة الخاصة مما

دون الحق إلى الحق إشهاداً في شهود جلاله واستغراقاً في وحدانيته ، قال القشيري : ومن صح فراره إلى الله صح فراره مع الله – انتهى .

وهو بكمال المتابعة ليس غيره ، ومن فهم منه اتحاداً بصفة أو ذات فقد ما حد طريق القوم فعليه لعنه الله .

(127/726)

ولما ثبت أنه لا ملجأ إلا إلى الله الواحد المنزه عن الزوج ، وذلك هو الله الذي له الكمال كله ، وكان ربما وقع في وهم أن في الوجود من غير الزوجين المعروفين من نفزع إليه كما نفزع إلى وزير الملك وبوابه ونحو ذلك مما يوصل إليه ، قال محذراً من سطواته : ﴿ ولا تجعلوا ﴾ أي بأهوائكم ﴿ مع الله ﴾ وكرر الاسم الأعظم ولم يضمر تعييناً للمراد لأنه لم يشاركه في التسمية به أحد وتنبيهاً على ما له من صفات الكمال وتعميماً لوجوه المقاصد لئلا يظن ، وقيل " معه " إن المراد النهي عن الجعل من جهة الفرار لا من جهة غيرها ﴿ إلهاً ﴾ .

ولما كان المراد كمال البيان ، منع مجاز التجريد منع تعنت من يطعن بتكثير الأسماء كما أشار إليه بقوله ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ الآية بقوله : ﴿ آخر ﴾ ثم علل النهي مع التأكيد لطعنهم في نذارته فقال : ﴿ إني لكم منه ﴾ أي لا من غيره فإن غيره لا يقدر على

شيء ﴿ نذير ﴾ أي محذر من الهلاك الأبدي بالعقوبة التي لا خلاص منها إن فعلتم ذلك ﴿ مبين ﴾ أي لا أقول شيئاً من واضح النقل إلا ودليله ظاهر من صريح العقل .

(128/726)

ولما ذكر قولهم المختلف الذي منه تكذيب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونسبته إلى السحر والجنون وغير ذلك من الفنون ، ومنه الإشراك مع اعترافهم بأنه لا خالق إلا الله ولا كاشف ضر غيره إلى غير ذلك من أنواع الاضطراب ، وأخبر بهلاكتهم على ذلك وحذرهم منه ودل عليه إلى أن ختم بإنذار من اتخذ إلهاً غيره قال مسلياً : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل قول قومك المختلف العظيم الشناعة ، البعيد من الصواب ، بما له من الاضطراب ، وقع لمن قبلهم ، ودل على هذا المقدر بقوله مستأنفاً : ﴿ ما أتى الذين ﴾ ولما كان الرسل إنما كان إرسالهم في بعض الأزمان الماضية ولم يستغرقوا جميعها بالفعل ، أثبت الجارّ في قوله : ﴿ من قبلهم ﴾ وعمم النفي بقوله : ﴿ من رسول ﴾ أي من عند الله ﴿ إلا قالوا ﴾ ولو بعضهم برضا الباقين : ﴿ ساحر أو مجنون ﴾ لأن الرسول يأتيهم بمخالفة مألوفاتهم التي قادتهم إليها أهواؤهم ، والهوى هو الذي أوجب لهم هذا التناقض الظاهر سواء كانت " أو " للتفصيل بأن بعضهم قال واحداً وبعضهم قال آخر ، أو كانت للشك لأن الساحر يكون لبيباً فطناً

آتياً بما يعجز عنه كثير من الناس ، والمجنون بالضد من ذلك ، ثم عجب منهم بقوله :

﴿ أتواصوا به ﴾ أي أوصى بهذا بعض الأولين والآخرين بعضاً .

ولما ساق هذا في أسلوب الاستفهام إشارة إلى قول ينبغي السؤال عن سببه لما له من الخفاء ، أجاب عنه بأنهم لم يتواصوا به لأن الأولين ما اجتمعوا مع الآخرين : ﴿ بل هم ﴾ اجتمعوا في وصف أداهم إلى ذلك .

وهو أنهم ﴿ قوم ﴾ أي ذوو شماخة وكبر ﴿ طاغون ﴾ أي عالون في الكفر مسرفون في الظلم والمعاصي مجاوزون للمقدار ، وأشار بالضمير إلى أن الطغيان أمر ذاتي لهم ، فهو يمدح منه سبحانه بأنه هو الذي قهرهم بسوقهم إلى هلاكهم بقدرته التامة وعلمه الشامل .

(129/726)

ولما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، يكاد يتلف نفسه الشريفة – بأبي هو وأمي – غماً عليهم وأسفاً لتخلصهم عن الإسلام وخوفاً أن لا يكون وفى بما عليه من التنبيه والإعلام ، سبب تعالى عن حالهم قوله : ﴿ فتولَّ عنهم ﴾ أي كلف نفسك الإعراض عن الإبلاغ في إبلاغهم بالمجادلة والصدع بالتغليظ بعد ما تقدم منك من الإبلاغ ﴿ فما أنت ﴾ بسبب الإعراض بعد الإنذار ﴿ بملوم ﴾ أي بمستحق الملامة بسبب إعراض من أعرض منهم عنك ، فإني

إنما حكمت بذلك لأني إنما قسمت الناس إلى مؤمن تنفعه الذكرى ، وطاغ لا ينفعه شيء ، ولذلك قال : ﴿ وذكر ﴾ أي بالرفق واللين ، ولما أصروا على التكذيب والإعراض حتى أيس منهم ، أكد ما سببه عن التذكير بقوله : ﴿ فإن الذكرى ﴾ أي التذكر بالنذارة البليغة ﴿ تنفع المؤمنين ﴾ أي الذين قدر الله أن يكونوا عريقين في وصف الإيمان ولا بد من إكثار التذكير ليغلب ما عندهم من نوازع الحظوظ وصوارف الشهوات ، مع ما هم مجبولون عليه من النسيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 285 . 288 ﴾

(130/726)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) ﴾

وهو بيان للوحدانية ، وما تقدم كان بياناً للحشر .

وأما قوله ههنا : ﴿ والسماء بنيناها بِأَيْدٍ ﴾ وأنتم تعرفون أن ما تعبدون من دون الله ما خلقوا منها شيئاً فلا يصح الإشراك ، ويمكن أن يقال هذا عود بعد التهديد إلى إقامة الدليل ، وبناء السماء دليل على القدرة على خلق الأجسام ثانياً ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ

الذى خَلَقَ السموات والأرض بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [ياس : 81] وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

النصب على شريطة التفسير يختار في مواضع ، وإذا كان العطف على جملة فعليه فما تلك الجملة ؟ نقول في بعض الوجوه التي ذكرناها في قوله تعالى : ﴿ وَفِى عَادٍ ﴾ [الذاريات : 41] ﴿ وَفِى ثَمُودَ ﴾ [الذاريات : 43] تقديره وهل أتاك حديث عاد وهل أتاك حديث ثمود ، عطفاً على قوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إبراهيم المكرمين ﴾ [الذاريات : 24] وعلى هذا يكون ما تقدم جملة فعلية لا خفاء فيه ، وعلى غير ذلك الوجه فالجار والمجرور النصب أقرب منه إلى الرفع فكان عطفاً على ما بالنصب أولى ، ولأن قوله تعالى : ﴿ فنبذناهم ﴾ [الذاريات : 40] وقوله : ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ [الذاريات : 32] وقوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة ﴾ [الذاريات : 44] و ﴿ فَمَا استطاعوا ﴾ [الذاريات : 45] كلها فعليات فصار النصب مختاراً .

المسألة الثانية :

كرر ذكر البناء في السموات ، قال تعالى : ﴿ والسماء وَمَا بناها ﴾ [الشمس : 5] وقال تعالى : ﴿ أَمِ السماء بناها ﴾ [النازعات : 27] وقال تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الأرض قَرَاراً والسماء بِنَاء ﴾ [غافر : 64] فما الحكمة فيه ؟ نقول فيه وجوه .

أحدها : أن البناء باق إلى قيام القيامة لم يسقط منه شيء ولم يعدم منه جزء ، وأما الأرض فهي في التبدل والتغير فهي كالفرش الذي يبسط ويطوى وينقل ، والسماء كالبناء المبني الثابت ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ [النبأ : 12] وأما الأراضي فكم منها ما صار بحراً وعاد أرضاً من وقت حدوثها .

ثانيها : أن السماء ترى كالقبة المبنية فوق الرؤوس ، والأرض مبسوطة مدحوة والبناء بالمرفوع أليق ، كما قال تعالى : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ [النازعات : 28] .

ثالثها : قال بعض الحكماء : السماء مسكن الأرواح والأرض موضع الأعمال والمسكن أليق بكونه بناء ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

الأصل تقديم العامل على المعمول والفعل هو العامل فقوله : ﴿ بنينا ﴾ عامل في السماء ، فما الحكمة في تقديم المفعول على الفعل ولو قال : وبنينا السماء بأيد ، كان أوجز ؟ نقول الصانع قبل الصنع عند الناظر في المعرفة ، فلما كان المقصود إثبات العلم بالصانع ، قدم الدليل فقال والسماء المزينة التي لا تشكون فيها بنيناها فاعرفونا بها إن كنتم لا تعرفوننا .

المسألة الرابعة :

إذا كان المقصود إثبات التوحيد ، فكيف قال : ﴿ بنينا ﴾ ولم يقل بنيتها أو بناها الله ؟

نقول قوله : ﴿ بنيانا ﴾ أدل على عدم الشريك في التصرف والاستبداد وقوله بنيتها يمكن أن يكون فيه تشريك ، وتمام التقرير هو أن قوله تعالى : ﴿ بنيناها ﴾ لا يورث إيهاماً بأن الآلهة التي كانوا يعبدونها هي التي يرجع إليها الضمير في ﴿ بنيناها ﴾ لأن تلك إما أصنام منحوتة وإما كواكب جعلوا الأصنام على صورها وطبائعها ، فأما الأصنام المنحوتة فلا يشكون أنها ما بنت من السماء شيئاً ، وأما الكواكب فهي في السماء محتاجة إليها فلا تكون هي بانيتها ، وإنما يمكن أن يقال إنما بنيت لها وجعلت أماكنها ، فلما لم يتوهم ما قالوا قال بنينا نحن ونحن غير ما يقولون ويدعونه فلا يصلحون لنا شركاء لأن كل ما هو غير السماء ودون السماء في المرتبة فلا يكون خالق السماء وبانيها فإذن علم أن المراد جمع التعظيم وأفاد النص عظمته ، فالعظمة أنفى للشريك فثبت أن قوله : ﴿ بنيناها ﴾ أدل على نفي الشريك من بنيتها وبناها الله .

فإن قيل : لم قلت : إن الجمع يدل على التعظيم ؟ قلنا الجواب من الوجهين .

الأول : أن الكلام على قدر فهم السامع ، والسامع هو الإنسان ، والإنسان يقيس الشاهد

على الغائب ، فإن الكبير عندهم من يفعل الشيء بجنده وخدمه ولا يباشر بنفسه ، فيقول الملك فعلنا أي فعله عبادنا بأمرنا ويكون في ذلك تعظيم ، فكذلك في حق الغائب .

(133/726)

الوجه الآخر : هو أن القول إذا وقع من واحد وكان الغير به راضياً يقول القائل فعلنا كلنا كذا وإذا اجتمع جمع على فعل لا يقع إلا بالبعض ، كما إذا خرج جم غفير وجمع كثير لقتل سبع وقتلوه يقال قتله أهل بلدة كذا لرضا الكل به وقصد الكل إليه ، إذا عرفت هذا فالله تعالى كيفما أمر بفعل شيء لا يكون لأحد رده وكان كل واحد منقاداً له ، يقول بدل فعلت فعلنا ، ولهذا الملك العظيم أجمعنا بحيث لا ينكره أحد ولا يرده نفس ، وقوله تعالى : ﴿ بِأَيْدٍ ﴾ أي قوة والأيد القوة هذا هو المشهور وبه فسّر قوله تعالى : ﴿ ذَا الأيد إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : 17] يحتمل أن يقال إن المراد جمع اليد ، ودليله أنه قال تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : 75] وقال تعالى : ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أنعاما ﴾ [ياس : 71] وهو راجع في الحقيقة إلى المعنى الأول وعلى هذا فحيث قال : ﴿ خُلِقَتْ ﴾ قال : ﴿ بِيَدَيَّ ﴾ وحيث قال : ﴿ بِأَيْدٍ ﴾ لمقابلة الجمع بالجمع ، فإن قيل فلم لم يقل بنيناها بأيدينا وقال : ﴿ وما عملت أيدينا ﴾ ؟ نقول لفائدة جليلة ، وهي أن السماء لا يخطر ببال أحد أنها مخلوقة لغير

الله والأنعام ليست كذلك ، فقال هناك : ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ تصريحاً بأن الحيوان مخلوق لله تعالى من غير واسطة وكذلك ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ وفي السماء ﴿ بِأَيْدٍ ﴾ من غير إضافة للاستغناء عنها وفيه لطيفة أخرى وهي أن هناك لما أثبت الإضافة بعد حذف الضمير العائد إلى المفعول ، فلم يقل خلقته بيدي ولا قال عملته أيدينا وقال ههنا : ﴿ بنيناها ﴾ لأن هناك لم يخطر ببال أحد أن الإنسان غير مخلوق وأن الحيوان غير معمول فلم يقل خلقته ولا عملته وأما السماء فبعض الجهال يزعم أنها غير مجعولة فقال : ﴿ بنيناها ﴾ بعود الضمير تصريحاً بأنها مخلوقة .

(134/726)

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ فيه وجوه أحدها : أنه من السعة أي أوسعناها بحيث صارت الأرض وما يحيط به من الماء والهواء بالنسبة إلى السماء وسعتها كحلقة في فلاة ، والبناء الواسع الفضاء عجيب فإن القبة الواسعة لا يقدر عليها البناءون لأنهم يحتاجون إلى إقامة آلة يصح بها استدارتها ويثبت بها تماسك أجزائها إلى أن يتصل بعضها ببعض .
ثانيها : قوله : ﴿ وإنا لموسعون ﴾ أي لقادرون ومنه قوله تعالى : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : 286] أي قدرتها والمناسبة حينئذ ظاهرة ، ويحتمل أن يقال بأن

ذلك حينئذ إشارة إلى المقصود الآخر وهو الحشر كأنه يقول : بنينا السماء ، وإنا لقادرون على أن نخلق أمثالها ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ السموات والأرض بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [ياس : 81] .

ثالثها : ﴿ إِنا لَمُوسِعُونَ ﴾ الرزق على الخلق .

وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (48)

استدلالاً بالأرض وقد علم ما في قوله : ﴿ والأرض فرشناها ﴾ وفيه دليل على أن دحو الأرض بعد خلق السماء ، لأن بناء البيت يكون في العادة قبل الفرش ، وقوله تعالى : ﴿ فَنِعْمَ الماهدون ﴾ أي نحن أو فنعم الماهدون ماهدوها .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمِن كُلّ شَىْء خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ استدلالاً بما بينهما والزوجان إما الضدان فإن الذكر والأنثى كالضدين والزوجان منهما كذلك ، وإما المتشاكلان فإن كل شيء له شبيه ونظير وضد وند ، قال المنطقيون المراد بالشيء الجنس وأقل ما يكون تحت الجنس نوعان فمن كل جنس خلق نوعين من الجوهر مثلاً المادي والمجرد ، ومن المادي النامي والجامد ومن النامي المدرك والنبات من المدرك للناطق والصامت ، وكل ذلك يدل على أنه فرد لا كثرة فيه .

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي لعلّكم تذكرون أن خالق الأزواج لا يكون له زوج وإلا لكان ممكناً فيكون مخلوقاً ولا يكون خالقاً ، أو ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أن خالق الأزواج لا يعجز عن حشر الأجسام وجمع الأرواح .

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50)

أمر بالتوحيد ، وفيه لطائف .

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَفِرُّواْ ﴾ ينبىء عن سرعة الإهلاك كأنه يقول الإهلاك والعذاب أسرع وأقرب من أن يحتمل الحال الإبطاء في الرجوع ، فافزعوا إلى الله سريعاً وفروا .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ إِلَى الله ﴾ بيان المهروب إليه ولم يذكر الذي منه الهرب لأحد وجهين ، إما لكونه معلوماً وهو هول العذاب أو الشيطان الذي قال فيه : ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً ﴾ [فاطر : 6] وإما ليكون عاماً كأنه يقول : كل ما عدا الله عدوكم ففروا إليه من كل ما عداه ، وبيانه وهو أن كل ما عداه فإنه يتلف عليك رأس مالك الذي هو العمر ، ويفوت عليك ما هو الحق والخير ، ومتلف رأس المال مفوت الكمال عدو ، وأما إذا فررت إلى الله وأقبلت على الله فهو يأخذ عمرك ولكن يرفع أمرك ويعطيك بقاء لا فناء معه .

والثالثة : الفاء للترتيب معناه إذا ثبت أن خالق الزوجين فرد ففروا إليه واتركوا غيره تركاً مؤبداً .

(136/726)

الرابعة : في تنوع الكلام فائدة وبيانها هو أن الله تعالى قال : ﴿ والسماء بنيناها ﴾ [الذاريات : 47] ﴿ والأرض فرشناها ﴾ [الذاريات : 48] ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا ﴾ [الذاريات : 49] ثم جعل الكلام للنبي عليه السلام وقال : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ولم يقل ففروا إلينا ، وذلك لأن لاختلاف الكلام تأثيراً ، وكذلك لاختلاف المتكلمين تأثيراً ، ولهذا يكثر الإنسان من النصائح مع ولده الذي حاد عن الجادة ، ويجعل الكلام مختلفاً ، نوعاً ترغيباً ونوعاً ترهيباً ، وتنبيهاً بالحكاية ، ثم يقول لغيره تكلم معه لعلّ كلامك ينفع ، لما في أذهان الناس أن اختلاف المتكلمين واختلاف الكلام كلاهما مؤثر ، والله تعالى ذكر أنواعاً من الكلام وكثيراً من الاستدلالات والآيات وذكر طرفاً صالحاً من الحكايات ، ثم ذكر كلاماً من متكلم آخر هو النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن المفسرين من يقول تقديره فقل لهم ففروا وقوله : ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ ﴾ إشارة إلى الرسالة .

وفيه أيضاً لطائف .

إحداها : أن الله تعالى بيّن عظمته بقوله : ﴿ والسماء بنيناها ﴾ ﴿ والأرض فرشناها ﴾ وهيبته بقوله : ﴿ فنبذناهم فِى اليم ﴾ [القصص : 40] وقوله تعالى : ﴿ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الريح العقيم ﴾ [الذاريات : 48] وقوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة ﴾ [النساء : 153] وفيه إشارة إلى أنه تعالى إذا عذب قدر على أن يعذب بما به البقاء والوجود وهو التراب والماء والهواء والنار ، فحكايات لوط تدل على أن التراب الذي منه الوجود والبقاء إذا أراد الله جعله سبب الفناء والماء كذلك في قوم فرعون والهواء في عاد والنار في ثمود ، ولعلّ ترتيب الحكايات الأربع للترتيب الذي في العناصر الأربعة وقد ذكرنا في سورة العنكبوت شيئاً منه ، ثم إذا أبان عظمته وهيبته قال لرسوله عرفهم الحال وقل أنا رسول بتقديم الآيات وسرد الحكايات فلإردافه بذكر الرسول فائدة .

(137/726)

ثانيها : في الرسالة أمور ثلاثة المرسل والرسول والمرسل إليه وههنا ذكر الكل ، فقوله : ﴿ لَكُمْ ﴾ إشارة إلى المرسل إليهم وقوله : ﴿ مِنْهُ ﴾ إشارة إلى المرسل وقوله : ﴿ نَّذِيرٍ ﴾ بيان للرسول ، وقدم المرسل إليه في الذكر ، لأن المرسل إليه أدخل في أمر الرسالة لأن عنده يتم الأمر ، والملك لو لم يكن هناك من يخالفه أو يوافقه فيرسل إليه نذيراً أو بشيراً لا يرسل وإن

كان ملكاً عظيماً ، وإذا حصل المخالف أو الموافق يرسل وإن كان غير عظيم ، ثم المرسل لأنه متعين وهو الباعث ، وأما الرسول فباختياره ، ولولا المرسل المتعين لما تمت الرسالة ، وأما الرسول فلا يتعين ، لأن للملك اختيار من يشاء من عباده ، فقال : ﴿ مِنْهُ ﴾ ثم قال : ﴿ نَّذِيرٍ ﴾ تأخيراً للرسول عن المرسل .

ثالثها : قوله : ﴿ مُّبِينٌ ﴾ إشارة إلى ما به تعرف الرسالة ، لأن كل حادث له سبب وعلامة ، فالرسول هو الذي به تتم الرسالة ، ولا بد له من علامة يعرف به ، فقوله : فقوله : ﴿ مُّبِينٌ ﴾ إشارة إليها وهي إما البرهان والمعجزة .

(138/726)

ثم قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْعَلُواْ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾ إتماماً للتوحيد ، وذلك لأن التوحيد بين التعطيل والتشريك ، وطريقة التوحيد هي الطريقة ، فالمعطل يقول لا إله أصلاً ، والمشرك يقول في الوجود آلهة ، والموحد يقول قوله الاثنين باطل ، نفي الواحد باطل ، فقوله تعالى : ﴿ فَفِرُّواْ إِلَى اللهِ ﴾ [الذاريات : 50] أثبت وجود الله ، ولما قال : ﴿ وَلاَ تَجْعَلُواْ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾ نفى الأكثر من الواحد فصح التوحيد بالآيتين ، ولهذا قال مرتين : ﴿ إِنِّى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي في المقامين والموضعين ، وقد ذكرنا مراراً أن المعطل إذا قال لا واجب

يجعل الكل ممكناً ، فإن كل موجود ممكن ، ولكن الله في الحقيقة موجود ، فقد جعله في تضاعيف قوله كالممكنات فقد أشرك ، وجعل الله كغيره ، والمشرك لما قال بأن غيره إله يلزم من قوله نفي كون الإله إلها لما ذكرنا في تقرير دلالة التمانع مع أنه لو كان فيهما آلهة إلا الله للزم عجز كل واحد ، فلا يكون في الوجود إله أصلاً ، فيكون ناقياً للإلهية ، فيكون معطلاً ، فالمعطل مشرك ، والمشرك معطل ، وكل واحد من الفريقين معترف بأن اسمه مبطل ، لكنه هو على مذهب خصمه يقول إنه نفسه مبطل وهو لا يعلم ، والحمد لله الذي هدانا ، وقوله ﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ ﴾ فيه لطيفة ، وهي أنه إشارة إلى أن الآلهة مجعولة ، لا يقال فالله متخذ لقوله ﴿ فاتخذه وَكِيلاً ﴾ [المزمل : 9] قلنا الجواب : عنه الظاهر ، وقد سبق في قوله تعالى : ﴿ واتخذوا مِن دُونِ الله ءالِهَةً ﴾ [مريم : 81] .

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52)

(139/726)

والتفسير معلوم مما سبق ، وقد ذكرنا أنه يدل على أن ذكر الحكايات للتسلية ، غير أن فيه لطيفة واحدة لا نتركها ، وهي أن هذه الآية دليل على أن كل رسول كذب ، وحينئذ يرد عليه أسئلة الأول : هو أنه من الأنبياء من قرر دين النبي الذي كان قبله ، وبقي القوم على ما

كانوا عليه كأنبياء بني إسرائيل مدة ، وكيف وآدم لما أرسل لم يكذب الثاني : ما الحكمة في تقدير الله تكذيب الرسل ، ولم يرسل رسولاً مع كثرتهم واختلاف معجزاتهم بحيث يصدقه أهل زمانه ؟ الثالث : قوله ﴿ مَا أَتَى . . .

إِلاَّ قَالُواْ ﴾ دليل على أنهم كلهم قالوا ساحر ، وليس كذلك لأنه ما من رسول إلا وآمن به قوم ، وهم ما قالوا ذلك والجواب عن الأول : هو أن نقول ، أما المقرر فلا نسلم أنه رسول ، بل هو نبي على دين رسول ، ومن كذب رسوله فهو مكذبه أيضاً ضرورة .

(140/726)

وعن الثاني : هو أن الله لا يرسل إلا عند حاجة الخلق ، وذلك عند ظهور الكفار في العلم ، ولا يظهر الكفر إلا عند كثرة الجهل ، ثم إن الله تعالى لا يرسل رسولاً مع كون الإيمان به ضرورياً ، وإلا لكان الإيمان به إيمان اليأس فلا يقبل ، والجاهل إذا لم يكن المبين له في غاية الوضوح لا يقبله فيبقى في ورطة الضلالة ، فهذا قدر لزم بقضاء الله على الخلق على هذا الوجه ، وقد ذكرنا مرة أخرى أن بعض الناس يقول : كل ما هو قضاء الله فهو خير ، والشر في القدر ، فالله قضى بأن النار فيها مصلحة للناس لأنها نور ، ويجعلونها متاعاً في الأسفار وغيرها كما ذكر الله ، والماء فيه مصلحة الشرب ، لكن النار إنما تتم مصلحتها بالحرارة

البالغة والماء بالسيلان القوي ، وكونهما كذلك يلزمهما بإجراء الله عادته عليهما أن يحرق ثوب الفقير ، ويغرق شاة المسكين ، فالمنفعة في القضاء والمضرة في القدر ، وهذا الكلام له غور ، والسنة أن نقول (يفعل الله ما يشاء ، ويحكم ما يريد) وعن الثالث : أن ذلك ليس بعام ، فإنه لم يقل إلا قال كلهم ، وإنما قال : ﴿ إِلَّا قَالُواْ ﴾ ولما كان كثير منهم ، بل أكثرهم قائلين به ، قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا قَالُواْ ﴾ فإن قيل : فلم لم يذكر المصدقين ، كما ذكر المكذبين ، وقال إلا قال بعضهم صدقت ، وبعضهم كذبت ؟ نقول لأن المقصود التسلية وهي على التكذيب ، فكأنه تعالى قال : لا تأس على تكذيب قومك ، فإن أقواماً قبلك كذبوا ، ورسلاً كذبوا .

أَتَوَاصَوْاْ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (53)

(141/726)

أي بذلك القول ، وهو قولهم ﴿ ساحر أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ ومعناه التعجيب ، أي كيف اتفقوا على قول واحد كأنهم تواطؤا عليه ، وقال بعضهم لبعض : لا تقولوا إلا هذا ، ثم قال : لم يكن ذلك على التواطؤ ، وإنما كان لمعنى جامع هو أن الكل أترفوا فاستغنوا فنسوا الله وطغوا فكذبوا رسله ، كما أن الملك إذا أمهل أهل بقعة ، ولم يكلفهم بشيء ، ثم قعد بعد مدة

وطلبهم إلى با به يصعب عليهم لاتخاذهم القصور والجنان ، وتحسين بلادهم من الوجوه الحسان ، فيحملهم ذلك على العصيان ، والقول بطاعة ملك آخر .

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (54)

هذه تسلية أخرى ، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان من كرم الأخلاق ينسب نفسه إلى تقصير ، ويقول إن عدم إيمانهم لتقصيري في التبليغ فيجتهد في الإنذار والتبليغ ، فقال تعالى : قد أتيت بما عليك ، ولا يضرك التولي عنهم ، وكفرهم ليس لتقصير منك ، فلا تحزن فإنك لست بملوم بسبب التقصير ، وإنما هم الملومون بالإعراض والعناد .

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55)

(142/726)

يعني ليس التولي مطلقاً ، بل تول وأقبل وأعرض وادع ، فلا التولي يضرك إذا كان عنهم ، ولا التذكير ينفع إلا إذا كان مع المؤمنين ، وفيه معنى آخر ألطف منه ، وهو أن الهادي إذا كانت هدايته نافعة يكون ثوابه أكثر ، فلما قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ ﴾ كان يقع لمتوهم أن يقول ، فحينئذ لا يكون للنبي صلى الله عليه وسلم ثواب عظيم ، فقل بلى وذلك لأن في المؤمنين كثرة ، فإذا ذكرتهم زاد هداهم ، وزيادة الهدى من قوله كزيادة القوم ، فإن قوماً كثيراً إذا

صلّى كل واحد ركعة أو ركعتين ، وقوماً قليلاً إذا صلّى كل واحد ألف ركعة تكون العبادة في الكثرة كالعبادة عن زيادة العدد ، فالهادي له على عبادة كل مهتد أجر ، ولا ينقص أجر المهتدي ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ لَأَجْرًا ﴾ [القلم : 3] أي وإن توليت بسبب انتفاع المؤمنين بل وحالة إعراضك عن المعاندين ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ يحتمل وجوهاً : أحدها : أن يراد قوة يقينهم كما قال تعالى : ﴿ لِيَزْدَادُواْ إِيمَانًا ﴾ [الفتح : 4] وقال تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً ﴾ [التوبة : 124] وقال تعالى : ﴿ زَادَهُمْ هُدًى وءاتاهم تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : 17] ثانيها : تنفع المؤمنين الذين بعدك فكأنك إذا أكثرت التذكير بالتكرير نقل عنك ذلك بالتواتر فينتفع به من يجيء بعدك من المؤمنين ثالثها : هو أن الذكرى إن أفاد إيمان كافر فقد نفع مؤمناً لأنه صار مؤمناً ، وإن لم يفد يوجد حسنة ويزاد في حسنة المؤمنين فينتفعوا ، وهذا هو الذي قيل في قوله تعالى : ﴿ وتِلْكَ الجنة التى أُورِثْتُمُوهَا ﴾ [الزخرف : 72] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 193 . 198 ﴾

(143/726)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والسمآء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾

لما بيّن هذه الآيات قال : وفي السماء آيات وعِبر تدل على أن الصانع قادر على الكمال ،

فعطف أمر السماء على قصة قوم نوح لأنهما آيتان .

ومعنى "بِأَيْدٍ" أي بقوة وقدرة .

عن ابن عباس وغيره .

﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ قال ابن عباس : لقادرون .

وقيل : أي وإنا لذو سَعة ، وبخلقها وخلق غيرها لا يضيق علينا شيء نريده .

وقيل : أي وإنا لموسعون الرزق على خلقنا .

عن ابن عباس أيضاً .

الحسن : وإنا لمطيقون .

وعنه أيضاً : وإنا لموسعون الرزق بالمطر .

وقال الضحاك : أغنيناكم ؛ دليله : ﴿ عَلَى الموسع قَدَرُهُ ﴾ [البقرة : 236] .

وقال القُتَبِي : ذو سعة على خلقنا .

والمعنى متقارب .

وقيل : جعلنا بينهما وبين الأرض سعة .

الجوهري : وأوسعَ الرجلُ أي صار ذا سَعة وغِنىً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ والسمآء بَنَيْنَاهَا بِأَيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ أي أغنياء قادرون .

فشمل جميع الأقوال .

﴿ والأرض فَرَشْنَاهَا ﴾ أي بسطناها كالفراش على وجه الماء ومددناها .

﴿ فَنِعْمَ الماهدون ﴾ أي فنعم الماهدون نحن لهم .

والمعنى في الجمع التعظيم ؛ مَهدت الفراشَ مَهْداً بَسَطته ووطَّأته ، وتمهيد الأمور تسويتها وإصلاحها .

قوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ أي صنفين ونوعين مختلفين .

قال ابن زيد : أي ذكراً وأنثى وحلواً وحامضاً ونحو ذلك .

مجاهد : يعني الذكر والأنثى ، والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنور والظلام ، والسهل والجبل ، والجنّ والإنس ، والخير والشر ، والبكرة والعشيّ ، وكالأشياء المختلفة الألوان من الطّعوم والأرابيح والأصوات .

أي جعلنا هذا كهذا دلالة على قدرتنا ، ومن قدر على هذا فليقدر على الإعادة .

وقيل : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ لتعلموا أن خالق الأزواج فرد ، فلا يقدّر في صفته حركة ولا سكون ، ولا ضياء ولا ظلام ، ولا قعود ولا قيام ، ولا ابتداء ولا انتهاء ؛ إذ هو عز وجل وتر ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

لما تقدّم ما جرى من تكذيب أممهم لأنبيائهم وإهلاكهم ؛ لذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل لهم يا محمد ؛ أي قل لقومك : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي فِرّوا من معاصيه إلى طاعته .

وقال ابن عباس : فِروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم .

وعنه فِرّوا منه إليه واعملوا بطاعته .

وقال محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ اخرجوا إلى مكة .

وقال الحسين بن الفضل : احترزوا من كل شيء دون اللَّهِ فمن فرّ إلى غيره لم يمتنع منه .

وقال أبو بكر الورّاق : فِروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن .

وقال الجُنَيد : الشيطان داعٍ إلى الباطل ففروا إلى الله يمنعكم منه .

وقال ذو النون المصري : ففِرّوا من الجهل إلى العلم ، ومن الكفر إلى الشكر .

وقال عمرو بن عثمان : فِرّوا من أنفسكم إلى ربكم .

وقال أيضاً : فِروا إلى ما سبق لكم من الله ولا تعتمدوا على حركاتكم .

وقال سهل ابن عبد الله : فِرّوا مما سوى الله إلى الله .

﴿ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي أنذركم عقابه على الكفر والمعصية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقول هذا للناس وهو النذير .

وقيل : هو خطاب من الله للخلق .

﴿ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ ﴾ أي من محمد وسيوفه ﴿ نَذِيرٌ ﴾ أي أنذركم بأسه وسيفه إن أشركتم بي ؛ قاله ابن عباس .

(145/726)

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ ﴾ هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي كما كذّبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون ، كذّب من قبلهم وقالوا مثل قولهم .

والكاف من "كَذَٰلِكَ" يجوز أن تكون نصباً على تقدير أنذركم إنذاراً كإنذار من تقدّمني من الرسل الذين أنذروا قومهم ، أو رفعاً على تقدير الأمر كذلك أي كالأول .

والأوّل تخويف لمن عصاه من الموحّدين ، والثاني لمن أشرك به من الملحِدين .

والتمام على قوله : "كَذَلِكَ" عن يعقوب وغيره .

قوله تعالى : ﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِ ﴾ أي أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب .

وتواطأوا عليه ؛ والألف للتوبيخ والتعجب .

﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أي لم يوصِ بعضهم بعضاً بل جَمعهم الطغيان ، وهو مجاوزة الحدّ في الكفر .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عنهم واصفح عنهم ﴿ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ عند الله لأنك أديت ما عليك من تبليغ الرسالة ، ثم نسخ هذا بقوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ .

وقيل : نسخ بآية السيف .

والأوّل قول الضحاك ؛ لأنه قد أمر بالإقبال عليهم بالموعظة .

وقال مجاهد : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عنهم ﴿ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ أي ليس يلومك ربك على تقصير كان منك ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ أي بالعِظة فإن العِظة ﴿ تَنفَعُ المؤمنين ﴾ .

قتادة : "وَذَكِّرْ" بالقرآن ﴿ فَإِنَّ الذكرى ﴾ به ﴿ تَنفَعُ المؤمنين ﴾ .

وقيل : ذكرهم بالعقوبة وأيام الله .

وخصّ المؤمنين ؛ لأنهم المنتفعون بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(146/726)

وقال الآلوسى :

﴿ والسماء ﴾

أي وبنينا السماء ﴿ بنيناها ﴾ أي بقوة قاله ابن عباس .

ومجاهد .

وقتادة ، ومثله الآد وليس جمع ﴿ اللهَ يَدُ ﴾ وجوزه الإمام وإن صحت التورية به ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ أي لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة ، فالجملة تذييل إثباتاً لسعة قدرته عز وجل كل شيء فضلاً عن السماء ، وفيه رمز إلى التعريض الذي في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : 38] ، وعن الحسن ﴿ لَمُوسِعُونَ ﴾ الرزق بالمطر وكأنه أخذه من أن المساق مساق الامتنان بذلك على العباد لا إظهار القدرة فكأنه أشير في قوله تعالى : ﴿ والسماء بنيناها بِأَيْدٍ ﴾ [الذاريات : 47] إلى ما تقدم من قوله سبحانه : ﴿ وَفِى السماء رِزْقُكُمْ ﴾ [الذاريات : 22] على بعض الأقوال فناسب أن يتمم بقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : 47] مبالغة في المنّ ولا يحتاج أن يفسر الأيد بالأنعام على هذا القول لأنه يتم المقصود دونه ، واليد بمعنى النعمة لا الإنعام ، وقيل : أي لموسعوها بحيث أن الأرض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة إليها كحلقة في فلاة ، وقيل : أي لجاعلون لمكانية ، بينها وبين الأرض سعة ، والمراد السعة المكانية ، وفيه على القولين تتميم أيضاً .

﴿ والأرض ﴾ أي وفرشنا الأرض ﴿ فرشناها ﴾ أي مهدناها وبسطناها لتستقروا عليها ولا ينافي ذلك شبهها للكرة على ما يزعمه فلاسفة العصر ﴿ فَنِعْمَ الماهدون ﴾ أي نحن ، وقرأ أبو السمال .

ومجاهد .

وابن مقسم برفع السماء ورفع الأرض على أنهما مبتدآن وما بعدهما خبر لهما .

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي من كل جنس من الحيوان ﴿ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ نوعين ذكراً وأنثى قاله ابن زيد .

وغيره وقال مجاهد : هذا إشارة إلى المتضادات والمتقابلات كالليل .

والنهار .

والشقوة .

والسعادة .

والهدى .

والضلال .

والسماء .

والأرض والسواد .

والبياض .

والصحة .

والمرض .

(147/726)

إلى غير ذلك ، ورجحه الطبري بأنه أدل على القدرة ، وقيل : أريد بالجنس المنطقي ، وأقل ما يكون تحته نوعان فخلق سبحانه من الجوهر مثلاً المادي والمجرد ، ومن المادي النامي والجامد ، ومن النامي المدرك والنبات ، ومن الدرك الصامت والناطق وهو كما ترى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي فعلنا ذلك كله كي تتذكروا فتعرفوا أنه عز وجل الرب القادر الذي لا يعجزه شيء فتعملوا بمقتضاه ولا تعبدوا ما سواه ، وقيل : خلقنا ذلك كي تتذكروا فتعلموا أن التعدد من خواص الممكنات وأن الواجب بالذات سبحانه لا يقبل التعدد والانقسام ،

وقيل : المراد التذكر بجميع ما ذكر لأمر الحشر والنشر لأن من قدر على إيجاد ذلك فهو قادر على إعادة الأموات يوم القيامة وله وجه ، وقرأ أبيّ تتذكرون بتاءين وتخفيف الذال .

﴿ فَفِرُّواْ إِلَى الله ﴾ تفريع على قوله سبحانه : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : 49] وهو تمثيل للاعتصام به سبحانه وتعالى وبتوحيده عز وجل ، والمعنى قل يا محمد : ﴿ فَفِرُّواْ إِلَى الله ﴾ لمكان ﴿ إِنّى لَكُمْ مّنْهُ ﴾ أي من عقابه تعالى المعد لمن لم يفر إليه سبحانه ولم يوحده ﴿ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ بين كونه منذراً من الله سبحانه بالمعجزات ، أو ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ما يجب أن يحذر عنه .

﴿ وَلاَ تَجْعَلُواْ مَعَ الله إلها ءاخَرَ ﴾ عطف على الأمر ، وهو نهى عن الإشراك صريحاً على نحو وحدوه ولا تشركوا ، ومن الأذكار المؤثورة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وكرر قوله تعالى :

(148/726)

﴿ إِنّى لَكُمْ مّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ لاتصال الأول بالأمر واتصال هذا بالنهي والغرض من كل ذلك الحث على التوحيد والمبالغة في النصيحة ، وقيل : إن المراد بقوله تعالى : ﴿ فَفِرُّواْ إِلَى الله ﴾ [الذاريات : 05] الأمر بالإيمان وملازمة الطاعة ، وذكر ﴿ وَلاَ تَجْعَلُواْ ﴾

الخ ، إفراداً لأعظم ما يجب أن يفر منه ، و﴿ إِنِّي لَكُمْ ﴾ الخ ، الأول مرتب على ترك الإيمان والطاعة ، والثاني على الإشراك فهما متغايران لتغاير ما ترتب كل منهما عليه ووقع تعليلاً له ولا يخلو عن كدر ، وقال الزمخشري : في الآية : ﴿ فانظر إلى ﴾ طاعته وثوابه من معصيته وعقابه ووحدوا ولا تشركوا به ، وكرر ﴿ إِنِّي لَكُمْ ﴾ الخ عند الأمر بالطاعة والنهي عن الشرك ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان وأنه لا يفوز عند الله تعالى إلا الجامع بينهما انتهى ، وفيه أنه لا دلالة في الآية على ذلك بوجه ثم تفسير الفرار إلى الله بما فسره أيضاً لينطبق على العمل وحده غير مسلم على أنه لو سلم الإنذار بترك العمل فمن أين يلزم عدم النفع ، وأهل السنة لا ينازعون في وقوع الإنذار بارتكاب المعصية ، فالمنساق إلى الذهن على تقدير كون المراد بالفرار إلى الله تعالى العبادة أنه تعالى أمر بها أولاً وتوعد تاركها بالوعيد المعروف له في الشرع وهو العذاب دون خلود ، ونهى جل شأنه ثانياً أن يشرك بعبادته سبحانه غيره وتوعد المشرك بالوعيد المعروف له وهو الخلود ، وعلى هذا يكون الوعيد أن متغايرين وتكون الآية في تقديم الأمر على النهي فيها نظير قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ [الكهف : 110] ، وقوله سبحانه : ﴿ واعبدوا الله وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ [النساء : 36] وأين هذا مما ذكره الزمخشري عامله الله تعالى بعدله .

﴿ كذلك ﴾ أي الأمر مثل ذلك تقرير وتوكيد على ما مر غير مرة ، ومن فصل الخطاب لأنه لما أراد سبحانه أن يستأنف قصة قولهم المختلف في الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن تقدمت عموماً أو خصوصاً في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ [الذاريات : 8] وكان قد توسط ما توسط قال سبحانه : الأمر كذلك أي مثل ما يذكر ويأتيك خبره إشارة إلى الكلام الذي يتلوه أعني قوله عز وجل : ﴿ مَا ءاتَيْتُكَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ إلى آخره فهو تفسير ما أجمل وهو مراد من قال : الإشارة إلى تكذيبهم الرسول عليه الصلاة والسلام وتسميتهم إياه وحاشاه ساحراً ومجنوناً ، ويعلم مما ذكر أن كذلك خبر مبتدأ محذوف ولا يجوز نصبه بأتى على أنه صفة لمصدره ، والإشارة إلى الإتيان أي ﴿ مَا ءاتَيْتُكَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من رسول إتياناً مثل إتيانهم ﴿ إِلاَّ قَالُواْ الأمر وَعَصَيْتُمْ مّن بَعْدِ مَا ﴾ النافية لا يعمل فيما قبلها على المشهور ، ولا يأتي مقدراً على شريطة التفسير لأن ما لا يعمل لا يفسر عاملاً في مثل ذلك كما صرح به النحاة ، وجعله معمولاً لقالوا ، والإشارة للقول أي إلا قالوا ساحر أو مجنون قولاً مثل ذلك القول لا يجوز أيضاً على تعسفه لمكان ﴿ مَا ﴾ وضمير قبلهم لقريش أي ما أتي الذين من قبل قريش ﴿ مِن رَّسُولٍ ﴾ أي رسول من رسل الله تعالى ﴿ إِلاَّ قَالُواْ ﴾ في حقه ﴿ ساحر أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو ساحر ، وأو قيل : من الحكاية أي ﴿ إِلاَّ قَالُواْ ساحر ﴾ ، أو ﴿ قَالُواْ مَّجْنُونٍ ﴾

وهي لمنع الخلو وليست من المحكي ليكون مقول كل مجموع ﴿ ساحر أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ وفي البحر هي للتفصيل أي قال بعض : ساحر ؛ وقال بعض : مجنون ، وقال بعض : ساحر ومجنون فجمع القائلون في الضمير ودلت أو على التفصيل انتهى فلا تغفل .

(150/726)

واستشكلت الآية بأنها تدل على أنه ما من رسول إلا كذب مع أن الرسل المقررين شريعة من قبلهم كيوشع عليه السلام لم يكذبوا وكذا آدم عليه السلام أرسل ولم يكذب .

وأجاب الإمام بقوله : لا تسلم أن المقرر رسول بل هو نبي على دين رسول ومن كذب رسوله فهو يكذبه أيضاً وتعقب بأن الأخبار وكذا الآيات دالة على أن المقررين رسل ، وأيضاً يبقى الاستشكال بآدم عليه السلام وقد اعترف هو بأنه أرسل ولم يكذب وأجاب بعض عن الاستشكال بالمقررين بأن الآية إنما تدل على أن الرسل الذين أتوا من قبلهم كلهم قد قيل في حقهم ما قيل ، ولا يدخل في عموم ذلك المقررون لأن المتبادر من إتيان الرسول قوما مجيئه إياهم مع عدم تبليغ غيره إياهم ما أتي به من قبله وذلك لم يحصل للمقرر شرع من قبله كما لا يخفى ، وعن الاستشكال بآدم عليه السلام بأن المراد ما أتي الذين من قبلهم من الأمم الذين كانوا موجودين على نحو وجود هؤلاء رسول إلا قالوا الخ ، وآدم عليه السلام لم يأت أمة

كذلك إذ لم يكن حين أرسل إلا زوجته حواء ، ولعله أولى مما قيل : إن المراد من رسول من بني آدم فلا يدخل هو عليه السلام في ذلك ، واستشكل أيضاً بأن ﴿ إِلاَّ قَالُواْ ﴾ يدل على أنهم كلهم كذبوا مع أنه ما من رسول إلا آمن به قوم ، وأجاب الإمام بأن إسناد القول إلى ضمير الجمع على إرادة الكثير بل الأكثر ، وذكر المكذب فقط لأنه الأوفق بغرض التسلية ، وأخذ منه بعضهم الجواب عن الاستشكال السابق فقال : الحكم باعتبار الغالب لا أن كل أمة من الأمم أتاها رسول فكذبته ليرد آدم والمقررون حيث لم يكذبوا وفيه ما فيه وحمل بعضهم الذين من قبلهم على الكفار ودفع به الاستشكالين وفيه ما لا يخفى فتأمل جميع ذلك ولا تظن انحصار الجواب فيما سمعت فأمعت النظر والله تعالى الهادي لأحسن المسالك .

﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾

(151/726)

تعجيب من إجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة أي كأن الأولين والآخرين منهم أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول حتى قالوه جميعاً ، وقيل : إنكار للتواصي أي ما تواصوا به .

﴿ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغون ﴾ إضراب عن أن التواصي جامعهم إلى أن الجامع لهم على ذلك القول مشاركتهم في الطغيان الحامل عليه .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عن جدالهم فقد كررت عليهم الدعوة ولم تأل جهداً في البيان فأبوا إلا إباءاً وعناداً ﴿ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ على التوالي بعد ما بذلت المجهود وجاوزت في الأبلوغ كل حد معهود .

وذكر آدم على فعل التذكير والموعظة ولا تدع ذلك فالأمر بالتذكير للدوام عليه والفعل منزل منزلة اللازم وجوز أن يكون المفعول محذوفا أي فذكرهم وحذف لظهور الأمر

﴿ فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾

- أي الذين قدر الله تعالى إيمانهم أو المؤمنين بالفعل فإنها تزيدهم بصيرة وقوة في اليقين وفي البحر يدل ظاهر الآية على الموادعة وهي منسوخة بآية السيف وأخرج أبو داود في ناسخة وابن المنذر عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ فتول عنهم ﴾ الخ قال : أمره الله تعالى أن يتولى عنهم ليعذبهم وعذر محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ - قال سبحانه : ﴿ وذكر ﴾ الخ فنسختها

وأخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم .

والبيهقي في الشعب .

والضياء في المختارة .

وجماعة من طريق مجاهد عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : لما نزلت ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا

أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ [الذاريات : 54] لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة إذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتولى عنا فنزلت ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ فطابت أنفسنا ، وعن قتادة أنهم ظنوا أن الوحي قد انقطع وأن العذاب قد حضر فأنزل الله تعالى ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ الخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(152/726)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المكرمين إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَماً ﴾ إلى آخر القصة . قد قدمنا إيضاحه في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المكرمين ﴾ [الحجر : 51] الآيات . وفي سورة هود في القصة المذكورة ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (37)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر : 76] ، وفي غير ذلك من المواضع .

وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41)

قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ [فصلت : 16] الآية .

فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44)

قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ العذاب الهون ﴾ [فصلت : 17] الآية .

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة ق في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ ينظروا إِلَى السمآء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ [ق : 6] الآية .

تنبيه

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ ، ليس من آيات الصفات المعروفة بهذا الاسم ، لأن قوله ﴿ بِأَيْدٍ ﴾ ليس جمع يد : وإنما الأيد القوة ، فوزن قوله هنا بأيد فعل ،

ووزن الأيدي أفعل ، فالهمزة في قوله ﴿ بِأَيْدٍ ﴾ في مكان الفاء والياء في مكان العين ، والدال في مكان اللام . ولو كان قوله تعالى : ﴿ بِأَيْدٍ ﴾ جمع يد لكان وزنه أفعلاً ، فتكون الهمزة زائدة والياء في مكان الفاء ، والدال في مكان العين والياء المحذوفة لكونه منقوصاً هي اللام .

والأيد ، والآد في لغة العرب بمعنى القوة ، ورجل أيد قوي ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بروحالقدس ﴾ [البقرة : 87 و 253] أي قويناه به ، فمن ظن أنها جمع يد في هذه الآية فقد غلط غلطاً فاشحاً ، والمعنى : وألسماء بنيانها بقوة .

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه ما أتى نبي قوماً إلا قالوا ساحر أو مجنون ، ثم قال : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ ، ثم أضرب عن تواصيهم بذلك إضراب إبطال ، لأنهم لم يجمعوا في زمن حتى يتواصوا فقال : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أي الموجب الذي جمع على اتفاهم جميعاً على تكذيب الرسل ونسبتهم للسحر والجنون ، واتحاد في الطغيان الذي هو مجاوزة الحد في الكفر .

وهذا يدل على أنهم إنما اتفقوا لأن قلوب بعضهم تشبه قلوبهم بعض في الكفر والطغيان ، فتشابهت مقالاتهم للرسل لأجل تشابه قلوبهم .

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في سورة البقرة : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ

تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة : 118] .

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (54)

نفيه جل وعلا في هذه الآية الكريمة اللوم عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، يدل على أنه أدى الأمانة ونصح الامة .

(154/726)

وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الأسلام دِيناً ﴾ [المائدة : 3] . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب ﴾ [الرعد : 40] ، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة معلومة .

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55)

قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك ، أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يجعل الله شيئاً لحكم متعددة ، فيذكر بعض حكمه في بعض المواضع ، فإنا نذكر بقية حكمه ، والآيات الدالة عليها ، وقد قدمنا أملة ذلك .

ومن ذلك القبيل هذه الآية الريمةن فإنها تضمنت واحدة من حكم التذكير وهي رجاء

انتفاع المذكر به ، لأن تعالى قال هنا : ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ ، ورتب عليه قوله ﴿ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ .

ومن حكم ذلك أيضاً خروج المذكر من عهدة التكليف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد جمع الله هاتين الحكمتين في قوله : ﴿ قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : 164] .

ومن حكم ذلك أيضاً النيابة عن الرسل في إقامة حجة الله على خلقه في أرضه لأن الله تعالى يقول ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء : 165] .

وقد بين هذه الحجة في آخر طه في قوله ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾ ﴿ طه : 134] الآية .

وأشار لها في القصص في قوله ﴿ ولولا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ [القصص : 47] .

(155/726)

وقد قدمنا هذه الحكم في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم ﴾ [المائدة: 105]. انتهى انتهى. اهـ ﴿أضواء البيان حـ7 صـ﴾

(156/726)

وقال ابن عاشور:

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) ﴾

لما كانت شبهة نفاة البعث قائمة على توهم استحالة إعادة الأجسام بعد فنائها أعقب تهديدهم بما يقوض توهمهم فوُجه إليه الخطاب يُذكرهم بأن الله خلق أعظم المخلوقات ولم تكن شيئاً فلا تعدّ إعادة الأشياء الفانية بالنسبة إليها إلاّ شيئاً يسيراً كما قال تعالى: ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [غافر: 57].

وهذه الجملة والجمل المعطوفة عليها إلى قوله: ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾ [الذاريات: 51] معترضة بين جملة ﴿ وقوم نوح من قبل ﴾ [الذاريات: 46] الخ وجملة ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول ﴾ [الذاريات: 52] الآية.

وابتدىء بخلق السماء لأن السماء أعظم مخلوق يشاهده الناس ، وعطف عليه خلق الأرض عطفَ الشيء على مخالفه لاقتران المتخالفين في الجامع الخيالي .

وعطف عليها خلق أجناس الحيوان لأنها قريبة للأنظار لا يكلف النظرُ فيها والتدبر في أحوالها ما يرهق الأذهان .

واستعير لخلق السماء فعل البناء لأنه منظر السماء فيما يبدو للأنظار شبيه بالقبة ونصب القبة يُدعى بناءً .

وهذا استدلال بأثر الخلق الذي عاينوا أثره ولم يشهدوا كيفيته ، لأن أثره ينبىء عن عظيم كيفيته ، وأنها أعظم مما يتصور في كيفية إعادة الأجسام البالية .

والأَيد : القوة .

وأصله جَمع يد ، ثم كثر إطلاقه حتى صار اسماً للقوة ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد ﴾ في سورة ص (17) .

والمعنى : بنيناها بقدرة لا يقدر أحد مثلها .

وتقديم ﴿ السماء ﴾ على عامله للاهتمام به ، ثم بسلوك طريقة الاشتغال زاده تقوية ليتعلق المفعول بفعله مرتين : مرة بنفسه ، ومرة بضميره ، فإن الاشتغال في قوة تكرر الجملة .

وزيد تأكيده بالتذييل بقوله : ﴿ وإنا لموسعون ﴾ .

والواو اعتراضية .

والمُوسِع : اسم فاعل من أوسع ، إذا كان ذا وُسع ، أي قدرة .

(157/726)

وتصاريفه جائية من السَّعة ، وهي امتداد مساحة المكان ضد الضيق ، واستعير معناها للوفرة في أشياء مثل الأفراد مثل عمومها في ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ [الأعراف : 156] ، ووفرة المال مثل ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ﴾ [الطلاق : 7] ، وقوله : ﴿ على الموسع قدره ﴾ [البقرة : 236] ، وجاء في أسمائه تعالى الواسع ﴿ إن اللَّه واسع عليم ﴾ .

وهو عند إجرائه على الذات يفيد كمال صفاته الذاتية : الوجودِ ، والحياة ، والعلم ، والقدرة ، والحكمة ، قال تعالى : ﴿ إن اللَّه واسع عليم ﴾ [البقرة : 115] ومنه قوله هنا : ﴿ وإنا لموسعون ﴾ .

وأكد الخبر بحرف (إنّ) لتنزيل المخاطبين منزلة من ينكر سعة قدرة الله تعالى ، إذ أحالوا إعادة المخلوقات بعد بلاها .

وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (48)

القول في تقديم ﴿ الأرض ﴾ على عامله ، وفي مجيء طريقة الاشتغال كالقول في ﴿ والسماء بنيناها ﴾ [الذاريات : 47] .

وكذلك القول في الاستدلال بذلك على إمكان البعث .

من دقائق فخر الدين : أن ذكر الأمم الأربع للإِشارة إلى أن الله عذّبهم بما هو من أسباب وجودهم ، وهو التراب والماء والهواء والنار ، وهي عناصر الوجود ، فأهلك قوم لوط بالحجارة وهي من طين ، وأهلك قوم فرعون بالماء ، وأهلك عاداً بالريح وهو هواء ، وأهلك ثموداً بالنار .

واستغنى هنا عن إعادة ﴿ بأيد ﴾ [الذاريات : 47] لدلالة ما قبله عليه .

والفرش : بسط الثوب ونحوه للجلوس والاضطجاع ، وفي ﴿ فرشناها ﴾ استعارة تبعية ، شبه تكوين الله الأرضَ على حالة البسط بفرش البساط ونحوه .

وفي هذا الفرش دلالة على قدرة الله وحكمته إذ جعل الأرض مبسوطة لمَّا أراد أن يجعل على سطحها أنواع الحيوان يمشي عليها ويتوسدُها ويضطجع عليها ولو لم تكن كذلك لكانت مُحدودبة تؤلم الماشي بَلْهَ المتوسد والمضطجع .

(158/726)

ولما كان في فرشها إرادة جعلها مَهداً لمن عليها من الإِنسان أتبع ﴿ فرشناها ﴾ بتفريع ثناء الله على نفسه على إجادة تمهيدها تذكيراً بعظمته ونعمته ، أي فنعم الماهدون نحن .

وصيغة الجمع في قوله : ﴿ الماهدون ﴾ للتعظيم مثل ضمير الجمع في (. . .

) ، وروعي في وصف خلق الأرض ما يبدو للناس من سطحها لأنه الذي يهم الناس في الاستدلال على قدرة الله وفي الامتنان عليهم بما فيه لطفهم والرفق بهم ، دون تعرض إلى تكويرها إذ لا يبلغون إلى إدراكه ، كما روعي في ذكر السماء ما يبدو من قبة أجوائها دون بحث عن ترامي أطرافها وتعدد عوالمها لمثل ذلك .

ولذلك أتبع الاعتراض بالتذييل بقوله : ﴿ فنعم الماهدون ﴾ المراد منه تلقين الناس الثناء على الله فيما صنع لهم فيها من مِنَّةٍ ليشكروه بذلك الثناء كما في قوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] .

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49)

لما أشعر قوله : ﴿ فرشناها فنعم الماهدون ﴾ [الذاريات : 48] بأن في ذلك نعمة على الموجودات التي على الأرض ، أُتبع ذلك بصفة خلق تلك الموجودات لما فيه من دلالة على تفرد الله تعالى بالخلق المستلزم لتفرده بالإِلهية فقال : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾

والزوج : الذكر والأنثى .

والمراد بالشيء : النوع من جنس الحيوان .

وتثنية زوج هنا لأنه أريد به ما يُزوج من ذكر وأنثى .

وهذا الاستدلال عليهم بخلق يشاهدون كيفياته وأطواره كلما لفتوا أبصارهم ، وقَدحوا أفكارهم ، وهو خلق الذكر والأنثى ليكون منهما إنشاء خلق جديد يخلف ما سلفه وذلك أقرب تمثيل لإِنشاء الخلق بعد الفناء .

وهو البعث الذي أنكروه لأن الأشياء تقرّب بما هو واضح من أحوال أمثالها .

ولذلك أتبعه بقوله : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ ، أي تتفكرون في الفروق بين الممكنات والمستحيلات ، وتتفكرون في مراتب الإِمكان فلا يختلط عليكم الاستبعاد وقلة الاعتياد بالاستحالة فتتوهموا الغريب محالاً .

(159/726)

فالتذكر مستعمل في إعادة التفكر في الأشياء ومراجعة أنفسهم فيما أحالوه ليعلموا بعد إعادة النظر أن ما أحالوه ممكن ولكنهم لم يألفوه فاشتبه عليهم الغريب بالمحال فأحالوه فلما كان تجديد التفكر المغفول عنه شبيهاً بتذكر الشيء المنسي أطلق عليه ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ .

وهذا في معنى قوله تعالى : ﴿ وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا

تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ [الواقعة : 60 62] فقد ذُيل هنالك بالحث على التذكر ، كما ذيل هنا برجاء التذكر ، فأفاد أن خلق الذكر والأنثى من نطفة هو النشأة الأولى وأنها الدالة على النشأة الآخرة .

وجملة ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ تعليل لجملة ﴿ خلقنا زوجين ﴾ أي رجاء أن يكون في الزوجين تذكر لكم ، أي دلالة مغفول عنها .

والقول في صدور الرجاء من الله مبين عنه قوله تعالى : ﴿ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ﴾ في سورة البقرة (52) .

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50)

بعد أن بين ضلال هؤلاء في تكذيبهم بالبعث بياناً بالبرهان الساطع ، ومثَّل حالهم بحال الأمم الذين سلفوهم في التكذيب بالرسل وما جاءوا به جمعاً بين الموعظة للضالين وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وكانت فيما مضى من الاستدلال دلالة على أن الله متفرد بخلق العالم وفي ذلك إبطال إشراكهم مع الله آلهة أخرى أقبل على تلقين الرسول صلى الله عليه وسلم ما يستخلصه لهم عقب ذلك بأن يدعوهم إلى الرجوع إلى الحق بقوله : ﴿ ففروا إلى الله ﴾ فالجملة المفرعة بالفاء مقول قول محذوف والتقدير : فقل فرّوا ، دل عليه قوله : ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾ فإنه كلام لا يصدر إلا من قائل ولا يستقيم أن يكون كلام مبلغ .

وحذف القول كثير الورود في القرآن وهو من ضُروب إيجازه ، فالفاء من الكلام الذي يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم ومفادها التفريع على ما تقرر مما تقدم .

(160/726)

وليست مُفرِّعة فعل الأمر المحذوف لأن المفرع بالفاء هو ما يذكر بعدها .

وقد غُير أسلوب الموعظة إلى توجيه الخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم هذه الموعظة لأن لتعدد الواعظين تأثيراً على نفوس المخاطبين بالموعظة .

والأنسب بالسياق أن الفرار إلى الله مستعار للإِقلاع عن ما هم فيه من الإِشْراك وجحود البعث استعارة تمثيلية بتشبيه حال تورطهم في الضلالة بحال من هو في مكان مخوف يدعو حاله أن يفرّ منه إلى من يجيره ، وتشبيه حال الرسول صلى الله عليه وسلم بحال نذير قوم بأن ديارهم عرضة لغزو العدوّ فاستعمل المركَّب وهو ﴿ فروا إلى الله ﴾ في هذا التمثيل .

فالمواجه بـ ﴿ فرّوا إلى الله ﴾ المشركون لأن المؤمنين قد فرّوا إلى الله من الشرك .

والفرار : الهروب ، أي سرعة مفارقة المكان تجنباً لأذىً يلحقه فيه فيعدي بـ (من) الابتدائية للمكان الذي به الأذى يقال : فرَّ من بلد الوباء ومن الموت ، والشيء الذي يؤذي ، يقال : فر من الأسد وفر من العدوّ .

وجملة ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾ تعليل للأمر بـ ﴿ فروا إلى الله ﴾ باعتبار أن الغاية من الإِنذار قصد السلامة من العقاب فصار الإِنذار بهذا الاعتبار تعليلاً للأمر بالفرار إلى الله ، أي التوجه إليه وحده .

وقوله : ﴿ منه ﴾ صفة ل ﴿ نذير ﴾ قدمت على الموصوف فصارت حالاً .

وحرف (مِن) للابتداء المجازي ، أي مأمور له بأن أبلغكم .

وعطف ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ﴾ على ﴿ ففروا إلى الله ﴾ نهي عن نسبة الإِلهية إلى أحد غير الله .

فجمع بين الأمر والنهي مبالغة في التأكيد بنفي الضد لإِثبات ضده كقوله : ﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ [طه : 79] .

ومن لطائف فخر الدين أن قوله تعالى : ﴿ إني لكم منه نذير ﴾ جَمع الرسولَ والمرسلَ إليهم والمرسِل .

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52)

(161/726)

كلمة ﴿ كذلك ﴾ فصل خطاب تدل على انتهاء حديث والشروع في غيره ، أو الرجوع إلى حديث قبله أتى عليه الحديث الأخير .

والتقدير : الأمر كذلك .

والإِشارة إلى ما مضى من الحديث ، ثم يورد بعده حديث آخر والسامع يردّ كُلاًّ إلى ما يناسبه ، فيكون ما بعد اسم الإِشارة متصلاً بأخبار الأمم التي تقدم ذكرها من قوم لوط ومن عطف عليهم .

أُعقب تهديد المشركين بأن يحل بهم ما حلّ بالأمم المكذبين لرسل الله من قبلهم بتنظيرهم بهم في مقالهم ، وقد تقدم ورود ﴿ كذلك ﴾ فصلاً للخطاب عند قوله تعالى : ﴿ كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً ﴾ في سورة الكهف (91) ، فقوله : ﴿ كذلك ﴾ فصل وجملة ﴿ ما أتى الذين من قبلهم من رسول ﴾ الآية مستأنفة استئنافاً ابتدائياً .

ولك أن تجعل قوله : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم ﴾ إلخ مبدأ استئناف عوداً إلى الإِنحاء على المشركين في قولهم المختلف بأنواع التكذيب في التوحيد والبعث وما يتفرع على ذلك .

واسم الإِشارة راجع إلى قوله : ﴿ إنكم لفي قول مختلف ﴾ [الذاريات : 8] الآية كما علمت هنالك ، أي مثل قولهم المختلف قال الذين من قبلهم لما جاءتهم الرسل ، فيكون قوله ﴿ كذلك ﴾ في محل حال وصاحب الحال ﴿ الذين من قبلهم ﴾ .

وعلى كلا الوجهين فالمعنى : إن حال هؤلاء كحال الذين سبقوهم ممن كانوا مشركين أن يصفوا الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر ، أو مجنون فكذلك سيجيب هؤلاء عن قولك : "فروا إلى الله ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر" بمثل جواب من قبلهم فلا مطمع في ارعوائهم عن عنادهم .

والمراد بـ ﴿ الذين من قبلهم ﴾ الأمم المذكورة في الآيات السابقة وغيرهم ، وضمير ﴿ قبلهم ﴾ عائد إلى مشركي العرب الحاضرين .

(162/726)

وزيادة ﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ من رسول ﴾ للتنصيص على إرادة العموم ، أي أن كل رسول قال فيه فريق من قومه : هو ساحر ، أو مجنون ، أي قال بعضهم : ساحر ، وقال بعضهم : مجنون ، مثل قوم نوح دون السحر إذ لم يكن السحر معروفاً في زمانهم قالوا : ﴿ إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ﴾ [المؤمنون : 25] .

وقد يجمعون القولين مثل قول فرعون في موسى .

وهذا العموم يفيد أنه لم يخْل قوم من الأقوام المذكورين إلا قالوا لرسولهم أَحَدَ القولين ، وما حكي ذلك عن بعضهم في آيات أخرى بلفظه أو بمرادفه كقول قوم هود ﴿ إن نقول إلا

اعْتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ [هود : 54] .

وأول الرسل هو نوح كما هو صريح الحديث الصحيح في الشفاعة .

فلا يرد أن آدم لم يكذبه أهله ، وأن أنبياء بني إسرائيل مثل يوشع وأشعيا ، لم يكذبهم قومهم ، لأن الله قال : ﴿ من رسول ﴾ ، والرسول أخص من النبي .

والاستثناء في ﴿ إلا قالوا ساحر ﴾ استثناء من أحوال محذوفة .

والمعنى : ما أتى الذين من قبلهم من رسول في حال من أحوال أقوالهم إلا في حال قولهم : ساحر أو مجنون .

والقصر المستفاد من الاستثناء قصر ادعائي لأن للأمم أقوالاً غير ذلك وأحوالاً أخرى ، وإنما قُصروا على هذا اهتماماً بذكر هذه الحالة العجيبة من البهتان ، إذ يرمون أعقل الناس بالجنون وأقومهم بالسحر .

وإسناد القول إلى ضمير الذين من قبل مشركي العرب الحَاضرين إسناد باعتبار أنه قول أكثرهم فإن الأمور التي تنسب إلى الأقوام والقبائل تجري على اعتبار الغالب .

أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (53)

الاستفهام مستعمل في التعجيب من تواطئهم على هذا القول على طريقة التشبيه البليغ ، أي كأنهم أوصى بعضهم بعضاً بأن يقولوه .

فالاستفهام هنا كناية عن لازَمه وهو التعجيب لأن شأن الأمر العجيب أن يسأل عنه .

والجملة استئناف بياني لأن تماثل هؤلاء الأمم في مقالة التكذيب يثير سؤال سائل عن مَنْشَإِ هذا التشابه .

(163/726)

وضمير ﴿ تواصوا ﴾ عائد إلى ما سبق من الموصول ومن الضمير الذي أضيف إليه قبلهم ، أي أوصى بعضهم بعضاً حتى بلغت الوصية إلى القوم الحاضرين .

"

وضمير ﴿ به ﴾ عائد على المصدر المأخوذ من فعل ﴿ إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ [الذاريات : 52] ، أي أتواصوا بهذا القول .

وفعل الوصية يتعدى إلى الموصَى عليه بالباء كقوله تعالى : ﴿ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ [العصر : 3] .

و ﴿ بل ﴾ إضراب عن مُفاد الاستفهام من التشبيه أو عن التواصي به ، ببيان سبب التواطُؤ على هذا القول فإنه إذا ظهر السبب بطل العجب .

أي ما هو بتواصصٍ ولكنه تماثل في منشإ ذلك القول ، أي سبب تماثل المقالة تماثل التفكير والدواعي للمقالة ، إذ جميعُهم قوم طاغون ، وأن طغيانهم وكبرياءهم يصدهم عن اتباع

رسول يحسبون أنفسهم أعظم منه ، وإذ لا يجدون وصمة يصمونه بها اختلقوا لتنقيصه عِلَلاً لا تدخل تحت الضبط وهي ادعاء أنه مجنون أو أنه ساحر ، فاستووا في ذلك بعلة استوائهم في أسبابه ومعاذيره .

فضمير ﴿ هم قوم طاعون ﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ أتواصوا ﴾ .

وفي إقحام كلمة ﴿ قوم ﴾ إيذان بأن الطغيان راسخ في نفوسهم بحيث يكون من مقومات قوميتهم كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة البقرة (164) .

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (54)

(164/726)

تفريع على قوله : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلى قوله : بل هم قوم طاغون ﴾ [الذاريات : 52 ، 53] لمشعر بأنهم بُعَدَاء عن أن تقنعهم الآياتُ والنذر فتَوَلَّ عنهم ، أي أعرض عن الإلحاح في جدالهم ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على إيمانهم ويغتمّ من أجل عنادهم في كفرهم فكان الله يعاود تسليته الفَيْنة بعد الفَيْنَة كما قال : ﴿ لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين ﴾ [الشعراء : 3] ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ [الكهف : 6] ﴿ ولا تحزن عليهم

ولا تك في ضيق مما يمكرون ﴾ [النحل : 127] ، فالتولي مراد به هذا المعنى ، وإلا فإن القرآن جاء بعد أمثال هذه الآية بدعوتهم وجِدالهم غير مرة قال تعالى : ﴿ فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون ﴾ في سورة الصافات (174 175) .

وفرع على أمره بالتولي عنهم إخباره بأنه لا لوم عليه في إعراضهم عنه وصيغ الكلام في صيغة الجملة الاسمية دون : لا نلومك ، للدلالة على ثبات مضمون الجملة في النفي .

وجيء بضمير المخاطب مسنداً إليه فقال : فما أنت بملوم ﴾ دون أن يقول : فلا ملام عليك ، أو نحوه للاهتمام بالتنويه بشأن المخاطب وتعظيمه .

وزيدت الباء في الخبر المنفي لتوكيد نفي أن يكون ملوماً .

وعطف ﴿ وذكر ﴾ على ﴿ فتول عنهم ﴾ احتراس كي لا يتوهم أحد أن الإِعراض إبطال للتذكير بل التذكير باق فإن النبي صلى الله عليه وسلم ذكَّر الناس بعد أمثال هذه الآيات فآمن بعض من لم يكن آمن من قبل ، وليكون الاستمرار على التذكير زيادة في إقامة الحجة على المعرضين ، ولئلا يزدادوا طغياناً فيقولوا : ها نحن أولاء قد أفحمناه فكُفّ عما يقوله .

والأمر في ﴿ وذكر ﴾ مراد به الدوام على التذكير وتجديدُه .

واقتصر في تعليل الأمر بالتذكير على علة واحدة وهي انتفاع المؤمنين بالتذكير لأن فائدة ذلك محققة ، ولإِظهار العناية بالمؤمنين في المقام الذي أُظهرت فيه قلة الاكتراث بالكافرين قال تعالى : ﴿ فذكر إن نفعت الذكرى سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى ﴾ [الأعلى : 119] .

ولذلك فوصف المؤمنين يراد به المتصفون بالإِيمان في الحال كما هو شأن اسم الفاعل ، وأما من سيُؤمِنْ فِعلته مطوية كما علمت آنفاً .

والنفع الحاصل من الذكرى هو رسوخ العلم بإعادة التذكير لما سمعوه واستفادة علم جديد فيما لم يسمعوه أو غفلوا عنه ، ولظهور حجة المؤمنين على الكافرين يوماً فيوماً ويتكرر عجز المشركين عن المعارضة ووفرة الكلام المعجز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(166/726)

فصل فى منزلة الفرار

قال ابن القيم :

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ "منزلة الفرار" .

قال الله تعالى: 51 :50 ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّه ﴾ وحقيقة الفرار: الهرب من شيء إلى شيء

وهو نوعان: فرار السعداء وفرار الأشقياء .

ففرار السعداء: الفرار إلى الله عز وجل وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه .

وأما الفرار منه إليه: ففرار أوليائه قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ فروا منه إليه واعملوا بطاعته وقال سهل بن عبد الله: "فروا مما سوى الله إلى الله" وقال آخرون: "اهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة" .

وقال صاحب المنازل:

"هو الهرب مما لم يكن إلى من لم يزل وهو على ثلاث درجات: فرار العامة من الجهل إلى العلم عقدا وسعيا ومن الكسل إلى التشمير جدا وعزما ومن الضيق إلى السعة ثقة ورجاء" .

يريد بما لم يكن (الخلق) وبما لم يزل (الحق) .

وقوله: "فرار العامة: من الجهل إلى العلم عقدا وسعيا" .

(الجهل) نوعان: عدم العلم بالحق النافع وعدم العمل بموجبه ومقتضاه فكلاهما جهل لغة وعرفا وشرعا وحقيقة قال موسى: 2 :67 ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ لما قال له قومه: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ﴾ أي من المستهزئين وقال يوسف الصديق: 12 :33 ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي من مرتكبي ما حرمت

عليهم وقال تعالى: 4 :17 ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ

عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ قال قتادة: "أجمع أصحاب رسول الله صلى الله

عليه وسلم أن كل ما عصى الله به فهو جهالة" وقال غيره: "أجمع الصحابة رضي الله عنه

أن كل من عصى الله فهو جاهل" وقال الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا . . . فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وسمى عدم مراعاة العلم جهلا إما لأنه لم ينتفع به فنزل منزلة الجاهل وإما لجهله بسوء ما تجني

عواقب فعله .

(167/726)

فالفرار المذكور: هو الفرار من الجهلين: من الجهل بالعلم إلى تحصيله اعتقادا ومعرفة وبصيرة

ومن جهل العمل إلى السعي النافع والعمل الصالح قصدا وسعيا .

قوله: "ومن الكسل إلى التشمير جدا وعزما" ز

أي: يفر من إجابة داعي الكسل إلى داعي العمل والتشمير بالجد والاجتهاد .

و(الجد) ههنا هو صدق العمل وإخلاصه من شوائب الفتور ووعود التسويف والتهاون

وهو تحت السين وسوف وعسى ولعل فهي أضر شيء على العبد وهي شجرة ثمرها

الخسران والندامات .

والفرق بين الجد والعزم: أن (العزم) صدق الإرادة واستجماعها و (الجد) صدق العمل وبذل الجهد فيه وقد أمر الله سبحانه وتعالى بتلقى أوامره بالعزم والجد فقال: 2 :63 ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ وقال: 7 :145 ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ وقال: 19 :12 ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ أي بجد واجتهاد وعزم لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وفتور .

وقوله: "ومن الضيق إلى السعة ثقة ورجاء" .

يريد هروب العبد من ضيق صدره بالهموم والغموم والأحزان والمخاوف التي تعتريه في هذه الدار من جهة نفسه وما هو خارج عن نفسه مما يتعلق بأسباب مصالحه ومصالح من يتعلق به وما يتعلق بماله وبدنه وأهله وعدوه يهرب من

(168/726)

ضيق صدره بذلك كله إلى سعة فضاء الثقة بالله تبارك وتعالى وصدق التوكل عليه وحسن الرجاء لجميل صنعه به وتوقع المرجو من لطفه وبره ومن أحسن كلام العامة قولهم: لا هم مع الله قال الله تعالى: 65 :2 ، 3 ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ

حَيْثُ لا يَحْتَسِب ﴾ قال الربيع بن خثيم: "يجعل له مخرجا من كل ما ضاق على الناس" وقال أبو العالية: "مخرجا من كل شدة وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة ومضايق الدنيا والآخرة فإن الله يجعل للمتقي من كل ما ضاق على الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجا" وقال الحسن: "مخرجا مما نهاه عنه" 65 :3 ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي كافي من يثق به في نوائبه ومهماته يكفيه كل ما أهمه و(الحسب) الكافي 9 :59 ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ كافينا الله.

وكلما كان العبد حسن الظن بالله حسن الرجاء له صادق التوكل عليه: فإن الله لا يخيب أمله فيه ألبتة فإنه سبحانه لا يخيب أمل آمل ولا يضيع عمل عامل وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة فإنه لا أشرح للصدر ولا أوسع له بعد الإيمان من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به.

فصل

قال: "وفرار الخاصة من الخبر: إلى الشهود ومن الرسوم: إلى الأصول ومن الحظوظ: إلى التجريد".

(169/726)

يعني أنهم لا يرضون أن يكون إيمانهم عن مجرد خبر حتى يترقوا منه إلى مشاهدة المخبر عنه فيطلبون الترقي من علم اليقين بالخبر إلى عين اليقين بالشهود كما طلب إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ذلك من ربه إذ قال: 2 :260 ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ فطلب إبراهيم أن يكون اليقين عيانا والمعلوم مشاهدا وهذا هو المعنى الذي عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بالشك في قوله "نحن أحق بالشك من إبراهيم" حيث قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ وهو صلى الله عليه وسلم لم يشك

ولا إبراهيم حاشاهما من ذلك وإنما عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة .

هذا أحد الأقوال في الحديث .

وفيه قول ثان: أنه على وجه النفي أي لم يشك إبراهيم حيث قال ما قال ولم نشك نحن وهذا القول صحيح أيضا أي لو كان ما طلبه للشك لكنا نحن أحق به منه لكن لم يطلب ما طلب شكا وإنما طلب ما طلبه طمأنينة .

فالمراتب ثلاث علم يقين يحصل عن الخبر ثم تتجلى حقيقة المخبر عنه للقلب أو البصر حتى يصير العلم به عين يقين ثم يباشره ويلابسه فيصير حق يقين فعلمنا بالجنة والنار الآن علم يقين فإذا أزلفت الجنة للمتقين في الموقف وبرزت الجحيم للغاوين وشاهدوهما عيانا كان ذلك عين يقين كما قال تعالى: 102 :6 ، 7 ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ فإذا

دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فذلك حق اليقين وسنزيد ذلك إيضاحا إن شاء الله تعالى إذا انتهينا إليه .

وأما قوله: "ومن الرسوم إلى الأصول" .

(170/726)

فإنه يريد بالرسوم: ظواهر العلم والعمل وبالأصول: حقائق الإيمان ومعاملات القلوب وأذواق الإيمان وارداته فيفر من إحكام العلم والعمل إلى خشوع السر للعرفان فإن أرباب العزائم في السير لا يقنعون برسوم الأعمال وظواهرها ولا يعتدون إلا بأرواحها وحقائقها وما يثبته لهم التعرف الإلهي وهو نصيبهم من الأمر .

والتعرف الإلهي لا يقتضي مفارقة الأمر كما يظن قطاع الطريق وزنادقة الصوفية بل يستخرج منهم حقائق الأمر وأسرار العبودية وروح المعاملة فحظهم من الأمر: حظ العالم بمراد المتكلم من كلامه تصريحا وإيماء وتنبيها وإشارة وحظ غيرهم منه: حظ التالي له حفظا بلا فهم ولا معرفة لمراده وهؤلاء أحوج شيء إلى الأمر لأنهم لم يصلوا إلى تلك التعرفات والحقائق إلا به فالمحافظة عليه لهم علما ومعرفة وعملا وحالا ضرورية لا عوض لهم عنه ألبتة .

وهذا القدر هو الذي فات الزنادقة وقطاع الطريق من المنتسبين إلى طريقة القوم .

فإنهم لما علموا أن حقائق هذه الأوامر هي المطلوبة وأرواحها لا صورها وأشباحها ورسومها قالوا: نجمع هممنا على مقاصدها وحقائقها ولا حاجة لنا إلى رسومها وظواهرها بل الاشتغال برسومها اشتغال عن الغاية بالوسيلة وعن المطلوب لذاته بالمطلوب لغيره وغرهم ما رأوا فيه الواقفين مع رسوم الأعمال وظواهرها دون مراعاة حقائقها ومقاصدها وأرواحها فرأوا نفوسهم أشرف من نفوس أولئك وهممهم أعلى وأنهم المشتغلون باللب وأولئك بالقشر فتركب من تقصير هؤلاء وعدوان هؤلاء تعطيل .

(171/726)

وجملة الأمر: أن هؤلاء عطلوا سره ومقصوده وحقيقته وهؤلاء عطلوا رسمه وصورته فظنوا أنهم يصلون إلى حقيقته من غير رسمه وظاهره فلم يصلوا إلا إلى الكفر والزندقة وجحدوا ما علم بالضرورة مجيء الرسل به فهؤلاء كفار زنادقة منافقون وأولئك مقصرون غير كاملين والقائمون بهذا وهذا هم الذين يرون أن الأمر متوجه إلى قلوبهم قبل جوارحهم وأن على القلب عبودية في الأمر كما على الجوارح وأن تعطيل عبودية القلب بمنزلة تعطيل عبودية الجوراح وأن كمال العبودية قيام كل من الملك وجنوده بعبوديته: فهؤلاء خواص أهل

الإيمان وأهل العلم والعرفان .

فصل

قوله "ومن الحظوظ إلى التجريد" .

يريد الفرار من حظوظ النفوس على اختلاف مراتبها فإنه لا يعرفها إلا المعتنون بمعرفة الله ومراده وحقه على عبده ومعرفة نفوسهم وأعمالهم وآفاتهما

ورب مطالب عالية لقوم من العباد هي حظوظ لقوم آخرين يستغفرون الله منها ويفرون إليه منها يرونها حائلة بينهم وبين مطلوبهم .

وبالجملة فالحظ: ما سوى مراد الله الديني منك كائنا ما كان وهو ما يبرح حظ محرم إلى مكروه إلى مباح إلى مستحب غيره أحب إلى الله منه ولا يتميز هذا إلا في مقام الرسوخ في العلم بالله وأمره وبالنفس وصفاتها وأحوالها .

فهناك تتبين له الحظوظ من الحقوق ويفر من الحظ إلى التجريد وأكثر الناس لا يصلح لهم هذا لأنهم إنما يعبدون الله على الحظوظ وعلى مرادهم منه وأما تجريد عبادته على مراده من عبده:

فتلك منزلة لم يعطها أحد . . . سوى نبي وصديق من البشر

والزهد زهدك فيها ليس زهدك في . . . ما قد أبيح لنا في محكم السور

والصدق صدقك في تجريدها وكذا . . . الإخلاص تخليصها إن كنت ذا بصر

كذا توكل أرباب البصائر في . . . تجريد أعمالهم من ذلك الكدر

كذاك توبتهم منها فهم أبدا . . . في توبة أو يصيروا داخل الحفر

(172/726)

وبالجملة فصاحب هذا التجريد : لا يقنع من الله بأمر يسكن إليه دون الله ولا يفرح بما حصل له دون الله ولا يأسى على ما فاته سوى الله ولا يستغني برتبة شريفة وإن عظمت عنده أو عند الناس فلا يستغني إلا بالله ولا يفتقر إلا إلى الله ولا يفرح إلا بموافقته لمرضاة الله ولا يحزن إلا على ما فاته من الله ولا يخاف إلا من سقوطه من عين الله واحتجاب الله عنه فكله بالله وكله لله وكله مع الله وسيره دائما إلى الله قد رفع له علمه فشمر إليه وتجرد له مطلوبه فعمل عليه تناديه الحظوظ: إلي وهو يقول: إنما أريد من إذا حصل لي حصل لي كل شيء وإذا فاتني فاتني كل شيء فهو مع الله مجرد عن خلقه ومع خلقه مجرد عن نفسه ومع الأمر مجرد عن حظه أعني الحظ المزاحم للأمر وأما الحظ المعين على الأمر: فإنه لا يحطه تناوله عن مرتبته ولا يسقطه من عين ربه

وهذا أيضا موضع غلط فيه من غلط من الشيوخ فظنوا أن إرادة الحظ نقص في الإرادة .

والتحقيق فيه: أن الحظ نوعان حظ يزاحم الأمر وحظ يؤازر الأمر فينفذه فالأول هو

المذموم والثاني ممدوح وتناوله من تمام العبودية فهذا لون وهذا لون .

فصل

قال: "وفرار خاصة الخاصة: مما دون الحق إلى الحق ثم من شهود الفرار إلى الحق ثم الفرار من شهود الفرار" .

هذا على قاعدته في جعل الفناء عن الشهود غاية السالكين فيفر أولا من الخلق إلى الحق ويشهد بهذا الفرار انفراد مشهوده الذي فر إليه لكن بقيت عليه بقية وهي شهود فراره فيعد له إحساسا بالخلق فيفر ثانيا من شهود فراره فتنقطع النسب كلها بينه وبين الخلق بهذا الفرار الثاني فلا يبقى فيه بقية إلا ملاحظة فراره من شهود فراره فيفر من شهود الفرار فتنقطع حينئذ النسب كلها .

(173/726)

وقد تقدم الكلام على هذا وأنه ليس أعلى المقامات والرتب ولا هو غاية الكمال وأن فوقه ما هو أعلى منه مقاما وأشرف منزلا وهو أن يشهد فراره وأنه بالله من الله إلى الله فيشهد أنه فر به منه إليه ويعطي كل مشهد حقه من العبودية وهذا حال الكمل والله المستعا .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مدارج السالكين حـ 1 صـ 469 . 475 ﴾

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية. 1 .

والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون.الذاريات :47.

بقلم الدكتور : زغلول النجار

يشير القرآن الكريم في عدد من آياته , الي الكون والي العديد من مكوناته (السماوات والأرض , وما بكل منهما من صور الأحياء والجمادات , والظواهر الكونية المختلفة) , وتأتي هذه الآيات في مقام الاستدلال علي طلاقة القدرة الإلهية التي أبدعت هذا الكون , بجميع ما فيه ومن فيه , وفي مقام الاستدلال كذلك علي أن الإله الخالق الذي أبدع هذا الكون قادر علي إفنائه , وقادر علي إعادة خلقه من جديد , وذلك في معرض محاجة الكافرين والمشركين والمتشككين , وفي إثبات الألوهية لرب العالمين بغير شريك ولا شبيه

ولا منازع .

وكانت دعوي الكافرين منذ الأزل , والي يوم الدين , هي محاولة إنكار قضيتي الخلق والبعث بعد الإفناء , وهما من القضايا التي لا تقع تحت الإدراك المباشر للعلماء , علي الرغم من أن الله تعالي قد أبقي لنا في أديم الأرض , وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية الملموسة ما يمكن أن يعين المتفكرين المتدبرين من بني الإنسان علي إدراك حقيقة الخلق , وحتمية الإفناء والبعث , ويبقي فهم تفاصيل ذلك في غيبة من الهداية الربانية شيئًا من الضرب في الظلام , وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالي) ردا علي الظالمين من الكافرين والمشركين والمتشككين من الجن والإنس : ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا (الكهف : 51) .

وفي تشجيع الإنسان علي التفكر والتدبر في خلق السماوات والأرض يقول ربنا (تبارك وتعالي) في محكم كتابه :

إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياما

وقعودا وعلي جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار (آل عمران :190. 191) .

وكان لنزول هاتين الآيتين الكريمتين وما تلاهما من آيات في السورة نفسها , وقع شديد علي رسول الله (صلي الله عليه وسلم) , الذي يروي عنه أنه قال عقب الوحي بها : ويل لمن قرأ هذه الآيات ثم لم يتفكر فيها .

وواضح الأمر في ذلك أن التفكر في خلق السماوات والأرض فريضة إسلامية لابد من قيام نفر من المسلمين بها , لأنها عبادة من أجل وأعظم العبادات لله الخالق , ووسيلة من أعظم الوسائل للتعرف علي كل من حقيقة الخلق , وحتمية الافناء وضرورة البعث , وللتأكيد علي عظمة الخالق (سبحانه وتعالي) , وعلي تفرده بالألوهية , والربوبية , والوحدانية , فالكون الذي نحيا فيه شاسع الاتساع , دقيق البناء , محكم الحركة , منضبط في كل أمر من أموره , مبني علي وتيرة واحدة من أدق دقائقه الي أكبر وحداته , وكون هذا شأنه لا يمكن لعاقل أن يتصور أنه قد وجد بمحض المصادفة , أو أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه , بل لابد له من موجد عظيم , له من طلاقة القدرة , وكمال الحكمة , وشمول العلم ما أبدع به هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه , وهذا الخالق العظيم لاينازعه أحد في ملكه , ولا يشاركه أحد في سلطانه , لأنه رب هذا الكون ومليكه , ولا يشبهه أحد من خلقه , لأنه (تعالي) خالق كل شيء , وهو بالقطع فوق كل خلقه , لا يحده المكان , ولا الزمان لأنه (سبحانه)

خالقهما , ولا يشكله أي من المادة أو الطاقة , لأنه (تعالي) مبدعهما , ولا نعرف عن ذاته العلية إلا ما عرف به نفسه بقوله (عز من قائل) :

ليس كمثله شيء وهو السميع البصير

[الشوري : 11) .

وقوله (سبحانه) مخاطبا خاتم أنبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) :

قل هو الله أحد , الله الصمد , لم يلد ولم يولد , ولم يكن له كفوا أحد (الإخلاص : 1 . 4) .

(176/726)

من هنا كان التفكر في خلق السماوات والأرض مدخلا عظيما من مداخل الإيمان بالله , ولذا حض عليه القرآن الكريم , كما حضت عليه السنة النبوية المطهرة حضا كثيرا .

تأكيد القرآن الكريم علي ما في السماوات والأرض من أدلة الخلق والإفناء والبعث

يؤكد القرآن الكريم علي ما في السماوات والأرض من الأدلة , التي تنطق بطلاقة القدرة الإلهية في خلقهما وإبداعهما , كما تنطق بحتمية إفنائهما , وإعادة خلقهما من جديد في هيئة غير التي نراهما فيها اليوم , وذلك في عدد غير قليل من الآيات التي منها قوله (تعالي)

وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق . . . (الأنعام :73) .

وقوله (سبحانه) :

خلق الله السماوات والأرض بالحق , إن في ذلك لآية للمؤمنين (العنكبوت :44)

وقوله (عز من قائل) :

. . . ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمي , وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون (الروم :8)

وقوله (تعالي) :

ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم , إن في ذلك لآيات للعالمين (الروم :22) .

وقوله (سبحانه) :

وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلي في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم (الروم :27) .

وقوله (سبحانه وتعالي) :

خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير (التغابن :3) .

وقوله (عز من قائل) :

خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل علي النهار ويكور النهار علي الليل وسخر

الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمي ألا هو العزيز الغفار

(الزمر :5) .

وقوله (سبحانه) : لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون

(غافر :57) .

وقوله (تعالي)

ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو علي جمعهم إذا يشاء قدير

(الشوري :29) .

وقوله (سبحانه وتعالي) :

وما خلقنا السماوات والأرض

(177/726)

وما بينهما لاعبين , ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون (الدخان :38 و 39) .

تأكيد القرآن الكريم علي أن الله تعالي هو خالق السماوات والأرض وخالق كل شيء

جاءت مادة خلق بمشتقاتها في القرآن الكريم مائتين وإحدي وستين (261) مرة , لتأكيد أن عملية الخلق هي عملية خاصة بالله (تعالي) وحده , لا يشاركه فيها أحد , ولا ينازعه عليها أحد , ولا يقدر عليها أحد غيره (سبحانه وتعالي) إلا بإذنه , كذلك وردت لفظة السماء في القرآن الكريم بالإفراد والجمع في ثلاثمائة وعشر (310) مواضع , منها مائة وعشرون (120) مرة بصيغة الإفراد (السماء) , ومائة وتسعون (190) مرة بصيغة الجمع (السماوات) معرفة وغير معرفة , كما وردت لفظة الأرض بمشتقاتها في أربعمائة وواحد وستين (461) موضعا , وذلك في مقامات كثيرة تؤكد أن الله (تعالي) هو خالق السماوات والأرض , وخالق كل شيء , من مثل قوله (عز من قائل) :

ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو علي كل شيء وكيل (الأنعام :102) .

وقوله (سبحانه) :

ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين (الأعراف :54) .

وقوله (تعالي) :

إنه يبدأ الخلق ثم يعيده . . . (يونس :41)

وقوله (سبحانه وتعالي) :

. . . . قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار (الرعد :16) .

وقوله (تبارك وتعالي) :

. . . . وخلق كل شيء فقدره تقديرا (الفرقان :2)

وقوله (عز من قائل) :

الله خالق كل شيء وهو علي كل شيء وكيل (الزمر :62) .

وقوله (سبحانه) :

ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأني تؤفكون (غافر :62) .

وقوله (تعالي)

إنا كل شيء خلقناه بقدر (القمر :49) .

وقوله (سبحانه وتعالي :)

هو الله الخالق الباريء المصور . . . (الحشر :24) .

هذا , وقد أفاض القرآن الكريم في حسم قضيتي الخلق والبعث بنسبتهما الي الله (تعالي)

وحده , وذلك

لأن هاتين القضيتين كانتا من أصعب القضايا التي خاض فيها الجاحدون والمتشككون بغير علم ولا هدي عبر التاريخ , ولايزالون يستخدمون هذا الجحود والإنكار في معارضة قضية الإيمان بالله الخالق الباريء المصور , ويرد عليهم القرآن الكريم بقول الحق (تبارك وتعالي) أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون (النحل :17) .

وقوله (تعالي) في السورة نفسها :

والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون (النحل :20) .

وقوله (سبحانه وتعالي) :

واتخذوا من دونه آلهة لا يخقون شيئا وهم يخلقون (الفرقان :3)

وقوله (تبارك وتعالي) :

أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون , أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون (الطور :35 و 36) .

وقوله (عز من قائل) :

قل هل من شركائكم من يبدأ الخق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأني تؤفكون (يونس :34) .

وقوله (تعالي)

أو لم يروا كيف يبديء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك علي الله يسير , قل سيروا في الأرض

فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة إن الله علي كل شيء قدير (العنكبوت :20.19) .

موقف الحضارة الإسلامية من قضية الخلق

بعد بعثة المصطفي (صلي الله عليه وسلم) انطلق المسلمون من الإيمان بحقيقة الخلق , وحتمية البعث , ليقيموا (علي أساس من تلك العقيدة الربانية الخالصة) أعظم حضارة في التاريخ , لأنها كانت الحضارة الوحيدة التي جمعت بين الدنيا والآخرة في معادلة واحدة , واستمرت لأكثر من عشرة قرون كاملة , تدعو الي عبادة الله (تعالي) بما أمر (علي التوحيد الخالص لذاته العلية , والتنزيه الكامل لأسمائه وصفاته عن الشبيه والشريك والمنازع) , والي حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض , وإقامة عدل الله فيها , علي أساس من شرعه المنزل علي خاتم أنبيائه ورسله , والذي تعهد (سبحانه وتعالي) بحفظه بنفس اللغة التي أنزل بها (

كلمة كلمة وحرفا حرفا) فحفظ حتي لا يكون للناس علي الله حجة بعد نزول هذا الوحي الخاتم , وتعهد الله (تعالي) بحفظه من الضياع أو التحريف .

وبهذا الجمع المتزن بين وحي السماء والاجتهاد في كسب المعارف النافعة , حملت حضارة الإسلام مشاعل المعرفة في كل مناشط الحياة الدينية والعمرانية , وأقامت قاعدة صلبة للدين والعلم والتقنية , وآمنت بوحدة المعرفة , وبأن الحكمة هي ضالة المؤمن , أني وجدها فهو أولي الناس بها , فجمعت المعارف من مختلف مصادرها مهما تباعدت أماكنها , واختلفت الحضارات التي انبثقت عنها , ومعتقدات أصحابها , ولكنها لم تقبل تلك المعارف قبول التسليم , فقامت بغربلة تراث الإنسانية المتاح لها , بمعيار الإسلام العظيم القائم علي أساس من التوحيد الخالص لله , وذلك لتطهير هذا التراث من أدران الشرك والكفر والجحود بالله , وأضافت اليه إضافات أصيلة عديدة في كل المجالات , مما مثل القاعدة التي انطلقت منها النهضة العلمية والتقنية المعاصرة , كما يعترف بذلك عدد غير قليل من العلماء المعاصرين غربيين وشرقيين .

ولم يحل الإيمان بالغيب دون التقدم العلمي والتقني في الحضارة الإسلامية , بل حض عليه الإسلام حضا , واعتبره نمطا من أنماط عبادة الله (تعالي) , والتفكر في خلقه , ووسيلة منهجية لاستقراء سنن الله في الكون , وتوظيفها في عمارة الأرض , وهي من واجبات الاستخلاف في الأرض , والوجه الثاني للعبادة التي يمثل وجهها الأول عبادة الله (تعالي) بما أمر , واتباع سنة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) .

موقف الحضارة المادية المعاصرة من قضية الخلق

انطلقت الحضارة المادية المعاصرة في الأصل من بوتقة الحضارة الإسلامية , ولكن علي مغايرة من حضارة المسلمين , فإن الغرب بني حضارته علي أساس من المادية البحتة , فنبذ الدين , ووقف موقف المنكر لقضية الإيمان بالله ,

(180/726)

وملائكته , وكتبه , ورسله , واليوم الآخر , الرافض لكل أمر غيبي , في عداء صريح , واستهجان أوضح , فتنكب الطريق , وضل ضلالا بعيدا . علي الرغم من القدر الهائل من الكشوف العلمية , والانجازات التقنية المذهلة التي حققها , والتي يمكن أن تكون سببا في دماره في غيبة الالتزام الديني والروحي والأخلاقي , وصدق الله العظيم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق :

فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتي إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون , فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين (الأنعام :44 . 45) .

وبنبذ الإيمان بالله , وصلت المجتمعات الغربية الي مستوي متدن من التحلل الأخلاقي , والانهيار الاجتماعي , ومجافاة الفطرة التي فطر الله الخلق عليها , في وقت ملكت فيه من

أسباب الغلبة المادية ما يمكن أن يعينها علي الاستعلاء في الأرض , والتجبر علي الخلق , ونشر المظالم بغير مراعاة لرب أو مخافة من حساب , مما يمكن أن يهدد البشرية بالفناء . . . ! !

ولاتزال المعارف الإنسانية بصفة عامة , والعلمية منها بصفة خاصة , تكتب الي يومنا هذا , من منطلقات مادية صرفة , لا تؤمن إلا بالمدرك المحسوس , وتتنكر لكل ما هو فوق ذلك , فدارت بالمجتمعات الإنسانية في متاهات من الضياع , ضلت وأضلت , علي الرغم من الكم الهائل من المعلومات التي تحتويها , وروعة التقنيات التي أنجزتها .

وكان ضلال الحضارة المادية المعاصرة أبلغ ما يكون في القضايا التي لايمكن اخضاعها لإدراك الإنسان المباشر , من مثل قضايا الخلق والإفناء والبعث (خلق الكون , خلق الحياة , خلق الإنسان , ثم إفناء كل ذلك وإعادة خلقه من جديد) , وهي من القضايا التي إذا خاض فيها الإنسان بغير هداية ربانية فإنه يضل ضلالا بعيدا , وصدق الله العظيم إذ يقول في الرد علي هؤلاء الظالمين من الكافرين والمشركين

والمتشككين من الجن والإنس :

ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا (الكهف : 51) .

وعلي الرغم من تأكيد القرآن الكريم أن أحدا من الجن والإنس , لم يشهد خلق السماوات والأرض , ولا خلق نفسه , فإنه يؤكد ضرورة التفكر في خلق السماوات والأرض , وخلق الحياة لأن ذلك من أعظم الدلائل علي طلاقة القدرة الإلهية , وكمال الصنعة الربانية , وعلي كل من حتمية الآخرة وضرورة البعث والحساب والجنة والنار , وذلك لأن الخالق (سبحانه وتعالي) قد ترك لنا في صخور الأرض وفي صفحة السماء ما يمكن أن يعين الإنسان علي فهم قضيتي الخلق والبعث , بالرغم من محدودية قدراته الذهنية والحسية , واتساع الكون وضخامة أبعاده وتعقيد بنائه , وكذلك تعقيد بناء الجسد الإنساني وبناء خلاياه , وهي صورة رائعة لتسخير الكون للإنسان , وجعله في متناول إدراكه وحسه .

خلق السماوات والأرض في القرآن الكريم :

من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة , لخص لنا ربنا (تبارك وتعالي) في صياغة كلية شاملة عملية خلق السماوات والأرض , وإفنائهما وإعادة خلقهما من جديد , في خمس آيات من القرآن الكريم علي النحو التالي :

(1) والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون (الذاريات : 47)

(2) أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل

شيء حي أفلا يؤمنون (الأنبياء :30)

(3) ثم استوي الي السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين (فصلت :11)

(4) يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين (الأنبياء :104)

(5) يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار (إبراهيم :48)

وهذه الآيات الكريمات تشير الي أن الكون الذي نحيا فيه يتسع باستمرار , وإذا عدنا بهذا الاتساع الي الوراء مع الزمن فلابد

(182/726)

أن يتكدس علي هيئة جرم واحد (مرحلة الرتق) , وهذا الجرم الابتدائي انفجر بأمر من الله (مرحلة الفتق) , فتحول الي غلالة من الدخان (مرحلة الدخان) , خلقت منه الأرض والسماوات (مرحلة الإتيان) , وأن الكون منذ لحظة انفجاره في توسع مستمر , وأن هذا التوسع سوف يتوقف في المستقبل الذي لا يعلمه إلا الله , بأمر منه (تعالي) , فيبدأ الكون في الانطواء علي ذاته , والتكدس في جرم واحد كهيئة الجرم الابتدائي الأول , الذي بدأ منه

خلق السماوات والأرض , فتتكرر عملية الانفجار والتحول الي الدخان الذي تخلق منه أرض غير أرضنا الحالية , وسماوات غير السماوات التي تظللنا في الحياة الدنيا , وهنا تنتهي رحلة الحياة الدنيا وتبدأ رحلة الآخرة , ومراحل الرتق والفتق والدخان , والاتيان بالسماوات والأرض , وتوسع السماء ثم طيها تعطينا كليات مراحل الخلق والإفناء والبعث دون الدخول في التفاصيل .

وهذه الحقائق القرآنية لم يستطع الإنسان إدراك شيء منها إلا في أواخر القرن العشرين , مما يؤكد سبق القرآن الكريم للمعارف الإنسانية بأكثر من أربعة عشر قرنا , وهذا وحده مما يشهد للقرآن بأنه لايمكن إلا أن يكون كلام الله الخالق , كما يشهد لخاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) , بأنه كان موصولا بالوحي , معلما من قبل خالق السماوات والأرض , حيث إنه لم يكن لأحد علم بهذه الحقائق الكونية في زمن الوحي , ولا لقرون متطاولة من بعد نزوله , وتشهد هذه الآيات الخمس بدقة الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله , وشمولها , وكمالها , وصياغتها صياغة معجزة يفهم منها أهل كل عصر معني من المعاني يتناسب مع المستوي العلمي للعصر , وتظل هذه المعاني تتسع باستمرار مع توسع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد , وهو من أبلغ صور الإعجاز العلمي في كتاب الله .

بدايات تعرف الإنسان علي ظاهرة

توسع الكون

(183/726)

الي مطلع العقد الثاني من القرن العشرين , ظل علماء الفلك ينادون بثبات الكون وعدم تغيره , في محاولة يائسة لنفي الخلق والتنكر للخالق (سبحانه وتعالي) حتي ثبت عكس ذلك بتطبيق ظاهرة دوبلر علي حركة المجرات الخارجة عن مجرتنا , ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر , كان العالم النمساوي دوبلر

C.Doppler

قد لاحظ أنه عند مرور قطار سريع يطلق صفارته فإن الراصد للقطار يسمع صوتا متصلا ذا طبقة صوتية ثابتة , ولكن هذه الطبقة الصوتية ترتفع كلما اقترب القطار من الراصد , وتهبط كلما ابتعد عنه , وفسر دوبلر السبب في ذلك بأن صفارة القطار تطلق عددا من الموجات الصوتية المتلاحقة في الهواء , وأن هذه الموجات تتضاغط تضاغطا شديدا كلما اقترب مصدر الصوت , فترتفع بذلك طبقة الصوت , وعلي النقيض من ذلك , فإنه كلما ابتعد مصدر الصوت تمددت تلك الموجات الصوتية حتي تصل الي سمع الراصد ,

فتنخفض بذلك طبقة الصوت .

كذلك لاحظ دوبلر أن تلك الظاهرة تنطبق أيضا علي الموجات الضوئية , فعندما يصل الي عين الراصد ضوء منبعث من مصدر متحرك بسرعة كافية , يحدث تغير في تردد ذلك الضوء , فإذا كان المصدر يتحرك مقتربا من الراصد فإن الموجات الضوئية تتضاغط وينزاح الضوء المدرك نحو التردد العالي (أي نحو الطيف الأزرق) , وتعرف هذه الظاهرة باسم الزحزحة الزرقاء , وإذا كان المصدر يتحرك مبتعدا عن الراصد , فإن الموجات الضوئية تتمدد وينزاح الضوء المدرك نحو التردد المنخفض (أي نحو الطرف الأحمر من الطيف) , وتعرف هذه الظاهرة باسم الزحزحة الحمراء , وقد اتضحت أهمية تلك الظاهرة عندما بدأ الفلكيون في استخدام أسلوب التحليل الطيفي للضوء القادم من النجوم الخارجة عن مجرتنا في دراسة تلك الأجرام السماوية البعيدة جدا عنا .

ففي سنة 1914 م أدرك الفلكي الأمريكي سلايفر

Slipher

أنه بتطبيق ظاهرة دوبلر علي الضوء القادم الينا من

النجوم , في عدد من المجرات البعيدة عنا , ثبت له أن معظم المجرات التي قام برصدها تتباعد عنا وعن بعضها البعض بسرعات كبيرة , وبدأ الفلكيون في مناقشة دلالة ذلك , وهل يمكن أن يشير الي تمدد الكون المدرك بمعني تباعد مجراته عنا وعن بعضها البعض بسرعات كبيرة ؟

وبحلول سنة 1925 , تمكن هذا الفلكي نفسه

Slipher

من إثبات أن أربعين مجرة قام برصدها تتحرك فعلا في معظمها بسرعات فائقة متباعدة عن مجرتنا (سكة التبانة) , وعن بعضها البعض .

وفي سنة 1929 م تمكن الفلكي الأمريكي الشهير إدوين هبل

Edwin Hubble

من الوصول الي الاستنتاج الفلكي الدقيق الذي مؤداه : أن سرعة تباعد المجرات عنا تتناسب تناسبا طرديا مع بعدها عنا , والذي عرف من بعد باسم قانون هبل

Hubble sLaw

وبتطبيق هذا القانون تمكن هبل من قياس أبعاد العديد من المجرات , وسرعة تباعدها عنا , وذلك بمشاركة من مساعده ملتون هيوماسون

Milton Humason

الذي كان يعمل معه في مرصد جبل ولسون بولاية كاليفورنيا , وذلك في بحث نشراه معا في

سنة 1934م .

وقد أشار تباعد المجرات عنا وعن بعضها البعض , الي حقيقة توسع الكون المدرك , التي أثارت جدلا واسعا بين علماء الفلك , الذين انقسموا فيها بين مؤيد ومعارض حتي ثبتت ثبوتا قاطعا بالعديد من المعادلات الرياضية والقراءات الفلكية في صفحة السماء .

ففي سنة 1917م أطلق ألبرت أينشتاين

A.Einstein

نظريته عن النسبية العامة لشرح طبيعة الجاذبية , وأشارت النظرية الي أن الكون الذي نحيا فيه غير ثابت , فهو إما أن يتمدد أو ينكمش وفقا لعدد من القوانين المحددة له , وجاء ذلك علي عكس ما كان أينشتاين وجميع معاصريه من الفلكيين وعلماء الفيزياء النظرية يعتقدون , انطلاقا من محاولاتهم اليائسة لمعارضة الخلق , وقد أصاب أينشتاين الذعر عندما اكتشف أن معادلاته تنبيء , رغم أنفه , بأن الكون في حالة تمدد مستمر , ولذلك عمد الي

إدخال معامل من عنده أطلق عليه اسم الثابت الكوني , ليلغي حقيقة تمدد الكون من أجل الادعاء بثباته واستقراره , ثم عاد ليعترف بأن تصرفه هذا كان أكبر خطأ علمي اقترفه في حياته .

وقد قام العالم الهولندي وليام دي سيتر

Williamde Sitter

بنشر بحث في نفس السنة (1917 م) استنتج فيه تمدد الكون انطلاقا من النظرية النسبية ذاتها .

ومنذ ذلك التاريخ بدأ الاعتقاد في تمدد الكون يلقي القبول من أعداد كبيرة من العلماء , فقد أجبرت ملاحظات كل من سلايفر (1914 م) , ودي سيتر (1917 م) , وهبل ومساعده هيوماسون (1934 م) جميع الفلكيين الممارسين , وعددا من المشتغلين بالفيزياء النظرية , وفي مقدمتهم ألبرت أينشتاين , ومجموعة البحث العلمي بجامعة كمبردج , والمكونة من كل من هيرمان بوندي

Herman Bondi

وتوماس جولد

Thomas Gold

وفريد هويل

Fred Hoyle

والتي ظلت الي مشارف الخمسينيات من القرن العشرين تنادي بثبات الكون , أملي الاعتراف بحقيقة توسع الكون المدرك .

وسبحان الله الخالق الذي أنزل في محكم كتابه قبل أكثر من ألف وأربعمائة من السنين قوله الحق :

والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون (الذاريات :47) .

وتشير هذه الآية الكريمة الي عدد من الحقائق الكونية التي لم تكن معروفة لأحد من الخلق , وقت تنزل القرآن الكريم , ولا لقرون متطاولة من بعد تنزله , منها :

أولا : أن السماء بناء محكم التشييد , دقيق التماسك والترابط , وليست فراغا كما كان يعتقد الي عهد قريب , وقد ثبت علميا أن المسافات بين أجرام السماء مليئة بغلالة رقيقة جدا من الغازات التي يغلب عليها غاز الإيدروجين , وينتشر في هذه الغلالة الغازية بعض الجسيمات المتناهية في الصغر من المواد الصلبة , علي هيئة غبار دقيق الحبيبات , يغلب علي تركيبه ذرات من الكالسيوم , والصوديوم , والبوتاسيوم , والتيتانيوم , والحديد , بالإضافة الي جزيئات من بخار

الماء , والأمونيا , والفورمالدهايد , وغيرها من المركبات الكيميائية .

وبالإضافة الي المادة التي تملأ المسافات بين النجوم , فإن المجالات المغناطيسية تنتشر بين كل أجرام السماء لتربط بينها في بناء محكم التشييد , متماسك الأطراف , وهذه حقيقة لم يدركها العلماء إلا في القرن العشرين , بل في العقود المتأخرة منه .

وعلي الرغم من رقة كثافة المادة في المسافات بين النجوم , والتي تصل الي ذرة واحدة من الغاز في كل سنتيمتر مكعب تقريبا من المسافات البينية للنجوم , والي أقل من ذلك بالنسبة للمواد الصلبة (الغبار الكوني) , إذا ما قورن بحوالي مليون مليون مليون جزئ (1810) في كل سنتيمتر مكعب من الهواء عند سطح الأرض , فإن كمية المادة في المسافات بين النجوم تبلغ قدرا مذهلا للغاية , فهي تقدر في مجرتنا (سكة التبانة) وحدها بعشرة بلايين ضعف ما في شمسنا من مادة , مما يمثل حوالي 5

من مجموع كتلة تلك المجرة .

ثانيا : إن في الإشارة القرآنية الكريمة والسماء بنيناها بأيد أي بقوة وحكمة واقتدار , تلميحا الي ضخامة الكون المذهلة , وإحكام صنعه , وانضباط حركاته , ودقة كل أمر من أموره , وثبات سننه , وتماسك أجزائه , وحفظه من التصدع أو الانهيار , فالسماء لغة هي كل ما علاك فأظلك , ومضمونا هي كل ما حول الأرض من أجرام ومادة وطاقة السماء , التي لايدرك العلم إلا جزءا يسيرا منها , ويحصي العلماء أن بالجزء المدرك من السماء الدنيا

مائتي بليون من المجرات , بعضها أكبر كثيرا من مجرتنا (درب اللبانة أو سكة التبانة) , وبعضها أصغر قليلا منها , وتتراوح أعداد النجوم في المجرات بين المليون والعشرة ملايين الملايين , وتمر هذه النجوم في مراحل من النمو مختلفة (الميلاد , الطفولة , الشباب , الكهولة , الشيخوخة ثم الوفاة) , وكما أن لأقرب النجوم إلينا (وهي شمسنا) توابع من الكواكب والكويكبات ,

(187/726)

والأقمار , وغيرها فإن القياس يقتضي أن للنجوم الأخري توابع قد اكتشف عدد منها بالفعل , ويبقي الكثير مما لم يتم اكتشافه بعد .

ثالثا : تشير هذه الآية الكريمة الي أن الكون الشاسع الاتساع , الدقيق البناء , المحكم الحركة , والمنضبط في كل أمر من أموره , والثابت في سننه وقوانينه , قد خلقه الله (تعالي) بعلمه وحكمته وقدرته , وهو (سبحانه) الذي يحفظه من الزوال والانهيار , وهو القادر علي كل شيء . والجزء المدرك لنا من هذا الكون شاسع الاتساع بصورة لايكاد عقل الإنسان إدراكها (إذ المسافات فيه تقدر ببلايين السنين الضوئية) , وهو مستمر في الاتساع اليوم والي ما شاء الله , والتعبير القرآني وإنا لموسعون يشير الي تلك السعة المذهلة , كما يشير الي

حقيقة توسع هذا الكون باستمرار الي ما شاء الله , وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا في العقود الثلاثة الأولي من القرن العشرين , حين ثبت لعلماء كل من الفيزياء النظرية والفلك أن المجرات تتباعد عنا وعن بعضها البعض بسرعات تتزايد بتزايد بعدها عن مجرتنا , وتقترب أحيانا من سرعة الضوء (المقدرة بحوالي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية) .

والمجرات من حولنا تتراجع متباعدة عنا , وقد أدرك العلماء تلك الحقيقة من ظاهرة انزياح الموجات الطيفية للضوء الصادر عن نجوم المجرات الخارجة عنا في اتجاه الطيف الأحمر (الزحزحة الي الطيف الأحمر , أو حتي دون الطيف الأحمر أحيانا) , وقد أمكن قياس سرعة تحرك تلك المجرات في تراجعها عنا من خلال قياس خطوط الطيف لعدد من النجوم في تلك المجرات , وثبت أنها تتراوح بين 60,000 كيلومتر في الثانية , و 272,000 كيلومتر في الثانية .

وقد وجد العلماء أن مقدار الحيود في أطياف النجوم الي الطيف الأحمر (أو حتي دون الأحمر في بعض الأحيان) , يعبر عن سرعة ابتعاد تلك النجوم عنا , وأن هذه السرعة ذاتها يمكن استخدامها مقياسا

لأبعاد تلك النجوم عنا .

رابعا : تشير ظاهرة توسع الكون الي تخلق كل من المادة والطاقة , لتملآ المساحات الناتجة عن هذا التوسع , وذلك لأن كوننا تنتشر المادة فيه بكثافات متفاوتة , ولكنها متصلة بغير انقطاع , فلايوجد فيه مكان بلا زمان , كما لايوجد فيه مكان وزمان بغير مادة وطاقة , ولا يستطيع العلم حتي يومنا هذا , أن يحدد مصدر كل من المادة والطاقة اللتين تملآن المساحات الناتجة عن تمدد الكون , بتلك السرعات المذهلة , ولا تأويل لها إلا الخلق من العدم .

خامسا : أدي إثبات توسع الكون الي التصور الصحيح بأننا اذا عدنا بهذا التوسع الي الوراء مع الزمن , فلابد أن تلتقي كل صور المادة والطاقة كما يلتقي كل من المكان والزمان في نقطة واحدة , وأدي ذلك الي الاستنتاج الصحيح بأن الكون قد بدأ من نقطة واحدة بعملية انفجار عظيم , وهو مما يؤكد أن الكون مخلوق له بداية , وكل ما له بداية فلابد أن ستكون له في يوم من الأيام نهاية , كما يؤكد حقيقة الخلق من العدم , لأن عملية تمدد الكون تقتضي خلق كل من المادة والطاقة بطريقة مستمرة - من حيث لايدرك العلماء - وذلك ليملآ (في التو والحال) المسافات الناشئة عن عملية تباعد المجرات عن بعضها البعض بسرعات مذهلة , وذلك لكي يحتفظ الكون بمستوي متوسط لكثافته التي نراه بها اليوم , وقد أجبرت هذه الملاحظات علماء الغرب علي هجر معتقداتهم الخاطئة عن ثبات الكون , والتي دافعوا

طويلا عنها , انطلاقا من ظنهم الباطل بأزلية الكون وأبديته , لكي يبالغوا في كفرهم بالخلق وجحودهم للخالق (سبحانه وتعالي) .

هذه الاستنتاجات الكلية المهمة عن أصل الكون , وكيفية خلقه , وإبداع صنعه , وحتمية نهايته , أمكن الوصول اليها من ملاحظة توسع الكون , وهي حقيقة لم يتمكن الإنسان من إدراكها إلا في الثلث الأول من القرن العشرين , ودار حولها الجدل حتي سلم بها أهل العلم أخيرا , وقد

سبق القرآن الكريم بإقرارها قبل أربعة عشر قرنا أو يزيد , ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدرا لتلك الإشارة القرآنية الباهرة غير الله الخالق (تبارك وتعالي) , فسبحان خالق الكون الذي أبدعه بعلمه وحكمته وقدرته , والذي أنزل لنا في خاتم كتبه , وعلي خاتم أنبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) عددا من حقائق الكون الثابتة , ومنها تمدد الكون وتوسعه فقال (عز من قائل) :

والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون

(الذاريات : 47)

لتبقي هذه الومضة القرآنية الباهرة مع غيرها من الآيات القرآنية , شهادة صدق بأن القرآن الكريم كلام الله , وأن سيدنا ونبينا محمدا (صلي الله عليه وسلم) كان موصولا بالوحي , معلما من قبل خالق السماوات والأرض , وأن القرآن الكريم هو معجزته الخالدة الي قيام الساعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية . بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾

(190/726)

بحث آخر فى قوله تعالى ﴿ والأرض فرشناها فنعم الماهدون * ﴾

بقلم الدكتور : زغلول النجار

هذة الآية الكريمة جاءت في الربع الأخير من سورة الذاريات , وهي سورة مكية يدور محورها الرئيسي حول قضية العقيدة , شأنها في ذلك شأن كل السور المكية , ومن ركائز العقيدة : الإيمان بالبعث والجزاء , ولذلك بدأت السورة بالقسم بعدد من آيات الله في الكون علي حقيقة البعث , وحتمية وقوع الجزاء , ثم تابعت بقسم آخر : بالسماء ذات الحبك علي أن الناس في أمر البعث والحساب والجزاء غير مستقرين علي رأي واحد , فمنهم المؤمن , ومنهم الكافر , وأنه لا يصرف عن هذا الحق إلا صاحب هوي . . . . . ! ! !

وأكدت السورة حتمية هلاك الكذابين المنكرين ليوم الدين , والقائلين فيه بالظن والتخمين , واللاهين عنه والمتشككين في حتمية وقوعه حتي يسألوا عنه سؤال المستهزيء به , المستبعد له . . . . . ! ! !

وتعرض السورة لشيء من سوء مصير الكافرين في الآخرة , وتقابله بفيض التكريم والتنعيم الذي أعده ربنا (تبارك وتعالي) للمتقين من عباده جزاء إحسانهم في الدنيا . . . . . ! ! ! وتدعو الي تأمل آيات الله في الأرض , وفي الأنفس , وفي الآفاق , والي استخلاص الدروس والعبر من تأملها , وأردفت بقسم عظيم برب السماء والأرض علي صدق ما وعد الله (تعالي) به الناس من البعث والحساب والجزاء , وعلي حتمية وقوع كل ما جاء به الدين الخاتم الذي بعث به خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) .

وألمحت السورة الي قصة أبي الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) مع ضيفه من الملائكة , وعرضت لبعض الأمم البائدة , والي ما أصابها من هلاك ودمار لانحرافها عن منهج الله , وتكذيبها لأنبيائه ورسله ,

ومن هذه الأمم التي أبيدت أقوام لوط , وفرعون , وعاد , وثمود ونوح .

(191/726)

ثم عاودت السورة استعراض عدد من الآيات الكونية الدالة علي طلاقة القدرة الإلهية , وأردفت بالدعوة للرجوع الي الله (تعالي) , والي التحذير من الشرك به , وتأكيد أن الرزق منه وحده (سبحانه وتعالي) وذلك في مواضع عديدة من السورة التي كررت وصف الرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) بأنه نذير مبين من الله (تعالي) الي الناس كافة , وأن عبادة الله (تعالي) وحده (بغير شريك ولا شبيه , ولا منازع) وتنزيهه , وتعظيمه عن كل وصف لا يليق بجلاله , هي الغاية من خلق كل من الإنس والجن , وأنذرت السورة في ختامها الذين يكذبون رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بمثل ما أصاب الأمم السابقة عليهم . . . من عذاب . . . ! !

والسورة في مجمل سياقها دعوة الي الناس كافة لتوجيه القلوب إلي عبادة الله (تعالي) , ولتخليصها من عوائق الحياة , ووصلها بخالقها الذي هو رب هذا الكون ومليكه .

والآيات الكونية المذكورة في سورة الذاريات أكثر من أن تحصي في مقال واحد , ولذلك سأقتصر هنا علي آية واحدة منها هي قوله (تعالي) :

والأرض فرشناها فنعم الماهدون *

وقبل الخوض في ذلك لابد من استعراض الدلالة اللغوية لألفاظ الآية الكريمة ولأقوال المفسرين فيها .

الدلالة اللغوية

(الأرض) في اللغة العربية اسم جنس للكوكب الذي نحيا عليه , تمييزا له عن بقية الكون المعبر عنه بالسماوات , وهي لفظة مؤنثة والأصل أن يقال :(أرضه) , والجمع (أرضات) و (أرضون) بفتح الراء أو بتسكينها , وقد تجمع علي (أروض) و (أراض) , ولفظة (الأراضي) تستخدم علي غير قياس .

ويعبر (بالأرض) عن أسفل الشيء , كما يعبر (بالسماء) عن أعلاه , فكل ما سفل من الشيء هو (أرضه) , وكل ما علا منه هو (سماه) أو (سماؤه) . ويقال (أرض أريضة) أي حسنة النبت , زكية بينة الزكاء أو (الإراضة) , كما يقال :(تأرض) النبت بمعني تمكن علي الأرض فكثر , و (تأرض) الجدي إذا تناول نبت (الأرض) .

(192/726)

ويقال :(أرض نفضة) أي كثيرة الانتفاض , و (أرض رعدة) أي كثيرة الارتعاد , وهي من العمليات المصاحبة للهزات الأرضية (الزلازل) .

و(الأرضة) بفتحتين : حشرة صغيرة تأكل الخشب , يقال :(أرضت) الأخشاب (تؤرض) أرضا) فهي (مأروضة) إذا أكلتها (الأرضة) , ولم تسم العرب فاعلا لهذا الفعل .

(فرشناها) : يقال في اللغة :(فرش) الشيء (يفرشه)(فرشا) و (فراشا) بمعني بسطه بسطا , ويقال (للمفروش)(فرش) و (فراش) , وجمعهما (فرش) , و (الفرش) هو (المفروش) أي المبسوط من متاع البيت .

قال (تعالي) : الذي جعل لكم الأرض فراشا . . . . . *(البقرة :22)

وقال (عز من قائل) : متكئين علي فرش بطائنها من استبرق . . . . *(الرحمن :54)

وقال (سبحانه) :

وفرش مرفوعة *(الواقعة :34)

و(الفرش) يطلق أيضا علي صغار الإبل ومنه قوله (تعالي)

ومن الأنعام حمولة وفرشا . . *

(الأنعام :142)

وذلك لأن (الفرش) هو ما يفرش من الأنعام , أي يركب , قال الفراء : ولم أسمع له بجمع ,

وأضاف : ويحتمل أن يكون مصدرا سمي به من قولهم :(فرشها) الله (

فرشا) أي بثها بثا .

ويقال :(افترش) الشئ بمعني انبسط , و (افترشه) أي وطئه , و (افترش) ذراعيه إن بسطهما تحته علي الأرض أي اتخذهما كالفراش , و (تفريش) الدار تبليطها .

و(الفراشة) وجمعها (فراش) حشرة من الحشرات (من رتبة حرشفيات الأجنحة

(Lepidoptera) تتميز بزوجين من الأجنحة الحاملة للحراشيف الملونة والمزركشة , والفراش يحب الضوء ويتهافت علي مصادره حتي يهبط فيها فيحترق , ولذا قيل في المثل أطيش من فراشة , وقال (تعالي) : يوم يكون الناس كالفراش المبثوث *(القارعة :4)

(الماهدون) : و (المهد) في اللغة هو ما يهيأ للغير من فراش , يقال : مهد الفراش (يمهده)(تمهيدا) و (مهدا) أي بسطه يبسطه بسطا , قال (تعالي) :

. . . . . قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا *

(مريم :28)

(193/726)

(المهد) و (المهاد) أيضا هو المكان (الممهد) الموطأ . قال ربنا (تبارك وتعالي) :

الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا . . . . . *(طه :53)

ويقال :(امتهد) السنام أي تسوي فصار (كالمهد) أو (المهاد) , و (الماهد) هو الذي (يمهد) وجمعه (ماهدون) , قال (تعالي) :

والأرض فرشناها فنعم الماهدون *

(الذاريات :48)

ويقال في اللغة :(مهدت) لك كذا أي هيأته وسويته , قال (تعالي) :

ومهدت له تمهيدا *(المدثر :14) .

وقال (عز من قائل) : من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون *

(الروم :44)

بسط الأرض وتمهيدها في القرآن الكريم

جاء ذكر الأرض في أربعمائة وواحد وستين موضعا من كتاب الله , منها ما يشير إلي كوكب الأرض في مقابلة السماء أو السماوات , ومنها ما يشير الي اليابسة التي نحيا عليها أو إلي جزء منها , ومنها ما يشير الي التربة التي تغطي صخور اليابسة , وتفهم الدلالة من سياق الآية الكريمة .

وجاء ذكر فرش الأرض ,

وبسطها , وتمهيدها , وتوطئتها , وتسويتها , وتذليلها في عشر آيات من آي القرآن الكريم علي النحو التالي :

(1) الذي جعل لكم الأرض فراشا . . .

(البقرة :22)

(2) الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا . . . (طه :53)

(3) الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون (الزخرف :10)

(4) والأرض فرشناها فنعم الماهدون (الذاريات :48)

(5) هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فأمشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور (الملك :15)

(6) والله جعل لكم الأرض بساطا , لتسلكوا منها سبلا فجاجا (نوح:20,19)

(7) ألم نجعل الأرض مهادا , والجبال أوتادا (النبأ :7,6)

(8) والأرض بعد ذلك دحاها , أخرج منها ماءها ومرعاها , والجبال أرساها , متاعا لكم ولأنعامكم (النازعات :33,30)

(194/726)

---

(9) أفلا ينظرون إلي الإبل كيف خلقت , وإلي السماء كيف رفعت , وإلي الجبال كيف نصبت , وإلي الأرض كيف سطحت (الغاشية :20,17)(10) والأرض وما طحاها (الشمس :6)

وجاء ذكر خلق الأرض وذكر عدد من صفاتها وظواهرها وأحداثها في أكثر من مائة وسبعين آية أخري , لا أري مجالا لذكرها هنا لأنها إما قد ورد ذكرها في مقالات سابقة , أو سوف تناقش في مناسبات قادمة إن شاء الله (تعالي) , حسب الموضوع الذي تعرض

له الآية أو الآيات القرآنية الكريمة منها .

أقوال المفسرين

في تفسير قول الحق (تبارك وتعالي) :

والأرض فرشناها فنعم الماهدون

(الذاريات : 48)

ذكر ابن كثير (رحمه الله) : والأرض فرشناها أي جعلناها فراشا للمخلوقات ,(فنعم الماهدون) أي وجعلناها مهدا لأهلها .

وذكر صاحبا تفسير الجلالين رحمهما الله مانصه :(والأرض فرشناها) مهدناها ,(فنعم الماهدون) نحن .

وذكر صاحب الظلال (عليه من الله الرحمات) قوله : فقد أعد الله هذه الأرض لتكون مهدا للحياة كما أسلفنا , والفرش يوحي باليسر والراحة

والعناية , وقد هيئت الأرض لتكون محضنا ميسرا ممهدا , كل شيء فيه مقدر بدقة لتيسير الحياة وكفالتها :(فنعم الماهدون) .

وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن لفضيلة المفتي الأكبر الشيخ محمد حسنين مخلوف (رحمه الله رحمة واسعة) ما نصه :(فرشناها) مهدناها كالفراش للاستقرار عليها . (فنعم الماهدون) المسوون المصلحون .

وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزي الله كل من شارك في إخراجه خير الجزاء) ما نصه :

والأرض بسطناها , فنعم المهيئون لها نحن كالمهاد .

(195/726)

وذكر صاحب صفوة التفاسير (جزاه الله خيرا) ما نصه :(والأرض فرشناها) أي والأرض مهدناها لتستقروا عليها , وبسطناها لكم ومددنا فيها لتنتفعوا بها بالطرقات , وأنواع المزروعات , ولا ينافي ذلك كرويتها , فذلك أمر مقطوع به , فإنها مع كرويتها واسعة ممتدة , فيها السهول الفسيحة والبقاع الواسعة , مع الجبال والهضاب ولهذا قال تعالي :(فنعم الماهدون) أي فنعم الباسطون الموسعون لها نحن , وصيغة الجمع للتعظيم . . .

بسط الأرض وتمهيدها في العلوم الحديثة

أولا : تضاريس الأرض الحالية

تقدر مساحة سطح الأرض الحالية بحوالي 510 ملايين كيلو متر مربع , منها 149 مليون كيلو متر مربع يابسة تمثل حوالي 29

من مساحة سطح الأرض , و 361 مليون كيلو متر مربع مسطحات مائية تمثل الباقي من

مساحة سطح الأرض (71

) , ومن هذه النسبة الأخيرة أرصفة قارية تعتبر الجزء المغمور بالمياه من حواف القارات

وتقدر مساحتها بحوالي 173,6 مليون كيلو متر مربع .

وكل من سطح اليابسة وقيعان البحار والمحيطات ليس تام الأستواء ولكنها متعرجة في

تضاريس متباينة للغاية , فعلي اليابسة هناك سلاسل الجبال ذات القمم السامقة , وهناك

التلال متوسطة الارتفاع , وهناك الروابي , والهضاب , والسهول , والمنخفضات الأرضية

المتباينة .

وفي المسطحات المائية هناك البحار الضحلة

والبحيرات , كما أن هناك البحار العميقة والمحيطات والتي تتدرج فيها الأعماق من

الأرصفة القارية الي المنحدرات القارية ثم الي أعماق وأغوار قيعان المحيطات .

(196/726)

ويقدر ارتفاع أعلي قمة علي سطح اليابسة (وهي قمة جبل إفرست بسلسلة جبال

الهيمالايا) بأقل قليلا من تسعة كيلو مترات (8848 مترا) بينما يقدر منسوب أخفض

نقطة علي سطح اليابسة (وهي في حوض البحر الميت) بحوالي أربعمائة متر تحت مستوي

سطح البحر , وحتي قاع البحر الميت الذي تصل أعمق أجزائه الي حوالي ثمانمائة متر تحت مستوي سطح البحر يعتبر جزءا من اليابسة لأنه بحر مغلق) .

ويصل منسوب أعمق أغوار المحيطات (وهو غور ماريانا في قاع المحيط الهادي بالقرب من جزر الفلبين) الي حوالي الأحد عشر كيلو مترا (11,033 متر) .

وبذلك يصل الفرق بين أعلي وأخفض نقطتين علي سطح الأرض إلي أقل قليلا من العشرين كيلو مترا (19,881 متر) , وبنسبة ذلك الي نصف قطر الأرض (المقدر بحوالي 6371 كيلو مترا) فإن نسبته لا تكاد تتعدي 0,3

.

ويقدر متوسط منسوب سطح اليابسة بحوالي 840 مترا فوق مستوي سطح البحر , بينما يقدر متوسط أعماق البحار والمحيطات بحوالي الأربعة كيلو مترات (3729 مترا . 4500 متر تحت مستوي سطح الماء)

وتضاريس الأرض الحالية هي نتيجة صراع طويل بين العمليات الداخلية البانية والعمليات الخارجية الهدمية والتي استغرقت حوالي الخمسة بلايين من السنين .

ثانيا : الاتزان الأرضي

لما كان سطح الأرض في توازن تام مع تباين تضاريسه , فلابد وأن هذا التباين في التضاريس يعوضه تباين في كثافة الصخور المكونة لكل شكل من أشكال هذه التضاريس , فالمرتفعات

علي اليابسة لابد وأن يغلب علي تكوينها صخور كثافتها أقل من كثافة الصخور المكونة للمنخفضات من حولها , ومن ثم فلابد وأن يكون لتلك المرتفعات امتدادات من صخورها الخفيفة نسبيا في داخل الصخور الأعلي كثافة المحيطة بها ,

(197/726)

ومن هنا كان الاستنتاج الصحيح بأن كل مرتفع أرضي فوق مستوي سطح البحر له امتدادات في داخل الغلاف الصخري للأرض يتناسب مع ارتفاعه , وأن كل جبل من الجبال له جذور عميقة من مكوناته الخفيفة تخترق الغلاف الصخري للأرض لتطفو في نطاق الضعف الأراضي حيث تحكمها قوانين الطفو المعروفة كما تحكم أي جسم طاف في مياه البحار والمحيطات من مثل جبال الجليد والسفن .

وهذه الامتدادات الداخلية للجبال تتراوح من 10 الي 15 ضعف الارتفاع فوق مستوي سطح البحر وذلك بناءا علي كثافة صخورها , وكثافة الوسط الغائرة فيه , ومنسوب إرتفاعها , وكلما برت عوامل التحات والتجوية والتعرية من قمم الجبال فإنها ترتفع إلي أعلي للمحافظة علي ظاهرة الاتزان الأرضي , وتظل عملية الارتفاع إلي أعلي مستمرة حتي تخرج جذور الجبل من نطاق الضعف الأرضي بالكامل , وهنا يتوقف الجبل عن الارتفاع ,

وتظل عمليات التجوية والتحات والتعرية مستمرة حتي تكشف تلك الجذور , وبها من خيرات الله في الأرض ما لا يمكن أن يتكون إلا تحت مثل تلك الظروف العالية من الضغط والحرارة والتي لاتتوفر إلا في جذور الجبال .

ثالثا : بدايات تكون تضاريس سطح الأرض

تشير الدراسات الحديثة للأرض إلي أن هذا الكوكب بدأ علي هيئة كومة من الرماد الذي ليس فيه شيء أثقل من السيليكون , ثم رجم بوابل من النيازك الحديدية التي تحركت الي قلبه بحكم كثافتها العالية فانصهرت وساعدت علي صهر كومة الرماد تلك , وعلي تمايزها الي سبع أرضين : لب صلب داخلي اغلبه الحديد والنيكل , يلية الي الخارج لب سائل يغلب علي تركيبه ايضا الحديد والنيكل , ثم أربعة أو شحة متمايزة تقل كثافتها كما تتناقص نسبة الحديد فيها باستمرار من الداخل الي الخارج , ثم الغلاف الصخري للأرض .

ومع تبرد قشرة الأرض وتيبسها , ومع بدء الأنشطة البركانية العنيفة فيها تصاعدت الغازات والأبخرة التي كونت غلافيها الغازي والمائي , كما

تصاعدت الطفوح والحمم والفتات الصخرية البركانية التي جددت الغلاف الصخري للأرض (مرحلة دحو الأرض) , وبتكون الغلاف المائي للأرض أحيط كوكبنا بمحيط غامر غطي سطحه بالكامل , وتحت مياه هذا المحيط الغامر بدأت عمليات التصدع في تمزيق قاعه الي عدد من الألواح التي بدأت في التحرك متباعدة عن بعضها البعض أو متصادمة مع بعضها البعض أو منزلقة عبر بعضها البعض في حركية (ديناميكية) ساعدها دوران الأرض حول محورها , وتدفق الصهارة الصخرية والحمم البركانية عبر صدوع القاع , في هذا المحيط الغامر , وتيارات الحمل في نطاق الضعف الأرضي من تحتها , وبنمو تلك الجزر البركانية والتحامها مع بعضها تكونت القارة الأم التي طفت بصخورها الخفيفة نسبيا فوق قاع المحيط الغامر المكون اساسا من الصخور البازلتية الأعلي كثافة .

وبتكرر تصادم الألواح الصخرية المختلفة المكونة لقاع المحيط الغامر بكتلة القارة الأم تكونت السلاسل الجبلية التي ألصقت بحواف تلك القارة بالتدريج مضيفة الي مساحتها مساحات جديدة باستمرار , ومبطئة لحركتها التي بدأت سريعة وعنيفة بشكل ملحوظ .

وبارتفاع درجات الحرارة تحت أحزمة محددة من الكتلة القارية الأولي بفعل التحلل النووي للعناصر المشعة فيها , وتكون ما يسمي بالنقاط الحارة , وبدفع تيارات الحمل في نطاق الضعف الأرضي من تحتها تفتتت تلك القارة الأم الي عدد من القارات , وبدأت الحركات الداخلية للأرض في دفع تلك القارات للتباعد عن / أو للتقارب من بعضها البعض , وكذلك

في دفع الألواح الصخرية المكونة لقيعان المحيطات متباعدة عن بعضها البعض لتحقق ظاهرة توسع قيعان البحار والمحيطات , وتجدد مادتها باستمرار , وللتصادم مع مايقابلها من الألواح الصخرية المكونة لكتل القارات لتضيف إليها مزيدا من السلاسل الجبلية باستمرار , ولا تتوقف هذه الحركات الأرضية العنيفة إلا باصطدام قارتين بعد تلاشي قاع المحيط الذي كان يفصل

(199/726)

بينهما تحت إحدي القارتين , وباصطدامهما تتكون اعلي السلاسل الجبلية كما حدث عند اصطدام الهند بالقارة الآسيوية / الأوروبية .

وكما ينغلق محيط من المحيطات باصطدام قارتين كانتا مفصولتين عن بعضهما البعض بمياهه , قد تنقسم قارة من القارات بواسطة تصدع في أحد أجزائها يتحول إلي انهدام علي هيئة واد خسيف او غور عميق من أغوار الأرض تنشط فيه عملية الهبوط الي ما دون منسوب المياه في البحار والمحيطات المجاورة فتندفع مياهها إلي هذا الغور محولة إياه الي بحر طولي شبيه بالبحر الأحمر , تنشط فيه عملية اتساع القاع حتي تحوله الي محيط .

وهذه الدورة من دورات الحركات الأرضية تسمي دورة المحيط والقارة والتي قد يتحول

بواسطتها المحيط الي قارة او يتلاشي بالكامل تحت احدي القارات , وقد تنقسم القارة .

الي قارتين بتكون بحر طولي فيها يظل يتسع حتي يصل الي حجم المحيط .

رابعا : دورات تغير شكل الارض

بهذا المفهوم لنشأة محيطات وقارات الأرض والذي يعرف باسم مفهوم تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض ثبت أن القارات تبدأ بسلاسل من الجبال , شديدة الوعورة , قاسية التضاريس , لاتصلح لزراعة , ولا لصناعة ولا لانتقال , ولا لعمران , ثم يسخر الله تعالي عمليات التجويه المختلفة , وعمليات الحت والنقل والتعرية والترسيب بواسطة كل من الرياح والمياه الجارية والمجالد والجاذبية الأرضية في تفتيت وتعرية التضاريس من الأطواف , والمنظومات والسلاسل والاحزمة الجبلية ومجموعاتها المعقدة , وتحويلها الي تلال متوسطة الارتفاع يتم بريها إلي سهول منبسطة مع الزمن , كما يتم شقها بواسطة أودية عميقة تجري فيها الأنهار , وتحمل رسوبياتها الي السهول والمنخفضات وفي النهاية الي قيعان البحار والمحيطات مكونة دالات عملاقة تتقدم علي حساب البحار التي تصب فيها , وهنا تنتهي دورة تعرية سطح الأرض وتبدأ دورة الصخور وغيرها من الدورات التي لعبت ولاتزال تلعب

ادوارا هامة في تسوية سطح الأرض وتمهيدها , وشق السبل فيها وتكوين التربة اللازمة للزراعة وللإنبات , وتركيز العديد من الثروات المعدنية , وتزويد البحار والمحيطات بالاملاح اللازمة لحفظ مياهها من الفساد , ولتوفير البيئات المتعددة لبلايين الكائنات الحية التي تحيا فيها , والقادرة علي ترسيب سمك هائل من املاح وصخور المتبخرات منها عند تبخرها أو تبخيرها , وبصفة عامة تبدا دورات عديدة لجعل الأرض صالحة للعمران .

وقد استمرت عمليات تشكيل سطح الأرض بواسطة العمليات الخارجية الأصل من التجوية والنقل والتآكل (التحات) والتي تجمع كلها تحت مسمي التعرية اي تعرية الصخور بنقل حطامها الناتج عن عمليات التجوية والتحات إلي مكان آخر لتبقي الصخور مكشوفة تعاني من تلك العمليات من جديد , حتي تتحول المنطقة شديدة التضاريس إلي سهل تحاتي . ويكمل عمليات التعرية عمليات الترسب بمعني توضع الفتات الصخري الناتج عن عمليات التعرية إما في مكان مؤقت أو في مكان تستقر فيه لتكون مختلف أنواع الرسوبيات ومن ثم الصخور الرسوبية . . وعمليا الترسب هذه إما أن تتم بطريقة ميكانيكية أو بطريقة كيميائية , أو بتدخل الكائنات الحية بعد خلقها علي سطح الأرض .

كذلك فإن العمليات الداخلية من مثل الهزات الأرضية , والثورانات البركانية وغيرها من حركات الصهارات الصخرية , والحركات البانية للجبال تلعب دورا هاما في إعداد سطح

الأرض لدورة تضاريسية جديدة تتعرض لعوامل التعرية المختلفة حتي يتم تمهيد سطح الأرض وبسطه , وشق الفجاج والسبل فيه , وتكون المجاري المائية والبحيرات الداخلية والأغوار والمنخفضات الأخري فيه , وتظل الأرض يتبادلها البناء والهدم , في دورات متتالية تسمي باسم دورات شكل الأرض أو دورات التحات .

خامسا : عودة الاتزان الارضي :

لما كانت ظاهرة الاتزان الأرضي تختل بفعل عوامل التعرية , كما تختل بترسب كميات كبيرة من الفتات

(201/726)

الصخري الناتج عنها فوق مناطق أخري من سطح الأرض , فإن قوي الجاذبية الأرضية تلعب دورها في إعادة التوازن من جديد , فعندما تنخفض القشرة الأرضية عند تعرضها لأحمال زائدة فإن ذلك ينتج عن تحرك وزن مكافئ من الصهارة الصخرية في نطاق الضعف الأرضي تحت نفس المنطقة إلي المناطق التي بريت صخورها فتؤدي إلي رفعها , وتسمي العملية الأولي بالتضاغط الأرضي , والثانية بالارتداد التضاغطي , وبذلك تستمر عمليات الاتزان الأرضي مواكبة لعمليات التعرية باستمرار طوال دورات البناء والتحات

. وبذلك يغطي الغلاف الصخري للأرض بغلالة مختلفة السمك من التربة الصلصالية أو الغرينية أو الرملية أو غيرها من الرواسب الصخرية المفروطة من مثل الرمال والحصباء والحصي , ويتباين سمك التربة بتباين نوع الصخور , وتضاريس الأرض , والظروف المناخية السائدة فيها , وعوامل التعرية المؤثرة عليها من رياح أو مياه جارية , أو مجالد أو بحار ومحيطات وتتوقف عمليات التعرية عندما يصل سطح الأرض إلي مستوي سطح البحر والذي يعرف باسم مستوي القاعدة وإذا تغير منسوب هذا المستوي إما بارتفاع اليابسة أو بانخفاض منسوب سطح البحر , فإن عوامل التعرية تنشط من جديد حتي يصل مستوي سطح الأرض إلي مستوي القاعدة الجديد , وعلي العكس من ذلك فإنه إذا ارتفع منسوب الماء في البحار والمحيطات دون اختلاف في منسوب الأرض , توقفت عوامل التعرية عند خط القاعدة الجديد , وقد تؤدي عمليات تسوية سطح الأرض إلي طغيان مياه البحار علي أجزاء من اليابسة كما تؤدي عمليات بناء سطح الأرض إلي انحساره عنها مما كان له أعظم الأثر في تهيئة الأرض لاستقبال الحياة .

وظلت تضاريس الأرض تتعاورها عمليات البناء والهدم منذ اللحظة الأولي لنشأتها إلي يومنا الراهن , وإلي أن يرث الله (تعالي) الأرض ومن عليها , بمعني تكون الجزر البركانية في أواسط المحيطات ونموها إلي قارات صغيرة أو شبه القارات ,

ثم اصطدامها والتحامها مع بعضها البعض علي هيئة قارة أو عدد من القارات يبدأ كل منها بالنمو بإضافة سلاسل جبلية إلي حوافها حتي تصل إلي أقصي حجم لها , ثم تتقارب تلك القارات من بعضها البعض حتي تلتحم في النهاية لتكون قارة واحدة , ثم تعاود هذه القارة التفتت إلي عدد من القارات التي تبدأ في التباعد عن بعضها البعض تاركة بينها محيطات جديدة , ثم تبدأ قيعان المحيطات الجديدة في التصدع وممارسة عملية اتساع وتجديد في الصخور المكونة لها , فتصطدم قيعان المحيطات بالقارات المقابلة مكونة عددا من السلاسل الجبلية التي تضاف إلي حواف القارات فتنمو وتندفع بالتدريج مع هذا النمو إلي قلب القارة حيث تكون عوامل التعرية قد برتها وحولتها إلي مايسمي بالدروع القديمة (الرواسخ) , وتكون سلاسل جبلية جديدة قد تكونت عند حافة القارة , وهكذا تتحول المحيطات إلي قارات , وتتفتت القارات لتفصلها بحار طولية تتسع بالتدريج لتتحول إلي محيطات جديدة في دورة القارة / المحيط , والتي تؤكد لنا أن أرضنا التي بدأت بمحيط غامر تحولت إلي قارة جبلية شديدة التلاحم والوعورة , ثم تعرضت عبر ملايين السنين لعوامل الهدم الخارجية من رياح ومياه جارية ومجالد وعمليات المد والجزر وأعمال الكائنات الحية (منذ خلقها) التي سوت تلك التضاريس وشقت فيها السبل والمجاري المائية والسهول والوديان وكونت التربة التي تنتشر علي هيئة غطاء رقيق للصخور وفي السهول

والمنخفضات وفي قيعان البحار والمحيطات . ويظل هذا الصراع بين عوامل الهدم الخارجية لتضاريس الأرض حتي تصل بها إلي منسوب سطح البحر أو إلي مستوي قريب من ذلك حين يتوقف الصراع , أو تتدخل عوامل البناء الداخلية فتعيد رفع تضاريس الأرض فيبدأ الصراع من جديد .

وفي دورات تكون القارات وتبادلها مع المحيطات , ودورات البناء والهدم علي سطح القارات تتكون السهول الخصبة , والتربة الغنية , والصخور الرسوبية

المختلفة التي تحوي في أحشائها الكثير من الخيرات الأرضية من مثل النفط , والغاز الطبيعي , والفحم , والمياه تحت السطحية , وركازات العديد من المعادن الاقتصادية التي يمكن أن تتكون أثناء عمليات الترسب أو بواسطتها , ولولا ذلك كله ما أنبتت الأرض ولا كانت صالحة للعمران . . . ! !

ومعدلات تجمع الرسوبيات تتباين تباينا شديدا بتباين نوع الراسب المتكون , والعوامل المساعدة علي ترسبه , وقد وجد أن ذلك يتراوح بين المائة والمائتي سنة لتجمع السنتيمتر الواحد من سمك الطبقات المترسبة , بينما تتراوح معدلات التعرية بين ثلاث سنوات

وثلاثمائة سنة لإزالة سنتيمتر واحد من كتلة الصخور , وهذا يعني أن عمليات تسوية سطح الأرض حتي أصبح صالحا للعمران قد استهلكت من الطاقة والوقت مالاتستطيع البشرية مجتمعة عبر عصور وجودها علي سطح هذا الكوكب , وبكل ماجمعت من ثروات أن تقوم بالوفاء بتكلفته , ومن هنا يمن علينا ربنا (تبارك وتعالي) بقوله (عز من قائل)

والأرض فرشناها فنعم الماهدون .

(الذاريات : 48)

وهذه الحقائق لم تصل إلي علم الانسان إلا في القرنين الأخيرين , وفي العقود المتأخرة منهما , ولم تتبلور أمام أنظار العلماء إلا منذ عقود قليلة , وورودها في كتاب الله الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة من السنين هو شهادة حق علي أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق , وأن النبي الخاتم الذي تلقاه كان موصولا بالوحي ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض , فصلي الله وسلم وبارك عليه وعلي آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلي يوم الدين والحمد لله رب العالمين .

قضايا و اراء

42091 . . . السنة 126 –العدد . . . 2002 . . . مارس . . . 4 . . . 20 من ذي الحجة 1422 ه . . . الاثنين

من اسرار القران

الاشارات الكونية في القران الكريم ومغهي دلالتها العلمية (37)

. . . وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين

بقلم د . هغلول النجار

(204/726)

هذه الاية الكريمة جاءت في الخمس الاول من سورة فصلت , وهي سورة مكية , واياتها اربع وخمسون , وقد سميت بهذا الاسم لوصفها القران الكريم في مطلعها بانه كتاب فصلت اياته اي ميهت لفظا ومعني , لتناولها كلام الله وهدايته الي الثقلين باسلوب معجه في بيانه , ونظمه , وبلاغته , ومحتواه لتناوله قضايا الدين بركائهه الاربع الاساسية : العقيدة , والعبادة , والاخلاق , والمعاملات . . وهي اما من صميم الغيب المطلق الذي لا سبيل للانسان في الوصول اليه الا ببيان من الله تعالي , بيانا ربانيا خالصا لا يداخله ادني قدر من التصورات البشرية كقضايا العقيدة , او هي اوامر ربانية خالصة كقضايا العبادة , والله تعالي يحب ان يعبد بما امر , او هي ضوابط للسلوك والمعاملات , والانسان كان عاجها دوما عن ان يضع لنفسه بنفسه ضوابط لسلوكه وتشريعات لمعاملاته , ومن هنا كان تميه القران الكريم .

وتبدا سورة فصلت بالحرفين المقطعين حم ولذا تسمي احيانا باسم حم السجدة لان بها سجدة تلاوة واحدة ; والحروف المقطعة التي افتتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القران الكريم , والتي تضم نصف اسماء حروف الهجاء الثمانية والعشرين , تعتبر سرا من اسرار القران الكريم التي لا يعلمها الا الله (تعالي) .

وبعد هذا الاستفتاح تحدثت السورة عن الوحي بالقران الكريم ووصفته بانه تنهيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت اياته قرانا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا . . . .

وتؤكد السورة الكريمة هذه الحقيقة في مقام اخر منها يقول فيه الحق (تبارك وتعالي) : ولو جعلناه قرانا اعجميا لقالوا

لولا فصلت اياته . . . وتشير سورة فصلت الي كتاب الله في عدد من اياتها , مؤكدة انه كلام الله الخالق , الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه , وتشير الي كتاب موسي (عليه السلام) واختلاف قومه فيه , وتلفت النظر الي ان القران الكريم هو للذين امنوا هدي وشفاء , وهو في اذان الذين لا يؤمنون به وقر وهو عليهم عمي . . . ! ! !

وتتحدث السورة عن مواقف المعرضين عن كتاب الله , وعن انغلاق قلوبهم دون هدايته ,

ورفض اسماعهم للحق الذي جاء به , وعجه طبائعهم عن موافقة دعوته الي توحيد الله الخالق , والاستقامة علي اوامره , واجتناب نواهيه , والانصياع لتحذيره المتكرر من اخطار الوقوع في الكفر بالله (تعالي) , او الشرك به , او منع شرائعه , وقارنت السورة الكريمة بين الموقف الجاحد لهؤلاء الكفار والمشركين وما سوف ينالهم يوم القيامة من الويل والثبور , وبين موقف المؤمنين الذين سوف يعطيهم ربهم اجرا غير ممنون .

وفي محاجة ملجمة للكافرين استشهدت سورة فصلت علي وجود الله (تعالي) , وعلي الوهيته , وربوبيته , ووحدانيته , وعلي طلاقة قدرته بخلق الارض في يومين (اي علي مرحلتين) ; وبخلق الجبال , ومباركة الارض , وتقدير اقواتها فيها في اربعة ايام (اي اربع مراحل) من اجل تهيئتها للعمران , والمرحلتان الاوليان داخلتان في المراحل الاربع التالية ; ثم في مرحلتين تاليتين اتم الله (تعالي) بناء الكون , وجعل السماوات سبعا , وهين السماء الدنيا منها بالنجوم وحفظها بها .

وبعد استعراض هذه الايات الكونية المبهرة تنذر السورة جميع المعرضين عن دين الله , والكافرين به بعقاب من مثل عقاب اقوام عاد وثمود , وعقاب امم قد خلت من قبلهم من الجن والانس , وفصلت السورة شيئا مما حدث لكل منهم , وكيف نجي الله المتقين من بينهم .

واستشهدت السورة الكريمة ببعض مشاهد العذاب في الاخرة , ومن اخطرها ان الله (

تعالي) سوف ينطق سمع , وابصار , وجلود اعدائه ليشهدوا عليهم بما كانوا يعملون ,

وتشير السورة الي ما سوف يدور من حوار بين هؤلاء الخاطئين وجوارحهم التي تشهد علي جرائمهم . . . ! ! !

وتحذر السورة الكريمة الكافرين من الجحود بايات الله , والانصراف عن الاستماع الي القران الكريم , ومحاولة اللغو فيه اذا قرئ عليهم , وتهددهم بعذاب شديد , يوقفهم موقف الندم والاعتذار , ساعة لا ينفع الندم ولا يجدي الاعتذار . . . ! ! !

وتتحدث سورة فصلت عن شيء من مبشرات المؤمنين الذين امنوا بالله ربا , وبالاسلام دينا , وبسيدنا محمد (صلي الله عليه وسلم) نبيا ورسولا , واستقاموا علي منهج الله بتنهل الملائكة عليهم في الدنيا وفي الاخرة , وفي لحظات الموت وسكراته , وحشرجة الصدر وضيقه , مطمئنة اياهم برضا الله عنهم وغفرانه لهم , ورحمته بهم , وبالنعيم الذي ينتظرهم . . . ! ! !

وتقارن السورة بين حسن حال المؤمنين في الدنيا والاخرة , وسوء حال الكافرين والمشركين في الدارين , وتتحدث عن شيء من اخلاق الدعاة الي الله , واساليبهم في الدعوة اليه ,

وتمايه بين الخير والشر , وبين الحسنة والسيئة .

وتثبت الايات رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بحقيقة ان ما يقال له من الكافرين والمشركين قد قيل للرسل من قبله ; وان الله (تعالي) صاحب المغفرة هو في الوقت نفسه ذو عقاب اليم . . . ! ! !

وتؤكد السورة ان من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها . . . وان الله (تعالي) ليس بظلام للعبيد , فهو احكم الحاكمين , واعدل العادلين , وانه (تعالي) يرد اليه علم الساعة , وعلم كل شيء . . . ! ! !

(207/726)

وتنتهي السورة الي الحديث عن شيء من طبائع النفس الانسانية وتختتم بهذا الوعد الالهي القاطع بان الله (تعالي) سوف يكشف للانسان (في مستقبل بعد همن الوحي) من الحقائق العلمية في افاق الكون وفي دخائل النفس الانسانية وفي داخل الجسد البشري ما يؤكد صدق كل ما جاء في كتاب الله من الاشارات الي الكون ومكوناته وظواهره , والي كل ما يتعلق بالانسان ومراحل خلقه , وبناء جسده , وحديث نفسه , واذا ثبت سبق القران بالاشارة الي تلك الحقائق من قبل ان تصل الي علم الانسان بعدد متطاول من القرون ,

وثبت صدق القران الكريم في الاشارة اليها بقدر من الدقة والشمول والاحاطة التي لم يصل اليها علم الانسان بعد في همن التقدم العلمي والتقني المذهل الذي نعيشه . . . اذا ثبت كل ذلك اصبحت تلك الاشارات الكونية والانسانية في كتاب الله من اعظم الايات الدالة علي انه الحق , والدالة علي صدق حديثه عن الغيب , وعن الدين بركائهه الاساسية , وصدق اخباره عن الامم السابقة , وعن البعث والحساب والميهان والصراط والجنة والنار , وكان الشك في امكان البعث هو احد الحجج الرئيسية لكفر الكافرين , واعراضهم عن الايمان بدين الله القويم , ولذلك تختتم السورة بقول الحق (تبارك وتعالي) :

سنريهم اياتنا في الافاق وفي انفسهم حتي يتبين لهم انه الحق اولم يكف بربك انه علي كل شيء شهيد * الا انهم في مرية من لقاء ربهم الا انه بكل شيء محيط . (فصلت :54,53) .

ومن الايات الكونية التي استشهدت بها السورة الكريمة علي طلاقة القدرة الالهية : خلق الارض في يومين (اي علي مرحلتين) , وخلق الجبال , ومباركة الارض بتهيئتها للعمران , وتقدير اقواتها فيها

في اربعة ايام (اي اربع مراحل) ; واتمام بناء الكون , وجعل السماوات سبعا , والارضين سبعا , وتهيين السماء الدنيا بالنجوم , وجعلها حفظا لها , وتبادل كل من الليل والنهار , وحركة كل من الشمس والقمر , واهتهاه الارض وربوها (اي انتفاخها وارتفاعها الي اعلي) عند انهال الماء عليها , ودلالة ذلك الاحياء للارض علي امكان البعث واحياء الموتي . وكل واحدة من هذه القضايا لا يكفيها مقال منفصل , ولذا فانني سوف اقتصر هنا علي قضية واحدة منها الا وهي قضية تقدير الاقوات في الارض علي اربع مراحل متتالة , وقبل الدخول في هذا الموضوع لابد من التعرض للدلالة اللغوية لالفاظ الاية ولاقوال المفسرين السابقين فيها .

الدلالة اللغوية لالفاظ الاية الكريمة :

(1) (بارك) : (البركة) هي ثبوت الخير الالهي في الشيء بنمائه وهيادته بغير اسباب مدركة ; و (المبارك) هو ما فيه ذلك الخير الالهي ; ولما كان الخير الالهي يصدر من حيث لا يحس , وعلي وجه لا يحصي , ولا يحصد قيل لكل ما يشاهد منه هيادة غير محسوسة انه (مبارك) , وان فيه (بركة) ; و (بارك) الشيء اي اودع فيه الخير الالهي ; ويقال : (بارك) الله لك , وفيك , وعليك , و (باركك) اي اودع خيره فيك ; و (تبارك) الله اي اختص تعالي بكل خير ; ويقال : (تبرك) بالشيء او بالفرد من البشر اي تيمن به .

(2) (قدر) : يقال في العربية (قدر) او (قدر) الشيء (يقدره) (تقديرا) اي حدد

كميته ; و (القدر) كمية الشيء او مبلغه , و (مقدار) الشيء للشيء المقدر له او به وقتا كان او همنا او كيلا هو كميته ; يقال :(قدرته) و (قدرته) . ويقال :(قدره) اي اعطاه (القدرة) وذلك من مثل قولك :(قدرني) الله علي كذا اي قواني عليه ; و (تقدير) الله الاشياء علي وجهين : احدهما باعطاء القدرة وذلك من مثل قوله (تعالي) : فقدرنا

فنعم القادرون (المرسلات :23) , والثاني بان يجعلها علي مقدار مخصوص , ووجه مخصوص حسبما اقتضت الحكمة ; وذلك من مثل قوله (تعالي) : قد جعل الله لكل شيء قدرا (الطلاق :3) . وقوله : انا كل شيء خلقناه بقدر (القمر :49) , وقوله : . . . والله يقدر الليل والنهار علم ان لن تحصوه . . . (المهمل :20) , وقوله : من نطفة خلقه فقدره (عبس :19) , وقوله : والذي قدر فهدي (الاعلي :3) .

و(التقدير) من الانسان علي وجهين احدهما : التفكير في الامر بحسب نظر العقل وبناء الامر عليه وذلك محمود ; والثاني ان يكون بحسب التمني والشهوة وذلك مذموم يقول فيه الحق (تبارك وتعالي) : انه فكر وقدر فقتل كيف قدر

(المدثر :19,18) .

(3)(اقوات):(القوت) هو كل ما (يقتات) به او ما يمسك الرمق اي ما يقوم به بدن الانسان (وغيره من الكائنات الحية) من الطعام , وجمعه (اقوات); وفعله (قات) او (قوت); فيقال :(قاته)(يقوته)(قوتا) اي اطعمه قوته ; و (اقاته)(يقيته)(قوتا) اي جعل له ما يقوته ; و (استقاته)(يستقيته)(استقاتة) اي ساله (القوت); ويقال :(قته)(فاقتات); وهو (يتقوت) بكذا او (يقتات) علي كذا .

كذلك يقال :(اقات) علي الشيء اقتدر عليه ; و (المقيت) هو القائم علي الشيء يحفظه ويقيته , وقد يقصد به المقتدر والحافظ والشاهد , و (المقيت) من اسماء الله الحسني ومن معانيه خالق الاقوات وموهعها علي الخلائق .

(4)(ايام):(اليوم) في العربية وجمعه (ايام) الفترة من طلوع الشمس الي غروبها او ما يعبر عنه بالنهار وهو فترة النور بين ليلين متتاليين ; وقد يعبر بلفظة (اليوم) عن فترتي النهار والليل معا وهو ما يعرف (باليوم الكامل) او بيوم الارض الشمسي ويمثل الفترة التي تتم فيها الارض دورة كاملة حول محورها امام الشمس , ويعبر عنها

بالفترة الهمنية بين شروقين متتاليين او بين غروبين متتاليين للشمس ويساوي (في همانا) اربعا وعشرين ساعة كاملة .

ويقال في العربية :(من اول يوم) اي من اول ايام تاريخ محدد وقد يعبر بلفظ (اليوم) عن يوم محدد في السنة او في الشهر او في الاسبوع , وقد يعبر به عن الشدة التي يمر بها الفرد او الجماعة من الناس وذلك مثل قولهم :(يوم كيوم عاد) او (يوم) من (ايام) الدهر , وقد يعبر به عن واقعة محددة في التاريخ (كيوم الفتح) , او ايام الاخرة , او ايام الله التي لا يعرف مداها الا هو (سبحانه وتعالي) . وقد يعبر (باليوم) عن مدة من الهمان ايا كان طولها , او عن فترة من الفترات او مرحلة من المراحل بغض النظر عن الهمن الذي استغرقته .

وقد استخدمت لفظة (يوم) في القران الكريم بهذه المعاني كلها .

(5) سواء . اي يعدل في الحكم بين الفرقاء ,(فالسواء) العدل , وفعله (سوا)(يسوي)(تسوية) و (سواء) اي عدل ; و (ساوي)(يساوي)(تسوية) اي عادل وتسوية الشيء جعله سواء , فالمساواة هي المعادلة المعتبرة في كل شيء ; ويقال : قسم الشيء بينهما بالسوية اي بالعدل ; و (سوي) و (سواء) الشيء وسطه او غيره , وتاتي بمعني العدل ,(كما تاتي بالفتح والكسر والضم للسين ; فاذا ضممت السين او كسرتها قصرت , واذا فتحتها مددت) ; يقال : مكانا (سوي) و (سوي) و (سواء) اي عدل ووسط ; و (سواك) و (سواك) و (سوائك) اي غيرك .

يقال : هما في الامر (سواء) او (سواءان) , وهم (سواء) او (اسواء) او (سواسية) .

ويقال :(استوي) الشيء بمعني اعتدل والاسم (السواء) ; و (السي) و (السوي) صفة لكل ما يصان من الافراط والتفريط من حيث القدر والكيفية وجمعه (اسواء) .

ومكان (سوي) و (سوي) و (سواء) بمعني وسط اي يستوي طرفاه .

اقوال

المفسرين في تفسير قوله (تعالي) :

(211/726)

قل ائنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين

[فصلت :10,9] .

ذكر ابن كثير (يرحمه الله) ما نصه : هذا انكار من الله تعالي علي المشركين الذين عبدوا معه غيره , وهو الخالق لكل شيء , المقتدر علي كل شيء (قل ائنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له اندادا) . . اي نظراء وامثالا تعبدونها معه ,(ذلك رب العالمين) اي الخالق للاشياء هو رب العالمين كلهم , وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالي :(خلق

السماوات والارض في ستة ايام) ففصل ههنا ما يختص بالارض مما اختص بالسماء , فذكر انه خلق الارض اولا لانها كالاساس , والاصل ان يبدا بالاساس , ثم بعده بالسقف , كما قال عه وجل :(هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا ثم استوي الي السماء فسواهن سبع سماوات) الاية , فاما قوله تعالي :(أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها) الي قوله :(والارض بعد ذلك دحاها اخرج منها ماءها ومرعاها) , ففي هذه الاية ان دحو الارض كان بعد خلق السماء , فالدحو مفسر بقوله :(اخرج منها ماءها ومرعاها) وكان هذا بعد خلق السماء , فاما خلق الارض فقبل خلق السماء بالنص . . . , وخلق الارض في يومين , ثم خلق السماء , ثم استوي الي السماء فسواهن في يومين اخرين , ثم دحي الارض ; ودحيها ان اخرج منها الماء والمرعي , وخلق الجبال والرمال والجماد والاكام , وما بينهما في يومين اخرين , فذلك قوله تعالي :(دحاها) , وقوله :(خلق الارض في يومين) فخلق الارض وما فيها من شيء في اربعة ايام وخلق السماوات في يومين . . . .

وذكر صاحبا تفسير الجلالين (رحمهما الله) ما نصه :(قل ائنكم) بتحقيق الهمهة الثانية , وتسهيلها , وادخال الف بينهما بوجهيها وبين الاولي , وتركه (

لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين) . . (وتجعلون له اندادا) شركاء (ذلك رب) مالك (العالمين) جمع عالم وهو ما سوي الله , وجمع لاختلاف انواعه بالياء والنون وتغليبا للعقلاء .

(وجعل) مستانف ولايجوه عطفه علي صلة (الذي) للفاصل الاجنبي (فيها رواسي) جبالا ثوابت تثبتها (من فوقها وبارك فيها) بكثرة المياه والهروع والضروع (وقدر) قسم (فيها اقواتها)

للناس والبهائم (في) تمام (اربعة ايام) اي الجعل وما ذكر معه . . (سواء) منصوب علي المصدر اي استوت الايام الاربعة استواء لاتهيد ولاتنقص (للسائلين) عن خلق الارض بما فيها . .

وجاء في التعليق بالهامش مايلي :

قوله تعالي :(في يومين) , ثم قوله بعد ذلك :(في اربعة ايام , ثم قوله :(فقضاهن سبع سماوات في يومين) , هذا تفصيل لمثل قوله تعالي في سورة ق (ولقد خلقنا السماوات والارض وما بينهما في ستة ايام وما مسنا من لغوب) اي : تعب واعياء , فتم خلق الارض وتقدير اقواتها في مقدار اربعة ايام , وتم خلق السماوات في مقدار يومين , كل ذلك بلا ترتيب همني , لان (ثم) في مثل قوله تعالي :(ثم استوي الي السماء وهي دخان) لاتفيد في حق الله تعالي ترتيبا همنيا , لانه تعالي لايجري عليه همان , فكان خلق السماوات والارض

وما بينهما في مقدار ستة ايام من غير تحديد ولاتعيين علي الصحيح . . . .

وذكر صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة) مانصه : . . . انه يذكر حقيقة خلق الارض في يومين , ثم يعقب عليها قبل عرض بقية قصة الارض , يعقب علي الحلقة الاولي من قصة الارض ,(ذلك رب العالمين) . . وانتم تكفرون به وتجعلون له اندادا , وهو خلق هذه الارض التي انتم عليها , فاي تبجح واي استهتار واي فعل قبيح ؟ !

وما هذه الايام : الاثنان اللذان خلق فيهما الارض , والاثنان اللذان جعل فيهما الرواسي وقدر فيهما الاقوات , واحل فيها

البركة , فتمت بهما الايام الاربعة ؟

(213/726)

انها بلا شك ايام من ايام الله التي يعلم هو مداها , وليست من ايام هذه الارض . . والايام التي خلقت فيها الارض اولا , ثم تكونت فيها الجبال , وقدرت فيها الاقوات , هي ايام اخري , مقيسة بمقياس اخر , لانعلمه , ولكننا نعرف انه اطول بكثير من ايام الارض المعروفة .

واقرب مانستطيع تصوره وفق ما وصل اليه علمنا البشري انها هي الاهمان التي مرت بها

الارض طورا بعد طور , حتي استقرت وصلبت قشرتها واصبحت صالحة للحياة التي نعلمها . . . .

وبارك فيها وقدر فيها اقواتها . . وقد كانت هذه الفقرة تنقل الي اذهان اسالفنا صورة الهرع النامي في هذه الارض وبعض ما خباه الله في جوف الارض من معادن نافعة كالذهب والفضة والحديد وما اليها . . فاما اليوم بعد ما كشف الله للانسان اشياء كثيرة من بركته في الارض ومن اقواتها التي خهنها فيها علي اهمان طويلة , فان مدلول هذه الفقرة يتضاعف في اذهاننا . .

وجاء في صفوة البيان لمعاني القران (علي كاتبه من الله الرضوان) مانصه :

(قل ائنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين) اي اوجدها في مقدار يومين من ايام الدنيا . وقيل : اليوم منهما كالف سنة من ايامنا .

والاية تنديد بالمشركين , لتماديهم في الشرك مع ظهور الدلائل الموجبة للايمان بوحدانيته تعالي وكمال قدرته . (اندادا) امثالا من مخلوقاته تعبدونها . (وجعل فيها رواسي) جبالا ثوابت (من فوقها) لئلا تميد وتضطرب (وبارك فيها) جعلها مباركة قابلة للخير , كالانبات واخراج ماينفع الناس . (وقدر فيها اقواتها) جعل اقوات اهلها التي يحتاجون اليها في معايشهم علي مقادير معينة , بحيث جعل في كل قطر ماينا سب اهله , ليكون الناس

محتاجا بعضهم الي بعض فيما يرتفقون به . وهو سبب عمارة الارض ونظام العالم . (في اربعة ايام) اي خلق ما في الارض في تمام اربعة ايام (سواء) مستوية كاملة .

(214/726)

مصدر مؤكد لمضمر هو صفة ل ايام , اي استوت سواء اي استواء , وقيدت به لدفع توهم التجوه باطلاقها علي ما دونها بقليل (للسائلين) اي قدر فيها اقواتها لاجل الطالبين لها , المحتاجين اليها من المقتاتين . فمدة خلق كل من الارض وما فيها مقدار يومين . وتمام المدتين اربعة ايام كاملة .

وذكر اصحاب المنتخب في تفسير القران الكريم جهاهم الله خيرا .

مانصه قل ايها الرسول لهؤلاء المشركين : عجبا لكم ! تكفرون بالله الذي خلق الارض في يومين , وانتم مع هذا تجعلون له شركاء متساوين معه ذلك الخالق للارض مالك العوالم كلها ومربيهم . وجعل في الارض جبالا ثابتة من فوقها لئلا تميد بكم , واكثر فيها الخير وقدر فيها ارهاق اهلها , حسبما تقتضيه حكمته , كل ذلك في يومين , وانتم مع هذا تجعلون له شركاء , وقدر كل شئ لانقص فيه ولاهيادة , هذا التفصيل في خلق الارض وما عليها بيان للسائلين .

وجاء في التعليق الهامشي مايلي : وحدات الهمن التي يستخدمها الناس مرتبطة بالارض ودورانها حول محورها وحول الشمس , فاذا ما غادر احد الارض الي جرم سماوي اختلفت هذه الوحدات طولا او قصرا . والايات الكريمة تشير الي هذه الحقيقة والي ان الهمن نسبي . .

وذكر صاحب صفوة التفاسير (جهاه الله خيرا) مانصه :(قل ائنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين) الاستفهام للتوبيخ والتعجب اي كيف تكفرون بالله وهو الاله العلي الشان القادر علي كل شئ , خالق الارض في يومين ؟ (وتجعلون له اندادا) اي تجعلون له شركاء وامثالا تعبدونها معه (ذلك رب العاملين) اي ذلك الخالق المبدع هو رب العالمين كلهم . . (وجعل فيها رواسي من فوقها) اي جعل في الارض جبالا ثوابت لئلا تميد بالبشر (وبارك فيها) اي اكثر خيرها بما جعل فيها من المياه والهرع والضروع (وقدر فيها اقواتها) اي قدر ارهاق اهلها ومعاشهم قال مجاهد : خلق فيها انهارها واشجارها

(215/726)

ودوابها (في اربعة ايام سواء للسائلين) اي في تمام اربعة ايام كاملة مستوية بلا هيادة ولانقصان للسائلين عن مدة خلق الارض وما فيها . . .

ايام الخلق الست في منظور العلوم الكونية

يري اهل العلوم المكتسبة مراحل خلق الكون الست حسب الترتيب التالي والله (تعالي)

اعلم بخلقه :

(1) مرحلة الرتق : وهي مرحلة الجرم الاولي الذي بدا منه خلق السماوات والارض

(2) مرحلة الفتق : وهي مرحلة انفجار الجرم الاولي وتحوله الي سحابة من الدخان

(3) مرحلة تخلق العناصر في السماء الدخانية عبر تكون نويات غاهي الايدروجين والهيليوم وبعض نويات الليثيوم .

(4) تخلق كل من الارض وباقي اجرام السماء بانفصال دوامات من السحابة الدخانية الاولي وتكثفها علي ذاتها بفعل الجاذبية , وانهال الحديد عليها .

(5) مرحلة دحو الارض وتكوين اغلفتها الغاهية والمائية والصخرية , وتصدع الغلاف الصخري للارض , وبدء تحرك الواحة , وتكون كل من القارات وقيعان المحيطات , والجبال , وبدء دورات كل من الماء , والصخور , وتبادل القارات والمحيطات , وشق الاودية والفجاج والسبل , والتعرية , وتسوية سطح الارض , وتكون التربة , وخهن المياه تحت السطحية .

(6) مرحلة خلق الحياة من ابسط صورها الي خلق الانسان

ويقدر عمر الكون بما يتراوح بين 10 و 15 بليون سنة بينما يقدر عمر اقدم صخور

الارض بنحو 4.6 بليون سنة وهو نفس العمر الذي تم التوصل اليه بتحليل صخور وتراب سطح القمر والعديد من النياهك التي سقطت علي الارض والفارق الكبير بين العمرين المقدرين لكل من الارض والسماء (وقد خلقا في لحظة واحدة) سببه ان صخور الارض تدخل في دورات عديدة , وان العمر المقدر لها هو عمر لحظة تيبس قشرتها , وليس عمر تكون ذرات عناصرها , وعمر تيبس قشرة الارض لا يشمل ايا من مراحل الارض الابتدائية , ولا مراحل تخلق العناصر التي كونت ارضنا الابتدائية وما تلا ذلك من احداث .

(216/726)

وتشير الايات القرانية (29) من سورة البقرة , و (129) من سورة فصلت الي سبق خلق الارض لعملية تسوية السماء الدخانية الاولية الي سبع سماوات , ويبدو ان المقصود هنا بالسبق هو خلق عناصر الارض , والذي تلاه تجميع تلك العناصر علي هيئة الارض الابتدائية والتي تم رجمها بوابل من النياهك الحديدية , وتمايهها الي سبع ارضين , ثم دحوها وتكوين اغلفتها الغاهية والمائية والصخرية وتشكيلها الي صورتها الحالية وذلك لان خلق السماوات والارض عمليتان متلاهمتان ولايمكن لاحداهما ان تنفصل عن الاخري .

تقدير اقوات الارض في منظور العلوم الكونية

الارض هي ثالث الكواكب بعدا عن الشمس وهي تجري حول هذا النجم في فلك بيضاني قليل الاستطالة (اهليلجي) بسرعة تقدر بنحو 30 كيلو مترا في الثانية لتتم دورتها هذه في سنة شمسية مقدارها 365.25 يوم تقريبا , وتدور حول نفسها بسرعة مقدارها نحو 30 كيلومترا في الدقيقة , لتتم دورتها هذه في يوم مقداره 24 ساعة تقريبا , يتقاسمه ليل ونهار بتفاوت يهيد وينقص حسب الفصول التي تتبادل بسبب ميل محور دوران الارض علي دائرة البروج بهاوية مقدارها 66.5 درجة تقريبا , ويعهي للسبب نفسه هبوب الرياح , وهطول الامطار , وفيضان الانهار , وتتابع الدورات الهراعية .

ويقدر متوسط المسافة بين الارض والشمس بنحو 150 مليون كيلو متر وهذه المسافة التي حددتها كتلة الارض بتقدير من الخالق (سبحانه وتعالي) تلعب دورا مهما في تقدير الاقوات في الارض وذلك لان كمية الطاقة التي تصل من الشمس الي كل كوكب في مجموعتها تتناسب تناسبا عكسيا مع بعد الكوكب عن الشمس , وكذلك تتناسب سرعة جريه في مداره حولها , والشمس هي المصدر الوحيد لجميع صور الطاقة الارضية ومن هنا تتضح الحكمة البالغة من تحديد كل من كتلة الارض ومتوسط بعدها عن الشمس , فقد قدرت الطاقة التي تشعها الشمس من كل سنتيمتر مربع علي

سطحها بنحو عشرة احصنة ميكانيكية يصل الي الارض منها جهء من بليوني جهء من هذه الطاقة الهائلة التي تشكل مصدرا مهما من مصادر اقوات الارض بالقدر المناسب لنوعية الحياة الارضية .

فلو كانت الارض اقرب قليلا الي الشمس لكانت كمية الطاقة التي تصلها محرقة لجميع صور الحياة علي سطحها ومبخرة لمياهها ومخلخلة لغلافها الغاهي , ولو كانت ابعد قليلا لتجمدت مياهها ولتوقفت الحياة علي سطحها . ويترتبط ببعد الارض عن الشمس بقية ابعاد هذا الكوكب , ويقدر حجم الارض بنحو مليون كيلو متر مكعب , ومتوسط كثافتها بنحو 5.52 جم / سم 3, وعلي ذلك تقدر كتلتها بنحو ستة الاف مليون مليون مليون طن , وهذه الابعاد قد حددها ربنا (تبارك وتعالي) بدقة بالغة , فلو كانت اكبر قليلا او اصغر قليلا ما كانت صالحة للحياة الارضية .

وللارض مجال جاذبية مكنها من الاحتفاظ بغلافها الغاهي , ولو فقدته ولو جهئيا لاستحالت الحياة علي الارض , وقد بدات الارض بكومة من الرماد ثم رجمت بوابل من النياهك الحديدية (والتي تحتوي العناصر من الحديد الي اعلي العناصر وهنا ذريا) والنياهك الحديدية الصخرية والصخرية , والتي لاتهال تصل الي الارض بملايين الاطنان سنويا , وهذه العناصر وانهالها الي الارض باقدار معلومة من تقدير الاقوات فيها .

ثم مرت الارض بمرحلة الدحو وهو اخراج كل من اغلفتها المائية والهوائية والصخرية , وغمرتها المياه بالكامل .

وبدات عملية الدحو بتصدع الغلاف الصخري للارض واندفاع الصهارة الصخرية بملايين الاطنان عبر تلك الصدوع , وعبر فوهات البراكين , ومن ثم بدات عملية تحرك الواح الغلاف الصخري للارض والتي نتج عنها تكون الجهر البركانية في وسط ذلك المحيط الغامر , ثم اخذت تلك الجهر البركانية في التدافع تجاه بعضها البعض لتكون اليابسة بسلاسلها الجبلية الناتجة عن تصادم تلك الالواح الصخرية وبدات دورة التعرية تفتت صخور الارض لتكون

التربة , وبدات دورات الصخور , والمياه , وتكون القارات وتفتتها حتي اصبحت الارض مهياة لاستقبال الحياة .

وبما ان عمر اقدم صخور الارض يقدر بنحو 4.600 مليون سنة , وان اقدم اثر للحياة الارضية يقدر عمره بنحو 3.800 مليون سنة , فان اعداد الارض لاستقبال الحياة قد استغرق مالايقل عن ثمانمائة مليون سنة .

وقد خلق الله تعالي الحياة الباكرة في مياه البحار والمحيطات لانها كانت الوسط المليء بالاملاح المذابة التي حملتها الامطار والسيول والانهار من اليابسة الي قيعان البحار والمحيطات , وفي هذه الاثناء كانت صخور الارض تفتت لتكوين التربة , وكانت مياه الامطار تختهن فيها في تهيئة حكيمة لاستقبال الحياة الارضية .

ومن حكمة الله البالغة في الخلق ان النبات كان سابقا في وجوده علي الحيوان لان الله (تعالي) قد اعطاه القدرة علي صناعة غذائه بعملية التمثيل الضوئي مستفيدا من طاقة الشمس وغاهات الجو ومياه ومعادن الارض , اما الحيوان فيعتمد في غذائه علي النبات او علي افتراس غيره من الحيوان اذا كانت له القدرة علي ذلك .

واقدم اثر للحياة علي اليابسة لايتعدي عمره 450 مليون سنة وقد بدا بالنباتات الارضية التي عمرت الارض وسادت سيادة هائلة مما ساعد علي تكوين راقات الفحم من بقاياها في عصر سمي باسم عصر الفحم وامتد الي نحو 300 مليون سنة مضت , واستمرت الحياة الارضية في الاهدهار حتي اكتملت بخلق الملايين من انواع الحياة النباتية والحيوانية , ولعب كل نوع منها دورا مهما في استقبال المراحل التالية عليه , كما لعبت بقاياها دورا اهم في تكوين النفط والغاه , ولعبت عوامل التعرية والحركات البانية للجبال دورها في تمهيد الارض وتهيئتها لاستقبال هذا المخلوق المكرم المعروف باسم الانسان ,

والذي لا يكاد اقدم اثر له علي الارض يتعدي المائة الف من السنين .

فسبحان الذي خلق الأكوان , ومنها الارض , وهياها لاستقبال هذا

(219/726)

المخلوق المكرم بهذه المراحل المتطاولة وهو القادر علي ان يقول للشيء كن فيكون .

وسبحان الذي بارك الارض , وقدر فيها اقواتها في اربع مراحل متتالية : هي الرتق , الفتق , الدحو , وارساء الجبال فقال (عه من قائل) معاتبا الكافرين والمشركين من عباده : قل ائنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين * .

(فصلت :10,9) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(220/726)

بحث ثالث :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(78) ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾

بقلم: د . زغلول النجار

هذه الآية الكريمة جاءت في الخمس الأخير من سورة الذاريات , وهي سورة مكية , وآياتها ستون آية بعد البسملة , ويدور محورها الرئيسي حول قضية العقيدة الاسلامية ومن ركائزها التي جاءت بها هذه السورة المباركة مايلي :

(1) الايمان بالله (تعالي) رب السماء والأرض , إلها واحدا أحدا . بغير شريك ولاشبيه ولامنازع .

(2) الايمان بالبعث بعد الموت , وبالجزاء في الآخرة , علي الرغم من اختلاف الناس بشأنهما , لأنه لايصرف عن الايمان بحتميتهما إلا صاحب هوي أو جنون .

(3) الإيمان بالنار وعذابها , وبأنها مآل الكافرين والمشركين , والضالين المكذبين بالله وملائكته , وكتبه ورسله , المنكرين ليوم الدين , والقائلين فيه بالظن والتخمين , أو اللاهين عنه والمتشككين في وقوعه , حتي يسألوا عنه سؤال المستهزئ به والمستبعد لامكانية تحقيقه . . . ! ! وهؤلاء تؤكد السورة الكريمة حتمية هلاكهم وورودهم إلي النار التي كانوا

بها يستعجلون .

(4) الايمان بالجنة ونعيمها , وبأنها مآل المتقين , الذين يحسنون العمل في الدنيا , ومن مظاهر هذا العمل الحسن : قلة النوم بالليل , وكثرة الاستغفار بالأسحار , وإخراج المال للسائل والمحروم .

(5) الايمان بملائكة الله المقسمات الأمور المقدرة بين الخلق علي ما أمرت به .

(6) الايمان برسل الله وأنبيائه أجمعين , الذين أرسلوا لانذار الناس من أخطار الشرك بالله ومن عذاب يوم عظيم , وطولبوا بمداومة التذكير والوعظ بذلك .

(7) الايمان بكل ما جاء بالقرآن الكريم عن عقاب العاصين من أبناء الأمم السابقة , الذين أنكروا

رسالات ربهم , واستهزأوا برسله , متهمين إياهم بالسحر أو الجنون .

(8) الايمان العميق بأن الله (تعالي) لم يخلق كلا من الجن والإنس إلا لعبادته بما أمر .

(221/726)

---

(9) الايمان بأن الله (تعالي) هو الرزاق ذو القوة المتين .

(10) الايمان بأن لكل ظالم حظه من عذاب الله , وأن هذا العذاب واقع به حتما في الدنيا

قبل الآخرة , كما نزل بالظالمين والكفار والمشركين من أبناء الأمم السابقة .

وتدعو سورة الذاريات إلي التأمل في آيات الله المبثوثة في الارض وفي الأنفس . وفي الآفاق , وإلي استخلاص ما فيها من دلائل علي الايمان بالله , واليقين بوحدانيته , كما تدعو إلي استخلاص الدروس والعبر من قصص عدد من أنبياء الله ورسله السابقين علي بعثة خاتمهم (صلي الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) منهم : أبو الأنبياء إبراهيم , وكليم الله موسي , وأول أولي العزم من الرسل نوح (علي نبينا وعليهم من الله السلام) , وعرضت السورة الكريمة لعدد من الأمم البائدة , وإلي ما أصاب تلك الأمم من عذاب الله في الدنيا قبل الآخرة , وما لحق بها من هلاك ودمار وخراب , بسبب انحرافها عن فطرة الله ومنهجه , وتكذيبها لأنبيائه ورسله , ومن هذه الأمم التي أبيدت أقوام لوط , وفرعون , وعاد , وثمود , وقوم نوح .

ثم عاودت سورة الذاريات استعراض عدد آخر من الآيات الكونية الدالة علي طلاقة القدرة الالهية المبدعة في الكون , وعقبت بالدعوة إلي رجوع الخلق إلي الله (تعالي) , وإلي التحذير من الشرك به (سبحانه وتعالي) في مواضع عديدة منها , وكررت وصف الرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) بأنه نذير مبين من الله (جل ثناؤه) إلي الناس كافة , وأن عبادة الله (تعالي) وحده هي الغاية من خلق كل من الجن والانس , وأنذرت السورة كل من يجرؤ علي التكذيب ببعثة رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بمثل ما أصاب الأمم

السابقة من

عذاب .

الزوجية من اللبنات الاولية للمادة الى الصدغيات فى جسم الانسان

(222/726)

والسورة في مجملها دعوة إلي الناس جميعا كي يخلصوا العبادة لله وحده , ويطهروا القلوب من درن الشرك , ومن كل وصف لايليق بجلال الله . . كما يطهروها ومن كل معوقات الحياة . . وأن يصلوها بخالقها الذي هو رب هذا الكون ومليكه , ولذلك أوردت في خواتيمها هذه الدعوة المباركة :

ففروا إلي الله إني لكم منه نذير مبين

(الذاريات :50.51) .

ثم خلصت سورة الذاريات إلي استنكار موقف الكافرين والمشركين من تكذيب رسل الله , وأمرت خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) بأن يشيح بوجهه الشريف عنهم , وألا ينشغل بهم عن تذكير الناس . . فإن الذكري تنفع المؤمنين . وأكدت ان كلا من الجن والإنس ماخلق إلا لعبادة الله (تعالي) , فالله (سبحانه وتعالي) لايريد من أحد منهم رزقا

ولا إطعاما لأنه هو (سبحانه) الرزاق ذو القوة المتين .

وختمت هذه السورة المباركة بالتأكيد علي أن للذين ظلموا في هذه الدنيا نصيبا وحظا من العقاب نازلا بهم لامحالة , مثل نصيب من سبقوهم من الكفار والمشركين , وتتهددهم بعذاب أشد وأنكي في الآخرة , يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتي الله بقلب سليم .

الآيات الكونية في سورة الذاريات

استعرضت سورة الذاريات عددا من الآيات الكونية في مقام الاستدلال علي طلاقة القدرة الالهية في إبداع الخلق , والشهادة علي ان الذي أبدع هذا الخلق قادر علي إفنائه وعلي إعادة خلقه من جديد (أي بعثه) , وكانت قضية البعث هي حجة الكفار المكذبين بيوم الدين عبر التاريخ , ومن هذه الآيات الكونية التي أوردتها هذه السورة المباركة ما يلي :

(1) قسم بالرياح التي سخرها ربنا (تبارك وتعالي) لتذرية التراب ذروا , ودور ذلك في بري الصخور , وتسوية سطح الأرض , وتكوين التربة وتلقيح السحاب , وما تحمل الرياح أيضا من حبوب اللقاح , ودور

ذلك في إخصاب النبات .

(2) وقسم آخر بالسحب التي يحملها ربنا (تبارك وتعالي) ثقلا عظيما من بخار الماء لينزله بتقديره وعلمه حيث يشاء , وبالقدر الذي يشاء , وفي الوقت الذي يشاء رحمة منه أو عقابا وعذابا .

(3) وقسم ثالث بالسفن الجاريات في يسر علي سطح الماء , ولولا أن الله (تعالي) قد وهب الماء قدرا من الصفات المميزة له , لما جرت السفن علي سطحه أبدا بهذا اليسر , وتلك السهولة .

(4) وقسم رابع بالملائكة التي تقسم الأمور المقدرة في الكون حسب أوامر الله ومشيئته , فتحمل الأوامر الالهية , وتوزعها وفق تلك المشيئة بين الخلق , وبين مختلف قوي الكون بدقة وانضباط بالغين , ولو أن الملائكة من الأمور الغيبية إلا أن أثرها في الكون لايمكن إغفاله .

(5) وقسم خامس بالسماء ذات الحبك أي ذات الاحكام في الخلق , والترابط المحكم الشديد , والكثافات المتباينة بين مختلف أجزائها .

(6) التأكيد علي حقيقة ما في الأرض من آيات دالة علي طلاقة قدرة الله انطلاقا من قوله (تعالي) وفي الأرض آيات للموقنين

(الذاريات :20)

(7) التأكيد علي آيات الأنفس بقول الحق (تبارك وتعالي) :

وفي أنفسكم أفلا تبصرون

(الذاريات :21) .

(8) التأكيد علي حقيقة أن ما يوعد الناس , وما يرزقون يقرر في السماء وينزل منها انطلاقا من قوله (تعالي) : وفي السماء رزقكم وما توعدون (الذاريات :22) .

(9) الاشارة إلي حقيقة توسع الكون , وذلك بقول الحق (تبارك وتعالي) :

والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون

(الذاريات :47)

(10) الإشارة إلي كل عمليات تمهيد وتسوية سطح الأرض , وذلك بقول الحق (تبارك وتعالي) : والأرض فرشناها فنعم الماهدون

(الذاريات :48) .

(11) التوكيد علي الزوجية المطلقة في كل الخلق انطلاقا من قول الحق (تبارك وتعالي) :

ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (

الذاريات :49) .

وكل آية من هذه الآيات تحتاج لفهمها فهما صحيحا ـ الي معالجة خاصة , ولما كان المقام لايتسع لذلك , أجدني مضطرا الي قصر الحديث هنا علي النقطة الأخيرة من قائمة الآيات الكونية السابقة ألا وهي التوكيد علي الزوجية المطلقة في كل الخلق انطلاقا من قوله (تعالي) : ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون وقبل البدء في ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من كبار المفسرين القدامي والمعاصرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة . . !

من أقوال المفسرين في تفسير قوله (تعالي) :

ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون

(الذاريات :49)

* ذكر ابن كثير (يرحمه الله) مانصه : . . . (ومن كل شيء خلقنا زوجين) أي جميع المخلوقات أزواج : سماء وأرض , وليل ونهار , وشمس وقمر , وبر وبحر , وضياء (نور) وظلام , وإيمان وكفر , وموت وحياة , وشقاء وسعادة , وجنة ونار , حتي الحيوانات والنباتات ولهذا قال تعالي : (لعلكم تذكرون) أي لتعلموا أن الخالق واحد لاشريك له . .

* وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه) مانصه . . . (ومن كل شيء) يتعلق بقوله خلقنا (خلقنا زوجين) صنفين كالذكر والأنثي , والسماء والأرض , والشمس والقمر , والسهل والجبل , والصيف والشتاء , والحلو والحامض , والنور والظلمة (لعلكم تذكرون)

بحذف احدي التاءين من الأصل (تتذكرون) فتعلمون ان خالق الأزواج فرد فتعبدونه .

* وذكر صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة) مانصه : . . . . وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الأرض . وربما في هذا الكون , إذ ان التعبير لايخصص الأرض . قاعدة الزوجية في الخلق , وهي ظاهرة في الأحياء , ولكن كلمة (شيء) تشمل غير الأحياء أيضا , والتعبير يقرر ان الأشياء كالأحياء مخلوقة علي أساس الزوجية .

وحين نتذكر ان هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرنا , وأن فكرة عموم

الزوجية . حتي في الأحياء . لم تكن معروفة حينذاك , فضلا عن عموم الزوجية في كل شئ . . حيث نتذكر هذا نجدنا أمام امر عجيب عظيم . . وهو يطلعنا علي الحقائق الكونية في هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التبكير ! .

كما ان هذا النص يجعلنا نرجح ان البحوث العلمية الحديثة سائرة في طريق الوصول الي الحقيقة , وهي تكاد تقرر ان بناء الكون كله يرجع الي الذرة , وأن الذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء : موجب وسالب ! فقد تكون تلك البحوث إذن علي طريق الحقيقة في ضوء

هذا النص العجيب .

وفي ظل هذه اللمسات القصيرة العبارة الهائلة المدي : في أجواء السماء , وفي آماد الأرض , وفي اعماق الخلائق , يهتف بالبشر ليفروا الي خالق السماء والأرض والخلائق , متجردين من كل ما يثقل أرواحهم ويقيدها . . موحدين الله الذي خلق هذا الكون وحده بلا شريك .

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبه) مانصه :

. . . (زوجين) نوعين متقابلين كالليل والنهار , والسماء والأرض , والهدي والضلال , الي غير ذلك .

* وذكر اصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزي الله كاتبيه خيرا) مانصه

. . . ومن كل شيء خلقنا صنفين , مزدوجين , لعلكم تتذكرون فتؤمنوا بقدرتنا .

* وجاء في صفوة التفاسير (جزي الله كاتبها خيرا) مانصه :

. . . . (ومن كل شئ خلقنا زوجين) أي ومن كل شيء خلقنا صنفين ونوعين مختلفين ذكرا وأنثي , وحلوا وحامضا ونحو ذلك (لعلكم تذكرون) أي كي تتذكروا عظمة الله فتؤمنوا به , وتعلموا ان خالق الأزواج واحد أحد .

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

في قوله (تعالي) : ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (الذاريات :49)

تأكيد علي قاعدة الزوجية المطلقة في خلق كل شيء من الأحياء والجمادات , بمعني ان الله تعالي خلق كل شيء في زوجية حقيقية , وأن هذه الزوجية ظاهرة عامة في كل المخلوقات , وعلي جميع

(226/726)

المستويات : من اللبنات الأولية للمادة الي الانسان والي مافوق ذلك من وحدات الكون , وانها سمة من سمات التناسق والتناغم والتوافق في الخلق , وشهادة ناطقة بالوحدانية المطلقة للخالق (سبحانه وتعالي) تلك الوحدانية المطلقة التي تؤكد أن الخالق (سبحانه وتعالي) فوق جميع خلقه , وهو الذي وصف ذاته العلية بقولة الحق :

. . . ليس كمثله شيء وهو السميع البصير

(الشوري : 11)

كما وصف هذه الذات العلية بأمره الواضح الصريح إلي خاتم أنبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) , ومن ثم الي كل مؤمن بالله ان يردد في كل وقت وفي كل حين :

قل هو الله أحد , الله الصمد , لم يلد ولم يولد , ولم يكن له كفوا احد

(الاخلاص : 1ـ4)

وهذه الزوجية في الخلق , الناطقة بوحدانية الخالق (سبحانه وتعالي) تتجلي لنا في المراحل التالية :

1 .الزوجية في الكائنات الحية من الانسان الي الحيوان والنبات .

2 .الزوجية في الخلايا التناسلية الذكرية والأنثوية .

3 .الزوجية في النطفة الذكرية التي قد تحمل صبغي التذكير او صبغي التأنيث .

4 .الزوجية في الصبغيات الموجودة في نواة الخلية الحية .

5 .الزوجية في حاملات الوراثة (المورثات أو الجينات) الموجودة علي كل صبغي من الصبغيات .

6 .الزوجية في بناء الحمض النووي

7 .الزوجية في ترابط القواعد النيتروجينية الأربعة البانية لسلميات الحمض ا لنووي (DNA) .

8 .الزوجية في ترابط جزيء سكر الريبوز (وهو جزيء عضوي) مع جزيء الفوسفات (وهو جزئ غير عضوي) لتكوين جدار جزئ الحمض النووي . (DNA)

9 .الزوجية في بناء الأحماض الأمينية في صورها اليمينية واليسارية .

10 .الزوجية في بناء البروتينات وأضادها .

11 .الزوجية في الجزيء بشقيه : الموجب

Cation

والسالب

(Anion) .

12 .الزوجية في الذرة بنواتها التي تحمل شحنة موجبة والكتروناتها التي

تحمل شحنة سالبة .

(227/726)

---

13 .الزوجية في الجسيمات الأولية للمادة وأضادها , أي في الوجود والعدم .

14 .الزوجية في اللبنات الأولية للمادة وأضادها أي في الوجود والعدم .

15 .الزوجية في المادة ونقيض المادة , أي في الوجود والعدم .

16 .الزوجية في شحنات الطاقة الموجبة والسالبة .

17 .الزوجية في كل من المادة والطاقة وهما وجهان لعملة واحدة ولجوهر واحد يشير الي

وحدانية الخالق العظيم .

ويستطيع المتأمل في الكون ان يستمر في هذا السياق الي مالانهاية , ليؤكد علي حقيقة

الزوجية في كل امر من امور هذا الكون : دق أم عظم , وليكون في ذلك شهادة بأن

الوحدانية المطلقة هي لله الخالق وحده , لايشاركه فيها شريك , ولا ينازعه عليها منازع , فهي من صفات الواحد الأحد , الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد , ولم يكن له كفوا احد .

وكل صورة من صور الزوجية تلك تحتاج الي مقال مستقل , ولذلك فسوف اختار هنا بعض النماذج منها فقط في السطور التالية :

أولا : الزوجية في الكائنات الحية :

تتكاثر الكائنات الحية من الإنسان والحيوان بالتزاوج بين ذكر وأنثي ويعرف ذلك باسم التكاثر الجنسي , وفي معظم الحالات تكون الذكور والإناث منفصلة عن بعضها البعض , وفي بعض الحيوانات البسيطة توجد الخلايا الذكرية والأنثوية في جسد الفرد الواحد الذي يقايض خلاياه الذكرية مع فرد آخر .

وفي التكاثر الجنسي قد يتم الإخصاب في داخل الجسم أو في خارجه . أما الكائنات الحيوانية الأكثر بساطة فتتكاثر بالانشطار , أو بالتبرعم , أو التجزؤ , أو بالتجدد (التراكم) أو بالتوالد العذري (أي بدون إخصاب) ويعرف كل ذلك بالتكاثر اللاجنسي , وقد يتبادل الحيوان الواحد كلا النوعين من التكاثر في دورة حياته .

ومن معرفتنا بالزوجية في كل من اللبنات والجسيمات الأولية للمادة . نستطيع أن نجزم بأن صورة من صور الزوجية تتم في حالات التكاثر

اللاجنسي .

وفي النبات تتضح الزوجية في الأنواع المنتجة للأزهار (النباتات المزهرة) والتي يزيد عددها علي الربع مليون نوع بشكل واضح , وأزهارها التي تنتج عن تفتح براعمها تحمل أعضاء التكاثر من الخلايا الذكرية والأنثوية التي قد توجد في زهرة واحدة , أو في زهرتين مختلفتين علي نبات واحد , وقد يكون من النبات الواحد الذكر والأنثي .

وتؤدي عملية الإخصاب في النباتات المزهرة إلي إنتاج البذور , وتحتوي كل بذرة علي جنين النبتة الجديدة , ومخزون من الطعام قدره الخالق المبدع لها , وتحفظ البذور عادة في الثمرة أو قد تكون هي الثمرة .

أما النباتات غير المزهرة فتتكاثر بالنوعين الجنسي واللاجنسي علي مرحلتين في دورة واحدة تعرف باسم دورة تبادل الأجيال , في المرحلة الأولي منها ينتج النبات كلا من الخلايا الجنسية الذكرية والأنثوية , وتنفصل الخلايا الذكرية وتتحرك في الأوساط المائية للوصول إلي خلية أنثوية والقيام بتقليحها وإخصابها بالاتحاد معها , وفي الدورة الثانية ينتج النبات خلايا تناسلية اسمها الأبواغ , تتناثر عن النبات الحامل لها عند نضجها , وتنمو في الأوساط المناسبة لها نباتا جديدا .

ثانيا : الزوجية في الخلايا التناسلية الذكرية والأنثوية :

أعطي الخالق (سبحانه وتعالي) لجسم الذكر البالغ القدرة علي انتاج خلايا جنسية ذكرية تعرف باسم الحيوان المنوي , كما أعطي لجسم الأنثي القدرة علي إنتاج خلايا جنسية أنثوية تعرف باسم البييضة (تصغير بيضة) , وهذان الزوجان من الخلايا التناسلية إذا اتحدا فإنهما يكونان معا نطفة مختلطة (نطفة أمشاج) إذا انغرست في جدار الرحم فإنها تبدأ في الانقسام المطرد بإذن الله لتخليق مولود جديد .

ثالثا : الزوجية في النطفة الذكرية ذاتها :

يوجد في كل حيوان منوي صبغي جنسي واحد إما X ويعني الأنوثة أو Y ويعني الذكورة , وتحتوي البييضة علي الصبغي الأنثوي X,

(229/726)

بينما الحيوانات المنوية إما أن تحمل الصبغي المذكر أو المؤنث , فإذا كان الحيوان المنوي الذي أخصب البييضة مما يحمل صبغي التذكير جاء الجنين ذكرا بإذن الله , وإذا كان مما يحمل صبغي التأنيث جاء المولود أنثي بإذن الله .

فالزوجية موجودة حتي في نطف الذكر , وليست بين نطفة الذكر ونطفة الأنثي فقط .

رابعا : الزوجية في الصبغيات نفسها :

توجد الصبغيات في نواة الخلية الحية علي هيئة خيوط متشابكة من مادة تسمي باسم المادة المصبوغة أو كروماتين

(Chromatin)

تعطي للنواة مظهرا شبكيا أو حبيبيا , وتتكون هذه الصبغيات إلي حد كبير من الحمض النووي المعروف باسم الحمض النووي الريبي المنقوص الأوكسيجيني أو الحامض الرايبوزي اللاأوكسيجيني

Deoxyri bonucleic Acidor DA

الذي يحمل الشفرة الوراثية للخلية , بالإضافة إلي كم من البروتينات بنسب متساوية تقريبا

.

وكل واحد من هذه الصبغيات (التي يعتبر عددها من العوامل المحددة للنوع) يتكون من شريطين متصلين ببعضهما بجزء دقيق يعرف باسم اللحمة المركزية

(Centromere)

له مكان محدد علي كل صبغي , يكون أحيانا قريبا من وسط الصبغيين , وغالبا قرب أحد طرفيهما , وهذه صورة من صور الزوجية المبهرة في الخلق .

خامسا : الزوجية في وحدات الوراثة (المورثات أو الجينات) :

تتوزع وحدات الوراثة علي طول كل واحد من الصبغيات علي هيئة قطع منفصلة من الحمض النووي الريبي المنقوص الأوكسيجين في زوجية واضحة لأن أحد هذه المورثات يأتي إلي الجنين من الأب والآخري تأتيه من الأم .

سادسا وسابعا وثامنا : الزوجية في بناء جزئ الحمض النووي , وفي بناء كل من سلمياته وجداريه :

ينبني كل جزئ من جزيئات الحمض النووي الريبي المنقوص الأوكسيجين
DNA
علي هيئة سلم حبلي مفتول (أو مايعرف باسم اللولب المزدوج) تتضح فيه الزوجية في جانبيه المصنوعين من جزيئات سكر الريبوز المنقوص الأوكسيجين , وجزيئات

من الفوسفات , كما تتضح الزوجية في درجات هذا السلم الحبلي المفتول والتي تتكون كل درجة من درجاته من زوج من قواعد نيتروجينية أربع هي : الأدينين
(Adenine=A),
والثيامين

(Thyamine=T),

والجوانين

(Guanine=G),

والسيتوسين

(Cytosine=c)

علي أن يرتبط الأولان في زوجية واضحة معا , وأن يرتبط الأخيران كذلك معا , ومعا فقط في زوجية واضحة كذلك , ليشكل كل زوج منهما درجة من سلميات جزئ الحمض النووي الريبي المنقوص الأوكسيجين (DNA) علي شكل نويد تين تتكون كل منهما من قاعدة نيتروجينية مستندة إلي زوج من السكر والفوسفات تأكيدا علي الزوجية في الخلق من أدق الدقائق إلي أكبر الوحدات .

تاسعا وعاشرا : الزوجية في بناء كل من الأحماض الأمينية والبروتينات :

تعد الأحماض الأمينية الوحدة البنائية الأساسية لمختلف جزيئات المواد البروتينية التي تنبني منها أجساد الكائنات الحية .

والأحماض الأمينية من الأحماض الدهنية , التي تذوب في الماء بسهولة في أغلب الأحيان , ولها في حالتها المتبلورة نشاط ضوئي ملحوظ بسبب احتواء جزيئاتها علي ذرة كربون محاطة بأربع مجموعات مختلفة هي : مجموعة الأمين

(NH2)

ومجموعة الكربوكسيل

(COOH)

ومجموعة الحمض

(R)

وذرة إيدروجين

(H) .

ولذلك فالجزئ غير متماثل , وتتحرك هذه المجموعات لتتبادل الأوضاع حول ذرة الكربون ,

فقد توجد مجموعة الأمين

(NH2)

في مواضع مختلفة بالنسبة لمجموعة الكربوكسيل .

ونظرا لعدم تماثل جزئ الحمض الأميني فإن كل واحد من الأحماض الأمينية يمكن أن يوجد

في شكلين أحدهما يدير مستوي الضوء المستقطب إلي اليمين [ويعرف باسم الشكل

اليميني

(Right–handedisomer)

والشكل الآخر يديره إلي اليسار [ويعرف باسم الشكل اليساري

Left–handedisomer

وقد ثبت أن الأحماض الأمينية في أجساد جميع الكائنات الحية (النباتية والحيوانية والإنسية) هي من الأشكال المرتبة ترتيبا يساريا , فإذا

(231/726)

ما مات الكائن الحي فإن الأحماض الأمينية اليسارية الترتيب في بقايا جسده تبدأ بإعادة ترتيب الذرات في داخل جزيئاتها من الترتيب اليساري إلي الترتيب اليميني بمعدلات ثابتة حتي يتساوي الشكلان , ويعرف هذا الخليط باسم الخليط الراسمي

(RacemicMixture)

وهو خليط لايمكنه تحريك مستوي الضوء المستقطب , ولكنه يمثل صورة من صور الزوجية في أضيق صورها .

ويمكن استخدام نسبة الشكلين اليميني واليساري للحمض الأميني الواحد في بقايا أي من النبات أو الحيوان أو الإنسان في تحديد لحظة وفاته بدقة بالغة .

ومعروف من الاحماض الأمينية البانية للبروتينات عشرين نوعا كل منها ممثل بزوجية واضحة , وباتحاد هذه الأحماض الأمينية العشرين يمكن بناء أكثر من مليون نوع من أنواع

البروتينات , والخلية الحية في جسم الإنسان قد أعطاها الله تعالي القدرة علي إنتاج مائتي ألف نوع من أنواع البروتينات , وبالمثل فإن كل جزئ من جزيئات البروتينات العديدة يمكن أن يكون له شكل يميني وآخر يساري , وهي في أجساد جميع الكائنات الحية من الشكل اليساري .

وكذلك النويدات علي الصبغيات وهي أصغر وحدات الحمض النووي الريبي والريبي المراسل

DNA,RNA

منها اليميني واليساري , وكلها في أجساد الكائنات الحية من الشكل اليميني .

وفوق ذلك فإن كل واحد من البروتينات له ضده

Proteins And Antiproteins,

وكل جسم من الأجسام المكونة من البروتينات له ضده

Bodies And Antibodies

بالإضافة إلي أن من البروتينات بروتينات بانية وأخري هادمة

Constructive Proteins and Destructiveones

حادي عشر إلي السابع عشر : الزوجية في المادة وفي مركباتها :

تتضح الزوجية في مركبات المادة في شقيها الموجب

Cation

والسالب

Anion

كما تتضح في تركيب الذرة بنواتها التي تحمل شحنة موجبة واليكتروناتها التي تدور حول النواة حاملة شحنة سالبة مكافئة .

وقد ثبت أن للمادة قرابة الثلاثين نوعا

(232/726)

من أنواع اللبنات الأولية , وكل واحدة منها لها نقيضها , كما أن الجسيمات الأولية للمادة لها لكل جسيم نقيضه , وأن المادة ككل لها نقيض المادة , وإذا التقت النقائض فإن كل واحد منها يفني نظيره , لأنهما يتخليان عن طبيعتهما المادية , ويتحولان الي طاقة تعلن عن فناء المادة , ومن هنا كان الوجود والعدم , وكانت إمكانية الايجاد من العدم أي الخلق علي غير مثال سابق , وإمكانية الافناء إلي العدم , ولا يقدر علي ذلك أحد غير الإله الخالق سبحانه وتعالي , وكذلك الطاقة فإن لكل صورة من صورها ماهو ضدها , فالكهرباء فيها الموجب والسالب , والمغناطيسية فيها العادي والمقلوب المعكوس , حتي الضوء له زوجية واضحة لأنه يتحرك أحيانا علي هيئة أمواج , وأحيانا أخري علي هيئة جسيمات .

كذلك ثبت أن المادة والطاقة وجهان لعملة واحدة ولجوهر واحد يشير إلي وحدانية الخالق سبحانه وتعالي وخلق اللبنات الأولية للمادة علي هيئة أزواج , وتحويلها إلي طاقة علي هيئة زوجية أيضا , وإمكانية رد الطاقة إلي حالة مادية تأكيد علي حقيقة بدء الخلق من العدم وعلي إمكانية إفنائه إلي العدم .

ونحن نري الزوجية في كل صورة من صور الخلق : من أدق دقائقه إلي أكبر وحداته , حتي يبقي الخالق سبحانه وتعالي متفردا بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه , ونري كذلك وحدة البناء في الخلق تجسيدا لوحدانية الخالق سبحانه وتعالي .

فلكل جسيم في الذرة جسيم نقيض . . وهذه الجسيمات ونقائضها تكون المادة والمادة النقيضة , وفي النقائض توجد كل الصفات نقائض معكوسة أيضا من الشحنات الكهربية إلي المجالات المغناطيسية الي اتجاهات الدوران , وعلي ذلك فلا يمكن لمثل تلك النقائض أن تجتمع في مكان واحد وإلا أفني بعضها بعضا .

فسبحان الذي خلق الخلق في زوجية واضحة تشهد له بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه , وسبحانه إذ خلق المادة ونقائضها من الطاقة

ونقائضها , وسبحانه إذ خلق تلك النقائض في نفس الوقت وبنفس القدر حتي يثبت لنا الخلق من العدم , وإمكانية الافناء إلي العدم ! ! .

وسبحانه إذ فصل بين المادة ونقائضها حتي يوجد هذا الكون الشاسع الاتساع , الدقيق البناء , المحكم الحركة , المنضبط في كل أمر من أموره , والمبني علي وتيرة واحدة تشهد للخالق سبحانه وتعالي بالوحدانية . وسبحانه إذ أبقي المادة النقيضة في مكان ما عنده حتي إذا شاءت إرادته إفناء الكون جمع المادة ونقائضها بأمره كن فيكون , وإذا شاء بعث كل شيء بفصلهما بالأمر كن فيكون .

وسبحانه إذ قرر هذه الحقيقة الكونية فقال عز من قائل : ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرونالذاريات :49 .

وهي حقيقة لم يدركها علم الإنسان الكسبي إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين , وورودها في كتاب الله المنزل علي خاتم أنبيائه ورسله من قبل ألف وأربعمائة من السنين لما يقطع بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق ويجزم بالنبوة وبالرسالة لسيدنا محمد بن عبد الله صلي الله وسلم وبارك عليه وعلي آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلي يوم الدين والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى وسع)

وَسِعَهُ الشىءُ بالكسر يَسَعُه سَعَةً وسِعَة كدَعَة وزِنَةٍ .

وقرأَ زَيْدُ بن علىّ : ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سِعَةً ﴾ بالكسر .

والواسِعُ من صِفات الله تعالى الَّذى وَسِع رِزْقُه جميع خَلْقِه ، ووَسِعَت رحمتُه كلَّ شىءٍ .

وقال ابن الأَنبارىّ : هو الكثيرُ العطاءِ ، والَّذى يَسَعُ لما يُسْأَل .

ويقال : معناه : المُحيط بكلّ شىءٍ من قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ .

ويقال : إِنَّه لَيَسْعُنَى / ما وَسِعَكَ .

ويُقال : ما أَسَعُ ذلك ، أَى ما أُطِيقُه .

وفى النَّوادر : اللَّهُمَّ سَعْ عَلَيْه ، أَى وَسّع عليه .

ويقال : لِيَسَعْكَ بَيْتُك ، معناه : القَرارُ فيه .

وهذا الوعاءُ يَسَعه عِشْرون كَيْلاً على مِثال : أَنا أَسَعُ هذا الأَمرَ .

وهذا الأَمرُ يَسَعُنْى .

قال أَبو زُبَيْد حَرْمَلَة بن المُنْذِر الطَّائىّ :

*حَمّال أُثْقال أَهْلِ الوُدّ آوِنَةً * أُعْطِيهُمُ الجَهْدَ منّى بَلْهَ ما أَسَعُ*

ويقال أَيضاً : هذا يَسَعُ عِشْرِين كَيْلاً ، معناه : يَسَعُ لعشرين ، أَى يتَّسِع لذلك .

ومِثْلُه : هذا الخُفُّ يَسَعُ رِجْلِى ، أَى يتَّسع لَها وعليها .

وتقول : هذا يَسَعُه عشرون كَيْلاً ، أَى يَسَعُ فيه عِشْرِين كَيْلاً ، ويقال : وَسِعَتْ رحمةُ اللهِ كلّ شىءٍ ولكلّ شىءٍ وعلى كلِّ شىءٍ .

وفى حديث النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم : "إِنكم لن تَسَعُوا النَّاسَ بأَمْوالِكم فَلْيَسَعْهم منكم بَسْطُ وَجْه وحُسْنُ خُلُق" .

والوُسْعُ والوَسْعُ بالحركات الثلاث : السَّعَةُ والجدَةُ والطَّاقَةُ .

وقرأَ ابن أَبِى عَيْلة : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وَسْعَها ﴾ بالفتح ، وقرأ عِكْرِمَةُ : (وسِعَها) بالكسر .

والهاءُ فى السَّعَةِ عِوَضٌ عن الواو .

وشىْءٌ وَسِيعٌ ، أَى واسِعٌ .

ويَسَع : اسمٌ من أَسماءِ العَجَم ، وقد أُدْخِل عليه الأَلفُ واللاَّم ، وهما لا يَدْخلان على نظائره ، نحو يَعْمُرَ ويَزيدَ ويَشْكُرَ .

وقرأَ حَمزة والكسائىّ وخَلَف .

واللَّيْسَع بِلامَيْن ، وقرأَ الباقون والْيَسَع بلامٍ واحدة .

وأَوسع الرّجلُ صارَ ذا سَعَة وغِنىً ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ أَى أَغنياءُ قادِرون .

وأَوْسَعَ الله عليك ، أَى أَغْناك .

وأَوْسعْتُ المكانَ : وجدتُه واسِعاً ، يقال : "أَوْسَعْتَ فابْنِ" والتَّوسِيعُ : خلاف التَّضْيِيق

وتَوَسَّعُوا فى المَجْلس أَى تَفَسَّحوا .

واسْتَوْسَعَ : اتَّسع .

وقولُ النابغة :

*تَسَعُ البلادُ إِذا أَتَيْتُكُ زائراً * وإِذا هَجَرْتُك ضاقَ عَنّى مَقْعَدِى*

أَى تتَوَسَّع لى البِلادُ .

واعلم أَنَّ السَّعَة تكونُ فى الأَمكِنَة وفى الحال ، وفى الفعل ، كالقُدْرة والجُودِ ونحو ذلك ، ففى المكان نحو قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً ﴾ ، وفى الحال : نحو ﴿ لِيُنفِقْ

ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾

قال أَبو القاسم : الوُسْعُ من القُدْرَة : ما يَفْضُل عن قَدْرِ المكلَّف ، قال تعالى : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ تنبيهاً أَنَّه يكلِّف عبدَه دون ما تَنُوءُ به قُدْرَته .

وقيل : معناه : يُكلِّفه ما يُثْمِرُ له السَّعَة ، أَى جَنَّة عرضُها السماوات والأَرض .

وقوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ وقوله : ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً ﴾ عبارة عن سَعَةِ عِلْمه وقُدْرته وأَفضاله ورَحْمَته ، كقوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 214.212 ﴾

(236/726)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والعشرون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والعشرون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 56 ﴾ من سورة الذاريات

وحتى الآية ﴿ 60 ﴾ آخر السورة

قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (59) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (60) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا ربما أوهم أن سواهم غير مقدور عليهم ، قال مؤكداً بالحصر دالاًّ على أنه هو الذي قسم الناس إلى طاغين ومؤمنين بالعطف على ما تقديره : فما حكم عليهم بذلك الضلال والهدى غيري ، وما أرسلت الرسل وأنزلت الكتب إلا لاستخلاص المؤمنين وإقامة الحجة على الضالين : ﴿ وما خلقت الجن والإنس ﴾ الذين أكثرهم كافرون ﴿ إلا ليعبدون ﴾ أي لينجروا تحت أقضيتي على وجه ينفعون به أنفسهم أو يضرونها لا لشيء يلحقني أنا منه شيء من نفع أو ضرر ، فإني بنيتهم على العجز وأودعتهم نوازع الهوى ، وركبت فيهم غرائز فهيأتهم لاتباع الهدى ، فمن أطاع عقله كان عابداً لي فاراً إليّ مع جريه تحت الإرادة ، عبادة شرعية أمرية يستفيد بها الثواب ، ومن أطاع الهوى كان عابداً لي مع مخالفته أمري عبادة إرادية قسرية يستحق بها العقاب ، وكل تابع لهواه إذا حقق النظر علم أن الخير في غير ما هو مرتكبه ، فما ألزمه ما هو فيه مع علمه بأن غيره خير منه إلا قهر إرادتي ، فهذه عبادة لغوية ، وذاك عبادة شرعية ، وقد مر في آخر هود ما ينفع هنا ، وهذا

كله معنى قول ابن عباس : إلا ليقروا لي بالعبادة طوعاً وكرهاً .

ولما حصر سبحانه خلقهم في إرادة العبادة ، صرح بهذا المفهوم بقوله : ﴿ ما أريد منهم ﴾ أي في وقت من الأوقات ، وعم في النفي بقوله : ﴿ من رزق ﴾ أي شيء من الأشياء على وجه ينفعني من جلب أو دفع ، لأني منزه عن لحاق نفع أو ضر ، كما يفعل غيري من الموالي بعبيدهم من الاستكثار بغلاتهم والاستعانة بقواتهم لأني الغني المطلق وكل شيء مفتقر إليّ ﴿ وما أريد ﴾ أصلاً ﴿ أن يطعمون ﴾ أي أن يرزقوني رزقاً خاصاً هو الإطعام ، وفيه تعريض بأصنامهم فإنهم كانوا يعملون معها ما ينفعها ويحضرون لها الأكل ، فربما أكلتها الكلاب ثم بالت على الأصنام .

ثم لا يصدهم ذلك ، وهذه الآية دليل على أن الرزق أعم من الأكل ، والتعبير بالإرادة دالّ على ما قلت إنه مقصود بالعبادة .

(5/727)

وهو الجري تحت الإرادة ، تارة بموافقة الشرع وتارة بمخالفته .

ولما كان الاهتمام بأمر الرزق – وقد ضمنه سبحانه – شاغلاً عن كثير من العبادة ، وكان الإنسان يظن أن الذي حصل له ما حواه من الرزق سعيه ، قال حاصراً ذلك مؤكداً إزالة

لتلك الظنون معللاً لافتاً الكلام إلى سياق الاسم الأعظم الذي لم يتسم به غيره ، نصاً على المراد وبالغاً من الإرشاد أقصى المراد : ﴿ إن الله ﴾ أي المحيط بجميع صفات الكمال المنزه عن شوائب النقص ﴿ هو ﴾ أي لا غيره ﴿ الرزاق ﴾ أي على سبيل التكرار لكل حي وفي كل وقت .

ثم وصفه بما يبين هوان ذلك فقال : ﴿ ذو القوة ﴾ أي التي لا تزول بوجه ﴿ المتين ﴾ أي الشديد الدائم الشدة .

ولما أقسم سبحانه على الصدق في وعيدهم ، ودل على ذلك حتى بجميع قصد أحوالهم على إرادته .

وختم بقوته التي لا حد لها ، سبب عن ذلك إيقاعه بالمتوعدين ، فقال مؤكداً لأجل إنكارهم : ﴿ فإن للذين ظلموا ﴾ أي الذين أوقعوا الأشياء في غير مواقعها .

(6/727)

ولما كان القسم على ما يوعدون بما يحمل المطر ، عبر عن نصيبهم الذي قدره عليهم من ذلك بقوله : ﴿ ذنوباً ﴾ أي خطاً من العذاب طويل الشر ، كأنه من طوله صاحب ذنب وهو على ذنوبهم ﴿ مثل ذنوب أصحابهم ﴾ أي الذين تقدم ظلمهم بتكذيب الرسل وهو

في مشابهته له كالدلو الذي يساجل به دلو آخر ، وذلك دليل واضح على أن ما يوعدون صادق ، وأن الدين واقع ﴿ فلا يستعجلون ﴾ أي يطلبوا أن آتيهم به قبل أوانه اللاحق به ، فإن ذلك لا يفعله إلا ناقص ، وأنا متعال عن ذلك لا أخاف الفوت ولا يلحقني عجز ولا أوصف به ، ولا بد أن أوقعه بهم في الوقت الذي قضيت به في الأزل ، لأنه أحق الأوقات بعقابهم لتكامل ذنوبهم ، وحينئذ تكون فيا له من تهديد ما أفظعه ، ووعيد ما أعظمه وأوجعه ، أمراً لا يدفعه دافع ، ولا يمنع من وقوعه مانع ، ولذلك سبب عنه قوله :

﴿ فويل ﴾ أي شر حال وعذاب يوجب الندب والتفجع ﴿ للذين كفروا ﴾ أي ستروا ما ظهر من هذه الأدلة التي لا يسع عاقلاً إنكارها ﴿ من يومهم ﴾ إضافة إليهم لأنه خاص بهم دون المؤمنين ﴿ الذي يوعدون ﴾ في الدنيا والآخرة ، وقد انطبق آخرها على أولها بصدق الوعيد ، وثبت بالدليل القطعي لك القسم الأكيد - والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 288 . 290 ﴾

(7/727)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) ﴾

وهذه الآية فيها فوائد كثيرة ، ولنذكرها على وجه الاستقصاء ، فنقول أما تعلقها بما قبلها فلوجوه أحدها : أنه تعالى لما قال : ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ [الذاريات : 55] يعني أقصى غاية التذكير وهو أن الخلق ليس إلا للعبادة ، فالمقصود من إيجاد الإنسان العبادة فذكرهم به وأعلمهم أن كل ما عداه تضييع للزمان الثاني : هو أنا ذكرنا مراراً أن شغل الأنبياء منحصر في أمرين عبادة الله وهداية الخلق ، فلما قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ [الذاريات : 54] بين أن الهداية قد تسقط عند اليأس وعدم المهتدي ، وأما العبادة فهي لازمة والخلق المطلق لها وليس الخلق المطلق للهداية ، فما أنت بملوم إذا أتيت بالعبادة التي هي أصل إذا تركت الهداية بعد بذل الجهد فيها الثالث : هو أنه لما بيّن حال من قبله من التكذيب ، ذكر هذه الآية ليبين سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الله فما كان خلقهم إلا للعبادة ، وأما التفسير ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

الملائكة أيضاً من أصناف المكلفين ولم يذكرهم الله مع أن المنفعة الكبرى في إيجاده لهم هي العبادة ولهذا قال: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: 26] وقال تعالى: ﴿ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ [الأعراف: 206] فما الحكمة فيه؟ نقول: الجواب عنه من وجوه الأول: قد ذكرنا في بعض الوجوه أن تعلق الآية بما قبلها بيان قبح ما يفعله الكفرة من ترك ما خلقوا له، وهذا مختص بالجن والإنس لأن الكفر في الجن أكثر، والكافر منهم أكثر من المؤمن لما بينا أن المقصود بيان قبحهم وسوء صنيعهم الثاني: هو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مبعوثاً إلى الجن، فلما قال وذكرهم ما يذكر به وهو كون الخلق للعبادة خص أمته بالذكر أي ذكر الجن والإنس الثالث: أن عباد الأصنام كانوا يقولون بأن الله تعالى عظيم الشأن خلق الملائكة وجعلهم مقربين فهم يعبدون الله وخلقهم لعبادته ونحن لنزول درجتنا لا نصلح لعبادة الله فنعبد الملائكة وهم يعبدون الله، فقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ ولم يذكر الملائكة لأن الأمر فيهم كان مسلماً بين القوم فذكر المتنازع فيه الرابع: قيل الجن يتناول الملائكة لأن الجن أصله من الاستتار وهم مستترون عن الخلق، وعلى هذا فتقديم الجن لدخول الملائكة فيهم وكونهم أكثر عبادة وأخصلها الخامس: قال بعض الناس كلما ذكر الله الخلق كان فيه التقدير في الجرم والزمان قال تعالى: ﴿ خُلِقَ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الفرقان: 59] وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: 9] وقال: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص: 75] إلى غير

ذلك ، وما لم يكن ذكره بلفظ الأمر قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [ياس : 82] وقال : ﴿ قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء : 85] وقال تعالى :

(9/727)

﴿ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر ﴾ [الأعراف : 54] والملائكة كالأرواح من عالم الأمر أوجدهم من غير مرور زمان فقوله ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ﴾ إشارة إلى من هو من عالم الخلق فلا يدخل فيه الملائكة ، وهو باطل لقوله تعالى : ﴿ خالق كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [غافر : 62] فالملك من عالم الخلق .

المسألة الثانية :

تقديم الجن على الإنس لأية حكمة ؟ نقول فيه وجوه الأول : بعضها مر في المسألة الأولى الثاني : هو أن العبادة سرية وجهرية ، وللسرية فضل على الجهرية لكن عبادة الجن سرية لا يدخلها الرياء العظيم ، وأما عبادة الإنس فيدخلها الرياء فإنه قد يعبد الله لأبناء جنسه ، وقد يعبد الله ليستخبر من الجن أو مخافة منهم ولا كذلك الجن .

المسألة الثالثة :

فعل الله تعالى ليس لغرض وإلا لكان بالغرض مستكملاً وهو في نفسه كامل فكيف يفهم لأمر الله الغرض والعلة ؟ نقول المعتزلة تمسكوا به ، وقالوا أفعال الله تعالى لأغراض وبالغوا في الإنكار على منكري ذلك ، ونحن نقول فيه وجوه الأول : أن التعليل لفظي ومعنوي ، واللفظي ما يطلق الناظر إليه اللفظ عليه وإن لم يكن له في الحقيقة ، مثاله إذا خرج ملك من بلاده ودخل بلاد العدو وكان في قلبه أن يتعب عسكر نفسه لا غير ، ففي المعنى المقصود ذلك ، وفي اللفظ لا يصح ولو قال هو أنا ما سافرت إلا لابتغاء أجر أو لأستفيد حسنة يقال هذا ليس بشيء ولا يصح عليه ، ولو قال قائل في مثل هذه الصورة خرج ليأخذ بلاد العدو وليرهبه لصدق ، فالتعليل اللفظي هو جعل المنفعة المعتبرة علة للفعل الذي فيه المنفعة ، يقال إتجر للربح ، وإن لم يكن في الحقيقة له ، إذا عرفت هذا ، فنقول الحقائق غير معلومة عند الناس ، والمفهوم من النصوص معانيها اللفظية لكن الشيء إذا كان فيه منفعة يصح التعليل بها لفظاً والنزاع في الحقيقة في اللفظ الثاني : هو أن ذلك تقدير كالتمني والترجي في كلام الله تعالى وكأنه يقول العبادة عند الخلق شيء لو كان ذلك من أفعالكم لقلتم إنه لها ، كما قلنا في قوله تعالى : ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ ﴾ [طه : 44] أي بحيث يصير تذكرة عندكم

مرجواً وقوله ﴿ عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ [الأعراف : 129] أي يصير إهلاكه عندكم مرجواً تقولون إنه قرب الثاني : هو أن اللام قد تثبت فيما لا يصح غرضاً كما في الوقت قال تعالى : ﴿ أَقِمِ الصلاةَ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ [الإسراء : 78] وقوله تعالى : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق : 1] والمراد المقارنة ، وكذلك في جميع الصور ، وحينئذ يكون معناه قرنت الخلق بالعبادة أي بفرض العبادة أي خلقتهم وفرضت عليهم العبادة ، والذي يدل على عدم جواز التعليل الحقيقي هو أن الله تعالى مستغن عن المنافع فلا يكون

(11/727)

فعله لمنفعة راجعة إليه ولا إلى غيره ، لأن الله تعالى قادر على إيصال المنفعة إلى الغير من غير واسطة العمل فيكون توسط ذلك لا ليكون علة ، وإذا لزم القول بأن الله تعالى يفعل فعلاً هو لمتوسط لا لعلة لزمهم المسألة ، وأما النصوص فأكثر من أن تعد وهي على أنواع ، منها ما يدل على أن الإضلال بفعل الله كقوله تعالى :

﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاء ﴾ [الرعد : 27] وأمثاله ومنها ما يدل على أن الأشياء كلها بخلق الله كقوله تعالى : ﴿ خالق كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد : 16] ومنها الصرايح التي تدل على عدم

ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ [الأنبياء : 23] وقوله تعالى : ﴿ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم : 27] ﴿ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة : 1] والاستقصاء مفوض فيه إلى المتكلم الأصولي لا إلى المفسر .

المسألة الرابعة :

قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إِنَّا خلقناكم مّن ذَكَرٍ وأنثى وجعلناكم شُعُوباً وَقَبَائِلَ لتعارفوا ﴾ [الحجرات : 13] وقال : ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾ فهل بينها اختلاف ؟ نقول ليس كذلك فإن الله تعالى علل جعلهم شعوباً بالتعارف ، وههنا علل خلقهم بالعبادة وقوله هناك ﴿ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللهِ أتقاكم ﴾ [الحجرات : 13] دليل على ما ذكره ههنا وموافق له ، لأنه إذا كان أتقى كان أعبد وأخلص عملاً ، فيكون المطلوب منه أتم في الوجود فيكون أكرم وأعز ، كالشيء الذي منفعته فائدة ، وبعض أفراده يكون أنفع في تلك الفائدة ، مثاله الماء إذا كان مخلوقاً للتطهير والشرب فالصافي منه أكثر فائدة في تلك المنفعة فيكون أشرف من ماء آخر ، فكذلك العبد الذي وجد فيه ما هو المطلوب منه على وجه أبلغ .

المسألة الخامسة :

ما العبادة التي خلق الجن والإنس لها ؟ قلنا : التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ، فإن هذين النوعين لم يخل شرع منهما ، وأما خصوص العبادات فالشرائع مختلفة فيها بالوضع والهيئة والقلة والكثرة والزمان والمكان والشرائط والأركان ، ولما كان التعظيم اللائق بذي الجلال والإكرام لا يعلم عقلاً لزم اتباع الشرائع فيها والأخذ بقول الرسل عليهم السلام فقد أنعم الله على عباده بإرسال الرسل وإيضاح السبل في نوعي العبادة ، وقيل إن معناه ليعرفوني ، روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عن ربه "كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف" .

مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57)

(13/727)

فيه جواب سؤال وهو أن الخلق للغرض ينبىء عن الحاجة ، فقال ما خلقتهم ليطعمون والنفع فيه لهم لا لي ، وذلك لأن منفعة العبد في حق السيد أن يكتسب له ، إما بتحصيل المال له أو بحفظ المال عليه ، وذلك لأن العبد إن كان للكسب فغرض التحصيل فيه ظاهر ، وإن كان للشغل فلولا العبد لاحتاج السيد إلى استئجار من يفعل الشغل له فيحتاج إلى إخراج مال ، والعبد يحفظ ماله عليه ويغنيه عن الإخراج فهو نوع كسب فقال تعالى : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن

رّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ أي لست كالسادة في طلب العبادة بل هم الرابحون في عبادتهم ، وفيه وجه آخر وهو أن يقال هذا تقرير لكونهم مخلوقين للعبادة ، وذلك لأن الفعل في العرف لا بد له من منفعة ، لكن العبيد على قسمين قسم منهم يكون للعظمة والجمال كمماليك الملوك يطعمهم الملك ويسقيهم ويعطيهم الأطراف من البلاد ويؤتيهم الطراف بعد التلاد ، والمراد منهم التعظيم والمثول بين يديه ، ووضع اليمين على الشمال لديه ، وقسم منهم للانتفاع بهم في تحصيل الأرزاق أو لإصلاحها فقال تعالى إني خلقتهم فلا بد فيهم من منفعة فليتفكروا في أنفسهم هل هم من قبيل أن يطلب منهم تحصيل رزق وليسوا كذلك ، فما أُريد منهم من رزق ، أو هل هم ممن يطلب منهم إصلاح قوت كالطباخ والخواني الذي يقرب الطعام وليسوا كذلك فما أُريد أن يطعمون ، فإذن هم عبيد من القسم الأول فينبغي أن لا يتركوا التعظيم ، وفيه لطائف نذكرها في مسائل :

المسألة الأولى :

ما الفائدة في تكرار الإرادتين ، ومن لا يريد من أحد رزقاً لا يريد أن يطعمه ؟ نقول هو لما ذكرناه من قبل ، وهو أن السيد قد يطلب من العبد الكسب له ، وهو طلب الرزق منه ، وقد يكون للسيد مال وافر يستغني عن الكسب لكنه يطلب منه قضاء حوائجه بماله من المال وإحضار الطعام بين يديه من ماله ، فالسيد قال لا أُريد ذلك ولا هذا .

المسألة الثانية :

لم قدم طلب الرزق على طلب الإطعام ؟ نقول ذلك من باب الارتقاء كقول القائل لا أطلب منك الإعانة ولا ممن هو أقوى ولا يعكس ، ويقل فلان يكرمه الأمراء بل السلاطين ولا يعكس ، فقال ههنا لا أطلب منكم رزقاً ولا ما هو دون ذلك وهو تقديم طعام بين يدي السيد فإن ذلك أمر كثير الطلب من العباد وإن كان الكسب لا يطلب منهم .

المسألة الثالثة :

لو قال ما أريد منهم أن يرزقون وما أريد منهم من الطعام هل تحصل هذه الفائدة ؟ نقول على ما فصل لا وذلك لأن بالتكسب يطلب الغنى لا الفعل فإن اشتغل بشغل ولم يحصل له غنى لا يكون كمن حصل له غنى ، وإن لم يشتغل ، كالعبد المتكسب إذا ترك الشغل لحاجته ووجد مطلباً يرضى منه السيد إذا كان شغله التكسب ، وأما من يراد منه الفعل لذات الفعل ، كالجائع إذا بعث عبده لإحضار الطعام فاشتغل بأخذ المال من مطلب فربما لا يرضى به السيد فالمقصود من الرزق الغنى ، فلم يقل بلفظ الفعل والمقصود من الإطعام الفعل نفسه فذكر بلفظ الفعل ، ولم يقل وما أريد منهم من طعام هذا مع ما في اللفظين من الفصاحة والجزالة للتنويع .

المسألة الرابعة :

إذا كان المعنى به ما ذكرت ، فما فائدة الإطعام وتخصيصه بالذكر مع أن المقصود عدم طلب فعل منهم غير التعظيم ؟ نقول لما عمم في المطلب الأول اكتفى بقوله ﴿ مِن رّزْقٍ ﴾ فإنه يفيد العموم ، وأشار إلى التعظيم فذكر الإطعام ، وذلك لأن أدنى درجات الأفعال أن تستعين السيد بعبده أو جاريته في تهيئة أمر الطعام ، ونفي الأدنى يستتبعه نفي الأعلى بطريق الأولى فصار كأنه تعالى قال : ما أريد منهم من عين ولا عمل .

المسألة الخامسة :

على ما ذكرت لا تنحصر المطالب فيما ذكره ، لأن السيد قد يشتري لعبد لا لطلب عمل منه ولا لطلب رزق ولا للتعظيم ، بل تشتريه للتجارة والربح فيه ، نقول عموم قوله ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مّن رّزْقٍ ﴾ يتناول ذلك فإن من اشترى عبداً ليتجر فيه فقد طلب منه رزقاً .

المسألة السادسة :

ما أريد في العربية يفيد النفي في الحال ، والتخصيص بالذكر يوهم نفي ما عدا المذكور ، لكن الله تعالى لا يريد منهم رزقاً لا في الحال ولا في الاستقبال ، فلم لم يقل لا أريد منهم من

رزق ولا أريد ؟ نقول ما للنفي في الحال ، ولا للنفي في الاستقبال ، فالقائل إذا قال فلان لا يفعل هذا الفعل وهو في الفعل لا يصدق ، لكنه إذا ترك مع فراغه من قوله يصدق القائل ، ولو قال ما يفعل لما صدق فيما ذكرنا من الصورة ، مثاله إذا كان الإنسان في الصلاة وقال قائل إنه ما يصلي فانظر إليه فإذا كان نظر إليه الناظر وقد قطع صلاة نفسه صح أن يقول إنك لا تصلي ، ولو قال القائل إنه ما يصلي في تلك الحالة لما صدق ، فإذا علمت هذا فكل واحد من اللفظين للنافية فيه خصوص لكن النفي في الحال أولى لأن المراد من الحال الدنيا والاستقبال هو في أمر الآخرة فالدنيا وأمورها كلها حالية فقوله ﴿ مَا أُرِيدُ ﴾ أي في هذه الحالة الراهنة التي هي ساعة الدنيا ، ومن المعلوم أن العبد بعد موته لا يصلح أن يطلب منه رزق أو عمل فكان قوله ﴿ مَا أُرِيدُ ﴾ مفيداً للنفي العام ، ولو قال لا أريد لما أفاد ذلك .

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)

(16/727)

تعليلاً لما تقدم من الأمرين ، فقوله ﴿ هو الرزاق ﴾ تعليل لعدم طلب الرزق وقوله تعالى : ﴿ ذُو القوة ﴾ تعليل لعدم طلب العمل ، لأن من يطلب رزقاً يكون فقيراً محتاجاً ومن يطلب عملاً من غيره يكون عاجزاً لا قوة له ، فصار كأنه يقول ما أريد منهم من رزق فإني أنا الرزاق

ولا عمل فإني قوي وفيه مباحث الأول : قال : ﴿ مَا أُرِيدُ ﴾ ولم يقل إني رزاق بل قال على الحكاية عن الغائب ﴿ إِنَّ الله ﴾ فما الحكمة فيه ؟ نقول قد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ (إني أنا الرزاق) على ما ذكرت وأما القراءة المشهورة ففيها وجوه الأول : أن يكون المعنى قل يا محمد ﴿ إِنَّ الله هُوَ الرزاق ﴾ الثاني : أن يكون ذلك من باب الالتفات والرجوع من التكلم عن النفس إلى التكلم عن الغائب ، وفيه ههنا فائدة وهي أن اسم الله يفيد كونه رزاقاً وذلك لأن الإله بمعنى المعبود كما ذكرنا مراراً وتمسكنا بقوله تعالى : ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ [الأعراف : 127] أي معبوديك وإذ كان الله هو المعبود ورزق العبد استعمله من غير الكسب إذ رزقه على السيد وههنا لما قال : ﴿ مَا خَلَقْتَ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ فقد بيّن أنه استخلصهم لنفسه وعبادته وكان عليه رزقهم فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الله هُوَ الرزاق ﴾ بلفظ الله الدال على كونه رزاقاً ، ولو قال إني أنا الرزاق لحصلت المناسبة التي ذكرت ولكن لا يحصل ما ذكرنا الثالث : أن يكون قل مضمراً عند قوله تعالى : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم ﴾ تقديره قل يا محمد ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مّن رّزْقٍ ﴾ فيكون بمعنى قوله ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الفرقان : 57] ويكون على هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله هُوَ الرزاق ﴾ من قول النبي صلى الله عليه وسلم ولم يقل القوي ، بل قال : ﴿ ذُو القوة ﴾ وذلك لأن المقصود تقرير ما تقدم من عدم إرادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير ، ولكن في عدم طلب الرزق لا يكفي كون المستغني بحيث يرزق واحداً فإن

كثيراً من الناس يرزق ولده وغيره ويسترزق والملك يرزق الجند ويسترزق ، فإذا كثر منه الرزق قل منه الطلب ، لأن المسترزق ممن يكثر الرزق لا يسترزق من رزقه ، فلم يكن ذلك المقصود يحصل له إلا بالمبالغة في وصف الرزق ، فقال : ﴿ الرزاق ﴾ وأما ما يغني عن الاستعانة بالغير فدون ذلك : وذلك لأن القوي إذا كان في غاية القوة يعين الغير فإذا كان دون ذلك لا يعين غيره ولا يستعين به ، وإذا كان دون ذلك يستعين استعانة ما وتتفاوت بعد ذلك ، ولما قال : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ كفاه بيان نفس القوة فقال : ﴿ ذُو القوة ﴾ إفادة معنى القوة دون القوى لأن ذا لا يقال في الوصف اللازم البين فيقال في الآدمي ذو مال ومتمول وذو جمال وجميل وذو خلق حسن وخليق إلى غير ذلك مما لا يلزمه لزوماً بيناً ، ولا يقال في الثلاثة ذات فردية ولا في الأربعة ذات زوجية ، ولهذا لم يرد في الأوصاف الحقيقية التي ليست مأخوذة من الأفعال ولذا لم يسمع ذو الوجود وذو الحياة ولا ذو العلم ويقال في الإنسان ذو علم وذو حياة لأنها عرض فيه عارض لا لازم بين ، وفي صفات الفعل يقال الله تعالى ذو الفضل كثيراً وذو الخلق قليلاً لأن ذا كذا بمعنى صاحبه وربه والصحبة لا يفهم منها اللزوم فضلاً عن اللزوم البين ، والذي يؤيد هذا هو أنه تعالى قال :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 76] فجعل غيره ذا علم ووصف نفسه بالفعل فبين ذي العلم والعليم فرق وكذلك بين ذي القوة والقوي ، ويؤيده أيضاً أنه تعالى قال : ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ العقاب ﴾ [غافر : 22] وقال تعالى : ﴿ اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاء وَهُوَ القوى العزيز ﴾ [الشورى : 19] وقال تعالى : ﴿ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : 21] لأن في هذه الصور كان المراد بيان القيام بالأفعال العظيمة والمراد ههنا عدم الاحتياج ومن لا يحتاج إلى الغير يكفيه من القوة قدر ما ، ومن يقوم مستبداً بالفعل لا بد له من قوة عظيمة ، لأن عدم الحاجة قد يكون بترك الفعل والاستغناء عنه ، ولو بين هذا البحث في معرض الجواب عن سؤال سائل عن الفرق بين قوله ﴿ ذُو القوة ﴾ ههنا وبين قوله ﴿ قَوِيٌّ ﴾ في تلك المواضع لكان أحسن ، فإن قيل فقد قال تعالى : ﴿ لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغيب إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد : 25] وفيه ما ذكرت من المعنى وذلك لأن قوله ﴿ قَوِيٌّ ﴾ لبيان أنه غير محتاج إلى النصرة وإنما يريد أن يعلم ليثيب الناصر ، لكن عدم الاحتياج إلى النصرة يكفي فيه قوة ما ، فلم لم يقل إن الله ذو القوة ؟ نقول فيه إنه تعالى قال من ينصره ورسله ، ومعناه أنه يغني رسله عن الحاجة ولا

يطلب نصرتهم من خلقه ليعجزهم وإنما يطلبها لثواب الناصرين لا لاحتياج المستنصرين وإلا فالله تعالى وعدهم بالنصر حيث قال : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون ﴾ [الصافات : 171 ، 172] ولما ذكر الرسل قال قوي يكون ذلك تقوية تقارب رسله المؤمنين ، وتسلية لصدورهم وصدور المؤمنين .

(19/727)

البحث الثاني : قال : ﴿ المتين ﴾ وذلك لأن ﴿ ذُو القوة ﴾ كما بينا لا يدل إلا على أن له قوة ما فزاد في الوصف بياناً وهو الذي له ثبات لا يتزلزل وهو مع المتين من باب واحد لفظاً ومعنى فإن متن الشيء هو أصله الذي عليه ثباته ، والمتن هو الظهر الذي عليه أساس البدن ، والمتانة مع القوة كالعزة مع القوة حيث ذكر الله تعالى في مواضع ذكر القوة والعزة فقال :

﴿ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد : 25] وقال ﴿ القوى العزيز ﴾ [هود : 66] .

وفيه لطيفة تؤيد ما ذكرنا من البحث في القوي وذي القوة ، وذلك لأن المتين هو الثابت الذي لا يتزلزل والعزيز هو الغالب ، ففي المتين أنه لا يغلب ولا يقهر ولا يهزم ، وفي العزيز أنه يغلب ويقهر ويزل الأقدام ، والعزة أكمل من المتانة ، كما أن القوي أكمل من ذي القوة ، فقرن الأكمل

بالأكمل وما دونه بما دونه ، ولو نظرت حق النظر وتأملت حق التأمل لرأيت في كتاب الله تعالى لطائف تنبهك على عناد المنكرين وقبح إنكار المعاندين .

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (59)

وهو مناسب لما قبله وذلك لأنه تعالى بيّن أن من يضع نفسه في موضع عبادة غير الله يكون وضع الشيء في غير موضعه فيكون ظالماً ، فقال إذا ثبت أن الإنس مخلوقون للعبادة فإن الذين ظلموا بعبادة الغير لهم هلاك مثل هلاك من تقدم ، وذلك لأن الشيء إذا خرج عن الانتفاع المطلوب منه ، لا يحفظ وإن كان في موضع يخلي المكان عنه ، ألا ترى أن الدابة التي لا يبقى منتفعاً بها بالموت أو بمرض يخلي عنها الإصطبل ، والطعام الذي يتعفن يبدد ويفرغ منه الإناء ، فكذلك الكافر إذا ظلم ، ووضع نفسه في غير موضعه ، خرج عن الانتفاع فحسن إخلاء المكان عنه وحق نزول الهلاك به ، وفي التفسير مسائل :

المسألة الأولى :

فيما يتعلق به الفاء ، وقد ذكرنا لك في وجه التعلق .

المسألة الثانية :

ما مناسبة الذنوب ؟ نقول العذاب مصبوب عليهم ، كأنه قال تعالى نصب من فوق رؤوسهم ذنوباً كذنوب صب فوق رؤوس أولئك ، ووجه آخر وهو أن العرب يستقون من الآبار على النوبة ذنوباً فذنوباً وذلك وقت عيشهم الطيب ، فكأنه تعالى قال : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ من الدنيا وطيباتها ﴿ ذَنُوباً ﴾ أي ملاء ، ولا يكون لهم في الآخرة من نصيب ، كما كان عليه حال أصحابهم استقوا ذنوباً وتركوها ، وعلى هذا فالذنوب ليس بعذاب ولا هلاك ، وإنما هو رغد العيش وهو أليق بالعربية ، وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ فإن الرزق ما لم يفرغ لا يأتي الأجل .

ثم أعاد ما ذكر في أول السورة فقال : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ الذى يُوعَدُونَ ﴾ .

والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 198 . 204 ﴾

(21/727)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقوله : ﴿ والسماءَ ﴾

نصب بإضمار فعل تقديره : وبنينا السماء بنيناها . والأيد : القوة قاله ابن عباس ومجاهد

وقتادة ، ووقعت في المصحف بياءين وذلك على تخفيف الهمز ، وفي هذا نظر .

وقوله : ﴿ لموسعون ﴾ يحتمل أن يريد : إنا نوسع الأشياء قوة وقدرة كما قال تعالى : ﴿ على الموسع قدره ﴾ [البقرة : 236] أي الذي يوسع أهله إنفاقاً ، ويحتمل أن يريد : ﴿ لموسعون ﴾ في بناء السماء ، أي جعلناها واسعة وهذا تأويل ابن زيد وقال الحسن : أوسع الرزق بمطر السماء و" الماهد " المهيئ الموطئ للموضع الذي يتمهد ويفترش .

وقوله تعالى : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ أي مصطحبين ومتلازمين ، فقال مجاهد معناه أن هذه إشارة إلى المتضادات والمتقابلات من الأشياء كالليل والنهار والشقوة والسعادة والهدى والضلالة والأرض والسماء والسواد والبياض والصحة والمرض والكفر والإيمان ونحو هذا ، ورجحه الطبري بأنه دل على القدرة التي توجد الضدين ، بخلاف ما يفعل بطبعه فعلاً واحداً كالتسخين والتبريد . وقال ابن زيد وغيره : هي إشارة غلى الأنثى والذكر من كل حيوان والترجي الذي في قوله : ﴿ لعلكم ﴾ هو بحسب خلق البشر وعرفها . وقرأ الجمهور " تذّكرون " بشد الذال والإدغام . وقرأ أبي بن كعب : " تتذكرون " بتاءين وخفة الذال .

وقوله : ﴿ ففروا ﴾ أمر بالدخول في الإيمان وطاعة الله ، وجعل الأمر بذلك بلفظ الفرار لينبه على أن وراء الناس عقاباً وعذاباً وأمراً حقه أن يفر منه ، فجمعت لفظة " فروا " بين

التحذير والاستدعاء ، وينظر إلى هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك " الحديث ، قال الحسن بن الفضل : من فر إلى غير الله .

(22/727)

وقوله : ﴿ ولا تجعلوا مع الله ﴾ الآية نهي عن عبادة الأصنام والشياطين وكل مدعو من دون الله وفائدة تكرار قوله : ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾ الإبلاغ وهز النفس وتحكيم التحذير وإعادة الألفاظ بعينها في هذه المعاني بليغة بقرينة شدة الصوت .

وقوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ تقديره : سيرة الأمم كذلك ، أو الأمر في القديم كذلك . وقوله : ﴿ إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ معناه : إلا قال بعض : هذا وبعض : هذا وبعض : الجميع ألا ترى أن قوم نوح لم يقولوا قط : ﴿ ساحر ﴾ وإنما قالوا : ﴿ به جنة ﴾ [سبأ : 8] فلما اختلف الفرق جعل الخبر عن ذلك بإدخال أو بين الصفتين ، وليس المعنى أن كل أمة قالت عن نبيها إنه ساحر أو هو مجنون ، فليست هذه كالمتقدمة في فرعون ، بل هذه كأنه قال : إلا قالوا هو ساحر وهو مجنون .

قوله تعالى : ﴿ أتواصوا به ﴾ توقيف وتعجيب من توارد نفوس الكفرة في تكذيب الأنبياء على تفرق أزمانهم أي أنهم لم يتواصوا ، لكنهم فعلوا فعل من يتواصى .

والعلة في ذلك أن جميعهم طاغ ، والطاغي : المستعلي في الأرض المفسد العاتي على الله .

وقوله تعالى : ﴿ فتول عنهم ﴾ أي عن الحرص المفرط عليهم ، وذهاب النفس حسرات ، ويحتمل أن يراد : فقول عن التعب المفرط في دعائهم وضمهم إلى الإسلام فلست بمصيطر عليهم ولست ﴿ بملوم ﴾ إذ قد بلغت ، فنح نفسك عن الحزن عليهم ، وذكر فقط ، فإن الذكرى نافعة للمؤمنين ولمن قضي له أن يكون منهم في ثاني حال ، وعلى هذا التأويل : فلا نسخ في الآية . إلا في معنى الموادعة التي فيها ، إن آية السيف نسخت جميع الموادعات .

وروى قتادة وذكره الطبري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه لما نزلت ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ حزن المسلمون وظنوا أنه مر بالتوالي عن الجميع وأن الوحي قد انقطع حتى نزلت : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ فسروا بذلك .

(23/727)

وقوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ اختلف الناس في معناه مع إجماع أهل السنة على أن الله تعالى لم يرد أن تقع العبادة من الجميع ، لأنه لو أراد ذلك لم يصح وقوع الأمر بخلاف إرادته ، فقال ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما المعنى : ما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم بعبادتي ، وليقروا لي بالعبودية فعبر عن ذلك بقوله : ﴿

ليعبدون ﴾ إذ العبادة هي مضمن الأمر ، وقال زيد بن أسلم وسفيان : المعنى خاص ، والمراد : ﴿ وما خلقت ﴾ الطائعين من ﴿ الجن والإنس ﴾ إلا لعبادتي ، ويؤيد هذا التأويل أن ابن عباس روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ : " وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدوني " ، وقال ابن عباس أيضاً معنى : ﴿ ليعبدون ﴾ أي ليتذللوا لي ولقدرتي ، وإن لم يكن ذلك على قوانين الشرع .

قال القاضي أبو محمد : وعلى هذا التأويل فجميع الجن والإنس عابد متذلل والكفار كذلك ، ألا تراهم عند القحط والأمراض وغير ذلك . وتحتمل الآية ، أن يكون المعنى : ما خلقت الجن والإنس إلا معدين ليعبدون ، وكأن الآية تعديد نعمة ، أي خلقت لهم حواس وعقولاً وأجساماً منقادة نحو العبادة ، وهذا كما تقول : البقر مخلوقة للحرث ، والخيل للحرب ، وقد يكون منها ما لا يحارب به أصلاً ، فالمعنى أن الإعداد في خلق هؤلاء إنما هو للعبادة ، لكن بعضهم تكسب صرف نفسه عن ذلك ، ويؤيد هذا المنزع قول النبي صلى الله عليه وسلم : " اعملوا فكل ميسر لما خلق له " . وقوله : "كل مولود يولد على الفطرة" والحديث ، وقوله : ﴿ من رزق ﴾ أي أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم .

(24/727)

وقوله : ﴿ أن يطعمون ﴾ إما أن يكون المعنى أن يطعموا خلقي فإضيف ذلك إلى الضمير على جهة التجوز ، وهذا قول ابن عباد . وإما أن يكون الإطعام هنا بمعنى النفع على العموم ، كما تقول : أعطيت فلاناً كذا وكذا طعمة ، وأنت قد أعطيته عرضاً أو بلداً يحييه ، ونحو هذا فكأنه قال : ولا أريد أن ينفعوني ، فذكر جزءاً من المنافع وجعله دالاً على الجميع .

وقرأ الجميع : " إن الله هو الرزاق " . وروى أبو إسحاق السبيعي عن عبد الله بن يزيد ، قال أبو عمرو الداني عن ابن مسعود قال : أقراني رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني أنا الرزاق " وقرأ الجمهور : " إن الله هو الرزاق " وقرأ ابن محيصن " هو الرازق "

وقرأ جمهور القراء : " المتينُ " بالرفع إما على أنه خبر بعد خبر ، أو صفة ل ﴿ الرزاق ﴾ .

وقرأ يحيى بن وثاب ، والأعمش " المتينِ " بالخفض على النعت ل ﴿ القوة ﴾ ، وجاز ذلك من حيث تأنيث ﴿ القوة ﴾ غير حقيقي . فكأنه قال : ذو الأيد ، أو ذو الحبل ونحوه ﴿ فمن جاءه موعظة ﴾ [البقرة : 275] وجوز أبو الفتح أن يكون خفض " المتينِ " على الجوار و: ﴿ المتين ﴾ : الشديد .

وقوله تعالى : ﴿ فإن للذين ظلموا ﴾ يريد أهل مكة ، وهذه آية وعيد صراح ، وقرأ الأعمش " فإن للذين كفروا " . والذنوب : الحظ والنصيب ، وأصله من الدلو ، وذلك أن الذنوب هو ملء الدلو من الماء ، وقيل الذنوب : الدلو العظيمة ، ومنه قول الشاعر : [الرجز

]

إنا إذا نازلنا غريب . . . له ذنوب ولنا ذنوب

فإن أبيتم فلنا القليب . . . وهو السجل ، ومنه قول علقمة بن عبدة : [الطويل]

وفي كل حي قد خبطت بنعمة . . . فحق لشأس من نداك ذنوب

فيروى أن الملك لما سمع هذا البيت قال نعم وأذنبة ، ومنه قول حسان : [الطويل]

لا يبعدن ربيعة بن مكدم . . . وسقى الغوادي قبره بذنوب

(25/727)

و ﴿ أصحابهم ﴾ يريد به من تقدم من الأمم المعذبة . وقوله : ﴿ فلا يستعجلون ﴾ تحقيق للأمر ، بمعنى هو نازل بهم لا محالة في وقته المحتوم ، فلا يستعجلوه ، وقرأ يحيى بن وثاب : " فلا تستعجلون " بالتاء من فوق .

ثم أوجب تعالى لهم الويل من يومهم الذي يأتي فيه عذابهم . والويل : الشقاء والهم ، وروي أن في جهنم وادياً يسمى : ويلاً . والطبري يذهب أبداً إلى أن التوعد إنما هو به ، وذلك في هذا الموضع قلق ، لأن هذا الويل إنما هو ﴿ من يومهم ﴾ الذي هو في الدنيا ، و: ﴿ من ﴾ لابتداء الغاية . وقال جمهور المفسرين : هذا التوعد هو بيوم القيامة . وقال آخرون ذكره الثعلبي هو يوم بدر . وفي : ﴿ يوعدون ﴾ ضمير عائد ، التقدير : يوعدون به ، أو

يوعدونه .

نجز تفسير سورة " الذاريات " والحمد لله رب العالمين كثيراً ، وصلى الله عليه سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وعن جميع تابعيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(26/727)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾

قيل : إن هذا خاص فيمن سبق في علم الله أنه يعبده ، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص .

والمعنى : وما خلقت أهل السعادة من الجنّ والإنس إلا ليوحدون .

قال القشيريّ : والآية دخلها التخصيص على القطع ؛ لأن المجانين والصبيان ما أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجن والإنس ﴾ [الأعراف : 179] ومن خُلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة ، فالآية محمولة على المؤمنين منهم ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا ﴾ [الحجرات :

14] وإنما قال فريق منهم .

ذكره الضحاك والكلبي والفرّاء والقتبي .

وفي قراءة عبد الله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس مِنَ المؤمنين إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ وقال عليّ رضي الله عنه : أي وما خلقت الجنّ والإنس إلا لآمرهم بالعبادة .

واعتمد الزجاج على هذا القول ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أمروا إِلاَّ ليعبدوا إلها وَاحِداً ﴾ [التوبة : 31] .

فإن قيل : كيف كفروا وقد خلقهم للإقرار بربوبيته والتذلل لأمره ومشيئته ؟ قيل : قد تذللوا لقضائه عليهم ؛ لأن قضاءه جارٍ عليهم لا يقدرون على الامتناع منه ، وإنما خالفهم من كفر في العمل بما أمره به ، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه .

وقيل : ﴿ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي إلا ليقروا لي بالعبادة طوعاً أو كرهاً ؛ رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس .

فالكره ما يُرَى فيهم من أثر الصنعة .

مجاهد : إلا ليعرفوني .

الثعلبي : وهذا قول حسن ؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده .

ودليل هذا التأويل قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [الزخرف : 87] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم ﴾ [الزخرف : 9] وما أشبه هذا من الآيات .

وعن مجاهد أيضاً : إلا لآمرهم وأنهاهم .

زيد بن أسلم : هو ما جُبِلوا عليه من الشّقوة والسعادة ؛ فخلق السعداء من الجنّ والإنس للعبادة ، وخلق الأشقياء منهم للمعصية .

وعن الكلبي أيضاً : إلا ليوحدون ، فأما المؤمن فيوحده في الشدّة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده في الشدّة والبلاء دون النعمة والرخاء ؛ يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كالظلل دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [لقمان : 32] الآية .

وقال عِكْرمة : إلا ليعبدون ويطيعون فأثيب العابد وأعاقب الجاحد .

وقيل : المعنى إلا لأستعبدهم .

والمعنى متقارب ؛ تقول : عبد بيّن العبودة والعبودية ، وأصل العبودية الخضوع والذل .

والتعبيد التذليل ؛ يقال : طريق معبد .

قال :

وظِيفاً وَظِيفاً فوقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ . . .

والتعبيد الاستعباد وهو أن يتخذه عبداً .

وكذلك الاعتباد .

والعبادة : الطاعة ، والتَّعبُّد التَّنسك .

فمعنى "لِيَعْبُدُونِ" ليذِلّوا ويخضعوا ويعبدوا .

﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ "مِنْ" صلة أي رزقاً بل أنا الرزّاق والمعطي .

وقال ابن عباس وأبو الجوزاء : أي ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها .

وقيل : المعنى ما أريد أن يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الرزاق ﴾ وقرأ ابن مُحيصِن وغيره "الرَّازِقُ" .

﴿ ذُو القوة المتين ﴾ أي الشديد القوي : .

وقرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب والنّخعي "الْمَتِينِ" بالجر على النعت للقوّة .

الباقون بالرفع على النعت ل"الرزَّاق" ، أو "ذُو" من قوله : ﴿ ذُو القوة ﴾ أو يكون خبر ابتداء محذوف ؛ أو يكون نعتاً لاسم إنّ على الموضع ، أو خبراً بعد خبر .

قال الفراء : كان حقّه المتينة فذكَّره لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرَم المحكم الفتل ؛ يقال : حبل متين وأنشد الفرّاء :

لِكُلِّ دَهْرٍ قَدْ لَبِسْتُ أَثْوُباً . . .

حَتَّى اكتسى الرَّأْسُ قِنَاعاً أَشْيَبَا

مِن ريطةٍ وَالْيُمْنَةَ الْمُعَصَّبَا . . .

فذكَّر المعصَّب ؛ لأن اليمنة صنف من الثياب ؛ ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ فَمَن جَآءَهُ مَوْعِظَةٌ ﴾ [البقرة : 275] أي وعظ ﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة ﴾ [هود : 67] أي الصياح والصوت .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أي كفروا من أهل مكة ﴿ ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ أي نصيباً من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السالفة .

وقال ابن الأعرابي : يقال يوم ذَنُوب أي طويل الشر لا ينقضي .

وأصل الذَّنُوب في اللغة الدَّلو العظيمة ، وكانوا يستقون الماء فيقسمون ذلك على الأنصباء فقيل للذَّنُوب نصيب من هذا ؛ قال الراجز :

لَنَا ذَنُوبٌ وَلَكُمْ ذَنُوبُ . . .

فإنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ

وقال عَلْقمة :

وفي كلِّ يومٍ قد خَبَطْتَ بِنعْمةٍ . . .

فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ

وقال آخر :

لعَمْرُكَ والمَنَايَا طارِقاتٌ . . .

لِكلِّ بَنِي أَبٍ منها ذَنُوبُ

الجوهري : والذَّنُوب الفرس الطويل الذَّنَب ، والذَّنُوب النصيب ، والذَّنُوب لحم أسفل المَتْن ، والذَّنُوب الدَّلو الملآى ماء .

وقال ابن السكيت : فيها ماء قريب من الملء يؤنث ويذكر ، ولا يقال لها وهي فارغة ذَنُوب ؛ والجمع في أدنى العدد أَذْنِبة والكثير ذَنائِب ، مثل قَلُوص وقَلائص .

(29/727)

﴿ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أي فلا يستعجلون نزول العذاب بهم ؛ لأنهم قالوا : يا محمد ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الأعراف : 70] فنزل بهم يوم بدر ما حقق به وعده وعجّل بهم انتقامه ، ثم لهم في الآخرة العذاب الدائم ، والخزي القائم ، الذي لا انقطاع له ولا نفاد ، ولا غاية ولا آباد .

تم تفسير سورة "والذاريات" والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(30/727)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) ﴾

أي : وبنينا السماء ، فهو من باب الاشتغال ، وكذا وفرشنا الأرض .

وقرأ أبو السمال ، ومجاهد ، وابن مقسم : برفع السماء ورفع الأرض على الابتداء .

﴿ بأيد ﴾ : أي بقوة ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ، وهو كقوله : ﴿ داود ذا الأيد ﴾

﴿ وإنا لموسعون ﴾ : أي بناءها ، فالجملة حالية ، أي بنيناها موسعوها ، كقوله : جاء زيد وإنه لمسرع ، أي مسرعاً ، فهي بحيث أن الأرض وما يحيط من الماء والهواء كالنقطة وسط الدائرة .

وقال ابن زيد قريباً من هذا وهو : أن الوسع راجع إلى السماء .

وقيل : لموسعون قوة وقدرة ، أي لقادرون من الوسع ، وهو الطاقة .

وقال الحسن : أوسع الرزق بالمطر والماء .

﴿ فنعم الماهدون ﴾ ، و﴿ خلقنا زوجين ﴾ ، قال مجاهد : إشارة إلى المتضادات والمتقابلات ، كالليل والنهار ، والشقاوة والسعادة ، والهدى والضلال ، والسماء والأرض ، والسواد والبياض ، والصحة والمرض ، والكفر والإيمان ، ونحو ذلك ، ورجحه الطبري بأنه أدل على القدرة التي توجد الضدين ، بخلاف ما يفعل بطبعه ، كالتسخين والتبريد .

ومثل الحسن بأشياء مما تقدم وقال : كل اثنين منها زوج ، والله تعالى فرد لا مثل له .

وقال ابن زيد وغيره : ﴿ من كل شيء ﴾ : أي من الحيوان ، ﴿ خلقنا زوجين ﴾ : ذكراً وأنثى .

وقيل : المراد بالشيء الجنس ، وما يكون تحت الجنس نوعان : فمن كل جنس خلق نوعين من الجواهر ، مثل النامي والجامد .

ومن النامي المدرك والنبات ، ومن المدرك الناطق والصامت ، وكل ذلك يدل على أنه فرد لا كثرة فيه .

﴿ لعلكم تذكرون ﴾ : أي بأني باني السماء وفارش الأرض وخالق الزوجين ، تعالى أن يكون له زوج .

أو تذكرون أنه لا يعجزه حشر الأجساد وجمع الأرواح .

وقرأ أبي : تتذكرون ، بتاءين وتخفيف الذال .

وقيل : إرادة أن تتذكروا ، فتعرفوا الخالق وتعبدوه .

﴿ ففروا إلى الله ﴾ : أمر بالدخول في الإيمان وطاعة الله ، وجعل الأمر بذلك بلفظ الفرار ، لينبه على أن وراء الناس عقاب وعذاب .

وأمر حقه أن يفر منه ، فجمعت لفظة ففروا بين التحذير والاستدعاء .

وينظر إلى هذا المعنى قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : " لا ملجأ وملا منجا منك إلا إليك " ، قاله ابن عطية ، وهو تفسير حسن .

وقال الزمخشري : إلى طاعته وثوابه من معصيته وعقابه ، ووحدوه ولا تشركوا به شيئاً .

وكرر ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾ ، عند الأمر بالطاعة والنهي عن الشرك ، ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل ، كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان ، وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾

والمعنى : قل يا محمد ففروا إلى الله .

انتهى ، وهو على طريق الاعتزال .

وقد رددنا عليه في تفسير ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها ﴾ في موضع هذه الآية .

﴿ كذلك ﴾ : أي أمر الأمم السابقة عند مجيء الرسل إليهم ، مثل الأمر من الكفار الذين بعثت إليهم ، وهو التكذيب .

﴿ ساحر أو مجنون ﴾ : أو للتفصيل ، أي قال بعض ساحر ، وقال بعض مجنون ، وقال بعض كلاهما ، ألا ترى إلى قوم نوح عليه الصلاة والسلام لم يقولوا عنه إنه ساحر ، بل قالوا به جنة ، فجمعوا في الضمير ودلت أو على التفصيل ؟ ﴿ أتواصوا به ﴾ : أي بذلك القول ، وهو توقيف وتعجيب من توارد نفوس الكفرة على تكذيب الأنبياء ، مع افتراق أزمانهم ، ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾ : أي لم يتواصوا به ، لأنهم لم يكونوا في زمان واحد ، بل جمعتهم علة واحدة ، وهي كونهم طغاة ، فهم مستعلون في الأرض ، مفسدون فيها عاتون .

﴿ فتول عنهم ﴾ : أي أعرض عن الذين كررت عليهم الدعوة ، فلم يجيبوا .

﴿ فما أنت بملوم ﴾ : إذ قد بلغت ونصحت .

(32/727)

﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ : تؤثر فيهم وفيمن قدر الله أن يؤمن ، وما دل عليه الظاهر من الموادعة منسوخ بآية السيف .

وعن عليّ ، كرم الله وجهه : لما نزل ﴿ فتول عنهم ﴾ ، حزن المسلمون وظنوا أنه أمر

بالتولي عن الجميع ، وأن الوحي قد انقطع ، نزلت ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ ، فسروا بذلك .

﴿ إلا ليعبدون ﴾ : أي ﴿ وما خلقت الإنس والجن ﴾ الطائعين ، قاله زيد بن أسلم وسفيان ، ويؤيده رواية ابن عباس ، عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين " وقال علي وابن عباس : ﴿ إلا ليعبدون ﴾ : إلا لآمرهم بعبادتي ، وليقروا لي بالعبادة .

فعبر بقوله : ﴿ ليعبدون ﴾ ، إذ العبادة هي مضمن الأمر ، فعلى هذا الجن والإنس عام .

وقيل : يحتمل أن يكون المعنى : إلا معدين ليعبدون ، وكأن الآية تعديد نعمه ، أي خلقت لهم حواس وعقولاً وأجساماً منقادة ، نحو : العبادة ، كما تقول : هذا مخلوق لكذا ، وإن لم يصدر منه الذي خلق له ، كما تقول : القلم مبري لأن يكتب به ، وهو قد يكتب به وقد لا يكتب به ، وقال الزمخشري : إلا لأجل العبادة ، ولم أرد من جميعهم إلا إياها .

فإن قلت : لو كان مريداً للعبادة منهم ، لكانوا كلهم عباداً .

قلت : إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها ، لأنه خلقهم ممكنين ، فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريداً لها ، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم .

انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال .

وقال مجاهد : ﴿ إلا ليعبدون ﴾ : ليعرفون .

وقال ابن زيد : لأحملهم في العبادة على الشقاوة والسعادة .

وقال الربيع بن أنس : إلا للعبادة ، قال : وهو ظاهر اللفظ .

وقيل : إلا ليذلوا لقضائي .

وقال الكلبي : إلا ليوحدون ، فالمؤمن يوحده في الشدة والرخاء ، والكافر في الشدة .

وقال عكرمة : ليطيعون ، فأثيب العابد ، وأعاقب الجاحد .

وقال مجاهد أيضاً : إلا للأمر والنهي .

(33/727)

﴿ ما أريد منهم من رزق ﴾ : أي أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم .

﴿ ما أريد أن يطعمون ﴾ : أي أن يطعموا خلقي ، فهو على حذف مضاف ، فالإضافة إلى الضمير تجوز ، قاله ابن عباس .

وقيل : ﴿ أن يطعمون ﴾ : أن ينفعون ، فذكر جزءاً من المنافع وجعله دالاً على الجميع .

وقال الزمخشري : يريد إن شأني مع عبادي ليس كشأن السادة مع عبيدهم ، لأن ملاك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا في تحصيل معايشهم وأرزاقهم بهم ؛ فإما مجهز في تجارة يبغي

ربحاً ، أو مرتب في فلاحة ليقتل أرضاً ، أو مسلم في حرفة لينتفع بأجرته ، أو محتطب ، أو محتش ، أو مستق ، أو طابخ ، أو خابز ، أو ما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التي تصرف في أسباب المعيشة وأبواب الرزق .

فأما مالك ملاك العبيد فقال لهم : اشتغلوا بما يسعدكم في أنفسكم ، ولا أريد أن أصرفكم في تحصيل رزقي ولا رزقكم ، وأنا غني عنكم وعن مرافقكم ، ومتفضل عليكم برزقكم وبما يصلحكم ويعيشكم من عندي ، فما هو إلا أنا وحدي .

انتهى ، وهو تكثير وخطابة .

وقرأ ابن محيصن : ﴿ الرزاق ﴾ ، كما قرأ : ﴿ وفي السماء رزقكم ﴾ : اسم فاعل ، وهي قراءة حميد .

وقرأ الأعمش ، وابن وثاب : ﴿ المتين ﴾ بالجر ، صفة للقوة على معنى الاقتدار ، قاله الزمخشري ، أو كأنه قال : ذو الأيد ، وأجاز أبو الفتح أن تكون صفة لذو وخفض على الجوار ، كقولهم : هذا جحر ضب خرب .

﴿ فإن للذين ظلموا ﴾ : هم أهل مكة وغيرهم من الكفار الذين كذبوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ذنوباً : أي حظاً ونصيباً ، ﴿ مثل ذنوب أصحابهم ﴾ : من الأمم السابقة التي كذبت الرسل في الإهلاك والعذاب .

وعن قتادة : سجلاً من عذاب الله مثل سجل أصحابهم .

وقال الجوهري : الذنوب : الدلو الملأى ماء ، ولا يقال لها ذنوب وهي فارغة وجمعها العدد ، وفي الكثير ذنائب .

والذنوب : الفرس الطويل الذنب ، والذنوب : النصيب ، والذنوب : لحم أسفل المتن .

وقال ابن الأعرابي : يقال يوم ذنوب : أي طويل الشر لا ينقضي .

(34/727)

﴿ فويل للذين كفروا من يومهم ﴾ ، قيل : يوم بدر .

وقيل : يوم القيامة ﴿ الذي يوعدون ﴾ : أي به ، أو يوعدونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(35/727)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ والسماء بنيناها بِأَيْدٍ ﴾

أيْ بقوةٍ ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ لقادرونَ منَ الوسعِ بمَعْنى الطاقةِ والموسعُ القادرُ عَلى الإنفاقِ أوْ لموسعونَ السماءَ أو ما بينَها وَبينَ الأرضِ أو الرزقِ.

(36/727)

﴿ والأرض فرشناها ﴾ مهدناهَا وبسطناهَا ليستقروا عليها ﴿ فَنِعْمَ الماهدون ﴾ أيْ نحنُ ﴿ وَمِن كُلّ شَىْء ﴾ أيْ منَ الأجناسِ ﴿ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ أيْ نوعينِ ذكراً وأُنْثى، وقيلَ متقابلينَ: السماءَ والأرضَ والليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ والبرَّ والبحرَ ونحوَ ذلكَ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي فعلنَا ذلكَ كُلَّه كي تتذكرُوا فتعرفُوا أنَّه خالقُ الكُلّ ورازقُه وأنَّه المستحقُّ للعبادةِ وأنَّه قادرٌ عَلى إعادةِ الجميعِ فتعملُوا بمقتضاهُ وقولُه تعالَى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى الله ﴾ مقدرٌ لقولٍ خُوطبَ بهِ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بطريقِ التلوينِ. والفاءُ إما لترتيبِ الأمرِ عَلى ما حُكيَ من إثارةِ غضبِه الموجبةِ للفرارِ منْهَا ومنْ أحكامِ رحمتِه المستدعيةِ للفرارِ إليَها، كأنَّه قيلَ قُلْ لَهُم إذَا كانَ الأمرُ كذلكَ فاهربُوا إلى الله الذي هذِه شؤونُه بالإيمانِ والطاعةِ كيْ تنجوا من عقابِه وتفوزُوا بثوابِه، وَإمَّا للعطفِ عَلى جُملةٍ مقدرةٍ مترتبةٍ عَلى قولِه تعالَى لعلَّكُم تذكرونَ كأنَّه قيلَ قُلْ لَهُم فتذكرُوا ففرُّوا إلى الله الخ، وقولُه تعالَى: ﴿ إِنّى لَكُمْ مّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالفرارِ إليهِ تعالَى أو لوجوبِ الامتثالِ بهِ فإنَّ كونَهُ عليهِ

الصَّلاةُ وَالسَّلامُ مُنذِراً منْهُ تعالَى موجبٌ عليهِ عليهِ الصَّلاة والسَّلامُ أنْ يأمرَهُم بالفرارِ إليهِ وعليهمْ أنْ يمتثلُوا بهِ أي إنِّي لكُم منَ جهتِه تعالَى منذرٌ بينٌ كونُه منذراً منْهُ تعالَى أو مظهرٌ لما يجبُ إظهارُهُ منَ العذابِ المنذرِ بهِ ، وفي أمرِه تعالَى للرسولِ صلى الله عليه وسلم بأنْ يأمرَهُم بالهربِ إليهِ تعالَى منْ عقابِه وتعليلِه بأنَّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ينذرُهم منْ جهتِه تعالَى لا منْ تلقاءِ نفسِه . وعدٌ كريمٌ بنجاتِهم من المهروبِ وفوزِهم بالمطلوبِ وقولُه تعالَى : ﴿

(37/727)

وَلاَ تَجْعَلُواْ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾ نهيٌ موجبٌ للفرارِ منْ سببِ العقابِ بعدَ الأمرِ بالفرارِ منْ نفسِه كمَا يشعرُ بهِ قولُه تعالَى : ﴿ إِنِّى لَكُمْ مِّنْهُ ﴾ أيْ منَ الجعلِ المنهيِّ عنْهُ ﴿ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ فإنَّ تعلقَ كلمةِ منْ بالإنذارِ معَ كونِ صلتِه الباءَ بتضمينِه معنى الإفرارِ يقالُ فرَّ منْهُ أيْ هربَ وأفرَّه غيرُهُ كأنَّه قيلَ وفِرُّوا منْ أنْ تجعلُوا معَهُ تعالَى اعتقاداً أو قولاً إلها آخر وفيهِ تأكيدٌ لما قبلَهُ منَ الأمرِ بالفرارِ من العقابِ إليهِ تعالَى لكنْ لا بطريقِ التكريرِ كمَا قيلَ بَلْ بالنهي عنْ سببِه وإيجابِ الفرارِ منْهُ .

﴿ كذلك ﴾ أي الأمرُ مثلَ ما ذكرَ منْ تكذيبِهم الرسولَ وتسميتِهم لَهُ ساحِراً أو مَجْنُوناً ،

وقولُه تعالَى : ﴿ مَا أَتَى الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ الخ تفسيرٌ لهُ أيْ ما أتَاهُم ﴿ مِن رَّسُولٍ ﴾ مِنْ رسلِ الله ﴿ إِلاَّ قَالُواْ ﴾ في حَقِّه ﴿ ساحر أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ ولا سبيلَ إلى انتصابِ الكافِ بأَتَى لامتناعِ عملِ مَا بعدَ (مَا) النافيةِ فيمَا قبلَها .

(38/727)

﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِ ﴾ إنْكارٌ وتعجيبٌ منْ حالِهم وإجماعِهم عَلى تلكَ الكلمةِ الشنيعةِ التي لاَ تكادُ تخطرُ ببالِ أحدٍ من العقلاءِ فضلاً عن التفوهِ بهَا أيْ أَأَوْصَى بهذَا القولِ بعضُهم بعضاً حتَّى اتفقُوا عليهِ وقولُه تعالَى : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغون ﴾ إضرابٌ عنْ كونِ مدارِ اتفاقِهم عَلى الشرّ تواصيهم بذلكَ وإثباتٌ لكونِه أمراً أقبحَ منَ التَّواصِي وأشنعَ منْهُ منَ الطغيانِ الشاملِ للكُلِّ الدالِّ عَلى أنَّ صدورَ تلكَ الكلمةِ الشنيعةِ عنْ كُلِّ واحدٍ منْهُم بمقتضَى جبلَّتِه الخبيثةِ لا بموجبِ وصيةٍ منْ قبلِهم بذلكَ منْ غيرِ أنْ يكونَ ذلكَ مُقْتضى طباعِهم ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فأعرضْ عنْ جدالِهم فقدْ كررتَ عليهم الدعوةَ فأَبَوا إلا الإباءَ ﴿ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ عَلى التولِّي بعدَ مَا بذلتَ المجهودَ وجاوزتَ فيةَ الإبلاغِ كُلَّ حدَ معهودٍ .

(39/727)

﴿ وَذَكِّرْ ﴾ أي أفعلْ التذكيرَ والموعظةَ ولاَ تدعُهما بالمرةِ أو فذكرهُم وقدْ حُذِفَ الضَّميرُ لظهورِ الأَمْرِ ﴿ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ أي الذينَ قدرَ الله تعالَى إيمانَهُم أو الذينَ آمنُوا بالفعلِ فإنَّها تزيدُهم بصرةً وقوةً في اليقينِ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ استئنافٌ مؤكدٌ للأمرِ مقررٌ لمضمونِ تعليلِهِ فإنَّ كونَ خَلقِهم مُغياً بعبادتِه تعالَى ممَّا يدعُوه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى تذكيرِهم ويوجبُ عليهمْ التذكرَ والاتعاظَ ، ولعلَّ تقديمَ خلقِ الجنِّ في الذكرِ لتقدمِهِ على خَلْقِ الإنسِ في الوجودِ ومَعْنى خلقِهم لعبادتِه تعالَى خلقُهم مستعدينَ لَها ومتمكنينَ منْها أتمَّ استعدادٍ وأكملَ تمكنٍ معَ كونِها مطلُوبةً مِنهُمْ بتنزيلِ ترتبِ الغايةِ عَلى مَا هيَ ثمرةٌ لَهُ منزلةَ ترتبِّ الغرضِ عَلى ما هُو غرضٌ لَهُ فإنَّ استتباعَ أفعالِه تعالَى لغاياتٍ جليلةٍ ممَّا لاَ نزاعَ فيهِ قطعاً ، كيفَ لاَ وهيَ رحمةٌ منْهُ تعالَى وتفضلٌ عَلى عبادِه وإنَّما الذي لا يليقُ بجنابِهِ عَزَّ وجَلَّ تعليلُها بالغرضِ بمَعْنى الباعثِ عَلى الفِعْلِ بحيثُ لولاَهُ لم يفعلْهُ لإفضائِه إلى استكمالِه بفعلِه وهُوَ الكاملُ بالفعلِ منْ كُلِّ وجهٍ ، وأمَّا بمَعْنى نهايةٍ كماليةٍ يُفْضِي إليهَا فعلُ الفاعلِ الحقِّ فغيرُ منفيَ أفعالِه تعالَى بل كلُّها جاريةٌ عَلى ذلكَ المنهاجِ ، وعَلى هَذا الاعتبارِ يدورُ وصفُه تعالَى بالحكمةِ ويكفي في تحقيقِ مَعْنى التعليلِ عَلى ما يقولُه الفقهاءُ ويتعارفُه أهلُ اللغةِ هَذا المقدارُ وبِه يتحققُ مدلولُ اللامِ وأما إرادةُ الفاعلِ لَها فليستْ من مقتضياتِ اللامِ حَتَّى يلزمَ منْ عدمِ صدورِ العبادةِ عنِ البعضِ تخلفُ المرادِ عن الإرادةِ فإنْ

تعوقَ البعضِ عنِ الوصولِ إلى الغايةِ معَ تعاضدِ المبادي وتآخذِ المقدماتِ الموصلةِ إليهَا لا يمنعُ

(40/727)

كونَها غايةً كمَا في قولِه تعالَى : ﴿ كِتَابٌ أنزلناه إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ ونظائِره ، وقيلَ المَعْنى إلا ليؤمُروا بعبادِتي كما في قولِه تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إلها واحدا ﴾ وقيلَ : المرادُ سعداءُ الجنسينِ كما أنَّ المرادَ بقولِه تعالَى ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مّنَ الجن والإنس ﴾ أشقياؤُهما ويعضُده قراءةُ مَنْ قرأَ وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ منَ المؤمنينَ وقال مجاهد واختارَهُ البغويُّ معناهُ إلا ليعرفونِ ومدارُه قولُه صلى الله عليه وسلم فيمَا يحكيه عنْ ربِّ العزة : "كنتُ كنزاً مخفياً فأحببتُ أنْ أعرفَ فخلقتُ الخلقَ لأعرفَ" ولعلَّ السرَّ في التعبيرِ عنِ المعرفةِ بالعبادةِ عَلى طريقِ إطلاقِ اسمِ السببِ عَلى المسببِ التنبيهُ عَلى أنَّ المعتبرَ هيَ المعرفةُ الحاصلةُ بعبادتِه تعالَى لا ما يحصلُ بغيرِها كمعرفةِ الفلاسفةِ .

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مّن رّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾

بيانٌ لكونِ شأنِه تعالَى معَ عبادةِ متعالياً عنْ أنْ يكونَ كشأنِ السَّادةِ معَ عبيدِهم حيثُ

يملكونَهُم ليستعينُوا بهمْ في تحصيلِ معايشهِم وتهيئةِ أرزاقِهم أيْ ما أريدُ أنْ أصرفَهُم في تحصيلِ رزْقي ولا رزْقهم بلْ أتفضلُ عليهمْ برزقِهم وبَما يصلحُهم ويعيّشَهم منْ عندِي فليشتغلُوا بمَا خُلِقوا لَهُ منْ عِبادِتي ﴿ إنَّ اللهَ هُوَ الرزاق ﴾ الذي يرزقُ كُلَّ ما يفتقرُ إلى الرزقِ ، وفيهِ تلويحٌ بأَنَّه غنيٌّ عنْهُ وقُرِىءَ إنّي أنَا الرزاقُ ﴿ ذُو القوة المتين ﴾ بالرفعِ عَلى أنَّه نعتٌ للرزاقِ أوْ لذُو أَوْ خبرٌ بعدَ خبرٍ أوْ خبرٌ لمضمرٍ وقُرِىءَ بالجَرِّ عَلى أنَّه وصفٌ للقوةِ على تأويلِ الاقتدارِ أوِ الأيدِ .

(41/727)

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أيْ ظلُموا أنفسَهمُ بتعريضِها للعذابِ الخالدِ بتكذيبِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أوْ وضعُوا مكانَ التصديقِ تكذيباً وَهُم أهلُ مكةَ ﴿ ذَنُوباً ﴾ أيْ نصيباً وافراً منَ العَذَابِ ﴿ مِّثْلَ ذَنُوبِ أصحابهم ﴾ مثلَ أنصباءِ نُظَرائِهم منَ الأممِ المحكيةِ وهُو مأخوذٌ من مقاسمةِ السُّقاةِ الماءَ بالذنوبِ وهُوَ الدلُو العظيمُ المملوءُ ﴿ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أيْ لا يطلُبوا منّي أنْ أُعجّلَ في المجيءِ بهِ يقالُ استعجلَهُ أيْ حثَّهُ عَلى العَجَلةِ وأمره بها ويقالُ استعجلَهُ أيْ طلبَ وقوعَهُ بالعجلةِ ومنْهُ قولُه تعالَى : ﴿ أتى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ وهُو جوابٌ لقولِهم ﴿ مَتَى هَذا الوعدُ إنْ كُنتم صادقينَ ﴾ ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

وضعَ الموصولَ موضعَ ضميرِهم تسجيلاً عليهم بِمَا في حيزِ الصلةِ منَ الكُفر وإشعاراً بعلةِ الحكمِ . والفاءُ لترتيبِ ثبوتِ الويلِ لهُم عَلى أنَّ لَهُم عذاباً عظيماً كَما أنَّ الفاءَ الأُولى لترتيبِ النَّهي عنْ الاستعجالِ عَلى ذلكَ ، ومَنْ في قولِه تعالَى : ﴿ مِن يَوْمِهِمُ الذى يُوعَدُونَ ﴾ للتعليلِ أيْ يوعدونَهُ منْ يومِ بدرٍ وقيلَ يومُ القيامةِ وهُو الأنسبُ بَما في صدرِ السورةِ الكريمةِ الآتيةِ والأولُ هُو الأوفقُ لما قبلَهُ منْ حيثُ إنَّهما منَ العذابِ الدنيويِّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(42/727)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾

استئناف مؤكد للأمر مقرر لمضمون تعليله فإن خلقهم لما ذكر سبحانه وتعالى مما يدعوه صلى الله عليه وسلم إلى تذكيرهم ويوجب عليهم التذكر والاتعاظ ، ولعل تقديم الجن في الذكر لتقدم خلقهم على خلق الإنس في الوجود ، والظاهر أن المراد من يقابلون بهم وبالملائكة عليهم السلام ولم يذكر هؤلاء قيل : لأن الأمر فيهم مسلم ، أو لأن الآية سيقت لبيان صنيع المكذبين حيث تركوا عبادة الله تعالى وقد خلقوا لها ؛ وهذا الترك مما لا يكون

فيهم بل هم عباد مكرمون لا يستكبرون عن عبادته عز وجل ، وقيل : لأنه صلى الله عليه وسلم ليس مبعوثاً إليهم فليس ذكرهم في هذا الحكم مما يدعوه عليه الصلاة والسلام إلى تذكيرهم ، وأنت تعلم أن الأصح عموم البعثة فالأولى ما قيل بدله لاستغنائهم عن التذكير والموعظة ، وقيل : المراد بالجن ما يتناولهم ونه من الاستتار وهم مستترون عن الانس ، وقيل : لا يصح ذكرهم في حيز الخلق لأنهم كالأرواح من عالم الأمر المقابل لعالم الخلق ، وقد أشير إليهما بقوله تعالى : ﴿ لَهُ الخلق والأمر ﴾ [الأعراف : 54] ورد بقوله سبحانه : ﴿ خالق كُلّ شَىْء ﴾ [الأنعام : 102] و ﴿ لَهُ الخلق والأمر ﴾ ليس كما ظن والعبادة غاية التذلل ، والظاهر أن المراد بها ما كانت بالاختيار دون التي بالتسخير الثابتة لجميع المخلوقات وهي الدلالة المنبهة على كونها مخلوقة وأنها خلق فاعل حكيم ، ويعبر عنها بالسجود كما في قوله تعالى : ﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن : 6] وأل في الجن والانس على المشهور للاستغراق ، واللام قيل : للغاية والعبارة وإن لم تكن غاية مطلوبة من الخلق لقيام الدليل على أنه عز وجل لم يخلق الجن والإنس لاجلها أي لارادتها منهم إذ لو أرادها سبحانه منهم لم يتخلف ذلك لاستلزام الإرادة الإلهية للمراد كما بين في الأصول مع أن التخلف محقق بالمشاهدة ، وأيضاً ظاهر قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مّنَ الجن

والإنس ﴾ [الأعراف : 179] يدل على إرادة المعاصي من الكثير ليستحقوا بها جهنم فينافي إرادة العبادة لكن لما كان خلقهم على حالة صالحة للعبادة مستعدة لها حيث ركب سبحانه فيهم عقولاً وجعل لهم حواس ظاهرة وباطنة إلى غير ذلك من وجوه الاستعداد جعل خلقهم مغياً بها مبالغة بتشبيه المعدّ له الشيء بالغاية ومثله شائع في العرف ، ألا تراهم يقولون للقوى جسمه : هو مخلوق للمصارعة ، وللبقر : هي مخلوقة للحرث .

وفي الكشف أن أفعاله تعالى تنساق إلى الغايات الكمالية واللام فيها موضوعها ذلك ، وأما الإرادة فليست من مقتضى اللام إلا إذا علم أن الباعث مطلوب في نفسه وعلى هذا لا يحتاج إلى تأويل فانهم خلقوا بحيث يتأتى منهم العبادة وهدوا إليها وجعلت تلك غاية كمالية لخلقهم ، وتعوّق بعضهم عن الوصول إليها لا يمنع كون الغاية غاية ، وهذا معنى مكشوف انتهى .

(44/727)

فتأمل ، وقيل : المراد بالعبادة التذلل والخضوع بالتسخير ، وظاهر أن الكل عابدون إياه تعالى بذلك المعنى لا فرق بين مؤمن ، وكافر ، وبر ، وفاجر ، ونحوه ما قيل : المعنى ما

خلقت الجن والإنس إلا ليذلوا لقضائي ، وقيل : المعنى ما خلقتهم إلا ليكونوا عباداً لي ، ويراد بالعبد العبد بالايجاد وعموم الوصف عليه ظاهر لقوله تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى السموات والأرض إِلاَّ اتِى الرحمن عَبْداً ﴾ [مريم : 93] لكن قيل عليه : إن عبد بمعنى صار عبداً ليس من اللغة في شيء ، وقيل : العبادة بمعنى التوحيد بناءاً على ما روي عن ابن عباس أن كل عبادة في القرآن فهو توحيد فالكل يوحدونه تعالى في الآخرة أما توحيد المؤمن في الدنيا هناك فظاهر ، وأما توحيد المشرك فيدل عليه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] وعليه قول من قال : لا يدخل النار كافر ، أو المراد كما قال الكلبي : إن المؤمن يوحده في الشدة والرخاء والكافر يوحده سبحانه في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء ، كما قال عز وجل : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [العنكبوت : 65] ولا يخفى بعد ذلك عن الظاهر والسياق ، ونقل عن على كرم الله تعالى وجهه ، وابن عباس رضي الله تعالى عنهما ما خلقتهم إلا لآمرهم وأدعوهم للعبادة فهو كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله ﴾ [البينة : 5] فذكر العبادة المسببة شرعاً عن الأمر أو اللازمة له ، وأريد سببها أو ملزومها فهو مجاز مرسل ، وأنت تعلم أن أمر كل من أفراد الجن وكل من أفراد الإنس غير متحقق لا سيما إذا كان غير المكلفين كالأطفال الذين يموتون قبل زمان التكليف داخلين في العموم ،

وقال مجاهد : إن معنى ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾ ليعرفون وهو مجاز مرسل أيضاً من إطلاق اسم السبب على المسبب على ما في

(45/727)

الإرشاد ، ولعل السر فيه التنبية على أن المعتبر هي المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة قيل : وهو حسن لأنهم لو لم يخلقهم عز وجل لم يعرف وجوده وتوحيده سبحانه وتعالى ، وقد جاء "كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف " وتعقب بأن المعرفة الصحيحة لم تتحقق في كل بل بعض قد أنكر وجوده عز وجل كالطبيعيين اليوم فلا بد من القول السابق في توجيه التعليل ثم الخبر بهذا اللفظ ذكره سعد الدين سعيد الفرغاني في منتهى المدارك ، وذكر غيره كالشيخ الأكبر في الباب المائة والثمانية والتسعين من الفتوحات بلفظ آخر وتعقبه الحفاظ فقال ابن تيمة : إنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف ، وكذا قال الزركشي .

والحافظ ابن حجر .

وغيرهما : ومن يرويه من الصوفية معترف بعدم ثبوته نقلاً لكن يقول : إنه ثابت كشفاً ، وقد

نص على ذلك الشيخ الأكبر قدس سره في الباب المذكور ، والتصحيح الكشفي شنشنة لهم ، ومع ذلك فيه إشكال معنى إلا أنه أجيب عنه ثلاث أجوبة ستأتي إن شاء الله تعالى ، وقيل : أل في ﴿ الجن والإنس ﴾ للعهد ، والمراد بهم المؤمنون لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا ﴾ [الأعراف : 179] الآية أي بناءاً على أن اللام فيها ليست للعاقبة ، ونسب هذا القول لزيد بن أسلم .

(46/727)

وسفيان ، وأيد بقوله تعالى قبل : ﴿ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ [الذاريات : 55] وأيده في البحر برواية ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين " ورواها بعضهم قراءة لابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، ومن الناس من جعلها للجنس ، وقال : يكفي ثبوت الحكم له ثبوته لبعض أفراده وهو هنا المؤمنون الطائعون وهو في المآل متحد مع سابقه ، ولا إشكال على ذلك في جعل اللام للغاية المطلوبة حقيقة وكذا في جعلها للغرض عند من يجوز تعليل أفعاله تعالى بالأغراض مع بقاء الغني الذاتي وعدم الاستكمال بالغير كما ذهب كثير من السلف ، والمحدثين وقد سمعت أن منهم من يقسم الإرادة إلى شرعية تتعلق بالطاعات وتكوينية تتعلق بالمعاصي وغيرها ،

وعليه يجوز أن يبقي ﴿ الجن والإنس ﴾ على شمولها للعاصين ، ويقال : إن العبادة مرادة منهم أيضاً لكن بالإرادة الشرعية إلا أنه لا يتم إلا إذا كانت هذه الإرادة لا تستلزم وقوع المراد كالارادة التفويضية القائل بها المعتزلة .

هذا وإذا أحطت خبراً بالأقوال في تفسير هذه الآية هان عليك دفع ما يتراءى من المنافاة بينها وبين قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ولذلك خَلَقَهُمْ ﴾ [هود : 118 ، 119] على تقدير كون الإشارة إلى الاختلاف بالتزام بعض هاتيك الأقوال فيها ، ودفعه بعضهم بكون اللام في تكل الآية للعاقبة والذي ينساق إلى الذهن أن الحصر إضافي أي خلقتهم للعبادة دون ضدها أو دون طلب الرزق والإطعام على ما يشير إليه كلام بعضهم أخذاً من تعقيب ذلك بقوله سبحانه :

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مّن رّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾

(47/727)

وهو لبيان أن شأنه تعالى شأنه مع عباده ليس كشأن السادة مع عبيدهم لأنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وأرزاقهم ، ومالك ملاك العبيد نفي عز وجل أن يكون ملكه إياهم لذلك فكأنه قال سبحانه : ما أريد أن استعين بهم كما يستعين ملاك العبيد

بعبيدهم فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي ، وذكر الإمام فيه وجهين : الأول أن يكون لدفع توهم الحاجة من خلقهم للعبادة ، والثاني أن يكون لتقرير كونهم مخلوقين لها ، وبين هذا بأن الفعل في العرف لا بد له من منفعة لكن العبيد على قسمين : قسم يتخذون لاظهار العظمة بالمثول بين أيادي ساداتهم وتعظيمهم إياهم كعبيد الملوك ، وقسم يتخذون للانتفاع بهم في تحصيل الأرزاق أو لإصلاحها ، فكأنه قال سبحانه : إني خلقتهم ولا بد فيهم من منفعة فليتفكروا في أنفسهم هل هم من قبيل أن يطلب منهم تحصيل رزق وليسوا كذلك فما أريد منهم من رزق ، وهل هم ممن يطلب منهم إصلاح قوت كالطباح ومن يقرّب الطعام ؟ وليسوا كذلك وما أريد أن يطعمون ﴾ فإذا هم عبيد من القسم الأول ، فينبغي أن لا يتكروا التعظيم ، والظاهر أن المعنى ما أريد منهم من رزق لي لمكان قوله سبحانه : ﴿ ﴾ فإذا هم عبيد من القسم الأول ، فينبغي أن لا يتكروا التعظيم ، والظاهر أن المعنى ما أريد منهم من رزق لي لمكان قوله سبحانه : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ وإليه ذهب الإمام ، وذكر في الآية لطائف : الأولى أنه سبحانه كرر نفي الإرادتين لأن السيد قد يطلب من العبد التكسب له وهو طلب الرزق وقد لا يطلب حيث كان له مال وافر لكنه يطلب قضاء حواجه من حفظ المال وإحضار الطعام من ماله بين يديه ، فنفي الإرادة الأولى لا يستلزم نفي الإرادة الثانية فكرر النهي على معنى لا أريد هذا ولا أريد ذلك ، الثانية أن ترتيب

النفيين كما تضمنه النظم الجليل من باب الترقي في بيان غناه عز وجل كأنه قال سبحانه : لا أطلب منهم رزقاً ولا ما هو دون ذلك وهو تقديم الطعام

(48/727)

بين يدي السيد فإن ذلك أمر كثيراً ما يطلب من العبيد إن كان التكسب لا يطلب منهم ، الثالثة أنه سبحانه قال : ما أريد منهم من رزق دون ما أريد منهم أن يرزقون لأن التكسب لطلب العين لا الفعل ، وقال سبحانه : ﴿ مَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ دون ما أريد من طعام لأن ذلك للإشارة إلى الاستغناء عما يفعله العبد الغير المأمور بالتكسب كعبد وافر المال والحاجة إليه للفعل نفسه ، الرابعة ، أنه جل وعلا خص الاطعام بالذكر لأن أدنى درجات الاستعانة أن يستعين السيد بعبده في تهيئة أمر الطعام ونفي الأدني يتبعه نفي الأعلى بطريق الأولى فكأنه قيل : ما أريد منهم من عين ولا عمل ، الخامسة أن ﴿ مَا ﴾ لنفي الحال إلا أن المراد به الدنيا وتعرض له دون نفي الاستقبال لأن من المعلوم البين أن العبد بعد موته لا يصلح أن يطلب منه رزق أو إطعام انتهى ، فتأمله .

ويفهم من ظاهر كلام الزمخشري أن المعنى ما أريد منهم من رزق لي ولهم ، وفي البحر ما أريد منهم من رزق أي أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ أي أن

يطعموا خلقي فهو على حذف مضاف قاله ابن عباس انتهى ، ونحوه ما قيل : المعنى ما أريد أن يرزقوا أحداً من خلقي ولا أريد أن يطعموه ، وأسند الإطعام إلى نفسه سبحانه لأن الخلق كلهم عيال الله تعالى .

(49/727)

ومن أطعم عيال أحد فكأنما أطعمه ، وفي الحديث " يا عبدي مرضت فلم تعدني وجعت فلم تطعمني " فإنه كما يدل عليه آخره على معنى مرض عبدي فلم تعده وجاع فلم تطعمه ؛ وقيل : الآية مقدرة بقل فتكون بمعنى قوله سبحانه : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ [الأنعام : 90] والغيبة فيها رعاية للحكاية إذ في مثل ذلك يجوز الأمر أن الغيبة والخطاب ، وقد قرىء بهما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ ﴾ [آل عمران : 12] ، وقيل : المراد قل لهم وفي حقهم فتلائمه الغيبة في ﴿ مِنْهُمْ ﴾ و ﴿ يُطْعِمُونِ ﴾ ولا ينافي ذلك قراءة أني أنا الرزاق فيما بعد لأنه حينئذ تعليل للأمر بالقول ، أو الائتمار لا لعدم الإرادة ، نعم لا شك في أنه قول بعيد جداً .

(50/727)

﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الرزاق ﴾ الذي يرزق كل مفتقر إلى الرزق لا غيره سبحانه استقلالاً ، أو اشتراكاً ويفهم من ذلك استغناؤه عز وجل عن الرزق ﴿ ذُو القوة أَيُّ القوة المتين ﴾ شديد القوة ، والجملة تعليل لعدم الإرادة قال الإمام : كونه تعالى هو الرزاق ناظر إلى عدم طلب الرزق لأن من يطلبه يكون فقيراً محتاجا ؛ وكونه عز وجل هو ذو القوة المتين ناظر إلى عدم طلب العمل المراد من قوله سبحانه : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات : 57] لأن من يطلبه يكون عاجزاً لا قوة له فكأنه قيل : ما أريد منهم من رزق لأني أنا الرزاق وما أريد منهم من عمل لأني قوي متين ، وكان الظاهر أني أنا الرزاق كما جاء في قراءة له صلى الله عليه وسلم لكن التفت إلى الغيبة ، والتعبير بالاسم الجليل لاشتهاره بمعنى المعبودية فيكون في ذلك إشعار بعلة الحكم ولتخرج الآية مخرج المثل كما قيل ذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : 81] والتعبير به على القول بتقدير قل فيما تقدم هو الظاهر ، وتحتاج القراءة الأخرى إلى ما ذكرناه آنفاً ، وآثر سبحانه ذو القوة على القوى قيل : لأن في ﴿ ذُو ﴾ كما قال ابن حجر الهيثمي وغيره تعظيم ما أضيفت إليه ، والموضوف بها والمقام يقتضيه ولذا جيء بالمتين بعد ولم يكتف به عن الوصف بالقوة ؛ وقال الإمام : لما كان المقصود تقرير ما تقدم من عدم إرادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير جيء بوصف الرزق على صيغة المبالغة لأنه بدونها لا يكفي في تقرير عدم إرادة الرزق وبوصف القوة بما

لا مبالغة فيه لكفايته في تقرير عدم الاستعانة فإن من له قوة دون الغاية لا يستعين بغيره لكن لما لم يدل ذو القوة على أكثر من أن له تعالى قوة ﴿ مَا ﴾ زيد الوصف بالمتين وهو الذي له ثبات لا يتزلزل ، ثم قال : إن القوى أبلغ من ذي القوة والعزة أكمل من المتانة وقد قرن الأكمل بالأكمل وما دونه بما دونه في قوله تعالى : ﴿ لِيَعْلَمَ اللهُ

(51/727)

مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغيب إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد : 25] وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الرزاق ﴾ الخ لما اقتضى المقام ذلك ، وقد أطال الكلام في هذا المقام وما أظنه يصفو عن كدر ، وقرأ ابن محيصن الرازق بزنة الفاعل ، وقرأ الأعمش .

وابن وثاب المتين بالجر ، وخرج على أنه صفة القوة ، وجاز ذلك مع تذكيره لتأويلها بالاقتدار أو لكونه على زنة المصادر التي يستوي فيها المذكر والمؤنث ، أو لاجرائه مجرى فعيل بمعنى مفعول ، وأجاز أبو الفتح أن يكون صفة لذو وجر على الجوار كقولهم هذا حجر ضب خرب وضعف .

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أي إذا ثبت أن الله تعالى ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه وأنه سبحانه ما يريد منهم من رزق إلى آخر ما تقدم فإن للذين ظلموا أنفسهم باشتغالهم بغير ما

خلقوا له من العبادة وإشراكهم بالله عز وجل وتكذيبهم رسوله عليه الصلاة والسلام وهم أهل مكة وأضرابهم من كفار العرب ﴿ ذَنُوباً ﴾ أي نصيباً من العذاب ﴿ مِّثْلَ ذَنُوبِ ﴾ أي نصيب ﴿ أصحابهم ﴾ أي نظرائهم من الأمم السالفة ، وأصل الذنوب الدلو العظيمة الممتلئة ماءاً ، أو القريبة من الامتلاء ، قال الجوهري : ولا يقال لها ذنوب وهي فارغة ، وهي تذكر وتؤنث وجمعها أذنبة وذنائب فاستعيرت للنصيب مطلقاً شراً كان كالنصيب من العذاب في الآية ، أو خيراً كما في العطاء في قول علقمة بن عبدة التميمي يمدح الحرث بن أبي شمر الغساني وكان أسر أخاه شأسا يوم عين أباغ

: وفي كل حي قد خبطت بنعمة . . .

فحق لشأس من نداك (ذنوب)

يروى أن الحرث لما سمع هذا البيت قال نعم وأذنبة ومن استعمالها في النصيب قول الآخر

: لعمرك والمنايا طارقات . . .

لكل بني أب منها (ذنوب)

وهو استعمال شائع ، وفي الكشاف هذا تمثيل أصله في السقاة يقتسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب قال الراجز

: إنا إذا نازلنا غريب . . .

له (ذنوب) ولنا (ذنوب) وإن أبيتم فلنا القليب

﴿ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أي لا يطلبوا مني أن أعجل في الإتيان به يقال استعجله أي حثه على العجلة وطلبها منه ، ويقال : استعجلت كذا أن طلبت وقوعه بالعجلة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : 1] وهو على ما في الإرشاد جواب لقولهم : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [يونس : 48]) .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي فويل لهم ، ووضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بما في حيز الصلة من الكفر وإشعاراً بعلة الحكم ، والفاء لترتيب ثبوت الويل لهم على أن لهم عذاباً عظيماً كما أن الفاء التي قبلها لترتيب النهي عن الاستعجال على ذلك ، و﴿ مِنْ ﴾ في قوله سبحانه : ﴿ مِن يَوْمِهِمُ الذى يُوعَدُونَ ﴾ للتعليل ؛ والعائد على الموصول محذوف أي يوعدونه أو يوعدون به على قول ، والمراد بذلك اليوم قيل : يوم بدر ، ورجح بأنه الأوفق لما قبله من حيث أنه ذنوب من العذاب الدنيوي ، وقيل : يوم القيامة ، ورجح بأنه الأنسب لما في صدر السورة الكريمة الآتية ، والله تعالى أعلم .

ومما قاله بعض أهل الإشارة في بعض الآيات : ﴿ والذريات ذَرْواً ﴾ [الذاريات : 1] إشارة إلى الرياح التي تحمل أنين المشتاقين المتعرضين لنفحات الألطاف إلى ساحات العزة ،

ثم تأتي بنسيم نفحات الحق إلى مشام المحبين فيجدون راحة مّا من غلبات اللوعة ﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ [الذاريات : 2] إشارة إلى سحائب ألطاف الألوهية تحمل أمطار مراحم الربوبية فتمطر على قلوب الصديقين ﴿ فالجاريات يُسْراً ﴾ [الذاريات : 3] إشارة إلى سفن أفئدة المحبين تجري برياح العناية في بحر التوحيد على أيسر حال ﴿ فالمقسمات أَمْراً ﴾ [الذاريات : 4] إشارة إلى الملائكة النازلين من حظائر القدس بالبشائر والمعارف على قلوب أهل الاستقامة ، وإن شئت جعلت الكل إشارة إلى أنواع رياح العناية فمنها ما يطير بالقلوب في جو الغيوب ، وقد قال العاشق المجازي :

(53/727)

خذا من صبا نجد أماناً لقلبه . . .

فقد كاد رياها يطير بلبه

وإياً كما ذاك النسيم فإنه . . .

متى هب كان الوجد أيسر خطبه

ومنها ﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ دواء قلوب العاشقين كما قيل :

أيا جبلى نعمان بالله خليا . . .

نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها

أجد بردها أو تشف مني حرارة . . .

على كبد لم يبق إلا صميمها

فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت . . .

على نفس مهموم تجلت همومها

ومنها ﴿ الجاريات ﴾ من مهاب حضرات القدس إلى أفئدة أهل الانس بسهولة لتنعش قلوبهم ، ومنها ﴿ المقسمات ﴾ ما جاءت به مما عبق بها من آثار الحضرة الإلهية على نفوس المستعدين حسب استعداداتهم وإن شئت قلت غير ذلك فالباب واسع ﴿ لَوَاقِعٌ والسماء ذَاتِ الحبك ﴾ [الذاريات : 7] إشارة إلى سماء القلب فإنها ذات طرائق إلى الله عز وجل ﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ [الذاريات : 15] إشارة إلى جنات الوصال وعيون الحكمة ﴿ وبالاسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : 18] يطلبون غفر أي ستر وجودهم بوجود محبوبهم ، أو يطلبون غفران ذنب رؤية عبادتهم من أول الليل إلى السحر ﴿ وَمِن كُلّ شَىْء خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات : 49] إشارة إلى أن جميع ما يرى بارزاً من الموجودا ليس واحداً وحدة حقيقية بل هو مركب ولا أقل من كونه مركباً من الإمكان ، وشيء آخر فليس الواحد الحقيقي إلا الله تعالى الذي حقيقته سبحانه إنيته

﴿ فَفِرُّواْ إِلَى اللهِ ﴾ [الذاريات : 50] بترك ما سواه عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] أي ليعرفون ، وهو عندهم إشارة إلى ما صححوه كشفاً من روايته صلى الله عليه وسلم عن ربه سبحانه أنه قال : "كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف " وفي كتاب "الأنوار السنية" للسيد نور الدين السمهودي بلفظ "كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت هذا الخلق ليعرفوني في عرفوني " وفي "المقاصد الحسنة" للسخاوي بلفظ : "كنت كنزاً لا أعرف فخلقت خلقاً فعرفتهم بي فعرفوني " إلى غير ذلك ، وهو مشكل لأن الخفاء أمر نسبي فلا بد فيه من مخفي ومخفى عنه فحيث لم يكن خلق لم يكن مخفى عنه فلا يتحقق الخفاء ، وأجيب أولاً : بأن الخفاء عن الأعيان الثابة لأن الأشياء في ثبوتها لا إدراك لها وجودياً فكان الله سبحانه مخفياً عنها غير معروف لها معرفة وجودية فأحب أن يعرف معرفة حادثة من موجود حادث فخلق الخلق لأن معرفتهم الوجودية فرع وجودهم فتعرف سبحانه إليهم بأنواع التجليات على حسب تفاوت الاستعدادات فعرفوا أنفسهم بالتجليات فعرفوا الله تعالى من ذلك فبه سبحانه عرفوه ، وثانياً : بأن المراد بالخفاء لازمه وهو عدم معرفة أحد به جل وعلا ، ويؤيده ما في لفظ السخاوي من قوله : لا أعرف بدل مخفياً ، وثالثاً : بأن مخفياً بمعنى ظاهراً من أخفاه أي أظهره على أن الهمزة للإزالة أي أزال خفاءه ، وترتيب قوله سبحانه :

﴿ فأحببت أن أعرف ﴾ الخ عليه باعتبار أن الظهور متى كان قوياً أوجب الجهالة بحال الظاهر فخلق سبحانه الخلق ليكونوا كالحجاب فيتمكن معه من المعرفة ، ألا يرى أن الشمس لشدة ظهورها لا تستطيع أكثر الأبصار الوقوف على حالها إلا بواسطة وضع بعض الحجب بينها وبينها وهو كما ترى لا يخلو عن بحث ، وأما إطلاق الكنز عليه عز وجل فقد ورد ، روى الديلمي في "مسنده" عن أنس مرفوعاً كنز المؤمن ربه أي فإن منه

(55/727)

سبحانه كل ما يناله من أمر نفيس في الدارين ، والشيخ محيى الدين قدس سره ذكر في معنى الكنز غير ذلك فقال في الباب الثلثمائة والثمانية والخمسين من فتوحاته : لو لم يكن في العالم من هو على صورة الحق ما حصل المقصود من العلم بالحق أعني العلم الحادث في قوله : ﴿ كُنتُ ﴾ الخ فجعل نفسه كنزاً ، والكنز لا يكون إلا مكتنزاً في شيء فلم يكن كنز الحق نفسه إلا في صورة الإنسان الكامل في شيئية ثبوته هناك كان الحق مكنوزاً فلما ألبس الحق الإنسان ثوب شيئية الوجود ظهر الكنز بظهوره فعرفه الإنسان الكامل بوجوده وعلم أنه سبحانه كان مكنوزاً فيه في شيئية ثبوته وو لا يشعر به انتهى ، وهو منطق الطير الذي لا

نعرفه نسأل الله تعالى التوفيق لما يحب ويرضى بمنه وكرمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(56/727)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) ﴾

قوله : ﴿ وَفِى موسى ﴾ معطوف على قوله : ﴿ فيها ﴾ بإعادة الخافض ، والتقدير : وتركنا في قصة موسى آية ، أو معطوف على ﴿ وَفِى الأرض ﴾ والتقدير : وفي الأرض ، وفي موسى آيات ، قاله الفراء ، وابن عطية ، والزمخشري .

قال أبو حيان : وهو بعيد جداً ينزّه القرآن عن مثله ، ويجوز أن يكون متعلقاً بجعلنا مقدّراً لدلالة وتركنا عليه قيل : ويجوز أن يعطف على ﴿ وَتَرَكْنَا ﴾ على طريقة قول القائل :

علفتها تبناً وماء بارداً . . . والتقدير : وتركنا فيها آية ، وجعلنا في موسى آية .

قال أبو حيان : ولا حاجة إلى إضمار ، وجعلنا لأنه قد أمكن أن يكون العامل في المجرور وتركنا .

والوجه الأوّل هو الأولى ، وما عداه متكلف متعسف لم تلجىء إليه حاجة ، ولا دعت إليه

ضرورة ﴿ إِذْ أرسلناه إلى فِرْعَوْنَ بسلطان مُّبِينٍ ﴾ الظرف متعلق بمحذوف هو نعت لآية ، أي : كائنة وقت أرسلناه ، أو بآية نفسها ، والأوّل أولى .

والسلطان المبين : الحجة الظاهرة الواضحة ، وهي العصا ، وما معها من الآيات ﴿ فتولى بِرُكْنِهِ ﴾ التولي : الإعراض ، والركن : الجانب ، قاله الأخفش .

والمعنى : أعرض بجانبه ، كما في قوله : ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ [الإسراء : 83] قال الجوهري : ركن الشيء : جانبه الأقوى ، وهو يأوي إلى ركن شديد ، أي : عزّ ومنعة .

وقال ابن زيد ، ومجاهد ، وغيرهما : الركن : جمعه وجنوده الذين كان يتقوّى بهم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ آوِي إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود : 80] أي : عشيرة ومنعة ، وقيل : الركن : نفس القوّة ، وبه قال قتادة وغيره ، ومنه قول عنترة :

فما أوهى مراس الحرب ركني . . . ولكن ما تقادم من زماني

(57/727)

﴿ وَقَالَ ساحر أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ أي : قال فرعون في حقّ موسى : هو ساحر ، أو مجنون ، فردّد فيما رآه من أحوال موسى بين كونه ساحراً ، أو مجنوناً ، وهذا من اللعين مغالطة وإيهام لقومه ، فإنه يعلم أن ما رآه من الخوارق لا يتيسر على يد ساحر ، ولا يفعله من به جنون .

وقيل : إن " أو " بمعنى الواو ؛ لأنه قد قال ذلك جميعاً ولم يتردّد ، قاله المؤرج ، والفرّاء ، كقوله : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ ءاثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 24] .

﴿ فأخذناه وَجُنُودَهُ فنبذناهم فِى اليم ﴾ أي : طرحناهم في البحر ، وجملة : ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : آت بما يلام عليه حين ادّعى الربوبية ، وكفر بالله وطغى في عصيانه ﴿ وَفِى عَادٍ ﴾ أي : وتركنا في قصة عاد آية ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الريح العقيم ﴾ وهي التي لا خير فيها ولا بركة ، لا تلقح شجراً ولا تحمل مطراً ، إنما هي ريح الإهلاك والعذاب .

ثم وصف سبحانه هذه الريح فقال : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كالرميم ﴾ أي : ما تذر من شيء مرّت عليه من أنفسهم ، وأنعامهم ، وأموالهم إلاّ جعلته كالشيء الهالك البالي .

قال الشاعر :

تركتني حين كفّ الدهر من بصري . . . وإذ بقيت كعظم الرّمة البالي

وقال قتادة : إنه الذي ديس من يابس النبات ، وقال السديّ ، وأبو العالية : إنه التراب المدقوق ، وقال قطرب : إنه الرماد ، وأصل الكلمة من رمّ العظم : إذا بلي فهو رميم ، والرّمة : العظام البالية .

﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حتى حِينٍ ﴾ أي : وتركنا في قصة ثمود آية وقت قلنا لهم :

عيشوا متمتعين بالدنيا إلى حين وقت الهلاك ، وهو ثلاثة أيام ، كما في قوله : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثلاثة أَيَّامٍ ﴾ [هود : 65] .

﴿ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي : تكبروا عن امتثال أمر الله ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة ﴾ وهي كل عذاب مهلك .

(58/727)

قرأ الجمهور ﴿ الصاعقة ﴾ وقرأ عمر بن الخطاب ، وحميد ، وابن محيصن ، ومجاهد ، والكسائي (الصعقة) ، وقد مرّ الكلام على الصاعقة في البقرة ، وفي مواضع ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ أي : يرونها عياناً ، والجملة في محل نصب على الحال ، وقيل : إن المعنى : ينتظرون ما وعدوه من العذاب ، والأوّل أولى ﴿ فَمَا استطاعوا مِن قِيَامٍ ﴾ أي : لم يقدروا على القيام .

قال قتادة : من نهوض ، يعني : لم ينهضوا من تلك الصرعة ، والمعنى : أنهم عجزوا عن القيام فضلاً عن الهرب .

ومثله قوله : ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جاثمين ﴾ [الأعراف : 78] ﴿ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾ أي : ممتنعين من عذاب الله بغيرهم ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مّن قَبْلُ ﴾ أي : من قبل

هؤلاء المهلكين ، فإن زمانهم متقدّم على زمن فرعون ، وعاد وثمود ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ أي : خارجين عن طاعة الله .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو عمرو بخفض (قوم) أي : وفي قوم نوح آية .

وقرأ الباقون بالنصب .

أي : وأهلكنا قوم نوح ، أو هو معطوف على مفعول أخذتهم الصاعقة ، أو على مفعول نبذناهم أي : نبذناهم ، ونبذنا قوم نوح ، أو يكون العامل فيه اذكر .

﴿ والسماء بنيناها بِأَيْدٍ ﴾ أي : بقوّة وقدرة ، قرأ الجمهور بنصب ﴿ السماء ﴾ على الاشتغال ، والتقدير : وبنينا السماء بنيناها .

وقرأ أبو السماك ، وابن مقسم برفعها على الابتداء ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ الموسع ذو الوسع : والسعة ، والمعنى : إنا لذو سعة بخلقها ، وخلق غيرها لا نعجز عن ذلك ، وقيل : لقادرون ، من الوسع بمعنى : الطاقة والقدرة ، وقيل : إنا لموسعون الرزق بالمطر .

قال الجوهري : وأوسع الرجل : صار ذا سعة وغنى ﴿ والأرض فرشناها ﴾ قرأ الجمهور بنصب ﴿ الأرض ﴾ على الاشتغال .

وقرأ أبو السماك ، وابن مقسم برفعها ، كما تقدّم في قوله : ﴿ والسماء بنيناها ﴾ ومعنى ﴿ فرشناها ﴾ : بسطناها كالفراش ﴿ فَنِعْمَ الماهدون ﴾ أي : نحن ، يقال مهدت الفراش : بسطته ووطأته ، وتمهيد الأمور : تسويتها وإصلاحها ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ أي : صنفين ، ونوعين من ذكر وأنثى ، وبرّ وبحر ، وشمس وقمر ، وحلو ومرّ ، وسماء وأرض ، وليل ونهار ، ونور وظلمة ، وجنّ وإنس ، وخير وشرّ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : خلقنا ذلك هكذا لتتذكروا ، فتعرفوا أنه خالق كل شيء ، وتستدلوا بذلك على توحيده ، وصدق وعده ووعيده .

﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : قل لهم يا محمد : ففرّوا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم عن الكفر والمعاصي ، وجملة : ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ تعليل للأمر بالفرار ، وقيل : معنى ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللهِ ﴾ اخرجوا من مكة .

وقال الحسين بن الفضل : احترزوا من كل شيء غير الله ، فمن فرّ إلى غيره لم يمتنع منه .

وقيل : فرّوا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن ، وقيل : فرّوا من الجهل إلى العلم ، ومعنى : ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ ﴾ أي : من جهته منذر بين الإنذار ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ نهاهم عن الشرك بالله بعد أمرهم بالفرار إلى الله ، وجملة ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ : تعليل للنهي .

﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الذين مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ في هذا تسلية

لرسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان أن هذا شأن الأمم المتقدمة وأن ما وقع من العرب من التكذيب لرسول الله ، ووصفه بالسحر ، والجنون قد كان ممن قبلهم لرسلهم ، و ﴿ كذلك ﴾ في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : الأمر كذلك .

(60/727)

ثم فسر ما أجمله بقوله : ﴿ مَا أَتَى ﴾ إلخ ، أو في محل نصب نعتاً لمصدر محذوف ، أي : أنذركم إنذاراً كإنذار من تقدّمني من الرسل الذين أنذروا قومهم ، والأوّل أولى ﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِ ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والتعجيب من حالهم ، أي : هل أوصى أوّلهم آخرهم بالتكذيب ، وتواطئوا عليه ؟ ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغون ﴾ إضراب عن التواصي إلى ما جمعهم من الطغيان أي : لم يتواصوا بذلك ، بل جمعهم الطغيان ، وهو مجاوزة الحدّ في الكفر .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم ، فقال : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي : أعرض عنهم ، وكفّ عن جدالهم ، ودعائهم إلى الحق ، فقد فعلت ما أمرك الله به وبلغت رسالته ﴿ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ عند الله بعد هذا ؛ لأنك قد أدّيت ما عليك ، وهذا منسوخ بآية السيف .

ثم لما أمره بالإعراض عنهم أمره بأن لا يترك التذكير ، والموعظة بالتي هي أحسن فقال : ﴿

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ قال الكلبي : المعنى : عظ بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم .

وقال مقاتل : عظ كفار مكة فإن الذكرى تنفع من كان في علم الله أنه يؤمن .

وقيل : ذكرهم بالعقوبة وأيام الله ، وخصّ المؤمنين بالتذكير لأنهم المنتفعون به .

وجملة ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ : مستأنفة مقرّرة لما قبلها .

أن كون خلقهم ؛ لمجرّد العبادة مما ينشط رسول الله للتذكير ، وينشطهم للإجابة .

قيل : هذا خاصّ في من سبق في علم الله سبحانه أنه يعبده ، فهو عموم مراد به الخصوص .

قال الواحدي : قال المفسرون : هذا خاصّ لأهل طاعته ، يعني : من أُهِّل من الفريقين .

قال : وهذا قول الكلبي ، والضحاك ، واختيار الفراء ، وابن قتيبة .

(61/727)

قال القشيري : والآية دخلها التخصيص بالقطع ؛ لأن الجانين لم يؤمروا بالعبادة ، ولا أرادها منهم ، وقد قال : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الجن والإنس ﴾ [الأعراف : 179] ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة .

فالآية محمولة على المؤمنين منهم ، ويدل عليه قراءة ابن مسعود ، وأبيّ بن كعب : (وما

خلقت الجنّ والإنس من المؤمنين إلاّ ليعبدون) .

وقال مجاهد : إن المعنى : إلاّ ليعرفوني .

قال الثعلبي : وهذا قول حسن ؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده .

وروي عن مجاهد أنه قال : المعنى : إلاّ لآمرهم وأنهاهم ، ويدل عليه قوله : ﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إلها واحدا لاَّ إله إِلاَّ هُوَ سبحانه عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : 31] واختار هذا الزجاج .

وقال زيد بن أسلم : هو ما جبلوا عليه من السعادة والشقاوة ، فخلق السعداء من الجن والإنس للعبادة ، وخلق الأشقياء للمعصية .

وقال الكلبي : المعنى : إلاّ ليوحدون ، فأما المؤمن ، فيوحده في الشدّة والرخاء ، وأما الكافر ، فيوحده في الشدّة دون النعمة ، كما في قوله : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كالظلل دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [لقمان : 32] وقال جماعة : إلاّ ليخضعوا لي ويتذللوا ، ومعنى العبادة في اللغة : الذل والخضوع والانقياد ، وكل مخلوق من الإنس والجنّ خاضع لقضاء الله متذلل لمشيئته منقاد لما قدّره عليه .

خلقهم على ما أراد ، ورزقهم كما قضى ، لا يملك أحد منهم لنفسه نفعاً ، ولا ضرّاً .

ووجه تقديم الجن على الإنس ها هنا تقدم وجودهم .

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مّن رّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ هذه الجملة فيها بيان استغنائه سبحانه

عن عباده ، وأنه لا يريد منهم منفعة ، كما تريده السادة من عبيدهم ، بل هو الغنيّ المطلق الرازق المعطي .

(62/727)

وقيل المعنى : ما أريد منهم أن يرزقوا أحداً من خلقي ، ولا أن يرزقوا أنفسهم ، ولا يطعموا أحداً من خلقي ، ولا يطعموا أنفسهم ، وإنما أسند الإطعام إلى نفسه لأن الخلق عيال الله ، فمن أطعم عيال الله ، فهو كمن أطعمه .

وهذا كما ورد في قوله صلى الله عليه وسلم : "يقول الله : عبدي استطعمتك فلم تطعمني" ، أي : لم تطعم عبادي ، و " من " في قوله : ﴿ مِن رِّزْقٍ ﴾ زائدة لتأكيد العموم .

ثم بيّن سبحانه أنه هو الرزاق لا غيره ، فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الرزاق ﴾ لا رزاق سواه ، ولا معطي غيره ، فهو الذي يرزق مخلوقاته ، ويقوم بما يصلحهم فلا يشتغلوا بغير ما خلقوا له من العبادة ﴿ ذُو القوة المتين ﴾ ارتفاع المتين على أنه وصف للرزاق ، أو لذو ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو خبر بعد خبر .

قرأ الجمهور : ﴿ الرزاق ﴾ وقرأ ابن محيصن : (الرازق) وقرأ الجمهور ﴿ المتين ﴾ بالرفع ، وقرأ يحيى بن وثاب ، والأعمش بالجرّ صفة للقوّة ، والتذكير لكون تأنيثها غير

حقيقي .

قال الفراء : كان حقه المتينة فذكرها ؛ لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرم المحكم الفتل ، يقال : حبل متين ، أي : محكم الفتل ، ومعنى المتين : الشديد القوّة هنا ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصحابهم ﴾ أي : ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي ، فإن لهم ذنوباً ، أي : نصيباً من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السابقة .

قال ابن الأعرابي : يقال : يوم ذنوب ، أي : طويل الشرّ لا ينقضي ، وأصل الذنوب في اللغة : الدلو العظيمة ، ومن استعمال الذنوب في النصيب من الشيء قول الشاعر :

لعمرك والمنايا طارقات . . . لكلّ بني أب منها ذنوب

(63/727)

وما في الآية مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالدلو الكبير ، فهو تمثيل جعل الذنوب مكان الحظ والنصيب ، قاله ابن قتيبة ﴿ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أي : لا يطلبوا مني أن أعجل لهم العذاب ، كما في قولهم : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الأعراف : 70] ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ الذى يُوعَدُونَ ﴾ قيل : هو يوم القيامة ، وقيل : يوم بدر ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر في قوله : ﴿ فتولى بِرُكْنِهِ ﴾ عن ابن عباس قال : بقومه .

وأخرج الفريابي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عنه في قوله : ﴿ الريح العقيم ﴾ قال : الشديدة التي لا تلقح شيئاً .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : لا تلقح الشجر ولا تثير السحاب ، وفي قوله : ﴿ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كالرميم ﴾ قال : كالشيء الهالك .

وأخرج الفريابي ، وابن المنذر عن عليّ بن أبي طالب قال : الريح العقيم : النكباء .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ والسماء بنيناها بِأَيْدٍ ﴾ قال : بقوّة .

وأخرج أبو داود في ناسخه ، وابن المنذر عنه في قوله : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ قال : أمره الله أن يتولى عنهم ليعذبهم ، وعذر محمداً صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ ، فنسختها .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ قال : ليقرّوا بالعبودية طوعاً أو كرهاً .

وأخرج ابن المنذر عنه في الآية قال : على ما خلقتهم عليه من طاعتي ومعصيتي ، وشقوتي وسعادتي .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات عنه أيضاً في قوله : ﴿ المتين ﴾ يقول : الشديد .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ ذَنُوباً ﴾ قال : دلواً . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 90. 93 ﴾

(64/727)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) ﴾

اختلف العلماء في معنى قوله ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، فقال بعضهم المعنى ما خلقتهم إلا ليعبدني السعداء منهم ويعصيني الأشقيا ، فالحكمة المقصودة من إيجاد الخلق التي هي عبادة الله حاصلة بفعل السعداء منهم كما يدل عليه قوله : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هؤلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ [الأنعام : 89] ، وهذا القول نقله ابن جرير عن زيد بن أسلم وسفيان .

وغاية ما يلزم على هذا القول أنه أطلق فيها المجموع وأراد بعضهم .

وأمثال ذلك كثيرة في القرآن ، ومن أوضحها قراءة حمزة والكسائي ، فإن قتلوكم فاقتلوهم ،

من القتل لا من القتال ، وقد بينا هذا في مواضع متعددة ، وذكرنا أن من شواهده العربية قول الشاعر :

فسيف بني عبس وقد ضربوا به . . . نبا من يَدَيْ ورقاء عن رأس خالد

فتراه نسب الضرب لبني عبس مع تصريحه أن الضارب الذي نبا بيده السيف عن رأس خالد يعني ابن جعفر الكلابي ، هو ورقاء يعني ابن زهير العبسي .

وقد قدمنا في الحجرات أن من ذلك قوله تعالى ﴿ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا ﴾ [الحجرات : 14] الآية بدليل قوله : ﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة : 99] - إلى قوله - ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ الله فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 99] .

(65/727)

وقال بعض العلماء : معنى قوله : ﴿ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ : أي " إلا ليقروا لي بالعبودية طوعاً أو كرهاً " لأن المؤمن يطيع باختياره والكافر مذعن منقاد لقضاء ربه جبراً عليه ، وهذا القول رواه ابن جرير عن ابن عباس واختاره ، ويدل له قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾ [الرعد : 15] الآية ، والسجود والعبادة كلاهما

خضوع وتذلل لله جل وعلا ، وقد دلت الآية على أن بعضهم يفعل ذلك طوعاً وبعضهم يفعله كرهاً .

وعن مجاهد أنه قال : ﴿ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ : أي إلا ليعرفوني . واستدل بعضهم لهذا القول بقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [الزخرف : 87] ونحو ذلك من الآيات . وهو كثير في القرآن ، وقد أوضحنا كثرته فيه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] .

وقال بعض أهل العلم : وهو مروي عن مجاهد أيضاً معنى قوله : ﴿ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ : أي إلا لآمرهم بعبادتي فيعبدني من وفقته منهم لعبادتي دون غيره ، وعلى هذا القول : فإرادة عبادتهم المدلول عليهم باللام في قوله : ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾ إرادة دينية شرعية وهي الملازمة للأمر ، وهي عامة لجميع من أمرتهم الرسل لطاعة الله الا إرادة كونية قدرية ، لأنها لو كانت كذلك لعبده جميع الغنس والجن ، والواقع خلاف ذلك بدليل قوله تعالى ﴿ قُلْ يا أيها الكافرون لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : 1 – 3] إلى آخر السورة .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : التحقيق إن شاء الله في معنى هذه الآية الكريمة ﴿ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ في إلا لآمرهم بعبادتي وأبتليهم أي أختبرهم بالتكاليف ثم أجازيهم على أعمالهم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وإنما قلنا إن هذا هو التحقيق في معنى الآية ، لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب الله ، فقد صرح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتليهم أيهم أحسن عملاً ، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم .

قال تعالى في أول سورة هود : ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المآء ﴾ [هود : 7] ، ثم بين الحكمة في ذلك فقال : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الموت لَيَقُولَنَّ الذين كفروا إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود : 7] .

وقال تعالى في أول سورة الملك : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الموت والحياة لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك : 2] .

وقال تعالى في أول سورة الكهف : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الكهف : 7] الآية .

فتصريحه جل وعلا في هذه الآيات المذكورة بأن حكمة خلقه للخلق ، هي ابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً ، يفسر قوله ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴾ . وخير ما يفسر به القرآن القرآن .

ومعلوم أن نتيجة العمل المقصود منه لا تتم إلا بجزاء المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، ولذا صرح تعالى بأن حكمة خلقهم أولاً وبعثهم ثانياً ، هو جزاء المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وذلك في قوله تعالى في أول يونس : ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات بالقسط والذين كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : 4] ، وقوله في النجم : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض لِيَجْزِيَ الذين أَسَاءُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ الذين أَحْسَنُواْ بالحسنى ﴾ ﴿ النجم : 31] .

وقد أنكر تعالى على الإنسان حسبانه وظنه أنه يترك سدى ، أي مهملاً ، لم يؤمر ولم ينه ، وبين أنه ما نقله من طور إلى طور حتى أوجده إلا ليبعثه بعد الموت أي ويجازيه على عمله ، قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ﴾ [القيامة : 36 - 37] - إلى قوله - ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ [القيامة : 40] .

والبراهين على البعث دالة على الجزاء ، وقد نزه تعالى نفسه عن هذا الظن الذي ظنه الكفار به تعالى ، وهو أنه لا يبعث الخلق ولا يجازيهم منكراً ذلك عليهم في قوله : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى الله الملك الحق لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العرش الكريم ﴾ [المؤمنون : 115 - 116] .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في أول سورة الأحقاف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ مَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الأحقاف : 3] .

تنبيه

(68/727)

اعلم أن الآيات الدالة على حكمة خلق الله للسماوات والأرض وأهلهما وما بينهما قد يظن غير المتأمل أن بينهما اختلافاً ، والواقع خلاف ذلك . لأن كلام الله لا يخالف بعضه بعضاً ، وإيضاح ذلك ان الله تبارك وتعالى ذكر في بعض الآيات أن حكمة خلقه للسماوات والأرض هي إعلام خلقه بأنه قادر على كل شيء ، وأنه محيط بكل شيء علماً ، وذلك في قوله تعالى في آخر الطلاق :

﴿ الله الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ لتعلموا أَنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَا ﴾ [الطلاق : 12] .

وذكر في مواضع كثيرة من كتابه أنه خلق الخلق ليبين للناس كونه هو المعبود وحده ، كقوله تعالى ﴿ وإلهكم إله وَاحِدٌ لاَّ إله إِلاَّ هُوَ الرحمن الرحيم ﴾ [البقرة : 163] ، ثم أقام البرهان على أنه إله واحد بقوله بعده ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل

والنهار ﴾ [البقرة: 164] - إلى قوله - ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [القرة: 164] ولما قال: ﴿ يَاأَيُّهَا الناس اعبدوا رَبَّكُم ﴾ [البقرة: 21] بين أن خلقهم برهان على أنه المعبود وحده بقوله بعده ﴿ الذي خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: 21] الآية.

والاستدلال على أن المعبود واحد بكونه هو الخالق كثير جداً في القرآن، وقد أوضحنا الآيات الدالة عليه في أول سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً واتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً ﴾ [الفرقان: 2 - 3] الآية، وفي سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى ﴿ أَمْ جَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ قُلِ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد: 16] الآية، وفي غير ذلك من المواضع.

(69/727)

وذكر في بعض الآيات أنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم وذلك في قوله: ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود: 7].

وذكر في بعض الآيات أنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم وذلك في قوله: ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات بالقسط ﴾ [يونس: 4] الآية، وذكر في آية

الذاريات هذه أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه ، فقد يظن غير العالم أن بين هذه الآيات اختلافاً مع أنها لا اختلاف بينها ، لأن الحكم المذكور فيها كلها راجع إلى شيء واحد ، وهو معرفة الله وطاعته ومعرفة وعده ووعيده ، وقوله : ﴿ لتعلموا أَنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الطلاق : 12] وقوله : ﴿ اعبدوا ربَّكُمُ الذي خَلَقَكُم ﴾ [البقرة : 21] راجع إلى شيء واحد هو العلم بالله ، لأن من عرف الله اطاعه ووحده .

وهذا العلم يعلمهم الله إياه ويرسل لهم الرسل بمقتضاه ليهلك من هلك عن بينة ، ويحي من حيي عن بينه ، فالتكليف بعد العلم ، والجزاء بعد التكليف ، فظهر بهذا اتفاق الآيات لأن الجزاء لا بد له من تكليف ، وهو الابتلاء المذكور في الآيات والتكليف لا بد له لمن علم ، ولذا دل بعض الآيات على أن حكمة الخلق للمخلوقات هي اللم بالخالق ، ودل بعضها على أنها الابتلاء ، ودل بعضها على أنها الجزاء ، وكل ذلك حق لا اختلاف فيه ، وبعضه مرتب على بعض .

وقد بينا معنى ﴿ إِلاَّ لِيَعْبُدُونَ ﴾ في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في سورة هود في الكلام على قوله تعالى :

﴿ ولذلك خَلَقَهُم ﴾ [هود : 119] وبينا هناك أن الإرادة المدلول عليها باللام في قوله ﴿ ولذلك خَلَقَهُمْ ﴾ أي ولأجل الاختلاف إلى شقي وسعيد خلقهم ، وفي قوله : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجن والإنس ﴾ [الأعراف : 179] إرادة كونية قدرية ، وأن الإرادة المدلول عليها باللام في قوله : ﴿ إِلاَّ لِيَعْبُدُونَ ﴾ ، إرادة دينية شرعية .

وبينا هناك أيضاً الأحاديث الدالة على أن الله خلق الخلق منقسماً إلى شقي وسعيد ، وأنه كتب ذلك وقدره قبل أن يخلقهم . وقال تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن : 2] : وقال : ﴿ فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير ﴾ [الشورى : 7] .

(71/727)

والحاصل : أن الله دعا جميع الناس على ألسنة رسله إلى الإيمان به وعبادته وحده وأمرهم بذلك وأمره بذلك مستلزم للإرادة الدينية الشرعية ، ثم إن الله جل وعلا يهدي من يشاء منهم ويضل من يشاء بإرادته الكونية القدرية ، فيصيرون إلى ما سبق به العلم من شقاوة وسعادة ، وبهذا تعلم وجه الجمع بين قوله : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجن والإنس ﴾ [الأعراف : 179] . وقوله : ﴿ ولذلك خَلَقَهُم ﴾ [هود : 119] ، وبين قوله ﴿

وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] ، وإنما ذكرنا أن الإرادة قد تكون دينية شرعية ، وهي ملازمة للأمر والرضا ، وقد تكون كونية قدرية وليست ملازمة لهما ، لأن الله يأمر الجميع بالأفعال المراد منهم ديناً ، ويريد ذلك كوناً وقدراً من بعضهم دون بعض ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ ﴾ [النساء : 64] ، فقوله : إلا ليطاع : أي فيما جاء به من عندنا ، لأنه مطلوب مراد من المكلفين شرعاً ودينا ، وقوله : بإذن الله يدل على انه لا يقع من ذلك غلا ما أراده الله كوناً وقدراً ، والله جل وعلا يقول : ﴿ والله يدعوا إلى دَارِ السلام ﴾ [يونس : 25] والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : "كلٌّ ميسر لما خلق له " والعلم عند الله تعالى .

مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ ﴿ الأنعام : 14] .

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (59)

أصل الذنوب في لغة العرب الدلون وعادة العرب أنهم يقتسمون ماء الآبار والقلب بالدلو ، فيأخذ هذا منه ملء دلو ، ويأخذ الآخر كذلك ، ومن هنا أطلقوا اسم الذنوب ، التي هي الدلو على النصيب . قال الراجز في اقتسامهما الماء بالدلو :

لنا ذنوب ولكم ذنوب . . . فإن أبيتم فلنا القليب

ويروى :

إنا إذا شاربنا شريب . . . له ذنوب ولنا ذنوب

فإن أبى كان لنا القليب .

ومن إطلاق الذنوب على مطلق النصيب قول علقمة بن عبدة التميمي .

وقيل عبيد :

وفي كل حي قد خبطت بنعمة . . . فحق لشأس من نداك ذنوب

وقول أبي ذؤيب :

لعمرك والمنايا طارقات . . . لكل بني أب منها ذنوب

فالذنوب في البيتين النصيب ، ومعنى الآية الكريمة ، فإنه للذين ظلموا بتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم ذنوباً ، أي نصيباً من عذاب الله مثل ذنوب أصحابهم من الأمم الماضية من العذاب لما كذبوا رسلهم .

وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ قَدْ قَالَهَا الذين مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ والذين ظَلَمُواْ مِنْ هؤلاء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ

﴾ [الزمر : 50 - 51] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسيئَةِ قَبْلَ الحسنة وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات ﴾ [الرعد : 6] وفي سورة مريم في الكلام على قوله : ﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ﴾ [مريم : 84] وغيري ذلك من المواضع .

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (60)

(73/727)

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار بالويل من يوم القيامة لما ينالهم فيه من عذاب النار ، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى ص ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النار ﴾ [ص : 27] وقوله في إبراهيم ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم : 2] . وقوله في المرسلات : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : 15 - 19 - 24 - 28 - 34 - 40 - 45 - 47 - 49] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة

وقد قدمنا أن كلمة ﴿ وَوَيْلٌ ﴾ ، قل فيها بعض أهل العلم : إنها مصدر لا فعل له من لفظه

، ومعناه الهلاك الشديد ، وقيل : هو واد في جهنم تستعيذ من حره ، والذي سوغ الابتداء بهذه النكرة أن فيها معنى الدعاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(74/727)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) ﴾

الأظهر أن هذا معطوف على جملة ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول ﴾ [الذاريات : 52] الآية التي هي ناشئة عن قوله : ﴿ ففروا إلى الله إلى ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ﴾ [الذاريات : 50 ، 51] عَطْفَ الغرض على الغرض لوجود المناسبة .

فبعد أن نظَّر حالهم بحال الأمم التي صممت على التكذيب من قبلهم أَعقبه بذكر شنيع حالهم من الانحراف عما خلقوا لأجله وغُرز فيهم .

فقوله : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ خبر مستعمل في التعريض بالمشركين الذين انحرفوا عن الفطرة التي خُلقوا عليها فخالفوا سنتها اتباعاً لتضليل المضلين .

والجن : جنس من المخلوقات مستتر عن أعين الناس وهو جنس شامل للشياطين قال تعالى عن إبليس : ﴿ كان من الجن ﴾ [الكهف : 50] .

والإِنس : اسم جمعٍ واحدُه إنسي بياء النسبة إلى اسم جمعِه .

والمقصود من هذا الإِخبارِ هو الإِنس وإنما ذُكر الجن إدماجاً وستعرف وجه ذلك .

والاستثناء مفرغ من علل محذوفة عامة على طريقة الاستثناء المفرغ .

واللام في ﴿ ليعبدون ﴾ لام العلة ، أي ما خلقتهم لعلة إلا علة عبادتهم إياي .

والتقدير : لإِرادتي أن يعبدون ، ويدل على هذا التقدير قوله في جملة البيان : ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون .

وهذا التقدير يلاحظ في كل لامٍ ترد في القرآن تعليلاً لفعلِ الله تعالى ، أي ما أرضَى لوجودهم إلا أن يعترفوا لي بالتفرد بالإِلهية .

(75/727)

فمعنى الإِرادة هنا : الرضى والمحبة ، وليس معناها الصفةَ الإِلهية التي تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه على وفق العلم ، التي اشتق منها اسمُه تعالى : المريد لأن إطلاق الإِرادة على ذلك إطلاق آخر ، فليس المراد هنا تعليل تصرفات الخلق الناشئة عن اكتسابهم على اصطلاح الأشاعرة ، أو عن قُدرتهم على اصطلاح المعتزلة على تقارب ما بين الاصطلاحين لظهور أن تصرفات الخلق قد تكون مناقضة لإِرادة الله منهم بمعنى الإِرادة

الصفةِ ، فالله تعالى خلق الناس على تركيب يقتضي النظر في وجود الإِله ويسوق إلى توحيده ولكن كسب الناس يجرّف أعمالهم عن المهيع الذي خلقوا لأجله ، وأسبابُ تمكُّنِهم من الانحراف كثيرة راجعة إلى تشابك الدواعي والتصرفات والآلات والموانع .

وهذا يغني عن احتمالات في تأويل التعليل من قوله : ليعبدون ﴾ من جعل عموم الجن والإِنس مخصوصاً بالمؤمنين منهم ، أو تقديرِ محذوف في الكلام ، أي إلا لآمُرهم بعبادتي ، أو حَمل العبادة بمعنى التذلل والتضرع الذي لا يخلو منه الجميع في أحوال الحاجة إلى التذلل والتضرع كالمرض والقحط وقد ذكرهَا ابن عطية .

ويرد على جميع تلك الاحتمالات أن كثيراً من الإِنس غير عابدٍ بدليل المشاهدة ، وأن الله حكى عن بعض الجن أنهم غير عابدين .

ونقول : إن الله خلق مخلوقات كثيرة وجعل فيها نظماً ونواميس فاندفع كلُّ مخلوق يعمل بما تدفعه إليه نواميس جبلته ، فقد تعُود بعض المخلوقات على بعض بنقض ما هُيِّءُ هُوَلَه ويعود بعضها على غيره بنقض ما يسعى إليه ، فتشابكت أحوال المخلوقات ونواميسها ، فربما تعاضدت وتظاهرت وربما تناقضت وتنافرت فحدثت من ذلك أحوال لا تُحصى ولا يحاط بها ولا بطرائقها ولا بعواقبها ، فكثيراً ما تسفر عن خلاف ما أُعدّ له المخلوق في أصل الفطرة فلذلك حاطها الله بالشرائع ، أي فحصل تناقض بين الأمر التكويني والأمر التشريعي .

ومعنى العبادة في اللغة العربية قبل حدوثِ المصطلحات الشرعية دقيق الدلالة ، وكلمات أئمة اللغة فيه خفية والذي يُستخلص منها أنها إظهار الخضوع للمعبود واعتقاد أنه يملك نفع العابد وضُرّه مِلكاً ذاتياً مستمراً ، فالمعبود إله للعابد كما حكى الله قول فرعون ﴿ وقومهما لنا عابدون ﴾ [المؤمنون : 47] .

فالحصر المستفاد من قوله : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ قصرُ علةِ خلق الله الإِنسَ والجنَّ على إرادته أن يعبدوه ، والظاهر أنه قصر إضافي وأنه من قبيل قصر الموصوف على الصفة ، وأنه قصر قلب باعتبار مفعول ﴿ يعبدون ﴾ ، أي إلا ليعبدوني وحدي ، أي لا ليشركوا غيري في العبادة ، فهو ردّ للإِشراك ، وليس هو قصراً حقيقياً فإنا وإن لم نطلع على مقادير حِكَم الله تعالى من خَلق الخلائق ، لكنَّا نعلم أن الحكمة من خلقهم ليست مُجردَ أن يعبدوه ، لأن حِكَم الله تعالى من أفعاله كثيرة لا نُحيط بها ، وذكر بعضها كما هنا لما يقتضي عدم وجود حكمة أخرى ، ألاَ ترى أن الله ذكر حِكماً للخلق غير هذه كقوله : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ [هود : 118 ، 119

] بَلْهَ ما ذكره من حكمة خلق بعض الإِنس والجن كقوله في خلق عيسى ﴿ ولنجعله آية للناس ورحمة منا ﴾ [مريم : 21] .

(77/727)

ثم إن اعتراف الخلقِ بوحدانية الله يَقْشَع تكذيبهم بالرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم ما كذَّبوه إلا لأنه دعاهم إلى نبذ الشرك الذي يزعمون أنه لا يسع أحداً نبذُه ، فإذا انقشع تكذيبهم استتبع انقشاعُه امتثالَ الشرائع التي يأتي بها الرسول صلى الله عليه وسلم إذا آمنوا بالله وحده أطاعوا ما بلَّغهم الرسول صلى الله عليه وسلم عنه ، فهذا معنى تقتضيه عبادةُ الله بدلالة الالتزام ، وذلك هو ما سُمي بالعبادة بالإطلاق المصطلح عليه في السُنَّة في نحو قوله : " أن تعبد اللَّه كأنك تراه " وليس يليق أن يكون مراداً في هذه الآية لأنه لا يطرد أن يكون علةً لخلق الإنسان فإن التكاليف الشرعية تظهر في بعض الأمم وفي بعض العصور وتتخلف في عصور الفترات بين الرسل إلى أن جاء الإِسلام ، وأحسب أن إطلاق العبادة على هذا المعنى اصطلاح شرعي وإنْ لم يرد به القرآن لكنه ورد في السنة كثيراً وأصبح متعارفاً بين الأمة من عهد ظهور الإِسلام .

وأن تكاليف الله للعباد على ألسنة الرسل ما أراد بها إلا صلاحَهم العاجل والآجل

وحصولَ الكمال النفساني بذلك الصلاح ، فلا جَرم أَنَّ الله أراد من الشرائع كمال الإِنسان وضبطَ نظامه الاجتماعي في مخِتلف عصوره .

وتلك حكمة إنشائه ، فاستتبع قولُه : ﴿ إلا ليعبدون ﴾ أنه ما خلقهم إلا لينتظم أمرهم بوقوفهم عند حدود التكاليف التشريعية من الأوامر والنواهي ، فعبادة الإِنسان ربَّه لا تخرج عن كونها محقِّقة للمقصد من خَلقه وعلَّةً لحصوله عادةً .

وعن مجاهد وزيد بن أسلم تفسير قوله : ﴿ إلا ليعبدون ﴾ بمعنى : إلاّ لآمرهم وأنهاهم .

وتَبع أبو إسحاق الشاطبي هذا التأويل في النوع الرابع من كتاب المقاصد من كتابه عنوان التعريف "الموافقات" وفي محمل الآية عليه نظر قد علمتَه فحققْهُ .

وما ذكر الله الجن هنا إلا لتنبيه المشركين بأن الجن غير خارجين عن العبودية لله تعالى .

(78/727)

وقد حكى الله عن الجن في سورة الجن قول قائلهم : ﴿ وأنه كان يقول سفيهنا على اللَّه شططاً ﴾ [الجن : 4] .

وتقديم الجن في الذكر في قوله : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدون الجن ، ليعلموا أن الجن عباد لله تعالى ، فهو

نظير قوله : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ [الأنبياء : 26] .

وجملة ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾ تقرير لمعنى ﴿ إلا ليعبدون ﴾ بإبطال بعض العلل والغايات التي يقصدها الصانعون شيئاً يصنعونه أو يتخذونه ، فإن المعروف في العرف أن من يتخذ شيئاً إنما يتخذه لنفع نفسه ، وليست الجملة لإِفادة الجانب المقصور دُونَه بصيغة القصر لأن صيغة القصر لا تحتاج إلى ذكر الضد .

ولا يَحسن ذكر الضد في الكلام البليغ .

فقوله : ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾ كناية عن عدم الاحتياج إليهم لأن أشد الحاجات في العرف حاجة الناس إلى الطعام واللباس والسكن وإنما تحصل بالرزق وهو المال ، فلذلك ابتدىء به ثم عطف عليه الإِطعام ، أي إعطاء الطعام لأنه أشد ما يحتاج إليه البشر ، وقد لا يَجده صاحب المال إذا قحط الناس فيحتاج إلى من يسلفه الطعامَ أو يُطعمه إياه ، وفي هذا تعريض بأهل الشرك إذ يُهدون إلى الأصنام الأموال والطعام تتلقاه منهم سدنة الأصنام .

والرزق هنا : المال كقوله تعالى : ﴿ فابتغوا عند الله الرزق ﴾ [العنكبوت : 17] وقوله : ﴿ اللَّه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ [الرعد : 26] وقوله : ﴿ ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه اللَّه ﴾ [الطلاق : 7] ، ويطلق الرزق على الطعام كقوله تعالى : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ [مريم : 62] ويمنع من إرادته هنا عطف ﴿ وما أريد

أن يطعمون ﴾ .

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)

(79/727)

تعليل لجملتي ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾ [الذاريات : 57] و ﴿ الرزق ﴾ هنا بمعنى ما يعمّ المال والإِطعام .

والرزاق : الكثير الإِرزاق ، والقوةُ : القدرة .

وذو القوة : صاحب القدرة .

ومن خصائص (ذو) أن تضاف إلى أمر مهم ، فعلم أن القوة هنا قوة خلية من النقائص .

والمتين : الشديد ، وهو هنا وصف لذي القوة ، أي الشديد القوة ، وقد عدّ ﴿ المتين ﴾ في أسمائه تعالى .

قال الغزالي : وذلك يرجع إلى معاني القدرة .

وفي "معارج النور" شرح الأسماء "المتينُ : كمال في قوته بحيث لا يعارض ولا يُدانَى" .

فالمعنى أنه المستغني غنىً مطلقاً فلا يحتاج إلى شيء فلا يكون خلقه الخلق لتحصيل نفع له ولكن لعمران الكون وإجراء نظام العمران باتباع الشريعة التي يجمعها معنى العبادة في قوله :

﴿ إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : 56] .

وإظهار اسم الجلالة في ﴿ إن الله هو الرزاق ﴾ إخراج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر لأن مقتضاه : إني أَنا الرزاق ، فعدل عن الإِضمار إلى الاسم الظاهر لتكون هذه الجملة مستقلة بالدلالة لأنها سُيرت مسِير الكلام الجامع والأمثال .

وحذفت ياء المتكلم من ﴿ يعبدون ﴾ و ﴿ يطعمون ﴾ للتخفيف ، ونظائره كثيرة في القرآن .

وفي قوله : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ طريق قصر لوجود ضمير الفصل ، أي : لا رَزَّاق ، ولا ذا قوة ، ولا متين إلا الله وهو قصر إضافي ، أي دون الأصنام التي يعبدونها .

(80/727)

فالقصر قصر إفراد بتنزيل المشركين في إشراكهم أصنامهم بالله منزلة من يدعي أن الأصنام شركاء لله في صفاته التي منها : الإِرزاق ، والقوة ، والشدة ، فأبطل ذلك بهذا القصر ، قال تعالى : ﴿ إن الذين تعبدون من دون اللَّه لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند اللَّه الرزق واعبدوه ﴾ [العنكبوت : 17] ، وقال : ﴿ إن الذين تدعون من دون اللَّه لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب

﴾ [الحج : 73] .

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (59)

تفريع على جملة ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : 56] باعتبار أن المقصود من سياقه إبطال عبادتهم غير الله ، أي فإذا لم يفردني المشركون بالعبادة فإن لهم ذَنوباً مثل ذَنوب أصحابهم ، وهو يلمح إلى ما تقدم من ذكر ما عوقبت به الأمم السالفة من قوله : ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ إلى قوله : ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ [الذاريات : 32 46] .

والمعنى : فإذ ما ثلهم الذين ظلموا فإن لهم نصيباً عظيماً من العذاب مثل نصيب أولئك .

والذين ظلموا : الذين أشركوا من العرب ، والظلم : الشرك بالله .

والذنوب بفتح الذال : الدلو العظيمة يستقي بها السُّقاة على القليب كما ورد في حديث الرؤيا " ثم أخذها أبو بكر ففزع ذنوباً أو ذنوبين " ولا تسمى ذنوباً إلا إذا كانت ملأى .

والكلام تمثيل لهيئة تساوي حظ الذين ظلموا من العرب بحُظوظ الذين ظلموا من الأمم السالفة بهيئة الذين يستقون من قليب واحد إذ يتساوون في أنصبائهم من الماء ، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس ، وأطلق على الأمم الماضية اسم وصف أصحاب الذين ظلموا باعتبار الهيئة المشبه بها إذ هي هيئة جماعات الوِرد يكونون متصاحبين .

وهذا التمثيل قابل للتوزيع بأنه يشبّه المشركون بجماعة وردت على الماء ، وتُشبه الأمم الماضية بجماعة سبقتهم للماء ، ويُشبه نصيب كل جماعة بالدلو التي يأخذونها من الماء .

قال علقمة بن عَبْدة يمدح الملكَ الحارثَ بن أبي شَمِر ، ويشفع عنده لأخيه شأسٍ بن عبدة وكان قد وقع في أسره مع بني تميم يوم عَين أباغ:

وفي كل حي قد خَبَطْتَ بَنعمة . . .

فحُقَّ لشَأْسٍ من نَداك ذَنوب

فلما سمعه الملك قال : "نعم وأَذنبة" وأطلق له أخاه شأس بن عبدة ومن معه من أسرى تميم ، وهذا تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم والمقصود : أن يسمعه المشركون فهو تعريض ، وبهذا الاعتبار أكد الخبر بـ (إنَّ) لأنهم كانوا مكذبين بالوعيد ، ولذلك فرع على التأكيد قوله : ﴿ فلا يستعجلون ﴾ لأنهم كانوا يستعجلون بالعذاب استهزاء وإشعاراً بأنه وعد مكذوب فهم في الواقع يستعجلون الله تعالى بوعيده .

وعدّي الاستعجال إلى ضمير الجلالة وهم إنما استعجلوه النبي صلى الله عليه وسلم لإظهار أن النبي صلى الله عليه وسلم مخبر عن الله تعالى توبيخاً لهم وإنذاراً بالوعيد .

وحذفت ياء المتكلم للتخفيف .

والنهي مستعمل في التهكم إظهاراً لغضب الله عليهم .

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (60)

فرع على وعيدهم إنذار آخر بالويل ، أو إنشاءُ زَجر .

والويل : الشر وسوء الحال ، وتقدم في قوله : ﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم ﴾ في سورة البقرة (79) ، وتنكيره للتعظيم .

والكلام يحتمل الإِخبار بحصول ويل ، أي عذاب وسوء حال لهم يوم أوعدوا به ، ويحتمل إنشاء الزجر والتعجيب من سوء حالهم في يَوم أُوعدوه .

و(مِن) للابتداء المجازي ، أي سوء حال بترقبهم عذاباً آتياً من اليوم الذي أوعدوه .

والذين كفروا : هم الذين ظلموا ، عدل عن ضميرهم إلى الاسم الظاهر لما فيه من تأكيد الاسم السابق تأكيداً بالمرادف ، مع ما في صفة الكفر من الإِيماء إلى أنهم لم يشكروا نعمة خالقهم .

(82/727)

واليوم الذي أوعدوه هو زمن حلول العذاب فيحتمل أن يراد يوم القيامة ويحتمل حلول العذاب في الدنيا ، وأيًّا مَّا كان فمضمون هذه الجملة مغاير لمضمون التي قبلها .

وإضافة (يوم) إلى ضميرهم للدلالة على اختصاصه بهم ، أي هو معيّن لجزائهم كما

أضيف يوم إلى ضمير المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ [الأنبياء : 103] .

واليوم : يصدق بيوم القيامة ، ويصدق بيوم بدر الذي استأصل الله فيه شوكتهم .

ولما كان المضاف إليه ضمير الكفار المعينين وهم كفار مكة ترجح أن يكون المراد من هذا اليوم يوماً خاصاً بهم وإنما هو يوم بدر لأن يوم القيامة لا يختص بهم بل هو عام لكفار الأمم كلهم بخلاف اليوم الذي في قوله في سورة الأنبياء (103) : ﴿ وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ لأن ضمير الخطاب فيها عائد إلى ﴿ الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ [الأنبياء : 101] كلهم .

وفي الآية من اللطائف تمثيل ما سيصيب الذين كفروا بالذنوب ، والذنوب يناسب القليب وقد كان مثواهم يوم بدر قليبَ بدر الذي رُميت فيه أشلاء سادتهم وهو اليوم القائل فيه شداد بن الأسود الليثي المكنّى أبا بكر يرثي قتلاهم:

وماذا بالقليبِ قليبِ بدر . . .

من الشيزى تُزَيَّن بالسَّنَام

تحيّي بالسلامة أمّ بكر . . .

وهل لي بعد قومي من سَلام

ولعلّ هذا مما يشمل قول النبي صلى الله عليه وسلم حين وقف على القليب يوم بدر ﴿ قد

وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ﴾ [الأعراف : 44]

وفي قوله : ﴿ من يومهم الذي يوعدون ﴾ مع قوله في أول السورة ﴿ إن ما توعدون لصادق ﴾ [الذاريات : 5] ردّ العجز على الصدر ، ففيه إيذان بانتهاء السورة وذلك من براعة المقطع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(83/727)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1) ﴾

أخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور والحارث بن أبي أسامة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه البيهقي في شعب الإيمان من طرق عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله ﴿ والذاريات ذرواً ﴾ قال : الرياح ﴿ فالحاملات وقراً ﴾ قال : السحاب ﴿ فالجاريات يسراً ﴾ قال : السفن ﴿ فالمقسمات أمراً ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج البزار والدارقطني في الأفراد وابن مردويه وابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال

: جاء صبيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : أخبرني عن ﴿ والذاريات ذرواً ﴾ قال : هي الرياح ، ولولا أني سمعت رسول يقوله ما قلته ، قال : فأخبرني عن ﴿ فالحاملات وقراً ﴾ قال : هي السحاب ، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته ، قال : فأخبرني عن ﴿ فالجاريات يسراً ﴾ قال : هي السفن ، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته . قال : فأخبرني عن ﴿ فالمقسمات أمراً ﴾ قال : هن الملائكة ، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته ، ثم أمر به فضرب مائة وجعل في بيت ، فلما برأ دعاه ، فضرب مائة أخرى ، وحمله على قتب وكتب إلى أبي موسى الأشعري إمنع الناس من مجالسته ، فلم يزالوا كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف له بالأيمان المغلظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئاً ، فكتب في ذلك إلى عمر ، فكتب عمر : ما إخاله إلا وقد صدق ، فحل بينه وبين مجالسة الناس .

وأخرج الفريابي عن الحسن قال : سأل صبيغ التميمي عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن ﴿ والذاريات ذرواً ﴾ وعن ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ وعن ﴿ والنازعات غرقاً ﴾ فقال عمر رضي الله عنه : إكشف رأسك فإذا له ضفيرتان ، فقال : والله لو وجدتك محلوقاً لضربت عنقك . ثم كتب إلى أبي موسى الأشعري أن لا يجالسه مسلم ولا يكلمه .

وأخرج الفريابي وابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن ﴿ والذاريات ذرواً ﴾ فقال : الرياح ﴿ فالحاملات وقراً ﴾ قال : السحاب ﴿ فالجاريات يسراً ﴾ قال : السفن .

وأخرج ابن جرير وابن نصر وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ يقول : قليلاً ما كانوا ينامون .

وأخرج أبو داود وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس رضي الله عنه في قوله ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ قال : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء وكذلك ﴿ تتجافى جنوبهم ﴾ [البقرة : 264] .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي العالية في قوله ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ قال : لا ينامون عن العشاء الآخرة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن نصر وابن المنذر عن عطاء في قوله ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ قال : ذلك إذ أمروا بقيام الليل ، وكان أبو ذر يعتمد على العصا فمكثوا شهرين ثم نزلت الرخصة ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه ﴾ [المائدة : 90] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك في الآية قال : كانوا قليلاً من الناس الذين يفعلون ذلك إذ ذاك .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك في الآية ، قال : المتقين هم القليل كانوا من الناس قليلاً .

وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر عن الضحاك في قوله ﴿ كانوا قليلاً ﴾ يقول : المحسنون كانوا قليلاً ، هذه مفصولة ، ثم استأنف فقال : ﴿ من الليل ما يهجعون ﴾ الهجوع النوم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن نصر عن مجاهد رضي الله عنه في الآية قال : كانوا لا ينامون الليل كله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ قال : كان الحسن يقول : كانوا قليلاً من الليل ما ينامون ، وكان مطرف بن عبد الله يقول : كانوا قلّ ليلة لا يصيبون منها ، وكان محمد بن علي يقول : لا ينامون حتى يصلوا العتمة .

(85/727)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه من طريق الحسن عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في قوله ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ قال : هجعوا قليلاً ثم مدوها إلى السحر .

وأخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن آخر الليل في التهجد أحب إليَّ من أوّله ، لأن الله يقول ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾

" .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ قال : يصلون " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن نصر وابن جرير وابن المنذر عن الحسن في الآية قال : صلوا فلما كان السحر استغفروا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وفي أموالهم حق ﴾ قال : سوى الزكاة يصل بها رحماً أو يقري بها ضيفاً أو يعين بها محروماً .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ وفي أموالهم حق ﴾ قال : سوى الزكاة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن إبراهيم قال : كانوا يرون في أموالهم حقاً سوى الزكاة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه سئل عن السائل والمحروم قال : السائل الذي يسأل الناس والمحروم الذي ليس له سهم في المسلمين .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن بن محمد بن الحنفية قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فأصابوا وغنموا ، فجاء قوم بعد ما فرغوا فنزلت ﴿ وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : المحروم هو المحارف الذي يطلب

الدنيا وتدبر عنه ، ولا يسأل الناس فأمر الله المؤمنين برفده .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة قال : سألت عائشة رضي الله عنها عن المحروم في هذه الآية فقالت : هو المحارف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه .

(86/727)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : المحروم المحارف الذي ليس له في الإِسلام سهم .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد رضي الله عنه قال : المحروم الذي ليس في الغنيمة شيء .

وأخرج ابن أبي شيبة عن إبراهيم مثله .

وأخرج ابن المنذر عن أبي قلابة قال : كان رجل باليمامة فجاء السيل فذهبت بماله ، فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هذا المحروم فأعطوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه قال : السائل الذي يسأل بكفه ، والمحروم المتعفف .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية قال : المحروم المحارف .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : المحروم المحارف الذي لا يثبت له مال .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك قال : المحروم الذي لا ينمو له مال في قضاء الله .

وأخرج عبد بن حميد عن عامر قال : هو المحارف ، وتلا هذه الآية ﴿ إنا لمغرمون بل نحن محرومون ﴾ [الواقعة : 66 – 67] قال : هلكت ثماركم وحرموا بركة أرضهم .

وأخرج عبد بن حميد عن قزعة أن رجلاً سأل ابن عمر رضي الله عنهما عن قوله ﴿ وفي أموالهم حق معلوم ﴾ قال : هي الزكاة وفي سوى ذلك حقوق .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ للسائل والمحروم ﴾ قال : السائل الذي يسأل بكفه ، والمحروم المحارف .

وأخرج عبد بن حميد عن الشعبي قال : أعياني أعلم ما المحروم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي بشر قال : سألت سعيد بن جبير عن المحروم فلم يقل فيه شيئاً ، وسألت عطاء فقال : هو المحدود ، وزعم أن المحدود المحارف .

وأخرج ابن جرير وابن حبان وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ولا الأكلة والأكلتان ، قالوا : فمن المسكين ؟ قال : الذي ليس له ما يغنيه ولا يُعْلم مكانه فَيُتَصَدَّقَ عليه فذلك المحروم " .

وأخرج العسكري في المواعظ وابن مردويه " عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا أنس ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة ، يقولون : ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم ، فيقول : وعزتي وجلالي لأقربنكم ولأباعدنهم ، قال : وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ " .

وأخرج البيهقي في سننه عن فاطمة بنت قيس أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ﴿ وفي أموالهم حق معلوم ﴾ قال : إن في المال حقاً سوى الزكاة ، وتلا هذه الآية ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم ﴾ إلى قوله ﴿ وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ﴾ والله سبحانه وتعالى أعلم .

(88/727)

وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ

مُنْكَرُونَ (25) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (27)
فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ
فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ
(30) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32)
لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنَا مَنْ
كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً
لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (37) وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ
(38) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ
مُلِيمٌ (40)

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ قال : يقول : معتبر لمن اعتبر ﴿ وفي أنفسكم ﴾ قال : يقول : في خلقه أيضاً إذا فكر فيه معتبر .

(89/727)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله وفي أنفسكم ﴿ أفلا تبصرون ﴾ قال : من تفكر في خلقه علم أنما لينت مفاصله للعبادة .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإِيمان عن ابن الزبير رضي الله عنه في قوله ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ قال : سبيل الغائط والبول .

وأخرج الخرائطي في مساوىء الأخلاق عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ قال : سبيل الغائط والبول .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ قال : فيما يدخل من طعامكم وما يخرج والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وفي السماء رزقكم ﴾ الآيتين .

أخرج ابن النقور والديلمي عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ قال : المطر .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إني لأعرف الثلج وما رأيته في قول الله ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ قال : الثلج .

وأخرج أبو الشيخ وابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ وفي السماء رزقكم ﴾ قال : المطر ﴿ وما توعدون ﴾ قال : الجنة والنار .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في الآية ، قال : الجنة في السماء ، وما توعدون من خير وشر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ فورب السماء والأرض ﴾ الآية قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا " .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق ﴾ قال : لكل شيء ذكره في هذه السورة .

أخرج ابن أبي الدنيا وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ قال : خدمته إياهم بنفسه .

(90/727)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في الآية قال : أكرمهم إبراهيم بالعجل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ﴾ قال : كان عامة مال إبراهيم البقر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾ قال : هو إسماعيل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فأقبلت امرأته في صرة ﴾ قال : في صيحة ﴿ فصكت ﴾ قال : لطمت .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ في صرة ﴾ قال : صيحة ﴿ فصكت وجهها ﴾ قال : ضربت بيدها على جبهتها وقالت : يا ويلتاه .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه أنه سئل عن عجوز عقيم وعن الريح العقيم وعن عذاب يوم عقيم ، فقال : العجوز العقيم التي لا ولد لها ، وأما الريح العقيم فالتي لا بركة فيها ولا منفعة ولا تلقح ، وأما عذاب يوم عقيم فيوم لا ليلة له .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ قال : لوط وابنتيه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : كانوا ثلاثة عشر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ قال : لو كان فيها أكثر من ذلك لنجاهم الله ليعلموا أن الإيمان عند الله محفوظ لا ضيعة على أهله .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ وتركنا فيها آية ﴾ قال : ترك فيها صخراً منضوداً .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فتولى بركنه ﴾ قال : بقومه .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ فتولى بركنه ﴾ قال : يعضده وأصحابه .

(91/727)

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وهو مليم ﴾ قال : مليم في عباد الله تعالى .

وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41)

أخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ الريح العقيم ﴾ قال : الشديدة التي لا تلقح شيئاً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ قال : الريح العقيم التي لا تلقح الشجر ولا تثير السحاب ، وفي قوله ﴿ إلا جعلته كالرميم ﴾ قال : كالشيء الهالك .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ الريح العقيم ﴾ قال : ريح لا بركة فيها ولا منفعة ولا ينزل منها غيث ولا يلقح منها شجر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الريح مسجنة في الأرض الثانية ، فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحاً تهلك عاداً ، قال : أي رب أرسل عليهم من الريح قدر منخر ثور ، قال له الجبار . لا إذا تكفأ الأرض ومن عليها ، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم ، فهي التي قال الله ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ " .

وأخرج الفريابي وابن المنذر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : ﴿ الريح العقيم ﴾ النكباء .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال : ﴿ الريح العقيم ﴾ الجنوب .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه قال : ﴿ الريح العقيم ﴾ الصبا التي لا تلقح شيئاً ، وفي قوله : ﴿ كالرميم ﴾ قال : الشيء الهالك .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه قال : ﴿ الريح العقيم ﴾ التي لا تنبت وفي قوله ﴿ إلا جعلته كالرميم ﴾ قال : كرميم الشجر .

وأخرج أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن مردويه " عن رجل من ربيعة قال : قدمت المدينة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرت عنده وافد عاد فقلت : أعوذ بالله أن أكون مثل وافد عاد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما وافد عاد ؟ فقلت : على الخبير سقطت ، إن عاداً لما أقحطت بعثت قيلاً فنزل على بكر بن معاوية فسقاه الخمر وغنته الجرادتان ، ثم خرج يريد جبال مهرة ، فقال : اللهم إني لم آتك لمريض فأداويه ولا لأسير فأفاديه ، فاسْق عبدك ما كنت مسقيه واسق معه بكر بن معاوية يشكر له الخمر الذي سقاه ، فرفع له سحابات فقيل له : اختر إحداهن فاختار السوداء منهن ، فقيل له : خذها رماداً ومدداً لا تذر من عاد أحداً ، وذكر أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر هذه الحلقة يعني حلقة الخاتم ، ثم قرأه ﴿ وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ " .

وأخرج البيهقي في سننه عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾ قال : ثلاثة أيام .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فعتوا ﴾ قال : علواً وفي قوله ﴿ فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ﴾ قال : فجأة .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فعتوا ﴾

قال : علواً وفي قوله ﴿ فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ﴾ قال : فجأة .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾ قال : من نهوض .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾ قال : لم يستطيعوا أن ينهضوا بعقوبة الله إذ نزلت بهم ، وفي قوله ﴿ وما كانوا منتصرين ﴾ قال : لم يستطيعوا امتناعاً من أمر الله .

(93/727)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ والسماء بنيناها بأيد ﴾ قال : بقوة .

وأخرج آدم بن أبي اياس والبيهقي عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ والسماء بنيناها بأيد ﴾ قال : يعني بقوة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ وإنا لموسعون ﴾ قال : لنخلق سماء مثلها وفي قوله ﴿ والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾ قال : الفارشون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ قال : الكفر والإيمان ، والشقاء والسعادة ، والهدى والضلالة ، والليل والنهار ، والسماء والأرض ، والجن والإنس ، والبر والبحر ، والشمس والقمر ، وبكرة وعشية ، ونحو هذا كله .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ أتواصوا به ﴾ قال : هل أوصى الأول الآخر منهم بالتكذيب .

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (54)

وأخرج أبو داود في ناسخه وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ قال : أمره الله أن يتولى عنهم ليعذبهم وعذر محمداً صلى الله عليه وسلم ثم قال : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ فنسختها .

وأخرج إسحاق بن راهويه وأحمد بن منيع والهيثم بن كليب في أسانيدهم وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان والضياء في المختارة من طريق مجاهد عن علي قال : لما نزلت ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة إذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتولي عنا ، فنزلت ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ فطابت أنفسنا .

وأخرج ابن راهويه وابن مردويه عن عليّ رضي الله عنه في قوله ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ قال : ما نزلت علينا آية كانت أشد علينا منها ولا أعظم علينا منها ، فقلنا : ما هذا إلا من سخطة أو مقت ، حتى نزلت ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ قال : ذكر بالقرآن .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ قال : ذكر لنا أنها لما نزلت اشتد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأوا أن الوحي قد انقطع ، وأن العذاب قد حضر ، فأنزل الله بعد ذلك ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ قال : فأعرض عنهم ، فقيل له : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ فوعظهم .

وأخرج ابن المنذر عن سلمان بن حبيب المحاربي قال : من وجد للذكرى في قلبه موقعاً فليعلم أنه مؤمن قال الله ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وما خلقت الجن والإِنس إلا ليعبدون ﴾ قال : ليقروا بالعبودية طوعاً أو كرهاً .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وما خلقت الجن والإِنس إلا

ليعبدون ﴾ قال : على ما خلقتهم عليه من طاعتي ومعصيتي وشقوتي وسعادتي .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن زيد بن أسلم رضي الله عنه في قوله ﴿ وما خلقت الجن والإِنس إلا ليعبدون ﴾ قال : ما جبلوا عليه من الشقاء والسعادة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي الجوزاء في الآية قال : أنا أرزقهم وأنا أطعمهم ، ما خلقتهم إلا ليعبدون .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله : ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلاّ تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك " .

(95/727)

وأخرج الطبراني في مسند الشاميين والحاكم في التاريخ والبيهقي في شعب الإِيمان والديلمي في مسند الفردوس عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله إني والجن والإِنس في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر غيري " .

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن الأنباري في المصاحف وابن

حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إني أنا الرزاق ذو القوّة المتين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ المتين ﴾ يقول : الشديد .

قوله تعالى : ﴿ فإن للذين ظلموا ذنوباً ﴾ الآية .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ذنوباً ﴾ قال : دلواً .

وأخرج الفريابي وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم ﴾ قال : سجلا من العذاب مثل عذاب أصحابهم .

وأخرج الخرائطي في مساوىء الأخلاق عن طلحة بن عمرو في قوله ﴿ ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم ﴾ قال : عذاباً مثل عذاب أصحابهم ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ 613.625 ﴾

(96/727)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ والذريات ذَرْواً ﴾

أقسم الله عز وجل ، بالرياح إذا أذرت ذرواً ، وروى يعلى بن عطاء ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : الرياح ثمانية : أربعة منها رحمة ، وأربعة منها عذاب ، فالرحمة منها : الناشرات ، والمبشرات ، والذاريات ، والمرسلات ، وأما العذاب : العاصف والقاصف والصرصر والعقيم ، وعن أبي الطفيل قال : شهدت عليّاً رضي الله عنه وهو يخطب ويقول : سلوني عن كتاب الله عز وجل ، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت بالليل ، أم بالنهار فسأله ابن الكواء فقال له : ما ﴿ والذريات ذَرْواً ﴾ قال : الرياح.

قال ﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ ؟ قال : السحاب قال : فما ﴿ فالجاريات يُسْراً ﴾ قال : السفن جرت بالتسيير على الماء .

﴿ فالمقسمات أَمْراً ﴾ ؟ قال : الملائكة .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : والذاريات الرياح ، قال : ما ذرت الريح ، فالحاملات وقراً يعني : السحاب الثقال ، الموقرة من الماء ، فالجاريات يسراً ، يعني : السفن جرت بالتسيير على الماء ، فالمقسمات أمراً ، يعني : أربعة من الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، لكل واحد منهم أمر مقسوم ، وهم المدبرات أمراً ، أقسم الله

تعالى بهذه الآية : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ يعني : الذي توعدون من قيام الساعة ﴿ لصادق ﴾ يعني : لكائن ويقال : في الآية مضمر ، فأقسم الله تعالى برب الذاريات ، يعني : ورب الرياح الذاريات ، ورب السحاب الحاملات ، ورب السفن الجاريات ، ورب الملائكة المقسمات ، إنما توعدون لصادق .

﴿ وَإِنَّ الدين لَوَاقِعٌ ﴾ يعني : المجازات على أعمالهم لواقع ، ثم بين في آخر الآية ما لكل فريق من الجزاء ، فبين جزاء أهل النار أنهم يفتنون ، وبين جزاء المتقين أنهم في جنات وعيون .

ثم قال عز وجل : ﴿ والسماء ذَاتِ الحبك ﴾ أقسم بالسماء ذات الحسن والجمال ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه يعني : ذات الخلق الحسن .

(97/727)

وقال مجاهد : المتقن من البنيان ، يعني : البناء المحكم .

ويقال : الحبك يعني : ذات الطرائق ويقال للماء القائم إذا ضربته الريح ، فصارت فيه الطرائق له حبك ، وكذلك الرمل إذا هبت عليه الريح ، فرأيت فيه كالطرائق فبذلك حبك .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ يعني : متناقض مرة قالوا ساحراً ، ومرة قالوا

مجنون ، والساحر عندهم من كان عالماً غاية في العلم ، والمجنون من كان جاحداً غاية في الجهل ، فتحيروا ، فقالوا : مرة مجنون ، ومرة ساحر ، ويقال : إنكم لفي قول مختلف ، يعني : مصدقاً ومكذباً ، يعني : يؤمن به بعضهم .

ويكفر به بعضهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ يعني : يصرف عنه من صرف ، وذلك إن أهل مكة أقاموا رجالاً على عقاب مكة ، يصرفون الناس ، فمنهم من يأخذ بقولهم ويرجع ، ومنهم من لا يرجع ، فقال : يصرف عنه من قد صرفه الله عن الإيمان وخذله ، ويقال : يصرف عنه من قد صرفه يوم الميثاق ، ويقال يصرف عنه من كان مخذولاً لم يكن من أهل الإيمان .

ثم قال عز وجل : ﴿ قُتِلَ الخرصون ﴾ يعني : لعن الكاذبون ﴿ الذين هُمْ فِى غَمْرَةٍ ساهون ﴾ يعني : في جهالة وعمي وغفلة عن أمر الآخرة ، ساهون يعني : لاهين عن الإيمان ، وعن أمر الله تعالى ﴿ يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدين ﴾ يعني : أي أوان يوم الحساب استهزاء منهم به ، فأخبر الله تعالى عن ذلك اليوم فقال : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ يعني : بالنار يحرقون ، ويعذبون .

ويقول لهم الخزنة : ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هذا الذى كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ يعني : هذا العذاب الذي كنتم به تستهزئون .

يعني : تستعجلون على وجه الاستهزاء .

ثم بيّن ثواب المتقين فقال عز وجل : ﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ يعني : في بساتين ، وأنهار .

(98/727)

قوله تعالى : ﴿ ءاخِذِينَ مَا ءاتاهم رَبُّهُمْ ﴾ يعني : قابضين ما أعطاهم ربهم من الثواب ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ في الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ بأعمالهم .

قرأ عاصم : ﴿ ءاخِذِينَ ﴾ نصب على الحال ، ومعنى ﴿ فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ في حال آخذين ما آتاهم ربهم .

ثم قال : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ يعني : قليل من الليل ما ينامون .

وقال بعضهم : كانوا قليلاً .

ثم الكلام يعني : مثل هؤلاء المتقين ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً ﴾ .

ثم أخبر عن أعمالهم ، فقال : ﴿ مّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ يعني : لا ينامون بالليل ، كقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وقياما ﴾ [الفرقان : 64] .

وقال الضحاك : كانوا من النائمين .

وقال الحسن : لا ينامون إلا قليلاً .

وقال الربيع بن أنس : لا ينامون بالليل إلا قليلاً ﴿ وبالاسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ يعني : يصلون عند السحر .

ويقال : يصلون بالليل ، ويستغفرون عند السحر عن ذنوبهم ﴿ وَفِى أموالهم حَقٌّ ﴾ يعني : نصيب للفقراء ﴿ لِّلسَّائِلِ والمحروم ﴾ السائل : المسكين الذي يسأل الناس .

والمحروم المتعفف الذي لا يسأل الناس .

ويقال : المحروم المحترف الذي لا يبلغ عيشه .

وقال الشعبي : أعياني أن أعلم من المحروم .

روى سفيان عن ابن إسحاق ، عن قيس ، قال : سألت ابن عباس : من السائل والمحروم ؟ فقال : السائل : الذي يسأل .

والمحروم : المحارب الذي ليس له سهم في الغنيمة ، وهكذا قال إبراهيم النخعي ، ومجاهد ، والربيع بن أنس .

وروى عكرمة عن ابن عباس قال : المحروم : الفقير الذي إذا خرج إلى الناس استعف ، ولم يعرف مكانه ، ولا يسأل الناس فيعطونه .

وقال الزجاج : المحروم الذي لا ينمو له مال .

ويقال : هي بالفارسية بي دولة يعني : لا إقبال له .

قوله : ﴿ وَفِى الأَرضِ ءايات لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ يعني : فيمن أهلك قبلهم ، لهم عبرة .

(99/727)

ويقال : فيها علامة وحدانية الله تعالى ، كأنه قال جعلت جميع الأشياء مرآتك ، لتنظر إليها ، وترى ما فيها ، ومراد النظر في المرآة ، رؤية من لم يَرَ فكأنه قال : وانظر في آيات صنعي ، لتعلم أني صانع كمل الأشياء ؟ فإذا نظرت إلى النقش ، والنقش يدل إلى نقاشه وإذا نظرت إلى النفس وعجائب تركيبها يدل على خالقها ، وإذا نظرت في الأرض فمختلف الأشياء عليها يدل إلى ربها ، وهي البحار ، والجبال ، والأنهار ، والأثمار .

﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ ﴾ يعني : وعلامة وحدانيته في أنفسكم ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ يعني : تتفكرون في خلق أنفسكم ، كيف خلقكم وهو قادر على أن يبعثكم .

قوله عز وجل : ﴿ وَفِى السماء رِزْقُكُمْ ﴾ يعني : من السماء يأتي سبب رزقكم ، وهو المطر .

ويقال : وعلى خالق السماء رزقكم ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ يعني : ما توعدون من الثواب ، والعقاب ، والخير ، والشر .

قال مجاهد : ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ يعني : الجنة ، والنار .

وهكذا قال الضحاك .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَوَرَبِّ السماء والأرض ﴾ أقسم الرب بنفسه ﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ يعني : ما قسمت من الرزق لكائن ﴿ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ يعني : كما تقولون لا إله إلا الله ، أو يعني : كما أن قولكم لا إله إلا الله حق ، كذلك قولي سأرزقكم حق .

ويقال : معناه كما أن الشهادة واجبة عليكم ، فكذلك رزقكم واجب علي .

ويقال : معناه هو الذي ذكر في أمر الآيات ، والرزق حق .

يعين : صدق مثل ما أنكم تنطقون .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أَبَى ابْنُ آدَمَ أَنْ يُصَدِّقَ رَبَّهُ حَتَّى أَقْسَمَ لَهُ ، فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ " .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ، في رواية أبي بكر ﴿ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ بضم اللام .

والباقون : بالنصب .

فمن قرأ بالضم ، فهو نعت بالحق ، وصفه له .

ومن قرأ بالنصب ، فهو على التوكيد على معنى أنه لحق حقاً مثل نطقكم .

قوله عز وجل : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إبراهيم المكرمين ﴾ يعني : جاء جبريل مع أحد عشر ملكاً عليهم السلام المكرمين ، أكرمهم الله تعالى ، وقال : أكرمهم إبراهيم ، وأحسن عليهم القيام ، ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَمًا ﴾ فسلموا عليه ، فرد عليهم السلام ﴿ قَالَ سلام ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي ، قال : سلم أي : أمري سلم .

والباقون ﴿ سلام ﴾ أي : أمري ﴿ سلام ﴾ أي : صلح .

ثم قال : ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ يعني : أنكرهم ، ولم يعرفهم .

وقال كانوا لا يسلمون في ذلك الوقت ، فلما سمع منهم السلام أَنْكَرَهُمْ .

﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ يعني : عهد إلى أهله .

ويقال : عدل ، ومال إلى أهله .

ويقال : عدل من حيث لا يعلمون لأي شيء عدل .

يقال : راغ فلان عنا ، إذا عدل عنهم من حيث لا يعلمون .

﴿ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ قال بعضهم : كان لبن البقرة كله سمناً ، فلهذا كان العجل سميناً ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ فلم يأكلوا ﴿ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ ﴾ فقالوا : نحن لا نأكل بغير ثمن .

فقال إبراهيم : كلوا ، فاعطوا الثمن .

قالوا : وما ثمنه ؟ فقال : إذا أكلتم ، فقولوا بسم الله .

وإذا فرغتم ، فقولوا : الحمد لله ، فتعجبت الملائكة عليهم السلام لقوله ، فلما رآهم لا يأكلون ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ يعني : أظهر في نفسه خيفة .

ويقال : ملأ عنهم خيفة ، فلما رأوه يخاف ﴿ قَالُواْ لاَ تَخَفْ ﴾ منا يعني : لا تخشى منا ﴿ وَبَشَّرُوهُ بغلام عَلِيمٍ ﴾ يعني : إسحاق ﴿ فَأَقْبَلَتِ امرأته فِى صَرَّةٍ ﴾ يعني : أخذت امرأته في صيحة ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ يعني : ضربت بيديها ، خديها تعجباً ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ يعني : عجوزاً عاقراً لم تلد قط ، كيف يكون لها ولد ؟ فقال لها جبريل : ﴿ قَالُواْ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ ﴾ يكون لك ولد ﴿ هُوَ الحكيم ﴾ في أمره .

حكم بالولد بعد الكبر ﴿ العليم ﴾ عليم بخلقه .

(101/727)

ويقال : عليم بوقت الولادة .

فلما رآهم أنهم الملائكة ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون ﴾ يعني : ما أمركم ، وما شأنكم ، ولماذا جئتم أيها المرسلون ؟ ﴿ قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ ﴾ يعني : قال جبريل أرسلنا الله تعالى ﴿ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ يعني : قوم كفار مشركين ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : لكي نرسل عليهم ﴿ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ مطبوخ ، كما يطبخ الآجر ﴿ مُّسَوَّمَةً

عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ يعني : معلمة .

وقال : مخططة بسواد ، وحمرة .

ويقال : مكتوب على كل واحد اسم صاحب الذي يصيبه .

ثم قال : ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ يعني : جاءت الحجارة من عند ربك للمشركين ، فاغتم إبراهيم لأجل لوط .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا ﴾ أي : في قريات لوط ﴿ مِنَ المؤمنين ﴾ يعني : من المصدقين ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المسلمين ﴾ يعني : غير بيت لوط .

قوله عز وجل : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا ءايَةً ﴾ يعني : أبقينا في قريات لوط آية .

يعني : عبرة في هلاكهم من بعدهم .

ثم قال : ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ العذاب الاليم ﴾ يعني : العذاب الشديد .

ثم قال : ﴿ وَفِى موسى ﴾ عطف على قوله ﴿ وفى أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : 21] ﴿ وَفِى موسى ﴾ ﴿ إِذْ أرسلناه إلى فِرْعَوْنَ بسلطان مُّبِينٍ ﴾ يعني : حجة بينة ، وهي اليد ، والعصا ﴿ فتولى بِرُكْنِهِ ﴾ يعني : أعرض عنه فرعون بجموعه .

يعني : مع جموعه وجنوده .

ويقال : ﴿ فتولى بِرُكْنِهِ ﴾ يعني : أعرض بجانبه ﴿ وَقَالَ ساحر أَوْ مَجْنُونٌ فأخذناه وَجُنُودَهُ ﴾ يعني : عاقبناه ، وجموعه ﴿ فنبذناهم فِى اليم ﴾ قال الكلبي يعني :

أغرقناهم في البحر وقال مقاتل يعني : في النيل ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ يعني : يلوم نفسه ، ويلومه الناس .

وقال : ﴿ مُلِيمٌ ﴾ أي : مذنب .

وقال أهل اللغة : ألام الرجل ، إذا أتى بذنب يلام عليه .

(102/727)

ثم قال : ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الريح العقيم ﴾ يعني : سلطنا عليهم الريح الشديد ، وإنما سميت عقيماً ، لأنها لا تأتي على شيء إلا جعلته كالرميم لا خير فيه .

ويقال : سميت عقيماً لأنها لا تلقح الأشجار ، ولا تثير السحاب ، وهي الدبور .

وروى شهر بن حوشب عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما أنزل الله قطرة من ماء إلا بمثقال ، ولا أنزل سفرة من ريح إلا بمكيال ، إلا قوم نوح طغى على خزانة الماء ، فلم يكن لهم عليه سبيل ، وعتت الريح يوم عاد على خزانها ، فلم يكن لهم عليها سبيل وروى عكرمة عن ابن عباس قال : العقيم الذي لا منفعة لها .

ثم قال : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ ﴾ يعني : ما تترك من شيء هو لهم ، ولا منهم ، ﴿ أَتَتَ عَلَيْهِمِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كالرميم ﴾ يعني : مرت عليه إلا جعلته كالرماد .

ويقال : الرميم : الورق الجاف ، المتحطم ، مثل الهشيم المحتظر ، كما قال كهشيم المحتظر ، بعد ما كانوا كنخل متقصر .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما أرسل على عاد من الريح ، إلا مثل خاتمي هذا .

يعني : إن الريح العقيم تحت الأرض ، فأخرج منها مثل ما يخرج من ثقب الخاتم ، فأهلكهم .

ثم قال : ﴿ وَفِى ثَمُودَ ﴾ يعني : قوم صالح ﴿ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حتى حِينٍ ﴾ يعني : قال لهم نبيهم صالح عليه السلام عيشوا إلى منتهى آجالكم ، ولا تعصوا أمر الله ﴿ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ يعني : تركوا طاعة ربهم ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة ﴾ يعني : العذاب .

قرأ الكسائي : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة ﴾ بغير ألف ، وجزم العين .

والباقون : بألف .

وهي الصيحة التي أهلكتهم بالصعقة ، قوله من قولك : صعقتهم الصاعقة .

يعني : أهلكتهم .

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قرأ صعقة مثل الكسائي .

﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ يعني : ظهرت النار من تحت أرجلهم ، وهم يرونها بأعينهم .

ويقال : سمعوا الصيحة ، وهم ينظرون متحيرون .

﴿ فَمَا استطاعوا مِن قِيَامٍ ﴾ يعني : ما استطاعوا أن يقوموا لعذاب الله تعالى ، حتى أهلكوا .

﴿ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾ يعني : ممتنعين من العذاب .

ثم قال : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وقوم نوح : بكسر الميم .

يعني : في قوم نوح كما قال : وفي ثمود .

والباقون : بالنصب .

يعني : وأهلكنا قوم نوح .

ويقال : معناه فأخذناه ، وأخذنا ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ هؤلاء الذين سميناهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ يعني : قوم نوح من قَبْل .

يعني : عاصين .

قوله عز وجل : ﴿ والسماء بنيناها بِأَيْدٍ ﴾ يعني : خلقناها بقوة ، وقدرة ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ يعني : نحن قادرون على أن نوسعها كما نريد .

ويقال : ﴿ والسماء ﴾ صار نصباً لنزع الخافض .

ومعناه و ﴿ وَهُوَ الذى فِى السمآء إله وَفِى الأرض إله وَهُوَ الحكيم العليم ﴾ [الزخرف : 84] آية .

ثم قال : ﴿ والأرض فرشناها ﴾ يعني : وفي الأرض آية ، بسطناها مسيرة خمسمائة عام من تحت الكعبة ﴿ فَنِعْمَ الماهدون ﴾ يعني : نعم الماهدون نحن .

ويقال : في قوله : ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ يعني : نحن جعلنا بينهما ، وبين الأرض سعة .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ يعني : صنفين ، الذكر والأنثى ، والأحمر والأبيض ، والليل والنهار ، والدنيا والآخرة ، والشمس والقمر ، والشتاء والصيف .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ يعني : تتعظون فيما خلق الله ، فتوحدوه .

قوله عز وجل : ﴿ فَفِرُّواْ إِلَى الله ﴾ يعني : توبوا إلى الله من ذنوبكم .

ويقال : معناه ﴿ فَفِرُّواْ ﴾ من الله ﴿ إِلَى الله ﴾ أو ﴿ فَفِرُّواْ ﴾ من عذاب الله ، إلى رحمة الله ، أو ﴿ فَفِرُّواْ ﴾ من معصيته ، إلى طاعته .

ومن الذنوب إلى التوبة .

(104/727)

﴿ إِنِّى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني : مخوفاً من عذاب الله تعالى بالنار ﴿ وَلاَ تَجْعَلُواْ مَعَ الله إلها ءاخَرَ ﴾ يعني : لا تقولوا له شريكاً ، وولداً ﴿ إِنَّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني : فإن فعلتم

، فإني لكم مخوف من عذابه ، فلم يقبلوا قوله ، وقالوا : هذا ﴿ ساحر أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ .

يقول الله تعالى تعزية لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ ﴾ يعني : هكذا ما أتى في الأمم الخالية من رسول ، ﴿ إِلاَّ قَالُواْ ساحر أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ كقول كفار مكة للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِ ﴾ يعني : توافقوا ، وتواطؤوا فيما بينهم .

وأوصى الأول الآخر أن يقولوا ذلك .

ويقال : توافقوا ، وتواطؤوا به كل قوم ، وجعلوا كلمتهم واحدة أن يقولوا ﴿ ساحر أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ .

قال الله عز وجل : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغون ﴾ يعني : عاتين في معصية الله تعالى .

ثم قال : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ يعني : فأعرض عنهم يا محمد ، بعد ما بلغت الرسالة ، وأعذرت ، ﴿ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ يعني : لا تلام على ذلك ، لأنك قد فعلت ما عليك ﴿ وَذَكَرَ ﴾ يعني : عظ أصحابك بالقرآن ﴿ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ يعني : المصدقين تنفعهم العظة .

ويقال : فعظ أهل مكة ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين .

يعني : من قدر لهم الإيمان .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ يعني : ما خلقتهم ، إلا

أمرتهم بالعبادة ، فلو أنهم خلقوا للعبادة لما عصوا طرفة عين .

وقال مجاهد : يعني ما خلقتهم إلا لآمرهم ، وأنهاهم .

(105/727)

ويقال : ﴿ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ يعني : إلا ليوحدون ، وهم المؤمنون ، وهم خلقوا للتوحيد والعبادة ، وخلق بعضهم لجهنم ، كما قال : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الجن والإنس لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَآ أولئك كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أولئك هُمُ الغافلون ﴾ [الأعراف : 179] فقد خلق كل صنف للأمر ، والنهي الذي يصلح له .

ثم قال : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ يعني : ما خلقتهم ، لأن يرزقوا أنفسهم ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ يعني : لا أكلفهم أن يطعموا أحداً من خلقي .

وأصل هذا أن الخلق عباد الله ، وعياله .

فمن أطعم عيال رجل ورزقهم ، فقد رزقه إذا كان رزقهم عليه .

ثم قال : ﴿ إِنَّ الله هُوَ الرزاق ﴾ يعني : ﴿ الرزاق ﴾ لجميع خلقه ﴿ ذُو القوة المتين ﴾ يعني : ﴿ ذُو القوة ﴾ على أعدائه ، الشديد العقوبة لهم ، والمتين في اللغة : الشديد القوي

قرأَ الأعمش : ﴿ ذُو القوة المتين ﴾ بكسر النون ، جعله من نعت القوة .

وقراءة العامة بالضم ، ومعناه : ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الرزاق ﴾ وهو ﴿ ذُو القوة المتين ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ يعني : أشركوا وهم مشركو مكة ﴿ ذَنُوباً ﴾ يعني : نصيباً من العذاب ﴿ مِّثْلَ ذَنُوبِ أصحابهم ﴾ يعني : مثل نصيب أصحاب من عذاب الذين مضوا ، وأصل الذنوب في اللغة هو الدلو الكبير ، فكيف عنه ، لأنه تتابع .

يعني : مثل عذاب الذين أهلكوا نحو قوم عاد ، وثمود ، وغيرهم .

﴿ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ يعني : بالعذاب ، لأن النضر بن الحارث كان يستعجل بالعذاب ، فأمهله إلى يوم بدر ، ثم قتل في ذلك اليوم ، وصار إلى النار .

قوله عز وجل : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ الذى يُوعَدُونَ ﴾ يعني : من عذاب يوم القيامة .

والويل : الشدة من العذاب .

يقال : الويل وادٍ في جهنم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 324 . 331 ﴾

(106/727)

وقال الثعلبي :

﴿ والذاريات ذَرْواً ﴾

الرياح التي تذرو التراب ذروا ، يقال : ذرت الريح التراب وأذرته .

أخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن ماجة قال : حدّثنا الحسن بن أيوب ، قال : حدّثنا عبد الله بن أبي زياد قال : حدّثنا سيار بن حاتم قال : حدّثنا أيوب بن خَوط قال : حدّثنا عمر الأعرج قال : بلغنا أنّ مساكن الرياح تحت أجنحة الكروبيّين حملة الكرسي ، فتهيج من ثمّ فتقع بعجلة الشمس ، ثم تهيج من عجلة الشمس فتقع برؤوس الجبال ، ثم تهيج من رؤوس الجبال فتقع في البر . فأمّا الشمال فإنّها تمرّ بجنّة عدن ، فتأخذ من عرق طيبها فتمرّ على أرواح الصدّيقين ، ثّم تأخذ حدّها من كرسي بنات نعش إلى مغرب الشمس ، ويأتي الدبور حدّها من مغرب الشمس إلى مطلع سهيل ، ويأتي الجنوب حدّها من مطلع سهيل إلى مطلع الشمس ، ويأتي الصبا حدّها من مطلع الشمس إلى كرسيّ بنات نعش ، فلا تدخل هذه في حدّ هذه ، ولا هذه في حدّ هذه .

أخبرني الحسن قال : حدّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان قال : حدّثنا إبراهيم بن الحسين بن ديزيل ، قال : حدّثنا الحكم سليمان ، قال : حدّثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحرث عن علي رضي الله عنه ﴿ والذاريات ذَرْواً ﴾ ، قال : "الرياح" .

﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ قال : "السحاب" . ﴿ فالجاريات يُسْراً ﴾ قال : "السفن" .

﴿ فالمقسمات أَمْراً ﴾ ، قال : "الملائكة" .

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ من الخير والشر والثواب والعقاب ﴿ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدين ﴾ الحساب والجزاء ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ لنازل كائن .

[ثم] ابتدأ قَسَماً آخر فقال عزّ وجلّ : ﴿ والسمآء ذَاتِ الحبك ﴾ قال ابن عباس وقتادة والربيع : ذات الخلق الحسن المستوي ، وإليه ذهب عكرمة ، قال : ألم ترَ إلى النّسّاج إذا نسج الثوب فأجادَ نسجه ، قيل : ما أحسن حبكه وقال سعيد بن جبير : ذات الزينة ، وقال الحسن : حبكت النجوم .

(107/727)

مجاهد : هو المتقَن البنيان ، الضحاك : ذات الطرائق ، ولكنّها بعيد من العباد فلا يرونها ، قال : ومنه حَبكَ الرمل والماء إذا ضربهما الريح ، وحبك الشعر الجعد والدرع ، وهو جمع حباك وحبيكة ، قال الراجز :

كأنما جلّلها الحوّاك . . . طنفسة في وشيها حباك

ومنه الحديث في صفة الجبال : "راسية حبك حبك" يعني الجعودة ، وقال ابن زيد : ذات الشدّة ، وقرأ قول الله سبحانه : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ﴾ [النبأ : 12] ، وقال

عبد الله بن عمرو : هي السماء السابعة .

﴿ إِنَّكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ في القرآن ومحمد عليه السلام ، فمن مصدّق ومكذّب ، ومقرّ ومنكر ، وقيل : نزلت في المقتسمين .

﴿ يُؤْفَكُ ﴾ يصرف ﴿ عَنْهُ ﴾ أي عن الإيمان بهما ﴿ مَنْ أُفِكَ ﴾ صرف فنجويه ، وقيل : يصرف عن هذا القول ، أي من أجله وسببه عن الإيمان من صرف ، وذلك أنهّم كانوا يتلقون الرجل إذا أراد الإيمان فيقولون له : إنّه ساحر وكاهن ومجنون ، فيصرفونه عن الإيمان ، وهذا معنى قول مجاهد .

وقد يكون (عن) بمعنى (أجل) . أنشد العبسي :

عن ذات أولية أُساودُ ربّها . . . وكأن لون الملح فوق شفارها

أي من أجل ناقة ذات أولية .

﴿ قُتِلَ ﴾ لعن ﴿ الخراصون ﴾ الكذابون .

وقال ابن عباس : المرتابون ، وهم المقتسمون الذين اقتسموا عقاب الله ، واقتسموا القول في النبي صلى الله عليه وسلم ليصرفوا الناس عن دين الإسلام .

وقال مجاهد : الكهنة .

﴿ الذين هُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ : شبهة وغفلة ﴿ سَاهُونَ ﴾ : لاهون .

﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدين ﴾ متى يوم القيامة استهزاءً منهم بذلك وتكذيباً .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَوْمَ هُمْ ﴾ أي يكون هذا الجزاء في يوم هم ﴿ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ يُعذّبون ويُحرقون ويُنضَجون بالنار كما يفتن الذهب بالنار . ومجازه بكلمة (على) ههنا : أنهم موقوفون على النار ، وقيل : هو بمعنى الباء .

(108/727)

ويقول لهم الخزنة : ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هذا ﴾ ولم يقل هذه ؛ لأنّ الفتنة ها هنا بمعنى العذاب ، فردّ الإشارة إلى المعنى ﴿ الذي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ من الثواب وأنواع الكرامات . وقال سعيد بن جبير : تعني آخذين بما أمرهم ربّهم ، عاملين بالفرائض التي أوجبها عليهم .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ قبل دخولهم الجنة ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ في الدنيا ، وقيل : قبل نزول الفرائض محسنين في أعمالهم .

﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ اختلف العلماء في حكم (ما) ، فجعله بعضهم جحداً ، وقال : تمام الكلام عند قوله : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً ﴾ أي كانوا قليلا من الناس ، ثم ابتدأ ﴿ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ أي لا ينامون بالليل ، بل يقومون للصلاة والعبادة ، وجعله بعضهم بمعنى (الذي) ، والكلام متّصل بعضه ببعض ، ومعناه : كانوا قليلا من الليل الذي يهجعون ، أي

كانوا قليلا من الليل هجوعهم ؛ لأنّ (ما) إذا اتصل به الفعل ، صار في تأويل المصدر كقوله : ﴿ بِمَا ظلموا ﴾ [النمل : 52] أي بظلمهم ، وجعله بعضهم صلة ، أي كانوا قليلا من الليل يهجعون .

قال محمد بن علي : "كانوا لا ينامون حتى يصلّوا العتمة" ، وقال أنس بن مالك : يصلّون ما بين المغرب والعشاء ، وقال مطرف : قلّ ليلة تأتي عليهم لا يصلّون فيها لله سبحانه ، إما من أوّلها ، وإما من أوسطها ، وقال الحسن : لا ينامون من الليل إلاّ أقلّة ، وربما نشطوا فمدّوا إلى السحر .

﴿ وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّآئِلِ والمحروم ﴾ ، قال ابن عباس وسعيد بن المسيب : السائل : الذي يسأل الناس ، والمحروم : المحارف الذي ليس له في الإسلام سهم .

(109/727)

وقال قتادة والزهري : السائل الذي يسألك ، والمحروم : المتعفف الذي لا يسألك ، وقال إبراهيم : هو الذي لا سهم له في الغنيمة ، يدلّ عليه ما روى سفيان عن قيس بن مسلم عن الحسين بن محمد أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سريّة فغنموا ، فجاء قوم لم

يشهدوا الغنيمة ، فنزلت هذه الآية ، وقال عكرمة : المحروم : الذي لا ينمي له مال ، وقال زيد بن أسلم : هو المصاب بثمره أو زرعه أو نسل ماشيته .

أخبرني الحسن بن محمد ، قال : حدّثنا محمد بن علي بن الحسن الصوفي قال : حدّثنا الحسن بن علي الفارسي قال : حدّثنا عمرو بن محمد الناقد قال : حدّثنا يزيد بن هارون قال : حدّثنا محمد بن مسلم الطائفي عن أيوب بن موسى عن محمد بن كعب القرظي : المحروم صاحب الحاجة ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [الواقعة : 67] ، ونظيره في قصة ضروان ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [القلم : 27] ، وأخبرنا الحسين قال : حدّثنا عمر بن أحمد بن القاسم قال : حدّثنا محمد بن أيوب قال : أخبرنا أبو بكر بن أبي شيبة ، قال : حدّثنا عبد [. . .] عن شعبة عن عاصم يعني الأحول عن أبي قلابة ، قال : كان رجل من أهل اليمامة له مال ، فجاء سيل فذهب بماله ، فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هذا المحروم فاقسموا له .

وقال الشعبي : أعناني أن أعلم ما المحروم ، لقد سألت عن المحروم منذ سبعين سنة ، فما أنا اليوم بأعلم مني من يومئذ .

وأصله في اللغة الممنوع ، من الحرمان ، وهو المنع .

أخبرنا أبو سهيل بن حبيب قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن موسى قال : حدّثنا أبو بكر بن محمد بن حمدون بن خالد قال : حدّثنا علي بن عثمان النفيلي الحراني ، قال : حدّثنا علي بن عباس الحمصي ، قال : حدّثنا سعيد بن عمارة بن صفوان الكلاعي عن الحرث بن النعمان ابن أُخت سعيد بن جبير قال : سمعت أنس بن مالك يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يا أنس ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة ، يقولون : يا ربّ ظلمونا حقوقنا التي فرضتها عليهم . قال : فيقول : وعزّتي وجلالي لأقربنّكم ولأُبعدنّهم " .

قال : فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه هذه الآية : ﴿ وفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ والمحروم ﴾ .

﴿ وَفِي الأَرضِ آيَاتٌ ﴾ عِبَرٌ وعظات إذا ساروا فيها . ﴿ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ .

﴿ وفِي أَنفُسِكُمْ ﴾ أيضا آيات ﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ .

أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن جعفر بن الطيب الكلما باذي بقراءتي عليه ، قال : حدّثنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص ، قال : حدّثنا السري بن خزيمة الآبيوردي ، قال : حدّثنا أبو نعيم ، قال : حدّثنا سفيان عن ابن جريج عن محمد بن المرتفع عن الزبير ﴿ وفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ ، قال : سبيل الغايط والبول ، وقال المسيب بن شريك : يأكل

ويشرب من مكان واحد ، ويخرج من مكانين ، ولو شرب لبناً محضاً خرج ماء ، فتلك الآية في النفس .

(111/727)

وقال أبو بكر الوراق : ﴿ وفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ يعني في تحويل الحالات وضعف القوة وقهر المنّة وعجز الأركاب وفسخ الصريمة ونقض العزيمة ، ثم أخبر سبحانه وتعالى أنّه وضع رزقك حيث لا يأكله السوس ولا يناله اللصوص ، فقال سبحانه : ﴿ وَفِي السمآء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ يعني المطر والثلج اللذين بهما تخرج الأرض النبات الذي هو سبب الأقوات ، وقال بعض أهل المعاني : معناه : وفي المطر والنبات سبب رزقكم ، فسمّي المطر سماء ؛ لأنّه عن السماء ينزل ، قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم . . . رعيناه وإن كانوا غضابا

وقال ابن كيسان : يعني وعلى ربّ السماء رزقكم ﴿ فِي ﴾ بمعنى (على) كقوله : ﴿ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] ، وذكر الربّ مختصراً ، كقوله : ﴿ وَسْئَلِ القرية ﴾ [يوسف : 82] ، ونظيره قوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض إِلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا ﴾ [هود : 6] .

وأخبرني عقيل أنّ أبا الفرج أخبرهم عن ابن جرير ، قال : حدّثنا ابن حميد ، قال : حدّثنا هارون بن المعتز من أهل الري عن سفيان الثوري قال : قرأ واصل الأحدب هذه الآية : ﴿ وَفِي السمآء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ فقال : ألا أرى رزقي في السماء ، وأنا أطلبه في الأرض ؟ فدخل خربة فمكث ثلاثاً لا يصيب شيئاً ، فلمّا أن كان اليوم الثالث إذا هو يرى جلّة من رطب ، وكان له أخ أحسن نيّة منه فدخل معه (فصارتا جلّتين) ، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرّق بينهما الموت .

(112/727)

أخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن خميس قال : حدّثنا ابن مجاهد قال : حدّثنا إبراهيم بن هاشم البغوي قال : حدّثنا ابن أبي بزّة ، قال : حدّثنا حسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد عن شبل بن عبّاد عن ابن (أبي نجيح) أنّه قرأ (وفي السماء رازقكم وما توعدون) بالألف يعني الله . قال مجاهد : ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ من خير أو شر ، وقال الضحاك ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ من الجنة والنار ، وأخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا موسى بن محمد قال : حدّثنا الحسن بن علويّة قال : حدّثنا إسماعيل بن عيسى قال : حدّثنا المسيب بن شريك قال : قال أبو بكر بن عبد الله : سمعت ابن سيرين يقول : ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ : الساعة .

﴿ فَوَرَبِّ السمآء والأرض إِنَّهُ ﴾ يعني أن الذي ذكرت من أمر الرزق ﴿ لَحَقٌّ مِّثْلَ ﴾ بالرفع قرأه أهل الكوفة بدلا من (الحق) ، وغيرهم بالنصب أي كمثل .

﴿ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ فتقولون : لا إله إلاّ الله ، وقيل : كما أنّكم ذوو نطق خصصتم بالقوة الناطقة العاقلة فتتكلمون ، هذا حق كما حق أنّ الآدمي ناطق ، وقال بعض الحكماء : كما أنّ كلّ انسان ينطق بلسان نفسه ، ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره ، فكذلك كلّ إنسان يأكل رزقه الذي قسم له ، ولا يقدر أن يأكل رزق غيره ، وقال الحسن في هذه الآية : بلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربّهم بنفسه فلم يصدّقوه " .

(113/727)

حدّثنا أبو القاسم بن حبيب قال : أخبرنا أبو الحسن الكائيني وأبو الطيّب الخياط وأبو محمد يحيى بن منصور الحاكم في القسطنطينية قالوا : حدّثنا أبو رجاء محمد بن أحمد القاضي ، قال : حدّثنا أبو الفضل العباس بن الفرج الرياسي البصري ، قال : سمعت الأصمعي يقول : أقبلتُ ذات يوم من المسجد الجامع في البصرة فبينا أنا في بعض سككها إذ طلع أعرابي جلف جاف على قعود له متقلد سيفه وبيده قوس ، فدنا وسلّم وقال لي : مَن

الرجل ؟ ، قلت : من بني الأصمع ، قال : أنت الاصمعي ؟ قلت : نعم ، قال : ومن أين أقبلت ؟ ، قلت من موضع مليء بكلام الرَّحْمن ، قال : وللرَّحْمن كلام يتلوه [الآدمين] . قلت : نعم ، قال : اتلُ عليّ شيئاً منه ، فقلت له : انزل عن قعودك . فنزل ، وابتدأت بسورة والذاريات ، فلمّا انتهيت إلى قوله سبحانه : ﴿ وَفِي السمآء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ . قال : يا أصمعي هذا كلام الرَّحْمن ؟ ، قلت : أي والذي بعث محمداً بالحق ، إنّه لكلامه أنزله على نبيّه محمد ، فقال لي : حسبك ، ثم قام إلى الناقة فنحرها وقطعها كلّها ، وقال : أعنيّ على توزيعها ففرقناها على من أقبل وأدبر ، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وجعلهما تحت الرمل وولّى مدبراً نحو البادية وهو يقول : ﴿ وَفِي السمآء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ .

(114/727)

فأقبلت على نفسي باللوم وقلت : لم تنتبهي لما انتبه له الأعرابي ، فلمّا حججت مع الرشيد دخلت مكة ، فبينا أنا أطوف بالكعبة إذ هتف بي هاتف بصوت دقيق فالتفتّ فإذا أنا بالأعرابي نحيلاً مصفاراً فسلّم عليّ وأخذ بيدي وأجلسني من وراء المقام وقال لي : اتل كلام الرَّحْمن ، فأخذت في سورة والذاريات ، فلمّا انتهيت الى قوله : ﴿ وَفِي السمآء

رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، صاح الاعرابي فقال : وجدنا ما وعدنا ربنّا حقاً ، ثم قال : وهل غير هذا ؟ قلت : نعم يقول الله سبحانه ﴿ فَوَرَبِّ السمآء والأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ ، فصاح الأعرابي وقال : يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف ؟ ، ألم يصدّقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين ؟ قالها ثلاثاً وخرجت فيها نفسه .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شيبة ، قال : حدّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان ، قال : حدّثنا أبو حاتم قال : حدّثنا شبانة ، قال حدّثنا صدقة ، قال حدّثنا الوضين بن عطاء عن زيد بن جرير أنّ رجلا جاع في مكان ليس فيه شيء ، فقال : اللّهم رزقك الذي وعدتني فأتني به ، قال : فشبع وروى من غير طعام ولا شراب .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا محمد بن القاسم الخطيب . قال : حدّثنا إسماعيل بن العباس بن محمد الوراق ، قال : حدّثنا الحسين بن سعيد بن محمد المحرمي ، قال : حدّثنا علي ابن يزيد العبداني قال : حدّثنا فضيل بن مسروق عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لو أنّ أحدكم فرّ من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت " وأنشدت في معناه :

الرزق في القرب وفي البعد . . . أطلَبُ للعبد من العبد

لو قصّر الطالب في سعيه . . . أتاه ما قدّر في قصد

وقال دعبل :

أسعى لأطلب رزقي وهو يطلبني . . . والرزق أكثر لي مني له طلباً

(115/727)

﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ يا محمد ﴿ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ اختلفوا في عددهم فقال ابن عباس ومقاتل : كانوا اثني عشر ملكاً ، وقال محمد بن كعب : كان جبريل ومعه سبعة ، وقال عطاء وجماعة : كانوا ثلاثة : جبريل وميكائيل ومعهما ملك آخر ﴿ المكرمين ﴾ قال ابن عباس : سمّاهم مكرمين ؛ لأنهّم كانوا غير مدعوّين .

وأخبرني محمد بن القاسم بن أحمد الفقيه قال : حدّثني عبد الله بن أحمد الشعراني ، قال : أخبرنا عبد الواحد بن محمد بن سعيد الأرعيالي قال : سمعت محمد بن عبدالوهاب يقول : قال لي علي بن غنام : عندي هريسة ، ما رأيك فيها ؟ قلت : ما أحسن رأيي ، قال : امضِ ، فدخلت الدار فجعل ينادي يا غلام يا غلام ، والغلام غايب ، فأدخلني بيتاً فجلست فيه ، فما راعني [إلاّ معه] القمقمة والطست وعلى عاتقه المنديل ، فقلت : إنّا لله يا أبا الحسن لو علمت أن الأمر عندك هكذا ما دخلت . قال : هوّن عليك ، حدّثنا أبو أسامة عن شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قوله سبحانه : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ

ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المكرمين ﴾ قال : خدمته إياهم بنفسه ، وقال عبد العزيز بن يحيى الكناني : كانوا مكرمين عند الله ، نظيره في سورة الأنبياء ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ .

قال أبو بكر الوراق وابن عطاء : سمّاهم مكرمين ، لأنّ أضياف الكرام مكرمون ، وكان إبراهيم عليه السلام أكرم الخليقة وأطهرهم فتوة .

﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ ﴾ أي أنتم قوم ﴿ مُّنكَرُونَ ﴾ غرباء لا نعرفكم ، وقيل : إنّما أنكر أمرهم ، لأنّهم دخلوا عليه من غير استئذان ، وقال أبو العالية : أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض .

(116/727)

﴿ فَرَاغَ ﴾ فعدل ومال إبراهيم ﴿ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ قال الفرّاء : لا ينطق بالروغ حتى يكون صاحبه محتفياً لذهابه ومجيئه ﴿ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ قال قتادة : كان عامة مال إبراهيم البقر ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امرأته فِي صَرَّةٍ ﴾ أي صيحة ، ولم يكن ذلك إقبالا من مكان إلى مكان وإنّما هو كقول القائل : أقبل يشتمني ، بمعنى أخذ في شتمي .

﴿ فَصَكَّتْ ﴾ قال ابن عباس : لطمت ﴿ وَجْهَهَا ﴾ وقال الآخرون : ضربت يدها

على جبهتها تعجباً ، كعادة النساء إذا أنكرن شيئاً أو تعجبن منه ، وأصل الصكّ الضرب ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ مجازه : أتلد عجوز عقيم ؟ وكانت سارة لم تلد قبل ذلك وكان بين البشارة والولادة سنة ، فولدت له سارة وهي بنت سبع وتسعين ، وإبراهيم ابن مائة سنة .

﴿ قَالُواْ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الحكيم العليم ﴾ حدّثنا أبو بكر بن عبدوس إملاءً قال : أخبرنا أبو سهل القطان ببغداد ، قال : حدّثنا يحيى بن جعفر ، قال : أخبرنا يزيد بن هارون ، وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن يوسف ، قال : حدّثنا يوسف بن يعقوب ، قال حدّثنا نصر بن علي ، قال : أخبرنا نوح بن قيس ، قال : حدّثنا عون بن أبي شداد أنّ ضيف إبراهيم المكرمين لمّا دخلوا عليه فقرّب إليهم العجل فسحه جبريل عليه السلام بجناحه ، فقام العجل يدرج في الدار حتى لحق بأُمّه .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون * قالوا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ قال الكلبي من سنك ، وكل بيانه قوله سبحانه ﴿ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴾ [هود : 82 ، الحجر : 74 ، الفيل : 4] .

﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ المؤمنين * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المسلمين ﴾ .

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً ﴾ عبرة ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ العذاب الأليم ﴾ .

﴿ وَفِي موسى ﴾ أي وتركنا في إرسال موسى أيضاً عبرة وقال الفرّاء : هو معطوف على قوله : ﴿ وَفِي الأرض آيَاتٌ . . . وَفِي موسى ﴾ ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ .

﴿ فتولى ﴾ فأعرض وأدبر عن الإيمان ﴿ بِرُكْنِهِ ﴾ بقوته وقومه ، نظيره ﴿ أَوْ آوِي إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود : 80] يعني المنعة والعشيرة ، وقال المؤرخ : بجانبه ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ قال أبو عبيدة : (أو) بمعنى (الواو) ؛ لأنهم قد قالوهما جميعاً ، وأنشد بيت جرير :

أثعلبة الفوارس أو رياحاً . . . عدلت بهم طهيّة والخشابا

وقد يوضع (أو) بمعنى (الواو) كقوله : ﴿ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 24] و (الواو) بمعنى (أو) كقوله سبحانه : ﴿ فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء مثنى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ﴾ [النساء : 3] .

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليم وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ قد أتى بما يلام عليه .

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الريح العقيم ﴾ وهي التي لا تلقّح شجراً ولا تنشئ سحاباً

ولا رحمة فيها (ولا) بركة .

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كالرميم ﴾ كالنبت الذي قد يبس وديس .

قال ابن عباس كالشيء الهالك . مقاتل : كالبالي . مجاهد : كالتبن اليابس . قتادة : كرميم الشجر . أبو العالية : كالتراب المدقوق . [قال] يمان : ما رمته الماشية بمرمتها من [الكلأ] ، ويقال للنسفة : المرمة والمقمة ، وقيل : أصله من العظم البالي .

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حتى حِينٍ ﴾ يعني وقت فناء آجالهم .

(118/727)

﴿ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة ﴾ قال الحسين بن واقد : كلّ صاعقة في القرآن فهي عذاب ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ إليها نهاراً .

﴿ فَمَا استطاعوا مِن قِيَامٍ ﴾ فما قاموا بعد نزول العذاب بهم ولا قدروا على نهوض به ولا دفاع ﴿ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾ منتقمين منّا .

قال قتادة : وما كانت عندهم قوة يمتنعون بها من الله .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ قرأ أبو عمرو والاعمش وحمزة والكسائي وخلف (وقوم) بجرّ الميم في ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ ، وقرأ الباقون بالنصب ، وله وجوه : أحدهما : أن يكون مردوداً على

الهاء والميم في قوله ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة ﴾ أي وأخذت قوم نوح ، والثاني : وأهلكنا قوم نوح ، والثالث : واذكر قوم نوح ﴿ مِّن قَبْلُ ﴾ أي من قبل عاد وثمود وقوم فرعون ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ .

﴿ والسمآء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ بقوة ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ قال ابن عباس قادرون ، وعنه أيضاً : لموسعون الرزق على خلقنا . الضحاك : أغنياء ، دليله قوله سبحانه ﴿ عَلَى الموسع قَدَرُهُ ﴾ [البقرة : 236] القتيبي : ذوو سعة على خلقنا . الحسين بن الفضل : أحاط علمنا بكل شيء . الحسن : مطبقون .

﴿ والأرض فَرَشْنَاهَا ﴾ بسطنا ومهدّنا لكم ﴿ فَنِعْمَ الماهدون ﴾ الباسطون ، والمعنى في الجمع التعظيم .

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ صنفين ونوعين مختلفين كالسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والبر والبحر ، والسهل والجبل ، والشتاء والصيف ، والجن والانس ، والكفر والإيمان ، والشقاوة والسعادة ، والحق والباطل ، والذكر والانثى ، والجنة والنار . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعلمون أنّ خالق الأزواج فرد .

﴿ ففروا إِلَى الله ﴾ أي : فاهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان ومجانبة العصيان .

قال ابن عباس : فرّوا منه إليه ، واعملوا بطاعته ، وقال أبو بكر الورّاق : فرّوا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرَّحْمن ، وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن يوسف قال : حدّثنا محمد بن حمدان بن سفيان ، قال : حدّثنا محمد بن زياد قال : حدّثنا يعقوب بن القاسم ، قال : حدّثنا محمد بن معز عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان في قوله سبحانه ﴿ ففروا إِلَى الله ﴾ قال : اخرجوا إلى مكة . الحسين بن الفضل : احترزوا من كل شيء دونه ، فمن فرّ إلى غيره لم يمتنع منه .

قال الجنيد : الشيطان داع إلى الباطل ، ففرّوا إلى الله يمنعكم منه . ذو النون : ففرّوا من الجهل إلى العلم ، ومن الكفر إلى الشكر . عمرو بن عثمان : فرّوا من أنفسكم إلى ربّكم . الواسطي : فرّوا إلى ما سبق لكم من الله ولا تعتمدوا على حركاتكم . سهل بن عبد الله : فرّوا مما سوى الله إلى الله . ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

﴿ وَلاَ تَجْعَلُواْ مَعَ الله إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي : كما كفر بك قومك ، وقالوا ساحر ومجنون كذلك ﴿ مَا أَتَى الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ .

﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِ ﴾ أوصى بعضهم بعضاً بالتكذيب وتواطؤوا عليه ، والألف فيه ألف التوبيخ . ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ عاصون .

﴿ فَتَوَلَّ ﴾ فأعرض ﴿ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ فقد بلّغتَ ما أُرسلتَ به وما قصّرتَ فيما أُمرتَ.

(120/727)

قال المفسرون: فلمّا نزلت هذه الآية حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتدّ ذلك على أصحابه، ورأوا أن الوحي قد انقطع وأنّ العذاب قد حضر، فأنزل الله سبحانه ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين * وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ قال علي بن أبي طالب: معناه إلاّ لآمرهم أن يعبدوني، وأدعوهم إلى عبادتي، واعتمد الزجاج هذا القول، ويؤيده قوله

﴿ وَمَآ أمروا إِلاَّ ليعبدوا إلها وَاحِداً ﴾ [التوبة: 31] وقوله: ﴿ وَمَآ أمروا إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [البينة: 5].

قال ابن عباس: ليقرّوا لي بالعبودية طوعاً أو كرهاً.

فإن قيل: فكيف كفروا وقد خلقهم للإقرار بربوبيته والتذلّل لأمره ومشيئته، وأنهم قد تذللوا لقضائه الذي قضى عليهم؟ (قلنا:) لأنّ قضاءه جار عليهم ولا يقدرون الامتناع منه إذا نزل بهم، وإنّما خالفه من كفر به في العمل بما أمره به، فأمّا التذلّل لقضائه فإنّه غير

ممتنع فيه ، وقال مجاهد : إلاّ ليعرفونِ .

ولقد أحسن في هذا القول لأنّه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده ، ودليل هذا التأويل قوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ [التوبة : 65] الآيات .

وروى حيّان عن الكلبي : إلاّ ليوحّدونِ ، فأمّا المؤمن فيوحّده في الشدّة والرخاء ، وأمّا الكافر فيوحده في الشدّه والبلاء دون النعمة والرخاء ، بيانه قوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [العنكبوت : 65] ﴾ الآية .

(121/727)

وقال عكرمة : إلا ليعبدونِ ويطيعونِ . فأُثيب العابد وأعاقب الجاحد ، وقال الضحاك وسفيان : هذا خاص لأهل عبادته وطاعته . يدلّ عليه (ما) قرأه ابن عباس : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس ﴾ من المؤمنين ﴿ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ . قال في آية أُخرى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجن والإنس ﴾ [الأعراف : 179] وقال بعضهم : معناه وما خلقت السعداء من الجن والإنس إلاّ لعبادتي ، والأشقياء منهم إلاّ لمعصيتي ، وهذا معنى قول زيد بن أسلم ، قال : ما جبلوا عليه من الشقاء والسعادة ، وقال الحسين بن الفضل : هو الاستعباد الظاهر .

وليس على هذا القدر ؛ لأنّه لو قدر عليهم عبادته لما عصوه ولما عبدوا غيره وإنّما هو كقوله : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : 78] ثم قال : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف : 10] ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشكور ﴾ [سبأ : 13] .

ووجه الآية في الجملة أنّ الله تعالى لم يخلقهم للعبادة خلق جبلة وإجبار وإنّما خلقه لهم خلق تكليف واختيار ، فمن وفّقه وسدّده أقام العبادة التي خُلق لها ، ومن خذله وطرده حرمها وعمل بما خلق لها . كقوله صلى الله عليه وسلم " اعملوا فكل ميسر لما خلق له " والله أعلم .

﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ أي رزقاً ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ الله هُوَ الرزاق ذُو القوة المتين ﴾ قرأه العامّة برفع النون على نعت الله سبحانه وتعالى ، وهو القوي المقتدر المبالغ في القوّة والقدرة .

قال ابن عباس : المتين الصلب الشديد ، وقرأ يحيى والأعمش (المتين) خفضاً على نعت القوّة . قال الفرّاء : كان حقّه التأنيث فذكّره ؛ لأنّه ذهب به إلى الشيء المبرم المحكم الفتل ، كما يقال : حبل متين ، وأنشد الفرّاء :

لكلّ دهر قد لبست أثوبا . . . حتى اكتسى الرأس قناعاً أشيبا

من ريطة واليمنة المعصّبا . . . فذكّر المعصب ؛ لأنّ اليمنة صنف من الثياب .

ومن هذا الباب قوله سبحانه : ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ ﴾ [البقرة : 275] أي وعظ ، وقوله : ﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة ﴾ [هود : 67] أي الصياح والصوت .

وأخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه الدينوري ، قال : حدّثنا القطيفي ، قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال : حدّثني أبي ، قال : حدّثنا يحيى بن آدم ويحيى بن أبي كثير قالا : حدّثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرَّحْمن بن يزيد عن عبد الله بن مسعود قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ الله هُوَ الرزاق ذُو القوة المتين ﴾ .

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ كفروا من أهل مكة ﴿ ذَنُوباً ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير : سجّلا . مجاهد : سبيلا . النخعي : طرفاً . عطاء وقتادة : عذاباً . الحسن : دولة . الكسائي : حظاً . الأخفش : نصيباً . وأصل الذّنوب في اللغة الدلو الكبيرة العظيمة المملوءة ماءً .

قال الراجز :

لها ذَنوب ولكم ذَنوب . . . فإن أبيتم فلنا القليب

ثم يستعمل في الحظ والنصيب كقول علقمة بن عبيدة .

وفي كل قوم قد خبطت بنعمة . . . فحق لشأس من نداك ذَنوب

لعمرك والمنايا طارقات . . . لكل بني أب منهم ذَنوب

﴿ مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ من كفار الأُمم الخالية ﴿ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ بالعذاب ، فإنّما أُمهلوا مع ذنوبهم لأجل ذنوبهم .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ الذي يُوعَدُونَ ﴾ وهو يوم بدر ، وقيل : يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 109.122 ﴾

(123/727)

وقال الزمخشرى :

سورة الذاريات

مكية وآياتها 60 [نزلت بعد الأحقاف] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الذاريات (51) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِياتِ ذَرْواً (1) فَالْحامِلاتِ وِقْراً (2) فَالْجارِياتِ يُسْراً (3) فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً (4) إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ (6)

وَالذَّارِياتِ الرياح لأنها تذرو التراب وغيره . قال اللّه تعالى : تَذْرُوهُ الرِّياحُ وقرئ بإدغام التاء

في الذال فَالْحامِلاتِ وِقْراً السحاب ، لأنها تحمل المطر . وقرئ : وقراً ، بفتح الواو على تسمية المحمول بالمصدر . أو على إيقاعه موقع حملا فَالْجارِياتِ يُسْراً الفلك .

ومعنى يُسْراً : جريا ذا يسر ، أى ذا سهولة فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً الملائكة ، لأنها تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها . أو تفعل التقسيم مأمورة بذلك . وعن مجاهد : تتولى تقسيم أمر العباد : جبريل للغلظة ، وميكائيل للرحمة . وملك الموت لقبض الأرواح ، وإسرافيل للنفخ .

وعن علىّ رضى اللّه عنه أنه قال وهو على المنبر : سلوني قبل أن لا تسألونى ، ولن تسألوا بعدي مثلي ، فقام ابن الكوّاء فقال : ما الذاريات ذروا ؟ قال : الرياح . قال : فالحاملات وقرا ؟

قال السحاب . قال : فالجاريات يسرا ؟ قال : الفلك . قال فالمقسمات أمرا ؟ قال : الملائكة «1» وكذا عن ابن عباس . وعن الحسن فَالْمُقَسِّماتِ السحاب ، يقسم اللّه بها أرزاق العباد ، وقد حملت على الكواكب السبعة ، ويجوز أن يراد : الرياح لا غير ، لأنها تنشئ السحاب وتقله وتصرفه ، وتجرى في الجوّ جريا سهلا ، وتقسم الأمطار بتصريف

السحاب. فإن قلت: ما معنى الفاء على التفسيرين؟

قلت: أمّا على الأوّل فمعنى التعقيب فيها أنه تعالى أقسم بالرياح، فبالسحاب الذي تسوقه، فبالفلك التي تجريها بهبوبها، فبالملائكة التي تقسم الأرزاق بإذن اللّه من الأمطار وتجارات البحر ومنافعه. وأمّا على الثاني، فلأنها تبتدئ بالهبوب «2»، فتذرو التراب والحصباء، فتنقل السحاب، فتجرى في الجوّ باسطة له فتقسم المطر إِنَّ ما تُوعَدُونَ جواب القسم، وما موصولة أو مصدرية، والموعود: البعث. ووعد صادق: كعيشة راضية. والدين: الجزاء، والواقع: الحاصل.

[سورة الذاريات (51): الآيات 7 إلى 9]

وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9)

الْحُبُكِ الطرائق، مثل حبك الرمل والماء: إذا ضربته الريح، وكذلك حبك الشعر: آثار تثنيه وتكسره. قال زهير:

مكلّل بأصول النّجم تنسجه ريح خريق لضاحى مائه حبك «3»

---

(1). أخرجه الحاكم والطبري. وغيرهما من رواية أبى الطفيل قال: رأيت على بن أبى طالب رضى اللّه عنه على المنبر فذكره وزاد فيه: قال «فمن الذين بدلوا نعمة اللّه كفرا؟ قال: هم منافقو قريش» وفي الباب عن عمر مرفوعا أخرجه البزار، وفيه قصة منبع، وقال ابن أبى سيرة: لين الحديث، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث اه ولم ينفرد

به سعيد فقد رواه ابن مردويه من طريق عبيد بن موسى عن أبى سبرة أيضا .

(2) . قوله «فلأنها تبتدئ بالهبوب» لعله : فإنها . (ع)

(3) حتى استغاثت بماء لا رشاء له من الأباطح في حافاته البرك

مكلل بأصول النجم تنسجه ريح خريق لضاحى مائه حبك

كما استغاث بسيء فز غيطلة خاف العيون ولم ينظر به الحشك

لزهير : يصف قطاة فرت من صفر حتى استغاثت منه بماء قريب لا رشاء له ، أى : لا حبل يستقى به منه لعدم احتياجه إليه من الأباطح ، أى : في الأمكنة المتسعة المستوية ، فان أراد من الماء مكانه ، فمن بيانية ، في حاماته أى جوانبه البرك جمع بركة ، كرطب ورطبة نوع من طير الماء يكلل ذلك الماء بأصول النجم ، أى : النبات الذي لا ساق له . وروى بعميم النجم ، أى : طويله ، تنسجه : أى تثنيه تثنيا منتظما كالنسج ، فهو استعارة مصرحة .

والخريق – بالقاف – : الباردة والشديدة السير . والضاحي : الظاهر . والحبك : الطريق في وجه الماء إذا ضربته الريح ، جمع حباك أو حبيكة . والسيئ بالفتح وبالكسر : اللبن في طرف الثدي . والفز : ولد البقرة الوحشية .

والغيطلة : الشجر الملتف ، فاضافة الفز إليها لأنه فيها . وقيل : هي البقرة الوحشية .

والعيون هنا : رقباء الصيد وجواسيسه . وحشكت الدرة باللبن حشكا وحشوكا :

امتلأت به . وحرك الحشك هنا للضرورة ، أى : لم ينتظر به امتلاء الدرة ، ولعمري نعمت هذه الاستغاثة . وفيه دلالة على أنها كانت ظمآنة .

(125/727)

والدرع محبوكة : لأنّ حلقها مطرق طرائق . ويقال : إنّ خلقة السماء كذلك . وعن الحسن :

حبكها نجومها . والمعنى : أنها تزينها كما تزين الموشى طرائق الوشي . وقيل : حبكها صفاقتها وإحكامها ، من قولهم : فرس محبوك المعاقم ، «1» أى محكمها . وإذا أجاد الحائك الحياكة قالوا :

ما أحسن حبكه ، وهو جمع حباك ، كمثال ومثل . أو حبيكة ، كطريقة وطرق . وقرئ : الحبك ، بوزن القفل . والحبك ، بوزن السلك . والحبك ، بوزن الجبل . والحبك بوزن البرق . والحبك بوزن النعم . والحبك بوزن الإبل إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ قولهم في الرسول : ساحر وشاعر ومجنون ، وفي القرآن : شعر وسحر وأساطير الأولين . وعن الضحاك : قول الكفرة لا يكون مستويا ، إنما هو متناقض مختلف . وعن قتادة : منكم مصدّق ومكذب ، ومقرّ ومنكر يُؤْفَكُ عَنْهُ الضمير للقرآن أو للرسول ، أى : يصرف عنه ، من صرف الصرف

الذي لا صرف أشد منه «2» وأعظم ، كقوله : لا يهلك على اللّه إلا هالك . وقيل : يصرف عنه من صرف في سابق علم اللّه ، أى : علم فيما لم يزل أنه مأفوك عن الحق لا يرعوى . ويجوز أن يكون الضمير لما توعدون أو للدين : أقسم بالذاريات على أن وقوع أمر القيامة حق ، ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه ، فمنهم شاك ، ومنهم جاحد . ثم قال : يؤفك عن الإقرار بأمر القيامة من هو المأفوك . ووجه آخر : وهو أن يرجع الضمير إلى قول مختلف وعن مثله في قوله :

ينهون عن أكل وعن شرب «3»

أى : يتناهون في السمن بسبب الأكل والشرب . وحقيقته : يصدر تناهيهم في السمن عنهما ،

---

(1) . قوله «فرس محبوك المعاقم» في الصحاح : المعاقم من الخيل : المفاصل ، فالراسغ عند الحافر معقم ، والركبة معقم ، والعرقوب معقم . اه (ع)

(2) . قال محمود : «يصرف عنه من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه . . . الخ» قال أحمد : إنما أفاد هذا النظم المعنى الذي ذكر من قبل أنك إذا قلت : يصرف عنه من صرف ، علم السامع أن قولك يصرف عنه يغنى عن قولك من صرف ، لأنه بمجرده كالتكرار للأول ، لولا ما يستشعر فيه من فائدة تأبى جعله تكرارا ، وتلك الفائدة أنك لما خصصت هذا بأنه هو الذي صرف ، أفهم أن غيره لم يصرف ، فكأنك قلت : لا يثبت

الصرف في الحقيقة إلا لهذا ، وكل صرف دونه فكلا صرف بالنسبة إليه ، والله تعالى أعلم .

(3) ينهون عن أكل وعن شرب مثل المها يرتعن في خصب

يقال : نهي الجمل فهو ناه ، إذا فرط في السمن . والمها : جمع مهاة وهي البقرة الوحشية . ويقال : أخصب المكان فهو مخصب ، وأخصبه الله . وخصب خصبا ، كتعب تعبا ، وعلم علما : إذا كثر كلأه ونباته . يصف أضيافا بأنهم يصدر تناهيهم وسمنهم عن الأكل والشرب . وشبههم بالمها اللاتي يرتعن في الكلأ ، فالخصب في الأصل : مصدر سمى به الكلأ .

(126/727)

وكذلك يصدر إفكهم عن القول المختلف . وقرأ سعيد بن جبير : يؤفك عنه من أفك ، على البناء للفاعل . أي : من أفك الناس عنه وهم قريش ، وذلك أنّ الحي كانوا يبعثون الرجل ذا العقل والرأي ليسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون له : احذره ، فيرجع فيخبرهم .

وعن زيد بن علي : يأفك عنه من أفك ، أي : يصرف الناس عنه من هو مأفوك في نفسه .

وعنه أيضا : يأفك عنه من أفك ، أى : يصرف الناس عنه من هو أفاك كذاب . وقرئ : يؤفن عنه من أفن ، أى : يحرمه من حرم ، من أفن الضرع إذا نهكه حلبا .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 10 إلى 14]

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ (11) يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14)

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ دعاء عليهم ، كقوله تعالى قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ وأصله الدعاء بالقتل والهلاك ، ثم جرى مجرى : لعن وقبح . والخرّاصون : الكذابون المقدرون ما لا يصح ، وهم أصحاب القول المختلف ، واللام إشارة إليهم ، كأنه قيل : قتل هؤلاء الخراصون . وقرئ : قتل الخراصين ، أى : قتل اللّه فِي غَمْرَةٍ في جهل يغمرهم ساهُونَ غافلون عما أمروا به يَسْئَلُونَ فيقولون أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ أى متى يوم الجزاء . وقرئ بكسر الهمزة وهي لغة .

فإن قلت : كيف وقع أيان ظرفا لليوم ، وإنما تقع الأحيان ظروفا للحدثان ؟ قلت : معناه : أيان وقوع يوم الدين . فإن قلت : فبم انتصب اليوم الواقع في الجواب ؟ قلت : بفعل مضمر دل عليه السؤال ، أى : يقع يوم هم على النار يفتنون . ويجوز أن يكون مفتوحا لإضافته إلى غير متمكن وهي الجملة . فإن قلت : فما محله مفتوحا ؟ قلت : يجوز أن يكون محله نصبا بالمضمر الذي هو يقع ، ورفعا على هو يوم هم على النار يفتنون . وقرأ ابن أبى عيلة بالرفع يُفْتَنُونَ يحرقون ويعذبون . ومنه الفتين : وهي الحرّة ، لأن حجارتها كأنها محرقة ذُوقُوا

فِتْنَتَكُمْ في محل الحال ، أى : مقولا لهم هذا القول هذَا مبتدأ ، والَّذِي خبره ، أى : هذا العذاب هو الذي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ويجوز أن يكون هذا بدلا من فتنتكم ، أى : ذوقوا هذا العذاب .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 15 إلى 19]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19)

(127/727)

آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ قابلين لكل ما أعطاهم راضين به ، يعنى أنه ليس فيما آتاهم إلا ما هو متلقى بالقبول مرضى غير مسخوط ، لأن جميعه حسن طيب . ومنه قوله تعالى وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ أى يقبلها ويرضاها مُحْسِنِينَ قد أحسنوا أعمالهم ، وتفسير إحسانهم ما بعده ما مزيدة . والمعنى : كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل إن جعلت قليلا ظرفا ، ولك أن تجعله صفة للمصدر ، أى : كانوا يهجعون هجوعا قليلا . ويجوز أن تكون ما مصدرية أو موصولة ، على : كانوا قليلا من الليل هجوعهم ، أو ما يهجعون فيه . وارتفاعه بقليلا على

الفاعلية «1» . وفيه مبالغات لفظ الهجوع ، وهو الفرار من النوم «2» . قال :

قد حصت البيضة رأسى فما أطعم نوما غير تهجاع «3»

وقوله قَلِيلًا وَمِنَ اللَّيْلِ لأن الليل وقت السبات والراحة ، وزيادة ما المؤكدة لذلك :

---

(1) . ذكر الزمخشري فيه وجهين أن تكون ما زائدة وقليلا ظرف منتصب بيهجعون ، أى : كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل . أو تكون ما مصدرية أو موصولة على : كانوا قليلا من الليل هجوعهم . أو ما يهجعون فيه ، وارتفاعه بقليلا على الفاعلية» قال أحمد : وجوه مستقيمة خلا جعل ما مصدرية ، فان قليلا حينئذ واقع على الهجوع ، لأنه فاعله . وقوله مِنَ اللَّيْلِ لا يستقيم أن يكون صفة للقليل ولا بيانا له ، ولا يستقيم أن يكون «من» صلة المصدر لأنه تقدم عليه ، ولا كذلك على أنها موصولة ، فان قليلا حينئذ واقع على الليل ، كأنه قال : قليلا المقدار الذي كانوا يهجعون فيه من الليل ، فلا مانع أن يكون مِنَ اللَّيْلِ بيانا للقليل على هذا الوجه ، وهذا الذي ذكره إنما تبع فيه الزجاج . وقد رد الزمخشري أن تكون ما نفيا وقليلا منصوب بيهجعون على تقدير : كانوا ما يهجعون قليلا من الليل ، وأسند رده إلى امتناع تقدم ما في حيز النفي عليه . قلت : وفيه خلل من حيث المعنى ، فان طلب قيام جميع الليل غير مستثنى منه الهجوع وإن قل غير ثابت في الشرع ولا معهود . ثم قال : وصفهم بأنهم يحيون الليل متهجدين ، فإذا اسحروا شرعوا في الاستغفار . كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم . قال : وقوله هُمْ معناه : هم الأحقاء بالاستغفار دون المصرين . قال : وفي

الآية مبالغات منها لفظ الهجوع وهو الخفيف الفرار من النوم .

قال : وقوله : قَلِيلًا وقوله مِنَ اللَّيْلِ لأنه وقت السبات . قال : ومنها زيادة ما في بعض الوجوه . قلت : وفي عدها من المبالغة نظر ، فإنها تؤكد الهجوع وتحققه ، إلا أن يجعلها بمعنى القلة فيحتمل .

(2) . قوله «و هو الفرار من النوم» في الصحاح : الفرار بالكسر : النوم القليل اه . (ع)

(3) قد حصت البيضة رأسى فما أطعم نوما غير تهجاع

أسعى على جل بنى مالك كل امرئ في شأنه ساع

لقيس بن الأسلت . وحصت : أهلكت أو حلقت ، البيضة التي تلبس على الرأس في الحرب ، أى حلقت شعر رأسى من دوام لبسها للحرب . وشبه النوم بالمطعوم لاستلذاذ مباديه على طريق المكنية ، وأطعم : أى أتناول تخييل لذلك والتهجاع : التغافل قليلا لطرد النوم ، فالاستثناء منقطع . وجلهم : مهم أمورهم ومعظمها كالغارات يدفعها عنهم . وروى : على حبل بنى مالك ، وعليه فشبه العهد بالحبل للتوثق والتوصل بكل على طريق التصريحية ، أى : أسعى في شأنى متمسكا بعهدهم ، وعلى الأول فقوله «كل امرى في شأنه ساع» فيه دلالة على إلزام نفسه بشأنهم ، وأنه شأنه

وصفهم بأنهم يحيون الليل متهجدين ، فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار ، كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم . وقوله هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ فيه أنهم هم المستغفرون الأحقاء بالاستغفار دون المصرين ، فكأنهم المختصون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه . فإن قلت : هل يجوز أن تكون ما نافية كما قال بعضهم ، وأن يكون المعنى : أنهم لا يهجعون من الليل قليلا ، ويحيونه كله ؟ قلت : لا ، لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها . تقول : زيدا لم أضرب ، ولا تقول . زيدا ما ضربت :

السائل : الذي يستجدى وَالْمَحْرُومِ الذي يحسب غنيا فيحرم الصدقة لتعففه . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «ليس المسكين الذي تردّه الأكلة والأكلتان واللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان» قالوا : فما هو ؟ قال «الذي لا يجد ولا يتصدق عليه» «1» وقيل : الذي لا ينمى له مال . وقيل : المحارف «2» الذي لا يكاد يكسب .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 20 إلى 21]

وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (21)

وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره حيث هي مدحوّة كالبساط لما فوقها كما قال الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وفيها المسالك والفجاج للمتقلبين فيها والماشين في مناكبها ، وهي مجزأة : فمن سهل وجبل وبر وبحر : وقطع متجاورات : من

صلبة ورخوة ، وعذاة «3» وسبخة ، وهي كالطروقة تلقح بألوان النبات وأنواع الأشجار بالثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح تسقى بماء واحد وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ وكلها موافقة لحوائج ساكنيها ومنافعهم ومصالحهم في صحتهم واعتلالهم ، وما فيها من العيون المتفجرة والمعادن المفتنة والدواب المنبثة في برها وبحرها المختلفة الصور والأشكال والأفعال : من الوحشي والإنسي والهوام ، وغير ذلك لِلْمُوقِنِينَ الموحدين الذين سلكوا الطريق السوي البرهاني الموصل إلى المعرفة ، فهم نظارون بعيون باصرة وأفهام نافذة ، كلما رأوا آية عرفوا وجه تأملها ، فازدادوا إيمانا مع إيمانهم ، وإيقانا إلى إيقانهم وَفِي أَنْفُسِكُمْ في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق : ما تتحير فيه الأذهان ، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وخصت به من أصناف المعاني ، وبالألسن ، والنطق ، ومخارج الحروف ، وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها : من الآيات الساطعة والبينات القاطعة على حكمة المدبر ، دع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح وتأتيها لما خلقت له ، وما سوّى في الأعضاء

---

(1) . أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

(2) . قوله «وقيل المحارف» في الصحاح : رجل محارف ، بفتح الراء : أى محدود محروم ، خلاف قولك :

مبارك اه . (ع)

(3) . قوله «و عذاة» في الصحاح «العذاة» : الأرض الطيبة التربة ، والجمع عذوات .

(ع)

(129/727)

من المفاصل للانعطاف والتثني ، فإنه إذا جسا «1» شيء منها جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذل ، فتبارك اللّه أحسن الخالقين .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 22 إلى 23]

وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23)

وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ هو المطر ، لأنه سبب الأقوات . وعن سعيد بن جبير : هو الثلج وكل عين دائمة منه . وعن الحسن : أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه واللّه رزقكم ، ولكنكم تحرمونه لخطاياكم وَما تُوعَدُونَ الجنة : هي على ظهر السماء السابعة تحت العرش .

أو أراد : أن ما ترزقونه في الدنيا وما توعدون به في العقبى كله مقدر مكتوب في السماء .

قرئ :

مثل ما بالرفع صفة للحق ، أى حق مثل نطقكم ، وبالنصب على : إنه لحق حقا مثل نطقكم .

ويجوز أن يكون فتحا لإضافته إلى غير متمكن . وما مزيدة بنص الخليل ، وهذا كقول الناس :

إن هذا لحق ، كما أنك ترى وتسمع ، ومثل ما إنك هاهنا . وهذا الضمير إشارة إلى ما ذكر من أمر الآيات والرزق وأمر النبي صلى اللّه عليه وسلم ، أو إلى ما توعدون . وعن الأصمعى : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابى على قعود له فقال : من الرجل ؟ قلت : من بنى أصمع . قال :

من أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن . فقال : اتل علىّ ، فتلوت وَالذَّارِياتِ فلما بلغت قوله تعالى : وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ قال : حسبك ، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى ، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف ، فإذا أنا بمن يهتف بى بصوت دقيق ، فالتفت فإذا أنا بالأعرابى قد نحل واصفر ، فسلم علىّ واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية صاح وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، ثم قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت : فورب السماء والأرض إنه لحق ، فصاح وقال : يا سبحان اللّه ، من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف ، لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين ، قالها ثلاثا وخرجت معها نفسه .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 24 إلى 30]

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَلا تَأْكُلُونَ (27) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها وَقالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30)

---

(1) . قوله «إذا جسا شيء منها» في الصحاح: جست اليد وغيرها جسوا وجساء : يبست اه. (ع) [. . . . .]

(130/727)

هَلْ أَتاكَ تفخيم للحديث وتنبيه على أنه ليس من علم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وإنما عرفه بالوحي . والضيف للواحد والجماعة كالزور والصوم ، لأنه في الأصل مصدر ضافه ، وكانوا اثنى عشر ملكا . وقيل : تسعة عاشرهم جبريل . وقيل ثلاثة : جبريل ، وميكائيل ، وملك معهما . وجعلهم ضيفا ، لأنهم كانوا في صورة الضيف : حيث أضافهم إبراهيم . أو لأنهم كانوا في حسبانه كذلك . وإكرامهم : أنّ إبراهيم خدمهم بنفسه ،

وأخدمهم امرأته ، وعجل لهم القرى أو أنهم في أنفسهم مكرمون . قال اللّه تعالى بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ . إِذْ دَخَلُوا نصب بالمكرمين إذا فسر بإكرام إبراهيم لهم ، وإلا فبما في ضيف من معنى الفعل . أو بإضمار اذكر سَلاماً مصدر سادّ مسدّ الفعل مستغنى به عنه . وأصله : نسلم عليكم سلام ، وأمّا سَلامٌ فمعدول به إلى الرفع على الابتداء . وخبره محذوف ، معناه : عليكم سلام ، للدلالة على ثبات السلام ، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به ، أخذا بأدب اللّه تعالى . وهذا أيضا من إكرامه لهم .

وقرئا مرفوعين . وقرئ : سلاما قال سلما . والسلم : السلام . وقرئ : سلاما قال سلم قَوْمٌ مُنْكَرُونَ أنكرهم للسلام الذي هو علم الإسلام . أو أراد : أنهم ليسوا من معارفه أو من جنس الناس الذين عهدهم ، كما لو أبصر العرب قوما من الخزر «1» أو رأى لهم حالا وشكلا خلاف حال الناس وشكلهم ، أو كان هذا سؤالا لهم ، كأنه قال : أنتم قوم منكرون ، فعرفوني من أنتم فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فذهب إليهم في خفية من ضيوفه ، ومن أدب المضيف أن يخفى أمره «2» ، وأن يباده بالقرى من غير أن يشعر به الضيف ، حذرا من أن يكفه ويعذره . قال قتادة :

كان عامة مال نبى اللّه إبراهيم : البقر فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . والهمزة في أَلا تَأْكُلُونَ للإنكار : أنكر عليهم ترك الأكل . أو حثهم عليه فَأَوْجَسَ فأضمر . وإنما خافهم لأنهم لم يتحرّموا بطعامه «3»

---

(1) . قوله «قوما من الخزر» في الصحاح : الخزر : جيل من الناس . والأخزر : ضيق العين صغيرها ، كما أفاده الصحاح . (ع)

(2) . قال محمود : «فيه إشارة لاختفائه من ضيوفه ، ومن أدب المضيف أن يخفى أمره . . . الخ» قال أحمد :

معنى حسن ، وقد نقل أبو عبيد أنه لا يقال : راغ إلا إذا ذهب على خفية . ونقل أبو عبيد في قوله عليه السلام :

«إذا كفى أحدكم خادمه حر طعامه فليقعده معه ، وإلا فليروغ له لقمة» قال أبو عبيد : يقال روغ اللقمة وسغبلها وسغسغها ومرغها : إذا غمسها فرويت سمنا قلت : وهو من هذا المعنى ، لأنها تذهب مغموسة في السمن حتى تخفى ومن مقلوبه : غور الأرض والجرح وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى ، والله أعلم .

(3) . قوله «لأنهم لم يتحرموا بطعامه» في الصحاح «الحرمة» : ما لا يحل انتهاكه ، وقد تحرم بصحبته اه .

وهو يفيد أن التحرم مراعاة الحرمة ، من حيث لا يحل انتهاكها . (ع)

(131/727)

فظن أنهم يريدون به سوءا . وعن ابن عباس : وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب . وعن عون بن شداد : مسح جبريل العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمّه بِغُلامٍ عَلِيمٍ أى يبلغ ويعلم . وعن الحسن : عليم : نبىّ ، والمبشر به إسحاق ، وهو أكثر الأقاويل وأصحها ، لأن الصفة صفة سارّة لا هاجر ، وهي امرأة إبراهيم وهو بعلها . وعن مجاهد : هو إسماعيل فِي صَرَّةٍ في صيحة ، من : صر الجندب ، وصرّ القلم والباب ، ومحله النصب على الحال ، أى : فجاءت صارّة . قال الحسن : أقبلت إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم ، لأنها وجدت حرارة الدم فلطمت وجهها من الحياء ، وقيل : فأخذت في صرة ، كما تقول : أقبل يشتمني .

وقيل : صرتها قولها : أوه . وقيل : يا ويلتا . وعن عكرمة : رنتها «1» فَصَكَّتْ فلطمت ببسط يديها . وقيل : فضربت بأطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب عَجُوزٌ أنا عجوز ، فكيف ألد كَذلِكَ مثل ذلك الذي قلنا وأخبرنا به قالَ رَبُّكِ أى إنما نخبرك عن اللّه ، واللّه قادر على ما تستبعدين . وروى أنّ جبريل قال لها : انظري إلى سقف بيتك ، فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 31 إلى 37]

قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35)

فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) وَتَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ (37)

لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون إلا بإذن اللّه رسلا في بعض الأمور قال فَما خَطْبُكُمْ أى : فما شأنكم وما طلبكم إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ إلى قوم لوط حِجارَةً مِنْ طِينٍ يريد : السجيل ، وهو طين طبخ كما يطبخ الآجر ، حتى صار في صلابة الحجارة مُسَوَّمَةً معلمة ، من السومة وهي العلامة على كل واحد منها اسم من يهلك به . وقيل : أعلمت بأنها من حجارة العذاب .

وقيل : بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا . سماهم مسرفين ، كما سماهم عادين ، لإسرافهم وعدوانهم في عملهم : حيث لم يقنعوا بما أبيح لهم . الضمير في فِيها للقرية ، ولم يجر لها ذكر لكونها معلومة . وفيه دليل على أنّ الإيمان والإسلام واحد ، وأنهما صفتا مدح . قيل :

هم لوط وابنتاه . وقيل : كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر . وعن قتادة : لو كان فيها

---

(1) . قوله «رنتها» في الصحاح «الرنة» الصوت : ، يقال : رفت المرأة رنينا وأرنت أيضا : صاحت . (ع)

أكثر من ذلك لأنجاهم ، ليعلموا أن الإيمان محفوظ لا ضيعة على أهله عند اللّه آيةً علامة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم . قال ابن جريج : هي صخر منضود فيها . وقيل : ماء أسود منتن .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 38 إلى 40]

وَفِي مُوسى إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (38) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39) فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40)

وَفِي مُوسى عطف على وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ أو على قوله وَتَرَكْنا فِيها آيَةً على معنى : وجعلنا في موسى آية كقوله :

علفتها تبنا وماء باردا

فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ فازورّ وأعرض ، كقوله تعالى وَنَأى بِجانِبِهِ وقيل : فتولى بما كان يتقوّى به من جنوده وملكه . وقرئ : بركنه ، بضم الكاف وَقالَ ساحِرٌ أى هو ساحر لِيمٌ آت بما يلام عليه من كفره وعناده ، والجملة مع الواو حال من الضمير في فأخذناه .

فإن قلت : كيف وصف نبى اللّه يونس صلوات اللّه عليه بما وصف به فرعون في قوله تعالى

فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ؟ قلت: موجبات اللوم تختلف وعلى حسب اختلافها تختلف مقادير اللوم، فراكب الكبيرة ملوم على مقدارها، وكذلك مقترف الصغيرة. ألا ترى إلى قوله تعالى وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ لأنّ الكبيرة والصغيرة يجمعهما اسم العصيان، كما يجمعهما اسم القبيح والسيئة.

[سورة الذاريات (51): الآيات 41 إلى 42]

وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (42)

الْعَقِيمَ التي لا خير فيها من إنشاء مطر أو إلقاح شجر، وهي ريح الهلاك. واختلف فيها: فعن على رضى اللّه عنه: النكباء. وعن ابن عباس: الدبور. وعن ابن المسيب: الجنوب.

الرميم: كل ما رم أى بلى وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك.

[سورة الذاريات (51): الآيات 43 إلى 45]

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44) فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ وَما كانُوا مُنْتَصِرِينَ (45)

حَتَّى حِينٍ تفسيره قوله تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ . فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فاستكبروا عن امتثاله . وقرئ : الصعقة وهي المرّة ، من مصدر صعقتهم الصاعقة : والصاعقة النازلة نفسها وَهُمْ يَنْظُرُونَ كانت نهارا يعاينونها . وروى أن العمالقة كانوا معهم في الوادي ينظرون إليهم وما ضرّتهم فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ كقوله تعالى فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ وقيل : هو من قولهم : ما يقوم به ، إذا عجز عن دفعه مُنْتَصِرِينَ ممتنعين من العذاب .

[سورة الذاريات (51) : آية 46]

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (46)

وَقَوْمَ قرئ بالجر على معنى : وفي قوم نوح وتقوّيه قراءة عبد اللّه : وفي قوم نوح . وبالنصب على معنى : وأهلكنا قوم نوح ، لأنّ ما قبله يدل عليه . أو واذكر قوم نوح .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 47 إلى 48]

وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) وَالْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ (48)

بِأَيْدٍ بقوّة . والأيد والآد : القوّة . وقد آد يئيد وهو أيد وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ لقادرون ، من الوسع وهو الطاقة . والموسع : القوى على الإنفاق . وعن الحسن : لموسعون الرزق بالمطر . وقيل : جعلنا بينها وبين الأرض سعة فَنِعْمَ الْماهِدُونَ فنعم الماهدون نحن .

[سورة الذاريات (51) : آية 49]

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49)

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ أى من كل شيء من الحيوان خَلَقْنا زَوْجَيْنِ ذكرا وأنثى. وعن الحسن: السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبر والبحر، والموت والحياة، فعدّد أشياء وقال: كل اثنين منها زوج، واللّه تعالى فرد لا مثل له لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أى فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج إرادة أن تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه.

[سورة الذاريات (51): الآيات 50 إلى 51]

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (51)

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ أى إلى طاعته وثوابه «1» من معصيته وعقابه، ووحدوه ولا تشركوا به

---

(1). قال محمود: «معنى ففروا إلى اللّه، أى: إلى طاعته من معصيته وإلى ثوابه... الخ» قال أحمد:

حمل الآية ما لم تحمله، لأنه لا يكاد يخلى سورة حتى يدس في تفسيرها بيده إلى معتقده، فدس ها هنا القطع بوعيد الفساق وبخلودهم كالكفار، ولا تحتمل الآية لما ذكر، فان العناية في قوله فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ الفرار إلى عبادة اللّه فتوعد من لم يعبد اللّه، ثم نهي عابده أن يشرك بعبادة ربه غيره، وتوعده على ذلك. وفائدة تكرار النذارة الدلالة على أنه لا تنفع العبادة

مع الاشراك ، بل حكم المشرك حكم الجاحد المعطل ، لا كما قال الزمخشري : المأمور به في الأول الطاعة الموظفة بعد الايمان ، فتوعد تاركها بالوعيد المعروف له وهو الخلود . وعلى هذا لا يكون تكرارا على اختلاف الوعيدين ، فهو أولى ، فكيف يحمل الآية على خلاف ما هو أولى بها ، ليتم الاستدلال بها على معتقده الفاسد ، نعوذ باللّه من ذلك .

(134/727)

شيئا ، وكرّر قوله إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ عند الأمر بالطاعة والنهى عن الشرك ، ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل ، كما أنّ العمل لا ينفع إلا مع الإيمان ، وأنه لا يفوز عند اللّه إلا الجامع بينهما . ألا ترى إلى قوله تعالى لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً والمعنى : قل يا محمد : ففرّوا إلى اللّه .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 52 إلى 53]

كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52) أَتَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (53)

كَذلِكَ الأمر ، أى مثل ذلك ، وذلك إشارة إلى تكذيبهم الرسول وتسميته ساحرا ومجنونا ، ثم فسر ما أجمل بقوله ما أَتَى ولا يصح أن تكون الكاف منصوبة بأتى ، لأنّ ما النافية لا يعمل

ما بعدها فيما قبلها . ولو قيل : لم يأت ، لكان صحيحا ، على معنى : مثل ذلك الإتيان لم يأت من قبلهم رسول إلا قالوا أَتَواصَوْا بِهِ الضمير للقول ، يعنى : أتواصى الأوّلون والآخرون بهذا القول حتى قالوه جميعا متفقين عليه بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ أى لم يتواصوا به لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد ، بل جمعتهم العلة الواحدة وهي الطغيان ، والطغيان هو الحامل عليه .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 54 إلى 55]

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ (54) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55)

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فأعرض عن الذين كرّرت عليهم الدعوة فلم يجيبوا ، وعرفت عنهم العناد واللجاج ، فلا لوم عليك في إعراضك بعد ما بلغت الرسالة وبذلت مجهودك في البلاغ والدعوة ، ولا تدع التذكير والموعظة بأيام اللّه فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ أى تؤثر في الذين عرف اللّه منهم أنهم يدخلون في الإيمان . أو يزيد الداخلين فيه إيمانا . وروى أنه لما نزلت فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حزن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم واشتد ذلك على أصحابه ، ورأوا أنّ الوحى قد انقطع وأنّ العذاب قد حضر ، فأنزل اللّه . وذكر .

[سورة الذاريات (51) : آية 56]

وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)

أى : وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة ، ولم أرد من جميعهم إلا إياها «1» . فإن قلت : لو كان مريدا «2» للعبادة منهم لكانوا كلهم عبادا ؟ قلت : إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها ، لأنه خلقهم ممكنين ، فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدا لها ، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 57 إلى 58]

ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)

يريد : أنّ شأنى مع عبادي ليس كشأن السادة مع عبيدهم ، فإنّ ملاك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وأرزاقهم ، فإمّا مجهز في تجارة ليفي ربحا . أو مرتب في فلاحة ليعتلّ أرضا . أو مسلم في حرفة لينتفع بأجرته . أو محتطب . أو محتش . أو طابخ . أو خابز ، وما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التي هي تصرف في أسباب المعيشة وأبواب الرزق ، فأمّا مالك ملك العبيد وقال لهم : اشتغلوا بما يسعدكم في أنفسكم ، ولا أريد أن أصرفكم في تحصيل رزقي ولا رزقكم ، وأنا غنىّ عنكم وعن مرافقكم ، ومتفضل عليكم برزقكم وبما يصلحكم ويعيشكم من عندي ، فما هو إلا أنا وحدي الْمَتِينُ الشديد القوة . قرئ بالرفع صفة لذو ، وبالجر صفة للقوّة على تأويل الاقتدار ، والمعنى في وصفه بالقوة والمتانة : أنه القادر البليغ الاقتدار على كل شيء . وقرئ :

الرازق . وفي قراءة النبي صلى اللّه عليه وسلم : إنى أنا الرازق .

---

(1) . قال محمود : «إلا لأجل العبادة ، ولم أرد من جميعهم إلا إياها . . . الخ» قال أحمد : من عاداته أنه إذا استشعر أن ظاهرا موافق لمعتقده نزله على مذهبه بصورة إيراد معتقد أهل السنة سؤالا ، وإيراد معتقده جوابا ، فكذلك صنع هاهنا ، فنقول : السؤال الذي أورده مما لا يجاب عنه بما ذكره ، فانه سؤال مقدماته قطعية عقلية ، فيجب تنزيل الآية عليه ، وهي أن ظاهر سياق الآية دليل لأهل السنة ، فإنها إنما سيقت لبيان عظمته عز وجل ، وأن شأنه مع عبيده لا يقاس به شأن عبيد الخلق معهم ، فان عبيدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسادة ، وبواسطة مكاسب عبيدهم قدر أرزاقهم . واللّه تعالى لا يطلب من عباده رزقا ولا إطعاما ، وإنما يطلب منهم عبادته لا غير ، وزائد على كونه لا يطلب منهم رزقا أنه هو الذي يرزقهم ، فهذا المعنى الشريف هو الذي تحلى تحت راية هذه الآية ، وله سيقت ، وبه نطقت ، ولكن الهوى يعمى ويصم ، فحاصله : وما خلقت الجن والانس إلا لأدعوهم إلى عبادتي ، وهذا ما لا يعدل عنه أهل السنة ، فانه وافق معتقدهم وباللّه التوفيق .

(2) . قوله «لو كان مريدا العبادة» قد يقال : لا يلزم من خلقهم العبادة أن يريدها من جميعهم . وقوله «مع كونه مريدا لها» هذا على مذهب المعتزلة من أن إرادة اللّه الفعل من

العبد بمعنى الأمر . وأما مذهب أهل السنة فكل ما أراده اللّه كان ، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد ، وتحقيقه في علم التوحيد . (ع)

(136/727)

[سورة الذاريات (51) : الآيات 59 إلى 60]

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (59) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (60)

الذنوب : الدلو العظيمة ، وهذا تمثيل ، أصله في السقاة يتقسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب . قال :

لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب «1»

ولما قال عمرو بن شاس :

وفي كل حى قد خبطت بنعمة فحقّ لشاس من نداك ذنوب «2»

قال الملك : نعم وأذنبه . والمعنى : فإنّ الذين ظلموا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالتكذيب من أهل مكة لهم نصيب من عذاب اللّه مثل نصيب أصحابهم ونظرائهم من القرون . وعن قتادة :

سجلا من عذاب اللّه مثل سجل أصحابهم مِنْ يَوْمِهِمُ من يوم القيامة . وقيل : من يوم بدر . عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : من قرأ سورة والذاريات أعطاه اللّه عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت في الدنيا «3» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 407.394 ﴾

---

(1) إنا إذا شاربنا شريب له ذنوب ولنا ذنوب

فان أبى كان له القليب

الشريب من يشرب معك . والذنوب : الدلو الممتلئة ماء ، والنصيب من الماء . والذنابة : مسيل الماء . والقلب البئر لقلب ترابه . يقول : إنا كرام نشاطر شريبنا ، فان لم يرض بالمناوبة أعطيناه الجميع . وروى بدل المصراعين

الأخيرين : لنا ذنوب ولكم ذنوب فان أبيتم فلنا القليب

ولعل الصواب : فان أبى أو فان أبيتم فلنا ، لئلا ينكر البيت . والمعنى : نقول لمن يشرب معنا ذلك ، ففيه دلالة على الشجاعة والغلبة . والشريب كالعشير : يطلق على الواحد والمتعدد .

(2) وأفت الذي آثاره في عدوه من البؤس والنعمى لهن ندوب

وفي كل حى قد خبطت بنعمة فحق لشاس من نداك ذنوب

لشاس أخى علقمة بن عبيدة ، يخاطب الحرث بن أبى شمر الغساني وكان أسيرا عنده .

والندوب - في الأصل - :

آثار الجراح بعد برئها . ومن بيانية ، أى : آثاره التي هي البؤس والنعمى . أو ابتدائية ، أى : الناشئة منهما ، لهن بقايا في عدوه . والبؤس : الشدة ، والنعمى : الرخاء . والخابط : الذي يخبط مواضع الفقراء يتفقد أحوالهم من غير تخصيص ، ثم قيل لكل طالب : خابط ومختبط . ويجوز أن يكون من قولهم : خبط الشجرة ، ليسقط ورقها للإبل والغنم فاستعار في نفسه الورق للأموال ، والخبط تخييل والمعنى أنه شجاع كريم ، بأسه أوهن الأعداء ونعمته ظهرت عليهم بل على جميع الناس وشاس من وضع الظاهر موضع المضمر لإظهار المسكنة والاستعطاف :

قيل : إن القائل عمرو بن شاس ، فوضع الظاهر في موضعه . ولما سمع الحرث ذلك قال : نعم وأذنبته ، وكسا شاسا ومن معه ، وأركبهم وأطلقهم ، ولما استعار الندى للعطاء رشح ذلك بالذنوب : وهو الدلو الممتلئة .

(3) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبى بن كعب رضى اللّه عنه .

(137/727)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً ﴾

الذاريات : الرياح ، واحدتها ذارية لأنها تذرو التراب والتبن أي تفرقه في الهواء ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ وفي قوله ﴿ ذَرْواً ﴾ وجهان :

أحدهما : مصدر .

الثاني : أنه بمعنى ما ذرت ، قاله الكلبي . فكأنما أقسم بالرياح وما ذرت الرياح .

ويحتمل قولاً ثالثاً : أن الذاريات النساء الولودات لأن في ترائبهن ذرو الخلق ، لأنهن يذرين الأولاد فصرن ذاريات ، وأقسم بهن لما في ترائبهن من خيرة عباده الصالحين ، وخص النساء بذلك دون الرجال وإن كان كل واحد منهما ذارياً لأمرين .

أحدهما : لأنهن اوعية دون الرجال فلاجتماع الذروين خصصن بالذكر .

الثاني : أن الذرو فيهن أطول زماناً وهن بالمباشرة أقرب عهداً .

﴿ فَالْحَامِلاَتِ وِقْراً ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أنها السحب [يحملن] وِقْراً بالمطر .

الثاني أنها الرياح [يحملن] وِقْراً بالسحاب ، فتكون الريح الأولى مقدمة السحاب لأن أمام كل سحابة ريحاً ، والريح الثانية حاملة السحاب . لأن السحاب لا يستقل ولا يسير إلا بريح . وتكون الريح الثانية تابعة للريح الأولى من غير توسط ، قاله ابن بحر .

ويجري فيه احتمال قول :

ثالث : أنهن الحاملات من النساء إذا ثقلن بالحمل ، والوقر ثقل الحمل على ظهر أو في بطن ، وبالفتح ثقل الأذن .

﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً ﴾ فيها قولان :

أحدهما : السفن تجري بالريح يسراً إلى حيث سيرت .

الثاني : أنه السحاب ، وفي جريها يسراً على هذا القول وجهان :

أحدهما : إلى حيث يسيرها الله تعالى من البقاع والبلاد .

الثاني : هو سهولة تسييرها ، وذلك معروف عند العرب كما قال الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها . . . مشي السحابة ولا ريث لا عجل

﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه السحاب يقسم الله به الحظوظ بين الناس .

(138/727)

الثاني : الملائكة التي تقسم أمر الله في خلقه ، قاله الكلبي . وهم : جبريل وهو صاحب الوحي والغلظة ، وميكائيل وهو صاحب الرزق والرحمة ، وإسرافيل وهو صاحب

الصور واللوح ، وعزرائيل وهو ملك الموت وقابض الأرواح ، عليهم السلام .

والواو التي فيها واو القسم ، أقسم الله بها لما فيها من الآيات والمنافع .

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إن يوم القيامة لكائن ، قاله مجاهد .

الثاني : ما توعدون من الجزاء بالثواب والعقاب حق ، وهذا جواب القسم . ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ فيه وجهان : أحدهما : إن الحساب لواجب ، قاله مجاهد . الثاني : [أن] الدين الجزاء ومعناه أن جزاء أعمالكم بالثواب والعقاب لكائن ، وهو معنى قول قتادة ، ومنه قول لبيد .

قوم يدينون بالنوعين مثلهما . . . بالسوء سوء وبالإحسان إحسانا

﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ في السماء ها هنا وجهان :

أحدهما : أنها السحاب الذي يظل الأرض .

الثاني : وهو المشهور أنها السماء المرفوعة ، قال عبد الله بن عمر : هي السماء السابعة .

وفي ﴿ الْحُبُكِ ﴾ سبعة أقاويل :

أحدها : أن الحبك الاستواء ، وهو مروي عن ابن عباس على اختلاف .

الثاني : أنها الشدة ، وهو قول أبي صالح .

الثالث : الصفاقة ، قاله خصيف .

الرابع : أنها الطرق ، مأخوذ من حبك الحمام طرائق على جناحه ، قاله الأخفش ، وأبو عبيدة .

الخامس : أنه الحسن والزينة ، قاله علي وقتادة ومجاهد وسعيد بن جبير ومنه قول الراجز :

كأنما جللها الحواك . . . كنقشة في وشيها حباك

السادس : أنه مثل حبك الماء إذا ضربته الريح ، قاله الضحاك . قال زهير :

مكلل بأصول النجم تنسجه . . . ريح الشمال لضاحي مائة حبك

السابع : لأنها حبكت بالنجوم ، قاله الحسن . وهذا قسم ثان .

﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني في أمر مختلف ، فمطيع وعاص ، ومؤمن وكافر ، قاله السدي .

(139/727)

الثاني : أنه القرآن فمصدق له ومكذب به ، قاله قتادة .

الثالث : انهم أهل الشرك مختلف عليهم بالباطل ، قاله ابن جريج .

ويحتمل رابعاً : أنهم عبدة الأوثان والأصنام يقرون بأن الله خالقهم ويعبدون غيره . وهذا جواب القسم الثاني .

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : يضل عنه من ضل ، قاله ابن عباس .

الثاني : يصرف عنه من صرف ، قاله الحسن .

الثالث : يؤفن عنه من أفن ، قاله مجاهد ، والأفن فساد العقل .

الرابع : يخدع عنه من خدع ، قاله قطرب .

الخامس : يكذب فيه من كذب ، قاله مقاتل .

السادس : يدفع عنه من دفع ، قاله اليزيدي .

﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : لعن المرتابون ، قاله ابن عباس .

الثاني : لعن الكذابون ، قاله الحسن .

الثالث : أنهم أهل الظنون والفرية ، قاله قتادة .

الرابع : أنهم المنهمكون ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً .

وقوله : ﴿ قُتِلَ ﴾ ها هنا ، بمعنى لعن ، والقتل اللعن . وأما الخراصون فهو جمع خارص .

وفي الخرص ها هنا وجهان :

أحدهما : أنه تعمد الكذب ، قاله الأصم .

الثاني : ظن الكذب ، لأن الخرص حزر وظن ، ومنه أخذ خرص الثمار .

وفيما يخرصونه وجهان :

أحدهما : تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم .

الثاني : التكذيب بالبعث . وفي معنى الأربع تأويلات وقد تقدم ذكرها في أولها ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : في غفلة لاهون ، قاله ابن عباس .

الثاني : في ضلالاتهم متمادون ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً .

الثالث : في عمى وشبهة يترددون ، قاله قتادة .

ويحتمل رابعاً : الذين هم في مأثم المعاصي ساهون عن أداء الفرائض .

﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ أي متى يوم الجزاء . وقيل : إن أيان كلمة مركبة من أي وآن .

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ في ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : أي يعذبون ، قاله ابن عباس ، ومنه قول الشاعر :

(140/727)

كل امرىء من عباد الله مضطهد . . . ببطن مكة مقهور مفتون

الثاني : يطبخون ويحرقون ، كما يفتن الذهب بالنار ، وهو معنى قول عكرمة والضحاك .

الثالث : يكذبون توبيخاً وتقريعاً زيادة في عذابهم .

﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ الآية . فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معنى فتنتكم أي عذابكم ، قاله ابن زيد .

الثاني : حريقكم ، قاله مجاهد .

الثالث : تكذيبكم ، قاله ابن عباس .

﴿ ءَآخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من الفرائض ، قاله ابن عباس .

الثاني : من الثواب ، قاله الضحاك .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحسِنِينَ ﴾ أي قبل الفرائض محسنين بالإجابة ، قاله ابن عباس .

الثاني : قبل يوم القيامة محسنين بالفرائض ، قاله الضحاك .

﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : راجع على ما تقدم من قوله ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُواْ قَلِيلاً ﴾

بمعنى أن المحسنين كانوا قليلاً ، ثم استأنف : من الليل ما يهجعون ، قاله الضحاك .

الثاني : أنه خطاب مستأنف بعد تمام ما تقدمه ، ابتداؤه كانوا قليلاً ، الآية . والهجوع : النوم

، قال الشاعر :

أزالكم الوسمي أحدث روضه . . . بليل وأحداق الأنام هجوع

وفي تأويل ذلك أربعة أوجه :

أحدها ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ أي يستيقظون فيه فيصلون ولا ينامون إلا قليلاً ، قاله الحسن .

الثاني : أن منهم قليلاً ما يهجعون للصلاة في الليل وإن كان أكثرهم هجوعاً ، قاله الضحاك .

الثالث : أنهم كانوا في قليل من الليل ما يهجعون حتى يصلوا صلاة المغرب وعشاء الآخرة ، قاله أبو مالك .

الرابع : أنهم كانوا قليلاً يهجعون ، وما : صلة زائدة ، وهذا لما كان قيام الليل فرضاً . وكان أبو ذر يحتجن يأخذ العصا فيعتمد عليها حتى نزلت الرخصة ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وبالأسحار هم يصلون ، قاله الضحاك .

الثاني : أنهم كانوا يؤخرون الاستغفار من ذنوبهم إلى السحر ليستغفروا فيه ، قاله الحسن .

قال ابن زيد : وهو الوقت الذي أخر يعقوب الاستغفار لبنيه حتى استغفر لهم فيه حين قال لهم ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ [يوسف : 98] . قال ابن زيد : والسحر السدس

الأخير من الليل . وقيل إنما سمي سحراً لاشتباهه بين النور والظلمة .

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنها الزكاة ، قاله ابن سيرين وقتادة وابن أبي مريم .

الثاني : أنه حق سوى الزكاة تصل له رحماً أو تقري به ضيفاً أو تحمل به كلاًّ أو تغني به محروماً ، قاله ابن عباس .

﴿ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ أما السائل فهو مَن يسأل الناس لفاقته ، وأما المحروم ، ففيه ثمانية أقوال :

أحدها : المتعفف الذي يسأل الناس شيئاً ولا يعلم بحاجته ، قاله قتادة .

الثاني : أنه الذي يجيء بعد الغنيمة وليس له فيها سهم ، قاله الحسن ومحمد بن الحنفية .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية فأصابوا وغنموا ، فجاء قوم بعدما فرغوا فنزلت الآية .

الثالث : أنه من ليس له سهم في الإسلام ، قاله ابن عباس .

الرابع : المحارف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه ، وهذا قول عائشة .

الخامس : أنه الذي يطلب الدنيا وتدبر عنه ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً .

السادس : أنه المصاب بثمره وزرعه يعينه من لم يصب ، قاله ابن زيد :

السابع : أنه المملوك ، قاله عبد الرحمن بن حميد .

الثامن : أنه الكلب ، روي أن عمر بن عبد العزيز كان في طريق مكة فجاء كلب فاحتز عمر كتف شاة فرمى بها إليه وقال : يقولون إنه المحروم .

ويحتمل تاسعاً : أنه من وجبت نفقته من ذوي الأنساب لأنه قد حرم كسب نفسه ، حتى وجبت نفقته في مال غيره .

﴿ وَفِي الأَرْضِ ءَآيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ يعني عظات للمعتبرين من أهل اليقين وفيها وجهان :

(142/727)

أحدهما : ما فيها من الجبال والبحار والأنهار ، قاله مقاتل .

الثاني : من أهلك من الأمم السالفة وأباد من القرون الخالية ، قاله الكلبي .

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : أنه سبيل الغائط والبول ، قاله ابن الزبير ومجاهد .

الثاني : تسوية مفاصل أيديكم وأرجلكم وجوارحكم دليل على أنكم خلقتم لعبادته ، قاله قتادة .

الثالث : في خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، قاله ابن زيد .

الرابع : في حياتكم وموتكم وفيما يدخل ويخرج من طعامكم ، قاله السدي .

الخامس : في الكبر بعد الشباب ، والضعف بعد القوة ، والشيب بعد السواد ، قاله الحسن .

ويحتمل سادساً : أنه نجح العاجز وحرمان الحازم .

﴿ وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ : ﴿ وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : ما ينزل من السماء من مطر وثلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق فهو رزق لهم من السماء ، قاله سعيد بن جبير والضحاك .

الثاني : يعني أن من عند الله الذي في السماء رزقكم .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : وفي السماء تقدير رزقكم وما قسمه لكم مكتوب في أم الكتاب .

وأما قوله ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ففيه ثلاثة أوجه :

أحدها : من خير وشر ، قاله مجاهد .

الثاني : من جنة ونار ، قاله الضحاك .

الثالث : من أمر الساعة ، قاله الربيع .

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما جاء به الرسول من دين وبلغه من رسالة .

الثاني : ما عد الله عليهم في هذه السورة من آياته وذكره من عظاته . قال الحسن : بلغني أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قَاتَلَ اللَّهُ أَقْوَاماً أَقْسَمَ لَهُمْ رَبُّهُمْ [بِنَفْسِهِ] ثُمَّ لَمْ يُصَدِّقُوهُ " .

(143/727)

وقد كان قس بن ساعدة في جاهليته ينبه بعقله على هذه العبر فاتعظ واعتبر ، فروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " رَأَيْتُهُ عَلَى جَمَلٍ لَهُ بِعُكَاظَ وَهُوَ يَقُولُ : أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا وَعُوا ، مِنْ عَاشَ مَاتَ ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ ، مَا لِي أَرَى النَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلاَ يَرْجِعُونَ ؟ أَرَضُوا بِالإِقَامَةِ فَأَقَامُوا ؟ أَمْ تُرِكُوا فَنَامُوا ؟ إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبَراً ، وَإِنَّ فِي الأَرْضِ لَعِبَراً ، سَقْفٌ مَرْفُوعٌ ، وَلَيْلٌ مَوْضُوعٌ ، وَبِحَارٌ تَثُورُ ، وَنُجُومٌ تَحُورُ ثُمَّ تَغُورُ ، أُقْسِمُ بِاللَّهِ قَسَماً مَا آثَمُ فِيهِ ، إِنَّ لِلَّهِ دِيناً هُوَ أَرْضَى مِنْ دِينٍ أَنْتُمْ عَلَيْهِ . ثُمَّ تَكَلَّمَ بِأَبْيَاتِ شِعْرٍ مَا أَدْرِي مَا هِيَ "

فقال أبو بكر : كنت حاضراً إذ ذاك والأبيات عندي وأنشد :

في الذاهبين الأولين . . . من القرون لنا بصائر

لما رأيت مواردا . . . للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها . . . يمضي الأكابر والأصاغر

لا يرجع الماضي إليَّ . . . ولا من الباقين غابر

أيقنت أني لامحا . . . له حيث صار القوم صائر

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ" . ونحن نسأل الله تعالى مع زاجر العقل ورادع السمع أن يصرف نوازع الهوى ومواقع البلوى . فلا عذر مع الإنذار ، ولا دالة مع الاعتبار ، وأن تفقهن الرشد تدرك فوزاً منه وتكرمة .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ قال عثمان بن محسن : كانوا أربعة من الملائكة : جبريل وميكائيل وإسرافيل ورفائيل .

وفي قوله ﴿ الْمُكْرَمِينَ ﴾ وجهان :

أحدهما : أنهم عند الله المعظمون .

الثاني : مكرمون لإكرام إبراهيم لهم حين خدمهم بنفسه ، قاله مجاهد .

(144/727)

قال عطاء : وكان إبراهيم إذا أراد أن يتغذى ، أو يتعشى خرج الميل والميلين والثلاثة ، فيطلب من يأكل معه .

قال عكرمة : وكان إبراهيم يكنى أبا الضيفان ، وكان لقصره أربعة أبواب لكي لا يفوته

أحد .

وسمي الضيف ضيفاً ، لإضافته إليك وإنزاله عليك .

﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيهِ فَقَالُواْ سَلاَماً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : قاله الأخفش ، أي مسالمين غير محاربين لتسكن نفسه .

الثاني : أنه دعا لهم بالسلامة ، وهو قول الجمهور ، لأن التحية بالسلام تقتضي السكون والأمان ، قال الشاعر :

أظلوم إن مصابكم رجلاً . . . أهدى السلام تحية ظلم

فأجابهم إبراهيم عن سلامتهم بمثله :

﴿ قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مَنكَرُونَ ﴾ لأنه رآهم على غير صورة البشر وعلى غير صورة الملائكة الذين كان يعرفهم ، فنكرهم وقال ﴿ قَوْمٌ مَنكَرُونَ ﴾ وفيه وجهان :

أحدهما : أي قوم لا يعرفون .

الثاني : أي قوم يخافون ، يقال أنكرته إذا خفته ، قال الشاعر :

فأنكرتني وما كان الذي نكرت . . . من الحوادث إلا الشيب والصلعا

﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فعدل إلى أهله ، قاله الزجاج .

الثاني : أنه أخفى ميله إلى أهله .

﴿ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أما العجل ففي تسميته بذلك وجهان :

أحدهما : لأن بني إسرائيل عجلوا بعبادته .

الثاني : لأنه عجل في اتباع أمه .

قال قتادة : جاءهم بعجل لأن كان عامة مال إبراهيم البقر ، واختاره لهم سميناً زيادة في إكرامهم ، وجاء به مشوياً ، وهو محذوف من الكلام لما فيه من الدليل عليه .

فروى عون ابن أبي شداد أن جبريل مسح العجل بجناحه فقام يدرج ، حتى لحق بأمه ، وأم العجل في الدار .

(145/727)

﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيهِم قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ لأنهم امتنعوا من الأكل لأن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ، فروى مكحول أنهم قالوا لا نأكله إلا بثمن ، قال كلوا فإن له ثمناً ، قالوا وما ثمنه ؟ قال : إذا وضعتم أيديكم أن تقولوا : بسم الله ، وإذا فرغتم أن تقولوا : الحمد لله ، قالوا : بهذا اختارك الله يا إبراهيم .

﴿ فَأَوْجَسَ مِنهُمْ خِيفَةً ﴾ لأنهم لم يأكلوا ، خاف أن يكون مجيئهم إليه لشر يريدونه به .

﴿ قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه إسحاق من سارة ، استشهاداً بقوله تعالى في آية أخرى ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ ﴾ [الصافات : 112] .

الثاني : أنه إسماعيل من هاجر ، قاله مجاهد .

﴿ عَلِيمٍ ﴾ أي يرزقه الله علماً إذا كبر .

﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : الرنة والتأوه ، قاله قتادة ، ومنه قول الشاعر :

وشربة من شراب غير ذي نفس . . . في صرة من تخوم الصيف وهاج

الثاني : أنها الصيحة ، قاله ابن عباس ومجاهد ، ومنه أخذ صرير الباب ، ومنه قول امرىء القيس :

فألحقه بالهاديات ودونه . . . جواحرها في صرة لم تزيل

الثالث : أنها الجماعة ، قاله ابن بحر ، ومنه المصراة من الغنم لجمع اللبن في ضرعها .

وسميت صرة الدراهم فيها ، قال الشاعر :

رب غلام قد صرى في فقرته . . . ماء الشباب عنفوان سنبته

وأما قوله ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ ففيه قولان :

أحدهما : معناه لطخت وجهها ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنها ضربت جبينها تعجباً .

﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي ، أتلد عجوز عقيم ؟ قاله مجاهد والسدي .

﴿ فَتَوَلَّى ﴾ يعني فرعون ، وفي توليه وجهان :

أحدهما : أدبر .

الثاني : أقبل ، وهو من الأضداد .

﴿ بِرُكْنِهِ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : بجموعه وأجناده ، قاله ابن زيد .

الثاني : بقوته ، قاله ابن عباس ، ومنه قول عنترة :

فما أوهى مراس الحرب ركني . . . ولكن ما تقادم من زماني .

الثالث : بجانبه ، قاله الأخفش .

الرابع : بميله عن الحق وعناده بالكفر ، قاله مقاتل .

ويحتمل خامساً بماله لأنه يركن إليه ويتقوى به .

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أن العقيم هي الريح التي لا تلقح ، قاله ابن عباس .

الثاني : هي التي لا تنبث ، قاله قتادة .

الثالث : هي التي ليس فيها رحمة ، قاله مجاهد .

الرابع : هي التي ليس فيها منفعة ، قاله ابن عباس .

وفي الريح التي هي عقيم ثلاثة أقاويل :

أحدها : الجنوب ، روى ابن أبي ذئب عن الحارث بن عبد الرحمن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الريح العقيم الجنوب " .

الثاني الدبور ، قاله مقاتل . قال عليه السلام : " نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور "

الثالث : هي ريح الصبا ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد .

﴿ إِلَّا جَعَلْتُهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أن الرميم التراب ، قاله السدي .

الثاني : أنه الذي ديس من يابس النبات ، وهذا معنى قول قتادة .

الثالث أن الرميم : الرماد ، قاله قطرب .

الرابع : أنه الشيء البالي الهالك ، قاله مجاهد ، ومنه قول الشاعر :

تركتني حين كف الدهر من بصري . . . وإذ بقيت كعظم الرمة البالي

﴿ وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ أي بقوة .

﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : لموسعون في الرزق بالمطر ، قاله الحسن .

الثاني : لموسعون السماء ، قاله ابن زيد .

الثالث : لقادرون على الاتساع بأكثر من اتساع السماء .

الرابع : لموسعون بخلق سماء ملئها ، قاله مجاهد .

الخامس : لذوو سعة لا يضيق علينا شيء نريده .

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه خلق كل جنس نوعين .

(147/727)

الثاني : أنه قضى أمر خلقه ضدين صحة وسقم ، وغنى وفقر ، وموت وحياة ، وفرح وحزن ، وضحك وبكاء . وإنما جعل بينكم ما خلق وقضى زوجين ليكون بالوحدانية متفرداً .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : تعلمون بأنه واحد .

الثاني : تعلمون أنه خالق .

﴿ فَفِرُّوْا إِلَى اللَّهِ ﴾ أي فتوبوا إلى الله .

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فذكر بالقرآن ، قاله قتادة .

الثاني : فذكر بالعظة فإن الوعظ ينفع المؤمنين ، قاله مجاهد .

ويحتمل ثالثاً : وذكر بالثواب والعقاب فإن الرغبة والرهبة تنفع المؤمنين .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : إلا ليقروا بالعبودية طوعاً أو كرهاً ، قاله ابن عباس .

الثاني : إلا لآمرهم وأنهاهم ، قاله مجاهد .

الثالث : إلا لأجبلهم على الشقاء والسعادة ، قاله زيد بن أسلم .

الرابع : إلا ليعرفوني ، قاله الضحاك .

الخامس : إلا للعبادة ، وهو الظاهر ، وبه قال الربيع بن انس .

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ما أريد أن يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم .

الثاني : ما أنفسهم ، قاله أبو الجوزاء .

الثالث : ما أريد منهم معونة ولا فضلاً .

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : عذاباً مثل عذاب أصحابهم ، قاله عطاء .

الثاني : يعني سبيلاً ، قاله مجاهد .

الثالث : يعني بالذنوب الدلو ، قاله ابن عباس ، قال الشاعر :

لنا ذنوب ولكم ذنوب . . . فإن أبيتم فلنا القليب

ولا يسمى الذنوب دلواً حتى يكون فيه ماء .

الرابع : يعني بالذنوب النصيب ، قال الشاعر :

وفي كل يوم قد خبطت بنعمة . . . فحق لشاس من نداك ذنوب

ويعني بأصحابهم من كذب بالرسل من الأمم السالفة ليعتبروا بهلاكهم .

(148/727)

﴿ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أي فلا يستعجلوا نزول العذاب بهم لأنهم قالوا : ﴿ يا مُحَمَّدُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ الآية ، فنزل بهم يوم بدر ، ما حقق الله وعده ، وعجل به انتقامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ 360 . 375 ﴾

(149/727)

وقال ابن الجوزى :

سورة الذاريات

قوله تعالى : ﴿ والذَّاريات ذَرْواً ﴾

يعني الرِّياح ، يقال : ذَرَت الرِّيحُ التراب تَذْرُوه ذَرْواً ، إذا فرَّقَتْه ، قال الزجاج : يقال ذَرَت فهي ذارية ، وأذْرَت فهي مُذْرية بمعنى واحد .

﴿ والذّاريات ﴾ ، مجرورة على القَسَم ، المعنى : أحْلفِ بالذّارياتِ وهذه الأشياء ، والجواب ﴿ إنما تُوعَدون لَصادقٌ ﴾ ، قال قوم : المعنى : وربِّ الذاريات ، وربِّ الجاريات .

قوله تعالى : ﴿ فالحاملاتِ وِقْراً ﴾ يعني السحاب التي تحمل وِقْرها من الماء .

﴿ فالجارياتِ يُسْراً ﴾ يعني السُّفن تجري ميسَّرة [في الماء] جَرياً سهلاً .

﴿ فالمقسِّماتِ أَمْراً ﴾ يعني الملائكة تقسم الأمور على ما أمَر اللهُ به ، قال ابن السائب : والمقسِّمات أربعة : جبريل ، وهو صاحب الوحي والغِلظة ، وميكائيل ، وهو صاحب الرِّزق والرَّحمة ، وإسرافيل ، وهو صاحب الصُّور واللَّوح ، وعزرائيل ، وهو قابض الأرواح .

وإنما أقسَم بهذه الأشياء لِما فيها من الدلالة على صُنعه وقُدرته .

ثم ذكر المُقسَم عليه فقال : ﴿ إنّما تُوعَدون ﴾ أي : من الثواب والعقاب يومَ القيامة ﴿ لَصادقٌ ﴾ أي : لَحَقّ .

﴿ وإنَّ الدّين ﴾ فيه قولان .

أحدهما : الحساب .

والثاني : الجزاء ﴿ لَواقعٌ ﴾ أي : لَكائن .

ثم ذكر قَسَماً آخر فقال : ﴿ والسَّماءِ ذاتِ الحُبُكِ ﴾ وقرأ عمر بن الخطاب ، وأبو رزين : ﴿ الحِبكِ ﴾ بكسر الحاء والباء جميعاً .

وقرأ عثمان بن عفان ، والشعبي ، وأبو العالية ، وأبو حيوة ، "الحِبْكِ" بكسر الحاء وإسكان الباء .

وقرأ أُبيٌّ ابن كعب ، وابن عباس ، وأبو رجاء ، وابن أبي عبلة ، "الحُبْكِ" برفع الحاء وإسكان الباء .

وقرأ ابن مسعود ، وعكرمة : "الحَبَكِ" بفتح الحاء والباء جميعاً .

وقرأ أبو الدرداء ، وأبو الجوزاء ، وأبو المتوكل ، وأبو عمران الجوني ، وعاصم الجحدري : ["الحَبِكِ"] بفتح الحاء وكسر الباء .

ثم في معنى "الحبك" أربعة أقوال :

أحدها : ذات الخَلْق الحَسَن ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

والثاني : البُنيان المُتْقَن ، قاله مجاهد .

والثالث : ذات الزِّينة ، قاله سعيد بن جبير .

وقال الحسن : حُبُكها نُجومها .

والرابع : ذات الطرائق ، قاله الضحاك واللغويون .

وقال الفراء : الحُبُك : تَكَسُّر كلِّ شيء كالرَّمْل إذا مَرَّت به الرِّيح السّاكنة ، والماء القائم إذا مَرّت به الرِّيح ، والشَّعرةُ الجَعْدَة تكسُّرُها حُبُك ، وواحد الحُبُك : حِباك وحَبيكة .

وقال الزجاج : أهل اللغة يقولون : الحُبُك : الطرَّائق الحَسَنة ، والمَحْبُوك في اللغة : ما أُجيد عملُه ، وكل ما تراه من الطَّرائق في الماء وفي الرَّمْل إذا أصابته الرِّيح فهو حُبُك .

وروي عن عبد الله بن عمرو أنه قال : هذه هي السماء السابعة .

ثم ذكر جواب القَسَم الثاني ، قال : ﴿ إنَّكم ﴾ يعني أهل مكة ﴿ لَفي قَوْلٍ مختلِفٍ ﴾ في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، بعضُكم يقول : شاعر ، وبعضكم يقول : مجنون ، وفي القرآن [بعضكم] يقول : سِحْر ، وبعضكم يقول : كَهانة ورَجَز ، إلى غير ذلك .

﴿ يؤفَكُ عنه مَنْ أُفِكَ ﴾ أي : يُصْرَف عن الإيمان [به] مَن صُرِف [فحُرِمَه] .

[والهاء في "عنه" عائدة إلى القرآن ، وقيل : يُصْرَف عن هذا القول ، أي : من أجْله وسببه

عن الإيمان من صُرِف] .

وقرأ قتادة "مَنْ أَفَكَ" بفتح الألف والفاء .

وقرأ عمرو بن دينار "مَنْ أَفِكَ" بفتح الألف وكسر الفاء .

﴿ قُتِل الخَرَّاصُونَ ﴾ قال الفراء : يعني : [لُعن] الكذّابون الذين قالوا : إن النبي صلى الله عليه وسلم ساحر وكذَّاب وشاعر ، خَرَصوا ما لا علم لهم به .

وفي رواية العوفي عن ابن عباس : أنهم الكهنة .

وقال ابن الأنباري : والقتل إذ أُخبر عن الله به فهو بمعنى اللعنة ، لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك .

قوله تعالى ﴿ الذين هم في غَمْرة ﴾ أي : في عمىً وجهالة بأمر الآخرة ﴿ ساهون ﴾ أي : غافلون .

(151/727)

والسَّهو : الغَفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه .

﴿ يَسألونَ أيّان يومُ الدِّين ﴾ أي : يقولون : يا محمد متى يومُ الجزاء ؟ ! تكذيباً منهم واستهزاءاً .

ثم أخبر عن ذلك اليوم فقال : ﴿ يومَ هُم على النّار ﴾ قال الزجاج : "اليومَ" منصوب على معنى : يقع الجزاء يومَ هُم على النّار .

﴿ يُفْتَنونَ ﴾ أي : يُحرَقون ويعذَّبون ، ومن ذلك يقال للحجارة السُّود التي كأنها قد أُحرقت بالنار الفَتِين .

قوله تعالى : ﴿ ذُوقوا ﴾ المعنى : يقال لهم : ذوقوا ﴿ فِتْنَتَكم ﴾ وفيها قولان .

أحدهما : تكذيبكم ، قاله ابن عباس .

والثاني : حريقكم ، قاله مجاهد .

قال أبو عبيدة : هاهنا تم الكلام ، ثم ائتنف ، فقال ﴿ هذا الذي كنتم به تستعجِلونَ ﴾

قال المفسرون : يعني الذي كنتم تستعجلونه في الدنيا استهزاءً .

ثم ذكر ما وعَد اللهُ لأهل الجنة فقال : ﴿ إنَّ المُتَّقِينَ في جنّاتٍ وعُيونٍ ﴾ وقد سبق شرح هذا [البقرة : 25 ، الحجر : 45] .

قوله تعالى : ﴿ آخذين ﴾ قال الزجاج : هو منصوب على الحال ، فالمعنى : في جنّات وعيون في حال أخذ ﴿ ما آتاهم ربُّهم ﴾ قال المفسرون : أي : ما أعطاهم اللهُ من الكرامة ﴿ إنَّهم كانوا قبلَ ذلك محسِنين ﴾ في أعمالهم .

وفي الآية وجه آخر : "آخذين ما آتاهم ربُّهم" أي : عاملين بما أمرهم به من الفرائض "إنهم كانوا قبلَ" أن تفرض الفرائض عليهم ، "محسِنين" أي : مطيعين ، وهذا معنى قول ابن عباس

في رواية مسلم البطين .

ثم ذكر إحسانهم فقال : ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يَهجعون ﴾ والهُجوع : النَّوم بالليل دون النهار .

وفي "ما" قولان .

أحدهما : النفي .

ثم في المعنى قولان .

أحدهما : كانوا يسهرون قليلاً من الليل .

قال أنس بن مالك ، وأبو العالية : هو ما بين المغرب والعشاء .

والثاني : كانوا ما ينامون قليلاً من الليل .

(152/727)

واختار قوم الوقف على قوله "قليلاً" على معنى كانوا من الناس قليلاً ، ثم ابتدأ فقال : "من الليل ما يهجعون" على معنى نفي النوم عنهم البتَّة ، وهذا مذهب الضحاك ، ومقاتل .

والقول الثاني : أن "ما" بمعنى الذي ، فالمعنى : كانوا قليلاً من الليل الذي يهجعونه ، وهذا مذهب الحسن ، والأحنف بن قيس ، والزهري .

وعلى هذا يحتمل أن تكون "ما" زائدة.

قوله تعالى: ﴿ وبالأسحار هُمْ يَستغفرون ﴾ وقد شرحناه في [آل عمران: 17].

قوله تعالى: ﴿ وفي أموالهم حَقٌّ ﴾ أي نصيب، وفيه قولان.

أحدهما: أنه ما يَصِلون به رَحِمًا، أو يَقْرون به ضيفاً، أو يحملون به كلاًّ، أو يُعينون به محروماً، وليس بالزَّكاة، قاله ابن عباس.

والثاني: أنه الزكاة قاله قتادة، وابن سيرين.

قوله تعالى: ﴿ للسائل ﴾ وهو الطالب.

وفي ﴿ المحروم ﴾ ثمانية أقوال.

أحدها: أنه الذي ليس له سهم في فيء المسلمين، وهو المُحارَف، قاله ابن عباس.

وقال إبراهيم: هو الذي لا سهم له في الغنيمة.

والثاني: أنه الذي لا ينمى له شيء، قاله مجاهد، وكذلك قال عطاء: هو المحروم في الرِّزق والتجارة.

والثالث: أنه المسلم الفقير، قاله محمد بن علي.

والرابع: أنه المتعفِّف الذي لا يَسأل شيئاً، قاله قتادة، والزهري.

والخامس: أنه الذي يجيء بعد الغنيمة، وليس له فيها سهم، قاله: الحسن ابن محمد بن الحنفية.

والسادس : أنه المصاب ثمرته وزرعه أو نسل ماشيته ، قاله ابن زيد .

والسابع : أنه المملوك ، حكاه الماوردي .

والثامن : أنه الكَلْب ، روي عن عمر بن عبد العزيز .

وكان الشعبي يقول : أعياني أن أعلَم ما المحروم .

وأظهر الأقوال قول قتادة والزهري ، لأنه قرنه بالسائل ، والمتعفِّف لا يَسأل ولا يكاد الناس يعطون من لا يسأل ثم يتحفظ بالتعفُّف من ظُهور أثر الفاقة عليه ، فيكون محروما من قِبَل نفسه حين لم يَسأل ، ومن قِبَل الناس حين لا يُعطونه ، وإنما يفطن له متيقِّظ .

(153/727)

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة ، ولا يصح .

قوله تعالى : ﴿ وفي الأرض آياتٌ ﴾ كالجبال والأنهار والأشجار والثمار وغير ذلك ﴿ للموقنين ﴾ بالله عز وجل الذين يعرفونه بصنعه .

﴿ وفي أنفُسكم ﴾ آياتٌ إذ كنتم نُطَفاً ، ثم عظاماً ، ثم عَلَقاً ، ثم مُضَغاً ، إلى غير ذلك من أحوال الاختلاف ، ثم اختلاف الصُّوَر والألوان والطبائع ، وتقويم الأدوات ، والسمع والبصر والعقل ، وتسهيل سبيل الحدث ، إلى غير ذلك من العجائب المودَعة في ابن آدم .

وتمَّ الكلام عند قوله : "وفي أنفسكم" ، ثم قال : ﴿ أفلا تُبْصِرونَ ﴾ قال مقاتل : أفلا تبصرون كيف خَلَقكم فتعرِفوا قُدرته على البعث .

قوله تعالى : ﴿ وفي السَّماء رِزْقُكم ﴾ وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وحميد ، وأبو حصين الأسدي : "أرْزاقُكم" براءٍ ساكنة وبألف بين الزاي والقاف .

وقرأ ابن مسعود ، والضحاك ، وأبو نهيك : "رازِقُكم" بفتح الراء وكسر الزّاي وبألف بينهما .

وعن ابن محيصن كهاتين القراءتين .

وفيه قولان .

أحدهما : أنه المطر ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وليث عن مجاهد ، وهو قول الجمهور .

والثاني : الجنة ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد .

وفي قوله : ﴿ ما تُوعَدونَ ﴾ قولان .

أحدهما : أنه الخير والشر كلاهما يأتي من السماء ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وابن أبي نجيح عن مجاهد .

والثاني : الجنة رواه ليث عن مجاهد .

قال : أبو عبيدة : في هذه الآية مضمر مجازه : عند مَنْ في السماء رزقُكم ، وعنده ما توعدون ، والعرب تُضْمِر ، قال نابغة [ذبيان] :

كأَنَّكَ مِنْ جِمالِ بَنِي أُقَيْشٍ . . .

يُقَعْقَعُ خَلْفَ رِجْلَيْهِ بِشَنِّ

أراد : كأنك جملٌ من جِمال بني أُقَيش .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ قال الزجاج : يعني : ما ذكره من أمر الآيات والرِّزق وما توعدون وأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، ﴿ مِثْلَ ما أَنَّكم تَنْطِقونَ ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : "مِثْلُ" برفع اللام .

(154/727)

وقرأ الباقون بنصب اللام .

قال الزجاج : فمن رفع "مِثْلُ" فهي من صفة الحق ، والمعنى : إنه لَحَقٌّ مِثْلُ نُطْقكم ؛ ومن نصب فعلى ضربين :

أحدهما : أن يكون في موضع رفع ، إلا أنه لمّا أُضيف إلى "أَنَّ" فُتح .

والثاني : أن يكون منصوبا على التأكيد ، على معنى : إنه لَحَقٌّ حَقّاً مِثْلَ نُطقكم ، وهذا الكلام كما تقول : إنه لَحَقٌّ كما أَنَّك تتكلَّم .

قوله تعالى : ﴿ هل أتاكَ حديثُ ضَيْفِ إبراهيمَ المُكْرَمِينَ ﴾ "هل" بمعنى : "قد" في قول

ابن عباس ، ومقاتل ، فيكون المعنى : قد أتاك فاستمع نَقْصُصْهُ عليك ، وضَيفُه : هم الذين جاؤوا بالبشرى .

وقد ذكرنا عددهم في [هود : 70] وذكرنا هناك معنى الضَّيف .

وفي معنى : "المُكْرَمِينَ" أربعة أقوال .

أحدهما : لأنه أكرمهم بالعِجْل ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

والثاني : بأن خدمهم هو وامرأته بأنفُسهما ، قاله السدي .

والثالث : أنهم مُكْرَمون عند الله ، قاله عبد العزيز بن يحيى .

والرابع : لأنهم أضياف ، والأضياف مُكْرَمون ، قاله أبو بكر الورَّاق .

قوله تعالى : ﴿ فقالوا سلاماً ﴾ قد ذكرناه في [هود : 70] .

قوله تعالى : ﴿ قومٌ مُنْكَرونَ ﴾ قال الزجاج : ارتفع على معنى : أنتم قومٌ مُنْكَرونَ .

وللمفسرين في سبب إنكارهم أربعة أقوال .

أحدها : لأنه لم يعرفهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : لأنهم سلَّموا عليه ، فأنكر سلامهم ، في ذلك الزمان وفي تلك الأرض ، قاله أبو العالية .

والثالث : لأنهم دخلوا [عليه] من غير استئذان .

والرابع : لأنه رأى فيهم صورة البشر وصورة الملائكة .

قوله تعالى : ﴿ فراغَ إلى أهله ﴾ قال ابن قتيبة : أي : عَدَل إليهم في خُفْية ، ولا يكون الرَّواغُ إلاَّ أن تُخْفِيَ ذهابَك ومَجيئك .

(155/727)

قوله تعالى : ﴿ فجاء بِعِجْلٍ سمينٍ ﴾ وكان مشويّاً ﴿ فقرَّبه إليهم ﴾ قال الزجاج : والمعنى : فقرَّبه إليهم ليأكلوا منه ، فلم يأكلوا ، فقال : ﴿ ألا تأكلونَ ﴾ ؟ ! على التّكير ، أي : أمرُكم في ترك الأكل ممّا أُنْكِرُه .

قوله تعالى : ﴿ فأوجس منهم خِيفةً ﴾ قد شرحناه في [هود : 70] ، وذكرنا معنى "غلامٍ عليمٍ" في [الحجر : 54] .

﴿ فأقبلَت امرأتُه ﴾ وهي : سارة .

قال الفراء وابن قتيبة : لم تُقْبِل مِن مَوضع إلى مَوضع ، وإنما هو كقولك : أقبلَ يَشتُمني ، وأقبل يَصيح ويتكلَّم ، أي : أخذ في ذلك ، والصَّرَّة : الصَّيحة .

وقال أبو عبيدة : الصَّرَّة : شِدة الصَّوت .

وفيما قالت في صَيحتها قولان .

أحدهما : أنها تأوَّهتْ ، قال قتادة .

والثاني : أنها قالت : يا ويلتا ، ذكره الفراء .

قوله تعالى : ﴿ فصَكَّت وَجْهَها ﴾ فيه قولان .

أحدهما : لطمتْ وجهها ، قاله ابن عباس .

والثاني : ضربتْ جبينها تعجُّباً ، قاله مجاهد .

ومعنى الصَّكِّ : ضَرْبُ الشيء بالشيء العريض .

﴿ وقالت عجوزٌ ﴾ قال الفراء : هذا مرفوع بإضمار "أتَلِدُ عجوزٌ" .

وقال الزجاج : المعنى : أنا عجوز عقيمٌ ، فكيف أَلِدُ ؟ ! وقد ذكرنا معنى ﴿ العقيم ﴾ في [هود : 72] .

﴿ قالوا كذلكِ قال ربُّكِ ﴾ أنك ستَلِدين غُلاماً ؛ والمعنى : إنما نُخبرك عن الله عز وجل وهو حكيم عليم يَقْدِر أن يَجعل العقيم وَلُوداً ، فعَلِم [حينئذ] إبراهيمُ أنهم ملائكة .

﴿ قال فما خَطْبُكم ﴾ مفسر في [الحجر : 57] .

قوله تعالى : ﴿ حجارةً من طِينٍ ﴾ قال ابن عباس : هو الآجُرُّ .

قوله تعالى : ﴿ مُسوَّمةً عند ربِّك ﴾ قد شرحناه في [هود : 83] .

قوله تعالى : ﴿ للمُسرِفين ﴾ قال ابن عباس : للمشركين .

قوله تعالى : ﴿ فأخرَجْنا مَن كان فيها ﴾ ، أي : من قُرى لوط ﴿ مِن المؤمنين ﴾ وذلك

قوله تعالى : ﴿ فأسْرِ بأهلك . . .

﴾ الآية : [هود : 82] .

(156/727)

﴿ فما وَجَدْنَا فيها غيرَ بَيْتٍ من المُسلمين ﴾ وهو لوط وابنتاه ، وصَفهم اللهُ عز وجل بالإيمان والإسلام ، لأنه ما من مؤمِن إلا وهو مُسْلِم .

﴿ وتَرَكْنا فيها آيةً ﴾ أي : علامة للخائفين من عذاب الله تَدُلُّهم على أن الله أهلكهم .

وقد شرحنا هذا في [العنكبوت : 35] وبيَّنَّا المَكني عنها .

قوله تعالى : ﴿ وفي موسى ﴾ اي : وفيه ايضا آية ﴿ إذ أَرسلْناه إلى فرعون بسُلطان مُبينٍ ﴾ اي : بحُجَّة ظاهرة ﴿ فتولَّى ﴾ اي : أعرَضَ ﴿ بِرُكْنه ﴾ قال مجاهد : بأصحابه .

وقال ابو عبيدة : "بِرُكْنه" و"بجانبه" سواء ، إنما هي ناحيته ، ﴿ وقال ساحرٌ ﴾ : اي وقال لموسى : هذا ساحر ﴿ أو مجنونٌ ﴾ وكان أبو عبيدة يقول "أو" بمعنى الواو .

فأمّا "اليَمُّ" فقد ذكرناه في [الأعراف : 136] و"مُليم" في [الصافات : 142] .

قوله تعالى : ﴿ وفي عاد ﴾ اي : في إهلاكهم آية ايضاً ﴿ إذ أَرسلْنا عليهم الرِّيحَ العَقيم ﴾ وهي التي لا خَير فيها ولا بَركة ، لا تُلْقِح شجراً ولا تَحْمِل مطراً ، وإنما هي للإهلاك .

وقال سعيد بن المسيّب : هي الجَنُوب .

﴿ ما تَذَر من شيء أَتَتْ عليه ﴾ أي : من أنفُسهم وأموالهم ﴿ إلا جَعلتْه كالرَّميم ﴾ اي : كالشيء الهالك البالي .

قال الفراء : الرَّميم : نبات الأرض إذا يَبِس وَدِيس .

وقال الزجاج : الرَّميم : الورَق الجافّ المتحطّم مثل الهشيم .

﴿ وفي ثمودَ ﴾ آيةٌ ايضاً ﴿ إذ قيل لهم تَمتَّعوا حتَّى حِين ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه قيل لهم : تَمتَّعوا في الدُّنيا إلى وقت انقضاء آجالكم تهدُّداً لهم .

والثاني : أن صالحاً قال لهم بعد عَقْر النّاقة : تَمتَّعوا ثلاثة أيام ؛ فكان الحِين وقتَ فناء آجالهم ، ﴿ فَعتَوْا عن أَمْر ربِّهم ﴾ قال مقاتل : عصوا أَمْره ﴿ فأخذتْهم الصاعقة ﴾ يعني العذاب ، وهو الموت من صيحة جبريل .

وقرأ الكسائي وحده "الصَّعْقةُ" [بسكون العين من غير الف] ؛ وهي الصَّوت الذي يكون عن الصاعقة .

(157/727)

قوله تعالى : ﴿ وهم ينظُرونَ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : يَرَوْن ذلك عِياناً .

والثاني : وهم يَنتظرون العذاب ، فأتاهم صيحةٌ يومَ السبت .

قوله تعالى : ﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾ فيه قولان .

أحدهما : ما استطاعوا نُهوضاً من تلك الصَّرعة .

والثاني : ما أطاقوا ثُبوتاً لعذاب الله .

﴿ وما كانوا منتصِرين ﴾ أي : ممتنعين من العذاب .

قوله تعالى : ﴿ وقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ قرأ أبو عمرو إلاّ عبد الوارث ، وحمزة ، والكسائي : بخفض الميم ، وروى عبد الوارث رفع الميم ، والباقون بنصبها .

قال الزجاج : من خفض القوم فالمعنى : وفي قومِ نوحٍ آيةٌ ، ومن نصب فهو عطف على معنى قوله "فأخذتْهم الصّاعقةُ" فإن معناه : أهلكْناهم ، فيكون المعنى : وأهلَكْنا قومَ نوح ، والأحسن والله أعلم أن يكون محمولاً على قوله "فأخذْناه وجنوده فنبذْناهم في اليمِّ" لأن المعنى : أغرقناه ، وأغرقْنا قومَ نوح .

﴿ والسماء بنيناها ﴾ المعنى : وبنينا السماء بنيناها ﴿ بأَيْدٍ ﴾ أي : بقُوَّة ، وكذلك قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وسائر المفسرين واللغويين "بأيد" اي : بقُوَّة .

وفي قوله : ﴿ وإنّا لَموسِعونَ ﴾ خمسة أقوال .

أحدها : لموسِعون الرِّزق بالمطر ، قاله الحسن .

والثاني : لموسِعون السماء ، قاله ابن زيد .

والثالث : لقادرون ، قاله ابن قتيبة .

والرابع : لموسِعون ما بين السماء والأرض ، قاله الزجاج .

والخامس : لذو سعة لا يضيق عمّا يريد ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ والأرض فرشناها فنِعْم الماهدون ﴾ قال الزجاج : هذا عطفٌ على ما قبله منصوبٌ بفعل مُضْمر محذوف يدلُّ عليه قوله : "فرشْناها" ، فالمعنى : فرشْنا الأرض فرشْناها "فنِعْم الماهدون" أي : فنِعْم الماهدون نحن .

قال مقاتل : "فرشْناها" أي : بسطْناها مسيرة خمسمائة عام ، وهذا بعيد .

وقد قال قتادة : الأرضُ عشرون ألف فرسخ ، والله تعالى أعلم .

(158/727)

قوله تعالى : ﴿ ومِنْ كُلِّ شيء خَلَقْنا زوجين ﴾ ، اي : صِنفين ونَوعَين كالذكر والأنثى ، والبرّ والبحر والليّل والنّهار ، والحُلو والمُرّ ، والنُّور والظُّلمة ، وأشباه ذلك ﴿ لعلَّكم تذكَّرون ﴾ فتعلْموا أن خالق الأزواج واحد .

﴿ ففِرُّوا إلى الله ﴾ بالتَّوبة من ذنوبكم ؛ والمعنى : اهْرُبوا ممّا يوجِب العِقاب من الكُفر والعِصيان إلى ما يوجِب الثَّواب من الطَّاعة والإيمان .

قوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ أي : كما كذَّبك قومُك وقالوا : ساحر أو مجنون ، كانوا من قبلك يقولون للأنبياء .

قوله تعالى : ﴿ أتواصوْا به ﴾ أي : أوْصى أوَّلُهم آخرَهم بالتكذيب ؟ ! وهذا استفهام توبيخ .

وقال أبو عبيدة : أتواطؤوا عليه فأخذه بعضُهم من بعض ؟ !

قوله تعالى : ﴿ بلْ هم قوم طاغون ﴾ اي : يحملُهم الطُّغيان فيما أُعطوا من الدُّنيا على التكذيب ؛ والمشار إليهم اهل مكة .

﴿ فتولَّ عنهم ﴾ فقد بلَّغْتَهم ﴿ فما أنت ﴾ عليهم ﴿ بملومٍ ﴾ لأنَّك قد أدَّيت الرِّسالة .

ومذهب أكثر المفسرين أن هذه الآية منسوخة ، ولهم في ناسخها قولان .

أحدهما : أنه قوله ﴿ وذكِّر فإن الذِّكرى تنفع المؤمنين ﴾ .

والثاني : آية السيف .

وفي قوله "وذكِّر" قولان .

أحدهما : عِظْ ، قاله مقاتل .

والثاني : ذكِّرهم بأيّام الله وعذابه ورحمته ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ وما خلقْتُ الجنَّ والإنس إلاّ لِيعْبُدونِ ﴾ أثبت الياء في "يعْبُدون" و"يُطْعِمون" و"لا يستعجِلون" في الحالين يعقوب .

واختلفوا في هذه الآية على أربعة أقوال .

أحدها : إلاّ لآمُرهم أن يعبدوني ، قاله عليُّ بن أبي طالب ، واختاره الزجاج .

والثاني : إلا لِيُقِرُّوا بالعُبودية طوْعاً وكرْهاً ، قاله ابن عباس ؛ وبيان هذا قوله ﴿ ولئن سألتهم منْ خلقهم ليقولُنَّ الله ﴾ [الزخرف : 87] .

والثالث : أنه خاصّ في حقِّ المؤمنين .

قال سعيد بن المسيّب : ما خلقتُ منْ يعبُدني إلا ليعبُدَني .

(159/727)

وقال الضحاك ، والفراء ، وابن قتيبة : هذا خاصّ لأهل طاعته ، وهذا اختيار القاضي ابي يعلى فإنه قال : معنى هذا الخصوصُ لا العمومُ ، لأن البُله والأطفال والمجانين لا يدخُلون تحت الخطاب وإن كانوا من الإنس ، فكذلك الكُفَّار يخرُجون من هذا بدليل قوله : ﴿ ولقد ذرأْنا لجهنَّم كثيراً من الجِنِّ والإنس ﴾ [الأعراف : 179] ، فمن خُلق للشَّقاء

ولجهنَّم ، لم يخلق للعبادة .

والرابع : إلا ليخضعوا إليَّ ويتذللوا .

ومعنى العبادة في اللغة : الذُّلُّ والانقياد .

وكُلُّ الخَلْق خاضعٌ ذليلٌ لقضاء الله عز وجل لا يملك خُروجاً عمّا قضاه اللهُ عز وجل ، هذا مذهب جماعة من أهل المعاني .

قوله تعالى : ﴿ ما أُريدُ منهم من رِزْقٍ ﴾ أي : ما أُريدُ أن يرزُقوا أنفسهم ﴿ وما أُريدُ أن يُطْعِموني ﴾ أي : أن يُطْعِموا أحداً من خَلْقي ، لأنِّي أنا الرَّزّاق .

وإنما أسند الإطعام إلى نفسه ، لأن الخلق عيالُ الله ، ومن أطعمَ عِيالَ أحد فقد أطعمه .

وقد جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يقول اللهُ عز وجل يوم القيامة : يا ابن آدم : استطعمتُكَ فلم تُطْعِمْني " ، اي : لم تُطْعِم عبدي .

فأما ﴿ الرَّزّاق ﴾ فقرأ الضحاك ، وابن محيصن : "الرّازق" بوزن "العالِم" .

قال الخطابي : هو المتكفِّل بالرِّزق القائمُ على كل نَفْس بما يُقيمها من قُوتها .

﴿ والمتينُ ﴾ الشديد القُوَّة الذي لا تنقطع قُوَّته ولا يَلحقه في أفعاله مَشقَّة .

وقد روى قتيبة عن الكسائي أنه قرأ : "المتينِ" بكسر النون .

وكذا قرأ أبو رزين ، وقتادة ، وأبو العالية ، والأعمش .

قال الزجاج : ﴿ ذو القوَّة المتينِ ﴾ أي : ذو الاقتدار الشديد ، ومن رفع "المتين" فهو صفة

الله عز وجل ، ومن خفضه جعله صفة للقُوة ، لأن تأنيث القُوَّة كتأنيث المُوعظة ، فهو كقوله : ﴿ فمن جاءه مَوعِظةٌ من ربّه ﴾ [البقرة : 275] .

(160/727)

قوله تعالى : ﴿ فإنَّ للذينَ ظَلموا ﴾ يعني مشركي مكة ﴿ ذَنوباً ﴾ أي : نصيباً من العذاب ﴿ مِثْلَ ذَنوبِ أصحابهم ﴾ الذين أُهلكوا ، كقوم نوح وعاد وثمود .

قال الفراء : الذَّنوب في كلام العرب : الدَّلْوُ العظيمة ، ولكن العرب تذهب بها إلى النَّصيب والحظّ ، قال الشاعر :

لَنا ذَنُوبٌ ولَكُمْ ذَنُوبُ . . .

فإنْ أَبَيْتُم فَلَنا القَلِيبُ

والذَّنوب ، يُذَكَّر ويؤنَّث .

وقال ابن قتيبة ، أصل الذَّنوب : الدَّلو العظيمة ، وكانوا يَستقون ، فيكون لكل واحدٍ ذَنوبٌ ، فجُعل "الذَّنوب" مكان "الحظّ والنصيب" قوله تعالى : ﴿ فلا يَستعجِلونِ ﴾ أي : بالعذاب إن أُخِّروا إلى يوم القيامة ، وهو يومهم الذي يوعدون ، ويقال : هو يوم بدر . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 28 ـ 44 ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ والذاريات ذرواً ﴾

يعني الرياح التي تذر التراب ﴿ فالحاملات وقراً ﴾ يعني السحاب يحمل ثقلاً من الماء ﴿ فالجاريات يسراً ﴾ يعني السفن تجري في الماء جرياً سهلاً ﴿ فالمقسمات أمراً ﴾ يعني الملائكة يقسمون الأمور بين الخلق على ما أمروا به وقيل : هم أربعة : جبريل صاحب الوحي إلى الأنبياء الأمين عليه وصاحب الغلظة ، وميكائيل صاحب الرزق والرحمة ، وإسرافيل صاحب الصور واللوح ، وعزرائيل صاحب قبض الأرواح .

وقيل : هذه الأوصاف الأربعة في الرياح لأنها تنشئ السحاب وتسيره ثم تحمله وتقله ثم تجري به جرياً سهلاً ثم تقسم الأمطار بتصريف السحاب أقسم الله تعالى بهذه الأشياء لشرف ذواتها ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعته وقدرته .

والمعنى : اقسم بالذاريات بهذه الأشياء ، وقيل : فيه مضمر تقديره ورب الذاريات ثم ذكر جواب القسم

﴿ إن ما توعدون ﴾ أي من الثواب والعقاب يوم القيامة ﴿ لصادق ﴾ أي الحق ﴿ وإن الدين ﴾ أي الحساب والجزاء ﴿ لواقع ﴾ أي لكائن ثم ابتدأ قسماً آخر فقال تعالى : ﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ قال ابن عباس : ذات الخلق الحسن المستوي ، وقيل : ذات الزينة حبكت بالنجوم وقيل : ذات البنيان المتقن وقيل : ذات الطرائق كحبك الماء إذا ضربته الريح وحبك الرمل ولكنها لا ترى لبعدها من الناس وجواب القسم قوله ﴿ إنكم ﴾ يعني يا أهل مكة ﴿ لفي قول مختلف ﴾ يعني في القرآن وفي محمد (صلى الله عليه وسلم) يقولون في القرآن سحر وكهانة وأساطير الأولين وفي محمد (صلى الله عليه وسلم) ساحر وشاعر وكاهن ومجنون وقيل : لفي قول مختلف أي مصدق ومكذب ﴿ يؤفك عنه من أفك ﴾ أي يصرف عن الإيمان به من صرف حتى يكذب به وهو من حرمه الله الإيمان بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وبالقرآن وقيل : معناه أنهم كانوا يتلقون الرجل إذا أراد الإيمان بمحمد (صلى الله عليه وسلم) فيقولون إنه ساحر وشاعر وكاهن ومجنون فيصرفونه عن الإيمان به ﴿ قتل الخراصون ﴾ أي : الكذابون هم المقتسمون الذين اقتسموا عقاب مكة واقتسموا القول في النبي (صلى الله عليه وسلم) ليصرفوا الناس عن الإسلام .

وقيل : هم الكهنة ﴿ الذين هم في غمرة ﴾ أي في غفلة وعمى وجهالة ﴿ ساهون ﴾ أي لاهون غافلون عن أمر الآخرة والسهو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه ﴿ يسألون

أيان يوم الدين ﴾ أي يقولون يا محمد متى يوم الجزاء يعني يوم القيامة تكذيباً واستهزاء قال الله تعالى : ﴿ يوم هم ﴾ أي يكون هذا الجزاء في يوم هم ﴿ على النار يفتنون ﴾ أي يدخلون ويعذبون بها وتقول لهم خزنة النار : ﴿ ذوقوا فتنتكم ﴾ أي عذابكم ﴿ هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴾ أي في الدنيا تكذيباً به .

(163/727)

قوله تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ﴾ يعني في خلال الجنات عيون جارية ﴿ آخذين ما آتاهم ﴾ أي ما أعطاهم ﴿ ربهم ﴾ أي من الخير والكرامة ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ أي قبل دخولهم الجنة محسنين في الدنيا ثم وصف إحسانهم فقال تعالى : ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ أي كانوا ينامون قليلاً من الليل ويصلون أكثره .

وقال ابن عباس : كانوا قل ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها شيئاً إما من أولها أو من أوسطها عن أنس بن مالك في قوله : ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ قال : كانوا بين المغرب والعشاء أخرجه أبو داود .

وقيل : كانوا لا ينامون حتى يصلون العتمة وقيل : قل ليلة أتت عليهم هجعوها كلها ، ووقف بعضهم على قوله : كانوا قليلاً ، أي من الناس ثم ابتدأ من الليل ما يهجعون أي لا ينامون بالليل

البتة بل يقومون الليل كله في الصلاة والعبادة ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ أي ربما مدوا عبادتهم إلى وقت السحر ثم أخذوا في الاستغفار وقيل : معناه يستغفرون من تقصيرهم في العبادة وقيل : يستغفرون من ذلك القدر القليل الذي كانوا ينامونه من الليل وقيل : معناه يصلون بالأسحار لطلب المغفرة (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له " ولمسلم قال : " فيقول أنا الملك أنا الملك " وذكر الحديث وفيه " حتى يضيء الفجر " وزاد في رواية " من يقرض غير عديم ولا ظلوم " .

(فصل)

هذا الحديث من أحاديث الصفات وفيه مذهبان معروفان :

أحدهما : وهو مذهب السلف وغيرهم أنه يمر كما جاء من غير تأويل ولا تعطيل ويترك الكلام فيه وفي أمثاله مع الإيمان به وتنزيه الرب تبارك وتعالى عن صفات الأجسام .

(164/727)

المذهب الثاني : وهو قول جماعة من المتكلمين وغيرهم أن الصعود والنزول من صفات الأجسام والله تعالى يتقدس عن ذلك .

فعلى هذا يكون معناه نزول الرحمة والألطاف الإلهية وقربها من عباده والإقبال على الداعين بالإجابة واللطف .

وتخصيصه بالثلث الأخير من الليلا لأن ذلك وقت التهجد والدعاء وغفلة أكثر الناس عن التعرض لنفحات رحمة الله تعالى وفي ذلك الوقت تكون النية خالصة والرغبة إلى الله تعالى متوفرة فهو مظنة لقبول الإجابة والله تعالى أعلم (ق) .

عن ابن عباس قال : "كان النبي (صلى الله عليه وسلم) إذا قام من الليل يتهجد قال : اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك الحق وقولك الحق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق والساعة حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت " .

﴿ وفي أموالهم حق ﴾ أي نصيب قيل إنه ما يصلون به رحماً أو يقرون به ضيفاً أو يحملون به كلاًّ أو يعينون به محروماً وليس بالزكاة قاله ابن عباس .

وقيل : إنه الزكاة المفروضة ﴿ للسائل ﴾ أي الذي يسأل الناس ويطلب منهم ﴿ والمحروم

﴿ قيل هو الذي ليس له في الغنائم سهم ولا يجري عليه من الفيء شيء قال ابن عباس : المحروم الذي ليس له في فيء الإسلام سهم .

وقيل : معناه الذي حرم الخير والعطاء ، وقيل : المحروم ، المتعفف الذي لا يسأل .

(165/727)

وقيل : هو صاحب الجائحة الذي أصيب زرعه وثمره أو نسل ماشيته وقيل : هو المحارف المحروم في الرزق والتجارة وقيل : هو المملوك وقيل : هو المكاتب ، وأظهر الأقوال ، أنه المتعفف لأنه قرنه بالسائل والمتعفف لا يسأل ولا يكاد الناس يعطون من لا يسأل إنما يفطن له متيقظ ﴿ وفي الأرض آيات ﴾ أي عبر من البحار والجبال والأشجار والثماؤ وأنواع النبات ﴿ للموقنين ﴾ أي بالله الذي يعرفونه ويستدلون عليه بصنائعه ﴿ وفي أنفسكم ﴾ أي آيات إذ كنتم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً إلى أن تنفخ الروح .

وقال ابن عباس : يريد اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع وقيل : يريد سبيل الغائط والبول يأكل ويشرب من مدخل واحد ويخرج من سبيلين وقيل : يعني تقويم الأدوات السمع والبصر والنطق والعقل إلى غير ذلك من العجائب المودعة في ابن آدم ﴿ أفلا تبصرون ﴾ يعني كيف خلقكم فتعرفوا قدرته على البعث ﴿ وفي السماء رزقكم ﴾ قال

ابن عباس هو المطر وهو سبب الأرزاق ﴿ وما توعدون ﴾ يعني من الثواب والعقاب .

وقيل : من الخير والشر .

وقيل : الجنة والنار ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه فقال ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق ﴾ أي ما ذكر من الرزق وغيره ﴿ مثل ما أنكم تنطقون ﴾ أي بلا إله إلا الله .

وقيل : شبه تحقيق ما أخبر عنه بتحقيق نطق الآدمي ومعناه إنه لحق كما أنك تتكلم .

وقيل : إن معناه في صدقه ووجوده كالذي تعرفه ضرورة وقال بعض الحكماء معناه كما أن كل إنسان ينطق بلسان نفسه لا يمكنه أن ينطق بلسان غيره كذلك كل إنسان يأكل من رزق نفسه الذي قسم له لا يقدر أن يأكل رزق غيره .

قوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم ﴾ يعني هل أتاك يا محمد حديث الذين جاؤوا إبراهيم بالبشرى فاستمع نقصصه عليك وقد تقدم ذكر عددهم وقصتهم في سورة هود ﴿ المكرمين ﴾ قيل : سماهم مكرمين لأنهم كانوا ملائكة كراماً عند الله .

(166/727)

وقيل : لأنهم كانوا ضيف إبراهيم وهو أكرم الخلق على الله يومئذ وضيف الكريم مكرمون .

وقيل : لأن إبراهيم أكرمهم بتعجيل قراهم وخدمته إياهم بنفسه وطلاقة وجهه لهم .

وقال ابن عباس : سماهم مكرمين لأنهم كانوا غير مدعوين (ق) عن أبي شريح العدوي قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه " .

﴿ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون ﴾ أي غرباء لا نعرفكم .

قال ابن عباس : قال في نفسه هؤلاء قوم لا نعرفهم وقيل : إنما أنكر أمرهم ، لأنهم دخلوا بغير استئذان وقيل : أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض ﴿ فراغ ﴾ أي عدل ومال ﴿ إلى أهله فجاء بعجل سمين ﴾ أي جيد وكان مشوياً .

قيل : كان عامة مال إبراهيم البقر فجاء بعجل ﴿ فقربه إليهم ﴾ هذا من آداب المضيف أن يقدم الطعام إلى الضيف ولا يحوجهم السعي إليه فلما لم يأكلوا ﴿ قال ألا تأكلون ﴾ يعني أنه حثهم على الأكل .

وقيل : عرض عليهم الأكل من غير أن يأمرهم ﴿ فأوجس ﴾ أي فأضمر ﴿ منهم خيفة ﴾ لأنهم لم يتحرموا بطعامه ﴿ قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾ أي يبلغ ويعلم وقيل : عليم أي نبي ﴿ فأقبلت امرأته ﴾ قيل لم يكن ذلك إقبالاً من مكان إلى مكان بل كانت في البيت فهو كقول القائل أقبل يفعل كذا إذا أخذ فيه ﴿ في صرة ﴾ أي في صيحة والمعنى

أنها أخذت تولول وذلك من عاد النساء إن سمعن شيئاً ﴿ فصكت وجهها ﴾ قال ابن عباس : لطمت وجهها .

(167/727)

وقيل : جمعت أصابعها وضربت جبينها تعجباً وذلك من عادة النساء أيضاً إذا أنكرن شيئاً ﴿ وقالت عجوز عقيم ﴾ معناه : أتلد عجوز عقيم وذلك لأن سارة لم تلد قبل ذلك ﴿ قالوا كذلك قال ربك ﴾ أي كما قلنا لك قال ربك إنك ستلدين غلاماً ﴿ إنه هو الحكيم العليم ﴾ ثم إن إبراهيم لما علم حالهم وأنهم من الملائكة ﴿ قال فما خطبكم ﴾ أي فما شأنكم وما طلبكم ﴿ أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ يعني قوم لوط ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين ﴾ قيل هو الآجر ﴿ مسومة ﴾ أي معلمة قيل على كل حجر اسم من يهلك به .

وقيل : معلمه بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا ﴿ عند ربك للمسرفين ﴾ قال ابن عباس يعني المشركين لأن الشرك أسرف الذنوب وأعظمها .

﴿ فأخرجنا من كان فيها ﴾ أي في قرى قوم لوط ﴿ من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت ﴾ أي أهل بيت ﴿ من المسلمين ﴾ يعني لوطاً وابنتيه وصفهم الله تعالى بالإيمان

والإسلام جميعاً لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم .

لأن الإسلام أعم من الإيمان .

(168/727)

وإطلاق العام على الخاص لا مانع منه فإذا سمي المؤمن مسلماً ، لا يدل على اتحاد مفهوميهما ﴿ وتركنا فيها ﴾ أي في مدينة قوم لوط ﴿ آية ﴾ أي عبرة ﴿ للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ والمعنى تركنا فيها علامة للخائفين تدلهم على أن الله مهلكهم فيخافون مثل عذابهم قوله : ﴿ وفي موسى ﴾ أي وتركنا في إرسال موسى آية وعبرة ﴿ إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ﴾ أي حجة ظاهرة ﴿ فتولى ﴾ أي أعرض عن الإيمان ﴿ بركنه ﴾ أي بجمعه وجنوده الذين كان يتقوى بهم ﴿ وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ﴾ أي فأغرقناهم في البحر ﴿ وهو مليم ﴾ أي آت بما يلام عليه من دعوى الربوبية وتكذيب الرسل ﴿ وفي عاد ﴾ أي وفي إهلاك عاد أيضاً آية وعبرة ﴿ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ يعني التي لا خير فيها ولا بركة فلا تلقح شجراً ولا تحمل مطراً ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه ﴾ أي من أنفسهم وأموالهم وأنعامهم ﴿ إلا جعلته كالرميم ﴾ أي كالشيء الهالك البالي وهو ما يبس وديس من نبات الأرض كالشجر والتبن

ونحوه وأصله من رم العظم إذا بلي ﴿ وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾ يعني إلى وقت انقضاء آجالهم وذلك أنهم لما عقروا الناقة قيل لهم : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام .

﴿ فعتوا عن أمر ربهم ﴾ أي تكبروا عن طاعة ربهم ﴿ فأخذتهم الصاعقة ﴾ أي بعد مضي ثلاثة أيام من بعد عقر الناقة وهي الموت في قول ابن عباس .

وقيل : أخذهم العذاب والصاعقة كل عذاب مهلك ﴿ وهم ينظرون ﴾ أي يرون ذلك العذاب عياناً ﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾ أي فما قاموا بعد نزول العذاب بهم ولا قدروا على نهوض من تلك الصرعة ﴿ وما كانوا منتصرين ﴾ أي ممتنعين منا وقيل : ما كانت عندهم قوة يمتنعون بها من أمر الله ﴿ وقوم نوح ﴾ قرىء بكسر الميم ومعناه وفي يوم نوح وقرىء بنصبها ومعناه : وأغرقنا قوم نوح ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل هؤلاء وهم عاد وثمود وقوم فرعون ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ أي خارجين عن الطاعة .

(169/727)

قوله تعالى : ﴿ والسماء بنيناها بأيد ﴾ أي بقوة وقدرة ﴿ وإنا لموسعون ﴾ قيل : هو من السعة : أي أوسعنا السماء بحيث صارت الأرض وما يحيط بها من السماء والفضاء وبالنسبة إلى سعة السماء كالحلقة الملقاة في الفلاة وقال ابن عباس : معناه قادرون على

بنائها كذلك وعنه لموسعون أي الرزق على خلقنا وقيل : معناه وإنا ذوو السعة والغنى ﴿ والأرض فرشناها ﴾ أي بسطناها ومهدناها لكم ﴿ فنعم الماهدون ﴾ أي نحن ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ أي صنفين ونوعين مختلفين كالسماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والبر والبحر والسهل والجبل والصيف والشتاء والجن والإنس والذكر والأنثى والنور والظلمة والإيمان والكفر والسعادة والشقاوة والحق والباطل والحلو والمر والحامض ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أي فتعلمون أن خالق الأزواج فرد لا نظير له ولا شريك معه ﴿ ففروا إلى الله ﴾ أي : قل يا محمد ففروا إلى الله أي فاهربوا من عذابه إلى ثوابه بالإيمان والطاعة وقال ابن عباس ففروا منه إليه واعملوا بطاعته وقال سهل بن عبد الله ففروا مما سوى الله إلى الله ﴿ إني لكم منه نذير ﴾ أي مخوف ﴿ مبين ﴾ أي بين الرسالة بالحجة الظاهرة والمعجزة الباهرة والبرهان القاطع ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ﴾ أي وحدوه ولا تشركوا به شيئاً ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾ قيل : إنما كرر قوله إني لكم منه نذير مبين عند الأمر بالطاعة والنهي عن الشرك ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما .

(170/727)

﴿ كذلك ﴾ أي كما كذبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون كذلك ﴿ ما أتى الذين من قبلهم ﴾ أي من قبل كفار مكة والأمم الخالية ﴿ من رسول ﴾ يعني يدعوهم إلى الإيمان والطاعة ﴿ إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ قال الله تعالى ﴿ أتواصوا به ﴾ أي أوصى أولهم آخرهم وبعضهم بعضاً بالتكذيب وتواطؤوا عليه وفيه توبيخ لهم ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾ أي لم يتواصلوا بهذا القول لأنهم لم يتلاقوا على زمان واحد بل جمعتهم على ذلك علة واحدة وهي الطغيان وهو الحامل لهم على ذلك القول ﴿ فتولَّ عنهم ﴾ أي أعرض عنهم ﴿ فما أنت بملوم ﴾ أي لا لوم عليك فقد أديت الرسالة وبذلت المجهود وما قصرت فيما أمرت به .

قال المفسرون : لما نزلت هذه الآية حزن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واشتد على أصحابه وظنوا أن الوحي قد انقطع وأن العذاب قد حضر إذ أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يتولى عنهم فأنزل الله : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ فطابت نفوسهم بذلك والمعنى عظ بالقرآن كفار مكة فإن الذكرى تنفع من علم الله أنه يؤمن منهم وقيل : معناه عظ بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم .

قوله : ﴿ وما خلقت الجن والإنس ﴾ أي من المؤمنين ﴿ إلا ليعبدون ﴾ قيل هذا خاص بأهل طاعته من الفريقين يدل عليه قراءة ابن عباس " وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون " وقيل : معناه وما خلقت السعداء من الجن والإنس إلا لعبادتي والأشقياء

منهم إلا لمعصيتي وهو ما جبلوا عليه من الشقاوة والسعادة .

وقال علي بن أبي طالب إلا ليعبدون أي إلا لآمرهم أن يعبدوني وأدعوهم إلى عبادتي .

وقيل : معناه إلا ليعرفوني وهذا حسن لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده .

وقيل : معناه إلا ليخضعوا لي ويتذللوا لأن معنى العبادة في اللغة التذلل والانقياد وكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله متذلل للمشيئة لا يملك أحد لنفسه خروجاً عما خلق له .

(171/727)

وقيل : معناه إلا ليوحدوني فأما المؤمن فيوحده اختياراً في الشدة والرخاء وأما الكافر فيوحده اضطراراً في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء ﴿ ما أريد منهم من رزق ﴾ أي ما أريد أن يرزقوا أحداً من خلقي ولا أن يرزقوا أنفسهم لأني أنا الرزاق المتكفل لعبادي بالرزق القائم لكل نفس بما يقيمها من قوتها ﴿ وما أريد أن يطعمون ﴾ أي أن يطعموا أحداً من خلقي وإنما أسند الإطعام إلى نفسه لأن الخلق كلهم عيال الله ومن أطعم عيال أحد فقد أطعمه لما صح من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن الله يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال يا رب كيف أعودك وأنت رب

العالمين ؟ قال أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين قال أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي "

﴿ إن الله هو الرزاق ﴾ أي لجميع خلقه ﴿ ذو القوة المتين ﴾ يعني هو القوي الشديد المقتدر البليغ القوة والقدرة الذي لا يلحقه في أفعاله مشقة ﴿ فإن للذين ظلموا ﴾ أي من أهل مكة ﴿ ذنوباً ﴾ أي نصيباً من العذاب ﴿ مثل ذنوب أصحابهم ﴾ أي مثل نصيب أصحابهم الذين هلكوا من قوم نوح وعاد وثمود ﴿ فلا يستعجلون ﴾ أي بالعذاب لأنهم أخروا إلى يوم القيامة يدل عليه قوله ﴿ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ﴾ يعني يوم القيامة وقيل : يوم بدر والله تعالى أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 248.241 ﴾

(172/727)

وقال النسفى :

﴿ والذريات ﴾

الرياح لأنها تذرو التراب وغيره ، وبادغام التاء في الذال : حمزة وأبو عمرو ﴿ ذَرْواً ﴾ مصدر والعامل فيه اسم الفاعل ﴿ فالحاملات ﴾ السحاب لأنها تحمل المطر ﴿ وِقْراً ﴾ مفعول الحاملات ﴿ فالجاريات ﴾ الفلك ﴿ يُسْراً ﴾ جرياً ذا يسر أي ذا سهولة ﴿ فالمقسمات أَمْراً ﴾ الملائكة لأنها تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرهما ، أو تفعل التقسيم مأمورة بذلك ، أو تتولى تقسيم أمر العباد ؛ فجبريل للغلظة ، وميكائيل للرحمة ، وملك الموت لقبض الأرواح ، وإسرافيل للنفخ .

ويجوز أن يراد الرياح لا غير لأنها تنشيء السحاب وتقله وتصرفه وتجري في الجوّ جرياً سهلاً ، وتقسم الأمطار بتصريف السحاب .

ومعنى الفاء على الأول أنه أقسم بالرياح فبالسحاب التي تسوقه فبالفلك التي تجريها بهبوبها ، فبالملائكة التي تقسم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتجارات البحر ومنافعها .

وعلى الثاني أنها تبتديء في الهبوب فتذرو التراب والحصباء فتقل السحاب فتجري في الجوّ باسطة له فتقسم المطر ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ جواب القسم و"ما" موصولة أو مصدرية والموعود البعث ﴿ لصادق ﴾ وعد صادق كعيشة راضية أي ذات رضا ﴿ وَإِنَّ الدين ﴾ الجزاء على الأعمال ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ لكائن .

﴿ والسماء ﴾ هذا قسم آخر ﴿ ذَاتِ الحبك ﴾ الطرائق الحسنة مثل ما يظهر على الماء من هبوب الريح ، وكذلك حبك الشعر آثار تثنيه وتكسره جمع حبيكة كطريقة وطرق .

ويقال : إن خلقة السماء كذلك .

وعن الحسن : حبكها نجومها جمع حباك ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ أي قولهم في الرسول ساحر وشاعر ومجنون وفي القرآن سحر وشعر وأساطير الأولين ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ الضمير للقرآن أو الرسول أي يصرف عنه من صرف ، الصرف الذي لا صرف أشد منه وأعظم ، أو يصرف عنه من صرف في سابق علم الله أي علم فيما لم يزل أن مأفوك عن الحق لا يرعوي .

(173/727)

ويجوز أن يكون الضمير لما توعدون أو للدين ، أقسم بالذاريات على أن وقوع أمر القيامة حق ، ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه فمنهم شاك ومنهم جاحد ، ثم قال : يؤفك عن الإقرار بأمر القيامة من هو مأفوك ﴿ قُتِلَ ﴾ لعن وأصله الدعاء بالقتل والهلاك ثم جرى مجرى لعن ﴿ الخراصون ﴾ الكذابون المقدرون ما لا يصح وهم

أصحاب القول المختلف ، واللام إشارة إليهم كأنه قيل : قتل هؤلاء الخراصون ﴿ الذين هُمْ فِى غَمْرَةٍ ﴾ في جهل يغمرهم ﴿ ساهون ﴾ غافلون عما أمروا به .

﴿ يَسْئَلُونَ ﴾ فيقولون ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الدين ﴾ أي متى يوم الجزاء وتقديره : أيان وقوع يوم الدين لأنه إنما تقع الأحيان ظروفاً للحدثان .

وانتصب اليوم الواقع في الجواب بفعل مضمر دل عليه السؤال أي يقع ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ ويجوز أن يكون مفتوحاً لإضافته إلى غير متمكن وهو الجملة ، ومحله نصب بالمضمر الذي هو يقع أو رفع على هو يوم هم على النار يفتنون يحرقون ويعذبون ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ أي تقول لهم خزنة النار ذوقوا عذابكم وإحراقكم بالنار ﴿ هذا ﴾ مبتدأ خبره ﴿ الذى ﴾ أي هذا العذاب هو الذي ﴿ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ في الدنيا بقولكم ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ ثم ذكر حال المؤمنين فقال .

﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ أي وتكون العيون وهي الأنهار الجارية بحيث يرونها وتقع عليها أبصارهم لا أنهم فيها ﴿ ءاخِذِينَ مَآ ءاتاهم رَبُّهُمْ ﴾ قابلين لكل ما أعطاهم من الثواب راضين به وآخذين حال من الضمير في الظرف وهو خبر إن ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ قبل دخول الجنة في الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ قد أحسنوا أعمالهم وتفسير إحسانهم ما بعده .

﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ ينامون .

و"ما" مزيدة للتوكيد و ﴿ يَهْجَعُونَ ﴾ خبر ﴿ كَانَ ﴾ والمعنى كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل ، أو مصدرية والتقدير : كانوا قليلاً من الليل هجوعهم فيرتفع هجوعهم لكونه بدلاً من الواو في ﴿ كَانُواْ ﴾ لا ب ﴿ قَلِيلاً ﴾ لأنه صار موصوفاً بقوله ﴿ مِّنَ الليل ﴾ خرج من شبه الفعل وعمله باعتبار المشابهة أي كان هجوعهم قليلاً من الليل ، ولا يجوز أن تكون "ما" نافية على معنى أنهم لا يهجعون من الليل قليلاً ويحيونه كله لأن "ما" النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها لا تقول : زيداً ما ضربت ﴿ وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ وصفهم بأنهم يحيون الليل متهجدين فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم ، والسحر السدس الأخير من الليل ﴿ وَفِى أموالهم حَقٌّ للسَّائِلِ ﴾ لمن يسأل لحاجته ﴿ والمحروم ﴾ أي الذي يتعرض ولا يسأل حياء .

﴿ وَفِى الأَرض ءايات ﴾ تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره حيث هي مدحوة كالبساط لما فوقها ، وفيها المسالك والفجاج للمتقلبين فيها وهي مجزأة ؛ فمن سهل ومن جبل وصلبة ورخوة وعذاة وسبخة ، وفيها عيون متفجرة ومعادن مفتنة ودواب منبثة مختلفة الصور والأشكال متباينة الهيئات والأفعال ﴿ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ للموحدين الذين سلكوا الطريق السوي البرهاني الموصّل إلى المعرفة ، فهم نظارون بعيون باصرة وأفهام نافذة كلما رأوا آية عرفوا وجه تأملها فازدادوا إيقاناً على إيقانهم ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ ﴾ في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال ، وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق ما تتحير فيه الأذهان ، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة والبينات القاطعة على حكمة مدبرها وصانعها مع الأسماء والأبصار والأطراف وسائر الجوارح وتأتيها لما خلقت له ، وما سوى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني فإنه إذا جسا منها شيء جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذل ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وما قيل إن التقدير أفلا تبصرون في أنفسكم ضعيف لأنه يفضي إلى تقديم ما في حيز الاستفهام على حرف الاستفهام ﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ تنظرون نظر من يعتبر ﴿ وَفِى السماء رِزْقُكُمْ ﴾ أي المطر لأنه سبب الأقوات ، وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ الجنة

فهي على ظهر السماء السابعة تحت العرش ، أو أراد أن ما ترزقونه في الدنيا وما توعدونه في العقبى كله مقدور مكتوب في السماء .

(176/727)

﴿ فَوَرَبِّ السماء والأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ الضمير يعود إلى الرزق أو إلى ﴿ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ ﴿ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ بالرفع : كوفي غير حفص صفة للحق أي حق مثل نطقكم ، وغيرهم بالنصب أي إنه لحق حقاً مثل نطقكم ، ويجوز أن يكون فتحاً لإضافته إلى غير متمكن و"ما" مزيدة .

وعن الأصمعي أنه قال : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود فقال : من الرجل ؟ فقلت : من بني أصمع .

قال : من أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الله ، قال : اتلو عليّ فتلوت ﴿ والذريات ﴾ فلما بلغت قوله ﴿ وَفِى السماء رِزْقُكُمْ ﴾ قال : حسبك .

فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى ، فلما حججت مع الرشيد وطفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق ، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر فسلم عليّ واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية

صاح وقال : ﴿ قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ﴾ [الأعراف : 44] ثم قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت ﴿ فَوَرَبِّ السماء والأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ فصاح وقال : يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى حلف قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه .

﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ تفخيم للحديث وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما عرفه بالوحي وانتظامها بما قبلها باعتبار أنه قال ﴿ وَفِى الأرض ءايات ﴾ وقال في آخر هذه القصة ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا ءايَةً ﴾ ﴿ حَدِيثُ ضَيْفِ إبراهيم ﴾ الضيف للواحد والجماعة كالصوم والزور لأنه في الأصل مصدر ضافه ، وكانوا اثني عشر ملكاً . وقيل : تسعة عاشرهم جبريل .

(177/727)

وجعلهم ضيفاً لأنهم كانوا في صورة الضيف حيث أضافهم إبراهيم أو لأنهم كانوا في حسبانه كذلك ﴿ المكرمين ﴾ عند الله لقوله ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 26] وقيل : لأنه خدمهم بنفسه وأخدمهم امرأته وعجل لهم القرى ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ نصب ب ﴿ المكرمين ﴾ إذا فسر بإكرام إبراهيم لهم وإلا فبإضمار اذكر ﴿ فَقَالُواْ سَلاَمًا

﴿ مصدر سادٌّ مسد الفعل مستغنى به عنه ، وأصله نسلم عليكم سلاماً ﴾ قَالَ سلام ﴾ أي عليكم سلام فهو مرفوع على الابتداء وخبره محذوف ، والعدول إلى الرفع للدلالة على إثبات السلام كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به أخذاً بأدب الله ، وهذا أيضاً من إكرامه لهم .

حمزة وعلي : سلم والسلم السلام ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ أي أنتم قوم منكرون فعرفوني من أنتم ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ فذهب إليهم في خفية من ضيوفه ومن أدب المضيف أن يخفي أمره وأن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف حذراً من أن يكفه ، وكان عامة مال إبراهيم عليه السلام البقر ﴿ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ ليأكلوا منه فلم يأكلوا ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ أنكر عليهم ترك الأكل أو حثهم عليه ﴿ فَأَوْجَسَ ﴾ فأضمر ﴿ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ خوفاً لأن من لم يأكل طعامك لم يحفظ ذمامك .

عن ابن عباس رضي الله عنهما : وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب ﴿ قَالُواْ لاَ تَخَفْ ﴾ إنا رسل الله ، وقيل : مسح جبريل العجل فقام ولحق بأمه ﴿ وَبَشَّرُوهُ بغلام عَلِيمٍ ﴾ أي يبلغ ويعلم والمبشر به إسحاق عند الجمهور .

﴿ فَأَقْبَلَتِ امرأته فِى صَرَّةٍ ﴾ في صيحة من صر القلم والباب ، قال الزجاج : الصرة شدة الصياح ههنا ومحله النصب على الحال أي فجاءت صارة .

وقيل : فأخذت في صياح وصرتها قولها يا ويلتا ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ فلطمت ببسط يديها .

(178/727)

وقيل : فضربت بأطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي أنا عجوز فكيف ألد كما قال في موضع آخر ﴿ أَأَلِد وَأَنَا عَجُوزٌ وهذا بَعْلِي شَيْخاً ﴾ [هود : 72] ﴿ قَالُواْ كَذَلِكِ ﴾ مثل ذلك الذي قلنا وأخبرنا به ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ أي إنما نخبرك عن الله تعالى والله قادر على ما تستبعدين ﴿ إِنَّهُ هُوَ الحكيم ﴾ في فعله ﴿ العليم ﴾ فلا يخفى عليه شيء .

ورُوي أن جبريل قال لها حين استبعدت : انظري إلى سقف بيتك فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة .

ولما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون إلا بأمر الله رسلاً في بعض الأمور ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ أي فما شأنكم وما طلبكم وفيم أرسلتم ؟ ﴿ أَيُّهَا المرسلون ﴾ أرسلتم بالبشارة خاصة أو لأمر آخر أولهما ﴿ قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ أي قوم لوط ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ أريد السجيل وهو طين طبخ كما يطبخ الآجر حتى صار في

صلابة الحجارة ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ معلمة من السومة وهي العلامة على كل واحد منها اسم من يهلك به ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ في ملكه وسلطانه ﴿ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ سماهم مسرفين كما سماهم عادين لإسرافهم وعدوانهم في عملهم حيث لم يقتنعوا بما أبيح لهم ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا ﴾ في القرية ولم يجر لها ذكر لكونها معلومة ﴿ مِنَ المؤمنين ﴾ يعني لوطاً ومن آمن به ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المسلمين ﴾ أي غير أهل بيت وفيه دليل على أن الإيمان والإسلام واحد لأن الملائكة سموهم مؤمنين ومسلمين هنا ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا ﴾ في قراهم ﴿ ءايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ العذاب الأليم ﴾ علامة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم .

قيل : هي ماء أسود منتن .

﴿ وَفِى موسى ﴾ معطوف على ﴿ وَفِى الأرض ءايات ﴾ أو على قوله ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا ءايَةً ﴾ على معنى وجعلنا في موسى آية كقوله :

علفتها تبناً وماء بارداً . . .

﴿ إِذْ أرسلناه إلى فِرْعَوْنَ بسلطان مُّبِينٍ ﴾ بحجة ظاهرة وهي اليد والعصا ﴿ فتولى ﴾ فأعرض عن الإيمان ﴿ بِرُكْنِهِ ﴾ بما كان يتقوى به من جنوده وملكه ، والركن ما يركن إليه الإنسان من مال وجند ﴿ وَقَالَ ساحر ﴾ أي هو ساحر ﴿ أَوْ مَجْنُونٌ فأخذناه وَجُنُودَهُ فنبذناهم فِى اليم وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ آتٍ بما يلام عليه من كفره وعناده .

وإنما وصف يونس عليه السلام به في قوله ﴿ فالتقمه الحوت وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (الصافات) 142) لأن موجبات اللوم تختلف وعلى حسب اختلافها تختلف مقادير اللوم ، فراكب الكفر ملوم على مقداره ، وراكب الكبيرة والصغيرة والذلة كذلك ، والجملة مع الواو حال من الضمير في ﴿ فأخذناه ﴾ .

(180/727)

﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الريح العقيم ﴾ هي التي لا خير فيها من إنشاء مطر أو إلقاح شجر وهي ريح الهلاك ، واختلف فيها والأظهر أنها الدبور لقوله عليه السلام : " نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور " ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كالرميم ﴾ هو كل ما رم أي بلي وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك ، والمعنى ما تترك من شيء هبت عليه من أنفسهم وأنعامهم وأموالهم إلا أهلكته ﴿ وَفِى ثَمُودَ ﴾ آية أيضاً ﴿ إِذْ قِيلَ لَهُمْ

تَمَتَّعُواْ حتى حِينٍ ﴾ تفسيره قوله ﴿ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثلاثة أَيَّامٍ ﴾ [هود : 65] ﴿ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ فاستكبروا عن امتثاله ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة ﴾ العذاب وكل عذاب مهلك صاعقة ﴿ الصعقة ﴾ علي وهي المرة من مصدر صعقتهم الصاعقة ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ لأنها كانت نهاراً يعاينونها ﴿ فَمَا استطاعوا مِن قِيَامٍ ﴾ أي هرب أو هو من قولهم ما يقوم به إذا عجز عن دفعه ﴿ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾ ممتنعين من العذاب أو لم يمكنهم مقابلتنا بالعذاب لأن معنى الانتصار المقابلة ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ أي وأهلكنا قوم نوح لأن ما قبله يدل عليه ، أو واذكر قوم نوح .

وبالجر أبو عمرو وعلي وحمزة أي وفي قوم نوح آية ويؤيده قراءة عبد الله ﴿ وَفِى قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل هؤلاء المذكورين ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ كافرين .

﴿ والسماء ﴾ نصب بفعل يفسره ﴿ بنيناها بِأَيْيْدٍ ﴾ بقوة والأيد القوة ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ لقادرون من الوسع وهي الطاقة والموسع القوي على الإنفاق أو لموسعون ما بين السماء والأرض ﴿ والأرض فرشناها ﴾ بسطناها ومهدناها وهي منصوبة بفعل مضمر أي فرشنا الأرض فرشناها ﴿ فَنِعْمَ الماهدون ﴾ نحن ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من الحيوان ﴿ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ ذكراً وأنثى .

وعن الحسن : السماء والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والبر والبحر والموت والحياة ، فعدد أشياء وقال كل اثنين منها زوج والله تعالى فرد لا مثل له ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج لتتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه ﴿ فَفِرُّواْ إِلَى الله ﴾ أي من الشرك إلى الإيمان بالله أو من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن أو مما سواه إليه ﴿ إِنِّى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * وَلاَ تَجْعَلُواْ مَعَ الله إِلَهاً ءاخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ والتكرير للتوكيد والإطالة في الوعيد أبلغ .

﴿ كذلك ﴾ الأمر مثل ذلك وذلك إشارة إلى تكذيبهم الرسول وتسميته ساحراً أو مجنوناً .

(182/727)

ثم فسر ما أجمل بقوله ﴿ مَا أَتَى الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من قبل قومك ﴿ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُواْ ﴾ هو ﴿ ساحر أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ رموهم بالسحر أو الجنون لجهلهم ﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِ ﴾ الضمير للقول أي أتواصى الأولون والآخرون بهذا القول حتى قالوه جميعاً متفقين عليه ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغون ﴾ أي لم يتواصوا به لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد بل جمعتهم العلة

الواحدة وهي الطغيان والطغيان هو الحامل عليه ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عن الذين كررت عليهم الدعوة فلم يجيبوا عناداً ﴿ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ فلا لوم عليك في إعراضك بعدما بلغت الرسالة وبذلت مجهودك في البلاغ والدعوة ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ وعظ بالقرآن ﴿ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ بأن تزيد في عملهم ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ العبادة إن حملت على حقيقتها فلا تكون الآية عامة بل المراد بها المؤمنون من الفريقين دليله السياق أعني ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ وقراءة ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس مِنَ المؤمنين ﴾ وهذا لأنه لا يجوز أن يخلق الذين علم منهم أنهم لا يؤمنون للعبادة لأنه إذا خلقهم للعبادة وأراد منهم العبادة فلا بد أن توجد منهم ، فإذا لم يؤمنوا علم أنه خلقهم لجهنم كما قال : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الجن والإنس ﴾ [الأعراف : 179] .

وقيل : إلا لآمرهم بالعبادة وهو منقول عن علي رضي الله عنه .

وقيل : إلا ليكونوا عباداً لي .

والوجه أن تحمل العبادة على التوحيد فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : كل عبادة في القرآن فهي توحيد .

والكل يوحدونه في الآخرة لما عرفه أن الكفار كلهم مؤمنون موحدون في الآخرة دليلة قوله ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] .

نعم قد أشرك البعض في الدنيا بالإضافة إلى الأبد أقل من يوم ، ومن اشترى غلاماً وقال : ما اشتريته إلا للكتابة كان صادقاً في قوله ما اشتريته إلا للكتابة ، وإن استعمله في يوم من عمره لعمل آخر ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ ما خلقتهم ليرزقوا أنفسهم أو واحداً من عبادي ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ قال ثعلب : أن يطعموا عبادي وهي إضافة تخصيص كقوله عليه السلام خبراً عن الله تعالى :

" من أكرم مؤمناً فقد أكرمني ومن آذى مؤمناً فقد آذاني " ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الرزاق ذُو القوة المتين ﴾ الشديد القوة والمتين بالرفع صفة لذو ، وقرأ الأعمش بالجر صفة للقوة على تأويل الاقتدار ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ رسول الله بالتكذيب من أهل مكة ﴿ ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أصحابهم ﴾ نصيباً من عذاب الله مثل نصيب أصحابهم ونظرائهم من القرون المهلكة .

قال الزجاج : الذنوب في اللغة النصيب ﴿ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ نزول العذاب وهذا جواب النضر وأصحابه حين استعجلوا العذاب ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ الذى يُوعَدُونَ ﴾ أي من يوم القيامة .

وقيل : من يوم بدر ﴿ ليعبدوني ﴾ ، ﴿ أن يطعموني ﴾ .

﴿ فَلا يستعجلوني ﴾ بالياء في الحالين : يعقوب ، وافقه سهل في الوصل الباقون بغير ياء ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 182.189 ﴾

(184/727)

وقال ابن جزى :

سورة الذاريات

﴿ والذاريات ذَرْواً ﴾

هي الريح تذرو التراب وغيره ، ومنه قوله تعالى : ﴿ تَذْرُوهُ الرياح ﴾ [الكهف : 45] وانتصب ذرواً على المصدرية ﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ هي السحاب تحمل المطر ، والوقر : الحمل وهو مفعول به ﴿ فالجاريات يُسْراً ﴾ هي السفن تجري في البحر ، وإعراب يسراً صفة لمصدر محذوف ومعناه بسهولة ﴿ فالمقسمات أَمْراً ﴾ هي الملائكة تقسم أمر الملكوت من الأرزاق والآجال وغير ذلك ، وأمراً مفعول به ، وقيل : إن الحاملات وقراً : السفن ، وقيل : جميع الحيوان الحامل ، وقيل : إن الجاريات يسراً : السحاب ، وقيل : الجواري من الكواكب والأول أشهر ، وهو قول علي بن أبي طالب .

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ هذا جواب القسم ويحتمل : ﴿ تُوعَدُونَ ﴾ أن يكون من

الوعد أو من الوعيد ، والأظهر ؛ أنه يراد به البعث في الآخرة وهو يشمل الوعد والوعيد ﴿ وَإِنَّ الدين لَوَاقِعٌ ﴾ الدين هنا الجزاء ، وقيل : الحساب ﴿ والسمآء ذَاتِ الحبك ﴾ أي ذات الطرائق ، مثل الطرائق التي تكون في الماء إذا هبت عليه الرياح ، وكذلك حُبُك الزرع ، وهي الطرائق التي فيه . وقيل : الحبك : النجوم . وقيل : زينة السماء وقيل : حسن خلقتها وواحد الحبك حباك أو حبيكة .

﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لجميع الناس ، لأنهم اختلفوا فمنهم مؤمن ومنهم كافر ، ويحتمل أن يكون خطاباً للكفار خاصة ، لأنهم اختلفوا فقال بعضهم : ساحر ، وقال بعضهم : كاهن وقال بعضهم : شاعر .

(185/727)

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ معنى يؤفك : يصرف ، والضمير في عنه يحتمل أربعة أوجه أحدها : أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم أو للقرآن أو للإسلام والمعنى : يصرف عن الإيمان به من صرف ، أي من سبق في علم الله أنه مصروف . والثاني : أن يكون الضمير لما توعدون أو للدين ، والمعنى يصرف عن الإيمان به من صرف . الثالث : أن يكون الضمير للقول المختلف ، والمعنى يصرف عن ذلك القول إلى الإسلام من قضى الله بسعادته ، وهذا

القول حسن ، إلا أن عرف الاستعمال في أفك ويؤفك إنما هو في العرف من خير إلى شر ، وهذا من شر إلى خير . الرابع : أن يكون الضمير للقول المختلف ، وتكون عن سببية والمعنى : يصرف بسبب ذلك القول من صرف عن الإيمان .

﴿ قُتِلَ الخراصون ﴾ دعاء عليهم كقولهم : قاتلك الله ، وقيل : قُتل بمعنى لعن ، قال بان عطية : واللفظ لا يقتضي ذلك وقال الزمخشري : أصله الدعاء بالقتل ، ثم جرى مجرى لعن وقبح ، والخراصون الكذابون ، وأصل الخرص : التخمين والقول بالظن والإشارة إلى الكفار ، وقيل : إلى الكهان والأول أظهر ﴿ الذين هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ الغمرة ما يغطى عقل الإنسان ، وأصله من غمرة الماء ، والمراد به هنا الجهالة والغفلة عن النظر ﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدين ﴾ أي يقولون : متى يوم الدين على وجه الاستبعاد والاستخفاف ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ هذا جواب عن سؤالهم ، ومعنى يفتنون : يحرقون ويعذبون ، ومنه قيل للحرّة : فتين لأن الشمس أحرقت حجارتها ، ويحتمل أن يكون يومهم معرباً والعامل فيه مضمر تقديره : يقع ذلك يوم هم على النار يفتنون ، وأن يكون مبنياً لإضافته إلى مبني ، وعلى هذا يجوز أن يكون في موضع نصب بالفعل المضمر حسبما ذكرنا ، أو في موضع رفع والتقدير هو : يوم هم على النار يفتنون ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ أي يقال لهم : ذوقوا حرقتكم .

﴿ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ يعني يأخذون في الجنة ما أعطاهم ربهم من الخيرات والنعيم ، وقيل : المعنى آخذين في الدنيا ما آتاهم ربهم من شرعه ، والأول أظهر وأرجح لدلالة الكلام عليه .

﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ الهجوع النوم . وفي معنى الآية قولان : أحدهما : وهو الصحيح : أنهم كانوا ينامون قليلاً من الليل ، ويقطعون أكثر الليل بالسهر في الصلاة والتضرع والدعاء ، والآخر : أنهم كانوا لا ينامون بالليل قليلاً ولا كثيراً ويختلف الإعراب باختلاف المعنيين ؛ فأما على القول الأول ففي الإعراب أربعة أوجه : الأول أن يكون قليلاً خبر كانوا وما يهجعون فاعل بقليلاً ، لأن قليلاً صفة مشبهة باسم الفاعل ، وتكون ما مصدرية ، والتقدير : كانوا قليلاً هجوعهم من الليل ، والثاني : مثل هذا إلا أن ما موصولة والتقدير : كانوا قليلاً الذين يهجعون فيه من الليل ، والثالث : أن تكون ما زائدة ، وقليلاً ظرف ، والعامل فيه يهجعون ، والتقدير : كانوا يهجعون وقتاً قليلاً من الليل ، والرابع : مثل هذا إلا أن قليلاً صفة لمصدر محذوف ، والتقدير : كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً ، وأما على القول الثاني في الإعراب وجهان : أحدهما أن تكون ما نافية ، وقليلاً ظرف ، والعامل فيه يهجعون ، والتقدير : كانوا ما يهجعون قليلاً من الليل ، والآخر أن تكون ما نافية ، وقليلاً خبر كان ، والمعنى كانوا قليلاً في الناس ، ثم ابتدأ بقوله : ﴿ مِّنَ الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ وكلا

الوجهين باطل عند أهل العربية ، لأن ما نافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، فظهر ضعف هذا المعنى لبطلان إعرابه .

﴿ وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أي يطلبون من الله مغفرة ذنوبهم ، والأسحار آخر الليل ، وقد جاء في الحديث " أن الله تعالى يقول في الثلث الآخر من الليل ، من يستغفرني فأغفر له " ، وقيل : معنى يستغفرون : يصلون وهذا بعيد من اللفظ .

(187/727)

﴿ وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّآئِلِ والمحروم ﴾ الحق هنا نوافل الصدقات ، وقيل : المراد الزكاة وهذا بعيد ؛ لأن الآية مكية ، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة ، وقيل : إن الآية منسوخة بالزكاة ، وهذا لا يحتاج إليه لأن النسخ إنما يكون مع التعارض ، ولا تعارض بين الزكاة والنوافل . وتسمية النوافل بالحق كقوله : ﴿ حَقّاً عَلَى المحسنين ﴾ [البقرة : 236] وإن كان غير واجب ، وقال بعض العلماء : حق سوى الزكاة . ورجحه ابن عطية . واختلف الناس في المحروم حتى قال الشعبي : أعياني أن أعلم ما المحروم ، وقيل : المحروم الذي ليس له في بيت المال سهم ، وقيل : الذي اجتيحت ثمرته ، وقيل : الذي ماتت ماشيته ، والمعنى الجامع لها أن المحروم هو الفقير المستور الحال .

﴿ وفي أَنفُسِكُمْ ﴾ إشارة إلى ما في خلقة الإنسان من الآيات والعبر ، ولقد قال بعض العلماء فيه : أن فيه خمسة آلاف حكمة ، وقال بعضهم : الإنسان نسخة مختصرة من العالم .

﴿ وَفِي السمآء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ معنى : ﴿ وَفِي السمآء رِزْقُكُمْ ﴾ : المطر ، وقيل : القضاء والقدر ، ويحتمل أن يكون ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ من الوعد والوعيد والكل في السماء ، ولذلك قيل : يعني الجنة والنار . وقيل : الخير والشر .

﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ هذا جواب القسم ، والضمير لما تقدم من الآيات أو الرزق أو لما توعدون ﴿ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ أي حق مثل نطقكم لا يمكن الشك فيه ، وما زائدة : وقرئ مثل بالنصب والرفع فالرفع صفة لحق ، والنصب على الحال من حق أو من الضمير المستتر فيه ، أو صفة لحق وبُني لإضافته إلى مبني ، أو لتركيبه مع ما فيصير نحو إينما وكلما .

(188/727)

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المكرمين ﴾ المراد بالاستفهام في مثل هذا التفخيم والتهويل ، و ﴿ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ هم الملائكة الذين جاؤوا ليبشروه بالولد وبإهلاك قوم لوط ، ووصفهم بالمكرمين لأنهم مكرمون عند الله ، ولأن إبراهيم عليه السلام أكرمهم ، لأنه

خدمهم بنفسه وعجل لهم الضيافة ، والعامل في ﴿ إِذْ دَخَلُواْ ﴾ على هذا : المكرمين ، ويحتمل أن يكون العامل فيه محذوف تقديره : اذكر ﴿ فَقَالُواْ سَلاَماً ﴾ نصب هذا لأنه في معنى الطلب وهو مفعول بفعل مضمر ، ورفع الثاني لأنه خبر تقديره : أمري سلام ، وهذا على أن يكون السلام بمعنى السلامة ، وإن كان بمعنى التحية فإنما رفع الثاني ليدل على إثبات السلام ، فيكون قد حياهم بأكثر مما حيوه ، وينتصب السلام الأول على هذا على المصدرية تقديره : سلمنا عليك سلاماً ، ويرتفع الثاني بالابتداء تقديره : سلام عليكم قوم منكرون أي لم يعرفهم .

﴿ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ ﴾ يحتمل أن يكون ألا حضاً على الأكل ، أو تكون الهمزة للإنكار دخلت على لا النافية .

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ إنما خاف منهم لما لم يأكلوا هو ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ ﴾ هو إسحاق عليه السلام لقوله : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾ [هود : 71] .

﴿ فِي صَرَّةٍ ﴾ أي صيحة ، وذلك قولها : ﴿ يا ويلتى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ ﴾ [هود : 72] وهو من صرّا لقلم وغيره إذا صوّت ، وقيل : معناه في جماعة في النساء ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ أي ضربته حياء منهم وتعجباً من ولادتها وهي عجوز ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ تقديره : قالت أنا عجوز عقيم فكيف ألد ؟ أو تقديره : أتلد عجوز عقيم ؟

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ أي ما شأنكم وخبركم ، والخطب أكثر ما يقال في الشدائد ﴿

قالوا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ يعني قوم سيدنا لوط ، وقد ذكرنا الحجارة ومسومة في هود .

(189/727)

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ المؤمنين ﴾ الضمير المجرور لقرية قوم سيدنا لوط ، لأن الكلام يدل عليها وإن لم يتقدم ذكرها ، والمراد بالمؤمنين لوط وأهله : أمرهم الله بالخروج من القرية لينجو من العذاب الذي أصاب أهلها ، ووصفهم بالمؤمنين وبالمسلمين لأنهم جمعوا الوصفين وقد ذكرنا معنى الإسلام والإيمان في الأحزاب .

﴿ وَفِي موسى ﴾ معطوف على قوله ﴿ وَفِي الأرض آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات : 20] أو على قوله : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ آيَةً ﴾ ﴿ فتولى بِرُكْنِهِ ﴾ معنى تولى أعرض عن الإيمان ، وركنه سلطانه وقوته ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ أي قالوا إن موسى ساحر أو مجنون : فأو للشك أو للتقسيم ، وقيل : بمعنى الواو وهذا ضعيف ولا يستقيم هنا ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي فعل ما يلام عليه يعني فرعون .

﴿ الريح العقيم ﴾ وصفها بالعقم ، لأنها لا بركة فيها من إنشاء المطر أو إلقاح الشجر ﴿ كالرميم ﴾ أي الفاني المنقطع ، والعموم هنا يراد به الخصوص فيما أذن للريح أن تهلكه .

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حتى حِينٍ ﴾ فيه قولان : أحدهما أن الحين هي الثلاثة الأيام بعد عقرهم الناقة والآخر أن الحين من بعد ما بعث صالح عليه السلام إلى حين هلاكهم ، وعلى هذا يكون : فعتوا مترتباً بعد تمتعهم ، وأما على الأول فيكن إخباراً عن حالهم غير مرتب على ما قبله ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة ﴾ يعني الصيحة التي صاحها جبريل ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ أي يعاينونها لأنها كانت بالنهار .

(190/727)

﴿ والسمآء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ أي بقوة ، وانتصاب السماء بفعل مضمر ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أن معناه قادرون فهو من الوسع وهو الطاقة ، ومنه ﴿ عَلَى الموسع قَدَرُهُ ﴾ [البقرة : 236] أي القوي على الإنفاق ، والآخر جعلنا السماء واسعة ، أو جعلنا بينها وبين الأرض سعة ، والثالث أوسعنا الأرزاق بمطر السماء ﴿ فَنِعْمَ الماهدون ﴾ الماهد الموطئ للموضع .

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ أي نوعين مختلفين كالليل والنهار ، والسواد والبياض ، والصحة والمرض وغير ذلك .

﴿ ففروا إِلَى الله ﴾ أمر بالرجوع إليه بالتوبة والطاعة وفي اللفظ تحذير وترهيب .

﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِ ﴾ توقيف [سؤال] وتعجيب أي هم بمثابة من أوصى بعضهم بعضاً أن يقول ذلك .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ منسوخ بالسيف ﴿ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ أي قد بلغت الرسالة فلا لوم عليك .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ قيل : معناه خلقتهم لكي آمرهم بعبادتي ، وقيل ليتذللوا لي : فإن جميع الإنس والجن متذلل ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ أي ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ أي لا أريد أن يطعمون ، لأني منزه عن الأكل وعن صفات البشر ، وأنا غني عن العالمين ، وقيل : المعنى ما أريد أن يطعموا عبيدي ، فحذف المضاف تجوزاً ، وقيل : معناه ما أريد أن ينفعوني لأني غنيّ عنهم ، وعبَّر عن النفع العام بالإطعام ، والأول أظهر ﴿ المتين ﴾ أي الشديد القوة .

(191/727)

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوباً ﴾ الذنوب النصيب ، ويريد به هنا نصيباً من العذاب ، وأصل الذنوب الدَلْو ، والمراد بالذين ظلموا كفار قريش ، وبأصحابهم من تقدم من الكفر ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ الذي يُوعَدُونَ ﴾ يحتمل أن يريد يوم القيامة أو يوم هلاكهم ببدر ،

والأول أرجح لقوله في المعارج ﴿ ذَلِكَ اليوم الذي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: 44] يعني يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 67. 71 ﴾

(192/727)

وقال البيضاوى :

سورة الذاريات

مكية وآيها ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ والذاريات ذَرْواً ﴾

يعني الرياح تذرو التراب وغيره ، أو النساء الولود فإنهن يذرين الأولاد ، أو الأسباب التي تذري الخلائق من الملائكة وغيرهم . وقرأ أبو عمرو وحمزة بإدغام التاء في الذال .

﴿ فالحاملات وِقْراً ﴾ فالسحب الحاملة للأمطار ، أو الرياح الحاملة للسحاب ، أو النساء الحوامل ، أو أسباب ذلك . وقرىء "وِقْراً" على تسمية المحمول بالمصدر .

﴿ فالجاريات يُسْراً ﴾ فالسفن الجارية في البحر سهلاً ، أو الرياح الجارية في مهابها ، أو الكواكب التي تجري في منازلها . و﴿ يُسْراً ﴾ صفة مصدر محذوف أي جرياً ذا يسر .

﴿ فالمقسمات أَمْراً ﴾ الملائكة التي تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها ، أو ما يعمهم وغيرهم من أسباب القسمة ، أو الريح يقسمن الأمطار بتصريف السحاب ، فإن حملت على ذوات مختلفة بالفاء لترتيب الأقسام بها باعتبار ما بينها من التفاوت في الدلالة على كمال القدرة ، وإلا فالفاء لترتيب الأفعال إذ الرياح مثلاً تذرو الأبخرة إلى الجو حتى تنعقد سحاباً ، فتحمله فتجري به باسطة له إلى حيث أمرت به فتقسم المطر . ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لصادق ﴾ .

﴿ وَإِنَّ الدين لَوَاقِعٌ ﴾ جواب القسم كأنه استدل باقتداره على هذه الأشياء العجيبة المخالفة لمقتضى الطبيعة على اقتداره على البعث للجزاء الموعود ، وما موصولة أو مصدرية و﴿ الدين ﴾ الجزاء والواقع الحاصل .

﴿ والسماء ذَاتِ الحبك ﴾ ذات الطرائق ، والمراد إما الطرائق المحسوسة التي هي مسير الكواكب أو المعقولة التي يسلكها النظار وتتوصل بها إلى المعارف ، أو النجوم فإن لها طرائق أو أنها تزينها كما يزين الموشي طرائق الوشي . جمع حبيكة كطريقة وطرق أو حباك كمثال ومثل . وقرىء " الحبك" بالسكون و"الحبك "كالإِبل و" الحبك "كالسلك و"الحبك"كالجبل و" الحبك"كالنعم و" الحبك "كالبرق .

﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ في الرسول صلى الله عليه وسلم وهو قولهم تارة أنه ﴿ شَاعِرٌ ﴾ وتارة أنه ﴿ ساحر ﴾ وتارة أنه ﴿ مَّجْنُونٍ ﴾ ، أو في القرآن أو القيامة أو أمر الديانة ، ولعل النكتة في هذا القسم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بطرائق السموات في تباعدها واختلاف غاياتها .

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ يصرف عنه والضمير للرسول أو القرآن أو الإيمان ، من صرف إذ لا صرف أشد منه فكأنه لا صرف بالنسبة إليه ، أو يصرف من صرف في علم الله وقضائه ويجوز أن يكون الضمير لل ﴿ قَوْلَ ﴾ على معنى يصدر ﴿ أُفِكَ ﴾ من أفك عن القول المختلف وبسببه كقوله :

ينهون عن أكل وعن شرب . . . أي يصدر تناهيهم عنهما وسببهما وقرىء ﴿ أُفِكَ ﴾ بالفتح أي من أفك الناس وهم قريش كانوا يصدون الناس عن الإيمان .

﴿ قُتِلَ الخرصون ﴾ الكذابون من أصحاب القول المختلف ، وأصله الدعاء بالقتل أجري مجرى اللعن .

﴿ الذين هُمْ فِى غَمْرَةٍ ﴾ في جهل يغمرهم . ﴿ ساهون ﴾ غافلون عما أمروا به .

﴿ يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدين ﴾ أي فيقولون متى يوم الجزاء أي وقوعه ، وقرىء ﴿ إِيَّانَ ﴾ بالكسر .

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ يحرقون جواب للسؤال أي يقع ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ ، أو هو ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ ، وفتح ﴿ يَوْمٍ ﴾ لإِضافته إلى غير متمكن ويدل عليه أنه قرىء بالرفع .

﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ أي مقولاً لهم هذا القول . ﴿ هذا الذى كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ هذا العذاب هو الذي كنتم به تستعجلون ، ويجوز أن يكون هذا بدلاً من ﴿ فِتْنَتَكُمْ ﴾ و ﴿ الذى ﴾ صفته .

(194/727)

﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَعُيُونٍ ءاخِذِينَ مَا ءاتاهم رَبُّهُمْ ﴾ قابلين لما أعطاهم راضين به ، ومعناه أن كل ما آتاهم حسن مرضي متلقى بالقبول . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ قد أحسنوا أعمالهم وهو تعليل لاستحقاقهم ذلك .

﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مّن اليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ تفسير لإِحسانهم و ﴿ مَا ﴾ مزيدة أي يهجعون في طائفة من الليل ، أو ﴿ يَهْجَعُونَ ﴾ هجوعاً قليلاً أو مصدرية أو موصولة أي في قليل من الليل هجوعهم ، أو ما يهجعون فيه ولا يجوز أن تكون نافية لأن ﴿ مَا ﴾ بعدها لا يعمل فيما قبلها . وفيه مبالغات لتقليل نومهم واستراحتهم ذكر القليل و ﴿ اليل ﴾ الذي هو

وقت السبات ، والهجوع الذي هو الفرار من النوم وزيادة ﴿ مَا ﴾ .

﴿ وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أي أنهم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم إذا أسحروا أخذوا في الاستغفار كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم ، وفي بناء الفعل على الضمير إشعاراً بأنهم أحقاء بذلك لوفور علمهم بالله وخشيتهم منه .

﴿ وَفِى أموالهم حَقٌّ ﴾ نصيب يستوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله وإشفاقاً على الناس . ﴿ لِّلسَّائِلِ والمحروم ﴾ للمستجدي والمتعفف الذي يظن غنياً فيحرم الصدقة .

﴿ وَفِى الأرض ءايات لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ أي فيها دلائل من أنواع المعادن والحيوانات ، أو وجوه دلالات من الدحو والسكون وارتفاع بعضها عن الماء واختلاف أجزائها في الكيفيات والخواص والمنافع ، تدل على وجود الصانع وعلمه وقدرته وإرادته ووحدته وفرط رحمته .

﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ ﴾ أي وفي أنفسكم آيات إذ ما في العالم شيء إلا وفي الإنسان له نظير يدل دلالته مع ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة ، والتمكن من الأفعال الغريبة واستنباط الصنائع المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة . ﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ تنظرون نظر من يعتبر .

﴿ وَفِى السماء رِزْقُكُمْ ﴾ أسباب رزقكم أو تقديره . وقيل المراد ب ﴿ السماء ﴾ السحاب وبالرزق المطر فإنه سبب الأقوات . ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ من الثواب لأن الجنة فوق السماء السابعة ، أو لأن الأعمال وثوابها مكتوبة مقدرة في السماء . وقيل إنه مستأنف خبره :

﴿ فَوَرَبّ السماء والأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ وعلى هذا فالضمير ل ﴿ مَا ﴾ وعلى الأول يحتمل أن يكون له ولما ذكر من أمر الآيات والرزق والوعد . ﴿ مّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ أي مثل نطقكم كما أنه لا شك لكم في أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكوا في تحقق ذلك ، ونصبه على الحال من المستكن في لحق أو الوصف لمصدر محذوف أي أنه لحق حقاً مثل نطقكم . وقيل إنه مبني على الفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو ما إن كانت بمعنى شيء ، وإن بما في حيزها إن جعلت زائدة ومحله الرفع على أنه صفة ﴿ لَحَقٌّ ﴾ ، ويؤيده قراءة حمزة والكسائي وأبي بكر بالرفع .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إبراهيم ﴾ فيه تفخيم لشأن الحديث وتنبيه على أنه أوحي إليه ، والضيف في الأصل مصدر ولذلك يطلق على الواحد والمتعدد . قيل كانوا إثني عشر ملكاً . وقيل ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل ، وسماهم ضيفاً لأنهم كانوا في صورة الضيف . ﴿ المكرمين ﴾ أي مكرمين عند الله أو عند إبراهيم إذ خدمهم بنفسه

وزوجته .

﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ ظرف لل ﴿ حَدِيثُ ﴾ أو ال ﴿ ضَيْفِ ﴾ أو ﴿ المكرمين ﴾ . ﴿ فَقَالُواْ سَلاَمًا ﴾ أي نسلم عليك سلاماً . ﴿ قَالَ سلام ﴾ أي عليكم سلام عدل به إلى الرفع بالابتداء لقصد الثبات حتى تكون تحيته أحسن من تحيتهم ، وقرئا مرفوعين وقرأ حمزة والكسائي "قال سلم" وقرىء منصوباً والمعنى واحد . ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ أي أنتم قوم منكرون ، وإنما أنكرهم لأنه ظن أنهم بنو آدم ولم يعرفهم ، أو لأن السلام لم يكن تحيتهم فإنه علم الإِسلام وهو كالتعرف عنهم .

(196/727)

﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ فذهب إليهم في خفية من ضيفه فإن من أدب المضيف أن يبادر بالقرى حذراً من أن يكفه الضيف أو يصير منتظراً . ﴿ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ لأنه كان عامة ماله البقر .

﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ بأن وضعه بين أيديهم . ﴿ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ ﴾ أي منه ، وهو مشعر بكونه حنيذا ، والهمزة فيه للعرض والحث على الأكل على طريقة الأدب أن قاله أول ما وضعه ، وللإِنكار إن قاله حينما رأى إعراضهم .

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ فأضمر منهم خوفاً لما رأى إعراضهم عن طعامه لظنه أنهم جاؤوه لشر . وقيل وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب . ﴿ قَالُواْ لاَ تَخَفْ ﴾ إنا رسل الله . قيل مسح جبريل العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه فعرفهم وأمن منهم .

﴿ وَبَشَّرُوهُ بغلام ﴾ هو اسحاق عليه السلام . ﴿ عَلِيمٌ ﴾ يكمل علمه إذ بلغ .

﴿ فَأَقْبَلَتِ امرأته ﴾ سارة إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم . ﴿ فِى صَرَّةٍ ﴾ في صيحة من الصرير ، ومحله النصب على الحال أو المفعول إن أول فأقبلت بأخذت . ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ فلطمت بأطراف الأصابع جبهتها فعل المتعجب . وقيل وجدت حرارة دم الحيض فلطمت وجهها من الحياء . ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي أنا عجوز عاقر فكيف ألد .

﴿ قَالُواْ كَذَلِكِ ﴾ مثل ذلك الذي بشرنا به . ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ وإنما نخبرك به عنه . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الحكيم العليم ﴾ فيكون قوله حقاً وفعله محكماً .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون ﴾ لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون مجتمعين إلا لأمر عظيم سأل عنه .

﴿ قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ يعنون قوم لوط .

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ يريد السجيل فإنه طين متحجر .

﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ مرسلة من أسمت الماشية ، أو معلمة من السومة وهي العلامة .

﴿ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ المجاوزين الحد في الفجور .

(197/727)

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا ﴾ في قرى قوم لوط وإضمارها ولم يجر ذكرها لكونها معلومة .

﴿ مِنَ المؤمنين ﴾ ممن آمن بلوط .

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المسلمين ﴾ غير أهل بيت من المسلمين ، واستدل به على اتحاد الإيمان والإسلام وهو ضعيف لأن ذلك لا يقتضي إلا من صدق المؤمن والمسلم على من اتبعه ، وذلك لا يقتضي اتحاد مفهوميهما لجواز صدق المفهومات المختلفة على ذات واحدة .

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا ءايَةً ﴾ علامة . ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ العذاب الأليم ﴾ فإنهم المعتبرون بها وهي تلك الأحجار ، أو صخر منضود فيها أو ماء أسود منتن .

﴿ وَفِى موسى ﴾ عطف على ﴿ وَفِى الأرض ﴾ ، أو ﴿ تَرَكْنَا فِيهَا ﴾ على معنى وجعلنا في موسى كقوله :

علفتها تبناً وماء بارداً . . . ﴾

إِذْ أرسلناه إلى فِرْعَوْنَ بسلطان مُّبِينٍ ﴾ هو معجزاته كالعصا واليد .

﴿ فتولى بِرُكْنِهِ ﴾ فأعرض عن الإيمان به كقوله ﴿ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ أو فتولى بما كان يتقوى به من جنوده ، وهو اسم لما يركن إليه الشيء ويتقوى به . وقرىء بضم الكاف . ﴿ وَقَالَ ساحر ﴾ أي هو ساحر . ﴿ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ كأنه جعل ما ظهر عليه من الخوارق منسوباً إلى الجن ، وتردد في أنه حصل ذلك باختياره وسعيه أو بغيرهما .

﴿ فأخذناه وَجُنُودَهُ فنبذناهم فِى اليم ﴾ فأغرقناهم في البحر . ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ آت بما يلام عليه من الكفر والعناد ، والجملة حال من الضمير في ﴿ فأخذناه ﴾ .

﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الريح العقيم ﴾ سماها عقيماً لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم ، أو لأنها لم تتضمن منفعة ، وهي الدبور أو الجنوب أو النكباء .

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ ﴾ مرت . ﴿ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كالرميم ﴾ كالرماد من الرم وهو البلى والتفتت .

(198/727)

﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حتى حِينٍ ﴾ تفسيره قوله : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثلاثة أَيَّامٍ ﴾ ﴿ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ فاستكبروا عن امتثاله . ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة ﴾ أي

العذاب بعد الثلاث. وقرأ الكسائي "الصعقة" وهي المرة من الصعق. ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ إليها فإنها جاءتهم معاينة بالنهار.

﴿ فَمَا استطاعوا مِن قِيَامٍ ﴾ كقوله: ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جاثمين ﴾ وقيل من قولهم ما يقوم به إذا عجز عن دفعه. ﴿ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾ ممتنعين منه.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ أي وأهلكنا قوم نوح لأن ما قبله يدل عليه. أو أذكر ويجوز أن يكون عطفاً على محل ﴿ فِى عَادٍ ﴾، ويؤيده قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي بالجر. ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل هؤلاء المذكورين. ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ خارجين عن الاستقامة بالكفر والعصيان.

﴿ والسماء بنيناها بِأَيْدٍ ﴾ بقوة. ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة والموسع القادر على الإنفاق. أو ﴿ لَمُوسِعُونَ ﴾ السماء أو ما بينها وبين الأرض أو الرزق.

﴿ والأرض فرشناها ﴾ مهدناها لتستقروا عليها. ﴿ فَنِعْمَ الماهدون ﴾ أي نحن.

﴿ وَمِن كُلّ شَىْء ﴾ من الأجناس. ﴿ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ نوعين ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعلمون أن التعدد من خواص الممكنات وأن الواجب بالذات لا يقبل التعدد والانقسام.

﴿ فَفِرُّواْ إِلَى الله ﴾ من عقابه بالإيمان والتوحيد وملازمة الطاعة. ﴿ إِنّى لَكُمْ مّنْهُ ﴾ أي من عذابه المعد لمن أشرك أو عصى. ﴿ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ بين كونه منذراً من الله

بالمعجزات ، أو ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ما يجب أن يحذر عنه .

﴿ وَلاَ تَجْعَلُواْ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾ إفراد لأعظم ما يجب أن يفر منه . ﴿ إِنّى لَكُمْ مّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ تكرير للتأكيد ، أو الأول مرتب على ترك الإيمان والطاعة والثاني على الإشراك .

(199/727)

﴿ كذلك ﴾ أي الأمر مثل ذلك ، والإشارة إلى تكذيبهم الرسول وتسميتهم إياه ﴿ ساحراً أو مجنوناً ﴾ وقوله : ﴿ مَا أَتَى الذين مِن قَبْلِهِمْ مّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُواْ ساحر أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ كالتفسير له ، ولا يجوز نصبه ب ﴿ أتى ﴾ أو ما يفسره لأن ما بعد ﴿ مَا ﴾ النافية لا يعمل فيما قبلها .

﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِ ﴾ أي كأن الأولين والآخرين منهم أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول حتى قالوه جميعاً . ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغون ﴾ إضراب عن أن التواصي جامعهم لتباعد أيامهم إلى أن الجامع لهم على هذا القول مشاركتهم في الطغيان الحامل عليه .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فاعرض عن مجادلتهم بعد ما كررت عليهم الدعوة فأبوا إلا الإصرار والعناد . ﴿ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ على الإعراض بعد ما بذلت جهدك في البلاغ .

﴿ وَذَكِّرْ ﴾ ولا تدع التذكير والموعظة . ﴿ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ﴾ من قدر الله إيمانه أو من آمن فإنه يزداد بها بصيرة .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ لما خلقهم على صورة متوجهة إلى العبادة مغلبة لها ، جعل خلقهم مُغيا بها مبالغة ذلك ، ولو حمل على ظاهره مع أن الدليل يمنعه لنا في ظاهر قوله : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الجن والإنس ﴾ وقيل معناه إلا لأمرهم بالعبادة أو ليكونوا عباداً لي .

(200/727)

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ أي ما أريد أن أصرفكم في تحصيل رزقي فاشتغلوا بما أنتم كالمخلوقين له والمأمورين به ، والمراد أن يبين أن شأنه مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم ، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم ، ويحتمل أن يقدر بقل فيكون بمعنى قوله : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ ﴿ إِنَّ الله هُوَ الرزاق ﴾ الذي يرزق كل ما يفتقر إلى الرزق ، وفيه إيماء باستغنائه عنه ، وقرىء "إني أنا الرزاق" ﴿ ذُو القوة المتين ﴾ شديد القوة ، وقرىء ﴿ المتين ﴾ بالجر صفة ل ﴿ القوة ﴾ .

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوباً ﴾ أي للذين ظلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتكذيب

نصيباً من العذاب . ﴿ مِّثْلَ ذَنُوبِ أصحابهم ﴾ مثل نصيب نظرائهم من الأمم السالفة ، وهو مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالدلاء ، فإن الذنوب هو الدلو العظيم المملوء . ﴿ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ جواب لقولهم : ﴿ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ الذى يُوعَدُونَ ﴾ من يوم القيامة أو يوم بدر .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة والذاريات أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت في الدنيا " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 243.234 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(201/727)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1) ﴾

التفسير : لما بين في آخر السورة أنهم بعد إيراد البراهين الساطعة عليهم مصرون على إنكار الحشر ، ولهذا سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار ﴾ [ق : 45] لم يبق إلا توكيد الدعوى بالإيمان فلذلك افتتح بذلك . عن علي كرم

الله وجهه أنه قال على لمنبر : سلوني قبل أن تفقدوني وإن لا تسألوني لا تسألوا بعدي مثلي .

(202/727)

فقال ابن الكواء فقال : ما الذاريات ؟ قال : الرياح . وقد مر في الكهف في قوله ﴿ تذروه الرياح ﴾ [الآية : 45] قال : فالحاملات وقراً ؟ قال رضي الله عنه : السحاب لأنها تحمل المطر . وإنما لم يقل أوقاراً باعتبار جنس المطر وهو واحد . قال : فالجاريات يسراً ؟ قال رضي الله عنه : الفلك والمراد جريان اليسر . قال : فالمقسمات أمراً ؟ قال رضي الله عنه : الملائكة لأنها تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها ، أو تفعل التقسيم مأمورة بذلك فيكون مصدراً في موضع الحال . ومعنى الفاء فيها ظاهر لأنه تعالى أقسم بالرياح فبالسحاب الذي تسوقه فبالفلك التي تجريها بهبوباتها كأن ماء البحر أو مدده من السحاب فلذلك أخر . ثم أقسم بالملائكة التي تقسم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتجارات البحر . وقيل : إن الأوصاف الأربعة كلها للرياح لأنها تذروا التراب وغيره أولاً ، ثم تنشىء السحاب وتحمله . ولا ريب أن السحاب حمل ثقيل ولا سيما إذا كان فيه مطر ثم تجري – أعني الرياح – في الجو جرياً سهلاً في نفسها أي لا يصعب عليها الجري أو بالنسبة إلينا

بخلاف الصرصر والعاصف ونحوها فتبسط السحاب في السماء ثم تقسم الأمطار في الأقطار بتصريف السحاب وقد روعي في ذكر وهذه الأوصاف لطيفة فإن الحشر يتم إمكانه بها لأن أجزاء بدن المكلف إن كانت في الأرض فتميز الريح بينهما بالذرو ، وإن كانت في الهواء فتحملها بالنقل ، وإن كانت في البحر فتخرجها بإنشاء السحاب منها إذ الذي قدر على إجراء السفن في البحار يقدر على إخراج تلك الأجزاء منها إلى البر . وبعد ذلك تقسم الملائكة أرواح الخلائق على أجسادها بإذن الله تعالى . وقيل : المقسمات الكواكب السبعة . وجواب القسم ﴿ إن ما توعدون ﴾ و " ما " مصدرية أو موصولة ﴿ لصادق ﴾ في نفسه كما يقال " خبر صادق " أو " ذو صدق " كعيشة راضية . ثم صرح بالموعود قائلاً ﴿ وإن الدين ﴾ أي الجزاء ﴿ لواقع ﴾ أي حاصل . وحين أقسم على صدق موعوده أقسم على

(203/727)

جهلهم وعنادهم ، والحبك الطرائق كطرائق الرمل ، والماء إذا ضربته الريح ويقال : إن خلقة السماء كذلك واحدها حباك ، وقال الحسن : حبكها نجومها لأنها تزينها كما تزين الموشيّ يكون بطرائق الوشي . وقيل : حبكها صفاقتها وإحكامها يقال للثوب الصفيق "

ما أحسن حبكه " . وعلى القول الأول يكون بين القسم والمقسم عليه مناسبة لأن القول المختلف له أيضاً طرائق ، قال الضحاك : قول الكفرة لا يكون مستوياً وإنما هو متناقض مختلف ولهذا قالوا للرسول شاعر مجنون ، وللقرآن مثل ذلك ، وعن قتادة : أراد منكم مصدّق ومكذب ومقر ومنكر . والضمير في ﴿ يؤفك عنه ﴾ للقرآن أو النبي أي يصرف عنه من صرف الصرف الذي لا صرف بعده لأنه غاية ونهاية .

ويمكن أن يقال : يصرف عنه من صرف في سابق علم الله ، ويجوز أن يكون الضمير للموعود أقسم بالذاريات وغيرها أن وقوعه حق ، ثم أقسم بالسماء أنهم مختلفون في وقوعه يؤفك عن الإقرار به من هو عديم الاستعداد ، مغمور في الجهل والعناد . وجوّز جار الله أن يرجع الضمير إلى ﴿ قول مختلف ﴾ ويكون " عن " كما قوله

ينهون عن أكل وعن شرب . . . أي يتناهون في السمن من كثرة الأكل والشرب وحقيقته يصدر تناهيهم في السمن من الأكل والشرب وكذلك يصدر إفكهم عن القول المختلف . ثم دعا عليهم بقوله ﴿ قتل الخرّاصون ﴾ أي الكذابون المقدرون ما لا يصح وهم المعهودون وأعم فيشملهم شمولاً أولياً . ولا يراد بهذا الدعاء وقوع القتل بعينه بل اللعن وما يوجب

الهلاك بأي وجه كان . وقد لا يراد إلا تقبيح حال المدعو كقوله ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ والغمرة كل ما يغمر الإنسان أي إنهم في جهل يغمرهم غافلون عما أمروا به ﴿ أيان يوم الدين ﴾ أي متى وقوعه ؟ ثم أجاب بقوله ﴿ يوم هم ﴾ أي يقع في ذلك اليوم . ومعنى ﴿ يفتنون ﴾ يحرقون ويعذبون . ثم وبخهم وتهكم بهم قائلاً ﴿ ذوقوا ﴾ إلى آخره . وحين حكى حال الفاجر الشقي أراد أن يبين حال المؤمن التقي فقال ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ﴾ أي في جنات فيه عيون حال كونهم ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ قال جار الله : قابلين لكل ما أعطاهم راضين به لا كمن يأخذ شيئاً على سخط وكراهية . وقال غيره : أراد أنهم يأخذونه شيئاً فشيئاً ولا يستوفون ذلك بكماله لامتناع استيفاء ما لا نهاية له . وقيل : الأخذ بمعنى التملك يقال : بكم أخذت هذا كأنهم اشتروها بأنفسهم وأموالهم . قال : إن فيض الله تعالى لا ينقطع أصلاً وإنما يصل إلى كل مكلف بقدر ما استعد له ، فكلما ازداد قبولاً ازداد تأثراً من الفيض والأخذ في هذا المقام لعله إشارة إلى كمال قبولهم للفيوض الإلهية ، وذلك لما أسلفوا من حسن العبادة ووفور الطاعة ولهذا علله بقوله ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ أي في الدنيا وظهر عليهم بعد قطع التعلق آثار الإحسان ونتيجته . وقوله ﴿ ما آتاهم ﴾ على المضي لتحقق الإيتاء مثل ﴿ ونادى ﴾ [الأعراف : 38] ﴿ وسيق ﴾ [الزمر : 72] وقال أهل العرفان : ما آتاهم في الأزل يأخذون نتائجه في الأبد . ثم فسر إحسانهم بقوله ﴿ كانوا قليلاً من الليل يهجعون ﴾ " ما " صلة أي كانوا

ينامون في طائفة قليلة من الليل أو يهجعون هجوعاً قليلاً . وجوز أن تكون ما مصدرية أو موصولة . وارتفع " ما " مع الفعل على أنه فاعل قليلاً من الليل هجوعهم أو الذي يهجعون فيه . وفيه أصناف ن المبالغة من جهة لفظ الهجوع وهو النوم اليسير ، ومن جهة لفظ القلة ، ومن جهة التقييد بالليل لأنه وقت الاستراحة فقلة النوم فيه أغرب منها في النهار ، ومن جهة ما المزيدة على قول .

ولا يجوز أن تكون " ما " نافية لان ما بعدها لا يعمل فيما قبلها . وصفهم بأنهم يحيون أكثر الليل متهجدين فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار وكأنهم باتوا في معصية الملك الجبار . وهذا سيرة الكريم يأتي بأبلغ وجوه الكرم . ثم يستقله ويعتذر ، واللئيم بالعكس يأتي بأقل شيء ثم يمن به ويستكثر . ومثله المطيع يأتي بغاية مجهوده من الخدمة ثم ينسب نفسه إلى التقصير فيستغفر . ويمكن أن يقال : إنهم يستغفرون من الهجوع كأنهم أرادوا أن يقوموا على إحياء الليل كله . ويجوز أن يكون الاستغفار بمعنى الصلاة لقوله بعده ﴿ في أموالهم حق ﴾ فيكون كقوله ﴿ يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ [البقرة : 3] ووجه أغرب وهو أن يكون السين في استغفر مثله في استحصد الزرع أي حان أن يحصد فكأن وقت السحر

وهو الأولى بحصول المغفرة . قال جار الله : في قوله ﴿ هم يستغفرون ﴾ إشارة إلى أنهم هو المستغفرون الأحقاء بالاستغفار دون المصرين . وقيل : إبراز الضمير لدفع وهم من يظن أن التقدير وبالأسحار قليلاً يستغفرون على قياس الفعل السابق .

(206/727)

وحيث ذكر جدهم في التعظيم لأمر الله أردفه بذكر شفقتهم على خلق الله . والمشهور في الحق أنه القدر الذي علم إخراجه من المال شرعاً وهو الزكاة قيل : إنه على هذا لم يكن صفة مدح لأن كل مسلم كذلك بل كل كافر وذلك إذا قلنا إنه مخاطب بالفروع إلا أنه إذا علم سقط عنه . وأجيب بأن السائل من له الطلب شرعاً . والمحروم من الحرمة وهو الذي منع الطلب فكأنه قيل : في أموالهم حق للطالب – وهو الزكاة – ولغير الطالب وهو الصدقة المتطوع بها التي تتعلق بفرض صاحب المال وإقراره وليس عليه فيها مطالبة . ويمكن أن يقال : أراد في أموالهم حق في اعتقادهم وسيرتهم كأنهم أوجبوا على أنفسهم أن يعطوا من المال حقاً معلوماً وإن لم يوجبه الشرع . وفي السائل والمحروم وجوه أحدها ما مر . الثاني السائل هو الناطق والمحروم كل ذي روح غيره من الحيوان كما قال صلى الله عليه وسلم " لكل كبد حرى أجر " الثالث وهو الأظهر أن السائل هو الذي يستجدي والمرحوم الذي

يحسب غنياً فيحرم الصدقة لتعففه قال صلى الله عليه وسلم : " ليس المسكين الذي ترده الأكلة والأكلتان والتمرة والتمرتان قالوا : فما هو قال : الذي لا يجد ولا يتصدق عليه " وتقديم السائل على ترتيب الواقع لأنه يعرف حاله بمقاله فيسد خلته ، وأما المحروم فلا تندفع حاجته إلا بعد الاستكشاف والبحث . وقيل : المحروم الذي لا يمنى له مال . وقيل : هو المنقوص الحظ الذي لا يكاد يكسب . ثم أكد وقوع الحشر والدلالة على قدرته بقوله ﴿ وفي الأرض آيات ﴾ كقوله ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ﴾

(207/727)

[فصلت : 39] إلى قوله ﴿ إن الذي أحياها لمحي الموتى ﴾ [فصلت : 39] ومن عجائب الأرض ما هي في جرمها من الاستدارة والألوان المختلفة وطبقاتها المتباينة ، ومنها ما عليها وفيها من الجبال والمواليد الثلاثة ، ومنها ما هي واردة عليها من فوقها كالمطر وغيره . وخص الآيات الأرضية بالذكر لقربها من الحواس ، وخص كونها آيات بالمؤمنين لأنهم هم المنتفعون بذلك ، ومن لم يتأمل في المصنوعات لم يزد يقينه بالصانع . ثم استدل بالأنفس فقال ﴿ وفي أنفسكم ﴾ آيات . وذلك أن الإنسان عالم صغير فيه تشابه من العالم الكبير وقد مر تقرير ذلك مراراً . وقيل : هي الأرواح أي وفي نفوسكم التي بها

حياتكم آيات . قال أهل النظم : هذه الآية مؤكدة لما قبلها فإن من وقف على هذه الآيات الباهرة تبين له جلال الله وعظمته فيتقيه ويعبده ويستغفره من تقصيره ولا يهجع إلا قليلاً ، وهكذا من عرف أن رزقه في السماء لم يبخل بماله ويعطيه السائل والمحروم . وعن الحسن أنه كان إذا رأة السحاب قال لأصحابه : فيه رزقكم يعني المطر ولكنكم تحرمونه . ﴿ وما توعدون ﴾ هي الجنة فوق السماء السابعة وتحت العرش . وقيل : إن أرزاقكم في الدنيا وما توعدون في العقبى كلها مقدرة مكتوبة في السماء . ثم أنتج من الأخبار السالفة من أول السورة إلى ههنا حقيقة القرآن أو النبي أو الموعود ، وأقسم عليه برب السماء الأرض ترقياً من الأدنى وهي المربوبات كالذاريات وغيرها إلى الرب تعالى . و " ما " مزيدة بنص الخليل حكاه جار الله يقال في الأمر الظاهر غاية الظهور أن هذا الحق أنك ترى وتسمع مثل ما أنك ههنا . قال الأصمعي : أقبلت خارجاً من البصرة فطلع أعرابي على قعود فقال : من الرجل ؟ قلت : منت بني أصمع . قال : من أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن . فقال : اتل علي فتلوت ﴿ والذاريات ﴾ فلما بلغت قوله ﴿ وفي السماء رزقكم ﴾ فقال : حسبك . فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على الناس وعمد إلى سيفه وقوسه

فكسرهما وولى . فلام حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق ، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر فسلم علي واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية صاح وقال : وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ثم قال : فهل غير هذا ؟ فقرأت ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق ﴾ فصاح فقال : يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى ألجؤه إلى اليمين قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه . ثم سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقصة إبراهيم وغيرها قد مرت في " هود " و " الحجر " وفي قوله ﴿ هل أتاك ﴾ تفخيم لشأن الحديث . والضيف واحد . وجمع والمكرمون إما باعتبار إكرامه إياهم حتى خدمهم بنفسه وبامرأته ، أو لأنهم أهل الإكرام عند الله كقوله

(209/727)

﴿ بل عباد مكرمون ﴾ [الأنبياء : 26] وجوز أن يكون نصب ﴿ إذ دخلوا ﴾ بالمكرمين إذا فسر بإكرام إبراهيم أو بما في ضيف من معنى الفعل . قال المفسرون : أنكرهم للسلام الذي هو علم الإسلام أو أراد تعرف حالهم لأنهم لم يكونوا من معارفه ﴿ فراغ إلى أهله ﴾ فذهب إليهم في خفية من ضيوفه وهو نوع أدب للمضيف كيلا يستحيوا منه ولا يبادروا بالاعتذار والمنع من الضيافة . وفي قوله ﴿ فقربه إليهم ﴾ دلالة على أن نقل الطعام

إلى الضيف أولى من العكس لئلا يتشوش المكان عليهم . ﴿ قال ألا تأكلون ﴾ سلوك لطريقة الاستئناف ولهذا حذف الفاء خلاف ما في " الصافات " وقد مر . والاستفهام لإنكار ترك الأكل أو للحث عليه ﴿ فأوجس ﴾ فأضمر وقد تقدم سائر الأبحاث في " هود " وفي " الصافات " . واعلم أنه سبحانه ذكر في " هود " أنه لما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وقال ههنا ﴿ سلام قوم منكرون ﴾ ولا تنافي بين الحديثين لأنه أنكرهم أولاً بالسلام الذي لم يكن من عادة تلك الشريعة ، ثم زاد إنكاره حين رآهم لا يأكلون الطعام فذكر أحد الإنكارين في تلك السورة والآخر في هذه . قوله ﴿ فأقبلت امرأته في صرة ﴾ أي في صيحة ومنه صرير القلم . قال الحسن : كانت في زاوية تنظر إليهم فوجدت حرارة الدم فأقبلت إلى بيتها صارة فلطمت وجهها من الحياء والتعجب كعادة النسوان ﴿ وقالت ﴾ أنا ﴿ عجوز ﴾ فأجابت الملائكة ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الذي قلنا وأخبرنا به ﴿ قال ربك ﴾ فلا تستبعدي . وروي أن جبرائيل قال لها : انظري إلى سقف بيتك فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة فحينئذ أحس إبراهيم صلوات الرحمن عليه بأنهم ملائكة . ﴿ قال فما خطبكم ﴾ شأنكم وطلبكم ؟ فأجابوا بأنهم أرسلوا إلى قوم لوط ليرسلوا عليهم السجيل كما قصصنا في " هود " . والضمير في قوله ﴿ فيها ﴾ للقرية وإن لم يجر لها ذكر لأنه معلوم ، قالت المعتزلة : في الآية دلالة على أن الإيمان والإسلام واحد . وقال غيرهم : المسلم أعم من المؤمن وإطلاق العام

(210/727)

على الخاص مما لا منع فيه ولا يدل على اتحادهما وهذا كقوله القائل من في البيت من الناس ؟ فيقول له : ما في البيت من الحيوان أحد غير زيد . فيكون مخبراً له بخلو البيت عن كل إنسان غير زيد . وقوله ﴿ وتركنا فيها آية ﴾ كقوله في " العنكبوت " ﴿ ولقد تركنا منها آية بينة ﴾ [الآية : 35] أي علامة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم وهي الحجارة المسومة أو ماء أسود . قوله ﴿ وفي موسى ﴾ قيل : الأقرب أن يكون معطوفاً على قوله ﴿ وتركنا فيها ﴾ أي وجعلنا في موسى آية . قال جار الله : هو كقوله من قال : علفتها تبنا وماء بارداً . . . ويمكن أن يقال : إن قصة موسى أيضاً آية متروكة باقية على وجه الدهر فلا حاجة إلى هذا التكلف .

(211/727)

قوله ﴿ فتولى بركنه ﴾ كقوله ﴿ ونأى بجانبه ﴾ [الإسراء : 83] وقيل : الباء للمصاحبة . والركن القوم أي فازور وأعرض مع ما كان يتقوى به من جنوده وملكه . وقيل :

ركنه هامان وزيره قال العلماء : وصفه فرعون بالمليم مع أنه وصف يونس النبي به صلى الله عليه وسلم كما مر في " الصافات " لا يوجب اشتراكهما في استحقاق الملامة ، لأن موجبات اللوم تختلف . فراكب الكبيرة ملوم على قدرها ، ومقترف الصغيرة ملوم بحسبها ، وبينهما بون ، العقيم ريح لا خير فيها من إنشاء مطر أو إلقاح شجر . والرميم ما رم وتفتت . قال في الكشاف : ﴿ تمتعوا حتى حين ﴾ تفسيره في قوله ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ﴾ [هود : 65] قلت : هذا سهو منه فإن قوله ﴿ فعتوا عن أمر ربهم ﴾ لا يطابقه إذ العتو لم يترتب على هذا الأمر لحصوله قبله . وإنما الصواب أن يكون التمتع المأمور به في هذه الآية هو الذي في قصة قوم يونس ﴿ فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ [الصافات : 148] فكأن قوم ثمود أمروا أن يؤمنوا كي يمهلوا إلى انقضاء آجالهم الطبيعية والأمر أمر تكليف لا تكوين ﴿ فعتوا عن أمر ربهم ﴾ بالإصرار على كفرهم . فقيل : على سبيل التكوين تمتعوا في داركم ثلاثة أيام وكان ذلك علامة العذاب والصاعقة النازلة نفسها ﴿ وهم ينظرون ﴾ أي كانت نهاراً يعاينونها أو كانوا منتظرين لها إذ قيل لهم تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾ عبارة عن جثومهم كما مر مراراً ﴿ وما كانوا منتصرين ﴾ ممتنعين من العذاب وقصة نوح واضحة وقد مر إعرابه في الوقوف .

ثم عاد إلى دلائل القدرة فقال ﴿ والسماء بنيناها بأيد ﴾ وفي لفظ البناء إشارة إلى كونها محكمة البنيان . وفي قوله ﴿ بأيد ﴾ أي بقوة تأكيد لذلك . وفي قوله ﴿ وأنا لموسعون ﴾ مزيد تأكيد والمعنى لقادرون من الوسع الطاقة والموسع القوي على الإنفاق ومنه قال الحسن : أراد إنا لموسعون الرزق بالمطر . وقيل : جعلنا بين السماء وبين الأرض سعة . وإنما أطلق الفرش على الأرض ولم يطلق البناء لأنها محل التغييرات كالبساط يفرش ويطوى ﴿ ومن كل شيء ﴾ من الحيوان ﴿ خلقنا زوجين ﴾ ذكراً وأنثى . وعدد الحسن أشياء كالسماء والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والبر والبحر والموت والحياة . قال : كل اثنين منها زوج والله تعالى فرد لا مثل له . وقد يدور في الخلد أن الآية إشارة إلى أن كل ما سوى الله تعالى فإنه مركب نوع تركيب لا أقل من الوجود والإمكان أو الجنس والفصل أو المادة والصورة ولذلك قال ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ له إرادة ترقيكم من المركب إلى البسيط ومن الممكن إلى الواجب ومن المصنوع . وإذا عرفتم الله ﴿ ففروا إلى الله ﴾ أي التجؤا إليه ولا تعبدوا غيره أمر بالإقبال عليه وبالإعراض عما سواه . وكرر قوله ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾ للتأكيد . وبعد توضيح البيانات وذكر القصص وتقرير الدلائل سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿ كذلك ﴾ أي الأمر مثل الذي تقرر من تكذيب الرسل وإصرار الكفرة على الإنكار والسب .

ثم فسر ما أجمله بقوله ﴿ ما أتى ﴾ إلى آخره وقوله ﴿ أتواصوا به ﴾ استفهام على سبيل التعجب من تطابق آرائهم على تكذيب أنبيائهم . ثم أضرب عن ذلك لأن تطابق المتقدم والمتأخر على أمر واحد غير ممكن فنبه على جلية الحال قائلاً ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾ يعني أن اشتراك علة التكذيب وهو الطغيان أشركهم في المعلول ﴿ فتول عنهم ﴾ فإن تكذيبهم لا يوجب ترك الدعوة العامة ﴿ فما أنت بملوم ﴾ على إعراضك عنهم بعد التبليغ لأنك قد بذلت مجهودك واستفرغت وسعك ﴿ وذكر ﴾ مع ذلك ﴿ فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ أراد أن الإعراض عن طائفة معلومة لعدم قابليتهم لا يوجب ترك البعض الآخر . ثم بين الغاية من خلق الثقلين وهي العبادة . وللمعتزلة فيه دليل ظاهر على أن أفعاله الله معللة بغرض . وقال أهل السنة : إن العبادة المعرفة والإخلاص له في ذلك فإن المعرفة أيضاً غاية صحيحة ، وإنما الخلاص عن الإشكال بما سلف مراراً أن استتباع الغاية لا يوجب كون الفعل معللاً بها ، وإذا لم يكن الفعل معللاً بذلك فقد يكون الفعل ، وتتخلف الغاية لمانع كعدم قابلية ونحوه . ثم ذكر أنه خلقهم ليربحوا عليه لا ليربح هو عليهم . والمتين الشديد القوة . ثم هدد مشركي مكة وأضرابهم بقوله ﴿ فإن للذين ظلموا ذنوباً ﴾ أي

نصيباً من العذاب ﴿ مثل ذنوب أصحابهم ﴾ المهلكين ، والذنوب في الأصل الدلو العظيمة قال أهل البيان : وهذا تمثيل وأصله من تقسيم الماء يكون لهذا دلو ولهذا دلو . واليوم الموعود القيامة أو يوم بدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 184 . 190 ﴾

(214/727)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الذاريات

مكية وهي ستون آية وثلاثمائة وستون كلمة وألف ومائتان وتسعة وثمانون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ أي المحيط بصفات الكمال فهو لا يخلف الميعاد ﴿ الرحمن ﴾ الذي عم الخلائق بنعمة الإيجاد ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص من اختاره بالتوفيق لما يرضاه من المراد ولما ختم الله سبحانه وتعالى ق بالتذكير بالوعيد افتتح هذا بالقسم البالغ على صدقه ، فقال عز من قائل مناسباً بين القسم والمقسم عليه .

﴿ والذاريات ﴾ أي : الرياح تذرو التراب وغيره ، وقيل : النساء الوالدات ، فإنهنّ يذرين الأولاد ، وقوله تعالى ﴿ ذروا ﴾ منصوب على المصدر المؤكد والعامل فيه فرعه وهو اسم

الفاعل والمفعول محذوف اقتصاراً ، يقال : ذرت الريح التراب وأذرته .

﴿ فالحاملات ﴾ أي : السحب تحمل الماء وقيل : الرياح الحاملة للسحاب وقيل النساء الحوامل وقوله تعالى : ﴿ وقراً ﴾ أي : ثقلاً مفعول به بالحاملات كما يقال حمل فلان عدلاً ثقيلاً ، قال الرازي : ويحتمل أن يكون اسماً أقيم مقام المصدر كقوله : ضربته سوطاً .

﴿ فالجاريات ﴾ أي : السفن ، وقيل : الرياح الجارية في مهابها ، وقيل الكواكب التي تجري في منازلها ، وقوله تعالى : ﴿ يسراً ﴾ أي : بسهولة ، مصدر في موضع الحال أي ميسرة .

(215/727)

﴿ فالمقسّمات ﴾ أي الملائكة التي تقسم الأرزاق والأمطار وغيرها بين العباد والبلاد وقوله تعالى : ﴿ أمراً ﴾ يجوز أن يكون مفعولاً به كقولك : فلان قسم الرزق أو المال ، وأن يكون حالاً ، أي : مأمورة ، وهذه أشياء مختلفة فتكون الفاء على بابها من عطف المتغايرات والفاء للترتيب في القسم لا في المقسم به ، قال الزمخشريّ : ويجوز أن يراد الرياح وحدها ؛ لأنها تنشىء السحاب وتقله وتصرفه وتجري في الجوّ جرياً سهلاً ، وعلى هذا يكون من عطف الصفات والمراد واحد فتكون الفاء على هذا لترتيب الأمور في الوجود وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال وهو على المنبر : سلوني ، قبل أن لا

تسألوني ، ولن تسألوا بعدي مثلي فقام ابن الكواء فقال : ما الذاريات ؟ قال : الرياح ، قال : فالحاملات وقراً قال : السحاب ، قال : فالجاريات يسراً ، قال : الفلك قال : فالمقسمات أمراً ، قال : الملائكة وكذا عن ابن عباس وعن الحسن المقسمات السحاب يقسم الله تعالى بها أرزاق العباد وقد حملت على الكواكب السبعة ، ويجوز أن يراد الرياح لا غير ، لأنها تنشىء السحاب وتقله وتصرفه وتجري في الجوّ جرياً سهلاً وتقسم الأمطار بتصريف السحاب .

فإن قيل : إن كان وقراً مفعولاً فلم لم يجمع ؟ وقيل : أوقاراً أجيب بأن جماعة من الرياح قد تحمل وقراً واحداً وكذا القول في المقسمات أمراً إذا قيل إنه مفعول به لأنّ جماعة من الملائكة قد تجتمع على أمر واحد .

فائدة : أقسم الله تعالى بجمع السلامة المؤنث في خمس سور ولم يقسم بجمع السلامة المذكر في سورة أصلاً فلم يقل والصالحين من عبادي ولا المقربين إلى غير ذلك مع أنّ المذكر أشرف لأن جموع السلامة بالواو والنون في الغالب لمن يعقل

ولما كانوا يكذبون بالوعيد أكد الجواب بعد التأكيد بنفس القسم فقال تعالى : ﴿ إنّ ما توعدون لصادق ﴾ أي مطابق الإخبار به للواقع وسترون مطابقته له .

تنبيه : ما يجوز أن تكون إسمية وعائدها محذوف أي توعدونه وأن تكون مصدرية فلا عائد على المشهور وحينئذ يحتمل أن يكون توعدون مبنياً من الوعد وأن يكون مبنياً من الوعيد ، لأنه يصلح أن يقال أوعدته فهو يوعد ووعدته فهو يوعد لا يختلف فالتقدير : إن وعدكم أوان وعيدكم ﴿ وإن الدين ﴾ أي المجازاة لكل أحد بما كسب يوم البعث ﴿ لواقع ﴾ لا بدّ منه وإن أنكرتم .

﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ قال ابن عباس وقتادة وعكرمة : ذات الخلق الحسن المستوي ، يقال للنساج إذا نسج الثوب فأجاد ما أحسن حبكه ، وقال سعيد بن جبير : ذات الزينة ، أي : المزينة بزينة الكواكب ، قال الحسن : حبكتها النجوم وقال مقاتل والكلبي والضحاك ذات الطريق كحبك الماء إذا ضربته الريح ، وحبك الرمل والشعر الجعد وهو آثار تثنيه وتكسره قال زهير:

*مكلل بأصول النجم تنسجه ** ريح خريق لضاحي مائه حبك*

والحبك يحتمل أن يكون مفرده حبيكة كطريقة وطرق أو حباك نحو حمار وحمر قال الشاعر:

*كأنما جللها الحوّاك ** ظننته في وشيها حباك*

وأصل الحبك إحكام الشيء وإتقانه ، ومنه يقال للدرع : محبوكة .

وجواب القسم ﴿ إنكم ﴾ يا معشر قريش ﴿ لفي قول ﴾ محيط بكم في أمر القرآن والآتي به وجميع أمر دينكم وغيره مما تريدون به إبطال الدين الحق ﴿ مختلف ﴾ فتقولون في القرآن سحر وكهانة وأساطير الأولين ، وفي محمد صلى الله عليه وسلم ساحر وشاعر ومجنون وكاهن وكاذب .

﴿ يؤفك ﴾ أي يصرف ﴿ عنه ﴾ أي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أو القرآن أي عن الإيمان بذلك ﴿ من أفك ﴾ أي صرف عن الهداية في علم الله تعالى ومعناه حينئذ الذم ، وقيل : إنه مدح للمؤمنين ومعناه يصرف عن القول المختلف من يصرف عن ذلك القول ويرشد إلى القول المستوي .

﴿ قتل ﴾ أي لعن ﴿ الخراصون ﴾ أي الكذابون وهم الذين لا يجزمون بأمر بل هم شاكون متحيرون وهم أصحاب القول المختلف .

ثم وصفهم الله تعالى فقال تعالى:

(217/727)

﴿ الذين هم ﴾ أي خاصة ﴿ في غمرة ﴾ أي جهل يغمرهم ﴿ ساهون ﴾ أي غريقون في السهو وهو النسيان والغفلة والحيرة وذهاب القلب إلى غير ما يهمه ، ففاعل ذلك ذو ألوان

متخالفة من هول ما هو فيه وشدة كربه .

﴿ يسألون ﴾ النبيّ استهزاءً ﴿ أيان ﴾ أي متى وأي حين ﴿ يوم الدين ﴾ أي وقوع الجزاء الذي تخبرنا به ولولا أنهم بهذه الحالة لتذكروا من أنفسهم أنه ليس أحد منهم يترك عبيده وإجراءه في عمل من الأعمال إلا وهو يحاسبهم على أعمالهم ، وينظر قطعاً في أحوالهم ويحكم بينهم في أقوالهم وأفعالهم فكيف الظن بأحكم الحاكمين أن يترك عبيده الذين خلقهم على هذا النظام المحكم وأبدع لهم هذين الخافقين وهيأ لأجلهم فيهما كل ما يحتاجون إليه فيتركهم سدى ويوجدهم عبثاً ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ يوم هم ﴾ منصوب بمضمر ، أي : الجزاء كائن يوم هم ﴿ على النار يفتنون ﴾ أي يعذبون فيها جواب لسؤالهم أيان يوم الدين ، وقال الرازي يحتمل وجهين:

أحدهما : أن يكون جواباً عن قولهم أيان يقع فكما أنهم لم يسألوا سؤال مستفهم طالب للعلم ، كذلك لم يجبهم جواب معلم مبين ، بل قال ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ فجهلهم بالثاني أقوى من جهلهم بالأوّل ، ولا يجوز أن يكون الجواب بالأخفى ، فلو قال قائل : متى يقدم زيد فلو أجيب بقوله : يوم يقدم رفيقه ، ولا يعلم يوم قدوم الرفيق لم يصح هذا الجواب .

ثانيهما : أن يكون ذلك ابتداء كلام تمامه في قوله تعالى:

﴿ ذوقوا فتنتكم ﴾ أي تعذيبكم فإن قيل : هذا يفضي إلى الإضمار أجيب : بأن الإضمار لا بدّ منه لأنّ قوله تعالى : ﴿ ذوقوا فتنتكم ﴾ لا يتصل بما قبله إلا بإضمار يقال

﴿ هذا ﴾ أي العذاب الملون ﴿ الذي كنتم به تستعجلون ﴾ في الدنيا استهزاء .

ولما بين تعالى حال المجرمين بين بعده حال المتقين فقال تعالى:

﴿ إن المتقين ﴾ أي الذين كانت التقوى لهم وصفاً ثابتاً ﴿ في جنات ﴾ أي بساتين عظيمة تجن داخلها أي تستره من كثرة ظلالها لكثرة أشجارها وعظمها ﴿ وعيون ﴾ جارية في خلال الجنان .

(218/727)

تنبيه : المتقي له مقامات أدناها أن يتقي الشرك وأعلاها أن يتقي الدنيا والآخرة ، وأدنى درجات المتقي الجنة فما من مكلف اجتنب الكفر إلا ويدخل الجنة .

وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائيّ بكسر العين والباقون بالضم . وقوله تعالى:

﴿ آخذين ﴾ حال من الضمير في خبر إن . وقوله تعالى : ﴿ وما آتاهم ربهم ﴾ أي المحسن إليهم المدبر لهم بتمام علمه وشامل قدرته إن كان مما في الجنة فتكون حالاً حقيقية وإن كان مما آتاهم من أمره ونهيه في الدنيا فتكون حالاً محكية لاختلاف الزمانين .

تنبيه : اعلم أن الله تعالى وحد الجنة تارة قال تعالى : ﴿ مثل الجنة ﴾ (الرعد :)

وأخرى جمعها كقوله تعالى هنا : ﴿ إنّ المتقين في جنات ﴾ وتارة ثناها قال تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ (الرحمن :)

والحكمة فيه أنّ الجنة في توحيدها لاتصال المنازل والأشجار والأنهار كجنة واحدة ، وأما جمعها فإنها بالنسبة إلى الدنيا وبالإضافة إليها جنات لا يحصرها عدد وأما تثنيتها فسيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى في سورة الرحمن وهو قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ (الرحمن :)

فقيل : جنة لخوفه من ربه ، وجنة لتركه شهوته ، وقيل جنة لخائف الإنس وجنة لخائف الجن فيكون من باب التوزيع قال الرازي : غير أنا نقول ههنا إنّ الله تعالى عند الوعد وحد الجنة وكذلك عند الشراء فقال تعالى ﴿ إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ (التوبة :)

وعند الإعطاء جمعها إشارة إلى أن الزيادة في الوعد موجودة بخلاف ما لو وعد بجنات ثم يقول إنه في جنة لأنه دون الموعود .

ومعنى آخذين : قابضين ما آتاهم شيئاً فشيئاً ولا يستوفونه بكماله لامتناع استيفاء ما لا نهاية له وقيل : قابلين قبول رضا كقوله تعالى ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ (التوبة :)

أي يقبلها قاله الزمخشريّ وقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ إشارة إلى أنهم أخذوها بثمنها وملكوها بالإحسان في الدنيا ، والإشارة بذلك إما لدخول الجنة وإما لإيتاء الله تعالى وإمّا ليوم الدين والإحسان يكون في معاملة الخالق والخلائق وقيل : هو قول لا إله إلا الله ولهذا قيل . في معنى كلمة التقوى : إنها لا إله إلا الله وفي قوله تعالى : ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴾ (فصلت :)

وقوله تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ (الرحمن :)

هو الإتيان بكلمة لا إله إلا الله .

ثم فسر إحسانهم معبراً عنه بما هو في غاية المبالغة بقوله تعالى:

﴿ كانوا ﴾ أي لما عندهم من الإجلال له والحب فيه بحيث كأنهم مطبوعين فيه ﴿ قليلاً من الليل ﴾ الذي هو وقت الراحات وقضاء الشهوات ﴿ ما يهجعون ﴾ أي يفعلون الهجوع وهو النوع الخفيف القليل بالليل فما ظنك بما فوقه فما مزيدة ويهجعون خبر كان وقليلاً ظرف أي : ينامون في زمن يسير من الليل ويصلون أكثره ، وقال ابن عباس رضي الله عنه كانوا قلّ ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها شيئاً إما من أوّلها أو من وسطها ، وعن أنس بن مالك كانوا يصلون من المغرب إلى العشاء ، وقال محمد بن علي : كانوا لا ينامون حتى يصلون العتمة ، وقال مطرف بن عبد الله : قلّ ليلة أتت عليهم هجوعاً كلها وقال مجاهد :

كانوا لا ينامون كل الليل .

ووقف بعضهم على قليلاً ليؤاخي بها قوله تعالى ﴿ وقليل ما هم ﴾ (ص :)

و ﴿ قليل من عبادي الشكور ﴾ (سبأ :)

ويبتدئ من الليل ما يهجعون أي ما يهجعون من الليل والمعنى : كانوا من الناس قليلاً ثم ابتدأ فقال : ما يهجعون من الليل وجعله جحداً أي لا ينامون بالليل البتة بل يقومون للصلاة والعبادة وهو قول الضحاك ومقاتل ، وقيل : إنّ ما بمعنى الذي وعائدها محذوف تقديره : كانوا قليلاً من الليل الوقت الذي يهجعونه وهذا فيه تكلف ولما كان المحسن لا يرى نفسه إلا مقصراً .

(220/727)

قال تعالى دالاً على ذلك وعلى أن تهجدهم متصل بآخر الليل .

﴿ وبالأسحار ﴾ قال ابن زيد : السحر السدس الأخير من الليل ﴿ هم ﴾ أي : دائماً بظواهرهم وبواطنهم ﴿ يستغفرون ﴾ أي : يعدون مع هذا الاجتهاد أنفسهم مذنبين ويسألون غفران ذنوبهم لوفور علمهم بالله تعالى ، وأنهم لا يقدرون على أن يقدروه حق قدره وإن اجتهدوا لقول سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم "لا أحصي ثناء عليك"

وإبراز الضمير دلّ على أنّ غيرهم لو فعل هذا ليلة لا عجب بنفسه ورأى أنه لا أحد أفضل منه ، وعلى أنّ استغفارهم في الكثرة يقتضي أنهم يكونون بحيث يظنّ أنهم أحق بالتذلل من المصرّين على المعاصي ، فإنّ استغفارهم ذلك على بصيرة لأنهم نظروا ماله سبحانه في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات والحكم البالغة فأقبلوا على الاستغفار عالمين بأنه تعالى لا يقدر حق قدره .

تنبيه : بالأسحار متعلق بيستغفرون والباء بمعنى في وقدم متعلق الخبر على المبتدأ لجواز تقديم العامل .

وقال الكلبي ومجاهد : بالأسحار يصلون وذلك أنّ صلاتهم بالأسحار لطلب المغفرة روى أبو هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ينزل الله إلى السماء كل ليلة حتى يبقى ثلث الليل فيقول أنا الملك أنا الملك من الذي يدعوني فأستجيب له ، من الذي يسألني فأعطيه من الذي يستغفرني فأغفر له" وهذا الحديث من أحاديث الصفات وفيه مذهبان معروفان:

أحدهما : وهو مذهب السلف وغيرهم أنه يمّر كما جاء من غير تأويل ولا تعطيل وترك الكلام فيه وفي أمثاله مع الإيمان به وتنزيه الرب سبحانه عن صفات الأجسام .

المذهب الثاني : وهو قول جماعة من المتكلمين وغيرهم أنّ الصعود والنزول من صفات الأجسام فالله تعالى منزه عن ذلك فعلى هذا يكون معناه نزول الرحمة والألطاف الإلهية والإقبال على الداعين بالإجابة واللطف وتخصيصه بالثلث الأخير من الليل ، لأنّ ذلك وقت التهجد والدعاء وغفلة أكثر الناس وعن ابن عباس أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يتهجد قال : اللهمّ لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهنّ ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهنّ ، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهنّ ، ولك الحمد أنت الحق ووعدك حق ولقاؤك حق وقولك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق والساعة حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدّمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت" وزاد في رواية "وما أنت أعلم به مني أنت المقدّم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ولا إله غيرك" زاد النسائي "ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" .

ولما ذكر تعالى معاملتهم للخالق أتبعه المعاملة للخلائق تكميلاً لحقيقة الإحسان فقال تعالى: ﴿ وفي أموالهم ﴾ أي كل أصنافها ﴿ حق ﴾ أي نصيب ثابت ﴿ للسائل ﴾ أي الذي ينبه على حاجته بسؤال الناس وهو المتكفف ﴿ والمحروم ﴾ وهو المتعفف الذي لا يجد ما يغنيه ولا يسأل الناس ولا يُفطن له ليُتصدّق عليه وهذه صفة أهل الصفة رضي الله تعالى

عنهم ، فالمحسنون يعرفون صاحب الوصف لما لهم من ناقد البصيرة ولله تعالى بهم العناية ، وقدم السائل لأنه يعرف بسؤاله أو يكون إشارة إلى كثرة العطاء فيعطي السؤال ، فإذا لم يجدهم يسأل عن المحتاجين فيكون سائلاً ومسؤولاً .

(222/727)

وقيل قدّم السائل لتجانس رؤوس الآي . وقيل : السائل هو الآدمي ، والمحروم كل ذي روح غيره من الحيوانات المحترمة قال صلى الله عليه وسلم "في كل كبد حراء أجر" وهذا ترتيب حسن لأنّ الآدمي مقدّم على البهائم ، وقال ابن عباس وسعيد بن المسيب : السائل الذي يسأل الناس والمحروم الذي ليس له في الغنائم سهم ولا يجري عليه من الفيء شيء ، وقال قتادة والزهري : المحروم المتعفف الذي لا يسأل الناس وقال زيد بن أسلم : المحروم هو المصاب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته وهو قول محمد بن كعب القرظي قال : المحروم صاحب الجائحة ثم قرأ ﴿ إنا لمغرومون بل نحن محرومون ﴾ (الواقعة : ـ)

﴿ وفي الأرض ﴾ أي من الجبال والبحار والأشجار والثمار والنبات وغيرها ﴿ آيات ﴾ أي دلالات على قدرة الله تعالى ووحدانيته ﴿ للموقنين ﴾ أي الذين صار الإيقان لهم غريزة ثابتة فهم لذلك يتفطنون لرؤية ما فيها قال القشيري : من الآيات فيها أنها تحمل كل

شيء ، فكذلك العارف يحمل كل أحد ومن استثقل أحداً أو تبرم برؤية أحد فلغيبته عن الحقيقة ومطالعته الخلق بعين التفرقة ، وأهل الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة ، ومن الآيات فيها أنه يلقي عليها كل قذر وقمامة فتنبت كل زهر ونور فكذلك العارف بتشرّب ما يسقى من الجفاء ولا يترشح إلا بكل خلق حسن عليّ وشيمة زكية .

﴿ وفي أنفسكم ﴾ آيات أيضاً من مبدإ خلقكم إلى منتهاه ، وما في تركيب خلقكم من العجائب ﴿ أفلا تبصرون ﴾ أي : بأبصاركم وبصائركم فتتأمّلوا ما في ذلك من الآيات فمن تأمّلها علم أنه عبد ، ومتى علم ذلك علم أن له ربّاً غير محتاج إلى أحد .

(223/727)

﴿ وفي السماء ﴾ أي : جهة العلو ﴿ رزقكم ﴾ بما يأتي من المطر والرياح والحرّ والبرد وغير ذلك مما رتبه سبحانه وتعالى لمنافع العباد ، وقال ابن عباس يعني بالرزق المطر لأنه سبب الأرزاق ، وقيل : في السماء رزقكم مكتوب وقيل تقدير الأرزاق كلها من السماء ولولاه لما حصل في الأرض حبة قوت ﴿ وما توعدون ﴾ قال عطاء : من الثواب والعقاب وقال مجاهد : من الخير والشرّ وقال الضحاك : من الجنة والنار .

ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه فقال عز من قائل:

﴿ فوربّ ﴾ أي : مبدع ومدبر ﴿ السماء والأرض ﴾ أي : وما أودع فيهما مما علمتموه وما لم تعلموه ﴿ إنه ﴾ أي : الذي توعدونه من الخير والشرّ والجنة والنار وما ذكر من أمر الرزق وما تقدّم الإقسام عليه ﴿ لحق ﴾ أي ثبات يطابقه الواقع ﴿ مثل ما أنكم تنطقون ﴾ أي مثل نطقكم كما أنه لا شك في أنكم تنطقون ينبغي لكم أن لا تشكوا في تحقيق ذلك وقال بعض الحكماء : معناه أن كل إنسان ينطق بلسان نفسه ولا يمكن أن ينطق بلسان غيره ، كذلك كل أحد يأكل رزق نفسه الذي قسم له لا يقدر أن يأكل رزق غيره وأنشدوا في المعنى:

*ما لا يكون فلا يكون بحيلة ** أبداً وما هو كائن سيكون*

*سيكون ما هو كائن في وقته ** وأخو الجهالة مكمد مغبون*

وقيل : معناه إنّ القرآن لحق تكلم به الملك النازل من السماء مثل ما تتكلمون ، وقرأ حمزة والكسائي وشعبة برفع اللام على أنه نعت لحق ، وما مزيدة وأنكم مضاف إليه أي لحق مثل نطقكم ولا يضر تقدير إضافتها لمعرفة لأنها لا تتعرف بذلك لإبهامها ، والباقون بالنصب على أنه نعت لحق أيضاً كما في القراءة الأولى : وإنما بنى الاسم لإضافته إلى غير ممكن كما بناه القائل في قوله:

*فتداعى منخراه بدم ** مثل ما أثمر حماض الجبل*

يفتح مثل مع أنها نعت لدم وقيل أنها نعت لمصدر محذوف أي لحق حقاً مثل نطقكم . وقوله تعالى:

(224/727)

﴿ هل أتاك ﴾ أي يا أكمل الخلق ﴿ حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتبشير له بالفرج وسماهم ضيفاً ؛ لأنه حسبهم كذلك ويقع على الواحد والجمع لأنه مصدر ، وسماهم مكرمين عند الله تعالى ، أو لأنّ إبراهيم عليه السلام أكرمهم بأن عجل قراهم وأجلسهم في أكرم المواضع واختيار إبراهيم لكونه شيخ المرسلين ، وكون النبيّ صلى الله عليه وسلم مأموراً بأن يتبع ملته وكان إبراهيم عليه السلام أكرم الخليقة ، وضيف الكرام مكرمون . وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : لأنّ إبراهيم عليه السلام خدمهم بنفسه ، وعن ابن عباس سماهم مكرمين لأنهم جاؤوا غير مدعوين ، وقال صلى الله عليه وسلم "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه" .

فإن قيل : إذا كان المراد من الآية التسلية والإنذار ، فأي فائدة في حكاية الضيافة ؟

أجيب : بأنّ في ذلك إشارة إلى أنّ الفرج في حق الأنبياء والبلاء على الجهلة يأتي من حيث لم يحتسبوا كقوله تعالى : ﴿ فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ (الزمر :)

فلم يكن عند إبراهيم عليه السلام خبر من إنزال العذاب مع ارتفاع منزلته قال القشيري : وقيل كان عددهم اثني عشر ملكاً وقيل : جبريل عليه السلام وكان معه تسعة وقيل : كانوا ثلاثة ، وقرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها والباقون بكسر الهاء وياء بعدها .

﴿ إذ ﴾ أي حديثهم حين ﴿ دخلوا عليه ﴾ أي دخول استعلاء مخالف لدخول بقية الضيوف ، وقرأ نافع وابن كثير وعاصم بإظهار الذال عند الدال والباقون بالإدغام .

(225/727)

تنبيه : اختلف في العامل في إذ على أربعة أوجه : أحدها : أنه حديث أي هل أتاك حديثهم الواقع في وقت دخولهم عليه . ثانيها : أنه منصوب بما في ضيف من معنى الفعل ، لأنه في الأصل مصدر ولذلك استوى فيه الواحد المذكر وغيره ، كأنه قيل : الذين أضافهم في وقت دخولهم عليه . ثالثها : أنه منصوب بالمكرمين إن أريد بإكرامهم أن إبراهيم عليه السلام أكرمهم بخدمته لهم كأنه تعالى يقول : أكرموا إذ دخلوا . رابعها : أنه منصوب بإضمار اذكر ، ولا يجوز نصبه بأتاك لاختلاف الزمانين .

فإن قيل : إنما أرسلوا إلى قوم لوط فما الحكمة في مجيئهم إلى إبراهيم عليه السلام ؟

أجيب من وجهين : أحدهما : أن إبراهيم عليه السلام شيخ المرسلين ولوط من قومه ،

وعادة الملك إذا أرسل رسولاً لملك وفي طريقه من هو أكبر منه يقول له : اعبر على فلان الملك وأخبره برسالتك وخذ فيها رأيه . ثانيهما : أن إبراهيم عليه السلام كان شديد الشفقة حليماً فكان يشق عليه إهلاك أمّة عظيمة ، وكان ذلك مما يحزن إبراهيم عليه السلام شفقة منه على العباد ، فقال لهم : بشروه بغلام يخرج من صلبه أضعاف من هلك ويكون من صلبه فروع الأنبياء عليهم السلام ﴿ فقالوا سلاماً ﴾ أي هذا اللفظ . ﴿ قال سلامٌ ﴾ أي : هذا اللفظ ، والمشهور أنّ السلام الأوّل المراد به التحية أن نسلم سلاماً ، وقيل : إن سلاماً معناه حسناً ؛ لأنه كلام سلم به المتكلم من أن يلغو ويأثم ، فكأنهم قالوا قولاً حسناً سليماً من الإثم فيكون مفعولاً به ، لأنه في معنى القول ، وأمّا رفع الثاني فالمشهور أنه التحية فهو مبتدأ وخبره محذوف أي عليكم ، وقيل : إنه السلامة ، أي : أمري سلام لأني لا أعرفكم ، وقرأ حمزة والكسائي بكسر السين وسكون اللام والباقون بفتح السين واللام وألف بعدها والمعنى واحد .

(226/727)

وقوله تعالى : ﴿ قوم منكرون ﴾ أي غرباء لا أعرفهم قال ذلك في نفسه كما قاله ابن عباس خبر مبتدأ مقدّر أي هؤلاء . وقيل : إنما أنكر أمرهم ؛ لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان

وقال أبو العالية : أنكر إسلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض .

﴿ فراغ ﴾ أي ذهب في خفية من ضيفه ، فإنّ من آداب المضيف أن يبادر بالقرى حذراً من أن يكفه الضيف أو يصير منتظراً ﴿ إلى أهله ﴾ أي الذين عندهم بقرة ﴿ فجاء بعجل ﴾ أي فتى من أولاد البقر لأنه كان عامة ماله البقر ﴿ سمين ﴾ قد شواه وأنضجه كما قال تعالى في سورة هود ﴿ حنيذ ﴾ (هود :)

أي : مشوي .

﴿ فقرّبه إليهم ﴾ بأن وضعه بين أيديهم ليأكلوا فلم يأكلوا ﴿ قال ألا تأكلون ﴾ والهمزة إمّا للإنكار عليهم في عدم أكلهم ، وإمّا للعرض وإمّا للتحضيض فلم يجيبوا .

﴿ فأوجس ﴾ أي أضمر في نفسه ﴿ منهم خيفة ﴾ لما رأى إعراضهم على طعامه لظنه أنهم جاؤوه لشرّ . وقيل : وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا بعذاب فلما عرفوا منه ذلك ﴿ قالوا ﴾ مؤنسين له ﴿ لا تخف ﴾ وأعلموه أنهم رسل الله ﴿ وبشروه بغلام ﴾ يأتيه على شيخوخته ويأس امرأته بالطعن في السنّ بعد عقمها وهو إسحاق عليه السلام

﴿ عليم ﴾ أي مجبول جبلة مهيأة للعلم ولا يموت حتى يظهر علمه بالفعل في أوانه ، فإنّ جميع الأنبياء بعده من ذريته إلا نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم فإنه من ذرية إسماعيل عليه السلام .

تنبيه : ذكر ههنا من آداب الضيافة تسليم المضيف على الضيف ولقاءه بالوجه الحسن

والمبالغة في الإكرام بقوله سلام وهو آكد وسلامهم بالمصدر في قوله سلام بالرفع زيادة على ذلك ولم يقل سلام عليكم ، لأنّ الامتناع من الطعام يدل على العداوة ، والغدر لا يليق بالأنبياء فقال : سلام أي امرئ مسالمة ثم فيها من آداب المضيف تعجيل الضيافة فإنّ الفاء في قوله فراغ تدل على التعقيب وإخفائها .

(227/727)

لأن الروغان يقتضي الإخفاء وغيبة المضيف عن الضيف ليستريح ويأتي بما يمنعه الحياء منه ويخدم الضيف بنفسه ويختار الأجود لقوله سمين ، ويقدّم الطعام للضيف في مكانه ولا ينقل الضيف للطعام لقوله قربه إليهم ، ويعرض الأكل عليه ولا يأمره لقوله تعالى ﴿ قال ألا تأكلون ﴾ ولم يقل كلوا وسروره بأكله لا كما يوجد في بعض البخلاء الذين يحضرون طعاماً كثيراً ، ويجعل نظره ونظر أهل بيته إلى الطعام حتى يمسك الضيف يده عنه لقوله تعالى : ﴿ فأوجس منهم خيفة ﴾ لعدم أكلهم .

ومن آداب الضيف إذا حضر الطعام ولم يكن يصلح له لكونه مضرّاً به أو يكون ضعيف القوّة عن هضم ذلك الطعام أن لا يقول هذا طعام غليظ لا يصلح لي بل يأتي بعبارة حسنة ويقول : فيّ مانع من أكل الطعام لأنهم أجابوه بقولهم ﴿ لا تخف ﴾ ولم يذكروا في الطعام شيئاً ولا أنه

يضر بهم بل بشروه بالولد إشعاراً بأنهم ملائكة وبشروه بالأشرف وهو الذكر ، حيث فهموه أنهم ليسوا ممن يأكلون ثم وصفوه بالعلم دون المال والجمال ؛ لأنّ العلم أشرف الصفات ثم أدب آخر في البشارة وهو أن لا يخبر الإنسان بما يسرّه دفعة واحدة لأنه يورث مرضاً لأنهم جلسوا واستأنس بهم إبراهيم ثم قالوا نبشرك فإن قيل : قال تعالى في سورة هود ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ﴾ (هود :)

فدل على أنّ إنكاره ، حصل بعد تقريب العجل إليهم وههنا قال ﴿ فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون ﴾ ثم قال ﴿ فراغ إلى أهله ﴾ بفاء التعقيب وذلك يدل على أنّ تقريب الطعام منهم بعد حصول إنكاره فما وجهه ؟

(228/727)

أجيب بأن يقال لعلهم كانوا مخالفين لصفة الناس في الشكل والهيئة ولذلك قال ﴿ قوم منكرون ﴾ أي عند كل أحد واشترك إبراهيم عليه السلام وغيره فيه ولهذا لم يقل أنكرتم بل قال : أنتم منكرون في أنفسكم عند كل أحد منا ، ثم لما امتنعوا من الطعام تأكد الإنكار لأنّ إبراهيم تفرّد بمشاهدة إمساكهم فنكرهم فوق الإنكار الأوّل وحكاية الحال في سورة هود أبسط مما ذكره ههنا ، فإنه هنا لم يبين المبشر به وهناك ذكره باسمه وهو إسحاق وههنا

لم يقل إنّ القوم قوم من ، وهناك قال : قوم لوط .

ولما كانا بعيدين عن قبول الولد تسبب عن ذلك قوله تعالى دالاً على أنّ الولد إسحاق مع الدلالة على أنّ خفاء الأسباب لا يؤثر في وجود المسببات .

﴿ فأقبلت ﴾ أي : من سماع هذا الكلام ﴿ امرأته ﴾ سارة قيل : لم يكن ذلك إقبالاً من مكان إلى مكان بل كانت في البيت ، فهو كقول القائل : أقبل يفعل كذا إذا أخذ فيه وقوله تعالى : ﴿ في صرّة ﴾ أي : صيحة حال ، أي : جاءت صائحة لأنها قد امتلأت عجباً ﴿ فصكت ﴾ قال ابن عباس : لطمت ﴿ وجهها ﴾ واختلف في صفته فقيل : هو الضرب باليد مبسوطة وقيل : هو ضرب الوجه بأطراف الأصابع فعل المتعجب ، وهي عادة النساء إذا أنكرن شيئاً ، وأصل الصك ضرب الشيء بالشيء العريض . وقيل : جمعت أصابعها وضربت جبهتها عجباً وذاك من عادة النساء أيضاً إذا أنكرن شيئاً ﴿ وقالت ﴾ تريد أن تستبين الأمر هل الولد منها أو من غيرها ﴿ عجوز ﴾ قال القشيري : قيل إنها كانت يومئذ ابنة ثمان وتسعين سنة ومع ذلك ﴿ عقيم ﴾ فهي حال شبابها لم تكن تقبل الحبل فلم تلد قط .

ولما قالت ذلك قالوا مجيبين لها .

﴿ قالوا كذلك ﴾ أي مثل ما قلنا من هذه البشرى العظيمة ﴿ قال ربك ﴾ أي المحسن إليك بتأهيلك لذلك على ما ذكرت من حالك وبتأهيلك من قبل الاتصال بخليله صلى الله

عليه وسلم ﴿إنه هو﴾ أي: وحده ﴿الحكيم﴾ أي: الذي يضع الأشياء في أحق مواضعها ﴿العليم﴾ المحيط العلم، فهو لذلك لا يعجزه شيء.

(229/727)

ثم بين سبحانه وتعالى ما كان من حال إبراهيم وحال الملائكة بعد ذلك بقوله تعالى.

﴿قال﴾ أي إبراهيم عليه السلام مسبباً عما رأى من حالهم وأنّ اجتماع الملائكة على تلك الحالة لم يكن لهذه البشارة فقط ﴿فما خطبكم﴾ أي: خبركم العظيم ﴿أيها المرسلون﴾ أي لأمر عظيم وهذا أيضاً من آداب المضيف إذا بادر الضيف بالخروج قال له: ما هذه العجلة وما شأنك لأنّ في سكوته ما يوهم اشتغاله، ثم إنهم أتوا بما هو من آداب الصديق الذي لا يسرّ عن الصديق شيئاً وكان ذلك بإذن الله تعالى لهم في إطلاع إبراهيم عليه السلام على إهلاكهم وجبر قلبه بتقديم البشارة بأبي الأنبياء إسحاق عليه السلام.

فإن قيل: فما الذي اقتضى ذكره بالفاء ولم لا قال: ما هذا الاستعجال وما خطبكم المعجل لكم. أجيب: بأنه لما أوجس منهم خيفة لو خرجوا من غير بشارة وإيناس فلما آنسوه قال: فما خطبكم، أي: بعد هذا الأنس العظيم ما هذا الإيحاش الأليم.

﴿قالوا﴾ قاطعين بالتأكيد بأنّ مضمون خبرهم حتم لا بدّ منه ولا مدخل للشفاعة فيه

﴿ إنا أرسلنا ﴾ أي : بإرسال من تعلم ﴿ إلى قوم مجرمين ﴾ أي : هم في غاية القوّة على ما يحاولونه ، وقد صرفوا ما أنعم الله تعالى به عليهم من القوّة في قطع ما يحق وصله ، ووصل ما يحق قطعه يعنون قوم لوط .

﴿ لنرسل عليهم ﴾ أي : من السماء التي فيها ما وعد العباد به وتوعدوا ﴿ حجارةً من طين ﴾ أي : مهيأ للإحراق والاحتراق .

﴿ مسوّمة ﴾ أي : معلمة بعلامة العذاب المخصوص عليها اسم من يرمي بها وقوله تعالى : ﴿ عند ربك ﴾ أي : المحسن إليك بهذه البشارة وغيرها ظرف المسوّمة ، أي : معلمة عنده ﴿ للمسرفين ﴾ أي : المتجاوزين الحدود غير قانعين بما أبيح لهم فالمسرف المتمادي ولو في الصغائر ، فهم مجرمون أي : مسرفون . والمجرم قال ابن عباس : هو المشرك لأنّ الشرك أعظم الذنوب .

(230/727)

وهنا لطيفة : وهي أنّ الحجارة سوّمت للمصرّ المسرف الذي لا يترك الذنب في المستقبل وذلك إنما يعلمه الله تعالى فلذلك قال ﴿ عند ربك للمسرفين ﴾ .

ولما كان الإجرام ظاهراً قالوا ﴿ إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ واللام في المسرفين لتعريف

العهد أي لهؤلاء المسرفين إذ ليس لكل مسرف حجارة مسوّمة ، وإسرافهم بأنهم أتوا بما لم يسبقهم به أحد من العالمين وفي هذا دليل على رجم اللائط ، والفائدة في إرسال جماعة من الملائكة لهذا الأمر وإن كان يكفي فيه الواحد منهم إذ الملك العظيم قد يهلك بالأمر الحقير كما أهلك النمروذ بالبعوض ، وكما أهلك فرعون بالقمل والجراد بل بالريح التي بها الحياة إظهاراً للقدرة ، وقد تكثر الأسباب كما في يوم بدر أمر خمسة آلاف من الملائكة بإهلاك أهل بدر مع قلتهم إظهاراً لعظيم قدرته .

(231/727)

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ من طين ﴾ أي ليس من البرد والفاعل لذلك هو الله تعالى لا كما تقول الحكماء فإنهم يقولون : إنّ البرد يسمى حجارة فقوله تعالى : ﴿ من طين ﴾ يدفع ذلك التوهم قال الرازي : إن بعض من يدّعي العقل يقول لا ينزل من السماء إلا حجارة من طين مدوّرات على هيئة البرد وهيئة البنادق التي يتخذها الرماة قالوا : وسبب ذلك أنّ الإعصار تصعد الغبار من الفلوات العظيمة التي لا عمارة فيها والرياح تسوقها إلى بعض البلاد ويتفق ذلك إلى هواء ندي فيصير ذلك طيناً رطباً ، والرطب إذا نزل وتفرّق استدار ، بدليل أنك إذا رميت الماء إلى فوق ثم نظرت إليه رأيته يقطر كرات مدوّرات كاللآلىء

الكبار ، ثم في النزول إن اتفق أن تضربه النيران التي في الجوّ جعلته حجارة كالآجر المطبوخ فينزل فيصيب من هيأ الله تعالى هلاكه ، وقد ينزل كثيراً في المواضع التي لا عمارة بها فلا يرى ولا يدري به فلهذا قال : ﴿ من طين ﴾ ، لأنّ ما لا يكون من طين كالحجر الذي يكون في الصواعق لا يكون كثيراً بحيث يمطر وهذا تعسف ، لأنّ ذلك الإعصار لما وقع فإن وقع لحادث آخر لزم التسلسل ولا بدّ من الانتهاء إلى محدث ليس بحادث فذلك المحدث لا بدّ وأن يكون فاعلاً مختاراً ، والمختار له أن يفعل ذلك وله أن يخلق الحجارة من طين على وجه آخر من غير نار ولا غبار لكن العقل لا طريق له إلى الجزم بطريق إحداثه ، وما لا يصل العقل إليه لا يؤخذ إلا بالنقل والنص ومن المعلوم أنّ نزول حجارة الطين من السماء أغرب وأعجب من غيرها .

ولما أراد الله تعالى أن يهلك المجرمين ميز المؤمنين بقوله تعالى:

﴿ فأخرجنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة بعد أن ذهبت رسلنا إليهم ووقعت بينهم وبين لوط عليه السلام محاورات معروفة لم يدع الحال هنا إلى ذكرها ﴿ من كان فيها ﴾ أي : قرى قوم لوط ﴿ من المؤمنين ﴾ أي : المصدّقين بقلوبهم لأنا لا نسوّيهم بالمجرمين فخلصناهم من العذاب على قلتهم وضعفهم وقوّة المخالفين وكثرتهم .

﴿ فما وجدنا فيها ﴾ أي : تلك القرى ، أسند الأمر إليه تشريفاً لرسله وإعلاماً بأنّ فعلهم فعله تعالى ﴿ غير بيت ﴾ أي : واحد وهو بيت ابن أخي إبراهيم عليهما السلام ، وقيل : كانت عدّة الناجين منهم ثلاثة عشر ﴿ من المسلمين ﴾ أي : العريقين في إسلام الظاهر والباطن لله تعالى من غير اعتراض أصلاً ، وهم إبراهيم وآله عليهم السلام وإنهم أوّل من وجد منهم الإسلام الأتم وتسموا به كما مرّ في سورة البقرة ، وسموا به أتباعهم فكان هذا البيت الواحد صادقاً عليه الإيمان الذي هو التصديق والإسلام الذي هو الإنقياد قال البغوي : وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعاً لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم يعني لما بينهما من التلازم وإن اختلف المفهومان ، وقال الأصفهاني : وقيل : كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر وقيل : هم لوط وابنتاه وصفوا بالإيمان والإسلام أي هم مصدّقون بقلوبهم عاملون بجوارحهم الطاعات .

تنبيه : في الآية إشارة إلى أنّ الكفر إذا غلب والفسق إذا فشا لا تنفع معه عبادة المؤمنين ، بخلاف ما لو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون ويزنون ومثاله : أنّ العالم كالبدن ، ووجود الصالحين كالأغذية الباردة والحارة والسموم والواردة عليه الضارة ، ثم إنّ البدن إذا خلا عن النافع وفيه الضار هلك وإن خلا عن الضار وفيه النافع طاب ونما ، وإن وجدا فيه معاً فالحكم للأغلب ، وإطلاق الخاص على العام لا مانع

منه لأنّ المسلم أعم من المؤمن ، فإذا سمى المؤمن مسلماً لا يدل على اتحاد مفهوميهما فكأنه تعالى قال : أخرجنا المؤمنين فما وجدنا الأعم منهم إلا بيتاً من المسلمين ، ويلزم من هذا أن لا يكون هناك غيرهم من المؤمنين .

(233/727)

﴿ وتركنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ فيها ﴾ أي تلك القرى بما أوقعنا بها من العذاب ﴿ آية ﴾ أي علامة عبرة على هلاكهم كالحجارة أو الماء المنتن ، فإنا قلعنا قراهم كلها وصعدت في الجوّ كالغمام إلى عنان السماء ولم يشعر أحد من أهلها بشيء من ذلك ثم قلبت واتبعت بالحجارة ثم خسف بها وغمرت بالماء الذي لا يشبهه شيء من مياه الأرض ، كما أنّ جنايتهم لم تكن تشبه جناية أحد ممن تقدّمهم من أهل الأرض ﴿ للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ أي : أن يحل بهم كما حل بهذه القرى في الدنيا من رفع الملائكة لهم في الهواء الذاري إلى عنان السماء وقلبهم وإتباعهم الحجارة المحرقة ، وغمرهم بالماء المناسب لفعلهم بنتنه وعدم نفعه ، وما ادّخر لهم في الآخرة أعظم وخص الذين يخافون بالذكر لأنهم المعتبرون بها . وقوله تعالى:

عطف على قوله تعالى : ﴿ فيها ﴾ بإعادة الجار ، لأنّ المعطوف عليه ضمير مجرور

فيتعلق بتركنا من حيث المعنى ويكون التقدير وتركنا في قصة موسى آية ﴿ إذ أرسلناه ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ إلى فرعون بسلطان مبين ﴾ أي بحجة واضحة وهي معجزاته الظاهرة كاليد والعصا ومع ذلك لم ينتفع بها ، ولذلك سبب عنها وعقب بها قوله تعالى: ﴿ فتولى ﴾ أي : كلف نفسه الإعراض عنها بعد ما دعاه علمها إلى الإقبال إليها وأشار إلى قواه بقوله تعالى : ﴿ بركنه ﴾ أي : بسبب ما يركن إليه من القوّة في نفسه وبأعوانه وجنوده ، لأنهم له كالركن وقيل : بجميع بدنه كناية عن المبالغة في الإعراض ﴿ وقال ﴾ معلماً بعجزه عما أتاه به وهو لا يشعر ﴿ ساحر ﴾ ثم ناقض كما ناقضتكم فقال بجهله عما يلزم على قوله ﴿ أو مجنون ﴾ أي : لاجترائه عليّ مع مالي من عظيم الملك بمثل هذا الذي يدعو إليه تنبيه : أو هنا على بابها من الإبهام على السامع أو للشك نزل نفسه مع أنه يعرفه نبياً حقاً منزلة الشاك في أمره تمويهاً على قومه ، وقال أبو عبيدة : أو بمعنى الواو قال : لأنه قد قالهما قال تعالى : ﴿ إنّ هذا لساحر عليم ﴾ (الأعراف :)

(234/727)

وقال في موضع آخر ﴿ إنّ رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ (الشعراء :)

وردّ الناس عليه هذا وقالوا : لا ضرورة تدعو إلى ذلك وأمّا الآيتان فلا تدلان على أنه

قالهما معاً في آن واحد ، وإنما يفيدان أنه قالهما أعمّ من أن يكونا معاً ، أو هذه في وقت وهذه في آخر .

ولما وقعت التسلية بهذا للأولياء قال تعالى محذراً للأعداء .

﴿ فأخذناه ﴾ أي : أخذ غضب وقهر بعظمتنا وقوله تعالى : ﴿ وجنوده ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على مفعول أخذناه وهو الظاهر وأن يكون مفعولاً معه .

﴿ فنبذناهم ﴾ أي : طرحناهم طرح مستهين بهم كما تطرح الحصيات ﴿ في اليمّ ﴾ أي : البحر الذي هو أهل لأن يقصد بعد أن سلطنا الريح عليه فغرقته لما ضربه موسى عليه السلام بعصاه ونشفت أرضه وأيبست ما أبرزت فيه من الطرق لنجاة أوليائنا وهلاك أعدائنا ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنّ فرعون ﴿ مليم ﴾ أي آت بما يلام عليه من تكذيب الرسول ودعوى الربوبية وغير ذلك .

ثم ذكر تعالى قصصاً أخر تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم إحداها : قوله تعالى:

﴿ وفي عادٍ ﴾ أي : إهلاكهم وهم قوم هود عليه السلام آية عظيمة ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ أرسلنا ﴾ بعظمتنا ﴿ عليهم الريح ﴾ فأتتهم تحمل سحابة سوداء وهي تدر الرمل وترمي بالحجارة كما مرّت الإشارة إليه على كيفية لا تطاق ﴿ العقيم ﴾ أي التي لا خير فيها لا تحمل المطر ولا تلقح الشجر وهي الدبور .

ثم بين عقمها وإعقامها بقوله تعالى:

﴿ ما تذر ﴾ أي : تترك على حالة رديئة ، وأغرق في النفي فقال تعالى : ﴿ من شيء أتت عليه ﴾ أي : إتياناً أراد مرسلها إهلاكه بها ﴿ إلا جعلته كالرميم ﴾ أي : الشيء البالي الذي دهكته الأيام والليالي إلى حالة الدمار وهو في كلامهم ما يبس من نبات الأرض وديس ، قاله ابن جرير .

(235/727)

فإن قيل : الجبال والصخور وغير ذلك أتت عليهم وما جعلتهم كالرميم أجيب بأنّ المراد أتت عليه قاصدة له وهو عاد وأبنيتهم وعروشهم ، لأنها كانت مأمورة بأمر من عند الله فكأنها كانت قاصدة لهم فما تركت شيئاً من تلك الأشياء إلا جعلته كالرميم .

ثانيها : قوله تعالى : ﴿ وفي ثمود ﴾ أي إهلاكهم وهم قوم صالح عليه السلام آية عظيمة ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ قيل لهم ﴾ أي ممن لا يخلف الميعاد ، وقرأ هشام والكسائي بضم القاف والباقون بكسرها ﴿ تمتعوا ﴾ أي بلبن الناقة وغيره مما مكناهم فيه من الزروع والنخيل والأبنية في الجبال والسهول وغير ذلك من جلائل الأمور على الوجه الذي أمرناكم به ، ولا تطغوا ﴿ حتى حين ﴾ أي وقت ضربناه لآجالكم .

﴿ فعتوا ﴾ أي أوقعوا بسبب إحساننا إليهم العتوّ وهو التكبر والإباء ﴿ عن أمر ربهم ﴾

أي : مولاهم الذي أعظم إحسانه إليهم فعقروا ناقته وأرادوا قتل نبيه صالح عليه السلام ﴿ فأخذتهم ﴾ أي : بسبب عتوّهم أخذ قهر وعذاب ﴿ الصاعقة ﴾ أي : الصيحة العظيمة التي حملتها الريح فأوصلتها إلى مسامعهم بغاية العظمة ورجت ديارهم رجة أزالت أرواحهم بالصعق ، وقرأ الكسائي بإسكان العين ولا ألف قبلها ، والباقون بكسر العين وقبلها ألف وقوله تعالى : ﴿ وهم ينظرون ﴾ دال على أنها كانت في غمام وكان فيها نار ، ويجوز مع كونه من النظر أن يكون أيضاً من الانتظار فإنهم وعدوا نزول العذاب بعد ثلاثة أيام وجعل في كل يوم علامة وقعت بهم فتحققوا وقوعه في اليوم الرابع . وقال بعض المفسرين : المراد منه هو ما أمهلهم الله تعالى بعد عقرهم الناقة وهو ثلاثة أيام بقوله تعالى : ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ﴾ (هود :)

(236/727)

وكان في تلك الأيام تتغير ألوانهم فتحمر وتصفر وتسودّ قال الرازي : وهذا ضعيف ، لأنّ قوله تعالى ﴿ فعتوا عن أمر ربهم ﴾ بحرف الفاء دليل على أنّ العتوّ كان بعد قوله تعالى : ﴿ تمتعوا ﴾ فإذاً الظاهر أنّ المراد هو ما قدّر الله تعالى للناس من الآجال فما من أحد إلا وهو ممهل مدّة الأجل انتهى . ولحسن هذا فسرت الآية به .

﴿ فما ﴾ أي : فتسبب عن ذلك أنهم ما ﴿ استطاعوا ﴾ أي : تمكنوا ، وأكد النفي بقوله تعالى : ﴿ من قيام ﴾ أي : فما قاموا بعد نزول العذاب وما قدروا على نهوض ، قال قتادة : لم ينهضوا من تلك الصرعة كقوله تعالى : ﴿ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ (الأعراف :) وقيل : هو من قولهم ما يقوم به إذا عجز عن دفعه ﴿ وما كانوا ﴾ أي : كوناً ما ﴿ منتصرين ﴾ أي : لم يكن فيهم أهلية الانتصار بوجه لا بأنفسهم ولا بناصر ينصرهم فيطاوعونه في النصرة ، لأن تهيؤهم لذلك سقط بكل اعتبار .

ثالثها : قوله تعالى : ﴿ وقوم نوح ﴾ بالجرّ ، وهي قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي عطف على ثمود أي وفي إهلاكهم بماء السماء والأرض آية ، وبالنصب وهي قراءة الباقين أي وأهلكنا قوم نوح ﴿ من قبل ﴾ أي : من قبل إهلاك هؤلاء المذكورين ثم علل إهلاكهم بقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا ﴾ خلقاً وطبعاً لا حيلة لغيرنا من أهل الأسباب في صلاحهم ﴿ قوما ﴾ أي : أقوياء ﴿ فاسقين ﴾ أي : غريقين في الخروج عن حظيرة الدين .

ثم ذكر ما يدلّ على تمام القدرة على البعث بقوله تعالى:

﴿ والسماء بنيناها ﴾ أي : بمالنا من العظمة ﴿ بأيدٍ ﴾ أي : بقوّة وشدّة عظيمة لا يقدر قدرها . فائدة : رسمت بأيد بيائين بعد الألف ﴿ وإنا ﴾ على عظمتنا بعد ذلك ﴿ لموسعون ﴾ أي : أغنياء وقادرون ذووا سعة لا تتناهى ، ولذلك أوسعنا بقدر جرمها وما فيها من الرزق عن أهلها فالأرض كلها على اتساعها كالنقطة في وسط دائرة السماء بما اقتضته صفة الإلهية التي لا تصح معها الشركة أصلاً فلسنا كمن تعرفون من الملوك ، لأنهم إذا فعلوا شيئاً لم يقدروا على أعظم منه وإن قدروا كان ذلك منهم بكلفة ومشقة وسترون في اليوم الآخر ما يتلاشى ما ترون في جنبه ومن اتساعنا جعلها بلا عمد مع ما هي عليه من العظمة إلى غير ذلك من الأمور الخارقة للعوائد ، وعن الحسن لموسعون الرزق بالمطر وقيل : جعلنا بينها وبين الأرض سعة .

﴿ والأرض فرشناها ﴾ أي : بسطناها ومهدناها بما لنا من العظمة ، فصارت ممهدة جديرة بأن تستقرّ عليها الأشياء ، وهي آية على تمهيد أرض الجنة وسقنا لأنهارها وغرسنا لأشجارها ﴿ فنعم ﴾ أي : فتسبب عن ذلك أن يقال : في وصفنا نعم ﴿ الماهدون ﴾ والمخصوص بالمدح محذوف لفهم المعنى ، أي : نحن لكمال قدرتنا فما نزل من السماء شيء ولا نبع من الأرض شيء إلا بإرادتنا واختيارنا وتقديرنا من الأزل لأنا إذا صنعنا شيئاً علمنا ما يكون منه من حين إنشائه إلى حين إفنائه ولا يكون شيء منه إلا

بتقديرنا ، وذلك تذكير بالجنة والنار فما فيها من خير فهو آية على الجنة ، وما فيها من شر فهو آية على النار وقوله تعالى:

(238/727)

﴿ ومن كل شيء خلقنا ﴾ يجوز أن يتعلق بخلقنا أي خلقنا من كل شيء ﴿ زوجين ﴾ وأن يتعلق بمحذوف على أنه حال من زوجين ، لأنه في الأصل صفة له إذ التقدير خلقنا زوجين كائنين من كل شيء ، أي صنفين كل منهما يزاوج الآخر من وجه وإن خالفه من آخر ولا يتم نفع أحدهما إلا بالآخر من الحيوان والنبات وغيرهما ، ويدخل فيه الأضداد من الغنى والفقر والحسن والقبح والحياة والموت والظلام والنور والليل والنهار والصحة والسقم والبر والبحر والسهل والجبل والشمس والقمر والحر والبرد اللذين هما من نفس جهنم آية بينة عليها وبناؤها على الاعتدال في بعض الأحوال آية على الجنة مذكرة بها مشوّقة إليها ، والإيمان والكفر والسعادة والشقاوة والحق والباطل والحلو والمر قال الحسن : كل اثنين منها زوج والله سبحانه وتعالى فرد لا مثل له ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أي : فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج إرادة أن تتذكروا فتعلموا أنّ خالق هذه الأشياء واحد لا شريك له لا يعجزه حشر الأجساد وجمع الأرواح ، وقرأ حفص والكسائي

بتخفيف الذال والباقون بالتشديد

﴿ ففرّوا ﴾ أي : أقبلوا والجؤوا ﴿ إلى الله ﴾ أي : الذي لا سمي له فضلاً عن مكافىء ، وله الكمال كله فهو في غاية العلو فلا يفرّ ويسكن أحد إلى غير محتاج مثله فإن المحتاج لا غنى عنده ولا يفرّ إليه سبحانه إلا من تجرّد عن حضيض عوائقه الجسمية إلى أوج صفاته الروحانية وذلك من وعيده إلى وعده اللذين دلّ عليهما بالزوجين فتكمل السياق بالتحذير والاستعطاف بالاستدعاء فهو من باب لا ملجأ منك إلى إليك أعوذ بك منك قال القشيري : ومن صح فراره إلى الله تعالى صح قراره مع الله تعالى قال البقاعي : وهو بكمال المتابعة ليس عيناً ومن فهم منه اتحاداً بذات أو صفة فقد نابذ طريق القوم فعليه لعنة الله .

(239/727)

﴿ إني لكم منه ﴾ أي : لا من غيره ﴿ نذير ﴾ أي : من أن يفرّ أحد إلى غيره فإنه لا يحصل له قصد ﴿ مبين ﴾ أي : بين الإنذار ففرار العامّة من الجهل إلى العلم عقداً وسعياً ، ومن الكسل إلى التشمير حذراً وحزماً ومن الضيق إلى السعة ثقة ورجاء وفرار خاصة الخاصة مما دون الحق إلى الحق استغراقاً في وحدانيته .

﴿ ولا تجعلوا ﴾ أي : بأهوائكم ﴿ مع الله ﴾ وكرر الاسم الأعظم ولم يضمر تعييناً للمراد ،

لأنه لم يشاركه في التسمية به أحد وتنبيهاً على ماله من صفات الكمال وتعميماً لوجوه المقاصد لئلا يظنّ لو قيل معه إنّ المراد النهي على الجعل من جهة الفرار لا من جهة غيرها ﴿ إلهاً آخر ﴾ ثم علل النهي مع التأكيد بطعنهم في نذارته فقال ﴿ إني لكم منه ﴾ أي لا من غيره ، فإن غيره لا يقدر على شيء ﴿ نذير ﴾ أي : محذر من الهلاك الأبدي بالعقوبة التي لاخلاص معها إن فعلتم ذلك ﴿ مبين ﴾ أي : لا أقول شيئاً من واضح النقل إلا ودليله ظاهر .

﴿ كذلك ﴾ أي مثل قول قومك المختلف العظيم الشناعة البعيد من الصواب بما له من الاضطراب وقع لمن قبلهم ودلّ على هذا المقدّر بقوله تعالى مستأنفاً ﴿ ما أتى الذين من قبلهم ﴾ أي : كفار مكة وعمم النفي فقال تعالى : ﴿ من رسول ﴾ أي من عند الله تعالى ﴿ إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ أي مثل تكذيبهم لك بقولهم ذلك لأنّ الرسول يأتيهم بمخالفة مألوفاتهم التي قادتهم إليها أهواؤهم ، والهوى هو الذي أوجب لهم هذا التناقض الظاهر سواء أكانت أو للتفصيل ، لأنّ بعضهم قال : واحداً ، وبعضهم قال : آخر ، أو كانت للشك لأنّ الساحر يكون لبيباً فطناً آتياً بما يعجز عنه كثير من الناس ، والمجنون بالضدّ من ذلك .

فإن قيل : قوله تعالى ﴿ إلا قالوا ﴾ يدل على أنهم كلهم قالوا ذلك والأمر ليس كذلك ، لأنّ ما من رسول إلا وآمن به قوم أجيب : بأنّ ذلك ليس بعام فإنه لم يقل إلا قالوا كلهم وإنما قال إلا قالوا ولما كان كثير منهم قائلين قال تعالى إلا ﴿ إلا قالوا ﴾ .

فإن قيل : فلم لم يذكر المصدّقين كما ذكر المكذبين ، وقال : إلا قال بعضهم : صدقت وبعضهم كذبت أجيب : بأنّ المقصود التسلية وهي أعلى التكذيب فكأنه تعالى قال لا تأس على تكذيب قومك فإنّ أقواماً قبلك كذبوا ورسلاً كذبوا .

ثم عجب منهم بقوله تعالى:

﴿ أتواصوا به ﴾ فهو استفهام للتعجب والتوبيخ والضمير في به يعود على القول المدلول عليه بقالوا ، أي أتواصوا الأوّلون والآخرون بهذا القول المتضمن لساحر أو مجنون والمعنى : كيف اتفقوا على معنى واحد ، كأنهم تواطؤا عليه وأوصى أوّلهم آخرهم بالتكذيب وقوله تعالى ﴿ بل هم قوم ﴾ أي : ذو شماخة وكبر ﴿ طاغون ﴾ إضراب عن أنّ التواصي جامعهم لتباعد أيامهم إلى أنّ الجامع لهم على هذا القول مشاركتهم في الطغيان الحامل عليه ، ثم إنّ الله تعالى سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى:

﴿ فتولّ ﴾ أي : أعرض ﴿ عنهم ﴾ أي : كلف نفسك الإعراض عن الإبلاغ في إبلاغهم ولا تأسف على تخلفهم عن الإسلام ﴿ فما أنت بملوم ﴾ لأنك بلغتهم الرسالة وما قصرت فيما أمرت به .

قال المفسرون : لما نزلت هذه الآية "حزن النبيّ صلى الله عليه وسلم واشتدّ ذلك على أصحابه وظنوا أن الوحي قد انقطع وإن العذاب قد حضر إذ أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يتولى عنهم" فأنزل الله تعالى:

﴿ وذكر ﴾ أي : ولا تدع التذكير والموعظة ﴿ فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ فطابت أنفسهم ، والمعنى : ليس التولي مطلقاً بل تولّ وأقبل وأعرض وادع فلا التولي يضرّك إذا كان عليهم ولا التذكير يضيع إذا كان مع المؤمنين ، وقال مقاتل : معناه عظ بالقرآن كفار مكة فإنّ الذكرى تنفع من علم الله تعالى أنه مؤمن منهم ، وقال الكلبي : عظ بالقرآن من آمن من قومك فإنّ الذكرى تنفعهم .

ولما بين حال من قبل النبيّ صلى الله عليه وسلم في التكذيب بين سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الله تعالى الذي خلقهم للعبادة بقوله تعالى:

(241/727)

﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون ﴾ واختلف في تفسير ذلك فأكثر المفسرين على أن المراد بهم العموم ، ولا ينافي ذلك عدم عبادة الكافرين لأنّ الغاية لا يلزم وجودها كما في قولك بريت هذا القلم لأكتب به فإنك قد لا تكتب به هكذا قال الجلال المحلي ، وأوضح

منه ما قاله ابن عادل : إنّ المعنى إلا معدّين للعبادة ثم منهم من يتأتى منه ذلك ومنهم من لا ، كقولك : هذا القلم بريته للكتابة ثم قد لا تكتب به وقد تكتب انتهى أو إنّ المراد إلا لأمرهم بالعبادة وليقروا بها وهذا منقول عن عليّ بن أبي طالب ، أو إنّ المراد ليطيعوا وينقادوا لقضائي ، فالمؤمن يفعل ذلك طوعاً والكافر يفعل ذلك كرهاً ، أو أنّ المراد إلا ليوحدون فأمّا المؤمن فيوحد اختياراً في الشدّة والرخاء ، وأمّا الكافر فيوحد اضطراراً في الشدّة والبلاء دون النعمة والرخاء . وقال مجاهد : معناه إلا ليعرفون قال البغوي : وهذا أحسن لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده بدليل قوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله ﴾ (الزخرف :)

وقيل : المراد به الخصوص أي : ما خلقت السعداء من الجنّ والأنس إلا لعبادتي ، والأشقياء منهم إلا لمعصيتي . قال زيد بن أسلم : قال هو ما جبلوا عليه من السعادة والشقاوة ، ويؤيده قوله تعالى ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجنّ والإنس ﴾ (الأعراف :)

وقيل : وما خلقت الجنّ والإنس المؤمنين وقيل : الطائعين .

تنبيه : استدلّ المعتزلة بهذه الآية على أنّ أفعال الله تعالى معللة بالأغراض وأجيبوا بوجوه منها : أنّ اللام قد ثبتت لغير الغرض كقوله تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ (الإسراء :)

وقوله تعالى ﴿ فطلقوهنّ لعدّتهنّ ﴾ (الطلاق :)

ومعناه المقارنة فيكون معناه قرنت الخلق بالعبادة أي خلقتهم وفرضت عليهم العبادة ومنها

قوله تعالى ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ (الرعد :)

ومنها ما يدلّ على أنّ الإضلال بفعل الله كقوله تعالى ﴿ يضل من يشاء ﴾ (الرعد :)

(242/727)

وأمثاله ، ومنها قوله تعالى ﴿ لا يسئل عما يفعل ﴾ (الأنبياء :)

وقوله تعالى ﴿ يفعل ما يشاء ﴾ (آل عمران :)

﴿ ويحكم ما يريد ﴾ (المائدة :)

فإن قيل : ما الحكمة في أنه لم يذكر الملائكة مع أنهم من أصناف المكلفين وعبادتهم أكثر من

عبادة غيرهم من المكلفين قال تعالى : ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ (الأنبياء :)

وقال تعالى ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ (الأعراف :)

أجيب بوجوه .

أحدها : أنّ الآية سيقت لبيان قبح ما يفعله الكفرة من ترك ما خلقوا له وهذا مختص بالجنّ

والأنس ، لأنّ الكفر موجود فيهما دون الملائكة . ثانيها : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان

مبعوثاً إلى الجنّ والإنس فلما قال تعالى : ﴿ وذكر ﴾ بين ما يذكر به ، وهو كون الخلق للعبادة

وخصص أمّته بالذكر أي ذكر الجنّ والأنس ثالثها : أن عباد الأصنام كانوا يقولون إنّ الله تعالى عظيم الشأن خلق الملائكة وجعلهم مقربين فهم يعبدون الله تعالى وخلقهم لعبادته ، ونحن لنزول درجتنا لا نصلح لعبادة الله تعالى فنعبد الملائكة وهم يعبدون الله تعالى كما قالوا ﴿ ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى ﴾ (الزمر :)

فقال تعالى:

﴿ وما خلقت الجنّ والأنس إلا ليعبدون ﴾ ولم يذكر الملائكة لأن الأمر فيهم كان مسلماً من القوم فذكر المنازع فيه . رابعها : فعل الجنّ يتناول الملائكة لأنّ أصل الجنّ من الاستتار وهم مستترون عن الخلق فذكر الجنّ لدخول الملائكة فيهم .

ولما خص سبحانه خلقهم في إرادة العبادة صرّح بهذا المفهوم بقوله تعالى:

﴿ ما أريد منهم ﴾ أي : في وقت من الأوقات وعمم في النفي بقوله تعالى : ﴿ من رزقٍ ﴾ أي : شيء من الأشياء على وجه ينفعني من جلب أو دفع ، لأني منزه عن لحاق نفع أو ضر كما يفعل غيري من الموالي مع عبيدهم ، فإنّ ملاك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصل معايشهم وأرزاقهم ، فإمّا مجهز في تجارة ليفيء ربحاً ، أو مرتب في فلاحة ليغتل

أرضاً ، أو مسلم في حرفة لينتفع بأجرته ، أو محتطب أو محتش أو مستق أو طابخ أو خابز وما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التي هي تصرّف في أسباب المعيشة وأبواب الرزق لأني الغني المطلق وكل شيء مفتقر إليّ .

﴿ وما أريد ﴾ أصلاً ﴿ أن يطعمون ﴾ أي : أن يرزقون رزقاً خاصاً هو الإطعام وفيه تعريض بأصنامهم فإنهم كانوا يعملون معها ما ينفعها ويحضرون لها المأكل فربما أكلتها الكلاب ثم بالت على الأصنام ، ثم لا يصدهم ذلك عن عبادتها وقيل : في الآية حذف مضاف أي وما أريد أن يطعموا أحداً من خلقي وإنما أسند الإطعام إلى نفسه لأنّ الخلق كلهم عيال الله ومن أطعم عيال الله فقد أطعمه كما صح في الحديث عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال "إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين قال أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ، أما تعلم أنك لو عدته لوجدتني عنده يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين قال استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي يا ابن دم استسقيتك فلم تسقني قال يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك لو أسقيته لوجدت ذلك عندي" .

فإن قيل : ما الفائدة في تكرير الإرادتين مع أنّ من لا يريد من أحد رزقاً لا يريد أن يطعمه ؟

أجيب : بأنّ السيد قد يطلب من العبد المكتسب له الرزق وقد يكون للسيد مال وافر يستغني به عن التكسب لكنه يطلب من العبد قضاء حوائجه وإحضار الطعام بين يديه فقال : لا أريد ذلك ولا هذا وقدم طلب الرزق على طلب الإطعام من باب الارتقاء من الأدنى إلى الأعلى .

فإن قيل : ما فائدة تخصيص الإطعام بالذكر مع أنّ المراد عدم طلب فعل منهم غير التعظيم ؟

أجيب : بأنه لما عمم النفي في طلب الأوّل بقوله تعالى ﴿ من رزق ﴾ وذلك إشارة إلى التعميم فذكر الإطعام ونفى الأدنى ليتبعه بنفي الأعلى بطريق الأولى فكأنه قال : ما أريد منهم من غنى ولا عمل .

فإن قيل : المطالب لا تنحصر فيما ذكره فإنّ السيد قد يشتري العبد لا لطلب رزق منه ولا للتعظيم بل يشتريه للتجارة . أجيب : بأن العموم في قوله تعالى : ﴿ ما أريد منهم من رزق ﴾ يتناول ذلك .

ثم بين تعالى أنه الرزاق لا غيره بقوله عز من قائل .

﴿ إن الله ﴾ أي : المحيط بجميع صفات الكمال المنزه عن جميع صفات النقص ﴿ هو ﴾ أي : لا غيره ﴿ الرزاق ﴾ أي : على سبيل التكرار لكل حيّ وفي كل وقت ﴿ ذو القوّة ﴾ أي : التي لا تزول بوجه ﴿ المتين ﴾ أي : الشديد الدائم .

فإن قيل : لم لم يقل إني رزاق ؟ بل قال على الحكاية عن الغائب إنّ الله هو الرزاق فما الحكمة أجيب : بأنّ المعنى قل يا محمد إنّ الله هو الرزاق ، أو يكون من باب الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، أو يكون قل مضمراً عند قوله تعالى : ﴿ ما أريد منهم من رزق ﴾ ولم يقل القوي بل قال ذو القوّة لأنّ المقصود تقرير ما تقدّم من عدم إرادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير ، وقيد بالمتين لأنّ ذو القوّة لا يدل إلا على أنّ له قوّة ما فزاد في الوصف المتانة وهو الذي له ثبات لا يتزلزل ، والمعنى في وصفه سبحانه بالقوة والمتانة أنه القادر البليغ الاقتدار على كل شيء .

ولما أقسم سبحانه على الصدق في وعيدهم إلى أن ختم بقوته التي لا حدّ لها سبب عن ذلك إيقاعه بالمتوعدين فقال تعالى مؤكداً لأجل إنكارهم:

﴿ فإن للذين ظلموا ﴾ أي : أوقعوا الأشياء في غير مواقعها ﴿ ذنوباً ﴾ أي : نصيباً من العذاب طويل الشرّ كأنه من طوله صاحب ذنب ﴿ مثل ذنوب أصحابهم ﴾ أي : الذين

تقدّم ظلمهم بتكذيب الرسل من قوم نوح وعاد وثمود ، والذنوب في الأصل الدلو العظيمة المملوءة ماء وفي الحديث "فأتى بذنوب من ماء" فإن لم تكن ملأى فهي دلو ثم عبر به عن النصيب قال عمرو بن شاس:

*وفي كل حيّ قد خطبت بنعمة ** فحق لشاس من نداك ذنوب*

قال الملك : نعم وأذنبه ، قال الزمخشري : وهذا تمثيل أصله في السقاة يتقسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا آخر . قال الشاعر:

*لكم ذنوب ولنا ذنوب ** فإن أبيتم فلنا القليب*

وقال الراغب الذنوب الدلو لذي له ذنب انتهى . فراعى الاشتقاق والذنوب أيضاً : الفرس الطويل الذنب ، وهو صفة على فعول والذنوب لحم أسفل المتن ويقال : يوم ذنوب أي طويل الشرّ استعارة من ذلك ويجمع في القلة على أذنبة وفي الكثرة على ذنائب ﴿ فلا تستعجلون ﴾ أي تطلبوا أن آتيكم به قبل أوانه حق به ، فإنّ ذلك لا يفعله إلا ناقص وأنا متعال عن ذلك لا أخاف الفوت ولا يلحقني عجز ولا أوصف به ، ولا بدّ أن أوقعه بهم في الوقت الذي قضيت به في الأزل فإنه أحق الأوقات بعقابهم لتكامل ذنوبهم .

﴿ فويل ﴾ أي شدّة عذاب ﴿ للذين كفروا ﴾ أي ستروا ما ظهر من هذه الأدلة التي لا يسع عاقلاً إنكارها ﴿ من يومهم الذي يوعدون ﴾ أضافه إليهم لأنه خاص بهم دون المؤمنين ، وهو يوم القيامة وقيل يوم بدر وحذف العائد لاستكمال شروطه أي يوعدونه ،

وقرأ حمزة والكسائي في الوصل بضم الهاء والميم ، وأبو عمرو بكسر الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم وأما الوقف عليها فالجميع بكسر الهاء وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال من "قرأ سورة الذاريات أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت في الدنيا" حديث موضوع والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير جـ 7 صـ 142.168 ﴾

(246/727)

وقال القاسمى :

سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً ﴾

يعني : الرياح التي تذرو البخارات ذرواً ، أي : نوعاً من الذرو ليعقدها سُحباً . أو النساء الولود فإنهن يذرين الأولاد ، مجازاً شبه تتابع الأولاد بما يتطاير من الرياح . أو الأسباب التي تذري الخلائق من الملائكة وغيرهم ، وهو استعارة أيضاً شبهت الأشياء المعدة للبروز من كمون العدم ، بالرياح المفرقة للحبوب ونحوها .

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ﴾ اسم فاعل ذرا المعتل بمعنى فرّق وبدّد ما رفعه عن مكانه . ويقال : أذرى أيضاً . وأما ذرأ المهموز فبمعنى أنشأ وأوجد .

﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً ﴾ [2]

﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً ﴾ أي : السُّحب الحاملة للأمطار المنبتة للزروع والأشجار لإفادة الحبوب والثمار . كما قال زيد بن عمرو بن نفيل :

~وأسلمتُ نفسي لمن أسْلَمَتْ لهُ المزنُ تحمل عذْباً زُلالا

أو الرياح الحاملة للسحاب ، أو النساء الحوامل ، أو أسباب ذلك .

والوِقر بسكر الواو ، كالحِمل وزناً ومعنى . وقرئ بفتح الواو على أنه مصدر سمي به المحمول .

﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً ﴾ [3 – 4]

﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً ﴾ أي : السُّفن الجارية في البحر سهلاً ، أو الرياح الجارية في مهابّها ، أو الكواكب التي تجري في منازلها . و ﴿ يُسْراً ﴾ صفة مصدر محذوف ، أو جرياً ذا يُسر .

﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً ﴾ أي : الملائكة التي تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرهما ، أو ما يعمهم وغيرهم من أسباب القسمة ، أو الرياح يقسمن الأمطار بتصريف الرياح .

تنبيهات :

الأول : ذكرنا أن هذه الأمور الأربعة يجوز أن تكون أموراً متباينة ، وأن تكون أمراً له أربعة اعتبارات . والأول هو المأثور عن علي رضي الله عنه : أن الذاريات هي الرياح ، والحاملات هي السحاب ، والجاريات هي السفن ، والمقسمات هي الملائكة . واختار بعضهم في الجاريات أنها الكواكب ؛ ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى ، فالرياح فوقها السحاب ، والنجوم فوق ذلك ، والملائكة فوق الجميع ، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية .

واستظهر الرازي أن الأقرب أن تكون صفات أربع للرياح ، وأطال في ذلك .

واللفظ متسع بجوهره للكل ، والله أعلم .

الثاني : فائدة الفاء إن قيل : إنها صفات للرياح ، فلبيان ترتيب الأمور في الوجود ؛ فإن الذاريات تنشئ السحاب ، فتقسم الأمطار على الأقطار . وإن قيل : إنها أمور أربعة ، فالفاء للترتيب الذكريّ أو الرتبيّ .

الثالث : ذكر الرازي في الحكمة في القسم وجوهاً :

أحدها : أن الكفار كانوا في بعض الأوقات يعترفون بكون النبي صلى الله عليه وسلم غالباً

في إقامة الدليل ، وكانوا ينسبونه إلى المجادلة ، وإلى أنه عارف في نفسه بفساد ما يقوله ، وأنه يغلبنا بقوة الجدل لا بصدق المقال . كما أن بعض الناس إذا أقام عليه الخصم الدليلَ ولم يبقِ له حجة ، يقول : إنه غلبني لعلمه بطريق الجدل ، وعجزي عن ذلك . وهو يعلم في نفسه أن الحق بيدي ، فلا يبقى للمتكلم المبرهن طريق غير اليمين ، فيقول : واللهِ إن الأمر كما أقول ، ولا أجادلك بالباطل . وذلك لأنه لو سلك طريقاً آخر من ذكر دليل آخر ، فإذا تمّ الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ما قال في الأول ، إن ذلك تقرير بقوة علم الجدل ، فلا يبقى إلا السكوت ، أو التمسك بالإيمان ، وترك إقامة البرهان .

(248/727)

ثانيها : أن العرب كانت تحترز عن الأيمان الكاذبة ، وتعتقد أنها تدع الديارَ بلاقعَ . ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم < أكثر من الأيمان بكل شريف > ، ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتاً . وكان يحصل لهم العلم بأنه لا يحلف بها كاذباً ، وإلا لأصابه شؤم الأيمان ، ولناله المكروه في بعض الأزمان .

ثالثها : أن الأيمان التي أقسم الله تعالى بها كلُّها دلائل أخرجها في صورة الأيمان ، مثاله قول القائل لمنعمه : وحق نعمتِك الكثيرة إني لا أزال أشكرك . فيذكر النعم ، وهي سبب مفيد

لدوام الشكر ، ويسلك مسلك كذلك هذه الأشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الإعادة .

فإن قيل : فلِمَ أخرجها مخرج الأيمان ؟ نقول : لأن المتكلم إذا شرع في أول كلامه بحلف يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم ، فيصغي إليه أكثر من أن يصغي إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر ؛ فبدأ بالحلف وأدرج الدليل في صورة اليمين ، حيث أقبل القول على سماعه ، فخرج لهم البرهان المبين والتبيان المتين في صورة اليمين . انتهى .

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ [5 - 6]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ جواب القسم ، و ما موصولة ومصدرية . والموعود هو قيام الساعة ، وبعث الموتى من قبورهم . و صادق بمعنى صدْق ؛ فوضع الاسم مكان المصدر ، أو هو من باب : ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 21] .

﴿ وَإِنَّ الدِّينَ ﴾ أي : الجزاء على الأعمال إنْ خيراً فخير ، وإن شرّاً فشر ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ أي : لحاصل . قال قتادة : وذلك يوم القيامة ، يوم يَدين اللهُ العباد بأعمالهم .

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [7 - 9]

﴿ وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ أي : الطرق المختلفة التي هي دوائر سير الكواكب . و ﴿ الْحُبُكِ ﴾ أصل معناها ما يرى كالطريق في الرمل والماء ، إذا ضربته الريح ، وكذلك حبك الشَّعر : آثار تثنّيه وتكسّره . والحُبُك بضمتين جمع حِباك ، كمثال ومثل وكتاب وكتب ، أو حبيكة كطريقة وطرق . قال زهير يصف غديراً :

~مُكللٌ بأصولِ النَّجمِ تَنْسِجُهُ ريحٌ خَريقٌ لضاحي مَائهِ حُبُكُ

ويقال : ما أملح حباك هذه الحمامة ! وهو الخط الأسود على جناحها .

وعن الحسن : ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ أي : النجوم قال : حُبِكَت بالخَلْق الحسن : حبكت بالنجوم ؛ وذلك لأنها تزين السماء ، كما يزين الثوب الموشَّى تحبيكه ، فشبهت النجوم بطرائق الوشي مجازاً بالاستعارة .

وقال بعض علماء الفلك : الحبك جمع حبيكة ، بمعنى محبوكة ، أي : مربوطة . فمعنى : ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ ذات المجاميع من الكواكب المربوط بعضها ببعض بحبال من الجاذبية ، فإن كل حبيكة مجموعة من الكواكب المتجاذبة ؛ فالآية الشريفة نصٌّ على تعدد المجاميع وعلى الجاذبية التي يزعم الإفرنج أنهم مكتشفوها ؛ وعليه فهي إحدى معجزات القرآن العلمية . انتهى .

﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ أي : متخالف متناقض . قال ابن زيد : يتخرَّصون يقولون : هذا سحر ، ويقولون : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام : 25]

﴿ يُؤْفَكُ ﴾ أي : يصرف ﴿ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي : صرف عن الحق الصريح الصَّرف التام ؛ إذ لا صرف أشد منه .

وقد ذكر القاضي في مناسبة المقسم به للمقسم عليه ، هو تشبيه أقوالهم في اختلافها ، وتنافي أغراضها بالطرائق للسماوات في تباعدها ، واختلاف غاياتها .

ثم أشار أنهم لم يؤفكوا لإتباعهم الدلائل ، بل لأخذهم بالخرص والتخمين ، بقوله تعالى :

(250/727)

﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ [10 - 13]

﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ أي : لُعِن الآخذون بالتخمين ، مع ترك دلائل اليقين .

﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ أي : في جهل يَغمرهم عن وجوب اتباع الدلائل القاطعة وترك الشبهات الواهية ﴿ سَاهُونَ ﴾ أي : غافلون عما أتاهم وعما نزل إليهم ، بالانهماك في اللذات البدنية ، واستئثار الحظوظ العاجلة .

﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ أي : متى يوم الجزاء ، ويوم يدين اللهُ العباد بأعمالهم .

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ أي : يحرقون ، وأصل الفتنة إذابة الجوهر ليظهر غشه ، ثم

استعمل في التعذيب والإحراق ونحوه .

قال القاضي : جواب للسؤال ، أي : يقع يوم هم على النار يفتنون ، أو هو يوم هم . . . إلخ ، وفتح ﴿ يَوْمَ ﴾ لإضافته إلى غير متمكن ، ويدل عليه أنه قرئ بالرفع .

﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [14]

﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾ أي : مقولاً لهم : ذوقوا عذابكم الذي طلبتموهُ ، بل الذي استعجلتموهُ قبل وقته ، كما قال :

﴿ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي : حصوله في الدنيا .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [15 - 19]

(251/727)

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي : الذين اتقوا الله بطاعته واجتناب معاصيه في الدنيا ، وبتجنب القول بالخَرص والتخمين في الأمور الاعتقادية ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ قال ابن جرير : أي : عاملين ما أمرهم به ربهم ، مؤدين فرائضه . وقال غيرهُ : أي :

قابلين لما أعطاهم من النعيم الأخرويّ ، راضين به .

وهذا هو الوجه . ولذا قال ابن كثير : والذي فسر به ابن جرير فيه نظر ؛ لأن قوله تبارك وتعالى ﴿ آخِذِينَ ﴾ حال من قوله ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ فالمتقون حال كونهم في الجنات والعيون آخذين ما آتاهم ربُّهم ، أي : من النعيم والسرور والغبطة .

ثم أشار إلى سر استحقاقهم لذلك بقوله :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ يعني : في الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ أي : قد أحسنوا أعمالهم لغلبة محبة الله على قلوبهم بظهور آثارها في أفعالهم وأقوالهم ، كما بينه بقوله سبحانه :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ أي : كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً ؛ لتقوى نفوسُهم على عبادته تعالى بنشاط .

روى ابن جرير عن أنس في الآية : أنهم كانوا يصلّون ما بين هاتين الصلاتين ما بين المغرب والعشاء . وعن محمد بن عليّ : كانوا لا ينامون حتى يصلّوا العتمة .

وعن مطرِّف : قلَّ ليلة أتت عليهم إلا صلوا فيها من أولها أو من وسطها .

وعن الحسن قال : لا ينامون من الليل إلا أقله ، كابدوا قيام الليل .

وقرأ الأحنف بن قيس هذه الآية فقال : لست من أهل هذه الآية .

وعن الضحاك : أن الوقف على قوله تعالى :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً ﴾ أي : أن المحسنين كانوا قليلاً ، ثم ابتدئ فقيل : ﴿ مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ

﴿ و ﴿ مَا ﴾ نافية أي : لا يهجعون .

قال ابن كثير : هذا القول فيه بعد وتعسُّف .

لطيفة :

(252/727)

في هذه الجملة الكريمة مبالغات في وصف هؤلاء بقلة النوم وترك الاستراحة ، وذلك ذكر القليل . والليل الذي هو وقت النوم ، والهجوع الذي هو الخفيف من النوم ، وزيادة ما ؛ لأنها تدل على القلة .

وبالجملة ففي الآية استحباب قيام الليل ، وذمُّ نومه كله ، والأحاديث على ذلك كثيرة شهيرة .

﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قال القاضي : أي : أنهم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم إذا أسحروا أخذوا في الاستغفار ، كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائمَ .

قال الرازي : في الآية إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون ويجتهدون ، ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك وأخلص منه ؛ فيستغفرون من التقصير ، وهذا سيرة الكريم : يأتي بأبلغ وجوه الكرم ويستقلُّهُ ويعتذر من التقصير ، واللئيم يأتي بالقليل ويستكثره ويمنّ به . وفيه وجه

آخر ألطف منه : وهو أنه تعالى لمَّا بيَّن أنهم يهجعون قليلاً ، والهجوع مقتضى الطبع ، قال : ﴿ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أي : من ذلك القدر من النوم القليل . وفيه لطيفة أخرى نبينها في جواب سؤال : وهو أنه تعالى مدحهم بقلة الهجوع ولم يمدحهم بكثرة السهر ، وما قال : كانوا كثيراً من الليل ما يسهرون ، فما الحكمة فيه ؟ مع أن السهر هو الكلفة والاجتهاد ، لا الهجوع ؟ نقول : إشارة إلى أن نومهم عبادة ، حيث مدحهم الله تعالى بكونهم هاجعين قليلاً ، وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى ، وهو الاستغفار ، في وجوه الأسحار ، ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم والاستكبار .

(253/727)

ثم قال : والاستغفار يحتمل طلب المغفرة بالذكر بقولهم : ربنا اغفر لنا . وطلب المغفرة بالفعل أي : بالأسحار ، يأتون بفعل آخر طلباً للغفران ، وهو الصلاة . والأول أظهر ، والثاني عند المفسرين أشهر . انتهى . ويؤيد الثاني الإشارة إلى الزكاة في الآية بعدها ، والزكاة قرينة الصلاة في كثير من الآيات ، وسرُّ التعبير عن الصلاة بالاستغفار الإشارةُ إلى أنه ركنها المهم في التهجد ، بل وفي غيره ، فيكون من إطلاق الجزء على الكل ، وقد ذكر في أذكار الصلاة الاستغفار في مواضع منها ، كالركوع والسجود بين السجدتين وآخر الصلاة ،

كما أخرجه الشيخان وأهل السنن - و < كان صلى الله عليه وسلم يطيل الركوع والسجود والتهجد > لذلك .

لطيفة :

قال الزمخشريّ في " أساس البلاغة " : إنما سمي السَّحر استعارة ؛ لأنه وقت إدبار الليل وإقبال النهار ، فهو متنفس الصبح . انتهى .

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ أي : الفقير المتعفف الذي يُظَن غنياً ، فيحرم الصدقة .

قال قتادة : هذان فقيرا أهل الإسلام : سائل يسأل في كفِّه ، وفقير متعفف ، ولكليهما عليك حق يا ابن آدم .

وفي "الصحيح" عن النبي صلى الله عليه وسلم : < ليس المسكين الذي تردُّهُ اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يُغنيه ، ولا يُفطن له فيتصدق عليه > .

وروى الإمام أحمد عن الحسين بن عليّ رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < للسائل حق وإن جاء على فرس > . ورواه أبو داود وأسنده عن عليّ كرم الله وجههُ .

ويدخل في ﴿ الْمَحْرُومِ ﴾ كلُّ من لا مال له ، ومَن هلك ماله بآفة ، ومن حرِم الرزق

واحتاج، إلا أن أهم أفراده المتعفِّف؛ ولذا عوّل عليه الأكثر .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: في أموالهم حق سوى الزكاة يَصِلون بها رحماً، أو يُقرون بها ضيفاً، أو يَحملون بها كَلاًّ .

(254/727)

ثم أشار تعالى إلى أنه لا حاجة إلى الحرص والتخمين في باب الاعتقادات؛ لكثرة الآيات الواضحة، بقوله سبحانه:

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [20]

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ أي: عِبَر وعِظات لأهل اليقين، وهم الذين يقودهم النظر إلى ما تطمئن به النفس ويَنثلج له الصدر، فيرون فيها مما ذرأ من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار عِبَراً وآيات عظاماً، وشواهد ناطقة بقدرة الصانع ووحدانيته، جلَّ جلالُه .

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [21]

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ أي: في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال، واختلاف ألسنتها وألوانها، وما جبلت عليه من القوى والإرادات، وما بينها من التفاوت

في العقول والأفهام ، وما في تراكيب أعضائها من الحكم في وضع كل عضو منها في المحل المفتقر إليه ، إلى غير ذلك مما لا يحصيه قلم كاتب ، ولا لسان بليغ .

أنشد الحافظ ابن أبي الدنيا في كتابه " التفكير والاعتبار " لشيخه أبي جعفر القرشيّ :

~وإذا نظرتَ تريدُ معتَبَراً فانظر إليك ففيك معتبرُ

~أنت الذي تُمسي وتُصبِحُ في الدنيا وكلُّ أُموره عِبَرُ

~أنت المصرَّف كان في صغر ثم استقلّ بشخصك الكبَرُ

~أنت الذي تنعاهُ خلقتهُ ينعاهُ منهُ الشَّعرُ والبَشَرُ

~أنت الذي تعطَى وتسلَب لا ينجيه من أن يُسلَب الحَذَرُ

~أنت الذي لا شيء منهُ له وأحقُّ منه بما له القَدَرُ

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [22]

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ يعني بـ ﴿ السَّمَاءِ ﴾ المزن ، وبالرزق المطر ، فإنه سبب الأقوات . والمراد بـ ﴿ مَا تُوعَدُونَ ﴾ العذاب السماويّ ؛ لأن مؤاخذات المكذبين الأولين كانت من جهتها ، والخطاب لمشركي مكة .

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [23]

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : الذي خلقهما للاستدلال بهما على حقيقة ما أخبر ﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ أي : مثل نطقكم ، والضمير في ﴿ إِنَّهُ ﴾ عائد لما ذكر من أمر الآيات والرزق ، أو أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، أو إلى ﴿ مَا تُوعَدُونَ ﴾ ، ويؤيد الأخير ما تأثره من أنباء وعيد المكذبين ، وبدأ منها بنبأ قوم لوط ، لأن قراهم واقعة في ممرهم إلى فلسطين

للاتجار ، فقال سبحانه :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ [24 – 30]

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ يعني : الملائكة الذين دخلوا عليه في صورة ضيف . قال الزمخشريّ : فيه تفخيم للحديث ، وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما عرفه بالوحي . وإكرامهم أن إبراهيم خدمهم بنفسه ، وأخدمهم امرأته ، وعجّل لهم القِرى ، أو أنهم في أنفسهم مكرمون .

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ أي : سلام عليكم ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ أي :

أنتم قوم لا أعرفكم . وهو كالسؤال منه عن أحوالهم ليعرفهم ؛ فإن قولك لمن لقيتهُ : أنا لا أعرفك ! في قوة قولك : عرِّف لي نفسك وصِفْها .

(256/727)

﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ أي : ذهب إليهم خفية من ضيوفه . ومن أدب المضيف أن يخفي أمرهُ ، وأن يبادر بالقِرى من غير أن يشعر به الضيف ؛ حذراً من أن يكفّه ويعذرهُ ، قاله الزمخشريّ ، وأيده الناصر بما حكى عن أبي عبيد : أنه لا يقال : راغ ، إلا إذا ذهب على خفية ، وأنه يقال : روَّغ اللقمة إذا غمسها فرويت سمناً ، قال الناصر : وهو من هذا المعنى ؛ لأنها تذهب مغموسة في السمن حتى تخفى . ومن مقلوباته : غور الأرض والجرح ، وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى . انتهى .

﴿ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أي : قد أنضجه شيّاً .

﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ أي : بأن وضعهُ بين أيديهم ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي : منه . قال القاضي : وهو مشعر بكونه حَنيذاً . والهمزة فيه للعرض ، والحثّ على الأكل على طريقة الأدب إن قاله أول ما وضعه ، وللإنكار إن قاله حينما رأى إعراضهم .

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أي : أضمرها لظنّه أنهم أرادوا به سوءاً ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ

وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ أي : يبلغ ويكمل علمه .

﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ أي : صيحة ﴿ فَصَكَّتْ ﴾ أي : لطمت ﴿ وَجْهَهَا ﴾ أي : تعجباً على عادة النساء في كل غريب عندهن ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي : عاقر ليس لي ولد .

﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ ﴾ أي : مثل الذي قلنا وأخبرنا به قال ربك ، فإنما نخبرك عن الله ؛ فاقبلي قوله ، ولا تتوهمي عليه خلاف الحكمة ولا الجهل بعدم قبولك للولادة ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾

(257/727)

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [31 - 37]

﴿ قَالَ ﴾ أي : إبراهيم لضيفه ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ أي : أمركم وشأنكم ﴿ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ أي : مؤاخذتهم ؛ ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ

حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ أي : رجماً على فعلهم الفاحشة .

﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ أي : مرسلة ، أو معلّمة ﴿ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي : المتعدّين حدود الله ، الكافرين به .

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا ﴾ أي : في تلك القرية ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : بإيحاء الخروج إليهم على لسان الملائكة ، وهم لوط وابنتاه عليهم السلام .

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ يعني بيت قوم لوط عليه السلام .

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا ﴾ أي : في تلك القرية ﴿ آيَةً ﴾ أي : علامة تدل على إهلاكهم الدنيويّ الدال على الأخرويّ ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ أي : في الآخرة ، وقوله تعالى : ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [38 – 40]

﴿ وَفِي مُوسَى ﴾ عطف على ﴿ فِيهَا ﴾ بإعادة الجار ؛ لأن المعطوف عليه ضمير مجرور ، أي : وتركنا في قصة موسى بإهلاك أعدائه آيةً وحجّةً تبين لمن رآها حقيقة دعواه .

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : ببرهان ظاهر .

﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ ﴾ أي : فأعرض عن الإيمان . والركن : جانب الشيء . فركنه جانب بدنه ، فالتولي به كناية عن الإعراض . والباء للتعدية ، لأن معناه ثنى عِطفَه ، أو للملابسة ، أو الركن فيه بمعنى الجيش ؛ لأنه يركن إليه ويتقوى به ، والباء للمصاحبة أو للملابسة .

﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ ﴾ أي : هو ساحر .

﴿ أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ أي : فأغرقناهم في البحر ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي : آت بما يلام عليه من الكفر والعناد .

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [41 - 42]

﴿ وَفِي عَادٍ ﴾ أي : وتركنا في عاد - قوم هود عليه السلام - آية ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ أي : التي لا خير فيها من إنشاء المطر ، أو إلقاح الشجر . وهي ريح الهلاك .

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ أي : الشيء الهالك . وأصل الرميم : البالي المفتت من عَظم أو نبات أو غير ذلك .

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴾ [43 - 45]

﴿ وَفِي ثَمُودَ ﴾ أي : وتركنا في ثمود قومِ صالح عليه السلام ﴿ إِذْ قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي : بعد عَقرهم الناقة ﴿ تَمَتَّعُوْا ﴾ أي : في داركم ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ يعني : ثلاثة أيام ، كما بينته الآية الأخرى .

(259/727)

﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي : فاستكبروا عن امتثاله ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ يعني العذاب الحالّ بهم ، المعهود ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ أي : إليها ، فإنها نزلت بهم نهاراً .

﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ ﴾ أي : نهوض ، فضلاً عن دفاع عذاب الله ﴿ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴾ أي : ممتنعين من العذاب ، وقوله تعالى :

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ [46]

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ قرئ بالجر عطفاً على ﴿ وَفِي ثَمُودَ ﴾ أو المجروراتِ قبل . وبالنصب مفعولاً لمضمر دل عليه السياق والسباق ، أي : وأهلكنا قوم نوح ، أو عطفاً على مفعول ﴿ فَأَخَذْنَاهُ ﴾ أو على محل ﴿ وَفِي مُوسَى ﴾ ﴿ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ أي : مخالفين أمر الله ، خارجين عن طاعته .

﴿ وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ [47

[48 -

﴿ وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ أي : رفعناها بقوة ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ أي : لقادرون على الإيساع ، كما أوسعنا بناءها .

﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ﴾ أي : مهدناها ليتمتعوا بها ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ أي : لهم .

وفي إيثار صيغة فاعل من : مهد على فرش ، إشارة إلى أن من المواد ما تختلف صيغته في النظم فعلاً واسماً ، فيكون في أحدهما أرقَّ وألطف وأفصح ، فيؤثر على غيره في ظرف ، ويؤثر عليه غيره في آخر ، والمرجع الذوق ، كما بسطه ابن خلدون وابن الأثير .

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [49]

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ أي : ذكراً وأنثى ، أو نوعين متقابلين .

(260/727)

قال ابن كثير : جميع المخلوقات أزواج : سماء وأرض ، ليل ونهار ، شمس وقمر ، وبر وبحر ، وضياء وظلام ، وإيمان وكفر ، وحياة وموت ، وشقاء وسعادة ، وجنة ونار . حتى الحيوانات والنباتات . انتهى . وهو مأخوذ من كلام ابن جرير في تأييد تفسير مجاهد ، وعبارة ابن جرير :

وأولى القولين في ذلك قول مجاهد : وهو أن الله تبارك وتعالى خلق لكل ما خلق من خلقه ثانياً له مخالفاً في معناه ، فكل واحد منهما زوج للآخر ، ولذلك قيل : خَلَقنَا زوجين ، وإنما نبّه جلّ ثناؤه بذلك من قوله ﴿ خَلْقِهِ ﴾ على قدرته على خلق ما يشاء ، وأنه ليس كالأشياء التي شأنها فعل نوع واحد دون خلافه ، إذ كل ما صفته فعل نوع واحد دون ما عداهُ ، كالنار التي شأنها التسخين ولا تصلح للتبريد ، وكالثلج الذي شأنه التبريد ولا يصلح للتسخين ، فلا يجوز أن يوصف بالكمال ، وإنما كمال المدح للقادر على فعل كل ما شاء فعله من الأشياء المختلفة والمتفقة . انتهى .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ قال ابن جرير : أي : لتَذَكّروا وتعتبروا بذلك ، فتعلموا أيها المشركون بالله أنَّ ربكم الذي يستوجب عليكم العبادة هو الذي يقدر على خلق الشيء وخلافه ، وابتداع زوجين من كل شيء ، لا ما لا يقدر على ذلك .

﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [50]

﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ أي : فِرّوا من عقابه إلى رحمته بالإيمان به واتباع أمره والعمل بطاعته . قال الشهاب : الأمر بالفرار من العقاب ، المراد به الأمر بالإيمان والطاعة ، لأنه لأمنه من العقاب بالطاعة كأنه فرَّ لمأمنه ، فهو استعارة تمثيلية .

﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : أنذركم عقابه وأخوِّفكم عذابه الذي أحلّه بهؤلاء الأمم

الذين قصَّ عليكم قَصصهم ، والذي هو مذيقهم في الآخرة .

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [51]

(261/727)

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : قد أبان النذارة ، قال أبو السعود : وفيه تأكيد لما قبله من الأمر بالفرار من العقاب إليه تعالى ، لكن لا بطريق التكرير - كما قيل - بل بالنهي عن سببه ، وإيجاب الفرار منه .

﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ [52- 54]

﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي : كما ذكر من تكذيبهم الرسول وتسميتهم له ساحراً أو مجنوناً ﴿ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ يعني تقليداً لآبائهم واقتداءً لآثارهم ، فمورد جهالتهم مؤتلف ، ومشروع تعنتهم متحد .

وقوله تعالى : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ إنكار وتعجيب من حالهم وإجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة التي لا تكاد تخطر ببال أحد من العقلاء ، فضلاً عن التفوه بها ، أي : أأوصى بهذا القول بعضُهم بعضاً حتى اتفقوا عليه .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ إضراب عن كون مدار اتفاقهم على الشر تواصيهم بذلك ، وإثبات لكونه أمراً أقبح من التواصي وأشنع منه من الطغيان الشامل للكل ، الدالّ على أن صدور تلك الكلمة الشنيعة من كل واحد منهم ، بمقتضى جِبلَّته الخبيثة ، لا بموجب وصية من قبلهم بذلك ، أفاده أبو السعود .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي : أعرِض عن مقابلتهم بالأسوأ كقوله تعالى :

﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ [الأحزاب : 48] ، وقوله :

﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾ [المزمل : 10] ، ﴿ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ أي : في إعراضهم ، إذ لست عليهم بجبار ولا مسيطر ، وما عليك من حسابهم من شيء .

تنبيه :

قول بعض المفسرين هنا – ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ : أي : فأعرض عن مجادلتهم ، بعد ما كررت عليهم الدعوة – بعيد عن المعنى بمراحل ؛ لأن مجادلتهم مما كان مأموراً بها على المدى ، لأنها العامل الأكبر لإظهار الحق ، كما قال تعالى :

﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ [الفرقان : 52] .

وكذا قول البعض في قوله تعالى : ﴿ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ : أي : في إعراضك بعد ما بلغت ، فإنه منافٍ للأمر بالذكرى بعد . فالصواب ما ذكرناه في تفسير الآية ، لأنه المحاكي لنظائرها . وأعقد التفاسير ما كان بالأشباه والنظائر – كما قيل – وخير ما فسرته بالوارد .

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [55]

﴿ وَذَكِّرْ ﴾ أي : عِظهم ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : من قدر الله إيمانه ، أو الذين آمنوا فإنهم المقصودون من الخلق ، لا من سواهم ؛ إذ هم العابدون .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [56]

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي : لهذه الحكمة ، وهي عبادته تعالى بما أمر على لسان رسوله ؛ إذ لا يتمُّ صلاح ولا تنال سعادة في الدارين إلا بها . وقوله تعالى : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [57 – 58]

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ بيان لعظمته عزّ وجلّ ، وأن شأنه مع عبيده لا يقاس به شأن عبيد الخلق معهم ، فإن عبيدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسادة ، وبواسطة كاسب عبيدهم ، قدّر أرزاقهم والله تعالى لا يطلب من عباده رزقاً ولا إطعاماً ، بل هو الذي يرزقهم ، وإنما يطلب منهم عبادته ليصرفوا ما أنعم به عليهم إلى ما خلقوا لأجله .

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي : ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بتكذيب الرسول والإصرار على الشرك والبغي والفساد ، ﴿ ذَنُوباً ﴾ أي : نصيباً وافراً من العذاب ﴿ مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ أي : مثل أنصباء نظرائهم من الأمم المحكية . وأصل الذنوب الدلو العظيمة الممتلئة ماءً ، أو القريبة من الامتلاء . وهي تذكّر وتؤنث ، فاستعيرت للنصيب مطلقاً ، شراً كالنصيب من العذاب في الآية ، أو خيراً كما في العطاء في قول عمرو بن شاس :

~وفي كل حيٍّ قد خبطتَ بنعمة فحُقَّ لشأْسٍ من نَداكَ ذَنُوب

وهو مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب ، فيعطى لهذا ذنوب ، ولآخر مثله .

﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أي : لا يطلبوا مني أن أعجل به قبل أجله ، فإنه لا بد آتيهم ، ولكن في حينه المؤخر لحكمة .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ أي : أوعدوا فيه نزول العذاب بهم ، ماذا يلقون فيه من البلاء والجهد . و اليوم إما يوم القيامة ، أو يوم بدر .

قال أبو السعود : والأول هو الأنسب بما في صدر السورة الكريمة الآتية .

والثاني هو الأوفق لما قبله ، من حيث إنهما من العذاب الدنيوّي ، والله أعلم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 15 صـ 485.500 ﴾

(264/727)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1) ﴾

هذه الإيقاعات القصيرة السريعة ، بتلك العبارات الغامضة الدلالة ، تلقي في الحس – كما تقدم – إيحاء خاصاً ، وتلقي ظلاً معيناً ، يعلق القلب بأمر ذي بال ، وشأن يستحق الانتباه . وقد احتاج غير واحد في العهد الأول أن يستفسر عن مدلول الذاريات ، والحاملات ، والجاريات ، والمقسمات . .

قال ابن كثير في التفسير : قال شعبة بن الحجاج ، عن سماك بن خالد بن عرعرة ، أنه سمع علياً – رضي الله عنه – وشعبة أيضاً عن القاسم بن أبي بزة ، عن أبي الطفيل ، أنه سمع علياً – رضي الله عنه – وثبت أيضاً من غير وجه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – أنه صعد منبر الكوفة فقال : لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ولا عن سنة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا أنبأتكم بذلك .

فقام ابن الكواء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما معنى قوله تعالى : ﴿ والذاريات ذروا ﴾ ؟ قال علي – رضي الله عنه : الريح . قال : ﴿ فالحاملات وقرا ﴾ ؟ قال – رضي الله عنه – : السحاب . قال : ﴿ فالجاريات يسرا ﴾ ؟ قال – رضي الله عنه – : السفن . قال : ﴿ فالمقسمات أمرا ﴾ ؟ قال – رضي الله عنه – : الملائكة .

وجاء صبيغ بن عسل التميمي إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فسأله عنها فأجابه بمثل ما روي عن علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – وقد أحس عمر – رضي الله عنه – أنه يسأل عنها تعنتاً وعناداً فعاقبه ومنعه من مجالسة الناس حتى تاب وحلف بالأيمان المغلظة : ما يجد في نفسه مما يجد شيئاً . . وهذه الرواية تشي كذلك بأن غموض مدلولات هذه التعبيرات هو الذي جعل المتعنتين يستترون وراءها ويسألون عنها !

وهكذا فسرها ابن عباس وابن عمر – رضي الله عنهم – ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدي وغير واحد ؛ ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك (كما قال ابن كثير) .

أقسم الله – سبحانه – بالرياح التي تذرو ما تذروه من غبار وحبوب لقاح وسحب وغيرها مما يعلم الإنسان وما يجهل . وبالسحاب الحاملات وقراً من الماء يسوقها الله به إلى حيث يشاء . وبالسفن الجاريات في يسر على سطح الماء بقدرته وبما أودع الماء وأودع السفن وأودع الكون كله من خصائص تسمح بهذا الجريان اليسير . ثم بالملائكة المقسمات أمراً ، تحمل أوامر الله وتوزعها وفق مشيئته ، فتفصل في الشؤون المختصة بها ، وتقسم الأمور في الكون بحسبها .

والريح والسحاب والسفن والملائكة خلق من خلق الله ، يتخذها أداة لقدرته ، وستاراً لمشيئته ، ويتحقق عن طريقها قدر الله في كونه وفي عباده . وهو يقسم بها – سبحانه – للتعظيم من شأنها ، وتوجيه القلوب إليها ، لتدبر ما وراءها من دلالة ؛ ولرؤية يد الله وهي تنشئها وتصرفها وتحقق بها قدر الله المرسوم . وذكرها على هذه الصورة بصفة خاصة يوجه القلب إلى أسرارها المكنونة ؛ ويعلقه بمبدع هذه الخلائق من وراء ذكرها هذا الذكر الموحي .

ثم لعل لها كذلك صلة من ناحية أخرى بموضوع الرزق ، الذي يعنى سياق هذه السورة بتحرير القلب من أوهاقه ، وإعفائه من أثقاله . فالرياح والسحب والسفن ظاهرة الصلة بالرزق ووسائله وأسبابه .

أما الملائكة وتقسيمها للأمر ، فإن الرزق أحد هذه القسم . ومن ثم تتضح الصلة بين هذا

الافتتاح وموضوع بارز تعالجه السورة في مواضع شتى .

يقسم الله – سبحانه – بهذه الخلائق الأربع على : ﴿ إن ما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع ﴾ . . وقد وعد الله الناس : أنه مجازيهم بالإحسان إحساناً ، ومجازيهم بالسوء سوءاً . وأنه إذا أمهلهم الحساب في الأرض ، فليس بمهمل حسابهم في الآخرة فالحساب لا بد منه هناك ! ﴿ وإن الدين لواقع ﴾ . . فالوعد صادق حتماً إما هنا وإما هناك . . ومما وعدهم كذلك الرزق وكفالته لهم مبسوطاً أو مقدراً – وفق مشيئته ووعده حق في هذا كما هو حق في كل شأن .

(266/727)

ولا بد أن يتحقق ما وعد الله به الناس في الصورة التي يريدها ، وفي الوقت الذي يريده ، وما يحتاج الأمر إلى قسم منه – سبحانه – إنما يقسم بخلائقه تلك لتوجيه القلب إليها – كما تقدم – وتدبر ما وراءها من إبداع وقدرة وتدبير يوحي للقلب بأن وعد الله – بارئ هذه الخلائق بهذا النظام وهذا التقدير – لا بد صادق ؛ وأن حسابه على الخير والشر والصلاح والفساد لا بد واقع . فإن طبيعة هذه الخلائق توحي بأن الأمر ليس عبثاً ولا مصادفة ولا جزافاً . . وهكذا تصبح تلك الخلائق آيات وبراهين ذات دلالة إيحائية قوية بفضل هذا

القسم الذي يلفت القلب إليها لفتاً ، ويوجه الحس إليها توجيهاً . فهي طريقة من طرق الإيحاء والتربية . ومخاطبة الفطرة بلغة الكون خطاباً مباشراً !

والقسم الثاني كذلك . .

﴿ والسماء ذات الحبك ، إنكم لفي قول مختلف ، يؤفك عنه من أفك ﴾ . .

يقسم بالسماء المنسقة المحكمة التركيب . كتنسيق الزرد المتشابك المتداخل الحلقات . .

وقد تكون هذه إحدى هيئات السحب في السماء حين تكون موشاة كالزرد مجعدة تجعد الماء والرمل إذا ضربته الريح . وقد يكون هذا وضعاً دائماً لتركيب الأفلاك ومداراتها المتشابكة المتناسقة .

يقسم بالسماء المنسقة المحبوكة على أنهم في قول مختلف ، مضطرب لا قوام له ولا قرار ، ولا ثبات له ولا استقرار ، يصرف عنه من صرف ويبقى عليه من بقي ، فلا استقرار عليه ولا توافق ولا ثبات . بل الحيرة دائمة والقلق لا يزال . وكذلك الباطل دائماً أرض مرجرجة مهتزة ؛ وتيه لا معالم فيه ولا نور ؛ وهو يتأرجح ولا يفيء إلى أصل ثابت ، ولا ميزان دقيق . ولا يجتمع عليه أهله إلا لينصرفوا ويتفرقوا بعد حين ؛ ويدب الخلاف بينهم والشقاق . .

ويتضح اضطرابهم واختلافهم وما هم فيه من الأمر المريج : حين يعرض في ظل السماء ذات الحبك المنسقة التركيب .

ثم يستطرد فيقرر أنهم يعيشون في أوهام وظنون في أمر الآخرة ، لا يستندون فيها إلى حق أو يقين . فهم في قول مختلف في هذا الحق المبين . ثم يصور لهم ذلك اليوم في مشهد حي تتملاه العيون :

﴿ قتل الخراصون .

الذين هم في غمرة ساهون . يسألون : أيان يوم الدين ؟ يوم هم على النار يفتنون . ذوقوا فتنتكم ، هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴾ . .

والخرص : الظن والتقدير الجزاف الذي لا يقوم على ميزان دقيق . والله – سبحانه – يدعو عليهم بالقتل . فيا للهول ! ودعوة الله عليهم بالقتل قضاء بالقتل ! ﴿ قتل الخراصون ﴾ ويزيد أمرهم وضوحاً : ﴿ الذين هم في غمرة ساهون ﴾ فهم مغمورون بالأضاليل والأوهام لا يفيقون ولا يستيقظون . والتعبير يلقي ظلاً خاصاً ، يصور القوم مغمورين ساهين لا يشعرون بشيء مما حولهم ولا يتبينون . كأنهم سكارى مذهولون !

ذلك أنهم لا يتبينون الأمر الواضح ، الذي يراه ويوقن به كل واع غير مذهول ؛ فهم ﴿ يسألون : أيان يوم الدين ﴾ ؟ يسألون هكذا ، لا طلباً للعلم والمعرفة ، ولكن استنكاراً وتكذيباً ، واستعباداً لمجيئه ، يعبر عنه لفظ ﴿ أيان ﴾ المقصود !

ومن ثم يعاجلهم بمشهد هم في هذا اليوم الذي يستبعدونه ويستنكرونه ؛ وهم يحرقون بالنار

كحرق المعدن لتمييز حقيقته : ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ ! ومعه التبكيت المؤلم في الموقف العصيب : ﴿ ذوقوا فتنتكم . هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴾ . .

فهذه المعاجلة هي الجواب اللائق بهذا التساؤل . وهذا العنف في المشهد هو المقابل للذهول والسهوة التي يعيش فيها الخراصون . وهو مصداق دعوة الله عليهم بالقتل في أشد صوره وأعنفها : يوم هم على النار يفتنون !

وعلى الضفة الأخرى وفي الصفحة المقابلة يرتسم مشهد آخر ، لفريق آخر ، فريق مستيقن لا يخرص ؛ تقي لا يتبجح ؛ مستيقظ يعبد ويستغفر ، ولا يقضي العمر في غمرة وذهول :

﴿ إن المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ . .

فهذا الفريق . فريق المتقين . الأيقاظ . الشديدي الحساسية برقابة الله لهم ، ورقابتهم هم لأنفسهم . هؤلاء ﴿ في جنات وعيون ﴾ . . ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ من فضله وإنعامه ، جزاء ما أسلفوا في الحياة الدنيا من عبادة لله كأنهم يرونه ، ويقين منهم بأنه يراهم :

﴿ إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ . .

ويصور إحسانهم صورة خاشعة ، رفافة حساسة :

﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ . .

فهم الأيقاظ في جنح الليل والناس نيام ، المتوجهون إلى ربهم بالاستغفار والاسترحام لا يطعمون الكرى إلا قليلاً ، ولا يهجعون في ليلهم إلا يسيرا . يأنسون بربهم في جوف الليل فتتجافى جنوبهم عن المضاجع ، ويخف بهم التطلع فلا يثقلهم المنام !

قال الحسن البصري : ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ . . كابدوا قيام الليل ، فلا ينامون من الليل إلا أقله ، ونشطوا فمدوا إلى السحر ، حتى كان الاستغفار بسحر .

وقال قتادة : قال الأحنف بن قيس : ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ . . كانوا لا ينامون إلا قليلاً . ثم يقول : لست من أهل هذه الآية !

وقال الحسن البصري : كان الأحنف بن قيس يقول عرضت عملي على عمل أهل الجنة فإذا قوم قد باينونا بوناً بعيداً ، إذ نحن قوم لا نبلغ أعمالهم .

كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وعرضت عملي على عمل أهل النار ، فإذا قوم لا خير فيهم ، مكذبون بكتاب الله وبرسل الله مكذبون بكتاب الله وبرسل الله مكذبون بالبعث بعد الموت . فقد وجدت من خيرنا منزلة قوماً خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : قال رجل من بني تميم لأبي : يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا . ذكر الله تعالى قوماً فقال : ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ . ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم ! فقال له أبي – رضي الله عنه – : طوبى لمن رقد إذا نعس ، واتقى الله إذا استيقظ .

فهي حال يتطلع إليها رجال من التابعين – ذوي المكانة في الإيمان واليقين – ويجدون أنفسهم دونها . اختص بها ناس ممن اختارهم الله ، ووفقهم إلى القيام بحقها . وكتبهم بها عنده من المحسنين .

وهذه حالهم مع ربهم ، فأما حالهم مع الناس ، وحالهم مع المال ، فهو مما يليق بالمحسنين : ﴿ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ . .

فهم يجعلون نصيب السائل الذي يسأل فيعطى ، ونصيب المحروم الذي يسكت ويستحي فيحرم . يجعلون نصيب هذا وهذا حقاً مفروضاً في أموالهم . وهم متطوعون بفرض هذا الحق غير المحدود .

وهذه الإشارة تتناسق مع علاج السورة لموضوع الرزق والمال ، لتخليص القلب من أوهاق الشح وأثقال البخل وعوائق الانشغال بالرزق . وتمهد للمقطع التالي في السورة ، في الوقت الذي تكمل سمة المتقين وصورة المحسنين .

﴿ وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ وفي السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون ﴾ . .

وهي لفتة إلى آيات الله في الأرض وفي الأنفس ؛ وتوجيه إلى السماء في شأن الرزق المكتوب والحظ المقدور . تختم بقسم عظيم . قسم الله – سبحانه – بذاته بوصفه : ﴿ رب السماء والأرض ﴾ اللتين ورد ذكرهما في هذا المقطع . على أن هذا القول الذي جاءهم من عنده حق يقين . .

﴿ وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ ؟ . .

(270/727)

هذا الكوكب الذي نعيش عليه معرض هائل لآيات الله وعجائب صنعته . معرض لم نستجل منه حتى اللحظة إلا القليل من بدائعه . ونحن نكشف في كل يوم جديداً منه ، ونطّلع منه على جديد . . ومثل هذا المعرض ، معرض آخر مكنون فينا نحن . . النفس الإنسانية . . الخفية الأسرار ، التي تنطوي فيها أسرار هذا الوجود كله ، لا أسرار الكوكب الأرضي وحده !

وإلى هذين المعرضين الهائلين تشير الآيتان تلك الإشارة المختصرة ، التي تفتح هذين

المعرضين على مصاريعهما لمن يريد أن يبصر ، ولمن يريد أن يستيقن ، ولمن يريد أن يملأ حياته حتى تفيض بالمتعة والمسرة ، وبالعبرة الحية ، وبالرصيد القيم من المعرفة الحقة ، التي ترفع القلوب وتضاعف الأعمار !

والنصوص القرآنية معدة للعمل في جميع الأوساط والبيئات والظروف والأحوال .

قادرة على إعطاء رصيد معين لكل نفس ولكل عقل ولكل إدراك . كل بقدر ما يتقبل منها وما يطيق .

وكلما ارتقى الإنسان في المعرفة ، واتسعت مداركه ، وزادت معلوماته ، وكثرت تجاربه ، واطلع على أسرار الكون وأسرار النفس . . ارتقى نصيبه ، وتضخم رصيده ، وتنوع زاده الذي يتلقاه من نصوص القرآن . . هذا الكتاب الذي " لا تنفد عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد " كما يقول عنه النبي الذي تلقاه واستوعب أسراره ، وعاش بها . يقول عن تجربة حية وجدها في نفسه فعبر عنها ذلك التعبير – صلوات الله وسلامه عليه – .

(271/727)

ولقد وجد الذين سمعوا هذا القرآن أول مرة من آيات الله في الأرض وآياته في النفس ، نصيبهم ، وتسلموا رصيدهم ، وفق معارفهم وتجاربهم وإشراقات نفوسهم . ووجد

كذلك كل جيل أتى بعدهم نصيباً يناسب ما تفتح له من أنواع العلوم والمعارف والتجارب . ونجد نحن نصيبنا وفق ما اتسع لنا من رقعة العلم والمعرفة والتجريب ، وما تكشف لنا من أسرار لا تنفد في هذا الكون الكبير . وستجد الأجيال بعدنا نصيبها مدخراً لها من الآيات التي لم تكشف لنا بعد في الأرض والنفس . ويبقى هذان المعرضان الإلهيان الهائلان حافلين بكل عجيب وجديد إلى آخر الزمان .

هذه الأرض . هذا الكوكب المعد للحياة ، المجهز لاستقبالها وحضانتها بكل خصائصه ، على نحو يكاد يكون فريداً في المعروف لنا في محيط هذا الكون الهائل ، الحافل بالنجوم الثوابت والكواكب السيارة . التي يبلغ عدد المعروف منها فقط – والمعروف نسبة لا تكاد تذكر في حقيقة الكون – مئات الملايين من المجرات التي تحوي الواحدة منها مئات الملايين من النجوم . والكواكب هي توابع هذه النجوم !

ومع هذه الأعداد التي لا تحصى فإن الأرض تكاد تنفرد باستعدادها لاستقبال هذا النوع من الحياة وحضانته . ولو اختلت خصيصة واحدة من خصائص الأرض الكثيرة جداً لتعذر وجود هذا النوع من الحياة عليها . . لو تغير حجمها صغراً أو كبراً ، لو تغير وضعها من الشمس قرباً أو بعداً . لو تغير حجم الشمس ودرجة حرارتها . لو تغير ميل الأرض على محورها هنا أو هنا . لو تغيرت حركتها حول نفسها أو حول الشمس سرعة أو بطأً . لو تغير حجم القمر – تابعها – أو بعده عنها . لو تغيرت نسبة الماء واليابس فيها زيادة أو

نقصاً . . . لو . لو . لو . . . إلى آلاف الموافقات المعروفة والمجهولة التي تتحكم في صلاحيتها لاستقبال هذا النوع من الحياة وحضانته .

أليست هذه آية أو آيات معروضة في هذا المعرض الإلهي ؟

(272/727)

ثم . هذه الأقوات المذخورة في الأرض للأحياء التي تسكنها . تسكن سطحها ، أو تسبح في أجوائها ، أو تمخر ماءها ، أو تختبئ في مغاورها وكهوفها ، أو تختفي في مساربها وأجوافها . . هذه الأقوات الجاهزة المركبة والبسيطة والقابلة للوجود في شتى الأشكال والأنواع لتلبي حاجة هذه الأحياء التي لا تحصى ، ولا تحصى أنواع غذائها أيضاً .

. هذه الأقوات الكامنة في جوفها ، والسارية في مجاريها ، والسابحة في هوائها ، والنابتة على سطحها ، والقادمة إليها من الشمس ومن عوالم أخرى بعضها معروف وبعضها مجهول ، ولكنها تتدفق وفق تدبير المشيئة المدبرة التي خلقت هذا المحضن لهذا النوع من الحياة ، وجهزته بكل ما يلزم للأنواع الكثيرة التي لا تحصى .

وتنوع مشاهد هذه الأرض ومناظرها ، حيثما امتد الطرف ، وحيثما تنقلت القدم .

وعجائب هذه المشاهد التي لا تنفد : من وهاد وبطاح ، ووديان وجبال ؛ وبحار وبحيرات

، وأنهار وغدران . وقطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان . . وكل مشهد من هذه المشاهد تتناوله يد الإبداع والتغيير الدائبة التي لا تفتر عن الإبداع والتغيير . ويمر به الإنسان وهو ممحل فإذا هو مشهد ، ويمر به وهو ممرع فإذا هو مشهد آخر . ويراه وهو نبت خضر فإذا هو مشهد ، ويراه إبان الحصاد حين يهيج ويصفر فإذا هو مشهد آخر . وهو هو لم ينتقل باعاً ولا ذراعاً في المكان !

والخلائق التي تعمر هذه الأرض من الأحياء . نباتاً وحيواناً . وطيراً وسمكاً ، وزواحف وحشرات . . بله الإنسان فالقرآن يفرده بنص خاص . . هذه الخلائق التي لم يعرف عدد أنواعها وأجناسها بعد – فضلاً على إحصاء أعدادها وأفرادها وهو مستحيل – وكل خليقة منها أمة ! وكل فرد منها عجيبة . كل حيوان . كل طائر . كل زاحفة . كل حشرة . كل دودة . كل نبتة : لا بل كل جناح في يرقة ، وكل ورقة في زهرة ، وكل قصبة في ورقة ! في ذلك المعرض الإلهي العجيب الذي لا تنقضي عجائبه .

(273/727)

ولو مضى الإنسان – بل لو مضى الأناسي جميعاً – يتأملون هكذا ويشيرون مجرد إشارة إلى ما في الأرض من عجائب ، وإلى ما تشير إليه هذه العجائب من آيات ، ما انتهى لهم قول ولا

إشارة . والنص القرآني ما يزيد على أن يوقظ القلب البشري للتأمل والتدبر ، واستجلاء العجائب في هذا المعرض الهائل ، طوال الرحلة على هذا الكوكب ؛ والمتعة بما في هذا الاستجلاء من مسرة طوال الرحلة .

غير أنه لا يدرك هذه العجائب ، ولا يستمتع بالرحلة هذا المتاع ، إلا القلب العامر باليقين . ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ . . فلمسة اليقين هي التي تحيي القلب فيرى ويدرك ؛ وتحيي مشاهد الأرض فتنطق للقلب بأسرارها المكنونة ، وتحدثه عما وراءها من تدبير وإبداع . وبدون هذه اللمسة تظل تلك المشاهد ميتة جامدة جوفاء ؛ لا تنطق للقلب بشيء ؛ ولا تتجاوب معه بشيء . وكثيرون يمرون بالمعرض الإلهي المفتوح مغمضي العيون والقلوب . لا يحسون فيه حياة ، ولا يفقهون له لغة ؛ لأن لمسة اليقين لم تحي قلوبهم ، ولم تبث الحياة فيما حولهم ! وقد يكون منهم علماء . ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ . أما حقيقتها فتظل محجوبة عن قلوبهم ، فالقلوب لا تفتح لحقيقة الوجود إلا بمفتاح الإيمان ، ولا تراها إلا بنور اليقين . . وصدق الله العظيم .

ثم العجيبة الأخرى التي تدب على هذه الأرض :

﴿ وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون ؟ ﴾ . .

وهذا المخلوق الإنساني هو العجيبة الكبرى في هذه الأرض . ولكنه يغفل عن قيمته ، وعن أسراره الكامنة في كيانه ، حين يغفل قلبه عن الإيمان وحين يحرم نعمة اليقين .

إنه عجيبة في تكوينه الجسماني : في أسرار هذا الجسد . عجيبة في تكوينه الروحي : في أسرار هذه النفس . وهو عجيبة في ظاهره وعجيبة في باطنه . وهو يمثل عناصر هذا الكون وأسراره وخفاياه :

وتزعم أنك جرم صغير . . . وفيك انطوى العالم الأكبر

(274/727)

وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه التقى بأسرار تدهش وتحير . تكوين أعضائه وتوزيعها . وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف . عملية الهضم والامتصاص . عملية التنفس والاحتراق . دورة الدم في القلب والعروق . الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم . الغدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسد ونشاطه وانتظامه . تناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها ، وتجاوبها الكامل الدقيق . وكل عجيبة من هذه تنطوي تحتها عجائب . وفي كل عضو وكل جزء من عضو خارقة تحير الألباب .

وأسرار روحه وطاقاتها المعلومة والمجهولة . . إدراكه للمدركات وطريقة إدراكها وحفظها وتذكرها . هذه المعلومات والصور المختزنة . أين ؟ وكيف ؟ هذه الصور والرؤى والمشاهد كيف انطبعت ؟ وأين ؟ وكيف تُستدعى فتجيء . . وذلك في الجانب المعلوم

من هذه القوى . فأما المجهول منها فهو أكبر وأكثر . تظهر آثاره بين الحين والحين في لمسات وإشراقات تدل على ما وراء الظاهر من المغيب المجهول .

ثم أسرار هذا الجنس في توالده وتوارثه . خلية واحدة تحمل كل رصيد الجنس البشري من الخصائص ؛ وتحمل معها خصائص الأبوين والأجداد القريبين . فأين تكمن هذه الخصائص في تلك الخلية الصغيرة ؟ وكيف تهتدي بذاتها إلى طريقها التاريخي الطويل ، فتمثله أدق تمثيل ، وتنتهي إلى إعادة هذا الكائن الإنساني العجيب ؟ !

وإن وقفه أمام اللحظة التي يبدأ فيها الجنين حياته على الأرض ، وهو ينفصل عن أمه ويعتمد على نفسه ، ويؤذن لقلبه ورئتيه بالحركة لبدء الحياة . إن وقفة أمام هذه اللحظة وأمام هذه الحركة لتدهش العقول وتحير الألباب ، وتغمر النفس بفيض من الدهش وفيض من الإيمان ، لا يقف له قلب ولا يتماسك له وجدان !

(275/727)

وإن وقفة أخرى أمام اللحظة التي يتحرك فيها لسان الوليد لينطق بهذه الحروف والمقاطع والكلمات ثم بالعبارات . بل أمام النطق ذاته . نطق هذا اللسان . وتصويت تلك الحنجرة . إنها عجيبة . عجيبة تفقد وقعها لأنها تمر بنا كثيراً . ولكن الوقوف أمامها لحظة

في تدبر يجدد وقعها . إنها خارقة . خارقة مذهلة تنبئ عن القدرة التي لا تكون إلا لله .

وكل جزئية في حياة هذا المخلوق تقفنا أمام خارقة من الخوارق ، لا ينقضي منها العجب ؛

﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ ﴾ . .

وكل فرد من هذا الجنس عالم وحده .

ومرآة ينعكس من خلالها هذا الوجود كله في صورة خاصة لا تتكرر أبداً على مدار الدهور . ولا نظير له بين أبناء جنسه جميعاً لا في شكله وملامحه ، ولا في عقله ومداركه ، ولا في روحه ومشاعره . ولا في صورة الكون كما هي في حسه وتصوره . ففي هذا المتحف الإلهي العجيب الذي يضم ملايين الملايين ، كل فرد نموذج خاص ، وطبعة فريدة لا تتكرر . يمر من خلالها الوجود كله في صورة كذلك لا تتكرر . كما لا توجد بصمة أصابع مماثلة لبصمة أصابع أخرى في هذه الأرض في جميع العصور !

وكثير من عجائب الجنس البشري مكشوفة للبصر ، تراه العيون : ﴿ وفي أنفسكم . أفلا تبصرون ؟ ﴾ : وما تراه العيون من عجائبه يشير إلى المغيب المكنون .

وهذه العجائب لا يحصرها كتاب . فالمعلوم المكشوف منها يحتاج تفصيله إلى مجلدات . والمجهول منها ما يزال أكثر من المعلوم ، والقرآن لا يحصيها ولا يحصرها . ولكنه يلمس القلب هذه اللمسة ليستيقظ لهذا المتحف الإلهي المعروض للأبصار والبصائر . وليقضي رحلته على هذا الكوكب في ملاحظة وتدبر ، وفي متاع رفيع بتأمل هذا الخلق العجيب ، الكامن

في ذات نفسه وهو عنه غافل مشغول .

وإنها للحظات ممتعة حقاً تلك التي يقضيها الإنسان يتأمل وجوه الخلق وسماتهم وحركاتهم وعاداتهم ، بعين العابد السائح الذي يجول في متحف من إبداع أحسن الخالقين . فكيف بمن يقضي عمره كله في هذا المتاع الرفيع ؟

(276/727)

إن القرآن بمثل هذه اللمسة يخلق الإنسان خلقاً جديداً ، بحس جديد ؛ ويمتعه بحياة جديدة ، ويهبه متاعاً لا نظير له في كل ما يتصوره في الأرض من متاع .

وعلى هذا النحو الرفيع من التأمل والإدراك يريد القرآن الناس . والإيمان هو الذي يمنح القلب البشري هذا الزاد ، وهو الذي يهيئ له هذا المتاع العلوي . وهو بعد في الأرض في عالم الطين !

وبعد فقد كانت اللفتة الأولى إلى معرض الأرض ؛ وكانت اللفتة الثانية إلى معرض النفس .

ثم تلتهما في السورة لفتة إلى معرض الغيب العلوي المطوي ، حيث الرزق المقسوم والحظ المرسوم :

﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ . .

وهي لفتة عجيبة . فمع أن أسباب الرزق الظاهرة قائمة في الأرض ، حيث يكد فيها الإنسان ويجهد ، وينتظر من ورائها الرزق والنصيب . فإن القرآن يرد بصر الإنسان ونفسه إلى السماء . إلى الغيب . إلى الله . ليتطلع هنالك إلى الرزق المقسوم والحظ المرسوم . أما الأرض وما فيها من أسباب الرزق الظاهرة ، فهي آيات للموقنين . آيات ترد القلب إلى الله ليتطلع إلى الرزق من فضله ؛ ويتخلص من أثقال الأرض وأوهاق الحرص ، والأسباب الظاهرة للرزق ، فلا يدعها تحول بينه وبين التطلع إلى المصدر الأول الذي أنشأ هذه الأسباب .

والقلب المؤمن يدرك هذه اللفتة على حقيقتها ؛ ويفهمها على وضعها ؛ ويعرف أن المقصود بها ليس هو إهمال الأرض وأسبابها . فهو مكلف بالخلافة فيها وتعميرها .

إنما المقصود هو ألا يعلق نفسه بها ، وألا يغفل عن الله في عمارتها . ليعمل في الأرض وهو يتطلع إلى السماء . وليأخذ بالأسباب وهو يستيقن أنها ليست هي التي ترزقه ، فرزقه مقدر في السماء ، وما وعده الله لا بد أن يكون .

بذلك ينطلق قلبه من إسار الأسباب الظاهرة في الأرض ؛ بل يرف بأجنحة من هذه الأسباب إلى ملكوت السماوات . حين يرى في الأسباب آيات تدله على خالق الأسباب ويعيش موصولاً قلبه بالسماء . وقدماه ثابتتان على الأرض . فهكذا يريد الله لهذا الإنسان . هكذا يريد الله لذلك المخلوق الذي جبله من طين ونفخ فيه من روحه فإذا هو مفضل على كثير من العالمين .

والإيمان هو الوسيلة لتحقيق ذلك الوضع الذي يكون فيه الإنسان في أفضل حالاته . لأنه يكون حينئذ . في الحالة التي أنشأه الله لها . فطرة الله التي فطر الناس عليها . قبل أن يتناولها الفساد والانحراف . .

وبعد هذه اللمسات الثلاث في الأرض والنفس والسماء . يقسم الله سبحانه بذاته العلية على صدق هذا الحديث كله :

﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون ﴾ . .

وكونهم ينطقون ، حقيقة بين أيديهم ، لا يجادلون فيها ولا يمارون ، ولا يرتابون فيها ولا يخرصون . . وكذلك هذا الحديث كله . والله أصدق القائلين .

وقد روى الأصمعي نادرة ذكرها الزمخشري في الكشاف ، ونسوقها نحن لطرافتها – في تحفظ من جانب الرواية ! – قال :

" أقبلت من جامع البصرة ، فطلع أعرابي على قعود له . فقال : ممن الرجل ؟ قلت : من بني أصمع . قال : من أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن . فقال : اتل عليّ . فتلوت : ﴿ والذاريات ﴾ . . فلما بلغت قوله تعالى : ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ قال : حسبك ! فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر ؛ وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى ! فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف ؛ فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق . فالتفت ، فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر . فسلم عليَّ واستقرأ السورة . فلما بلغت الآية صاح وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، ثم قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت : ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق ﴾ . . فصاح قال : يا سبحان الله . من الذي أغضب الجليل حتى حلف ؟ لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين ! قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه " . .

وهي نادرة تصح أو لا تصح . ولكنها تذكرنا بجلال هذا القسم من الله سبحانه . القسم بذاته . بصفته : رب السماء والأرض . مما يزيد الحقيقة المقسم عليها جلالاً . وهي حقيقة بلا قسم ولا يمين .

ذلك كان القطاع الأول في السورة . أما القطاع الثاني فيشمل تلك الإشارات إلى قصص

إبراهيم ، ولوط ، وموسى ، وعاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وقوم نوح . . وهو مرتبط بما قبله ، ومرتبط كذلك بما بعده في سياق السورة .

(279/727)

﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ؟ إذ دخلوا عليه ، فقالوا : سلاماً . قال : سلام قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال : ألا تأكلون ؛ فأوجس منهم خيفة . قالوا : لا تخف ، وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها ، وقالت : عجوز عقيم . قالوا : كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم . قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ، لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين . فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين . وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ . .

إنها آية أو آيات في تاريخ الرسالات . كتلك الآيات التي أشار إليها في الأرض وفي الأنفس . وإنه وعد أو وعود تتحقق من تلك الوعود التي أشار إلى تحققها في القطاع السابق .

ويبدأ الحديث عن إبراهيم بالسؤال : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ؟ ﴾ . . تنويهاً بهذا الحديث ، وتهيئة للأذهان . مع وصف ضيف إبراهيم بالمكرمين ؛ إما

لأنهم كذلك عند الله ؛ وإما إشارة إلى إكرام إبراهيم لهم كما ورد في القصة .

ويبدو كرم إبراهيم وسخاؤه وإرخاصه للمال واضحاً . فما يكاد ضيفه يدخلون عليه ويقولون : سلاماً . ويرد عليهم السلام ، وهو ينكرهم ولا يعرفهم . ما يكاد يتلقى السلام ويرده حتى يذهب إلى أهله – أي زوجه – مسارعاً ليهيئ لهم الطعام . ويجيء به طعاماً وفيراً يكفي عشرات : ﴿ فراغ إلى أهله فجآء بعجل سمين ﴾ . . وهم كانوا ثلاثة فيما يقال . . تكفيهم كتف من هذا العجل السمين !

﴿ فقربه إليهم . قال : ألا تأكلون ؟ ﴾ . . وجاء هذا السؤال بعد أن رأى أيديهم لا تصل إليه ، ولا يبدو عليهم أنهم سيأكلون طعامه .

﴿ فأوجس منهم خيفة ﴾ . . إما لأن الطارئ الذي لا يأكل طعام مضيفه ينبئ عن نية شر وخيانة . وإما لأنه لمح أن فيهم شيئاً غريباً ! عندئذ كشفوا له عن حقيقتهم أو طمأنوه وبشروه : ﴿ قالوا : لا تخف . وبشروه بغلام عليم ﴾ . . وهي البشارة بإسحاق من زوجه العقيم .

﴿ فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها . وقالت : عجوز عقيم ﴾ . . وقد سمعت

البشرى ، فبغتت وفوجئت ، فندت منها صيحة الدهش ، وعلى عادة النساء ضربت خديها بكفيها . . وقالت عجوز عقيم . تنبئ عن دهشتها لهذه البشرى وهي عجوز . وقد كانت من الأصل عقيماً . وقد أخذتها المفاجأة العنيفة التي لم تكن تتوقعها أبداً ، فنسيت أن البشرى تحملها الملائكة ! عندئذ ردها المرسلون إلى الحقيقة الأولى . حقيقة القدرة التي لا يقيدها شيء ، والتي تدبر كل أمر بحكمة وعلم :

﴿ قالوا : كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم ﴾ . .

وكل شيء يكون إذا قيل له : كن . وقد قال الله . فماذا بعد قوله ؟ إن الألفة والعادة تقيدان الإدراك البشري ، وتحدان من تصوراته . فيدهش إذ يرى ما يخالف المألوف له ؛ ويعجب كيف يكون ؛ وقد يتبجح فينكر أن يكون ! والمشيئة المطلقة ماضية في طريقها لا تتقيد بمألوف البشر الصغير المحدود ؛ تبدع ما تشاء ، بغير ما حدود أو قيود !

عند ذلك راح إبراهيم يسأل وقد عرف حقيقة ضيفه عن شأنهم الذي أرسلوا فيه : ﴿ قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ ﴾ .

. ﴿ قالوا : انا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ . . هم قوم لوط . كما ورد في سور أخرى . ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين ﴾ . .

وهذه الحجارة الطينية المعلمة أو المعدة المجهزة عند الله للمسرفين المتجاوزين الحق – وقوم لوط كانوا مسرفين في تجاوزهم للفطرة والحق والدين – لا يمتنع أن تكون حجارة بركان ثائر يقذف بالحمم الطيني من جوف الأرض . فهي ﴿ عند ربك ﴾ بهذا الاعتبار مسلطة – وفق إرادته ونواميسه – على من يريد من المسرفين . مقدرة بزمانها ومكانها وفق علمه وتدبيره القديم . وأن يتولى إرسالها – في إطار إرادته ونواميسه – ملائكته . وهل ندري نحن حقيقة ملائكته ؟ وهل ندري حقيقة علاقتهم بهذا الكون ومن فيه وما فيه ؟ وهل ندري حقيقة القوى الكونية التي نسميها من عندنا أسماء بحسب ظواهرها التي تتكشف لنا بين الحين والحين ؟ وما لنا نعترض على خبر الله لنا أنه سلط بعض هذه القوى في وقت ما ، لترسل بعض هذه القوى في صورة ما ، على قوم ما ، في أرض ما ، ما لنا نعترض على خبر الله لنا ، ونحن ما نزال كل ذخيرتنا من المعرفة فروض ونظريات وتأويلات لظواهر تلك القوى . أما حقيقتها فهي عنا بعيدة ؟ ! فلتكن حجارة بركانية أو لتكن حجارة أخرى فهذه كتلك في يد الله ، ومن صنعه ، وسرها غيب عنده يكشفه حين يشاء !

﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ﴾ . . لإنجائهم وحمايتهم . . ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ : هم بيت النبي لوط . كما ورد في مواضع أخرى . فكانوا هم الناجين إلا امرأته كانت من المهلكين .

﴿ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ . . فالذين يخافون هم الذين يرون الآية ويدركونها وينتفعون بها . أما الآخرون فمطموسون لا يرون آيات الله . لا في الأرض ولا في أنفسهم ولا في أحداث التاريخ !

وآية أخرى في قصة موسى ، يشير إليها إشارة سريعة في معرض الآيات في تاريخ المرسلين :

﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين . فتولى بركنه وقال : ساحر أو مجنون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ، وهو مليم ﴾ . .

(282/727)

والسلطان المبين الذي أرسل الله به موسى إلى فرعون ، هو الحجة القوية ، والبرهان القاطع ، وهو الهيبة الجليلة التي خلعها عليه . وهو معهما يسمع ويرى . ولكن فرعون تولى بركنه ، وازور بجانبه عن الحق الواضح والبرهان القاطع ؛ وقال عن موسى النبي الذي كشف له عن آيات الله الخوارق : ﴿ ساحر أو مجنون ﴾ . . مما يقطع بأن الآيات والخوارق لا تهدي قلباً لم يتأهب للهدى ؛ ولا تقطع لساناً يصر على الباطل ويفتري .

ولا يطيل السياق هنا في عرض تفصيلات القصة ؛ فيمضي إلى نهايتها التي تتجلى فيها الآية الباقية المذكورة في التاريخ : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم ﴾ . . أي

مستحقاً للوم على ما كان منه من طغيان ومن تكذيب .

وواضح في التعبير فعل الله المباشر في أخذه هو وقومه ، وفي نبذهم في اليم . وهو الإيقاع المقصود لإبراز آية الله في موسى . في معرض آياته في الأرض والأنفس وتاريخ الرسالات والمرسلين .

وآية أخرى في عاد :

﴿ وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ . .

وسميت الريح التي أرسلت على عاد عقيماً لأنها لم تكن تحمل ماء ولا حياة كما توقعوا . إنما تحمل الموت والدمار . وتترك كل شيء تأتي عليه كالميت الذي رمّ وتحول إلى فتات ! والريح قوة من قوى هذا الكون . وجند من جند الله . وما يعلم جنود ربك إلا هو . يرسلها – في إطار مشيئته وناموسه – في صورة ما من صورها ، وفي الوقت المقدر ، على من يريد ، بالهلاك والدمار ، أو بالحيا والحياة . ولا مكان في مثل هذه المواضع للاعتراض السطحي الساذج ، بالقول بأن الريح تجري وفق نظام كوني ؛ وتهب هنا أو هناك تبعاً لعوامل طبيعية . فالذي يجريها وفق ذلك النظام وتبع هذه العوامل هو الذي يسلطها على من يشاء عندما يشاء وفق تقديره وتدبيره . وهو قادر على أن يسلطها كما يريد في إطار النظام الذي قدره

والعوامل التي جعلها . ولا مخالفة ولا شبهة ولا اعتراض !

وآية ثالثة في ثمود :

(283/727)

﴿ وفي ثمود إذ قيل لهم : تمتعوا حتى حين . فعتوا عن أمر ربهم ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ﴾ . .

والإشارة في قوله : ﴿ إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾ . . قد تعني إمهالهم ثلاثة أيام بعد قتل الناقة . وهو ما ورد في الآية : ﴿ فقال : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ﴾ . . وقد تعني ما قدر لهم من المتاع منذ الرسالة إلى أن قتلوا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، فحق عليهم الهلاك .

وما يقال في الحجارة التي أرسلت على قوم لوط ، وفي الريح التي أرسلت على عاد ، يقال في الصاعقة التي أرسلت على ثمود . فكلها قوى كونية مدبرة بأمر الله ، مسخرة بمشيئته وبنواميسه . يسلطها على من يشاء في إطار تلك النواميس . فتؤدي دورها الذي يكلفها الله . كأي جند من جند الله .

وآية رابعة في قوم نوح :

﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ . .

وهي إشارة سريعة تلمس القصة لمسة واحدة بدون إيضاح . كأنما ليقال : واذكر قوم نوح .

وقد وردت " قومَ " منصوبة وبدون لفظ " في " بتقدير كلمة " اذكر " قبلها . وتلتها ﴿ والسماء بنيناها . . ﴾ معطوفة عليها . . وهذه آية كونية ، وتلك آية تاريخية .

يربطهما السياق معاً ، ويربط بهما هذا القطاع بالقطاع الثالث في السورة . .

﴿ والسمآء بنيناها بأيد ، وإنا لموسعون ، والأرض فرشناها فنعم الماهدون ، ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله ، إني لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ، إني لكم منه نذير مبين ﴾ . .

إنها عودة إلى المعرض الكوني الذي افتتحت به السورة ، في صورة من صوره الكثيرة التي يجلوها القرآن للقلوب . واستطراد في الإشارة إلى آيات الله هنا وهناك ، يصل آية نوح بآية السماء وآية الأرض وآية الخلائق . ثم يخلص به إلى ذلك الهتاف بالبشر ليفروا إلى الله موحدين متجردين .

﴿ والسمآء بنيناها بأيد ، وإنا لموسعون ﴾ . .

والأيد : القوة . والقوة أوضح ما ينبئ عنه بناء السماء الهائل المتماسك المتناسق . بأي مدلول من مدلولات كلمة السماء . سواء كانت تعني مدارات النجوم والكواكب . أم تعني مجموعة من المجموعات النجمية التي يطلق عليها اسم المجرة وتحوي مئات الملايين من النجوم . أم تعني طبقة من طبقات هذا الفضاء الذي تتناثر فيه النجوم والكواكب . . أم غير هذا من مدلولات كلمة السماء .

والسعة كذلك ظاهرة فهذه النجوم ذات الأحجام الهائلة والتي تعد بالملايين ، لا تعدو أن تكون ذرات متناثرة في هذا الفضاء الرحيب .

ولعل في الإشارة إلى السعة إيحاء آخر إلى مخازن الأرزاق التي قال من قبل : إنها في السماء ولو أن السماء هناك مجرد رمز إلى ما عند الله . ولكن التعبير القرآني يلقي ظلالاً معينة ، يبدو أنها مقصودة في التعبير ، لخطاب المشاعر البشرية خطاباً موحياً .

ومثلها الإشارة الأخرى إلى الأرض الممهودة المفروشة :

﴿ والأرض فرشناها . فنعم الماهدون ﴾ . .

فقد أعد الله هذه الأرض لتكون مهداً للحياة كما أسلفنا . والفرش يوحي باليسر والراحة والعناية . وقد هيئت الأرض لتكون محضناً ميسراً ممهداً ، كل شيء فيه مقدر بدقة لتيسير الحياة وكفالتها : ﴿ فنعم الماهدون ﴾ . .

﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ . .

وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الأرض – وربما في هذا الكون . إذ أن التعبير لا يخصص الأرض – قاعدة الزوجية في الخلق . وهي ظاهرة في الأحياء . ولكن كلمة ﴿ شيء ﴾ تشمل غير الأحياء أيضاً . والتعبير يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية .

وحين نتذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرناً . وأن فكرة عموم الزوجية – حتى في الأحياء – لم تكن معروفة حينذاك . فضلاً على عموم الزوجية في كل شيء . . حين نتذكر هذا نجدنا أمام أمر عجيب عظيم . . وهو يطلعنا على الحقائق الكونية في هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التبكير !

(285/727)

كما أن هذا النص يجعلنا نرجح أن البحوث العلمية الحديثة سائرة في طريق الوصول إلى الحقيقة . وهي تكاد تقرر أن بناء الكون كله يرجع إلى الذرة . وأن الذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء : موجب وسالب ! فقد تكون تلك البحوث إذن على طريق الحقيقة في ضوء هذا النص العجيب .

وفي ظل هذه اللمسات القصيرة العبارة الهائلة المدى : في أجواز السماء ، وفي آماد الأرض ،

وفي أعماق الخلائق . يهتف بالبشر ليفروا إلى خالق السماء والأرض والخلائق ، متجردين من كل ما يثقل أرواحهم ويقيدها ؛ موحدين الله الذي خلق هذا الكون وحده بلا شريك . ﴿ ففروا إلى الله ، إني لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ، إني لكم منه نذير مبين ﴾ . .

والتعبير بلفظ الفرار عجيب حقاً . وهو يوحي بالأثقال والقيود والأغلال والأوهاق ، التي تشد النفس البشرية إلى هذه الأرض ، وتثقلها عن الانطلاق ، وتحاصرها وتأسرها وتدعها في عقال . وبخاصة أوهاق الرزق والحرص والانشغال بالأسباب الظاهرة للنصيب الموعود . ومن ثم يجيء الهتاف قوياً للانطلاق والتملص والفرار إلى الله من هذه الأثقال والقيود ! الفرار إلى الله وحده منزهاً عن كل شريك . وتذكير الناس بانقطاع الحجة وسقوط العذر : ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾ . . وتكرار هذا التنبيه في آيتين متجاورتين ، زيادة في التنبيه والتحذير !

وكأنما كانت هذه الإشارة إلى آية السماء وآية الأرض وآية الخليقة استطراداً مع آيات الرسالات والرسل . فلما انتهت جاء التعقيب على قصص الرسل التي سلفت في السياق : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون . أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون . فتول عنهم فما أنت بملوم . وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ . .

فهي جبلة واحدة وطبيعة واحدة للمكذبين ؛ وهو استقبال واحد للحق والرسل يستقبلهم به المنحرفون : ﴿ كذلك ما آتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون ﴾ . . كما يقول هؤلاء المشركون ! كأنما تواصوا بهذا الاستقبال على مدار القرون ! وما تواصوا بشيء إنما هي طبيعة الطغيان وتجاوز الحق والقصد تجمع بين الغابرين واللاحقين ! والنتيجة الطبيعية التي تترتب على هذا الموقف المكرور ، الذي كأنما تواصى به الطاغون على مدار القرون ، ألا يحفل الرسول - صلى الله عليه وسلم - تكذيب المشركين . فهو غير ملوم على ضلالهم ، ولا مقصر في هدايتهم : ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ . . إنما هو مذكر ، فعليه أن يذكر ، وأن يمضي في التذكير ، مهما أعرض المعرضون وكذب المكذبون : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ . . ولا تنفع غيرهم من الجاحدين . والتذكير هو وظيفة الرسل . والهدى والضلال خارجان عن هذه الوظيفة ، والأمر فيهما إلى الله وحده . الذي خلق الناس لأمر يريده .

هنا يجيء الإيقاع الأخير في السورة . ويتضح معنى الفرار إلى الله ، والتخلص من الأوهاق والأثقال ، لأداء الوظيفة التي خلق الله العباد لها ، ومنحهم وجودهم ليؤدوها :

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ . .

وإن هذا النص الصغير ليحتوي حقيقة ضخمة هائلة ، من أضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكها واستيقانها .

سواء كانت حياة فرد أم جماعة . أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها وأعصارها .

وإنه ليفتح جوانب وزوايا متعددة من المعاني والمرامي ، تندرج كلها تحت هذه الحقيقة الضخمة ، التي تعد حجر الأساس الذي تقوم عليه الحياة .

(287/727)

وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والإنس . تتمثل في وظيفة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده ؛ ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده ؛ وأصبح بلا وظيفة ، وباتت حياته فارغة من القصد ، خاوية من معناها الأصيل ، الذي تستمد منه قيمتها الأولى . فقد انفلت من الناموس الذي خرج به إلى الوجود ، وانتهى إلى الضياع المطلق ، الذي يصيب كل كائن ينفلت من ناموس الوجود ، الذي يربطه ويحفظه ويكفل له البقاء .

هذه الوظيفة المعينة التي تربط الجن والإنس بناموس الوجود . هي العبادة لله . أو هي العبودية لله . . أن يكون هناك عبد ورب . عبد يَعبد ، ورب يُعبد . وأن تستقيم حياة

العبد كلها على أساس هذا الاعتبار .

ومن ثم يبرز الجانب الآخر لتلك الحقيقة الضخمة ، ويتبين أن مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر . فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر ؛ والله لا يكلفهم هذا . وهو يكلفهم ألواناً أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم . وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن ؛ ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان . نعرفها من القرآن من قول الله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ فهي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني . وهي تقتضي ألواناً من النشاط الحيوي في عمارة الأرض ، والتعرف إلى قواها وطاقاتها ، وذخائرها ومكنوناتها ، وتحقق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها . كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني العام .

ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني أو التي هي وظيفة الإنسان الأولى ، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر ؛ وأن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعاً . وأن حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين رئيسيين :

الأول : هو استقرار معنى العبودية لله في النفس . أي استقرار الشعور على أن هناك عبداً ورباً . عبداً يَعبد ، ورباً يُعبد . وأن ليس وراء ذلك شيء ؛ وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار . ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود ؛ وإلا رب واحد والكل له عبيد .

والثاني : هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير ، وكل حركة في الجوارح ، وكل حركة في الحياة . التوجه بها إلى الله خالصة ، والتجرد من كل شعور آخر ، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله .

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة ؛ ويصبح العمل كالشعائر ، والشعائر كعمارة الأرض ، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله ، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله . . كلها عبادة ؛ وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها ؛ وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه .

عندئذ يعيش الإنسان في هذه الأرض شاعراً أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى ، جاء لينهض بها فترة ، طاعة لله وعبادة له لا أرب له هو فيها ، ولا غاية له من ورائها ، إلا الطاعة ، وجزاؤها الذي يجده في نفسه من طمأنينة ورضى عن وضعه وعمله ، ومن أنس برضى الله عنه ، ورعايته له . ثم يجده في الآخرة تكريماً ونعيماً وفضلاً عظيماً .

وعندئذ يكون قد فر إلى الله حقاً . يكون قد فر من أوهاق هذه الأرض وجواذبها المعوقة ومغرياتها الملفتة . ويكون قد تحرر بهذا الفرار . تحرر حقيقة من الأوهاق والأثقال . وخلص لله ، واستقر في الوضع الكوني الأصيل : عبداً لله . خلقه الله لعبادته . وقام بما خلق له . وحقق غاية وجوده . فمن مقتضيات استقرار معنى العبادة أن يقوم بالخلافة في الأرض ، وينهض بتكاليفها ، ويحقق أقصى ثمراتها ؛ وهو في الوقت ذاته نافض يديه منها ؛ خالص القلب من جواذبها ومغرياتها . ذلك أنه لم ينهض بالخلافة ويحقق ثمراتها لذاته هو ولا لذاتها . ولكن لتحقيق معنى العبادة فيها ، ثم الفرار إلى الله منها !

ومن مقتضياته كذلك أن تصبح قيمة الأعمال في النفس مستمدة من بواعثها لا من نتائجها . فلتكن النتائج ما تكون . فالإنسان غير معلق بهذه النتائج . إنما هو معلق بأداء العبادة في القيام بهذه الأعمال ؛ ولأن جزاءه ليس في نتائجها ، إنما جزاؤه في العبادة التي أداها . .

ومن ثم يتغير موقف الإنسان تغيراً كاملاً تجاه الواجبات والتكاليف والأعمال . فينظر فيها كلها إلى معنى العبادة الكامن فيها . ومتى حقق هذا المعنى انتهت مهمته وتحققت غايته .

ولتكن النتائج ما تكون بعد ذلك . فهذه النتائج ليست داخلة في واجبه ولا في حسابه ، وليست من شأنه . إنما هو قدر الله ومشيئته . وهو وجهده ونيته وعمله جانب من قدر الله ومشيئته :

(290/727)

ومتى نفض الإنسان قلبه من نتائج العمل والجهد ، وشعر أنه أخذ نصيبه ، وضمن جزاءه ، بمجرد تحقق معنى العبادة في الباعث على العمل والجهد ، فلن تبقى في قلبه حينئذ بقية من الأطماع التي تدعوا إلى التكالب والخصام على أعراض هذه الحياة . فهو من جانب يبذل أقصى ما يملك من الجهد والطاقة في الخلافة والنهوض بالتكاليف . ومن جانب ينفض يده وقلبه من التعلق بأعراض هذه الأرض ، وثمرات هذا النشاط . فقد حقق هذه الثمرات ليحقق معنى العبادة فيها لا ليحصل عليها ويحتجزها لذاته .

(291/727)

والقرآن يغذي هذا الإحساس ويقويه . بإطلاق مشاعر الإنسان من الانشغال بهم الرزق ومن شح النفس . فالرزق في ذاته مكفول . تكفل به الله تعالى لعباده . وهو لا يطلب إليهم بطبيعة الحال أن يطعموه – سبحانه – أو يرزقوه . حين يكلفهم إنفاق هذا المال لمحتاجيه , والقيام بحق المحرومين فيه:

(ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) . .

وإذن لا يكون حافز المؤمن للعمل وبذل الجهد في الخلافة هو الحرص على تحصيل الرزق . بل يكون الحافز هو تحقيق معنى العبادة , الذي يتحقق ببذل أقصى الجهد والطاقة . ومن ثم يصبح قلب الإنسان معلقا بتحقيق معنى العبادة في الجهد , طليقا من التعلق بنتائج الجهد . . وهي مشاعر كريمة لا تنشأ إلا في ظل هذا التصوير الكريم .

وإذا كانت البشرية لا تدرك هذه المشاعر ولا تتذوقها , فذلك لأنها لم تعش – كما عاش جيل المسلمين الأول – في ظلال هذا القرآن . ولم تستمد قواعد حياتها من ذلك الدستور العظيم .

وحين يرتفع الإنسان إلى هذا الأفق . أفق العبادة . أو أفق العبودية . ويستقر عليه , فإن نفسه تأنف حتما من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية كريمة . ولو كانت هذه الغاية هي نصر دعوة الله وجعل كلمته هي العليا . فالوسيلة الخسيسة من جهة تحطم معنى العبادة النظيف الكريم . ومن جهة أخرى فهو لا يعني نفسه ببلوغ

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (59) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (60)

(292/727)

الغايات , إنما يعني نفسه بأداء الواجبات , تحقيقا لمعنى العبادة في الأداء . أما الغايات فموكولة لله , يأتي بها وفق قدره الذي يريده . ولا داعي لاعتساف الوسائل والطرق للوصول إلى غاية أمرها إلى الله , وليست داخلة في حساب المؤمن العابد لله .

ثم يستمتع العبد العابد براحة الضمير , وطمأنينة النفس , وصلاح البال , في جميع الأحوال . سواء رأى ثمرة عمله أم لم يرها . تحققت كما قدرها أم على عكس ما قدرها . فهو قد أنهى عمله , وضمن جزاءه , عند تحقق معنى العبادة . واستراح . وما يقع بعد ذلك خارج عن حدود وظيفته . . وقد علم هو أنه عبد , فلم يعد يتجاوز بمشاعره ولا بمطالبه حدود العبد . وعلم أن الله رب , فلم يعد يتقحم فيما هو من شؤون الرب . واستقرت مشاعره عند هذا الحد , ورضي الله عنه , ورضي هو عن الله .

وهكذا تتجلى جوانب من تلك الحقيقة الضخمة الهائلة , التي تقررها آية واحدة

قصيرة:(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) . . وهي حقيقة كفيلة بأن تغير وجه الحياة كلها عندما تستقر حقا في الضمير . . .

الدرس الثالث عشر: 59 – 60 إنذار الكفار وتهديدهم

وفي ضوء هذه الحقيقة الكبيرة ينذر الذين ظلموا فلم يؤمنوا ; واستعجلوا وعد الله , وكذبوا . وتختم السورة بهذا الإنذار الأخير:

فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم . فلا يستعجلون . فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3374 . 3389 ﴾

(293/727)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الذَّارِيَاتِ قَوْله تَعَالَى – : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَإِبْرَاهِيمُ وَالضَّحَّاكُ : " الْهُجُوعُ النَّوْمُ " .

وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانُوا أَقَلَّ لَيْلَةٍ تَمُرُّ عَلَيْهِمْ إلَّا صَلَّوْا فِيهَا " .

وَقَالَ قَتَادَةُ عَنْ الْحَسَنِ : " لَا يَنَامُونَ فِيهَا إلَّا قَلِيلًا " وَقَالَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : " قَلَّ لَيْلَةٌ تَأْتِي

عَلَيْهِمْ لَا يُصَلُّونَ فِيهَا إمَّا مِنْ أَوَّلِهَا ، وَإِمَّا مِنْ أَوْسَطِهَا " .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : "كَانُوا لَا يَنَامُونَ كُلَّ اللَّيْلِ " ، وَرَوَى قَتَادَةُ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : "كَانُوا يَتَنَفَّلُونَ بَيْنَ الْمَغْرِبِ " وَالْعِشَاءِ " وَرَوَى أَبُو حَيْوَةَ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : "كَانُوا يُطِيلُونَ الصَّلَاةَ بِاللَّيْلِ ، وَإِذَا سَجَدُوا اسْتَغْفَرُوا " .

وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : "كَانُوا لَا يَنَامُونَ عَنْ الْعَتَمَةِ يَنْتَظِرُونَهَا لِوَقْتِهَا " ، كَأَنَّهُ جَعَلَ هُجُوعَهُمْ قَلِيلًا فِي جَنْبِ يَقَظَتِهِمْ لِصَلَاةِ الْعَتَمَةِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ كَانَتْ صَلَاةُ اللَّيْلِ فَرْضًا فَنَسَخَ فَرْضَهَا بِمَا نَزَلَ فِي سُورَةِ الْمُزَّمِّلِ وَرَغَّبَ فِيهَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَارٌ فِي فَضْلِهَا وَالتَّرْغِيبِ فِيهَا .

(294/727)

وَرَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ جَابِرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ فِي اللَّيْلِ سَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللَّهَ فِيهَا بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ إيَّاهُ وَذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ ﴾ وَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ : قُلْت ؛ لِأَبِي ذَرٍّ : ﴿ أَيُّ صَلَاةِ اللَّيْلِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : سَأَلْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ نِصْفُ اللَّيْلِ وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ ﴾ .

وَرَوَى عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ أَوْسٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - صَلَاةُ دَاوُد

كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيُصَلِّي ثُلُثَ اللَّيْلِ وَيَنَامُ سُدُسَ اللَّيْلِ ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ قَالَ : " مَا يَرْقُدُونَ " ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قَالَ : " مَدُّوا الصَّلَاةَ إلَى السَّحَرِ ثُمَّ جَلَسُوا فِي الدُّعَاءِ وَالِاسْتِكَانَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ .

"

وقَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : اخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي تَأْوِيلِهِ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ وَالْحَسَنُ وَالشَّعْبِيُّ وَمُجَاهِدٌ : " هُوَ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ وَاجِبٌ فِي الْمَالِ " وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " مَنْ أَدَّى زَكَاةَ مَالِهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَتَصَدَّقَ " .

وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ قَالَ : " الصَّدَقَةُ حَقٌّ مَعْلُومٌ " .

وَرَوَى حَجَّاجٌ عَنْ الْحَكَمِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " نَسَخَتْ الزَّكَاةُ كُلَّ صَدَقَةٍ " .

(295/727)

وَالْحَجَّاجُ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مِثْلَهُ .

وَاخْتَلَفَ الرُّوَاةُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ .

فَرُوِيَ عَنْهُ مَا يَحْتَجُّ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ الْفَرِيقَيْنِ ، فَرَوَى طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ قِصَّةَ ﴿ الرَّجُلِ الَّذِي سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَّا عَلَيْهِ ، فَذَكَرَ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالصِّيَامَ ، فَقَالَ : هَلْ عَلَيَّ شَيْءٌ غَيْرُ هَذَا ؟ قَالَ : لَا ﴾ .

وَرَوَى عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ عَنْ دَرَّاجٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ : إذَا أَدَّيْت زَكَاةَ مَالِك فَقَدْ قَضَيْت مَا عَلَيْك فِيهِ ﴾ .

وَرَوَى دَرَّاجٌ عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إذَا أَدَّيْت زَكَاةَ مَالِك فَقَدْ قَضَيْت الْحَقَّ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْك ﴾ .

فَهَذِهِ الْأَخْبَارُ يَحْتَجُّ بِهَا مَنْ تَأَوَّلَ " حَقًّا مَعْلُومًا " عَلَى الزَّكَاةِ ، وَأَنَّهُ لَا حَقَّ عَلَى صَاحِبِ الْمَالِ غَيْرُهَا .

وَاحْتَجَّ ابْنُ سِيرِينَ بِأَنَّ الزَّكَاةَ حَقٌّ مَعْلُومٌ وَسَائِرُ الْحُقُوقِ الَّتِي يُوجِبُهَا مُخَالِفُوهُ لَيْسَتْ بِمَعْلُومَةٍ .

وَاحْتَجَّ مَنْ أَوْجَبَ فِيهِ حَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ بِمَا رَوَى الشَّعْبِيُّ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ قَالَتْ سَأَلْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَفِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ ؟ فَتَلَا : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ ﴾ الْآيَةَ .

فَذَكَرَ الزَّكَاةَ فِي نَسَقِ التِّلَاوَةِ بَعْدَ قَوْلِهِ : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ وَيَحْتَجُّونَ أَيْضًا بِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ : مَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي حَقَّهَا فِي عُسْرِهَا وَيُسْرِهَا إِلَّا بَرَزَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ تَطَأُهُ بِأَخْفَافِهَا ، وَذَكَرَ الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ ، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَمَا حَقُّهَا ؟ قَالَ : تَمْنَحُ الْغَزِيرَةَ وَتُعْطِي الْكَرِيمَةَ وَتَحْمِلُ عَلَى الظَّهْرِ وَتَسْقِي اللَّبَنَ .

﴾ وَفِي حَدِيثِ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا ﴿ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا حَقُّهَا ؟ قَالَ : إطْرَاقُ فَحْلِهَا ، وَإِعَارَةُ دَلْوِهَا وَمِنْحَتِهَا وَحَلْبُهَا عَلَى الْمَاءِ وَحَمْلٌ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

وَرَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ ﴿ : انْتَهَيْت إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ ، فَلَمَّا رَآنِي مُقْبِلًا قَالَ هُمْ الْأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ ؟ قَالَ هُمْ الْأَكْثَرُونَ أَمْوَالًا إلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا حَثَا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ مَا مِنْ رَجُلٍ يَمُوتُ وَيَتْرُكُ إبِلًا لَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهَا إلَّا جَاءَتْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَأُهُ بِأَخْفَافِهَا كُلَّمَا بَعُدَتْ أُخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذِهِ الْأَخْبَارُ كُلُّهَا مُسْتَعْمَلَةٌ ، وَفِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ ، مِنْهُ مَا يَلْزَمُ مِنْ النَّفَقَةِ عَلَى وَالِدَيْهِ إذَا كَانَا فَقِيرَيْنِ وَعَلَى ذَوِي أَرْحَامِهِ ، وَمَا يَلْزَمُ مِنْ طَعَامِ الْمُضْطَرِّ ، وَحَمْلُ الْمُنْقَطِعِ بِهِ وَمَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ مِنْ الْحُقُوقِ اللَّازِمَةِ عِنْدَمَا يَعْرِضُ مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رِوَايَةً وَعَائِشَةُ وَابْنُ الْمُسَيِّبِ وَمُجَاهِدٌ رِوَايَةً وَعَطَاءٌ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالنَّخَعِيُّ وَعِكْرِمَةُ " الْمَحْرُومُ الْمُحَارَفُ " .

وَقَالَ الْحَسَنُ " الْمَحْرُومُ الَّذِي يَطْلُبُ فَلَا يُرْزَقُ " .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رِوَايَةً وَمُجَاهِدٌ : " الْمَحْرُومُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ سَهْمٌ " ، وَفِي لَفْظٍ آخَرَ : " الَّذِي لَيْسَ لَهُ فِي الْغَنِيمَةِ شَيْءٌ " .

وَقَالَ عِكْرِمَةُ " الَّذِي لَا يَنْمُو لَهُ مَالٌ " ، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ وَقَتَادَةُ : " الْمَحْرُومُ الْمِسْكِينُ الْمُتَعَفِّفُ " ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : " الْمَحْرُومُ الْكَلْبُ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : مَنْ تَأَوَّلَهُ عَلَى الْكَلْبِ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ عِنْدَهُ بِحَقٍّ مَعْلُومٍ الزَّكَاةَ ؛ لِأَنَّ إطْعَامَ الْكَلْبِ لَا يُجْزِي مِنْ الزَّكَاةِ .

فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ عِنْدَهُ حَقًّا غَيْرَ الزَّكَاةِ فَيَكُونُ فِي إطْعَامِ الْكَلْبِ قُرْبَةٌ ، كَمَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ فِي كُلِّ ذِي كَبِدٍ حَرَّى أَجْرًا ، وَإِنَّ رَجُلًا سَقَى كَلْبًا فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ ﴾ .

(298/727)

وَالْأَظْهَرُ فِي قَوْلِهِ ﴿ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ أَنَّهُ الزَّكَاةُ ؛ لِأَنَّ الزَّكَاةَ وَاجِبَةٌ لَا مَحَالَةَ ، وَهِيَ حَقٌّ مَعْلُومٌ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا بِالْآيَةِ ؛ إذْ جَائِزٌ أَنْ يَنْطَوِيَ تَحْتَهَا وَيَكُونَ اللَّفْظُ عِبَارَةً عَنْهَا ؛ ثُمَّ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ مَا تَأَوَّلَ السَّلَفُ عَلَيْهِ الْمَحْرُومَ مُرَادًا بِالْآيَةِ فِي جَوَازِ إعْطَائِهِ الزَّكَاةَ ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الزَّكَاةَ إذَا وُضِعَتْ فِي صِنْفٍ وَاحِدٍ أَجْزَأَ ؛ لِأَنَّهُ اقْتَصَرَ عَلَى السَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ دُونَ الْأَصْنَافِ الْمَذْكُورَةِ فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ .

وَفَرَّقَ اللَّهُ – تَعَالَى – فِي الْآيَةِ بَيْنَ السَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ؛ لِأَنَّ الْفَقِيرَ قَدْ يَحْرِمُ نَفْسَهُ بِتَرْكِهِ الْمَسْأَلَةَ ، وَقَدْ يَحْرِمُهُ النَّاسُ بِتَرْكِ إعْطَائِهِ ، فَإِذَا لَمْ يَسْأَلْ فَقَدْ حَرَمَ نَفْسَهُ بِتَرْكِ الْمَسْأَلَةِ ، فَسُمِّيَ مَحْرُومًا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ؛ لِأَنَّهُ يَصِيرُ مَحْرُومًا مِنْ وَجْهَيْنِ : مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ وَمِنْ قِبَلِ النَّاسِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قَالَ :

أَعْيَانِي أَنْ أَعْلَمَ مَا الْمَحْرُومُ .

آخِرُ سُورَةِ الذَّارِيَاتِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(299/727)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

[فِيهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى الْهُجُوعُ : النَّوْمُ ، وَذَلِكَ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ : الْأَوَّلُ الْإِقْبَالُ [عَلَى الْأُنْسِ بِالْحَدِيثِ ، وَكَانَتْ عَادَتَهُمْ ، أَوْ] عَلَى الْوَطْءِ .

الثَّانِي الْإِقْبَالُ عَلَى الصَّلَاةِ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ .

وَالْأَوَّلُ [ضَعِيفٌ وَالثَّانِي] بَاطِلٌ .

وَلَوْلَا مَخَافَتُنَا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِهِ مُتَعَلِّقٌ يَوْمًا مَا ذَكَرْنَاهُ لِبُطْلَانِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ تَكَلَّمَ الْمُفَسِّرُونَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ لِأَجْلِ أَنَّ

ظَاهِرُهُ يُعْطِي أَنَّ نَوْمَهُمْ بِاللَّيْلِ كَانَ قَلِيلًا ، وَلَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ .

وَإِنَّمَا مَدَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ يُصَلِّي قَلِيلًا ؛ لِأَنَّ الْأَوَّلَ لَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ ؛ وَإِنَّمَا [مَعْنَاهُ] كَانُوا يَهْجَعُونَ قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ ، أَيْ يَسْهَرُونَ قَلِيلًا .

وَمَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى السَّهَرَ بِالْقَلِيلِ ؛ لِأَنَّ عَمَلَ الْعِبَادِ كُلَّهُ قَلِيلٌ .

وَفِي قَوْلِهِ (مَا) اخْتِلَافٌ بَيْنَ النُّحَاةِ : قَالَ بَعْضُهُمْ : هِيَ صِلَةٌ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : هِيَ مَعَ الْفِعْلِ بِتَأْوِيلِ الْمَصْدَرِ ؛ وَالْكُلُّ صَحِيحٌ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ الْمُلْجِئَةِ .

(300/727)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ صَلَاةُ اللَّيْلِ مَمْدُوحَةٌ شَرْعًا إجْمَاعًا ، وَهِيَ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ النَّهَارِ ، لِأَجْلِ فَرَاغِ الْقَلْبِ وَضَمَانِ الْإِجَابَةِ ، وَسَيَأْتِي الْقَوْلُ عَلَيْهِ مُسْتَوْفًى فِي سُورَةِ الْمُزَّمِّلِ إنْ شَاءَ اللَّهُ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قَالَ : هُوَ الرَّجُلُ يَمُدُّ الصَّلَاةَ إلَى السَّحَرِ .

قَالَ ابْنُ شَعْبَانَ : يُرِيدُ مَالِكٌ بِالرَّجُلِ الرَّبِيعَ بْنَ خُثَيْمٍ .

وَقِيلَ : هِيَ الصَّلَاةُ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَهْلِ قُبَاءَ .

وَفِي ذَلِكَ أَقْوَالٌ هَذَا لُبَابُهَا .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : كَانُوا قَلَّ لَيْلَةٌ تَمُرُّ بِهِمْ إلَّا أَصَابُوا مِنْهَا خَيْرًا .

قَالَ الْقَاضِي : وَخَصَّ السَّحَرَ لِمَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ جَوْفُ اللَّيْلِ أَسْمَعُ ﴾ .

وَرُوِيَ فِي الصِّحَاحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إذَا ذَهَبَ الثُّلُثُ الْأَوَّلُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : إذَا انْتَصَفَ اللَّيْلُ ، وَأَصَحُّهُ إذَا بَقِيَ ثُلُثُ اللَّيْلِ يَنْزِلُ اللَّهُ كُلَّ لَيْلَةٍ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ، حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ ﴾ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ .

(301/727)

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ ﴾ ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ هَلْ فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ أَمْ لَا بِمَا يُغْنِي عَنْ إعَادَتِهِ هَاهُنَا .

وَالْأَقْوَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ الزَّكَاةُ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ : سَأَلَ سَائِلٌ : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ

حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ وَالْحَقُّ الْمَعْلُومُ هُوَ الزَّكَاةُ الَّتِي بَيَّنَ الشَّرْعُ قَدْرَهَا وَجِنْسَهَا وَوَقْتَهَا ، فَأَمَّا غَيْرُهَا لِمَنْ يَقُولُ بِهِ فَلَيْسَ بِمَعْلُومٍ ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُقَدَّرٍ وَلَا مُجَنَّسٍ وَلَا مُؤَقَّتٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : ﴿ لِلسَّائِلِ ﴾ ، وَهُوَ الْمُتَكَفِّفُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَالْمَحْرُومِ ﴾ ، وَهُوَ الْمُتَعَفِّفُ ؛ فَبَيَّنَ أَنَّ لِلسَّائِلِ حَقَّ الْمَسْأَلَةِ وَلِلْمَحْرُومِ حَقَّ الْحَاجَةِ .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ الَّذِي يُحَرَّمُ الرِّزْقُ .

وَقِيلَ : الَّذِي أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ الْمُحْتَرِقَةِ : ﴿ قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ وَفِيهِ أَقْوَالٌ كَثِيرَةٌ لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ لَمْ نُطَوِّلْ بِذِكْرِهَا ؛ لِأَنَّ هَذَا أَصَحُّهَا ؛ إذْ يَقْتَضِي هَذَا التَّقْسِيمُ أَنَّ الْمُحْتَاجَ إذَا كَانَ مِنْهُ مَنْ يَسْأَلُ فَالْقِسْمُ الثَّانِي هُوَ الَّذِي لَا يَسْأَلُ ، وَيَتَنَوَّعُ أَحْوَالُ الْمُتَعَفِّفِ ، وَالِاسْمُ يَعُمُّهُ كُلَّهُ ، فَإِذَا رَأَيْته فَسَمِّهِ بِهِ ، وَاحْكُمْ عَلَيْهِ بِحُكْمِهِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(302/727)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الذاريات

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1)

قوله : ﴿ ذَرْواً ﴾ : منصوبٌ على المصدرِ المؤكِّد ، العاملُ فيه فَرْعُه وهو اسمُ الفاعلِ . والمفعولُ محذوفٌ اقتصاراً ؛ إذ لا نظيرَ لما يَذْرُوه هنا . وأدغم أبو عمروٍ وحمزةُ تاءَ " الذاريات " في ذال " ذَرْواً " .

فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (2)

قوله : ﴿ وِقْراً ﴾ : مفعولٌ به بالحاملات . والوِقْر بالكسر : اسمُ ما يُوْقَر أي : يُحْمَلُ . وقُرِىء " وَقْراً " بالفتح ، وذلك على تسمية المفعول بالمصدر . ويجوز أن يكونَ مصدراً على حالِه ، والعاملُ فيه معنى الفعلِ قبله ؛ لأنَّ الحَمْلَ والوَقْرَ بمعنىً واحد ، وإن كان بينهما عمومٌ وخصوصٌ/ .

فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (3)

قوله : ﴿ يُسْراً ﴾ : يجوزُ أن يكونَ مصدراً مِنْ معنى ما قبلَه أي : جَرْياً يُسْراً ، وأَنْ تكونَ حالاً أي : ذات يُسْرٍ أو مَيْسَرة أو جُعِلَتْ نفسَ اليُسْرِ مبالغةً .

فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (4)

قوله : ﴿ أَمْراً ﴾ : يجوزُ أن يكونَ مفعولاً به ، وهو الظاهر ، وأَنْ يكون حالاً أي : مأمورَه ، وعلى هذا فيحتاج إلى حَذْف مفعولِ " المُقَسِّمات " . وقد يقال : لا غرضَ لتقديرِه كما في " الذَّارِيات " . وهل هذه أشياءُ متختلفةٌ فتكونُ الواوُ على بابِها من عطفِ المتغايراتِ ، فإنَّ الذارياتِ هي الرياحُ ، والحاملاتِ الفلكُ ، والجارياتِ الكواكبُ ، والمُقَسِّماتِ الملائكةُ . وقال الزمخشري : " ويجوز أَنْ يُراد الريحُ وحدَها لأنها تُنْشِىءُ السحابَ وتُقِلُّه وتُصَرِّفُه ، وتجري في الجوِّ جَرْياً سهلاً " . قلت : فعلى هذا يكونُ مِنْ عطفِ الصفاتِ ، والمرادُ واحدٌ كقولِه :

4100 يا لَهْفَ زَيَّابَةَ للحارثِ الصَّا . . . بحِ فالغانِمِ فالآيبِ

وقولِ الآخر :

4101 إلى المَلِك القَرْمِ وابْنِ الهُمامِ . . . ولَيْثِ الكتيبةِ في المُزْدَحَمْ

(303/727)

وهذا قَسَمٌ جوابُه قولُه : " إنما تُوْعدون " .

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5)

و " ما " يجوزُ أَنْ تكونَ اسميةً ، وعائدُها محذوفٌ أي : تُوْعَدونه ، ومصدريةً فلا عائدَ على

المشهور ، وحينئذٍ يُحتمل أَنْ يكونَ " تُوْعدون " مبنياً من الوَعْدِ ، وأَنْ يكونَ مبنيّاً من الوعيد لأنه صالحٌ أَنْ يُقال : أَوْعَدْتُه فهو يُوْعَد ، ووَعَدْتُه فهو يُوعَد لا يختلفُ ، فالتقدير : إنَّ وَعْدَكم ، أو إنَّ وَعيدكم . ولا حاجةَ إلى قولِ مَنْ قالَ : إن قولَه : " لَصادِقٌ " وقع فيه اسمُ الفاعلِ موقع المصدرِ أي : لصِدْقٌ ؛ لأنَّ لفظَ اسمِ الفاعل أَبْلَغُ إذ جُعِل الوعدُ أو الوعيدُ صادقاً مبالغةً ، وإن كان الوصفُ إنما يقوم بمَنْ يَعِدُ أو يُوْعِدُ .

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7)

قوله : ﴿ ذَاتِ الحبك ﴾ : العامَّةُ على " الحُبُك " بضمتين وهي الطرائقُ نحو : طرائق الرَّمْل والماءِ إذا صَفَقَتْه الريحُ ، وحُبُك الشَّعْر : آثارُ تَثَنِّيه وتَكَسُّرِه . قال زهير :

4102 مُكَلَّلٌ بأصولِ النجم تَنْسُجُه . . . ريحٌ خَريقٍ لضاحي مائِه حُبُكُ

والحُبُكُ : جمعٌ يُحتمل أَنْ يكونَ مفردُه " حَبيكة " كطريقةٍ وطُرُق أو حباكٍ نحو : حِمار وحُمُر . قال الراجز :

4103 كأَنَّما جَلَّلها الحُوَّاكُ . . . طِنْفِسَةٌ في وَشْيِها حِباكُ

وأصلُ الحَبْكِ : إحكامُ الشيءِ وإتقانُه ، ومنه يقال للدِّرع : مَحْبوكة . وقيل : الحَبْكُ الشَّدُّ والتوثُّقُ . قال امرؤ القيس :

4104 قد غدا يَحْمِلُني في أَنْفِه . . . لاحِقُ الإِطْلَيْنِ مَحْبوكٌ مُمَرّ

وفي هذه اللفظةِ قراءاتٌ كثيرةٌ : فعن الحسن ستٌ : الحُبُك بالضم كالعامَّةِ ، الحُبْك بالضمّ والسكون ، وتُروى عن ابن عباس وأبي عمروٍ ، الحِبك بكسرهما ، الحِبْك بالكسر والسكون ، وهو تخفيف المكسور ، الحِبَك بالكسر والفتح ، الحِبُك بالكسر والضم . فهذه سِتٌّ أقلقُها الأخيرةُ ؛ لأنَّ هذه الزِّنةَ مهملةٌ في أبنية العربِ ، قال ابنُ عطية وغيرُه : " هو من التداخُلِ " يعني : أن فيها لغتين : الكسرَ في الحاء والباء والضمَّ فيهما ، فأخذ هذا القارىءُ الكسرَ من لغةٍ والضمَّ مِنْ أخرى . واستبعدها الناسُ ؛ لأن التداخُلَ إنما يكون في كلمتين . وخرَّجها الشيخ على أن الحاءَ أُتْبِعَتْ لحركة التاءِ في " ذات " قال : " ولم يَعْتَدَّ باللام فاصلةً لأنها ساكنةٌ فهي حاجزٌ غيرُ حصينٍ " . وقد وافق الحسنَ على هذه القراءةِ أو مالك الغفاريُّ . وقرأ عكرمةُ بالضمِّ والفتح جمعَ " حُبْكَة " نحو : غُرْفة وغُرَف . وابن عباس وأبو مالك " الحَبَك " بفتحتين جمعُ " حَبَكة " كعَقَبة وعَقَب ، فهذه ثمانِ قراءات .

إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8)

قوله : ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ : هذا جوابُ القسم .

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9)

قوله : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ ﴾ : صفةٌ لقول . والضميرُ في " عنه " للقرآن ، أو للرسول ، أو للدِّين أو لِما تُوْعَدون أي : يُصْرَفُ عنه . وقيل : " عن " للسبب . والمأفوكُ عنه محذوفٌ ، والضميرُ في " عنه " على هذا ل " قولٍ مختلفٍ " أي : يُؤْفَكُ بسبب القولِ مَنْ أراد الإِسلام بأَنْ يقول/ : هو سحرٌ ، هو كِهانَةٌ . والعامَّةُ على بناء الفعلَيْن للمفعول . وقتادة وابن جبير " يُؤْفَكُ عنه مَنْ أَفَك " الأول للمفعول ، والثاني للفاعل أي : يُصْرَفُ عنه مَنْ صَرَف الناسَ عنه . وزيد بن علي يَأْفَكُ مبنياً للفاعل مِنْ أفك الشيء أي : يَصْرِف الناسَ عنه مَنْ هو مأفوكٌ في نفسه . وعنه أيضاً : " يَأْفِكُ عنه مَنْ أَفَّك " بالتشديد أي : مَنْ هو أفَّاكٌ في نفسِه . وقُرِىء " يُؤْفَنُ عنه مَنْ أُفِنَ " بالنون فيهما أي : يَحْرِمُه مَنْ حَرَمه ، مِنْ أَفِنَ الضَّرْعَ إذا نهكَه حَلْباً .

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10)

وقُرِىءَ " قَتَل " مبنياً للفاعل هو اللَّهُ تعالى : " الخَرَّاصين " مفعولُه .

يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12)

قوله : ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الدين ﴾ : مبتدأٌ وخبرٌ . قيل : وهما ظرفان فكيف يقع أحدُ الظرفين في الآخر ؟ وأُجيب : بأنه على حَذْفِ حَدَثٍ ، أي : أيَّان وقوعُ يومِ ، فأيَّان ظرفٌ للوقوع .

وتقدَّم قراءة " إيَّان " بالكسر في الأعراف .

يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13)

(306/727)

قوله : ﴿ يَوْمَ هُمْ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ منصوباً بمضمرٍ أي : الجزاءُ كائنٌ يومَ هم . ويجوز أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ " يومُ الدين " ، والفتحةُ للبناء على رأي مَنْ يُجيز بناءَ الظرفِ وإنْ أُضيفَ إلى جملةٍ اسميةٍ ، وعلى هذا فيكون حكايةً لمعنى كلامِهم قالوه على الاستهزاء ، ولو جاء على حكايةِ لفظِهم المتقدِّمِ لقيل : يومَ نحن على النار نُفْتَنُ . ويومَ منصوبٌ بالدين . وقيل : بمضمرٍ أي : يَحارون . وقيل : هو مفعولٌ ب أعني مقدراً . وعَدَّى " يُفْتَنون " ب على لأنه بمعنى يُخْتبرون . وقيل : على بمعنى في . وقيل " يومَ هم " خبرُ مبتدأ مضمر أي : هو يومَ هم . والفتحُ لما تقدم ، ويؤيِّد ذلك قراءةُ ابن أبي عبلة والزعفراني " يومُ هم " بالرفع ، وكذلك يؤيِّد القولَ بالبدل . وتقدَّم الكلامُ في مثلِ هذا في غافر .

ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14)

قوله : ﴿ ذُوقُوا ﴾ : أي : يُقال لهم : ذُوقوا . و " هذا الذي كنتم " مبتدأٌ وخبر ، هذا هو

الظاهرُ . وجوَّز الزمخشريُّ أن يكونَ " هذا " بدلاً مِنْ " فِتْنتكم " لأنها بمعنى العذاب .

آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16)

(307/727)

قوله : ﴿ آخِذِينَ ﴾ : حالٌ من الضمير في قوله : " جناتٍ " . و " ما آتاهم " يعني من ما في الجنة فتكونُ حالاً حقيقية . وقيل : ما آتاهم مِنْ أوامِره ونواهيه في الدنيا ، فتكون حالاً محكيَّةً لاختلافِ الزمانين . وجعل الجارَّ هنا خبراً ، والصفةَ فضلةً ، وعَكَسَ هذا في قولِه : ﴿ إِنَّ المجرمين فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [الزخرف : 74] . وقيل : لأن الخبرَ مقصودُ الجملة . والغرضُ هناك الإخبارُ عن تخليدِهم ؛ لأنَّ المؤمِنَ قد يَدْخُلُ النارَ ، ولكن لا بُدَّ مِنْ خروجِه . وأمَّا آيةُ المتقين فجعل الظرفَ فيها خبراً لأَمْنِهم الخروجَ منها ، فجعل لذلك مَحَطَّ الفائدةِ لتحصُلَ لهم الطمأنينةُ فانتصبَتْ الصفةُ حالاً .

كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17)

قوله : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً ﴾ : فيه أوجهٌ ؛ أحدها : أنَّ الكلامَ تَمَّ على " قليلاً " ، ولهذا وَقَفَ بعضُهم على " قليلاً " ليُؤاخيَ بها قولَه تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص : 24] ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشكور ﴾ [سبأ : 13] ويَبْتدىء ﴿ مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ . أي : ما

يَهْجَعون من الليل ، وهذا لا يَظْهر من حيث المعنى ولا من حيث الصناعة : أمَّا الأول فلا بُدَّ أن يَهْجَعوا ولا يُتَصَوَّرُ نَفْيُ هجوعِهم . وأمَّا الصناعةُ فلأنَّ ما في حيِّز النفي لا يتقدَّم عليه عند البصريين ، هذا إنْ جَعَلْتَها نافيةً ، وإنْ جَعَلْتَها مصدريةً صار التقديرُ : من الليل هجوعُهم . ولا فائدةَ فيه لأنَّ غيرَهم من سائر الناس بهذه المَثابة .

الثاني : أَنْ تجعلَ " ما " مصدريةً في محلِّ رفع ب " قليلاً " . والتقدير : كانوا قليلاً هجوعُهم .

(308/727)

الثالث : أَنْ تجعلَ " ما " المصدريةَ بدلاً من اسمِ كان بدلَ اشتمال ، أي : كان هجوعُهم قليلاً ، و " من الليل " على هذين لا يتعلَّق ب "يَهْجَعون " ؛ لأنَّ ما في حَيِّز المصدر لا يتقدَّم عليه على المشهورِ ؛ وبعضُ المانعين اغتفره في الظرفِ ، فيجوزُ هذا عنده ، والمانع يُقَدِّر فعلاً يدلُّ عليه "يَهْجَعون " أي : يهجعون من الليل .

الرابع : أن " ما " مزيدةٌ و "يَهْجَعون " خبرُ كان . والتقدير : كانوا يَهْجَعون من الليلِ هُجوعاً أو زمناً قليلاً ؛ ف " قليلاً " نعتٌ لمصدرٍ أو ظرف . الخامس : أنها بمعنى الذي ، وعائدُها محذوفٌ تقديره : كانوا قليلاً من الليل الوقتَ الذي يَهْجَعونه ، وهذا فيه تكلُّفٌ .

وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18)

قوله : ﴿ وبالأسحار ﴾ : متعلقٌ ب "يَسْتَغْفرون" . والباءُ بمعنى "في" ، قُدِّمَ متعلَّقُ الخبرِ على المبتدأ لجواز تقديمِ العامل .

وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21)

قوله : ﴿ وفي أَنفُسِكُمْ ﴾ : نَسقٌ على "في الأرض" فهو خبر عن "آياتٌ" أيضاً .

والتقدير : وفي الأرض وفي أنفسكم آياتٌ . وقال أبو البقاء : "ومَنْ رفع بالظرفِ جَعَل ضميرَ الآيات في الظرف" يعني مَنْ يرفعُ الفاعلَ بالظرفِ مطلقاً / أي : وإنْ لم يَعْتَمِدْ يَرْفَعُ بهذا الجارِّ فاعلاً هو ضمير "آياتٌ" . وجَوَّز بعضُهم أَنْ يتعلَّقَ ب "تُبْصِرُون" وهو فاسدٌ ؛ لأنَّ الاستفهامَ والفاء يمنعان جوازَه . وقرأ قتادة "آيَةٌ" [الذاريات : 20] بالإفراد .

وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22)

قوله ﴿ رِزْقُكُمْ ﴾ : أي : سببُ رزقِكم . وقرأ حميد وابن محيصن "رازِقُكم" اسمَ فاعل ، واللَّهُ تعالى مُتَعال عن الجهة .

فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23)

والضميرُ في "إنَّه لحقٌّ" : إمَّا للقرآنِ ، وإمَّا للدينِ ، وإمَّا لليوم في قولِه : ﴿ وَإِنَّ الدين لَوَاقِعٌ ﴾ [الذاريات : 6] ﴿ يَوْمَ هُم ﴾ [الذاريات : 13] ﴿ يَوْمُ الدين ﴾ [الذاريات : 12] وإمَّا للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم .

قوله ﴿ مِثْلَ مَا ﴾ الأخَوان وأبو بكر "مثلُ" بالرفع ، وفيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه خبرٌ ثانٍ مستقلٌّ كالأولِ . والثاني : أنه مع ما قبله خبرٌ واحدٌ نحو : هذا حُلْوٌ حامِضٌ ، نقلهما أبو البقاء . والثالث : أنَّه نعتٌ لـ "حق" و "ما" مزيدةٌ على ثلاثةِ الأوجهِ . و "أنَّكم" مضافٌ إليه أي : لَحَقٌّ مثلُ نُطْقِكم . ولا يَضُرُّ تقديرُ إضافتِها لمعرفةٍ لأنها لا تتعرَّفُ بذلك لإبهامِها .

والباقون بالنصبِ وفيه أوجهٌ ، أشهرُها : أنه نعتٌ لـ "حَقٌّ" كما في القراءةِ الأولى ، وإنما بُني الاسم لإضافتِه إلى غيرِ متمكنٍ ، كما بناه الآخرُ في قولِه :

4105 فتَداعَى مَنْخِراه بدَمٍ . . . مثلَ ما أثمرَ حَمَّاضُ الجَبَلْ

بفتح "مثلَ" مع أنها نعتٌ لـ "دم" وكما بُنِيَتْ "غيرَ" في قوله :

4106 لم يَمْنَعِ الشُّرْبَ منها غيرَ أَنْ نَطَقَتْ . . . حمامةٌ في غُصونٍ ذاتِ أَوْقالِ

"غيرَ" فاعلُ "يَمْنع" فبناها على الفتح لإضافتِها إلى "أنْ نَطَقَتْ" وقد تقدَّم في قراءةِ ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] بالفتحِ ما يُغْني عن تقريرِ مثل هذا .

الثاني : أنَّ "مثلَ" رُكِّب مع "ما" حتى صارا شيئاً واحداً . قال المازني : "ومثلُه :

وَيْحَما وهَيَّما وأَيْنَما " وأنشد لحميد بن ثور :

4107 ألا هَيَّما مِمَّا لَقِيْتُ وهَيَّما . . . ووَيْحاً لِمَنْ لم يَدْرِ ما هُنَّ وَيْحَما

قال : فلولا البناءُ لكان منوَّناً . وأنشد أيضاً :

4108 . . . . . .

فأَكْرِمْ بنا أُمَّاً وأَكْرِمْ بنا ابْنَما

(310/727)

وهذا الذي ذكرَه ذهب إليه بعضُ النَّحْويين ، وأَنْشد :

4109 أثورَ ما أَصِيْدُكم أم ثورَيْنْ . . . أم هذه الجَمَّاءَ ذاتَ القرنَيْنْ

وأمَّا ما أنشدَه مِنْ قولِه : " وأَكرِمْ بنا ابنَما " فليس هذا من الباب لأنَّ هذا " ابن " زِيْدَتْ عليه الميم . وإذا زِيْدَتْ عليه الميمُ جُعِلَتِ النونُ تابعةً للميم في الحركاتِ على الفصيح ، فتقول : هذا ابنمٌ ، ورأيت ابنَماً ، ومررت بابِنم ، فتُجْري حركاتِ الإِعراب على الميم وتَتْبَعُها النونُ . " وابنما " في البيت منصوبٌ على التمييز ، فالفتحُ لأجلِ النصبِ لا للبناءِ ، وليس هذه " ما " الزائدةَ ، بل الميمُ وحدَها زائدةٌ ، والألفُ بدلٌ من التنوين .

الثالث : أنَّه منصوبٌ على الظرفِ ، وهو قولُ الكوفيين ، ويجيزون " زيدٌ مثلَك " بالفتح .

ونقله أبو البقاء عن أبي الحسن ، ولكن بعبارةٍ مُشْكِلةٍ فقال : " ويُقْرَأ بالفتح ، وفيه وجهان ، أحدُهما : هو مُعْرَبٌ . ثم في نصبِه أوجهٌ " . ثم قال : " أو على أنه مرفوعُ الموضعِ ، ولكنَّه فُتِحَ كما فُتِح الظرفُ في قوله :

﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] على قولِ الأخفَشِ " . ثم قال : " والوجه الثاني هو مبنيٌّ " . وقال أبو عبيد : " بعضُ العربِ يَجْعَلُ " مثلَ " نصباً أبداً فيقولون : هذا رجلٌ مثلَك " .

الرابع : أنه منصوب على إسقاطِ الجارّ ، وهو كافُ التشبيهِ . وقال الفراء : " العربُ تَنْصِبُها إذا رُفِعَ بها الاسمُ ، يعني المبتدأ ، فيقولون : مثلَ مَنْ عبدُ الله ؟ وعبدُ الله مثلَك ، وأنت مثلَه ؛ لأنَّ الكافَ قد تكونُ داخلةً عليها فتُنْصَبُ إذا أُلْقَيْتَ الكافَ " . قلت : وفي هذا نظرٌ ، أيُّ حاجةٍ إلى تقدير دخولِ الكافِ و " مثْل " تفيدُ فائدتَها ؟ وكأنه لمَّا رأى الكافَ قد دخلَتْ عليها في قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] قال ذلك .

(311/727)

الخامس : أنَّه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ أي : لَحَقٌّ حقاً مثلَ نُطْقِكم . السادس : أنه حالٌ من الضميرِ في " لَحَقٌّ " لأنه قد كَثُرَ الوصفُ بهذا المصدرِ ، حتى جَرَى مَجْرى الأوصافِ

المشتقةِ ، والعاملُ فيها " حَقٌّ " . السابع : أنه حالٌ من نفس " حقٌّ " وإن كان نكرةً . وقد نَصَّ سيبويه في مواضع من كتابه على جوازِه ، وتابعه أبو عمرَ على ذلك .

و" ما " هذه في مثلِ هذا التركيبِ نحو قولِهم : " هذا حَقٌّ كما أنَّك ههنا " لا يجوز حَذْفُها فلا يُقال : " هذا حَقٌّ كأنَّك هنا " . نَصَّ على ذلك الخليل رحمه الله تعالى فإذا جعلْتَ " مثلَ " معربةً كانت " ما " مزيدةً و " أنكم " في محلِّ خفضٍ بالإضافةِ كما تقدَّم ، وإذا جَعَلْتَها مبنيَّةً : إمَّا للتركيب ، وإمَّا لإضافتِها إلى غيرِ متمكِّنٍ جاز في " ما " هذه وجهان الزيادةُ وأَنْ تكونَ نكرةً موصوفةً/ كذا قال أبو البقاء . وفيه نظرٌ لعدم الوصفِ هنا . فإنْ قال : هو محذوفٌ فالأصلُ عَدَمُه . وأيضاً فنصُّوا على أن هذه الصفةَ لا تُحْذَفُ لإبهامِ موصوفِها ، وأمَّا " أنَّكم تَنْطِقون " فيجوز أَنْ يكونَ مجروراً بالإضافةِ إنْ كانَتْ " ما " مزيدةً ، وإنْ كانت نكرةً كان في موضعِ نصبٍ بإضمارِ أعني أو رفعٍ بإضمار مبتدأ .

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25)

(312/727)

قوله : ﴿ إِذْ دَخَلُواْ ﴾ : في العاملِ في " إذ " أربعةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنَّه " حديثُ " أي : هل أتاك حديثُهم الواقعُ في وقت دخولِهم عليه . الثاني : أنه منصوبٌ بما في " ضَيْف " من

معنى الفعل ؛ لأنه في الأصلِ مصدرٌ ، ولذلك استوى فيه الواحدُ المذكرُ وغيره ، كأنه قيل : الذي أضافهم في وقتِ دخولِهم عليه . الثالث : أنَّه منصوبٌ ب " المُكْرَمين " إنْ أريد بإكرامِهم أنَّ إبراهيمَ أكرمَهم بخدمتِه لهم . الرابع : أنه منصوبٌ بإضمارِ اذْكُر ، ولا يجوزُ نصبُه ب " أتاك " لاختلافِ الزمانَيْن .

وقرأ العامَّةُ " المُكْرَمين " بتخفيفِ الراءِ مِنْ أكرم . وعكرمة بالتشديد .

قوله : ﴿ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ ﴾ : قد تقدَّم تحريرُ هذا في هود . وقال ابن عطية : " ويتجهُ أن يعملَ في " سَلاماً " " قالوا " على أَنْ يُجعل " سلاماً " في معنى قولاً ، ويكون المعنى حينئذٍ : أنهم قالوا تحية وقولاً معناه سلاماً . وهذا قولُ مجاهد " . قلت : ولو جُعِل التقدير أنَّهم قالوا هذا اللفظَ بعينِه لكان أَوْلى ، وتفسيرُ هذا اللفظِ هو التحيةُ المعهودةُ . وتقدَّم أيضاً خلافُ القرَّاءِ في " سلاماً " بالنسبة إلى فتحِ سِينه وكسرِها وإلى سكونِ لامِه وفتحِها .

والعامَّةُ على نصب " سلاماً " الأول ورفع الثاني ، وقُرئا مرفوعَيْن ، وقُرِىء " سَلاماً قال : سِلْماً " بكسرِ سينِ الثاني ونصبِه ، ولا يَخْفَى توجيهُ ذلك كلِّه مِمَّا تقدَّمَ في هود .

قوله : ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ خبرُ مبتدأ مضمرٍ فقدَّروه : أنتم قومٌ ، ولم يَسْتحسِنْه بعضُهم ؛ لأنَّ فيه عَدَمَ أُنْسٍ فمثلُه لا يقعُ من إبراهيم عليه السلام ، فالأَوْلَى أَنْ يُقَدَّر : هؤلاء قومٌ أو هم

قومٌ ، وتكون مقالتُه هذه مع أهلِ بيتِه وخاصَّتِه لا لنفسِ الضيفِ ؛ لأنَّ ذلك يُوْحِشُهم .

فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26)

(313/727)

وقوله : ﴿ فَجَآءَ ﴾ : عطفٌ على " فراغَ " ، وتَسَبُّبُه عنه واضحٌ . والهمزةُ في " ألا تأكلون " للإنكار عليهم في عَدَمِ أكلِهم ، أو للعَرْضِ أو للتحضيضِ .

فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29)

قوله : ﴿ فِي صَرَّةٍ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ حالاً من الفاعل أي : كائنةً في صَرَّة . والصَّرَّة قيل : الصيحة . قال امرؤ القيس :

4110 فَأُلْحِقَنا بالهادياتِ ودونَه . . . جَواحِرُها في صَرَّةٍ لم تَزَيَّلِ

قال الزمخشري : " مِنْ صَرَّ الجُنْدُبُ والبابُ والقلمُ . ومحلُّه النصبُ على الحالِ أي : فجاءَتْ صارَّةً " ، ويجوزُ أَنْ يكونَ متعلقاً ب " أَقْبَلَتْ " أي : أقبلَتْ في جماعةِ نسوةٍ كُنَّ معها . والصَّرَّةُ : الجماعةُ من النساء .

قوله : ﴿ فَصَكَّتْ ﴾ أي : لَطَمَتْ : واخْتُلف فيه ، فقيل : هو الضَّرْبُ باليد مبسوطةً . وقيل : بل ضَرْبُ الوجهِ بأطرافِ الأصابعِ فِعْلَ المتعجِّبِ ، وهي عادةُ النساءِ .

قوله : " عجوزٌ " : خبرٌ مبتدأ مضمرٍ أي : أنا عجوزٌ عقيمٌ فكيف أَلِدُ ؟ تفسِّرها الآيةُ الأخرى .

قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30)

قوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ : منصوبٌ على المصدرِ ب " قال " الثانية أي : مثلَ ذلك القولِ الذي أخبرناك به قال ربُّك أي : إنه من جهةِ اللَّهِ فلا تَتَعجَّبي منه .

مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34)

قوله : ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ : فيه ثلاثةُ أوجه ، أحدها : أنه منصوبٌ على النعتِ لحجارة . والثاني : أنَّه حالٌ من الضمير المستكنِّ في الجارِّ قبله . الثالث : أنه حالٌ مِنْ " حجارة " وحَسَّن ذلك كونُ النكرةِ وُصِفَتْ بالجارِّ بعدها .

قوله : ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ ظرفٌ ل " مُسَوَّمَةً " أي : مُعْلَمَةً عنده .

وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (37)

قوله : ﴿ فِيهَا آيَةً ﴾ : يجوز أن يعود الضمير على القرية أي : تَرَكْنا في القرية علامةً كالحجارةِ أو الماء المُنْتِنِ ، ويجوز أَنْ يعودَ على الإهلاكةِ المفهومةِ/ من السِّياق .

وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38)

قوله : ﴿ وَفِي موسى ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : وهو الظاهر أنه عطفٌ على قولِه : " فيها " بإعادةِ الجارّ ؛ لأن المعطوفَ عليه ضميرٌ مجرورٌ فيتعلَّقُ ب " تَرَكْنا " من حيث المعنى ، ويكونُ التقديرُ : وتَرَكْنا في قصةِ موسى آيةً . هذا معنىً واضحٌ . والثاني : أنه معطوفٌ على قولِه : ﴿ وَفِي الأرض آيَاتٌ ﴾ [الذاريات : 20] أي : وفي الأرضِ وفي موسى آياتٌ للموقِنين ، قاله الزمخشري وابنُ عطية . قال الشيخُ : " وهذا بعيدٌ جداً يُنَزَّه القرآنُ عن مثلِه " . قلت : ووجهُ استبعادِه له : بُعْدُ ما بينهما ، وقد فعل أهلُ العلمِ هذا في أكثرَ من ذلك . الثالث : أنه متعلقٌ ب " جَعَلْنا " مقدرةً لدلالةِ " وتَرَكْنا " . قال الزمخشري : " أو على قولِه يعني أو يُعْطَفُ على قولِ وتركْنا فيها آيةً على معنى : وجَعَلْنا في موسى آيةً كقوله :

4111 فَعَلَفْتُها تِبْناً وماءً بارداً . . . . . .

. . . . . .

قال الشيخ : " ولا حاجةَ إلى إضمار " وجَعَلْنا " لأنه قد أمكن أَنْ يكونَ العامل في المجرور " وتَرَكْنا " . قلت : والزمخشريُّ إنما أراد الوجهَ الأولَ بدليلِ قوله : " وفي موسى معطوفٌ على " وفي الأرض " أو على قوله : " وتركْنا فيها " . وإنما قال : " على معنى " من جهةِ تفسيرِ المعنى لا الإعراب ، وإنما أظهر الفعلَ تنبيهاً على مغايرة الفعلَيْن . يعني : أن هذا الترك غيرُ ذاك الترك ، ولذلك أبرزه بمادةِ الجَعْلِ دون مادة الترك لتظهرَ المخالفةُ .

قوله : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ ﴾ يجوز في هذا الظرفِ ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أَنْ يكونَ منصوباً بآية على الوجهِ الأول أي : تركنا في قصة موسى علامةً في وقتِ إرْسالِنا إياه . والثاني : أَنَّه متعلقٌ بمحذوفٍ لأَنَّه نعتٌ لآية أي : آيةً كائنةً في وقتِ إرْسالِنا . الثالث : أنه منصوبٌ ب " تَرَكْنا " .

قوله : ﴿ بِسُلْطَانٍ ﴾ يجوزُ أَنْ يتعلَّقَ بنفس الإرسال ، وأن يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ : إمَّا مِنْ موسى ، وإمَّا مِنْ ضميرِه أي : ملتبساً بسلطان ، وهي الحُجَّةُ .

فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39)

قوله : ﴿ بِرُكْنِهِ ﴾ : حالٌ من فاعل " تَوَلَّى " .

قوله : ﴿ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ " أو " هنا على بابها من الإبهام على السامعِ أو للشكّ ، نَزَّل نفسَه مع أَنَّه يَعْرِفُه نبياً حقاً منزلةَ الشَّاكِّ في أمرِه تَمْويهاً على قومِه . وقال أبو عبيدة : " أو بمعنى الواو " . قال : " لأنه قد قالهما ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : 109] . وقال في موضع آخرَ : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : 27] . وتجيءُ " أو " بمعنى الواو كقولِه :

4112 أَثَعْلَبَةَ الفوارِسَ أو رِياحا . . . عَدَلْتَ بهم طُهَيَّةَ والخِشابا

وردَّ الناسُ عليه هذا وقالوا : لا ضرورةَ تَدْعُو إلى ذلك ، وأمَّا الآيتان فلا تَدُلاَّن على أنَّه قالهما معاً ، وإنما تفيدان أنه قالهما أعَمَّ مِنْ أَنْ يكونا معاً ، وهذه في وقت وهذه في آخرَ .

فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40)

قوله : ﴿ وَجُنُودَهُ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ معطوفاً على مفعول " أَخَذْناه " وهو الظاهرُ ، وأَنْ يكونَ مفعولاً معه .

(316/727)

قوله : ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ جملةٌ حاليةٌ ، فإن كانت حالاً من مفعول " نَبَذْناهم " فالواوُ لازمةٌ إذ ليسَ فيها ذِكْرٌ يعودُ على صاحب الحال ، وإن كانت حالاً من مفعول " أَخَذْناه " فالواوُ ليسَتْ واجبةٍ ؛ إذ في الجملة ذِكْرٌ يعودُ عليه . وقد يُقال : إنَّ الضمير في " نَبَذْناهم " يعود على فرعون وعلى جنودِه ، فصار في الحال ذِكْرٌ يعودُ على بعض ما شَمَلَه الضميرُ الأول . وفيه نظرٌ ؛ إذ يصيرُ نظيرَ قولِك : " جاء السلطانُ وجنوده فأكرمتُهم راكباً فرسَه " فتجعل " راكباً " حالاً من بعضِ ما اشتمل عليه ضميرُ " أكرمتُهم " .

وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41)

قوله : ﴿ وَفِي عَادٍ ، وَفِي ثَمُودَ ، وَفِي موسى ﴾ : تقدَّم مثلُه .

مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (42)

قوله : ﴿ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كالرميم ﴾ : هذه الجملةُ في موضع المفعول الثاني ل " تَذَرُ " كأنه قيل : ما تَتْرك من شيءٍ إلاَّ مجعولاً نحو : ما تركتُ زيداً إلاَّ عالماً . وأعربَها الشيخُ حالاً وليس بظاهرٍ .

فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44)

قوله : ﴿ الصاعقة ﴾ : هذه قراءةُ العامَّةِ . وقرأ الكسائي " الصَّعْقَة " ، والحسن " الصاقِعة " . وتقدَّم ذِكْرُ هذا كلِّه في البقرة .

قوله : ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ جملةٌ حاليةٌ من المفعول . و " ينظرون " قيل : من النظر . وقيل : من الانتظار أي : ينتظرون ما وُعِدوه من العذاب .

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (46)

(317/727)

قوله : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ : قرأ الأخَوان وأبو عمرو بجرِّ الميم ، والباقون/ بنصبها . وأبو السَّمَّال وابن مقسم وأبو عمرو في روايةِ الأصمعيِّ " وقومُ " بالرفع . فأمَّا الخفضُ ففيه أربعةُ

أوجهٍ، أحدُها : أنه معطوفٌ على " وفي الأرض " . الثاني : أنه معطوفٌ على " وفي موسى " الثالث : أنه معطوفٌ على " وفي عاد " . الرابع : أنه معطوفٌ على " وفي ثمودَ " ، وهذا هو الظاهرُ لقُرْبِه وبُعْدِ غيرِه . ولم يذكرْ الزمخشريُّ غيرَه فإنه قال : " وقُرِىء بالجرِّ على معنى " وفي قوم نوح " . ويُقَوِّيه قراءةُ عبد الله " وفي قوم نوح " . ولم يَذْكُرْ أبو البقاء غيرَ الوجهِ الأخيرِ لظهورِه .

وأمّا النصبُ ففيه ستةُ أوجهٍ، أحدها : أنه منصوبٌ بفعلٍ مضمرٍ أي : وأهلَكْنا قومَ نوح ؛ لأنَّ ما قبلَه يَدُلُّ عليه . الثاني : أنه منصوبٌ بـ اذْكُرْ مقدراً ، ولم يَذْكُرْ الزمخشريُّ غيرَهما . الثالث : أنَّه منصوبٌ عطفاً على مفعول " فأَخَذْناه " . الرابع : أنه معطوفٌ على مفعول ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليم ﴾ وناسَبَ ذلك أنَّ قومَ نوح مُغْرقون من قبلُ . لكنْ يُشْكِلُ أنَّهم لم يَغْرَقوا في اليمِّ . وأصلُ العطفِ أَنْ يقتضيَ التشريكَ في المتعلَّقات . الخامس : أنَّه معطوفٌ على مفعولِ " فَأَخَذَتْهم الصاعقةُ " . وفيه إشكالٌ ؛ لأنهم لم تأخُذْهم الصاعقةُ ، وإنما أُهْلكوا بالغَرَقِ . إلاَّ أَنْ يُرادَ بالصاعقةِ الداهيةُ والنازلةُ العظيمة من أيِّ نوعٍ كانت ، فيَقْرُبُ ذلك . السادس : أنه معطوفٌ على محلِّ " وفي موسى " ، نقله أبو البقاء وهو ضعيفٌ .

وأما الرفعُ على الابتداءِ والخبرُ مقدَّرٌ أي : أهلَكْناهم . وقال أبو البقاء : " والخبرُ ما بعدَه " يعني مِنْ قولِه : إنهم كانوا قوماً فاسقين . ولا يجوز أَنْ يكونَ مرادُه قولَه : " من قبلُ " ؛ إذ

الظرفُ ناقصٌ فلا يُخبَرُ به .

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47)

(318/727)

قوله : ﴿ والسمآء بَنَيْنَاهَا ﴾ : العامة على النصب على الاشتغالِ ، وكذلك قولُه : ﴿ والأرضَ فَرَشْناها ﴾ والتقديرُ : وبَنَيْنا السماءَ بَنَيْناها . وقال أبو البقاء : " أي : ورفَعْنا السماءَ " فقدَّر الناصبَ مِنْ غير لفظ الظاهر ، وهذا إنما يُصار إليه عند تعذُّرِ التقديرِ الموافقِ لفظاً نحو : زيداً مررت به ، وزيداً ضربْتُ غلامَه . وأمَّا في نحو " زيداً ضربتُه " فلا يُقدَّر : إلاَّ ضربْتُ زيداً . وقرأ أبو السَّمَّال وابن مقسم برفعِهما على الابتداء ، والخبرُ ما بعدهما . والنصبُ أرجحُ لعطفِ جملة الاشتغال على جملةٍ فعلية قبلَها .

قوله : ﴿ بِأَيْدٍ ﴾ يجوز أَنْ يتعلقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ . وفيها وجهان ، أحدهما : أنَّها حالٌ من فاعل " بَنَيْناها " أي : ملتبسين بقوةٍ : والثاني : أنها حالٌ مِنْ مفعولِه أي : ملتبسةً بقوةٍ . ويجوز أَنْ تكونَ الباءُ للسببِ أي : بسببِ قدرتِنا . ويجوز أَنْ تكون الباءُ مُعَدِّيَةً مجازاً ، على أن تجعلَ الأَيدَ كالآلةِ المبنيِّ بها كقولك : بَنَيْتُ بيتَك بالآجُرِّ .

قوله : ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ يجوز أَنْ تكونَ الجملةُ حالاً مِنْ فاعل " بَنَيْناها " ، ويجوز أَنْ

تكونَ حالاً من مفعوله ، ومفعول " مُوْسِعون " محذوفٌ أي : موسِعون بناءَها . ويجوز أَنْ لا يُقَدَّر له مفعولٌ ؛ لأنَّ معناه " لَقادِرون " ، مِنْ قولك : ما في وُسْعي كذا أي : ما في طاقتي وقوتي .

وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (48)

قوله : ﴿ فَنِعْمَ الماهدون ﴾ : المخصوصُ بالمدحِ محذوفٌ لفهمِ المعنى أي : نحن كقوله : ﴿ نِعْمَ العبد ﴾ [ص : 44] .

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49)

(319/727)

قوله : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ : يجوز أَنْ يتعلَّقَ ب " خَلَقْنا " أي : خَلَقْنا مِنْ كلِّ شيء زوجَيْن ، وأَنْ يتعلَّق بمحذوف على أنه حالٌ مِنْ " زوجَيْن " ؛ لأنه في الأصل صفةٌ له ؛ إذ التقديرُ : خَلَقْنا زوجَيْن كائنين من كلِّ شيءٍ ، والأول أُقوى في المعنى .

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52)

قوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ : فيه وجهان ، أظهرُهما : أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي : الأمرُ مثلُ ذلك . والإِشارةُ ب " ذلك " قال الزمخشريُّ : " إلى تكذيبِهم الرسولَ وتسميتِه ساحراً ومجنوناً "

ثم فَسَّر ما أَجْمل بقوله : " ما أَتى " . والثاني : أن الكاف في محلِّ نصبٍ نعتاً لمصدر محذوف ، قاله مكي ، ولم يُبَيِّنْ تقديرَه/ ولا يَصِحُّ أَنْ ينتصِبَ بما بعده لأجل " ما " النافية . وأمَّا المعنى فلا يمتنعُ ، ولذلك قال الزمخشري : " ولا يَصِحُّ أن تكون الكافُ منصوبةً ب " أتى " لأنَّ " ما " النافيةَ لا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، ولو قيل : لم يأتِ لكان صحيحاً " يعني لو أتى في موضع " ما " ب " لم " لجاز أن تنتصِبَ الكافُ ب " أتى " لأن المعنى يَسُوغ عليه . والتقدير : كَذَّبَتْ قريشٌ تكذيباً مثلَ تكذيب الأمم السابقة رسلَهم . ويَدُلُّ عليه قولُه : ﴿ مَا أَتَى الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ الآية .

قوله : ﴿ إِلاَّ قَالُواْ ﴾ الجملةُ القوليةُ في محلِّ نصب على الحال من ﴿ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ، و " من رسولٍ " فاعلُ " أتى " كأنه قيل : ما أتى الأوَّلين رسولٌ إلاَّ في حالِ قولهم : هو ساحرٌ . والضميرُ في " به " يعودُ على القولِ المدلولِ عليه ب " قالوا " أي : أتواصَى الأوَّلُوْن والآخرِون بهذا القولِ المتضمِّن لساحرٍ أو مجنونٍ ، والاستفهامُ للتعجب .

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)

قوله : ﴿ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ : متعلقٌ ب " خَلَقْتُ " . واخْتُلف في الجن والإِنس : هل المرادُ بهم العمومُ ، والمعنى : إلاَّ لأمْرِهم بالعبادة ، ولِيقِرُّوا بها ؟ وهذا منقولٌ عن عليّ ، أو يكون المعنى : ليطيعونِ وينقادوا لقضائي ، فالمؤمنُ يفعل ذلك طَوْعاً والكافرُ كَرْهاً ، أو يكون المعنى : إلاَّ مُعَدّين للعبادة . ثم منهم منْ يتأَتَّى منه ذلك ، ومنهم مَنْ لا كقولك : هذا القلمُ بَرَيْتُه للكتابة ، ثم قد تكتب به وقد لا تكتب ، أو المرادُ بهم الخصوص . والمعنى : وما خلقتُ الجنَّ والإِنس المؤمنين . وقيل : الطائعين . والأول أُحسن .

مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57)

قوله : ﴿ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴾ : قيل : فيه حَذْفُ مضافٍ ، أي : يُطعموا خَلْقي . وقيل : المعنى أَنْ ينفعونِ ، فعبَّر ببعضِ وجوه الانتفاعات ؛ لأنَّ عادةَ السادة أَنْ ينتفعوا بعبيدِهم ، واللَّهُ سبحانه وتعالى مُسْتَغْنٍ عن ذلك .

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)

قوله : ﴿ المتين ﴾ : العامَّةُ على رفعِه . وفيه أوجهٌ : إمَّا النعتُ للرزَّاق ، وإمَّا النعتُ ل " ذو " ، وإمَّا النعتُ لاسم " إنَّ " على الموضع ، وهو مذهبُ الجَرْميِّ والفراءِ وغيرِهما ، وإمَّا خبرٌ بعد خبرٍ ، وإمَّا خبرُ مبتدأ مضمرٍ . وعلى كل تقدير فهو تأكيدٌ لأن " ذو القوة " يُفيد فائدتَه . وقرأ ابن محيصن " الرازق " كما قرأ " وَفِي السمآء رازِقُكُمْ " كما تقدَّم . وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش " المتينِ " بالجر فقيل : صفة للقوة ، وإنما ذَكَّر وصفَها لكونِ تأنيثها

غيرَ حقيقي . وقيل : لأنها في معنى الأَيد . وقال ابن جني : " هو خفضٌ على الجوارِ كقولِهم : " هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ " يعني أنه صفةٌ للمرفوع ، وإنما جُرَّ لَمَّا جاور مجروراً . وهذا مرجوحٌ لإمكانِ غيرِه ، والجِوارُ لا يُصار إليه إلاَّ عند الحاجة .

(321/727)

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (59)

قوله : ﴿ ذَنُوباً ﴾ : الذَّنوبُ في الأصل : الدَّلْوُ المَلأَى ماءً . وفي الحديث : " فأتى بذَنوبٍ من ماءٍ " فإنْ لم تكن مَلأَى فهو دَلْوٌ ، ثم عُبِّر به عن النصيب . قال علقمة :

4113 وفي كلِّ حَيٍّ قد خبَطْتُ بِنعْمَةٍ . . . فحُقَّ لشاسٍ مِنْ نَداكَ ذَنوبُ

ويُجْمع في القلةِ على : أَذْنِبة ، وفي الكثرةِ على : ذَنائب . وقال المَلِكُ لَمَّا أُنْشد هذا البيتَ : نعم ، وأَذْنِبَة . وقال الزمخشري : " الذَّنوبُ : الدَّلْوُ العظيمةُ . وهذا تمثيلٌ ، أصلُه في السُّقاةِ يَقْتسمون الماءَ ، فيكونُ لهذا ذَنُوب ، ولهذا ذَنوب . قال الراجز :

4114 لنا ذَنوبٌ ولكم ذَنُوبُ . . . فإنْ أَبَيْتُمْ فلنا القَليبُ

وقال الراغبُ : " الذَّنوبُ : الدَّلْوُ الذي له ذَنَبٌ " انتهى . فراعى الاشتقاقَ ، والذَّنُوب أيضاً : الفرسُ الطويلُ الذَّنَبِ وهو صفةٌ على فَعُوْل ، والذَّنُوب : لحمُ أسفلِ المَتْن . ويُقال : يومٌ

ذَنوبٌ أي : طويلُ الشَّرِّ استعارةً من ذلك .

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (60)

قوله : ﴿ الذي يُوعَدُونَ ﴾ : حُذِفَ العائدُ لاستكمالِ شروطِه أي : يُوْعَدُونه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 39.62 ﴾

(322/727)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الذاريات

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

بسم الله كلمة عزيزة من ذكرها عز لسانه ، ومن عرفها اهتز بصحبتها جنانه ، " بسم الله "

كلمة الألباب غلابة ، كلمة لأرواح المحبين سلابة .

والذارياتُ : أي الرياح الحاملات ﴿ وِقْراً ﴾ أي السحاب ﴿ فَالْجَارِيَاتِ ﴾ أي

السفن . ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً ﴾ أي الملائكة . . . بربِّ هذه الأشياء وبقدرته عليها .

وجواب القسم : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ . . . ﴾ والإشارة في هذه الأشياء أن من جملة

الرياح. الرياح الصيحية تحمل أنينَ المشتاقين إلى ساحات العزّة فيأتي نسيمُ القربةِ إلى مَشَامِّ أسرارِ أهل المحبة. . . فعندئذٍ يجدون راحةً من غَلَبَات اللوعة، وفي معناه أنشدوا :

وإني لأستهدي الرياحَ نسيمكم. . . إذا أقبلَتْ من أرضكم بهبوب

وأسألُها حمْلَ السلام إليكمو. . . فإنْ هي يوماً بَلَّغتْ. . فأجيبي

ومن السحاب ما يُمطر بعتاب الغيبة، ويُؤْذن بهواجم النَّوى والفُرْقة. فإذا عَنَّ لهم من ذلك شيء أبصروا ذلك بنور بصائرهم، فيأخذون في الابتهال، والتضرُّع في السؤال استعاذةً منها. . . كما قالوا :

أقول– وقد رأيتُ لها سحاباً. . . من الهجران مقبلة إلينا

وقد سحَّت عزاليها بِبَيْنٍ. . . حوالينا الصدودُ ولا علينا

وكما قد يَحْملُ الملاَّحُ بعضَ الفقراء بلا أجرة طمعاً في سلامة السفينة – فهؤلاء يرْجُون أن يُحمَلُوا في فُلْكِ العناية في بحار القدرة عند تلاطم الأمواج حول السفينة. ومِنَ الملائكةِ مَنْ يتنزَّلُ لتفقد أهل الوصلة، أو لتعزية أهل المصيبة، أو لأنواعٍ من الأمور تتصل بأهل هذه القصة، فهؤلاء القوم يسألونهم عن أحوالهم : هل عندهم خبرٌ عن فراقهم ووصالهم – كما قالوا :

بربِّكما يا صاحبيَّ قِفَا بيا. . . أسائلكم عن حالهم وآسألانيا

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ : الحقُّ – سبحانه – وَعَدَ المطيعين بالجنة ، والتائبين بالرحمة ، والأولياءَ بالقربة ، والعارفين بالوصلة ، ووَعَدَ أرباب المصائب بقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة : 157 : 156] ، وهم يتصدون لاستبطاء حُسْنِ الميعاد – واللَّهُ رؤوفٌ بالعباد .

قوله جلّ ذكره : ﴿ والسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ .

﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ أي ذات الطرائق الحسنة – وهذا قَسَمٌ ثانٍ ، وجوابه : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ يعني في أمر محمدٍ صلى الله عليه وسلم فأحدهم يقول : إنه ساحر ، وآخر يقول : مجنون ، وثالث يقول : شاعر . . . . وغير ذلك .

والإشارة فيه إلى القسم بسماء التوحيد ذات الزينة بشمس العرفان ، وقمر المحبة ، ونجوم القُرب . . . إنكم في باب هذه الطريقة لفي قولٍ مختلف ؛ فَمِنْ مُنْكِرٍ يجحد الطريقة ومِنْ مُعترِضٍ يعترض على أهلها يتوهَّم نقصانهم في القيام بحق الشريعة ، ومن متعسِّفٍ لايخرج من ضيق حدود العبودية ولا يعرف خبراً عن تخصيص الحقّ أولياءَه بالأحوال السنية ، قال قائلهم :

فد سَحبَ الناسُ أذيال الظنون بنا . . . وفَرَّقَ الناسُ فينا قولهم فِرقَا

فكاذبٌ قد رمى بالظنّ غَيْرتكم . . . وصادقٌ ليس يدري أنه صَدَقَا

قوله جل ذكره : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مِنْ أُفِكَ ﴾ .

أي يُصْرَفُ عنه مَنْ صُرِف ، وذلك أنهم كانوا يصدُّون الناسَ عنه ويقولون : إنه لمجنون .

﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ .

لُعِنَ الكذَّابون الذين هم في غمرة الضلالة وظلمة الجهالة ساهون لاهون .

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ .

(324/727)

يسألون أيان يومُ القيامة ؟ ؛ يستعجلون بها ، فلأَجْلِ تكذيبهم بها كانت نفوسُهم لا تسكن إليها . ويوم هم على النار يُحْرَقون ويُعَذَّبون يقال لهم : قاسوا عقوبتكم ، هذا الذي كنتم به تَسْتَعْجِلُونَ .

والإشارة فيه إلى الذين يَكْذِبون في أعمالهم لِمَا يتداخلهم من الرياء ، ويكذبون في أحوالهم لِمَا يتداخلهم من الإعجاب ، ويكذبون على الله فيما يدَّعونه من الأحوال . . . قُتِلُو ولُعِنوا . . . وسيلقون غِبَّ تلبيسهم بما يُحْرَمون من اشتمام رائحة الصدق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ

ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ .

في عاجلهم في جنَّتِ وَصْلِهم ، وفي آجلهم في جنّاتِ فَضْلِهم ؛ فغداً درجات ونجاة ، واليومَ قرُبات ومناجاة ، فما هو مؤجَّلٌ حظُّ أنفسِهم ، وما هو معجّلٌ حقُّ ربّهم . هم آخذين اليوم ما آتاهم ربهم ؛ يأخذون نصيبه منه بيَدِ الشكر والحمد ، وغداً يأخذون ما يعطيهم ربُّهم في الجنة من فنون العطاء والرِّفد .

ومَنْ كان اليومَ آخذه بلا وساطة من حيث الإيمان والإتقان ، وملاحظة القسمة في العطاء والحرمان . كان غداً آخذه بلا وسطة في الجنان عند اللقاء والعيان . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَالِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ ؛ كانوا ولكنهم اليوم بانوا ولكنهم بعد ما أعدناهم حصلوا واستبانوا . . . فهم كما في الخبر : " أعبد الله كأنك تراه . . . " . قوله جلّ ذكره : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

المعنى إمَّا : كانوا قليلاً وكانوا لا ينامون إلا بالليل كقوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ : 13] أو : كان نومُهم بالليل قليلاً ، أو : كانوا لا ينامون بالليل قليلاً .

﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرونُ ﴾ : أخبر عنهم أنهم – مع تهجدهم ودُعائهم – يُنْزِلون انفسَهم في الأخار منزلةَ العاصين ، فيستغفرون استصغاراً لِقدْرِهم ، واستحقاراً لِفِعْلهم .

والليلُ . . . للأحباب في أُنس المناجاة ، وللعصاة في طلب النجاة . والسهرُ لهم في ليلايهم دائماً ؛ إمّا لفَرْطِ أَسَفٍ أولشدَّةِ لَهَفٍ ، وإمَّا لاشتياقٍ أو لفراقٍ – كما قالوا :

كم ليلةٍ فيك لا صباحَ لها . . . افنْيَتُهَا قابضاً على كبدي

قد غُصَّت العينُ بالدموعِ وقد . . . وَضَعْتُ خدي على بنان يدي

وإمّ لكمال أُنسٍ وطيب روح – كما قالوا :

سقى اللَّهُ عيشاً قصيراً مضى . . . زمانَ الهوى في الصبا والمجون

لياليه تحكي انسدادَ لحاظٍ . . . لَعْيِنِيَ عند ارتداد الجفون

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالمَحْرُومِ ﴾ السائلُ هوالمُتكفّف ، والمحرومُ هو المتعفّف – ويقال هو الذي يحرم نفسه بترك السؤال . . هؤلاء هم الذين يُعْطُون بشرط العلم ، فأمَّا أصحابُ المروءة : فغير المستحق لمالهم أَوْلَى من المستحق . وأما أهل الفترة فليس لهم مالٌ حتى تتوجه عليهم مطالبة ؛ لأنهم أهل الإيثار – في الوقت – لكلِّ ما يُفْتَحُ عليهم به .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَفِى الأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ وَفِى السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ .

كما أَنَّ الأرضَ تحمل كلَّ شيء فكذلك العارف يتحمَّل كلَّ أحد .

ومَنْ استثقل أحداً أو تبرَّمَ برؤية أحدٍ فلِغَيْبته عن الحقيقة ، ولمطالعته الخَلْقَ بعين التفرقة – وأهلُ الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة .

ومن الآيات التي في الأرض أنها يُلْقَى عليها كلُّ قذارةٍ وقمامة – ومع ذلك تُنْبتُ كلَّ زَهْرٍ ونَوْرٍ . . . كذلك العارفين يتشرب كلَّ ما يُسْقَى من الجفاء ، ولا يترشح إلاَّ بكل خُلُقٍ عَلِيّ وشيمةٍ زكيَّة .

(326/727)

ومن الآيات التي في الأرضِ أنّ ما كان منها سبخاً يُتْرَكُ ولا يُعَمَّر لأنه لا يحتمل العمارة – كذلك الذي لا إيمانَ له بهذه الطريقة يُهْمَل ، فمقابلته بهذه الصفة كإلقاء البذر في الأرض السبخة .

﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ : أي وفي أنفسكم أيضاً آيات ، فمنها وقاحتها في همتها ، ووقاحتها في صفاتها ، ومنها دعواها العريضة فيما ترى منها وبها ، ومنها أحوالها المريضة حين تزعم أَنَّ ذَرَّةً أو (. . .) بها أو منها .

﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ : أي قسمة أرزاقكم في السماء ، فالملائكة الموكَّلون بالأرزاق ينزلون من السماء .

ويقال : السماء ها هنا المطر ، فبالمطر ينبت الحَبُّ والمرعى .

ويقال : على رب السماء أرزاقكم لأنه ضَمنَها .

ويقال : قوله : ﴿ وَفِى السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾ وها هنا وقف ثم تبتدىء : ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ أي : إنَّ البعثَ والنشرَ لَحَقٌّ .

ويقال : إنَّ نصري لمحمدٍ ولديني ، وللذي أتاكم به من الأحكام – لحقٌّ مثل ما أنَّكم تنطقون .

كما يقال : هذا حقٌّ مثل ما أنك ها هنا .

ويقال : معناه : " إنَّ اللَّهَ رازقُكم " – هذا القولُ حقٌّ مثلما أنكم إذا سُئِلْتُم : مَنْ ربُّكم ؟ ومَنْ خالقكم ؟ قلتم : الله . . . فكما أنكم تقولون : إن الله خالق – وهذا حقٌّ . . . كذلك القولُ أنَّ اللَّهَ رازقٌ – هو أيضاً حقٌّ .

ويقال : كما أنَّ نُطْقَكَ لا يتكلم به غيرُك فرزقُكَ لا يأكُله غيرك .

ويقال : الفائدة والإشارة في هذه الآية أنه حال بزرفك على السماء ، ولا سبيلَ لك إلى العروج إلى السماء لتشتغلَ بما كلفك ولا تعنَّى في طلب ما لا تصل إليه .

(327/727)

ويقال : في السماء رزقكم ، وإلى السماء يُرْفَعُ عَمَلُكُم . . . فإنْ أرَدْتَ أنْ ينزلَ عليكَ رزقُك فأَصْعِدْ إلى السماءِ عمَلَكَ – ولهذا قال : الصلاةُ قَرْعُ باب الرزق ، وقال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْئَلُكَ رِزْقاً ﴾ [طه : 132] .

قوله جلّ ذكره : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ .

قيل في التفاسير : لم يكن قد أتاه خبرُهم قبل نزول هذه الآية .

وقيل : كان عددُهم اثني عشر مَلَكاً . وقيل : جبريل وكان معه سبعة . وقيل : كانوا ثلاثة .

وقوله : ﴿ الْمُكْرَمِينَ ﴾ قيل لقيامه – عليه السلام – بخدمتهم . وقيل : اكرم الضيفَ بطلاقة وجهه ، والاستبشار بوفودهم .

وقيل : لم يتكلَّف إبراهيمُ لهم ، وما اعتذر إليهم – وهذا هو إكرام الضيف – حتى لا تكون من المضيف عليه مِنَّةٌ فيحتاج الضيف إلى تحملها .

ويقال : سمّاهم مكرمين لأن غير المدعوّ عند الكرام كريم .

ويقال : ضيفُ الكرام لا يكون إلا كريماً .

ويقال : المكرمين عند الله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ .

أي سلَّمنا عليك ﴿ سَلاَماً ﴾ فقال إبراهيم : لكم مني ﴿ سَلاَمَاً ﴾ .

وقولُهم : ﴿ سَلاماً ﴾ أي لك منّا سلام ، لأنَّ السلامَ : الأمانُ .

﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ : أي أنتم قوم منكرون ؛ لأنه لم يكن يعرف مِثْلَهم في الأضياف ويقال : غُرَبَاء .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

أي عَدَلَ إليهم من حيث لا يعلمون وكذلك يكون الروغان .

﴿ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ فشواه ، وقرّبه منهم وقال : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ؟ ﴾ وحين امتنعوا عن الأكل :

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ .

(328/727)

تَوَهَّمَ أنهم لصوص فقالوا له : ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ .

﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ : أي بَشَّروه بالوَلد ، وببقاء هذا الوَلَدِ إلى أن يصير عليماً ؛ والعليم مبالغة من العلم ، وإنما يصير عليماً بعد كبره .

﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ .

﴿ فِى صَرَّةٍ ﴾ أي في صيحة شديدة ، ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ أي فضربت وجهها

بيدها كفعل النساء ﴿ وَقَالَتْ عُجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ : أي أنا عجوز عقيم . وقيل : إنها يومَها كانت ابنةَ ثمانٍ وتسعين سنة ، وكان إبراهيمُ ابنَ تسع وتسعين سنة .

﴿ قَالُواْ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ .

أي قلنا لكِ كما قال ربُّكِ لنا ، وأنْ نُخْبِرَكِ أنَّ اللَّهَ هو المُحْكِمُ لأفعالِه ، ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ؟ ﴾ .

سألهم : ما شأنُكم ؟ وما أمرُكم ؟ وبماذا أُرْسِلْتُم ؟

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

هم قوم لوط ، ولم نجد فيها غيرَ لوطٍ ومَنْ آمن به .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ .

تركنا فيها علامةً يعتبر بها الخائفون – دون القاسية قلوبهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ .

أي بحجة ظاهرة باهرة .

. . . إلى قوله : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : 47] : أي جعنا بينهما وبين الأرض سعة ، " وإنا لقادرون " : على أن نزيد في تلك السعة .

﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ المَاهِدُونَ ﴾ .

أي جعلناها مهاداً لكم ثم أثنى على نَفْسه قائلاً : ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ .

دلَّ بهذا كلِّه على كمال قدرته ، وعلى تمام فضله ورحمته .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَينِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

أي صنفين في الحيوان كالذَّكَرِ والأنثى ، وفي غير الحيوانِ ؛ كالحركة والسكون ، والسواد والبياض ، وأصناف المتضادات .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

أي فارجِعوا إلى الله – والإنسان بإحدى حالتين ؛ إمَّا حالة رغبةٍ في شيءٍ ، أو حالة رهبة من شيء ، أو حال رجاء ، أو حال خوف ، أو حال جَلْبِ نَفْعٍ أو رفع ضُرٍّ . . . وفي الحالتين ينبغي أَنْ يكونَ فِرارُه إلى الله ؛ فإنَّ النافعَ والضارَّ هو اللَّهُ .

ويقال : مَنْ صَحَّ فِرارُه إلى اللّهِ صَحَّ قَرارُه مع الله .

ويقال : يجب على العبد أَنْ يفرَّ من الجهل إلى العلم ، ومن الهوى إلى التُّقَى ، ومن الشّكّ إلى اليقين ، ومن الشيطانِ إلى الله .

ويقال : يجب على العبد أَنْ يفرَّ من فعله – الذي هو بلاؤه إلى فعله الذي هو كفايته ، ومن وصفه الذي هو سخطه إلى وصفه الذي هو رحمته ، ومن نفسه – حيث قال : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : 28] إلى نفسه حيث قال : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

أُخَوِّفُكم أليمَ عقوبته إنْ أَشركْتُم به – فإنَّه لا يَغفِرُ أَنْ يُشْرَكَ به .

ثم بيَّنَ أنه على ذلك جرَت عادتُهم في تكذيب الرُّسُل ، كأنهم قد توصوا فيما بينهم بذلك .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ .

فأَعْرِضْ عنهم فليست تلحقك – بسوء صنيعهم – ملامةٌ .

(330/727)

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ذَكِّر العاصين عقوبتي ليرجعوا عن خالفةِ أمري ، وذَكِّر المطيعين جزيلَ ثوابي ليزدادوا طاعةً وعبادةً ، وذَكِّرْ العارفين ما صرَفْتُ عنهم من بلائي ، وذكِّرْ الأغنياءَ ما أَتَحْتُ لهم من إحساني وعطائي ، وذَكِّر الفقراء ما أوجبْتُ لهم من صَرْفِ الدنيا عنهم وأَعْدَدْتُ له من لقائي .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ ﴾ .

الذين اصطفيتُهم في آزالي ، وخصَصْتُهم – اليومَ – بحسْنِ إقبالي ، ووعدْتُهم جزيلَ أفضالي – ما خَلَقْتُهم إلاَّ ليعبدونِ .

والذين سخطت عليهم في آزالي ، وربطتهم – اليوم – بالخذلان فيما كلَّفتهم من أعمالي ، وخَلَقْتُ النارَ لهم – بحُكْم إليهتي ووجوب حُكْمي في سلطاني – ما خلقتهم إلا لعذابي وأنكالي ، وما أَعْدَدْتُ لهم من سلاسلي وأغلالي .

ما أريد منهم أَنْ يُطْعِموا أو يرزقوا أحداً من عبادي فإنَّ الرزَّاقَ أنا .

وما أريد أن يطعمونِ فإنني أنا اللَّهُ ﴿ ذُو الْقُوَّةِ ﴾ : المتينُ القوَى .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ .

لهم نصيبٌ من العذابِ مثلَ نصيبِ مَنْ سَلَفَ من أصحابهم من الكفار فلِمَ استعجالُ العذاب – والعذابُ لن يفوتَهم ؟ .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ .

وهو يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 459. 470 ﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الذّاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِياتِ ذَرْواً (1) فَالْحامِلاتِ وِقْراً (2) فَالْجارِياتِ يُسْراً (3) فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً (4)

إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ (6)

لإعراب :

(الواو) واو القسم (الذاريات) مجرور بالواو متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (ذروا) مفعول مطلق منصوب عامله الذاريات (الفاء) عاطفة في المواضع الثلاثة (وقرا) مفعول به لاسم الفاعل الحاملات (يسرا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته " 1 " ، (أمرا) مفعول به لاسم الفاعل المقسّمات (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (ما) اسم موصول في محلّ نصب اسم انّ " 2 " ، والعائد محذوف ، و(الواو) في (توعدون) نائب الفاعل (اللام) لام القسم عوض من المزحلقة تفيد التوكيد ، في الموضعين .

جملة : " (أقسم) بالذاريات . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " توعدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(1) أو هو مصدر في موضع الحال أي ميسرة .

(2) ويحسن حينئذ الفصل في الرسم بين (انّ) و(ما) . . . ويجوز أن يكون (ما) حرفا مصدريا فالمصدر المؤوّل اسم انّ .

(332/727)

وجملة : " إنّ ما توعدون . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة : " إنّ الدين لواقع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

الصرف :

(الذاريات) ، جمع الذارية ، مؤنّث الذاري ، اسم فاعل من الثلاثيّ ذرا يذرو وزنه فاعل ، وفيه إعلال بالقلب أصله الذارو ، قلبت الواو ياء لأنّ ما قبلها مكسور . . ويجوز أن يكون الفعل ذرى يذري باب ضرب فلا إعلال .

(ذروا) ، مصدر سماعيّ لفعل ذرا يذرو ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(الحاملات) ، جمع الحاملة مؤنّث الحامل ، اسم فاعل من الثلاثيّ حمل وزنه فاعل .

(وقرا) ، اسم بمعنى الحمل أي المحمول وزنه فعل بكسر فسكون .

(المقسّمات) ، جمع المقسّمة ، مؤنّث المقسّم ، اسم فاعل من الرباعيّ قسّم ، وزنه مفعّل بضم الميم وكسر العين .

(الدين) ، اسم بمعنى الجزاء ، وزنه فعل بكسر فسكون . . وانظر أيضا الآية (4) من سورة الفاتحة .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 7 إلى 9]

وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9)

الإعراب :

(والسماء) مثل والذاريات (ذات) نعت للسماء مجرور (اللام) لام القسم (في قول) متعلّق بخبر إنّ (عنه) متعلّق بـ (يؤفك) ، (من) اسم موصول في محلّ رفع نائب الفاعل ، ونائب الفاعل لفعل (أفك) ضمير مستتر هو العائد .

جملة : " (أقسم) بالسماء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّكم لفي قول . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة : " يؤفك عنه من أفك " في محلّ جرّ نعت ثان لقول " 1 " .

وجملة : " أفك " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

الصرف :

(7) الحبك : جمع حبيكة وهي الطريقة اسم ذات أو اسم معنى أي الطريقة المحسوسة أو المعقولة .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 10 إلى 14]

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ (11) يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14)

الإعراب :

(الذين) موصول في محلّ رفع نعت لـ (الخرّاصون) ، (في غمرة) متعلّق بخبر المبتدأ (هم) (ساهون) خبر ثان مرفوع (أيّان) اسم استفهام في محلّ نصب ظرف زمان متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (يوم) بحذف مضاف أي متى مجيء يوم الدين . .

وجملة : " قتل الخرّاصون " لا محلّ لها استئنافيّة دعائيّة .

وجملة : " هم في غمرة " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يسألون . . . " في محلّ نصب حال من (الخرّاصون) "

.

---

(1) هذا إذا كان الضمير في (عنه) يعود على القول . . . وقد يعود على النبيّ عليه السلام

وحينئذ فالجملة استئنافيّة .

(2) أو هي خبر للموصول (الذين) إذا أعرب مبتدأ . . وجملة المبتدأ والخبر استئناف بيانيّ لا محلّ لها .

(334/727)

وجملة : " أيّان يوم الدين " في محلّ نصب مفعول به لفعل السؤال المعلّق بالاستفهام ، والجملة مقيّدة بالجارّ .

13 - (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بفعل محذوف تقديره يأتي - أو يجيء - (على النار) متعلّق بـ (يفتنون) بتضمينه معنى يعرضون ، و(الواو) في (يفتنون) نائب الفاعل . .

وجملة : " (يجيء) يوم . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة : " هم على النار يفتنون " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يفتنون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) ، 14 - (الذي) موصول في محلّ رفع خبر المبتدأ (هذا) (به) متعلّق بـ (تستعجلون) .

وجملة : " ذوقوا . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر .

وجملة : " هذا الذي . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : "كنتم به تستعجلون" لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " تستعجلون" في محلّ نصب خبر كنتم .

الصرف :

(الخرّاصون) ، جمع الخرّاص ، مبالغة اسم الفاعل من الثلاثيّ خرص باب نصر وباب ضرب بمعنى كذب وزنه فعّال بفتح الفاء .

(ساهون) ، جمع ساه ، اسم فاعل من الثلاثيّ سها يسهو ، وساه فيه إعلال بالحذف لمناسبة التقاء الساكنين ، وزنه فاع ، ووزن ساهون فاعون .

البلاغة

الاستعارة المكنية : في قوله تعالى " ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ " .

حيث شبه العذاب بطعام يؤكل ، ثم حذف المشبّه به ، وأستعير له شيء من لوازمه وهو الذوق .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 15 إلى 19]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19)

الإعراب :

(في جنّات) متعلّق بخبر إنّ (آخذين) حال من ضمير الاستقرار الذي هو خبر إنّ (ما) اسم موصول مفعول به لاسم الفاعل (آخذين) ، والعائد محذوف أي : آتاهم إيّاه ربّهم (قبل) ظرف منصوب متعلّق بـ (محسنين) . .

جملة : " إنّ المتّقين في جنّات " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آتاهم ربّهم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " إنّهم كانوا " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " كانوا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

17 - 18 - (قليلا) مفعول فيه منصوب نائب عن الظرف فهو صفته متعلّق بـ (يهجعون) " 1 " ، (من الليل) متعلّق بنعت لـ (قليلا) ، (ما) زائدة لتأكيد القلّة " 2 " . . (بالأسحار) متعلّق بـ (يستغفرون) . .

وجملة : " كانوا (الثانية) " لا محلّ لها استئناف بياني " 3 " .

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر أي هجوعا قليلا . . . ويجوز أن يكون خبرا لـ

(كان) إذا أعرب (ما) حرفا مصدريا والمصدر المؤوّل حينئذ امّا فاعل لـ (قليلا) ، وامّا بدل من اسم كان .

(2) أو حرف مصدريّ . . .

(3) أو بدل من جملة كانوا . . . محسنين في محلّ رفع .

(336/727)

وجملة : " يهجعون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا (الثاني) .

وجملة : " هم يستغفرون " لا محلّ لها معطوفة على جملة كانوا (الثانية) .

وجملة : " يستغفرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

19 - (الواو) عاطفة (في أموالهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (حقّ) (للسائل) متعلّق بنعت لـ (حقّ) - أو بـ (حقّ) - وجملة : " في أموالهم حقّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كانوا (الثانية) .

الصرف :

(337/727)

(19) السائل : اسم فاعل من الثلاثيّ سأل ، وزنه فاعل .

(المحروم) ، اسم مفعول من الثلاثيّ حرم ، وزنه مفعول .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 20 إلى 23]

وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (21) وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (في الأرض) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (آيات) ، (للموقنين) متعلّق بنعت لـ (آيات) . .

جملة : " في الأرض آيات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

21 - (الواو) عاطفة (في أنفسكم) متعلّق بما تعلّق به (في الأرض) " 1 " ، (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) عاطفة (لا) نافية .

---

(1) أو متعلّق بخبر لمبتدأ محذوف بدلالة آيات المذكور .

وجملة : " لا تبصرون . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

أغفلتم فلا تبصرون .

22 – (الواو) عاطفة في الموضعين (في السّماء) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (رزقكم) ، (ما) موصول في محلّ رفع معطوف على رزقكم ، و(الواو) في (توعدون) نائب الفاعل ، والعائد محذوف .

وجملة : " في السماء رزقكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة في الأرض آيات .

وجملة : " توعدون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

23 – (الفاء) عاطفة (الواو) واو القسم ، (ربّ) مجرور بالواو متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (اللام) لام القسم تفيد التوكيد وهي عوض من المزحلقة (مثل) حال من الضمير في حقّ ، منصوبة " 1 " ، (ما) نكرة موصوفة في محلّ جرّ مضاف إليه " 2 " . والمصدر المؤوّل (أنّكم تنطقون . . .) في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو أي هو نطقكم .

وجملة : " (أقسم) بربّ السماء " لا محلّ لها معطوفة على جملة في السماء رزقكم " 3 " .

وجملة : " انّه لحقّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة : " (هو) أنّكم تنطقون " في محلّ جرّ نعت لـ (ما) .

وجملة : " تنطقون " في محلّ رفع خبر أنّ .

---

(1) وهو عند بعضهم مبنيّ على الفتح في محلّ رفع نعت لحقّ لأنه مضاف إلى مبنيّ .

(2) أو هي زائدة فيحسن رسمها موصولة مع مثل أي مثلما . . . والمصدر المؤوّل هو المضاف اليه .

(3) يجوز أن تكون استئنافيّة .

(339/727)

الفوائد :

- اللّه متكفل بالرزق . .

عن الأصمعي أنّه قال : أقبلت من جامع البصرة ، فطلع أعرابي على قعود (ولد الجمل) فقال من الرجل ؟ فقلت : من بني أصمع ، قال : ومن أين أقبلت ؟

قلت : من موضع يتلى فيه كلام اللّه عز وجل ، فقال : اتل عليّ ، فتلوت : والذاريات ، فلما بلغت (وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ) قال : حسبك ، فقام إلى ناقته ، فنحرها ووزّعها على من أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولّي فلما حججت مع الرشيد ، وطفقت أطوف ، فإذا أنا بمن يهتف بى بصوت رقيق ، فالتفت ، فإذا أنا بالأعرابي ، قد نحل واصفرّ فسلم عليّ ، واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية صاح وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا

، ثم قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت : (فورب السماء والأرض إنه لحق) ، فصاح وقال : يا سبحان اللّه من ذا الذي أغضب الجليل حتّى حلف ، لم يصدقوه حتّى حلف ، قالها ثلاثا ، وخرجت معها نفسه .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 24 إلى 30]

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَلا تَأْكُلُونَ (27) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (28)

(340/727)

فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها وَقالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30)

الإعراب :

(هل) حرف استفهام (المكرمين) نعت لضيف " 1 " ، (إذ) ظرف للزمن الماضي في محلّ نصب متعلّق بـ (حديث) " 2 " ، (عليه) متعلّق بـ (دخلوا) ، (سلاما) مفعول مطلق لفعل محذوف (سلام) مبتدأ مرفوع خبره محذوف أي : عليكم سلام (قوم) خبر لمبتدأ محذوف

تقديره أنتم أو هؤلاء . .

جملة : " آتاك حديث . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " دخلوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة دخلوا .

وجملة : " (نسلّم) سلاما . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة بيانية .

وجملة : " (عليكم) سلام " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " (أنتم) قوم " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

26 – (الفاء) عاطفة في الموضعين (إلى أهله) متعلّق بـ (راغ) ، (بعجل) متعلّق بحال من فاعل جاء . .

وجملة : " راغ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال .

وجملة : " جاء . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة راغ .

27 – (الفاء) عاطفة (إليهم) متعلّق بـ (قرّبه) ، (ألا) أداة عرض . .

وجملة : " قرّبه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جاء .

وجملة : " قال . . . " في محلّ نصب حال بتقدير (قد) وجملة : " ألا تأكلون . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) جاء بلفظ المفرد وهو على معنى الجمع لأنه في الأصل مصدر يستوي فيه الإفراد والتثنية والجمع .

(2) أو متعلّق بالمكرمين إذا أريد أن إبراهيم أكرمهم بخدمته . . . أو هو اسم ظرفيّ مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر . [. . . . .]

(341/727)

---

28 – (الفاء) عاطفة (منهم) متعلّق بحال من خيفة (خيفة) مفعول به منصوب (لا) ناهية جازمة (الواو) حاليّة (بغلام) متعلّق بـ (بشّروه) . .

وجملة : " أوجس . . " لا محلّ لها معطوفة على مقدّر أي فلم يتقدّموا فأوجس .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة : " لا تخف . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " بشّروه . . . " في محلّ نصب حال بتقدير قد " 1 " .

29 – (الفاء) عاطفة في الموضعين (في صرّة) حال من امرأته (عجوز) خبر لمبتدأ محذوف تقديره أنا .

وجملة : " أقبلت امرأته . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا .

وجملة : " صكّت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أقبلت .

وجملة : " قالت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صكّت – أو أقبلت – وجملة : " (أنا) عجوز . . . " في محلّ نصب مقول القول .

30 – (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله قال بعده " 2 " ، (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ " 3 " وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قال ربّك . . . " في محلّ نصب مقول القول . . ومفعول قال محذوف هو متعلّق كذلك .

وجملة : " إنّه هو الحكيم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة للتعليل .

وجملة : " هو الحكيم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(صرّة) ، اسم بمعنى الصيحة أو الضجّة أو الجماعة . . مأخوذ من (صرّ) الثلاثي ، وزنه فعلة بفتح فسكون .

---

(1) أو من غير تقدير قد .

(2) أي قال ربّك قولا مثل ذلك القول الذي أخبرناك به ، بمعنى قضى وحكم .

(3) يجوز أن يكون مستعارا لمحلّ النصب توكيدا للضمير المتّصل اسم إنّ .

البلاغة

1 – الاستفهام التقريري : في قوله تعالى " هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ " استفهام تقريري ، تفخيما لشأن الحديث وتنبيها على أنّه ليس مما علمه رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) بغير طريق الوحي . فهو كما تبدأ المرء إذا أردت أن تحدّثه بعجيب فتقرره هل سمع ذلك أم لا ، فكأنك تقضي أن يقول لا ، ويطلب منك الحديث .

2 – الحذف : في قوله تعالى " قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ " .

قيل : أي عليكم سلام ، عدل به إلى الرفع بالابتداء ، لقصد الثبات ، حتى يكون تحيته أحسن من تحيتهم ، أخذا بمزيد الأدب والإكرام . وقيل : سلام خبر مبتدأ محذوف ، أي أمري " سلام " ، و " قوم " : خبر مبتدأ محذوف ، والأكثر على أن التقدير أنتم قوم منكرون وأنّه عليه السلام قاله لهم للتعرف ، كقولك لمن لقيته :

أنا لا أعرفك ، تريد عرّف لي بنفسك وصفها .

3 – المجاز المرسل : في قوله تعالى " قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ " .

حيث سمى الغلام عليما باعتبار ما يؤول إليه أمره إذا كبر .

الفوائد :

- الجملة الواقعة مفعولا به . .

ورد في هذه الآية قوله تعالى : فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَلا تَأْكُلُونَ فجملة : (أَلا تَأْكُلُونَ) في محلّ نصب مقول القول .

وسنوضح فيما يلي ما يتعلق بالجملة الواقعة مفعولا :

تقع هذه الجملة في ثلاثة أبواب :

1 - باب الحكاية أو مرادفه ، كقوله تعالى : قالَ : إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ .

---

2 - ما هو محكيّ مقدّر : قوله تعالى فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ (وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ وَكانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا) فهذه . . الجمل في محلّ نصب اتفاقا ، ثم قال البصريون : النصب بقول مقدّر ، وقال الكوفيون : بالفعل المذكور . ويشهد للبصريين التصريح بالقول : في (وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) و(نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي) .

3 - باب التعليق : وهو تعليق الفعل عن طلب المفعول ، لفظا لا محلّا ، مثل قوله تعالى : فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً والتعليق لا يختص بباب (ظن) بل يختص بكلّ فعل قلبي ، وكقوله

تعالى : أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ، وأحيانا تكون الجملة سدت مسد المفعولين : كقوله تعالى : وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى

[سورة الذاريات (51) : آية 31]

قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ما) اسم استفهام مبتدأ في محلّ رفع خبره (خطبكم) (أيها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (المرسلون) بدل من أيّ - أو عطف بيان عليه - تبعه في الرفع لفظا . .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما خطبكم . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن أرسلتم لأمر ما فما خطبكم والجملة المقدّرة مقول القول ، وجملة : " أيها المرسلون " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول

[سورة الذاريات (51) : الآيات 32 إلى 34]

قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34)

الإعراب :

الضمير (نا) نائب الفاعل لفعل أرسلنا (إلى قوم) متعلّق بـ (أرسلنا) . .

جملة: " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " إنّا أرسلنا . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة: " أرسلنا . . . " في محلّ رفع

خبر إنّ 33 - (اللام) للتعليل (نرسل) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام

(عليهم) متعلّق بـ (نرسل) ، (من طين) متعلّق بنعت لـ (حجارة) .

والمصدر المؤوّل (أن نرسل . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أرسلنا) وجملة: " نرسل

. . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر 34 - (مسوّمة) نعت ثان لحجارة "

1 " ، (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (مسوّمة) ، وكذلك (للمسرفين)

[سورة الذاريات (51) : الآيات 35 إلى 37]

فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36)

وَتَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ (37)

الإعراب:

(الفاء) عاطفة في الموضعين (من) موصول في محلّ نصب مفعول به (فيها) متعلّق بخبر كان

(من المؤمنين) متعلّق بحال من اسم كان العائد (ما) نافية (غير) مفعول به منصوب (من المسلمين) متعلّق بنعت لـ (غير) " 2 " ، (الواو) عاطفة (فيها) الثاني متعلّق بـ (تركنا) ، (للذين) متعلّق بنعت لـ (آية) . .

جملة : " أخرجنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي فباشروا ما أمروا به ، فأخرجنا من كان فيها . .

وجملة : " كان فيها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول وجملة : " ما وجدنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أخرجنا .

وجملة : " تركنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما وجدنا . .

وجملة : " يخافون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 38 إلى 40]

---

(1) يجوز أن يكون حالا لحجارة لأنه موصوفة بالجارّ .

(2) في الكلام حذف مضاف أي غير أهل بيت من المسلمين

وَفِي مُوسى إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (38) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39) فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40)

الإعراب :

(في موسى) متعلّق بفعل محذوف دلّ عليه المذكور في الآية السابقة أي تركنا آية " 1 " ، (إذ) ظرف في محلّ نصب متعلّق بالفعل المقدّر تركنا " 2 " ، (إلى فرعون) متعلّق بـ (أرسلناه) ، (بسلطان) متعلّق بحال من ضمير الغائب في (أرسلناه) .

جملة : " (تركنا) في موسى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أرسلناه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

39 - (الفاء) عاطفة (بركنه) متعلّق بحال من فاعل تولّى " 3 " ، (ساحر) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (أو) عاطف وجملة : " تولّى . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أرسلناه وجملة : " قال . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة تولّى وجملة : " (هو) ساحر . . . " في محلّ نصب مقول القول 40 - (الفاء) عاطفة في الموضعين و(الواو) كذلك " 4 " ، (جنوده) معطوفة على الضمير في (أخذناه) ، (في اليمّ) متعلّق بـ (نبذناهم) ، (الواو) حالية . . .

وجملة : " أخذناه . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة تولّى وجملة : " نبذناهم . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أخذناه وجملة : " هو مليم . . . " في محلّ نصب حال من

ضمير المفعول في (أخذناه) أو في (نبذناهم)

---

(1) وذلك بجعل الواو للاستئناف . . . ويجوز أن يكون معطوفا على (فيها) في الآية السابقة فيتعلّق الجارّ بـ (تركنا) المذكور

(2) أو متعلّق بنعت لآية أي: كائنة في وقت إرسالنا . . . أو متعلّق بآية

(3) أي أعرض مستعينا بجنوده، لأن الجنود للملك كالركن له

(4) يجوز أن تكون واو المعيّة وجنوده مفعول معه.

(346/727)

[سورة الذاريات (51) : الآيات 41 إلى 42]

وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (42)

الإعراب:

(وفي عاد إذ أرسلنا) مثل وفي موسى إذ أرسلناه مفردات وجملا " 1 " ، (عليهم) متعلّق بـ (أرسلنا) ، (ما) نافية (شيء) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (عليه) متعلّق بـ (أتت)

، (إلّا) للحصر (كالرميم) في موضع المفعول الثاني .

وجملة : " ما تذر . . . " في محلّ نصب حال من الريح وجملة : " أتت عليه " في محلّ نصب - على المحلّ - نعت لشيء

---

(1) في الآية (38) من هذه السورة

وجملة : " جعلته . . . " في محلّ نصب حال من فاعل تذر " 1 "

البلاغة

الاستعارة التبعية : في قوله تعالى " الرِّيحَ الْعَقِيمَ " .

سميت عقيما لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم ، فشبه إهلاكهم وقطع دابرهم بعقم النساء وعدم حملهن ، لما فيه من إذهاب النسل ، ثم أطلق المشبه به على المشبه ، واشتق منه العقيم .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 43 إلى 45]

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (45)

الإعراب :

" وفي ثمود إذ قيل " مثل وفي موسى إذ أرسلناه مفردات وجملا " 2 " ، (لهم) متعلّق بـ (قيل) ، (حتّى حين) متعلّق بـ (تمتّعوا) . . .

وجملة : " تمتّعوا . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 3 " 44 - (الفاء) عاطفة في الموضعين (عتوا) ماض مبني على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين ، و(الواو) فاعل (عن أمر) متعلّق بـ (عتوا) بتضمينه معنى أعرضوا (الواو) حاليّة .

---

(1) أو في محلّ نصب مفعول به ثان لـ (تذر) بمعنى تترك المتعدى لاثنين

(2) في الآية (38) من هذه السورة .

(3) لأنها في الأصل جملة مقول القول

وجملة : " عتوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة قيل

وجملة : " أخذتهم الصاعقة . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة عتوا وجملة : " هم ينظرون " في محلّ نصب حال وجملة : " ينظرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) 45 - (الفاء) عاطفة (ما) نافية (قيام) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (ما) مثل الأولى . . .

وجملة: " ما استطاعوا . . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أخذتهم وجملة: "كانوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أخذتهم

[سورة الذاريات (51) : آية 46]

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (46)

الإعراب:

(الواو) استئنافية (قوم) مفعول به لفعل محذوف تقديره أهلكنا " 1 " ، (قبل) اسم ظرفى مبنىّ على الضمّ في محل جرّ متعلّق بالفعل المقدّر جملة: " (أهلكنا) قوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: " إنّهم كانوا . . . " لا محلّ لها تعليليّة وجملة: "كانوا قوما . . . " في محلّ رفع خبر إنّ

[سورة الذاريات (51) : الآيات 47 إلى 51]

وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) وَالْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ (48) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (51)

---

(1) أو اذكر. [. . . . .]

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (السماء) مفعول به لفعل محذوف يفسّره ما بعده (بأيد) حال من فاعل بنيناها أو من مفعوله " 1 " ، مجرور بالكسرة المقدرة على الياء المحذوفة للتنوين (الواو) حاليّة (اللام) المزحلقة تفيد التوكيد . .

جملة : " (بنينا) السماء . . . " لا محلّ لها استئنافية وجملة : " بنيناها . . . " لا محلّ لها تفسيريّة وجملة : " إنّا لموسعون . . . " في محلّ نصب حال . . .

48 - (الواو) عاطفة (الأرض) مثل السماء (الفاء) عاطفة ، والمخصوص بالمدح محذوف أي نحن . . .

وجملة : " (فرشنا) الأرض " . . .) لا محل لها معطوفة على جملة (بنينا) الاستئنافيّة وجملة : " فرشناها . . . " لا محلّ لها تفسيريّة وجملة : " نعم الماهدون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (فرشنا) المقدّرة 49 - (الواو) عاطفة (من كلّ) متعلّق بـ (خلقنا) " 2 " ، (تذكّرون) مضارع حذف منه إحدى التاءين . . .

وجملة : " خلقنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (فرشنا) المقدّرة وجملة : " لعلّكم تذكّرون " لا محلّ لها استئناف بياني وجملة : " تذكّرون " في محلّ رفع خبر لعلّ

(1) أو متعلّق بـ (بنيناها) والباء سببيّة

(2) أو متعلّق بحال من زوجين - نعت تقدّم على المنعوت -

(350/727)

---

50 - (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (إلى اللّه) متعلّق بـ (فرّوا) بحذف مضاف أي إلى ثواب اللّه (لكم) متعلّق بـ (نذير) (منه) متعلّق بحال من نذير.

وجملة: "فرّوا . . . "لا محلّ لها جواب شرط . . . مقدّر أي: إذا علمتم صفات اللّه المذكورة ففرّوا إليه وجملة: "انّي لكم منه نذير . . . "لا محلّ لها استئناف بياني 51 - (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (مع) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (إنّي لكم . . .) مثل الأولى وجملة: "لا تجعلوا . . . "معطوفة على جملة فرّوا وجملة: "إنّي لكم . . . "لا محلّ لها استئنافيّة بيانيّة

الصرف:

(351/727)

---

(48) الماهدون : جمع الماهد ، اسم فاعل من الثلاثي مهد ، وزنه فاعل

الفوائد :

الاشتغال . .

ورد في هذه الآية قوله تعالى : وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ فالسماء : منصوب على الاشتغال

وسنبين فيما يلي ما يتعلق بهذا البحث :

الاشتغال هو أن يتقدم ما هو مفعول في المعنى ، على عامل قد نصب ضمير هذا المفعول ، مثل : (دارك رأيتها) ، أو نصب ملابس ضميره ، مثل (دارك طرقت بابها) (أخاك مررت به) . ولو لا اشتغال العامل بنصب الضمير أو ملابسه لنصب الاسم المتقدم نفسه ، فيقدّرون لهذا الاسم المنصوب ناصبا من لفظ المذكور ، أو من معناه إن كان لازما ، فناصب المثال الثاني (طرقت) محذوفة ، وناصب المثال الأخير من معنى المذكور لا من لفظه ، لأنه فعل لازم ، وتقديره (جاوزت أخاك مررت به) .

ويجوز في الأمثلة المتقدمة رفع الاسم المتقدم على الابتداء ، وتكون الجملة بعده خبرا له ، فتقول : (دارك رأيتها) (دارك طرقت بابها) (أخوك مررت به) .

أ- يجب نصب الاسم المشتغل عنه إذا وقع بعد ما يختص بالأفعال ، كأدوات الشرط والتحضيض ، وأدوات الاستفهام عدا (الهمزة) ، فتقدر بين هذا الاسم وما قبله فعلا محذوفا وجوبا ، لتبقى الأداة داخلة على ما تختص به ، مثل : (إن محمدا لقيته فأكرمه)

(هلا فقيرا أطعمته) (متى أخاك لقيته) (هل الكتاب قرأته) ويكون العامل المذكور بعده تفسيرا للمحذوف.

ب - ويرجح نصبه في ثلاثة مواضع:

1 - إذا أتى قبل فعل دال على طلب، مثل (الفقير أكرمه).

2 - بعد همزة الاستفهام لأن الفعل يليها غالبا: مثل (أجارك تؤذيه؟).

3 - إذا تصدر جواب مستفهم عنه منصوب. كأن يسألك سائل ما تأكل؟

فتقول: (رغيفا آكله).

[سورة الذاريات (51): الآيات 52 إلى 55]

(352/727)

كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52) أَتَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (53) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ (54) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55)

الإعراب:

(كذلك) متعلّق بخبر محذوف لمبتدأ مقدّر أي الأمر - أو الشأن - كذلك (ما) نافية

(الذين) موصول في محلّ نصب مفعول به (من قبلهم) متعلّق بمحذوف صلة الموصول (رسول) مجرور لفظا مرفوع محلّا فاعل أتى (إلّا) للحصر (ساحر) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (أو) حرف عطف . . .

جملة : " (الأمر) كذلك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " ما أتى . . . من رسول " لا محلّ لها استئناف بياني وجملة : " قالوا . . . " في محلّ نصب حال من الموصول

وجملة : " (هو) ساحر . . . " في محلّ نصب مقول القول 53 – (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (تواصوا) ماض مبني على الضمّ المقدّر على الألف المحذوف لالتقاء الساكنين (به) متعلّق بـ (تواصوا) ، (بل) للإضراب الانتقالي . .

وجملة : " تواصوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " هم قوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة 54 – 55 – (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (عنهم) متعلّق بـ (تولّ) ، (الفاء) تعليليّة (ما) نافية عاملة عمل ليس (ملوم) مجرور لفظا بالباء منصوب محلّا خبر ما . . . (الواو) استئنافيّة (الفاء) تعليليّة . .

وجملة : " تولّ . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدر أي : إن لم يستجيبوا لك فتولّ عنهم وجملة : " ما أنت بملوم " لا محلّ لها تعليليّة وجملة : " ذكّر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " وجملة : " إن الذكرى تنفع . . . " لا محلّ لها تعليليّة وجملة : " تنفع . . . " في محلّ رفع خبر إنّ

الصرف :

---

(1) يقال إنّ هذه الآية ناسخة للآية السابقة : تولّ عنهم . . . نزلت بعد فترة من نزول الآية الأولى

(353/727)

---

(53) تواصوا : فيه إعلال بالحذف ، حذفت الألف لام الكلمة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة وبقي ما قبل الواو مفتوحا دلالة على الألف المحذوفة ، وزنه تفاعوا

الفوائد :

- الجملة الواقعة خبرا . .

الجملة الواقعة خبرا من الجمل التي لها محل من الإعراب . وتكون خبرا لثلاثة أشياء :

1 - خبرا للمبتدأ ، ومحلها الرفع ، مثل : (اللّه يعلم الغيب) أو (العلم كنوزه ثمينة) .

2 - خبرا لـ (إن) أو إحدى أخواتها ، ومحلها الرفع أيضا : كقوله تعالى في الآية التي نحن بصددها : وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ أو (إن البحر ركوبه خطير) .

3 - خبرا للفعل الناقص (كان وأخواتها) أو (كاد وأخواتها) ، ومحلها النصب ، مثل قوله تعالى : فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ

[سورة الذاريات (51) : الآيات 56 إلى 58]

وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (56) ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) نافيّة (إلّا) للحصر (اللام) للتعليل (يعبدون) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام . . . و(النون) نون الوقاية قبل ياء المتكلّم المحذوفة لمناسبة الفاصلة . جملة : " ما خلقت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يعبدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر والمصدر المؤوّل (أن يعبدون . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (خلقت)

(354/727)

---

57 - (ما) نافية (منهم) متعلّق بـ (أريد) ، (رزق) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (ما أريد) مثل الأولى (يطعمون) مثل يعبدون والمصدر المؤوّل (أن يطعمون) في محلّ نصب مفعول به عاملة أريد وجملة : " ما أريد (الأولى) " لا محلّ لها استئناف بياني وجملة : " ما أريد (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة أريد (الأولى) 58 - (هو) ضمير فصل " 1

" ، (الرزاق) خبر إنّ مرفوع (ذو) خبر ثان مرفوع " 2 " ، (المتين) خبر ثالث " 3 " وجملة : " إنّ اللّه . . . الرزاق " لا محلّ لها تعليليّة

الصرف :

(58) الرزّاق : صيغة مبالغة من الثلاثي رزق ، وزنه فعّال بفتح الفاء والعين المشددة

(58) المتين : صفة مشبهة من (متن) باب كرم بمعنى صلب وقوي ، وزنه فعيل .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 59 إلى 60]

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (59) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (60)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر في الموضعين (للذين) متعلّق بخبر إنّ (مثل) نعت لـ (ذنوبا) منصوب (لا) ناهية ، و(النون) في (يستعجلون) نون الوقاية قبل ياء المتكلّم المحذوفة لمناسبة الفاصلة . .

جملة : " إنّ للذين ظلموا ذنوبا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كان للأمم المتقدّمة نصيب من العذاب فإنّ للذين ظلموا من كفّار مكّة

---

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره الرزاق . . والجملة الاسميّة خبر إنّ

(2) أو نعت للرزاق

(3) أو نعت لـ (ذو) . أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ، والجملة استئنافية مؤكّدة لمضمون ما سبق

(355/727)

نصيبا مثلهم وجملة : " ظلموا . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " لا يستعجلون " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن أخّرت عذابهم فلا يستعجلوني 60 - (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ويل) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (للذين) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ ويل (من يومهم) متعلّق بالمصدر (ويل) ، والواو في (يوعدون) نائب الفاعل . وجملة : " ويل للذين . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن جاء وقت عذابهم - أو يوم عذابهم - فويل لهم وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " يوعدون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي)

الصرف :

(ذنوب) ، اسم بمعنى الدلو ذات الذنب أو القبر ، وزنه فعول بفتح فضمّ

البلاغة

الاستعارة التمثيلية التصريحية : في قوله تعالى " فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ

" .

الذنوب : الدلو العظيمة ، وهذا تمثيل ، أصله في السقاة يتقسمون الماء ، فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب . قال :

لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب

والمعنى : فإن الذين ظلموا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلم) بالتكذيب من أهل مكة لهم نصيب من عذاب اللّه ، مثل نصيب أصحابهم ونظرائهم من القرون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 26 صـ 323 : حـ 27 صـ 14 ﴾

---

(1) نكرة فيها معنى الذمّ فصحّ الابتداء بها

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(51) سورة الذاريات

مكيّة وآياتها ستّون

[سورة الذاريات (51) : الآيات 1 إلى 14]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِياتِ ذَرْواً (1) فَالْحامِلاتِ وِقْراً (2) فَالْجارِياتِ يُسْراً (3) فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً (4)
إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ (6) وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ
مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9)
قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ (11) يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12) يَوْمَ
هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14)

اللغة :

(الذَّارِياتِ) الرياح لأنها تذرو التراب وغيره أي تطيره .

(الحاملات) السحاب لأنها تحمل المطر .

(وِقْراً) بكسر الواو أي ثقلا .

(الْحُبُكِ) التكسر الذي يبدو على وجه الماء إذا ضربته الريح ، قال البحتري يصف بركة المتوكل :

إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها

وفي الكشاف : " الحبك : الطرائق مثل حبك الماء والرمل إذا ضربته الريح وكذلك حبك الشعر آثار تثنيه وتكسره قال زهير :

مكلل بأصول النجم تنسجه ريح خريق لضاحي مائه حبك

والدرع محبوكة لأن حلقها مطرّق طرائق " يصف زهير قطاة فرّت من صقر حتى استغاثت

منه بماء قريب وقبله :

حتى استغاثت بماء لا رشاء له من الأباطح في حافاته البرك

وبعده :

كما استغاث بسيء فزّ غيطلة خاف العيون فلم ينظر به الحشك

(357/727)

يقول إن هذا الماء القريب لا رشاء له أي لا حبل يستقى به منه لعدم احتياجه إليه من الأباطح أي في الأمكنة المتسعة المستوية وفي حافّاته أي جوانبه والبرك جمع بركة وهو نوع من طير الماء يكلل ذلك الماء بأصول النجم أي النبات الذي لا ساق له وتنسجه أي تثنيه ثنيا منتظما كالنسج فهو استعارة تصريحية والخريق الباردة والشديدة السير والضاحي الفاهر والحبك الطرق في الماء إذا ضربته الريح جمع حبيكة ، السيئ بالفتح والكسر اللبن في طرف الثدي والغزّ ولد البقر الوحشية والغيطلة الشجر الملتف وأضيف الغز إليها لأنه فيها والعيون هنا رقباء الصيد وحشكت الدرة باللبن حشكا وحشوكا امتلأت به وفيه دلالة على أنها كانت ظمأى .

)

الْخَرَّاصُونَ) الكذّابون والخرص الظن والحدس ، يقال : كم

خرص أرضك ؟ بكسر الخاء ، وأصل الخرص القطع من قولهم خرص فلان كلاما

واخترصه إذا اقتطعه من غير أصل .

(غَمْرَةٍ) الغمرة من غمره الماء يغمره إذا غطّاه والمراد بها هنا الجهل .

الإعراب :

(وَالذَّارِياتِ ذَرْواً) الواو حرف قسم وجر والذاريات مجرور بواو القسم والجار والمجرور

متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم وذروا مفعول مطلق والعامل فيه اسم الفاعل والمفعول

محذوف (فَالْحامِلاتِ وِقْراً) الفاء حرف عطف والحاملات عطف على الذاريات ووقرا

مفعول به لاسم الفاعل ومن فتح الواو اعتبرها مصدرا بناء على تسمية المحمول به .

(358/727)

(فَالْجارِياتِ يُسْراً) الفاء حرف عطف والجاريات عطف على ما قبله أيضا ويسرا مصدر

في موضع الحال على رأي سيبويه أي جريا ذا يسر ويجوز أن يعرب صفة لمصدر محذوف

نابت عنه فهو مفعول مطلق (فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً) الفاء عاطفة والمقسمات معطوف أيضا

وأمرا مفعول به لاسم الفاعل (إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ) إن حرف مشبّه بالفعل وما اسم

موصول اسمها وجملة توعدون صلة والعائد محذوف أي توعدونه واللام المزحلقة وصادق خبر إن ويجوز أن تكون ما مصدرية فتكون وما في حيزها مؤولة بمصدر هو اسم إن أي إن وعدكم لصادق والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم (وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ) عطف على ما تقدم (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) الواو حرف قسم وجر وبالسماء مجرور بواو القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم وذات الحبك نعت للسماء (إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ) إن واسمها واللام المزحلقة وفي قول

(359/727)

متعلقان بمحذوف خبر إن ومختلف نعت لقول والجملة لا محل لها أيضا لأنها جواب القسم (يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ) الضمير للقرآن أو للرسول أي يصرف عنه من صرف الصرف الذي لا صرف أشدّ منه وأعظم (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ) الجملة دعائية لا محل لها وقتل فعل ماض مبني للمجهول والخرّاصون وهم مبتدأ وفي غمرة متعلقان بساهون وساهون خبرهم والجملة الاسمية لا محل لها لأنها صلة الموصول (يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ) يسألون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وأيّان اسم استفهام في محل نصب ظرف زمان وهو متعلق بمحذوف خبر مقدّم ويوم الدين مبتدأ مؤخر والجملة في محل نصب مفعول يسألون (يَوْمَ هُمْ

عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) يوم مفعول فيه ظرف زمان متعلق بفعل محذوف تقديره يقع أو يجيء وهم مبتدأ وجملة يفتنون خبره وعلى النار متعلقان بيفتنون وعلى بمعنى في والجملة في محل جر بإضافة يوم إليها ، وسيأتي مزيد من هذا الإعراب في باب الفوائد (ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) الجملة مقول قول محذوف أي ويقال لهم حين التعذيب : ذوقوا .

وذوقوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وفتنتكم مفعول به وهذا مبتدأ والذي اسم موصول خبره وجملة كنتم صلة وكان واسمها وبه متعلقان بتستعجلون وجملة تستعجلون خبر كنتم .

البلاغة :

1 - الكناية عن الموصوف : في قوله " يؤفك عنه من أفك " كناية عن موصوف وهو المكذب الجاحد للحق والضمير في عنه يعود للقرآن أو للرسول أي يصرف عنه من صرف صرفا لا أشد منه ولا أعظم وقيل يعود إلى يوم القيامة ، أقسم بالذاريات على أن وقوع أمر القيامة حق ثم أقسم

بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه فمنهم شاك ومنهم جاحد ثم قال يؤفك عن الإقرار بيوم القيامة من هو المأفوك ، وفائدة الكناية هنا أنه لما خصص هذا بأنه هو الذي صرف أفهم أن غيره لم يصرف فكأنه قال : لا يثبت الصرف في الحقيقة إلا لهذا وكل صرف دونه يعتبر بمثابة المعدوم بالنسبة إليه .

2- الاستعارة المكنية : وفي قوله " ذوقوا فتنتكم " شبّه العذاب بطعام يؤكل ثم حذف المشبّه به واستعير له شيء من لوازمه وهو الذوق وقد تقدم نظيره ، وقيل إن أصل معنى الفتنة إذابة الجوهر ليظهر غشّه ثم استعمل في التعذيب والإحراق ، وفي القاموس : " الفتن بالفتح الفن والحال ومنه العيش فتنان أي لونان حلو ومر ، والإحراق ، ومنه على النار يفتنون " .

الفوائد :

قال الزجّاج : " يوم نصب على وجهين أحدهما أن يكون على معنى يقع الجزاء يوم هم على النار يفتنون والآخر أن يكون لفظه لفظ نصب ومعناه معنى رفع لأنه مضاف إلى جملة كلام ، تقول يعجبني يوم أنت قائم ويوم أنت تقوم إن شئت فتحته وإن شئت رفعته كما قال الشاعر :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة في غصون ذات أرقال

وروى غير أن نطقت بالرفع لما أضاف غير إلى أن وليست متمكّنة فتح وكذلك لما أضاف

يوم إلى الجملة فتح .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 15 إلى 23]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19)

وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (21) وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23)

(361/727)

اللغة :

(يَهْجَعُونَ) الهجوع الفرار من النوم أي القليل منه ، وفي المختار : " الهجوع النوم ليلا وبا به خضع والهجعة : النومة الخفيفة ويقال أتيت فلانا بعد هجعة أي بعد نومة خفيفة من الليل "

وقال الشاعر :

قد حصت البيضة رأسي فما أطعم نوما غير تهجاع

أسعى على جل بني مالك وكل امرئ في شأنه ساع

والشعر لقيس الأسلت ، وحصت : أهلكت أو حلقت البيضة التي تلبس على الرأس في الحرب أي حلقت شعر رأسي من دوام لبسها للحرب ، وشبّه النوم بالمطعوم على طريق الاستعارة المكنية .

الإعراب :

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) إن واسمها وفي جنات متعلقان بمحذوف خبرها وعيون عطف على جنات (آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ)

(362/727)

آخذين حال من الضمير المستكن في خبر إن أي استقروا راضين بما أعطاهم مسرورين به وما اسم موصول في محل نصب مفعول به لآخذين وجملة آتاهم ربهم صلة وإن واسمها وجملة كانوا خبرها والجملة تعليل لما ذكر وقبل ذلك ظرف متعلق بمحسنين ومحسنين خبر كانوا (كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ) الجملة تفسيرية لا محل لها لأنها تفسير لإحسانهم وكان واسمها وقليلا ظرف زمان متعلق بيهجعون أو صفة لمفعول مطلق محذوف أي هجوعا قليلا ومن الليل صفة قليلا وما زائدة لتأكيد القلة لذلك وصفهم بأنهم يحيون الليل

متهجدين وجوّزوا أن تكون ما مصدرية في موضع رفع بقليلا أي كانوا قليلا هجوعهم وهو إعراب سهل حسن ، وأن تكون ما موصولة بمعنى الذي والعائد محذوف تقديره كانوا قليلا من الليل من الوقت الذي يهجعون فيه وفيه تكلف ، وردّ بعضهم أن تكون ما مصدرية لأن قليلا حينئذ واقع على الهجوع لأنه فاعله وقوله من الليل لا يستقيم أن يكون صفة للقليل ولا بيانا له ولا يستقيم أن يكون من صلة المصدر لأنه تقدم عليه ولا كذلك على أنها موصولة فإن قليلا حينئذ واقع على الليل كأنه قال قليلا المقدار الذي كانوا يهجعون فيه من الليل فلا مانع أن يكون من الليل بيانا للقليل على هذا الوجه .

ونص عبارة أبي البقاء " قوله تعالى "كانوا قليلا" في خبر كان وجهان أحدهما ما يهجعون وفي ما على هذا وجهان أحدهما هي زائدة أي كانوا يهجعون قليلا وقليلا نعت لظرف أو مصدر أي زمانا قليلا أو هجوعا قليلا والثاني هي نافية ذكره بعض النحويين ورد ذلك عليه لأن النفي لا يتقدم عليه ما في حيزه وقليلا من حيزه ، والثاني أن قليلا خبر كان وما مصدرية أي كانوا قليلا هجوعهم كما تقول كانوا يقلّ هجوعهم ويجوز على هذا أن يكون ما يهجعون بدلا من اسم كان بدل الاشتمال ومن الليل لا يجوز أن يتعلق بيهجعون على هذا القول لما فيه من تقديم معمول المصدر عليه وإنما

هو منصوب على التبيين أي يتعلق بفعل محذوف يفسّره يهجعون ، وقال بعضهم تمّ الكلام على قوله قليلا ثم استأنف فقال من الليل ما يهجعون وفيه بعد لأنك إن جعلت ما نافية فسد لما ذكرنا وإن جعلتها مصدرية لم يكن فيه مدح لأن كل الناس يهجعون في الليل "

(وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) الواو حرف عطف وبالأسحار متعلقان بيستغفرون والباء بمعنى في وهم مبتدأ وجملة يستغفرون خبر وقدم متعلق الخبر لجواز تقديم العامل (وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) الواو حرف عطف وفي أموالهم خبر مقدم وحق مبتدأ مؤخر وللسائل متعلقان بمحذوف صفة والمحروم عطف على السائل والجملة معطوفة على خبر كان فهي خبر ثالث (وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ) الواو عاطفة أو استئنافية وفي الأرض خبر مقدّم وآيات مبتدأ مؤخر وللموقنين صفة لآيات (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ) الواو عاطفة وفي أنفسكم خبر حذف مبتدؤه لدلالة سابقه عليه والتقدير آيات والهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء عاطفة على محذوف مقدّر ولا نافية وتبصرون فعل مضارع مرفوع (وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ) الواو عاطفة وفي السماء خبر مقدّم ورزقكم مبتدأ مؤخر والواو عاطفة وما موصولة عطف على رزقكم وتوعدون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة والعائد محذوف (فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ) الفاء استئنافية والواو حرف قسم وجر وربّ السماء مجرور

بالواو والأرض عطف على السماء والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم وإن واسمها واللام المزحلقة وحق خبرها ومثل بالنصب صفة لمفعول مطلق محذوف أي إنه الحق ، حقا مثل نطقكم ، ويجوز أن يكون منصوبا على الحال من الضمير المستكن في لحق وقيل حال من لحق وإن كان نكرة فقد أجاز ذلك الجرمي وسيبويه

(364/727)

في مواضع من كتابه والنطق هنا عبارة عن الكلام بالحروف والأصوات في ترتيب المعاني ويقول الناس هذا حق

كما أنك ها هنا وهذا حق كما أنك ترى و

تسمع . وما زائدة نصّ على ذلك الخليل وقيل نكرة موصوفة في محل جر بالإضافة إلى مثل وقيل إنه لما أضاف فعل إلى مبني وهو قوله أنكم بناه كما بنى يومئذ في نحو قوله من عذاب يومئذ وعلى حين عاتبت المشيب على الصبا وقوله الآنف :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة في غصون ذات أرقال

فغير في موضع رفع بأنه فاعل يمنع وإنما بنيت هذه الأسماء المبهمة نحو مثل ويوم وحين وغير إذا أضيفت إلى المبني لأنها تكتسي منه البناء لأن المضاف يكتسي من المضاف إليه ما فيه

من التعريف والتنكير والجزاء والاستفهام تقول هذا غلام زيد وصاحب القاضي فيتعرف الاسم بالإضافة إلى المعرفة وتقول غلام من يضرب فيكون استفهاما وتقول صاحب من يضرب أضرب فيكون جزاء وقرئ بالرفع على أنه صفة لحق . وإن واسمها وجملة تنطقون خبرها وجملتها في محل جر بالإضافة وإذا جعلت ما نكرة موصوفة فتكون الجملة خبرا لمبتدأ محذوف أي هو أنكم .

البلاغة :

في قوله " فوربّ السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون " فن القسم وقد مرّت الإشارة إليه ، وأنه عبارة عن أن يريد المتكلم الحلف على شيء فيحلف بما يكون فيه فخر له أو تعظيم لشأنه أو تنويه بقدره أو ما يكون ذما لغيره أو جاريا مجرى الغزل والترقق أو خارجا مخرج الموعظة والزهد ، فقد أقسم سبحانه بقسم يوجب الفخر لتضمنه التمدح بأعظم قدرة وأجلّ عظمة .

الفوائد :

روى الأصمعي قال : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على مقود له فقال : من الرجل ؟ قلت : من بني أجمع قال : من أين أقبلت ؟

فقلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن ، فقال اتل عليّ ، فتلوت والذاريات . . . فلما بلغت قوله تعالى وفي السماء رزقكم قال : حسبك فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولّى فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق فالتفت فإذا الأعرابي قد نحل واصفرّ فسلّم علي واستقرأ السورة فلما بلغت الآية صاح وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ثم قال وهل غير هذا فقرأت : فورب السماء والأرض إنه لحق فصاح وقال يا سبحان اللّه من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف ولم يصدّقوه بقوله حتى ألجئوه إلى اليمين قالها ثلاثا وخرجت معها نفسه .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 24 إلى 37]

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَلا تَأْكُلُونَ (27) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (28)

فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها وَقالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ (33)

مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) وَتَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ (37)

اللغة :

)

(366/727)

ضَيْفِ) الضيف : للواحد والجماعة لأنه في الأصل مصدر كالزور والصوم قيل كانوا اثني عشر ملكا وفي القاموس : " الضيف للواحد والجميع وقد يجمع على أضياف وضيوف وضيفان وهي ضيف وضيفة " أما الضيفن فهو من يجيء مع الضيف متطفلا وفي الأساس : ضاف إليه : مال إليه وضاف عنه : مال عنه وضاف السهم عن الهدف وضافت الشمس وضيّفت وتضيفت : مالت إلى الغروب وقال بشر :

طاو برملة أورال تضيفه إلى الكناس عشيّ بارد صرد

أي أماله إليه ، والناقة تضيف إلى الفحل والجارية تضيف إلى الرجل : تستأنس إلى صوته وتريد أن تأتيه وأضف ظهرك إلى الحائط ، قال امرؤ القيس :

فلما دخلناه أضفنا ظهورنا إلى كل حاري جديد مشطّب

ونزلوا بضيف الوادي : بناحيته وتضايفوا الوادي : أتوا ضيفه ، وضافني وتضيفني ، قال الفرزدق :

ومنّا خطيب لا يعاب وقائل ومن هو يرجو فضله المتضيف

وأضفته وضيّفته وهو ضيف وكذلك الجميع وهم ضيوف وأضياف وضيفان .

(فَراغَ) راغ : ذهب في خفية وهذا من أدب المضيف ليباده ضيفه بقراه وفي المصباح " وراغ الثعلب روغا من باب قال وروغانا ذهب يمنة ويسرة في سرعة وخديعة فهو لا يستقر في جهة وراغ فلان إلى كذا مال إليه سرّا " .

(فَأَوْجَسَ) أضمر في نفسه .

(صَرَّةٍ) بفتح الصاد هي شدّة الصياح والرنّة والتأوّه من حرّ الجند وصرّ القلم والباب وقيل : جماعة من الناس ، وفي الصحاح : " الصرة :

الضجة والصحة والصرة : الجماعة والصرّة الشدّة من حرب وغيره " .

(فَصَكَّتْ) اختلف في الصك فقيل هو الضرب باليد مبسوطة وقيل هو ضرب الوجه بأطراف الأصابع مثل المتعجب وهي عادة النساء إذا أنكرن شيئا ، وأصل الصك ضرب الشيء بالشيء العريض .

(خَطْبُكُمْ) شأنكم والخطب في الأصل الأمر الجلل ومنه الخطبة لأنها كلام بليغ يستهدف أمورا جليلة .

(مُسَوَّمَةً) معلمة من السومة وهي العلامة .

الإعراب :

)

(367/727)

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ) هل حرف استفهام والاستفهام هنا معناه التفخيم والتنبيه على أن الحديث ليس من علم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وإنما عرفه بالوحي ، وأتاك فعل ومفعول به مقدم وضيف إبراهيم مضاف إلى الحديث والمكرمين نعت لضيف

)

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ) إذ ظرف لما مضى من الزمن نصب بالمكرمين لأن إبراهيم أكرمهم أو فيما في ضيف من معنى الفعل أو بإضمار اذكر أو بحديث أي هل أتاك حديثهم وقت دخولهم عليه ورجحه ابن هشام لأنه مصدر فيه رائحة الفعل وجملة دخلوا في محل جر بإضافة الظرف إليها وعليه متعلقان بدخلوا ، فقالوا معطوف على دخلوا وسلاما مفعول مطلق استغني عن فعله لأنه سدّ مسدّه وأصله نسلّم عليكم

سلاما وقال فعل ماض وفاعل مستتر تقديره هو وسلام مبتدأ ساغ الابتداء به مع أنه نكرة لتضمنه معنى الدعاء وإنما عدل إلى الرفع بالابتداء لقصد الثبات وديمومة السلام حتى تكون تحيته أحسن من تحيتهم والخبر محذوف تقديره سلام عليكم ، وقرئا مرفوعين ، وقوم خبر لمبتدأ محذوف تقديره وأنتم أو هم ومنكرون صفة لقوم (فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ) الفاء عاطفة على مقدّر يقتضيه السياق أي فبادر إلى إكرامهم دون أن يشعرهم لأن من أدب الضيافة أن يباده المضيف ضيوفه بالقرى من غير أن يشعروا به حذرا من أن يكفوه فراغ.

(368/727)

و راغ فعل ماض وفاعل مستتر وإلى أهله متعلقان براغ ، فجاء عطف للتعقيب وبعجل متعلقان بجاء وسمين صفة لعجل (فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ) عطف على ما تقدم وإليهم متعلقان بقربه وألا أداة استفهام ولا نافية والاستفهام معناه العرض أو الإنكار وتأكلون فعل مضارع مرفوع والجملة مقول القول (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً) الفاء عاطفة على مقدّر يقتضيه السياق أي فلما رأى امتناعهم وإصرارهم على الامتناع أوجس منهم خيفة ظنا منه أنهم يريدون إيقاع السوء به وخيفة مفعول أوجس (قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ) لا ناهية

وتخف فعل مضارع مجزوم بلا وبشّروه فعل ماض وفاعل ومفعول به وبغلام متعلقان ببشروه وعليم نعت غلام (فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ) عطف أيضا على مقدّر لا بدّ منه ، أي لما سمعت سارة

امرأة إبراهيم البشارة أقبلت وهي تصيح وامرأته فاعل فأقبلت وفي صرة متعلقان بمحذوف حال أي صارّة ، فصكت عطف على فأقبلت ووجهها مفعول به وقالت عطف أيضا وعجوز خبر لمبتدأ محذوف أي أنا عجوز وعقيم صفة أي أنا عجوز عاقر فكيف ألد ؟ وعقيم فعيل بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث أي معقومة كأنما شدّت برباط ويقال رجل عقيم أيضا قال :

عقم النساء فما يلدن شبيهه إن النساء بمثله عقيم

(369/727)

(قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) قالوا فعل وفاعل وكذلك جار ومجرور في موضع نصب صفة لمصدر محذوف أي قولا مثل ذلك الذي قلنا ، وقال ربك فعل وفاعل وإن واسمها وهو ضمير فصل أو عماد لا محل له والحكيم العليم خبران لإن (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ) قال فعل ماض وفاعله مستتر أي إبراهيم والفاء الفصيحة لأنها

أفصحت عن شرط مقدر أي إن كنتم ملائكة كما تقولون فما شأنكم ؟ وما اسم استفهام مبتدأ وخطبكم خبر وأيها منادى محذوف منه حرف النداء وهو مبني على الضم لأنه نكرة مقصودة والهاء للتنبيه والمرسلون بدل (قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ) إن واسمها وجملة أرسلنا خبر ونا نائب فاعل وجملة أرسلنا خبر إنّا وإن وما في حيزها مقول القول وإلى قوم متعلقان بأرسلنا ومجرمين نعت (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ) اللام للتعليل ونرسل فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر تقديره نحن وعليهم متعلقان بنرسل وحجارة مفعول به ومن طين نعت لحجارة ولام التعليل ومجرورها متعلقان بأرسلنا (مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ) مسومة صفة ثانية لحجارة أو حال منها لأنها وصفت بالجار والمجرور وعند ربك الظرف متعلق بمسومة وللمسرفين متعلقان بمسومة أيضا (فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(370/727)

الفاء الفصيحة لأنها أفصحت عن جمل قد حذفت ، وأخرجنا فعل وفاعل ومن مفعول وكان فعل ماض ناقص واسمها مستتر تقديره هم وفيها خبرها ومن المؤمنين حال وجملة كان صلة الموصول لا محل لها والضمير بقوله فيها يعود إلى قرى قوم لوط ولم يجر لها ذكر لكونها

معلومة (فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) الفاء عاطفة وما نافية ووجدنا فعل وفاعل وغير بيت مفعول به ومن المسلمين صفة وهم لوط وابنتاه وقد وصفوا بالإيمان والإسلام لأنهم مصدقون بقلوبهم عاملون بجوارحهم (وَتَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ) الواو عاطفة وتركنا فعل وفاعل وفيها متعلقان بتركنا وآية مفعول به وللذين صفة لآية وجملة يخافون العذاب الأليم صلة الموصول .

البلاغة :

1- الاستفهام التقريري : في قوله " هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين " استفهام تقريري لتفخيم الحديث ولتجتمع نفس المخاطب كما تبدأ المرء إذا أردت أن تحدّثه بعجيب فتقرره هل سمع ذلك أم لا فكأنك تقتضي أن يقول لا ويطلب منك الحديث .

2- الحذف : وفي قوله " قوم منكرون " الحذف وقد اختلف في تقدير المبتدأ المحذوف فقيل إن الذي يناسب حال إبراهيم عليه السلام أنه لا يخاطبهم بذلك إذ فيه من عدم الأنس ما لا يخفى بل يظهر أنه يكون التقدير هؤلاء قوم منكرون وقال ذلك مع نفسه أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه بحيث لا يسمع ذلك الأضياف وقيل أنكرهم لأنهم ليسوا من معارفه أو من جنس الناس الذين عهدهم أو رأى لهم حالا وشكلا خلاف حال الناس وشكلهم أو كان هذا سؤالا لهم كأنه قال أنتم قوم منكرون فعرّفوني من أنتم .

3- المجاز المرسل : في قوله " قالوا لا تخف وبشّروه بغلام عليم " مجاز مرسل فقد سمي

الغلام عليما باعتبار ما يئول إليه أمره إذا كبر.

[سورة الذاريات (51) : الآيات 38 إلى 42]

(371/727)

وَفِي مُوسى إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (38) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39) فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40) وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (42)

اللغة:

(بِرُكْنِهِ) الركن: الجانب الذي يعتمد عليه، وفي القاموس: "ركن إليه كنصر وعلم ومنع ركونا حال وسكن، والركن بالضم الجانب الأقوى والأمر العظيم وما يقوّى به من ملك وجند وغيره والعز والمنعة" ومعنى تولى بركنه: أعرض وازور وانحرف راكبا رأسه.

(مُلِيمٌ)

المليم الذي أتى بما يلام عليه من عناد ولجاج والملوم الذي وقع به اللوم وفي المثل: ربّ لائم مليم ورب ملوم لا ذنب له.

الإعراب:

(وَفِي مُوسى إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ) الواو عاطفة وفي موسى عطف على قوله فيها بإعادة الجار لأن المعطوف عليه ضمير مجرور فيتعلق بتركنا من حيث المعنى ويكون التقدير وتركنا في قصة

(372/727)

موسى آية ويجوز أن يتعلق بجعلنا مقدّرة لدلالة وتركنا ، وأجاز ذلك الزمخشري قال أو يعطف على وتركنا فيها آية على معنى وجعلنا في موسى آية كقوله : " علفتها تبنا وماء باردا " واعترضه أبو حيان فقال : " ولا حاجة إلى إضمار وجعلنا لأنه يمكن أن يكون العامل في المجرور وتركنا " وإذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بمحذوف لأنه نعت لآية أي آية كائنة في وقت إرسالنا ولك أن تعلقه بتركنا ، وجملة أرسلناه في محل جر بإضافة الظرف إليها وإلى فرعون متعلقان بأرسلناه وبسلطان متعلقان بمحذوف حال أي مؤيدا ومبين نعت سلطان (فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) الفاء حرف عطف وتولى فعل ماض وفاعله مستتر يعود إلى فرعون وبركنه حال من ضمير فرعون وقال عطف على تولى وساحر خبر لمبتدأ محذوف أي هو ساحر وأو حرف عطف للإبهام على السامع أو للشك نزل نفسه

منزلة الشاك مع أنه يعرفه نبيا حقا تمويها على قومه ومجنون عطف على ساحر أَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ)

(373/727)

الفاء حرف عطف وأخذناه فعل وفاعل ومفعول به وجنوده يجوز أن يكون معطوفا على مفعول أخذناه وهو الأولى وأن يكون مفعولا معه ، فنبذناهم في اليمّ عطف على أخذناه وفي اليم متعلقان بنبذناه ، وهو الواو للحال وهو ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ ومليم خبر والجملة في محل نصب حال من مفعول نبذناهم أو من مفعول أخذناه والفرق بين الحالين أن الواو في الأولى واجبة لازمة إذ ليس فيها ذكر ضمير يعود على صاحب الحال وفي الثانية ليست واجبة لازمة إذ في الجملة ذكر ضمير يعود عليه (وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ) عطف على ما تقدم ويقال فيها ما قيل في : وفي موسى إذ أرسلناه ، وعليهم متعلقان بأرسلنا والريح مفعول به والعقيم نعت للريح (ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ) ما نافية وتذر فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره هي أي الريح والجملة حال من الريح ومن حرف جر زائد وشيء مجرور

لفظا منصوب محلا لأنه مفعول به وجملة أتت عليه صفة لشيء وإلا أداة حصر وجعلته فعل

وفاعل مستتر ومفعول به والجملة في موضع المفعول الثاني لتذر كأنه قيل ما تترك من شيء إلا مجعولا ، وكالرميم جار ومجرور في موضع المفعول الثاني لجعلته أو الكاف اسم بمعنى مثل مفعول به والرميم مضاف إليه .

البلاغة :

الاستعارة المكنية : في قوله "كالريح العقيم " استعارة مكنية ، شبّه ما في الريح من الصفة التي تمنع من إنشاء مطر أو إلقاح شجر بما في المرأة من الصفة المذكورة التي تمنع الحمل ثم قيل العقيم وأريد به ذلك المعنى بقرينة وصف الريح به فالمستعار له الريح والمستعار منه ذات النتاج والمستعار العقم وهو عدم النتاج والمشاركة بين المستعار له والمستعار منه في عدم النتاج وهي استعارة محسوس لمحسوس للاشتراك في أمر معقول وهي من ألطف الاستعارات .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 43 إلى 48]

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ
يَنْظُرُونَ (44) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (45) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ

كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (46) وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47)

وَالْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ (48)

اللغة :

(الصَّاعِقَةُ) التي تقع من السماء والصاعقة التي تصقع الرءوس ،

وقال الأصمعي الصاعقة والصاقعة سواء وأنشد :

يحكون بالمصقولة القواطع تشقق البرق من الصواقع

وأما الصعقة فقيل أنها مثل الزجرة وهو الصوت الذي يكون عن الصاعقة ، قال بعض

الرجّاز :

لاح سحاب فرأينا برقه ثم تدانى فسمعنا صعقه

وفي المختار : " الصاعقة نار تسقط من السماء في رعد شديد ، يقال صعقتهم السماء من

باب قطع إذا ألقت عليهم الصاعقة والصاعقة أيضا صيحة العذاب " .

الإعراب :

(وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ) عطف على ما تقدم أيضا وجملة تمتعوا مقول القول وحتى حرف غاية وجر وحين مجرور بحتى والجار والمجرور متعلقان بتمتعوا (فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ) الفاء حرف عطف للترتيب الإخباري وعتوا فعل وفاعل وعن أمر ربهم متعلقان بعتوا ، فأخذتهم الصاعقة عطف على عتوا والواو للحال وهم مبتدأ وجملة ينظرون خبر والجملة في محل نصب على الحال (فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيامٍ وَما كانُوا مُنْتَصِرِينَ) الفاء عاطفة وما نافية واستطاعوا فعل وفاعل ومن حرف جر زائد وقيام مجرور لفظا منصوب محلا لأنه مفعول به والواو عاطفة وما نافية وكانوا فعل ماض ناقص والواو اسمها ومنتصرين خبرها (وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ) الواو عاطفة وقوم منصوب بفعل محذوف مفهوم ضمنا أي وأهلكنا قوم نوح ولك أن تقدّره واذكر قوم نوح وقرئ بالجر عطفا على وفي ثمود ، ومن قبل : من حرف جر وقبل ظرف مبني على الضم

(376/727)

لانقطاعه عن الإضافة لفظا لا معنى والجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال وإن واسمها وجملة كانوا قوما فاسقين خبرها وجملة إن وما بعدها لا محل لها لأنها تعليل لهلاكهم

(وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) الواو عاطفة والسماء نصب على الاشتغال والتقدير بنينا السماء بنيناها ، وبنيناها فعل وفاعل ومفعول به والجملة لا محل لها لأنها مفسّرة وجملة بنينا السماء عطف على الجملة الفعلية السابقة ولذلك ترجح النصب وقرأ العامة ولم يقرأ بالرفع إلا اثنان من غير السبعة وهو أبو السمال وابن مقسم ، وبأيد يجوز أن يتعلق بمحذوف حال من فاعل بنيناها أي ملتبسين بقوة أو من مفعوله أي ملتبسة بقوة ويجوز أن يتعلق ببنيناها فتكون الباء للسببية أي بسبب قدرتنا ، والواو حالية وإن واسمها واللام المزحلقة وموسعون خبرها والجملة في محل نصب على الحال من فاعل بنيناها أو من مفعوله ومعنى موسعون قادرون من الوسع وهو الطاقة والموسع القوي على الإنفاق وفي المصباح : " وسع اللّه عليه رزقه يوسع بالتصحيح وسعا من باب نفع بسطه وكثره وأوسعه ووسعه بالألف والتشديد مثله وأوسع الرجل بالألف صار ذا سعة وغنى " (وَالْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ) عطف على الجملة السابقة ويجري إعرابها كما جرى هناك ، فنعم الفاء عاطفة ونعم فعل ماض جامد لإنشاء المدح والماهدون فاعل نعم والمخصوص بالمدح محذوف أي نحن فالجملة خبر له .

[سورة الذاريات (51) : الآيات 49 إلى 60]

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ

(50) وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (51) كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52) أَتَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (53)

(377/727)

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ (54) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55) وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ
وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (56) ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ
الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)
فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (59) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (60)

اللغة :

(فَفِرُّوا) في المصباح : " فرّ من عدوه يفرّ من باب ضرب فرارا هرب وفرّ الفارس فرّا أوسع الجولان للانعطاف وفرّ إلى الشيء ذهب إليه " .

(أَتَواصَوْا) التواصي : أن يوصي القوم بعضهم إلى بعض والوصية المتقدمة في الأمر بالأشياء المهمة مع النهي عن المخالفة .

(ذَنُوباً) : الذنوب بفتح الذال الدلو العظيمة وقال الراغب :

" الذنوب الدلو الذي له ذنب " وهو يؤنث ويذكّر قال :

لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب

وقال علقمة :

وفي كل حيّ قد ضبطت بنعمة فحقّ لشاس من نداك ذنوب

الإعراب :

(378/727)

(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) الواو عاطفة ومن كل شيء يجوز أن يتعلق بخلقنا أي خلقنا من كل زوجين ويجوز أن يتعلق بمحذوف حال من زوجين لأنه في الأصل صفة له والتقدير خلقنا زوجين كائنين من كل شيء ، وخلقنا فعل وفاعل وزوجين مفعول به ولعل واسمها وجملة تذكرون خبرها والأصل تتذكرون حذفت إحدى التاءين من الأصل (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) الفاء الفصيحة أي إذا علمتم أن اللّه تعالى فرد لا نظير له ولا نديد ففروا إليه ووحدوه ولا تشركوا به شيئا ولا بدّ من تقدير مضاف محذوف أي إلى ثوابه ، وفرّوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وإلى اللّه متعلقان بفرّوا وإن واسمها ولكم متعلقان بنذير وكذلك يتعلق منه ولك أن تعلقه بمحذوف على أنه

حال من نذير لأنه في الأصل صفة له ونذير خبر إني ومبين نعت نذير (وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) الواو عاطفة ولا ناهية وتجعلوا فعل مضارع مجزوم بلا والواو فاعله ومع الله ظرف مكان متعلق بمحذوف في موضع المفعول الثاني وإلها مفعول تجعلوا الأول وآخر نعت إلها وإني لكم منه نذير مبين تقدم إعرابها وهذه الجملة تكرير للتأكيد فالأولى مرتبة على ترك الإيمان والطاعة والثانية مرتبة على الإشراك (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) الكاف خبر مبتدأ محذوف أي الأمر والشأن وما نافية وأتى فعل ماض والذين مفعوله المقدم ومن قبلهم متعلقان بمحذوف صلة الذين ومن حرف جر زائد ورسول مجرور بمن لفظا مرفوع محلا لأنه فاعل والجملة لا محل لها لأنها مفسرة وإلا أداة حصر وقالوا فعل وفاعل وساحر خبر لمبتدأ محذوف تقديره أنت وأو حرف عطف ومجنون عطف على ساحر وقد تقدم معنى العطف وجملة

(379/727)

إلا قالوا في محل نصب على الحال من الذين من قبلهم كأنه قيل ما أتى الذين من قبلهم رسول إلا في حال قولهم هو ساحر أو مجنون (أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي التعجبي وتواصوا فعل ماض وفاعل والواو فاعل تواصوا وبه متعلقان

بتواصوا وبل حرف إضراب وعطف وهم مبتدأ وقوم خبر وطاغون نعت قوم (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ) الفاء الفصيحة أي إن كان هذا شأنهم وقد بلوته وخبرته بنفسك فتولّ عنهم ، فتولّ فعل أمر مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر تقديره أنت وعنهم متعلقان بتول والفاء تعليلية للأمر وما نافية حجازية وأنت اسمها والباء حرف جر زائد وملوم مجرور لفظا منصوب محلا لأنه خبر ما (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) الواو عاطفة وذكر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت والفاء تعليل للأمر وإن واسمها وجملة تنفع المؤمنين خبرها (وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) الواو عاطفة وما نافية وخلقت فعل وفاعل والجن مفعول به والإنس عطف على الجن وإلا أداة حصر واللام للتعليل أو للعاقة ويعبدون فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازا بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون والنون المذكورة للوقاية والواو فاعل وياء المتكلم المحذوفة في محل نصب مفعول به ولام التعليل ومدخولها متعلقان بخلقت وسيأتي مزيد بحث لهذه الآية التي شجر الخلاف حولها (ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ) ما نافية وأريد فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره أنا ومنهم متعلقان بأريد ومن حرف جر زائد ورزق مجرور لفظا منصوب محلا لأنه مفعول أريد والواو حرف عطف وما أريد عطف على مثيلتها وأن حرف مصدري ونصب ويطعمون فعل مضارع منصوب بأن وياء المتكلم المحذوفة مفعول به وأن وما

في حيزها في تأويل مصدر مفعول به أي وما أريد إطعامهم إياي (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) إن واسمها وهو ضمير فصل لا محل له والرزاق

خبر إن الأول وذو القوة خبر ثان والمتين خبر ثالث وقيل نعت للرزاق أو لذو (فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ) الفاء

الفصيحة أي إذا عرفت حال الكفرة الآنف ذكرهم مثل عاد وثمود وقوم نوح فإن لهؤلاء المكذبين نصيبا مثل نصيبهم وسيأتي مزيد من هذا البحث في باب البلاغة ، وإن حرف مشبه بالفعل وللذين جار ومجرور في محل نصب خبر مقدم لإن وجملة ظلموا صلة الموصول وذنوبا اسم إن المؤخر ومثل ذنوب أصحابهم صفة لذنوبا والفاء عاطفة لترتيب النهي عن الاستعجال ولا ناهية ويستعجلون فعل مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والنون المذكورة المكسورة للوقاية والياء المحذوفة مفعول به (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) الفاء عاطفة لترتيب ثبوت الويل أي العذاب الشديد لهم وويل مبتدأ ساغ الابتداء به لما تضمنه من معنى الدعاء وللذين خبره وجملة كفروا صلة الموصول ومن يومهم صفة لويل وقرر الجلال أنها بمعنى في وهو أحد معاني من التي أنهاها صاحب المغني إلى خمسة عشر معنى ومثّل لذلك بقوله تعالى " إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة " أي في يوم الجمعة ، والذي صفة ليومهم ويوعدون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل

وجملة يوعدون صلة الذي .

البلاغة :

(381/727)

---

1 - في قوله الجن والإنس طباق ومعنى إلا ليعبدون أي إلا مهيئين ومستعدين للعبادة ، ذلك أنني خلقت فيهم العقل وركزت فيهم الحواس والقدرة التي تمكّنهم من العبادة وهذا لا ينافي تخلّف العبادة بالفعل من بعضهم لأن هذا البعض المتخلّف وإن لم يعبد اللّه مركوز فيه الاستعداد والتهيؤ الذي هو الغاية في الحقيقة ، وقد شجر خلاف بين أهل السنّة والاعتزال حول هذه الآية والواقع أنه لا خلاف لأن الآية إنما سيقت لبيان عظمته سبحانه وإن شأنه مع عبيده لا يقاس به شأن عبيد الخلق معهم فإن عبيدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسادة وبواسطة مكاسب عبيدهم قدر أرزاقهم واللّه تعالى لم يطلب من عباده رزقا ولا إطعاما وإنما يطلب منهم عبادته ليس غير وزيادة على كونه لا يطلب منهم رزقا إنه هو الذي يرزقهم وهناك حجج يضيق عنها صدر هذا الكتاب فلتطلب في مظانها .

2 - الاستعارة التمثيلية التصريحية : وفي قوله " فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم

فلا يستعجلون " استعارة تمثيلية تصريحية لأن الأصل فيه السقاة الذين يتقسمون الماء

فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب قال :

لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب

ولما قال عمرو بن شاس :

وفي كل حيّ قد خبطت بنعمة فحقّ لشأس بعد ذاك ذنوب

قال الملك نعم وأذنبة :

وعبارة المبرد في الكامل : " وأصل الذنوب الدلو كما ذكرت لك وقال علقمة بن عبدة

للحارث بن أبي شمر الغساني (و بعضهم يقول شمر وبعضهم يقول شمر) وكان أخوه أسيرا

عنده وهو شأس بن عبدة أسره في وقعة عين أباغ (و بعضهم يقول إباغ) في الوقعة التي كانت

بينه وبين المنذر بن ماء السماء في كلمة له مدحه فيها :

وفي كل حيّ قد خبطت بنعمة فحقّ لشأس من نداك ذنوب

فقال الملك : نعم وأذنبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 9 صـ 301.

325﴾

(382/727)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والعشرون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن والعشرون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الطور)

(4/728)

(سورة الطور)

(5/728)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الطور

مقصودها تحقيق وقوع العذاب الذي هو مضمون الوعيد المقسم على وقوعه في الذاريات الذي هو مضمون الإنذار المدلول على صدقه في ق ، فإن وقوعه أثبت وأمكن من الجبال التي أخبر الصادق بسيرها ، وجعل دك بعضها آية يمكن عامره وغيره إخرابه ، والسقف

الذي يمكن رافعه وضعه ، والبحر الذي يمكن من سجره أن يرسله ، وقد بان أن اسمها أدل ما يكون على ذلك بملاحظة القسم وجوابه حتى بمفردات الألفاظ في خطابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 291 ﴾

(6/728)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . والطور)

السّورة مكِّيّة بالاتفاق آياتها تسع وأَربعون فى عدّ الكوفة والشأم ، وثمانٍ فى البصرة ، وسبع فى الحجاز .

كلماتها ثلاثمائة واثنتا عشرة .

وحروفها أَلف وخمسمائة .

الآيات المختلف فيها اثنتان : (والطُّور) دَعًّا .

مجموع فواصل آياتها (من رعا) سمّيت سورة الطَّور ، لمفتتحها .

معظم مقصود السّورة : القَسَم بعذاب الكفَّار ، والإِخبار عن ذلَّهم فى العقوبة ، ومنازلهم

من النار ، وطرب أَهل الجنة بثواب الله الكريم الغفَّار ، وإِلزام الحجّة على الكفرة الفجّار ، وبِشارتهم قبل عقوبة العُقْبَى بعذابهم فى هذه الدّار ، ووصيّة سيّد رُسُل الأَبرار بالعبادة والاصطبار ، فى قوله : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

فيها آية واحدة : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ آية السّيف ن .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ ﴾ أَعاد (أَم) خمسة عشر مرّة ، وكلّها إِلزامات ليس للمخاطبين بها عنها جواب .

قوله : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ بالواو ، وعطَف على قوله : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ ﴾ ، وكذلك : ﴿ وَأَقْبَلَ ﴾ بالواو ، وفى الواقعة : ﴿ يَطُوفُ ﴾ بغير واو فيحتمل أَن يكون حالاً ، أَو يكون خبراً بعد خبر .

وفى الإِنسان ﴿ يَطُوفُ ﴾ عطف على (وَيُطَافُ) .

قوله : ﴿ وَاصْبِرْ ﴾ بالواو سبق .

فضل السّورة

فيه من الضَّعيف حديث أُبىّ : مَن قرأَ (والطُّور) كان حَقًّا على الله عزَّ وجلَّ أَن يُؤمنه من عذابه ، وأَن ينعّمه فى جنّته ، وحديث على : يا علىّ مَن قرأَها كتب الله له ما دام حيًّا كلّ

يوم اثنى عشر أَلف حسنة ، ورفع له بكل آية قرأَها اثنى عشر أَلف درجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 441.442 ﴾

(7/728)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الطور

سميت هذه السورة عند السلف سورة الطور دون واو قبل الطور .

ففي جامع الطواف من الموطإ حديث مالك عن أم سلمة قالت فطفت ورسول الله يصلي إلى جنب البيت يقرأ ب : َالطور وكتاب مسطور ، أي يقرأ بسورة الطور ولم ترد يقرأ بالآية لأن الآية فيها ﴿ وَالطُّورِ ﴾ بالواو وهي لم تذكر الواو .

وفي باب القراءة في المغرب من الموطأ حديث مالك عن جبير بن مطعم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بالطور في المغرب .

وفي تفسير سورة الطور من صحيح البخاري عن جبير بن مطعم قال سمعت النبي يقرأ في

المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [الطور : 35 ، 37] كاد قلبي أن يطير .

وكان جبير بن مطعم مشركا قدم على النبي صلى الله عليه وسلم في فداء أسرى بدر وأسلم يومئذ .

وكذلك وقعت تسميتها في ترجمتها من جامع الترمذي وفي المصاحف التي رأيناها ، وكثير من التفاسير .

وهذا على التسمية بالإضافة ، أي سورة ذكر الطور كما يقال : سورة البقرة ، وسورة الهدهد ، وسورة المؤمنين .

وفي ترجمة هذه السورة من تفسير صحيح البخاري سورة والطور بالواو على حكاية اللفظ الواقع في أولها كما يقال سورة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

وهي مكية جميعها بالاتفاق .

وهي السورة الخامسة والسبعون في ترتيب نزول السور .

نزلت بعد سورة نوح وقبل سورة المؤمنين .

وعد أهل المدينة ومكة آيها سبعا وأربعين ، وعدها أهل الشام وأهل الكوفة تسعا وأربعين ، وعدها أهل البصرة ثمانيا وأربعين .

أغراض هذه السورة

أول أغراض هذه السورة التهديد بوقوع العذاب يوم القيامة للمشركين المكذبين بالنبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من إثبات البعث وبالقرآن المتضمن ذلك فقالوا : هو سحر .

ومقابلة وعيدهم بوعد المتقين المؤمنين وصفة نعيمهم ووصف تذكرهم خشية ، وثنائهم على الله بما من عليهم فانتقل إلى تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وإبطال أقوالهم فيه وانتظارهم موته .

وتحديهم بأنهم عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن .

وإبطال خليط من تكاذيبهم بإعادة الخلق وببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ليس من كبرائهم وبكون الملائكة بنات الله وإبطال تعدد الآلهة وذكر استهزائهم بالوعيد .

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بتركهم وأن لا يحزن لذلك ، فإن الوعيد حال بهم في الدنيا ثم في الآخرة وأمره بالصبر ، ووعده بالتأييد ، وأمر بشكر ربه في جميع الأوقات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ 51 . 52 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الطور

تعريف لسورة الطور

هذه السورة تمثل حملة عميقة التأثير فى القلب البشري . ومطاردة عنيفة للهواجس والشكوك والشبهات والأباطيل التي تساوره وتتدسس إليه وتختبئ هنا وهناك في حناياه . ودحض لكل حجة وكل عذر قد يتخذه للحيدة عن الحق والزيغ عن الإيمان . . حملة لا يصمد لها قلب يتلقاها , وهي تلاحقه حتى تلجئه إلى الإذعان والاستسلام !

وهي حملة يشترك فيها اللفظ والعبارة , والمعنى والمدلول , والصور والظلال , والإيقاعات الموسيقية لمقاطع السورة وفواصلها على السواء . ومن بدء السورة إلى ختامها تتوالى آياتها كما لو كانت قذائف , وإيقاعاتها كما لو كانت صواعق , وصورها وظلالها كما لو كانت سياطا لاذعة للحس لا تمهله لحظة واحدة من البدء إلى الختام !

وتبدأ السورة بقسم من الله سبحانه بمقدسات في الأرض والسماء . بعضها مكشوف معلوم ! وبعضها مغيب مجهول:(والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت

المعمور . والسقف المرفوع) . .

القسم على أمر عظيم رهيب , يرج القلب رجا , ويرعب الحس رعبا . في تعبير يناسب لفظه مدلوله الرهيب ; وفي مشهد كذلك ترجف له القلوب: (إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع , يوم تمور السماء مورا , وتسير الجبال سيرا) . .

وفي وسط المشهد المفزع نرى ونسمع ما يزلزل ويرعب , من ويل وهول , وتقريع وتفزيع: (فويل يومئذ للمكذبين , الذين هم في خوض يلعبون . يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التي كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا ? أم أنتم لا تبصرون ? اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا , سواء عليكم , إنما تجزون ما كنتم تعملون) . .

(10/728)

هذا شوط من حملة المطاردة . يليه شوط آخر من لون آخر . شوط في إطماع القلوب التي رأت ذلك الهول المرعب - إطماعها في الأمن والنعيم . بعرض صورة المتقين وما أعد لهم من تكريم . وما هيئ لهم من نعيم رخي رغيد , يطول عرضه , وتكثر تفصيلاته , وتتعدد ألوانه . مما يستجيش الحس إلى روح النعيم وبرده ; بعد كرب العذاب وهوله: (إن المتقين في جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئا

بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم , وما ألتناهم من عملهم من شيء , كل امرئ بما كسب رهين . وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون . يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا: إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين . فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم) . .

(11/728)

والآن وقد أحس القلب البشري سياط العذاب في الشوط الأول ; وتذوق حلاوة النعيم في الشوط الثاني . . الآن يجيء الشوط الثالث يطارد الهواجس والوساوس ; ويلاحق الشبهات والأضاليل ; ويدحض الحجج والمعاذير . ويعرض الحقيقة بارزة واضحة بسيطة عنيفة . تتحدث بمنطق نافذ لا يحتمل التأويل , مستقيم لا يحتمل اللف والدوران . يلوي الأعناق ليا ويلجئها إلى الإذعان والتسليم . . ويبدأ هذا الشوط بتوجيه الخطاب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليمضي في تذكيره لهم , على الرغم من سوء أدبهم معه ; وليقرعهم بهذا المنطق النافذ القوي المستقيم: فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا

مجنون . أم يقولون: شاعر نتربص به ريب المنون ؟ قل: تربصوا فإني معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ أم هم قوم طاغون ؟ أم يقولون تقوله ؟ بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين . أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المصيطرون ؟ أم لهم سلم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين . أم له البنات ولكم البنون ؟ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ أم يريدون كيدا ؟ فالذين كفروا هم المكيدون . أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون . .

وعقب هذه الأسئلة المتلاحقة . بل هذه القذائف الصاعقة . التي تنسف الباطل نسفا , وتحرج المكابر والمعاند , وتخرس كل لسان يزيغ عن الحق أو يجادل فيه . . عقب هذا يصور تعنتهم وعنادهم في صورة الذي يكابر في المحسوس: (وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا: سحاب مركوم) . والفرق بين قطعة السماء تسقط وبين السحاب واضح , ولكنهم هم يتلمسون كل شبهة ليعدلوا عن الحق الواضح .

(12/728)

هنا يلقي عليهم بالقذيفة الأخيرة . قذيفة التهديد الرعيب , بملاقاة ذلك المشهد المرهوب , الذي عرض عليهم في مطلع السورة: (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون . يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون) . . كما يهددهم بعذاب أقرب من ذلك العذاب: (وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك , ولكن أكثرهم لا يعلمون) . .

ثم تختم السورة بإيقاع رضي رخي . . إنه موجه إلى الرسول الكريم الذي يقولون عنه: (شاعر نتربص به ريب المنون) . . ويقولون: كاهن أو مجنون . موجه إليه من ربه يسليه ويعزيه في إعزاز وتكريم . في تعبير لا نظير له في القرآن كله ; ولم يوجه من قبل إلى نبي أو رسول: (واصبر لحكم ربك , فإنك بأعيننا ,وسبح بحمد ربك حين تقوم , ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) . .

إنه الإيقاع الذي يمسح على العنت والمشقة اللذين يلقاهما الرسول الكريم , من أولئك المتعنتين المعاندين , الذين اقتضت مواجهتهم تلك الحملة العنيفة من المطاردة والهجوم . .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3391 . 3393 ﴾

(13/728)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الطور

مكية وآياتها تسع وأربعون آية

بين يدي السورة

* سورة الطور من السور المكية التى تعالج موضوع العقيدة الإسلامية ، وتبحث في أصول العقيدة وهي (الوحدانية ، والرسالة ، والبعث والجزاء) شأنها كشأن سائر السور المكية ، التي تتناول أمور العقيدة الإسلامية .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن أهوال الآخرة وشدائدها ، وعما يلقاه الكافرون في ذلك الموقف الرهيب " موقف الحساب " وأقسمت على أن العذاب نازل بالكفار لا محالة ، لا يمنعه مانع ، ولا يدفعه دافع ، وكان القسم بأمور خمسة تنبيها على أهمية الموضوع [والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع . .] الآيات .

* ثم تناولت الحديث عن المتقين وهم في جنات النعيم ، على سرر متقابلين ، وقد جمع الله لهم أنواع السعادة " الحور العين ، واجتماع الشمل بالذرية والبنين ، والتنعم والتلذذ بأنواع المآكل والمشارب ، من فواكه وثمار ، ولحوم متنوعة مما يشتهى ويستطاب ، إلى غير ما هنالك من أنواع النعيم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر [إن المتقين في

جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . .] الآيات .

* ثم تحدثت عن رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، وأمرته بالاستمرار بالدعوة ، والتذكير والإنذار للكفرة الفجار ، غير عابىء بما يقوله المشركون ، وما يفتريه المفترون ، حول الرسالة والرسول ، فليس محمد (صلى الله عليه وسلم) بإنعام الله عليه بالنبوة وإكرامه بالرسالة بكاهن ولا مجنون كما زعم المجرمون [فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . .] الآيات .

(14/728)

---

* ثم أنكرت السورة على المشركين مزاعمهم الباطلة في شأن نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وردت عليهم بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل ، وآقامت الدلائل على صدق رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم)

[أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين صادقين . .] الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بالتهكم بالكافرين وأوثانهم بطريق التوبيخ والتقريع ، وبينت شدة عنادهم ، وفرط طغيانهم ، وأمرت الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، بالصبر على

تحمل الأذى في سبيل الله ، حتى يأتي نصر الله [واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم] .

التسمية :

سميت " سورة الطور " لأن الله تعالى بدأ السورة الكريمة بالقسم بجبل الطور الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام ، ونال ذلك الجبل من الأنوار والتجليات والفيوضات الإلهية ما جعله مكانا وبقعة مشرفة على سائر الجبال في بقاع الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 261.262 ﴾

(15/728)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الطور

الطور بالسريانية : الجبل ، والمراد به طور سينين ، وهو الجبل الذي كلم اللّه عليه موسى عليه السلام ، والمراد بالكتاب هنا : ما كتب من الكتب السماوية كالقرآن والتوراة والإنجيل ، والمسطور : أي المكتوب على طريق منظم ، والسطر ترتيب الحروف المكتوبة ،

والرّق : (بالفتح والكسر) جلد رقيق يكتب فيه ، والمنشور : المفتوح الذي لا ختم عليه ، والبيت المعمور : هو الكعبة المعمورة بالحجاج والمجاورين ، والسقف المرفوع : هو السماء ، والمسجور : أي الموقد المحمى ، من سجر النار أي أوقدها وعنى به باطن الأرض وهو الذي دل عليه الكشف الحديث ولم تعرفه الأمم قديما ، وقد أشارت إليه الأحاديث ، فعن عبد اللّه بن عمر : " لا يركبنّ رجل البحر إلا غازيا أو معتمرا أو حاجا ، فإن تحت البحر نارا ، وتحت النار بحرا " .

وقد أثبت علماء طبقات الأرض (الجيلوجيا) أن الأرض كلها كبطيخة وقشرتها كقشرة البطيخة أي إن نسبة قشرة الأرض إلى النار التي فى باطنها كنسبة قشرة البطيخة إلى باطنها الذي يؤكل ، فنحن الآن فوق نار عظيمة : أي فوق بحر مملوء نارا ، وهذا البحر مغطى من جميع جهاته بالقشرة الأرضية المحكمة السد عليه ، ومن حين إلى آخر تتصاعد من ذلك البحر نار تظهر فى الزلازل والبراكين كبركان فيزوف الذي هاج بإيطاليا سنة 1909 م وابتلع مدينة مسّينا ، والزلزلة التي حدثت باليابان سنة 1925 م وخربت مدنا بأكملها .

وتمور : أي تضطرب وترتجّ وهى فى مكانها ، وأصل المور التردد فى الذهاب والمجيء ، وقد يطلق على السير مطلقا كما قال الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها مور السحابة لا ريث ولا عجل

وأصل الخوض : السير فى الماء ثم استعمل فى الشروع فى كل شىء وغلب فى الخوض فى الباطل ، كالإحضار فإنه عام فى كل شىء ثم غلب استعماله فى الإحضار للعذاب ، يدعّون : أي يدفعون دفعا عنيفا شديدا بأن تغلّ أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ويدفعون إلى النار ويطرحون فيها .

فاكهين : أي طيبة نفوسهم ، مسرورة بما هى فيه ، وقاهم : أي حفظهم ، والطعام الهنيء : ما لا يلحق المرء فيه مشقة ولا يعقبه تخمة ولا سقم ، وزوّجناهم : أي قرنّاهم ، والحور : واحدتهن حوراء ، والحور : اسوداد المقلة ، والعين : واحدتهن عيناء : أي واسعة العينين .

ألتناهم : أي أنقصناهم ، رهين : أي مرهون بعمله عند اللّه ، والعمل الصالح يفكّه ، والعمل الطالح يوبقه ، وأمددناهم : أي زدناهم ، مما يشتهون : أي من صنوف النعماء ، وضروب الآلاء ، يتنازعون : أي يتجاذبون تجاذب ملاعبة وسرور ، والكأس : الإناء بما فيه من الشراب قاله الراغب ، وقد يسمى كل منهما على انفراد كأسا ، لا لغو فيها : أي فى شرابها ، فلا يتكلمون فى أثناء الشراب بلغو الحديث وسقط الكلام ، ولا تأثيم : أي ولا

يفحشون فى القول كما هو ديدن الندامى فى الدنيا ، فإنهم كثير واللغو فعالون للآثام ،

غلمان : أي مماليك مختصون بهم ، مكنون : أي مصون فى أصدافه لم تنله الأيدى فهو يكون

أبيض صافى اللون ، والسموم : النار ، والبر : الواسع الإحسان .

فذكر : أي فاثبت على ما أنت عليه من التذكير ، والكاهن : من يخبر بالأخبار الماضية

الخفية بضرب من الظن ، والعرّاف : من يخبر بالأخبار المستقبلة كذلك قاله الراغب ،

ونتربص : أي ننتظر ، والمنون : الدهر ، وريبه : حوادثه وصروفه قال أبو ذؤيب :

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

وقال آخر :

تربّص بها ريب المنون لعلها تطلّق يوما أو يموت حليلها

(17/728)

الأحلام : العقول ، والطغيان : تجاوز الحد فى المكابرة والعناد ، تقوّله : أي اختلقه من تلقاء

نفسه ، إذ التقول لا يستعمل غالبا إلا فى الكذب .

من غير شىء : أي من غير خالق ، خزائن ربك : أي خزائن رزقه ، المسيطرون :

أي القاهرون المسلطون عليها ، من قولهم : سيطر على كذا . إذا راقبه وأقام عليه ، سلّم :

أي مرتقى إلى السماء ، بسلطان مبين : أي بحجة واضحة تصدق استماعه ، مغرم : أي التزام غرامة تطلبها منهم ، مثقلون : أي محملون ثقلا ، الغيب : أي علم الغيب ، كيدا : أي شرا ، المكيدون : أي الذين يحيق بهم الشر ويعود إليهم وباله .

كسفا : أي قطعة ، مركوم : أي متراكم ملقى بعضه على بعض ، يصعقون : أي يقتلون ، دون ذلك : أي قبله ، وهو ما أصابهم من القحط سبع سنين ، بأعيننا : أي

فى حفظنا وحراستنا ، وإدبار النجوم : أي وقت إدبارها من آخر الليل أي غيبتها بضوء الصباح. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 27 صـ 17 ـ 37 ﴾ . باختصار .

(18/728)

وقال الفراء :

سورة (الطور)

﴿ وَالطُّورِ ﴾

وقوله عز وَجل: ﴿ وَالطُّورِ . . . ﴾ .

أقسَم به وَهُوا الجَبلُ الذى بمَدْيَنَ الذى كلّمَ اللهُ جلَّ وَعزَّ موسى عليه السلام عنده تكليماً .

﴿ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ . . . ﴾ .

والرَّقُ: الصحائفُ التى تُخْرَجُ إلى بنى آدَمَ، فآخِذٌ كتابَه بيمينِهِ، وآخِذٌ كتابَه بشمالِهِ.

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ . . . ﴾ .

بيت كان آدم صلى الله عليه بناه فرُفِع أيام الطوفانِ، وهو فى السماء السادسَةِ بحيال الكعبةِ.

﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ . . . ﴾ .

كان على بن أبى طالب رحمه الله يقول: مسجورٌ بالنار، والمسجورُ فى كلام العرب: المَمْلوء.

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْراً ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْراً . . . ﴾ .

تدورُ بما فيها وتسيرُ الجبال عن وجه الأرض: فتستوى هى والأرضُ.

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ . . . ﴾ .

يُدفعون: وكذلكَ قولُه: ﴿ فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ .

﴿ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ . . . ﴾ .

مُعْجَبِينَ بما آتاهم ربُّهم .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم . . . ﴾ :

قرأها عبدُالله بن مسعود: (وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) . ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ . . . ﴾ على التوحيد .

(19/728)

قالَ حدثنا محمد بن الجهم قالَ: حدثنا الفراءُ قالَ: حدثني قيسُ والمفضلُ الضبي عن الأعمش عن إبراهيم ، فأما المفضَّلُ فقال عن علقمة عن عبدِالله ، وقالَ قيسٌ عن رجل عن عبدالله قالَ: قرأ رجل على عبدِالله "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتّبعهم ذُرِّيَّاتُهم بإيمانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهم" . قال: فجعل عبدُالله يقرؤها بالتوحيد . قالَ حتّى ردَّدَها عليه نحواً من عشرين مرةً لا يقول ليسَ كما يقولُ وقرأها الحسنُ: كلتيهما بالجمع ، وقرأ بعض أهل الحجاز ، الأولى

بالتوحيد ، والثانية بالجمع ، ومعنى قوله: ﴿ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم ﴾ يقالُ: إذا دَخَلَ أهلُ الجنةِ الجنة فإن كانَ الوالدُ أرفَع درجة من ابنه رُفِع ابنُه إليه ، وإن كانَ الولدُ أرفعَ رُفِعَ والدُه إليه:

[/1] وقوله عز وجل: ﴿ وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ . . . ﴾ .

الأَلْتُ: النقصُ ، وفيه لغةٌ أُخرى: (وما لِتْناهم من عَمِلهم من شيء) ، وكذلِكَ هي في قراءة عبد الله ، وأبي بن كعب قالَ الشاعرُ:

أبلغْ بني ثُمَلٍ عنّي مُغَلْغَلَة * جَهْدَ الرسالةِ لا أَلْتاً ولا كذِبا

يقولُ: لا نقصانٌ ، ولا زيادةٌ ، وقالَ الآخِرُ:

وليلةٍ ذات نَدىً سَرَيتُ * ولم يَلِتْني عن سُرَاها لَيْتُ

واللَّيْتُ ها هُنا مصدر لم يَثْنِني عنها نَقْصٌ بي ولا عَجْزٌ عنها .

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ . . . ﴾ .

إِنَّه قرأها عاصم والأعمشُ ، والحسنُ - (إِنَّه) - بكسرِ الألفِ ، وقرأها أبو جعفر المدني ونافع - (أَنَّه) ، فمن: كسرَ استأنفَ ، ومَن نصَبَ أراد: كُنَّا ندعوه بأنه بَرٌّ رحِيمٌ ، وهو وجه حسنٌ . قال الفراءُ: الكسائيُّ يفتحُ (أَنَّه) ، وأنا أكسِرُ ، وإنما قلتُ: حسنٌ لأن الكسائي قرأه .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ . . . ﴾ .

(20/728)

أوجاعَ الدَّهر ، فيشغل عنكم ، ويتفرّقُ أصحابُه أو عُمْر أبائه ، فإنَّا قد عرفنا أعمارَهم .

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُمْ بِهَاذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُمْ بِهَاذَآ . . . ﴾ .

الأحلامُ فى هذا الموضع: العقولُ والألبابُ .

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ الْمُصَيْطِرُونَ . . . ﴾ . و ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ .

[/ب] كِتابتُها بالصاد ، والقراءة بالسينِ والصادِ . وقرأها الكسائى بالسين ومثله: بصطةٌ ، وبسطةً . كُتبت بعضُها بالصادِ ، وبعضُها بالسين . والقراءة بالسين فى بَسَطة ، ويَبْسُط . وكل ذلِكَ أحسبُهُ قال صواب .

قال [قال] الفرَّاء: كُتِبَ فى المصاحف فى البقرة . بَسْطةً ، وفى الأعرافِ بصطةً بالصاد وسائر القرآنِ كُتِبَ . بالسين .

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾

وقولُه عز وجل: ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ . . . ﴾ بالألف، وَقد قرأ بعضُهم (يَلْقَوْا) وَالملاقاة أعرَبُ وكلٌّ حسنٌ.

وقوله عز وجل: ﴿ فِيهِ يُصْعَقُونَ . . . ﴾ قرأها عاصم، وَالأعمشُ (يَصعقون) [وأهلُ الحجاز (يُصعقون)] وَقرأها أبو عبد الرحمن السُّلمىُّ (يَصعقون) بفتح الياء. مثل الأعمش. وَالعربُ تقولُ: صُعِق الرجُلُ، وَصَعق. وَسُعِد، وَسَعِدَ لغاتٌ كلُّها صوابٌ. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 94.91 ﴾

(21/728)

وقال بيان الحق الغزنوى:

سورة الطور

(في رق منشور) [3] قيل: إنه صحيفة الأعمال، كقوله تعالى: (وإذا الصحف نشرت).

وقيل: إنه اللوح المحفوظ. وقيل: إنه كتاب من كتب الله في رق. وهو إما التوراة بسبب اقترانه بالطور، أو القرآن بسبب [الـ]بيت المعمور، وهو الكعبة.

وهذا القول أولى، لمكان "الرق"، وسمي به لرقة حواشيه، وقد عرفت العرب ذلك. قال

التغلبي: 1132- لا بنت حطان بن عوف منازل كما نمق العنوان في الرق كاتب

1133- ظللت بها أعرى وأشعر [سخنة] كما [اعتاد محموماً] بخيبر [صالب] .

(والبحر المسجور) [6] في الخبر: "أنه جهنم" ، وبذلك فسر مجاهد المسجور ، وقال: "إنه الموقد ناراً" ، كقوله: (وإذا البحار سجرت) .

وقال ابن كيسان: المسجور: المجموع. وأنشد للنمر بن تولب:

1134- إذا شاء طالع مسجورة ترى حولها النبع و[الساسما] . وقال لبيد: /

1135- فتوسطا عرض السري فصدعا مسجورة متجاوراً قلامها . (تمور السماء مورا) [9] تدور طوراً فترجع رجعاً . قال ذو الرمة:

1136- موارة الرجع مسكات إذا رجلت تهوي انسلالاً إذا ما اغبرت البيد 1137- نظارة حين تعلو الشمس راكبها [طرحاً] بعيني لياح فيه [تجديد] . (فويل يومئذ) [11] دخلت الفاء على معنى المجازاة ، لأنه بمنزلة إذا كان كذا . (دعاً) [13] دفعاً عنيفاً ، قال [الراجز]: 1138- يدعه بضفتي حيزومه 1139- دع الوصي جانبي يتيمه .

(أفسحر هذا) [15] [إذ] كانوا يقولون لآيات الله إنها سحر . (يتنازعون) [23] يتعاطون ، ويتساقون . وهذه اللفظة تداولتها العرب "معاطاة الكؤوس ، ومجاذبة الأعنة" ، قال الأخطل: 1140- وشارب مربح بالكأس نادمني لا [بالحصور] ولا فيها [بسوار]

1141- نازعته طيب الراح الشمول وقد صاح الدجاج وحانت وقعة الساري . وقال بشر في مجاذبة الأعنة ، وليس [لفصاحة] قوله نهاية:

(22/728)

1142- وما يسعى رجالهم ولكن فضول الخيل ملجمة صيام 1143- [ينازعن] الأعنة مصغيات كما يتفارط الثمد الحمام . وقال آخر: 1144- منازعة العنان بغصن بان على كتفين كالقتب الشميم . وقال أيضاً :

1145- بكل قياد مسنفة عنود أضر بها المسالح والغوار 1146- منازعة العنان كأن فيها جرادة هبوة فيها اصفرار . (لا لغو فيها ولا تأثيم) [23] أي: لا سباب ولا ملاحاة ، مثل ما يكون في خمور الدنيا ، كما قال بعض الصحابة:/ 1147- من يقرع الكأس اللئيمة سنه فلا بد أن يلغو ويؤذي ويجهلا 1148- فلم أر [مطلوباً] أخس غنيمة وأوضع للأشراف منها وأخملا

1149- وأجدر أن يلقى كريماً يذمها ويشربها حتى يخر [مجدلا] . وقال ذو الرمة في قريب من هذا المعنى ، وإن عكسه إلى المدح في قصيدته لبلال بن أبي بردة: 1150- فلا الفحش فيها يرهبون ولا الخنا عليهم ولكن هيبة هي ماهيا 1151- بمستحكم جزل

المروءة مؤمن من القوم لا يهوى الكلام اللواغيا . (كأنهم لؤلؤ مكنون) [24]

أي: مصون لنفاسته . واقتبسه عبد الرحمن بن حسان فقال لرملة بنت معاوية: 1152- وهي زهراء مثل لؤلؤة الغواص ميزت من جوهر مكنون 1153- وإذا ما نسبتها لم تجدها في سناء من المكارم دون . (نتربص به ريب المنون) [30] ننتظر به صرف الدهر .

قال أبان بن عثمان في ابنتي معاوية أيضاً: 1154- تربص بهند أن يموت ابن عامر ورملة يوماً أن يطلقها عمرو 1155- فإن صدقت [أمنيتي كنت] مالكاً لإحداهما إن طال بي وبها العمر .

(أم هم المصيطرون) [37] المسلطون . وقيل: الحفظة الكتبة من السطر . وإنما تقلب صاداً لأجل الطاء ، طلباً لمجانسة الإطباق . (أم لهم سلم يستمعون فيه) [38] أي: يرتقي إلى السماء . (أم عندهم الغيب) [41] بأن محمداً يموت قبلهم .

[تمت سورة الطور] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 1377.1388 ﴾

(23/728)

وقال الأخفش :

سورة (الطور)

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْراً * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً * فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾

قال ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْراً ﴾ ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً ﴾ ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ دخلت الفاء لأنه في معنى: اذا كان كذا وكذا فأشبه المجازاة، لأن المجازاة يكون خبرها بالفاء.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾

وقال ﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ لأنك تقول: "تَرَبَّصْتُ زَيْداً" أيْ: تربصت به. انتهى

انتهى. اهـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 525 ﴾

(24/728)

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة الطور

مكية كلها

1 - الطُّورِ «1»: جبل بمدين، كلم عنده موسى عليه السلام.

2 - و3 - وَكِتابٍ مَسْطُورٍ أي مكتوب «2». فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ.

يقال: هي الصحائف التي تخرج يوم القيامة إلى بني آدم.

4 - وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ: بيت في السماء حيال الكعبة.

5 - وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ يعني : السماء .

6 - وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ : المملوء «3» . قال النمر بن تولب - وذكر وعلا - :

إذا شاء طالع مسجورة ترى حولها المنبع والساسما

أي عينا مملوءة .

9 - يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً : تدور بما فيها .

10 - وَتَسِيرُ الْجِبالُ عن وجه الأرض .

---

(1) قال مجاهد : الطور : الجبل بالسريانية .

(2) هو قول قتادة .

(3) قال الحسن : تسجر حتى يذهب ماؤها فلا يبقى فيها قطرة .

(25/728)

---

13 - يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا أي يدفعون . يقال : دععته أدعه دعّا ، أي دفعته .

ومنه : الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ [سورة الماعون آية : 2] .

18 - فاكِهِينَ بما آتاهُمْ رَبُّهُمْ أي ناعمين بذلك . وفَكِهِينَ معجبين بذلك «1» .

21 - وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ أي ما نقصناهم .

23 - يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً أي يتعاطون. قال الأخطل:

وشاربه مربح بالكأس نازعني لا بالحصور ولا فيها بسوار

اي عاطاني.

لا لَغْوٌ فِيها [وَلا تَأْثِيمٌ] أي لا تذهب بعقولهم، فيلغوا او يرفثوا، فيأثموا. كما يكون ذلك في خمر الدنيا.

26 - إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ أي خائفين.

29 - فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ - بِنِعْمَةِ رَبِّكَ - بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ كما تقول:

ما أنت - بحمد اللّه - بجاهل.

30 - نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ أي حوادث الدهر وأوجاعه ومصائبه.

و«المنون»: الدهر، قال ابو ذؤيب:

أمن المنون وريبه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع؟

هكذا كان الأصمعي يريه: «وريبه»، ويذهب الى أنه الدهر، قال:

وقوله: «والدهر ليس بمعتب» يدل على ذلك، كأنه قال: «أمن الدهر وريبه

---

(1) قال الطبري: عندهم فاكهة.

تتوجع ، والدهر لا يعتب من يجزع ! ؟» .

قال الكسائي : «تقول العرب : لا أكلمك آخر المنون ، أي آخر الدهر» .

37 - أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ! أي الأرباب . يقال : تسيطرت علي ، أي اتخذتني خولا [لك] .

38 - أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ! ؟ أي درج . قال ابن مقبل :

لا تحرز المرء أحجاء البلاد ، ولا تبني له في السموات السلاليم

44 - وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً قد تقدم ذكره «1» .

سَحابٌ مَرْكُومٌ أي ركام : بعضه على بعض .

والمعنى انهم قالوا للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم : إنا لا نؤمن لك حتى تسقط السماء علينا كسفا ، فقال اللّه : لو أسقطنا عليهم كسفا من السماء ، قالوا : هذا سحاب مركوم ، ولم يؤمنوا .

45 - يُصْعَقُونَ : يموتون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 366 .

368 ﴾

---

(1) قال الطبري : وإن ير هؤلاء المشركون قطعا من السماء ساقطا عليهم .

وقال الغزنوى :

سورة والطور

1 وَالطُّورِ : اسم جبل بالسّرياني «1» ، وَكِتابٍ مَسْطُورٍ : القرآن «2» .

أو التوراة «3» بسبب الطور ، أو اللّوح «4» ، أو صحيفة الأعمال «5» .

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 27/ 15 عن مجاهد ، وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 627 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن مجاهد أيضا ، .

(2) ذكر الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 109 دون عزو .

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 46 عن الماوردي .

(3) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 109 عن ابن بحر .

(4) أورده ابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 45 ، وقال : «قاله أبو صالح عن ابن عباس» .

وذكره ابن كثير في تفسيره : 7/ 403 .

(5) ذكره الماروردي في تفسيره: 4/ 109 عن الفراء. وكذا القرطبي في تفسيره: 17/ 59.

(28/728)

---

4 وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ: بيت الحرام «1». وقيل «2»: بيت في السّماء السّادسة حيال الكعبة.

6 وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ: في الحديث «3»: «أنه جهنم» ولفظ مجاهد «4»: «المسجور: الموقد نارا».

9 تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً: تدور وترجع «5». وقيل «6»: تجيء وتذهب كالدخان ثم تضمحل.

---

(1) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره: 4/ 110 عن الحسن، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير: 8/ 47، والقرطبي في تفسيره: 17/ 60.

(2) ذكره الفراء في معانيه: 3/ 91، وأخرجه الطبري في تفسيره: 27/ 16 عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه.

وقد ثبت في الصحيح أنه في السماء السابعة، وثبت أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم

قال في حديث الإسراء : «ثم رفع إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم» .

أخرجه البخاري في صحيحه : 4/ 78 ، كتاب بدء الخلق ، باب «ذكر الملائكة صلوات اللّه عليهم» .

ومسلم في صحيحه : 1/ 150 ، كتاب الإيمان ، باب «الإسراء برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى السماوات» .

قال الحافظ ابن كثير في معنى هذا الحديث : «يعني يتعبدون فيه ويطوفون به ، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك ذاك البيت ، هو كعبة أهل السماء السابعة . . .» .

ينظر تفسيره : 7/ 403 .

(3) ورد نحوه في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 27/ 18 عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه . وذكره الماوردي في تفسيره : 4/ 111 ، وقال : «رواه صفوان بن يعلى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم» .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 630 ، وزاد نسبته إلى ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ في «العظمة» عن علي رضي اللّه عنه .

(4) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 4/ 111 ، وأخرج نحوه الطبري في تفسيره : 27/ 19 عن مجاهد .

(5) ينظر هذا المعنى في معاني القرآن للفراء : 3/ 91 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 424 ، وتفسير الطبري : 27/ 21 ، ومعاني الزجاج : 5/ 61 .

(6) تفسير القرطبي : 17/ 63 .

(29/728)

---

13 دَعًّا : دفعا عنيفا .

15 أَفَسِحْرٌ هذا : يقال لهم ذلك لما عاينوا العذاب توبيخا بما كانوا يقولون .

20 مُتَّكِئِينَ : مستندين استناد راحة .

19 هَنِيئاً : صفة في موضع المصدر ، أي : هنئتم هنأتم هنيئا «1» .

21 وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ : أي بإيمان الآباء ألحقوا بدرجة الآباء كرامة لهم «2» .

وَما أَلَتْناهُمْ : من غير أن ينقص من أجور الآباء .

26 مُشْفِقِينَ : أي [الخائفين] «3» من المصير إلى عذاب اللّه .

35 أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ : لغير شيء ، أي : باطلا «4» . وقيل «5» : أم خلقوا من غير خالق .

أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ : فلا يطيعون اللّه .

37 أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ : المسلّطون .

38 أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ : فيستمعون الوحي أو يصرفونه .

44 كِسْفاً مِنَ السَّماءِ : قطعة من العذاب يقولوا لطغيانهم : هذا سحاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 767 . 769 ﴾

---

(1) عن معاني القرآن للزجاج : 5/ 63 ، وينظر تفسير القرطبي : 17/ 65 ، والبحر المحيط .

8/ 148 . [. . . . .]

(2) تفسير الطبري : 27/ 24 ، وتفسير ابن كثير : (7/ 407 ، 408) .

(3) ما بين معقوفين عن نسخة «ج» .

(4) ذكر الطبري هذا القول في تفسيره : 27/ 33 ، وكذا الزجاج في معانيه : 5/ 65 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 56 ، والقرطبي في تفسيره : 17/ 74 .

(5) أورده البغوي في تفسيره : 4/ 241 ، وقال : «و معناه : أخلقوا من غير شيء خلقهم فوجدوا بلا خالق ، وذلك مما لا يجوز أن يكون ، لأن تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم ، فلا بدّ له من خالق ، فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق» اه - .

وانظر هذا القول في زاد المسير : 8/ 56 ، وتفسير القرطبي : 17/ 74 .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الطور

عدد 26 - 76 - 52

نزلت بمكة بعد سورة السجدة ، وهي تسع وأربعون آية ، وثلاثمائة واثنتا عشرة كلمة ، وألف وخمسمائة حرفا .

لا يوجد سورة مبدوءة بما بدئت به ، ولا مثلها في عدد الآي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "وَالطُّورِ" 1 طور سيناء الجبل الذي كلم اللّه عليه موسى عليه السلام ، ويطلق لغة على كل جبل بانفراده ،

أما إذا وصف فيتقيد بكل جبل ملتفة عليه الأشجار ، وإنما أقسم اللّه به دون غيره لعظم ما وقع عليه منه جل شأنه لسيدنا موسى "وَكِتابٍ مَسْطُورٍ" 2 هو التوراة واللّه أعلم بدلالة السياق والسباق ، يؤيده قوله جل قوله "فِي رَقٍّ" وهو الأديم الذي يكتب عليه بفتح الراء وكسرها من الرقة ضد الصفاقة أي الوقاحة ، ثم انه تجوز فيه عما يكتب فيه الكتّاب من

ألواح وغيرها أو من الرقة وهي اللطافة ، "مَنْشُورٍ" 3 مبسوط مفتوح ، وقيل هو عبارة عن صحائف الأعمال استدلالا بقوله تعالى (وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً) الآية 14 من سورة الإسراء ج 1 ، وقيل هو القرآن ، والأول أولى وأنسب بالمعنى بمناسبة ذكر الطور ، ولأن الكتاب الذي أنزل على موسى أنزل ألواحا مكتوبة مفتوحة ، قال تعالى (وَأَلْقَى الْأَلْواحَ) الآية 150 من الأعراف في ج 1 ، ولأن القرآن لم ينزل على محمد مكتوبا تدبر .

(31/728)

"وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ" الكائن في السماء السابعة ، وسمي معمورا لكثرة زوّاره من الملائكة يعمرونه بالتسبيح والتهليل والتقديس ، وجاء في حديث المعراج من إفراد مسلم عن أنس رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم رأى البيت المعمور في السماء السابعة ، قال فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ويسمى الفراغ حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض وهو واقع فوقها بحيث لو سقط من قلبه حجر لسقط عليها ، وهو تحت العرش كما روي عن علي كرم اللّه وجهه .

وقال بعض المفسرين إنه الكعبة وعمارته بالحجاج ، والأول أولى لذكره صراحة بالحديثين الصحيحين ، وشهرته في هذا الاسم دون الكعبة ، وقال آخر إنه المسجد الأقصى المعمور

بالأنبياء ، وهو أضعف مما قبله ، لأن هناك ثلاثة بيوت مقدسة :

البيت المعمور ، وبيت العزة في سماء الدنيا الذي أنزل إليه القرآن جملة دفعة واحدة ،

والبيت الحرام بالأرض .

وكل منها مشهور لا يغلب أحدها على الآخر .

أما المسجد الأقصى فلم يطلق عليه لفظ بيت ، لأن اللّه سماه المسجد الأقصى ، وأطلق عليه لفظ القدس ، وقد سمى اللّه الكعبة البيت الحرام "وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ" 5 السماء العالية أو العرش ، لأنه سقف الجنة كما ذكره ابن عباس رضي اللّه عنهما ، يؤيده الحديث المار ذكره في تفسير الآية 18 من سورة المؤمنين المارة .

"وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ" 6 الموقد المحمى .

مطلب من معجزات القرآن الإخبار عن طبقات الأرض ، وعن النسبة المسماة ميكروب :

جاء في الحديث الشريف عن عبد اللّه بن عمر قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لا يركب رجل البحر إلا غازيا أو معتمرا أو حاجا وان تحت البحر نارا وتحت النار بحرا .

وورد أن البحر طباق جهنم .

هذا وقد يظن من لا خبرة له في طبقات الأرض أنه لا يوجد بحر متوقد ، مع أنه ثبت أخيرا أن جوف الكرة الأرضية فيه بحر يغلي كالمرجل ، ومن انجرته تحصل الزلازل ، ومن شظايا معادنه تحصل البراكين .

وهذا من معجزات القرآن العظيم وإخباره بالغيب ، إذ لا يوجد إبّان نزوله من يعلم ذلك .

ولعل هذا يظن أيضا أن الميكروب المكتشف أخيرا لم يشر اللّه تعالى إليه ، كلا بل هو موجود ، قال تعالى (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها) الآية 10 من سورة الأحزاب ج 3 ، وجاء في الخبر : اتقوا الغبار فإن فيه النسمة .

وهل النسمة إلا الحشرة الصغيرة التي يسمونها ميكروبا ، وهي من الجنود التي لم تر ، المشار إليها في كتاب اللّه ، وقد يكون في التراب ، ولهذا قال صلّى اللّه عليه وسلم من أكل التراب فقد أعان على قتل نفسه .

ولهذا ينبغي لمن يأكل الفواكه والخضراوات أن يغسلها جيدا حتى لا يبقى فيها تراب ما ، لأنه لا يخلو عن النسمة أي الميكروب ، وعليه فلا يظن أحد استحالة جنود لم ترها العيون ، لأن الجراثيم الصغيرة التي لا ترى إلى بالمكبرات هي من جنود اللّه الفتاكة ، وان اللّه تعالى يسوقها مع الرياح ويسلطها على من يشاء من خلقه ، وخاصة الطاعون والهواء الأصفر والهيضة المسماة (كوليرا) والهيجان الذي يقتل فيه أقوى جبار في ساعة واحدة ، أليس

النمروذ أهلك ببعوضة وهو على ما كان عليه من الجبروت ، ألا فلا يظن أحدا أن القرآن أغفل شيئا ، كيف والله تعالى يقول (ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ) الآية 38 من سورة الأنعام المارة ، إلا أنه محتاج لفكر ثاقب وعقل كبير ووعي بالغ وقلب واع ودراسة طويلة ، قال القائل :

ومن طلب العلوم بغير درس سيدركها إذا شاب الغراب

وقال الآخر :

(33/728)

ألا لا تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن مجموعها ببيان

ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة وإرشاد أستاذ وطول زمان

هذا وقد أقسم الله في هذه الأشياء لما فيها من عظيم قدرته وجواب القسم "إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ" 7 بالمشركين والعاصين في الدنيا والآخرة على بعض وفي الآخرة على آخرين ، على أن العصاة قد يعذبهم فيهما أو في أحدهما ، وقد يعفو عنهم ، ولا يسأل مما يفعل ، وإذا وقع عذابه على أحد "ما لَهُ مِنْ دافِعٍ" 8 يدفعه عنه أو يمنعه منه وعلامة وقوعه أول أيام الآخرة "يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً" 9 تضطرب وتدور بشدة كدوران الرحى ، ولكن بسرعة

لا تدرك "وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً" 10 حثيثا فتزول عن أماكنها وتكون هباء منثورا ، لأنها خلقت رواسي للأرض كي لا تتكفا بأهلها تكفؤ السفينة ولا تتحرك ، وذلك لأجل عمارة الأرض أما وقد آذن اللّه بخرابها فلم يبق لها من حاجة ، ليتم قوله تعالى (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ) الآية 48 من سورة إبراهيم المارة ، قال جبير ابن مطعم : قدمت المدينة لأكلم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم في أسارى بدر - أي بعد نزول هذه الآية بسنين كما ألمعنا إليه في الآية 17 من سورة السجدة المارة - فدفعت له وهو يصلي بأصحابه المغرب وصوته يخرج من المسجد ، فسمعته يقرأ (والطور) إلى قوله (إن عذاب ربّك لواقع ، ماله من دافع) فكأنما صدع قلبي حين سمعت ، (ولم يكن أسلم يومئذ) فأسلمت خوفا من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مكاني حتى يقع بي العذاب .

(34/728)

وهذا كقول عبد اللّه بن سلام حين سمع قوله تعالى (يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ آمِنُوا بِما نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارِها) الآية 47 من سورة النساء ج 3 ، قال واللّه يا رسول اللّه ما كدت لأن أرجع فأومن قبل أن يطمس اللّه وجهي إلخ ، فأسلم وحسن إسلامه كما سيأتي في تفسير هذه الآية .

قال تعالى "فَوَيْلٌ" هلاك وعذاب شديد وهوان وبلاء كبير "يَوْمَئِذٍ" يوم وقوعه "لِلْمُكَذِّبِينَ" 11 بالله ورسوله وكتابه واليوم الآخر "الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ" 12 لاهون مما يراد بهم في الدنيا وما هم قادمون إليه في الآخرة مشغولون بما لا يعنيهم "يَوْمَ يُدَعُّونَ" يدفعون بعنف "إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا" 13 دفعا عظيما وتقول لهم الملائكة "هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ" 14 الذين أخبروكم بها وتقولون لما يتلى عليكم من آيات الله لسحر وكهانة ، أنظروا "أَفَسِحْرٌ هَذَا" المتلو عليكم كما زعتم "أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ" 15 ، أنه حق اليقين اليوم كما كنتم في الدنيا ، لأن السحر لا يدوم ، وهذا دائم مستمر .

(35/728)

وبعد أن يعترفوا يقال لهم "اصْلَوْهَا" احترقوا في نار جهنم فمسّوا شدة حرها "فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا" على حد قوله تعالى (أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا) الآية 21 من سورة إبراهيم المارة ، فإن صبركم وعدمه "سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" 16 لا محيص لكم عنه ، قال تعالى "إِنَّ الْمُتَّقِينَ" للكفر والتكذيب في الدنيا يكونوا في الآخرة "فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ فَاكِهِينَ" 17 متنعمين فيها "بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ" من الخيرات "وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ" 18 جزاء إيمانهم وتصديقهم ، وتقول الملائكة لهم في ذلك اليوم "كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا" لا

تخمة فيه ولا سقم "بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" 19 في الدنيا راجع الآية" 32 من سورة النحل المارة ، وللبحث صلة في الآية 24 من الحاقة الآية ، وتراهم أيها الرائي "مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ" موصولة بعضها ببعض "وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ" 20 يتنقمون بهن زيادة على ذلك

"وَالَّذِينَ آمَنُوا" آتيناهم ذلك كله "وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ" أي الكبار منهم بإيمانهم أنفسهم والصغار بإيمان آبائهم "أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ" في الجنة تكرمة لهم لتقربهم أعينهم ويجمع لهم السرور كما كانوا في الدنيا يحبون الاجتماع بهم .

الحكم الشرعي :

إن الولد الصغير يحكم بإيمانه إذا مات قبل بلوغه تبعا لأحد أبويه ، لأنه يتبع أحسن الأبوين في الدين وأخسّهما في النجاسة ، ويتبع أمه في الرق إلا أن تعتق فتكون حرة ، قال :

يتبع الفرع في انتساب أباه والامّ في الرق والحرية

والزكاة الأخف والدين الأعلى والذي اشتد في جزاء ودية

وأخس الأصلين رجيا وذبحا ونكاحا والأكل والأضحية

قال تعالى "وَما أَلَتْناهُمْ" أنقصناهم "مِنْ" ثواب "عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ" في عمله "رَهِينٌ" 21 فنفس المؤمن مرهونة بعملها وتكافى بحسبه وأحسن ، ونفس الكافر مرهونة بعملها وتجازى بحسبه فقط وما ربك بظلام ، فلا يرهن أحد بعمل أحد .

قال تعالى (وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى) الآية 164 من الأنعام المارة وفي سورة النجم ج 1 مثلها ، وذكرنا فيها أن سعي للغير ينفع ، وهو من خصائص هذه الأمة كما منفصله في الآية 42 من سورة الرعد في ج 3 إن شاء اللّه .

(37/728)

قال تعالى "وَأَمْدَدْناهُمْ" زدناهم وأعطيناهم وأصل المدّ الجر ويجيء غالبا بمعنى الإمداد للشيء المحبوب ، والمد للمكروه ، الإمداد تأخير الأجل والإغاثة وتعزيز الجنود بجماعة أخرى ، قال تعالى (أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ) الآية 10 من سورة الأنفال ج 3 ، أي زدناهم بعد تقديم ما يؤكل من الغذاء "بِفاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ" 22 للتلذذ من غير طلب واقتراح إكراما لهم "يَتَنازَعُونَ" يتجاذبون ويتعاطون فيناول بعضهم بعضا "فِيها كَأْساً" زجاجة مملوءة بالشراب اللذيذ "لا لَغْوٌ" باطل ولا مالا يغني "فِيها" أي لا يتكلم شاربها بمكروه أثناء شربها كعادة أهل الدنيا عند شرابهم النجس المذهب للعقل ، فإنهم

يخلطون أثناء شربهم ويهرفون بما لا يعرفون ، لأنها لا تذهب عقولهم فيحافظون على الآداب والأخلاق "وَلا تَأْثِيمٌ" 23 فلا يقع منهم خلال شربها أو بعده ما يوجب الإثم بخلاف أهل الدنيا ، فإنهم قد يتسابون ويقع منهم ما يؤثمون به ، ويفعلون فعل اللئام ، أما أهل الجنة فلا يقع منهم عند شربهم وبعده إلا ما يفعله الكرام من اللطف والعطف والمحبة "وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ" بتلك الكأس "غِلْمانٌ لَهُمْ" مملوكون بتمليك رب العالمين لا يشاركون أحدا في خدمتهم "كَأَنَّهُمْ" في حسنهم وجمالهم "لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ" 24 في صدفة لم تمسه الأيدي باق على صفائه "وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ" 25 بينهم ، ثم بين تعالى تساءلهم فقال "قالُوا" بعضهم لبعض أثناء تذاكرهم "إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا" في دار الدنيا "مُشْفِقِينَ" 26 خائفين من عذاب اللّه

(38/728)

لاستقلالنا أعمالنا الصالحة "فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا" في الآخرة وأكرمنا في الجنة "وَوَقانا عَذابَ السَّمُومِ" 27 الريح الشديدة الحرارة التي تدخل في مسام الإنسان وقيل إنها أحد أسماء جهنم ، وقالوا "إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ" أن نحضر الآخرة "نَدْعُوهُ" ونعبده ولم نؤده حق عبادته "إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ" 28 بعباده يحسن إليهم ويعطيهم أكثر مما يستحقون بمنه وفضله .

وبعد أن بين ما يقع بين أهل الجنة ترغيبا للمؤمنين التفت إلى حبيبه وقال "فَذَكِّرْ" قومك يا محمد في هذا القرآن علهم يرجعون إلى ربهم فينعم عليهم بما ذكر بعضه للمؤمنين به ، ولا تلتفت لما يقولونه فيك "فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ" التي أنعمها عليك من النبوة والرسالة والكتاب "بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ" 29 كما يزعمون وينقولون ، فأنت رسول اللّه حقا وأمينه على وحيه صدقا "أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ" 30 حوادث الدهر فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء ،

كلا فلست ذلك و"قُلْ" لهم يا سيد الرسل "تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ" 31 المنتظرين أمر اللّه فيكم .

واعلم أن المنون يطلق على الدهر وعلى الموت قال :

تربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوما أو يموت خليلها

هذا على الأول ، وعلى قول الثاني قول ذؤيب :

أمن المنون وريبه يتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

(39/728)

قال تعالى "أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ" أي عقولهم إذ يظنون أنهم عقلاء والمثل السائر (كل بعقله راض أما بماله لا) والحال ليس لهم عقول سليمة ، إذ لو كان لهم عقول سليمة لما أمرتهم "بِهذا" القول المتناقض من ساحر إلى شاعر إلى كاهن إلى غير ذلك "أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ" 32 باغون خلوجون عن الاعتدال ، قيل لعمرو بن العاص ما بال قومك لم يؤمنوا وقد نعتهم اللّه تعالى بالعقل ؟ فقال تلك عقول كادها اللّه تعالى إذ لم يصحبها التوفيق ، فلهذا لم ينتفعوا بها .

على أن هذه الآية لم تدل على رجاحة عقولهم ، لأنها واردة مورد الاستهزاء ، بل تدل على عكس ذلك ، لأن اللّه أزرى بعقولهم ، إذ لم يميزوا بين الحق والباطل والصدق والكذب والهدى والضلال ، ويجوز أن يراد بأحلامهم أكابرهم ورؤساؤهم ، لأن أحلام بمعنى أجسام ، كلفظ أعلام فإنها تطلق على الجبل وعلى الرجل ، قال ابن الفارض رحمه اللّه :

نشرت في موكب العشاق أعلامي وكان قبلي بلي بالحبّ أعلامي

وهم لفلة عقولهم سماهم أجساما تهكيبا بهم "أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ" اختلقه وهي كلمة لا تستعمل إلا في الكذب ، كلا ، لم يختلقه وهو الصادق المأمون "بَلْ لا يُؤْمِنُونَ" 33 في هذا القرآن المنزل عليك أنفة وتجبرا .

مطلب الحجج العشر وعذاب القبر وبحث في قيام الليل والإخبار بالغيب وما يقال عند القيام من المجلس :

(40/728)

فإذا كان لقولهم من صحة "فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ" في حسن النظم ورشاقة اللفظ ولطافة البيان والأحكام والحدود والإخبار بالمغيبات وقصص الأمم السابقة "إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ" 34 بأنك اختلقته أو أنه شعر أو كهانة ، لأنهم عرب مثلك يدعون الفصاحة والبلاغة ، والتنكير يفيد التقليل أي ليأتوا بمطلق حديث يشابهه ، وقد خسئوا لا يستيعون ولو اجتمعوا وتعاونوا وقد لزمتهم الحجة ، راجع الآية 13 من سورة هود المارة ، قل يا محمد "أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ" أراد بشيء هنا الخلق ، إذ ربما يتوهم به أنه يدل على أنه لا يخلق شيء إلا من شيء ، والمعنى أوجدوا بلا خالق ، فإن قالوا لا ، وقعت عليهم الحجة ، وإن قالوا نعم فقل لا يجوز أن يوجد خلق بلا خالق ، لأن تعلق الخلق بالخالق من ضروريات الاسم "أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ" 35 لأنفسهم أم اللّه خلقهم ، فإن قالوا نحن فقول باطل ، لأن من لا وجود له كيف يخلق ، وعلى فرض المحال فكلفهم أن يخلقوا ذبابة أو يخلّصوا منها ما تسلبهم ، فإذا عجزوا ولا شك أنهم عاجزون فقد لزمتهم الحجة بأنهم مخلوقون للّه ، وعليهم أن

يؤمنوا بخالقهم .

وهذا إلزام ثان .

قال تعالى "أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ" كلا ، بل خلقها الخالق لهم ، ولئن سألتهم ليقولن خلقها اللّه حتما "بَلْ لا يُوقِنُونَ" 36 إيقانا حقيقيا بأنه خلقها ، ولو أيقنوا لا لاعترفوا ، ولكنهم يجحدون عنادا بسبب إعراضهم عن آيات اللّه وعدم تدبرهم معانيها ، وهذه حجة ثالثة لزمتهم فافحمتهم .

(41/728)

قال تعالى "أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ" من الرزق والمطر والعافية فيمنعونه عن أناس ويفيضونه على آخرين كما يفعل اللّه "أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ" 37 على شيء من ذلك فيقدرون أن يفعلوا ما يشاءون فيغنون هذا ، ويفقرون هذا ، ويمرضون هذا ، ويشفون هذا ، كلا ما عندهم شيء من ذلك البتة ، وليس لهم سلطة على شيء منه أصلا وفسر بعضهم الخزائن بالنبوة وآخرون بالعلم ، والمسيطرين بالأرباب القهارين والجبارين المتسلطين ، وهو كما ترى ، وهذا إلزام رابع ألقمهم الحجر .

قال تعالى "أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ" مرقي إلى السماء "يَسْتَمِعُونَ فِيهِ" كلام اللّه ، وفيه هنا بمعنى عليه ،

لأن حروف الجر يخلف بعضها بعضا ، لأن السلّم يستمع عليه لا فيه ، أي هل أنهم يرقون فيسترقون السمع خبر السماء فيعلمون أن محمدا يموت قبلهم ، وأنهم يظفرون بالعافية فيتمسكون بما هم عليه ، فإن كان لزعمهم هذا من أصل "فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ" الذي سمع ذلك ونقله إليهم "بِسُلْطانٍ مُبِينٍ" 38 يدل على صحة سماعه ، وإذ لم يأتوا ولن يأتوا فادعاؤهم كاذب ، وتربصهم هواء ، وهذا إلزام خامس داحض تربصهم به ومحسئهم .

(42/728)

قال تعالى "أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ" 39 وهذا إنكار عليهم لاختيارهم الأحسن لأنفسهم ، وجعلهم ما يكرهون لربهم ، أي من ابن عرفوا ذلك فهم كاذبون من جهتين من هذه ومن إعزائهم الملائكة للّه بأنهم بناته ، تعالى عن ذلك ، قال تعالى (أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ) الآية 20 من سورة لزخرف المارة ، أي كلا ، لم يشهدوا خلقهم ، فلزمتهم الحجة السادسة "أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً" على إرشادك ونصحك لهم "فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ" 40 لا يقدرون على تأديته لك ، كلا لا شيء من ذلك ، وإذا كنت لا تطلب منهم شيئا على تعليمهم فيكون عدم اتباعهم لك لخيرهم أمرا مذموما (والغرم أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه) ، ولذلك يزهدون باتباعه ، وهذه الحجة السابغة التي أخرستهم .

"أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ" اللوح المحفوظ الذي فيه ما غاب عن الخلق علمه "فَهُمْ يَكْتُبُونَ" 41 منه ما فيه حتى يقولوا لا نبعث ولا نعذّب ولا نحاسب ، كلا ليس عندهم ذلك وهذه حجة ثامنة داحضة لأقوالهم لا بعث ولا حساب ولا عقاب "أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً"

(43/728)

برسولنا فيجتمعون في ندوتهم ويتدابرون ما يمكرون به ليتخلصوا منه ، وقد أرسل رحمة إليهم مع أنهم لا يقدرون على شيء لأنا نحول دونه ونمنعهم منه ونقول "فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ" 42 الذين يعود عليهم مكرهم ، وهذا من الإخبار بالغيب ، لأن مذاكرتهم بشأن المكر به في دار الندوة وقعت بعد نزول هذه الآيات قبل الهجرة ، وقد أخبره اللّه تعالى بما حاكوه بينهم فيها بوقته كما سيأتي ، ولذلك ترك داره وذهب إلى الغار وأمر عليا أن ينام مكانه فيها ، وهذه حجة تاسعة قامعة ما يريدون به ، قال تعالى "أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ" يعتمدون عليه في الشدائد ، كلا لا إله إلا اللّه لهم ولغيرهم "سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ" 43 به من أوثان لا تضر ولا تنفع ، تنزهت ذاته المقدسة وتبرأت عن ذلك ، وهذه تتمة الحجج العشر الواضحات ، أفحمهم اللّه تعالى بها على لسان رسوله فلو كانوا موفقين لأذعنوا إليها واهتدوا بها ولانوا ، ولكن من سبق في علم اللّه شقاؤه فلن يرى الهدى ، بل يزد قاوة وعتوا

، وفضلا عن أن كلا من هذه الحجج الدامغة كافية للردع ففي كل منها توبيخ وتبكيت وتقريع ، ولكن لا تغني النذر والآيات لمن ختم اللّه على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم فهم لا يهتدون أبدا .

(44/728)

قال تعالى "وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا" لشدة عنادهم وقوة عتوهم ، هذا "سَحابٌ مَرْكُومٌ" 44 بعضه على بعض ، وهذا جواب لقولهم (أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً) الآية 92 من سورة الإسراء في ج 1 ، وإذا تبين لك يا سيد الرسل حالهم هذا "فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ" 45 يمرتون قصفا على حين غفلة لأنهم لا بد لهم من الموت ولو بقوا إلى النفخة الأولى التي يصعق فيها كل حي على الأرض وفي السماء عدا من استثنى اللّه وذلك يوم الموت حتف الأنف والموت بالصعق "يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً" من اللّه تعالى "وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ" 46 من قبل شركائهم ولا غيرهم .

قال تعالى "وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ" قبل صعقهم سينالهم في الدنيا كالقحط والأسر والجلاء والقتل ، وهذه الآية أيضا من الإخبار بالغيب إذ وقع بعض ذلك في بعضهم

وكله في كلهم وأشده يوم بدر فما بعده ، وكان بينه وبين نزول هذه الآية سنتان ، وقال بعض المفسرين أن دون هنا بمعنى وراء ، وعليه يراد بالعذاب عذاب القبر ، لأنه يكون وراء الموت وهو خلاف الظاهر ، وتقدم ما فيه في الآية 25 من سورة نوح عليه السلام المارة "وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ" 47 أنا سنزل فيهم عذابا قبل موتهم ولا بعده ، وفي هذه الآية إشارة إلى أن فيهم من يتوقع ذلك بالفراسة ، ومنهم من يعتقد صدقه فيتحقق ما يوعدهم به ، ومنهم من يسمع ما وقع للأنبياء السابقين مع أممهم ، فيعترفون أن محمدا رسول اللّه حقا ، وأن ما يخبر به لا شك واقع ، ولكنهم عنادا يصرون على الكفر وعتوا يكذبون .

(45/728)

قال تعالى "وَاصْبِرْ" يا حبيبي "لِحُكْمِ رَبِّكَ" وأمهلهم على ما تراه من المشقة إلى الوقت المقدر لإعلاء كلمتك عليهم "فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا" ومرأى منا لا تخفى علينا حركاتك وسكناتك ، وإنا نكلؤك مما يراد بك ، فلا نمكنهم أن يصلوا إليك بسوء أو يوصلوا إليك ما تكره ، ومن كان بنظر الحي الذي لا يموت لا يخاف أحدا أبدا ، وصلّ يا أكمل الرسل "وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ" 48 من مقامك ومجلسك وللصلاة ، أخرج الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من جلس مجلسا فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، إلا كان كفارة لما بينهما .

وأخرج أبو داود والنسائي عن عاصم بن حميد قال : سألت عائشة بأي شيء كان يفتتح رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قيام الليل ؟ فقالت سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك ، كان إذا قام كبّر عشرا ، وسبح عشرا ، وعلل عشرا ، واستغفر عشرا ، وقال اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني وعافني ، وكان يتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة .

وأخرج الترمذي عن عائشة قالت : كان النبي صلّى اللّه عليه وسلم إذا افتتح الصلاة قال سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك .

قال تعالى "وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ" أيضا في صلاتي المغرب والعشاء وصلاة التهجد "وَإِدْبارَ النُّجُومِ" 49 بعد وقت السحر إذ فيه تدبر النجوم أي يغيب ضوءها بنور الفجر عن الأبصار فقط ، لأنها لا تغيب أصلا ، وإنما تخفى على أناس وتظهر لآخرين ، وفي القول في غيابها تجوز باعتبار المكان والقطر ، وباعتبار ما نرى .

روى البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور .

هذا ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به هذه السورة في القرآن العظيم .

هذا والله أعلم ، وأستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلّى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 381.392 ﴾

(47/728)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة والطور

مكية

لواقع حسن لأنه جواب الأقسام المذكورة بأحسن منه الوقف على ماله من دافع إن نصب يوم تمور بمقدّر كاذكر سيرا حسن يلعبون كاف وأكفى منه دعا تكذبون حسن وكذا لا تبصرون سواء عليكم كاف تعملون تام ربهم صالح عذاب الجحيم كاف وكذا تعملون ومصفوفة وبحور عين بهم ذرياتهم صالح من عملهم من شيء تام وكذا وكذا بما كسب رهين ولا تأثيم كاف مكنون حسن من قبل ندعوه تام لمن قرأ انه بكسر الهمزة وليس بوقف لمن

قرأه بفتحها الرحيم تام فذكر حسن وقيل تام وقيل كاف ولا مجنون كاف وكذا ريب المنون والمتربصين وطاغون ونقوله ولا يؤمنون صادقين صال والأرض كاف وكذا لا يوقنون والمسيطرون فيه صالح وكذا مبين والبنون ومثقلون ويكتبون والمكيدون أم لهم اله غير الله حسن يشركون كاف وكذا مركوم يصعقون جائز ينصرون حسن وكذا لا يعلمون بأعيننا كاف حين تقوم صالح آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(48/728)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة والطُّور

مكية ثمان أو تسع وأربعون آية كلمها ثلاثمائة واثنتا عشرة كلمة وحروفها ألف وخمسمائة حرف

لواقع (حسن)

ماله من دافع (أحسن) مما قبله إن نصب يوم بمقدر وليس بوقف إن نصب بقوله لواقع سيراً (حسن) على استئناف ما بعده أراد إنَّ عذاب ربك لواقع يوم تمور السماء موراً وأكد الفعل بمصدره لرفع توهم المجاز في الفعل بفعله

للمكذبين (حسن) إن نصب الذين بفعل مقدر وليس بوقف إن نصب بدلاً أو نعتاً

يلعبون (كاف) وقيل لا يوقف عليه لأنَّ يوم بدل من يومئذ فلا يفصل بين البدل والمبدل منه بالوقف

دعا (أكفى) مما قبله ومعناه دفعاً بعنف

تكذبون (كاف)

أفسحرٌ هذا (حسن) إن جعلت أم في تأويل بل على الانقطاع وإن جعلت متصلة لم يوقف على ما قبلها

لا تبصرون (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل متصلاً بما قبله وكان الوقف على اصلوها

سواء عليكم (كاف)

تعملون (تام) ولا وقف من قوله إنَّ المتقين إلى بما آتاهم ربهم فلا يوقف على نعيم لأنَّ فاكهين حال مما قبله

بما آتاهم ربهم (جائز)

عذاب الجحيم (كاف) ومثله تعلمون إن نصب متكئين بمضمر وليس بوقف إن جعل حالاً مما قبله

مصفوفة (حسن)

عين (تام) في محل الذين الحركات الثلاث الرفع والنصب والجر فالرفع على أنَّه مبتدأ وجملة ألحقنا بهم خبر وكاف إن نصب بمقدر أي وأكرمنا الذين آمنوا وليس بوقف إن عطف على الضمير في زوَّجناهم أي وزوجنا الذين آمنوا ومثله في عدم الوقف على عين إن جر عطفاً على حور عين أي قرناهم بالحور العين وبالذين آمنوا وأتبعناهم عطف على آمنوا وبإيمان متعلق بقوله وأتبعناهم وأغرب من وقف على بإيمان لأنَّ والذين مبتدأ وخبره ألحقنا بهم فإذا وقف على بإيمان كان الكلام ناقصاً لأنَّه لم يأت بخبر المبتدأ فإن قال قائل اجعل قوله والذين آمنوا في موضع نصب عطفاً على الضمير في زوَّجناهم قيل له ذلك خطأ لأنَّه يصير المعنى وزوجنا الذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان والتأويل على غير ذلك

ألحقنا بهم ذرِّياتهم (حسن)

من شيء (تام) ومثله رهين وكذا مما يشتهون على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل حالاً بمعنى متنازعين

ولا تأثيم (كاف) ومثله مكنون وكذا يتسائلون

مشفقين (جائز) ومثله علينا

السموم (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده متصلاً وداخلاً في القول

ندعوه (تام) لمن قرأ انه بكسر الهمزة وهي قراءة أهل مكة وعاصم وحمزة وأبي عمرو وابن عامر وليس بوقف لمن قرأه بفتحها وهو نافع والكسائي لأنَّ انه موضعه نصب متعلق بما قبله والمعنى لأَنَّه

الرحيم (تام) على القراءتين وأتم مما قبله

فذكر (جائز) للابتداء بنفي ما كانوا يقولون فيه

ولا مجنون (كاف) للابتداء بالاستفهام قال الخليل جميع ما في هذه السورة من ذكر أم فاستفهام وليست حروف عطف وذلك خمسة عشر حرفاً

المنون (كاف) ومثله من المتربصين وبهذا وطاغون وتقوّله ولا يؤمنون وصادقين ومن غير شئ أي أم خلقوا من غير شيء حي كالجماد فلا يؤمرون ولا ينهون كالجماد الخالقون والأرض ولا يوقنون والمسيطرون كلها وقوف كافية

يستمعون فيه (حسن) لتناهي الاستفهام

مبين (كاف) للابتداء بالاستفهام الإنكاري والتقديريل ألهم إله وليست للإضراب المحض

لأَنَّه يلزم عليه المحال وهو نسبة البنات له تعالى تَعالى الله عن ذلك علواً كبيراً

البنون (كاف)

أجراً (جائز)

مثقلون (كاف) ومثله (يكتبون)

كيداً (جائز)

المكيدون (كاف)

غير الله (حسن)

يشركون (كاف)

ساقطاً ليس بوقف لأنَّ جواب الشرط لم يأت بعد وهو يقولوا

مركوم (تام) ولا يوقف على يوم من يومهم لأنَّ هم في هذا الموضع ضمير متصل مجرور

بالإضافة لم يقطع من يوم بخلاف ما تقدم في قوله يوم هم بارزون في غافر ويوم هم على النار

يفتنون في الذاريات فإنَّهما كتبا فيهما كلمتين يوم كلمة وهم كلمة كما تقدم

يصعقون (كاف) إن نصب الظرف بمقدر وليس بوقف إن جعل بدلاً مما قبله

شيأً (جائز)

ينصرون (تام) دون ذلك الأولى وصله

لا يعلمون (كاف)

بأعيننا (حسن) على استئناف الأمر وليس بوقف إن عطف على ما قبله

حين تقوم (جائز)

وإدبار النجوم (تام) قرأ العامة بكسر الهمزة مصدر بخلاف التي في ق فإنَّه قرئ بالكسر

والفتح معاً كما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(51/728)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الطور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ عبد الله وإبراهيم : "وَزَوَّجْنَاهُمْ بِعيس عِينٍ1" .

قال أبو الفتح : قد تقدم ذكر العيس2 ، وأن المرأة العيساء : البيضاء . ومثله جمل أعيس ،

وناقة عيساء . قال في وصف امرأة :

كأنها البكرة العيساء

ومن ذلك قراءة الأعرج: "وَمَا أَلَتْنَاهُم" ، على أفعلناهم3 .

قال أبو الفتح : وفيما روينا عن قطرب ، قال :

قراءة عبد الله وأبي : و"مالتناهم" . وكان ابن عباس يقول : "ألتناهم" : نقصناهم . يقال : ألته يألته ألتا ، وآلته يؤلته إيلاتا ، ولاته يليته ليتا . كلهن بمعنى واحد . أي : نقصه ، ويقال أيضا : ولته يلته ولتا ، بمعناه . قال الحطيئة :

أبلغ لديك بني سعد مغلغلة جهد الرسالة لا ألتا ولا كذبا4

وقالوا : ولته يلته : إذا صرفه عن الشيء يريده ، وقالوا : ألته يألته باليمين : إذا غلظ عليه بها ، وآلته يؤلته بها : إذا قلده إياها ، وقال رؤبة :

وليلة ذات ندى سريت ولم يلتني عن سراها ليت5

---

1 سورة الطور : 20 .

2 انظر الصفحة : 261 من هذا الجزء .

3 سورة الطور : 21 .

4 روى "سراة" مكان "لديك" ومغلغة : رسلة تغلغل حتى تصل إليهم . الديوان : 135 .

5 لم نعثر عليه في ديوانه ولا ديوان العجاج ، ورواه اللسان "ليت" لم ينسبه ، وروى فيما روى من شرحه : وقيل : معنى هذا لم يلتني عن سراها أن أتندم ، فأقول : ليتني ما سريتها .

أي : لم يثني عنها ثان1 .

ومن ذلك قراءة الناس : "أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ2" .

وقرأ مجاهد : "بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُون" ، في الطور3 .

قال أبو الفتح : هذا هو الموضع الذي يقول أصحابنا فيه : إن أم المنقطعة بمعنى بل ، للترك والتحول ، إلا أن مات بعد بل متيقن ، وما بعد أم مشكوك فيه ، مسئول عنه . وذلك كقول علقمة بن عبدة .

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم4 ؟

كأنه قال : بل أحبلها إذ نأتك اليوم مصروم ؟ ويؤكده يوله بعده [152ظ] :

أم هل كبير بكى لم يقض عبرته إثر الأحبة يوم البين مشكوم5

ألا ترى إلى ظهور حرف الاستفهام ، وهو "هل" في قوله : أم هل كبير بكى حتى كأنه قال : بل هو كبير ؟ ترك الكلام الأول ، وأخذ في استفهام مستأنف .

وقد توالت "أم" هذه في هذا الموضع من هذه السورة ، قال "تعالى" : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ6 ﴾ ، أي : بل أيقولون ذلك ؟ ، "أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ

طَاغُونَ7" ، أي : بل أهم قوم طاغون . أخرجه مخرج الاستفهام ، وإن كانوا عنده "تعالى" قوما طاغين ؛ تلعبا بهم ، وتهكما عليهم . وهذا كقول الرجل لصاحبه الذي لا يشك في جهله :

---

1 ويكون الراجز على هذا قد وضع المصدر موضع اسم الفاعل .

2 سورة الطور : 32 .

3 في الذاريات : 53 : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ .

4 الحبل : استعارة للوصل والمحبة . ونأتك : أصله نأت عنك ، فحذف "عن" ووصل الضمير بالفعل . ومصروم : مقطوع . ويذكرون أن العرب كانت تعرض أشعارها . على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولا ، وما كان مردودا . فقدم عليهم علقمة بن عبدة ، فأنشدهم قصيدته : هل ما علمت . . . ، فقالوا : هذا سمط الدر . المفضليات : 397 ، والخزانة 4 : 516 .

5 كبير : يريد نفسه . ومشكوم : مجازي ، والشكم : العطية جزاء ، فإن كانت ابتداء فهي الشكد .

6 سورة الطور : 30 .

7 سورة الطور : 32 .

أجاهل أنت ؟ توبيخا له ، وتقبيحا عليه . ومعناه : إني قد نبهتك على حالك ، فانتبه لها ، واحتط لنفسك منها . قال صخر الغي :

أرائح أنت يوم اثنين أم غادي ولم تسلم على ريحانه الوادي1

ليس يستفهم نفسه عما هو أعلم به . ولكنه يقبح هذا الرأي2 لها ، وينعاه عليها هكذا مقتاد كلام العرب ، فاعرفه وأنس به .

ومن ذلك قراءة الجحدري : "بِحَدِيثٍ مِثْلِه3" .

قال أبو الفتح : الهاء في "مثله" في هذه القراءة ضمير النبي "صلى الله عليه وسلم" . ألا ترى أن قلبه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ أي : فليأتوا بحديث مثل النبي ، صلى الله عليه وسلم . وأما الهاء في قراءة الجماعة : ﴿ بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ4 ﴾ فللقرآن ، أي : مثل القرآن .

ومن ذلك قراءة سالم أبي الجعد : "وَإِدْبَارَ النُّجُومِ5" .

قال أبو الفتح : هذا كقولك : في أعقاب النجوم ، قيل له : دبر ، كما قيل له : عقب قال :

فأصبحت من ليلى الغداة كناظر مع الصبح في أعقاب نجم مغرب 6 . انتهى انتهى . ا هـ

﴿المحتسب حـ2 صـ289.291﴾

---

1 لم نعثر على الشاهد في ديوان الهذليين. وفي اللسان "ثنى" قالوا في الشعر: يوم اثنين بغير لام، ثم روى الشاهد منسوبا إلى صخر الغي. ووضع في الأصل كلمة "اثنين" في البيت، وكتب تجاهها في الهامش "معا"، وتحتها "والبين". كأنه يريد أنه يروى "البين" مكان "اثنين". وكان "معا" تشير إلى أزدواج الرواية.

2 في ك: الرائي، وهو تحريف.

3 سورة الطور: 34.

4 لم يثبت في ك: ﴿بِحَدِيثٍ مِثْلِه﴾.

5 سورة الطور: 49.

6 لقيس بن الملوح. والمغرب: الذي يأخذ في ناحية المغرب. الأغاني: 2: 20. واللسان "غرب".

وقال العلامة الدمياطى:

سورة الطور

مكية وآيها أربع وسبع حجازي وثمان بصري وتسع كوفي وشامي خلافها اثنان والطور عراقي وشامي جهتم دعا كوفي وشامي مشبه الفاصلة موضعان يدعون سرر موصوفة وعكسه ثلاث لواقع ولكم البنون حين تقوم

القراآت قرأ ﴿ فكهين ﴾ الآية 18 بلا ألف بعد الفاء أبو جعفر كما مر بيس وحذف همز متكئين أبو جعفر ووقف عليه حمزة بالتسهيل كالياء وبالحذف للرسم وأما الإبدال فضعيف

واختلف في ( ) واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ( ) الآية 21 فنافع وأبو جعفر واتبعتهم بوصل الهمزة وتشديد التاء وفتح العين بعدهما تاء فوقية ساكنة (ذريتهم) الأول بالتوحيد وضم التاء رفعا على الفاعلية والثاني بالجمع وكسر التاء نصبا مفعولا ثانيا وقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف كذلك إلا أنهم قرؤوا بالتوحيد في (ذريتهم) الثاني كالأول مع نصب التاء مفعولا أيضا وافقهم ابن محيصن والأعمش لكن المطوعي عنه بكسر الذال فيهما وقرأ ابن عامر ويعقوب (اتبعتهم) كذلك ﴿ ذرياتهم ﴾ كلاهما بالجمع مع رفع الأول على ما مر ونصب الثاني بالكسر مفعولا ثانيا كما مر وافقهما الحسن وقرأ أبو عمرو وأتبعناهم بقطع الهمزة مفتوحة وإسكان التاء والعين ونون فألف بعدها ذرياتهم بالجمع فيهما مع كسر التاء نصبا على المفعولية كما مر وافقه اليزيدي

واختلف في (ألتناهم) الآية 21 فابن كثير بكسر اللام من ألت يالت كعلم يعلم وافقه ابن

محيصن واختلف عن قنبل في حذف الهمزة فروى ابن شنبوذ عنه إسقاط الهمزة واللفظ بلام مكسورة كبعناهم يقال لاته يليته كباعه يبيعه وهي رواية الحلواني عن القواس وافقه الحسن وروى ابن مجاهد عنه إثباتها كالبزي وبذلك قرأ الباقون مع فتح اللام وكلها لغات ثابتة بمعنى نقص

وقرأ) لا لغو فيها ولا تأثيم ( ) الآية 23 بالرفع نافع وابن عامر وعاصم وحمزة

(55/728)

والكسائي وأبو جعفر وخلف والباقون بالفتح بلا تنوين ومر بالبقرة

وقرأ ﴿ لؤلؤا ﴾ الآية 24 بإبدال همزته الأولى واوا ساكنة أبو عمرو بخلفه وأبو بكر وأبو جعفر ولم يبدله ورش من طريقيه ووقف عليه حمزة بإبدال الأولى كأبي عمرو وأما الثانية فإبدالها واوا ساكنة لسكونها بعد ضمة على القياسي أو واوا مضمومة على مذهب التميميين كما مر ثم تسكن للوقف فيتحد مع ما قبله لفظا ويجوز الروم والإشمام ويجوز رابع وهو بين بين على تقدير روم حركة الهمزة وهشام بخلف كذلك في الثانية

واختلف في (ندعوه إنه) الآية 28 فنافع والكسائي وأبو جعفر بفتح الهمزة على التعليل أي لأنه وافقهم الحسن والباقون بالكسر على الاستئناف ووقف على بنعمت بالهاء ابن

كثير والكسائي وأبو عمرو ويعقوب

وقرأ (تأمرهم) الآية 32 بإسكان الراء وباختلاسها أبو عمرو وروى الإتمام عن الدوري كالباقين

(56/728)

واختلف في (المصيطرون) الآية 37 هنا (بمصيطر) في الغاشية الآية 22 فهشام بالسين فيهما على الأصل وافقه ابن محيصن هنا بخلفه واختلف عن قنبل وابن ذكوان وحفص والسين فيهما لقنبل من طريق ابن شنبوذ من المستنير وابن مجاهد والصاد له من طريق ابن شنبوذ من المبهج ونص له على السين في المصيطرون وعلى الصاد وعلى الصاد في بمصيطر جمهور العراقيين والمغاربة وهو الذي في الشاطبية والتيسير والسين فيهما لابن ذكوان عند ابن مهران وابن الفحام من طريق الفارسي عن النقاش وهي أيضا رواية ابن الأخرم وغيره عن الأخفش والصاد رواية الجمهور عن النقاش وهو الذي في الشاطبية كأصلها والسين فيهما لحفص من طريق زرعان عن عمرو وهو نص الهذلي عن الأشناني عن عبيد ونص له على الصاد فيهما ابن غلبون وابن مهران وفاقا للجمهور وقطع له بالخلاف في المصيطرون وبالصاد في بمصيطر في التيسير والشاطبية وقرأ حمزة بخلفه عن خلاد بإشمام الصاد الزاي

فيهما وهو الذي عليه جمهور المشارقة فيهما لخلاد وأثبت له الخلاف في التيسير وتبعه الشاطبي والصاد الخالصة هي رواية الحلواني والبزار عن خلاد وبه قرأ الباقون

وقرأ ﴿ يلقوا) ﴾ بفتح الياء وسكون اللام وفتح القاف بلا ألف أبو جعفر ومر بالزخرف واختلف في (يصعقون) الآية 45 فابن عامر وعاصم بضم الياء مبنيا للمفعول إما من صعق ثلاثيا معدى بنفسه من قولهم صعقته الصاعقة أو من أصعق رباعيا يقال أصعقه فهو مصعق والمعنى أن غيرهم أصعقهم وافقهما الحسن والباقون بفتحها مبنيا للفاعل والصعق العذاب وهو عند النفخة الأولى أو يوم القيامة وعن ابن محيصن من المفردة والمطوعي إدغام النون الأولى من بأعيننا في الثانية كما مر وعن المطوعي أدبار النجوم بفتح الهمزة أي أعقابها وآثارها إذا غربت والجمهور على الكسر مصدرا المرسوم اتفقوا على الصاد فيالمصيطرون وبمصيطر) كما مر وعلى التاء في ﴿ بنعمت ربك) ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(57/728)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة والطور "

" وتسير ، سيرا " أفسحر ، تبصرون ، اصلوها ، فاصبروا ، أو لا تصبروا ، لا يخفى ما فيه لورش .

" فاكهين " حذف الألف بعد الفاء أبو جعفر ، وأثبتها غيره .

" متكئين " حذف الهمزة أبو جعفر في الحالين وحمزة عند الوقف في أحد وجهيه والآخر التسهيل بين بين .

" واتبعتهم " قرأ أبو عمرو بهمزة قطع مفتوحة بعد الواو وإسكان التاء والعين ونون مفتوحة بعد العين وألف بعدها ، وغيره بوصل الهمزة وتشديد التاء مفتوحة بعد الواو مع فتح العين وتاء مثناة فوقية ساكنة بعدها .

" ذريتهم بإيمان " قرأ البصري بألف بعد الياء على الجمع مع كسر التاء ، وابن عامر ويعقوب بألف بعد الياء على الجمع أيضا مع رفع التاء ، والباقون بحذف الألف على التوحيد مع رفع التاء .

" ذريتهم وما " قرأ المدنيان والبصريان والشامي بألف بعد الياء على الجمع مع كسر التاء ، والباقون بحذف الألف على التوحيد مع نصب التاء .

" ألتناهم " قرأ ابن كثير بكسر اللام وغيره بفتحها .

" كأسا " أبدل همزه في الحالين السوسي وأبو جعفر ، وفي الوقف حمزة .

" لا لغو فيها ولا تأثيم " قرأ المكي والبصريان بفتح الواو من لغو والميم من تأثيم من غير تنوين

، والباقون برفعهما مع التنوين وأبدل همز تأثيم في الحالين ورش والسوسي وأبو جعفر وفي الوقف حمزة وهو آخر الربع .

الممال

موسى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . الذكرى بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش فتولى ، وأتى لدى الوقف وآتاهم ووقاهم بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، نار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش .

المدغم

" الكبير " العقيم ما ، قيل لهم ، أمر ربهم ، إن الله هو ، والله أعلم .

" عليهم " شاعر ، من غير ، إله غير ، ظلموا فسبحه جلي .

(58/728)

" لؤلؤ " أبدل الهمزة الأولى مطلقا السوسي وشعبة وأبو جعفر ، وفي الوقف فقط حمزة وأما الثانية فلا يبدلها وقفا إلا هشام وحمزة ولهما أيضا تسهيلها بين بين مع الروم ، ولهما كذلك إبدالها واوا خالصة مع السكون والإشمام والروم .

" ندعوه إنه " فتح الهمزة المدنيان والكسائي ، وكسرها غيرهم .

" بنعمت " رسم بالتاء ، ولا يخفى حكم الوقف عليه .

" تأمرهم " قرأ البصري بخلاف عن الدوري بإسكان الراء ، والوجه الثاني للدوري اختلاس ضمتها ، والباقون بالضمة الكاملة ، ولا يخفى إبدال همزه .

" المصيطرون " قرأ قنبل وهشام وحفص بخلف عنه بالسين ، وحمزة بخلف عن خلاد بإشمام الصاد زايا ، والباقون بالصاد الخالصة وهو الوجه الثاني لحفص وخلاد والإشمام لخلاد أصح وجهيه ولا يخفى ترقيق الراء لورش .

"كسفا " اتفقو على إسكان السين فيه .

" يلاقوا " قرأ أبو جعفر بفتح الياء وإسكان اللام وفتح القاف ، وغيره بضم الياء وفتح اللام وألف بعدها مع ضم القاف .

" يصعقون " ضم الياء ابن عامر وعاصم وفتحها غيرهما .

" وإدبار " لا خلاف في كسر همزه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البدور الزاهرة صـ 311.

﴿312

(59/728)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة والطور

قوله تعالى ﴿ وأتبعناهم ﴾ يقرأ بالنون والالف وبالتاء في موضع النون وحذف الالف ﴿ ذريتهم ﴾ يقرأ بالتوحيد والجمع فيهما وبالرفع في الاولى والنصب فالحجة لمن قرأه بالتاء انه جعله فعلا للذرية سواء افرد او جمع فرفعها بفعلها والحجة لمن قرأ بالنون انه جعل الفعل لله تعالى فنصب الذرية في الافراد والجمع لتعدي الفعل اليها

فأما الذرية الثانية فلا خلف في نصبها بقوله ﴿ ألحقنا ﴾ فالحجة لمن وحد أنه اجتزأ بالواحد من الجمع وعلامة النصب فيه فتحة التاء والحجة لمن جمع انه اتى باللفظ على ما اوجبه المعنى وعلامة النصب في الجمع كسرة التاء لانها نابت في جمع المؤنث مناب الياء في جمع المذكر فاعتدل النصب والخفض في جمع المؤنث بالكسر كما اعتدل في جمع المذكر بالياء

واصل ذرية في الوزن فعلولة من الذر فقلبوا من الواو ياء وادغموها في الياء فصارت في وزن فعلية

ومعنى الآية ان الله تعالى يبلغ الولد في الجنة مرتبة والده وان لم يستحقها بعمله ويبلغ الوالد في الجنة مرتبة ولده وان لم يستوجبها بعمله اذا تساويا في الدخول اليها نسأل الله فوزا بها

برحمته وفضله ودليله قوله تعالى ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ﴾

قوله تعالى ﴿ وما ألتناهم ﴾ اجمع القراء على فتح اللام الا ما قرأ به ابن كثير من كسرها

وقد علل ذلك في الحجرات

قوله تعالى ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ يقرأ بالنصب وطرح التنوين والرفع والتنوين فالحجة

لمن نصب انه بنى الاسم مع لا كبناء خمسة عشر فحذف التنوين وبناه على الفتح والحجة

لمن رفع انه لم يعمل لا واعمل معنى الابتداء وجعل الظرف الخبر

ومعنى يتنازعون ها هنا يتعاطون ويتداولون ومنه قول الاخطل

نازعته طيب الراح الشمول وقد

صاح الدجاج وحانت وقعة الساري

(60/728)

قوله تعالى ﴿ إنه هو البر الرحيم ﴾ يقرأ بفتح الهمزة وكسرها فالحجة لمن فتح انه اراد

حرف الجر فلما حذفه تعدى الفعل فعمل والحجة لمن كسر انه جعل تمام الكلام عند قوله

ندعوه ثم ابتدأ ان بالكسر على ما اوجبه الابتداء لها

قوله تعالى ﴿ يصعقون ﴾ يقرأ بفتح الياء وضمها فالحجة لمن فتح انه جعل الفعل لهم ولم

يعده الى غيرهم فالواو ضمير الفاعلين والنون علامة رفع الفعل والحجة لمن ضم انه جعل الفعل لما لم يسم فاعله فرفع المفعول بذلك

فان قيل ما وجه رفع المفعول ها هنا بعد ما كان النصب اولى به فقل لانه اشبه الفاعل في المعنى لان الفعل الذي كان حديثا عن الفاعل صار حديثا عن المفعول فقام مقامه فأعرب بإعرابه

فإن قيل فعلامة الاعراب انما تقع في آخر الفعل بغير حائل كوقوعها على آخر حروف الاسم فلم جعلت النون في الفعل المضارع اعرابا وقد حالت الالف والواو بينهما

وبين الفعل فقل لانه لما كنى عن الفاعل في الفعل مثنى ومجموعا اختلط بالفعل اختلاطا لا يمكن فصله فصار كبعض حروفه فكأنك لم تحل بين الفعل وعلامة الرفع بشيء

قوله تعالى ﴿ أم هم المصيطرون ﴾ يقرأ بالصاد والسين واشمام الزاي ها هنا وفي الغاشية وقد ذكرت علل ذلك فيما سلف

ومعنى المصيطر المسلط فأما لفظ مسيطر ومبيقر ومبيطر ومهيمن وكميت وثريا فمصغرات جاءت عن العرب لا مكبر لهم فاعرفهن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 333. 335 ﴾

وقال ابن زنجلة :

52 – سورة الطور

والذين ءامنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمن ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء 21

قرأ أبو عمرو وأتبعناهم بالنون والألف ذرياتهم جماعة ألحقنا بهم ذرياتهم جماعة وكسر التاء وإنما كسر التاء وهي موضع نصب لأن التاء غير أصلية كما تقول رايت مسلمات قوله وأتبعناهم جعل الفع لله سبحانه وحجته قوله ألحقنا بهم ولم يقل لحقت فذهب أبو عمرو إلى أنه لما أتى عقيب الفعل

فعل بلفظ الجمع وفق بين اللفظين لأنه في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد و تبعت يتعدى إلى مفعول واحد فإذا نقل بالهمزة تعدى إلى مفعولين فالمفعول الأول الهاء والميم في قوله وأتبعناهم والمفعول الثاني ذرياتهم

وقرأ نافع واتبعتهم بالتاء والتشديد ذريتهم بغير ألف ورفع التاء ألحقنا بهم ذرياتهم بالألف وكسر التاء فجمع وأفرد لأن كل واحد منهما جائز ألا ترى أن الذرية قد تكون جمعا فإذا جمعت فلأن الجموع قد تجمع نحو أقوام

قرأ ابن عامر واتبعتهم بالتشديد ذرياتهم بالألف و رفع التاء ألحقنا بهم ذرياتهم جماعة وكسر التاء وجمع في الموضعين لأن الجموع تجمع نحو الطرقات

وقرأ أهل الكوفة وأهل مكة واتبعتهم بالتشديد ذريتهم على واحدة وارتفعت الذرية بفعلها

ألحقنا بهم ذريتهم على التوحيد أيضا وهي مفعولة لأن الله تعالى لما ألحقها لحقت هي كما

تقول أمات الله زيدا فمات هو وأدخلت زيدا الدار فدخل هو والذرية تنوب عن الجمع قوله

واتبعتهم وأتبعناهم يتداخلان تداخل يدخلون الجنة ويدخلون الجنة لأن الله تعالى إذا

أتبعهم ذريتهم اتبعتهم

قرأ ابن كثير وما ألتناهم بكسر اللام وقرأ الباقون بالفتح

وهما لغتان يقال ألت يألت وألت بكسر اللام يألت كما تقول نقم ينقم ونقم ينقم

يتنزعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم 23

قرأ ابن كثير وأبو عمرو لا لغو فيها ولا تأثيم بالنصب فيهما وقرأ الباقون بالرفع

(62/728)

فمن رفع فعلى ضربين على الرفع بالابتداء وفيها الخبر وعلى أن تكون لا في مذهب ليس

رافعة ومن نصب فعلى النفي والتبرئة

واعلم أن لا إذا وقعت على نكرة جعلت هي والاسم الذي بعدها كاسم واحد وبني ذلك

على الفتح وإذا كررت جاز الرفع والنصب وإذا لم تكرر فالوجه فيه الفتح فمن رفع فكأنه

جعله جوابا لقول القائل أفيها لغو أو تأثيم فجعله نفيا لهذا ومن نصب جعله جوابا لقوله هل من لغو فيها أو تأثيم فجوابه لا لغو فيها ولا تأثيم وقد بينت في سورة البقرة

إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم 28

قرأ نافع والكائي إنا كنا من قبل ندعوه أنه هو البر الرحيم

بفتح الألف المعنى ندعوه لأنه هو البر الرحيم أي لرحمته يجيب من دعاه فكذلك ندعون قال أبو عبيد من نصب أراد ندعوه بأنه أو لأنه هو البر فيصير المعنى إنه يدعى من أجل هذا وقرأ الباقون إنه بكسر الألف قطعوا الكلام مما قبله واختار أبو عبيد الكسر وقال إن ربنا كذلك على كل حال

أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون 37

قرأ ابن كثير وحفص أم هم المسيطرون بالسين وقرأ حمزة بالإشمام وقرأ الباقون بالصاد والمسيطرون الأرباب المتسلطون يقال تسيطر علينا وتصيطر بالصاد والسين والأصل السين وكل سين بعدها طاء يجوز أن تقلب صادا سطر وصطر ويجوز الإشمام

فذرهم حتى يلقوا يومهم الذي فيه يصعقون 45

قرأ عاصم وابن عامر فيه يصعقون بضم الياء أي يهلكون وقرأ الباقون يصعقون بالفتح أي يموتون جعلوا الفعل منسوبا إليهم تقول صعق الرجل يصعق وأصعقه غيره وحجه من فتح قوله فصدق من في السموات ومن في الأرض فأما من قرأ يصعقون فإنه نقل الفعل بالهمزة تقول

صعق هو وأصعقه غيره ف يصعقون من باب يكرمون لمكان النقل بالهمز . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ حجة القراءات صـ 681.684 ﴾

(63/728)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة والطور 52

مكية ولا نظير لها في عددها

وكلمها ثلاث مئة واثنتا عشرة كلمة

وحروفها ألف حرف

وهي أربعون وسبع آيات في المدنيين والمكي وثمان في البصري وتسع في الكوفي والشامي

اختلافها آيتان (﴿ والطور ﴾) لم يعدها المدنيان والمكي وعدها الباقون (﴿ إلى نار

جهنم دعا ﴾) عدها الكوفي والشامي ولم يعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع موضع واحد وهو قوله تعالى (﴿ يوم

يدعون ﴾) ورؤوس الآي

مسطور

2 منشور

3 المعمور

4 المرفوع

5 المسجور

6 لواقع

7 دافع

8 مورا

9 سيرا

10 للمكذبين

11 يلعبون

12 تكذبون

14 لا تبصرون

15 تعملون

16 ونعيم

17 الجحيم

18 تعملون

19 عين

20 رهين

21 يشتهون

22 ولا تأثيم

23 مكنون

24 يتساءلون

25 مشفقين

26 السموم

27 الرحيم

28 مجنون

29 المنون

30 المتربصين

31 طاغون

32 لا يؤمنون

33 صادقين

34 الخالقون

35 لا يوقنون

36 المصيطرون

37 مبين

38 البنون

39 مثقلون

40 يكتبون

41 المكيدون

42 يشركون

43 مركوم

44 يصعقون

45 ينصرون

46 لا يعلمون

47 تقوم

48 النجوم

49 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 233﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة والطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الواو الأولى للقسم ، وما بعدها للعطف .

قوله تعالى (في رق) في تتعلق بمسطور ، ويجوز أن يكون نعتا آخر ، وجواب القسم (إن عذاب ربك) .

قوله تعالى (ماله من) الجملة صفة لواقع : أي واقع غير مدفوع ، و (يوم) ظرف لدافع أو لواقع ، وقيل يجوز أن يكون ظرفا لما دل عليه (فويل) ، و (يوم يدعون) هو بدل من يوم تمور ، أو ظرف ليقال المقدرة مع هذه : أي يقال لهم هذه .

قوله تعالى (أفسحر) هو خبر مقدم ، و (سواء) خبر مبتدأ محذوف : أي صبركم وتركه سواء ، و (فاكهين) حال ، والباء متعلقة به ، وقيل هي بمعنى في ،

و(متكئين) حال من الضمير في كلوا ، أو من الضمير في وقاهم ، أو من الضمير في آتاهم ، أو

من الضمير في فاكهين ، أو من الضمير في الظرف .

قوله تعالى (والذين آمنوا) هو مبتدأ ، و (ألحقنا بهم) خبره ، ويجوز أن يكون في موضع نصب على تقدير: وأكرمنا الذين وأتبعناهم فيه اختلاف قد مضى أصله ، و (ألتناهم) قد ذكر في الحجرات ، و (من) الثانية زائدة ، والأولى حال من شئ أو متعلقة بألتنا ، و (يتنازعون) حال ، و (إنه هو البر) بالفتح

أي بأنه أو لأنه ، وقرئ بالكسر على الاستئناف .

قوله تعالى (بنعمة ربك) الباء في موضع الحال ، والعامل فيه (بكاهن) أو (مجنون) والتقدير: ما أنت كاهنا ولا مجنونا متلبسا بنعمة ربك ، وأم في هذه الآيات منقطعة ، و (نتربص) صفة شاعر .

قوله تعالى (يستمعون فيه) " في " هنا على بابها ، وقيل هي بمعنى على .

قوله تعالى (وإن يروا) قيل إن على بابها ، وقيل هي بمعنى لو ، و (يومهم) مفعول به ، و (يصعقون) بفتح الياء وماضيه صعق ، ويقرأ بضمها وماضيه أصعق ، وقيل صعق مثل سعد ، و (يوم لا يغنى) بدل من يومهم (وإدبار النجوم) مثل أدبار السجور ، وقد ذكر في قاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الطور

[سورة الطور (52) : الآيات 1 الى 12]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ (1) وَكِتابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4)

وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ (7) ما لَهُ مِنْ دافِعٍ

(8) يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً (9)

وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً (10) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ

(12)

"وَالطُّورِ" جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم "وَكِتابٍ" معطوف على الطور "مَسْطُورٍ" صفة "فِي رَقٍّ" متعلقان بمسطور "مَنْشُورٍ" صفة "وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ" معطوف على ما قبله "وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ" عطف على ما قبله "وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ" عطف على ما قبله "إِنَّ عَذابَ" إن واسمها "رَبِّكَ" مضاف إليه "لَواقِعٌ" اللام المزحلقة وواقع خبر إن والجملة جواب القسم الأول "ما" نافية "لَهُ" جار ومجرور خبر مقدم "مِنْ دافِعٍ" من حرف جر زائد ودافع مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر والجملة خبر ثان لإن "يَوْمَ" ظرف زمان

"تَمُورُ السَّماءُ" مضارع وفاعله "مَوْراً" مفعول مطلق والجملة في محل جر بالإضافة "وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً" معطوفة على ما قبلها وإعرابها واضح "فَوَيْلٌ" حرف استئناف ومبتدأ "يَوْمَئِذٍ" ظرف زمان مضاف إلى ظرف مثله "لِلْمُكَذِّبِينَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ والجملة مستأنفة "الَّذِينَ" صفة للمكذبين "هُمْ" مبتدأ "فِي خَوْضٍ" متعلقان بيلعبون "يَلْعَبُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية صلة الذين.

[سورة الطور (52) : الآيات 13 الى 18]

(66/728)

يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13) هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ (15) اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17)

فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (18)

"يَوْمَ" بدل من يومئذ "يُدَعُّونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة في محل جر بالإضافة "إِلى نارِ" متعلقان بالفعل "جَهَنَّمَ" مضاف إليه "دَعًّا" مفعول مطلق "هذِهِ" مبتدأ

"النَّارُ" خبر "الَّتِي" صفة النار "كُنْتُمْ" كان واسمها "بِها" متعلقان بما بعدهما "تُكَذِّبُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كنتم وجملة كنتم صلة التي "أَفَسِحْرٌ" الهمزة حرف استفهام إنكاري والفاء حرف عطف وخبر مقدم "هذا" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "أَمْ" بمعنى بل "أَنْتُمْ" مبتدأ "لا" حرف نفي "تُبْصِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها

(67/728)

"اصْلَوْها" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله وها مفعوله "فَاصْبِرُوا" الفاء حرف عطف وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "أَوْ" حرف عطف "لا تَصْبِرُوا" مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعله "سَواءٌ" خبر لمبتدأ محذوف أي صبركم وعدمه سواء "عَلَيْكُمْ" متعلقان بسواء "إِنَّما" كافة ومكفوفة "تُجْزَوْنَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة تعليل "ما" موصولية مفعول به ثان "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كنتم وجملة كنتم صلة ما "إِنَّ الْمُتَّقِينَ" إن واسمها "فِي جَنَّاتٍ" جار ومجرور خبرها "وَنَعِيمٍ" معطوف على جنات والجملة مستأنفة "فاكِهِينَ" حال منصوبة بالياء "بِما" متعلقان بفاكهين "آتاهُمْ" ماض

ومفعوله "رَبُّهُمْ" فاعل مؤخر والجملة صلة ما "وَوَقاهُمْ رَبُّهُمْ" معطوف على آتاهم ربهم "عَذابَ" مفعول به "الْجَحِيمِ" مضاف إليه.

[سورة الطور (52) : الآيات 19 الى 24]

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19) مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ (21) وَأَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22) يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَلا تَأْثِيمٌ (23) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (24)

(68/728)

"كُلُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة مقول قول محذوف "وَاشْرَبُوا" معطوف على كلوا "هَنِيئاً" حال "بِما" متعلقان بكلوا "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كنتم وجملة كنتم صلة "مُتَّكِئِينَ" حال منصوبة بالياء "عَلى سُرُرٍ" متعلقان بالحال "مَصْفُوفَةٍ" صفة سرر "وَزَوَّجْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله "بِحُورٍ" متعلقان بالفعل "عِينٍ" صفة حور والجملة معطوفة على قوله في جنات "وَالَّذِينَ" مبتدأ

"آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ" ماض ومفعوله وفاعل مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "بِإِيمانٍ" متعلقان بالفعل "أَلْحَقْنا" ماض وفاعله "بِهِمْ" متعلقان بالفعل "ذُرِّيَّتَهُمْ" مفعول به والجملة خبر الذين "وَما" الواو حرف عطف وما نافية "أَلَتْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "مِنْ عَمَلِهِمْ" متعلقان بمحذوف حال "مِنْ شَيْءٍ" من زائدة شيء مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به ثان "كُلُّ" مبتدأ "امْرِئٍ" مضاف إليه "بِما" متعلقان برهين "كَسَبَ" ماض فاعله مستتر "رَهِينٌ" خبر كل والجملة الفعلية صلة ما والجملة الاسمية مستأنفة "وَأَمْدَدْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "بِفاكِهَةٍ" متعلقان بالفعل "وَلَحْمٍ" معطوف على ما قبله "مِمَّا" متعلقان بمحذوف صفة لحم "يَشْتَهُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "يَتَنازَعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة حال "فِيها" متعلقان بالفعل "كَأْساً" مفعول به "لا" نافية مهملة "لَغْوٌ" مبتدأ "فِيها"

(69/728)

جار ومجرور خبره والجملة صفة كأس "وَلا تَأْثِيمٌ" معطوف على لا لغو "وَيَطُوفُ" مضارع مرفوع "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "غِلْمانٌ" فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "لَهُمْ" متعلقان

بمحذوف صفة غلمان "كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ" كأن واسمها وخبرها "مَكْنُونٌ" صفة لؤلؤ والجملة صفة غلمان.

[سورة الطور (52) : الآيات 25 الى 31]

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (25) قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ (26) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا وَوَقانا عَذابَ السَّمُومِ (27) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28) فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ (29)

أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31)

(70/728)

"وَأَقْبَلَ" الواو حرف عطف ماض "بَعْضُهُمْ" فاعل "عَلى بَعْضٍ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "يَتَساءَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة حال "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "إِنَّا" إن واسمها "كُنَّا" كان واسمها "قَبْلُ" ظرف زمان "فِي أَهْلِنا" متعلقان بما بعدهما "مُشْفِقِينَ" خبر كان وجملة كنا خبر إن وجملة إنا مقول القول "فَمَنَّ" الفاء حرف عطف وماض "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "عَلَيْنا" متعلقان بالفعل "وَوَقانا" الواو حرف عطف وماض ومفعوله والفاعل مستتر "عَذابَ"

مفعول به ثان "السَّمُومِ" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها "إِنَّا" إن واسمها "كُنَّا"
كان واسمها "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بندعوه وجملة كنا خبر إن والجملة الاسمية إنا مقول القول
"نَدْعُوهُ" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة خبر كنا "إِنَّهُ" إن واسمها "هُوَ" ضمير فصل "الْبَرُّ
الرَّحِيمُ" خبران والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها "فَذَكِّرْ" الفاء حرف استئناف وأمر
فاعله مستتر والجملة مستأنفة "فَما" الفاء حرف تعليل وما نافية عاملة عمل ليس "أَنْتَ"
اسمها "بِنِعْمَةِ" متعلقان بالنفي الذي أفادته ما "رَبِّكَ" مضاف إليه "بِكاهِنٍ" مجرور لفظا
منصوب محلا على أنه خبر ما "وَلا مَجْنُونٍ" معطوف عليه وجملة ما أنت تعليل "أَمْ" حرف
عطف بمعنى بل "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة "شاعِرٌ" خبر لمبتدأ
محذوف تقديره هو شاعر والجملة الاسمية مقول القول "نَتَرَبَّصُ" مضارع فاعله مستتر
والجملة صفة "بِهِ" متعلقان بالفعل "رَيْبَ" مفعول به "الْمَنُونِ" مضاف إليه "قُلْ" أمر فاعله
مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "تَرَبَّصُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله
والجملة مقول القول "فَإِنِّي" الفاء للتعليل وإن واسمها "مَعَكُمْ" ظرف مكان "مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ"
خبر إن والجملة

الاسمية تعليل .

[سورة الطور (52) : الآيات 32 الى 38]

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (32) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (34) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ (36)

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (38)

(72/728)

"أَمْ" حرف عطف "تَأْمُرُهُمْ" مضارع ومفعوله "أَحْلامُهُمْ" فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "بِهذا" متعلقان بالفعل "أَمْ" حرف عطف "هُمْ قَوْمٌ" مبتدأ وخبره "طاغُونَ" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها "أَمْ" حرف عطف "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "تَقَوَّلَهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مقول القول "بَلْ" حرف عطف "لا" نافية "يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "فَلْيَأْتُوا" الفاء الفصيحة ومضارع مجزوم بلام الأمر والواو فاعله والجملة جواب

الشرط المقدر "بِحَدِيثٍ" متعلقان بالفعل "مِثْلِهِ" صفة "إِنْ" شرطية جازمة "كانُوا صادِقِينَ" كان واسمها وخبرها والجملة ابتدائية "أَمْ" حرف عطف "خُلِقُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل "مِنْ غَيْرِ" متعلقان بالفعل "شَيْءٍ" مضاف إليه "أَمْ" حرف عطف "هُمُ الْخالِقُونَ" مبتدأ وخبره والجملة معطوفة على ما قبلها "أَمْ" حرف عطف "خَلَقُوا" ماض وفاعله "السَّماواتِ" مفعول به "وَالْأَرْضَ" معطوف عليه والجملة معطوفة على ما قبلها "بَلْ" حرف عطف وإضراب "لا" نافية "يُوقِنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "أَمْ" حرف عطف "عِنْدَهُمْ" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم "خَزائِنُ" مبتدأ مؤخر "رَبِّكَ" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها "أَمْ" حرف عطف "هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ" مبتدأ وخبره والجملة معطوفة على ما قبلها "أَمْ" حرف عطف "لَهُمْ" خبر مقدم "سُلَّمٌ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "يَسْتَمِعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "فِيهِ" متعلقان بالفعل والجملة صفة سلم "فَلْيَأْتِ" الفاء الفصيحة ومضارع مجزوم بلام الأمر وعلامة جزمه حذف حرف العلة "مُسْتَمِعُهُمْ" فاعل "بِسُلْطانٍ" متعلقان بالفعل "مُبِينٍ" صفة سلطان والجملة الفعلية جواب شرط غير جازم.

[سورة الطور (52) : الآيات 39 الى 42]

أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39) أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42)

"أَمْ" حرف عطف "لَهُ" خبر مقدم "الْبَناتُ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "وَلَكُمُ" خبر مقدم "الْبَنُونَ" مبتدأ مؤخر مرفوع بالواو لأنه ملحق بجمع المذكر السالم والجملة معطوفة على ما قبلها "أَمْ" حرف عطف "تَسْئَلُهُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر "أَجْراً" مفعول به ثان "فَهُمْ" حرف عطف ومبتدأ "مِنْ مَغْرَمٍ" متعلقان بما بعدهما "مُثْقَلُونَ" خبر والجملة معطوفة على ما قبلها "أَمْ" حرف

عطف "عِنْدَهُمُ" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم "الْغَيْبُ" مبتدأ مؤخر "فَهُمْ" حرف عطف ومبتدأ "يَكْتُبُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "أَمْ" حرف عطف "يُرِيدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "كَيْداً" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "فَالَّذِينَ" حرف استئناف ومبتدأ "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "هُمُ الْمَكِيدُونَ" مبتدأ وخبر والجملة الاسمية خبر الذين.

[سورة الطور (52) : الآيات 43 الى 45]

أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43) وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ (44) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45)

(74/728)

"أَمْ" حرف عطف "لَهُمْ" خبر مقدم "إِلَهٌ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "غَيْرُ" صفة "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "سُبْحانَ" مفعول مطلق لفعل محذوف "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "عَمَّا" متعلقان بسبحان "يُشْرِكُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة ما "وَإِنْ" الواو حرف استئناف وإن حرف شرط جازم "يَرَوْا" مضارع مجزوم لأ

[سورة الطور (52) : الآيات 46 الى 49]

يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (46) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (47) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبارَ النُّجُومِ (49)

"يَوْمَ" بدل من يومهم "لا" نافية "يُغْنِي" مضارع مرفوع "عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل "كَيْدُهُمْ" فاعل "شَيْئاً" مفعول به والجملة في محل جر بالإضافة "وَلا" حرف عطف ولا نافية "هُمْ" مبتدأ "يُنْصَرُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة الفعلية خبر هم والجملة

الاسمية معطوفة على ما قبلها "وَإِنَّ" الواو حرف استئناف وإن حرف مشبه بالفعل "لِلَّذِينَ" خبر مقدم "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "عَذَابًا" اسم إن المؤخر "دُونَ" ظرف مكان "ذَلِكَ" مضاف إليه "وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ" لكن واسمها "لا" نافية "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر لكن والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها

(75/728)

"وَاصْبِرْ" الواو حرف استئناف وأمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "لِحُكْمِ" متعلقان بالفعل "رَبِّكَ" مضاف إليه "فَإِنَّكَ" الفاء حرف تعليل وإن واسمها "بِأَعْيُنِنَا" متعلقان بمحذوف خبر إن والجملة الاسمية تعليل "وَسَبِّحْ" حرف عطف وأمر فاعله مستتر "بِحَمْدِ" متعلقان بالفعل "رَبِّكَ" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها "حِينَ" ظرف زمان "تَقُومُ" مضارع فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "وَمِنَ اللَّيْلِ" حرف عطف وجار ومجرور متعلقان بما بعدهما "فَسَبِّحْهُ" الفاء زائدة وأمر ومفعوله والفاعل مستتر "وَإِدْبَارَ" حرف عطف وإدبار منصوب بنزع الخافض "النُّجُومِ" مضاف إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 269. 274﴾

(76/728)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الطّور

ذكر فِيهَا خَمْسَة أَحَادِيث

1258 - قَوْله

عَن عَلّي أَنه سَأَل يَهُودِيّا أَيْن مَوضِع النَّار فِي كتابكُمْ قَال فِي الْبَحْر قَال لَا أرَاهُ إِلَّا صَادِقا لقَوْله وَالْبَحْر الْمَسْجُور

قلت رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْبَعْث والنشور عَن الْحَاكِم بِسَنَدِهِ إِلَى حَمَّاد بن سَلمَة عَن دَاوُد بن أبي هِنْد عَن سعيد بن الْمسيب قَال قَال عَلّي لرجل من الْيَهُود أَيْن جَهَنَّم قَال الْبَحْر قَال مَا أرَاهُ إِلَّا مَاء قَال وَالْبَحْر الْمَسْجُور وَإِذا الْبحار سجرت انْتَهَى

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره عَن ابْن عَلَيْهِ ثَنَا دَاوُد بن أبي هِنْد بِهِ

1259 - الحَدِيث الأول

عَن جُبَير بن مطعم قَال أتيت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أُكَلّمهُ فِي الْأَسَارَى فَأَلْفَيْته فِي صَلَاة الْفجْر يقْرَأ سُورَة الطّور فَلَمَّا بلغ إِن عَذَاب رَبك لوَاقِع أسلمت خوفًا من أَن ينزل الْعَذَاب

قلت لم أَجِدهُ كَذَلِك فقد أخرجه الْجمَاعَة إِلَّا التِّرْمِذِيّ كلهم فِي الصَّلَاة من حَدِيث مُحَمَّد بن جُبَير بن مطعم عَن أَبِيه قَالَ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يقْرَأ بِالطورِ فِي صَلَاة الْمغرب زَاد الْبُخَارِيّ فِي طَرِيق فَلَمَّا بلغ هَذِه الْآيَة أم خلقُوا من غير شَيْء أم هم الْخَالِقُونَ . . . إِلَى آخرهَا كَاد قلبِي يطير انْتَهَى وَزَاد فِي طَرِيق آخر وَكَانَ قد جَاءَ فِي فدَاء الْأَسَارَى يَوْم بدر

1260 - الْحَدِيث الثَّانِي

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِن الله يرفع ذُرِّيَّة الْمُؤمن فِي دَرَجَته وَإِن كَانُوا دونه لِيُقِر بهم عينه)

(77/728)

قلت رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث قيس بن الرّبيع عَن عَمْرو بن مرّة عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس رَفعه إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (إِن الله ليرْفَع ذُرِّيَّة الْمُؤمن إِلَيْهِ فِي دَرَجَته وَإِن كَانُوا دونه فِي الْعَمَل لِيُقِر بهم عينه) ثمَّ قَرَأَ وَالَّذين آمنُوا وَاتَّبعتهمْ ذُرِّيتهمْ بِإِيمَان الْآيَة انْتَهَى وَقَالَ هَذَا حَدِيث لَا نعلم أحدا أسْنده إِلَّا قيس وَقد رَوَاهُ الثَّوْرِيّ عَن عَمْرو بن مرّة عَن سعيد عَن ابْن عَبَّاس مَوْقُوفا انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي كتاب الْحِلْية فِي تَرْجَمَة سعيد بن جُبَير عَن قيس بن الرّبيع بِهِ مَرْفُوعا وَقَالَ حَدِيث غَرِيب تفرد بِهِ قيس عَن عَمْرو بن مرّة انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث قيس بِهِ عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِن الله ليرْفَع) الحَدِيث

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ وَمن طَرِيقه الْبَغَوِيّ فِي تفسيريهما

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وَضعف قيسا عَن أَحْمد وَابْن معِين وَابْن الْمُبَارك وَلينه ابْن عدي وَنقل عَن شُعْبَة أَنه قَالَ فِيهِ لَا بَأْس بِهِ انْتَهَى

وَالْمَوْقُوف الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ الْبَزَّار رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره أَنا الثَّوْرِيّ عَن عَمْرو بن مرّة بِهِ فَذكره مَوْقُوفا

وَمن طَرِيق عبد الرَّزَّاق رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك وَسكت عَنهُ

وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الِاعْتِقَاد وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرِيّ وَابْن أبي حَاتِم فِي تفسيريهما

1261 - الحَدِيث الثَّالِث

عَن قَتَادَة أَنه قيل لَهُ فِي قَوْله تَعَالَى (غلْمَان لَهُم كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤ مَكْنُون) هَذَا الْخَادِم فَكيف المخدوم فَقَال قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ إِن فضل المخدوم عَلَى الْخَادِم كفضل الْقَمَر لَيْلَة الْبَدْر عَلَى سَائِر الْكَوَاكِب)

قلت رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره أخبرنَا معمر عَن قَتَادَة فِي قَوْله تَعَالَى كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤ مَكْنُون قَال بَلغنِي أَنه قيل للنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَا رَسُول الله هَذَا الْخَادِم فَكيف المخدوم فَقَال (وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ) إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ حَدثنَا يُونُس بن عبد الْأَعْلَى ثَنَا ابْن ثَوْر عَن معمر بِهِ سَوَاء

وَرَوَاهُ أَيْضا حَدثنَا بشر بن معَاذ ثَنَا يزِيد بن هَارُون ثَنَا سعيد عَن قَتَادَة أَن رجلا قَال يَا رَسُول الله هَذَا الْخَادِم فَكيف المخدوم إِلَى آخِره

وَأخرجه الثَّعْلَبِيّ عَن الْحسن فَقَال أَنا الْحُسَيْن بن مُحَمَّد بن فَنْجَوَيْهِ ثَنَا عبد الله بن إِبْرَاهِيم بن أَيُّوب الْبوني ثَنَا الْحُسَيْن بن الْمكتب الْموصِلِي ثَنَا الْمُعَلَّى بن مهْدي أَنا مِسْكين بن حَوْشَب عَن الْحسن فِي هَذِه الْآيَة وَيطوف عَلَيْهِم غلْمَان لَهُم كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤ مَكْنُون قَال قَالُوا يَا رَسُول الله الْخَادِم كاللُّؤْلُؤ فَكيف بالمخدوم قَال (كَمَا بَين الْقَمَر لَيْلَة الْبَدْر وَالْكَوَاكِب) انْتَهَى

1262 - الْحَدِيث الرَّابِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِن أدنَى أهل الْجنَّة منزلَة من يُنَادي الْخَادِم من خُدَّامه فَيُجِيبهُ أَلف بِبَابِهِ لبيْك لبيْك)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أَنا الْحُسَيْن بن مُحَمَّد بن فَنْجَوَيْهِ ثَنَا أَحْمد بن عَلّي بن عمر ابْن حُبَيْش ثَنَا مُحَمَّد بن أَحْمد بن عَاصِم ثَنَا عمر بن عبد الْعَزِيز الْبَصْرِيّ ثَنَا يُوسُف بن أبي طيبَة عَن وَكِيع بن الْجراح عَن هِشَام بن عُرْوَة عَن أَبِيه عَن

عَائِشَة قَالَت قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِن أدنى أهل الْجنَّة منزلَة من يُنَادي الْخَادِم فَيُجِيبهُ أَلف يُنَادِيه كلهم لبيْك لبيْك) انْتَهَى

وَفِي التِّرْمِذِيّ عَن عَمْرو بن الْحَارث أَن دَرَّاجًا أَبَا السَّمْح حَدثهُ عَن أبي الْهَيْثَم عَن أبي سعيد عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (إِن أدنى أهل الْجنَّة منزلَة الَّذِي لَهُ ثَمَانُون أَلف خَادِم وَاثْنَتَان وَسَبْعُونَ زَوْجَة وَينصب لَهُ فِيهِ من لُؤْلُؤ وزبرجد وَيَاقُوت كَمَا بَين الْجَابِيَة وَصَنْعَاء) انْتَهَى

وَهُوَ فِي الفردوس عَن عَائِشَة بِلَفْظ الْمُصَنّف

1263 - الْحَدِيث الْخَامِس

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (من قَرَأَ سُورَة الطّور كَانَ حَقًا عَلَى الله أَن يُؤمنهُ من عَذَابه وَأَن يُنَعِّمَهُ فِي جنته)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أَنا أَبُو الْحسن الْفَارِسِي ثَنَا أَبُو مُحَمَّد بن أبي حَامِد ثَنَا أَبُو جَعْفَر مُحَمَّد بن الْحسن الْأَصْبَهَانِيّ ثَنَا المؤمل بن إِسْمَاعِيل ثَنَا سُفْيَان الثَّوْرِيّ ثَنَا أسلم الْمنْقري عَن عبد الله بن عبد الرَّحْمَن بن أَبْزَى عَن أَبِيه عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قَرَأَ سُورَة وَالطور . . . إِلَى آخِره سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه الْمُتَقَدّمين فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 371.374 ﴾

(80/728)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الطور

قوله تعالى : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ) ، الآية/ 48 :

قال ابن مسعود : حين تقوم من كل مكان تقول : «سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ،

استغفرك وأتوب إليك» .

وهذا فيه بعد ، فإن قوله حين تقوم ، لا يدل على التسبيح بعد التكبير ، فإن التكبير هو الذي يكون بعد القيام ، والتسبيح يكون وراء ذلك ، فدل أن المراد به حين تقوم من كل مكان فتقول : «سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، استغفرك وأتوب إليك» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 391 ﴾

(81/728)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الطّور» (52)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«وَالطُّورِ» (1) هو الجبل فى كلام العرب . .

«وَكِتابٍ مَسْطُورٍ» (2) أي مكتوب وقال رؤبة :

إنى وأيات سطرن سطرا

«1» [872] .

«فِي رَقٍّ» (3) أي فى ورق . .

«وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ» (4) الكثير الغاشية «2» . .

«وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ «3»» (6) بعضه فى بعض من الماء قال النّمر بن تولب :

إذا شاء طالع مسجورة ترى حولها النّبع والسّاسما

«4» «5» [873]

---

(1) . - 872 : ديوانه ص 174 والطبري 27/ 9 .

(2) . الغاشية : السؤال الذين يغشونك يرجون فضلك ومعروفك وغاشية الرجل من ينتابه من زواره وأصدقائه (اللسان) .

(3) . - 8 «المملو» الذي ورد فى الفروق : رواه ابن حجر عن أبى عبيده (7/ 463) .

(4) . - 873 : البيتان من كلمة فى مختارات شعراء العرب 205 والعيني 1/ 575 ، 4/ 151 وشواهد المغني ص 65 والخزانة 4/ 434 وهما فى الطبري 27/ 11 والأول فى الشنتمرى 1/ 135 والقرطبي 17/ 61 والثاني : الكتاب 1/ 113 والشنتمرى 1/ 135 ، 471 .

معناه : إما من صيف وإما من خريف فلن بعدم الري البتة ، المسجورة الروضة المملوءة عشبا والنبع والساسم من شجر الجبال والصيف مطر الصيف وأراد بالخريف مطر

الخريف (الشنتمرى) .

(5) . - 874 : ديوانه ص 165 .

سقتها رواعد من صيّف وإن من خريف فلن يعدما .

«يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً» (9) أي تكفأ قال الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها مور السحابة لا ريث ولا عجل «1»

«2» [875] وهو أن ترهيأ «3» فى مشيتها أي تكفّأ كما ترهيأ النخلة العيدانة «4»

. .

«الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ» (11) الخوض الفتنة والاختلاط . .

«يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ» (12) أي يدفعون ، يقال : دعت فى قفاه أي دفعت وفى آية أخرى «يَدُعُّ الْيَتِيمَ» (2/107) وقال بعضهم : يدع اليتيم مخففة . «دَعًّا هذِهِ النَّارُ» (13 - 14) مختصر مخرجه : فيقال : هذه النار . .

«أَ فَسِحْرٌ هذا» (15) ليس باستفهام بل هو توعّد . .

«إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ فكهين» (17 - 18) لأن نصبت مجازها مجاز الاستغناء

فإذا استغنيت أن تخبر ثم جاء خبر بعد فإن شئت رفعت وإن شئت نصبت ومعناها :

متفكهين ، قال صخر بن عمرو أخو خنساء : «5»

---

(1) . - 2 - 3 «أي تكفأ . . . عجل» : الطبري 27/ 11 ، وصاحب اللسان

(مور) والقرطبي (17/ 61) .

(2) . - 875 : ديوانه . 42

(3) . - 4 «ترهيأ . . . العيدانة» : هذا الكلام فى اللسان (رهأ) .

(4) . - 4 «غيدان» الذي ورد فى الفروق : بالفتح ثم السكون كأنه فعلان من الغيد .

(5) . - 877 : فى اللسان (رهأ) .

(83/728)

فكه على حين العشاء إذا ما الضّيف أقبل مسرعا يسرى

«1» [878] ومن قرأها «فاكهين» فمجازها مجاز ، «لابن» و«تامر» أي عنده لبن كثير

وتمر كثير . .

«وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ» (20) مجازها : جعلنا ذكران أهل الجنة أزواجا بحور عين من

النساء ، يقال : للرجل : زوّج هذا الفعل الفرد أي اجعلهما زوجا . .

«وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ» (21) أي ما نقصناهم ولا حبسنا منه شيئا وفيه ثلاث لغات «ألت يألت» تقديرها : أفل يأفل وألات يليت ، تقديرها : أقال يقيل ولات يليت قال رؤبة :

وليلة ذات ندى سريت ولم يلتنى عن سراها ليت

(856) .

«مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ » (21) مجازها : ما ألتناهم شيئا والعرب تفعل هذا تزيد «من» قال أبو ذؤيب :

جزيتك ضعف الحب لما استثبته وما إن جزاك الضعف من أحد قبلى

(58) معناها أحد قبلى لأن «من» لا تنفع ولا تضرّ . .

«يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً» (23) يتعاطون أي يتداولون «2» قال الأخطل :

---

(1) . - 878 : راجع رقم 765 .

(2) . - 13 «يتنازعون . . . يتداولون» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 5/ 463) . [. . . . .]

نازعته طيّب الراح الشّمول وقد صاح الدّجاج وحانت وقعة الساري

«1» [879].

«كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ» (24) مصون . .

«عَذابَ السَّمُومِ» (27) عذاب النار . .

«فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ أَمْ يَقُولُونَ» (29 - 30) مجازها : بل يقولون ، وليست بجواب استفهام قال الأخطل :

كذبتك عينك أم رأيت بواسط غلس الظّلام من الرّباب خيالا

(69) لم يستفهم إنما أوجب أنه رأى بواسط غلس الظلام من الرباب خيالا . .

«أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا» (32) بل تأمرهم أحلامهم بهذا ثم رجع فقال : .

«أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ» (32)

«أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ «2»» (37) أم هم الأرباب ويقال : تصيطرت عليّ اتخذتني خولا «3» . .

«أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ» (38) هى السلّم وهو السلّم «4» ومجاز «فيه» به وعليه وفى القرآن :

«وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ» (19/ 23) إنما هو على جذوع النخل

---

(1) . - 879 : ديوانه ص 116 والطبري 27/ 16 والقرطبي 17/ 68 .

(2) . - 10 «المصيطرون» : قال القرطبي (17/ 75 : وفيه ثلاث لغات : الصاد وبها قرأت العامة والسين وهى قراءة ابن محيصن وحميد ومجاهد وقنبل وهشام وأبى حيوة وبإشمام الصاد الرأي وهى قراءة حمزة.

(3) . - 10 - 11 «المصيطرون . . . خولا» : روى تفسيره هذا عنه الطبري (27/ 18) .

«تصيطرت . . . خولا» : رواه القرطبي عن عطا الخول اسم يقع على العبد والأمه.

(4) . - 12 «السلم والسلم» : قال ابن دريد : والسلم يذكر ويؤنث وهو فى التنزيل مذكر (الجمهرة 3/ 50) .

(85/728)

والسلّم السبب والمرقاة «1» قال الشّيبانىّ :

هم صلبوا العبدى فى جذع نخلة فلا عطست شيبان إلّا بأجدعا

[547] وقال ابن مقبل :

لا تحرز المرء أحجاء البلاد ولا يبنى له فى السموات السّلاليم

«2» [216] ويقول الرجل : اتخذتني سلّما لحاجتك أي سببا . .

«أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ» (41) فهم يخبرون بما شاءوا ويثبتون ما شاءوا . .

«وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً» (44) أي قطعا وواحد الكسف كسفة مثل سدرة وسدر «3» . .

«سَحابٌ مَرْكُومٌ» (44) بعضه على بعض ركام . .

«وَإِدْبارَ «4» النُّجُومِ» (49) من كسر الألف جعله مصدرا ومن فتحها جعلها جميع دبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 230. 234 ﴾

---

(1) . - 1 «السبب والمرقاة» : كما فى الطبري 22/ 18 .

(2) . - 216 : مر بيت ابن مقبل هذا وانظره أيضا فى الطبري 27/ 19 والقرطبي 17/ 76 .

(3) . - 8 - 9 «الكسف . . . سدر» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 463) .

(4) . - 11 - «وإدبار» : قرأ السبعة على المصدر . . . وقرأ سالم بن أبى الجعد ومحمد بن السميقع بالفتح ومثله روى عن يعقوب وسلام وأيوب (القرطبي 17/ 80) .

(86/728)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الطّور»

[سورة الطور (52) : آية 32]

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (32)

قوله تعالى : أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا ، أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ [32] وهذه استعارة . أي كانوا حكماء عقلاء كما يدّعون ، فكيف تحملهم أحلامهم وعقولهم على أن يرموا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بالسّحر والجنون ، وقد علموا بعده عنهما ، ومباينته لهما ؟

وهذا القول منهم سفه «1» وكذب ، وهاتان الصفتان منافيتان لأوصاف الحلماء ، ومذاهب الحكماء .

ومخرج قوله سبحانه : أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا مخرج التبكيت لهم ، والإزراء عليهم .

ونظير هذا الكلام قوله سبحانه حاكيا عن قوم شعيب عليه السلام :

قالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا «2» أي دينك وما جئت به من شريعتك التي فيها الصلوات وغيرها من العبادات ، تحملك على أمرنا بترك ما يعبد آباؤنا «3» . وقد مضى الكلام على ذلك فى موضعه .

[سورة الطور (52) : آية 49]

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبارَ النُّجُومِ (49)

وقوله سبحانه : وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبارَ النُّجُومِ [49] وقرئ : «4» وَإِدْبارَ النُّجُومِ بكسر الهمزة . وهذه استعارة على القراءتين جميعا .

---

(1) فى الأصل «صفه» بالصاد . وهو تحريف بالغ .

(2) سورة هود . الآية رقم 87 .

(3) كرر الناسخ هذه العبارة من قوله : أي دينك إلى قوله ما يعبد آباؤنا . [. . . . .]

(4) قرأ السبعة : وإدبار بكسر الهمزة على أنها مصدر للفعل أدبر . وقرأ سالم بن أبى الجعد ويعقوب وسلام وأيوب : وأدبار بالفتح . انظر القرطبي ج 17 ص 80 .

فمن قرأ بفتح الهمزة كان معناه : وأعقاب النجوم . أي أواخرها إذا انصرفت . كما يقال : جاء فلان فى أعقاب القوم . أي فى أواخرهم . وتلك صفة تخصّ الحيوان المتصرف الذي يوصف بالمجيء والذّهاب ، والإقبال والإدبار . ولكنها استعملت فى النجوم على طريق الاتساع . فأمّا قراءة من قرأ : وَإِدْبارَ النُّجُومِ بالكسر فمعناه قريب من المعنى الأول . فكأنه سبحانه وصفها بالإدبار بعد الإقبال . والمراد بذلك الأفول بعد

الطلوع ، والهبوط بعد الصعود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 315 .

316 ﴾

(88/728)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الطور

سورة الطور نموذج لطيف لعمل القرآن الكريم فى النفس عندما يطلع عليها بالهدى ، كما يطلع الصبح على الليل فيمحو ظلامه ويضىء أركانه ! كان جبير بن مطعم مشركا قدم المدينة بعد هزيمة بدر التى لحقت بقومه ليفاوض فى فكاك الأسرى ، ودخل المسلمون المسجد ليصلوا المغرب وراء نبيهم صلى الله عليه وسلم وبقى هو خارج المسجد !

واستمع إلى سورة الطور يقرؤها النبى فى الصلاة ، فتغيرت نفسه واهتز الشرك فى ضميره ، وأحس كأن الوحى المتلو يسحق بقايا الكفر فى نفسه ويكتسحها اكتساحا . قال جبير سمعت النبى يقرأ فى المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية " أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون * أم عندهم خزائن ربك أم هم

المسيطرون " . كاد قلبى أن يطير . . ! ! وفى رواية أخرى يقول جبير قدمت المدينة على رسول الله لأكلمه فى أسارى بدر . فدفعت إليه وهو يصلى بأصحابه صلاة المغرب فسمعته يقرأ " والطور . . . " إلى " إن عذاب ربك لواقع * ما له من دافع " ، فكأنما صدع قلبى . . فأسلمت خوفا من نزول العذاب ! وما كنت أظن أن أقوم من مقامى حتى يقع بى العذاب . لقد ترك الرجل أوثانه ونجا . وما أكثر الذين أخرجهم القرآن من الظلمات إلى النور ! والقرابة قائمة بين الوحى القديم والوحى الجديد ، فمن جانب الطور نودى موسى ليحمل عبء الحرب على الفراعنة ، ومن جانب البيت المعمور نودى محمد ليرسى دعائم التوحيد ، ويقيم الدين على الحقائق لا على الأوهام . ويبدو أن الرق المنشور صحائف موسى ، وأن البحر المسجور هو البحر الأحمر حيث أغرق فرعون وقضت اللجج على ألوهية مزورة وهذا رأى العلامة ابن عاشور . وقد تذكر فى تفسير هذه الأقسام التى بدأت بها السورة أقوال أخرى لا نقف عندها . والذى نريد توكيده أن موسى أخذ التوراة دينا ودولة ، كما أخذ نبينا القرآن دينا ودولة .

(89/728)

أما عيسى فإن إنجيله جاء على هامش التوراة ، ومنطلقا منها مع بعض تخفيفات محدودة . . ومهما يكن من شيء ، فإن القرآن تضمن الصيغة الأخيرة للعقيدة والشريعة ، وشطر فيه الوحى الباقى إلى آخر الدهر ، وهو الوثيقة الفريدة للوحى الذى تلقاه الأنبياء الأوائل . وقد أكدت سورة الطور الوعيد لأعداء الوحى ، وهم أهل لمستقبلهم المظلم . . أما المتقون ، فلهم غد باسم ، ونعيم مقيم ، صنعوه بزكاة النفس وطهارة اليد واستقامة النهج . " قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين * فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم" وبعد ما سبق من وعيد ووعد ، جاء فى منتصف السورة أمر لرسول الله بالمثابرة على الدعوة ، وملازمة التذكير "فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون" . من أين تأتى الكهانة لدين الفطرة ، أو يأتى الجنون لدين العقل ؟ إن شرف الإسلام قائم على أنه إنسانية رفيعة تأبى العوج والخطأ والتصنع والشرود ! ولذلك جاء بعد ذلك خمسة عشر استفهاما متعاقبات كأنها خمس عشرة صدمة كهربائية تنقل المرء من حال إلى حال ، وترغمه على التفكير فى الحال والمآل: 1 - " أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون * قل تربصوا فإني معكم من المتربصين" . ليس محمد شاعرا "وما علمناه الشعر وما ينبغي له " . وكتابه مشحون بالحقائق لا بالخيالات " و بالحق أنزلناه و بالحق نزل " . 2 - " أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ " إن ذوى العقول يترفعون عن اختلاق هذه التهم . 3 - " أم هم قوم طاغون ؟ " الطغيان هو الباعث الأول على التكذيب . 4 - " أم

يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين" لو كان القرآن كلام بشر فما يمنع البشر من الإتيان بمثله ؟ 5 - " أم خلقوا من غير شيء . . " . إن الصفر لا يوجد شيئا . 6 - " أم هم الخالقون " ؟ إن الإنسان مخلوق مربوب . وهو لا يخلق شيئا . 7 - "أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون " . لقد وجدنا فى عالم ممهد لنا لم

(90/728)

نصنع من ذراته ولا مجراته شيئا .

8 - " أم عندهم خزائن ربك " أغلب الكافرين يتساءلون لماذا اختير الأنبياء من بيننا ؟ ولماذا لم يقع الاختيار علينا ؟ 9 - " أم هم المسيطرون " إذا كانت لهم سطوة فليجربوا حظهم ، " إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه" . 10 - " أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين" . إن تيسر لهم وحى فليجيئوا به ، وهيهات . 11 - " أم له البنات ولكم البنون " إن مشركى مكة يستكبرون أن تكون لهم بنات ، ومع ذلك يقولون إن لله بنات ! 12 - " أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون " . إن الأنبياء لا يسألون الناس شيئا ولا يطلبون منهم دنيا . ص - " أم عندهم الغيب فهم يكتبون " . ليس لدى الكفار علم من غيب أو شهادة . 14 - " أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون" . قد يطول

الصراع بين الحق والباطل ولكن العاقبة للمتقين . 15 - " أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون " . ماعدا الله باطل . وبعد هذه الأسئلة قال الله تعالى: " وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم " أى إنهم أهل عناد ومكابرة ، لا يغنون للحق وأدلته أبدا . ولذلك قيل للرسول تربص بهم أياما يذلون فيها للحق ، ويعرون فيها من أسباب القوة ، واشتغل أنت بالعبادة والجهاد " واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 415.413 ﴾

(91/728)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والعشرون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/729)

الجزء التاسع والعشرون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من (سورة الطور)

وحتى الآية ﴿ 28 ﴾ من السورة

(4/729)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/729)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الطور

أقول: وجه وضعها بعد الذاريات: تشابههما في المطلع والمقطع ، فإِن في مطلع كل منهما صفة حال المتقين بقوله: (إِنَّ المُتَقِينَ في جناتٍ) وفي مقطع كل منهما صفة حال الكفار ، بقوله في تلك: (فويلٌ للَذينَ كفروا) وفي هذه: (فالذينَ كَفَروا) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أسرار ترتيب القرآن صـ 132.133 ﴾

(6/729)

قوله تعالى ﴿ وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الملك الأعظم ذي الملك والملكوت (الرحمن) الذي عم بالرحموت من حققه (الرحيم) الذي خص برحمته وتوفيقه أهل القنوت .

الطور : (1 – 10) والطور .

لما ختمت الذاريات بتحقيق الوعيد ، افتتحت هذه بإثبات العذاب الذي هو روح الوعيد ، فقال تعالى : ﴿ والطور ﴾ وذلك أنهم لما كانوا يقولون عما أتاهم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنه سحر خيال لا حقيقة له ، أقسم بالجبل – الذي هو عندهم وعند غيرهم من ذوي العقول – أثبت الأرض وأشدها وأصلبها ، وعبر عنه بالطور الذي هو مشترك بين مطلق الجبل وبين المضاف إلى سينا الذي كان فيه نبوة موسى عليه السلام وإنزال كثير من كتابه وغير ذلك – آيات تعلمها بنو إسرائيل الذين يستنصحونهم ويسألونهم عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويرضون بقولهم فيه فمن آياته أنه كانت فيه الرحمة بمناجاة موسى عليه السلام وما كتب له فيه على ألواح الجوهر وما أنزل عليه من الناموس الذي جعله هدى ورحمة وموعظة وذكراً وتفصيلاً لكل شيء وكان فيه مع الرحمة العذاب بما أتاهم من الصاعقة التي أماتتهم ثم أحياهم الله وبما كانوا يشهدون من السحاب الذي تخلله فيكون كقتار الأتون ، وفيه بروق كأعظم ما يشاهد من النار ، وأبواق تزعق بصوت هائل ، ولما شوهد من اندكاك لجبل عند التجلي وصعق موسى عليه السلام إلى غير ذلك من الآيات التي تكشف الظلمات ، وأيضاً فالطور كل جبل ينبت ، وإنبات الجبل عجيب ، فإن نباته لا

يكون إلا بسبب ، وسبب النبات الماء ، والماء منبث في الأرض لتركبها عليه وهو موازٍ لما انكشف منه من ماء البحار ، وكلما علت الأرض بعدت عن الماء ، والجبال أبعدها منه ، فسبب إنباته خفي جداً لا يعلمه إلا الله ومن فهمه إياه .

(7/729)

ولما كانت الأرض لوح السماء التي منها الوعيد ، وكانت الجبال أشدها ، فذكر أعظمها آية ، وكان الكتاب لوح الكاتب ، وكانت الكتب الإلهية أثبت الكتب ، وكان طور سينا قد نزل كتاب إلهي قال : ﴿ وكتاب ﴾ وحقق أمره بقوله : ﴿ مسطور ﴾ أي متفق الكتابة بسطور مصفوفة من حروف مرتبة جامعة لكلمات متفقة ككتاب موسى عليه السلام الذي أنزله عليه وكلمه بكثير منه في الطور وتنكيره للتعظيم لأنه إن كان المراد به الكتب الإلهية فهو أثبت الأشياء ، وإن كان المراد صحيفة قريش فقد كانوا ظنوها أثبت العهود ، وذكر أمتن ما يكتب فيه وأشده وأتقنه فقال : ﴿ في رق ﴾ أي في جلد مهيأ بالقشر للكتابة ﴿ منشور ﴾ أي مهيأ للقراءة والاتعاظ بما فيه ، ويمكن أن يكون أراد به جميع الكتب المنزلة عاماً بعد خاص ، قال الرازي : قال الصادق : إن الله تجلى لعبده بكتابه كما تجلى

بالطور لما كان محلاً للتجلي خلقاً ، والكتاب لما كان محلاً للتجلي أمراً ، أجراهما في قرن – انتهى .

(8/729)

ويجوز أن يكون أراد به سبحانه صحيفة الظلم التي كتبوها بما تعاقدوا عليه من أنهم لا يعاشرون بني هاشم ولا يكلمونهم ولا يبايعونهم ولا يشاورونهم ولا يناكحونهم ولا يؤازرونهم ولا يعاملونهم حتى يسلموا إليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلقوها في جوف الكعبة فانحاز بنو هاشم إلى شعب أبي طالب خلف أبي قبيس وتبعهم بنو المطلب رهط إمامنا الشافعي ـ رضى الله عنه ـ ، فتحيزوا معهم من بين بني عبد مناف ، فكان ذلك سبب شرفهم على مدى الدهر ، فأرسل الله على الصحيفة – بعد أن مضى على ذلك سنتان حين جهدهم العيش ومضّهم الزمان وزلزلتهم القوارع زلزالاً شديداً وهم ثابتون ليظهر الله بذلك شرف من شاء من عباده – الأرضة ، فأبقت ما فيها من أسماء الله تعالى ومحت ما كان من ظلمهم وقطيعتهم ، فكان ذلك سبباً لأن قام في نقضها معشر منهم ، فنقضها الله بهم ، وكانوا إذا ذاك كفرة كلهم ليظهر الله قدرته سبحانه على كل من النقض والإبرام بما شاء ومن شاء ﴿ والبيت المعمور ﴾ الذي هو قيام للناس كما كانت قبة الزمان

قياماً لبني إسرائيل ، هذا إن كان تعالى أراد به الكعبة التي علقوا فيها الصحيفة بعد أن كانوا لما عمروها اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود في موضعه ، وزاد بهم الاختلاف حتى تهيؤوا للقتال وتحالفوا عليه ، فكان منهم لعقة الدم ، ومنهم المطيبون كما هو مشهور في السير ، ثم وفقوا لأن رضوا أن يحكم بينهم أو داخل من باب عينوه ، فكان أول داخل منه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا بأجمعهم : هذا محمد هذا الأمين ، رضينا بحكمه ، فحكم صلى الله علي وسلم بأن يوضع الحجر الشريف في ثوب ويأخذ رئيس كل قبيلة بطرف من أطرافه ويرفعوه كلهم ، فلما وازى موضعه أخذه هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيده الشريفة فوضعه في موضعه ، فكان الفخر له مضاعفاً بحكمه وإصلاحه بينهم ، واختصاصه بوضعه وهو معمور بالزوار والخدمة وكثرة الحاشية .

(9/729)

ولما كان البيت لا بد في مسماه من السقف قال : ﴿ والسقف المرفوع ﴾ يريد سقف الكعبة إشارة إلى أنه محكم البناء مغلق الباب متقن السقف إتقاناً هو أعظم من إتقان سقف قبة الزمان التي شاهد فيها بنو إسرائيل من العظمة الإلهية والجلال ما إن سألتموهم عنه أخبروكم به ، ومع ذلك سلط على الصحيفة – التي في جوفه ، ولعلها كانت في سقفه

بحيث لا يصل إليها أحد – ما أفسدها تحقيقاً لثبوت ما أراد من أمره تحذيراً مما توعد به ، ويمكن أن يراد به مع ذلك السماء التي فيها ما توعدون ، ومن المعلوم أن لكل ذي عقل أن أقل السقوف لا يرتفع توعدون ، ومن المعلوم أن لكل ذي عقل أن أقل السقوف لا يرتفع بغير عمد إلا بأسباب لا ترى ، فكيف بالسماء التي لها من السعة والعظمة والثخن وما فيها من الكواكب ما لها مما لا يسع العقول شرحه ، وهم لا ينظرون أسبابه كما قال تعالى ﴿ بغير عمد ترونها ﴾ [الرعد : 2] ونقل عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : إنه العرش وهو سقف الجنة .

ولما كان الماء أقوى من كل ما تقدم ، ختم به فقال : ﴿ والبحر المسجور ﴾ أي الذي فيه من الماء أكثر من ملئه وهو ساجره أي مانعه – كما يمنع الكلب بساجوره عن الانسباح ، ولو أراد خلاه فاندفق فجرى فأهلك ما مر عليه من جبل وكتاب وبيت كما شوهد لما شجره سبحانه لبني إسرائيل فانفلق ، ونشفت أرضه ثم لما أراد سببه أن فرعون فعذبهم به فأهلكهم حتى لم يبق منهم أحد .

(10/729)

ولما أقسم بما يدل على نبوة موسى عليه السلام وثلث بما أشار إلى نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وثنى بما هو مشترك بينهما ، وكان الأول مع ذلك دالاً على استقرار الأرض ، والثالث على صلاحيتها للسكنى ، والثاني على الحافظ في ذلك ، وربع بما كمل المنافع ، وحذر من السقوط كما خوف بالأول من الخسف ، وخمس بما دل على ما أريد بالأول من الاستقرار لأنه لو كان ميل لانطلق البحر إلى جهته ، أجاب القسم بقوله : ﴿ إن عذاب ﴾ ولما كان سبحانه عظيم الإكرام له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أضاف العذاب إلى صفة الإحسان والتربية الخاصة به ، وأضاف الصفة إلى ضميره إيذاناً بأنه يريه في أمته ما يسره ، وإن مماثلة " ذنوبهم كذنوب أصحابهم " الماضين إنما هي في مجرد الإذلال ، لا في أنه يستأصلهم كما استأصل أولئك فقال : ﴿ ربك ﴾ أي الذي تولى تربيتك أي عذاب أراده بكل من أراد به لا سيما المعادي لأوليائه سبحانه ﴿ لواقع ﴾ أي ثابت نازل بمن أراد نزول ما هو ثقيل من مكان عال كما أنه لو أراد لقلب الأرض التي ثبتها وأوقع السقف الذي رفع ، وأطلق البحر الذي سجر ، كما علم من إطلاقه البحر فلقه على آل فرعون حتى أغرقهم به ﴿ ما له من دافع ﴾ لأنه لا شريك لموقعه لما دلت عليه هذه الأقسام من كمال قدرته وجلال حكمته وضبط أعمال العباد للمجازاة سواء قلنا : إن الكتاب هو الذي يكتبه الحفظة أو الذي يضبط الدين ، فلما أوقع الجزاء بهم في الصحيفة ، ونقض معاقدتهم ، وفض جمعهم ، أخرج معاشرك من ذلك الضيق فكذلك يؤيدك حتى توقع بهم وتنقض جمعهم وتكسر

شوكتهم ونقتل سرواتهم ويظهر دينك على دينهم ، ويصير من بقي منهم من حزبك وأنصار دينك ، قال البغوي : قال جبير بن مطعم ـ رضى الله عنه ـ : قدمت المدينة لأكلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أسارى بدر ، فدفعت إليه وهو يصلي بأصحابه المغرب وصوته يخرج من المسجد فسمعته يقرأ ﴿ والطور ﴾ – إلى قوله – ﴿ إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع ﴾

(11/729)

فكأنما صدع قلبي حين سمعته ، ولم أكن أسلمت يومئذ ، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب ما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما توعد تعالى كفار قريش ومن كان على طريقتهم من سائر من كذب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم سيصيبهم ما أصاب غيرهم من مكذبي الأمم ، المنبه على ذكرهم في السورة قبل ، ثم أشار سبحانه إلى عظيم ما ينالهم من الخزي وأليم العذاب بقوله : ﴿ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ﴾ [الذاريات : 60] أقسم سبحانه على صحة ذلك ووقوعه – والعياذ به سبحانه من سخطه وأليم عذابه – فقال تعالى : ﴿ والطور ﴾ – إلى قوله – ﴿ إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع ﴾ ثم أوماً

سبحانه إلى مستحقيه ومستوجبيه فقال ﴿ فويل يومئذ للمكذبين ﴾ ثم ذكر ما يعنفون به ويوبخون على ما سلف منهم من نسبته عليه الصلاة والسلام إلى السحر فقال تعالى ﴿ ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ [سبأ : 42] ﴿ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾ ثم أعقب بذكر حال المؤمنين المستجيبين ، ثم ذكر إثر إعلامه بحال الفريقين - نعمته على نبيه عليه الصلاة والسلام وعصمته ووقايته مما يقول المفترون فقال تعالى ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ ثم جرت الآي على توبيخهم في مقالتهم ووهن انتقالاتهم ، فمرة يقولون : كاهن ، ومرة يقولون : مجنون ، ومرة يقولون : شاعر يترقب موته .

(12/729)

فوبخهم على ذلك كله وبين كذبهم وأرغمهم وأسقط ما بأيديهم بقوله ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ وهذا هو المسقط لما تقولوه أولاً وآخراً ، وهذا الذي لم يجدوا عنه جواباً ، ورضوا بالسيف والجلاء ، لم يتعرضوا لتعاطي معارضته ، وهذا هو الوارد في قوله تعالى في صدر سورة البقرة ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ [البقرة : 23] الآيات ، فما نطقوا في جوابه ببنت شفة ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس

والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ [الإسراء : 88] فتبارك من جعله آية باهرة وحجة قاهرة - انتهى . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 291 . 295 ﴾

(13/729)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ فكهين ﴾ مقصوراً : يزيد ﴿ وأتبعناهم ﴾ من باب الأفعال : أبو عمرو ﴿ وذريتهم ﴾ على التوحيد مرفوعاً ﴿ ذرياتهم ﴾ على الجمع : أبو جعفر ونافع . وقرأ أبو عمرو على الجمع فيهما منصوباً . وقرأ ﴿ ذريتهم ﴾ ابن عامر وسهل ويعقوب على الجمع أيضاً ولكن برفع الأول . الباقون : على التوحيد فيهما الأول مرفوعاً والثاني منصوباً ﴿ ألتناهم ﴾ بكسر اللام ثلاثياً . ابن كثير ﴿ لؤلؤ ﴾ بتليين الهمزة الأولى : شجاع ويزيد وأبو بكر وحماد وحمزة في الوقف كما مر في الحج ﴿ أنه هو البر ﴾ بفتح الهمزة : أبو جعفر ونافع وعلي ﴿ أنا كنا ندعوه ﴾ ﴿ لأنه ﴾ ﴿ المسيطرون ﴾ بالسين : ابن كثير في رواية . وابن عامر والآخرون : بالصاد . وقرأ حمزة في رواية بإشمام الراء ﴿ يصعقون ﴾ مبنياً للمفعول : ابن عامر وعاصم ﴿ وإدبار النجوم ﴾ بالفتح : زيد عن يعقوب .

الوقوف : ﴿ والطور ﴾ ه لا ﴿ مسطور ﴾ ه لا ﴿ منشور ﴾ ه لا ﴿ المعمور ﴾ ه لا ﴿ المرفوع ﴾ ه لا ﴿ المسجور ﴾ ه لا ﴿ لواقع ﴾ ه لا ﴿ من دافع ﴾ ه لا ﴿ موراً ﴾ ه لا ﴿ سيراً ﴾ ط ﴿ للمكذبين ﴾ ه لا ﴿ يلعبون ﴾ ه م ﴿ دعا ﴾ ط لأن التقدير يقال لهم هذه النار ﴿ تكذبون ﴾ ه ﴿ لا تبصرون ﴾ ه ﴿ تصبروا ﴾ ه لاختلاف الجملتين مع اتفاق المعنى ﴿ عليكم ﴾ ط ﴿ تعملون ﴾ ه ﴿ ونعيم ﴾ ه لا ﴿ آتاهم ربهم ﴾ ج لاحتمال العطف واتضاح وجه الحال أي وقد وقاهم ﴿ الجحيم ﴾ ه ﴿ تعملون ﴾ ه لا ﴿ مصفوفة ﴾ ج ﴿ عين ﴾ ه ﴿ شيء ﴾ ه ﴿ رهين ﴾ ه ﴿ يشتهون ﴾ ه ﴿ ولا تأثيم ﴾ ه ﴿ مكنون ﴾ ه ﴿ يتساءلون ﴾ ه ﴿ مشفقين ﴾ ه ﴿ السموم ﴾ ه ط لمن قرأ ﴿ إنه ﴾ بالكسر ﴿ الرحيم ﴾ ه ﴿ مجنون ﴾ ه لأن "أم" ابتداء استفهام وتوبيخ ﴿ المنون ﴾ ه ﴿ المتربصين ﴾ ه ط لما قلنا ﴿ طاغون ﴾ ه ج لاحتمال ابتداء الاستفهام والجواب بقوله بل ﴿ لا يؤمنون ﴾ ه ج للآية مع الفاء ﴿ صادقين ﴾ ه ط ﴿ الخالقون ﴾ ه ط ﴿ والأرض ﴾ ج لأن "بل" للإضراب مع العطف ﴿ لا يوقنون ﴾ ه ﴿ المسيطرون ﴾ ه ط ﴿ فيه ﴾ ج لتناهي الاستفهام مع فاء التعقيب ﴿

مبين ﴾ ه ط ﴿ البنون ﴾ ه ط ﴿ مثقلون ﴾ ه ﴿ يكتبون ﴾ ط ﴿ كيداً ﴾ ط ﴿ المكيدون ﴾ ه ط والضابط فيما تقدم أن كلما وصل "أم" فهو للجواب وما قطع فهو بمعنى ألف الاستفهام ﴿ غير الله ﴾ ط ﴿ يشركون ﴾ ه ﴿ مركوم ﴾ ه ﴿ يصعقون ﴾ ه لا لأن ﴿ يوم ﴾ بدل ما تقدمه ﴿ ينصرون ﴾ ه ط ﴿ لا يعلمون ﴾ ه ﴿ تقوم ﴾ ه لا ﴿ النجوم ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 192 ﴾

(15/729)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) ﴾

هذه السورة مناسبة للسورة المتقدمة من حيث الافتتاح بالقسم وبيان الحشر فيهما ، وأول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها ، لأن في آخرها قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [الذاريات : 60] وهذه السورة في أولها ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الطور : 11] وفي آخر تلك السورة قال : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوباً ﴾ [الذاريات : 59] إشارة إلى العذاب وقال هنا ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ [الطور : 7] وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما الطور ، وما الكتاب المسطور ؟ نقول فيه وجوه : الأول : الطور هو جبل معروف كلم الله تعالى موسى عليه السلام الثاني : هو الجبل الذي قال الله تعالى : ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ [التين : 2] الثالث : هو اسم الجنس والمراد القسم بالجبل غير أن الطور الجبل العظيم كالطود ، وأما الكتاب ففيه أيضاً وجوه : أحدها : كتاب موسى عليه السلام ثانيها : الكتاب الذي في السماء ثالثها : صحائف أعمال الخلق رابعها : القرآن وكيفما كان فهي في رقوق ، وسنبين فائدة قوله تعالى : ﴿ فِى رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴾ وأما البيت المعمور ففيه وجوه : الأول : هو بيت في السماء العليا عند العرش ووصفه بالعمارة لكثرة الطائفين به من الملائكة الثاني : هو بيت الله الحرام وهو معمور بالحاج الطائفين به العاكفين الثالث : البيت المعمور اللام فيه لتعريف الجنس كأنه يقسم بالبيوت المعمورة والعمائر المشهورة ، ﴿ والسقف المرفوع ﴾ السماء ، ﴿ والبحر المسجور ﴾ ، قيل الموقد يقال سجرت التنور ، وقيل هو البحر المملوء ماء المتموج ، وقيل هو بحر معروف في السماء يسمى بحر الحيوان .

المسألة الثانية :

ما الحكمة في اختيار هذه الأشياء ؟ نقول هي تحتمل وجوهاً : أحدها : إن الأماكن الثلاثة وهي : الطور ، والبيت المعمور ، والبحر المسجور ، أماكن كانت لثلاثة أنبياء ينفردون فيها للخلوة بربهم والخلاص من الخلق والخطاب مع الله ، أما الطور فانتقل إليه موسى عليه السلام ، والبيت محمد صلى الله عليه وسلم ، والبحر المسجور يونس عليه السلام ، والكل خاطبوا الله هناك فقال موسى : ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السفهاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء ﴾ [الأعراف : 155] وقال : ﴿ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : 143] وأما محمد صلى الله عليه وسلم فقال : " السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، لا أحصي ثناء عليك كما أثنيت على نفسك " وأما يونس فقال : ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سبحانك إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنبياء : 87] فصارت الأماكن شريفة بهذه الأسباب ، فحلف الله تعالى بها ، وأما ذكر الكتاب فإن الأنبياء كان لهم في هذه الأماكن مع الله تعالى كلام والكلام في الكتاب واقترانه بالطور أدل على ذلك ، لأن موسى عليه السلام كان له مكتوب ينزل عليه وهو بالطور ، وأما ذكر السقف المرفوع ومعه البيت المعمور ليعلم عظمة شأن محمد صلى الله عليه وسلم ثانيها : وهو أن القسم لما كان على وقوع العذاب وعلى أنه لا دافع له ، وذلك لأن لا مهرب من عذاب الله لأن من يريد دفع العذاب عن نفسه ، ففي بعض الأوقات يتحصن بمثل الجبال الشاهقة التي ليس لها طرف وهي متضايقة بين أنه لا ينفع التحصن بها من أمر الله تعالى كما قال ابن نوح عليه السلام

﴿ سآوِي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الماء قَالَ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ [هود : 43] حكاية عن نوح عليه السلام .

المسألة الثالثة :

(17/729)

ما الحكمة في تنكير الكتاب وتعريف باقي الأشياء ؟ نقول ما يحتمل الخفاء من الأمور الملتبسة بأمثالها من الأجناس يعرف باللام ، فيقال رأيت الأمير ودخلت على الوزير ، فإذا بلغ الأمير الشهرة بحيث يؤمن الالتباس مع شهرته ، ويريد الواصف وصفه بالعظمة ، يقول : اليوم رأيت أميراً ما له نظير جالساً وعليه سيما الملوك وأنت تريد ذلك الأمير المعلوم ، والسبب فيه أنك بالتنكير تشير إلى أنه خرج عن أن يعلم ويعرف بكنه عظمته ، فيكون كقوله تعالى : ﴿ الحاقة * مَا الحاقة * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحاقة ﴾ [الحاقة : 1 – 3] فاللام وإن كانت معرفة لكن أخرجها عن المعرفة كون شدة هولها غير معروف ، فكذلك ههنا الطور ليس في الشهرة بحيث يؤمن اللبس عند التنكير ، وكذلك البيت المعمور ، وأما الكتاب الكريم فقد تميز عن سائر الكتب ، بحيث لا يسبق إلى أفهام السامعين من النبي صلى الله عليه وسلم لفظ الكتاب إلا ذلك ، فلما أمن اللبس وحصلت فائدة التعريف

سواء ذكر باللام أو لم يذكر قصداً للفائدة الأخرى وهي في الذكر بالتنكير ، وفي تلك الأشياء لما لم تحصل فائدة التعريف إلا بآلة التعريف استعملها ، وهذا يؤيد كون المراد منه القرآن وكذلك اللوح المحفوظ مشهور .

المسألة الرابعة :

ما الفائدة في قوله تعالى : ﴿ فِى رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴾ وعظمة الكتاب بلفظه ومعناه لا بخطه ورقه ؟ نقول هو إشارة إلى الوضوح ، وذلك لأن الكتاب المطوي لا يعلم ما فيه فقال هو في رق منشور وليس كالكتب المطوية وعلى هذا المراد اللوح المحفوظ فمعناه هو منشور لكم لا يمنعكم أحد من مطالعته ، وإن قلنا بأن المراد كتاب أعمال كل أحد فالتنكير لعدم المعرفة بعينه وفي رق منشور لبيان وصفه كما قال تعالى : ﴿ كِتَابًا يلقاه مَنْشُوراً ﴾ [الإسراء : 13] وذلك لأن غير المعروف إذا وصف كان إلى المعرفة أقرب شبهاً .

المسألة الخامسة :

(18/729)

في بعض السور أقسم بجموع كما في قوله تعالى : ﴿ والذريات ﴾ وقوله ﴿ والمرسلات ﴾ وقوله ﴿ والنازعات ﴾ وفي بعضها بأفراد كما في هذه السورة حيث قال : ﴿ والطور ﴾

ولم يقل والأطوار والبحار ، ولا سيما إذا قلنا المراد من الطور الجبل العظيم كالطود ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطور ﴾ [النساء : 154] أي الجبل فما الحكمة فيه ؟ نقول في الجموع في أكثرها أقسم بالمتحركات والريح الواحدة ليست بثابتة مستمرة حتى يقع القسم بها ، بل هي متبدلة بأفرادها مستمرة بأنواعها والمقصود منها لا يحصل إلا بالتبدل والتغير فقال : ﴿ والذريات ﴾ إشارة إلى النوع المستمر إلى الفرد المعين المستقر ، وأما الجبل فهو ثابت قليل التغير والواحد من الجبال دائم زماناً ودهراً ، فأقسم في ذلك بالواحد وكذلك قوله ﴿ والنجم ﴾ والريح ما علم القسم به وفي الطور علم .

إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8)

(19/729)

إشارة إلى المقسم عليه وفيه مباحث الأول : في حرف ﴿ إن ﴾ وفيه مقامات الأول : هي تنصب الاسم وترفع الخبر والسبب فيه هو أنها شبهت بالفعل من حيث اللفظ والمعنى ، أما اللفظ فلكون الفتح لازماً فيها واختصاصها بالدخول على الأسماء والمنصوب منها على وزن إن أنيناً ، وأما المعنى ، فنقول اعلم أن الجملة الإثباتية قبل الجملة الانتفائية ، ولهذا استغنوا عن حرف يدل على الإثبات ، فإذا قالوا زيد منطلق فهم منه إرادة إثبات

الانطلاق لزيد ، والانتفائية لما كانت بعد المثبتة زيد فيها حرف يغيرها عن الأصل وهو الإثبات فقيل ليس زيد منطلقاً ، فصار ليس زيد منطلقاً بعد قول القائل زيد منطلق ، ثم إن قول القائل إن زيداً منطلق مستنبط من قوله ليس زيد منطلقاً ، كأن الواضع لما وضع أولاً زيد منطلق للإثبات وعند النفي يحتاج إلى ما يغيره أتى بلفظ مغير وهو فعل من وجه لأنك قد تبقى مكانه ما النافية ولهذا قيل لست وليسوا ، فألحق به ضمير الفاعل ، ولولا أنه فعل لما جاز ذلك ، ثم أراد أن يضع في مقابلة ليس زيد منطلقاً جملة إثباتية فيها لفظ الإثبات ، كما أن في النافية لفظ النفي فقال إن ولم يقصد أن إن فعل لأن ليس يشبه بالفعل لما فيه من معنى الفعل وهو التغيير ، فإنها غيرت الجملة من أصلها الذي هو الإثبات وأما إن فلم تغيره فالجملة على ما كانت عليه إثباتية فصارت مشبهة بالمشبهة بالفعل وهي ليس ، وهذا ما يقوله النحويون في إن وأن وكأن وليت ولعلّ إنها حروف مشبهة بالأفعال إذا علمت هذا ، فنقول كما إن ليس لها اسم كالفاعل وخبر كالمفعول ، تقول ليس زيد لئيماً بالرفع والنصب كما تقول بات زيد كريماً ، فكذلك إن لها اسم وخبر ، لكن اسمها يخالف اسم ليس وخبرها خبرها فإن اسم إن منصوب وخبرها مرفوع ، لأن إن لما كانت زيادة على خلاف الأصل لأنها لا تفيد إلا الإثبات الذي كان مستفاداً من غير حرف ، وليس لما كانت زيادة على الأصل لأنها تغير الأصل ولولاها لما حصل

المقصود جعل المرفوع والمنصوب في ليس على الأصل ، لأن الأصل تقديم الفاعل ، وفي إن جعل ذلك على خلاف الأصل وقدم المشبه بالمفعول على المشبه بالفاعل تقديماً لازماً فلا يجوز أن يقال إن منطلق زيداً وهو في ليس منطلقاً زيد جائز كما في الفعل لأنها فعل .

المقام الثاني : هي لم تكسر تارة وتفتح أخرى ؟ نقول الأصل فيها الكسرة والعارض وإن كان هذا في الظاهر يخالف قول النحاة لكن في الحقيقة هي كذلك .

المقام الثالث : لم تدخل اللام على خبر إن المكسورة دون المفتوحة ؟ قلنا قد خرج مما سبق أن قول القائل زيد منطلق أصل ، لأن المثبتات هي المحتاجة إلى الإخبار عنها فإن التغير في ذلك ، وأما العدميات فعلى أصولها مستمرة ، ولهذا يقال الأصل في الأشياء البقاء ثم إن السامع له قد يحتاج إلى الرد عليه فيقول ليس زيد منطلقاً فيقول هو إن زيداً منطلق فيقول هو رداً عليه ليس زيد بمنطلق فيقول رداً عليه إن زيداً لمنطلق وأن ليست في مقابلة ليس وإنما هي متفرعة عن المكسورة .

المبحث الثاني : قوله تعالى : ﴿ عَذَابَ رَبِّكَ ﴾ فيه لطيفة عزيزة وهي أنه تعالى لو قال إن عذاب الله لواقع ، والله اسم منبىء عن العظمة والهيبة كان يخاف المؤمن بل النبي صلى الله عليه وسلم من أن يلحقه ذلك لكونه تعالى مستغنياً عن العالم بأسره ، فضلاً عن واحد فيه فآمنه بقوله ﴿ رَبِّكَ ﴾ فإنه حين يسمع لفظ الرب يأمن .

المبحث الثالث : قوله ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ فيه إشارة إلى الشدة ، فإن الواقع والوقوع من باب واحد فالواقع أدل على الشدة من الكائن .

ثم قال تعالى : ﴿ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ والبحث فيه قد تقدم في قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] وقد ذكرنا أن قوله ﴿ والطور .

.

والبيت المعمور .

.

(21/729)

والبحر المسجور ﴾ فيه دلالة على عدم الدافع فإن من يدفع عن نفسه عذاباً قد يدفع بالتحصن بقلل الجبال ولجج البحار ولا ينفع ذلك بل الوصول إلى السقف المرفوع ودخول البيت المعمور لا يدفع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 205 . 208 ﴾

(22/729)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والطور ﴾

الطور اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى ؛ أقسم الله به تشريفاً له وتكريماً وتذكيراً لما فيه من الآيات ، وهو أحد جبال الجنة .

وروى إسماعيل بن إسحاق قال : حدّثنا إسماعيل ابن أبي أويس ، قال : حدّثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جدّه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربعة أجبل من جبال الجنة وأربعة أنهار من أنهار الجنة وأربعة مَلاَحم من مَلاَحم الجنة " قيل : فما الأجبل ؟ قال : " جبل أُحُد يحبنا ونحبه والطُّور جبل من جبال الجنة ولُبْنان جبل من جبال الجنة والجودي جبل من جبال الجنة " وذكر الحديث ، وقد استوفيناه في كتاب "التذكرة" .

قال مجاهد : الطور هو بالسريانية الجبل والمراد به طور سينا .

وقاله السدّي .

وقال مقاتل بن حيان : هما طوران يقال لأحدهما طُورسينا والآخر طورزيتا ؛ لأنهما ينبتان التين والزيتون .

وقيل : هو جبل بمَدْيَن واسمه زَبير .

قال الجوهري : والزَّبير الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام .

قلت : ومدين بالأرض المقدّسة وهي قرية شعيب عليه السلام .

وقيل : إن الطُّور كل جبل أنبت ، وما لا ينبت فليس بطور ؛ قاله ابن عباس .

وقد مضى في "البقرة" مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴾ أي مكتوب ؛ يعني القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف ، ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة : 77 - 78] .

وقيل : يعني سائر الكتب المنزلة على الأنبياء ، وكان كل كتاب في رَقّ ينشره أهله لقراءته .

وقال الكلبي : هو ما كتب الله لموسى بيده من التوراة وموسى يسمع صرير القلم .

(23/729)

وقال الفراء : هو صحائف الأعمال ؛ فمن آخذ كتابه بيمينه ، ومن آخذ كتابه بشماله ؛ نظيره : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ﴾ [الإسراء : 13] وقوله : ﴿ وَإِذَا الصحف نُشِرَتْ ﴾ [التكوير : 10] .

وقيل : إنه الكتاب الذي كتبه الله تعالى لملائكته في السماء يقرؤون فيه ما كان وما يكون .

وقيل : المراد ما كتب الله في قلوب الأولياء من المؤمنين ؛ بيانه : ﴿ أولئك كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ

الإيمان ﴾ [المجادلة : 22] .

قلت : وفي هذا القول تَجوُّز ؛ لأنه عبّر بالقلوب عن الرِّق .

قال المبرّد : الرِّق ما رُقِّق من الجلد ليكتب فيه ، والمنشور المبسوط .

وكذا قال الجوهري في الصحاح ، قال : والرَّق بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴾ والرَّق أيضاً العظيم من السَّلاحِف .

قال أبو عبيدة : وجمعه رُقُوق .

والمعنى المراد ما قاله الفراء ؛ والله أعلم .

وكل صحيفة فهي رَقٌّ لرقة حواشيها ؛ ومنه قول المتلمس :

فكأَنَّما هي من تَقَادُمِ عَهْدِها . . .

رَقٌّ أتيح كتابُها مَسطور

وأما الرِّق بالكسر فهو المِلك ؛ يقال : عبد مرقوق .

وحكى الماورديّ عن ابن عباس : أن الرَّق بالفتح ما بين المشرق والمغرب .

قوله تعالى : ﴿ والبيت المعمور ﴾ قال علي وابن عباس وغيرهما : هو بيت في السماء

حِيَال الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملَك ، ثم يخرجون منه فلا يعودون إليه .

قال علي رضي الله عنه : هو بيت في السماء السادسة .

وقيل : في السماء الرابعة ؛ روى أنس بن مالك ، عن مالك بن صَعْصَعَة ، قال : قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم : " أوتي بي إلى السماء الرابعة فرفع لنا البيت المعمور فإذا هو حِيال الكعبة لو خَرَّ خَرَّ عليها يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه " ذكره الماورديّ .

وحكى القشيري عن ابن عباس أنه في السماء الدنيا .

(24/729)

وقال أبو بكر الأنباري : سأل ابن الكواء عليًّا رضي الله عنه قال : فما البيت المعمور ؟ قال : بيت فوق سبع سموات تحت العرش يقال له الضُّراح .

وكذا في "الصحاح" : والضُّراح بالضم بيت في السماء وهو البيت المعمور عن ابن عباس .

وعُمْرانه كثرة غاشيته من الملائكة .

وقال المهدوي عنه : حذاء العرش .

والذي في صحيح مسلم عن مالك بن صعصعة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء : " ثم رُفع إليّ البيت المعمور فقلت يا جبريل ما هذا قال هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخِرُ ما عليهم " وذكر الحديث .

وفي حديث ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أُتِيت

بالبُرَاق " الحديث ؛ وفيه : " ثم عرج بنا إلى السابعة فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل من هذا قال جبريل قيل ومَن معك قال محمد صلى الله عليه وسلم قيل وقد بُعِث إليه قال قد بُعِث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألف مَلَك لا يعودون إليه " وعن ابن عباس أيضاً قال : لله في السموات والأرضين خمسَة عشرَ بيتاً ، سبعة في السموات وسبعة في الأرضين والكعبة ، وكلها مقابلة للكعبة .

وقال الحسن : البيت المعمور هو الكعبة ، البيت الحرام الذي هو معمور من الناس ، يعمره الله كل سنة بستمائة ألف ، فإن عجز الناس عن ذلك أتمه الله بالملائكة ، وهو أوّل بيت وضعه الله للعبادة في الأرض .

وقال الربيع بن أنس : إن البيت المعمور كان في الأرض موضع الكعبة في زمان آدم عليه السلام ، فلما كان زمان نوح عليه السلام أمرهم أن يحجُّوا فأبوا عليه وعصوه ، فلما طغى الماء رفع فجعل بحذائه في السماء الدنيا ، فيَعمرُه كلَّ يوم سبعونَ ألفَ مَلَك ، ثم لا يرجعون إليه حتى ينفخ في الصور ، قال : فبوّأ الله جلّ وعز لإبراهيم مكان البيت حيث كان ؛ قال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ والقآئمين والركع السجود ﴾ [الحج : 26] .

﴿ والسقف المرفوع ﴾ يعني السماء سماها سقفاً ؛ لأنها للأرض كالسقف للبيت ؛ بيانه : ﴿ وَجَعَلْنَا السمآء سَقْفاً مَّحْفُوظاً ﴾ [الأنبياء : 32] .

وقال ابن عباس : هو العرش وهو سقف الجنة .

﴿ والبحر المسجور ﴾ قال مجاهد : الموقَد ؛ وقد جاء في الخبر : "إن البحر يُسجَر يوم القيامة فيكون ناراً" .

وقال قتادة : المملوء .

وأنشد النحويون للنَّمِر بن تَوْلَب :

إذا شاء طالعَ مَسْجورةً . . .

تَرَى حَولَها النَّبْعَ السَّاسَمَا

يريد وَعْلاً يطالع عينا مسجورة مملوءة .

فيجوز أن يكون المملوء ناراً فيكون كالقول المتقدّم .

وكذا قال الضحاك وشمر بن عطية ومحمد بن كعب والأخفش بأنه المَوْقِد المحميّ بمنزلة التَّنُّور المسجور .

ومنه قيل : للمِسْعَر مِسْجَر ؛ ودليل هذا التأويل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير : 6] أي أوقدت ؛ سَجَرت التَّنُّور أسجره سجراً أي أحميته .

وقال سعيد بن المسيِّب : قال عليّ رضي الله عنه لرجل من اليهود : أين جهنم ؟ قال : البحر .

قال ما أُرَاك إلا صادقاً ، وتلا : "والْبَحْرِ الْمَسْجُورِ" .

﴿ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ﴾ مخففة .

وقال عبد الله بن عمرو : لا يتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم .

وقال كعب : يُسجَر البحر غداً فيزاد في نار جهنم ؛ فهذا قول وقال ابن عباس : المسجور الذي ذهب ماؤه .

وقاله أبو العالية .

وروى عطية وذو الرُّمَّة الشاعر عن ابن عباس قال : خرجت أَمَة لتستقي فقالت : إن الحوض مسجور أي فارغ ، قال ابن أبي داود : ليس لذي الرُّمة حديث إلا هذا .

وقيل : المسجور أي المفجور ؛ دليله : ﴿ وَإِذَا البحار فُجِّرَتْ ﴾ [الانفطار : 3] أي تنشفها الأرض فلا يبقى فيها ماء .

وقول ثالث قاله عليّ رضي الله عنه وعِكرمة .

قال أبو مكين : سألت عِكرمة عن البحر المسجور فقال : هو بحر دون العرش .

وقال عليّ : تحت العرش فيه ماء غليظ .

ويقال له بحر الحيوان يمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً فينبتون في قبورهم .

وقال الربيع بن أنس : المسجور المختلط العذب بالملح .

قلت : وإليه يرجع معنى ﴿ فُجِّرَتْ ﴾ في أحد التأويلين ؛ أي فُجِّرَ عذبُها في مالحها : والله أعلم .

وسيأتي .

وروى عليّ ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : المسجور المحبوس .

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ هذا جواب القسم ؛ أي واقع بالمشركين .

قال جُبَير بن مُطْعِمٍ : قدمت المدينة لأسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر ، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب ﴿ والطور ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ ﴿ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ فكأنما صدع قلبي ، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب .

وقال هشام بن حسان : انطلقت أنا ومالك بن دينار إلى الحسن وعنده رجل يقرأ ﴿ والطور ﴾ حتى بلغ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ ﴿ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ فبكى الحسن

وبكى أصحابه ؛ فجعل مالك يضطرب حتى غُشِي عليه .

ولما وُلّي بكّار القضاء جاء إليه رجلان يختصمان فتوجهت على أحدهما اليمين ، فرغب إلى الصلح بينهما ، وأنه يعطي خصمه من عنده عوضاً عن يمينه فأبى إلا اليمين ، فأحلفه بأوّل "وَالطُّورِ" إلى أن قال له قل : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ إن كنت كاذباً ؛ فقالها فخرج فكسر من حينه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(27/729)

وقال الآلوسى :

بسْم الله الرحمن الرَّحيم

﴿ والطور ﴾

الطور اسم لكل جبل على ما قيل : في اللغة العربية عند الجمهور ، وفي اللغة السريانية عند بعض ، ورواه ابن المنذر .

وابن جرير عن مجاهد ، والمراد به هنا ﴿ طُورِ سِينِينَ ﴾ الذي كلم الله تعالى موسى عليه السلام عنده ، ويقال له : طور سيناء أيضاً ، والمعروف اليوم بذلك ما هو بقرب التيه بين مصر والعقبة ، وقال أبو حيان في تفسير سورة ﴿ والتين ﴾ [التين : 1] : ولم يختلف في

طور سيناء أنه جبل بالشام وهو الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه الصلاة والسلام ، وقال في تفسيره : هذه السورة في الشام جبل يسمى الطور وهو طور سيناء فقال نوف البكالي : إنه الذي أقسم الله سبحانه به لفضله على الجبال ، قيل : وهو الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام انتهى فلا تغفل ، وحكى الراغب أنه جبل محيط بالأرض ولا يصح عندي ، وقيل : جبل من جبال الجنة ، وروى فيه ابن مردويه عن أبي هريرة ، وعن كثير بن عبد الله حديثاً مرفوعاً ولا أظن صحته ، واستظهر أبو حيان أن المراد الجنس لا جبل معين ، وروى ذلك عن مجاهد .

والكلبي ، والذي أعول عليه ما قدمته .

﴿ وكتاب مُّسْطُورٍ ﴾ مكتوب على وجه الانتظام فإن السطر ترتيب الحروف المكتوبة ، والمراد به على ما قال الفراء الكتاب الذي يكتب فيه الأعمال ويعطاه العبد يوم القيامة بيمينه أو بشماله وهو المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يلقاه مَنْشُوراً ﴾ [الإسراء : 13] ، وقال الكلبي : هو التوراة ، وقيل : هي .

والإنجيل .

(28/729)

والزبور وقيل : القرآن ، وقيل : اللوح المحفوظ ، وفي "البحر" لا ينبغي أن يحمل شيء من هذه الأقوال على التعيين وإنما تورد ، على الاحتمال ، والتنكير قيل : للإفراد نوعاً ، وذلك على القول بتعدده ، أو للإفراد شخصاً ، وذلك على القول المقابل ، وفائدته الدلالة على اختصاصه من جنس الكتب بأمر يتميز به عن سائرها ، والأولى على وجهي التنكير إذا حمل على أحد الكتابين أعني القرآن والتوراة أن يكون من باب ﴿ لِيَجْزِىَ قَوْماً ﴾ [الجاثية : 14] ففي التنكير كمال التعريف ، ، والتنبيه على أن ذلك الكتاب لا يخفى نكر أو عرف ، ومن هذا القبيل التنكير في قوله تعالى :

﴿ فِى رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴾ والرق بالفتح ويكسر ، وبه قرأ أبو السمال جلد رقيق يكتب فيه وجمعه رقوق وأصله على ما في "مجمع البيان" من اللمعان يقال .

ترقرق الشيء إذا لمع .

أو من الرقة ضد الصفاقة على ما قيل ، وقد تجوز فيه عما يكتب فيه الكتاب من ألواح وغيرها .

والمنشور المبسوط والوصف به قيل : للإشارة إلى صحة الكتاب وسلامته من الخطأ حيث جعل معرضاً لنظر كل ناظر آمنا عليه من الاعتراض لسلامته عما يوجبه ، وقيل : هو لبيان حاله التي تضمنتها الآية المذكورة آنفاً بناءاً على أن المراد به صحائف الأعمال ولبيان أنه ظاهر للملائكة عليهم السلام يرجعون إليه بسهولة في أمورهم بناءاً على أنه اللوح ،

أو للناس لا يمنعهم مانع عن مطالعته والاهتداء بهديه بناءاً على الأقوال الأخر ، وفي "البحر" ﴿ مَّنْشُورٍ ﴾ منسوخ ما بين المشرق والمغرب .

﴿ والبيت المعمور ﴾ هو بيت في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة كما أخرج ذلك ابن جرير .

وابن المنذر .

والحاكم وصححه .

وابن مردويه .

والبيهقي في الشعب عن أنس مرفوعاً .

وأخرج عبد الرزاق .

(29/729)

وجماعة عن أبي الطفيل أن ابن الكواء سأل علياً كرم الله تعالى وجهه فقال : ذلك الضّرَاحُ بين فوق سبع سموات تحت العرض يدخله كل يوم سبعون ألف ملك الخ ، وجاء في رواية عنه كرم الله تعالى وجهه ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه حيال الكعبة بحيث لو سقط سقط عليها .

وروى عن مجاهد .

وقتادة .

وابن زيد أن في كل سماء بحيال الكعبة بيتاً حرمته كحرمتها وعمارته بكثرة الواردين عليه من الملائكة عليهم السلام كما سمعت ، وقال الحسن : هو الكعبة يعمره الله تعالى كل سنة بستمائة ألف من الناس فإن نقصوا أتم سبحانه العدد من الملائكة ، وأنت تعلم أن المجاز المشهور مكان معمور بمعنى مأهول مسكون تحل الناس في محل هو فيه ، فعمارة الكعبة بالمجاورين عندها وبحجاجها صح خبر الحسن المذكور أم لا .

﴿ والسقف المرفوع ﴾ أي السماء كما رواه جماعة ، وصححه الحاكم عن الأمير كرم الله تعالى وجهه ، وعن ابن عباس هو العرش وهو سقف الجنة ، وأخرجه أبو الشيخ عن الربيع بن أنس ، وعليه لا بأس في تفسير البيت المعمور بالسماء كما روى عن مجاهد ، وعمارتها بالملائكة أيضاً فما فيها موضع إهاب إلا وعليه ملك ساجد أو قائم .

﴿ والبحر المسجور ﴾ أي الموقد ناراً .

أخرج ابن جرير ، وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ في العظمة عن سعيد بن المسيب قال : قال علي كرم الله تعالى وجهه لرجل من اليهود : أين موضع النار في كتابكم ؟ قال : البحر فقال كرم الله تعالى وجهه : ما أراه إلا

صادقاً ، وقرأ ﴿ والبحر المسجور ﴾ ﴿ وَإِذَا البحار سُجّرَتْ ﴾ [التكوير : 6]

وبذلك قال مجاهد .

وشمر بن عطية .

والضحاك .

ومحمد بن كعب .

(30/729)

والأخفش ، وقال قتادة : المسجور المملوء يقال : سجره أي ملأه ، والمراد به عند جمع البحر المحيط ، وقيل : بحر في السماء تحت العرش ، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم وغيره عن علي كرم الله تعالى وجهه ، وابن جرير عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما وفي "البحر" إنهما قالا فهي ماء غليظ ، ويقال له : بحر الحياة بمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً فينبتون في قبورهم ، وأخرج أبو الشيخ عن الربيع أنه الملأ الأعلى الذي تحت العرش وكأنه أراد به الفضاء الواسع المملوء ملائكة ، وعن ابن عباس ﴿ المسجور ﴾ الذي ذهب ماؤه ، وروى ذو الرمة الشاعر ، وليس له كما قيل حديث غير هذا عن الحبر قال : خرجت أمة لتستقي فقالت : إن الحوض مسجور أي فارغ فيكون من الأضداد ،

وحمل كلامه رضي الله تعالى عنه على إرادة البحر المعروف ، وأن ذهاب مائه يوم القيامة ، وفي رواية عنه أنه فسره بالمحبوس ، ومنه ساجور الكلب وهي القلادة التي تمسكه وكأنه عني المحبوس من أن يفيض فيغرق جميع الأرض ، أو يغيض فتبقى الأرض خالية منه ، وقيل : ﴿ المسجور ﴾ المختلط ، وهو نحو قولهم للخليل المخالط : سجير ، وجعله الراغب من سجرت التنور لأنه سجير في مودّة صاحبه ، والمراد بهذا الاختلاط تلاقي البحار بمياهها واختلاط بعضها ببعض ، وعن الربيع اختلاط عذبها بملحها ، وقيل : احتلاطها بحيوانات الماء ، وقيل : المفجور أخذاً من قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا البحار فُجِّرَتْ ﴾ [الانفطار : 3] ويحامله ما أخرجه ابن المنذر عن ابن عباس من تفسيره بالمرسل ، وإذا اعتبر هذا مع ما تقدم عنه آنفاً من تفسير بالمحبوس يكون من الأضداد أيضاً ، وقال منبه بن سعيد : هو جهنم سميت بحراً لسعتها وتموجها ، والجمهور على أن المراد به بحر الدنيا وبه أقول وبأن المسجور بمعنى الموقد ، ووجه التناسب بين القرائين بعد تعين ما سيق له الكلام لائح ، وهو ههنا إثبات تأكيد عذاب الآخرة وتحقيق كينونته ووقوعه ، فأقسم

(31/729)

سبحانه له بأمور كلها دالة على كمال قدرته عز وجل مع كونها متعلقة بالمبدأ والمعاد ، فالطور لأنه محل مكالمة موسى عليه والسلام ، ومهبط آيات البدأ والمعاد يناسب حديث إثبات المعاد وكتاب الأعمال كذلك مع الايمانء إلى أن إيقاع العذاب عدل منه تعالى فقد تحقق ، ودون في ﴿ الكتاب ﴾ ما يجر إليه قبل ، ﴿ والبيت المعمور ﴾ لأنه مطاف الرسل السماوية ، ومظهر لعظمته تعالى ، ومحل لتقديسهم وتسبيحهم إياه جل وعلا ، ﴿ والسقف المرفوع ﴾ لأنه مستقرهم ومنه تنزل الآيات ، وفيه الجنة : ﴿ والبحر المسجور ﴾ لأنه محل النار ، وإذا حمل الكتاب على التوراة كان التناسب مع ما قبله حسب النظر الجليل أظهر ولم يحمله عليها كثير لزعم أن ﴿ الرق المنشور ﴾ لا يناسبها لأنها كانت في الألواح ، ولا يخفى عليك أن شيوع الرق فيما يكتب فيه الكتاب مطلقاً يضعف هذا الزعم في الجملة ، ثم إن المعروف أن التوراة لا يكتبها اليهود اليوم إلا في رق وكأنهم أخذوا ذلك من أسلافهم ، وقال الإمام : يحتمل أن تكون الحكمة في القسم بالطور .

والبيت المعمور .

(32/729)

والبحر المسجور أنها أماكن خلوة لثلاثة أنبياء مع ربهم سبحانه ، أما الطور فلموسى عليه السلام وقد خاطب عنده ربه عز وجل بما خاطب ، وأما البيت المعمور فلرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال عنده : " سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين لا أحصي ثناءاً عليك أنت كما أثنيت على نفسك " وأما البحر : فليونس عليه السلام قال فيه : ﴿ لاَّ إله إِلاَّ أَنتَ سبحانك إِنّى كُنتُ مِنَ ﴾ [الأنبياء : 87] فلشرفها بذلك أقسم الله تعالى بها ، وأما ذكر ﴿ أُمُّ الكتاب ﴾ فلأن الأنبياء كان لهم في هذه الأماكن كلام والكلام في الكتاب ، وأما ذكر السقف المرفوع فلبيان رفعة البيت المعمور ليعلم عظمة شأن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر وجهاً آخر ، ولعمري إنه لم يأت بشيء فيهما ، والواو الأولى للقسم وما بعدها على ما قال أبو حيان للعطف ، والجملة المقسم عليها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ أي لكائن على شدّة كأنه مهيأ في مكان مرتفع فيقع على من يحل به من الكفار ؛ وفي إضافته إلى الرب مع إضافة الرب إلى ضميره عليه الصلاة والسلام أمان له صلى الله عليه وسلم وإشارة إلى أن العذاب واقع بمن كذبه ، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما واقع بدون لام ، وقوله تعالى : ﴿ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ خبر ثان لان أو صفة ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ أو هو جملة معترضة ، و ﴿ مِن دَافِعٍ ﴾ إما مبتدأ للظرف أو مرتفع به على الفاعلية ، و ﴿ مِنْ ﴾ مزيدة للتأكيد ولا يخفى ما في الكلام من تأكيد الحكمة وتقريره ؛ وقد روى أن عمر رضي الله تعالى عنه قرأ من أول السورة إلى هنا فبكى ثم بكى حتى

عيد من وجعه وكان عشرين يوماً ، وأخرج أحمد .

وسعيد بن منصور .

(33/729)

وابن سعد عن جبير بن مطعم قال : قدمت المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأكلمه في أساري بدر فدفعت إليه وهو يصلي بأصحابه صلاة المغرب فسمعته يقرأ ﴿ والطور ﴾ إلى ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور : 1 8] فكأنما صدع قلبي ، وفي رواية فأسلمت خوفاً من نزول العذاب وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب ، وهو لا يأبى أن يكون المراد الوقوع يوم القيامة ومن غريب ما يحكى أن شخصاً رأى مكتوباً في كفه خمس واوات فعبرت له بخير فسأل ابن سيرين فقال : تهيأ لما لا يسر فقال له : من أين أخذت هذا ؟ فقال : من قوله عز وجل : ﴿ والطور ﴾ إلى ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ [الطور : 7 1] فما مضى يومان أو ثلاثة حتى أحيط بذلك الشخص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(34/729)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

52 ـ سورة الطور

نزولها : مكية . .

عدد آياتها : تسع وأربعون . . آية عدد كلماتها : ثلاثمائة واثنتا عشرة كلمة . .

عدد حروفها : ألف وخمسمائة حرف . .

مناسبتها لما قبلها

ختمت سورة الذاريات التي سبقت هذه السورة بقوله تعالى : « فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ » .

. وفى هذا تهديد ووعيد لأهل الكفر والضلال ، بالعذاب الذي أنذروا به ، والذي ينتظرهم يوم القيامة . .

وقد بدئت سورة « الطور » هذه ، بهذه الأقسام ، التي أقسم سبحانه وتعالى بها ، وأوقعها على وقوع العذاب بأهل الكفر والضلال يوم القيامة ، وأنه واقع لا شك فيه . . « إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ ما لَهُ مِنْ دافِعٍ » . .

فالسورتان تتلاقيان ختاما وبدءا ، حتى لكأنهما سورة واحدة . .

وإن الذي ينظمهما فى التلاوة ، دون أن يفصل بينهما بالبسملة ، ليجد هذا الترابط الوثيق

بينهما ، فلا يشعر بأن سورة قد انتهت وأخرى قد بدأت . .

وهذا - فى رأينا - دلالة قاطعة على أن ترتيب السور فى المصحف الكريم ، هو توفيقىّ من عند اللّه ، وبعمل الرسول ، تماما كترتيب الآيات فى سورها ،

(35/729)

وأن الخلاف الذي يدور حول ترتيب السور ، وأنه توقيفى ينبغى أن يرتفع ، مع قيام هذه الشواهد التي نراها فى تلاحم السور من أول فاتحة الكتاب إلى سورة الناس . .

التفسير :

قوله تعالى : « وَالطُّورِ ، وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ، فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ، وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ، وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ » .

الطور : هو طور سينين ، أو سيناء . .

وكتاب مسطور : هو جنس ما يكتب من الكتب ، ولهذا جاء منكّرا موصوفا بأنه مكتوب فى رق منشور - وهو ما يكتب عليه من جلد رقيق . .

(36/729)

وفى وصف الكتاب بأنه مسطور ، إشارة إلى أنه مكتوب كتابة فى أسطر على نحو ما يكتب الكاتبون . .

وفى وصفه بأنه فى رق منشور . إشارة أخرى إلى أنه خفيف الحمل ، سهل التداول ، وأنه منشور ، أي مفتوح للقارئين ، غير مطوى عنهم . .

وفى هذا كله تنويه بالكتابة ورفع لقدرها ، وأنها باب واسع من أبواب العلم ، وطريق فسيح من طرق المعرفة . .

وليس هذا بالأمر المستغرب من رسالة افتتحت بهذا الأمر من رب العالمين ، إلى النبىّ الأمىّ فى قوله تعالى : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ » (1 ـ 5 : العلق) ثم تلا هذا الأمر قسم بالكتابة وأدواتها من حروف وأقلام ، فقال تعالى : « ن وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ » (1 ـ 2 : القلم) .

فالكتابة نعمة من نعم اللّه العظمى على الإنسان ، تكمل بها نعمة الكلمة التي وضعها سبحانه وتعالى فى فم الإنسان . .

فلا عجب إذن أن يقسم اللّه سبحانه وتعالى بالكتاب ، من حيث هو جنس عام لكل ما يكتب ، وأن ينظمه فى نسق واحد ، مع هذه المعالم المباركة ، التي أقامها اللّه سبحانه ، هدى ، ورحمة للناس . . كالطور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور

. .

والبيت المعمور : هو البيت الحرام ، الذي عمره اللّه سبحانه وتعالى بالواردين عليه ، من المؤمنين ، وبما يذكرون اللّه فيه . .

والسقف المرفوع : هو السماء . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً » (32 : الأنبياء) . .

(37/729)

وقوله سبحانه : « اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها » (2 : الرعد) .

والبحر المسجور : هو البحر المحيط بهذا العالم الأرضى . . والمسجور : المربوط ، المحبوس عن مفارقة الأرض ، والانفلات منها ، وهو كائن مائع ، لا تمسكه إلا قدرة القادر . .

تمور السماء مورا : أي تضطرب اضطرابا ، وتموج موجا . .

يدعون إلى نار جهنم دعّا : أي يدفعون إليها دفعا شديدا . .

فالطور ، والكتاب المسطور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور ، أقسام خمسة ، أقسم اللّه سبحانه وتعالى بها ، وهى بهذا القسم من اللّه سبحانه تلبس

ثوب التكريم ، والتعظيم ، وفى تكريمها وتعظيمها ، إشعار بعظمة الخالق ، وجلاله ، الذي أبدع هذه المخلوقات العظيمة ، وأقامها هذا المقام الكريم ، حتى لقد كانت أهلا لأن يقسم خالقها بها ، ويعرضها فى هذا المعرض الكريم . .

هذا ، ويلاحظ أن سورة « الذاريات » قد بدئت بأربعة أقسام من الخالق جل وعلا على أربعة مخلوقات من مخلوقاته : الذاريات ذروا . .

فالحاملات وقرا . . فالجاريات يسرا . . فالمقسّمات أمرا . .

وقد أوقع اللّه سبحانه وتعالى هذه الأقسام الأربعة على وقوع الدينونة ، وحساب الناس وجزائهم يوم القيامة . .

ثم أتبع سبحانه وتعالى هذه الأقسام بقسم خامس ، هو قوله سبحانه والسماء ذات الحبك . . وأوقع سبحانه هذا القسم على اختلاف الناس ، وأنهم فريقان : مؤمن وكافر : « إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ » .

.

وفى سورة الطور هنا ، بدأها اللّه سبحانه وتعالى بخمسة أقسام . . ثم أوقع هذه الأقسام على وقوع العذاب ، الذي هو وجه من وجهى الجزاء يوم القيامة . .

ووقوع العذاب يوم القيامة ، يعنى وقوع هذا اليوم ، ويعنى البعث ، والحساب . .

وعلى هذا - واللّه أعلم - يكون القسم الخامس هنا مراعى فيه تلك الإضافة الجديدة على ما وقع عليه القسم فى سورة الذاريات ، وهو وقوع العذاب بأهله الكافرين الضالين ، على حين تكون الأقسام الأربعة ، مؤكّدة للأقسام الأربعة ، التي جاءت فى تلك السورة ، والتي وقعت على الإخبار بمجىء يوم القيامة . . أما القسم الخامس الذي جاء فى سورة الذاريات واقعا على اختلاف الناس ، وافتراقهم إلى فرقتين : مؤمنين وكافرين ، فهو تمهيد للقسم الخامس الذي ورد فى سورة الطور واقعا على ما يلقاه فريق من أحد الفريقين - وهو فريق الكافرين - من عذاب واقع فى هذا اليوم . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 14 صـ 541 . 545 ﴾

(39/729)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) ﴾

القَسَم للتأكيد وتحقيق الوعيد .

ومناسبة الأمور المقسم بها للمقسم عليه أن هذه الأشياء المقسم بها من شؤون بعثه موسى عليه السلام إلى فرعون وكان هلاك فرعون ومن معه من جراء تكذيبهم موسى عليه السلام .

و﴿ الطور ﴾ : الجبل باللغة السريانيّة قاله مجاهد .

وأدخل في العربية وهو من الألفاظ المعربة الواقعة في القرآن .

وغلب علَماً على طور سينا الذي ناجى فيه موسى عليه السلام ، وأنزل عليه فيه الألواح المشتملة على أصول شريعة التوراة .

فالقسم به باعتبار شرفه بنزول كلام الله فيه ونزول الألواح على موسى وفي ذكر الطور إشارة إلى تلك الألواح لأنها اشتهرت بذلك الجبل فسميت طور المعرّب بتوراة .

وأما الجبل الذي خوطب فيه موسى من جانب الله فهو جبل حُوريب واسمه في العربية (الزّبير) ولعله بجانب الطور كما في قوله تعالى : ﴿ آنس من جانب الطور ناراً ﴾ وتقدم بيانه في سورة القصص (29) ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ورفعنا فوقكم الطور ﴾ في سورة البقرة (63) .

والقَسَم بالطور توطئة للقسم بالتوراة التي أنزل أولها على موسى في جبل الطور .

والمراد ﴿ بكتاب مسطور في رَقّ منشور ﴾ التوراةُ كلها التي كتبها موسى عليه السلام

بعد نزول الألواح ، وضمَّنها كل ما أوحَى الله إليه مما أمر بتبليغه في مدة حياته إلى ساعات قليلة قبل وفاته .

وهي الأسفار الأربعة المعروفة عند اليهود : سفر التكوين ، وسفر الخروج ، وسفر العَدد ، وسفر التثنية ، وهي التي قال الله تعالى في شأنها : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ في سورة الأعراف (154) .

وتنكير كتاب ﴾ للتعظيم .

وإجراء الوصفين عليه لتمييزه بأنه كتاب مشرف مراد بقاؤه مأمور بقراءته إذ المسطور هو المكتوب .

(40/729)

والسطر : الكتابة الطويلة لأنها تجعل سطوراً ، أي صفوفاً من الكتاب قال تعالى : ﴿ وما يسطرون ﴾ [القلم : 1] ، أي يكتبون .

والرَّق (بفتح الراء بعدها قاف مشددة) الصحيفة تُتّخذ من جلد مرقق أبيض ليكتب عليه .

وقد جمعها المتلمِس في قوله:

فكأنما هِي مِن تقادُمِ عهدها . . .

رَقّ أُتيح كتابُها مسطور

والمنشور : المبسوط غير المطوي قال يزيد بن الطثرية:

صحائف عندي للعتاب طويتُها . . .

ستنشر يوماً مَا والعتاب يطول

أي : أقسم بحال نشره لقراءته وهي أشرف أحواله لأنها حالة حصول الاهتداء به للقارىء والسامع .

وكان اليهود يكتبون التوراة في رقوق ملصق بعضها ببعض أو مخيط بعضها ببعض ، فتصير قطعة واحدة ويطوونها طيّاً اسطوانياً لتحفظ فإذا أرادوا قراءتها نشروا مطويها ، ومنه ما في حديث الرجم " فنشروا التوراة " .

وليس المراد بكتاب مسطور القرآن لأن القرآن لم يكن يومئذٍ مكتوباً سطوراً ولا هو مكتوباً في رَق .

ومناسبة القسم بالتوراة أنها الكتاب الموجود الذي فيه ذكر الجزاء وإبطال الشرك وللإِشارة إلى أن القرآن الذي أنكروا أنه من عند الله ليس بدعاً فقد نزلت قبله التوراة وذلك لأن المقْسَم عليه وقوع العذاب بهم وإنما هو جزاء على تكذيبهم القرآن ومن جاء به بدليل قوله

بعد ذكر العذاب

﴿ فويل يومئذٍ للمكذبين الذين هم في خوض يلعبون ﴾ [الطور : 11 ، 12] .

والقسم بالتوراة يقتضي أن التوراة يومئذٍ لم يكن فيها تبديل لما كتبه موسى : فإمّا أن يكون تأويل ذلك على قول ابن عباس في تفسير معنى قوله تعالى : ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ [المائدة : 13] أنه تحريف بسوء فهم وليس تبديلاً لألفاظ التوراة ، وإمّا أن يكون تأويله أن التحريف وقع بعد نزول هذه السورة حين ظهرت الدعوة المحمدية وجَبَهت اليهودَ دلالةُ مواضع من التوراة على صفات النبي محمد صلى الله عليه وسلم أو يكون تأويله بأن القسم بما فيه من الوحي الصحيح .

(41/729)

والبيت المعمور : عن الحسن أنه الكعبة وهذا الأنسب بعطفه على الطور ، ووصفه بـ ﴿ المعمور ﴾ لأنه لا يخلو من طائف به ، وعمران الكعبة هو عمرانها بالطائفين قال تعالى : ﴿ إنما يعمر مساجد اللَّه من آمن باللَّه واليوم الآخر ﴾ [التوبة : 18] الآية .

ومُناسبة القسم سبق القسم بكتاب التوراة فعقب ذلك بالقسم بمواطن نزول القرآن فإن ما نزل به من القرآن أنزل بمكة وما حولها مثل جبل حِراء .

وكان نزوله شريعة ناسخة لشريعة التوراة ، على أن الوحي كان ينزل حَول الكعبة .

وفي حديث الإِسراء " بينا أنا نائم عند المسجد الحرام إذ جاءني الملكان " الخ ، فيكون توسيط القسم بالكعبة في أثناء ما أقسم به من شؤون شريعة موسى عليه السلام إدماجاً .

وفي "الطبري" : أن علياً سئل : ما البيت المعمور ؟ فقال : "بيت في السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أبداً ، يقال : له الضُراح" (بضم الضاد المعجمة وتخفيف الراء وحاء مهملة) ، وأن مجاهداً والضحاك وابن زيد قالُوا مثل ذلك .

وعن قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " هل تدرون ما البيت المعمور ؟ قال : فإنه مسجد في السماء تحته الكعبة " إلى آخر الخبر .

وثمة أخبار كثيرة متفاوتة في أن في السماء موضعاً يقال له : البيت المعمور ، لكن الروايات في كونه المرادَ من هذه الآية ليست صريحة .

وأما السقف المرفوع : ففسروه بالسماء لقوله تعالى : ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾ [الأنبياء : 32] وقوله : ﴿ والسماء رفعها ﴾ [الرحمن : 7] فالرفع حقيقي ومناسبة القسَم بها أنها مصدر الوحي كله التوراة والقرآن .

وتسمية السماء على طريقة التشبيه البليغ .

والبحر : يجوز أن يراد به البحر المحيط بالكرة الأرضية .

وعندي : أن المراد بحر القلزم ، وهو البحر الأحمر ومناسبة القَسَم به أنه به أُهلك فرعون وقومه حين دخله موسى وبنو إسرائيل فلحق بهم فرعون .

(42/729)

و ﴿ المَسجور ﴾ : قيل المملوءُ ، مشتقاً من السَّجر ، وهم الملء والإِمداد .

فهو صفة كاشفة قصد منها التذكير بحال خلق الله إياه مملوءاً ماء دون أن تملأه أودية أو سيول ، أو هي للاحتراز عن إرادة الوادي إذ الوادي ينقص فلا يبقى على ملئه وذلك دال على عظم القدرة .

والظاهر عندي : أن وصفه بالمسجور للإِيماء إلى الحالة التي كان بها هلاك فرعون بعد أن فَرق الله البحر لموسى وبني إسرائيل ثم أسجره ، أي أفاضه على فرعون وملئه .

وعذاب الله المُقْسَم على وقوعه هو عذاب الآخرة لقوله : ﴿ يوم تمور السماء موراً إلى قوله : تكذبون ﴾ [الطور : 149] .

وأما عذاب المكذبين في الدنيا فسيجيء في قوله تعالى : ﴿ وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ﴾ [الطور : 47] .

وتحقيق وقوع عذاب الله يوم القيامة إثبات للبعث بطريق الكناية القريبة ، وتهديد للمشركين

بطريق الكناية التعريضية .

والواوات التي في هذه الآية كلها واوات قسم لأن شأن القسم أن يعاد ويكرر ، ولذلك كثيراً ما يُعيدون المقسم به نحو قول النابغة:

والله والله لنعم الفتى . . .

وإنما يعطفون بالفاء إذا أرادُوا صفات المقسم به .

ويجوز صرف الواو الأولى للقسم واللاتي بعدها عاطفات على القسم ، والمعطوف على القسم قسم .

والوقوع : أصله النزول من علوّ واستعمل مجازاً للتحقق وشاع ذلك ، فالمعنى : أن عذاب ربك لمتحقق .

وحذف متعلق ﴿ لواقع ﴾ ، وتقديره : على المكذبين ، أو بالمكذبين ، كما دل عليه قوله بعدُ ﴿ فويل يومئذ للمكذبين ﴾ [الطور : 11] ، أي المكذبين بك بقرينة إضافة رب إلى ضمير المخاطب المشعر بأنه معذبهم لأنه ربك وهم كذّبُوك فقد كذبوا رسالة الرب .

وتضمن قوله : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ إثبات البعث بعد كون الكلام وعيداً لهم على إنكار البعث وإنكارهم أن يكونوا معذبين .

وأتبع قوله : ﴿ لواقع ﴾ بقوله : ﴿ ما له من دافع ﴾ ، وهو خبر ثان عن ﴿ عذاب ﴾ أو حال منه ، أي : ما للعذاب دافع يدفعه عنهم .

والدفع : إبعاد الشيء عن شيء باليد وأطلق هنا على الوقاية مجازاً بعلاقة الإِطلاق ألا يقيهم من عذاب الله أحد بشفاعة أو معارضة .

وزيدت ﴿ من ﴾ في النفي لتحقيق عموم النفي وشموله ، أي نفي جنس الدافع .

روى أحمد بن حنبل عن جبير بن مطعم قال : "قدمت المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأُكلمه في أُسارى بدر فدُفعت إليه وهو يصلِّي بأصحابه صلاة المغرب فسمعته يقرأ ﴿ والطور ﴾ إلى ﴿ إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع ﴾ فكأنما صُدع قلبي" ، وفي رواية "فأسلمت خوفاً من نزول العذاب وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(27) والبحر المسجور

بقلم الدكتور : زغلول النجار

ضمن قسم بخمس من آيات الله في الخلق علي حتمية وقوع العذاب بالمكذبين بالدين الخاتم , وعلي أنه لا دافع أبدا لهذا العذاب عنهم . جاء هذا القسم القرآني العجيب في مطلع سورة الطور , وسورة الطور مكية , شأنها شأن كل السور التي أنزلت بمكة المكرمة , تدور محاورها الأساسية حول قضية العقيدة بأبعادها المختلفة من الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد , وبملائكته , وكتبه , ورسله , وبالبعث والجزاء , وبالخلود في الآخرة , إما في الجنة أبدا أو في النار أبدا .

وتبدأ السورة بعد هذا القسم بمشهد من مشاهد الآخرة فيه استعراض لحال المكذبين برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) , وهم يدفعون من ظهورهم إلي نار جهنم دفعا , وقد كانوا من المكذبين بها ! !

ثم تنتقل الآيات إلي استعراض حال المتقين وهم يرفلون في جنات النعيم ثوابا لهم علي الإيمان بالله , والخوف من عذابه ! !

وتنتهي السورة بخطاب إلي النبي الخاتم , والرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) يحثه علي المضي في دعوته إلي عبادة الله الخالق وحده (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع) مهما صادفه في ذلك من مصاعب في مواجهة الكم الهائل من مؤامرات المتآمرين , وكيد المكذبين وعنتهم , الذين يتهددهم الله (تعالي) بما سوف يلقونه من صنوف العذاب يوم القيامة , بل بعذاب قبل ذلك في الحياة الدنيا , ويأتي مسك الختام بمواساة وتعضيد لرسول الله (صلي الله عليه وسلم) في صورة تكريم لم يسبق لنبي من الأنبياء , ولا لرسول من الرسل أن نال من الله (تعالي) تكريما مثله , وذلك بقول الحق (تبارك وتعالي)

موجها الخطاب إليه (صلي الله عليه وسلم) :

(45/729)

واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم * ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم *(الطور :49,48) .

والآيات الست التي سبق بها القسم في مطلع سورة الطور هي علي التوالي : الطور وهو الجبل المكسو بالأشجار , والجبل غير المكسو بالخضرة لا يقال له طور , إنما يقال له جبل إذا كان شاهق الارتفاع بالنسبة للتضاريس حوله , ويسمي تلا إذا كان دون ذلك , وتليه

الأكمة أو الربوة أو النتوء الأرضي , ويليه النجد أو الهضبة , ويليه السهل , من تضاريس الأرض , والمقصود في القسم القرآني هنا ـ علي الأرجح ـ طور سيناء , الذي كلم الله (تعالي) عنده موسي (عليه السلام) , والذي نزلت عليه الألواح , وأقسم الله (سبحانه وتعالي) بطور سيناء هذا تكريما له , وتذكيرا للناس بما فيه من الآيات , والأنوار , والتجليات , والفيوضات الإلهية , مما جعله بقعة مشرفة من بقاع الأرض لاختياره بإرادة الله (تعالي) , وتجليه له .

والآية الثانية التي جاء بها القسم هي وكتاب مسطور , وقيل فيه إنه اللوح المحفوظ , وقيل إنه القرآن الكريم الذي ختم الله (سبحانه) به وحي السماء , وقيل هو التوراة التي تلقاها نبي الله موسي (عليه السلام) في الألواح التي أنزلت علي جبل الطور , وقيل هو إشارة إلي جميع الكتب التي أنزلها ربنا (تبارك وتعالي) علي فترة من الرسل بلغ عددهم ثلاثمائة وخمسة عشر كما أخبرنا المصطفي (صلي الله عليه وسلم) , لأن أصلها واحد , ورسالتها واحدة , كما قيل إنها صحائف أعمال العباد .

والقسم الثالث جاء بـ الرق المنشور والرق هو جلد رقيق يكتب فيه , وقد يشير إلي الورق الذي يكتب عليه وإلي الألواح التي ينقش فيها , لأن الرق هو كل ما يكتب فيه , والمنشور أي المبسوط غير المطوي , وغير المختوم عليه , بمعني أنه مفتوح أمام الجميع , يستطيعون قراءته أو

الاستماع إليه بغير حجر أو منع , فالقرآن الكريم يقرأه الخلق جميعهم , ويستمعون إليه بغير قيود أو حدود من أي نوع , وهكذا كانت الكتب السماوية التي سبقته بالنزول قبل ضياعها أو تحريفها , وفي النشر إشارة إلي سلامة الكتب السماوية من كل نقص وعيب .

وجاء القسم الرابع بصياغة والبيت المعمور وهو بيت في السماء السابعة حيال الكعبة (أي مقابلتها إلي أعلي علي استقامتها) , وهو أيضا حيال العرش إلي أسفل منه وعلي استقامته , تعمره الملائكة , يصلي فيه كل يوم سبعون ألفا منهم ثم لا يعودون إليه كما روي ابن عباس (رضي الله عنهما) , عن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) , وهو لأهل السماء كالكعبة المشرفة لأهل الأرض , ويروي عن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) أنه قال يوما لأصحابه : هل تدرون ما البيت المعمور ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم , قال (صلي الله عليه وسلم) : فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة لو خر لخر عليها , يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم .

ويروي عنه (صلي الله عليه وسلم) وصفا مشابها للبيت المعمور في حديث الإسراء والمعراج , كما جاء في الصحيحين .

وجاء القسم الخامس بصياغة والسقف المرفوع وفيه قيل هو السماء القائمة بغير عمد مرئية , كما جاء علي لسان الإمام علي (كرم الله تعالي وجهه) ووافقه علي ذلك كثير من المفسرين , وإن قال الربيع بن أنس إنه العرش الذي هو سقف لجميع المخلوقات .

أما البحر المسجور فقد تعددت آراء المفسرين فيه , كما سنري في الأسطر القليلة التالية , ولكن قبل التعرض لذلك لابد لنا من استعراض الدلالة اللغوية للفظي البحر والمسجور .

المدلول اللغوي للبحر المسجور

(البحر) في اللغة ضد البر , وقيل إنه سمي بهذا الاسم لعمقه واتساعه , والجمع (أبحر) و (بحار) و (بحور) , وكل نهر عظيم يسمي بحرا , لأن أصل البحر هو كل مكان

واسع جامع للماء الكثير , وإن كانت لفظة (البحر) تطلق في الأصل علي الماء المالح دون العذب , كذلك سمت العرب كل متوسع في شيء (بحرا) حتي قالوا : للمتوسع في علمه (بحرا) , وللتوسع في العلم (تبحر) , وقالوا : فرس (بحر) أي واسع الخطي , سريع الجري , وقيل : ماء بحر , أي ملح (مالح) , و (أبحر) الماء أي ملح , و (أبحر) الرجل أي ركب البحر , و (بحر) أذن الناقة أي شقها شقا واسعا فشبهها بسعة البحر علي وجه المجاز

والمبالغة , ومنها سميت البحيرة وهي الناقة إذا ولدت عشرة أبطن شقوا أذنها , وتطلق , فلا تركب ولا يحمل عليها , والبحيرة ابنة السائبة وحكمها حكم أمها عند العرب في الجاهلية .

أما وصف البحر بصفة (المسجور) فالصفة مستمدة من الفعل (سجر) و (السجر) تهييج النار , يقال (سجر) التنور أي أوقد عليه حتي أحماه , و (السجور) هو ما يسجر به التنور من أنواع الوقود , كما يقال (سجر) الماء النهر أي ملأه , ومنه (البحر المسجور) أي المملوء بالماء , المكفوف عن اليابسة , و (الساجور) خشبة تجعل في عنق الكلب فيقال له كلب (مسوجر) أي محكوم , والمسوجر المغلق المحكم الإغلاق من كل شيء .

شروح المفسرين

في تفسير القسم القرآني بالبحر المسجور أشار ابن كثير (يرحمه الله) إلي قول الربيع بن أنس أنه : هو الماء الذي تحت العرش الذي ينزل الله منه المطر الذي تحيا به الأجساد في قبورها يوم معادها , أي أنه بحر من ماء خاص محبوس عند رب العالمين , ينزله (سبحانه وتعالي) يوم البعث فينبت كل مخلوق بواسطة هذا الماء من عجب ذنبه كما تنبت البقلة من حبتها علي ما روي عن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) من قول .

وأضاف بن كثير و [قال الجمهور هو هذا البحر , واختلف في معني المسجور فقال بعضهم المراد أنه يوقد يوم القيامة نارا كقوله تعالي : وإذا البحار سجرت أي أضرمت فتصير نارا تتأجج محيطة بأهل الموقف كما روي عن علي وابن عباس , وقال العلاء بن بدر : إنما سمي البحر المسجور لأنه لا يشرب منه ماء , ولا يسقي به زرع , وكذلك البحار يوم القيامة] .

[وعن سعيد بن جبير : والبحر المسجور يعني المرسل , وقال قتادة : المسجور المملوء , واختاره ابن جرير , وقيل : المراد بالمسجور الممنوع المكفوف عن الأرض لئلا يغمرها فيغرق أهلها , قاله ابن عباس وبه يقول السدي وغيره , وعليه يدل الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب , عن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) قال : ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات يستأذن الله أن ينفضح عليهم فيكفه الله عز وجل] .

وذكر صاحبا تفسير الجلالين (رحمهما الله) في شرح دلالة القسم القرآني (والبحر المسجور) أي المملوء وذكرا أنه قول قتادة . وقالا قال مجاهد الموقد أي الذي سيسجر يوم القيامة لقوله تعالي : وإذا البحار سجرت .

وقال صاحب الظلال (يرحمه الله) كلاما مشابها يشير إلي أن البحر المسجور هو المملوء بالماء في الدنيا , أو المتقد بالنار في الآخرة , أو أن هذا التعبير يسير إلي خلق آخر كالبيت

المعمور يعلمه الله .

وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني

القرآن (غفر الله له) في تفسير قول الحق (تبارك وتعالي) (والبحر المسجور) ما نصه :

أي المملوء ماء يقال : سجر النهر , ملأه , وهو البحر المحيط , والمراد الجنس , وقيل الموقد نارا عند قيام الساعة , كما قال تعالي : وإذا البحار سجرت , أي أوقدت نارا , من سجر التنور يسجره سجرا , أحماه , وصف البحر بذلك إعلاما بأن البحار عند فناء الدنيا تحمي بنار من تحتها فتتبخر مياهها , وتندلع النار في تجاويفها وتصير كلها حمما .

(49/729)

وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم : إن البحر المسجور هو المملوء , وذكر صاحب صفوة التفاسير (بارك الله في عمره) أنه الموقد نارا يوم القيامة لقوله وإذا البحار سجرت أي أضرمت حتي تصير نارا ملتهبة تتأجج وتحيط بأهل الموقف .

البحر المسجور

في منظور العلوم الحديثة

من المعاني اللغوية للبحر المسجور هو المملوء بالماء , والمكفوف عن اليابسة , وهو معني

صحيح من الناحية العلمية صحة كاملة كما أثبتته الدراسات العلمية في القرن العشرين , ومن المعاني اللغوية لهذا القسم القرآني المبهر أيضا أن البحر قد أوقد عليه حتي حمي قاعه فأصبح مسجورا , وهو كذلك من الحقائق العلمية التي اكتشفها الإنسان في العقود المتأخرة من القرن العشرين , والتي لم يكن لبشر إلمام بها قبل ذلك أبدا , وهذا ما نفصله في الأسطر التالية :

أولا :(البحر المسجور) بمعني المملوء بالماء والمكفوف عن اليابسة :

الأرض هي أغني كواكب المجموعة الشمسية بالماء الذي تقدر كميته بحوالي 1360 إلي 1385 مليون مليون كيلو متر مكعب , وهذا الماء قد أخرجه ربنا (تبارك وتعالي) كله من داخل الأرض علي هيئة بخار ماء اندفع من فوهات البراكين , وعبر صدوع الأرض العميقة ليصادف الطبقات العليا الباردة من نطاق التغيرات الجوية والذي يمتد من سطح البحر إلي ارتفاع حوالي ستة عشر كيلو مترا فوق خط الأستواء , وحوالي العشرة

كيلو مترات فوق قطبي الأرض , وتنخفض درجة الحرارة في هذا النطاق باستمرار مع الإرتفاع حتي تصل إلي ستين درجة مئوية تحت الصفر في قمته . وهذا النطاق يحوي حوالي

ثلثي كتلة الغلاف الغازي للأرض (66

) والمقدرة بأكثر قليلا من خمسة آلاف مليون مليون طن , وهو النطاق الذي يتكثف فيه بخار الماء الصاعد من الأرض , والذي تتكون فيه السحب , وينزل منه كل من المطر , والبرد , والثلج , وتتم فيه ظواهر الرعد والبرق , وتتكون العواصف والدوامات الهوائية وغير ذلك من الظواهر الجوية , ولولا تبرد هذا النطاق مع الارتفاع ما عاد إلينا بخار الماء الصاعد من الأرض أبدا . وحينما عاد إلينا بخار الماء مطرا , وثلجا , وبردا , انحدر علي سطح الأرض ليشق له عددا من المجاري المائية , ثم فاض إلي منخفضات الأرض الواسعة ليكون البحار والمحيطات , وبتكرار عملية البخر من أسطح تلك البحار والمحيطات , ومن أسطح اليابسة بما عليها من مختلف صور التجمعات المائية والكائنات الحية . بدأت دورة المياه حول الأرض , من أجل التنقية المستمرة . لهذا الماء وتلطيف الجو , وتفتيت الصخور , وتسوية سطح الأرض , وتكوين التربة , وتركيز عدد من الثروات المعدنية , وغير ذلك من المهام التي أوكلها الخالق لتلك الدورة المعجزة التي تحمل 380,000 كيلو متر مكعب من ماء الأرض إلي غلافها الجوي سنويا , لتردها إلي الأرض ماء طهورا , منها 320,000 كيلو متر مكعب تتبخر من أسطح البحار والمحيطات ,60,000 كيلو متر مكعب من أسطح اليابسة , يعود منها 284,000 كيلو متر مكعب إلي البحار والمحيطات ,96,000 كيلو متر مكعب إلي اليابسة التي يفيض منها 36,000 كيلو متر مكعب من

الماء إلي البحار والمحيطات , وهو نفس مقدار الفارق بين البخر والمطر من وإلي البحار والمحيطات .

هذه الدورة المحكمة للمياه حول الأرض أدت إلي خزن أغلب ماء الأرض في بحارها ومحيطاتها

(51/729)

حوالي (97,2

) , وإبقاء أقله علي اليابسة (حوالي 2,8

) , وبهذه الدورة للماء حول الأرض تملح ماء البحار والمحيطات , وبقيت نسبة ضئيلة علي هيئة ماء عذب علي اليابسة (2,8

من مجموع كم الماء علي الأرض) , وحتي هذه النسبة الضئيلة من ماء الأرض العذب قد حبس أغلبها (من 2,052

إلي 2,15

) علي هيئة سمك هائل من الجليد فوق قطبي الأرض , وفي قمم الجبال , والباقي مختزن في الطبقات المسامية والمنفذة من صخور القشرة الأرضية علي هيئة ماء تحت سطحي (

حوالي 0,27

إلي 0,5

) وفي بحيرات الماء العذب (حوالي 0,33

) , وعلي هيئة رطوبة في تربة الأرض (من 0,01

إلي 0,18

) ورطوبة في الغلاف الغازي للأرض تتراوح بين (0,0001

إلي 0,036

) , وما يجري في الأنهار والجداول (حوالي 0,0047

) .

وتوزيع ماء الأرض بهذه النسب التي اقتضتها حكمة الله الخالق قد تم بدقة بالغة بين البيئات المختلفة بالقدر الكافي لمتطلبات الحياة في كل بيئة من تلك البيئات , وبالأقدار الموزونة التي لو اختلت قليلا بزيادة أو نقص لغمرت الأرض وغطت سطحها بالكامل , أو انحسرت تاركة مساحات هائلة من اليابسة , ولقصرت دون متطلبات الحياة عليها .

ومن هذا القبيل يحسب العلماء أن الجليد المتجمع فوق قطبي الأرض وفي قمم الجبال المرتفعة فوق سطحها إذا انصهر (وهذا لا يحتاج إلا إلي مجرد الارتفاع في درجة حرارة صيف تلك المناطق بحوالي خمس درجات مئوية) وإذا حدث ذلك فإن كم الماء الناتج

سوف يؤدي إلي رفع منسوب المياه في البحار والمحيطات الي أكثر من مائة متر فيغرق أغلب المناطق الآهلة بالسكان والممتدة حول شواطيء تلك البحار والمحيطات . وليس هذا من قبيل الخيال العلمي , فقد مرت بالأرض فترات كانت مياه البحار فيها أكثر غمرا لليابسة من حدود شواطئها الحالية , كما مرت فترات أخري كان منسوب الماء في البحار والمحيطات أكثر انخفاضا من منسوبها الحالي مما أدي إلي

(52/729)

انحسار مساحة البحار والمحيطات وزيادة مساحة اليابسة , والضابط في الحالين كان كم الجليد المتجمع فوق اليابسة , فكلما زاد كم الجليد انخفض منسوب الماء في البحار والمحيطات فانحسرت عن اليابسة التي تزيد مساحتها زيادة ملحوظة , وكلما قل كم الجليد ارتفع منسوب المياه في البحار والمحيطات وطغت علي اليابسة التي تتضاءل مساحتها تضاءلا ملحوظا .

من هنا كان تفسير القسم القرآني بـ (البحر المسجور) بأن الله تعالي يمن علينا (وهو صاحب الفضل والمنة) بأنه ملأ منخفضات الأرض بماء البحار والمحيطات , وحجز هذا الماء عن مزيد من الطغيان علي اليابسة منذ خلق الإنسان , وذلك بحبس كميات من هذا

الماء في هيئات متعددة أهمها ذلك السمك الهائل من الجليد المتجمع فوق قطبي الأرض وعلي قمم الجبال , والذي يصل إلي أربعة كيلو مترات في قطب الأرض الجنوبي , وإلي ثلاثة آلاف وثمانمائة من الأمتار في القطب الشمالي , ولولا ذلك لغطي ماء الأرض أغلب سطحها , ولما بقيت مساحة كافية من اليابسة للحياة بمختلف أشكالها الإنسانية , والحيوانية , والنباتية , وهي احدي آيات الله البالغة في الأرض , وفي اعدادها لكي تكون صالحة للعمران .

من هنا كان تفسير القسم بـ (البحر المسجور) بمعني المملوء بالماء المكفوف عن اليابسة ينطبق مع عدد من الحقائق العلمية الثابتة التي تشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق , وتشهد لسيدنا محمد بن عبد الله (صلي الله عليه وسلم) بالنبوة وبالرسالة .

ثانيا :(البحر المسجور) بمعني القائم علي قاع أحمته الصهارة الصخرية المندفعة من داخل الأرض فجعلته شديد الحرارة .

في العقود المتأخرة من القرن العشرين تم اكتشاف حقيقة تمزق الغلاف الصخري للأرض بشبكة هائلة من الصدوع العملاقة المزدوجة والتي تكون فيما بينها ما يعرف باسم أودية الخسف أو الأغوار , وأن هذه الأغوار العميقة تحيط بالكرة الأرضية إحاطة

كاملة , ويشبهها العلماء باللحام علي كرة التنس (مع فارق التشبيه) , وتمتد هذه الأغوار في كافة الاتجاهات لعشرات الآلاف من الكيلو مترات , ولكنها تنتشر أكثر ما تنتشر في قيعان محيطات الأرض , وفي قيعان عدد من بحارها , ويتراوح عمق الصدوع المشكلة لتلك الأغوار بين 65 كيلو مترا , و 70 كيلو مترا تحت قيعان البحار والمحيطات , وبين 100 و 150 كيلو مترا علي اليابسة (أي في صخور القارات) , وتعمل علي تمزيق الغلاف الصخري للأرض بالكامل , وتقطيعه إلي عدد من الألواح الصخرية التي تطفو فوق نطاق من الصخور شبه المنصهرة يسميه العلماء باسم نطاق الضعف الأرضي , وهو نطاق لدن , عالي الكثافة واللزوجة , تتحرك بداخله تيارات الحمل من أسفل إلي أعلي حيث تتبرد وتعاود النزول إلي أسفل , وهي بتلك الحركة الدائبة تدفع بكل لوح من ألواح الغلاف الصخري للأرض إلي التباعد عن اللوح المجاور في أحد جوانبه (في ظاهرة تسمي ظاهرة اتساع قيعان البحار والمحيطات) , ومصطدما في الجانب المقابل باللوح الصخري المجاور ليكون سلسلة من السلاسل الجبلية , ومنزلقا عن الألواح المجاورة في الجانبين الآخرين .

وباستمرار تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض تتسع قيعان البحار والمحيطات باستمرار عند خطوط التباعد بينها , وتندفع الصهارة الصخرية بملايين الأطنان في درجات حرارة تتعدي الألف درجة مئوية لتساعد علي دفع جانبي المحيط يمنة ويسرة , وتملأ المسافات

الناتجة بالصهارة الصخرية المندفعة من باطن الأرض علي هيئة ثورات بركانية عارمة , تحت الماء , تسجر قيعان جميع محيطات الأرض , وقيعان أعداد من بحارها , وتجدد مادتها الصخرية بإستمرار .

وقد أدي هذا النشاط البركاني فوق قيعان كل المحيطات , وفوق قيعان عدد من البحار النشطة إلي تكون سلاسل من الجبال في أواسط المحيطات تتكون في غالبيتها من الصخور البركانية , وقد ترتفع قممها في بعض الأماكن علي

هيئة أعداد من الجزر البركانية من مثل جزر كل من اندونيسيا , ماليزيا , الفلبين , اليابان , هاواي , وغيرها , وفي المقابل تصطدم ألواح الغلاف الصخري عند حدودها المقابلة لمناطق اتساع قيعان البحار والمحيطات , ويؤدي هذا التصادم الي اندفاع قيعان المحيطات تحت كتل القارات وانصهارها بالتدريج مما يؤدي إلي تكون جيوب عميقة عند التقاء قاع المحيط بالكتلة القارية تتجمع فيها كميات هائلة من الصخور الرسوبية والنارية والمتحولة التي تطوي وتتكسر لترتفع علي هيئة السلاسل الجبلية علي حواف القارات من مثل سلسلة جبال الإنديز في غربي أمريكا الجنوبية , وهنا يستهلك قاع المحيط بالتدريج تحت

الكتلة القارية , وإذا توقفت عملية توسع قاع المحيط فإن هذا القاع قد يستهلك بأكمله تحت القارة مما يؤدي إلي تصادم قارتين ببعضهما , وينشأ عن هذا التصادم أعلي السلاسل الجبلية من مثل جبال الهيمالايا التي نتجت عن اصطدام الهند بالقارة الأسيوية بعد استهلاك قاع المحيط الذي كان يفصل بينهما بالكامل في أزمنة أرضية سحيقة .

ويصاحب كل من عمليتي توسع قاع المحيط في محوره الوسطي , واصطدامه عند أطرافه بعدد من الهزات الأرضية , والثورات والطفوح البركانية .

ويبلغ طول جبال أواسط المحيطات أكثر من أربعة وستين ألفا من الكيلو مترات في الطول , بينما يبلغ طول الصدوع العميقة التي اندفعت منها الطفوح البركانية لتكون تلك السلاسل الجبلية في أواسط المحيطات أضعاف هذا الرقم . وتتكون هذه السلاسل أساسا من الصخور البركانية المختلطة بالقليل من الرسوبيات البحرية , وتحيط كل سلسلة من هذه السلاسل المندفعة من قاع المحيط بواد خسيف (غور) مكون بفعل الصدوع العملاقة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بعمق يتراوح بين خمسة وستين كيلو مترا وسبعين كيلو مترا ليخترق الغلاف الصخري للأرض بالكامل ويصل إلي نطاق الضعف الأرضي الذي تندفع منه الصهارة الصخرية بملايين

الأطنان في درجة حرارة تزيد عن الألف درجة مئوية لتسجر قيعان كل محيطات الأرض , وقيعان عدد من بحارها النشطة باستمرار , ومع تجدد اندفاع الصهارة الصخرية عبر مستويات هذه الصدوع العملاقة يتسع قاع المحيط باستمرار , وتتجدد مادته بدفع الصخور القديمة في اتجاه شاطيء المحيط يمنة ويسرة , ليحل محلها أحزمة أحدث عمرا تتكون من تجمد تلك الصهارة الجديدة , وتترتب بصورة متوازية علي جانبي أغوار المحيطات والبحار , ويهبط كل جانب من جانبي قاع المحيط المتسع بنصف معدل اتساعه الكلي تحت كل قارة من القارتين أو القارات المحيطة بشاطئيه , وبذلك يمتليء محور المحيط بالصهارة الصخرية الحديثة المندفعة عبر مستويات الصدوع الممزقة لقاعه فتسجره , بينما تندفع الصخور الأقدم بالتدريج في اتجاه الشاطئين حيث توجد أقدم صخور ذلك القاع , والتي تستهلك باستمرار تحت القارات المحيطة .

وهذه الصدوع العملاقة التي تمزق قيعان كل محيطات الأرض , وقيعان عدد من بحارها (مثل البحر الأحمر) توجد أيضا علي اليابسة ولكن بنسب أقل منها فوق قيعان البحار والمحيطات وتعمل علي تكوين عدد من الاغوار (الأودية الخسيفة) والبحار الطولية (من مثل اغوار شرقي افريقيا والبحر الأحمر) التي تعمل علي تفتيت الكتل القارية باتساعها التدريجي لتتحول تلك البحار الطولية مثل البحر الأحمر الي بحار أكبر ثم إلي محيطات تفصل

بين الكتلة القارية التي كانت متصلة علي هيئة قارة واحدة , وتحاط تلك الخسوف القارية العملاقة بعدد من القمم البركانية السامقة من مثل جبل أرارات في شرقي تركيا (5100 متر فوق مستوي سطح البحر) , ومخروط بركان (إتنا) في شمال شرقي صقلية (3300 متر) , ومخروط بركان (فيزوف) في خليج نابولي بايطاليا (1300 متر) , وجبل (كيليمنجارو) في تنجانيقا (5900 متر) , وجبل كينيا في جمهورية كينيا (5100 مترا فوق مستوي سطح البحر) .

بذلك ثبت

(56/729)

لكل من علماء الأرض والبحار - بالأدلة المادية الملموسة - أن كل محيطات الأرض (بما في ذلك المحيطان المتجمدان الشمالي والجنوبي) , وأن أعدادا من بحارها (من مثل البحر الأحمر) , قيعانها مسجرة بالصهارة الصخرية المندفعة بملايين الأطنان من داخل الأرض عبر شبكة الصدوع العملاقة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بالكامل وتصل إلي نطاق الضعف الأرضي , وتتركز هذه الشبكة من الصدوع العملاقة أساسا في قيعان البحار والمحيطات , وأن كم المياه في تلك الأحواض العملاقة - علي ضخامته - لا يستطيع أن يطفيء

جذوة الصهارة الصخرية المندفعة من داخل الأرض اطفاء كاملا , وأن هذه الجذوة علي شدة حرارتها (أكثر من ألف درجة مئوية) لا تستطيع أن تبخر هذا الماء بالكامل , وأن هذا الاتزان الدقيق بين الأضداد من الماء والحرارة العالية هو من أكثر ظواهر الأرض إبهارا للعلماء في زماننا , وهي حقيقة لم يتمكن الإنسان من اكتشافها إلا في أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن العشرين .

ومن الغريب أن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) ـ هذا النبي الأمي الذي لم يركب البحر في حياته الشريفة مرة واحدة , فضلا عن الغوص إلي أعماق البحار ـ قال في حديث شريف أخرجه كل من الأئمة أبو داود في سننه , والبيهقي في سننه , وابن شيبة في مصنفه عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) ما نصه : لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز في سبيل الله , فإن تحت البحر نارا , وتحت النار بحرا (أبو داود البيهقي)

وجاء الحديث في مصنف ابن شيبة بالنص التالي : إن تحت البحر نارا , ثم ماء , ثم نارا

ويعجب الإنسان المتبصر لهذا السبق في كل من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة بالإشارة إلي حقيقة من حقائق الأرض التي لم يتوصل الإنسان إلي ادراكها إلا في نهايات القرن العشرين , هذا السبق الذي لا يمكن لعاقل أن يتصور له مصدرا غير الله

الخالق , الذي أنزل هذا القرآن الكريم بعلمه , علي خاتم أنبيائه ورسله , وعلم هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) من حقائق هذا الكون ما لم يكن لأحد من الخلق إلمام به قبل العقود الثلاثة المتأخرة من القرن العشرين , لكي تبقي هذه الومضات النورانية في كتاب الله , وفي سنة رسوله (صلي الله عليه وسلم) شهادات مادية ملموسة علي أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي حفظه (تعالي) علي مدي أربعة عشر قرنا أو يزيد , وإلي قيام الساعة بنفس لغة الوحي (اللغة العربية) كلمة كلمة , وحرفا حرفا في صفائه الرباني , واشراقاته النورانية , دون أدني تغيير أو تبديل أو تحريف , وأن هذا النبي الخاتم , والرسول الخاتم عليه أفضل الصلاة وأزكي التسليم) كان موصولا بالوحي , ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض . فسبحان الذي أنزل في محكم كتابه من قبل ألف وأربعمائة من السنين هذا القسم القرآني بالبحر المسجور , وسبحان الذي علم خاتم أنبيائه ورسله بهذه الحقيقة فقال قولته الصادقة إن تحت البحر نارا , وتحت النار بحرا وسبحان الذي أكد علي صدق القرآن الكريم , وعلي صدق هذا النبي الخاتم في كل ما رواه عن ربه . فأنزل في محكم كتابه قوله الحق :

لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفي بالله شهيدا *(النساء :166)

وقوله (سبحانه) مخاطبا خاتم أنبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) :

قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض انه كان غفورا رحيما *(الفرقان :6)

وقوله (عز من قائل) :

وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون *

(النمل :93)

وقوله (تعالي) :

ويري الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلي صراط العزيز الحميد

*(سبأ :6)

وقوله (سبحانه وتعالي) :

إن هو إلا ذكر للعالمين * ولتعلمن نبأه بعد حين *(

ص :88,87)

وقوله (تبارك وتعالي) :

. . . وانه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد *

(فصلت: 41 و 42)

وقوله (تبارك اسمه):

سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه علي كل شيء شهيد *

(فصلت: 53). انتهى انتهى. اهـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية.

بقلم الدكتور: زغلول النجار ﴾.

(59/729)

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (9) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (10) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أثبت وقوع العذاب ، تشوفت نفس الموقن إلى وقته ، قال مستأنفاً لبيان أنه واقع على تلك الصفة : ﴿ يوم تمور ﴾ أي تتحرك وتضطرب وتجيء وتذهب وتتكفأ تكفأ السفينة وتدور دوران الرحى ، ويموج بعضها في بعض ، وتختلف أجزاؤها بعضها في بعض ، ولا تزول عن مكان ؛ قال البغوي : والمور يجمع هذه المعاني فهو في اللغة الذهاب والمجيء والتردد والدوران والاضطراب ، قال الرازي : وقيل : تجيء وتذهب كالدخان ثم تضمحل .

﴿ السماء ﴾ التي هي سقف بيتكم الأرض ﴿ موراً ﴾ أي اضطراباً شديداً ﴿ وتسير الجبال ﴾ أي تنتقل من أمكنتها انتقال السحاب ، وحقق معناه بقوله : ﴿ سيراً ﴾ فتصير هباء منثوراً وتكون الأرض قاعاً صفصفاً .

(60/729)

ولما حقق العذاب وبين يومه ، بين أهله بقوله مسبباً عن ذلك : ﴿ فويل ﴾ هي كلمة يقولونها لمن وقع في الهلاك ، ومعناه حلول شر فاضح يكون فيه ندبة وتفجع ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم إذ

يكون ما تقدم ذكره ﴿ للمكذبين ﴾ أي العريقين في التكذيب وهم من مات على نسبة الصادقين إلى الكذب .

ولما كان التكذيب قد يكون في محله ، بين أن المراد تكذيب ما محله الصدق فقال : ﴿ الذين هم ﴾ أي من بين الناس بظواهرهم وبواطنهم ﴿ في خوض ﴾ أي أعمالهم وأقوالهم أعمال الخائض في ماء ، فهو لا يدري أين يضع رجله .

ولما كان ذلك قد يكون من دهشة بهم أو غم ، نفى ذلك بقوله : ﴿ يلعبون ﴾ فاجتمع عليهم أمران موجبان للباطل : الخوض واللعب ، فهم بحيث لا يكاد يقع لهم قول ولا فعل في موضعه ، فلا يؤسس على بيان أو حجة .

ولما صور تكذيبهم بأشنع صورة ، بين ويلهم ببيان ظرفه وما يفعل فيه فقال : ﴿ يوم يدّعون ﴾ أي يدفعون دفعاً عنيفاً بجفوة وغلظة من كل ما يقيمه الله لذلك ، ذاهبين ومنتهين ﴿ إلى نار جهنم ﴾ وهي الطبقة التي تلقاهم بالعبوسة والكراهة والغليظ والزفير ، وأكد المعنى وحققه بقوله : ﴿ دعاً ﴾ قال البغوي : وذلك أن خزنه جهنم يعلون أيديهم إلى أعناقهم ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم فم يدفعون دفعاً على وجوههم وزجاً في أقفيتهم ، مقولاً لهم تبكيتاً وتوبيخاً : ﴿ هذه النار ﴾ أي الجسم المحرق المفسد لما أتى عليه ، الشاغل عن اللعب ﴿ التي كنتم ﴾ بجبلاتكم الفاسدة .

ولما كان تكذيبهم بها في أقصى درجات التكذيب ، وكان سبباً لكل تكذيب ، كان كأنه

مقصور عليه فقال مقدماً للظرف إشارة إلى ذلك ، ﴿ بها تكذبون ﴾ أي في الدنيا على التجديد والاستمرار .

(61/729)

ولما كانوا يقولون عناداً : إن القرآن بما فيه من الوعيد سحر ، سبب عن ذلك الوعيد قوله مبكتاً موبخاً متهكماً : ﴿ أفسحر هذا ﴾ أي الذي أنتم فيه من العذاب مع هذا الإحراق الذي تصلون منه ﴿ أم أنتم ﴾ في منام ونحوه ﴿ لا تبصرون ﴾ بالقلوب كما كنتم تقولون في الدنيا ﴿ قلوبنا في أكنة ﴾ [فصلت : 5] ولا بالأعين كما كنتم تقولون للمذرين ﴿ من بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾ [فصلت : 5] أي أنتم عمي عن المخبر عنه مع إحراقه لهم كما كنتم عمياً عن الخبر أي هل تستطيعون أن تقولوا إنكم لا تبصرون المخبر عنه كما كنتم تقولون في الخبر كذباً وفجوراً ، ثم يقال لهم بعد هذا التبكيت الذي يقطع بأن جوابهم يكون بأن يقولوا : لا وعزة ربنا ما هو بسحر ولا خيال ، بل هو حقيقة ، ونحن في غاية الإبصار على سبيل الإخزاء ، والامتهان والإذلال : ﴿ اصلوها ﴾ أي باشروا حرها وقاسوه وواصلوه كما كنتم تواصلون أذى عبادي بما يحرق قلوبهم ﴿ فاصبروا ﴾ أي فيتسبب عن تكذيبكم في الدنيا ومباشرتكم لها الآن أن يقال لكم : اصبروا على هذا

الذي لا طاقة لكم به ﴿ أو لا تصبروا ﴾ فإنه لا محيص لكم عنها ﴿ سواء عليكم ﴾ أي الصبر والجزع.

ولما كان المعهود أن الصبر له مزية على الجزع، بين أن ذلك حيث لا تكون المصيبة إلا على وجه الجزاء الواجب وقوعه فقال معللاً: ﴿ إنما تجزون ﴾ أي يقع جزاؤكم الآن وفيما يأتي على الدوام ﴿ ما كنتم ﴾ أي دائماً بما هو لكم كالجبلة ﴿ تعملون ﴾ مع الأولياء غير مبالين بهم، فكان هذا ثمرة فعلكم بهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 295.

﴿ 296

(62/729)

فصل

قال الفخر:

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (9) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (10) ﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى:

ما الناصب ليوم؟ نقول المشهور أن ذلك هو الفعل الذي يدل عليه واقع أي يقع العذاب

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السماء مَوْراً ﴾ والذي أظنه أنه هو الفعل المدلول عليه بقوله ﴿ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور : 8] وإنما قلت ذلك لأن العذاب الواقع على هذا ينبغي أن يقع في ذلك اليوم ، لكن العذاب الذي به التخويف هو الذي بعد الحشر ، ومور السماء قبل الحشر ، وأما إذا قلنا معناه ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ يوم تمور فيكون في معنى قوله ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمانهم لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ [غافر : 85] كأنه تعالى يقول : ما له من دافع في ذلك اليوم وهو ما إذا صارت السماء تمور في أعينكم والجبال تسير ، وتتحققون أن الأمر لا ينفع شيئاً ولا يدفع .

المسألة الثانية :

(63/729)

ما مور السماء ؟ نقول خروجها عن مكانها تتردد وتموج ، والذي تقوله الفلاسفة قد علمت ضعفه مراراً وقوله تعالى : ﴿ وَتَسِيرُ الجبال سَيْراً ﴾ يدل على خلاف قولهم ، وذلك لأنهم وفقوا على أن خروج الجبل العظيم من مكانه جائز وكيف لا وهم يقولون بأن زلزلة الأرض مع ما فيها من الجبال ببخار يجتمع تحت الأرض فيحركها ، وإذا كان كذلك فنقول السماء قابلة للحركة بإخراجها خارجة عن السمتيات والجبل ساكن يقتضي طبعه السكون ، وإذا قبل جسم الحركة مع أنها على خلاف طبعه ، فلأن يقبلها جرم آخر مع أنها

على موافقته أولى ، وقولهم القابل للحركة المستديرة لا يقبل الحركة المستقيمة في غاية الضعف ، وقوله ﴿ مَوْراً ﴾ يفيد فائدة جليلة وهي أن قوله تعالى : ﴿ وَتَسِيرُ الجبال ﴾ يحتمل أن يكون بياناً لكيفية مور السماء ، وذلك لأن الجبال إذا سارت وسيرت معها سكانها يظهر أن السماء كالسيارة إلى خلاف تلك الجهة كما يشاهده راكب السفينة فإنه يرى الجبل الساكن متحركاً ، فكان لقائل أن يقول السماء تمور في رأي العين بسبب سير الجبال كما يرى القمر سائراً راكب السفينة ، والسماء إذا مارت كذلك فلا يبقى مهرب ولا مفزع لا في السماء ولا في الأرض .

المسألة الثالثة :

ما السبب في مورها وسيرها ؟ قلنا قدرة الله تعالى ، وأما الحكمة فالإيذان والإعلام بأن لا عود إلى الدنيا ، وذلك لأن الأرض والجبال والسماء والنجوم كلها لعمارة الدنيا والانتفاع لبني آدم بها ، فإن لم يتفق لهم عود لم يبق فيها نفع فأعدمها الله تعالى .

المسألة الرابعة :

لو قال قائل كنت وعدت ببحث في الزمان يستفيد العاقل منه فوائد في اللفظ والمعنى وهذا موضعه ، فإن الفعل لا يضاف إليه شيء غير الزمان فيقال يوم يخرج فلان وحين يدخل فلان ، وقال الله تعالى : ﴿ يَوْمُ يَنفَعُ الصادقين ﴾ [المائدة : 119] وقال : ﴿ وَيَوْمَ تَمُورُ السماء ﴾ وقال :

(64/729)

﴿ يَوْمَ خَلَقَ السموات والأرض ﴾ [التوبة : 36] وكذلك يضاف إلى الجملة فما السبب في ذلك ؟

(65/729)

فنقول الزمان ظرف الأفعال كما أن المكان ظرف الأعيان ، وكما أن جوهراً من الجواهر لا يوجد إلا في مكان ، فكذلك عرض من الأعراض لا يتجدد إلا في زمان ، وفيهما تحير خلق عظيم ، فقالوا إن كان المكان جوهراً فله مكان آخر ويتسلسل الأمر ، وإن كان عرضاً فالعرض لا بد له من جوهر ، والجوهر لا بد له من مكان فيدور الأمر أو يتسلسل ، وإن لم يكن جوهراً ولا عرضاً ، فالجوهر يكون حاصلاً فيما لا وجود له أو فيما لا إشارة إليه ، وليس كذلك ، وقالوا في الزمان إن كان الزمان غير متجدد فيكون كالأمور المستمرة فلا يثبت فيه المضي والاستقبال ، وإن كان متجدداً وكل متجدد فهو في زمان ، فللزمان زمان آخر فيتسلسل الأمر ، ثم إن الفلاسفة التزموا التسلسل في الأزمنة ، ووقعوا بسبب هذا في

القول بقدم العالم ولم يلتزموا التسلسل في الأمكنة وفرقوا بينهما من غير فارق وقوم التزموا التسلسل فيهما جميعاً ، وقالوا بالقدم وأزمان لا نهاية لها وبالامتداد وأبعاد لا نهاية لها ، وهم وإن خالفونا في المسألتين جميعاً والفلاسفة وافقونا في إحداهما دون الأخرى لكنهم سلكوا جادة الوهم ولم يتركوا على أنفسهم سبيل الالتزام في الأزمان ، فإن قيل فالمتجدد الأول قبله ماذا ؟ نقول ليس قبله شيء ، فإن قيل فعدمه قبله أو قبله عدمه ؟ نقول قولنا ليس قبله شيء أعم من قولك قبله عدمه ، لأنا إذا قلنا ليس قبل آدم حيوان بألف رأس ، صدقنا ولا يستلزم ذلك صدق قولنا آدم قبل حيوان بألف رأس أو حيوان بألف رأس بعد آدم ، لانتفاء ذلك الحيوان أولاً وآخراً وعدم دخوله في الوجود أزلاً وأبداً ، فكذلك ما قلنا ، فإن قيل هذا لا يصح ، لأن الله تعالى شيء موجود وهو قبل العالم ، نقول قولنا ليس قبل المتجدد الأول شيء معناه ليس قبله شيء بالزمان ، وأما الله تعالى فليس قبله بالزمان إذ كان الله ولا زمان ، والزمان وجد مع المتجدد الأول ، فإن قيل فما معنى وجود الله قبل كل شيء غيره ؟ نقول معناه كان

الله ولم يكن شيء غيره لا يقال ما ذكرتم إثبات شيء بشيء ولا يثبت ذلك الشيء إلا بما ترومون إثباته ، فإن بداية الزمان غرضكم وهو مبني على المتجدد الأول والنزاع في المتجدد ، فإن عند الخصم ليس في الوجود متجدد أول بل قبل كل متجدد ، لأنا نقول نحن ما ذكرنا ذلك دليلاً ، وإنما ذكرناه بياناً لعدم الإلزام ، وأنه لا يرد علينا شيء إذا قلنا بالحدوث ونهاية الأبعاد واللزم والإلزام ، فيسلم الكلام الأول ، ثم يلزم ويقول : ألست تقول إن لنا متجدداً أولاً فكذلك قل له عدم ، فنقول لا بل ليس قبله أمر بالزمان ، فيكون ذلك نفياً عاماً ، وإنما يكون ذلك لانتفاء الزمان ، كما ذكرنا في المثال ، إذا علمت هذا فصار الزمان تارة موجوداً مع عرض وأخرى موجوداً بعد عرض ، لأن يومنا هذا وغيره من الأيام كلها صارت متميزة بالمتجدد الأول ، والمتجدد الأول له زمان هو معه ، إذا عرفت أن الزمان والمكان أمرهما مشكل بالنسبة إلى بعض الأفهام والأمر الخفي يعرف بالوصف والإضافة ، فإنك إذا قلت غلام لم يعرف ، فإذا وصفته أو أضفته وقلت غلام صغير أو كبير ، وأبيض أو أسود قرب من الفهم ، وكذلك إذا قلت غلام زيد قرب ، ولم يكن بد من معرفة الزمان ، ولا يعرف الشيء إلا بما يختص به ، فإنك إذا قلت في الإنسان حيوان موجود بعدته عن الفهم ، وإذا قلت حيوان طويل القامة قربته منه ، ففي الزمان كان يجب أن يعرف بما يختص به لأن الفعل الماضي والمستقبل والحال يختص بأزمنة ، والمصدر له زمان مطلق ، فلو قلت زمان الخروج تميز عن زمان الدخول وغيره ، فإذا قلت يوم خرج أفاد ما أفاد قولك يوم الخروج مع

زيادة هو أنه تميز عن يوم يخرج والإضافة إلى ما هو أشد تمييزاً أولى ، كما أنك إذا قلت غلام رجل ميزته عن غلام امرأة ، وإذا قلت غلام زيد زدت عليه في الإفادة وكان أحسن ، كذلك قولنا يوم خرج لتعريف ذلك اليوم خير من قولك يوم الخروج ، فظهر من هذا البحث أن الزمان يضاف إلى الفعل وغيره لا

(67/729)

يضاف لاختصاص الفعل بالزمان دون غيره إلا المكان في قوله اجلس حيث يجلس ، فإن حيث يضاف إلى الجمل لمشابهة ظرف المكان لظرف الزمان ، وأما الجمل فهي إنما يصح بواسطة تضمنها الفعل ، فلا يقال يوم زيد أخوك ، ويقال يوم زيد فيه خارج.

ومن جملة الفوائد اللفظية أن لات يختص استعمالها بالزمان قال الله تعالى : ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ [ص : 3] ولا يقال لات الرجل سوء ، وذلك لأن الزمان تجدد بعد تجدد ولا يبقى بعد الفناء حياة أخرى وبعد كل حركة حركة أخرى وبعد كل زمان زمان وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : 29] أي قبل الخلق لم يخلق شيئاً ، لكنه بعد ما خلق فهو أبداً دائماً يخلق شيئاً بعد شيء فبعد حياتنا موت وبعد موتنا حياة وبعد حياتنا حساب وبعد الحساب ثواب دائم أو عقاب لازم ولا يترك الله الفعل

فلما بعد الزمان عن النفي زيد في الحروف النافية زيادة ، فإن قيل فالله تعالى أبعد عن الانتفاء فكان ينبغي أن لا تقرب التاء بكلمة لا هناك ، نقول ﴿ لات حِينَ مَنَاصٍ ﴾ تأويل وعليه لا يرد ما ذكرتم وهو أن لا هي المشبهة بليس تقديره ليس الحين حين مناص ، وهو المشهور ، ولذلك اختص بالحين دون اليوم والليل لأن الحين أدوم من الليل والنهار فالليل والنهار قد لا يكون والحين يكون .

فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12)

أي إذا علم أن عذاب الله واقع وأنه ليس له دافع فويل إذاً للمكذبين ، فالفاء لاتصال المعنى ، وهو الإيذان بأمان أهل الإيمان ، وذلك لأنه لما قال : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ [الطور : 7] لم يبين بأن موقعه بمن ، فلما قال : ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ علم المخصوص به وهو المكذب ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

إذا قلت بأن قوله ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بيان لمن يقع به العذاب وينزل عليه فمن لا يكذب لا يعذب ، فأهل الكبائر لا يعذبون لأنهم لا يكذبون ، نقول ذلك العذاب لا يقع على

أهل الكبائر وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُواْ بلى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ﴾ [الملك : 8 ، 9] فنقول المؤمن لا يلقى فيها إلقاء بهوان ، وإنما يدخل فيها ليظهر إدخال مع نوع إكرام ، فكذلك الويل للمكذبين ، والويل ينبىء عن الشدة وتركيب حروف الواو والياء واللام لا ينفك عن نوع شدة ، منه لوى إذا دفع ولوى يلوي إذا كان قوياً والولي فيه القوة على المولى عليه ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ [الطور : 13] فإن المكذب يدع والمصدق لا يدع ، وقد ذكرنا جواز التنكير في قوله ﴿ وَيْلٌ ﴾ مع كونه مبتدأ لأنه في تقدير المنصوب لأنه دعاء ومضى ، وجهه في قوله تعالى : ﴿ قَالَ سلام ﴾ [الذاريات : 25] والخوض نفسه خص في استعمال القرآن بالاندفاع في الأباطيل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَخُضْتُمْ كالذي خَاضُواْ ﴾ [التوبة : 69] وقال تعالى : ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخائضين ﴾ [المدثر : 45] وتنكير الخوض يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون للتكثير أي في خوض كامل عظيم ثانيهما : أن يكون التنوين تعويضاً عن المضاف إليه ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِلاًّ ﴾ [التوبة : 8] وقوله ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ ﴾ [هود : 111] و ﴿ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة : 251] .

والأصل في خوضهم المعروف منهم وقوله ﴿ الذين هُمْ فِى خَوْضٍ ﴾ ليس وصفاً للمكذبين بما يميزهم ، وإنما هو للذم كما أنك تقول الشيطان الرجيم ولا تريد فصله عن الشيطان الذي ليس برجيم بخلاف قولك أكرم الرجل العالم ، فالوصف بالرجيم للذم به لا للتعريف وتقول في المدح : الله الذي خلق ، والله العظيم للمدح لا للتمييز ولا للتعريف عن إله لم يخلق أو إله ليس بعظيم ، فإن الله واحد لا غير .

يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13)

فيه مباحث لفظية ومعنوية .

أما اللفظية ففيها مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ يوم ﴾ منصوب بماذا ؟ نقول الظاهر أنه منصوب بما بعده وهو ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ هذه النار ﴾ [الطور : 14] تقديره يوم يدعون يقال لهم هذه النار التي كنتم بها تكذبون ، ويحتمل غير هذا وهو أن يكون يوم بدلاً عن يوم في يومئذ تقريره فويل يومئذ للمكذبين ويوم يوعدون أي المكذبون وذلك أن قوله ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ [الطور : 11] معناه يوم يقع العذاب وذلك اليوم هو يوم يوعدون فيه إلى النار .

المسألة الثانية :

قوله ﴿ يَدْعُونَ إِلَى النار ﴾ يدل على هول نار جهنم ، لأن خزنتها لا يقربون منها وإنما

يدفعون أهلها إليها من بعيد ويلقونهم فيها وهم لا يقربونها .

المسألة الثالثة :

﴿ دَعًّا ﴾ مصدر ، وقد ذكرت فائدة ذكر المصادر وهي الإيذان بأن الدع دع معتبر يقال له دع ولا يقال فيه ليس بدع ، كما يقول القائل في الضرب الخفيف مستحقراً له : هذا ليس بضرب والعدو المهين : هذا ليس بعدو وفي غير المصادر ، والرجل الحقير ليس برجل إلا على قراءة من قرأ ﴿ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دُعَاء ﴾ فإن دعاء حينئذ يكون منصوباً على الحال تقديره يقال لهم هلموا إلى النار مدعوين إليها .

(70/729)

أما المعنوية فنقول قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ يدل على أن خزنتها يقذفونهم فيها وهم بعداء عنها ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النار ﴾ [القمر : 48] نقول الجواب عنه من وجوه أحدها : أن الملائكة يسحبونهم في النار ثم إذا قربوا من نار مخصوصة هي نار جهنم يقذفونهم فيها من بعيد فيكون السحب في النار والدفع في نار أشد وأقوى ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ يُسْحَبُونَ فِى الحميم ثُمَّ فِى النار يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر : 71 ، 72] أي يكون لهم سحب في حموة النار ثم بعد ذلك يكون لهم إدخال الثاني

: جاز أن يكون في كل زمان يتولى أمرهم ملائكة ، فإلى النار يدفعهم ملك وفي النار يسحبهم آخر .

الثالث : جاز أن يكون السحب بسلاسل يسحبون في النار والساحب خارج النار .

الرابع : يحتمل أن يكون الملائكة يدفعون أهل النار إلى النار إهانة واستخفافاً بهم ، ثم يدخلون معهم النار ويسحبونهم فيها .

هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14)

على تقدير يقال .

أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15)

تحقيقاً للأمر ، وذلك لأن من يرى شيئاً ولا يكون الأمر على ما يراه ، فذلك الخطأ يكون لأجل أحد أمرين إما لأمر عائد إلى المرئي وإما لأمر عائد إلى الرائي فقوله ﴿ أَفَسِحْرٌ هذا ﴾ أي هل في المرئي شك أم هل في بصركم خلل ؟ استفهام إنكار ، أي لا واحد منها ثابت ، فالذي ترونه حق وقد كنتم تقولون إنه ليس بحق ، وإنما قال : ﴿ أَفَسِحْرٌ ﴾ وذلك أنهم كانوا ينسبون المرئيات إلى السحر فكانوا يقولون بأن انشقاق القمر وأمثاله سحر وفي ذلك اليوم لما تعلق بهم مع البصر الألم المدرك بحس اللمس وبلغ الإيلام الغاية لم يمكنهم أن يقولوا هذا سحر ، وإلا لما صح منهم طلب الخلاص من النار .

اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16)

أي إذا لم يمكنكم إنكارها وتحقق أنه ليس بسحر ولا خلل في أبصاركم فاصلوها .

وقوله تعالى : ﴿ فاصبروا أَوْ لاَ تَصْبِرُواْ ﴾ فيه فائدتان إحداهما : بيان عدم الخلاص وانتفاء المناص فإن من لا يصبر يدفع الشيء عن نفسه إما بأن يدفع المعذب فيمنعه وإما بأن يغضبه فيقتله ويريحه ولا شيء من ذلك يفيد في عذاب الآخرة فإن من لا يغلب المعذب فيدفعه ولا يتلخص بالإعدام فإنه لا يقضي عليه فيموت ، فإذن الصبر كعدمه ، لأن من يصبر يدوم فيه ، ومن لا يصبر يدوم فيه الثانية : بيان ما يتفاوت به عذاب الآخرة عن عذاب الدنيا ، فإن المعذب في الدنيا إن صبر ربما انتفع بالصبر إما بالجزاء في الآخرة ، وإما بالحمد في الدنيا ، فيقال له ما أشجعه وما أقوى قلبه ، وإن جزع يذم ، فيقال يجزع كالصبيان والنسوان ، وأما في الآخرة لا مدح ولا ثواب على الصبر ، وقوله تعالى : ﴿ سَوَاء عَلَيْكُمْ ﴾ ﴿ سَوَآء ﴾ خبر ، ومبتدأه مدلول عليه بقوله ﴿ فاصبروا أَوْ لاَ تَصْبِرُواْ ﴾ كأنه يقول : الصبر وعدمه سواء ، فإن قيل يلزم الزيادة في التعذيب ، ويلزم التعذيب على المنوي الذي لم يفعله ، نقول فيه لطيفة ، وهي أن المؤمن بإيمانه استفاد أن الخير الذي ينويه يثاب عليه ، والشر الذي ينويه ولا يحققه لا يعاقب عليه ، والكافر بكفره صار على الضد ، فالخير الذي

ينويه ولا يعمله لا يثاب عليه ، والشر الذي يقصده ولا يقع منه يعاقب عليه ولا ظلم ، فإن الله تعالى أخبره به ، وهو اختار ذلك ودخل فيه باختياره ، كأن الله تعالى قال : فإن من كفر ومات كافراً أعذبه أبداً فاحذروا ، ومن آمن أثيبه دائماً ، فمن ارتكب الكفر ودام عليه بعد ما سمع ذلك ، فإذا عاقبه المعاقب دائماً تحقيقاً لما أوعده به لا يكون ظالماً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 208.213 ﴾

(72/729)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) ﴾

هذه مخلوقات أقسم الله بها تنبيهاً منها وتشريفاً ، وليكون ذلك سبب النظر فيها والاعتبار بها ، وذلك يؤول إلى التوحيد والمعرفة بحقوق الله .

﴿ والطور ﴾ قال بعض أهل اللغة : كل جبل : طور ، فكأنه أقسم بالجبال ، إذ هو اسم جنس وقال آخرون : " الطور " كل جبل أجرد لا ينبت شجراً . وقال مجاهد في كتاب الطبري : " الطور " الجبل بالسريانية ، وهذا ضعيف ، لأن ما حكاه في العربية يقضي على هذا ، ولا خلاف أن في الشام جبلاً يسمى ب " الطور " ، وهو طور سيناء . وقال نوف

البكالي : إنه الذي أقسم الله به لفضله على الجبال . إذ قد روي أن الله تعالى أوحى إلى الجبال إني مهبط على أحدكم أمري . يريد رسالة موسى عليه السلام ، فتطاولت كلها إلا الطور فإنه استكان لأمر الله وقال حسبي الله ، فأهبط الله الأمر عليه . ويقال إنه بمدين . وقال مقاتل بن حيان هما طوران . والكتاب المسطور : معناه بإجماع : المكتوب أسطاراً .

واختلف الناس في هذا المكتوب المقسم به ، فقال بعض المفسرين : هو الكتاب المنتسخ من اللوح المحفوظ للملائكة لتعرف منه ما تفعله وتصرفه في العالم .

وقال آخرون : بل أقسم الله تعالى بالقرآن ، فإنه قد كان علم أنه يتخلد ﴿ في رق منشور ﴾ .

وقال آخرون : أقسم بالكتب القديمة المنزلة : الإنجيل والتوراة والزبور . وقال الفراء فيما حكى الرماني : أقسم بالصحف التي تعطى وتؤخذ يوم القيامة بالأيمان والشمائل . وقال قوم : أقسم بالكتاب الذي فيه أعمال الخلق ، وهو الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وكتب بعض الناس ، " مصطوراً " بالصاد . والقصد بذلك تشابه النطق بالحروف ، والجمهور على السين . والرق : الورق المعدة للكتب وهي مرققة فلذلك سميت رقاً ، وقد غلب الاستعمال على هذا الذي هو من جلود الحيوان . والمنثور : خلاف المطوي ، وقد يحتمل أن يكون نشره بمعنى بشره وترقيقه وصنعته . وقرأ أبو السمال : " في رِق " بكسر الراء .

واختلف الناس في ﴿ البيت المعمور ﴾ فقال الحسن بن أبي الحسن البصري : هي الكعبة . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عباس وعكرمة : هو بيت في السماء يقال له الضراح ، وهو بحيال الكعبة ، ويقال الضريح ، ذكر ذلك الطبري وهو الذي ذكر في حديث الإسراء . قال جبريل عليه السلام : هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم وبهذا عمارته . ويروى أنه في السماء السابعة . وقيل في السادسة وقيل إنه مقابل الكعبة لو خر لسقط عليها . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : في كل سماء بيت معمور ، وفي كل أرض كذلك . وهي كلها على خط مع الكعبة . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ﴿ والسقف المرفوع ﴾ : السماء ﴿ والسقف ﴾ طول في انحناء ، ومنه أسقف النصارى ، ومنه السقف ، لأن الجدار وسقفه فيهما طول في انحناء .

واختلف الناس في معنى : ﴿ المسجور ﴾ فقال مجاهد وشمر بن عطية معناه : الموقد

ناراً . وروي أن البحر هو جهنم . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليهودي : أين جهنم ؟ فقال هي البحر ، فقال علي : ما أظنه إلا صادقاً ، وقرأ : ﴿ والبحر المسجور ﴾ ، ومنه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن البحر طبق جهنم " . قال الثعلبي : وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يركبن البحر إلا حاج أو معتمر أو مجاهد فإن تحت البحر ناراً " .

(74/729)

وفي حديث آخر : " فإن البحر نار في نار " . وقال قتادة : ﴿ المسجور ﴾ المملوء . وهذا معروف في اللغة . ورجحه الطبري بوجود نار البحر كذلك ، وإلى هذا يعود القول الأول لأن قولهم : سجرت التنور معناه : ملأتها بما يحترق ويتقد و : ﴿ البحر المسجور ﴾ المملوء ماء ، وهكذا هو معرض للعبرة ، ومن هذا قول النمر بن تولب : [المتقارب]

إذا شاء طالع مسجورة . . . ترى حولها النبع والسماسما

سقتها رواعد من صي . . . ف وإن من خريف فلن يعدما

يصف ثوراً أو عيناً مملوءة ماء ، وقال ابن عباس : هو الذي ذهب ماؤه ف ﴿ المسجور ﴾ : الفارغ ، ويروى أن البحار يذهب ماؤها يوم القيامة وقيل يوقد البحر ناراً يوم القيامة

فذلك هو سجره . وقال ابن عباس أيضاً : ﴿ المسجور ﴾ : المحبوس ، ومنه ساجور الكلب : وهو القلادة من عود أو حديد التي تمسكه ، وكذلك لولا أن البحر يمسك لفاض على الأرض . وقال علي بن أبي طالب أيضاً وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما : البحر المقسم به هو في السماء تحت العرش ، والجمهور على أنه بحر الدنيا ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ [التكوير : 6] .

وقال منذر بن سعيد : إن المعنى هو القسم بجهنم وسماها بحراً لسعتها وتموجها كما قال صلى الله عليه وسلم في الفرس : " وإن وجدناه لبحر " والقسم واقع على قوله : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ ويريد عذاب الآخرة للكفار . قال قتادة : والعامل في : ﴿ يوم ﴾ " واقع " ويجوز أن يكون العامل فيه ﴿ دافع ﴾ ، والأول أبين . وقال مكي : لا يعمل فيه ﴿ دافع ﴾ . و : ﴿ تمور ﴾ معناه : تذهب وتجيء بالرياح متقطعة متفتتة ، والغبار الموار : الذي يجتمع ويذهب ويجيء بالريح ، ثم هو كله إلى الذهاب ، ومنه قول الأعرابي :

وغادرت التراب مورا . . . يصف سنة قحط . وأنشد معمر بن المثنى بيت الأعشى : [البسيط]

مور السحابة لا ريث ولا عجل . . . أراد مضيها ، وقال الضحاك : ﴿ تمور ﴾ تموج . وقال مجاهد : تدور . وقال ابن عباس : تشقق ، وهذه كلها تفاسير بالمعنى ، لأن السماء العلو يعتريها هذا كله ، وسير الجبال هو في أول الأمر ، ثم تتفتت أثناء السير حتى تصير آخراً كالعهن المنفوش والفاء في قوله : ﴿ فويل ﴾ عاطفة جملة على جملة وهي تتضمن ربط المعنى وتأكيده وإثبات الويل للمكذبين .

والويل : السوء والمشقة والهم الأطول ، ويروى أن في جهنم وادياً يسمى : ويلاً والخوض التخبط في الأباطيل ، يشبه بخوض الماء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ﴾ [الأنعام : 68] و: ﴿ يوم ﴾ الثاني بدل من : ﴿ يومئذ ﴾ و: ﴿ يدعون ﴾ قال ابن عباس معناه : يدفعون في أعناقهم بشدة وإهانة وتعتعة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يدع اليتيم ﴾ [الماعون : 2] وفي الكلام محذوف مختصر تقديره : يقال لهم هذه النار ، وإخبارهم بهذا على جهة التوبيخ والتقريع وقرأ أبو رجاء العطاردي : " يوم يدْعَون إلى نار جهنم " من الدعاء بسكون الدال وفتح العين .

أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15)

لما قيل لهم هذه النار ، وقفوا بعد ذلك على الجهتين التي يمكن منها دخول الشك في أنها النار وهي إما أن يكون ثم سحر يلبس ذات المرء ، وإما أن يكون في بصر النظر اختلال ، وأمرهم بصليها على جهة التقريع ، ثم قيل لهم على جهة قطع رجائهم : ﴿ اصبروا أو لا تصبروا

سواء عليكم ﴾ أي عذابكم حتم ، فسواء جزعكم وصبركم لا بد من جزاء أعمالكم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(76/729)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السماء مَوْراً ﴾

العامل في يوم قوله : "وَاقِعٌ" أي يقع العذاب بهم يوم القيامة وهو اليوم الذي تمور فيه السماء .

قال أهل اللغة : مار الشيءُ يَمور مَوْراً ، أي تحرّك وجاء وذهب كما تَتَكَفَّأ النخلةُ العَيْدانة ، أي الطويلة ، والتَّمور مثله .

وقال الضحاك : يموج بعضها في بعض .

مجاهد : تدور دوراً .

أبو عبيدة والأخفش : تكفأ ، وأنشد للأعشى :

كأنّ مِشْيَتَها مِن بيتِ جارتِهَا . . .

مَوْرُ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

وقيل تجري جرياً .

ومنه قول جرير :

وما زالتِ القَتْلَى تَمُورُ دِماؤُهَا . . .

بِدجلةَ حتَّى ماءُ دجلةَ أَشْكَلُ

وقال ابن عباس : تمور السماء يومئذ بما فيها وتضطرب .

وقيل : يدور أهلها فيها ويموج بعضهم في بعض .

والمور أيضاً الطريق .

ومنه قول طَرفة :

. . .

فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ . . .

والْمَوْرُ الموج .

وناقة مَوَّارة اليد أي سريعة .

والبعير يمور عضداه إذا ترددا في عَرْض جنبه ، قال الشاعر :

على ظَهْرِ مَوَّارِ المِلاَطِ حِصَانِ . . .

المِلاط الجنب .

وقولهم : لا أدري أغارَ أم مَارَ ؛ أي أتى غوراً أم دار فرجع إلى نجد .

والمُور بالضم الغبار بالريح .

وقيل : إن السماء هاهنا الفلك وموره اضطراب نظمه واختلاف سيره ؛ قاله ابن بحر .

﴿ وَتَسِيرُ الجبال سَيْراً ﴾ قال مقاتل : تسير عن أماكنها حتى تستوي بالأرض .

وقيل : تسير كسير السحاب اليوم في الدنيا ؛ بيانه ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل : 88] .

وقد مضى هذا المعنى في "الكهف" .

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ "وَيْلٌ" كلمة تقال للهالك ، وإنما دخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة .

﴿ الذين هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أي في تردد في الباطل ، وهو خوضهم في أمر محمد بالتكذيب .

وقيل : في خوض في أسباب الدنيا يلعبون لا يذكرون حساباً ولا جزاء .

(77/729)

وقد مضى في "براءة" .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ "يَوْمَ" بدل من يومئذ .

و "يُدَعُّونَ" معناه يدفعون إلى جهنم بشدّة وعنف ، يقال : دَعَعْتُه أدعُّه دعًّا أي دفعته ،

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَذَلِكَ الذي يَدُعُّ اليتيم ﴾ [الماعون : 2] .

وفي التفسير : إن خزنة جهنم يَغلُّون أيديهم إلى أعناقهم ، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ، ثم يدفعونهم في النار دفعاً على وجوههم ، وزَخّاً في أعناقهم حتى يردوا النار .

وقرأ أبو رجاء العطاردي وابن السَّمَيْقَع "يَوْمَ يُدعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً" بالتخفيف من الدعاء فإذا دنوا من النار قالت لهم الخزنة : ﴿ هذه النار التي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ أَفَسِحْرٌ هذا ﴾ استفهام معناه التوبيخ والتقريع ؛ أي يقال لهم : "أَفَسِحْرٌ هَذَا" الذي ترون الآن بأعينكم ﴿ أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ .

وقيل : "أَمْ" بمعنى بل ؛ أي بل كنتم لا تبصرون في الدنيا ولا تعقلون .

قوله تعالى : ﴿ اصلوها ﴾ أي تقول لهم الخزنة ذوقوا حرّها بالدخول فيها .

﴿ فاصبروا أَوْ لاَ تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي سواء كان لكم فيها صبر أو لم يكن ف"سواء" خبره محذوف ، أي سواء عليكم الجزع والصبر فلا ينفعكم شيء ، كما أخبر عنهم أنهم يقولون : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا ﴾ [إبراهيم : 21] .

﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ والطور ﴾

الطُّورُ بالسُّريانية الجبلُ والمرادُ بهِ طورُ سينينَ وهُو جبلٌ بمدينَ سمعَ فيهِ مُوسى عليهِ السَّلامُ كلامَ الله تعالَى ﴿ وكتاب مُّسْطُورٍ ﴾ مكتوبٍ على وَجْهِ الانتظامِ فإنَّ السطرَ ترتيبُ الحروفِ المكتوبةِ والمرادُ بهِ القرآنُ أوْ ألواحُ مُوسى عليهِ السَّلامُ وهُو الأنسبُ بالطُّورِ أو مَا يكتبُ في اللوحِ أو ما يكتبُهُ الحفظةُ ﴿ فِى رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴾ الرقُّ الجلدُ الذي يكتبُ فيه استعيرَ لما يكتبُ فيهِ الكتابُ منَ الصحيفةِ ، وتنكيرُهُمَا للتفخيمِ أوْ للإشعارِ بأنَّهما ليسَا مما يتعارفُه النَّاسُ ﴿ والبيت المعمور ﴾ أي الكعبةِ وعمارتُها بالحُجَّاجِ والعُمَّارِ والمجاورينَ أو الضراحُ وهوَ في السماءِ الرابعةِ وعُمرانُه كثرةُ غاشيتِه منَ الملائكةِ ﴿ والسقف المرفوع ﴾ أي السماءِ ولاَ يَخفَى حسنُ موقعِ العُنوانِ المذكورِ ﴿ والبحر المسجور ﴾ أي المملوءِ وهُو البحرُ المحيطُ أو الموقدُ منْ قولِه تعالَى : ﴿ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ﴾ فالمرادُ بهِ الجنسُ رُوي أنَّ الله تعالَى يجعلُ البحارَ يومَ القيامةِ نَاراً يسجرُ بها نارَ جهنمَ .

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ أَيْ لنازلٌ حَتْماً جَوابٌ للقسمِ وَقولُه تعالَى : ﴿ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ إِمَّا خبرٌ ثانٍ لأنَّ أَوْ صفةٌ لواقع وَمِنْ دافعٍ إمَّا مبتدأٌ للظرفِ أوْ مرتفعٌ بهِ عَلى الفاعليةِ ومنْ مزيدةٌ للتأكيدِ . وتخصيصُ هذهِ الأمورِ بالإقسامِ بها لِمَا أنَّها أُمورٌ عظِامٌ تنبىءُ عنْ

عِظمِ قدرةِ الله تعالَى وكمالِ علمِهِ وحكمتِه الدالَّةِ عَلى إحاطتِه تعالَى بتفاصيلِ أعمالِ العبادِ وضبطِها الشاهدةِ بصدقِ أخبارِه التي مْن جُملتِها الجملةُ المقسمُ عَليها .

(79/729)

وقولُه تعالَى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السماء مَوْراً ﴾ ظرفٌ لواقعٌ مبينٌ لكيفيةِ الوقوعِ منبىءٌ عنْ كمالِ هولِه وفظاعتِه ، والمَوْرُ الاضطرابُ والترددُ في المجيءِ والذهابِ وقيلَ هُو تحركٌ في تموجٍ قيلَ تدورُ السماءُ كما تدورُ الرَّحَا وتتكّفأُ بأهلِها تكفؤَ السفينةِ وقيلَ تختلفُ أجزاؤُها ﴿ وَتَسِيرُ الجبال سَيْراً ﴾ أيْ تزولُ عن وَجْه الأرضِ فتصيرُ هباءً ، وتأكيدُ الفعلينِ بمصدريهما للإيذانِ بغرابتِهما وخروجِهما عنِ الحدودِ المعهودةِ أيْ موراً عجيباً وسيراً بديعاً لا يُدركُ كُنْهُهما .

(80/729)

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أيْ إذَا وقعَ ذلكَ أوْ إذَا كانَ الأمرُ كَما ذكرَ فويلٌ يومَ إذْ يقعُ ذلكَ لَهُم ﴿ الذين هُمْ فِى خَوْضٍ ﴾ أي اندفاعٍ عجيبٍ في الأباطيلِ والأكاذيبِ ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾

يلهُون ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ أيْ يدفعونَ إليَها دفعاً عنيفاً شديداً بأَنْ تغلَّ أيديهمْ إلى أعناقِهم وتجمعَ نواصيهم إلى أقدامِهم فيدُفعُوا إلى النارِ وقُرِىءَ يُدْعَوْنَ منَ الدُّعاءِ فيكونُ دعًّا حالاً بمَعْنى مدعوعينَ . ويومَ إمَّا بدلٌ منْ يومَ تمورُ أَوْ ظرفٌ لقولٍ مقدرٍ قبلَ قولِه تعالَى : ﴿ هذه النار التى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أيْ يُقالُ لَهُم ذلكَ ومَعنْى التكذيبِ بَها تكذيبُهم بالوحِي الناطقِ بَها وقولُه تعالَى : ﴿ أَفَسِحْرٌ هذا ﴾ توبيخٌ وتقريعٌ لَهُم حيثُ كانُوا يسمُّونَهُ سِحْراً كأَنَّه قيلَ كُنتم تقولونَ للقرآنِ الناطقِ بهذا سحرٌ فهَذا أَيضاً سحرٌ . وتقديمُ الخبرِ لأَنَّه محطُّ الإنكارِ ومدارُ التوبيخِ ﴿ أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ أيْ أَمْ أنتُم عُمْيٌ عنِ المُخبَرِ عَنْه كما كُنتم عمياً عن الخبرِ ، أو أَمْ سُدَّتْ أبصارُكم كما سُدَّتْ في الدُّنيا على زعمِكم حيثُ كُنْتم تقولونَ ﴿ إنَّما سكّرتْ أبصارُنَا بَلْ نحنُ قومٌ مسحورونَ ﴾ ﴿ اصلوها فاصبروا أَوْ لاَ تَصْبِرُواْ ﴾ أي ادْخلُوهَا وقاسُوا شدائدَهَا فافعلُوا ما شِئْتُم منَ الصَّبرِ وعدمِه ﴿ سَوَاء عَلَيْكُمْ ﴾ أي الأمرانِ في عدمِ النفعِ لاَ بدفعِ العذابِ ولا بتخفيفِهِ وقولُه تعالَى : ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تعليلٌ للاستواءِ فإنَّ الجزاءَ حيثُ كانَ واجبَ الوقوعِ حتماً كانَ الصبرُ وعدمُه سواءً في عَدمِ النَّفعِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السماء مَوْراً ﴾

منصوب على الظرفية وناصبه ﴿ وَاقِعٍ ﴾ أو ﴿ دَافِعٍ ﴾ أو معنى النفي وإيهام أنه لا ينتفي دفعه في غير ذلك اليوم بناءاً على اعتبار المفهوم لا ضير فيه لعدم مخالفته للواقع لأنه تعالى أمهلهم في الدنيا وما أهملهم ، ومنع مكي أن يعمل فيه ﴿ وَاقِعٍ ﴾ ولم يذكر دليل المنع ولا دليل له فيما يظهر ، ومعنى ﴿ تَمُورُ ﴾ تضطرب كما قال ابن عباس أن ترتج وهي في مكانها ، وفي رواية عنه تشقق ، وقال مجاهد : تدور ، وأصل المور التردد في المجيء والذهاب ، وقيل : التحرك في تموج ، وقيل : الجريان السريع ، ويقال للجري مطلقاً وأنشدوا للأعشى

: كأن مشيتها من بيت جارتها . . .

(مور السحابة لا ريث ولا عجل)

﴿ وَتَسِيرُ الجبال سَيْراً ﴾ عن وجه الأرض فتكون هباءاً منبثاً ، والإتيان بالمصدرين للإيذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة أي موراً عجيباً وسيراً بديعاً لا يدرك كنههما .

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي إذا وقع ذلك أو إذا كان الأمر كما ذكر فويل يوم إذ يقع ذلك ﴿

لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

﴿ الذين هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أي في اندفاع عجيب في الأباطيل والأكاذيب يلهون ، وأصل الخوف المشي في الماء ثم تجوز فيه عن الشروع في كل شيء وغلب في الخوض في الباطل كالإحضار عام في كل شيء ثم غلب استعماله في الإحضار للعذاب .

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ أي يدفعون دفعاً عنيفاً شديداً بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم فيدفعون إلى النار ويطرحون فيها ، وقرأ زيد بن علي .

والسلمي .

وأبو رجاء ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ بسكون الدار وفتح العين من الدعاء فيكون ﴿ دَعًّا ﴾ حالاً أي ينادون إليها مدعوعين و ﴿ يَوْمٍ ﴾ إما بدل من ﴿ يوم تَمُورُ ﴾ [الطور : 9] أو ظرف لقول مقدر محكي به قوله تعالى :

﴿ هذه النار التى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أي فيقال لهم ذلك ﴿ يَوْمٍ ﴾ الخ ، ومعنى التكذيب بها تكذيبهم بالوحي الناطق بها ، وقوله تعالى :

﴿ أَفَسِحْرٌ هذا ﴾ توبيخ وتقريع لهم حيث كانوا يسمونه سحراً كأنه قيل : كنتم تقولون للوحي الذي أنذركم بهذا سحراً أفهذا المصدق له سحر أيضاً وتقديم الخبر لأنه المقصود بالإنكار والمدار للتوبيخ .

﴿ أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ أي أم أنتم عمي عن المخبر به كما كنتم في الدنيا عمياً عن الخبر والفاء مؤذنة بما ذكر وذلك لأنها لما كانت تقتضي معطوفاً عليه يصح ترتب الجملة أعني سحر هذا عليه وكانت هذه جملة واردة تقريعاً مثل ﴿ هذه النار ﴾ [الطور : 14] الخ لم يكن بد من تقدير ذلك على وجه يصح الترتب ويكون مدلولاً عليه من السياق فقدّر كنتم تقولون إلى آخره ، ودل عليه قوله تعالى : ﴿ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ [الطور : 14] وقوله سبحانه : ﴿ هذه النار التى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور : 12] وفي "الكشف" إن هذا نظير ما تستدل بحجة فيقول الخصم : هذا باطل فتأتى بحجة أوضح من الأول مسكتة وتقول : أفباطل هذا ؟! تعيره بالإلزام بأن مقالته الأولى كانت باطلة ، وفي مثله جاز أن يقدر القول على معنى أفتقول باطل هذا وأن لا يقدر لابتنائه على كلام الخصم وهذا أبلغ ، و ﴿ أَمْ ﴾ كما هو الظاهر منقطعة ، وفي "البحر" لما قيل لهم : هذه النار وقفوا على الجهتين اللتين يمكن منهما دخول الشك في أنها النار وهي إما أن يكون ثمّ سحر يلبس ذات المرأى ، وإما أن يكون في ناظر الناظر اختلال ، والظاهر أنه جعل ﴿ أَمْ ﴾ معادلة والأول أبعد مغزى .

﴿ سَوَاء عَلَيْكُمْ ﴾ أي الأمران سواء عليكم في عدم النفع إذ كل لا يدفع العذاب ولا يخففه فسواء خبر مبتدأ محذوف وصح الإخبار به عن المثنى لأنه مصدر في الأصل ، وجوز كونه مبتدأ محذوف الخبر وليس بذاك ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تعليل للاستواء فإن الجزاء حيث كان متحتم الوقوع لسبق الوعيد به وقضائه سبحانه إياه بمقتضى عدله كان الصبر ودمه مستويين في عدم النفع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(84/729)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

وقوله تعالى : « يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً ، وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً »

هو بيان لما يقع فى هذا اليوم من أحداث تتغير بها معالم الوجود . « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ » (48 : إبراهيم) . .

[هذا الانقلاب فى عوالم الوجود يوم القيامة . . ما تأويله ؟] وهذا الذي يحدث من

تغيّرات فى معالم الوجود يوم القيامة ، هو - والله أعلم - نتيجة لتغير مدركات الناس ، فى هذا اليوم ، بانتقالهم من عالم

(85/729)

المادة إلى عالم الروح ، الأمر الذي يرى فيه الناس بأرواحهم المطلقة من قيد المادة ، ما لم يكونوا يرونه فى الحياة الدنيا . .

وهذا يعنى أن اختلاف الرؤية للأشياء من حيث مطالعها ، ومن حيث الحواسّ والمشاعر المتعاملة معها ، والمتلقّية لها - هو الذي يرى الإنسان هذه التغيّرات التي يراها فى نظام الوجود . . تماما ، كما يرى الإنسان الأشياء من خلال مجهر ، أو من خلال منشور زجاجى ، أو جسم شفاف ملون . .

أو مرآة محدبة أو مقعرة . . ونحو هذا . . إنه يراها فى كل مرة على صورة مخالفة لما كان يراها عليه من قبل بعينيه المجردتين ، وعلى صورة مباينة أيضا لما يراها عليه من خلال أي شىء من تلك الأشياء . . وهى هى لم تتغير ولم تتبدل ، وإن بدت أنها متغيرة متبدلة . .

والذي يقول به بعض الحكماء والفلاسفة ، من أن الموجودات ، لا وجود لها فى حقيقتها ، وإنما هى موجودة بفعل حواسنا ، وأنه لولا هذه الحواس ، لما كان لها وجود . . ويضربون

لهذا أمثلة ، بأن فاقد البصر أصلا ينكر وجود النور ، كما أن فاقد حاسّة الشمّ يغيب من عالمه عالم المشمومات . . وقلّ مثل هذا فى بقية الحواس ، من اللمس والذوق ، والسمع . نقول إن هذا الذي يقول به بعض الحكماء والفلاسفة ، يشير إلى شىء من هذا الذي نتحدث عنه من أن الاختلاف الذي يقع فى حواسنا للموجودات ، بين ما نراه منها فى الدنيا ، وما نراه منها فى الآخرة هو من عمل حواسنا ، وإن كنا نخالفهم فيما يذهبون إليه من إنكار الموجودات أصلا . . فإن إنكار هذه الموجودات يستلزم - تبعا لهذا - إنكار وجودهم هم أنفسهم ، وإنكار هذه المقررات التي يقررونها . . فإن فقد العضو أو فقد وظيفته لا يستتبع فقد

(86/729)

الوجود الخارجي للموجودات ، التي كان من شأن العضو أن يتعامل معها ، كما أن فقد الميت إحساسه بوجوده ، لا ينفى أنه موجود بجسمه الذي يراه الأحياء المحيطون به . . وأحقّ من هذا ، وأقرب إلى الصواب ، أن يقال إن الأشياء هى التي تحقق للحواس والمدركات وجودها ، لا أن الحواس والمدركات هى التي توجد الموجودات التي تتعامل معها . .

ونعود إلى الحديث عما يقع يوم القيامة ، من انقلاب فى عالم الموجودات . .

أهذا الانقلاب واقع حقيقة ، أم هو من عمل الحواس الجديدة التي يعيش بها الإنسان فى العالم الآخر ؟ . .

يتحدث القرآن الكريم فى أكثر من موضع ، عن انفطار السماء ، وانتثار الكواكب ، وانطماس النجوم ، وانكدارها ، وتفجّر البحار ، ودكّ الأرض والجبال ، إلى غير ذلك مما يحدّث عن هذا الانقلاب الشامل الهائل الذي يغير معالم الأرض والسماء جميعا . .

فيقول سبحانه وتعالى . .

« إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ » (1 ـ 5 : الانفطار) ويقول جل شأنه : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ » (1 ـ 3 : التكوير) ويقول سبحانه : « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ » (4 ـ 5 : القارعة) ويقول سبحانه : « يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ »

(8 ـ 9 : المعارج) ويقول جل شأنه : « يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً » (18 ـ 20 : النبأ) . . ويقول سبحانه : « فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ وَإِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ » (8 ـ 10 : المرسلات) ويقول سبحانه : « فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ » (7 ـ 10 : القيامة) ويقول سبحانه : « فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ » (13 ـ 16 : الحاقة) . .

والذي ينظر فى هذه الآيات الكريمة ، يجد أنها تتحدث عن عوالم ثلاثة ، يقع عليها التغيير والتبديل من أحداث القيامة . .

العالم العلوىّ ، والعالم الأرضى ، والعالم الإنسانىّ . .

ففى العالم العلوىّ : تنفطر السماء ، وتنتثر الكواكب ، وتتكور الشمس ، وتنكدر النجوم ، وتنفرج السماء ، وتتشقق ، ويخسف القمر ، ويجمع الشمس والقمر . .

وفى العالم الأرضى : تنفجر البحار ، وتسيّر الجبال ، وتكون كالعهن المنفوش ، وتنسف نسفا ، وتدكّ دكا . .

وفى عالم الإنسان : تبعثر القبور ، ويكون الناس كالفراش المبثوث ، وتبرق أبصارهم ، ويتدافعون أفواجا إلى المحشر . .

[البعث . . وعلى أية صورة يكون ؟]

فإذا أخذنا جانب الإنسان ، وهو الذي تقع لعينيه هذه الأحداث التي تكون يوم القيامة ، وجدنا أنه قد تغيّر فعلا ، تغيرا يتناول طبيعته ، كما يتناول الموقف الذي يرى الوجود منه . .

فهو من حيث طبيعته ، قد صار كائنا روحانيا ، محلّقا فوق هذا العالم الأرضى ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » (4 : القارعة) . . فالفراش حشرة طائرة ، لطيفة الهيئة ، دقيقة الجرم ، هشة الجسم ، تكاد تنخلع عن جسدها ، وهى طائرة . .

ومن إعجاز القرآن الكريم هنا أن الفراشة تمثّل الدورة الإنسانية كلها ، من مولده ، إلى مماته ، إلى مبعثه من قبره ، إلى طيرانه إلى محشره . .

فهى تكون بيضة . . على حين يكون الإنسان نطفة .

ثم تكون دودة . . على حين يكون الإنسان وليدا ، يتحرك فى الحياة ، أشبه بالدودة .

ثم تكون عذراء « 1 » داخل الشرنقة « 2 » .

. على حين يكون الإنسان مقبورا فى جدثه . .

---

(1) العذراء . . هى الدودة داخل الشرنقة .

(2) الشرنقة . بيت تنسجه الدودة من لعابها ، ثم تدخل فيه الدودة وتسمى فى هذا الدور العذراء .

(89/729)

ثم تخرج من الشرنقة فراشة « 1 » على حين يكون الإنسان قد خرج من قبره ، كما تخرج الفراشة من الشرنقة ، وقد تخلّقت لها أجنحة تسبح بها فى الفضاء ! ثم ماذا ؟ وماذا ؟ وماذا ؟

لا جواب الآن . . إن القلم يضطرب فى يدى ، لما تملكنى من روعة هذا الجلال ، ولما أخذنى من وجد ونشوة حيال هذا الإعجاز ، الذي ألمح سنا برقه من بعيد ، وأنا لا زلت على شاطىء هذا البحر الذي لا يحدّه البصر ! وإنّى لأبخس نفسى حظّها ، إن أنا انتزعتها الآن من هذه الحال التي لبستها من غبطة وحبور ، فى هذا المقام الكريم ، لأصوّر بالقلم بعض ما ترى من جلال وروعة ، ولأمسك ببعض ما وقع فى الخاطر من رؤى ومشاهد بين يدى هذه المعجزة الباهرة القاهرة . .

فلتأخذ النفس إذن حظها من تلك النشوة ، وليرتشف القلب كأس هذه الخمر السماوية ، قطرة قطرة . . حتى يرتوى ! ! فإذا كان لنا فى غد صحوة من هذا الانتشاء ، وإذا كان لنا فى العمر غد نعيش فيه ـ كان لنا عودة إلى هذا الموقف ، وكان لنا نظر مجدّد فى تلك المعجزة ، وكان لنا قول فيما يؤدّى إليه هذا النظر . .

فإلى غد ـ إن شاء اللّه ـ وإلى ما يأذن اللّه لنا به ، من فضله وإحسانه ، حتى يستقيم للقلم طريقه ، ويجد اليد القادرة على الإمساك به ، والسيطرة على زمامه . .

---

(1) الفراشة : وهى العذراء تخرج من الشرنقة بعد أن تستكمل وجودها وتتخلق لها الأجنحة فى هذا الدور .

(90/729)

وكان صباح . . . . وكان مساء . . !

وجاء صباح يوم آخر . . وقد هدأت موجات الجلال التي غشيت النفس بالأمس ، وهأنذا أمسك بالقلم ، ولكن لا أجد شيئا مما كان يملأ صدرى من خواطر وتصورات ! ! فأين ذهب كل هذا ؟ إنى لا أكاد أذكر شيئا مما كنت فيه بالأمس ، بل لا أكاد أذكر فيم كنت . . وأحسب أن الأمر يحتاج إلى معاودة النظر فى الآية الكريمة ، نظرا مجدّدا

يستجيش المشاعر ، ويحرّك المدارك ، ويبعث من جديد هذه النشوة التي خمدت ، أو كادت . .

ومن النظر فى وجه الآية الكريمة : « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » تجد أن تشبيه الناس بالفراش المبثوث - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - يمثل أكمل تمثيل وأدقه تلك الصورة التي يكون عليها الناس يوم القيامة ، وأن حياة الفراشة من بدئها إلى نهايتها تمثّل حياة الإنسان من حال كونه نطفة إلى أن يولد ، وينمو ، ويقطع مسيرته فى الحياة الدنيا ، ثم إلى أن يموت ، ثم يبعث فى هيئة فراشة ، كانت بيضة ، ثم دودة ، ثم عذراء ملففة فى أكفان من الشرنقة ، ثم تنشق عنها الشرنقة ، فإذا هى فراشة ! . .

هذا ما وقفنا عنده - على ما أذكر - من قبل . .

الناس إذن يكونون يوم القيامة كالفراش المبثوث - فحين يخرجون من الأجداث يطيرون فى خفّة كما يطير الفراش المنطلق نحو النور والنار ! . .

ولكن إلى أين يطير هذا الفراش الآدمي ؟

(91/729)

وإلى أين يطير الفراش الحشرى إذا رأى نارا ، أو أحس ضوءا ؟

إنه لا وجهة له حينئذ إلا هذه النار وهذا الضوء ! ! وكذلك الناس ، أو الفراش البشرى ، لا مورد لهم إلا هذه النار التي سعّرت وتأججت . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا » (71 : مريم) .

وما مصير هذا الفراش الحشرى المتدافع إلى النار ؟ إنه يتقحمها ، ويلقى بنفسه فيها ، وكأنّ يدا قوية تدفعه إليها دفعا ليكون وقودا لها . . وقليل قليل هو الذي ينجو بنفسه ، ويعدل بوجهه عن لهيبها . .

كذلك شأن الفراش البشرىّ الوارد على نار جهنم ، إنه وقود هذه النار إلا قليلا قليلا ممن أنجاهم اللّه منها ، وكتب لهم الفوز بجنات النعيم ، كما يقول سبحانه : « ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا » (72 : مريم) . .

فهذا القليل هو الذي يقف فى منطقة النور دون أن يتقحم النار . .

وأما الكثير الغالب ، فإنه يغشى فى هذا الضوء فيهوى فى جهنم . . إنه أعمى لا يرى إلى أين مساقه ، لأنه حشر على ما كان فى الدنيا من عمى : « قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى » .

. فالهلكى فى الآخرة كثيرون ، والناجون قليل بل وأقل من القليل ! ! وأكاد أقول إن الناس سيكونون يوم القيامة على صورة الفراش حقيقة لا تشبيها ، وذلك لهذا التوافق العجيب

الدقيق بين الصورتين ، ـ صورة الفراش الحشرى ، وصورة الفراش البشرى ـ فى الملامح ، والألوان ، والظلال . .

(92/729)

ويتأكد هذا المفهوم ، إذ نجد القرآن الكريم يلتزم هذا التشبيه فى معرض آخر ، من معارض البعث والنشور ، فيقول سبحانه : « يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ » (7 ـ 8 : القمر) . .

فالجراد المنتشر ، والفراش المبثوث . . صورتان متماثلتان فى مرأى العين ، وفى أطوار الحياة التي يتنقل فيها كلّ من الفراش والجراد ! .

فالجراد يأخذ فى خلقه وتطوره نفس المراحل التي يقطعها الفراش فى مسيرة الحياة . . البيضة ، فالدودة ، فالعذراء ، فالفراشة التي تطير . .

« والفراش » كائن لطيف ، رقيق ، يكاد يكون من عالم الروح أكثر منه من عالم المادة . .

وأما « الجراد » ـ وإن كان أكثر كثافة من الفراش ، فإن أجنحته ـ الكبيرة القوّية ، تغلب كثافة جسده ، فيطير بخفة أشبه بخفة الأرواح . .

وفى الجمع بين الفراش المبثوث ، والجراد المنتشر ، تصوير معجز للصورة التي يبعث عليها

الناس يوم القيامة . .

ففى الناس : فراش ، وجراد . . فى الدنيا وفى الآخرة . .

فالمؤمنون ، يمثلون الفراش . . فى لطفه ، ورقته ، ووداعته ، ومواقعه فى فى الحياة ،

وتناوله من رحيق أزهارها ، وطيّب ثمارها . . حيث هم زينة

(93/729)

هذه الحياة الدنيا ، وحيث لا يقع منهم أذّى على أحد ، أو عدوان على شىء ، بيد أو لسان . .

والكافرون ، والضالون ، يمثلون الجراد فى نهمه ، وشراسته ، وعدوانه على مواقع الخصب ، فيفسدها ، ويحيلها جدبا . .

وهكذا يبعث الناس ، على ما كانوا عليه فى الدنيا ، من كان منهم على صورة الفراش ، فى اللطف ، والوداعة ، بعث على صورة الفراش ، ومن كان منهم على هيئة الجراد ، فى الشراسة والنّهم ، بعث على هيئة الجراد . .

وأكثر من هذا ، فإن الفراش قلّة قليلة بالنسبة لأعداد الجراد الكثيرة التي تتكاثر مواليدها وتتضاعف بين ساعة وأخرى . . وكذلك المؤمنون هم قلة فى محيط الكافرين ،

والمشركين . . وهذا ما نامحه فى قوله تعالى فى وصف كل من الفراش والجراد . . فقد جاء وصف الفراش ، بالبثّ :

«كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ» .

. والبث ، هو إذاعة الحديث الطيب فى رفق ، وعلى هينة ، ولطف . . وجاء وصف الجراد بالانتشار : «كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ» والانتشار ، إنما يكون فى سرعة مجنونة ، كما ينتشر الوباء فى الناس ، وكما تنتشر النار فى الهشيم . . !

ويكاد يصرفنا هذا الموقف الرائع المعجز ، عن الموضوع الذي نعالجه ، بل إنه ليكاد يغنينا عن النظر إلى ماوراءه ، لما نالت النفس منه ، من شبع وريّ ! ولكن وفاء بحق هذا البحث ، نعود فنقول :

إنه بالنظر فى حال للإنسان يوم القيامة ، نجد فى قوله تعالى عن هذا

الإنسان يوم القيامة : «فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ» . نجد فى هذا إشارة إلى ما يقع لبصر الإنسان من تحول ، يزداد به قوة خارقة فى مجال الرؤية ، حيث يامع كما يامع البرق ، فيكشف بنوره المنبعث منه حقائق الأشياء ، وينفذ إلى الصميم منها ، وكأنه يراها لأول مرة ، رؤية جديدة

، تبدو فيها المفارقة بعيدة ، بين ما يراها عليه الآن ، وبين ما كان يراها عليه فى الحياة الدنيا . . وفى هذا يقول اللّه تعالى : « لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » (22 : ق) .

هذه صورة مجملة للإنسان يوم القيامة ، ولموقفه من الموجودات فى هذا اليوم . .

فهو كائن سابح فى عالم علوىّ ، قد يبلغ فى سبحه هذا ، مدارج الكواكب والنجوم ، ثم هو فى هذا العلو السحيق يملك بصرا حديدا كاشفا لا يمكن تصوره . .

ومن هذا الأفق العالي ، وبهذا البصر الحديد النافذ ، ينظر الإنسان إلى هذه الأرض التي كان يعيش فيها . . فيرى الأرض غير الأرض ، والسماء غير السماء . .

« يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ » (48 : إبراهيم) إنه تبدل يقع فى إحساس الإنسان نفسه ، وفى معطيات بصره . .

إنه يرى البحار وكأنها قد فجّرت ، وفاضت مياهها . . إنه يرى البحر كله ، وقد اشتمل على الكرة الأرضية وأحاط بها . .

وإنه يرى الجبال وكأنها قد سيّرت ، وهى فى حقيقتها سائرة لا تتوقف ،

فى دورتها مع دورة الأرض حول نفسها ، كما يقول اللّه تعالى : (و ترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب (88 : النمل) . . ويراها وكأنها وقد نسفت ، وزايلت مواضعها من الأرض ، شأن من ينظر إلى الأرض من علو شاهق ، فتبدو له وكأنها سطح مستو لا أغوار فيه ، ولا نجود . . ويراها من هذا العلو وكأنها العهن المنفوش ، أشبه بذرات متطايرة فوق سطح الأرض . . ويراها ، ويرى الأرض معها كرة معلقة فى الفضاء ، قد اندمج بعضهما فى بعض ، فصارا كيانا واحدا : « لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً » (107 : طه) . . (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) (14 : الحاقة) . . هكذا تبدو الجبال ، على صور شتى ، بين الصغر والكبر ، وبين الظهور والخفاء ، حسب الأفق الذي يشرف منه الإنسان عليها يومئذ .

ولقد أحسن الشاعر « شوقى » غاية الإحسان ، فى تصوير الطائرة ، وهى تنطلق مصعّدة فى السماء ، وكلما ارتفعت كان لها فى موقع البصر صورة ، على غير سابقتها أو لاحقتها . . يقول شوقى :

ثم تسامت فكانت أعقبا فنسورا . . فصقورا . . فحماما أمّا السماء وعوالمها ، فإنه يقع عليها من التبدل والتحول ، فى نظر الإنسان ، ما وقع له فى العالم الأرضى من تحول وتبدل . .

إنه يرى السماء ، التي ـ كانت تبدو له فى دنياه سقفا صفيقا مصمتا ـ يراها ، وقد فتحت

فكانت أبوابا ، وكانت فروجا ، وإذا سقفها هذا قد بدا واهيا ، لا يحول بينه وبين اختراق أجوائها إلى غير حدود . .

(96/729)

« وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ » .

. « وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً » .

. « إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ » . .

تلك هى السماء ، كما يراها الإنسان ، ويختبر تصعيده فيها . . أما هى فى حقيقتها فهى هى ، لم تتبدل ، ولم تتحول . . !

وحال أخرى من السماء ، يجدها الإنسان فى هذا اليوم ، وهى ما جاء فى قوله تعالى : « يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ » .

. فهذه حال من السماء يجدها الإنسان ، حين يرتفع إلى مواقع النجوم منها ، فيجد لذلك مسّ حرارة هذه النجوم ، ويشهد منها هذا الغليان والفوران المتأجج فى كيانها . .

إذ النجوم فى حقيقتها عوالم من لظى يأكل بعضه بعضا . .

أما النجوم والكواكب ، فإنه يراها - كذلك - فى أحوال شتى ، حسب موقعه منها . . فيرى

النجوم وقد انكدرت وطمست ، واختفى ضوءها . . حيث أن هذا الضوء الذي نراه للنجوم ، إنما هو من أثر هذا الغلاف الهوائى المحيط بالأرض . . فإذا خرج الإنسان من محيط هذا الغلاف لم يقع على بصره هذا الضوء اللامع الذي نراه لها . .

كذلك يرى الكواكب ، التي كان يراها فى العالم الأرضى على مستوى واحد ، متجاورة كما تتجاور حبات العقد - يراها متناثرة ، كل واحد منها عالم يدور فى فلك ، بينه وبين النجوم الأخرى آماد بعيدة ، تقدر مسافاتها بالألوف والملايين من السنين الضوئية ! .

والشمس - وهى نجم من تلك النجوم - تبدو كرة ملتهبة ، لا شعاع فيها ، لأن هذا الشعاع الذي نراه منها ، هو - كما قلنا - أثر من الغلاف الهوائى المحيط بالأرض . . فإذا خرج الإنسان من دائرة

(97/729)

هذا الغلاف لم يكن لهذه الأشعة وجود فى مرأى العين . .

أما قوله تعالى : « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » - فهو أيضا أثر من آثار خروج الإنسان يوم القيامة من عالم الأرض . . حيث يرى الشمس شمسا ، والقمر قمرا ، فى حال واحدة ، لا يحكم رؤيته لهما ، ليل أو نهار . .

هذه وقفة قصيرة غاية القصر مع تلك المشاهد التي يراها الإنسان يوم القيامة ، من عوالم الوجود . . ولو أننا ذهبنا نتقصّى وجوه النظر المختلفة ، لخرج بنا ذلك عن المنهج الذي التزمناه ، فى هذا التفسير لكتاب اللّه . .

بقيت كلمة لا بد منها فى التعقيب على هذا البحث ، وهى ، الإجابة على هذا السؤال : هل يكون البعث بالأجساد ، أو الأرواح ؟ .

وهذه قضية كثرت فيها الأقوال وتضاربت الآراء ، ولا نحسب أن إجابتنا على هذا السؤال بالذي يحسم الأمر ، ويرفع الخلاف فيها ، بل إنه ربما وسّع من شقة الخلاف ، وأضاف إلى المقولات المتخالفة مقولة ! ومع هذا ، فإن إمساكنا عن القول فى هذه القضية ، لا يخفف من حدة الخلاف فيها ، ولا يمسك ذوى الآراء عن الخوض فى تلك القضية ، التي هى وسواس كل خاطر ، وامتدا كل نظر إلى الحياة ، وما وراء الحياة .

فنقول إننا نرجح الرأى القائل بأن البعث يكون بالأرواح لا بالأجسام . .

(98/729)

ولنا فى قوله تعالى : « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » ، وقوله سبحانه : « يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ » . لنا فى هذا شاهد نلمح منه صورة الحياة

التي يكون عليها الناس يوم القيامة ، وهى أنها حياة أشبه بحياة الطير ، حيث ينطلق الناس فى العوالم العليا ، إلى حيث الكواكب والنجوم . .

والأرواح الإنسانية التي نلمحها من الآيتين الكريمتين ، ليست أرواحا مجردة ، بل هى أرواح ، تلبس أجسادا شفافة ، هى قوالب روحانية ، على هيئات بشرية يعيش فيها الناس . .

وهى ما يسمى بالنفس ، التي هى وسط بين الروح ، والجسد « 1 » . .

قوله تعالى : « هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ » . .

فى الإشارة إلى النار ، دعوة لأهلها إلى ورودها ، ونزولهم ضيوفا عليها ، ليطعموا مما تقدّمه لهم من زاد عتيد تلقاهم به ، وتغاديهم وتراوحهم بصنوفه وأكوانه . . ! !

وفى الدعوة إلى هذا المكروه ، مزيد من الاستهزاء والإيلام لهؤلاء الأشقياء ، الذين يساقون إلى هذا العذاب الأليم . . مثل قوله تعالى : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » . .

وقوله تعالى : « أَفَسِحْرٌ هذا ؟ أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ » ؟

---

(1) انظر هذا البحث فى كتاب المؤلف قضية الألوهية الكتاب الثاني . . اللّه والإنسان

هو عرض على أسماع هؤلاء المجرمين المكذبين باليوم الآخر - لتلك المقولات الهازئة الساخرة التي كانوا يقولونها عن البعث ، والحساب ، والجزاء . . وكان من مقولاتهم تلك ، اتهام النبي بالكذب ، وبالسحر ، وأن ما يحدثهم به عن اليوم الآخر ليس إلا من قبيل الشعوذة والخداع ! . .

فهم يسألون هذا السؤال التقريعيّ ، الذي لا يجدون له جوابا إلا الإبلاس والوجوم ، وإلا الحسرة القاتلة ، والنّدم الأسود الكئيب ! . .

« أَفَسِحْرٌ هذا ؟ » أي أهذا العذاب الذي ، تساقون إليه ، والذي كان يتلوه عليهم من آيات اللّه - أسحر هو ؟

وإنه لأسلوب من أساليب العقاب ، أن يوقف المجرم على جسم جريمته ، وأن يواجه بها ، وأن يذكر بها حالا بعد حال ، وخاصة إذا كان بين يدى السلطان القاهر الذي يأخذه بجريمته ويوقّع عليه الجزاء الذي يستحقه ، فإن جريمته هى التي ساقته إلى هذا البلاء الذي هو فيه ، وإنها لهى العدوّ الذي ألقاه فى التهلكة ! .

وفى قوله تعالى : « أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ » هو زيادة فى إبلامهم بأن ينظروا فى هذا العذاب ، وأن يملأوا عيونهم منه ، قبل أن يذوقوه بأجسامهم ، ويلبسوه ثيابا تقطّع لهم من تلك النار الموقدة أمام أعينهم . .

قوله تعالى : « اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

» . .

هو دعوة أخرى لهؤلاء المكذبين ، إلى تذوق ما فى هذه النار التي دعوا

(100/729)

إليها ، ونزلوا بساحتها ، وإنه لا شىء هناك إلا نارا تشوى الوجوه ، وتهرى الأجسام ، وإلا مهلا يغلى فى البطون كغلى الحميم . .

فليأخذوا ما تقدّم لهم النّار من ضيافة نكدة ، وليصبروا على تجرّع هذه الغصص ، أولا يصبروا ، فإنه لا مفرّ لهم من أن يشربوا من هذه الكأس التي لا تنضب ، ولا معدل لهم عنها ، صبروا أولم يصبروا . .

فالأمر بالنسبة إليهم سواء . . إنهم فى قيد العذاب : « فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ، وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ » (24 : فصلت) . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 14 صـ 545. 561 ﴾

(101/729)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (9) ﴾

يجوز أن يتعلق ﴿ يوم تمور السماء ﴾ بقوله : ﴿ لواقع ﴾ [الذاريات : 7] على أنه ظرف له فيكون قوله : ﴿ فويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ تفريعاً على الجملة كلها ويكون العذاب عذاب الآخرة .

ويجوز أن يكون الكلام قد تم عند قوله : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ [الذاريات : 7] ، فيكون ﴿ يوم ﴾ متعلقاً بالكون الذي بين المبتدأ والخبر في قوله : ﴿ فويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ وقدم الظرف على عامله للاهتمام ، فلما قدم الظرف اكتسب معنى الشرطية وهو استعمال متبع في الظروف والمجرورات التي تُقدم على عواملها فلذلك قرنت الجملة بعده بالفاء على تقدير : إن حَلَّ ذلك اليوم فويل للمكذبين .

وقوله : ﴿ يومئذٍ ﴾ على هذا الوجه أريد به التأكيد للظرف فحصل تحقيق الخبر بطريقين طريق المجازاة ، وطريق التأكيد في قوله : ﴿ يوم تمور السماء موراً ﴾ الآية ، تصريح بيوم البعث بعد أن أشير إليه تضمناً بقوله : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ فحصل بذلك تأكيده أيضاً .

والمور بفتح الميم وسكون الواو : التحرك باضطراب ، ومور السماء هو اضطراب أجسامها من الكواكب واختلال نظامها وذلك عند انقراض عالم الحياة الدنيا .

وسيْر الجبال : انتقالها من مواضعها بالزلازل التي تحدث عند انقراض عالم الدنيا ، قال تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ إلى قوله : ﴿ يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ﴾ [الزلزلة : 61] .

وتأكيد فعلي ﴿ تمور ﴾ و ﴿ تسير ﴾ بمصدري ﴿ مَوْراً ﴾ و ﴿ سَيْراً ﴾ لرفع احتمال المجاز ، أي هو مور حقيقي وتنقل حقيقي .

والويل : سوء الحال البالغ منتهى السوء ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ في سورة البقرة (79) وتقدم قريباً في آخر الذاريات .

والمعنى : فويل يومئذٍ للذين يكذبون الآن .

(102/729)

وحذف متعلق للمكذبين لعلمه من المقام ، أي الذين يكذبون بما جاءهم به الرسول من توحيد الله والبعث والجزاء والقرآن فاسم الفاعل في زمن الحال .

والخوض : الاندفاع في الكلام الباطل والكذب .

والمراد خوضهم في تكذيبهم بالقرآن مثل ما حكى الله عنهم : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ [فصلت : 26] وهو المراد بقوله تعالى :

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ [الأنعام : 68] .

و﴿ في ﴾ للظرفية المجازية وهي الملابسة الشديدة كملابسة الظرف للمظروف ، أي الذين تمكن منهم الخوض حتى كأنه أحاط بهم .

و﴿ يلعبون ﴾ حاليّة .

واللعب : الاستهزاء ، قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ﴾ [التوبة : 65] .

﴿ يوم يدعون ﴾ بدل من ﴿ يوم تمور السماء موراً ﴾ وهو بدل اشتمال .

والدعّ : الدفع العنيف ، وذلك إهانة لهم وغلظة عليهم ، أي يوم يساقون إلى نار جهنم سَوقاً بدفع ، وفيه تمثيل حالهم بأنهم خائفون متقهقرون فتدفعهم الملائكة الموكلون بإزجائهم إلى النار .

وتأكيد ﴿ يدعون ﴾ بـ ﴿ دعّاً ﴾ لتوصل إلى إفادة تعظيمه بتنكيره .

وجملة ﴿ هذه النار ﴾ إلى آخرها مقول قول محذوف دل عليه السياق .

والقول المحذوف يقدر بما هو حال من ضمير ﴿ يدعون ﴾ .

وتقديره : يقال لهم ، أو مقولاً لهم ، والقائل هم الملائكة الموكلون بإيصالهم إلى جهنم .

والإِشارة بكلمة ﴿ هذه ﴾ الذي هو للمشار إليه القريب المؤنث تومىء إلى أنهم بلغوها

وهم على شفاها ، والمقصود بالإِشارة التوطئة لمَا سيرد بعدها من قوله : ﴿ التي كنتم بها تكذبون ﴾ إلى ﴿ لا تبصرون ﴾ .

والموصول وصلته في قوله : ﴿ التي كنتم بها تكذبون ﴾ لتنبيه المخاطبين على فساد رأيهم إذ كذبوا بالحشر والعقاب فرأوا ذلك عياناً .

(103/729)

وفرع على هذا التنبيه تنبيه آخر على ضلالهم في الدنيا بقوله : ﴿ أفسحر هذا ﴾ إذ كانوا حين يسمعون الإِنذار يوم البعث والجزاء يقولون : هذا سحر ، وإذا عرض عليهم القرآن قالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ، فللمناسبة بين ما في صلة الموصول من معنى التوقيف على خطئهم وبين التهكّم عليهم بما كانوا يقولونه دخلت فاء التفريع وهو من جملة ما يقال لهم المحكي بالقول المقدر .

و ﴿ أم ﴾ منقطعة ، والاستفهام الذي تقتضيه ﴿ أم ﴾ بعدها مستعمل في التوبيخ والتهكم .

والتقدير : بل أأنتم لا تبصرون .

ومعنى ﴿ لا تبصرون ﴾ : لا تبصرون المرئيات كما هي في الواقع فلعلكم تزعمون أنكم لا

ترون ناراً كما كنتم في الدنيا تقولون : ﴿ بيننا وبينك حجاب ﴾ [فصلت : 5] أي فلا نراك ، وتقولون ﴿ إنما سكرت أبصارنا ﴾ [الحجر : 15] .

وجيء بالمسند إليه مخبراً عنه بخبر فعلي منفي لإفادة تقوّي الحكم ، فلذلك لم يقل : أم لا تبصرون ، لأنه لا يفيد تقوياً ، ولا : أم لا تبصرون أنتم ، لأن مجيء الضمير المنفصل بعد الضمير المتصل يفيد تقرير المسند إليه المحكوم عليه بخلاف تقديم المسند إليه فإنه يفيد تأكيد الحكم وتقويته وهو أشد توكيداً ، وكل ذلك في طريقة التهكم .

وجملة ﴿ اصلوها ﴾ مستأنفة هي بمنزلة النتيجة المترقبة من التوبيخ والتغليظ السابقين ، أي ادخلوها فاصطلوا بنارها يقال : صلي النار يصلاها ، إذا قاسى حرها .

والأمر في ﴿ اصلوها ﴾ إمّا مكنًّى به عن الدخول لأن الدخول لها يستلزم الاحتراق بنارها ، وإما مستعمل مجازاً في التنكيل .

وفرع على ﴿ اصلوها ﴾ أمر للتسوية بين صبرهم على حرّها وبين عدم الصبر وهو الجزع لأن كليهما لا يخففان عنهم شيئاً من العذاب ، ألا ترى أنهم يقولون : ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص ﴾ [إبراهيم : 21] لأن جُرمَهم عظيم لا مطمع في تخفيف جزائه .

و ﴿ سواء عليكم ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : ذلك سواء عليكم .

وجملة ﴿ سواء عليكم ﴾ مؤكدة لجملة ﴿ فاصبروا أو لا تصبروا ﴾ فلذلك فصلت عنها ولم تعطف .

وجملة ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ تعليل لجملة ﴿ اصلوها ﴾ إذ كلمة ﴿ إنما ﴾ مركبة من (إنّ) و (ما) الكافة ، فكما يصح التعليل بـ (إنّ) وحدها كذلك يصح التعليل بها مع (ما) الكافة ، وعليه فجملتا ﴿ فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم ﴾ معترضتان بين جملة ﴿ اصلوها ﴾ والجملة الواقعة تعليلاً لها .

والحصر المستفاد من كلمة ﴿ إنما ﴾ قصر قلب بتنزيل المخاطبين منزلة من يعتقد أن ما لقوه من العذاب ظلم لم يستوجبوا مثل ذلك من شدة ما ظهر عليهم من الفزع .

وعدي ﴿ تجزون ﴾ إلى ﴿ ما كنتم تعملون ﴾ بدون الباء خلافاً لقوله بعده ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ [الطور : 19] ليشمل القصر مفعول الفعل المقصور ، أي تجزون مثل عملكم لا أكثر منه فينتفي الظلم عن مقدار الجزاء كما انتفى الظلم عن أصله ، ولهذه الخصوصية لم يعلق معمول الفعل بالباء إذ جعل الجزاء بمنزلة نفس الفعل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (21) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (23) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (24) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر ما للمكذبين من العذاب المشار إليه بكلمات القسم ، أتبعه ما لأضدادهم من الثواب المنبه عليه أيضاً بتلك الكلمات ليتم الخبر ترغيباً وترهيباً ، فقال جواباً لمن كأنه قال : فما لمن عاداهم فيك ؟ مؤكداً لما للكفار من التكذيب : ﴿ إن المتقين ﴾ أي الذين صارت التقوى لهم صفة راسخة ﴿ في جنات ﴾ أي بساتين دائماً في الدنيا حكماً وفي الآخرة .

ولما كانت البساتين ربما يشقى داخلها أو صاحبها ، نفى هذا بقوله : ﴿ ونعيم ﴾ أي نعيم

في العاجل ، يعني بما هم فيه من الأنس ، والآجل بالفعل ، وزاد في تحقيق التنعم بقوله : ﴿ فاكهين ﴾ أي معجبين متلذذين ﴿ بما آتاهم ربهم ﴾ الذي تولى تربيتهم بعملهم بالطاعات إلى أن أوصلهم إلى ذهاب النعيم ، فهو لأن عظمته من عظمته لا يبلغ كنه وصفه . ولما كان المتنعم قد تكون نعمته بعد عذاب ، فبين أنهم ليسوا كذلك فقال : ﴿ ووقاهم ﴾ أي قبل ذلك ﴿ ربهم ﴾ أي المتفضل بتربيتهم بكفهم عن المعاصي والقاذورات ﴿ عذاب الجحيم ﴾ أي النار الشديدة التوقد .

(106/729)

ولما كان من باشر النعمة وجانب النقمة في هناء عظيم ، قال مترجماً لذلك على تقدير القول : ﴿ كلوا ﴾ أي أكلاً هنيئاً ﴿ واشربوا ﴾ شرباً ﴿ هنيئاً ﴾ أي لا نقص فيه ، وهو صفة في موضع المصدر أي هنأتم بمعنى أن كل ما تتناولونه مأمون العاقبة من التخمة والسقم ونحوها ﴿ بما كنتم ﴾ أي كوناً راسخاً ﴿ تعملون ﴾ أي مجددين له على سبيل الاستمرار حتى كأنه طبع لكم .

ولما كان النعيم لا يتم إلا بأن يكون الإنسان مخدوماً ، نبه عليه بقوله : ﴿ متكئين ﴾ أي مستندين استناد راحة ، لأنهم يخدمون فلا حاجة لهم إلى الحركة ﴿ على سرر

مصفوفة ﴾ أي منصوبة واحداً إلى جنب واحد ، مستوية كأنها السطور على أحسن نظام وأبدعه ، قال الأصبهاني : والصفة : مد الشيء على الولاء .

ولما كان السرور لا يتم إلا بالتنعم بالنساء قال : ﴿ وزوجناهم ﴾ أي تزويجاً يليق بما لنا من العظمة .

ولما كانت تلك الدار غنية عن الأسباب ، فكانوا غنيين عن العقد ، قال مشيراً بالباء إلى صرف الفعل عن ظاهره فإنه إذا كان بمعنى النكاح تعدى بنفسه ، وتضمين الفعل " قرناهم " أي جعلناهم أزواجاً مقرونين ﴿ بحور ﴾ أي نساء هن في شدة بياض العين وشدة سوادها واستدارة حدقتها ورقة جفونها في غاية لا توصف ﴿ عين ﴾ أي واسعات الأعين في رونق وحسن .

ولما وصف حال المتقين من أعداء المكذبين وبدأ بهم لشرفهم ، أتبعهم من هو أدنى منهم حالاً لتكون النعمة تامة فقال : ﴿ والذين آمنوا ﴾ يعني أقروا بالإيمان ولم يبدلوا ولا بالغوا في الأعمال الصالحة .

(107/729)

ولما كان من هؤلاء من لا يتبعه ذريته بسبب إيمانه لأنه يرتد عنه ، عطف على فعلهم تمييزاً لهم واحترازاً عمن لم يثبت قوله : ﴿ واتّبعتهم ﴾ أي بما لنا من الفضل الناشىء عما لنا من العظمة ﴿ ذرياتهم ﴾ الصغار والكبار وإن كثروا ، والقرار لأعينهم بالكبار بإيمانهم والصغار بإيمانهم آبائهم ﴿ بإيمان ﴾ أي بسبب إيمان حاصل منهم ، ولو كان في أدنى درجات الإيمان ، ولكنهم ثبتوا عليه إلى أن ماتوا ، وذلك هو شرط إتباعهم الذريات ، ويجوز أن يراد وهو أقرب : بسبب إيمان الذرية حقيقة إن كانوا كباراً ، وحكماً إن كانوا صغاراً ، ثم أخبر عن الموصول بقوله : ﴿ ألحقنا بهم ﴾ أي فضلنا لأجل عمل آبائهم ﴿ ذرياتهم ﴾ وإن لم يكن للذرية أعمال ، لأنه قيل في المعنى : " ولأجل عين ألف عين تكرم " ويلحق بالذرية من النسب الذرية بالسبب وهو المحبة ، فإن كان معها آخذ لعلم أو عمل كانت أجدر ، فتكون ذرية الإفادة كذرية الولادة ، وذلك لقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ " المرء مع من أحب " في جواب من سأل عمن يحب القوم ولم يلحق بهم .

(108/729)

ولما كان ربما خيف أن ينقص الآباء بسبب إلحاق ذرياتهم بهم شيئاً من درجاتهم ، قال : ﴿ وما ألتناهم ﴾ أي نقصنا الآباء وحبسنا عنهم ﴿ من عملهم ﴾ وأكد النفي بقوله :

﴿ من شيء ﴾ بسبب هذا الإلحاق وكان من فوق رتبتهم من الذين يؤمنون والمؤمنين والمتقين وغيرهم أولى منهم ، وإنما فصلهم منهم لأن هؤلاء قد لا يوقنون قبل دخول الجنة العذاب ، قال جامعاً للفريقين ، أو يقال – ولعله أقرب – أنه لما ذكر اتباع الأدنى للأعلى في الخير فضلاً ، أشفقت النفس من أن يكون إتباع في الشر فأجاب تعالى بأنه لا يفعل بقوله : ﴿ كل امرىء ﴾ أي من الذين آمنوا والمتقين وغيرهم ﴿ بما كسب ﴾ أي من ولد وغيره ﴿ رهين ﴾ أي مسابق ومخاطر ومطلوب وآخذ شيئاً بدل كسبه وموفي على قدر ما يستحقه ومحتبس به إن كان عاصياً ، فمن كان صالحاً كان آخذاً بسبب صلاح ولده لأنه كسبه ، ولا يؤخذ به ذلاً وهو حسن في نفسه لأجل الحكم بإيمانه سواء كان حقيقة أو حكماً وكل حسن مرتفع ، فلذلك يلتحق بأبيه ، وأما الإساءة فقاصرة على صاحبها يؤخذ بها ويرهن بذنبه ولا يؤخذ بذنب غيره ، والحاصل أن المعالي التي هي كالحياة تفيض من صاحبها على غيره فتحييه ، والمساوئ التي هي كالموت لا يتعدى صاحبها ، قال الرازي في اللوامع : اعلم أن الذوات بقاؤها ودوامها ببقاء صورها ، فحيث ما كانت الصورة المقومة لها أدوم كانت الذوات بها أقوم ، وأن النفوس الإنسانية ذوات وصورها علومها وأخلاقها ، فحيث ما كانت العلوم حق اليقين ثم عين اليقين ، والأخلاق مقومة على نهج الشرع المبين ، كانت النفوس دائمة بدوامها غير مستحيلة ، إذ لا تتطرق الاستحالة إلى اليقين والعمل الحق ، وغير كائنة ولا فاسدة إذ ليس عن اليقين ولا العلوم الحقيقية من عالم

الكون والفساد ، وإن لم تبلغ النفس إلى كمال اليقين فتعلقت بدليل صاحبه كما انخرطت في سلكها حتى يخرط الإنسان في سلك محبته ، لو أحب أحدكم حجراً لحشر معه ، فإن الدين هو الحب في الله والبغض

(109/729)

في الله ، ولهذا اكتفى الشرع من المكلفين بالإسلام وتسليم وتفويض وتحكيم دون الوقوف على المسائل العويصة بالبراهين الواضحة الصحيحة ، وما لم يبلغ الولد حد التكليف واخترم ألحقوا بآبائهم وحكم عليهم بحكم عقائدهم وآرائهم حتى يكون حكم آبائهم جارياً عليهم وحكم القيامة نافذاً فيهم ، وأما إذا كانت الصورة القائمة بالذوات مستحيلة بأن كانت جهلاً وباطلاً ينقص أوله آخره وآخره أوله ، كانت ذات النفس لا تنعدم ولا تفنى بل تبقى على حال لا يموت فيها ولا يحي ، فإنها لو فنيت لاستراحت ولو بقيت لاستطابت ، فهي على استحالة بين الموت والحياة ، وهذه الاستحالة لا تكون إلا في أجساد وأبدان ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ﴾ [النساء : 56] انتهى .

وهو كما ترى في غاية النفاسة ، ويؤيده " يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل " ويجوز أن تكون الجملة تعليلاً لما قبلها من النفي ، أي ما نقصناهم لأنه قد سبق في

حكمنا بأن يكون "كل امرىء " قدرنا أن يرتهن بما قد ينقصه ﴿ بما كسب ﴾ أي لا يضر ما كسب ما كسبه غيره " رهين " أي معوق عن النعيم حتى يأتيه بما يطلق من العمل الصالح .

ولما جمعهم في إلحاق الذرية بهم لأنهم من أعظم النعيم ، وأمنهم مما قد يخشى من نقصهم بنقصه غيرهم ، وعلل ذلك ليكون أرسخ في النفس ، أتبعه بما يشاكله فقال :

﴿ وأمددناهم ﴾ أي آمنوا والمتقين ومن ألحق بهم من ذرياتهم بما لنا من العظمة زيادة على ما تقدم ﴿ بفاكهة ﴾ .

ولما كانت الفاكهة ظاهرة فيما يعرفونه في الدنيا وإن كان عيش الجنة بجميع الأشياء تفكها ليس فيه شيء يقصد به حفظ البدن قال : ﴿ ولحم مما يشتهون ﴾ ليس فيه شيء منه مما لا يعجبهم غاية الإعجاب .

(110/729)

ولما كان هذا النعيم العظيم المقيم يدعو إلى المعاشرة ، بالقرينة العاطرة ، بين أن ذلك حالهم اللازمة الظاهرة ، من الخصال اللائقة الطاهرة ، فقال : ﴿ يتنازعون ﴾ أي يشربون متجاذبين مجاذبة الملاعبة لفرط المحبة والسرور وتحلية المصاحبة ﴿ فيها كأساً ﴾ أي

خمراً من رقة حاشيتها تكاد أن لا ترى في كأسها .

ولما كان في خمر الدنيا غوائل نفاها عنها فقال : ﴿ لا لغو ﴾ أي سقط مما يضر ولا ينفع ﴿ فيها ﴾ أي في تنازعها ولا بسببها لأنها لا تذهب بعقولهم ولا يتكلمون إلا بالحسن الجميل ﴿ ولا تأثيم ﴾ أي ولا شيء فيها مما يلحق شرّابها إثما ولا يسوغ نسبه .

ولما كانت المعاطاة لا يكمل بسطها ولا يعظم إلا بخدم وسقاة قال : ﴿ ويطوف عليهم ﴾ أي بالكؤوس وغيرها من أنواع التحف ﴿ غلمان ﴾ ولما كان أحب ما إلى الإنسان ما يختص به قال : ﴿ لهم ﴾ ولم يضفهم لئلا يظن أنهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا فيشفق كل من خدم أحد في الدنيا بقول أو فعل أن يكون خادماً له في الجنة فيحزن بكونه لا يزال تابعاً ، وأفاد التنكير أن كل من دخل الجنة وجد له خدماً لم يعرفهم قبل ذلك ﴿ كأنهم ﴾ في بياضهم وشدة صفائهم ﴿ لؤلؤ مكنون ﴾ أي مصون في الصدف لم تغيره العوارض ، هذا حال الخادم فما ظنك بالمخدوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 297 .

300 ﴾

(111/729)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) ﴾

على ما هو عادة القرآن من بيان حال المؤمن بعد بيان حال الكافر ، وذكر الثواب عقيب ذكر العقاب ليتم أمر الترهيب والترغيب ، وقد ذكرنا تفسير المتقين في مواضع ، والجنة وإن كانت موضع السرور ، لكن الناطور قد يكون في البستان الذي هو غاية الطيبة وهو غير متنعم ، فقوله ﴿ وَنَعِيمٍ ﴾ يفيد أنهم فيها يتنعمون ، كما يكون المتفرج لا كما يكون الناطور .

فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (18)

وقوله ﴿ فاكهين ﴾ يزيد في ذلك لأن المتنعم قد يكون آثار التنعم على ظاهره وقلبه مشغول ، فلما قال : ﴿ فاكهين ﴾ يدل على غاية الطيبة ، وقوله ﴿ بِمَا ءاتاهم رَبُّهُمْ ﴾ يفيد زيادة في ذلك ، لأن الفكه قد يكون خسيس النفس فيسره أدنى شيء ، ويفرح بأقل سبب ، فقال : ﴿ فاكهين ﴾ لا لدنو هممهم بل لعلو نعمهم حيث هي من عند ربهم .

وقوله تعالى : ﴿ ووقاهم رَبُّهُمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون المراد أنهم فاكهون بأمرين أحدهما : بما آتاهم ، والثاني : بأنه وقاهم وثانيهما : أن يكون ذلك جملة أخرى منسوقة على الجملة الأولى ، كأنه بيّن أنه أدخلهم جنّات ونعيماً ووقاهم عذاب

الجحيم .

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20)

(112/729)

فيه بيان أسباب التنعيم على الترتيب ، فأول ما يكون المسكن وهو الجنّات ثم الأكل والشرب ، ثم الفرش والبسط ثم الأزواج ، فهذه أمور أربعة ذكرها الله على الترتيب ، وذكر في كل واحد منها ما يدل على كماله قوله ﴿ جنات ﴾ إشارة إلى المسكن والمسكن للجسم ضروري وهو المكان ، فقال : ﴿ فاكهين ﴾ لأن مكان التنعيم قد ينتغص بأمور وبين سبب الفكاهة وعلو المرتبة يكون مما آتاهم الله ، وقد ذكرنا هذا ، وأما في الأكل والشرب والإذن المطلق فترك ذكر المأكول والمشروب لتنوعهما وكثرتهما ، وقوله تعالى : ﴿ هَنِيئًا ﴾ إشارة إلى خلوهما عما يكون فيها من المفاسد في الدنيا ، منها أن الآكل يخاف من المرض فلا يهنأ له الطعام ، ومنها أنه يخاف النفاد فلا يسخو بالأكل والكل منتف في الجنة فلا مرض ولا انقطاع ، فإن كل أحد عنده ما يفضل عنه ، ولا إثم ولا تعب في تحصيله ، فإن الإنسان في الدنيا ربما يترك لذة الأكل لما فيه من تهيئة المأكول بالطبخ والتحصيل من التعب

أو المنة أو ما فيه من قضاء الحاجة واستقذار ما فيه ، فلا يتهنأ ، وكل ذلك في الجنة منتف .

وقوله تعالى : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ إشارة إلى أنه تعالى يقول أي مع أني ربكم وخالقكم وأدخلتكم بفضلي الجنة ، وإنما منتي عليكم في الدنيا إذ هديتكم ووفقتكم للأعمال الصالحة كما قال تعالى : ﴿ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ [الحجرات : 17] .

(113/729)

وأما اليوم فلا من عليكم لأن هذا إنجاز الوعد فإن قيل قال في حق الكفار ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التحريم : 7] وقال في حق المؤمنين ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فهل بينهما فرق ؟ قلت بينهما بون عظيم من وجوه الأول : كلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ للحصر أي لا تجزون إلا ذلك ، ولم يذكر هذا في حق المؤمن فإنه يجزيه أضعاف ما عمل ويزيده من فضله ، وحينئذ إن كان يمن الله على عبده فيمن بذلك لا بالأكل والشرب الثاني : قال هنا ﴿ بِمَا كُنْتُمْ ﴾ وقال هناك ﴿ مَّا كُنْتُمْ ﴾ أي تجزون عين أعمالكم إشارة إلى المبالغة في المماثلة كما تقول هذا عين ما عملت وقد تقدم بيان هذا وقال في حق المؤمن ﴿ بِمَا كُنْتُمْ ﴾ كأن ذلك أمر ثابت مستمر بعملكم هذا الثالث : ذكر الجزاء هناك وقال ههنا ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ لأن الجزاء ينبىء عن الانقطاع فإن من أحسن إلى أحد فأتى بجزائه لا يتوقع المحسن منه شيئاً

آخر .

فإن قيل فالله تعالى قال في مواضع ﴿ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف : 14] في الثواب ، نقول في تلك المواضع لما لم يخاطب المجزي لم يقل تجزى وإنما أتى بما يفيد العالم بالدوام وعدم الانقطاع .

وأما في السرر فذكر أموراً أيضاً أحدها : الاتكاء فإنه هيئة تختص بالمنعم ، والفارغ الذي لا كلفة عليه ولا تكلف لديه فإن من يكون عنده من يتكلف له يجلس له ولا يتكىء عنده ، ومن يكون في مهم لا يتفرغ للاتكاء فالهيئة دليل خير .

(114/729)

ثم الجمع يحتمل أمرين أحدهما : أن يكون لكل واحد سرر وهو الظاهر لأن قوله ﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ يدل على أنها لواحد لأن سرر الكل لا تكون في موضع واحد مصطفة ولفظ السرير فيه حروف السرور بخلاف التخت وغيره ، وقوله ﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ دليل على أنه لمجرد العظم فإنها لو كانت متفرقة لقيل في كل موضع واحد ليتكىء عليه صاحبه إذا حضر في هذا الموضع ، وقوله تعالى : ﴿ وزوجناهم ﴾ إشارة إلى النعمة الرابعة وفيها أيضاً ما يدل على كمال الحال من وجوه أحدها : أنه تعالى هو المزوج وهو يتولى الطرفين

يزوج عباده بأمانه ومن يكون كذلك لا يفعل إلا ما فيه راحة العباد والإماء ثانيها : قال : ﴿ وزوجناهم بِحُورٍ ﴾ ولم يقل وزوجناهم حوراً مع أن لفظة التزويج يتعدى فعله إلى مفعولين بغير حرف يقال زوجتكها قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قضى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زوجناكها ﴾ [الأحزاب : 37] وذلك إشارة إلى أن المنفعة في التزويج لهم وإنما زوجوا للذتهم بالحور لا للذة الحور بهم وذلك لأن المفعول بغير حرف يعلق الفعل به كذلك التزويج تعلق بهم ثم بالحور ، لأن ذلك بمعنى جعلنا ازدواجهم بهذا الطريق وهو الحور ثالثها : عدم الاقتصار على الزوجات بل وصفهن بالحسن واختار الأحسن من الأحسن ، فإن أحسن ما في صورة الآدمي وجهه وأحسن ما في الوجه العين ، ولأن الحور والعين يدلان على حسن المزاج في الأعضاء ووفرة المادة في الأرواح ، أما حسن المزاج فعلامته الحور ، وأما وفرة الروح فإن سعة العين بسبب كثرة الروح المصوبة إليها ، فإن قيل قوله ﴿ زوجناهم ﴾ ذكره بفعل ماض و ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ حال ولم يسبق ذكر فعل ماض يعطف عليه ذلك وعطف الماضي على الماضي والمستقبل على المستقبل أحسن ، نقول الجواب من وجوه اثنان لفظيان ومعنوي أحدها : أن ذلك حسن في كثير من المواضع ، تقول جاء زيد ويجيء عمراً وخرج زيد ثانيها : أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَنَعِيمٍ ﴾ تقديره أدخلناهم في جنات ، وذلك لأن

الكلام على تقدير أن في اليوم الذي يدع الكافر في النار في ذلك الوقت يكون المؤمن قد أدخل مكانه ، فكأنه تعالى يقول في يوم يدعون إلى نار جهنم إن المتقين كائنون في جنّات والثالث : المعنوي وهو أنه تعالى ذكر مجزاة الحكم ، فهو في هذا اليوم زوج عباده حوراً عيناً ، وهن منتظرات الزفاف يوم الآزفة .

(116/729)

ثم قال تعالى : ﴿ والذين ءامَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بإيمان أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ وفيه لطائف الأولى : أن شفقة الأبوة كما هي في الدنيا متوفرة كذلك في الآخرة ، ولهذا طيب الله تعالى قلوب عباده بأنه لا يولهم بأولادهم بل يجمع بينهم ، فإن قيل قد ذكرت في تفسير بعض الآيات أن الله تعالى يسلي الآباء عن الأبناء وبالعكس ، ولا يتذكر الأب الذي هو من أهل الجنة الابن الذي هو من أهل النار ، نقول الولد الصغير وجد في والده الأبوة الحسنة ولم يوجد لها معارض ولهذا ألحق الله الولد بالوالد في الإسلام في دار الدنيا عند الصغر وإذا كبر استقل ، فإن كفر ينسب إلى غير أبيه ، وذلك لأن الإسلام للمسلمين كالأب ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : 10] جمع أخ بمعنى أخوة الولادة والإخوان جمعه

بمعنى أخوة الصداقة والمحبة فإذن الكفر من حيث الحس والعرف أب ، فإن خالف دينه دين أبيه صار له من حيث الشرع أب آخر ، وفيه أرشاد الآباء إلى أن لا يشغلهم شيء عن الشفقة على الولد فيكون من القبيح الفاحش أن يشتغل الإنسان بالتفرج في البستان مع الأحبة الإخوان وعن تحصيل قوت الولدان ، وكيف لا يشتغل أهل الجنة بما في الجنة من الحور العين عن أولادهم حتى ذكروهم فأراح الله قلوبهم بقوله ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذريا تهم ﴾ وإذا كان كذلك فما ظنك بالفاسق الذي يبذر ماله في الحرام ويترك أولاده يتكففون وجوه اللئام والكرام ، نعوذ بالله منه وهذا يدل على أن من يورث أولاده مالاً حلالاً يكتب له به صدقة ، ولهذا لم يجوز للمريض التصرف في أكثر من الثلث .

اللطيفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم ﴾ فهذا ينبغي أن يكون دليلاً على أنا في الآخرة نلحق بهم لأن في دار الدنيا مراعاة الأسباب أكثر .

(117/729)

ولهذا لم يجر الله عادته على أن يقدم بين يدي الإنسان طعاماً من السماء ، فما يتسبب له بالزراعة والطحن والعجن لا يأكله ، وفي الآخرة يؤتيه ذلك من غير سعي جزاء له على ما سعى له من قبل فينبغي أن يجعل ذلك دليلاً ظاهراً على أن الله تعالى يلحق به ولده وإن لم

يعمل عملاً صالحاً كما أتبعه ، وإن لم يشهد ولم يعتقد شيئاً .

اللطيفة الثالثة : في قوله تعالى : ﴿ بإيمان ﴾ فإن الله تعالى أتبع الولد الوالدين في الإيمان ولم يتبعه أباه في الكفر بدليل أن من أسلم من الكفار حكم بإسلام أولاده ، ومن ارتد من المسلمين والعياذ بالله لا يحكم بكفر ولده .

اللطيفة الرابعة : قال في الدنيا ﴿ اتبعناهم ﴾ وقال في الآخرة ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ﴾ وذلك لأن في الدنيا لا يدرك الصغير التبع مساوات المتبوع ، وإنما يكون هو تبعاً والأب أصلاً لفضل الساعي على غير الساعي ، وأما في الآخرة فإذا ألحق الله بفضله ولده به جعل له من الدرجة مثل ما لأبيه .

اللطيفة الخامسة : في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُم ﴾ تطييب لقلبهم وإزالة وهم المتوهم أن ثواب عمل الأب يوزع على الوالد والولد بل للوالد أجر عمله بفضل السعي ولأولاده مثل ذلك فضلاً من الله ورحمة .

اللطيفة السادسة : في قوله تعالى : ﴿ مِّنْ عَمَلِهِم ﴾ ولم يقل من أجرهم ، وذلك لأن قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم ﴾ دليل على بقاء عملهم كما كان والأجر على العمل مع الزيادة فيكون فيه الإشارة إلى بقاء العمل الذي له الأجر الكبير الزائد عليه العظيم العائد إليه ، ولو قال : ما ألتناهم من أجرهم ، لكان ذلك حاصلاً بأدنى شيء لأن كل ما يعطي الله عبده على عمله فهو أجر كامل ولأنه لو قال تعالى ما ألتناهم من أجرهم ، كان مع ذلك

يحتمل أن يقال إن الله تعالى تفضل عليه بالأجر الكامل على العمل الناقص ، وأعطاه الأجر الجزيل ، مع أن عمله كان له ولولده جميعاً ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(118/729)

قوله تعالى : ﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ عطف على ماذا ؟ نقول على قوله ﴿ إِنَّ المتقين ﴾ [الطور : 17] .

المسألة الثانية :

إذا كان كذلك فلم أعاد لفظ ﴿ الذين آمنواْ ﴾ وكان المقصود يحصل بقوله تعالى : ﴿ وألحقنا بهم ذرياتهم ﴾ بعد قوله ﴿ وزوجناهم ﴾ [الطور : 20] وكان يصير التقدير وزوجناهم وألحقنا بهم ؟ نقول فيه فائدة وهو أن المتقين هم الذين اتقوا الشرك والمعصية وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقال ههنا ﴿ الذين آمنواْ ﴾ أي بوجود الإيمان يصير ولده من أهل الجنة ، ثم إن ارتكب الأب كبيرة أو صغيرة على صغيرة لا يعاقب به ولده بل الوالد وربما يدخل الجنة الابن قبل الأب ، وفيه لطيفة معنوية ، وهو أنه ورد في الأخبار أن الولد الصغير يشفع لأبيه وذلك إشارة إلى الجزاء .

المسألة الثالثة :

هل يجوز غير ذلك ؟ نقول نعم يجوز أن يكون قوله تعالى : ﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ عطفاً على ﴿ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [الطور : 20] تقديره : زوجناهم بحور عين ، أي قرناهم بهن ، وبالذين آمنوا ، إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ إِخْوَانًا على سُرُرٍ متقابلين ﴾ [الحجر : 47] أي جمعنا شملهم بالأزواج والإخوان والأولاد بقوله تعالى : ﴿ وأتبعناهم ﴾ وهذا الوجه ذكره الزمخشري والأول أحسن وأصح ، فإن قيل كيف يصح على هذا الوجه الإخبار بلفظ الماضي مع أنه سبحانه وتعالى بعد ما قرن بينهم ؟ قلنا صح في وزوجناهم على ما ذكر الله تعالى من تزويجهن منا من يوم خلقهن وإن تأخر زمان الاقتران .

المسألة الرابعة :

قرىء ﴿ ذرياتهم ﴾ في الموضعين بالجمع وذريتهم فيهما بالفرد ، وقرىء في الأول ﴿ ذرياتهم ﴾ وفي الثانية ﴿ ذُرِّيَّتُهُم ﴾ فهل للثالث وجه ؟ نقول نعم معنوي لا لفظي وذلك لأن المؤمن تتبعه ذرياته في الإيمان ، وإن لم توجد على معنى أنه لو وجد له ألف ولد لكانوا أتباعه في الإيمان حكماً ، وأما الإلحاق فلا يكون حكماً إنما هو حقيقة وذلك في الموجود فالتابع أكثر من الملحوق فجمع في الأول وأفرد الثاني .

المسألة الخامسة :

ما الفائدة في تنكير الإيمان في قوله ﴿ وأتبعناهم ذُرياتهم بِإيمان ﴾ ؟ نقول هو إما التخصيص أو التنكير كأنه يقول : أتبعناهم ذرياتهم بإيمان مخلص كامل أو يقول أتبعناهم بإيمان ما أي شيء منه فإن الإيمان كاملاً لا يوجد في الولد بدليل أن من له ولد صغير حكم بإيمانه فإذا بلغ وصرّح بالكفر وأنكر التبعية قيل بأنه لا يكون مرتداً وتبين بقول إنه لم يتبع وقيل بأنه يكون مرتداً لأنه كفر بعد ما حكم بإيمانه كالمسلم الأصلي فإذن بهذا الخلاف تبين أن إيمانه يقوى وهذان الوجهان ذكرهما الزمخشري ، ويحتمل أن يكون المراد غير هذا وهو أن يكون التنوين للعوض عن المضاف إليه كما في قوله تعالى : ﴿ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة : 251] وقوله تعالى : ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ الله الحسنى ﴾ [النساء : 95] وبيانه هو أن التقدير أتبعناهم ذرياتهم بإيمان أي بسبب إيمانهم لأن الاتباع ليس بإيمان كيف كان وممن كان ، وإنما هو إيمان الآباء لكن الإضافة تنبىء عن تقييد وعدم كون الإيمان إيماناً على الإطلاق ، فإن قول القائل ماء الشجر وماء الرمان يصح وإطلاق اسم الماء من غير إضافة لا يصح فقوله ﴿ بإيمان ﴾ يوهم أنه إيمان مضاف إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إيمانهم لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ [غافر : 85] حيث أثبت الإيمان المضاف ولم يكن إيماناً ، فقطع

الإضافة مع إرادتها ليعلم أنه إيمان صحيح وعوض التنوين ليعلم أنه لا يوجب الأمان في الدنيا إلا إيمان الآباء وهذا وجه حسن .

(120/729)

ثم قال تعالى : ﴿ كُلُّ امرىء بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ قال الواحدي : هذا عود إلى ذكر أهل النار فإنهم مرتهنون في النار ، وأما المؤمن فلا يكون مرتهناً قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلاَّ أَصحاب اليمين ﴾ [المدثر : 38 ، 39] وهو قول مجاهد وقال الزمخشري ﴿ كُلُّ امرىء بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ عام في كل أحد مرهون عند الله بالكسب فإن كسب خيراً فك رقبته وإلا أربق بالرهن والذي يظهر منه أنه عام في حق كل أحد ، وفي الآية وجه آخر وهو أن يكون الرهين فعيلاً بمعنى الفاعل ، فيكون المعنى ، والله أعلم كل امرىء بما كسب راهن أي دائم ، إن أحسن ففي الجنة مؤبداً ، وإن أساء ففي النار مخلداً ، وقد ذكرنا أن في الدنيا دوام الأعمال بدوام الأعيان فإن العرض لا يبقى إلا في جوهر ولا يوجد إلا فيه ، وفي الآخرة دوام الأعيان بدوام الأعمال فإن الله يبقي أعمالهم لكونها عند الله تعالى من الباقيات الصالحات وما عند الله باق والباقي يبقى مع عامله .

وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22)

أي زدناهم مأكولاً ومشروباً ، أما المأكول فالفاكهة واللحم ، وأما المشروب فالكأس الذي يتنازعون فيها ، وفي تفسيرها لطائف :

(121/729)

اللطيفة الأولى : لما قال : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذرياتهم ﴾ [الطور : 21] بين الزيادة ليكون ذلك جارياً على عادة الملوك في الدنيا إذا زادوا في حق عبد من عبيدهم يزيدون في أقدار أخبازهم وأقطاعهم ، واختار من المأكول أرفع الأنواع وهو الفاكهة واللحم فإنهما طعام المتنعمين ، وجمع أوصافاً حسنة في قوله ﴿ مما يشتهون ﴾ ، لأنه لو ذكر نوعاً فربما يكون ذلك النوع غير مشتهى عند بعض الناس فقال كل أحد يعطى ما يشتهي ، فإن قيل الاشتهاء كالجوع وفيه نوع ألم ، نقول ليس كذلك ، بل الاشتهاء به اللذة والله تعالى لا يتركه في الاشتهاء بدون المشتهي حتى يتألم ، بل المشتهي حاصل مع الشهوة والإنسان في الدنيا لا يتألم إلا بأحد أمرين ، إما باشتهاء صادق وعجزه عن الوصول إلى المشتهي ، وإما بحصول أنواع الأطعمة والأشربة عنده وسقوط شهوته وكلاهما منتف في الآخرة .

اللطيفة الثانية : لما قال : ﴿ وَمَا أَلَتناهم ﴾ ونفي النقصان يصدق بحصول المساوي ، فقال ليس عدم النقصان بالاقتصار على المساوي ، بطريق آخر وهو الزيادة والإمداد ، فإن قيل

أكثر الله من ذكر الأكل والشرب ، وبعض العارفين يقولون لخاصة الله بالله شغل شاغل عن الأكل والشرب وكل ما سوى الله ، نقول هذا على العمل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الواقعة : 24] وقال : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : 16] وأما على العلم بذلك فذلك ، ولهذا قال : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ * سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [ياس : 57 ، 58] أي للنفوس ما تتفكه به ، للأرواح ما تتمناه من القربة والزلفى .

يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (23)

(122/729)

وقوله تعالى : ﴿ يتنازعون فِيهَا كَأْساً ﴾ فيكون ذلك على عادة الملوك إذا جلسوا في مجالسهم للشرب يدخل عليهم بفواكه ولحوم وهم على الشرب ، وقوله تعالى : ﴿ يتنازعون ﴾ أي يتعاطون ويحتمل أن يقال التنازع التجاذب وحينئذ يكون تجاذبهم تجاذب ملاعبة لا تجاذب منازعة ، وفيه نوع لذة وهو بيان ما هو عليه حال الشراب في الدنيا فإنهم يتفاخرون بكثرة الشرب ولا يتفاخرون بكثرة الأكل ، ولهذا إذا شرب أحدهم يرى الآخر واجباً أن يشرب مثل ما شربه حريفه ولا يرى واجباً أن يأكل مثل ما أكل نديمه

وجليسه .

وقوله تعالى : ﴿ لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ ﴾ وسواء قلنا ﴿ فِيهَا ﴾ عائدة إلى الجنة أو إلى الكأس فذكرهما لجريان ذكر الشراب وحكايته على ما في الدنيا ، فقال تعالى ليس في الشرب في الآخرة كل ما فيه في الدنيا من اللغو بسبب زوال العقل ومن التأثيم الذي بسبب نهوض الشهوة والغضب عند وفور العقل والفهم ، وفيه وجه ثالث ، وهو أن يقال لا يعتريه كما يعتري الشارب بالشرب في الدنيا فلا يؤثم أي لا ينسب إلى إثم ، وفيه وجه رابع ، وهو أن يكون المراد من التأثيم السكر ، وحينئذ يكون فيه ترتيب حسن وذلك لأن من الناس من يسكر ويكون رزين العقل عديم اعتياد العربدة فيسكن وينام ولا يؤذي ولا يتأذى ولا يهذي ولا يسمع إلى من هذى ، ومنهم من يعربد فقال : ﴿ لاَّ لَغْوٌ فِيهَا ﴾ .

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (24)

(123/729)

أي بالكؤوس وقال تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ولدان مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ [الواقعة : 17 ، 18] وقوله ﴿ لَهُمْ ﴾ أي ملكهم إعلاماً لهم بقدرتهم على التصرف فيهم بالأمر والنهي والاستخدام وهذا هو المشهور ويحتمل وجهاً آخر وهو أنه

تعالى لما بيّن امتياز خمر الآخرة عن خمر الدنيا بين امتياز غلمان الآخرة عن غلمان الدنيا ، فإن الغلمان في الدنيا إذا طافوا على السادة الملوك يطوفون عليهم لحظ أنفسهم إما لتوقع النفع أو لتوفر الصفح ، وأما في الآخرة فطوفهم عليهم متمخض لهم ولنفعهم ولا حاجة لهم إليهم والغلام الذي هذا شأنه له مزية على غيره وربما يبلغ درجة الأولاد . (1)

وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ ﴾ أي في الصفاء ، و ﴿ مَّكْنُونٌ ﴾ ليفيد زيادة في صفاء ألوانهم أو لبيان أنهم كالمخدرات لا بروز لهم ولا خروج من عندهم فهم في أكنافهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 213.218 ﴾

---

(1) اللام في لَهُمْ للملك أو التخصيص أي لا كسقاة الخمر في الدنيا يسقون كل شارب ، ويستجيبون لكل طالب .

(124/729)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾

لما ذكر حال الكفار ذكر حال المؤمنين أيضاً ﴿ فَاكِهِينَ ﴾ أي ذوي فاكهة كثيرة ؛ يقال : رجل فاكه أي ذو فاكهة ، كما يقال : لابِنٌ وتامِرٌ ؛ أي ذو لبن وتمر ؛ قال :

وغَرَرْتَنِي وزعمتَ أَن . . .

كَ لابِنٌ بالصَّيْفِ تَامِرْ

أي ذو لبن وتمر .

وقرأ الحسن وغيره : "فَكِهِينَ" بغير ألف ومعناه معجبين ناعمين في قول ابن عباس وغيره ؛

يقال : فَكِه الرجلُ بالكسر فهو فِكهٌ إذا كان طيّب النفس مزاحاً .

والفكه أيضاً الأشِر البطر .

وقد مضى في "الدخان" القول في هذا .

﴿ بِمَا آتَاهُمْ ﴾ أي أعطاهم ﴿ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ .

﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ أي يقال لهم ذلك .

﴿ هَنِيئاً ﴾ الهنيء ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر .

قال الزجاج : أي ليهنئكم ما صرتم إليه "هَنِيئاً" .

وقيل : أي مُتِّعتم بنعيم الجنة إمتاعاً هنيئاً .

وقيل : أي كلوا واشربوا هنئتم "هَنِيئاً" فهو صفة في موضع المصدر .

وقيل : "هَنِيئاً" أي حلالاً .

وقيل : لا أذى فيه ولا غائلة .

وقيل : "هَنِيئاً" أي لا تموتون ؛ فإن ما لا يبقى أو لا يبقى الإنسان معه منغص غير هنيء .

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ على سُرُرٍ ﴾ سُرُر جمع سرير وفي الكلام حذف تقديره : متكئين على نمارق سرر .

﴿ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ قال ابن الأعرابي : أي موصولة بعضها إلى بعض حتى تصير صفًّا .

وفي الأخبار أنها تصفّ في السماء بطول كذا وكذا ؛ فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت له ، فإذا جلس عليها عادت إلى حالها .

قال ابن عباس : هي سرر من ذهب مكلّلة بالزبرجد والدر والياقوت ، والسرير ما بين مكة وأيلة .

﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي قرنّاهم بهنّ .

قال يونس بن حبيب : تقول العرب زوجته امرأة وتزوّجت امرأة ؛ وليس من كلام العرب تزوّجت بامرأة .

(125/729)

قال : وقول الله عز وجل : ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي قرنّاهم بهنّ ؛ من قول الله تعالى : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصافات : 22] أي وقرناءهم .

وقال الفرّاء : تزوّجت بامرأة لغة في أزد شنوءة .

وقد مضى القول في معنى الحور العين .

قوله تعالى : ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم ﴾ قرأ العامة ﴿ واتبعتهم ﴾ بوصل الألف وتشديد التاء وفتح العين وإسكان التاء .

وقرأ أبو عمرو "وَأَتْبَعْنَاهُمْ" بقطع الألف وإسكان التاء والعين ونون ؛ اعتبارا بقوله : "أَلْحَقْنَا بِهِمْ" ؛ ليكون الكلام على نسق واحد .

فأما قوله : ﴿ ذُرِّيَّتُهُم ﴾ الأولى فقرأها بالجمع ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب ورواها عن نافع إلا أن أبا عمرو كسر التاء على المفعول وضم باقيهم .

وقرأ الباقون "ذُرِّيَّتُهُم" على التوحيد وضم التاء وهو المشهور عن نافع .

فأما الثانية فقرأها نافع وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بكسر التاء على الجمع .

الباقون "ذُرِّيَّتَهُمْ" على التوحيد وفتح التاء .

واختلف في معناه ؛ فقيل عن ابن عباس أربع روايات : الأولى أنه قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقرَّ بهم عينه ، وتلا هذه الآية .

ورواه مرفوعاً النحاس في "الناسخ والمنسوخ" له عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

"إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كان لم يبلغها بعمله لتقرَّ بهم عينه" ثم قرأ ﴿ والذين ءامنوا وأتبعناهم ذُرِّيَّاتِهِم بإيمان ﴾ الآية .

قال أبو جعفر : فصار الحديث مرفوعاً عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وكذا يجب أن يكون ؛ لأن ابن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه إخبار عن الله عز وجل بما يفعله وبمعنى أنه أنزلها جل ثناؤه .

(126/729)

الزمخشري : فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم ، وبمزاوجة الحور العين ، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين ، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم .

وعن ابن عباس أيضاً أنه قال : إن الله ليلحِق بالمؤمن ذرّيته الصّغار الذين لم يبلغوا الإيمان ؛ قاله المهدوي .

والذرية تقع على الصغار والكبار ، فإن جعلت الذرية ها هنا للصغار كان قوله تعالى : "بِإِيمَانٍ" في موضع الحال من المفعولين ، وكان التقدير "بِإِيمَانٍ" من الآباء .

وإن جعلت الذرية للكبار كان قوله : "بِإِيمَانٍ" حالاً من الفاعلين .

القول الثالث عن ابن عباس : أن المراد بالذين آمنوا المهاجرون والأنصار والذرية التابعون .

وفي رواية عنه : إن كان الآباء أرفع درجة رفع الله الأبناء إلى الآباء ، وإن كان الأبناء أرفع درجة رفع الله الآباء إلى الأبناء ؛ فالآباء داخلون في اسم الذرّية ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ

أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفلك المشحون ﴾ [يس : 41] .

وعن ابن عباس أيضاً يرفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخل أهل الجنة الجنة سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده فيقال لهم إنهم لم يدركوا ما أدركت فيقول يا ربّ إني عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به "

" وقالت خديجة رضي الله عنها : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن ولدين لي ماتا في الجاهلية فقال لي : "هما في النار" فلما رأى الكراهية في وجهي قال : "لو رأيتِ مكانهما لأبغضتِهما" قالت : يا رسول الله فولدي منك ؟ قال : "في الجنة" ثم قال "إن المؤمنين وأولادهم في الجنة والمشركين وأولادهم في النار" ثم قرأ : ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ﴾ " الآية .

﴿ وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ أي ما نقصنا الأبناء من ثواب أعمالهم لقصر أعمارهم ، وما نقصنا الآباء من ثواب أعمالهم شيئاً بإلحاق الذريات بهم .

(127/729)

والهاء والميم راجعان إلى قوله تعالى : ﴿ والذين آمَنُواْ ﴾ .

وقال ابن زيد : المعنى ﴿ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ﴾ ألحقنا بالذّرية أبناءهم الصغار الذين لم

يبلغوا العمل ؛ فالهاء والميم على هذا القول للذرّية .

وقرأ ابن كثير "وَمَا أَلِتْنَاهُمْ" بكسر اللام .

وفتح الباقون .

وعن أبي هريرة "آلَتْنَاهُمْ" بالمدّ ؛ قال ابن الأعرابي : أَلَتَه يألِته أَلْتاً ، وآلَتَه يُؤْلته إيلاَتاً ، ولاَتَه يَليته لَيْتاً كلها إذا نَقَصه .

وفي الصحاح : ولاَتَه عن وجهه يَلُوته ويَليته أي حبسه عن وجهه وصرفه ، وكذلك ألاَته عن وجهه فَعَل وأَفْعَل بمعنى ، ويقال أيضاً : ما أَلاَته من عمله شيئاً أي ما نَقَصه مثل أَلَته وقد مضى ب"الحجرات" .

﴿ كُلُّ امرىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ قيل : يرجع إلى أهل النار .

قال ابن عباس : ارتهن أهل جهنم بأعمالهم وصار أهل الجنة إلى نعيمهم ؛ ولهذا قال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ .

إِلاَّ أَصْحَابَ اليمين ﴾ [المدثر : 38 - 39] .

وقيل : هو عام لكل إنسان مُرْتَهن بعمله فلا ينقص أحد من ثواب عمله ، فأما الزيادة على ثواب العمل فهي تفضل من الله .

ويحتمل أن يكون هذا في الذرّية الذين لم يؤمنوا فلا يلحقون آباءهم المؤمنين بل يكونون مُرْتَهنين بكفرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي أكثرنا لهم من ذلك زيادة من الله ، أمدّهم بها غير الذي كان لهم .

قوله تعالى : ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً ﴾ أي يتناولها بعضهم من بعض وهو المؤمن وزوجاته وخدمه في الجنة .

والكأس : إناء الخمر وكل إناء مملوء من شراب وغيره ؛ فإذا فرغ لم يسم كأساً .

وشاهد التنازع والكأس في اللغة قول الأخطل :

وشَارِب مُرْبِح بالكأس نَادَمَنِي . . .

لا بالْحَصُور ولا فيها بسَوَّارِ

نَازَعْتُه طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُول وقَدْ . . .

صَاحَ الدَّجَاجُ وحَانَتْ وَقْعَةُ السَّارِي

(128/729)

وقال امرؤ القيس :

فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الحديثَ وأَسْمَحَتْ . . .

هَصَرْتُ بغصنٍ ذِي شَمَارِيخَ مَيَّالِ

وقد مضى هذا في "والصافات" .

﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أي في الكأس أي لا يجري بينهم لغو ﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ ولا ما فيه إثم .

والتأثيم تفعيل من الإثم ؛ أي تلك الكأس لا تجعلهم آثمين لأنه مباح لهم .

وقيل : "لَا لَغْوٌ فِيهَا" أي في الجنة .

قال ابن عطاء : أيُّ لغوٍ يكون في مجلس محلّه جنة عدن ، وسقاتهم الملائكة ، وشربهم على ذكر الله ، وريحانهم وتحيتهم من عند الله ، والقوم أضياف الله ! ﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ أي ولا كذب ؛ قاله ابن عباس .

الضحاك : يعني لا يكذب بعضهم بعضاً .

وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو : "لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمَ" بفتح آخره .

الباقون بالرفع والتنوين .

وقد مضى هذا في "البقرة" عند قوله تعالى : ﴿ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾ [البقرة : 254] والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ أي بالفواكه والتُّحف والطعام والشراب ؛ ودليله : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ [الزخرف : 71] ، ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ [الصافات : 45] .

ثم قيل : هم الأطفال من أولادهم الذين سبقوهم ، فأقرّ الله تعالى بهم أعينهم .

وقيل : إنهم من أخدمهم الله تعالى إياهم من أولاد غيرهم .

وقيل : هم غلمان خلقوا في الجنة .

قال الكلبي : لا يكبرون أبداً ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ في الحسن والبياض ﴿ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ في الصَّدَف ، والمكنون المصون .

وقوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ قيل : هم أولاد المشركين وهم خدم أهل الجنة .

وليس في الجنة نَصَب ولا حاجة إلى خدمة ، ولكنه أخبر بأنهم على نهاية النعيم .

(129/729)

وعن عائشة رضي الله عنها : أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدمه فيجيبه ألفٌ كلّهم لبّيك لبّيك " وعن عبد الله بن عمر قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام كل غلام على عمل ليس عليه صاحبه " وعن الحسن أنهم قالوا : يا رسول الله إذا كان الخادم كاللؤلؤ فكيف يكون المخدوم ؟ فقال : " ما بينهما كما بين القمر ليلة البدر وبين أصغر الكواكب " قال الكسائي : كننت الشيء سترته وصنته من الشمس ، وأكننته في نفسي

أسررته .

وقال أبو زيد : كننته وأكننته بمعنًى في الْكِنّ وفي النفس جميعاً ؛ تقول : كننت العلم وأكننته فهو مكنون ومُكَنّ .

وكننت الجارية وأكننتها فهي مكنونة ومُكَنَّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(130/729)

وقال الثعالبى :

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَنَعِيمٍ . . . ﴾ الآية :

يحتمل أَنْ يكونَ من خطاب أهل النار ، فيكون إخبارُهم بذلك زيادةً في غَمِّهِمْ وسُوءِ حالهم ، نعوذ باللَّه من سخطه ! ويحتمل ، وهو الأظهر ، أَنْ يكون إخباراً للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ومعاصريه ، لما فَرَغَ من ذكر عذاب الكفار عَقَّبَ بذكر نعيم المتقين جعلنا اللَّه منهم بفضله ليبين الفرقَ ، ويقعَ التحريضُ على الإيمان ، والمتقون هنا : مُتَّقُو الشرك ؛ لأَنَّهم لا بُدَّ من مصيرهم إلى الجنات ، وكلما زادت الدرجة في التقوى قَوِيَ الحصولُ في حكم الآية ، حَتَّى إنَّ المتقين على الإطلاق هم في هذه الآية قطعاً على اللَّه تعالى بحكم خبره الصادق ،

وقرأ جمهور الناس : «فاكهين» ومعناه : فَرِحِينَ مسرورين ، وقال أبو عُبَيْدَةَ : هو من باب : «لاَبِنٌ» و«تَامِرٌ» ، أي : لهم فاكهة ، قال *ع* : والمعنى الأَوَّلُ أبرع ، وقرأ خالد فيما روى أبو حاتم : «فَكِهِينَ» والفَكِهُ والفاكه : المسرور المتنعم .

وقوله تعالى : ﴿ بِمَا ءاتاهم رَبُّهُمْ ﴾ أي : من إنعامه ورضاه عنهم .

وقوله تعالى : ﴿ ووقاهم رَبُّهُمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ هذا متمكن في مُتَّقِي المعاصي ، الذي لا يدخل النارَ ﴿ ووقاهم ﴾ مشتق من الوقاية ، وهي الحائل بين الشيء وبين ما يضرُّه .

وقوله : ﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ أي : يقال لهم : كلوا واشربوا ، و ﴿ هَنِيئًا ﴾ نُصِبَ على المصدر .

(131/729)

وقوله : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ معناه : أَنَّ رُتَبَ الجنة ونعيمها بحسب الأعمال ، وأَمَّا نَفْسُ دخولها فهو برحمة اللَّه وفضلِهِ ، وأعمالُ العباد الصالحاتُ لا تُوجِبُ على اللَّه تعالى التنعيمَ إيجاباً ؛ لكِنَّهُ سبحانه قد جعلها أَمارةً على مَنْ سبق في علمه تنعيمه ، وعَلَّقَ الثوابَ والعِقَابَ بالتكسب الذي في الأعمال ، والحُورُ : جمع حَوْرَاءُ ، وهي البيضاء القويةُ بياضِ بياضِ العَيْنِ وَسَوَادِ سَوَادِها ، والعِينُ : جمع عَيْنَاءُ ، وهي كبيرة العينين مع جمالهما ، وفي

قراءة ابن مسعود والنَّخَعِيِّ : «وَزَوَّجْنَاهُمْ بِعِيسٍ عِينٍ» قال أبو الفتح : العَيْسَاءُ : البيضاء .

(132/729)

وقوله سبحانه : ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ اخْتُلِفَ في معنى الآية ، فقال ابن عباس ، وابن جبير ، والجمهور : أخبر اللَّه تعالى أَنَّ المؤمنين الذين اتبعتهم ذريتهم في الإيمان يلحق الأبناء في الجنة بمراتب الآباء ، وإنْ لم يكن الأبناء في التقوى والأعمال كالآباء ؛ كرامةً للآباء ، وقد ورد في هذا المعنى حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فجعلوا الحديثَ تفسيراً للآية ، وكذلك وردت أحاديث تقتضي أَنَّ اللَّه تعالى يرحم الآباء ؛ رعياً للأبناء الصالحين ، وقال ابن عباس أيضاً والضَّحَّاكُ . معنى الآية : أَنَّ اللَّه تعالى يلحق الأبناء الصغار بأحكام الآباء المؤمنين ، يعني في الموارثة والدفن في مقابر المسلمين ، وفي أحكام الآخرة في الجنة ، وقال منذر بن سعيد : هي في الصغار لا في الكبار ؛ قال *ع* : وأرجح الأقوال في هذه الآية القول الأَوَّل ؛ لأَنَّ الآياتِ كلَّها في صفة إحسان اللَّه تعالى إلى أهل الجنة ، فذكر من جملة إحسانِهِ سبحانه أَنَّه يرْعَى المحسنَ في المسيء ، ولفظة ﴿ أَلْحَقْنَا ﴾ تقتضي أَنَّ لِلْمُلْحَقِ بعضَ التقصير في الأعمال .

* ت * : وأظهرُ مَنْ هذا ما أشار إليه الثعلبيُّ في بعض أنقاله : أَنَّ اللَّه تعالى يجمع لعبده المؤمن ذُرِّيَّتَهُ في الجنة ، كما كانوا في الدنيا ، انتهى ، ولم يتعرَّضْ لذكر الدرجات في هذا التأويل ، وهو أحسن ؛ لأَنَّهُ قد تقرَّرَ أَنَّ رفع الدرجات هي بأعمال العاملين ، والآياتُ والأحاديث مُصَرِّحَةٌ بذلك ، ولما يلزم على التأويل الأَوَّلِ أَنْ يكونَ كُلُّ مَنْ دخل الجنةَ مع آدم عليه السلام في درجةٍ واحدة ؛ إذ هم كُلُّهم ذرِّيَّتُهُ ، وقد فتحتُ لك باباً للبحث في هذا المعنى منعني من إتمامه ما قصدته من الاختصار ، وباللَّه التوفيق .

(133/729)

وقوله : ﴿ وَمَا أَلَتناهم ﴾ أي : نقصناهم ، ومعنى الآية أَنَّ اللَّه سبحانهُ يُلْحِقُ الأبناء بالآباء ، ولا يُنْقِصُ الآباء من أجورهم شيئاً ، وهذا تأويل الجمهور ، ويحتمل أَنْ يريدَ : مِنْ عمل الأَبناء من شيء من حسن أو قبيح ، وهذا تأويل ابن زيد ، ويُؤَيِّدُهُ قوله سبحانه : ﴿ كُلُّ امرىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ والرهين : المُرْتَهِنُ ، وفي هذه الألفاظ وعيد ، وأمددتُ الشيءَ : إذا سرَّبْتُ إليه شيئاً آخر يكثره أو يكثر لديه .

وقوله : ﴿ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ إشارة إلى ما رُوِيَ من أَنَّ المُنَعَّمَ إذا اشتهى لحماً نزل ذلك الحيوان بين يديه على الهيئة التي اشتهاه فيها ، وليس يكون في الجنة لحم يحتز ، ولا يُتَكَلَّفُ

فيه الذبح ، والسلخ ، والطبخ ، وبالجملة لا كُلْفَةَ في الجنة ، و ﴿ يتنازعون ﴾ معناه : يتعاطون ؛ ومنه قول الأخطل : [البسيط]

نَازَعْتُهُ طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُولِ وَقَد . . . صَاحَ الدَّجَاجُ وَحَانَتْ وَقْعَةُ السَّارِي

قال الفخر : ويحتمل أنْ يقال : التنازع : التجاذُبُ ، وحينئذ يكون تجاذُبُهُمْ تجاذبَ مُلاَعَبَةٍ ، لا تجاذب منازعة ، وفيه نوعُ لَذَّةٍ ، وهو بيان لما عليه حال الشُرَّابِ في الدنيا ؛ فإنَّهم يتفاخرون بكثرة الشرب ، ولا يتفاخرون بكثرة الأكل ، انتهى ، والكأس : الإِناء فيه الشراب ، ولا يقال في فارغ كأس ؛ قاله الزَّجَّاج ، واللغو : السَّقَطُ من القول ، والتأثيم : يلحق خَمْرَ الدنيا في نفس شُرْبِهَا وفي الأفعال التي تكون من شاربيها ، وذلك كُلُّه مُنْتَفٍ في الآخرة .

(134/729)

---

* ت * : قال الثعلبيُّ : وقال ابن عطاء : أيُّ لغوٍ يكون في مجلس : مَحَلُّهُ جَنَّةُ عدن ، والساقي فيه الملائكة ، وشربُهم على ذكر اللَّه ، وريحانُهم تحيَّةٌ من عند اللَّه ، والقومُ أضياف اللَّه .

(135/729)

﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ أي: فعل يُؤْثِمُهُمْ، وهو تفعيل من الإثم، أي: لا يأثمونَ في شربها، انتهى

واللؤلؤ المكنون أجملُ اللؤلؤ؛ لأَنَّ الصون والكَنَّ يُحَسِّنُهُ، قال ابن جبير: أراد الذي في الصَّدَفِ لم تنله الأيدي، وقيل للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: "إِذَا كَانَ الْغِلْمَانُ كَاللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ فَكَيْفَ الْمَخْدُومُونَ؟ قال: هُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ". * ت *: وهذا تقريب للأفهام، وإلاَّ فجمال أهلِ الجَنَّةِ أَعْظَمُ من هذا، يَدُلُّ على ذلك أحاديث صحيحة؛ ففي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرةَ رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ - وفي رِوَايَةٍ: «مِنْ أُمَّتِي» عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ على أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً"، وفي رواية: "ثُمَّ هُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنَازِلُ" الحديثَ، وفي «صحيح مسلم» أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقاً يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ، فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ، وَيَزْدَادُونَ حُسْناً وَجَمَالاً، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: واللَّهِ، لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْناً وَجَمَالاً! فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ واللَّهِ، لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْناً وَجَمَالاً"، انتهى، وقد أشار الغَزَّاليُّ وغيره إلى طَرَفٍ من هذا المعنى، لَمَّا تكلَّم على رؤية العارفين للَّه سبحانه في الآخرة، قال بعد كلام: ولا يَبْعُدُ أَنْ تكونَ ألطاف الكشف والنظر في الآخرة متواليةً إلى غير نهاية، فلا يزالُ النعيمُ

واللَّذَّةُ متزايداً أَبَدَ الآبادِ ، وللشيخ أبي الحسن الشاذلي هنا كلام حسن قال : لو كُشِفَ عن نور المؤمن لعبد من دون اللَّه ، ولو

(136/729)

كُشِفَ عن نور المؤمن العاصي لطبق السماء والأرض ، فكيف بنور المؤمن المطيع ؟ ! نقل كلامه هذا ابن عطاء اللَّه وابن عَبَّاد ، انظره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(137/729)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَنَعِيمٍ ﴾

شروع في ذكر حال المؤمنين بعد ذكر حال الكافرين كما هو عادة القرآن الجليل في "الترهيب والترغيب" ، وجوز أن يكون من جملة المقول للكفار إذ ذاك زيادة في غمهم وتنكيدهم والأول أظهر ، والتنوين في الموضعين للتعظيم أي في جنات عظيمة ونعيم عظيم ، وجوز أن

يكون للنوعية أي نوع من الجنات ، ونوع من النعيم مخصوصين بهم وكونه عوضاً عن المضاف إليه أي جناتهم ونعيمهم ليس بالقوى كما لا يخفى .

﴿ فاكهين ﴾ متلذذين ﴿ بِمَا ءاتاهم رَبُّهُمْ ﴾ من الإحسان ، وقرىء فكهين بلا ألف ، ونصبه في القراءتين على الحال من الضمير المستتر في الجار والمجرور أعني ﴿ في جنات ﴾ [الطور : 17] الواقع خبراً لأن ، وقرأ خالد فاكهون بالرفع على أنه الخبر ، وفي جنات متعلق به لكنه قدم عليه للاهتمام ، ومن أجاز تعدد الخبر أجاز أن يكون خبراً بعد خبر ﴿ ووقاهم رَبُّهُمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ عطف على ﴿ فِي جنات ﴾ [الطور : 17] على تقدير كونه خبراً كأنه قيل : استقروا ﴿ فِي جنات ﴾ ﴿ ووقاهم رَبُّهُمْ ﴾ الخ ، أو على ﴿ ءاتاهم ﴾ إن جعلت ﴿ مَا ﴾ مصدرية أي فاكهين بإيتائهم ربهم ووقايتهم عذاب الجحيم ، ولم يجوز كثير عطفه عليه إن جعلت موصولة إذ يكون التقدير فاكهين بالذي وقاهم ربهم فلا يكون راجع إلى الموصول ، وجوزه بعض بتقدير الراجع أي وقاهم به على أن الباء للملابسة ، وفي "الكشف" لم يحمل على حذف الراجع لكثرة الحذف ولو درج لصاً ، والفعل من المتعدي إلى ثلاثة مفاعيل وهو مسموع عند بعضهم ، ولا يخفى أنه وجه سديد أيضاً ، والمعنى عليه أسد لأن الفكاهة تلذذ يشتغل به صاحبه والتلذذ بالايتاء يحتمل التجدد باعتبار تعدد المؤتى إما بالوقاية أي على تقدير المصدرية فلا ، وأقول لعله هو المنساق إلى الذهن ، وجوز أن يكون حالاً بتقدير قد أو بدونه إما من المستكن في الخبر أو

في الحال .

وإما من فاعل آتى .

أو من مفعوله .

(138/729)

أو منهما ، وإظهار الرب في موقع الإضمار مضافاً إلى ضميرهم للتشريف والتعليل .

وقرأ أبو حيوة ﴿ وقاهم ﴾ بتشديد القاف .

﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئَاً ﴾ أي يقال لهم ﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ أكلا وشربا هنيئاً ، أو طعاماً وشراباً هنيئاً ، فالكلام بتقدير القول ، و﴿ هَنِيئَاً ﴾ نصب على المصدرية لأنه صفة مصدر .

أو على أنه مفعول به ، وأياً مّا كان فقد تنازعه الفعلان ، والهنيء كل ما لا يلحق فيه مشقة ولا يعقب وخامة ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي بسببه أو بمقابلته والباء عليهما متعلق بكلوا واشربوا على التنازع ، وجوز الزمخشري كونها زائدة وما بعدها فاعل هنيئاً كما في قول كثير

: هنيئاً مريئاً غير داء مخامر . . .

لعزة من أعراضنا ما استحلت

فإن ما فيه فاعل هنيئاً على أنه صفة في الأصل بمعنى المصدر المحذوف فعله وجوباً لكثرة الاستعمال كأنه قيل : هنؤ لعزة المستحل من أعراضنا ، وحينئذ كما يجوز أن يجعل ما هنا فاعلاً على زيادة الباء على معنى هنأكم ما كنتم تعملون يجوز أن يجعل الفاعل مضمراً راجعاً إلى الأكل أو الشرب المدلول عليه بفعله ، وفيه أن الزيادة في الفاعل لم تثبت سماعاً في السعة في غير فاعل ﴿ كفى ﴾ [النساء : 6] على خلاف ولا هي قياسية في مثل هذا ومع ذلك يحتاج الكلام إلى تقدير مضاف أي جزاء ما كنتم الخ ، وفيه نوع تكلف .

(139/729)

﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ نصب على الحال قال أبو البقاء : من الضمير في ﴿ كُلُواْ ﴾ [الطور : 19] أو في ﴿ وقاهم ﴾ [الطور : 18] أو في ﴿ مَا ءاتاهم ﴾ أو في ﴿ فاكهين ﴾ أو في الظرف يعني ﴿ في جنات ﴾ [الطور : 17] ، واستظهر أبو حيان الأخير ﴿ على سُرُرٍ ﴾ جمع سرير معروف ، ويجمع على أسرّة وهو من السرور إذ كان لأولى النعمة ، وتسمية سرير الميت به للتفاؤل بالسرور الذي يلحق الميت برجوعه إلى جوار الله تعالى وخلاصه من سجن الدنيا ، وقرأ أبو السمال سرر بفتح الراء وهي لغة لكلب في المضعف فراراً من

توالي ضمتين مع التضعيف .

﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ مجعولة على صف وخط مستو ﴿ وزوجناهم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي قرناهم بهن قاله الراغب ثم قال : ولم يجيء في القرآن زوجناهم حوراً كما يقال زوجته امرأة تنبيهاً على أن ذلك لا يكون على حسن المتعارف فيما بيننا من المناكحة ، وقال الفراء : تزوجت بامرأة لغة أزد شنوءة ، والمشهور أن التزوج متعد إلى مفعول واحد بنفسه والتزويج متعد بنفسه إلى مفعولين ، وقيل : فيما هنا أن الباء لتضمين الفعل معنى القران أو الإلصاق ، واعترض بأنه يقتضي معنى التزويج بالعقد وهو لا يناسب المقام إذ العقد لا يكون في الجنة لأنها ليست دار تكليف أو أنها للسببية والتزويج ليس بمعنى الانكاح بل بمعنى تصييرهم زوجين زوجين أي صيرناهم كذلك بسبب حور عين ، وقرأ عكرمة بحور عين على إضافة الموصوف إلى صفته بالتأويل المشهور ، وقوله تعالى :

(140/729)

﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ الخ كلام مستأنف مسوق لبيان حال طائفة من أهل الجنة إثر بيان حال الكل وهم الذي شاركتهم ذريتهم في الايمان ، والموصول مبتدأ خبره ألحقنا بهم ، وقوله تعالى : ﴿ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم ﴾ عطف على آمنوا ، وقيل اعتراض للتعليل ، وقوله تعالى :

﴿ بإيمان ﴾ متعلق بالاتباع أي أتبعتهم ذريتهم بإيمان في الجملة قاصر عن رتبة إيمان الآباء إما بنفسه بناءاً على تفاوت مراتب نفس الايمان ، وإما باعتبار عدم انضمام أعمال مثل أعمال الآباء إليه ، واعتبار هذا القيد للإيذان بثبوت الحكم في الايمان الكامل أصالة لا إلحاقاً قيل : هو حال من الذرية ، وقيل : من الضمير وتنوينه للتعظيم ، وقيل : منهما وتنوينه للتنكير والمعول عليه ما قدمنا ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ في الدرجة .

أخرج سعيد بن منصور .

وهناد .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والحاكم .

والبيهقي في "سننه" عن ابن عباس قال : " إن الله تعالى ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقرّ بهم عينه ثم قرأ الآية " وأخرجه البزار .

وابن مردويه عنه مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي رواية ابن مردويه .

والطبراني عنه أنه قال : " إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال له : إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك فيقول : يا رب قد عملت

لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به " وقرأ ابن عباس الآية ، وظاهر الأخبار أن المراد بإلحاقهم بهم إسكانهم معهم لا مجرد رفعهم إليهم واتصالهم بهم أحياناً ولو للزيارة .

(141/729)

وثبوت ذلك على العموم لا يبعد من فضل الله عز وجل ، وما قيل : لعله مخصوص ببعض دون بعض تحجير لإحسانه الواسع جل شأنه ، وقد يستأنس للتخصيص بما روى عن ابن عباس إن الذين آمنوا المهاجرون والأنصار ، والذرية التابعون لكن لا أظن صحته ﴿ وَمَا ألتناهم ﴾ أي وما نقنصا الآباء بهذا الإلحاق ﴿ مّنْ عَمَلِهِم ﴾ أي من ثواب عملهم ﴿ مِن شَىْء ﴾ أي شيئاً بأن أعطينا بعض مثوباتهم أبناءهم فتنقص مثوباتهم وتنحط درجتهم وإنما رفعناهم إلى منزلتهم بمحض التفضل والإحسان ، وقال ابن زيد الضمير عائد على الأبناء أي وما نقصنا الأبناء الملحقين من جزاء عملهم الحسن والقبيح شيئاً بل فعلنا ذلك بهم بعد مجازاتهم بأعمالهم كملاً وليس بشيء وإن قال أبو حيان يحسن هذا الاحتمال قوله تعالى : ﴿ كُلُّ امرىء بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ وإلى الأول ذهب ابن عباس .

وابن جبير .

والجمهور .

والآية على ما ذهب إليه المعظم في الكبار من الذرية ، وقال منذر بن سعيد : هي في الصغار .

وروى عن الحبر .

(142/729)

والضحاك أنهما قالا : إن الله تعالى يلحق الأبناء الصغار وإن لم يبلغوا زمن الايمان بآبائهم المؤمنين ، وجعل بإيمان عليه متعلقاً بألحقنا أي ألحقنا بسبب إيمان الآباء بهم ذريتهم الصغار الذين ماتوا ولم يبلغوا التكليف فهم في الجنة مع آبائهم قيل : وكأن من يقول بذلك يفسر ﴿ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم ﴾ بماتوا ودرجوا على أثرهم قبل أن يبلغوا الحلم ، وجوز أن يتعلق بإيمان بابتعتم على معنى اتبعوهم بهذا الوصف بأن حكم لهم به تبعاً لآبائهم فكانوا مؤمنين حكماً لصغرهم وإيمان آبائهم ، والصغير يحكم بإيمانه تبعاً لأحد أبويه المؤمن والكل كما ترى ، وقيل : الموصول معطوف على ﴿ حور ﴾ [الطور : 20] ، والمعنى قرناهم بالحور وبالذين آمنوا أي بالرفقاء والجلساء منهم فيتمتعون تارة بملاعبة الحور ؛ وأخرى بمؤانسة الإخوان المؤمنين ، وقوله تعالى : ﴿ واتبعتهم ﴾ عطف على ﴿ زوجناهم ﴾ [الطور : 20] ، وقوله سبحانه : بإيمان متعلق بما بعده أي بسبب إيمان عظيم رفيع المحل ، وهو إيمان الآباء

ألحقنا بدرجاتهم ذريتهم وإن كانوا لا يستأهلونها تفضلاً عليهم وعلى آبائهم ليتم سرورهم ويكمل نعيمهم ، أو بسبب إيمان داني المنزلة وهو إيمان الذرية كأنه قيل : بشيء من الإيمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم ، وصنيع الزمخشري ظاهر في اختيار العطف على حور فقد ذكره وجهاً أول ، وتعقبه أبو حيان بأنه لا يتخيل ذلك أحد غير هذا الرجل ، وهو تخيل أعجمي مخالف لفهم العربي القح كابن عباس .

وغيره ، وقيل عليه : إنه تعصب منه ، والإنصاف أن المتبادر الاستئناف ، وإن أحسن الأوجه في الآية وأوفقه للمقام ما تقدم .

(143/729)

وقرأ أبو عمرو ﴿ وأتبعناهم ﴾ بقطع الهمزة وفتحها ، وإسكان التاء ، ونون بعد العين وألف بعدها أي جعلناهم تابعين لهم في الإيمان ، وقرأ أيضاً ذرياتهم جمعاً نصباً ، وابن عامر كذلك رفعاً ، وقرأ ذرياتهم بكسر الذال ﴿ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم ﴾ بتاء الفاعل ، ونصب ذريتهم على المفعولية ، وقرأ الحسن .

وابن كثير ألتناهم بكسر اللام من ألت يألت كعلم يعلم ، وعلى قراءة الجمهور من باب ضرب يضرب ، وابن هرمز آلتناهم بالمد من آلت يؤلت ، وابن مسعود .

وأبيّ لتناهم من لات يليت وهي قراءة طلحة .

والأعمش ، ورويت عن شبل .

وابن كثير ، وعن طلحة .

والأعمش ، ورويت عن شبل .

وابن كثير ، وعن طلحة .

والأعمش أيضاً لتناهم بفتح اللام ، قال سهل : لا يجوز فتح اللام من غير ألف بحال وأنكر أيضاً آلتناهم بالمد ، وقال : لا يروى عن أحد ولا يدل عليه تفسير ولا عربية وليس كما قال بل نقل أهل اللغة آلت بالمد كما قرأ هرمز ، وقرىء وما ولتناهم من ولت يلت ، ومعنى الكل واحد ، وجاء ألت بمعنى غلظ يروى أن رجلاً قام إلى عمر رضي الله تعالى عنه فوعظه فقال : لا تألت على أمير المؤمنين أي لا تغلظ عليه ﴿ كُلُّ امرىءٍ بِمَا كَسَبَ ﴾ أي بكسبه وعمله ﴿ رَهِينٌ ﴾ أي مرهون عند الله كأن الكسب بمنزلة الدين ونفس العبد بمنزلة الرهن ولا ينفك الرهن ما لم يؤدّ الدين فإن كان العمل صالحاً فقد أدى لأن العمل الصالح يقبله ربه سبحانه ويصعد إليه عز وجل وإن كان غير ذلك فلا أداء فلا خلاص إذ لا يصعد إليه سبحانه غير الطيب ، ولذا قال جل وعلا :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلاَّ أَصحاب اليمين ﴾ [المدثر : 38 ، 39] فإن المراد

كل نفس رهن بكسبها عند الله تعالى غير مفكوك إلا أصحاب اليمين فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم .

(144/729)

ووجه الاتصال على هذا أنه سبحانه لما ذكر حال المتقين وأنه عز وجل وفر عليهم ما أعده لهم من الثواب والتفضل عقب بذلك الكلام ليدل على أنهم فكوا رقابهم وخلصوها وغيرهم بقي معذباً لأنه لم يفك رقبته ، وكان موضعه من حيث الظاهر أن يكون عقيب قوله تعالى : ﴿ هُوَ البر الرحيم ﴾ [الطور : 28] ليكون كلاماً راجعاً إلى حال الفريقين المدعوين .

والمتقين وإنما جعل متخللاً بين أجزية المتقين عقيب ذكر توفير ما أعدّ لهم ، قال في "الكشف" : ليدل على أن الخلاص من بعض أجزيتهم أيضاً ويلزم أن عدم الخلاص جزاء المقابلين من طريق الإيماء وموقعه موقع الاعتراض تحقيقاً لتوفير ما عدد لأنه إنما يكون بعد الخلاص ، وفيه إيماء إلى أن إلحاق الأبناء إنما كان تفضلاً على الآباء لا على الأبناء ابتداءاً لأن التفضل فرع الفك وهؤلاء هم الذين فكوا فاستحقوا التفضل ، وجعله استئنافاً بيانياً لهذا المعنى كما فعل الطيبي بعيد ، وقيل : ﴿ رَهِينٌ ﴾ فعيل بمعنى الفاعل والمعنى كل

امرىء بما كسب راهن أي دائم ثابت ، وفي "الإرشاد" أنه أنسب بالمقام فإن الدوام يقتضي عدم المفارقة بين المرء وعمله ، ومن ضرورته أن لا ينقص من ثواب الآباء شيء ، فالجملة تعليل لما قبلها ، وأنت تعلم أن فعيلاً بمعنى المفعول أسرع تبادراً إلى الذهن فاعتباره أولى ووجه الاتصال عليه أوفق وألطف كما لا يخفى .

﴿ وأمددناهم بفاكهة وَلَحْمٍ مّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي وزدناهم على ما كان لهم من مبادىء التنعم وقتاً فوقتاً مما يشتهون من فنون النعماء وألوان الآلاء ، وأصل المدّ الجر ، ومنه المدّة للوقت الممتد ثم شاع في الزيادة ، وغلب الإمداد في المحبوب ، والمدّ في المكروه وكونه وقتاً بعد وقت مفهوم المدّ نفسه .

﴿ يتنازعون فِيهَا كَأْساً ﴾ أي يتجاذبونها في الجنة هم وجلساؤهم تجاذب ملاعبة كما يفعل ذلك الندامى بينهم في الدنيا لشدة سرورهم قال الأخطل

: نازعته طيب الراح الشمول وقد . . .

(145/729)

صاح الدجاج وحانت وقعة الساري

وقيل : التنازع مجاز عن التعاطي ، والكأس مؤنث سماعي كالخمر ، ولا تسمى كأساً على

المشهور إلا إذا امتلأت خمراً أو كانت قريبة من الامتلاء ، وقد تطلق على الخمر نفسها مجازاً لعلاقة المجاورة ، وقال الراغب : الكأس الإناء بما فيه من الشراب ويسمى كل واحد منهما بانفراده كأساً ، وفسرها بعضهم هنا بالإناء بما فيه من الخمر ، وبعضهم بالخمر ، والأول : أوفق بالتجاذب ، والثاني : بقوله سبحانه : ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أي في شربها حيث لا يتكلمون في أثناء الشرب بلغو الحديث وسقط الكلام ﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله أي ينسب إلى الإثم لو فعله في دار التكليف كما هو ديدن الندامى في الدنيا وإنما يتكلمون بالحكم وأحاسن الكلام ويفعلون ما يفعله الكرام ، وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو ﴿ لَّا لَغْوٌ ﴾ ﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ بفتحهما .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي بالكأس ﴿ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ أي مماليك مختصون بهم كما يؤذن به اللام ولم يقل غلمانهم بالإضافة لئلا يتوهم أنهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا فيشفق كل من خدم أحداً في الدنيا أن يكون خادماً له في الجنة فيحزن بكونه لا يزال تابعاً ، وقيل : أولادهم الذين سبقوهم فالاختصاص بالولادة لا بالملك ، وفيه أن التعبير عنهم بالغلمان غير مناسب وكذا نسبة الخدمة إلى الأولاد لا تناسب مقام الامتنان ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ مصون في الصدف لم تنله الأيدي كما قال ابن جبير ووجه الشبه البياض والصفاء ، وجوز أن يراد بمكنون مخزون لأنه لا يخزن إلا الحسن الغالي الثمن ، أخرج عبد الرزاق .

وابن جرير .

(146/729)

وابن المنذر عن قتادة قال : "بلغني أنه قيل : يا رسول الله هذا الخادم مثل اللؤلؤ فكيف بالمخدوم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : " والذي نفسي بيده إن فضل ما بينهم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب " وروي " أن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدامه فيجيء ألف ببابه لبيك لبيك " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(147/729)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ والطور ﴾

قال الجوهري : هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى .

قال مجاهد ، والسديّ : الطور بالسريانية الجبل ، والمراد به طور سيناء .

قال مقاتل بن حيان : هما طوران ، يقال لأحدهما : طور سيناء ، وللآخر : طور زيتا ؛ لأنهما ينبتان التين والزيتون .

وقيل : هو جبل مدين ، وقيل : إن الطور كل جبل ينبت ، وما لا ينبت فليس بطور ، أقسم الله سبحانه بهذا الجبل تشريفاً له وتكريماً .

﴿ وكتاب مُّسْطُورٍ ﴾ المسطور : المكتوب ، والمراد بالكتاب : القرآن ، وقيل : هو اللوح المحفوظ ، وقيل : جميع الكتب المنزلة ، وقيل : ألواح موسى ، وقيل : ما تكتبه الحفظة ، قاله الفراء ، وغيره ، ومثله : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَابًا يلقاه مَنْشُوراً ﴾ [الإسراء : 13] وقوله : ﴿ وَإِذَا الصحف نُشِرَتْ ﴾ [التكوير : 10] ﴿ فِى رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴾ متعلق بمسطور ، أي : مكتوب في رقّ .

قرأ الجمهور ﴿ في رق ﴾ بفتح الراء ، وقرأ أبو السماك بكسرها .

قال الجوهري : الرقّ بالفتح ما يكتب فيه ، وهو جلد رقيق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فِى رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴾ قال المبرد : الرقّ ما رقّ من الجلد ليكتب فيه ، والمنشور : المبسوط .

قال أبو عبيدة : وجمعه رقوق ، ومن هذا قول المتلمس :

فكأنما هي من تقادم عهدها . . . رقّ أتيح كتابها مسطور

وأما الرقّ بالكسر ، فهو المملوك ، يقال : عبد رقّ ، وعبد مرقوق .

﴿ والبيت المعمور ﴾ في السماء السابعة .

وقيل : في سماء الدنيا ، وقيل : هو الكعبة ، فعلى القولين الأوّلين يكون وصفه بالعمارة باعتبار من يدخل إليه من الملائكة ، ويعبد الله فيه .

وعلى القول الثالث ، يكون وصفه بالعمارة حقيقة أو مجازاً باعتبار كثرة من يتعبد فيه من بني آدم ﴿ والسقف المرفوع ﴾ يعني : السماء ، سماها سقفاً لكونها كالسقف للأرض ، ومنه قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا السماء سَقْفاً مَّحْفُوظاً ﴾ [الأنبياء : 32] وقيل : هو العرش ﴿ والبحر المسجور ﴾ أي : الموقد ، من السجر : وهو إيقاد النار في التنور ، ومنه قوله : ﴿ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير : 6] وقد روي أن البحار تسجر يوم القيامة فتكون ناراً ، وقيل : المسجور : المملوء ، قيل : إنه من أسماء الأضداد ، يقال : بحر مسجور أي : مملوء ، وبحر مسجور ، أي : فارغ ، وقيل : المسجور : الممسوك ، ومنه ساجور الكلب لأنه يمسكه .

وقال أبو العالية : المسجور : الذي ذهب ماؤه ، وقيل : المسجور : المفجور ، ومنه : ﴿ وَإِذَا البحار فُجِّرَتْ ﴾ [الإنفطار : 3] وقال الربيع بن أنس : هو الذي يختلط فيه العذب بالمالح .

والأوّل أولى ، وبه قال مجاهد ، والضحاك ، ومحمد بن كعب ، والأخفش ، وغيرهم .

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ هذا جواب القسم ، أي : كائن لا محالة لمن يستحقه ﴿ مَّا لَهُ

مِن دَافِعٍ ﴾ يدفعه ويرده عن أهل النار ، وهذه الجملة خبر ثان لإن ، أو صفة لواقع ، و " من " مزيدة للتأكيد .

ووجه تخصيص هذه الأمور بالإقسام بها أنها عظيمة دالة على كمال القدرة الربانية .

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السماء مَوْراً ﴾ العامل في الظرف ﴿ لواقع ﴾ ، أي : إنه لواقع في هذا اليوم ، ويجوز أن يكون العامل فيه ﴿ دافع ﴾ .

والمور : الاضطراب والحركة .

قال أهل اللغة : مار الشيء يمور موراً : إذا تحرك وجاء وذهب ، قاله الأخفش ، وأبو عبيدة : وأنشدا بيت الأعشى :

كأن مشيها من بيت جارتها . . . مشي السحابة لا ريث ولا عجل

وليس في البيت ما يدلّ على ما قالاه إلاّ إذا كانت هذه المشية المذكورة في البيت يطلق المور عليها لغة .

وقال الضحاك : يموج بعضها في بعض ، وقال مجاهد : تدور دوراً ، وقيل : تجرى جرياً ، ومنه قول الشاعر :

وما زالت القتلى تمور دماؤها . . . بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

ويطلق المور على الموج ، ومنه : ناقة موارة اليد ، أي : سريعة تموج في مشيها موجاً ، ومعنى الآية : أن العذاب يقع بالعصاة ، ولا يدفعه عنهم دافع في هذا اليوم الذي تكون فيه السماء هكذا ، وهو يوم القيامة .

وقيل : إن السماء ها هنا الفلك ، وموره : اضطراب نظمه واختلاف سيره .

﴿ وَتَسِيرُ الجبال سَيْراً ﴾ أي : تزول عن أماكنها ، وتسير عن مواضعها كسير السحاب ، وتكون هباءً منبثاً ، قيل : ووجه تأكيد الفعلين بالمصدر الدالة على غرابتها ، وخروجهما عن المعهود ، وقد تقدّم تفسير مثل هذا في سورة الكهف .

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ويل : كلمة تقال للهالك ، واسم واد في جهنم ، وإنما دخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة ، أي : إذا وقع ما ذكر من مور السماء ، وسير الجبال فويل لهم .

ثم وصف المكذبين بقوله : ﴿ الذين هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أي : في تردّد في الباطل ، واندفاع فيه يلهون لا يذكرون حساباً ، ولا يخافون عقاباً .

والمعنى : أنهم يخوضون في أمر محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب والاستهزاء ، وقيل : يخوضون في أسباب الدنيا ، ويعرضون عن الآخرة .

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ الدعّ : الدفع بعنف وجفوة ، يقال : دععته أدعه دعًّا ،

أي : دفعته ، والمعنى : أنهم يدفعون إلى النار دفعاً عنيفاً شديداً .

قال مقاتل : تغلّ أيديهم إلى أعناقهم ، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ، ثم يدفعون إلى جهنم دفعاً على وجوههم .

قرأ الجمهور بفتح الدال وتشديد العين .

وقرأ عليّ والسلمي ، وأبو رجاء ، وزيد بن عليّ ، وابن السميفع بسكون الدال وتخفيف العين مفتوحة أي : يدعون إلى النار من الدعاء .

(150/729)

ويوم إما بدل من ﴿ يوم تمور ﴾ ، أو متعلق بالقول المقدر في الجملة التي بعد هذه ، وهي ﴿ هذه النار التى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أي : يقال لهم ذلك يوم يدعون إلى نار جهنم دعًّا ، أي : هذه النار التي تشاهدونها هي النار التي كنتم تكذبون بها في الدنيا ، والقائل لهم بهذه المقالة هم خزنة النار ، ثم وبخهم سبحانه ، أو أمر ملائكته بتوبيخهم ، فقال : ﴿ أَفَسِحْرٌ هذا ﴾ الذي ترون وتشاهدون ، كما كنتم تقولون لرسل الله المرسلة ، ولكتبه المنزلة ، وقدّم الخبر هنا على المبتدأ لأنه الذي وقع الاستفهام عنه ، وتوجه التوبيخ إليه ﴿ أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ أي : أم أنتم عمي عن هذا ، كما كنتم عمياً عن الحقّ في الدنيا ﴿ اصلوها فاصبروا أَوْ

لاَ تَصْبِرُواْ ﴾ أي : إذا لم يمكنكم إنكارها ، وتحققتم أن ذلك ليس بسحر ، ولم يكن في أبصاركم خلل ، فالآن ادخلوها وقاسوا شدّتها ، فاصبروا على العذاب أو لا تصبروا ، وافعلوا ما شئتم ، فالأمران ﴿ سَوَاء عَلَيْكُمْ ﴾ في عدم النفع ، وقيل : أيضاً تقول لهم الملائكة هذا القول ، ﴿ وَسَوَآء ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أي : الأمران سواء ، ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف ، أي : سواء عليكم الصبر وعدمه ، وجملة : ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تعليل للاستواء ، فإن الجزاء بالعمل إذا كان واقعاً حتماً كان الصبر ، وعدمه سواء .

﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَنَعِيمٍ ﴾ لما فرغ سبحانه من ذكر حال المجرمين ذكر حال المتقين ، وهذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفة ، ويجوز أن تكون من جملة ما يقال للكفار زيادة في غمهم وحسرتهم ، والتنوين في ﴿ جنات وَنَعِيمٍ ﴾ للتفخيم ﴿ فاكهين بِمَا ءاتاهم رَبُّهُمْ ﴾ يقال : رجل فاكه ، أي : ذو فاكهة ، كما قيل : لابن وتامر .

(151/729)

والمعنى : أنهم ذوو فاكهة من فواكه الجنة ، وقيل : ذوو نعمة وتلذّذ بما صاروا فيه مما أعطاهم الله عزّ وجلّ مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وقد

تقدّم بيان معنى هذا .

قرأ الجمهور : ﴿ فاكهين ﴾ بالألف والنصب على الحال .

وقرأ خالد : (فاكهون) بالرفع على أنه خبر بعد خبر .

وقرأ ابن عباس (فكهين) بغير ألف ، والفكه : طيب النفس ، كما تقدم في الدخان ، ويقال : للأشر والبطر ، ولا يناسب التفسير به هنا ﴿ ووقاهم ربُّهُمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ معطوف على آتاهم ، أو على خبر إنّ ، أو الجملة في محل نصب على الحال بإضمار قد .

﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئاً ﴾ أي : يقال لهم ذلك ، والهنيء : ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر .

قال الزجاج : أي : ليهنئكم ما صرتم إليه هناء ، والمعنى : كلوا طعاماً هنيئاً ، واشربوا شراباً هنيئاً ، وقد تقدم تفسير هنيئاً في سورة النساء ، وقيل : معنى ﴿ هنيئاً ﴾ : أنكم لا تموتون .

﴿ مُتَّكِئِينَ على سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ انتصابه على الحال من فاعل كلوا ، أو من مفعول آتاهم ، أو من مفعول وقاهم ، أو من الضمير المستكنّ في الظرف ، أو من الضمير في ﴿ فاكهين ﴾ .

قرأ الجمهور : ﴿ على سرر ﴾ بضم الراء الأولى .

وقرأ أبو السماك بفتحها ، والسرر : جمع سرير .

والمصفوفة المتصل بعضها ببعض حتى تصير صفاً ﴿ وزوجناهم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي : قرناهم بها .

قال يونس بن حبيب : تقول العرب : زوّجته امرأة ، وتزوّجت بامرأة ، وليس من كلام العرب زوّجته بامرأة .

قال : وقول الله تعالى : ﴿ وزوجناهم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي : قرناهم بهنّ .

وقال الفرّاء : زوّجته بامرأة ، لغة أزدشنوءة ، وقد تقدم تفسير الحور العين في سورة الدخان .

قرأ الجمهور : ﴿ بحور عين ﴾ من غير إضافة .

وقرأ عكرمة بإضافة الحور إلى العين .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس : ﴿ والطور ﴾ قال : جبل .

(152/729)

وأخرج ابن مردويه عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف ، عن أبيه ، عن جدّه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الطور جبل من جبال الجنة " وكثير ضعيف جدًّا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ فِى رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴾ قال : في الكتاب .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " البيت المعمور في السماء السابعة ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة " ، وفي الصحيحين وغيرهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة : " ثم رفع إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه " وأخرج عبد الرّزّاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن الأنباري في المصاحف عن أبي الطفيل أن ابن الكوّاء سأل علياً عن البيت المعمور فقال : ذلك الضراح ، بيت فوق سبع سموات تحت العرش يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يعودون إليه أبداً إلى يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير نحوه عن ابن عباس .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمر ورفعه ، قال : إن البيت المعمور ، لجيال الكعبة لو سقط منه شيء لسقط عليها ، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً ، ثم لا يعودون إليه .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه ، وضعف إسناده السيوطي .

وأخرج ابن راهويه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ والسقف المرفوع ﴾ قال : السماء .

وأخرج عبد الرّزّاق ، وسعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ والبحر المسجور ﴾ قال : بحر في السماء تحت العرش .

وأخرج ابن جرير عن ابن عمر مثله .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : المسجور : المحبوس .

(153/729)

وأخرج ابن المنذر عنه قال : المسجور : المرسل .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السماء مَوْراً ﴾ قال : تحرك ، وفي قوله : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ قال : يدفعون .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ يوم يدعون إلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ قال : يدفع في أعناقهم حتى يردوا النار .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئاً ﴾ أي : لا تموتون فيها ، فعندها قالوا : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلاَّ مَوْتَتَنَا الاولى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الصافات : 58 ، 59] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 93.97 ﴾

(154/729)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ» . .

هو عرض لصورة من صور النعيم ، الذي حرمه أهل الضلال ، الذين تلفح وجوههم النار ، وهم فيها كالحون . .

فهذا النعيم الذي يراه أهل النار بأعينهم ، ويرون فيه أقواما كانوا من قبل موضع استهزاء بهم وسخرية منهم - هذا النعيم ، كان يمكن أن يكون لهم نصيب منه ، ولكنهم صرفوا وجوههم عنه فى الدنيا ، وسفّهوا الذين كانوا يدعونهم إليه ، فأبقى لهم ذلك حسرة دائمة ، وبلاء طويلا ممتدا . .

لا ينتهى أبدا . .

وفى هذا ما يضاعف من عقابهم ، ويزيد فى شقائهم ، على حين أنّه يقدّم بين أيدى المؤمنين المتقين ، ويرفع لأبصارهم فى تلك الجنّة التي وعدوا بها ، فيرونها دانية منهم ، يشوقهم لقاؤها ، والسعى الحثيث إليها . .

وقوله تعالى : « فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ » هو حال من المتقين . . أي أنهم وهم فى جنتهم تلك ، يتفكهون بما فيها من طيبات تملأ نفوسهم رضا وحبورا

. .

وأصل التفكّه : من الفكاهة ، وهو حديث فكه ، يونس به . .

وسميت الفاكهة فاكهة للذة طعمها فى الأفواه ، كلذّة الحديث الفكه على الآذان .

(155/729)

وفى إظهار الاسم الكريم (ربهم) فى قوله تعالى : « وَوَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ » بدلا من إضماره. فى هذا مزيد اعتناء بهم ، وتذكير لهم بربّهم الذي منّ عليهم بالجنة ونعيمها ، وجنّبهم جهنم وسعيرها . .

قوله تعالى : « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

هو التفاتة كريمة ودعوة مسعدة للمتقين ، إلى أن يأخذوا بحظهم من رضوان اللّه ، الذي قدّمه لهم ربهم . . وعلى حين تصكّ آذان المكذبين الضالين الذين أخذوا أماكنهم فى نار جهنم ، بهذه الدعوة المزلزلة المهلكة :

«اصلوها » ، فإذا أخذهم لهيبها ، واشتمل عليهم سعيرها ، وصرخوا صرخة الويل والثبور ، قيل لهم : « فاصبروا أولا تصبروا . . سواء عليكم » . على حين يفعل هذا بالمكذبين الضالين ، يقال للمؤمنين المتقين ، وقد أكلوا وشربوا من نعيم الجنة : « هنيئا » أي

هنأكم الطعام والشراب . . فكلّ يأخذ من ثمر ما عمل ، وبطعم من جنى ما غرس ! « إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

(71 : التحريم) قوله تعالى : « مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ » .

أي أن المتقين يلقّون هذا التكريم ، وتلك التحية ، فى حال قد أخذوا فيها أماكنهم على أرائك وسرر مصفوفة ، يقابل فيها بعضهم بعضا ، ويأنس فيها بعضهم ببعض ، وقد زوّجوا بحور عين . .

والحور : جمع حوراء ، وهى التي فى سواد عينيها قليل من البياض ، وهو من أمارات الحسن والجمال ، وقيل هو شدة بياض العين مع شدة

سوادها . . وهو من ملاحة الملاح ، وحسن الحسان . .

والعين : جمع عيناء ، ويطلق على بقر الوحش لجمال عيونه . .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ » . .

ومما يساق إلى أهل الجنة فى الجنة ، أن يكرم من أجلهم أبناؤهم وذرياتهم من المؤمنين ،

وذلك إذا كانوا أنزل درجة منهم فى الجنة. وفى الجنة درجات ، كما فى النار دركات.

وبذلك يجتمع شملهم فى الجنة ، كما اجتمع شملهم فى الدنيا ، وبهذا تقرّ أعينهم ، ويكمل سرورهم . .

وقوله تعالى : « وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ » . إشارة إلى أن هذه الذرية التي لحقت بآبائها فى الجنة ، قد كانت على إيمان بالله ، كإيمان آبائهم ، وبهذا كانوا جميعا من أهل الجنة ، وإن اختلفت فيها منازلهم ، فكان جمعهم ، وإلحاق الأدنى منهم بالأعلى . إحسانا من الله سبحانه وتعالى إليهم جميعا . . الآباء ، والأبناء . .

وهنا سؤال :

لما ذا تلحق الأبناء بالآباء ، ولا يلحق الآباء بالأبناء ، إذا كانوا أنزل درجة من أبنائهم ؟ . .

والجواب على هذا ، أن هؤلاء الآباء ، هم أبناء لآباء ، وهؤلاء الآباء أبناء لآباء ، وهكذا . . يتبع الأبناء آباءهم فى سلسلة تمتد من بدء الخليقة إلى نهايتها . . وهكذا يبدو أهل الجنة ، وكأنهم جميعا أسرة واحدة .

(157/729)

وقد يعترض على هذا ، بأنه مخالف لما هو معروف بأن الجنة ـ ليست جنّة واحدة ، وإنما هى جنات ، وهى منازل ، ولكل جنة أصحابها ، ولكل منزلة أهلها . .

ويدفع هذا الاعتراض :

أولا : أن أهل الجنة ، أو الجنات ، ليس بينهم هذه العزلة الجامدة الباردة ، التي تقيم كل طائفة فى معزل عن الآخرين ، بل إن أهل الجنة وإن اختلفت منازلهم ، وتباينت درجاتهم ، هم فى عالم واحد ، مطلق ، لا حدود فيه ولا قيود . . وهل تكون جنة ويكون نعيم ، ثم يقام على هذه الجنة وذلك النعيم حارس ؟ .

وثانيا : هذا الاختلاف الذي بين درجات أهل الجنة ومنازلهم عند اللّه ، هو اختلاف فى درجة التقبّل للنعيم ، وفى مدى القدرة على التناول من هذا النعيم الذي لا ينفد أبدا . . فهناك نفوس كبيرة تستوعب نعيم الجنة كله ، وتلذّ به ، على حين أن هناك نفوسا صغيرة تأخذ من هذا النعيم حسوا كحسو الطير ، ثم تجد فى ذلك شبعها وريّها . . إنها موائد ممدودة ، عليها ما لا يبلغه الوصف من طيبات النعيم . . وإنه لا يردّ أحد عن أي لون من ألوان هذا النعيم ، بل إن كل ما يطلبه المرء منه يجده حاضرا بين يديه . . ولكن هنا يختلف أهل الجنة فى قدرتهم على الأخذ من هذا النعيم ، الذي بين أيديهم ، فبعضهم يأخذ القليل لأنه لا شهوة له إلى أكثر من هذا القليل ، على حين يكون هناك من يجدون القدرة والاشتهاء

لكل ما فى الجنة من ألوان النعيم فيذوقون من كل لون ، ويطعمون من كل صنف . . تماما كما نرى ذلك فى الحياة الدنيا ، حيث يجلس المدعوّون إلى

(158/729)

مائدة حافلة بألوان الطعام . . ثم تختلف حظوظهم فيما ينالون منها . .

دون أن يكون هناك حائل يحول بين أىّ منهم وبين ما يشتهى . .

قوله تعالى « وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ » أي وما أنقصنا شيئا من عمل هؤلاء الآباء الذي ألحقنا بهم ذريتهم ، بل وفاهم اللّه تعالى أجرهم غير منقوص . .

وكان إلحاق أبنائهم بهم ، فضلا من فضل اللّه على الوالدين والمولودين جميعا . .

والجملة : حال من الفاعل فى قوله تعالى « أَلْحَقْنا » وهو اللّه سبحانه وتعالى . .

قوله تعالى : « وَأَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ » .

هو مما يقدّم لأهل الجنة من طعام ، وليس هو كل طعام الجنة ، وإنما هناك من ألوان الطعام ما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بشر . . وإنما اختصّ هذان الصنفان بالذّكر ، لأنهما من أطيب ، وأشهى ما يطعمه أهل الدنيا من طعام . . وكان من تمام النعمة فى الجنة ألا يحرم أهلها ما كان لهم من طعام مشتهى فى الدنيا ، وخاصة أولئك الذين

حرموا هذا الطعام فى دنياهم ، وكان من مشتهياتهم فيها . .

قوله تعالى : «يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَلا تَأْثِيمٌ» التنازع : هو المجاذبة للشىء بين قوتين . . وتنازع الكئوس ، تجاذبها بين الجالسين فى مجلس شرابها ، يتبادلونها فى شوق ورغبة ونزوع أنفسهم إليها . .

(159/729)

لا لغو فيها : أي لا تحمل هذه الكئوس فى كيانها ، هذا الداء الذي يخامر العقول ، ويفقدها الوعى ، فتخرج من وقارها إلى هذر الكلام ولغوه .

ولا تأثيم : أي لا إثم على شاربها ، فهى خمر ، وهى مع ذلك حلال لشاربها . .

ومن هنا ندرك السر فى تحريم الخمر ، والعلّة التي من أجلها كانت إثما يسوق مرتكبه إلى ساحة الاتهام والعقاب . .

فالإسكار ، هو علّة تحريم الخمر ، لا علّة له غيرها . . دون نظر إلى المادة التي يصنع منها . .

وعلى هذا ، فإن الخلاف القائم بين أصحاب المذاهب الفقهية فى تلك المباحث التي تبحث عن جواب هذا السؤال : ما هى الخمر ؟ وما هى المادة التي تصنع منها ؟ - إن هذا

الخلاف لا محصّل له ، ولا داعية للوقوف عنده ، فى تقرير الحكم الشرعي للخمر . . فكل مسكر خمر ، وكل مغيّب للعقل ، ذاهب بوقاره ، داع له إلى اللغو ـ هو خمر ، وهو موقع على متعاطيه إثما ، هو إثم شارب الخمر . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 14 صـ 562 . 567 ﴾

(160/729)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) ﴾

استئناف بياني بعد أن ذكر حال المكذبين وما يقال لهم ، فمن شأن السامع أن يتساءل عن حال أضدادهم وهم الفريق الذين صدقوا الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به القرآن وخاصة إذ كان السامعون المؤمنين وعادة القرآن تعقيب الإنذار بالتبشير وعكسه ، والجملة معترضة بين ما قبلها وجملة ﴿ أم يقولون شاعر ﴾ [الطور : 30] .

وتأكيد الخبر بـ (إن) للاهتمام به وتنكير ﴿ جنات ونعيم ﴾ لتعظيم ، أي في أيّة جنات وأيّ نعيم .

وجمع ﴿ جنات ﴾ تقدم في سورة الذاريات .

والفاكه : وصف من فكِه كفرح ، إذا طابت نفسه وسرّ .

وقرأ الجمهور ﴿ فاكهين ﴾ بصيغة اسم الفاعل ، وقرأه أبو جعفر ﴿ فكهين ﴾ بدون ألف .

والباء في ﴿ بما آتاهم ربهم ﴾ للسببية ، والمعنى : أن ربهم أرضاهم بما يحبون .

واستحضار الجلالة بوصف ﴿ ربهم ﴾ للإِشارة إلى عظيم ما آتاهم إذ العطاء يناسب حال المعطي ، وفي إضافة (رب) إلى ضميرهم تقريب لهم وتعظيم وجملة ﴿ ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ﴾ في موضع الحال ، والواو حالية ، أو عاطفة على ﴿ فاكهين ﴾ الذي هو حال ، والتقدير : وقد وقاهم ربهم عذاب الجحيم ، وهو حال من المتقين .

والمقصود من ذكر هذه الحالة : إظهار التباين بين حال المتقين وحال المكذبين زيادة في الامتنان فإن النعمة تزداد حسن وقع في النفس عند ملاحظة ضدها .

وفيه أيضاً أن وقايتهم عذاب الجحيم عدل ، لأنهم لم يقترفوا ما يوجب العقاب .

وأما ما أعطوه من النعيم فذلك فضل من الله وإكرام منه لهم .

وفي قوله : ﴿ ربهم ﴾ ما تقدم قُبَيْله .

وجملة ﴿ كلوا واشربوا ﴾ إلى آخرها مقول قول محذوف في موضع الحال أيضاً ، تقديره : يقال لهم ، أو مقولاً لهم .

وهذا القول مقابل ما يقال للمكذبين ﴿ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ [الطور : 16] .

(161/729)

وحذف مفعول ﴿ كلوا واشربوا ﴾ لإِفادة النعيم ، أي كلوا كل ما يؤكل واشربوا كلّ ما يشرب ، وهو عموم عرفي ، أي مما تشتهون .

و ﴿ هنيئاً ﴾ اسم على وزن فعيل بمعنى مفعول وقع وصفاً لمصدرين لفعلي ﴿ كلوا واشربوا ﴾ ، أكلاً وشرباً ، فلذلك لم يؤنث الوصف لأن فعيلاً إذا كان بمعنى مفعول يلزم الإِفراد والتذكير .

وتقدم في سورة النساء لأنه سالم مما يكدر الطعام والشراب .

و(ما) موصولة ، والباء سببية ، أي بسبب العمل الذي كنتم تعملونه وهو العمل الصالح الذي يومىء إليه قوله : ﴿ المتقين ﴾ وفي هذا القول زيادة كرامة لهم بإظهار أن ما أوتوه من الكرامة عوض عن أعمالهم كما آذنت به باء السببية وهو نحو قول من يسدي نعمة إلى المنعم عليه : لا فضل لي عليك وإنما هو مالك ، أو نحو ذلك .

مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20)

حال من ضمير ﴿ كلوا واشربوا ﴾ [الطور : 19] ، أي يقال لهم كلوا واشربوا حال كونهم متكئين ، أي وهم في حال إكلة أهل الترف المعهود في الدنيا ، فقد كان أهل الرفاهية يأكلون متكئين وقد وصف القرآن ذلك في سورة يوسف (31) بقوله : ﴿ أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئاً وءاتت كل واحدة منهن سكيناً ﴾ أي لَحز الطعام والثمار .

وفي الحديث " أمَّا أنا فلا آكل متكئاً " وكان الأكاسرة ومرازبة الفُرس يأكلون متكئين وكذلك كان أَباطرة الرومان وكذلك شأنهم في شُرب الخمر ، قال الأعشى:

نَازَعْتُهُم قُضب الريحان متكئاً . . .

وخمرةً مُزة رَاوُوقها خضل

والسَّرر : جمع سرير ، وهو ما يُضطجع عليه .

والمصفوفة : المتقابلة ، والمعنى : أنهم يأكلون متكئين مجتمعين للتأنس كقوله تعالى : ﴿ على سرر متقابلين ﴾ [الصافات : 44] .

وجملة ﴿ وزوجناهم ﴾ عطف على ﴿ متكئين ﴾ فهي في موضع الحال .

ومعنى ﴿ زوجناهم ﴾ : جعلنا كل فرد منهم زوجاً ، أي غير مفرد ، أي قرنَّاهم بنساء حُور عينٍ .

والباء للمصاحبة ، أي جعلنا حُوراً عِيناً معهم ، ولم يُعد فعل ﴿ زوجناهم ﴾ إلى ﴿ حور ﴾ بنفسه على المفعولية كما في قوله تعالى : ﴿ زوجناكها ﴾ [الأحزاب : 37] ، لأن (زوجنا) في هذه الآية ليس بمعنى : أنكحناهم ، إذ ليس المراد عقد النكاح لنُبوّ المراد عن هذا المعنى ، فالتزويج هنا وارد بمعناه الحقيقي في اللغة وهو جعل الشيء المفرد زوجاً وليس وارداً بمعناه المنقول عنه في العرف والشرع ، وليس الباء لتعدية فعل ﴿ زوجناهم ﴾ بتضمينه معنى : قرنَّا ، ولا هو على لغة أزد شنوة فإنه لم يسمع في فصيح الكلام : تزوج بامرأة .

وحور : صفة لنساء المؤمنين في الجنة ، وهنّ النساء اللاتي كنّ أزواجاً لهم في الدنيا إن كنّ مؤمنات ومن يخلقهن الله في الجنة لنعمة الجنة وحكم نساء المؤمنين اللاتي هن مؤمنات ولم يكن في العمل الصالح مثل أزواجهن في لحاقهن بأزواجهن في الدرجات في الجنة تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ﴾ في سورة الزخرف (70) وما يقال فيهن يقال في الرجال من أزواج النساء الصالحات .

وعين ﴾ صفة ثانية ، وحقها أن تعطف ولكن كثر ترك العطف .

﴿ والذين ءَامَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بإيمان أَلْحَقْنَا بِهِمْ ﴾ .

اعتراض بين ذِكر كرامات المؤمنين ، والواو اعتراضية .

والتعبير بالموصول إظهار في مقام الإِضمار لتكون الصلة إيماء إلى أن وجه بناء الخبر الوارد بعدها ، أي أن سبب إلحاق ذرياتهم بهم في نعيم الجنة هو إيمانهم وكونُ الذريات آمنوا بسبب إيمان آبائهم لأن الآباء المؤمنين يلقِّنون أبناءهم الإِيمان .

والمعنى : والمؤمنون الذين لهم ذرياتٌ مؤمنون ألحقنا بهم ذرياتهم .

وقد قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ [التحريم : 6] ، وهل يستطيع أحد أن يقي النار غيره إلا بالإِرشاد .

ولعل ما في الآية من إلحاق ذرياتهم من شفاعة المؤمن الصالح لأهله وذريته .

(163/729)

والتنكير في قوله : ﴿ بإيمان ﴾ يحتمل أن يكون للتعظيم ، أي بإيمان عظيم ، وعظمتُه بكثرة الأعمال الصالحة ، فيكون ذلك شرطاً في إلحاقهم بآبائهم وتكون النعمة في جعلهم في مكان واحد .

ويحتمل أن يكون للنوعية ، أي بما يصدق عليه حقيقة الإِيمان .

وقرأ الجمهور ﴿ واتبعتهم ﴾ بهمزة وصل وبتشديد التاء الأولى وبتاء بعد العين هي تاء تأنيث ضمير الفعل .

وقرأه أبو عمرو وحده ﴿ وأتبعناهم ﴾ بهمزة قطع وسكون التاء .

وقوله : ﴿ ذريتهم ﴾ الأول قرأه الجمهور بصيغة الإفراد .

وقرأه أبو عمرو ﴿ ذرياتهم ﴾ بصيغة جمع ذرية فهو مفعول ﴿ أتبعناهم ﴾ .

وقرأه ابن عامر ويعقوب بصيغة الجمع أيضاً لكن مرفوعاً على أنه فاعل ﴿ أتبعتهم ﴾ ، فيكون الإنعام على آبائهم بإلحاق ذرياتهم بهم وإن لم يعملوا مثل عملهم .

وقد روى جماعة منهم الطبري والبزار وابن عديّ وأبو نعيم وابن مردويه حديثاً مسنداً إلى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه (أي في العمل كما صرح به في رواية القرطبي) لتقرّ بهم عينُه ثم قرأ : ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ﴾ إلى قوله : ﴿ من شيء ﴾ " .

وعلى الاحتمالين هو نعمة جمع الله بها للمؤمنين أنواع المسرّة بسعادتهم بمزاوجة الحور وبمؤانسة الإخوان المؤمنين وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم ، وذلك أن في طبع الإنسان التأنس بأولاده وحبه اتصالهم به .

وقد وصف ذلك محمد بن عبد الرفيع الجعفري المُرسي الأندلسي نزيل تونس سنة 1013 ثلاث عشرة وألف في كتاب له سمّاه "الأنوار النبوية في آباء خير البرية" قال في خاتمة الكتاب "قد أطلعني الله تعالى على دين الإِسلام بواسطة والدي وأنا ابن ستة أعوام مع أني كنت إذاك أروح إلى مكتب النصارى لأقرأ دينهم ثم أرجعُ إلى بيتي فيعلمني والدِي دينَ الإِسلام فكنت أتعلم فيهما (كذا) معاً وسني حين حُملت إلى مكتَبهم أربعة أعوام فأخذ والدي لوحاً من عود الجوز كأني انظر الآن إليه مملّساً من غير طَفَل (اسم لطين يابس وهو طين لزج وليست بعربية وعربيتُه طُفَال كغراب) ، فكتب لي فيه حروف الهجاء وهو يسألني عن حروف النصارى حرفاً حرفاً تدريباً وتقريباً فإذا سميتُ له حرفاً أعجمياً يكتب لي حرفاً عربياً حتى استوفى جميع حروف الهجاء وأوصاني أن أكتم ذلك حتى عن والدتي وعَمّي وأخي مع أنه رحمه الله قد ألقى نفسه للهلاك لإِمكان أن أخبر بذلك عنه فيُحْرَق لا محالة وقد كان يُلقّنني ما أقوله عند رؤيتي الأصنام ، فلما تحقق والدي أني أكتم أمور دين الإِسلام أمرني أن أتكلم بإفشائه لوالدتي وبعض الأصدقاء من أصحابه وسافرت الأسفار من جيَّان لأجتمع بالمسلمين الأخيار إلى غرناطة وإشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء ، فتخلص لي من معرفتهم أني ميزت منهم سبعة رجال كانوا يحدثونني بأحوال غرناطة وما كان بها في الإِسلام وقد مروا كلهم على شيخ من مشائخ غرناطة يقال له الفقيه الأوطوري . . . " الخ .

وإيثار فعل ﴿ ألحقنا ﴾ دون أن يقال : أدخلنا معهم ، أو جعلنا معهم لعله لما في معنى الإِلحاق من الصلاحية للفَور والتأخير ، فقد يكون ذلك الإِلحاق بعد إجراء عقاب على بعض الذرية استحقوه بسيئاتهم على ما في الأعمال من تفاوت في استحقاق العقاب والله أعلم بمراده من عباده .

وفعل الإِلحاق يقتضي أن الذريات صاروا في درجات آبائهم .

(165/729)

وفي المخالفة بين الصيغتين تفنن لدفع إعادة اللفظ .

و ﴿ ألتناهم ﴾ نقصناهم ، يقال : آلته حقه ، إذا نقصه إياه ، وهو من باب ضرب ومن باب علم .

فقرأه الجمهور بفتح لام ﴿ ألتناهم ﴾ .

وقرأه ابن كثير بكسر لام ﴿ إِلتناهم ﴾ ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ﴾ في سورة الحجرات (14) .

والواو للحال وضمير الغيبة عائد إلى ﴿ الذين آمنوا ﴾ .

والمعنى : أن الله ألحق بهم ذرياتهم في الدرجة في الجنة فضلاً منه على الذين آمنوا دون

عوض احتراساً من أن يحسبوا أن إلحاق ذرياتهم بهم بعد عطاء نصيب من حسناتهم لذرياتهم ليدخلوا به الجنة على ما هو متعارف عندهم في فك الأسير ، وحَمالة الديات ، وخلاص الغارمين ، وعلى ما هو معروف في الانتصاف من المظلوم للظالم بالأخذ من حسناته وإعطائها للمظلوم ، وهو كناية عن عدم انتقاص حظوظهم من الجزاء على الأعمال الصالحة .

و﴿ من عملهم ﴾ متعلق بـ ﴿ ما ألتناهم ﴾ و (من) للتبعيض ، و (من) التي في قوله : ﴿ من شيء ﴾ لتوكيد النفي وإفادة الإِحاطة والشمول للنكرة .

﴿ كُلُّ امرىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ .

جملة معترضة بين جملة ﴿ وما ألتناهم من عملهم ﴾ وبين جملة ﴿ وأمددناهم بفاكهة ﴾ [الطور : 22] ، قصد منها تعليل الجملة التي قبلها وهي بما فيها من العموم صالحة للتذييل مع التعليل ، و ﴿ كل امرىء ﴾ يعمّ أهل الآخرة كلهم .

وليس المراد كل امرىء من المتقين خاصة .

والمعنى : انتفى إنقاصُنا إياهم شيئاً من عملهم لأن كل أحد مقرون بما كسب ومرتهَن عنده والمتقون لمّا كَسَبوا العمل الصالح كان لازماً لهم مقترناً بهم لا يُسلبون منه شيئاً ، والمراد بما كسبوا : جزاء ما كسبوا لأنه الذي يقترن بصاحب العمل وأما نفس العمل نفسه فقد انقضى في إبانه .

وفي هذا التعليل كنايتان : إحداهما : أن أهل الكفر مقرونون بجزاء أعمالهم ، وثانيتهما : أن ذريات المؤمنين الذين ألحقوا بآبائهم في النعيم ألحقوا بالجنة كرامة لآبائهم ولولا تلك الكرامة لكانت معاملتهم على حسب أعمالهم .

وبهذا كان لهذه الجملة هنا وقع أشد حسناً مما سواه مع أنها صارت من حسن التتميم .

والكسب : يطلق على ما يحصله المرء بعمله لإرادة نفع نفسه .

ورهين : فعيل بمعنى مفعول من الرهن وهو الحبس .

وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22)

عطف على ﴿ في جنات ونعيم ﴾ [الطور : 17] الخ .

والإمداد : إعطاء المَدَد وهو الزيادة من نوع نافع فيما زيد فيه ، أي زدناهم على ما ذكر من النعيم والأكل والشرب الهنيء فاكهةً ولحماً مما يشتهون من الفواكه واللحوم التي يشتهونها ، أي ليوتي لهم بشيء لا يرغبون فيه فلكل منهم ما اشتهى .

وخص الفاكهة واللحم تمهيداً لقوله : ﴿ يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ منحهم الله في الآخرة لذة نشوة الخمر والمنادمة على شربها لأنها من أحسن اللذات فيما

ألفتْهُ نفوسهم ، وكان أهل الترف في الدنيا إذا شربوا الخمر كَسروا سورة حدتها في البطن بالشِواء من اللحم قال النابغة يصف قرن الثور :

سفُّود شَرْب نَسُوه عند مُفْتَأَد . . .

ويدفعون لذغ الخمر عن أفواههم بأكل الفواكه ويسمونها التُّقْل بضم النون وفتحها ويكون من ثمار ومقاث .

ولذلك جيء بقوله : ﴿ يتنازعون ﴾ حالاً من ضمير الغائب في ﴿ أمددناهم بفاكهة ﴾ الخ .

والتنازع أطلق على التداول والتعاطي .

وأصله تفاعل من نزع الدلو من البئر عند الاستقاء فإن الناس كانوا إذا وردوا للاستقاء نزع أحدهم دلواً من الماء ثم ناول الدلو لمن حوله وربما كان الرجل القوي الشديد ينزع من البئر للمستقين كلهم يكفيهم تعب النزع ، ويسمى الماتح بمثناة فوقية .

وقد ذكر الله تعالى نزع موسى عليه السلام لابنتي شعيب لما رأى انقباضهما عن الاندماج في الرعاء .

(167/729)

وذكر النبي صلى الله عليه وسلم في رؤياه نَزْعَه على القليب ثم نَزْعَ أبي بكر رضي الله عنه ثم نزع عمر رضي الله عنه .

ثم استعير أو جعل مجازاً عن المداولة والمعاورة في مناولة أكوس الشراب ، قال الأعشى:

نازعتهم قُضب الريحان متكئاً . . .

وخمرةً مُزَّةً راووقها خَضِل

والمعنى : أن بعضهم يصبّ لبعضٍ الخمرَ ويناوله إيثاراً وكرامة .

وقيل : تنازعهم الكأس مجاذبة بعضهم كأس بعض إلى نفسه للمداعبة كما قال امرؤ القيس في المداعبة على الطعام:

فظل العذارى يرتَمينَ بلَحْمِها . . .

وشحم كهُدَّاب الدمقس المفتَّل

والكأس : إناء تشربَ فيه الخمر لا عروة له ولا خرطوم ، وهو مؤنث ، فيجوز أن يكون هنا مراداً به الإِناء المعروف ومراداً به الجنس ، وتقدم قوله في سورة الصافات (45) ﴿ يطاف عليهم بكأس من معين ﴾ وليس المراد أنهم يشربون في كأس واحدة بأخذ أحدهم من آخر كأسه .

ويجوز أن يراد بالكأس الخمر ، وهو من إطلاق اسم المحل على الحالّ مثل قولهم : سَال الوادي وكما قال الأعشى:

نازعتُهم قضُب الريحان متكئاً . . .

.

وجملة ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ يجوز أن تكون صفة ل"كأس" وضمير ﴿ لا لغو فيها ﴾ عائداً إلى "كأس" ووصف الكأس بـ ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ .

إن فُهم الكأس بمعنى الإِناء المعروف فهو على تقدير : لا لغو ولا تأثيم يصاحبها ، فإن (في) للظرفية المجازية التي تؤوّل بالملابسة ، كقوله تعالى:

﴿ وجاهدوا في اللَّه حق جهاده ﴾ [الحج : 78] وقول النبي صلى الله عليه وسلم " ففيهما أي والديك فجاهد " أي جاهد ببرهما ، أو تأُوِّل (في) بمعنى التعليل كقول النبي صلى الله عليه وسلم " دخلت امرأة النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً " .

وإن فهم الكأس مراداً به الخمر كانت (في) مستعارة للسببية ، أي لا لغو يقع بسبب شربها .

(168/729)

والمعنى على كلا الوجهين أنها لا يخالط شاربيها اللغوُ والإِثم بالسباب والضرب ونحوه ، أي أن الخمر التي استعملت الكأس لها ليست كخمور الدنيا ، ويجوز أن تكون جملة ﴿ لا لغو

فيها ولا تأثيم ﴾ مستأنفة ناشئة عن جملة ﴿ يتنازعون فيها كأساً ﴾ ، ويكون ضمير ﴿ فيها ﴾ عائداً إلى ﴿ جنات ﴾ من قوله : ﴿ إن المتقين في جنات ﴾ [الطور : 17] مثل ضمير ﴿ فيها كأساً ﴾ ، فتكون في الجملة معنى التذييل لأنه إذا انتفى اللغو والتأثيم عن أن يكونا في الجنة انتفى أن يكونا في كأس شُرب أهل الجنة .

ومثل هذين الوجهين يأتي في قوله تعالى : ﴿ إن للمتقين مفازاً حدائق وأعناباً ﴾ إلى قوله : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً ﴾ في سورة النبأ (31 35) .

واللغو : سِقْط الكلام والهذيان الذي يصدر عن خلل العقل .

والتأثيم : ما يؤثَّم به فاعله شَرعاً أو عادة من فعل أو قول مثل الضرب والشتم وتمزيق الثياب وما يشبه أفعال المجانين من آثار العربدة مما لا يخلو عنه الندامى غالباً ، فأهل الجنة منزهون عن ذلك كله لأنهم من عالم الحقائق والكمالات فهم حكماء علماء ، وقد تمدَّحَ أصحاب الأحلام من أهل الجاهلية بالتنزه عن مثل ذلك ، ومنهم من اتقى ما يعرض من الفلتات فحرَّم على نفسه الخمر مثل قيس بن عاصم .

وقرأ الجمهور ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ برفعهما على أن (لا) مشبهَّة بـ (ليس) .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو بفتحهما على أن (لا) مشبهة بـ (إنَّ) وهما وجهان في نفي النكرة إذا كانت إرادة الواحد غيرَ محتمَلة ومثله قولها في حديث أم زرع : "زوجي كَلَيلِ تهامة لا

حَرّ ولا قرّ ولا مخافة ولا سآمة" رُويت النكرات الأربع بالرفع وبالنصب .

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (24)

(169/729)

عطف على جملة ﴿ يتنازعون فيها كأساً ﴾ [الطور : 23] فهو من تمامه وواقع موقع الحال مثله ، وجيء به في صيغة المضارع للدلالة على التجدد والتكرر ، أي ذلك لا ينقطع بخلاف لذات الدنيا فإنها لا بد لها من الانقطاع بِنهايات تنتهي إليها فتُكرِّه لأصحابها الزيادةُ منها مثلِ الغَوْل ، والإِطباق ، ووجع الأمعاء في شرب الخمر ومثل الشبع في تناول الطعام وغير ذلك من كل ما يورث العجز عن الازدياد عن اللذة ويجعل الازدياد ألماً .

ولم يستثن من ذلك إلا لذات المعارف ولذات المناظر الحسنة والجمال .

ولما أشعر فعل ﴿ يطوف ﴾ بأن الغلمان يناولونهم ما فيه لذاتهم كان مشعراً بتجدد المناولة وتجدد الطواف وقد صار كل ذلك لذة لا سآمة منها .

والطواف : مشي متكرر ذهاباً ورجوعاً وأكثر ما يكون على استدارة ، ومنه طواف الكعبة ، وأهل الجاهلية بالأصنام ولأجله سمي الصنم دواراً لأنهم يدورون به .

وسمي مشي الغلماء بينهم طوافاً لأن شأن مجالس الأحبة والأصدقاء أن تكون حلقاً

ودوائر ليستووا في مرآهم كما أشار إليه قوله تعالى في سورة الصافات (44) ﴿ على سرر متقابلين ﴾ ومنه جعلت مجالس الدروس حلقاً وكانت مجالس النبي صلى الله عليه وسلم حلقاً .

وقد أطلق على مناولة الخمر إدارة فقيل : أدارت الحارثة الخمر ، وهذا الذي يناول الخمر المدير .

وترك ذكر متعلق ﴿ يطوف ﴾ لظهوره من قوله : ﴿ يتنازعون فيها كأساً ﴾ وقوله : ﴿ وأمددناهم بفاكهة ﴾ [الطور : 22] ودل عليه قوله تعالى : ﴿ يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ﴾ [الزخرف : 71] وقوله : ﴿ يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين ﴾ [الصافات : 45 ، 46] فلما تقدم ذكر ما شأنه أن يطاف به هنا ترك ذكره بعد فعل ﴿ يطاف ﴾ بخلاف ما في الآيتين الأخريين .

(170/729)

والغلمان : جمع غلام ، وحقيقته من كان في سنّ يقارب البلوغ أو يبلغه ، ويطلق على الخادم لأنهم كانوا أكثر ما يتخذون خَدمهم من الصغار لعدم الكلفة في حركاتهم وعدم استثقال تكليفهم ، وأكثر ما يكونون من العبيد ومثله إطلاق الوليدة على الأمة الفتية كأنها قريبة

عهد بولادة أمها .

فمعنى قوله : ﴿ غلمان لهم ﴾ : خدمة لهم .

وعبر عنهم بالتنكير وتعليق لام الملك بضمير ﴿ الذين آمنوا ﴾ دون الإِضافة التي هي على تقدير اللام لما في الإِضافة من معنى تعريف المضاف بالانتساب إلى المضاف إليه عند السامع من قَبل .

وليس هؤلاء الغلمان بمملوكين للمؤمنين ولكنهم مخلوقون لخدمتهم خلقهم الله لأجلهم في الجنة قال تعالى : ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ [الإنسان : 19] وهذا على نحو قوله تعالى : ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد ﴾ [الإسراء : 5] أي صنف من عبادنا غير معروفين للناس .

وشبهوا باللؤلؤ المكنون في حسن المرأى .

واللؤلؤ : الدُرّ .

والمكنون : المخزون لنفاسته على أربابه فلا يتحلى به إلا في المحافل والمواكب فلذلك يبقى على لمعانه وبياضه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(171/729)

فائدة

قال ابن القيم :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾

وروى قيس عن عمرو بن مرة

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقربهم عينه ثم قرا ﴿ والذين آمنوا واتبعناهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم وما التناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين ﴾ قال ما نقصنا الآباء مما أعطينا البنين وذكر ابن مردويه في تفسيره من حديث شريك عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال شريك أظنه حكاه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا دخل الرجل الجنة سال عن أبويه وزوجته وولده فيقال إنهم لم يبلغوا درجتك أو عملك فيقول يا رب قد عملت لي ولهم فيؤمر بالإلحاق بهم ثم تلا ابن عباس ﴿ والذين آمنوا واتبعناهم ذرياتهم بإيمان ﴾ إلى آخر الآية وقد اختلف المفسرون في الذرية في هذه الآية هل المراد بها الصغار أو الكبار أو النوعان على ثلاثة أقوال واختلافهم مبني على إن قوله بإيمان حال من الذرية والتابعين أو المؤمنين المتبوعين فقالت طائفة المعنى والذين آمنوا واتبعناهم ذرياتهم في إيمانهم فأتوا من الإيمان بمثل ما أتوا به

وألحقنا هم بهم في الدرجات قالوا ويدل على هذا قراءة من قرأ واتبعتم ذريتهم فجعل الفعل في الإتباع لهم قالوا وقد أطلق الله سبحانه الذرية على الكبار كما قال ومن ذريته داود وسليمان " قال " ذرية من حملنا مع نوح وقال وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وهذا قول الكبار والعقلاء

قالوا ويدل على ذلك ما رواه قول سعيد بن جبير عن ابن عباس يرفعه: "إن الله يرفع ذرية المؤمن إلى درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه فهذا يدل على أنهم دخلوا الجنة بأعمالهم ولكن لم يكن لهم أعمال يبلغوا بها درجة آبائهم فبلغهم

(172/729)

إياها وإن تقاصر عملهم عنها قالوا أيضا فالأيمان هو القول والعمل والنية وهذا إنما يمكن من الكبار وعلى هذا فيكون المعنى إن الله سبحانه يجمع ذرية المؤمن إليه إذا أتوا من الإيمان بمثل إيمانه إذ هذا حقيقة التبعية وإن كانوا دونه في الإيمان رفعهم الله إلى درجته إقرارا لعينه وتكميلا لنعيمه وهذا كما إن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم معه في الدرجة تبعا وإن لم يبلغوا تلك الدرجة بأعمالهن وقالت طائفة أخرى الذرية هاهنا الصغار والمعنى والذين آمنوا واتبعناهم ذرياتهم في إيمان الآباء والذرية تتبع الآباء وإن كانوا صغارا في الإيمان

وإحكامه من الميراث والدية والصلاة عليهم والدفن في قبور المسلمين وغير ذلك ألا فيما كان من أحكام البالغين ويكون قوله بإيمان على هذا في موضع نصب على الحال من المفعولين أي واتبعناهم ذرياتهم بإيمان الآباء قالوا ويدل على صحة هذا القول البالغين لهم حكم أنفسهم في الثواب والعقاب فإنهم مستقلون بأنفسهم ليسوا تابعين الآباء في شيء من أحكام الدنيا ولا أحكام الثواب والعقاب لاستقلالهم بأنفسهم ولو كان المراد بالذرية البالغين لكن أولاد الصحابة البالغون كلهم في درجة آبائهم وتكون أولاد التابعين البالغون كلهم في درجة آبائهم وهلم جرا إلى يوم القيامة فيكون الآخرون في درجة السابقين قالوا ويدل عليه أيضا أنه سبحانه جعلهم معهم تبعا في الدرجة كما جعلهم تبعا معهم في الإيمان ولو كانوا بالغين لم يكن إيمانهم تبعا بل إيمان استقلال قالوا ويدل عليه إن الله سبحانه وتعالى جعل المنازل في الجنة بحسب الأعمال في حق المستقلين وأما الإتباع فان الله سبحانه وتعالى يرفعهم إلى درجة أهليهم وإن لم يكن لهم أعمالهم كما تقدم وأيضا فالحور العين والخدم في درجة أهليهم وان لم يكن لهم عمل بخلاف المكلفين البالغين فإنهم يرفعون إلى حيث بلغتهم أعمالهم

وقالت فرقة منهم الواحدي الوجه إن تحمل الذرية الصغار والكبار لأن

الكبير يتبع الأب بإيمان نفسه و الصغير يتبع الأب بإيمان الأب قالوا والذرية تقع على الصغير والكبير والواحد والكثير والابن والأب كما قال تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أي آباءهم والإيمان يقع على الإيمان التبعي وعلى الاختياري الكسبي فمن وقوعه على التبعي قوله فتحرير رقبة مؤمنة فلو اعتق صغيرا جاز قالوا وأقوال السلف تدل على هذا قال سعيد بن جبير عن ابن عباس إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقربهم عيونهم ثم قرأ هذه الآية وقال ابن مسعود في هذه الآية الرجل يكون له القدم ويكون له الذرية فيدخل الجنة فيرفعون إليه لتقر بهم عينه وإن لم يبلغوا ذلك وقال أبو مجلز يجمعهم الله له كما كان يحب إن يجتمعوا في الدنيا وقال الشعبي ادخل الله الذرية بعمل الآباء الجنة وقال الكلبي عن ابن عباس إن كان الآباء ارفع درجة من الأبناء رفع الله الأبناء إلى الآباء وإن كان الأبناء ارفع درجة من الآباء رفع الله الآباء إلى الأبناء وقال إبراهيم أعطوا مثل أجور آبائهم ولم ينقص الآباء من أجورهم شيئا وقال ويدل على صحة هذا القول إن القراءتين كالآيتين فمن قرأ واتبعتهم ذريتهم فهذا من حق البالغين الذين تصح نسبة الفعل إليهم كما قال تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ ومن قرأ واتبعناهم ذرياتهم فهذا في حق الصغار الذين اتبعهم الله إياهم في الإيمان حكما فدلت القراءتان على النوعين قلت واختصاص الذرية ها هنا بالصغار اظهر لئلا يلزم استواء المتأخرين بالسابقين في الدرجات ولا يلزم مثل هذا في

الصغار فإن أطفال كل رجل وذريته معه في درجته والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حادى الأرواح صـ 395 . 398 ﴾

(174/729)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾

هذه الآية تقتضي عموم رهن كل إنسان بعمله ولو كان من أصحاب اليمين نظرا لشمول المدلول عليه بلفظه كل وقد جاءت آية أخرى تدل على عدم شمولها لأصحاب اليمين وهي قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ .

والجواب ظاهر وهو أن آية الطور هذه تخصصها آية المدثر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 275 ﴾

(175/729)

قوله تعالى ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (25) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (26) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (27) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ألذ ما إلى الحبيب وأعظم ما يكون من أربه ذكر محبوبه والثناء عليه بما منّ به ، قال تعالى شارحاً لذلك عاطفاً على ما تقديره : فأقبلوا على تعاطي ما ذكر من النعم :

﴿ وأقبل بعضهم ﴾ لما ازدهاهم من السرور ، وراقهم من اللذة والحبور ﴿ على بعض يتساءلون ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً عن السبب الموصل له إلى هذا النعيم الذي لا يقدر مخلوق على وصفه حق وصفه ، ثم استأنف شرح ذلك بقوله : ﴿ قالوا ﴾ أي قال كل منهم مؤكداً استلذاذاً بما أداهم إلى ما هم فيه لأنه لا يكاد يصدق ، مسندين النعمة بفعل الكون إلى الله الذي جبلهم جبلة خير ، مسقطين الجار إشارة إلى دوام خوفهم ، تنبيهاً على أن الخوف الحامل على الكف عن المعاصي يشترط فيه الدوام ، بخلاف الرجاء الحامل على الطاعات ، فإنه يكفي فيه ما تيسر كما تأتي الإشارة إليه بإثبات الجار : ﴿ إنا كنا قبل ﴾ أي في دار العمل ﴿ في أهلنا ﴾ على ما لهم من العدد والعدد والنعمة والسعة ، ولنا بهم من جوالب اللذة والدواعي إلى اللعب ﴿ مشفقين ﴾ أي عريقين في الخوف من الله لا يلهينا عنه

شيء مع لزومنا لما نقدر عليه من طاعته لعلمنا بأنا لا نقدره لما له من العظمة والجلال والكبرياء والكمال حق قدره ، وأنه لو واخذنا بأصغر ذنوبنا أهلكنا ، قال الرازي : والإشفاق : دوام الحذر مقروناً بالترحم ، وهو أن يشفق على النفس قبل أن تجمح إلى العناد ، وله أقسام : إشفاق على العمل أن يصير إلى الضياع ، وإشفاق على الخليقة لمعرفة مقاديرها ، وإشفاق على الوقت أن يشوبه تفرق وعلى القلب أن يمازجه عارض وعلى النفس أن يداخلها – انتهى .

(176/729)

ولما حكى عنهم سبحانه أنهم أثبتوا لأنفسهم عملاً تدريباً لمن أريدت سعادته ، فكان بحيث يظن أنهم رأوه هو السبب لما وصلوا إليه ، قالوا نافين لهذا الظن ، مبينين أن ما هم فيه إنما هو ابتداء تفضل من الله تعالى لأن إشفاقهم منه سبحانه لكيلا يعتمد الإنسان على شيء من عمله فلا يزال معظماً لربه خائفاً منه : ﴿ فمنّ الله ﴾ الذي له جميع الكمال بسبب إشفاقنا منه ﴿ علينا ﴾ بما يناسب كماله فأمّننا ﴿ ووقانا ﴾ أي وجنبنا بما سترنا به ﴿ عذاب السموم ﴾ أي الحر النافذ في المسام نفوذ السم .

ولما ذكروا إشفاقهم ، بينوه مؤكدين أيضاً لمثل ذلك بقولهم : ﴿ إنا كنا ﴾ أي بما طبعنا عليه

وهيئنا له .

ولما كان الدعاء بمعنى فعل العبادة ، وكانت تقع في بعض الزمان ، أثبت الجار إشارة إلى ذلك مع إسقاطه قبل هذا في الدعاء بالقوة إشارة إلى أن التحلي بالفضائل يرضى منه باليسر ، والتخلي عن الرذائل لا بد فيه من البراءة عن كل قليل وكثير فقيل : ﴿ من قبل ﴾ أي في الدنيا ﴿ ندعوه ﴾ أي نسأله ونعبده بالفعل ، وأما خوفنا بالقوة فقد كان في كل حركة وسكنة ، ثم عللوا دعاءهم إياه مؤكدين لأن إنعامه عليهم مع تقصيرهم مما لا يكاد يفعله غيره ، فهو مما يعجب منه غاية العجب فقالوا : ﴿ إنه هو ﴾ أي وحده ﴿ البر ﴾ الواسع الجود الذي عطاؤه حكمة ومنعه رحمة ، لأنه لا ينقصه إعطاء ولا يزيده منع ، فهو يبر عبده المؤمن بما يوافق نفسه فربما بره بالنعمة وربما بره بالبؤس ، فهو يختار له من الأحوال ما هو خير له ليوسع له في العقبى ، فعلى المؤمن أن لا يتهم ربه في شيء من قضائه ﴿ الرحيم ﴾ المكرم لمن أراد من عباده بإقامته فيما يرضاه من طاعته ، ثم بإفضاله عليه وإن قصر في خدمته .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 300 . 302 ﴾

(177/729)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (25) ﴾

إشارة إلى أنهم يعلمون ما جرى عليهم في الدنيا ويذكرونه ، وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم في الدنيا ، فتزداد لذة المؤمن من حيث يرى نفسه انتقلت من السجن إلى الجنة ومن الضيق إلى السعة ، ويزداد الكافر ألماً حيث يرى نفسه منتقلة من الشرف إلى التلف ومن النعيم إلى الجحيم ، ثم يتذكرون ما كانوا عليه في الدنيا من الخشية والخوف ، فيقولون ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ وهو أنهم يكون تساؤلهم عن سبب ما وصلوا إليه فيقولون خشية الله كنا نخاف الله ﴿ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ووقانا عَذَابَ السموم ﴾ وفيه لطيفة وهو أن يكون إشفاقهم على فوات الدنيا والخروج منها ومفارقة الإخوان ثم لما نزلوا الجنة علموا خطأهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 219 ﴾

(178/729)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقوله تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات ﴾ الآية

يحتمل أن يكون خطاب أهل النار ، فيكون إخبارهم بذلك زيادة في غمهم وسوء حالهم ، ويحتمل وهو الأظهر أن يكون إخباراً لمحمد صلى الله عليه وسلم ومعاصريه لما فرغ من ذكر عذاب الكفار عقب ذلك بنعيم المتقين ليبين الفرق ويقع التحريض على لإيمان . والمتقون هنا : متقو الشرك . لأنهم لا بد من مصيرهم إلى الجنات ، وكلما زادت الدرجة في التقوى قوي الحصول في حكم الآية ، حتى أن المتقين على الإطلاق هم في حكم الآية قطعاً على الله بحكم خبره الصادق .

وقرأ الجمهور : " فاكهين " ومعناه : فرحين مسرورين . وقال أبو عبيدة : هو من باب لابن وتامر أي لهم فاكهة .

قال القاضي أبو محمد : والمعنى الأول أبرع .

وقرأ خالد فيما حكى أبو حاتم " فاكهين " والفكه والفاكه : المسرور المتنعم .

وقوله : ﴿ بما آتاهم ربهم ﴾ : أي من إنعامه ورضاه عنهم وقوله : ﴿ ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ﴾ هذا متمكن ومتقي المعاصي الذي لا يدخل النار ويكون متقي الشرك الذي ينفذ عليه الوعيد بمعنى : ووقاهم ربهم عذاب الخلود في الجحيم . ويحتمل أن يكون ﴿ الجحيم ﴾ من طبقات جهنم ليست بمأوى للعصاة المؤمنين ، بل هي مختصة بالكفرة فهم وإن عذبوا في نار فليسوا في عذاب الجحيم .

وقرأ جمهور الناس : " ووقَاهم " بتخفيف القاف . وقرأ أبو حيوة : " ووقّاهم " بتشديدها على المبالغة ، وذلك كله مشتق من الوقاية ، وهي الحائل بين الشيء وما يضره والمعنى : يقال لهم ﴿ كلوا واشربوا ﴾ . وقوله : ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ معناه : أن رتب الجنة ونعيمها هو بحسب الأعمال وأما نفس دخولها فهو برحمة الله وتغمده ، والأكل والشرب والتهني ليس من الدخول في شيء ، وأعمال العباد الصالحة لا توجب على الله التنعيم إيجاباً ، لكنه قد جعلها أمارة على من سبق تنعيمه ، وعلق الثواب والعقاب بالتكسب الذي في الأعمال . وقوله تعالى : ﴿ متكئين ﴾ نصب على الحال على حد قوله : ﴿ فاكهين ﴾ والعامل في هاتين الحالتين الفعل المقدر في قوله : ﴿ في جنات ﴾ ويجوز غير هذا ، وفي ذلك نظر ، وقرأ أبو السمال : " على سرَر " بفتح الراء الأولى . و: ﴿ زوجناهم ﴾ معناه : جعلنا لكل فرد منهم زوجاً ، والحور : جمع حوراء ، وهي البيضاء القوية بياض بياض العين وسواد سوادها ، و" العين " جمع عيناء وهي الكبيرة العينين مع جمالهما . وفي قراءة ابن مسعود وإبراهيم النخعي : " وزوجناهم بعيس عين " ، قال أبو الفتح : العيساء البيضاء . وقرأ عكرمة : " وزوجناهم حوراً عيناً " . وحكى أبو عمرو عن عكرمة أنه قرأ " بعيس عين " على إضافة " عيس " إلى " عين " .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ

وقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وابن مسعود وابن عباس ومجاهد وطلحة والحسن وقتادة وأهل مكة : " واتبعتهم ذريتهم " " بهم ذريتهم " . وقرأ نافع وأبو جعفر وابن مسعود بخلاف عنه وشيبة والجحدري وعيسى ، " وأتبعناهم ذريتهم " " بهم ذرياتهم " . وروى خارجة عنه مثل قراءة حمزة . وقرأ ابن عامر وابن عباس وعكرمة وابن جبير والضحاك : " واتبعتهم ذريتهم " " بهم ذريتهم " . وقرأ أبو عمرو والأعرج وأبو رجاء والشعبي وابن جبير والضحاك : " وأتبعناهم ذريتهم " " بهم ذريتهم " . فكون الذرية جمعاً في نفسه حسن الإفراد في هذه القراءات ، وكون المعنى يقتضي انتشار أن كثرة حسن جمع الذرية في قراءة " ذرياتهم " .

واختلف الناس في معنى الآية ، قال ابن عباس وابن جبير والجمهور : أخبر الله تعالى أن المؤمنين تتبعهم ذريتهم في الإيمان . فيكونون مؤمنين كآبائهم . وإن لم يكونوا في التقوى والأعمال كالآباء ، فإنه يلحق الأبناء بمراتب أولئك الآباء كرامة للآباء .

وقد ورد في هذا المعنى حديث النبي صلى الله عليه وسلم فجعلوا الحديث تفسير الآية وكذلك وردت أحاديث تقتضي " أن الله تعالى يرحم الآباء رعياً للأبناء الصالحين " .

وذهب بعض الناس إلى إخراج هذا المعنى من هذه الآية ، وذلك لا يترتب إلا بأن يجعل اسم الذرية بمثابة نوعهم على نحو قوله تعالى ﴿ أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون ﴾ [يس : 41] وفي هذا نظر . وقال ابن عباس أيضاً والضحاك معنى هذه الآية : أن الله تعالى يلحق الأبناء الصغار بأحكام الآباء المؤمنين . يعني في الوراثة والدفن في قبور الإسلام وفي أحكام الآخرة في الجنة . وحكى أبو حاتم عن الحسن أنه قال : الآية في الكبار من الذرية وليس فيها من الصغار شيء . وقال منذر بن سعيد هي في الصغار لا في الكبار . وحكى الطبري قولاً معناه أن الضمير في قوله : ﴿ بهم ﴾ عائد على ذرية ، والضمير الذي بعده في : ﴿ ذريتهم ﴾ عائد على ﴿ الذين ﴾ أي اتبعتهم الكبار وألحقنا نحن الكبار الصغار . وهذا قول مستكره .

وقوله : ﴿ بإيمان ﴾ هو في موضع الحال . فمن رأى أن الآية في الأبناء الصغار . فالحال من الضمير في قوله : ﴿ اتبعتهم ﴾ فهو من المفعولين ، ومن رأى أن الآية في الأبناء الكبار فيحتمل أن تكون الحال من المفعولين ، ويحتمل أن تكون من المتبعين الفاعلين ، وأرجح الأقوال في هذه الآية القول الأول . لأن الآيات كلها في صفة إحسان الله تعالى إلى أهل الجنة فذكر من جملة إحسانه أنه يرعى المحسن في المسيء . ولفظة ﴿ ألحقنا ﴾ تقتضي أن

للملحق بعض التقصير في الأعمال .

وقرأ جمهور القراء : " أَلَتناهم " بفتح الألف من أَلَت .

(182/729)

وقرأ ابن كثير وأبو يحيى وشبل : " اِلَتناهم " من اِلَت بكسر اللام . وقرأ الأعرج : " ألتناهم " على وزن أفعلناهم . وقرأ أبيّ بن كعب وابن مسعود : " لتناهم " من لات ، وهي قراءة ابن مصرف . ورواها القواس عن ابن كثير ، وتحتمل قراءة من قرأ : " أَلَّتناهم " بالفتح أن تكون من ألات ، فإنه قال : ألات يليت إلاتة . ولات يليت ليتاً . وآلت يولت إيلاتاً ، وألت يألت . وولت يلت ولتاً . وكلها بمعنى نقص ومعنى هذه الآية : أن الله يلحق المقصر بالمحسن ، ولا ينقص المحسن من أجره شيئاً وهذا تأويل ابن عباس وابن جبير والجمهور ، ويحتمل قوله تعالى : ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ بأن يريد من عملهم المحسن والقبيح ، ويكون الضمير في ﴿ عملهم ﴾ عائد على الأبناء ، وهذا تأويل ابن زيد ، ويحسن هذا الاحتمال قوله تعالى : ﴿ كل امرئ بما كسب رهين ﴾ ، والرهين المرتهن ، وفي هذه الألفاظ وعيد .

وحكى أبو حاتم عن الأعمش أنه قرأ : " وما لَتناهم " بغير ألف وفتح اللام . قال أبو حاتم :

لا تجوز هذه القراءة على وجه من الوجوه . وأمددت الشي : إذا سربت إليه شيئاً آخر يكثره أو يكثر لديه . وقوله : ﴿ مما يشتهون ﴾ إشارة إلى ما روي من أن المنعم إذا اشتهى لحماً نزل ذلك الحيوان بين يديه على الهيئة التي اشتهاه فيها ، وليس يكون في الجنة لحم يخزن ولا يتكلف فيه الذبح والسلخ والطبخ . وبالجملة : لا كلفة في الجنة ، و: ﴿ يتنازعون ﴾ معناه : يتعاطون ، ومنه قول الأخطل : [البسيط]

نازعته طيب الراح الشمول وقد . . . صاح الدجاج وحانت وقعة الساري

والكأس : الإناء وفيه الشراب . ولا يقال في فارغ كأس ، قاله الزجاج .

(183/729)

وقرأ جمهور من السبعة وغيرهم " لا لغوٌ " بالرفع " ولا تأثيمٌ " كذلك . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والحسن : " لا لغوَ ولا تأثيمَ " بالنصب على التبرية وعلى الوجهين . فقوله ﴿ فيها ﴾ هو في موضع الخبر ، وأغنى خبر الأولين عن ذكر خبر الثاني . واللغو : السقط من القول . والتأثيم : يلحق خمر الدنيا في نفس شربها وفي الأفعال التي تكون من شرابها ، وذلك كله مرتفع في الآخرة . و: " اللؤلؤ المكنون " أجمل اللؤلؤ لأن الصون والكن يحسنه . وقال ابن جبير : أراد أنه الذي في الصدف لم تنله الأيدي ، وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : إذا كان

الغلمان كاللؤلؤ المكنون ، فكيف المخدومون ؟ قال : " هم كالقمر ليلة البدر " . ثم وصف عنهم أنهم في جملة تنعمهم يتساءلون عن أحوالهم وما قال كل أحد منهم ، وأنهم يتذكرون حال الدنيا وخشيتهم فيها عذاب الآخرة . وحكى الطبري عن ابن عباس قال : تساؤلهم إذا بعثوا في النفخة الثانية . والإشفاق أشد الخشية ورقة القلب .

وقرأ أبو حيوة : " ووقّانا " بشد القاف .

وقراءة الجمهور بتخفيفها . وأمال عيسى الثقفي : " ووقَانا " بتخفيف القاف .

و: ﴿ السموم ﴾ الحار . قال الرماني : هو الذي يبلغ مسام الإنسان ، وهو النار في هذه الآية . وقد يقال في حر الشمس وفي الريح سموم . وقال الحسن : ﴿ السموم ﴾ اسم من أسماء جهنم و: ﴿ ندعوه ﴾ يحتمل أن يريد نعبده ، ويحسن هذا على قراءة من قرأ : " أنه " بفتح الألف . وهي قراءة نافع . بخلاف والكسائي وأبي جعفر والحسن وأبي نوفل أي من أجل أنه . وقرأ باقي السبعة والأعرج وجماعة " أنه " على القطع والاستئناف ، ويحسن مع هذه القراءة أن يكون ﴿ ندعوه ﴾ بمعنى نعبده . أو بمعنى الدعاء نفسه ، ومن رأى : ﴿ ندعوه ﴾ بمعنى الدعاء نفسه فيحتمل أن يجعل قوله : " أنه " بالفتح هو نفس الدعاء الذي كان في الدنيا . و: ﴿ البر ﴾ هو الذي يبر ويحسن ، ومنه قول ذي الرمة : [البسيط]

جاءت من البيض زعر لا لباس لها . . . إلا الدهاس وأم برة وأب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾

قال ابن عباس : إذا بعثوا من قبورهم سأل بعضهم بعضاً .

وقيل : في الجنة ﴿ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي يتذاكرون ما كانوا فيه في الدنيا من التعب والخوف من العاقبة ، ويحمدون الله تعالى على زوال الخوف عنهم .

وقيل : يقول بعضهم لبعض بم صرت في هذه المنزلة الرفيعة ؟ ﴿ قالوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أي قال كل مسؤول منهم لسائله : ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ ﴾ أي في الدنيا خائفين وجلين من عذاب الله .

﴿ فَمَنَّ الله عَلَيْنَا ﴾ بالجنة والمغفرة .

وقيل : بالتوفيق والهداية .

﴿ وَوَقَانَا عَذَابَ السموم ﴾ قال الحسن : "السَّمُوم" اسم من أسماء النار وطبقة من طِباق جهنم .

وقيل : هو النار كما تقول جهنم .

وقيل : نار عذاب السَّمُوم .

والسَّمُوم الريح الحارة تؤنث ؛ يقال منه : سُمَّ يومُنَا فهو مسموم والجمع سَمَائم قال أبو عبيدة : السَّمُوم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار ؛ وقد تستعمل السَّمُوم في لفح البرد (وهو في لفح الحرّ) والشمس أكثر ، قال الراجز :

اليوم يومٌ باردٌ سَمُومُهُ . . .

مَنْ جَزِعَ اليومَ فلا أُلُومهْ

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أي في الدنيا بأن يمنّ علينا بالمغفرة عن تقصيرنا .

وقيل : "نَدْعُوهُ" أي نعبده .

﴿ إِنَّهُ هُوَ البر الرحيم ﴾ وقرأ نافع والكسائي "أَنَّه" بفتح الهمزة ؛ أي لأنه .

الباقون بالكسر على الابتداء .

و"الْبَرُّ" اللطيف ؛ قاله ابن عباس .

وعنه أيضاً : أنه الصادق فيما وعد .

وقاله ابن جريج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) ﴾

هذه السورة مكية .

ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة ، إذ في آخر تلك : ﴿ فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم ﴾ وقال هنا : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ .

الطور : الجبل ، والظاهر أنه اسم جنس ، لا جبل معين ، وفي الشأم جبل يسمى الطور ، وهو طور سيناء .

فقال نوف البكالي : إنه الذي أقسم الله به لفضله على الجبال .

قيل : وهو الذي كلم الله عليه موسى ، عليه الصلاة والسلام .

والكتاب المسطور : القرآن ، أو المنتسخ من اللوح المحفوظ ، أو التوراة ، أو هي الإنجيل والزبور ، أو الكتاب الذي فيه أعمال الخلق ، أو الصحف التي تعطى يوم القيامة بالإيمان والشمائل ، أقوال آخرها للفراء ، ولا ينبغي أن يحمل شيء منها على التعيين ، إنما تورد على الاحتمال .

وقرأ أبو السمال : في رِق ، بكسر الراء ، ﴿ منشور ﴾ : أي مبسوط .

وقيل : مفتوح لا ختم عليه .

وقيل : منشور لائح .

وعن ابن عباس : منشور ما بين المشرق والمغرب .

﴿ والبيت المعمور ﴾ ، قال علي وابن عباس وعكرمة : هو بيت في السماء مسامت الكعبة يقال له الضراح ، والضريح أيضاً ، وهو الذي ذكر في حديث الإسراء ، قال جبريل : هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم .

وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : في كل سماء بيت معمور ، وفي كل أرض كذلك .

وسأل ابن الكوا علياً ، رضي الله تعالى عنه فقال : بيت فوق سبع سموات تحت العرش يقال له الضراح .

وقال الحسن : البيت المعمور : الكعبة ، يعمره الله كل سنة بستمائة ألف ، فإن عجز من الناس أتمه الله بالملائكة .

﴿ والسقف المرفوع ﴾ : السماء ، قال ابن عباس : هو العرش ، وهو سقف الجنة .

﴿ والبحر المسجور ﴾ ، قال مجاهد وشمر بن عطية والضحاك ومحمد بن كعب والأخفش : هو البحر الموقد ناراً .

وروي أن البحر هو جهنم .

وقال قتادة : البحر المسجور : المملوء ، وهذا معروف من اللغة ، ورجحه الطبري بوجود ماء البحر كذلك ، ولا ينافي ما قاله مجاهد ، لأن سجرت التنور معناه : ملأته بما يحترق .

وقال ابن عباس : المسجور : الذي ذهب ماؤه .

وروى ذو الرمة الشاعر ، عن ابن عباس قال : خرجت أمة لتستقي ، فقالت : إن الحوض مسجور : أي فارغ ، وليس لذي الرمة حديث إلا هذا ، فيكون من الأضداد .

ويروى أن البحار يذهب ماؤها يوم القيامة .

وقال ابن عباس أيضاً : المسجور : المحبوس ، ومنه ساجور الكلب : وهي القلادة من عود أو حديد تمسكه ، ولولا أن البحر يمسك ، لفاض على الأرض .

وقال الربيع : المسجور : المختلط العذب بالملح .

وقيل : المفجور ، ويدل عليه : ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ والجمهور : على أن البحر المقسم به هو بحر الدنيا ، ويؤيده : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ وعن علي وابن عمر : أنه في السماء تحت العرش فيه ماء غليظ يقال له بحر الحياة ، يمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً ، فينبتون في قبورهم .

وقال قتيبة بن سعيد : هو جهنم ، وسماها بحراً لسعتها وتموجها .

كما جاء في الفرس : وإن وجدناه لبحراً .

قيل : ويحتمل أن تكون الجملة في القسم بالطور والبحر والبيت ، لكونها أماكن خلوة مع الله

تعالى ، خاطب منها ربهم رسله .

فالطور ، قال فيه موسى : ﴿ أرني أنظر أليك ﴾ والبيت المعمور لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، والبحر المسجور ليونس ، قال : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك ﴾ فشرفت هذه الأماكن بهذه الأسباب .

والقسم بكتاب مسطور ، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كان لهم مع الله في هذه الأماكن كلام .

واقترانه بالطور دل على ذلك .

والقسم بالسقف المرفوع لبيان رفعة البيت المعمور . انتهى .

ونكر وكتاب ، لأنه شامل لكل كتاب أنزله الله شمول البدل ، ويحتمل أن يكون شمول العموم ، كقوله : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ وكونه في رق ، يدل على ثبوته ، وأنه لا يتخطى الرؤوس .

(187/729)

ووصفه بمنشور يدل على وضوحه ، فليس كالكتاب المطوي الذي لا يعلم ما انطوى عليه ، والمنشور يعلم ما فيه ، ولا يمنع من مطالعة ما تضمنه ؛ والواو الأولى واو القسم ، وما بعدها

للعطف .

والجملة المقسم عليها هي قوله : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ .

وفي إضافة العذاب لقوله : ﴿ ربك ﴾ لطيفة ، إذ هو المالك والناظر في مصلحة العبد .

فبالإضافة إلى الرب ، وإضافته لكاف الخطاب أمان له (صلى الله عليه وسلم) ؛ وإن العذاب لواقع هو بمن كذابه ، ولواقع على الشدة ، وهو أدل عليها من لكائن .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ وقوله : ﴿ وهو واقع بهم ﴾ كأنه مهيأ في مكان مرتفع فيقع على من حل به ؟ وعن جبير بن مطعم : قدمت المدينة لأسأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في أسارى بدر ، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب : ﴿ والطور ﴾ إلى ﴿ إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ﴾ ، فكأنما صدع قلبي ، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب .

وقرأ زيد بن علي : واقع بغير لام .

قال قتادة : يريد عذاب الآخرة للكفار ، أي لواقع بالكفار .

ومن غريب ما يحكى أن شخصاً رأى في النوم في كفه مكتوباً خمس واوات ، فعبر له بخير ، فسأل ابن سيرين ، فقال : تهيأ لما لا يسر ، فقال له : من أين أخذت هذا ؟ فقال : من قوله تعالى : ﴿ والطور ﴾ إلى ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ ، فما مضى يومان أو ثلاثة حتى أحيط بذلك الشخص .

وانتصب يوم بدافع ، قاله الحوفي ، وقال مكي : لا يعمل فيه واقع ، ولم يذكر دليل المنع .

وقيل : هو منصوب بقوله : ﴿ لواقع ﴾ ، وينبغي أن يكون ﴿ ماله من دافع ﴾ على هذا جملة اعتراض بين العامل والمعمول .

قال ابن عباس : ﴿ تمور ﴾ : تضطرب .

وقال أيضاً : تشقق .

وقال الضحاك : يموج بعضها في بعض .

وقال مجاهد : تدور .

﴿ وتسير الجبال سيراً ﴾ ، هذا في أول الأمر ، ثم تنسف حتى تصير آخراً

(188/729)

﴿ كالعهن المنفوش ﴾ ﴿ فويل ﴾ : عطف على جملة تتضمن ربط المعنى وتأكيده ، والخوض : التخبط في الباطل ، وغلب استعماله في الاندفاع في الباطل .

﴿ يوم يدعون ﴾ ، وذلك أن خزنة جهنم يغلون أيدي الكفار إلى أعناقهم ، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ، ويدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم وزجاً في أقفيتهم .

وقرأ علي وأبو رجاء والسلمي وزيد بن علي : يدعون ، بسكون الدال وفتح العين : من

الدعاء ، أي يقال لهم : هلموا إلى النار ، وادخلوها ﴿ دعاً ﴾ : مدعوعين ، يقال لهم : ﴿ هذه النار ﴾ .

لما قيل لهم ذلك ، وقفوا بعد ذلك على الجهتين اللتين يمكن دخول الشك في أنها النار ، وهي : إما أن يكون سحر يلبس ذات المرئي ، وإما أن يكون في نظر الناظر اختلال ، فأمرهم بصليها على جهة التقريع .

ثم قيل لهم على قطع رجائهم : ﴿ فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم ﴾ : عذابكم حتم ، فسواء صبركم وجزعكم لا بد من جزاء أعمالكم ، قاله ابن عطية .

وقال الزمخشري : ﴿ أفسحر هذا ﴾ ، يعني كنتم تقولون للوحي : هذا سحر .

﴿ أفسحر هذا ﴾ ، يريد : أهذا المصداق أيضاً سحر ؟ ودخلت الفاء لهذا المعنى .

﴿ أم أنتم لا تبصرون ﴾ : كما كنتم لا تبصرون في الدنيا ، يعني : أم أنتم عمي عن المخبر عنه ، كما كنتم عمياً عن الخبر ؟ وهذا تقريع وتهكم .

فإن قلت : لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله : ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ ؟ قلت : لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع لنفعه في العاقبة ، وبأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير .

فأما الصبر على العذاب ، الذي هو الجزاء ولا عاقبة له ولا منفعة ، فلا مزية له على الجزع .

انتهى .

وسحر : خبر مقدم ، وهذا : مبتدأ ، وسواء : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي الصبر والجزع .

وقال أبو البقاء : خبر مبتدأ محذوف ، أي صبركم وتركه سواء .

ولما ذكر حال الكفار ، ذكر حال المؤمنين ، ليقع الترهيب والترغيب ، وهو إخبار عن ما يؤول إليه حال المؤمنين ، أخبروا بذلك .

(189/729)

ويجوز أن يكون من جملة القول للكفار ، إذ ذلك زيادة في غمهم وتنكيد لهم ، والأول أظهر .

وقرأ الجمهور : فكهين ، نصباً على الحال ، والخبر في ﴿ جنات نعيم ﴾ .

وقرأ خالد : بالرفع على أنه خبر إن ، وفي جنات متعلق به .

ومن أجاز تعداد الخبر ، أجاز أن يكونا خبرين .

﴿ ووقاهم ﴾ معطوف على ﴿ في جنات ﴾ ، إذ المعنى : استقروا في جنات ، أو على ﴿ آتاهم ﴾ ، وما مصدرية ، أي فكهين بإيتائهم ربهم النعيم ووقايتهم عذاب الجحيم .

وجوز أن تكون الواو في ووقاهم واو الحال ، ومن شرط قد في الماضي ، قال : هي هنا مضمرة ، أي وقد وقاهم .

وقرأ أبو حيوة : ووقاهم ، بتشديد القاف .

﴿ كلوا واشربوا ﴾ على إضمار القول : أي يقال لهم : ﴿ هنيئاً ﴾ .

قال الزمخشري : أكلاً وشرباً هنيئاً ، أو طعاماً وشراباً هنيئاً ، وهو الذي لا تنغيص فيه .

ويجوز أن يكون مثله في قوله :

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر . . .

لعزة من أعراضنا ما استحلت

أعني : صفة استعملت استعمال المصدر القائم مقام الفعل ، مرتفعاً به ما استحلت ، كما يرتفع بالفعل ، كأنه قيل : هنا عزة المستحل من أعراضنا .

وكذلك معنى هنيئاً ههنا : هنأكم الأكل والشرب ، أو هنأكم ما كنتم تعملون ، أي جزاء ما كنتم تعملون ، والباء مزيدة كما في : ﴿ كفى بالله ﴾ ، والباء متعلقة بكلوا واشربوا ، إذا جعلت الفاعل الأكل والشرب . انتهى .

وتقدم لنا الكلام مشبعاً على ﴿ هنيئاً ﴾ في سورة النساء .

وأما تجويزه زيادة الباء ، فليست زيادتها مقيسة في الفاعل ، إلا في فاعل كفى على خلاف فيها ؛ فتجويز زيادتها في الفاعل هنا لا يسوغ .

وأما قوله : إن الباء تتعلق بكلوا واشربوا ، فلا يصح إلا على الأعمال ، فهي تتعلق بأحدهما .

وانتصب ﴿ متكئين ﴾ على الحال.

قال أبو البقاء: من الضمير في ﴿ كلوا ﴾، أو من الضمير في ﴿ ووقاهم ﴾، أو من الضمير في ﴿ آتاهم ﴾، أو من الضمير في ﴿ فاكهين ﴾، أو من الضمير في الظرف. انتهى.

(190/729)

والظاهر أنه حال من الظرف، وهو قوله: ﴿ في جنات ﴾.

وقرأ أبو السمال: على سرر، بفتح الراء، وهي لغة لكلب في المضعف، فراراً من توالي ضمتين مع التضعيف.

وقرأ عكرمة: ﴿ بحور عين ﴾ على الإضافة.

والظاهر أن قوله: ﴿ والذين آمنوا ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿ ألحقنا ﴾.

وأجاز أبو البقاء أن يكون ﴿ والذين ﴾ في موضع نصب على تقدير: وأكرمنا الذين آمنوا.

ومعنى الآية، قال الجمهور وابن عباس وابن جبير وغيرهما: أن المؤمنين الذين اتبعتهم ذريتهم في الإيمان يكونون في مراتب آبائهم، وإن لم يكونوا في التقوى والأعمال مثلهم كرامة

لآبائهم .

فبإيمان متعلق بقوله : ﴿ وأتبعناهم ﴾ وروى سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته وإن كان لم يبلغها بعمله ليقر بها عينه " ثم قرأ الآية .

وقال ابن عباس والضحاك : إن الله تعالى يلحق الأبناء الصغار ، وإن لم يبلغوا الإيمان بأحكام الآباء المؤمنين . انتهى .

فيكون بإيمان متعلقاً بألحقنا ، أي ألحقنا بسبب الإيمان الآباء بهم ذرياتهم ، وهم الصغار الذين ماتوا ولم يبلغوا التكليف ، فهم في الجنة مع آبائهم ، وإذا كان أبناء الكفار ، الذين لم يبلغوا حدّ التكليف في الجنة ، كما ثبت في صحيح البخاري ، فأحرى أولاد المؤمنين .

وقال الحسن : الآية في الكبار من الذرية .

وقال منذر بن سعيد هي في الصغار لا في الكبار .

وعن ابن عباس أيضاً : الذين آمنوا : المهاجرون والأنصار ، والذرية : التابعون .

وعنه أيضاً : إن كان الآباء أرفع درجة ، رفع الله الأبناء إليهم ، فالآباء داخلون في اسم الذرية .

وقال النخعي : المعنى : أعطيناهم أجورهم من غير نقص ، وجعلنا ذريتهم كذلك .

وقال الزمخشري : ﴿ والذين آمنوا ﴾ ، معطوف على حور عين .

أي قرناهم بالحور العين ؛ وبالذين آمنوا : أي بالرفقاء والجلساء منهم ، كقوله تعالى :

(191/729)

﴿ إخواناً على سرر متقابلين ﴾ فيتمتعون تارة بملاعبة الحور ، وتارة بمؤانسة الإخوان المؤمنين ، وأتبعناهم ذرياتهم .

ثم ذكر حديث ابن عباس ، ثم قال : فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم ، وبمزاوجة الحور العين ، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين ، وباجتماع أولادهم بهم ونسلهم .

ثم قال : بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم : أي بسبب إيمان عظيم رفيع المحل ، وهو إيمان الآباء ، ألحقنا بدرجاتهم ذريتهم ، وإن كانوا لا يستأهلونها ، تفضلاً عليهم وعلى آبائهم ، لنتم سرورهم ونكمل نعيمهم .

فإن قلت : ما معنى تنكير الإيمان ؟ قلت : معناه الدلالة على أنه إيمان خاص عظيم المنزلة .

ويجوز أن يراد إيمان الذرية الداني المحل ، كأنه قال : بشيء من الإيمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم . انتهى .

ولا يتخيل أحد أن ﴿ والذين ﴾ معطوف على ﴿ بحور عين ﴾ غير هذا الرجل ، وهو تخيل أعجميّ مخالف لفهم العربي القح ابن عباس وغيره .

والأحسن من هذه الأقوال قول ابن عباس ، ويعضده الحديث الذي رواه ، لأن الآيات كلها في صفة إحسان الله تعالى إلى هل الجنة .

وذكر من جملة إحسانه أنه يرعى المحسن في المسيء .

ولفظة ﴿ ألحقنا ﴾ تقتضي أن للملحق بعض التقصير في الأعمال .

وقرأ أبو عمرو : وأتبعناهم ؛ وباقي السبعة : واتبعتهم ؛ وأبو عمرو : وذرياتهم جمعاً نصباً ؛ وابن عامر : جمعاً رفعاً ؛ وباقي السبعة : مفرداً ؛ وابن جبير : وأتبعناهم ذريتهم ، بالمدّ والهمز .

وقرأ الجمهور : ﴿ ألتناهم ﴾ ، بفتح اللام ، من ألات ؛ والحسن وابن كثير : بكسرها ؛ وابن هرمز : آلتناهم ، بالمد من آلت ، على وزن أفعل ؛ وابن مسعود وأبي : لتناهم من لات ، وهي قراءة طلحة والأعمش ؛ ورويت عن شبل وابن كثير ، وعن طلحة والأعمش أيضاً : لتناهم بفتح اللام .

قال سهل : لا يجوز فتح اللام من غير ألف بحال ، وأنكر أيضاً آلتناهم بالمد ، وقال : لا يروى عن أحد ، ولا يدل عليها تفسير ولا عربية ، وليس كما ذكر ، بل قد نقل أهل اللغة آلت بالمد ، كما قرأ ابن هرمز .

وقرىء : وما ولتناهم ، ذكره ابن هارون .

قال ابن خالويه : فيكون هنا الحرف من لات يليت ، وولت يلت ، وألت يألت ، وألات يليت ، ويؤلت ، وكلها بمعنى نقص .

ويقال : ألت بمعنى غلظ .

وقام رجل إلى عمر رضي الله عنه فوعظه ، فقال رجل : لا تألت أمير المؤمنين ، أي لا تغلظ عليه .

والظاهر أن الضمير في ألتناهم عائد على المؤمنين .

والمعنى : أنه تعالى يلحق المقصر بالمحسن ، ولا ينقص المحسن من أجر شيئاً ، وهذا تأويل ابن عباس وابن جبير والجمهور .

وقال أبي زيد : الضمير عائد على الأبناء .

﴿ من عملهم ﴾ : أي الحسن والقبيح ، ويحسن هذا الاحتمال قوله : ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾ : أي مرتهن وفيه ، ﴿ وأمددناهم ﴾ : أي يسرنا لهم شيئاً فشيئاً حتى يكر ولا ينقطع .

﴿ يتنازعون فيها ﴾ أي يتعاطون ، قال الأخطل :

نازعته طيب الراح الشمول وقد . . .

صاح الدجاج وحانت وقعة الساري

أو يتنازعون : يتجاذبون تجاذب ملاعبة ، إذ أهل الدنيا لهم في ذلك لذة ، وكذلك في الجنة .

وقرأ الجمهور : ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ ، برفعهما ؛ وابن كثير ، وأبو عمرو : بفتحهما ،

واللغو : السقط من الكلام ، كما يجري بين شراب الخمر في الدنيا .

والتأثيم : الإثم الذي يلحق شارب الخمر في الدنيا .

﴿ غلمان لهم ﴾ : أي مماليك .

﴿ مكنون ﴾ : أي في الصدف ، لم تنله الأيدي ، قاله ابن جبير ، وهو إذ ذاك رطب ، فهو أحسن وأصفى .

ويجوز أن يراد بمكنون : مخزون ، لأنه لا يخزن إلا الغالي الثمن .

والظاهر أن التساؤل هو في الجنة ، إذ هذه كلها معاطيف بعضها على بعض ، أي يتساءلون عن أحوالهم وما نال كل واحد منهم ؛ ويدل عليه ﴿ فمن الله علينا ﴾ : أي بهذا النعيم الذي نحن فيه .

وقال ابن عباس : تساؤلهم إذا بعثوا في النفخة الثانية ، حكاه الطبري عنه .

﴿ مشفقين ﴾ : رقيقي القلوب ، خاشعين لله .

وقرأ أبو حيوة : ووقانا بتشديد القاف ، والسموم هنا النار ؛ وقال الحسن : اسم من أسماء جهنم .

﴿ من قبل ﴾ : أي من قبل لقاء الله والمصير إليه .

﴿ ندعوه ﴾ نعبده ونسأله الوقاية من عذابه ، ﴿ إنه هو البر ﴾ : المحسن ، ﴿ الرجيم ﴾ : الكثير الرحمة ، إذا عبد أثاب ، وإذا سئل أجاب .

أو ﴿ ندعوه ﴾ من الدعاء .

وقرأ الحسن وأبو جعفر ونافع والكسائي : أنه بفتح الهمزة ، أي لأنه ، وباقي السبعة : إنه بكسر الهمزة ، وهي قراءة الأعرج وجماعة ، وفيها معنى التعليل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾

أي يسأل كل بعض منهم بعضاً آخر عن أحواله وأعماله فيكون كل بعض سائلاً ومسؤولاً لا أنه يسأل بعض معين منهم بعضاً آخر معيناً ثم هذا التساؤل في الجنة كما هو الظاهر ، وحكى الطبري عن ابن عباس أنه إذا بعثوا في النفخة الثانية ولا أراه يصح عنه لبعده جداً . ﴿ قَالُواْ ﴾ أي المسؤولون وهم كل واحد منهم في الحقيقة ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ ﴾ أي قبل هذا الحال ﴿ فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أرقاء القلوب خائفين من عصيان الله عز وجل معتنين بطاعته سبحانه ، أو وجلين من العاقبة ، و ﴿ فِى أَهْلِنَا ﴾ قيل : يحتمل أنه كناية عن كون ذلك في الدنيا ، ويحتمل أن يكون بياناً لكون إشفاقهم كان فيهم وفي أهلهم لتبعيتهم لهم في العادة ويكون قوله تعالى :

﴿ فَمَنَّ الله عَلَيْنَا ﴾ أي بالرحمة والتوفيق ﴿ ووقانا عَذَابَ السموم ﴾ أي عذاب النار النافذة في المسام نفوذ السموم وهو الريح الحارة المعروفة ، ووجه الشبه وإن كان في النار أقوى لكنه في ريح السموم لمشاهدته في الدنيا أعرف فلذا جعل مشبهاً به ، وقال الحسن : ﴿ السموم ﴾ اسم من أسماء جهنم عاماً لهم ولأهلهم ، فالمراد بيان ما منّ الله تعالى به عليهم من اتباع أهلهم لهم ، وقيل : ذكر ﴿ فِى أَهْلِنَا ﴾ [الطور : 26] لإثبات خوفهم في سائر الأوقات والأحوال بطريق الأولى فإن كونهم بين أهليهم مظنة الأمن ولا أرى فيه

بأساً ، نعم كون ذلك لأن السؤال عما اختصوا به من الكرامة دون أهليهم ليس بشيء ، وقيل : لعل الأولى أن يجعل ذلك إشارة إلى الشفقة على خلق الله تعالى كما أن قوله عز وجل :

(195/729)

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ إلى آخره إشارة إلى التعظيم لأمر الله تعالى وترك العاطف بجعل الثاني بياناً للأول ادعاءاً للمبالغة في وجوب عدم انفكاك كل منهما للآخر ولا يخفى ما فيه ، والذي يظهر أن هذا إشارة إلى الرجاء وترك العطف لقصد تعداد ما كانوا عليه أي إنا كنا من قبل ذلك نعبده تعالى ونسأله الوقاية ﴿ إِنَّهُ هُوَ البر ﴾ أي المحسن كما يدل عليه اشتقاقه من البر بسائر مواده لأنها ترجع إلى الإحسان كبرّ في يمينه أي صدق لأن الصدق إحسان في ذاته ويلزمه الإحسان للغير ، وأبرّ الله تعالى حجة أي قبله لأن القبول إحسان وزيادة ، وأبرّ فلان على أصحابه أي علاهم لأنه غالباً ينشأ عن الإحسان لهم فتفسيره باللطيف كما روي عن ابن عباس ، أو العالي في صفاته ، أو خالق البرّ ، أو الصادق فيما وعد أولياءه كما روي عن ابن جريج بعيد إلا أن يراد بعض ما صدقات ، أو غايات ذلك البر ؟ ﴿ الرحيم ﴾ الكثير الرحمة الذي إذا عبد أثاب وإذا سئل أجاب ، وقرأ أبو حيوة

﴿ ووقانا ﴾ [الطور : 27] بتشديد القاف ، والحسن .

وأبو جعفر .

ونافع .

والكسائي ﴿ أَنَّهُ ﴾ بفتح الهمزة لتقدير لام الجر التعليلية قبلها أي لأنه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(196/729)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) ﴾

هذه الأقسام التي أقسم الله بها تعالى في أول هذه السورة الكريمة أقسم ببعضها بخصوصه ، وأقسم بجميعها في آية عامة لها ولغيرها .

أما الذي أقسم به منها إقساماً خاصاً فهو الطور ، والكتاب المسطور ، والسقف المرفوع ، والأظهر أن الطور الجبل الذي كلم الله لعيه موسى ، وقد أقسم الله تعالى بالطور في قوله :

﴿ والتين والزيتون وَطُورِ سِينِينَ ﴾ [التين : 1 - 2] .

والأظهر أن الكتاب المسطور هو القرآن العظيم ، وقد أكثر الله من الإقسام به في كتابه كقوله

تعالى : ﴿ حمو الكتاب المبين ﴾ [الزخرف : 1 - 2] وقوله تعالى : ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ [يس : 1 - 2 وقيل هو كتاب الأعمال ، وقيل غير ذلك ، ﴿ والسقف المرفوع ﴾ : هو السماء ، وقد أقسم الله بها في كتابه في آيات متعددة كقوله : ﴿ والسمآء ذَاتِ الحبك ﴾ [الذاريات : 7] وقوله : ﴿ والسمآء ذَاتِ البروج ﴾ [البروج : 1] وقوله تعالى : ﴿ والسمآء وَمَا بَنَاهَا ﴾ [الشمس : 5] ، والرق بفتح الراء كل ما يكتب فيه من صحيفة وغيرها ، وقيل هو الجلد المرقق ليكتب فيه . وقوله : ﴿ مَّنشُورٍ ﴾ أي مبسوط ، ومنه قوله : ﴿ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ﴾ [الإسراء : 13] . وقوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ أَن يؤتى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ [المدثر : 52] ﴿ والبيت المعمور ﴾ . ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ " هو البيت المعروف في السماء المسمى بالضراح بضم الضاد ، وقيل فيه معمور ، لكثرة ما يغشاه من الملائكة المتعبدين ، فقد جاء الحديث أنه يزوره كل يوم سبعون ألف ملك ، ولا يعودون إليه بعدها " .

(197/729)

وقوله : ﴿ والبحر المسجور ﴾ فيه وجهان من التفسير للعماء . أحدهما أن المسجور هو الموقد ناراً . قالوا : ويصطرم البحر يوم القيامة ناراً ، من هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ فِي

النار يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر : 72] الوجه الثاني : هو أن المسجور بمعنى المملوء ، لأنه مملوء ماء ، ومن إطلاق المسجور على المملوء قول لبيد بن ربيعة في معلقته :

فتوسطا عرض السرى وصدعا . . . مسجورة متاوراً قلامها

فقوله : مسجورة أي عيناً مملوءة ماء ، وقول النمر بن تولب العكلي :

إذا شاء طالع مسجورة . . . ترى حولها النبع والساسما

وهذان الوجهان المذكوران في معنى المسجور هما أيضاً في قوله ﴿ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير : 6] الآية العامة التي أقسم فيها تعالى بما يشمل جميع هذه الأقسام وغيرها ن فهي قوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة : 38 - 39] ، لأن الإقسام في هذه الآية عامة في كل شيء .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ ، قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول الذاريات ، وفي غير ذلك من المواضع .

يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13)

الدع في لغة العرب : الدفع بقوة وعنف ، ومنه قوله تعالى ﴿ فَذَلِكَ الذي يَدُعُّ اليتيم ﴾ [الماعون : 2] أي يدفعه عن حقه بقوة وعنف ، وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين : أحدهما أن الكفار يدفعون إلى النار بقوة وعنف يوم القيامة .

والثاني : أنهم يقال لهم يوم القيامة توبيخاً وتقريعاً : ﴿ هذه النار التي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ .

(198/729)

وهذان الأمران المذكوران في هذه الآية الكريمة جاءا موضحين في آيات أخر ، أما الأخير منهما ، وهو كونهم يقال لهم ﴿ هذه النار التي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ، وقد ذكره تعالى في آيات من كتابه كقوله في السجدة ﴿ كُلَّمَآ أرادوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ النار الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة : 20] : وقوله في سبأ ﴿ فاليوم لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلاَ ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ النار التي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [سبأ : 42] وقوله تعالى في المرسلات : ﴿ انطلقوا إلى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ انطلقوا إلى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ لاَّ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللهب إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كالقصر ﴾ [المرسلات : 29 – 32] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

وأما الأول منهما وهو كونهم يدفعون إلى النار بقوة فقد ذكره الله جل وعلا في آيات من كتابه كقوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فاعتلوه إلى سَوَآءِ الجحيم ﴾ [الدخان : 47] أي جروه بقوة وعنف غلى وسط النار . والعتل في لغة العرب : الجر بعنف وقوة ، ومنه قول الفرزدق :

ليس الكرام بنا حليك أباهم . . . حتى ترد إلى عطية تعتل

وقوله : ﴿ يُعْرَفُ المجرمون بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بالنواصي والأقدام ﴾ [الرحمن : 41] أي تجمع الزبانية بين ناصية الواحد منهم ، أي مقدم شعر رأسه وقدمه ، ثم تدفعه في النار بقوة وشدة .

(199/729)

وقد بين جل وعلا أنهم أيضاً يسحبون في النار على وجوههم في آيات من كتابه كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النار على وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر : 48] ، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بالكتاب وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الأغلال في أَعْنَاقِهِمْ والسلاسل يُسْحَبُونَ فِي الحميم ثُمَّ فِي النار يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر : 70 – 72] وقوله : في هذه الآية الكريمة : يوم يدعون ، بدل من قوله : يومئذ ، في قوله تعالى قبله ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الطور : 11] .

اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الكفار معذبون في النار لا محالة ، سواء صبروا أو لم يصبروا ، فلا ينفعهم في ذلك صبر ولا جزع ، وقد اوضح هذا المعنى في قوله : ﴿ قَالُواْ لَوْ

هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم : 21].

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ امرىء بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ .

ظاهر هذه الآية الكريمة العموم في جميع الناس ، وقد بين تعالى في آيات أخر أن أصحاب اليمين خارجون من هذا العموم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلاَّ أَصْحَابَ اليمين فِي جَنَّاتٍ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ المجرمين ﴾ [المدثر : 38 – 41] .

ومن المعلوم أن التخصيص بيان ، كما تقرر في الأصول .

وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22)

(200/729)

لم يذكر هنا شيء من صفات هذه الفاكهة ولا هذا اللحم إلا أنه مما يشتهون . وقد بين صفات هذه الفاكهة في مواضع أخر كقوله : ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : 32 – 33] وقوله تعالى ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثمرات ﴾ [محمد : 15] الآية . وقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هذا الذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً ﴾ [البقرة : 25] الآية . وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ فَوَاكِهُ وَهُم

مُّكْرَمُونَ ﴾ [الصافات : 41 – 42] إلى غير ذلك من الآيات .

ووصف اللحم المذكور بأنه من الطير ، والفاكهة بأنها مما يتخيرونه على غيره ، وذلك في قوله : ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة : 20 – 21] .

يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (23)

قرأه ابن كثير وأبو عمرو : ﴿ لَا لَغْوٌ ﴾ بالبناء على الفتح ، ﴿ ولا تأثيم ﴾ كذلك لأنها ، لا ، التي لنفي الجنس فبنيت معها ، وهي إن كانت كذلك نص في العموم ، وقرأه الباقون من السبعة ﴿ لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ بالرفع والتنوين . لأن لا النافية للجنس إذا تكررت كما هنا جاز إعمالها وإهمالها ، والقراءتان في الآية فيهما المثال للوجهين : وإعمالها كثير ، ومن شواهد إهمالها قراءة الجمهور في هذه الآية ، وقول الشاعر :

وما هجرتك حتى قلت معلنة . . . لا ناقة لي في هذا ولا جمل

وقوله : ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ : أي يتعاطون ، ويتناول بعضهم من بعض كأساً أي خمراً ، فالتنازع يطلق لغة على كل تعاط وتناول ، فكل قوم يعطي بعضهم بعضاً شيئاً ويناوله إياه ، فهم يتنازعونه كتنازع كؤوس الشراب والكلام ، وهذا المعنى معروف في كلام العرب .

ومنه في الشراب قول الأخطل :

وشارب مبرح بالكأس نادمني . . . لا بالحصور ولا فيها بسوار

نازعته طيب الراح الشمور وقد . . . صاح الدجاج وحانت وقعة الساري

فقوله : نازعته طيب الراح : أي ناولته كؤوس الخمر وناولينها ، ومنه في الكلام قول امرئ القيس :

ولما تنازعنا الحديث وأسمحت . . . هصرت بغصن ذي شماريخ ميال

والكأس تطلق على غناء الخمر ، ولا تكاد العرب تطلب الكأس إلا على الإناء المملوء ، وهي مؤنثة وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ يعني أن خمر الجنة التي يتعاطاها المؤمنون ، فيها ومخالفة في جميع الصفات لخمر الدنيا ، فخمر الآخرة لا لغو فيها ، واللغة كل كلام ساقط لا خير فيه ، فخمر الآخرة لا تحمل شاربيها على الخبيث والهذيان ، لأنها لا تؤثر في عقولهم بخلاف خمر الدنيا ، فغنهم يشربوها سكروا وطاشت عقولهم ، فتكلموا بالكلام الخبيث والهذيان ، وكل ذلك من اللغو .

والتأثيم : هو ما ينسب به فاعله إلى الإثم ، فخمر الآخرة لا يأثم شاربها بشربها ، لأنها مباحة له ، فنعم بلذتها كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ [محمد : 15] ولا تحمل شاربها على أن يفعل إثماً بخلاف خمر الدنيا ، فشاربها يأثم بشربها ويحمله السكر على الوقوع في المحرمات كالقتل والزنا والقذف .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من مخالفة خمر الآخرة لخمر الدنيا ، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات : 45 – 47] وقوله ﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ : أي ليس فيها غول يغتال العقول ، فيذهبها كخمر الدنيا . ﴿ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ : أي لا يسكرون ، وكقوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة : 17 – 19] : وقوله ﴿ لاَّ يَصَدَّعُونَ ﴾ أي لا يصيبهم الصداع الذي هو وجع الرأس بسببها .

وقد أوضحنا معنى هذه الآيات في صفة خمر الآخرة ، وبينا أنها مخالفة في جميع الصفات لخمر الدنيا . وذكرنا الشواهد العربية في ذلك في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر ﴾ [المائدة : 90] الآية .

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (24)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة يطوف عليهم غلمان جمع غلام ، أي خدم لهم ، وقد قدمنا إطلاقات الغلام وشواهدها العربية في سورة الحجر في الكلام على قوله

تعالى : ﴿ قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر : 53] .

ولم يبين هنا ما يطوفون عليهم به ، وذكر هنا حسنهم بقوله ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ في أصدافه ، لأن ذلك أبلغ في صفائه وحسنه ، وقيل : مكنون أي مخزون لنفاسته ، لأن النفيس هو الذي يخزن ويكن .

(203/729)

وبين تعالى في الواقعة بعض ما يطوفون عليهم به في قوله ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ [الواقعة : 17 – 18] . وزاد في هذه الآية كونهم مخلدين ، وذكر بعض ما يطاف عليهم به في قوله : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ [الزخرف : 71] . وقوله تعالى : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا وَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ [الإنسان : 15 – 16] .

والظاهر أن الفاعل المحذوف في قوله : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم ﴾ في آية الزخرف والإنسان المذكورتين هو الغلمان المذكورون في الطور والواقعة ، وذكر بعض صفات هؤلاء الغلمان في الإنسان في قوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ﴾ [الإنسان : 19] .

قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (26)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أن أهل الجنة يسأل بعضهم بعضاً ، وأن المسؤول عنهم يقول للسائل : ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ ﴾ ، أي في دار الدنيا ﴿ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أي خائفين من عذاب الله ، ونحن بين أهلنا أحياء فمنَّ الله علينا أي أكرمنا ، وتفضل علينا بسبب الخوف منه في دار الدنيا فهدانا ، ووفقنا في الدنيا ووقانا في الآخرة عذاب السموم ، والسموم النار ولفحها ووهجها ، وأصله الريح الحارة التي تدخل المسام ، والجمع سمائم . ومنه قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي :

أنا مل لم تضرب على البهم بالضحى . . . بهن ووجه لم تلحه السمائم

وقد يطلق السموم على الريح الشديدة البرد ، ومنه قول الراجز :

اليوم يوم بارد سمومه . . . من جزع اليوم فلا ألومه

(204/729)

الفاء في قوله : ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ ، تدل على أن علة ذلك هي الخوف من الله في دار الدنيا ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الإشفاق الذي هو الخوف الشديد من عذاب الله في دار الدنيا ، سبب للسلامة منه في الآخرة ، يفهم من دليل خطابه ، أعني مفهوم

مخالفته أن من لم يخف من عذاب الله في الدنيا لم ينج منه في الآخرة .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة بمنطوقها ومفهومها جاء موضحاً في غير هذا الموضع . فذكر تعالى أن السرور في الدنيا وعدم الخوف من الله سبب العذاب يوم القيامة ، وذلك في قوله ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً ويصلى سَعِيراً إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ الآية .

وقد تقرر في مسلك الإيماء والتنبيه أن إن المكسورة المشددة من حروف التعليل ، فقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ [الإنشقاق : 13] علة لقوله : ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً ويصلى سَعِيراً ﴾ [الإنشقاق : 12 - 13] .

والمسرور في أهله في دار الدنيا ليس بمشفق ولا خائف ، ويؤيد ذلك قوله بعده : ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ [الإنشقاق : 14] لأن معناه ، ظن ألن يرجع إلى الله حياً يوم القيامة ، ولا شك أن من ظن أنه لا يبعث بعد الموت لا يكون مشفقاً في أهله خوفاً من العذاب ، لأنه لا يؤمن بالحساب والجزاء ، وكون لن يحور ، بمعنى لن يرجع معروف في كلام العرب ، ومنه قول مهلهل بن ربيعة التغلبي :

أليلتنا بذي حسم أنيري . . . إذا أنت انقضيت فلا تحوري

فقوله : فلا تحوري ، أي فلا ترجعي .

وقول لبيد بن ربيعة العامري :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه . . . يحور رماداً بعد ما هو ساطع

(205/729)

أي يرجع رماداً ، وقيل : يصير ، والمعنى واحد . وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الشمال مَآ أَصْحَابُ الشمال فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى الحنث العظيم وَكَانُواْ يقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾

[الواقعة : 41 – 47] الآية ، لأن تنعمهم في الدنيا المكور في قول ﴿ مُتْرَفِينَ ﴾ ، وإنكارهم للبعث المذكور في قوله ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ الآية . دليل على عدم إشفاقهم في الدنيا ، وهو علة كونهم في سموم وحميم .

وقد قدمنا قريباً أن إن المكسورة المشددة من حروف التعليل ، فقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ ، الآية . علة لقوله : ﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ الآية .

وقد ذكر جل وعلا أن الإشفاق من عذاب الله من أسباب دخول الجنة والنجاة من العذاب يوم القيامة ، كما دل عليه منطوق آية الطور هذه ، قال تعالى في المعارج ﴿ والذين هُم مِّنْ

عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ ﴿ المعارج: 27 - 29] - إلى قوله - ﴿ أولئك فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ [المعارج: 35] ، وذكر ذلك من صفات أهل الجنة في قوله تعالى ﴿ إِنَّ الذين هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴾ [المؤمنون : 57] - إلى قوله - ﴿ أولئك يُسَارِعُونَ فِي الخيرات وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون : 61] ، وقد قال تعالى : ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون فِي جَنَّاتِ النعيم ﴾ [الواقعة : 10 - 12] .

(206/729)

وقوله في آية الواقعة المذكورة : ﴿ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى الحنث العظيم ﴾ ، أي يديمون ويعزمون على الذنب الكبير ، كالشرك وإنكار البعث ، وقيل المراد بالحنث : حنثهم في اليمين الفاجرة كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل : 38 .] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(207/729)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (25) ﴾

عطف على جملة ﴿ يتنازعون فيها كأساً ﴾ [الطور : 23] .

والتقدير : وقد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، أي هم في تلك الأحوال قد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون .

ولما كان إلحاق ذرياتهم بهم مقتضياً مشاركتهم إياهم في النعيم كما تقدم آنفاً عند قوله : ﴿ ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ [الطور : 21] كان هذا التساؤل جارياً بين الجميع من الأصول والذريات سائلين ومسؤولين .

وضمير ﴿ بعضهم ﴾ عائد إلى ﴿ المتقين ﴾ [الطور : 17] وعلى ﴿ ذريتهم ﴾ [الطور : 21] .

وجملة ﴿ قالوا ﴾ بيان لجملة ﴿ يتساءلون ﴾ على حد قوله تعالى : ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ [طه : 120] ضمير ﴿ قالوا ﴾ عائد إلى البعضين ، أي يقول كل فريق من المتسائلين للفريق الآخر هذه المقالة .

والإِشفاق : توقع المكروه وهو ضد الرجاء ، وهذا التوقع متفاوت عند المتسائلين بحسب تفاوت ما يوجبه من التقصير في أداء حق التكليف ، أو من العصيان .

ولذلك فهو أقوى في جانب ذريات المؤمنين الذين أُلحقوا بأصولهم بدون استحقاق .

ولعله في جانب الذريات أظهر في معنى الشكر لأن أصولهم من أهلهم فهم يعلمون أن ذرياتهم كانوا مشفقين من عقاب الله تعالى أو بمنزلة من يعلم ذلك من مشاهدة سَيرهم في الوفاء بحقوق التكليف ، وكذلك أصولهم بالنسبة إلى من يعلم حالهم من أصحابهم أو يسمع منهم إشفاقهم واستغفارهم .

وحذف متعلق ﴿ مشفقين ﴾ لأنه دل عليه ﴿ ووقانا عذاب السموم ﴾ .

وعلى هذا الوجه يكون معنى (في) الظرفية .

ويتعلق ﴿ في أهلنا ﴾ بـ ﴿ كنا ﴾ ، أي حين كنا في ناسنا في الدنيا .

ف ﴿ أهلنا ﴾ هنا بمعنى آلنَا .

(208/729)

ويجوز أن تكون المقالة صادرة من الذين آمنوا يخاطبون ذرياتهم الذين ألحقوا بهم ولم يكونوا يحسبون أنهم سيلحقون بهم : فالمعنى : إنا كنا قبل مشفقين عليكم ، فتكون (في) للظرفية المجازية المفيدة للتعليل ، أي مشفقين لأجلكم .

ومعنى ﴿ فمن الله علينا ﴾ من علينا بالعفو عنكم فأذهب عنا الحزن ووقانا أن يعذبكم بالنار .

فلما كان عذاب الذريات يحزن آباءهم جعلت وقاية الذريات منه بمنزلة وقاية آبائهم فقالوا : ﴿ ووقانا عذاب السموم ﴾ إغراقاً في الشكر عنهم وعن ذرياتهم ، أي فمنّ علينا جميعاً ووقانا جميعاً عذاب السموم .

والسَموم بفتح السين ، أصله اسم الريح التي تهبّ من جهة حارّة جداً فتكون جافّة شديدة الحرارة وهي معروفة في بلاد العرب تهلك من يتنشقها .

وأطلق هنا على ريح جهنم على سبيل التقريب بالأمر المعروف ، كما أطلقت على العنصر الناري في قوله تعالى : ﴿ والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ في سورة الحجر (27) وكل ذلك تقريب بالمألوف .

وجملة إنا كنا من قبل ندعوه ﴾ تعليل لمنة الله عليهم وثناء على الله بأنه استجاب لهم ، أي كنا من قبل اليوم ندعوه ، أي في الدنيا .

وحذف متعلق ﴿ ندعوه ﴾ للتعميم ، أي كنا نبتهل إليه في أمورنا ، وسبب العموم داخل ابتداء ، وهو الدعاء لأنفسهم ولذرياتهم بالنجاة من النار وبنوال نعيم الجنة .

ولما كان هذا الكلام في دار الحقيقة لا يصدر إلا عن إلهام ومعرفة كان دليلاً على أن دعاء الصالحين لأبنائهم وذرياتهم مرجو الإِجابة ، كما دل على إجابة دعاء الصالحين من الأبناء لآبائهم على ذلك ، قال النبي صلى الله عليه وسلم " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث " فذكر " وولد صالح يدعو له بخير " .

وقوله : ﴿ إنه هو البر الرحيم ﴾ قرأه نافع والكسائي وأبو جعفر بفتح همزة (أنه) على تقدير حرف الجر محذوفاً حذفاً مطّرداً مع (أَنَّ) وهو هنا اللام تعليلاً ل ﴿ ندعوه ﴾ ، وقرأه الجمهور بكسر همزة (إن) وموقع جملتها التعليل .

والبَر : المُحسن في رفق .

والرحيم : الشديد الرحمة وتقدم في تفسير سورة الفاتحة .

وضمير الفصل لإِفادة الحصر وهو لقصر صفتي ﴿ البر ﴾ و ﴿ الرحيم ﴾ على الله تعالى وهو قصر ادعائي للمبالغة لعدم الاعتداد ببرور غيره ورحمة غيره بالنسبة إلى برور الله ورحمته باعتبار القوة فإن غير الله لا يبلغ بالمبرة والرحمة مبلغ ما لله وباعتبار عموم المتعلق ، وباعتبار الدوام لأن الله بر في الدنيا والآخرة ، وغير الله برّ في بعض أوقات الدنيا ولا يملك في الآخرة شيئاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى البر ، والبر)

وقد ورد فى القرآن على أَربعة عشر وجهاً :

الأَوّل : - أَعنى البَرّ - بالفتح - خمس .

الأَوّل : بمعنى الحَقّ - جَلّ اسمه وعلا - ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ .

الثَّانى : بمعنى الصّحراءِ ضدّ البَحْر : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ .

﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ﴾ .

الثالث : فى مدح يحيى بن زكريا ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ ﴾ .

الرّابع : فى المسيح عيسى : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ .

الخامس : فى ساكنى مَلَكوت السّماءِ : ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ .

وأَما البِرّ - بالكسر - فأَربعة :

الأَوّل بمعنى البارّ : ﴿ وَلَاكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ أَى البارّ .

الثانى : بمعنى الخير : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ .

الثَّالث : بمعنى الطَّاعة : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ .

الرّابع : بمعنى تصديق اليمين : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا ﴾ .

وقد جاءَ بمعنى صلة الرّحم ﴿ لاَّ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ أَى تصلوا أَرحامكم .

والأَبرار مذكور فى خمسة مواضع :

الأَوّل : فى صفة الأَخيار ، فى جوار الغفَّار : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ .

الثانى : فى صفة نظارتهم على غُرَف دار القرار : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ .

الثالث : فى مجلس أُنسهم ، وجاورة المصطفى ، وصحابته الأَخيار : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ .

(211/729)

الرّابع : فى تقريرهم فى قُبّة القُرْبَة من الله الكريم الستَّار : ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ ﴾ .

الخامس : فى مرافقة بعضم بعضاً يوم الرحيل إلى دار القرار ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ .

وأَصل الكلمة ومادّتها – أَعنى (ب ر ر) – موضوعة (لخلاف البحر) ، وتُصوّر منه التوسّع ، فاشتُقّ منه البِرّ أَى التوسّع فى فعل الخير .

وينسب ذلك تارة إلى الله تعالى فى نحو ﴿ إِنَّه هُو البرُّ الرَّحيمُ ﴾ ، وإلى العبد تارة ، فيقال :

برّ العبدُ ربّه ، أَى توسّع فى طاعته .

فمن الله تعالى الثواب ومن العبد الطاعةُ .

وذلك ضربان : ضرب فى الاعتقاد ، وضرب فى الأَعمال .

وقد اشتمل عليهما قولُه تعالى ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ الآية (وعلى هذا ما روى أَنه صلى الله عليه وسلم سئل عن البرّ فتلا هذه الآية) فإِن الآية متضمّنة للاعتقاد ، ولأَعمال الفرائض ، والنّوافل .

وبِرّ الوالدين : التَّوسُّع فى الإِحسان إِليهما .

ويستعمل البِرّ فى الصدق لكونه بعضَ الخير .

ويقال : برّ فى قوله ، وفى يمينه ، وحَجّ مبرورُ : مقبول .

وجمع البارّ أَبرار ، وبَرَرة .

وخصّ الملائكة بالبَرَرة من حيث إِنَّه أَبلغ من الأَبرار ؛ فإِنه جمع بَرّ .

والأَبرار جمع بَارٍّ ، وبرٌّ أَبلغ من بارّ ؛ كما أَنَّ عَدْلاً أَبلغ من عادل .

والبُرّ معروف وتسميته بذلك لكونه أَوسع ما يُحتاج إِليه فى الغذاءِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 211.213 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثلاثون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثلاثون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 29 ﴾ من (سورة الطور)

وحتى الآية ﴿ 49 ﴾ آخر السورة

(4/730)

قوله تعالى ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (32) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا مع تشويقه إلى الجنة والأعمال الموصله إليها وعظاً يرقق القلوب ويجلي الكروب ، سبب عنه قوله : ﴿ فذكر ﴾ أي جدد التذكير بمثل هذا لكل من يرجو خيره ودم على ذلك ، وسماه تذكيراً لأنه مما يعلمه الإنسان إذا أمعن النظر من نفسه أو من الآفاق ، وعلل التذكير بقوله : ﴿ فما أنت ﴾ أي وأنت أشرف الناس عنصراً وأكملهم نفساً

وأزكاهم خلائق هم بها معترفون لك قبل النبوة ﴿ بنعمت ربك ﴾ أي بسبب ما أنعم به عليك المحسن إليك من هذا الناموس الأعظم بعد تأهيلك له بما هيأك به من رجاحة العقل وعلو الهمة وكرم الفعال وجود الكف وطهارة الأخلاق وشرف النسب ، وأكد النفي بقوله : ﴿ بكاهن ﴾ أي تقول كلاماً - مع كونه سجعاً متكلفاً - أكثره فارغ وتحكم على المغيبات بما يقع خلاف بعضه .

ولما كان للكاهن والمجنون اتصال بالجن ، أتبع ذلك قوله : ﴿ ولا مجنون ﴾ أي تقول كلاماً لا نظام له مع الإخبار ببعض المغيبات ، فلا يفترك قولهم هذا عن التذكير فإنه قول باطل لا تلحقك به معرة أصلاً ؛ وعما قليل يكون عيباً لهم لا يغسله عنهم إلا اتباعهم لك ، فمن اتبعك منهم غسل عاره ، ومن استمر على عناده استمر تبابه وخساره .

(5/730)

ولما كانت نسبته - صلى الله عليه وسلم - فيما أتاهم به من هذا القرآن الآمر بالحكمة إلى أنه أتى به عن الجن الذين طبعهم الفساد مما لا ينبغي أن يتخيله أحد فضلاً أن يقوله له - صلى الله عليه وسلم - ، ولا يكاد يصدق أن أحداً يرميه به ، فكان في طيه سؤال تقريع وتوبيخ ، نبه على ذلك بالعطف على ما تقديره : أيقولون هذا القول البعيد من أقوال أهل العقول : ﴿ أم

يقولون ﴾ ما هو أعجب في مجرد قوله فضلاً عن تكريره ، فأم معادلة للاستفهام قبلها لا مقطوعة ، وكذا جميع ما بعدها وهو معنى ما نقله البغوي عن الخليل أنه قال : ما في سورة الطور من ذكر " أم " كله استفهام وليس بعطف .

﴿ شاعر ﴾ يقول كلاماً موزوناً بالقصد ، يلزمه التكلف لذلك فيغلب إلزام الوزن قائله حتى يجعل اللفظ هو الأصل ويجعل المعنى تابعاً له ، فيأتي كثير من كلامه ناقص المعاني هلهل النسج مغلوباً فيه على أمره معترفاً إذا وقف عليه بتقصيره متعذراً مما زانه بهزعم من أوزانه ، وساق سبحانه هذا وكذا ما بعده من الأقسام على طريق الاستفهام مع أن نسبتها إليهم محققة ، تنبيهاً على أن مثل هذا لا يقوله عاقل ، وإن قاله أحد لم يكد الناقل عنه يصدق : ﴿ نتربص ﴾ أي ننتظر ﴿ به ريب المنون ﴾ أي حوادث الدهر من الموت وغيره القاطعة ، من المن وهو القطع .

(6/730)

ولما كان كأنه قيل لهم : إنهم ليقولون ذلك ، قال معلماً جوابهم : ﴿ قل تربصوا ﴾ ولم يعرج على محاججتهم في قولهم هذا تنبيهاً على أنه من السقوط بمنزلة لا يحتاج معها إلى رد مجادلة ، ثم سبب عن أمره لهم بالتربص قوله : ﴿ فإني معكم ﴾ وأكده تنبيهاً على أنه يرجو الفرح

بمصيبتهم كما يرجون الفرج بمصيبته وإن كانت كثرتهم وقوتهم عندهم مانعة من مثل هذا التربص ﴿ من المتربصين ﴾ أي العريقين في التربص وإن ظننتم خلاف ذلك ، وأشار بالمعية إلى أنه مساو لهم في ذلك وإن ظنوا لكثرتهم وقوتهم ووحدته وضعفه أن الأمر خلاف ذلك ، قال القشيري : جاء في التفسير أن جميعهم - أي الذي تربصوا به - ماتوا ، قال : ولا ينبغي لأحد أن يؤمل نفاق سوقه بموت أحد لتنتهي النوبة إليه فقل من تكون هذه صفته إلا سبقته المنية ، ولا يدرك ما تمناه من الأمنية .

(7/730)

ولما كان قولهم هذا مما لا يقال أصلاً وإن قيل على بعده كان قوله كأنه على جهة سبق اللسان أو نحو ذلك ، نبه عليه بمعادلة ما تقديره : أقالوا ذلك ذهولاً : ﴿ أم تأمرهم ﴾ أي نزين لهم تزييناً يصير مآلهم إليه من الانبعاث كالأمر ﴿ أحلامهم ﴾ أي عقولهم التي يزعمون أنهم اختصوا بجودتها دون الناس بحيث إنه كان يقال فيهم : أولوا الأحلام والنهي ﴿ بهذا ﴾ أي وهم يعتقدون صحته وأنه العدل السواء لأنه متقيدون بالأحلام والنهي على ما فيه من الفساد بالتناقض بعد اختلال كل قول منه على حدته كما تقدم بيانه ، وهو توبيخ عظيم بالإشارة إلى أنه ليست لهم عقول أصلاً لقولهم هذا ، فإن الكاهن شرطه أن

يكون في غاية المعرفة عندهم حتى أنهم يجعلونه حكماً وربما عبدوه ، والمجنون لا يصلح لصالحة لأنه لا يعقل ، والشاعر بعيد الأمر بوزن الكلام وكثرته من سجع الكاهن وغيره وكلام المجنون : ﴿ أم هم ﴾ بظواهرهم وبواطنهم ﴿ قوم ﴾ أي ذوو قوة على ما يحاولونه فهم لذلك ﴿ طاغون ﴾ أي مجازون للحدود ، وذلك عادة لهم بما أفهمه الوصف ، فهم لذلك لا يبالون بالعناد الظاهر في مخالفته لما تأمر به الأحلام والنهى ، ولا يقوله إلا الطغاة السفهاء مع ظهور الحق لهم ، فهم يقولون الكلام المتناقض غير مبالين بأحد ولا مستحيين من أن ينسبوا إلى العدوان والمبالغة في العصيان ، والآية من الاحتباك : ذكر الأحلام أولاً دليلاً على ضدها ثانياً ، والطغيان ثانياً على ضده " العدل السواء " أولاً ، وسره أن ما ذكر أشد تنفيراً من السوء وأعظم تقبيحاً له وتحذيراً منه ﴿ أم يقولون ﴾ ما هو أفحش عاراً من التناقض : ﴿ تقوله ﴾ أي تكلف قوله من عند نفسه كذباً وليس بشعر ولا كهانة ولا جنون ، وهم على كثرتهم وإلمام بعضهم بالعلم وعرافة آخرين في الشعر والخطب والترسل والسجع يعجزونه عن مثله بل عن مثل شيء منه .

(8/730)

ولما كان الكلام حقيقة في النفس ، وكانوا يعلمون بطلان جميع ما يقولونه من ذلك ، كان التقدير : لم يقولوا شيئاً من ذلك حقيقة واعتقاداً ﴿ بل لا يؤمنون ﴾ أي لا يقرون بالحق مع علمهم ببطلان قولهم وتناقضه عناداً منهم لا تكذيباً في الباطن .

ولما كان هذا القول أظهر بطلاناً من كل ما قالوه لأن تكذيبهم لهم على تقدير كذبه – على زعمهم – غير موقوف على شيء خارج عن القوة ، طالبهم بالمعارضة لأنهم إذا عارضوه بمثله انفصل النزاع ، ولذلك سبب عما مضى قوله تكذيباً لهم في قولهم هذا الذي أظهروه بألسنتهم يوقفون به غيرهم عن الخير : ﴿ فليأتوا ﴾ أي على تقدير أرادوه ﴿ بحديث ﴾ أي كلام مفرق مجدد إتيانه مع الأوقات لا تكلفهم أن يأتوا به جملة ﴿ مثله ﴾ أي القرآن في البلاغة وصحة المعاني والإخبار بالمغيبات مما كان أو يكون على ما هي عليه والحكم .

(9/730)

ولما كان المقصود هنا مطلق التعجيز للمكذبين لا بقيد الاجتماع كما في سبحان لأن نزول هذه أوائل ما نزل ، تحداهم بالإتيان بالمثل في التنجيم والتطبيق على الوقائع سوراً أو آيات أو دون ذلك ، تحدث وتتجدد شيئاً في أثر شيء – بما أشار إليه التعبير بالحدوث ، ولذلك أعراه عن تظاهرهم بالاجتماع ودعاء المستطاع ، ولكونهم كاذبين في جزمهم بنسبته إلى

التقول وغيره ، أشار إلى ذلك بقوله مقرعاً لهم إلهاباً إلى الخوض في المعارضة : ﴿ إن كانوا ﴾ أي كوناً هم راسخون فيه ﴿ صادقين ﴾ أي في أنه تقوله من عند نفسه شيئاً فشيئاً ، كوناً هم عريقون فيه كما يزعمون سواء ادعوا أنه شاعر أو كاهن أو مجنون أو غير ذلك ، لأن العادة تحيل أن يأتي واحد من قوم وهو مساوٍ لهم بما لا يقدرون كلهم على مثله ، والعاقل لا يجزم بشيء إلا وهو عالم به ، ويلزم من علمهم بذلك قدرتهم على مثل ما يأتي به ، فإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثلهم في الفصاحة والبلد والنسب ، وبعضهم يزيد عليه بالكتابة وقول الشعر ومخالطة العلماء ، ومزاولة الخطب والرسائل وغير ذلك ، فلا يقدر على ما يعجزون عنه إلا بتأييد إلهي ، وهو المراد من تكذيبهم ، وقد علم من هذا ومما تقدم من نحوه مفرقاً في السور التي فيها مثله أن المتحدى به في كل سورة غير المتحدى به في الأخرى – والله الهادي ، وهذه الأقسام الماضية من تكذيبهم تتأتى أن تكون على تقدير الاعتقاد للإله على ما هو عليه من صفات الكمال فأتباعها قسماً على تقدير التعطيل ، وإذا لم يكن إله لم يكن رسول فيأتي التكذيب ، ثم أتبع ذلك قسماً آخر هو على تقدير إثبات الإله لكن مع الضعف بالشركة ، ولكون الشركة تارة تكون من المتكلم وتارة من غيره ، قدم منها ما للمتكلم على زعمه ، وقدم تقدير شركته بالخلق ثم بضبط الخزائن ثم بالكتابة ثم بسماع الأسرار ثم بضعف السعة بالرضا بالصنف الأردأ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 302 . 304 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) ﴾)

وتعلق الآية بما قبلها ظاهر لأنه تعالى بيّن أن في الوجود قوماً يخافون الله ويشفقون في أهليهم ، والنبي صلى الله عليه وسلم مأمور بتذكير من يخاف الله تعالى بقوله ﴿ فَذَكِّرْ بالقرءان مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : 45] فحقق من يذكره فوجب التذكير ، وأما الرسول عليه السلام فليس له إلا الإتيان بما أمر به ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في الفاء في قوله ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ قد علم تعلقه بما قبله فحسن ذكره بالفاء .

المسألة الثانية :

معنى الفاء في قوله ﴿ فَمَا أَنتَ ﴾ أيضاً قد علم أي أنك لست بكاهن فلا تتغير ولا تتبع أهواءهم ، فإن ذلك سيرة المزور فذكر فإنك لست بمزور ، وذلك سبب التذكير .

المسألة الثالثة :

ما وجه تعلق قوله ﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ بقوله ﴿ شَاعِرٌ ﴾ ؟ نقول فيه وجهان الأول : أن العرب كانت تحترز عن إيذاء الشعراء وتتقي ألسنتهم ، فإن الشعر كان عندهم يحفظ ويدون ، وقالوا لا نعارضه في الحال مخافة أن يغلبنا بقوة شعره ، وإنما سبيلنا الصبر وتربص موته الثاني : أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول إن الحق دين الله ، وإن الشرع الذي أتيت به يبقى أبد الدهر وكتابي يتلى إلى قيام الساعة ، فقالوا ليس كذلك إنما هو شاعر ، والذي يذكره في حق آلهتنا شعر ولا ناصر له وسيصيبه من بعض آلهتنا الهلاك فنتربص به ذلك .

المسألة الرابعة :

ما معنى ريب المنون ؟ نقول قيل هو اسم للموت فعول من المن وهو القطع والموت قطوع ، ولهذا سمي بمنون ، وقيل المنون الدهر وريبه حوادثه ، وعلى هذا قولهم ﴿ نَتَرَبَّصُ ﴾ يحتمل وجهاً آخر ، وهو أن يكون المراد أنه إذا كان شاعراً فصروف الزمان ربما تضعف ذهنه وتورث وهنه فيتبين لكل فساد أمره وكساد شعره .

المسألة الخامسة :

كيف قال : ﴿ تَرَبَّصُواْ ﴾ بلفظ الأمر وأمر النبي صلى الله عليه وسلم يوجب المأمور (به) أو يفيد جوازه ، وتربصهم ذلك كان حراماً ؟ نقول ذلك ليس بأمر وإنما هو تهديد معناه تربصوا ذلك فإنا نتربص الهلاك بكم على حد ما يقول السيد الغضبان لعبده افعل ما شئت فإني لست عنك بغافل وهو أمر لتهوين الأمر على النفس ، كما يقول القائل لمن يهدده برجل ويقول أشكوك إلى زيد فيقول اشكني أي لا يهمني ذلك وفيه زيادة فائدة ، وذلك لأنه لو قال لا تشكني لكان ذلك دليل الخوف وينافيه معناه ، فأتى بجواب تام من حيث اللفظ والمعنى ، فإن قيل لو كان كذلك لقال تربصوا أو لا تربصوا كما قال : ﴿ فاصبروا أَوْ لاَ تَصْبِرُواْ ﴾ [الطور : 16] نقول ليس كذلك لأنه إذا قال القائل فيما ذكرناه من المثال اشكني أو لا تشكني يكون ذلك مفيداً عدم خوفه منه ، فإذا قال اشكني يكون أدل على عدم الخوف ، فكأنه يقول أنا فارغ عنه ، وإنما أنت تتوهم أنه يفيد فافعل حتى يبطل اعتقادك .

المسألة السادسة :

(12/730)

في قوله تعالى : ﴿ فَإِنِّى مَعَكُمْ مِّنَ المتربصين ﴾ وهو يحتمل وجوهاً أحدها : إني معكم من المتربصين أتربص هلاككم وقد أهلكوا يوم بدر وفي غيره من الأيام هذا ما عليه الأكثرون

والذي نقوله في هذا المقام هو أن الكلام يحتمل وجوهاً وبيانها هو أن قوله تعالى : ﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ إن كان المراد من المنون الموت فقوله ﴿ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ المتربصين ﴾ معناه إني أخاف الموت ولا أتمناه لا لنفسي ولا لأحد ، لعدم علمي بما قدمت يداه وإنما أنا نذير وأنا أقول ما قال ربي ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم ﴾ [آل عمران : 144] فتربصوا موتي وأنا متربصه ولا يسركم ذلك لعدم حصول ما تتوقعون بعدي ، ويحتمل أن يكون كما قيل تربصوا موتي فإني متربص موتكم بالعذاب ، وإن قلنا المراد من ريب المنون صروف الدهر فمعناه إنكار كون صروف الدهر مؤثرة فكأنه يقول أنا من المتربصين حتى أبصر ماذا يأتي به دهركم الذي تجعلونه مهلكاً وماذا يصيبني منه ، وعلى التقديرين فنقول النبي صلى الله عليه وسلم يتربص ما يتربصون ، غير أن في الأول : تربصه مع اعتقاد الوقوع ، وفي الثاني : تربصه مع اعتقاد عدم التأثير ، على طريقة من يقول أنا أيضاً أنتظر ما ينتظره حتى أرى ماذا يكون منكراً عليه وقوع ما يتوقع وقوعه ، وإنما هذا لأن ترك المفعول في قوله ﴿ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ المتربصين ﴾ لكونه مذكوراً وهو ريب المنون أولى من تركه وإرادة غير المذكور وهو العذاب الثاني : أتربص صروف الدهر ليظهر عدم تأثيرها فهو لم يتربص بهم شيئاً على الوجهين ، وعلى هذا الوجه يتربص بقاءه بعدهم وارتفاع كلمته فلم يتربص بهم شيئاً على الوجوه التي اخترناها فقال : ﴿ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ المتربصين ﴾ .

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (32)

وأم هذه أيضاً على ما ذكرنا متصلة تقديرها أنزل عليهم ذكر ؟ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ وذلك لأن الأشياء إما أن تثبت بسمع وإما أن تثبت بعقل فقال هل ورد أمر سمعي ؟ أم عقولهم تأمرهم بما كانوا يقولون ؟ أم هم قوم طاغون يغترون ، ويقولون ما لا دليل عليه سمعاً ولا مقتضى له عقلاً ؟ والطغيان مجاوزة الحد في العصيان وكذلك كل شيء ظاهره مكروه ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الماء ﴾ [الحاقه : 11] وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

إذا كان المراد ما ذكرت فلم أسقط ما يصدر به ؟ تقول لأن كون ما يقولون به مسنداً إلى نقل معلوم عدمه لا ينفى ، وأما كونه معقولاً فهم كانوا يدعون أنه معقول ، وأما كونهم طاغين فهو حق ، فخص الله تعالى بالذكر ما قالوا به وقال الله به ، فهم قالوا نحن نتبع العقل ، والله تعالى قال هم طاغون فذكر الأمرين اللذين وقع فيهما الخلاف .

المسألة الثانية :

قوله ﴿ تَأْمُرُهُمْ أحلامهم ﴾ إشارة إلى أن كل ما لا يكون على وفق العقل ، لا ينبغي أن يقال

، وإنما ينبغي أن يقال ما يجب قوله عقلاً ، فهل صار (كل) واجب عقلاً مأموراً به .

المسألة الثالثة :

(14/730)

ما الأحلام ؟ نقول جمع حلم وهو العقل وهما من باب واحد من حيث المعنى ، لأن العقل يضبط المرء فيكون كالبعير المعقول لا يتحرك من مكانه ، والحلم من الحلم وهو أيضاً سبب وقار المرء وثباته ، وكذلك يقال للعقول النهى من النهي وهو المنع ، وفيه معنى لطيف وهو أن الحلم في أصل اللغة هو ما يراه النائم فينزل ويلزمه الغسل ، وهو سبب البلوغ وعنده يصير الإنسان مكلفاً ، وكأن الله تعالى من لطيف حكمته قرن الشهوة بالعقل وعند ظهور الشهوة كمل العقل فأشار إلى العقل بالإشارة إلى ما يقارنه وهو الحلم ، ليعلم أنه نذير كمال العقل ، لا العقل الذي به يحترز الإنسان تخطىء الشرك ودخول النار ، وعلى هذا ففيه تأكيد لما ذكرنا أن الإنسان لا ينبغي أن يقول كل معقول ، بل لا يقول إلا ما يأمر به العقل الرزين الذي يصحح التكليف .

المسألة الرابعة :

هذا إشارة إلى ماذا ؟ نقول فيه وجوه الأول : أن يكون هذا إشارة مهمة ، أي بهذا الذي

يظهر منهم قولاً وفعلاً حيث يعبدون الأصنام والأوثان ويقولون الهذيان من الكلام الثاني : هذا إشارة إلى قولهم هو كاهن هو شاعر هو مجنون الثالث : هذا إشارة إلى التربص فإنهم لما قالوا نتربص قال الله تعالى أعقولهم تأمرهم بتربص هلاكهم فإن أحداً لم يتوقع هلاك نبيه إلا وهلك .

المسألة الخامسة :

هل يصح أن تكون أم في هذا الموضع بمعنى بل ؟ نقول نعم ، تقديره يقولون : إنه شاعر قولاً بل يعتقدونه عقلاً ويدخل في عقولهم ذلك ، أي ليس ذلك قولاً منهم من غير عقل بل يعتقدون كونه كاهناً ومجنوناً ، ويدل عليه قراءة من قرأ بل هم قوم طاغون ، لكن بل ههنا واضح وفي قوله بل تأمرهم أحلامهم خفي .

أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (33)

وهو متصل بقوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ ﴾ [الطور : 30] وتقديره على ما ذكرنا أتقولون كاهن ، أم تقولون شاعر ، أم تقوله .

(15/730)

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34)

ثم قال لبطلان جميع الأقسام ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُواْ صادقين ﴾ أي إن كان هو شاعراً ففيكم الشعراء البلغاء والكهنة الأذكياء ومن يرتجل الخطب والقصائر ويقص القصص ولا يختلف الناقص والزائد فليأتوا بمثل ما أتى به ، والتقول يراد به الكذب .

وفيه إشارة إلى معنى لطيف وهو أن التفعل للتكلف وإراءة الشيء وهو ليس على ما يرى يقال تمرض فلان أي لم يكون مريضاً وأرى من نفسه المرض وحينئذ كأنهم كانوا يقولون كذب وليس بقول إنما هو تقول صورة القول وليس في الحقيقة به ليعلم أن المكذب هو الصادق ، وقوله تعالى : ﴿ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ بيان هذا أنهم كانوا في زمان نزول الوحي وحصول المعجزة كانوا يشاهدونها وكان ذلك يقتضي أن يشهدوا له عند غيرهم ويكونوا كالنجوم للمؤمنين كما كانت الصحابة رضي الله عنهم وهم لم يكونوا كذلك بل أقل من ذلك لم يكونوا أيضاً وهو أن يكونوا من آحاد المؤمنين الذين لم يشهدوا تلك الأمور ولم يظهر الأمر عندهم ذلك الظهور .

وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُواْ ﴾ الفاء للتعقيب أي إذا كان كذلك فيجب عليهم أن يأتوا بمثل ما أتى به ليصحح كلامهم ويبطل كلامه وفيه مباحث :

الأول : قال بعض العلماء ﴿ فَلْيَأْتُواْ ﴾ أمر تعجيز بقول القائل لمن يدعي أمراً أو فعلاً ويكون غرضه إظهار عجزه ، والظاهر أن الأمر ههنا مبقي على حقيقته لأنه لم يقل : ائتوا مطلقاً بل إنما قال : ائتوا إن كنتم صادقين ، وعلى هذا التقدير ووجود ذلك الشرط يجب الإتيان به

وأمر التعجيز في كلام الله تعالى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ * يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب فَبُهِتَ الذى كَفَرَ ﴾ [البقرة : 258] وليس هذا بحثاً يورث خللاً في كلامهم .

(16/730)

الثاني : قالت المعتزلة الحديث محدث والقرآن سماه حديثاً فيكون محدثاً ، نقول الحديث اسم مشترك ، يقال للمحدث والقديم ، ولهذا يصح أن يقال هذا حديث قديم بمعنى متقادم العهد لا بمعنى سلب الأولية وذلك لا نزاع فيه .

الثالث : النحاة يقولون الصفة تتبع الموصوف في التعريف والتنكير ، لكن الموصوف حديث وهو منكر ومثل مضاف إلى القرآن والمضاف إلى المعرف معرف ، فكيف هذا ؟ نقول مثل وغير لا يتعرفان بالإضافة وكذلك كل ما هو مثلهما والسبب أن غير أو مثلاً وأمثالهما في غاية التنكير ، فإنك إذا قلت ما رأيت شيئاً مثل زيد يتناول كل شيء فإن كل شيء مثل زيد في كونه شيئاً ، فالجماد مثله في الجسم والحجم والإمكان ، والنبات مثله في النشوء والنماء والذبول والفناء ، والحيوان مثله في الحركة والإدراك وغيرهما من الأوصاف ، وأما غير فهو عند الإضافة ينكر وعند قطع الإضافة ربما يتعرف فإنك إذا قلت غير زيد صار في غاية الإيهام فإنه يتناول أموراً لا حصر لها ، وأما إذا قطعته عن الإضافة ربما تقول الغير

والمغايرة من باب واحد وكذلك التغير فتجعل الغير كأسماء الأجناس ، أو تجعله مبتدأ وتريد به معنى معيناً .

الرابع : ﴿ إِن كَانُواْ صادقين ﴾ أي في قولهم ﴿ تَقَوَّلَهُ ﴾ [الطور : 33] وقد ذكرنا أن ذلك راجع إلى ما سبق من أنه كاهن وأنه مجنون ، وأنه شاعر ، وأنه متقول ، ولو كانوا صادقين في شيء من ذلك لهان عليهم الإتيان بمثل القرآن ، ولما امتنع كذبوا في الكل .

(17/730)

البحث الخامس : قد ذكرنا أن القرآن معجز ولا شك فيه ، فإن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثل ما يقرب منه عند التحدي فإما أن يكون كونه معجزاً لفصاحته وهو مذهب أكثر أهل السنة وإما أن يكون معجزاً لصرف الله عقول العقلاء عن الإتيان بمثله ، وعقله ألسنتهم عن النطق بما يقرب منه ، ومنع القادر من الإتيان بالمقدور كإتيان الواحد بفعل لا يقدر عليه غيره فإن من قال لغيره أنا أحرك هذا الجبل يستبعد منه ، وكذا إذا قال إني أفعل فعلاً لا يقدر الخلق (معه) على حمل تفاحة من موضعها يستبعد منه على أن كل واحد فعل معجز إذا اتصل بالدعوى ، وهذا مذهب بعض المتكلمين ولا فساد فيه وعلى أن يقال هو معجز بهما جميعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 219 . 222 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾

أي فذكر يا محمد قومك بالقرآن .

﴿ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ يعني برسالة ربك ﴿ بِكَاهِنٍ ﴾ تبتدع القول وتخبر بما في غد من غير وَحْي .

﴿ وَلاَ مَجْنُونٍ ﴾ وهذا ردّ لقولهم في النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فعقبة بن أبي مُعَيْط قال : إنه مجنون ، وشيبة بن ربيعة قال : إنه ساحر ، وغيرهما قال : كاهن ؛ فأكذبهم الله تعالى وردّ عليهم .

ثم قيل : إن معنى "فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ" القسم ؛ أي وبنعمة الله ما أنت بكاهن ولا مجنون .

وقيل : ليس قسماً ، وإنما هو كما تقول : ما أنت بحمد الله بجاهل ؛ أي قد برأك الله من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ ﴾ أي بل يقولون محمد شاعر .

قال سيبويه : خوطب العباد بما جرى في كلامهم .

قال أبو جعفر النحاس : وهذا كلام حسن إلا أنه غير مبيّن ولا مشروح ؛ يريد سيبويه أن "أَمْ" في كلام العرب لخروج من حديث إلى حديث ؛ كما قال :

أَتَهْجُر غَانيةً أَمْ تِلمْ . . .

فتم الكلام ثم خرج إلى شيء آخر فقال :

أَمِ الْحَبْلُ وَاهٍ بها مُنْجَذِمْ . . .

فما جاء في كتاب الله تعالى من هذا فمعناه التقرير والتوبيخ والخروج من حديث إلى حديث ، والنحويون يمثلونها ببل .

﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ قال قتادة : قال قوم من الكفار تربصوا بمحمد الموت يكفيكموه كما كفى شاعر بني فلان .

قال الضحاك : هؤلاء بنو عبد الدار نسبوه إلى أنه شاعر ؛ أي يهلك عن قريب كما هلك مَنْ قبلُ من الشعراء ، وأن أباه مات شابًّا فربما يموت كما مات أبوه .

وقال الأخفش : نتربص به إلى ريب المنون فحذف حرف الجر ، كما تقول : قصدت زيداً وقصدت إلى زيد .

والمنون : الموت في قول ابن عباس .

قال أبو الغَوِل الطُّهوِي :

هُم مَنَعُوا حِمَى الْوَقَبَى بِضَرْبٍ . . .

يُؤَلِّف بين أَشْتَاتِ الْمَنُونِ

(19/730)

أي المنايا ؛ يقول : إن الضرب يجمع بين قوم متفرّقي الأمكنة لو أتتهم منايا هم في أماكنهم لأتتهم متفرقة ، فاجتمعوا في موضع واحد فأتتهم المنايا مجتمعة .

وقال السدّي عن أبي مالك عن ابن عباس : "رَيْبَ" في القرآن شكٌّ إلا مَكاناً واحداً في الطور "رَيْبَ الْمَنُونِ" يعني حوادث الأمور ؛ وقال الشاعر :

تَرَبَّصْ بها رَيْبَ الْمَنُونِ لَعَلَّها . . .

تُطَلَّقُ يوماً أو يَموتُ حَلِيلُها

وقال مجاهد : ﴿ رَيْبَ المنون ﴾ حوادث الدهر ، والمنون هو الدهر ؛ قال أبو ذُؤَيْب :

أَمِنَ الْمَنُونِ ورَيْبِه تَتَوجَّعُ . . .

والدَّهْرُ لَيس بمُعْتِبٍ مَنْ يَجزَعُ

وقال الأعشى :

أَأَنْ رَأَتْ رجلاً أَعْشَى أَضَرَّ بِهِ . . .

رَيْب المنونِ ودَهرٌ مُتْبِلٌ خَبِل

قال الأصمعي : المنون الليل والنهار ؛ وسميا بذلك لأنهما ينقصان الأعمار ويقطعان الآجال .

وعنه : أنه قيل للدهر منون ، لأنه يذهب بمُنَّة الحيوان أي قوته وكذلك المنِيَّة .

أبو عبيدة : قيل للدهر منون ؛ لأنه مُضْعِف ، من قولهم حَبْلٌ مَنِين أي ضعيف ، والمنين الغبار الضعيف .

قال الفراء : والمنون مؤنثة وتكون واحداً وجمعاً .

الأصمعي : المنون واحد لا جماعة له .

الأخفش : هو جماعة لا واحد له ، والمنون يذكر ويؤنّث ؛ فمن ذكّره جعله الدهر أو الموت ، ومن أنّثه فعلى الحمل على المعنى كأنه أراد المنية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَرَبَّصُواْ ﴾ أي قل لهم يا محمد تربصوا أي انتظروا .

﴿ فَإِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المتربصين ﴾ أي من المنتظرين بكم العذاب ؛ فعُذِّبوا يوم بدر بالسيف .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُمْ ﴾ أي عقولهم ﴿ بهاذآ ﴾ أي بالكذب عليك .

﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أي أم طَغَوْا بغير عقول .

وقيل : "أَمْ" بمعنى بل ؛ أي بل كفروا طغياناً وإن ظهر لهم الحق .

وقيل لعمرو بن العاص : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله بالعقل ؟ فقال : تلك عقول كادها الله ؛ أي لم يصحبها بالتوفيق .

وقيل : "أَحْلاَمُهُمْ" أي أذهانهم ؛ لأن العقل لا يُعطَى للكافر ولو كان له عقل لآمن .

وإنما يعطى الكافر الذهن فصار عليه حجة .

والذِّهن يقبل العلم جملةً ، والعقل يميّز العلم ويقدر المقادير لحدود الأمر والنهي .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم " أن رجلاً قال : يا رسول الله ، ما أعقل فلاناً النصراني ! فقال : "مَهْ إنّ الكافر لا عقل له أما سمعت قول الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السعير ﴾ " " وفي حديث ابن عمر : " فزجره النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : "مَهْ فإن العاقل من يعمل بطاعة الله" " ذكره الترمذي الحكيم أبو عبد الله بإسناده .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ أي افتعله وافتراه ، يعني القرآن .

والتقوّل تكلُّف القول ، وإنما يستعمل في الكذب في غالب الأمر .

ويقال قوّلتني ما لم أقل ! وأقْوَلتني ما لم أقل ؛ أي ادعيته عليّ .

وتَقَوَّل عليه أي كذب عليه .

واقتال عليه تحكَّم قال :

ومَنْزِلةٌ في دارِ صِدْقٍ وغِبْطَةٍ . . .

ومَا اقتال مِن حُكْمٍ عَلَيَّ طَبِيبُ

فأم الأولى للإنكار والثانية للإيجاب أي ليس كما يقولون .

﴿ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ جَحداً واستكبارا .

﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ أي بقرآن يشبهه من تلقاء أنفسهم ﴿ إِن كَانُواْ صَادِقِينَ ﴾ في أن محمداً افتراه .

وقرأ الجحدري ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ بالإضافة .

والهاء في "مثله" للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأضيف الحديث الذي يراد به القرآن إليه لأنه المبعوث به .

والهاء على قراءة الجماعة للقرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(21/730)

وقال الآلوسى :

﴿ فَذَكِّرْ ﴾ فاثبت على ما أنت عليه من التذكير بما أنزل عليك من الآيات والذكر الحكيم ولا تكترث بما يقولون مما لا خير فيه من الأباطيل .

﴿ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ ﴾ هو الذي يخبر بالغيب بضرب من الظن ، وخص الراغب الكاهن بمن يخبر بالأخبار الماضية الخفية كذلك ، والعرّاف بمن يخبر بالأخبار المستقبلة كذلك ، والمشهور في الكهانة الاستمداد من الجن في الإخبار عن الغيب ، والباء في ﴿ بكاهن ﴾ مزيدة للتأكيد أي ما أنت كاهن ﴿ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ واختلف في باء ﴿ بِنِعْمَتِ ﴾ فقال أبو الباقء : للملابسة ؛ والجار والمجرور في موضع الحال والعامل فيه كاهن ، أو مجنون ، والتقدير ما أنت كاهن ولا مجنون ملتبساً بنعمة ربك وهي حال لازمة لأنه عليه الصلاة والسلام ما زال ملتبساً بنعمة ربه عز وجل ، وقيل : للقسم فنعمة ربك مقسم به ، وجواب القسم ما علم من الكلام وهو ما أنت بكاهن ولا مجنون وهذا كما تقول : ما زيد والله بقائم وهو بعيد ، والأقرب عندي أن الباء للسببية وهو متعلق بمضمون الكلام ، والمعنى انتفى عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة الله تعالى عليك ، وهذا كما تقول ما أنا معسر بحمد الله تعالى وإغنائه ، والمراد الرد على قائل ذلك ، وإبطال مقالتهم فيه عليه الصلاة والسلام وإلا فلا امتنان عليه صلى الله عليه وسلم بانتفاء ما ذكر مع انتفائه عن أكثر الناس ، وقيل : الامتنان بانتفاء ذلك بسبب النعمة المراد بها ما أوتيه صلى الله عليه وسلم من صدق النبوة ورجاحة العقل التي لم يؤتها أحد قبله ، والقائلون بذلك هم الكفرة قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون ، وممن قال كاهن : شيبة بن ربيعة ، وممن قال مجنون : عقبة بن أبي معيط .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ أي بل أيقولون ﴿ شَاعِرٌ ﴾ أي هو شاعر ﴿ نَتَرَبَّصُ ﴾ أي ننتظر ﴿ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ أي الدهر ، وهو فعول من المنّ بمعنى القطع لأنه يقطع الأعمار وغيرها ، ومنه حبل منين أي مقطوع ، والريب مصدر رابه إذا أقلقه أريد به حوادث الدهر وصروفه لأنها تقلق النفوس وعبر عنها بالمصدر مبالغة ، وجوز أن يكون من راب عليه الدهر أي نزل ، والمراد بنزوله إهلاكه ، وتفسير المنون بالدهر مروى عن مجاهد .

وعليه قول الشاعر

: "تربص بها ريب المنون" لعلها . . .

تطلق يوماً أو يموت حليلها

وبيت أبي ذؤيب

.

أمن "المنون وريبة" يتوجع . . .

والدهر ليس بمعتب من يجزع

قيل : ظاهره ذلك ؛ وكذلك قول الأعشى

: أأن رأت رجلاً أعضى أضرّ به . . .

"ريب المنون" ودهر متبل خبل

ولهذا أنشده الجوهري شاهداً له ، وأخرج ابن جرير .

وغيره عن ابن عباس تفسيره بالموت وهو مشتكر بين المعنيين فقد قال المرزوقي في شرح بيت أبي ذؤيب المار آنفاً : المنون قد يراد به الدهر فيذكر وتكون الرواية ريبه ، وقد يراد به المنية فيؤنث ، وقد روى ريبها ، وقد يرجع له ضمير الجمع لقصد أنواع المنايا وريبها نزولها انتهى فلا تغفل ، وهو أيضاً من المنّ بمعنى القطع فإنها قاطعة الأماني واللذات ، ولذا قيل : المنية تقطع الأمنية ، وريب المنون عليه نزول المنية ، وجوز أن يكون بمعنى حادث الموت على أن الإضافة بيانية ، روي أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة وكثرت آراؤهم فيه عليه الصلاة والسلام حتى قال قائل منهم وهم بنو عبد الدار كما قال الضحاك تربصوا به ريب المنون فإنه شاعر سيهلك كما هلك زهير .

والنابغة .

والأعمشى فافترقوا على هذه المقالة فنزلت ، وقرأ زيد بن علي ﴿ يتربص ﴾ بالياء مبنياً للمفعول ، وقرىء ﴿ بِهِ رَيْبَ ﴾ بالرفع على النيابة .

﴿ قُلْ تَرَبَّصُواْ ﴾ تهكم بهم ، وتهديد لهم ﴿ فَإِنِّى مَعَكُمْ مِّنَ المتربصين ﴾ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي ، وفيه عدة كريمة بإهلاكهم .

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أحلامهم ﴾ أي عقولهم وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهي وذلك على ما قال الجاحظ لأن جميع العالم يأتونهم ويخالطونهم وبذلك يكمل العقل وهو يكمل بالمسافرة وزيادة رؤية البلاد المختلفة والأماكن المتباينة ومصاحبة ذوي الأخلاق المتفاوتة وقد حصل لهم الغرض بدون مشقة ، وقيل لعمرو بن العاص : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله تعالى بالعقل ؟! فقال : تلك عقول كادها الله عز وجل أي لم يصحبها التوفيق فلذا لم يؤمنوا وكفروا وأنا لا أرى في الآية دلالة على رجحان عقولهم ولعلها تدل على ضد ذلك ﴿ بهذا ﴾ التناقص في المقال فإن الكاهن والشاعر يكونان ذا عقل تام وفطنة وقادة والمجنون مغطى عقله مختل فكره وهذا يعرب عن أن القوم لتحيرهم وعصبيتهم وقعوا في حيص بيص حتى اضطربت عقولهم وتناقضت أقوالهم وكذبوا أنفسهم من حيث لا يشعرون ، وأمر الأحلام بذلك مجاز عن التأدية إليه بعلاقة السببية كما قيل ، وقيل : جعلت الأحلام آمرة على الاستعارة المكنية فتشبه الأحلام بسلطان مطاع تشبيهاً مضمراً في النفس ، وتثبت له الأمر على طريق التخييل ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ مجاوزون الحدود في المكابرة والعناد لا يحومون حول الرشد والسداد ولذلك يقولون ما يقولون من الأكاذيب

المحضة الخارجة عن دائرة العقول ، وقرأ مجاهد ﴿ بَلْ هُمْ ﴾ .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ أي اختلقه من تلقاء نفسه .

وقال ابن عطية : معناه قال : عن الغير أنه قاله فهو عبارة عن كذب مخصوص ، وضمير المفعول للقرآن ﴿ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه الأباطيل كيف لا وما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا واحد من العرب فكيف أتى بما عجز عنه كافة الأمم من العرب والعجم .

(24/730)

﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ مماثل القرآن في النعوت التي استقل بها من حيث النظم ومن حيث المعنى ﴿ إِن كَانُواْ صادقين ﴾ فيما زعموا فإن صدقهم في ذلك يستدعي قدرتهم على الإتيان بمثله بقضية مشاركتهم له عليه الصلاة والسلام في البشرية والعربية مع ما بهم من طول الممارسة للخطب والإشعار ، وكثرة المزاولة لأساليب النظم والنثر ، والمبالغة في حفظ الوقائع والأيام ؛ ولا ريب في أن القدرة على الشيء من موجبات الإتيان به ودواعي الأمر بذلك ، فالكلام ردّ للأقوال المذكورة في حقه عليه الصلاة والسلام ، والقرآن بالتحدي فإذا تحدوا وعجزوا علم رد ما قالوه وصحة المدعى ، وجوز أن يكون ردّاً لزعمهم التقول

خاصة فإن غيره مما تقدم حتى الكهانة كما لا يخفى أظهر فساداً منه ومع ذلك إذا ظهر فساد زعم التقول ظهر فساد غيره بطريق اللزوم ، وقرأ الجحدري ، وأبو السمال بحديث مثله على الإضافة أي بحديث رجل مثل الرسول صلى الله عليه وسلم في كونه أمياً لم يصحب أهل العلم ولا رحل عن بلده ، أو مثله في كونه واحداً منهم فلا يعْوِز أن يكون في العرب مثله في الفصاحة فليأت بمثل ما أتى به ولن يقدر على ذلك أبداً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(25/730)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة على العموم ذكر حال طائفة منهم على الخصوص ، فقال : ﴿ والذين ءامَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بإيمان أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ والموصول مبتدأ ، وخبره ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ﴾ ويجوز أن يكون منصوباً بفعل مقدّر ، أي : وأكرمنا الذين آمنوا ، ويكون ألحقنا مفسراً لهذا الفعل المقدّر .

قرأ الجمهور : ﴿ واتبعتهم ﴾ بإسناد الفعل إلى الذرّية .

وقرأ أبو عمرو (أتبعناهم) بإسناد الفعل إلى المتكلم ، كقوله : ﴿ ألحقنا ﴾ .

وقرأ الجمهور : (ذرّيتهم) بالإفراد .

وقرأ ابن عامر ، وأبو عمرو ، ويعقوب بالجمع ، إلاّ أن أبا عمرو قرأ بالنصب على المفعولية لكونه قرأ (وأتبعناهم) ، ورويت قراءة الجمع هذه عن نافع ، والمشهور عنه كقراءة الجمهور .

وقرأ الجمهور : ﴿ ألحقنا بهم ذرّيتهم ﴾ بالإفراد .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، ويعقوب على الجمع ، وجملة : ﴿ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم ﴾ معطوف على ﴿ آمنوا ﴾ أو معترضة ، و ﴿ بإيمان ﴾ متعلق بالاتباع ، ومعنى هذه الآية : أن الله سبحانه يرفع ذرّية المؤمن إليه ، وإن كانوا دونه في العمل ؛ لتقر عينه ، وتطيب نفسه بشرط أن يكونوا مؤمنين ، فيختصّ ذلك بمن يتصف بالإيمان من الذرّية وهم البالغون دون الصغار ، فإنهم وإن كانوا لاحقين بآبائهم ، فبدليل آخر غير هذه الآية .

وقيل : إن الذرّية تطلق على الكبار والصغار ، كما هو المعنى اللغوي ، فيلحق بالآباء المؤمنين صغار ذرّيتهم وكبارهم ، ويكون قوله : ﴿ بإيمان ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : بإيمان من الآباء .

وقيل : إن الضمير في ﴿ بِهِمُ ﴾ راجع إلى الذرّية المذكورة أوّلاً ، أي : ألحقنا بالذرّية المتبعة لآبائهم بإيمان ذرّيتهم .

(26/730)

وقيل : المراد بالذين آمنوا : المهاجرون والأنصار فقط ، وظاهر الآية العموم ، ولا يوجب تخصيصها بالمهاجرين والأنصار كونهم السبب في نزولها إن صحّ ذلك ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿ وَمَا أَلَتناهم مّنْ عَمَلِهِم مّن شَىْءٍ ﴾ قرأ الجمهور بفتح اللام من : " ألتنا " وقرأ ابن كثير بكسرها ، أي : وما نقصنا الآباء بإلحاق ذرّيتهم بهم من ثواب أعمالهم شيئًا ، فضمير المفعول عائد إلى الذين آمنوا .

وقيل : المعنى : وما نقصنا الذرية من أعمالهم شيئًا لقصر أعمارهم ، والأول أولى ، وقد قدمنا تحقيق معنى لاته ، وألاته في سورة الحجرات .

وقرأ ابن هرمز (آلتناهم) بالمدّ ، وهو لغة .

قال في الصحاح : يقال : ما آلته من عمله شيئًا ، أي : ما نقصه ﴿ كُلُّ امرىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ رهين بمعنى مرهون ، والظاهر أنه عامّ ، وأن كل إنسان مرتهن بعمله ، فإن قام به على الوجه الذي أمره الله به فكه ، وإلاّ أهلكه .

وقيل : هو بمعنى راهن ، والمعنى : كلّ امرىء بما كسب دائم ثابت .

وقيل : هذا خاصّ بالكفار لقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلاَّ أَصحاب اليمين ﴾ [المدثر : 38 ، 39] .

ثم ذكر سبحانه ما أمدّهم به من الخير ، فقال : ﴿ وأمددناهم بفاكهة وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي : زدناهم على ما كان لهم من النعيم بفاكهة متنوّعة ، ولحم من أنواع اللحمان مما تشتهيه أنفسهم ، ويستطيبونه ﴿ يتنازعون فِيهَا كَأْساً ﴾ أي : يتعاطون ويتناولون كأساً ، والكأس : إناء الخمر ، ويطلق على كل إناء مملوء من خمر ، أو غيره ، فإذا فرغ لم يسم كأساً ﴿ لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ ﴾ قال الزجاج : لا يجري بينهم ما يلغي ، ولا ما فيه إثم ، كما يجري بين من يشرب الخمر في الدنيا ، والتأثيم تفعيل من الإثم ، والضمير في : ﴿ فِيهَا ﴾ راجع إلى الكأس ، وقيل : لا لغو فيها ، أي : في الجنة ، ولا يجري فيها ما فيه إثم ، والأوّل أولى .

(27/730)

قال ابن قتيبة : لا تذهب بعقولهم فيلغوا ، كما يكون من خمر الدنيا ، ولا يكون منهم ما يؤثمهم .

وقال الضحاك : لا تأثيم أي : لا كذب .

قرأ الجمهور : ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ بالرفع ، والتنوين فيهما .

وقرأ ابن كثير ، وابن محيصن بفتحهما من غير تنوين .

قال قتادة : اللغو : الباطل .

وقال مقاتل بن حيان : لا فضول فيها .

وقال سعيد بن المسيب : لا رفث فيها .

وقال ابن زيد : لا سباب ولا تخاصم فيها .

والجملة في محل نصب على الحال صفة ل ﴿ كأساً ﴾ ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ أي : يطوف عليهم بالكأس ، والفواكه ، والطعام ، وغير ذلك مماليك لهم ، وقيل : أولادهم ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ في الحسن والبهاء ﴿ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ أي : مستور مصون في الصدف لم تمسه الأيدي .

قال الكسائي : كننت الشيء : سترته وصنته من الشمس ، وأكننته : جعلته في الكنّ ، ومنه كننت الجارية ، وأكننتها فهي مكنونة .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي : يسأل بعضهم بعضاً في الجنة عن حاله ، وما كان فيه من تعب الدنيا وخوف العاقبة ، فيحمدون الله الذي أذهب عنهم الحزن والخوف والهمّ ، وما كانوا فيه من الكد ، والنكد بطلب المعاش ، وتحصيل ما لا بدّ منه من الرّزق .

وقيل : يقول بعضهم لبعض : بم صرتم في هذه المنزلة الرفيعة ؟ وقيل : إن التساؤل بينهم عند البعث من القبور .

والأوّل أولى ، لدلالة السياق على أنهم قد صاروا في الجنة ، وجملة ﴿ قَالُواْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : ماذا قال بعضهم لبعض عند التساؤل ؟ فقيل : قالوا : إنا كنا قبل ، أي : قبل الآخرة ، وذلك في الدنيا في أهلنا خائفين وجلين من عذاب الله ، أو كنا خائفين من عصيان الله .

(28/730)

﴿ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ بالمغفرة والرحمة ، أو بالتوفيق لطاعته ﴿ ووقانا عَذَابَ السموم ﴾ يعني : عذاب جهنم ، والسموم من أسماء جهنم ، كذا قال الحسن ، ومقاتل .

وقال الكلبي ، وأبو عبيدة : هو عذاب النار .

وقال الزجاج : سموم جهنم : ما يوجد من حرّها .

قال أبو عبيدة : السموم بالنهار ، وقد يكون بالليل ، والحرور بالليل ، وقد يكون بالنهار ، وقد يستعمل السموم في لفح البرد ، وفي لفح الشمس ، والحرّ أكثر ، ومنه قول الشاعر :

اليوم يوم بارد سمومه . . . من جزع اليوم فلا ألومه

وقيل : سميت الريح سموماً ؛ لأنها تدخل المسام : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أي : نوحد الله ونعبده ، أو نسأله أن يمنّ علينا بالمغفرة والرّحمة ﴿ إِنَّهُ هُوَ البر الرحيم ﴾ قرأ الجمهور بكسر الهمزة على الاستئناف ، وقرأ نافع ، والكسائي بفتحها ، أي : لأنه .

والبرّ : كثير الإحسان ، وقيل : اللطيف ، والرحيم : كثير الرحمة لعباده ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ ﴾ أي : اثبت على ما أنت عليه من الوعظ والتذكير ، والباء متعلقة بمحذوف هو حال ، أي : ما أنت متلبساً بنعمة ربك التي أنعم بها عليك من رجاحة العقل والنبوّة بكاهن ، ولا مجنون ، وقيل : متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام ، أي : ما أنت في حال إذكارك بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، وقيل : الباء سببية متعلقة بمضمون الجملة المنفية ، والمعنى : انتفى عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة الله عليك ، كما تقول : ما أنا بمعسر بحمد الله .

وقيل : الباء للقسم متوسطة بين اسم " ما " وخبرها ، والتقدير : ما أنت – ونعمة الله – بكاهن ولا مجنون ، والكاهن : هو الذي يوهم أنه يعلم الغيب من دون وحي ، أي : ليس ما تقوله كهانة ، فإنك إنما تنطق بالوحي الذي أمرك الله بإبلاغه .

والمقصود من الآية ردّ ما كان يقوله المشركون : إنه كاهن ، أو مجنون .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ "أم" هي المنقطعة ، وقد تقدّم الخلاف هل هيّ مقدّرة ببل والهمزة ، أو ببل وحدها ؟ قال الخليل : هي هنا للاستفهام .

قال سيبويه : خوطب العباد بما جرى في كلامهم .

قال النحاس : يريد سيبويه أن "أم" في كلام العرب للخروج من حديث إلى حديث ، ونتربص في محل رفع صفة لشاعر ، وريب المنون : صروف الدهر ، والمعنى : ننتظر به حوادث الأيام فيموت كما مات غيره ، أو يهلك كما هلك من قبله ، والمنون يكون بمعنى الدهر ، ويكون بمعنى المنيّة .

قال الأخفش : المعنى نتربص إلى ريب المنون ، فحذف حرف الجرّ ، كما تقول : قصدت زيداً ، وقصدت إلى زيد ، ومن هذا قول الشاعر :

تربص بها ريب المنون لعلها . . . تطلق يوماً أو يموت خليلها

وقول أبي ذؤيب الهذلي :

أمن المنون وريبها تتوجع . . . والدهر ليس بمعتب من يجزع

قال الأصمعي : المنون واحد لا جمع له .

قال الفرّاء : يكون واحداً وجمعاً .

وقال الأخفش : هو جمع لا واحد له .

ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عنهم ، فقال : ﴿ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُمْ مِّنَ المتربصين ﴾ أي : انتظروا موتي ، أو هلاكي ، فإني معكم من المتربصين لموتكم ، أو هلاككم .

قرأ الجمهور ﴿ نتربص ﴾ بإسناد الفعل إلى جماعة المتكلمين .

وقرأ زيد بن عليّ على البناء للمفعول .

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أحلامهم بهذا ﴾ أي : بل أتأمرهم عقولهم بهذا الكلام المتناقض ، فإن الكاهن : هو المفرط في الفطنة والذكاء ، والمجنون : هو ذاهب العقل فضلاً عن أن يكون له فطنة وذكاء .

(30/730)

قال الواحدي : قال المفسرون : كانت عظماء قريش توصف بالأحلام والعقول ، فأزرأ الله بحلومهم حين لم تثمر لهم معرفة الحقّ من الباطل ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أي : بل أطغوا وجاوزوا الحدّ في العناد ، فقالوا ما قالوا ، وهذه الإضرابات من شيء إلى شيء مع الاستفهام ، كما هو مدلول " أم " المنقطعة ، تدل على أن ما تعقبها أشنع مما تقدّمها ، وأكثر جرأة وعناداً ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ أي : اختلق القرآن من جهة نفسه وافتعله ، والتقوّل لا يستعمل إلاّ في الكذب في الغالب ، وإن كان أصله تكلف القول ، ومنه اقتال عليه ، ويقال :

اقتال عليه بمعنى : تحكم عليه ، ومنه قول الشاعر :

ومنزلة في دار صدق وغبطة . . . وما اقتال في حكم عليّ طبيب

ثم أضرب سبحانه عن قولهم : ﴿ تَقَوَّلَهُ ﴾ وانتقل إلى ما هو أشدّ شناعة عليهم فقال :

﴿ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : سبب صدور هذه الأقوال المناقضة عنهم كونهم كفاراً لا يؤمنون بالله ، ولا يصدقون ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثم تحدّاهم سبحانه ، وألزمهم الحجة فقال : ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ أي : مثل القرآن في نظمه ، وحسن بيانه ، وبديع أسلوبه ﴿ إِن كَانُواْ صادقين ﴾ فيما زعموا من قولهم : إن محمداً صلى الله عليه وسلم تقوّله ، وجاء به من جهة نفسه مع أنه كلام عربيّ ، وهم رؤوس العرب وفصحاؤهم ، والممارسون لجميع الأوضاع العربية من نظم ونثر .

وقد أخرج سعيد بن منصور ، وهناد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، والبيهقي عن ابن عباس قال : إن الله ليرفع ذرّية المؤمن معه في درجته في الجنة ، وإن كانوا دونه في العمل ؛ لتقرّ به عينه .

ثم قرأ : ﴿ والذين ءامَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم ﴾ الآية .

وأخرجه البزار ، وابن مردويه عنه مرفوعاً .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه عنه أيضاً أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه ، وزوجته ، وولده ، فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك ، فيقول : يا ربّ قد عملت لي ولهم ، فيؤمر بإلحاقهم به " ، وقرأ ابن عباس ﴿ والذين ءامَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم ﴾ الآية .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن المؤمنين وأولادهم في الجنة ، وإن المشركين وأولادهم في النار " ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ الآية وإسناده هكذا .

قال عبد الله بن أحمد : حدّثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدّثنا محمد بن فضيل ، عن محمد بن عثمان ، عن زاذان ، عن عليّ بن أبي طالب قال : سألت خديجة النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ولدين ماتا لها في الجاهلية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" هما في النار " ، فلما رأى الكراهة في وجهها قال : " لو رأيت مكانهما لأبغضتهما " ، قالت : يا رسول الله فولديّ منك .

قال : " في الجنة " ، قال : ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن المؤمنين وأولادهم في الجنة ، وإن المشركين وأولادهم في النار " ، ثم قرأ : ﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ الآية .

وقال الإمام أحمد في المسند : حدّثنا يزيد ، حدّثنا حماد بن سلمة ، عن عاصم بن أبي

النجود ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة ، فيقول : يا ربّ من أين لي هذا ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك " وإسناده صحيح .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، والحاكم عن ابن عباس : ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهم ﴾ قال : ما نقصناهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ يقول : باطل ﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ يقول : كذب .

(32/730)

وأخرج البزار عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان ، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا ، فيتحدّثان ، فيتكىء ذا ، ويتكىء ذا ، فيتحدّثان بما كانوا في الدنيا ، فيقول أحدهما : يا فلان تدري أيّ يوم غفر الله لنا ؟ يوم كنا في موضع كذا وكذا ، فدعونا الله فغفر لنا " وأخرج ابن المنذر عن عائشة قالت : لو فتح الله على أهل الأرض من عذاب السموم قدر الأنملة لأحرقت الأرض ومن عليها .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ ﴾

قال : اللطيف .

وأخرج ابن إسحاق ، وابن جرير عنه أن قريشاً لما اجتمعوا إلى دار الندوة في أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم قال قائل منهم : احبسوه في وثاق ، وتربصوا به المنون حتى يهلك ، كما هلك من قبله من الشعراء : زهير والنابغة ، إنما هو كأحدهم ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ رَيْبَ المنون ﴾ قال : الموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 97.100 ﴾

(33/730)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) ﴾

تفريع على ما تقدم كله من قوله : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ [الطور : 7] لأنه تضمن تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عن تكذيب المكذبين والافتراء عليه ، وعقب بهذا لأن من الناس مؤمنين به متيقنين أن الله أرسله مع ما أعد لكلا الفريقين فكان ما تضمنه ذلك يقتضي أن في استمرار التذكير حكمة أرادها الله ، وهي ارعواء بعض المكذبين عن

تكذيبهم وازدياد المصدقين توغلاً في إيمانهم ، ففرع على ذلك أن أمر الله رسول صلى الله عليه وسلم بالدوام على التذكير .

فالأمر مستعمل في طلب الدوام مثل ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ [النساء : 136] .

ولما كان أثر التذكير أَهمَّ بالنسبة إلى فريق المكذبين ليهتدي من شرح قلبه للإِيمان رُوعي ما يَزيد النبي صلى الله عليه وسلم ثباتاً على التذكير من تبرئته مما يواجهونه من قولهم له : هو كاهن أو هو مجنون ، فربط الله جَأش رسوله صلى الله عليه وسلم وأعلمه بأن براءته من ذلك نعمة أنعم بها عليه ربه تعالى ففرع هذا الخبر على الأمر بالتذكير بقوله : ﴿ فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ .

والباء في ﴿ بنعمت ربك ﴾ للملابسة وهي في موضع الحال من ضمير ﴿ أنت ﴾ .

ونفي هاذين الوصفين عنه في خطاب أمثاله ممن يستحق الوصف بصفات الكمال يدل على أن المراد من النفي غرض آخر وهو هنا إبطال نسبة من نسبه إلى ذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ [التكوير : 22] ، ولذلك حسن تعقيبه بقوله : ﴿ أم يقولون شاعر ﴾ [الطور : 30] مصرحاً فيه ببعض أقوالهم ، فعلم أن المنفي عنه فيما قبله مقالة من مقالهم .

وقد اشتملت هاته الكلمة الطيبة على خصائص تناسب تعظيم من وجهت إليه وهي أنها

صيغت في نظم الجملة الاسمية فقيل فيها "ما أنت بكاهن" دون : فلست بكاهن ، لتدل على ثبات مضمون هذا الخبر .

(34/730)

وقدم فيها المسند إليه مع أن مقتضى الظاهر أن يقدم المسند وهو ﴿ كاهن ﴾ أو ﴿ مجنون ﴾ لأن المقام يقتضي الاهتمام بالمسند ولكن الاهتمام بالضمير المسند إليه كان أرجح هنا لما فيه من استحضار معاده المشعر بأنه شيء عظيم وأفاد مع ذلك أن المقصود أنه متصف بالخبر لا نفس الإخبار عنه بالخبر كقولنا : الرسول يأكل الطعام ويتزوج النساء . وأفاد أيضاً قصراً إضافياً بقرينة المقام لقلب ما يقولونه أو يعتقدونه من قولهم : هو كاهن أو مجنون ، على طريقة قوله تعالى : ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ [هود : 91] .

وقرن الخبر المنفي بالباء الزائدة لتحقيق النفي فحصل في الكلام تقويتان ، وجيء بالحال قبل الخبر ، أو بالجملة المعترضة بين المبتدأ والخبر ، لتعجيل المسرة وإظهار أن الله أنعم عليه بالبراءة من هذين الوصفين .

وعدل عن استحضار الجلالة بالاسم العلم إلى تعريفه بالإضافة وبوصفه الرب لإفادة لطفه تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم لأنه ربه فهو يربُّه ويدبر نفعه ، ولتفيد الإضافة تشريف

المضاف إليه .

وقوله تعالى : ﴿ فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ ردّ على مقالة شَيبة بن ربيعة قال في رسول الله صلى الله عليه وسلم هو كاهن ، وعلى عقبة بن أبي معيط إذ قال : هو مجنون ، ويدل لكونه رداً على مقالة سبقت أنه أتبعه بقوله : ﴿ أم يقولون شاعر ﴾ [الطور : 30] ما سيكون وما خفي مما هو كائن .

والكاهن : الذي ينتحل معرفة ما سيحدث من الأمور وما خفي مما هو كائن ويخبر به بكلام ذي أسْجاع قصيرة .

وكان أصل الكلمة موضوعة لهذا المعنى غير مشتقة ، ونظيرها في العبرية (الكوهين) وهو حافظ الشريعة والمفتي بها ، وهو من بني (لاوي) ، وتقدم ذكر الكهانة عند قوله تعالى : ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ في سورة الشعراء (210) .

(35/730)

وقد اكتُفي في إبطال كونه كاهناً أو مجنوناً بمجرد النفي دون استدلال عليه ، لأن مجرد التأمل في حال النبي صلى الله عليه وسلم كافٍ في تحقق انتفاء ذينك الوصفين عنه فلا يحتاج في إبطال اتصافه بهما إلى أكثر من الإخبار بنفيهما لأن دليله المشاهدة .

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30)

إن كانت ﴿ أم ﴾ مجردة عن عمل العطف فالجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً ، وإلا فهي عطف على جملة ﴿ فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ [الطور : 29] .

وعن الخليل كل ما في سورة الطور من (أم) فاستفهام وليس بعطف ، يعني أن المعنى على الاستفهام لا على عطف المفردات .

وهذا ضابط ظاهر .

ومراده : أن الاستفهام مقدر بعد (أم) وهي منقطعة وهي للإِضراب عن مقالتهم المردودة بقوله : ﴿ فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ [الطور : 29] للانتقال إلى مقالة أخرى وهي قولهم : "هو شاعر نتربص به ريب المنون" .

وعدل عن الإِتيان بحرف (بل) مع أنه أشهر في الإِضراب الانتقالي ، لقصد تضمن ﴿ أم ﴾ للاستفهام .

والمعنى : بل أيقولون شاعر الخ .

والاستفهام المقرّر إنكاري .

ومناسبة هذا الانتقال أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالدوام على التذكير يُشير إلى مقالاتهم التي يردون بها دعوته فلما أشير إلى بعضها بقوله تعالى : ﴿ فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ [الطور : 29] انتقل إلى إبطال صفة أخرى يثلثون بها الصفتين

المذكورتين قبلها وهي صفة شاعر .

روى الطبري عن قتادة قال قائلون من الناس : تربصوا بمحمد صلى الله عليه وسلم الموت يكفيكموه كما كفاكم شاعرَ بني فلان وشاعر بني فلان ، ولم يعينوا اسم الشاعر ولا أنه كان يهجو كفار قريش .

(36/730)

وعن الضحاك ومجاهد : أن قريشاً اجتمعوا في دار الندوة فكثرت آراؤهم في محمد صلى الله عليه وسلم فقال بنو عبد الدار : هو شاعر تربصوا به ريب المنون ، فسيهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى ، فافترقوا على هذه المقالة ، فنزلت هذه الآية فحكت مقالتهم كما قالوها ، أي فليس في الكلام خصوص ارتباط بين دعوى أنه شاعر ، وبين تربص الموت به لأن ريب المنون يصيب الشاعر والكاهن والمجنون .

وجاء ﴿ يقولون ﴾ مضارعاً للدّلالة على تجدد ذلك القول منهم .

والتربص مبالغة في : الرَّبْص ، وهو الانتظار .

والريب هنا : الحدثان ، وفسر بصرف الدهر ، وعن ابن عباس : ريب في القرآن شك إلا مكاناً واحداً في الطور ﴿ ريب المنون ﴾ .

والباء في ﴿ به ﴾ يجوز أن تكون للسبب ، أي بسببه ، أي نتربص لأجله فتكون الباء متعلقة بـ ﴿ نتربص ﴾ ويجوز أن تكون للملابسة وتتعلق بـ ﴿ ريب المنون ﴾ حالاً منه مقدمة على صاحبها ، أي حلول ريب المنون به .

والمنون : من أسماء الموت ومن أسماء الدهر ، ويذكّر .

وقد فُسر بكلا المعنيين ، فإذا فسر بالموت فإضافة ﴿ ريب ﴾ إليه بيانية ، أي الحدثان الذي هو الموت وإذا فسر المنون بالدهر فالإِضافة على أصلها ، أي أحداث الدهر من مثل موت أو خروج من البلد أو رجوع عن دعوته ، فريب المنون جنس وقد ذكروا في مقالتهم قولهم : فسيهلك ، فاحتملت أن يكونوا أرادوه بيانَ ريب الموت أو إن أرادوه مثالاً لريب الدهر ، وكلا الاحتمالين جار في الآية لأنها حكت مقالتهم .

وقد ورد ﴿ ريب المنون ﴾ في كلام العرب بالمعنيين ؛ فمن وروده في معنى الموت قول أبي ذؤيب:

أمن المنون وريبها تتوجع . . .

والدهر ليس بمعتب من يجزع

ومن وروده بمعنى حدثنان الدهر قول الأعشى:

أإن رأت رجلاً أعشى أضرَّ بِهِ . . .

رِيبُ المنونِ ودهرٌ مُتبِل خَبِلُ

أراد أضرّ بذاته حدَثان الدهر ، ولم يرد إصابة الموت كما أراد أبو ذؤيب .

(37/730)

ولما كان انتفاء كونه شاعراً أمراً واضحاً يكفي فيه مجردُ التأمل لم يتصد القرآن للاستدلال على إبطاله وإنما اشتملت مقالتهم على أنهم يتربصون أن يحلّ به ما حلّ بالشعراء الذين هم من جملة الناس .

فأمر الله تعالى نبيئه صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم عن مقالتهم هذه بأن يقول : ﴿ تربصوا فإني معكم من المتربصين ﴾ [الطور : 31] ، وهو جواب منصف لأن تربص حلول حوادث الدهر بأحد الجانبين أو حلول المنية مشترك الإلزام لا يدري أحدنا ماذا يحل بالآخر .

قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31)

وردت جملة ﴿ قل تربصوا ﴾ مفصولة بدون عطف لأنها وقعت في مقام المحاورة لسبقها بجملة ﴿ يقولون شاعر ﴾ [الطور : 30] الخ ، فإن أمر أحد بأن يقول بمنزلة قوله فأُمر بقوله ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة ﴾ [الإسراء :

51] .

والأمر في ﴿ تربصوا ﴾ مستعمل في التسوية ، أي سواء عندي تربصكم بي وعدمه .

وفرع عليه ﴿ فإني معكم من المتربصين ﴾ أي فإني متربص بكم مثل ما تتربصون بي إذ لا ندري أينا يصيبه ريب المنون قبل .

وتأكيد الخبر بـ (إن) في قوله : ﴿ فإني معكم من المتربصين ﴾ لتنزيل المخاطبين منزلة من ينكر أنه يتربص بهم كما يتربصون به لأنهم لغرورهم اقتصروا على أنهم يتربصون به ليروا هلاكه ، فهذا من تنزيل غير المنكر منزلة المنكر .

والمعية في قوله : ﴿ معكم ﴾ ظاهرها أنها للمشاركة في وصف التربص .

(38/730)

ولمّا كان قوله : ﴿ من المتربصين ﴾ مقدراً معه "بكم" لمقابلة قولهم : ﴿ نتربص به ريب المنون ﴾ [الطور : 30] كان في الكلام توجيه بأنه يبقى معهم يتربص هلاكهم حين تبدو بوادره ، إشارة إلى أن وقعة بدر إذْ أصابهم من الحدثان القتل والأسر ، فتكون الآية مشيرة إلى صريح قوله تعالى في سورة براءة (52) ﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم اللَّه بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون .

وإنما قال هنا : من المتربصين ﴾ ليشير إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم يتربص بهم ريب المنون في جملة المتربصين من المؤمنين ، وذلك ما في آية سورة براءة على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

وقد صيغ نظم الكلام في هذه الآية على ما يناسب الانتقال من غرض إلى غرض وذلك بما نُهِّي به من شبه التذييل بقوله : ﴿ قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ﴾ إذ تمت به الفاصلة .

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أحلامهم بهذآ ﴾ .

إضراب انتقال دعا إليه ما في الاستفهام الإِنكاري المقدّر بعد ﴿ أم ﴾ من معنى التعجيب من حالهم كيف يقولون مثل ذلك القول السابق ويستقر ذلك في إدراكهم وهم يدّعون أنهم أهل عقول لا تلتبس عليهم أحوال الناس فهم لا يجهلون أن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس بحال الكهان ولا المجانين ولا الشعراء وقد أبى عليهم الوليد بن المغيرة أن يقول مثل ذلك في قصة معروفة .

قال الزمخشري : وكانت قريش يُدعون أهل الأحلام والنُهى والمعنى : أم تأمرهم أحلامهم المزعومة بهذا القول .

والإِشارة في قوله : ﴿ بهذا ﴾ إلى المذكور من القول المعرِّض به في قوله : ﴿ فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ [الطور : 29] ، والمُصرح به في قوله : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ [الطور : 30] ، وهذا كما يقول من يلوم عاقلاً على فعل فعله ليس من شأنه أن يجهل ما فيه من فساد : أعَاقِلٌ أنت ؟ أو هذا لا يفعله عاقل بنفسه ، ومنه ما حكى الله عن قوم شعيب من قولهم له : ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ [هود : 87] .

والحلم : العقل ، قال الراغب : المانعُ من هيجان الغضب .

وفي "القاموس" هو الأناة .

وفي "معارج النور" : والحلم ملكة غريزية تُورث لصاحبها المعاملة بلطف ولين لمن أساء أو أزعج اعتدال الطبيعة .

ومعنى إنكار أن تأمرهم أحلامهم بهذا أن الأحلام الراجحة لا تأمر بمثله ، وفيه تعريض بأنهم أضاعوا أحلامهم حين قالوا ذلك لأن الأحلام لا تأمر بمثله فهم كمن لا أحلام لهم وهذا تأويل ما روي أن الكافر لا عقل له .

قالوا وإنما للكافر الذهن والذهن يقبل العِلم جملة ، والعقل يميز العلم ويقدر المقادير لحدود الأمر والنهي .

والأمر في ﴿ تأمرهم ﴾ مستعار للباعث ، أي تبعثهم أحلامهم على هذا القول .

﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ .

إضرابُ انتقالي أيضاً متصل بالذي قبله انتقل به إلى استفهام عن اتصافهم بالطغيان .

والاستفهام المقدر مستعمل : إما في التشكيك ليكون التشكيك باعثاً على التأمل في حالهم فيؤمن بأنهم طاغون ، وإمّا مستعمل في التقرير لكل سامع إذ يجدهم طاغين .

وإقحام كلمة ﴿ قوم ﴾ يمهّد لكون الطغيان من مقومات حقيقة القومية فيهم ، كما قدمناه في قوله تعالى : ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة البقرة (164) ، أي تأصل فيهم الطغيان وخالط نفوسهم فدفعهم إلى أمثال تلك الأقوال .

أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (33)

انتقال متصل بقوله : ﴿ أم يقولون شاعر ﴾ [الطور : 30] الخ .

(40/730)

وهذا حكاية لإِنكارهم أن يكون القرآن وحياً من الله ، فزعموا أنه تقوّله النبي صلى الله عليه وسلم على الله ، فالاستفهام إنكار لقولهم ، وهم قد أكثروا من الطعن وتمالؤوا عليه ولذلك جيء في حكايته عنهم بصيغة ﴿ يقولون ﴾ المفيدة للتجدد .

والتقول : نسبة كلام إلى أحد لم يقله ، ويتعدى إلى الكلام بنفسه ويتعدى إلى من يُنسب إليه بحرف (على) ، قال تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ﴾ [الحاقة : 44 ، 45] الآية .

وضمير النصب في ﴿ تقوله ﴾ عائد إلى القرآن المفهوم من المقام .

وابتدىء الرد عليهم بقوله : ﴿ بل لا يؤمنون ﴾ لتعجيل تكذيبهم قبل الإِدلاء بالحجة عليهم وليكون ورود الاستدلال مفرّعاً على قوله : ﴿ لا يؤمنون ﴾ بمنزلة دليل ثان .

ومعنى ﴿ لا يؤمنون ﴾ : أن دلائل تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن تقوّل القرآن بيّنة لديهم ولكن الزاعمين ذلك يأبون الإِيمان فهم يبادرون إلى الطعن دون نظر ويلقون المعاذير ستراً لمكابرتهم .

ولما كانت مقالتهم هذه طعناً في القرآن وهو المعجزة القائمة على صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وكانت دعواهم أنه تقوّل على الله من تلقاء نفسه قد تروج على الدهماء تصدى القرآن لبيان إبطالها بأن تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن بقوله : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ أي صادقين في أن محمداً صلى الله عليه وسلم تقوله من تلقاء نفسه ، أي فعجزهم عن أن يأتوا بمثله دليل على أنهم كاذبون .

ووجه الملازمة أن محمداً صلى الله عليه وسلم أحد العرب وهو ينطق بلسانهم .

فالمساواة بينه وبينهم في المقدرة على نظم الكلام ثابتة ، فلو كان القرآن قد قاله محمد صلى الله عليه وسلم لكان بعض خاصة العرب البلغاء قادراً على تأليف مثله ، فلما تحدّاهم الله بأن يأتوا بمثل القرآن وفيهم بلغاؤهم وشعراؤهم وكلمتهم وكلهم واحد في الكفر كان عجزهم عن الإِتيان بمثل القرآن دالاً على عجز البشر عن الإِتيان بالقرآن ولذلك قال تعالى في سورة هود (13 ، 14) : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون اللَّه إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم اللَّه ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فإنهم لا يكذبوك ولكن الظالمين بآيات اللَّه يجحدون ﴾ [الأنعام : 33] .

والإِتيان بالشيء : إحضاره من مكان آخر .

واختير هذا الفعل دون نحو : فليقولوا مثلَه ونحوه ، لقصد الإِعذار لهم بأن يُقتنع منهم بجلب كلام مثله ولو من أحد غيرهم ، وقد تقدم عند قوله تعالى في سورة البقرة (23) ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ أنه يحتمل معنيين ، هما : فأتوا بسورة من مثل القرآن ، أو فأتوا بسورة من مثل الرسول ، أي من أحد من الناس .

والحديث : الإِخبار بالحوادث ، وأصل الحوادث أنها الواقعات الحديثة ، ثم توسع فأطلقت على الواقعات ، ولو كانت قديمة كقولهم : حوادث سنة كذا ، وتَبع ذلك إطلاق الحديث

على الخبر مطلقاً ، وتوسع فيه فأطلق على الكلام ولو لم يكن إخباراً ، ومنه إطلاق الحديث على كلام النبي .

فيجوز أن يكون الحديث هنا قد أطلق على الكلام مجازاً بعلاقة الإِطلاق ، أي فليأتوا بكلام مثله ، أي في غرض من الأغراض التي يشتمل عليها القرآن لا خصوص الأخبار .

(42/730)

ويجوز أن يكون الحديث هنا أطلق على الأخبار ، أي فليأتوا بأخبار مثل قصص القرآن فيكون استنزالاً لهم فإن التكلم بالأخبار أسهل على المتكلم من ابتكار الأغراض التي يتكلم فيها ، فإنهم كانوا يقولون إن القرآن أساطير الأولين ، أي أخبار عن الأمم الماضين فقيل لهم : فليأتوا بأخبار مثل أخباره لأن الإِتيان بمثل ما في القرآن من المعارف والشرائع والدلائل لا قِبَل لعقولهم به ، وقصاراهم أن يفهموا ذلك إذا سمعوه .

ومعنى المثلية في قوله : مثله ﴾ المثلية في فصاحته وبلاغته ، وهي خصوصيات يدركونها إذا سمعوها ولا تحيط قرائحهم بإيداعها في كلامهم .

وقد بينا أصول الإِعجاز في المقدمة العاشرة من مقدمات هذا التفسير .

ولام الأمر في ﴿ فليأتوا ﴾ مستعملة في أمر التعجيز كقوله حكاية عن قول إبراهيم ﴿ إن

الله يأتي بالشمس من المشرق فأْتِ بها من المغرب ﴾ [البقرة : 258] .

وقوله : ﴿ إن كانوا صادقين ﴾ أي في زعمهم أنه تقوّله ، أي فإن لم يأتوا بكلام مثله فهم كاذبون .

وهذا إلهاب لعزيمتهم ليأتوا بكلام مثل القرآن ليكون عدم إتيانهم بمثله حجة على كذبهم وقد أشعر نظم الكلام في قوله : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ الواقعِ موقعاً شبيهاً بالتذييل والمختومِ بكلمة الفاصلة ، أنه نهاية غرض وأن ما بعده شروع في غرض آخر كما تقدم في نظم قوله : ﴿ قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ﴾ [الطور : 31] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(43/730)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى التربص)

يقال : تربّص به تربُّصاً أَى انتظر به خيراً أَو شرّاً يحُلّ به .

وقد ورد فى القرآن لثمانية أُمور :

الأَوّل : تربّص الإِيلاءِ ﴿ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ :

الثانى : تربّص المطلَّقة ثلاثة أَشهر أَو ثلاثة أَطْهار .

الثالث : تربّص المعتدّة ﴿ والمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ ﴾ .

الرّابع تربّص المنافقين للمؤمنين بالغنيمة أَو الشّهادة ﴿ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾ .

الخامس : تربّص كفَّارة مكَّة فى حقّ سيّدِ المرسلين لحادثة أَو نكبة ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ .

السّادس : تربّص المؤمنين للمنافقين بالنكال والفضيحة ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ ﴾ .

السّابع : تربّص سيّد المرسلين لهلاك أَعداءِ الدّين ﴿ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ .

الثامن : تربّص العموم والخصوص للقضاءِ والقَدَر ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ .

ويقرب من معنى التربّص الترقُّب والترصّد والتَّنظُّر والتطلُّع .

وقد ورد فى القرآن من مادّة هذه الكلمات حروف تذكر فى مواضعها من بصائر رقب ورصد ونظر وطلع إِن شاءَ الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 330.329 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما مضت فضيحتهم بالتحدي ، وكانت عندهم فضيحة التناقض دون فضيحة المعارضة ، فكانوا يقدمونها عليها ، فلم يحدث أحد منهم يوماً من الأيام بشيء مما يعارضه به علماً منهم بأنهم يصيرون بذلك إلى خزي لا يمكن أن يغسل عاره كما صار مسيلمة ، لأنهم كانوا أعقل العرب وكان التقدير كما هدى إليه السياق : فإنك مستوٍ معهم بالنسبة إلى إيجاد الله لكم ، هو سبحانه خالقهم كما أنه خالقك ، ولا خصوصية لك منه على زعمهم : أهو خالقهم كما هو خالقك فيلزمهم أن يأتوا بمثل ما تأتي به ، وكان ذلك على تقدير إقرارهم بالله وادعائهم لكذبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، عادله سبحانه تبكيتاً لهم وإظهاراً لفضائح هي أشنع مما فروا منه من المعارضة بقوله على تقدير أن يكونوا منكرين

للإله أو مدعين لأن يكونوا آلهة : ﴿ أم خلقوا ﴾ أي وقع خلقهم على هذه الكيفية المتقنة ﴿ من غير شيء ﴾ فيكونوا مخالفين لصريح العقل إذ تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم كتعلقه بالمخلوق ليسلم لهم أنك تأتي بما لا يقدرون على معارضته لأنك أقوى منهم بكونك مستنداً إلى خالق وهم ليسوا مستندين إلى شيء أو ليكونوا لذلك أقوى منك وأعلى ، فيكون لهم التكبر عليك ﴿ أم هم الخالقون ﴾ أي الذين لهم هذا الوصف فيكونون قد خلقوا أنفسهم ليكونوا بذلك شركاء فيكون الخالق والمخلوق واحداً ، وهو مثل القسم الذي قبله في عدم الاستناد إلى شيء أو يكون ثبوت هذا الوصف لهم موجباً لأن يكونوا على ثقة مما يقولون وللتكبر عليك ، فإن ادعوا ذلك حكم أدنى الخلق بجنونهم ؛ ﴿ أم خلقوا ﴾ أي على وجه الشركة ﴿ السماوات والأرض ﴾ فهم لذلك عالمون بما فيها على وجه الإحاطة واليقين حتى علموا أنك تقولته ليصير لهم رده والتهكم عليه .

(45/730)

ولما كان التقدير : لم يكن شيء من ذلك ليكون لهم شبهة في الكلام فيك ، عطف عليه قوله : ﴿ بل لا يوقنون ﴾ أي ليس لهم نوع يقين ليسكنوا إلى شيء واحد لكونه الحق أو ليعلموا أن هذه الملازم الفاضحة تلزمهم فيكفوا عن أمثالهم ﴿ أم عندهم ﴾ أي خاصة دون

غيرهم ﴿ خزائن ﴾ ولما كان ذكر الرحمة لا يقتضيه مقصود السورة الذي هو العذاب ، لم تذكر كما في ص وسبحان فقيل : ﴿ ربك ﴾ المحسن إليك بإرسالك بهذا الحديث فيعلموا أن هذا الذي أثبت به ليس من قوله لأنه لا تصرف له في الخزائن إلا بهم ، فيصح قولهم : إنك تقولته وحينئذ يلزمهم فضائح لا آخر لها ، منها أن يأتوا بحديث مثله بل أحسن منه من تلك الخزائن ﴿ أم هم ﴾ لا غيرهم ﴿ المسيطرون ﴾ أي الرقباء الحافظون والجبارون والمسلطون الرؤساء الحكماء الكتبة ، ليكونوا ضابطين للأشياء كلها كما هو شأن كتّاب السر عند الملوك فيعلموا أنك تقولت هذا الذكر لأنهم لم يكتبوا به إليك ﴿ أم لهم سلّم ﴾ يصعدون به إلى السماء ﴿ يستمعون ﴾ أي يتعمدون السمع لكل ما يكون فيها ومنها ﴿ فيه ﴾ أي في ذلك السلم وبسببه كما يكون بعض من يحضر مجالس الملوك في الدنيا ويعلم ما يقع فيها ليكونوا ضابطين لما يأتي من الملك فيعلموا أن ما قالوه فيك حق ولما كان من يكون هكذا متمكناً من الإتيان منها بالعجائب ، سبب عنه قوله : ﴿ فليأت مستمعهم ﴾ إن ادعوا ذلك ﴿ بسلطان مبين ﴾ أي حجة قاهرة بينة في نفسها ، موضحة لأنها من السماء على صحة ما يرمونك به .

(46/730)

ولما كان ما مضى على تقدير وجود الإله مع الشركة ، وكان ادعاؤهم الولد عظيماً جداً لدلالته على حاجته وضعفه ، وكان جعله بنات أعظم لأنه دال مع ضعفه على سفهه ، دل على استعظامه بالالتفات إلى خطابهم بعذابهم فقال : ﴿أم له البنات﴾ أي كما ادعيتم ﴿ولكم﴾ أي خاصة ﴿البنون﴾ لتكونوا أقوى منه فتكذبوا رسوله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتردوا قوله من غير حجة فتكونوا آمنين من عذاب يأتيكم منه لضعفه وقوتكم ، وهذه الأقسام كلها على تقدير التكذيب ، وهي هنا بذكر ما على تقدير التصديق ، وإنما وقع الرد فيها لعارض عرض .

ولما كان المكذب بشيء قد يكون معترفاً بأنه من عند إله ، وأن إلهه متصف بجميع صفات الكمال فلا شريك له ، وإنما تكذيبه لقادح لا يقدر عليه ، وكرب رمى بجميع أنكاده إليه ، أعرض عنهم التفاتاً إلى الأسلوب الأول فقال مخاطباً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ تنويهاً بذكره ورفعاً لعظيم قدره وتسلية لما يعلم من نفسه الشريفة البراءة منه : ﴿أم تسألهم﴾ أي أيها الطاهر الشيم البعيد عن مواضع التهم ﴿أجراً﴾ على إبلاغ ما أتيتهم به ﴿فهم من مغرم﴾ ولو قل ، والمغرم : التزام ما لا يجب ﴿مثقلون﴾ أي حمل عليهم حامل بذلك ثقلاً فهم لذلك يكذبون من كان سبباً في هذا الثقل بغير مستند ليستريحوا مما جره لهم من الثقل .

ولما كان من يدعي الانفراد بشيء يحسد من يدعي مشاركته فيه قال : ﴿ أم عندهم ﴾ أي خاصة بهم ﴿ الغيب ﴾ أي علمه ﴿ فهم يكتبون ﴾ أي يجددون للناس كتابة جميع ما غابة عنهم مما ينفعهم ويضرهم حتى يحسدونك فيما شاركتهم به منه ، فيردوه لذلك ، وينسبوك إلى ما نسبوك إليه مما يعلم كل أحد ترافعك عنه وبعدك منه ﴿ أم يريدون ﴾ بهذا القول الذي يرمونك به ﴿ كيداً ﴾ أي مكراً أو ضرراً عظيماً يطفئون به نور الله بزعمهم مع علمهم بأنك صادق فيه ، فهم بسبب إرادتهم ذلك هكذا كان الأصل ، ولكنه قال تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف : ﴿ فالذين كفروا ﴾ أي ستروا الأجلة تارة عناداً وتارة بالإعراض عن تأملها ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ المكيدون ﴾ أي يختص وبال الكيد بلزومه لهم وقطعه لدابرهم لأن من كان الإله عليه كان خاسراً ، وأقرب ما لهم من الكيد الظاهر في بدر عن انتهاء سنين عدتها عدة ما هنا من " أم " وهي خمسة عشرة مرة لأن بدراً كانت في الثانية من الهجرة ، وهي الخامسة عشرة من النبوة ، فقد سبب الله فيها من الأسباب ما أوجب سعيهم إلى هلاكهم بأمور خارقة للعادة ، فلو كانت لهم بصائر لكفتهم في الهداية ، والرد عن الضلالة والغواية .

ولما كان التقدير : أكذلك الأمر عادله بقوله : ﴿ أم لهم إله ﴾ يمنعهم من التصديق بكتابنا ، أو يستندون إليه للأمان من عذابنا ﴿ غير الله ﴾ الذي أحاط بجميع صفات الكمال ، فلا

يمكن بوجه من الوجوه ولا على تقدير من التقادير أن يكون معه إله ، ولذلك وصل به قوله : ﴿ سبحان الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي تعالى أن يداني جنابه شائبة نقص ﴿ عما يشركون ﴾ من الأصنام وغيرها ، وأخر سبحانه هذا القسم وهو من الشركة لكن بالغير لأنه آت على تقدير التصديق للرسول صلى ولأنه دينهم الذي أوقفهم عن الهدى ، فأوقعهم في الردى ، ليحتم بنفسه والتنزيه عن الإقسام فيحصل به غاية القصد والمرام .

(48/730)

والحاصل أنه قسم به سبحانه حالهم في ردهم القرآن إلى التكذيب وغيره ، ولما كان التكذيب – وهو النسبة إلى الكذب وهو عدم المطابقة للواقع – إما في الإرسال ، وإما في المعاني ، وما وقع به الإرسال إما لنقص في الرسول وإما النقص في المرسل ، والذي في الرسول إما أن يكون لأمر خارج عنه أو لأمر داخل فيه ، ولما كان الخارج قد يكون معه نقص دخل بذاته ، ولما كان ذلك قد يكون فيه ما يمدح به ولو من وجه ، وهو الكهانة بدأ بها ، وأتبعه الداخل لذلك بادئاً بما قد يمدح به وهو الشعر .

ولما كان القول بجمع الكهانة والشعر والجنون في شخص واحد على غاية من ظهور التناقص لا يخفى ، أتبعها الرمي بالتهكم على عقولهم .

ولما كان الكذب في الرمي بالتقول قد يخفى ، أتبعه دليله بالعجز عن المعارضة .

ولما قسم ما رموا به الرسول ، أتبعهم ما ألزمهم به في المرسل ، ولما كان ذلك إما أن يكون بالتعطيل أو لا ، وكان التعطيل أشد ، بدأ به وهو الخلق من غير شيء ، ولما كان النقص مع الإقرار بالوجود إما أن يكون بالشركة أولاً ، وكان بالشركة إما أن يكون المكذب هو المشارك أولاً ، وكانت الشركة المكذب أقعد في التكذيب بدأبها ، ولما كانت شركة المكذب إما أن تكون في الخلق أو لا ، وكان الأول إما أن يكون بخلق النفس أو الغير ، وكانت الشركة بخلق النفس ألصق ، بدأ بها قوله : ﴿أم هم الخالقون﴾ ولما كانت الشركة بغير الخلق إما أن يكون بضبط الحواس أو لا ، وكان الثاني إما أن يكون بضبط الكتاب فيها وإليه الإشارة بالمسيطر ، أو بضبط ما يؤمر به فيها وإليه الإشارة بالسلم أو بسفه صاحب الخزائن لرضاه بالبنات ، وكان كل قسم أشد مما بعده رتبه هكذا .

(49/730)

ولما انتهى ما يرجع إلى التكذيب ، أتبعه الرد لا للتكذيب بل لأمر آخر ، ولما كان ذلك الأمر إما من الآتي أو من المأتي إليه أو من غيرهما ، كان ما من الآتي ألصق بدأ به وهو المغرم ، ولما كان ما من المأتي إليه إما لحسد أو غيره ، وكان أمر الحسد أشد ، بدأ به وهو المشاركة في

الأبناء بما يكون به الفخر والرئاسة وهو علم الغيب – الناظر بوجه للكهانة المبدوء بها في قسم التكذيب ، وآخر ما من الغير وهو الشريك المانع لهم من القبول ، وخلطه بهذا القسم مع كونه قسيماً لما فرض فيه المكذب مشاركاً لخلوه عما قارن تلك الأقسام من التكذيب ، هذا تمام القول في إبطال ما لزمهم فيما تقولوه في أمر القرآن ، وقد تضمن ما ترى من تأصيله وتقسيمه وتفصيله من بيان مقدورات الله وعجائب مصنوعاته ما ألزمهم حتماً التوحيد الملزم بتصديق الرسالة والإذعان للحق مع ما له من الإعجاز في ترتيبه ونظمه وتهذيبه وتسهيله وتقريبه مجلوا أسلوبه العظيم بألفاظ هي الدر النظيم ، ومعان علت عن لاحق بغريزة أو تعليم ، يكاد لها أثبت القلوب يهيم فيطير ، وأبلغ البلغاء في افنان روحها يتدله ويحير ، فكان ذلك كما قال جبير بن مطعم ـ رضى الله عنه ـ كما روى البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه ـ رضى الله عنه ـ م أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ في المغرب بالطور ، وقال البخاري في التفسير : فلما بلغ هذه الآية ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ ﴿ أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون ﴾ كاد قلبي يطير ، وقال ابن ماجه : فلما سمعه يقرأ ﴿ أم من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ – إلى قوله – ﴿ فليأت مستمعهم بسلطان مبين ﴾ كاد قلبي يطير .

وسبق في أول السورة ما ذكره البغوي من هذا الحديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 305.308 ﴾

(50/730)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) ﴾

ومن هنا لا خلاف أن ﴿ أَمْ ﴾ ليست بمعنى بل ، لكن أكثر المفسرين على أن المراد ما يقع في صدر الكلام من الاستفهام ، إما بالهمزة فكأنه يقول أخلقوا من غير شيء أو هل ، ويحتمل أن يقال هو على أصل الوضع للاستفهام الذي يقع في أثناء الكلام وتقديره أما خلقوا ، أم خلقوا من غير شيء ، أم هم الخالقون ؟ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما وجه تعلق الآية بما قبلها ؟ نقول لما كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم ونسبوه إلى الكهانة والجنون والشعر وبرأه الله من ذلك ، ذكر الدليل على صدقه إبطالاً لتكذيبهم وبدأ بأنفسهم ، كأنه يقول كيف يكذبونه وفي أنفسهم دليل صدقه لأن قوله في ثلاثة أشياء في التوحيد

والحشر والرسالة ففي أنفسهم ما يعلم به صدقه ، وبيانه هو أنهم خلقوا وذلك دليل التوحيد لما بينا أن في كل شيء له آية ، تدل على أنه واحد ، وقد بينا وجهه مراراً فلا نعيده .

وأما الحشر فلأن الخلق الأول دليل على جواز الخلق الثاني وإمكانه ، ويدل على ما ذكرنا أن الله تعالى ختم الاستفهامات بقوله ﴿ أَمْ لَهُمْ إله غَيْرُ الله سبحان الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الطور : 43] . (1)

المسألة الثانية :

إذا كان الأمر على ما ذكرت فلم حذف قوله أما خلقوا ؟ نقول : لظهور انتفاء ذلك ظهوراً لا يبقى معه للخلاف وجه ، فإن قيل فلم لم يصدر بقوله أما خلقوا (2) ويقول أم خلقوا من غير شيء ؟ نقول ليعلم أن قبل هذا أمراً منفياً ظاهراً ، وهذا المذكور قريب منه في ظهور البطلان فإن قيل قوله ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ أيضاً ظاهر البطلان ، لأنهم علموا أنهم مخلوقون من تراب وماء ونطفة ، نقول الأول أظهر في البطلان لأن كونهم غير مخلوقين أمر يكون مدعيه منكراً للضرورة فمنكره منكر لأمر ضروري .

---

(1) ترك المصنف الكلام هنا على الثالث وهو الرسالة سهوا أو اعتمادا على ما ذكره فيما سلف من التفسير ولأنه إذا ثبت أمر المبدأ والمعاد سهل إثبات الرسالة . [. . . . .]

(2) يلاحظ أن هذا السؤال قريب من الذي قبله في نفس المسألة الثانية .

المسألة الثالثة :

ما المراد من قوله تعالى : ﴿ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ نقول فيه وجوه المنقول منها أنهم خلقوا من غير خالق وقيل إنهم خلقوا لا لشيء عبثاً ، وقيل إنهم خلقوا من غير أب وأم ، ويحتمل أن يقال أم خلقوا من غير شيء ، أي ألم يخلقوا من تراب أو من ماء ، ودليله قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ [المرسلات : 20] ويحتمل أن يقال الاستفهام الثاني ليس بمعنى النفي بل هو بمعنى الإثبات قال الله تعالى : ﴿ ءأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخالقون ﴾ [الواقعة : 59] و ﴿ ءأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزرعون ﴾ [الواقعة : 64] ﴿ ءأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ المنشئون ﴾ [الواقعة : 72] كل ذلك في الأول منفي وفي الثاني مثبت كذلك ههنا قال الله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ أي الصادق هو هذا الثاني حينئذ ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان حِينٌ مّنَ الدهر لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ [الإنسان : 1] فإن قيل كيف يكون ذلك الإثبات والآدمي خلق من تراب ؟ نقول والتراب خلق من غير شيء ، فالإنسان إذا نظرت إلى خلقه وأسندت النظر إلى ابتداء أمره وجدته خلق من غير شيء ، أو نقول المراد أم خلقوا من غير شيء مذكور أو معتبر وهو الماء

المهين .

المسألة الرابعة :

ما الوجه في ذكر الأمور الثلاثة التي في الآية ؟ نقول هي أمور مرتبة كل واحد منها يمنع القول بالوحدانية والحشر فاستفهم بها ، وقال أما خلقوا أصلاً ، ولذلك ينكرون القول بالتوحيد لانتفاء الإيجاد وهو الخلق ، وينكرون الحشر لانتفاء الخلق الأول أم خلقوا من غير شيء ، أي أم يقولون بأنهم خلقوا لا لشيء فلا إعادة ، كما قال : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خلقناكم عَبَثاً ﴾ [المؤمنون : 115] .

(52/730)

وعلى قولنا إن المراد خلقوا لا من تراب ولا من ماء فله وجه ظاهر ، وهو أن الخلق إذا لم يكن من شيء بل يكون إبداعياً يخفي كونه مخلوقاً على بعض الأغبياء ، ولهذا قال بعضهم السماء رفع اتفاقاً ووجد من غير خالق وأما الإنسان الذي يكون أولاً نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحماً وعظماً لا يتمكن أحد من إنكاره بعد مشاهدة تغير أحواله فقال تعالى : ﴿ أَمْ خَلَقُواْ ﴾ بحيث يخفى عليهم وجه خلقهم بأن خلقوا ابتداء من غير سبق حالة عليهم يكونون فيها تراباً ولا ماء ولا نطفة ليس كذلك بل هم كانوا شيئاً من تلك الأشياء خلقوا منه

خلقاً ، فما خلقوا من غير شيء حتى ينكروا الوحدانية ولهذا قال تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أمهاتكم خَلْقاً مّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ [الزمر : 6] ولهذا أكثر الله من قوله ﴿ خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [الإنسان : 2] وقوله ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾ [المرسلات : 20] يتناول الأمرين المذكورين في هذا الموضع لأن قوله ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مّن مَّاء ﴾ يحتمل أن يكون نفي المجموع بنفي الخلق فيكون كأنه قال : أخلقتم لا من ماء ، وعلى قول من قال المراد منه أم خلقوا من غير شيء ، أي من غير خالق ففيه ترتيب حسن أيضاً وذلك لأن نفي الصانع ، إما أن يكون بنفي كون العالم مخلوقاً فلا يكون ممكناً ، وإما أن يكون ممكناً لكن الممكن لا يكون محتاجاً فيقع الممكن من غير مؤثر وكلاهما محال .

(53/730)

وأما قوله تعالى : ﴿ أَمْ هُمُ الخالقون ﴾ فمعناه أهم الخالقون للخلق فيعجز الخالق بكثرة العمل ، فإن دأب الإنسان أنه يعيا بالخلق ، فما قولهم أما خلقوا فلا يثبت لهم إله ألبتة ، أم خلقوا وخفي عليهم وجه الخلق أم جعلوا الخالق مثلهم فنسبوا إليه العجز ، ومثل قوله تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول ﴾ [ق : 15] هذا بالنسبة إلى الحشر وأما بالنسبة إلى التوحيد فهو رد عليهم حيث قالوا الأمور مختلفة واختلاف الآثار يدل على اختلاف المؤثرات وقالوا

﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها واحدا ﴾ [ص : 5] فقال تعالى : ﴿ أَمْ هُمُ الخالقون ﴾ حيث لا يقدر الخباز على الخياطة والخياط على البناء وكل واحد يشغله شأن عن شأن .

أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (36)

وفيه وجوه : أحدها : ما اختاره الزمخشري وهو أنهم لا يوقنون بأنهم خلقوا وهو حينئذ في معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] أي هم معترفون بأنه خلق الله وليس خلق أنفسهم وثانيها : المراد بل لا يوقنون بأن الله واحد وتقديره ليس الأمر كذلك أي ما خلقوا وإنما لا يوقنون بوحدة الله وثالثها : لا يوقنون أصلاً من غير ذكر مفعول يقال فلان ليس بمؤمن وفلان ليس بكافر لبيان مذهبه وإن لم ينو مفعولاً ، وكذلك قول القائل فلان يؤذي ويؤدي لبيان ما فيه لا مع القصد إلى ذكر مفعول ، وحينئذ يكون تقديره أنهم ما خلقوا السموات والأرض ولا يوقنون بهذه الدلائل ، بل لا يوقنون أصلاً وإن جئتهم بكل آية ، يدل عليه قوله تعالى بعد ذلك ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً مِّنَ السماء ساقطا يَقُولُواْ سحاب مَّرْكُومٌ ﴾ [الطور : 44] وهذه الآية إشارة إلى دليل الآفاق ، وقوله من قبل ﴿ أَمْ خُلِقُواْ ﴾ [الطور : 35] دليل الأنفس .

أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (37)

وفيه وجوه أحدها : المراد من الخزائن خزائن الرحمة ثانيها : خزائن الغيب ثالثها : أنه إشارة إلى الأسرار الإلهية المخفية عن الأعيان رابعها : خزائن المخلوقات التي لم يرها الإنسان ولم يسمع بها ، وهذه الوجوه الأول والثاني منقول ، والثالث والرابع مستنبط ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ هُمُ المسيطرون ﴾ تتمة للرد عليهم ، وذلك لأنه لما قال : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ إشارة إلى أنهم ليسوا بخزنة (رحمة) الله فيعلموا خزائن الله ، وليس بمجرد انتفاء كونهم خزنة ينتفي العلم لجواز أن يكون مشرفاً على الخزانة ، فإن العلم بالخزائن عند الخازن والكاتب في الخزانة ، فقال لستم بخزنة ولا بكتبة الخزانة المسلطين عليها ، ولا يبعد تفسير المسيطرين بكتبة الخزانة ، لأن التركيب يدل على السطر وهو يستعمل في الكتاب ، وقيل المسيطر المسلط وقرىء بالصاد ، وكذلك في كثير من السيئات التي مع الطاء ، كما في قوله تعالى : ﴿ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : 22] و (قد قرىء) مصيطر .

أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38)

وهو أيضاً تتميم للدليل ، فإن من لا يكون خازناً ولا كاتباً قد يطلع على الأمر بالسماع من الخازن أو الكاتب ، فقال أنتم لستم بخزنة ولا كتبة ولا اجتمعتم بهم ، لأنهم ملائكة ولا صعود لكم إليهم ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

المقصود نفي الصعود ، ولا يلزم من نفي السلم لهم نفي الصعود ، فما الجواب عنه ؟ نقول النفي أبلغ من نفي الصعود ، وهو نفي الاستماع وآخر الآية شامل للكل ، قال تعالى :

﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بسلطان مُّبِينٍ ﴾ .

المسألة الثانية :

(55/730)

السلم لا يستمع فيه ، وإنما يستمع عليه ، فما الجواب ؟ نقول من وجهين : أحدهما : ما ذكره الزمخشري أن المراد ﴿ يَسْتَمِعُونَ ﴾ صاعدين فيه وثانيهما : ما ذكره الواحدي أن في بمعنى على ، كما في قوله تعالى : ﴿ ولأصَلّبَنّكُمْ فِى جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] أي جذوع النخل ، وكلاهما ضعيف لما فيه من الإضمار والتغيير .

المسألة الثالثة :

لم ترك ذكر مفعول ﴿ يَسْتَمِعُونَ ﴾ وماذا هو ؟ نقول فيه وجوه أحدها : المستمع هو الوحي ، أي هل لهم سلم يستمعون فيه الوحي ثانيها : يستمعون ما يقولون من أنه شاعر ، وأن لله شريكاً ، وأن الحشر لا يكون ثالثها : ترك المفعول رأساً ، كأنه يقول : هل لهم قوة الاستماع من السماء حتى يعلموا أنه ليس برسول ، وكلامه ليس بمرسل .

المسألة الرابعة :

قال : ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم ﴾ ولم يقل فليأتوا ، كما قال تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ [الطور : 34] نقول طلب منهم ما يكون أهون على تقدير صدقهم ، ليكون اجتماعهم عليه أدل على بطلان قولهم ، فقال هناك ﴿ فَلْيَأْتُوا ﴾ أي اجتمعوا عليه وتعاونوا ، وأتوا بمثله ، فإن ذلك عند الاجتماع أهون ، وأما الارتقاء في السلم بالاجتماع (فإنه) متعذر لأنه لا يرتقي إلا واحد بعد واحد ، ولا يحصل في الدرجة العليا إلا واحد فقال : ﴿ فَلْيَأْتِ ﴾ ذلك الواحد الذي كان أشد رقياً بما سمعه .

المسألة الخامسة :

قوله ﴿ بسلطان مُّبِينٍ ﴾ ما المراد به ؟ نقول هو إشارة إلى لطيفة ، وهي أنه لو طلب منهم ما سمعوه ، وقيل لهم ﴿ فليأت مستمعهم ﴾ بما سمع لكان لواحد أن يقول : أنا سمعت كذا وكذا فيفتري كذباً ، فقال لا بل الواجب أن يأتي بدليل يدل عليه .

أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39)

إشارة إلى نفي الشرك ، وفساد ما يقولون بطريق آخر ، وهو أن المتصرف إنما يحتاج إلى الشريك لعجزه ، والله قادر فلا شريك له ، فإنهم قالوا : نحن لا نجعل هذه الأصنام وغيرها شركاء ، وإنما نعظمها لأنها بنات الله ، فقال تعالى : كيف تجعلون لله البنات ، وخلق البنات والبنين إنما كان لجواز الفناء على الشخص ، ولولا التوالد لانقطع النسل وارتفع الأصل ، من غير أن يقوم مقامه الفصل ، فقدر الله التوالد ، ولهذا لا يكون في الجنة ولادة ، لأن الدار دار البقاء ، لا موت فيها للآباء ، حتى تقام العمارة بحدوث الأبناء .

إذا ثبت هذا فالولد إنما يكون في صورة إمكان فناء الأب ، ولهذا قال تعالى في أوائل سورة آل عمران ﴿ الحى القيوم ﴾ [آل عمران : 2] أي حي لا يموت فيحتاج إلى ولد يرثه ، وهو قيوم لا يتغير ولا يضعف ، فيفتقر إلى ولد ليقوم مقامه ، لأنه ورد في نصارى نجران .

ثم إن الله تعالى بيّن هذا بأبلغ الوجوه ، وقال إنهم يجعلون له بنات ، ويجعلون لأنفسهم بنين ، مع أن جعل البنات لهم أولى ، وذلك لأن كثير البنات تعين عل كثرة الأولاد ، لأن الإناث الكثيرة يمكن منهن الولادة بأولاد كثيرة من واحد .

(57/730)

وأما الذكور الكثيرة لا يمكن منهم إحبال أنثى واحدة بأولاد ، ألا ترى أن الغنم لا يذبح منها الإناث إلا نادراً ، وذلك لما ثبت أن إبقاء النوع بالأنثى أنفع نظراً إلى التكثير ، فقال تعالى : أنا القيوم الذي لا فناء لي ، ولا حاجة لي في بقاء النوع في حدوث الشخص ، وأنتم معرضون للموت العاجل ، وبقاء العالم بالإناث أكثر ، وتتبرءون منهن والله تعالى مستغن عن ذلك وتجعلون له البنات ، وعلى هذا فما تقدم كان إشارة إلى نفي الشريك نظراً إلى أنه لابتداء لله ، وهذا إشارة إلى نفي الشريك نظراً إلى أنه لا فناء له ، فإن قيل كيف وقع لهم نسبة البنات إلى الله تعالى مع أن هذا أمر في غاية القبح لا يخفى على عاقل ، والقوم كان لهم العقول التي هي مناط التكليف ، وذلك القدر كاف في العلم بفساد هذا القول ؟ نقول ذلك القول دعاهم إليه اتباع العقل ، وعدم اعتبار النقل ، ومذهبهم في ذلك مذهب الفلاسفة حيث يقولون يجب اتباع العقل الصريح ، ويقولون النقل بمعزل لا يتبع إلا إذا وافق العقل ، وإذا وافق فلا اعتبار للنقل ، لأن العقل هناك كاف ، ثم قالوا الوالد يسمى والداً ، لأنه سبب وجود الولد ، ولهذا يقال : إذا ظهر شيء من شيء هذا تولد من ذلك ، فيقولون الحمى تتولد من عفونة الخلط ، فقالوا الله تعالى سبب وجود الملائكة سبباً واجباً لا اختيار له فسموه بالوالد ، ولم يلتفتوا إلى وجوب تنزيه الله في تسميته بذلك عن التسمية بما يوهم النقص ، ووجوب الاقتصار في أسمائه على الأسماء الحسنى التي ورد بها الشرع لعدم اعتبارهم النقل ، فقالوا يجوز إطلاق الأسماء المجازية والحقيقية على الله تعالى وصفاته ، فسموه

عاشقاً ومعشوقاً ، وسموه أباً ووالداً ، ولم يسموه ابناً ولا مولوداً باتفاقهم ، وذلك ضلالة .

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40)

(58/730)

وجه التعلق هو أن المشركين لما اطرحوا الشرع واتبعوا ما ظنوه عقلاً ، وسموا الموجود بعد العدم مولوداً ومتولداً ، والموجد والداً لزمهم الكفر بسببه والإشراك ، فقال لهم ما الذي يحملكم على اطراح الشرع ، وترك اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ هل ذلك لطلبه منكم شيئاً فما كان يسعهم أن يقولوا نعم ، فلم يبق لهم إلا أن يقولوا لا ، فنقول لهم : كيف اتبعتم قول الفلسفي الذي يسوغ لكم الزور وما يوجب الاستخفاف بجانب الله تعالى لفظاً إن لم يكن معنى كما تقولون ، ولا تتبعون الذي يأمركم بالعدل في المعنى والإحسان في اللفظ ، ويقول لكم اتبعوا المعنى الحق الواضح واستعملوا اللفظ الحسن المؤدب ؟ وهذا في غاية الحسن من التفسير ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما الفائدة في سؤال النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال ﴿ أم تسألهم ﴾ ولم يقل أم يسألون أجراً كما قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ [يونس : 38] وقال تعالى : ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ [

الطور : 42] إلى غير ذلك ؟ نقول فيه فائدتان :

إحداهما : تسلية قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأنهم لما امتنعوا من الاستماع واستنكفوا من الاتباع صعب على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له ربه أنت أتيت بما عليك فلا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا فأنت غير ملوم ، وإنما كنت تلام لو كنت طلبت منهم أجراً فهل طلبت ذلك فأثقلهم ؟ لا فلا حرج عليك إذاً .

ثانيهما : أنه لو قال أم يسألون لزم نفي أجر مطلقاً وليس كذلك ، وذلك لأنهم كانوا يشركون ويطالبون بالأجر من رؤسائهم ، وأما النبي صلى الله عليه وسلم فقال له أنت لا تسألهم أجراً فهم لا يتبعونك وغيرك يسألهم وهم يسألون ويتبعون السائلين وهذا غاية الضلال .

المسألة الثانية :

(59/730)

إن قال قائل ألزمت أن تبين أن أم لا تقع إلا متوسطة حقيقة أو تقديراً فكيف ذلك ههنا ؟

نقول كأنه تعالى يقول أتهديهم لوجه الله أم تسألهم أجراً ، وترك الأول لعدم وقوع الإنكار عليه كما قلنا في قوله ﴿ أَمْ لَهُ البنات ﴾ [الطور : 39] إن المقدار هو واحد أم له البنات ، وترك ذكر الأول لعدم وقوع الإنكار عليه من الله تعالى وكونهم قائلين بأنه لا يريد وجه الله تعالى ،

وإنما يريد الرياسة والأجر في الدنيا .

المسألة الثالثة :

هل في خصوص قوله تعالى ﴿ أَجْراً ﴾ فائدة لا توجد في غيره لو قال أم تسألهم شيئاً أو مالاً أو غير ذلك ؟ نقول نعم ، وقد تقدم القول مني أن كل لفظ في القرآن فيه فائدة وإن كنا لا نعلمها ، والذي يظهر ههنا أن ذلك إشارة إلى أن ما يأتي به النبي صلى الله عليه وسلم فيه مصلحتهم وذلك لأن الأجر لا يطلب إلا عند فعل شيء يفيد المطلوب منه الأجر فقال : أنت أتيتهم بما لو طلبت عليه أجراً وعلموا كمال ما في دعوتك من المنفعة لهم وبهم ، لأتوك بجميع أموالهم ولفدوك بأنفسهم ، ومع هذا لا تطلب منهم أجراً ، ولو قال شيئاً أو مالاً لما حصلت هذه الفائدة ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

(60/730)

هذا يدل على أنه لم يطلب منهم أجراً ما ، وقوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ [الشورى : 23] يدل على أنه طلب أجراً ما فكيف الجمع بينهما ؟ نقول لا تفرقة بينهما بل الكل حق وكلاهما ككلام واحد ، وبيانه هو أن المراد من قوله ﴿ إِلاَّ

المودة فِي القربى ﴾ هو أني لا أسألكم عليه أجراً يعود إلى الدنيا ، وإنما أجرى المحبة في الزلفى إلى الله تعالى ، وأن عباد الله الكاملين أقرب إلى الله تعالى من عباده الناقصين ، وعباد الله الذين كلمهم الله وكلموه وأرسلهم لتكميل عباده فكملوا أقرب إلى الله من الذين (لم يكلمهم و) لم يرسلهم الله ولم يكملوا وعلى هذا فهو في معنى قوله ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ﴾ [يونس : 72] وإليه أنتمي وقوله صلى الله عليه وسلم : " فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة " وقوله ﴿ فَهُم مّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ وبين ما ذكرنا أن قوله ﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً ﴾ المراد أجر الدنيا وقوله ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ المراد العموم ثم استثنى ، ولا حاجة إلى ما قاله الواحدي إن ذلك منقطع معناه لكن المودة في القربى ، وقد ذكرناه هناك فليطلب منه .

المسألة الخامسة :

قوله تعالى : ﴿ فَهُم مّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم ما طلب منهم شيئاً ولو طالبهم بأجر ما كان لهم أن يتركوا اتباعه بأدنى شيء ، اللّهم إلا إن أثقلهم التكليف ويأخذ كل ما لهم ويمنعهم التخليف فيثقلهم الدين بعد ما لا يبقى لهم العين .

أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41)

وهو على الترتيب الذي ذكرناه كأنه تعالى قال لهم : بم اطرحتم الشرع ومحاسنه ، وقلتم ما قلتم بناء على اتباعكم الأوهام الفاسدة التي تسمونها المعقولات ، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يطلب منكم أجراً وأنتم لا تعلمون فلا عذر لكم لأن العذر إما في الغرامة وإما في عدم الحاجة إلى ما جاء به ولا غرامة عليكم فيه ولا غنى لكم عنه وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

كيف التقدير ؟ قلنا لا حاجة إلى التقدير بل هو استفهام متوسط على ما ذكرنا كأنه قال أتهديهم لوجه الله تعالى أم تسألهم أجراً فيمتنعون أم لا حاجة لهم إلى ما تقول لكونهم عندهم الغيب فلا يتبعون .

المسألة الثانية :

الألف واللام في الغيب لتعريف ماذا ألجنس أو لعهد ؟ نقول الظاهر أن المراد نوع الغيب كما يقول القائل اشترى اللحم يريد بيان الحقيقة لأكل لحم ولا لحماً معيناً ، والمراد في قوله تعالى : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ [الأنعام : 73] الجنس واستغراقه لكل غيب .

المسألة الثالثة :

على هذا كيف يصح عندهم الغيب وما عند الشخص لا يكون غيباً ؟ نقول معناه حضر عندهم ما غاب عن غيرهم ، وقيل هذا متعلق بقوله ﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ [الطور :

30] أي أعندكم الغيب تعلمون أنه يموت قبلكم وهو ضعيف ، لبعد ذلك ذكر ، أو لأن قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَرَبَّصُواْ ﴾ متصل به وذلك يمنع اتصال هذا بذلك .

المسألة الرابعة :

(62/730)

ما الفائدة في قوله ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ؟ نقول وضوح الأمر ، وإشارة إلى أن ما عند النبي صلى الله عليه وسلم من علم الغيب علم بالوحي أموراً وأسراراً وأحكاماً وأخباراً كثيرة كلها هو جازم بها وليس كما يقول المتفرس ، الأمر كذا وكذا ، فإن قيل اكتب به خطك أنه يكون يمتنع ويقول أنا لا أدعي فيه الجزم والقطع ولكن أذكره كذا وكذا على سبيل الظن والاستنباط وإن كان قاطعاً يقول اكتبوا هذا عني ، وأثبتوا في الدواوين أن في اليوم الفلاني يقع كذا وكذا فقوله ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ يعني هل صاروا في درجة محمد صلى الله عليه وسلم حتى استغنوا عنه وأعرضوا ، ونقل عن ابن قتيبة أن المراد من الكتابة الحكم معناه يحكمون وتمسك بقوله صلى الله عليه وسلم : " اقض بيننا بكتاب الله " أي حكم الله وليس المراد ذلك ، بل هو من باب الإضمار معناه بما في كتاب الله تعالى يقال فلان يقضي بمذهب الشافعي أي بما فيه ، ويقول الرسول الذي معه كتاب الملك للرعية

اعملوا بكتاب الملك .

أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

(63/730)

ما وجه التعلق والمناسبة بين الكلامين ؟ قلنا يبين ذلك ببيان المراد من قوله ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ فبعض المفسرين قال أم يريدون أن يكيدوك فهم المكيدون ، أي لا يقدرون على الكيد فإن الله يصونك بعينه وينصرك بصونه ، وعلى هذا إذا قلنا بقول من يقول ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب ﴾ [الطور : 41] متصل بقوله تعالى : ﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ [الطور : 30] فيه ترتيب في غاية الحسن وهو أنهم لما قالوا ﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ قيل لهم أتعلمون الغيب فتعلمون أنه يموت قبلكم أم تريدون كيداً فتقولون نقتله فيموت قبلنا فإن كنتم تدعون الغيب فأنتم كاذبون ، وإن كنتم تظنون أنكم تقدرون عليه فأنتم غالطون فإن الله يصونه عنكم وينصره عليكم ، وأما على ما قلنا إن المراد منه أنه صلى الله عليه وسلم لا يسألكم على الهداية مالاً وأنتم لا تعلمون ما جاء به لولا هدايته لكونه من الغيوب ، فنقول

فيه وجوه الأول : أن المراد من قوله تعالى : ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ أي من الشيطان وإزاغته فيحصل مرادهم كأنه تعالى قال أنت لا تسألهم أجراً وهم يعلمون الغيب فهم محتاجون إليك وأعرضوا فقد اختاروا كيد الشيطان ورضوا بإزاغته ، والإرادة بمعنى الاختيار والمحبة ، كما قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ ﴾ [الشورى : 20] وكما قال : ﴿ أَئِفْكاً ءالِهَةً دُونَ الله تُرِيدُونَ ﴾ [الصافات : 86] وأظهر من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنِّى أُرِيدُ أَن تَبُوء بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ ﴾ [المائدة : 29] الوجه الثاني : أن يقال إن المراد ، والله أعلم أم يريدون كيداً لله فهو واصل إليهم وهم عن قريب مكيدون ، وترتيب الكلام هو أنهم لما لم يبق حجة في الإعراض فهم يريدون نزول العذاب بهم والله أرسل إليهم رسولاً لا يسألهم أجراً ويهديهم إلى ما لا علم لهم ولا كتاب عندهم وهم يعرضون ، فهم يريدون إذاً أن يهلكهم ويكيدهم ، لأن الاستدراج

(64/730)

كيد والإملاء لازدياد الإثم ، كذلك لا يقال هو فاسد لأن الكيد والإساءة لا يطلق على فعل الله تعالى إلا بطريق المقابلة ، وكذلك المكر فلا يقابله أساء الله إلى الكفار ولا اعتدى الله إلا إذا ذكر أولاً فيهم شيء من ذلك ، ثم قال بعد ذلك بسببه لفظاً في حق الله تعالى كما في قوله

تعالى : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] وقال : ﴿ فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : 194] وقال : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ الله ﴾ [آل عمران : 54] وقال : ﴿ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ [الطارق : 15 ، 16] لأنا نقول الكيد ما يسوء من نزل به وإن حسن ممن وجد منه ، ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام قال : ﴿ لأَكِيدَنَّ أصنامكم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء : 57] من غير مقابلة .

المسألة الثانية :

ما الفائدة في قوله تعالى : ﴿ فالذين كَفَرُواْ هُمُ المكيدون ﴾ وما الفرق بين معنى هذا الكلام ومعنى قول القائل : أم يريدون كيداً فهم المكيدون ؟ نقول الفائدة كون الكافر مكيداً في مقابلة كفره لا في مقابلة إرادته الكيد ولو قال : أم يريدون كيداً فهم المكيدون ، كان يفهم منه أنهم إن لم يريدوه لا يكونوا مكيدين ، وهذا يؤيد ما ذكرناه أن المراد من الكيد كيد الشيطان أو كيد الله ، بمعنى عذابه إياهم لأن قوله ﴿ فالذين كَفَرُواْ هُمُ المكيدون ﴾ عام في كل كافر كاده الشيطان ويكيده الله أي يعذبه ، وصار المعنى على ما ذكرناه أتهديهم لوجه الله أم تسألهم أجراً فتثقلهم فيمتنعون عن الاتباع ، أم عندهم الغيب فلا يحتاجون إليك فيعرضون عنك ، أم ليس شيء من هذين الأمرين الأخيرين فيريدون العذاب ، والعذاب غير مدفوع عنهم بوجه من الوجوه لكفرهم فالذين كفروا معذبون .

المسألة الثالثة :

ما الفائدة في تنكير الكيد حيث لم يقل أم يريدون كيدك أو الكيد أو غير ذلك ليزول الإبهام ؟ نقول فيه فائدة ، وهي الإشارة إلى وقوع العذاب من حيث لا يشعرون فكأنه قال يأتيهم بغتة ولا يكون لهم به علم أو يكون إيراداً لعظمته كما ذكرنا مراراً .

أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43)

أعاد التوحيد وهو يفيد فائدة قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُ البنات وَلَكُمُ البنون ﴾ [الطور : 39] وفي ﴿ سبحان الله ﴾ بحث شريف : وهو أهل اللغة قالوا : سبحان اسم علم للتسبيح ، وقد ذكرنا ذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم : 17] وأكثرنا من الفوائد ، فإن قيل يجوز أن نقول سبحان الله اسم مصدر ، ونقول سبحان على وزن فعلان فنذكر سبحان من غير مواضع الإيقاع لله كما يقال في التسبيح ، نقول ذلك مثل قول القائل من حرف جار وفي كلمة ظرف حيث يخبر عنه مع أن الحرف لا يخبر عنه فيجاب بأن من وفى حينئذ جعلا كالاسم ولم يتركا على أصلهما المستعمل في مثل قولك أخذت من زيد والدرهم في الكيس ، فكذلك سبحان فيما ذكر من المواضع لم يترك على مواضع استعماله فإنه حينئذ لم يترك علماً كما يقال زيد على وزن فعل بخلاف التسبيح

فيما ذكرنا .

المسألة الرابعة :

ما في قوله تعالى : ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أن تكون مصدرية معناه سبحانه عن إشراكهم ثانيهما : خبرية معناه عن الذين يشركون ، وعلى هذا فيحتمل أن يكون عن الولد لأنهم كانوا يقولون البنات لله فقال سبحان الله على البنات والبنين ، ويحتمل أن يكون عن مثل الآلهة لأنهم كانوا يقولون هو مثل ما يعبدونه فقال سبحان الله عن مثل ما يعبدونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 223.230 ﴾

(66/730)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) ﴾)

هذا أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعاء إلى الله ومتابعة نشر الرسالة ، ثم قال مؤنساً له : ﴿ فما أنت ﴾ بإنعام الله عليك أو لطفه بك ﴿ بكاهن ولا مجنون ﴾ .

وكانت العرب قد عهدت ملابسة الجن والإنس بهذين الوجهين ، فنسبت محمداً صلى الله عليه وسلم إلى ذلك فنفى الله تعالى عنه ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ أم يقولون شاعر ﴾ الآية ، روي أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة فكثرت آراؤهم في محمد صلى الله عليه وسلم حتى قال قائل منهم : ﴿ تربصوا به ريب المنون ﴾ فإنه شاعر سيهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى وغيرهم ، فافترقوا على هذه المقالة فنزلت الآية في ذلك ، والتربص : الانتظار ومنه قول الشاعر : [الطويل]

تربص بها ريب المنون لعلها . . . تطلق يوماً أو يموت حليلها

وأنشد الطبري : [الطويل]

لعلها سيهلك عنها زوجها أو ستجنح . . . وقوله تعالى : ﴿ قل تربصوا ﴾ وعيد في صيغة أمر ، و: ﴿ المنون ﴾ من أسماء الموت ، وبه فسر ابن عباس ، ومن أسماء الدهر أيضاً ، وبه فسر مجاهد وقال الأصمعي : ﴿ المنون ﴾ واحد لا جمع له وقال الأخفش : هو جمع لا واحد له .

قال القاضي أبو محمد : والريب هنا : الحوادث والمصائب ، لأنها تريب من نزلت به ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في أمر ابنته فاطمة حين ذكر أن علياً يتزوج بنت أبي جهل : " إنما فاطمة بضعة مني ، يريبني ما أرابها " . يقال أراب وراب ، ومنه : [الطويل]

فقد رابني منها الغداة سفورها . . . وقوله الآخر : [المتقارب]

وقد رابني قولها يا هناه . . . وأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بتوعدهم بقوله : ﴿ قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ بهذا ﴾ يحتمل أن يشير إلى هذه المقالة : هو شاعر ، ويحتمل أن يشير إلى ما هم عليه من الكفر وعبادة الأصنام . والأحلام : العقول . و: ﴿ أم ﴾ المتكررة في هذه الآية قدرها بعض النحاة بألف الاستفهام ، وقدرها مجاهد ب " بل " . والنظر المحرر في ذلك أن منها ما يتقدر ببل ، والهمزة على حد قول سيبويه في قولهم : إنها لا بل أم شاء ، ومنها ما هي معادلة ، وذلك قوله : ﴿ أم هم قوم طاغون ﴾ .

وقرأ مجاهد : " بل هم قوم طاغون " وهو معنى قراءة الناس ، إلا أن العبارة ب ﴿ أم ﴾ خرجت مخرج التوقيف والتوبيخ . وحكى الثعلبي عن الخليل أنه قال : ما في سورة " الطور " من ﴿ أم ﴾ كله استفهام وليست بعطف . و: ﴿ تقوله ﴾ معناه : قال عن الغير إنه قاله . فهي عبارة عن كذب مخصوص . ثم عجزهم تعالى بقوله : ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ والمماثلة المطلوبة منهم هي في النظم والرصف والإيجاز .

واختلف الناس هل كانت العرب قادرة على الإتيان بمثل القرآن قبل مجيء محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال شداد : يسمون أهل الصرفة كانت قادرة وصرفت ، وقال الجمهور : لم تكن قط قادرة ولا في قدرة البشر أن يأتي بمثله .

لأن البشر لا يفارق النسيان والسهو والجهل والله تعالى محيط علمه بكل شيء . فإذا ترتبت اللفظة في القرآن ، علم بالإحاطة التي يصلح أن تليها ويحسن معها المعنى وذلك متعذر في البشر ، والهاء في ﴿ مثله ﴾ عائدة على القرآن .

(68/730)

وقرأ الجحدري " بحديثِ مثِله " بإضافة الحديث إلى مثل . فالهاء على هذا عائدة على محمد صلى الله عليه وسلم . وقوله تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء ﴾ قال الطبري معناه : أم خلقوا خلق الجماد من غير حي فهم لا يؤمرون ولا ينهون كما هي الجمادات عليه . وقال آخرون معناه : خلقوا لغير علة ولا لغير عقاب ولا ثواب . فهم لذلك لا يسمعون ولا يتشرعون . وهذا كما تقول : فعلت كذا وكذا من غير علة ، أي لغير علة . ثم وقفهم على جهة التوبيخ على أنفسهم : أهم الذين خلقوا الأشياء ؟ فهم لذلك يتكبرون ، ثم خصص من الأشياء ﴿ السماوات والأرض ﴾ لعظمها وشرفها في المخلوقات ، ثم حكم عليهم بأنهم ﴿ لا يوقنون ﴾ ولا ينظرون نظراً يؤديهم إلى اليقين .

قوله تعالى : ﴿ أم عندهم خزائن ربك ﴾ بمنزلة قوله : أم عندهم الاستغناء عن الله في جميع الأمور ، لأن المال والصحة والقوة وغير ذلك من الأشياء كلها من خزائن الله كلها . قال

الزهراوي وقيل يريد ب " الخزائن " : العلم ، وهذا قول حسن إذا تأمل وبسط . وقال الرماني : خزائنه تعالى : مقدوراته ، و: " المصيطر " المسلط القاهر ، وبذلك فسر ابن عباس وأصله السين ، ولكن كتبه بعض الناس . وقرأه بالصاد مراعاة للطاء ليتناسب النطق . وحكى أبو عبيدة : تسيطرت علي إذا اتخذتني خولاً . والسلم : السبب الذي يصعد به كان ما كان من خشب أو بناء أو حبال . ومنه قول ابن مقبل : [البسيط]

لا تحرز المرء أحجاء البلاد ولا . . . تبنى له في السماوات السلاليم

(69/730)

وحكى الرماني قال : لا يقال سلم لما يبنى من الأدراج ، وإنما السلم المشبك ، وبيت الشعر يرد عليه ، والمعنى : ألهم ﴿ سلم ﴾ إلى السماء ﴿ يستمعون فيه ﴾ أي عليه ومنه ، وهذه حروف يسد بعضها مسد بعض ، والمعنى : يستمعون الخبر بصحة ما يدعونه فليأتوا بالحجة المبينة في ذلك وقوله تعالى : ﴿ أم له البنات ﴾ الآية ، معناه : أم هم أهل الفضيلة علينا فيلزم لذلك انتخاؤهم وتكبرهم ، ثم قال تعالى : ﴿ أم تسألهم ﴾ يا محمد على الإيمان بالله وشرعه أجرة يثقلهم غرمها فهم لذلك يكرهون الدخول فيما يوجب غرامتهم ثم قال تعالى : ﴿ أم عندهم ﴾ علم ﴿ الغيب ﴾ فهم يبينون ذلك للناس سنناً وشرعاً

يكتبونه وذلك عبادة الأوثان وتسييب السوائب وغير ذلك من سيرهم . وقيل المعنى : فهم يعلمون متى يموت محمد الذي يتربصون به ، و: ﴿ يكتبون ﴾ بمعنى يحكمون ، وقال ابن عباس : يعني أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون به . ثم قال تعالى : ﴿ أم يريدون كيداً ﴾ بك وبالشرع ، ثم جزم الخبر بأنهم ﴿ هم المكيدون ﴾ ، أي المغلوبون ، فسمى غلبتهم ﴿ كيداً ﴾ إذ كانت عقوبة الكيد . ثم قال تعالى : ﴿ أم لهم إله غير الله ﴾ يعصمهم ويمنعهم منهم ويدفع في صدر إهلاكهم . ثم نزه تعالى نفسه ﴿ عما يشركون ﴾ به من الأصنام والأوثان ، وهذه الأشياء التي وقفهم تعالى عليها حصرت جميع المعاني التي توجب الانتخاء والتكبر والبعد من الائتمار ، فوقفهم تعالى عليها أي ليست لهم ولا بقي شيء يوجب ذلك إلا أنهم قوم طاغون . وهذه صفة فيها تكسبهم وإيثارهم فيتعلق بذلك عقابهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(70/730)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾

"أَمْ" صلة زائدة والتقدير أخلقوا من غير شيء .

قال ابن عباس : من غير ربّ خلقهم وقدّرهم .

وقيل : من غير أمّ ولا أب ؛ فهم كالجماد لا يعقلون ولا تقوم للَّهِ عليهم حجة ؛ ليسوا كذلك !

أليس قد خُلِقوا من نطفة وعلقة ومضغة ؟ قاله ابن عطاء .

وقال ابن كيسان : أم خُلِقوا عبثاً وتُرِكوا سُدًى "مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ" أي لغير شيء ف"من" بمعنى اللام .

﴿ أَمْ هُمُ الخالقون ﴾ أي أيقولون إنهم خَلَقوا أنفسهم فهم لا يأتمرون لأمر الله وهم لا يقولون ذلك ، وإذا أقرّوا أن ثَمَّ خالقاً غيرهم فما الذي يمنعهم من الإقرار له بالعبادة دون الأصنام ، ومن الإقرار بأنه قادر على البعث .

﴿ أَمْ خَلَقُواْ السماوات والأرض ﴾ أي ليس الأمر كذلك فإنهم لم يخلقوا شيئاً ﴿ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴾ بالحق ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ أَم عندهم ذلك فيستغنوا عن الله ويُعرِضوا عن أمره .

وقال ابن عباس : خزائن ربك المطر والرزق .

وقيل : مفاتيح الرحمة .

وقال عكرمة : النبوة .

أي أفبأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة يضعونها حيث شاؤوا .

وضرب المثل بالخزائن ؛ لأن الخزانة بيت يهيأ لجمع أنواع مختلفة من الذخائر ؛ ومقدورات

الربّ كالخزائن التي فيها من كل الأجناس فلا نهاية لها .

﴿ أَمْ هُمُ المسيطرون ﴾ قال ابن عباس : المسلَّطون الجبّارون .

وعنه أيضاً : المبطلون .

وقاله الضحاك .

وعن ابن عباس أيضاً : أم هم المتولّون .

عطاء : أم هم أرباب قاهرون .

قال عطاء : يقال تسيطرت عليّ أي اتخذتني خَوَلاً لك .

وقاله أبو عبيدة .

وفي الصحاح : المسيطر والمصيطر المسلّط على الشيء ليُشرِف عليه ويتعهدَ أحوالَه ويكتب عمله ، وأصله من السَّطر ؛ لأن الكتاب يُسَطَّر والذي يفعله مُسَطِّر ومُسَيْطِر .

يقال سَيْطرتَ علينا .

(71/730)

ابن بحر : ﴿ أَمْ هُمُ المسيطرون ﴾ أي هم الحفظة ؛ مأخوذ من تسطير الكتاب الذي يحفظ ما كتب فيه ؛ فصار المسيطر ها هنا حافظاً ما كتبه الله في اللوح المحفوظ .

وفيه ثلاث لغات : الصاد وبها قرأت العامة ، والسين وهي قراءة ابن مُحيصِن وحُميد ومجاهد وقُنْبُل وهشام وأبي حَيْوة ، وبإشمام الصاد الزاي وهي قراءة حمزة كما تقدّم في ﴿ الصِّراط ﴾ [الفاتحة : 6] .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ أي أيدّعون أن لهم مُرتقىً إلى السماء ومصعداً وسبباً ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أي عليه الأخبارَ ويَصِلون به إلى علم الغيب ، كما يصل إليه محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الوحي .

﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بحجة بيّنة أن هذا الذي هم عليه حقّ .

والسُّلم واحد السلالم التي يرتقى عليها .

وربما سمي الغرز بذلك ؛ قال أبو الرُّبَيْس الثعلبي يصف ناقته :

مُطَارَةُ قَلْبٍ إن ثَنَى الرِّجْلَ رَبُّها . . .
بِسُلَّمِ غَرْزٍ في مُنَاخٍ يُعاجِلُه

وقال زهير :

ومَنْ هابَ أسبابَ المَنِيَّةِ يَلْقَها . . .
ولَوْ رَامَ أسبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ

وقال آخر :

تَجَنَّيت لي ذنباً وما إنْ جَنَيْتُه . . .

لِتَتَّخِذِي عُذْراً إلى الهَجْرِ سُلَّما

وقال ابن مُقبل في الجمع :

لا تُحْرِزُ المرءَ أَحْجاءُ البِلاَدِ ولاَ . . .

يُبْنَى له في السَّمَواتِ السَّلاَلِيمُ

الأحجاء النواحي مثل الأرجاء واحدها حَجّاً ورَجّاً مقصور .

ويروى : أعْناء البلاد ، والأعْناء أيضاً الجوانب والنواحي واحدها عِنْو بالكسر .

وقال ابن الأعرابي : واحدها عَناً مقصور .

وجاءنا أعناء من الناس واحدهم عِنْو بالكسر ، وهم قوم من قبائل شتَّى .

﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أي عليه ؛ كقوله تعالى : ﴿ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] أي عليها ؛ قاله الأخفش .

وقال أبو عبيدة : يستمعون به .

وقال الزجاج : أي ألهم كجبريل الذي يأتي النبيّ صلى الله عليه وسلم بالوحي .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُ البنات وَلَكُمُ البنون ﴾ سَفَّه أحلامهم توبيخاً لهم وتقريعاً .

أي أتضيفون إلى الله البنات مع أَنَفَتكم منهن ، ومن كان عقله هكذا فلا يُستبعد منه إنكار البعث .

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً ﴾ أي على تبليغ الرسالة .

﴿ فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ أي فهم من المغرم الذي تطلبهم به "مُثْقَلُونَ" مجهدون لما كلفتهم به .

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أي يكتبون للناس ما أرادوه من علم الغيوب .

وقيل : أي أم عندهم علم ما غاب عن الناس حتى علموا ما أخبرهم به الرسول من أمر القيامة والجنة والنار والبعث باطل .

وقال قتادة : لما قالوا نتربص به ريب المنون قال الله تعالى : ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب ﴾ حتى علموا متى يموت محمد أو إلى ما يؤول إليه أمره .

وقال ابن عباس : أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس بما فيه .

وقال القتبي : يكتبون يحكمون والكتاب الحكم ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ [الأنعام : 54] أي حكم ، وقوله عليه الصلاة والسلام : " والذي نفسي بيده لأحكمن بينكم بكتاب الله " أي بحكم الله .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ أي مكراً بك في دار النَّدْوة .

﴿ فالذين كَفَرُواْ هُمُ المكيدون ﴾ أي المكور بهم ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : 43] وذلك أنهم قتلوا ببدر .

﴿ أَمْ لَهُمْ إله غَيْرُ الله ﴾ يخلق ويرزق ويمنع .

﴿ سُبْحَانَ الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ نزّه نفسه أن يكون له شريك .

قال الخليل : كل ما في سورة "والطور" من ذِكر "أَمْ" فكلمة استفهام وليس بعطف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(73/730)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَنَعِيمٍ ﴾

أيْ فِي آية جناتٍ وأيِّ نعيمٍ عَلى أنَّ التنوينَ للتفخيمِ أوْ في جناتٍ ونعيمٍ مخصوصةٍ بالمتقينَ عَلى أنَّه للتنويعِ ﴿ فاكهين ﴾ ناعمينَ متلذذينَ ﴿ بِمَا ءاتاهم رَبُّهُمْ ﴾ وَقُرِىءَ فكهينَ وفاكهونَ على أنَّه الخبرُ والظرفُ لغوٌ متعلقٌ بالخبرِ أوْ خبرٌ آخرُ ﴿ ووقاهم رَبُّهُمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ عطفٌ عَلى آتاهُم عَلى أنَّ مَا مصدريةٌ أوْ عَلى خبرِ إنَّ ، أوْ حالٌ بإضمارِ قَدْ إمَّا منَ المستكن في الخبرِ أو في الحال وإمَّا من فاعلِ أَتي أوْ منْ مفعولِه أو منهُما ، وإظهارُ

الربّ في موقعِ الإضمارِ مضافاً إلى ضميرِهم للتشريفِ والتعليلِ ﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ أيْ يقالُ لَهُم كُلوا واشربُوا أكلاً وشرباً ﴿ هَنِيئاً ﴾ أوْ طعاماً وشراباً هنيئاً وهُو الذَّي لا تنغيصَ فيهِ ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بسببه أو بمقابلِته ، وقيلَ : الباءُ زائدةٌ ومَا فاعلُ هنيئاً أيْ هَناكُم مَا كنتُم تعملونَ أي جزاؤُه ﴿ مُتَّكِئِينَ على سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ مصطّفةٍ ﴿ وزوجناهم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ وقُرِىءَ بحورِ عينٍ على إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه بالتأويلِ المشهورِ وقُرِىءَ بعينٍ عينٍ ، والباءُ معَ أن التزويجَ مما يتعدى إلى مفعولينِ لما فيهِ من مَعْنى الوصلِ والإلصاقِ أو للسببيةِ إذْ المَعْنى صيَّرناهُم أزواجاً بسببهن فإنَّ الزوجيةَ لا تتحققُ بدونِ انضمامِهن إليهمْ وقولُه تعالَى : ﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ إلخ كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيانِ حالِ طائفةٍ من أهلِ الجنةِ إثرَ بيانِ حالِ الكُلِّ وهُم الذينَ شاركتْهم ذريتُهم في الإيمانِ وهُوَ مبتدأٌ خبرُه ألحقنا بهم وقولُه تعالَى : ﴿ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم ﴾ عطفٌ على آمنُوا وقيل : اعتراضٌ وقولُه تعالَى : ﴿ بإيمان ﴾ متعلقٌ بالاتّباعِ أيْ اتبعتْهم ذريتُهم بإيمانٍ في الجُملةِ قاصرٍ عن رتبةِ إيمانِ الآباءِ ، واعتبارُ هذا القيدِ للإيذانِ بثبوتِ الحكمِ في الإيمانِ الكاملِ أصالةً

لا إلحاقاً وقُرِىءَ ذرياتُهم للمبالغةِ في الكثرةِ وذِرياتهم بكسرِ الذالِ وقُرِىءَ وأتبعناهُم ذرياتِهم أي جعلناهُم تابعينَ لهم في الإيمانِ وقُرِىءَ أتبعْتُهم ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أيْ في الدرجةِ كما رُوِي أنَّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قالَ : " إنَّه تعالَى يرفعُ ذريةَ المؤمنِ في درجتِهِ وإنْ كانُوا دونَهُ لتقرَّ بهم عينُه ثم تلاَ هذهِ الآيةَ " ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهم ﴾ وما نقصنَا الآباءَ بهذا الإلحاقِ ﴿ مِّنْ عَمَلِهِم ﴾ منْ ثوابِ عملهم ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ بأنْ أعطينَا بعضَ مثوباتِهم أبناءَهُم فتنقصَ مثوبتُهم وتنحطَّ درجتُهم وإنما رفعناهُم إلى منزلتِهم بمحضِ التفضلِ والإحسانِ وقُرِىءَ أَلِتْنَاهُم بكسرِ اللامِ من أَلِتَ يأْلِتُ كعلِم يعلمَ والأولُ كضرَبَ يضرِبُ ولِتناهُم منْ لاَت يليتُ وآلتناهُم من آلَتَ يُؤْلِتُ ووَلَتْناهُم منْ وَلَتَ يَلِتُ والكلُّ بمَعْنى واحدٍ .

هَذا وقدْ قيلَ الموصولُ معطوفٌ على حُورٍ ، والمَعْنى قرنَّاهُم بالحورِ وبالذينَ آمنُوا أيْ بالرفقاءِ والجلساءِ منُهم فيتمتعونَ تارةً بملاعبةِ الحُورِ وأُخرى بؤانسةِ الإخوانِ المؤمنينَ .

(75/730)

وقولُه تعالَى واتبعتُهم عطفٌ على زوجناهُم وقولُه تعالى بإيمانٍ متعلقٌ بما بعدَهُ أي بسببِ إيمانٍ عظيمٍ رفيعِ المحلِّ وهو إيمانُ الآباءِ ألحقنا بدرجاتِهم ذريَّتهم وإنْ كانُوا لا يستأهلونَها تفضلاً عليهم وعلى آبائِهم ليتمَّ سرورُهم ويكملَ نعيمُهم أو بسببِ إيمانٍ دانِي المنزلةِ وهو

إيمانُ الذريةِ كأنه قيلَ : بشيءٍ من الإيمانِ لا يؤهلُهم لدرجةِ الآباءِ ألحقناهُم بهمْ ﴿ كُلُّ امرىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ قيلَ : هو فعيلٌ بمَعْنى مفعولٍ والمَعْنى كلُّ امرىءٍ مرهونٌ عندَ الله تعالى بالعملِ الصالحِ فإنْ عمِلَه فكَّه وإلا أهلكه وقيلَ : بمعنى الفاعلِ والمَعْنى كلُّ امرىءٍ بما كسبَ راهنٌ أيْ دائمٌ ثابتٌ وهَذا أنسبُ بالمقامِ فإن الدوامَ يقتضِي عدمَ المفارقةِ بينَ المرءِ وعمله ومن ضرورتِه أنْ لا ينقصَ من ثوابِ الآباءِ شيءٌ فالجملةُ تعليلٌ لما قَبْلها .

﴿ وأمددناهم بفاكهةٍ ولَحْمٍ مّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾

(76/730)

وزدناهُم عَلى ما كانَ لَهُم منْ مبادِي التنعمِ وقتاً فوقتاً ما يشتهونَ من فنونِ النعماءِ وألوانِ الآلاءِ ﴿ يتنازعونَ فِيهَا ﴾ أي يتعاطَون فيها هُم وجلساؤُهم بكمالِ رغبةٍ واشتياقٍ كما ينبىءُ عنه التعبيرُ عن ذلكَ بالتنازعِ ﴿ كَأْساً ﴾ أي خمراً تسميةً لَها باسمِ محلِّها ﴿ لاَّ لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أيْ في شُربِها حيثُ لا يتكلمونَ في أثناءِ الشربِ بلغوِ الحديثِ وسقَطِ الكلامِ ﴿ وَلاَ تَأْثِيمٌ ﴾ ولا يفعلونَ ما يؤثمُ به فاعلُه أي ينسبُ إلى الإثمِ لو فعَلَه في دارِ التكليفِ كما هو ديدنُ المنادمينَ في الدُّنيا وإنما يتكلمونَ بالحِكمِ وأحاسنِ الكلامِ ويفعلونَ ما يفعلُه الكرامُ ، وقرىءَ لا لغوَ فيها ولا تأثيمَ بالفتحِ ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي بالكأسِ ﴿ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ أي

مماليكُ مخصوصونَ بهم وقيلَ : هم أولادُهم الذين سبقوهُم ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ مصونٌ في الصَّدفِ من بياضِهم وصفائِهم أو مخزونٌ لأنه لا يخزنُ إلا الثمينُ الغالِي القيمةِ . قيلَ لقَتَادة : هذا الخادمُ فكيفَ المخدومُ ؟ فقالَ : قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيدِهِ إنَّ فضلَ المخدومِ على الخادمِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ . وعنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : إنْ أدنى أهلِ الجنةِ منزلةً منْ يُنادي الخادمَ من خدامِه فيجيبُهُ ألفٌ ببابِه لبيكَ لبيكَ ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ أيْ يسألُ كلٌّ بعضٍ منهم بعضاً آخرَ عنْ أحوالِه وأعمالِه فيكونُ كلٌّ بعضٍ سائلاً ومسؤولاً لا أنه يسألُ بعضٌ معينٌ منهم بعضاً آخرَ معيناً .

(77/730)

﴿ قَالُواْ ﴾ أي المسؤولونَ وهم كلٌّ واحدٍ في الحقيقةِ ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ ﴾ أي في الدُّنيا ﴿ فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أرقاءَ القلوبِ خائفينَ من عصيانِ الله تعالى معتنين بطاعتِه أو وجلين من العاقبةِ ﴿ فَمَنَّ الله عَلَيْنَا ﴾ بالرحمةِ أو التوفيقِ للحقِّ ﴿ ووقانا عَذَابَ السموم ﴾ عذابَ النارِ النافذةِ في المسامِّ نفوذَ السمومِ وقُرِئَ ووقَّانا بالتشديدِ ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أيْ نعبدُه أو نسألُه الوقايةَ ﴿ إِنَّهُ هُوَ البر ﴾ المحسنُ ﴿ الرحيم ﴾ الكثيرُ

الرحمةِ الذي إذا عُبدَ أثابَ وإذا سُئلَ أجابَ وقُرِيءَ أنَّه بالفتحِ بمَعْنى لأنَّه ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ فاثبُت على ما أنتَ عليهِ من التذكيرِ لما أُنزلَ إليك من الآياتِ والذكرِ الحكيمِ ولا تكترثْ بما يقولونَ مما لا خيرَ فيه من الأباطيل .

(78/730)

﴿ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ بحمدِه وإنعامِه بصدقِ النبوةِ ورجاحةِ العقلِ ﴿ بكاهن وَلاَ مَجْنُونٍ ﴾ كما يقولونَ قاتلهم الله أنَّي يُؤفكون ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ وهو ما يقلقُ النفوسَ ويشخصُ بها من حوادثِ الدهرِ وقيلَ : المنونُ الموتُ وهو في الأصلِ فَعُولٌ مَنَّه مَه إذا قطَعَه لأنَّ الموتَ قطوعٌ أي بل أيقولونَ ننتظرُ به نوائبَ الدهرِ ﴿ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُمْ مِّنَ المتربصين ﴾ أتربصُ هلاككُم كما تتربصونَ هلاكيَ وفيه عِدةٌ كريمةٌ بإهلاكِهم ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أحلامهم ﴾ أي عقولُهم ﴿ بهذا ﴾ أي بهذا التناقضِ في المقالِ فإن الكاهنَ يكونُ ذا فطنةٍ ودقةِ نظرٍ في الأمورِ والمجنونَ مُغطى عقلُه مختلٌّ فكرُهُ والشاعرَ ذُو كلامٍ موزونٍ متسقٍ مخيلٍ فكيفَ يجتمعُ أوصافُ هؤلاءِ في واحدٍ . وأمرُ الأحلامِ بذلكَ مجازٌ عن أدائِها إليهِ ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ مجاوزونَ الحدودَ في المكابرةِ والعنادِ لا يحومونَ حولَ الرشدِ والسَّدادِ ، ولذلك يقولونَ ما يقولونَ من الأكاذيبِ الخارجةِ عن دائرةِ

العقولِ والظنونِ وقُرِىءَ بَلْ هُمْ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ أي اختلقَهُ من تلقاءِ نفسِه ﴿ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ فلكفرهم وعنادِهم يرمونَ بهذه الأباطيل التي لا يخفى على أحدٍ بطلانُها ، كيف لا وما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلا واحدٌ من العربِ فكيف أتى بما عجزَ عنه كافةُ الأممِ من العربِ والعجمِ .

(79/730)

﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ مثلِ القرآنِ في النعوتِ التي استقلَّ بها من حيثُ النظمُ ومن حيثُ المَعْنى ﴿ إِن كَانُواْ صادقين ﴾ فيما زعمُوا فإنَّ صدقَهم في ذلكَ يستدعي قدرتَهم على الإتيانِ بمثله بقضيةِ مشاركتِهم لهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في البشريةِ والعربيةِ مع ما بهم من طولِ الممارسةِ للخطبِ والأشعارِ وكثرةِ المزاولةِ لأساليبِ النظمِ والنثرِ والمبالغةِ في حفظِ الوقائعِ والأيامِ ، ولا ريبَ في إن القدرةَ على الشيءِ منْ موجباتِ الإتيانِ به ودواعِي الأمرِ بذلكَ ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ أي أمْ أُحدِثُوا وقُدِّروا هذا التقديرَ البديعَ من غيرِ محدِثٍ ومقدِّرٍ ؟ وقيل : أم خُلقوا من أجلِ لا شيءٍ من عبادةٍ وجزاءٍ ﴿ أَمْ هُمُ الخالقون ﴾ لأنفسِهم فلذلك لا يعبدون الله سبحانَهُ ﴿ أَمْ خَلَقُواْ السموات والأرض بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴾ أي إذا سئلوا منْ خلقكم وخلق السمواتِ والأرضَ قالوا الله وهم غيرُ موقنينَ بما

قالُوا وإلا لما أعرضُوا عن عبادتِه ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ أي خزائنُ رزقِه ورحمتِه حتى يرزقُوا النبوةَ من شاءُوا ويُمسكوها عمَّن شاءُوا ، أو عندَهم خزائنُ علمِه وحكمتِه حتى يختارُوا لها من اقتضتِ الحكمةُ اختيارَهُ ﴿ أَمْ هُمُ المسيطرون ﴾ أي الغالبونَ على الأمورِ يدبرونَها كيفما شاءُوا حتى يدبروا أمرَ الربوبيةِ ويبنوا الأمورَ على إرادتِهم ومشيئتِهم ، وقُرِىءَ المصيطرونَ بالصادِ لمكانِ الطاءِ ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ منصوبٌ إلى السماءِ ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ صاعدينَ إلى كلامِ الملائكةِ وما يوحَى إليهم من علمِ الغيبِ حتى يعلمُوا ما هو كائنٌ من الأمورِ التي يتقوّلونَ فيها رجماً بالغيبِ ويعلقونَ بها أطماعَهُم الفارغةَ ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بسلطانٍ مُّبِينٍ ﴾ بحجةٍ واضحةٍ تصدّقُ استماعَه .

(80/730)

﴿ أَمْ لَهُ البنات وَلَكُمُ البنون ﴾ تسفيهٌ لهم وتركيكٌ لعقولِهم وإيذانٌ بأنَّ من هذا رأيُه لا يكادُ يعدُّ من العقلاءِ فضلاً عن الترقّي إلى عالمِ الملكوتِ والتطلعِ على الأسرارِ الغيبيةِ . والالتفاتُ إلى الخطابِ لتشديدِ ما في أمِ المنقطعةِ من الإنكارِ والتوبيخِ .

﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً ﴾ رجوعٌ إلى خطابِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وإعراضٌ عنْهُم أي بلْ أتسألُهم أجراً على تبليغِ الرسالةِ ﴿ فَهُمُ ﴾ لذلكَ ﴿ مّن مَّغْرَمٍ ﴾ من التزامِ غرامةٍ فادحةٍ

﴿ مُّثْقَلُونَ ﴾ محمّلونَ الثقلَ فلذلكَ لا يتبعونكَ .

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب ﴾

أي اللوحُ المحفوظُ المُثبَتُ فيه الغيوبُ ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ما فيه حتَّى يتكلمُوا في ذلكَ بنفيٍ أو إثباتٍ ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ هو كيدُهم برسولِ الله صلى الله عليه وسلم في دارِ الندوةِ ﴿ فالذين كَفَرُواْ ﴾ هم المذكورونَ ، ووضعُ الموصولِ موضعَ ضميرِهم للتسجيلِ عليهم بما في حيزِ الصلةِ من الكفرِ وتعليلِ الحكمِ به ، أو جميعُ الكفرةِ وهم داخلونَ فيهم دخولاً أولياً ﴿ هُمُ المكيدون ﴾ أي هُم الذينَ يحيقُ بهم كيدُهم أو يعودُ عليهم وبالُه لا مَنْ أرادُوا أنْ يكيدُوه وهو ما أصابَهُم يومَ بدرٍ أو هُم المغلوبونَ في الكيدِ من كايدتُه فكِدتُه ﴿ أَمْ لَهُمْ إله غَيْرُ الله ﴾ يعينُهم ويحرسُهم من عذابِه ﴿ سبحان الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أيْ عن إشراكِهم أو عن شركةِ ما يُشركونَهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 8 صـ ﴾

(81/730)

وقال الآلوسى :

﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾

أي أم أحدثوا وقدروا هذا التقدير البديع من غير مقدر وخالق ، وقال الطبري : المراد أم

خلقوا من غير شيء حي فهم لا يؤمرون ولا ينهون كالجمادات ، وقيل : المعنى أم خلقوا من غير علة ولا لغاية ثواب وعقاب فهم لذلك لا يسمعون ، و ﴿ مِنْ ﴾ عليه للسببية ، وعلى ما تقدم لابتداء الغاية والمعول عليه من الأقوال ما قدمنا ، وسيأتي إن شاء الله تعالى زيادة إيضاح له ، ويؤيده قوله سبحانه : ﴿ أَمْ هُمُ الخالقون ﴾ أي الذين خلقوا أنفسهم فلذلك لا يعبدون الله عز وجل ولا يلتفتون إلى رسوله صلى الله عليه وسلم إذ على القولين لا يظهر حسن المقابلة ، وإرادة خلقوا أنفسهم يشعر به قوله تعالى : ﴿ أَمْ خَلَقُواْ السموات والأرض ﴾ .

إذ لو أريد العموم لعدم ذكر المفعول لم يظهر حسن المقابلة أيضاً ، وقال ابن عطية : المراد أهم الذين خلقوا الأشياء فهم لذلك يتكبرون ثم خص من تلك الأشياء السموات والأرض لعظمهما وشرفهما في المخلوقات وفيه ما سمعته .

﴿ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴾ أي إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض ؟ قالوا : الله وهم غير موقنين بما قالوا إذ لو كانوا موقنين لما أعرضوا عن عبادته تعالى فإن من عرف خالقه وأيقن به امتثل أمره وانقاد له .

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ أي خزائن رزقه تعالى ورحمته حتى يرزقوا النبوة من شاءوا ، ويمسكوها عمن شاءوا ، وقال الرماني : خزائنه تعالى مقدوراته سبحانه ، وقال ابن عطية : المعنى أم عندهم الاستغناء عن الله تعالى عن جميع الأمور لأن المال والصحة

والعزة وغير ذلك من الأشياء من خزائن الله تعالى ، وقال الزهري : يريد بالخزائن العلم واستحسنه أبو حيان ، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يعلم حاله منه .

(82/730)

﴿ أَمْ هُمُ ﴾ الأرباب الغالبون حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم فالمسيطر الغالب ، وفي معناه قول ابن عباس : المسلط القاهر وهو من سيطر على كذا إذا راقبه وأقام عليه وليس مصغراً كما يتوهم ولم يأت على هذه الزنة إلا خمسة ألفاظ أربعة من الصفات ، وهي مهيمن .

ومسيطر .

ومبيقر .

ومبيطر ، وواحد من الأسماء ، وهو مجيمر اسم جبل ، وقرأ الأكثر ﴿ المصيطرون ﴾ بالصاد لمكان حرف الاستعلاء وهو الطاء ، وأشم خلف عن حمزة وخلاد عنه بخلاف الزاي .

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ هو ما يتوصل به إلى الأمكنة العالية فيرجى به السلامة ثم جعل اسماً لكل ما يتوصل به إلى شيء رفيع كالسبب أي أم لهم سلم منصوب إلى السماء .

﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أي صاعدين فيه على أن الجار والمجرور متعلق بكون خاص محذوف وقع حالاً والظرفية على حقيقتها ، وقيل : هو متعلق بيستمعون على تضمينه معنى الصعود .

وقال أبو حيان : أي يستمعون عليه أو منه إذ حروف الجر قد يسدّ بعضها مسدّ بعض ومفعول ﴿ يَسْتَمِعُونَ ﴾ محذوف أي كلام الله تعالى ، قيل : ولو نزل منزلة اللازم جاز ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بسلطان مُّبِينٍ ﴾ أي بحجة واضحة تصدق استماعه .

﴿ أَمْ لَهُ البنات وَلَكُمُ البنون ﴾ تسفيه لهم وتركيك لعقولهم ، وفيه إيذان بأن من هذا رأيه لا يكاد يعدّ من العقلاء فضلاً عن الترقي إلى عالم الملكوت وسماع كلام ذي العزة والجبروت والالتفات إلى الخطاب لتشديد الإنكار والتوبيخ .

(83/730)

﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً ﴾ أي على تبليغ الرسالة وهو رجوع إلى خطابه صلى الله عليه وسلم وإعراض عنهم ﴿ فَهُمُ ﴾ لأجل ذلك ﴿ مّن مَّغْرَمٍ ﴾ مصدر ميمي من الغرم والغرامة وهو كما قال الراغب ما ينوب الإنسان في ماله من ضرر لغير جناية منه ، فالكلام بتقدير مضاف أي من التزام مغرم ، وفسره الزمخشري بالتزام الإنسان ما ليس عليه فلا حاجة إلى

تقدير لكن الذي تقتضيه اللغة هو الأول ﴿ مُّثْقَلُونَ ﴾ أي محمولن الثقل فلذلك لا يتبعونك .

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب ﴾ أي اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ منه ويخبرون به الناس قاله ابن عباس وقال ابن عطية : أم عندهم علم الغيب فهم يثبتون ما يزعمون للناس شرعاً ، وذلك عبادة الأوثان وتسبيب السوائب وغير ذلك من سيرهم ، وقال قتادة : ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب ﴾ فهم يعلمون متى يموت محمد صلى الله عليه وسلم الذي يتربصون به ، وفسر بعضهم ﴿ يَكْتُبُونَ ﴾ بيحكمون .

(84/730)

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ بك وبشرعك وهو ما كان منهم في حقه صلى الله عليه وسلم بدار الندوة مما هو معلوم من السير ، وهذا من الإخبار بالغيب فإن قصة دار الندوة وقعت في وقت الهجرة وكان نزول السورة قبلها كما تدل عليه الآثار ﴿ فالذين كَفَرُواْ ﴾ هم المذكورون المريدون كيده عليه الصلاة والسلام ، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بما في حيز الصلة من الكفر وتعليل الحكم به ، وجوز أن يراد جميع الكفرة وهم داخلون فيه دخولاً أولياً ﴿ هُمُ المكيدون ﴾ أي الذين يحيق بهم كيدهم ويعود

عليهم وباله لا من أرادوا أن يكيدوه وكان وباله في حق أولئك قتلهم يوم بدر في السنة الخامسة عشر من النبوة قيل : ولذا وقعت كلمة ﴿ أَمْ ﴾ مكررة هنا خمس عشرة مرة للإشارة لما ذكر ، ومثله على ما قال الشهاب : لا يستبعد من المعجزات القرآنية وإن كان الانتقال لمثله خفي ومناسبته أخفى ، وجوز أن يكون المعنى هم المغلوبون في الكيد من كايدته فكدته ﴿ أَمْ لَهُمْ إله غَيْرُ الله ﴾ يعينهم ويحرسهم من عذابه عز وجل .

﴿ سبحان الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي عن إشراكهم على أن ما مصدرية ، أو عن شركة الذي يشركونه على أنها موصولة وقبلها مضاف مقدر والعائد محذوف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(85/730)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ .

إضراب انتقالي إلى إبطال ضرب آخر من شبهتهم في إنكارهم البعث ، وقد علمت في أول السورة أن من أغراضها إثبات البعث والجزاءِ على أن ما جاء بعده من وصف يوم الجزاء وحال أهله قد اقتضته مناسبات نشأت عنها تلك التفاصيل ، فإذْ وُفّي حقُّ ما اقتضته

تلك المناسبات ثُني عِنان الكلام إلى الاستدلال على إمكان البعث وإبطال شبهتهم التي تعللوا بها من نحو قولهم : ﴿ أإذا كنا عظاماً ورفاتاً إنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ [الإسراء : 49] .

فكان قوله تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء ﴾ الآيات أدلةً على أن ما خلقه الله من بَدْء الخلق أعظم من إعادة خلق الإِنسان .

وهذا متصل بقوله آنفاً ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ [الطور : 7] لأن شبهتهم المقصود ردها بقوله : ﴿ إن عذاب ربك لواقع هي قولهم : ﴿ أإذا كنا عظاماً ورفاتاً إنا لمبعوثون ﴾ [الإسراء : 49] ، ونحو ذلك .

فحرف (مِن) في قوله : ﴿ من غير شيء ﴾ يجوز أن يكون للابتداء ، فيكون معنى الاستفهام المقدر بعد (أم) تقريرياً .

والمعنى : أيقرُّون أنهم خلقوا بعد أن كانوا عَدماً فكلما خلقوا من عدم في نشأتهم الأولى يُنْشأون من عدم في النشأة الآخرة ، وذلك إثبات لإِمكان البعث ، فيكون في معنى قوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان ممَّ خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر ﴾ [الطارق : 5 8] وقوله : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ [الأنبياء : 104] ونحو ذلك من الآيات .

ومعنى ﴿ شيء ﴾ على هذا الوجه : الموجودُ فغير شَيء : المعدومُ ، والمعنى : اخُلقوا من عدم .

(86/730)

ويجوز أن تكون (مِن) للتعليل فيكون الاستفهام المقدر بعد (أم) إنكارياً ، ويكون اسم ﴿ شيء ﴾ صادقاً على ما يصلح لمعنى التعليل المستفاد من حرف (مِن) التعليلية ، والمعنى : إنكار أن يكون خلقهم بغير حكمة ، وهذا إثبات أن البعث واقع لأجل الجزاء على الأعمال ، بأن الجزاء مقتضى الحكمة التي لا يخلو عنها فعل أحكم الحكماء ، فيكون في معنى قوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ [المؤمنون : 115] وقوله : ﴿ ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية ﴾ [الحجر : 85] .

ولحرف (مِن) في هذا الكلام الوَقْع البديع إذ كانت على احتمال معنييها دليلاً على إمكان البعث وعلى وقوعه وعلى وجوب وقوعه وجوباً تقتضيه الحكمة الإلهية العليا .

ولعل العدول عن صوغ الكلام بالصيغة الغالبة في الاستفهام التقريري ، أعني صيغة النفي بأن يقال : أما خلقوا من غير شيء ؛ والعدولَ عن تعيين ما أضيف إليه ﴿ غَير ﴾ إلى

الإِتيان بلفظٍ مبهم وهو لفظ شيء ، روعي فيه الصلاحية لاحتمال المعنيين وذلك من منتهى البلاغة .

وإذ كان فرض أنهم خلقوا من غير شيء واضح البطلان لم يحتج إلى استدلال على إبطاله بقوله:

﴿ أَمْ هُمُ الخالقون * أَمْ خَلَقُواْ السماوات والأرض ﴾ .

وهو إضراب انتقال أيضاً ، والاستفهام المقدر بعد ﴿ أم ﴾ إنكاري ، أي ما هم الخالقون وإذ كانوا لم يدّعوا ذلك فالانكار مرتب على تنزيلهم منزلة من يزعمون أنهم خالقون .

وصيغت الجملة في صيغة الحصر الذي طريقهُ تعريف الجُزأَين قصراً إضافياً للرد عليهم بتنزيلهم منزلة من يزعم أنهم الخالقون لا الله ، لأنهم عدُّوا من المحال ما هو خارج عن قدرتهم ، فجعلوه خارجاً عن قدرة الله ، فالتقدير : أم هم الخالقون لا نحن .

والمعنى : نحن الخالقون لا هم .

(87/730)

وحذف مفعول ﴿ الخالقون ﴾ لقصد العموم ، أي الخالقون للمخلوقات وعلى هذا جرى الطبري وقدره المفسرون عدا الطبري : أم هم الخالقون أنفسَهم كأنهم جعلوا ضمير ﴿ أم

خلقوا من غير شيء ﴾ دليلاً على أن المحذوف اسم مَعاد ذلك الضمير ولا افْتراء في انتفاء أن يكونوا خالقين ، فلذلك لم يُتصدّ إلى الاستدلال على هذا الانتفاء .

وجملة ﴿ أم خلقوا السموات والأرض ﴾ يظهر لي أنها بدل من جملة ﴿ أم هم الخالقون ﴾ بدلَ مفصَّل من مُجمل إن كان مفعول ﴿ الخالقون ﴾ المحذوفُ مراداً به العمومُ وكان المراد بالسماء والأرضِ ذاتيهما مع من فيهما ، أو بَدل بعض من كل أن المراد ذاتي السماوات والأرض ، فيكون تخصيص السماوات والأرض بالذكر لعظم خلقهما .

وإعادة حرف ﴿ أم ﴾ للتأكيد كما يُعاد عامل المبدَل منه فِي البدل ، والمعنى : أم هم الخالقون للسماوات والأرض .

والاستفهام إنكاري والكلام كناية عن إثبات أن الله خالق السماوات والأرض .

والمعنى : أن الذي خلق السماوات والأرض لا يُعجزه إعادة الأجساد بعد الموت والفناء .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أن اللَّه الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ﴾ [الإسراء : 99] أي أن يخلق أمثال أجسادهم بعد انعدامهم .

﴿ بَل لاَّ يُوقِنُون ﴾ .

إضراب إبطال على مضمون الجملتين اللتين قبله ، أي لم يُخلقوا من غير شيء ولا خَلقوا السماوات والأرض ، فإن ذلك بينّ لهم فما إنكارهم البعث إلا ناشىء عن عدم إيقانهم في مظانّ الإِيقان وهي الدلائل الدالة على إمكان البعث وأنه ليس أغرب من إيجاد المخلوقات

العظيمة ، فما كان إنكارهم إياه إلا عن مكابرة وتصميم على الكفر .

والمعنى : أن الأمر لا هَذا ولا ذلك ولكنهم لا يُوقنون بالبعث فهم ينكرونه بدون حجة ولا شبهة بل رانَتْ المكابرة على قلوبهم .

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ .

(88/730)

انتقال بالعود إلى ردّ جحودهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولذلك غُيِّر أسلوب الأخبار فيه إلى مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم وكان الأصل الذي ركّزوا عليه جحودهم توهمَ أن الله لو أرسل رسولاً من البشر لكان الأحقُّ بالرسالة رجلاً عظيماً من عظماء قومهم كما حكى الله عنهم : ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ [ص : 8] وقال تعالى : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] يعنون قرية مكة وقرية الطائف .

والمعنى : إبطال أن يكون لهم تصرف في شؤون الربوبية فيجعلوا الأمور على مشيئتهم كالمالك في ملكه والمدبرِ فيما وُكل عليه ، فالاستفهام إنكاري بتنزيلهم في إبطال النبوءة عمن

لا يرضونه منزلة من عندهم خزائن الله يخلعون الخلع منها على من يشاؤون ويمنعون من يشاؤون .

والخزائن : جمع خزينة وهي البيت ، أو الصندوق الذي تخزن فيه الأقوات ، أو المال وما هو نفيس عند خازنه ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض ﴾ [يوسف : 55] .

وهي هنا مستعارة لما في علم الله وإرادته من إعطاء الغير للمخلوقات ، ومنه اصطفاء من هيّأهُ من الناس لتبليغ الرسالة عنه إلى البشر ، وقد تقدم في سورة الأنعام (50) قوله : ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن اللَّه ﴾ قال تعالى : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل اللَّه اللَّه أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ [الأنعام : 124] .

وقال : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان اللَّه وتعالى عما يشركون ﴾ [القصص : 68] .

وقد سُلك معهم هنا مسلك الإِيجاز في الاستدلال بإحالتهم على مجمل أجمله قوله : ﴿ أم عندهم خزائن ربك ﴾ ، لأن المقام مقام غضب عليهم لجرأتهم على الرسول صلى الله عليه وسلم في نفي الرسالة عنه بوقاحة من قولهم : كاهن ، ومجنون ، وشاعر إلخ بخلاف آية الأنعام فإنها ردّت عليهم تعريضهم أنفسهم لنوال الرسالة عن الله .

فقوله تعالى هنا : ﴿ أم عندهم خزائن ربك ﴾ هو كقوله في سورة ص (8 ، 9) ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ﴾ وقوله في سورة الزخرف (32) ﴿ أهم يقسمون رحمتَ ربك ﴾ وكلمة عند تستعمل كثيراً في معنى الملك والاختصاص كقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ [الأنعام : 59] ، فالمعنى : أيملكون خزائن ربك ، أي الخزائن التي يملكها ربك كما اقتضته إضافة ﴿ خزائن ﴾ إلى ﴿ ربك ﴾ على نحو ﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ [النجم : 35] .

وقد عبر عن هذا باللفظ الحقيقي في قوله تعالى : ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق ﴾ [الإسراء : 100] .

﴿ أَمْ هُمُ المسيطرون ﴾ .

إنكار لأن يكون لهم تصرف في عطاء الله تعالى ولو دون تصرف المالك مثل تصرف الوكيل والخازن وهو ما عبر عنه بالمصيطرون .

والمصيطر : يقال بالصاد والسين في أوله : اسم فاعل من صيطر بالصاد والسين ، إذا حفظ وتسلط ، وهو فعل مشتق من سيطر إذا قطع ، ومنه الساطور ، وهو حديدة يقطع بها اللحم والعظم .

وصيغ منه وزن فيعل للإلحاق بالرباعي كقولهم : بيقر ، بمعنى هلك أو تحضر ، وبيطر بمعنى شق ، وهيمن ، ولا خامس لها في الأفعال .

وإبدال السين صاداً لغة فيه مثل الصراط والسراط .

وقرأ الجمهور ﴿ المصيطرون ﴾ بصاد .

وقرأه قنبل عن ابن كثير وهشام عن ابن عامر ، وحفص في رواية بالسين في أوله .

وفي معنى الآية قوله تعالى : ﴿ أهم يقسمون رحمتَ ربك ﴾ [الزخرف : 32] ، وليس في الآية الاستدلال لهذا النفي في قوله : ﴿ أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون ﴾ لأن وضوحه كنار على عَلَم .

وقد تقدم في صدر تفسير هذه السورة حديث جبير بن مطعم لما سمع هذه الآية وكانت سبب إسلامه .

أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38)

(90/730)

لما نفى أن يكون لهم تصرف قوي أو ضعيف في مواهب الله تعالى على عباده أعقبه بنفي أن يكون لهم إطلاع على ما قدره الله لعباده إطلاعاً يخوّلهم إنكار أن يرسل الله بشراً أو

يوحي إليه وذلك لإِبطال قولهم : ﴿ تقوله ﴾ [الطور : 33] .

ومثل ذلك قولهم : ﴿ نتربص به ريب المنون ﴾ [الطور : 30] المقتضي أنهم واثقون بأنهم يشهدون هلاكه .

وحذف مفعول ﴿ يستمعون ﴾ ليعم كلاماً من شأنه أن يسمع من الأخبار المغيبة بالمستقبل وغيره الواقع وغيره .

وسلك في نفي علمهم بالغيب طريق التهكم بهم بإنكار أن يكون لهم سُلَّم يرتقون به إلى السماء ليستمعوا ما يجري في العالم العلوي من أمر تتلقاه الملائكة أو أهل الملأ الأعلى بعضهم مع بعض فيسترقوا بعض العلم مما هو محجوب عن الناس إذ من المعلوم أنه لا سُلّم يصل أهل الأرض بالسماء وهم يعلمون ذلك ويعلمه كل أحد .

وعُلم من اسم السُّلَّم أنه آلة الصعود ، وعلم من ذكر السماوات في الآية قبلها أن المراد سلم يصعدون به إلى السماء ، فلذلك وصف بـ ﴿ يستمعون فيه ﴾ أي يرتقون به إلى السماء فيستمعون وهم فيه ، أي في درجاته الكلامَ الذي يجري في السماء .

و ﴿ فيه ﴾ ظرف مستقر حال من ضمير ﴿ يستمعون ﴾ ، أي وهم كائنون فيه لا يفارقونه إذ لا يفرض أنهم ينزلون منه إلى ساحات السماء .

وإسناد الاستماع إلى ضمير جماعتهم على اعتبار أن المستمع سفير عنهم على عادة استعمال الكلام العربي من إسناد فعل بعض القبيلة إلى جميعها إذا لم تصده عن عمله في

قولهم : قتلت بنو أسد حُجْراً ، ألا ترى أنه قال بعد هذا ﴿ فليأت مستمعهم ﴾ ، أي من استمع منهم لأجلهم ، أي أرسلوه للسمع .

ومثل هذا الإِسناد شائع في القرآن وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ﴾ وما بعده من الآيات في سورة البقرة (49) .

(91/730)

و (في) للظرفية وهي ظرفية مجازية اشتهرت حتى ساوت الحقيقة لأن الراقي في السُّلَّم يكون كله عليه ، فالسلم له كالظرف للمظروف ، وإذ كان في الحقيقة استعلاء ثم شاع في الكلام فقالوا : صعد في السلم ، ولم يقولوا : صعد على السلم ولذلك اعتبرت ظرفية حقيقية ، أي حقيقة عرفية بخلاف الظرفية في قوله تعالى : ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ [طه : 71] لأنه لم يشتهر أن يقال : صلبه في جذع ، بل يقال : صلبه على جذع ، فلذلك كانت استعارة ، فلا منافاة بين قول من زعم أن الظرفية مجازية وقول من زعمها حقيقة .

والفاء في ﴿ فليأت مستمعهم بسلطان مبين ﴾ لتفريع هذا الأمر التعجيزي على النفي المستفاد من استفهام الإِنكار .

فالمعنى : فما يأتي مستمع منهم بحجة تدل على صدق دعواهم .

فلام الأمر مستعمل في إرادة التعجيز بقرينة انتفاء أصل الاستماع بطريق استفهام الإنكار .

والسلطان : الحجة ، أي حجة على صدقهم في نفي رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أو في كونه على وشك الهلاك .

والمراد بالسلطان ما يدل على إطلاعهم على الغيب من أمارات كأنْ يقولوا : آية صدقنا فيما ندعيه وسمعناه من حديث الملأ الأعلى ، أننا سمعنا أنه يقع غداً حادثٌ كذا وكذا مثلاً ، مما لا قبل للناس بعلمه ، فيقع كما قالوا ويتوسم منه صدقهم فيما عداه .

وهذا معنى وصف السلطان بالمبين ، أي المظهر لصحة الدعوى .

وهذا تحدَ لهم بكذبهم فلذلك اكتفى بأن يأتي بعضهم بحجة دون تكليف جميعهم بذلك على نحو قوله : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ [البقرة : 23] أي فليأت من يتعهد منهم بالاستماع بحجة .

وهذا بمنزلة التذييل للكلام على نحو ما تقدم في قوله : ﴿ قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ﴾ [الطور : 31] وقوله : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ [الطور : 34]

﴿ أَمْ لَهُ البنات وَلَكُمُ البنون ﴾ .

لما جرى نفي أن تكون لهم مطالعة الغيب من الملأ الأعْلى إبطالاً لمقالاتهم في شؤون الربوبية أعقب ذلك بإبطال نسبتهم لله بنات استقصاء لإِبطال أوهامهم في المغيبات من العالم العلوي ، فهذه الجملة معترض بين جملة ﴿ أم لهم سلم ﴾ [الطور : 38] وجملة ﴿ أم تسألهم أجراً ﴾ [الطور : 40] ، ويقدر الاستفهام إنكاراً لأن يكون لله البنات .

ودليل الإِنكار في نفس الأمر استحالة الولد على الله تعالى ولكن لمَّا كانت عقول أكثر المخاطبين بهذا الرد غيرَ مستعدة لإِدراك دليل الاستحالة ، وكان اعتقادهم البنات لله منكراً ، تُصدِّيَ لدليل الإِبطال وسُلِك في إبطاله دليل إقناعي يتفطنون به إلى خطل رأيهم وهو قوله : ﴿ ولكم البنون ﴾ .

فجملة ﴿ ولكم البنون ﴾ في موضع الحال من ضمير الغائب ، أي كيف يكون لله البنات في حال أن لكم بنين وهم يعلمون أن صنف الذكور أشرف من صنف الإِناث على الجملة كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ [النجم : 21 ، 22] .

فهذا مبالغة في تشنيع قولهم فليس المراد أنهم لو نسَبوا لله البنين لكان قولهم مقبولاً لأنهم لم يقولوا ذلك فلا طائل تحت إبطاله .

وتغيير أسلوب الغيبة المتبع ابتداء من قوله : ﴿ أم يقولون شاعر ﴾ [الطور : 30] إلى

أسلوب الخطاب التفات مكافحة لهم بالرد بجملة الحال .

وتقديم ﴿ لكم ﴾ على ﴿ البنون ﴾ لإفادة الاختصاص ، أي لكم البنون دونه فهم لهم بنون وبنات ، وزعموا أن الله ليس له إلا البنات .

وأما تقديم المجرور على المبتدأ في قوله : ﴿ أم له البنات ﴾ فللاهتمام باسم الجلالة وقد أنهي الكلام بالفاصلة لأنه غرض مستقل .

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40)

(93/730)

هذا مرتبط بقوله : ﴿ أم يقولون تقوله ﴾ [الطور : 33] وقوله : ﴿ أم عندهم خزائن ربك ﴾ [الطور : 37] إذ كل ذلك إبطال للأسباب التي تحملهم على زعم انتفاء النبوءة عن محمد صلى الله عليه وسلم فبعد أن أبطل وسائل اكتساب العلم بما زعموه عاد إلى إبطال الدواعي التي تحملهم على الإعراض عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ولأجل ذلك جاء هذا الكلام على أسلوب الكلام الذي اتصل هُو به ، وهو أسلوب خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال هنا : ﴿ أم تسألهم أجراً ﴾ وقال هنالك : ﴿ أم عندهم خزائن ربك ﴾ [الطور : 37] .

والاستفهام المقدر بعد ﴿ أم ﴾ مستعمل في التهكم بهم بتنزيلهم منزلة من يتوجس خيفة من أن يسألهم الرسول صلى الله عليه وسلم أجراً على إرشادهم .

والتهكم استعارة مبنية على التشبيه ، والمقصود ، ما في التهكم من معنى أن ما نشأ عنه التهكم أمر لا ينبغي أن يخطر بالبال .

وجيء بالمضارع في قوله : ﴿ تسألهم ﴾ لإِفادة التجدد ، أي تسألهم سؤالاً متكرراً لأن الدعوة متكررة ، وقد شبهت بسؤال سائل .

وتفريع ﴿ فهم من مغرم مثقلون ﴾ لما فيه من بيان الملازمة بين سؤال الأجر وبين تجهّم من يسأل والتحرج منه .

وقد فرع قوله : ﴿ فهم من مغرم مثقلون ﴾ على الفعل المستفهم عنه لا على الاستفهام ، أي ما سألتهم أجراً فيثقل غُرمه عليهم ، لأن الاستفهام في معنى النفي ، والإِثقال يتفرع على سؤال الأجر المفروضِ لأن مجرد السؤال محرج للمسؤول لأنه بين الإِعطاء فهو ثقيل وبين الرد وهو صعب .

والمَغرم بفتح الميم مصدر ميمي ، وهو الغُرم .

وهو ما يفرض على أحد من عوض يدفعه .

والمثقَل : أصله المحمَّل بشيء ثقيل ، وهو هنا مستعار لمن يطالب بما يعسر عليه أداؤه ،

شبه طلبه أداء ما يعسر عليه بحمل الشيء الثقيل على من لا يسهل عليه حمله .

و﴿ مِن ﴾ للتعليل ، أي مثقلون من أجل مغرم حُمل عليهم .

(94/730)

والمعنى : أنك ما كلفتهم شيئاً يعطونه إياك فيكونَ ذلك سبباً لإِعْراضهم عنك تخلصاً من أداء ما يطلب منهم ، أي انتفى عذر إعراضهم عن دعوتك .

أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41)

هذا نظير الإِضراب والاستفهام في قوله : ﴿ أن عندهم خزائن ربك ﴾ [الطور : 37] ، أي بل أعندهم الغيب فهم يكتبون ما يجدونه فيه ويروونه للناس ؟ أي ما عندهم الغيب حتى يكتبوه ، فبعد أن رد عليهم إنكارهم الإِسلام بأنهم كالذين سألهم النبي صلى الله عليه وسلم أجراً على تبليغها أعقبه برد آخر بأنهم كالذين أطلعوا على أن عند الله ما يخالف ما ادَّعى الرسول صلى الله عليه وسلم إبلاغه عن الله فهم يكتبون ما أطلعوا عليه فيجدونه مخالفاً لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم

قال قتادة : لما قالوا : ﴿ نتربص به ريب المنون ﴾ [الطور : 30] قال الله تعالى : ﴿ أم عندهم الغيب ﴾ أي حتى علموا متى يموت محمد ، أو إلى ما يؤول إليه أمره فجعله راجعاً

إلى قوله : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ [الطور : 30] .

والوجه ما سمعتَه آنفاً .

والغيب هنا مصدر بمعنى الفاعل ، أي ما غاب عن علم الناس .

والتعريف في ﴿ الغيب ﴾ تعريف الجنس وكلمة (عند) تؤذن بمعنى الاختصاص والاستئثار ، أي استأثروا بمعرفة الغيب فعلموا ما لم يعلمه غيرهم .

والكتابة في قوله : ﴿ فهم يكتبون ﴾ يجوز أنها مستعارة للجزم الذي لا يقبل التخلف كقوله : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ [الأنعام : 54] لأن شأن الشيء الذي يراد تحقيقه والدوام عليه أن يكتب ويسجل ، كما قال الحارث بن حلزة:

وهل ينقض ما في المهارق الأهواء . . .

فيكون الخبر في قوله : ﴿ فهم يكتبون ﴾ مستعملاً في معناه من إفادة النسبة الخبرية .

(95/730)

ويجوز أن تكون الكتابة على حقيقتها ، أي فهم يسجلون ما أطلعوا عليه من الغيب ليبقى معلوماً لمن يطلع عليه ويكون الخبر من قوله : ﴿ فهم يكتبون ﴾ مستعملاً في معنى الفرض والتقدير تبعاً لفرض قوله : ﴿ عندهم الغيب ﴾ ، ويكون من باب قوله تعالى : ﴿ أعنده

علم الغيب فهو يرى ﴾ [النجم : 35] وقوله : ﴿ وقال لأوتين مالاً وولداً أطلع الغيب ﴾ [مريم : 77 ، 78] .

وحاصل المعنى : أنهم لا قبل لهم بإنكار ما جحدوه ولا بإثبات ما أثبتوه .

أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42)

انتقال من نقض أقوالهم وإبطال مزاعمهم إلى إبطال نواياهم وعزائمهم من التبيت للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ولدعوة الإِسلام من الإِضرار والإِخفاق وفي هذا كشف لسرائرهم وتنبيه للمؤمنين للحذر من كيدهم .

وحذف متعلِّق ﴿ كيداً ﴾ ليعم كل ما يستطيعون أن يكيدوه فكانت هذه الجملة بمنزلة التتميم لنقض غزلهم والتّذييل بما يعم كل عزم يجري في الأغراض التي جرت فيها مقالاتهم .

والكيد والمكر متقاربان وكلاهما إظهار إخفاء الضر بوجوه الإِخفاء تغريراً بالمقصودِ له الضُرُّ .

وعدل عن الإِضمار إلى الإِظهار في قوله : ﴿ فالذين كفروا هم المكيدون ﴾ وكان مقتضى الظاهر أن يقال فهم المكيدونِ لما تؤذن به الصلة من وجه حلول الكيد بهم لأنهم كفروا بالله ، فالله يدافع عن رسوله صلى الله عليه وسلم وعن المؤمنين وعن دينه كيدهم ويوقعهم فيما نووا إيقاعهم فيه .

وضمير الفصل أفاد القصر ، أي الذين كفروا المكيدون دون من أرادوا الكيد به .

وإطلاق اسم الكيد على ما يجازيهم الله به عن كيدهم من نقض غزلهم إطلاقٌ على وجه المشاكلة بتشبيه إمهال الله إياهم في نعمة إلى أن يقع بهم العذاب بفعل الكائد لغيره ، وهذا تهديد صريح لهم ، وقد تقدم قوله : ﴿ ويمكرون ويمكر اللَّه واللَّه خير الماكرين ﴾ في سورة الأنفال (30) .

(96/730)

ومن مظاهر هذا التهديد ما حلّ بهم يوم بدر على غير ترقب منهم .

والقول في تفريع ﴿ فالذين كفروا هم المكيدون ﴾ كالقول في تفريع قوله : ﴿ فهم من مغرم مثقلون ﴾ [الطور : 40] .

أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43)

هذا آخر سهم في كنانة الرد عليهم وأشد رمي لشبح كفرهم ، وهو شبح الإِشراك وهو أجمع ضلال تنضوي تحته الضلالات وهو إشراكهم مع الله آلهة أخرى .

فلما كان ما نُعي عليهم من أول السورة ناقضاً لأقوالهم ونواياهم ، وكان ما هم فيه من الشرك أعظم لم يترك عَد ذلك عليهم مع اشتهاره بعد استيفاء الغرض المسوق له الكلام بهذه المناسبة ، ولذلك كان هذا المنتقل إليه بمنزلة التذييل لما قبله لأنه ارتقاء إلى الأهم في نوعه

والأهم يشبه الأعم فكان كالتذييل ، ونظيره في الارتقاء في كمال النوع قوله تعالى : ﴿ فك رقبة أو إطعام إلى قوله : ثم كان من الذين آمنوا ﴾ [البلد : 13 17] الآية .

وقد وقع قوله : ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ إتماماً للتذييل وتنهية المقصود من فضح حالهم .

وظاهر أن الاستفهام المقدر بعد ﴿ أم ﴾ استفهام إنكاري .

واعلم أن الآلوسي نقل عن "الكشف على الكشاف" كلاماً في انتظام الآيات من قوله تعالى : ﴿ يقولون شاعر ﴾ إلى قوله : ﴿ أم لهم إله غير الله ﴾ فيه نُكتٌ وتدقيق فانظره .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(97/730)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الثقل)

اعلم أَنَّ الثِّقَل والخفَّة متقابلان .

فكلّ ما يترجّح على ما يوزَن أَو يقدّر به يقال : هو ثقيل .

وأَصله فى الأَجسام ، ثمّ يقال فى المعانى ؛ نحو أَثْقَلَهُ الغُرْم والوِزْر .

قال تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ .

والثقيل يستعمل تارة فى الذَّمِّ ، وهو أَكثر فى التَّعارف ، وتارة فى المدح ؛ نحو قول الشاعر :

*تَخِفُّ الأَرْضُ إِمَّا بِنْتَ عنها * وتبقى ما بقيت بها ثقيلاَ*

*حَلَلت بمستقرّ العِزَّ منها * فتمنع جانبَيْهَا أَن يميلاَ*

ويقال : فى أُذنه ثِقَل إذا لم يَجُدْ سمعُه ، كما يقال : فى أُذنه خِفَّة إذا جاد سمعه ، كأَنه يثْقُل عن قبول ما يُلْقى إليه .

وقد يقال : ثَقُل القول إذا لم يطِبْ سماعُه .

وكذلك قال تعالى فى وصفه القيامة ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ قيل : كنوزها .

وقيل : ما تضمّنته من أَجساد الأَموات ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ أَى أَحمالكم الثقيلة وقوله ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ أَى آثامهم الَّتى تثبّطهم وتثقّلهم عن الثواب .

وقوله تعالى : ﴿ انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً ﴾ أَى شَبَاباً وشيوخاً ، أَو فقراء وأَغنياء .

وقيل : عَزَباً ومتأَهّلاً .

وقيل : نِشَاطاً وكُسَالَى .

وكلّ ذلك يدخل فى عمومها ؛ فإِنَّ القصد بالآية الحثّ على النَّفْر على كلّ حال يسهل أَو

يصعب .

وقوله تعالى : ﴿ فأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ الآيتين ، إِشارةٌ إِلى كثرة الخيرات وقلَّتها .

والثَّقَلان : الإِنس والجنّ لكثرتهم .

والثقيل والخفيف يستعملان على وجهين :

(98/730)

أَحدهما : على سبيل المضايفة وهو أَلاَّ يقال : الشئ ثقيل أَو خفيف إِلاَّ باعتباره بغيره ولهذا يصحّ للشئِ الواحد أَن يقال له : خفيف إِذا اعتُبر به ما هو أَثقل منه ، وثقيل إِذا اعتبر به ما هو أَخفُّ منه .

والثَّانى : أَن يستعمل الثقيل فى الأَجسام المُرجَحِنّة إِلى أَسفل كالحجر والمَدَر ، والخفيفُ فى الأَجسام المائلة إِلى الصّعُودِ كالنَّار والدُّخَان .

ومن هذا قوله تعالى ﴿ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 334.335 ﴾

(99/730)

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (44) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (46) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (47) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (49) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير تسكيناً لقلب من يريد إجابتهم إلى الآيات المقترحات طمعاً في إيمانهم : فلقد تلونا عليهم في هذه السورة وغيرها من الآيات ، وخلونا من المعجزات البينات ، وأتينا من تناقضهم في هذه التقسيمات ، بما يهد الجبال الشامخات ، وبينا من فضائحهم بحسن سوقها وحلاوة ذوقها ، وصحة معانيها وإحكام مبانيها ، ما يزلزل الراسيات ، ويحل العزمات ، ويفرج الأزمات ، ويصد ذوي المروات عن أمثال هذه النقائص الفاضحات ، لما لها من الأدلة الواضحات ، ولكنهم لما ألزمناهم به من العكس لا يؤمنون ، وكدناهم بما أعمينا من بصائرهم فهم لا يعلمون أنهم المكيدون ، عطف عليه قوله : ﴿ وإن يروا ﴾ أي معاينة ﴿ كسفاً ﴾ قطعة ، وقيل : قطعاً واحدتها كسفة مثل سدرة وسدر ﴿ من

السماء ﴿ نهاراً جهاراً ﴿ ساقطاً يقولوا ﴾ لدداً وتجلداً في البغي إصراراً ، وتعلقهم بما أمكنهم من الشبه تخييلاً على العقول وإيقافاً لذوي الآراء والفهوم دأب الأصيل في نصر الباطل ومكابرة الحق لما لهم من العراقة في عمى القلوب بما لنا من القدرة على صرفهم عن وجوه الأمر : هذا ﴿ سحاب ﴾ فإن قيل لهم : هو مخالف للسحاب بصلابته ، قالوا : ﴿ مركوم ﴾ أي تراكم بعضه على بعض فتصلب ، ولذلك سبب عن هذا الحال الدال على أنهم وصلوا في عمى البصائر إلى أنه لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون ، قوله لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن تبعه : ﴿ فذرهم ﴾ أي اتركهم على شر أحوالهم ﴿ حتى يلاقوا ﴾ سعياً بسوء أعمالهم ﴿ يومهم ﴾ كما أنه هو يسعى إليهم لاستحقاقهم لما فيه ﴿ الذي فيه ﴾ لا في غيره لأن ما حكمنا به لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ يصعقون ﴾ بالموت من شدة الأهوال وعظيم الزلزال كما صعق بنو إسرائيل في الطور ، ولكنا لا نقيمهم كما أقمنا أولئك إلا عند النفخ في الصور لنحشرهم إلى الحساب الذي يكذبون به ، والظاهر أن هذا اليوم يوم بدر فإنهم كانوا قاطعين بالنصرة فيها فما أغنى أحد منهم عن أحد شيئاً كما قال أبو سفيان بن الحارث : ما هو إلا

أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ويأسروننا كيف شاؤوا .

﴿ يوم لا يغني ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ عنهم كيدهم ﴾ الذي يرمونه بهذه الأقوال المتناقضة ﴿ شيئاً ﴾ أي من الإغناء في دفع شيء يكرهونه من الموت ولا غيره كما يظنون أنه يغني عنهم في غير ذلك من أحوال هذه الدار بتثبيط الناس عن اتباع القرآن بما يصفونه به من البهتان ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي لا يتجدد لهم نصر من أحد ما في ساعة ما .

ولما أفهم هذا الكلام السابق أن التقدير : فإن لكل ظالم في ذلك اليوم عذاباً لا يحيط به الوصف ، فإن الإصعاق من أشد ما يكون من العذاب ، عطف عليه قوله مؤكداً لما لهم من الإنكار أي ينصر عليهم المؤمنون وهم من الكثرة والقوة بحيث لا مطمع فيهم لأحد لا سيما لمن هم مثل في الضعف والقلة ﴿ وإن ﴾ وكان الأصل لهم ، ولكنه أظهر تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف فقال : ﴿ للذين ظلموا ﴾ أي أوقعوا الأشياء في غير مواقعها كما يقولونه في القرآن ، ويفعلونه من العصيان ويعتقدون من الشرك والبهتان ﴿ عذاباً دون ذلك ﴾ أي غير عذاب ذلك اليوم الصعب المرير ، أو أدنى رتبة منه ، إن كان المراد بالعصق ما يكون بعد البعث فبعذاب البزرخ في القبور ، وإن كان المراد به الموت فيما يلقونه في الدنيا من عذابي بواسطتكم مثل تحيزكم إلى الأنصار في دار الهجرة ومعدن النصرة وصيرورتكم في القوة بحيث تناصبونهم الحرب ، وتعاطونهم الطعن والضرب ، فتكونوا بعد أن كنتم طوع أيديهم قذى في أعينهم وشجاً في حلوقهم ودحضاً لأقدامهم ونقضاً لإبرامهم ، ومثل القحط

الذي حصل لهم والسرايا التي لقيتموها فيها مثل سرية حمزة أسد الله وأسد رسوله ، وعبيدة بن الحارث وعبيد الله بن جحش التي كانت مقدمة لغزوة بدر .

(101/730)

ولما كان بعضهم يبصر هذا مثل عتبة بن ربيعة والوليد بن مغيرة والنضر بن الحارث ويقولون : والله ما هو شاعر ولا كاهن ولا ساحر ولا مجنون ، وليكونن لقوله الذي يقول نبأ ، قال : ﴿ ولكن أكثرهم ﴾ بسبب ما يرون من كثرتهم وحسن حالهم في الدنيا وقوتهم ﴿ لا يعلمون ﴾ أي يتجدد لهم علم بتقويتكم عليهم لأنهم لا علم لهم أصلاً حتى يروا ذلك معاينة .

ولما كان العلم المحيط من الملك القاهر أعظم مسل للولي وأكبر مخيف للعدو ، قال عاطفاً على ﴿ فذرهم ﴾ أو على ما تقديره : فكن أنت العلماء بذلك ليكون فيه لك أعظم تسلية : ﴿ واصبر ﴾ أي أوجد هذه الحقيقة لتصبر على ما أنت فيه من أداء الرسالة وما لها من الكلف من أذى الناس وغيره ولكونه في مقام الإعراض عن الكفار وكون إعراضه عنهم أصعب عليه من مقاساة إنذاره وإن نشأ عنها تكذيبهم واستهزاؤهم ، اشتدت العناية هنا بالصبر فقدم ، وأيضاً فإن الإعراض عنهم مقتض لعدهم فانين ، وذلك هو مقام الجمع ،

والجمع لا يصلح إلا بالفرق ، فلذلك قدم الأمر بالصبر ، وذكر الحكم إشارة إلى أنه متمكن في مقام الفرق كما أنه عريق في مقام الجمع بخلاف المدثر ، فإن سياقها للإنذار الناشىء عنه غاية الأذى فاشتدت العناية هناك بتقديم ذكر الإله نظراً إلى الفناء عن الفانين وإن كان مباشراً لدعائهم ، وعبر بما يذكر بحسن التربية زيادة في التعزية فاقتضى هذا السياق أن رغبه سبحانه بقوله : ﴿ لحكم ربك ﴾ أي المحسن إليك فإنه هو المريد لذلك ولو لم يرده لم يكن شيء منه ، فهو إحسان منه إليك وتدريب لك وترقية في معارج الحكم ، وسبب عن ذلك قوله لما يغلب على الطبع البشري في بعض أوقات الامتحان من نوع نسيان : ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ جمع لما اقتضته نون العظمة التي هذا سياقها ، وهي ظاهرة في الجمع وإشارة إلى أنه محفوف بالجنود الذين رؤيتهم من رؤيته سبحانه فهو مكلوء مرعى به وبجنوده وفاعل في حفظه فعل من له أعين محيطة بمحفظه من كل جهة من جهاته .

(102/730)

ولما كانت الطاعة أعظم ناصر وأكبر معز ، وكانت الصلاة أعظمها قال : ﴿ وسبح ﴾ أي أوقع التنزيه عن شائبة كل نقص بالقلب واللسان والأركان ، متلبساً ﴿ بحمد ربك ﴾ أي المحسن إليك ، فأثبت له كل كمال مع تنزيهه له عن كل نقص ، فلا يكون في ملكه ما لا يريد ولا

يريد إلا ما هو حكمة بالغة ﴿ حين تقوم ﴾ أي من الليل في جميع الأوقات التي هي مظنة القيام على الأمور الدنيوية والأشغال النفسانية ، وهي أوقات النهار الذي هو للانتشار بصلاة الصبح والظهر والعصر ، وتحتمل العبارة التسبيح عند كل قيام بكفارة المجلس وهو " سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله أنت أستغفرك وأتوب إليك " فإنها تكفر ما كان في المجلس – كما رواه أبو داود والترمذي وقال : حسن صحيح غريب والنسائي وابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ ومن الليل ﴾ الذي هو محل السكون والراحة ﴿ فسبحه ﴾ كذلك بالنية والقول كلما انتبهت وبالفعل بصلاة المغرب والعشاء وصلاة الليل ، ولتعظيمه صرح بذلك وقدمه على الفعل ، والضمير يعود على المضاف إليه ، وأشار إلى التهجد بعد دخوله فيما قبله بقوله :

﴿ وإدبار النجوم ﴾ أي وسبحه في وقت إدبارهم أي إذا أدبرت ، وذلك من آخر الليل في نصفه الثاني : وكلما قارب الفجر كان أعلى وبالإجابة أولى ، وإلى قرب الفجر تشير قراءة الفتح جمع دابر أي في أعقابها عند خفائها أو أفولها ، وذلك بصلاة الفجر سنة وفرضاً أحق وأولى لأنه وقت إدبارها حقيقة ، فصارت عبادة الصبح محثوثاً عليها مرتين تشريفاً لها وتعظيماً لقدرها فإن ذلك ينجي من العذاب الواقع ، وينصر على العدو الدارع ، من المجاهر المدافع ، والمنافق المخادع ، وقد رجع آخرها على أولها ، ومقطعها على موصلها

، بحلول العذاب على الظالم ، وبعده عن الطائع السالم – والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 309 . 311 ﴾

(103/730)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (44) ﴾

(104/730)

وجه الترتيب فيه هو أنه تعالى لما بيّن فساد أقوالهم وسقوطها عن درجة الاعتبار أشار إلى أنه لم يبق لهم شيء من وجه الاعتذار ، فإن الآيات ظهرت والحجج تميزت ولم يؤمنوا ، وبعد ذلك ﴿ يَرَوْا كِسْفاً مّنَ السماء ساقطا يَقُولُواْ سحاب ﴾ أي ينكرون الآية لكن الآية إذا أظهرت في أظهر الأشياء كانت أظهر ، وبيانه هو أن من يأتي بجسم من الأجسام من بيته وادعى فيه أنه فعل به كذا فربما يخطر ببال السامع أنه في بيته ولما يبدعه ، فإذا قال للناس

هاتوا جسماً تريدون حتى أجعل لكم منه كذا يزول ذلك الوهم ، لكن أظهر الأشياء عند الإنسان الأرض التي هي مهده وفرشه ، والسماء التي هي سقفه وعرشه ، وكانت العرب على مذهب الفلاسفة في أصل المذهب ، ولا يلتفت إلى قول الفلسفي نحن ننزه غاية التنزيه حتى لا نجوز رؤيته واتصافه بوصف زائد على ذاته ليكون واحداً في الحقيقة ، فكيف يكون مذهبنا مذهب من يشرك بالله صنماً منحوتاً ؟ نقول أنتم لما نسبتم الحوادث إلى الكواكب وشرعتم في دعوة الكواكب أخذ الجهال عنكم ذلك واتخذوه مذهباً وإذا ثبت أن العرب في الجاهلية كانت في الأصل على مذهب الفلاسفة وهم يقولون بالطبائع فيقولون الأرض طبعها التكوين والسماء طبعها يمنع الانفصل والانفكاك ، فقال الله تعالى رداً عليهم في مواضع ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السماء ﴾ [سبأ : 9] إبطالاً للطبائع وإيثاراً للاختيار في الوقائع ، فقال ههنا إن أتينا بشيء غريب في غاية الغرابة في أظهر الأشياء وهو السماء التي يرونها أبداً ويعلمون أن أحداً لا يصل إليها ليعدد بالأدوية وغيرها ما يجب سقوطها لأنكروا ذلك ، فكيف فيما دون ذلك من الأمور ، والذي يؤيد ما ذكرناه وأنهم كانوا على مذهب الفلاسفة في أمر السماء أنهم قالوا ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السماء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً ﴾ [الإسراء : 92] أي ذلك في زعمك ممكن ، فأما عندنا فلا ،

والكسفة القطعة يقال كسفة من ثوب أي قطعة ، وفيه مباحث :

البحث الأول : استعمل في السماء لفظة الكسف ، واللغويون ذكروا استعمالها في الثوب لأن الله تعالى شبه السماء بالثوب المنشور ، ولهذا ذكره فيما مضى فقال : ﴿ والسماوات مطويات ﴾ [الزمر : 67] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى السماء ﴾ [الأنبياء : 104] .

البحث الثاني : استعمل الكسف في السماء والخسف في الأرض فقال تعالى : ﴿ نَخْسِفْ بِهِمُ الأرض ﴾ [سبأ : 9] وهو يدل على قول من قال يقال في القمر خسوف ، وفي الشمس كسوف ووجهه أن مخرج الخاء دون مخرج الكاف ومخرج الكاف فوقه متصل به فاستعمل وصف الأسفل للأسفل والأعلى للأعلى ، فقالوا في الشمس والسماء الكسوف والكسف ، وفي القمر والأرض الخسوف والخسف ، وهذا من قبيل قولهم في الماتح والمايح إن ما نقطه فوق لمن فوق البئر وما نقطه من أسفل عند من يجوز نقطه من أسفل لمن تحت في أسفل البئر .

البحث الثالث : قال في السحاب ﴿ ويجعله كسفاً ﴾ [الروم : 48] مع أنه تحت القمر ، وقال في القمر ﴿ وانشق القمر ﴾ [القيامة : 8] وذلك لأن القمر عند الخسوف له نظير فوقه وهو الشمس عند الكسوف والسحاب اعتبر فيه نسبته إلى أهل الأرض حيث ينظرون إليه ، فلم يقل في القمر خسف بالنسبة إلى السحاب وإنما قيل ذلك بالنسبة إلى

الشمس وفي السحاب قيل بالنسبة إلى الأرض .

المسألة الثانية :

ساقطاً يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون مفعولاً ثانياً يقال رأيت زيداً عالماً وثانيهما : أن يكون حالاً كما يقال ضربته قائماً ، والثاني أولاً لأن الرؤية عند التعدي إلى مفعولين في أكثر الأمر تكون بمعنى العلم ، تقول أرى هذا المذهب صحيحاً وهذا الوجه ظاهراً وعند التعدي إلى واحد تكون بمعنى رأي العين في الأكثر تقول رأيت زيداً وقال تعالى : ﴿ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ [غافر : 84] ، وقال : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البشر أَحَداً ﴾ [مريم : 26] والمراد في الآية رؤية العين .

(106/730)

المسألة الثالثة :

في قوله ﴿ ساقطا ﴾ فائدة لا تحصل في غير السقوط ، وذلك لأن عندهم لا يجوز الانفصال على السموات ولا يمكن نزولها وهبوطها ، فقال ساقطاً ليكون مخالفاً لما يعتقدونه من وجهين أحدهما : الانفصال والآخر : السقوط ولو قال وإن يروا كسفاً منفصلاً أو معلقاً لما حصلت هذه الفائدة .

المسألة الرابعة :

في قوله ﴿ يَقُولُواْ ﴾ فائدة أخرى ، وذلك لأنه يفيد بيان العناد الذي هو مقصود سرد الآية ، وذلك لأنهم في ذلك الوقت يستخرجون وجوهاً حتى لا يلزمهم التسليم فيقولون سحاب قولاً من غير عقيدة ، وعلى هذا يحتمل أن يقال ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ﴾ المراد العلم ليكون أدخل في العناد ، أي إذا علموا وتيقنوا أن السماء ساقطة غيروا وعاندوا ، وقالوا هذا سحاب مركوم .

المسألة الخامسة :

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُواْ سحاب مَّرْكُومٌ ﴾ إشارة إلى أنهم حين يعجزون عن التكذيب ولا يمكنهم أن يقولوا لم يقع شيء على الأرض يرجعون إلى التأويل والتخييل وقوله ﴿ مَّرْكُومٌ ﴾ أي مركب بعضه على بعض كأنهم يدفعون عن أنفسهم ما يورد عليهم بأن السحاب كالهواء لا يمنع نفوذ الجسم فيه ، وهذا أقوى مانع فيقولون إنه ركام فصار صلباً قوياً .

المسألة السادسة :

في إسقاط كلمة الإشارة حيث لم يقل : يقولوا هذا ، إشارة إلى وضوح الأمر وظهور العناد فلا يستحسنون أن يأتوا بما لا يبقى معه مراء فيقولون ﴿ سحاب مَّرْكُومٌ ﴾ مع حذف المبتدأ ليبقى للقائل فيه مجال فيقول عند تكذيب الخلق إياهم ، قلنا ﴿ سحاب مَّرْكُومٌ ﴾ شبهه ومثله ، وأن يتمشى الأمر مع عوامهم استمروا ، وهذا مجال من يخاف من كلام ولا

يعلم أنه يقبل منه أو لا يقبل ، فيجعله ذا وجهين ، فإن رأى النكر على أحدهما فسّره بالآخرون وإن رأى القبول خرج بمراده .

فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45)

أي إذا تبين أنهم لا يرجعون فدعهم حتى يلاقوا وفيه مسائل :

/المسألة الأولى :

(107/730)

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أمر وكان يجب أن يقال لم يبق للنبي صلى الله عليه وسلم جواز دعائهم إلى الإسلام وليس كذلك ، والجواب عنه من وجوه أحدها : أن هذه الآيات مثل قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضَ ﴾ [النساء : 63] و ﴿ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ [الصافات : 178] إلى غير ذلك كلها منسوخة بآية القتال وهو ضعيف ، ثانيها : ليس المراد الأمر وإنما المراد التهديد كما يقول سيد العبد الجاني لمن ينصحه دعه فإنه سينال وبال جنايته ثالثها : أن المراد من يعاند وهو غير معين والنبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو الخلق على سبيل العموم ويجوز أن يكون المراد بالخطاب من لم يظهر عناده لا من ظهر عناده فلم يقل الله في حقه ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ ويدل على هذا أنه تعالى قال من قبل ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ [

الطور : 29] وقال ههنا ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ فمن يذكرهم هم المشفقون الذين ﴿ قَالُواْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ [الطور : 26] ومن يذرهم الذين قالوا ﴿ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ [الطور : 30] إلى غير ذلك .

المسألة الثانية :

(108/730)

﴿ حتى ﴾ للغاية فيكون كأنه تعالى قال : ذرهم إلى ذلك اليوم ولا تكلمهم ثم ذلك اليوم تجدد الكلام وتقول ألم أقل لكم إن الساعة آتية وإن الحساب يقوم والعذاب يدوم فلا تكلمهم إلى ذلك اليوم ثم كلمهم لتعلمهم ثانيها : أن المراد من حتى الغاية التي يستعمل فيها اللام كما يقول القائل لا تطعمه حتى يموت أي ليموت ، لأن اللام التي للغرض عندها ينتهي الفعل الذي للغرض فيوجد فيها معنى الغاية ومعنى التعليل ويجوز استعمال الكلمتين فيها ولعلّ المراد من قوله تعالى : ﴿ واعبد رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ [الحجر : 99] هذا أي إلى أن يأتيك اليقين ، فإن قيل فمن لا يذره أيضاً يلاقي ذلك اليوم ، نقول المراد من قوله ﴿ يُصْعَقُونَ ﴾ يهلكون فالمذكر المشفق لا يهلك ويكون مستثنى منهم كما قال تعالى : ﴿ فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَنَ الأرض إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ [الزمر : 68] وقد ذكرنا

هناك أن من اعترف بالحق وعلم أن يوم الحساب كائن فإذا وقعت الصيحة يكون كمن يعلم أن الرعد يرعد ويستعد لسماعه ، ومن لا يعلم يكون كالغافل ، فإذا وقعت الصيحة ارتجف الغافل ولم يرتجف العالم ، وحينئذ يكون التوعد بملاقاة يومهم لأن كل أحد يلاقي يومه وإنما يكون بملاقاة يومهم الذي فيه يصعقون ، أي اليوم الموصوف بهذه الصفة ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ لَّوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بالعراء وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ [القلم : 49] فإن المنفي ليس النبذ بالعراء لأنه تحقق بدليل قوله تعالى : ﴿ فنبذناه بالعراء وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : 145] وإنما المنفي النبذ الذي يكون معه مذموماً وهذا لم يوجد .

المسألة الثالثة :

(109/730)

﴿ حتى ﴾ ينصب ما بعدها من الفعل المستقبل تارة ويرفع أخرى والفاصل بينهما أن الفعل إذا كان مستقبلاً منتظراً لا يقع في الحال ينصب تقول تعلمت الفقه حتى ترتفع درجتي فإنك تنتظره وإن كان حالاً يرفع تقول أكرر حتى تسقط قوتي ثم أنام ، والسبب فيه هو أن حتى المستقبل للغاية ولام التعليل للغرض والغرض غاية الفعل ، تقول لم تبنى الدار يقول للسكنى أنصار قوله حتى ترفع كقوله لأرفع وفيهما إضمار أن ، فإن قيل ما قلت شيئاً وما

ذكرت السبب في النصب عند إرادة الاستقبال والرفع عند إرادة الحال ، نقول الفعل المستقبل إذا كان منتظراً وكان تصب العين ومنصوباً لدى الذهن يرقبه يفعل بلفظه ما كان في معناه ، ولهذا قالوا في الإضافة أن المضاف لما جر أمراً إلى أمر في المعنى جزء في اللفظ ، والذي يؤيد ما ذكرنا أن الفعل إنما ينصب بأن ولن وكي وإذن ، وخلوص الفعل للاستقبال في هذه المواضع لازم والحرف الذي يجعل الفعل للحال يمنع النصب حيث لا يجوز أن تقول إن فلاناً ليضرب فإن قيل : السين وسوف مع أنهما يخلصان الفعل للاستقبال لا ينصبان ويمنعان النصب بالناصب كما في قوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مرضى ﴾ [المزمل : 20] نقول : سوف والسين ليسا بمعنى غير اختصاص الفعل بالاستقبال وأن ولن بمعنى لا يصح إلا في الاستقبال فلم يثبت بالسين إلا الاستقبال ولم يثبت به معنى في الاستقبال والمنتظر هو ما في الاستقبال لا نفس الاستقبال ، مثاله إذا قلت أعبد الله كي يغفر لي أو ليغفر لي أثبتت كي غرضاً وهو المغفرة ، وهي في المستقبل من الزمان ، وإذا قلت : أستغفرك ربي أثبتت السين استقبال المغفرة ، وفرق بين ما يكون المقصود من الكلام بيان الاستقبال ، لكن الاستقبال لا يوجد إلا في معنى فأتى بالمعنى ليبين به الاستقبال وبين ما يكون المقصود منه معنى في المستقبل فتذكر الاستقبال لتبين محل مقصودك .

(110/730)

يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (46)

لما قال : ﴿ يلاقوا يَوْمَهُمُ ﴾ [الطور : 45] وكل بر وفاجر يلاقي يومه أعاد صفة يومهم وذكر ما يتميز به يومهم عن يوم المؤمنين فقال : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي ﴾ وهو يخالف يوم المؤمنين فإنه تعالى قال فيه ﴿ يَوْمُ يَنفَعُ الصادقين ﴾ [المائدة : 119] وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي ﴾ وجهان الأول : بدل عن قوله ﴿ يَوْمَهُمُ ﴾ [الطور : 45] ثانيهما : ظرف ﴿ يلاقوا ﴾ أي يلاقوا يومهم يوم ، فإن قيل هذا يلزم منه أن يكون اليوم في يوم فيكون اليوم ظرف اليوم نقول هو على حد قول من يقول يأتي يوم قتل فلان يوم تبين جرائمه ولا مانع منه ، وقد ذكرنا بحث الزمان وجواز كونه ظرفاً في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ وجواز إضافة اليوم إلى الزمان مع أنه زمان .

المسألة الثانية :

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ ﴾ ولم يقل يوم لا يغنيهم كيدهم مع أن الإغناء يتعدى بنفسه لفائدة جليلة وهي أن قول القائل أغناني كذا يفهم منه أنه نفعني ، وقوله أغنى عني يفهم منه أنه دفع عني الضرر وذلك لأن قوله أغناني معناه في الحقيقة أفادني غير مستفيد وقوله : أغنى عني ، أي لم يحوجني إلى الحضور فأغنى غيري عن حضوري يقول من يطلب

لأمر : خذوا عني ولدي ، فإنه يغني عني أي يغنيكم عني فيدفع عني أيضاً مشقة الحضور فقوله ﴿ لاَ يُغْنِى عَنْهُمْ ﴾ أي لا يدفع عنهم الضرر ، ولا شك أن قوله لا يدفع عنهم ضرراً أبلغ من قوله لا ينفعهم نفعاً وإنما في المؤمن لو قال يوم يغني عنهم صدقهم لما فهم منه نفعهم فقال : ﴿ يَوْمُ يَنفَعُ ﴾ [المائدة : 119] كأنه قال يوم يغنيهم صدقهم ، فكأنه استعمل في المؤمن يغنيهم وفي الكافر لا يغني عنهم وهو مما لا يطلع عليه إلا من يكون عنده من علم البيان طرف ويتفكر بقريحة وقادة آيات الله ووفقه الله .

المسألة الثالثة :

(111/730)

الأصل تقديم الفاعل على المفعول والأصل تقديم المضمر على المظهر ، أما في الأول فلأن الفاعل متصل بالفعل ولهذا قالوا فعلت فأسكنوا اللام لئلا يلزم أربع متحركات في كلمة واحدة وقالوا ضربك ولم يسكنوا لأن الكاف ضمير المفعول وهو منفصل ، وأما تقديم المضمر فلأنه يكون أشد اختصاراً ، فإنك إذا قلت ضربني زيد يكون أقرب إلى الاختصار من قولك ضرب زيد إياي فإن لم يكن هناك اختصار كقولك مربي زيد ومربي فالأولى تقديم الفاعل ، وههنا لو قال يوم لا يغنيهم كيدهم كان الأحسن تقديم المفعول ، فإذا قال يوم لا يغني

عنهم صار كما قلنا في مر زيد بي فلم لم يقدم الفاعل ، نقول فيه فائدة مستفادة من علم البيان ، وهو أن تقديم الأهم أولى فلو قال يوم لا يغني كيدهم كان السامع لهذا الكلام ربما يقول لا يغني كيدهم غيرهم فيرجو الخير في حقهم وإذا سمع لا يغني عنهم انقطع رجاؤه وانتظر الأمر الذي ليس بمغن .

المسألة الرابعة :

(112/730)

قد ذكرنا أن معنى الكيد هو فعل يسوء من نزل به وإن حسن ممن صدر منه ، فما الفائدة في تخصيص العمل الذي يسوء بالذكر ولم يقل يوم لا يغني عنهم أفعالهم على الإطلاق ؟ نقول هو قياس بالطريق الأولى لأنهم كانوا يأتون بفعل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وكانوا يعتقدون أنه أحسن أعمالهم فقال ما أغنى أحسن أعمالهم الذي كانوا يعتقدون فيه ليقطع رجاءهم عما دونه ، وفيه وجه آخر وهو أنه تعالى لما قال من قبل ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ [الطور : 42] وقد قلنا إن أكثر المفسرين على أن المراد به تدبيرهم في قتل النبي صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ هُمُ المكيدون ﴾ أي لا ينفعهم كيدهم في الدنيا فماذا يفعلون يوم لا ينفعهم ذلك الكيد بل يضرهم وقوله ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ فيه وجوه أحدها : أنه متمم

بيان وجهه هو أن الداعي أولاً يرتب أموراً لدفع المكروه بحيث لا يحتاج إلى الانتصار بالغير والمنة ثم إذا لم ينفعه ذلك ينتصر بالأغيار ، فقال لا ينفعهم أفعال أنفسهم ولا ينصرهم عند اليأس وحصول اليأس عن إقبالهم ثانيها : أن المراد منه ما هو المراد من قوله تعالى : ﴿ لاَّ تُغْنِ عَنّى شفاعتهم شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونَ ﴾ [ياس : 23] ، فقوله ﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ أي عبادتهم الأصنام ، وقولهم ﴿ هَؤُلاء شفعاؤنا ﴾ [يونس : 18] وقولهم ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا ﴾ [الزمر : 3] وقوله ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ، أي لا نصير لهم كما لا شفيع ، ودفع العذاب ، إما بشفاعة شفيع أو بنصر ناصر ثالثها : أن نقول الإضافة في كيدهم إضافة المصدر إلى المفعول ، لا إضافته إلى الفاعل ، فكأنه قال لا يغني عنهم كيد الشيطان إياهم ، وبيانه هو أنك تقول أعجبني ضرب زيداً عمراً ، وأعجبني ضرب عمرو ، فإذا اقتصرت على المصدر والمضاف إليه لا يعلم إلا بالقرينة والنية ، فإذا سمعت قول القائل ، أعجبني ضرب زيد يحتمل أن يكون زيد ضارباً ويحتمل

(113/730)

أن يكون مضروباً فإذا سمعت قول القائل ، أعجبني قطع اللص على سرقته دلّت القرينة على أنه مضاف إلى المفعول ، فإن قيل هذا فاسد من حيث إنه إيضاح واضح لأن كيد

المكيد لا ينفع قطعاً ، ولا يخفى على أحد ، فلا يحتاج إلى بيان ، لكن كيد الكائد يظن أنه ينفع فقال تعالى : ذلك لا ينفع ، نقول كيد الشيطان إياهم على عبادة الأصنام وهم كانوا يظنون أنها تنفع ، وأما كيدهم النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يعلمون أنه لا ينفع في الآخرة وإنما طلبوا أن ينفعهم في الدنيا لا في الآخرة فالإشكال ينقلب على صاحب الوجه الأول ولا إشكال على الوجهين جميعاً إذا تفكرت فيما قلناه .

وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (47)

في اتصال الكلام وجهان أحدهما : متصل بقوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ [الطور : 45] وذلك لأنه يدل على عدم جواز القتال ، وقد قيل إنه نازل قبل شرع القتال ، وحينئذ كأنه قال فذرهم ولا تذرهم مطلقاً من غير قتال ، بل لهم قبل يوم القيامة عذاب يوم بدر حيث تؤمر بقتالهم ، فيكون بياناً وعداً ينسخ فذرهم بالعذاب يوم بدر ثانيهما : هو متصل بقوله تعالى : ﴿ لَا يُغْنِي ﴾ [الطور : 46] وذلك لأنه لما بين أن كيدهم لا يغني عنهم قال ولا يقتصر على عدم الإغناء بل لهم مع أن كيدهم لا يغني ويل آخر وهو العذاب المعد لهم ، ولو قال لا يغني عنهم كيدهم كان يوهم أنه لا ينفع ولكن لا يضر ولما قال مع ذلك ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَاباً ﴾ زال ذلك ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الذين ظلموا هم أهل مكة إن قلنا العذاب هو عذاب يوم بدر ، وإن قلنا العذاب هو عذاب

القبر فالذين ظلموا عام في كل ظالم .

المسألة الثانية :

ما المراد من الظلم ههنا ؟ نقول فيه وجوه الأول : هو كيدهم نبيهم ، والثاني : عبادتهم الأوثان ، والثالث : كفرهم وهذا مناسب للوجه الثاني .

المسألة الثالثة :

(114/730)

دون ذلك ، على قول أكثر المفسرين معناه قبل ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ العذاب الأدنى دُونَ العذاب الأكبر ﴾ [السجدة : 21] ويحتمل وجهين آخرين أحدهما : دون ذلك ، أي أقل من ذلك في الدوام والشدة يقال الضرب دون القتل في الإيلام ، ولا شك أن عذاب الدنيا دون عذاب الآخرة على هذا المعنى ، وعلى هذا ففيه فائدة التنبيه على عذاب الآخرة العظيم وذلك لأنه إذا قال عذاباً دون ذلك أي قتلاً وعذاباً في القبر فيتفكر المتفكر ويقول ما يكون القتل دونه لا يكون إلا عظيماً ، فإن قيل فهذا المعنى لا يمكن أن يقال في قوله تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ العذاب الأدنى دُونَ العذاب الأكبر ﴾ قلنا نسلم ذلك ولكن لا مانع من أن يكون المراد ههنا هذا الثاني على طريقة قول القائل : تحت لجاجك

مفاسد ودون غرضك متاعب ، وبيانه هو أنهم لما عبدوا غير الله ظلموا أنفسهم حيث وضعوها في غير موضعها الذي خلقت له فقيل لهم إن لكم دون ذلك الظلم عذاباً .

المسألة الرابعة :

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ماذا ؟ نقول الظاهر أنه إشارة إلى اليوم وفيه وجهان آخران أحدهما : في قوله ﴿ يُصْعَقُونَ ﴾ [الطور : 45] وقوله ﴿ يُغْنِى عَنْهُمْ ﴾ [الطور : 46] إشارة إلى عذاب واقع فقوله ذلك إشارة إليه ، ويمكن أن يقال قد تقدم قوله ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ [الطور : 7] وقوله ﴿ دُونِ ذَلِكَ ﴾ ، أي دون ذلك العذاب ثانيهما : ﴿ دُونِ ذَلِكَ ﴾ ، أي كيدهم فذلك إشارة إلى الكيد وقد بينا وجهه في المثال الذي مثلنا وهو قول القائل : تحت لجاجك حرمانك ، والله أعلم .

المسألة الخامسة :

(115/730)

﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ذكرنا فيه وجوهاً أحدها : أنه جرى على عادة العرب حيث تعبر عن الكل بالأكثر كما قال تعالى : ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : 41] ثم إن الله تعالى تكلم على تلك العادة ليعلم أن الله استحسنها من المتكلم حيث يكون ذلك بعيداً

عن الخلف ثانيها : منهم من آمن فلم يكن ممن لا يعلم ثالثها : هم في أكثر الأحوال لم يعلموا وفي بعض الأحوال علموا وأقله أنهم علموا حال الكشف وإن لم ينفعهم .

المسألة السادسة :

مفعول ﴿ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ جاز أن يكون هو ما تقدم من الأمر : وهو أن لهم عذاباً دون ذلك ، وجاز أن لا يكون له مفعول أصلا ، فيكون المراد أكثرهم غافلون جاهلون .

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48)

(116/730)

وقد ذكرناه في تفسير قوله تعالى : ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس ﴾ [طه : 130] ونشير إلى بعضه ههنا فإن طول العهد ينسي ، فنقول لما قال تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ [الطور : 45] كان فيه الإشارة إلى أنه لم يبق في نصحهم نفع ولا سيما وقد تقدم قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً مِّنَ السماء ﴾ [الطور : 44] وكان ذلك مما يحمل النبي صلى الله عليه وسلم على الدعاء كما قال نوح عليه السلام ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [نوح : 26] وكما دعا يونس عليه السلام فقال تعالى : ﴿ واصبر ﴾ وبدل اللعن بالتسبيح ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ بدل قولك اللّهم أهلكهم ألا

ترى إلى قوله تعالى : ﴿ فاصبرِ لحُكْمِ ربّكَ ولاَ تَكُن كصاحب الحوت ﴾ [القلم : 48]

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ فيه وجوه الأول : أنه تعالى لما بيّن أنهم يكيدونه كان ذلك مما يقتضي في العرف المبادرة إلى إهلاكهم لئلا يتم كيدهم فقال : اصبر ولا تخف ، فإنك محفوظ بأعيننا ثانيها : أنه تعالى قال فاصبر ولا تدع عليهم فإنك بمرأى منا نراك وهذه الحالة تقتضي أن تكون على أفضل ما يكون من الأحوال لكن كونك مسبحاً لنا أفضل من كونك داعياً على عباد خلقناهم ، فاختر الأفضل فإنك بمرأى منا ثالثها : أن من يشكو حاله عند غيره يكون فيه إنباء عن عدم علم المشكو إليه بحال الشاكي فقال تعالى : اصبر ولا تشك حالك فإنك بأعيننا نراك فلا فائدة في شكواك ، وفيه مسائل مختصة بهذا الموضع لا توجد في قوله ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه : 130] .

المسألة الأولى :

(117/730)

اللام في قوله ﴿ واصبرِ لحُكْمِ ﴾ تحتمل وجوهاً : الأول : هي بمعنى إلى أي اصبر إلى أن يحكم الله الثاني : الصبر فيه معنى الثبات ، فكأنه يقول فاثبت لحكم ربك يقال ثبت فلان لحمل قرنه الثالث : هي اللام التي تستعمل بمعنى السبب يقال لم خرجت فيقال لحكم فلان

علي بالخروج فقال : ﴿ واصبر ﴾ واجعل سبب الصبر امتثال الأمر حيث قال واصبر لهذا الحكم عليك لا لشيء آخر .

المسألة الثانية :

قال ههنا ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ وقال في مواضع أخر ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عَيْنِى ﴾ [طه : 39] نقول لما وحد الضمير هناك وهو ياء المتكلم وحده وحد العين ولما ذكر ههنا ضمير الجمع في قوله ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ وهو النون جمع العين ، وقال : ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ هذا من حيث اللفظ ، وأما من حيث المعنى فلأن الحفظ ههنا أتم لأن الصبر مطية الرحمة بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث اجتمع له الناس وجمعوا له مكايد وتشاوروا في أمره ، وكذلك أمره بالفلك وأمره بالاتخاذ عند عدم الماء وحفظه من الغرق مع كون كل البقاع مغمورة تحت الماء تحتاج إلى حفظ عظيم في نظر الخلق فقال ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

المسألة الثالثة :

ما وجه تعلق الباء ههنا قلنا قد ظهر من جميع الوجوه ، أما إن قلنا بأنه للحفظ فتقديره محفوظ بأعيننا ، وإن قلنا للعلم فمعناه بمرأى منا أي بمكان نراك وتقديره فإنك بأعيننا مرئي

وحينئذ هو كقول القائل رأيته بعيني كما يقال كتب بالقلم الآلة وإن كان رؤية الله ليست بآلة ، فإن قيل فما الفرق في الموضعين حيث قال في طه ﴿ على عَيْنِى ﴾ [طه : 39] وقال ههنا ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ وما الفرق بين على وبين الباء نقول معنى على هناك هو أنه يرى على ما يرضاه الله تعالى ، كما يقول أفعله على عيني أي على رضاي تقديره على وجه يدخل في عيني وألتفت إليه فإن من يفعل شيئاً لغيره ولا يرتضيه لا ينظر فيه ولا يقلب عينه إليه والباء في قوله ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ قد ذكرناها وقوله ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ فيه وجوه الأول : تقوم من موضعك والمراد قبل القيام حين ما تعزم على القيام وحين مجيء القيام ، وقد ورد في الخبر أن من قال : "سبحان الله" من قبل أن يقوم من مجلسه يكتب ذلك كفارة لما يكون قد صدر منه من اللفظ واللغو في ذلك المجلس الثاني : حين تقوم من النوم ، وقد ورد أيضاً فيه خبر يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان "يسبح بعد الانتباه" الثالث : حين تقوم إلى الصلاة وقد ورد في الخبر أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول في افتتاح الصلاة " سبحانك اللّهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك " الرابع : حين تقوم لأمر ما ولا سيما إذا قمت منتصباً لمجاهدة قومك ومعاداتهم والدعاء عليهم ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ وبدل قيامك للمعاداة وانتصابك للانتقام بقيامك لذكر الله وتسبيحه الخامس : ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي بالنهار ، فإن الليل محل السكون والنهار محل الابتغاء وهو بالقيام أولى ، ويكون كقوله ﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ ﴾ إشارة إلى ما بقي من الزمان وكذلك ﴿ وإدبار

النجوم ﴾ [الطور : 49] وهو أول الصبح .

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (49)

(119/730)

وقد تقدم تفسيره وهو كقوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم : 17] وقد ذكرنا فائدة الاختصاص بهذه الأوقات ومعناه ، ونختم هذه السورة بفائدة وهي أنه تعالى قال ههنا ﴿ وإدبار النجوم ﴾ وقال في ق (40) ﴿ وأدبار السجود ﴾ ويحتمل أن يقال المعنى واحد والمراد من السجود جمع ساجد وللنجوم سجود قال تعالى : ﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن : 6] وقيل المراد من النجم نجوم السماء وقيل النجم ما لا ساق له من النبات قال الله تعالى : ﴿ يسجد له من في السماوات ومن في الأرض ﴾ [الحج : 18] أو المراد من النجوم الوظائف وكل وظيفة نجم في اللغة أي إذا فرغت من وظائف الصلاة فقل سبحان الله ، وقد ورد في الحديث : " من قال عقيب الصلاة سبحان الله عشر مرات والحمد لله عشر مرات والله أكبر عشر مرات كتب له ألف حسنة " فيكون المعنى في الموضعين واحد لأن السجود من الوظائف والمشهور والظاهر أن المراد من إدبار النجوم وقت الصبح حيث يدبر النجم ويخفى ويذهب ضياؤه بضوء

الشمس ، وحينئذ تبين ما ذكرنا من الوجه الخامس في قوله ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور : 48] أن المراد منه النهار لأنه محل القيام ﴿ وَمِنَ الليل ﴾ القدر الذي يكون الإنسان في يقظان فيه ﴿ وإدبار النجوم ﴾ وقت الصبح فلا يخرج عن التسبيح إلا وقت النوم ، وهذا آخر تفسير هذه السورة ، والله أعلم ، والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 230 . 238 ﴾

(120/730)

وقال ابن عطية :

ثم وصفهم تعالى بأنهم على الغاية من العتو والتمسك بالأقوال الباطلة في قوله : ﴿ وإن يروا كسفاً ﴾ الآية ، وذلك أن قريشاً كان في جملة ما اقترحت به أن تنزل من السماء عليها كسف وهي القطع ، واحدها كسفة ، وتجمع أيضاً على كسف كثمرة وتمر ، قال الرماني : هي التي تكون بقدر ما يكسف ضوء الشمس . فأخبر الله عنهم في هذه الآية أنهم لو رأوا كسفاً ﴿ ساقطاً ﴾ حسب اقتراحهم لبلغ بهم العتو والجهل والبعد عن الحق أن يغالطوا أنفسهم وغيرهم ويقولوا هذا ﴿ سحاب مركوم ﴾ . أي كثيف قد تراكم بعضه فوق بعض ، ولهذه الآية نظائر في آيات أخر .

فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45)

قوله : ﴿ فذرهم ﴾ وما جرى مجراه من الموادعة منسوخ بآية السيف .

وقرأ أبو جعفر وأبو عمرو بخلاف عنه " يلقوا " ، والجمهور على " يلاقوا " .

واختلف الناس في اليوم الذي توعدوا به ، فقال بعض المتأولين : هو موتهم واحداً واحداً وهذا على تجوز ، والصعق : التعذب في الجملة وإن كان الاستعمال قد كثر فيه فيما يصيب الإنسان من الصيحة المفرطة ونحوه . ويحتمل أن يكون اليوم الذي توعدوا به يوم بدر ، لأنهم عذبوا فيه ، وقال الجمهور : التوعد بيوم القيامة ، لأن فيه صعقة تعم جميع الخلائق ، لكن لا محالة أن بين صعقة المؤمن وصعقة الكافر فرقاً .

وقرأ جمهور القراء : " يصعِقون " من صعق الرجل بكسر العين . وقرأ أبو عبد الرحمن : " يَصعِقون " بفتح الياء وكسر العين . وقرأ عاصم وابن عامر وأهل مكة في قول شبل : " يُصعقون " بضم الياء ، وذلك من أصعق الرجل غيره . وحكى الأخفش : صُعِق الرجل بضم الصاد وكسر العين .

قال أبو علي : فجائز أن يكون منه فهو مثل يضربون ، قال أبو حاتم : وفتح أهل مكة الياء في قول إسماعيل . و: ﴿ يغني ﴾ يكون منه غناء ودفاع .

ثم أخبر تعالى بأنهم لهم دون هذا اليوم ، أي قبله عذاب ، واختلف الناس في تعيينه ، فقال ابن عباس وغيره : هو بدر والفتح ونحوه . وقال مجاهد : هو الجوع الذي أصاب قريشاً . وقال البراء بن عازب وابن عباس أيضاً : هو عذاب القبر ، ونزع ابن عباس وجود عذاب القبر بهذه الآية . وقال ابن زيد : هو مصائب الدنيا في الأجسام وفي الأحبة وفي الأموال ، هي للمؤمنين رحمة وللكافرين عذاب ، وفي قراءة ابن مسعود : دون ذلك قريباً ﴿ ولكن ﴾ ﴿ لا يعلمون ﴾ . ثم أمر تعالى نبيه بالصبر لحكم الله والمضي على نذارته ووعده بقوله : ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ ، ومعناه بإدراكنا وأعين حفظنا وحيطتنا كما تقول : فلان يرعاه الملك بعين ، وهذه الآية ينبغي أن يقررها كل مؤمن في نفسه ، فإنها تفسح مضايق الدنيا . وقرأ أبو السمال : " بأعينّا " بنون واحدة مشددة .

واختلف الناس في قوله : ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ فقال أبو الأحوص عوف بن مالك : هو التسبيح المعروف ، أن يقول في كل قيام له سبحان الله وبحمده . وقال عطاء : المعنى : حين تقوم من كل مجلس . وقال ابن زيد : التسبيح هنا هو صلاة النوافل . وقال الضحاك وابن زيد : هذه إشارات إلى الصلاة المفروضة ؛ ف ﴿ حين تقوم ﴾ : الظهر والعصر ، أي ﴿ حين تقوم ﴾ من نوم القائلة . ﴿ ومن الليل ﴾ المغرب والعشاء . ﴿ وإدبار النجوم ﴾ الصحب . ومن قال هي النوافل جعل ﴿ إدبار النجوم ﴾ : ركعتي الفجر ، وعلى هذا

القول جماعة كثيرة ، منهم عمر وعلي بن أبي طالب وأبو هريرة والحسن رضي الله عنهم .

وقد روي مرفوعاً ومن جعله التسبيح المعروف ، جعل قوله : ﴿ حين تقوم ﴾ مثالاً ، أي حين تقوم وحين تقعد وفي كل تصرفك . وحكى منذر عن الضحاك أن المعنى : ﴿ حين تقوم ﴾ في الصلاة بعد تكبيرة الإحرام فقل . " سبحانك اللهم وبحمدك ، تبارك اسمك ، وتعالى جدك " ، الحديث .

(122/730)

وقرأ سالم بن أبي الجعد ويعقوب : " وأدبار " بفتح الهمزة بمعنى : وأعقاب ، ومنه قول الشاعر [قيس بن الملوح] : [الطويل]

فأصبحت من ليلى الغداة كناظر . . . مع الصبح في أعقاب نجم مغرب

وقرأ جمهور الناس : " وإدبار " بكسر الهمزة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(123/730)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً مِّنَ السمآء سَاقِطاً ﴾

قال ذلك جواباً لقولهم : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السمآء ﴾ [الشعراء : 187] ، وقولهم : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً ﴾ [الإسراء : 92] فأعلم أنه لو فعل ذلك لقالوا : ﴿ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ أي بعضه فوق بعض سقط علينا وليس سماء ؛ وهذا فعل المعاند أو فعل من استولى عليه التقليد ، وكان من المشركين القسمان .

والكِسَف جمع كِسْفة وهي القطعة من الشيء ؛ يقال : أعطني كِسْفة من ثوبك ، ويقال في جمعها أيضاً : كِسْف : ويقال : الكِسْف والكِسْفة واحد .

وقال الأخفش : من قرأ كِسْفاً جعله واحداً ، ومن قرأ "كِسَفا" جعله جمعاً .

وقد تقدم القول في هذا في "سبحان" وغيرها والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ منسوخ بآية السيف .

﴿ حتى يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الذي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ بفتح الياء قراءة العامة ، وقرأ ابن عامر وعاصم بضمها .

قال الفرّاء : هما لغتان صَعِق وصُعق مثل سَعِد وسُعد .

قال قتادة : يوم يموتون .

وقيل : هو يوم بدر .

وقيل : يوم النفخة الأولى .

وقيل : يوم القيامة يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم .

وقيل : "يُصْعَقُون" بضم الياء من أصعقه الله .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ أي ما كادوا به النبيّ صلى الله عليه وسلم في الدنيا .

﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ من الله .

و"يَوْمَ" منصوب على البدل من ﴿ يَوْمَهُمُ الذي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾

أي كفروا ﴿ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ ﴾ قيل : قبل موتهم .

ابن زيد : مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا وذهاب الأموال والأولاد .

مجاهد : هو الجوع والجَهْد سبع سنين .

ابن عباس : هو القتل .

وعنه : عذاب القبر .

وقاله البَرَاء بن عازِب وعليّ رضي الله عنهم .

ف"دُونَ" بمعنى غير .

وقيل : عذاباً أخفّ من عذاب الآخرة .

﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن العذاب نازل بهم وقيل : ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ما يصيرون إليه .

قوله تعالى : ﴿ واصبِرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

فيه مسألتان :

الأولى : ﴿ واصبِرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ قيل : لقضاء ربك فيما حمَّلك من رسالته .

وقيل : لبلائه فيما ابتلاك به من قومك ؛ ثم نسخ بآية السيف .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بمرأى ومنظر منَّا نرى ونسمع ما تقول وتفعل .

وقيل : بحيث نراك ونحفظك ونحوطك ونحرسك ونرعاك .

والمعنى واحد .

ومنه قوله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عيني ﴾ [طه : 39] أي بحفظي وحراستي وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ ﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النجوم ﴾ .

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ اختلف في تأويل قوله : ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ فقال عون بن مالك وابن مسعود وعطاء وسعيد بن جبير وسفيان الثوري وأبو الأحوص : يسبح الله حين يقوم من مجلسه ؛ فيقول : سبحان الله وبحمده ، أو سبحانك اللهم وبحمدك ؛ فإن كان المجلس خيراً ازددت ثناءً حسناً ، وإن كان غير ذلك كان كفارةً له ؛ ودليل هذا التأويل ما خرّجه الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غُفِر له ما كان في مجلسه ذلك " قال : حديث حسن صحيح غريب .

وفيه عن ابن عمر قال : كنا نعدّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم : " رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التوّاب الغفور " قال حديث حسن صحيح غريب .

وقال محمد بن كعب والضحاك والربيع : المعنى حين تقوم إلى الصلاة .

(125/730)

قال الضحاك يقول : الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً .

قال الكِيا الطبري : وهذا فيه بُعد ؛ فإن قوله : "حِينَ تَقُومُ" لا يدل على التسبيح بعد التكبير ، فإن التكبير هو الذي يكون بعد القيام ، والتسبيح يكون وراء ذلك ، فدلّ على أن المراد فيه حين تقوم من كل مكان كما قال ابن مسعود رضي الله عنه .

وقال أبو الجوزاء وحسان بن عطية : المعنى حين تقوم من منامك .

قال حسان : ليكون مفتتحاً لعمله بذكر الله .

وقال الكلبي : واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة وهي صلاة الفجر .

وفي هذا روايات مختلفات صحاح ؛ منها حديث عُبادة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من تَعارَّ في الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير والحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلا بالله ثم قال اللهم اغفر لي أو دعا استجيب له فإن توضأ وصلّى قبلت صلاته " خرّجه البخاري .

تعارّ الرجل من الليل : إذا هبّ من نومه مع صوت ؛ ومنه عَارَّ الظَّلِيمُ يُعَارُّ عِرَاراً وهو صوته ؛ وبعضهم يقول : عَرَّ الظَّلِيمُ يَعِرُّ عِرَاراً ، كما قالوا زَمَر النَّعَامُ يَزْمِرُ زِمَاراً .

عن ابن عباس .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل : " اللهم لك

الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهنّ ولك الحمد أنت قيّوم السموات والأرض ومن فيهنّ ولك الحمد أنت ربّ السموات والأرض ومن فيهنّ أنت الحقّ ووعدك الحقّ وقولك الحقّ ولقاؤك الحقّ والجنة حقّ والنار حقّ والساعة حقّ والنبيون حقّ ومحمد حقّ اللهم لك أسلمت وعليك توكلت وبك آمنت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدّمت وما أخرت وأسررت وأعلنت أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر لا إله إلا أنت ولا إله غيرك " متفق عليه .

(126/730)

وعن ابن عباس أيضاً : " أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا استيقظ من الليل مسح النوم عن وجهه ؛ ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة "آل عمران" " وقال زيد بن أسلم : المعنى حين تقوم من نوم القائلة لصلاة الظهر .

قال ابن العربي : أما نوم القائلة فليس فيه أثر وهو ملحق بنوم الليل .

وقال الضحاك : إنه التسبيح في الصلاة إذا قام إليها .

الماوردي : وفي هذا التسبيح قولان : أحدهما وهو قوله سبحان ربي العظيم في الركوع وسبحان ربي الأعلى في السجود .

الثاني أنه التوجه في الصلاة يقول : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جَدُّك ولا إله غيرك .

قال ابن العربي : من قال إنه التسبيح للصلاة فهذا أفضله ، والآثار في ذلك كثيرة أعظمها ما ثبت عن عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه : " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : "وجَّهت وجهي" " الحديث .

وقد ذكرناه وغيره في آخر سورة "الأنعام" .

وفي البخاري " عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله عَلِّمني دعاء أدعو به في صلاتي ؛ فقال : "قل اللّهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم" " .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النجوم ﴾ تقدّم في "قا" مستوفًى عند قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السجود ﴾ .

وأما "إِدْبَارَ النُّجُومِ" فقال عليّ وابن عباس وجابر وأنس : يعني ركعتي الفجر .

فحمل بعض العلماء الآية على هذا القول على الندب وجعلها منسوخة بالصلوات الخمس .

وعن الضحاك وابن زيد : أن قوله : ﴿ وَإِدْبَارَ النجوم ﴾ يريد به صلاة الصبح وهو اختيار الطبريّ .

وعن ابن عباس : أنه التسبيح في آخر الصلوات .

وبكسر الهمزة في ﴿ وَإِدْبَارَ النجوم ﴾ قرأ السبعة على المصدر حسب ما بيناه في "قا" .

(127/730)

وقرأ سالم بن أبي الجعد ومحمد بن السَّمَيْقَع "وَأَدْبَارَ" بالفتح ، ومثله روي عن يعقوب وسلام وأيوب ؛ وهو جمع دُبْر ودُبُر .

ودُبْر الأمر ودُبُره آخره .

وروى الترمذي من حديث محمد بن فضيل ، عن رِشْدِين بن كريب عن أبيه عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إدبار النجوم الركعتان قبل الفجر وإدبار السجود الركعتان بعد المغرب " قال : حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه من حديث محمد بن فضيل عن رِشدِين بن كريب .

وسألت محمد بن إسماعيل عن محمد بن فضيل ورِشْدِين بن كريب أيهما أوثق ؟ فقال : ما أقربهما ، ومحمد عندي أرجح .

قال : وسألت عبد الله بن عبد الرحمن عن هذا فقال : ما أقربهما ، ورِشدِين بن كريب أرجحهما عندي .

قال الترمذي : والقول ما قال أبو محمد ورِشدين بن كريب عندي أرجح من محمد وأقدم ، وقدم أدرك رِشدِين ابن عباس ورآه .

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : لم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم على شيء من النوافل أشدّ معاهدة منه على ركعتين قبل الصبح .

وعنها عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها " تم تفسير سورة "والطور" والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(128/730)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) ﴾

لما تقدم إقسام الله تعالى على وقوع العذاب ، وذكر أشياء من أحوال المعذبين والناجين ، أمره بالتذكير ، إنذاراً للكافر ، وتبشيراً للمؤمن ، ودعاء إلى الله تعالى بنشر رسالته ، ثم نفى عنه ما كان الكفار ينسبونه إليه من الكهانة والجنون ، إذا كانا طريقين إلى الإخبار ببعض المغيبات ، وكان للجن بهما ملابسة للإنس .

وممن كان ينسبه إلى الكهانة شيبة بن ربيعة ، وممن كان ينسبه إلى الجنون عقبة بن أبي

معيط .

وقال الزمخشري : ﴿ فذكر ﴾ فاثبت على تذكير الناس وموعظتهم ، ولا يثبطنك قولهم كاهن أو مجنون ، ولا تبال به ، فإنه قول باطل متناقض .

فإن الكاهن يحتاج في كهانته إلى فطنة ودقة نظر ، والمجنون مغطى على عقله ؛ وما أنت ، بحمد الله تعالى وإنعامه عليك بصدق النبوة ورصافة العقل ، أحد هذين . انتهى .

وقال الحوفي : ﴿ بنعمة ربك ﴾ متعلق بما دل عليه الكلام ، وهو اعتراض بين اسم ما وخبرها ، والتقدير : ما أنت في حال إذكارك بنعمة ربك بكاهن .

قال أبو البقاء : الباء في موضع الحال ، والعامل في بكاهن أو مجنون ، والتقدير : ما أنت كاهناً ولا مجنوناً ملتبساً بنعمة ربك . انتهى .

وتكون حالاً لازمة لا منتقلة ، لأنه عليه الصلاة والسلام ما زال ملتبساً بنعمة ربه .

وقيل : ﴿ بنعمة ربك ﴾ مقسم بها ، كأنه قيل : ونعمة ربك ما أنت كاهن ولا مجنون ، فتوسط المقسم به بين الاسم والخبر ، كما تقول : ما زيد والله بقائم .

ولما نفى عنه الكهانة والجنون اللذين كان بعض الكفار ينسبونهما إليه ، ذكر نوعاً آخر مما كانوا يقولونه .

روي أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة ، وكثرت آراؤهم فيه (صلى الله عليه وسلم) ، حتى قال قائل منهم ، وهم بنو عبد الدار ، قاله الضحاك : تربصوا به ريب المنون ، فإنه شاعر سيهلك ، كما هلك زهير والنابغة والأعشى ، فافترقوا على هذه المقالة ، فنزلت الآية في ذلك .

وقول من قال ذلك هو من نقص الفطرة بحيث لا يدرك الشعر ، وهو الكلام الموزون على طريقة معروفة من النثر الذي ليس هو على ذلك المضمار ، ولا شك أن بعضهم كان يدرك ذلك ، إذ كان فيهم شعراء ، ولكنهم تمالؤوا مع أولئك الناقصي الفطرة على قولهم : هو شاعر ، حجداً الآيات الله بعد استيقانها .

وقرأ زيد بن علي : يتربص بالياء مبنياً للمفعول به ، ﴿ ريب ﴾ : مرفوع ، وريب المنون : حوادث الدهر ، فإنه لا يدوم على حال ، قال الشاعر :

تربص بها ريب المنون لعلها . . .

تطلق يوماً أو يموت حليلها

وقال الهندي :

أمن المنون وريبها تتوجع . . .

والدهر ليس بمعتب من يجزع

﴿ قل تربصوا ﴾ : هو أمر تهديد من المتربصين هلاككم ، كما تتربصون هلاكي .

﴿ أم تأمرهم أحلامهم ﴾ : عقولهم بهذا ، أي بقولهم كاهن وشاعر ومجنون ، وهو قول متناقض ، وكانت قريش تدعى أهل الأحلام والنهي .

وقيل لعمرو بن العاص : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله تعالى بالعقل ؟ فقال : تلك عقول كادها الله ، أي لم يصحبها التوفيق .

﴿ أم تأمرهم ﴾ ، قيل : أم بمعنى الهمزة ، أي أتأمرهم ؟ وقدرها مجاهد ببل ، والصحيح أنها تتقدر ببل والهمزة .

﴿ أم هم قوم طاغون ﴾ : أي مجاوزون الحدّ في العناد مع ظهور الحق .

وقرأ مجاهد : بل هم ، مكان : ﴿ أم هم ﴾ ، وكون الأحلام آمرة مجازاً لما أدت إلى ذلك ، جعلت آمرة كقوله : ﴿ أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ﴾ وحكى الثعلبي عن الخليل أنه قال : كل ما في سورة والطور من أم فاستفهام وليس بعطف .

(130/730)

تقوله : اختلقه من قبل نفسه ، كما قال : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ﴾ وقال ابن عطية : تقوله معناه : قال عن الغير أنه قاله ، فهو عبارة عن كذب مخصوص . انتهى .

﴿ بل لا يؤمنون ﴾ : أي لكفرهم وعنادهم ، ثم عجزهم بقوله تعالى : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ : أي مماثل للقرآن في نظمه ووصفه من البلاغة ، وصحة المعاني والأخبار بقصص الأمم السالفة والمغيبات ، والحكم إن كانوا صادقين في أنه تقوله ، فليقولوا هم مثله ، إذ هو واحد منهم ، فإن كانوا صادقين فليكونوا مثله في التقوّل .

فقرأ الجحدري وأبو السمّال : ﴿ بحديث مثله ﴾ ، على الإضافة : أي بحديث رجل مثل الرسول في كونه أمياً لم يصحب أهل العلم ولا رحل عن بلده ، أو مثله في كونه واحداً منهم ، فلا يجوز أن يكون مثله في العرب فصاحة ، فليأت بمثل ما أتى به ، ولن يقدر على ذلك أبداً .

﴿ أم خلقوا من غير شيء ﴾ : أي من غير شيء حي كالجماد ، فهم لا يؤمرون ولا ينهون ، كما هي الجمادات عليه ، قاله الطبري .

وقيل : ﴿ من غير شيء ﴾ : أي من غير علة ولا لغاية عقاب وثواب ، فهم لذلك لا يسمعون ولا يتشرعون ، وهذا كما تقول : فعلت كذا وكذا من غير علة : أي لغير علة ، فمن للسبب ، وفي القول الأول لابتداء الغاية .

وقال الزمخشري : ﴿ أم خلقوا ﴾ : أم أحدثوا ؟ وقدروا التقدير الذي عليه فطرتهم ؛ ﴿ من غير شيء ﴾ : من غير مقدر ، أم هم الذين خلقوا أنفسهم حيث لا يعبدون الخالق ؟ ﴿ بل لا يوقنون ﴾ : أي إذا سئلوا : من خلقكم وخلق السموات والأرض ؟ قالوا : الله ،

وهم شاكون فيما يقولون لا يوقنون .

أم خلقوا من غير رب ولا خالق ؟ أي أم أحدثوا وبرزوا للوجود من غير إله يبرزهم وينشئهم ؟ ﴿ أم هم الخالقون ﴾ لأنفسهم ، فلا يعبدون الله ، ولا يأتمرون بأوامره ، ولا ينتهون عن مناهيه .

والقسمان باطلان ، وهم يعترفون بذلك ، فدل على بطلانهم .

(131/730)

وقال ابن عطية : ثم وقفهم على جهة التوبيخ على أنفسهم ، أهم الذين خلقوا الأشياء فهم لذلك يتكبرون ؟ ثم خصص من تلك الأشياء السموات والأرض لعظمها وشرفها في المخلوقات ، ثم حكم عليهم بأنهم لا يوقنون ولا ينظرون نظراً يؤديهم إلى اليقين .

﴿ أم عندهم خزائن ربك ﴾ ، قال الزمخشري : خزائن الرزق ، حتى يرزقوا النبوة من شاءوا ، أو : أعندهم خزائن علمه حتى يختاروا لها من اختياره حكمة ومصلحة ؟ ﴿ أم هم المسيطرون ﴾ : الأرباب الغالبون حتى يدبرون أمر الربوبية ويبنوا الأمور على إرادتهم .

وقال ابن عطية : أم عندهم الاستغناء عن الله تعالى في جميع الأمور ، لأن المال والصحة

والقوة وغير ذلك من الأشياء كلها من خزائن الله تعالى .

وقال الزهراوي : وقيل يريد بالخزائن : العلم ، وهذا قول حسن إذا تؤمل وبسط .

وقال الرماني : خزائنه تعالى : مقدوراته . انتهى .

والمسيطر ، قال ابن عباس : المسلط القاهر .

وقرأ الجمهور : المصيطرون بالصاد ؛ وهشام وقنبل وحفص : بخلاف عنه بالسين ، وهو الأصل ؛ ومن أبدلها صاداً ، فلأجل حرف الاستعلاء وهو الطاء ، وأشم خلف عن حمزة ، وخلاد عنه بخلاف عنه الزاي .

﴿ أم لهم سلم ﴾ منصوب إلى السماء ، ﴿ يستمعون فيه ﴾ : أي عليه أو منه ، إذ حروف الجر قد يسد بعضها مسد بعض ، وقدره الزمخشري : صاعدين فيه ، ومفعول يستمعون محذوف تقديره : الخبر بصحة ما يدعونه ، وقدره الزمخشري : ما يوحى إلى الملائكة من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكه على هلاكهم وظفرهم في العاقبة دونه كما يزعمون .

﴿ بسلطان مبين ﴾ : أي بحجة واضحة بصدق استماعهم مستمعهم ، ﴿ أم تسألهم أجراً ﴾ على الإيمان بالله وتوحيده واتباع شرعه ، ﴿ فهم ﴾ من ذلك المغرم الثقيل اللام ﴿ مثقلون ﴾ ، فاقتضى زهدهم في اتباعك .

﴿ أم عندهم الغيب ﴾ : أي اللوح المحفوظ ، ﴿ فهم يكتبون ﴾ : أي يثبتون ذلك للناس شرع ، وذلك عبادة الأوثان وتسييب السوائب وغير ذلك من سيرهم .

(132/730)

وقيل : المعنى فهم يعلمون متى يموت محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي يتربصون به ، ويكتبون بمعنى : يحكمون .

وقال ابن عباس : يعني أم عندهم اللوح المحفوظ ، فهم يكتبون ما فيه ويخبرون .

﴿ أم يريدون كيداً ﴾ : أي بك وبشرعك ، وهو كيدهم به في دار الندوة ، ﴿ فالذين كفروا ﴾ : أي فهم ، وأبرز الظاهر تنبيهاً على العلة ، أو الذين كفروا عام فيندرجون فيه ، ﴿ هم المكيدون ﴾ : أي الذين يعود عليهم وبال كيدهم ، ويحيق بهم مكرهم ، وذلك أنهم قتلوا يوم بدر ، وسمى غلبتهم كيداً ، إذ كانت عقوبة الكيد .

﴿ أم لهم إله غير الله ﴾ يعصمهم ويدفع عنهم في صدور إهلاكهم ، ثم نزه تعالى نفسه ، ﴿ عما يشركون ﴾ به من الأصنام والأوثان .

﴿ وإن يروا كسفاً من السماء ﴾ : كانت قريش قد اقترحت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فيما اقترحت من قولهم : أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ،

فأخبر تعالى أنهم لو رأوا ذلك عياناً ، حسب اقتراحهم ، لبلغ بهم عتوهم وجهلهم أن يغالطوا أنفسهم فيما عاينوه ، وقالوا : هو سحاب مركوم ، تراكم بعضه على بعض ممطرنا ، وليس بكسف ساقط للعذاب .

﴿ فذرهم ﴾ : أمر موادعة منسوخ بآية السيف .

وقرأ الجمهور : ﴿ حتى يلاقوا ﴾ ؛ وأبو حيوة : حتى يلقوا ، مضارع لقي ، ﴿ يومهم ﴾ : أي يوم موتهم واحداً واحداً ، والصعق : العذاب ، أو يوم بدر ، لأنهم عذبوا فيه ، أو يوم القيامة ، أقوال ، ثالثها قول الجمهور ، لأن صعقته تعم جميع الخلائق .

وقرأ الجمهور : يصعقون ، بفتح الياء .

وقرأ عاصم وابن عامر وزيد بن عليّ وأهل مكة : في قول شبل بن عبادة ، وفتحها أهل مكة ، كالجمهور في قول إسماعيل .

وقرأ السلمي : بضم الياء وكسر العين ، من أصعق رباعياً .

﴿ وإن للذين ظلموا ﴾ : أي لهؤلاء الظلمة ، ﴿ عذاباً دون ذلك ﴾ : أي دون يوم القيامة وقبله ، وهو يوم بدر والفتح ، قاله ابن عباس وغيره .

وقال البراء بن عازب وابن عباس أيضاً : هو عذاب القبر .

وقال الحسن وابن زيد : مصائبهم في الدنيا .

وقال مجاهد : هو الجوع والقحط ، سبع سنين .

﴿ فإنك بأعيننا ﴾ : عبارة عن الحفظ والكلاءة ، وجمع لأنه أضيف إلى ضمير الجماعة ، وحين كان الضمير مفرداً ، أفرد العين ، قال تعالى : ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ وقرأ أبو السمال : بأعيننا ، بنون واحدة مشدّدة .

﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ ، قال أبو الأحوص عوف بن مالك : هو التسبيح المعروف ، وهو قول سبحان الله عند كل قيام .

وقال عطاء : حين تقوم من كل مجلس ، وهو قول ابن جبير ومجاهد .

وقال ابن عباس : حين تقوم من منامك .

وقيل : هو صلاة التطوع .

وقيل : الفريضة .

وقال الضحاك : حين تقوم إلى الصلاة تقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، تبارك اسمك ، وتعالى جدّك ، ولا إله غيرك .

وقال زيد بن أسلم : حين تقوم من القائلة والتسبيح ، إذ ذاك هو صلاة الظهر .

وقال ابن السائب : اذكر الله بلسانك حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل في الصلاة .

﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ : قبل صلاة المغرب والعشاء .

﴿ وأدبار النجوم ﴾ : صلاة الصبح .

وعن عمرو وعليّ وأبي هريرة والحسن : إنها النوافل ، ﴿ وأدبار النجوم ﴾ : ركعتا الفجر .

وقرأ سالم بن أبي الجعد والمنهال بن عمرو ويعقوب : وأدبار ، بفتح الهمزة ، بمعنى : وأعقاب النجوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(134/730)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً ﴾

قطعةً ﴿ مّنَ السماء ساقطا ﴾ لتعذيبِهم ﴿ يَقُولُواْ ﴾ من فرطِ طغيانِهم وعنادِهم ﴿ سحاب مَّرْكُومٌ ﴾ أي هُم في الطغيانِ بحيثُ لو أسقطناهُ عليهم حسبَما قالُوا : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السماء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ لقالُوا هذا سحابٌ تراكمَ بعضُه على بعضٍ يُمطرنا ولم يُصدّقُوا أنه كِسَفٌ ساقطٌ للعذابِ ﴿ فَذَرْهُمْ حتى يلاقوا ﴾ وقُرِىءَ حتى يلقَوا ﴿ يَوْمَهُمُ الذى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ على البناءِ للمفعول من صعقتْهُ الصّاعقةُ أو من

أصعقتْهُ . وقُرِىءَ يَصعقُون بفتحِ الياءِ والعينِ وهو يومُ يصيبُهم الصعقةُ بالقتلِ يومَ بدرٍ لا النفخةُ الأولى كما قيلَ : إذْ لا يُصعقُ بها إلا مَنْ كانَ حياً حينئذٍ ولأنَّ قولَه تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ أيْ شيئاً من الإغناءِ بدلٌ من يومَهم ولا يَخفى أنَّ التعرضَ لبيانِ عدمِ نفعِ كيدِهم يستدعِي استعمالَهم له طمعاً في الانتفاعِ به وليسَ ذلكَ إلا ما دبرُوه في أمرِه صلى الله عليه وسلم من الكيدِ الذي من جُملتِه مناصَبتُهم يومَ بدرٍ ، وأما النفخةُ الأولى فليستْ ممَّا يجري في مدافعتِه الكيدُ والحيلُ وقيل : هو يومُ موتِهم وفيهِ ما فيهِ مع ما تأباهُ الإضافةُ المنبئةُ عن اختصاصِه بهم ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ من جهةِ الغيرِ في دفعِ العذابِ عنهم ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أي لهُم ووضعُ الموصولِ موضعَ الضميرِ لما ذُكرَ من قبلُ أي وإنَّ لهؤلاءِ الظلمةِ ﴿ عَذَاباً ﴾ آخرَ ﴿ دُونَ ذَلِكَ ﴾ دُونَ ما لاقوه من القتلِ أي قبلَهُ وهو القحطُ الذي أصابَهُم سبعُ سنينَ أو وراءَهُ كما في قولِه

(135/730)

تُريكَ القَذَى منْ دُونِها وهو دونها . . . وهو عذابُ القبرِ وما بعدَهُ من فنونِ عذابِ الآخرةِ . وقُرِىءَ دونَ ذلكَ قريباً ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أنَّ الأمرَ كما ذكرنا ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ فيهم مَنْ يعلمُ ذلكَ وإنما يصرُّ على الكُفرِ عناداً أو لا يعلمونَ شيئاً أصلاً .

﴿ واصبرِ لحُكْمِ ربّكَ ﴾ بإمهالِهم إلى يومِهم الموعودِ وإبقائِك فيمَا بينَهم معَ مقاساةِ الأحزانِ ومعاناةِ الهمومِ . ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي في حفظِنا وحمايتِنا بحيثُ نراقبُكَ ونكلؤكَ ، وجمعُ العينِ لجمعِ الضميرِ والإيذانِ بغايةِ الاعتناءِ بالحفظِ ﴿ وَسَبِّحْ ﴾ أيْ نزّهه تعالَى عمَّا لا يليقُ به ملتبساً ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ على نعمائِه الفائتةِ للحصرِ ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ من أي مكانٍ قُمتَ . قال سعيدُ بنُ جُبيرٍ وعطاءٌ أيْ قُلْ حينَ تقومُ من مجلسِكَ (سبحانَكَ اللَّهم وبحمدِك) ، وقالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا : معناهُ صلِّ للهِ حينَ تقومُ من منامِك ، وقالَ الضحَّاكُ والربيعُ : " إذَا قُمتَ إلى الصَّلاةِ فقُلْ سُبحانَكَ اللَّهم وبحمدِك وتباركَ اسمُك وتعالَى جدُّك ولا إلَه غيرُكَ " وقولُه تعالَى :

﴿ وَمِنَ اللَّيلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ إفرادٌ لبعضِ الليلِ بالتسبيحِ لما أنَّ العبادةَ فيه أشقُّ على النفسِ وأبعدُ عن الرياءِ كما يلوحُ به تقديمُه على الفعلِ ﴿ وإدبار النجوم ﴾ أي وقتَ إدبارِها من آخرِ الليلِ أي غيبتِها بضوءِ الصباح ، وقيل : التسبيحُ من الليلِ صلاةُ العشاءينِ وإدبارُ النجومِ صلاةُ الفجرِ وقُرِئَ أَدبارَ النجومِ بالفتحِ أي في أعقابها إذا غربتْ أو خفيتْ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(136/730)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً ﴾

قطعة فهو مفرد وقد قرىء في جميع القرآن كسفاً وكسفاً جمعاً وإفراداً إلا هنا فإنه على الإفراد وحده ، وتنوينه للتفخيم أي وإن يروا كسفاً عظيما ﴿ مّنَ السماء ساقطا ﴾ لتعذيبهم ﴿ يَقُولُواْ ﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم ﴿ سَحَابٌ ﴾ أي هو سحاب ﴿ مَّرْكُومٌ ﴾ متراكم ملقى بعضه على بعض أي هم في الطغيان بحيث لو أسقطنا عليهم حسبما قالوا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً لقالوا هو سحاب متراكم يمطرنا ولم يصدقوا أنه كسف ساقط لعذابهم .

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ فدعهم غير مكترث بهم وهو على ما في "البحر" أمر موادعة منسوخ بآية السيف ﴿ حتى يلاقوا ﴾ وقرأ أبو حيوة يلقوا مضارع لقي ﴿ يَوْمَهُمُ الذى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ على البناء للمفعول وهي قراءة عاصم .

وابن عامر .

وزيد بن علي .

وأهل مكة في قول شبل بن عباد : من صعقته الصاعقة ، أو من أصعقته ، وقرأ الجمهور وأهل مكة في قول إسماعيل : يصعقون بفتح الياء والعين ، والسلمى بضم الياء وكسر العين من أصعق رباعياً ، والمراد بذلك اليوم يوم بدر ، وقيل : وقت النفخة الأولى فإنه يصعق فيه

من في السموات ومن في الأرض ، وتعقب بأنه لا يصعق فيه إلا من كان حياً حينئذٍ وهؤلاء ليسوا كذلك وبأن قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ أي شيئاً من الإغناء بدل من ﴿ يومهم ﴾ [الطور : 45] ، ولا يخفى أن التعرّض لبيان عدم نفع كيدهم يستدعي استعمالهم له طمعاً بالانتفاع به وليس ذلك إلا ما دبروه في أمره صلى الله عليه وسلم من الكيد الذي من جملته مناصبتهم يوم بدر ، وأما النفخة الأولى فليست مما يجري في مدافعته الكيد والحيل ، وأجيب عن الأول بمنع اختصاص الصعق بالحي فالموتى أيضاً يصعقون وهم داخلون في عموم ﴿ مِنْ ﴾ [الزمر : 68] وإن لم يكن صعقهم مثل صعق الأحياء من كل وجه وهو خلاف الظاهر فيحتاج إلى نقل صحيح ، وعن الثاني بأن الكلام على نهج قوله

(137/730)

: على لا حب لا يهتدى بمناره . . .

فالمعنى يوم لا يكون لهم كيد ولا إغناء وهو كثير في القرآن وباب من أبواب البلاغة والإحسان ، وقيل : هو يوم القيامة وعليه الجمهور وفي بحث ، وقيل : هو يوم موتهم ، وتعقب بأن فيه ما فيه مع أنه تأباه الإضافة المنبئة عن اختصاصه بهم فلا تغفل ﴿ وَلاَ هُمْ

يُنصَرُونَ ﴾ من جهة الغير في دفع العذاب عنهم .

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أي لهم ووضع الموصول موضع الضمير لما ذكر قبل وجوز العموم وهم داخلون دخولاً أولياً ﴿ عَذَاباً ﴾ آخر ﴿ دُونِ ذَلِكَ ﴾ دون ما لاقوه من القتل أي قبله وهو كما قال مجاهد القحط الذي أصابهم سبع سنين .

وعن ابن عباس هو ما كان عليهم يوم بدر والفتح ، وفسر ﴿ دُونِ ذَلِكَ ﴾ بقبل يوم القيامة بناءاً على كون يومهم الذي فيه يصعقون ذلك ، وعنه أيضاً .

وعن البراء بن عازب أنه عذاب القبر وهو مبني على نحو ذلك التفسير ، وذهب إليه بعضهم بناءاً على أن ﴿ دُونِ ذَلِكَ ﴾ بمعنى وراء ذلك كما في قوله

: يريك القذى من دونها وهو دونها . . .

وإذا فسر اليوم بيوم القيامة ونحوه ، و ﴿ دُونِ ذَلِكَ ﴾ بقبله ، وأريد العموم من الموصول فهذا العذاب عذاب القبر ، أو المصائب الدنيوية ، وفي مصحف عبد الله دون ذلك قريباً ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ إن الأمر كما ذكر ، وفيه إشارة إلى أن فيهم من يعلم ذلك وإنما يصر على الكفر عناداً ، أو لا يعلمون شيئاً .

(138/730)

﴿ واصبرِ لحُكْمِ ربّكَ ﴾ بإمهالهم إلى يومهم الموعود وإبقائك فيما بينهم مع مقاساة الأحزان ومعاناة الهموم ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي في حفظنا وحراستنا ، فالعين مجاز عن الحفظ ، ويتجوز بها أيضاً عن الحافظ وهو مجاز مشهور ، وفي "الكشاف" هو مثل أي بحيث نراك ونكلؤك ، وجمع العين هنا لإضافته إلى ضمير الجمع ووحد في ﴿ طه ﴾ لإضافته إلى ضمير الواحد ، ولوح الزمخشري في سورة المؤمنين إلى أن فائدة الجمع الدلالة على المبالغة في الحفظ كأن معه من الله تعالى حفاظاً يكلؤونه بأعينهم ، وقال العلامة الطيبي : إنه أفرد هنالك لإفراد الفعل وهو كلاءة موسى عليه السلام ، وههنا لما كان لتصبير الحبيب على المكايد ومشاق التكاليف والطاعات ناسب الجمع لأنها أفعال كثيرة كل منها يحتاج إلى حراسة منه عز وجل انتهى ، ومن نظر بعين بصيرته علم من الآيتين الفرق بين الحبيب والكليم عليهما أفضل الصلاة وأكل التسليم ، ثم إن الكلام في نظير هذا على مذهب السلف مشهور ، وقرأ أبو السمال بأعينا بنون مشددة ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي قل سبحان الله ملتبساً بحمده تعالى على نعمائه الفائتة الحصر ، والمراد سبحه تعالى واحمده ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ من كل مجلس قاله عطاء .

ومجاهد .

وابن جبير ، وقد صح من رواية أبي داود .

والنسائي .

وغيرهما عن أبي برزة الأسلمي " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا أراد أن يقوم من المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك فسئل عن ذلك فقال : كفارة لما يكون في المجلس " والآثار في ذلك كثيرة ، وقيل : حين تقوم إلى الصلاة ، أخرج أبو عبيد .

(139/730)

وابن المنذر عن سعيد بن المسيب قال : " حق على كل مسلم حين يقوم إلى الصلاة أن يقول : سبحان الله وبحمده لأن الله تعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ " وأخرج سعيد بن منصور وغيره عن الضحاك أنه قال في الآية : حين تقوم إلى صلاة تقول هؤلاء الكلمات " سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك " وحكاه في "البحر" عن ابن عباس ؛ وأخرج عنه ابن مردويه أنه قال : " سبح بحمد ربك حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل في الصلاة " وروي نحوه عن ابن السائب ، وقال زيد أسلم : " حين تقوم من القائلة والتسبيح إذ ذاك هو صلاة الظهر " وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ إفراد لبعض الليل بالتسبيح لما أن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد عن الرياء كما يلوح به تقديمه على الفعل ﴿ وإدبار النجوم ﴾ أي وقت إدبارها من

آخر الليل أي غيبتها بضوء الصباح ، وقيل : التسبيح من الليل صلاة المغرب والعشاء ، ﴿ وإدبار النجوم ﴾ ركعتا الفجر ، وعن عمر رضي الله تعالى عنه .

وعلي كرم الله تعالى وجهه .

وأبي هريرة .

والحسن رضي الله تعالى عنهما التسبيح من الليل النوافل ، و ﴿ فِى النجوم ﴾ ركعتا الفجر ، وقرأ سالم بن أبي الجعد .

والمنهار بن عمرو .

ويعقوب أدبار بفتح الهمزة جمع دبر بمعنى عقب أي في أعقابها إذا غربت ، أو خفيت بشعاع الشمس .

(140/730)

هذا ونظم الآيات من قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ أَمْ لَهُمْ إله غَيْرُ الله ﴾ [الطور : 30 43] الخ فيه غرابة ولم أر أحداً كشف عن لثامه ك "صاحب الكشف" جزاه الله تعالى خيراً ، ولغاية حسنه وكونه مما لا مزيد عليه أحببت نقله بحذافيره لكن مع اختصار مّا ، فأقول : قال : أوماً الزمخشري إلى وجهين في ذلك في قوله تعالى : ﴿

بَلْ قَالُواْ أَضغاث أَحْلاَمٍ بَلِ افتراه بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ [الأنبياء : 5] أحدهما : أنه حكاية قولهم المضطرب على وجهه ، والثاني : أنه تدرج منه سبحانه في حكاية ما قالوه من المنكر إلى ما هو أدخل فيه ، والأول ضعيف فيما نحن فيه لأن ما سيق له الكلام ليس اضطراب أقوالهم فتحكى على ما هي عليه بل تسليته عليه الصلاة والسلام وأنه لا محالة ينتقم له منهم وأن العذاب المكذب به واقع بهم جزاءاً لتكذيبهم بالمنبىء والنبأ والمنبأ به ، فالمتعين هو الثاني ، ووجهه والله تعالى أعلم أن قوله : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ [الطور : 29] معناه إذ ثبت كون العذاب واقعاً وكون الفريقين المصدقين والمكذبين مجزيين بأعمالهم ، وإنك على الحق المبين الذي من كذب به استحق الهوان ، ومن صدق استحق الرضوان فدم على التذكير ولا تبال بما تكايد فإنك أنت الغالب حجة وسيفاً في هذه الدار ، ومنزلة ورفعة في دار القرار ، ومن قوله تعالى : ﴿ فَمَا أَنتَ ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ هُمُ المكيدون ﴾ [الطور : 29 42] تفصيل هذا المجمل مع التعريض بفساد مقالاتهم الحمقاء وأنهم بمرأى من الله تعالى ومسمع فلا محالة ينتقم لنبيه عليه الصلاة والسلام منهم ، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم من الله تعالى بمكان لا يقادر قدره فهو شدّ من عضد التسلي ، وقوله سبحانه : ﴿ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ [الطور : 29] الخ فيه أن من أنعم عليه بالنبوة يستحيل أن يكون أحد هذين ، وبدأ بقولهم المتناقض لينبه أولاً على فساد آرائهم ويجعله

دستوراً في إعراضهم عن الحق وإيثار اتباع أهوائهم فما أبعد حال من كان أتقنهم رأياً وأرجحهم عقلاً وأبينهم آياً منذ ترعرع إلى أن بلغ الأشدّ عن الجنون والكهانة على أنهما متناقضان لأن الكهان كانوا عندهم من كامليهم وكان قولهم إماماً متبعاً عندهم فأين الكهانة من الجنون ، ثم ترقى مضرباً إلى قولهم فيه وحاشاه صلى الله عليه وسلم أنه شاعر لأنه أدخل في الكذب من الكاهن والمجنون وقدماً قيل : أحسن الشعر أكذبه ليبين حال تلجلجهم واضطرابهم ، وقوله تعالى :

﴿ قُلْ تَرَبَّصُواْ ﴾ [الطور : 31] من باب المجازاة بمثل صنيعهم وفيه تتميم للوعيد ، فهذا باب من إنكارهم هدمه سبحانه أولاً تلويحاً بقوله تعالى : ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ وثانياً تصريحاً بقوله جل وعلا .

(142/730)

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أحلامهم ﴾ [الطور : 32] كأنه قيل دعهم وتلك المقالة وما فيها من الاضطراب ففيها عبرة ، ثم قيل : لا بل ذلك من طغيانهم لأنه أدخل في الذم من نقصان العقل وأبلغ في التسلية لأن من طغى على الله عز وجل فقد باء بغضبه ، ثم أخذ في باب أوغل في

الإنكار وهو نسبة الافتراء إليه صلى الله عليه وسلم وذلك لأن الافتراء أبعد شيء من حاله لاشتهاره بالصدق على أن كونه افتراءاً وعجزهم عن الإتيان بأقصر سورة من هذا المفتري متنافيان لدلالته على الصدق على ما مر في الأحقاف ولأن الشاعر لا يتعمد الكذب لذاته ، ثم قد يكون شعره حكماً ومواعظ وهو لا ينسب فيه إلى عار ، والتدرج عن الشعر ههنا عكس التدرج إليه في الأنبياء لأن بناء الكلام ههنا على التدرج في المناقضة والتوغل في القدح فيه عليه الصلاة والسلام ونفي رسالته ، وهنالك عن القدح في بعض من الذكر متجدد النزول فقيل : إن افتراءه لا يبعد ممن هو شاعر ذو افتراءآت كثيرة ، وأين هذا من ذاك ؟ وللتنبيه على التوغل جيء بصريح حرف الإضراب في الرد فقيل : ﴿ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الطور : 33] وعقب بقوله تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُواْ ﴾ [الطور : 34] ثم من لا يؤمن أشد إنكاراً له من الطاغي كما أن المفتري أدخل في الكذب من الشاعر ، ثم أخذ في أسلوب أبلغ في الرد على مقالاتهم الجنون والكهانة لتقاربهما ، ثم الشعر ، ثم الافتراء حيث نزل القائلين منزلة من يدعي أنه خلق من غير شيء أي مقدر وخالق وإلا لأهمهم البحث عن صفاته وأفعاله فلم ينكروا منك ما أنكروا ، ومن حسب أنه مستغن عن الموجد نسب رسوله إلى الجنون والكهانة لا بل كمن يدعي أنه خالق نفسه فلا خالق له ليبحث عن صفاته فهو ينسبه إلى الشعر إذ لا يرسل إليه البتة ، والشعر أدخل في الكذب لا بل كمن يدعي أنه

خلق السموات والأرض وما بينهما فهو ينسبه إلى الافتراء حيث لم يرسله ، ثم أضرب صريحاً عنه بقوله تعالى : ﴿ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴾ [

(143/730)

الطور : 36] ومن لا إيقان له بمثل هذا البديهي لا يبعد أن يزنك بما زن ، فكأنه قيل : مقالتهم تلك تؤدي إلى هذه لا أنهم كانوا قائلين بها إظهاراً لتماديهم في العناد ، ثم بولغ فيه فجيء بما يدل على أن الرسول لا بد أن يكون مفترياً غير صالح للنبوة في زعمهم ، فالأول : لما لم يمنع تعدد الآلهة إنما يدل على افترائه من حيث أن أحد الخالقين لا يدعو الآخر إلى عبادته ، والثاني : يمنعه بالكلية لأنه إذا كان عندهم جميع خزائن ربه وهم ما أرسلوه لزم أن يكون مفترياً ألبتة ، وأدمج فيه إنكارهم للمعاد ، ونسبتهم إياه صلى الله عليه وسلم في ذلك أيضاً خاصة إلى الافتراء ، والحمل على خزائن القدرة أظهر لأن

(144/730)

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب ﴾ [الطور : 41] إشارة إلى خزائن العلم ولما كان المقصود هنالك أمر البعث على ما سيحقق إن شاء الله تعالى كان هذا القول أيضاً من القبول بمكان ولا يخفى ما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ هُمُ المسيطرون ﴾ [الطور : 37] من الترقي ثم لما فرغ من ذلك وبين فساد ما بنوا عليه أمر الإنكار بدليل العقل قيل : لم يبق إلا المشاهدة والسماع منه تعالى وهو أظهر استحالة فتهكم بهم ، وقيل : بل ﴿ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ ﴾ [الطور : 83] وذيل بقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُ البنات ﴾ [الطور : 39] إشعاراً بأن من جعل خالقه أدون حالاً منه لم يستبعد منه تلك المقالات الخرقاء كأنه سلى صلى الله عليه وسلم ؛ وقيل : ناهيك بتساوي الطعنين في البطلان وبما يلقون من سوء مغبتهما ، ثم قيل : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً ﴾ [الطور : 40] أي إن القوم أرباب ألباب وليسوا من تلك الأوصاف في شيء بل الذي زهدهم فيك أنك تسألهم أجراً مالاً ، أو جاهاً ، أو ذكراً ، وفيه تهكم بهم وذم لهم بالحسد واللؤم وأنهم مع قصور نظرهم عن أمر الميعاد لا يبنون الأمر على المتعارف المعتاد إذ لا أحد من أهل الدنيا وذوي الأخطار يجبه الناصح المبرأ ساحته عن لوث الطمع بتلك المقالات على أنه حسد لا موقع له عند ذويه فليسوا في أن يحصل لهم نعمة النبوة ولا هو ممن يطمع في نعمهم إحدى الثلاث ، ثم قيل : ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب ﴾ [الطور : 41] على معنى بل أعندهم اللوم فيعلمون كل ما هو كائن ويكتبون فيه تلك المعلومات وقد علموا أن ما تدعيه من المعاد ليس من الكائن المكتوب ، والمقصود من هذا نفي المنبأ به أعني البعث

على وجه يتضمن دفع النبوة أيضاً إدماجاً عكس الأول ولهذا أخره عن قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ [الطور : 38] فقد سلف أن مصب الغرض حديث النبأ والمنبأ والمنبأ به فقضى الوطر من الأولين مع الرمز إلى الأخير ، ثم أخذ فيه مع الرمز إليهما قضاءاً

(145/730)

لحق الإعجاز ، ففي الغيب إشارة إلى الغيب أعني الساعة أول كل شيء وفيه ترق في الدفع من وجه أيضاً لأن العلم أشمل مورداً من القدرة ولأن الأول إنكار من حيث أنهم لم يرسلوه ، وهذا من تلك الحيثية ، ومن حيث أنهم ما علموا بإرسال غيره إياه أيضاً مع إحاطة علمهم لكنه غير مقصود قصداً أولياً ، ثم ختم الكلام بالإضراب عن الإنكار إلى الاخبار عن حالهم بأنهم يريدون بك كيداً فهم ينصبون لك الحبائل قولاً وفعلاً لا يقفون على هذه المقالة وحدها وهم المكيدون لا أنت قولاً وفعلاً وحجة وسيفاً ، وحقق ما ضمنه من الوعيد بقوله سبحانه :

﴿ أَمْ لَهُمْ إله غَيْرُ الله ﴾ [الطور : 43] فينجيهم من كيده وعذابه لا والله سبحان الله عن أن يكون إليه غيره ، ومنه يظهر أن حمل ﴿ الذين كفروا ﴾ [الطور : 42] على المريدين به كيداً أظهر في هذا المساق انتهى ، وكأن ما بعد تأكيداً لأمر طغيانهم ومزيد

تحقيق للوعيد ومبالغة في التسلية ، ويعلم مما ذكره لا زالت رحمة الله تعالى عليه متصلة أن ﴿ أَمْ ﴾ في كل ذلك منقطعة وهي مقدرة ببل الإضرابية ، والإضراب ههنا واقع على سبيل الترقي وبالهمزة وهي للإنكار وهو ما اختاره أبو البقاء ، وكثير من المفسرين ، وحكى الثعلبي عن الخليل أنها متصلة والمراد بها الاستفهام ، وعليك بما أفاده كلام ذلك الهمام والله تعالى أعلم .

(146/730)

ومما ذكروه من باب الإشارة في بعض الآيات : ﴿ والطور ﴾ [الطور : 1] إشارة إلى قالب الإنسان ﴿ وكتاب مُّسْطُورٍ ﴾ [الطور : 2] إشارة إلى سره ﴿ فِى رَقّ مَّنْشُورٍ ﴾ إشارة إلى قلبه ﴿ البيت المعمور ﴾ [الطور : 4] إشارة إلى روحه ﴿ والسقف المرفوع ﴾ [الطور : 5] إشارة إلى صفته ﴿ والبحر المسجور ﴾ [الطور : 6] إشارة إلى نفسه المسجورة بنيران الشهوة والغضب والكبر ، وقيل : الطور إشارة إلى ما طار من الأرواح من عالم القدس والملكوت حتى وقع في شباك عالم الملك والكتاب المسطور في الرق المنشور إشارة إلى النقوش الإلهية المدركة بأبصار البصائر القدسية المكتوبة في صحائف الآفاق ﴿ والبيت المعمور ﴾ إشارة إلى قلب المؤمن المعمور بالمعرفة والإخلاص ﴿

والسقف المرفوع ﴾ إشارة إلى العالم العلوي المرفوع عن أرض الطبيعة ﴿ والبحر المسجور ﴾ إشارة إلى بحث القدرة المملوء من أنواع المقدورات التي لا تتناهى ، وقيل : إشارة إلى الفضاء الذي فيه الملائكة المهيمون ، ووصفه بالمسجور إما لأنه مملوء منهم ، وإما لأنه سجر بنيران الهيام ولذا لا يعلم أحدهم بسوى الله عز وجل ، وقيل : غير ذلك ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ الذى هُمْ فِيهِ خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ [الطور : 11 ، 12] أي يخوضون في غمران البحر اللجي الدنيوي ويلعبون فيها بزبدها الباطل ومتاعها القليل ويكذبون المستخلصين عن الأكدار المتحلين بالأنوار إذ أنذروهم أن المتقين هم أضداد أولئك ﴿ فاكهين بِمَا ءاتاهم رَبُّهُمْ ﴾ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ ووقاهم رَبُّهُمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ [الطور : 18] وهو عذاب الحجاب ﴿ كُلُواْ ﴾ من ثمرات المعارف المختصة باللطيفة النفسية ﴿ واشربوا ﴾ [الطور : 19] من مياه العيون المختصة باللطيفة القلبية ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور : 48] أي مقام العبودية ﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ ﴾ أي عند نزول

السكينة عليك ﴿ وإدبار النجوم ﴾ [الطور : 94] أي عند ظهور نور شمس الوجه ، وتسبيحه سبحانه عند ذلك بالاحتراز عن إثبات وجود غير وجوده تعالى الحق فإن إثبات ذلك شرك مطلق في ذلك المقام أعاذنا الله تعالى وإياكم من الشرك بحرمة الحبيب عليه الصلاة والسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(148/730)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾

" أم " هذه هي المنقطعة ، كما تقدّم فيما قبلها ، وكما سيأتي فيما بعدها ، أي : بل أخلقوا على هذه الكيفية البديعة ، والصنعة العجيبة من غير خالق لهم ؟ قال الزجاج : أي : أخلقوا باطلاً لغير شيء لا يحاسبون ، ولا يؤمرون ، ولا ينهون ؟ وجعل " مِنْ " بمعنى اللام . قال ابن كيسان : أم خلقوا عبثاً ، وتركوا سدًى لا يؤمرون ، ولا ينهون ؟ وقيل المعنى : أم خلقوا من غير أب ولا أمّ ، فهم كالجماد لا يفهمون ، ولا تقوم عليهم حجة ؟ ﴿ أَمْ هُمُ الخالقون ﴾ أي : بل أيقولون هم الخالقون لأنفسهم ، فلا يؤمرون ولا ينهون مع أنهم يقرّون أن الله خالقهم ؟ وإذا أقرّوا لزمتهم الحجة ﴿ أَمْ خَلَقُواْ السموات والارض ﴾ وهم لا يدّعون

ذلك ، فلزمتهم الحجة ، ولهذا أضرب عن هذا ، وقال ﴿ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴾ أي : ليسوا على يقين من الأمر ، بل يخبطون في ظلمات الشك في وعد الله ووعيده ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ أي : خزائن أرزاق العباد ، وقيل : مفاتيح الرحمة .

قال مقاتل : يقول : أبأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة ، فيضعونها حيث شاءوا ؟ وكذا قال عكرمة : وقال الكلبي : خزائن المطر والرزق ﴿ أَمْ هُمُ المصيطرون ﴾ أي : المسلطون الجبارون ، قال في الصحاح : المسيطر : المسلط على الشيء ، ليشرف عليه ، ويتعهد أحواله ، ويكتب عمله ، وأصله من السطر ؛ لأن الكتاب يسطر .

وقال أبو عبيدة : سطرت عليّ : اتخذتني خولاً لك .

قرأ الجمهور : ﴿ المصيطرون ﴾ بالصاد الخالصة ، وقرأ ابن محيصن ، وحميد ، ومجاهد ، وقنبل ، وهشام بالسين الخالصة ، ورويت هذه القراءة عن حفص ، وقرأ خلاد بصاد مشمة زاياً .

(149/730)

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أي : بل أيقولون : إن لهم سلماً منصوباً إلى السماء يصعدون به ، ويستمعون فيه كلام الملائكة ، وما يوحى إليهم ، ويصلون به إلى علم الغيب ،

كما يصل إليه محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الوحي ، وقوله : ﴿ فِيهِ ﴾ صفة لسلم ، وهي للظرفية على بابها ، وقيل : هي بمعنى على ، أي : يستمعون عليه كقوله : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] قاله الأخفش .

وقال أبو عبيدة : يستمعون به .

وقال الزجاج : المعنى : أنهم كجبريل الذي يأتي النبيّ صلى الله عليه وسلم بالوحي ، وقيل : هي في محلّ نصب على الحال ، أي : صاعدين فيه ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم ﴾ إن ادّعى ذلك ﴿ بسلطان مُّبِينٍ ﴾ أي : بحجة واضحة ظاهرة ﴿ أَمْ لَهُ البنات وَلَكُمُ البنون ﴾ أي : بل أتقولون لله البنات ولكم البنون ، سفه سبحانه أحلامهم ، وضلل عقولهم ووبخهم ، أي : أيضيفون إلى الله البنات وهي أضعف الصنفين ، ويجعلون لأنفسهم البنين ، وهم أعلاهما ، وفيه إشعار بأن من كان هذا رأيه ، فهو بمحلّ سافل في الفهم والعقل ، فلا يستبعد منه إنكار البعث وجحد التوحيد .

ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً ﴾ أي : بل أتسألهم أجراً يدفعونه إليك على تبليغ الرسالة ﴿ فَهُم مّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ أي : من التزام غرامة تطلبها منهم مثقلون ، أي : مجهودون بحملهم ذلك المغرم الثقيل .

قال قتادة : يقول : هل سألت هؤلاء القوم أجراً فجهدهم ، فلا يستطيعون الإسلام ؟ ﴿ أَمْ

عِندَهُمُ الغيب فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أي : بل أيدّعون أن عندهم علم الغيب ؟ وهو ما في اللوح المحفوظ فهم يكتبون للناس ما أرادوا من علم الغيب .

(150/730)

قال قتادة : هذا جواب لقولهم : ﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ يقول الله : أم عندهم الغيب حتى علموا أن محمداً يموت قبلهم ، فهم يكتبون ؟ قال ابن قتيبة : معنى يكتبون : يحكمون بما يقولون ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ أي : مكراً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيهلكونه بذلك المكر ﴿ فالذين كَفَرُواْ هُمُ المكيدون ﴾ أي : الممكور بهم المجزيون بكيدهم ، فضرر كيدهم يعود عليهم ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : 43] وقد قتلهم الله في يوم بدر ، وأذلهم في غير موطن ، ومكر سبحانه بهم ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ الله والله خَيْرُ الماكرين ﴾ [آل عمران : 54] ﴿ أَمْ لَهُمْ إله غَيْرُ الله ﴾ أي : بل أيدّعون أن لهم إلها غير الله يحفظهم ويرزقهم وينصرهم ؟ ! ثم نزّه سبحانه نفسه عن هذه المقالة الشنعاء فقال : ﴿ سبحان الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : عن شركهم به ، أو عن الذين يجعلونهم شركاء له .

ثم ذكر سبحانه بعض جهالاتهم ، فقال : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً مِّنَ السماء ساقطا يَقُولُواْ

سحاب مَّرْكُومٌ ﴾ الكسف جمع كسفة : وهي القطعة من الشيء ، وانتصاب ساقطاً على الحال ، أو على أنه المفعول الثاني ، والمركوم : المجعول بعضه على بعض .

والمعنى : أنهم إن يروا كسفاً من السماء ﴿ ساقطاً ﴾ عليهم لعذابهم ، لم ينتهوا عن كفرهم بل يقولون : هو سحاب متراكم بعضه على بعض ، وقد تقدّم اختلاف القرّاء في ﴿ كسفاً ﴾ ، قال الأخفش : من قرأ ﴿ كسفاً ﴾ ، يعني : بكسر الكاف وسكون السين جعله واحداً ، ومن قرأ "كسفاً" ، يعني : بكسر الكاف وفتح السين جعله جمعاً .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتركهم ، فقال : ﴿ فَذَرْهُمْ حتى يلاقوا يَوْمَهُمُ الذى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ أي : اتركهم وخلّ عنهم حتى يلاقوا يوم موتهم ، أو يوم قتلهم ببدر ، أو يوم القيامة .

(151/730)

قرأ الجمهور : ﴿ يلاقوا ﴾ وقرأ أبو حيوة (يلقوا) وقرأ الجمهور : "يصعقون" على البناء للفاعل ، وقرأ ابن عامر ، وعاصم على البناء للمفعول ، والصعقة : الهلاك على ما تقدّم بيانه ﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ هو بدل من يومهم ، أي : لا ينفعهم في ذلك اليوم كيدهم الذي كادوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

أي : ولا يمنع عنهم العذاب النازل بهم مانع ، بل هو واقع بهم لا محالة ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي : لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي عذاباً في الدنيا دون عذاب يوم القيامة ، أي : قبله ، وهو قتلهم يوم بدر .

وقال ابن زيد : هو مصائب الدنيا من الأوجاع ، والأسقام ، والبلايا ، وذهاب الأموال والأولاد .

وقال مجاهد : هو الجوع ، والجهد سبع سنين ، وقيل : عذاب القبر ، وقيل : المراد بالعذاب : هو القحط ، وبالعذاب الذي يأتي بعده : هو قتلهم يوم بدر ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ما يصيرون إليه من عذاب الله ، وما أعدّه لهم في الدنيا والآخرة .

﴿ واصبرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ إلى أن يقع لهم العذاب الذي وعدناهم به ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي : بمرأى ومنظر منا ، وفي حفظنا وحمايتنا ، فلا تبال بهم .

قال الزجاج : إنك بحيث نراك ونحفظك ، ونرعاك فلا يصلون إليك ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي : نزّه ربك عما لا يليق به متلبساً بحمد ربك على إنعامه عليك حين تقوم من مجلسك .

قال عطاء ، وسعيد بن جبير ، وسفيان الثوري ، وأبو الأحوص : يسبح الله حين يقوم من مجلسه فيقول : سبحان الله وبحمده ، أو سبحانك اللَّهمّ وبحمدك ، عند قيامه من كل

مجلس يجلسه .

وقال محمد بن كعب ، والضحاك ، والربيع بن أنس : حين تقوم إلى الصلاة .

(152/730)

قال الضحاك : يقول : الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً ، وفيه نظر ؛ لأن التكبير يكون بعد القيام لا حال القيام ، ويكون التسبيح بعد التكبير ، وهذا غير معنى الآية ، فالأوّل أولى .

وقيل المعنى : صلّ لله حين تقوم من منامك ، وبه قال أبو الجوزاء ، وحسان بن عطية .

وقال الكلبي : واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة ، وهي صلاة الفجر .

﴿ وَمِنَ اليل فَسَبِّحْهُ ﴾ أمره الله سبحانه أن يسبّحه في بعض الليل .

قال مقاتل : أي : صلّ المغرب والعشاء ، وقيل : ركعتي الفجر ﴿ وإدبار النجوم ﴾ أي : وقت إدبارها من آخر الليل ، وقيل : صلاة الفجر ، واختاره ابن جرير ، وقيل : هو التسبيح في إدبار الصلوات ، قرأ الجمهور ﴿ إدبار ﴾ بكسر الهمزة على أنه مصدر ، وقرأ سالم بن أبي الجعد ، ومحمد بن السميفع ، ويعقوب ، والمنهال بن عمر بفتحها على الجمع ،

أي : أعقاب النجوم وأدبارها : إذا غربت ، ودبر الأمر : آخره ، وقد تقدّم الكلام على هذا في سورة "قا" .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَمْ هُمُ المصيطرون ﴾ قال : المسلطون ، وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه قال : أم هم المنزلون .

وأخرجا عنه أيضاً ﴿ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ ﴾ قال : عذاب القبر قبل يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأبو داود ، والنسائي ، والحاكم ، وابن مردويه عن أبي برزة الأسلمي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بآخرة إذا قام من المجلس يقول : " سبحانك اللَّهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلاّ أنت ، أستغفرك وأتوب إليك " فقال رجل : يا رسول الله إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى ، قال : "كفارة لما يكون في المجلس "

وأخرجه النسائي ، والحاكم من حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية ، عن رافع بن خديج ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وأخرج الترمذي ، وابن جرير عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من جلس في مجلس ، فكثر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللَّهمّ وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلاّ أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، إلاّ غفر له ما كان في مجلسه ذلك " قال الترمذي : حسن صحيح .

وفي الباب أحاديث مسندة ومرسلة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ قال : حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل في الصلاة .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَمِنَ اليل فَسَبِّحْهُ ﴾ قال : " الركعتان قبل صلاة الصبح " وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وإدبار النجوم ﴾ قال : ركعتي الفجر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 101.103 ﴾

(154/730)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) ﴾

نفى الله جل وعلا عن نبيه صلى الله عليه وسلم في هاتين الآيتين الكريمتين ثلاث صفات قبيحة عن نبيه صلى الله عليه وسلم رماه بها الكفار ، وهي الكهانة والجنون والشعر ، أما دعواهم أنه كاهن أو مجنون ، فقد نفاها صريحاً بحرف النفي الذي هو ما في قوله : ﴿ فَمَآ أَنتَ ﴾ وأكد النفي بالباء في قوله : ﴿ بِكَاهِنٍ ﴾ وأما كونه شاعراً فقد نفاه ضمناً بأم المنقطعة في قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ ﴾ ، لأنها تدل على الإضراب والإنكار المتضمن معنى النفي .

وقد جاءت آيات أخر بنفي هذه الصفات عنه صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى في نفي الجنون عنه في أول القلم : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم : 22] وقوله في التكوير ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير : 22] وكقوله في نفي الصفتين الأخيرتين أعني الكهانة والشعر : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الحاقة : 41 – 42] وقد قدمنا بعضا لكلام على هذا في سورة الشعراء وغيرها .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ أي ننتظر به حوادث الدهر ، حتى يحدث له منها الموت ، فالمنون : الدهر ، وريبه : حوادثه التي يطرأ فيها الهلاك والتغيير ، والتحقيق أن الدهر هو المراد في قول أبي ذؤيب الهذلي :

أمن المنون وريبه تتوجع . . . والدهر ليس بمعتب من يجزع

لأن الضمير في قوله : وريبه يدل على أن المنون الدهر ، ومن ذلك أيضاً قول الآخر :

تربص بها ريب المنون لعلها . . . تطلق يوماً أو يموت حليلها

وقال بعض العلماء : المنون في الآية الموت ، وإطلاق المنون على الموت معروف في كلام العرب ، ومنه قول أبي الغول الطهوي :

هم منعوا حمى الوقبي بضرب . . . يؤلف بين أشتات المنون

(155/730)

لأن الذين ماتوا عند ذلك الماء المسمى بالوقبا ، جاءوا من جهات مختلفة ، فجمع الموت بينهم في محل واحد ، ولو ماتوا في بلادهم لكانت منايا هم في بلاد شتى .

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34)

قد قدمنا أن الله تحداهم بسورة واحدة من هذا القرآن في سورة البقرة في قوله : ﴿ ﴾ [ ] الآية . وفي سورة يونس في قوله تعالى ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وادعوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ الله ﴾ [البقرة : 23] الآية .

وتحداهم في سورة هود بعشر سور منه في قوله : [يونس : 38] الآية .

وتحداهم في سورة الطور هذه به كله في قوله ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله ﴾ [هود : 13] الآية .

وتحداهم في سورة الطور هذه به كله في قوله : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ الآية .

وبين في سورة بني إسرائيل أنهم لا يقدرون على شيء من ذلك في قوله : ﴿ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هذا القرآن لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ [الإسراء : 88] الآية .

وقد أطلق جل وعلا اسم الحديث على القرآن في قوله هنا : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ كما أطلق عليه ذلك في قوله ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً مُّتَشَابِهاً ﴾ [الزمر : 23] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يفترى ولكن تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [يوسف : 111] الآية .

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35)

قد قدمنا الكلام عليه وعلى الآيات المشابهة له في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى :

﴿ أَطَّلَعَ الغيب أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ [مريم : 78] .

أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38)

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ . الآية .

قد قدمنا الكلام عليه وعلى الآيات المشابهة له في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السماء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا ﴾ [الحجر : 16 – 17] الآية .

أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : [النحل : 57] ، وفي مواضع أخر متعددة .

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40)

قد قدمنا الآيات الموضحة له وما يتعلق بها من الأحكام في سورة هود في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وياقوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً ﴾ [هود : 29] الآية .

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (44)

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام : 7] الآية ، وفي غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ .

بين جل وعلا في هذه الآية أن كيد الكفار لا يغني عنهم شيئاً في الآخرة في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ الفصل جَمَعْنَاكُمْ والأولين فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ [

المرسلات : 38 - 39] .

وبين أنه لا ينفعهم في الدنيا أيضاً كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فالذين كَفَرُواْ هُمُ المكيدون ﴾ [الطور : 42] وقوله ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً ﴾ [الطارق : 15 - 16] الآية ، وقوله ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم : 44 - 45] إلى غير ذلك من الآيات .

وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (47)

(157/730)

الظاهر أن قوله ﴿ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ ﴾ هو ما عذبوا به في دار الدنيا فمن القتل وغيره ، لما دل على ذلك قوله ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ العذاب الأدنى دُونَ العذاب الأكبر ﴾ [السجدة : 21] الآية . وقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُم ﴾ [التوبة : 14] إلى غير ذلك من الآيات ، ولا مانع من دخول عذاب القبر في ذلك ، لأنه قد يدخل في ظاهر الآية ، وما قيل في معنى الآية غير هذا لا يتجه عندي . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(158/730)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (44) ﴾

عطف على جملة ﴿ أم يقولون شاعر ﴾ [الطور : 30] وما بعدها من الجمل الحالية لأقوالهم بمناسبة اشتراك معانيها مع ما في هذه الجملة في تصوير بهتانهم ومكابرتهم الدالة على أنهم أهل البهتان فلو أُرُوا كسفاً ساقطاً من السماء وقيل لهم : هذا كسف نازل كابروا وقالوا هو سحاب مركوم .

فيجوز أن يكون ﴿ كِسْفاً ﴾ تلويحاً إلى ما حكاه الله عنهم في سورة الإسراء (90 92) ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ إلى قوله : ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ﴾ وظاهر ما حكاه الطبري عن ابن زيد أن هذه الآية نزلت بسبب قولهم ذلك ، وإذ قد كان الكلام على سبيل الغرض فلا توقف على ذلك .

والمعنى : إن يروا كسفاً من السماء مما سألوا أن يكون آية على صدقك لا يذعنوا ولا يؤمنوا ولا يتركوا البهتان بل يقولوا : هذا سحاب ، وهذا المعنى مروي عن قتادة .

وهو من قبيل قوله تعالى : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ [الحجر : 14 ، 15] .

والكِسف بكسر الكاف : القطعة ، ويقال : كسفة .

وقد تقدم في سورة الإِسراء .

و﴿ من السماء ﴾ صفة ل ﴿ كسفاً ﴾ ، و ﴿ من ﴾ تبعيضية ، أي قطعة من أجزاء السماء مثل القطع التي تسقط من الشهب .

والمركوم : المجموع بعضه فوق بعض يقال : ركمه ركماً ، وهو السحاب الممطر قال تعالى : ﴿ ثم يجعله ركاماً ﴾ [النور : 43] .

/

والمعنى : أن يقع ذلك في المستقبل يقولوا سحاب ، وهذا لا يتقضي أنه يقع لأن أداة الشرط إنما تقتضي تعليق وقوع جوابها على وقوع فعلها لو وقع .

ووقع ﴿ سحاب مركوم ﴾ خبراً عن مبتدأ محذوف ، وتقديره : هو سحاب وهذا سحاب .

والمقصود : أنهم يقولون ذلك عناداً مع تحققهم أنه ليس سحاباً .

(159/730)

ولكون المقصود أن العناد شيمتهم فرع عليه أن أمر الله رسول صلى الله عليه وسلم بأن يتركهم ، أي يترك عرض الآيات عليهم ، أي أن لا يسأل الله إظهار ما اقترحوه من الآيات

لأنهم لا يقترحون ذلك طلباً للحجة ولكنهم يكابرون ، قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ [يونس : 96 ، 97] .

وليس المراد ترك دعوتهم وعرض القرآن عليهم .

ويجوز أن يكون الأمر في قوله : ﴿ فذرهم ﴾ مستعملاً في تهديدهم لأنهم يسمعونه حين يقرأُ عليهم القرآن كما يقال للذي لا يرعوي عن غيه : دعه فإنه لا يقلع .

وأفادت الغاية أنه يتركهم إلى الأبد لأنهم بعد أن يصعقوا لا تُعاد محاجتهم بالأدلة والآيات .

وقرأ الجمهور ﴿ يلاقوا ﴾ .

وقرأه أبو جعفر ﴿ يَلْقوا ﴾ بدون ألف بعد اللام .

و"اليوم الذي فيه يصعقون" هو يوم البعث الذي يصعق عنده من في السماوات ومن في الأرض .

وإضافة اليوم إلى ضميرهم لأنهم اشتهروا بإنكاره وعرفوا بالذين لا يؤمنون بالآخرة .

وهذا نظير النسب في قول أهل أصول الدين : فلان قدري ، يريدون أنه لا يؤمن بالقدر .

فالمعنى بنسبته إلى القدر أنه يخوض في شأنه ، أو لأنه اليوم الذي أوعدوه ، فالإِضافة لأدنى ملابسة .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ [الأنبياء :

103] .

والصعق : الإِغماء من خوف أو هلع قال تعالى : ﴿ وخر موسى صعقاً ﴾ [الأعراف : 143] ، وأصله مشتق من الصاعقة لأن المصاب بها يُغمى عليه أو يموت ، يقال : صَعِق ، بفتح فكسر ، وصُعِق بضم وكسر .

وقرأه الجمهور ﴿ يصعقون ﴾ بفتح المثناة التحتية ، وقرأه ابن عامر وعاصم بضم المثناة .

وذلك هو يوم الحشر قال تعالى : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء اللَّه ﴾ [الزمر : 68] ، وملاقاتهم لليوم مستعارة لوقوعه ، شُبه اليوم وهو الزمان بشخص غائب على طريقة المكنية وإثباتُ الملاقاة إليه تخييل .

(160/730)

والملاقاة مستعارة أيضاً للحلول فيه ، والإتيان بالموصول للتنبيه على خطئهم في إنكاره .

و ﴿ يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ﴾ بدل من ﴿ يومهم ﴾ [الطور : 45] وفتحته فتحة إعراب لأنه أضيف إلى مُعرب .

والإِغناء : جعل الغير غنياً ، أي غير محتاج إلى ما تقوم به حاجياته ، وإذا قيل : أغنى عنه .

كان معناه : أنه قام مقامه في دفع حاجة كان حقه أن يقوم بها ، ويتوسع فيه بحذف مفعوله لظهوره من المقام .

والمراد هنا لا يغني عنهم شيئاً عن العذاب المفهوم من إضافة ﴿ يوم ﴾ إلى ضميرهم ومن الصلة في قوله : ﴿ الذي فيه يصعقون ﴾ .

و﴿ كيدهم ﴾ من إضافة المصدر إلى فاعله ، أي ما يكيدون به وهو المشار إليه بقوله : ﴿ أم يريدون كيداً ﴾ [الطور : 42] ، أي لا يستطيعون كيداً يومئذٍ كما كانوا في الدنيا .

فالمعنى : لا كيد لهم فيغني عنهم على طريقة قول امرىء القيس:

على لاَحِبٍ لا يُهتدَى بمناره . . .

أي لا منار له فيهتدي به .

وهذا ينفي عنهم التخلص بوسائل من فعلهم ، وعطف عليه ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ لنفي أن يتخلصوا من العذاب بفعل من يخلصهم وينصرهم فانتفى نوعا الوسائل المنجية .

وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (47)

جملة معترضة والواو اعتراضية ، أي وإن لهم عذاباً في الدنيا قبل عذاب الآخرة ، وهو عذاب الجوع في سني القحط ، وعذاب السيف يوم بدر .

وفي قوله : ﴿ للذين ظلموا ﴾ إظهار في مقام الإِضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقال : وإن لهم عذاباً جرياً على أسلوب قوله : ﴿ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون ﴾ [

الطور : 45] فخولف مقتضى الظاهر لإِفادة علة استحقاقهم العذاب في الدنيا بأنها الإِشراك بالله .

وكلمة ﴿ دون ﴾ أصلها المكان المنفصل عن شيء انفصالاً قريباً ، وكثر إطلاقه على الأقل ، يقال : هو في الشرف دونَ فلان ، وعلى السابق لأنه أقرب حلولاً من المسبوق ، وعلى معنى (غير) .

(161/730)

و ﴿ دون ﴾ في هذه الآية صالحة للثلاثة الأخيرة ، إذ المراد عذابٌ في الدنيا وهو أقل من عذاب الآخرة قال تعالى : ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ [السجدة : 21] وهو أسبق من عذاب الآخرة لقوله تعالى : ﴿ دون العذاب الأكبر ﴾ ، وهو مغاير له كما هو بيّن .

ولكون هذا العذاب مستبعداً عندهم وهم يرون أنفسهم في نعمَة مستمرة كما قال تعالى : ﴿ ليقولن هذا لي ﴾ [فصلت : 50] أُكد الخبر بـ ﴿ إنّ ﴾ فالتأكيد مراعى فيه شكهم حين يسمعون القرآن ، كما دل عليه تعقيبه بقوله : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

والاستدراك الذي أفادته (لكنّ) راجع إلى مفاد التأكيد ، أي هو واقع لا محالة ولكن

أكثرهم لا يعلمون وقوعه ، أي لا يخطر ببالهم وقوعه ، وذلك من بطرهم وزهوهم ومفعول ﴿ لا يعلمون ﴾ محذوف اختصاراً للعمل به وأسند عدم العلم إلى أكثرهم دون جميعهم لأن فيهم أهْل رأي ونظر يتوقعون حلول الشر إذا كانوا في خير .

والظلم : الشرك قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] وهو الغالب في إطلاقه في القرآن .

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48)

﴿ واصبرِ لحُكْمِ ربِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

عطف على جملة ﴿ فذرهم حتى يلاقوا يومهم ﴾ [الطور : 45] الخ ، وما بينهما اعتراض وكان مفتتح السورة خطاباً للنبيء صلى الله عليه وسلم ابتداء من قوله تعالى : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ [الطور : 7] المسوق مساق التسلية له ، وكان في معظم ما في السورة من الأخبار ما يخالطه في نفسه صلى الله عليه وسلم من الكدر والأسف على ضلال قومه وبعدهم عما جاءهم به من الهدى ختمَت السورة بأمره بالصبر تسلية له وبأمره بالتسبيح وحمدِ الله شكراً له على تفضيله بالرسالة .

والمراد بـ ﴿ حكم ربك ﴾ ما حكم به وقدره من انتفاء إجابَة بعضهم ومن إبطاء إجابة أكثرهم .

فاللام في قوله : ﴿ لحكم ربك ﴾ يجوز أن تكون بمعنى (على) فيكون لتعدية فعل ﴿ اصبر ﴾ كقوله تعالى : ﴿ واصبر على ما يقولون ﴾ [المزمل : 10] .

ويجوز فيها معنى (إلى) أي اصبر إلى أن يحكم الله بينك وبينهم فيكون في معنى قوله : ﴿ واصبر حتى يحكم اللَّه ﴾ [يونس : 109] ويجوز أن تكون للتعليل فيكون ﴿ لحكم ربك ﴾ هو ما حكَم به من إرساله إلى الناس ، أي اصبر لأنك تقوم بما وجب عليك .

فللام في هذا المكان موقع جامع لا يفيد غيرُ اللام مثلَه .

والتفريع في قوله : ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ تفريع العلة على المعلول ﴿ اصبر ﴾ لأنك بأعيننا ، أي بمحل العناية والكلاءة منا ، نحن نعلم ما تلاقيه وما يريدونه بك فنحن نجازيك على ما تلقاه ونحرسك من شرهم وننتقم لك منهم ، وقد وفى بهذا كله التمثيلُ في قوله : ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ ، فإن الباء للإلصاق المجَازي ، أي لا نغفل عنك ، يقال : هو بمرأى مني ومسمع ، أي لا يخفى عليّ شأنه .

وذكر العين تمثيل لشدة الملاحظة وهذا التمثيل كناية عن لازم الملاحظة من النصر والجزاء والحفظ .

وقد آذن بذلك قوله : ﴿ لحكم ربك ﴾ دون أن يقول : واصبر لحكمنا ، أو لحكم الله ، فإن المربوبية تؤذن بالعناية بالمربوب .

وجمعُ الأعين : إما مبالغة في التمثيل كأنَّ الملاحظة بأعين عديدة كقوله : ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ﴾ [هود : 37] وهو من قبيل ﴿ والسماء بنيناها بأيد ﴾ [الذاريات : 47].

(163/730)

ولك أن تجعل الجمع باعتبار تعدد متعلَّقات الملاحظة فملاحظةٌ للذب عنه ، وملاحظة لتوجيه الثواب ورفع الدرجة ، وملاحظة لجزاء أعدائه بما يستحقونه ، وملاحظة لنصره عليهم بعموم الإيمان به ، وهذا الجمع على نحو قوله تعالى في قصة نوح : ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا ﴾ [القمر : 13 ، 14] لأن عناية الله بأهل السفينة تتعلّق بإجرائها وتجنيب الغرق عنها وسلامة ركابها واختيار الوقت لإرسائها وسلامة الركاب في هبوطهم ، وذلك خلاف قوله في قصة موسى ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ [طه : 39] فإنه تعلق واحد بمشي أخته إلى آل فرعون وقولها : ﴿ هل أدلكم على من يكفله ﴾ [طه : 40].

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اليل فَسَبِّحْهُ وإدبار النجوم ﴾ .

التسبيح : التنزيه ، والمراد ما يدل عليه من قول ، وأشهر ذلك هو قول : "سبحان الله" وما

يرادفه من الألفاظ ، ولذلك كثر إطلاق التسبيح وما يشتق منه على الصلوات في آيات كثيرة وآثار .

والباء في قوله : ﴿ بحمد ربك ﴾ للمصاحبة جمعاً بين تعظيم الله بالتنزيه عن النقائص وبين الثناء عليه بأوصاف الكمال .

و﴿ حين تقوم ﴾ وقت الهبوب من النوم ، وهو وقت استقبال أعمال اليوم وعنده تتجدد الأسباب التي من أجلها أُمر بالصبر والتسبيح والحمد .

فالتسبيح مراد به : الصلاة ، والقيام : جعل وقت للصلوات : إمّا للنوافل ، وإما لصلاة الفريضة وهي الصبح .

وقيل : التسبيح قوله : "سبحان الله" ، والقيام : الاستعداد للصلاة أو الهبوب من النوم .

وروي ذلك عن عوف بن مالك وابن زيد والضحاك على تقارب بين أقوالهم ، أي يقول القائم : "سبحان الله وبحمده" أو يقول : "سبحانك اللهم ربّنا وبحمدك ولا إله غيرك" .

(164/730)

وعن عوف بن مالك وابن مسعود وجماعة : أن المراد بالقيام القيام من المجلس لما روى الترمذي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من جلس مجلساً فكثر فيه

لَغَظُه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك " ولم يذكر أنه قرأ هذه الآية .

و﴿ من الليل ﴾ أي زمناً هو بعض الليل ، فيشمل وقت النهي للنوم وفيه تتوارد على الإنسان ذكريات مهماته ، ويشمل وقت التهجد في الليل .

وقوله : ﴿ فسبحه ﴾ اكتفاء ، أي واحمده .

وانتصب ﴿ وإدبار النجوم ﴾ على الظرفية لأنه على تقدير : ووقت إدبار النجوم .

والإِدبار : رجوع الشيء من حيث جاء لأنه ينقلب إلى جهة الدُبر ، أي الظهر .

وإدبار النجوم : سقوط طوالعها ، فإطلاق الإِدبار هنا مجاز في المفارقة والمزايلة ، أي عند احتجاب النجوم .

وفي الحديث : " إذا أقبل الليل من ههنا (الإِشارة إلى المشرق) وأدْبر النهار من ههنا (الإِشارة إلى جهة المغرب) فقد أفطر الصائم " .

وسقوط طوالعها التي تطلع : أنها تسقط في جهة المغرب عند الفجر إذا أضاء عليها ابتداء ظهور شعاع الشمس ، فإدبار النجوم : وقت السحر ، وهو وقت يستوفي فيه الإِنسان حظه من النوم ، ويبقى فيه ميل إلى استصحاب الدَّعَة ، فأمر بالتسبيح فيه ليفصل بين النوم المحتاج إليه وبين التناوم الناشىء عن التكاسل ، ثم إن وجد في نفسه بعد التسبيح حاجة إلى غفوة من النوم اضطجع قليلاً إلى أن يحين وقت صلاة الصبح ، كما كان رسول الله صلى

الله عليه وسلم يضطجع بعد صلاة الفجر حتى يأتيه المؤذن بصلاة الصبح .

والنجوم : جمع نجم وهو الكوكب الذي يضيء في الليل غير القمر ، وتقدم عند قوله تعالى :

﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ﴾ في سورة النحل (12) .

والآية تشير إلى أوقات الرغائب من النوافل وهي صلاة الفجر والأشفاع بعد العشاء وقيام آخر الليل .

وقيل : إشارت إلى الصلوات الخمس بوجه الإِجمال وبيّنتهُ السنة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(165/730)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) ﴾

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ والطور ﴾ قال : جبل .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

: " الطور من جبال الجنة " .

وأخرج ابن مردويه عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الطور جبل من جبال الجنة " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ والطور ﴾ قال : هو الجبل بالسريانية ﴿ وكتاب مسطور ﴾ قال : صحف ﴿ في رق منشور ﴾ قال : الصحيفة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ وكتاب ﴾ قال : الذكر ﴿ مسطور ﴾ قال : مكتوب .

وأخرج عبد الرزاق والبخاري في خلق أفعال العباد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ والطور وكتاب مسطور ﴾ قال : مكتوب ﴿ في رق منشور ﴾ قال : هو الكتاب .

وأخرج آدم بن أبي اياس والبخاري في خلق أفعال العباد وابن جرير والبيهقي عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وكتاب مسطور ﴾ قال : صحف مكتوبة ﴿ في رق منشور ﴾ قال : في صحف .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ في رق منشور ﴾ قال : في الكتاب .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإِيمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " البيت المعمور في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة " .

(166/730)

وأخرج ابن المنذر والعقيلي وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " في السماء بيت يقال له المعمور بحيال الكعبة ، وفي السماء الرابعة نهر يقال له الحيوان يدخله جبريل كل يوم فيغمس انغماسة ثم يخرج ، فينتفض انتفاضة يخر عنه سبعون ألف قطرة يخلق الله من كل قطرة ملكاً يؤمرون أن يأتوا البيت المعمور فيصلون فيفعلون ، ثم يخرجون فلا يعودون إليه أبداً ، ويولي عليهم أحدهم يؤمر أن يقف بهم في السماء موقفاً يسبحون الله فيه إلى أن تقوم الساعة " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " البيت المعمور في السماء يقال له الضراح على مثل البيت الحرام بحياله ، لو سقط لسقط عليه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لم يردوه قط ، وإن له في السماء حرمة على قدر حرمة مكة " .

وأخرجه عبد الرزاق في المصنف عن كريب مولى ابن عباس رضي الله عنهما مرسلاً .

وأخرج إسحاق بن راهويه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإِيمان عن خالد بن عرعرة أن رجلاً قال لعليّ رضي الله عنه : ما البيت المعمور ؟ قال : بيت في السماء يقال له الضراح ، وهو بحيال مكة من فوقها حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض ، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا يعودون إليه أبداً .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن جرير وابن الأنباري في المصاحف عن أبي الطفيل أن ابن الكوّا سأل عليّاً رضي الله عنه عن البيت المعمور ما هو ؟ قال : ذلك الضراح بيت فوق سبع سموات تحت العرش يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ والبيت المعمور ﴾ قال : هو بيت حذاء العرش يعمره الملائكة يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه .

(167/730)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك في قوله ﴿ والبيت المعمور ﴾ قال : أنزل من الجنة فكان يعمر بمكة ، فلما كان الغرق رفعه الله فهو في السماء السادسة ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك من قبيلة إبليس ثم لا يرجع إليه أحد يوماً واحداً أبداً .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمرو رفعه قال : إن البيت المعمور بحيال الكعبة لو سقط شيء منه لسقط عليها يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك والحرم حرم بحياله إلى العرش ، وما من السماء موضع إهاب إلا وعليه ملك ساجد أو قائم .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن في السماء بيتاً يقال له الضراح ، وهو فوق البيت من حياله حرمته في السماء كحرمة هذا في الأرض يلجه كل ليلة سبعون ألف ملك يصلون فيه لا يعودون إليه أبداً غير تلك الليلة .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم مكة فأرادت عائشة أن تدخل البيت فقال لها بنو شيبة : إن أحداً لا يدخله ليلاً ولكن نخليه لك نهاراً ، فدخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم ، فشكت إليه أنهم منعوها أن تدخل البيت ، فقال : " إنه ليس لأحد أن يدخل البيت ليلاً إن هذه الكعبة بحيال البيت المعمور الذي في السماء يدخل ذلك المعمور سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة لو وقع حجر منه لوقع على ظهر الكعبة " .

وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ والبيت المعمور ﴾ قال : ذكر لنا أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال يوماً لأصحابه : " هل تدرون ما البيت المعمور ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة لو خرَّ خرَّ عليها يصلي كل يوم فيه سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم " .

(168/730)

وأخرج ابن جرير عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما عرج بي الملك إلى السماء السابعة انتهيت إلى بناء فقلت للملك ما هذا ؟ قال : هذا بناء بناه الله للملائكة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يسبحون الله ويقدسونه لا يعودون إليه " .

وأخرج ابن راهويه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه البيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله ﴿ والسقف المرفوع ﴾ قال : السماء .

وأخرج أبو الشيخ عن الربيع بن أنس في قوله ﴿ والسقف المرفوع ﴾ قال : العرش ﴿ والبحر المسجور ﴾ قال : هو الماء الأعلى الذي تحت العرش .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ والسقف ﴾ قال : السماء .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب

رضي الله عنه في قوله ﴿ والبحر المسجور ﴾ قال : بحر في السماء تحت العرش .

وأخرج ابن جرير عن ابن عمرو مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ والبحر المسجور ﴾ قال : المحبوس .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ والبحر المسجور ﴾ قال : المرسل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن سعيد بن المسيب قال : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لرجل من اليهود : أين جهنم ؟ قال : هي البحر ، فقال عليّ : ما أراه إلا صادقاً وقرأ ﴿ والبحر المسجور ﴾ ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ [التكوير : 6] .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة والبيهقي في البعث والنشور عن علي بن أبي طالب قال : ما رأيت يهودياً أصدق من فلان زعم أن نار الله الكبرى هي البحر ، فإذا كان يوم القيامة جمع الله فيه الشمس والقمر والنجوم ثم بعث عليه الدبور فسعرته .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ والبحر المسجور ﴾ قال : الموقد .

وأخرج أبو الشيخ عن كعب في قوله ﴿ والبحر المسجور ﴾ قال : البحر يسجر فيصير جهنم .

وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ والبحر المسجور ﴾ قال : المملوء .

وأخرج الشيرازي في الألقاب من طريق الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء عن ذي الرمة عن ابن عباس في قوله ﴿ والبحر المسجور ﴾ قال : الفارغ ، خرجت أمة تستقي فرأت الحوض فارغاً فقالت : الحوض مسجور .

إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8)

أخرج سعيد بن منصور وابن سعد وأحمد عن جبير بن مطعم قال : قدمت المدينة في أسارى بدر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقفت إليه وهو يصلي بأصحابه صلاة المغرب فسمعته يقرأ ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ فكأنما صدع قلبي .

وأخرج أبو عبيد في فضائله عن الحسن أن عمر بن الخطاب قرأ ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ فربا لها ربوة عيد لها عشرين يوماً .

وأخرج أحمد في الزهد عن مالك بن مغول قال : قرأ عمر ﴿ والطور وكتاب مسطور في رق منشور ﴾ قال : قسم إلى قوله ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ فبكى ثم بكى حتى عيد من وجعه ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ قال : وقع القسم هنا وذاك يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ يوم تمور السماء موراً ﴾ الآيات .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ يوم تمور السماء موراً ﴾ قال : تحرك ، وفي قوله ﴿ يوم يدعون ﴾ قال : يدفعون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ يوم تمور السماء موراً ﴾ قال : تدور دوراً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم ﴾ قال : يدفع في أعناقهم حتى يردوا النار .

وأخرج سعيد بن منصور عن محمد بن كعب في قوله ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً ﴾ قال : يدفعون إليها دفعا .

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19)

(170/730)

أخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة قال : قال ابن عباس في قول الله لأهل الجنة ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ قوله هنيئاً أي لا تموتون فيها ، فعندها قالوا ﴿ أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ﴾ [الصافات : 58-59] .

أخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال : " سئل النبي صلى الله عليه وسلم ، هل تزاور أهل الجنة ؟ . قال : أي والذي بعثني بالحق إنهم ليتزاورون على النوق الدمك عليها حشايا الديباج يزور الأعلون الأسفلين ، ولا يزور الأسفلون الأعلين ، قال : هم درجات ، قال : وإنهم ليضعون مرافقهم فيتكئون ويأكلون ويشربون ويتنعمون ويتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم لا يصدّعون عنها ولا ينزفون مقدار سبعين خريفاً ، ما يرفع أحدهم مرفقه من اتكائه ، قال : يا رسول الله هل ينكحون ؟ قال : أي والذي بعثني بالحق دحاماً دحاماً وأشار بيده ، ولكن لا مني ولا منية ولا يمتخطون فيها ولا يتغوّطون رجيعهم رشح كحبوب المسك مجامرهم الالوة ، وأمشاطهم الذهب والفضة ، آنيتهم من الذهب والفضة يسبحون الله بكرة وعشياً قلوبهم على قلب رجل واحد ، لا غل بينهم ولا تباغض يسبحون الله تعالى بكرة وعشياً " .

وأخرج الحاكم وصححه عن علي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في

سننه عن ابن عباس قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقربهم عينه ، ثم قرأ ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم ﴾ الآية .

(171/730)

وأخرج البزار وابن مردويه عن ابن عباس رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله يرفع ذرية المؤمن إليه في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه ، ثم قرأ ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ قال : وما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وذريته وولده ، فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك ، فيقول : يا رب قد عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به " وقرأ ابن عباس ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم ﴾ الآية ، قال : هم ذرية المؤمن يموتون على الإِسلام ، فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم لحقوا بآبائهم ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوا شيئاً .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إن المؤمنين وأولادهم في الجنة ، وإن المشركين وأولادهم في النار ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم ﴾ " الآية .

وأخرج هناد وابن المنذر عن إبراهيم في الآية قال : أعطي الآباء مثل ما أعطي الأبناء وأعطي الأبناء مثل ما أعطي الآباء .

وأخرج ابن المنذر عن أبي مجلز في الآية قال : يجمع الله له ذريته كما يحب أن يجمعوا له في الدنيا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم عن ابن عباس في قوله ﴿ وما ألتناهم ﴾ قال : ما نقصناهم .

وأخرج الفريابي عن ابن عباس في قوله ﴿ وما ألتناهم ﴾ قال : لم ننقصهم من عملهم شيئاً .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ وما ألتناهم ﴾ يقول : وما ظلمناهم .

يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (23)

أخرج عبد الرزاق عن ابن جريج في قوله ﴿ يتنازعون فيها كأساً ﴾ قال : الرجل وأزواجه وخدمه يتنازعون أخذه من خدمة الكأس ومن زوجته وأخذ خدمة الكأس منه ومن زوجته .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ لا لغو فيها ﴾ يقول : لا باطل فيها ﴿ ولا تأثيم ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ لا لغو فيها ﴾ قال : لا يستبون ﴿ ولا تأثيم ﴾ قال : لا يغوون .

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ كأنهم لؤلؤ مكنون ﴾ قال : الذي لم تمر عليه الأيدي .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر " عن قتادة في قوله ﴿ كأنهم لؤلؤ مكنون ﴾ قال : بلغني أنه قيل : يا رسول الله هذا الخدم مثل اللؤلؤ فكيف بمخدوم ؟ قال : " والذي نفسي بيده إن فضل ما بينهما كفضل القمر ليلة البدر على النجوم " وفي لفظ لابن جرير " إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب " " .

وأخرج الترمذي وحسنة وابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر ، يطوف عليّ ألف خادم ﴿ كأنهم لؤلؤ مكنون ﴾

" .

قوله تعالى : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ الآيات .

أخرج البزار عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإِخوان فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا ، فيتحدثان فيتكىء ذا ويتكىء ذا فيتحدثان بما كانا في الدنيا ، فيقول أحدهما لصاحبه يا فلان تدري أي يوم غفر الله لنا ، يوم كنا في موضع كذا وكذا فدعونا الله فغفر لنا " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ﴾ قال : في الدنيا .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ ووقانا عذاب السموم ﴾ قال : وهج النار .

وخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو فتح الله من عذاب السموم على أهل الأرض مثل الأنملة أحرقت الأرض ومن عليها " .

(173/730)

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإِيمان عن عائشة أنها قرأت هذه الآية ﴿ فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم إنا كنا من قبل

ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾ فقالت : اللهم منَّ علينا وقنا عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم وذلك في الصلاة .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن المنذر عن أسماء أنها قرأت هذه الآية فوقعت عليها فجعلت تستعيذ وتدعو .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ إنه هو البر ﴾ قال : اللطيف .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ إنه هو البر ﴾ قال : الصادق .

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30)

أخرج ابن إسحق وابن جرير عن ابن عباس أن قريشاً لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي صلى الله عليه وسلم قال قائل منهم : احبسوه في وثاق ، وتربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء زهير والنابغة ، إنما هو كأحدهم فأنزل الله في ذلك من قولهم ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ريب المنون ﴾ قال : الموت .

وأخرج ابن الأنباري في الوقت والابتداء عن ابن عباس قال : ريب : شك ، إلا مكاناً واحداً في الطور ﴿ ريب المنون ﴾ يعني حوادث الأمور ، قال الشاعر :

تربص بها ريب المنون لعلها . . . تطلق يوماً أو يموت حليلها

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ريب المنون ﴾ قال : حوادث الدهر ، وفي قوله ﴿ أم هم قوم طاغون ﴾ قال : بل هم قوم طاغون .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ أم تأمرهم أحلامهم ﴾ قال : العقول .

(174/730)

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ قال : مثل القرآن ، وفي قوله : ﴿ فليأت مستمعهم ﴾ قال : صاحبهم ، وفي قوله ﴿ أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ﴾ يقول : أسألت هؤلاء القوم على الإِسلام أجراً فمنعهم من أن يسلموا الجعل ، وفي قوله ﴿ أم عندهم الغيب ﴾ قال : القرآن .

وأخرج البخاري والبيهقي في الأسماء والصفات عن جبير بن مطعم رضي الله عنه : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ الآيات ، كاد قلبي أن يطير .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله ﴿ أم هم المسيطرون ﴾ قال :

المسلطون .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ أم هم المسيطرون ﴾ قال : أم هم المنزلون والله تعالى أعلم .

وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (47)

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ﴾ قال : عذاب القبر قبل يوم القيامة .

وأخرج هناد عن زاذان مثله .

وأخرج ابن جرير عن قتادة أن ابن عباس قال : إن عذاب القبر في القرآن ، ثم تلا ﴿ وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ﴾ قال : الجوع لقريش في الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ .

أخرج الفريابي وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ قال : من كل مجلس .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي الأحوص رضي الله عنه في قوله ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ قال : إذا قمت فقل : سبحان الله وبحمده .

وأخرج عبد الرزاق في جامعه عن أبي عثمان الفقير رضي الله عنه أن جبريل علم النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من مجلسه أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي والحاكم وابن مردويه عن أبي برزة الأسلمي قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بآخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك ، فقال رجل يا رسول الله : إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى ، قال : كفارة لما يكون في المجلس " .

وأخرج ابن أبي شيبة " عن زياد بن الحصين قال : دخلت على أبي العالية ، فلما أردت أن أخرج من عنده قال : ألا أزودك كلمات علمهن جبريل محمداً صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : بلى ، قال : فإنه لما كان بآخرة كان إذا قام من مجلسه قال : " سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، فقيل : يا رسول الله ما هؤلاء الكلمات التي تقولهن ؟ قال : هن كلمات علمنيهن جبريل كفارات لما يكون في المجلس " " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن يحيى بن جعدة قال : كفارة المجلس سبحانك وبحمدك أستغفرك

وأتوب إليك .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن الضحاك في قوله ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ قال : حين تقوم إلى الصلاة تقول هؤلاء الكلمات : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن سعيد بن المسيب قال : حق على كل مسلم حين يقوم إلى الصلاة أن يقول : سبحان الله وبحمده لأن الله يقول لنبيه ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ قال : حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل في الصلاة والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ .

(176/730)

أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن الليل فسبحه وإدبار النجومِ ﴾ قال : الركعتان قبل صلاة الصبح .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وإدبار النجوم ﴾ قال : ركعتي

الفجر .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله ﴿ وإدبار النجوم ﴾ قال : صلاة الغداة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ 626.638 ﴾

(177/730)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ والطور ﴾

أقسم الله تعالى بالجبل وكل جبل فهو طور بلغة النبط .

ويقال : بلغة السريانية .

ولكن عني به الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام بمدين .

ثم قال : ﴿ وكتاب مَّسْطُورٍ ﴾ يعني : في اللوح المحفوظ .

ويقال : أعمال بني آدم ﴿ فِى رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴾ يعني : في صحيفة منشورة ، كما قال : ﴿ وَكُلَّ إنسان ألزمناه طائره فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَابًا يلقاه مَنْشُوراً ﴾ [الإسراء : 13] يعني : مفتوحاً يقرؤونه .

ويقال : ﴿ كِتَابٌ مَّسْطُورٍ ﴾ يعني : القرآن .

﴿ فِى رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴾ يعني : المصاحف .

ويقال : في اللوح المحفوظ .

ثم قال : ﴿ والبيت المعمور ﴾ وهو في السماء السابعة .

ويقال : في السماء السادسة ويقال : في السماء الرابعة .

وروى وكيع بإسناده عن علي ، وابن عباس في قوله : ﴿ والبيت المعمور ﴾ قالا : هو بيت في السماء حيال الكعبة ، يزوره كل يوم سبعون ألف ملك ، ولا يعودون إليه إلى يوم القيامة .

قال بعضهم : بناه الملائكة قبل أن يخلق آدم عليه السلام وقال بعضهم : هو البيت الذي بناه آدم بمكة ، فرفعه الله تعالى في أيام الطوفان إلى السماء بحيال الكعبة .

وقال بعضهم : أنزل الله بيتاً من ياقوتة في زمان آدم عليه السلام ووضع بمكة ، فكان آدم يطوف به وذريته من بعده إلى زمن الطوفان ، فرفع إلى السماء ، وهو ﴿ البيت المعمور ﴾ طوله كما بين السماء والأرض .

ثم قال : ﴿ والسقف المرفوع ﴾ يعني : السماء المرتفعة من الأرض مقدار خمسمائة عام ﴿ والبحر المسجور ﴾ يعني : البحر الممتلىء تحت العرش ، وهو بحر مكفوف .

يقال له : الحيوان يحيي الله به الموتى يوم القيامة ، فأقسم الله تعالى بهذه الأشياء .

ويقال : أقسم بخالق هذه الأشياء ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ يعني : العذاب الذي أوقع الكفار فهو كائن ﴿ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ يعني : لا يقدر أحد أن يرفع عنهم العذاب .

ثم بيّن أن ذلك العذاب في أي يوم يكون فقال : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السماء مَوْراً ﴾ يعني : تدور السماء بأهلها دوراً ، وتموج بعضهم في بعض من الخوف .

صار اليوم نصباً لنزع الخافض .

ومعناه : أن عذاب ربك لواقع في ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السماء مَوْراً ﴾ يعني : في يوم القيامة ﴿ وَتَسِيرُ الجبال سَيْراً ﴾ يعني : ﴿ تسير ﴾ على وجه الأرض ﴿ الجبال سَيْراً ﴾ مثل السحاب حتى تستوي بالأرض ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ الشدة من العذاب ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يعني : يوم القيامة ﴿ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بيوم القيامة .

ثم نعتهم فقال : ﴿ الذين هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ يعني : في باطل يلهون ، ويستهزئون .

قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ يعني : تدفعهم خزنة جهنم .

ويقال : ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ يعني : يزعجون إليها إزعاجاً شديداً ، ويدفعون دفعاً عنيفاً .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَذَلِكَ الذى يَدُعُّ اليتيم ﴾ [الماعون : 2] أي : يدفع عما يجب .

ويقال : دعاً يعني : دفعاً على وجوههم يجرون ، فإذا دنوا منها ، قالت لهم الخزنة : ﴿ هذه النار التى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ يعني : لم تصدقوا بها ، ولم تأمنوا بها في الدنيا .

﴿ أَفَسِحْرٌ هذا ﴾ العذاب الذي ترون لأنفسكم ، لأنكم قلتم في الدنيا للرسول ساحراً ، ومجنون .

﴿ أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ النار .

ويقال : بل أنتم لا تعقلون .

ثم قال لهم : ﴿ اصلوها ﴾ يعني : ادخلوا فيها ﴿ فاصبروا أَوْ لاَ تَصْبِرُواْ ﴾ يعني : فإن صبرتم ، أو لم تصبروا ، فهو ﴿ سَوَاء عَلَيْكُمْ ﴾ اللفظ لفظ الأمر ، المراد به الخبر .

(179/730)

يعني : إن صبرتم أو لم تصبروا ، فلا تنجون منها أبداً ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من الكفر والتكذيب .

ثم بيّن حال المتقين فقال : ﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات ﴾ يعني : الذين يتقون الشرك ، والفواحش في بساتين ﴿ وَنَعِيمٍ فاكهين ﴾ يعني : معجبين .

ويقال : ناعمين .

ويقال : فرحين .

﴿ بِمَا ءاتاهم رَبُّهُمْ ﴾ في الجنة من الكرامة ﴿ ووقاهم رَبُّهُمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ يعني : دفع عنهم عذاب النار .

ويقول لهم الخزنة : ﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ يعني : كلوا من ألوان الطعام ، والثمار ، واشربوا من ألوان الشراب ، ﴿ هَنِيئاً ﴾ يعني : لا داء ، ولا غائلة فيه ، ولا يخاف في الأكل ، والشرب ، من الآفات ما يكون في الدنيا ، ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني : هذا الثواب لأعمالكم التي عملتم في الدنيا .

ثم قال : ﴿ مُتَّكِئِينَ على سُرُرٍ ﴾ يعني : نائمين على سرر ﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ قد صف بعضها إلى بعض ، فكانوا على سرر ، وكل من كان ، اشتاق إلى صديقه يلتقيان .

قوله تعالى : ﴿ وزوجناهم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ يعني : بيض الوجوه .

العين : حسان الأعين .

قوله تعالى : ﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ يعني : صدقوا بالله ، ورسوله ، وصدقوا بالبعث ﴿ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بإيمان أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ يعني : ألحقناهم ذرياتهم .

قرأ أبو عمرو : ﴿ وأتبعناهم ﴾ ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ﴾ الثلاثة كلها بالألف .

وقرأ نافع : اثنان بغير ألف ، والآخر : بالألف .

وقرأ ابن عامر الأول : بغير ألف .

والآخران : بالألف .

والباقون : كلها ألف .

فمن قرأ : ﴿ اتبعناهم ﴾ معناه : ألحقناهم .

يعني : الذين آمنوا ، وجعلنا ذريتهم مؤمنين ، ألحقنا بهم ذريتهم في الجنة في درجتهم .

ومن قرأ : ﴿ ءامَنُواْ واتبعتهم ﴾ بغير ألف ، يعني : ذريتهم معهم .

ومن قرأ ﴿ ذرياتهم ﴾ بالألف ، فهو جمع الذرية .

ومن قرأ : بغير ألف ، فهو عبارة عن الجنس ، ويقع على الجماعة أيضاً .

(180/730)

وقال مقاتل : معناه الذين أدركوا مع آبائهم ، وعملوا خيراً في الجنة ، ألحقنا بهم ذريتهم الصغار الذين لم يبلغوا العمل ، فهم معهم في الجنة .

ويقال : إن أحدهم إذا كان أسفل منه ، يلحق بهم ، لكي تقر عينه .

وروى سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : يرفع الله المسلم ذريته وإن كانوا دونه في العمل ، لتقر بهم عينه .

ثم قال : ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتناهم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ يعني : ما نقصناهم من عمل الآباء

إذا كانوا مع الأبناء ، حتى يبلغ بهم ذريتهم ، من غير أن ينقص من أجر أولئك شيئاً ، ولا من ذريتهم .

﴿ كُلُّ امرىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ يعني : كل نفس مرتهنة بعملها يوم القيامة .

ثم رجع إلى صفة المتقين في التقديم ، وكرامتهم ، قوله تعالى : ﴿ وأمددناهم بفاكهة ﴾ يعني : أعطيناهم من ألوان الفاكهة ﴿ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ يعني : يتمنون .

قرأ ابن كثير : ﴿ ألتناهم ﴾ بكسر اللام ، وهي لغة لبعض العرب .

واللغة الظاهرة : بالفتح ، وهي من آلت يألت وهو النقصان .

قوله عز وجل : ﴿ يتنازعون فِيهَا كَأْساً ﴾ يعني : يتعاطون في الجنة .

تعطيهم الخدم قدح الشراب ، ولا يكون كأساً إلا مع الشراب ، ﴿ لاَّ لَغْوٌ فِيهَا ﴾ يعني : لا باطل في الجنة ﴿ وَلاَ تَأْثِيمٌ ﴾ يعني : لا إثم في شرب الخمر .

ويقال : ﴿ لا تَأْثِيمٌ ﴾ يعني : لا تكذيب فيما بينهم .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : ﴿ لا لَغْواً فِيهَا ﴾ بنصب الواو ، ﴿ وَلاَ تَأْثِيماً ﴾ بنصب الميم .

والباقون : بالضم مع التنوين .

فمن قرأ : بالنصب ، فهو على التبرئة .

ومن قرأ : بالضم ، فهو على معنى الخبر .

يعني : ليس فيها لغو ولا تأثيم ، كما قال : ﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات : 47] .

(181/730)

ثم قال عز وجل : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ يعني : في الحسن ، والبياض ، مثل اللؤلؤ في الصدف لم تمسه الأيدي ، ولم تره الأعين .

وروى سعيد ، عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلاً قال : يا نبي الله هذا الخادم ، فكيف المخدوم ؟ فقال : والذي نفسي بيده ، إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر ، على سائر الكواكب .

ثم قال : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ يعني : يتحدثون ، ويتساءلون في الجنة عن أحوالهم التي كانت في الدنيا .

ثم يقول : صرت إلى هذه المنزلة الرفيعة .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ ﴾ يعني : في الدنيا ﴿ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ يعني : خائفين من العذاب .

ثم قال : ﴿ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ يعني : من علينا بالمغفرة ، والرحمة .

﴿ ووقانا عَذَابَ السموم ﴾ يعني : دفع عنا عذاب النار .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ يعني : في الدنيا ندعو الرب ﴿ إِنَّهُ هُوَ البر ﴾ الصادق في قوله ، وفيما وعد لأوليائه .

ويقال : ﴿ البر ﴾ بمعنى النار ﴿ الرحيم ﴾ قرأ نافع ، والكسائي : أنه بالنصب .

ومعناه : إنا كنا من قبل ندعوه بأنه هو البر .

وقرأ الباقون : بالكسر على معنى الاستئناف .

ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يعظ الناس ولا يبالي في قولهم .

فقال عز وجل : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ يعني : فعظ بالقرآن ﴿ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ يعني : برحمة ربك .

ويقال : هو كقوله : ما أنت بحمد الله مجنون .

وقال أبو سهل : متعظ بالقرآن ، ولست أنت والحمد لله ﴿ بكاهن وَلاَ مَجْنُونٍ ﴾ ويقال : فذكر .

يعني : ذكرهم بما أعتدنا للمؤمنين المتقين ، وبما أعتدنا للضالين الكافرين ﴿ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بكاهن وَلاَ مَجْنُونٍ ﴾ يعني : لست تقول بقول الكهنة ، ولا تنطق إلا بالوحي .

ثم قال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ ﴾ يعني : أيقولون هو شاعر يأتي من قبل نفسه ، وهو قول الوليد بن المغيرة ، وأبي جهل ، وأصحابهما .

﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ يعني : أوجاع الموت ، وحوادثه .

قال قتادة : ﴿ رَيْبَ المنون ﴾ الموت .

وقال مجاهد : ﴿ رَيْبَ المنون ﴾ حوادث الدهر .

وقال القتبي : حوادث الدهر ، وأوجاعه ، ومصايبه .

ويقال : إنهم كانوا يقولون : قد مات أبوه شاباً ، وهم ينتظرون موته ﴿ قُلْ تَرَبَّصُواْ ﴾ يعني : انتظروا هلاكي ﴿ فَإِنِّى مَعَكُمْ مِّنَ المتربصين ﴾ وذكر في التفسير ، أن الذين قالوا هكذا ماتوا كلهم قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أحلامهم بهذا ﴾ يعني : أتأمرهم عقولهم ، وتدلهم على التكذيب ، والإيذاء بمحمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ يعني : بل هم قوم عاتون في معصية الله تعالى .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ يعني : أيقولون أن محمداً صلى الله عليه وسلم يقول من ذات نفسه .

واللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به الزجر والوعيد .

ثم قال : ﴿ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : لا يصدقون بالرَّسول ، والكتاب ، عناداً وحسداً

منهم .

قوله عز وجل : ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ يعني : إن قلتم إن محمداً صلى الله عليه وسلم يقول : من ذات نفسه ، فأتوا بمثل هذا القرآن كما جاء به ﴿ إِن كَانُواْ صادقين ﴾ في قولهم .

ثم قال : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ يعني : من غير رب .

كانوا هكذا خلقاً من غير شيء .

ومعناه : كيف لا يعتبرون بأن الله تعالى خلقهم ، فيوحدونه ، ويعبدونه .

ويقال : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ يعني : لغير شيء .

ومعناه : أخلقوا باطلاً لا يحاسبون ، ولا يؤمرون ، ولا ينهون .

ثم قال : ﴿ أَمْ هُمُ الخالقون ﴾ يعني : أهم خلقوا الخلق ؟ أم الله تعالى ؟ ومعناه : أن الله تعالى خلق الخلق ، وهو الذي يبعثهم يوم القيامة .

(183/730)

ثم قال : ﴿ أَمْ خَلَقُواْ السموات والأرض ﴾ يعني : بل الله تعالى خلقهم ﴿ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴾ بتوحيد الله الذي خلقهما ، أنه واحد لا شريك له .

ثم قال ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ يعني : مفاتيح رزق ربك .

ويقال : مفاتيح ربك الرسالة ، فيضعونها حيث شاؤوا ، ولكن الله يختار من يشاء ، كقولهم : ﴿ أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ [القمر : 25] .

ثم قال : ﴿ أَمْ هُمُ المسيطرون ﴾ يعني : أهم المسلطون عليهم ، يحملونهم حيث شاؤوا على الناس ، فيجبرونهم بما شاؤوا .

قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، والكسائي ، في إحدى الروايتين : ﴿ المسيطرون ﴾ بالسين .

والباقون : بالصاد .

وقرأ حمزة : ﴿ المزيطرون ﴾ بإشمام الزاء .

وقال الزجاج : تسيطر علينا ، وتصيطر .

وأصله السين ، وكل سين بعدها طاء ، يجوز أن تقلب صاداً ، مثل مسيطر ، ويبسط .

ثم قالوا : ﴿ المسيطرون أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ يعني : سبباً إلى السماء ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ يعني : يرتقون عليه ، فيستمعون القول من رب العالمين ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بسلطان مُّبِينٍ ﴾ أي : بحجة بينة .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَمْ لَهُ البنات وَلَكُمُ البنون ﴾ .

ثم بيّن جهلهم ، وقلة أحلامهم ، أنهم يجعلون لله ما يكرهون لأنفسهم .

قال عز وجل : ﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً ﴾ ومعناه : أن الحجة واجبة عليهم من كل وجه ، لأنك

قد أتيتهم بالبيان والبرهان ، ولم تسألهم على ذلك أجراً .

فقال : ﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ ﴾ يعني : أتطلب منهم ﴿ أَجْراً ﴾ بما تعلمهم من الأحكام ، والشرائع .

﴿ فَهُم مّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ يعني : من أجل المغرم ، يمتنعون عن الإيمان .

يعني : لا حجة لهم في الامتناع ، لأنك لا تسأل منهم أجراً ، فيثقل عليهم لأجل الأجر .

(184/730)

قوله عز وجل : ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب ﴾ يعني : عندهم الغيب بأن الله لا يبعثهم ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ يعني : أمعهم كتاب يكتبون بما شاؤوا ؟ يعني : ما في اللوح المحفوظ ، فهذا كله لفظ الاستفهام ، والمراد به : الزجر .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ بل يريدون وعيداً بالنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فالذين كَفَرُواْ هُمُ المكيدون ﴾ يعني : بل هم المعذبون ، الهالكون .

قوله عز وجل : ﴿ أَمْ لَهُمْ إله غَيْرُ الله ﴾ يعني : ألهم خالق غير الله يخلق ، ويرزق ، ويمنعهم من عذابنا ﴿ سبحان الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يعني : تنزيهاً لله تعالى عما يصفون من الشريك ، والولد .

ثم ذكر قسوة قلوبهم فقال : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً مِّنَ السماء ساقطا ﴾ يعني : جانباً من السماء ساقطاً عليهم ﴿ يَقُولُواْ ﴾ يعني : لقالوا من تكذيبهم ﴿ سحاب مَّرْكُومٌ ﴾ يعني : متراكماً بعضه على بعض ، لأنهم كانوا يقولون : لا نؤمن بك حتى تسقط علينا كسفاً .

ثم قال الله تعالى : لو فعلنا ذلك ، لم يؤمنوا ، ولا ينفعهم من قسوة قلوبهم .

ثم قال : ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ يعني : فتخل عنهم يا محمد ﴿ حتى يلاقوا يَوْمَهُمُ ﴾ يعني : يعاينوا يومهم ﴿ الذى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ يعني : يموتون .

ويقال : يعذبون .

قرأ عاصم ، وابن عامر ، ﴿ يُصْعَقُونَ ﴾ بضم الياء والباقون .

﴿ يُصْعَقُونَ ﴾ بنصب الياء ، وكلاهما واحد ، وهما لغتان .

ثم وصف حالهم في ذلك اليوم فقال : ﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ يعني : لا ينفعهم صنيعهم شيئاً ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ يعني : لا يمنعون مما نزل بهم من العذاب .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ ﴾ يعني : من قبل عذاب النار قد روى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : عذاب القبر وقال معمر عن قتادة : قال : عذاب القبر في القرآن .

ثم قرأ ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ ﴾ ويقال ﴿ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ ﴾ يعني : القتل .

ويقال : الشدائد ، والعقوبات في الدنيا .

﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : لا يصدقون بالعذاب .

ثم عزى نبيه صلى الله عليه وسلم ليصبر على أذاهم فقال : ﴿ واصبِرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ يعني : لما أمرك ربك ، ونهاك عنه .

ويقال : واصبر على تكذيبهم ، وأذاهم .

﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ يعني : فإنك بمنظر منا ، والله تعالى يرى أحوالك ، ولا يخفى عليه شيء .

وقال الزجاج : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمعنى فإنك بحيث نراك ، ونحفظك ، ولا يصلون إلى مكرك .

ويقال : نرى ما يصنع بك .

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ يعني : صل بأمر ربك قبل طلوع الشمس .

يعني : صلاة الفجر وقبل الغروب .

يعني : صلاة العصر .

﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ ﴾ يعني : صل صلاة المغرب والعشاء ويقال : حين تقوم صلاة الفجر ، والظهر ، والعصر .

ومعناه : صل صلاة النهار ، وصلاة الليل .

ويقال : ﴿ سَبِّحِ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ يعني : قل سبحانك اللهم وبحمدك إذا قمت إلى الصلاة وهذا قول ربيع بن أنس .

﴿ وإدبار النجوم ﴾ يعني : ركعتي الفجر .

وروى سعيد بن جبير ، عن زاذان ، عن عمر رضي الله عنه : لا صلاة بعد طلوع الفجر ، إلا ركعتي الفجر ، وهما إدبار النجوم .

وروى أبو إسحاق ، عن الحارث ، عن علي رضي الله عنه قال : ﴿ والركع السجود ﴾ الركعتان بعد المغرب ، ﴿ وإدبار النجوم ﴾ الركعتان قبل الفجر .

وروى وكيع عن ابن عباس أنه قال : بت ذات ليلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصلى ركعتي الفجر ، ثم خرج إلى الصلاة .

(186/730)

فقال ابن عباس : الركعتان اللتان قبل الفجر ، ﴿ فِى النجوم ﴾ واللاتي بعد المغرب ﴿ والركع السجود ﴾ وفي الآية ، دليل على أن تأخير صلاة الفجر أفضل ، لأنه أمر بركعتي الفجر بعد ما أدبرت النجوم ، وإنما أدبرت النجوم بعد ما أسفر ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 332 ـ 338 ﴾

(187/730)

وقال الثعلبى :

﴿ والطور ﴾

كل جبل طور ، لكنّه سبحانه عنى بالطور ها هنا الجبل الذي كلّم عليه موسى بالأرض المقدّسة ، وهي بمدين واسمه زبير ، وقال مقاتل بن حيان : هما طوران يقال لأحدهما : طور تينا ، وللآخر طور زيتونا ؛ لأنهما ينبتان التين والزيتون .

﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴾ مكتوب .

﴿ فِي رَقٍّ ﴾ جلد ﴿ مَّنْشُورٍ ﴾ وهو الصحيفة ، واختلفوا في هذا الكتاب ما هو ؟ فقال الكلبي : هو كتاب الله سبحانه بيد موسى عليه السلام من التوراة ، وموسى يسمع صرير القلم ، وكان كلّما مرّ القلم بمكان خرقه إلى الجانب الآخر ، فكان كتاباً له وجهان ،

وقيل : اللوح المحفوظ (وهو) دواوين الحفظة ، تخرج إليهم يوم القيامة منشورة ؛ فآخذٌ بيمينه وآخذٌ بشماله ، دليله ونظيره قوله سبحانه : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ﴾ [الإسراء : 13] وقوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا الصحف نُشِرَتْ ﴾ [التكوير : 10] ، وقيل : هو ما كتب الله تعالى في قلوب أوليائه من الإيمان ، بيانه : اولئك كتب في قلوبهم الإيمان ، وقيل : هو ما كتب الله تعالى للخلق من السابقة والعاقبة .

﴿ والبيت المعمور ﴾ بكثرة الحاشية والأهل ، وهو بيت في السماء السابعة ، حذاء العرش ، حيال الكعبة ، يقال له : الضراح ، حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض ، يدخله كل يوم سبعون ألف من الملائكة ، يطوفون به ويصلون فيه ، ثم لا يعودون إليه أبداً ، وخازنه ملك يقال له : [الجن] .

وقيل : كان البيت المعمور من الجنّة ، حُمل إلى الأرض لأجل آدم عليه السلام ، ثم رفع إلى السماء أيام الطوفان .

(188/730)

أخبرنا الحسين بن محمد ، قال : حدّثنا هارون بن محمد بن هارون ، قال : حدّثنا إبراهيم ابن الحسين بن دربل ، قال : حدّثنا موسى بن إسماعيل ، قال : حدّثني سفيان بن نسيط

عن أبي محمد عن الزبير عن عائشة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قدم مكة فأرادت عائشة أن تدخل البيت يعني ليلا فقال لها بنو شيبة : أنّ أحداً لا يدخله ليلا ولكنا نخليه لك نهاراً ، فدخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فشكت إليه أنّهم منعوها أن تدخل البيت ، فقال : " إنّه ليس لأحد أن يدخل البيت ليلا ، إن هذه الكعبة بحيال البيت المعمور الذي في السماء ، يدخل ذاك المعمور سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه أبداً الى يوم القيامة ، لو وقع حجر منه لوقع على ظهر الكعبة ، ولكن انطلقي أنتِ وصواحبك فصلّين في الحجر "

ففعلت فأصبحت وهي تقول : قد دخلت البيت على رغم من رغم .

وأخبرنا الحسين بن محمد ، قال : حدّثنا هارون بن محمد ، قال : حدّثنا محمد بن عبد العزيز ، قال : حدّثنا كثير بن يحيى بن كثير ، قال : حدّثنا أبي عن عمر وعن الحسن في قوله سبحانه : ﴿ والبيت المعمور ﴾ قال : هو الكعبة البيت الحرام الذي هو معمور من الناس ، يعمره الله كلّ سنة ، أوّل مسجد وضع للعبادة في الأرض .

﴿ والسقف المرفوع ﴾ يعني السماء ، سمّاها سقفاً ؛ لأنها للأرض كالسقف للبيت ، دليله ونظيره قوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا السماء سَقْفاً مَّحْفُوظاً ﴾ .

﴿ والبحر المسجور ﴾ قال مجاهد والضحاك وشمر بن عطية ومحمد بن كعب والأخفش : يعني الموقد المحمي بمنزلة التنور المسجور ، ومنه قيل للمسعر مسجر ، ودليل

هذا التأويل ما روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال " لا يركبنّ البحر إلاّ حاجّ أو معتمر أو مجاهد في سبيل الله ، فإنّ تحت البحر ناراً وتحت النار بحراً ، وتحت البحر ناراً " .

(189/730)

وقال صلى الله عليه وسلم " البحر نار في نار " ، وروى سعيد بن المسيب أنّ علياً كرم الله وجهه قال لرجل من اليهود : أين جهنم ؟ فقال : البحر . فقال : ما أراه إلاّ صادقاً ثم قرأ ﴿ والبحر المسجور ﴾ ﴿ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير : 6] مخفّفة .

وتفسير هذه الأخبار ما روي في الحديث : " إنّ الله تعالى يجعل يوم القيامة البحار كلّها ناراً فيسجر بها نار جهنم " .

وقال قتادة : المسجور : المملوء . ابن كيسان : المجموع ماؤه بعضه إلى بعض ، ومنه قول لبيد :

فتوسّطا عرض السرى وصدّعا . . . مسجورة متجاور أقلامها

وقال النمر بن تولب :

إذا شاء طالع مسجورة . . . ترى حولها النبع والسماسما

وقال أبو العالية : هو اليابس الذي قد ذهب ماؤه ونضب ، وفي رواية عطية وذي الرمّة

الشاعر : أخبرنيه أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسن الدينوري . قال : حدّثنا عبيد الله بن أبي سمرة ، قال : حدّثنا أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الاشعث ، قال : حدّثنا السدوسي أبو جعفر ، قال : حدّثنا الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء عن ذي الرمّة عن ابن عباس ﴿ والبحر المسجور ﴾ الفارغ . قال : خرجت أَمة تسقي فرجعت فقالت : إنّ الحوض مسجور . تعني فارغاً .

قال ابن أبي داود : ليس لذي الرمّة حديث غير هذا .

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : المسجور : المحبوس ، وقال الربيع بن أنس : المختلط العذب بالملح .

وأخبرني ابن فنجويه ، قال : حدّثنا مخلد بن جعفر ، قال : حدّثنا الحسن بن علوية ، قال : حدّثنا إسماعيل بن عيسى ، قال : حدّثنا إسحاق بن بسر ، قال : أخبرني جويبر عن الضحاك ، ومقاتل بن سليمان عن الضحاك عن النزال بن سبرة ، عن علي بن أبي طالب أنّه قال في البحر المسجور : " هو بحر تحت العرش ، غمره كما بين سبع سماوات إلى سبع أرضين ، وهو ماء غليظ يقال له : بحر الحيوان ، يمطر العباد بعد النفخة الأُولى أربعين صباحاً فينبتون من قبورهم " .

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ نازل ﴿ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ مانع .

قال جبير بن مطعم : قدمت المدينة لأكلم رسول الله في أسارى بدر [فذهبت] إليه وهو يصلّي بأصحابه المغرب ، وصوته يخرج من المسجد ، فسمعته يقرأ ﴿ والطور ﴾ الى قوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ فكأنما صدع قلبي ، وكان أوّل ما دخل قلبي الإسلام ، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب ، وما كنت أظن أني أقوم من مكاني حتى يقع بي العذاب .

وأخبرني أبو عبد الله بن فنجويه قال : حدّثنا أبو بكر بن مالك ، قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال : أخبرت عن [محمد] بن الحرث المكي ، عن عبد الله بن رجاء المكي ، عن هشام بن حسان ، قال : انطلقت أنا ومالك بن دينار إلى الحسن فانتهينا إليه وعنده رجل يقرأ ، فلمّا بلغ هذه الآية ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ بكى الحسن وبكى أصحابه ، وجعل مالك يضطرب حتى غشي عليه .

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السمآء مَوْراً ﴾ أي تدور كدوران الرحى ، وتتكفّأ بأهلها تكفّأ السفينة ، ويموج بعضها في بعض .

واختلفت عبارات المفسرين فيها : قال ابن عباس : تدور دوراناً . قتادة : تتحرك . الضحاك : تحرك . عطاء الخراساني : تختلف إحداها بعضها في بعض . قطرب :

تضطرب . عطية : تختلف . المؤرخ : يتحول بعضهم تحولا . الأخفش : تتكفّأ ، وكلّها متقاربة .

وأصل المَوْر الاختلاف والاضطراب ، قال رؤبة :

مسودّة الأعضاد من وشم العرق . . . مائرة الضبعين مصلات العنق

أي مضطربة العضدين .

﴿ وَتَسِيرُ الجبال سَيْراً ﴾ فتزول عن أماكنها وتصير هباءً منبثّاً .

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ وإنّما أدخل الفاء في قوله ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ ؛ لأن في الكلام معنى المجاراة مجازه : إذا كان هذا فويل يومئذ للمكذبين .

﴿ الذين هُمْ فِي خَوْضٍ ﴾ باطل ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ غافلين جاهلين ساهين لاهين .

(191/730)

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ يُدفعون ﴿ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ دفعاً ويُزعجون إليها إزعاجاً ، وذلك أنّ خزنة النار يغلّون أيديهم إلى أعناقهم ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ثم يدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم ، وتجافى أقفيتهم حتى يردوا النار .

وقرأ أبو رجاء العطاردي ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ بالتخفيف من الدعاء .

قالوا : فاذا دَنَوْا من النار قالت لهم الخزنة : ﴿ هذه النار التي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ .

﴿ اصلوها ﴾ ادخلوها ﴿ فاصبروا أَوْ لاَ تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ ﴾ ذوي فاكهة كثيرة ، وفكهين : معجبين ناعمين .

﴿ بِمَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ ثم يقال لهم : ﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ على سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ قد صفّ بعضها إلى بعض ، وقوبل بعضها ببعض ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ * والذين آمَنُواْ واتبعتهم ﴾ قرأ أبو عمرو "وأتبعناهم" بالنون والألف "ذرياتهم" بالألف فيهما ، وكسر التائين لقوله : ﴿ أَلْحَقْنَا ﴾ ﴿ وَمَآ أَلَتْنَاهُم ﴾ ليكون الكلام على نسق واحد ، وقرأ الآخرون ﴿ واتبعتهم ﴾ بالتاء من غير ألف ثم اختلفوا في قوله : ﴿ ذُرِّيَّتُهُم ﴾ ، وقرأ أهل المدينة الأُولى بغير ألف وضم التاء ، والثانية بالألف وكسر التاء ، وقرأ أهل الشام بالألف فيهما وكسر تاء الثانية ، وهو اختيار يعقوب وأبي حاتم ، وقرأ الآخرون بغير ألف فيهما وفتح تاء الثانية ، وهو اختيار أبي عبيد .

واختلف المفسّرون في معنى الآية ، فقال قوم : معناها والذين آمنوا واتّبعتهم ذريّتهم التي بلغت الإيمان ﴿ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ الصغار الذين لم يبلغوا الإيمان ، وهو قول الضحّاك ورواية العوفي عن ابن عباس . فأخبر الله سبحانه وتعالى أنّه يجمع لعبده المؤمن ذرّيته في الجنة كما كان يحب في الدنيا أن يجتمعوا له ، ويدخلهم الجنة بفضله ويلحقهم بدرجته ، بعمل الأب من غير أن ينقص الآباء من أجور أعمالهم شيئاً فذلك قوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ يعني الآباء ، والهاء والميم راجعان إلى قوله : ﴿ والذين آمَنُواْ ﴾ ، والألت : النقص والبخس .

أخبرني الحسن بن محمد بن عبد الله الحديثي ، قال : حدّثنا سعيد بن محمد بن إسحاق الصيرفي قال : حدّثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة قال : حدّثنا جنادة بن المفلس ، قال : حدّثنا قيس بن الربيع ، قال : حدّثنا عمرو بن المسرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنّ الله يرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقرّ بهم عينه " ثم قرأ ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ قال : " ما نقصنا الآباء بما أعطينا (البنين) " .

وأخبرنا الحسن بن محمد قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن علي بن الحسن الهمداني ، قال : حدّثنا أبو عبد الله عمر بن نصر البغدادي ببردعة ، قال : حدّثنا محمد بن عبد الرَّحْمن بن غزوان ، قال : حدّثنا شريك بن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : أظنّه ذكره عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا دخل أهل الجنة الجنة فسأل عن أبويه وزوجته وولده ، فيقال : إنّهم لم يدركوا ما أدركت ، فيقول : عملت لي ولهم ، فيؤمر بإلحاقهم به " وتلا ابن عباس : ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ .

وأخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا القطيعي قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال : حدّثني عثمان بن أبي شيبة ، قال : حدّثنا محمد بن فضيل عن محمد بن عثمان عن زاذان عن علي قال : " سألتْ خديجة النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ولدين ماتا في الجاهلية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " هما في النار " قال : فلمّا رأى الكراهية في وجهها قال : " لو رأيت مكانهما لأبغضتِهما " قالت : يا رسول الله فولداي منك ؟ قال : " في الجنة " " .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إن المؤمنين وأولادهم في الجنة ، وإن المشركين وأولادهم في النار ﴾ ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ ﴿ كُلُّ امرىء بِمَا كَسَبَ ﴾ من الخير والشر ﴿ رَهِينٌ ﴾ مرهون فيؤخذ بذنبه ولا يؤخذ بذنب غيره .

(194/730)

﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم ﴾ وأعطيناهم ﴿ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ من أنواع اللحمان ﴿ يَتَنَازَعُونَ ﴾ يتعاطون فيتناولون ويتداولون ﴿ فِيهَا كَأْساً ﴾ إناءً فيها خمر ﴿ لاَّ لَغْوٌ فِيهَا ﴾ وهو الباطل . عن قتادة . مقاتل بن حيان : لا فضول فيها . سعيد بن المسيّب : لا رفث فيها . ابن زيد : لا سباب ولا تخاصم فيها . القتيبي : لا يذهب بعقولهم فيلغوا ويرفثوا ، وقال ابن عطاء : أي لغو يكون في مجلس محلّه جنة عدن ، والساقي فيه الملائكة ، وشربهم على ذكر الله ، وريحانهم تحية من عند الله مباركة طيبة ، والقوم أضياف الله ﴿ وَلاَ تَأْثِيمٌ ﴾ أي فعل يؤثمهم ، وهو تفعيل من الإثم ، يعني : إنّهم لا يأثمون في شربها .

وقال ابن عباس : يعني ولا كذب ، وقال الضحّاك : يعني لا يكذب بعضهم بعضاً .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ بالخدمة ﴿ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ ﴾ من بياضهم وصفاء لونهم ﴿ لُؤْلُؤٌ

مَّكْنُونٌ ﴾ مخزون مصون ، قال سعيد بن جبير : يعني في الصدف .

أخبرني الحسن بن محمد ، قال : حدّثنا أحمد بن علي بن عمر بن خنيس ، قال : حدّثنا محمد بن أحمد بن عصام ، قال : حدّثنا عمر بن عبد العزيز المصري ، قال : حدّثنا يوسف بن أبي طيبة عن وكيع بن الجراح عن هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنه قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدمه فيجيبه ألف ، يناديه كلّهم : لبيك " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا أبو علي المقرئ ، قال : حدّثنا محمد بن عمران قال : حدّثنا هاني بن المسري ، قال : حدّثنا عبيده بن سعيد عن قتادة بن عبد الله بن عمر قال : ما من أحد من أهل الجنة إلاّ سعى له ألف غلام ، كل غلام على عمل ما عليه صاحبه .

(195/730)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا عبد الله بن إبراهيم بن أيوب المنوي قال : حدّثنا الحسن ابن الكميت الموصلي قال : حدّثنا المعلى بن مهدي ، قال : أخبرنا مسكين عن حوشب عن الحسن أنّه كان إذا تلا هذه الآية ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ قالوا : يا رسول الله الخادم كاللؤلؤ فكيف بالمخدوم ؟ قال " ما بينهما كما بين القمر ليلة

البدر وبين أصغر الكواكب " .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ يسأل بعضهم بعضاً قال ابن عباس : إذا بعثوا من قبورهم ، وقال غيره : في الجنة وهو الأصوب لقوله سبحانه ﴿ قالوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين من عذاب الله ﴿ فَمَنَّ الله عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السموم ﴾ قال الحسن : السَّموم : اسم من أسماء جهنم .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا أبو بكر بن مالك ، قال : حدّثنا عبد الله ، قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا أنس بن عياض ، قال : حدّثني شيبة بن نصاح عن القاسم بن محمد قال : غدوت يوماً وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة رضي الله عنها أُسلّم عليها ، فوجدتها ذات يوم تصلّي السبحة وهي تقرأ ﴿ فَمَنَّ الله عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السموم ﴾ وتردّدها وتبكي ، فقمت حتى مللت ثم ذهبت إلى السوق بحاجتي ثم رجعت فإذا هي تقرأ وترددها وتبكي وتدعو .

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ ﴾ في الدنيا ﴿ نَدْعُوهُ ﴾ نخلص له العبادة ﴿ إِنَّهُ ﴾ قرأ الحسن وأبو جعفر ونافع والكسائي بفتح الألف ، أي لأنّه ، وهو اختيار أبي حاتم ، وقرأ الآخرون بالكسر على الابتداء ، وهو اختيار أبي عبيدة ﴿ هُوَ البر ﴾ قال ابن عباس : اللطيف ، وقال الضحاك : الصادق فيما وعد ﴿ الرحيم ﴾ .

﴿ فَذَكِّرْ ﴾ يا محمد ﴿ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ أي برحمته وعصمته ﴿ بِكَاهِنٍ ﴾ يبتدع القول ويخبر بما في غد من غير وحي ، والكاهن : الذي يقول : إنّ معي قريناً من الجن .

﴿ وَلاَ مَجْنُونٍ ﴾ نزلت هذه الآية في الخرّاصين الذين اقتسموا عقاب مكة ، يصدون الناس عن الإيمان ، ويرمون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكهانة والجنون والسحر والشعر . فذلك قوله سبحانه :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ يعني هؤلاء المقتسمين الخرّاصين ﴿ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ حوادث الدهر فيكفينا أمره بموت أو حادثة متلفة فيموت ويتفرق أصحابه ، وذلك أنهم قالوا : ننتظر به ملك الموت فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء زهير والنابغة وفلان وفلان ، إنّما هو كأحدهم ، وإنّ أباه توفي شاباً ، ونحن نرجو أن يكون موته كموت أبيه . والمنون يكون بمعنى الدهر ، ويكون بمعنى الموت ، سمّيا بذلك لأنّهما ينقصان ويقطعان الأجل ، قال الأخفش : لأنّهما يمنيان قوى الانسان ومنيه أي ينقصان ، وأنشد ابن عباس :

تربّص بها ريب المنون لعلّها . . . تطلّق يوما أو يموت حليلها

﴿ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المتربصين ﴾ حتى يأتي أمر الله فيكم .

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُمْ ﴾ عقولهم ﴿ بهاذآ ﴾ وأنّهم كانوا يُعدون في الجاهلية أهل الاحلام ويوصَفون بالعقل ، وقيل لعمرو بن العاص : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله

سبحانه بالعقول ؟ . فقال : تلك عقول كادها الله ، أي لم يصحبها التوفيق . ﴿ أَمْ هُمْ ﴾ بل هم ﴿ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ استكباراً .

﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ أي مثل هذا القرآن يشبهه ﴿ إِن كَانُواْ صَادِقِينَ ﴾ أنّ محمداً تقوّله من تلقاء نفسه ، فإنّ اللسان لسانهم ، وهم مستوون في البشرية واللغة والقوة .

(197/730)

﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ قال ابن عباس : من غير ربّ ، وقيل : من غير أب ولا أم ، فهم كالجماد لا يعقلون ، ولا يقوم لله عليهم حجة ، أليسوا خلقوا من نطفة ثم علقة ثم مضغة ؟ قاله ابن عطاء ، وقال ابن كيسان : أم خُلقوا عبثاً وتركوا سُدىً لا يؤمرون ولا يُنهون ، وهذا كقول القائل : فعلت كذا وكذا من غير شيء يعني لغير شيء . ﴿ أَمْ هُمُ الخالقون ﴾ لأنفسهم .

﴿ أَمْ خَلَقُواْ السماوات والأرض بَل لاَّ يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : المطر والرزق ، وقال عكرمة : يعني النبوّة ، وقيل : علم ما يكون ﴿ أَمْ هُمُ المصيطرون ﴾ المسلطون الجبّارون . قاله أكثر المفسّرين ، وهي رواية الوالبي عن ابن عباس ، وقال

عطاء : أرباب قاهرون ، وقال أبو عبيدة : يقال : خولاً تسيطرت عليّ : اتّخذتني ، وروى العوفي عن ابن عباس : أم هم المنزلون .

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ [يدّعون أن لهم] مصعداً ومرقاة يرتقون به إلى السماء ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ الوحي فيدّعون أنّهم سمعوا هناك أنّ الذي هم عليه حق ، فهم مستمسكون به لذلك .

﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم ﴾ إن ادّعوا ذلك ﴿ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ حجة بيّنة .

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً ﴾ جعلاً على ما جئتهم به ودعوتهم إليه ﴿ فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ ﴾ غرم ﴿ مُّثْقَلُونَ ﴾ مجهودون .

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب ﴾ أي علم ما غاب عنهم حتى علموا أنّ ما يخبرهم الرسول من أمر القيامة والبعث والحساب والثواب والعقاب باطل غير كائن ، وقال قتادة : لمّا قالوا ﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ أنزل الله سبحانه ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب ﴾ فهم يعلمون حتى بموت محمد ، وإلى ماذا يؤول أمره ؟ وقال ابن عباس : يعني أم عندهم اللوح المحفوظ ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ما فيه ، ويخبرون الناس به ، وقال القتيبي ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أي يحكمون .

(198/730)

والكتاب : الحكم ، " ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم للرجلين اللذين تخاصما " لأقضين بينكم بكتاب الله " أي بحكم الله .

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ مكراً في دار الندوة ﴿ فالذين كَفَرُواْ هُمُ المكيدون ﴾ الممكور بهم يعود الضرر عليهم ، ويحيق المكر بهم ، وكل ذلك أنّهم قتلوا ببدر .

﴿ أَمْ لَهُمْ إله غَيْرُ الله سُبْحَانَ الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ قال الخليل بن أحمد : ما في سورة الطور من ذكر ﴿ أَمْ ﴾ كلّه استفهام وليس بعطف .

﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً مِّنَ السمآء سَاقِطاً ﴾ كسفاً قطعة وقيل : قطعاً واحدتها كسفة مثل سدرة وسدر ﴿ مِّنَ السمآء سَاقِطاً ﴾ ذكره على لفظ الكسف ﴿ يَقُولُواْ ﴾ بمعاندتهم وفرط غباوتهم ودرك شقاوتهم هذا ﴿ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ موضوع بعضه على بعض . هذا جواب لقولهم : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السمآء ﴾ [الشعراء : 187] وقولهم : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً ﴾ [الإسراء : 92] فقال : لو فعلنا هذا لقالوا : سحاب مركوم .

﴿ فَذَرْهُمْ حتى يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الذي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ أي يموتون ، وقرأ الاعمش وعاصم وابن عامر ﴿ يُصْعَقُونَ ﴾ بضم الياء وفتح العين ، أي يهلكون ، وقال الفرّاء : هما لغتان مثل سَعْد وسُعْد .

﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ كفروا ﴿

عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ ﴾ قال البراء بن عازب : هو عذاب القبر ، وقال ابن عباس : هو القتل ببدر ، وقال مجاهد : الجوع والقحط سبع سنين ، وقال ابن زيد : المصايب التي تصيبهم من الاوجاع وذهاب الأموال والأولاد . ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ إن العذاب نازل بهم .

(199/730)

﴿ واصبرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى ومنظر منا ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ قال أبو الأحوص عوف بن مالك وعطاء وسعيد بن جبير : قل سبحانك اللّهم وبحمدك حين تقوم من مجلسك ، فإن كان المجلس خيراً ازددت احتساباً ، وإن كان غير ذلك كان كفارة له .

ودليل هذا التأويل ما أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا محمد بن الحسن بن صقلاب ، قال : حدّثنا ابن الحسن أحمد بن عيسى بن حمدون الناقد بطرطوس . قال : حدّثنا أبو أُمية ، قال : حدّثنا حجاج ، قال : حدّثنا ابن جريج ، قال : أخبرني موسى بن عقبة عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من جلس في مجلس كثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك غُفر له ما كان في مجلسه ذلك " .

وقال ابن زيد : (سبّح) بأمر ربّك حين تقوم من منامك ، وقال الضحاك والربيع : إذا قمت إلى الصلاة فقل : سبحانك اللّهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدّك : ولا إله غيرك ، وعن الضحاك أيضاً يعني : قل حين تقوم إلى الصلاة : (الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا) ، وقال الكلبي : يعني ذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة ، وقيل : هي صلاة الفجر .

﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ ﴾ أي وصلِّ له ، يعني صلاتي العشاء ، ﴿ وَإِدْبَارَ النجوم ﴾ .

قال علي بن أبي طالب وابن عباس وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك يعني : ركعتي الفجر .

انبأني عقيل ، قال : أخبرنا المقابي ، قال : أخبرنا ابن جرير ، قال : أخبرنا بسر قال : حدّثنا سعيد بن قتادة عن زرارة بن أوفى عن سعيد بن هشام عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في ركعتي الفجر " هما خير من الدنيا جميعاً " .

وقال الضحاك وابن زيد : هي صلاة الصبح الفريضة .

(200/730)

قرأ سالم بن أبي الجعد (وأدبار) بفتح الألف ، ومثله روى زيد عن يعقوب يعني : بعد غروب النجوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 123. 133 ﴾

(201/730)

وقال الزمخشري :

سورة الطور

مكية ، وهي تسع وأربعون ، وقيل : ثمان وأربعون آية [نزلت بعد السجدة] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الطور (52) : الآيات 1 إلى 10]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ (1) وَكِتابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4)

وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ (7) ما لَهُ مِنْ دافِعٍ

(8) يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً (9)

وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً (10)

الطور : الجبل الذي كلم اللّه عليه موسى وهو بمدين . والكتاب المسطور في الرق المنشور ،

والرق : الصحيفة . وقيل : الجلد الذي يكتب فيه الكتاب الذي يكتب فيه الأعمال . قال اللّه تعالى وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً وقيل : هو ما كتبه اللّه لموسى وهو يسمع صرير القلم . وقيل : اللوح المحفوظ . وقيل القرآن ، ونكر لأنه كتاب مخصوص من بين جنس الكتب ، كقوله تعالى وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها . وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ الضراح «1» في السماء الرابعة . وعمرانه : كثرة غاشيته من الملائكة . وقيل : الكعبة لكونها معمورة بالحجاج والعمار والمجاورين وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ السماء وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ المملوء . وقيل : الموقد ، من قوله تعالى وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ وروى أن اللّه تعالى يجعل يوم القيامة البحار كلها نارا تسجر بها نار جهنم . وعن على رضى اللّه عنه أنه سأل يهوديا : أين موضع النار في كتابكم ؟ قال : في البحر .

قال على : ما أراه إلا صادقا ، «2» لقوله تعالى وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ . لَواقِعٌ لنازل . قال

---

(1) . قوله «و البيت المعمور الضراح في السماء» في الصحاح «الضراح» بالضم : بيت في السماء ، وهو البيت المعمور . عن ابن عباس . (ع)

(2) . أخرجه الطبري من رواية داود بن أبى هند عن سعيد بن المسيب قال : قال على لرجل من اليهود : أين جهنم ؟ قال : البحر . قال . ما أراه إلا صادقا : وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ، وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ .

جبير بن مطعم : أتيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أكلمه في الأسارى فألفيته في صلاة الفجر يقرأ سورة الطور ، فلما بلغ : إن عذاب ربك لواقع : أسلمت خوفا من أن ينزل العذاب «1» تَمُورُ السَّماءُ تضطرب وتجيء وتذهب . وقيل : المور تحرك في تموّج ، وهو الشيء يتردد في عرض كالداغصة في الركبة «2» .

[سورة الطور (52) : الآيات 11 إلى 16]

فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13) هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ (15) اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16)

غلب الخوض في الاندفاع في الباطل والكذب . ومنه قوله تعالى وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ ، وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا الدع : الدفع العنيف ، وذلك أن خزنة النار يغلون أيديهم إلى أعناقهم ، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ، ويدفعونهم إلى النار دفعا على وجوههم وزخا في أقفيتهم «3» . وقرأ زيد بن علىّ : يدعون ، من الدعاء أي يقال لهم : هلموا إلى النار ، وادخلوا النار دَعًّا مدعوعين ، يقال لهم : هذه النار أَفَسِحْرٌ هذا يعنى كنتم تقولون للوحى

هذا سحر ، أفسحر هذا ؟ يريد : أهذا المصداق أيضا سحر ؟ ودخلت الفاء لهذا المعنى أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ كما كنتم لا تبصرون في الدنيا ، يعنى : أم أنتم عمى عن المخبر عنه كما كنتم عميا عن الخبر ، وهذا تقريع وتهكم سَواءٌ خبر محذوف ، أى : سواء عليكم الأمران : الصبر وعدمه ، فإن قلت : لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟

قلت : لأنّ الصبر إنما يكون له مزية على الجزع ، لنفعه في العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير ، فأما الصبر على العذاب الذي هو الجزاء ولا عاقبة له ولا منفعة ، فلا مزية له على الجزع .

[سورة الطور (52) : الآيات 17 إلى 20]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19) مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20)

---

(1) . لم أجده هكذا . والذي جاء في الصحيح «أن ذلك في صلاة المغرب» وأنه قال لما سمع أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ - إلى آخره : كاد قلبي يطير» .

(2) . قوله «كالداغصة في الركبة» هي العظم المدور الذي يتحرك على رأس الركبة ، كما

في الصحاح. (ع) [. . . . . .]

(3) . قوله «و زخا في أقفيتهم» في الصحاح «زخه» أى : دفعه في وهدة اه . (ع)

(203/730)

فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ في أية جنات وأى نعيم ، بمعنى الكمال في الصفة . أو في جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين خلقت لهم خاصة . وقرئ : فاكهين وفكهين وفاكهون : من نصبه حالا جعل الظرف مستقرا ، ومن رفعه خبرا جعل الظرف لغوا ، أى : متلذذين بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ . فإن قلت : علام عطف قوله وَوَقاهُمْ رَبُّهُمْ ؟ قلت : على قوله فِي جَنَّاتٍ أو على آتاهُمْ رَبُّهُمْ على أن تجعل ما مصدرية ، والمعنى : فاكهين بإيتائهم ربهم ووقايتهم عذاب الجحيم . ويجوز أن تكون الواو للحال وقد بعدها مضمرة . يقال لهم كُلُوا وَاشْرَبُوا أكلا وشربا هَنِيئاً أو طعاما وشرابا هنيئا ، وهو الذي لا تنغيص فيه . ويجوز أن يكون مثله في قوله :

هنيئا مريئا غير داء مخامر لعزّة من أعراضنا ما استحلّت «1»

أعنى : صفة استعملت استعمال المصدر القائم مقام الفعل مرتفعا به ما استحلت كما يرتفع بالفعل» كأنه قيل : هناء عزة المستحل من أعراضنا ، وكذلك معنى هَنِيئاً ها هنا : هناءكم الأكل والشرب .

أو هناء كم ما كنتم تعملون ، أى : جزاء ما كنتم تعملون . والباء مزيدة كما في كَفى بِاللَّهِ والباء متعلقة بكلوا واشربوا إذا جعلت الفاعل الأكل والشرب . وقرئ : بعيس «2» عين .

[سورة الطور (52) : الآيات 21 إلى 24]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ (21) وَأَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22) يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَلا تَأْثِيمٌ (23) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (24)

---

(1) يكلفها الخنزير شتمي وما بها هواني ولكن للمليك استذلت

هنيئا مريئا غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

لكثير بن صخر صاحب عزة ، كان ينشد أشعاره في حلقة البصرة ، فمرت به مع زوجها فقال لها : لتغضبنه أو لأضربنك ، فقالت : كذا وكذا بفم الشاعر ، فقال ذلك . وقيل : خرجت تطلب سمنا فصادفها كثير فتحادثا ، وسكب من أداوة معه في إنائها حتى بل ثوبها ، وأنكر ذلك زوجها ، فقصت عليه القصص ، فأمرها بشتمه فقال ذلك . والمليك : مالك أمرها . وما بها هواني : أى ليست مريدة له . وهنيئا مريئا : صفتان مستعملتان استعمال المصدر النائب عن فعله ، وما استحلت : مرفوع محلا بأحدهما على التنازع ، وغير نصب على الحال . ومن أعراضنا بيان لما بعده . والهنيء والمريء : الذي لا تنغيص

فيه ، المحمود العاقبة ، والمخامر : المخالط ، وشبه عرضه بالشراب السائغ على طريق المكنية . وهنيئا مريئا : تخييل . ويجوز أن التجوز فيهما على طريق التصريحية .

(2) . قوله «و قرئ بعيس» في الصحاح : العيس - بالكسر - : الإبل البيض يخالط بياضها شيء من الشقرة ، واحدها : أعيس ، والأنثى : عيساء ، ويقال : هي كرائم الإبل اه ولعله هنا استعارة للنساء . (ع)

(204/730)

وَالَّذِينَ آمَنُوا معطوف على بِحُورٍ عِينٍ أى قرناهم بالحور وبالذين آمنوا ، أى : بالرفقاء والجلساء منهم ، كقوله تعالى إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ فيتمتعون تارة بملاعبة الحور ، وتارة بمؤانسة الإخوان المؤمنين وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «إنّ اللّه يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه لتقرّبهم «1» عينه» ثم تلا هذه الآية . فيجمع اللّه لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم ، وبمزاوجة الحور العين ، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين ، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم . ثم قال بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ أى بسبب إيمان عظيم رفيع المحل ، وهو إيمان الآباء ألحقنا بدرجاتهم ذريتهم وإن كانوا لا يستأهلونها ، تفضلا عليهم وعلى آبائهم ، لنتم سرورهم ونكمل نعيمهم . فإن قلت : ما

معنى تنكير الايمان ؟

قلت : معناه الدلالة على أنه إيمان خاص عظيم المنزلة . ويجوز أن يراد : إيمان الذرية الداني المحل :

كأنه قال : بشيء من الإيمان ، لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم . وقرئ : وأتبعتهم ذريتهم واتبعتهم ذريتهم . وذرياتهم : وقرئ : ذرياتهم ، بكسر الذال . ووجه آخر : وهو أن يكون وَالَّذِينَ آمَنُوا مبتدأ خبره بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وما بينهما اعتراض وَما أَلَتْناهُمْ وما نقصناهم .

يعنى : وفرنا عليهم جميع ما ذكرنا من الثواب والتفضل ، وما نقصناهم من ثواب عملهم من شيء .

وقيل معناه : وما نقصناهم من ثوابهم شيئا نعطيه الأبناء حتى يلحقوا بهم ، إنما ألحقناهم بهم على سبيل التفضل . قرئ : ألتناهم ، وهو من بابين : من ألت يألت ، ومن ألات يليت ، كأمات يميت .

وآلتناهم ، من آلت يؤلت ، كآمن يؤمن . ولتناهم ، من لات يليت . وولتناهم ، من ولت يلت .

ومعناهنّ واحد كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ أى مرهون ، كأن نفس العبد رهن عند اللّه بالعمل الصالح الذي هو مطالب به ، كما يرهن الرجل عبده بدين عليه ، فإن عمل صالحا

فكها وخلصها ، وإلا أوبقها وَأَمْدَدْنَاهُمْ وزدناهم في وقت بعد وقت يَتَنَازَعُونَ يتعاطون ويتعاورون هم وجلساؤهم من أقربائهم وإخوانهم كَأْساً خمرا لا لَغْوٌ فيها في شربها وَلا تَأْثِيمٌ أى لا يتكلمون في أثناء الشرب بسقط الحديث وما لا طائل تحته كفعل المتنادمين في الدنيا على الشراب في سفههم وعربدتهم ، ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله ، أى : ينسب إلى الإثم

---

(1) . أخرجه البزار وابن عدى . وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه . والثعلبي من طريق قيس بن الربيع عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعا . قال البزار تفرد قيس برفعه . ورواه الثوري موقوفا ورواه الحاكم والبيهقي في الاعتقاد والطبري وابن أبى حاتم من طريق الثوري عن عمرو بن مرة به موقوفا

لو فعله في دار التكليف من الكذب والشتم والفواحش ، وإنما يتكلمون بالحكم والكلام الحسن متلذذين بذلك ، لأنّ عقولهم ثابتة غير زائلة ، وهم حكماء علماء . وقرئ : لا لغو فيها ولا تأثيم غِلْمانٌ لَهُمْ أى مملوكون لهم مخصوصون بهم مَكْنُونٌ في الصدف ، لأنه رطبا أحسن وأصفى . أو مخزون لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة . وقيل لقتادة : هذا الخادم فكيف المخدوم ؟ فقال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «و الذي نفسي بيده إن

فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» «1» وعنه عليه السلام: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه فيجيبه ألف ببابه: لبيك لبيك» «2».

[سورة الطور (52): الآيات 25 إلى 28]

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (25) قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ (26) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا وَوَقانا عَذابَ السَّمُومِ (27) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28)

يَتَساءَلُونَ يتحادثون ويسأل بعضهم بعضا عن أحواله وأعماله وما استوجب به نيل ما عند اللّه مُشْفِقِينَ أرقاء القلوب من خشية اللّه. وقرئ، ووقانا، بالتشديد عَذابَ السَّمُومِ عذاب النار ووهجها ولفحها. والسموم: الريح الحارّة التي تدخل المسام فسميت بها نار جهنم لأنها بهذه الصفة مِنْ قَبْلُ من قبل لقاء اللّه تعالى والمصير إليه، يعنون في الدنيا نَدْعُوهُ نعبده ونسأله الوقاية إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ المحسن الرَّحِيمُ العظيم الرحمة الذي إذا عبد أثاب وإذا سئل أجاب. وقرئ: أنه بالفتح، بمعنى: لأنه.

[سورة الطور (52): آية 29]

فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ (29)

فَذَكِّرْ فاثبت على تذكير الناس وموعظتهم، ولا يثبطنك قولهم: كاهن أو مجنون، ولا تبال به فإنه قول باطل متناقض، لأنّ الكاهن يحتاج في كهانته إلى فطنة ودقة نظر، والمجنون

مغطى على عقله . وما أنت بحمد اللّه وإنعامه عليك بصدق النبوّة ورجاحة العقل أحد هذين .

[سورة الطور (52) : الآيات 30 إلى 43]

أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (32) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (34)

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (38) أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39)

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43)

---

(1) . أخرجه عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة به قال فذكره ، وأخرجه الثعلبي من رواية الحسن مرسلا

(2) . أخرجه الثعلبي من رواية عمر بن عبد العزيز البصري عن يوسف بن أبى طيبة عن وكيع عن هشام عن أبيه عن عائشة نحوه .

وقرئ : يتربص به ريب المنون ، على البناء للمفعول . وريب المنون . ما يقلق النفوس ويشخص بها من حوادث الدهر . قال :

أمن المنون وريبه أتوجّع «1»

وقيل : المنون الموت ، وهو في الأصل فعول ، من منه إذا قطعه ، لأن الموت قطوع ، ولذلك سميت شعوب . قالوا : ننتظر به نوائب الزمان فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء : زهير والنابغة مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكى أَحْلامُهُمْ عقولهم وألبابهم . ومنه قولهم : أحلام عاد . والمعنى : أتأمرهم أحلامهم بهذا التناقض في القول ، وهو قولهم : كاهن وشاعر ، مع قولهم مجنون . وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهى أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ مجاوزون الحدّ في العناد مع ظهور الحق لهم . فإن قلت : ما معنى كون الأحلام آمرة ؟ قلت :

---

(1) أمن المنون وريبه أتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

لأبى ذويب مطلع مرثية بنيه ، والاستفهام للإنكار . وريب المنون : ما يقلق النفوس ويدهشها من حوادث الدهر .

والمنون : الموت ، كالمنية ، لأنه مقدر ، فهو من منى إذا قدر . وقوله «والدهر . . . الخ» جملة حالية . ويقال :

أعتبه ، إذا قبل عتابه وأزال شكواه ، فشبه الدهر بإنسان مسيء على طريق المكنية ، وإسناد الاعتاب تخييل .

والجزع : شدة الحزن .

(207/730)

هو مجاز لأدائها إلى ذلك ، كقوله تعالى أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا وقرئ : بل هم قوم طاغون . تَقَوَّلَهُ اختلقه من تلقاء نفسه بَلْ لا يُؤْمِنُونَ فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه المطاعن ، مع علمهم ببطلان قولهم ، وأنه ليس بمتقوّل لعجز العرب عنه ، وما محمد إلا واحد من العرب . وقرئ بحديث مثله على الإضافة ، والضمير لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ومعناه : أن مثل محمد في فصاحته ليس بمعوز في العرب ، فإن قدر محمد على نظمه كان مثله قادرا عليه ، فليأتوا بحديث ذلك المثل : أَمْ خُلِقُوا أم أحدثوا وقدروا التقدير الذي عليه فطرتهم مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ من غير مقدّر أَمْ هُمُ الذين خلقوا أنفسهم حيث لا يعبدون الخالق بَلْ لا يُوقِنُونَ أى : إذا سئلوا من خلقكم وخلق السماوات والأرض ؟ قالوا : اللّه ،

وهم شاكون فيما يقولون ، لا يوقنون . وقيل : أخلقوا من أجل لا شيء من جزاء ولا حساب ؟ وقيل :

أخلقوا من غير أب وأم ؟ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ الرزق حتى يرزقوا النبوّة من شاءوا . أو : أعندهم خزائن علمه حتى يختاروا لها من اختياره حكمة ومصلحة ؟ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ الأرباب الغالبون ، حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم ؟ وقرئ : المصيطرون بالصاد أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ منصوب إلى السماء يستمعون صاعدين فيه إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكه على هلاكهم وظفرهم في العاقبة دونه كما يزعمون ؟ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ بحجة واضحة تصدق استماع مستمعهم . المغرم : أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه ، أى : لزمهم مغرم ثقيل فدحهم «1» فزهدهم ذلك في اتباعك ؟ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ أى اللوح المحفوظ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ما فيه حتى يقولوا لا نبعث . وإن بعثنا لم نعذب «2» أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً وهو كيدهم في دار الندوة برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وبالمؤمنين فَالَّذِينَ كَفَرُوا إشارة اليهم أو أريد بهم كل من كفر باللّه هُمُ الْمَكِيدُونَ هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم ويحيق بهم مكرهم . وذلك أنهم قتلوا يوم بدر . أو المغلوبون في الكيد ، من كايدته فكدته .

[سورة الطور (52) : الآيات 44 إلى 47]

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ (44) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ

الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45) يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (46) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (47)

---

(1) . قوله «فدحهم فزهدهم» أى : أثقلهم وبهظهم . أفاده الصحاح . (ع)

(2) . قوله «وإن بعثنا لم نعذب» لعله : لا نعذب . (ع)

(208/730)

الكسف : القطعة ، وهو جواب قولهم أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً يريد : أنهم لشدّة طغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم لقالوا : هذا سحاب مركوم بعضه فوق بعض يمطرنا ، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب . وقرئ : حتى يلقوا ويلقوا يُصْعَقُونَ يموتون . وقرئ : يصعقون . يقال . صعقه فصعق ، وذلك عند النفخة الأولى نفخة الصعق وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا وإن . لهؤلاء الظلمة عَذاباً دُونَ ذلِكَ دون يوم القيامة : وهو القتل ببدر ، والقحط سبع سنين ، وعذاب القبر . وفي مصحف عبد اللّه : دون ذلك قريبا .

[سورة الطور (52) : الآيات 48 إلى 49]

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبارَ النُّجُومِ (49)

لِحُكْمِ رَبِّكَ بإمهالهم وما يلحقك فيه من المشقة والكلفة فَإِنَّكَ بِأَعْيُننا مثل ، أى : بحيث نراك ونكلؤك . وجمع العين لأنّ الضمير بلفظ ضمير الجماعة . ألا ترى إلى قوله تعالى وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي . وقرئ : وبأعينا ، بالإدغام حِينَ تَقُومُ من أى مكان قمت . وقيل : من منامك وَإِدْبارَ النُّجُومِ وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل . وقرئ : وأدبار ، بالفتح بمعنى في أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت ، والمراد الأمر بقول : سبحان اللّه وبحمده في هذه الأوقات . وقيل التسبيح : الصلاة إذا قام من نومه ، ومن الليل : صلاة العشاءين ، وأدبار النجوم : صلاة الفجر .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الطور كان حقا على اللّه أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه في جنته» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 408.

415﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب رضى اللّه عنه .

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ وَالطُّورِ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : أنه اسم للجبل بالسريانية ، قاله مجاهد . قال مقاتل : يسمى هذا الطور زبير .

الثاني : أن الطور ما أنبت ، وما لا ينبت فليس بطور ، قاله ابن عباس ، وقال الشاعر :

لو مر بالطور بعض ناعقة . . . ما أنبت الطور فوقه ورقة

ثم في هذا الطور الذي أقسم الله به ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه طور سيناء ، قاله السدي .

الثاني : أنه الطور الذي كلم الله عليه موسى ، قاله ابن قتيبة .

الثالث : أنه جبل مبهم ، قاله الكلبي . وأقسم الله به تذكيراً بما فيه من الدلائل .

وقال بعض المتعمقة : إن الطور ما يطوى على قلوب الخائفين .

﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴾ أي مكتوب ، وفي أربعة أقاويل :

أحدها : أنه الكتاب الذي كتب الله لملائكته في السماء يقرؤون فيه ما كان وما يكون .

الثاني : أنه القرآن مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ .

الثالث : هي صحائف الأعمال فمن أخذ كتابه بيمينه ، ومن آخذ كتابه بشماله ، قاله الفراء .

الرابع : التوراة قاله ابن بحر .

﴿ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : الصحيفة المبسوطة وهي التي تخرج للناس أعمالهم ، وكل صحيفة فهي رق لرقة حواشيها ، قال المتلمس :

فكأنما هي من تقادم عهدها . . . رق أتيح كتابها مسطور

الثاني : هو ورق مكتوب ، قاله أبو عبيدة .

الثالث : هو ما بين المشرق والمغرب ، قاله ابن عباس .

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : ما روى قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أُتِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ فَرُفِعَ لَنَا الْبَيتُ الْمَعْمُورُ ، فَإِذَا هُوَ حِيالُ الْكَعْبَةِ ، لَوْ خَرَّ خَرَّ عَلَيهَا ، يَدْخُلُهُ كُلَّ يَومٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ ، إِذَا خَرَجُوا مِنهُ لَمْ يَعُودُوا إِلَيهِ " قاله علي وابن عباس .

(210/730)

الثاني : ما قاله السدي : أن البيت المعمور ، هو بيت فوق ست سموات ، ودون السابعة ، يدعى الضراح ، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك من قبيلة إبليس لا يرجعون إليه أبداً ، وهو بحذاء البيت العتيق .

الثالث : ما قاله الربيع بن أنس ، أن البيت المعمور كان في الأرض في موضع الكعبة في زمان آدم ، حتى إذا كان زمان نوح أمرهم أن يحجوا ، فأبوا عليه وعصوه ، فما طغى الماء رفع فجعل بحذائه في السماء الدنيا ، فيعمره ، فبوأ الله لإبراهيم الكعبة البيت الحرام حيث كان ، قاله الله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ الآية .

الرابع : ما قاله الحسن أن البيت المعمور هو البيت الحرام .

وفي ﴿ الْمَعْمُورِ ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه معمور بالقصد إليه .

الثاني : بالمقام عليه ، قال الشاعر :

عمر البيت عامر . . . إذ أتته جآذر

من ظباء روائح . . . وظباء تباكر

وتأول سهل أنه القلب ، عمارته إخلاصه ، وهو بعيد .

﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه السماء ، قاله علي .

الثاني : أنه العرش ، قاله الربيع .

﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه جهنم ، رواه صفوان بن يعلى عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الثاني : هو بحر تحت العرش ، رواه أبو صالح عن علي رضي الله عنه .

الثالث : هو بحر الأرض ، وهو الظاهر .

وفي قوله : ﴿ الْمَسْجُورِ ﴾ سبعة تأويلات :

أحدها : المحبوس ، قاله ابن عباس والسدي .

الثاني : أنه المرسل ، قاله سعيد بن جبير .

الثالث : الموقد ناراً ، قاله مجاهد .

الرابع : أنه الممتلىء ، قاله قتادة .

الخامس : أنه المختلط ، قاله ابن بحر .

السادس : أنه الذي قد ذهب ماؤه ويبس ، رواه ابن أبي وحشية عن سعيد بن جبير .

السابع : هو الذي لا يشرب من مائه ولا يسقى به زرع ، قاله العلاء بن زيد .

(211/730)

هذا آخر القسم ، وجوابه : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ روى الكلبي : أن جبير بن مطعم قدم المدينة ليفدي حريفاً له يقال له مالك أسر يوم بدر ، فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة [المغرب] يقرأ ﴿ وَالطُّورِ ﴾ فجلس مستمعاً ، حتى بلغ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ فأسلم جبير خوفاً من العذاب ، وجعل يقول : ما كنت أظن أن أقوم من مقامي ، حتى يقع بي العذاب .

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْراً ﴾ فيه سبعة تأويلات :

أحدها : معناه تدور دوراً ، قاله مجاهد ، قال طرفة بن العبد :

صهابية العثنون موجدة القرا . . . بعيدة وخد الرجل موارة اليد .

الثاني : تموج موجاً ، قاله الضحاك .

الثالث : تشقق السماء ، قاله ابن عباس لقوله تعالى ﴿ فَإِذَا بُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً ﴾ الآية .

الرابع : تجري السماء جرياً ، ومنه قول جرير :

وما زالت القتلى تمور دماؤها . . . بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

الخامس : تتكفأ بأهلها ، قاله أبو عبيدة وأنشد بيت الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها . . . مور السحابة لا ريث ولا عجل

السادس : تنقلب انقلاباً .

السابع : أن السماء ها هنا الفلك ، وموره اضطراب نظمه واختلاف سيره ، قاله ابن بحر .

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : يدفعون دفعاً عنيفاً ومنه قول الراجز :

يدعه بصفحتي حيزومه . . . دع الوصي جانبي يتيمه

قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي وابن زيد .

الثاني : يزعجون إزعاجاً ، قاله قتادة .

ويحتمل ثالثاً : أن يدعهم زبانيتها بالدعاء عليهم .

﴿ فَاكِهِينَ بِمَآ ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : معجبين ، قاله ابن عباس .

الثاني : ناعمين ، قاله قتادة .

الثالث : فرحين ، قاله السدي .

الرابع : المتقابلين بالحديث الذي يسر ويؤنس ، مأخوذ من الفكاهة ، قاله ابن بحر .

(212/730)

الخامس : ذوي فاكهة كما قيل : لابن وتامر ، أي ذو لبن وتمر ، قاله عبيدة ، ومعنى ذلك ، أنهم ذوو بساتين فيها فواكه .

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ والسرر الوسائد ، وفي المصفوفة ثلاثة أوجه :

أحدها : المصفوفة بين العرش ، قاله عكرمة .

الثاني : هي الموصولة بالذهب .

الثالث : أنها الموصولة بعضها إلى بعض حتى تصير صفاً ، قاله ابن بحر .

﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ والعين الواسعة الأعين في صفائها ، وهو جمع عيناء ، ومنه قول الشاعر :

فحُور قد لهون وهن عين . . . نواعم في المروط وفي الرياط

وفي تسميتهن حوراً وجهان :

أحدهما : لأنه يحار فيهن الطرف ، قاله مجاهد .

الثاني : لبياضهن ، قاله الضحاك ، ومنه قيل للخبز حوار لبياضه .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أن الله يدخل الذرية بإيمان الأباء الجنة ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن الله تعالى يعطي الذرية مثل أجور الآباء من غير أن ينقص الآباء من أجورهم شيئاً ، قاله إبراهيم .

الثالث : أنهم البالغون عملوا بطاعة الله مع آبائهم فألحقهم الله بآبائهم ، قاله قتادة .

الرابع : أنه لما أدرك أبناؤهم الأعمال التي عملوها تبعوهم عليها فصاروا مثلهم فيها ، قاله

ابن زيد .

﴿ وَمَآ أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : ما نقصناهم ، قاله ابن عباس ، قال رؤبة :

وليلة ذات سرى سريت . . . ولم يلتني عن سراها ليت

أي لم ينقصني ، ومعنى الكلام : ولم ينقص الآباء بما أعطينا الأبناء .

الثاني : معناه وما ظلمناهم ، قاله ابن جبير ، قال الحطيئة :

أبلغ سراة بني سعد مغلغلة . . . جهد الرسالة لا ألتاً ولا كذباً

أي لا ظلماً ، ولا كذباً . ومعنى الكلام : لم نظلم الآباء بما أعطينا الأبناء ، وإنما فعل تعالى ذلك بالأبناء كرمة للآباء .

﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : مؤاخذة كما تؤخذ الحقوق من الرهون .

الثاني : أنه يحبس ، ومنه الرهن لاحتباسه بالحق قال الشاعر :

وما كنت أخشى أن يكون رهينة . . . لأحمر قبطي من القوم معتق

﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً ﴾ أي ، يتعاطون ويتساقون بأن يناول بضعهم بعضاً ، وهو المؤمن وزوجاته وخدمه في الجنة . والكأس إناء مملوء من شراب وغيره فهو كأس ، فإذا فرغ لم يسم كاساً ، وشاهد التنازع والكأس في اللغة قول الأخطل :

وشارب مربح بالكأس نادمني . . . لا بالحضور ولا فيها بسوار

نازعته طيب الراح السمول وقد . . . صاح الدجاج وحانت وقعه الساري .

﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ فيها أربعة أوجه :

أحدها : لا باطل في الخمر ولا مأثم ، قاله ابن عباس وقتادة ، وإنما ذلك في الدنيا من الشيطان .

الثاني : لا كذب فيها ولا خلف ، قاله الضحاك .

الثالث : لا يتسابون عليها ولا يؤثم بعضهم بعضاً ، قاله مجاهد .

الرابع : لا لغو في الجنة ولا كذب ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً . واللغو ها هنا فحش الكلام كما قال ذو الرمة :

فلا الفحش فيه يرهبون ولا الخنا . . . عليهم ولكن هيبة هي ما هيا

بمستحكم جزل المروءة مؤمن . . . من القوم لا يهوى الكلام اللواغيا

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ ذكر ابن بحر فيه وجهين :

أحدهما : ان يكون الأطفال من أولادهم الذين سبقوهم ، فأقَرَّ الله بهم أعينهم .

الثاني : أنهم من أخدمهم الله إياهم من أولاد غيرهم .

﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ أي مصون بالكن والغطاء ، ومنه قول الشاعر :

قد كنت أعطيهم مالاً وأمنعهم . . . عرضي ، وودهم في الصدر مكنون

قال قتادة : بلغني أنه قيل يا رسول الله هذا الخدم مثل اللؤلؤ المكنون فكيف المخدوم ؟ قال :

" والذي نفسي بيده لفضل ما بينهم ، كفضل القمر ليلة البدر على النجوم " .

﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ يحتمل وجهين :

(214/730)

أحدهما : بالجنة والنعيم . الثاني : بالتوفيق والهداية . ﴿ وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه عذاب النار ، قاله ابن زيد . وقال الأصم : السموم اسم من أسماء جهنم .

الثاني : أنه وهج جهنم ، وهو معنى قول ابن جريج .

الثالث : لفح الشمس والحر ، وقد يستعمل في لفح البرد ، كما قال الراجز :

اليوم يوم بارد سمومه . . . من جزع اليوم فلا نلومه

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن البر الصادق ، قاله ابن جريج .

الثاني : اللطيف ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه فاعل البر المعروف به ، قاله ابن بحر .

﴿ فَذَكِّرْ ﴾ يعني بالقرآن .

﴿ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ ﴾ يعني برسالة ربك .

﴿ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ تكذيباً لعتبة بن ربيعة حيث قال إنه ساحر ، وتكذيباً لعقبة بن معيط ، حيث قال : إنه مجنون .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ قال قتادة : قال ناس من الكفار : تربصوا بمحمد الموت يكفيكموه ، كما كفاكم شاعر بني فلان ، وشاعر بني فلان ، قال الضحاك : هؤلاء بنو عبد الدار ، نسبوه إلا أنه شاعر .

وفي ﴿ ريب المنون ﴾ وجهان :

أحدهما : الموت ، قاله ابن عباس .

الثاني : حوادث الدهر ، قاله مجاهد . المنون : الدهر ، قال أبو ذؤيب :

أمن المنون وريبها تتوجع . . . والدهر ليس بمعتب من يجزع

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : مفاتيح الرحمة .

الثاني : خزائن الرزق .

﴿ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : المسلطون ، قاله ابن عباس والضحاك .

الثاني : أنهم الأرباب ، قاله الحسن وأبو عبيد .

الثالث : معناه : أم هم المتولون ، وهذا قد روي عن ابن عباس أيضاً .

الرابع : أنهم الحفظة ، مأخوذ من تسطير الكتاب ، الذي يحفظ ما كتب فيه فصار المسيطر هنا حافظاً ما كتبه الله في اللوح المحفوظ ، قاله ابن بحر .

(215/730)

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن السلم المرتقى إلى السماء ، ومنه قول ابن مقبل :

لا تحرز المرء أحجاء البلاد ولا . . . يبنى له في السموات السلاليم

الثاني : أنه السبب الذي يتوصل به إلى عوالي الأشياء ، قال الشاعر :

تجنيت لي ذنباً وما إن جنيته . . . لتتخذي عذراً إلى الهجر سلماً

وقوله ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يستمعون من السماء ما يقضيه الله على خلقه .

الثاني : يستمعون منها ما ينزل الله على رسله من وحيه .

﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فليأت صاحبهم بحجة ظاهرة تدل على صدقه .

الثاني : فليأت بقوة تتسلط على الأسماع وتدل على قدرته .

﴿ وَإِن يَرَوا كِسْفاً مِّنَ السَّمَآءِ سَاقِطاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني قطعاً من السماء ، قاله قتادة .

الثاني : جانباً من السماء .

الثالث : عذاباً من السماء ، قاله المفضل . وسمي كسفاً لتغطيته ، والكسف : التغطية ، ومنه أخذ كسوف الشمس والقمر .

﴿ يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ في مركوم وجهان :

أحدهما : أنه الغليظ ، قاله ابن بحر .

الثاني : أنه الكثير المتراكب ، قاله الضحاك . ومعنى الآية : أنهم لو رأو سقوط كسف من السماء عليهم عقاباً لهم لم يؤمنوا ولقالوا إنه سحاب مركوم بعضه على بعضه .

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يوم يموتون ، قاله قتادة .

الثاني : النفخة الأولى ، حكاه ابن عيسى .

الثالث : يوم القيامة يغشى عليهم من هول ما يشاهدونه ، ومنه قوله تعالى :

﴿ وَخَرَّ مُوْسَى صَعِقاً ﴾ أي مغشياً عليه .

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ صَعِقاً ﴾ أي مغشياً عليه .

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : عذاب القبر ، قاله علي .

الثاني : الجوع ، قاله مجاهد .

الثالث : مصابهم في الدنيا ، قاله الحسن .

(216/730)

وفي المراد بالذين ظلموا ها هنا قولان :

أحدهما : أنهم أهل الصغائر من المسلمين .

الثاني : أنهم مرتكبو الحدود منهم .

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لقضائه فيما حملك من رسالته .

الثاني : لبلائه فيما ابتلاك به من قومك .

﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : بعلمنا ، قاله السدي .

الثاني : بمرأى منا ، حكاه ابن عيسى .

الثالث : بحفظنا وحراستنا ، ومنه قوله تعالى لموسى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ [طه : 39] بحفظي وحراستي ، قاله الضحاك .

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أن يسبح الله إذا قام من مجلسه ، قاله أبو الأحوص ، ليكون تكفيراً لما أجرى في يومه .

الثاني : حين تقوم من منامك ، ليكون مفتتحاً لعمله بذكر الله ، قاله حسان بن عطية .

الثالث : حين تقوم من نوم القائلة لصلاة الظهر ، قاله زيد بن أسلم .

الرابع : أنه التسبيح في الصلاة ، إذا قام إليها .

وفي هذا التسبيح قولان :

أحدهما : هو قول : سبحان ربي العظيم ، في الركوع ، وسبحان ربي الأعلى ، في السجود .

الثاني : التوجه في الصلاة بقوله : سبحانك اللهم وبحمدك [وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا

إله غيرك] ، قاله الضحاك .

﴿ وَمِنَ الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها صلاة الليل .

الثاني : التسبيح فيها .

الثالث : أنه التسبيح في صلاة وغير صلاة .

وأما ﴿ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها ركعتان قبل الفجر ، رواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" رَكْعَتَانِ قَبْلَ الْفَجْرِ ، إِدْبَارُ النُّجومِ ، وَرَكْعَتَانِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ إِدْبَارُ السُّجُودِ " .

الثاني : أنها ركعتا الفجر قبل الغداة .

(217/730)

الثالث : أنه التسبيح بعد الصلاة ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً ، وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : لا صلاة بعد الفجر إلا ركعتي الفجر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ 376 . 388 ﴾

(218/730)

وقال ابن الجوزى :

سورة الطور

قوله تعالى : ﴿ والطُّورِ ﴾

هذا قَسم بالجبل الذي كلَّم اللهُ عز وجل عليه موسى عليه السلام ، وهو بأرض مَدْين [واسمه زَبير] .

﴿ وكتابٍ مسطورٍ ﴾ أي : مكتوب ، وفيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه اللوح المحفوظ ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : كتب أعمال بني آدم ، قاله مقاتل ، والزجاج .

والثالث : التوراة .

والرابع : "القرآن" حكاهما الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ في رَقٍّ ﴾ قال أبو عبيدة : الرَّقُّ : الوَرَق .

فأما المنشور فهو المبسوط .

قوله تعالى : ﴿ والبيتِ المعمورِ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه بيت في السماء .

وفي أي سماء هو ؟ [فيه] ثلاثة أقوال :

أحدها : [أنه] في السماء السابعة .

رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وحديث مالك بن صعصعة الذي أُخرج في "الصحيحين" يدل عليه .

والثاني : أنه في السماء السادسة ، قاله عليّ رضي الله عنه .

والثالث : أنه في السماء الدنيا ، رواه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن عباس : هو حيال الكعبة يحُجُّه كُلَّ يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون فيه حتى تقوم الساعة ، يسمى الضُّراح .

وقال الربيع بن أنس : كان البيت المعمور مكان الكعبة في زمان آدم ، فلمّا كان زمن نوح أمر الناس بحجّه ، فعصوه ، فلمّا طغى الماءُ رُفع فجُعل بحذاء البيت في السماء الدنيا .

والثاني : أنه البيت الحرام ، قاله الحسن .

وقال أبو عبيدة : ومعنى : "المعمور" الكثير الغاشية .

قوله تعالى : ﴿ والسَّقْفِ المرفوعِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه السماء ، قاله علي رضي الله عنه والجمهور .

والثاني : العرش ، قاله الربيع .

قوله تعالى : ﴿ والبحرِ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه بحر تحت العرش ماؤه غليظ يُمْطَر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين

صباحاً فينبتُون في قبورهم ، قاله عليّ رضي الله عنه .

والثاني : أنه بحر الأرض ، ذكره الماوردي .

وفي ﴿ المسجور ﴾ أربعة أقوال .

(219/730)

أحدها : المملوء ، قاله الحسن ، وأبو صالح ، وابن السائب ، وجميع اللغويين .

والثاني : أنه المُوقد ، قاله مجاهد ، وابن زيد .

وقال شمر بن عطية : هو بمنزلة التنور المسجور .

والثالث : أنه اليابس الذي قد ذهب ماؤه ونضب ، قاله أبو العالية .

وروي عن الحسن قال : تسجر ، يعني البحار ، حتى يذهب ماؤها ، فلا يبقى فيها قطرة .

وقول هذين يرجع إلى معنى قول مجاهد .

وقد نقل في الحديث أن الله تعالى يجعل البحار كلَّها ناراً ، فتزاد في نار جهنم .

والرابع : أن "المسجور" المختلط عذْبه بمِلحه ، قاله الربيع بن أنس .

فأقسم اللهُ تعالى بهذه الأشياء للتنبيه على ما فيها من عظيم قدرته على أن تعذيب المشركين حق ، فقال : ﴿ إنَّ عذاب ربِّك لواقعٌ ﴾ أي : لكائن في الآخرة .

ثم بيَّن متى يقع ، فقال : ﴿ يومَ تمورُ السماءُ موْراً ﴾ وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : تدور دَوْراً "رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وهو اختيار الفراء وابن قتيبة والزجاج .

والثاني : تحرَّكُ تحرُّكاً ، رواه ابن ابي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

وقال أبو عبيدة "تمور" أي : تَكفّأُ ، وقال الأعشى :

كأنَّ مِشْيَتَها مِنْ بيْتِ جارَتِها . . .

مَوْرُ السَّحابةِ لا رِيْثٌ ولا عَجَلُ

والثالث : يموج بعضها في بعض لأمر الله تعالى ، قاله الضحاك .

وما بعد هذا قد سبق بيانه [النمل : 88] إلى قوله : ﴿ الذين هُمْ في خوْضٍ يلعبون ﴾ أي : يخوضون في حديث محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب والاستهزاء ، ويلهُون بذكْره ، فالويل لهم .

﴿ ويوم يُدعُّون ﴾ قال ابن قتيبة : أي : يُدْفعون ، يقال : دععْتُه أدُعُّه ، أي : دفعته ، ومنه قوله ﴿ يدُعُّ اليتيم ﴾ [الماعون : 2] قال ابن عباس : يُدْفع في أعناقهم حتى يردوا النّار .

وقال مقاتل : تُغلُّ أيديهم إلى أعناقهم وتُجْمعُ نواصيهم إلى أقدامهم ، ثم يُدفعون إلى جهنم على وجوههم ، حتى إذا دَنوا منها قالت لهم خزنتُها : ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذّبون ﴾ في الدنيا ﴿ أفسحر هذا ﴾ العذاب الذي ترون ؟ فإنكم زعمتم أن الرُّسل سحرةٌ ﴿ أمْ أنتم لا تُبْصِرون ﴾ النار ؟ فلمّا أُلقوا فيها قال لهم خزنتُها : ﴿ إصْلوها ﴾ .

وقال غيره : لمّا نسبوا محمداً صلى الله عليه وسلم إلى أنه ساحر يغطِّي على الأبصار بالسِّحر ، وُبِّخوا عند رؤية النار بهذا التوبيخ ، وقيل : ﴿ إصلوها ﴾ أي : قاسوا شِدَّتها ﴿ فاصبِروا ﴾ على العذاب ﴿ أو لا تصْبِروا سواءٌ عليكم ﴾ الصَّبر والجزع ﴿ إنَّما تُجْزوْن ﴾ جزاء ﴿ ما كنتم تعملون ﴾ من الكفر والتكذيب .

ثم وصف ما للمؤمنين بما بعد هذا ، وقوله : ﴿ فاكِهين ﴾ قرئت بألف وبغير ألف ، وقد شرحناها في [يس : 55] ، ﴿ ووقاهم ﴾ أي : صرف عنهم و ﴿ الجحيم ﴾ مذكور في [البقرة : 119] .

﴿ كُلوا ﴾ أي : يقال لهم : كُلوا ﴿ واشربوا هنيئاً ﴾ تأمنون حدوث المرض عنه .

قال الزجاج : المعنى : لِيهْنِكم ما صِرتم إليه ، وقد شرحنا هذا في سورة [النساء : 4] ثم ذكر حالهم عند أكلهم وشربهم فقال : ﴿ مُتَّكِئين على سُرُرٍ ﴾ وقال ابن جرير : فيه محذوف تقديره : على نمارق على سُرُر ، وهي جمع سرير ﴿ مصفوفةٍ ﴾ قد وُضع بعضُها إلى جنْب بعض .

وباقي الآية مفسَّر في سورة [الدخان : 54] .

قوله تعالى : ﴿ وأَتبعْناهم ذُرِّياتِهم ﴾ قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : "واتَّبعْتهم" بالتاء "ذُرِّيَّتُهم" واحدة ﴿ بهم ذُرِّيَّتَهم ﴾ واحدة أيضاً .

وقرأ نافع : "واتَّبعتْهم ذُرِّيَّتُهم" واحدة "بهم ذُرِّيَّاتِهم" جمعاً .

وقرأ ابن عامر "وأَتْبعْناهم ذُرِّيَّاتِهم" "بهم ذُرِّيّاتِهم" جمعاً في الموضعين .

واختلفوا في تفسيرها على ثلاثة أقوال .

(221/730)

أحدها : أن معناها : واتَّبعتهم ذريتُهم بإيمان ألحقنا بهم [ذرياتهم] من المؤمنين في الجنة ، وإن كانوا لم يبلُغوا أعمال آبائهم ، تكرمةً من الله تعالى لآبائهم المؤمنين باجتماع أولادهم معهم ، روى هذا المعنى سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : واتَّبعتهم ذريتُهم بإيمان ، أي : بلغت أن آمنتْ ، ألحقنا بهم ذُرِّيَّتهم الصِّغار الذين لم يبلُغوا الإيمان .

وروى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك .

ومعنى هذا القول : أن أولادهم الكبار تبعوهم بإيمان منهم ، وأولادهم الصغار تبعوهم

بإيمان الآباء ، [لأن الولد يُحكم له بالإسلام تبعاً لوالده .

والثالث : "وأتبَعْناهم ذُرِّياتهم" بإيمان الآباء] فأدخلناهم الجنة ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً .

قوله تعالى : ﴿ وما أَلَتْناهم ﴾ قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : "وما أَلَتْناهم" بالهمزة وفتح اللام .

وقرأ ابن كثير : "وما إِلَتْناهم" بكسر اللام .

وروى ابن شنبوذ عن قنبل عنه "ومالِتْناهم" بإسقاط الهمزة مع كسر اللام .

وقرأ أبو العالية ، وأبو نهيك ، ومعاذ القارىء بإسقاط الهمزة مع فتح اللام .

وقرأ ابن السميفع "وما آلَتْناهم" بمد الهمزة وفتحها .

وقرأ الضحاك ، وعاصم ، الجحدري : "وماوَلَتْناهم" بواو مفتوحة من غير همزة وبنصب اللام .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو المتوكل : "وما أَلَتُّهُمْ" مثل جَعلتُهم .

وقد ذكرنا هذه الكلمة في [الحجرات : 140] والمعنى : ما نَقَصْنا الآباء بما أعطَيْنا الذُّرِّيَّةَ .

﴿ كُلُّ امرىءٍ بما كسب رهينٌ ﴾ أي : مُرْتَهَن بعمله لا يؤاخذ أحدٌ بذنْب أحد .

وقيل : هذا الكلام يختصُّ بصفة أهل النار ، وذلك الكلام قد تَمَّ .

قوله تعالى : ﴿ وأَمْدَدْناهم ﴾ قال ابن عباس : هي الزيادة على الذي كان لهم .

قوله تعالى : ﴿ يَتنازعون ﴾ قال أبو عبيدة : أي : يتعاطَون ويتداولون ، وأنشد الأخطل :

(222/730)

نازَعْتُهُ طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُولِ وقَدْ . . .

صَاحَ الدَّجاجُ وحانَتْ وَقْعَةُ السّاري

قال الزَّجَّاج : يتناول هذا الكأسَ من يد هذا ، وهذا من يد هذا ، فأمّا الكأس فقد شرحناها في [الصافات : 45] .

قوله تعالى : ﴿ لا لَغْوٌ فيها ولا تأثيمٌ ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : "لا لَغْوَ فيها ولا تأثيمَ" نصباً وقرأ الباقون : "لا لَغْوٌ فيها ولا تأثيمٌ" رفعاً منوّناً .

قال ابن قتيبة : أي : لا تَذهبُ بعقولهم فيَلْغُوا ويَرْفُثوا فيأثموا ، كما يكون ذلك في خمر الدنيا .

وقال غيره : التأثيم : تفعيل من الإثم ، يقال آثمه : إذا جعله ذا إثم : والمعنى أن تلك الكأس لا تجعلهم آثمين .

﴿ ويطوف عليهم ﴾ للخدمة ﴿ غِلْمانٌ لهم كأَنَّهم ﴾ في الحُسن والبياض ﴿ لؤلؤٌ مكنونٌ

﴿ أي : مصونٌ لم تَمَسَّه الأيدي .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل : يا نبيَّ الله ، هذا الخادم ، فكيف المخدوم ؟

فقال : " إنَّ فَضْل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب " .

قوله تعالى : ﴿ وأقبل بعضُهم على بعض يتساءلون ﴾ قال ابن عباس : يتذاكرون ما كانوا فيه في الدنيا من الخوف والتعب ، وهو قوله : ﴿ قالوا إنّا كُنّا قَبْلُ في أهلنا ﴾ أي : في دار الدنيا ﴿ مشفقين ﴾ أي : خائفين من العذاب ، ﴿ فمنَّ اللهُ علينا ﴾ بالمغفرة ﴿ ووقانا عذابَ السَّموم ﴾ أي : عذاب النار .

وقال الحسن : السَّموم من أسماء جهنم .

وقال غيره : سَموم : جهنم .

وهو ما يوجد من نَفْحها وَحرِّها ، ﴿ إنّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ ندعوه ﴾ أي : نوحّدِه ونُخْلِص له ﴿ إنَّه هو البَرُّ ﴾ وقرأ نافع ، والكسائي : "أَنَّه" بفتح الهمزة .

وفي معنى "البَرّ" ثلاثة أقوال :

أحدها : الصادق فيما وعد ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : اللطيف ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث ، العطوف على عباده المحسن إليهم الذي عَمَّ بِبِرِّه جميع خَلْقه ، قاله أبو سليمان الخطابي .

قوله تعالى : ﴿ فذكِّر ﴾ أي : فَعِظ بالقرآن ﴿ فما أنت بنعمة ربّك ﴾ أي : بإنعامه عليك بالنبوَّة ﴿ بكاهنٍ ﴾ وهو الذي يوهم أنه يعلم الغيب ويُخْبِر عمّا في غد من غير وحي .

والمعنى : إنما تَنْطِق بالوحي لا كما يقول [فيك] كفار مكة .

﴿ أم يقولون شاعرٌ ﴾ أي : هو شاعر .

وقال أبو عبيدة : "أم" بمعنى "بل" قال الأخطل :

كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بِواسِطٍ . . .

غَلَسَ الظَّلامِ مِنَ الرَّبابِ خَيالاَ

لم يستفهم ، إنما أوجب أنه رأى .

قوله تعالى : ﴿ نَتربَّصُ به رَيْبَ المَنون ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه الموت ، قاله ابن عباس .

والثاني : حوادث الدهر ، قاله مجاهد ، قال ابن قتيبة : حوادث الدهر وأوجاعه ومصائبه ، و"المَنون" الدهر ، قال أبو ذؤيب :

أَمِنَ المَنُونِ ورَيْبِهِ تَتَوَجَّعُ . . .

والدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

هكذا أنشدناه أصحابُ الأصمعيّ عنه ، وكان يذهب إلى أن المَنونَ الدَّهْرُ ، قال : وقوله "والدَّهْرُ ليس بمُعْتِبٍ" يدُلُّ على ذلك ، كأنه قال : "أَمِنَ الدّهْرِ ورَيْبِهِ تتَوَجَّعُ ؟ !" قال الكسائيُّ : العرب تقول : لا أُكلّمك آخِرَ المَنون ، أي : آخِرَ الدَّهْر .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ تربَّصوا ﴾ أي : انتظِروا بي ذلك ﴿ فإني معكم من المتربّصين ﴾ أي : من المُنتظِرين عذابَكم ، فعُذِّبوا يومَ بدر بالسيف .

وبعض المفسرين يقول : هذا منسوخ بآية السيف ، ولا يصح ، إذ لا تضادَّ بين الآيتين .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ تأمُرُهم أحلامُهم بهذا ﴾ قال المفسرون : كانت عظماء قريش توصَف بالأحلام ، وهي العُقول ، فأزرى اللهُ بحُلومهم ، إذ لم تُثمِر لهم معرفةَ الحق من الباطل .

وقيل لعمرو بن العاص : ما بال قومِك لم يؤمِنوا وقد وصفهم اللهُ تعالى بالعُقول ؟ ! فقال : تلك عُقول كادها بارئُها ، أي : لم يَصْحَبْها التَّوفيقُ .

وفي قوله : "أَمْ تأمُرُهم" وقوله : ﴿ أَمْ هُمْ ﴾ قولان .

أحدهما : أنهما بمعنى "بل" ، قاله أبو عبيدة .

والثاني : بمعنى ألف الاستفهام ، قاله الزجاج ؛ قال : والمعنى : أتأمُرُهم أحلامُهم بترك القَبول ممَّن يدعوهم إلى التوحيد ويأتيهم على ذلك بالدّلائل ، أم يكفُرون طُغياناً وقد ظهر لهم الحق ؟ ! وقال ابن قتيبة : المعنى : أم تدُلُّهم عقولُهم على هذا ؟ ! لأن الحِلم يكون بالعقل ، فكني عنه به .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يقولون تقوّله ﴾ أي : افتَعَل القرآنَ من تِلقاء نَفْسه ؟ والتَّقوُّل : تكلُّف القول ، ولا يستعمل إلاّ في الكذب ﴿ بّلْ ﴾ أي : ليس الأمر كما زعموا ﴿ لا يؤمِنون ﴾ بالقرآن ، استكباراً .

﴿ فَلْيأتوا بحديثٍ مِثْله ﴾ في نَظْمه وحُسن بيانه .

وقرأ أبو رجاء ، وأبو نهيك ، ومورّق العجلي ، وعاصم الجحدري : "بحديثِ مِثْله" بغير تنوين ﴿ إن كانوا صادِقين ﴾ أن محمداً تقوّله .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقوا من غير شيء ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : أَمْ خُلقوا من غير ربٍّ خالق ؟

والثاني : أَمْ خُلقوا من غير آباءٍ ولا أُمَّهات ، فهم كالجماد لا يعقِلون ؟

والثالث : أَمْ خُلقوا من غير شيء كالسماوات والأرض ؟ أي : إنهم ليسوا بأشَدَّ خَلْقاً من السماوات والأرض ، لأنها خُلقت من غير شيء وهم خُلقوا من آدم ، وآدم من تراب .

والرابع : أَمْ خُلقوا لغير شيء ؟ فتكون "مِنْ" بمعنى اللام .

والمعنى : ما خُلقوا عَبَثاً فلا يؤمَرون ولا يُنْهَون .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ هُمُ الخالقون ﴾ فلذلك لا يأتمرون ولا ينتهون ؟ لأن الخالق لا يؤمر ولا يُنهى .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ لا يوقِنون ﴾ بالحق ، وهو توحيدُ الله وقدرته على البعث .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ عندهم خزائنُ ربّك ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : المطر والرِّزق ، قاله ابن عباس .

والثاني : النُّبوَّة ، قاله عكرمة .

والثالث : عِلْم ما يكون من الغيب ، ذكره الثعلبي .

وقال الزجاج : المعنى : أعندهم ما في خزائن ربّك من العِلْم ، وقيل : من الرِّزق ، فهم مُعْرِضون عن ربّهم لاستغنائهم ؟ !

قوله تعالى : ﴿ أَمْ هُمُ المصيطِرون ﴾ قرأ ابن كثير : "المُسيطِرونَ" بالسين .

وقال ابن عباس : المسلَّطون .

قال أبو عبيدة : "المُصيطِرون" الأرباب .

يقال : تسيطرتَ عليَّ ، أي : اتَّخذتَني خَوَلاً ، قال : ولم يأت في كلام العرب اسم على "مُفَيْعِل" إلا خمسة أسماء : مُهَيْمِن ، ومُجَيْمِر ، ومُسَيْطِر ، ومُبَيْطِر ، ومُبَيْقِر ، فالمُهَيْمن : الله الناظر المُحصي الذي لا يفوته شيء ؛ ومُجَيْمر : جبل ؛ والمُسَيْطِر : المسلَّط ؛ ومُبَيْطِر : بَيْطار ؛ والمُبَيْقِر : الذي يخرُج من أرض إلى أرض ، يقال : بَيْقَرَ : إذا خرج من بلد إلى بلد ، قال امرؤ القيس :

أَلا هَلْ أَتاهَا ، والحوادِثُ جَمَّةٌ . . .

بأنَّ امْرأَ القَيْس بنَ تَمْلِك بَيْقَرا ؟

قال الزجّاج : المسيطِرون : الأرباب المسلَّطون ، يقال : قد تسيطر علينا وتصيطر : بالسين والصاد ، والأصل السين ، وكل سين بعدها طاء ، فيجوز أن تُقلب صاداً ، تقول : سطر وصطر ، وسطا علينا وصطا .

قال المفسرون : معنى الكلام : أم هم الأرباب فيفعلون ما شاؤوا ولا يكونون تحت أمر ولا نهي ؟ !

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لهم سُلَّمٌ ﴾ أي : مَرْقَىً ومصْعدٌ إلى السماء ﴿ يستمِعونَ فيه ﴾ أي : عليه الوحيَ ، كقوله : ﴿ في جذوع النَّخْل ﴾ [طه : 71] فالمعنى يستمِعونَ [الوحي] فيعلمون أنَّ ما هُم عليه حق ﴿ فلْيأت مُستمِعُهم ﴾ إن ادَّعى ذلك ﴿ بسُلطانٍ مُبينٍ ﴾

أي ، بحُجَّة واضحة كما أتى محمد بحُجَّة على قوله .

﴿ أمْ له البناتُ ولكم البَنونَ ﴾ هذا إنكار عليهم حين جَعلوا لله البناتِ .

﴿ أم تسألُهم أجراً فهم من مَغْرَمٍ مُثْقَلونَ ﴾ أي : هل سألتهم أجراً على ما جئتَ به ، فأثقلهم ذلك الذي تطلبه منهم فمنعهم عن الاسلام ؟ والمَغْرَمَ بمعنى الغُرْم وقد شرحناه في [براءة : 98] .

(226/730)

قوله تعالى : ﴿ أم عندهم الغَيْبُ ﴾ هذا جواب لقولهم : "نَتربَّص به ريْبَ المَنون" ؛

والمعنى : أعندهم الغيب ؟ وفيه قولان .

أحدهما : أنه اللوح المحفوظ ، ﴿ فهم يكتبون ﴾ ما فيه ويخبِرون الناس .

قاله ابن عباس .

والثاني : أعندهم عِلْم الغيب فيَعلمون أن محمداً يموت قبلم ﴿ فهم يكتُبون ﴾ أي : يحكُمون فيقولون : سَنقْهَرُك .

والكتاب : الحُكم ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " سأقضي بينكما بكتاب الله " أي : بحُكم الله عز وجل ؛ وإلى هذا المعنى : ذهب ابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ أم يُريدون كَيْداً ﴾ وهو ما كانوا عزموا عليه في دار النَّدوة ؛ وقد شرحنا ذلك في قوله : ﴿ وإذ يمكُرُ بكَ الذين كفَروا ﴾ [الأنفال : 30] ومعنى ﴿ هُمُ المَكيدونَ ﴾ هم المَجْزِيُّون بكَيدهم ، لأن ضرر ذلك عاد عليهم فقُتلوا ببدر وغيرها .

﴿ أم لهم إلهٌ غيرُ الله ﴾ أي : ألَهُم إله يرزقهم ويحفظهم غيرُ الله ؟ والمعنى أن الأصنام ليست بآلهة ، لأنها لا تنفع ولا تدفع .

ثم نزَّه نَفْسه عن شرِكهم بباقي الآية .

ثم ذكر عنادهم فقال : ﴿ وإن يَرَوْا كِسْفاً من السماء ساقطاً ﴾ والمعنى : لو سقط بعضُ السماء عليهم لَمَا انتهوا عن كفرهم ، ولَقالوا : هذه قِطعة من السَّحاب قدُركم بعضُه على بعض .

﴿ فذرْهم ﴾ أي خَلِّ عنهم ﴿ حتَّى يُلاقُوا ﴾ قرأ أبو جعفر "يَلْقَوا" بفتح الياء والقاف وسكون اللام من غير ألف ﴿ يوْمَهم ﴾ وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه يوم موتهم .

والثاني : يوم القيامة .

والثالث : يوم النَّفخة الأولى .

قوله تعالى : ﴿ يُصْعَقُون ﴾ قرأ عاصم ، وابن عامر : "يُصْعَقُون" برفع الياء ، من أصعَقَهم غيرُهم ؛ والباقون بفتحها ، من صعقوهم .

وفي قوله : ﴿ يُصْعقون ﴾ قولان .

أحدهما : يموتون .

والثاني : يُغشى عليهم ، كقوله : ﴿ وخَرَّ موسى صعِقاً ﴾ [الأعراف : 143] وهذا يخرج على قول من قال : هو يوم القيامة ، فإنهم يُغْشى عليهم من الأهوال .

(227/730)

وذكر المفسرون أن هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولا يصح ، لأن معنى الآية الوعيد .

قوله تعالى : ﴿ يوْم لا يُغْني عنهم كيْدُهم شيئاً ﴾ هذا اليوم الأول ؛ والمعنى : لا ينفعهم مكرهم ولا يدفع عنهم العذاب ﴿ ولا هُمْ يُنْصَرون ﴾ أي : يُمْنعون من العذاب .

قوله تعالى : ﴿ وإِنَّ للَّذين ظلموا ﴾ أي : أشركوا ﴿ عذاباً دون ذلك ﴾ أي : قبْل ذلك اليوم ؛ وفيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه عذاب القبر ، قاله البراء ، وابن عباس .

والثاني : عذاب القتل يوم بدر ، وروي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال مقاتل .

والثالث : مصائبهم في الدنيا ، قاله الحسن ، وابن زيد .

والرابع : عذاب الجوع ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ ولكنّ أكثرهم لا يعْلمون ﴾ أي : لا يعلمون ما هو نازلٌ بهم .

﴿ واصْبِر لحُكم ربّك ﴾ أي : لما يحكُم به عليك ﴿ فإنَّك بأعيُننا ﴾ قال الزجّاج : فإنك بحيث نراك ونحفظك ونرعاك ، فلا يصِلون إلى مكروهك .

وذكر المفسرون : أن معنى الصبر نُسخ بآية السيف ، ولا يصح لأنه لا تضادَّ .

﴿ وسبِّح بحمد ربِّك حين تقوم ﴾ فيه ستة أقوال .

أحدها : صلِّ لله حين تقوم من منامك ، قاله ابن عباس .

والثاني : قُلْ : " سبحانك اللهمَّ وبحمدك " حين تقوم من مجلسك ، قاله عطاء ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد في آخرين .

والثالث : قُلْ "سبحانك الله وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدُّك ولا إله غيرك" حين تقوم في الصلاة ، قاله الضحاك .

والرابع : سبِّح الله إذا قُمْت من نومك ، قاله حسّان بن عطيّة .

والخامس : صلِّ صلاة الظُّهر إذا قُمْت من نوم القائلة ، قاله زيد بن أسلم .

والسادس : اذْكُر الله بلسانك حين تقوم من فراشك إلى أن تدخُل في الصلاة ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : ﴿ ومِن اللَّيل فسبِّحْه ﴾ قال مقاتل : صلِّ المغرب وصلِّ العِشاء ﴿ وإدبار

النُّجوم ﴾ قرأ زيد عن يعقوب ، وهارون عن أبي عمرو ، والجعفي عن أبي بكر : "وأدبار النُّجوم" بفتح الهمزة ؛ وقرأ الباقون بكسرها .

(228/730)

وقد شرحناها في [ق : 40] ؛ والمعنى : صلِّ له في إدبار النجوم ، أي : حين تُدْبِر ، أي : تغيب بضَوء الصُّبح .

وفي هذه الصلاة قولان .

أحدهما : أنها الرَّكعتان قَبْل صلاة الفجر ، رواه عليٌّ رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وهو قول الجمهور .

والثاني : أنها صلاة الغداة ، قاله الضحاك ، وابن زيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 45 . 61 ﴾

(229/730)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ والطور ﴾

أراد به الجبل الذي كلم الله موسى بالأرض المقدسة وقيل : بمدين ﴿ وكتاب مسطور ﴾ أي مكتوب ﴿ في رق ﴾ يعني الأديم الذي يكتب فيه المصحق ﴿ منشور ﴾ أي مبسوط .

واختلفوا في الكتاب ، فقيل : هو ما كتب الله بيده لموسى من التوراة وموسى يسمع صرير الأقلام .

وقيل : هو اللوح المحفوظ .

وقيل : هو دواوين الحفظة يخرج إليهم يوم القيامة منشوراً فآخذ بيمينه وآخذ بشماله .

وقيل : هو القرآن .

﴿ والبيت المعمور ﴾ يعني بكثرة الغاشية والأهل وهو بيت في السماء السابعة قدام العرش بحيال الكعبة يقال له الصراع حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض وصح في حديث المعراج من أفراد مسلم عن أنس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رأى البيت المعمور في السماء السابعة قال : فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه وفي رواية أخرى قال فانتهيت إلى بناء فقلت للملك ما هذا ؟ قال بناء بناه الله للملائكة يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون يسبحون الله ويقدسونه .

وفي أفراد البخاري عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) : " أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك " ﴿ والسقف المرفوع ﴾ يعني السماء ﴿ والبحر المسجور ﴾ يعني الموقد المحمى بمنزلة التنور المسجور وهو قول ابن عباس .

وذلك ما روي أن الله تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة ناراً فيزاد بها في نار جهنم وجاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو وقال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لا يركبن رجل البحر إلا غازياً أو معتمراً أو حاجاً فإن تحت البحر ناراً وتحت النار بحراً " وقيل : المسجور المملوء وقيل : هو اليابس الذي ذهب ماؤه ونضب .

وقيل : هو المختلط العذب بالملح .

(230/730)

وروي عن علي أنه قال البحر المسجور هو بحر تحت العرش غمره كما بين سبع سموات إلى سبع أرضين فيه ماء غليظ يقال له بحر الحيوان يمطر العباد بعد النفخة الأولى منه أربعين صباحاً فينبتون من قبورهم أقسم الله بهذه الأشياء لما فيها من عظيم قدرته وجواب القسم قوله تعالى : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ يعني إنه لحق وكائن ونازل بالمشركين في الآخرة ﴿ ما له من دافع ﴾ أي مانع .

قال جبير بن مطعم : قدمت المدينة لأكلم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في أسارى بدر فدفعت له وهو يصلي بأصحابه المغرب وصوته يخرج من المسجد فسمعته يقرأ والطور إلى قوله إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع فكأنما صدع قلبي حين سمعت ولم يكن أسلم يومئذ فأسلمت خوفاً من نزول العذاب وما كنت أظن أني أقوم من مكاني حتى يقع بي العذاب ثم بين أنه متى يقع فقال تعالى : ﴿ يوم تمور السماء موراً ﴾ أي تدور كدوران الرحى وتتكفأ بأهلها تكفؤ السفينة وقيل : تتحرك وتختلف أجزاؤها بعضها من بعض وتضطرب ﴿ وتسير الجبال سيراً ﴾ أي تزول عن أماكنها وتصير هباء منثوراً والحكمة في مور السماء وسير الجبال الإنذار والأعلام بأن لا رجوع ولا عود إلى الدنيا وذلك لأن الأرض والسماء وما بينهما من الجبال والبحار وغير ذلك إنما خلقت لعمارة الدنيا وانتفاع بني آدم بذلك فلما لم يبق لهم عود إليها أزالها الله تعالى وذلك لخراب الدنيا وعمارة الآخرة .

(231/730)

﴿ فويل ﴾ أي شدة عذاب ﴿ يومئذ للمكذبين ﴾ أي يوم القيامة ﴿ الذين هم في خوض ﴾ أي يخوضون في الباطل ﴿ يلعبون ﴾ أي غافلون لأهون عما يراد بهم ﴿ يوم يدعون ﴾ أي يدفعون ﴿ إلى نار جهنم دعاً ﴾ يعني دفعاً بعنف وجفوة ، وذلك أن خزنة جهنم

يغلّون أيدي الكفار إلى أعناقهم ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ويدفعون بها دفعاً إلى النار على وجوههم وزجّاً في أقفيتهم حتى يردوا إلى النار ، فإذا دنوا منها ، قال لهم خزنتها : ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ أي في الدنيا ﴿ أفسحر هذا ﴾ ذلك أنهم كانوا ينسبون محمداً (صلى الله عليه وسلم) إلى السحر وأنه يغطي على الأبصار فوبخوا بذلك وقيل لهم : أفسحر هذا ﴿ أم أنتم لا تبصرون اصلوها ﴾ أي قاسوا شدتها ﴿ فاصبروا ﴾ أي على العذاب ﴿ أو لا تصبروا ﴾ أي عليه ﴿ سواء عليكم ﴾ أي الصبر والجزع ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ أي من الكفر والتكذيب في الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات ونعيم فاكهين ﴾ أي معجبين بذلك ناعمين ﴿ بما آتاهم ربهم ﴾ أي من الخير والكرامة ﴿ ووقاهم ربهم عذاب الجحيم كلوا ﴾ أي يقال لهم كلوا ﴿ واشربوا هنيئاً ﴾ أي مأمون العاقبة من التخمة والسقم ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ أي في الدنيا من الإيمان ولطاعة ﴿ متكئين على سرر مصفوفة ﴾ أي موضوعة بعضها إلى بعض ﴿ وزوجناهم بحور عين والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ﴾ يعني ألحقنا أولادهم الصغار والكبار بإيمانهم فالكبار بإيمانهم بأنفسهم والصغار بإيمان آبائهم فإن الولد الصغير يحكم بإسلامه تبعاً لأحد أبويه ﴿ ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ يعني المؤمنين في الجنة بدرجات آبائهم وإن لم يبلغوا بأعمالهم درجات آبائهم تكرمة لآبائهم لتقر بذلك أعينهم هذه رواية عن ابن عباس .

وفي رواية أخرى عنه ، أن معنى الآية والذين آمنوا واتبعناهم ذرياتهم يعني البالغين بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم الصغار الذين لم يبلغوا الإيمان بإيمان آبائهم أخبر الله تعالى أنه يجمع لعبده المؤمن من ذريته في الجنة كما كان يحب في الدنيا أن يجتمعوا إليه فيدخلهم الجنة بفضله ويلحقهم بدرجته بعمله من غير أن ينقص الآباء من أعمالهم شيئاً وذلك قوله تعالى : ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ يعني : وما نقصنا الآباء من أعمالهم شيئاً عن ابن عباس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه ثم قرأ والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم إلى آخر الآية .

عن علي قال : " سألت خديجة النبي (صلى الله عليه وسلم) عن ولدين ماتا لها في الجاهلية فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هما في النار فلما رأى الكراهية في وجهها قال : لو رأيت مكانهما لأبغضتهما قالت يا رسول الله فولدي منك قال : في الجنة ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إن المؤمنين وأولادهم في الجنة وإن المشركين وأولادهم في النار ثم قرأ النبي (صلى الله عليه وسلم) والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم

بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم " أخرج هذين الحديثين البغوي بإسناد الثعلبي .

﴿ كل امرىء ﴾ أي كافر ﴿ بما كسب ﴾ أي عمل من الشرك ﴿ رهين ﴾ أي مرتهن بعمله في النار والمؤمن لا يكون مرتهناً بعمله لقوله ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين ﴾ ثم ذكر ما وعدهم به من الخير والنعمة

(233/730)

﴿ وأمددناهم بفاكهة ﴾ يعني زيادة عما كان لهم ﴿ ولحم مما يشتهون ﴾ أي من أنواع اللحوم ﴿ يتنازعون ﴾ أي يتعاطون ويتناولون ﴿ فيها ﴾ أي في الجنة ﴿ كأساً لا لغو فيها ﴾ أي لا باطل فيها ولا رفث ولا تخاصم ولا تذهب عقولهم فيلغوا ويرفثوا ﴿ ولا تأثيم ﴾ أي لا يكون فيها ما يؤثمهم ولا يجري بينهم ما فيه لغو وإثم كما يجري بين شربة الخمر في الدنيا .

وقيل : لا يأثمون في شربها .

﴿ ويطوف عليهم ﴾ أي للخدمة ﴿ غلمان لهم كأنهم ﴾ أي في الحسن والبياض والصفاء ﴿ لؤلؤ مكنون ﴾ أي مخزون مصون لم تمسه الأيدي وقال عبد الله بن عمرو ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام كل واحد منهم على عمل غير عمل

صاحبه وعن قتادة قال : " ذكر لنا أن رجلاً قال يا نبي الله هذا الخادم فكيف المخدوم ؟ قال : " فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب " .

قوله تعالى : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ يعني يسأل بعضهم بعضاً في الجنة قال ابن عباس : يتذاكرون ما كانوا فيه من الخوف والتعب في الدنيا ﴿ قالوا إنا كنا قبل في أهلنا ﴾ أي في الدنيا ﴿ مشفقين ﴾ أي خائفين من العذاب ﴿ فمن الله علينا ﴾ أي بالمغفرة ﴿ ووقانا عذاب السموم ﴾ يعني عذاب النار وقيل : هو اسم من أسماء جهنم ﴿ إنا كنا من قبل ﴾ أي في الدنيا ﴿ ندعوه ﴾ أي نخلص الدعاء والعبادة له ﴿ إنه هو البر ﴾ قال ابن عباس : اللطيف وقيل : يعني الصادق فيما وعد .

وقيل : البر العطوف على عباده المحسن إليهم الذي عم بره جميع خلقه ﴿ الرحيم ﴾ بعبيده .

(234/730)

قوله : ﴿ فذكر ﴾ يعني فعظ يا محمد بالقرآن كفار مكة ﴿ فما أنت بنعمة ربك ﴾ أي برحمته وعصمته وقيل : بإنعامه عليك بالنبوة ﴿ بكاهن ولا مجنون ﴾ الكاهن هو الذي يوهم أنه يعلم الغيب ويخبر بما في غد من غير وحي والمعنى أنك لست كما يقول كفار مكة

أنه كاهن أو مجنون إنما تنطلق بالوحي نزلت في الذين اقتسموا أعقاب مكة يرمون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالكهانة والسحر والشعر والجنون ﴿ أم يقولون ﴾ يعني هؤلاء المقتسمين ﴿ شاعر ﴾ أي هو شاعر ﴿ نتربص به ﴾ أي ننتظر به ﴿ ريب المنون ﴾ يعني حوادث الدهر وصروفه فيموت ويهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء أو يتفرق عنه أصحابه وإن أباه مات وهو شاب ونحن نرجو أن يكون موته كموت أبيه والمنون اسم للموت وللدهر وأصله القطع سميا بذلك لأنهما يقطعان الأجل.

﴿ قل تربصوا ﴾ أي انتظروا بي الموت ﴿ فإني معكم من المتربصين ﴾ أي من المنتظرين حتى يأتي أمر الله فبكم فعذبوا يوم بدر بالقتل والسبي ﴿ أم تأمرهم أحلامم ﴾ أي عقولهم ﴿ بهذا ﴾ وذلك أن عظماء قريش كانوا يوصفون بالأحلام والعقول فأزرى الله بعقولهم حين لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل ﴿ أم هم قوم طاغون ﴾ أي يتجاوزون الحد في الطغيان والكفر ﴿ أم يقولون تقوله ﴾ أي اختلق القرآن من تلقاء نفسه والتقول التكلف ولا يستعمل إلا في الكذب والمعنى ليس الأمر كما زعموا ﴿ بل لا يؤمنون ﴾ أي بالقرآن استكباراً ثم ألزمهم الحجة فقال تعالى: ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ أي مثل القرآن في نظمه وحسنه وبيانه ﴿ إن كانوا صادقين ﴾ يعني إن محمد تقوله من قبل نفسه ﴿ أم خلقوا من غير شيء ﴾.

قال ابن عباس: من غير رب خالق.

والمعنى : أم خلقوا من غير شيء خلقهم فوجدوا بلا خالق وذلك مما لا يجوز أن يكون لأن تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق ﴿ أم هم الخالقون ﴾ أي لأنفسهم وذلك في البطلان أشد لأن ما لا وجود له كيف يخلق فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقاً فليؤمنوا به وليوحدوه وليعبدوه وقيل : في معنى الآية : أخلقوا باطلاً فلا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون أم هم الخالقون أي لأنفسهم فلا يجب عليهم لله أمر ﴿ أم خلقوا السموات والأرض ﴾ يعني ليس الأمر كذلك ﴿ بل لا يوقنون ﴾ أي بالحق وهو توحيد الله تعالى وقدرته على البعث وأن الله تعالى هو خالقهم وخالق السموات والأرض فليؤمنوا به وليوقنوا أنه ربهم وخالقهم ﴿ أم عندهم خزائن ربك ﴾ يعني النبوة ومفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاؤوا وقيل : خزائن المطر والرزق ﴿ أم هم المسيطرون ﴾ أي المسلطون الجبارون .

وقيل : الأرباب القاهرون فلا يكونون تحت أمر ولا نهي ويفعلون ما يشاؤون .

﴿ أم لهم سلم ﴾ يعني مرقى ومصعد إلى السماء ﴿ يستمعون فيه ﴾ أي يستمعون عليه الوحي من السماء فيعلمون أن ما هم عليه حق فهم به مستمسكون ﴿ فليأت مستمعهم

﴿ أي إن ادعوا ذلك ﴾ بسلطان مبين ﴾ أي بحجة بينة ﴿ أم له البنات ولكم البنون ﴾ هذا إنكار عليهم حيث جعلوا لله ما يكرهون لأنفسهم ﴿ أم تسألهم أجراً ﴾ أي جعلاً على ما جئتهم به من النبوة ودعوتهم إليه من الدين ﴿ فهم من مغرم مثقلون ﴾ يعني أثقلهم ذلك المغرم الذي سألتهم فمنعهم عن الإسلام ﴿ أم عندهم الغيب ﴾ أي علم الغيب وهو ما غاب عنهم حتى علموا أن ما يخبرهم به الرسول من أمر القيامة والبعث باطل .

(236/730)

وقيل : هو جواب لقولهم نتربص به ريب المنون ، والمعنى : اعلموا أن محمداً يموت قبلهم ﴿ فهم يكتبون ﴾ أي يحكمون قال ابن عباس : معناه أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس به ﴿ أم يريدون كيداً ﴾ أي مكراً بك ليهلكوك ﴿ فالذين كفروا هم المكيدون ﴾ أي المجزيون بكيدهم والمعنى أن ضرر كيدهم يعود عليهم ويحيق مكرهم بهم وهو أنهم مكروا به في دار الندوة ليقتلوه فقتلوا ببدر ﴿ أم لهم إله غير الله ﴾ يعني يرزقهم وينصرهم ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ المعنى : أنه نزه نفسه عما يقولون .

قوله تعالى : ﴿ وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً ﴾ هذا جواب لقولهم فأسقط علينا كسفاً من السماء يقول لو عذبناهم بسقوط قطعة من السماء عليهم لم ينتهوا عن كفرهم ﴿

يقولوا ﴾ لمعاندتهم هذا ﴿ سحاب مركوم ﴾ أي بعضه على بعض يسقينا ﴿ فذرهم حتى يلاقوا ﴾ أي يعاينوا ﴿ يومهم الذي فيه يصعقون ﴾ أي يموتون ويهلكون .

﴿ يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون ﴾ أي لا ينفعهم كيدهم يوم الموت ولا يمنعهم من العذاب مانع ﴿ وإن للذين ظلموا ﴾ أي كفروا ﴿ عذاباً دون ذلك ﴾ أي عذاباً في الدنيا قبل عذاب الآخرة قال ابن عباس يعني القتل يوم بدر وقيل : هو الجوع والقحط سبع سنين وقيل : هو عذاب القبر ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي أن العذاب نازل بهم .

قوله : ﴿ واصبر لحكم ربك ﴾ أي إلى أن يقع بهم العذاب الذي حكمنا عليهم به ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ .

أي بمرأى منا .

قال ابن عباس : نرى ما يعمل بك .

وقيل : معناه إنك بحيث نراك ونحفظك فلا يصلون إليك بمكروه ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ أي : وقل حين تقوم من مجلسك : سبحانك اللهم وبحمدك فإن كان المجلس خيراً ازددت بذلك إحساناً وإن كان غير ذلك كان كفارة لك .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا كان كفارة لما بينهما " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

وقال ابن عباس : معناه حين تقوم من منامك .

وقيل : هو ذكر الله بالليل من حين تقوم من الفراش إلى أن تدخل في الصلاة وعن عاصم بن حميد قال : " سألت عائشة بأي شيء كان يفتتح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قيام الليل فقالت سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك كان إذا قام كبر عشراً وحمد الله عشراً وسبح عشراً وهلل عشراً واستغفر عشراً وقال اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني وعافني وكان يتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة " أخرجه أبو داود والنسائي وقيل : إذا قمت إلى الصلاة فقل سبحانك اللهم وبحمدك يدل عليه ما روي عن عائشة قالت " كان النبي (صلى الله عليه وسلم) إذا افتتح الصلاة قال سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وجل ثناؤك ولا إله غيرك " أخرجه الترمذي وأبو داود وقد تكلم في أحد رواته .

وقوله تعالى : ﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ أي فصِّل له يعني صلاة المغرب والعشاء ﴿ وإدبار النجوم ﴾ يعني الركعتين قبل صلاة الفجر ذلك حين تدبر النجوم أي تغيب بضوء الصبح

هذا قول أكثر المفسرين يدل عليه ما روي عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " إدبار النجوم الركعتان قبل الفجر وإدبار السجود الركعتان بعد المغرب " أخرجه الترمذي وقال : حديث غريب .

وقيل : إدبار النجوم هي فريضة صلاة الصبح (ق) عن جبير بن مطعم قال : " سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقرأ في المغرب بالطور " والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 248 . 255 ﴾

(238/730)

وقال النسفى :

﴿ والطور ﴾

هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى وهو بمدين ﴿ وكتاب مُّسْطُورٍ ﴾ هو القرآن ونُكِّر لأنه كتاب مخصوص من بين سائر الكتب أو اللوح المحفوظ أو التوراة ﴿ فِى رَقّ ﴾ هو الصحيفة أو الجلد الذي يكتب فيه ﴿ مَّنْشُورٍ ﴾ مفتوح لا ختم عليه أو لائح ﴿ والبيت المعمور ﴾ أي الضراح وهو بيت في السماء حيال الكعبة وعمرانه بكثرة زواره من الملائكة .

رُوي أنه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ويخرجون ثم لا يعودون إليه أبداً .

وقيل : الكعبة لكونها معمورة بالحجاج والعمار ﴿ والسقف المرفوع ﴾ أي السماء أو العرش ﴿ والبحر المسجور ﴾ المملوء أو الموقد ، والواو الأولى للقسم والبواقي للعطف ، وجواب القسم ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ ﴾ أي الذي أوعد الكفار به ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ لنازل .

قال جبير بن مطعم : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلمه في الأسارى فلقيته في صلاة الفجر يقرأ سورة الطور ، فلما بلغ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ أسلمت خوفاً من أن ينزل العذاب ﴿ مَالَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ لا يمنعه مانع والجملة صفة ل "واقع" أي واقع غير مدفوع .

(239/730)

والعامل في ﴿ يَوْمٍ ﴾ ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ أي يقع في ذلك اليوم ، أو اذكر ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ﴾ تدور كالرحى مضطربة ﴿ السماء مَوْراً * وَتَسِيرُ الجبال سَيْراً ﴾ في الهواء كالسحاب لأنها تصير هباء منثوراً ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الذين هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ غلب الخوض في الاندفاع في الباطل والكذب ومنه قوله ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخائضين ﴾ [المدثر : 45] ويبدل ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ من ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ﴾ والدع : الدفع

العنيف وذلك أن خزنة النار يغلون أيديهم إلى أعناقهم ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ويدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم وزخاً في أقفيتهم فيقال لهم ﴿ هذه النار التى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدنيا ﴿ أَفَسِحْرٌ هذا ﴾ ﴿ هذا ﴾ مبتدأ و ﴿ سِحْرٌ ﴾ خبره يعني كنتم تقولون للوحي هذا سحر أفسحر هذا يريد أهذا المصداق أيضاً سحر ودخلت الفاء لهذا المعنى ﴿ أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ كما كنتم لا تبصرون في الدنيا يعني أم أنتم عمي عن المخبر عنه كما كنتم عمياً عن الخبر وهذا تقريع وتهكم.

﴿ اصلوها فاصبروا أَوْ لاَ تَصْبِرُواْ سَوَاء عَلَيْكُمْ ﴾ خبر ﴿ سَوَآء ﴾ محذوف أي سواء عليكم الأمران الصبر وعدمه بقوله ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع لنفعه في العاقبة بأن يجازي عليه الصابر جزاء الخير، فأما الصبر على العذاب الذي هو الجزاء ولا عاقبة له ولا منفعة فلا مزية له على الجزع.

﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات ﴾ في أية جنات ﴿ وَنَعِيمٍ ﴾ أي وأي نعيم بمعنى الكمال في الصفة أو في جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين خلقت لهم خاصة ﴿ فاكهين ﴾ حال من الضمير في الظرف والظرف خبر أي متلذذين ﴿ بِمَا ءاتاهم رَبُّهُمْ ﴾ وعطف قوله ﴿ ووقاهم رَبُّهُمْ ﴾ على ﴿ فِي جنات ﴾ أي إن المتقين استقروا في جنات.

..

ووقاهم ربهم ، أو على ﴿ آتاهم ربهم ﴾ على أن تجعل "ما" مصدرية والمعنى فاكهين بإيتائهم ربهم ووقايتهم ﴿ عَذَابَ الجحيم ﴾ أو الواو للحال و"قد" بعدها مضمرة يقال لهم ﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أكلاً وشرباً هنيئاً أو طعاماً وشراباً هنيئاً وهو الذي لا تنغيص فيه ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ حال من الضمير في ﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ ﴿ على سُرُرٍ ﴾ جمع سرير ﴿ مَصْفُوفَةٌ ﴾ موصول بعضها ببعض ﴿ وزوجناهم ﴾ وقرناهم ﴿ بِحُورٍ ﴾ جمع حوراء ﴿ عِينٌ ﴾ عظام الأعين حسانها ﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ مبتدأ و ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ﴾ خبره ﴿ واتبعتهم ﴾ ﴿ وأتبعناهم ﴾ أبو عمرو ﴿ ذُرِّيَّتُهُم ﴾ أولادهم ﴿ بإيمان ﴾ حال من الفاعل ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أي نلحق الأولاد بإيمانهم وأعمالهم درجات الآباء وإن قصرت أعمال الذرية عن أعمال الآباء .

وقيل : إن الذرية وإن لم يبلغون مبلغاً يكون منهم الإيمان استدلالاً وإنما تلقنوا منهم تقليداً فهم يلحقون بالآباء .

﴿ ذُرِّيَّتُهُم ﴾ ﴿ ذرياتهم ﴾ مدني ﴿ ذرياتهم ﴾ ﴿ ذرياتهم ﴾ أبو عمرو ﴿ ذرياتهم ﴾ ﴿ ذرياتهم ﴾ شامي ﴿ وَمَا أَلَتناهم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ وما نقصناهم من ثواب عملهم من شيء .

﴿ ألتناهم ﴾ مكي ألت يألِت ألتِ يألَت لغتان من الأولى متعلقة بألتناهم والثانية زائدة

﴿ كُلُّ امرىء بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ أي مرهون فنفس المؤمن مرهونة بعمله وتجازى به .

(241/730)

﴿ وأمددناهم ﴾ وزدناهم في وقت بعد وقت ﴿ بفاكهة وَلَحْمٍ مّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ وإن لم يقترحوا ﴿ يتنازعون فِيهَا كَأْساً ﴾ خمراً أي يتعاطون ويتعاورون هم وجلساؤهم من أقربائهم يتناول هذا الكأس من يد هذا وهذا من يد هذا ﴿ لاَّ لَغْوٌ فِيهَا ﴾ في شربها ﴿ وَلاَ تَأْثِيمٌ ﴾ أي لا يجري بينهم ما يلغي يعني لا يجري بينهم باطل ولا ما فيه إثم لو فعله فاعل في دار التكليف من الكذب والشتم ونحوهما كشاربي خمر الدنيا ، لأن عقولهم ثابتة فيتكلمون بالحكم والكلام الحسن .

﴿ لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ ﴾ مكي وبصري .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ مملوكون لهم مخصوصون بهم ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ من بياضهم وصفائهم ﴿ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ في الصدف لأنه رطباً أحسن وأصفى أو مخزون لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة ، في الحديث : " إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدامه فيجيبه ألف ببابه لبيك لبيك " ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ يسأل بعضهم

بعضاً عن أحواله وأعماله وما استحق به نيل ما عند الله ﴿ قَالُواْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ ﴾ أي في الدنيا ﴿ فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أرقاء القلوب من خشية الله أو خائفين من نزع الإيمان وفوت الأمان ، أو من رد الحسنات والأخذ بالسيئات ﴿ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ بالمغفرة والرحمة ﴿ ووقانا عَذَابَ السموم ﴾ هي الريح الحارة التي تدخل المسام فسميت بها نار جهنم لأنها بهذه الصفة ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ ﴾ من قبل لقاء الله تعالى والمصير إليه يعنون في الدنيا ﴿ نَدْعُوهُ ﴾ نعبده ولا نعبد غيره ونسأله الوقاية ﴿ إِنَّهُ هُوَ البر ﴾ المحسن ﴿ الرّحيم ﴾ العظيم الرحمة الذي إذا عبد أثاب وإذا سئل أجاب .

(242/730)

﴿ أَنَّهُ ﴾ بالفتح : مدني وعلي أي بأنه أو لأنه ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ فاثبت على تذكير الناس وموعظتهم ﴿ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ ﴾ برحمة ربك وإنعامه عليه بالنبوة ورجاحة العقل ﴿ بكاهن وَلاَ مَجْنُونٍ ﴾ كما زعموا وهو في موضع الحال والتقدير لست كاهناً ولا مجنوناً ملتبساً بنعمة ربك .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ هو ﴿ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ حوادث الدهر أي ننتظر نوائب الزمان فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء زهير والنابغة .

و"أم" في أوائل هذه الآي منقطعة بمعنى بل والهمزة ﴿ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المتربصين ﴾ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أحلامهم ﴾ عقولهم ﴿ بهذا ﴾ التناقض في القول وهو قولهم كاهن وشاعر مع قولهم مجنون وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهي ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ مجاوزون الحد في العناد مع ظهور الحق لهم ، وإسناد الأمر إلى الأحلام مجاز ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ اختلقه محمد من تلقاء نفسه ﴿ بَلِ ﴾ رد عليهم أي ليس الأمر كما زعموا ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه المطاعن مع علمهم ببطلان قولهم وأنه ليس بمتقول لعجز العرب عنه وما محمد إلا واحد من العرب ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ ﴾ مختلق ﴿ مِّثْلِهِ ﴾ مثل القرآن ﴿ إِن كَانُواْ صادقين ﴾ في أن محمداً تقوله من تلقاء نفسه لأنه بلسانهم وهم فصحاء ﴿ أم خُلِقُواْ ﴾ أم أحدثوا وقدروا التقدير الذي عليه فطرتهم ﴿ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ من غير مقدر ﴿ أَمْ هُمُ الخالقون ﴾ أم هم الذين خلقوا أنفسهم حيث لا يعبدون الخالق .

وقيل : أخلقوا من أجل لا شيء من جزاء ولا حساب أم هم الخالقون فلا يأتمرون ﴿ أَمْ خَلَقُواْ السماوات والأرض ﴾ فلا يعبدون خالقهما ﴿ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴾ أي لا يتدبرون في الآيات فيعلموا خالقهم وخالق السماوات والأرض .

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ من النبوة والرزق وغيرهما فيخصوا من شاءوا بما شاءوا ﴿ أَمْ هُمُ المصيطرون ﴾ الأرباب الغالبون حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الأمور على مشيئتهم.

وبالسين: مكي وشامي.

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ منصوب يرتقون به إلى السماء ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكه على هلاكهم وظفرهم في العاقبة دونه كما يزعمون.

قال الزجاج: يستمعون فيه أي عليه ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بسلطان مُّبِينٍ ﴾ بحجة واضحة تصدق استماع مستمعهم ﴿ أَمْ لَهُ البنات وَلَكُمُ البنون ﴾ ثم سفه أحلامهم حيث اختاروا لله ما يكرهون وهم حكماء عند أنفسهم ﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً ﴾ على التبليغ والإنذار ﴿ فَهُم مّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ المغرم أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه أي لزمهم مغرم ثقيل فدحهم فزهدهم ذلك في اتباعك ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب ﴾ أي اللوح المحفوظ ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ما فيه حتى يقولوا لا نبعث وإن بعثنا لم نعذب ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ وهو كيدهم في دار الندوة برسول الله وبالمؤمنين ﴿ فالذين كَفَرُواْ ﴾ إشارة إليهم أو أريد بهم كل من كفر بالله تعالى ﴿ هُمُ المكيدون ﴾ هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم ويحيق بهم

مكرهم وذلك أنهم قتلوا يوم بدر ، أو المغلوبون في الكيد من كايدته فكدته ﴿ أَمْ لَهُمْ إله غَيْرُ الله ﴾ يمنعهم من عذاب الله ﴿ سبحان الله عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً مِّنَ السماء ساقطا يَقُولُواْ سحاب ﴾ والكسف القطعة وهو جواب قولهم : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السماء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ [الإسراء : 92] يريد أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم لقالوا هذا سحاب ﴿ مَّرْكُومٌ ﴾ قد ركم أي جمع بعضه على بعض يمطرنا ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب .

(244/730)

﴿ فَذَرْهُمْ حتى يلاقوا يَوْمَهُمُ الذى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ بضم الياء : عاصم وشامي . الباقون بفتح الياء ، يقال : صعقه فصعق وذلك عند النفخة الأولى نفخة الصعق ﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ وإن لهؤلاء الظلمة ﴿ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ ﴾ دون يوم القيامة وهو القتل ببدر والقحط سبع سنين وعذاب القبر ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

ثم أمره بالصبر إلى أن يقع بهم العذاب فقال ﴿ واصبِرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ بإمهالهم وبما يلحقك فيه من المشقة ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بحيث نراك ونكلؤك .

وجمع العين لأن الضمير بلفظ الجماعة ألا ترى إلى قوله ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عَيْنِى ﴾ [طه : 39] ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ للصلاة وهو ما يقال بعد التكبير سبحانك اللهم وبحمدك ، أو من أي مكان قمت أو من منامك ﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ وإدبار النجوم ﴾ وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل وأدبار زيد أي في أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت ، والمراد الأمر بقول سبحان الله وبحمده في هذه الأوقات .

وقيل : التسبيح الصلاة إذا قام من نومه ، ومن الليل صلاة العشاءين ، وإدبار النجوم صلاة الفجر ، وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 189.194 ﴾

(245/730)

وقال ابن جزى :

سورة الطور

﴿ والطور ﴾

هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ، وقيل : الطور كل جبل فكأنه أقسم بجنس الجبال ﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴾ قيل : هو اللوح المحفوظ ، وقيل : القرآن ، وقيل : صحائف الأعمال ﴿ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴾ الرق في اللغة : الصحيفة ، وخُصصت في

العُرف بما كان من جلد ، والمنشور خلاف المطوي ﴿ والبيت المعمور ﴾ هو بيت في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ولا يعودون إليه أبداً وبهذا عمرانه ، وهو حيال الكعبة ، وقيل : البيت المعمور : الكعبة وعمرانها بالحجاج والطائفين ، والأول أظهر ، وهو قول علي وابن عباس ﴿ والسقف المرفوع ﴾ يعني السماء ﴿ والبحر المسجور ﴾ هو بحر الدنيا ، وقيل : بحر في السماء تحت العرش : والأول أظهر وأشهر ، ومعنى المسجور : المملوء ماء ، وقيل : الفارغ من الماء ، ويُروى أن البحار يذهب ماؤها يوم القيامة ، واللغة تقتضي الوجهين : لأن اللفظ من الأضداد ، وقيل : معناه الموقد ناراً من قولك : سجرتُ التنور ، واللغة أيضاً تقتضي هذا ، ورُوي أن جهنم في الحبر ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ هذا جواب القسم ، ويعني عذاب الآخرة .

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السمآء مَوْراً ﴾ أي : تجيء وتذهب ، وقيل : تدور ، وقيل : تتشقق ، والعامل في الظرف واقع ودافع أو محذوف .

﴿ الذين هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ الخوض : التخبط في الأباطيل شُبِّه بخوض الماء ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ أي يدفعون بتعنيف ، ويوم بدل من الظرف المتقدم .

﴿ أَفَسِحْرٌ هذا ﴾ ؟ توبيخ للكفار على ما كانوا يقولونه في الدنيا من أن القرآن سحر ﴿ أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ توبيخ أيضاً لهم ، وتهكم بهم أي هل أنتم لا تبصرون هذا العذاب الذي حل بكم كما كنتم في الدنيا لا تبصرون الحقائق ؟

﴿ فاصبروا أَوْلاَ تَصْبِرُواْ ﴾ ليس المراد بذلك الأمر بالصبر ولا النهي عنه ، وإنما المراد التسوية بين الصبر وعدمه في أن كل واحد من الحالين لا ينفعهم ، ولا يخفف عنهم شيئاً من العذاب ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ هذا تعليل لما ذكر من عذابهم ، وليس تعليلاً للصبر ولا لعدمه كما قال بعض الناس .

﴿ فَاكِهِينَ ﴾ يحتمل أن يكون معناه أصحاب فاكهة ، فيكون نحو لابن وتامرٌ صاحب لبن وصاحب تمر أو يكون من الفكاهة بمعنى السرور ﴿ وَوَقَاهُمْ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ أو على آتاهم ربهم ، أو تكون الواو للحال ﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ أي يقال لهم : كلوا ﴿ هَنِيئاً ﴾ صفة لمصدر محذوف تقديره : كلوا أكلاً هنيئاً ، ويحتمل أن يكون وقع موقع فعل تقديره : هنأكم الأكل والشرب ﴿ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ الحور : جمع حوراء وهي الشديدة بياض بياض العين وسواد سوادها ، والعين جمع عيناء وهي الكبيرة العينين مع جمالها ، وإما دخلت الباء في قوله ﴿ بِحُورٍ ﴾ لأنه تضمن قوله : ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم ﴾ معنى قرناهم ، قاله الزمخشري وقال : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ ﴾ معطوف على ﴿ بِحُورٍ عِينٍ

﴿ أي قرناهم بحور للتلذذ بهن ، وبالذين للأنس معهم . والأظهر أن الكلام تمّ في قوله ﴿ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ ويكون ﴿ والذين آمَنُواْ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ أَلْحَقْنَا ﴾ عَذَابَ .

(247/730)

﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم ﴾ معنى الآية ما ورد في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته في الجنة ، وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه " فذلك كرامة للأبناء بسبب الآباء ، قيل : إن ذلك في الأولاد الذين ماتوا صغاراً ، وقيل : على الاطلاق في الأبناء المؤمنين ، وبإيمان في موضع الحال من الذرية ، والمعنى أنهم اتبعوا آباءهم في الإيمان ، وقال الزمخشري : إن هذا المجرور يتعلق بألحقنا ، والمعنى عنده بسبب الإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ، والأول أظهر ، فإن قيل : لم قال بإيمان بالتنكير ؟ فالجواب : أن المعنى بشيء من الإيمان لم يكونوا به أهلاً لدرجة آبائهم ، ولكنهم لحقوا بهم كرامة للآباء ، فالمراد تقليل إيمان الذرية ولكنه رفع درجتهم ، فكيف إذا كان إيماناً عظيماً ﴿ وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ أي ما أنقصناهم من ثواب أعمالهم بل وفينا لهم أجورهم ، وقيل المعنى : ألحقنا ذريتهم بهم ، وما نقصناهم شيئاً من ثواب أعمالهم بسبب ذلك ، بل فعلنا ذلك تفضلاً زيادة إلى ثواب أعمالهم ، والضمير على القولين

يعود على الذين آمنوا ، وقيل : إنه يعود على الذرية ﴿ كُلُّ امرىء بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ أي مرتهن ، فإما أن تنجيه حسناته ، وإما أن تهلكه سيئاته .

﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ ﴾ الإمداد هو الزيادة مرة بعد مرة .

﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً ﴾ أي يتعاطونها إذ هم جلساء على الشراب ﴿ لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ ﴾ اللغو الكلام الساقط ، والتأثيم : الذنب فهي بخلاف خمر الدنيا .

﴿ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ يعني خدامهم ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ اللؤلؤ الجوهر ، والمكنون المصون ، وذلك لحسنه وقيل : هو الذي لم يخرج من الصدف .

(248/730)

﴿ قالوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أي كنا في الدنيا خائفين من الله ، والإشفاق شدة الخوف ﴿ السموم ﴾ أشد الحر وقيل : هو من أسماء جهنم ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى نعبده ، أو من الدعاء بمعنى الرغبة ، ومن قبل يعنون في الدنيا قبل لقاء الله ﴿ إِنَّهُ هُوَ البر الرحيم ﴾ البر الذي يبرُّ عباده ويحسن إليهم ، وقرأ نافع والكسائي أنه بفتح الهمزة على أن يكون مفعولاً من أجله ، أو يكون هذا اللفظ هو المدعو به وقرأ الباقون بكسرها على الاستئناف .

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، أي ذكِّر الناس ، ثم نفى عنه ما نسبه إليه الكفار من الكهانة والجنون . ومعنى : ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ : بسبب إنعام الله عليك .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ أم في هذا الموضع وفيما بعده للاستفهام بمعنى الإنكار ، والتربص الانتظار ، وريب المنون ، حوادث الدهر ، وقيل : الموت ، وكانت قريش قد قالت : إنما هو شاعر ننتظر به ريب المنون فيهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء كزهير والنابغة ﴿ قُلْ تَرَبَّصُواْ ﴾ أمر على وجه التهديد .

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَاذَآ ﴾ الأحلام العقول : أي كيف تأمرهم عقولهم بهذا ، والإشارة إلى قولهم هو شاعر ، أو إلى ما هم عليه من الكفر والتكذيب ، وإسناد الأمر إلى الأحلام مجاز كقوله : ﴿ أصلاوتك تَأْمُرُكَ ﴾ [هود : 87] ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أم هنا بمعنى بل ، ويحتمل أن تكون بمعنى بل وهمزة الاستفهام بمعنى الإنكار كما هي في هذه المواضع كلها .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ أي اختلقه من تلقاء نفسه ، وضمير الفاعل لرسول الله صلى الله عليه وسلم المفعول للقرآن ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ ردّ عليهم وإقامة حجة عليهم ، والأمر هنا للتعجيز .

﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أن معناه أم خلقوا من غير رب أنشأهم واستعبدهم ، فهم من أجل ذلك لا يعبدون الله : الثاني أم خلقوا من غير أب ولا أم كالجمادات فهم لا يؤمرون ولا ينهون كحال الجمادات : الثالث أم خلقوا من غير أن يحاسبوا ولا يجازوا بأعمالهم فهو على هذا كقوله : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً ﴾ [المؤمنون : 115] ﴿ أَمْ هُمُ الخالقون ﴾ معناه أهم الخالقون لأنفسهم بحيث لا يعبدون الخالق ؟ أم هم الخالقون للمخلوقات بحيث يتكبرون ؟

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ المعنى أعندهم خزائن اله بحيث يستغنون عن عبادته ؟ وقيل : أعندهم خزائن الله بحيث يعطون من شاؤوا ويمنعون من شاؤوا ؟ ويخصون بالنبوّة من شاؤوا ﴿ أَمْ هُمُ المصيطرون ﴾ أي الأرباب الغالبون ، وقيل : المسيطر المسلط القاهر

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ يعني أم لهم سلم يصعدون به إلى السماء ، فيسمعون ما تقول الملائكة ، بحث يعلمون صحة دعواهم . ثم عجّزهم بقوله : ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بحجة واضحة على دعواهم .

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ معناه أتسألهم على الإسلام أجرة ، فيثقل

عليهم غرمها يشق عليهم اتباعك .

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ المعنى أعندهم علم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه حتى يقولوا : لا نبعث وإن بعثنا لا نعذب ؟ وقيل : المعنى فهم يكتبون للناس سنناً وشرائع من عبادة الأصنام وتسييب السوائب وشبه ذلك .

(250/730)

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ إشارة إلى كيدهم في دار الندوة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، حيث تشاوروا في قتله أو إخراجه ﴿ فالذين كَفَرُواْ هُمُ المكيدون ﴾ أي المغلوبون في الكيد ، والذين كفروا يعني من تقدم الكلام فيهم وهم كفار قريش ، فوضع الظاهر موضع المضمر ، ويحتمل أن يريد جميع الكفار .

﴿ أَمْ لَهُمْ إله غَيْرُ الله ﴾ المعنى هل لهم إله غير الله يعصمهم من عذاب الله ويمنعهم منه ؟ وحصر الله في هذه الآية جميع المعاني التي توجب التكبر والبعد من الدخول في الإسلام ونفاها عنهم ؛ ليبين أن تكبرهم من غير موجب وكفرهم من غير حجة .

﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً مِّنَ السمآء سَاقِطاً يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ كانوا قد طلبوا أن ينزل عليهم كسفاً من السماء ، فالمعنى أنهم لو رأوا الكسف ساقطاً عليهم لبلغ بهم الطغيان

والجهل والعناد أن يقولوا : ليس بكسف وإنما هو سحاب مركوم : أي كثيف بعضه فوق بعض .

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ منسوخ بالسيف ﴿ يَوْمَهُمُ الذي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ يعني يوم القيامة والصعقة فيه هي النفخة الأولى ، وقيل : غير ذلك والصحيح ما ذكرنا لقوله في المعارج [44] عن يوم القيامة .

﴿ ذَلِكَ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، ﴿ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ ﴾ يعني قتلهم يوم بدر ، وقيل الجوع بالقحط ، وقيل : عذاب القبر .

﴿ واصبرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أي اصبر على تكذيبهم لك وإمهالنا فإنا نراك ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنه قول سبحان الله ، ومعنى ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ من كل مجلس ، وقيل : أراد حين تقوم وتقعد ، وفي كل حال وجعل القيام مثالاً : الثاني أنه الصلوات النوافل ؛ والثالث أنه الصلوات الفرائض ، فحين تقوم الظهر والعصر : أي حين تقوم من نوم القائلة ، ومن الليل المغرب والعشاء ، وإدبار النجوم : الصبح ومن قال : هي النوافل ، جعل إدبار النجوم ركعتين الفجر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 71 . 74 ﴾

وقال البيضاوى :

سورة الطور

مكية وآيها تسع أو ثمان وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ والطور ﴾

يريد طور سنين ، وهو جبل بمدين سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى ، ﴿ والطور ﴾ الجبل بالسريانية أو ما طار من أوج الإِيجاد إلى حضيض المواد ، أو من عالم الغيب إلى عالم الشهادة .

﴿ وكتاب مُّسْطُورٍ ﴾ مكتوب ، والسطر ترتيب الحروف المكتوبة . والمراد به القرآن أو ما كتبه الله في اللوح المحفوظ ، أو ألواح موسى عليه السلام ، أو في قلوب أوليائه من المعارف والحكم أو ما تكتبه الحفظة .

﴿ فِى رَقّ مَّنْشُورٍ ﴾ الرق الجلد الذي يكتب فيه استعير لما كتب فيه الكتاب ، وتنكيرهما للتعظيم والإِشعار بأنهما ليسا من المتعارف فيما بين الناس .

﴿ والبيت المعمور ﴾ يعني الكعبة وعمارتها بالحجاج والمجاورين ، أو الضراح وهو في السماء الرابعة وعمرانه كثرة غاشيته من الملائكة ، أو قلب المؤمن وعمارته بالمعرفة والإِخلاص .

﴿ والسقف المرفوع ﴾ يعني السماء .

﴿ والبحر المسجور ﴾ أي المملوء وهو المحيط ، أو الموقد من قوله : ﴿ وَإِذَا البحار سُجّرَتْ ﴾ روي أنه تعالى يجعل يوم القيامة البحار ناراً يسجر بها نار جهنم ، أو المختلط من السجير وهو الخليط .

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ لنازل .

﴿ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ يدفعه ، ووجه دلالة هذه الأمور المقسم بها على ذلك أنها أمور تدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته وصدق أخباره وضبطه أعمال العباد للمجازاة .

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السماء مَوْراً ﴾ تضطرب ، والمور تردد في المجيء والذهاب ، وقيل تحرك في تموج و﴿ يَوْمٍ ﴾ ظرف .

﴿ وَتَسِيرُ الجبال سَيْراً ﴾ أي تسير عن وجه الأرض فتصير هباء .

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لّلْمُكَذّبِينَ ﴾ أي إذا وقع ذلك فويل لهم .

﴿ الذين هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أي في الخوض في الباطل .

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ يدفعون إليها دفعاً بعنف ، وذلك بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم فيدفعون إلى النار . وقرىء "يَدَّعُونَ" من الدعاء فيكون دعا حالاً بمعنى مدعوين ، و﴿ يَوْمٍ ﴾ بدل من ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ﴾ أو ظرف لقول مقدر محكية .

﴿ هذه النار التى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أي يقال لهم ذلك .

﴿ أَفَسِحْرٌ هذا ﴾ أي كنتم تقولون للوحي هذا سحر أفهذا المصداق أيضاً سحر ، وتقديم الخبر لأنه المقصود بالإنكار والتوبيخ . ﴿ أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ هذا أيضاً كما كنتم لا تبصرون في الدنيا ، ما يدل عليه وهو تقريع وتهكم أو : أم سدت أبصاركم كما سدت في الدنيا على زعمكم حين قلتم ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أبصارنا ﴾ ﴿ اصلوها فاصبروا أَوْ لاَ تَصْبِرُواْ ﴾ أي ادخلوها على أي وجه شئتم من الصبر وعدمه فإنه لا محيص لكم عنها .

﴿ سَوَاء عَلَيْكُمْ ﴾ أي الأمران الصبر وعدمه . ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تعليل للاستواء فإنه لما كان الجزاء واجب الوقوع كان الصبر وعدمه سيين في عدم النفع .

﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَنَعِيمٍ ﴾ في أية جنات وأي نعيم ، أو في ﴿ جنات وَنَعِيمٍ ﴾ مخصوصة بهم .

﴿ فاكهين ﴾ ناعمين متلذذين . ﴿ بِمَا ءاتاهم رَبُّهُمْ ﴾ وقرىء "فكهين" و"فاكهون" على أنه الخبر والظرف لغو . ﴿ ووقاهم رَبُّهُمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ عطف على ﴿ ءاتاهم

﴿ إن جعل ﴿ مَا ﴾ مصدرية ، أو ﴿ فِي جنات ﴾ أو حال بإضمار قد من المستكن في الظرف أو الحال ، أو من فاعل آتي أو مفعوله أو منهما .

﴿ كُلُواْ واشربوا هَنِيئاً ﴾ أي أكلا وشرابا ﴿ هَنِيئاً ﴾ ، أو طعاماً وشراباً ﴿ هَنِيئاً ﴾ وهو الذي لا تنغيص فيه . ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بسببه أو بدله ، وقيل الباء زائدة و"ما" فاعل ﴿ هَنِيئاً ﴾ ، والمعنى هنأكم ما كنتم تعملون أي جزاؤه .

(253/730)

﴿ مُتَّكِئِينَ على سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ مصطفة ﴿ وزوجناهم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ الباء لما في التزويج من معنى الوصل والإلصاق ، أو للسببية إذ المعنى صيرناهم أزواجاً بسببهن ، أو لما في التزويج من معنى الإلصاق والقرن ولذلك عطف .

﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ على حور أي قرناهم بأزواج حور ورفقاء مؤمنين . وقيل إنه مبتدأ ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ﴾ وقوله : ﴿ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بإيمان ﴾ اعتراض للتعليل ، وقرأ ابن عامر ويعقوب "ذرياتهم" بالجمع وضم التاء للمبالغة في كثرتهم والتصريح ، فإن الذرية تقع على الواحد والكثير ، وقرأ أبو عمرو و"أتبعناهم ذرياتهم" أي جعلناهم تابعين لهم في الإيمان . وقيل ﴿ بإيمان ﴾ حال من الضمير أو الذرية أو منهما وتنكيره للتعظيم ، أو الإشعار بأنه

يكفي للإلحاق المتابعة في أصل الإيمان . ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ في دخول الجنة أو الدرجة . لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال " إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه لتقربهم عينه ثم تلا هذه الآية " وقرأ نافع وابن عامر والبصريان ﴿ ذرياتهم ﴾ . ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُم ﴾ وما نقصناهم . ﴿ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ بهذا الإلحاق فإنه كان يحتمل أن يكون بنقص مرتبة الآباء أو بإعطاء الأبناء بعض مثوباتهم ، ويحتمل أن يكون بالتفصيل عليهم وهو اللائق بكمال لطفه . وقرأ ابن كثير بكسر اللام من ألت يألت ، وعنه "لتناهم" من لات يليت و"آلتناهم" من آلت يولت ، و"والتناهم" من ولت يلت ومعنى الكل واحد . ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ بعمله مرهون عند الله تعالى فإن عمل صالحاً فكه وإلا أهلكه .

﴿ وأمددناهم بفاكهة وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي وزدناهم وقتاً بعد وقت ما يشتهون من أنواع التنعم .

(254/730)

﴿ يتنازعون فِيهَا ﴾ يتعاطون هم وجلساؤهم بتجاذب . ﴿ كَأْساً ﴾ خمراً سماها باسم محلها ولذلك أنث الضمير في قوله : ﴿ لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ ﴾ أي لا يتكلمون بلغو

الحديث في أثناء شربها ، ولا يفعلوا ما يؤثم به فاعله كما هو عادة الشاربين في الدنيا ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ وقرأهما ابن كثير والبصريان بالفتح .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي بالكأس . ﴿ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ أي مماليك مخصوصون بهم . وقيل هم أولادهم الذين سبقوهم . ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ مصون في الصدف من بياضهم وصفائهم . وعنه صلى الله عليه وسلم " والذي نفسي بيده إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب " ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ يسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله .

﴿ قَالُواْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين من عصيان الله معتنين بطاعته ، أو وجلين من العاقبة .

﴿ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ بالرحمة والتوفيق . ﴿ ووقانا عَذَابَ السموم ﴾ عذاب النار النافذة في المسام نفوذ السموم ، وقرىء "ووقانا" بالتشديد .

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ ﴾ من قبل ذلك في الدنيا . ﴿ نَدْعُوهُ ﴾ نعبده أو نسأله الوقاية . ﴿ إِنَّهُ هُوَ البر ﴾ المحسن ، وقرأ نافع والكسائي "أَنَّهُ" بالفتح . ﴿ الرحيم ﴾ الكثير الرحمة .

﴿ فَذَكِّرْ ﴾ فاثبت على التذكير ولا تكترث بقولهم . ﴿ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ بحمد الله وإنعامه . ﴿ بكاهن وَلاَ مَجْنُونٍ ﴾ ، كما يقولون .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ ما يقلق النفوس من حوادث الدهر ، وقيل ﴿

المنون ﴾ الموت فعول من منه إذا قطعه .

﴿ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المتربصين ﴾ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي .

(255/730)

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أحلامهم ﴾ عقولهم . ﴿ بهذا ﴾ بهذا التناقض في القول فإن الكاهن يكون ذا فطنة ودقة نظر ، والمجنون مغطى عقله والشاعر يكون ذا كلام موزون متسق مخيل ، ولا يتأتى ذلك من المجنون وأمر الأحلام به مجاز عن أدائها إليه . ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ مجاوزون الحد في العناد وقرىء "بل هم" .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ اختلقه من تلقاء نفسه . ﴿ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ فيرمونه بهذه المطاعن لكفرهم وعنادهم .

﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ مثل القرآن . ﴿ إِن كَانُواْ صادقين ﴾ في زعمهم إذ فيهم كثير ممن عدوا فصحاء فهو رد للأقوال المذكورة بالتحدي ، ويجوز أن يكون رد للتقول فإن سائر الأقسام ظاهر الفساد .

﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ أم أحدثوا وقدروا من غير محدث ومقدر فلذلك لا يعبدونه ، أو من أجل لا شيء من عبادة ومجازاة . ﴿ أَمْ هُمُ الخالقون ﴾ يؤيد الأول فإن معناه أم

خلقوا أنفسهم ولذاك عقبه بقوله :

﴿ أَمْ خَلَقُواْ السموات والأرض ﴾ وَ ﴿ أَمْ ﴾ في هذه الآيات منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار . ﴿ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴾ إذا سئلوا من خلقكم ومن خلق السموات والأرض قالوا الله إذ لو أيقنوا ذلك لما أعرضوا عن عبادته .

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ خزائن رزقه حتى يرزقوا النبوة من شاؤوا ، أو خزائن علمه حتى يختاروا لها من اختارته حكمته . ﴿ أَمْ هُمُ المُصَيْطِرُون ﴾ الغالبون على الأشياء يدبرونها كيف شاؤوا . وقرأ قنبل وحفص بخلاف عنه وهشام بالسين وحمزة بخلاف عن خلاد بين الصاد والزاي ، والباقون بالصاد خاصة .

﴿ ا أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ مرتقى إلى السماء . ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ صاعدين فيه إلى كلام الملائكة وما يوحي إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن . ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بسلطان مُّبِينٍ ﴾ بحجة واضحة تصدق استماعه .

(256/730)

﴿ أَمْ لَهُ البنات وَلَكُمُ البنون ﴾ فيه تسفيه لهم وإشعار بأن من هذا رأيه لا يعد من العقلاء فضلاً أن يترقى بروحه إلى عالم الملكوت فيتطلع على الغيوب .

﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً ﴾ على تبليغ الرسالة . ﴿ فَهُم مّن مَّغْرَمٍ ﴾ من التزام غرم . ﴿ مُّثْقَلُونَ ﴾ محملون الثقل فلذلك زهدوا في اتباعك .

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب ﴾ اللوح المحفوظ المثبت فيه المغيبات . ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ منه .

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ وهو كيدهم في دار الندوة برسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ فالذين كَفَرُواْ ﴾ يحتمل العموم والخصوص فيكون وضعه موضع الضمير للتسجيل على كفرهم ، والدلالة على أنه الموجب للحكم المذكور .

﴿ هُمُ المكيدون ﴾ هم الذين يحيق بهم الكيد أو يعود عليهم وبال كيدهم ، وهو قتلهم يوم بدر أو المغلوبون في الكيد من كايدته فكدته .

﴿ أَمْ لَهُمْ إله غَيْرُ الله ﴾ يعينهم ويحرسهم من عذابه . ﴿ سبحان الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ عن إشراكهم أو شركة ما يشركونه به .

﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً ﴾ قطعة . ﴿ مّنَ السماء ساقطا يَقُولُواْ ﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم . ﴿ سحاب مَّرْكُومٌ ﴾ هذا سحاب تراكم بعضه على بعض ، وهو جواب قولهم ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مّنَ السماء ﴾

﴿ فَذَرْهُمْ حتى يلاقوا يَوْمَهُمُ الذى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ وهو عند النفخة الأولى ، وقرىء . "يلقوا" وقرأ ابن عامر وعاصم ﴿ يُصْعَقُونَ ﴾ على المبني للمفعول من صعقه أو أصعقه .

﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ أي شيئاً من الإغناء في رد العذاب . ﴿ وَلاَ هُمْ

يُنصَرُونَ ﴾ يمنعون من عذاب الله .

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ يحتمل العموم والخصوص . ﴿ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي دون عذاب الآخرة وهو عذاب القبر أو المؤاخذة في الدنيا كقتلهم ببدر والقحط سبع سنين .

﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ذَلِكَ .

(257/730)

﴿ واصبِرِ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ بإمهالهم وإبقائك في عنائهم . ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ في حفظنا بحيث نراك ونكلؤك وجمع العين لجمع الضمير والمبالغة بكثرة أسباب الحفظ . ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ من أي مكان قمت أو من منامك أو إلى الصلاة .

﴿ وَمِنَ اليل فَسَبِّحْهُ ﴾ فإن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد من الرياء ، ولذلك أفرده بالذكر وقدمه على الفعل ﴿ وإدبار النجوم ﴾ وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل ، وقرىء بالفتح أي في أعقابها إذا غربت أو خفيت .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة والطور كان حقاً على الله أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه في جنته " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 244 ﴾ 251.

(1) حديث موضوع.

(258/730)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري:

﴿ وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) ﴾

التفسير: لما ختم السورة المتقدمة بوقوع اليوم الموعود أقسم على ذلك بالطور وهو الجبل الذي مر ذكره مراراً في قصة موسى. والكتاب المسطور التوراة ظاهراً لأنه هو المناسب للطور. وقيل: اللوح المحفوظ. وقيل: صحيفة الأعمال. والرق الصحيفة أو الجلد الذي يكتب عليه. والمنشور خلاف المطوي كقوله

(259/730)

﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ [الإسراء: 13] وقيل: هو القرآن ونكر لأنه كتاب مخصوص من بين جنس الكتب ﴿ والبيت المعمور ﴾ الكعبة أو الضراح في السماء السابعة سمي معموراً لكثرة زواره من الحجاج أو الملائكة ﴿ والسقف المرفوع ﴾

السماء ﴿ والبحر المسجور ﴾ المملوء أو الموقد من قوله ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ [الأنفطار : 3] وقد سبق في " المؤمن " في قوله ﴿ ثم في النار يسجرون ﴾ [الآية : 72] عن جبير بن مطعم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلمه في الأساري فألفيته في صلاة الفجر يقرأ سورة ﴿ والطور ﴾ فلما بلغ ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ أسلمت خوفاً من أن ينزل العذاب ﴿ يوم تمور ﴾ تضطرب وتجيء وتذهب وقد يقال : المور تحرك في تموج كحركة الزئبق ونحوه . قلت : لأهل التأويل أن يقولوا : الطور القوة العقلية ، وكتاب مسطور هي الجلايا القدسية والمعارف الإلهية الثابتة فيها كالحرف في الرق ، والبيت المعمور بيت القلب ، والسقف المرفوع الرأس ، والبحر المسجور الدماغ المملوء من الخيالات والأوهام . ﴿ إن عذاب ربك ﴾ بالحرمان عن الإكرام لازدحام ظلم الآثام لواقع يوم القيامة الصغرى إذ تمور سماء الأرواح حين قطع العلائق وحيلولة العوائق موراً ، وتسير جبال النفوس الحيوانية الأمارة التي أثقلت ظهر صاحبها لانتهاء سيرانها وانقضاء سلطانها سيراً . والدع الدفع العنيف . قال المفسرون : إن خزنة النار يغلون أيديهم إلى أعناقهم ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ويدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم وزجاً في أقفيتهم . والاستفهام في قوله ﴿ أفسحر ﴾ للتقريع والتهكم ، والفاء مؤكد له أي كنتم تقولون للوحي إنه سحر فهذا أيضاً سحر ﴿ أم أنتم لا تبصرون ﴾ هذا المخبر عنه في الآخرة كما كنتم لا

تصدقون الخبر عنه في الدنيا . وقوله ﴿ فاصبروا أو لا تصبروا ﴾ كقوله ﴿ سواء علينا لا

تصدقون الخبر عنه في الدنيا . وقوله ﴿ فاصبروا أو لا تصبروا ﴾ كقوله ﴿ سواء علينا

(260/730)

أجزعنا أم صبرنا ﴾ [إبراهيم : 21] ثم علل الاستواء بقوله ﴿ إنما تجزون ﴾ يعني أن الجزاء لا بد من حصوله فلا مزية للصبر على عدمه . قوله ﴿ ووقاهم ﴾ معطوف على متعلق قوله ﴿ في جنات ﴾ أي استقروا في جنات ونعيم ووقاهم العذاب . وجوز أن يعطف على ﴿ آتاهم ﴾ على أن " ما " مصدرية أي فاكهين بالإيتاء والوقاية ﴿ كلوا ﴾ على إرادة القول أي يقال لهم كلوا ﴿ واشربوا ﴾ أكلاً وشرباً ﴿ هنيئاً ﴾ أو طعاماً وشراباً هنيئاً لا تنغيص فيه . وقد مر في أول " النساء " . وجوز جار الله أن يكون صفة في معنى المصدر القائم مقام الفعل أي هنأكم الأكل والشرب بسبب ما عملتم ، أو الباء مزيدة أي هنأكم جماء ما عملتم . قوله ﴿ والذين آمنوا ﴾ ظاهره أنه مبتدأ خبره ﴿ ألحقنا ﴾ قال جار الله : هو معطوف على ﴿ حور عين ﴾ أي قرناهم بحور عين والذين آمنوا من رفقائهم وجلسائهم وأتبعناهم ذرياتهم كي يجتمع لهم أنواع السرور بملاعبة الحور وبمؤانسة الإخوان المؤمنين وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم .

وقوله ﴿ بإيمان ﴾ أي بسبب إيمان عظيم رفيع المحل وهو إيمان الآباء . ﴿ ألحقنا ﴾ بدرجاتهم ﴿ ذريتهم ﴾ ويجوز أن يراد إيمان الذرية الداني المحل كما جاء في الحديث " إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه لتقر بهم عينه ثم تلا هذه الآية " ﴿ وما ألتناهم ﴾ أي وما نقصنا من ثوابهم شيئاً بعطية الأبناء ولا بسبب غيرها ولكن وفرنا عليهم جميع ما ذكرنا تفضلاً وإحساناً . ثم بين أن الجزاء بمقدار العمل فقال ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾ أي مرهون . قال جار الله : كأن نفس العبد رهن عند الله بالعمل الصالح الذي هو مطالب به كما يرهن الرجل عبده بدين عليه . فإن عمل صالحاً فكها وخلصها وإلا أوبقها . وقيل : هذا يعود إلى الكفار . والرهين المرهون المأخوذ المحبس على أمر يؤدي عنه . وقيل : بمعنى راهن وهو المقيم أي كل إنسان مقيم في جزاء ما يقدم . ﴿ وأمددناهم ﴾ وزدناهم وقتاً بعد وقت ﴿ يتنازعون ﴾ يتعاطون هم وقرناؤهم ﴿ لا لغو فيها ﴾ أي لا حديث باطل في أثناء شربها . ونفى اللغو لانتفاء الغول الذي هو من تعاكسيه ﴿ ولا تأثيم ﴾ أي لا يفعلون ما ينسب صاحبه إلى الإثم لو فعله في دار التكليف ، وإنما يتكلمون بالكلام الحسن المفيد وذلك أنهم حكماء علماء . والغلمان الخدام

المختصمون بهم ، واللؤلؤ المكنون المستور في الصدف أو في الدرج وذلك أنه أصفى وأرطب وأثمن . وقيل لقتادة : هذا هو الخادم فكيف المخدوم ؟ فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " والذي نفس بيده إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب " وعنه صلى الله عليه وسلم " إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدامه فيجيب ألف ببابه لبيك لبيك " ﴿ يتساءلون ﴾ يتحادثون ﴿ مشفقين ﴾ أرقاء القلوب من خشية الله وعذاب السموم عذاب النار لأنها تدخل المسام ومنه الريح السموم ﴿ من قبل ﴾ أي في الدنيا ﴿ فذكر ﴾ فأثبت على ما أنت عليه من التذكير والدعوة العامة ﴿ فما أنت بنعمة

ربك ﴾ أي بسبب حمد الله وإنعامه عليك ﴿ بكاهن ﴾ كما يزعمون ﴿ ولا مجنون ﴾ فلعله كان لهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوال ، فبعضهم ينسبونه إلى الكهانة نظراً إلى إخباره عن المغيبات ، وبعضهم يرمونه بالجنون حيث لا يسمعون منه ما يوافق هواهم ويطابق مغزاهم ، وبعضهم يرون أن تأثير كلامه فيهم من باب التخييل لا الإعجاز كما قال ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ وهو ما يقلق النفوس ويزعجها من حوادث

الدهر ، وقيل : المنون الموت " فعول " من منه إذا قطعه لأن الموت قطوع ولذلك سمي شعوب . وقد قالوا : ننتظر به نوائب الزمان فيهلك كما هلك الشعراء قبله . والأحلام العقول وكانت قريش يدعون أنهم أهل النهي والأحلام .

وكون الأحلام أمرتهم مجاز لأدائها إلى تلك الأقوال الفاسدة ، وفيه تقريع وتوبيخ إذ لو كان لهم عقل لميزوا بين الحق والباطل والمعجز وغيره ﴿ تقوّله ﴾ اختلقه من تلقاء نفسه ﴿ بل لا يؤمنون ﴾ جحوداً وعناداً وقد صح عندهم إعجاز القرآن وإلا ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ .

(263/730)

ثم وبخهم على إنكار الصانع بقوله ﴿ أم خلقوا من غير شيء ﴾ من غير خالق ﴿ أم هم الخالقون ﴾ أنفسهم . وقيل : أخلقوا من أجل لا شيء من جزاء وحساب . والأول أقوى لقوله ﴿ أم خلقوا السموات والأرض ﴾ ثم احتج عليهم بالأنفس ثم بالآفاق ثم قال ﴿ بل لا يوقنون ﴾ وذلك أنه حكى عنهم ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ [لقمان : 25] فتبين أنهم في هذا الاعتراف شاكون إذ لو عرفوه حق معرفته لم يثبتوا له نداً ولم يحسدوا من اختاره للرسالة كما وبخهم عليه بقوله ﴿ أم عندهم خزائن ربك ﴾

حتى يختاروا للنبوة من أرادوه ﴿ أم هم المسيطرون ﴾ المسلطون الغالبون حتى يدبروا أمر العالم على حسب مشيئتهم ﴿ أم لهم سلم يستمعون ﴾ الوحي صاعدين ﴿ فيه ﴾ إلى السماء عالمين بالمحق والمبطل ومن له العاقبة . والمغرم أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه ﴿ أم عندهم الغيب ﴾ المحفوظ في اللوح ﴿ فهم يكتبون ﴾ ما فيه من أحوال المبدأ والنبوة والمعاد فيحكمون بحسبها ﴿ أم يريدون كيداً ﴾ وهو كيدهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الندوة وفي غيرها ﴿ فالذين كفروا ﴾ اللام لهؤلاء أو للجنس فيشملهم ﴿ هم المكيدون ﴾ المغلوبون الذين يعود وبال الكيد عليهم فقتلوا ببدر وأظهر الله دين الإسلام . ثم صرح بالمقصود الكلي فوبخهم على إشراكهم ونزه نفسه عن ذلك بقوله ﴿ سبحان الله ﴾ ثم أجاب عن بعض مقترحهم وهو قولهم ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ﴾ والمراد أنهم لفرط عنادهم لا يفيد معهم شيء من الدلائل فلو أسقطنا عليهم قطعة من السماء لقالوا هذا سحاب مركوم بعضه فوق بعض . ومعنى يصعقون يموتون وذلك عند النفخة الأولى . قوله ﴿ عذاباً دون ذلك ﴾ أي قبل يوم القيامة وهو القتل ببدر القحط سبع سنين وعذاب القبر ﴿ فأصبر لحكم ربك ﴾ بإمهالهم وتبليغ الرسالة ﴿ فإنك ﴾ محفوظ ﴿ بأعيننا ﴾ وهو مجاز عن الكلاءة التامة والجمع للتعظيم والمبالغة و ﴿ حين تقوم ﴾ أي من أي مكان قمت أو من

منامك . وإدبار النجوم بالكسر غروبها آخر الليل وهو بالحقيقة تلاشي نورها في ضوء الصبح ، وبالفتح أعقابها . والمعنى مثل ما قلنا . وقيل : التسبيح التنجد . ومن الليل صلاة العشاءين ، وإدبار النجوم صلاة الفجر . أمره بالإقبال على طاعته بعد الفراغ عن دعوة الأمة فليس له شأن إلا هذين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 193 . 195 ﴾

(265/730)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الطور

مكية وهي تسع وأربعون آية وثلاثمائة واثنتا عشرة كلمة وألف وخمسمائة حرف

﴿ بسم الله ﴾ الملك الأعظم ذي الملك والملكوت ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ خلقه بالرحموت ﴿ الرحيم ﴾ الحيّ الذي لا يموت .

وقوله تعالى : ﴿ والطور ﴾ وما بعده أقسام جوابها ﴿ إنّ عذاب ربك لواقع ﴾ والواوات التي بعد الأولى عواطف لا حروف قسم كما قاله الخليل .

والطور : هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام وهو بمدين أقسم الله تعالى به وقيل : هو الجبل الذي قال الله تعالى ﴿ وطور سنين ﴾ وقيل هو اسم جنس .

تنبيه : مناسبة هذه السورة لما قبلها من حيث الافتتاح بالقسم وبيان الحشر فيهما .

والمراد بالكتاب في قوله تعالى ﴿ وكتاب مسطور ﴾ أي : متفق الكتابة بسطور مصفوفة في حروف مرتبة جامعة لكلمات متفقة هو كتاب موسى عليه السلام وهو التوراة وقيل : القرآن وقيل : اللوح المحفوظ وقيل : صحائف أعمال الخلق قال تعالى ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ (الإسراء :)

وقوله تعالى : ﴿ في رق ﴾ متعلق بمسطور أي مكتوب في رق والرق : الجلد الرقيق يكتب فيه وقال الراغب : الرق ما يكتب فيه شبه كاغد ا . ه . فهو أعمّ من كونه جلداً وغيره ﴿ منشور ﴾ أي مبسوط مهيأ للقراءة .

وقوله تعالى : ﴿ والبيت المعمور ﴾ مختلف في مكانه فقيل في السماء العليا تحت العرش وقيل : في السماء الثالثة وقيل في السادسة وعلى كل قول هو بحيال الكعبة يقال له : الضراح حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يطوفون به ويصلون فيه ثم لا يعودون إليه أبدا ووصفه بالعمارة لكثرة الطائفين به من الملائكة وقيل : هو بيت الله الحرام لكونه معموراً بالحجاج والعمار والمجاورين وقيل : اللام في البيت المعمور لتعريف الجنس كأنه تعالى أقسم بالبيوت المعمورة والعمائر المشهورة .

وقوله تعالى : ﴿ والسقف المرفوع ﴾ مختلف فيه أيضاً فالأكثر على أنه السماء كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾ (الأنبياء :)

وقيل : المراد به سقف الكعبة وقيل : سقف الجنة وهو العرش ونقل عن ابن عباس .

وقوله تعالى : ﴿ والبحر المسجور ﴾ من الأضداد يقال بحر مسجور أي مملوء وبحر مسجور أي فارغ وروى ذو الرمّة الشاعر عن ابن عباس أنه قال : خرجت أمة لتستقي فقالت إنّ الحوض مسجور أي فارغ ويؤيد هذا أن البحار يذهب ماؤها يوم القيامة وقيل : المسجور الممسوك ومنه ساجور الكلب لأنه يمسكه ويحبسه . وقال محمد بن كعب القرظي : يعني بالمسجور الموقد المحمي بمنزلة التنور المسجور وهو قول ابن عباس لما روي أنه تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة ناراً فيزاد بها في نار جهنم كما قال تعالى : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ (التكوير :)

وعن علي أنه سأل يهودياً أين موضع النار في كتابكم قال : في البحر قال علي : ما أراه إلا صادقاً لقوله تعالى ﴿ والبحر المسجور ﴾ ، وعن ابن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يركبن البحر رجل إلا غازياً أو معتمراً أو حاجاً فإنّ تحت البحر ناراً وتحت

النار بحراً" وقال الربيع بن أنس المختلط العذب بالملح . وروى الضحاك عن المنزل بن سمرة عن علي أنه قال : البحر المسجور هو بحر تحت العرش غمره كما بين سبع سموات إلى سبع أرضين فيه ماء غليظ يقال له بحر الحيوان يمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً فينبتون في قبورهم وهذا قول مقاتل . فإن قيل : ما الحكمة في القسم بهذه الثلاثة أشياء ؟

(267/730)

أجيب : بأنّ هذه الأماكن الثلاثة وهي الطور والبيت المعمور والبحر المسجور كانت لثلاثة أنبياء للخلوة بربهم والخلاص من الخلق وخطابهم مع الله تعالى ، أمّا الطور فانتقل إليه موسى عليه السلام وخاطب الله سبحانه وتعالى هناك ، وأمّا البيت المعمور فانتقل إليه محمد صلى الله عليه وسلم وقال لربه سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، وأمّا البحر المسجور فانتقل إليه يونس عليه السلام ونادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فصارت هذه الأماكن شريفة بهذه الأسباب فأقسم الله تعالى بها . وأمّا ذكر الكتاب فلأن الأنبياء كان لهم مع الله تعالى في هذه الأماكن كلام والكلام في الكتاب .

تنبيه : أقسم الله تعالى في بعض السور بمجموع كقوله تعالى : ﴿ والذاريات ﴾ (الذاريات :

)

و﴿ المرسلات ﴾ (المرسلات :)

و﴿ النازعات ﴾ (النازعات :)

وفي بعضها بإفراد كقوله تعالى ﴿ والطور ﴾ ولم يقل والأطوار والأبحار قال الرازي :

والحكمة فيه أنّ في أكثر الجموع أقسم عليها بالمتحرّكات والريح الواحدة ليست بثابتة بل هي متبدلة بأفرادها مستمرّة بأنواعها والمقصود منها لا يحصل إلا بالتبدل والتغير فقال ﴿ والذاريات ﴾ إشارة إلى النوع المستمرّ لا إلى الفرد المعين المستقر ، وأمّا الجبل فهو ثابت غير متغير عادة فالواحد من الجبال دائم زماناً ودهراً فأقسم في ذاك بالواحد ، وكذلك في قوله تعالى ﴿ والنجم ﴾ (النجم :)

ولو قال والريح لما علم المقسم به وفي الطور علم .

وقوله تعالى : ﴿ إنّ عذاب ربك ﴾ أي : الذي تولى تربيتك ﴿ لواقع ﴾ أي : ثابت نازل بمستحقه جواب القسم كما مرّ .

﴿ ما له من دافع ﴾ أي : مانع لأنه لا شريك لموقعه لما دلت عليه هذه الأقسام من كمال القدرة وجلال الحكمة قال جبير بن مطعم : قدمت المدينة لأكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر فدفعت إليه وهو يصلي بأصحابه المغرب وصوته يخرج من المسجد فسمعته يقرأ والطور إلى قوله تعالى : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ﴾ فكأنما صدع قلبي حين سمعته ولم أكن أسلمت يومئذ فأسلمت خوفاً من العذاب وما كنت أظنّ أني أقوم من مكاني حتى يقع بي العذاب .

ثم بين تعالى أنه متى يقع بقوله تعالى ﴿ يوم تمور السماء ﴾ أي : تتحرك وتضطرب وتجيء وتذهب وتدور دوران الرحى ويموج بعضها في بعض وتتكفأ بأهلها تكفؤ السفينة وتختلف أجزاؤها بعضها في بعض . قال البغوي : والمور يجمع هذه المعاني وهو في اللغة الذهاب والمجيء والتردّد والدوران والاضطراب قال الرازي : وقيل تجيء وتذهب كالدخان ثم تضمحل ﴿ موراً ﴾ أي : اضطراباً شديداً .

﴿ وتسير الجبال ﴾ أي : تنتقل من أمكنتها انتقال السحاب وحقق معناه بقوله تعالى ﴿ سيراً ﴾ فتصير هباء منثوراً وتكون الأرض قاعاً صفصفاً .

ثم بيّن من يقع عليه العذاب بقوله تعالى ﴿ فويل ﴾ أي : شدة عذاب ﴿ يومئذ ﴾ أي : يوم إذ يكون ما تقدّم ذكره ﴿ للمكذبين ﴾ أي : الغريقين في التكذيب للرسل .

﴿ الذين هم ﴾ من بين الناس بظواهرهم وبواطنهم ﴿ في خوض ﴾ أي : أقوالهم وأفعالهم

أفعال الخائض في الماء فهو لا يدري أين يضع رجله ﴿ يلعبون ﴾ فاجتمع عليهم أمران موجبان للباطل الخوض واللعب فهم بحيث لا يكاد يقع لهم قول ولا فعل في موضعه فلا يؤسس على بيان أو حجة .

فإن قيل : أهل الكبائر لا يكذبون فمقتضى ذلك أنهم لا يعذبون . أجيب بأنّ ذلك العذاب لا يقع على أهل الكبائر لقوله تعالى ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا ﴾ (الملك : ـ)

فالمؤمن لا يلقى فيها إلقاء هوان وإنما يدخل فيها للتطهير إدخالاً مع نوع إكرام فالويل إنما هو للمكذبين .

(269/730)

وقوله تعالى : ﴿ يوم يدعون ﴾ بدل من يوم تمور السماء أو من يومئذ قبله تقديره : فويل يومئذ يوم يدعون ، أي : يدفعون دفعاً عنيفاً بجفوة وغلظة من كل من يقيمه الله تعالى لذلك ذاهبين ومتهيئين ﴿ إلى نار جهنم ﴾ وهي الطبقة التي تلقاهم بالعبوسة والكراهة وأكد المعنى وحققه بقوله تعالى ﴿ دعّاً ﴾ .

قال البغوي : وذلك أنّ خزنة جهنم يغلون أيديهم إلى أعناقهم ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم

ثم يدفعون دفعاً على وجوههم وزجاً في أقفيتهم مقولاً لهم تبكيتاً وتوبيخاً ﴿ هذه النار ﴾ أي : الجسم المحرق المفسد لما اتى عليه الشاغل عن اللعب ﴿ التي كنتم بها ﴾ في الدنيا ﴿ تكذبون ﴾ على التجدّد والاستمرار .

خبر مقدّم وقوله تعالى ﴿ هذا ﴾ هو المبتدأ وقدّم الخبر لأنه المقصود بالإنكار والتوبيخ ، وذلك أنهم كانوا ينسبون محمداً صلى الله عليه وسلم إلى السحر وأنه يغطي الأبصار بالسحر وأنّ انشقاق القمر وأمثاله سحر فوبخوا به ، وقيل لهم : ﴿ أفسحر هذا ﴾ أي الذي أنتم فيه من العذاب مع هذا الإحراق الذي تصلون فيه ﴿ أم أنتم ﴾ في منام أو نحوه ﴿ لا تبصرون ﴾ بالقلوب كما كنتم تقولون في الدنيا قلوبنا في أكنة ، ولا بالأعين كما كنتم تقولون للمنذر ﴿ بيننا وبينك حجاب فاعمل أننا عاملون ﴾ (فصلت :)

﴿ اصلوها ﴾ أي : إذا لم يمكنكم إنكارها وتحققتم أنه ليس بسحر ولا خلل في أبصاركم فقاسوا شدّتها ﴿ فاصبروا ﴾ على هذا الذي لا طاقة لكم به ﴿ أو لا تصبروا ﴾ فإنه لا محيص لكم عنه ﴿ سواء عليكم ﴾ أي : الصبر والجزع فإنّ صبركم لا ينفعكم . وقوله تعالى : ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ تعليل للاستواء فإنه لما كان الجزاء واجباً كان الصبر وعدمه سيين في عدم النفع .

ولما ذكر ما للمكذبين من العذاب أتبعه ما لأضدادهم من الثواب فقال تعالى ﴿ إن المتقين ﴾ أي : الذين صارت التقوى لهم صفة راسخة ﴿ في جنات ﴾ أي : بساتين أية بساتين دائماً في الدنيا حكماً وفي الآخرة حقيقة ﴿ ونعيم ﴾ أيّ : نعيم في العاجل يعني بما لهم فيه من الأنس وفي الآجل بالفعل .

وزاد في تحقيق التنعم بقوله تعالى ﴿ فاكهين ﴾ أي : متلذذين معجبين ناعمين ﴿ بما آتاهم ﴾ أي : أعطاهم ﴿ ربهم ﴾ الذي تولى تربيتهم بعملهم بالطاعات إلى أن أوصلهم إلى هذا النعيم ﴿ ووقاهم ﴾ أي : قبل ذلك ﴿ ربهم ﴾ أي : المتفضل بتربيتهم بكفهم عن المعاصي والقاذورات ﴿ عذاب الجحيم ﴾ أي النار الشديدة التوقد .

ولما كان من باشر النعمة وجانب النقمة في غنى عظيم قال مترجماً لذلك على تقدير القول ﴿ كلوا ﴾ أي : أكلاً هنيئاً ﴿ واشربوا ﴾ أي : شرباً ﴿ هنيئاً ﴾ وهو الذي لا تنغيص فيه فكل ما تتناولونه مأمون العاقبة من التخم والسقم وغيرهما ﴿ بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ كنتم ﴾ أي : كوناً راسخاً ﴿ تعملون ﴾ أي : مجددين العمل على سبيل الاستمرار حتى كأنه طبع لكم .

ثم نبه على أنهم مع هذا النعيم مخدومون بقوله تعالى ﴿ متكئين ﴾ أي : مستندين استناد راحة لأنهم يخدمون فلا حاجة لهم إلى الحركة ﴿ على سرر مصفوفة ﴾ أي : منصوبة

واحداً إلى جنب واحد مستوية كأنها الستور على أحسن نظام وأبدعه .

ثم نبه على تمام سرورهم بالتمتع بالنساء بقوله تعالى ﴿ وزوجناهم ﴾ أي : تزويجاً يليق بما لنا من العظمة أي صيرناهم ممتعين ﴿ بحور ﴾ أي : نساؤهنّ في شدّة بياض العين وسوادها واستدارة حدقتها ورقة جفونها في غاية حسن لا توصف ﴿ عين ﴾ أي : واسعات الأعين في رونق وحسن .

(271/730)

تنبيه : اعلم أنه تعالى بين أسباب التنعم على الترتيب فأوّل ما يكون المسكن وهو الجنان ، ثم الأكل والشرب ثم الفرش والبسط ثم الأزواج فهذه أمور أربعة ذكرها الله تعالى على الترتيب ، وذكر في كل واحد منها ما يدل على كماله فقوله : ﴿ جنات ﴾ إشارة إلى المسكن وقال ﴿ فاكهين ﴾ إشارة إلى عدم التنغيص وعلوّ المرتبة لكونه مما آتاهم الله . وقال : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً ﴾ أي مأمون العاقبة وترك ذكر المأكول والمشروب دلالة على تنويعهما وكثرتهما . وقوله تعالى ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ إشارة إلى أنه تعالى يقول : إني مع كوني ربكم وخالقكم وأدخلتكم الجنة بفضلي فلا منة لي عليكم اليوم وإنما منتي عليكم كانت في الدنيا هديتكم ووفقتكم للأعمال الصالحة كما قال تعالى ﴿ بل الله يمنّ عليكم أن

هداكم للإيمان ﴾ (الحجرات :)

وأمّا اليوم فلا منة عليكم لأنّ هذا إنجاز الوعد .

وقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا ﴾ أي : أقرّوا بالإيمان وإن لم يبالغوا في الأعمال الصالحة مبتدأ وقرأ أبو عمرو ﴿ وأتبعناهم ﴾ أي بما لنا من الفضل الناشىء عن العظمة بقطع الهمزة وسكون التاء الفوقية وسكون العين وبعد العين نون مفتوحة بعدها ألف والباقون بهمزة وصل محذوفة وتشديد التاء الفوقية وفتح العين وبعدها تاء فوقية ساكنة وهو معطوف على آمنوا ﴿ ذرياتهم ﴾ أي : الصغار والكبار فالكبار بإيمانهم بأنفسهم والصغار بإيمان آبائهم ، فإنّ الولد الصغير يحكم بإسلامه تبعاً لأحد أبويه ﴿ بإيمان ﴾ أي بسبب إيمان حاصل منهم ولو كان في أدنى درجات الإيمان ولكنهم ثبتوا عليه إلى أن ماتوا وذلك شرط اتباعهم الذريات قال البقاعي : ويجوز أن يراد وهو أقرب بسبب إيمان الذرّية حقيقة إن كانوا كباراً أو حكماً إن كانوا صغاراً ، ثم أخبر عن الموصول المبتدأ بقوله تعالى : ﴿ ألحقنا بهم ﴾ تفضلاً منا عليهم ﴿ ذريتهم ﴾ وإن لم يكن للذرّية أعمال لأنه:

*لعين تجازى ألف عين وتكرم

والذريات هنا تصدق على الآباء وعلى الأبناء وإنّ المؤمن إذا كان عمله أكثر ألحق به من دونه في العمل ابناً كان أو أباً وهو منقول عن ابن عباس وغيره ، ويلحق بالذرّية من النسب الذرّية بالسبب وهو المحبة فإن كان معها أخذ لعلم أو عمل كانت أجدر فتكون ذرية الإفادة كذرّية الولادة وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم "المرء مع من أحبّ" في جواب من سأل عمن يحب القوم ولما يلحق بهم ، وقرأ ﴿ ذرّيتهم بإيمان ﴾ و ﴿ ألحقنا بهم ذرياتهم ﴾ نافع بالقصر في الأولى والجمع في الثانية مع كسر التاء ، وقرأ ابن كثير والكوفيون بالقصر فيهما مع ضم التاء ، وقرأ أبو عمرو بالجمع فيهما مع كسر التاء ، وقرأ ابن عامر بالجمع فيهما إلا أنه يرفع التاء في الأولى ويكسرها في الثانية .

فإن قيل : قوله تعالى ﴿ أتبعناهم ذرّياتهم ﴾ يفيد فائدة قوله تعالى ﴿ ألحقنا بهم ذرياتهم ﴾ أجيب بأنّ قوله تعالى ﴿ ألحقنا بهم ﴾ أي في الدرجات والإتباع إنما هو في حكم الإيمان وإن لم يبلغوه كما مرّ ثم أشار إلى عدم نقصان المتبوع بقوله تعالى ﴿ وما ألتناهم ﴾ أي : ما نقصنا المتبوعين ﴿ من عملهم ﴾ وأكد النفي بقوله تعالى ﴿ من شيء ﴾ أي : بسبب هذا الإلحاق .

ولما بين تعالى اتباع الأدنى للأعلى في الخير ، بين أنّ الأدنى لا يتبع الأعلى في الشرّ بقوله تعالى : ﴿ كل امرئ ﴾ من الذين آمنوا والمتقين وغيرهم ﴿ بما كسب ﴾ أي : عمل من خير أو شرّ ﴿ رهين ﴾ أي : مرهون يؤخذ بالشر ويجازى بالخير وقال مقاتل : كل امرئ كافر بما عمل

من الشرك رهين في النار ، والمؤمن لا يكون مرتهناً لقوله تعالى ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين ﴾ (المدثر : ـ)

(273/730)

وقال الواحدي : هذا يعود إلى ذكر أهل النار وهو قول مجاهد أيضاً قال الرازي : وفيه وجه آخر وهو أن يكون الرهين فعيلاً بمعنى الفاعل فيكون المعنى كل امرئ راهن أي دائم إن أحسن ففي الجنة مؤبداً وإن أساء ففي النار مخلداً ؛ لأنّ في الدنيا دوام الأعمال بدوام الأعيان ، فإنّ العرض لا يبقى إلا في جوهر ولا يوجد إلا فيه ، وفي الآخرة دوام الأعيان بدوام الأعمال فإنّ الله تعالى يبقي أعمالهم لكونها عند الله تعالى من الباقيات الصالحات وما عند الله باق والباقي يبقى مع عمله .

﴿ وأمددناهم ﴾ أي : الذين آمنوا والمتقين ومن ألحق بهم من ذرياتهم بما لنا من العظمة ﴿ بفاكهة ﴾ وقتاً بعد وقت زيادة على ما تقدم ، ولما كانت الفاكهة ظاهرة فيما نعرفه في الدنيا وإن كان عيش الجنة بجميع الأشياء تفكهاً ليس فيه شيء يقصد به حفظ البدن قال تعالى : ﴿ ولحم مما يشتهون ﴾ من أنواع اللحمان والمعنى : زدناهم مأكولاً ومشروباً فالمأكول الفاكهة واللحم ، والمشروب الكأس وفي هذا لطيفة : وهي أنه تعالى لما قال ﴿ وما

ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ ونفي النقصان يصدق بحصول المساوي فقال ليس عدم النقصان بالاقتصار على المساوي بل بالزيادة والإمداد .

(274/730)

وقوله تعالى : ﴿ يتنازعون ﴾ في موضع نصب على الحال من مفعول أمددناهم ويجوز أن يكون مستأنفاً وقوله تعالى : ﴿ فيها ﴾ يجوز أن يعود الضمير لشربها ويجوز أن يعود للجنة ومعنى يتنازعون يتعاطون ، ويحتمل أن يقال : التنازع التجاذب ويكون تجاذبهم تجاذب ملاعبة لا تجاذب منازعة وفيه نوع لذة لأنهم يفعلون ذلك هم وجلساؤهم من أقربائهم وإخوانهم ﴿ كأساً ﴾ أي : خمراً من رقة حاشيتها تكاد أن لا ترى في كأسها ﴿ لالغو ﴾ أي : لا سقط حديث وهو ما لا ينفع من الكلام ولا يضر ﴿ فيها ﴾ أي : في تنازعها ولا بسببها لأنها لا تذهب بعقولهم فلا يتكلمون إلا بالحسن الجميل بخلاف المتنادمين في الدنيا على الشراب بسفههم وعربدتهم ﴿ ولا تأثيم ﴾ أي : لا يكون منهم ما يؤثمهم وقال الزجاج : لا يجري منهم ما يلغي ولا ما فيه إثم كما يجري في الدنيا لشربة الخمر قال الرازي : ويحتمل أن يكون المراد من التأثيم السكر وقيل : لا يأثمون في شربها ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بنصب لغو وتأثيم من غير تنوين ، والباقون بالرفع فيهما مع التنوين .

ولما كانت المعاطاة لا يكمل بسطها ويعظم أنسها إلا بخدم وسقاة قال تعالى : ﴿ ويطوف عليهم ﴾ بالكؤوس وغيرها من أنواع التحف ﴿ غلمان ﴾ أي : أرقاء ، ولما كان أحب مال إلى الإنسان ما يختص به قال تعالى : ﴿ لهم ﴾ ولم يقل تعالى غلمانهم لئلا يظنّ أنهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا فيشفق كل من خدم أحداً في الدنيا بقول أو فعل أن يكون خادماً له في الجنة فيحزن بكونه لا يزال تابعاً ، وأفاد التنكير أنّ كل من دخل الجنة وجد له خدم لم يعرفهم قبل ذلك ﴿ كأنهم ﴾ في بياضهم وشدّة صفائهم ﴿ لؤلؤ مكنون ﴾ أي : مخزون مصون لم تمسه الأيدي . قال سعيد بن جبير يعني في الصدف لأنه فيها أحسن منه في غيره أو مصون في الجنة لم تغيره العوارض . Y

(275/730)

قال عبد الله بن عمر : ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام وكل غلام على عمل ما عليه صاحبه ، هذه صفة الخادم وأمّا المخدوم فروي عن الحسن أنه لما تلا هذه الآية قال يا رسول الله : الخادم كاللؤلؤ المكنون فكيف المخدوم ، قال "فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب" وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال "إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدامة فيجيبه ألف ببابه لبيك لبيك" وقرأ

السوسي وشعبة لولو بالبدل والباقون بالهمز .

﴿ وأقبل بعضهم ﴾ لما ازدهاهم من السرور واللذة والحبور ﴿ على بعض يتساءلون ﴾ أي : يسأل بعضهم بعضاً في الجنة قال ابن عباس : يتذاكرون ما كانوا فيه من التعب والخوف في الدنيا .

﴿ قالوا ﴾ أي : قال كل منهم ﴿ إنا كنا قبل ﴾ أي : في دار العمل ﴿ في أهلنا ﴾ على ما لهم من العدد والعُدَد والسعة ، ولنا بهم من جوانب اللذة والدواعي إلى اللعب

﴿ مشفقين ﴾ أي : عريقين في الخوف من الله تعالى لا يلهينا عنه شيء مع لزومنا لما نقدر عليه من طاعته لعلمنا بأنا لا نقدره لما له من العظمة والجلال والكبرياء والكمال حق قدره ، والمعنى : أنهم يسألون عن سبب ما وصلوا إليه تلذذاً واعترافاً بالنعمة فيقولون ذلك خشية الله تعالى أي كنا نخاف الله تعالى .

﴿ فمنّ الله ﴾ الذي له جميع الكمال بسبب إشفاقنا منه ﴿ علينا ﴾ بالرحمة والتوفيق

﴿ ووقانا ﴾ أي : وجنبنا بما سترنا به ﴿ عذاب السموم ﴾ قال الكلبيّ عذاب النار ، وقال الحسن : السموم من أسماء جهنم ، والسموم في الأصل الريح الحارة التي تتخلل المسام والجمع سمائم . يقال : سمّ يومنا أي اشتدّ حره ، وقال ثعلب : السموم شدة الحرّ أو شدة البرد في النهار ، وقال أبو عبيدة : السموم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار .

﴿ إنا كنا ﴾ أي : بما طبعنا عليه وهيئنا له ﴿ من قبل ﴾ أي : في الدنيا ﴿ ندعوه ﴾ أي : نسأله ونعبده بالفعل وأمّا خوفنا بالقوة فقد كان في كل حركة وسكون ، ثم عللوا دعاءهم إياه مؤكدين لأنّ أنعامه عليهم مع تقصيرهم مما لا يكاد يفعله غيره فهو مما يتعجب منه غاية التعجب بقولهم : ﴿ إنه هو ﴾ أي : وحده ، وقرأ نافع والكسائي بفتح الهمزة والباقون بكسرها ﴿ البرّ ﴾ أي : الواسع الجود الذي عطاؤه حكمة ومنعه رحمة لأنه لا ينقصه إعطاء ولا يزيده منع ، فهو يبر عبده المؤمن بما يوافق نفسه فربما برّه بالنعمة وربما برّه بالبؤس فهو يختار له من الأحوال ما هو خير له ليوسع له البرّ في العقبى فعلى المؤمن أن لا يتهم ربه في شيء من قضائه ﴿ الرحيم ﴾ أي : المكرم لمن أراد من عباده بإقامته فيما يرضاه من طاعته ثم بإفضاله عليه وإن قصر في خدمته .

ولما بين تعالى أنّ في الوجود قوماً يخافون الله تعالى ويشفقون في أهليهم والنبيّ صلى الله عليه وسلم مأمور بتذكير من يخاف الله تعالى لقوله تعالى : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ (ق :)

فوجب التذكير. فلذلك قال تعالى: ﴿ فذكر ﴾ أي: عظ يا أشرف الخلق بالقرآن ودم على ذلك ولا ترجع عنه لقول المشركين لك كاهن ومجنون ﴿ فما أنت بنعمة ربك ﴾ أي: بسبب ما أنعم به عليك المحسن إليك من هذا الناموس الأعظم بعد تأهيلك له بما هيأك به من رجاحة العقل وعلوّ الهمة وكرم الفعال وجود الكف وطهارة الأخلاق، وجعلك أشرف الناس عنصراً وأكملهم نفساً وأزكاهم خلقاً وهم معترفون لك بذلك قبل النبوّة.

وأكد النفي بقوله تعالى: ﴿ بكاهن ﴾ أي: تقول كلاماً مع كونه سجعاً متكلفاً أكثره فارغ وتحكم على المغيبات من غير وحي ﴿ ولا مجنون ﴾ أي: تقول كلاماً لا نظام له مع الإخبار ببعض المغيبات فلا يفترك قولهم هذا عن التذكير فإنه قول باطل لا تلحقك به معرة أصلاً، وعما قليل يكون عيباً لهم لا يغسله عنهم إلا اتباعهم لك فمن اتبعك منهم غسل عاره ومن استمرّ على عناده استمرّ تبابه وخساره.

تنبيه: نزلت هذه الآية في الذين اقتسموا عقاب مكة يرمون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكهانة والسحر والجنون والشعر.

﴿ أم يقولون ﴾ أي: هؤلاء المقتسمون ﴿ شاعر ﴾ أي: هو شاعر قال الثعلبي: قال الخليل: كل ما في سورة والطور من أم فاستفهام وليس بعطف، وقال أبو البقاء: أم في هذه الآيات منقطعة وتقدم الخلاف في المنقطعة هل تقدر ببل وحدها أو ببل والهمزة أو بالهمزة

وحدها ، والصحيح الثاني . وقال مجاهد : في قوله تعالى : ﴿ أم تأمرهم ﴾ (الطور :)

تقديره : بل تأمرهم ﴿ نتربص ﴾ أي ننتظر ﴿ به ريب المنون ﴾ أي : حوادث الدهر

وتقلبات الزمان لأنها لا تدوم على حال كالريب وهو الشك فإنه لا يبقى بل هو متزلزل قال

الشاعر :

*تربص بها ريب المنون لعلها ** تطلق يوماً أو يموت حليلها *

وقال أبو ذئب:

*أمن المنون وريبها تتوجع

* ** والدهر ليس بمعتب من يجزع*

(278/730)

والمنون في الأصل : الدهر ، وقال الراغب : المنون المنية لأنها تنقص العدد وتقطع المدد ،

والمعنى : بل يقولون يعني هؤلاء المقتسمين الخراصين شاعر نتربص به ريب المنون حوادث

الدهر وصروفه ، وذلك أنّ العرب كانت تحترز عن إيذاء الشعراء فإنّ الشعر كان عندهم

يحفظ ويدوّن فقالوا لا نعارضه في الحال مخافة أن يغلبنا بقوة شعره وإنما نصبر ونتربص موته

ويهلك كما هلك من قبله من الشعراء وتتفرّق أصحابه فإنّ أباه مات شاباً ونحن نرجو أن

يكون موته كموت أبيه ، والمنون يكون بمعنى الدهر وبمعنى الموت سميا بذلك لأنهما يقطعان الأجل .

ثم إنه تعالى أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء البعداء ﴿ تربصوا ﴾ أي انتظروا بي الموت ولم يعرج على محاججتهم في قولهم هذا تنبيهاً على أنه من السقوط بمنزلة ما لا يحتاج معه إلى ردّ بمجادلة ، ثم سبب عن أمره لهم بالتربص قوله : ﴿ فإني معكم من المتربصين ﴾ أي : العريقين في التربص وإن ظننتم خلاف ذلك وأكده تنبيهاً على أنه يرجو الفرج بمصيبتهم كما يرجون الفرج بمصيبته ، وأشار بالمعية إلى أنه مساوٍ لهم في ذلك وإن ظنوا لكثرتهم وقوّتهم ووحدته وضعفه أن الأمر بخلاف ذلك .

قال القشيري : جاء في التفسير أنّ جميعهم أي الذين تربصوا به ماتوا قال ولا ينبغي لأحد أن يؤمل نفاق سوقه بموت أحد لتنتهي النوبة إليه فقلّ من تكون هذه صفاته إلا وسبقته المنية ولا يدرك ما تمناه من الأمنية .

فإن قيل : هذا أمر للنبيّ صلى الله عليه وسلم ولفظ الأمر يوجب المأمور به أو يبيحه ويجوّزه وتربصهم كان حراماً . أجيب : بأنّ ذلك ليس بأمر وإنما هو تهديد أي تربصوا ذلك فإني متربص الهلاك بكم كقول الغضبان لعبده افعل ما شئت فإني لست عنك بغافل .

﴿ أم تأمرهم ﴾ أي : تزين لهم تزييناً يصير ما لهم إليه من الانبعاث كالأمر ﴿ أحلامهم ﴾ أي عقولهم التي يزعمون أنهم اختصوا بجودتها دون الناس بحيث إنه كان يقال فيهم أولو الأحلام والنهى ، فأزرى الله تعالى بعقولهم حين لم تتم لهم معرفة الحق من الباطل وذلك أنّ الأشياء لا يعبأ بها إلا إن تزينت بعقل أو نقل فقال : هل ورد أمر سمعي أم عقولهم تأمرهم ﴿ بهذا ﴾ أي : قولهم له ساحر كاهن مجنون وقيل : إلى عبادة الأوثان ، وقيل : إلى التربص أي لا تأمرهم بذلك ﴿ أم ﴾ أي بل ﴿ هم ﴾ بظواهرهم وبواطنهم ﴿ قوم ﴾ ذوو قوة على ما يحاولونه فهم لذلك ﴿ طاغون ﴾ أي : مفترون ويقولون ما لا دليل عليه سمعاً ولا مقتضى له عقلاً ، والطغيان مجاوزة الحدّ في العصيان وكذلك كل شيء مكروه ظاهر قال تعالى : ﴿ لما طغى الماء ﴾ (الحاقة :)

تنبيه : اعلم أنّ قوله تعالى : ﴿ أم تأمرهم ﴾ متصل تقديره : أأنزل عليهم ذكر أم تأمرهم أحلامهم بهذا ، وفي هذه الآية إشارة إلى أنّ كل ما لا يكون على وفق العقل لا ينبغي أن يقال ، وإنما ينبغي أن يقال ما يجب قوله عقلاً والأحلام جمع حلم وهو العقل فهما من باب واحد من حيث المعنى ، لأنّ العقل يضبط المرء فيكون كالبعير المعقول لا يتحرّك من مكانه والحلم من الاحتلام وهو أيضاً سبب وقار المرء وثباته لأنّ الحلم في أصل اللغة هو ما يراه النائم فينزل ويلزم الغسل الذي هو سبب البلوغ وعنده يصير الإنسان مكلفاً ، فالله تعالى من

لطيف حكمته قرن الشهوة بالعقل وعند ظهور الشهوة يكمل العقل ويكلف صاحبه فأشار تعالى إلى العقل بالإشارة إلى ما يقارنه وهو الحلم ليعلم أنه يريد به كمال العقل .

﴿ أم يقولون ﴾ ما هو أفحش عاراً من التناقض ﴿ تقوله ﴾ أي : تكلف قوله من عند نفسه كذباً وليس بشعر ولا كهانة ولا جنون وهم على كثرتهم وإلمام بعضهم بالعلم وعراقة آخرين في الشعر والخطب والترسل والسجع يعجزون عن مثله بل عن مثل شيء منه .

(280/730)

تنبيه : التقوّل تكلف القول ولا يستعمل إلا في الكذب وهذا أيضاً متصل بقوله تعالى ﴿ أم يقولون شاعر ﴾ تقديره أم يقولون شاعر أم يقولون تقوّله والمعنى ليس الأمر كما زعموا ﴿ بل لا يؤمنون ﴾ بالقرآن استكباراً .

ثم ألزمهم الحجة وأبطل جميع الأقسام .

فقال عز من قائل : ﴿ فليأتوا ﴾ أي : على أيّ تقدير أرادوه ﴿ بحديث ﴾ أي : كلام مفرق مجدّد إتيانه مع الأزمان ﴿ مثله ﴾ أي القرآن في البلاغة وصحة المعاني والإخبار بالمغيبات مما كان أو يكون على ما هي عليه لا نكلفهم أن يأتوا به جملة .

فإن قيل : الصفة تتبع الموصوف في التعريف والتنكير ، والموصوف هنا حديث وهو منكر

ومثله مضاف إلى القرآن والمضاف إلى القرآن معرّف فكيف هذا . أجيب : بأنّ مثلاً وغيراً لا يتعرّفان بالإضافة وذلك أن غيرا ومثلاً وأمثالهما في غاية التنكير لأنك إذا قلت : مثل زيد يتناول كل شيء فإنّ كل شيء مثل زيد في شيء فالحمار مثله في الجسم والحجم والإمكان ، والنبات مثله في النموّ والنشء والذبول والفناء ، والحيوان مثله في الحركة والإدراك وغيرهما من الأوصاف وأمّا غير فهو عند الإضافة ينكر وعند قطع الإضافة ربما يتعرف فإنك إذا قلت : غير زيد صار في غاية الإبهام فإنه يتناول أموراً لا حصر لها وأما إذا قطعت غير عن الإضافة فربما يكون الغير والمغايرة من باب واحد وكذلك التغير فتجعل الغير كأسماء الأجناس وتجعله مبتدأ أو تريد به معنى معيناً .

(281/730)

تنبيه : قالت المعتزلة : الحديث محدث والقرآن سماه حديثاً فيكون محدثاً ، وأجيبوا : بأنّ الحديث اسم مشترك يقال للمحدث والمنقول ولهذا يصح أن يقال هذا حديث قديم أي متقادم العهد لا بمعنى سلب الأولية وذلك لانزاع فيه . قال بعض العلماء : وهذا أمر تعجيز ، قال الرازي : والظاهر أنّ الأمر ههنا على حقيقته لأنه لم يقل ائتوا مطلقاً بل قال تعالى : ﴿ إن كانوا ﴾ أي : كوناً هم راسخون فيه ﴿ صادقين ﴾ أي : في أنه تقوله من عند نفسه

كما يزعمون فهو أمر معلق على شرط إذا وجد ذلك الشرط يجب الإتيان به وأمر التعجيز كقوله تعالى : ﴿ فإنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر ﴾ (البقرة :)

وفي هذا تشنيع عليهم سواء ادعوا أنه مجنون أم شاعر أم كاهن أم غير ذلك ، لأنّ العادة تحيل أن يأتي واحد من قوم وهو مساو لهم بما لا يقدرون كلهم على مثله ، والعاقل لا يجزم بشيء إلا وهو عالم به ويلزم من علمهم بذلك قدرتهم على مثل ما يأتي به ، فإنه صلى الله عليه وسلم مثلهم في الفصاحة والبلد والنسب وبعضهم يزيد عليه بالكتابة وقول الشعر ومخالطة العلماء ومزاولة الخطب والرسائل وغير ذلك فلا يقدر على ما يعجزون عنه إلا بتأييد إلهي وهو المراد من تكذيبهم .

(282/730)

﴿ أم خلقوا ﴾ أي : وقع خلقهم على هذه الكيفية المتقنة ﴿ من غير شيء ﴾ أي : خالق خلقهم فوجدوا بلا خالق وذلك مما لا يجوز أن يكون لأنّ تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق ﴿ أم هم الخالقون ﴾ لأنفسهم وذلك في البطلان أشدّ ، لأنّ ما لا وجود له كيف يخلق فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأنّ

لهم خالقاً وهو الله تعالى فلم لا يوحدنه ويؤمنون به وبرسوله وبكتابه وقال الزجاج : معناه أخلقوا باطلاً لا يحاسبون ولا يؤمنون وقال ابن كيسان : أخلقوا عبثاً وتركوا سدى لا يؤمرون ولا ينهون كقول القائل : فعلت كذا وكذا من غير شيء ، أي : لغير شيء أم هم الخالقون لأنفسهم فلا يجب عليهم لله أمر . وقيل : معناه أخلقوا من غير أب وأم .

تنبيه : لا خلاف أنّ أم هنا ليست بمعنى بل لكن أكثر المفسرين على أن المراد ما يقع في صدر الكلام من الاستفهام بالهمزة كأنه يقول اخلقوا من غير شيء قال الرازي : ويحتمل أن يقال هو على أصل الوضع للاستفهام الذي يقع في أثناء الكلام وتقديره : أخلقوا من غير شيء أم هم الخالقون .

﴿ أم خلقوا ﴾ أي : على وجه الشركة ﴿ السموات والأرض ﴾ فهم بذلك عالمون بما فيهما على وجه الإحاطة واليقين ، حتى علموا أنك تقوّلته ليصير لهم ردّه والتهكم عليه ﴿ بل لا يوقنون ﴾ أي : ليس لهم نوع يقين وإلا لآمنوا برسوله وكتابه .

﴿ أم عندهم ﴾ أي : خاصة دون غيرهم ﴿ خزائن ربك ﴾ أي : المحسن إليك بإرسالك فيعلموا أنّ هذا الذي أتيت به ليس من قول الله تعالى فيصح قولهم إنك تقوّلته ﴿ أم هم ﴾ أي : لا غيرهم ﴿ المسيطرون ﴾ أي : الرقباء الحافظون المتسلطون الجبارون الرؤساء الحكام الكتبة ليكونوا ضابطين للأشياء كلها ، كما هو شأن كتاب السرّ عند الملوك فيعلمون أنك تقوّلت هذا الذكر لأنهم لم يكتبوا به إليك .

﴿ أم لهم سلم ﴾ يصعدون به إلى السماء ﴿ يستمعون ﴾ أي : يتعمدون السماع لكل ما يكون فيها ومنها ﴿ فيه ﴾ أي : صاعدين في ذلك السلم إلى كلام الملائكة وما يوحي إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن ﴿ فليأت مستمعهم ﴾ أي : مدعي الاستماع ﴿ بسلطان مبين ﴾ أي : بحجة بينة واضحة .

ولشبه هذا الزعم زعمهم أنّ الملائكة بنات الله قال تعالى : ﴿ أم له البنات ﴾ أي : بزعمكم ﴿ ولكم البنون ﴾ أي : خاصة لتكونوا أقوى منه فتكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم وتردوا قوله من غير حجة فتكونوا آمنين من عذاب يأتيكم منه لضعفه وقوّتكم .

﴿ أم تسألهم ﴾ أي : أيها الطاهر الشيم البعيد عن مواقع التهم ﴿ أجراً ﴾ على إبلاغ ما أتيتهم به ﴿ فهم من مغرم ﴾ أي : غرم لك ولو قلّ ، والمغرم التزام ما لا يجب ﴿ مثقلون ﴾ فهم لذلك يكذبون من كان سبباً في هذا الثقل بغير مستند ليستريحوا مما جره لهم من الثقل .

﴿ أم عندهم ﴾ أي : خاصة بهم ﴿ الغيب ﴾ أي : علم ما غاب عنهم ﴿ فهم يكتبون ﴾ أي : يجدّدون للناس كتابة جميع ما غاب عنهم مما ينفعهم ويضرّهم حتى يحسدوك فيما شاركتهم به منه فيردوه لذلك وينسبوك إلى ما نسبوك إليه مما يعلم كل أحد

نزاهتك عنه وبعدك منه . وقال ابن عباس معناه أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس به . واللام في الغيب لا للعهد ولا لتعريف الجنس بل المراد نوع الغيب ، كما تقول اشتر اللحم تريد بيان الحقيقة لا كل لحم ولا لحماً معيناً .

(284/730)

﴿ أم يريدون ﴾ أي : بهذا القول الذي يرمونك به ﴿ كيداً ﴾ أي : مكراً وضرراً عظيماً ليهلكوك به ﴿ فالذين كفروا ﴾ وكان الأصل فهم ، ولكنه قال تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ المكيدون ﴾ أي : المغلوبون المهلكون فإنهم مكروا به في دار الندوة فحفظه الله تعالى منهم ثم أهلكهم ببدر عند انتهاء سنين عدتها عدّة ما هنا من أم وهي خمس عشرة مرة ، لأنّ بدراً كانت في الثانية من الهجرة وهي الخامسة عشر من النبوّة فقد سبب الله تعالى فيها من الأسباب ما أوجب سعيهم إلى هلاكهم بأمور خارقة للعادة ، فلو كانت لهم بصائر لكفتهم في الهداية والردّ عن الضلالة والغواية .

﴿ أم لهم إله ﴾ أي : يمنعهم من التصديق بكتابنا أو يستندون إليه للأمان من عذابنا ﴿ غير الله ﴾ أي : الذي أحاط بجميع صفات الكمال ﴿ سبحان الله ﴾ الملك الأعظم الذي تعالى عن أن يداني جنابه شائبة نقص ﴿ عما يشركون ﴾ من الأصنام وغيرها .

تنبيه : الاستفهام بأم في مواضعها للتقبيح والتوبيخ ، ولما بين تعالى فساد أقوالهم وسقوطها أشار إلى أنهم لم يبق لهم عذر فإنّ الآيات والحجج قد ظهرت ولم يؤمنوا فبعد ذلك استحقوا الانتقام .

وقوله تعالى : ﴿ وإن يروا ﴾ أي : معاينة ﴿ كسفاً ﴾ أي : قطعة وقيل قطعاً واحدتها كسفة مثل سدرة وسدر ﴿ من السماء ﴾ جهاراً نهاراً ﴿ ساقطاً يقولوا ﴾ جواب لقولهم فأسقط علينا كسفاً من السماء كأن الله تعالى يقول لو عذبناهم بسقوط قطعة من السماء عليهم لم ينتهوا عن قولهم ويقولون لمعاندتهم : هذا ﴿ سحاب ﴾ فإن قيل لهم هو مخالف للسحاب بصلابته وغلظته قالوا ﴿ مركوم ﴾ أي : مركب بعضه على بعض فتلبد وتصلب .

وقوله تعالى : ﴿ فذرهم ﴾ أي : اتركهم على شر أحوالهم كقوله تعالى : ﴿ فأعرض عنهم ﴾ (السجدة :)

وقوله تعالى : ﴿ فتول عنهم ﴾ (الصافات :)

إلى غير ذلك فقيل : كلها منسوخة بآية القتال قال ابن عادل وهو ضعيف وإنما المراد التهديد كقول السيد لعبده الجاني لمن يصحبه دعه فإنه سينال جنايته ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي فيه ﴾ أي : لا في غيره لأنّ ما حكمنا به لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ يصعقون ﴾ أي : يموتون من شدة الأهوال وعظم الزلزال كما صعق بنو إسرائيل في الطور ، ولكن لا نقيمهم كما أقمنا أولئك إلا عند النفخ في الصور لنحشرهم للحساب الذي يكذبون به .

قال البقاعي : والظاهر أنّ هذا اليوم يوم بدر فإنهم كانوا قاطعين بالنصر فيه فما أغنى أحد منهم عن أحد شيئاً كما قال أبو سفيان بن الحارث : ما هو إلا أنا ألقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ويأسروننا كيف شاؤوا .

وقوله تعالى : ﴿ يوم لا يغني ﴾ أي : بوجه من الوجوه بدل من يومهم ﴿ عنهم كيدهم ﴾ أي : الذي يرمونه بهذه الأقوال المتناقضة ﴿ شيئاً ﴾ من الإغناء في دفع شيء يكرهونه من الموت ولا غيره كما يظنون أنه يغني عنهم في غير ذلك من أحوال هذه الدار ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي : يتجدد لهم نصر ما في ساعة ما يمنعهم من العذاب .

وقوله تعالى : ﴿ وإنّ للذين ظلموا ﴾ يجوز أن يكون من إيقاع الظاهر موضع المضمر وأن لا يكون ، والمعنى : وإنّ للذين أوقعوا الأشياء في غير مواقعها كما يقولونه في القرآن ويفعلونه من العصيان ويعتقدونه من الشرك والبهتان ﴿ عذاباً دون ذلك ﴾ أي : غير عذاب ذلك اليوم قال ابن عباس : يعني القتل يوم بدر وقال الضحاك : هو الجوع والقحط سبع سنين وقال

البراء بن عازب : عذاب القبر ، والآية تحتمل هذه المعاني كلها ﴿ ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن العذاب نازل بهم .

(286/730)

﴿ واصبر ﴾ أي : أوجد هذه الحقيقة لتصبر على ما أنت عليه من أداء الرسالة ﴿ لحكم ربك ﴾ أي : المحسن إليك فإنه هو المريد لذلك ولو لم يرده لم يكن شيء منه فهو إحسان منه إليك وتدريب لك وترقية في معارج الحكم ، وسبب عن ذلك قوله تعالى مؤكداً لما يغلب على الطبع البشري في بعض أوقات الامتحان من نوع نسيان ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ أي : بمرأى منا نراك ونحفظك ، وجمع لما اقتضته نون العظمة التي هذا سياقها وهي ظاهرة في الجمع ، وإشارة إلى أنه محفوظ بالجنود الذين رؤيتهم من رؤيته سبحانه وتعالى ﴿ وسبح ﴾ ملتبساً ﴿ بحمد ربك ﴾ أي : المحسن إليك فأثبت له كل كمال من تنزيهك له عن كل نقص فلا يكون في ملكه ما لا يريد ولا يريد إلا ما هو حكمة بالغة ﴿ حين تقوم ﴾ قال سعيد بن جبير وعطاء : أي قل حين تقوم من مجلسك : سبحانك اللهم وبحمدك فإن كان المجلس خيراً ازددت إحساناً وإن كان غير ذلك كان كفارة له .

وروى أبو هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "من جلس مجلساً وكثر فيه لغطه

فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا كان كفارة لما بينهما " أي من الذنوب الصغائر . وقال ابن عباس : معناه صل لله حين تقوم من مقامك وقال الضحاك والربيع : إذا قمت إلى الصلاة فقل سبحانك اللهمّ وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك ، وقال الكلبي : هو ذكر الله تعالى باللسان حتى تقوم من الفراش إلى أن تدخل في الصلاة لما روى عاصم بن حميد قال : سألت عائشة بأيّ شيء كان يفتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم قيام الليل فقالت "كان إذا قام كبر عشراً وحمد الله تعالى عشراً وهلل عشراً واستغفر عشراً ، وقال : اللهمّ اغفر لي واهدني وارزقني وعافني ، ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة" وقيل حين تقوم لأمر ما .

(287/730)

﴿ ومن الليل ﴾ أي : الذي هو محل السكون والراحة ﴿ فسبحه ﴾ أي : صلّ له قال مقاتل : يعني صلاة المغرب والعشاء ﴿ وإدبار النجوم ﴾ أي : صل الركعتين قبل صلاة الفجر وذلك حين تدبر النجوم أي تغيب بضوء الصبح هذا قول أكثر المفسرين وقال الضحاك : هي فريضة صلاة الصبح وهذه الآية نظير قوله تعالى : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ (الروم :)

وقد تقدم الكلام عليها قال الرازي:

قال تعالى هنا : ﴿ وإدبار النجوم ﴾ وقال في سورة ق : ﴿ وأدبار السجود ﴾ (ق :)

فيحتمل أن يكون المعنى واحداً والمراد من السجود جمع ساجد والنجوم سجود قال تعالى

: ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ (الرحمن :)

وقيل المراد من النجوم نجوم السماء وقيل النجم ما لا ساق له من النبات قال الله تعالى :

﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض ﴾ (الرعد :)

الآية أو المراد من النجوم الوظائف وكل وظيفة نجم في اللغة أي إذا فرغت من وظائف

الصلاة فقل سبحان الله كما مرّ ، وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه

وسلم قال : "من قرأ سورة والطور كان حقاً على الله أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه في

جنته" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 7 صـ 168.184 ﴾

(288/730)

وقال القاسمي :

سورة الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالطُّورِ ﴾

أي : طور سِينين : جبل بِمَدْيَنَ ، سمع فيه موسى صلوات الله عليه كلامَ الله تعالى ، واندك بنور تجلّيه تعالى .

﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴾ أي : مكتوب ، والمراد به القرآن ، أو ما يعمّ الكتب المنزلة .

﴿ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ متعلق بـ : ﴿ مَّسْطُورٍ ﴾ أي : وكتاب سطّر في ورق منشور يُقرأ على الناس جهاراً ، و الرَّق الصحيفة أو الجلد الذي يكتب فيه .

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ أي : الذي يُعْمَر بكثرة غاشيته ، وهو الكعبة المعمورة بالحجاج والعمّار والطائفين والعاكفين والمجاورين . وروي أنه بيت في السماء بحيال الكعبة من الأرض ، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون فيه أبداً . والأول أظهر ، لأنه يناسب ما جاء في سورة التين من عطف ﴿ الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ على ﴿ طُورِ سِينِينَ ﴾ والقرآن يفسر بعضه بعضاً ؛ لتشابه آياته وتماثلها كثيراً ، وإن تنوعت بلاغة الأسلوب .

قال المهايميّ : أورده بعد الكتاب الذي هو الوحي ؛ لأنه محل أعظم الأعمال المقصودة منه ، ولأنه مظهر الوحي ومصدر الرحمة العامة المهداة للعالمين ؛ ولأنه أجلّ الآيات وأكبرها ، كما دل عليه آية ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 67] وآيات أخَر .

﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ يعني السماء ؛ وجعلها سقفاً لأنها للأرض كسماء البيت الذي هو سقفه .

(289/730)

﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ أي : المملوء ، أو الذي يوقد أي : يصير ناراً . كقوله ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير : 6] . قال ابن جرير : والأول أولى ، أعني : أن معناه البحر المملوء المجموع ماؤه بعضه في بعض ؛ لأن الأغلب معاني السّجر الإيقاد أو الامتلاء ، فإذا كان البحر غير موقد اليوم ، ثبتت له الصفة الثانية وهو الامتلاء ، لأنه كل وقت ممتلئ ، ولا تنس ما قدمناه في أوائل الذاريات من أن هذه الأقسام كلها دلائل أخرجت في صورة الإيمان .

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾

أي : يدفعه عن المكذبين فينقذهم منه إذا وقع .

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاء مَوْراً ﴾ أي : تضطرب

﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً ﴾ أي : تسير عن وجه الأرض فتصير هباءً منثوراً .

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي : بالحق الجاحدين له .

﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ ﴾ أي : من الاعتساف والاستهزاء ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ أي : بآيات الله ودلائله .

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً ﴾ أي : يُدفعون إليها بعنف . يقال : دعَعْت في قفاه ، إذا دفعته فيه بإزعاج .

﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أي : يقال لهم ذلك .

﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا ﴾ أي : الذي وردتموه الآن ، والفاء للسببية ؛ لتسبب هذا عما قالوه في الوحي ﴿ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ أي : كما كنتم لا تبصرون في الدنيا . قال الزمخشريّ : يعني أم أنتم عمي عن المخبَر به ، كما كنتم عمياً عن الخبر ، وهذا تقريع وتهكم .

﴿ اصْلَوْهَا ﴾ أي : ذوقوا حرّ هذه النار ﴿ فَاصْبِرُواْ ﴾ أي : على ألمها ﴿ أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ ﴾ أي : الأمران : الصبر وعدمه سواء عليكم ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : لا تعاقبون إلا على معصيتكم في الدنيا لربكم ، وكفركم به .

(290/730)

قال الزمخشريّ : فإن قلت : لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ ﴾ إلخ ؟

قلت : لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزَع ، لنفعه في العاقبة بأن يجازى عليه الصابر

جزاء الخير . فأما الصبر على العذاب الذي هو الجزاء ، ولا عاقبة له ولا منفعة ، فلا مزية له على الجزع .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أي : متلذذين بما لديهم من الفواكه الكثيرة ﴿ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ جمع عيناء وهي الواسعة العين ، في حسن .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ﴾ أي : اقتفت آثارهم في الإيمان والعمل الصالح ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أي : في الجنات والنعيم ، والخطاب ، لما كان مع الصحابة رضي الله عنهم ، وهم واثقون بوعد الله ، تم لهم البشارة بالموعود به ، بأنه ينال ذريتهم أيضاً ، إن اتبعوا آباءهم بإحسان ، هذا هو المراد من الآية . وأما من قال في معناها : إن المؤمن ترفع له ذريته فيلحقون به ، إن كانوا دونه في العمل ، فلا تقتضيه الآية تصريحاً ولا تلويحاً ﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ أي : وما نقصناهم من ثواب عملهم شيئاً ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ أي : بما عمل من خير أو شر مرتهن به ، لا يؤاخذ أحدٌ بذنب غيره ، وإنما يعاقب بذنب نفسه .

﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي : زدناهم وقتاً بعد وقت ، ما ذكر .

﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً ﴾ أي : يتعاطون فيها كأس الشراب ويتجاذبونها ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ أي : لا يتكلَّمون في أثناء الشرب بسقط الحديث وباطله ، ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله ، كما كان في الدنيا .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ أي : مصون في كِنّ ، فهو أنقى له ، وأصفى لبياضه .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ أي : يتجاذبون أطراف الحديث المفضية إلى شكر المنعم ، والتحدث بالنعمة ، وذلك في مساءلة بعضهم بعضاً عما مضى لهم في الدنيا .

﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أي : خائفين من عذاب الله .

﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ يعني : عذاب النار . وأصل ﴿ السَّمُومِ ﴾ الريح الحارة التي تدخل المسامّ ؛ فسميت بها نار جهنم لمشابهتها لها ، وإن كان وجه الشبه في النار أقوى ، لكنه في ريح السموم لمشاهدته في الدنيا أعرف .

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أي : نعبده مخلصين له الدين ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ ﴾ أي : المحسن بمن دعاه ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ أي : لمن عبده وخافه بالهداية والتوفيق .

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ [29]

﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أي : من أرسلت إليهم وعِظهم ﴿ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ ﴾ أي : تتكهن فيما تدعوا إليه ﴿ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ أي : له رئيٌّ من الجن يخبر عنه قومه ما أخبر عنه ، كما يعتقده العرب في بعضهم ، ولكنك رسول الله حقاً .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ أي : حوادثَ الدهر أو الموت ؛ لأن ﴿ الْمَنُونِ ﴾ قد يراد به الدهر ، وريبه : صروفه . وقد يراد به الموت ، وريبه نزوله .

(292/730)

﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ أي : حتى يأتي أمر الله فيكم . والأمر للتهكم بهم والتهديد .

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا ﴾ أي : عقولهم بهذا التناقض في القول ، ﴿ أَمْ ﴾ أي : بل ﴿ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أي : مجاوزون الحدَّ في العناد ، مع ظهور الحق .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ أي : اختلق هذا القرآن من عند نفسه ، ﴿ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : لا يريدون أن يؤمنوا حسداً وتقليداً ، فلذلك يرمونه بتلك الفِرى .

﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ أي : في الهداية بذاك الأسلوب الذي ملك ناصية الفصاحة والبلاغة ، كقوله ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ ﴾ [القصص :

49] ، ﴿ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ أي : في زعمهم ، فإنهم من أهل لسان الرسول صلوات الله عليه ، ولا يتعذر عليهم مضاهاة بعضهم لبعض في ميدان التساجل والتراسل .

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ قال ابن جرير : أي : أخلق هؤلاء المشركون من غير آباء ولا أمهات ، فهم كالجماد لا يعقلون ولا يفهمون لله حُجَّة ، ولا يعتبرون له بعبرة ولا يتعظون بموعظة . وقد قيل : إن معنى ذلك : أم خلقوا لغير شيء ، كقول القائل : فعلت كذا وكذا من غير شيء ، بمعنى : لغير شيء ﴿ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ أي : أنفسهم ، أو هذا الخلق ، فهم لذلك لا يأتمرون لأمر الله ، ولا ينتهون عما نهاهم عنه ؛ لأن للخالق الأمر والنهي .

﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ أي : بوعيد الله ، وما أعدّ لأهل الكفر به من العذاب في الآخرة ، فلذلك فعلوا ما فعلوا .

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ أي : خزائن رزقه ، فهم لاستغنائهم معرضون ﴿ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾ أي : الجبابرة المتسلِّطون .

(293/730)

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ أي : مرتقى إلى السماء ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أي : الوحي ، فيدَّعون أنهم سمعوا هنالك من الله أن الذي هم عليه حق .

﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : بحجّة واضحة تصدق دعواه .

﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ أي : حيث جعلوا – لسفاهة رأيهم – الملائكة إناثاً ، وأنها بناته تعالى ، مع أنه ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل : 58] .

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً ﴾ أي : أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله تعالى ﴿ فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ ﴾ أي : من التزام غرامة ﴿ مُّثْقَلُونَ ﴾ أي : من أدائه ، حتى زهّدهم ذلك في إتباعك .

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أي : منه ما شاؤوا ، وينبئون الناس عنه بما أرادوا .

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ أي : بالرسول وما جاء به ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ أي : الممكور بهم دونك ، فثق بالله وامض لما أمرك به .

﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ أي : له العبادة على جميع خلقه ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : تنزيهاً له عن شركهم ، وعبادتهم معه غيره .

﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفاً مِّنَ السَّمَاء سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ [44]

﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفاً مِّنَ السَّمَاء سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ هذا جواب لمشركي قريش الذين كانوا يستعجلون العذاب ، ويقترحون الآيات كقولهم :

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً ﴾ إلى قوله ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً ﴾ [الإسراء : 90 – 92] .

قال الزمخشريّ : يريد أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم ، لو أسقطناه عليهم لقالوا : هذا سحاب مركوم بعضه فوق بعض ، يمطرنا ، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب .

(294/730)

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [45- 46]

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أي : يخوضوا ويلعبوا ، ويلهِهم الأمل ، ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ أي : يموتون .

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ أي : لا يدفع عنهم مكرُهم من عذاب الله شيئاً ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي : دون يوم القيامة ، وهو إما عذاب القبر ، أو القحط ، أو النوازل التي تذهب بأموالهم وأنفسهم – أقوال للسلف – واللفظ صادق بالجميع ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : سنة الله في أمثالهم من الفجرة .

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أي : الذي حكم به عليك ، وامض لأمره ونهيه ، وبلّغ رسالاته

.

﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ قال ابن جرير : أي : بمرأى منا ، نراك ونرى عملك ، ونحن نَحُوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين .

وقال الشهاب : يعني أن العين ، لما كان بها من الحفظ والحراسة استعيرت لذلك ، وللحافظ نفسه ، كما تسمى الربيئة عيناً ، وهو استعمال فصيح مشهور . ونكتة جمع العين هنا وإفرادها في قصة الكليم ، عدا عن أنه جمع هنا لما أضيف لضمير الجمع ، ووحد ثمة لإضافته لضمير الواحد ، هو المبالغة في الحفظ ، حتى كأن معه جماعة حفظة له بأعينهم ؛ لأن المقصود تصبير حبيبه على المكايد ومشاقّ التكاليف والطاعة ؛ فناسب الجمع ، لأنها أفعال كثيرة ، يحتاج كل منهما إلى حارس بل حراس . بخلاف ما ذكر هناك من كلاءة موسى عليه السلام ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي : من منامك .

(295/730)

وروى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < من تعارَّ من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قال : رب اغفر لي – أو قال : ثم دعا – استجيب له ، فإن عزم فتوضأ ثم صلى ،

قبلت صلاته > . وأخرجه البخاري في صحيحه وأهل السُّنن .

وورد من أذكار الاستيقاظ من النوم قول : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله القدوس . و : لا إله إلا أنت ، سبحانك اللهم أستغفر لذنبي ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدني علماً ، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهبْ لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

وقيل : حين تقوم إلى الصلاة ، روى مسلم في صحيحه عن عمر ، أنه كان يقول في : ابتداء الصلاة : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك ، و رواه أحمد وأهل السنن عن أبي سعيد وغيره ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه كان < يقول ذلك > . وعن مجاهد : حين تقوم من كل مجلس . وكذا قال عطاء وأبو الأحوص .

روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : < من جلس في مجلس ، فكثُر فيه لغطُه ، فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك > . فقال رجل : يا رسول الله ! إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى ؟ ! قال : < كفارة لما يكون في المجلس > !

وقد أفرد الحافظ ابن كثير لهذا الحديث جزءاً على حِدة ، ذكر فيه طرقه وألفاظه وعلّله ، فرحمه الله .

ولا يخفى أن لفظ الآية يصدق بالمواضع المذكورة كلها ، وتدلُّ الأحاديث المذكورة على

الأخذ بعمومها ؛ فإن السنة بيان للكتاب الكريم .

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ أي : اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة بالليل ، كما قال تعالى :

(296/730)

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ [الإسراء : 79] .

وقد روي في أذكار الليل من التسابيح ما هو معروف في كتب الحديث . وقد جمعت ذلك معرىّ عن أسانيدها في كتابي " الأوراد المأثورة " .

﴿ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ أي : وسبحه وقت إدبارها ، وذلك بميلها إلى الغروب عن الأفق ، بانتشار ضوء الصبح ، وقد عنى ذلك إما فريضة الفجر أو نافلته ، أو ما يشملها . قال قتادة : كنا نحدّث أنهما الركعتان عند طلوع الفجر . وقد ثبت في " الصحيحين " عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : < لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم على شيء من النوافل ، أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر > . وفي لفظ مسلم : < ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها > .

قال الزمخشريّ : وقرئ : وأدبار بالفتح ، بمعنى في أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت .

تنبيه :

قال في " الإكليل " عن الكرمانيّ : إن بعض الفقهاء استدل به على أن الإسفار بصلاة الصبح أفضل لأن النجوم لا إدبار لها ، وإنما ذلك بالاستتار عن العيون . انتهى .

وهو استدلال متين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 15 صـ 502.510 ﴾

(297/730)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) ﴾

هذه الآيات القصيرة ، والفواصل المنغمة ، والإيقاعات الفاصلة ، تصاحب السورة من مطلعها . وهي تبدأ كلمة واحدة . حتى تصبح كلمتين . ثم تطول شيئاً فشيئاً حتى تبلغ في نهاية المقطع اثنتي عشرة كلمة . مع المحافظة الكاملة على قوة الإيقاع .

والطور : الجبل فيه شجر . والأرجح أن المقصود به هو الطور المعروف في القرآن ، المذكور في قصة موسى – عليه السلام – والذي نزلت فوقه الألواح . فالجو في جو مقدسات يقسم بها الله سبحانه على الأمر العظيم الذي سيجيء .

والكتاب المسطور في رق منشور . الأقرب أن يكون هو كتاب موسى الذي كتب له في

الألواح. للمناسبة بينه وبين الطور. وقيل. هو اللوح المحفوظ. تمشياً مع ما بعده: البيت المعمور، والسقف المرفوع. ولا يمتنع أن يكون هذا هو المقصود.

والبيت المعمور: قد يكون هو الكعبة. ولكن الأرجح أن يكون بيت عبادة الملائكة في السماء لما ورد في الصحيحين في حديث الإسراء: "ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم". يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم!

والسقف المرفوع: السماء. قاله سفيان الثوري وشعبة وأبو الأحوص عن سماك بن خالد بن عرعرة عن علي - كرم الله وجهه - قال سفيان: ثم تلا: ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون ﴾ والبحر المسجور: المملوء. وهو أنسب شيء يذكر مع السماء في مشهد. في انفساحه وامتلائه وامتداده. وهو آية فيها رهبة ولها روعة. تؤهلانه للذكر مع هذه المشاهد المقسم بها على الأمر العظيم. وقد يكون معنى المسجور: المتقد. كما في سورة اخرى: ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ أي توقدت نيراناً. كما أنه قد يشير إلى خلق آخر كالبيت المرفوع يعلمه الله.

يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق العظيمة على أمر عظيم . بعد أن يتهيأ الحس بهذه الإيقاعات لاستقبال ذلك الأمر العظيم :

﴿ إن عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع ﴾ . .

فهو واقع حتماً ، لا يملك دفعه أحد أبداً . وإيقاع الآيتين والفاصلتين حاسم قاطع . يلقي في الحس أنه أمر داهم قاصم ، ليس منه واق ولا عاصم . وحين يصل هذا الإيقاع إلى الحس البشري بلا عائق فإنه يهزه ويضعضعه ويفعل به الأفاعيل . . قال الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن داود ، عن صالح المري ، عن جعفر بن زيد العبدي قال : خرج عمر يعس بالمدينة ذات ليلة ، فمر بدار رجل من المسلمين ، فوافقه قائماً يصلي ، فوقف يستمع قراءته فقرأ : ﴿ والطور . . حتى بلغ : إن عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع ﴾ .

. قال : قسم ورب الكعبة حق . فنزل عن حماره . واستند إلى حائط ، فمكث ملياً ، ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه . رضي الله عنه .

وعمر – رضي الله عنه – سمع السورة قبل ذلك ، وقرأها ، وصلى بها ، فقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلي بها المغرب . وعمر يعلم . ويتأسى . ولكنها في تلك الليلة صادفت منه قلباً مكشوفاً ، وحساً مفتوحاً ، فنفذت إليه وفعلت به هذا الذي فعلت .

حين وصلت إليه بثقلها وعنفها وحقيقتها اللدنية المباشرة ؛ التي تصل إلى القلوب في لحظات

خاصة ، فتتخللها وتتعمقها ، في لمسة مباشرة كهذه اللمسة ، تلقى فيها القلب الآية من مصدرها الأول كما تلقاها قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأطاقها لأنه تهيأ لتلقيها . فأما غيره فيقع لهم شيء مما وقع لعمر – رضي الله عنه – حين تنفذ إليهم بقوة حقيقتها الأولى . .

ويعقب هذا الإيقاع الرهيب مشهد مصاحب له رهيب :

﴿ يوم تمور السماء موراً ، وتسير الجبال سيراً ﴾ . .

(299/730)

ومشهد السماء الثابتة المبنية بقوة وهي تضطرب وتتقلب كما يضطرب الموج في البحر من هنا إلى هناك بلا قوام . ومشهد الجبال الصلبة الراسية التي تسير خفيفة رقيقة لا ثبات لها ولا استقرار . في أمر مذهل مزلزل . يدل ضمناً على الهول الذي تمور فيه السماء وتسير منه الجبال . فكيف بالمخلوق الإنساني الصغير الضعيف في ذلك الهول المذهل المخيف ؟ !

وفي زحمة هذا الهول الذي لا يثبت عليه شيء ؛ وفي ظل هذا الرعب المزلزل لكل شيء ، يعالج المكذبين بما هو أهول وأرعب . يعاجلهم بالدعاء عليهم بالويل من العزيز الجبار :

﴿ فويل يومئذ للمكذبين . الذين هم في خوض يلعبون ﴾ . .

والدعاء بالويل من الله حكم بالويل وقضاء . فهو أمر لا محالة واقع ، ما له من دافع . وهو كائن حتماً ، يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً . فيتناسب هذا الهول مع ذلك الويل ، وينصبّ كله على المكذبين . .

﴿ الذين هم في خوض يلعبون ﴾ . .

وهذا الوصف ينطبق ابتداء على أولئك المشركين ومعتقداتهم المتهافتة ، وتصوراتهم المهلهلة ؛ وحياتهم القائمة على تلك المعتقدات وهذه التصورات ، التي وصفها القرآن وحكاها في مواضع كثيرة . وهي لعب لا جد فيه . لعب يخوضون فيه كما يخوض اللاعب في الماء ، غير قاصد إلى شاطئ أو هدف ، سوى الخوض واللعب !

ولكنه يصدق كذلك على كل من يعيش بتصور آخر غير التصور الإسلامي . . وهذه حقيقة لا يدركها الإنسان إلا حين يستعرض كل تصورات البشر المشهورة – سواء في معتقداتهم أو أساطيرهم أو فلسفاتهم – في ظل التصور الإسلامي للوجود الإنساني ثم للوجود كله . . إن سائر التصورات – حتى لكبار الفلاسفة الذين يعتز بهم تاريخ الفكر الإنساني – تبدو محاولات أطفال يخبطون ويخوضون في سبيل الوصول إلى الحقيقة .

تلك الحقيقة التي تعرض في التصور الإسلامي – وبخاصة في القرآن – عرضاً هادئاً ناصعاً قوياً بسيطاً عميقاً . يلتقي مع الفطرة التقاء مباشراً دون كد ولا جهد ولا تعقيد . لأنه يطالعها بالحقيقة الأصيلة العميقة فيها . ويفسر لها الوجود وعلاقتها به ، كما يفسر لها علاقة الوجود بخالقه تفسيراً يضاهي ما استقر فيها ويوافقه .

وطالما عجبت وأنا أطالع تصورات كبار الفلاسفة ؛ وألاحظ العناء القاتل الذي يزاولونه ، وهم يحاولون تفسير هذا الوجود وارتباطاته ؛ كما يحاول الطفل الصغير حل معادلة رياضية هائلة . . وأمامي التصور القرآني واضحاً ناصعاً سهلاً هيناً ميسراً طبيعياً ، لا عوج فيه ولا لف ولا تعقيد ولا التواء . وهذا طبيعي . فالتفسير القرآني للوجود هو تفسير صانع هذا الوجود لطبيعته وارتباطاته . . أما تصورات الفلاسفة فهي محاولات أجزاء صغيرة من هذا الوجود لتفسير الوجود كله . والعاقبة معروفة لمثل هذه المحاولات البائسة ! إنه عبث . وخلط . وخوض . . حين يقاس إلى الصورة المكتملة الناضجة ، المطابقة ، التي يعرضها القرآن على الناس ، فيدعها بعضهم إلى تلك المحاولات المتخبطة الناقصة ، المستحيلة الاكتمال والنضوج !

وإن الأمور لتظل مضطربة في حس الإنسان وتصوره ، متأثرة بالتصورات المنحرفة ، وبالمحاولات البشرية الناقصة . . ثم يسمع آيات من القرآن في الموضوع الذي يساوره . فإذا

النور الهادئ . والميزان الثابت . وإذا هو يجد كل شيء في موضعه ، وكل أمر في مكانه ، وكل حقيقة هادئة مستقرة لا تضطرب ولا تمور . ويحس بعدها أن نفسه استراحت ، وأن باله هدأ ، وأن عقله اطمأن إلى الحق الواضح ، وقد زال الغبش والقلق واستقرت الأمور .

(301/730)

كذلك يبدو أن الناس في خوض يلعبون من ناحية اهتماماتهم في الحياة . حين تقاس بالاهتمامات التي يثيرها الإسلام في النفس ، ويعلق بها القلب ، ويشغله بتدبرها وتحقيقها . وتبدو تفاهة تلك الاهتمامات وضآلتها ، والمسلم ينظر إلى اشتغال أهلها بها ، وانغماسهم فيها ، وتعظيمهم لها ، وحديثهم عنها كأنها أمور كونية عظمى ! وهو ينظر إليهم كما ينظر إلى الأطفال المشغولين بعرائس الحلوى وبالدمى الميتة ، يحسبونها شخوصاً ؛ ويقضون أوقاتهم في مناغاتها واللعب معها وبها ! ! !

إن الإسلام يرفع من اهتمامات البشر بقدر ما يرفع من تصورهم للوجود الإنساني وللوجود كله وبقدر ما يكشف لهم عن علة وجودهم وحقيقته ومصيره ؛ وبقدر ما يجيب إجابة صادقة واضحة عن الأسئلة التي تساور كل نفس : من أين جئت ؟ لماذا جئت ؟ إلى أين أذهب ؟

وإجابة الإسلام عن هذه الأسئلة تحدد التصور الحق للوجود الإنساني وللوجود كله . فإن الإنسان ليس بدعاً من الخلائق كلها . فهو واحد منها . جاء من حيث جاءت . وشاركها علة وجودها . ويذهب إلى حيث تقتضي حكمة خالق الوجود كله أن يذهب .

فالإجابة على تلك الأسئلة تشمل كذلك تفسيراً كاملاً للوجود كله ، وارتباطاته وارتباطات الإنسان به . وارتباط الجميع بخالق الجميع .

وهذا التفسير ينعكس على الاهتمامات الإنسانية في الحياة ؛ ويرفعها إلى مستواه .

ومن ثم تبدو اهتمامات الآخرين صغيرة هزيلة في حس المسلم المشغول بتحقيق وظيفة وجوده الكبرى في هذا الكون ، عن تلك الصغائر والتفاهات التي يخوض فيها اللاعبون !

إن حياة المسلم حياة كبيرة – لأنها منوطة بوظيفة ضخمة ، ذات ارتباط بهذا الوجود الكبير ، وذات أثر في حياة هذا الوجود الكبير . وهي أعز وأنفس من أن يقضيها في عبث ولهو وخوض ولعب . وكثير من اهتمامات الناس في الأرض يبدو عبثاً ولهواً وخوضاً ولعباً حين يقاس إلى اهتمامات المسلم الناشئة من تصوره لتلك الوظيفة الضخمة المرتبطة بحقيقة الوجود .

(302/730)

وويل لأولئك الخائضين اللاعبين : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعّا ﴾ . . وهو مشهد عنيف . فالدعّ : الدفع في الظهور . وهي حركة غليظة تليق بالخائضين اللاعبين ، الذين لا يجدّون ، ولا ينتهبون إلى ما يجري حولهم من الأمور . فيساقون سوقاً ويدفعون في ظهورهم دفعاً .

حتى إذا وصل بهم الدفع والدع إلى حافة النار قيل لهم : ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ! ﴾ . .

وبينما هم في هذا الكرب ، بين الدع والنار التي تواجههم على غير إرادة منهم . يجيئهم الترذيل والتأنيب ، والتلميح إلى ما سبق منهم من التكذيب : ﴿ أفسحر هذا ؟ أم أنتم لا تبصرون ؟ ﴾ . فقد كانوا يقولون عن القرآن : إنه سحر . فهل هذه النار التي يرونها كذلك سحر ؟ ! أم إنه الحق الهائل الرعيب ؟ أم إنهم لا يبصرون هذه النار كما كانوا لا يبصرون الحق في القرآن الكريم ؟ !

وحين ينتهي هذا التأنيب الساخر المرير يعاجلهم بالتيئيس البئيس . ﴿ اصلوها . فاصبروا أو لا تصبروا . سواء عليكم . إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ . .

وليس أقسى على منكوب بمثل هذه النكبة . من أن يعلم أن الصبر وعدم الصبر سواء . فالعذاب واقع ، ما له من دافع . وألمه واحد مع الصبر ومع الجزع . والبقاء فيه مقرر سواء صبر عليه أم هلع . . والعلة أنه جزاء على ما كان من عمل . فهو جزاء له سببه الواقع فلا

تغيير فيه ولا تبديل !

وبذلك ينتهي هذا المشهد الرعيب ؛ كما ينتهي الشوط الأول بإيقاعه العنيف .

أما الشوط الثاني فهو مثير للحس ، ولكن بما فيه من رخاء ورغد ، وهتاف بالمتاع لا يقاوم ، وخاصة بعد مشهد العذاب البئيس :

(303/730)

﴿ إن المتقين في جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شيء ، كل امرئ بما كسب رهين . وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون . يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين . فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه ، إنه هو البر الرحيم ﴾ .

.

والمشهد أقرب إلى مشاهد النعيم الحسي ، الذي يخاطب المشاعر في أول العهد ، والذي

يجتذب النفوس بلذائذ الحس في صورتها المصفاة . وهو مقابل لذلك العذاب الغليظ الذي تواجه به القلوب الجاسية والقلوب اللاهية كذلك :

﴿ إن المتقين في جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ﴾ . .

ومجرد الوقاية من عذاب الجحيم الذي عرضت مشاهده في هذه السورة فضل ونعمة . فكيف ومعه ﴿ جنات ونعيم ﴾ ؟ وهم يلتذون ما آتاهم ربهم ويتفكهون ؟

ومع النعيم ولذته التهنئة والتكريم :

﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ . .

وهذا بذاته متاع أكرم . وهم ينادون هذا النداء العلوي ، ويعلن استحقاقهم لما هم فيه :

﴿ متكئين على سرر مصفوفة ﴾ . . منسقة يجدون فيها لذة التجمع بإخوانهم في هذا النعيم : ﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ . . وهذه تمثل أمتع ما يجول في خواطر البشر من متاع جميل .

ويمضي التكريم خطوة فإذا ذريتهم المؤمنة تجتمع إليهم في هذا النعيم ، زيادة في الرعاية والعناية . ولو كانت أعمال الذرية أقل من مستوى مقام المتقين ، ما دامت هذه الذرية مؤمنة . وذلك دون أن ينقص شيء من أعمال الآباء ودرجاتهم . ودون إخلال بفردية التبعة وحساب كل بعمله الذي كسبه ، إنما هو فضل الله على الجميع :

﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم . وما ألتناهم من عملهم من شيء . كل امرئ بما كسب رهين ﴾ . .

ويستطرد المشهد يعرض ألوان المناعم واللذائذ في ذلك النعيم . فإذا فاكهة ولحم مما يشتهون . وإذا هم يتعاطون فيها كأساً ليست كخمر الدنيا تطلق اللغو والهذر من الشفاه والألسنة ، وتشيع الإثم والمعصية في الحس والجوارح . إنما هي مصفاة مبرأة ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ وهم يتجاذبونها بينهم ويتعاطونها مجتمعين ، زيادة في الإيناس واللذة والنعيم . في حين يقوم على خدمتهم ويطوف بالكأس عليهم غلمان صباح أبرياء ، فيهم نظافة ، وفيهم صيانة ، وفيهم نداوة : ﴿ كأنهم لؤلؤ مكنون ﴾ مما يضاعف إيناس المجلس اللطيف في الجوارح والقلوب .

واستكمالاً لجو المشهد المأنوس يعرض سمرهم فيما بينهم ، وتذاكرهم ماضيهم ، وأسباب ما هم فيه من أمن ورضى ورخاء ورغد وأنس ونعيم . فيكشف للقلوب عن سر هذا المتاع ، ويشير إلى الطريق المؤدي إلى هذا النعيم :

﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين . فمنّ الله

علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه ، إنه هو البر الرحيم ﴾ . .

السر إذن أنهم عاشوا على حذر من هذا اليوم . عاشوا في خشية من لقاء ربهم . عاشوا مشفقين من حسابه . عاشوا كذلك وهم في أهلهم ، حيث الأمان الخادع . ولكنهم لم ينخدعوا . وحيث المشغلة الملهية . ولكنهم لم ينشغلوا .

عندئذ منَّ الله عليهم ووقاهم عذاب السموم ، الذي يتخلل الأجسام كالسم الحار اللاذع ! وقاهم هذا العذاب منة منه وفضلاً ، لما علم من تقواهم وخشيتهم وإشفاقهم .

وهم يعرفون هذا . ويعرفون أن العمل لا يدخل صاحبه الجنة إلا بمنة من الله وفضل . فما يبلغ العمل أكثر من أن يشهد لصاحبه أنه بذل جهده ، ورغب فيما عند الله . وهذا هو المؤهل لفضل الله .

(305/730)

وقد كانوا مع الإشفاق والحذر والتقوى يدعون الله : ﴿ إنا كنا من قبل ندعوه ﴾ . . وهم يعرفون من صفاته البر بعباده والرحمة بعبيده : ﴿ إنه هو البر الرحيم ﴾ . .

وكذلك ينكشف سر الوصول في تناجي هؤلاء الناجين المكرمين في دار النعيم .

والآن وقد تلقى الحس سياط العذاب العنيف في الشوط الأول ؛ وتلقى هتاف النعيم

الرغيد في الشوط الثاني ؛ وتوفزت بهذا وذلك حساسيته لتلقي الحقائق . . فإن السياق يعاجله بجملة سريعة الإيقاعات . يطارده فيها بالحقائق الصادعة ، ويتعقب وساوسه في مسارب نفسه في صورة استفهامات استنكارية ، وتحديات قوية ، لا يثبت لها الكيان البشري حين تصل إليه من أي طريق :

﴿ فذكر . فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون : شاعر نتربص به ريب المنون ؟ قل : تربصوا فإني معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ أم هم قوم طاغون ؟ أم يقولون : تقوله ؟ بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين . أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المسيطرون ؟ أم لهم سُلَّم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين . أم له البنات ولكم البنون ؟ أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ أم يريدون كيداً ؟ فالذين كفروا هم المكيدون . أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون . وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا : سحاب مركوم ﴾ . .

﴿ فذكر ﴾ . . والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - ليظل في تذكيره لا يثنيه سوء أدبهم معه ، وسوء اتهامهم له . وقد كانوا يقولون عنه مرة : إنه كاهن . ويقولون عنه مرة : إنه مجنون . ويجمع بين الوصفين عندهم ما كان شائعاً بينهم أن الكهان يتلقون عن الشياطين . وأن الشيطان كذلك يتخبط بعض الناس ، فيصابون بالجنون . فالشيطان هو العامل المشترك بين الوصفين : كاهن أو مجنون ! وكان يحملهم على وصف النبي - صلى الله عليه وسلم - بهذا الوصف أو ذاك ، أو بقولهم إنه شاعر أو ساحر . كان يحملهم على هذا كله موقفهم مبهوتين أمام القرآن الكريم المعجز الذي يبدههم بما لم يعهدوا من القول ، وهم أهل القول ! ولما كانوا لا يريدون – لعلة في نفوسهم – أن يعترفوا أنه من عند الله ، فقد احتاجوا أن يعللوا مصدره المتفوق على البشر . فقالوا : إنه من إيحاء الجن أو بمساعدتهم . فصاحبه إما كاهن يتلقى من الجن ، أو ساحر يستعين بهم ، أو شاعر له رئيٌّ من الجن ، أو مجنون به مس من الشيطان ينطقه بهذا القول العجيب !

وإنها لقولة فظيعة شنيعة .

فالله – سبحانه – يسلي رسوله عنها ، ويصغر من شأنها في نفسه . وهو يشهد له أنه محوط بنعمة ربه ، التي لا تكون معها كهانة ولا جنون : ﴿ فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ . .

ثم يستنكر قولهم : إنه شاعر : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ؟ ﴾ . . وقد

قالوها . وقال بعضهم لبعض : اصبروا عليه ، واثبتوا على ما أنتم فيه ، حتى يأتيه الموت ، فيريحنا منه ! وتواصوا أن يتربصوا به الموت المريح . ومن ثم يلقن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرد عليهم في تهديد ملفوف : ﴿ قل : تربصوا . فإني معكم من المتربصين ﴾ . . وستعلمون من تكون له العاقبة ، ومن ينتهي به التربص إلى النصر والظهور .

(307/730)

ولقد كان شيوخ قريش يلقبون بذوي الحلوم . أو ذوي الأحلام . إشارة إلى رجاحة عقولهم وحكمتهم في تصريف الأمور . فهو يتهكم بهم وبأحلامهم تجاه الإسلام . وموقفهم منه ينافي الحكمة والعقل ، فيسأل في تهكم : أهذه الأوصاف التي يصفون بها محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتلك المواقف التي يقفونها من رسالته كانت من وحي أحلامهم ؟ أم أنهم طغاة ظالمون لا يقفون عند ما تمليه الأحلام والعقول :

﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ أم هم قوم طاغون ﴾ !

وفي السؤال الأول تهكم لاذع . وفي السؤال الثاني اتهام مزر . وواحد منهما لا بد لاحق بهم في موقفهم المريب !

ولقد تطاولت ألسنتهم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاتهموه بافتراء ما يقول .

فهو هنا يسأل في استنكار : إن كانوا يقولون : تقوّله : كأن هذه الكلمة لا يمكن أن تقال . فهو يسأل عنها في استنكار : ﴿ أم يقولون تقوّله ؟ ﴾ . . ويبادر ببيان علة هذا القول الغريب : ﴿ بل لا يؤمنون ﴾ . فعدم استشعار قلوبهم للإيمان ، هو الذي ينطقهم بمثل هذا القول ؛ بعد أن يحجبهم عن إدراك حقيقة هذا القرآن . ولو أدركوها لعلموا أنه ليس من صنع بشر ؛ وأنه لا يحمله إلا صادق أمين .

وما دامت قلوبهم لا تستشعر حقيقة هذا التنزيل ؛ فهو يتحداهم إذن ببرهان الواقع الذي لا يقبل المراء ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ .

وقد تكرر هذا التحدي في القرآن الكريم ؛ وتلقاه المنكرون عاجزين ، ووقفوا تجاهه صاغرين . وكذلك يقف أمامه كل أحد إلى يوم الدين .

(308/730)

إن في هذا القرآن سراً خاصاً ، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداء ، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها . إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن . يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير . وأن هنالك عنصراً ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن . يدركه بعض الناس واضحاً ويدركه بعض الناس

غامضاً ، ولكنه على كل حال موجود . هذا العنصر الذي ينسكب في الحس ، يصعب تحديد مصدره : أهو العبارة ذاتها ؟ أهو المعنى الكامن فيها ؟ أهو الصور والظلال التي تشعها ؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة ؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة ؟ أم إنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود ؟ !

ذلك سر مودع في كل نص قرآني ، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء .

. ثم تأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله :

في التصور الكامل الصحيح الذي ينشئه في الحس والقلب والعقل . التصور لحقيقة الوجود الإنساني ، وحقيقة الوجود كله ، وللحقيقة الأولى التي تنبع منها كل حقيقة . حقيقة الله سبحانه .

وفي الطريقة التي يتبعها القرآن لبناء هذا التصور الكامل الصحيح في الإدراك البشري . وهو يخاطب الفطرة ، خطاباً خاصاً ، غير معهود مثله في كلام البشر أجمعين ؛ وهو يقلب القلب من جميع جوانبه ومن جميع مداخله ، ويعالجه علاج الخبير بكل زاوية وكل سر فيه .

وفي الشمول والتوازن والتناسق بين توجيهاته كلها ، والاستواء على أفق واحد فيها كلها . مما لا يعهد إطلاقاً ، في أعمال البشر ، التي لا تستقر على حال واحدة ، ولا تستقيم على مستوى واحد ، ولا تحيط هكذا بجميع الجوانب ، ولا تملك التوازن المطلق الذي لا زيادة

فيه ولا نقص ، ولا تفريط فيه ولا إفراط ، والتناسق المطلق الذي لا تعارض فيه ولا تصادم سواء في ذلك الأصول والفروع . .

(309/730)

فهذه الظواهر المدركة . . وأمثالها . . مع ذلك السر الخافي الذي لا سبيل إلى انكاره . . مما يسبغ على هذا الكتاب سمة الإعجاز المطلق في جميع العصور . وهي مسألة لا يماري فيها إنسان يحترم حسه ، ويحترم نفسه ، ويحترم الحقيقة التي تطالعه بقوة وعمق ووضوح ، حيثما واجه هذا القرآن بقلب سليم . . ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ . . والاستفهام التالي عن حقيقة وجودهم ، هم أنفسهم ، وهي حقيقة قائمة لا مفر لهم من مواجهتها ، ولا سبيل لهم إلى تفسيرها بغير ما يقوله القرآن فيها ، من أن لهم خالقاً أوجدهم هو الله سبحانه . وهو موجود بذاته . وهم مخلوقون .

﴿ أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ؟ ﴾ . .

ووجودهم هكذا من غير شيء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداء ؛ ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل . أما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدّعوه ولا يدّعيه مخلوق . وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة ، فإنه لا يبقى إلا الحقيقة التي يقولها القرآن .

وهي أنهم جميعاً من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد في الخلق والإنشاء ؛ فلا يجوز أن يشاركه أحد في الربوبية والعبادة . . وهو منطق واضح بسيط .

كذلك يواجههم بوجود السماوات والأرض حيالهم . فهل هم خلقوها ؟ فإنها لم تخلق نفسها بطبيعة الحال كما أنهم لم يخلقوا أنفسهم :

﴿ أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لا يوقنون ﴾ . .

وهم – ولا أي عقل يحتكم إلى منطق الفطرة – لا يقولون : إن السماوات والأرض خلقت نفسها ، أو خلقت من غير خالق .

وهم كذلك لا يدّعون أنهم خلقوها . . وهي قائمة حيالهم سؤالاً حياً يتطلب جواباً على وجوده ! وقد كانوا إذا سئلوا عمن خلق السماوات والأرض قالوا الله . . ولكن هذه الحقيقة لم تكن تتضح في إدراكهم إلى درجة اليقين الذي ينشىء آثاره في القلب ، ويحركه إلى اعتقاد واضح دقيق . . ﴿ بل لا يوقنون ﴾ . .

(310/730)

ثم يهبط بهم درجة عن درجة الخلق والإبداع لأنفسهم أو للسماوات والأرض . فيسألهم : هل هم يملكون خزائن الله ، ويسيطرون على القبض والبسط ، والضر والنفع :

﴿ أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المسيطرون ؟ ﴾ .

وإذا لم يكونوا كذلك ، ولم يدعوا هذه الدعوى . فمن ذا يملك الخزائن ، ومن ذا يسيطر على مقاليد الأمور ؟ القرآن يقول : إنه الله القابض الباسط ، المدبر المتصرف . وهذا هو التفسير الوحيد لما يجري في الكون من قبض وبسط وتصريف وتدبير . بعد انتفاء أن يكونوا هم المالكين للخزائن المسيطرين على تصريف الأمور !

ثم يهبط بهم درجة أخرى فيسألهم إن كانت لهم وسيلة للاستماع إلى مصدر التنزيل :

﴿ أم لهم سُلَّم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين ﴾ .

إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - يقول لهم : إنه رسول يوحى إليه ، وإن هذا القرآن يتنزل عليه من الملأ الأعلى . وهم يكذبونه فيما يقول . فهل لهم سلم يستمعون فيه ، فيعلموا أن محمداً لا يوحى إليه ، وأن الحق غير ما يقول ؟ : ﴿ فليأت مستمعهم بسلطان مبين ﴾ . أي ببرهان قوي يحمل في ذاته سلطاناً على النفوس يلجئها إلى التصديق . وفي هذا التلميح إلى سلطان القرآن الذي يطالعهم في آياته وحججه ، وهم يكابرون فيها ويعاندون !

ثم يناقش إحدى مقولاتهم المتهافتة عن الله سبحانه . تلك التي ينسبون إليه فيها بنوة الملائكة ، الذين يتصورونهم ، إناثاً ؛ موجهاً الخطاب مباشرة إليهم ، زيادة في التخجيل والترذيل :

﴿ أم له البنات ولكم البنون ؟ ﴾ .

وهم كانوا يعتبرون البنات في درجة أقل من درجة البنين ، إلى حد أن تسود وجوههم من الكمد والكظم حين يبشرون بالأنثى . وكانوا مع هذا لا يستحيون من نسبة البنات إلى الله ! فهو هنا يأخذهم بعرفهم وتقاليدهم ، ليخجلهم من هذا الادعاء . وهو في ذاته متهافت لا يستقيم !

(311/730)

وهم كانوا يستثقلون دعوة النبي لهم إلى الهدى ؛ وهو يقدمه لهم خالصاً بريئاً ، لا يطلب عليه أجراً ، ولا يفرض عليهم إتاوة . وأيسر ما يقتضيه هذا العرض البريء أن يستقبل صاحبه بالحسنى ، وأن يرد بالحسنى إذا لم يقبلوا ما يقدمه لهم ويعرضه عليهم . وهو هنا يستنكر مسلكهم الذي لا داعي له يقول :

﴿ أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ؟ ﴾ . .

أي مثقلون من الغرم تكلفهم إياه في صورة الأجر على ما تقول ! فإذا كان الواقع أن لا أجر ولا غرامة . فكم يبدو عملهم مسترذلاً قبيحاً ، يخجلون منه حين يواجهون به ؟

ويعود يواجههم بحقيقة وجودهم ووضعهم في هذا الوجود .

فهم عبيد لهم حدود . مكشوف لهم من هذا الوجود بقدر . محجوب عنهم ما وراءه ، مما

يختص به صاحب هذا الوجود . فهنالك غيب من اختصاص الله يقف دونه العبيد ، لا علم لهم به ، لأنهم عبيد :

﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ ﴾ . .

وهم يعلمون أن ليس عندهم الغيب ، وأن ليس لهم به علم ، وأن ليس لهم عليه قدرة .

وأنهم لا يكتبون في سجل الغيب شيئاً ، إنما يكتب الله فيه ما يريد ، مما يقدره للعبيد .

والذي يملك أمر الغيب وما يقدر فيه وما يدبر ، هو الذي يملك أن يدبر فيه وأن يكيد . فما لهم وهم عن الغيب محجوبون ، وفي سجله لا يكتبون يكيدون لك ويدبرون ، ويحسبون أنهم قادرون على شيء من أمر المستقبل : فيقولون : شاعر نتربص به ريب المنون ؟ !

﴿ أم يريدون كيداً ؟ فالذين كفروا هم المكيدون ﴾ !

وهم الذين يحيق بهم ما يقدره صاحب الغيب لهم ، وهم الذين يقع عليهم كيده ومكره .

والله خير الماكرين .

﴿ أم لهم إله غير الله ؟ ﴾ . . يقيهم ويتولاهم ويرد عنهم كيد الله . . ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ وتنزه – سبحانه – عن تصورهم الباطل السقيم !

(312/730)

وبهذا التنزيه لله سبحانه عن الشرك والشركاء تختم هذه الحملة المتلاحقة الخطى ، القوية الإيقاع . وقد انكشفت كل شبهة ، ودحضت كل حجة ، ووقف القوم أمام الحقيقة العارية مجردين من كل عذر ومن كل دليل . عندئذ يقدمهم على حقيقتهم معاندين مكابرين يمارون في الحق الواضح ، متمسكين بأدنى شبهة من بعيد :

﴿ وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا : سحاب مركوم ﴾ . .

أي إنه إذا أرسل عليهم العذاب في صورة قطعة من السماء تسقط عليهم وفيها الهلاك ، قالوا وهم يرونها تسقط : ﴿ سحاب مركوم ﴾ . . فيه الماء والحياة ! عناداً منهم أن يسلموا بالحق ، ولو كان السيف على رقابهم كما يقولون ! ولعله يشير بهذا إلى قصة عاد . وقولهم حين رأوا سحابة الموت والدمار : ﴿ عارض ممطرنا ﴾ حيث كان الرد : ﴿ بل هو ما استعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ وعند هذا الحد من تصوير عنادهم ومكابرتهم في الحق ، ولو كان فوق رؤوسهم الهلاك ، يتجه بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لينفض يده من أمرهم ، ويدعهم لليوم الذي ورد ذكره ووصفه في أول السورة . وللعذاب الذي ينتظرهم من قبله . وأن يصبر لحكم ربه الذي يعزه ويرعاه ويكلؤه . وأن يسبح بحمد ربه في الصباح حين يقوم ، ومن الليل ، وعند إدبار النجوم :

﴿ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون . يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم

ينصرون . وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ، ولكن أكثرهم لا يعلمون . واصبر لحكم ربك ، فإنك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ .

(313/730)

وهو شوط جديد في الحملة يبدأ بالتهديد , بذلك اليوم الرعيب , يوم ينفخ في الصور فيصعقون . – قبيل البعث والنشور – يوم لا ينفعهم تدبير ولا ينصرهم نصير . فإذا كانوا اليوم يكيدون ويدبرون , فهم في ذلك

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (49)

اليوم لا يغني عنهم كيد ولا تدبير . على أن لهم قبل ذلك اليوم عذابا – يتركه مجهولا ولكن أكثرهم لا يعلمون .

ويفرغ بهذا التهديد الأخير من أمر المكذبين الظالمين , الذين طاردهم هذه المطاردة الطويلة العنيفة , لينتهي بهم إلى موقف المهدد الذي ينتظره العذاب من بعيد ومن قريب . . يفرغ منه ليلتفت إلى النبي الكريم الذي تطاول عليه المتطاولون , وتقول عليه المتقولون , يلتفت إليه (صلى الله عليه وسلم) يوجهه إلى الصبر على هذا العناء , وهذا التكذيب , وهذا

التطاول ; والصبر على طريق الدعوة الشاق الطويل . تاركا الأمر لحكم الله يفعل به ما يشاء : (واصبر لحكم ربك) . .

ومع التوجيه إلى الصبر إيذان بالإعزاز الرباني , والعناية الإلهية , والأنس الحبيب الذي يمسح على مشقات الطريق مسحا , ويجعل الصبر عليه أمرا محببا , وهو الوسيلة إلى هذا الإعزاز الكريم:

(واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) . .

ويا له من تعبير ! ويا له من تصوير ! ويا له من تقدير !

إنها مرتبة لم يبلغها قط إنسان . هذه المرتبة التي يصورها هذا التعبير الفريد في القرآن كله . حتى بين التعبيرات المشابهة .

لقد قيل لموسى عليه السلام:(وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى) . . وقيل له: (وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني) . . وقيل له:(واصطنعتك لنفسي) . .

(314/730)

وكلها تعبيرات تدل على مقامات رفيعة . ولكنه قيل لمحمد (صلى الله عليه وسلم) : (فإنك بأعيننا) وهو تعبير فيه إعزاز خاص , وأنس خاص . وهو يلقي ظلا فريدا أرق

وأشف من كل ظل . . ولا يملك التعبير البشري أن يترجم هذا التعبير الخاص . فحسبنا أن نشير إلى ظلاله , وأن نعيش في هذه الظلال .

ومع هذا الإيناس هداية إلى طريق الصلة الدائمة به: (وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) . . فعلى مدار اليوم . عند اليقظة من النوم . وفي ثنايا الليل . وعند إدبار النجوم في الفجر . هنالك مجال الاستمتاع بهذا الإيناس الحبيب .

والتسبيح زاد وأنس ومناجاة للقلوب . فكيف بقلب المحب الحبيب القريب ؟ ؟ ؟ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3393 . 3403 ﴾

(315/730)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الطُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك حِينَ تَقُومُ ﴾ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَأَبُو الْأَحْوَصِ وَمُجَاهِدٌ : " حِينَ تَقُومُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ سُبْحَانَك وَبِحَمْدِك لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُك وَأَتُوبُ

إِلَيْك " .

وَرَوَى عَلِيُّ بْنُ هَاشِمٍ قَالَ : سُئِلَ الْأَعْمَشُ أَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَسْتَحِبُّ إِذَا قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ أَنْ يَقُولَ سُبْحَانَك اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِك لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُك وَأَتُوبُ إِلَيْك ؟ قَالَ : " مَا كَانَ يَسْتَحِبُّ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ سُنَّةً " .

وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ عُمَرَ : " يَعْنِي بِهِ افْتِتَاحَ الصَّلَاةِ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَعْنِي بِهِ قَوْلَهُ : سُبْحَانَك اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِك وَتَبَارَكَ اسْمُك ، إلَى آخِرِهِ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ بَعْدَ التَّكْبِيرِ وَقَالَ أَبُو الْجَوْزَاءِ : " حِينَ تَقُومُ مِنْ مَنَامِك " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عُمُومًا فِي جَمِيعِ مَا رُوِيَ مِنْ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ .

(316/730)

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ رُوِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّهُ رَكْعَتَا الْفَجْرِ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَارٌ فِي رَكْعَتَيْ الْفَجْرِ ، مِنْهَا حَدِيثُ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ﴾ وَرَوَى عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : ﴿ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْرَعَ إلَى شَيْءٍ مِنْ النَّوَافِلِ إسْرَاعَهُ إلَى رَكْعَتَيْ الْفَجْرِ وَلَا إلَى

غَنِيمَةٍ ﴾ .

وَرَوَى أَيُّوبُ عَنْ عَطَاءٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ الرَّكْعَتَانِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَاجِبَتَانِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَا تَدَعُوهُمَا فَإِنَّ فِيهِمَا الرَّغَائِبَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ لَا تَدَعُوهُمَا وَإِنْ طَرَقَتْكُمْ الْخَيْلُ ﴾ .

آخِرُ سُورَةِ الطُّورِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(317/730)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الطُّورِ

[فِيهَا آيَتَانِ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ .

وَقُرِئَ : وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ بِإِيمَانٍ .

فِيهَا (مَسْأَلَةٌ) : الْقِرَاءَتَانِ لِمَعْنَيَيْنِ : أَمَّا إذَا كَانَ اتِّبَاعُهُمْ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ لِلذُّرِّيَّةِ فَيَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الذُّرِّيَّةُ مُسْتَقِلَّةً بِنَفْسِهَا تَعْقِلُ الْإِيمَانَ وَتَتَلَفَّظُ بِهِ .

وَأَمَّا إذَا كَانَ الْفِعْلُ وَاقِعًا بِهِمْ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ نِسْبَةً إلَيْهِمْ فَيَكُونُ ذَلِكَ لِمَنْ كَانَ مِنْ الصِّغَرِ فِي حَدٍّ لَا يَعْقِلُ الْإِسْلَامَ ، وَلَكِنْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ حُكْمَ أَبِيهِ لِفَضْلِهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ الْعِصْمَةِ وَالْحُرْمَةِ .

فَأَمَّا إتْبَاعُ الصَّغِيرِ لِأَبِيهِ فِي أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ فَلَا خِلَافَ فِيهِ .

وَأَمَّا تَبَعِيَّتُهُ لِأُمِّهِ فَاخْتَلَفَ فِيهِ الْعُلَمَاءُ وَاضْطَرَبَ فِيهِ قَوْلُ مَالِكٍ .

وَالصَّحِيحُ فِي الدِّينِ أَنَّهُ يَتْبَعُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَحَدِ أَبَوَيْهِ ، لِلْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كُنْت أَنَا وَأُمِّي مِنْ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ، وَذَلِكَ أَنَّ أُمَّهُ أَسْلَمَتْ وَلَمْ يُسْلِمْ الْعَبَّاسُ فَاتَّبَعَ أُمَّهُ فِي الدِّينِ ، وَكَانَ لِأَجْلِهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ .

فَأَمَّا إذَا كَانَ أَبَوَاهُ كَافِرَيْنِ فَعَقَلَ الْإِسْلَامَ صَغِيرًا وَتَلَفَّظَ بِهِ ، فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ اخْتِلَافًا كَثِيرًا .

(318/730)

وَمَشْهُورُ الْمَذْهَبِ أَنَّهُ يَكُونُ مُسْلِمًا .

وَالْمَسْأَلَةُ مُشْكِلَةٌ ، وَقَدْ أَوْضَحْنَاهَا بِطُرُقِهَا فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ وَمِنْ عُمُدِهَا هَذِهِ الْآيَةُ ،

وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ﴾ ، فَنَسَبَ الْفِعْلَ إِلَيْهِمْ ؛ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ عَقَلُوهُ وَتَكَلَّمُوا بِهِ ؛ فَاعْتَبَرَهُ اللَّهُ ، وَجَعَلَ لَهُمْ حُكْمَ الْمُسْلِمِينَ .

وَمِنْ الْعُمُدِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ الْمُخَالِفَ يَرَى صِحَّةَ رِدَّتِهِ فَكَيْفَ يَصِحُّ اعْتِبَارُ رِدَّتِهِ وَلَا يُعْتَبَرُ إِسْلَامُهُ ، وَقَدْ احْتَجَّ جَمَاعَةٌ بِإِسْلَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ صَغِيرًا وَأَبَوَاهُ كَافِرَانِ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى .

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : الْمَعْنَى فِيهِ حِينَ تَقُومُ مِنْ الْمَجْلِسِ لِيُكَفِّرَهُ .

الثَّانِي : حِينَ تَقُومُ مِنْ النَّوْمِ ، لِيَكُونَ مُفْتَتِحًا بِهِ كَلَامَهُ .

الثَّالِثُ : حِينَ تَقُومُ مِنْ نَوْمِ الْقَائِلَةِ ، وَهِيَ الظُّهْرُ .

الرَّابِعُ : التَّسْبِيحُ فِي الصَّلَاةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : أَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّ مَعْنَاهُ حِينَ تَقُومُ مِنْ الْمَجْلِسِ فَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مَنْ جَلَسَ مَجْلِسًا يَكْثُرُ فِيهِ لَغَطُهُ ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، وَأَسْتَغْفِرُكَ ، وَأَتُوبُ إِلَيْكَ إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ ﴾ .

وَهَذَا الْحَدِيثُ مَعْلُولٌ .

جَاءَ مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ فَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَقَالَ : دَعْنِي أُقَبِّلُ رِجْلَيْكَ يَا أُسْتَاذَ الْأُسْتَاذِينَ وَسَيِّدَ الْمُحَدِّثِينَ ، وَطَبِيبَ الْحَدِيثِ فِي عِلَلِهِ ، حَدَّثَكَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ ، حَدَّثَنَا مَخْلَدُ بْنُ يَزِيدَ ، أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ ، حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ عَنْ سُهَيْلٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كَفَّارَةِ الْمَجْلِسِ فَمَا عِلَّتُهُ ؟ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ : هَذَا حَدِيثٌ مَلِيحٌ ، وَلَا أَعْلَمُ فِي الدُّنْيَا فِي هَذَا الْبَابِ غَيْرَ هَذَا الْحَدِيثِ الْوَاحِدِ ، إِلَّا أَنَّهُ مَعْلُولٌ .

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ ، أَنْبَأَنَا وُهَيْبٌ ، أَنْبَأَنَا سُهَيْلٌ عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، قَوْلُهُ قَالَ أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ هَذَا أَوْلَى ، فَإِنَّهُ لَا يُذْكَرُ لِمُوسَى بْنِ عُقْبَةَ سَمَاعٌ مِنْ سُهَيْلٍ .

قَالَ الْقَاضِي ابْنُ الْعَرَبِيِّ : أَرَادَ الْبُخَارِيُّ أَنَّ حَدِيثَ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ مِنْ قَوْلِهِ حَمَلَهُ سُهَيْلٌ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ حَتَّى تَغَيَّرَ حِفْظُهُ بِآخِرَةٍ ؛ فَهَذِهِ مَعَانٍ لَا يُحْسِنُهَا إلَّا الْعُلَمَاءُ بِالْحَدِيثِ ، فَأَمَّا أَهْلُ الْفِقْهِ فَهُمْ عَنْهَا بِمَعْزِلٍ .

وَالْحَدِيثُ الصَّحِيحُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَا رَوَى ابْنُ عُمَرَ قَالَ ﴿ : كُنَّا نَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِائَةَ مَرَّةٍ : رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ ﴾ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ حِينَ يَقُومُ يَعْنِي مِنْ اللَّيْلِ فَفِي ذَلِكَ رِوَايَاتٌ كَثِيرَةٌ : فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ : مَنْ تَعَارَّ مِنْ اللَّيْلِ فَقَالَ : لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، وَاَللَّهُ أَكْبَرُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ﴾ وَفِي بَعْضِ رِوَايَاتِ سُقُوطِ التَّهْلِيلِ .

الثَّانِي وَرُوِيَ عَنْهُ ﴿ أَنَّهُ قَرَأَ الْعَشْرَ الْخَوَاتِمَ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : ﴿ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَأَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ ، فَإِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

وَأَمَّا نَوْمُ الْقَائِلَةِ فَلَيْسَ فِيهِ أَثَرٌ ، وَهُوَ يَلْحَقُ بِنَوْمِ اللَّيْلِ ، وَيَدْخُلُ فِيهِ الصُّبْحُ لِنَوْمِ اللَّيْلِ ، وَالظُّهْرُ لِنَوْمِ الْقَائِلِ ، وَهُوَ أَصْلُ التَّسْبِيحِ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ تَسْبِيحُ الصَّلَاةِ فَهُوَ أَفْضَلُهُ ، وَالْآثَارُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ ، أَعْظَمُهَا مَا ثَبَتَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ كَانَ إذَا قَامَ لِلصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ رَفَعَ يَدَيْهِ حَذْوَ

(322/730)

مَنْكِبَيْهِ ، وَيَصْنَعُ ذَلِكَ إذَا قَضَى قِرَاءَتَهُ وَأَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ ، وَيَضَعُهَا إذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ الرُّكُوعِ ، وَلَا يَرْفَعُ يَدَيْهِ فِي شَيْءٍ مِنْ صَلَاتِهِ وَهُوَ قَاعِدٌ ، وَإِذَا قَامَ مِنْ السَّجْدَتَيْنِ رَفَعَ يَدَيْهِ كَذَلِكَ وَكَبَّرَ وَيَقُولُ حِينَ يَفْتَتِحُ الصَّلَاةَ بَعْدَ التَّكْبِيرِ : وَجَّهْت وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ ؛ إنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْت وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ سُبْحَانَك أَنْتَ رَبِّي ، وَأَنَا عَبْدُك ظَلَمْت نَفْسِي ، وَاعْتَرَفْت بِذَنْبِي ، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا ، وَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أَنْتَ ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إلَّا أَنْتَ ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا ، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إلَّا أَنْتَ ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْك وَالشَّرُّ لَيْسَ إلَيْك ،

وَإِنَّا بِك وَإِلَيْك لَا مَنْجَى مِنْك ، وَلَا مَلْجَأَ إلَّا إلَيْك ، أَسْتَغْفِرُك وَأَتُوبُ إلَيْك ﴾ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَنَّهُ ﴿ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي .

فَقَالَ : قُلْ رَبِّ إنِّي ظَلَمْت نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا ، وَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أَنْتَ ، فَاغْفِرْ لِي مِنْ عِنْدِك ، وَارْحَمْنِي ، إنَّك أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

(323/730)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : ﴿ شَكَوْت إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنِّي أَشْتَكِي ، فَقَالَ : طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ ، وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ .

قَالَتْ : فَطُفْت وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَئِذٍ يُصَلِّي إلَى جَنْبِ الْبَيْتِ يَقْرَأُ بِالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ .

وَفِيهِ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ ﴿ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ بِالطُّورِ فِي الْمَغْرِبِ ﴾ .

قَالَ الْقَاضِي : وَرَدَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَمْرِ أُسَارَى بَدْرٍ وَهُوَ لَمْ يُسْلِمْ بَعْدُ ، فَحَضَرَ صَلَاةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قَالَ ﴿ : فَسَمِعْتُه يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ ، فَلَمَّا بَلَغَ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ كَادَ يَنْخَلِعُ فُؤَادِي ، ثُمَّ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيَّ بَعْدُ بِالْإِسْلَامِ ﴾ .

قَالَ عُلَمَاؤُنَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ : لَمْ يَخْتَلِفْ قَوْلُ مَالِكٍ إِنَّ سَجْدَةَ النَّجْمِ لَيْسَتْ مِنْ عَزَائِمِ الْقُرْآنِ ، وَرَآهَا ابْنُ وَهْبٍ مِنْ عَزَائِمِهِ ، وَكَانَ مَالِكٌ يَسْجُدُهَا فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ .

وَرَوَى مَالِكٌ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَرَأَ بِالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ، فَسَجَدَ فِيهَا ، ثُمَّ قَامَ فَقَرَأَ سُورَةً أُخْرَى .

وَرَوَى غَيْرُهُ أَنَّ السُّورَةَ الَّتِي وَصَلَهَا بِهَا " إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا .

(324/730)

" وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ النَّجْمَ ، فَسَجَدَ فِيهَا ، وَسَجَدَ مَنْ كَانَ مَعَهُ إلَّا شَيْخًا كَبِيرًا أَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصًى أَوْ مِنْ تُرَابٍ ، فَرَفَعَهُ إلَى جَبْهَتِهِ ، وَقَالَ : يَكْفِينِي هَذَا ﴾ .

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : وَلَقَدْ رَأَيْته بَعْدُ قُتِلَ كَافِرًا .

وَرَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَجَدَ فِيهَا يَعْنِي فِي النَّجْمِ ، وَسَجَدَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ ﴾ .

الشَّيْخُ الَّذِي لَمْ يَسْجُدْ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ ، قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ كَانَ إذَا قَرَأَهَا عَلَى النَّاسِ سَجَدَ ، فَإِذَا قَرَأَهَا وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ رَكَعَ وَسَجَدَ .

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ إذَا قَرَأَ " وَالنَّجْمُ " وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ بَعْدَهَا قِرَاءَةٌ قَرَأَهَا وَسَجَدَ .

وَإِذَا انْتَهَى إلَيْهَا رَكَعَ وَسَجَدَ ، وَلَمْ يَرَهَا [عَلِيٌّ] مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ : هِيَ مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ ؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(325/730)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الطور

وَالطُّورِ (1)

قوله : ﴿ والطور ﴾ : وما بعده أقسامٌ جوابُها : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ [الطور : 7

] والواواتُ التي بعد الأولى عواطفُ لا حروفُ قسمٍ لما قَدَّمْتُه في أولِ هذا الموضوعِ عن الخليل . ونَكَّر الكتاب تفخيماً وتعظيماً .

فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3)

قوله : ﴿ فِي رَقٍّ ﴾ : يجوز أَنْ يتعلَّقَ بِمَسْطُور أي : مكتوبٍ في رَقّ . وجَوَّز أبو البقاء أَنْ يكونَ نعتاً آخرَ لـ "كتاب" وفيه نظرٌ ؛ لأنه يُشبه تهيئةَ العاملِ للعملِ وقَطْعَه عنه . والرَقُّ بالفتح : الجِلْدُ الرقيقُ يُكتب فيه . وقال الراغب : "الرَّقُّ ما يُكتب فيه شِبْهُ كاغَد" انتهى . فهو أعمُّ مِنْ كونِه جِلْداً وغيرَه . ويقال فيه "رِقٌّ" بالكسر ، فأمَّا المِلْكُ للعبيد فلا يُقال إلاَّ "رِقٌّ" بالكسر . وقال الزمخشري : "والرَّقُّ : الصحيفةُ . وقيل : الجِلْدُ الذي تُكتب فيه [الأعمال] " . انتهى . وقد غَلَّط بعضُهم مَنْ يقول : كتَبْتُ في الرِّق بالكسر ، وليس بغلطٍ لثبوتِه لغةً بالكسر . وقد قرأ أبو السَّمَّال "في رِقّ" بالكسر .

وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6)

قوله : ﴿ المسجور ﴾ : قيل : هو من الأضدادِ . ويقال : بحر مَسْجور أي : مملوء ، وبحرٌ مَسْجور أي : فارغٌ . وروَى ذو الرمة الشاعرُ عن ابنِ عباس أنه قال : خرَجَتْ أَمَةٌ لتستقيَ فقالت : إن الحوضَ مَسْجور ، أي فارغ . ويؤيِّد هذا أنَّ البحارَ يذهبُ ماؤُها يومَ القيامة . وقيل : المسجورُ المَمْسوك ، ومنه ساجورُ الكلب لأنه يَمْسِكُه ويَحْبسه .

إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7)

وقرأ زيدُ بن علي " إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ وَاقِعٌ " بغيرِ لامٍ .

مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8)

(326/730)

قوله : ﴿ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ : يجوزُ أَنْ تكونَ الجملةُ خبراً ثانياً ، وأَنْ تكونَ صفةً لـ " واقعٌ " أي : واقعٌ غيرُ مدفوعٍ ، قاله أبو البقاء . و " مِنْ دافِع " يجوزُ أَنْ يكونَ فاعلاً ، وأَنْ يكونَ مبتدأً ، و " مِنْ " مزيدةٌ على الوجهين .

يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (9)

قوله : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ العاملُ فيه " واقعٌ " أي : يقعُ في ذلك اليومِ ، وعلى هذا فتكونُ الجملةُ المنفيةُ معترضةً بين العاملِ ومعمولِه . ويجوزُ أَنْ يكونَ العاملُ فيه " دافعٌ " قاله الحوفي ، وأبو البقاء ومنعه مكي . قال الشيخ : " ولم يذكرْ دليلَ المنع " وقلت : قد ذَكَرَ دليلَ المنع في " الكشف " إلاَّ أنه ربما يكونُ غَلَطاً عليه ، فإنه وهمٌ وانا أذكُر لك عبارتَه . قال رحمه الله : " العامل فيه " واقعٌ " أي : إنَّ عذاب ربك لَواقعٌ في يومِ تمورُ السماءُ مَوْراً . ولا يَعْمل فيه " دافعٌ " لأنَّ المنفيَّ لا يعمل فيما قبل النافي . لا تقول : " طعامَك ما زيدٌ آكلاً " ، رفعْتَ " آكلاً " أو نَصَبْتَه أو أَدْخَلْتَ عليه الباءَ . فإن رَفَعْتَ الطعامَ بالابتداءِ وأوقَعْتَ "

آكلاً " على هاءٍ جازَ ، وما بعد الطعام خبرٌ " انتهى . وهذا كلامٌ صحيح في نفسِه ، إلاَّ أنه ليس في الآية شيءٌ من ذلك ؛ لأنَّ العاملَ وهو " دافعٌ " والمعمولُ وهو " يومَ " ، كلاهما بعد النافي وفي حَيِّزه . وقوله : " وأوقَعْتَ " آكلاً " على هاء " أي على ضميرٍ يعود على الطعامِ ، فتقول : طعامَك ما زيدٌ آكلَه .

(327/730)

وقد يقال : إنَّ وجهَ المنعِ مِنْ ذلك خَوْفُ الوهَمِ : أنه يُفْهَمُ أن أحداً يدفعُ العذاب في غيرِ ذلك اليومِ ، والفرضُ أنَّ عذابَ اللَّهِ لا يُدفع في كل وقت . وهذا أمرٌ مناسِبٌ قد ذُكِر مثلَه كثيرٌ ؛ ولذلك مَنَعَ بعضُهم أن ينتصِبَ ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ بقولِه : ﴿ واللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : 29-30] لئلا يُفْهَمَ منه ما لا يَليق ، وهو أبعدُ من هذا في الوهمِ بكثيرٍ . وقال أبو البقاء : " وقيل : يجوز أَنْ يكونَ ظرفاً لِما دَلَّ عليه " فوَيْلٌ " . انتهى وهو بعيد .

والمَوْرُ : الاضطرابُ والحركةُ يقال : مار الشيءُ أي : ذهب وجاء . وقال الأخفش وأبو عبيدة : تَكَفَّأ . وأنشد للأعشى :

4115 كأن مِشْيَتَها مِنْ بيتِ جارتِها . . . مَوْرُ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

وقال الزمخشري : " وقيل هو تحرُّكٌ في تموُّج ، وهو الشيءُ يتردَّدُ في عَرْضٍ كالداغِصة " .

قلت : الداغِصَةُ : الجِلْدَةُ التي فوق قُفْل الرُّكْبةِ . وقال الراغب : " المَوْرُ : الجريان السريعُ . ومار الدمُ على وجهِه . والمُوْرُ بالضم : الترابُ المتردِّدُ به الريحُ " . وأكَّد بالمصدَرَيْن رفعاً للمجاز أي : هذان الجُرْمان العظيمان مع كَثافتهما يقعُ ذلك منهما حقيقةً .

فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11)

قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ : منصوبٌ ب " وَيْل " . والخبرُ " للمكذِّبين " . والفاءُ في " فوَيْلٌ " قال مكي : " جوابُ الجملةِ المتقدمة . وحَسُن ذلك لأن في الكلام معنى الشرطِ ؛ لأنَّ المعنى : إذا كان ما ذُكِر فَوَيْلٌ " .

يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13)

(328/730)

قوله : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ ظرفاً ل "يُقال " المقدرةِ مع قولِه : " هذه النارُ " أي : يقال لهم هذه النارُ يومَ يُدَعُّون . ويجوز أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ قولِه " يومَ تمور " أو مِنْ " يومئذٍ " قبلَه . والعامَّةُ على / فتح الدال وتشديد العين مِنْ دَعَّه يَدُعُّه أي : دفعه في صدرِه بعنفٍ وشدةٍ . قال الراغب : " وأصلُه أَنْ يُقالَ للعاثر : دَعْ دَعْ ، كما يقال له : لعَا " وهذا بعيدٌ من

معنى هذه اللفظةِ .

وقرأ علي والسلمي وأبو رجاء وزيد بن علي بسكونِ الدالِ وتخفيفِ العينِ مفتوحةٍ من الدعاء أي : يُدْعَوْن إليها فيقال لهم : هلمُّوا فادْخُلوها . و " هذه النارُ " جملةٌ منصوبةٌ بقولٍ مضمرٍ أي : تقولُ لهم الخزنة : هذه النارُ .

أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15)

قوله : ﴿ أَفَسِحْرٌ ﴾ : خبرٌ مقدمٌ . و " هذا " مبتدأٌ مؤخرٌ . ودَخَلَتِ الفاءُ . قال الزمخشري : " يعني كنتمْ تقولون للوحي : هذا سحرٌ ، فسحر هذا ، يريد : أهذا المصداقُ أيضاً سِحْرٌ ، ودخَلَت الفاءُ لهذا المعنى " .

اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16)

قوله : ﴿ سَوَآءٌ ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنه خبرٌ مبتدأ محذوفٍ أي : صبركم وتركُه سواءٌ ، قاله أبو البقاء . والثاني : أنه مبتدأٌ ، والخبرُ محذوفٌ أي : سواءٌ الصبرُ والجزَعُ ، قاله الشيخ : والأولُ أحسنُ لأنَّ جَعْلَ النكرةِ خبراً أَوْلَى مِنْ جَعْلِها مبتدأً وجَعلِ المعرفةِ خبراً . ونحا الزمخشريُّ مَنْحَى الوجهِ الثاني فقال : " سواء خبرُه محذوفٌ أي : سواءٌ عليكم الأمران : الصبرُ وعَدَمُه " .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17)

قوله : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ مستأنفاً ، أخبر تعالى بذلك بشارةً ، ويجوز أَنْ يكونَ من جملة المقول للكفار زيادةً في غَمِّهم وتَحَسُّرهم .

فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (18)

قوله : ﴿ فَاكِهِينَ ﴾ : هذه قراءةُ العامَّةِ ، نُصِبَ على الحال ، والخبرُ الظرفُ . وصاحبُ الحالِ الضميرُ المستترُ في الظرف . وقرأ خالد " فاكهون " بالرفع ، فيجوز أن يكونَ الظرفُ لَغْواً متعلقاً بالخبر ، ويجوز أن يكونَ خبراً آخر عند مَنْ يُجيز تَعْدادَ الخبرِ . وقُرِىء " فَكِهين " مقصوراً . وسيأتي أنه قَرَأ به في المطففين في المتواتر حفصٌ عن عاصم .

قوله : ﴿ بِمَا آتَاهُمْ ﴾ يجوز أن تكونَ الباء على أصلها ، وتكونَ " ما " حينئذٍ واقعةً على الفواكه التي في الجنة أي : مُتَلَذِّذين بفاكهة الجنة . ويجوز أن تكونَ بمعنى " في " أي : فيما آتاهم من الثمارِ وغيرِ ذلك . ويجوز أَنْ تكونَ " ما " مصدريةً أيضاً .

قوله : ﴿ وَوَقَاهُمْ ﴾ يجوز فيه أوجهٌ ، أظهرها : أنَّه معطوفٌ على الصلة أي : فَكهين بإيتائِهم ربُّهم وبوقايتِه لهم عذابَ الجحيم . والثاني : أنَّ الجملةَ حالٌ ، فتكونُ " قد " مقدرةً عند مَنْ يشترطُ اقترانَها بالماضي الواقعِ حالاً . والثالث : أَنْ يكونَ معطوفاً على " في جنات " ، قاله الزمخشريُّ ، يعني فيكونُ مُخْبَراً به عن المتقين أيضاً . والعامَّةُ على تخفيفِ القاف من الوِقاية . وأبو حيوة بتشديدها .

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19)

قوله : ﴿ كُلُوا ﴾ : على إضمارِ القولِ كقوله : " هذه النار " وشَتَّان ما بين القَوْلين .

(330/730)

قوله : ﴿ هَنِيئًا ﴾ قد تقدَّم القولُ فيه وفي " مريئاً " مُشْبَعاً في النساء . وقال الزمخشري هنا : "يُقال لهم : كُلوا واشربوا أَكْلاً وشُرْباً هنيئاً ، أو طعاماً وشَراباً هَنيئاً ، وهو الذي لا تَنْغيصَ فيه . ويجوز أَنْ يكونَ مثلُه في قوله :

4116 هَنِيئاً مَرِيئاً غيرَ داءٍ مُخامِرٍ . . . لِعَزَّةَ من أعراضِنا ما اسْتَحلَّتِ

أعني صفةً اسْتُعْمِلَتْ استعمالَ المصدرِ القائم مقامَ الفعلِ مرتفعاً به " ما استحلَّت " كما يرتفع بالفعلِ كأنه قيل : هَنَأَ عَزَّةَ المُسْتَحَلُّ من أعراضنا ، وكذلك معنى " هنيئاً " هنا : هَنَأَكم الأكلُ والشربُ ، أو هَنَأَكم ما كنتم تعملون ، أي : جزاءُ ما كنتم تعملون ، والباء مزيدةٌ كما في ﴿ وكفى بالله ﴾ [النساء : 45] والباءُ متعلقةٌ ب "كلوا واشربوا " إذا جَعَلْتَ الفاعلَ الأكلَ والشربَ " . قلت : وهذا مِنْ محاسنِ كلامِه .

قال الشيخ : " أمَّا تجويزُه زيادةَ الباءِ فليسَتْ بمقيسةٍ في الفاعل إلاَّ في فاعلِ كفى على خلافٍ فيها ، فتجويزُها هنا لا يَسُوغُ . وأمَّا قولُه : إنها تتعلَّقُ ب "كُلوا واشربوا " فلا يَصِحُّ

إلاَّ على الإعمال فهي تتعلَّقُ بأحدهما " . انتى وهذا قريبٌ .

مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20)

(331/730)

قوله : ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه حالٌ من فاعلِ "كُلوا " الثاني : أنه حالٌ مِنْ مفعولِ "آتاهم " . الثالث : أنَّه حالٌ من مفعولِ "وَقَاهم " . الرابع : أنه حالٌ من الضميرِ المستكنِّ في الظرف . الخامس : أنه حالٌ من الضمير/ في "فاكهين " وأحسنُها أن يكونَ حالاً من ضميرِ الظرفِ لكونِه عمدةً . و "على سُرُر " متعلقٌ بمتكئين ، وقراءةُ العامَّةِ بضم الراءِ الأولى . وأبو السَّمَّال بفتحِها . وقد تقدَّم أنها لغةٌ لكَلْب في المضعَّف يَفرُّون من توالي ضمتين في المضعَّفِ . وقرأ عكرمة "بحورِ عينٍ " بإضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه على التأويل المشهور .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (21)

قوله : ﴿ والذين آمَنُواْ ﴾ : فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه مبتدأٌ ، والخبرُ الجملةُ من قولِه : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ والذُّرِّيَّةُ هنا تَصْدُق على الآباء وعلى الأبناء أي : إنَّ المؤمنَ إذا

كان عملُه أكبرَ أُلحِقَ به مَنْ دونَه في العمل ، ابناً كان أو أباً ، وهو منقولٌ عن ابن عباس وغيرِه . والثاني : أنه منصوبٌ بفعلٍ مقدرٍ . قال أبو البقاء : " على تقدير وأكرَمْنا الذين آمنوا " . قلت : فيجوز أَنْ يريدَ أنه من باب الاشتغالِ وأنَّ قوله : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ مُفَسِّر لذلك الفعلِ من حيث المعنى ، وأَنْ يريدَ أنه مضمرٌ لدلالةِ السياقِ عليه ، فلا تكونُ المسألةُ من الاشتغالِ في شيء .

(332/730)

والثالث : أنه مجرورٌ عطفاً على " حورٍ عينٍ " . قال الزمخشري : " والذين آمنوا معطوفٌ على " حورٍ عينٍ " أي : قَرَنَّاهم بالحورِ وبالذين آمنوا أي : بالرُّفَقاءِ والجُلَساءِ منهم ، كقوله : ﴿ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر : 47] فيتمتَّعون تارةً بملاعبةِ الحُور ، وتارةً بمؤانسةِ الإخوانِ " . ثم قال الزمخشري : " ثم قال تعالى : ﴿ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أي : بسببِ إيمانٍ عظيمٍ رفيعِ المحلِّ وهو إيمانُ الآباءِ أُلحقْنا بدرَجَتِهم ذرِّيَّتَهم ، وإنْ كانوا لا يَسْتَأهِلُونها تَفَضُّلاً عليهم " .

قال الشيخ : " ولا يتخيَّلُ أحدٌ أنَّ " والذين آمنوا " معطوفٌ على " بحورٍ عينٍ " غيرُ هذا الرجلِ ، وهو تخيُّلُ أعجميٍّ مُخالفٍ لفَهْمِ العربيِّ القُحِّ ابنِ عباسٍ وغيرِه " . قلت : أمَّا ما

ذكره أبو القاسم من المعنى فلا شكَّ في حُسْنِه ونَضارَته ، وليس في كلامِ العربيِّ القُحِّ ما يَدْفَعُه ، بل لو عُرِض على ابنِ عباسٍ وغيرِه لأَعْجبهم . وأيُّ مانعٍ معنوي أو صناعي يمنعُه ؟

.

(333/730)

وقوله : ﴿ واتبعتهم ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ عطفاً على الصلةِ ، ويكونَ " والذين " مبتدأً ، ويتعلقَ " بإيمان " بالاتِّباع بمعنى : أنَّ اللَّهَ تعالى يُلْحق الأولادَ الصغارَ ، وإن لم يَبْلغوا الإيمانَ ، بأحكام الآباءِ المؤمنين . وهذا المعنى منقولٌ عن ابنِ عباس والضحاك . ويجوزُ أَنْ يكونَ معترضاً بين المبتدأ والخبر ، قاله الزمخشري . ويجوزُ أَنْ يتعلَّق " بإيمان " بأَلْحَقْنا كما تقدَّم . فإنْ قيل : قولُه : " اتَّبَعتْهم ذُرِّيَّتَهم " يفيد فائدةَ قولِه : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ . فالجوابُ أنَّ قولَه : " أَلْحَقْنا بهم " أي : في الدرجات والاتِّباعُ إنما هو في حُكْمِ الإيمان ، وإن لم يَبْلُغوه كما تقدَّم . وقرأ أبو عمرو " وأَتْبَعْناهم " بإسناد الفعل إلى المتكلمِ المعظِّمِ نفسَه . والباقون " واتَّبَعَتْهم " بإسنادِ الفعلِ إلى الذرِّيَّة وإلحاقِ تاء التأنيث . وقد تَقَدَّم الخلافُ في إفرادِ " ذُرِّيَّتهم " وجمعِه في سورة الأعرافِ محرراً بحمد الله تعالى .

قوله : ﴿ أَلَتْنَاهُمْ ﴾ قرأ ابن كثير " أَلِتْناهم " بكسر اللام ، والباقون بفتحِها . فأمَّا الأولى

فَمِنْ أَلِتَ يَأْلَتُ بكسرِ العينِ في الماضي وفتحِها في المضارع كعَلِمَ يَعْلَمُ .

وأمَّا الثانيةُ فتحتمل أَنْ تكونَ مِنْ أَلَتَ يَأْلِتُ كضَرَبَ يَضْرِبُ ، وأَنْ تكونَ مِنْ أَلات يُليت كأَمات يُميت ، فَأَلَتْناهم كأَمَتْناهم . وقرأ ابن هرمز " آلَتْناهم " بألفٍ بعد الهمزة ، على وزنِ أَفْعَلْناهم . يقال : آلَتَ يُؤْلِتُ كآمَنَ يُؤْمِنُ . وعبد الله وأُبَيٌّ والأعمش وطلحة ، وتُرْوى عن ابنِ كثير " لِتْناهم " بكسر اللام كبِعْناهم يُقال : لاتَه يَليته ، كباعه يَبيعه . /

(334/730)

وقرأ طلحة والأعمش أيضاً " لَتْناهم " بفتح اللام . قال سهل : " لا يجوز فتحُ اللامِ مِنْ غير ألفٍ بحالٍ " ولذلك أُنكر " آلَتْناهم " بالمدّ : وقال : " لا يَدُلُّ عليها لغةٌ ولا تفسيرٌ " . وليس كما زعم ؛ بل نَقَلَ أهلُ اللغةِ : آلَتَ يُؤْلِتُ . وقُرِىء " وَلَتْناهم " بالواو " وَعَدْناهم " نَقَلَها هارون . قال ابن خالويه : " فيكونُ هذا الحرفُ مِنْ لاتَ يَليت ، ووَلَتَ يَلِتَ ، وأَلِتَ يَأْلَت ، وأَلَت ، وأَلات يُليت . وكلُّها بمعنى نَقَص . ويقال : أَلَتَ بمعنى غَلَّظ . وقام رجلٌ إلى عمر يَعِظُه فقال له رجل : لا تَأْلِتْ أميرَ المؤمنين أي : لا تُغْلِظْ عليه " . قلت : ويجوز أَنْ يكونَ هذا الأثرُ على حالِه ، والمعنى : لا تَنْقِصْ أميرَ المؤمنين حَقَّه ، لأنه إذا أَغْلَظَ له القول نَقَصَه حَقَّه .

قوله : ﴿ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ "مِنْ شيءٍ" مفعولٌ ثانٍ ل "أَلَتْناهم" و "مِنْ" مزيدةٌ فيه . والأُولى في محلِّ نصبٍ على الحال مِنْ "شيء" لأنَّها في الأصلِ صفةٌ له ، فلمَّا قُدِّمَتْ نُصِبَتْ حالاً . وجَوَّزَ أبو البقاء أَنْ يتعلَّقَ ب "أَلَتْناهم" وليس بظاهرٍ . وفي الضميرِ في "أَلَتْناهم" وجهان ، أظهرهما : أنَّه عائدٌ على المؤمنين . والثاني : أنَّه عائد على أبنائهم . قيل : ويُقَوِّيه قولُه : ﴿ كُلُّ امرىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ .

يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (23)

قوله : ﴿ يَتَنَازَعُونَ ﴾ : في موضع نصبٍ على الحال مِنْ مفعول "أَمَدَدْناهم" ، ويجوز أَنْ يكونَ مستأنفاً . وتقدَّم الخلافُ في قولِه : ﴿ لاَّ لَغْوٌ فِيهَا ﴾ في البقرة . والجملةُ في موضع نصبٍ صفةً ل "كأس" وقوله : "فيها" أي : في شُرْبِها .

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (24)

(335/730)

والجملة مِنْ قولِه ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ صفةٌ ثانية لِغلمان .

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (25)

قوله : ﴿ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ : جملةٌ حاليةٌ مِنْ "بعضُهم" ومعنى يتنازَعون : أي يتعاطَوْنها

بتجاذُبٍ لأنه كمالُ اللذة قال :

4117 نازَعْتُه طَيِّبَ الراحِ الشَّمولِ وقد . . . صاحَ الدَّجاجُ وحانَتْ وَقْعَةُ السَّاري

فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (27)

قوله : ﴿ وَوَقَانَا ﴾ : العامَّةُ على التخفيفِ ، وأبو حيوةَ بالتشديد وقد تقدَّم . والسَّمُومُ في الأصل : الريحُ الحارةُ التي تَتَخَلَّلُ المَسامَّ ، والجمع سَمائِم . وسُمَّ يومُنا أي : اشتدَّ حَرُّه . وقال ثعلب : " السَّمومُ شدَّةُ الحرِّ أو شدَّةُ البردِ في النهار " . وقال أبو عبيدة : " السَّمومُ بالنهار ، وقد تكون بالليلِ ، والحَرور بالليل ، وقد تكون بالنهار ، وقد تُستعمل السَّموم في لَفْح البردِ ، وهو في لَفْحِ الحرِّ والشمسِ أكثرُ " . وقد تقدَّم شيءٌ من ذلك في سورة فاطر .

إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28)

قوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ البر ﴾ : قرأ نافع والكسائي بفتح الهمزة على التعليل ، أي : لأنه . والباقون بالكسرِ على الاستئنافِ الذي فيه معنى العلةِ فيتحدُ معنى القراءتين .

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29)

قوله : ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ : فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه مُقْسَمٌ به متوسطٌ بين اسم " ما " وخبرها ، ويكونُ الجوابُ حينئذٍ محذوفاً لدلالة هذا المذكورِ عليه ، التقدير : ونعمةِ ربّك ما أنت بكاهنٍ ولا مجنونٍ . الثاني : أنَّ الباءَ في موضع نصبٍ على الحالِ ، والعامل فيها " بكاهن " أو " مجنون " والتقدير : ما أنت كاهناً ولا مجنوناً ملتبساً بنعمةِ ربّك ، قاله أبو البقاء ، وعلى هذا فهي حالٌ لازمةٌ ؛ لأنه عليه السلام لا يُفارِقْ هذه الحال . الثالث : أنَّ الباءَ متعلقةٌ بما دَلَّ عليه الكلامُ ، وهو اعتراضٌ بين اسم " ما " وخبرِها . والتقدير : ما أنت في حالِ إذكارِك بنعمةِ ربك بكاهنٍ ولا مجنون ، قاله الحوفي . ويظهر وجهٌ رابعٌ : وهو أَنْ تكونَ الباء سببيةً ، وتتعلَّقُ حينئذٍ بمضمون الجملةِ المنفيةِ ، وهذا هو مقصودُ الآيةِ الكريمةِ . والمعنى : انتفى عنك الكهانةُ والجنونُ بسبب نعمةِ اللَّهِ عليك ، كما تقول : ما أنا بمُعْسِرٍ بحمد الله وغَنائه .

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30)

قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ : قال الثعلبي : " قال الخليل : كلُّ ما في سورة الطور / مِنْ " أم " فاستفهامٌ وليس بعطفٍ " . وقال أبو البقاء : " أم في هذه الآياتِ منقطعةٌ " . قلت : وتقدَّم لك الخلافُ في المنقطعةِ : هل تتقدَّرُ ب بل وحدَها ، أو ب بل والهمزةِ ، أو بالهمزةِ وحدَها ، والصحيحُ الثاني . وقال مجاهد في قوله : " أم تأمرهم " تقديره : بل تأمرهم . وقرأ ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ بدلَ " أم هم " .

قوله : ﴿ نَّتَرَبَّصُ ﴾ في موضعِ رفعٍ صفةً لشاعر . والعامَّةُ على " نتربَّصُ " بإسنادِ الفعل لجماعة المتكلمين " ريبَ " بالنصب . وزيدُ بن علي " يتربَّص " بالياء مِنْ تحتُ على البناء للمفعولِ " ريبُ " بالرفع . وريبُ المنونِ : حوادثُ الدهرِ وتقلُّباتُ الزمانِ لأنها لا تدوم على حالٍ كالرَّيب وهو الشَّكُّ ، فإنه لا يبقى ، بل هو متزلزلٌ قال الشاعر :

4118 تَرَبَّصْ بها رَيْبَ المنونِ لَعَلَّها . . . تُطَلِّقُ يوماً أو يموتُ حليلُها

وقال أبو ذُؤَيْب :

4119 أمِن المَنونِ وريْبِه تتوَجَّعُ . . . والدهرُ ليس بمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

والمنون في الأصل : الدهرُ . وقال الراغب : " المنون المنيَّة ، لأنها تَنْقُصُ العددَ وتَقْطَعُ المَدَدَ " ، وجَعَل مِنْ ذلك قولَ : ﴿ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [فصلت : 8] أي : غيرُ مقطوع . وقال الزمخشري : " وهو في الأصلِ فَعُول مِنْ منَّه إذا قطعه لأنَّ الموتَ قَطوعٌ ولذلك سُمِّيت شَعُوب " . و " ريبَ " مفعولٌ به أي : نَنْتَظِرُ به حوادثَ الدهرِ أو المنيَّة .

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34)

قوله : ﴿ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ : العامَّةُ على تنوين " حديث " ووصفِه بمثله . والجحدريُّ

وأبو السَّمَّال " بحديثِ مثِله " بإضافة " حديث " إلى " مثِله " على حذفِ موصوفٍ أي : بحديثِ رجلٍ مثِله مِنْ جنسه .

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35)

قوله : ﴿ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ " مِنْ " لابتداءِ الغاية على معنى : أم خُلِقوا مِنْ غير شيء حيّ كالجماد ، فهم لا يُؤْمَرون ولا يُنْهَوْن كما الجماداتُ . وقيل : هي للسببية على معنى : مِنْ غيرِ علةٍ ولا لغايةِ ثوابٍ ولا عقابٍ .

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (37)

(338/730)

قوله : ﴿ المصيطرون ﴾ : المُسَيْطِرُ : القاهرُ الغالِبُ . مِنْ سَيْطَرَ عليه إذا راقَبَه وحَفِظه أو قَهَرَه . ولم يَأْتِ على مُفَيْعِل إلاَّ خمسةُ ألفاظٍ ، أربعةٌ صفةٌ اسمُ فاعلٍ نحو : مُهَيْمِن ومُبَيْقِر ومُسَيْطِر ومُبَيطِر ، وواحدٌ اسمُ جبلٍ وهو المُجَيْمِر . قال امرؤ القيس :

4120 كأن ذُرا رأسِ المُجَيْمِرِ غُدْوَةً . . . من السيلِ والغُثَّاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ

والعامَّةُ " المُصَيْطِرون " بصادٍ خالصةٍ مِنْ غيرِ إشمامِها زاياً لأجلِ الطاءِ ، لِما تقدَّم في ﴿ صِرَاطَ ﴾ . وقرأ بالسين الخالصة التي هي الأصلُ هشام وقنبل من غير خلافٍ عنهما ،

وحفص بخلافٍ عنه . وقرأ خلاَّد بصادٍ مُشَمَّةٍ زاياً من غير خلافٍ عنه . وقرأ خلاَّد بالوجهين ، أعني كخَلَفٍ وكالعامَّةِ . وتوجيهُ هذه القراءتِ كلِّها واضحةٌ مِمَّا تقدَّم لك أولَ الفاتحة .

أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38)

قوله : ﴿ يَسْتَمِعُونَ ﴾ : صفةٌ لسُلَّم . " وفيه " على بابِها من الظرفيةِ . وقيل : هي بمعنى " على " ولا حاجةَ إليه . وقَدَّره الزمخشري متعلقاً بحالٍ محذوفة تقديره : صاعدِين فيه . ومفعول "يَسْتَمعون " محذوفٌ ، فقدَّره الزمخشري : "يَسْتمعون ما يُوحي إلى الملائكةِ مِنْ عِلْمِ الغيب " . وقَدَّرَهُ غيرُه : يَسْتمعون الخبرَ بصحة ما يَدَّعُون . والظاهر أنه لا يُقدَّر له مفعولٌ بل المعنى : يُوْقِعون الاستماع .

أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42)

قوله : ﴿ فالذين كَفَرُواْ ﴾ : هذا مِنْ وقوعِ الظاهر موقعَ المضمر تنبيهاً على اتِّصافهم بهذه الصفةِ القبيحة . والأَصلُ : أم يريدون كَيْداً فهم المَكيدون ، أو حَكَمَ على جنسٍ هم نوعٌ منه فيندرجون اندراجاً أوَّلياً لتوغُّلهم في هذه الصفةِ .

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (44)

قوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا ﴾: "إنْ" هذه شرطيةٌ على بابِها. وقيل: هي بمعنى "لو" وليس بشيءٍ.

قوله: ﴿ سَحَابٌ ﴾ خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي: هذا سحابٌ. والجملةُ نصبٌ بالقول.

فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (46)

قوله: ﴿ يُلَاقُوا يَوْمَهُمْ ﴾: "يَوْمَهم" مفعولٌ به لا ظرفٌ. وقرأ أبو حيوةَ "يَلْقَوْا" مضارعَ لَقِي. ويَضْعُفُ أَنْ يكونَ المفعولُ محذوفاً، و"يَوْمَهم" ظرفٌ، أي: يُلاقُوا أو يَلْقَوا جزاءَ أعمالِهم في يَوْمِهم.

/ قوله: ﴿ يُصْعَقُونَ ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم بضم الياء مبنياً للمفعول. وباقي السبعةِ بفتحها مبنياً للفاعل. وقرأ أبو عبد الرحمن بضم الياء وكسر العين. فأمَّا الأُولى فيُحتمل أن تكونَ مِنْ صُعِقَ فهو مَصْعُوق مبنياً للمفعولِ، وهو ثلاثي، حكاه الأخفش، فيكونُ مثلَ سُعِدوا، وأَنْ يكونَ مِنْ أَصْعَقَ رباعياً. يقال: أَصْعَق فهو مُصْعَق، قاله الفارسيُّ.

والمعنى: أنَّ غيرَهم أَصْعَقَهم. وقراءةُ السلمي تُؤْذِنُ أنَّ أَفْعَلَ بمعنى فَعَل. وقوله: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي ﴾ بدلٌ مِنْ "يومَهم".

وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (47)

قوله : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ : يجوز أَنْ يكون مِنْ إيقاعِ الظاهر موقعَ المضمرِ ، وأَنْ لا يكونَ كما تقدَّم فيما قبلُ .

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48)

(340/730)

قوله : ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ : قراءةُ العامة بالفك . وأبو السَّمَّال بإدغامِ النونِ فيما بعدَها . وناسَبَ جمعَ الضميرِ هنا جمعُ العين . ألا تراه أفردَ حيث أفردَها في قوله : ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عيني ﴾ [طه : 39] قاله الزمخشري .

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (49)

قوله : ﴿ وَإِدْبَارَ النجوم ﴾ : العامَّةُ على كسر الهمزة مصدراً بخلافِ التي في آخر قاف كما تقدَّم ؛ فإن الفتحَ هناك لائقٌ لأنه يُراد به الجمعُ لدُبُرِ السجود أي : أعقابِه . على أنه قد قرأ سالم الجعدي ويعقوب والمنهال بن عمرو بفتحِها هنا أي : أعقابَ النجوم . وإدْبارُها : إذا غَرَبَتْ . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 63.80 ﴾

(341/730)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الطور

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة ما استولت على قلب عارف إلا تيمه بكشف جلاله ، وما استولت على قلب متأفف إلا أكرمته بلطف أفضاله . . .

فهي كلمة قهاره للقلوب .

. ولكن لا لكل قلب ، مذهبة للكروب ؟ ؟ ؟ ولكن لا لكل كرب .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ .

أقسم الله بهذه الأشياء (التي في مطلع السورة) ، وجواب القَسَم قوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ . والطورُ هو الجبلُ الذي كُلِّم عليه موسى عليه السلام ؛ لأنه مَحَلُّ قَدَمِ الأحباب وقتَ سماع الخطاب . ولأنه الموضعُ الذي سَمِعَ فيه موسى ذِكْرَ محمدٍ صلى الله عليه وسلم وذِكْرَ أُمَّتِه حتى نادانا ونحن في أصلاب آبائنا فقال : أعطيتكم قبل أن تَسألوني ﴿ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴾ مكتوب في المصاحف ، وفي اللوح المحفوظ .

وقيل : كتاب الملائكة في السماء يقرؤون منه ما كان وما يكون .

ويقال : ما كتب على نفسه من الرحمة لعباده .

ويقال ما كتب من قوله : " سبقت رحمتي غضبي " .

ويقال : هو قوله : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء : 105] .

ويقال : الكتاب المسطور فيه أعمال العباد يُعْطَى لعباده بأَيْمانهم وشمائلهم يوم القيامة . ﴿ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ يرجع إلى ما ذكرنا من الكتاب .

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ .

في السماء الرابعة ويقال : هو قلوب العبادين العارفين المعمورة بمحبته ومعرفته . ويقال : هي مواضع عبادتهم ومجالس خلواتهم . وقيل : الكعبة .

﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ .

هي السماء . وقيل سماء هِمَمِهم في الملكوت .

﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ .

البحار المملوءة .

أقسم بهذه الأشياء : ﴿ إنَّ عذابَه لواقع ﴾ وعذابُه في الظاهر ما توعَّدَ به عبادَه العاصين ، وفي الباطن الحجابُ بعد الحضور ، والسترُ بعد الكشف ، والردُّ بعد القبول .

﴿ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ .

إذا رَدَّ عَبْداً أَبرمَ القضاءَ بردِّه :

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكن . . . إليه بوجه آخَر – الدهر – تُقْبِلُ

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَومَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْراً وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً ﴾ .

﴿ تَمُورُ ﴾ : أي تدور بما فيها ، وتسير الجبالُ عن أماكنها ، فتسير سيراً .

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ .

الويلُ كلمة تقولها العرب لمن وقع في الهلاك .

﴿ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ : في باطل التكذيب يخوضون .

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَذَآ أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ .

يومَ يُدْفَعون إلى النارِ دَفْعاً ، ويقال لهم : هذه هي النار التي كنتم بها تُكذِّبون . . .

ثم يسألون : أهذا من قبيل السحر على ما قلتم أم غُطِّيَ على أبصاركم ؟ !

قوله جلّ ذكره : ﴿ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُواْ أَوْ لاَ تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

والصبرُ على الجزاء في العاقبة لا قيمة له ، لأنَّ عذابَهم عقوبةٌ لهم :

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ فَاكِهِينَ بِمَآ ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ ﴾ .

المتقون في جنات ونعيم عاجلاً وآجلاً . (1) ﴿ فَاكِهِينَ ﴾ أي مُعْجَبِين بما آتاهم ربهم وما أعطاهم .

ويقالك فاكهون : أي ذوو فاكهة : كقولهم رجل تامر أي ذو تمر ، ولابنٌ أي ذو لَبن .

قوله جلّ ذكره : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

---

(1) يشير القشيري إلى النعيم العاجل الذي هو الوصلة والقربة . فمن المعلوم أن الصوفية يسلكون طريقهم فى حياة وسطى فيها قيامة وحشر ونشر وثواب وعذاب ، بما يشعرون من هجر ووصل ، وخوف ورجاء .

ونحو ذلك من الأحوال .

قوم يصير لهم ذلك هنيئاً بطَعْمِه ولَذَّته ، وقومٌ يصير هنيئاً لهم سماعُ قولهم عنه – سبحانه – هنيئاً ، وقوم يصير لهم ذلك هيناً لَيّناً وهم بمشهد منه :

فاشرب على وجهها كَغُرَّتها . . . مُدامةً في الكووس كالشَّرَرِ

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ .

يظَّلون في سرور وحبور ، ونصيب من الأُنْس موفور .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ .

يُكْمل عليهم سرورهم بأَنْ يُلْحِق بهم ذُرِّياتهم ؛ فإنَّ الانفرادَ بالنعمة عَمَّنْ القلبُ مشتغِلٌ به من الأهل والولد الذرية يوجِب تَنَغص العيش .

وكذلك كلُّ مَنْ قلبُ الوليِّ يلاحِظه من صديق وقريب ، ووليٍّ وخادم ، قال تعالى في قصة يوسف : ﴿ وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : 93] .

وفي هذا المعنى قالوا :

إنيِّ على جفواتها – فبرِّها . . . وبكلِّ مُتَّصلٍ بها متوسِّلِ

لأحُبُّها ، وأُحِبُّ منزلَها الذي . . . نزلت به وأحب أهل المنزلِ

﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ .

أي ما أنقصنا من أجورهم من شيءٍ بل وفينا ووفَرنا . وفي الابتداء نحن أَوْلَيْنا وزدنا على ما أعطينا .

﴿ كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ مُطَالَبٌ بعمله ، يوفىَّ عليه أَجره بلا تأخير ، وإنْ كان ذنباً فالكثيرُ منه مغفور ، كما أنه اليوم مستور .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ يَتَنَازَعُونَ فِيهَ كَأْساً لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ .

أي لا يجري بينهم باطلٌ ولا يؤثمهم كما يجري بين الشَّرَبِ في لدنيا ، ولا يَذْهبُ الشُّرْبُ بعقولهم فيجري بينهم ما يُخْرِجهم عن حَدِّ الأدبِ والاستقامة .

وكيف لا يكون مجلسهم بهذه الصفة ومِن المعلوم من يسقيهم ، وهم بمشهد منه وعلى رؤية منه ؟

(344/730)

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ .

والقومُ عن الدارِ وعمَّن في الدار مُخْتَطَفون لاستيلاء ما يستغرقهم ؛ فالشرابُ يؤنِسُهم ولكن لا بِمَنْ يجانسهم ؛ وإذا كان – اليومَ – للعبد وهو في السجن في طول عمره ساعةُ امتناع عن سماع خطاب الأغيار ، وشهود واحدٍ من المخلوقين – وإنْ كان ولداً عزيزاً ، أو أخاً شفيقاً – فمِنَ المحال أنْ يُظَنَّ أنه يُرَدُّ من الأعلى إلى الأدنى . . إنْ كان من اهل القبول والجنة ، ومن المحال أن يظن أنه يكون غداً موسوماً بالشقاوة .

وإذا كان العبدُ في الدنيا يقاسي في غُرْبَته من مُقاصاة اللتيا والتي – فماذا يجب أن يقال إذا

رجع إلى منزله ؟ أيبقى على ما كان عليه في سفرته ؟ أم يلقى غير ما كان يقاسي في سَفْرته ، ويتجرع غير ما كان يُسْقى من كاسات كُرْبته ؟

قوله جلّ ذكره ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ قَالُواْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ .

لولا أنهم قالوا : ﴿ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ لكانوا قد لاحظوا إشفاقهم ، ولكن الحقّ – سبحانه – اختطفهم عن شُهود إشفاقهم ؛ حيث أَشهدهم مِنَّته عليهم حتى قالوا : ﴿ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ ﴾ .

أي أنهم يعلمون أنَّكَ ليست بك كَهَانةٌ ولا جُنونٌ ، وإنما قالوا ذلك على جهة التسفيه ؛ فالسّفيهُ يبسط لسانُه فيمن يَسُبُّه بما يعلم أنه منه بريء .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ .

(345/730)

نتربص به حوادث الأيام ؛ فإنّ مِثْل هذا لا يدوم ، وسيموت كما مات مِنْ قبْله كُهّانٌ وشعراء .

ويقال : قالوا : إنَّ أباه مات شابّاً ، ورَجَوْا أَنْ يموت كما مات أبوه ، فقال تعالى :

﴿ قُل تَرَبَّصُواْ . . . ﴾ فإننا منتظرون ، وجاء في التفسير أَنّ جميعَهم ماتوا . فلا ينبغي لأحدٍ أن يُؤمّلَ موتَ أحدٍ . فَقَلْ مَن تكون هذه صَنعتُه إلاّ سَبَقَتْه المَنيَّةُ – دون أَنْ يُدْرِكَ ما يتمنّاه مِنْ الأمنيّة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُم بِهَذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ .

أتأمرهم عقولهم بهذا ؟ أَم تحملهم مجَاوزة الحدّ في ضلالهم وطغيانهم عَلَى هذا ؟

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُواْ صَادِقِينَ ﴾ .

إذا كانوا يزعمون أنك تقول هذا القول من ذاتِ نَفْسك فليأتوا بحديثٍ مثِله إنْ كانوا صادقين فيما رَمَوْك به !

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35)

كلاَ ليس الامرُ كذلك ، بل اللَّهُ هو الخالق وهم المخلوقون .

أم هم الذين خلقوا السمواتِ والأرضَ ؟

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ .

–أي خزائن أرزاقه ومقدوراته ؟ ﴿ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرونَ ﴾ المُتَسلّطون عَلَى الناس ؟

أم لهم سُلّمٌ يرتقون فيه فيستمعون ما يجري في السموات ؟ ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ثم إنه سفّهَ أحلامهم فقال :

﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ .

أم تسألهم عَلَى تبليغ الرسالة أجراً هلم مثقلون من الغُرم والإلزام في المال (بحيث يزهدهم ذلك في اتباعك ؟) .

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ذلك ؟

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ﴾ أي أن يمكروا بك مكراً ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ .

(346/730)

﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ يفعل شيئاً مما يفعل الله ؟ تنزيهاً له عن ذلك !

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً مِّنَ السَّمَآءِ سَاقِطاً يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ .

أي إِنْ رأَوْا قطعةً من السماء ساقطةً عليهم قالوا : إنه سحابٌ مركوم ركم بعضه عَلَى بعض والمقصود أنهم مهما رَأَوْ من الآيات لا يُؤمِنون . ولو فتحنا عليهم باباً من السماء حتى شاهدوا بالعين لقالوا : إنما سُكِرَتْ أبصارنا ، وليس هذا عياناً ولا مشاهدةً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

أي فأعرضْ عنهم حتى يُلاقوا يومَهم الذي فيه يموتون ، يوم لا يُغْني عنهم كيدُهم شيئاً ، ولا

يُمْنَعون من عذابنا .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَالِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

دونَ يوم القيامة لهم عذابُ القَتْلِ والسّبْيِ ، وما نَزَلَ بهم من الهوان والخزي يوم بدر وغيره .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ : أَنَّ اللَّهَ ناصرٌ لدينه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ .

أنت بمرأىً مِنَّا ، وفي نصرةٍ منَّا .

﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (1) : في هذا تخفيفٌ عليه وهو يقاسي الصبر .

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾

أي تقوم للصلاةِ المفروضةِ عليك .

﴿ وَمِنَ الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ .

قيل : المغرب والعشاء وركعتا الفجر .

وفي الآية دليل وإشارة إلى أنه أَمَرَه أَنْ يَذْكُرَه في كلِّ وقت ، وألا يخلوَ وقتٌ من ذِكْره .

والصبرُ لحُكمِ اللَّهِ شديدٌ ، ولكن إذا عَرَفَ اطلاعَ الربِّ عليه سَهُلَ عليه ذلك وهان . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 471. 479 ﴾

---

(1) التعبير بالجمع هنا قد يفيد زيادة الرعاية في حق المصطفى صلوات اللّه عليه ،

خصوصا إذا تذكرنا أنه سبحانه قال في حق موسى عليه السلام «وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي» فالتعبير في هذه الحالة بالمفرد ، والله سبحانه أعلم .

(347/730)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ (1) وَكِتابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4)

وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ (7) ما لَهُ مِنْ دافِعٍ

(8) يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً (9)

وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً (10)

الإعراب :

(الواو) واو القسم (الطور) مقسم به مجرور بالواو ، متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (الواو) عاطفة في المواضع الخمسة (في رقّ) متعلّق بنعت لـ (كتاب) " 1 " ، (اللام) لام القسم ، وهي عوض من المزحلقة (ما) نافية (له) متعلّق بخبر مقدم (دافع) مجرور لفظا

مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (دافع) - أو بـ (واقع) - (مورا) مفعول مطلق منصوب ، وكذلك (سيرا) .

---

(1) أو متعلّق بمسطور

جملة : " (أقسم) بالطور . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة وجملة : " إنّ عذاب ربّك لواقع . . . " لا محلّ لها جواب القسم وجملة : " ما له من دافع . . . " في محلّ رفع خبر ثان " وجملة : " تمور السماء . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " تسير الجبال . . . " في محلّ جر معطوفة على جملة تمور السماء

الصرف :

(3) رقّ : اسم للجلد الرقيق الذي يكتب عليه ، وزنه فعل بكسر فسكون وعينه ولامه من حرف واحد (4) المعمور : اسم مفعول من الثلاثي عمر ، وزنه مفعول (5) المرفوع : اسم مفعول من الثلاثي رفع ، وزنه مفعول (6) المسجور : اسم مفعول من الثلاثي سجر ، وزنه مفعول وسجر بمعنى ملأ (8) دافع : اسم فاعل من الثلاثي دفع وزنه فاعل (9) مورا : مصدر الثلاثي مار يمور بمعنى تحرّك ودار ، وزنه فعل بفتح فسكون

البلاغة

التنكير : في قوله تعالى " وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ " .

---

(1) أو لا محل لها اعتراضية بين الظرف ومتعلقه

وفائدة التنكير الدلالة على اختصاصه من جنس الكتب بأمر يتميز به عن سائرها ، ففي التنكير كمال التعريف ، والتنبيه على أن ذلك الكتاب لا يخفي ، نكّر أو عرّف ، كقوله تعالى " وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا " .

الفوائد :

- الجملة الواقعة جوابا للقسم . .

وهي من الجمل التي لا محل لها من الإعراب ، ومثالها هذه الآية

إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ فهي جواب للقسم المتقدم ، لا محل لها من الإعراب . وكذلك قوله تعالى : وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ فجملة لينبذن في الحطمة هي جواب لقسم مقدر .

تثنيه :

من أمثلة جواب القسم ما يخفي ، مثل قوله تعالى : أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وذلك لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف ، قاله كثيرون ، منهم الزجاج ، ويوضحه قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وقال الكسائي والفراء : التقدير : بأن لا تعبدوا إلا اللّه ، وبأن لا تسفكوا ، ثم حذف الجار ، وجوز الفراء أن يكون الأصل النهي ، ثم أخرج مخرج الخبر . ويؤيده أن بعده (قولوا) (وأقيموا) (وآتوا) .

[سورة الطور (52) : الآيات 11 إلى 16]

فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13) هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ (15)

اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ويل) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (يومئذ) ظرف منصوب " 2

" ، مضاف إلى ظرف آخر متعلّق بـ (ويل) ، والتنوين

---

(1) نكرة دلّت على ذم صحّ الابتداء بها

(2) أو مبنيّ في محلّ نصب لأنه أضيف إلى غير متمكّن وهو إذ

(351/730)

فيه عوض من جملة محذوفة أي يوم إذ يقع العذاب (للمكذّبين) متعلّق بخبر المبتدأ (ويل) .

جملة : " ويل . . . للمكذّبين " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إذا كان أمر العذاب كذلك فويل للمكذّبين .

وجملة : " هم في خوض . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " يلعبون " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (هم) " 1 " 13 - (يوم) ظرف منصوب بدل من يومئذ (إلى نار) متعلّق بـ (يدّعون) ، (دعّا) مفعول مطلق منصوب . .

وجملة : " يدّعون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه 14 - (هذه) اسم إشارة في محلّ رفع مبتدأ خبره (النار) " 2 " ، (التي) موصول في محلّ رفع نعت للنار (بها) متعلّق بـ (تكذّبون) . . .

وجملة : " هذه النار " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدر " 3 " وجملة : " كنتم بها

تكذّبون " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) وجملة : " تكذّبون " في محلّ نصب خبر كنتم 15 - (الهمزة) للاستفهام التقريعيّ (الفاء) عاطفة (سحر) خبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر (هذا) ، (أم) حرف معادل لهمزة الاستفهام " 4 " ، (لا) نافية . .

وجملة : " سحر هذا " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول وجملة : " أنتم لا تبصرون " في محلّ نصب معطوفة على جملة سحر هذا وجملة : " لا تبصرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم)

---

(1) أو لا محلّ لها استئناف بياني .

(2) أو خبره الموصول ، و(النار) بدل من الإشارة .

(3) أي تقول لهم خزنة جهنّم هذه النار . [. . . . .]

(4) صاحب الكشّاف جعلها منقطعة بمعنى (بل)

---

16 - (أو) حرف عطف (لا) ناهية جازمة (سواء) خبر لمبتدأ محذوف تقديره صبركم " 1 " ، (عليكم) متعلّق بـ (سواء) ، (إنّما) كافّة ومكفوفة ، و(الواو) في (تجزون) نائب الفاعل (ما) حرف مصدري " 2 " . . .

وجملة : " اصلوها . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول وجملة : " اصبروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اصلوها وجملة : " لا تصبروا . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اصبروا وجملة : " (صبركم . .) سواء " لا محلّ لها اعتراضية وجملة : " تجزون . . " لا محلّ لها تعليل للخيار في الصبر وعدمه وجملة : " كنتم تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) والمصدر المؤوّل (ما كنتم . . .) في محلّ نصب مفعول به بحذف مضاف أي جزاء ما كنتم . . .

وجملة : " تعملون " في محلّ نصب خبر كنتم

الصرف :

(13) دعّا : مصدر سماعي لفعل دعّ يدعّ الثلاثي باب نصر بمعنى دفعه في صدره بعنف ، وزنه فعل بفتح فسكون

البلاغة

الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى " الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ " .

وأصل الخوض المشي في الماء ، ثم تجوز فيه عن الشروع في كل شيء ، وغلب في الخوض في الباطل . فقد شبه الكذب ، والاندفاع في الباطل ، بلجة يخوضها اللاعب . يقال : خاض الفرات أي اقتحمها ، وخاض في الحديث أفاض فيه .

ويقال : إنه يخوض المنايا ، أي يلقي نفسه في المهالك .

---

(1) الزمخشري جعله مبتدأ والخبر تقديره الصبر والجزع

(2) أو اسم موصول في محلّ نصب مفعول به ، والعائد محذوف ، والجملة بعده صلة الموصول

(353/730)

الفوائد :

معاني الهمزة . . .

الأصل في الهمزة أنها حرف للاستفهام كقولنا : (أ أنت فعلت هذا ؟) ولكنها قد تخرج عن الاستفهام الحقيقي ، فترد لثمانية معان :

1 - التسوية : وربما توهم أن المراد بها الهمزة الواقعة بعد كلمة سواء ، وليس كذلك ، بل كما تقع بعدها تقع بعد :

(ما أبالي) و(ما أدري) و(ليت شعري) ونحوهن والضابط أنها الهمزة الداخلة على جملة يصح حلول المصدر محلها .

كقوله تعالى : سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ونحو (ما أبالي أقمت أم قعدت) والتأويل (سواء عليهم الاستغفار وعدمه) و(ما أبالي بقيامك أو قعودك) .

2 – الإنكار الإبطالي : وهذه تقتضي أن ما بعدها غير واقع ، وأن مدّعيه كاذب ، نحو قوله تعالى في الآية التي نحن بصددها أَفَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ أَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً ومن جهة إفادة هذه الهمزة نفي ما بعدها ، لزم ثبوته إن كان منفيا ، لأن نفي النفي إثبات ، ومنه قوله تعالى : أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ .

ومنه قول جرير في عبد الملك بن مروان .

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وقيل : هو أمدح بيت قالته العرب ، ولو كان على الاستفهام الحقيقي ، لم يكن مدحا البتة .

3 – الإنكار التوبيخي : فيقتضي أن ما بعدها واقع ، وأن فاعله ملوم ، كقوله تعالى : أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ .

4 – التقرير : ومعناه حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده ثبوته أو نفيه ويجب أن يليها الشيء الذي تقرره به ، تقول في التقرير بالفعل :

أضربت زيدا ؟ وبالفاعل : أأنت ضربت زيدا ؟ وبالمفعول : أزيدا ضربت ؟ كما يجب ذلك في المستفهم عنه . وقوله تعالى : أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا ؟ محتمل لإرادة الاستفهام الحقيقي ، بأن يكونوا لم يعلموا بأنه الفاعل ، ولإرادة التقرير .

5 - التهكم ، كقوله تعالى : أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا .

6 - الأمر : كقوله تعالى : أَأَقْرَرْتُمْ ؟ أي أقرّوا .

7 - التعجب : كقوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ .

8 - الاستبطاء : كقوله تعالى : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِ

[سورة الطور (52) : الآيات 17 إلى 28]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19) مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ (21)

وَأَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22) يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَلا تَأْثِيمٌ (23) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (24) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (25) قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ (26)

فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا وَوَقانا عَذابَ السَّمُومِ (27) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28)

الإعراب :

(في جنّات) متعلّق بخبر إنّ (فاكهين) حال من ضمير الاستقرار خبر إنّ (بما) متعلّق بـ (فاكهين) والعائد محذوف جملة : " إنّ المتقين في جنّات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " آتاهم ربّهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " وقاهم ربّهم " في محلّ رفع معطوفة على خبر إنّ " 1 " 19 - (هنيئًا) حال منصوبة من فاعل كلوا واشربوا (ما) حرف مصدريّ " 2 " . . .

وجملة : "كلوا . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر " 3 " وجملة : " اشربوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة كلوا وجملة : "كنتم تعملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) والمصدر المؤوّل (ما كنتم . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (هنيئًا) وجملة : " تعملون " في محلّ نصب خبر كنتم 20 - (متّكئين) حال منصوبة من فاعل كلوا أو اشربوا " 4 " ، (على سرر) متعلّق بـ (متّكئين) (بحور) متعلّق بـ (زوّجناهم) وجملة : " زوّجناهم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة وقاهم . .

---

(1) يجوز أن تكون حالا بتقدير قد . . . أو هي استئنافيّة لا محلّ لها

(2) أو اسم موصول في محل جرّ والعائد محذوف

(3) أي تقول لهم الملائكة كلوا . . .

(4) أو من الضمير المستتر في خبر إنّ

(356/730)

---

21 - (الواو) عاطفة (الذين) موصول في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (بإيمان) متعلّق بـ (اتّبعتهم) " 2 " ، (بهم) متعلّق بـ (ألحقنا) ، (الواو) عاطفة (ما) نافية (من عملهم) متعلّق بـ (ألتناهم) ، (شيء) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (ما) حرف مصدريّ " 3 " . . .

وجملة : " الذين آمنوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ المتّقين في جنّات وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " اتّبعتهم ذرّيّتهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا " 4 " وجملة : " ألحقنا بهم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) وجملة : " ما ألتناهم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة ألحقنا . .

وجملة : " كلّ امرئ . . . رهين " لا محلّ لها تعليلة وجملة : " كسب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) والمصدر المؤوّل (ما كسب . . .) في محلّ جرّ بالباء السببية متعلّق بـ (رهين) .

22 – (الواو) عاطفة (بفاكهة) متعلّق بـ (أمددناهم) ، (ممّا) متعلّق بنعت لـ (لحم) ، والعائد محذوف وجملة : " أمددناهم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة ألحقنا . . وجملة : " يشتهون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما)

---

(1) عطفه الزمخشري على (حور . . .) أي قرناهم بحور عين وجلساء مؤمنين

(2) أو متعلّق بـ (ألحقنا) ، والباء سببيّة

(3) أو اسم موصول في محل جر والعائد محذوف .

(4) يجوز أن تكون الجملة اعتراضيّة بين المبتدأ وخبره

(357/730)

---

23 – (فيها) متعلّق بـ (يتنازعون) " 1 " ، (لا) نافية مهملة " 2 " ، (لغو) مبتدأ مرفوع (فيها) متعلّق بخبر المبتدأ (الواو) عاطفة (لا) زائدة لازمة (تأثيم) معطوف على لغو مرفوع .

وجملة : " يتنازعون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " وجملة : " لا لغو فيها . . " في محلّ نصب نعت لـ (كأسا) 24 – (الواو) عاطفة (عليهم) متعلّق بـ (يطوف) ، (لهم) نعت لغلمان . . .

وجملة : " يطوف عليهم غلمان " لا محلّ لها معطوفة على جملة يتنازعون وجملة : "كأنّهم لؤلؤ . . . " في محلّ رفع نعت لغلمان " 4 " 25 – 26 – (الواو) عاطفة (على بعض) متعلّق بـ (أقبل) ، (قبل) اسم ظرفيّ مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (مشفقين) (في أهلنا) متعلّق بحال من الضمير في مشفقين . . .

وجملة : " أقبل بعضهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يطوف وجملة : " يتساءلون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل أقبل وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " إنّا كنّا . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : "كنّا . . . مشفقين " في محلّ رفع خبر إنّ 27 – 28 – (الفاء) عاطفة وكذلك الواو (علينا) متعلّق بـ (منّ) ، (قبل) مثل الأول " 5 " في محلّ جرّ متعلّق بـ (ندعوه) . . .

---

(1) أو متعلّق بحال من فاعل يتنازعون

(2) أو عاملة عمل ليس ، و(لغو) اسم لا

(3) أو هي في محلّ رفع خبر ثان للموصول الذين آمنوا . . . ويجوز أن تكون حالا من مفعول أمددناهم [. . . . .]

(4) أو في محلّ نصب حال من غلمان لكونه موصوفا بالجارّ

(5) في الآية (26) من هذه السورة .

وجملة : " منّ اللَّه . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول وجملة : " وقانا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة منّ وجملة : " انّا كنّا . . . " لا محل لها تعليليّة وجملة : " كنّا . . . ندعوه " في محلّ رفع خبر إنّ وجملة : " ندعوه . . . " في محلّ نصب خبر كنّا وجملة : " إنّه هو البرّ . . . " لا محلّ لها تعليلية وجملة : " هو البرّ . . . " في محلّ رفع خبر إنّ (الثاني)

الصرف :

(20) مصفوفة : مؤنّث مصفوف ، اسم مفعول من الثلاثيّ صفّ ، وزنه مفعول (21) رهين : صفة مشتقة من الثلاثيّ رهن بمعنى مرهون ، وزنه فعيل (23) تأثيم : مصدر قياسيّ للرباعيّ أثم وزنه تفعيل . .

(28) البرّ : المحسن ، صفة مشبهة من الثلاثيّ برّ باب نصر وضرب وفتح ، وزنه فعل بفتح فسكون

البلاغة

التشبيه المرسل : في قوله تعالى " كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ " .

حيث شبه الغلمان باللؤلؤ المصون في الصدف ، من بياضهم وصفائهم ، أو المخزون ، لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة ، فوجه الشبه البياض والصفاء .

الفوائد :

الجملة الواقعة في محل نصب حال . .

(359/730)

وتقع بعد معرفة ، لأن الجمل بعد المعارف أحوال ، وبعد النكرات صفات ، كذلك تقع أحيانا بعد واو الحال ، وهي دائما في محل نصب ، وذلك كقوله تعالى : وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ . ومن وقوعها بعد واو الحال قوله تعالى : لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى وقوله عليه الصلاة والسلام : (أقرب

ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) . ومن الجمل الحالية قوله تعالى : ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فجملة استمعوه حال من مفعول يأتيهم ، أو من فاعله وجملة (وَهُمْ يَلْعَبُونَ) حال من فاعل (استمعوه) ومنه قوله تعالى : أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ فجملة حصرت في محل نصب حال ، والنجاة يقدرون (قد) محذوفة أي (أو جاؤوكم قد حصرت صدورهم) .

[سورة الطور (52) : آية 29]

فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ (29)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر ، والثانية تعليليّة (ما) نافية عاملة عمل ليس (بنعمة) مجرور بالباء متعلّق بحال من الضمير في كاهن - أو مجنون - " 1 " ، (كاهن) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي . . .

جملة : " ذكّر . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن وصفك الكافرون بالكهانة والجنون فذكرهم باللَّه . . . أي استمرّ على تذكيرهم وجملة : " ما أنت . . . بكاهن " لا محلّ لها تعليليّة

الصرف :

(كاهن) ، اسم فاعل من الثلاثي (كهن) باب كرم ، وزنه فاعل بمعنى مخبر بالأمور الغيبيّة من غير وحي

[سورة الطور (52) : آية 30]

أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30)

الإعراب :

(أم) منقطعة بمعنى بل والهمزة وهي للاستفهام التوبيخيّ " 2 " ،

(1) أي لست كاهنا حال كونك متلبّسا بنعمة ربّك . . . ويجوز أن يكون متعلّقا بمضمون النفي – مقصود الآية – أي : انتفى عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة اللَّه عليك

(2) سوف يرد ذكر (أم) في السورة خمس عشرة مرّة ، وكلّها من نوع الاستفهام الدالّ على التوبيخ والتقبيح ، وهي بمعنى بل مرّة وبمعنى بل والهمزة مرّة أخرى

(360/730)

(شاعر) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (به) متعلّق بـ (نتربّص) جملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " (هو) شاعر . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " نتربّص . . . " في محلّ رفع نعت لشاعر

الصرف :

(المنون) ، اسم للموت . قال الزمخشريّ : هو في الأصل فعول من منّه إذا قطعه لأنّ الموت قطوع للأعمار .

البلاغة

الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى : نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ .

حيث أطلق الريب على الحوادث ، والريب الشك ، وقد شبّهت الحوادث بالريب أي

الشك لأنها لا تدوم ، ولا تبقى على حال .

[سورة الطور (52) : آية 31]

قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (معكم) ظرف منصوب متعلّق بالمتربصين (من المتربّصين) خبر إنّ جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " تربصوا . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " إنّي . . . من المتربّصين . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن تربّصتم فإنّي معكم .

[سورة الطور (52) : آية 32]

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (32)

الإعراب :

(أم تأمرهم) مثل أم يقولون " 1 " ، (بهذا) متعلّق بـ (تأمرهم) ، (أم) مثل الأولى جملة : " تأمرهم أحلامهم " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " هم قوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة

الصرف :

(أحلام) ، جمع حلم اسم بمعنى عقل ، وزنه فعل بكسر فسكون ، ووزن أحلام أفعال

البلاغة

المجاز : في قوله تعالى أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا .

أمر الأحلام بذلك مجاز عن التأدية إليه بعلاقة السببية ، ويمكن أن تكون جعلت الأحلام آمرة على الاستعارة المكنية ، ويكون قد شبهت الأحلام بسلطان مطاع ، تشبيها مضمرا في النفس ، وأثبت لها الأمر على التخييل .

[سورة الطور (52) : الآيات 33 إلى 34]

أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (34)

الإعراب :

(أم يقولون) مرّ إعرابها " 2 " ، والضمير في (تقوّله) يعود على القرآن الكريم (بل) للإضراب (لا) نافية جملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " تقوّله . . . " في محلّ نصب مقول القول وجملة : " لا يؤمنون " لا محلّ لها استئنافيّة

(1 ، 2) في الآية 30 من هذه السورة .

---

34 - (الفاء) رابطة الجواب شرط مقدّر (اللام) لام الأمر (بحديث) متعلّق بـ (يأتوا) ، (مثله) نعت لحديث (كانوا) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط . .

وجملة : " يأتوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن صدقوا بقولهم اختلقه فليأتوا . . .

وجملة : " كانوا صادقين " لا محلّ لها تفسير للشرط المقدّر . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله

[سورة الطور (52) : آية 35]

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ (35)

الإعراب :

(أم خلقوا) مثل أم يقولون " 1 " ، و(الواو) في (خلقوا) نائب الفاعل (من غير) متعلّق بـ (خلقوا) ، (أم) مثل الأولى جملة : " خلقوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " هم الخالقون " لا محلّ لها استئنافيّة

[سورة الطور (52) : آية 36]

أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ (36)

الإعراب :

(أم خلقوا) مثل أم يقولون " 2 " ، (بل) للإضراب الانتقاليّ (لا) نافية . . .

(1 ، 2) في الآية (30) من هذه السورة

جملة : " خلقوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " لا يوقنون " لا محلّ لها استئنافيّة

[سورة الطور (52) : آية 37]

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (37)

الإعراب :

(عندهم) ظرف منصوب متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (خزائن) . .

جملة : " عندهم خزائن . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " هم المصيطرون " لا محلّ لها استئنافيّة

الصرف :

(المصيطرون) ، جمع المصيطر ، اسم فاعل من الرباعيّ سيطر ، وزنه مفيعل ، ويشاركه في هذا الوزن أربعة ألفاظ هي المهيمن والمبيقر والمبيطر والمجيمر ، الثلاثة الأولى أسماء فاعلين ، والرابع اسم جبل ، وقد رسم في المصحف بالصاد ، وقلبت السين صادا لمجيئها قبل الطاء مثل الصراط وأصله السراط ، والمسيطر القاهر الغالب أو المتسلّط الجبّار .

[سورة الطور (52) : آية 38]

أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (38)

الإعراب :

(أم لهم سلّم) مثل أم عندهم خزائن " 1 " ، (فيه) متعلّق بـ (يستمعون) ، ومفعول الفعل محذوف أي : يستمعون كلام الملائكة فيه " 2 " ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اللام) لام الأمر (بسلطان) متعلّق بحال من الفاعل جملة : " لهم سلّم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يستمعون . . . " في محلّ رفع نعت لسلّم

---

(1) في الآية (37) من السورة

(2) أو يضمّن الفعل معنى يصعدون . . ويجوز أن يتعلّق بحال من فاعل يستمعون أي صاعدين فيه

وجملة : " يأت مستمعهم " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن ادّعى المستمع بذلك فليأت . . .

[سورة الطور (52) : آية 39]

أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39)

الإعراب :

مثل أم عندهم خزائن " 1 " جملة : " له البنات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " لكم البنون " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة

الفوائد :

- أم . . .

غالب أحوالها أن تكون حرف عطف يفيد المعادلة ، كقولنا (أزيد في الدار أم عمرو) وقول زهير :

وما أدري ولست إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

وتأتي بعدة أوجه ، منها :

أن تكون منقطعة ، وهي ثلاثة أنواع :

1 - مسبوقة بالخبر المحض ، كقوله تعالى : تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .

2 - ومسبوقة بهمزة لغير استفهام ، كقوله تعالى : أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها إذا الهمزة في ذلك للإنكار ، فهي بمنزلة النفي ، والمتصلة لا تقع بعده .

3 - ومسبوقة باستفهام بغير الهمزة ، كقوله تعالى : هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قال الفراء : يقولون هل لك قبلنا حق أم أنت

رجل ظالم، يريدون: بل أنت.

وكذلك قوله تعالى في الآية التي نحن بصددها: أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ

---

(1) في الآية (37) من هذه السورة.

تقديره: بل أله البنات ولكم البنون.

ومعنى أم المنقطعة: أنها لا يفارقها الإضراب، كما مر في الأمثلة المتقدمة.

[سورة الطور (52): آية 40]

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40)

الإعراب:

(أم تسألهم) مثل أم يقولون " 1 "، (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (من مغرم) متعلّق بـ (مثقلون) جملة: " تسألهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: " فهم . . . مثقلون " لا محلّ لها معطوفة على جملة تسألهم

الصرف:

(مثقلون)، جمع مثقل . . . اسم مفعول من رباعيّ أثقل، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين

[سورة الطور (52) : آية 41]

أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41)

الإعراب :

(أم عندهم الغيب) مثل أم عندهم خزائن " 2 " ، (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب جملة : " عندهم الغيب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " هم يكتبون " لا محل لها معطوفة على جملة عندهم الغيب وجملة : " يكتبون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم)

[سورة الطور (52) : آية 42]

أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42)

---

(1) في الآية (30) من هذه السورة .

(2) في الآية (37) من السورة .

الإعراب :

(أم يريدون) مثل أم يقولون " 1 " ، (الفاء) استئنافيّة (هم) ضمير فصل " ، (المكيدون) خبر الموصول جملة : " يريدون . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " الذين

كفروا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "كفروا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول

(الذين)

الصرف :

(المكيدون) ، جمع المكيد ، اسم مفعول من الثلاثي كاد يكيد ، على وزن مبيع : فيه إعلال بالحذف أصله مكيود ، استثقلت الضمة على الياء فسكّنت ونقلت الحركة إلى الكاف قبلها ، ثمّ حذفت الواو لأنها زائدة ثمّ كسر ما قبل الياء للمناسبة فأصبح مكيد .

[سورة الطور (52) : آية 43]

أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43)

الإعراب :

(أم لهم إله) مثل أم عندهم خزائن " 3 " ، (غير) نعت لإله (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف (عمّا) متعلّق بالفعل المقدّر . . . والعائد محذوف .

جملة : " لهم إله . . . "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " (نسبّح) سبحان . . . "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يشركون "لا محلّ لها صلة الموصول (ما)

[سورة الطور (52) : آية 44]

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (44)

---

(1) في الآية (30) من السورة

(2) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره المكيدون ، والجملة الاسميّة خبر الموصول الذين

(3) في الآية (37) من السورة [. . . . .]

(366/730)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من السماء) متعلّق بـ (ساقطا) ، (سحاب) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا جملة : " يروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يقولوا . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء وجملة : " (هذا) سحاب . . . " في محل نصب مقول القول

الصرف :

(ساقطا) ، اسم فاعل من الثلاثي سقط ، وزنه فاعل (مركوم) ، اسم مفعول من الثلاثي ركم ، وزنه مفعول

[سورة الطور (52) : الآيات 45 إلى 46]

فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45) يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (46)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (حتّى) حرف غاية وجرّ (يلاقوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى (الذي) موصول في محلّ نصب نعت ليومهم ، و(الواو) في (يصعقون) نائب الفاعل ، والعائد محذوف .

جملة : " ذرهم . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إذا بلغوا هذا الحدّ من الكفر فذرهم . . .

وجملة : " يلاقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر والمصدر المؤوّل (أن يلاقوا . . .) في محلّ جر بـ (حتّى) متعلّق بـ (ذرهم) وجملة : " يصعقون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) 46 – (يوم) بدل من يومهم منصوب (لا) نافية (عنهم) متعلّق بـ (يغني) ، (شيئًا) مفعول به منصوب " 1 " ، (الواو) عاطفة (ينصرون) مثل يصعقون (لا) زائدة لتأكيد النفي . . .

وجملة : " لا يغني عنهم كيدهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " هم ينصرون " في محلّ جرّ معطوفة على جملة لا يغني . . .

وجملة : " ينصرون " في محلّ رفع المبتدأ (هم)

[سورة الطور (52) : آية 47]

وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (47)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (للذين) متعلّق بخبر إنّ (عذابا) اسم إنّ منصوب (دون) ظرف منصوب متعلّق بنعت لـ (عذابا) " 2 " ، (الواو) عاطفة (لا) نافية . . .

جملة : " إنّ للذين ظلموا عذابا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " ظلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " لكنّ أكثرهم لا يعلمون " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " لا يعلمون " في محلّ رفع خبر لكنّ

[سورة الطور (52) : الآيات 48 إلى 49]

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبارَ النُّجُومِ (49)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لحكم) متعلّق بـ (اصبر) ، (الفاء) تعليليّة

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر أي شيئا من الإغناء

(2) أي قبل ذلك أو غير ذلك

(بأعيننا) متعلّق بخبر إنّ (الواو) عاطفة (بحمد) متعلّق بحال من فاعل سبّح أي متلبّسا بحمد ربّك (حين) ظرف منصوب متعلّق بـ (سبّح) .

جملة: "اصبر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: "إنّك بأعيننا . . . " لا محلّ لها تعليليّة وجملة: "سبّح . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اصبر.

وجملة: "تقوم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه 49 - (الواو) عاطفة (من الليل) متعلّق بفعل محذوف تقديره قم - أو سبّحه - (الفاء) عاطفة - أو زائدة - (الواو) عاطفة (إدبار) معطوف على حين منصوب " 1 " . . .

وجملة: " (قم) من الليل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سبّح.

وجملة: "سبّحه (المذكورة) " لا محلّ لها معطوفة على جملة (قم) " 2 " .

الصرف:

(إدبار) ، مصدر قياسي للفعل الرباعيّ أدبر ، وزنه إفعال . . .

(368/730)

من الماضي بكسر أوّله وزيادة ألف قبل الآخر. انتهى انتهى. اهـ ﴿الجدول حـ 27 صـ 36.15﴾

(1) أو معطوف على محلّ (من الليل) إذ محلّه النصب بكونه ظرفا . . . أو هو ظرف متعلّق بفعل محذوف تقديره سبّحه إدبار النجوم . . والجملة معطوفة على ما قبلها

(2) أو لا محل لها تفسيريّة بزيادة الفاء

(369/730)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(52) سورة الطور

مكيّة وآياتها تسع وأربعون

[سورة الطور (52) : الآيات 1 إلى 16]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ (1) وَكِتابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ (7) ما لَهُ مِنْ دافِعٍ (8) يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً (9) وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً (10) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13) هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (14)

أَفَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ (15) اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16)

اللغة :

(الطُّورِ) جبل معروف وقيل إن الطور كل جبل ينبت الشجر المثمر وما لا ينبت فليس بطور ، وقال المبرد : " يقال لكل جبل طور فإذا دخلت الألف واللام للمعرفة فهو لشيء بعينه " .

(مَسْطُورٍ) متفق الكتابة بسطور مصفوفة في حروف مرتبة وفي المختار : " السطر الصف من الشيء يقال بنى سطرا والسطر أيضا الخط والكتابة وهو في الأصل مصدر وبابه نصر وسطر أيضا بفتحتين والجمع أسطار كسبب وأسباب وجمع الجمع أساطير وجمع السطر أسطر وسطور كأفلس وفلوس " .

(رَقٍّ) الرق بالفتح والكسر جلد رقيق يكتب فيه وجمعه رقوق والرق بالكسر المملوك وعبارة الراغب " الرق كل ما يكتب فيه جلدا كان أو غيره وهو بفتح الراء على الأشهر ويجوز كسرها كما قرئ شاذا وأما الرق الذي هو ملك الأرقاء فهو بالكسر لا غير " وقال الزمخشري :

" والرق : الصحيفة وقيل الجلد الذي يكتب فيه الكتاب الذي يكتب فيه الأعمال " .

(الْمَسْجُورِ) المملوء بالماء .

)

تَمُورُ) تضطرب وتجيء وتذهب وفي المختار : " مار من باب قال تحرك وذهب ومنه قوله تعالى : يوم تمور السماء مورا قال الضحاك :

تموج موجا وقال أبو عبيدة والأخفش تكفّأ " .

(اصْلَوْها) في المصباح صلي بالنار وصليها صلى من باب تعب وجد حرها والصلاء وزان كتاب حر النار وصليت اللحم أصليه من باب رمى شويته .

(يُدَعُّونَ) الدع هو الدفع وقيل هو أن تغل الأيدي إلى الأعناق وتجمع النواحي إلى الأقدام ثم يدفعون دفعا عنيفا على وجوههم ، وفي المختار : " دعه دفعه وبابه ردّ ومنه قوله تعالى " فذلك الذي يدع اليتيم " .

الإعراب :

)

وَالطُّورِ وَكِتابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ) الواو حرف قسم وجر وهي أقسام خمسة جوابها إن عذاب ربك لواقع والواو الأولى للقسم والواوات بعدها للعطف أو كل واحدة منها للقسم وفي رق متعلقان بمسطور أو نعت آخر لكتاب (وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) عطف على قوله والطور أو كل منها قسم مستقل بنفسه وجوابها جميعا قوله : (إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ) إن واسمها واللام المزحلقة وواقع خبر إن (ما لَهُ مِنْ دافِعٍ) ما نافية وله خبر مقدم ومن حرف جر زائد ودافع مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ مؤخر ، وهذه الجملة خبر ثان لإن أو صفة لواقع (يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً) الظرف متعلق بواقع أي يقع العذاب في ذلك اليوم وتكون جملة النفي معترضة بين العامل ومعموله وقيل الظرف متعلق بدافع وجملة تمور السماء في محل جر بإضافة الظرف إليها ومورا مفعول مطلق (وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً) الجملة عطف على جملة تمور السماء مورا (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) الفاء الفصيحة لأن في الكلام معنى المجازاة والتقدير إذا كان ما ذكر فويل لمن يكذب الله ورسوله ، وويل مبتدأ ساغ الابتداء به لتضمنه معنى الدعاء ويومئذ ظرف منصوب بويل وإذ ظرف مضاف إلى ظرف مثله والتنوين عوض عن جملة وللمكذبين هو الخبر لويل (الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ) الذين نعت للمكذبين وهم مبتدأ وفي خوض متعلقان بيلعبون وجملة يلعبون خبرهم والجملة لا محل لها لأنها صلة الذين (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا) الظرف بدل من يوم تمور السماء مورا أو من يومئذ قبله وجملة يدعون في محل

جر بإضافة الظرف إليها ويدعون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وإلى نار جهنم متعلقان بيدعون ودعا مفعول مطلق (هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ) الجملة

(372/730)

منصوبة بقول محذوف أي يقال لهم ذلك وهذه مبتدأ والنار خبر والتي صفة وجملة كنتم صلة التي كان واسمها وبها متعلقان بتكذبون وجملة تكذبون خبر كنتم (أَفَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء عاطفة على محذوف تقديره كنتم تقولون للوحي هذا سحر أفسحر هذا يريد أهذا المصداق أيضا سحر وقد أفادت الفاء هذا المعنى ، وسحر خبر مقدم وهذا مبتدأ مؤخر وأم يجوز أن تكون منقطعة بمعنى بل لأن الكلام تم عند قوله أفسحر هذا ثم قال أم أنتم أي بل أنتم لا تبصرون ويجوز أن تكون متصلة أي ليس شيء منهما ثابتا فثبت أنكم قد بعثتم وأن الذي ترونه حق فهو تقريع شديد وتهكم فظيع ، وأنتم مبتدأ وجملة لا تبصرون خبر (اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ) فعل أمر وفاعل ومفعول به والفاء عاطفة واصبروا فعل أمر وفاعل وأو حرف عطف ولا ناهية وتصبروا فعل مضارع مجزوم بلا وسواء خبر لمبتدأ محذوف أي صبركم وتركه سواء وعليكم متعلقان بسواء ونحا الزمخشري إلى إعرابها مبتدأ خبره محذوف أي

سواء عليكم الأمران وتبعه أبو حيان ولا مانع من ذلك لأن ما في سواء من معنى التسوية أفادها فائدة سوّغت إعرابها مبتدأ (إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) إنما كافّة ومكفوفة وتجزون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وما اسم موصول مفعول به ثان وجملة كنتم تعملون صلة وكان واسمها وجملة تعملون خبرها وجملة إنما تجزون تعليلية للاستواء .

البلاغة :

1- الاستعارة التصريحية في قوله " الذين هم في خوض يلعبون " :

الأصل في الخوض أن يكون في الماء يقال خاض الماء : دخله ثم غلب على الخوض في الباطل وغيره ، شبّه الكذب والاندفاع في الباطل

بلجة يخوضها اللاعب ، يقال خاض الغمرات أي اقتحمها وخاض في الحديث أفاض فيه وخاض الجواد في الميدان مرح ويقال أنه يخوض المنايا أي يلقي نفسه في المهالك وهو يخوض الليل أي يتخبط فيه غير مكترث بالأهوال ، وفي اللغة أسماء غلبت عليها معان خاصة كالإحضار فإنه عام في كل شيء ثم غلب على الاستعمال في الإحضار للعذاب قال تعالى : لكنت من المحضرين ونظيره في الأسماء الغالبة دابة فإنها غلبت في ذوات الأربع والقوم غلب

في الرجال والاستعارة هنا تصريحية .

2- التنكير : ونكر كتاب في قوله " وكتاب مسطور " لأنه كتاب مخصوص من بين جنس الكتب كقوله : " ونفس وما سواها " .

3- الالتزام : وفي قوله " والطور وكتاب مسطور " فن الالتزام وقد تقدمت الإشارة إليه فقد جاءت الطاء قبل واو الردف لازمة .

[سورة الطور (52) : الآيات 17 إلى 28]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (21)

وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (23) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (24) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (25) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (26)

فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (27) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28)

اللغة :

(فاكِهِينَ) ناعمين متلذذين وقال الزجّاج والفرّاء : فاكهين معجبين بما آتاهم ربهم وفي المختار : " فكه الرجل من باب سلم فهو فكه إذا كان طيب النفس مزاجا والفكه أيضا البطر الأشر وقرئ ونعمة كانوا فيها فكهين أي أشرّين وفاكهين أي ناعمين والمفاكهة الممازحة وتفكّه تعجب وقيل تندم قال اللّه تعالى : فظلتم تفكهون أي تندمون وتفكّه بالشيء تمتع به " .

(بِحُورٍ) الحور : جمع حوراء من الحور وهو شدّة بياض العين في شدة سوادها .

(عِينٍ) العين : جمع عيناء وهو الواسعة العينين .

(أَلَتْناهُمْ) نقصناهم وفي المصباح " ألت الشيء ألتا من باب ضرب نقص ويستعمل متعديا أيضا فيقال ألته " .

(السَّمُومِ) النار لدخولها في المسام وهي في الأصل الريح الحارّة تتخلل المسام والجمع سمائم وقال ثعلب : السموم شدّة الحر وشدّة البرد في النهار وقال أبو عبيدة : السموم بالنهار وقد يكون بالليل والحرّ بالليل وقد يكون بالنهار . وقيل أصل السموم من السم الذي هو مخرج النفس فكل خرق سم أو من السم الذي يقتل .

الإعراب :

)

(375/730)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ) إن واسمها وفي جنات خبرها ونعيم عطف على جنات والكلام مستأنف مسوق لزفّ البشرى للمتقين ويجوز أن يكون تتمة المقول للكفّار زيادة في إغاظتهم وإدخال الحسرة إلى قلوبهم (فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ) فاكهين : حال وبما متعلقان بفاكهين وما موصولة واقعة على الفواكه التي في الجنة أي متلذذين بفاكهة الجنة ويجوز أن تكون الباء بمعنى في أي فيما آتاهم من الثمار وغير ذلك ويجوز أن تكون ما مصدرية أيضا وآتاهم ربهم فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر ووقاهم عطف على الصلة أي فاكهين بإيتاء ربهم وبوقايتهم له عذاب الجحيم ويجوز أن تكون الواو حالية فتكون الجملة في محل نصب على الحال وقد مقدّرة عند من يشترط اقترانها بالماضي الواقع حالا وأجاز الزمخشري أن تكون معطوفة على جنات وعذاب الجحيم مفعول به ثان (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) الجملة مقول قول محذوف وهنيئا حال أو مفعول مطلق فتكون بمعنى المصدر ، وقد تقدم الكلام مشبعا على هنيئا في سورة

النساء ، وبما متعلقة بكلوا أو اشربوا وجملة كنتم صلة وكان واسمها وجملة تعملون خبر كنتم ، وأجاز الزمخشري أن تكون الباء زائدة وما فاعل هنيئًا ولكن زيادة الباء ليست مقيسة إلا في فاعل كفى وقد أنكر عليه أبو حيان ذلك (مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ) متكئين حال من الضمير المستكن في قوله في جنات أي كائنون في جنات حال كونهم متكئين أو من فاعل كلوا أو من مفعول آتاهم أو من مفعول وقاهم وعلى سرر متعلقان بمتكئين ومصفوفة نعت لسرر والواو حرف عطف وزوّجناهم فعل وفاعل ومفعول به وبحور متعلقان بزوّجناهم وعين نعت لحور (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)

(376/730)

في الواو ثلاثة أقوال نسردها فيما يلي ثم نبيّن مواضع الرجحان : 1- استئنافية والذين مبتدأ والخبر جملة ألحقنا بهم ذريتهم وعليه أكثر المفسرين والمعربين . 2- قال أبو البقاء : منصوب بفعل محذوف على تقدير وأكرمنا الذين آمنوا . 3- قال الزمخشري : والذين آمنوا معطوف على حور عين أي قرناهم بالحور وبالذين آمنوا أي بالرفقاء والجلساء منهم كقوله

تعالى إخوانا على سرر متقابلين فيتمتعون تارة بملاعبة الحور وتارة بمؤانسة الإخوان المؤمنين . وقد ردّ أبو حيان على الزمخشري فقال : " ولا يتخيل أحد أن قوله والذين آمنوا معطوف على بحور عين غير هذا الرجل وهو تخيل أعجمي مخالف لفهم العربي " ونحن لا نتردد في مشايعة أبي حيان في ردّه .

(377/730)

وجملة آمنوا صلة الذين واتبعتهم ذريتهم عطف على آمنوا وبإيمان حال من ذريتهم أي حال كون الذرية ملتبسة بإيمان وجملة ألحقنا بهم ذريتهم خبر الذين (وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ) الواو حرف عطف وألتناهم فعل وفاعل ومفعول به ومن عملهم حال ومن حرف جر زائد وشيء مجرور لفظا منصوب محلا لأنه مفعول ثان وكل مبتدأ وامرئ مضاف إليه ، وبما الباء حرف جر وما موصولة أو مصدرية والجار والمجرور متعلقان برهين ورهين خبر كل (وَأَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ) وأمددناهم عطف على ما تقدم وبفاكهة متعلقان بأمددناهم ولحم عطف على فاكهة ومما صفة وجملة يشتهون صلة الموصول (يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَلا تَأْثِيمٌ) الجملة مستأنفة وقيل نصب على الحال من مفعول أمددناهم ويتنازعون فعل مضارع وفاعل وفيها متعلقان بيتنازعون وكأسا

مفعول به ولا نافية للجنس أهملت لتكررها ولغو مبتدأ خبره فيها ولا تأثيم عطف عليه وسوغ الابتداء به تقدّم النفي عليه ، ومعنى يتنازعون الكأس يتجاذبونها تجاذب ملاعبة إذ أهل الدنيا لهم لذة في ذلك ، وقيل معنى يتنازعون يتعاطون قال الأخطل :

نازعته طيب الراح الشمول وقد صاح الدجاج وحانت وقعة الساري

(وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ) الواو حرف عطف ويطوف فعل مضارع مرفوع وعليهم متعلقان بيطوف وغلمان فاعل يطوف ولهم صفة لغلمان وكأن واسمها ولؤلؤ خبرها ومكنون صفة لؤلؤ وجملة كأنهم صفة ثانية (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ) الواو حرف عطف وأقبل بعضهم فعل وفاعل وعلى بعض متعلقان بأقبل

(378/730)

وجملة يتساءلون حال (قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ) قالوا فعل وفاعل وإن واسمها وجملة كنّا خبرها وجملة إنّا كنّا مقول القول وقبل ظرف مبني على الضم لانقطاعه عن الإضافة لفظا لا معنى والظرف متعلق بمحذوف حال ومشفقين خبر كنّا (فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا وَوَقانا عَذابَ السَّمُومِ) الفاء حرف عطف ومنّ الله فعل وفاعل وعلينا متعلقان بمنّ ووقانا عطف على منّ وعذاب السموم مفعول به ثان (إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ) إن

واسمها وكان واسمها ومن قبل حال وجملة ندعوه خبر كنّا وجملة كنّا خبر إنّا وإن واسمها وهو ضمير فصل أو عماد والبرّ الرحيم خبران لإنه وجملة إنه تعليلة لا محل لها .

البلاغة :

التشبيه المرسل المجمل : في قوله : كأنهم لؤلؤ مكنون تشبيه مرسل مجمل ، شبّه الغلمان باللؤلؤ المكنون في الأصداف لأنه أحسن وأصفى أو لأنه مخزون ولا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة وصدف الدرّ غشاؤه الواحدة صدفة مثل قصبة وقصب .

الفوائد :

إذا تكررت لا النافية للجنس جاز فيها خمسة أوجه :

1- بناء الاسمين على أنها عاملة عمل إن في كليهما نحو : لا حول ولا قوة إلا باللّه .

2- رفعهما على أنها مهملة فما بعدها مبتدأ وخبر نحو : لا لغو فيها ولا تأثيم . وقول الحطيئة :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر

3- بناء الأول على الفتح ورفع الثاني كقول أبي الطيب :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

4- رفع الأول وبناء الثاني على الفتح نحو :

فلا لغو ولا تأثيم فيها وما فاهوا به أبدا مقيم

5- بناء الأول على الفتح ونصب الثاني بالعطف على محل اسم لا نحو :

لا نسب اليوم ولا خلة اتسع الخرق على الراقع

[سورة الطور (52) : الآيات 29 إلى 38]

(379/730)

فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ (29) أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (32) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ (33)

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (34) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (38)

اللغة :

(الكاهن) الذي يذكر أنه يخبر عن الحق عن طريق العزائم ، والكهانة صفة الكاهن .

(نَتَرَبَّصُ) التربص الانتظار بالشيء من انقلاب حال له إلى خلافها .

(الْمَنُونِ) المنيّة والموت من منّه إذا قطعه لأن الموت قطوع ، وريبها : الحوادث التي تريب عند

مجيئها قال :

تربص بها ريب المنون لعلها سيهلك عنها بعلها أو سيجنح

(أَحْلامُهُمْ) عقولهم والأحلام جمع الحلم وهو الإمهال الذي يدعو إليه العقل والحكمة وفي القاموس : " والحلم بالكسر الأناة والعقل والجمع أحلام وحلوم ومنه : أم تأمرهم أحلامهم بهذا " .

(الْمُصَيْطِرُونَ) جمع المسيطر وهو الغالب القاهر من سيطر عليه إذا راقبه وحفظه أو قهره ، وحكى أبو عبيدة سيطرت عليّ إذا اتخذتني خولا ، ولم يأت في كلام العرب اسم على مفيعل إلا خمسة ألفاظه :

مهيمن ومحيمر ومبيطر ومسيطر ومبيقر فالمحيمر اسم جبل والبواقي أسماء فاعلين ، وفي الصحاح : المسيطر والمصيطر المسلط على الشيء

ليشرف عليه ويتعهد أمواله ويكتب عمله وأصله من السطر لأن الكتاب يسطر .

الإعراب :

(فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ) الفاء الفصيحة وذكر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت والفاء تعليلية وما نافية حجازية وأنت اسمها وبنعمة ربك يجوز في هذا الجار والمجرور أن يتعلق بما في ما من معنى النفي فتكون الباء للسببية وهذا أرقى الأوجه والمعنى انتفت عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة ربك عليك كما تقول : ما أنا بمعسر بحمد بالله وغناه وقال أبو البقاء إن الباء في موضع نصب على الحال والعامل فيها بكاهن أو مجنون والتقدير ما أنت كاهنا ولا مجنونا حال كونك ملتبسا بنعمة ربك وعلى هذا فهي حال لازمة والباء للملابسة وقيل الباء للقسم ونعمة ربك مقسم به متوسط بين اسم ما وخبرها فتتعلق بفعل محذوف تقديره أقسم والجواب محذوف والتقدير ونعمة ربك ما أنت بكاهن ولا مجنون وهو أضعفها (أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ) أم منقطعة بمعنى بل وقد ذكرت هنا خمس عشرة مرة وكلها إلزامات ليس للمخاطبين بها جواب عنها ، ويقولون فعل مضارع مرفوع وشاعر خبر لمبتدأ محذوف وجملة نتربص به صفة لشاعر وبه متعلقان بنتربص وريب المنون مفعول به (قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ) قل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وتربصوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والفاء تعليل للأمر المقصود به التهديد وإن واسمها ومعكم ظرف متعلق بمحذوف حال ومن المتربصين خبر إني وجملة تربصوا مقول القول (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ) أم حرف عطف بمعنى بل وقد تقدم القول فيها وتأمرهم

فعل مضارع ومفعول به مقدّم وأحلامهم فاعل وبهذا متعلقان بتأمرهم وأم عاطفة وهم مبتدأ وقوم خبر وطاغون نعت (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ) تقوّله فعل ماض ومفعول به والفاعل مستتر تقديره هو (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ) الفاء الفصيحة لأنها جواب شرط مقدّر أي فإن قالوا تقوّله أي اختلقه فليأتوا ، واللام لام الأمر ويأتوا فعل مضارع مجزوم بلام الأمر والواو فاعل وبحديث متعلقان بيأتوا ومثله صفة لحديث وإن شرطية وكان واسمها وخبرها وجواب إن محذوف دلّ عليه ما قبله أي إن صدقوا في هذا القول فليأتوا (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ) عطف على ما تقدم ومن غير شيء متعلقان بخلقوا وأم هم الخالقون مبتدأ وخبر (أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ) عطف على ما تقدم (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ) الظرف متعلق بمحذوف خبر مقدّم وخزائن مبتدأ مؤخر وهم مبتدأ والمسيطرون خبر (أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ) لهم خبر مقدّم وسلّم مبتدأ مؤخر وجملة يستمعون نعت لسلّم وفيه متعلقان بيستمعون ، فليأت : الفاء الفصيحة لأنها جواب شرط مقدّر تقديره إن ادّعوا ذلك فليأت واللام لام الأمر ويأت فعل مضارع مجزوم بلام الأمر ، ومستمعهم فاعل

وبسلطان متعلقان بيأت ومبين صفة .

البلاغة :

1- في قوله " أم تأمرهم أحلامهم بهذا " مجاز عقلي فقد أسند الأمر إلى الأحلام وقد كان العرب يتفاخرون بعقولهم فأزرى اللّه بها حيث لم تثمر لهم معرفة الحق والباطل ، ويجوز اعتبارها استعارة مكنية إن أريد التشبيه ، وكل مجاز عقلي يصحّ أن يكون استعارة مكنية ولا عكس .

(382/730)

2- وفي قوله : " نتربص به ريب المنون " استعارة تصريحية فقد أطلق الريب على الحوادث والريب الشك وشبّهت الحوادث بالريب أي الشك لأنها لا تدوم ولا تبقى على حال .

[سورة الطور (52) : الآيات 39 إلى 49]

أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39) أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43)

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ (44) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ

الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45) يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (46) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (47) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48)

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبارَ النُّجُومِ (49)

اللغة :

(مَغْرَمٍ) المغرم أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه .

(كِسْفاً) قطعة وقيل قطعا واحدتها كسفة مثل سدرة وسدر .

(مَرْكُومٌ) موضوع بعضه فوق بعض .

الإعراب :

)

(383/730)

أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ) له خبر مقدّم والبنات مبتدأ مؤخر ولكم البنون عطف على له البنات (أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ) تسألهم فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره أنت ومفعول به أول وأجرا مفعول به ثان والفاء حرف عطف وهم مبتدأ ومن مغرم متعلقان

بمثقلون ومثقلون خبر (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ) الظرف متعلق بمحذوف خبر مقدّم والغيب مبتدأ مؤخر والفاء عاطفة وهم مبتدأ وجملة يكتبون خبر (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ) يريدون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل وكيدا مفعول به والفاء عاطفة والذين مبتدأ وهو من وضع الظاهر موضع المضمر وقد تقدمت الإشارة إليه وجملة كفروا صلة وهم مبتدأ والمكيدون خبره والجملة الاسمية خبر الذين (أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) لهم خبر مقدم وإله مبتدأ مؤخر وغير اللّه نعت لإله وسبحان اللّه منصوب على المفعولية المطلقة وعمّا متعلقان بسبحان وجملة يشركون لا محل لها لأن ما موصولة أو مصدرية (وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ) الواو عاطفة وإن شرطية ويروا فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل وكسفا مفعول به ومن السماء صفة لكسفا ويقولوا جواب الشرط وسحاب خبر لمبتدأ محذوف ومركوم صفة لسحاب (فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ) الفاء الفصيحة لأنها جواب شرط مقدّر والتقدير إذا بلغوا في الكفر والعناد إلى هذا الحدّ وتبين أنهم لا يرجعون عن الكفر فدعهم حتى يموتوا عليه ، وذرهم فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وحتى حرف غاية وجر ويلاقوا فعل مضارع مجزوم بأن مضمرة بعد حتى ويومهم مفعول به والذي نعت ليومهم وفيه متعلقان بقوله يصعقون وجملة يصعقون لا محل لها لأنها صلة الذي ، ويصعقون

بالبناء للمجهول من صعق الثلاثي أو من أصعق الرباعي والمعنى أن غيرهم أصعقهم ، وقرئ يصعقون مبنيا للفاعل ومعناه يموتون من شدّة الأهوال (يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ) يوم بدل من يومهم وجملة لا يغني في محل جر بإضافة الظرف إليها وعنهم متعلقان بيغني وكيدهم فاعل يغني وشيئا مفعول به أو مفعول مطلق والواو حرف عطف ولا نافية وهم مبتدأ وجملة ينصرون خبر (وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) الواو استئنافية وإن حرف مشبه بالفعل وللذين خبرها المقدم وجملة كفروا صلة الموصول وعذابا اسم إن المؤخر ودون ظرف متعلق بمحذوف صفة لعذابا وذلك اسم إشارة مضاف إليه ، ولكن الواو عاطفة أو حالية ولكن حرف مشبّه بالفعل للاستدراك وأكثرهم اسمها وجملة لا يعلمون خبر لكن (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ) الواو عاطفة واصبر فعل أمر مبني على السكون والفاعل مستتر تقديره أنت ولحكم ربك متعلقان باصبر والفاء تعليلية وإن واسمها وبأعيننا خبر إنك أي بمرأى منّا حيث نراك ونكلؤك ، وجمع العين لأن الضمير بلفظ الجماعة ، وسبّح عطف على واصبر وبحمد ربك متعلقان بمحذوف حال أي ملتبسا بحمد ربك وحين ظرف متعلق بسبّح

وجملة تقوم في محل جر بإضافة الظرف إليها (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبارَ النُّجُومِ) الواو عاطفة ومن الليل متعلقان بسبّحه ، وسبّحه فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وإدبار النجوم مصدر ناب عن الظرف وسيأتي حكمه في باب الفوائد .

الفوائد :

ينوب عن الظرف ما كان مجرورا بإضافة أحد الظرفين إليه ثم حذف المضاف وأنيب عنه المضاف إليه بعد حذفه ، والغالب في هذا

(385/730)

المضاف إليه النائب عن المضاف المحذوف أن يكون مصدرا مثل جئتك صلاة العصر أو قدوم الحاج فصلاة وقدوم مفعول فيهما منصوبان نصب ظرف الزمان لأنهما لما نابا عن الزمان عرضت لهما اسمية الزمان فانتصبا انتصابه والأصل وقت صلاة العصر ووقت قدوم الحاج ومنه وإدبار النجوم أي وقت غروبها ، ومن أقوالهم لا أكلمه القارظين والأصل مدة غيبة القارظين فحذف مدة وأنيب عنها غيبة ثم حذف غيبة وأنيب عنها القارظين ، وهو تثنية قارظ وهو الذي يجني القرظ بفتح القاف والراء وهو شيء يدبغ به . قال الجوهري في الصحاح : لا آتيك أو يئوب القارظ العنزي وهما قارظان كلاهما من عنزة

خرجا في طلب القرظ فلم يرجعا وطالت غيبتهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 9 صـ 326.342 ﴾

(386/730)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والثلاثون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/731)

الجزء الحادى والثلاثون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة النجم)

(4/731)

(سورة النجم)

(5/731)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة النَجم

مقصودها ذم الهوى لأنتاجه الضلال والعمى بالإخلاد إلى الدنيا التي هي دار الكدور والبلاء ، والتصرم والفناء ، ومدح العلم لإثماره الهدى في الإقبال على الأخرى لأنها دار البقاء في السعادة أو الشقاء ، والحث على اتباع النبي (صلى الله عليه وسلم) في نذارتهع التي بينتها سورة ق وصدقتها الذاريات وأوقعتها وعينتها الطور كما تتبع في بشارته لأن علمه هنو العلم لأنه لا ينطق عن الهوى لا في صريح الكناية ولا في بيانه له لأن الكل عن الله الذي له صفات الكمال فلا بد من بعث الخلق إليه وحشرهم لديه لتظهر حكمته غاية الظهور فيرفع أهل التزكي والظهور ، ويضع أهل الفجور ، ويفضح كل متحل بالزور ، متجل للشرور ، وعلى ذلك دل اسمها النجم عن تأمل القسم والجواب وما نظم به من نجوم الكتاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 312 ﴾

(6/731)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . والنجم إذا هوى)

السّورة مكِّية بالاتفاق .

آياتها اثنتان وستون فى عدّ الكوفيّين ، وواحدة فى عدّ الباقين .

وكلماتها ثلاثمائة وستون .

وحروفها أَلْف وأَربعمائة وخمسون .

والآيات المختلف فيها ثلاث : ﴿ مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ ، ﴿ عَن مَّن تَوَلَّى ﴾ ﴿ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ .

مجموع فواصل آياتها (واه) سمّيت النجم ؛ لمفتتحها .

معظم مقصود السورة : القَسَم بالوحى ، وهداية المصطفى – صلَّى الله عليه وسلَّم – وبيان معراج الكرامة ، وذكر قبيح أَقوال الكفار ، وعقيدتهم فى حَقِّ الملائكة والأَصنام ، ومدح مجتنبى الكبائر ، والشكوى من المعرضين عن الصّدَقة ، وبيان جزاءِ الأَعمال فى القيامة ، وإِقامة أَنواع الحجّة على وجود الصّانع ، والإِشارة إِلى أَحوال مَن أُهلِكوا من القرون الماضية ، والتخويف بسرعة مجىء القيامة ، والأَمر بالخضوع والانقياد لأَمر الحقِّ تعالى ، فى قوله : ﴿ فَاسْجُدُواْ للهِ وَاعْبُدُواْ ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

فيها من المنسوخ آيتان : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى ﴾ م آية السّيف ن ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴾ م ﴿ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ ﴾ ن .

المتشابهات :

قوله : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ﴾ ، وبعده : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ﴾ ليس بتكرار ؛ لأَنَّ الأَوّل متَّصل بعبادتهم اللاَّت والعُزَّى [ومناة] والثَّانى بعبادتهم الملائكة ، ثمّ ذَمَّ الظَّن ، فقال : ﴿ إِنَّ الظَنَّ لاَ يُغْنِى مِنَ الْحَقّ شَيْئًا ﴾ .

قوله : ﴿ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ فى جميع القرآن بالأَلف ، إِلاَّ فى الأَعراف .

فضل السّورة

فيه حديث ضعيف عن أُبىّ : من قرأَ (والنَّجم) أُعطِى من الأَجر عشر حسنات بعدد مَنْ صدّق .

(7/731)

بمحمد صلَّى الله عليه وسلَّم وجحد به ، وحديث علىّ : يا علىّ من قرأَها أَعطاه الله بكلّ آية قرأَها نوراً وله بكلّ حرف ثلاثُمائة حسنة ، ورفع له ثلاثمائة درجة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 443.444 ﴾

(8/731)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة النجم

419 - مسألة :

قوله تعالى : (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ) وقال تعالى بعده : (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) ؟ .

جوابه :

أن الأولى : بعد ذكر آلهتهم ، وتسميتها آلهة ، فقال تعالى : (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ) بهواكم

من غير دليل .

والثانية : في تسمية الملائكة تسمية الأنثى ، وأن الظن في أن الملائكة إناث لا يغنى من الحق شيئا ، ولا يفيد قاصد علم . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 344 . 345﴾

(9/731)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سم الله الرحمن الرحيم

سورة النجم

سميت سورة النجم بغير واو في عهد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ففي الصحيح عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم فسجد بها فما بقي أحد من القوم إلا سجد فأخذ رجل كفا من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه .

وقال : يكفني هذا .

قال عبد الله : فلقد رأيته بعد قتل كافرا .

وهذا الرجل أمية بن خلف .

وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون .

فهذه تسمية لأنها ذكر فيها النجم .

وسموها سورة والنجم بواو بحكاية لفظ القرآن الواقع في أوله وكذلك ترجمها البخاري في التفسير والترمذي في جامعه .

ووقعت في المصاحف بالوجه وهو من تسمية السورة بلفظ وقع في أولها وهو لفظ النجم أو

حكاية لفظ والنجم .

وسموها ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ [النجم : 1] كما في حديث زيد بن ثابت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ فلم يسجد ، أي في زمن آخر غير الوقت الذي ذكره ابن مسعود وابن عباس .

وهذا كله اسم واحد متوسع فيه فلا تعد هذه السورة بين السور ذوات أكثر من اسم .

وهي مكية ، قال ابن عطية : بإجماع المتأولين .

وعن ابن عباس وقتادة : استثناء قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ [النجم : 32] الآية قالا : هي آية مدنية .

وسنده ضعيف .

وقيل : ونسب إلى الحسن البصري : أن السورة كلها مدنية ، وهو شذوذ .

وعن ابن مسعود هي أول سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة .

(10/731)

وهي السورة الثالثة والعشرون في عد ترتيب السور .

نزلت بعد سورة الإخلاص وقبل سورة عبس .

وعد الجمهور العادين آيها إحدى وستين ، وعدها أهل الكوفة أثنتين وستين .

قال ابن عطية : سبب نزولها أن المشركين قالوا : إن محمدا يتقول القرآن ويختلق أقواله ، فنزلت السورة في ذلك .

أغراض هذه السورة

أول أغراضها تحقيق أن الرسول صلى الله عليه وسلم صادق فيما نبلغه عن الله تعالى وإنه منزه عما ادعوه .

وإثبات أن القرآن وحي من عند الله بواسطة جبريل .

وتقريب صفة نزول جبريل بالوحي في حالين زيادة في تقرير أنه وحي من الله واقع لا محالة .

وإبطال إلهية أصنام المشركين .

وإبطال قولهم في اللات والعزى ومناة بنات الله وأنها أوهام لا حقائق لها وتنظير قولهم فيها بقولهم في الملائكة أنهم إناث .

وذكر جزاء المعرضين والمهتدين وتحذيرهم من القول في هذه الأمور بالظن دون حجة .

وإبطال قياسهم عالم الغيب على عالم الشهادة وأن ذلك ضلال في الرأي قد جاءهم بضده الهدى من الله .

وذكر لذلك مثال من قصة الوليدين المغيرة ، أو قصة ابن أبي سرح .

وإثبات البعث والجزاء .

وتذكيرهم بما حل بالأمم ذات الشرك من قبلهم وبمن جاء قبل محمد صلى الله عليه وسلم من الرسل أهل الشرائع .

وإنذارهم بحادثة تحل بهم قريبا .

وما تخلل ذلك من معترضات ومستطردات لمناسبات ذكرهم عن أن يتركوا أنفسهم .

وأن القرآن حوى كتب الأنبياء السابقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 27 صـ 97.95﴾

(11/731)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف لسورة النجم

هذه السورة في عمومها كأنها منظومة موسيقية علوية , منغمة , يسري التنغيم في بنائها اللفظي كما يسري في إيقاع فواصلها الموزونة المقفاة . ويلحظ هذا التنغيم في السورة بصفة عامة ; ويبدو القصد فيه واضحا في بعض المواضع ; وقد زيدت لفظة أو اختيرت قافية , لتضمن سلامة التنغيم ودقة إيقاعه – إلى جانب المعنى المقصود الذي تؤديه في السياق كما هي عادة التعبير القرآني – مثل ذلك قوله: (أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى) .

. فلو قال ومناة الأخرى ينكسر الوزن . ولو قال: ومناة الثالثة فقط يتعطل إيقاع القافية ولكل كلمة قيمتها في معنى العبارة . ولكن مراعاة الوزن والقافية كذلك ملحوظة . ومثلها كلمة (إذن) في وزن الآيتين بعدها : ألكم الذكر وله الأنثى ? تلك إذا قسمة ضيزى !

وكلمة (إذن) ضرورية للوزن . وإن كانت – مع هذا – تؤدي غرضا فنيا في العبارة . . . وهكذا .

ذلك الإيقاع ذو لون موسيقي خاص . لون يلحظ فيه التموج والانسياب . وبخاصة في المقطع الأول والمقطع الأخير من السورة . وهو يتناسق بتموجه وانسيابه مع الصور والظلال الطليقة المرفرفة في المقطع الأول . ومع المعاني واللمسات العلوية في المقطع الأخير . وما بينهما مما هو قريب منهما في الجو والموضوع .

(12/731)

والصور والظلال في المقطع الأول , تشع من المجال العلوي الذي تقع فيه الأحداث النورانية والمشاهد الربانية التي يصفها هذا المقطع . ومن الحركات الطليقة للروح الأمين وهو يتراءى للرسول الكريم . . والصور والظلال والحركات والمشاهد والجو الروحي المصاحب , تستمد وتمد ذلك الإيقاع التعبيري وتمتزج به , وتتناسق معه , وتتراءى فيه , في توافق منغم

عجيب .

ثم يعم ذلك العبق جو السورة كله , ويترك آثاره في مقاطعها التالية , حتى تختم بإيقاع موح شديد الإيحاء مؤثر عميق التأثير . ترتعش له كل ذرة في الكيان البشري وترف معه وتستجيب .

وموضوع السورة الذي تعالجه هو موضوع السور المكية على الإطلاق: العقيدة بموضوعاتها الرئيسية: الوحي والوحدانية والآخرة . والسورة تتناول الموضوع من زاوية معينة تتجه إلى بيان صدق الوحي بهذه العقيدة ووثاقته , ووهن عقيدة الشرك وتهافت أساسها الوهمي الموهون !

والمقطع الأول في السورة يستهدف بيان حقيقة الوحي وطبيعته , ويصف مشهدين من مشاهده , ويثبت صحته وواقعيته في ظل هذين المشهدين ; ويؤكد تلقي الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن جبريل – عليه السلام – تلقي رؤية وتمكن ودقة , واطلاعه على آيات ربه الكبرى .

ويتحدث المقطع الثاني عن آلهتهم المدعاة: اللات والعزى ومناة . وأوهامهم عن الملائكة . وأساطيرهم حول بنوتها لله . واعتمادهم في هذا كله على الظن الذي لا يغني من الحق شيئا . بينما الرسول (صلى الله عليه وسلم) يدعوهم إلى ما دعاهم إليه عن تثبت ورؤية ويقين .

والمقطع الثالث يلقن الرسول (صلى الله عليه وسلم) الإعراض عمن يتولى عن ذكر الله ويشغل نفسه بالدنيا وحدها , ويقف عند هذا الحد لا يعلم وراءه شيئا . ويشير إلى الآخرة وما فيها من جزاء يقوم على عمل الخلق , وعلى علم الله بهم , منذ أنشأهم من الأرض , ومنذ كانوا أجنة في بطون أمهاتهم . فهو أعلم بهم من أنفسهم , وعلى أساس هذا العلم المستيقن – لا الظن والوهم – يكون حسابهم وجزاؤهم , ويصير أمرهم في نهاية المطاف .

والمقطع الرابع والأخير يستعرض أصول العقيدة – كما هي منذ أقدم الرسالات – من فردية التبعة , ودقة الحساب , وعدالة الجزاء . ومن انتهاء الخلق إلى ربهم المتصرف في أمرهم كله تصرف المشيئة المطلقة . ومع هذا لفتة إلى مصارع الغابرين المكذبين . تختم بالإيقاع الأخير:(هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة . أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون , ولا تبكون , وأنتم سامدون ? فاسجدوا لله واعبدوا) . . حيث يلتقي المطلع والختام في الإيحاء والصور والظلال والإيقاع العام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3404.3405 ﴾

وقال الشيخ الصابونى :

سورة النجم

مكية وآياتها اثنتان وستون آية

بين يدي السورة

* سورة النجم مكية ، وهي تبحث عن موضوع الرسالة في إطارها العام ، وعن موضوع الإيمان بالبعث والنشور ، شأن سائر السور المكية . " ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن موضوع " المعراج " الذي كان معجزة لرسول الإنسانية محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) ، والذي رأى فيه الرسول الكريم عجائب وغرائب في ملكوت الله الواسع ، مما يدهش العقول ويحير الألباب ، وذكرت الناس بما يجب عليهم من الإيمان والتصديق ، وعدم المجادلة والمماراة في مواضيع الغيب والوحي [والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى . .] الآيات .

* ثم تلاها الحديث عن الأوثان والأصنام التي عبدها المشركون من دون الله ، وبينت بطلان تلك الآلهة المزعومة ، وبطلان عبادة غير الله ، سواء في ذلك عبادة الأصنام ، أو

عبادة الملائكة الكرام [أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى . .] ؟ الآيات . " ثم تحدثت عن الجزاء العادل يوم الدين ، حيث تجزى كل نفس بما كسبت ، فينال المحسن جزاء إحسانه ، والمسيء جزاء إساءته ، ويتفرق الناس إلى فريقين : أبرار ، وفجار [ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى . .] الآيات .

(15/731)

---

* وقد ذكرت برهانا على الجزاء العادل ، بأن كل إنسان ليس له إلا عمله وسعيه ، وأنه لا تحمل نفس وزر أخرى ، لأن العقوبة لا تتعدى غير المجرم ، وهو شرع الله المستقيم ، وحكمه العادل الذي بينه في القرآن العظيم ، وفي الكتب السماوية السابقة [وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى . .] الآيات . " وذكرت السورة الكريمة آثار قدرة الله جل وعلا في الإحياء والإماتة ، والبعث بعد الفناء ، والإغناء والإفقار ، وخلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى [وأن إلى ربك المنتهى وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . " من نطفة إذا تمنى . .] الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بما حل بالأمم الطاغية كقوم عاد ، وثمود ، وقوم نوح ولوط ، من أنواع العذاب والدمار ، تذكيرا لكفار مكة بالعذاب الذي ينتظرهم بتكذيبهم لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وزجرا لأهل البغي والطغيان عن الاستمرار في التمرد والعصيان [وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . .] الآيات إلى نهاية السورة الكريمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 271 . 272 ﴾

(16/731)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة النجم

المراد بالنجم : جنس النجوم إذا غربت أو صعدت ، يقال هوى النجم هويّا (بالفتح) أي سقط وغرب ، وهويا : (بالضم) إذا علا وصعد ، ما ضلّ : أي ما حاد عن الطريق المستقيم ، صاحبكم : أي مصاحبكم ، والتعبير عنه صلّى اللّه عليه وسلم بعنوان المصاحبة لهم إيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة ، وإحاطتهم خبرا ببراءته مما

نسب إليه ، وباتصافه بالهدى والرشاد ، فإن طول صحبتهم له ، ومشاهدتهم لشئونه العظيمة تقتضى ذلك ، ففى هذا تأكيد لإقامة الحجة عليهم ، وما غوى : أي وما اعتقد باطلا ، والخطاب فى هذا لقريش ، وما ينطق عن الهوى : أي ما يتكلم بالباطل ، والمراد بشديد القوى جبريل عليه السّلام ، ذو مرة : أي ذو حصافة عقل وقوة عارضة ، قال قطرب : العرب تقول لكل من هو جزل الرأى حصيف العقل : هو ذو مرة .

من قولهم أمررت الحبل : أي أحكمت فتله ، فاستوى : أي فاستقام على صورته التي خلقه اللّه عليها عند حراء فى مبادى النبوة ، وهو بالأفق الأعلى : أي بالجهة العليا من السماء المقابلة للناظر ، ثم دنا : أي ثم قرب ، فتدلى : أي فنزل من قولهم تدلت الثمرة ،

(17/731)

ومنه الدوالي وهى الثمر المعلق كعناقيد العنب ، والقاب مقدار ما بين المقبض والسّية ، ولكل قوس قابان ، والعرب تقدر الأطوال بالقوس والرمح وبالذراع والباع والخطوة والشبر والإصبع ، أو أدنى : أي أقرب من ذلك ، والمراد بالفؤاد فؤاد محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، ما رأى أي ما رآه ببصره ، أفتمارونه على ما يرى : أي أفتجادلونه على ما يراه معاينة ، نزلة أخرى : أي مرة أخرى ، سدرة المنتهى : هى شجرة نبق قالوا إنها فى السماء السابعة عن

يمين العرش ، جنة المأوى : أي الجنة التي يأوى إليها المتقون يوم القيامة ، يغشى : يغطى ، ما زاغ البصر : أي ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ومسكّن منها وما مال يمينا ولا شمالا ، وما طغى : أي ما جاوز ما أمر به ، آيات ربه الكبرى : أي عجائبه الملكية والملكوتية فى ليلة المعراج.

اللات والعزى ومناة : أصنام كانت تعبدها العرب فى جاهليتها ، فاللات كانت لثقيف . وأصل ذلك أن رجلا كان يلت السويق للحاج ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه ثم صنعوا له صورة وعبدوها ، والعزى : شجرة بغطفان كانوا يعبدونها ، وبعث النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعد الإسلام خالد بن الوليد ليقطعها ، فجعل يضربها بفأسه ويقول :

يا عزّ كفرانك لا سبحانك إنى رأيت اللّه قد أهانك

ومناة : صخرة كانت لهذيل وخزاعة ، وكانت دماء النسائك تمنى عندها :

أي تراق ، والأخرى : أي المتأخرة الوضيعة القدر كما جاء فى قوله : " قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ "

أي وقال وضعاؤهم لأشرافهم ورؤسائهم ، وقد جاء لفظ (الأخرى) بهذا المعنى بين المصريين فيقول : هو الآخر وهى الأخرى ، يريدون الضعة وتأخر القدر والشرف ، ضيزى : من ضزته حقه (بالضم والكسر) أي نقصته ، والمراد أنها قسمة جائرة غير عادلة ، قال

امرؤ القيس :

ضارت بنو أسد بحكمهم إذ يجعلون الرأس كالذنب

(18/731)

بما عملوا : أي بالعقاب على عملهم ، بالحسنى : أي بالمثوبة الحسنى وهى الجنة ، كبائر الإثم : ما يكبر عقابه كالزنا وشرب الخمر ، والفواحش : واحدها فاحشة وهى ما عظم قبحها من الكبائر ، واللمم : ما صغر من الذنوب كالنظرة والقبلة ، وهو فى اللغة اسم لما قلّ قدره ومنه لمّة الشعر ، وقيل اللمم : الدنو من الشيء دون ارتكابه من قولهم ألممت بكذا : أي قاربت منه ، وعليه فالمراد به الهمّ بالذنب وحديث النفس دون حدوث فعل ، ومن ثم قال سعيد بن المسيّب : هو ما خطر على القلب ، والأجنة :

واحدها جنين ، وهو الولد ما دام فى البطن .

تولى : أي أعرض عن اتباع الحق والثبات عليه ، وأكدى : أي قطع العطاء من قولهم : حفر فأكدى . أي بلغ إلى كدية أي صخرة تمنعه من إتمام العمل ، ينبأ : أي يخبر ، وصحف موسى هى التوراة ، وصحف إبراهيم ما نزل عليه من الشرائع ، ووفّى :

أي أتم ما أمر به ، أن لا تزر وازرة وزر أخرى : أي لا تحمل نفس حمل نفس أخرى ، يرى :

أي يراه حاضرو القيامة ويطلعون عليه تشريفا للمحسن ، وتوبيخا للمسىء ، يجزاه : أي يجزى سعيه يقال جزاه اللّه بعمله ، وجزاه على عمله ، وجزاه عمله ، المنتهى :

أي المعاد يوم القيامة والجزاء حين الحشر ، تمنى : أي تدفع فى الرحم من قولهم : أمنى الرجل ومنى : أي صبّ المنىّ ، والنشأة الأخرى : هى إعادة الأرواح إلى الأجساد حين البعث ، أغنى وأقنى : أي أغنى من شاء وأفقر من شاء ، والشعرى : هى الشعرى العبور وهى ذلك النجم الوضاء الذي يقال له مرزم الجوزاء وقد عبدته طائفة من العرب ، وعاد الأولى : هم قوم هود وهم ولد عاد بن إرم بن عوف بن سام بن نوح ، وعاد الأخرى : من ولد عاد الأولى ، والمؤتفكة هى قرى قوم لوط ، سميت بذلك ، لأنّها ائتفكت بأهلها :

أي انقلبت بهم ، ومنه الإفك لأنه قلب الحق ، أهوى : أي أسقط فى الأرض ، غشاها :

أي غطّاها .

(19/731)

الآلاء : النعم واحدها ألى (بالفتح والكسر) وتتمارى : تمترى وتشك ، والخطاب للانسان ، هذا نذير من النذر : أي إن محمدا بعض من أنذر ، أزفت : قربت ، والآزفة :

الساعة ، وسميت بذلك لقرب قيامها ، أو لدنوها من الناس كما جاء فى قوله : " اقْتَرَبَتِ

السَّاعَةُ" من دون اللّه : أي من غيره ، كاشفة : أي نفس تكشف وقت وقوعها وتبينه ، لأنها من أخفى المغيبات ، والحديث : القرآن ، سامدون : أي لاهون غافلون من سمد البعير فى سيره إذا رفع رأسه ، فاسجدوا : أي اشكروا على الهداية ، واعبدوا : أي اشتغلوا بالعبادة والطاعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 27 صـ 42 . 70 ﴾ . باختصار .

(20/731)

وقال الفراء :

سورة (النجم)

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى . . . ﴾ .

أقسم - تبارك وتعالى - بالقرآن ، لأنّه كانَ يَنزِلُ نجوماً الآية وَالآيتانِ ، وكانَ بين أوّلِ نزولِه وآخرِه عشرون سنةً .

حدثنا [/ا] محمد بن الجهم قالَ: حدثنا الفراء: وَحدثنى الفُضيل بن عياض عن منصور عن المنهال بن عمرو رفعَه إلى عبد اللّه فى قوله: "فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوقِعِ النُّجُوم" قالَ: هو مُحْكَمُ

القرآن .

قالَ: حدثنا محمد أبو زكريا يعنى: الذى لم يُنسَخ .

وقوله تبارك وَتعالى: ﴿ إِذَا هَوَى ﴾ .

نزل ، وَقد ذُكر: أنه كوكب إذا غَرَبَ .

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾

وقوله جل وَعز: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . . . ﴾ .

جوابٌ لقوله: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ .

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾

وقوله عز وَجل: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . . . ﴾ .

يقولُ: ما يقولُ هذا القرآنَ برأيه إنّما هو وَحى ، وَذلِكَ: أن قريشاً قالوا: إنما يقولُ القرآنَ من تلقائه ، فنزل تكذيبُهم .

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾

وقوله عز وَجل: ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . . . ﴾ .

أراد جبريل ـ صلى الله عليه ـ ﴿ ذُو مِرَّةٍ . . . ﴾ من نعْتِ شديد القوى .

وقوله عز وَجل: ﴿ فَاسْتَوَى . . . ﴾ استوى هو وَجبريل بالأفق الأعلى لمَّا أُسرىَ به ، وَهو مَطلع الشمس الأعلى ، فأضمرَ الاسمَ فى ـ استوَى ، وَرَدَّ عليه هو ، وَأكثرُ كلام العرب

أن يقولوا: استوى هُوَ وَأبوه. وَلا يكادُون يقولون: ـ استوى وَأبوه، وَهو جائز، لأن فى الفعل مضمراً: أنشدنى بعضُهم:

ألمْ تَرَ أن النّبْعَ يُخلقُ عُودُه * وَلا يستوى والخِرْوَعُ المتَقصّفُ

(21/731)

[/ب] وَقال الله تبارك وَتعالى ـ وَهو أصدق قيلا ـ ﴿ أئذا كُنَّا تُرَاباً وَأباؤنا ﴾ فرَدَّ الآباء على المضمر فى "كُنا" إلاَّ أنَّه حسن لما حيلَ بينهما بالتُّراب. وَالكلامُ: أئذا كنَّا تُراباً نحنُ وآباؤنا.

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ دَنَا . . . ﴾.

يعنى: جبريل صلى الله عليه، دنا من محمد صلى الله عليه حتَّى كان قابَ قوسين عَرَبيَّتَينِ أو أدنى. ﴿ فَأَوْحَى . . . ﴾ يعني: جبريل عليه السلام ﴿ إِلَى عَبْدِهِ . . . ﴾: إلى محمد صلى اللهُ عليه عبد الله: ﴿ مَا أَوْحَى . . . ﴾.

وقوله تبارك وتعالى ﴿ فَتَدَلَّى . . . ﴾ كأن المعنى: ثم تدلَّى فدنَا، وَلكنه جائز إذا كان معنى الفعلين وَاحداً أو كالواحِدِ قدمتَ أيهما شئت، فقلتَ: قد دنا فقرُبَ، وقرُبَ فدنَا

وشتمنى فأساء ، وأساء فشتَمَنِى ، وقال الباطِلَ ؛ لأن الشتمَ ، والإساءة شىءٌ واحدٌ .

وكذلك قوله: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعةُ وانْشَقَّ القمر ﴾ .

والمعنى ـ والله أعلم ـ انشق القمرُ واقتربت الساعةُ ، والمعنى واحدٌ .

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ . . . ﴾ .

فؤاد محمد ـ صلى الله عليه ـ ﴿ مَا رَأَى ﴾ ، يقول: قد صَدَقَهُ فؤاده الذى رأى ، و "كذَّبَ" يُقرأ بالتشديد والتخفيف . خففها عاصم ، والأعمش ، وشيبة ، ونافع المدنيانِ [/1] وشدَّدَها الحسنُ البصرىُّ ، وأبو جعفر المدنى .

وكأن من قالَ: كَذْبَ يُريدُ: أن الفؤاد لم يكذّب الذى رأى ، ولكن جعلَه حقاً صِدْقاً وقد يجوز أن يُريد : ما كذَّب صاحبَه الذى رأى . ومن خفف قالَ: ما كذب الذى رأى ، ولكنه صدَقَهُ .

﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ . . . ﴾ .

أى: أفتجحدونَه .

حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد بن الجهم. قالَ: حدثنا الفراء قالَ: حدثنى قيس بنُ الربيع عن مغيرة عن إبراهيم قال: "أَفَتَمروْنَه" ـ أفتجحدونَه، "أَفَتُمَارُونَهُ" ـ: أفتجادِلُونَه

[حدثنا أبو العباس قال، حدثنا محمد قال: حدثنا الفراء قال حدثنى] حدثنا هشيم عن مغيرة عن إبراهيم أنه قرأها: "أَفَتَمرُونَهُ".

حدثنا محمد بن الجهم قالَ: حدثنا الفراء قال: حدثنا قيسٌ عن عبد الملك بن الأبجر عن الشعبى عن مسروق أنه قرأ: "أَفَتَمرُونَه" وعن شُرَيح أنه قرأ: "أَفَتُمَارُونَه". وهى قراءة العوامِ وأهل المدينة، وعاصم بن أبى النَّجودِ والحسنِ.

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى... ﴾.

يقولُ: مَرةً أخرى.

﴿ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾

وقولُه تبارك وتعالى: ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى... ﴾.

حدثنا محمد بن الجهم قال: [حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد قال: حدثنا] الفراءُ؛ قال: حدثنى حِبانُ عن أبى إسحاق الشيبانى قالَ:

سُئِلَ زِرُّ بنُ حُبَيْش، وأنا أسمَعُ: عندها جَنةُ المأوى، أو جَنَةُ المأوى، فقالَ: جنة من

الجنان .

حدثنا محمد بن الجهم قالَ حدثنا الفراءُ قال: وحدثنى بعض المشيخةِ [/ب] عن العَرْزَمِىّ عن ابن أبى مُلَيْكةَ عن عائشة أنها قالت: جنةٌ من الجنان .

قالَ: وقالَ الفراءُ: وقد ذُكر عن بعضهم: ﴿ جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ يُريدُ: أجَنَّة ، وهى شاذة ، وهى: الجنةُ التى فيها أرواحُ الشهداء .

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ . . . ﴾ .

بصرُ محمد صلى اللهُ عليه ما زاغ بقلبِهِ يميناً وشِمالاً ولا طغى ولا جاوزَ ما رأى .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى . . . ﴾ .

(23/731)

قرأها الناسُ بالتخفيف فى لفظِ قوله: ﴿ وَلاَتَ حِينَ مَنَاص ﴾ . وفى وَزْنِ . شاةٍ ، وكان الكسائىُّ يَقِفُ عليها بالهاء ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّهْ ﴾ .

[/ب] قالَ وقالَ الفراءُ: وأنا أقفُ على التاء .

[حدثنا محمد قال: حدثنا الفراء] قال: وحدثنى القاسمُ بن مَعْنٍ عن المنصور بن المعتمر عن مجاهد قَالَ:

كانَ رجلاً يُلتُّ لهم السَّويق، وقرأها: اللَّاتَ والعُزى فشدَّدَ التاء.

[حدثنا محمد بن الجهم قال]: حدَّثنا الفراءُ قالَ: حدثنى حبَّان عن الكَلبىّ عن أبى صالح عن ابن عباس قال:

كانَ رجلٌ من التُّجار يلُتُّ السَّويقَ لَهم عندَ اللاَّت وهُو الصَّنَمُ ويبيعُه؛ فسَمَّيْت بذلِكَ الرَّجل، وكانَ صنماً لثقيف، وكانت العزى سُمرةً لِغطفانَ يَعْبدُونها.

﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾

وقوله: ﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى... ﴾.

كَانَتْ مَناةُ صَخْرَةً لِهذَيلٍ، وخُزاعة يَعبدُونها.

[حدثنا محمد بن الجهم قال]: حدَّثنا الفراء قالَ: وحدثنى حِبَّان عن الكَلْبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: بعثَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه خالدَ بن الوليدَ إلى العُزَّى ليقْطَعَهَا قال: فَفَعَل وهوَ يقولُ:

يا عُزَّ كفرانَك لا سُبْحانَك * إنّى رأيتُ اللهَ قد أهَانك

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾

وقوله: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى... ﴾.

لأنهم قالوا: هذه الأصنام والملائكةُ بنات الله، فقالَ: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى . . . تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى . . . ﴾ جَائِرة.

والقراء جميعاً لم يَهْمِزُوا ـ ضِيزى، ومنَ العَرب من يَقُولُ: قِسْمَة ضَيْزَى، وبعضُهُم يقولُ: قِسْمة ضَأْزَى، وضُؤْزَى بالهَمْز، ولم يقرأ بها أحدٌ نَعْلَمهُ وَضِيزَى: فُعْلَى.

(24/731)

وإن رأيتَ أولها مَكْسُوراً هى مثل قولهم: بيضٌ: وعِينٌ ـ كانَ أولُها مَضْمُوماً فكرِهُوا أن يُترك على ضَمَّتِه، فيقالُ: بُوضٌ، وعُونٌ.

والواحِدةُ: بَيضاءُ، وعَيناءُ: فَكَسرُوا أولَها ليكُونَ بالياء ويتألف الجَمْعُ والاثنان والواحدَة.

كذلِكَ كرهُوا أن يَقولوا: ضُوزَى، فتصيرُ واواً، وهَى من الياء، وإنّما قضيتُ على أوّلها بالضَّم لأنّ النُّعوتَ للمؤنّث تأتى إمّا: بفَتْح وإمَّا بِضَمٍّ:

فالمفتُوح: سَكْرى، عَطْشَى، والمضمومُ: الأُنثى، والحُبُلى؛ فإذا كانَ اسماً ليس بنعتٍ كُسِرَ أوله كقوله: ﴿ وَذَكِّرْ فإِنَّ الذِّكرى ﴾، الذِّكرى اسم لذلِكَ كسرتْ، ولَيستْ بنَعْتٍ، وكذلِكَ (الشِّعْرَى) كُسرَ أولها لانها اسمٌ ليست بنعتٍ.

وحَكَى الكِسائِى عن عيسى: ضِيزَى.

﴿ أَمْ للإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾

وقوله: ﴿ أَمْ للإِنسَانِ مَا تَمَنَّى . . . ﴾ ما اشتَهى.

﴿ فَلِلَّهِ الآخِرَةُ والأُولَى ﴾

وقوله: ﴿ فَلِلَّهِ الآخِرَةُ والأُولَى . . . ﴾ ثَوابهما.

﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَى ﴾

وقوله: ﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ . . . ﴾: ثم قال ﴿ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً . . . ﴾.

فَجَمعَ، وإنّما ذَكَرَ مَلَكاً واحداً، وذِلك أن (كَمْ) تَدُلُّ على أَنَّهُ أرادَ جمعاً، والعَربُ تذْهَب بأحد وبالواحد إلى الجمع فى المعنى يقولونَ: هَلْ اختصمَ أحدٌ اليومَ. والأختصامُ لا يَكُونُ إلا للاثنين، فما زادَ.

وقد قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾، فبيْنَ لا تَقعُ إلاّ عَلى الاثنين فما زادَ.

وقولهُ: ﴿ فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجزين ﴾ مما دل على أَن أحداً يكُونُ للجمع وللواحد.

و[معنى] قوله: ﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ ﴾ .

مما تعبُدونه وتزعمونَ أنهم بناتُ الله لا تغنى شفاعتهم عنكم شيئًا .

(25/731)

﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾

وقوله: ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً . . . ﴾ .

من عذاب الله فى الآخرة .

﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾

وقوله: ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ . . . ﴾ [/1] .

صغَّرَ بهم [يقول] ذلِكَ قدْر عُقُولهم ، ومَبْلَغُ عِلْمِهم حينَ آثروا الدنيا على الآخرة ، ويقالُ: ذلك مَبلَغهمُ منَ العلم أن جعَلوا الملائكةَ ، والأصنامَ بنات الله .

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾

وقوله: ﴿ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ . . . ﴾ .

قرأها يحيى ، وأصحابُ عبدالله ، وذكروا : أنّهُ الشّرك .

وقوله: ﴿ إِلاَّ اللَّمَمَ . . . ﴾ .

يقولُ: إلاّ المتقاربَ من صغير الذنُوب ، وسمعتُ العرب تقولُ: ضَرَبَهُ ما لَمَ القتل ، (ما) صِلةٌ يُريدُ: ضربَه ضَرْباً مُتَقارِباً للقَتْل ، وسمعْتُ من آخر: أَلَمَّ يفْعَلُ ـ في مَعْنى ـ كادَ يفعلُ .

وذكر الكلَبيّ بإسناده أنّها النظرَةُ عن غير تعَمُدٍ ، فهيَ لَممٌ وهي مغفورةٌ ، فإن أعادَ النظَرَ فليس بلَمَمٍ هو ذَنبٌ

وقوله: ﴿ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ . . . ﴾ .

يُرِيدُ: أنشأ أباكمُ آدَمَ من الأرض .

وقوله: ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ . . . ﴾ .

يقول: هو أعلمُ بكم أوّلاً وآخراً ؛ فلا تُزكُّوا أنفسكمُ لا يقولنّ أحدكمُ: عملت كذا ، أو فعْلتُ كذا ، هُوَ أَعْلَمُ بمَن اتقى .

﴿ وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى ﴾

وقوله: ﴿ وَأَكْدَى . . . ﴾ .

(26/731)

أى: أعطى قليلاً، ثم أمسكَ عن النفقة.

﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾

﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى . . . ﴾ حالَه فى الآخرة، ثم قال: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ . . . ﴾ المعنى: ألم.

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى . . . ﴾: بَلَّغَ. أنْ ليست تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى، لا تحتمل الوازرةُ ذنب غيرها.

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾

وقوله: ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى . . . ﴾.

قراءة الناس. (وأنَّ)، ولو قُرِىء، إنّ بالكسر على الاستئناف كانَ صواباً.

[حدثنا محمد بن الجهم قال] حدثنا الفراءُ قالَ: حدثنى الحسنُ بن عياشٍ عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة بن قيس: أنّه قرأ ما فى النجم، وما فى الجنّ، (وأنّ) بفتح إنّ.

[حدثنا محمد بن الجهم قال] حدثنا. الفراء قال: حدثنى قيسٌ عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة بمثلِ ذلكَ.

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾

وقوله: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى . . . ﴾.

أضحَك أهلَ الجنة بدخول الجنة ، وأبكَى أهلَ النار بدخول النار .

والعَرَبُ تقولهُ فى كلامها إذا عِيب على أحدهم الجَزَع والبكاء يقول: إنّ الله أضحكَ ، وأبكى . يذهبونَ به إلى أفاعيل أهل الدنيا .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾

وقوله: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى . . . ﴾ رضَّى الفقيرَ بما أغناهُ به ﴿ وَأَقْنَى ﴾ من القُنية والنشَب .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾

وقوله: ﴿ رَبُّ الشِّعْرَى . . . ﴾ الكَوْكب الذى يَطلعُ بعد الجوزاء .

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى ﴾

وقوله: ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى . . . ﴾ .

قرأ الأعمشُ وعاصمٌ (عاداً) يخفضان النونَ ، وذكرَ القاسم بن معن: أنّ الأعمشَ قرأ (عادَ لُولى) ، فجزمَ النونَ ، ولم يهمز (الأولى) .

(27/731)

وهى قراءةُ أهل المدينة: جَزمُوا النونَ لمّا تحرّكَت اللّام ، وخفضَها مَن خفضَها لأن البناء على جزم اللام التى مَع الألف فى ـ الأولى والعربُ تقولُ: قُمْ لآن ، وقُمِ الآن ، وصُمِ الاثنين وصُمْ لثنين على ما فسرتُ لك .

وقوله: ﴿ عاداً الاولَى ﴾ بغير [/ب] هَمْز: قومُ هُودٍ خاصةً بقَيتْ مِنْهم بقيةٌ نَجوْا معَ لُوطٍ ، فسُمّى أصحابُ هودٍ عادا الأولى .

﴿ وَثَمُودَ فَمَآ أَبْقَى ﴾

وقوله: ﴿ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَى . . . ﴾ .

ورأيتها فى بعض مصاحف عبد الله (وثمودَ فما أبقى) بغير ألفٍ وهى تجرى فى النصب فى كل التنزيل إلاّ قولهُ: ﴿ وآتينا ثمودَ النّاقةَ مُبْصِرةً ﴾ فإنّ هذه ليس فيها ألفٌ فتُرِك إجراؤهَا .

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾

وقوله: ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . . . ﴾ .

يُريدُ: وأهوى المؤتفكةَ ؛ لأنّ جبريلَ ـ عليه السلامَ ـ احتمل قَريات قَوم لُوط حتى رفعها إلى السماء ، ثم أهْوَاها وأتبعَهمُ الله بالحجارةَ ، فذلك قولهُ: ﴿ فغَشّاها ما غشّى ﴾ من الحِجارة .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾

وقوله: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى . . . ﴾ .

يقولُ: فبأيِّ نِعَم ربِّكَ تكذبُ أنها ليست منه، وكذلك قولهُ: ﴿ فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ .

﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُوْلَى ﴾

وقوله: ﴿ هَذَا نَذِيرٌ . . . ﴾ . يَعْنى: مُحمداً صلى اللهُ عليه.

﴿ مِّنَ النُّذُرِ الأُوْلَى . . . ﴾ يقول القائلُ: كيفَ قالَ لمُحمدٍ: من النذرُ الأولى، وهو آخِرهُم؟، فهذا فى الكلام كما تقول: هذا واحدٌ من بَنى آدم وإن كان آخرهمُ أو أولهمُ، ويقالُ: هذا نَذيرٌ من النُّذرِ الأُولى فى اللّوح المحفوظ.

﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴾

وقوله: ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ . . . ﴾ قَرُبَت القيامة.

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾

وقوله: ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ . . . ﴾ .

(28/731)

يقولُ: ليس يعلمها كاشفٌ دونَ الله. أى لا يعلمُ عِلمَها غيرُ ربىّ، وتأنيثُ (الكاشفة) كقولِكَ: ما لِفلانٍ باقيةٌ. أى بَقَاءٌ والعافيَة والعاقبة، وليسَ له ناهيَةٌ، كل هذا فى معنى

المصدر .

﴿ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ . . . ﴾ لاهونَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 94.103 ﴾

(29/731)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة النجم

(والنجم إذا هوى) [1] قيل: إنها النجوم المنقضة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انقضاضاً على أحد . وقيل/: إن المراد جنس النجوم ، فأقسم بها إذا هوت للمغيب ، لما فيه من الدلالة على التوحيد ، كما في قصة إبراهيم عليه السلام . وقيل: إن النجم [في] لغة العرب: الثريا ، [قال]:

1156- إذا شالت الجوزاء والنجم طالع فكل مخاضات الفرات معابر 1157- وإني إذا ضن الأمير بإذنه على الإذن من [نفسي] إذا شئت قادر . وتخصيص القسم بالثريا ، لأنهم كانوا يستدلون بها على أمور ، ونوءها أغزر ، ولما أراد عمر الاستسقاء بالعباس

قال: "يا عم رسول الله كم بقي من نوء الثريا"

وهو بعد تصغير ثروى، لأن مطرها تكون منه الثروة، أو الكثرة من الندى عند نوئها. قال الزجاج في كتاب "الأنواء": وزعم بعض المؤمنين من المنجمين أن الثريا إذا هوى للغروب طلع رقيبه الإكليل من العقرب. أي: إن صاحبكم هو الذي دل عليه برج قران الملة، فهو النبي حقاً. وظنه آخرون من طالع مولده [إذ] كان الميزان، فإن الهوي للغروب ليس بنفس الغروب، وإنما هو الذهاب إليه، وحينئذ يكون الميزان طالعاً، وهذا هو الهذيان الذي لا يحل سوداء جالينوس.

(ذو مرة) [6] ذو حزم في قوة، كما قال جرير: 1158- وما زادني طول المدى نقص مرة ولا رق عودي للضروس العواجم. (فاستوى) ارتفع إلى مكانه. وقيل: استوى على صورته، وذلك أنه رأى جبريل على صورته في الأفق الأعلى. وقوله: (بالأفق الأعلى) [7] أي: استوى جبريل ومحمد عليهما السلام بالأفق الأعلى، وحسن الحذف لئلا/يتكرر "هو"، كما قال الشاعر:

(30/731)

1159- ألم تر أن النبع يصلب عوده ولا يستوي والخروع المتقصف . أي: لا يستوي هو والخروع . وقيل: إن (وهو بالأفق) جبريل ، وهذا القول أظهر . (ثم دنا فتدلى) [8] يعني جبريل على هذا القول . أي: نزل بالوحي في الأرض . وعلى [الأول] محمد عليه السلام دنا من جبريل عليه السلام . والتدلي: النزول والاسترسال . قال لبيد :

1160- فتدليت عليه قافلاً وعلى الأرض غيايات الطفل . (فكان قاب قوسين أو أدنى) [9] قدر قوسين . قال مجاهد : أي: بحيث الوتر من القوس مرتين . وفي معناه لأبي حية النميري: 1161- إذا ريدة من حيث ما [نفحت] له أتاه برياها خليل يواصله

1162- وفي الجانب الأقصى الذي ليس ضربة برمح بلى حران زرق معا بله

أي: ليس بين القانص وبين الآتن إلا قدر رمح . وقال الزجاج: إنما لم يقل: "فكان أدنى من قوسين" ، لأنه لا شك في الكلام ، لأن المعنى فكان [على] ما تقدرونه أنتم قدر قوسين أو أدنى . وقد مر نظيره . (فأوحى إلى عبده ما أوحى) [10] أي: أوحى إلى جبريل ما أوحى جبريل إلى محمد . (ما كذب الفؤاد ما رأى) [11] أي: ما كذب فؤاده ما رآه ، وهو من رؤية القلب بمعنى: علمه ويقينه ، لأن محل الوحي القلب ، كما قال عز وجل: (فإنه نزله على قلبك) .

(أفتمارونه على ما يرى) [12] أي: أتجحدونه على علمه ويقينه . وقال المبرد : أفتدفعونه عما يرى . (ما زاغ البصر) [17] ما أقصر عما أبصر . (وما طغى) [17] ما طلب لما

حجب. (أفرءيتم اللات) [19] صنم لثقيف. /(والعزى) [19] سمرة لغطفان.

(ومناة) [20] صخرة لهذيل وخزاعة. وإنما أنثوا أسماء هذه الأصنام تشبيهاً لها بالملائكة، على زعمهم أنهم بنات الله، فرد الله عليهم بقوله: (ألكم الذكر) [21].

(قسمة ضيزى) [22] جائرة، وبالهمز: ظالمة. أنشدت في الأول: 1163- ضازت بنو أسد بحكمهم إذ يعدلون الرأس بالذنب. وفي الثاني:

(31/731)

1164- إن تنأ عنا ننتقصك وإن تقم فحظك مضؤوز وأنفك راغم. ووزن "ضيزى" فعلى، لأنه ليس في النعوت فعلى، إلا أنه كسر الضاد للياء. ومثله: "حيكى" مشية فيها تفكك وتبختر. و"الكيسى" و"الضيقى" في "الكوسى" و"الضوقى"، تأنيث الأكيس والأضيق، ولهذا قالوا: "بيض"، و"عين"، وكان ينبغي: "بوض" مثل: "أحمر" و"حمر".

(أم للإنسان ما تمنى) [24] أي: من الذكور. (إلا اللمم) [32] أي: الصغائر.

وقيل: هو الإلمام بالذنب من غير معاودة. وقيل: إنها ما دون الوطء من المضاجعة والمغازلة. وأنشد لوضاح اليمن: 1165- إذا قلت يوماً نوليني تبسمت وقالت: معاذ الله من فعل ما حرم 1166- فما نولت حتى تضرعت حولها وأقرأتها ما رخص الله في

اللمم . (أفرءيت الذي تولى) [33] أي: [ا]لعاص بن وائل .

(وأعطى قليلاً) [34] من الخير بلسانه . (وأكدى) [34] منع ما أعطى وقطع . (إبراهيم الذي وفى) [37] هذا على تسمية السبب باسم مسببه ، فإن معناه: إذا قال [ف]قد فعل ، أو وقع ما يقوله ، وهذا كقول بعض المولدين: 1167- مبارك إذا رأى فقد رزق ، وأصله لامرئ القيس: 1168- إذا ما غدونا قال ولدان أهلنا تعالوا إلى أن يأتي الصيد نحطب/1169- نمش بأعراف الجياد أكفنا إذا نحن قمنا عن [شواء] مضهب .

(ثم يجزاه الجزاء الأوفى) [41] جزيته الجزاء ، أفصح من جزيته بالجزاء ، وقد جمعهما الشاعر في قوله: 1170- إن أجز علقمة بن سيف سعيه لا أجزه ببلاء يوم واحد

1171- لأحبني حب الصبي [ورمني رم] الهدي إلى [الغني الواجد]

(أضحك وأبكى) [43] ساء وسر . وقيل: خلق الإنسان ضاحكاً باكياً . وقيل: أضحك الأرض بالنبات ، وأبكى السماء بالمطر . واقتبسه بعض من جمع أنواعاً من الاقتباسات ، في بيتين فقال: 1172- أما والذي أبكى وأضحك عبده وأطعم من جوع وآمن من خوف 1173- لما كان لي قلب سوى ما سلبته وما جعل الرحمن قلبين في جوف .

(من نطفة إذا تمنى) [46] تسال وتصب . وقيل: تخلق وتقدر . كما قال الهذلي:

1174 - لا تأمنن وإن أصبحت في حرم إن المنايا بجنبي كل إنسان 1175 - ولا تقولن لشيء سوف أفعله حتى تبين ما يمني لك الماني . (أغنى وأقنى) [48] أعطى الغنية والقنية ، وهي أصل المال . (وأنه هو رب الشعرى) [49]

خصت بالذكر [لتفردها] بالعظم والنور ، فليس في الكواكب الثابتة ما يدانيها ، ولذلك ابتدع أبو كبشة عبادتها ، وشبه رسول الله به ، ونسبت وأضافت العرب شدة الحر إليها . وكذلك لأوباش المنجمين وسوسة فيها ، حتى قال بعض المذكورين منهم: إذا بلغ أوج الشمس إلى درجتها ، استولت هي بقوتها وتأثيرها على الدنيا ، فيرتفع الجزر والفساد ، وينعدم التعب والكد ، ويتغير طباع التحسين .

وهذا القائل/ينظر في التنجيم من وراء حجاب ، ويؤذي أصحاب تلك الصناعة ، فإن أوج الشمس عندهم ثابت ألبتة . وقد نظم ذلك بعض كتاب هذه الدولة في الأمير الماضي - رحمه الله - فقال: 1176 - تجاوزت أوج الشمس عزاً ورفعة وذللت قسراً كل من يتملك 1177 - فما حركات متعبات تديمها تأي [فأوج] الشمس لا يتحرك .

وكذلك ما يدرى كيف اختار هذا القائل الشعرى على قلب الأسد الملكي ، الذي هو على ممر الأوج ، أن لو كان يتحرك ، وما دام هذا العالم موسوماً بالموت والحياة ، والسباع

بالأنياب والبراثن ، والأعمال بالمحاولة والمزاولة ، كان ما قاله هذا القائل محالاً .

وفي الاختلاف بين الناس ائتلاف مصالحهم ، فإنهم إذا تساووا في السعة والدعة هلكوا .

(والمؤتفكة) [53] أي: المنقلبة ، مدائن قوم لوط . (أهوى) [53] رفعها جبريل إلى السماء ثم أهوى بها . (أزفت الأزفة) [57] اقتربت القيامة . (ليس لها من دون الله كاشفة) [58]

أي: من يكشف عن [علمها] ويجليها . وقيل: من يكشفها ويدفع شدائدها وأهوالها .

والهاء: من أجل أن "كاشفة" مصدر مثل: عاقبة [وعافية] . (سامدون) [61]

[حائرون] . وأنشد: 1178- رمى الحدثان نسوة آل حرب بمقدار سمدن له سمودا

(33/731)

1179- فرد شعورهن السود بيضاً ورد وجوههن البيض سودا .

[تمت سورة النجم] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1389.1409 ﴾

(34/731)

وقال الأخفش :

سورة (النجم)

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾

قال ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ جماعة "القُوَّةِ" وبعض العرب يقول "حُبْوَة" و"حِبَى" فينبغي أن يقول "القِوى" في ذا القياس . ويقول بعض العرب "رِشْوَة" و"رُشا" ويقول بعضهم "رُشْوة" و"رِشا" ** وبعض العرب يقول "صُوَرٌ" و"صِوَرٌ" والجيدة "صُوَر" ﴿ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ و ﴿ صِوَرَكُمْ ﴾ تقرأ .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ﴾

وقال بضعهم ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ﴾ فاذا سكت قلت "اللاَّة" وكذلك "مَنَاة" تقول "مَنَاهْ" وقال بعضهم ﴿ اللاَّتَ ﴾ جعله [172 ب] من "اللاتّ" : الذي يَلُتّ . ولغة للعرب يسكتون على ما فيه الهاء بالتاء يقولون "رأيتُ طَلْحَتْ" . وكلُّ شيء في القرآن مكتوب بالتاء فانما تقف عليه بالتاء نحو ﴿ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ ﴾ و ﴿ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴾ .

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾

وقال ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ فقوله ﴿ أَنْ لاَ تَزِرُ ﴾ بدل من قوله ﴿ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴾ [36] أي: بِأَنْ لا تَزِرُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 526. 527 ﴾

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة النجم

مكية كلها

1 - وَالنَّجْمِ إِذا هَوى . يقال : «كان القرآن ينزل نجوما ، فأقسم اللّه بالنجم منه إذا نزل» .

وقال مجاهد : «أقسم بالثّريّا إذا غابت» والعرب تسمى الثّريا - وهي ستة أنجم ظاهرة - نجما .

[و] قال أبو عبيدة : «أقسم بالنجم إذا سقط في الغور» . وكأنه لم يخصّص الثّريّا دون غيرها .

5 - عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى : جبريل عليه السلام . وأصله من «قوي الحبل» ، وهي طاقاته . الواحدة : قوة .

6 - و7 - ذُو مِرَّةٍ ، أي ذو قوة . وأصل «المرّة» : الفتل .

ومنه

الحديث «1» : «لا تحلّ الصدقة لغنى ، ولا لذي مرة سوى» .

وقوله : فَاسْتَوى [وَهُوَ] ، أي استوى هو وجبريل - صلوات اللّه عليهما بِالْأُفُقِ الْأَعْلى .

---

(1) وهو قول مجاهد .

(36/731)

---

8 - و9 - ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى ، فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى «1» أي قدر قوسين عربيتين .

وقال قوم : «القوس : الذراع ، أي كان ما بينهما قدر ذراعين» .

والتفسير الأول اعجب إليّ ،

لقول النبي صلّى اللّه عليه وعلى آله وسلم : «لقاب قوس أحدكم من الجنة ، او موضع قدّه - خير له من الدنيا وما فيها» .

و«القدّ» : السوط .

10 - فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى

عن اللّه عز وجل .

11 - ما رَأى يقول بعض المفسرين . «إنه أراد : رؤية بصر القلب» .

12 - أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى : أفتجادلونه . من «المراء» .

ومن قرأ : أفتمرونه ، أراد : أفتجحدونه .

16 - إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى : من امر اللّه تعالى .

17 - ما زاغَ الْبَصَرُ أي ما عدل ، وَما طَغى : ما زاد ، ولا جاوز .

19 - 20 -

21 - أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى «2» ، وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى ؟ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى ؟ !

كانوا يجعلونها بنات اللّه ، فقال : ألكم الذكور من الولد ، وله الإناث ؟ !

---

(1) أخرج البخاري قال : حدثنا عبد الواحد ، حدثنا الشيباني قال : سمعت زر عن عبد اللّه : فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى قال : حدثنا ابن مسعود أنه رأى جبريل له سبعمائة جناح .

(2) أخرج البخاري قال : حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا أبو الأشهب حدثنا أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي اللّه عنهما في قوله : اللات والعزى ، كان اللات رجلا يلت سويق الحاج .

(37/731)

---

22 - تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى أي جائرة «1» . يقال : ضزت في الحكم ، أي جرت .

و «وضيزي» : فعلى ، فكسرت الضاد للياء . وليس في النعوت «فعلى» .

23 – ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ أي حجة .

32 – اللَّمَمَ : صغار الذنوب «2» . وهو من «ألّم بالشيء» : إذا لم يتعمق فيه ، ولم يلزمه .

ويقال : «اللّمم : ان يلمّ [الرجل] بالذنب ، ولا يعود» .

34 – وَأَعْطى قَلِيلًا وَأَكْدى أي قطع . وهو من «كدية الرَّكيّة» .

وهي : الصلاة فيها ، وإذا بلغها الحافر يئس من حفرها ، فقطع الحفر . فقيل لكل من طلب شيئا فلم يبلغ آخره ، او أعطى ولم يتمّم – : أكدي .

35 – أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى أي يعرف ما غاب عنه : من امر الآخرة وغيرها ؟ !

37 – وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى أي بلّغ .

39 – وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى أي ما عمل لآخرته .

40 – و 41 – وَأَنَّ سَعْيَهُ : عمله سَوْفَ يُرى أي يعلم ، ثُمَّ يُجْزاهُ : يجزى به .

46 – مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى أي تقدر وتخلق . يقال : ما تدري ما يمني لك الماني ، أي ما يقدّر لك اللّه .

47 – وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى أي الخلق الثاني للبعث يوم القيامة .

---

(1) قاله الطبري .

(2) قاله الطبري .

48 – وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَأَقْنى [أي أعطى ما يقتني] : من القنية والنّشب . يقال : أقنيت كذا ، [وأقنانية اللّه] .

49 – وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى : الكوكب [المضيء الذي يطلع] بعد الجوزاء . وكان ناس في الجاهلية يعبدونها .

53 – وَالْمُؤْتَفِكَةَ : مدينة قوم لوط ، لأنها ائتفكت [بهم] ، أي انقلبت . أَهْوى : أسقط . يقال : هوى ، إذا سقط . وأهواه اللّه ، أي أسقطه .

54 – فَغَشَّاها : من العذاب والحجارة ، ما غَشَّى .

56 – هذا نَذِيرٌ يعني : محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم ، مِنَ النُّذُرِ الْأُولى يعني من الأنبياء المتقدمين .

57 – أَزِفَتِ الْآزِفَةُ أي قربت القيامة .

58 – لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ : ليس لعلمها كاشف ومبين دون اللّه ومثله : لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ [سورة الأعراف آية : 187] .

وتأنيث «كاشفة» كما قال : فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ [سورة الحاقة آية 8] أي بقاء . و[كما

قيل] : العاقبة ، وليست له ناهية .

61 - وَأَنْتُمْ سامِدُونَ : لأهون «1» ، ببعض اللغات . يقال للجارية : اسمدي لنا ، أي غني لنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 369. 372 ﴾

---

(1) قاله الطبري .

(39/731)

وقال الغزنوى :

سورة والنجم

1 وَالنَّجْمِ إِذا هَوى : الثريا سقط مع الفجر «1» أو هو القرآن إذا نزل «2» .

2 ما غَوى : لم يخب عن الرّشد «3» .

6 ذُو مِرَّةٍ : حزم في قوة [ملكية «4»] .

فَاسْتَوى : ارتفع إلى مكانه . أو استوى على صورته ، وذلك أنّه [92/أ] رأى/ جبريل - عليه السّلام - على صورته في الأفق الأعلى ، أفق المشرق فملأه [أو] «5» : استوى جبريل ومحمد - عليهما السّلام - بِالْأُفُقِ الْأَعْلى «6» .

أو جبريل بالأفق : ثُمَّ دَنا أي جبريل نزل بالوحي في الأرض «7» ،

(1) أخرج عبد الرازق نحو هذا القول في تفسيره : 2/ 250 ، والطبري في تفسيره : 27/ 40 عن مجاهد .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 640 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد .

ونقله البغوي في تفسيره : 4/ 244 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ورجح الطبري هذا القول في تفسيره : 27/ 41 .

(2) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 427 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 27/ 40 عن مجاهد .

(3) تفسير الطبري : 27/ 41 ، وتفسير القرطبي : 17/ 84 .

(4) ما بين معقوفين عن نسخة «ك» .

وانظر معاني القرآن للفراء : 3/ 95 ، وتفسير الطبري : 27/ 43 ، ومعاني الزجاج : 5/ 70 .

(5) في الأصل : «أي» ، والمثبت في النص عن «ج» .

(6) عن معاني القرآن للزجاج : 5/ 70 ، وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 427 ، وتفسير الطبري : (27/ 43 ، 44) ، وتفسير البغوي : 4/ 245 .

(7) عند ما نزل جبريل عليه السلام بالوحي لأول مرة على هيئته الملكية والنبي - صلى

اللّه عليه وسلم - يتعبد في غار حراء .

ينظر هذا القول في تفسير القرطبي : 17/ 88 ، وتفسير ابن كثير : 7/ 420 ، وهو اختيار الحافظ ابن كثير .

(40/731)

وعلى الأول محمد دنا من جبريل عليهما السّلام .

8 فَتَدَلَّى : زاد في القرب «1» ، والتدلي : النزول والاسترسال «2» .

9 فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ : قدر قوسين ، أي : بحيث الوتر من القوس مرّتين .

وعن ابن عباس «3» رضي اللّه عنهما : «القوس : الذراع بلغة أزد شنوءة» .

ولا شكّ في الكلام ، إذ المعنى : فكان على ما تقدرونه أنتم .

11 ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى : أي رآه فؤاده «4» ، يعني العلم - لأنّ محل الوحي القلب ، كقوله «5» : فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ .

---

(1) هذا قول الزجاج في معانيه : 5/ 70 ، ونص كلامه : «و معنى دنا وتدلى» واحد لأن المعنى أنه قرب ، و«تدلى» : زاد في القرب . . . » .

(2) اللسان : 14/ 267 (دلا) .

(3) ورد هذا المعنى عن ابن عباس رضي اللّه عنهما في أثر أخرجه الطبراني في المعجم الكبير :

12/ 103 ، حديث رقم (12603) ولكن دون ذكر أزد شنوءة ، واللفظ عنده : «القاب القيد والقوسين الذراعين» .

وفي إسناده عاصم بن بهدلة ، قال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد : 7/ 117 : وهو ضعيف وقد يحسّن حديثه .

وأورد السيوطي الأثر الذي أخرجه الطبراني ، وزاد نسبته إلى ابن مردويه ، والضياء في «المختارة» عن ابن عباس رضي اللّه عنهما (الدر المنثور : 7/ 645) . [. . . . .]

(4) ورد هذا القول في أثر أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : 1/ 158 ، كتاب الإيمان ، باب «معنى قول اللّه عزّ وجلّ : وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : «رآه بفؤاده مرتين» .

وانظر تفسير الطبري : (27/ 47 ، 48) ، وتفسير البغوي : 4/ 246 ، وتفسير ابن كثير :

7/ 422 .

(5) سورة البقرة : آية : 97 .

وروى محمد بن كعب «1» عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال «2» : «رأيته بفؤادي ولم أره بعيني» .

13 وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى : رأى جبريل - عليه السّلام - في صورته مرّة أخرى «3» . عند السّدرة وقيل لها : الْمُنْتَهى لأنّ رؤية الملائكة إليها تنتهي .

أو إليها ينتهي ما يعرج إلى السماء من الملائكة وأرواح الشّهداء «4» .

12 أَفَتُمارُونَهُ : تجادلونه جدال الشّاكين ، أَفَتُمارُونَهُ «5» : تجحدونه على علمه .

16 إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ : رأى رفرفا أخضر من رفارف الجنّة قد سدّ

---

(1) هو محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي ، أبو حمزة ، التابعي المعروف توفي سنة 120 هـ - .

قال عنه الحافظ في التقريب : 504 : «ثقة عالم ، من الثالثة ، ولد سنة أربعين على الصحيح» .

(2) أخرجه الطبري في تفسيره : (27/ 46 ، 47) بلفظ : «لم أره بعيني ، رأيته بفؤادي مرتين ، ثم تلا ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى . اه - .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 648 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن

المنذر ، وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب مرفوعا .

(3) ينظر تفسير الطبري : 27/ 50 ، وتفسير البغوي : 4/ 247 ، وتفسير ابن كثير : 7/ 426 .

(4) أورد الطبري - رحمه اللّه - في تفسيره : (27/ 52 ، 53) الأقوال التي قيلت في وجه تسمية السدرة ب «المنتهى» ثم عقّب عليها بقوله : «و الصواب من القول في ذلك أن يقال : إن معنى المنتهى الانتهاء ، فكأنه قيل : عند سدرة الانتهاء» ، وأشار إلى الأقوال التي وردت في ذلك ، وقال : «و لا خبر يقطع العذر به بأنه قيل ذلك لها لبعض ذلك دون بعض ، فلا قول فيه أصح من القول الذي قال ربنا جل جلاله ، وهو أنها سدرة المنتهى» اه - .

(5) بفتح التاء وإسكان الميم من غير ألف بعدها ، وهي قراءة حمزة ، والكسائي . كما في السبعة لابن مجاهد : 614 ، والتبصرة لمكي : 338 ، والتيسير للداني : 204 ، وانظر توجيه القراءتين في تفسير الطبري : (27/ 49 ، 50) ومعاني الزجاج : 5/ 72 ، والكشف لمكي :

(2/ 294 ، 295) وتفسير القرطبي : 17/ 93 .

الأفق «1» .

وفي الحديث «2» : «سدرة المنتهى : صبر الجنّة» ، أي : أعلى نواحيها ، وصبر كل شيء ويصبره : جانبه «3» .

17 ما زاغَ الْبَصَرُ : ما أقصر عما أبصر .

وَما طَغى : ما طلب ما حجب «4» .

19 أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ : صنم لتثقيف ، وَالْعُزَّى : سمرة «5» لغطفان .

20 وَمَناةَ : صخرة لهذيل وخزاعة «6» ، وأنثوا اسمها تشبيها لها بالملائكة على زعمهم أنّها بنات اللّه ، فقال اللّه أَلَكُمُ الذَّكَرُ .

22 ضِيزى : جائرة ظالمة «7» . ضازه حقّه يضيزه ، وضيزى «فعلى» إذ لا «فعلى» في النعوت «8» كسرت الضّاد لليائي مثل : الكيسى ، والضيقي تأنيث «الأكيس» و«الأضيق» وهي «الكوسى» ، ومثل بيض وعين وهو

---

(1) أخرج الإمام البخاري هذا القول في صحيحه : 6/ 51 ، كتاب التفسير ، «تفسير سورة والنجم» عن ابن مسعود رضي اللّه عنه .

وانظر تفسير الطبري : 27/ 57 ، وتفسير البغوي : 4/ 71 .

(2) أخرجه الطبري في تفسيره : 27/ 54 عن ابن مسعود - رضي اللّه عنه وهو في الفائق :

2/ 284 ، وغريب الحديث لابن الجوزي : 1/ 578 ، والنهاية : 3/ 9 .

(3) اللسان : 4/ 440 (صبر) .

(4) تفسير البغوي : 4/ 249 ، وقال القرطبي في تفسيره : 17/ 98 : «و هذا وصف أدب النبي – صلى اللّه عليه وسلم في ذلك المقام ، إذ لم يلتفت يمينا ولا شمالا» .

(5) السّمرة : ضرب من الشجر .

(6) ينظر ما سبق في تفسير الطبري : (27/ 58 ، 59) ، وزاد المسير : 8/ 72 ، وتفسير القرطبي :

17/ 100 .

(7) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 428 ، وتفسير الطبري : 27/ 60 ، ومعاني الزجاج :

5/ 73 ، وتفسير المشكل لمكي : 327 . [. . . . .]

(8) قال الزجاج في معانيه : 5/ 73 : «و أجمع النحويون أن أصل «ضيزى» ضوزى ، وحجتهم أنها نقلت من «فعلى» إلى «فعلى» أي من «ضوزى» إلى «ضيزى» لتسلم الياء ، كما قالوا :

أبيض وبيض ، فهو مثل «أحمر» و«حمر» وأصله «بيض» ، فنقلت الضمة إلى الكسرة» .

[92/ب] بوض، مثل حمر/وسود.

24 أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى: أي من الذكور. أو له ما تمنى من غير جزاء «1».

30 ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ: لأنّ علمهم انتهى إلى نفع الدنيا فاختاروها.

32 إِلَّا اللَّمَمَ: الصّغائر. قال السّدى: قال أبو صالح «2»: سئلت عنه فقلت: هو الرجل يلمّ بالذنب ثمّ لا يعاود: فقال ابن عبّاس رضي اللّه عنهما: لقد أعانك عليه ملك كريم «3».

33 أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى: هو العاص «4» بن وائل.

49 إِذا تُمْنى: تسأل وتصبّ «5». أو تخلق وتقدّر «6».

48 أَغْنى وَأَقْنى: أعطى الغنية والقنية «7».

---

(1) تفسير القرطبي: 17/ 104.

(2) هو ذكوان، أبو صالح السمّان الزيات.

قال الحافظ في التقريب: 203: «ثقة ثبت، وكان يجلب الزيت إلى الكوفة، من الثالثة، مات سنة إحدى ومائة».

(3) ذكر البغوي هذا الأثر في تفسيره: 4/ 252، وأورده السيوطي في الدر المنثور:

7/ 657 ، وعزا إخراجه إلى عبد بن حميد عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

(4) ينظر تفسير الماوردي : 4/ 129 ، وزاد المسير : 8/ 78 ، وتفسير القرطبي : 17/ 111 ، ومفحمات الأقران : 191 ، والدر المنثور : 7/ 659 .

(5) تفسير البغوي : 4/ 255 ، وزاد المسير : 8/ 83 ، وتفسير القرطبي : 17/ 118 .

(6) هذا قول أبي عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 238 ، وذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن :

429 والراغب في المفردات : 475 ، ونقله القرطبي في تفسيره : 17/ 118 عن أبي عبيدة .

(7) قال الزجاج في معانيه : 5/ 76 : «قيل في «أقنى» قولان : أحدهما أقنى هو أرضى ، والآخر أقنى جعل له قنية ، أي جعل الغنى أصلا لصاحبه ثابتا ، ومن هذا قولك : قد اقتنيت كذا وكذا ، أي عملت على أنه يكون عندي لا أخرجه من يدي» .

وقال أبو حيان في البحر : 8/ 168 : «ولم يذكر متعلق (أغنى وأقنى) لأن المقصود نسبة هذين الفعلين له تعالى . . .» .

و «الشّعرى» «1» أحد كوكبي ذراعي الأسد «2» ، وقد عبده أبو كبشة الخزاعي «3» وكان جدّ جدّ النّبيّ صلى اللّه عليه وسلم ، فقال أبو سفيان «4» : لقد عظم ملك ابن أبي كبشة .

50 عاداً الْأُولى : ابن ارم أهلكوا بريح صرصر ، وعادا الآخرة أهلكوا ببغي بعضهم على بعض «5» .

51 وَثَمُودَ : اتّسق على عاد ، أي : أهلك ثمودا فما أبقاهم ، ولا ينصب ب «ما أبقى» لأنّ «ما» بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها لأنّ لها صدر الكلام «6» .

53 وَالْمُؤْتَفِكَةَ : المنقلبة ، مدائن قوم لوط .

أَهْوى : رفعها جبريل - عليه السّلام - إلى السّماء ثم أهوى بها «7» .

وفي حديث أنس «8» : «البصرة إحدى المؤتفكات» . أي : غرقت مرّتين .

55 فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ : ذكر النعمة لأنّ النقم المعدّدة التي نزلت بمن قبل

---

(1) من قوله تعالى : وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى آية : 49 .

(2) هذا قول الزجاج في معانيه : 5/ 77 ، وانظر تفسير القرطبي : 17/ 119 .

(3) تفسير القرطبي : 17/ 119 ، والبحر المحيط : 8/ 169 .

(4) ورد هذا القول في سياق خبر أبي سفيان مع هرقل ، وقد أخرجه البخاري في صحيحه :

1/ 6 ، كتاب بدء الوحي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما عن أبي سفيان رضي اللّه عنه بلفظ :

«لقد أمر أمر ابن أبي كبشة» ، ومعنى «أمر» : عظم كما في الفتح : 1/ 53 .

(5) ينظر تفسير الطبري : 27/ 28 .

(6) عن معاني القرآن للزجاج : 5/ 77 ، وانظر إعراب القرآن للنحاس : 4/ 281 ، والتبيان للعكبري : 2/ 1191 . [. . . . .]

(7) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 27/ 79 عن مجاهد ، وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 665 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وأبي الشيخ عن مجاهد .

وقد تقدم خبرهم ص 422 .

(8) لم أقف على حديثه فيما تيسر لي من مصادر .

نعم على من جاء بعد لما فيها من المزاجر .

57 أَزِفَتِ الْآزِفَةُ : اقتربت القيامة ، لَيْسَ لَها من يكشف عن علمها ويجلّيها . أو من يكشفها ويدفع شدائدها . والهاء من قبل إن كاشفة مصدر ك «عاقبة» و «عافية» «1» .

59 أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ : أي القرآن .

روى مجاهد أنّ النّبيّ - عليه السّلام - لم ير ضاحكا ولا مبتسما بعد نزول هذه الآية «2» .

61 سامِدُونَ : جائرون «3» . وقيل «4» : لاهون . وقال مجاهد : غضاب مبرطمون .

---

(1) معاني القرآن للفراء : 3/ 103 ، وتفسير القرطبي : 17/ 122 ، والبحر المحيط : 8/ 170 .

(2) لم أقف على هذا الأثر من طريق مجاهد رحمه اللّه تعالى ، وأخرجه وكيع بن الجراح في الزهد : 1/ 266 حديث رقم (36) عن صالح بن أبي مريم ، وكذا ابن أبي شيبة في المصنف : 13/ 224 رقم (16203) كتاب الزهد ، باب «ما ذكر عن نبينا صلى اللّه عليه وسلم في الزهد .

وأخرجه - أيضا - هناد بن السري في الزهد : 1/ 562 رقم (482) وأورده الحافظ

ابن حجر في الكافي الشاف : 161 وذكر أن الإمام أحمد أخرجه في الزهد ، وكذا الثعلبي ، كلاهما عن صالح بن أبي مريم .

وقال الحافظ : رواه ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس بإسناد ضعيف .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 666 ، وعزا إخراجه إلى ابن أبي شيبة ، وأحمد في الزهد ، وهناد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن صالح .

ومعنى هذا الأثر ضعيف لأن هذه الآية مكية ، وقد ورد في الصحيح ما يدل على خلاف هذا القول . وورد أنه صلى اللّه عليه وسلم تبسم وضحك حتى بدت نواجذه .

ينظر : صحيح البخاري (7/ 92 - 94) كتاب الأدب ، باب التبسم والضحك ، وصحيح مسلم :

2/ 616 ، كتاب صلاة الاستسقاء ، باب «التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح بالمطر» .

(3) كذا في «ك» ، ولم أقف على هذا القول ، وذكر الماوردي في تفسيره : 4/ 133 تسعة أقوال في هذه اللفظة ، منها «خامدون» عن المبرد .

وانظر تفسير القرطبي : 17/ 123 ، والبحر المحيط : 8/ 170 .

(4) هذا قول جمهور العلماء كما في معاني القرآن للفراء : 3/ 103 ، ومجاز القرآن : 2/

239 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 430 ، وتفسير الطبري : 27/ 82 ، ومعاني الزجاج : 5/ 78 .

(46/731)

فسئل عن البرطمة ، فقال : الإعراض «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 770.776 ﴾

---

(1) نص هذه الرواية عن مجاهد في تفسير البغوي : 4/ 257 .

وأخرج - نحوه - الطبري في تفسيره : 27/ 83 عن مجاهد ، وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 667 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن مجاهد أيضا .

(47/731)

وقال ملاحويش :

تفسير سورة والنجم

عدد 23 - 52

نزلت في مكة بعد الإخلاص عدا الآية 32 فإنها نزلت بالمدينة ، وهي اثنتان وستون آية ، وثلاثمائة وستون كلمة ، وألف وأربعمائة وخمسة أحرف ، لا يوجد في القرآن سورة مبدوءة ولا مختومة بما بدئت وختمت به .

مطلب معنى النجم وأنواع قسم اللّه تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ .

قال تعالى : "وَالنَّجْمِ" خصه أكثر المفسّرين بأنه الثريا لأن العرب تسميها نجما لأنها نجوم مجتمعة سبعة فأكثر على حسب النظر وقوته ، وأنّها تطلع وتغرب بمواسم مخصوصة عندهم لأنها تظهر أوائل الشتاء وتغيب أوائل الصيف عند حصاد الزرع ، وانهم يتفاءلون بغيابها إذا كان الهواء غربيا وبالعكس إذا كان شرقيا "إِذا هَوى 1" سقط وغاب عن الأبصار ، أقسم اللّه تعالى به لشيء أراده غير ما ذكرناه وهو لا يسأل عما يريد .

ويطلق لفظ النجم على الجنس منه فيشمل كل نجم في السماء ، وعلى النبات الذي لا ساق له ، وعلى القرآن لنزوله نجوما متفرقة ، وعلى محمد صلّى اللّه عليه وسلم لصعوده السماء ليلة المعراج كالنجم .

واعلم أن أقسام اللّه تعالى تنحصر في ثلاثة أشياء : بذاته المقدسة وبفعله كالسماء والأرض وبمفعوله كالقمر والشمس ، وهي إما لفضيلة خاصة كقوله : (وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) أو لمنفعة عامة نحو (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ) .

والقسم إما ظاهرا كالآيات السبع التي أشرنا إليها في الآية 15 من سورة التكوير المارة ، وإما مضمرا وهو قسمان قسم دلت

(48/731)

عليه اللام نحو : (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ) الآية 186 من آل عمران في ج 3 ، وقسم دل عليه المعنى كقوله تعالى : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها) الآية 71 من سورة مريم الآتية (يا ويلتاه الورود محقق ، والخروج مظنون ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ) وجواب القسم هنا "ما ضَلَّ" عن الحق ولا زاغ عن الصواب فيما تلاه عليكم من الآيات البينات "صاحِبُكُمْ" محمد بن عبد اللّه "وَما غَوى" في اتباع الباطل وما جهل قط ، لأن الضلال نقيض الهدى والغي ضد الرشد ، وهو هاد مهتد راشد مرشد ليس كما تزعمون يا كفار قريش في نسبتكم إياه للضلال والغي والجهل "وَما يَنْطِقُ" قط "عَنِ الْهَوى 3" من تلقاء نفسه عن لا شيء كلاما "إِنْ هُوَ" الذي يتلوه عليكم "إِلَّا وَحْيٌ يُوحى 4" إليه من قبلنا على لسان رسولنا لا من رأيه ولا من قبل الغير "عَلَّمَهُ" إياه ونزل به إليه من لدنا ملك عظيم "شَدِيدُ الْقُوى 5" هو جبريل عليه السلام وقد مرّ شيء من قوته في تفسير الآية 19 من سورة التكوير المارة وهو "ذُو مِرَّةٍ" قوّة عظيمة ، وبأس شديد ، ومنظر حسن ، وخلق جميل

"فَاسْتَوَى 6" في خلقه على أحسن صورة واعتدل قائما على صورته الحقيقية حينما رآه عبدنا محمد عيانا على غير الصورة التي تمثل بها حين هبوطه بالوحي ، إذ كان على صورة دحية الكلبي .

مطلب مقر جبريل ومعنى قاب قوسين :

(49/731)

ولم يره في صورته الحقيقية التي خلقه اللّه عليها غير مرة في الأرض ، وهي المشار إليها في سورة التكوير المارّة "وَهُوَ" أي جبريل "بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى 7" الشرقي ومحمد بحراء كما مرّ فيها ، ومرة في السماء ليلة المعراج كما سيأتي أول سورة الإسراء الآتية "ثُمَّ دَنَا" جبريل من محمد "فَتَدَلَّى 8" ازداد نزوله فتقرب منه "فَكَانَ" جبريل من محمد "قَابَ" وقبّ وقيب وقاد وقيس كلها بمعنى المقدار القليل ، أي ان مسافة قربه منه "قَوْسَيْنِ" من الأقواس العربية المعروفة عندهم إذ لكل قوس قابان وقاب القوس ما بين وترها ومقبضها "أَوْ أَدْنَى 9" من ذلك وأقرب بحسب تقديركم أيها الناس إذ لا أقرب من هذا عندكم وأما عندنا نحن مولى الكل وسيذهم فهو أقرب مما تتصوره عقولكم وهو من حيث القلّة (كأف) في زجر الوالدين في الآية 33 من الإسراء الآتية ، وفي التحقيق (كأو) في الآية 46 من سورة الصافات في ج

2 ، وقد جاء التعدد بالقوس والرمح والذراع والسوط والباع والقدم على حسب لغة العرب واستعمالها ، لأن اللّه خاطبهم بما يفهمون ، ومن هذا لا صلاة حتى ترتفع الشمس قدر رمح أو رمحين ، ومنه ولقاب قوس أحدكم في الجنة وموضع قدّه أي سوطه خير من الدنيا وما فيها ، وفيه اشارة إلى ما كانت العرب في الجاهلية تفعله عند مخالفتهم وارادة الصفاء بينهم وتوثيق العهود ، فإنهم كانوا يخرجون بقوسين فيلصقانهما حتى يكونا ذا قاب واحد ثم ينتزعونهما ويرمون بكل منها سهما واحدا دلالة على أنهما تظاهرا وتعاقدا وتوافقا على أن يحمي أحدهما الآخر وأن يكون رضى أحدهما وسخطه رضاء الأخر وسخطه قال قل "فَأَوْحى "

جبريل عليه السلام وأعبد الضمير إليه لأنه أقرب ، ولأن سياق الآية يدل عليه وسياق اللفظ يؤيده "إِلى عَبْدِهِ"

(50/731)

عبد اللّه محمد لأن العبودية الحقيقية لا تضاف إلا إليه ولا حاجة لأن يتقدم ذكره لأنه في غاية الظهور ولا لبس فيه مثل قوله تعالى (إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) فالضمير فيه يعود للقرآن دون ذكر له لمعلوميته مع أنه لم يسبق له ذكر ، وكذلك قوله تعالى (ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ)

الآية 62 من سورة النحل في ج 2 ، فالضمير يعود إلى الأرض في كلمة ظهرها ولم يسبق لها ذكر للعلة نفسها ، ولهذا البحث صلة في تفسير الآية 32 من سورة ص الآتية فراجعه "ما أَوْحى 1"

اللّه إليه أي إلى جبريل فأوحاه جبريل إلى محمد صلّى اللّه عليه وسلم بنصه حرفيا ، وقد أبهم الموحي به للتفخيم على حد قوله تعالى (فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ) الآية 78 من سورة طه الآتية فراجعا ، أي شيء عظيم جليل خطير أوحاه اللّه إليه ، ومن المفسرين من أعاد الضمير في أوحى إلى اللّه عز وجل وأعاد ضمير دنا فتدلى كذلك وأعاد ضمير عبده إلى محمد وهذا لا يتأتى إلا على القول من أن الإسراء وقع بعد مبعثه صلّى اللّه عليه وسلم بخمس سنين أي زمن نزول هذه السورة ، وهو قول الزّهري ويعضده قول ابن اسحق ، ويؤيده ما جاء في الفتاوى بأنه سنة خمس أو ست من النبوة ، أما القول بأنه وقع بعد مبعثه بخمسة عشر شهرا فلا يكاد يعقل فضلا عن عدم وجود ما يؤيده من راو

(51/731)

أو رواية ، وأضعف منه قول شريك بأنه وقع قبل أن يوحى اليه ، وهذا كله لا ينطبق على ما نحن فيه وقال الحريّ انه قبل الهجرة بسنة ، ويقرب من قوله قول النووي انه بعد النبوة بعشر

سنين وثلاثة أشهر ، وجزم الملا أمين العمري في شرح ذات الشفاء بأنه في السنة الثانية عشرة من البعثة ، وادعى ابن حزم الإجماع عليه ، وضعف ما في الفتاوى ، وكأنهم يريدون بهذا زمن نزول سورة الإسراء ، وعليه يقتضي أن يكون نزول هذه السورة بعد سورة الإسراء ولم يقل به أحد ، والقول بنزولها قبلها لم يعارض فيه أحد ، والمعارضة في نزولها بين سنة خمس أو ست فقط ورجح الأول لأن قول الثاني هو من باب التداخل في عدد السنين ليس إلا والله أعلم ، فيظهر من هذا كله أن القول الموافق للحال والمطابق لترتيب نزول السورتين هو قول الزهري وعليه فتكون سورة الإسراء اخبارا عنها .

مطلب زمن الإسراء والمعراج والرؤية :

واني رغم تتبعي وسؤالي أهل العلم لم أقف على غير هذا ، وسأتابع البحث فيه والسؤال عنه حتى إذا وقفت على غيره ذكرته إن شاء الله القائل

(52/731)

"ما كَذَبَ الْفُؤادُ" أي قلب الموحى اليه محمد صلّى الله عليه وسلم "ما رَأى 11" بعينه وبصره من جبريل أو ما رأى ليلة المعراج من عجائب مكونات ربه وذاته المقدسة "أَفَتُمارُونَهُ" تجادلونه يا كفار قريش ، وقرىء أفتمرونه أي تغلبونه أو تجحدونه كما قرىء

كذّب بالتشديد "عَلى ما يَرى 12" ويعاين من صورة جبريل الحقيقة التي ذكرها لكم أو مما قصه عليكم في ما شاهده في الإسراء والمعراج من العجائب وذلك أنه لما أخبرهم بإسرائه وقالوا له صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عيرنا فوصفه لهم وأخبرهم عن عيرهم وثبت لهم صدقه ومع هذا كذبوه كما سيأتي أول الإسراء الآتية "وَلَقَدْ رَآهُ" رأى محمد جبريل "نَزْلَةً أُخْرى 13" مرة ثانية في صورته الحقيقية حال بلوغه "عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى 14" الكائنة في السماء السابعة وهي شجرة نبق عن يمين العرش التي ينتهي عندها كل أحد ولا يتجاوزها أحد من الملائكة أو رأى ربه عز وجل "عِنْدَها أي السدرة التي ت (13) بقربها "جَنَّةُ الْمَأْوى 15" التي تأوى إليها أرواح الشهداء في الدنيا والمتقون أجمع في الآخرة "إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ 16" من تكبير وتعظيم وتهليل وتمجيد من الخلائق المختلفة الدالة على عظمة الخالق مما لا يحيط به الوصف ولا تسعه الأذهان ويعجز عنه النطق به كل لسان "ما زاغَ الْبَصَرُ" من محمد ولا حال عن رؤية ومشاهدة العجائب التي أبدعها المبدع وأمر رسوله برؤيتها حينما عرضها عليه ومكنه من رؤيتها في تلك الحضرة المقدسة لا يمينا ولا شمالا وهو غاية في أدبه صلّى اللّه عليه وسلم في ذلك المقام الجليل إذ لم يلتفت اليه وهذا يؤيد كون الذي يغشى السدرة هو نور رب العزة لا الملائكة ولا الفراش الذهبي ولا أنواع المخلوقات وان نظر الرسول ما حال دون رؤية ربه عز وجل بصعقة أو غشية كما حصل لموسي وابراهيم عليهما وعليه أفضل الصلاة السلام.

وقد ثبت في ذلك المقام الذي تحار به العقول وتزل به الأقدام وتشخص فيه الابصار ، ولهذا فقد وصفه ربه بالقوة والسكينة في ذلك المقام بقوله جل قوله "ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى 17" أي ما جاوز بصره غير ما أمر بالنظر اليه وهو المعنى بقوله مقسما "لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى 18" التي هي أكبر آية وأعظمها وأجلها وهي رؤية ذاته المقدسة التي لا يضاهيها آية وتصغر دونها كل آية قال الأبوصيري :

أرآى من الآيات أكبر آية ما زاغ حاشا أن يزيغ المبرأ

قال ابن عباس رضي اللّه عنهما رآه بفؤاده وقال الحسن وأنس وعكرمة رآه بعينه حقيقة وسنذكر ما جاء في الأحاديث الواردة بالرؤية القلبية والعينية هنا وما جاء في حق جبريل أيضا ، روي عن مسروق أنه قال قلت لعائشة يا أماه هل رأى محمد ربه ؟ فقالت لقد قفّ شعري (أي قام من الفزع مثل اقشعر جلدي واشمأزت نفسي عند سماع مالا ينبغي) مما قلت أين أنت من ثلاث من حدثكهن بها فقد كذب ، من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت لا تدركه الأبصار الآية 102 من الانعام في ج 2 وقرأت (وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ) الآية 56 من سورة الشورى في ج 2 أيضا ، ومن

حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب وقرأت (وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً) الآية الأخرى من سورة لقمان 24 ومن حدثك أنه كتم أمرا فقد كذب ثم قرأت (يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ) الآية 70 من المائدة في ج 3 ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين أخرجاه في الصحيحين ، وروى مسروق بن الأجدع قال قلت لعائشة فأين قوله (ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى فَكانَ) إلخ قالت ذلك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل وأنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته فسدّ الأفق ، أخرجاه في الصحيحين .

(54/731)

وروى مسلم عن ابي هريرة ولقد رآه نزلة أخرى قال رأى جبريل ، وروى مسلم عن عبد اللّه بن مسعود قال لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، قال رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح ، وفي رواية مسلم عن مسروق قال كنت متكئا عند عائشة فقالت يا أبا عائشة ، ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على اللّه الفرية قلت ما هن قالت من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على اللّه الفرية ، فجئت فقلت يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني ، ألم يقل اللّه تعالى (وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) الآية 43 من سورة التكوير ، المارة (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى) الآية المارة ؟ فقالت انها أول هذه الآية سئل عن ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال

إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض ، الحديث .

وروى مسلم عن أبي ذر قال سألت رسول اللّه هل رأيت ربك ؟ قال نور أنى أراه ! وفي رواية نورانيّ أراه .

، بفتح الراء وكسر النون وتشديد الياء .

وروى البخاري عن عبد اللّه بن مسعود قال لقد رأى من آيات ربه الكبرى الآية قال لقد رأى رفرفا أخضر سدّ أفق السماء .

وجاء في الصحيحين من حديث المعراج عن شريك ابن عبد اللّه بن ابي بحر عن أنس (ودَنا الجبار ذي العزّة فَتَدَلَّى حتى كان قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى) وهي رواية أبي سلمة عن ابن عباس ، وروى مسلم عن ابن عباس (ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى) (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى) الآيتين قال رآه بفؤاده مرتين .

وأخرج أحمد عن ابن عباس انه قال : قال رسول اللّه رأيت ربي ، ذكره

محمد الصالحي الشامي في الآيات البينات وصححه وهو تلميذ الحافظ السيوطي .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال إن محمدا صلّى اللّه عليه وسلم رأى ربه عز وجل مرتين ، مرة ببصره ومرة بفؤاده .

وجاء عن ابن عباس أتعجبون ان تكون الخلّة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد ؟ !

وعن عكرمة قال سئل ابن عباس هل رأى محمد ربه ، قال نعم ، وكان الحسن يحلف بأن محمدا رأى ربه .

هذا وقد بلغت الرؤية حد الإجماع ، وكلام ابن عباس لا يكون إلا بالسماع من رسول اللّه ولا يشك فيه أحد ، كيف لا وهو خير الأئمة وعالمها المرجوع اليه في المعضلات وقد راجعه ابن عمر فأخبره أنه رآه ، وهذا إثبات والإثبات مقدم على النفي ، على أن عائشة رضي اللّه عنها لم تقله عن رسول اللّه وإنما قالته متأولة الآيات التي ذكرتها من قوله تعالى (وَما كانَ لِبَشَرٍ) و(لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ) والصحابي إذا خالفه مثله لا يكون قوله حجة ولو كان معها شيء عن رسول اللّه لذكرته فضلا عن انها عند نزول هذه السورة وسورة الاسراء كانت صغيرة دون سن التمييز ، وليست هي بأعلم من ابن عباس ، على

أن الإدراك الوارد بالآية معناه الإحاطة واللّه تعالى لا يحيط بعلمه أحد ولا يحاط به ، وإذا ورد النفي بنفي الإحاطة لا يلزم نفي الرؤية بغير إحاطة ، واللّه تعالى يرى بلا كيفية ولا

احاطة فلو كانت الرؤية غير جائزة لما طلبها موسى ، أو يلزم مع الرؤية وجود الكلام ليصح الاحتجاج بآية (وَما كانَ لِبَشَرٍ) بل تجرز من غير كلام ، فارتفع الاحتجاج بها على أن ما من عموم إلا وخصّ منه البعض ، فيمكن أن يقال : نفي الرؤية عام في حق البشر في الدنيا مخصوص بسيدنا محمد عليه السلام فيها ثابت بما تقدم من الأدلة ، ولهذا فإن ثبوت الرؤية لسيدنا محمد ثابتة قاله كعب واحمد ابن حنبل وابو الحسن الأشعري وجعفر بن محمد ومحمد بن كعب والقاضي عياض والشيخ محي الدين النووي وغيرهم من أكابر السلف والخلف فمن أنكرها فجزاؤه حرمانها واعلم أن في جملة ما زاغ البصر إلخ أخبار من اللّه تعالى عن حسن أدبه صلّى اللّه عليه وسلم لدى الحضرة الإلهية وعن اعتدال قلبه المقدس في الإقبال اليه بكلية والإعراض عن سواه وعدم الالتفات إلى ما في

(57/731)

السموات والأرض وما فيهما ، وتركه وراء ظهره ، وفيه دلالة على أنه كان معتدل القوى لم تشغله حاسة عن حاسة حال تلقى ما ورد عليه من مقام الروح والقلب المشير اليه قوله (قابَ قَوْسَيْنِ) لذلك كان ثابتا في مقام تجلي الإله صارفا قواه العشرة لما يرد عليه من تلك الحضرة مستظلا بهيبته فلم يتخلف بصره عن بصيرته بل استقام معها حالة التجلي لئلا

يتجاوز حده بالسبق لها كما أن البراق لم يتجاوز حافره غاية نظره صلّى اللّه عليه وسلم حالة السير به من مكة إلى البيت المقدس ، وهذه غاية في الأدب ونهاية في التأدب قال تعالى "أَفَرَأَيْتُمُ" أعلمتم "اللَّاتَ وَالْعُزَّى 19 وَمَنَاةَ" أسماء أصنام انتقوها من أسماء اللّه ، الآله والعزيز والمنان وقيل انها في الأصل اللآت مأخوذة من لوى لأنهم يلوون عليها بعبادتهم وهي صنم من الحجارة يشبه الإنسان ولذلك قال بعضهم انه كان رجلا يلت السويق للحجاج وكان صنما لثقيف ، والعزى تأنيث الأعز شجرة كانت لغطفان فقطعها خالد بن الوليد بأمر النبي صلّى اللّه عليه وسلم وقال عند قطعها مرتجزا .

يا عز كفرانك لا سبحانك اني رأيت اللّه قد أهانك

ومناة كانت صنما في مكة أو بقديد لخزاعة وهذيل وقيل لثقيف ، وكانوا يستمطرون عندها تبركا بها ، وقيل بيت بالمشلل تعبده بنو كعب وسميت مناة لأن دماء النسائك تمنى عندها ، وهي عبارة عن صخرة يعظمونها فعاب اللّه عليهم ذلك على طريق الاستفهام توبيخا وتقريعا ، أي أخبرونا عن هذه الأشياء التي تعبدونها هل لها من القدرة والعظمة شيء وكانوا يسمونها والملائكة بنات اللّه ويزعمون أنها تشفع لهم مع ما هم عليه من وأد البنات واستحلال المحرمات والكفر ثم وصف مناة بقوله :

"الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى 20" المتأخرة أو أن في الكلام تقديما وتأخيرا أي أفرأيتم اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة ، ثمّ أنكر عليهم ما ينسبونه اليه تعالى عنه

"أ لكم" أيها الكفرة "الذَّكَرُ" تختصون به "وَلَهُ" جل شأنه "الْأُنْثى 21" مع أنكم تكرهونها قال تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ) الآية 59 ، وقوله وإذا بشر أحدهم بالأنثى إلخ الآية 63 من سورة النحل في ج 2

"تِلْكَ" القسمة التي قسمتموها بينكم وبين ربكم "إِذاً" بعد اختياركم الأحسن "قِسْمَةٌ ضِيزى 22" عوجاء جائرة لم ترضوها لأنفسكم فكيف ترضونها لربكم "إِنْ هِيَ" ما الأصنام المذكورة بشيء البتة "إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ" عفوا من تلقاء أنفسكم ودعيتموها آلهة افتراء على اللّه وهي ليست بشيء يستحق الذكر "ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ" حجة أو برهان بما تزعمون من آلهيتها "إِنْ" ما "يَتَّبِعُونَ" في ذلك الاتخاذ "إِلَّا الظَّنَّ" والوهم الذي لا حقيقة له "و" ما يتبعون في ذلك الا "ما تَهْوَى الْأَنْفُسُ" وتزينه لهم وتشهيهم بعبادة الأوثان وأتباع الشيطان "وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى 23" بكتابه المنزل على رسوله بأن الأصنام ليست بآلهة ولا أهلا للعبادة وأن العبادة لا تكون الا اللّه الذي يخذل من يعبد غيره ، ويقهر من يكذب آياته فلم يرتدعوا ولم ينتهوا عن ذلك ، قال تعالى منددا صنيعهم ذلك بقوله "أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى 24" استفهام على طريق الإنكار أي أيظن الكافر

ان له ما يتمناه ويشتهيه من كل ما يصوره عقله ، كلا ليس له ذلك بل لا يكون الا ما يريده اللّه "فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولى 25" كليهما وما فيهما ولا يقع فيهما إلا ما يشاء اللّه ليس لأحد فيها دخل ولا شيء البتة ، ثم قال ردا على ما يزعمون من شفاعته أصنامهم "وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً" لأحد ما لأنهم لا يشفعون "إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ" الشفاعة له ومن يؤهله للتشفع "وَ

(59/731)

يَرْضى 26" له أن يكون شافعا فكيف إذن تشفع أصنامهم لهم وهم ليسوا بشيء "إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ" ويجحدون كونها ووجودها "لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى 27" بقولهم أنهم بنات اللّه ولم يقل تسمية الإناث لأن المراد الجنس وهو أليق لمناسبة رؤس الآي وما يسمونه بالروى في النظم "وَما لَهُمْ بِهِ" أي الذين يقولونه "مِنْ عِلْمٍ" يحتجون به في تلك التسمية والعبادة "إِنْ" ما "يَتَّبِعُونَ" في عبادتهم وتسميتهم "إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً 28" أبدا لأنه ناشىء عن التقليد والوهم والتخمين ، والشيء لا تدرك حقيقته إلا باليقين ، فاذا كان هذا مبلغ علمم "فَأَعْرِضْ" أترك يا حبيبي وصدّ "عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا" الذي أنزلناه عليك لانهم أعرضوا عنه وتولوا عن الايمان به "وَلَمْ يُرِدْ" كل

منهم "إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا 29" لإنها بغيتهم ولا همّ لهم بالآخرة لانهم لم يؤمنوا بها "ذِلكَ" ظنهم واختيارهم هو "مَبْلَغُهُمْ" وغاية مطلبهم ونهاية ما توصلت اليه عقولهم "مِنَ الْعِلْمِ" الذي لا يحيط ببعضه عقلاؤهم لقلة إدراكهم وشدة توغلهم في الدنيا "إِنَّ رَبَّكَ" يا سيد الرسل "هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ" السوي وطريقه المستقيم الذي يجب أن يسلك دون غيره من السبل المضلة "وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى 30" اليه فيجازى كلا بعمله

"وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ" وما بينهما وما فيهما وما تحتهما وفوقهما ملكا وعبيدا .

(60/731)

وهذه الجملة معترضة بين ما قبلها وبين قوله "لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا" من السوء "وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى 31" أي الجزاء الحسن وفي الجنة أيضا لقاء عملهم الحسن ، لأن اللّه تعالى لم يخلق الجنة والنار إلا ليكافيء المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

مطلب الآية المدنية ومعنى الكبائر والصغائر :

وهذه الآية المدنية المستثناة في هذه السورة قال تعالى "الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ

وَالْفَوَاحِشَ" منها المستوجبة للحد الشرعي (إلا اللّمم) صغائر الذنوب ، وهذا استثناء منطقع ، لأن اللّمم ليس من الكبائر والفواحش ، فهو كالقبلة والنظرة والغمزة والشتم بغير اذن وما ضاهى ذلك ، وسبب نزولها قول المشركين ان المسلمين بالأمس كانوا يعملون ما نعمل والآن يعيبوننا به .

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال إن اللّه عز وجل كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنى العين النظر ، وزنى اللسان النطق ، والنفس تتمنى وتشتهي والفرج ، يصدق ذلك أو يكذبه .

ولمسلم قال كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة ، العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرجل زناها الخطى ، والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه .

(61/731)

فهذه الأولى كلها لمم ، والأخير من الكبائر والفواحش ، فالكبيرة كل شيء نهى اللّه ورسوله عنه أو أوعد عليه بنار أو غضب أو عذاب أو عقاب أو لعنة أو حد ، والصغيرة كل ما لم

يذكر اللّه ورسوله عليه حدّا في الدنيا أو عذابا في الآخرة فيدخل في الكبائر ، من غيّر معالم الأرض ومن تزوج امرأة للتحليل ، والواشمة والموشومة وكل ما اقترن بلعن من حضرة الرسول كمن أمسك امرأة محصنة ليزني بها غيره ، أو قادها للزنى أو أمسك مسلما لمن يقتله ، ومن دل الكفار على عورة المسلمين وفضح لهم عددهم وعددهم ومن كذب على إنسان كذبة أدت إلى قتله أو تعطيل عضو منه أو تعذيبه ، لأن حد الكبيرة كل شيء كبر وعظم مما يعد ذنبا وكان فعله قصدا ، فدلالة المسلم الكفار على مواقع المسلمين مع علمه أنهم سيستأصلونهم أعظم من الفرار عند الزحف ، والكذب الموجب للقتل وأخذ المرأة للزنا والمسلم للقتل اكبر من أكل الربى وأكل مال اليتيم وشرب الخمر المعدودة من الكبائر المترتب عليها حد شرعي ، وليعلم أن اكبر الكبائر الشرك باللّه ثم القتل بغير حق ثم الزنا واللواط ثم شهادة الزور ثم السحر ثم قذف المحصنات ثم عقوق الوالدين ، إذ عدها رسول اللّه من الموبقات أي المهلكات ثم كل ما يدخل تحت الحد وما اقترن باللعن إلخ ما تقدم ، والصغيرة ما سوى ذلك على أنها إذا فعلت تهاونا واستخفافا أو اعتيد على ارتكابها جرأة تنقلب كبيرة ، ولهذا أبلغوا عدد الكبائر إلى سبعين وبعضهم إلى سبعمائة كما في كتاب الزواجر المستقصى لأنواعها فراجعه ، وعلى هذا إذا لم تقترن الفعلة بشيء مما ذكر من الوعيد وغيره وما يقع من فلتات

اللسان وشهوات النفس في غير ما نصّ عليه وما ينشيء من فترة مراقبة التقوى فليس من الكبائر بل من الصغائر وهي أقرب للمغفرة ويوشك أن يكفرها الصوم والصلاة والصدقة ، وقد يغفرها اللّه عفوا نكرما منه ويكاد أن يجعلها حسنات إذا اقترنت بالندم والاستغفار راجع الآية 71 من سورة الفرقان الآتية وكذلك الكبائر إذا أعقبها بتوبة خالصة وعمل صالح من صوم أو صلاة أو صدقة فيوشك أن يقلبها اللّه له صغائر ويغفرها

أما ما يتعلق فيه حق الغير من الكبائر والصغائر فلا بد من إرجاع ما أخذ لأهله وإرضائه واستعفائه ، وإن لم يقدر على شيء من ذلك فيعود إلى مشيئة اللّه ويسعها قوله "إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ" لمن تاب وأناب وحسنت نيته وقد يغفر بدون شيء من ذلك لمن شاء عدا الشرك راجع الآية 48 من سورة النساء في ج 3 وإذا أراد أن يطمئن على نفسه من عذاب اللّه وقبول توبته فليجتهد برد المظالم لأهلها أو ورثتهم أو يتصدق بها على الفقراء وينوي ثوابها إليهم ، هذا واللّه تعالى "هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ" أيها المؤمنون وأعلم بما تفعلونه قبل خلقكم "إِذْ أَنْشَأَكُمْ" براكم من النطفة وخلق أباكم آدم "مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ" أي وهو أعلم بأحوالكم حالة كونكم "أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ" وما أنتم صائرون اليه بعد فاعملوا خيرا لدينكم ودنياكم وآخرتكم "فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ" وتمدحوها بالطهارة من الذنوب فانه يعلم كل نفس وما هي صائرة اليه وما تصنعه في الدنيا وما تناله في الآخرة ، فلا تفضلوا أنفسكم على

غيركم في الحالة التي أنتم فيها لأنكم لا تعلمون العاقبة والله وحده "هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى 32" منكم ومن أذنب فاكتفوا بعلمه عن علم الناس وجزائه عن جزائهم وثنائه عن ثنائهم .

(63/731)

روى البخاري ومسلم عن خارجة بن زمعة بن ثابت أن أم العلاء امرأة من الأنصار كانت بايعت النبي صلّى اللّه عليه وسلم وأخبرته أنه اقتسم المهاجرون قرعة قالت فطار لنا ابن صفعون فأنزلناه في أبياتنا فوجع وجعه الذي توفي فيه فلما توفي غسل وكفن في أثوابه وصلى عليه رسول اللّه ، فقلت رحمة اللّه عليك أبا السائب فشهادتي عليك قد أكرمك اللّه فقال صلّى اللّه عليه وسلم : وما يدريك أن اللّه أكرمه ؟ فقلت بأبي أنت وأمي يا رسول اللّه فمن يكرمه اللّه ؟ فقال صلّى اللّه عليه وسلم : أما هو فقد جاءه اليقين واللّه اني لارجو له الخير ، واللّه لا أدري وأنا رسول اللّه ما يفعل بي .

قالت فو اللّه لا أزكى بعده أحدا قالت : ورأيت لعثمان في النوم عينا تجري ، فجئت رسول اللّه فذكرت له ذلك ، فقال : ذلك عمله وهذه الآية نزلت في أناس من المدينة يعملون أعمالا حسنة ثم يتبرمون بها ، وهي عامة في كل من يتصف بذلك ، هذا وقد سبق أن بينا أن الآيات

المستثناة من السور إذا طويتها وقرأت ما بعدها تبعا لما قبلها يستقيم المعنى والنظم وهذه كذلك ، إلا أنه لا يجوز بوجه من الوجوه إسقاط حرف واحد من القرآن أو تغيره عن محله ، حتى ان العلماء كرّهت ان يقرأ المصلي آية أو سورة ثم يترك التي تليها ويقرأ ما بعدها ، كما كرهوا أن يقرأ القرآن على عكس ترتيبه قال تعالى :

(64/731)

"أَفَرَأَيْتَ" يا أكمل الرسل هذا "الَّذِي تَوَلَّى 33" عن الإيمان وعاد إلى الكفر "وَأَعْطى قَلِيلًا" مما تعهد به إلى من أغواه "وَأَكْدى 34" قطع عطاءه وبخل بما وعد به وأصل الكدي من الكدية وهي حجر يظهر في البئر فيمنع من الحفر ، نزلت هذه الآية في الوليد بن المغيرة كان اتبع حضرة الرسول فعيره المشركون بقوله تركت دين الأشياخ وضللت قال أني خشيت اللّه وعذابه قال فأنا أضمن لك إن أعطيتني كذا من المال ورجعت إلى دين آبائك فأتحمل عنك عذاب اللّه فرجع الوليد إلى الشرك واعطى الذي عيره وتعهد له بعض الذي ضمنه له من المال ومنعه الباقي ثم وبخه اللّه بقوله "أَعِنْدَهُ" اي هذا الذي تولى "عِلْمُ الْغَيْبِ" بأن صاحبه يتحمل عنه ما يخافه من عذاب اللّه يوم القيامة "فَهُوَ يَرى 35" ما خفى عنه وهل يبصر شيئا من الغيب "أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ" بخبر "بِما فِي صُحُفِ مُوسى 36" أسفاره وتوراته

"وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى 37" ما أمره به ربه من تبليغ الرسالة وبما فرض عليه فيها من التكاليف التي منها امتثاله الأمر بذبح ولده ، قال عطاء بن السائب : عهد ابراهيم على نفسه ان لا يسأل أحدا غير اللّه فلما قذف في النار قال له جبريل ألك حاجة ، قال أما إليك فلا ، وفاء بعهده فأنجاه اللّه ثم أخبر اللّه عما في صحفهما فقال : "أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى 38" اي لا تحمل نفس غير ذنبها كما لا تعاقب الا عليه راجع تفسير الآية 19 من سورة الأعلى المارة والمعنى لم يبلغه ذلك قبلا إذا كان لم يبلغه شيء من هذا المعنى الآن قال ابن عباس : كانوا قبل ابراهيم يأخذون الرجل بذنب غيره فيقتلونه بأبيه وأخيه وامرأته وعبده وتعلقاته كما يفعل اعراب البادية الآن إذ جرت عادتهم أن يقتلوا الرجل أو أن يسلبوه بقتل او سلب أحد من أقاربه وكانت الجاهلية

(65/731)

قبل الإسلام تفعل هذا فما يقع الآن منه فهو من بقايا عوائدهم القبيحة فلا حول ولا قوة الا باللّه ، فنهاهم اللّه عن ذلك وبلغهم أمره بأن لا تؤاخذ نفس بدل نفس .

مطلب ما هو موافق من شرع من قبلنا لشرعنا وما هو مخالف ، وعوائد الجاهلية :

وعلى هذا شرعنا الذي جاء به رسولنا وهو موافق لشرع جده ابراهيم ومؤيد له وقد

مضى على نزول هذه الآية خمس وخمسون سنة وثلاثمائة والف وهي تتلى عليهم ليل نهار ولم يرتدع أولئك الأعراب عن هذه العادة الخبيثة وكان في صحفهما ايضا ما ذكره اللّه بقوله : "وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى 39" اي لا يثاب الإنسان بعمل غيره له كما لا يعاقب ولا يضاعف له الأجر كأنه محمد بل يعطي له أجره بحسب عمله فقط .

وهذا مخالف لشريعتنا التي جاءنا بها محمد صلّى اللّه عليه وسلم إذ يضاعف لنا الأجر من واحد إلى سبعمائة إلى ما شاء اللّه وان سعى الغير لها ينفعها ، قال تعالى (مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ) الآية 74 من الفرقان الآتية وقال (وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ) الآية 87 من سورة الأنعام من ج 2 ، وقال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) الآية 20 من سورة الطور والآية 9 من سورة المؤمن من ج 2 أيضا ، ولهذا البحث صلة في تفسير الآية ، 2 من سورة الرعد في ج 3 ، ومن هنا تعلم أن اللّه تعالى أدخل الأنبياء الجنة بعمل آبائهم الصالحين يؤيده ما ورد عن ابن عباس أن رجلا قال لرسول اللّه ان أمي توفيت أينفعها ان تصدقت عليها قال نعم .

وفي رواية ان سعد ابن عبادة أخا بني سعد وذكر نحوه ، وأخرجه البخاري وفي هذا البحث أحاديث كثيرة صحيحة سنأتي بها هناك ، وما قيل إن هذه الآية منسوخة بالأحاديث المذكورة أعلاه لا وجه له لان الحديث لا ينسخ القرآن كما بيناه في بحث الشيخ في المقدمة وكما سيأتي في تفسير الآية 10 من البقرة من ج 3 ولأن هذه الآية مما قصه اللّه علينا من شرع من قبلنا وكل ما شرع للأنبياء أن كان موافقا لشرعنا قبلناه ، وإلا فنعمل بما هو لدينا ، لأن ذلك من خصائصهم والمقدم لا يسري حكمه على المؤخر قال تعالى "وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى 40" يعرض عليه في الآخرة ويوضع

في ميزانه وفي هذه الآية بشارة بأن اللّه تعالى يري المؤمن أعماله الصالحة ليفرح بها والكافر أعماله الطالحة ليحزن

"ثُمَّ يُجْزاهُ" أي يجزى الإنسان بفعله "الْجَزاءَ الْأَوْفى 41" الأتم الأكمل ان خيرا فخير كثير وان شرا فشر مثله ، راجع الآية 160 من سورة الانعام من ج 2 "وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى 42" المرجع والمصير بعد هذه الدنيا إذ ينتهي كل شيء يوم القيامة اليه لا لأحد غيره ، كما أن الأفكار لا تزال تسير في بدء حقائق الأمور وما هيأتها فتنتقل من بحث إلى بحث ومن برزخ إلى برزخ حتى إذا وصلت إلى اللّه انتهت ووقفت وتعطل سيرها في بحر غيبه ، لأن الغيب ما غاب عن الناس وتفرد به ربهم عز وجل إذ لا غيب عليه ، ومن قال ان اللّه لا يعلم الغيب أراد هذا المعنى يعني لا غيب عليه لأن كل شيء عنده معلوم ، غير .

أنه لا ينبغي أن يقال لما فيه من نسبة النفي عليه تعالى وتنزه عنه ، حتى ان الإمام الرباني لما عرضت عليه هذه المسألة اغتاظ جدا لما فيها من النقص عليه ، تنزه عنه ، وعليه فإن من يقدم على هكذا أسئلة فإنه في غاية من الفتنة ونهاية من الجهل ، وأفظع من هذا من يقول ان اللّه لا يقدر على أن يخرجني من ملكه في معرض سماعه ان اللّه على كل شيء قدير ، لأنه وإن كان من حيث المعنى صحيح لأنه أينما قذفته فهو في ملكه ، إلا أنه لا يقال لما في ظاهره من إيقاع الشك للجاهل ، تدبر ، وإياك أن تقدم على مثله .

مطلب في الغيب وأنه قسمان :

واعلم أن الغيب قسمان غيب حقيقي لا يعلمه إلا اللّه ، وغيب اضافي قد يعلمه بعض الخلق بأسباب تختلف باختلاف الاستعداد الفطري والعمل الكسبي ، ومن أظهره اللّه على بعض الغيب الحقيقي من رسله فليس لهم كسب فيه لأنه من خصائص النبوة ، والنبوة غير مكتسبة لأحد ولو رقى في العلم أعلى رتبة ، راجع ص 421 إلى ص 469 من الجزء السابع وص 513 من الجزء التاسع في تفسير الأستاذ محمد رشيد رضا المنسوب إلى الإمام محمد عبده .

هذا ومن دون الأنبياء خواص قد أوتوا نصيبا من الإشراف على العالم باكتشاف للحجاب وإدراك ما بشيء من تلك

(68/731)

الأنوار قال صلّى اللّه عليه وسلم لو كشف الحجاب وفي رواية الغطاء ما ازددت يقينا ، وذلك لأن اللّه تعالى شرح صدره فكان على نور من ربه بلغ به مقام الاطمئنان ، ووقع لمن دونه في العرفان ، رواية النور العيني عيانا ورأوا الملائكة ، عدا أن جبريل كانت رؤيته في صورة دحية الكلبي ووقع لمن دون الآخرين ممن لهم سلامة فطرة أو معالجة النفس بالرياضة ، أو طروء مرض يصرف قوى النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد ، أو من سلطان إرادة قوية على إرادة ضعيفة تصرفها عن حسها وتوجه قواها النفسية إلى ما شاءت أن تدركه لقوتها الخاصة بها ، فقد يكون لبعض هؤلاء في بعض الأحوال من قوّة الروح ما يلمحون به بعض الأشياء أو الأشخاص البعيدة عنهم .

وتتمثل لهم بعض الأمور قبل وقوعها في عالم الشهادة ، فترتسم بخيالهم فيخبرون بها فتقع كما أخبروا ، وقد ثبت هذا وذاك عند بعض الماديين في هذا الزمن مما يسمونه قراءة الأفكار ، أو مراسلتها ، ومن هذا ما ذكرت جريدة المقطّم في 1 صفر سنة 1354

(الموافق مايو سنة 1935) عن العرافة (مدام ترفران ليلى) أنّها قالت للوزراء والملوك والرؤساء بأنه سيقتل رئيس جمهورية فرنسا .

ويعود كارول ملك رومانيا المنفي إلى بلاده ، ويصير أحمد زوغو ملكا على ألبانيا ، ويصير انقلاب في ألمانيا ، ثم وقع ما قالت على علم من قبل الملأ .

هذا وإن الأمور التي تكون على غير السنن المعروفة ، والعادات المألوفة الخارقة للعادة ، نقلتها جميع الأمم في كل العصور نقلا متواترا جنسا لا نوعا .

فهذه ليست كلها خوارق حقيقية لأن منها ماله أسباب مجهولة ، ومنها ما هو صناعي بتعليم خاص ، ومنها ما هو من خصائص قوى النفس في توجهها لمطالبها .

وفي تأثير قوى الإرادة على ضعيفها ، ويدخل فيها المكاشفة والتنويم المغناطيسي وشفاء بعض المرضى بالأمراض العصبية التي يؤثر فيها الإعتقاد والوهم وبعض أنواع العمى والفالج .

(69/731)

ومنه انخداع البصر بالتخيل الذي يحذقه المشعوذون ، ومن هذا سحرة فرعون .

ومنه انخداع السمع لمن يدعى استخدام الجن ويسمع الناس أصواتا غريبة ، أو يتكلمون في

بطونهم .

فيظن الناس أنه صوت الجن ، وقد انفضح كثير من أمثال هؤلاء بالاطلاع على حيلهم ، فهذا كله لا يوثق

به ، لأنهم لو كانوا صادقين لتنافس فيهم الملوك ، ولما كانوا سائلين ، راجع المجلد 2 و6 من المنار تجد ما تتبعته وتبتغيه .

واعلم أن الذين يخضعون لهؤلاء الدّجالين ويجهلون ما كشفه العلماء من حيلهم فيسلبون أموالهم ، ويهتكون أعراضهم ، لا سيما الذين يدعون أنها كرامات وهم مشهورون بالجهل واللهو ، والذين يدعون معرفة علم الكيمياء من قلب الصفر ذهبا والرصاص فضة ، وغير ذلك من هذه الترهات المنشورة في الغرب أكثر منها في الشرق ، فيجب على أولي الأمر تنويرهم وتفهيمهم .

مطلب الكرامة ومصدرها والشعرى ومن يعبدها :

أما المشهورون بالصلاح والفقه والعلم فقد تظهر على أيديهم كرامات ، لكن لا كسب لهم بها ، كما ان المعجزات لا كسب للأنبياء بها ، لأنها قد تكون عفوا من اللّه .

والقاعدة أن كل ما جاز أن يكون معجزة للنبي ، جاز أن يكون كرامة للولي .

ولو كانت بكسب البشر لما خاف موسى من عصاه حينما تحولت حية ، تأمل قوله تعالى "وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمى " الآية 17 من الأنفال في ج 3 ، وقوله تعالى "قُلْ

سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا" الآية 92 من الإسراء الآتية ، وقوله جل قوله (قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ) الآية 109 من الانعام في ج 2 ، وقد أخبر عمر رضي اللّه رجل بأنه رأى رجلا يعلم الغيب فقال له : لا يعلم الغيب إلا اللّه .

(70/731)

وقال له : اقبض قبضة من شيء لا تعلم عدده واسأله عنها ليظهر لك كذبه ، فذهب اليه وفعل ما أمره به عمر وسأله فلم يعرف عدده ولا نوعه ، فرجع إلى عمر وأخبره الخبر فقال له : إذا كنت تعرف شيئا هو راسخ في قلبك ، فيمكن أن يعرفه أمثال هؤلاء ، إذ يوشك أن ينقله وسواسك إلى وسواسه في قلبه فيخربه .

ومن هذا ما يسمونه بقراءة الافكار ، ومن أراد أن يطلع على بعض حيل المشعوذين ، فليراجع كتاب كشف أسرار المحتالين يجد فيه العجاب طهر اللّه قلوبنا من الزيغ ووفقنا لمعرفة عيوبنا .

قال تعالى : "وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ" العبد بخلق ما يسره ويبهره "وَأَبْكَى 43" عبده بخلق ما يسوءه ويحزنه ، فأفرح

المؤمن في الجنة بثواب عمله الصالح في الدنيا ، وأحزن الكافر في النار بعقاب عمله الطالح في

الآخرة.

روى البخاري ومسلم عن النبي قال: خطب النبي صلّى اللّه عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، فغطّى أصحاب رسول اللّه وجوههم لهم خنين بكاء مع صوت يخرج من الأنف - "وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ" خلقه في الدنيا بعد انتهاء آجالهم فيها "وَأَحْيَا 44" من أماته في الآخرة بعد انقضاء أجلهم في البرزخ.

وجاء بلفظ الماضي لتحقق وقوعه مثل أتى أمر اللّه بمعنى يأتي وأعقبه بالجملة قبله، لأن الموت يعقبه البكاء، والولادة أي الإحياء يعقبها الضحك، وقيل في هذا المعنى:

ولدتك أمك يا ابن آدم باكيا والناس حولك يضحكون سرورا

فاجهد لنفسك أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكا مسرورا

أي عند ربك بما قدمت من عمل صالح، راجع الآية 11 من سورة غافر في ج 2.

(71/731)

قال تعالى: "وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ" راجع تفسيرها في الآية 3 من سورة الليل المارة، وكذلك ما يتعلق في قوله: "الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى 45" المخلوقين "مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى 46" تقذف وتنصب

في الرحم (أما النبات فبالاختلاط والتلقيح . . .) وفي هذا تنبيه عظيم على قدرة القادر وعظمها وكمالها ، لأن النطفة واحدة ويكون فيها أنثى وذكر بتقديره ، وهذا مما لم يصل إليه الفهم ولم يتصوره العقل بعد ، لأنهم حتى بعد تكوينه ووجوده في الرحم لم يعرفوا ما في الرحم هل هو ذكر أم أنثى ؟ حتى ولا بعد تمام خلقه ، لذلك كان في الخمس التي لا يعلمهن على الحقيقة إلا الله "وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى 47" الإحياء بعد الإماتة للحساب والجزاء كما كان عليه النشأة الأولى للعمل والثواب "وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنى " عباده من الذهب والفضة والجواهر ، وصنوف الأموال ، وإضراب الأعيان ، مما يدخر ومما لا "وَأَقْنى 48" خلقه المذكورين من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير والبغال وسائر أصناف النعم والمواشي "وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى 49" هي نجمتان الأولى شامية والأخرى يمانية وتفصل بينهما المجرة ، فالأول كوكب يضيء خلف الجوزاء

ويسمى العبور ، والأخرى كوكب في ذراع الأسد المبسوط وتسمى العميصاء وهي أخفى من العبور ، وسميت عبورا بفتح العين لأنها عبرت المجرة فلقيت سهيلا ، وكانت خزاعة تعبدها ، وأول من سنّ لهم عبادتها شريفهم أبو كبشة لأن سيرها يخالف سير النجوم لأنها تقطع السماء طولا والنجوم عرضا فأخبرهم الله بأنه هو رب معبودهم ، ولذلك لقب أبو جهل غضب الله عليه حضرة الرسول صلوات الله عليه بابن أبي كبشة ، لأنه جاءهم على

ما يزعم بدين على خلاف دينهم الذي اعتادت العرب عليه تشبها له به في خلافه إياهم كما خالفهم أبو كبشة ، وإنما خص اللّه تعالى الشعرى بالذكر دون غيرها لهذا السبب .

(72/731)

ويقول الفلكيون بأنها أعظم من الشمس بملايين وان نورها لا يصل إلى الأرض إلا بمدة اثنتين وعشرين سنة بيد أن نور الشمس يصل إلى الأرض في بضع دقائق ولا يخفى أن هذا من قبيل الظن لأن مبنى مذهبهم في تقدير النجوم وسيره على الحدس إذ غاية ما يعتمدون عليه المكبرات والقياس ولا يخلوان من خطأ (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى 50) هم قوم هود عليه السلام وهم أول الخلق هلاكا بريح صرصر بعد قوم نوح عليه السلام وصار لهم عقب فسموا عادا الأخرى أهلكهم اللّه أيضا راجع تفسير الآية 6 من سورة الفجر المارة تجد قصتهم مفصلة (وثمود) قوم صالح عليه السلام أهلكهم بالصيحة
"فَما أَبْقى 51" منهم أحدا "وَقَوْمَ نُوحٍ" أهلكهم بالغرق من قبل عاد وثمود "إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغى 52" ممن تقدمهم من الأمم إذ بقي يدعوهم إلى اللّه تسعماية وخمسين سنة وهم مكبون على الطغيان لا يصغون لما اليه يدعوهم من الإيمان "وَالْمُؤْتَفِكَةَ" قرى قوم لوط عليه السلام "أَهْوى 53" أسقطها بعد أن رفعها جبريل عليه السلام إلى السماء "فَغَشّاها"

من البلاء العظيم "ما غَشَّى 54" منه فيه تهويل وتفظيع للعذاب الذي صبه عليهم فكأنه ألبسها إلباسا راجع قصص هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم في تفسير الآية 58 فما بعدها من سورة الأعراف الآتية ، وفي الآية 44 فما بعدها من سورة هود في ج 2 ، قال تعالى "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ" أيها الإنسان "تَتَمارى 55" تشك وتكذب لأنها نعم عظيمه لا تستطيع حصرها قال تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها)

(73/731)

الآية 34 من سورة ابراهيم من ج 2 ، فيا أيها الناس "هذا" نبيكم محمد "نَذِيرٌ" لكم بهذا القرآن "مِنَ النُّذُرِ الْأُولى 54" الذين أرسلوا إلى أقوامهم لينذروهم بما أوحى إليهم ربهم من الشرائع فعليكم أن تطيعوه وتؤمنوا به ولا تتوانوا إذ "أَزِفَتِ" قربت الساعة "الْآزِفَةُ 57" أي القيامة الموصوفة بالقرب وانها إذ حضرت "لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ 58" أي الحالة التي تقع فيها على الناس لا يقدر أن يزيلها عنهم أحد الا اللّه إذ كل نفس عاجزة عن ازاحة ما يصيبها ولا يعلم وقتها إلا اللّه ، راجع الآية الأخيرة من سورة لقمان من ج 2 ، قال تعالى (لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ) الآية 156 من الأعراف الآتية "أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ" القرآن القديم المحدث نزوله عليكم في علم اللّه الأزلي "تَعْجَبُونَ 59" أيها الناس وتنكرون حقيقته

"وَتَضْحَكُونَ" منه استهزاء به وبمن أنزل عليه "وَلا تَبْكُونَ 60" خشوعا وخوفا من منزله وتعرضون عما فيه من الوعيد

"وَأَنْتُمْ سامِدُونَ 61" غافلون لاهون بما لديكم من الدنيا معرضون عن الآخرة .

والسمود بلغة اليمن الغناء وفي اللغة رفع الرأس يقال سمد البعير إذا رفع رأسه وجد في السير والسامد اللاهي ، أي وأنتم لاهون عنه بالغناء غافلون عن سماعه بلعبكم ، فتيقظوا أيها الناس وإذا آمنتم به "فَاسْجُدُوا لِلَّهِ" شكرا على إرسال واحد منكم من قبل ربكم لإرشادكم وهدايتكم لسبيله "وَاعْبُدُوا 62" اللّه وحده ولا تشركوا به شيئا مما يعبده المشركون الضالون المهلكون .

مطلب في السجود وقصة الغرانيق :

روى البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن مسعود أن رسول اللّه قرأ سورة النجم فسجد فيها وسجد من كان معه غير أن شيخا من قريش (هو أمية بن خلف) أخذ كفا من حصباء أو تراب فرفعه إلى جبهته وقال يكفي هذا ، قال عبد اللّه فلقد رأيته بعد قتل كافرا .

وروى البخاري عن ابن عباس أن رسول اللّه سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس .

والحكم الشرعي سجود التلاوة واجب عند الحنفية استدلالا بهذين الحديثين لأن الأمر في هذه الآية للوجوب وبه ت (14)

قال سفيان الثوري .

وقال الشافعي وأحمد ومالك سنة استنادا لما رواه البخاري ومسلم عن زيد بن ثابت قال : قرأت على رسول اللّه والنجم فلم يسجد فيها .

وهذا لا ينفي الوجوب لأنه عبارة عن واقعة حال إذ يجوز ترك السجود لوقوع القراءة في وقت مكروه أو على غير وضوء لأنهم كانوا يقرأون القرآن عن ظهر الغيب لا بالمصاحف تلقيا وحفظا من رسول اللّه أو أن الرسول لم يسجد ليبين للناس أن السجود غير واجب على الفور ، وهذا محمل حديث عمر المروي في الموطأ من أنه رضي اللّه عنه قرأ سجدة وهو على المنبر فلما نزل سجد وسجد معه الناس ثم قرأها في جمعة أخرى فتهيأ الناس للسجود فقال على رسلكم ، إن اللّه لم يكتبها علينا إلا ان نشاء ، فلم يسجد ، ومعنى هذا أن اللّه لم يفترضها كالصلوات الخمس ولم يوجبها حالة قراءتها ولو أوجبها حالا لما جاز أن يقرأها أحد عن ظهر غيب إلا وهو متوضئ .

هذا ، ومن أراد زيادة التفصيل في هذا البحث فليراجع ص 414 من الجزء الأول من الهداية .

(75/731)

والسبب في سجود المشركين أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم كان إذا قرأ يرتل القرآن ويفصل الآي أي يسكت سكتة خفيفة بين الآيتين ، ولما قرأ (أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى) إلخ بمحضر المسلمين وقريش ، ترصد الشيطان تلك السكتة فدسّ فيها ما اختلقه وهو جملة (تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى) محاكيا بها صوت النبي صلّى اللّه عليه وسلم فسمعه ممن دنا من الكفار فظنوها من الرسول ورأوه قد سجد هو ومن معه من المؤمنين فسجدوا معه ، سرورا بذكر آلهتهم وشاع الخبر في الآفاق حتى ان المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة أوائل سنة خمس من البعثة سنة نزول هذه السورة عادوا فرأوا الأمر على خلاف ما سمعوا فمنهم من دخل بجيرة غيره ومنهم من اختبأ ومنهم من عاد لهجرته ، ولما عرف رسول اللّه ذلك حزن وضاق ، فأنزل اللّه عليه مساء ذلك اليوم تسلية له وتعزية عما لحقه من الأسف قوله جل قوله "وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ" الآية 52 فما بعدها إلى 55 من سورة الحج من ج 3 ، ومعنى تمنى

قرأ ، قال حسان في عثمان بن عفان رضي اللّه عنهما حين قتل وهو يقرأ :

تمنى كتاب اللّه أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

وقال غيره :

تمنى كتاب اللّه أول ليلة تمني داود الزبور على رسل

(76/731)

و معنى "فِي أُمْنِيَّتِهِ" قراءته كما سيأتي في تفسير تلك الآيات في محلها ان شاء اللّه ، ولهذا ظن بعض المفسرين أن سورة الحج مكية والحال أنها مدنية عدا هذه الآيات ، ولما تحقق عند حضرة الرسول ذلك أخبر المسلمين وقريشا بأن تلك الكلمات من الشيطان القاها أثناء سكوته بين الآيتين ، أما من قال ان تلك الكلمات صدرت عن حضرة الرسول فقد أخطأ وزاغ ، لأنه إذا قال تكلم بها عمدا فقد كفر لأنه يعد مادحا للأصنام التي ذمها اللّه وبعثه لأجل تحطيمها ومنع الناس من عبادتها فكيف يتصور منه مدحها ؟ وإذا قال أجراها على لسانه سهوا أو غفلة فمردود لأنه لا يجوز وجود الغفلة والسهو حال تبليغ الوحي لأنه يسبب عدم الاعتماد على قوله ولأن اللّه تعالى وصف القرآن بقوله "لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ" الآية 42 من سورة فصلت ج 2 وقال جل شأنه "إِنَّا نَحْنُ

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ" الآية 9 من سورة الحجر من ج 2 أيضا فعليه لا يجوز أن يدخل في التزيل شيء من ذلك ، وإذا قال ان الشيطان أجرى تلك الكلمات على لسان الرسول جبرا بحيث لا يقدر أن يمتنع منه فهو ممتنع أيضا لأن الشيطان عاجز عن ذلك في حق الغير فكيف في حق الرسول ، وقال تعالى (إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ) الآية 65 من سورة الإسراء الآتية وقال (إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) الآية 40 من سورة الصافات الآتية أيضا ، إذا لم يبق الا ان حضرة الرسول سكت عند قوله تعالى "وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى "كما هو شأنه بين الآيات فتكلم الشيطان بتلك الكلمات متصلا بقراءته فوقع عند البعض أن النبي تكلم فيها وهذا معنى الإلقاء في هذه الآية المارة الذكر من سورة الحج ، ولا يخفى أن الشيطان كان زمن الرسول ومن قبله من الأنبياء صلوات اللّه عليهم وسلامه يظهر بصورة الإنسان ويتكلم ويسمع كلامه كسائر البشر

(77/731)

كما هو ثابت في الكتب القديمة وفي حادثة قريش

حينما اجتمعوا في دار الندوة للتداول في كيفية التخلص من حضرة الرسول كما سنبينه في تفسير الآية 41 من سورة العنكبوت في ج 2 ، وفي تفسير الآية 30 من سورة الأنفال ج 3 ،

وقد ذكر اللّه عنه بأنه قال يوم بدر لكفار قريش (لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ إلخ) الآية 51 من سورة الأنفال أيضا .

وروي أنه نادى يوم أحد ألا إن محمدا قتل ، كما سيأتي في الآية 122 من آل عمران في ج 3 أيضا .

أما سجود المسلمين فلم يقدح فيهم لأنهم سجدوا مع حضرة الرسول لتحققهم من حاله في ذم الأوثان وأنهم كانوا يحفظون السورة عند تلقيها منه كما أنزلها اللّه ولم يسمعوا تلك الكلمات لذلك لم يأت ذكرها في الحديثين المارين وأن ما ذكره بعض المفسرين عن ابن عباس عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم لما تولى عنه قومه وشق عليه بعدهم تمنى أن يأتيه اللّه بما يقارب بينه وبينهم حرصا على إيمانهم وأنه لما قرأ سورة والنجم بينهم القى الشيطان على لسانه تلك الكلمات فلا عبرة به حيث رواه عنه الكلبي وهو ضعيف جدا لا يعتمد عليه ولم يؤيده أحد من أهل الصحة ولا لسنده ثقة بسند صحيح أو سليم متصل .

(78/731)

ومما يدل على توهين هذه الرواية اضطراب رواتها وانقطاع سندها واختلاف ألفاظها ، لأن منهم من قال أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم كان في الصلاة ومنهم من قال أنه كان في نادي

قومه وآخر يقول أنه قرأها في حالة سنة من النوم ، وغيره يقول أنه حدث بها نفسه ، فجرت على لسانه ، والبعض قال ان الشيطان قالها على لسانه أو بعض الكفرة تكلم بها أثناء قراءته حتى ظنوها منه ، وبعضهم قال انه لما عرضها على جبريل قال : ما هكذا اقرأتك ، مما يدل على تلفيق هذه القصة ولا غرو أن كثيرا من المفسرين والمؤرخين ولعون بنقل كل غريب شاذ ، لذلك فانهم ينقلون هذين النوعين بلا ترو لينقل عنهم هكذا مخالفات على حد خالف تعرف .

واعلم أن التمني ينحصر في معنيين لا ثالث لهما بمعنى حديث النفس وبمعنى التلاوة فعلى الأخير لا شيء فيه كما علمت ، وعلى الأول يكون معنى تمنى خطر بباله وتمنى بقلبه ولا يبعد أنه إذا قوي التمني اشتغل الخطر فحصل السهو في الأفعال الظاهرة ، الا أنه يستحيل وقوعه من النبي في كل ما يتعلق بأمر تبليغ الوحي بدليل ما مر

من الآيات المستشهد بها أعلاه ، وإذ قامت الدلائل على صدقه صلّى اللّه عليه وسلم فضلا عن أن الأمة أجمعت على أنه معصوم من الإخبار بخلاف الواقع من قبل اللّه لا قصدا ولا سهوا ولا غلطا ولا نسيانا ولا خطأ ، كيف وقد قال تعالى :

(وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى) الآية 3 المارة ، وعلى هذا فلا يجوز ذلك عليه إلا زنديق مارق منافق خائن لا حظ له في الآخرة إلا النار ، ولا نصيب له في الدنيا إلا العار هذا ، واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه وسلم على سيدنا

محمد وآله وأصحابه وأتباعه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 190 . 213 ﴾

(79/731)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة النجم

مكية إلا قوله عند سدرة المنتهى فمدني

والنجم إذا هوى قسم وجوابه ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى وهو كاف إن جعل ما بعده مستأنفا ولا توقف عليه ذلك بدلا مما ضل صاحبكم بل على يوحى وهو كاف ذو مرّة كاف ولا يوقف على شديد القوى لان ما بعده نعت له فاستوى وهو بالأفق الأعلى صالح ما أوحي حسن وقال أبو عمرو فيهما كاف ما رأى حسن ما يرى كاف ما يغشى صالح وما طغى كاف الكبرى حسن وله الأنثى صالح ضيزى كاف وكذا من سلطان وما تهوى الأنفس تام ما تمنى كاف والأولى تام وكذا ويرضى تسمية الأنثى كاف من علم صالح إلا الظن حسن وكذا من الحق شيئا الحياة الدنيا كاف من العلم تام وكذا بمن اهتدى

وما في الأرض تام عند أبي حاتم إلا اللم كاف واسع المغفرة تام وكذا بمن اتقى وأكدي كاف فغشاها ما غشا حسن ولا يوقف على شيء مما بينهما من الآيات بلا ضرورة لكن قيل انه يوقف على وقوم نوح من قبل وانه كاف وعلى أطغى وأنه تام عند من رفع والمؤتفكة تتمارى تام من النذر الأولى وكاشفة وسامدون آخر السورة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(80/731)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة والنَّجم

مكية إلا قوله عند سدرة المنتهى فمدني كلمها ثلاثمائة وستون كلمة وحروفها ألف وأربعمائة وخمسة أحرف وآيها إحدى أو اثنتان وستون آية .

والنَّجم إذا هوى قسم وجوابه ما ضلَّ صاحبكم وما غوى وقال الأخفش وغيره الوقف ما ينطق عن الهوى لأنَّ وما ينطق عن الهوى داخل في القسم وواقع عليه وهو كاف إن جعل ما بعده مستأنفاً وليس بوقف إن جعل إن هو بدلاً من قوله ما ضلَّ صاحبكم جاز البدل لأنَّ أنْ بمعنى ما فكأنَّ القسم واقع عليه أيضاً وعلى هذا فلا وقف من أول السورة إلى هذا

الموضع والتقدير والنجم إذا هوى ما هو إلا وحي يوحى ويصير إن هو إلا وحي يوحى داخلاً في القَسم وهو المختار عند أبي حاتم .

يوحى) كاف)

شديد القوى ليس بوقف لأنَّ ما بعده من نعته

ذو مرَّة (كاف) لأنَّه نعت شديد القوى ثم تبتدئ فاستوى كذا عند بعضهم فضمير استوى لجبريل وهو لمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل بالعكس وهذا الوجه الثاني إنَّما يتمشى على قول الكوفيين لأنَّ فيه العطف على الضمير المرفوع المتصل من غير تأكيد بالمنفصل والمعنى أنَّ جبريل استوى مع محمد بالأفق الأعلى وهو ضعيف وعليه لا يوقف على فاستوى ويجوز أن جعل وهو مبتدأ وبالأفق خبر .

الأعلى (كاف)

فتدلى (جائز)

أو أدنى (حسن)

ما أوحى (كاف) ومثله ما رأى وكذا ما يرى

نزلة أخرى ليس بوقف لأنَّ قوله سدرة المنتهى ظرف للرؤية ومثله في عدم الوقف المأوى لأنَّ

إذ يغشى ظرف لما قبله

ما يغشى (كاف) ومثله وما طغى

الكبرى (تام)

العزَّى ليس بوقف لأنَّ ومنوة منصوب بالعطف على العزى ورسموا ومنوة بالواو كما ترى الأخرى (حسن) وقيل تام للابتداء بالاستفهام الإنكاري

(81/731)

الأنثى (كاف) ومثله ضيزى وقيل تام قرأ ابن كثير ضئزى بهمزة ساكنة والباقون بياء مكانها ومعنى ضئزى جائرة فقراءة العامة من ضاز الرجل الشيء يضوزه بغير همز ضوزاً إذا فعله على غير استقامة ويقال ضأزه يضأزه بالهمزة نقصه ظلماً وجوراً وأنشد الأخفش على لغة الهمز

فإن تنأ عنا ننتقصك وإن تغب فسهمك مضؤز وأنفك راغم

وآباؤكم (حسن) ومثله من سلطان

وما تهوى الأنفس (تام)

الهدى (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده متصلاً بقوله وما تهوى الأنفس أي أبل للإنسان ما تمنى أي ليست الأشياء بالتمني بل الأمر لله تعالى

ما تمنى (كاف)

والأولى (تام) ومثله ويرضى

تسمية الأنثى (كاف)

من علم (جائز)

إلاَّ الظن (حسن) ومثله من الحق شيأً

الحياة الدنيا (كاف) ومثله من العلم

بمن اهتدى (تام)

وما في الأرض (تام) عند أبي حاتم على أنَّ اللام متعلقة بمحذوف تقديره فهو يضل من يشاء ويهدي من يشاء ليجزي الذين أساؤا بما عملوا وقال السمين اللام للصيرورة أي عاقبة أمرهم جميعاً للجزاء بما عملوا . بالحسنى ليس بوقف لأنَّ ما بعده بدل مما قبله

إلاَّ اللمم (كاف) على أنَّ الاستثناء منقطع لأنَّه لم يدخل تحت ما قبله وهو صغار الذنوب وقيل متصل لأنَّ ما بعده متصل بما قبله والمعنى عند المفسرين إن ربك واسع المغفرة لمن أتى اللمم

واسع المغفرة (تام) ولا يوقف على بكم ولا على من الأرض

أمهاتكم (حسن)

أنفسكم (أحسن) مما قبله

بمن اتقى (تام)

وأكدى (كاف) ومثله فهو يرى ولا يوقف هنا لأنَّ أم في قوله أم لم ينبأ هي أم العاقبة لألف الاستفهام كأنَّه قال أيعلم الغيب أم لم يخبر بما في صحف موسى أي أسفار التوارة اهـ كواشي بما في صحف موسى (جائز) عند نافع

(82/731)

وقال الأخفش وإبراهيم الذي وفى (كاف) على استئناف سؤال كأنَّ قائلاً قال وما في صحفهما فأجيب ألاَّ تزر وازرة وزر أخرى وجائز إن جعل ما بعده بدلاً من ما في قوله بما في صحف وكذا لا وقف إن جعل ما بعده في محل نصب والعامل فيه ينبأ فعلى هذين التقديرين لا يوقف على وفي قرأ العامة وفي بتشديد الفاء وقرأ سعيد بن جبير وغيره وفي بتخفيفها وخص هذين النبيين قيل لأنَّ ما بين نوح وإبراهيم كانوا يأخذون الرجل بابنه وأبيه وعمه وخاله وأول من خالفهم إبراهيم عليه السلام ومن شريعة إبراهيم إلى شريعة موسى عليه السلام كانوا لا يأخذون الرجل بجريرة غيره ولا يوقف على شيء من أواخر الآيات اختياراً من وفى إلى ما غشى وذلك في ثلاثة عشر موضعاً لاتصال الآيات وعطف بعضها على بعض فلا يوقف على أخرى ولا على ما سعى ولا على يرى ولا على الأوفى ولا على المنتهى وإن جعلت كل موضع فيه أنَّ معه مبتدأً محذوفاً حسن الوقف على أواخر الآيات

إلى قوله وقوم نوح من قبل فهو معطوف على ألا تزر وقيل يوقف على رأس كل آية وإن كان البعض معطوفاً على البعض لأنَّ الوقف على رؤوس الآيات سنة وإن كان ما بعده له تعلق بما قبله فيوقف على وقوم نوح من قبل وعلى وأطغى لمن رفع والمؤتفكة أو نصبها بأهوى وأهوى ليس بوقف لمكان الفاء

ما غشَّى (حسن) للابتداء بالاستفهام

تتمارى(تام) عند أبي حاتم ومثله من النذر الأولى وكذا الآزفة على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل حالاً أي أزفت الآزفة غير مكشوفة

كاشفة (كاف)

سامدون (تام) أي لاهون وقيل الحزين والسمود بلغة حمير الغناء يقول الرجل للمرأة اسمدي لنا أي غني لنا ونزل جبريل يوماً وعند الرسول رجل يبكي فقال له من هذا الرجل فقال فلان فقال جبريل إنَّا نزن أعمال بني آدم كلها إلاَّ البكاء فإنَّ الله يطفىء بالدمعة بحوراً من نار جهنم آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(83/731)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة النجم :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ : "جَنَّةُ الْمَأْوَى1" ، بالهاء – على "عليه السلام" وابن الزبير – بخلاف – وأبو هريرة وأنس – بخلاف – وأبو الدرداء وزر بن حبيش وقتادة ومحمد بن كعب .

قال أبو الفتح : يقال : جن عليه الليل ، وأجنه الليل ، وقالوا أيضا : جنه ، بغير همز ، ولا حرف جر .

وروينا عن قطرب ، قال : سأل ابن عباس أبا العالية : كيف تقرءونها يا أبا العالية ؟ فقال : "عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى" ، فقال : صدقت ، هي مثل الأخرى : "جَنَّاتُ الْمَأْوَى" فقالت عائشة – رحمة الله عليها – : من قرأ : "جَنَّةُ الْمَأْوَى" يريد جن عليه ، فأجنه الله . قال قطرب أيضا : وقد حكى عن علي – عليه السلام – أنه قرأ "جنة" ، يعني فعله .

قال أبو حاتم : روى عن ابن عباس وعائشة وابن الزبير قالوا3 : من قرأها4 : "جَنَّةُ الْمَأْوَى" فأجنه الله ، قال : وقال سعد بن مالك : وقيل إن فلانا يقرأ : "جَنَّةُ الْمَأْوَى" ، فقال ماله أجنه الله ؟ وروى أيضا أبو حاتم عن عبد الله بن قيس قال : سمعت عبد الله بن الزبير يقرؤها : "جَنَّةُ الْمَأْوَى" ، بالهاء البينة ، قال : يعني فعله المأوى ، والمأوى هو الفاعل ، فقد

ترى إلى اختلاف هذا الحديث . والذي عليه اللغة أن جنه الليل : أدركه الليل ، وجن عليه الليل ، وأجنه : ألبسه سواده . جن عليه الليل جنونا وجنانا ، وأجنه أجنانا . قال :

ولولا جنون الليل أدرك ركضنا بذي الرمث والأرطي عياض بن ناشب5

---

1 سورة النجم : 15 .

2 سورة السجدة : 19 .

3 ساقطة في ك .

4 في ك : قرأ .

5 لدريد بن الصمة ، وقيل : لخفاف بن ندبة . ويروى "جنان" مكان "جنون" و"خلينا" مكان "ركضنا" . وعياض بن ناشب من فزارة, وانظر اللسان "جن" .

(84/731)

والمعنى الجامع لتصريف ج ن ن أين وقعت إنما هو الاستخفاء والستر . ومنه الجن ، والجنة . والجان ، [153و] والجنان لاستتار الجن ، ومنه المجن – للترس – لسرته ، ومنه الجنين لاستتاره في الرحمن ومنه الجنة ؛ لأنها لا تكون جنة حتى يكون فيها شجر ، وذلك ستر لها ، والجنان : روح القلب لاستتار ذلك ، والجنن : القبر ، وعليه بقية الباب .

ومن ذلك قراءة ابن عباس ومنصور بن المعتمر 1 وطلحة : "اللَّات2" .

قال أبو الفتح : روينا عن قطرب : كان رجل بسوق العكاظ3 يلت السويق والسمن عند صخرة ، فإذا باع السويق والسمن صب على الصخرة ، ثم يلت . فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة ، إعظاما لذلك الرجل صاحب السويق . قال أبو حاتم : كان رجل يلت لهم السويق ، فإذا شرب منه أحد سمن ، فعبدوا ذلك الرجل . وحكى أبو الحسن فيها "أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ" ، بكسر التاء . وذهب إلى أنها بدل من لام الفعل4 ، بمنزلة التاء في كبت5 وذيت ، وأن الألف قبلها عين الفعل ، بمنزلة ألف شاة وذات مال .

ومن ذلك قراءة النبي "صلى الله عليه وسلم" : "الَّذِي وَفَّى6" ، خفيفة . واختلف عنه ، وهو قراءة أبي أمامة وسعيد بن جبير وابن السميفع وأبي مالك .

---

1 هو منصور بن المعتمر أبو عتاب السلمي الكوفي ، عرض القرآن على الأعمش ، وروى عن إبراهيم النخعي ومجاهد وعرض عليه حمزة ، وروى عنه سفيان الثوري وشعبة . وتوفي سنة 133 . طبقات ابن الجزري" 2 : 314 .

2 سورة النجم : 19 .

3 في ك : عكاظ .

4 قال أبو حيان : والتاء في اللات قيل : أصلية لام الكلمة كالباء في باب ، وألفه منقلبة – فيما يظهر – من ياء ، لأن مادة ليت موجودة . فإن وجدت مادة لوت جاز أن يكون منقلبة

عن واو . وقيل : التاء للتأنيث ، ووزنها فعلة من لوى ، قيل : لأنهم كانوا يلوون عليها ويعكفون للعبادة . أو يلتوون عليها ، أي يطوفون حذفت لامها . البحر : 8 : 106 .

5 قال الليث : تقول العرب : كان من الأمر كيت, وكات . قال : وهذه التاء في الأصل هاء ، مثل ذيت . والأصل كية وذية . فصارت تاء في الوصل . انظر اللسان "كيت"

ونقول : إن محاولة تصريف أمثال هذه الكلمات المجهولة الأصل تكلف لا غناء فيه . ولا حاجة ماسة إليه .

6 سورة النجم : 37 .

(85/731)

قال أبو الفتح : هذا على تسمية المسبب باسم سببه . ألا ترى أن معناه الذي وعد ذلك ، فوفي بحاضره وسيفي بغائبه يوم القيامة ؟ وذلك منهم لصدق الوعد ، أي : إذا قال فقد فعل ، أو قد وقع ما يقوله . وهذا كقولهم : وعد الكريم نقد ، ونقد اللئيم وعد . وأخذه بعض المولدين فقال في صفة باز أو شاهين :

مبارك إذا رأى فقد رزق

وما أسمعه ! وأصله لامرئ القيس في وصف الفرس :

إذا ما غدونا قال ولدان أهلنا تعالوا إلى أن يأتي الصيد نحطب1

ومن ذلك قراءة طلحة : "ليس لها مما يدعون من دون الله كاشفة وهي على الظالمين ساءت الغاشية2" .

قال أبو الفتح : هذه القراءة تدل على أن المراد بقراءة الجماعة : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ – حذف مضاف بعد مضاف . ألا ترى أن تقدير : ليس لها من جزاء عبادة معبود دون الله كاشفة ؟ فالعبادة على هذا مصدر مضاف إلى المفعول ، كقوله : ﴿ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ3 ﴾ ، و ﴿ لا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ4 ﴾ ، ثم حذف المضاف الأول ، فصار تقديره : ليس لها من عبادة معبود دون الله كاشفة ، ثم حذف المضاف الثاني الذي هو "عبادة" ، فصار تقديره : ليس لها من معبود دون الله كاشفة ، ثم حذف المضاف الثالث ، فصار إلى قوله : ليس لها من دون الله كاشفة .

وهذا على تقديرك "دون الله" اسما هنا ، لا ظرفا ، لأن الإضافة إليه تسلبه معنى الظرفية التي فيه ، كقولهم :

يا سارق الليلة أهل الدار5

---

1 ليس للشاعر في ديوانه قصيدة من وزن الشاهد ورويه إلا قصيدة :

خليلي مرا بي على أم جندب

ولم نعثر على هذا الشاهد . وانظر الديوان : 41 . وهذا والولدان : جمع الوليد ، وهو

العبد .

2 سورة النجم : 58 .

3 سورة ص : 24 .

4 سورة فصلت : 49 .

5 الكتاب : 1 : 98 ، 59 .

(86/731)

وتلك عادة سيبويه إذا أراد تجريد الظرف من معنى الظرفية ، فإنه يمثله بالإضافة إليه ، وذلك مما ينافي تقدير حرف الجر معه ؛ لأن حرف الجر يسقط ، فلا يعترض بين المضاف والمضاف إليه .

ولا تستنكر كثرة المضافات المحذوفة هناك ، فإن المعنى إذا دل على شيء وقبله القياس أمضى على ذلك ولم يستوحش منه [153ظ] ألا ترى إلى قول الله "سبحانه" : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ1 ﴾ ؟ ألا تراه أن معناه : من تراب أرض أثر وطء حافر فرس الرسول ، أي من تراب الأرض الحاملة لأثر وطء فرس الرسول . المعنى على هذا ؛ لأنه في تصحيحه من تقريه لاستيفاء 2 معانيه ، وإذا دل الدليل كان التعجب من حيلة

العاجز الذليل .

وقوله : "وهي عَلَى الظَّالِمِين ساءت الغاشية" – هذا جار مجرى قولهم : زيد بئس الرجل ؛ لأن ساء بمعنى بئس ، و"الغاشية" هنا جنس ، والعائد منها إلى "هي" ضمير يتجرد ويماز من معنى الجماعة ، كقولهم : زيد قام بنو محمد ، إذا كان محمد أباهم ، فكأنه قال : زيد قام في جملة القوم ، كما أن قولك : زيد نعم الرجل العائد عليه في المعنى ذكر يخصه من جماعة الرجال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 292. 295﴾

---

1 سورة طه : 96 .

2 في ك : لاستبقاء . وهو تحريف .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة النجم

مكية وآيها ستون وآية غير كوفي وحمصي واثنان فيهما خلافها ثلاث من الحق شيئا كوفي عن من تولى شامي إلا الحياة الدنيا غير دمشقي مشبه الفاصلة وتضحكون القراآت عن الحسن والنجم بضم النون وأمال رؤوس الآي في هذه السورة حمزة والكسائي وخلف وقلله

الأزرق قولا واحدا مطلقا كما مر وأما أبو عمرو فله في الرائي الإمالة المحضة كحمزة ومن معه وفي غيره الفتح والصغرى تنبيه عن من تولى رأس آية في الشامي فيفتحها أبو عمرو وأما رآى ورآه فتقدم حكمهما في الأنعام وغيرها

واختلف في ( ) ما كذب (الآية 11 فهشام وأبو جعفر بتشديد الذال أي ما رآه سيدنا محمد بعينه صدقه قلبه ولم ينكره وما موصولة مفعول به والعائد محذوف وافقهما الحسن والباقون بتخفيفها على جعله لازما معدى بفي وما الأولى نافية والثانية مصدرية أو موصولة منصوبة بالفعل بعد إسقاط الجر وقيل متعد لواحد أي صدق قلب محمد في رؤية ربه تعالى في قول ابن عباس رضي الله عنه أو صدق قلبه في رؤية عينه عند ربه في قول وجبرائيل في آخر بل صح عن ابن عباس أنه رآى ربه تعالى بعيني رأسه وعليه الجمهور قال الإمام الكبير الرباني أحمد الرزاز في كتابه الشهاب الثاقب ولقد أعجب لمن إذا ذكرت له رؤية النبي ليلة الإسراء يؤول ذلك ويحتج لقصور علمه لاستحالة رؤية الحق في الدنيا وأين ذلك الحال الشريف من الدنيا وحالها الأدنى ولقد بلغ إلى مقام من القرب يتعالى عن حكم الدارين فما الدنيا والآخرة بمحل لمثل ما وقع له إذ ذاك فالمقام الذي وصل إليه في تداني القرب أعز وأجل مما يكون به الواحد منا في الدار الآخرة أهلا للرؤيا والمكالمة انتهى ملخصا

واختلف في (أفتمارونه) الآية 12 فحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بفتح التاء وسكون الميم بلا ألف من مريته إذا علمته وجحدته وعدي بعلى لتضمنه معنى الغلبة وافقهم الأعمش والباقون بضم التاء وفتح الميم وألف بعدها من ما راه يماريه مراء جادله وأمال حمزة وحده مازاغ وكذا زاغوا بالصف وفتحهما الباقون

وقرأ أفرأيتم بتسهيل الثانية نافع وللأزرق أيضا إبدالها مع المد للساكنين وحذفها الكسائي وأثبتها الباقون مخففة

واختلف فياللات) فرويس بتشديد التاء مع المد للساكنين ورويت عن ابن عباس رضي الله عنه وابن كثير ومجاهد وطلحة قال ابن عباس كان رجلا بسوق عكاظ يلت السمن والسويق عند صخرة ويطعمه الحاج فلما مات عبدوا الحجر الذي كان عنده إجلالا لذلك الرجل وسموه باسمه قال في الدر فهو اسم فاعل في الأصل غلب على هذا الرجل والباقون بتخفيفها اسم صنم لثقيف بالطائف ووقف على تائها بالهاء الكسائي واختلف في (مناة) الآية 20 فابن كثير بهمزة مفتوحة بعد الألف فيمد مدا متصلا وافقه ابن محيصن والباقون بغير همزة وهما لغتان وقيل الأولى من النوء وهو المطر لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركا به فوزنها حينئذ مفاعلة وألفها منقلبة عن واو وهمزتها أصلية وميمها زائدة والثانية مشتقة من منى يمني صب لصب دماء النحائر عندها وهي صخرة على

ساحل البحر تعبدها هذيل وخزاعة ووقف عليها الجميع بالهاء للرسم وقرأ ضئزى بهمزة ساكنة ابن كثير والباقون بياء مكان الهمزة كما مر في الهمز المفرد وأدغم دال ولقد جاءهم أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وعن ابن محيصن بخلفه ليجزي الذين ويجزي بنون العظمة فيهما والجمهور بياء الغيب

وقرأ (كبائر) الآية 32 بكسر الباء الموحدة بلا ألف ولا همز على التوحيد حمزة والكسائي وخلف والباقون بفتح الباء ثم ألف فهمزة على الجمع وسبق بالشورى

(89/731)

وقرأ (أمهاتكم) الآية 32 بكسر الهمزة والميم وصلا حمزة وكسر الكسائي الهمزة فقط فإن ابتدا ضما الهمزة وفتحا الميم كالباقين فيهما ومر بالنساء

وأمال تولى وأعطى حمزة والكسائي وخلف وقللهما الأزرق بخلفه في أعطى لكونها ليست برأس آية وأبو عمرو على قاعدته في تولى وأبدل أبو جعفر أم لم ينبأ وحده كوقف حمزة وهشام بخلفه

وقرأ (إبراهيم) الاية 37 بالألف هشام وابن ذكوان بخلفه وعن ابن محيصن الذي وفى بتخفيف الفاء وتقدم خلف الأزرق في ترقيق راء وزر وأدغم رويس هاء إنه هو في الأربعة

هنا بخلف عنه موافقة لأبي عمرو ويترجح الإدغام عنه في اثنين منها وأنه هو أغنى وأنه هو رب الشعرى ووافقه في الكل روح من المصباح

وقرأ (النشأة) الآية 47 بألف بعد الشين والمد ابن كثير وأبو عمرو والباقون بسكون الشين بلا ألف ومرت بالعنكبوت

(90/731)

وقرأ ( ) عادا الأولى (الآية 50 بإدغام التنوين في اللام بعد نقل حركة الهمزة إليها وصلا نافع وابو عمرو وابو جعفر ويعقوب واختلف عن قالون من طريقيه في همز الواو غير أن الهمز أشهر عن الحلواني وعدمه أشهر عن أبي نشيط كما في النشر وأما حكم الابتداء فلكل منهم وجهان أحدهما الولى بإثبات همزة الوصل وضم اللام بعدها والثاني بضم اللام وحذف همزة الوصل اعتدادا بالعارض على ما تقدم ويجوز لغير ورش وجه ثالث وهو الابتداء بالأصل فتأتي بهمزة الوصل مع تسكين اللام وتخفيف الهمزة المضمومة بعدها الواو وهذه الأوجه الثلاثة لقالون في وجه همز الواو أيضا إلا أن الوجه الثالث وهو الابتداء بالأصل لا يجوز همز الواو معه فتلخص لقالون خمسة أوجه حالة الابتداء ولورش وجهان ولباقي الناقلين ثلاثة وسبق في باب المد الخلاف في استثنائها للأزرق من المغير بالنقل

والوجهان في الشاطبية كالطيبة وعلى عدم الاستثناء فثلاثة البدل حالة الوصل سائغة له أما في الابتداء فإن لم نعتد بالعارض وأبتدأنا بهمزة الوصل فهي سائغة أيضا فإن اعتد بالعارض وابتدىء باللام مضمومة فالقصر فقط لقوة الاعتداد في ذلك كما مر تحقيقه عن النشر والباقون وهم ابن كثير وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بكسر التنوين وسكون اللام وتخفيف الهمزة من غير نقل فكسر التنوين لالتقاء الساكنين وصلا والابتداء بهمزة الوصل وعاد الأولى هم قوم هود وعاد الأخرى آدم وقيل غير ذلك

(91/731)

وقرأ ﴿ وثمودا) ﴾ الآية 51 بغير تنوين عاصم وحمزة ويعقوب الباقون بالتنوين ومر بهود وتقدم لقالون إبدال همزة المؤتفكة في أحد وجهيه من طريقيه وفاقا لورش من طريقيه وأبو جعفر وأبو عمرو بخلفه وعن الحسن والمؤتفكات بالجمع وكسر التاء والجمهور على الإفراد وفتح التاء وأبدل الهمزة المفتوحة ياء مفتوحة من فبأي الأصبهاني وأدغم يعقوب التاء الأولى في الثانية من ( ) ربك تتمارى ( ) الآية 55 وصلا أما في الابتداء فبتاءين مظهرتين كالباقين

المرسوم اتفقوا على كتابة منوة بواو بدل الألف وفي الإمام كغيرة وثمودا فما بالألف واتفقوا

على قطع عن من تولى وعلى كتابة (اللات) بالتاء وعلى (منوة) بالهاء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(92/731)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة النجم "

وهو ، أفرأيتم ، الفؤاد ، سدرة ، السدرة ، المأوى ، ربهم الهدى ، كله ظاهر .

" كذب " شدد الذال هشام وأبو جعفر وخففها غيرهما .

" أفتمارونه " قرأ الأخوان وخلف ويعقوب بفتح التاء وسكون الميم ، وغيرهم بضم التاء وفتح الميم وألف بعدها .

" اللات " قرأ رويس بتشديد التاء مع المد المشبع للساكن وغيره بتخفيف التاء ووقف عليه الكسائي بالهاء ، والباقون بالتاء .

" ومناة " قرأ المكي بهمزة مفتوحة بعد الألف فيصير المد عنده متصلا فيمد حسب مذهبه ، والباقون بغير همز ، وكلهم يقفون عليه بالهاء .

" ضيزى " قرأ المكي بهمزة ساكنة بعد الضاد ، وغيره بياء تحتية ساكنة بعد الضاد .

" والأولى " آخر الربع .

الممال

هذه السورة في الإمالة كسورة طه ، وإني سالك الطريقة التي سلكتها في طه فأقول:

" رءوس الآي الممالة "

" هوى " غوى ، الهوى ، يوحى ، القوى ، فاستوى ، الأعلى ، فتدلى ، أو أدنى ، ما أوحى ، رآى ، على ما يرى ، أخرى ، المنتهى ، المأوى ، ما يغشى ، طغى ، الكبرى ، والعزى ، الأخرى ، الأنثى ، ضيزى ، الهدى ، ما تمنى ، والأولى ، وهي معدودة بالإجماع وقد قللها كلها ورش بلا خلاف لا فرق في ذلك بين ذوات الراء وغيرها ، وأما أبو عمرو فأمال ذوات الراء وقلل غيرها إلا رآى فأمال الهمزة على أصله ، وأمال الأخوان وخلف ذوات الراء وغيرها ، ولا تنس أن ورشا يقلل الراء والهمزة معا في رآى ، وأن الأخوين وخلفا وابن ذكوان وشعبة يميلون الراء والهمزة معا فيها . " ما ليس برأس آية "

ووقانا ، فأوحى ويغشى السدرة وتهوى الأنفس لدى الوقف عليهما بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، رآه ، بتقليل الراء والهمزة لورش وبإملتهما لشعبة والأخوين وخلف وابن ذكوان بخلف عنه ، وبإمالة الهمزة وحدها لأبي عمرو لقد رآى مثل ما رآى فلا فرق فيه بين ما هو رأس آية وما ليس كذلك . زاغ بالإمالة لحمزة وحده ، جاءهم لابن

ذكوان وخلف وحمزة ولا تقليل ولا إمالة في دنا لكونه واويا .

المدغم

(93/731)

" الصغير " واصبر لحكم ربك للبصري بخلف عن الدوري ، ولقد جاءهم للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " إنه هو ، خزائن ربك ، والله أعلم .

" كبائر الإثم " قرأ الأخوان وخلف بكسر الباء الموحدة وبعدها ياء ساكنة والباقون بفتح الباء وألف بعدها وبعد الألف همزة مكسورة ولا يخفى ترقيق رائه لورش .

" المغفرة " فهو ، تزر ، وازرة ، وزر ، أظلم ، والمؤتفكة ، نذير ، كله جلي .

" بطون أمهاتكم " قرأ حمزة وصلا بكسر الهمزة والميم والكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم وصلا أيضا والباقون بضم الهمزة وفتح الميم ، وأما عند الوقف على بطون والابتداء بأمهاتكم فالجميع يبتدئون بضم الهمزة وفتح الميم .

" أفرأيت " سهل الهمزة الثانية المدنيان ولورش أيضا إبدالها ألفا مع المد المشبع للساكن ولكن هذا الوجه لا يكون إلا حال الوصل فقط وحذفها الكسائي وحققها الباقون إلا حمزة

وقفا فله فيها التسهيل قولا واحدا .

" ينبأ " أبدل همزه في الحالين أبو جعفر وحده ، وفي الوقف حمزة وهشام ولا إبدال فيه للسوسي لأنه من المستثنيات .

" وإبراهيم " قرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها وغيره بكسرها وياء بعدها .

" النشأة " قرأ المكي والبصري بفتح الشين وألف بعدها وبعد الألف همزة مفتوحة والباقون بإسكان الشين وتقدم في سورة العنكبوت أن لحمزة في الوقف عليها وجهين: النقل والإبدال ألفا .

(94/731)

" عادًا الأولى " قرأ المدنيان والبصريان بنقل حركة همزة الأولى إلى اللام قبلها وحذف الهمزة مع إدغام تنوين عادا في لام الأولى غير أن قالون يقرأ بهمزة ساكنة بعد اللام المضمومة بدلا من الواو وهذا في حال وصل عادا بالأولى وأما إن وقف على عادا وابتدئ بالأولى فلقالون ثلاثة أوجه: الأول: ألؤى بهمزة مفتوحة وبعدها لام مضمومة وبعد اللام همزة ساكنة . الثاني: لؤلى ، بلام مضمومة وبعدها همزة ساكنة . الثالث: الأولى بهمزة مفتوحة فلام ساكنة وبعدها همزة مضمومة وبعدها واو ساكنة مدية كقراءة حفص ، ولورش

وجهان: الأول: ألولى بهمزة مفتوحة فلام مضمومة وبعدها واو ساكنة مدية . الثاني: لولى بلام مضمومة وبعدها واو ساكنة مدية وعلى الوجه الأول يجوز له في البدل المغير بالنقل الأوجه الثلاثة ، وعلى الوجه الثاني لا يجوز له في البدل إلا القصر . ولأبي عمرو وأبي جعفر ويعقوب ثلاثة أوجه: الأول والثاني كوجهي ورش . والثالث كالوجه الثالث لقالون . وقرأ الباقون بإظهار تنوين عادا وكسره وإسكان لام الأولى وتحقيق الهمزة بعدها مضمومة مع إسكان الواو وهذا في حال الوصل أيضا . وأما في حال الوقف على عادا فيبتدئون بالأولى كالوجه الثالث لقالون .

" وثمود " قرأ عاصم ويعقوب وحمزة بترك التنوين وغيرهم بإثباته .

" تتمارى " قرأ يعقوب بإدغام التاء الأولى في الثانية فيصير النطق بتاء واحدة مفتوحة مشددة بعد الكاف وهذا في حال وصل ربك بتتمارى وأما في حال الابتداء بتتمارى فلا بد من إظهار التاءين كقراءة الباقين في الحالين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البدور الزاهرة صـ 315.312﴾

(95/731)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة النجم

قوله تعالى ﴿ إذا هوى ﴾ ﴿ غوى ﴾ وما أشبه ذلك من اواخر آي هذه السورة يقرأ بالإمالة والتفخيم وبين ذلك وقد ذكرت وجوه علله وعلل رأى فيما تقدم فأغني ذلك عن الاعادة

قوله تعالى ﴿ أفتمارونه ﴾ يقرأ بضم التاء واثبات ألف بين الميم والراء وبفتح التاء وحذف الالف فالحجة لمن اثبت انه اراد أفتجادلونه ووزنه تفاعلونه من المماراة والمجادلة بالباطل ومنه قوله عليه السلام لا تماروا بالقرآن فإن مراء فيه كفر والحجة لمن حذفها انه أراد افتجحدونه

قوله تعالى ﴿ ومناة الثالثة الأخرى ﴾ يقرأ بالقصر من غير همز وبالمد والهمز فالحجة لمن قصر ان الاصل فيها منوة فلما تحركت الواز وقبلها فتحة انقلبت ألفا وذلك حقها وقياسها والحجة لمن مد انه جعل الالف زائدة لا منقلبة واتى بالهمزة بعدها لئلا يجمع بين الفين فاللات اسم صنم كان ل ثقيف والعزى اسم سمرة كانت ل غطفان ومناة اسم صخرة كانت لخزاعة

فأما الوقف على اللات فبالتاء اجماع الا ما تفرد به الكسائي من الوقوف عليها بالهاء

والاختيار التاء لان الله تعالى لما منعهم ان يحلفوا بالله قالوا اللات ولما منعهم ان يحلفوا بالعزيز قالوا العزى

قوله تعالى ﴿ قسمة ضيزى ﴾ يقرأ بالهمز وتركه وهما لغتان ضأز وضاز ومعناهما جار والاصل ضم الضاد فلو بقوها على الضم لانقلبت الياء واوا فكسروا الضاد لتصبح الياء كما قالوا في جمع ابيض بيض لتصح الياء

فأما من كسر اولها وهمز فإن كان اراد ان يجعلها اسما ك ذكرى وشعرى فقد اصاب وان كان جعلها وصفا فلا وجه لذلك لانه لم يأت عن العرب وصف لمؤنث على وزن فعلى بكسر الفاء

قوله تعالى ﴿ كبائر الإثم ﴾ يقرأ بالتوحيد والجمع وقد ذكرت وجوهه في ﴿ عسق ﴾

(96/731)

قوله تعالى ﴿ وأنه أهلك عادا الأولى ﴾ يقرأ بالتنوين مكسورا واسكان اللام وهمزة بعدها وبطرح التنوين والهمزة وتشديد اللام فالحجة لمن نون واسكن اللام وحقق الهمزة انه اتى بالكلام على اصله ووفى اللفظ حقيقة ما وجب له وكسر التنوين لالتقاء الساكنين والحجة لمن حذف التنوين والهمزة وشدد اللام انه نقل حركة الهمزة الى اللام الساكنة قبلها ثم حذفها

فالتقى سكون التنوين وسكون اللام فأدغم التنوين في اللام فالتشديد من اجل ذلك ومثله من كلامهم زياد العجم وروي عن نافع الادغام وهمزة الواو فإن صح ذلك عنه فإنما همز ليدل بذلك على الهمزة التي كانت في الكلمة قبل الادغام

قوله تعالى ﴿ وثمود فما أبقى ﴾ يقرأ بالاجراء وتركه وقد تقدم القول في علة ذلك وغيره من الأسماء الأعجمية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 335 . 336 ﴾

(97/731)

وقال ابن زنجلة :

53 - سورة النجم

ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمرونه على ما يرى 11 و12

قرأ هشام عن ابن عامر ما كذب الفؤاد بالتشديد وقرأ الباقون ما كذب الفؤاد ما رأى بالتخفيف أي صدقه فؤاده الذي رأى أي لم يكذب فيما رأى بل رأى الحق كقولك ما كذبني زيد أي لم يقل لي إلا حقا ومن قرأ بالتشديد فمعناه صدق الفؤاد ما رأى لم ينكر ولم يرتب به

قرأ حمزة والكسائي أفتمرونه بغير ألف أي فأفتجحدونه يقال مراني وهو يمريني حقي مريا

جحدني

وقرأ الباقون أفتمارونه بالألف أي أفتجادلونه تقول ماريت وهو يماري وحجتهم إجماع

الجميع على قوله ألا إن الذين يمارون في الساعة

ومنوة الثالثة الأخرى

قرأ ابن كثير ومناءة الثالثة مهموزة ممدودة وقرأ الباقون ومناة بغير همز وهما لغتان

تلك إذا قسمة ضيزى 22

قرأ ابن كثير تلك إذا قسمة ضئزى بالهمز وقرأ الباقون

بغير همز وهما لغتان تقول ضازني حقي أي نقصني و ضازني و ضازه و يضيزه و ضأزه

يضأزه بمعنى

أجمع النحويون على أن وزنه فعلى وأن أصل ضيزي ضوزى بالضم مثل حبلى لأن الصفات

لا تأتي إلا على فعلى بالفتح نحو سكرى وغضبى أو بالضم نحو حبلى والفضلى والحسنى

ولا تأتي بالكسر والواو الأصل في ضيزي فلو تركت الضاد على ضمتها لانقلبت الياء واوا

لانضمام ما قبلها فكسرت لتصح الياء كما قالوا أبيض وبيض

الذين يجتنبون كبئر الإثم والفواحش إلا اللمم 32

قرأ حمزة والكسائي يجتنبون كبير الإثم بغير ألف يعني الشرك كذا روي عن ابن عباس

وقرأ الباقون كبائر الأثم وحجتهم ذكرها اليزيدي فقال لو كان كبير الإثم لكان والفحش أو

الفاحشة

وأن عليه النشأة الأخرى 47

قرأ ابن كثير وأبو عمرو النشأة بفتح الشين وقرأ الباقون النشأة بإسكان الشين قال الفراء هما لغتان ومثلها مما تقول العرب الرأفة والرأفة وقد ذكرت في سورة العنكبوت

وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى 50 و 51

قرأ نافع وأبو عمرو عاد لولى موصولة مدغمة وقرأ الباقون عادا الأولى منونة

(98/731)

قال أبو عثمان أساء عندي أبو عمرو في قراءته لأنه أدغم النون في لام المعرفة واللام إنما تحركت بحركة الهمزة وليس بحركة لازمة والدليل على ذلك أنك تقول الأحمر فإذا طرحت حركة الهمزة على اللام تقول الأحمر الحمر ولم تحذف ألف الوصل لأنها ليست بحركة لازمة قال أبو عثمان ولكن كان أبو الحسن روى عن بعض العرب أنه يقول هذا لحمر قد جاء فتحذف ألف الوصل لحركة اللام فهذا حجة لقراءة أبي عمرو لأن الحركة قد صارت لازمة لأنك حذفت ألف الوصل ولو لم تكن لازمة لما حذفت

قال الزجاج أما الأولى ففيها ثلاث لغات الأولى بسكون اللام وإثبات الهمزة وهي أجود

اللغات والتي تليها في الجودة الولى بضم اللام وطرح الهمزة ومن العرب من يقول لولى فيطرح الهمز لتحرك اللام على هذه اللغة قرأ أبو عمرو عاد لولى والقول في عادا الأولى أن من حقق الهمزة في الأولى سكنت له لام المعرفة والتنوين وإذا سكنت لام العرفة و التنوين من قولك عادا ساكن التقى ساكنان النون التي في عادا ولام المعرفة فحركة التنوين بالكسر لالتقاء الساكنين

قرأ حمزة وعاصم وثمود فما أبقى بغير تنوين جعلاه اسما لقبيلة وقرأ الباقون بالتنوين جعلوه اسما لحي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 685.688 ﴾

(99/731)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة والنجم 53

مكية ولا نظير لها في عددها

وكلمها ثلاث مئة وستون كلمة ككلم والذاريات

وحروفها ألف وأربع مئة وخمسة أحرف

وهي ستون وآيتان في الكوفي وآية في عدد الباقين

اختلافها ثلاث آيات (﴿ من الحق شيئا ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ عن من تولى ﴾) عدها الشامي ولم يعدها الباقون (﴿ الحياة الدنيا ﴾) لم يعدها الشامي وعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس بها موضعان (﴿ وأنه هو أغنى ﴾ وتضحكون) ورؤوس الآي

هوى

1 غوى

2 الهوى

3 يوحى

4 القوى

5 فاستوى

6 الأعلى

7 فتدلى

8 أدنى

9 أوحى

10 رأى

11 يرى

12 أخرى

13 المنتهى

14 المأوى

15 يغشى

16 طغى

17 الكبرى

18 والعزى

19 الأخرى

20 الأنثى

21 ضيزى

22 الهدى

23 تمنى

24 والأولى

25 ويرضى

26 الأثنى

27 الدنيا

28 اهتدى

30 بالحسنى

31 اتقى

32 تولى

33 وأكدى

34 يرى

35 موسى

36 وفى

37 أخرى

38 سعى

39 يرى

40 الأوفى

41 المنتهى

42 وأبكى

43 وأحيا

44 والأنثى

45 تمنى

46

(100/731)

الأخرى

47 وأقنى

48 الشعرى

49 الأولى

50 أبقى

51 وأطغى

52 أهوى

53 ما غشى

54 تتمارى

55 الأولى

56 الآزفة

57 كاشفة

58 تعجبون

59 ولا تبكون

60 سامدون

61 وأعبدوا

62 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 234 . 235﴾

(101/731)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة النجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (إذا هوى) العامل في الظرف فعل القسم المحذوف: أي أقسم بالنجم وقت هويه ،

وقيل النجم نزول القرآن ، فيكون العامل في الظرف نفس النجم ، وجواب القسم (ما ضل) و (عن) على بابها : أي لا يصدر نطقه عن الهوى ، وقيل هو بمعنى الباء ، و (علمه) صفة للوحي : أي علمه إياه .

قوله تعالى (فاستوى) أي فاستقر (وهو) مبتدأ ، و (بالأفق) خبره ، والجملة حال من فاعل استوى ، وقيل هو معطوف على فاعل استوى ، وهو ضعيف إذ لو كان كذلك لقال تعالى فاستوى هو وهو ، وعلى هذا يكون المعنى فاستويا بالأفق يعنى محمدا وجبريل صلوات الله عليهما ، وألف (قاب) مبدلة من واو ، و (أو) على الإبهام : أي لو رآه الرائى لالتبس عليه مقدار القرب .

قوله تعالى (ما كذب الفؤاد) يقرأ بالتخفيف ، و (ما) مفعولة : أي ما كذب الفؤاد الشئ الذى رأت العين : أو ما رأى الفؤاد ، ويقرأ بالتشديد ، والمعنى قريب من الأول ، و (تمارونه) تجادلونه وتمرونه تجحدونه ، و (نزلة) مصدر : أي مرة أخرى ، أو رؤية أخرى ، و (عند) ظرف لرأى ، و (عندها) حال من السدرة ، ويقرأ جنه على أنه فعل وهو شاذ ، والمستعمل أجنه ، و (إذ) ظرف زمان لرأى ، و (الكبرى) مفعول رأى ، وقيل هو نعت لآيات ، والمفعول محذوف : أي شيئا من آيات ربه ، و (اللات) يكتب بالتاء وبالهاء .

وكذلك الوقف عليه ، والألف واللام فيه ، وفى (العزى) زائدة لأنهما علمان ، وقيل هما صفتان غالبتان مثل الحارث والعباس فلا تكون زائدة ، وأصل اللات لوية لأنه من لوى يلوى فحذفت الياء وتحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا ، وقيل ليست بمشتق ، وقيل هو مشتق من لات يليت ، فالتاء على هذا أصل ، وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما بتشديد التاء قالوا : وهو رجل كان يلت للحاج السويق وغيره على حجر ، فلما مات عبد ذلك الحجر ، والعزى فعلى من العز (ومناة) علم لصنم ، وألفه من ياء لقولك منى يمنى إذا قدر ، ويجوز أن تكون من الواو ، ومنه منوان ، و (والأخرى) توكيد لأن الثالثة لا تكون إلا أخرى ، و (ضيزى) أصله ضوزى مثل طوبى كسر أو لها فانقلبت الواو ياء وليست فعلى في الأصل لأنه لم يأت من ذلك شئ إلا ما حكاه ثعلب من قولهم: رجل كيصى ، وميتة حيكى ، وحكى غيره: امرأة عزهي ، وامرأة يعلى ، والمعروف عزهاة ، وسعلاة ، ومنهم من همز ضيزى .

قوله تعالى (أسماء) يجب أن يكون المعنى ذوات أسماء ، لقوله تعالى (سميتموها) لأن لفظ الاسم لا يسمى ، و (أم) هنا منقطعة ، و (شفاعتهم) جمع على معنى كم لا على اللفظ ، وهى هنا خبرية في موضع رفع بالابتداء ، ولا تغنى الخبر .

قوله تعالى (ليجزى) اللام تتعلق بما دل عليه الكلام وهو قوله تعالى " أعلم بمن ضل " أي

حفظ ذلك ليجزى ، وقيل يتعلق بمعنى قوله تعالى " ولله ما في السموات "

أي أعلمكم بملكه وقوته .

قوله تعالى (الذين يجتنبون) هو في موضع نصب نعتا للذين أحسنوا ، أوفي موضع رفع على تقديرهم ، و (إلا اللمم) استثناء منقطع ، لأن اللمم الذنب الصغير .

قوله تعالى (فهو يرى) جملة اسمية واقعة موقع فعلية ، والأصل عنده علم الغيب فيرى ، ولو جاء على ذلك لكان نصبا على جواب الاستفهام (وإبراهيم) عطف على موسى .

قوله تعالى (أن لاتزر) " أن " مخففة من الثقيلة ، وموضع الكلام جر بدل من " ما " أو رفع على تقدير: هو أن لا ، و (وزر) مفعول به وليس بمصدر .

(103/731)

قوله تعالى (وأن ليس) " أن " مخففة من الثقيلة ، أيضا ، وسد ما في معنى ليس من النفى مسد التعويض .

قوله تعالى (سوف يرى) الجمهور على ضم الياء وهو الوجه ، لأنه خبر أن ، وفيه ضمير يعود على اسمها ، وقرئ بفتح الياء وهو ضعيف ، لأنه ليس فيه ضمير يعود على اسم أن وهو السعي ، والضمير الذى فيه للهاء فيبقى الاسم بغير خبر ، وهو كقولك: إن غلام زيد قام

وأنت تعنى قام زيد فلا خبر لغلام ، وقد وجه على أن التقدير سوف يراه ، فتعود الهاء على السعي ، وفيه بعد .

قوله تعالى (الجزاء الأوفى) هو مفعول يجزى ، وليس بمصدر لأنه وصف بالأوفى ، وذلك من صفة المجزى به لا من صفة الفعل ، وألف (أقنى) منقلبة عن واو .

قوله تعالى (عادا الأولى) يقرأ بالتنوين ، لأن عادا اسم الرجل أو الحى ، والهمزة بعده محقق ، ويقرأ بغير تنوين عى أنه اسم القبيلة ، ويقرأ منونا مدغما .

وفيه تقديران:

أحدهما أنه ألقى حركة الهمزة على اللام ، وحذف همزة الوصل قبل اللام فلقى التنوين اللام المتحركة فأدغم فيها كما قالوا لحمر .

قوله تعالى (وثمود) هو منصوب بفعل محذوف: أي وأهلك ثمود ، ولا يعمل فيه (ما أبقى) من أجل حرف النفى ، وكذلك (قوم نوح) ويجوز أن يعطف على عادا (والمؤتفكة) منصوب ب (أهوى) و (ما غشى) مفعول ثان .

(كاشفة) مصدر مثل العاقبة والعافية: أي ليس لها من دون الله كشف ، ويجوز أن يكون التقدير: ليس لها كاشف ، والهاء للمبالغة مثل راوية وعلامة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة النجم

[سورة النجم (53) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذا هَوى (1)

"وَالنَّجْمِ" جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم "إِذا" ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن الشرطية "هَوى " ماض فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة .

[سورة النجم (53) : آية 2]

ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى (2)

"ما" نافية "ضَلَّ صاحِبُكُمْ" ماض وفاعله والجملة جواب القسم لا محل لها "وَما غَوى " معطوف على ما ضل .

[سورة النجم (53) : آية 3]

وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى (3)

"وَما يَنْطِقُ" ما نافية ومضارع فاعله مستتر و"عَنِ الْهَوى " متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة النجم (53) : آية 4]

إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى (4)

"إِنْ" نافية "هُوَ" مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "وَحْيٌ" خبر والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "يُوحى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة صفة وحي .

[سورة النجم (53) : آية 5]

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى (5)

"عَلَّمَهُ" ماض ومفعوله "شَدِيدُ" فاعل مؤخر "الْقُوى" مضاف إليه والجملة صفة ثانية لوحي .

[سورة النجم (53) : آية 6]

ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى (6)

"ذُو" صفة شديد "مِرَّةٍ" مضاف إليه "فَاسْتَوى" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة النجم (53) : آية 7]

وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى (7)

"وَهُوَ" الواو حالية ومبتدأ "بِالْأُفُقِ" خبره "الْأَعْلى" صفة الأفق والجملة حال .

[سورة النجم (53) : آية 8]

ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى (8)

"ثُمَّ دَنا" حرف عطف وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "فَتَدَلَّى" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة النجم (53) : آية 9]

فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى (9)

(105/731)

"فَكانَ" كان واسمها مستتر "قابَ" خبرها "قَوْسَيْنِ" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها بالفاء "أَوْ" حرف عطف "أَدْنى" معطوف على قاب .

[سورة النجم (53) : آية 10]

فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى (10)

"فَأَوْحى"

ماض فاعله مستتر "إِلى عَبْدِهِ"

متعلقان بأوحى والجملة معطوفة على ما قبلها بالفاء "ما"

اسم موصول مفعول به "أَوْحى"

ماض فاعله مستتر والجملة صلة ما لا محل لها .

[سورة النجم (53) : آية 11]

ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى (11)

"ما كَذَبَ" ما نافية وماض "الْفُؤادُ" فاعله والجملة استئنافية لا محل لها "ما" مفعول به "رَأى

" ماض فاعله مستتر والجملة صلة ما لا محل لها .

[سورة النجم (53) : آية 12]

أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى (12)

"أَفَتُمارُونَهُ" الهمزة حرف استفهام والفاء حرف استئناف ومضارع وفاعله ومفعوله

والجملة استئنافية لا محل لها "عَلى ما" متعلقان بالفعل "يَرى" مضارع فاعله مستتر

والجملة صلة ما لا محل لها .

[سورة النجم (53) : آية 13]

وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى (13)

"وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم المحذوف وقد حرف تحقيق

"رَآهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة جواب القسم لا محل لها "نَزْلَةً" حال "أُخْرى"

صفة نزلة .

[سورة النجم (53) : آية 14]

عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى (14)

"عِنْدَ" ظرف مكان "سِدْرَةِ" مضاف إليه "الْمُنْتَهى" مضاف إليه.

[سورة النجم (53) : آية 15]

عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى (15)

"عِنْدَها" ظرف مكان خبر مقدم "جَنَّةُ" مبتدأ مؤخر والجملة حال "الْمَأْوى" مضاف إليه.

[سورة النجم (53) : آية 16]

إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى (16)

"إِذْ" ظرف بمعنى حين "يَغْشَى" مضارع "السِّدْرَةَ" مفعول به والجملة في محل جر بالإضافة "ما" فاعل يغشى "يَغْشَى" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة ما لا محل لها.

(106/731)

[سورة النجم (53) : آية 17]

ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى (17)

"ما" نافية "زاغَ" ماض "الْبَصَرُ" فاعله والجملة استئنافية لا محل لها "وَما" حرف عطف

وما نافية "طَغى " ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة النجم (53) : آية 18]

لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى (18)

"لَقَدْ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "رَأى " ماض فاعله مستتر "مِنْ آياتِ" حال "رَبِّهِ" مضاف إليه "الْكُبْرى " صفة آيات .

[سورة النجم (53) : آية 19]

أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (19)

"أَفَرَأَيْتُمُ" الهمزة حرف استفهام والفاء حرف عطف وماض وفاعله "اللَّاتَ" مفعوله "وَالْعُزَّى" معطوف على اللات والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة النجم (53) : آية 20]

وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى (20)

"وَمَناةَ" معطوفة على العزى "الثَّالِثَةَ" صفة مناة "الْأُخْرى " صفة العزى .

[سورة النجم (53) : آية 21]

أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى (21)

"أَلَكُمُ" الهمزة حرف استفهام إنكاري ولكم خبر مقدم "الذَّكَرُ" مبتدأ مؤخر والجملة استئنافية لا محل لها "وَلَهُ" خبر مقدم "الْأُنْثى " مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة .

[سورة النجم (53) : آية 22]

تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى (22)

"تِلْكَ" مبتدأ "إِذاً" حرف جواب وجزاء "قِسْمَةٌ" خبر "ضِيزى" صفة قسمة والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

[سورة النجم (53) : آية 23]

إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى (23)

(107/731)

"إِنْ" حرف نفي "هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ" مبتدأ وحرف حصر وأسماء خبر والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "سَمَّيْتُمُوها" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صفة أسماء "أَنْتُمْ" توكيد للفاعل "وَآباؤُكُمْ" معطوف عليه "ما" نافية "أَنْزَلَ اللَّهُ" ماض وفاعله "بِها" متعلقان بالفعل "مِنْ سُلْطانٍ" مجرور لفظا بمن الزائدة منصوب محلا مفعول به والجملة الفعلية استئنافية لا محل لها ، "إِنْ" نافية "يَتَّبِعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله "إِلَّا" حرف حصر "الظَّنَّ" مفعول به والجملة استئنافية لا محل لها "وَما" معطوف على الظن "تَهْوَى الْأَنْفُسُ"

مضارع وفاعله والجملة صلة ما لا محل لها "وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "جاءَهُمْ" ماض ومفعوله "مِنْ رَبِّهِمُ" متعلقان بالفعل "الْهُدى" فاعل والجملة جواب القسم لا محل لها .

[سورة النجم (53) : آية 24]

أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى (24)

"أَمْ" بمعنى بل "لِلْإِنْسانِ" خبر مقدم "ما" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية لا محل لها "تَمَنَّى" ماض فاعله مستتر والجملة صلة ما لا محل لها .

[سورة النجم (53) : آية 25]

فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولى (25)

"فَلِلَّهِ" الفاء حرف استئناف ولله خبر مقدم "الْآخِرَةُ" مبتدأ مؤخر "وَالْأُولى" معطوف على الآخرة والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة النجم (53) : آية 26]

وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى (26)

"وَكَمْ" الواو حرف استئناف وكم خبرية مبتدأ و"مِنْ" حرف جر وزائد "مَلَكٍ" مجرور

لفظا منصوب محلا تمييز "فِي السَّماواتِ" صفة ملك ، "لا" نافية "تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ" مضارع وفاعله "شَيْئاً" مفعوله والجملة

(108/731)

الفعلية خبر كم والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "إِلَّا" حرف حصر "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بالفعل "أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ" مضارع منصوب بأن ولفظ الجلالة فاعله والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بالإضافة "لِمَنْ" متعلقان بالفعل "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَيَرْضى" معطوف على يشاء .

[سورة النجم (53) : آية 27]

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى (27)

"إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها و"لا" نافية "يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة الذين "بِالْآخِرَةِ" متعلقان بالفعل "لَيُسَمُّونَ" اللام المزحلقة ومضارع وفاعله "الْمَلائِكَةَ" مفعوله والجملة الفعلية خبر إن ، وجملة إن الذين . . استئنافية لا محل لها ، "تَسْمِيَةَ الْأُنْثى" مفعول مطلق مضاف إلى الأنثى .

[سورة النجم (53) : آية 28]

وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (28)

"وَما لَهُمْ" الواو حالية وما نافية ولهم خبر مقدم "بِهِ" متعلقان بعلم و"مِنْ عِلْمٍ" مجرور لفظا بمن الزائدة مرفوع محلا مبتدأ مؤخر والجملة حال "إِنْ" نافية "يَتَّبِعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "إِلَّا" حرف حصر "الظَّنَّ" مفعول به والجملة الفعلية استئنافية لا محل لها ، "وَإِنَّ الظَّنَّ" الواو حالية وإنّ حرف مشبه بالفعل والظن اسمها "لا" نافية "يُغْنِي" مضارع مرفوع فاعله مستتر "مِنَ الْحَقِّ" متعلقان بالفعل "شَيْئاً" مفعول به والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية حال.

[سورة النجم (53) : آية 29]

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا (29)

(109/731)

"فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها وعمن متعلقان بالفعل "تَوَلَّى" ماض فاعله مستتر والجملة صلة من "عَنْ ذِكْرِنا" متعلقان بالفعل "وَلَمْ يُرِدْ" الواو حالية ومضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر "إِلَّا" حرف حصر "الْحَياةَ" مفعول به "الدُّنْيا" صفة والجملة حالية.

[سورة النجم (53) : آية 30]

ذِلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى (30)

"ذِلِكَ مَبْلَغُهُمْ" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها "مِنَ الْعِلْمِ" متعلقان بما قبلهما ، "إِنَّ رَبَّكَ" إن واسمها "هُوَ أَعْلَمُ" مبتدأ وخبره والجملة خبر إن وجملة إن . . تعليل "بِمَنْ" متعلقان بأعلم "ضَلَّ" ماض فاعله مستتر "عَنْ سَبِيلِهِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة من لا محل لها . "وَهُوَ أَعْلَمُ" الواو حالية ومبتدأ وخبره "بِمَنْ" متعلقان بأعلم "اهْتَدى" ماض فاعله مستتر والجملة صلة من والجملة الاسمية حالية .

[سورة النجم (53) : آية 31]

وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (31)

"وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ" الواو حرف استئناف ولله خبر مقدم وما مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها وفي السموات صلة ما "وَما فِي الْأَرْضِ" معطوف على ما قبله ، "لِيَجْزِيَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد

لام التعليل والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بما دل عليه معنى الملك بقوله : وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ . . . "الَّذِينَ" مفعول به "أَساؤُا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "بِما" متعلقان بيجزي ، "عَمِلُوا" ماض وفاعله والجملة صلة ما "وَيَجْزِيَ" معطوف على ما قبله "الَّذِينَ" مفعول به "أَحْسَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "بِالْحُسْنَى" متعلقان بيجزي .

[سورة النجم (53) : آية 32]

الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى (32)

(111/731)

"الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ" الذين بدل من سابقه ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة وكبائر مفعول به مضاف إلى الإثم "وَالْفَواحِشَ" معطوف "إِلَّا" حرف حصر "اللَّمَمَ" منصوب على الاستثناء المنقطع ، "إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ" إن واسمها وخبرها والمغفرة مضاف إليه والجملة تعليلية "هُوَ" مبتدأ "أَعْلَمُ" خبره "بِكُمْ" متعلقان بأعلم والجملة الاسمية

استئنافية لا محل لها "إِذْ" ظرف لما مضى من الزمن "أَنْشَأَكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "مِنَ الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل "وَإِذْ" معطوفة على سابقتها "أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ" مبتدأ وخبره "فِي بُطُونِ" صفة أجنة "أُمَّهاتِكُمْ" مضاف إليه والجملة الاسمية في محل جر بالإضافة ، "فَلا تُزَكُّوا" الفاء الفصيحة ومضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعله "أَنْفُسَكُمْ" مفعوله والجملة الفعلية جواب شرط مقدر لا محل لها "هُوَ أَعْلَمُ" مبتدأ وخبره والجملة تعليلية "بِمَنِ" متعلقان بأعلم "اتَّقى" ماض فاعله مستتر والجملة صلة من .

[سورة النجم (53) : آية 33]

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33)

"أَفَرَأَيْتَ" الهمزة حرف استفهام والفاء حرف استئناف وماض وفاعله "الَّذِي" مفعوله والجملة استئنافية لا محل لها ، "تَوَلَّى" ماض فاعله مستتر والجملة صلة الذي .

[سورة النجم (53) : آية 34]

وَأَعْطى قَلِيلاً وَأَكْدى (34)

"وَأَعْطى" معطوف على تولى "قَلِيلًا" مفعول به "وَأَكْدى" معطوف على أعطى .

[سورة النجم (53) : آية 35]

أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى (35)

"أَعِنْدَهُ" الهمزة حرف استفهام إنكاري وظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم "عِلْمُ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مفعول به ثان لرأيت "الْغَيْبِ" مضاف إليه "فَهُوَ" الفاء حرف عطف وهو مبتدأ "يَرى" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة النجم (53) : آية 36]

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى (36)

"أَمْ" حرف عطف بمعنى بل و"لَمْ يُنَبَّأْ" مضارع مبني للمجهول مجزوم بلم ونائب الفاعل مستتر "بِما" متعلقان بالفعل "فِي صُحُفِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "مُوسى" مضاف إليه والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة النجم (53) : آية 37]

وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37)

"وَإِبْراهِيمَ" معطوف على موسى "الَّذِي" اسم الموصول صفة "وَفَّى" ماض فاعله مستتر والجملة صلة الذي .

[سورة النجم (53) : آية 38]

أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى (38)

"أَلَّا" أن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف ولا نافية "تَزِرُ وازِرَةٌ" مضارع وفاعله "وِزْرَ" مفعول به "أُخْرى" مضاف إليه والجملة الفعلية خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها بدل من ما فهو في محل جر.

[سورة النجم (53) : آية 39]

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى (39)

"وَأَنْ" الواو حرف عطف وأن معطوف على أن المخففة "لَيْسَ لِلْإِنْسانِ" ماض ناقص وللإنسان خبر مقدم "إِلَّا" حرف حصر "ما" مصدرية "سَعى" ماض فاعله مستتر والمصدر المؤول من ما والفعل في محل رفع اسم ليس.

[سورة النجم (53) : آية 40]

وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى (40)

"وَأَنَّ سَعْيَهُ" أن واسمها "سَوْفَ" حرف استقبال "يُرى" مضارع مبني للمجهول والجملة خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها معطوف على المصدر المؤول السابق.

[سورة النجم (53) : آية 41]

ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى (41)

"ثُمَّ" حرف عطف "يُجْزاهُ" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والهاء مفعوله الثاني "الْجَزاءَ" مفعول مطلق "الْأَوْفى" صفة.

[سورة النجم (53) : آية 42]

وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى (42)

"وَأَنَّ" حرف مشبه بالفعل "إِلى رَبِّكَ" خبرها المقدم "الْمُنْتَهى" اسمها المؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة النجم (53) : آية 43]

وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكى (43)

"وَأَنَّهُ" أن واسمها "هُوَ" مبتدأ "أَضْحَكَ" ماض فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر هو وجملة هو أضحك خبر أن "وَأَبْكى" معطوف على أضحك.

[سورة النجم (53) : آية 44]

وَأَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَأَحْيا (44)

عطف على الآية السابقة والإعراب واحد. [سورة النجم (53) : آية 45]

وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (45)

"وَأَنَّهُ خَلَقَ" معطوف على ما قبله "الزَّوْجَيْنِ" مفعول به "الذَّكَرَ" بدل "وَالْأُنْثى" معطوف.

[سورة النجم (53) : آية 46]

مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى (46)

"مِنْ نُطْفَةٍ" متعلقان بخلق "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "تُمْنى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة.

[سورة النجم (53) : آية 47]

وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى (47)

"وَأَنَّ" حرف مشبه بالفعل "عَلَيْهِ" خبر مقدم "النَّشْأَةَ" اسم أن المؤخر "الْأُخْرى" صفة.

[سورة النجم (53) : آية 48]

وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَأَقْنى (48)

سبق إعراب مثيلها.

[سورة النجم (53) : آية 49]

وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى (49)

"وَأَنَّهُ" أن واسمها "هُوَ رَبُّ" مبتدأ وخبره "الشِّعْرى" مضاف إليه والجملة الاسمية خبر أن وجملة أنه معطوفة على ما قبلها.

[سورة النجم (53) : آية 50]

وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى (50)

(114/731)

"وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً" أن واسمها وماض ومفعوله والفاعل مستتر "الْأُولى" صفة والجملة الفعلية خبر أنه والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة النجم (53) : آية 51]

وَثَمُودَ فَما أَبْقى (51)

"وَثَمُودَ" معطوف على عاد "فَما أَبْقى" الفاء حرف عطف وما نافية وماض فاعله مستتر والجملة الفعلية معطوفة على أهلك .

[سورة النجم (53) : آية 52]

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغى (52)

"وَقَوْمَ" معطوف على ثمود "نُوحٍ" مضاف إليه "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بفعل تقديره أهلك "إِنَّهُمْ كانُوا" إن واسمها وكان واسمها وهم ضمير فصل "أَظْلَمَ" خبر وجملة كانوا . . خبر إن وجملة إنهم . . تعليل "وَأَطْغى" معطوف على أظلم .

[سورة النجم (53) : آية 53]

وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى (53)

"وَالْمُؤْتَفِكَةَ" مفعول به مقدم "أَهْوى" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة النجم (53) : آية 54]

فَغَشَّاها ما غَشَّى (54)

"فَغَشَّاها" ماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر "ما" مفعوله الثاني والجملة معطوفة على ما قبلها "غَشَّى" ماض فاعله مستتر والجملة صلة ما .

[سورة النجم (53) : آية 55]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى (55)

"فَبِأَيِّ" الفاء الفصيحة وبأي متعلقان بتتمارى "آلاءِ" مضاف إليه ، "رَبِّكَ" مضاف إليه "تَتَمارى" مضارع فاعله مستتر والجملة جواب شرط مقدر .

[سورة النجم (53) : آية 56]

هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى (56)

"هذا نَذِيرٌ" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "مِنَ النُّذُرِ" متعلقان بنذير "الْأُولى" صفة النذر .

[سورة النجم (53) : آية 57]

أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57)

"أَزِفَتِ الْآزِفَةُ" ماض وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة النجم (53) : آية 58]

لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ (58)

(115/731)

"لَيْسَ" ماض ناقص "لَها" خبر مقدم "مِنْ دُونِ" متعلقان بكاشفة - "اللَّهِ" ولفظ الجلالة مضاف إليه "كاشِفَةٌ" اسم ليس والجملة حال .

[سورة النجم (53) : آية 59]

أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59)

"أَفَمِنْ" الهمزة حرف استفهام إنكاري والفاء حرف استئناف "من هذا" متعلقان بتعجبون "الْحَدِيثِ" بدل من اسم الإشارة "تَعْجَبُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة النجم (53) : آية 60]

وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ (60)

"وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ" معطوف على ما قبله.

[سورة النجم (53) : آية 61]

وَأَنْتُمْ سامِدُونَ (61)

"وَأَنْتُمْ سامِدُونَ" الواو حالية ومبتدأ وخبره والجملة حالية.

[سورة النجم (53) : آية 62]

فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62)

"فَاسْجُدُوا" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "لِلَّهِ" متعلقان بالفعل "وَاعْبُدُوا" معطوف على اسجدوا. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن/ لدعاس حـ 3 صـ 275. 282﴾

(116/731)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَة النَّجْم

ذكر فِيهَا أحد عشر حَدِيثا

1264 - الحَدِيث الأول

حَدِيثا عَن عُرْوَة بن الزُّبَيْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهما أَن عتبَة بن أبي لَهب وَكَانَت تَحْتَهُ ابْنة رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَرَادَ الْخرُوج إِلَى الشَّام فَقَالَ لَآتِين مُحَمَّدًا فَلأُوذِيَنَّهُ فَأَتَاهُ فَقَالَ يَا مُحَمَّد هُوَ كَافِر بِالنَّجْمِ إِذا هوى وَبِالَّذِي دنا فَتَدَلَّى ثمَّ تفل فِي وَجه رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ورد عَلَيْهِ ابْنَته وَطَلقهَا فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (اللَّهُمَّ سلط عَلَيْهِ كَلْبا من كلابك) وَكَانَ أَبُو طَالب حَاضرا فَوَجَمَ لَهَا وَقَالَ مَا كَانَ أَغْنَاكَ يَا بن أخي عَن هَذِه الدعْوَة فَرجع عتبَة إِلَى أَبِيه فَأَخْبرهُ ثمَّ خَرجُوا إِلَى الشَّام فنزلوا منزلا فَأَشْرَف عَلَيْهِم رَاهِب من الدَّيْر فَقَالَ لَهُم إِن هَذِه أَرض مسبعَة فَقَالَ أَبُو لَهب لأَصْحَابه أَعِينُونَا يَا معشر قُرَيْش فَإِنِّي أَخَاف عَلَى ابْني دَعْوَة مُحَمَّد فَجمعُوا جمَالهمْ وَأَنَاخُوهَا حَولهمْ وَأَحْدَقُوا بِعتبَة فجَاء الْأَسد يشْتم وُجُوههم حَتَّى ضرب عتبَة فَقتله

قلت رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي كِتَابه دَلَائِل النُّبُوَّة فِي الْبَاب السَّادِس وَالْعِشْرين من حَدِيث مُحَمَّد بن إِسْحَاق عَن عُثْمَان بن عُرْوَة بن الزُّبَيْر عَن أَبِيه . . . فَذكره بِلَفْظ الْمُصَنّف إِلَّا أَنه قَالَ فَضَربهُ الْأَسد بِذَنبِهِ ضَرْبَة وَاحِدَة فَمَات مَكَانَهُ

(117/731)

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه فِي تَرْجَمَة رقية بنة النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من حَدِيث زُهَيْر بن الْعَلَاء عَن سعيد بن أبي عرُوبَة عَن قَتَادَة قَال كَانَت أم كُلْثُوم بنة النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي الْجَاهِلِيَّة تَحت عتيبة بن أبي لَهب وَكَانَت رقية تَحت أَخِيه عتبَة بن أبي لَهب فَلَمَّا أنزل الله تَعَالَى تبت يدا أبي لَهب قَال أَبُو لَهب لابْنَيْهِ عتيبة وَعتبَة رَأْسِي من رءوسكما حرَام إِن لم تطلقَا ابْنَتي مُحَمَّد وَسَأَل النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عتبَة طَلَاق ابْنَته رقية وَسَأَلته رقية ذَلِك مُطلقهَا وطلق عتيبة أم كُلْثُوم قَال فَلَمَّا طَلَّقَاهُمَا جَاءَ عتيبة إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَال لَهُ كفرت بدينك وَفَارَقت ابْنَتك ثمَّ سَطَا عَلَيْهِ فشق قَمِيص النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَال عَلَيْهِ الصَّلَاة السَّلَام (اللَّهُمَّ سلط عَلَيْهِ كلبك) فَخرج نَحْو الشَّام تَاجِرًا فنزلوا بمَكَان يُقَال لَهُ الزَّرْقَاء لَيْلًا فَطَاف بهم الْأَسد فَعدا عَلَيْهِ من بني الْقَوْم فَقتله قَال زُهَيْر بن الْعلَا وحَدثني هِشَام بن عُرْوَة عَن أَبِيه فَذكره نَحوه وَقَال فَلَمَّا طَاف بِي الْأَسد تِلْكَ اللَّيْلَة وَكَانُوا نَامُوا وَجعلُوا عتيبة وَسطهمْ فَأَقبل الْأَسد يَتَخَطَّاهُمْ حَتَّى أَخذ برَأْس عتيبة فدغه وَخلف عُثْمَان بن عَفَّان بعده عَلَى رقيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهما انْتَهَى

ذكره الثَّعْلَبِيّ عَن عُرْوَة بِلَفْظ الْمُصَنّف من غير سَنَد وَفِي آخِره سعر حسان

(118/731)

وَرَوَى الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي تَفْسِيره سُورَة تبت عَن عَبَّاس بن الْفضل الْأَزْرَق ثَنَا الْأسود بن شَيبَان ثَنَا أَبُو نَوْفَل بن أبي عقرب عَن أَبِيه قَالَ كَانَ لَهب بن أبي لَهب يسب النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَيَدْعُو عَلَيْهِ فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (اللَّهُمَّ سلط عَلَيْهِ كلبك) فَجهز أَبُو لَهب الْبَز إِلَى الشَّام وَبعث مَعَه وَلَده وَقَالَ لِغِلْمَانِهِ إِنِّي أَخَاف عَلَى ابْني دَعْوَة مُحَمَّد فتعاهدوه فَكَانُوا إِذا نزلُوا منزلا ألزقوه بِالْحَائِطِ وَجعلُوا عَلَيْهِ الثِّيَاب وَالْمَتَاع قَالَ فَبَيْنَمَا هم كَذَلِك إِذْ جَاءَ سبع فنشله فَقتله انْتَهَى

وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة كَذَلِك وَقَالَ هَكَذَا قَالَ عَبَّاس بن الْفضل لَهب بن أبي لَهب وعباس لَيْسَ بِالْقَوِيِّ وَأهل الْمَغَازِي يَقُولُونَهُ عتبَة بن أبي لَهب وَمِنْهُم من يَقُول عتيبة انْتَهَى

1265 - الْحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ أَنه عَلَيْهِ الصَّلَاة السَّلَام أحب أَن يرَى جِبْرِيل فِي صورته الَّتِي جبل عَلَيْهَا فَاسْتَوَى لَهُ فِي الْأُفُق الْأَعْلَى وَهُوَ أفق الشَّمْس فَمَلَأَ الْأُفُق

وَقيل مَا رَآهُ أحد من الْأَنْبِيَاء فِي صورته الْحَقِيقَة إِلَّا مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مرَّتَيْنِ مرّة فِي الْأَرْض وَمرَّة فِي السَّمَاء

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي التَّفْسِير وَمُسلم فِي الْإِيمَان وَاللَّفْظ لَهُ من حَدِيث مَسْرُوق عَن عَائِشَة قَالَت ثَلَاث من تكلم بِوَاحِدَة مِنْهُنَّ فقد أعظم عَلَى الله الْفِرْيَة ثمَّ قَالَت أَنا أول هَذِه الْأمة سَأَل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ (إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيل لم أره عَلَى صورته الَّتِي رَأَيْته عَلَيْهَا غير هَاتين الْمَرَّتَيْنِ رَأَيْته متهبطا من السَّمَاء سَادًّا عظم خلقه مَا بَين السَّمَاء وَالْأَرْض) الحَدِيث

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَلَفظه قَالَ قلت هَل رَأَى مُحَمَّد ربه فَقَالَت لقد تَكَلَّمت بِشَيْء قف لَهُ شعري ثمَّ قَرَأَت لقد رَأَى من آيَات ربه الْكُبْرَى وَقَالَت من أَخْبرك أَن مُحَمَّدًا رَأَى ربه فقد أعظم الْفِرْيَة وَلَكنه رَأَى جِبْرِيل لم يره فِي صورته إِلَّا مرَّتَيْنِ مرّة عِنْد سِدْرَة الْمُنْتَهَى وَمرَّة فِي جِيَاد لَهُ سِتّمائَة جنَاح قد سد الْأُفُق

وَبِهَذَا اللَّفْظ رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الْحَادِي عشر من الْقسم الثَّالِث مِنْهُ

1266 - الحَدِيث الثَّالِث

فِي الحَدِيث لَا صَلَاة إِلَى أَن ترْتَفع الشَّمْس مِقْدَار رُمْحَيْن

قلت احْتج بِهِ الْمُصَنّف وَبِالْحَدِيثِ الَّذِي بعده عَلَى أَن التَّقْدِير جَاءَ بِالْقَوْسِ وَالرمْح

وَالسَّوْط وَغير ذَلِك

وَهَذَا الحَدِيث رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الطَّهَارَة من حَدِيث عَمْرو بن عبسة أَنه قَالَ يَا رَسُول الله أَي اللَّيْل أسمع قَالَ (جَوف اللَّيْل الْأَخير فصل مَا شِئْت فَإِن الصَّلَاة مَشْهُودَة مَكْتُوبَة حَتَّى تطلع الشَّمْس قيد رمح أَو رُمْحَيْنِ) الحَدِيث بِطُولِهِ وَصَححهُ

(120/731)

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه عَن الْحَارِث بن الضَّحَّاك ثني مَنْصُور بن الْمُعْتَمِر سَمِعت مُحَمَّد بن الْمُنْكَدر يحدث عَن أبي سَلمَة بن عبد الرَّحْمَن بن عَوْف عَن أَبِيه أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سُئِلَ أَي اللَّيْل أسمع قَالَ (جَوف اللَّيْل الْأَخير ثمَّ الصَّلَاة مَقْبُولَة حَتَّى يُصَلِّي الْفجْر ثمَّ صَلَاة حَتَّى تكون الشَّمْس قيد رمح أَو رُمْحَيْنِ) الحَدِيث

وَرَوَى إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده أَنا جرير عَن مَنْصُور عَن سَالم ابْن أبي الْجَعْد عَن كَعْب بن مرّة السّلمِيّ قَالَ سُئِلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَي اللَّيْل الْأَخير ثمَّ الصَّلَاة مَقْبُولَة حَتَّى حَتَّى يُصَلِّي الْفجْر ثمَّ لَا صَلَاة حَتَّى تكون الشَّمْس قيد رمح أَو رُمْحَيْنِ ثمَّ لَا صَلَاة حَتَّى تميل الشَّمْس ثمَّ الصَّلَاة مَقْبُول حَتَّى تكون الشَّمْس قيد رمح أَو رُمْحَيْنِ ثمَّ لَا صَلَاة حَتَّى تغرب الشَّمْس انْتَهَى

وَرَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ فِي علله من حَدِيث الثَّوْرِيّ عَن مَنْصُور بِهِ سَوَاء

1267 - الْحَدِيث الرَّابِع

فِي الْحَدِيث لَقَاب قَوس أحدكُم من الْجنَّة وَمَوْضِع قُدَّة خير من الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا قَالَ الْمُصَنّف

والقد السَّوْط

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي كتاب الرقَاق فِي بَاب صفة الْجنَّة من حَدِيث

إِسْمَاعِيل بن جَعْفَر عَن حميد عَن أنس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (لَرَوْحَة فِي

سَبِيل الله أَو غدْوَة خير من الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَقَاب قَوس أحدكُم من الْجنَّة أَو مَوضِع قد

يَعْنِي سَوْطه خير من الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَو أَن امْرَأَة من أهل الْجنَّة اطَّلَعت عَلَى

(121/731)

الْأَرْض لَأَضَاءَتْ مَا بَينهمَا وَلَمَلَأَتْهُ ريحًا وَلنَصِيفهَا يَعْنِي الْخمار عَلَى رَأسهَا خير من الدُّنْيَا

وَمَا فِيهَا) وَفِيه قصَّة

وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده كَذَلِك بِدُونِ الْقِصَّة

1268 - الْحَدِيث الْخَامِس

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ فِي سِدْرَة الْمُنْتَهَى (أريت عَلَى كل ورقة من وَرقهَا

ملكا قَائِما يسبح الله تَعَالَى)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره ثني يُونُس بن عبد الْأَعْلَى أَنا ابْن وهب قَالَ قَالَ عبد الرَّحْمَن بن زيد بن أسلم فِي قَوْله إِذْ يغشى السِّدْرَة مَا يغشى قيل لَهُ يَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَي شَيْء رَأَيْت يغشى تِلْكَ السِّدْرَة قَالَ (رَأَيْتهَا يَغْشَاهَا فرَاش من ذهب وَرَأَيْت عَلَى كل ورقة ملكا قَائِما يسبح الله تَعَالَى) انْتَهَى وَهُوَ مُرْسل

1269 - الحَدِيث السَّادِس

وَعَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله إِذْ يغشى السِّدْرَة مَا يغشى قَالَ يَغْشَاهَا رَفْرَف من طير خضر وَعَن ابْن مَسْعُود وَغَيره يَغْشَاهَا فرَاش من ذهب

قلت الأول غَرِيب

وَقَوله ابْن مَسْعُود رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده أَنا ابْن عُيَيْنَة عَن مَالك بن مغول عَن طَلْحَة بن مصرف عَن مرّة عَن عبد الله بن مَسْعُود فِي قَوْله تَعَالَى إِذْ يغشى السِّدْرَة مَا يغشى قَالَ فرَاش من ذهب أعطي نَبِيكُم

عِنْدهَا ثَلَاثًا فرضت عَلَيْهِ الصَّلَاة وَأعْطِي خَوَاتِم سُورَة الْبَقَرَة وَغفر لأمته الْمُقْحمَات مَا لم يشركوا بِاللَّه شَيْئًا

انْتَهَى

1270 - الحَدِيث السَّابِع

(122/731)

رُوِيَ أَن الْعُزَّى كَانَت لغطفان وَهِي سَمُرَة فَبعث إِلَيْهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قطعهَا فَخرجت مِنْهَا شَيْطَانَة نَاشِرَة شعرهَا دَاعِيَة وَيْلَهَا وَاضِعَة يَدهَا عَلَى رَأسهَا فَجعل يضْربهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتلهَا وَهُوَ يَقُول

(يَا عز كُفْرَانك لَا سُبْحَانَكَ . . . إِنِّي رَأَيْت الله قد أَهَانَك)

وَرجع فَأَخْبر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (تِلْكَ الْعُزَّى وَلنْ تعبد أبدا)

قلت رَوَاهُ الْوَاقِدِيّ فِي كتاب الْمَغَازِي فِي غَزْوَة الْفَتْح بالسند والمتن الْمَذْكُورين

(123/731)

وَرَوَاهُ أَبُو عبد الله الْأَزْرَقِيّ من طَرِيق الْوَاقِدِيّ حَدثنِي عبد الله بن يزِيد الْهُذَلِيّ عَن سعيد بن عَمْرو الْهُذَلِيّ قَالَ قدم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَكَّة يَوْم الْجُمُعَة لعشر لَيَال بَقِينَ من شهر رَمَضَان فَبَثَّ السَّرَايَا فِي كل وَجه وَأمرهمْ أَن يُغيرُوا عَلَى من لم يكن عَلَى الْإِسْلَام

فَخرج هِشَام بن الْعَاص فِي مِائَتَيْن قبل يَلَمْلَم وَخرج خَالِد ابْن سعيد بن الْعَاص فِي ثَلَاثمِائَة قبل عُرَنَة وَبعث خَالِد بن الْوَلِيد إِلَى الْعُزَّى يَهْدِمهَا فَخرج خَالِد بن الْوَلِيد فِي ثَلَاثِينَ فَارسًا من أَصْحَابه إِلَى الْعُزَّى حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهَا فَهدمهَا ثمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ (أهدمتها) قَالَ نعم قَالَ فَهَل رَأَيْت شَيْئًا قَالَ لَا قَالَ (فَإِنَّك لم تهدمها فَارْجِع فَاهْدِمْهَا فَرجع إِلَيْهَا فَخرجت لَهُ امْرَأَة سَوْدَاء عُرْيَانَة نَاشِرَة شعرهَا فَأَقبل عَلَيْهَا خَالِد بن الْوَلِيد ضربا بِالسَّيْفِ فجدلها باثْنَتَيْن وَهُوَ يَقُول يَا عز كُفْرَانك لَا سُبْحَانَكَ . . . الْبَيْت ثمَّ رَجَعَ فَأَخْبر النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (نعم تِلْكَ الْعُزَّى وَقد أَيِست أَن تعبد أَبَد) انْتَهَى وَهَذَا مُرْسل وَهُوَ أقرب إِلَى لفظ الْمُصَنّف

(124/731)

وَرَوَاهُ ابْن مردويه فِي تَفْسِيره من طَرِيق مُحَمَّد بن إِسْحَاق حَدثنِي مُحَمَّد بن السَّائِب الْكَلْبِيّ عَن أبي صَالح وَعَن عِكْرِمَة عَن أبي عَبَّاس أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث خَالِد بن الْوَلِيد إِلَى الْعُزَّى ليهدمها وَكَانَت نَخْلَة عَلَيْهَا سَادِن فجاء خَالِد فَهدمهَا ثمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ (أهدمتها) قَالَ نعم قَالَ (رَأَيْت شَيْئًا) قَالَ لَا قَالَ (فَإِنَّك لم تهدمها ارْجع فَاهْدِمْهَا) فَرجع إِلَيْهَا خَالِد فَهدمهَا فَإِذا هُوَ بِامْرَأَة سَوْدَاء

عُرْيَانَة وَاضِعَة يَديهَا عَلَى رَأسهَا وَهِي تَدْعُو بِالْوَيْلِ فَأقبل عَلَيْهَا خَالِد فَضرب رَأسهَا بِالسَّيْفِ وَهُوَ يَقُول

(يَا عز كُفْرَانك لَا سُبْحَانَكَ . . . إِنِّي وجدت الله قد أَهَانَك)

ثمَّ رَجَعَ إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَخْبرهُ قَالَ (نعم تِلْكَ الْعُزَّى وَلَنْ تعبد بعد الْيَوْم أبدا) انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات بِسَنَدِهِ عَن مُحَمَّد بن إِسْحَاق ومُوسَى بن عقبَة وَعبد الرَّحْمَن بن أبي الزِّنَاد وَجَمَاعَة فَذكر سَرَايَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَمِنْهَا سَرِيَّة خَالِد ابْن الْوَلِيد إِلَى الْعُزَّى بِلَفْظ ابْن مرْدَوَيْه

وَرَوَاهُ أَيْضا فِي تَرْجَمَة خَالِد بن الْوَلِيد أخبرنَا مُحَمَّد بن عمر هُوَ الْوَاقِدِيّ بِسَنَد الْأَزْرَقِيّ وَمَتنه قَالَ لما فتح رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَكَّة وَبث السَّرَايَا بعث خَالِد ابْن الْوَلِيد إِلَى الْعُزَّى . . . الحَدِيث

(125/731)

وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ بِنَقص من حَدِيث مُحَمَّد بن فُضَيْل ثَنَا الْوَلِيد بن جَمِيع عَن أبي الطُّفَيْل عَامر بن وَاثِلَة قَالَ لما فتح رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَكَّة بعث خَالِد بن الْوَلِيد إِلَى نَخْلَة

وَكَانَت بهَا الْعُزَّى فَأَتَاهَا خَالِد وَكَانَت عَلَى ثَلَاث سمُرَات فَقطع السَّمُرَات وَهدم الْبَيْت الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا ثمَّ أَتَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَخْبرهُ فَقَالَ (أرجع فَإِنَّك لم تصنع شَيْئًا) فَرجع خَالِد فَلَمَّا أَبْصرت بِهِ السَّدَنَة وهم حَجَبَتهَا أَمْعَنُوا فِي الْجَبَل وهم يَقُولُونَ يَا عزى يَا عزى فَأَتَاهَا خَالِد فَإِذا امْرَأَة عُرْيَانَة نَاشِرَة شعرهَا تحتفن التُّرَاب عَلَى رَأسهَا فَعَمَّتهَا خَالِد بالسَّيْفِ حَتَّى قَتلهَا ثمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَخْبرهُ فَقَالَ (تِلْكَ الْعُزَّى) انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة فِي فَتْحة مَكَّة وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَأَبُو يعل الْموصِلِي فِي مُسْنده عَن الطَّبَرَانِيّ رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي دَلَائِل النُّبُوَّة فِي الْبَاب الثَّامِن وَالْعِشْرين بِسَنَدِهِ وَمَتنه

1271 - الْحَدِيث الثَّامِن

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله تَعَالَى وَإِبْرَاهِيم الَّذِي وَفَى قَالَ (وَفِي عمله كل يَوْم بِأَرْبَع رَكْعَات فِي صدر النَّهَار)

(126/731)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ وَابْن مرْدَوَيْه وَابْن أبي حَاتِم والثعلبي ثمَّ الْبَغَوِيّ فِي تفاسيرهم كلهم من حَدِيث جَعْفَر بن الزُّبَيْر عَن الْقَاسِم عَن أبي أُمَامَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه تَلا هَذِه الْآيَة وَإِبْرَاهِيم الَّذِي وَفَى ثمَّ قَالَ (أَتَدْرِي مَا الَّذِي وَفَى) قلت الله وَرَسُوله أعلم قَالَ (وَفَى عمل يَوْمه بِأَرْبَع رَكْعَات فِي أول النَّهَار) انْتَهَى وَهُوَ مَعْلُول بِجَعْفَر وَزَاد ابْن مرْدَوَيْه فِيهِ وَزعم أَنَّهَا صَلَاة الضُّحَى انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَيْضا حَدثنَا سُلَيْمَان بن أَحْمد ثَنَا أَحْمد بن أبي يَحْيَى الْحَضْرَمِيّ الْبَصْرِيّ ثَنَا مُحَمَّد بن أَيُّوب عَن عَافِيَة ثَنَا جدي ثَنَا مُعَاوِيَة بن صَالح عَن سليم بن عَامر عَن أبي أُمَامَة . . . فَذكره

1272 - الْحَدِيث التَّاسِع

رُوِيَ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (أَلا أخْبركُم لم سَمّى الله خَلِيلَة الَّذِي وَفَى كَانَ يَقُول إِذا أصبح وَإِذا أَمْسَى فسبحان الله حِين تمسون وَحين تُصبحُونَ إِلَى قَوْله وَحين تظْهرُونَ

قلت رَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَابْن السّني فِي كتاب عمل الْيَوْم وَاللَّيْلَة كلهم من حَدِيث ابْن لَهِيعَة عَن زبان بن فَايِد عَن سهل بن معَاذ ابْن أنس الْجُهَنِيّ عَن أَبِيه عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (أَلا أخْبركُم لم سَمّى الله

إِبْرَاهِيم الْخَلِيل الَّذِي وَفَى كَانَ يَقُول كلما أصبح وَأَمْسَى فسبحان الله حِين تمسون وَحين تُصبحُونَ حَتَّى ختم الْآيَة انْتَهَى

(127/731)

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ وَابْن مرْدَوَيْه والثعلبي وَابْن أبي حَاتِم فِي تفاسيرهم وَهُوَ مُشْتَمل عَلَى جمَاعَة من الضُّعَفَاء وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه أَيْضا من حَدِيث رشدين بن سعد عَن زبان بن فَايِد بِهِ

1273 - قَوْله

وَكَانَت قُرَيْش تَقول لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَبُو كَبْشَة تَشْبِيها لَهُ برَجُل من أَشْرَافهم يُقَال لَهُ أَبُو كَبْشَة

قلت كَأَنَّهُ وهم إِنَّمَا كَانُوا يَقُولُونَ لَهُ ابْن أبي كَبْشَة كَمَا جَاءَ فِي حَدِيث أبي سُفْيَان لقد أَمر أَمر ابْن أبي كَبْشَة

1274 - الْحَدِيث الْعَاشِر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه لم ير ضَاحِكا بعْدهَا يَعْنِي قَوْله تَعَالَى وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من طَرِيق أَحْمد بن حَنْبَل ثَنَا وَكِيع ثَنَا زِيَاد ابْن أبي مُسلم عَن

صَالح أبي الْخَلِيل قَالَ لما نزلت هَذِه الْآيَة أَفَمن هَذَا الحَدِيث تعْجبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ لم ير النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ضَاحِكا بعد انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا إِسْمَاعِيل بن عَلّي بن إِسْمَاعِيل ثَنَا عبد الله ابْن قُرَيْش الْأَسدي قَالَ وجدت فِي سَماع الْفرج بن الْيَمَان ثَنَا عمر بن يزِيد ثَنَا معبد بن خَالِد عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ لما نزلت هَذِه الْآيَة عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَفَمن هَذَا الحَدِيث تعْجبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ قَالَ

فَمَا رئي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بعْدهَا ضَاحِكا أَو مُبْتَسِمًا حَتَّى ذهب من الدُّنْيَا انْتَهَى

(128/731)

وَرَوَاهُ أَحْمد بن حَنْبَل فِي كتاب الزّهْد ثَنَا وَكِيع . . . إِلَى آخر لفظ الثَّعْلَبِيّ إِلَّا أَنه زَاد بعد قَوْله ضَاحِكا أَو مُبْتَسِمًا

1275 - الحَدِيث الْحَادِي عشر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من قَرَأَ سُورَة والنجم أعطَاهُ الله عشر حَسَنَات بِعَدَد كل من صدق بِمُحَمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَجحد بِهِ بِمَكَّة)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أمه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قَرَأَ سُورَة والنجم أعطي من الْأجر عشر حَسَنَات بِعَدَد من صدق بِمُحَمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكذب بِهِ) انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه الْمُتَقَدّمين فِي آل عمرَان وَلم يقل فيهمَا بِمَكَّة وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس وَلم يقل بِمَكَّة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 377.386 ﴾

(129/731)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة النجم

قوله تعالى : (وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى) ، الآية/ 3 و4 :

يحتج به من لا يجوز لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم الاجتهاد في الحوادث .

قوله : (إِلَّا اللَّمَمَ) ، الآية/ 32 :

يجوز أن يراد به الصغائر المغفورة عند اجتناب الكبائر .

وقيل : هو أن يصيب الذنب ثم يتوب .

وقيل : اللمم مقارفة الشيء ، من غير أن يدخل فيه .

قوله تعالى : (أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى) ، الآية/ 38 ، كقوله : (وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ)

«1» ، وقوله : (وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْها) «2» ، وقوله : (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى) ، الآية/ 39 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 393﴾

---

(1) سورة النساء آية 111 . [. . . . .]

(2) سورة الأنعام آية 164 .

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة النّجم» (53)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله : «وَالنَّجْمِ إِذا هَوى» (1) سم والنجم النجوم ذهب إلى لفظ الواحد وهو فى معنى الجميع قال راعى الإبل :

وباتت تعدّ النجم فى مستحيرة سريع بأيدى الآكلين جمودها «1»

«2» [880] مستحيرة فى إهالة جعلها صافية لأنها من شحم وار «3» ولو كان هرطا لا خير فيه لجاء كدرا قليلا . .

«وَما غَوى» (2) يغوى من الغى والغاوي فأما من قال غوى يغوى تقديرها «شقى يشقى» فهو من اللّبن يبشم عنه يقال : غوى الفصيل يغوى إذا بشم .

---

(1) . - 3 - 5 «والنجم . . . جمودها» : قال الطبري (27/ 22 : وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول عنى بقوله والنجم . . . الجميع واستشهد لقوله ذلك بقول الراعي - البيت والصواب من القول فى ذلك عندى ما قاله مجاهد من أنه عنى بالنجم فى هذا الموضع الثريا ، وذلك أن العرب تدعوها النجم ، والقول الذي قاله من حكينا عنه من أهل البصرة قول لا نعلم أحدا من أهل التأويل قاله وإن كان له وجه فلذلك تركنا القول به .

وهو يريد أبا عبيدة . وروى ابن حجر تفسيره هذا عنه وقول الطبري به (فتح الباري 8/

464) .

(2) . - 880 : فى الطبري 27/ 22 والقرطبي 17/ 82 ، 154 واللسان (نجم) وشواهد الكشاف ص 100 .

(3) . - 6 «الواري» : الشحم السمين صفة غالبة وهو الورى ، والواري السمين من كل شيء (اللسان - ورى) .

(131/731)

«وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى» (3) أي ما ينطق بالهوى . .

«قابَ قَوْسَيْنِ» (9) قدر قوسين وقاد ، وقيد وقدى قوسين مثلها . .

«أَوْ أَدْنى» (9) أو أقرب . .

«شَدِيدُ الْقُوى» (5) جماع القوة . .

«ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى» (6) ذو شدة وإحكام «1» «2» ، يقال : حبل ممرّ أي مشدود . .

«ما زاغَ الْبَصَرُ» (17) ما عدل ولا جار . .

«مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى» (18) من أعلام ربه الكبرى وعجائبه . .

«اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ الثَّالِثَةَ» (20) أصنام من حجارة كانت فى جوف الكعبة يعبدونها

«3» . .

«أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى» (21) مجازه: مكفوف عن خبره.

---

(1) . - 882: هو عجز بيت للفرزدق فى ديوانه ص 519]

(2) . - 5 «أي . . . أحكام» الذي ورد فى الفروق: رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 464).

(3) . - 8 - 9 «اللات . . . يعبدونها»: روى الطبري (27/ 33) عن بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة وهو أبو عبيدة. [. . . . .]

(132/731)

«قِسْمَةٌ ضِيزى» (22) ناقصة ضرته حقه، وضزته حقه تضيزه وتضوزه تنقصه «1» وتمنعه. أبو عبيدة قال: ربما همزها قوم فقال اضأزته وأنا أضأزه وهى من ضيزى «2» . .

«الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ» (32) لم يؤذن لهم فى اللمم وليس هو من الفواحش ولا من كبائر الإثم وقد يستثنى الشيء من الشيء وليس منه على ضمير قد كفّ عنه فمجازه: إلّا أن يلمّ ملمّ بشىء ليس من الفواحش والكبائر قال الشاعر:

وبلدة ليس بها أنيس إلّا اليعافير وإلا العيس

اليعافير: الظباء «3» «4» والعيس من الإبل وليس من الناس فكأنه قال: ليس بها أنيس غير أن بها ظباء وإبلا وقال بعضهم: اليعفور من الظباء الأحمر والأعيس الأبيض من الظباء.

---

(1). - 1 «ناقصة . . . ونقصته» الذي ورد فى الفروق. رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري (8/ 464).

(2). - 3 «أنشدنى . . . راغم» الذي ورد فى الفروق: رواه الطبري (27/ 35) وقال:

وحدثت عن معمر بن المثنى . . . إلخ.

(3). - 883: فى اللسان (ضأن) والقرطبي 1/ 102.

(4). - 4 - 11 «الذين . . . الظباء»: رواه الطبري (27/ 35) عن بعض أهل العلم بكلام العرب، وهو أبو عبيدة.

«وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ» (32) وهو جمع جنين ، تقديره :

سرير وأسرّة . .

«وَأَعْطى «1» قَلِيلًا وَأَكْدى» (34) معنى أكدى : قطع ، اشتقت من كدية الركيّة

وكدية الرّحل «2» وهو أن يحفر حتى ييئس من الماء فيقول : بلغنا كديتها . .

«وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى»

(40) عمله . .

«مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى» (46) إذا تخلق وتقدّر ، ويقال : ما تدرى ما يمنى لك المانى ما يقدر

لك القادر . .

«وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى» (47) يحيى الموتى : .

«وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَأَقْنى» (48) أغنى أقواما وجعل لهم قنية أصل مال «3» «4» .

---

(1) . - 3 - 4 «وأعطى . . . كديتها» : رواه الطبري (27/ 37) عن بعض أهل العلم بكلام العرب وهو أبو عبيدة .

(2) . - 2 - 3 «مأخوذ . . . الحاء» الذي أورد فى الفروق : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 464) .

(3) . - 9 «جعل . . . مال» الذي ورد فى الفروق : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة

(فتح الباري 8/ 464) .

(4) . - 884 : فى ديوان الهذليين 2/ 238 واللسان (قنا) .

(134/731)

«وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى» (53) المؤتفكة المخسوف بها . .

«أَزِفَتِ الْآزِفَةُ» (57) أي دنت القيامة . .

«وَأَنْتُمْ سامِدُونَ» (61) لاهون ، يقال : دع عنك سمودك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 235. 239 ﴾

(135/731)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة القنوجى :

سورة النجم

إحدى وستون وقيل : اثنتان وستون آية

مكية جميعها ، في قول الجمهور «1» .

وروي عن ابن عباس : إلا آية منها ، وهي قوله : الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ [النجم : 32] الآية .

[الآية الأولى]

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى (39) .

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى 39 : أي ليس له إلا أجر سعيه وجزاء عمله ، ولا ينفع أحدا عمل أحد .

وهذا العموم مخصوص مثل قوله سبحانه : أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ [الطور : 21] ، وبمثل ما ورد في شفاعة الأنبياء والملائكة للعباد «2» ، ومشروعية دعاء الأحياء للأموات وتصدقهم عنهم ونحو ذلك «3» .

ولم يصب من قال : إن هذه الآية منسوخة بمثل هذه الأمور فإن الخاص لا ينسخ العام بل يخصصه ، فكلما قام الدليل على أن الإنسان ينتفع به - وهو من غير سعيه - كان مخصصا لما في هذه الآية من العموم «4» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نيل المرام صـ 427 ﴾

---

(1) انظر : الفراء (3/ 94) ، الطبري (27/ 24) ، النكت (4/ 118) ، زاد المسير (8/ 62) ، القرطبي (17/ 82) ، ابن كثير (4/ 246) ، الدر المنثور (6/ 121) .

(2) صحيح : ما رواه مسلم (3/ 25 ، 34) ، (183) عن أبي سعيد الخدري

مرفوعا .

(3) انظر في ذلك : نيل الأوطار (4/ 142) .

(4) انظر : الناسخ والمنسوخ لابن العربي (2/ 878 ، 879) ، والأحكام له (4/ 1719) .

(136/731)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «النّجم»

[سورة النجم (53) : آية 11]

ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى (11)

قوله سبحانه : ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى [11] وهذه استعارة . والمراد - والله أعلم - أن ما اعتقده القلب من صحة ذلك المنظر الذي نظره ، والأمر الذي باشره لم يكن عن تخيّل وتوّهم ، بل عن يقين وتأمّل . فلم يكن بمنزلة الكاذب من طريق تعمّد الكذب ، ولا من طريق الشكوك والشّبه .

[سورة النجم (53) : آية 17]

ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى (17)

وقوله سبحانه : ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى [17] وهذه استعارة . وهى قريبة المعنى من الاستعارة الأولى . والمراد بذلك- والله أعلم- أن البصر لم يمل عن جهة المبصر «1» إلى غيره ميلا يدخل عليه به الاشتباه ، حتى يشكّ فيما رآه . ولا طغى ، أي لم يجاوز المبصر ويرتفع عنه ، فيكون مخطئا لإدراكه ، ومتجاوزا لمحاذاته .

فكأن تلخيص المعنى أن البصر لم يقصر عن المرئىّ فيقع دونه ، ولم يزد «2» عليه فيقع وراءه ، بل وافق موضعه ، ولم يجاوز موقعه . وأصل الطغيان طلب العلو والارتفاع ، من طريق الظلم والعدوان ، وهو فى صفة البصر خارج «3» على المجاز والاتساع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 317 ﴾

---

(1) فى الأصل «البصر» وهو تحريف من الناسخ .

(2) فى الأصل «و لم يرد» بالراء المهملة ، وهو تحريف .

(3) أي سائر على طريق المجاز والاتساع فى التعبير .

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة النجم

للعلم الإنسانى مصادر معروفة ، أولها العقل ثم الحواس الخمس . وهناك مصدر ثالث اختص به بعض الناس وهو الوحى الصادق . أشار إليه يعقوب عندما قال لأبنائه: "وأعلم من الله ما لا تعلمون" . ومن تلقى شيئًا من العليم بكل شىء ، فقد اكتسب علما لا ريب فيه ! والله لا يهب من علمه لكل إنسان . فالناس معادن ، ولا يحمل الوحى إلا عباد مصطفون ، عباد لهم طباع سماوية تأنف من الإسفاف والافتراء ، تأفل النجوم وهم لا يأفلون وتغرب وهم لا يغربون ! ومحمد من هؤلاء أو قل: هو إمام هؤلاء ! وسورة النجم تصف كيف تلقى الوحى فتقول " والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى * علمه شديد القوى * ذو مرة . . . " . لقد سبق أن نودى موسى من شاطى الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، ليكون راعيا للناس بعدما رعى الغنم سنين عددا . وها هو ذا كبير الأنبياء الذى اعتزل الناس فى غار حراء يجيئه الملك فى صورته المهيبة ليبدأ مشوار الدعوة الكبرى . "ما كذب الفؤاد ما رأى * أفتمارونه على ما يرى" ؟ والوحى المحمدى أساسه الحقيقة التى غابت عن كثيرين وحرمت من معرفتها أجيال . " إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم

الهدى" . وهناك أديان أرضية وأخرى سماوية غام أفقها وانتشر فيه دخان من الأوهام والأباطيل ، فشاع حديث عن الله لا يليق ، واصطدم العلم والدين ، وهما حقيقة واحدة . وكم من متدين ظلم الوحى بأهوائه " وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا" . إن الدين علم مقطوع به والوحى حصانة للعقل وضمانة لأحكامه ، وما خالف العقل لا يكون دينا ، ولبعض الناس مرويات لا سناد لها يجعلونها دينا وما هى بدين .

(138/731)

وقد أصيب الإسلام نفسه بأهل إفك نسبوا إلى رسولهم أنه مدح الأصنام ، وسماها الغرانيق العلا ! ! وما روى ذلك محدث ولا فقيه ، ومن زعم ذلك فالإسلام منه برىء ، إن النجم قد يهوى لكن محمدا ما هوى قط . . إن الإسلام نزل ليرسم طريق الإحسان للبشر ، ومع أن الله غنى عن خلقه ، إلا أنه يحب لهم الزكاة والرشد ، والقرآن منهاج الاستقامة أو معراج الرفعة ، فمن شاء أحسن ومن شاء أساء " ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى * الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى" . والآيات مع نشدانها للكمال تفيد أن لكل

جواد كبوة ولكل صارم نبوة ، وأن طبيعة الأرض قد تغلب مهبط الروح ، وأن المكلف ينبغى أن يشتد تعلقه بالمغفرة العليا ، وأن يكون تعويله على الفضل الإلهى . . والمنتظر من أولى الألباب إذا عرض عليهم الدين أن يقولوا " ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا . . " . وأن تنضم إلى ذلك رغبة فى التسامى ، وكراهية للإخلاد إلى الأرض . أما أصحاب العناد والسفه ، فهم ينكصون على أعقابهم ، ويرجعون القهقرى "أفرأيت الذي تولى * وأعطى قليلا وأكدى * أعنده علم الغيب فهو يرى" ؟ وليست هذه المسالك صفات شخص بعينه ، فهى تصوير لنموذج الكفر الشائع قديما وحديثا . وقد رأيت ملاحدة العصر فرأيت الإعراض عن الحق والغرور بالباطل والاستعلاء على الآخرين والجمود على القليل المتاح لهم . والواقع أن الكفر بمحمد تجاوز للوحى كله والأنبياء عامة " أم لم ينبأ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفى * ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى " . لب الإيمان الانتقال من الخلق إلى الخالق ومن العالم إلى ربه الكبير ، فالحى والجماد يدلان على الله .

(139/731)

التفسير الموضوعى ومن يتصور أن الحياة داخل الدودة أو داخل الإنسان نفسه جاءت من داخل هذا الكيان نفسه فهو أحمق ، لا الجرثومة ولا الإنسان يحركان أجهزة الحياة داخل إهابيهما ! من قال: إننى آمر قلبى فينبض أوآمر مخى فيومض بالفكر ؟ " وأن إلى ربك المنتهى * وأنه هو أضحك وأبكى * وأنه هو أمات وأحيا * وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى " . إن الحياة فى ذواتنا وفيما حولنا وفى أعقابنا من بنين وبنات ، مفاضة علينا من الوحيد الذى يملك ذلك كله وهو الله سبحانه . . وقد اغتر أقدمون فهلكوا ولن يكون المتأخرون أفضل عقبى . وخواتيم سورة النجم آيات قصيرة عالية الصدى ، بعيدة المدى ، عميقة الأثر ، متطايرة الشرر: "وأن عليه النشأة الأخرى * وأنه هو أغنى وأقنى * وأنه هو رب الشعرى * وأنه أهلك عادا الأولى * وثمود فما أبقى * وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى * والمؤتفكة أهوى * فغشاها ما غشى * فبأي آلاء ربك تتمارى " هكذا حصد الله المجتمعات الآثمة ولن يعجزه حصاد ما أشبهها فى الإلحاد والإجرام ، فهل يعقل ذلك ملاحدة العصر الحديث ؟ ! إن محمدا ليس إلا واحدا من النذر الأولى ، إلى عقائدهم وفضائلهم دعا "ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك" . فهل عيبه أنه رفض التعدد فى الآلهة ، وأكد أن الله إله واحد ؟ هل عيبه أنه رفض الكهانات وكشف أن رجال الدين لا يملكون مغفرة لأنفسهم ولا لغيرهم ، وأنهم أناس

مثلنا أو دوننا ؟ "أفمن هذا الحديث تعجبون * وتضحكون ولا تبكون" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 418.416 ﴾

(140/731)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والثلاثون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/732)

الجزء الثانى والثلاثون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من (سورة النجم)

وحتى الآية ﴿ 18 ﴾ من السورة

(4/732)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/732)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة النجم

أقول: وجه وضعها بعد الطور: أنها شديدة المناسبة لها ، فإن الطور ختمت بقوله: (وإدبار النجوم) وافتتحت هذه بقوله: (والنجم إذا هوى) ووجه آخر: أن الطور ذكر فيها ذرية المؤمنين ، وأنهم تبع لآبائهم ، وهذه فيها ذكر ذرية اليهود في قوله: (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض) ولما قال هناك في المؤمنين: (ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء) أي: ما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين ، مع نفعهم بما عمل آباؤهم قال هنا في صفة الكفار أو بني الكفار: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) خلاف ما ذكر في المؤمنين الصغار وهذا وجه بين بديع في المناسبة ، من وادي التضاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 133﴾

(6/732)

قوله تعالى ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي أحاط بصفات الكمال فلا يكون رسوله إلا من ذي الكمال (الرحمن) الذي عم الموجودالت بصفة الجمال (الرحيم) الذي خص أهل وده بالإنقاذ من الضلال والهداية إلى ما يرضي من الخلال وصالح الأعمال .

(7/732)

ولما ختمت الطور بأمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتسبيح والتحميد ، وكان أمره تكويناً لا تكليفاً ، فكان فاعلاً لا محالة ، وذاك بعد تقسيمهم القول في النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه كاهن وساحر ومجنون ، وكان لذلك تعلق بالشياطين ، وكانت الشياطين مباينة للقرآن بختلها وبمنعها بالرجوم من النجوم كما بين آخر الشعراء ، افتتحت هذه بالحث على الاهتداء بهدية والاستدلال بدله واتباع أثره ، ولما كان من ذلك تسبيحه بالحمد في إدبار النجوم أقسم أول هذه بالنجم على وجه أعم مما في آخر تلك فعبر بعبارة تفهم عروجه وصعوده لأنه لا يغيب في في الأفق الغربي واحد من السيارة إلا وطلع من الأفق الشرقي في نظير له منها لما يكون عند ذلك من تلك العبارة العالية ، والأذكار الزاكية ، مع ما فيه من عجيب الصنع الدال على وحدانية مبدعه من زينة السماء التي فيها ما توعدون والحراسة

من المردة حفظاً لنجوم الكتاب والاهتداء به الدين والدنيا ، وغير ذلك من الحكم التي يعرفها الحكماء ، فقال تعالى : ﴿ والنجم ﴾ أي هذا الجنس من نجوم السماء أو القرآن لنزوله منجماً مفرقاً وهم يسمون التفريق تنجيماً – أو النبات ، قال البغوي : سمي النجم نجماً لطلوعه وكل طالع نجم .

(8/732)

﴿ إذا هوى ﴾ أي نزل للأفول أو لرجم الشياطين عند الاستراق كما رواه عكرمة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ إن كان المراد السمائي ، فكانت عنده العبادة والاستغفار والدعاء للملك الجبار بالأسحار ، أو صعد فكان به اهتداء المصلي والقارئ والساري ، فإنه يقال : هوى هوياً – بالفتح إذا سقط ، وبالضم – إذا علا وصعد ، أو نزل به الملك للإصعاد وللإبعاد إن كان المراد القرآني لما يحصل من البركات في الدين والدنيا والشرح للصدور ، والاطلاع على عجائب المقدور ، أو إذا سقط منبسطاً على الأرض أو ارتفع عنها إن كان المراد النبات ، لما فيه من غريب الصنعة وجليل التقدير الدال على عام القدرة وكمال العلم والتوحد بالملك والغنى المطلق .

ولما أقسم بهذا القسم الجليل ، أجابه بقوله معبراً بالماضي نفياً لما كانوا رموه به وليسهل ما

قبل النبوة فيكون ما بعدها بطريق الأولى : ﴿ ما ضل ﴾ أي عدل عن سواء المحجة الموصلة إلى غاية المقصود أي أنه ما عمل الضالين يوماً من الأيام فمتى تقول القرآن عنده ولا علم فيه عمل المجانين ولا غيرهم ما رموه به وأما ﴿ وجدك ضالاً ﴾ [الضحى : 7] فالمراد غير عالم ، وعبر بالصحبة مع كونها أدل على القصد مرغبة لهم فيها ومقبلة بهم إليه ومقبحة عليهم اتهامه في إنذاره وهم يعرفون طيب أعرافه وطهارة شمائله وأخلاقه فقال : ﴿ صاحبكم ﴾ أي في إنذاره لكم في القيامة فلا وجه لكم في اتهامه .

ولما كان الهدى قد يصحبه ميل لا يقرب الموصول إلى القصد وإن حصل به نوع خلل في القرب أو نحوه فقد يكون القصد مع غير صالح قال : ﴿ وما غوى ﴾ وما مال أدنى ميل ولا كان مقصوده مما يسوء فإنه محروس من أسبابه التي هي غواية الشياطين وغيرها ، وقد دفع سبحانه عن نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأما بقية الأنبياء فدفعوا أنفسهم ﴿ ليس بي ضلالة ﴾ [الأعراف : 61] ﴿ ليس بي سفاهة ﴾ [الأعراف : 67] ، ونحو ذلك – قاله القشيري .

(9/732)

ولما كان قد يكون مع الهدى مصادفة قال : ﴿ وما ينطق ﴾ أي يجاوز نطقه فمه في وقت من الأوقات لا في الحال ولا في الاستقبال ، نطقاً ناشئاً ﴿ عن الهوى ﴾ أي من أمره كالكاهن الذين يغلب كذبهم صدقهم والشعراء وغيرهم ، وما تقول هذا القرآن من عند نفسه .

ولما أكد سبحانه في نفسه ذلك عند التأكيد تنزيهاً له عما نسب إليه ، فكان ذلك مظنة السؤال عن أصل ما تقوله ، أجاب بالحصر والآية أصرح وأدفع لإنكارهم البالغ فقال : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هو ﴾ أي الذي يتكلم به من القرآن وبيانه ، وكل أقواله وأفعاله وأحواله بيانه ﴿ إلا وحي ﴾ أي من الله تعالى ، وأكده بقوله : ﴿ يوحى ﴾ أي يجدد إليه إيحاؤه منا وقتاً بعد وقت ، ويجوز أن يجتهد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فإذا استقر اجتهاده على شيء أوحي مع أن من يرد ما يجتهد فيه إلى ما أوحي إليه بريء من الهوي .

وقال أبو جعفر ابن الزبير في برهانه : لما قطع سبحانه تعليقهم بقوله : ساحر وشاعر ومجنون – إلى ما هو به مما علموا أنه لا يقوم على ساق ، ولكن شأن المنقطع المبهوت أن يستريح إلى ما أمكنه وإن لم يغن عنه ، أعقب الله سبحانه بقسمة على تنزيه نبيه وصفيه من خلقه عما تقوله وتوهمه الضعفاء فقال تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ ثم أتبع سبحانه هذا القسم ببسط الحال في تقريبه عليه السلام وإدنائه وتلقيه لما يتلقاه من ربه وعظيم منزلته لديه ، وفي إبداء ذلك يحركهم عزّ وجلّ ويذكرهم ويوبخهم على سوء

نكاياتهم بلطف واستدعاء كريم منعم فقال تعالى : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ والتحمت الآي على هذه الأغراض إلى الإعلام بانفراده سبحانه بالإيجاد والقهر والإعزاز والانتقام ، لا يشاركه في شيء من ذلك غيره فقال : ﴿ وأن إلى ربك المنتهى وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ .

ولما بين ذلك فقال : ﴿ فبأي آلاء ربك تتمارى ﴾ أي في أيّ نعمة تشكون أم بأي آية تكذبون ؟ ثم قال : ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ وإذا كان عليه الصلاة والسلام .

.

.

(10/732)

فشأن مكذبيه شأن مكذبي غيره – انتهى .

ولما كان الوحي ظاهراً فيما بواسطة الملك ، تشوف السامع إلى بيان ذلك فقال مبيناً له بأوصافه لأن ذلك أضخم في حقه وأعلى لمقداره : ﴿ علمه ﴾ أي صاحبكم الوحي الذي أتاكم به ﴿ شديد القوى ﴾ أفلا تعجبون من هذه البحار الزاخرة التي فأقكم بها وهو أمي فإن معلمه بهذه الصفة التي هو بها بحيث ينفذ كل ما أمره الله به ﴿ ذو مرة ﴾ أي جزم

في قوة وقدرة عظيمة على الذهاب فيما أمر به والطاقة لحمله في غير آية النشاط والحدة كأنه ذو مزاج غلبت عليه الحدة فهو صعب المراس ماض في مراوته على طريقة واحدة على غاية من الشدة لا توصف لا التفات له بوجه إلى غير ما أمر به ، فهو على غاية الخلوص فهو مجتمع القوى مستحكم الشأن شديد الشكيمة ، لا بيان في شيء بزواله ومن جملة ما أعطى من القوة والقدرة على التشكل ، وإلى ذلك كله أشار بما سبب عن هذا من قوله : ﴿ فاستوى ﴾ فاستقام واعتدل بغاية ما يكون من قوته على أكمل حالاته في الصورة التي فطر عليها ﴿ وهو ﴾ أي والحال أن جبرائيل عليه السلام ، وجوزوا أن يكون الضمير المنفصل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أي استوى جبرائيل عليهما السلام معه ﴿ بالأفق الأعلى ﴾ أي الناحية التي هي النهاية في العلو والفضل من السماوات مناسبة لحالة هذا الاستواء ، وذلك حين رآه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالساً على كرسي بين السماء والأرض قد سد الأفق .

(11/732)

ولما كان الدنو من الحضرة الإلهية – التي هي مهيئة لتلقي الوحي – من العلو والعظمة بحيث لا يوصف ، أشار إلى ذلك بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم ﴾ أي بعد ذلك الاستواء العظيم

﴿ دنا ﴾ أي جبرائيل عليه السلام من الجناب الأقدس دنو زيادة في كرامة لا دنو مسافة ، وكل قرب يكون منه سبحانه فهو مع أنه منزه عن المسافة يكون على وجهين : قرب إلى كل موجود من نفسه ، وقرب ولاية حتى يكون سمع الموجود وبصره بمعنى أنه لا يسمع ولا يبصر إلا ما يرضاه – أشار إليه ابن برجان ، فأخذ الوحي الذي أذن له في أخذه في ذلك الوقت ﴿ فتدلّى ﴾ عقب ذلك من الله رسولاً إلى صاحبكم أي أنزل إليه نزولاً هو فيه كالمتدلي إليه بحبل فوصل إليه ولم ينفصل عن محله من الأفق الأعلى لما له من القوة والاستحكام ، قال البيضاوي : فإن التدلي هو استرتسال مع تعلق كتدلي الثمرة ﴿ فكان ﴾ في القرب من صاحبكم في رأي من يراه منكم ﴿ قاب ﴾ أي على مسافة قدر ﴿ قوسين ﴾ من قسيكم ، قال الرازي في اللوامع : أي بحيث الوتر في القوس مرتين ، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : القوس الذراع بلغة أزدشنوءة ، وقال ابن برجان : قاب القوسين : ما بين السيين ، وقيل : ما بين القبضة والوتر ﴿ أو أدنى ﴾ بمعنى أن الناظر منكم لو رآه لتردد وقال ذلك لشدة ما يرى له من القرب منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، روى مسلم في الإيمان من صحيحه عن الشيباني قال : " سألت زر بن حبيش عن قوله تعالى ﴿ فكان قاب قوسين ﴾ فقال : أخبرني ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى جبرائيل عليه السلام له ستمائة جناح " ﴿ فأوحى ﴾ أي ألقى سراً من كلام الله بسبب هذا القرب ، وعقبه بقوله : ﴿ إلى عبده ﴾ أي عبد الله ، وإضماره من غير تقدم ذكره صريحاً لما هو

معلوم مما تقدم في آخر الشورى أن كلام الله يكون وحياً بواسطة رسول يوحي بإذنه سبحانه ، والمقام يناسب الإضمار لأن الكلام هو الوحي الخفي ، وعبر بالبعد إشارة إلى أنه لم يكن

(12/732)

أحد ليستحق هذا الأمر العظيم غيره لأنه لم يتعبد قط لأحد غير الله ، وكل من عاداه حصل منهم تعبد لغيره في الجملة ، فكان أحق الخلق بهذا الوصف مع أنه كان يتعبد لله في غار حراء وغيره ، وهذه النزلة - والله أعلم - كانت على هذا التقدير في أول الوحي لما كان بحراء وفرق منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرجع ترجف بوادره ، وقال : زملوني زملوني .

(13/732)

وأشار إلى عظمة ما أنزل بقوله : ﴿ ما أوحى ﴾ أي إنه يجل عن الوصف فأجمل له ما فصل له بعد ذلك ، هذا الذي ذكر من تفسير لضمائر مظاهر العبارة وإن كان الإضمار في جميع الأفعال لا يخلو عن التباس وإشكال ، ويمكن لأجل احتمال الضمائر لما يناسبها من الظواهر

أن يكون ضمير ﴿ دنا ﴾ وما بعده لله تعالى ، وحينئذ يصير في ﴿ عبده ﴾ واضحاً كما تقدم في هذا الوجه جعله له سبحانه لأنه لا يجوز لغيره ، روى البخاري في التوحيد في باب ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ عن أنس - رضى الله عنه - في قصة الإسراء برسول الله - صلى الله عليه وسلم - من مسجد الكعبة " أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم " : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم ، فقال آخرهم : خذوا خيرهم ، وكانت تلك الليلة ، فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ، فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم ، فتولاه منهم جبرئيل عليه السلام فشق جبرئيل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ثم أتى بطست من ذهب فيه نور من ذهب محشواً إيماناً وحكمة فحشا به صدره ولغاديده – يعني عروق حلقه ، ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء الدنيا ، فضرب باباً من أبوابها فناداه أهل السماء : من هذا ؟ فقال : جبرئيل ، قالوا : ومن معك ، قال : معي محمد ، قالوا : وبعث إليه ، قال : نعم ، قالوا : فمرحباً به وأهلاً – ثم ذكر عروجه إلى السماوات السبع ، وأنه لما وصل إلى السماء السابعة علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى ، ودنا الجبار رب العزة فتدلى منه فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إليه فيما يوحي الله إليه خمسين

صلاة – فذكر مشورة موسى عليهما السلام في سؤال التخفيف حتى صارت خمساً كل واحدة بعشرة ، ودنا الجبار رب العزة في هذا الوجه وهو رب العزة "

(14/732)

وهو في غاية الحسن إذا جمعته مع ما يأتي في هذا الوجه المنقول عن جعفر الصادق ـ رضى الله عنه ـ فيكون المعنى أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما استوى بالأفق الأعلى فوصل إلى حد لا يمكن المخلوق الصعود عنه تنزل له الخالق سبحانه ، ولذلك عبر عنه ب ﴿ ثم ﴾ يعني أنه سبحانه تنزل له تنزلاً لا يمكن الاطلاع على كنه رتبته في العلو والعظمة ، ثم نزل ثم تنزل .

(15/732)

ولما كانت العبارة ربما أوهمت شيأ لا يليق به نفاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما في الرواية من تخصيص التعبير باسم الجبار فعلم أنه قربه تقريباً يليق به ، وسمى ذلك دنواً فكان الدنو والتدلي تمثيلاً لما وصل منه سبحانه إلى عبده محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بغاية السهولة واليسر واللطافة مع اتصاله بالحضرات القدسية ، والتعبير بالتدلي لإفهام العلو مثل ما كني

بالنزول كل ليلة إلى سماء الدنيا عن إجابة الدعاء بفتح أبواب السماء كما رويناه في جزء العيشي من حديث عثمان بن أبي العاص ـ رضى الله عنه ـ تمثيلاً بما نعرفه من حال الملوك في أن أحدهم يكون نزوله عن سريره أدنى في إتيان خواصه إليه ، وفتح بابه أدنى لمن يليهم ، وكلما نزل درجة كان الإذن أعم إلى أن يصل إلى الإذن العام لجميع الناس ، هذا علم المخاطبين بأن ذلك على سبيل التمثيل بمن يحتاج إلى هذه الدرجات ، وأما من هو غني عن كل شيء فله سبحانه المثل الأعلى ولا يشبه شيئاً ، ولا يشبهه شيء ، وفي ﴿ قرآن الفجر ﴾ من سورة سبحان لهذا مزيد بيان ، وقال القاضي عياض في الشفاء ما حاصله أن تلك الضمائر للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : قال جعفر بن محمد – يعني الصادق بن الباقر : أدناه ربه حتى كان منه كقاب قوسين ، وقال أيضاً : انقطعت الكيفية عن الدنو ، ألا ترى كيف حجب جبريل عليه السلام عن دنوه ودنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان فتدلى بسكون قلبه إلى ما أدناه وزال عن قلبه الشك والارتياب ، وقال جعفر أيضاً : والدنو من الله تعالى لا حد له ، ومن العباد بالحدود – انتهى .

(16/732)

وحينئذ يكون ضمير " استوى " له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ويكون المعنى : فتسبب عن تعليم جبريل له استواوه – أي اعتدال علمه – إلى غاية لم يصلها غيره من الخلق علماً وكسباً بالملك والملكوت والحال أنه بالأفق الأعلى ليلة الإسراء ، وتدليه كناية عن وصوله بسبب عظيم حامل السبب للمتدلي ، وعبر به وهو ظاهر في النزول من علو مع عدم الانفصال منه لئلا يوهم اختصاص جهة العلو به سبحانه دون بقية الجهات ، ومنه " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد " وكذا قيل في الإشارة ب " لا تفضلوني على يونس بن متى " ومن المحاسن جداً أن تكون ألف ﴿ تدلى ﴾ المقلبة عن ياء في هذا الوجه بدلاً من لام فيكون من التدلل وهو الانبساط وثوقاً بالمحبة ، يقال : تدلل عليه ، أي انبسط ووثق بمحبته فأفرط عليه ، وانبساطه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في تلك الحالة إفراط كثرة سؤاله ، وشفاعته في أمته ، وبذلك ظهر إلى عالم الشهادة أنه أرحم الخلق كما كان معلوماً إلى عالم الغيب ، فتسبب عنه زيادة تقريبه حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، وإبراز هذا الكلام في هذه الضمائر المتحملة لهذه الوجوه من غير ظاهر يعين المراد يناسب لتلك الحالة ، فإنها كانت حالة غيب وخفاء وستر ، وكان العلم فيها واسعاً ، وسوق الضمائر هكذا يكثر احتمال الكلام للوجوه ، فيتسع العلم مع أنه ليس فيها وجه يؤدي إلى لبس في الدين ولا ركاكة في معنى ولا نظم ولا مجال للعلم – والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 312 .

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ هوى ﴾ وسائر آياته بالإمالة اللطيفة : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو . وقرأ حمزة وعلي وخلف بالإمالة المفرطة كما سبق في " طه " ﴿ ما كذب ﴾ بالتشديد : يزيد وهشام ﴿ ما زاغ البصر ﴾ بالإمالة : حمزة ونصير ﴿ ومناة ﴾ بالمد : ابن كثير والشموني ﴿ أفتمرونه ﴾ ثلاثياً : يعقوب وحمزة وعلي وخلف ﴿ ضيزى ﴾ بالهمزة : ابن كثير في رواية ﴿ كبير الأثم ﴾ على التوحيد : حمزة وعلي وخلف والمفضل ﴿ إبراهام ﴾ هشام ﴿ عاداً لولي ﴾ مدغماً غير مهموز : أبو عمرو ويزيد ويعقوب والنجاري عن ورش . وقرأ إسماعيل والأصبهاني عن ورش وأبو نشيط عن قالوا بإظهار الغنة غير مهموز . وكذلك روي عن أبي عمرو فعلى مذهبهم إذا وقف القارىء على ﴿ عاد ﴾ ابتدأ ﴿ بلولي ﴾ ولو شاء الولي بتخفيف الهمزة والأول أحسن . وقرأ قالون غير أبي نشيط بالهمزة وإظهار الغنة ، وإذا وقف على ﴿ عاد ﴾ ابتدأ ﴿ لولي ﴾ ولو شاء ﴿ الولي ﴾ والباقون ﴿ عاد الأولى ﴾ بالألف قبل اللام وبعد اللام في الحالين ﴿ وثمود

﴿ في الحالين بغير تنوين : حمزة وعاصم غير ابن غالب والبرجمي والمفضل وسهل ويعقوب ﴿ ربك تمارى ﴾ بتشديد التاء : رويس عن يعقوب .

(18/732)

الوقوف : ﴿ هوى ﴾ ه لا ﴿ غوى ﴾ ه ج للآية مع العطف على جواب القسم ﴿ الهوى ﴾ ه ط ﴿ يوحى ﴾ ه لا ﴿ القوى ﴾ ه لا لذلك ﴿ ذو مرة ﴾ ط لتمام الصفة ﴿ فاستوى ﴾ ه لا لأن الواو للحال ﴿ الأعلى ﴾ ه ط ﴿ فتدلى ﴾ ه لا لأن ما بعده من تمام المقصود ﴿ أو أدنى ﴾ ه ج وإن اتفقت الجملتان لأن ضمير ﴿ فأوحى ﴾ لله لا للنبي ﴿ ما أوحى ﴾ ه ج ﴿ ما رأى ﴾ ه ﴿ أخرى ﴾ ه لا ﴿ المنتهى ﴾ ه ﴿ المأوى ﴾ ه لأن عامل ﴿ إذ زاغ البصر ﴾ فلا وقف على ﴿ ما يغشى ﴾ ﴿ طغى ﴾ ه ﴿ الكبرى ﴾ ه ﴿ والعزى ﴾ ه لا ﴿ الأخرى ﴾ ه ﴿ الأنثى ﴾ ه ﴿ ضيزى ﴾ ه ﴿ سلطان ﴾ ط ﴿ الأنفس ﴾ ج لاحتمال الواو الحال والاستئناف ﴿ الهدى ﴾ ه ط لأن أم ابتداء استفهام إنكار ﴿ ما تمنى ﴾ ه ز لتناهي الاستفهام والوصل أولى للفاء واتصال المعنى ﴿ والأولى ﴾ ه ﴿ ويرضى ﴾ ه ﴿ الأنثى ﴾ ه ﴿ علم ﴾ ط ﴿ إلا الظن ﴾ ه ج لاختلاف الجملتين ﴿ شيئاً ﴾ ط لذلك ﴿ الدنيا ﴾ ه ط ﴿ من العلم ﴾ ط ﴿

اهتدى ﴾ ه ﴿ وما في الأرض ﴾ ط ﴿ بالحسنى ﴾ ه ج لأن ﴿ الذين ﴾ يصلح خبر مبتدأ محذوف وبدلاً من ﴿ الذين أحسنوا ﴾ ﴿ اللمم ﴾ ط ﴿ المغفرة ﴾ ط ﴿ أمهاتكم ﴾ ج ﴿ أنفسكم ﴾ ه ط ﴿ اتقى ﴾ ه ﴿ تولى ﴾ ج ﴿ وأكدى ﴾ ه ﴿ يرى ﴾ ه ﴿ موسى ﴾ ه ﴿ وفى ﴾ ه لا ﴿ أخرى ﴾ ه لا ﴿ سعى ﴾ ه لا ﴿ يرى ﴾ ه ص لوقوع العارض بين المعطوف على أن ﴿ الأوفى ﴾ ه لا ﴿ المنتهى ﴾ ه لا ﴿ وأبكى ﴾ ه لا ﴿ وأحيا ﴾ ه لا ﴿ والأنثى ﴾ ه ﴿ تمنى ﴾ ه ص لما مر ﴿ الأخرى ﴾ ه لا ﴿ وأقنى ﴾ ه لا ﴿ الشعرى ﴾ ه ط ﴿ الأولى ﴾ ه لا ﴿ أبقى ﴾ ه لا ﴿ وأطغى ﴾ ه ط لأن ﴿ المؤتفكة ﴾ منصوب بما بعده ﴿ هوى ﴾ ه لا ﴿ ما غشى ﴾ ه ج لابتداء الاستفهام مع الفاء ﴿ تتمارى ﴾ ه ﴿ الأولى ﴾ ه لا ﴿ الآزفة ﴾ ه للاستئناف والحال ﴿ كاشفةٌ ﴾ ه ﴿ تعجبون ﴾ ه لا ﴿ ولا تبكون ﴾ ه لا ﴿ سامدون ﴾ ه لا ﴿ واعبدوا ﴾ ه سجدة. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 6 صـ 197. 198﴾

(19/732)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) ﴾

وقبل الشروع في التفسير نقدم مسائل ثم نتفرغ للتفسير وإن لم تكن منه :

المسألة الأولى :

أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها لفظاً ومعنى ، أما اللفظ فلأن ختم الطور بالنجم ، وافتتاح هذه بالنجم مع واو القسم ، وأما المعنى فنقول : الله تعالى لما قال لنبيّه صلى الله عليه وسلم ﴿ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ [الطور : 49] بيّن له أنه جزأه في أجزاء مكايدة النبي صلى الله عليه وسلم ، بالنجم وبعده فقال : ﴿ مَا ضَلَّ صاحبكم وَمَا غوى ﴾ [النجم : 2] .

المسألة الثانية :

السورة التي تقدمت وافتتاحها بالقسم بالأسماء دون الحروف وهي الصافات والذاريات ، والطور ، وهذه السورة بعدها بالأولى فيها القسم لإثبات الوحدانية كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ إلهكم لَوَاحِدٌ ﴾ [الصافات : 4] وفي الثانية لوقوع الحشر والجزاء كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لصادق * وَإِنَّ الدين لَوَاقِعٌ ﴾ [الذاريات : 5 ، 6] وفي الثالثة لدوام العذاب بعد وقوعه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور : 7 ، 8] .

وفي هذه السورة لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم لتكمل الأصول الثلاثة : الوحدانية ، والحشر ، والنبوة .

المسألة الثالثة :

لم يقسم الله على الوحدانية ولا على النبوة كثيراً ، أما على الوحدانية فلأنه أقسم بأمر واحد في سورة الصافات ، وأما على النبوة فلأنه أقسم بأمر واحد في هذه السورة وبأمرين في سورة الضحى وأكثر من القسم على الحشر وما يتعلق به فإن قوله تعالى : ﴿ والليل إذَا يغشى ﴾ [الليل : 1] وقوله تعالى : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ [الشمس : 1] وقوله تعالى : ﴿ والسماء ذَاتِ البروج ﴾ [البروج : 1] إلى غير ذلك ، كلها فيها الحشر أو ما يتعلق به ، وذلك لأن دلائل الوحدانية كثيرة كلها عقلية كما قيل :

وفي كل شيء له آية . . تدل على أنه واحد

(20/732)

ودلائل النبوة أيضاً كثيرة وهي المعجزات المشهورة والمتواترة ، وأما الحشر فإمكانه يثبت بالعقل ، وأما وقوعه فلا يمكن إثباته إلا بالسمع فأكثر القسم ليقطع به المكلف ويعتقده اعتقاداً جازماً ، وأما التفسير ففيه مسائل :

الأولى : الواو للقسم بالنجم أو برب النجم ففيه خلاف قدمناه ، والأظهر أنه قسم بالنجم يقال ليس للقسم في الأصل حرف أصلاً لكن الباء والواو استعملنا فيه لمعنى عارض ، وذلك لأن الباء في أصل القسم هي الباء التي للإلصاق والاستعانة فكما يقول القائل : استعنت بالله ، يقول : أقسمت بالله ، وكما يقول : أقوم بعون الله على العدو ، يقول : أقسم بحق الله فالباء فيهما بمعنى كما تقول : كتب بالقلم ، فالباء في الحقيقة ليست للقسم غير أن القسم كثر في الكلام فاستغنى عن ذكره وغيره لم يكثر فلم يستغن عنه ، فإذا قال القائل : بحق زيد فهم منه القسم لأن المراد لو كان هو مثل قوله : ادخل زيد ، أو اذهب بحق زيد ، أو لم يقسم بحق زيد لذكر كما ذكر في هذه الأشياء لعدم الاستغناء فلما لم يذكر شيء علم أن الحذف للشهرة والاستغناء ، وذلك ليس في غير القسم فعلم أن المحذوف فعل القسم ، فكأنه قال : أقسم بحق زيد ، فالباء في الأصل ليس للقسم لكن لما عرض ما ذكرنا من الكثرة والاشتهار قيل الباء للقسم ، ثم إن المتكلم نظر فيه فقال هذا لا يخلو عن التباس فإني إذا قلت بالله توقف السامع فإن سمع بعده فعلاً غير القسم كقوله : بالله استعنت وبالله قدرت وبالله مشيت وأخذت ، لا يحمله على القسم ، وإن لم يسمع حمله على القسم إن لم يتوهم

وجود فعل ما ذكرته ولم يسمعه ، أما إن توهم أني ذكرت مع قولي بالله شيئاً آخر وما سمعه هو أيضاً يتوقف فيه ففي الفهم توقف ، فإذا أراد المتكلم الحكيم إذهاب ذلك مع الاختصار وترك ما استغنى عنه ، وهو فعل القسم أبدل الباء بالتاء ، وقال : تالله ، فتكلم بها في كلمة الله لاشتهار كلمة الله والأمن من الالتباس فإن التاء في أوائل الكلمات قد تكون أصلية ، وقد تكون للخطاب والتأنيث ، فلو أقسم بحرف التاء بمن اسمه داعي أو راعي أو هادي أو عادي يقول تداعى أو تراعى أو تهادى أو تعادى فيلتبس ، وكذلك فيمن اسمه رومان أو توران إذا قلت ترومان أو

(22/732)

تتوران على أنك تقسم بالتاء تلتبس بتاء الخطاب والتأنيث في الاستقبال ، فأبدلوها واواً لا يقال عليه إشكالان الأول : مع الواو لم يؤمن الالتباس ، نقول ولى فتلتبس الواو الأصلية بالتي للقسم لأنا نقول ذلك لم يلزم فيما ذهبنا إليه ، وإنما كان ذلك في الواو حيث يدل وينبىء عن العطف وإن لم يستعمل الواو للقسم ، كيف وذلك في الباء التي هي كالأصل متحقق تقول برام في جمع برمة ، وبهام في جمع بهمة ، وبغال للبسية الباء الأصلية التي في البغال والبرام بالباء التي تلصقها بقولك مال ورأى فتقول بمال ، وأما التاء لما استعملت للقسم لزم من ذلك

الاستعمال الالتباس حيث لم يكن من قبل حرفاً من الأدوات كالباء والواو الإشكال الثاني : لم تركت مما لا التباس فيه كقولك : تالرحيم وتالعظيم ؟ نقول : لما كانت كلمة الله تعالى في غاية الشهرة والظهور استعملت التاء فيها على خلاف الأصل ، بمعنى لم يجز أن يقال عليها إلا ما يكون في شهرتها ، وأما غيرها فربما يخفى عند البعض ، فإن من يسمع الرحيم وسمع في الندرة تر بمعنى قطع ربما يقول ترحيم فعل وفاعل أو فعل ومفعول وإن كان ذلك في غاية البعد لكن الاستواء في الشهرة في المنقول منه والمنقول إليه لازم ، ولا مشهور مثل كلمة الله ، على أنا نقول لم قلت إن عند الأمن لا تستعمل ألا ترى أنه نقل عن العرب برب الكعبة والذي يؤيد ما ذكرنا أنت تقول أقسم بالله ولا تقول أقسم تالله لأن التاء فيه مخافة الالتباس عند حذف الفعل من القسم وعند الإتيان به لم يخف ذلك فلم يجز .

المسألة الثانية :

اللام في قوله تعالى : ﴿ والنجم ﴾ لتعريف العهد في قول ولتعريف الجنس في قول ، والأول قول من قال : ﴿ والنجم ﴾ المراد منه الثريا ، قال قائلهم :

إن بدا النجم عشيا . . ابتغى الراعي كسياً

(23/732)

والثاني فيه وجوه أحدها : النجم هو نجم السماء التي هي ثابتة فيها للاهتداء وقيل لا بل النجم المنقضة فيها التي هي رجوم للشياطين ثانيها : نجوم الأرض وهي من النبات ما لا ساق له ثالثها : نجوم القرآن ولنذكر مناسبة كل وجه ونبيّن فيه المختار منها ، أما على قولنا المراد الثريا فهو أظهر النجوم عند الرائي لأن له علامة لا يلتبس بغيره في السماء ويظهر لكل أحد والنبي صلى الله عليه وسلم تميز عن الكل بآيات بينات فأقسم به ، ولأن الثريا إذا ظهرت من المشرق بالبكر حان إدراك الثمار ، وإذا ظهرت بالعشاء أواخر الخريف نقل الأمراض والنبي صلى الله عليه وسلم لما ظهر قل الشك والأمراض القلبية وأدركت الثمار الحكمية والحلمية ، وعلى قولنا المراد هي النجوم التي في السماء للاهتداء نقول النجوم بها الاهتداء في البراري فأقسم الله بها لما بينهما من المشابهة والمناسبة ، وعلى قولنا المراد الرجوم من النجوم ، فالنجوم تبعد الشياطين عن أهل السماء والأنبياء يبعدون الشياطين عن أهل الأرض ، وعلى قولنا المراد القرآن فهو استدل بمعجزة النبي صلى الله عليه وسلم على صدقه وبراءته فهو كقوله تعالى : ﴿ يس * والقرءان الحكيم * إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين * على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [ياس : 41] ما ضللت ولا غويت ، وعلى قولنا النجم هو النبات ، فنقول النبات به ثبات القوى الجسمانية وصلاحها والقوة العقلية أولى بالإصلاح ، وذلك بالرسل وإيضاح السبل ، ومن هذا يظهر أن المختار هو النجوم التي هي في السماء لأنها أظهر عند السامع وقوله ﴿ إِذَا هوى ﴾ أدل عليه ، ثم بعد ذلك القرآن أيضاً فيه ظهور

ثم الثريا .

المسألة الثالثة :

القول في ﴿ والنجم ﴾ كالقول في ﴿ والطور ﴾ حيث لم يقل والنجوم ولا الأطوار ، وقال : ﴿ والذريات ﴾ ﴿ والمرسلات ﴾ وقد تقدم ذكره .

المسألة الرابعة :

(24/732)

ما الفائدة في تقييد القسم به بوقت هو به ؟ نقول النجم إذا كان في وسط السماء يكون بعيداً عن الأرض لا يهتدي به الساري لأنه لا يعلم به المشرق من المغرب ولا الجنوب من الشمال ، فإذا زال تبين بزواله جانب المغرب من المشرق والجنوب من الشمال كذلك النبي صلى الله عليه وسلم خفض جناحه للمؤمنين وكان على خلق عظيم كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 4] وكما قال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القلب لانْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : 159] إن قيل الاهتداء بالنجم إذا كان على أفق المشرق كالاهتداء به إذا كان على أفق المغرب فلم يبق ما ذكرت جواباً عن السؤال ، نقول الاهتداء بالنجم وهو مائل إلى المغرب أكثر لأنه يهدي في

الطريقين الدنيوي والديني ، أما الدنيوي فلما ذكرنا ، وأما الديني فكما قال الخليل ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ [الأنعام : 76] وفيه لطيفة ، وهي أن الله لما أقسم بالنجم شرفه وعظمه ، وكان من المشركين من يعبده فقرن بتعظيمه وصفاً يدل على أنه لم يبلغ درجة العبادة ، فإنه هاو آفل .

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3)

(25/732)

ثم قال تعالى : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ أكثر المفسرين لم يفرقوا بين الضلال والغي ، والذي قاله بعضهم عند محاولة الفرق : أن الضلال في مقابلة الهدى ، والغي في مقابلة الرشد ، قال تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الغى يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ [الأعراف : 146] وقال تعالى : ﴿ قَد تَّبَيَّنَ الرشد مِنَ الغي ﴾ [البقرة : 256] وتحقيق القول فيه أن الضلال أعم استعمالاً في الوضع ، تقول ضل بعيري ورحلي ، ولا تقول غوى ، فالمراد من الضلال أن لا يجد السالك إلى مقصده طريقاً أصلا ، والغواية أن لا يكون له طريق إلى المقصد مستقيم يدلك على هذا أنك تقول للمؤمن الذي ليس على طريق السداد إنه سفيه غير رشيد ، ولا تقول إنه ضال ، والضال كالكافر ،

والغاوي كالفاسق ، فكأنه تعالى قال : ﴿ مَا ضَلَّ ﴾ أي ما كفر ، ولا أقل من ذلك فما فسق ، ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى : ﴿ فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ [النساء : 6] أو نقول الضلال كالعدم ، والغواية كالوجود الفاسد في الدرجة والمرتبة ، وقوله ﴿ صاحبكم ﴾ فيه وجهان الأول : سيدكم والآخر : مصاحبكم ، يقال صاحب البيت ورب البيت ، ويحتمل أن يكون المراد من قوله ﴿ مَا ضَلَّ ﴾ أي ما جن ، فإن المجنون ضال ، وعلى هذا فهو كقوله تعالى : ﴿ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ [القلم : 1 _ 3] فيكون إشارة إلى أنه ما غوى ، بل هو رشيد مرشد دال على الله بإرشاد آخر ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الشعراء : 109] وقال : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله ﴾ [يونس : 72] وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 4] إشارة إلى قوله ههنا ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ فإن هذا خلق عظيم ، ولنبين الترتيب فنقول : قال أولاً ﴿ مَا

(26/732)

ضَلَّ ﴾ أي هو على الطريق ﴿ وَمَا غوى ﴾ أي طريقه الذي هو عليه مستقيم ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ أي هو راكب متنه آخذ سمت المقصود ، وذلك لأن من يسلك طريقاً

ليصل إلى مقصده فربما يبقى بلا طريق ، وربما يجد إليه طريقاً بعيداً فيه متاعب ومهالك ، وربما يجد طريقاً واسعاً آمناً ، ولكنه يميل يمنة ويسرة فيبعد عنه المقصد ، ويتأخر عليه الوصول ، فإذا سلك الجادة وركب متنها كان أسرع وصولاً ، ويمكن أن يقال ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ دليل على أنه ما ضل وما غوى ، تقديره : كيف يضل أو يغوى وهو لا ينطق عن الهوى ، وإنما يضل من يتبع الهوى ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعِ الهوى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [ص : 26] فإن قيل ما ذكرت من الترتيب الأول على صيغة الماضي في قوله ﴿ مَا ضَلَّ ﴾ وصيغة المستقبل في قوله ﴿ وَمَا يَنطِقُ ﴾ في غاية الحسن ، أي ما ضل حين اعتزلكم وما تعبدون في صغره ﴿ وَمَا غوى ﴾ حين اختلى بنفسه ورأى منامه ما رأى وما ينطق عن الهوى الآن حيث أرسل إليكم وجعل رسولاً شاهداً عليكم ، فلم يكن أولاً ضالاً ولا غاوياً ، وصار الآن منقذاً من الضلالة ومرشداً وهادياً .

(27/732)

وأما على ما ذكرت أن تقديره كيف يضل وهو لا ينطق عن الهوى فلا توافقه الصيغة ؟ نقول بلى ، وبيانه أن الله تعالى يصون من يريد إرساله في صغره عن الكفر ، والمعايب القبيحة كالسرقة والزنا واعتياد الكذب ، فقال تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ ﴾ في صغره ، لأنه لا ينطق عن

الهوى ، وأحسن ما يقال في تفسير الهوى أنها المحبة ، لكن من النفس يقال هويته بمعنى أحببته لكن الحروف التي في هوى تدل على الدنو والنزول والسقوط ومنه الهاوية ، فالنفس إذا كانت دنيئة ، وتركت المعالي وتعلقت بالسفاسف فقد هوت فاختص الهوى بالنفس الأمارة بالسوء ، ولو قلت أهواه بقلبي لزال ما فيه من السفالة ، لكن الاستعمال بعد استبعاد استعمال القرآن حيث لم يستعمل الهوى إلا في المواضع الذي يخالف المحبة ، فإنها مستعملة في موضع المدح ، والذي يدل على ما ذكرنا قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طغى وَءاثَرَ الحياة الدنيا ﴾ [النازغات : 37 38] إلى قوله ﴿ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى ﴾ [النازعات : 40] إشارة إلى علو مرتبة النفس .

إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4)

بكلمة البيان ، وذلك لأنه تعالى لما قال : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ [النجم : 3] كأن قائلاً قال : فبماذا ينطق أعن الدليل أو الاجتهاد ؟ فقال لا ، وإنما ينطق عن الله بالوحي ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ إن ﴾ استعملت مكان ما للنفي ، كما استعملت ما للشرط مكان إن ، قال تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ [البقرة : 106] والمشابهة بينهما من حيث اللفظ والمعنى ، أما اللفظ فلأن إن من الهمزة والنون ، وما من الميم والألف ، والألف كالهمزة والنون كالميم ، أما الأول : فبدليل جواز القلب ، وأما الثاني : فبدليل جواز الإدغام ووجوبه ، وأما المعنى فلأن إن تدل على النفي من وجه ، وعلى الإثبات من وجه ، ولكن دلالتها على النفي أقوى وأبلغ ، لأن الشرط والجزاء في صورة استعمال لفظة إن يجب أن يكون في الحالة معدوماً إذا كان المقصود الحث أو المنع ، تقول إن تحسن فلك الثواب ، وإن تسيء فلك العذاب ، وإن كان المراد بيان حال القسمين المشكوك فيهما كقولك : إن كان هذا الفص زجاجاً فقيمته نصف ، وإن كان جوهراً فقيمته ألف ، فههنا وجود شيء منهما غير معلوم وعدم العلم حاصل ، وعدم العلم ههنا كعدم الحصول في الحث والمنع ، فلا بد في صور استعمال إن عدم ، إما في الأمر ، وإما في العلم ، وإما الوجود فذلك عند وجود الشرط في بيان الحال ، ولهذا قال النحاة : لا يحسن أن يقال إن احمر البسر آتيك ، لأن ذلك أمر سيوجد لا محالة ، وجوزوا استعمال إن فيما لا يوجد أصلاً ، يقال في قطع الرجاء إن ابيض القار تغلبني ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ﴾ [الأعراف : 143] ولم يوجد الاستقرار ولا الرؤية ، فعلم أن دلالته على النفي أتم ، فإن مدلوله إلى مدلول ما أقرب فاستعمل أحدهما مكان الآخر هذا هو الظاهر ، وما يقال إن وما ، حرفان

نافيان في الأصل ، فلا حاجة إلى الترادف .

المسألة الثانية :

(29/732)

هو ضمير معلوم أو ضمير مذكور ، نقول فيه وجهان أشهرهما : أنه ضمير معلوم وهو القرآن ، كأنه يقول : ما القرآن إلا وحي ، وهذا على قول من قال النجم ليس المراد منه القرآن ، وأما على قول من يقول هو القرآن فهو عائد إلى مذكور والوجه الثاني : أنه عائد إلى مذكور ضمناً وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم وكلامه وذلك لأن قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ [النجم : 3] في ضمنه النطق وهو كلام وقول فكأنه تعالى يقول وما كلامه وهو نطقه إلا وحي وفيه وجه آخر أبعد وأدق ، وهو أن يقال قوله تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صاحبكم ﴾ قد ذكر أن المراد منه في وجه أنه ما جن وما مسّه الجن فليس بكاهن ، وقوله ﴿ وَمَا غوى ﴾ أي ليس بينه وبين الغواية تعلق ، فليس بشاعر ، فإن الشعراء يتبعهم الغاوون ، وحينئذ يكون قوله ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ رداً عليهم حيث قالوا قوله قول كاهن وقالوا قوله قول شاعر فقال ما قوله إلا وحي وليس بقول كاهن ولا شاعر كما قال تعالى :

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الحاقة : 41 ، 42] .

المسألة الثالثة :

الوحي اسم أو مصدر ، نقول يحتمل الوجهين ، فإن الوحي اسم معناه الكتاب ومصدر وله معان منها الإرسال والإلهام ، والكتابة والكلام والإشارة والإفهام فإن قلنا هو ضمير القرآن ، فالوحي اسم معناه الكتاب كأنه يقول ، ما القرآن إلا كتاب ويوحى بمعنى يرسل ، ويحتمل على هذا أيضاً أن يقال هو مصدر ، أي ما القرآن إلا إرسال وإلهام ، بمعنى المفعول أي مرسل ، وإن قلنا المراد من قوله ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ قوله وكلامه فالوحي حينئذ هو الإلهام ملهم من الله ، أو مرسل وفيه مباحث :

(30/732)

البحث الأول : الظاهر خلاف ما هو المشهور عند بعض المفسرين وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان ينطق إلا عن وحي ، ولا حجة لمن توهم هذا في الآية ، لأن قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى ﴾ إن كان ضمير القرآن فظاهر وإن كان ضميراً عائداً إلى قوله فالمراد من قوله هو القول الذي كانوا يقولون فيه إنه قول شاعر ، ورد الله عليهم فقال : ولا

بقول شاعر وذلك القول هو القرآن ، وإن قلنا بما قالوا به فينبغي أن يفسر الوحي بالإلهام .

البحث الثاني : هذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يجتهد وهو خلاف الظاهر ، فإنه في الحروب اجتهد وحرم ما قال الله لم يحرم وأذن لمن قال تعالى : ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : 43] ، نقول على ما ثبت لا تدل الآية عليه .

البحث الثالث : (يوحى) يحتمل أن يكون من وحي يوحى ويحتمل أن يكون من أوحى يوحي ، تقول عدم يعدم ، وأعدم يعدم وكذلك علم يعلم واعلم يعلم فنقول يوحى من أوحى لا من وحى ، وإن كان وحى وأوحى كلاهما جاء بمعنى ولكن الله في القرآن عند ذكر المصدر لم يذكر الإيحاء الذي هو مصدر أوحى ، وعند ذكر الفعل لم يذكر وحي ، الذي مصدره وحى ، بل قال عند ذكر المصدر الوحي ، وقال عند ذكر الفعل أوحى وكذلك القول في أحب وحب فإن حب وأحب بمعنى واحد ، والله تعالى عند ذكر المصدر لم يذكر في القرآن الإحباب ، وذكر الحب قال ﴿ أشد حباً ﴾ [البقرة : 165] وعند الفعل لم يقل حبه الله بل قال : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : 54] ، وقال : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ ﴾ [الحجرات : 12] وقال : ﴿ لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : 92] إلى غير ذلك وفيه سر من علم الصرف وهو أن المصدر والفعل الماضي الثلاثي فيهما خلاف قال بعض علماء الصرف المصدر مشتق من الفعل الماضي ، والماضي هو الأصل ، والدليل عليه وجهان ، لفظي ومعنوي :

أما اللفظي فإنهم يقولون مصدر فعل يفعل إذا كان متعدياً فعلاً بسكون العين ، وإذا كان لازماً فعول في الأكثر ، ولا يقولون الفعل الماضي من فعول فعلى ، وهذا دليل ما ذكرنا .

وأما المعنوي فلأن ما يوجد من الأمور لا يوجد إلا وهو خاص وفي ضمنه العام مثاله الإنسان الذي يوجد ويتحقق يكون زيداً أن عمراً أو غيرهما ، ويكون في ضمنه أنه هندي أو تركي وفي ضمن ذلك أنه حيوان وناطق ، ولا يوجد أولاً إنسان ثم يصير تركياً ثم يصير زيداً أو عمراً .

إذا علمت هذا فالفعل الذي يتحقق لا ينفك من أن يكون ماضياً أو مستقبلاً وفي ضمنه أنه فعل مع قطع النظر عن مضيه واستقباله مثاله الضرب إذا وجد فأما أن يكون قد مضى أو بعد لم يمض ، والأول ماض والثاني حاضر أو مستقبل ، ولا يوجد الضرب من حيث إنه ضرب خالياً عن المضي والحضور والاستقبال ، غير أن العاقل يدرك من فعل وهو يفعل الآن وسيفعل غداً أمراً مشتركاً فيسميه فعلاً ، كذلك يدرك في ضرب وهو يضرب الآن وسيضرب غداً أمراً مشتركاً فيسميه ضرباً فضرب يوجد أولاً ويستخرج منه الضرب ، والألفاظ وضعت لأمور تتحقق فيها فيعبر بها عنها والأمور المشتركة لا تتحقق إلا في ضمن

أشياء أُخر ، فالوضع أولاً لما يوجد منه لا يدرك منه قبل الضرب ، وهذا ما يمكن أن يقال لمن يقول الماضي أصل والمصدر مأخوذ منه وأما الذي يقول المصدر أصل والماضي مأخوذ منه فله دلائل منها أن الاسم أصل ، والفعل متفرع ، والمصدر اسم ، ولأن المصدر معرب والماضي مبني ، والإعراب قبل البناء ولأن قال وقال ، وراع وراع ، إذا أردنا الفرق بينهما نرد أبنيتهما إلى المصدر فنقول قال الألف منقلبة من واو بدليل القول ، وقال ألف منقلبة من ياء بدليل القيل وكذلك الروع والريع .

(32/732)

وأما المعقول فلأن الألفاظ وضعت للأمور التي في الأذهان ، والعام قبل الخاص في الذهن ، فإن الموجود إذا أدرك يقول المدرك هذا الموجود جوهر أو عرض فإذا أدرك أنه جوهر يقول إنه جسم أو غير جسم عند من يجعل الجسم جوهراً وهو الأصح الأظهر ، ثم إذا أدرك كونه جسماً يقول هو تام وكذلك الأمر إلى أن ينتهي إلى أخص الأشياء إن أمكن الانتهاء إليه بالتقسيم ، فالوضع الأول الفعل وهو المصدر من غير زيادة ، ثم إذا انضم إليه زمان تقول : ضرب أو سيضرب فالمصدر قبل الماضي ، وهذا هو الأصح ، إذا علمت هذا فنقول على مذهب من يقول المصدر في الثلاثي من الماضي فالحب وأحب كلاهما في درجة واحدة

لأن كليهما من حب يحب والمصدر من الثلاثي قبل مصدر المنشعبة بمرتبة ، وعلى مذهب من يقول الماضي في الثلاثي مأخوذ من المصدر فالمصدر الثلاثي قبل المصدر في المنشعبة بمرتبتين فاستعمل مصدر الثلاثي لأنه قبل مصدر المنشعبة ، وأما الفعل في أحب وأوحى فلأن الألف فيهما تفيد فائدة لا يفيدها الثلاثي المجرد لأن أحب أدخل في التعدية وأبعد عن توهم اللزوم فاستعمله .

المسألة الرابعة :

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ ﴾ أبلغ من قول القائل هو وحي ، وفيه فائدة غير المبالغة وهي أنهم كانوا يقولون هو قول كاهن ، هو قول شاعر فأراد نفي قولهم وذلك يحصل بصيغة النفي فقال ما هو كما يقولون وزاد فقال : بل هو وحي ، وفيه زيادة فائدة أخرى وهو قوله ﴿ يُوحَى ﴾ ذلك كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : 38] وفيه تحقيق الحقيقة فإن الفرس الشديد العدو ربما يقال هو طائر فإذا قال يطير بجناحيه يزيل جواز المجاز ، كذلك يقول بعض من لا يحترز في الكلام ويبالغ في المبالغة كلام فلان وحي ، كما يقول شعره سحر ، وكما يقول قوله معجزة ، فإذا قال يوحى يزول ذلك المجاز أو يبعد .

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5)

وفيه وجهان أشهرهما عند المفسرين أن الضمير في ﴿ عِلْمِهِ ﴾ عائداً إلى الوحي أي الوحي علمه شديد القوى والوحي وإن كان هو الكتاب فظاهر وإن كان الإلهام فهو كقوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193] والأولى أن يقال الضمير عائد إلى محمد صلى الله عليه وسلم تقديره علم محمد شديد القوى جبريل وحينئذ يكون عائداً إلى صاحبكم ، تقديره علم صاحبكم وشديد القوى هو جبريل ، أي قواه العلمية والعملية كلها شديدة فيعلم ويعمل ، وقوله ﴿ شَدِيدُ القوى ﴾ فيه فوائد الأولى : أن مدح المعلم مدح المتعلم فلو قال علمه جبريل ولم يصفه ما كان يحصل للنبي صلى الله عليه وسلم فضيلة ظاهرة الثانية : هي أن فيه رداً عليهم حيث قالوا أساطير الأولين سمعها وقت سفره إلى الشام ، فقال لم يعلمه أحد من الناس بل معلمه شديد القوى ، والإنسان خلق ضعيفا وما أوتي من العلم إلا قليلاً الثالثة : فيه وثوق بقول جبريل عليه السلام فقوله تعالى : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى ﴾ جمع ما يوجب الوثوق لأن قوة الإدراك شرط الوثوق بقول القائل لأنا إن ظننا بواحد فساد ذهن ثم نقل إلينا عن بعض الأكابر مسألة مشكلة لا نثق بقوله ونقول هو ما فهم ما قال ، وكذلك قوة الحفظ حتى لا نقول أدركها لكن نسيها وكذلك قوة الأمانة حتى لا نقول حرفها وغيرها فقال : ﴿ شَدِيدُ القوى ﴾ ليجمع هذه الشرائط فيصير كقوله تعالى : ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى العرش مَكِينٍ ﴾ [التكوير : 20] إلى أن قال : ﴿ أَمِينٌ ﴾ [التكوير :

21] الرابعة : في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وهي من حيث إن الله تعالى لم يكن مختصاً بمكان فنسبته إلى جبريل كنسبته إلى محمد صلى الله عليه وسلم فإذا علم بواسطته يكون نقصاً عن درجته فقال ليس كذلك لأنه شديد القوى يثبت لمكالمتنا وأنت بعد ما استويت فتكون كموسى حيث خر فكأنه تعالى قد علمه بواسطة ثم علمه من غير واسطة كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ [

(34/732)

النساء : 113] وقال صلى الله عليه وسلم : " أدبني ربي فأحسن تأديبي " .

ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6)

وفي قوله تعالى : ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ وجوه : أحدها : ذو قوة ثانيها : ذو كمال في العقل والدين جميعاً ثالثها : ذو منظر وهيبة عظيمة رابعها : ذو خلق حسن فإن قيل على قولنا المراد ذو قوة قد تقدم بيان كونه ذا قوى في قوله ﴿ شَدِيدُ القوى ﴾ [النجم : 5] فكيف نقول قواه شديدة وله قوة ؟ نقول ذلك لا يحسن إن جاء وصفاً بعد وصف ، وأما إن جاء بدلاً لا يجوز كأنه قال : علمه ذو قوة وترك شديد القوى فليس وصفاً له وتقديره : ذو قوة عظيمة أو كاملة وهو حينئذ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى العرش

مَكِينٍ ﴾ [التكوير : 19 ، 20] فكأنه قال : علمه ذو قوة فاستوى ، والوجه الآخر في الجواب هو أن إفراد قوة بالذكر ربما يكون لبيان أن قواه المشهورة شديدة وله قوة أخرى خصّه الله بها ، يقال : فلان كثير المال ، وله مال لا يعرفه أحد أي أمواله الظاهرة كثيرة وله مال باطن ، على أنا نقول المراد ذو شدة وتقديره : علمه من قواه شديدة وفي ذاته أيضاً شدة ، فإن الإنسان ربما تكون قواه شديدة وفي جسمه صغر وحقارة ورخاوة ، وفيه لطيفة وهي أنه تعالى أراد بقوله ﴿ شَدِيدُ القوى ﴾ قوته في العلم .

ثم قال تعالى : ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أي شدة في جسمه فقدم العلمية على الجسمية كما قال تعالى : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العلم والجسم ﴾ [البقرة : 247] وفي قوله ﴿ فاستوى ﴾ وجهان المشهور أن المراد جبريل أي فاستوى جبريل في خلقه .

وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7)

(35/732)

ثم قال تعالى : ﴿ وَهُوَ بالأفق الاعلى ﴾ والمشهور أن هو ضمير جبريل وتقديره استوى كما خلقه الله تعالى بالأفق الشرقي ، فسد المشرق لعظمته ، والظاهر أن المراد محمد صلى الله عليه وسلم معناه استوى بمكان وهو بالمكان العالي رتبة ومنزلة في رفعة القدر لا حقيقة في

الحصول في المكان ، فإن قيل كيف يجوز هذا والله تعالى يقول : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بالأفق المبين ﴾ [التكوير : 23] إشارة إلى أنه رأى جبريل بالأفق المبين ؟ نقول وفي ذلك الموضع أيضاً نقول كما قلنا ههنا إنه صلى الله عليه وسلم رأى جبريل وهو بالأفق المبين يقول القائل رأيت الهلال فيقال له أين رأيته فيقول فوق السطح أي أن الرائي فوق السطح لا المرئي و ﴿ المبين ﴾ هو الفارق من أبان أي فرق ، أي هو بالأفق الفارق بين درجة الإنسان ومنزلة الملك فإنه صلى الله عليه وسلم انتهى وبلغ الغاية وصار نبياً كما صار بعض الأنبياء نبياً يأتيه الوحي في نومه وعلى هيئته وهو واصل إلى الأفق الأعلى والأفق الفارق بين المنزلتين ، فإن قيل ما بعده يدل على خلاف ما تذهب إليه ، فإن قوله ﴿ ثُمَّ دَنَا فتدلى ﴾ [النجم : 8] إلى غير ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخرى عِندَ سِدْرَةِ المنتهى ﴾ [النجم : 14] كل ذلك يدل على خلاف ما ذكرته ؟ نقول سنبين موافقته لما ذكرنا إن شاء الله في مواضعه عند ذكر تفسيره ، فإن قيل الأحاديث تدل على خلاف ما ذكرته حيث ورد في الأخبار أن جبريل صلى الله عليه وسلم أرى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه على صورته فسد المشرق فنقول نحن ما قلنا إنه لم يكن وليس في الحديث أن الله تعالى أراد بهذه الآية تلك الحكاية حتى يلزم مخالفة الحديث ، وإنما نقول أن جبريل أرى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه مرتين وبسط جناحيه وقد ستر الجانب الشرقي وسده ، لكن الآية لم ترد لبيان

ذلك .

ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8)

(36/732)

وفيه وجوه مشهورة أحدها : أن جبريل دنا من النبي صلى الله عليه وسلم أي بعد ما مد جناحه وهو بالأفق عاد إلى الصورة التي كان يعتاد النزول عليها وقرب من النبي صلى الله عليه وسلم وعلى هذا ففي ﴿ تدلى ﴾ ثلاثة وجوه أحدها : فيه تقديم وتأخير تقديره ثم تدلى من الأفق الأعلى فدنا من النبي صلى الله عليه وسلم الثاني : الدنو والتدلي بمعنى واحد كأنه قال دنا فقرب الثالث : دنا أي قصد القرب من محمد صلى الله عليه وسلم وتحرك عن المكان الذي كان فيه فتدلى فنزل إلى النبي صلى الله عليه وسلم الثاني : على ما ذكرنا من الوجه الأخير في قوله ﴿ وَهُوَ بالأفق الأعلى ﴾ [النجم : 7] أن محمداً صلى الله عليه وسلم دنا من الخلق والأمة ولان لهم وصار كواحد منهم ﴿ فتدل ﴾ أي فتدلى إليهم بالقول اللين والدعاء الرفيق فقال : ﴿ إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ ﴾ [فصلت : 6] وعلى هذا ففي الكلام كما لان كأنه تعالى قال إلا وحي يوحي جبريل على محمد ، فاستوى محمد وكمل فدنا من الخلق بعد علوه وتدلى إليهم وبلغ الرسالة الثالث : وهو ضعيف

سخيف ، وهو أن المراد منه هو ربه تعالى وهو مذهب القائلين بالجهة والمكان ، اللّهم إلا أن يريد القرب بالمنزلة ، وعلى هذا يكون فيه ما في قوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه تعالى " من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، ومن مشى إليّ أتيته هرولة " إشارة إلى المعنى المجازي ، وههنا لما بيّن أن النبي صلى الله عليه وسلم استوى وعلا في المنزلة العقلية لا في المكان الحسي قال وقرب الله منه تحقيقاً لما في قوله " من تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً " .

فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9)

(37/732)

أي بين جبرائيل ومحمد عليهما السلام مقدار قوسين أو أقل ، ورد هذا على استعمال العرب وعادتهم ، فإن الأميرين منهم أو الكبيرين إذا اصطلحا وتعاهدا خرجا بقوسيهما ووتر كل واحد منهما طرف قوسه بطرف قوس صاحبه ومن دونهما من الرعية يكون كفه بكفه فينهيان باعيهما ، ولذلك تسمى مسايعة ، وعلى هذا ففيه لطيفة وهي أن قوله ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ على جعل كونهما كبيرين ، وقوله ﴿ أَوْ أدنى ﴾ لفضل أحدهما على الآخر ، فإن الأمير إذا بايعه الرعية لا يكون مع المبايع قوس فيصافحه الأمير فكأنه تعالى

أخبر أنهما كأميرين كبيرين فكان بينهما مقدار قوسين أو كان جبرائيل عليه السلام سفيراً بين الله تعالى ومحمد صلى الله عليه وسلم فكان كالتبع لمحمد صلى الله عليه وسلم فصار كالمبايع الذي يمد الباع لا القوس ، هذا على قول من يفضل النبي صلى الله عليه وسلم على جبرائيل عليه السلام وهو مذهب أهل السنة إلا قليلاً منهم إذ كان جبرائيل رسولاً من الله واجب التعظيم والاتباع فصار النبي صلى الله عليه وسلم عنده كالتبع له على قول من يفضل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه وجه آخر على ما ذكرنا ، وهو أن يكون القوس عبارة عن بعد من قاس يقوس ، وعلى هذا فنقول ذلك البعد هو البعد النوعي الذي كان للنبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه على كل حال كان بشراً ، وجبريل على كل حال كان ملكاً ، فالنبي صلى الله عليه وسلم وإن زال عن الصفات التي تخالف صفات الملك من الشهوة والغضب والجهل والهوى لكن بشريته كانت باقية ، وكذلك جبريل وإن ترك الكمال واللطف الذي يمنع الرؤية والاحتجاب ، لكن لم يخرج عن كونه ملكاً فلم يبق بينهما إلا اختلاف حقيقتهما ، وأما سائر الصفات الممكنة الزوال فزالت عنهما فارتفع النبي صلى الله عليه وسلم حتى بلغ الأفق الأعلى من البشرية وتدلى جبريل عليه السلام حتى بلغ الأفق الأدنى من الملكية فتقاربا ولم يبق بينهما إلا حقيقتهما ، وعلى هذا ففي فاعل

أوحى الأول وجهان أحدهما : أن الله تعالى أوحى ، وعلى هذا ففي عبده وجهان أحدهما : أنه جبريل عليه السلام ومعناه أوحى الله إلى جبريل ، وعلى هذا ففي فاعل أوحى الأخير وجهان أحدهما الله تعالى أيضاً ، والمعنى حينئذ أوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام الذي أوحاه إليه تفخيماً وتعظيماً للموحي ثانيهما : فاعل أوحى ثانياً جبريل ، والمعنى أوحى الله إلى جبريل ما أوحى جبريل إلى كل رسول ، وفيه بيان أن جبرائيل أمين لم يخن في شيء مما أوحى إليه ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193] وقوله ﴿ مطاع ثَمَّ أَمِينٍ ﴾

(39/732)

[التكوير : 21] الوجه الثاني : في عبده على قولنا الموحي هو الله أنه محمد صلى الله عليه وسلم معناه أوحى الله إلى محمد ما أوحى إليه للتفخيم والتعظيم ، وهذا على ما ذكرنا من التفسير ورد على ترتيب في غاية الحسن ، وذلك لأن محمداً صلى الله عليه وسلم في الأول حصل في الأفق الأعلى من مراتب الإنسان وهو النبوة ثم دنا من جبريل وهو في مرتبة النبوة فصار رسولاً فاستوى وتكامل ودنا من الأمة باللطف وتدلى إليهم بالقول الرفيق

وجعل يتردد مراراً بين أمته وربه ، فأوحى الله إليه من غير واسطة جبريل ما أوحى والوجه الثاني : في فاعل أوحى أولاً هو أنه جبريل أوحى أي عبده إلى عبد الله والله معلوم وإن لم يكن مذكوراً وفي قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ * قَالُواْ سبحانك أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن ﴾ [سبأ : 40 ، 41] ما يوجب القطع بعدم جواز إطلاق هذا اللفظ على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا ففاعل أوحى ثانياً يحتمل وجهين أحدهما : أنه جبريل أي أوحى جبريل إلى عبد الله ما أوحاه جبريل للتفخيم وثانيهما : أن يكون هو الله تعالى أي أوحى جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى الله إليه وفي الذي وجوه أولها : الذي أوحى الصلاة . ثانيها : أن أحداً من الأنبياء لا يدخل الجنة قبلك وأمة من الأمم لا تدخل الجنة قبل أمتك .

(40/732)

ثالثها : أن ما للعموم والمراد كل ما جاء به جبريل ، وهذا على قولنا بأن المراد جبريل صحيح ، والوجهان المتقدمان على قولنا المراد محمد عليه الصلاة والسلام أظهر ، وفيه وجه غريب من حيث العربية مشهور معناه عند الأصوليين ، ولنبين ذلك في معرض الجواب عن سؤال ، وهو أن يقال بم عرف محمد صلى الله عليه وسلم أن جبريل ملك من عند الله

وليس أحداً من الجن ، والذي يقال إن خديجة كشفت رأسها امتحاناً في غاية الضعف إن ادعى ذلك القائل أن المعرفة حصلت بأمثال ذلك ، وهذا إن أراد القصة والحكاية ، وإن خديجة فعلت هذا لأن فعل خديجة غير منكر وإنما المنكر دعوى حصول المعرفة بفعلها وأمثالها ، وذلك لأن الشيطان ربما تستر عند كشف رأسها أصلاً فكان يشتبه بالملائكة فيحصل اللبس والإبهام ؟ والجواب الصحيح من وجهين أحدهما : أن الله أظهر على يد جبريل معجزة عرفه النبي صلى الله عليه وسلم بها كما أظهر على يد محمد معجزات عرفناه بها وثانيهما : أن الله تعالى خلق في محمد صلى الله عليه وسلم علماً ضرورياً بأن جبريل من عند الله ملك لا جني ولا شيطان كما أن الله تعالى خلق في جبريل علماً ضرورياً أن المتكلم معه هو الله تعالى وأن المرسل له ربه لا غيره .

إذا علم الجوابان فنقول قوله تعالى :

فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10)

فيه وجهان أحدهما : أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحاه إلى جبريل أي كلمه الله أنه وحي أو خلق فيه علماً ضرورياً ثانيهما : أوحى إلى جبريل ما أوحى إلى محمد دليله الذي به يعرف أنه وحي ، فعلى هذا يمكن أن يقال ما مصدرية تقديره فأوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم الإيحاء أي العلم بالإيحاء ، ليفرق بين الملك والجن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 239 . 249 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والنجم إذَا هوى ﴾

قال ابن عباس ومجاهد : معنى ﴿ والنجم إذَا هوى ﴾ والثُّرَيَّا إذَا سقطت مع الفجر ؛ والعرب تسمي الثُّرَيَّا نجماً وإن كانت في العدد نجوماً ؛ يقال : إنها سبعة أنجم ، ستة منها ظاهرة وواحد خفيّ يَمتحِن الناس به أبصارهم .

وفي "الشِّفا" للقاضي عياض : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يرى في الثُّريا أحد عشر نجماً .

وعن مجاهد أيضاً أن المعنى والقرآن إذا نزل ؛ لأنه كان ينزل نجوماً .

وقاله الفرّاء .

وعنه أيضاً : يعني نجوم السماء كلها حين تغرب .

وهو قول الحسن قال : أقسم الله بالنجوم إذا غابت .

وليس يمتنع أن يعبر عنها بلفظ واحد ومعناه جمْع ؛ كقول الراعي :

فَبَاتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ فِي مُسْتَحِيرةٍ . . .

سَرِيعٍ بِأيدي الآكِلِين جُمُودُها

وقال عمر بن أبي ربيعة :

أَحْسَنُ النَّجْمِ في السماءِ الثُّرَيَّا . . .

وَالثُّرَيَّا في الأرضِ زَيْنُ النِّساءِ

وقال الحسن أيضاً : المراد بالنجم النجوم إذا سقطت يوم القيامة .

وقال السدّي : إن النجم ههنا الزُّهرَة لأن قوماً من العرب كانوا يعبدونها .

وقيل : المراد به النجوم التي ترجم بها الشياطين ؛ وسببه أن الله تعالى لما أراد بعث محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً كثر انقضاض الكواكب قبل مولده ، فذُعر أكثر العرب منها وفزعوا إلى كاهن كان لهم ضريراً ، كان يخبرهم بالحوادث فسألوه عنها فقال : انظروا البروج الاثني عشر فإن انقض منها شيء فهو ذهاب الدنيا ، فإن لم ينقضّ منها شيء فسيحدث في الدنيا أمر عظيم ، فاستشعروا ذلك ؛ فلما بُعِث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كان هو الأمر العظيم الذي استشعروه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ والنجم إذَا هوى ﴾ أي ذلك النجم الذي هوى هو لهذه النبوّة التي حدثت .

وقيل : النجم هنا هو النبت الذي ليس له ساق ، وهَوَى أي سقط على الأرض .

وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم : "وَالنَّجْمِ" يعني محمداً صلى الله عليه وسلم "إِذَا هَوَى" إذا نزل من السماء ليلة المعراج.

وعن عروة بن الزبير رضي الله عنهما : " أن عُتبة بن أبي لهب وكان تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد الخروج إلى الشام فقال : لآتينّ محمداً فلأوذينّه ، فأتاه فقال : يا محمد أنا كافر بالنجم إذا هوى ، وبالذي دنا فتدلى .

ثم تفل في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وردّ عليه ابنته وطَلّقها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللّهم سَلِّط عليه كلباً من كلابك" وكان أبو طالب حاضراً فوجم لها وقال : ما كان أغناك يا بن أخي عن هذه الدعوة ، فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره ، ثم خرجوا إلى الشام ، فنزلوا منزلاً ، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم : إن هذه أرض مسبعة .

فقال أبو لهب لأصحابه : أغيثونا يا معشر قريش هذه الليلة ! فإني أخاف على ابني من دعوة محمد ؛ فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم ، وأحدقوا بعتبة ، فجاء الأسد يتَشمَّم وجوههم حتى ضرب عُتْبة فقتله "

وقال حسان :

مَنْ يَرْجِعِ العامِ إلى أَهْلِهِ . . .

فَمَا أَكِيلُ السَّبْعِ بالرَّاجِعِ

وأصل النَّجْم الطلوع ؛ يقال : نَجَم السنُّ ونَجَم فلانٌ ببلاد كذا أي خرج على السلطان .

والهُوِيّ النزول والسقوط ؛ يقال : هَوَى يَهْوِي هُوِيّاً مثل مَضَى يَمْضِي مُضِيًّا ؛ قال زهير :

فَشَجَّ بِهَا الأماعِزَ وهْي تَهْوِي . . .

هُوِيَّ الدَّلْوِ أَسْلَمَها الرِّشَاءُ

وقال آخر :

بَيْنَما نَحْنُ بالبَلاَكِثِ فالْقَا . . .

عِ سِرَاعاً والعِيسُ تَهْوِي هُوِيّاً

خَطَرتْ خَطْرَةٌ على القَلْبِ مِن ذِكْـ . . .

رَاكِ وَهْناً فما استطعت مُضيًّا

الأصمعي : هَوَى بالفتح يَهْوِي هُوِيًّا أي سقط إلى أسفل .

قال : وكذلك انهوى في السير إذا مضى فيه ، وهَوَى وانهوى فيه لغتان بمعنًى ، وقد جمعهما الشاعر في قوله :

وكَمْ مَنْزِلٍ لولايَ طِحْتَ كما هَوَى . . .

بأَجرامِهِ مِنْ قُلَّةِ النِّيقِ مُنْهَوِي

ويقال في الحُبّ : هَوِيَ بالكسر يَهْوَى هَوًى ؛ أي أحبّ .

قوله تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ هذا جواب القسم ؛ أي ما ضلّ محمد صلى الله عليه وسلم عن الحق وما حاد عنه .

﴿ وَمَا غوى ﴾ الغيّ ضد الرشد أي ما صار غاوياً .

وقيل : أي ما تكلم بالباطل .

وقيل : أي ما خاب مما طلب والغيّ الخيبة ؛ قال الشاعر :

فمن يَلْقَ خيراً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ . . .

ومَنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغَيِّ لائِمَا

أي مَن خاب في طلبه لامه الناس .

ثم يجوز أن يكون هذا إخباراً عما بعد الوحي .

ويجوز أن يكون إخباراً عن أحواله على التعميم ؛ أي كان أبداً موحداً لله .

وهو الصحيح على ما بيناه في "الشورى" عند قوله : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى .

إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى ﴾ .

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ قال قتادة : وما ينطق بالقرآن عن هواه ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى ﴾ إليه .

وقيل : "عَنِ الْهَوَى" أي بالهوى ؛ قاله أبو عبيدة ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ [الفرقان : 59] أي فاسأل عنه .

النحاس : قول قتادة أولى ، وتكون "عن" على بابها ، أي ما يخرج نطقه عن رأيه ، إنما هو بوحي من الله عز وجل ؛ لأن بعده : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى ﴾ .

الثانية : قد يحتج بهذه الآية من لا يجوّز لرسول الله صلى الله عليه وسلم الاجتهاد في الحوادث .

وفيها أيضاً دلالة على أن السُّنة كالوحي المنزل في العمل .

وقد تقدّم في مقدّمة الكتاب حديث المِقدام بن معدي كرب في ذلك والحمد لله .

قال السجستاني : إن شئت أبدلت ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى ﴾ مِن ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ قال ابن الأنباري : وهذا غلط ؛ لأن "إِنْ" الخفيفة لا تكون مبدلة من "ما" الدليل على هذا أنك لا تقول : والله ما قمت إِن أنا لقاعد .

قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى ﴾ يعني جبريل عليه السلام في قول سائر المفسرين ؛ سوى الحسن فإنه قال : هو الله عز وجل ، ويكون قوله تعالى : ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ على قول الحسن تمام الكلام ، ومعناه ذو قوّة والقوة من صفات الله تعالى ؛ وأصله من شدّة فتل الحبل ، كأنه استمر به الفتل حتى بلغ إلى غاية يصعب معها الحل .

ثم قال : ﴿ فاستوى ﴾ يعني الله عز وجل ؛ أي استوى على العرش .

روي معناه عن الحسن .

وقال الربيع بن أنس والفراء : ﴿ فاستوى ﴾ ﴿ وَهُوَ بالأفق الأعلى ﴾ أي استوى جبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام .

وهذا على العطف على المضمر المرفوع ب "هو" .

وأكثر العرب إذا أرادوا العطف في مثل هذا الموضع أظهروا كناية المعطوف عليه ؛ فيقولون : استوى هو وفلان ؛ وقلما يقولون استوى وفلان ؛ وأنشد الفرّاء :

أَلَمْ تَرَ أَنّ النَّبْعَ يَصلُبُ عُودُهُ . . .

ولا يَسْتَوِي والخِرْوَعُ المتقصِّفُ

أي لا يستوى هو والخِروع؛ ونظير هذا : ﴿ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَآؤُنَآ ﴾ [النمل : 67]

والمعنى أئذا كنا تراباً نحن وآباؤنا .

ومعنى الآية : استوى جبريل هو ومحمد عليهما السلام ليلة الإسراء بالأفق الأعلى .

وأجاز العطف على الضمير لئلا يتكرر .

وأنكر ذلك الزجاج إلا في ضرورة الشعر .

وقيل : المعنى فاستوى جبريل بالأفق الأعلى ، وهو أجود .

وإذا كان المستوي جبريل فمعنى "ذُو مِرَّةٍ" في وصفه ذو منطق حسن ؛ قاله ابن عباس .

وقال قتادة : ذو خَلْق طويل حسن .

وقيل : معناه ذو صحة جسم وسلامة من الآفات ؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لا تحلّ الصدقة لغنيّ ولا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ" وقال امرؤ القيس :

(45/732)

كنتُ فيهم أبداً ذا حِيلة . . .

مُحْكَمَ المِرَّة مأمُونَ الْعُقَد

وقد قيل : "ذُو مِرَّةٍ" ذو قوة .

قال الكلبي : وكان من شدّة جبريل عليه السلام : أنه اقتلع مدائن قوم لوطٍ من الأرض السفلى ، فحملها على جناحه حتى رفعها إلى السماء ، حتى سمع أهل السماء نبح كلابهم وصياح ديكتهم ثم قلبها .

وكان من شدّته أيضاً : أنه أبصر إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب من الأرض المقدّسة فنفحه بجناحه نفحة ألقاه بأقصى جبل في الهند ، وكان من شدّته : صيحته بثمود في عددهم وكثرتهم ، فأصبحوا جاثمين خامدين .

وكان من شدته : هبوطه من السماء على الأنبياء وصعوده إليها في أسرع من الطرف .

وقال قُطْرُب : تقول العرب لكل جَزل الرأي حصيف العقل : ذُو مِرّةٍ .

قال الشاعر :

قد كنتُ قبلَ لقاكُمُ ذا مِرَّةٍ . . .

عندي لكلّ مُخاصِمٍ مِيزانُهُ

وكان من جزالة رأيه وحصَافة عقله : أن الله ائتمنه على وحيه إلى جميع رسله .

قال الجوهري : والمِرَّة إحدى الطبائع الأربع ، والمِرّة القوّة وشدّة العقل أيضاً .

ورجل مرير أي قويّ ذو مرةٍ .

قال :

تَرى الرَّجُل النَّحيفَ فتزدريه . . .

وحَشْوُ ثيابِه أسدٌ مَرِيرٌ

وقال لَقِيط :

حتى استمرت على شَزْرٍ مَرِيرتهُ . . .

مُرُّ العزيمةِ لا رَتًّا ولا ضَرَعَا

وقال مجاهد وقتادة : "ذُو مِرَّةٍ" ذو قوّة ؛ ومنه قول خُفَاف بن نَدْبة :

إنيّ امرؤ ذو مِرّةٍ فاستبقِني . . .

فِيما يَنُوبُ مِن الخُطُوبِ صَلِيبُ

فالقوة تكون من صفة الله عز وجل ، ومن صفة المخلوق .

﴿ فاستوى ﴾ يعني جبريل على ما بينا ؛ أي ارتفع وعلا إلى مكان في السماء بعد أن علَّم محمداً صلى الله عليه وسلم ، قاله سعيد بن المسيِّب وابن جبير .

(46/732)

وقيل : ﴿ فاستوى ﴾ أي قام في صورته التي خلقه الله تعالى عليها ؛ لأنه كان يأتي إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم في صورة الأدميين كما كان يأتي إلى الأنبياء ، فسأله النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يريه نفسه التي جبله الله عليها فأراه نفسه مرتين : مرة في الأرض ومرة في

السماء ؛ فأما في الأرض ففي الأفق الأعلى ، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم بحراءٍ ، فطلع له جبريل من المشرق فسد الأرض إلى المغرب ، فخر النبيّ صلى الله عليه وسلم مغشيًّا عليه ، فنزل إليه في صورة الآدميين وضمّه إلى صدره ، وجعل يمسح الغبار عن وجهه ؛ فلما أفاق النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " يا جبريل ما ظننت أن الله خلق أحداً على مثل هذه الصورة " فقال : يا محمد إنما نشرت جناحين من أجنحتي وإن لي ستمائة جناح سَعَة كل جناح ما بين المشرق والمغرب .

فقال : "إن هذا لعظيم" فقال : وما أنا في جنب ما خلقه الله إلا يسيراً ، ولقد خلق الله إسرافيل له ستمائة جناح ، كل جناح منها قدر جميع أجنحتي ، وإنه ليتضاءل أحياناً من مخافة الله تعالى حتى يكون بقدر الوصَع .

يعني العصفور الصغير ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بالأفق المبين ﴾ [التكوير : 23]

وأما في السماء فعند سِدرة المنتهى ، ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا محمداً صلى الله عليه وسلم .

وقول ثالث أن معنى "فَاسْتَوَى" أي استوى القرآن في صدره .

وفيه على هذا وجهان : أحدهما في صدر جبريل حين نزل به عليه .

الثاني في صدر محمد صلى الله عليه وسلم حين نزل عليه .

وقول رابع أن معنى "فَاسْتَوَى" فاعتدل يعني محمداً صلى الله عليه وسلم .

وفيه على هذا وجهان : أحدهما فاعتدل في قوّته .

الثاني في رسالته .

ذكرهما الماوردي .

قلت : وعلى الأوّل يكون تمام الكلام "ذُو مرَّةٍ" ، وعلى الثاني "شَدِيدُ الْقُوَى" .

وقول خامس أن معناه فارتفع .

(47/732)

وفيه على هذا وجهان : أحدهما أنه جبريل عليه السلام ارتفع إلى مكانه على ما ذكرنا آنفاً .

الثاني أنه النبيّ صلى الله عليه وسلم ارتفع بالمعراج .

وقول سادس "فَاسْتَوَى" يعني الله عز وجل ، أي استوى على العرش على قول الحسن .

وقد مضى القول فيه في "الأعراف" .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بالأفق الأعلى ﴾ جملة في موضع الحال ، والمعنى فاستوى عالياً ، أي استوى جبريل عالياً على صورته ولم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يراه عليها حتى سأله إياها على ما ذكرنا .

والأفق ناحية السماء وجمعه آفاق .

وقال قتادة : هو الموضع الذي تأتي منه الشمس .

وكذا قال سفيان : هو الموضع الذي تطلع منه الشمس .

ونحوه عن مجاهد .

ويقال : أَفْق وأُفُق مثل عُسْر وعُسُر .

وقد مضى في "حم السجدة" .

وفرس أُفُق بالضم أي رائع وكذلك الأنثى ؛ قال الشاعر :

أرجّلُ لِمَّتِي وَأَجُرُّ ذَيْلِي . . .

وتَحمِلُ شِكَّتِي أُفُقٌ كُمَيْتُ

وقيل : "وَهُوَ" أي النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ بالأفق الأعلى ﴾ يعني ليلة الإسراء وهذا ضعيف ؛ لأنه يقال : استوى هو وفلان ، ولا يقال استوى وفلان إلا في ضرورة الشعر .

والصحيح استوى جبريل عليه السلام وجبريل بالأفق الأعلى على صورته الأصلية ؛ لأنه كان يتمثل للنبيّ صلى الله عليه وسلم إذا نزل بالوحي في صورة رجل ، فأحبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يراه على صورته الحقيقية ، فاستوى في أفق المشرق فملأ الأفق .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فتدلى ﴾ أي دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض ﴿ فتدلى ﴾ فنزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم بالوحي .

(48/732)

المعنى أنه لما رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم من عظمته ما رأى ، وهاله ذلك ردّه الله إلى صورة آدمي حين قرب من النبيّ صلى الله عليه وسلم بالوحي ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ ﴾ يعني أوحي الله إلى جبريل وكان جبريل ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنى ﴾ قاله ابن عباس والحسن وقتادة والربيع وغيرهم .

وعن ابن عباس أيضاً في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فتدلى ﴾ أن معناه أن الله تبارك وتعالى "دَنَا" من محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فتدلى ﴾ .

وروى نحوه أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

والمعنى دنا منه أمره وحكمه .

وأصل التدلي النزول إلى الشيء حتى يقرب منه فوضع موضع القرب ؛ قال لبيد :

فَتَدَلَّيْت عليه قافِلاً . . .

وعلى الأرض غيَابَات الطَّفَل

وذهب الفرّاء إلى أن الفاء في "فَتَدَلَّى" بمعنى الواو ، والتقدير ثم تدلى جبريل عليه السلام ودنا .

ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحداً أو كالواحد قدمت أيهما شئت ، فقلت فدنا فقرب وقرب فدنا ، وشتمني فأساء وأساء فشتمني ؛ لأن الشتم والإساءة شيء واحد .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ [القمر : 1] المعنى والله أعلم : انشق القمر واقتربت الساعة .

وقال الجرجاني : في الكلام تقديم وتأخير أي تدلى فدنا ؛ لأن التدلّي سبب الدنوّ .

وقال ابن الأنباري : ثم تدلّى جبريل أي نزل من السماء فدنا من محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن عباس : تدلّى الرفرف لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج فجلس عليه ثم رفع فدنا من ربه .

وسيأتي .

ومن قال : المعنى فاستوى جبريل ومحمد بالأفق الأعلى قد يقول : ثم دنا محمد من ربه دنوّ كرامة فتدلّى أي هَوَى للسجود .

وهذا قول الضحاك .

قال القشيري : وقيل على هذا تدلّى أي تَدلّلَ ؛ كقولك تَظَنّى بمعنى تَظَنّنَ ، وهذا بعيد ؛ لأن الدلال غير مرضيّ في صفة العبودية .

(49/732)

قوله تعالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدنى ﴾ أي "كان" محمد من ربه أو من جبريل ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ أي قدر قوسين عربيتين .

قاله ابن عباس وعطاء والفرّاء .

الزمخشري : فإن قلت كيف تقدير قوله : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ قلت : تقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين ، فحذفت هذه المضافات كما قال أبو علي في قوله :

وَقَدْ جَعَلَتْنِي مِن حَزِيمَةَ إِصْبَعَا . . .

أي ذا مقدار مسافة إصبع "أَوْ أَدْنَى" أي على تقديركم ؛ كقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات : 174] .

وفي الصحاح : وتقول بينهما قابُ قَوْس ، وقِيبُ قَوْس وقادَ قَوْس ، وقِيدُ قَوْس ؛ أي قَدْر قَوْسٍ .

وقرأ زيد بن علي "قَادَ" وقرىء "قِيدَ" و "قَدْرَ" .

ذكره الزمخشري .

وألقابُ ما بين المَقْبِض والسِّيَة .

ولكل قوس قابان .

وقال بعضهم في قوله تعالى : ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ أراد قابي قوس فقلبه .

وفي الحديث : " ولَقابُ قوسِ أحدِكم من الجنة وموضع قِدّه خيرٌ من الدنيا وما فيها " والقِدّ السوط .

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ولَقابُ قوسِ أحدِكم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها " وإنما ضرب المثل بالقوس ، لأنها لا تختلف في القاب .

والله أعلم .

قال القاضي عِياض : اعلم أن ما وقع من إضافة الدنوّ والقرب من الله أو إلى الله فليس بدنوّ مكانٍ ولا قرب مَدًى ، وإنما دنوّ النبيّ صلى الله عليه وسلم من ربه وقرْبه منه : إبانةُ عظيم منزلته ، وتشريف رتبته ، وإشراق أنوار معرفته ، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته .

ومِن الله تعالى له : مبرةٌ وتأنيس وبسط وإكرام .

ويتأوّل في قوله عليه السلام : " ينزل ربنا إلى سماء الدنيا " على أحد الوجوه : نزول إجمال وقبول وإحسان .

قال القاضي : وقوله : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنى ﴾ فمن جعل الضمير عائداً إلى الله تعالى لا إلى جبريل كان عبارة عن نهاية القرب ، ولطف المحل ، وإيضاح المعرفة ، والإشراف على الحقيقة من محمد صلى الله عليه وسلم ، وعبارةً عن إجابة الرغبة ، وقضاء المطالب ، وإظهار التحفِّي ، وإنافة المنزلة والقرب من الله ؛ ويتأوّل فيه ما يتأوّل في قوله عليه السلام : " من تقرّب مني شبراً تقرّبت منه ذراعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولةً " قربٌ بالإجابة والقبول ، وإتيان بالإحسان وتعجيل المأمول .

وقد قيل : "ثُمَّ دَنَا" جبريل من ربه ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنى ﴾ قاله مجاهد .

ويدلّ عليه ما روي في الحديث : " إن أقرب الملائكة من الله جبريل عليه السلام " وقيل : "أو" بمعنى الواو أي قاب قوسين وأدنى .

وقيل : بمعنى بل أي بل أدنى .

وقال سعيد بن المسيّب : القاب صدر القوس العربية حيث يشدّ عليه السير الذي يتنكّبه صاحبه ، ولكل قوس قاب واحد .

فأخبر أن جبريل قرب من محمد صلى الله عليه وسلم كقرب قاب قوسين .

وقال سعيد بن جبير وعطاء وأبو إسحاق الهَمْداني وأبو وائل شقيق بن سلمة : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ أي قدر ذراعين ، والقوس الذراع يقاس بها كل شيء ، وهي لغة بعض

الحجازيين .

وقيل : هي لغة أزد شَنُوءة أيضاً .

وقال الكسائي : قوله : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنى ﴾ أراد قوساً واحداً ؛ كقول الشاعر :

ومَهْمَهَيْنِ قَذَفَيْن مَرْتَيْنِ . . .

قَطَعْتُهُ بالسَّمْتِ لا بالسَّمْتَيْنِ

أراد مهمهاً واحداً .

والقوس تذكر وتؤنث فمن أنث قال في تصغيرها قويسة ومن ذكر قال قويس ؛ وفي المثل هو من خيرِ قُوَيْسٍ سَهْماً ، والجمع قِسِيّ وقُسِيّ وأقواس وقِياس ؛ وأنشد أبو عبيدة :

ووَتَّرَ الأساورُ القِياسَا . . .

والقَوْس أيضاً بقية التّمْر في الجُلَّة أي الوعاء ، والقَوْس برج في السماء .

(51/732)

فأما القُوسُ بالضم فصومعة الراهب ؛ قال الشاعر وذكر امرأة :

لاسْتَفْتَنَتْنِي وذَا المُسحَينِ في القُوسِ . . .

قوله تعالى : ﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ مَا أوحى ﴾ تفخيم للوحي الذي أوحى إليه .

وتقدّم معنى الوحي وهو إلقاء الشيء بسرعة ومنه الوَحَاء الوَحَاء .

والمعنى فأوحى الله تعالى إلى عبده محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى .

وقيل : المعنى ﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ ﴾ جبريل عليه السلام "مَا أَوْحَى" .

وقيل : المعنى فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى إليه ربه .

قاله الربيع والحسن وابن زيد وقتادة .

قال قتادة : أوحى الله إلى جبريل وأوحى جبريل إلى محمد .

ثم قيل : هذا الوحي هل هو مبهم ؟ لا نَطَّلِع عليه نحن وتُعُبِّدْنَا بالإيمان به على الجملة ، أو هو معلوم مفسّر ؟ قولان .

وبالثاني قال سعيد بن جبير ، قال : أوحى الله إلى محمد : ألم أجدك يتيماً فآويتك ! ألم أجدك ضالاًّ فهديتك ! ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ! ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : 1 – 4] .

وقيل : أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

وقال الثعالبى :

قوله عز وجل : ﴿ والنجم إِذَا هوى * مَا ضَلَّ صاحبكم وَمَا غوى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ الآية ،

قال الحسن وغيره : النجم المُقْسَمُ به هنا : اسمُ جنس ، أراد به النجوم ، ثم اختلفوا في معنى ﴿ هوى ﴾ فقال جمهور المفسرين : هَوَى للغروب ، وهذا هو السابق إلى الفهم من كلام العرب ، وقال ابن عباس في كتاب الثعلبيِّ : هوى في الانقضاض في إثر العفريت عند استراق السمع ، وقال مجاهد وسفيان : النجم في قسم الآية : الثُّرَيَّا ، وسُقُوطُهَا مع الفجر هو هوِيُّها ، والعرب لا تقول : النجم مطلقاً إِلاَّ للثُّرَيَّا ، والقسم واقع على قوله : ﴿ مَا ضَلَّ صاحبكم وَمَا غوى ﴾ .

* ص * : ﴿ إِذَا هوى ﴾ أبو البقاء : العامل في الظرف فِعْلُ القَسَمِ المحذوفِ ، أي : أقسم بالنجم وَقْتَ هَوِيِّهِ ، وجوابُ القَسَمِ : ﴿ مَا ضَلَّ ﴾ ، انتهى ، قال الفخر : أكثر المفسرين لم يُفَرِّقُوا بين الغَيِّ والضلال ، وبينهما فرق ؛ فالغيُّ : في مقابلة الرُّشْدِ ، والضلال أَعَمُّ منه ، انتهى . ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ : يريد محمداً صلى الله عليه وسلم أَنَّه لا يتكلم عن هواه ، أي : بهواه وشهوته ، وقال بعض العلماء : وما ينطقُ القرآنَ المُنَزَّلَ عن

هوى.

* ت * : وهذا تأويل بعيد من لفظ الآية كما ترى.

(53/732)

وقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يوحى ﴾ يراد به القرآن بإجماع.

* ت * : وليس هذا الإجماع بصحيح، ولفظُ الثعلبيّ ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ ﴾ أي: ما نُطْقُهُ في الدِّينِ إلاَّ بوحي، انتهى، وهو أحسن إنْ شاء اللَّه، قال الفخر: الوحي اسم، ومعناه: الكتاب، أو مصدر وله معانٍ: منها الإرسال، والإلهام، والكتابة، والكلام، والإشارة، فإنْ قلنا: هو ضمير القرآن فالوحي اسم معناه الكتاب، ويحتمل أنْ يُقَالَ: مصدر، أي: ما القرآن إلاَّ إرْسَالٌ، أي: مُرْسَلٌ، وإنْ قلنا: المراد من قوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ ﴾ قولُ محمد وكلامُه فالوحي حينئذ هو الإلهام، أي: كلامه مُلْهَمٌ من اللَّه أو مرسل، انتهى، والضمير في ﴿ عَلَّمَهُ ﴾ لنبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم، والمُعَلِّمُ هو جبريل عليه السلام قاله ابن عباس وغيره، أي: عَلَّم محمداً القرآن، و ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ معناه: ذو قُوَّة؛ قاله قتادة وغيره؛ ومنه قوله عليه السلام: «لاَ تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ وَلاَ لِذِي مِرَّةٍ، سَوِيّ» وَأَصْلُ المِرَّةِ مِنْ مَرَائِرِ الْحَبْلِ، وهي فتله وإحكام عمله.

وقوله : ﴿ فاستوى ﴾ قال الربيع والزَّجَّاج ، المعنى : فاستوى جبريل في الجو ، وهو إذ ذاك بالأفق الأعلى ؛ إذ رآه رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم بِحِراءَ ، قد سَدَّ الأفق ، له ستمائة جناحٍ ، وحينئذ دنا من محمد عليه السلام حتى كان قابَ قوسين ، وكذلك رآه نزلةً أُخرى في صفته العظيمة ، له ستمائة جناح عند السِّدْرَة .

(54/732)

وقوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا فتدلى ﴾ قال الجمهور : المعنى : دنا جبريل إلى محمد في الأرض عند حِرَاءَ ، وهذا هو الصحيح أَنَّ جميع ما في هذه الآيات من الأوصاف هو مع جبريل ، و ﴿ دَنَا ﴾ أعمُّ من ﴿ تدلى ﴾ فَبَيَّنَ تعالى بقوله : ﴿ فتدلى ﴾ هيئَةَ الدُّنُوِّ كيف كانت ، و ﴿ قَابَ ﴾ : معناه : قَدْر ، قال قتادة وغيره : معناه : من طرف العود إلى طرفه الآخر ، وقال الحسن ومجاهد : من الوتر إلى العود في وسط القوس عند المِقْبَض .

وقوله : ﴿ أَوْ أدنى ﴾ معناه : على مقتضى نظر البشر ، أي : لو رآه أَحَدُكُمْ لقال في ذلك : قوسان أو أدنى من ذلك ، وقيل : المراد بقوسين ، أي : قَدْرَ الذراعين ، وعن ابن عباس : أَنَّ القوس في الآية ذراعٌ يُقَاسُ به ، وذكر الثعلبيُّ أَنَّهَا لُغَةُ بعض الحجازيين .

وقوله تعالى : ﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ مَا أوحى ﴾ قال ابن عباس : المعنى : فأوحى اللَّهُ إلى

عبده محمد ما أوحى ، وفي قوله : ﴿ مَا أوحى ﴾ إبهام على جهة التفخيم والتعظيم ؛ قال عياض : ولما كان ما كَاشَفَهُ عليه السلام من ذلك الجبروتِ ، وشَاهَدَهُ من عجائب الملكوت ، لا تُحِيطُ به العباراتُ ، ولا تستقِلُّ بحمل سماع أدناه العقولُ رَمَزَ عنه تعالى بالإيماء والكناية الدَّالَّةِ على التعظيم ، فقال تعالى : ﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ مَا أوحى ﴾ وهذا النوع من الكلام يسميه أَهْلُ النقد والبلاغة بالوحي والإشارة ، وهو عندهم أبلغ أبواب الإِيجاز ، انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(55/732)

وقال الآلوسى :

بسْم الله الرحمن الرحيم

﴿ والنجم إِذَا هوى ﴾

أقسم سبحانه بجنس النجم المعروف على ما روى عن الحسن ومعمر بن المثنى ، ومنه قوله : فباتت تعد النجم في مستحيرة . . .

سريع بأيدي الآكلين جمودها

ومعنى ﴿ هوى ﴾ غرب ، وقيل : طلع يقال هوى يهوى كرمى يرمي هوياً بالفتح في

السقوط والغروب لمشابهته له ؛ وهوياً بالضم للعلو ، والطلوع ، وقيل : الهوى بالفتح للإصعار والهوى بالضم للانحدار ؛ وقيل : الهوى بالفتح والضم السقوط ويقال أهوى بمعنى هوى ، وفرق بعض اللغويين بينهما بأن هوى إذا انقض لغير صيد ، وأهوى إذا انقض له ، وقال الحسن .

وأبو حمزة الثمالي : أقسم سبحانه بالنجوم إذا انتثرت في القيامة ، وعن ابن عباس في رواية أقسم عز وجل بالنجوم إذا انقضت في إثر الشياطين ، وقيل : المراد بالنجم معين فقال مجاهد .

وسفيان : هو الثريا فإن النجم صار علماً بالغلبة لها ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " إذا طلع النجم صباحاً ارتفعت العاهة " وقول العرب : طلع النجم عشاءاً فابتغى الراعي كساء ، طلع النجم غدية فابتغي الراعي كسية وفسر هويها بسقوطها مع الفجر ، وقيل : هو الشعري المرادة بقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ ﴾ [النجم : 49] والكهان يتكلمون على المغيبات عند طلوعها ، وقيل : الزهرة وكانت تعبد ، وقال ابن عباس .

ومجاهد .

والفراء .

ومنذر بن سعيد : ﴿ الطارق النجم ﴾ المقدار النازل من القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ، ﴿ وَإِذَا هوى ﴾ بمعنى إذا نزل عليه مع ملك الوحي جبريل عليه والسلام ، وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه : هو النبي صلى الله عليه وسلم وهويه نزوله من السماء ليلة المعراج ، وجوز على هذا أن يراد بهويه صعوده وعروجه عليه الصلاة والسلام إلى منقطع الأين ، وقيل : هو الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وقيل : العلماء على إرادة الجنس ، والمراد بهويهم قيل : عروجهم في معارج التوفيق إلى حضائر التحقيق ، وقيل : غوصهم في بحار الأفكار لاستخراج درر الأسرار ، وأظهر الأقوال القول بأن المراد بالنجم جنس النجم المعروف فإن أصله اسم جنس لكل كوكب ، وعلى القول بالتعيين فالأظهر القول بأنه الثريا ، ووراء هذين القولين القول بأن المراد به المقدار النازل من القرآن ، وفي الإقسام بذلك على نزاهته عليه الصلاة والسلام عن شائبة الضلال والغواية من البراعة البديعة وحسن الموقع ما لا غاية وراءه ، أما على الأولين فلأن النجم شأنه أن يهتدي به الساري إلى مسالك الدنيا كأنه قيل : ﴿ والنجم ﴾ الذي تهتدي به السابلة إلى سواء السبيل .

﴿ مَا ضَلَّ صاحبكم ﴾ أي ما عدل عن طريق الحق الذي هو مسلك الآخرة فهو استعارة وتمثيل لكونه عليه الصلاة والسلام على الصواب في أقواله وأفعاله ﴿ وَمَا غوى

﴿ أي وما اعتقد باطلاً قط لأن الغي الجهل مع اعتقاد فاسد وهو خلاف الرشد فيكون عطف هذا على ﴿ مَا ضَلَّ ﴾ من عطف الخاص على العام اعتناءاً بالاعتقاد ، وإشارة إلى أنه المدار .

وأما على الثالث فلأنه تنويه بشأن القرآن وتنبيه على مناط اهتدائه عليه الصلاة والسلام ومدار رشاده كأنه قيل : وما أنزل عليك من القرآن الذي هو علم في الهداية إلى مناهج الدين ومسالك الحق واليقين ﴿ مَا ضَلَّ ﴾ عنها محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا غوى ﴾ فهو من باب

.

وثناياك أنها إغريض . . .

(57/732)

والخطاب لقريش وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان المصاحبة لهم للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة وإحاطتهم خبراً ببراءته صلى الله عليه وسلم مما نفى عنه بالكلية وباتصافه عليه الصلاة والسلام بغاية الهدى والرشاد فإن طول صحبتهم له عليه الصلاة والسلام ومشاهدتهم لمحاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً ففي ذلك تأكيد لإقامة

الحجة عليهم ، واختلف في متعلق إذا قال بعضهم : فاوضت جار الله في قوله تعالى : ﴿ والنجم إذَا هوى ﴾ [النجم : 1] فقال : العامل فيه ما تعلق به الواو فقلت : كيف يعمل فعل الحال في المستقبل ؟! وهذا لأن معناه أقسم الآن لا أقسم بعد هذا ، فرجع وقال : العامل فيه مصدر محذوف ، والتقدير وهوى النجم إذا هوى فعرضته على بعض المشايخ فلم يستحسن قوله الثاني ، والوجه تعلقه بأقسم وهو قد انسلخ عنه معنى الاستقبال وصار للوقت المجرد ونحوه آتيك إذا احمر البسر أي وقت احمراره ، وقال عبد القاهر : إخبار الله تعالى بالمتوقع يقام مقام الإخبار بالواقع إذ لا خلف فيه فيجري المستقبل مجرى المحقق الماضي ، وقيل : إنه متعلق بعامل هو حال من النجم ، وأورد عليه أن الزمان لا يكون خبراً ولا حالاً عن جثة كما هنا ، وأن ﴿ إذَا ﴾ للمستقبل فكيف يكون حالاً إلا أن تكون حالاً مقدرة أو تجرد ﴿ إذَا ﴾ لمطلق الوقت كما يقال بصحية الحالية إذا أفادت معنى معتداً به ، فمجيء الزمان خبراً أو حالاً عن جثة ليس ممنوعاً على الإطلاق كما ذكره النحاة ، أو المجم لتغيره طلوعاً وغروباً أشبه الحدث ، والإنصاف أن جعله حالاً كتعلقه بمصدر محذوف ليس بالوجه ، وإنما الوجه ، على ما قيل ما سمعت من تعلقه بأقسم منسلخاً عنه معنى الاستقبال وهو الذي اختاره في "المغنى" وتخصيص القسم بوقت الهوى ظاهر على الأخير من الأقوال الثلاثة ، وأما على الأولين فقيل : لأن النجم لا يهتدي به الساري عند كونه في وسط السماء ولا يعلم المشرق من المغرب ولا الشمال من

الجنوب ، وإنما يهتدي به عند هبوطه ، أو صعوده مع ما فيه من كمال المناسبة لما سيحكى من التدلي والدنو ، وقيل : لدلالته على حدوثه الدال على الصانع وعظيم قدرته عز وجل كما قال الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأكمل السلام ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ [الأنعام : 76] وسيأتي إن شاء الله تعالى آخر الكتاب تمام الكلام في تحقيق إعراب مثل هذا التركيب فلا تغفل .

﴿ وَمَا يَنطِقُ ﴾ أي النبي صلى الله عليه وسلم لتقدم ذكره في قوله سبحانه : ﴿ صاحبكم ﴾ [النجم : 2] والنطق مضمن معنى الصدور فلذا عدى بعن في قوله تعالى : ﴿ عَنِ الهوى ﴾ وقيل : هي بمعنى الباء وليس بذاك أي ما يصدر نطقه فيما آتاكم به من جهته عز وجل كالقرآن ، أو من القرآن عن هوى نفسه ورأيه أصلاً فإن المراد استمرار النفي كما مر مراراً في نظائره .

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي ما الذي ينطق به من ذلك أو القرآن وكل ذلك مفهوم من السياق ﴿ إِلاَّ وَحْىٌ ﴾ من الله عز وجل ﴿ يُوحَى ﴾ يوحيه سبحانه إليه ، والجملة صفة مؤكدة لوحي رافعة لاحتمال المجاز مفيدة للاستمرار التجددي ، وقيل : ضمير ﴿ يَنطِقُ ﴾ للقرآن

فالآية كقوله تعالى : ﴿ هذا كتابنا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق ﴾ [الجاثية : 29] وهو خلاف الظاهر ، وقيل : المراد ما يصدر نطقه عليه الصلاة والسلام مطلقاً عن هوى وهو عائد لما ينطق به مطلقاً أيضاً .

واحتج بالآية على هذا التفسير من لم ير الاجتهاد له عليه الصلاة والسلام كأبي علي الجبائي .

(59/732)

وابنه أبي هاشم ، ووجه الاحتجاج أن الله تعالى أخبر بأن جميع ما ينطق به وحي وما كان عن اجتهاد ليس بوحي فليس مما ينطق ، وأجيب بأن الله تعالى إذا سوغ له عليه الصلاة والسلام الاجتهاد كان الاجتهاد وما يسند إليه وحياً لا نطقاً عن الهوى ، وحاصله منع كبر القياس ، واعترض عليه بأنه يلزم أن تكون الأحكام التي تستنبطها المجتهدون بالقياس وحياً ، وأجيب بأن النبي عليه الصلاة والسلام أوحى إليه أن يجتهد بخلاف غيره من المجتهدين ، وقال القاضي البيضاوي : إنه حينئذ بالوحي لا وحي ، وتعقبه صاحب الكشف بأنه غير قادح لأنه بمنزلة أن يقول الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : متى ما ظننت بكذا فهو حكمي أي كل ما ألقيته في قلبك فهو مرادي فيكون وحياً حقيقة ، والظاهر أن الآية واردة

في أمر التنزيل بخصوصه وإن كان مثله الأحاديث القدسية والاستدلال بها على أنه عليه الصلاة والسلام غير متعبد بالوحي محوج لارتكاب خلاف الظاهر وتكلف في دفع نظر البيضاوي عليه الرحمة كما لا يخفى على المنصف ، ولا يبعد عندي أن يحمل قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ على العموم بأن من يرى الاجتهاد له عليه الصلاة والسلام كالإمام أحمد .

(60/732)

وأبي يوسف عليهما الرحمة لا يقول بأن ما ينطق به صلى الله عليه وسلم مما أدى إليه اجتهاده صادر عن هوى النفس وشهوتها حاشا حضرة الرسالة عن ذلك وإنما يقول هو واسطة بين ذلك وبين الوحي ويجعل الضمير في قوله سبحانه : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ ﴾ للقرآن على أن الكلام جواب سؤال مقدر كأنه قيل : إذا كان شأنه عليه الصلاة والسلام أنه ما ينطق عن الهوى فما هذا القرآن الذي جاء به وخالف فيه ما عليه قومه واستمال به قلوب كثير من الناس وكثرت فيه الأقاويل ؟ فقيل : ما هو إلا وحي يوحيه الله عز وجل إليه صلى الله عليه وسلم فتأمل ، وفي الكشف أن في قوله تعالى : ﴿ مَا يَنطِقُ ﴾ مضارعاً مع قوله سبحانه : ﴿ مَا ضَلَّ ﴾ ﴿ وَمَا غوى ﴾ ما يدل على أنه عليه الصلاة والسلام

حيث لم يكن له سابقة غواية وضلال منذ تميز وقبل تحنكه واستنبائه لم يكن له نطق عن الهوى كيف وقد تحنك ونبىء ، وفيه حث لهم على أن يشاهدوا منطقه الحكيم .

﴿ عِلْمِهِ ﴾ الضمير للرسول والمفعول الثاني محذوف أي القرآن ، أو الوحي ، وجوز أبو حيان كون الضمير للقرآن ، وأن المفعول الأول محذوف أي علمه الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ شَدِيدُ القوى ﴾ هو جبريل عليه السلام كما قال ابن عباس .

وقتادة .

والربيع ، فإنه الواسطة في إبداء الخوارق وناهيك دليلاً على شدة قوته أنه قلع قرىء قوم لوط من الماء الأسود الذي تحت الثرى وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء ثم قلبها ، وصاح بثمود صيحة فأصبحوا جاثمين وكان هبوطه على الأنبياء عليهم السلام وصعوده في أسرع من رجعة الطرف ، فهو لعمري أسرع من حركة ضياء الشمس على ما قرروه في الحكمة الجديدة .

﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ ذو حصافة واستحاكم في العقل كما قال بعضهم ، فكأن الأول وصف بقوّة الفعل ، وهذا وصف بقوّة النظر والعقل لكن قيل : إن ذاك بيان لما وضع له اللفظ فإن العرب تقول لكل قوى العقل والرأي ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ من أمررت الحبل إذا أحكمت فتله .

وإلا فوصف الملك بمثله غير ظاهر فهو كناية عن ظهور الآثار البدعية ، وعن سعيد بن المسيب ذو حكمة لأن كلام الحكماء متين ، وروى الطستي أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عنه فقال : ذو شدة في أمر الله عز وجل واستشهد له ، وحكى الطيبي عنه أنه قال : ذو منظر حسن واستصوبه الطبري ، وفي معناه قول مجاهد ، ذو خلق حسن : وهو في قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوىّ " بمعنى ذي قوة ، وفي "الكشف" إن المِرّة لأنها في الأصل تدل على المرة بعد المرة تدل على زيادة القوة فلا تغفل ﴿ فاستوى ﴾ أي فاستقام على صورته التي خلقه الله تعالى عليها وذلك عند حراء في مبادي النبوة وكان له عليه الصلاة والسلام كما في حديث أخرجه الإمام أحمد .

وعبد بن حميد .

وجماعة عن ابن مسعود ستمائة جناح كل جناح منها يسد الأفق فالاستواء ههنا بمعنى اعتدال الشيء في ذاته كما قال الراغب ، وهو المراد بالاستقامة لا ضد الإعوجاج ، ومنه استوى الثمر إذا نضج ، وفي الكلام على ما قال الخفاجي : طي لأن وصفه عليه السلام بالقوة وبعض صفات البشر يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه في غير هيئته الحقيقية وهذا تفصيل لجواب سؤال مقدر كأنه قيل : فهل رآه على صورته الحقيقية : فقيل ؟ نعم رآه فاستوى الخ ، وفي "الإرشاد" أنه عطف على علمه بطريق التفسير فإنه إلى

قوله تعالى : ﴿ مَا أوحى ﴾ باين لكيفة التعليم ، وتعقب بأن الكيفية غير منحصرة فيما ذكر ، ومن هنا قيل : إن الفاء للسببية فإن تشكله عليه السلام بشكله يتسبب عن قوته وقدرته على الخوارق أو عاطف على ﴿ عِلْمِهِ ﴾ على مكعنى علمه على غير صورته الأصلية ، ثم استوى على صورته الأصلية وتعقب بأنه لا يتم به التئام الكلام ويحسن به النظام ، وقيل : استوى بمعنى ارتفع والعطف على علم ، والمعنى ارتفع إلى السماء بعد أن علمه وأكثر الآثار تقتضي ما تقدم .

(62/732)

﴿ وَهُوَ بالافق الأعلى ﴾ أي الجهة العليا من السماء المقابلة للناظر ، وأصله الناحية وما ذكره أهل الهيئة معنى اصطلاحي وينقسم عندهم إلى حقيقي وغيره كما فصل في محله ، وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس أن المراد به هنا مطلع الشمس وفي معناه قول الحسن : هو أفق المشرق ، والجملة في موضع الحال من فاعل ﴿ استوى ﴾ [النجم : 6] ، وقال الفراء .

والطبري : إن هو عطف على الضمير المستتر في استوى وهو عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما أن ذلك عائد لجبريل عليه السلام ، وجوز العكس ، والجار متعلق باستوى وفيه

العطف على الضمير المرفوع من غير فصل ، وهو مذهب الكوفيين مع أن المعنى ليس عليه عند الأكثرين .

﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ أي ثم قرب جبريل عليه السلام من النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فتدلى ﴾ فتعلق جبريل عليه عليه الصلاة والسلام في الهواء ، ومنه تدلت الثمرة ودلى رجليه من السرير .

والدوالي الثمر المعلق كعناقيد العنب وأنشدوا لأبي ذؤيب يصف مشتار عسل

: تدلى عليها بين سب وخيطة . . .

بجرداء مثل الوكف يكبو غرابها

ومن أسجاع ابنة الخس كن حذراً كالقرلى إن رأى خيراً تدلى ، وإن رأى شراً تولى فالمراد بالتدلي دنو خاص فلا قلب ولا تأويل بإرادة الدنو كما في الإيضاح ، نعم إن جعل بمعنى التنزل من علو كما يرشد إليه الاشتقاق كان له وجه .

﴿ فَكَانَ ﴾ أي جبريل عليه السلام من النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ أي من قسى العرب لأن الإطلاق ينصرف إلى متعارفهم ، والقاب ، وكذا القيب .

والقاد .

والقيد .

والقيس المقدار ، وقرأ زيد بن علي قاد ، وقرىء قيد وقدر ، وقد جاء التقدير بالقوس

كالرمح والذراع وغيرهما ، ويقال على ما بين مقبض القوس وسيتها ، وهي ما عطف من طرفيها فلكل قوس قابان ، وفسر به هنا قيل : وفي الكلام عليه قلب أي فكان قابي قوس ، وفي "الكشف" لك أن تقول قابا قوس وقاب قوسين واحد دون قلب ، وعن مجاهد .

(63/732)

والحسن أن قاب القوس ما بين وترها ومقبضها ولا حاجة إلى القلب عليه أيضاً فإن هذا على ما قال : الخفاجي إشارة إلى ما كانت العرب في الجاهلية تفعله إذا تحالفوا فإنهم كانوا يخرجون قوسين ويلصقون إحداهما بالأخرى فيكون القاب ملاصقاً للآخر حتى كأنهما ذا قاب واحد ثم ينزعونهما معاً ويرمون بهما سهماً واحداً فيكون ذلك إشارة إلى أن رضا أحدهم رضا الآخر وسخطه سخطه لا يمكن خلافه ، وعن ابن عباس القوس هنا ذراع يقاس به الأطوال وإليه ذهب أبو رزين ، وذكر الثعلبي أنه من لغة الحجاز ، وأياً ما كان فالمعنى على حذف مضاف أي فكان ذا قاب قوسين ونحوه قوله

: فأدرك أبقاء لعرادة ظلعها . . .

وقد جعلتني من (خزيمة أصبعا)

فإنه على معنى ذا مقدار أصبع وهو القرب فكأنه قيل فكان قريباً منه ، وجوز أن يكون

ضمير كان للمسافة بتأويلها بالبعد ونحوه فلا حاجة إلى اعتبار الحذف وليس بذاك ﴿ أَوْ أدنى ﴾ أي أو أقرب من ذلك ، و ﴿ أَوْ ﴾ للشك من جهة العباد على معنى إذا رآه الرائي يقول : هو قاب قوسين أو أدنى ، والمراد إفادة شدة القرب .

(64/732)

﴿ فأوحى ﴾ أي جبريل عليه السلام ﴿ إلى عَبْدِهِ ﴾ أي عبد الله وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، والإضمار ولم يجر له تعالى ذكراً لكونه في غاية الظهور ومثله كثير في الكلام ، ومنه ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ الناس بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر : 45] وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] ﴿ مَا أوحى ﴾ أي الذي أوحاه والضمير المستتر لجبريل عليه السلام أيضاً ، وإبهام الموحى به للتفخيم فهذا نظير قوله تعالى : ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : 78] وقال أبو زيد : الضمير المستتر لله عز وجل أي أوحى جبريل إلى عبد الله ما أوحاه الله إلى جبريل ، والأول مروي عن الحسن وهو الأحسن ، وقيل : ضمير ﴿ أوحى ﴾ الأول والثاني لله تعالى ، والمراد بالعبد جبريل عليه السلام وهو كما ترى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(65/732)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

53 ـ سورة النجم

نزولها : مكية باتفاق . .

عدد آياتها : اثنتان وستون آية . .

عدد كلماتها : ثلاثمائة وستون كلمة . .

عدد حروفها : ألف وأربعمائة وخمسون حرفا .

مناسبتها لما قبلها

كانت سورة الطور مواجهة صريحة بالاتهام للمشركين ، بمفترياتهم على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وبمقولاتهم الآثمة فيه ، وبأنه شاعر يتربصون به ريب المنون ، وأنهم لهذا لا يقبلون ما يدعوهم إليه من هدى ، يطالعهم به فى آيات اللّه التي يتلوها عليهم ، وأنهم لهذا أيضا ، متمسكون بما معهم من أباطيل وضلالات يدينون بها ، ويقيمون حياتهم الروحية عليها . .

وقد ووجهوا بهذه الضلالات ، وضبطوا متلبسين بها ، وسئلوا عن المصدر الذي تلقوها منه ـ فلم يكن لهم هناك جواب إلا الحيرة والوجوم . .

وجاءت سورة النجم تعقيبا على هذا الموقف الذي جمد فيه المشركون ، وخرسوا أمام

هذه التهم التي تلبسوا بها ، وفى أعينهم نظرات زائغة . .

يرمون بها هنا وهناك ليجدوا مخرجا من هذا المأزق الحرج الذي هم فيه . .

وفى هذا التعقيب يعرض على المشركين الوجه الذي ينبغى أن يسلكوه ، إن هم أرادوا الخروج من هذه الحيرة التي لبستهم . .

ومن جهة أخرى ، فإن سورة الطور ، قد ختمت بقوله تعالى : « وَمِنَ

(66/732)

اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبارَ النُّجُومِ »

على حين بدئت سورة النجم بالقسم بواحد من هذه النجوم ، التي أدبرت مع ضوء الصبح الوليد . . فكان هناك أكثر من مناسبة جمعت بين السورتين . .

قوله تعالى : « وَالنَّجْمِ إِذا هَوى ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى » .

.

(67/732)

الواو : للقسم . .

والنجم : مقسم به من اللّه سبحانه وتعالى :

والواقع عليه القسم ، هوقوله تعالى : « ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى . .

الآيات » . .

وقد اختلف فى المراد بالنجم ، فقيل هو ما ينزل من القرآن منجّما ، وقيل هو الرسول ،

وقيل هو جنس النجم ، الشامل لجميع نجوم السماء ، وقيل هو الشعرى اليمانية . .

واختلف كذلك فى معنى « هوى » فقيل بمعنى سقط ، رجوما للشياطين ، أو تناثر ،

وذلك يوم القيامة ، وقيل « هوى » بمعنى غرب ، أو بمعنى طلع . . .

والذي نراه ـ واللّه أعلم ـ أن المراد بالنجم هو النجم القطبي ، الذي يهتدى به السائرون ليلا

فى البرّ ، وفى البحر ، وهو يأخذ دائما اتجاه الشمال . . وذلك ما يشير إليه قوله تعالى : «

وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16 : النحل) . . فهذا النجم ـ واللّه أعلم ـ هو النجم الذي أقسم اللّه

سبحانه وتعالى به . .

والذي نراه ـ واللّه أعلم ـ فى قوله تعالى : « هَوى » أن معناه ، أفل ، واختفى ، فى ضوء

الصبح المشرق . . وهو المناسب لقوله تعالى فى آخر سورة « الطور » : « وَمِنَ اللَّيْلِ

فَسَبِّحْهُ ، وَإِدْبارَ النُّجُومِ » .

واختصاص هذا النجم من بين نجوم السماء ، بالذكر ، لأنه من أضوأ نجوم السماء ، ومن أكثرها صلة بحياة الناس ، وهداية لهم فى السير ، فى ظلمات البر والبحر . .

(68/732)

وفى القسم بالنجم فى حال هوّيه ، وأفوله ، ووقوع هذا القسم على النبي وأنه ما ضلّ وما غوى ، كما يرى ذلك المشركون الضالون - فى هذا إشارة إلى أمور :

أولها : أن ظهور النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - كان فى ظلمة ليل بهيم ، أطبق على العالم كله ، وأناخ بكلكله على الجزيرة العربية وأهلها ، وأن ظهوره هذا ، كان أشبه بالنجم القطبي ، الذي يرى منه المدلجون فى الليل هاديا ، إذا هم رفعوا رءوسهم إلى السماء ، ومدوّا أبصارهم إليه . .

وثانيها : أن هذا النجم السماوي البشرى ، المثل فى النبي ، والنور الذي معه - لم يهتد به ، فى الدور المكىّ من الدعوة ، وإلى وقت نزول هذه السورة - إلا أعداد قليلة من الناس ، هم الذين رفعوا رءوسهم إليه ، وطلبوا الهدى منه . . أما الكثيرة الكثيرة من المشركين ، فقد كانوا فى نوم عميق ، تطرقهم فيه رؤى الأوهام ، وأضغاث الأحلام ! ! وأن هذا النجم الهادي يوشك أن يغرب عن أفقهم ، ويفوتهم الاهتداء به ، والتعرف على الوجه الصحيح

الذي يسلكونه على درب الحياة .

وثالثها : أن هذا النجم القطبي - وإن غاب عن الأعين - فإنه فى حقيقته قائم فى مقامه العالي ، حيث هو . . هكذا يراه أهل العلم . . وكذلك الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه - وإن غاب شخصه عن أعين الناس ، فإنه قائم فى مقامه المكين ، من قلوب المؤمنين أبدا الدهر .

ورابعها : أن النبي الكريم ، وإن ظهر فى أول أمره نجما ، لا تكتحل بضوئه إلا العيون التي تطلبه ، فإن أمره بعد هذا سيعظم ، ويتحول إلى صبح مشرق ، يملأ العيون ، وينعش النفوس ، ويوقظ الأحياء . . ثم لا يلبث هذا النبي أن يطلع شمسا ينفذ شعاعها إلى الكائنات ، فيلبس المؤمنون به ، المتعرضون

لضوئه ، حللا من النور ، والجلال ، على حين تنجحر من ضوئه الهوام والحشرات ، وتقتل تحت ضربات أشعته « الفيروسات » والجراثيم . .

وخامسها : أن هؤلاء المشركين ، الذين لم يهتدوا بضوء النبي « نجما » ثم لم ينتظموا فى ركبه « صبحا » ثم لم يستقبلوا ضوءه « شمسا » - هؤلاء المشركون لن يكون مصيرهم إلا كمصير هذه الجراثيم ، تموت تحت ضربات الشمس .

أو كهذه الهوام والحشرات ، لا يرى لها وجه ما دام هذا الضوء قائما . .

وقد كان ، فإن كثيرا من المشركين الذين عاصروا النبوة ماتوا ميتة الجراثيم ، وكثير منهم انجحر بين أربعة جدران من بيته إلى أن مات حسرة وكمدا ، دون أن يشعر به أحد ! وقوله تعالى : « ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى » . هو المقسم عليه من رب العزّة جلّ وعلا ، وهو تبرئة لمقام النبىّ الكريم أن يكون بمظنة سوء ، أو بموضع تهمة ، فهو صلوات اللّه وسلامه عليه ، كما شاء له ربه أن يكون ، وكما عرف ذلك منه قومه معرفة عيان وابتلاء . هو الصادق الأمين ، الذي لم تجرب عليه كذبة قط ولم يعرف عنه . ولو على سبيل الكذب والافتراء عليه . أنه خان أمانة ، أو أخلف وعدا ، أو نقض عهدا ، ولهذا كان عند قومه يدعى الصادق الأمين . .

والضلال : ضد الهدى ، ويكون غالبا عن جهل . .

والغىّ ، ضد الرشاد ، ويكون غالبا عن اتباع الهوى . . وفى مخاطبة قريش بقوله تعالى : « صاحِبُكُمْ » . إشارة إلى تلك الصحبة الطويلة التي صحب فيها النبىّ قومه قبل البعثة ، وإلى ما عرفوا منه خلال تلك الصحبة من أمانة ، وصدق ، واستقامة ، ونبل ، وسداد رأى ، ورجاحة عقل ، حتى نزل من قلوبهم جميعا منزلة الصاحب من قلب صاحبه . . فكيف تتبدل حالهم معه ، بعد أن جاوز الأربعين ؟ وكيف ينكرون عليه ما جاءهم به دون أن ينظروا فيه بعقولهم ،

ويقفوا طويلا عنده ، قبل المسارعة بهذا الاتهام من غير تدبر أو نظر ؟ . .

وقد كان يمكن أن يكون لهذا الإنكار الذي استقبلوا به دعوة النبي - وجه من العذر ، لو كان النبي طارئا عليهم ، غير معروف لهم ، أو كان موضع تهمة عندهم من قبل . . وأما وللنبى فيهم مقام كريم ، ومعاشرة طويلة ، قائمة على الإكبار والإجلال والتعظيم - فإن المبادأة بهذا الاتهام مما لا يستقيم على منطق أبدا ، ولا يقوم له وجه من العذر بحال أبدا . .

وقوله تعالى : « وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى » - هو معطوف على المقسم عليه ، وهو قوله تعالى : « ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى » - أي وما ينطق بما نطق به ، عن هوى يترضّى به شهوة من شهوات النفس ، أو يتصيد به مطلبا من مطالب الحياة .

وقوله تعالى : « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى » .

. أي ما هذا الذي ينطق به صاحبكم هذا ، إلا وحي يوحى إليه من ربه ، وليس عن هوى متسلط عليه من أهواء النفس . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ » (16 : يونس) . .

وقوله تعالى : « عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى . . »

الضمير فى « علمه » بعود إلى جبريل عليه السلام ـ أمين الوحى ، وسفير السماء إليه ، برسالة ربه ، وبكلماته . . وأنه هو الذي أوحى إلى الرسول بهذا العلم الذي تنكرون على « محمد » ما يتلوه عليكم منه . .

ومن صفات جبريل ـ عليه السلام ـ أنه « شديد القوى » أي قويّ أمين

(71/732)

حافظ لما يحمل من رسالات اللّه سبحانه وتعالى إلى رسله ، كما يقول سبحانه :

« إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ » (19 ـ 21 : التكوير) . .

ومن صفات جبريل كذلك أنه « ذو مرّة » أي جلد وصبر ، وقدرة على حمل هذه الأمانة التي كلّف بحملها . . وإنها لأمانة ثقيلة أبت السماء والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها .

وقوله تعالى : « فاستوى » ـ الفاء هنا للتفريع . . أي أن جبريل بهذه الصفات التي أقام اللّه سبحانه وتعالى خلقه عليها ، قد « استوى » أي استوفى الصفات التي تؤهله لهذه الوظيفة ، والتي تمكنه من القيام بها على الوجه الأكمل . .

وقوله تعالى : « وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى » ـ هو معطوف على ما قبله ، وهو صفة من صفات جبريل ، عليه السلام ، تشير إلى العالم العلوي ، الذي يعيش فيه . . أي أنه ملك سماوى ، وليس من هذا العالم الأرضى . .

وهذا الذي ذهبنا إليه ، فى تأويل هذه الآيات الثلاث ، أولى ـ فى رأينا ـ مما ذهب إليه المفسرون من جعل قوله تعالى : « وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى » جملة حالية ، من الفاعل فى قوله تعالى : « فاستوى » بمعنى « فاستوى » أي جبريل حالة كونه « بِالْأُفُقِ الْأَعْلى » أي أنه عرض نفسه وهو بالأفق الأعلى ، فى صورته التي خلقه اللّه عليها ، لا فى تلك الصور التي يمكن أن يتشكل فيها ، حسب مقتضيات الأحوال ، كأن يكون فى صورة بشرية ، من تلك الصور التي كان يلقى بها النبي فى بعض الأحيان . .

ويذهب المفسرون فى هذا إلى أن تلك الصورة الذاتية لجبريل ، إنما كانت له عند ما جاء إلى النبي ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ فى مفتتح الرسالة فى غار « ثور » الذي كان يتعبد فيه ، قبل البعثة وأن جبريل ـ عليه السلام ـ لقيه

يومئذ فى صورته الكاملة التي له ، والتي ظهر فيها - كما يقول المفسرون - بستمائة جناح له ، الأمر الذي كان داعية إلى هذا الفزع والاضطراب الذي ملأ كيان النبي يومئذ . . !

وهذا الذي ذهب إليه المفسرون ، على ما فيه من تكلف ظاهر فى التأويل - هو - من جهة أخرى - بعيد عن منطق الحكمة فى اتصال النبي بالسماء ، حيث يطلع عليه منها فى أول لقاء معها ، هذا الهول المفزع الذي لا يمكن أن يكون أبدا مدخلا حكيما إلى قيام صلة وثيقة بين السماء وبين النبي المتلقى لرسالة السماء منها . .

فتعالت حكمة اللّه سبحانه وتعالى عن هذا ، علوا كبيرا . .

ولعل الأقرب والأوفق ، فى هذا المقام ، أن يجىء جبريل إلى النبي فى أول لقاء له معه ، فى صورة بشرية ، أو أقرب إلى البشرية . . فهكذا يقتضى المنهج الحكيم ، فى التربية والتعليم ، وذلك بالتدرج من السهل إلى الصعب . وهكذا جاءت ملائكة السماء إلى إبراهيم كما يقول سبحانه : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ » فقد جاءوا إليه فى صورة بشرية كاملة . . كما جاءوا إلى لوط فى تلك الصورة البشرية نفسها ، إذ يقول عنهم مخاطبا قومه . .

« إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي . . فَلَا تَفْضَحُونِ » (68 : الحجر) . .

وهكذا جاء رسول السماء إلى « مريم » كما يقول : « فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا »

. . (17 : مريم) وأحسب أن الذي حمل المفسرين على هذا التأويل المتكلّف ، هو رأيهم فى فواصل الآيات القرآنية ، وأنها قد نجىء لمراعاة النظم . .

ولو أنهم ، نظروا إلى الإعجاز القرآنى ، الذي لا تحكمه ضرورة « القافية » التي قد تحكم الشعر - لو أنهم نظروا إلى هذا ، لجعلوا قوله تعالى : « فاستوى » - هو فاصلة الآية ، التي يقتضيها المعنى ويتم بها ، ولكان الوقوف عندها

(73/732)

مستوفيا المعنى المراد ، ولما جعلوا الآية التي بعدها تتمة لها ، وإنما هى كلام مستأنف ، يخبر به عن المكان الذي يكون فيه جبريل ، وهو الأفق الأعلى . .

قوله تعالى : « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى » . .

الحديث هنا عن جبريل - عليه السلام - وهو يحمل كلمات اللّه ، إلى رسول اللّه . . إنه « دنا » أي قرب من النبي ، « فتدلّى » أي قرب أكثر فأكثر ، شيئا فشيئا ، فى لطف ، ورفق . . فهو إذ يأخذ طريقه إلى النبي ، ينطلق انطلاقا بكل قوته ، حتى إذا دنا من النبىّ ، تخفّف من سرعته شيئا فشيئا ، حتى يلتقى به ، ويكون منه « قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » .

. فيصافحه فى رفق ولطف ، شأن الطائر حين يهوى من الجو إلى الأرض فى سرعة

خاطفة ، فإذا دنا من الأرض خفف من سرعته شيئًا فشيئًا حتى يلامس سطحها . .

وقاب القوس : المسافة ما بين مقبض القوس ووتره ، وذلك حين يشدّ القوس لإطلاق السهام منه ، فيكون أشبه بنصف دائرة . .

وهذا ـ والله أعلم ـ هو السر فى تشبيه التقاء جبريل بالنبي ، حيث يكون كل منهما أشبه بقوس مشدود مهيّا للرماية ، يقف كل منهما فى مواجهة صاحبه ، مشدودا إليه ، حتى يتماسا عند نهاية القاب ، الذي يبدأ من مركز الدائرة إلى محيطها .

ومن جهة أخرى . . فإن القوس ، فى حال شدّة ، يكون متوترا واقعا تحت قوة مؤثرة ، تشده شداً عنيفا . . وكذلك شأن كلّ من جبريل ،

(74/732)

والنبي فى حال التقائهما . . إنهما يتجاذبان جذبا قويا . . فجبريل يجذب نفسه إلى حال بشريّة ، والنبي يجذب نفسه إلى جهة الملائكة .

وهكذا يظلان يتجاذبان ، وقتا معا ، حتى يتماسا ، كما يتماس وترا القوسين المشدودين ، المواجه كل منهما للآخر ، وهنا يتم اللقاء والتجاوب بينهما . .

والعطف بالحرف : « أو » فى قوله تعالى : « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » ـ ليس للشكّ

فى الحكم الواقع على ما بين القوسين من قرب وتلاحم ، وإنما هو لتأكيد هذا القرب ، وأنه بالنسبة لمن يرونه تختلف عليهم رؤيته ، فيراه بعضهم قاب قوسين ، ويراه بعضهم أدنى وأقرب من ذلك . .

وفى قوله تعالى : « فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى »

إشارة إلى ما يقع فى هذا اللقاء بين جبريل والنبي ، وهو أن جبريل يوحى إلى النبىّ ، ما أمره اللّه سبحانه وتعالى بوحيه إليه من آيات اللّه وكلماته . .

وفى قوله تعالى : « عبده » بإضافة النبي الكريم - بصفة العبودية إلى ربه - فى هذا تكريم للنبى الكريم ، وإضافة له إلى رب العالمين ، الذي ربّاه ، وأحسن إليه ، وعلمه ما لم يكن يعلم . .

وفى قوله تعالى : « ما أَوْحى »

بتجهيل هذا الذي أوحى إلى النبي - تفخيم لهذا الموحى به ، وأنه مما يجلّ عن الوصف ، ومما لا تحصره الأوصاف . . فقل فيه ما تشاء من أوصاف الكمال والجلال ، فإنك لن تبالغ صفته . .

قوله تعالى : « ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى » .

أي ما كذب « الفؤاد » أي القلب ، فيما رأى وعاين ، مما يتلقى من آيات اللّه . . وفى التعبير عن العلم الذي وقع فى قلب النبي من هذا الذي ألقاه جبريل إليه ـ فى التعبير عن هذا العلم ، بالرؤية ـ إشارة إلى أنه علم « محقق » يراه القلب ، فى جلاء ووضوح ، أشبه بما ترى العين الباصرة من مبصرات . . وهذا التلقّى عن طريق « الفؤاد » أي القلب ـ هو ما يشير إليه قوله تعالى : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » (193 ـ 195 : الشعراء) .

والذي نزل به الروح الأمين « جبريل » على النبي ، هو كلمات اللّه ، وأنها نزلت بلسان عربى مبين ، ولم تنزل معانىّ مجردة ، صاغها النبي صياغة باللغة العربية كما يتخرص بذلك المتخرصون ، الذين يقولون إن القرآن قسمة مشتركة بين الوحى وبين النبي . . فالموحى به إلى النبي هو المعنى الذي يقع فى قلب النبي ، وأما اللفظ الذي يتشكل فيه هذا المعنى ، فهى من النبي . . وهذا ما يكذّبه قوله تعالى : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » فقوله تعالى : « بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » متعلق بقوله تعالى « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ » ـ أي نزل به بلسان عربىّ مبين وقد عقدنا لذلك مبحثا خالصا فى هذا التفسير ، تحت عنوان : كلمات اللّه وكيف تلقاها النبي .

قوله تعالى : « أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى » . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 14 صـ 583.593 ﴾

(76/732)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) ﴾

كلام موجه من الله تعالى إلى المشركين الطاعنين في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

و﴿ النجم ﴾ : الكوكب أي الجرم الذي يبدو للناظرين لامعاً في جو السماء ليلاً .

أقسم الله تعالى بعظيم من مخلوقاته دال على عظيم صفات الله تعالى .

وتعريف ﴿ النجم ﴾ باللام ، يجوز أن يكون للجنس كقوله : ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ [النحل : 16] وقوله : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ [الرحمن : 6] ، ويحتمل تعريف العهد .

وأشهر النجوم بإطلاق اسم النجم عليه الثريّا لأنهم كانوا يوقتون بأزمان طلوعها مواقيت الفصول ونضج الثمار ، ومن أقوالهم : طلع النَّجم عِشاءَ فابتغى الراعي كمساءَ طَلع النجم غُدْيَةً وابتغى الراعي شُكَيَة (تصغير شَكْوة وعاءٍ من جلد يوضع فيه الماء واللبن) يعنون

ابتداء زمن البرد وابتداء زمن الحرّ .

وقيل ﴿ النجم ﴾ : الشعرى اليمانية وهي العبورُ وكانت معظمة عند العرب وعَبدتْها خُزاعة .

ويجوز أن يكون المراد بـ ﴿ النجم ﴾ : الشهاب ، وبهُويه : سقوطه من مكانه إلى مكان آخر ، قال تعالى : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾ [الصافات : 6 ، 7] وقال : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ [الملك : 5] .

والقَسَم بـ ﴿ النجم ﴾ لما في خَلقه من الدلالة على عظيم قدرة الله تعالى ، ألا ترى إلى قول الله حكاية عن إبراهيم ﴿ فلما جَنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ﴾ [الأنعام : 76] .

وتقييد القَسَم بالنجم بوقت غروبه لإِشعار غروب ذلك المخلوق العظيم بعد أَوْجه في شرف الارتفاع في الأفق على أنه تسخير لقدرة الله تعالى ، ولذلك قال إبراهيم : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ [الأنعام : 76] .

والوجه أن يكون ﴿ إذا هوى ﴾ بدل اشتمال من النجم ، لأن المرَاد من النجم أحواله الدالة على قدرة خالقه ومصرفه ومن أعظم أحواله حال هُوِيّه ، ويكون ﴿ إذا ﴾ اسم زمان مجرداً عن معنى الظرفية في محل جر بحرف القسم ، وبذلك نتفادى من إشكال طَلب متعلق ﴿ إذَا ﴾ وهو إشكال أورده العلامة الجَنْزِي على الزمخشري ، قال الطيبي وفي "المقتبس" قال الجَنْزِي : "فاوضتُ جارَ الله في قوله تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ ما العامل في ﴿ إذا ﴾ ؟ فقال : العامل فيه ما تعلّق به الواو ، فقلت : كيف يعمل فعل الحال في المستقبل وهذا لأن معنا أُقسم الآن ، وليس معناه أُقسم بعد هذا فرجع وقال : العامل فيه مصدر محذوف تقديره : وهُوِيّ النجم إذا هَوَى ، فعرضته على زين المشائخ فلم يستحسن قوله الثاني .

والوجه أن ﴿ إذا ﴾ قد انسلخ عنه معنى الاستقبال وصار للوقت المجرد ، ونحوه : آتيك إذا احمرّ البسر ، أي وقت احمراره فقد عُرّي عن معنى الاستقبال لأنه وقعت الغنية عنه بقوله : آتيك أ هـ .

كلام الطيبي ، فقوله : فالوجه يحتمل أن يكون من كلام زين المشائخ أو من كلام صاحب "المقتبس" أو من كلام الطيبي ، وهو وجيه وهو أصل ما بنينا عليه موقع ﴿ إذَا ﴾ هنا ، وليس تردد الزمخشري في الجواب إلا لأنه يلتزم أن يكون ﴿ إذَا ﴾ ظرفاً للمستقبل كما هو مقتضى كلامه في "المفصَّل" مع أن خروجها عن ذلك كثير كما تواطأت عليه أقوال

المحققين .

والهُوِيّ : السقوط ، أطلق هنا على غروب الكوكب ، استعير الهُوِيُّ إلى اقتراب اختفائه ويجوز أن يراد بالهوِيّ : سقوط الشهاب حين يلوح للناظر أنه يجري في أديم السماء ، فهو هويّ حقيقي فيكون قد استعمل في حقيقته ومجازه .

(78/732)

وفي ذكر ﴿ إذا هوى ﴾ احتراس من أن يتوهم المشركون أن في القسم بالنجم إقراراً لعبادة نجم الشعرى ، وأن القسم به اعتراف بأنه إله إذ كان بعض قبائل العرب يعبدونها فإن حالة الغروب المعبر عنها بالهُوِيِّ حالة انخفاض ومغيب في تخيّل الرّائي لأنهم يعُدُّون طلوع النجم أوجاً لشرفه ويعدون غروبه حَضيضاً ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ [الأنعام : 76] .

ومَن مناسبات هذا يجيء قوله : ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ في هذه السورة (49) ، وتلك اعتبارات لهم تخيلية شائعة بينهم فمن النافع موعظة الناس بذلك لأنه كاف في إقناعهم وصولاً إلى الحق .

فيكون قوله : ﴿ إذا هوى ﴾ إشعاراً بأن النجوم كلها مسخرة لقدرة الله مسيّرة في نظام

أوْجدها عليه ولا اختيار لها فليست أهلاً لأن تعبد فحصل المقصود من القسم بما فيها من الدلالة على القدرة الإلهية مع الاحتراس عن اعتقاد عبادتها .

وقال الراغب : قيل أراد بذلك أي بـ ﴿ النجم ﴾ القرآن المنزل المنجم قدراً فقدراً ، ويعني بقوله : ﴿ هوى ﴾ نزوله أهـ .

ومناسبة القسم بـ ﴿ النجم إذا هَوَى ﴾ ، أن الكلام مسوق لإثباتِ أن القرآن وحي من الله منزل من السماء فشابَه حالُ نزوله الاعتباريِّ حال النجم في حالة هويِّه مشابهة تمثيلية حاصلة من نزول شيء منيرٍ إنارة معنوية نازل من محل رفعة معنوية ، شبه بحالة نزول نجم من أعلى الأفق إلى أسفله وهو من تمثيل المعقول بالمحسوس ، أو الإشارة إلى مشابهة حالة نزول جبريل من السماوات بحالة نزول النجم من أعلى مكانه إلى أسفله ، أو بانقضاض الشهاب تشبيه محسوس بمحسوس ، وقد يشبهون سرعة الجري بإنقضاض الشهاب ، قال أوس بن حجر يصف فرساً :

فانقضّ كالدُرِيّ يتبعه . . .

نقع يثور تخاله طُنبا

والضلال : عدم الاهتداء إلى الطريق الموصل إلى المقصود ، وهو مجاز في سلوك ما ينافي الحق .

والغواية : فساد الرأي وتعلقه بالباطل .

والصاحب : الملازم للذي يضاف إليه وصف صاحب ، والمراد بالصاحب هنا : الذي له ملابسات وأحوال مع المضاف إليه ، والمراد به محمد صلى الله عليه وسلم وهذا كقول أبي مَعبد الخزاعي الوارد في أثناء قصة الهجرة لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم بيته وفيها أمُّ معبد وذكرت له معجزة مسحه على ضرع شاتها : "هذا صاحب قريش" ، أي صاحب الحوادث الحادثة بينه وبينهم .

وإيثار التعبير عنه بوصف ﴿ صاحبكم ﴾ تعريض بأنهم أهل بهتان إذ نسبوا إليه ما ليس منه في شيء مع شدة إطلاعهم على أحواله وشؤونه إذ هو بينهم في بلد لا تتعذر فيه إحاطة علم أهله بحال واحد معين مقصود من بينهم .

ووقع في خطبة الحجاج بعد دَير الجماجم قوله للخوارج "ألستم أصحابي بالأهواز حين رُمتم الغدر واستبطنتم الكفر" يريد أنه لا تخفى عنه أحوالهم فلا يحاولون التنصل من ذنوبهم بالمغالطة والتشكيك .

وهذا رد من الله على المشركين وإبطال لقولهم في النبي صلى الله عليه وسلم لأنهم قالوا : مجنون ، وقالوا : ساحر ، وقالوا : شاعر ، وقالوا في القرآن : إنْ هذا إلا اختلاق .

فالجنون من الضلال لأن المجنون لا يهتدي إلى وسائل الصواب ، والكذبُ والسحر ضلال وغواية ، والشعر المتعارف بينهم غواية كما قال تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ [الشعراء : 224] أي يحبذون أقوالهم لأنها غواية .

وعُطف على جواب القسم ﴿ ما ينطق عن الهوى ﴾ وهذا وصف كمال لذاته .

والكلام الذي ينطق به هو القرآن لأنهم قالوا فيه : ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه ﴾ [الفرقان : 4] وقالوا : ﴿ أساطير الأولين اكتتبها ﴾ [الفرقان : 5] وذلك ونحوه لا يعدُو أن يكون اختراعه أو اختياره عن محبة لما يُخترع وما يُختار بقطع النظر عن كونه حقاً أو باطلاً ، فإن من الشعر حكمة ، ومنه حكاية واقعات ، ومنه تخيلات ومفتريات .

وكله ناشىء عن محبة الشاعر أن يقول ذلك ، فأراهم الله أن القرآن داعٍ إلى الخير .

و(ما) نافية نفت أن ينطق عن الهوى .

(80/732)

والهوى : ميل النفس إلى ما تحبه أو تحب أن تفعله دون أن يقتضيه العقل السليم الحكيم ، ولذلك يختلف الناس في الهوى ولا يَختلفون في الحق ، وقد يحب المرء الحق والصواب .

فالمراد بالهوى إذا أطلق أنه الهوى المجرد عن الدليل .

ونفي النطق عن هَوى يقتضي نفي جنس ما يَنْطق به عن الاتصاف بالصدور عن هوى سواء كان القرآن أو غيره من الإِرشاد النبوي بالتعليم والخطابة والموعظة والحكمة ، ولكن القرآن هو المقصود لأنه سبب هذا الرد عليهم .

واعلم أن تنزيهه صلى الله عليه وسلم عن النطق عن هوى يقتضي التنزيه عن أن يفعل أو يحكم عن هوى لأن التنزه عن النطق عن هوى أعظم مراتب الحكمة .

ولذلك ورد في صفة النبي صلى الله عليه وسلم "أنه يمزح ولا يقول إلا حقًّا" .

وهنا تم إبطال قولهم فحسن الوقف على قوله : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ .

وبين ﴿ هوى ﴾ و ﴿ الهوى ﴾ جِناس شبه التام .

إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4)

استئناف بياني لجملة ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ [النجم : 3] .

وضمير ﴿ هو ﴾ عائد إلى المنطوق به المأخوذ من فعل ﴿ ينطق ﴾ كما في قوله تعالى : ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [المائدة : 8] أي العدل المأخوذ من فعل ﴿ اعْدلوا ﴾ .

ويجوز أن يعود الضمير إلى معلوم من سياق الرد عليهم لأنهم زعموا في أقوالهم المردودة بقوله : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ [النجم : 2] زعموا القرآن سحراً ، أو شعراً ، أو كهانة ، أو أساطير الأوّلين ، أو إفكاً افتراه .

وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم ينطق بغير القرآن عن وحي كما في حديث الحديبية في

جوابه للذي سأله : ما يفعل المعتمر ؟ وكقوله : " إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها " ومثل جميع الأحاديث القدسية التي فيها قال الله تعالى ونحوه .

(81/732)

وفي "سنن أبي داود" و "الترمذي" من حديث المقدام بن معد يكرب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته ، يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحِلُّوه وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه " .

وقد ينطق عن اجتهاد كأمره بكسر القدور التي طبخت فيها الحُمُر الأهلية فقيل له : أو نُهريقها ونغسلها ؟ فقال : "أو ذاك" .

فهذه الآية بمعزل عن إيرادها في الاحتجاج لجواز الاجتهاد للنبي صلى الله عليه وسلم لأنها كان نزولها في أول أمر الإِسلام وإن كان الأصح أن يجوز له الاجتهاد وأنه وقع منه وهي من مسائل أصول الفقه .

والوحي تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح ﴾ في سورة النساء (163) .

وجملة ﴿ يوحى ﴾ مؤكدة لجملة ﴿ إن هو إلا وحى ﴾ مع دلالة المضارع على أن ما ينطق به متجدد وحيه غير منقطع .

ومتعلِّق ﴿ يوحى ﴾ محذوف تقديره : إليه ، أي إلى صاحبكم .

وتُرك فاعل الوحي لضرب من الإِجمال الذي يعقبه التفصيل لأنه سيرد بعده ما يبينه من قوله : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ .

وجملة ﴿ علمه شديد القوى ﴾ الخ ، مستأنفة استئنافاً بيانياً لبيان كيفية الوحي .

وضمير الغائب في ﴿ علمه ﴾ عائد إلى الوحي ، أو إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ هو ﴾ من قوله : ﴿ إن هو إلا وحي ﴾ .

وضمير ﴿ هو ﴾ يعود إلى القرآن ، وهو ضمير في محلّ أحد مفعولي (علّم) وهو المفعول الأول ، والمفعول الثاني محذوف ، والتقدير : علمه إياه ، يعود إلى ﴿ صاحبكم ﴾ [النجم : 2] ويجوز جعل هاء ﴿ علمه ﴾ عائداً إلى ﴿ صاحبكم ﴾ والمحذوف عائد إلى ﴿ وحى ﴾ إبطالاً لقول المشركين ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ [النحل : 103] .

و(علّم) هنا مُتعدَ إلى مفعولين لأنه مضاعف (عَلم) المتعدي إلى مفعول واحد .

و ﴿ شديد القوى ﴾ : صفة لمحذوف يدل عليه ما يذكر بعد مما هو من شؤون الملائكة ، أي مَلَك شديد القوى .

واتفق المفسرون على أن المراد به جبريل عليه السلام .

والمراد بـ ﴿ القوى ﴾ استطاعة تنفيذ ما يأمر الله به من الأعمال العظيمة العقلية والجسمانية ، فهو المَلَك الذي ينزل على الرُّسل بالتبليغ .

والمِرَّة ، بكسر الميم وتشديد الراء المفتوحة ، تطلق على قوة الذات وتطلق على متانة العقل وأصالته ، وهو المراد هنا لأنه قد تقدم قبله وصفه بشديد القوى ، وتخصيص جبريل بهذا الوصف يشعر بأنه الملك الذي ينزل بفيوضات الحكمة على الرسل والأنبياء ، ولذلك لما ناول المَلَك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةَ الإسراء كأس لَبن وكأسَ خمر ، فاختار اللبن قَال له جبريل : اخترتَ الفِطرة ولو أخذتَ الخمر غَوت أمتك .

وقوله : ﴿ فاستوى ﴾ مفرع على ما تقدم من قوله : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ .

والفاء لتفصيل ﴿ علمه ﴾ ، والمستوي هو جبريل .

ومعنى استوائه : قيامه بعزيمة لتلقي رسالة الله ، كما يقال : استقل قائماً ، ومثل : بين يدي فلان ، فاستواء جبريل هو مبدأ التهيُّؤ لقبول الرسالة من عند الله ، ولذلك قيد هذا الاستواء بجملة الحال في قوله : ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ .

والضمير لجبريل لا محالة ، أي قبل أن ينزل إلى العالم الأرضي .

والأفق : اسم للجو الذي يبدو للناظر ملتقى بين طَرَف منتهى النظر من الأرض وبين منتهى

ما يلوح كالقبة الزرقاء ، وغلب إطلاقه على ناحية بعيدة عن موطن القوم ومنه أفق المشرق وأفق المغرب .

ووصفه بـ ﴿ الأعلى ﴾ في هذه الآية يفيد أنه ناحية من جو السماء .

وذكر هذا ليرتب عليه قوله : ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ .

و﴿ ثم ﴾ عاطفة على جملة ﴿ فاستوى ﴾ ، والتراخي الذي تقيده ﴿ ثم ﴾ تراخٍ رتبيّ لأن الدنوّ إلى حيث يبلِّغ الوحيَ هو الأَهم في هذا المقام .

والدنوّ : القرب ، وإذ قد كان فعل الدنوّ قد عطف بـ ﴿ ثم ﴾ على ﴿ فاستوى وهو بالأفق الأعلى ﴾ علم أنه دنا إلى العالم الأرضي ، أي أخذ في الدنو بعد أن تلقى ما يبلغه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم

(83/732)

وتدلّى : انخفض من علو قليلاً ، أي ينزل من طبقات إلى ما تحتها كما يتدلى الشيء المعلق في الهواء بحيث لو رآه الرائي يحسبه متدلياً ، وهو ينزل من السماء غير منقضَ .

وقاب ، قيل معناه : قَدْر .

وهو واوي العين ، ويقال : قاب وقِيب بكسر القاف ، وهذا ما درج عليه أكثر المفسرين .

وقيل يطلق القاب على ما بين مقبض القوس (أي وسط عوده المقوس) وما بين سِيتيْهَا (أي طرفيها المنعطف الذي يشدّ به الوتَر) فللقوس قابان وسِيتان ، ولعل هذا الإطلاق هو الأصل للآخر ، وعلى هذا المعنى حمل الفراء والزمخشري وابن عطية وعن سعيد بن المسيّب : القاب صدر القوس العربية حيث يشد عليه السير الذي يتنكبه صاحبه ولكل قوس قاب واحد .

وعلى كلا التفسيرين فقوله : ﴿ قاب قوسين ﴾ أصله قابَيْ قوس أو قَابَيْ قوسين (بتثنية أحد اللفظين المضافِ والمضاف إليه ، أو كليهما) فوقع إفراد أحد اللفظين أو كليهما تجنباً لثقل المثنى كما في قوله تعالى:

﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ [التحريم : 4] أي قلباكما .

وقيل يطلق القوس في لغة أهل الحجاز على ذِراع يذرع به (ولعله إذن مصدر قاس فسمي به ما يقاس به) .

والقوس : آلة من عُودِ نَبْع ، مقوسة يشد بها وتَر من جِلد ويرمي عنها السهام والنشاب وهي في مقدار الذراع عند العرب .

(84/732)

وحاصل المعنى أن جبريل كان على مسافة قوسين من النبي صلى الله عليه وسلم الدال عليه التفريع بقوله : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ ، ولعل الحكمة في هذا البعد أن هذه الصفة حكاية لصورة الوحي الذي كان في أوائل عهد النبي صلى الله عليه وسلم بالنبوءة فكانت قُواه البشرية يومئذٍ غير معتادة لتحمل اتصال القوة الملكية بها مباشرة رفقاً بالنبي صلى الله عليه وسلم أن لا يتجشم شيئاً يشق عليه ، ألا ترى أنه لما اتصل به في غار حراء ولا اتصال وهو الذي عبر عنه في حديثه بالغطّ قال النبي صلى الله عليه وسلم " فغطّنِي حتى بلغ مني الجَهْد " ثم كانت تعتريه الحالة الموصوفة في حديث نزول أول الوحي المشار إليها في سورة المدثّر وسورة المزمّل قال تعالى : ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ [المزمل : 5] ، ثم اعتاد اتصال جبريل به مباشرة فقد جاء في حديث عمر بن الخطاب في سؤال جبريل عن الإيمان والإِسلام والإِحسان والساعة أنه "جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه" إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم أيامئذٍ بالمدينة وقد اعتاد الوحي وفارقته شدته ، ولمراعاة هذه الحكمة كان جبريل يتمثل للنبيء صلى الله عليه وسلم في صورة إنسان وقد وصفه عمر في حديث بيانِ الإيمان والإِسلام بقوله : "إذ دخل علينا رجل شديدُ بياض الثياب شديدُ سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد" الحديث ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم بعد مفارقته "يا عمر أتدري من السائل ؟ قال عمر : الله ورسوله أعلم ، قال : "فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم" .

وقوله : ﴿ أو أدنى ﴾ ﴿ أو ﴾ فيه للتخيير في التقدير ، وهو مستعمل في التقريب ، أي إن أراد أحد تقريب هذه المسافة فهو مخيّر بين أن يجعلها قاب قوسين أو أدنى ، أي لا أزيد إشارة إلى أن التقدير لا مبالغة فيه .

(85/732)

وتفريع ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ على قوله : ﴿ فتدلى فكان قاب قوسين ﴾ المفرّع على المفرّع على قوله : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ ، وهذا التفريع هو المقصود من البيان وما قبله تمهيد له ، وتمثيل لأحوال عجيبة بأقرب ما يفهمه الناس لقصد بيان إمكان تلقّي الوحي عن الله تعالى إذ كان المشركون يحيلونه فبينّ لهم إمكان الوحي بوصف طريق الوحي إجمالاً ، وهذه كيفية من صور الوحي .

وضمير ﴿ أوحى ﴾ عائد إلى الله تعالى المعلوم من قوله : ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ كما تقدم ، والمعنى : فأوحى الله إلى عَبده محمد صلى الله عليه وسلم وهذا كافٍ في هذا المقام لأن المقصود إثبات الإِيحاء لإِبطال إنكارهم إياه .

وإيثار التعبير عن النبي صلى الله عليه وسلم بعنوان ﴿ عبده ﴾ إظهار في مقام الإِضمار في اختصاص الإِضافة إلى ضمير الجلالة من التشريف .

وفي قوله : ﴿ ما أوحى ﴾ إبهام لتفخيم ما أوحى إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(86/732)

فائدة

قال ابن القيم :

قال الله تعالى ﴿ ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدني ﴾

آيس العقول فقطع البحث بقوله أو أدنى

كأن الشيخ فهم من الآية أن الذي دنى فتدلى فكان من محمد قاب قوسين أو أدنى هو الله عز وجل وهذا وإن قاله جماعة من المفسرين فالصحيح أن ذلك هو جبريل عليه الصلاة والسلام فهو الموصوف بما ذكر من أول السورة إلى قوله ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى هكذا فسره النبي في الحديث الصحيح قالت عائشة رضي الله عنها سألت رسول الله عن هذه الآية فقال جبريل لم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين ولفظ القرآن لا يدل على ذاك غير ذلك من وجوه

أحدها أنه قال علمه شديد القوى وهذا جبريل الذي وصفه الله بالقوة في سورة التكوير

فقال إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين

الثاني أنه قال ذو مرة أي حسن الخلق وهو الكريم المذكور في التكوير

الثالث أنه قال فاستوى وهو بالأفق الأعلى وهو ناحية السماء العليا وهذا استواء جبريل بالأفق الأعلى وأما استواء الرب جل جلاله فعلى عرشه

الرابع أنه قال ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فهذا دنو جبريل وتدليه إلى الأرض حيث كان رسول الله وأما الدنو والتدلي في حديث المعراج فرسول الله كان فوق السموات فهناك دنى الجبار جل جلاله منه وتدلى فالدنو والتدلي في الحديث غير الدنو والتدلي في الآية وإن اتفقا في اللفظ

الخامس أنه قال ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة

المنتهى والمرئي عند السدرة هو جبريل قطعا وبهذا فسره النبي فقال لعائشة ذاك جبريل

السادس أن مفسر الضمير في قوله ولقد رآه وفي قوله ثم دنى فتدلى وفي قوله فاستوى وفي قوله وهو بالأفق الأعلى واحد فلا يجوز أن يخالف بين المفسر والمفسر من غير دليل

(87/732)

السابع أنه سبحانه ذكر في هذه السورة الرسولين الكريمين الملكي والبشري ونزه البشرى عن الضلال والغواية ونزه الملكي عن أن يكون شيطانا قبيحا ضعيفا بل هو قوي كريم حسن الخلق وهذا نظير الوصف المذكور في سورة التكوير سواء

الثامن أنه أخبر هناك أنه رآه بالأفق المبين وههنا أخبر أنه رآه بالأفق الأعلى وهو واحد وصف بصفتين فهو مبين وهو أعلى فإن الشيء كلما علا بان ظهر

التاسع أنه قال ذو مرة والمرة الخلق الحسن المحكم فأخبر عن حسن خلق الذي علم النبي ثم ساق الخبر كله عنه نسقا واحدا

العاشر أنه لو كان خبرا عن الرب تعالى لكان القرآن قد دل على أن رسول الله رأى ربه سبحانه مرتين مرة بالأفق ومرة عند السدرة ومعلوم أن الأمر لو كان كذلك لم يقل النبي لأبي ذر وقد سأله هل رأيت ربك فقال نور أنى أراه فكيف يخبر القرآن أنه رآه مرتين ثم يقول رسول الله أنى أراه وهذا أبلغ من قوله لم أره لأنه مع النفي يقتضي الإخبار عن عدم الرؤية فقط وهذا يتضمن النفي وطرفا من الإنكار على السائل كما إذا قال لرجل هل كان كيت وكيت فيقول كيف يكون ذلك

الحادي عشر أنه لم يتقدم للرب جل جلاله ذكر يعود الضمير عليه في قوله ثم دنى فتدلى والذي يعود الضمير عليه لا يصلح له وإنما هو لعبده

الثاني عشر أنه كيف يعود الضمير إلى ما لم يذكر ويترك عوده إلى المذكور مع كونه أولى به

الثالث عشر أنه قد تقدم ذكر صاحبكم وأعاد عليه الضمائر التي تليق به ثم ذكر بعده شديد القوى ذا المرة وأعاد عليه الضمائر التي تليق به والخبر كله عن هذين المفسرين وهما الرسول الملكي والرسول البشري

الرابع عشر أنه سبحانه أخبر أن هذا الذي دنى فتدلى كان بالأفق الأعلى وهو أفق السماء بل هو تحتها قد دنى من رسول رب العالمين ودنو الرب تعالى وتدليه على ما في حديث شريك كان من فوق العرش لا إلى الأرض

(88/732)

الخامس عشر أنهم لم يماروه صلوات الله وسلامه عليه على رؤية ربه ولا أخبرهم بها لتقع مماراتهم له عليها وإنما ماروه على رؤية ما أخبرهم من الآيات التي أراه الله إياها ولو أخبرهم الرب تعالى لكانت مماراتهم له عليها أعظم من مماراتهم على رؤية المخلوقات

السادس عشر أنه سبحانه قرر صحة ما رآه الرسول وأن مماراتهم له على ذلك باطلة بقوله لقد رأى من آيات ربه الكبرى فلو كان المرئي هو الرب سبحانه وتعالى والمماراة على ذلك منهم لكان تقرير تلك الرؤية أولى والمقام إليها أحوج والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مدارج السالكين حـ 3 صـ 205 . 206 ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ .

هذه الآية الكريمة تدل بظاهرها على أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يجتهد في شيء وقد جاءت آيات أخر تدل على أنه صلى الله عليه وسلم ربما اجتهد في بعض الأمور كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية .

والجواب عن هذا من وجهين: الأول _ وهو الذي اقتصر عليه ابن جرير وصدر به ابن الحاجب في مختصره الأصولي إن معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ أي في كل ما يبلغه عن الله أن هو أي كل ما يبلغه عن الله إلا وحي من الله لأنه لا يقول على الله شيئا إلا بوحي منه فالآية رد على الكفار حيث قالوا إن النبي صلى الله عليه وسلم افترى هذا القرآن كما قال ابن الحاجب .

الوجه الثاني: أنه إن اجتهد فإنه إنما يجتهد بوحي من الله يأذن له به في ذلك الاجتهاد وعليه

فاجتهاده بوحي فلا منافاة .

ويدل لهذا الوجه أن اجتهاده في الإذن للمتخلفين عن غزوة تبوك أذن الله له فيه حيث قال له فأذن لمن شئت منهم .

فلما أذن للمنافقين عاتبه بقوله: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

فالاجتهاد في الحقيقة إنما هو في الإذن قبل التبين لا في مطلق الإذن للنص عليه .

ومسألة اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم وعدمه من مسائل الخلاف المشهورة عند علماء الأصول وسبب اختلافهم هو تعارض هذه الآيات في ظاهر الأمر .

(90/732)

قال مقيده عفا الله عنه: الذي يظهر أن التحقيق في هذه المسألة أنه صلى الله عليه وسلم ربما فعل بعض المسائل من غير وحي في خصوص كإذنه للمتخلفين عن غزوة تبوك قبل أن يتبين صادقهم من كاذبهم وكأسرة لأسارى بدر وكأمره بترك تأبير النخل وكقوله: "لو استقبلت من أمري ما استدبرت" الحديث .

إلى غير ذلك .

وإن معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ لا إشكال فيه لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق بشيء من أجل الهوى ولا يتكلم بالهوى وقوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ يعني أن كل ما يبلغه عن الله فهو وحي من الله لا بهوى ولا بكذب ولا افتراء . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 276. 277 ﴾

(91/732)

كلام نفيس للإمام ابن القيم فى باب المكاشفة

قال عليه الرحمة :

فصل قال صاحب المنازل باب المكاشفة

قال الله تعالى ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ وجه احتجاجه بإشارة الآية أن الله سبحانه كشف لعبده ما لم يكشفه لغيره وأطلعه على ما لم يطلع عليه غيره فحصل لقلبه الكريم من انكشاف الحقائق التي لا تخطر ببال غيره ما خصه الله به والإيحاء هو الإعلام السريع الخفي ومنه الوحا الوحا أي الإسراع الإسراع قوله ما أوحي أبهمه لعظمه فإن الإبهام قد يقع للتعظيم ونظيره قوله تعالى ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أي أمر عظيم فوق الصفة قال الشيخ المكاشفة مهاداة السر بين متباطنين يريد أن المكاشفة إطلاع أحد

المتحابين المتصافيين صاحبه على باطن أمره وسره قوله مهاداة السر أي تردد السر على وجه الألطاف والمودة قوله بين متباطنين يعني بالمتباطنين باطن المكاشف والمكاشف فيحمل سر كل منهما إلى الآخر كما يحمل إليه هديته فيسري سر كل واحد منها إلى الآخر وإذا بلغ العبد في مقام المعرفة إلى حد كأنه يطالع ما اتصف به الرب سبحانه من صفات الكمال ونعوت الجلال وأحست روحه بالقرب .

الخاص الذي ليس هو كقرب من المحسوس حتى يشاهد رفع الحجاب بين روحه وقلبه وبين ربه فإن حجابه هو نفسه وقد رفع الله سبحانه عنه ذلك الحجاب بحوله وقوته أفضى القلب والروح حينئذ إلى الرب فصار يعبده كأنه يراه فإذا تحقق بذلك وارتفع عنه حجاب النفس وانقشع عنه ضبابها ودخانها وكشطت عنه سحبها وغيومها فهناك يقال له

بدلك سر طال عنك اكتتامه . . . ولاح صباح كنت أنت ظلامه

فأنت حجاب القلب عن سر غيبه . . . ولولاك لم يطبع عليه ختامه

فأن غبت عنه خلفيه وطنبت . . . على منكب الكشف المصون

وجاء حديث لايمل سماعه . . . شهي إلينا . الكئيب قتامه

إذا ذكرت النفس النفس زال عناؤها . . . وزال عن القلب الكئيب قتامه

فلذلك قال الشيخ وهي في هذا الباب بلوغ ما وراء الحجاب وجودا قوله وجودا احتراز من بلوغه سماعا وعلما وكثيرا ما يلتبس على العبد أحدهما بالآخر فأين وجود الحقيقة من العلم بها ومعرفتها كما تقدم ذلك مرارا فتعلق العلم بالقلب شيء واتصافه بالمعلوم شيء آخر فمن الناس من يتعلق به سماع ذلك دون فهمه ومنهم من يتعلق به فهمه دون حقيقته والتعلق الكامل أن يتعلق به وجوده فلذلك قال بلوغ ما وراء الحجاب وجودا قال الشيخ وهي على ثلاث درجات الدرجة الأولى مكاشفة تدل على التحقيق الصحيح وهي لا تكون مستدامة فإذا كانت حينا دون حين ولم يعارضها تفرق غير أن الغين ربما شاب مقامه على أنه قد بلغ مبلغا لا يلفته قاطع ولا يلويه سبب ولا يقتطعه حظ وهي درجة القاصد فإذا استدامت فهي الدرجة الثانية المكاشفة الصحيحة علوم يحدثها الرب سبحانه وتعالى في قلب العبد .

(93/732)

ويطلعه بها على أمور تخفى على غيره وقد يواليها وقد يمسكها عنه بالغفلة عنها ويواريها عنه بالغين الذي يغشى قلبه وهو أرق الحجب أو بالغيم وهو أغلظ منه أو بالران وهو

أشدها فالأول يقع للأنبياء عليهم السلام كما قال النبي صلى اله عليه وسلم" إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله أكثر من سبعين مرة " والثاني يكون للمؤمنين والثالث لمن غلبت عليه الشقوة قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون قال ابن عباس وغيره هو الذنب بعد الذنب يغطي القلب حتى يصير كالران عليه والحجب عشرة حجاب التعطيل ونفي حقائق الأسماء والصفات وهو أغلظها فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله ولا يصل إليه البتة إلا كما يتهيأ للحجر أن يصعد إلى فوق الثاني حجاب الشرك وهو أن يتعبد قلبه لغير الله الثالث حجاب البدعة القولية كحجاب أهل الأهواء والمقالات الفاسدة على اختلافها الرابع حجاب البدعة العملية كحجاب أهل السلوك المبتدعين في طريقهم وسلوكهم الخامس حجاب أهل الكبائر الباطنة كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد والفخر والخيلاء ونحوها السادس حجاب أهل الكبائر الظاهرة وحجابهم أرق من حجاب إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة مع كثرة عباداتهم وزهاداتهم واجتهاداتهم فكبائر هؤلاء أقرب إلى التوبة من كبائر أولئك فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها في قوالب عبادة ومعرفة فأهل الكبائر الظاهرة أدنى إلى السلامة منهم وقلوبهم خير من قلوبهم .

السابع حجاب أهل الصغائر الثامن حجاب أهل الفضلات والتوسع في المباحات التاسع حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خلقوا له وأريد منهم وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته العاشر حجاب المجتهدين السالكين المشمرين في السير عن المقصود فهذه عشر حجب بين القلب وبين الله سبحانه وتعالى تحول بينه وبين هذا الشأن وهذه الحجب تنشأ من أربعة عناصر عنصر النفس وعنصر الشيطان وعنصر الدنيا وعنصر الهوى فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها في القلب البتة وهذه الأربعة العناصر تفسد القول والعمل والقصد والطريق بحسب غلبتها وقلتها فتقطع طريق القول والعمل والقصد أن يصل إلى القلب وما وصل منه إلى القلب قطعت عليه الطريق أن يصل إلى الرب فبين القول والعمل وبين القلب مسافة يسافر فيها العبد إلى قلبه ليرى عجائب ما هنالك وفي هذه المسافة قطاع الطريق المذكورون فإن حاربهم وخلص العمل إلى قلبه دار فيه وطلب النفوذ من هناك إلى الله فإنه لا يستقر دون الوصول إليه وأن إلى ربك المنتهى فإذا وصل إلى الله سبحانه أثابه عليه مزيدا في إيمانه ويقينه ومعرفته وعقله وجمل به ظاهره وباطنه فهداه به لأحسن الأخلاق والأعمال وصرف عنه به سيء الأخلاق والأعمال وأقام الله سبحانه من ذلك العمل للقلب جندا يحارب به قطاع الطريق للوصول إليه فيحارب الدنيا بالزهد فيها وإخراجها من قلبه ولا يضره أن تكون في يده وبيته ولا يمنع ذلك

من قوة يقينه بالآخرة يحارب الشيطان بترك الإستجابة لداعي الهوى فإن الشيطان مع الهوى لا يفارقه ويحارب الهوى بتحكيم الأمر المطلق والوقوف معه بحيث لا يبقى له هوى فيما يفعله ويتركه ويحارب النفس بقوة الإخلاص .

(95/732)

هذا كله إذا وجد العمل منفذا من القلب إلى الرب سبحانه وتعالى وإن دار فيه ولم يجد منفذا وثبت عليه النفس فأخذته وصيرته جندا لها فصالت به وعلت وطغت فتراه أزهد ما يكون وأعبد ما يكون وأشده اجتهادا وهو أبعد ما يكون عن الله وأصحاب الكبائر أقرب قلوبا إلى الله منه وأدنى منه إلى الإخلاص والخلاص فانظر إلى السجاد العباد الزاهد الذي بين عينيه أثر السجود كيف أورثه طغيان عمله أن أنكر على النبي صلى اله عليه وسلم وأورث أصحابه احتقار المسلمين حتى سلوا عليهم سيوفهم واستباحوا دماءهم وانظر إلى الشريب السكير الذي كان كثيرا ما يؤتى به إلى النبي صلى اله عليه وسلم فيحده على الشراب كيف قامت به قوة إيمانه ويقينه ومحبته لله ورسوله وتواضعه وانكساره لله حتى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لعنته فظهر بهذا أن طغيان المعاصي أسلم عاقبة من طغيان الطاعات وقد روى الإمام أحمد في كتاب الزهد " أن الله

سبحانه أوحى إلى موسى يا موسى أنذر الصديقين فإني لا أضع عدلي على أحد إلا عذبته من غير أن أظلمه وبشر الخطائين فإنه لا يتعاظمني ذنب أن أغفر "ه فلنرجع إلى شرح كلامه قوله مكاشفة تدل على التحقيق الصحيح كل يدعي أن التحقيق الصحيح معه

وكل يدعون وصال ليلى . . . وليلى لا تقر لهم بذاك

إذا اشتبكت دموع في خدود . . . تبين من بكى ممن تباكى

(96/732)

فليس التحقيق الصحيح إلا المطابق لما عليه الأمر في نفسه وهو في العلم الكشف المطابق لما أخبر به الرسل وفي الإرادة الكشف المطابق لمراد الرب الديني من عبده وقولنا الديني احتراز من مراده الكوني فإن كل ما في الكون موجب هذه الإرادة فالكشف الصحيح أن يعرف الحق الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه معاينة لقلبه ويجرد إرادة القلب له فيدور معه وجودا وعدما هذا هو التحقيق الصحيح وما خالفه فغرور قبيح قوله وهي لا تكون مستدامة هكذا رأيته في نسخ وفي أخرى وهي أن تكون مستديمة وكأن هذا الثاني أصح لأن سياق الكلام يدل على ذلك وأنها غير مستدامة في الدرجة الأولى فإذا استدامت صارت في الدرجة الثانية وبذلك يحصل الإختلاف بين الدرجتين وإلا فلو كانت مستدامة

فيهما لكانت الدرجتان واحدة قوله فإذا كانت حينا دون حين ولم يعارضها تفرق يعني فهي الدرجة الأولى بشرط أن لا يقطع حكمها تفرق ولهذا قال لم يعارضها ولم يقل لم يعرض لها فإن التفرق لا بد أن يعرض لكن لا يعارضها ويقاومها بحيث يزيلها فإن العارض إذا عرض للقلب كرهه ومحاه وأزاله بسرعة وأما المعارض فإنه يزيل الحاصل ويخلفه فيصير الحكم له فلذلك قال غير أن الغين ربما شاب مقامه على أنه قد بلغ مبلغا إلى آخره يعني أن لوازم البشرية لا بد له منها ولو لم يكن إلا أخفها وهو الحجاب الرقيق الذي يعرض لقلبه وهو الغين لكنه لا يضره لأنه قد بلغ مبلغا لا يلفته قاطع أي لا توجب له القواطع التفات قلبه عن مقامه إليها بل إذا .

(97/732)

لحظها بقلبه فر منها كما يفر الظبي من الكلب الصائد إذا أحس به ولا يلويه سبب أي لا يعوج قصده للحق سبب من الأسباب ولا يرده عنه قوله ولا يقطعه حظ أي لا يقطعه عن بلوغ مقصوده حظ من الحظوظ النفسية والقاصد في هذه الدرجة هو الذي قد ظفر بالقصد الذي لا يلقى سببا إلا قطعه ولا حائلا إلا منعه ولا تحاملا إلا سهله فهذه درجة القاصد فإذا استدامت وتمكن فيها السالك فهي الدرجة الثانية قال الشيخ وأما الدرجة الثالثة

فمكاشفة عين لا مكاشفة علم وهي مكاشفة لا تذر سمة تشير إلى التذاذ أو تلجىء إلى توقف أو تنزل إلى رسم وغاية هذه المكاشفة المشاهدة إنما كانت هذه الدرجة مكاشفة عين لغلبة نور الكشف على القلب فتنزلت هذه المكاشفة من القلب وحلت منه محل العلم الضروري الذي لا يمكن جحده ولا تكذيبه بل صارت للقلب بمنزلة المرئي للبصر والمسموع للأذن والوجدانيات للنفس وكما أن المشاهدة بالبصر لا تصح إلا مع صحة القوة المدركة وعدم الحائل من جسم أو ظلمة وانتفاء البعد المفرط فكذلك المكاشفة بالبصيرة تستلزم صحة القلب وعدم الحائل والشاغل وقرب القلب ممن يكاشفه بأسراره وليس مراد الشيخ في هذا الباب الكشف الجزئي المشترك بين المؤمنين والكفار والأبرار والفجار كالكشف عما في دار إنسان أو عما في يده أو تحت ثيابه أو ما حملت به امرأته بعد انعقاده ذكرا أو أنثى وما غاب عن العيان من أحوال البعد الشاسع ونحو ذلك فإن ذلك يكون من الشيطان تارة ومن النفس تارة ولذلك يقع من الكفار كالنصارى وعابدي النيران والصلبان فقد كاشف ابن صياد النبي صلى اله عليه وسلم بما أضمره له وخبأه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أنت من إخوان الكهان فأخبر أن ذلك .

(98/732)

الكشف من جنس كشف الكهان وأن ذلك قدره وكذلك مسيلمة الكذاب مع فرط كفره كان يكاشف أصحابه بما فعله أحدهم في بيته وما قاله لأهله يخبره به شيطانه ليغوي الناس وكذلك الأسود العنسي والحارث المتنبي الدمشقي الذي خرج في دولة عبد الملك بن مروان وأمثال هؤلاء ممن لا يحصيهم إلا الله وقد رأينا نحن وغيرنا منهم جماعة وشاهد الناس من كشف الرهبان عباد الصليب ما هو معروف والكشف الرحماني من هذا النوع هو مثل كشف أبي بكر لما قال لعائشة رضي الله عنهما إن امرأته حامل بأنثى وكشف عمر رضي الله عنه لما قال يا سارية الجبل وأضعاف هذا من كشف أولياء الرحمن والمقصود أن مراد القوم بالكشف في هذا الباب أمر وراء ذلك وأفضله وأجله أن يكشف للسالك عن طريق سلوكه ليستقيم عليها وعن عيوب نفسه ليصلحها وعن ذنوبه ليتوب منها فما أكرم الله الصادقين بكرامة أعظم من هذا الكشف وجعلهم منقادين له عاملين بمقتضاه فإذا انضم هذا الكشف إلى كشف تلك الحجب المتقدمة عن قلوبهم سارت القلوب إلى ربها سير الغيث إذا استدبرته الريح فلنرجع إلى شرح كلامه فقوله الدرجة الثالثة مكاشفة عين لا مكاشفة علم أي متعلق هذه المكاشفة عين الحقيقة بخلاف مكاشفة العلم فإن متعلقها الصورة الذهنية المطابقة للحقيقة الخارجية فكشف العلم أن يكون مطابقا لعلومه وكشف العيان أن يصير المعلوم مشاهدا للقلب كما تشاهد العين المرئي .

ومن ظن من القوم أن كشف العين ظهور الذات المقدسة لعيانه حقيقة فقد غلط أقبح الغلط وأحسن أحواله أن يكون صادقا ملبوسا عليه فإن هذا لم يقع في الدنيا لبشر قط وقد منع منه كليم الرحمن وقد اختلف السلف والخلف هل حصل هذا لسيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه فالأكثرون على أنه لم ير الله سبحانه وحكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعا من الصحابة فمن ادعى كشف العيان البصري عن الحقيقة الإلهية فقد وهم وأخطأ وإن قال إنما هو كشف العيان القلبي بحيث يصير الرب سبحانه كأنه مرئي للعبد كما قال النبي صلى اله عليه وسلم" اعبد الله كأنك تراه" فهذا حق وهو قوة يقين ومزيد علم فقط نعم قد يظهر له نور عظيم فيتوهم أن ذلك نور الحقيقة الإلهية وأنها قد تجلت له وذلك غلط أيضا فإن نور الرب تعالى لا يقوم له شيء ولما ظهر للجبل منه أدنى شيء ساخ الجبل وتدكدك وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى لا تدركه الأبصار قال ذاك نوره الذي هو نوره إذا تجلى به لم يقم له شيء وهذا النور الذي يظهر للصادق هو نور الإيمان الذي أخبر الله عنه في قوله ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ قال أبي بن كعب مثل نوره في قلب المؤمن فهذا نور يضاف إلى الرب ويقال هو نور الله كما أضافه الله سبحانه إلى نفسه والمراد نور الإيمان الذي جعله الله له خلقا وتكوينا كما قال تعالى ﴿ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ فهذا النور إذا تمكن من القلب وأشرق فيه فاض على الجوارح فيرى أثره في

الوجه والعين ويظهر في القول والعمل وقد يقوى حتى يشاهده صاحبه عيانا وذلك لاستيلاء أحكام القلب عليه وغيبة أحكام النفس والعين شديدة الارتباط بالقلب تظهر ما فيه فتقوى مادة النور في القلب .

(100/732)

ويغيب صاحبه بما في قلبه عن أحكام حسه بل وعن أحكام العلم فينتقل من أحكام العلم إلى أحكام العيان وسر المسألة أن أحكام الطبيعة والنفس شيء وأحكام القلب شيء وأحكام الروح شيء وأنوار العبادات شيء وأنوار استيلاء معاني الصفات والأسماء على القلب شيء وأنوار الذات المقدسة شيء وراء ذلك كله فهذا الباب يغلط فيه رجلان أحدهما غليظ الحجاب كثيف الطبع والآخر قليل العلم يلتبس عليه ما في الذهن بما في الخارج ونور المعاملات بنور رب الأرض والسموات ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور قوله ولا مكاشفة الحال مكاشفة الحال هي المواجيد التي يجدها السالك بوارداته حتى يبقى الحكم لقلبه وحاله قوله وهي مكاشفة لا تذر سمة تشير إلى الالتذاذ يريد أن هذه المكاشفة تمحو رسوم المكاشف فلا يبقى منه ما يحس بلذة فإن الأحوال والمواجيد لها لذه عظيمة أضعاف اللذة الحسية فإن لذتها روحانية قلبية والمكاشفة العينية تغيب

المكاشف عن إدراك تلك اللذة والسمة هي العلامة فالمعنى أن هذه المكاشفة لا تذر له علامة تدل على لذة قوله أو تلجيء إلى توقف يعني لا تذر له بقية تلجئه إلى وقفة فإن البقية التي تبقى على السالك من نفسه هي التي تلجئه إلى التوقف في سيره قوله ولا تنزل على رسم أي لا تنزل هذه المكاشفة على من بقي فيه رسم حجاب بينه وبين هذه المكاشفة فإنها بمنزلة نور الشمس فلا تنزل في بيت عليه سقف حائل فإن الرسم عند القوم هو الحجاب بينهم وبين مطلوبهم والرسم هو النفس وأحكامها وصفاتها وهذه المكاشفة إذا قويت واستحكمت صارت مشاهدة ولذلك قال وغاية هذه المكاشفة هو مقام المشاهدة. انتهى انتهى. اهـ ﴿مدارج السالكين حـ 3 صـ 221.230﴾

(101/732)

قوله تعالى ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أثبت هذا الكلام ما أثبت من القرب من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ممن أوحى إليه على كلا التقديرين ، قرره على وجه أفاد الرؤية فقال : ﴿ ما كذب الفؤاد ﴾ أي القلب الذي هو في غاية الذكاء والاتقاد ﴿ ما رأى ﴾ البصر أي حين رؤية البصر كان القلب ، لا أنها رؤية بصر فقط تمكن فيها – للخلو – عن حضور القلب – النسبة إلى الغلط ، وقال القشيري ما معناه : ما كذب فؤاد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما رآه بصره ، بل رآه على الوصف الذي علمه قبل أن رآه فكان علمه حق اليقين ، وفي صحيح مسلم " عن أبي ذر ـ رضى الله عنه ـ قال : سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " هل رأيت ربك ؟ قال : نور إليّ أراه " ، وفي صحيح مسلم أيضاً " عن مسروق أنه قال لعائشة ـ رضى الله عنه ـ ا لما أنكرت الرؤية : ألم يقل الله تعالى ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ و ﴿ لقد رآه نزلة أخرى ﴾ فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : " إنما هو جبرئيل عليه السلام ، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض " قال البغوي : وذهب جماعة إلى أنه رآه فقال بعضهم : جعل بصره في فؤاده ، ثم روي من صحيح مسلم عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : " رآه بفؤاده مرتين " وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه وهو قول أنس ـ رضى الله عنه ـ ، وقال ابن برجان ما معناه : إن النوم والصعق من آيات الله على لقاء الله وهي مقدمات لذلك ، ولكل حقيقة حق يتقدمها كأشراط الساعة ، والإسراء وإن لم

يكن موتاً ولا صعقاً ولا نوماً على أظهر الوجوه فقد خرج عن مشاهدات الدنيا إلى مشاهدات الأفق الأعلى فلا تنكر الرؤية هنالك ، فالإسراء حالة غير حالة الدنيا ، بل هي من أحوال الآخرة وعالم الغيب – والله الهادي .

(102/732)

ولما تقرر ذلك غاية التقرر ، وكان موضع الإنكار عليهم ، قال مسبباً عن ذلك :

﴿ أفتمارونه ﴾ أي تستخرجون منه بجدالكم له فيما أخبركم به شكاً فيه ولا شك فيه ، وعبر بالمفاعلة في قراءة الجماعة عن حمزة والكسائي ويعقوب إشارة إلى اجتهادهم في تشكيكه ، من مري الشيء : استخرجه ، ومري الناقة : مسح ضرعها ، فأمرى : در لبنها ، والمرية بالكسر والضمر : الشك والجدل ﴿ على ما يرى ﴾ على صفة مطابقة القلب والبصر ، وذلك مما لم تجر العادة بدخول الشك فيه ولا قبوله للجدال ، وزاد الأمر وضوحاً بتصوير الحال الماضية بالتعبير بالمضارع إشارة إلى أنه كما لم يهم لم يلبس الأمر عليه ، بل كأنه الآن ينظر .

ولما كان الشيء أقوى ما يكون إذا حسر البصر ، فإذا وافقه كون القلب في غاية الحضور كان أمكن ، فإذا تكرر انقطعت الأطماع عن التعلق بالمجادلة منه ، قال مؤكداً لأجل

إنكارهم : ﴿ ولقد رآه ﴾ أي الله تعالى أو جبرئيل عليه السلام على صورته الحقيقية ، روى مسلم في الإيمان عن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ ، قال : " رآه بفؤاده مرتين " وجعل ابن برجان الإسراء مرتين : الأولى بالفؤاد مقدمة وهذه بالعين .

(103/732)

ولما كان ذلك لا يتأتي إلا بتنزل يقطع مسافات البعد التي هي الحجب ليصير به بحيث يراه البشر ، عبر بقوله : ﴿ نزلة ﴾ وانتصب على الظرفية لأن الفعلة بمعنى المرة ﴿ أخرى ﴾ أي ليكمل له الأمر مرة في عالم الكون والفساد وأخرى في المحل الأنزه الأعلى ، وعين الوقت بتعين المكان فقال : ﴿ عند سدرة المنتهى ﴾ أي الشجرة التي هي كالسدر وينتهي إليها علم الخلائق وينتهي إليها ما يعرج من تحت وما ينزل من فوق ، فيتلقى هنالك ، وذلك – والله أعلم – ليلة الإسراء في السنة الثالثة عشرة من النبوة قبل الهجرة بقليل بعد الترقي في معراج الكمالات من السنين على عدد السماوات وما بينهما من المسافات ، فانتهى إلى منتهى يسمع فيه صريف الأقلام ، وعظمها بقوله : ﴿ عندها ﴾ أي السدرة ﴿ جنة المأوى ﴾ الذي لا مأوى في الحقيقة غيره لأنه لا يوازي في عظمه ، وزاد في تعظيمها بقوله :

﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ أي يغطيها ويركبها وسمره ؟ من فراش الذهب والرفرف الأخضر والملائكة والنبق وغير ذلك فإن الغشو النبق ﴿ ما يغشى ﴾ لا تحتملون وصفه وهو بحيث يكاد أن لا يحصى ، وإليه الإشارة بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الحديث : " وغشيها ، ألا وإني لا أدري ما هي فليس أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها " أو كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأكد الرؤية وقررها مستأنفاً بقوله : ﴿ ما زاغ ﴾ أي ما مال أدنى ميل ﴿ البصر ﴾ أي الذي لا بصر لمخلوق أكمل منه ، فما قصر عن النظر فيما أذن له فيه ولا زاد ﴿ وما طغى ﴾ أي تجاوز الحد إلى ما لم يؤذن له فيه مع أن ذلك العالم غريب عن بني آدم ، وفيه من العجائب ما يحير الناظر ، بل كانت له العفة الصادقة المتوسطة بين الشره والزهادة على أتم قوانين العدل ، فأثبت ما رآه على حقيقته ، وكما قال السهروردي في أول الباب الثاني والثلاثين من عوارفه : وأخبر تعالى بحسن أدبه في الحضرة بهذه الآية ، وهذه غامضة من غوامض الأدب ، اختص بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

(104/732)

.

(105/732)

ولما كانوا قد أنكروا الإسراء إنكاراً لم يقع لهم في غيره مثله ، زاد في تأكيده على وجه يعم غيره فقال : ﴿ لقد رأى ﴾ أي أبصر بسبب ما أهلناه له من الرسالة إبصاراً سارياً إلى البواطن غير مقتصر على الظواهر ﴿ من آيات ربه ﴾ أي المحسن إليه بما لم يصل إليه أحد قبله ولا يصل إليه أحد بعده ، ومن ادعى ذلك فهو كافر ﴿ الكبرى ﴾ من ذلك ما رآه في السماوات من الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام إشارة بكل شيء إلى أمر دقيق جليل وحالة شريفة ، وقال الإمام أبو القاسم السهيلي في الروض الأنف : والذي أقول في هذا أن مأخذ فهمه من علم التعبير ، فإنه من علم النبوة ، وأهل التعبير يقولون : من رأى نبياً بعينه في المنام فإن رؤياه تؤذن بما يشبه من حال ذلك النبي في شدة أو رخاء أو غير ذلك من الأمور التي أخبر بها عن الأنبياء في القرآن والحديث ، وحديث الإسراء كان بمكة ، ومكة حرم الله وأمنه ، وقطانها جيران الله لأن فيها بيته ، فأول ما رأى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام آدم عليه الصلاة والسلام الذي كان في أمن الله وجواره ، فأخرجه إبليس عدوه منها ، وهذه القصة تشبهها الحالة الأولى من أحوال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أخرجه أعداؤه من حرم الله وجوار بيته ، فكربه ذلك وغمه فأشبهت قصته في هذا قصة آدم عليه الصلاة والسلام مع أن آدم تعرض عليه أرواح ذريته البر والفاجر منهم ، فكان في السماء الدنيا بحيث يرى الفريقين لأن أرواح أهل الشقاء لا تلج في السماء

ولا تفتح لهم أبوابها ، كما قال الله تعالى ، ثم رأى في الثانية عيسى ويحيى عليهما الصلاة والسلام وهما الممتحنان باليهود ، أما عيسى عليه السلام فكذبته اليهود وآذته وهموا بقتله فرفعه الله إليه ، وأما يحيى عليه السلام فقتلوه ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد انتقاله إلى المدينة صار إلى حالة ثانية من الامتحان ، وكانت محنته فيها باليهود آذوه وظاهروا عليه

(106/732)

وهموا بإلقاء الصخرة عليه لقتلوه فنجاه الله كما نجى عيسى عليه السلام منهم ، ثم سموه في الشاة ولم تزل تلك الأكلة تعاوده حتى قطعت أبهره كما قال عند الموت وهكذا فعلوا بابني الخالة يحيى وعيسى لأن أم يحيى أشياع بنت عمران أخت مريم بنت عمران أمهما جنة ، وأما لقاؤه ليوسف عليه السلام في السماء الثالثة فإنه يؤذن بحالة ثالثة تشبه حالة يوسف عليه السلام ، وذلك أن يوسف ظفر بإخوانه من بعد ما أخرجوه من بين ظهرانيهم فصفح عنهم وقال

﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾ [يوسف : 92] الآية ، وكذلك نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسر يوم بدر جملة من أقاربه الذين أخرجوهم فيهم عمه العباس وابن عمه

عقيل فمنهم من أطلق ، ومنهم من قبل أفديته ، ثم ظهر عليهم بعد ذلك عام الفتح فجمعهم فقال لهم :

(107/732)

" أقول ما قال أخي يوسف : لا تثريب عليكم اليوم " ثم لقاؤه إدريس عليه السلام في السماء الرابعة وهو المكان الذي سماه الله مكاناً علياً وإدريس أول من آتاه الله الخط بالقلم ، فكان ذلك مؤذناً بالحالة الرابعة وهو علو شأنه عليه السلام حتى أخاف الملوك وكتب إليهم يدعوهم إلى طاعته حتى قال أبو سفيان وهو عند ملك الروم حين جاء كتاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورأى ما رأى من خوف هرقل : لقد أُمِرَ أمرُ ابن أبي كبشة حتى أصبح يخافه ملك بني الأصفر ، وكتب عنه بالقلم إلى جميع ملوك الأرض فمنهم من اتبعه على دينه كالنجاشي وملك بني عمان ومنهم من هادنه وأهدى إليه وأتحفه كهرقل والمقوقس ، ومنهم من تعصى عليه فأظهره الله عليه ، فهذا مقام علي ، وخط بالقلم كنحو ما أوتي إدريس عليه السلام ، ولقاؤه في السماء الخامسة لهارون عليه السلام المحبب في قومه يؤذن بحب قريش وجميع العرب له بعد بعضهم فيه ، ولقاؤه في السماء السادسة لموسى عليه السلام يؤذن بحالة تشبه حالة موسى عليه السلام حين أمر بغزو الشام ، فظهر على الجبابرة الذين

كانوا فيها ، وأدخل بني إسرائيل البلد الذي خرجوا منه بعد هلاك عدوهم ، ولذلك غزا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تبوك من أرض الشام وظهر على صاحب دومة حتى صالحه على الجزية بعد أن أتى به أسيراً ، وافتتح مكة ودخل أصحابه البلد الذي خرجوا منه ، ثم لقاؤه في السماء السابعة إبراهيم عليه السلام لحكمتين : إحداهما أنه رآه عند البيت المعمور مسنداً ظهره إليه ، والبيت المعمور جبال مكة ، وإليه تحج الملائكة كما أن إبراهيم عليه السلام هو الذي بنى الكعبة وإذن في الناس بالحج إليها ، والحكمة الثانية أن آخر أحوال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حجه إلى البيت الحرام ، وحج معه في ذلك العام نحو من سبعين ألفاً من المسلمين ، ورؤية إبراهيم عليه السلام عند أهل التأويل تؤذن بالحج لأنه الداعي إليه والرافع لقواعد الكعبة

(108/732)

المحجوجة – انتهى .

وهذا المقام هو الإسراء وما تفرع منه الموصل إلى أعلى ما يكون من تجريد التوحيد ، فجعل سبحانه عنوانه المفروض فيه الحاجز بين الإسلام والشرك وهو الصلاة الجامعة لمعاني الدين الشاملة لجميع البركات بأن جعلت خمسين مستغرقة لجميع الفراغ ثم ردت إلى خمس دون

القوى بكثير ثم رتب عليها جزاء الخمسين ورفع كل واحدة من صلاة الجماعة إلى سبع وعشرين صلاة وفضل صلاتي الطرفين : الصبح الثنائية والعصر الرباعية بشهادة فريقي الملائكة وكتابتهما في صحيفتي كل من الجمعين ، فقال حمزة الكرماني في جوامع التفسير : فأسري به في شهر ربيع الأول قبل الهجرة من بيت أم هانىء ـ رضى الله عنه ـ ا ، ثم ساق حديث الإسراء مساقاً عجيباً جداً طويلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 322.318 ﴾

(109/732)

فصل

قال الفخر :

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

الفؤاد فؤاد من ؟ نقول المشهور أنه فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم معناه أنه ما كذب فؤاده واللام لتعريف ما علم حاله لسبق ذكر محمد عليه الصلاة والسلام في قوله ﴿ إِلَى عَبْدِهِ ﴾

وفي قوله ﴿ وَهُوَ بالأفق الأعلى ﴾ [النجم : 7] وقوله تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صاحبكم ﴾ [النجم : 2] ويحتمل أن يقال ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد ﴾ أي جنس الفؤاد لأن المكذب هو الوهم والخيال يقول كيف يرى الله أو كيف يرى جبريل مع أنه ألطف من الهوى والهواء لا يرى ، وكذلك يقول الوهم والخيال إن رأى ربه رأى في جهة ومكان وعلى هيئة والكل ينافي كون المرئي إلها ، ولو رأى جبريل عليه السلام مع أنه صار على صورة دحية أو غيره فقد انقلبت حقيقته ولو جاز ذلك لارتفع الأمان عن المرئيات ، فنقول رؤية الله تعالى ورؤية جبريل عليه السلام على ما رآه محمد عليه الصلاة والسلام جائزة عند من له قلب فالفؤاد لا ينكر ذلك ، وإن كانت النفس المتوهمة والمتخيلة تنكره .

المسألة الثانية :

(110/732)

ما معنى ﴿ مَا كَذَبَ ﴾ ؟ نقول فيه وجوه : الوجه الأول : ما قاله الزمخشري وهو أن قلبه لم يكذب وما قال إن ما رآه بصرك ليس بصحيح ، ولو قال فؤاده ذلك لكان كاذباً فيما قاله وهو قريب مما قاله المبرد حيث قال : معناه صدق الفؤاد ، فيما رأى ، (رأى) شيئاً فصدق فيه الثاني : قرىء ﴿ مَا كَذَّبَ الفؤاد ﴾ بالتشديد ومعناه ما قال إن المرئي خيال لا

حقيقة له الثالث : هو أن هذا مقرر لما ذكرنا من أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، لما رأى جبريل عليه السلام خلق الله له علماً ضرورياً علم أنه ليس بخيال وليس هو على ما ذكرنا قصد الحق ، وتقديره ما جوّز أن يكون كاذباً وفي الوقوع وإرادة نفي الجواز كثير قال الله تعالى : ﴿ لاَ يخفى عَلَى الله مِنْهُمْ شَىْء ﴾ [غافر : 16] وقال : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ [الأنعام : 103] وقال : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل ﴾ [النمل : 93] والكل لنفي الجواز بخلاف قوله تعالى : ﴿ لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ [يوسف : 56] و ﴿ لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [الكهف : 30] ، و ﴿ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء : 48] فإنه لنفي الوقوع .

المسألة الثالثة :

الرائي في قوله ﴿ مَا رأى ﴾ هو الفؤاد أو البصر أو غيرهما ؟ نقول فيه وجوه الأول : الفؤاد كأنه تعالى قال : ما كذب الفؤاد ما رآه الفؤاد أي لم يقل إنه جني أو شيطان بل تيقن أن ما رآه بفؤاده صدق صحيح الثاني : البصر أي ما كذب الفؤاد ما رآه البصر ، ولم يقل إن ما رآه البصر خيال الثالث : ما كذب الفؤاد ما رأى محمد عليه الصلاة والسلام ، وهذا على قولنا الفؤاد للجنس ظاهر أي القلوب تشهد بصحة ما رآه محمد صلى الله عليه وسلم (من الرؤيا) وإن كانت الأوهام لا تعترف بها .

المسألة الرابعة :

ما المرئي في قوله ﴿ مَا رأى ﴾ ؟ نقول على الاختلاف السابق والذي يحتمل الكلام وجوه ثلاثة : الأول : الرب تعالى والثاني : جبريل عليه السلام والثالث : الآيات العجيبة الإلهية ، فإن قيل كيف تمكن رؤية الله تعالى بحيث لا يقدح فيه ولا يلزم منه كونه جسماً في جهة ؟ نقول ، اعلم أن العاقل إذا تأمل وتفكر في رجل موجود في مكان ، وقال هذا مرئي الله تعالى يراه الله ، و (إذا) تفكر في أمر لا يوجد أصلاً وقال هذا مرئي الله تعالى يراه الله تعالى يجد بينهما فرقاً وعقله يصحح الكلام الأول ويكذب الكلام الثاني ، فذلك ليس بمعنى كونه معلوماً لأنه لو قال الموجود معلوم الله والمعدوم معلوم الله لما وجد في كلامه خللاً واستبعاداً فالله راء بمعنى كونه عالماً ، ثم إن الله يكون رائياً ولا يصير مقابلاً للمرئي ، ولا يحصل في جهة ولا يكون مقابلاً له ، وإنما يصعب على الوهم ذلك من حيث إنه لم ير شيئاً إلا في جهة فيقول إن ذلك واجب ، ومما يصحح هذا أنك ترى في الماء قمراً وفي الحقيقة ما رأيت القمر حالة نظرك إلى الماء إلا في مكانه فوق السماء فرأيت القمر في الماء ، لأن الشعاع الخارج من البصر اتصل به فرد الماء ذلك الشعاع إلى السماء ، لكن وهمك لما رأى أكثر ما رآه في المقابلة لم يعهد رؤية شيء يكون خلفه إلا بالتوجه إليه ، قال إني أرى القمر ، ولا رؤية إلا إذ كان المرئي

في مقابلة الحدقة ولا مقابل للحدقة إلا الماء ، فحكم إذن بناء على هذا أنه يرى القمر في الماء ، فالوهم يغلب العقل في العالم لكون الأمور العاجلة أكثرها وهمية حسية ، وفي الآخرة تزول الأوهام وتنجلي الأفهام فترى الأشياء لوجودها لا لتحيزها ، واعلم أن من ينكر جواز رؤية الله تعالى ، يلزمه أن ينكر جواز رؤية جبريل عليه السلام ، وفيه إنكار الرسالة وهو كفر ، وفيه ما يكاد أن يكون كفراً ، وذلك لأن من شك في رؤية الله تعالى يقول لو كان الله تعالى جائز الرؤية لكان واجب الرؤية لأن

(112/732)

حواسنا سليمة ، والله تعالى ليس من وراء حجاب ولا هو في غاية البعد عنا لعدم كونه في جهة ولا مكان فلو جاز أن يرى ولا نراه ، للزم القدح في المحسوسات المشاهدات ، إذ يجوز حينئذ أن يكون عندنا جبل ولا نراه ، فيقال لذلك القائل قد صح أن جبريل عليه السلام كان ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم وعنده غيره وهو يراه ولو وجب ما يجوز لرآه كل أحد ، فإن قيل إن هناك حجاباً نقول وجب أن يرى هناك حجاباً فإن الحجاب لا يحجب إذا كان مرئياً على مذهبهم ، ثم إن النصوص وردت أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه بفؤاده فجعل بصره في فؤاده أو رآه ببصره فجعل فؤاده في بصره ، وكيف لا ، وعلى

مذهب أهل السنة الرؤية بالإرادة لا بقدرة العبد ، فإذا حصل الله تعالى العلم بالشيء من طريق البصر كان رؤية ، وإن حصله من طريق القلب كان معرفة والله قادر على أن يحصل العلم بخلق مدرك للمعلوم في البصر كما قدر على أن يحصله بخلق مدرك في القلب ، والمسألة مختلف فيها بين الصحابة في الوقوع واختلاف الوقوع مما ينبىء عن الاتفاق على الجواز والمسألة مذكورة في الأصول فلا نطولها .

أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12)

أي كيف تجادلونه وتوردون شكوككم عليه مع أنه رأى ما رأى عين اليقين ؟ ولا شك بعد الرؤية فهو جازم متيقن وأنتم تقولون أصابه الجن ويمكن أن يقال هو مؤكد للمعنى الذي تقدم ، وذلك لأن من تيقن شيئاً قد يكون بحيث لا يزول عن نفسه تشكيك وأكد بقوله تعالى :

وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14)

(113/732)

وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم لما رآه وهو على بسيط الأرض كان يحتمل أن يقال إنه من الجن احتمالاً في غاية البعد ، لما بينا أنه صلى الله عليه وسلم حصل له العلم الضروري بأنه ملك مرسل ، واحتمال البعيد لا يقدح في الجزم واليقين ، ألا ترى أنا إذا نمنا بالليل وانتبهنا

بالنهار نجزم بأن البحار وقت نومنا ما نشفت ولا غارت ، والجبال ما عدمت ولا سارت ، مع احتمال ذلك فإن الله قادر على ذلك وقت نومنا ، ويعيدها إلى ما كانت عليه في يومنا ، فلما رآه عند سدرة المنتهى وهو فوق السماء السادسة لم يحتمل أن يكون هناك جن ولا إنس ، فنفى ذلك الاحتمال أيضاً فقال تعالى : أفتمارونه على ما يرى رأي العين ، وكيف وهو قد رآه في السماء فماذا تقدرون فيه وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الواو يحتمل أن تكون عاطفة ، ويحتمل أن تكون للحال على ما بيناه ، أي كيف تجادلونه فيما رآه ، على وجه لا يشك فيه ؟ ومع ذلك لا يحتمل إيراد الشكوك عليه ، فإن كثيراً ما يشك المعتقد لشيء فيه ولكن تردد عليه الشكوك ولا يمكنه الجواب عنها ، ولا تثريب مع ذلك في أن الأمر كما ذكرنا من المثال ، لأنا لا نشك في أن البحار ما صارت ذهباً والجبال ما صارت عهناً ، وإذا أورد علينا مورد شكا ، وقال وقت نومك يحتمل أن الله تعالى قلبها ثم أعادها لا يمكننا الجواب عنه مع أنا لا نشك في استمرارها على ما هي عليه ، لا يقال اللام تنافي كون الواو للحال ، فإن المستعمل يقال أفتمارونه ، وقد رأى من غير لام ، لأنا نقول الواو التي للحال تدخل على جملة والجملة تتركب من مبتدأ وخبر ، أو هن فعل وفاعل ، وكلاهما يجوز فيه اللام .

المسألة الثانية :

قوله ﴿ نَزْلَةً ﴾ فعلة من النزول فهي كجلسة من الجلوس ، فلا بد من نزول ، فذلك النزول لمن كان ؟ نقول فيه وجوه ، وهي مرتبة على أن الضمير في رآه عائد إلى من وفيه قولان الأول : عائد إلى الله تعالى أي رأى الله نزلة أخرى ، وهذا على قول من قال ﴿ مَا رأى ﴾ في قوله ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾ [النجم : 11] هو الله تعالى .

وقد قيل بأن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بقلبه مرتين ، وعلى هذا فالنزلة تحتمل وجهين أحدهما : أنها لله ، وعلى هذا فوجهان أحدهما : قول من يجوز على الله تعالى الحركة والانتقال وهو باطل وثانيهما : النزول بالقرب المعنوي لا الحسي فإن الله تعالى قد يقرب بالرحمة والفضل من عبده ولا يراه العبد ، ولهذا قال موسى عليه السلام ﴿ رَبّ أَرِنِى ﴾ [البقرة : 260] أي أزل بعض حجب العظمة والجلال ، وادن من العبد بالرحمة والإفضال لأراك .

الوجه الثاني : أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى الله نزلة أخرى ، وحينئذ يحتمل ذلك وجهين أحدهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل على متن الهوى ومركب النفس ولهذا يقال لمن ركب متن هواه إنه علا في الأرض واستكبر ، قال تعالى : ﴿ عَلاَ فِى الأرض ﴾ [

القصص : 4] ثانيهما : أن المراد من النزلة ضدها وهي العرجة كأنه قال رآه عرجة أخرى ، وإنما اختار النزلة ، لأن العرجة التي في الآخرة لا نزلة لها فقال نزلة ليعلم أنها من الذي كان في الدنيا والقول الثاني : أنه عائد إلى جبريل عليه السلام أي رأى جبريل نزلة أخرى ، والنزلة حينئذ يحتمل أن تكون لمحمد صلى الله عليه وسلم كما ذكرناه ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم على ما ورد في بعض أخبار ليلة المعراج ، جاوز جبريل عليه السلام ، وقال له جبريل عليه السلام لو دنوت أنملة لاحترقت ، ثم عاد إليه فذلك نزلة .

(115/732)

فإن قيل فكيف قال : ﴿ أخرى ﴾ ؟ نقول لأن النبي صلى الله عليه وسلم في أمر الصلاة تردد مراراً فربما كان يجاوز كل مرة ، وينزل إلى جبريل ، ويحتمل أن تكون لجبريل عليه السلام وكلاهما منقول وعلى هذا الوجه فنزلة أخرى ظاهر ، لأن جبريل كان له نزلات وكان له نزلتان عليه وهو على صورته ، وقوله تعالى : ﴿ عِندَ سِدْرَةِ المنتهى ﴾ المشهور أن السدرة شجرة في السماء السابعة وعليها مثل النبق وقيل في السماء السادسة ، وورد في الخبر أنه صلى الله عليه وسلم قال : " نبقها كقلال هجر وورقها كآذان الفيلة " وقيل سدرة المنتهى هي الحيرة القصوى من السدرة ، والسدرة كالركبة من الراكب عندما يحار العقل

حيرة لا حيرة فوقها ، ما حار النبي صلى الله عليه وسلم وما غاب ورأى ما رأى ، وقوله ﴿ عِندَ ﴾ ظرف مكان ، أو ظرف زمان في هذا الموضع ؟ نقول المشهور أنه ظرف مكان تقديره رأى جبريل أو غيره بقرب سدرة المنتهى وقيل ظرف زمان ، كما يقال صليت عند طلوع الفجر ، وتقديره رآه عند الحيرة القصوى ، أي في الزمان الذي تحار فيه عقول العقلاء ، والرؤية من أتم العلوم وذلك الوقت من أشد أوقات الجهل والحيرة ، فهو عليه الصلاة والسلام ما حار وقتاً من شأنه أن يحار العاقل فيه ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

إن قلنا معناه رأى الله كيف يفهم ﴿ عِندَ سِدْرَةِ المنتهى ﴾ ؟ قلنا فيه أقوال : الأول : قول من يجعل الله في مكان وهو باطل ، وقد بالغنا في بيان بطلانه في سورة السجدة الثاني : رآه محمد صلى الله عليه وسلم وهو ﴿ عِندَ سِدْرَةِ المنتهى ﴾ لأن الظرف قد يكون ظرفاً للرائي كما ذكرنا من المثال يقال رأيت الهلال ، فيقاله لقائله أين رأيته ؟ فيقول على السطح وربما يقول عند الشجرة الفلانية ، وأما إن قلنا إن المراد جبريل عليه السلام فالوجهان ظاهران وكون النبي صلى الله عليه وسلم مع جبريل عند سدرة المنتهى أظهر .

المسألة الرابعة :

إضافة السدرة إلى المنتهى من أي (أنواع) الإضافة ؟ نقول يحتمل وجوهاً أحدها : إضافة الشيء إلى مكانه يقال أشجار بلدة كذا لا تطول من البرد ويقال أشجار الجنة لا تيبس ولا تخلو من الثمار ، فالمنتهى حينئذ موضع لا يتعداه ملك ، وقيل لا يتعداه روح من الأرواح وثانيها : إضافة المحل إلى الحال فيه ، يقال : كتاب الفقه ، ومحل السواد ، وعلى هذا فالمنتهى عند السدرة تقديره سدرة عند منتهى العلوم ثالثها : إضافة الملك إلى مالكه يقال دار زيد وأشجار زيد وحينئذ فالمنتهى إليه محذوف تقديره سدرة المنتهى إليه ، قال الله تعالى : ﴿ إلى ربّكَ المنتهى ﴾ [النجم : 42] فالمنتهى إليه هو الله وإضافة السدرة إليه حينئذ كإضافة البيت إليه للتشريف والتعظيم ، ويقال في التسبيح : يا غاية مناه ، ويا منتهى أملاه .

عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15)

وفي الجنة خلاف قال بعضهم جنة المأوى هي الجنة التي وعد بها المتقون ، وحينئذ الإضافة كما في قوله تعالى : ﴿ دَارَ المقامة ﴾ [فاطر : 35] وقيل هي جنة أخرى عندها يكون أرواح الشهداء وقيل هي جنة للملائكة وقرىء ﴿ جنّه ﴾ بالهاء من جن بمعنى أجن يقال جن الليل وأجن ، وعلى هذه القراءة يحتمل أن يكون الضمير في قوله ﴿ عِندَهَا ﴾ عائداً إلى النزلة ، أي عند النزلة جن محمداً المأوى ، والظاهر أنه عائد إلى

السدرة وهي الأصح ، وقيل إن عائشة أنكرت هذه القراءة ، وقيل إنها أجازتها .

إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

(117/732)

العامل في ﴿ إِذْ ﴾ ما قبلها أو ما بعدها فيه وجهان ، فإن قلنا ما قبلها ففيه احتمالان : أظهرهما ﴿ رَّءَاهُ ﴾ [النجم : 13] أي رآه وقت ما يغشى السدرة الذي يغشى ، والاحتمال الآخر العامل فيه الفعل الذي في النزلة ، تقديره رآه نزلة أخرى تلك النزلة وقت ما يغشى السدرة ما يغشى ، أي نزوله لم يكن إلا بعد ما ظهرت العجائب عند السدرة وغشيها ما غشى فحينئذ نزل محمد نزلة إشارة إلى أنه لم يرجع من غير فائدة ، وإن قلنا ما بعده ، فالعامل فيه ﴿ مَا زَاغَ البصر ﴾ [النجم : 17] أي ما زاغ بصره وقت غشيان السدرة ما غشيها ، وسنذكره عند تفسير الآية .

المسألة الثانية :

قد ذكرت أن في بعض الوجوه ﴿ سِدْرَةِ المنتهى ﴾ هي الحيرة القصوى ، وقوله ﴿ يغشى

السدرة ﴾ على ذلك الوجه ينادي بالبطلان ، فهل يمكن تصحيحه ؟ نقول يمكن أن يقال المراد من الغشيان غشيان حالة على حالة ، أي ورد على حالة الحيرة حالة الرؤية واليقين ، ورأى محمد صلى الله عليه وسلم عندما حار العقل ما رآه وقت ما طرأ على تلك الحالة ما طرأ من فضل الله تعالى ورحمته ، والأول هو الصحيح ، فإن النقل الذي ذكرنا من أن السدرة نبقها كقلال هجر يدل على أنها شجرة .

المسألة الثالثة :

(118/732)

ما الذي غشى السدرة ؟ نقول فيه وجوه الأول : فراش أو جراد من ذهب وهو ضعيف ، لأن ذلك لا يثبت إلا بدليل سمعي ، فإن صح فيه خبر فلا يبعد من جواز التأويل ، وإن لم يصح فلا وجه له الثاني : الذي يغشى السدرة ملائكة يغشونها كأنهم طيور ، وهو قريب ، لأن المكان مكان لا يتعداه الملك ، فهم يرتقون إليه متشرفين به متبركين زائرين ، كما يزور الناس الكعبة فيجتمعون عليها الثالث : أنوار الله تعالى ، وهو ظاهر ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصل إليها تجلى ربه لها ، كما تجلى للجبل ، وظهرت الأنوار ، لكن السدرة كانت أقوى من الجبل وأثبت ، فجعل الجبل دكاً ، ولم تتحرك الشجرة ، وخر موسى صعقاً ،

ولم يتزلزل محمد الرابع : هو مبهم للتعظيم ، يقول القائل : رأيت ما رأيت عند الملك ، يشير إلى الإظهار من وجه ، وإلى الإخفاء من وجه .

المسألة الرابعة :

﴿ يغشى ﴾ يستر ، ومنه الغواشي أو من معنى الإتيان ، يقال فلا يغشاني كل وقت ، أي يأتيني ، والوجهان محتملان ، وعلى قول من يقول : الله يأتي ويذهب ، فالإتيان أقرب .

مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اللام في ﴿ البصر ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : المعروف وهو بصر محمد صلى الله عليه وسلم ، أي ما زاغ بصر محمد ، وعلى هذا فعدم الزيغ على وجوه ، إن قلنا الغاشي للسدرة هو الجراد والفراش ، فمعناه لم يتلفت إليه ولم يشتغل به ، ولم يقطع نظره عن المقصود ، وعلى هذا فغشيان الجراد والفراش يكون ابتلاء ، وامتحاناً لمحمد صلى الله عليه وسلم .

(119/732)

وإن قلنا أنوار الله ، ففيه وجهان أحدهما : لم يلتفت يمنة ويسرة ، واشتغل بمطالعتها وثانيهما : ما زاغ البصر بصعقة بخلاف موسى عليه السلام ، فإنه قطع النظر وغشي عليه ، وفي الأول : بيان أدب محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي الثاني : بيان قوته الوجه الثاني : في اللام أنه لتعريف الجنس ، أي ما زاغ بصر أصلاً في ذلك الموضع لعظمة الهيبة ، فإن قيل لو كان كذلك لقال ما زاغ بصر ، لأنه أدل على العموم ، لأن النكرة في معرض النفي تعم ، نقول هو كقوله ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ [الأنعام : 103] ولم يقل لا يدركه بصر .

المسألة الثانية :

إن كان المراد محمداً ، فلو قال ما زاغ قلبه كان يحصل به فائدة قوله ﴿ مَا زَاغَ البصر ﴾ ؟ نقول لا ، وذلك لأن من يحضر عند ملك عظيم يرى من نفسه أنه يهابه ويرتجف إظهاراً لعظمته مع أن قلبه قوي ، فإذا قال : ﴿ مَا زَاغَ البصر ﴾ يحصل منه فائدة أن الأمر كان عظيماً ، ولم يزغ بصره من غير اختيار من صاحب البصر .

المسألة الثالثة :

﴿ وَمَا طغى ﴾ عطف جملة مستقلة على جملة أخرى ، أو عطف جملة مقدرة على جملة ، مثال المستقلة : خرج زيد ودخل عمرو ، ومثال مقدرة : خرج زيد ودخل ، فنقول الوجهان جائزان أما الأول : فكأنه تعالى قال عند ظهور النور : ما زاغ بصر محمد صلى الله عليه وسلم ، وما طغى محمد بسبب الالتفات ، ولو التفت لكان طاغياً وأما الثاني :

فظاهر على الأوجه ، أما على قولنا : غشي السدرة جراد فلم يلتفت إليه ﴿ وَمَا طغى ﴾ أي ما التفت إلى غير الله ، فلم يلتفت إلى الجراد ، ولا إلى غير الجراد سوى الله .

(120/732)

وأما على قولنا غشيها نور ، فقوله ﴿ مَا زَاغَ ﴾ أي ما مال عن الأنوار ﴿ وَمَا طغى ﴾ أي ما طلب شيئاً وراءها وفيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال : ما زاغ وما طغى ، ولم يقل : ما مال وما جاوز ، لأن الميل في ذلك الموضع والمجاوزة مذمومان ، فاستعمل الزيغ والطغيان فيه ، وفيه وجه آخر وهو أن يكون ذلك بياناً لوصول محمد صلى الله عليه وسلم إلى سدرة اليقين الذي لا يقين فوقه ، ووجه ذلك أن بصر محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مَا زَاغَ ﴾ أي ما مال عن الطريق ، فلم ير الشيء على خلاف ما هو عليه ، بخلاف من ينظر إلى عين الشمس مثلاً ، ثم ينظر إلى شيء أبيض ، فإنه يراه أصفر أو أخضر يزيغ بصره عن جادة الأبصار ﴿ وَمَا طغى ﴾ ما تخيل المعدوم موجوداً فرأى المعدوم مجاوزاً الحد .

لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

فيه دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم ، رأى ليلة المعراج آيات الله ، ولم ير الله ، وفيه خلاف ووجهه : هو أن الله تعالى ختم قصة المعراج ههنا برؤية الآيات ، وقال : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ إلى أن قال : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ ءاياتنا ﴾ [الإسراء : 1] ولو كان رأى ربه لكان ذلك أعظم ما يمكن ، فكانت الآية الرؤية ، وكان أكبر شيء هو الرؤية ، ألا ترى أن من له مال يقال له : سافر لتربح ، ولا يقال : سافر لتتفرج ، لما أن الربح أعظم من التفرج .

المسألة الثانية :

(121/732)

قال بعض المفسرين ﴿ لَقَدْ رأى مِنْ ءايات رَبِّهِ الكبرى ﴾ وهي أنه رأى جبريل عليه السلام في صورته ، فهل هو على ما قاله ؟ نقول الظاهر أن هذه الآيات غير تلك ، وذلك لأن جبريل عليه السلام وإن كان عظيماً ، لكن ورد في الأخبار أن لله ملائكة أعظم منه ، والكبرى تأنيث الأكبر ، فكأنه تعالى يقول : رأى من آيات ربه آيات هن أكبر الآيات ، فإن قيل قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الكبر ﴾ [المدثر : 35] مع أن أكبر من سقر عجائب الله ، فكذلك الآيات الكبرى تكون جبريل وما فيه ، وإن كان لله آيات أكبر منه نقول سقر إحدى الكبر أي إحدى الدواهي الكبر ، ولا شك أن في الدواهي سقر عظيمة كبيرة ، وأما آيات

الله فليس جبريل أكبرها ولأن سقر في نفسها أعظم وأعجب من جبريل عليه السلام فلا يلزم من صفتها بالكبر صفتها بالكبرى .

المسألة الثالثة :

(الكبرى) صفة ماذا ؟ نقول فيه وجهان أحدهما : صفة محذوف تقديره : لقد رأى من آيات ربه الآية الكبرى ، ثانيهما : صفة آيات ربه وعلى هذا يكون مفعول رأى محذوفاً تقديره رأى من الآيات الكبرى آية أو شيئاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 255.249 ﴾

(122/732)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) ﴾

أقسم الله تعالى بهذا المخلوق تشريفاً له وتنبيهاً منه ليكون معتبراً فيه حتى تولى العبرة إلى معرفة الله تعالى . وقال الزهري ، المعنى : ورب النجم ، وفي هذا قلق مع لفظ الآية .

واختلف المتأولون في تعيين النجم المقسم به فقال ابن عباس ومجاهد والفراء ، وبينه منذر بن سعيد هو الجملة من القرآن إذا تنزلت ، وذلك أنه روي أن القرآن نزل على محمد صلى

الله عليه وسلم نجوماً أي أقداراً مقدرة في أوقات ما ، ويجيء ﴿ هوى ﴾ على هذا التأويل بمعنى : نزل ، وفي هذا الهوى بعد وتحامل على اللغة ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ [الواقعة : 75] والخلاف في هذا كالخلاف في تلك ، وقال الحسن ومعمر بن المثنى وغيرهما : ﴿ النجم ﴾ هنا اسم جنس ، أرادوا النجوم إذا هوت ، واختلف قائلو هذه المقالة في معنى : ﴿ هوى ﴾ فقال جمهور المفسرين : ﴿ هوى ﴾ إلى الغروب ، وهذا هو السابق إلى الفهم من كلام العرب ، وقال الحسن بن أبي الحسن وأبو حمزة الثمالي ﴿ هوى ﴾ عند الإنكدار في القيامة فهي بمعنى . قوله : ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ [الانفطار : 2] وقال ابن عباس في كتاب الثعلبي هو في الانقضاض في أثر العفرية وهي رجوم الشياطين ، وهذا القول تسعده اللغة ، والتأويلات في ﴿ هوى ﴾ محتملة ، كلها قوية ومن الشاهد في النجم الذي هو اسم الجنس قول الراعي :

فتاقت تعد النجم في مستحيرة . . . سريع بأيدي الآكلين جمودها

يصف إهالة صافية ، والمستحيرة : القدر التي يطبخ فيها ، قاله الزجاج . وقال الرماني وغيره : هي شحمة صافية حين ذابت ، وقال مجاهد وسفيان : ﴿ النجم ﴾ في قسم الآية الثريا ، وسقوطها مع الفجر هو هويها والعرب لا تقول النجم مطلقاً إلا للثريا ، ومنه قول العرب [مجزوء الرمل]

طلع النجم عشاء . . . فابتغى الراعي كساء

طلع النجم غدية . . . فابتغى الراعي شكية

(123/732)

و ﴿ هوى ﴾ على هذا القول يحتمل الغروب ويحتمل الانكدار ، و ﴿ هوى ﴾ في اللغة معناه : خرق الهوى ومقصده السفل أو مسيره إن لم يقصده إليه ، ومنه قول الشاعر : [مجزوء الكامل]

هوى ابني شفا جبل . . . فزلّتْ رجله ويده

وقول الشاعر : [الطويل]

وإن كلام المرء في غير كنهه . . . لك النبل تهوي ليس فيها نصالها

وقول زهير :

هَوِي الدلو أسلمها الرشاء . . . ومنه قولهم للجراد : الهاوي ، ومنه هوى العقاب .

والقسم واقع على قوله : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ والضلال أبداً يكون من غير قصد من الإنسان إليه . والغي كأنه شيء يكتسبه الإنسان ويريده ، نفى الله تعالى عن نبيه هذين الحالين ، و ﴿ غوى ﴾ : الرجل يغوي إذا سلك سبيل الفساد والعوج ، ونفى الله

تعالى عن نبيه أن يكون ضل في هذه السبيل التي أسلكه الله إياها ، وأثبت له تعالى في الضحى أنه قد كان قبل النبوءة ضالاً بالإضافة إلى حاله من الرشد بعدها .

وقوله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ يريد محمداً صلى الله عليه وسلم أنه ليس يستكلم عن هواه ، أي بهواه وشهوته . وقال بعض العلماء : المعنى : وما ينطق القرآن المنزل عن هوى وشهوة ، ونسب النطق إليه من حيث تفهم عنه الأمور كما قال : ﴿ هذا كتابنا ينطق ﴾ [الجاثية : 29] وأسند الفعل إلى القرآن ولم يتقدم له ذكر لدلالة المعنى عليه .

وقوله : ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ يراد به القرآن بإجماع ، والوحي : إلقاء المعنى في خفاء ، وهذه عبارة تعم الملك والإلهام والإشارة وكل ما يحفظ من معاني الوحي .

(124/732)

والضمير في قوله : ﴿ علمه ﴾ يحتمل أن يكون للقرآن ، والأظهر أنه لمحمد صلى الله عليه وسلم . وأما المعلم فقال قتادة والربيع وابن عباس : هو جبريل عليه السلام ، أي علم محمداً القرآن . وقال الحسن المعلم الشديد القوى هو الله تعالى . و ﴿ القوى ﴾ جمع قوة ، وهذا في جبريل مكتمن ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ ذي قوة عند ذي العرش مكين ﴾ [التكوير : 20] . و ﴿ ذو مرة ﴾ معناه : ذو قوة ، قاله قتادة وابن زيد والربيع ، ومنه قول النبي صلى

الله عليه وسلم : " لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوى " . وأصل المرة من مرائر الحبل ، وهي فتله وإحكام عمله ، ومنه قول امرئ القيس : [الطويل]

بكل ممر الفتل شد بيذبل . . . وقال قوم ممن قال إن ذا المرة جبريل . معنى : ﴿ ذو مرة ﴾ ذو هيئة حسنة وقال آخرون : بل معناه ذو جسم طويل حسن .

قال القاضي أبو محمد : وهذا كله ضعيف .

و ﴿ استوى ﴾ مستند إلى الله تعالى في قول الحسن الذي قال : إنه لمتصف : ب ﴿ شديد القوى ﴾ ، وكذلك يجيء قوله : ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ صفة الله تعالى على معنى وعظمته وقدرته وسلطانه تتلقى نحو " الأفق الأعلى " ، ويجيء المعنى نحو قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ [طه : 5] ، ومن قال إن المتصف ب ﴿ شديد القوى ﴾ هو جبريل عليه السلام قال : إن ﴿ استوى ﴾ مستند إلى جبريل ، واختلفوا بعد ذلك ، فقال الربيع والزجاج : المعنى : ﴿ فاستوى ﴾ جبريل في الجو ، وهو إذ ذاك ، ﴿ بالأفق الأعلى ﴾ إذ رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء قد سد الأفق ، له ستمائة جناح ، وحينئذ دنا من محمد حتى كان ﴿ قاب قوسين ﴾ ، وكذلك هو المراد في هذا القول النزلة الأخرى في صفته العظيمة له ستمائه جناح عند السدرة وقال الطبري والفراء المعنى : ﴿ فاستوى ﴾ جبريل .

وقوله : ﴿ وهو ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدم ذكره في الضمير في ﴿ علمه ﴾ . وفي هذا التأويل العطف على المضمر المرفوع دون أن يؤكد ، وذلك عند النحاة مستقبح ، وأنشد الفراء على قوله : [الطويل]

ألم تر أن النبع يصلب عوده . . . ولا يستوي والخروع المتقصف

وقد ينعكس هذا الترتيب فيكون " استوى " لمحمد وهو لجبريل عليه السلام ، وأما ﴿ الأعلى ﴾ فهو عندي لقمة الرأس وما جرى معه .

وقال الحسن وقتادة : هو أفق مشرق الشمس وهذا التخصيص لا دليل عليه . واختلف الناس إلى من استند قوله . ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ فقال الجمهور : استند إلى جبريل عليه السلام ، أي دنا إلى محمد في الأرض عند حراء . وقال ابن عباس وأنس في حديث الإسراء ما يقتضي أنه يستند إلى الله تعالى ، ثم اختلف المتأولون ، فقال مجاهد : كان الدنو إلى جبريل . وقال بعضهم : كان إلى محمد . و: ﴿ دنا فتدلى ﴾ على هذا القول معه حذف مضاف . أي دنا سلطانه ووحيه وقدره لا الانتقال ، وهذه الأوصاف منتفية في حق الله تعالى . والصحيح عندي أن جميع ما في هذه الآيات هو مع جبريل ، بدليل قوله : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ [النجم : 13] فإن ذلك يقضي بنزلة متقدمة ، وما روي قط أن محمداً رأى ربه قبل ليلة الإسراء ، أما أن الرؤية بالقلب لا تمنع بحال و﴿ دنا ﴾ أعم من : " تدلى "

، فبين تعالى بقوله : ﴿ فتدلى ﴾ هيئة الدنو كيف كانت ، و: ﴿ قاب ﴾ معناه : قدر .

وقال قتادة وغيره : معناه من طرف العود إلى طرفه الآخر . وقال الحسن ومجاهد : من الوتر إلى العود في وسط القوس عند المقبض .

وقرأ محمد بن السميفع اليماني : " فكان قيس قوسين " ، والمعنى قريب من ﴿ قاب ﴾ ، ومن هذه اللفظة قول النبي عليه السلام : " لقاب قوس أحدكم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها " وفي حديث آخر : " لقاب قوس أحدكم في الجنة " .

(126/732)

وقوله : ﴿ أو أدنى ﴾ معناه : على مقتضى نظر البشر ، أي لو رآه أحدكم لقال في ذلك قوسان أو أدنى من ذلك ، وقال أبو زيد ليست بهذه القوس ، ولكن قدر الذراعين أو أدنى ، وحكى الزهراوي عن ابن عباس أن القوس في هذه الآية ذراع تقاس به الأطوال ، وذكره الثعلبي وأنه من لغة الحجاز .

وقوله تعالى : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ ، قال ابن عباس المعنى : ﴿ فأوحى ﴾ الله ﴿ إلى عبده ﴾ جبريل ﴿ ما أوحى ﴾ . وفي قوله : ﴿ ما أوحى ﴾ إبهام على جهة التفخيم والتعظيم ، والذي عرف من ذلك فرض الصلاة ، وقال الحسن المعنى :

فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى كالأولى في الإبهام ، وقال ابن زيد المعنى :

فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى الله إلى جبريل .

وقوله تعالى : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ قرأ جمهور القراء بتخفيف الذال على معنى لم يكذب قلب محمد الشيء الذي رأى ، بل صدقه وتحققه نظراً ، و﴿ كذب ﴾ يتعدى ، وقال أهل التأويل ومنهم ابن عباس وأبو صالح : رأى محمد الله تعالى بفؤاده . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " جعل الله نور بصري في فؤادي ، فنظرت إليه بفؤادي " .

(127/732)

وقال آخرون من المتأولين المعنى : ما رأى بعينه لم يكذب ذلك قلبه ، بل صدقه وتحققه ، ويحتمل أن يكون التقدير فيما رأى ، وقال ابن عباس فيما روي عنه وعكرمة وكعب الأحبار إن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعيني رأسه . بسط الزهراوي هذا الكلام عنهم وأبت ذلك عائشة ، وقالت : أنا سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآيات ، فقال لي : " هو جبريل فيها كلها " . وقال الحسن المعنى : ما رأى من مقدورات الله وملكوته . وسأل أبو ذر رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟ قال : " هو نور إني أراه " ، وهذا قول الجمهور ، وحديث عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قاطع بكل

تأويل في اللفظ ، لأن قول غيرها إنما هو منتزع من ألفاظ القرآن . وقرأ ابن عامر فيما روى عنه هشام : " ما كذّب " بشد الذال ، وهي قراءة أبي رجاء وأبي جعفر وقتادة والجحدري وخالد ، ومعناه بين على بعض ما قلناه ، وقال كعب الأحبار : إن الله تعالى قسم الكلام والرؤية بين موسى ومحمد ، فكلم موسى مرتين ، ورآه محمد مرتين ، وقالت عائشة رضي الله عنها : لقد وقف شعري من سماع هذا وتلت : ﴿ لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ﴾ [الأنعام : 103] . وذهبت هي وابن مسعود وقتادة وجمهور العلماء إلى أن المرئي هو جبريل عليه السلام في المرتين : في الأرض وعند سدرة المنتهى ليلة الإسراء ، وقد ذكرتها في سورة " سبحان " وهي مشهورة في الكتب الصحاح.

وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر هذه السورة كلها بفتح أواخر آيها وأمال عاصم في رواية أبي بكر : " رأى " . وقرأ نافع وأبو عمرو بين الفتح . وأمال حمزة والكسائي جميع ما في السورة ، وأمال أبو عمرو فيما روى عنه عبيد : " الأعلى " و: " تدلى " .

(128/732)

قوله تعالى : ﴿ أفتمارونه ﴾ خطاب لقريش ، وهو من الصراء والمعنى أتجادلونه في شيء رآه وأبصره ، وهذه قراءة الجمهور وأهل المدينة ، وقرأ علي بن أبي طالب وابن عباس وابن

مسعود وحمزة والكسائي : " أفتَمرونه " بفتح التاء دون ألف بعد الميم ، والمعنى : أفتجدونه ؟ وذلك أن قريشاً لما أخبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمره في الإسراء مستقصى ، كذبوا واستخفوا حتى وصف لهم بيت المقدس وأمر عيرهم وغير ذلك مما هو في حديث الإسراء مستقصى ، ورواها سعيد عن النخعي : " أفتُمرونه " بضم التاء ، قال أبو حاتم : وذلك غلط من سعيد . وقوله : ﴿ يرى ﴾ مستقبلاً والرؤية قد مضت عبارة تعم جميع ما مضى وتشير غلى ما يمكن أن يقع بعد ، وفي هذا نظر .

واختلف الناس في الضمير في قوله : ﴿ ولقد رآه ﴾ حسبما قدمناه ، فقال ابن عباس وكعب الأحبار : هو عائد على الله ، وقال ابن مسعود وعائشة ومجاهد والربيع : هو عائد على جبريل . و: ﴿ نزلة ﴾ معناه : مرة ، ونصبه على المصدر في موضع الحال . و: ﴿ سدرة المنتهى ﴾ هي شجرة نبق ، قال كعب : هي في السماء السابعة ، وروى ذلك مالك بن صعصعة عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال ابن مسعود : في السماء السادسة . وقيل لها : ﴿ سدرة المنتهى ﴾ لأنها إليها ينتهي علم كل عالم ، ولا يعلم ما وراءها صعداً إلا الله تعالى . وقيل سميت بذلك لأنها إليها ينتهي من مات على سنة النبي صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد : هم المؤمنون حقاً من كل جيل .

وقيل سميت بذلك ، لأن ما نزل من أمر الله فعندها يتلقى ولا يتجاوزها ملائكة العلو ، وما

صعد من الأرض فعندها يتلقى ولا يتجاوزها ملائكة السفل . وروي عن النبي عليه السلام أن الأمة من الأمم تستظل بظل الفنن منها ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رفعت لي ﴿ سدرة المنتهى ﴾ ، فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة " .

(129/732)

وقوله تعالى : ﴿ عندها جنة المأوى ﴾ قال الجمهور : أراد أن يعظم مكان السدرة ويشرفه بأن ﴿ جنة المأوى ﴾ عندها . قال الحسن : وهي الجنة التي وعد بها العالم المؤمن . وقال قتادة وابن عباس بخلاف هي جنة يأوي إليها أرواح الشهداء والمؤمنين ، وليست بالجنة التي وعد بها المؤمنون جنة النعيم ، وهذا يحتاج إلى سند وما أراه يصح عن ابن عباس .

وقرأ علي بن أبي طالب وابن الزبير بخلاف ، وأنس بن مالك بخلاف ، وأبو الدرداء وزر بن حبيش وقتادة ومحمد بن كعب : " جنة المأوى " بالهاء في جنة ، وهو ضمير محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : ستره وضمه إيواء الله تعالى وجميل صنعه به ، يقال : جنه وأجنه ، وردت عائشة وصحابة معها هذه القراءة وقالوا : أجن الله من قرأها .

والجمهور قرأ : " جنة " كالآية الأخرى : ﴿ فلهم جنات المأوى نزلاً ﴾ [السجدة : 19] وحكى الثعلبي أن معنى " جنة المأوى " : ضمه المبيت والليل .

وقوله : ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ التعامل في : ﴿ إذ ﴾ ، ﴿ رآه ﴾ . المعنى : رآه في هذه الحال . و ﴿ ما يغشى ﴾ معناه من قدرة الله ، وأنواع الصفات التي يخترعها لها ، وذلك منهم على جهة التفخيم والتعظيم ، وقال مجاهد تبدل أغصانها دراً وياقوتاً ونحوه . وقال ابن مسعود ومسروق ومجاهد : ذلك جراد من ذهب كان يغشاها . وروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " رأيتها ثم حال دونها فراش الذهب " . وقال الربيع وأبو هريرة : كان تغشاها الملائكة كما تغشى الطير الشجر ، وقيل غير هذا مما هو تكلف في الآية ، لأن الله تعالى أبهم ذلك وهم يريدون شرحه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فغشيها ألوان لا أدري ما هي ؟ " وقوله تعالى : ﴿ ما زاغ البصر ﴾ قال ابن عباس معناه : ما جال هكذا ولا هكذا . وقوله : ﴿ وما طغى ﴾ معناه : ولا تجاوز المرئي ، بل وقع عليه وقوعاً صحيحاً ، وهذا تحقيق للأمر ونفي لوجود الريب عنه .

(130/732)

وقوله تعالى : ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ قال جماعة من أهل التأويل معناه : رأى الكبرى من آيات ربه ، والمعنى ﴿ من آيات ربه ﴾ التي يمكن أن يراها البشر ، ف ﴿ الكبرى ﴾ على هذا مفعول ب ﴿ رأى ﴾ . وقال آخرون المعنى : ﴿ لقد رأى ﴾ بعضاً ﴿ من آيات ربه الكبرى ﴾ ، ف ﴿ الكبرى ﴾ على هذا وصف للآيات ، والجمع مما لا يعقل في المؤنث يوصف أبداً على حد وصف الواحدة . وقال ابن عباس وابن مسعود : رأى رفرفاً أخضر من الجنة قد سد الأفق . وقال ابن زيد : رأى جبريل في صورته التي هو بها في السماوات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(131/732)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾

أي لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ؛ وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية .

وقيل : كانت رؤية حقيقة بالبصر .

والأوّل مرويّ عن ابن عباس .

وفي صحيح مسلم أنه رآه بقلبه .

وهو قول أبي ذرّ وجماعة من الصحابة .

والثاني قول أنس وجماعة .

وروي عن ابن عباس أيضاً أنه قال : أتعجبون أن تكون الخُلّة لإبراهيم ، والكلام لموسى ، والرؤية لمحمد صلى الله عليه وسلم .

وروي عن ابن عباس أيضاً أنه قال : أما نحن بني هاشم فنقول إن محمداً رأى ربه مرتين .

وقد مضى القول في هذا في "الأنعام" عند قوله : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ [الأنعام : 103] .

وروى محمد بن كعب قال : " قلنا يا رسول الله صلى الله عليك رأيت ربك ؟ قال : "رأيته بفؤادي مرتين" ثم قرأ : ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾ " وقول : ثالث أنه رأى جلاله وعظمته ؛ قاله الحسن .

وروى أبو العالية قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ قال : " رأيت نهراً ورأيت وراء النهر حجاباً ورأيت وراء الحجاب نوراً لم أر غير ذلك " وفي صحيح مسلم " عن أبي ذرّ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ قال : "نورٌ أَنَّى أراه" " المعنى غلبني من النور وبهرني منه ما منعني من رؤيته .

ودلّ على هذا الرواية الأخرى "رأيت نوراً" .

وقال ابن مسعود : رأى جبريل على صورته مرتين .

وقرأ هشام عن ابن عامر وأهل الشام "مَا كَذَّبَ" بالتشديد أي ما كذَّب قلبُ محمد ما رأى بعينه تلك الليلة بل صدّقه .

ف "ما" مفعوله بغير حرف مقدّر ؛ لأنه يتعدّى مشدّداً بغير حرف .

ويجوز أن تكون "ما" بمعنى الذي والعائد محذوف ، ويجوز أن يكون مع الفعل مصدراً .

الباقون مخففاً ؛ أي ما كذب فؤاد محمد فيما رأى ؛ فأسقط حرف الصفة .

قال حسان رضي الله عنه :

(132/732)

لو كنتِ صادقة الذي حدّثتِني . . .

لنجوتِ مَنْجَا الحارثِ بنِ هِشامِ

أي في الذي حدّثتِني .

ويجوز أن يكون مع الفعل مصدراً .

ويجوز أن يكون بمعنى الذي ؛ أي ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم الذي رأى .

قوله تعالى : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ على مَا يرى ﴾ قرأ حمزة والكسائي "أَفَتَمْرُونَهُ" بفتح التاء من

غير ألف على معنى أفتجحدونه .

واختاره أبو عبيد ؛ لأنه قال : لم يماروه وإنما جحدوه .

يقال : مراه حقه أي جحده ومريته أنا ؛ قال الشاعر :

لِئن هجرت أخا صِدقٍ ومَكْرُمَةٍ . . .

لقد مَرَيْتَ أخاً ما كان يَمْرِيكَا

أي جحدته .

وقال المبرّد : يقال مراه عن حقه وعلى حقه إذا منعه منه ودفعه عنه .

قال : ومثل على بمعنى عن قول بني كعب بن ربيعة : رضي الله عليك ؛ أي رضي عنك .

وقرأ الأعرج ومجاهد "أَفَتُمْرُونَهُ" بضم التاء من غير ألف من أمريت ؛ أي تريبونه وتشككونه .

الباقون ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ ﴾ بألف ، أي أتجادلونه وتدافعونه في أنه رأى الله ؛ والمعنيان متداخلان ؛ لأن مجادلتهم جحود .

وقيل : إن الجحود كان دائماً منهم وهذا جدال جديد ؛ قالوا : صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عِيرنا التي في طريق الشام .

على ما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ ﴿ نَزْلَةً ﴾ مصدر في موضع الحال كأنه قال : ولقد

رآه نازلاً نزلةً أخرى .

قال ابن عباس : رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه مرة أخرى بقلبه .

روى مسلم عن أبي العالية عنه قال : ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أخرى ﴾ قال : رآه بفؤاده مرتين ؛ فقوله : ﴿ نَزْلَةً أخرى ﴾ يعود إلى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه كان له صعود ونزول مراراً بحسب أعداد الصلوات المفروضة ، فلكل عَرْجة نَزْلة .

وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ عِندَ سِدْرَةِ المنتهى ﴾ أي ومحمد صلى الله عليه وسلم عند سدرة المنتهى وفي بعض تلك النزلات .

(133/732)

وقال ابن مسعود وأبو هريرة في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أخرى ﴾ أنه جبريل .

ثبت هذا أيضاً في صحيح مسلم .

وقال ابن مسعود : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " رأيت جبريل بالأفق الأعلى له ستمائة جناح يتناثر من ريشه الدر والياقوت " ذكره المهدوي .

قوله تعالى : ﴿ عِندَ سِدْرَةِ المنتهى ﴾ "عِنْدَ" من صلة "رَآهُ" على ما بينا .

والسِّدْر شجر النَّبِق وهي في السماء السادسة ، وجاء في السماء السابعة .

والحديث بهذا في صحيح مسلم ؛ الأوّل ما رواه مُرَّة عن عبد الله قال : لما أُسْرِيَ برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهي به إلى سِدرة المنتهى ، وهي في السماء السادسة ، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ، قال : ﴿ إِذْ يغشى السدرة مَا يغشى ﴾ قال : فراش من ذهب ، قال : فأعطي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : أعطي الصلوات الخمس ، وأعطي خواتيم سورة البقرة ، وغُفِر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقحِمات .

الحديث الثاني رواه قتادة عن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لما رُفعتُ إلى سِدرة المنتهى في السماء السابعة نَبِقها مثل قِلال هَجَر وورقها مثل آذان الفِيَلة يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان قلت يا جبريل ما هذا قال أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات " لفظ الدَّارَقُطْني .

والنَّبِق بكسر الباء : ثمر السِّدْر الواحد نَبِقة .

ويقال : نَبْق بفتح النون وسكون الباء ؛ ذكرهما يعقوب في الإصلاح وهي لغة المصريين ، والأولى أفصح وهي التي ثبتت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وروى الترمذيّ عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وقد ذُكِر له سِدْرة المنتهى قال : " يسير الراكب في ظل الغصن منها مائة سنة أو يستظل بظلها مائة راكب شك يحيى فيها فَرَاش الذهب كأن ثمرها القِلال " قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

قلت : وكذا لفظ مسلم من حديث ثابت عن أنس : " ثم ذُهِب بي إلى سِدْرة المنتهَى وإذا ورقها كآذان الفِيلة وإذا ثمرها كالقِلال فلما غشيها من أمر الله عز وجل ما غشِي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها " واختلف لم سُمِّيت سِدْرة المنتهى على أقوال تسعة : الأوّل : ما تقدّم عن ابن مسعود أنه ينتهي إليها كلما يهبط من فوقها ويصعد من تحتها .

الثاني : أنه ينتهي علم الأنبياء إليها ويعزب علمهم عما وراءها ؛ قاله ابن عباس .

الثالث : أن الأعمال تنتهي إليها وتقبض منها ؛ قاله الضحاك .

الرابع : لانتهاء الملائكة والأنبياء إليها ووقوفهم عندها ؛ قاله كعب .

الخامس : سميت سِدْرة المنتهَى لأنه ينتهي إليها أرواح الشهداء ؛ قاله الربيع بن أنس .

السادس : لأنه تنتهي إليها أرواح المؤمنين ؛ قاله قتادة .

السابع : لأنه ينتهي إليها كل من كان على سنة محمد صلى الله عليه وسلم ومنهاجه ؛ قاله

عليّ رضي الله عنه والربيع بن أنس أيضاً .

الثامن : هي شجرة على رؤوس حملة العرش إليها ينتهي علم الخلائق ؛ قاله كعب أيضاً .

قلت : يريد والله أعلم أن ارتفاعها وأعالي أغصانها قد جاوزت رؤوس حملة العرش ؛ ودليله ما تقدّم من أن أصلها في السماء السادسة وأعلاها في السماء السابعة ، ثم علت فوق ذلك حتى جاوزت رؤوس حملة العرش .

والله أعلم .

التاسع : سُمِّيت بذلك لأن من رفع إليها فقد انتهى في الكرامة .

(135/732)

وعن أبي هريرة : لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به إلى سِدرة المنتهى فقيل له هذه سدرة المنتهى ينتهي إليها كل أحد خَلاَ من أمتك على سنّتك ؛ فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسِن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مُصَفًّى ، وإذا هي شجرة يسير الرّاكب المسرع في ظلّها مائة عام لا يقطعها ، والورقة منها تغطي الأمّة كلها ؛ ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ المأوى ﴾ تعريف بموضع جنة المأوى وأنها عند سِدرة

المنتهى .

وقرأ عليّ وأبو هريرة وأنس وأبو سَبرة الجهني وعبد الله بن الزبير ومجاهد "عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى" يعني جَنّة المبيت .

قال مجاهد : يريد أجنة .

والهاء للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقال الأخفش : أدركه كما تقول جنة الليل أي ستره وأدركه .

وقراءة العامة ﴿ جَنَّةُ المأوى ﴾ قال الحسن : هي التي يصير إليها المتقون .

وقيل : إنها الجنة التي يصير إليها أرواح الشهداء ؛ قاله ابن عباس .

وهي عن يمين العرش .

وقيل : هي الجنة التي آوى إليها آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن أخرج منها وهي في السماء السابعة .

وقيل : إن أزواج المؤمنين كلهم في جنة المأوى .

وإنما قيل لها : جنة المأوى لأنها تأوي إليها أرواح المؤمنين وهي تحت العرش فيتنعمون بنعيمها ويتنسمون بطيب ريحها .

وقيل : لأن جبريل وميكائيل عليهما السلام يأويان إليها .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يغشى السدرة مَا يغشى ﴾ قال ابن عباس والضحاك وابن مسعود وأصحابه : فراش من ذهب .

ورواه مرفوعاً ابن مسعود وابن عباس إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقد تقدّم في صحيح مسلم عن ابن مسعود قوله .

وقال الحسن : غشيها نور ربّ العالمين فاستنارت .

(136/732)

قال القشيري : " وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غشيها ؟ قال : "فراش من ذهب" " وفي خبر آخر " غشيها نور من الله حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها " وقال الربيع بن أنس : غشيها نور الربّ والملائكة تقع عليها كما يقع الغربان على الشجرة .

وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " رأيت السّدرة يغشاها فراش من ذهب ورأيت على كل ورقة مَلَكاً قائماً يسبّح الله تعالى وذلك قوله : ﴿ إِذْ يغشى السدرة مَا يغشى ﴾ " ذكره المهدويّ والثعلبيّ .

وقال أنس بن مالك : ﴿ إِذْ يغشى السدرة مَا يغشى ﴾ قال جراد من ذهب وقد رواه مرفوعاً .

وقال مجاهد : إنه رَفْرَف أخضرُ .

وعنه عليه السلام : " يغشاها رَفْرَف من طير خضر " وعن ابن عباس : يغشاها ربُّ العزة ؛ أي أمره كما في صحيح مسلم مرفوعاً : " فلما غشيها من أمر الله ما غشى " وقيل : هو تعظيم الأمر ؛ كأنه قال : إذ يغشى السِّدْرة ما أعلم الله به من دلائل ملكوته .

وهكذا قوله تعالى : ﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ مَا أوحى ﴾ ﴿ والمؤتفكة أهوى * فَغَشَّاهَا مَا غشى ﴾ ومثله : ﴿ الحاقة * مَا الحآقة ﴾ [الحاقة : 1 - 2] .

وقال الماوردي في معاني القرآن له : فإن قيل لم اختيرت السِّدْرة لهذا الأمر دون غيرها من الشجر ؟ قيل : لأن السِّدْرة تختص بثلاثة أوصاف : ظلّ مديد ، وطعم لذيذ ، ورائحة ذكية ؛ فشابهت الإيمان الذي يجمع قولاً وعملاً ونيّةً ؛ فظلُّها من الإيمان بمنزلة العمل لتجاوزه ، وطعمها بمنزلة النية لكمونه ، ورائحتها بمنزلة القول لظهوره .

وروى أبو داود في سننه قال : حدّثنا نصر بن علي قال حدّثنا أبو أسامة عن ابن جريج عن عثمان بن أبي سليمان عن سعيد بن محمد ابن جُبَير بن مُطْعِم عن عبد الله بن حُبشي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قطع سِدْرةً صَوَّب اللَّهُ رأسَه في النار "

وسئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال : هذا الحديث مختصر يعني من قطع سِدْرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حقّ يكون له فيها صَوَّب اللَّهُ رأسَه في النار .

قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى ﴾ قال ابن عباس : أي ما عدل يميناً ولا شمالاً ، ولا تجاوز الحدّ الذي رأى .

وقيل : ما جاوز ما أُمر به .

وقيل : لم يمدّ بصره إلى غير ما رأى من الآيات .

وهذا وصف أدب للنبيّ صلى الله عليه وسلم في ذلك المقام ؛ إذ لم يلتفت يميناً ولا شمالاً .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكبرى ﴾ قال ابن عباس : رأى رَفْرَفاً سدّ الأفق .

وذكر البيهقي عن عبد الله قال : "رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى" قال ابن عباس : رأى رَفْرَفاً أخضَر سدّ أفق السماء .

وعنه قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام في حُلّة رفرف أخضر ، قد ملأ ما بين السماء والأرض .

قال البيهقي : قوله في الحديث " رأى رَفْرَفاً " يريد جبريل عليه السلام في صورته في رفرف ، والرفرف البساط .

ويقال : فِراش .

ويقال : بل هو ثوب كان لباساً له ؛ فقد روي أنه رآه في حُلّة رفرف .

قلت : خرّجه الترمذي عن عبد الله قال : ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾ قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريلَ عليه السلام في حُلّة من رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض .

قال : هذا حديث حسن صحيح .

قلت : وقد روي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ دَنَا فتدلى ﴾ أنه على التقديم والتأخير ؛ أي تدلى الرفرف لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج فجلس عليه ثم رُفع فدنا من ربه .

قال : " فارقني جبريل وانقطعت عني الأصوات وسمعت كلام ربّي " فعلى هذا الرَّفْرَفُ ما يُقْعَد ويُجلَس عليه كالبساط وغيره .

وهو بالمعنى الأول جبريل .

(138/732)

قال عبد الرحمن بن زيد ومقاتل بن حيان : رأى جبريَل عليه السلام في صورته التي يكون فيها في السموات ؛ وكذا في صحيح مسلم عن عبد الله قال : ﴿ لَقَدْ رأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ

الكبرى ﴾ قال رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح.

ولا يبعد مع هذا أن يكون في حُلّة رفرف وعلى رفرف.

والله أعلم.

وقال الضحاك: رأى سِدْرة المنتهى.

وعن ابن مسعود: رأى ما غشي السِّدرة من فراش الذهب؛ حكاه الماوردي.

وقيل: رأى المعراج.

وقيل: هو ما رأى تلك الليلة في مسراه في عوده وبدئه؛ وهو أحسن؛ دليله: ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَآ ﴾ [الإسراء: 1] و "مِن" يجوز أن تكون للتبعيض، وتكون "الْكُبْرَى" مفعولة ل "رأى" وهي في الأصل صفة الآيات ووحدت لرؤوس الآيات.

وأيضاً يجوز نعت الجماعة بنعت الأنثى؛ كقوله تعالى: ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخرى ﴾ [طه: 18].

وقيل: "الْكُبْرَى" نعت لمحذوف؛ أي رأى من آيات ربه الكبرى.

ويجوز أن تكون "مِن" زائدة؛ أي رأى آيات ربه الكبرى.

وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي رأى الكبرى من آيات ربه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

وقال الثعالبى :

وقوله سبحانه : ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾

المعنى : لم يُكَذِّبْ قلبُ محمد الشيء الذي رأى ، بل صَدَّقَهُ وتحقَّقَهُ نظراً ؛ قال أهل التأويل منهم ابن عباس وغيره : رأى محمد اللَّهَ بفؤاده ، وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : " جَعَلَ اللَّهُ نُورَ بَصَرِي فِي فُؤَادِي ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ بِفُؤَادِيَ " ، وقال آخرون من المتأولين : المعنى : ما رأى بعينه لم يُكَذِّبْ ذلك قلبُه ، بل صدقه وتحققه ، وقال ابن عباس فيما روِي عنه : إنَّ محمداً رأى ربَّه بِعَيْنَيْ رَأْسِهِ ، وأنكرت ذلك عَائِشَةُ ، وقالت : أنا سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم عَنْ هذه الآياتِ فَقَالَ لِي : «هُوَ جِبْرِيلُ فِيهَا كُلِّها» قال *ع* : وهذا قول الجمهور ، وحديث عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قاطعٌ بكُلِّ تأويل في اللفظ ؛ لأَنَّ قول غيرها إنَّما هو مُنْتَزَعٌ من ألفاظ القرآن .

وقوله سبحانه : ﴿ أفتمارونه على مَا يرى ﴾ قرأ حمزة والكسائيُّ «أَفَتَمْرُونَهُ» بفتح التاء دون ألف ، أي : أفتجحدونه .

(140/732)

* ت * : قال الثعلبيُّ : واختار هذه القراءة أبو عبيد : قال إنَّهم لا يمارونه ، وإنَّما جحدوه ، واخْتُلِفَ في الضمير في قوله : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ ﴾ حسبما تقدم ، فقالت عائشة والجمهور : هو عائد على جبريل ، و ﴿ نَزْلَةً ﴾ معناه : مَرَّة أخرى ، فجمهور العلماء أَنَّ المَرْئِيَّ هو جبريل عليه السلام في المرتين ، مَرَّةً في الأرض بحراءَ ، ومرَّةً عند سِدْرَةِ المُنْتَهَى ليلةَ الإسراء ، ورآه على صورته التي خُلِقَ عليها ، وسِدْرَةُ المُنْتَهَى هي : شجرة نَبْقٍ في السماء السابعة ، وقيل لها : سدرة المنتهى ؛ لأَنَّها إليها ينتهي عِلْمُ كُلِّ عالم ، ولا يعلم ما وراءها صَعَداً إلاَّ اللَّهُ عز وجل ، وقيل : سُمِّيَتْ بذلك لأَنَّها إليها ينتهي مَنْ مات على سُنَّةِ النبي صلى الله عليه وسلم قال * ع * : وهم المؤمنون حقًّا من كل جيل .

وقوله سبحانه : ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ المأوى ﴾ قال الجمهور : أراد سبحانه أَنْ يُعَظِّمَ مَكانَ السدرة ، ويُشَرِّفَهُ بِأَنَّ جنة المأوى عندها ، قال الحسن : هي الجنة التي وُعِدَ بها المؤمنون .

(141/732)

وقوله سبحانه : ﴿ إِذْ يغشى السدرة مَا يغشى ﴾ أي : غَشِيَها من أمر اللَّه ما غشيها ، فما يستطيع أحد أَنْ يصفَها ، وقد ذكر المُفَسِّرُون في وصفها أقوالاً هي تَكَلُّفٌ في الآية ؛ لأَنَّ اللَّه تعالى أبهم ذلك ، وهم يريدون شرحه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « فَغَشِيَهَا

أَلْوَانٌ لاَ أَدْرِي مَا هِيَ» . وقوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ البصر ﴾ قال ابن عباس : معناه : ما جال هكذا ولا هكذا .

وقوله : ﴿ وَمَا طغى ﴾ معناه : ولا تجاوز المَرْئِيَّ ، وهذا تحقيق للأمر ، ونفيٌ لوجوه الريب عنه .

وقوله : ﴿ لَقَدْ رأى مِنْ ءايات رَبِّهِ الكبرى ﴾ قال جماعة : معناه : لقد رأى الكبرى من آياتِ رَبِّهِ ، أي : مِمَّا يمكنُ أنْ يراها البشر ، وقال آخرون : المعنى : لقد رأى بَعْضاً من آيات رَبِّهِ الكبرى ، وقال ابن عباس وابن مسعود : رأى رفرفاً أخضرَ من الجنة ، قد سَدَّ الأفق .

* ت * : وزاد الثعلبيُّ : وقيل : المعراج ، وما رأى في تلك الليلة في مسراه في عوده وبدئه ؛ دليلهُ قوله تعالى : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ ءاياتنا ﴾ ، [الإسراء : 1] الآية ، قال عِيَاضٌ : وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رأى مِنْ ءايات رَبِّهِ الكبرى ﴾ انحصرت الأفهام عن تفصيل ما أوحى ، وتاهت الأحلامُ في تعيين تلك الآيات الكبرى ، وقد اشتملت هذه الآيات على إعلام اللَّه بتزكية جملته عليه السلام وعِصْمَتِهَا من الآفات في هذا المسرى ، فزكى فؤادَه ولسانَه وجوارِحَه ؛ فقلبه بقوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾ [النجم : 11] ، ولسانَهُ عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ [النجم : 3] ، وبصرَهُ بقوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ والنجم إذَا هوى ﴾

المرادُ بالنجمِ إمَّا الثُّرَيَّا فإنَّه اسمٌ غالبٌ لَهُ ، أو جنسُ النجومِ . وبهَوِيِّه غروبُه ، وقيلَ : طلوعُه ، يقالُ هَوَى هَوِيا بوزن قبول إذا غربَ وهُوِيّا بوزنِ دخول إذا علا وصعِد . وأما النجمُ من نجومِ القُرآنِ فهَوِيَّهُ نزولُه ، والعاملُ في إذَا فعلُ القسمِ فإنَّه بمعنى مطلقِ الوقتِ منسلخٌ من مَعْنى الاستقبالِ كَما في قولِك آتيكَ إذَا احمرَّ البُسْرُ . وفي الإقسامِ بذلكَ على نزاهتِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عن شائبِه الضلال والغَوايةِ من البراعةِ البديعةِ وحسنِ الموقعِ ما لا غايةَ وراءَهُ ، أما على الأولينِ فلأنَّ النجمَ شأنُه أنْ يهتدِيَ بِهِ السَّارِي إلى مسالكِ الدُّنيا كأنَّه قيلَ والنجمِ الذي يَهتدِي به السابلةُ إلى سواءِ السبيلِ .

(143/732)

﴿ مَا ضَلَّ صاحبكم ﴾ أيْ ما عدلَ عن طريقِ الحقِّ الذي هُو مسلكُ الآخرةِ . ﴿ وَمَا غوى ﴾ أيْ وما اعتقدَ باطلاً قطُّ أيْ هُو في غايةِ الهُدى والرُّشدِ وليسَ مما تتوهمونَهُ من الضلالِ والغوَايةِ في شيءٍ أَصلاً ، وأما على الثالثِ فلأنَّه تنويهٌ بشأنِ القُرآنِ كما أشيرَ إليه في

مطلعِ سورةِ يس وسورةِ الزخرفِ وتنبيهٌ على مناطِ اهتدائِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ومدارِ رشادِه ، كأنَّه قيلَ والقرآنِ الذي هُو عَلَمٌ في الهدايةِ إلى مناهجِ الدِّينِ ومسالكِ الحقِّ ما ضلَّ عنَها محمدٌ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وما غَوى . والخطابُ لقريشٍ ، وإيرادُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بعنوانِ صاحبيتِه لهم للإيذانِ بوقوفِهم على تفاصيلِ أحوالِه الشريفةِ وإحاطتِهم خُبراً ببراءتِه عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ مما نُفي بالكليةِ وباتصافِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بغايةِ الهُدَى والرشادِ فإنَّ طولَ صُحبتِهم له عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ومشاهدتَهم لمحاسنِ شؤونِه العظيمةِ مقتضيةٌ لذلكَ حتْمَاً . وتقييدُ القسمِ بوقتِ الهَوِيِّ على الوجهِ الأخيرِ ظاهرٌ وأمَّا على الأولينِ فلأنَّ النجمَ لا يهتدِي به السَّارِي عندَ كونِه في وسطِ السماءِ ولا يعلمُ المشرقَ من المغربِ ولا الشمالَ من الجنوبِ وإنما يهتدِي بهِ عندَ هبوطِه أو صعودِه معَ ما فيهِ من كمالِ المناسبةِ لما سيُحكى من تدلِّي جبريلَ من الأفقِ الأَعْلى ودنوّه منْهُ عليهما السَّلامُ ، هذا هو اللائقُ بشأنِ التنزيلِ الجليلِ . وأما حملُ هَوِيِّه انتثارِه يومَ القيامةِ أو على انقضاضِ النجمِ الذي يرجمُ بهِ أو حملُ النجمِ على النباتِ وحملُ هويهِ على سقوطِه على الأرضِ أو على ظهورِه منها فمما لا يناسبُ المقامَ .

(144/732)

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ أي وما يصدرُ نطقُه بالقرآنِ عن هَوَاهُ ورأيِهِ أصلاً فإنَّ المرادَ استمرارُ نفي النطقِ عن الهوى لا نَفيُ استمرارِ النطقِ عنْهُ كما مرَّ مِراراً .

(145/732)

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي مَا الذي ينطقُ به من القرآنِ ﴿ إِلاَّ وَحْىٌ ﴾ من الله تعالى . وقولُه تعالى : ﴿ يُوحَى ﴾ صفةٌ مؤكدةٌ لوحي رافعةٌ لاحتمالِ المجازِ مفيدةٌ للاستمرارِ التجدديِّ ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى ﴾ أي مَلَكٌ شديدٌ قُواهُ وهو جبريلُ عليهِ السَّلامُ فإنَّه الواسطةُ في إبداءِ الخوارقِ وناهيكَ دليلاً على شدةِ قوتِه أنه قلعَ قُرَى قومِ لوطٍ من الماءِ الأسودِ الذي هو تحتَ الثَّرى وحملَها على جناحِه ورفعَها إلى السماءِ ثم قلبَها وصاحَ بثمودَ صيحةً فأصبحُوا جاثمينَ وكانَ هبوطُه على الأنبياءِ وصعودُه في أسرعَ منْ رجعةِ الطرفِ ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أي حصافةٍ في عقلِه ورأيِه ومتانةٍ في دينِه ﴿ فاستوى ﴾ عطفٌ على علَّمه بطريقِ التفسيرِ فإنَّه إلى قولِه تعالى ما أَوْحَى بيانٌ لكيفيةِ التعليمِ أي فاستقامَ على صورتِه التي كانَ يتمثلُ بها كلما هبطَ بالوحيِ وذلكَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أحبَّ أنْ يراهُ في صورتِه التي جُبلَ عليها وكانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بحراءَ فطلعَ له جبريلُ عليهِ السَّلامُ من المشرقِ فسدَّ الأرضَ من المغربِ وملأَ الأفقَ فخرَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فنزلَ

جبريلُ عليهِ السَّلامُ في صورةِ الآدميينَ فضمَّهُ إلى نفسِه وجعلَ يمسحُ الغُبارَ عن وجهِهِ قيلَ : ما رآهُ أحدٌ من الأنبياءِ في صورتِه غيرُ النبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فإنَّهُ رآهُ فيها مرتينِ مرةً في الأرضِ ومرةً في السماءِ وقيلَ : استوَى بقوتِه على ما جُعلَ له من الأمرِ . وقولُه تعالَى : ﴿ وَهُوَ بالأفق الأعلى ﴾ أفقِ الشمسِ حالٌ منْ فاعلِ استوى ﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ أي أرادَ الدنوَّ من النبيِّ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ فتدلى ﴾ أي استرسلَ من الأفقِ الأَعْلى مع تعلقٍ بِهِ فدنَا من النبيِّ ، يقالُ تدلّت الثمرةُ ودلَّى رجليهِ من السريرِ وأدلَى دلْوَهُ والدَّوالي الثمرُ المعلقُ ﴿ فَكَانَ ﴾ أي

(146/732)

مقدارُ امتدادِ ما بينَهما ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ أي مقدارَهُما فإنَّ القابَ والقِيْبَ والقادَ والقِيْدَ والقِيْسَ المقدارُ ، وقيلَ : فكانَ جبريلُ عليهِ السَّلامُ كما في قولكَ هو منّي معقدُ الإزارِ . ﴿ أَوْ أدنى ﴾ أيْ عَلى تقديركم كَما في قولِه تعالى : ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ والمرادُ تمثيلُ ملَكةِ الاتصالِ وتحقيقُ استماعِه لما أُوحيَ إليه بنفيِ البُعدِ المُلبسِ .

(147/732)

﴿ فأوحى ﴾ أي جبريلُ عليهِ السَّلامُ ﴿ إلى عَبْدِهِ ﴾ عبدِ الله تعالَى ، وإضمارُه قبلَ الذكرِ لغايةِ ظُهورِه كما في قولِه تعالَى : ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا ﴾ ﴿ مَا أوحى ﴾ أيْ من الأمورِ العظيمةِ التي لا تَفِي بها العبارةُ أو فأَوْحَى الله تعالى حينئذٍ بواسطةِ جبريلَ ما أَوْحى ، قيلَ أَوْحى إليهِ أنَّ الجنةَ محرمةٌ على الأنبياءِ حتى تدخلَها وعلى الأممِ حتى تدخلَها أمتكَ ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد ﴾ أي فؤادُ محمدٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ مَا رأى ﴾ أي ما رآهُ ببصرِه من صورةِ جبريلَ عليهما السَّلامُ أي ما قالَ فؤادُه لما رآهُ لم أعرفْكَ ولو قالَ ذلكَ لكانَ كاذباً لأنه عرفَهُ بقلبِه كما رآهُ ببصرِه وقُرِئَ ما كذَّب أي صدَّقَهُ ولم يشكَّ أنه جبريلُ بصورتِه ﴿ أفتمارونه على مَا يرى ﴾ أي أتكذبونَهُ فتجادلونه على ما يراهُ مُعاينةً ، أو أبعدَ ما ذُكِرَ من أحوالِه المنافيةِ للمماراةِ تمارونَهُ ، من المراءِ وهو الملاحاةُ والمجادلةُ واشتقاقُه من مَرَى الناقةَ كأنَّ كلاًّ من المتجادلينَ يمري ما عندَ صاحبِه ، وقُرِئَ أفتمْرونَهُ أي أفتغلبونَهُ في المراءِ منْ ماريتُه فمريتُه ولِما فيهِ من مَعْنى الغلبةِ عُدِّيَ بعَلَى كما يقالُ غلبتُه عَلى كَذَا وقيلَ : أفتمرونَهُ أفتجحدونَهُ من مَراهُ حقَّهُ إذا جحدَهُ ﴿ وَلَقَدْ رَءاهُ نَزْلَةً أُخرى ﴾ أي وبالله لقدْ رأى جبريلَ في صورتِه مرةً أُخرى من النزولِ نصبت النزلةَ نصبَ الظرفِ الذي هو مرةٌ لأن الفَعْلَةَ اسمٌ للمرةِ من الفعلِ فكانتْ في حُكْمِها ، وقيلَ : تقديرُه ولقد رآهُ نازلاً نزلةً أُخْرى فنصبُها على المصدرِ . ﴿ عِندَ سِدْرَةِ المنتهى ﴾ هي شجرةُ نبْقٍ في السماءِ السابعةِ عن

يمينِ العرشِ ثمرُها كقِلال هَجَرَ ، وورقُها كآذانِ الفيولِ تنبعُ من أصلِها الأنهارُ التي ذكرَهَا الله تعالَى في كتابِه يسيرُ الراكبُ في ظلّلها سبعينَ عاماً لا يقطعُها ،

(148/732)

والمُنْتهى موضعُ الانتهاءِ أو الانتهاءُ كأنَّها في مُنْتَهى الجنةِ وقيلَ : إليها يَنْتهي علمُ الخلائقِ وأعمالُهم ولا يعلمُ أحدٌ ما وراءَها ، وقيلَ ينتهِي إليها أرواحُ الشهداءِ ، وقيلَ ينتهي إليها ما يهبطُ من فوقِها ويعصدُ من تحتِها قيل : إضافةُ السدرةِ إلى المُنْتهى إما إضافةُ الشيءِ إلى مكانِه كقولِك أشجارُ البستانِ أو إضافةُ المحلِّ إلى الحالِّ كقولك كتابُ الفقهِ ، والتقديرُ سدرةٌ عندَها مُنتهى علومِ الخلائقِ أو إضافةُ المِلكَ إلى الملكِ على حذفِ الجارِّ والمجرورِ أي سدرةُ المُنْتَهى إليهِ وهُو الله عزَّ وجلَّ قالَ تعالَى إلى ربِّكَ المُنْتهى .

(149/732)

﴿ عِندَهَا جَنَّةُ المأوى ﴾ أي الجنةُ التي يأوِي إليها المتقونَ أو أرواحُ الشهداءِ ، والجملةُ حاليةٌ ، وقيلَ : الأحسنُ أن يكونَ الحالُ هُو الظرفَ وجنةُ المَأْوى مرتفعٌ به على الفاعليةِ .

وقولُه تعالى : ﴿ إِذْ يغشى السدرة مَا يغشى ﴾ ظرفُ زمانٍ لرآهُ لا لِما بعَدُه من الجملةِ المنفيةِ كما قيلَ : فإنَّ مَا النافيةَ لا يعملُ ما بعدَها فيما قبلَها ، والغشيانُ بمعنى التغطيةِ والسترِ ومنه الغَوَاشِي أو بمَعْنى الإتيانِ يقالُ فلانٌ يغشَانِي كلَّ حينٍ ، أيْ يأتينِي ، والأولُ هو الأليقُ بالمقامِ وفي إبهامِ ما يغشَى من التفخيمِ ما لا يخفى ، وتأخيرُه عن المفعولِ للتشويقِ إليهِ أي ولقد رآهُ عندَ السدرةِ وقتَ غشيَها ما غشِيَها مما لا يكتنهُهُ الوصفُ ولا يَفي به البيانُ كيفاً ولا كمّاً . وصيغةُ المضارعِ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ استحضاراً لصورتِها البديعةِ وللإيذانِ باستمرارِ الغشيانِ بطريقِ التجددِ وقيلَ : يغشاهَا الجمُّ الغفيرُ من الملائكةِ يعبدونَ اللهَ تعالَى عندَها ، وقيلَ : يزورُونها متبرّكينَ بها كما يزورُ الناسُ الكعبةَ وقيلَ : يغشاهَا سبحاتُ أنوارِ اللهِ عزَّ وجلَّ حين يتجلَّى لها كما تجلَّى للجبلِ لكنها كانتْ أقوى من الجبلِ وأثبتَ حيثُ لم يُصبْها ما أصابَهُ من الدكِّ وقيلَ : يغشاهَا فَراشٌ أو جرادٌ من ذهبٍ ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ وابن مسعودٍ والضحَّاكِ . ورُويَ عنِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنَّه قالَ : رأيتُ السدرةَ يغشاها فَراشٌ من ذهبٍ ورأيتُ على كلِّ ورقةٍ مَلَكاً قائماً يسبحُ اللهَ تعالَى ، وعنْهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يغشاهَا رفرف من طيرٍ خُضرٍ . ﴿ مَا زَاغَ البصر ﴾ أي ما مالَ بصرُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عما رآهُ ﴿ وَمَا طغى ﴾ وما تجاوزُه مع ما شاهدَ هناكَ من الأمورِ العجيبةِ المُذهلةِ ما لا يُحصَى بل أثبتَهُ إثباتاً صحيحاً مُتيقناً أو ما عدلَ عن رؤيةِ العجائبِ التي

(150/732)

أُمرَ برؤيتِها ومُكنَ منَها وما جاوزَها .

﴿ لَقَدْ رأى مِنْ ءايات ربِّهِ الكبرى ﴾ أيْ والله لقدْ رَأَى الآياتِ التي هي كُبراهَا وعُظماهَا حين عُرِجَ به إلى السماءِ فأُرِيَ من عجائبِ الملكِ والملكوتِ ما لا يحيطُ به نطاقُ العبارةِ ، ويجوزُ أنْ تكونَ الكُبرى صفةً للآياتِ والمفعولُ محذوفٌ أي شيئاً عظيماً من آياتِ ربِّه وأن تكونَ مِنْ مزيدةً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(151/732)

وقال الآلوسى :

﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد ﴾

أي فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مَا رأى ﴾ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام أي ما قال فؤاده صلى الله عليه وسلم لما رآه لم أعرفك ولو قال ذلك لكان كاذباً لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره فهو من قولهم كذب إذا قال كذباً فما كذب بمعنى ما قال الكذب

، وقيل : أي ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد ﴾ البصر فيما حكاه له من صورة جبريل عليه السلام وما في عالم الملكوت تدرك أولاً بالقلب ثم تنتقل منه إلى البصر .

قرأ أبو رجاء وأبو جعفر .

وقتادة .

والجحدري .

وخالد بن الياس .

(152/732)

وهشام عن ابن عامر ﴿ مَا كَذَبَ ﴾ مشدداً أي صدقه ولم يشك أنه جبريل عليه السلام بصورته ، وفي الآيات من تحقيق أمر الوحي ما فيها ، وفي الكشف أنه لما قال سبحانه : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ ﴾ [النجم : 4] أي من عند الله تعالى : ﴿ يُوحَى ﴾ ذكر جل وعلا ما يصور هذا المعنى ويفصله ليتأكد أنه وحى وأنه ليس من الشعر وحديث الكهان في شيء فقال تعالى : ﴿ عِلْمٍ صاحبكم ﴾ هذا الوحي من هو على هذه الصفات ، وقوله تعالى : ﴿ فاستوى ﴾ وحديث قيامه بصورته الحقيقية ليؤكد أن ما يأتيه في صورة دحية هو هو فقد رآه بصورة نفسه وعرفه حق معرفته فلا يشتبه عليه بوجه ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا

فتدلى ﴾ تتميم لحديث نزوله إليه عليه الصلاة والسلام وإتيانه بالمنزل ، وقوله سبحانه : ﴿ فأوحى ﴾ أي جبريل ذلك الوحي الذي مر أنه من عند الله تعالى إلى عبد الله وإنما قال سبحانه : ما أوحى ولم يأت بالضمير تفخيماً لشأن المنزل وأنه شيء يجل عن الوصف فأنى يستجيز أحد من نفسه أن يقول إنه شعر أو حديث كاهن ، وأيثار عبده بدل إليه أي إلى صاحبكم لإضافة الاختصاص وإيثار الضمير على الاسم العلم في هذا المقام لترشيحه وأنه ليس عبداً إلا له عز وجل فلا لبس لشهرته بأنه عبد الله لا غير ، وجاز أن يكون التقدير فأوحى الله تعالى بسببه أي بسبب هذا المعلم إلى عبده ففي الفاء دلالة على هذا المعنى وهذا وجه أيضاً سديد ، ثم قال سبحانه : ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾ على معنى أنه لما عرفه وحققه لم يكذبه فؤاده بعد ذلك ولو تصور بغير تلك الصورة إنه جبريل ، فهذا نظم سري مرعي فيه النكت حق الرعاية مطابق للوجود لم يعدل به عن واجب الوفاق بين البداية والنهاية انتهى .

وهو كلام نفيس يرجح به ما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها وسيأتي ذلك إن شاء الله عز وجل بماله وعليه .

(153/732)

﴿ أفتمارونه على مَا يرى ﴾ أي أتكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة فتمارونه عطف على محذوف على ما ذهب إليه الزمخشري من المراء وهو المجادلة واشتقاقه من مرى الناقة إذا مسح ظهرها وضرعها ليخرج لبنها وتدرّ به فشبه به الجدال لأن كلا من المتجادلين يطلب الوقوف على ما عند الآخر ليلزمه الحجة فكأنه يستخرج درّه .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وعبد الله .

وابن عباس .

والجحدري .

ويعقوب .

وابن سعدان .

وحمزة والكسائي .

وخلف ﴿ أفتمارونه ﴾ بفتح التاء وسكون الميم مضارع مريت أي جحدت يقال : مريته حقه إذا جحدته ، وأنشدوا لذلك قول الشاعر

: لئن هجرت أخا صدق ومكرمة . . .

لقد (مريت) أخا ما كان يمريكا

أو مضارع مريته إذا غلبته في المراء على أنه من باب المغالبة ، ويجوز حمل ما في البيت عليه

وعدى الفعل بعلى وكان حقه أن يعدي بفي لتضمينه معنى المغالبة فإن المجادل والجاحد يقصدان بفعلهما غلبة الخصم ، وقرأ عبد الله فيما حكى ابن خالويه .

والشعبي فيما ذكر شعبة ﴿ أفتمارونه ﴾ بضم التاء وسكون الميم مضارع أمريت قال أبو حاتم : وهو غلط ، والمراد بما يرى ما رآه من صورة جبريل عليه السلام ، وعبر بالمضارع استحضاراً للصورة الماضية لما فيها من الغرابة ، وفي البحر جيء بصيغة المضارع وإن كانت الرؤية قد مضت إشارة إلى ما يمكن حدوثه بعد ، وقيل : المراد ﴿ أفتمارونه على مَا يرى ﴾ من الصور التي يظهر بها جبريل عليه السلام بعد ما رآه قبل وحققه بحيث لا يشتبه عليه بأي صورة ظهر فالتعبير بالمضارع على ظاهره .

(154/732)

﴿ وَلَقَدْ رَءاهُ ﴾ أي رأى النبي جبريل صلى الله عليه وسلم في صورته التي خلقه الله تعالى عليها ﴿ نَزْلَةً أُخرى ﴾ أي مرة أخرى من النزول وهي فعلة من النزول أقيمت مقام المرة ونصبت نصبها على الظرفية لأن أصل المرة مصدر مرّ يمر ولشدة اتصال الفعل بالزمان يعبر به عنه ولم يقل مرة بدلها ليفيد أن الرؤية في هذه المرة كانت بنزول ودنو كالرؤية في المرة الأولى الدال عليها ما مر .

وقال الحوفي .

وابن عطية : إن نزلة منصوب على المصدرية للحال المقدرة أي نازلا نزلة ، وجوز أبو البقاء كونه منصوباً على المصدرية لرأي من معناه أي رؤية أخرى وفيه نظر ، والمراد من الجملة القسمية نفي الريبة والشك عن المرة الأخيرة وكانت ليلة الإسراء .

﴿ عِندَ سِدْرَةِ المنتهى ﴾ هي شجرة نبق عن يمين العرش في السماء السابعة على المشهور ، وفي حديث أخرجه أحمد .

ومسلم .

والترمذي .

وغيرهم في السماء السادسة نبقها كقلال هجر و أوراقها مثل آذان الفيلة يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها ، وأخرج الحاكم وصححه عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً " يسير الراكب في الفنن منها مائة سنة " والأحاديث ظاهرة في أنها شجرة نبق حقيقة .

والنبات في الشاهد يكون ترابياً ومائياً وهوائياً ؛ ولا يبعد من الله تعالى أن يخلقه في أي مكان شاء وقد أخبر سبحانه عن شجرة الزقوم أنها تنبت في أصل الجحيم ، وقيل : إطلاق السدرة عليها مجاز لأنها تجتمع عندها الملائكة عليهم السلام كما يجتمع الناس في ظل السدرة ، و ﴿ المنتهى ﴾ اسم مكان وجوز كونه مصدراً ميمياً ، وقيل : لها ﴿

سِدْرَةِ المنتهى ﴾ لأنها كما أخرج عبد بن حميد .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس إليها ينتهي علم كل عالم وما وراءها لا يعلمه إلا الله تعالى ، أو لأنها ينتهي إليها علم الأنبياء عليهم السلام ويعزب علمهم عما وراءها .

(155/732)

أو لأنها تنتهي إليها أعمال الخلائق بأم تعرض الله تعالى عندها ؛ أو لأنها ينتهي إليها ما ينزل من فوقها وما يصعد من تحتها .

أو لأنها تنتهي إليها أرواح الشهداء أو أرواح المؤمنين مطلقاً .

أو لانتهاء من رفع إليها في الكرامة .

وفي الكشاف كأنها منتهى الجنة وآخرها ، وإضافة ﴿ سِدْرَةِ ﴾ إلى المنتهى ﴾ من إضافة الشيء لمحله كما في أشجار البستان ، وجوز أن تكون من إضافة المحل إلى الحال كما في قولك "كتاب الفقه" ، وقيل : يجوز أن يكون المراد بالمنتهى الله عز وجل فالإضافة من إضافة الملك إلى المالك أي ﴿ ﴾ من إضافة الشيء لمحله كما في أشجار البستان ، وجوز أن تكون من إضافة المحل إلى الحال كما في قولك "كتاب الفقه" ، وقيل : يجوز أن يكون المراد بالمنتهى الله عز وجل فالإضافة من إضافة الملك إلى المالك أي ﴿ سِدْرَةِ ﴾ الله الذي إليه

﴿ المنتهى ﴾ كما قال سبحانه : ﴿ وَأَنَّ إلى ربّكَ المنتهى ﴾ [النجم : 42] وعد ذلك من باب الحذف والإيصال ولا يخفى أن هذا القول يكاد يكون المنتهى في البعد .

﴿ عِندَهَا ﴾ أي عند السدرة ، وجوز أن يكون الضمير للنزلة وهو نازل عن رتبة القبول

﴿ جَنَّةُ المأوى ﴾ التي يأوي إليها المتقون يوم القيامة كما روي عن الحسن ، واستدل به على أن الجنة في السماء ، وقال ابن عباس بخلاف عنه .

وقتادة : هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء وليست بالتي وعد المتقون ، وقيل : هي جنة تأوي إليها الملائكة عليهم السلام والأول أظهر ، والمأوى على ما نص عليه الجمهور اسم مكان وإضافة الجنة إليه بيانية ، وقيل : من إضافة الموصوف إلى الصفة كما في مسجد الجامع ، وتعقب بأن اسم المكان لا يوصف به ، والجلمة حالية ، وقيل : الحال هو الظرف ، و ﴿ جَنَّةُ ﴾ مرتفع به على الفاعلية ، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وأبو الدرداء .

وأبو هريرة .

وابن الزبير .

وأنس .

وزر .

ومحمد بن كعب .

وقتادة : ﴿ جَنَّةُ ﴾ بها الضمير وهو ضمير النبي صلى الله عليه وسلم ، وجن فعل ماض أي عندها سترة إيواء الله تعالى ، وجميل صنعه به ، أو ستره المأوى بظلاله ودخل فيه على أن ﴿ المأوى ﴾ مصدر ميمي ، أو اسم مكان ، وجنة بمعنى ستره ، قال أبو البقاء : شاذوا لمستعمل أجنة ، ولهذا قالت عائشة رضي الله تعالى عنها .

وكذا جمع من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين : من قرأ به فأجنة الله تعالى أي جعله مجنوناً أو أدخله الجنن وهو القبر ، وأنت تعلم أنه إذا صح أنه قرأ به الأمير كرم الله تعالى وجهه ومن معه من أكابر الصحابة فليس لأحد رده من حيث الشذوذ في الاستعمال ، وعائشة قد حكى عنها الإجازة أيضاً .

﴿ إِذْ يغشى السدرة مَا يغشى ﴾ متعلق برآه ، وقيل : بما بعد من الجملة المنفية ولا يضر التقدم على ﴿ مَا ﴾ النافية للتوسع في الظرف والغشيان بمعنى التغطية والستر ، ومنه الغواشي أو بمعنى الإتيان يقال فلان يغشى زيداً كل حين أي يأتيه .

والأول هو الأليق بالمقام ، وفي إبهام ﴿ مَا يغشى ﴾ من التفخيم ما لا يخفى فكأن الغاشي أمر لا يحيط به نطاق البيان ولا تسعه أردان الأذهان ، وصيغة المضارع لحاكية الحالة

الماضية استحضاراً لصورتها البديعة ، وجوز أن يكون للإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدد ، وورد في بعض الأخبار تعيين هذا الغاشي ، فعن الحسن غشيها نور رب العزة جل شأنه فاستنارت .

ونحوه ما روي عن أبي هريرة يغشاها نور الخلاق سبحانه ، وعن ابن عباس غشيها رب العزة عز وجل وهو من التشابه ، وقال ابن مسعود .

ومجاهد .

وإبراهيم : يغشاها جراد من ذهب ، وروي عن مجاهد أن ذلك تبدل أغصانها لؤلؤاً وياقوتاً وزبرجداً .

(157/732)

وأخرج عبد بن حميد عن سلمة قال : استأذنت الملائكة الرب تبارك وتعالى أن ينظروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأذن لهم فغشيت الملائكة السدرة لينظروا إليه عليه الصلاة والسلام ، وفي حديث "رأيت على كل ورقة من ورقة ملكاً قائماً يسبح الله تعالى وقيل : يغشاها رفرف من طير خضر ، والإبهام على هذا كله على نحو ما تقدم .

﴿ مَا زَاغَ البصر ﴾ أي ما مال بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم عما رآه ﴿ وَمَا

طغى ﴾ وما تجاوزه بل أثبته إثباتاً صحيحاً مستيقناً ، وهذا تحقيق للأمر ونفي لريب عنه ، أو ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها وما جاوزها إلى ما لم يؤمر برؤيته .

﴿ لَقَدْ رأى مِنْ ءايات ربِّهِ الكبرى ﴾ أي والله لقد رأى الآيات الكبرى من آياته تعالى وعجائبه الملكية والملكوتية ليلة المعراج فالكبرى صفة موصوف محذوف مفعول لرأي أقيمت مقامه بعد حذفه وقدر مجموعاً ليطابق الواقع ، وجوز أن تكون ﴿ الكبرى ﴾ صفة المذكور على معنى ، و ﴿ مَا رأى ﴾ بعضاً من الآيات الكبرى ، ورجح الأول بأن المقام يقتضي التعظيم والمبالغة فينبغي أن يصرح بأن المرأى الآيات الكبرى وجوز الوصفية المذكورة مع كون من مزيدة ، وأنت تعلم أن زيادة من في الإثبات ليس مجمعاً على جوازه ، وجاء في بعض الأخبار تعيين ما رأى عليه الصلاة والسلام ، أخرج البخاري .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وجماعة عن ابن مسعود أنه قال في الآية رأى رفرفا أخضر من الجنة قد سد الأفق .

وعن ابن زيد رأى جبريل عليه السلام في الصورة التي هو بها ، والذي ينبغي أن لا يحمل ذلك على الحصر كما لا يخفى فقد رأى عليه الصلاة والسلام آيات كبرى ليلة المعراج لا تحصى ولا تكاد تستقصى .

هذا وفي الآيات : أقوال غير ما تقدم ، فعن الحسن أن ﴿ شَدِيدُ القوى ﴾ [النجم : 5] هو الله تعالى ، وجمع ﴿ القوى ﴾ للتعظيم ويفسر ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ عليه بذي حكمة ونحوه مما يليق أن يكون وصفا له عز وجل ، وجعل أبو حيان الضميرين في قوله تعالى : ﴿ فاستوى وَهُوَ بالافق الاعلى ﴾ [النجم : 6 ، 7] عليه له سبحانه أيضاً .

وقال : إن ذلك على معني العظمة والقدرة والسلطان ، ولعل الحسن يجعل الضمائر في قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ دَنَا فتدلى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنى فأوحى إلى عَبْدِهِ مَا أوحى ﴾ [النجم : 8 10] له عز وجل أيضاً ، وكذا الضمير المنصوب في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءاهُ نَزْلَةً أخرى ﴾ [النجم : 13] فقد كان عليه الرحمة يحلف بالله تعالى ، لقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه وفسر دنوه تعالى من النبي صلى الله عليه وسلم برفع مكانته صلى الله عليه وسلم عنده سبحانه وتدليله جل وعلا بجذبه بشراشره إلى جانب القدس ، ويقال لهذا الجذب : الفناء في الله تعالى عند المتأهلين ، وأريد بنزوله سبحانه نوع من دنوه المعنوي جل شأنه .

ومذهب السلف في مثل ذلك إرجاع علمه إلى الله تعالى بعد نفي التشبيه ، وجوز أن تكون الضمائر في ﴿ دَنَا فتدلى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنى ﴾ [النجم : 8 ، 9] على ما روي عن الحسن للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد ثم دنا النبي عليه الصلاة والسلام من ربه

سبحانه فكان منه عز وجل ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنى ﴾ والضمائر في ﴿ فأوحى ﴾ الخ لله تعالى ، وقيل : ﴿ إلى عَبْدِهِ ﴾ ولم يقل إليه للتفخيم ، وأمر المتشابه قد علم ، وذهب غير واحد في وقوله تعالى :

(159/732)

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى ﴾ [النجم : 5] إلى قوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ أَنتَ الاعلى ﴾ [النجم : 7] إلى أنه في أمر الوحى وتلقيه من جبريل عليه السلام على ما سمعت فيما تقدم ، وفي قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فتدلى ﴾ الخ إلى أنه في أمر العروج إلى الجناب الأقدس ودنوه سبحانه منه صلى الله عليه وسلم ورؤيته عليه السلام إياه جل وعلا فالضمائر في ﴿ دَنَا ﴾ وكان و ﴿ مَا أوحى ﴾ وكذا الضمير المنصوب في ﴿ رَّءاهُ ﴾ لله عز وجل ، ويشهد لهذا ما في حديث أنس عند البخاري من طريق شريك بن عبد الله " ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه فيما أوحى خمسين صلاة " الحديث ، فأنه ظاهر فيما ذكر .

(160/732)

واستدل بذلك مثبتو الرؤية كحبر الأمة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وغيره ، وادعت عائشة رضي الله تعالى عنها خلاف ذلك ، أخرج مسلم عن مسروق قال : "كنت متكئا عند عائشة فقالت : يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله تعالى الفرية قلت ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ، قال : وكنت متكئاً فجلست فقلت : يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني ألم يقل الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءاهُ بالافق المبين ﴾ [التكوير : 23] ﴿ وَلَقَدْ رَءاهُ نَزْلَةً أُخرى ﴾ [النجم : 13] ؟ فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لا إنما هو جبريل لم أره على صورته الذي خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض " الحديث ، وفي رواية ابن مردويه من طريق أخرى عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق " فقالت : أنا أول من سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا فقلت : يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ فقال : إنما رأيت جبريل منهبطاً " ولا يخفى أن جواب رسول الله عليه الصلاة والسلام ظاهر في أن الضمير المنصوب في ﴿ رَءاهُ ﴾ ليس راجعاً إليه تعالى بل إلى جبريل عليه السلام ، وشاع أنها تنفى أن يكون صلى الله عليه وسلم رأى ربه سبحانه مطلقاً ، وتستدل لذلك بقوله تعالى : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ [الأنعام : 103] وقوله سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ [الشورى : 51] وهو ظاهر ما ذكره البخاري في صحيحه في تفسير هذه السورة ، وقال بعضهم : إنها إنما تنفي رؤية تدل عليها الآية التي نحن فيها وهي التي احتج بها مسروق .

(161/732)

وحاصل ما روي عنها نفي صحة الاحتجاج بالآية المذكورة على رؤيته عليه الصلاة والسلام ربه سبحانه ببيان أن مرجع الضمير فيها إنما هو جبريل عليه السلام على ما يدل عليه جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها ، وحمل قوله صلى الله عليه وسلم في جوابها "لا" على أنه نفي للرؤية المخصوصة وهي التي يظن دلالة الآية عليها ويرجع إلى نفي الدلالة ولا يلزم من انتفاء الخاص انتفاء المطلق ، والانصاف أن الأخبار ظاهرة في أنها تنفي الرؤية مطلقاً ، وتستدل عليه بالآيتين السابقتين ، وقد أجاب عنهما مثبتو الرؤية بما هو مذكور في محله .

والظاهر أن ابن عباس لم يقل بالرؤية إلآ عن سماع ، وقد أخرج عنه أحمد أنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت ربي " ذكره الشيخ محمد الصالحي الشامي تلميد الحافظ السيوطي في الآيات البينات وصححه ، وجمع بعضهم بين قولي ابن عباس .

وعائشة بأن قول عائشة محمول على نفي رؤيته تعالى في نوره الذي هو نوره المنعوت بأنه لا يقوم له بصر ، وقول ابن عباس محمول على ثبوت رؤيته تعالى في نوره الذي لا يذهب بالأبصار بقرينة قوله في جواب عكرمة عن قوله تعالى : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ [الأنعام : 103] ويحك ذاك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره ، وبه يظهر الجمع بين حديثي أبي ذر ، أخرج مسلم من طريق يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ قال : " نوراني أراه " ومن طريق هشام .

(162/732)

وهمام كلاهما عن قتادة عن عبد الله قال : قلت لأبي ذر لو رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لسألته فقال : عن أي شيء كنت تسأله ؟ قال : كنت أسأله هل رأيت ربك ؟ فقال أبو ذر : قد سألته فقال : " رأيت نوراً " فيحمل النور في الحديث الأول على النور القاهر للأبصار بجعل التنوين للنوعية أو للتعظيم ، والنور في الثاني على ما لا يقوم له البصر والتنوين للنوعية ، وإن صحت رواية الأول كما حكاه أبو عبد الله المازري بلفظ "نوراني" بفتح الراء وكسر النون وتشديد الياء لم يكن اختلاف بين الحديثين ويكون نوراني بمعنى المنسوب

إلى النور على خلاف القياس ويكون المنسوب إليه هو نوره الذي هو نوره ، والمنسوب هو النور المحمول على الحجاب حمل مواطأة في حديث السبحات في قوله عليه الصلاة والسلام : " حجابه النور " وهو النور المانع من الإحراق الذي يقوم له البصر .

ثم إن القائلين بالرؤية اختلفوا ، فمنهم من قال : إنه عليه الصلاة والسلام رأى ربه سبحانه بعينه ، وروي ذلك ابن مردويه عن ابن عباس ، وهو مروى أيضاً عن ابن مسعود .

وأبي هريرة .

وأحمد بن حنبل ، ومنهم من قال : رآه عز وجل بقلبه ، وروي ذلك عن أبي ذر ، أخرج النسائي عنه أنه قال : " رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه بقلبه ولم يره ببصره " وكذا روي عن محمد بن كعب القرظي بل أخرج عبد بن حميد .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عنه أنه قال : قالوا : يا رسول الله رأيت ربك ؟ قال : " رأيته بفؤادي مرتين ولم أره بعيني ثم قرأ ما كذب الفؤاد ما رأى " وفي حديث عن ابن عباس يرفعه " فجعل نور بصري في فؤادي فنظرت إليه بفؤادي " وكأن التقدير في الآية على هذا ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد فِيمَا رأى ﴾ [النجم : 11] ، ومنهم من ذهب إلى أن إحدى الرؤيتين كانت بالعين والأخرى الفؤاد وهي رواية عن ابن عباس ، أخرج الطبراني .

وابن مردويه عنه أنه قال : إن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه عز وجل مرتين مرة ببصره ومرة بفؤاده ؛ ونقل القاضي عياض عن بعض مشايخه أنه توقف أي في الرؤية بالعين ، وقال : إنه ليس عليه دليل واضح قال في الكشف .

(164/732)

لأن الروايات مصرحة بالرؤية أما أنها بالعين فلا ، وعن الإمام أحمد أنه كان يقول : إذا سئل عن الرؤية رآه رآه حتى ينقطع نفسه ولا يزيد على ذلك وكأنه لم يثبت عنده ما ذكرناه ، واختلف فيما يقتضيه ظاهر النظم الجليل فجزم صاحب الكشف بأنه ما عليه الأكثرون من أن الدنو والتدلي مقسم ما بين النبي وجبريل صلاة الله تعالى وسلامه عليهما أي وأن المرئى هو جبريل عليه السلام ، وإذا صح خبر جوابه عليه الصلاة والسلام لعائشة رضي الله تعالى عنها لم يكن لأحد محيص عن القول به ، وقال العلامة الطيبي : الذي يقتضيه النظم إجراء الكلام إلى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بالافق الاعلى ﴾ [النجم : 7] على أمر الوحي وتلقيه من الملك ورفع شبه الخصوم ، ومن قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ دَنَا فتدلى ﴾ [النجم : 8] إلى قوله سبحانه : ﴿ مِنْ ءايات رَبِّهِ الكبرى ﴾ [النجم : 18] على أمر العروج إلى

الجناب الأقدس ، ثم قال : ولا يخفى على كل ذي لب إباء مقام ﴿ فأوحى ﴾ الحمل على أن جبريل أوحى إلى عبد الله ﴿ مَا أوحى ﴾ إذ لا يذوق منه أرباب القلوب إلا معنى المناغاة بين المتسارين وما يضيق عنه بساط الوهم ولا يطيقه نطاق الفهم ، وكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ على هذا للتراخي الرتبي والفرق بين الوحيين أن أحدهما وحى بواسطة وتعليم ، والآخر بغير واسطة بجهة التكريم فيحل عنه عنده الترقي من مقام ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : 164] إلى مخدع ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنى ﴾ [النجم : 9] وعن جعفر الصادق عليه الرضا أنه قال : لما قرب الحبيب غاية القرب نالته غاية الهيبة فلاطفه الحق سبحانه بغاية اللطف لأنه لا تتحمل غاية الهيبة إلا بغاية اللطف ، وذلك قوله تعالى :

(165/732)

﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ مَا أوحى ﴾ [النجم : 10] أي كان ما كان وجرى ما جرى قال الحبيب للحبيب ما يقول الحبيب لحبيبه وألطف به إلطاف الحبيب بحبيبه وأسر إليه ما يسر الحبيب إلى حبيبه فأخفيا ولم يطلعا على سرهما أحداً وإلى نحو هذا يشير ابن الفارض بقوله

: ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا . . .

سرّ أرق من النسيم إذا سرى

ومعظم الصوفية على هذا فيقولون بدنو الله عز وجل من النبي صلى الله عليه وسلم ودنوه منه سبحانه على الوجه اللائق وكذا يقولون بالرؤية كذلك ، وقال بعضهم في قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى ﴾ [النجم : 17] ما زاغ بصر النبي صلى الله عليه وسلم وما التفت إلى الجنة ومزخرفاتها ولا إلى الجحيم وزفراتها بل كان شاخصاً إلى الحق ﴿ وَمَا طغى ﴾ عن الصراط المستقيم ، وقال أبو حفص السهروردي : ما زاغ البصر حيث لم يتخلف عن البصيرة ولم يتقاصر ﴿ وَمَا طغى ﴾ لم يسبق البصر البصيرة ويتعدى مقامه ، وقال سهل بن عبد الله التستري : لم يرجع رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى شاهد نفسه وإلى مشاهدتها وإنما كان مشاهداً لربه تعالى يشاهد ما يظهر عليه من الصفات التي أوجبت الثبوت في ذلك المحل ، وأرجع بعضهم الضمير في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَنتَ الاعلى ﴾ [النجم : 7] إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو منتهى وصول اللطائف ، وفسر ﴿ سِدْرَةِ المنتهى ﴾ [النجم : 14] بما يكون منتهى سير السالكين إليه ولا يمكن لهم جاوزته إلا بجذبة من جذبات الحق ، وقالوا في ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ ما قالوا وأنا أقول برؤيته صلى الله عليه وسلم ربه سبحانه وبدنوه منه سبحانه على الوجه اللائق ذهبت فيما اقتضاه ظاهر النظم الجليل إلى ما قاله صاحب الكشف أم ذهبت فيه إلى ما قاله الطيبي فتأمل والله تعالى الموفق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

وقال الشيخ المراغى فى الآيات السابقة :

سورة النجم

هى مكية إلا آية 32 فمدنية ، نزلت بعد سورة الإخلاص ، وآيها ثنتان وستون .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(1) إن السورة قبلها ختمت بقوله : وإدبار النجوم ، وبدئت هذه بقوله : والنجم إذا هوى .

(2) إن السورة قبلها ذكر فيها تقوّل القرآن وافتراؤه ، وذكر هذا فى مفتتح هذه السورة .

(3) إنه ذكر فى التي قبلها أن ذرية المؤمنين تبع لآبائهم ، وفى هذه ذكر ذرية اليهود فى قوله : « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ » .

(4) إنه قال هناك فى المؤمنين : « أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » وقال هنا فى الكفار « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى » .

وهى كما أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أول سورة أعلن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قراءتها ، فقرأها فى الحرم والمشركون يسمعون ،

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي « أن أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم)

فسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وسجد الناس كلهم إلا رجلا رأيته أخذ كفّا من تراب فسجد عليه فرأيته بعد ذلك قتل كافرا وهو أمية بن خلف» .

(167/732)

[سورة النجم (53) : الآيات 1 الى 18]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّجْمِ إِذا هَوى (1) ﴾

تفسير المفردات

المراد بالنجم : جنس النجوم إذا غربت أو صعدت ، يقال هوى النجم هويّا (بالفتح) أي سقط وغرب ، وهويا : (بالضم) إذا علا وصعد ، ما ضلّ : أي ما حاد عن الطريق المستقيم ، صاحبكم : أي مصاحبكم ، والتعبير عنه صلّى اللّه عليه وسلم بعنوان المصاحبة لهم إيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة ، وإحاطتهم خبرا ببراءته مما نسب إليه ، وباتصافه بالهدى والرشاد ، فإن طول صحبتهم له ، ومشاهدتهم لشئونه العظيمة تقتضى ذلك ، ففى هذا تأكيد لإقامة الحجة عليهم ، وما غوى : أي وما اعتقد باطلا ، والخطاب فى هذا لقريش ، وما ينطق عن الهوى : أي ما يتكلم بالباطل ، والمراد

بشديد القوى جبريل عليه السّلام ، ذو مرة : أي ذو حصافة عقل وقوة عارضة ، قال قطرب : العرب تقول لكل من هو جزل الرأى حصيف العقل : هو ذو مرة .

(168/732)

من قولهم أمررت الحبل : أي أحكمت فتله ، فاستوى : أي فاستقام على صورته التي خلقه اللّه عليها عند حراء فى مبادى النبوة ، وهو بالأفق الأعلى : أي بالجهة العليا من السماء المقابلة للناظر ، ثم دنا : أي ثم قرب ، فتدلى : أي فنزل من قولهم تدلت الثمرة ،

(169/732)

ومنه الدوالي وهى الثمر المعلق كعناقيد العنب ، والقاب مقدار ما بين المقبض والسّية ، ولكل قوس قابان ، والعرب تقدر الأطوال بالقوس والرمح وبالذراع والباع والخطوة والشبر والإصبع ، أو أدنى : أي أقرب من ذلك ، والمراد بالفؤاد فؤاد محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، ما رأى أي ما رآه ببصره ، أ فتمارونه على ما يرى : أي أ فتجادلونه على ما يراه معاينة ، نزلة أخرى : أي مرة أخرى ، سدرة المنتهى : هى شجرة نبق قالوا إنها فى السماء السابعة عن

يمين العرش ، جنة المأوى : أي الجنة التي يأوى إليها المتقون يوم القيامة ، يغشى : يغطى ، ما زاغ البصر : أي ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ومسكّن منها وما مال يمينا ولا شمالا ، وما طغى : أي ما جاوز ما أمر به ، آيات ربه الكبرى : أي عجائبه الملكية والملكوتية فى ليلة المعراج.

المعنى الجملي

أقسم ربنا بخلق من مخلوقاته العظيمة التي لا يعلم حقيقتها إلا هو ، وهى نجوم السماء التي تهدى الساري فى الفلوات ، وترشده إلى البعيد من المسافات - إن محمدا صاحبكم نبىّ حقا ، وما ضلّ عن طريق الرشاد ، ولا اتبع الباطل ، ولا يتكلم إلا بوحي يوحيه اللّه إليه ، ويعلمه إياه جبريل شديد القوى ، ولقد رآه مرتين على صورته التي خلقه اللّه عليها بأجنحته وأوصافه الملكية : مرة بغار حراء فى بدء النبوة ، وأخرى ليلة المعراج حين عرج به إلى السماء ، ورأى من عجائب صنع اللّه ما رأى ، مما استطاع أن يخبركم به ، ومما لم يستطع ذلك ، فكيف بكم تجادلونه فيما أخبركم به ، وتقولون طورا : إنه مجنون ، وطورا آخر إنه كاهن ، وطورا ثالثا إنه شاعر ، وما كل هذا بالذي ينطبق على أوصافه ، وهو صاحبكم وأنتم أعلم بحاله ، فحق عليكم أن تسمعوا قوله ، وأن تطيعوا أمره ، فتفوزوا رضوان من ربه .

الإيضاح

(وَالنَّجْمِ إِذا هَوى . ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى) أي قسما بمخلوقاتى العظيمة وهى النجوم التي تسير فى مداراتها ، ولا تعدو أفلاكها ، والتي تهتدون بها فى الفيافي والقفار ، فى حلكم وترحالكم ، فى سفركم وحضركم ، وفى البحار ، ولها لديكم منزلة عظمى فى حياتكم المعيشية – إن محمدا نبى حقا ، وما حاد عن سبيل الحق ، ولا سلك سبيل الباطل .

وقد خاطب سبحانه بهذا القسم العرب الذين يعرفون ما للنجوم من جزيل الفضل عليهم ، فى تعيين المواسم والفصول ، ليستعدوا للنّجعة ، ويرتادوا الكلأ بعد سقوط المطر ، ويزرعوا ما يتسنى لهم أن يزرعوه ، وهم يتيامنون ببعضها ويتشاءمون ببعض آخر .

إلى أن القسم بها ينبهنا إلى أن هناك عوالم وأجراما علويّة يجب علينا أن نتعرّف أمرها ، لنستدل بها على عظيم قدرة مبدعها وبديع صنعه .

ولقد أثبت العلم حديثا ما يدعو إلى العجب من أحوال هذه الأجرام ، وسرعة سيرها ، وكبير حجمها ، فقد علم أن سير نور الكوكب 300 ألف كيلوم فى الثانية ، ومثله سير الأمواج اللاسلكية ، وكلاهما يجرى حول الأرض فى سبع ثانية مرة واحدة ، ويجرى حول الكون كله فى نحو مائة مليون سنه ، فنسبة محيط الكرة الأرضية إلى محيط ما عرف من

الكون كنسبة سبع ثانية إلى مائة مليون سنة .

والنظام الشمسى يشتمل على الشمس وتسعة سيارات تدور حول أكثرها أقمار ، وهذه الشمس وعالمها جزء من عالم المجرّة ، والمجرّة فيها نجوم تبلغ نحو 30 ألف مليون نجم كلهن شموس كشمسنا أو أكبر أو أصغر . ويقدرون عمر الشمس بنحو خمسة ملايين مليون سنة ، وعمر الأرض بنحو ألفى مليون سنة ، وعمر المياه عليها بنحو 300 مليون سنة ، وعمر الإنسان بنحو 300 ألف سنة .

(171/732)

وإن شمسنا التي تزيد على أرضنا ألف ألف مرة وثلاثمائة ألف مرة هى كوكب له توابع وسيارات ، وهذا الكواكب وتوابعه واحد من ثلاثين ألف مليون شمس ، وهذه كلها تكوّن مجرتنا ، وهذه المجرة لها نظائر ، فسبحان الخلاق العليم الذي لا يعلم جنوده إلا هو .

والخلاصة – إن الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم راشد مرشد تابع للحق ، ليس بضالّ ولا هو بسالك للطريق بغير علم ، ولا هو بغا و يعدل عن الحق قصدا إلى غيره ، وبهذا نزه اللّه رسوله وشرعه عن مشايعة أهل الضلال من اليهود والنصارى الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه ، فهو فى غاية الاستقامة والاعتدال والسّداد .

ثم بين السبب فى عدم ضلاله وغوايته فقال :

(وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى) أي كيف يضل ويغوى ، وهو لا ينطق عن الهوى ، وإنما يضل من كان كذلك ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » .

ثم أكد هذا بقوله :

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى) أي إنما يقول ما أمر أن يبلغه إلى الناس كاملا موفورا بلا زيادة ولا نقصان .

روى أحمد عن عبد اللّه بن عمرو قال : « كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أريد حفظه ، فنهتنى قريش فقالوا : إنك تكتب كل شىء تسمعه من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، ورسول اللّه بشر يتكلم فى الغضب ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : اكتب فو الذي نفسى بيده ما خرج منى إلا الحق » .

وعن أبى هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « لا أقول إلا حقا » قال بعض أصحابه فإنك تداعبنا يا رسول اللّه ، قال : « إنى لا أقول إلا حقا » .

ويرى بعض المفسرين أن قوله : ما ضل صاحبكم - ردّ لقولهم : إنه مجنون ،

وقوله : وما غوى – ردّ لقولهم إنه شاعر : أي ليس بينه وبين الغواية تعلق وارتباط ، وقوله : والشعراء يتبعهم الغاوون ، وقوله : وما ينطق عن الهوى – ردّ لقولهم كاهن ، وقوله : إن هو إلا وحي يوحى تأكيد لما تقدم ، أي فلا هو بقول كاهن ، ولا هو بقول شاعر .

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى) أي علّم صاحبكم جبريل عليه السّلام وهو شديد القوى العلمية والعملية ، فيعلم ويعمل ، ولا شك أن مدح المعلّم مدح للمتعلم .

وفى هذا رد عليهم فى قولهم : إن هو إلا أساطير الأولين ، سمعها وقت سفره إلى الشام .

والخلاصة – إنه لم يعلمه أحد من الناس ، بل علمه شديد القوى ، والإنسان خلق ضعيفا لم يؤت من العلم إلا قليلا – إلى أنه موثوق بقوله ، لأن قوة الإدراك شرط الوثوق بقول القائل ، وكذلك هو موثوق بحفظه وأمانته ، فلا ينسى ولا يحرّف .

(ذُو مِرَّةٍ) أي ذو حصافة فى العقل ، فالوصف الأول إشارة إلى قوة الفعل ، وهذا وصف بقوة النظر وظهور الآثار البديعة منه .

والخلاصة – إنه يجمع بين القوى النظرية والقوى الجسمية كما روى أنه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود الذي تحت الثرى وحملها على جناحيه ورفعها إلى السماء ثم قلبها ، وصاح بثمود فأصبحوا جاثمين .

وإنا لنؤمن بهذا على أنه من عالم الغيب ونكتفى بما جاء فى كتابه تعالى ولا نزيد عليه .

وإن علماء الأرواح فى أوروبا الآن أصبحوا يؤمنون بقوى عالم الروح وبما لها من خوارق العادات بالنظر إلى عالمنا . قال أوليفر لودج : إنى أصبحت موقنا بأنا محوطون بعالم نحن بالنسبة إليه كالنمل بالنسبة لنا ، وهم يساعدوننا ويحافظون علينا ، ثم قال :

وقفت على هذا بطريق علمى (يريد تحضير الأرواح) ثم قال : فإذا ما قال القدّيسون إنهم رأوا الملائكة أو أنهم رأوا اللّه ، فكل ذلك حق لا مرية فيه اه .

(173/732)

هذا ولا شك من عجائب القرآن ، فإن ما جاء فيه مما يتعلق بعالم الأرواح أصبح علوما تدرس وتذاع بين الناس باعتبارها علوما روحية وكشفا حديثا ، صدق ربنا « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .

فالقوى الجسمية والعقلية للعالم الروحي ظهرت بطريق استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسى ، إذ فيه انخلاع للنفس عن البدن انخلاعا جزئيا أو كليا وهى مربوطة به ولها اتصال بالعوالم الروحية .

(فَاسْتَوى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى . فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى . فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى) أي فاستقام جبريل على صورته التي خلقه اللّه عليها حين أحب رسوله

صلّى اللّه عليه وسلّم أن يراه كذلك ، فظهر له فى الأفق الأعلى وهو أفق الشمس ، فملأه ثم أخذ يدنو من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ويتدلى : أي يزيد فى القرب والنزول حتى كان منه مقدار قوسين أو أقرب على تقديركم وعلى مقدار فهمكم ، فأوحى إلى عبده ورسوله ما شاء أن يوحيه إليه من شئون الدين . ولا غرو فإن ظهور الأرواح فى صورة مرئية أصبح الآن معروفا ، وقد قص علماء الروح عجائب وغرائب وأصبح فى طوقهم أن يظهروا الروح فى صور بشرية وصور نورية وتخاطبهم حين التنويم المغناطيسى ، وإذا صح ذلك للعلة فليكن ذلك للقدّيسين والأنبياء بالأولى بطريق يشاكل مقامهم ، ولا تتجلى الأرواح إلا بالمناسبة بين المتجلّى والمتجلّى عليه ، وظهوره فى صورة مرئية يرجع إلى قوته وشدته ، وقوله : فأوحى إلى عبده ما أوحى ، يرجع إلى قوته العلمية .

(174/732)

ولما كان الإنسان كثيرا ما يظن أنه قد تخيل ما رآه ويكذب قلبه ما ظهر له ، حتى قال علماء الأرواح : إنهم لما خاطبوا الأرواح قالت لهم ، إنكم كثيرا ما يظهر لكم عجائب روحية فتظنونها من الوهم وتنسبونها إلى خداع الحواس – أعقب سبحانه هذا بما يدل على أنه صلّى اللّه عليه وسلّم لم يقم بنفسه أن هذا تخيل ولا أنه وهم فقال :

(ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى) أي ما كذب فؤاده ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السّلام : أي إن فؤاده صلّى اللّه عليه وسلّم ما قال لما رآه ببصره لم أعرفك ، ولو قال ذلك لكان كاذبا لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره .

والخلاصة – إنه لما قال : إن هو إلا وحي يوحى أكد هذا المعنى وفصله بقوله : علّمه شديد القوى ، ليبين أنه ليس من الشعر ولا من الكهانة فى شىء ، ولما قال : فاستوى وذكر قيامه بصورته الحقيقية أكد أن مجيئه بصورة دحية الكلبي لا يعمّى وصفه ، إذ قد عرفه بشكله الحقيقي من قبل ، فلا يشتبه عليه ، وقوله : ثم دنا فتدلى تتميم لحديث نزوله عليه السّلام وإتيانه بالمنزّل ، وقوله : ما كذب الفؤاد ما رأى ، بين به أنه لما عرفه وحققه لم يكذّبه فؤاده بعد ذلك فى أنه جبريل ، ولو تصور بغير تلك الصورة .

(أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى ؟) أي أ فتكذبونه وتجادلونه فيما رآه بعينه من صورة جبريل عليه السّلام له .

(وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى . عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى) أي ولقد رأى النبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم جبريل فى صورته التي خلقه اللّه عليها عند شجرة النبق التي ينتهى إليها علم كل عالم وما وراءها لا يعلمه إلا اللّه قاله ابن عباس .

وقد يكون المراد بالمنتهى اللّه عز وجل أي سدرة اللّه الذي إليه المنتهى كما قال سبحانه «

وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » وعند هذه السدرة الجنة التي يأوى إليها المتقون يوم القيامة قاله الحسن البصري .

(175/732)

وعلينا أن نؤمن بهذه الشجرة كما وصفها اللّه ، ولا نعين مكانها ولا نصفها بأوصاف أكثر مما وصفها به الكتاب الكريم ، إلا إذا ورد عن المعصوم صلّى اللّه عليه وسلم ما يبين ذلك ويثبت لدينا بالتواتر ، لأن ذلك من علم الغيب الذي لم يؤذن لنا بعلمه .

روى أحمد ومسلم والترمذي وغيرهم أنها فى السماء السابعة ، نبتها كقلال هجر ، وأوراقها مثل آذان الفيلة ، يسير الراكب فى ظلها سبعين خريفا لا يقطعها .

والمشاهد فى الدنيا أن النبات يعيش إذا وجد التراب والماء والهواء ، ولكن لاعجب فاللّه يخلقه فى أي مكان شاء ، كما أخبر عن شجرة الزقوم أنها تنبت فى أصل الجحيم .

وقصارى ما سلف – إن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم رأى جبريل فى صورته الحقيقية مرتين : مرة وهو فى غار حراء فى بدء النبوة ، والثانية فى ليلة المعراج ولم يكن ذلك فى الأرض بل كان عند شجرة نبق عن يمين العرش وهى فى منتهى الجنة : أي آخرها ، وعلم الملائكة ينتهى إليها .

وقد تقدم أن الصحيح أن الصعود إلى الملإ الأعلى كان روحيا لا جسمانيا كما روى عن جمع من الصحابة رضوان اللّه عليهم .

(إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى) أي رآه حين غطى السدرة ما غطاها من الخلائق الدالة على عظمة اللّه وجلاله ، ومن الإشراق والحسن ، ومن الملائكة وقد أبهم ذلك الكتاب الكريم ، فعلينا أن نكتفى بهذا الإبهام ولا نزيده إيضاحا بلا دليل قاطع ، ولا حجة بينة ، ولو علم اللّه الخير لنا فى البيان لفعل .

(ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى) أي ما مال بصر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ومكّن منها ، وما جاوزها إلى رؤية ما لم يؤمر برؤيته .

والخلاصة - إنه رأى رؤية المستيقن المحقق لما رأى .

(لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى) أي ولقد رأى الآيات الكبرى من آيات ربه وعجائبه الملكوتية .

(176/732)

روى البخاري وابن جرير وابن المنذر فى جماعة آخرين عن ابن مسعود أنه قال فى الآية : رأى رفرفا أخضر من الجنة قد سد الأفق ، وعن ابن زيد أنه رأى جبريل بالصورة التي هو

بها .

وعلينا ألا نحصر ما رآه فى شىء بعينه بعد أن أبهمه القرآن ، إذ هو قد رأى من الآيات الكبرى ما يجل عنه الحصر والاستقصاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 27 صـ 50.41 ﴾

(177/732)

وقال الشيخ : دروزة فى الآيات السابقة :

سورة النجم

تتضمن السورة توكيدا بصدق النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فيما أخبر به من رؤيته المشاهد الربانية والملك الرباني وبصدق صلته بالوحي الرباني . وتزييفا لعقائد العرب بالأصنام والملائكة والشفاعة ، وتنويها بالمؤمنين الصالحين . وتنديدا بالكفار المكذبين . وإنذارا بالآخرة والوقوف بين يدي اللّه ، وتقريرا بعدم انتفاع الإنسان إلّا بسعيه . وتذكيرا ببعض الأقوام السابقة ، وما كان من تنكيل اللّه بهم بسبب تكذيبهم أنبياءه وتمردهم على دعوتهم إلى اللّه . وهي متوازنة الآيات مترابطة الفصول ، مما يلهم أنها نزلت دفعة واحدة أو فصولا متتابعة . وقد ذكر المصحف الذي اعتمدنا عليه أن الآية [32] مدنية وانسجامها مع ما

قبلها وما بعدها نظما وموضوعا يحمل على التوقف في هذه الرواية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النجم (53) : الآيات 1 الى 12]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذا هَوى (1) ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى (2) وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى (3) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى (4)

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى (7) ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى (8)

فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى (9)

فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى (10) ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى (11) أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى (12) .

(1) النجم : تعددت الأقوال في النجم المقصود ، وأوجهها عندنا هو الشهاب المنقض من السماء بقرينة جملة «إذا هوى» .

(2) هوى : خرّ وسقط .

(3) ضل : انحرف أو ذهل .

(4) صاحبكم : كناية عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم .

(5) غوى : جهل أو التبس عليه أو ضلّ عن الحق .

(6) الهوى : الرأي الذي لا يستند فيه صاحبه إلى الحق ويصدر فيه عن غاية خاصة وعاطفة وأنانية .

(7) وحي يوحى : الوحي من الإيحاء وأصل معنى الكلمة السرعة والإيعاز والإلهام والقذف بالروع . وجاءت في القرآن بهذه المعاني . وجاءت بمعنى النواميس التي أودعها اللّه في كائناته وخلقه . وجاءت في معرض إرسال اللّه الملائكة بأوامره إلى أنبيائه أو إلهام اللّه لأنبيائه ما يريد إلهامهم به أو قذفه في قلوبهم . والجملة هنا بأحد المعنيين الأخيرين .

(8) علمه : الضمير في هذا الفعل عائد إلى الملك الذي أرسله اللّه للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم على ما عليه جمهور المفسرين وهو جبريل .

(9) ذو مرة : ذو قوة أو ذو حصافة وإحكام في عقله ، وهذا هو المقصود على الأرجح ، والكلمة وصف لملك اللّه على ما عليه الجمهور .

(10) استوى : اعتلى أو وقف موقف البروز والعلو . والضمير عائد للملك أيضا .

(11) الأفق الأعلى : كناية عن السماء .

(12) ثم دنا فتدلى : قال الطبري في الجملة تقدم وتأخير ومعناها : تدلى ثم دنا أي نزل من العلو ثم اقترب . ولو لم يصح التقديم والتأخير فنفس المعنى موجود .

(13) قاب قوسين : جملة تعني شدة القرب وقصر المسافة . فكان بين النبي والملك ما بين قوسي الحاجبين من قرب .

(14) فأوحى إلى عبده ما أوحى : عبده هنا كناية عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم والضمير في أوحى عائد إلى الملك جبريل على ما عليه الجمهور .

(179/732)

---

(15) الفؤاد : كناية عن القوة الواعية المدركة في الإنسان .

(16) تمارونه : تجادلونه .

في الآيات قسم رباني في معرض التوكيد بأن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لم يذهل ولم ينحرف عن الحق والصدق ، ولم ينطق بما نطق ولم يبلغ ما بلغ كذبا وشفاء لهوى النفس وخيلائها ، وبأن ما أخبر به هو وحي أوحي إليه ، وقد أبلغه إياه رسول رباني قوي صادق ، وقد رآه في أفق السماء وقد اقترب منه إلى مسافة قريبة جدا ، ومن المكابرة أن تجادلوه فيما رآه وعاينه .

وواضح من هذا أن الآيات بسبيل وصف مشهد شهده النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وتوكيد صدق ما أخبر به من ذلك .

ولقد روى الشيخان والترمذي في فصل التفسير في سياق تفسير هذه الآيات حديثا عن الشيباني قال : «سألت زرا عن قوله تعالى : فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى (9) فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى (10) ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى النجم [9 - 11] فقال : أخبرنا عبد اللّه أن محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم رأى جبريل له ستمائة جناح» «1» . وروى البخاري حديثا عن مسروق جاء فيه : «قال مسروق لعائشة أين قوله تعالى : ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى (8) فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى النجم [8 - 9] قالت : ذلك جبريل كان يأتيه في صورة الرجال وأتاه هذه المرة في صورته الأصلية فسدّ الأفق» «2» .

وأكثر المفسرين «3» يرجحون أن المشهد هو مشهد جبريل عليه السلام الذي رآه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالأفق الأعلى ، وهو الأوجه فيما هو المتبادر .

ولقد ورد في سورة التكوير آيات فيها بعض ما في هذه الآيات من وصف لملك اللّه ورؤية النبي صلّى اللّه عليه وسلّم له بالأفق وتوكيد ذلك وهي : إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23)

---

(1) التاج ج 4 ص 220 .

(2) المصدر نفسه.

(3) انظر كتب تفسير الطبري والبغوي والخازن وابن كثير والنيسابوري إلخ.

(180/732)

التكوير [19 - 23]، فمن الجائز أن تكون آيات النجم التي نحن في صددها بسبيل توكيد صحة ما أخبر به سابقا حيث ظل الكفار يكذبون ويمارون.

ولقد احتوت الآيات التالية لهذه الآيات إشارة إلى مشهد ثان مماثل رآه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم والضمير فيه معطوف على الأول. فمن الجائز كذلك أن تكون الآيات التي احتوت توكيدا للمشهد الذي حكته آيات سورة التكوير قد جاءت كتمهيد توكيدي واستشهادي للمشهد الثاني الذي حكته الآيات التالية لها.

وتعبير ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى النجم [11] قد يفيد كون المشهد الذي شهده النبي صلّى اللّه عليه وسلّم روحاني خاص به شهده بقوة البصيرة التي اختصه اللّه بها من دون الناس العاديين على ما هو المتبادر من السياق. والآية التالية لهذه الآية تدعم هذا حيث استنكرت المرء في أمر خاص بالشعور والإدراك النبوي الذي لا يجوز أن يكون موضع مراء كأنما أرادت الآية أن تقول إن المراد إنما يصح أن يكون فيما يمكن أن يكون قدرا مشتركا بين

الناس يستطيع جميعهم أن يروه ويحسوا به ويدركوه بحاسة من حواسهم . فإذا ادعى أحدهم أنه رآه وأحس به وأدركه كان لغيره أن يماري في ذلك إذا لم يره هو ويحس به ويدركه .

ويمكن أن يضرب المثل للتوضيح برؤية الكسوف والرؤيا النومية . فلا يستطيع أحد مثلا أن يدعي أنه رأى كسوف الشمس دون سائر الناس ، لأنه مشهد عام يتساوى الناس في رؤيته . وذلك على عكس الرؤيا لأنها خاصة بالشخص الذي رآها ، ولا تتحمل دعوى رؤياها أي جدل أو مكابرة أو مراء .

وقد قصدنا بهذا الشرح المستلهم من الآيات توضيح ما يكون بين اللّه وبين أنبيائه من اتصال خاص بهم على اختلاف صوره التي ذكرتها آية سورة الشورى هذه : وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ [51] «1» يدركونه ويشعرون به بما

---

(1) في الآية ثلاث صور لاتصال اللّه بأنبيائه وهي الوحي المباشر الذي يقذف في قلوبهم ويلهمون إياه أو صوت يسمعونه أو رسول ملك يرسله اللّه إليهم .

اختصهم اللّه به من قوة لا يمكن إدراكها بالعقل العادي ، ويجب الإيمان بها لأن ذلك مما يستتبعه الإيمان باللّه وأنبيائه ، والمشهد الذي وصفته وأكدته الآيات مظهر من مظاهر هذا الاتصال ويجب الإيمان بصحته لأن القرآن والنبي قد أخبرا به .

تعليق على مدى متناول آيات : وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى والعصمة النبوية

وقد ذهب بعض المفسرين «1» إلى أن آيتي : وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى النجم [3 - 4] تشملان كل ما صدر عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من قول أو عمل ديني ودنيوي وقرآني وغير قرآني ، وجعلوهما في عداد الدلائل على العصمة النبوية .

والذي نلحظه من روح الآيات وسياقها أن الآيتين في صدد توكيد صحة ما أخبر به النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من اتصال وحي اللّه به ورؤيته الملك وما ألقاه عليه من آيات القرآن .

وفي الاستدلال بها على عصمة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في كل ما صدر عنه من قول وعمل دنيوي وغير قرآني واعتباره وحيا ربانيا تجوز كبير يتعارض مع وقائع ونصوص قرآنية كثيرة تدل على أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان يجتهد في أمر فيصدر عنه فيه قول أو فعل فينزل قرآن معاتبا ومنبها حينا ومذكرا حينا بما هو الأولى مثل حادث استغفاره مع المؤمنين لذوي قرباهم من موتى المشركين الذي أشارت إليه آيات سورة التوبة هذه منبهة :

ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ

أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (113) وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114) «2» ومثل حادث أسرى بدر الذي أشارت إليه آيات سورة الأنفال هذه: ما كانَ لِنَبِيٍّ

---

(1) انظر تفسير الآيات في تفسير الطبرسي والنيسابوري والخازن مثلا.

(2) في الآية الثانية ما يفيد أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم والمؤمنين اجتهدوا فقاسوا بما فعله إبراهيم عليه السلام فبين اللّه فيها الفرق ووجه الحق في ذلك.

أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67) لَوْلا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (68) ومثل حادث حلفه على عدم قرب زوجاته التي أشارت إليها آية سورة التحريم هذه: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) ومثل حادث الأعمى الذي أشارت إليه آيات سورة عبس هذه: عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى (2) وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى (8) وَهُوَ يَخْشى

(9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10) «1» .

ونريد أن ننبه على نقطة هامة ، فنحن لا نعني بما نقرره ألّا يكون النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في كثير مما قاله أو فعله أو أمر به أو نهى عنه مما لم ينزل فيه قرآن ناقض أو معدل أو معاتب ملهما به من اللّه عز وجل . ففي القرآن دلائل عديدة على أن كثيرا مما وقع من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قبل نزول القرآن قد وقع بإلهام رباني . وأن القرآن نزل بعد وقوعه مؤيدا له فيه ، ومن الأمثلة على ذلك سيره إلى مكة لأجل العمرة مع أصحابه بناء على رؤيا رآها وانتهاء ذلك بصلح الحديبية . فقد كان ذلك بإلهام رباني ثم نزلت سورة الفتح مؤيدة له . ومن ذلك أيضا واقعة بدر ، فقد خرج النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بإلهام رباني مع أصحابه للاستيلاء على قافلة قريش وأدى ذلك إلى الاشتباك مع جيش قريش الذي انتصر فيه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وأصحابه انتصارهم العظيم . وقد نزلت بعد ذلك سورة الأنفال مؤيدة له «2» . وإلى هذا فإن جميع ما ثبت عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من سنن قولية وفعلية وأوامر ونواه مات عليها دون أن ينقضها هو أو القرآن هو تشريع واجب الاتباع بنص القرآن على ما جاء في آية سورة الحشر هذه : وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا [7] ومن المحتمل أن يكون بإلهام رباني . وإنما الذي نعنيه التوقف في تشميل مفهوم الآيتين

---

(1) هناك أمثلة أخرى سننبه عليها في مناسباتها .

(2) وهناك أمثلة أخرى سننبه عليها في مناسباتها أيضا .

لكل ما صدر عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من فعل وقول طيلة حياته إطلاقا حسب ما شرحناه آنفا .

وهذا لا يمس العصمة النبوية التي يجب الإيمان بها لا على ذلك المعنى الذي يجعل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يمتنع عليه أن يصدر منه أي قول أو فعل أو اجتهاد في مختلف شؤون الحياة والناس ، قد يكون فيه الخطأ والصواب وخلاف الأولى الذي في علم اللّه والذي لا ينكشف له إلّا بوحي ، مما لا يمكن أن ينتفي عن الطبيعة البشرية النبوية المقررة في القرآن ، وإنما على المعنى الذي يرتفع به النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إلى العصمة عن أي إثم أو جريمة أو فاحشة أو مخالفة للقرآن فعلا وقولا ، وعن كتم أي شيء أوحي به إليه أو تحريفه وتبديله وذلك نتيجة لما وصل إليه بنعمة اللّه وفضله من كمال الخلق والروح والعقل والإيمان والاستغراق في اللّه الذي جعله أهلا للاصطفاء الرباني «1» .

[سورة النجم (53) : الآيات 13 الى 18]

وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى (14) عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى (16) ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى (17)

لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)

(1) رآه: ضمير الفاعل عائد إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وضمير المفعول عائد إلى جبريل عليه السلام على ما عليه جمهور المفسرين.

(2) سدرة المنتهى: شجرة السدرة التي ينتهي عندها التقدم أو الشوط.

(3) جنة المأوى: قال بعض المفسرين إنها جنة خاصة على يمين العرش يأوي إليها أرواح الشهداء (انظر الكشاف والطبري) وقد وردت كلمة المأوى مضافة إلى «الجنات» بالجمع وبمعنى المثوى مطلقا للناجين والخاسرين معا. وقال ابن كثير: إن جنة المأوى وجنات المأوى هي التي يكون فيها منازل ومساكن للإقامة بالإضافة إلى الأشجار والمياه.

---

(1) انظر كتابنا القرآن المجيد ص 288 - 294.

---

(4) زاغ: انحرف وذهل ولم ير ما ينبغي أن يرى.

(5) طغى: تجاوز الحد والهدف.

في الآيات إشارة إلى مشهد آخر شاهده النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فشاهد فيه ما شاء اللّه أن يشاهده من آيات اللّه الكبرى.

ولقد روى الإمام أحمد عن ابن مسعود في صدد تفسير هذه الآيات أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال: «رأيت جبريل وله ستمائة جناح» «1». وروى الإمام أحمد عن مسروق أنه سأل عائشة عن آية: وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى النجم [13] «فقالت: أنا أول هذه الأمة سألت رسول اللّه عنها فقال إنما ذاك جبريل لم يره في صورته التي خلق عليها إلّا مرتين. رآه متهبطا إلى الأرض سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض».

ففي هذه الأحاديث تفسير لمدى هذه الآيات أيضا، مع التنبيه على أنه ليس هناك ما يساعد على توضيح مدى المقصود من سدرة المنتهى وجنة المأوى في سياق ذلك إلّا إذا كان جاء كوصف متمم للمشهد، واللّه أعلم.

وقد يلحظ فرق في التعبير في مجموعتي الآيات حيث ورد في الأولى: ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى النجم [11] وفي الثانية: ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى النجم [17].

ويتبادر لنا أن مؤدى التعبيرين واحد وهو توكيد صحة المشهدين الذين شاهدهما النبي صلّى اللّه عليه وسلّم واللذين فسرتهما الأحاديث بأنهما مشهدا منظر جبريل عليه السلام في الأفق في صورته العظيمة. واللّه تعالى أعلم.

تعليق على حادث الإسراء والمعراج وما ورد في ذلك من أحاديث

ومع ما ورد في صدد هذه الآيات من الأحاديث التي أوردناها آنفا والتي تفسر مداها فإن المفسرين «2» يذكرون في سياقها أيضا حادث الإسراء والمعراج

(1) انظر تفسير ابن كثير والنصوص منه .

(2) انظر تفسير سورتي النجم والإسراء في كتب تفسير الطبري والبغوي وابن كثير والخازن والطبرسي والنيسابوري والقاسمي والقرطبي إلخ .

(185/732)

ويصرفونها إليه ويروون في صدده أحاديث كثيرة متنوعة الرتب . وفيها شيء كثير من التضارب فمنها ما يفيد أن الإسراء والمعراج كانا رؤيا منامية وأن جسد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لم يبرح مكانه . ومنها ما يفيد أنه كان مشهدا روحانيا ، ومنها ما يفيد أنه كان مشهدا حيا وحادثا واقعا بالجسد واليقظة . ومنها ما يفيد أن الإسراء كان بالجسد واليقظة وأن المعراج كان في النوم أو بالروح . هذا أولا . وثانيا إن معظم الروايات تقرن حادث العروج بحادث الإسراء وتجعلهما في وقت واحد وتروي مشاهدهما في سلسلة واحدة ، وإن كان هناك روايات تفيد حدوث كل منهما لحدته .

وقد ذكرت أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعد وصوله في حادث الإسراء إلى المسجد الأقصى عرج به إلى السماء . هذا في حين أن حادث الإسراء قد أشير إليه في سورة الإسراء التي يجيء ترتيبها بعد هذه السورة بمراحل . والإشارة فيها قاصرة على الإسراء

من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما ترى في نص الآية الأولى من سورة الإسراء وهو : سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1) ومن الروايات ما يجعل حادث الإسراء قاصرا على الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى دون عروج إلى السماء . ومنها ما يجعل الإسراء والعروج أكثر من مرة ، وثالثا إن في الروايات تضاربا في الوقت الذي وقع فيه الحادث . فهناك رواية تذكر أن الإسراء والمعراج معا قد كانا بعد البعثة بخمسة عشر شهرا ، وهذا قد يتطابق مع تاريخ نزول سورة النجم ، ولكنه لا يتطابق مع تاريخ نزول سورة الإسراء التي يرجح أنها نزلت في أواسط العهد النبوي المكي . وهناك رواية تذكر وقوعهما معا بعد البعثة بخمس سنوات . وهذا قد يتطابق مع تاريخ نزول سورة الإسراء . ولكنه لا يتطابق مع تاريخ نزول سورة النجم ، لأنها نزلت أبكر كثيرا من سورة الإسراء . وهناك روايات تذكر أنهما كانا قبل الهجرة بخمس سنوات وهذا لا يتطابق مع تاريخ نزول أي من السورتين ! . بل وهناك رواية غريبة جدا تذكر أنهما وقعا قبل البعثة بسنة واحدة . وهناك رواية موازية في الغرابة لهذه الرواية وهي أن الإسراء والمعراج

وقعا قبل الهجرة بسنة واحدة . أي بعد نزول السورتين بمدة طويلة . ومما يزيد في غرابة هذه الرواية أن بعض الأئمة مثل البغوي وابن حزم يقولان إنها مما يكاد يتفق فيها الجمهور «1» .

وهناك أحاديث كثيرة جدا أوردها المفسرون في سياق حادثي الإسراء والمعراج. منها ما ورد في كتب الصحاح بنصه أو قريب منه ومنها ما لم يرو «2» .

ومن هذا النوع ما روي من قبل أئمة معروفين من أئمة الحديث بأسناد متواصلة مثل الإمام أحمد والإمام الطبراني والحافظ البزار والإمام ابن جرير والنسائي وابن أبي حاتم . ومنها ما وصف بأنه بسند حسن ومنها ما وصف بالغريب أو المنكر . ومنها ما أورد في سياق الآية الأولى من سورة الإسراء ومنها ما أورد في سياق آيات سورة النجم التي نحن في صددها . وأكثر المفسرين استقصاء واستيعابا لها فيما بدا لنا الإمام ابن كثير حتى لقد استغرقت نحو خمس وثلاثين صفحة من القطع الكبير .

وقد أورد جلها في سياق تفسير مطلع سورة الإسراء .

ومع أن بعض هذه الأحاديث قد يفيد أن المعراج كان لحدة ومن مكة رأسا وأن الإسراء كان كذلك لحدة ومن مكة رأسا فإن معظمها يفيد أنهما وقعا معا ومرة واحدة حيث أسري بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السموات حتى انتهى إلى سدرة المنتهى . مع التنبيه على أمر مهم وهو أن ما ورد في كتب الصحاح من هذه الأحاديث لا يقرن بين الإسراء والمعراج فبعضها اقتصر على خبر الإسراء إلى بيت المقدس

دون عروج إلى السماء وبعضها ذكر أن الانطلاق من المسجد الحرام كان إلى السماء دون تعريج على بيت المقدس .

ولقد قلنا قبل إن هناك فترة طويلة بين نزول سورة النجم التي تساق قصة

---

(1) البغوي قال هذا في تفسيره لآية سورة الإسراء الأولى والقاسمي هو الذي روى قول ابن حزم في سياق تفسير الآية المذكورة .

(2) انظر تفسير سورتي النجم والإسراء في كتب تفسير الطبري والبغوي وابن كثير والخازن والطبرسي والقرطبي والنيسابوري والنسفي . منهم من أورد جميع الأحاديث والروايات التي أشرنا إليها في هذه النبذة ومنهم من أورد بعضها .

الإسراء والمعراج في مناسبة آياتها التي نحن في صددها وبين نزول سورة الإسراء التي ذكر فيها الإسراء . وقد يمكن التوفيق بين ذلك بالقول تبعا لما تفيده معظم الأحاديث التي منها الوارد في كتب الصحاح أنهما وقعا في ظرف نزول سورة النجم التي كان نزولها سابقا وإن ذكر الإسراء في سورة الإسراء إنما جاء للتذكير بواقعته .

وهذا إذا تغاضينا عن الاختلافات في سنة حدوث الإسراء والمعراج التي لا تتفق أحيانا

مع الظرف المخمن لنزول أية من السورتين والتي تبدو غريبة جدا مثل وقوعهما قبل البعثة بسنة أو قبل الهجرة بسنة . غير أنه يظل هناك نقطة معترضة .

وهي أن آية سورة الإسراء الأولى تقتصر في ما تخبر به أو تذكر به على الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . وليس في آيات النجم شيء صريح عن المعراج الذي يظل خبره الصريح مستندا إلى الأحاديث المروية وحسب ، وأكثرهم يعتبر جملة وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى النجم [13] من قرائن العروج مع أن الحديث الذي أوردناه قبل عن عائشة يذكر أن المرئي هو جبريل عليه السلام .

وليس في معظم الأحاديث صراحة قطعية بأن الإسراء والمعراج وقعا باليقظة والجسد . وإن كان ذلك قد يستفاد من فحواها . غير أن في بعضها ما يفيد أنه وقع والنبي صلّى اللّه عليه وسلّم نائم في المسجد الحرام وأنه استيقظ بعد أن تمت مشاهدهما . وهناك روايات أخرى بينها تضارب في صدد ذلك . رواية أو حديث عن معاوية أن الحادث كان رؤيا صادقة . ورواية أو حديث عن عائشة أن جسد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لم يفارق فراشه . وأن الإسراء إنما كان بروحه . ورواية أو حديث عن أم هانئ عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان يبيت في بيتها ليلة الإسراء وأنها افتقدته في فراشه فلم تجده وخافت عليه أن يكون قد لحقه أذى من قريش ثم عاد فأخبرها عن ركوبه البراق ومسراه إلى بيت المقدس ورؤيته لإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وللّه

جلّ جلاله» . ورواية أو حديث آخر عن أم هانئ أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم نام عندها بعد صلاة العشاء فلما كان قبل الفجر أهابت به فاستيقظ فصلى الصبح وصلت معه ثم قال لها يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الأخيرة كما رأيت بهذا الوادي ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترين . وقال لها إنه

(188/732)

سيخبر الناس بذلك فأخذت تحذره وتخوفه من التكذيب والأذى . وهناك رواية أو حديث عن أنس أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان في بيته نفسه وأن جبريل نزل عليه من سقفه وانطلق به .

وفي الأحاديث المروية على مختلف رتبها حتى فيما ورد منها في كتب الصحاح أشياء عجيبة مذهلة . ونكتفي بإيراد النص الكامل لما ورد منها في هذه الكتب . فمن ذلك حديث رواه مسلم والترمذي عن عبد اللّه في سياق تفسير سورة النجم جاء فيه : «لما بلغ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم سدرة المنتهى قال انتهى إليها ما يعرج من الأرض وما ينزل من فوق . قال فأعطاه اللّه عندها ثلاثا لم يعطهنّ نبيا قبله . فرضت عليه الصلاة خمسا وأعطي خواتيم سورة البقرة وغفر لأمته المقحمات ما لم يشركوا باللّه شيئا» «1» .

وحديث رواه البخاري عن عبد اللّه كذلك قال : «قال اللّه تعالى لقد رأى من آيات ربّه الكبرى . قال رأى رفرفا أخضر قد سدّ الأفق» «2» .

وحديث رواه الترمذي في سياق تفسير سورة الإسراء عن أنس قال : «إن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أتي بالبراق ليلة أسري به ملجما مسرجا فاستصعب عليه فقال له جبريل أبمحمد تفعل هذا . فما ركبك أحد أكرم على اللّه منه قال فارفضّ عرقا» «3» .

وحديث ثان رواه الترمذي عن بريدة في نفس السياق عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «لما انتهينا إلى بيت المقدس قال جبريل بأصبعه فخرق بها الحجر وشدّ به البراق» «4» .

وحديث ثالث في نفس السياق عن أبي هريرة رواه الشيخان والترمذي قال : «قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم حين أسري بي لقيت موسى عليه السلام فإذا رجل مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة ولقيت عيسى فإذا ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس . ورأيت إبراهيم صلوات اللّه عليه وأنا أشبه ولده به . قال فأتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر فقيل لي خذ أيّهما شئت فأخذت اللبن فشربته فقيل لي هديت الفطرة أو

---

(1) التاج ج 4 ص 221 . [. . . . .]

(2) المصدر نفسه .

(3) المصدر نفسه ص 140 - 141 .

(4) المصدر نفسه .

أصبت الفطرة . أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك» «1» . وحديث رواه البخاري عن مالك بن صعصعة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان وذكر بين الرجلين فأتيت بطست من ذهب ملأى حكمة وإيمانا فشقّ من النحر إلى مراق البطن ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملئ حكمة وإيمانا وأتيت بدابة أبيض دون البغل وفوق الحمار البراق فانطلقت مع جبريل حتى أتينا السماء الدنيا قيل من هذا قال جبريل قيل من معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحبا به ولنعم المجيء جاء فأتيت آدم فسلمت عليه فقال مرحبا بك من ابن ونبيّ . وفي رواية فلمّا علونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى فقال مرحبا بالنبيّ الصالح والابن الصالح قلت من هذا يا جبريل قال هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين منهم أهل الجنة والتي عن شماله أهل النار فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى . فأتينا السماء الثانية قيل : من هذا ؟ قال جبريل ، قيل : من معك ؟ قال : محمد ، قيل : أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبا به ولنعم المجيء جاء فأتيت على عيسى ويحيى فقالا [مرحبا بك من أخ ونبي .

فأتينا السماء الثالثة قيل من هذا قيل جبريل قيل من معك قال محمد قيل وقد] أرسل إليه قال نعم قيل مرحبا به ولنعم المجيء جاء فأتيت يوسف فسلّمت عليه فقال مرحبا بك من أخ ونبيّ فأتينا السماء الرابعة قيل من هذا قيل جبريل قيل من معك قيل محمد قيل وقد أرسل إليه قيل نعم قيل مرحبا به ، ولنعم المجيء جاء فأتيت على إدريس فسلمت عليه فقال مرحبا بك من أخ ونبيّ فأتينا السماء الخامسة قيل من هذا قيل جبريل قيل ومن معك قيل محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحبا به ، ولنعم المجيء جاء فأتينا على هارون فسلّمت عليه فقال مرحبا بك من أخ ونبيّ فأتينا السماء السادسة قيل من هذا قيل جبريل قيل من معك قيل محمد قيل وقد أرسل إليه [قيل نعم قيل] مرحبا به ، ولنعم المجيء جاء فأتيت على موسى فسلّمت عليه فقال مرحبا بك من أخ ونبيّ فلما جاوزته بكى فقيل ما أبكاك قال يا ربّ هذا الغلام

---

(1) التاج ج4 ص 140 - 141 .

الذي بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمّتي . فأتينا السماء السابعة قيل من هذا قيل جبريل قيل من معك قيل محمد قيل وقد أرسل إليه [قيل نعم قيل] مرحبا به

ولنعم المجيء جاء فأتيت على إبراهيم فسلّمت عليه فقال مرحبا بك من ابن ونبيّ فرفع لي البيت المعمور فسألت جبريل فقال هذا البيت المعمور يصلّي فيه كلّ يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم .

ورفعت لي سدرة المنتهى فإذا نبقها كأنه قلال هجر وورقها كأنه آذان الفيول في أصلها أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران فسألت جبريل فقال أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات . وفي رواية ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام ثم فرضت عليّ خمسون صلاة فأقبلت حتى جئت موسى فقال ما صنعت قلت فرضت عليّ خمسون صلاة قال أنا أعلم بالناس منك عالجت بني إسرائيل أشدّ المعالجة وإنّ أمتك لا تطيق فارجع إلى ربك فسله التخفيف فرجعت فسألته فجعلها أربعين ثم مثله ثم ثلاثين ثم مثله فجعل عشرين ثم مثله فجعل عشرا فأتيت موسى فقال مثله فجعلها خمسا فأتيت موسى فقال ما صنعت قلت جعلها خمسا فقال مثله قلت سلّمت بخير فنودي إنّي قد أمضيت فريضتي وخفّفت عن عبادي وأجزي الحسنة عشرا . وفي رواية مسلم فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال يا محمد إنهنّ خمس صلوات كلّ يوم وليلة لكلّ صلاة عشر فذلك خمسون صلاة» «1» .

وحديث رواه مسلم عن جابر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم جاء فيه : «وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلّي فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال

شنوءة . وإذا عيسى ابن مريم عليه السلام قائم يصلي أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفي وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم - يعني نفسه - فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت من الصلاة قال قائل يا محمد هذا مالك صاحب النار فسلّم عليه فالتفتّ إليه فبدأني بالسلام» «2» .

---

(1) التاج ج 3 ص 230 - 233 .

(2) المصدر نفسه ص 234 .

وحديث رواه البخاري عن شريك بن عبد اللّه قال : «سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسري برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد فقال أولهم أيهم هو فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عيناه ولا ينام قلبه - وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم - فلم يكلّموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل فشقّ ما بين نحره إلى لبّته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب

محشو إيمانا وحكمة فحشا به صدره ولغاديده – يعني عروق حلقه – ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء الدنيا فضرب بابا من أبوابها فناداه أهل السماء من هذا فقال جبريل ، قالوا ومن معك قال معي محمد قالوا وقد بعث إليه قال نعم قالوا مرحبا به وأهلا به ، يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يريد اللّه به في الأرض حتى يعلمهم فوجد في السماء الدنيا آدم فقال له جبريل هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلم عليه ورد عليه آدم فقال مرحبا وأهلا بابني فنعم الابن أنت فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال ما هذان النهر إن يا جبريل فقال هذا النيل والفرات عنصرهما ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر فقال ما هذا يا جبريل ؟

قال هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك ثم عرج به إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الملائكة الأولى من هذا قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد بعث إليه قال نعم قالوا مرحبا به وأهلا . ثم عرج به إلى السماء الثالثة فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية ثم عرج به إلى السماء الرابعة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك . ثم عرج به إلى السماء السادسة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم إدريس في الثانية وهارون في الرابعة وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه وإبراهيم في السادسة وموسى

في السابغة بتفضيل كلام اللّه تعالى فقال موسى ربّ لم أظن أن ترفع عليّ أحدا ثم علا به فوق ذلك بما

(192/732)

لا يعلمه إلا اللّه عز وجل حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار ربّ العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فأوحى اللّه إليه فيما يوحي خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال يا محمد ماذا عهد إليك ربك فقال عهد إليّ خمسين صلاة كل يوم وليلة . قال إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم فالتفت النبي إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت فعلا به إلى الجبار تعالى وتقدس فقال وهو في مكانه يا ربّ خفف عنا فإن أمتي لا تستطيع هذا فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال يا محمد واللّه لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه فأمتك أضعف أجسادا وقلوبا وأبدانا وأبصارا وأسماعا فارجع فليخفف عنك ربك كل ذلك يلتفت النبي إلى جبريل ليشير إليه ولا يكره ذلك جبريل فرفعه عند الخامسة فقال يا رب إن أمتي ضعفاء

أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم فخفف عنا . فقال الجبار تبارك وتعالى يا محمد قال لبيك وسعديك ، قال إنه لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك فرجع إلى موسى فقال كيف فعلت فقال خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها قال موسى قد واللّه راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضا قال رسول اللّه يا موسى قد واللّه استحييت من ربي عز وجل ممّا اختلفت إليه . قال فاهبط باسم اللّه . قال واستيقظ وهو في المسجد الحرام» «1» .

وفي هذه الأحاديث التي يرويها أصحاب الكتب الخمسة وفي الأحاديث الكثيرة الأخرى التي يرويها أئمة آخرون والتي لم نر ضرورة إلى إيرادها تفاديا من

---

(1) هذا النص مفصول عن تفسير ابن كثير الذي قال هكذا ساقه البخاري في كتاب التوحيد ورواه في صفة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عن إسماعيل بن أبي أويس عن أخيه عن أبي بكر عبد الحميد عن سليمان بن بلال . والنص لم يرد في التاج .

التطويل ولأنها لا تخرج في مداها عن هذه الأحاديث بقطع النظر عن صور جديدة ومتنوعة «1» أشياء عجيبة مذهلة كما قلنا . مثل شق بطن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من النحر إلى مراق البطن وإخراج قلبه وغسله وحشوه بالإيمان والحكمة ودابة البراق البيضاء التي تضع يدها في منتهى نظرها . وجمع اللّه الأنبياء في المسجد الأقصى وصلاة النبي بهم إماما . ومثل العروج إلى السماوات واحدة بعد أخرى واستفتاح جبريل أبوابها وفتحها له وسؤال الملائكة جبريل عن من معه وتساؤلهم حينما أخبرهم أنه محمد تساؤل المفاجأ وهل بعث ؟ ولقاء النبي في بعضها لبعض الأنبياء وحديثه معهم . ومثل رؤية النبي صلّى اللّه عليه وسلّم الجنة والنار وما فيهما من أسباب النعيم والعذاب .

وسماعه صوتيهما وهما يذكران ما فيهما من ذلك واللّه يعدهما بملئهما من أهلهما .

ومثل طريقة فرض الصلوات الخمسين والمراجعة المتكررة بين النبي وربه صعودا وهبوطا في صدد تخفيفها بتوصية من موسى ومثل وصف سدرة المنتهى الهائلة بورقها التي كل ورقة تعطي الأمة . . . ومثل ما رأى في طريقه في طريق الإسراء ثم في طريق المعراج من مختلف المشاهد لمختلف الفئات من البشر كانوا يعذبون بأنواع من العذاب وكان يفسر جبريل له هذه المشاهد حيث كان منهم من يأكل لحوم الناس ومن يلمز ويهمز ومن يأكل مال اليتيم ومن لا يؤدي الزكاة . ومن يأكل الربا ، ومن يزني ، ومن يخطب في الفتن ، ومثل رؤيته جماعة من الحور العين بسبب دعوة منه وما كن عليه من جمال وما كان عليهن من حلى . ومثل رؤيته

جميع أرواح ذرية آدم السعداء عن يمينه في السماء الأولى وجميع ذريته التعساء عن شماله وضحكه حينما يلتفت إلى الأولين وبكائه حينما يلتفت إلى الآخرين ومثل عرض أرواح الناس على آدم أبيهم فيأمر بالمؤمنين إلى عليين وبالكفار إلى سجين .

ورؤيته أمته شطرين شطرا عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس وشطرا عليهم ثياب رمد .

وصلاته في البيت المعمور بالأولين وحجب الآخرين عنه والأعداد والأشكال الهائلة للملائكة الذين رآهم عند سدرة المنتهى أو في البيت المعمور .

ومثل رؤيته نهر الكوثر وعليه قباب اللؤلؤ والياقوت والزبرجد وأواني الذهب وماءه

---

(1) انظر مطلع تفسير سورة الإسراء في تفسير ابن كثير .

الذي كان أبيض من الثلج وأحلى من العسل وطينه الذي كان أطيب من المسك .

ومثل رؤيته نهري الفرات والنيل ينبعان من ناحية سدرة المنتهى . ورؤيته في الجنة أنهار اللبن والعسل المصفى والخمر . وهناك تغاير بارز في بعض ما يوصف بالصحيح منها مثل رؤيته موسى قائما يصلي في قبره ورؤيته إياه في السماء السادسة . ومثل رؤيته إبراهيم وعيسى في الأرض ثم في السموات . . .

وفي حين يذكر حديثا مالك بن صعصعة وشريك اللذان يرويهما البخاري خبر شق بطن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بين يدي حادث الإسراء يروى حديث صحيح آخر عن أنس بن مالك أن عملية من هذا النوع أجريت للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم في زمن رضاعته في بني سعد حيث روى عنه «أنّ رسول اللّه أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فشقّ عن قلبه فاستخرجه فاستخرج منه علقة فقال هذا حظّ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمّه يعني ظئره فقالوا إن محمدا قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره» «1».

ونحن نعرف أن كثيرا من أئمة الحديث والتفسير يقررون صحة خبر وقوع الإسراء والمعراج معا وباليقظة والجسد. غير أننا إزاء صراحة القرآن القطعية في الإسراء دون المعراج، وإزاء الأحاديث التي وردت في كتب الصحاح وإزاء بعضها الذي يذكر خبر الإسراء إلى بيت المقدس فحسب، وبعضها يذكر خبر الانطلاق إلى السماء رأسا وإزاء ما احتوته الأحاديث من تفاصيل عجيبة نرى أن نقف موقف التحفظ إزاء ما احتوته من تفاصيل في سياق المعراج وبخاصة من القول إنه كان باليقظة والجسد. وكل ما نرجح صحته إزاء كثرة الأحاديث الواردة التي لا يمكن إلّا أن تكون ترديدا لخبر مشهور هو أن المعراج رؤيا منامية أو مشهد روحاني شاء اللّه عز وجل أن يري رسوله فيه من آياته الكبرى مشاهد مما في عمله

في ملكوت السموات والأرض حاضرا ومستقبلا ودنيويا وأخرويا ومما ورد كثير من صوره في

(1) التاج ج 3 ص 213 - 214.

القرآن المكي أولا ثم القرآن المدني. وأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قصّ على أصحابه ما شاء اللّه عز وجل أن يجليه له من صور في هذا المشهد في ظروف متفرقة نرجح أنها كانت في العهد المدني لأن معظم رواة أحاديث هذا المشهد من أهل هذا العهد وبخاصة مالك بن صعصعة وأبو هريرة وأنس بل وعائشة رضي اللّه عنهم والأخيرة كانت طفلة حين وقوع الحادث. ولم تبلغ وترشد إلّا في المدينة كما هو مشهور وقد يدعم ما رجحناه نصوص بعض الأحاديث. وقد رأينا أن نسهب في هذا الأمر في هذه الطبعة لأننا سمعنا بعض النقد على ما كتبناه مقتضبا في الطبعة الأولى فأردنا أن نعرض الأمر في هذه الطبعة عرضا أوسع.

أما حادث الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فالنص القرآني الصريح به قد يجعل الأمر مختلفا عنه بالنسبة لما قلناه عن ماهية المعراج. ونؤجل الكلام عنه إلى مناسبته

القرآنية في سورة الإسراء .

ولقد روى البخاري حديثا عن سمرة بن جندب يحتوي خبر رؤيا منامية رآها النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وقصها على أصحابه جاء فيه : «كان النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم إذا صلّى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال من رأى منكم الليلة رؤيا فإن رأى أحد قصّها فيكون ما شاء اللّه .

فسألنا يوما فقال هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ قلنا : لا ، قال : لكنّي رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلّوب من حديد يدخله في شدقه حتى يبلغ قفاه ثمّ يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك ويلتئم شدقه هذا فيعود فيضع مثله . فقلت ما هذا قالا انطلق ، فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة فيشدخ به رأسه ، فإذا ضربه تدهده الحجر فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو فعاد إليه فضربه . قلت من هذا ؟ قالا : انطلق .

فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيّق وأسفله واسع تتوقّد تحته نار فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا يخرجون فإذا خمدت رجعوا فيها ، وفيها رجال ونساء عراة قلت من هذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم على وسط النهر ، وعلى شطّ النهر رجل بين يديه حجارة . فأقبل الرجل الذي في النهر فإذا

أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فردّه حيث كان فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان . فقلت ما هذا . قالا انطلق . فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفي أصلها شيخ وصبيان وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها فصعدا بي في الشجرة فأدخلاني دارا لم أر قطّ أحسن منها ، فيها رجال شيوخ وشباب ونساء وصبيان ثم أخرجاني منها فصعدا بي الشجرة فأدخلاني دارا هي أحسن وأفضل فيها شيوخ وشباب . فقلت طوفتماني الليلة فأخبراني عما رأيت . قالا نعم ، أما الذي رأيته يشقّ شدقه فكذاب يحدّث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به إلى يوم القيامة . والذي رأيته يشدخ رأسه رجل علّمه اللّه القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل فيه بالنهار يفعل به إلى يوم القيامة . والذي رأيته في الثقب فهم الزناة . والذي رأيته في النهر آكل الرّبا والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام والصبيان حوله فأولاد الناس والذي يوقد النار مالك خازن النار . والدار الأولى التي دخلت الجنة دار عامة المؤمنين . وأما هذه الدار فدار الشهداء . وأنا جبريل وهذا ميكائيل فارفع رأسك فرفعت رأسي فإذا فوقي مثل السحاب قالا ذاك منزلك قلت دعاني أدخل منزلي قالا إنه بقي لك عمر لم

تستكمله . فلو استكملته أتيت منزلك» «1» .

ولقد أورد ابن كثير في سياق تفسير سورة الإسراء وفي سياق تفسير الآية [69] من سورة ص حديثا رواه الإمام أحمد عن ابن عباس فيه خبر رؤيا منامية رآها النبي صلّى اللّه عليه وسلّم جاء فيه : «قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أتاني ربي الليلة في أحسن صورة أحسب يعني النوم . فقال يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قال قلت : لا ، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي - أو قال نحري - فعلمت ما في السموات وما في الأرض ثم قال يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى قال قلت نعم يختصمون في الكفارات والدرجات . قال وما الكفارات ؟ قال قلت المكث في المساجد بعد الصلوات والمشي على الأقدام إلى الجماعات وإبلاغ

---

(1) التاج ج 4 ص 275 - 277 .

الوضوء في المكاره . من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه . وقال قل يا محمد إذا صليت اللهمّ إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحبّ المساكين وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون وقال والدرجات بذل الطعام وإفشاء

السلام والصلاة بالليل والناس نيام» . وروى الطبري هذا الحديث أيضا في سياق تفسير آية سورة ص [69] عن ابن عباس مع زيادة مهمة وهي : «أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال لربّه بعد ما ذكر له فيما يختصم الملأ الأعلى يا ربّ إنك اتخذت إبراهيم خليلا وكلّمت موسى تكليما وفعلت وفعلت فقال ألم أشرح لك صدرك . ألم أضع عنك وزرك . ألم أفعل بك ألم أفعل بك قال فأفضى إليّ بأشياء لم يؤذن لي أن أحدّثكموها قال فذاك قوله في كتابه ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى (8) فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى (9) فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى (10) ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى (11) فجعل نور بصري في فؤادي فنظرت إليه بفؤادي» . وحديث رواه البخاري عن سمرة بن جندب عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «أتاني الليلة آتيان فابتعثاني فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر كأقبح ما أنت راء قالا لهم اذهبوا فقعوا في ذلك النهر فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة . قالا لي هذه جنة عدن وهذاك منزلك . أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز اللّه عنهم» «1» .

ولقد روى الشيخان والنسائي عن ابن عباس حديثا فيه خبر مشهد روحاني شهده النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في حالة يقظته حيث روى : «أن النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم صلّى بأصحابه صلاة كسوف فرأوه يمدّ يتناول شيئا فلمّا فرغ قالوا يا رسول اللّه رأيناك تناولت

شيئا في مقامك ثم رأيناك تكعكعت فقال إني رأيت الجنة فتناولت عنقودا ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا . وإني رأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قطّ أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء ، قالوا : بم يا رسول اللّه ؟ قال بكفرهنّ قالوا أيكفرن باللّه ؟ قال : يكفرن

(1) التاج ج 4 ص 119 .

(198/732)

العشير ويكفرن الإحسان» «1» . وروى مسلم والنسائي هذا الحديث عن جابر ببعض المغايرة حيث روى جابر أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعد أن قضى صلاة الكسوف قال لأصحابه : «ما من شيء توعدونه إلّا قد رأيته في صلاتي هذه . لقد جيء بالنار وذلكم حين رأيتموني تأخرت مخافة أن يصيبني من لفحها ، وحتى رأيت فيها صاحب المحجن يجرّ قصبه في النار كان يسرق الحاجّ بمحجنه فإن فطن له قال إنما تعلّق بمحجني وإن غفل عنه ذهب به وحتّى رأيت فيها صاحبة الهرة التي ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من حشاش الأرض حتى ماتت جوعا . ثم جيء بالجنة وذلكم حين رأيتموني تقدمت حتى قمت مقامي هذا ، ولقد مددت يدي وأنا أريد أن أتناول من ثمرها لتنظروا إليه . ثم بدا لي أن لا أفعل فما من شيء توعدونه إلّا قد رأيته في صلاتي هذه» «2» . وروى الشيخان

والنسائي عن أسماء حديثا فيه مشهد روحاني آخر في اليقظة قالت : «إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حمد اللّه وأثنى عليه ثم قال ما من شيء لم أكن أريته إلّا رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار فأوحي إليّ أنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريبا من فتنة المسيح الدجال . يقال ما علمك بهذا الرجل فأما المؤمن فيقول هو محمد رسول اللّه جاءنا بالبينات والهدى فأجبناه واتبعناه هو محمد ثلاثا فيقال نم صالحا فقد علمنا إن كنت لموقنا به وأما المنافق أو المرتاب فيقول لا أدري سمعت الناس يقولون شيئا فقلته» «3» . وبين هذه الأحاديث التي يتبادر أن من الحكمة التي توخاها النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في قصة فيها ما رآه من رؤاه المنامية كما هو ملموح فيها قصد الإنذار والترهيب والبشرى والترغيب والحث على الأعمال الصالحة والتزام ما أمر اللّه والتحذير من المخالفة والانحراف نحو ما نهى اللّه عنه من أفعال وتصرفات وبين ما ذكرته بعض الأحاديث عن مشاهدات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في إسرائه وبخاصة في معراجه من تماثل عجيب يدعم فيما

---

(1) التاج ج 1 ص 279 .

(2) المصدر نفسه ص 279 - 280 .

(3) المصدر نفسه ص 239 . [. . . . .]

يتبادر لنا فأرجحناه من أنه مشهد روحاني إن لم يكن رؤيا منامية قصها على أصحابه متوخيا ما ذكرناه من إنذار وترهيب وترغيب وحث وتحذير ، ويسوغ القول إن هناك التباسا في الروايات أو من الرواة بسبب بعد الحادث الذي وقع في أواسط العهد المكي ، والله أعلم .

ونريد أن تحسن الظن في ذكاء الذين انتقدوا ترجيحنا في الطبعة الأولى بأن المعراج ومشاهده مشاهد روحانية إن لم تكن رؤيا منامية فلا نود لهم أن يكونوا قد ظنوا أننا في ما رجحناه ننكر قدرة الله على خرق النواميس . فاعترافنا بقدرة الله الشاملة ومعجزاته للنبي صلّى الله عليه وسلّم والأنبياء وما في ملكوت الله وعلمه من عجائب مذهلة يقصر العقل الإنساني عن إدراكها لا يحتاج إلى تكرار وتوكيد في هذه المناسبة . غير أن ترجيحنا إنما كان بسبب الأحاديث المتضاربة في كون المعراج بالروح أو الجسد واليقظة أو المنام ومكان الانطلاق أولا وما روي في صدد كون آيات النجم التي تتخذ قرينة عليه هي في مشهد جبريل عليه السلام ثانيا ، والتماثل العجيب بين كثير من المشاهد التي وردت في أحاديث المعراج والمنامات النبوية التي قصها النبي صلّى الله عليه وسلّم على أصحابه ثالثا ، وكون الرؤيا المنامية أو المشهد الروحاني هما اللذان يتحملان دون اليقظة والجسد معنى انتقاد الزمان والمكان ورؤية المشاهد العجيبة المذهلة الدنيوية والأخروية والسماوية

والأرضية والسابقة والحاضرة واللاحقة إلى آخر الحياة في لمحة أو لحظة رابعا . والله تعالى أعلم .

ونحن إذ نرجح أن المعراج رؤيا منامية أو مشهد روحاني مماثل لما رآه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في مناماته التي قص فيها على أصحابه ما رآه فيها من مشاهد ونبههم إلى ما فيها من عبر ونذر نقرر أن رؤيا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم حق . وأن ما يمكن أن يكون قصه على أصحابه مما شاء اللّه تعالى أن يجليه له من مشاهد متنوعة في السماء والأرض وأن يبلغه إياه من أوامر ونواه وأن يريه إياه من مصائر الأتقياء ، والمنحرفين هو حق ومن جملة ذلك كيفية فرض الخمسين صلاة ثم تخفيفها بالمراجعة إلى خمس . ولقد رأى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في منامه أنه زار على رأس المؤمنين المسجد الحرام فاعتبر ذلك أمرا ربانيا

(200/732)

ورحل مع المؤمنين إلى مكة بسبيل تنفيذه . وأيده اللّه فيما رآه ووصفه بأنه حق كما جاء في آية سورة الفتح هذه : لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (27) والله تعالى أعلم .

تعليق على ما ورد في كتب التفسير في سياق بعض هذه الآيات من مسألة رؤية النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ربه عز وجل

ومما يعرض له المفسرون في سياق بعض هذه الآيات والتي قبلها مسألة رؤية النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ربه عز وجل. وقد أوردوا في صدد ذلك أحاديث عديدة ومثبتة ونافية ومؤولة. وفي بعضها تضارب أيضا. منها حديث رواه مسلم عن ابن عباس في معنى ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى (11) أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى [النجم: 11 - 13] أنه قال: «إنّ محمدا رأى ربّه مرتين بفؤاده» وحديث رواه مسلم عن أبي ذرّ قال: «سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم هل رأيت ربّك فقال نور. إني أراه. وفي رواية رأيت نورا» «1». وحديث عن عكرمة جاء فيه: «إنه سمع ابن عباس يقول إن محمدا رأى ربّه فقال له أليس اللّه يقول لا تدركه الأبصار؟ فقال له: ويحك إذا تجلّى بنوره، وإنه أريه مرتين» «2». وحديث رواه ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب قال: قالوا يا رسول اللّه هل رأيت ربّك؟ قال: رأيته بفؤادي مرتين «3». ثم قرأ: ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى النجم [11] وقد روى هذا الحديث أيضا ابن جرير بطرقه.

وحديث رواه ابن أبي حاتم عن أبي ذر: «أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم رأى ربّه بقلبه ولم يره بعينه». وحديث رواه الإمام أحمد عن مسروق وروى صيغة قريبة له الشيخان

---

(1) التاج ج 4 ص 220.

(2) المصدر نفسه.

(3) انظر تفسير ابن كثير لسورة النجم.

الجزء الثاني من التفسر الحديث 7

والترمذي. وقد جاء في هذه الصيغة: «قال مسروق كنت متكئا عند عائشة فقالت ثلاث من تكلّم بواحدة منهنّ فقد أعظم على اللّه الفرية. من زعم أن محمدا رأى ربّه فقد أعظم على اللّه الفرية واللّه يقول: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ الأنعام [103]. وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ الشورى [51] فقلت يا أمّ المؤمنين أنظريني ولا تعجليني أليس يقول اللّه وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى النجم [13] وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ التكوير [23].

قالت: أنا أول من سأل رسول اللّه قال إنما ذاك جبريل ما رأيته في الصورة التي خلق فيها غير هاتين المرتين رأيته مهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض... إلخ» «1». والحديث الذي أوردناه قبل قليل عن الإمام أحمد عن ابن عباس والذي يبدأ بجملة: «أتاني ربّي الليلة في أحسن صورة أحسب يعني في النوم» ثم الزيادات الواردة في الصيغة

التي رواها الطبري عن ابن عباس والتي أوردناها آنفا أيضا . وحديث رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود في سياق تفسير وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى النجم [13 - 14] قال : «قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم رأيت جبريل وله ستمائة جناح ينتثر من ريشه التهاديل من الدر والياقوت» .

ويمكن أن يستخلص من هذه الأحاديث أن الضمير في وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى مصروف على الأرجح إلى جبريل كما هو الشأن في ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى النجم [8] وأن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إنما رأى جبريل وإنه لم ير ربه بعينه الباصرة في يقظته وأن ذلك ممتنع .

ونصوص كثير من الأحاديث التي أوردناها هنا تقوي رجحان انقطاع الصلة بين آيات سورة النجم التي نحن في صددها وحادث المعراج وتسوغ القول إنه أقحم عليها إقحاما وإن خبره إنما كان في الأحاديث المروية في صدده . كما أنها تدعم ما قلناه في نهاية التعليق السابق في صدد ماهيته ، واللّه أعلم . انتهى . اهـ ﴿التفسير الحديث حـ 2 صـ 74 - 98﴾

---

(1) التاج ج 4 ص 100 .

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى » .

المماراة ، المجادلة ، والبهت ، والتكذيب .

والآية تحمل استفهاما إنكاريّا ، ينكر على المشركين مماراتهم للنبى ، وجدلهم له ، فيما رأى من آيات ربه مما لم يروه . . إنه شاهد وهم غائبون ، وهو مبصر ، وهم لا يبصرون . .

فكيف يجادل الغائب فيما يخبر به الشاهد ؟ وكيف يكون للأعمى حجة يحاجّ بها ما يراه المبصر ؟

[المعراج . . وما يقال فيه] قوله تعالى : « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى » .

هو تعقيب على مماراة المشركين للنبى وتكذيبهم له ، لما يتلوه عليهم ، ويقول لهم عنه ، إنه كلمات اللّه ، وآياته ، تلقاها وحيا من ربه ، على لسان أمين الوحى ، ورسول السماء ، جبريل ، عليه السلام .

وإنهم إذ يمارون فى أن تتدلىّ ملائكة السماء إلى الأرض ، وأن تخالط إنسانا من الناس ، وتلقى إليه بكلمات اللّه . إنهم إذ يمارون فى هذا ويستكثرونه ، ألا فليسمعوا ما هو أغرب وأعجب ! ! إن هذا النبي الذي يستكثرون عليه أن يكون على صلة بالسماء ، وأن يتنزل عليه ملك من عند اللّه . هذا النبي هو الذي قد دعى إلى السماء ، وهو الذي أصعد إلى

الملأ الأعلى ، فى موكب عظيم ، تحفّ به الملائكة ، ويحدو ركبه الأمين جبريل ، وأنه ما زال يصعد بركبه المبارك الميمون المهيب ، حتى بلغ سدرة المنتهى ، وهو غاية ما تنتهى إليه الطاقة البشرية ، فى أعلى منازلها .

والسدرة ، واحدة السدر ، وهو شجر النبق ، وهو من أشجار البادية ، دائم الخضرة ، كثير الفروع ، ممتدّ الظلال .

(203/732)

واختيار شجرة السدر ، للدلالة على النهاية التي لا يتجاوزها مخلوق من العالم العلوي . لأن شجر السدر شجر صحراوىّ ، ينبت على حافة الصحراء ، بين البادية والحاضرة ، فهو بهذا أمارة من أمارات البادية التي تكاد تماسّ الحياة الحضرية ، وتقف على عتبتها ، دون أن تتجاوزها إلى ما وراءها . . إنها أقوى ، وأقدر نبت أصيل من نبات البادية ، يستطيع أن يمتد فيصل إلى مشارف العالم الحضري .

أما النخل . فإنه وإن كان من نبت الصحراء ، إلا أنه لا ظلّ له ، يجتمع الناس تحته . ، كما هو الشأن فى شجر السّدر .

وأما العنب والرمان ، ونحوها ، فإنها من نبات الحضارة أصلا ، ثم استجلبت إلى البادية .

وعلى هذا ، فإن شجرة السدر هنا تشير - والله أعلم - إلى نقطة التقاء بين عالمين عالم « البشر » الذي تتحرك فيه البشرية جميعها ، والتي تستطيع بما يمدها الله سبحانه وتعالى من فضله أن تصعد فى هذا العالم حتى تبلغ سدرة المنتهى ، ممثلة به فى خاتم النبيين ، محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعالم الملائكة المقربين ، الذين جعل الله لهم وراء سدرة المنتهى مجالا آخر . ينطلقون فيه ، ومنهم جبريل عليه السلام .

والضمير فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ رَآهُ » يراد به النبي - صلوات الله وسلامه عليه - أي أن النبي رأى جبريل نزلة أخرى ، وهو فى الملأ الأعلى عند سدرة المنتهى .

وفى قوله تعالى : « نَزْلَةً أُخْرَى » - إشارة إلى أن جبريل - عليه السلام - نزل نزلة أخرى فى العالم العلوي ، غير تلك النزلة التي ينزلها إلى العالم الأرضى .

وإنه التقى برسول الله عند سدرة المنتهى ، التي عندها جنة المأوى . . وهذا يعنى أن جبريل عليه السلام نزل من العالم العلوي ، مما فوق سدرة المنتهى ، حتى

بلغ سدرة المنتهى . . حيث كان بينه وبين النبي لقاء فى هذا العالم العلوىّ ، الذي يفيض بجلال النور ، وبهائه ، مما لا تدرك العقول كنهه ، ولا يقع فى الخيال تصوره .

وقوله تعالى : « إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى » .

« إذ » ظرف يكشف عن الحال التي تم فيها لقاء النبي مع جبريل ، عليهما السلام ، عند سدرة المنتهى ، فقد غشى هذه السدرة ، ما غشّاها ، ولبسها من الروعة والجلال ما لبسها ، مما لا تدركه العقول ، ولا تناله الأفهام .

وقوله تعالى « ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى » . المراد بالبصر هنا ، بصر النبي صلوات اللّه وسلامه عليه ، وأن رؤيته للحقائق التي عرضت له فى هذا المقام العظيم ، كانت رؤية محققة ، موثّقة ، لم يدخل عليها زيغ أو انحراف ، عن القصد ، أو طغيان ، أي مجاوزة ، عن الحق ، فلم تخلط حقيقة بحقيقة ، بل وقع كل شىء موقعه فى عين الرسول الكريم ، وفى قلبه .

وقوله تعالى : « لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى » .

الضمير فى « رأى » للرسول الكريم ، وأنه قد رأى فى تصعيده فى الملأ الأعلى آيات كبرى من آيات ربه ، مما لم يقع لبشر غيره .

ووصف الآيات بأنها كبرى ، منظور فيه إلى تقدير المخلوقات . . أما آيات اللّه سبحانه وتعالى ، فهى جميعها على وصف واحد ، وأن أيّا منها هو الكمال كله ، والجلال جميعه ، ومثل هذا قوله تعالى لموسى . عليه السلام . « لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى » .

هذا ما نراه فى « المعراج » على ضوء آيات اللّه . . وفيها نرى أن معراج الرسول . صلوات

اللّه وسلامه عليه ـ إلى الملأ الأعلى ، كان استكمالا لتلك الرحلة الروحية ، التي أرادها اللّه سبحانه وتعالى لنبيه الكريم ليلة الإسراء ، وأن النبي الكريم قطع المرحلة الأولى من الرحلة فى العالم الأرضى ، بين المسجد الحرام ،

(205/732)

والمسجد الأقصى ، وأن هذه الرحلة كانت أشبه بمقدّمة لما هو مقدم عليه ، صلوات اللّه وسلامه عليه ، من العروج إلى العالم العلوي ، حتى إذا أنست روحه ، واطمأن قلبه ، أخذ طريقه إلى الملأ الأعلى مصعّدا ، حتى بلغ سدرة المنتهى ! وهى غاية ما يمكن أن تحتمله البشرية فى الذروة العليا من مراتب كمالها . أما تلك الإضافات ، وهذه الذيول ، التي تتجاوز هذا المفهوم لآيات اللّه ، والتي تحكى عن تلك الرحلة الروحية ما تحكى من غرائب وأعاجيب ـ فهى فى رأينا ـ مما لا يعوّل عليه .

وقد عرضنا لهذا الموضوع فى بحث خاص ، عند تفسيرنا لقوله تعالى : «سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا » . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 14 صـ 594 . 597 ﴾

(206/732)

وقال ابن عاشور :

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) ﴾

الأظهر أن هذا ردّ لتكذيب من المشركين فيما بلغهم من الخبر عن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم الملَك جبريل وهو الذي يؤذن به قوله بعد : ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ .

واللام في قوله : ﴿ الفؤاد ﴾ عوض عن المضاف إليه ، أي فؤاده وعليه فيكون تفريع الاستفهام في قوله : ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ استفهاماً إنكارياً لأنهم مَارَوْه .

ويجوز أن يكون قوله : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ تأكيداً لمضمون قوله : ﴿ فكان قاب قوسين ﴾ [النجم : 9] فإنه يؤذن بأنه بمرأى من النبي صلى الله عليه وسلم لرفع احتمال المجاز في تشبيه القرب ، أي هو قرب حسي وليس مجرد اتصال رُوحاني فيكون الاستفهام في قوله : ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ مستعملاً في الفرض والتقدير ، أي أفستكذبونه فيما يرى بعينيه كما كذبتموه فيما بلغكم عن الله ، كما يقول قائل : "أتحسبني غافلاً" وقول عمر بن الخطاب للعباس وعليّ في قضيتهما "أتحاولان مني قضاءً غير ذلك" .

وقرأ الجمهور ﴿ ما كذب ﴾ بتخفيف الذال ، وقرأه هشام عن ابن عامر وأبو جعفر بتشديد الذال ، والفاعل والمفعول على حالهما كما في قراءة الجمهور .

والفؤاد : العقل في كلام العرب قال تعالى : ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ﴾ [القصص :

10] .

والكذب : أطلق على التخييل والتلبيس من الحواس كما يقال : كذبته عينه .

و﴿ ما ﴾ موصولة ، والرابط محذوف ، وهو ضمير عائد إلى ﴿ عبده ﴾ في قوله : ﴿ فأوحى إلى عبده ﴾ [النجم : 10] أي ما رآه عبده ببصره .

وتفريع ﴿ أفتمارونه ﴾ على جملة ﴿ ما كذب الفؤاد ما أرى ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ أفتمارونه ﴾ من المماراة وهي الملاحاة والمجادلة في الإِبطال .

وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف ﴿ أفتمرونه ﴾ بفتح الفوقية وسكون الميم مضارع مَرَاه إذا جحده ، أي أتجحدونه أيضاً فيما رأى ، ومعنى القراءتين متقارب .

(207/732)

وتعدية الفعل فيهما بحرف الاستعلاء لتضمنه معنى الغلبة ، أي هَبْكُم غالبتموه على عبادتكم الآلهة ، وعلى الإِعراض عن سماع القرآن ونحو ذلك أتغلبونه على ما رأى ببصره .

وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13)

أي إن كنتم تجحدون رؤيته جبريل في الأرض فلقد رآه رؤية أعظم منها إذ رآه في العالم العلوي مصاحِباً ، فهذا من الترقي في بيان مراتب الوحي ، والعطف عطف قصة على قصة

ابتدىء بالأضعف وعقب بالأقوى .

فتأكيد الكلام بلام القسم وحرف التحقيق لأجل ما في هذا الخبر من الغرابة من حيث هو قد رأى جبريل ومن حيث أنه عَرج به إلى السماء ومن الأهمية من حيث هو دال على عظيم منزلة محمد صلى الله عليه وسلم فضمير الرفع في ﴿ رءاه ﴾ عائد إلى ﴿ صاحبكم ﴾ [النجم : 2] ، وضمير النصب عائد إلى جبريل .

و ﴿ نزلة ﴾ فَعلة من النزول فهو مصدر دال على المرة : أي في مكان آخر من النزول الذي هو الحلول في المكان ، ووصفها بـ ﴿ أخرى ﴾ بالنسبة لما في قوله : ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ [النجم : 8] فإن التدلِّي نزول بالمكان الذي بلغ إليه .

وانتصاب ﴿ نزلة ﴾ على نزع الخافض ، أو على النيابة عن ظرف المكان ، أو على حذف مضاف بتقدير : وقت نزلة أخرى ، فتكون نائباً عن ظرف الزمان .

وقوله : ﴿ عند سدرة المنتهى ﴾ متعلق بـ ﴿ رءاه ﴾ .

وخُصت بالذكر رؤيته عند سدرة المنتهى لعظيم شرف المكان بما حصل عنده من آيات ربه الكبرى ولأنها منتهى العروج في مراتب الكرامة .

و ﴿ سدرة المنتهى ﴾ : اسْم أطلقه القرآن على مكان علوي فوق السماء السابعة ، وقد ورد التصريح بها في حديث المعراج من الصحاح عن جمع من الصحابة .

ولعله شُبه ذلك المكان بالسدرة التي هي واحدة شجر السدر إما في صفة تفرعه ، وإما

في كونه حداً انتهى إليه قرب النبي صلى الله عليه وسلم إلى موضع لم يبلغه قبله ملَك .

ولعله مبني على اصطلاح عندهم بأن يجعلوا في حدود البقاع سدراً .

(208/732)

وإضافة ﴿ سدرة ﴾ إلى ﴿ المنتهى ﴾ يجوز أن تكون إضافة بيانية .

ويجوز كونها لتعريف السدرة بمكان ينتهي إليه لا يتجاوزه أحد لأن ما وراءه لا تطيقه المخلوقات .

والسدرة : واحدة السدر وهو شجر النبق قالوا : ويختص بثلاثة أوصاف : ظل مديد ، وطعم لذيذ ، ورائحة ذكية ، فجعلت السدرة مثلاً لذلك المكان كما جُعلت النخلة مثلاً للمؤمِن .

وفي قوله : ﴿ ما يغشى ﴾ إبهام للتفخيم الإجمالي وأنه تضيق عنه عبارات الوصف في اللغة .

وجنة المأوى : الجنة المعروفة بأنها مأوى المتقين فإن الجنة منتهى مراتب ارتقاء الأرواح الزكية .

وفي حديث الإِسراء بعد ذكر سدرة المنتهى " ثم أدخلت الجنة " .

وقوله : ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ ظرف مستقر في موضع الحال من ﴿ سدرة المنتهى ﴾ أريد به التنويه بما حفّ بهذا المكان المسمى سدرة المنتهى من الجلال والجمال .

وفي حديث الإِسراء " حتى انتهَى بي إلى سدرة المنتهى وغشيها ألوان لا أدري ما هي " وفي رواية "غشيها نور من اللَّه ما يستطيع أحد أن ينظر إليها "

وما حصل فيه للنبي صلى الله عليه وسلم من التشريف بتلقّي الوحي مباشرة من الله دون واسطة الملَك ففي حديث الإِسراء " حتى ظَهرت بمستوىً أسمع فيه صريف الأقلام ففرض الله على أمتي خمسين صلاة " الحديث .

وجملة ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ معترضة وهي في معنى جملة ﴿ ولقد رءاه نزلة أخرى ﴾ إلى آخرها ، أي رأى جبريل رؤية لا خطأ فيها ولا زيادة على ما وصف ، أي لا مبالغة .

والزيغ : الميل عن القصد ، أي ما مال بصره إلى مرئي آخر غير ما ذكر ، والطغيان : تجاوز الحد .

وجملة ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ تذييل ، أي رأى آيات غير سدرة المنتهى ، وجنة المأوى ، وما غَشى السدرة من البهجة والجلال ، رأى من آيات الله الكبرى .

والآيات : دلائل عظمة الله تعالى التي تزيد الرسول ارتفاعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ عندها جنة المأوى ﴾

والمأوى مفعل من أوى يأوي إذا انضم إلى المكان وصار إليه واستقر به وقال عطاء عن ابن عباس هي الجنة التي يأوي إليها جبريل والملائكة وقال مقاتل والكلبي هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء وقال كعب جنة المأوى جنة فيها طير خضر ترتع فيها أرواح الشهداء وقالت عائشة رضي الله عنها وزر بن حبيش هي جنة من الجنان والصحيح أنه اسم من أسماء الجنة كما قال تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى وقال في النار فإن الجحيم هي المأوى وقال ومأواكم النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حادي الأرواح صـ 97 ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى البصيرة)

وهى قوّة القلب المدركة .

ويقال لها : بَصَر أَيضاً : قال الله – تعالى – : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ وجمع البصر أَبصار ، وجمع البصيرة بصائر .

ولا يكاد يقال للجارحة الناظرة بصيرة ؛ إنما هى بَصَرٌ ؛ نحو ﴿ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ ويقال للقوّة الَّتى فيها أَيضاً : بَصَر .

ويقال منه : أَبصرت ، ومن الأَوّل : أَبصرته ، وبَصُرت به .

وقلَّما يقال فى الحاسّة إذا لم تضامّه رُؤية القلب : بَصُرت .

ومنه ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ أَى على معرفة وتحقُّق .

وقوله : ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ أَى عليه من جوارحه بصيرة ، فتبصّره وتشهد عليه يوم القيامة .

وقال الأَخفش : جعله فى نفسه بصيرة ؛ كما يقال : فلان جُود وكرم .

فههنا أَيضا كذلك ؛ لأَنَّ الإنسان ببديهة عقله يعلم أَن ما يقرّبه إلى الله هو السّعادة ، وما يبعده عن طاعته الشقاوة .

وتأْنيث البصير لأَنَّ المراد بالإِنسان هنا جوارحه .

وقيل : الهاءُ للمبالغة ؛ كعلاَّمة ، وزاوية .

والضَّرير يقال له : البصير ، على سبيل العكس .

والصّواب أَنه قيل له ذلك لماله من قوّة بصيرة القلب .

وقوله : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصَارَ ﴾ حمله كثير من المتكلّمين على الجارحة .

وقيل : فى ذلك إِشارة إِلى ذلك ، وإِلى الأَذهان ، والأَفهام .

والباصرة : الجارحة الناظرة .

﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ قيل معناه : صار أَهله بُصَراءَ ؛ نحو رجل مُخْبِث ، ومُضْعِف أَى أَهله خُبثاءُ وضعفاءُ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَآئِرَ للنَّاسِ ﴾ : آية جعلناها عِبرة لهم .

وقوله : ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ أَى انتظر حتى ترى ويرون .

وقوله : ﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ أَى طالبين للبصيرة .

ويصحّ (أَن يستعار) الاستبصار للإِبصار ؛ نحو استعارة الاستجابة للإِجابة .

وقوله : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى ﴾ أَى تبصيرا وتنبيناً .

يقال : بَصّرته تبصيراً ، وتَبْصِرة ؛ نحو ذكَّرته تذكيراً وتذكرة .

والبصيرة : قطعة من الدّم تلمع ، والتُرْس اللامع ، وما بين شِقَّتى الثوب ، والمزادة ، ونحوها الَّتى تبصر منه .

والبَصْرة : حجارة رِخوة تلمع كأَنَّها تُبصر .

وورد البصر فى القرآن على وجوه : بصر النظر والحجّة : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارجعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً ﴾ ، وبَصَر الأَدب ، والحرمة : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ ، وبصر للتعجيل والسّرعة : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ ، وبصر الحيرة والحسرة : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴾ ، وبصر للعمى فى الكافر ، والجهالة : ﴿ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ ، وبصر السّؤال عن المعصية ، والطَّاعة : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ ﴾ ، وبصر فى عدم الفائدة والمنفعة : ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ ﴾ ، وبصر للغىّ والغفلة : ﴿ أُولَائِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ ، وبصير للغِطاءِ واللعنة : ﴿ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ ، وبصير لإِبعاد المنكرين عن اللّقاءِ والرّؤية : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ ، وبصر للختم

والخسارة : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ ﴾ وبصر للنَّظر والعِبْرة : ﴿ فَاعْتَبِرُواْ يَاأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 223.224 ﴾

(212/732)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والثلاثون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/733)

الجزء الثالث والثلاثون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 19 ﴾ من (سورة النجم)

وحتى الآية ﴿ 41 ﴾ من السورة

(4/733)

قوله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (21) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (22) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (23) أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (24) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (25) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر سبحانه من استقامة طريق نبيه عليه الصلاة والسلام مما ثبتت رسالته بما أوحي إليه وما أراه من آياته التي ظهر بها استحقاقه سبحانه الإلهية متفرداً بها ، سبب عنه الإنكار عليهم في عبادة معبوداتهم على وجه دال على أنها لا تصلح لصالحة فقال :

﴿ أفرأيتم ﴾ أي أخبروني بسبب ما تلوت عليكم من هذه الآيات الباهرات .

هل رأيتم رؤية خبرة بالباطن والظاهر ﴿ اللاّت ﴾ وهو صنم ثقيف ﴿ والعزى ﴾ وهي شجرة لغطفان وهما أعظم أصنامهم فإنهم كانوا يحلفون بهما ﴿ ومناة ﴾ وهو صخرة لهذيل وخزاعة ، ودل على أنها عندهم بعدهما في الربوبية بقوله مشيراً بالتعدد بالتعبير عنه بما عبر به إلى أن شيئاً منها لا يصلح لصالحة حتى ولا أن يذكر : ﴿ الثالثة الأخرى ﴾ أي إنه ما كفاهم في خرق سياج منها العقل في مجرد تعديد الإله بجعله الاثنين حتى أضافوا ثالثاً أقروا بأنه متأخر الرتبة فكان الإله عندهم قد يكون سافلاً ويكون ملازماً للإنزال وللسفول بكونه أنثى ، قال الرازي في اللوامع : وأنثوا أسماءها تشبيهاً لها بالملائكة على زعمهم بأنها بنات الله – انتهى ، ولا شك عند من له أدنى معرفة بالفصاحة أن هذا الاستفهام الإنكاري والتعبير بما شأنهم بالولادة التي هي أحب الأشياء إلى الإنسان بل الحيوان لا يوافقه أن يقال بعده ما يقتضي مدحاً بوجه في الوجوه ، فتبين بطلان ما نقل نقلاً واهياً من أنه قيل حين

قرئت هذه السورة في هذا المحل : تلك الغرانيق العلا – إلى آخره لعلم كل عربي أن ذلك غاية في الهذيان في هذا السياق ، فلا وصلة بهذا السياق المعجز بوجه .

(5/733)

ولما كان التقدير بما أفهمه السياق ، كيف ادعيتم أنها آلهة أهي كذلك مع أن عادتكم احتقار الإناث من أن تكون لكم أولاداً ، فكيف رضيتم أن تكون لكم آلهة ، وتكونوا لها عباداً مع أنها لم تنزل لكم وحياً ولا أرسلت لكم رسولاً ولا فعلت مع أحد منكم شيئاً مما كرمنا به عبدنا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا أرتكم قط آية ولا هي متأهلة لشيء من ذلك ، بل لا تملك ضراً ولا نفعاً وادعيتم أنها بناته واستوطنها جنيات هي بناته وادعيتم مع ادعاء مطلق الولدية لمن لا يلم به حاجة ولا شبه له أن له أردأ الصنفين ، فكان ذلك نقصاً مضموماً إلى نقص – وعلا سبحانه تعالى عن صحابة أو ولد ، فاستحققتم بذلك الإنكار الشديد ، وعلم بهذا التقدير الذي هدى إليه السياق بطلان حديث الغرانيق ولا سيما مع تعقيبه بقوله : ﴿ ألكم ﴾ أي خاصة ﴿ الذكر ﴾ أي النوع الأعلى ﴿ وله ﴾ أي وحده ﴿ الأنثى ﴾ أي النوع الأسفل .

ولما كان الاستفهام إنكارياً رد الإنكار بقوله فذلكة لفعلهم : ﴿ تلك ﴾ أي هذه القسمة

البعيدة عن الصواب ﴿ إذاً ﴾ أي إذ جعلتم البنات له والبنين لكم ﴿ قسمة ضيزى ﴾ أي جائرة ناقصة ظالمة فيما يحسن للحق للغاية عرجاء غير معتدلة حيث خصصتم به ما أوصلتكم الكراهة له إلى دفنه حياً ، وقد علم أن الآية من الاحتباك : دل ذكر اسمها في أسلوب الإنكار على حذف إنكار كونها آلهة وإنكار تخصيصة بالإناث على حذف ما يدل على أنهم جعلوها بناته .

(6/733)

ولما أفهم هذا الإنكار بطلان قولهم هذا ، حصر القول الحق فيها فقال مستأنفاً : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هي ﴾ أي هذه الأصنام ﴿ إلا أسماء ﴾ أي لا حقائق لها ، فما ادعيتم لها من الإلهية ليس لها من ذلك إلا الأسماء ، وأكد ذلك بقوله مبيناً : ﴿ سميتموها ﴾ أي ابتدعتم تسميتها أنتم ، واجتث قولهم من أصله فقال : ﴿ أنتم وآباؤكم ﴾ أي لا غير بمجرد الهوى لم تروا منها آية ولا كلمتكم قط كلمة تعتدونها ، وعلى تقدير أن تتكلم الشياطين على ألسنتها فأي طريقة قويمة شرعت لكم وأي كلام مليح أو بليغ وصل إليكم وأي آية كبرى أرتكموها – انتهى .

ولما علم بهذا أن الله تعالى لم يأمرهم بشيء من ذلك ، صرح به نافياً أن يدل على ما وسموه

به دليل فقال : ﴿ ما ﴾ ولما قدم في الأعراف ترك النافي للتدريج لما تقدم بما اقتضاه ، نفى هنا الإفعال النافي لأصل الفعل سواء كان بالتدريج أو غيره لأن المفصل لباب القرآن فهو للمقاصد ، وذلك كاف في ذم الهوى الذي هو مقصود السورة فقال : ﴿ أنزل الله ﴾ الذي له جميع صفات الكمال ﴿ بها ﴾ أي بالاستحقاق للأسماء ولا لما وسمتموها به من الإلهية ، وأعرق في النفي بقوله : ﴿ من سلطان ﴾ أي حجة تصلح مسلطاً على ما يدعي فيها . ولما كان هذا النفي المستغرق موجباً للخصم إيساع الحيلة في ذكر دليل على أي وجه كان ، وكان هؤلاء قد أبلسوا عند سماع هذا الكلام ولم يجدوا ما يقولون ولا يجدوا ، فكان من حقهم أن يرجعوا فلم يرجعوا ، أعرض عنهم إيذاناً بشديد الغبن قائلاً : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ يتبعون ﴾ أي في وقت من الأوقات في أمر هذه الأوثان بغاية جهدهم من أنها آلهة ، وأنها تشفع لهم أو تقربهم من الله ﴿ إلا الظن ﴾ أي غاية أمرهم لمن يحسن الظن بهم ، فالظن ترجيح أحد الجائزين على رغم الظان .

(7/733)

ولما كان الظن قد يكون موافقاً للحق مخالفاً للهوى قال : ﴿ وما تهوى الأنفس ﴾ أي تشتهي ، وهي – لما لها من النقص – لا تشتهي أبداً إلا بما يهوي بها عن غاية أوجها إلى أسفل

حضيضها ، وأما المعالي وحسن العواقب فإنما تشوق إليها العقل ، قال القشيري : فالظن الجميل بالله فليس من هذا الباب ، والتباس عواقب الشخص عليه ليس من هذه الجملة بسبيل ، إنما الظن المعلول في الله وصفاته وأحكامه .

﴿ ولقد ﴾ أي العجب أنهم يفعلون ذلك والحال أنه قد ﴿ جاءهم من ربهم ﴾ أي المحسن إليهم ﴿ الهدى ﴾ أي الكامل في بابه إلى الدين الحق الناطق بالكتاب الناطق بالصواب على لسان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والرأي يقتضي أن من رأى الهدى تبعه ولو أتاه به عدوه ، فكيف إذا أتاه به من هو أفضل منه من عند من إحسانه لم ينقطع عنه قط .

ولما كان التقدير : أعليهم أن يتركوا أهويتهم ويهتدوا بهدى ربهم الذي لا ملك لهم معه ﴿ أم ﴾ لهم ما تمنوا – هكذا كان الأصل ، ولكنه ذكر الأصل الموجب لاتباع الهوى فقال : ﴿ للإنسان ﴾ أي الآنس بنفسه المحسن لكل ما يأتي وما يذر ﴿ ما تمنى ﴾ أي من اتباع ما يشتهي من جاه ومال وطول عمر ورفاهية عيش ومن كفره وعناده ، وقوله ﴿ لئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ [فصلت : 50] .

ولما كان الاستفهام إنكارياً ، كان المعنى : ليس له ما تمنى ، وكان ذلك دليلاً قطعياً على أنه مربوب مقهور ممن له الأمر كله ، فسبب عنه قوله : ﴿ فللّه ﴾ أي الملك الأعظم وحده .

ولما كانت الأخرى دار اللذات وبلوغ جميع الأماني وحرمانها ، وكانوا يدعون فيها على تقدير كونها جميع ما يتمنون من شفاعة آلهتهم وإجابتها إلى إسعادهم ونحو ذلك ، قدم قوله : ﴿ الآخرة ﴾ فهو لا يعطي الأماني فيها إلا لمن تبع هداه وخالف هواه ﴿ والأولى ﴾ فهو لا يعطي جميع الأماني فيها لأحد أصلاً كما هو مشاهد ، فمن ترك هواه فيها نال أمانيه في الآخرة ، فلهذا قدمها لا للفاصلة فإنه لو قيل " الأخرى " لصلحت للفاصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 322.325 ﴾

(9/733)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20) ﴾

لما قرر الرسالة ذكر ما ينبغي أن يبتدىء به الرسول وهو التوحيد ومنع الخلق عن الإشراك ، فقوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ﴾ إشارة إلى إبطال قولهم بنفس القول كما أن ضعيفاً إذا ادعى الملك ثم رآه العقلاء في غاية البعد عما يدعيه يقولون انظروا إلى هذا الذي يدعي الملك ،

منكرين عليه غير مستدلين بدليل لظهور أمره ، فلذلك قال : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى ﴾ أي كما هما فكيف تشركونهما بالله ، والتاء في اللاّت تاء تأنيث كما في المناة لكنها تكتب مطولة لئلا يوقف عليها فتصير هاء فيشتبه باسم الله تعالى ، فإن الهاء في الله أصلية ليست تاء تأنيث وقف عليها فانقلبت هاء ، وهي صنم كانت لثقيف بالطائف ، قال الزمخشري هي فعله من لوى يلوي ، وذلك لأنهم كانوا يلوون عليها ، وعلى ما قال فأصله لوية أسكنت الياء وحذفت لالتقاء الساكنين فبقيت لوه قلبت الواو ألفاً لفتح ما قبلها فصارت لات ، وقرىء اللات بالتشديد من لت ، قيل إنه مأخوذ من رجل كان يلت بالسمن الطعام ويطعم الناس فعبد واتخذ على صورته وثن وسموه باللاّت ، وعلى هذا فاللاّت ذكر ، وأما العزى فتأنيث الأعز وهي شجرة كانت تعبد ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضي الله عنه فقطعها وخرجت منها شيطانة مكشوفة الرأس منشورة الشعر تضرب رأسها وتدعوا بالويل والثبور فقتلها خالد وهو يقول :

يا عز كفرانك لا سبحانك . . إني رأيت الله قد أهانك

ورجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما رأى وفعل فقال تلك العزى ولن تعبد أبداً ، وأما مناة فهي فعلة صنم الصفا ، وهي صخرة كانت لهذيل وخزاعة ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الآخر لا يصح أن يقال إلا إذا كان الأول مشاركاً للثاني فلا يقال رأيت امرأة ورجلاً آخر ، ويقال رأيت رجلاً ورجلاً آخر لاشتراك الأول والثاني في كونهما من الرجال وههنا قوله ﴿ الثالثة الأخرى ﴾ يقتضي على ما ذكرنا أن تكون العزى ثالثة أولى ومناة ثالثة أخرى وليس كذلك ، والجواب عنه من وجوه الأول : الأخرى كما هي تستعمل للذم ، قال الله تعالى : ﴿ قَالَتْ * أولاهم لأُخْرَاهُمْ ﴾ [الأعراف : 39] أي لمتأخرتهم وهم الأتباع ويقال لهم الأذناب لتأخرهم في المراتب فهي صفة ذم كأنه تعالى يقول ومناة الثالثة المتأخرة الذليلة ، ونقول على هذا للأصنام الثلاثة ترتيب ، وذلك لأن الأول كان وثناً على صورة آدمي والعزى صورتها صورة نبات ومناة صورتها صورة صخرة هي جماد ، فالآدمي أشرف من النبات ، والنبات أشرف من الجماد ، فالجماد متأخر والمناة جماد فهي في الأخريات من المراتب الجواب الثاني : فيه محذوف تقديره أفرأيتم اللات والعزى المعبودين بالباطل ومناة الثالثة المعبودة الأخرى والجواب الثالث : هو أن الأصنام كان فيها كثرة واللاّت والعزى إذا أخذتا متقدمتين فكل صنمة توجد فهي ثالثة ، فهناك ثوالث فكأنه يقول لهما ثوالث كثيرة وهذه ثالثة أخرى ، وهذا كقول القائل يوماً ويوماً والجواب الرابع : فيه تقديم وتأخير تقديره ومناة الأخرى الثالثة ، ويحتمل أن يقال الأخرى تستعمل لموهوم أو مفهوم وإن لم يكن مشهوراً ولا مذكوراً يقول من يكثر تأذيه من الناس إذا آذاه إنسان الآخر

جاء يؤذينا ، وربما يسكت على قوله أنت الآخر فيفهم غرضه كذلك ههنا .

المسألة الثانية :

(11/733)

وهي في الترتيب أولى ما فائدة الفاء في قوله ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى ﴾ وقد استعمل في مواضع بغير الفاء ؟ قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ [الأحقاف : 4] ﴿ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ ﴾ [فاطر : 40] ، نقول لما قدم من عظمة آيات الله في ملكوته أن رسول الله إلى الرسل الذي يسد الآفاق ببعض أجنحته ويهلك المدائن بشدته وقوته لا يمكنه أن يتعدى السدرة في مقام جلال الله وعزته ، قال أفرأيتم هذه الأصنام مع زلتها وحقارتها شركاء الله مع ما تقدم ، فقال بالفاء أي عقيب ما سمعتم من عظمة آيات الله تعالى الكبرى ونفاذ أمره في الملأ الأعلى وما تحت الثرى ، فانظروا إلى اللاّت والعزى تعلموا فساد ما ذهبتم إليه وعولتم عليه .

المسألة الثالثة :

أين تتمة الكلام الذي يفيد فائدة ما ؟ نقول قد تقدم بيانه وهو أنه يقول هل رأيتم هذه حق الرؤية ، فإن رأيتموها علمتم أنها لا تصلح شركاء ، نظيره ما ذكرنا فيمن ينكر كون ضعيف

يدعي ملكاً ، يقول لصاحبه أما تعرف فلاناً مقتصراً عليه مشيراً إلى بطلان ما يذهب إليه

ثم قال تعالى :

أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (21)

(12/733)

وقد ذكرنا ما يجب ذكره في سورة والطور في قوله ﴿ أَمْ لَهُ البنات وَلَكُمُ البنون ﴾ [الطور : 39] ونعيد ههنا بعض ذلك أو ما يقرب منه ، فنقول لما ذكر اللاّت والعزى ومناة ولم يذكر شيئاً آخر قال إن هذه الأشياء التي رأيتموها وعرفتموها تجعلونها شركاء لله وقد سمعتم جلال الله وعظمته وإن الملائكة مع رفعتهم وعلوهم ينتهون إلى السدرة ويقفون هناك لا يبقى شك في كونهم بعيدين عن طريقة المعقول أكثر مما بعدوا عن طريقة المنقول ، فكأنهم قالوا نحن لا نشك أن شيئاً منها ليس مثلاً لله تعالى ولا قريباً من أن يماثله ، وإنما صورنا هذه الأشياء على صور الملائكة المعظمين الذين اعترف بهم الأنبياء ، وقالوا إنهم يرتقون ويقفون عند سدرة المنتهى ويرد عليهم الأمر والنهي وينهون إلى الله ما يصدر من عباده في أرضه وهم بنات الله ، فاتخذنا صوراً على صور الإناث وسميناها أسماء الإناث ، فاللاّت تأنيث اللوة وكان أصله أن يقال اللاهة لكن في التأنيث يوقف عليها فتصير اللاهة فأسقط إحدى

الهاءين وبقيت الكلمة على حرفين أصليين وتاء التأنيث فجعلناها كالأصلية كما فعلنا بذات مال وذا مال والعزى تأنيث الأعز ، فقال لهم كيف جعلتم لله بنات وقد اعترفتم في أنفسكم أن البنات ناقصات والبنين كاملون ، والله كامل العظمة فالمنسوب إليه كيف جعلتموه ناقصاً وأنتم في غاية الحقارة والذلة حيث جعلتم أنفسكم أذل من خمار وعبد ثم صخرة وشجرة ثم نسبتم إلى أنفسكم الكامل ، فهذه القسمة جائزة على طريقكم أيضاً حيث أذللتم أنفسكم ونسبتم إليها الأعظم من الثقلين وأبغضتم البنات ونسبتموهن إلى الأعظم وهو الله تعالى وكان على عادتكم أن تجعلوا الأعظم للعظيم والأنقص للحقير ، فإذن أنتم خالفتم الفكر والعقل والعادة التي لكم .

تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى (22)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

(13/733)

(تلك) إشارة إلى ماذا ؟ نقول إلى محذوف تقديره تلك القسمة قسمة ضيزى أي غير عادلة ، ويحتمل أن يقال معناه تلك النسبة قسمة وذلك لأنهم ما قسموا وما قالوا لنا البنون

وله البنات ، وإنما نسبوا إلى الله البنات وكانوا يكرهونهن كما قال تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل : 62] فلما نسبوا إلى الله البنات حصل من تلك النسبة قسمة جائزة وهذا الخلاف لا يرهق .

المسألة الثانية :

﴿ إِذَا ﴾ جواب ماذا ؟ نقول يحتمل وجوهاً الأول : نسبتكم البنات إلى الله تعالى إذا كان لكم البنون قسمة ضيزى الثاني : نسبتكم البنات إلى الله تعالى مع اعتقادكم أنهن ناقصات واختياركم البنين مع اعتقادكم أنهم كاملون إذا كنتم في غاية الحقارة والله تعالى في نهاية العظمة قسمة ضيزى ، فإن قيل ما أصل ﴿ إِذَا ﴾ ؟ قلنا هو إذا التي للظرف قطعت الإضافة عنها فحصل فيها تنوين وبيانه هو أنك تقول آتيك إذا طلعت الشمس فكأنك أضفت إذاً لطلوع الشمس وقلت آتيك وقت طلوع الشمس ، فإذا قال قائل آتيك فتقول له إذن أكرمك أي إذا أتيتني أكرمك فلما حذفت الإتيان لسبق ذكره في قول القائل أتيت بدله بتنوين وقلت إذن كما تقول : وكلا آتيناه .

المسألة الثالثة :

﴿ ضيزى ﴾ قرىء بالهمزة وبغير همزة وعلى الأولى هي فعلى بكسر الفاء كذكرى على أنه مصدر وصف به كرجل عدل أي قسمة ضائزة وعلى القراءة الثانية هي فعلى وكان أصلها ضوزى لكن عين الكلمة كانت يائية فكسرت الفاء لتسلم العين عن القلب كذلك فعل ببيض فإن جمع أفعل فعل تقول أسود وسود وأحمر وحمر وتقول أبيض وبيض وكان الوزن بيض وكان يلزم منه قلب العين فكسرت الباء وتركت الباء على حالها ، وعلى هذا ضيزى للمبالغة من ضائزة ، تقول فاضل وأفضل وفاضلة وفضلى وكبير وأكبر وكبيرى وكبرى كذلك ضائز وضوز وضائزة وضوزى على هذا نقول أضوز من ضائز وضيزى من ضائزة ، فإن قيل قد قلت من قبل إن قوله ﴿ أَمْ لَهُ البنات وَلَكُمُ البنون ﴾ [الطور : 39] ليس بمعنى إنكار الأمرين بل بمعنى إنكار الأول وإظهار النكر بالأمر الثاني ، كما تقول أتجعلون لله أنداداً وتعلمون أنه خلق كل ما سواه فإنه لا ينكر الثاني ، وههنا قوله ﴿ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ دلّ على أنه أنكر الأمرين جميعاً نقول قد ذكرنا هناك أن الأمرين محتملان : أما إنكار الأمرين فظاهر في المشهور ، أما إنكار الأول فثابت بوجوه ، وأما الثاني فلما ذكرنا أنه تعالى قال كيف تجعلون لله البنات وقد صار لكم البنون بقدرته كما قال تعالى : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاء إناثا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذكور ﴾ [الشورى : 49] خالق البنين لكم لا يكون له بنات ، وأما قوله ﴿ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ فنقول قد بينا أن تلك عائدة إلى النسبة أي نسبتكم البنات إلى الله تعالى مع أن لكم البنين قسمة ضائزة فالمنكر تلك النسبة وإن كان

المنكر القسمة نقول يجوز أن يكون تقديره أيجوز جعل البنات لله تعالى كما أن واحداً إذا كان بينه وبين شريكه شيء مشترك على السوية فيأخذ نصفه لنفسه ويعطي من النصف الباقي نصفه لظالمه ونصفه لصاحبه فقال هذه قسمة ضائزة لا لكونه أخذ النصف فذلك حقه بل لكونه لم يوصل إليه النصف الباقي .

(15/733)

إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (23)

ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ هِىَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءابَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ الله بِهَا مِن سلطان ﴾ وفيه مباحث تدق عن إدراك اللغوي إن يكن عنده من العلوم حظ عظيم ، ولنذكر ما قيل فيه أولاً فنقول قيل معناه : إن هي إلا أسماء ، أي كونها إناثاً وكونها معبودات أسماء لا مسمى لها فإنها ليست بإناث حقيقة ولا معبودات ، وقيل أسماء أي قلتم بعضها عزى ولا عزة لها ، وقيل قلتم إنها آلهة وليست بآلهة ، والذي نقوله هو أن هذا جواب عن كلامهم ، وذلك على ما بينا أنهم قالوا نحن لا نشك في أن الله تعالى لم يلد كما تلد النساء ولم يولد كما تولد الرجال بالمجامعة والإحبال ، غير أنا رأينا لفظ الولد مستعملاً عند العرب في المسبب

تقول : بنت الجبل وبنت الشفة لما يظهر منهما ويوجد ، لكن الملائكة أولاد الله بمعنى أنهم وجدوا بسببه من غير واسطة فقلنا إنهم أولاده ، ثم إن الملائكة فيها تاء التأنيث فقلنا هم أولاد مؤنثة ، والولد المؤنث بنت ، فقلنا لهم بنات الله ، أي لا واسطة بينهم وبين الله تعالى في الإيجاد كما تقول الفلاسفة ، فقال تعالى : هذه الأسماء استنبطتموها أنتم بهوى أنفسكم وأطلقتم على الله ما يوهم النقص وذلك غير جائز ، وقوله تعالى : ﴿ ياحسرتى على مَا فَرَّطَتُ فِى جَنبِ الله ﴾ [الزمر : 56] وقوله (بيده الخير) أسماء موهمة غير أنه تعالى أنزلها ، وله أن يسمي نفسه بما اختار وليس لأحد أن يسمى بما يوهم النقص من غير ورود الشرع به ، ولنبين التفسير في مسائل :

المسألة الأولى :

(16/733)

﴿ هِىَ ﴾ ضمير عائد إلى ماذا ؟ نقول الظاهر أنها عائدة إلى أمر معلوم وهو الأسماء كأنه قال ما هذه الأسماء التي وضعتموها أنتم وهو المشهور ، ويحتمل أن يقال هي عائدة إلى الأصنام بأنفسها أي ما هذه الأصنام إلا أسماء ، وعلى هذا فهو على سبيل المبالغة والتجوز ، يقال لتحقير إنسان ما زيد إلا اسم وما الملك إلا اسم إذا لم يكن مشتملاً على

صفة تعتبر في الكلام بين الناس ، ويؤيد هذا القول قوله تعالى : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء ﴾ [يوسف : 40] أي ما هذه الأصنام إلا أسماء .

المسألة الثانية :

ما الفائدة في قوله ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ مع أن جميع الأسماء وضعوها أو بعضها هم وضعوها ولم ينكر عليهم ؟ نقول المسألة مختلف فيها ولا يتم الذم إلا بقوله تعالى : ﴿ مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سلطان ﴾ وبيانه هو أن الأسماء إن أنزلها الله تعالى فلا كلام فيها ، وإن وضعها للتفاهم فينبغي أن لا يكون في ضمن تلك الفائدة مفسدة أعظم منها لكن إيهام النقص في صفات الله تعالى أعظم منها ، فالله تعالى ما جوّز وضع الأسماء للحقائق إلا حيث تسلم عن المحرم ، فلم يوجد في هذه الأسماء دليل نقلي ولا وجه عقلي ، لأن ارتكاب المفسدة العظيمة لأجل المنفعة القليلة لا يجوزه العاقل ، فإذاً ﴿ مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سلطان ﴾ ووضع الاسم لا يكون إلا بدليل نقلي أو عقلي ، وهو أنه يقع خالياً عن وجوه المضار الراجحة .

المسألة الثالثة :

كيف قال : ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ ﴾ مع أن هذه الأسامي لأصنامهم كانت قبلهم ؟ نقول فيه لطيفة وهي أنهم لو قالوا ما سميناها ، وإنما هي موضوعة قبلنا ، قيل لهم كل من يطلق هذه الألفاظ فهو كالمبتدىء الواضع ، وذلك لأن الواضع الأول لهذه الأسماء لما لم يكن واضعاً بدليل عقلي لم يجب اتباعه فمن يطلق اللفظ لأن فلاناً أطلقه لا يصح منه كما لا يصح أن يقول أضلني الأعمى ولو قاله لقيل له بل أنت أضللت نفسك حيث اتبعت من عرفت أنه لا يصلح للاقتداء به .

المسألة الرابعة :

الأسماء لا تسمى ، وإنما يسمى بها فكيف قال : ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ ؟ نقول عنه جوابان أحدهما : لغوي وهو أن التسمية وضع الاسم فكأنه قال أسماء وضعتموها فاستعمل سميتموها استعمال وضعتموها ، ويقال سميته زيداً وسميته يزيد فسميتموها بمعنى سميتم بها وثانيهما : معنوي وهو أنه لو قال أسماء سميتم بها لكان هناك غير الاسم شيء يتعلق به الباء في قوله ﴿ بِهَا ﴾ لأن قول القائل سميت به يستدعي مفعولاً آخر تقول سميت بزيد ابني أو عبدي أو غير ذلك فيكون قد جعل للأصنام اعتباراً وراء أسمائها ، وإذا قال : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ أي وضعتموها في أنفسها لا مسميات لها لم يكن ذلك فإن قيل هذا باطل بقوله تعالى : ﴿ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران : 36] حيث لم يقل وإني سميتها بمريم ولم يكن ما ذكرت مقصوداً وإلا لكانت مريم غير ملتفت إليها كما قلت في

الأصنام ؟ نقول بينهما بون عظيم وذلك لأن هناك قال : ﴿ سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ فذكر المفعولين فاعتبر حقيقة مريم بقوله ﴿ سَمَّيْتُهَا ﴾ واسمها بقوله ﴿ مَرْيَمَ ﴾ وأما ههنا فقال : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ أي ما هناك إلا أسماء موضوعة فلم تعتبر الحقيقة ههنا واعتبرت في مريم .

المسألة الخامسة :

(18/733)

﴿ مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سلطان ﴾ على أي وجه استعملت الباء في قوله ﴿ بِهَا مِن سلطان ﴾ ؟ نقول كما يستعمل القائل ارتحل فلان بأهله ومتاعه ، أي ارتحل ومعه الأهل والمتاع كذا ههنا .

ثم قال تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَمَا تَهْوَى الأنفس وَلَقَدْ جَاءهُم مّن رَّبِّهِمُ الهدى ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرىء ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب ، وهو ظاهر مناسب لقوله تعالى : ﴿ أَنتُمْ وَءابَاؤُكُمُ ﴾ على المغايبة وفيه وجهان : أحدهما : أن يكون الخطاب معهم لكنه يكون

التفاتاً كأنه قطع الكلام معهم ، وقال لنبيه : إنهم لا يتبعون إلا الظن ، فلا تلتفت إلى قولهم

ثانيهما : أن يكون المراد غيرهم وفيه احتمالان أحدهما : أن يكون المراد آباءهم وتقديره هو أنه لما قال : ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ ﴾ كأنهم قالوا هذه ليست أسماء وضعناها نحن ، وإنما هي كسائر الأسماء تلقيناها ممن قبلنا من آبائنا فقال وسماها آباؤكم وما يتبعون إلا الظن ، فإن قيل كان ينبغي أن يكون بصيغة الماضي ، نقول وبصيغة المستقبل أيضاً كأنه يفرض الزمان بعد زمان الكلام كما في قوله تعالى :

﴿ وَكَلْبُهُمْ باسط ذِرَاعَيْهِ ﴾ [الكهف : 18] .

ثانيهما : أن يكون المراد عامة الكفار كأنه قال : إن يتبع الكافرون إلا الظن .

المسألة الثانية :

(19/733)

ما معنى الظن وكيف ذمهم به وقد وجب علينا اتباعه في الفقه وقال صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى : " أنا عند ظن عبدي بي " ؟ نقول أما الظن فهو خلاف العلم وقد استعمل مجازاً مكان العلم والعلم مكانه ، وأصل العلم الظهور ومنه العلم والعالم وقد بينا في تفسير العالمين أن حروف ع ل م في تقاليبها فيها معنى الظهور ، ومنها لمع الآل إذا ظهر وميض

السراب ولمع الغزال إذا عدا وكذا النعام وفيه الظهور وكذلك علمت ، والظن إذا كان في مقابلة العلم ففيه الخفاء ومنه بئر ظنون لا يدري أفيها ماء أم لا ، ومنه الظنين المتهم لا يدري ما يظن ، نقول يجوز بناء الأمر على الظن الغالب عند العجز عن درك اليقين والاعتقاد ليس كذلك لأن اليقين لم يتعذر علينا وإلى هذا إشارة بقول ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُم مّن رَّبِّهِمُ الهدى ﴾ [النجم : 23] أي اتبعوا الظن ، وقد أمكنهم الأخذ باليقين وفي العمل يمتنع ذلك أيضاً .

المسألة الثالثة :

(20/733)

﴿ مَا ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَهْوَى الأنفس ﴾ خبرية أو مصدرية ؟ نقول فيه وجهان أحدهما : مصدرية كأنه قال : إن يتبعون إلا الظن وهوى الأنفس ، فإن قيل ما الفائدة في العدول عن صريح المصدر إلى الفعل مع زيادة ما وفيه تطويل ؟ نقول فيه فائدة ، وإنها في أصل الوضع ثم نذكرها هنا فنقول إذا قال القائل أعجبني صنعك يعلم من الصيغة أن الإعجاب من مصدر قد تحقق وكذلك إذا قال أعجبني ما تصنع يعلم أن الإعجاب من مصدر هو فيه فلو قال أعجبني صنعك وله صنع أمس وصنع اليوم لا يعلم أن المعجب أي صنع هو إذا علمت هذا فنقول ههنا قوله ﴿ وَمَا تَهْوَى الأنفس ﴾ يعلم منه أن المراد أنهم

يتبعون ما تهوى أنفسهم في الحال والاستقبال إشارة إلى أنهم ليسوا بثابتين على ضلال واحد وما هوت أنفسهم في الماضي شيئاً من أنواع العبادة فالتزموا به وداموا عليه بل كل يوم هم يستخرجون عبادة ، وإذا انكسرت أصنامهم اليوم أتوا بغيرها غداً ويغيرون وضع عبادتهم بمقتضى شهوتهم اليوم ثانيهما : أنها خبرية تقديره ، والذي تشتهيه أنفسهم والفرق بين المصدرية والخبرية أن المتبع على الأول الهوى وعلى الثاني مقتضى الهوى كما إذا قلت أعجبني مصنوعك .

المسألة الرابعة :

كيف قال : ﴿ وَمَا تَهْوَى الأنفس ﴾ بلفظ الجمع مع أنهم لا يتبعون ما تهواه كل نفس فإن من النفوس ما لا تهوى ما تهواه غيرها ؟ نقول هو من باب مقابلة الجمع بالجمع معناه اتبع كل واحد منهم ما تهواه نفسه يقال خرج الناس بأهليهم أي كل واحد بأهله لا كل واحد بأهل الجمع .

المسألة الخامسة :

بيّن لنا معنى الكلام جملة ، نقول قوله تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَمَا تَهْوَى الأنفس ﴾ أمران مذكوران يحتمل أن يكون ذكرهما لأمرين تقديرين يتبعون الظن في الاعتقاد ويتبعون ما تهوى الأنفس في العمل والعبادة وكلاهما فاسد ، لأن الاعتقاد ينبغي أن يكون مبناه على اليقين ، وكيف يجوز اتباع الظن في الأمر العظيم ، وكلما كان الأمر أشرف وأخطر كان الاحتياط فيه أوجب وأحذر ، وأما العمل فالعبادة مخالفة الهوى فكيف تنبىء على متابعته ، ويحتمل أن يكون في أمر واحد على طريقة النزول درجة درجة فقال : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَمَا تَهْوَى الأنفس ﴾ أي وما دون الظن لأن القرونة تهوى ما لا يظن به خير وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُم مّن رَّبِّهِمُ الهدى ﴾ إشارة إلى أنهم على حال لا يعتد به لأن اليقين مقدور عليه وتحقق بمجيء الرسل والهدى فيه وجوه ثلاثة الأولى : القرآن الثاني : الرسل الثالث : المعجزات .

أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (24)

(22/733)

المشهور أن أم منقطعة معناه : ألِلإنسان ما اختاره واشتهاه ؟ وفي ﴿ مَا تمنى ﴾ وجوه الأولى : الشفاعة تمنوها وليس لهم شفاعة الثاني : قولهم ﴿ وَلَئِن رُّجِّعْتُ إِلى رَبّى إِنَّ لى

عِندَهُ للحسنى ﴾ [فصلت : 50] الثالث : قول الوليد بن المغيرة ﴿ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ [مريم : 77] الرابع : تمنى جماعة أن يكونوا أنبياء ولم تحصل لهم تلك الدرجة الرفيعة ، فإن قلت هل يمكن أن تكون أم ههنا متصلة ؟ نقول نعم والجملة الأولى حينئذ تحتمل وجهين أحدهما : أنها مذكورة في قوله تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى ﴾ [النجم : 21] كأنه قال ألكم الذكر وله الأنثى على الحقيقة أو تجعلون لأنفسكم ما تشتهون وتتمنون وعلى هذا فقوله تلك ﴿ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ [النجم : 22] وغيرها جمل اعترضت بين كلامين متصلين ثانيهما : أنها محذوفة وتقرير ذلك هو أنا بينا أن قوله ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ﴾ [النجم : 19] لبيان فساد قولهم ، والإشارة إلى ظهور ذلك من غير دليل ، كما إذا قال قائل فلان يصلح للملك فيقول آخر لثالث ، أما رأيت هذا الذي يقوله فلان ولا يذكر أنه لا يصلح للملك ، ويكون مراده ذلك فيذكره وحده منبهاً على عدم صلاحه ، فههنا قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى ﴾ أي يستحقان العبادة أم للإنسان أن يعبد ما يشتهيه طبعه وإن لم يكن يستحق العبادة ، وعلى هذا فقوله أم للإنسان أي هل له أن يعبد بالتمني والاشتهاء ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَهْوَى الأنفس ﴾ أي عبدتم بهوى أنفسكم ما لا يستحق العبادة فهل لكم ذلك .

فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (25)

ثم قال تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الآخرة والأولى ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(23/733)

في تعلق الفاء بالكلام وفيه وجوه الأولى : أن تقديره الإنسان إذا اختار معبوداً في دنياه على ما تمناه واشتهاه فلله الآخرة والأولى يعاقبه على فعله في الدنيا وإن لم يعاقبه في الدنيا فيعاقبه في الآخرة ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مّن مَّلَكٍ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لاَ تُغْنِى شفاعتهم ﴾ [النجم : 26] يكون مؤكداً لهذا المعنى أي عقابهم يقع ولا يشفع فيهم أحد ولا يغنيهم شفاعة شافع الثاني : أنه تعالى لما بيّن أن اتخاذ اللاّت والعزى باتباع الظن وهوى الأنفس كأنه قرره وقال إن لم تعلموا هذا فلله الآخرة والأولى ، وهذه الأصنام ليس لها من الأمر شيء فكيف يجوز الإشراك وقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مّن مَّلَكٍ ﴾ على هذا الوجه جواب كلام كأنهم قالوا لا نشرك بالله شيئاً ، وإنما هذه الأصنام شفعاؤنا فإنها صورة ملائكة مقربين ، فقال : ﴿ وَكَمْ مّن مَّلَكٍ فِى السموات لاَ تُغْنِى شفاعتهم شَيْئاً ﴾ الثالث : هذه تسلية كأنه تعالى قال ذلك لنبيه حيث بيّن رسالته ووحدانية الله ولم يؤمنوا فقال لا تأس فللَّه الآخرة والأولى أي لا يعجزون الله الرابع : هو ترتيب حق على دليله بيانه هو أنه تعالى لما بيّن رسالة

النبي صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى ﴾ [النجم : 4] إلى آخره وبيّن بعض ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وهو التوحيد ، قال إذا علمتم صدق محمد ببيان رسالة الله تعالى : فلله الآخرة والأولى لأنه صلى الله عليه وسلم أخبركم عن الحشر فهو صادق الخامس : هو أن الكفار كانوا يقولون للمؤمنين أهؤلاء أهدى منا ؟ وقالوا ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف : 11] فقال تعالى : إن الله اختار لكم الدنيا وأعطاكم الأموال ولم يعط المؤمنين بعض ذلك الأمر بل قلتم : لو شاء الله لأغناهم وتحققتم هذه القضية ﴿ فَلِلَّهِ الآخرة والأولى ﴾ قولوا في الآخرة ما قلتم في الدنيا يهدي الله من يشاء كما يغني الله ما يشاء .

(24/733)

المسألة الثانية :

﴿ الأخرة ﴾ صفة ماذا ؟ نقول صفة الحياة أو صفة الدار وهي اسم فاعل من فعل غير مستعمل ، تقول أخرته فتأخر وكان من حقه أن تقول فأخر كما تقول غبرته فغبر فمنعت منه سماعاً ، ولهذا البحث فائدة ستأتي ، إن شاء الله .

المسألة الثالثة :

﴿ الأولى ﴾ فعلى للتأنيث ، فالأول إذن أفعل صفة .

وفيه مباحث :

(25/733)

البحث الأول : لا بد من فاعل أخذ منه الأفعل والفعلى فإن كل فعلى وأفعل للتأنيث والتذكير له أصل فليؤخذ منه كالفضلى والأفضل من الفاضلة والفاضل ، فما ذلك ؟ نقول ههنا أخذ من أصل غير مستعمل كما قلنا إن الآخر فاعل من فعل غير مستعمل ، وسبب ذلك هو أن كل فعل مستعمل فله آخر ، وذلك لأن له ماضياً فإذا استعملت ماضيه لزم فراغ الفعل وإلا لكان الفاعل بعد في الفعل فلا يكون ماضياً فإنك لا تقول لمن هو بعد الأكل أكل إلا متجوزاً عندما يبقى له قليل ، فيقول أكل إشارة إلى أن ما بقي غير معتد به وتقول لمن قرب من الفراغ فرغت فيقول فرغت بمعنى أن ما بقي قليل لا يعتد به فكأني فرغت ، وأما الماضي في الحقيقة لا يصح إلا عند تمام الشيء والفراغ عنه فإذاً للفعل المستعمل آخر فلو كان لقولنا آخر على وزن فاعل فعل هو آخر يأخر كأمر يأمر لكان معناه صدر مصدره كجلس معناه صدر الجلوس منه بالتمام والكمال فكان ينبغي أن القائل إذا قال فلان آخر كان معناه وجد منه تمام الآخرية وفرغ منها فلا يكون بعد ما يكون آخر لكن تقدم أن كل فعل

فله آخر بعده لا يقال يشكل بقولنا تأخر فإن معناه صار آخراً لأنا نقول وزن الفعل ينادي على صحة ما ذكرنا فإنه من باب التكلف والتكبر إذا استعمل في غير المتكبر أي يرى أنه آخر ، وليس في الحقيقة كذلك ، إذا علمت هذا فنقول الآخر فاعل ليس له فعل ، ومبالغته بأفعل وهو كقولنا أأُخر ، فنقلت الهمزة إلى مكان الألف ، والألف إلى مكان الهمزة ، فصارت الألف همزة والهمزة ألفاً ، ويدل عليه التأويل في المعنى ، فإن آخر الشيء جزء منه متصل به والآخر مباين عنه منفصل والمنفصل بعد المتصل ، والآخر أشد تأخراً عن الشيء من آخره ، والأول أفعل ليس له فاعل ، وليس له فعل ، والأول أبعد عن الفعل من الآخر ، وذلك لأن الفعل الماضي علم له آخر من وصفه بالماضي ولولا ذلك الوصف لما علم له آخر ، وأما الفعل لتفسير كونه فعلاً علم له أول لأن الفعل لا بد

(26/733)

له من فاعل يقوم به ، أو يوجد منه فإذا الفاعل أولاً ثم الفعل ، فإذا كان الفاعل أول الفعل كيف يكون الأول له فعل يوجد منه فلا فعل له ولا فاعل فلا يقال آل الشيء بمعنى سبق كما يقال قال من القول ، أو نال من النيل ، لا يقال إن قولنا سبق أخذ منه السابق ومن السابق الأسبق مع أن الفاعل يسبق الفعل ، وكذلك يقال تقدم الشيء مع أن الفاعل متقدم على

الفعل إلى غير ذلك ، نقول أما تقدم قد مضى الجواب عنه في تأخر ، وأما سبق يقول القائل سابقته فسبقته فتجيب عنه بأن ذلك مفتقر إلى أمر يصدر من فاعل فالسابق إن استعمل في الأول فهو بطريق المشابهة لا بطريق الحقيقة ، والفاعل أول الفعل بمعنى قبل الفعل ، وليس سابق الفعل لأن الفاعل والفعل لا يتسابقان فالفاعل لا يسبقه ، والذي يوضح ما ذكرنا أن الآخر أبعد من الأول عن الفعل بخلاف الآخر ، وما يقال إن أول بمعنى جعل الآخر أولاً لاستخراج معنى من الكلام فبعيد وإلا لم يكن آخر دونه في إفادة ذلك ، بل التأويل من آل شيء إذا رجع أي رجعه إلى المعنى المراد وأبعد من اللفظين قبل وبعد فإن الآخر فاعل من غير فعل والأول أفعل من غير فاعل ولا فعل ، وقبل وبعد لا فاعل ولا أفعل فلا يفهم من فعل أصلاً لأن الأول أول لما فيه من معنى قبل وليس قبل قبلاً لما فيه من معنى الأول والآخر آخر لما فيه من معنى بعد ، وليس بعد بعداً لما فيه من معنى الآخر يدلك عليه أنك تعلل أحدهما بالآخر ولا تعكسه فتقول هذا آخر من جاء لأنه جاء بعد الكل ولا تقول هو جاء بعد الكل لأنه آخر من جاء ، ويؤيده أن الآخر لا يتحقق إلا ببعدية مخصوصة وهي التي لا بعدية بعدها وبعد ليس لا يتحقق إلا بالآخر فإن المتوسط بعد الأول ليس بآخر .

(27/733)

وهذا البحث من أبحاث الزمان ومنه يعلم معنى قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تسبوا الدهر (فإن الدهر هو الله) " أي الدهر هو الذي يفهم منه القبلية والبعدية والله تعالى هو الذي يفهم منه ذلك والبعدية والقبلية حقيقة لإثبات الله ولا مفهوم للزمان إلا ما به القبلية والبعدية فلا تسبوا الدهر فإن ما تفهمونه منه لا يتحقق إلا في الله وبالله ولولاه لما كان قبل ولا بعد .

البحث الثاني : ورد في كلام العرب الأولة تأنيث الأول وهو ينافيه صحة استعمال الأولى لأن الأولى تدل على أن الأول أفعل للتفصيل ، وأفعل للتفضيل لا يلحقه تاء التأنيث فلا يقال زيد أعلم وزينب أعلمة لسبب يطول ذكره ، وسنذكره في موضع آخر إن شاء الله تعالى ، نقول الجواب عنه هو أن أول لما كان أفعل وليس له فاعل شابه الأربع والأرنب فجاز إلحاق التاء به ولما كان صفة شابه الأكبر والأصغر فقيل أولى .

المسألة الرابعة :

أولى تدل على أن أول لا ينصرف فكيف يقال أفعله أولاً ويقال جاء زيداً أولاً وعمرو ثانياً فإن قيل جاز فيه الأمران بناء على أولة وأولى فمن قال بأن تأنيث أول أولة فهو كالأربع والأربعة فجاز التنوين ، ومن قال أولى لا يجوز ، نقول إذا كان كذلك كان الأشهر ترك التنوين لأن الأشهر أن تأنيثه أولى وعليه استعمال القرآن ، فإذن الجواب أن عند التأنيث الأولى أن يقال أولى نظراً إلى المعنى ، وعند العرب أولة لأنه هو الأصل ودل عليه دليل ، وإن كان

أضعف من الغير وربما يقال بأن منع الصرف من أفعل لا يكون إلا إذا لم يكن تأنيثه إلا فعلى ، وأما إذا كان تأنيثه بالتاء أو جاز ذلك فيه لا يكون غير منصرف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 255 . 263 ﴾

(28/733)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللات والعزى ﴾

﴿ وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى ﴾ لما ذكر الوحي إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وذكر من آثار قدرته ما ذكر ، حاجَّ المشركين إذ عبدوا ما لا يعقِل وقال : أفرأيتم هذه الآلهة التي تعبدونها أَوْحَيْنَ إليكم شيئاً كما أُوحِي إلى محمد .

وكانت اللَّاتُ لثَقِيف ، والعُزَّى لقريش وبني كِنانة ، ومَناةُ لبني هلال .

وقال هشام : فكانت مناةِ لهُذَيْل وَخُزَاعة ؛ فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا رضي الله عنه فهدمها عام الفتح .

ثم اتخذوا اللات بالطائف ، وهي أحدث من مَنَاة وكانت صخرةً مُربَّعة ، وكان سَدَنَتها من ثَقِيف ، وكانوا قد بنوا عليها بناء ، فكانت قريش وجميع العرب تعظمها .

وبها كانت العرب تسمى زيد اللّات وتيمَ اللّات .

وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى ، فلم تزل كذلك إلى أن أسلمت ثَقِيفٌ ،

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة ابن شعبة فهدمها وحرقها بالنار .

ثم اتخذوا العُزَّى وهي أحدث من اللّات ، اتخذها ظالم بن أسعد ، وكانت بوادي نَخْلة

الشامية فوق ذات عِرْق ، فبنوا عليها بيتاً وكانوا يسمعون منها الصوت .

قال ابن هشام : وحدّثني أبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : "كانت العُزَّى شيطانة

تأتي ثلاث سَمُرات ببطن نَخْلة ، فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، بعث

خالد بن الوليد رضي الله عنه فقال : "ايت بَطْن نخلة فإنك تجد ثلاث سَمُرات فاعضد

الأولى" فأتاها فَعضَدها فلما جاء إليه قال : "هل رأيت شيئاً" قال : لا .

قال : "فاعضد الثانية" فأتاها فَعضَدها ، ثم أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "هل

رأيت شيئاً" قال : لا .

قال : "فاعضد الثالثة" فأتاها فإذا هو بحبشيّة نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها

تُصَرِّفُ بأنيابها ، وخلفها دُبَيَّةُ السُّلَمّي وكان سادِنَها فقال : "

يا عُزّ كُفْرَانك لا سبْحانِك . . .

إني رَأَيتُ اللَّهَ قَد أهانَكِ

" ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هي حُمَمَة ، ثم عَضَد الشجرة وقتل دُبَيَّة السادن ، ثم أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : "تلك العُزَّى ولن تُعبَد أبداً " وقال ابن جُبير : العُزَّى حجر أبيض كانوا يعبدونه .

قتادة : نبت كان ببطن نَخْلة .

ومَنَاة : صنم لخزاعة .

وقيل : إن اللّات فيما ذكر بعض المفسرين أخذه المشركون من لفظ الله ، والعُزَّى من العزيز ، ومَنَاة مِن مَنَى الله الشيءَ إذا قدّره .

وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحُميد وأبو صالح "اللّاتّ" بتشديد التاء وقالوا : كان رجلاً يَلُتّ السَّوِيق للحاجّ ذكره البخاري عن ابن عباس فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه .

ابن عباس : كان يبيع السَّوِيق والسَّمْن عند صخرة ويصبه عليها ، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثَقِيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السَّوِيق .

أبو صالح : إنما كان رجلاً بالطائف فكان يقوم على آلهتهم ويَلُتّ لهم السَّوِيق فلما مات عبدوه .

مجاهد : كان رجل في رأس جبل له غُنَيْمة يَسْلي منها السَّمْن ويأخذ منها الأَقِط ويجمع رِسْلَها ، ثم يتخذ منها حَيْساً فيطعم الحاج ، وكان ببطن نَخْلة فلما مات عبدوه وهو اللّات .

وقال الكلبيّ كان رجلاً من ثَقِيف يقال له صِرمة بن غنم .

وقيل : إنه عامر بن ظَرِب العَدْوانيّ .

قال الشاعر :

لا تَنْصُروا اللّاتَ إنَّ اللّه مُهْلِكُهَا . . .

وكيف يَنْصُرُكُمْ مَنْ ليس يَنْتَصِرُ

والقراءة الصحيحة "اللاَّتَ" بالتخفيف اسم صنم والوقوف عليها بالتاء وهو اختيار الفراء .

قال الفرّاء : وقد رأيت الكسائيّ سأل أبا فَقْعَس الأَسَديّ فقال ذاه لذات (ولاه للات) وقرأ "أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّهَ" .

وكذا قرأ الدُّورِيّ عن الكسائيّ والبَزِّي عن ابن كثير "اللّاه" بالهاء في الوقف ، ومن قال : إن "اللّات" من اللّه وقف بالهاء أيضاً .

وقيل : أصلها لاهة مثل شاة (أصلها شاهة) وهي من لاَهَت أي اختفت ؛ قال الشاعر :

لاَهَتْ فما عُرِفت يوماً بخارجةٍ . . .

يا ليتها خَرجتْ حتَّى رأيناها

وفي الصحاح : اللات اسم صنم كان لِثَقيف وكان بالطائف ، وبعض العرب يقف عليها بالتاء ، وبعضهم بالهاء ؛ قال الأخفش : سمعنا من العرب من يقول اللَّاتِ والعُزَّى ، ويقول هي اللّاتْ فيجعلها تاء في السّكوت وهي اللّاتِ فأعْلَمَ أنه جُرَّ في موضع الرفع ؛ فهذا مثل أمِس مكسورٌ على كل حال وهو أجودُ منه ؛ لأن الألف واللام اللتان في اللّات لا تسقطان وإن كانتا زائدتين ؛ وأما ما سمعنا من الأكثر في اللّاتِ والعُزَّى في السّكوت عليها فاللّاهْ لأنها هاء فصارت تاء في الوصل وهي في تلك اللغة مثل كان من الأمر كَيْتِ وكَيْتِ ، وكذلك هيهاتِ في لغة من كسرها ؛ إلا أنه يجوز في هيهاتِ أن تكون جماعة ولا يجوز ذلك في اللّاتِ ؛ لأن التاء لا تزاد في الجماعة إلا مع الألف ، وإن جعلت الألف والتاء زائدتين بقي الآسم على حرف واحد .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحيْصن وحُميد ومجاهد والسُّلَمي والأعشى عن أبي بكر "وَمَنَاءَةَ" بالمدّ والهمز .

والباقون بترك الهمز لغتان .

وقيل : سمي بذلك ؛ لأنهم كانوا يريقون عنده الدماء يتقرّبون بذلك إليه .

وبذلك سميت منًى لكثرة ما يراق فيها من الدماء .

وكان الكسائي وابن كثير وابن مُحَيْصِن يقفون بالهاء على الأصل .

الباقون بالتاء اتباعا لخط المصحف .

وفي الصحاح : ومناة اسم صنم كان لهُذَيل وخُزَاعة بين مكة والمدينة ، والهاء للتأنيث

ويسكت عليها بالتاء وهي لغة ، والنسبة إليها مَنَوِيّ .

وعبدُ مَناةَ ابن أُدّ بن طابِخة ، وزيدُ مناة ابن تميم بن مُرٍّ يُمدّ ويقصر ؛ قال هَوْبَر الحارثي :

أَلاَ هلْ أَتى التَّيْمَ بنَ عبدِ مَنَاءةٍ . . .

على الشِّنْءِ فِيما بيننا ابْنُ تَمِيم

(31/733)

قوله تعالى : ﴿ الأخرى ﴾ العرب (لا) تقول للثالثة أخرى وإنما الأخرى نعت للثانية ،

واختلفوا في وجهها فقال الخليل : إنما قال ذلك لوفاق رؤوس الآي ؛ كقوله :

﴿ مَآرِبُ أخرى ﴾ [طه : 18] ولم يقل آخر .

وقال الحسين بن الفضل : في الآية تقديم وتأخير مجازها أفرأيتم اللاّت والعُزّى الأخرى ومَنَاة

الثالثة .

وقيل : إنما قال ﴿ وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى ﴾ لأنها كانت مرتبة عند المشركين في التعظيم بعد اللاّت والعُزَّى فالكلام على نسقه .

وقد ذكرنا عن (ابن) هشام : أن مَناةَ كانت أولاً في التقديم ، فلذلك كانت مقدّمة عندهم في التعظيم ؛ والله أعلم .

وفي الآية حذف دل عليه الكلام ؛ أي أفرأيتم هذه الآلهة هل نفعت أو ضرّت حتى تكون شركاء لله .

ثم قال على جهة التقريع والتوبيخ : ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى ﴾ ردًّا عليهم قولهم : الملائكة بنات الله ، والأصنام بنات الله .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ إِذاً ﴾ يعني هذه القسمة ﴿ قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ أي جائرة عن العدل ، خارجة عن الصواب ، مائلة عن الحق .

يقال : ضَازَ في الحكم أي جار ، وضَازَ حقّه يَضِيزه ضَيْزاً عن الأخفش أي نقصه وبخسه .

قال : وقد يهمز فيقال ضأزه يَضأَزُه ضَأْزًّا وأنشد :

فإنْ تَنْأَ عنّا نَنْتَقِصْكَ وإنَ تُقِمْ . . .

فقِسْمُكَ مَضْؤوزٌ وأنفُكَ رَاغِمُ

وقال الكسائي : يقال ضازَ يَضِيز ضَيْزاً ، وضازَ يَضُوز ضَوْزاً ، وضَأَزَ يَضْأَز ضأزاً إذا

ظلم وتعدّى وبخس وانتقص ؛ قال الشاعر :

ضَازَتْ بنو أَسدٍ بِحُكمِهِمُ . . .

إذ يجعلون الرأسَ كالذَّنَبِ

قوله تعالى : "قِسْمَةٌ ضِيزَى" أي جائرة ، وهي فُعْلى مِثل طُوبَى وحُبْلى ؛ وإنما كسروا الضاد لتسلم الياء ؛ لأنه ليس في الكلام فِعْلى صفة ، وإنما هو من بناء الأسماء كالشِّعْرى والدِّفْلى .

قال الفرّاء : وبعض العرب تقول ضُوْزى وضِئْزى بالهمز .

وحكى أبو حاتم عن أبي زيد : أنه سمع العرب تهمز "ضِيزى" .

(32/733)

قال غيره : وبها قرأ ابن كثير ؛ جعله مصدراً مثل ذِكرى وليس بصفة ؛ إذ ليس في الصفات فِعْلى ولا يكون أصلها فُعْلى ؛ إذ ليس فيها ما يوجب القلب ، وهي من قولهم شأزته أي ظلمته .

فالمعنى قسمة ذات ظلم .

وقد قيل هما لغتان بمعنًى .

وحكى فيها أيضاً سواهما ضَيْزَى وضَأْزى وضُوزَى وضُؤْزى .

وقال المؤرّج : كرهوا ضم الضاد في ضِيزى ، وخافوا انقلاب الياء واواً وهي من بنات الواو ؛ فكسروا الضاد لهذه العلة ، كما قالوا في جمع أبيض بِيضٌ والأصل بُوضٌ ؛ مثل حُمْرٍ وصُفْر وخُضْر .

فأما من قال : ضاز يَضُوز فالاسم منه ضُوزَى مثل شُورَى .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾

أي ما هي يعني هذه الأوثان ﴿ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ يعني نحتموها وسميتموها آلهة .

﴿ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم ﴾ أي قلدتموهم في ذلك .

﴿ مَّآ أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ أي ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان .

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظن ﴾ عاد من الخطاب إلى الخبر أي ما يتبع هؤلاء إلى الظن .

﴿ وَمَا تَهْوَى الأنفس ﴾ أي تميل إليه .

وقراءة العامة ﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾ بالياء .

وقرأ عيسى بن عمر وأيوب وابن السَّمَيْقَع "تَتَّبِعُونَ" بالتاء على الخطاب .

وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الهدى ﴾ أي البيان من جهة الرسول أنها ليست بآلهة .

﴿ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تمنى ﴾ أي اشتهى أي ليس ذلك له .

وقيل : ﴿ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ من البنين ؛ أي يكون له دون البنات .

وقيل : ﴿ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ من غير جزاء ! ليس الأمر كذلك .

وقيل : ﴿ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ من النبوّة أن تكون فيه دون غيره .

وقيل : ﴿ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ من شفاعة الأصنام ؛ نزلت في النضر بن الحرث .

وقيل : في الوليد بن المغيرة .

وقيل : في سائر الكفار .

﴿ فَلِلَّهِ الآخرة والأولى ﴾ يعطي من يشاء ويمنع من يشاء لا ما تمنى أحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(33/733)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) ﴾

﴿ والنجم ﴾ : هم الصحابة .

وقيل : العلماء مفرد أريد به الجمع ، وهو في اللغة خرق الهوى ومقصده السفل ، إذ مصيره إليه ، وإن لم يقصد إليه .

وقال الشاعر :

هوى الدلو اسلمها الرشا . . .

ومنه : هوى العقاب .

﴿ صاحبكم ﴾ : هو محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، والخطاب لقريش : أي هو مهتد راشد ، وليس كما تزعمون من نسبتكم إياه إلى الضلال والغي .

﴿ وما ينطق ﴾ : أي الرسول عليه الصلاة والسلام ، ﴿ عن الهوى ﴾ : أي عن هوى نفسه ورأيه .

﴿ إن هو إلا وحى ﴾ من عند الله ، ﴿ يوحى ﴾ إليه .

وقيل : ﴿ وما ينطق ﴾ : أي القرآن ، عن هوى وشهوة ، كقوله : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ ﴿ إن هو ﴾ : أي الذي ينطق به .

أو ﴿ إن هو ﴾ : أي القرآن .

﴿ علمه ﴾ : الضمير عائد على الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فالمفعول الثاني محذوف ، أي علمه الوحي .

أو على القرآن ، فالمفعول الأول محذوف ، أي علمه الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

﴿ شديد القوى ﴾ : هو جبريل ، وهو مناسب للأوصاف التي بعده ، وقاله ابن عباس وقتادة والربيع .

وقال الحسن : ﴿ شديد القوى ﴾ : هو الله تعالى ، وهو بعيد .

﴿ ذو مرة ﴾ : ذو قوة ، ومنه لا تحل الصدقة لغني ، ولا لذي مرة سوى .

وقيل : ذو هيئة حسنة .

وقيل : هو جسم طويل حسن .

ولا يناسب هذان القولان إلا إذا كان شديد القوى هو جبريل عليه السلام .

﴿ فاستوى ﴾ : الضمير لله في قوله الحسن ، وكذا ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ لله تعالى ، على معنى العظمة والقدرة والسلطان .

وعلى قول الجمهور : ﴿ فاستوى ﴾ : أي جبريل في الجو ، ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ ، إن رآه الرسول عليه الصلاة والسلام بحراء قد سد الأفق له ستمائة جناح ، وحينئذ دنا من محمد حتى كان قاب قوسين ، وكذلك هو المرئي في النزلة الأخرى بستمائة جناح عند السدرة ، قاله الربيع والزجاج .

(34/733)

وقال الطبري : والفراء : المعنى فاستوى جبريل ؛ وقوله : ﴿ وهو ﴾ ، يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) ، وفي هذا التأويل العطف على الضمير المرفوع من غير فصل ، وهو

مذهب الكوفيين .

وقد يقال : الضمير في استوى للرسول ، وهو لجبريل ، والأعلى لعمه الرأس وما جرى معه .

وقال الحسن وقتادة : هو أفق مشرق الشمس .

وقال الزمخشري : ﴿ فاستوى ﴾ : فاستقام على صورة نفسه الحقيقية دون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي ، وكان ينزل في صورة دحية ، وذلك أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أحب أن يراه في صورته التي جبل عليها ، فاستوى له بالأفق الأعلى ، وهو أفق الشمس ، فملأ الأفق .

وقيل : ما رآه أحد من الأنبياء في صورته الحقيقية غير محمد (صلى الله عليه وسلم) ، مرة في الأرض ، ومرة في السماء .

﴿ ثم دنا ﴾ من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ﴿ فتدلى ﴾ : فتعلق عليه في الهوى .

وكان مقدار مسافة قربه منه مثل ﴿ قاب قوسين ﴾ ، فحذفت هذه المضافات ، كما قال أبو علي في قوله :

وقد جعلتني من خزيمة أصبعا . . .

أي : ذا مسافة مقدار أصبع ، ﴿ أو أدنى ﴾ على تقديركم ، كقوله : ﴿ أو يزيدون ﴾

﴿ إلى عبده ﴾ : أي إلى عبد الله ، وإن لم يجر لاسمه عز وجل ذكر ، لأنه لا يلبس ، كقوله :

﴿ ما ترك على ظهرها ﴾ ﴿ ما أوحى ﴾ : تفخيم للوحي الذي أوحي إليه قبل .

انتهى .

وقال ابن عطية : ﴿ ثم دنا ﴾ ، قال الجمهور : أي جبريل إلى محمد عليهما الصلاة والسلام عند حراء .

وقال ابن عباس وأنس في حديث الإسراء : ما يقتضي أن الدنو يستند إلى الله تعالى .

وقيل : كان الدنو إلى جبريل .

وقيل : إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أي دنا وحيه وسلطانه وقدرته ، والصحيح أن جميع ما في هذه الآيات هو مع جبريل بدليل قوله : ﴿ ولقد رءاه نزلة أخرى ﴾ ، فإنه يقتضي نزلة متقدمة .

وما روي أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رأى ربه قبل ليلة الإسراء .

(35/733)

ودنا أعم من تدلى ، فبين هيئة الدنو كيف كانت قاب قدر ، قال قتادة وغيره : معناه من طرف العود إلى طرفه الآخر .

وقال الحسن ومجاهد : من الوتر إلى العود في وسط القوس عند المقبض .

وقال أبو رزين : ليست بهذه القوس ، ولكن قدر الذراعين .

وعن ابن عباس : أن القوس هنا ذراع تقاس به الأطوال .

وذكر الثعلبي أنه من لغة الحجاز .

﴿ فأوحى ﴾ : أي الله ، ﴿ إلى عبده ﴾ : أي الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، قاله ابن عباس .

وقيل : ﴿ إلى عبده ﴾ جبريل ، ﴿ ما أوحى ﴾ : إبهام على جهة التعظيم والتفخيم ، والذي عرف من ذلك فرض الصلوات .

وقال الحسن : فأوحى جبريل إلى عبد الله ، محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ما أوحى ، كالأول في الإبهام .

وقال ابن زيد : فأوحى جبريل إلى عبد الله ، محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ما أوحاه الله تعالى إلى جبريل عليه السلام .

وقال الزمخشري : ﴿ ما أوحى ﴾ : أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك .

﴿ ما كذب ﴾ فؤاد محمد (صلى الله عليه وسلم) ما رآه ببصره من صورة جبريل : أي ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك ، يعني أنه رآه بعينه وعرفه بقلبه ، ولم يشك في أن ما رآه حق . انتهى .

وقرأ الجمهور : ما كذب مخففاً ، على معنى : لم يكذب قلب محمد (صلى الله عليه وسلم) الشيء الذي رآه ، بل صدقه وتحققه نظراً ، وكذب يتعدى .

وقال ابن عباس وأبو صالح : رأى محمد (صلى الله عليه وسلم) الله تعالى بفؤاده .

وقيل : ما رأى بعينه لم يكذب ذلك قلبه ، بل صدقه وتحققه ، ويحتمل أن يكون التقدير فيما رأى .

وعن ابن عباس وعكرمة وكعب الأحبار : أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) رأى ربه بعيني رأسه ، وأبت ذلك عائشة رضي الله تعالى عنها ، وقالت : أنا سألت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن هذه الآيات ، فقال لي :

" هو جبريل عليه السلام فيها كلها " وقال الحسن : المعنى ما رأى من مقدورات الله تعالى وملكوته .

(36/733)

" وسأل أبو ذر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : هل رأيت ربك ؟ فقال : " نورانى أراه " وحديث عائشة قاطع لكل تأويل في اللفظ ، لأن قول غيرها إنما هو منتزع من ألفاظ القرآن ، وليست نصاً في الرؤية بالبصر ، بلا ولا بغيره .

وقرأ أبو رجاء وأبو جعفر وقتادة والجحدري وخالد بن الياس وهشام عن ابن عامر : ما كذب مشدداً .

وقال كعب الأحبار : إن الله قسم الرؤية والكلام بين محمد وموسى عليهما الصلاة والسلام ، فكلم موسى مرتين ، ورآه محمد (صلى الله عليه وسلم) مرتين .

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها : لقد وقف شعري من سماع هذا ، وقرأت : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ وذهبت هي وابن مسعود وقتادة والجمهور إلى أن المرئي مرتين هو جبريل ، مرة في الأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى .

وقرأ الجمهور : ﴿ أفتمارونه ﴾ : أي أتجادلونه على شيء رآه ببصره وأبصره ، وعدى بعلى لما في الجدال من المغالبة ، وجاء يرى بصيغة المضارع ، وإن كانت الرؤية قد مضت ، إشارة إلى ما يمكن حدوثه بعد .

وقرأ علي وعبد الله وابن عباس والجحدري ويعقوب وابن سعدان وحمزة والكسائي : بفتح التاء وسكون الميم ، مضارع مريت : أي جحدت ، يقال : مريته حقه ، إذا جحدته ، قال الشاعر :

لئن سخرت أخا صدق ومكرمة . . .

لقد مريت أخاً ما كان يمريكا

وعدى بعلى على معنى التضمين .

وكانت قريش حين أخبرهم (صلى الله عليه وسلم) بأمره في الإسراء ، كذبوا واستخفوا ، حتى وصف لهم بيت المقدس وأمر غيرهم ، وغير ذلك مما هو مستقصى في حديث الإسراء .

وقرأ عبد الله فيما حكى ابن خالويه ، والشعبي فيما ذكر شعبة : بضم التاء وسكون الميم ، مضارع أمريت .

قال أبو حاتم : وهو غلط .

﴿ ولقد رءاه ﴾ : الضمير المنصوب عائد على جبريل عليه السلام ، قال ابن مسعود وعائشة ومجاهد والربيع .

﴿ نزلة أخرى ﴾ : أي مرة أخرى ، أي نزل عليه جبريل عليه السلام مرة أخرى في في صورة نفسه ، فرآه عليها ، وذلك ليلة المعراج .

(37/733)

وأخرى تقتضي نزلة سابقة ، وهي المفهومة من قوله : ﴿ ثم دنا ﴾ جبريل ، ﴿ فتدلى ﴾ : وهو الهبوط والنزول من علو .

وقال ابن عباس وكعب الأحبار : الضمير عائد على الله ، على ما سبق من قولهما أن

رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رأى ربه مرتين .

وانتصب نزلة ، قال الزمخشري : نصب الظرف الذي هو مرة ، لأن الفعلة اسم للمرة من الفعل .

وقال الحوفي وابن عطية : مصدر في موضع الحال .

وقال أبو البقاء : مصدر ، أي مرة أخرى ، أو رؤية أخرى .

﴿ عند سدرة المنتهى ﴾ ، قيل : هي شجرة نبق في السماء السابعة .

وقيل : في السماء السادسة ، ثمرها كقلال هجر ، وورقها كآذان الفيلة .

تنبع من أصلها الأنهار التي ذكرها الله تعالى في كتابه ، يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها .

والمنتهى موضع الانتهاء ، لأنه ينتهي إليها علم كل عالم ، ولا يعلم ما وراءها صعداً إلا الله تعالى عز وجل ؛ أو ينتهي إليها كل من مات على الإيمان من كل جيل ؛ أو ينتهي إليها ما نزل من أمر الله تعالى ، ولا تتجاوزها ملائكة العلو وما صعد من الأرض ، ولا تتجاوزها ملائكة السفل ؛ أو تنتهي إليها أرواح الشهداء ؛ أو كأنها في منتهى الجنة وآخرها ؛ أو تنتهي إليها الملائكة والأنبياء ويقفون عندها ؛ أو ينتهي إليها علم الأنبياء ويعزب علمهم عن ما وراءها ؛ أو تنتهي إليها الأعمال ؛ أو لانتهاء من رفع إليها في الكرامة ، أقوال تسعة .

﴿ عندها جنة المأوى ﴾ : أي عند السدرة ، قيل : ويحتمل عند النزلة .

قال الحسن : هي الجنة التي وعدها الله المؤمنين .

وقال ابن عباس : بخلاف عنه ؛ وقتادة : هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء ، وليست بالتي وعد المتقون جنة النعيم .

وقيل : جنة : مأوى الملائكة .

وقرأ علي وأبو الدرداء وأبو هريرة وابن الزبير وأنس وزر ومحمد بن كعب وقتادة : جنه ، بهاء الضمير ، وجن فعل ماض ، والهاء ضمير النبي (صلى الله عليه وسلم) ، أي عندها ستره إيواء الله تعالى وجميل صنعه .

(38/733)

وقيل : المعنى ضمه المبيت والليل .

وقيل : جنه بظلاله ودخل فيه .

وردّت عائشة وصحابة معها هذه القراءة وقالوا : أجن الله من قرأها ؛ وإذا كانت قراءة قرأها أكابر من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فليس لأحد ردّها .

وقيل : إن عائشة رضي الله تعالى عنها أجازتها .

وقراءة الجمهور : ﴿ جنة المأوى ﴾ ، كقوله في آية أخرى : ﴿ فلهم جنات المأوى نزلاً ﴾

﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ : فيه بإبهام الموصول وصلته تعظيم وتكثير للغاشي الذي يغشاه ، إذ ذاك أشياء لا يعلم وصفها إلا الله تعالى .

وقيل : يغشاها الجم الغفير من الملائكة ، يعبدون الله عندها .

وقيل : ما يغشى من قدرة الله تعالى ، وأنواع الصفات التي يخترعها لها .

وقال ابن مسعود وأنس ومسروق ومجاهد وإبراهيم : ذلك جراد من ذهب كان يغشاها .

وقال مجاهد : ذلك تبدل أغصانها درّاً وياقوتاً .

وروي في الحديث : " رأيت على كل ورقة من ورقها ملكاً قائماً يسبح الله تعالى " وأيضاً : يغشاها رفرف أخضر ، وأيضاً : تغشاها ألوان لا أدري ما هي .

وعن أبي هريرة : يغشاها نور الخلاق .

وعن الحسن : غشيها نور رب العزة فاستنارت .

وعن ابن عباس : غشيها رب العزة ، أي أمره ، كما جاء في صحيح مسلم مرفوعاً ، فلما غشيها من أمر الله ما غشي ، ونظير هذا الإبهام للتعظيم : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ ، ﴿ والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى ﴾ .

﴿ ما زاغ البصر ﴾ ، قال ابن عباس : ما مال هكذا ولا هكذا .

وقال الزمخشري : أي أثبت ما رآه إثباتاً مستيقناً صحيحاً من غير أن يزيغ بصره أو يتجاوزه ، إذ ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ومكن منها ، ﴿ وما طغى ﴾ : وما

جاوز ما أمر برؤيته .

انتهى .

وقال غيره : ﴿ وما طغى ﴾ : ولا تجاوز المرئي إلى غيره ، بل وقع عليه وقوعاً صحيحاً ، وهذا تحقيق للأمر ، ونفي للريب عنه .

(39/733)

﴿ لقد رأى من أيات ربه الكبرى ﴾ ، قيل : الكبرى مفعول رأى ، أي رأى الآيات الكبرى والعظمى التي هي بعض آيات ربه ، أي حين رقي إلى السماء رأى عجائب الملكوت ، وتلك بعض آيات الله .

وقيل : ﴿ من آيات ﴾ هو في موضع المفعول ، والكبرى صفة لآياته ربه ، ومثل هذا الجمع يوصف بوصف الواحدة ، وحسن ذلك هنا كونها فاصلة ، كما في قوله : ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ عند من جعلها صفة لآياتنا .

وقال ابن عباس وابن مسعود : أي رفرف أخضر قد سد الأفق .

وقال ابن زيد : رأى جبريل في الصورة التي هو بها في السماء .

﴿ أفرأيتم ﴾ : خطاب لقريش .

ولما قرر الرسالة أولاً ، وأتبعه من ذكر عظمة الله وقدرته الباهرة بذكر التوحيد والمنع عن الإشراك بالله تعالى ، وقفهم على حقارة معبوداتهم ، وهي الأوثان ، وأنها ليست لها قدرة .

واللات : صنم كانت العرب تعظمه .

قال قتادة : كان بالطائف .

وقال أبو عبيدة وغيره : كان في الكعبة .

وقال ابن زيد : كان بنخلة عند سوق عكاظ .

قال ابن عطية : وقول قتادة أرجح ، ويؤيده قوله الشاعر :

وفرت ثقيف إلى لاتها . . .

بمنقلب الخائب الخاسر

انتهى .

ويمكن الجمع بأن تكون أصناماً سميت باسم اللات فأخبر كل عن صنم بمكانه .

والتاء في اللات قيل أصلية ، لام الكلمة كالباء من باب ، وألفه منقلبة فيما يظهر من ياء ، لأن مادة ليت موجودة .

فإن وجدت مادة من ل وت ، جاز أن تكون منقلبة من واو .

وقيل : التاء للتأنيث ، ووزنها فعلة من لوى ، قيل : لأنهم كانوا يلوون عليها ويعكفون للعبادة

، أو يلتوون عليها : أي يطوفون ، حذفت لامها .

وقرأ الجمهور : اللات خفيفة التاء ؛ وابن عباس ومجاهد ومنصور بن المعتمر وأبو صالح وطلحة وأبو الجوزاء ويعقوب وابن كثير في رواية : بشدها .

قال ابن عباس : كان هذا رجلاً بسوق عكاظ ، يلت السمن والسويق عند صخرة .

(40/733)

وقيل : كان ذلك الرجل من بهز ، يلت السويق للحجاج على حجر ، فلما مات ، عبدوا الحجر الذي كان عنده ، إجلالاً لذلك الرجل ، وسموه باسمه .

وقيل : سمي برجل كان يلت عنده السمن بالدب ويطعمه الحجاج .

وعن مجاهد : كان رجل يلت السويق بالطائف ، وكانوا يعكفون على قبره ، فجعلوه وثناً .

وفي التحرير : أنه كان صنماً تعظمه العرب .

وقيل : حجر ذلك اللات ، وسموه باسمه .

وعن ابن جبير : صخرة بيضاء كانت العرب تعبدها وتعظمها .

وعن مجاهد : شجيرات تعبد ببلادها ، انتقل أمرها إلى الصخرة .

انتهى ملخصاً .

وتلخص في اللات ، أهو صنم ، أو حجر يلت عليه ، أو صخرة يلت عندها ، أو قبر اللات ، أو شجيرات ثم صخرة ، أو اللات نفسه ، أقوال ، والعزى صنم .

وقيل : سموه لغطفان ، وأصلها تأنيث الأعز ، بعث إليها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خالد بن الوليد فقطعها ، وخرجت منها شيطانة ، ناشرة شعرها ، داعية ويلها ، واضعة يدها على رأسها ؛ فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها ، وهو يقول :

يا عز كفرانك لا سبحانك . . .

إني رأيت الله قد أهانك

ورجع فأخبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقال عليه الصلاة والسلام : " تلك العزى ولن تعبد أبداً " وقال أبو عبيدة : كانت العزى ومناة بالكعبة . انتهى .

ويدل على هذا قول أبي سفيان في بعض الحروب للمسلمين : لنا عزى ، ولا عزى لكم .

وقال ابن زيد : كانت العزى بالطائف .

وقال قتادة : كانت بنخلة ، ويمكن الجمع ، فإنه كان في كل مكان منها صنم يسمى بالعزى ، كما قلنا في اللات ، فأخبر كل واحد عن ذلك الصنم المسمى ومكانه .

﴿ ومناة ﴾ : قيل : صخرة كانت لهذيل وخزاعة ، وعن ابن عباس : لثقيف .

وقيل : بالمشكك من قديد بين مكة والمدينة ، وكانت أعظم هذه الأوثان قدراً وأكثرها عدداً ، وكانت الأوس والخزرج تهل لها هذا اضطراب كثير في الأوثان ومواضعها ، والذي

يظهر أنها كانت ثلاثتها في الكعبة ، لأن المخاطب بذلك في قوله : ﴿ أفرأيتم ﴾ هم قريش .

(41/733)

وقرأ الجمهور : ومناة مقصوراً ، فقيل : وزنها فعلة ، سميت مناة لأن دماء النسائك كانت تمنى عندها : أي تراق .

وقرأ ابن كثير : ومناءة ، بالمد والهمز .

قيل : ووزنها مفعلة ، فالألف منقلبة عن واو ، نحو : مقالة ، والهمزة أصل مشتقة من النوء ، كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها ، والقصر أشهر .

قال جرير :

أزيد مناة توعد بأس تيم . . .

تأمل أين تاه بك الوعيد

وقال آخر في المد والهمز :

ألا هل أتى تيم بن عبد مناءة . . .

على النأي فيما بيننا ابن تميم

واللات والعزى ومناة منصوبة بقوله : ﴿ أفرأيتم ﴾ ، وهي بمعنى أخبرني ، والمفعول الثاني الذي لها هو قوله : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ على حد ما تقرر في متعلق أرأيت إذا كانت بمعنى أخبرني ، ولم يعد ضمير من جملة الاستفهام على اللات والعزى ومناة ، لأن قوله : ﴿ وله الأنثى ﴾ هو في معنى : وله هذه الإناث ، فأغنى عن الضمير .

وكانوا يقولون في هذه الأصنام : هي بنات الله ، فالمعنى : ألكم النوع المحبوب المستحسن الموجود فيكم ، وله النوع المذموم بزعمكم ؟ وهو المستثقل .

وحسن إبراز الأنثى كونه نصاً في اعتقادهم أنهن إناث ، وأنهن بنات الله تعالى ، وإن كان في لحاق تاء التأنيث في اللات وفي مناة ، وألف التأنيث في العزى ، ما يشعر بالتأنيث ، لكنه قد سمى المذكر بالمؤنث ، فكان في قوله : ﴿ الأنثى ﴾ نص على اعتقاد التأنيث فيها .

وحسن ذلك أيضاً كونه جاء فاصلة ، إذ لو أتى ضميراً ، فكان التركيب ألكم الذكر وله هن ، لم تقع فاصلة .

وقال الزجاج : وجه تلفيق هذه الآية مع ما قبلها ، فيقول : أخبروني عن آلهتكم ، هل لها شيء من القدرة والعظمة التي وصف بها رب العزة في الآي السالفة ؟ انتهى .

(42/733)

فجعل المفعول الثاني لأفرأيتم جملة الاستفهام التي قدرها ، وحذفت لدلالة الكلام السابق عليها ، وعلى تقديره يبقى قوله : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ متعلقاً بما قبله من جهة المعنى ، لا من جهة المعنى الإعراب ، كما قلناه نحن .

ولا يعجبني قول الزجاج : وجه تلفيق هذه الآية مع ما قبلها ، ولو قال : وجه اتصال هذه ، أو وجه انتظام هذه مع ما قبلها ، لكان الجيد في الأدب ، وإن كان يعني هذا المعنى .

وقال ابن عطية : ﴿ أفرأيتم ﴾ خطاب لقريش ، وهي من رؤية العين ، لأنه أحال على أجرام مرئية ، ولو كانت أرأيت التي هي استفتاء لم تتعد . انتهى .

ويعني بالأجرام : اللات والعزى ومناة ، وأرأيت التي هي استفتاء تقع على الأجرام ، نحو : أرأيت زيداً ما صنع ؟ وقوله : ولو كانت أرأيت التي هي استفتاء ، يعني الذي تقول النحاة فيه إنها بمعنى أخبرني ، لم تتعد ؛ والتي هي بمعنى الاستفتاء تتعدى إلى اثنين ، أحدهما منصوب ، والآخر في الغالب جملة استفهامية .

وقد تكرر لنا الكلام في ذلك ، وأوله في سورة الأنعام .

ودل كلام ابن عطية على أنه لم يطالع ما قاله الناس في أرأيت إذا كانت استفتاء على اصطلاحه ، وهي التي بمعنى أخبرني .

والظاهر أن ﴿ الثالثة الأخرى ﴾ صفتان لمناة ، وهما يفيدان التوكيد .

قيل : ولما كانت مناة هي أعظم هذه الأوثان ، أكدت بهذين الوصفين ، كما تقول : رأيت

فلاناً وفلاناً ، ثم تذكر ثالثاً أجل منهما فتقول : وفلاناً الآخر الذي من شأنه .

ولفظة آخر وأخرى يوصف به الثالث من المعدودات ، وذلك نص في الآية ، ومنه قول ربيعة بن مكرم :

ولقد شفعتهما بآخر ثالث . . .

انتهى .

وقول ربيعة مخالف للآية ، لأن ثالثاً جاء بعد آخر .

وعلى قول هذا القائل أن مناة هي أعظم هذه الأوثان ، يكون التأكيد لأجل عظمها .

(43/733)

ألا ترى إلى قوله : ثم تذكر ثالثاً أجل منهما ؟ وقال الزمخشري : والأخرى ذم ، وهي المتأخرة الوضيعة المقدار ، كقوله تعالى : ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ﴾ أي وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرافهم .

ويجوز أن تكون الأولية والتقدم عندهم للات والعزى . انتهى .

ولفظ آخر ومؤنثه أخرى لم يوضعا للذم ولا للمدح ، إنما يدلان على معنى غير ، إلا أن من شرطهما أن يكونا من جنس ما قبلهما .

لو قلت : مررت برجل وآخر ، لم يدل إلا على معنى غير ، لا على ذم ولا على مدح .

وقال أبو البقاء : والأخرى توكيد ، لأن الثالثة لا تكون إلا أخرى . انتهى .

وقيل : الأخرى صفة للعزى ، لأنها ثانية اللات ؛ والثانية يقال لها الأخرى ، وأخرت لموافقة رؤوس الآي .

وقال الحسن بن الفضل : فيه تقديم وتأخير تقديره : والعزى الأخرى ، ومناة الثالثة الذليلة ، وذلك لأن الأولى كانت وثناً على صورة آدمي ، والعزى صورة نبات ، ومناة صورة صخرة .

فالآدمي أشرف من النبات ، والنبات أشرف من الجماد .

فالجماد متأخر ، ومناة جماد ، فهي في أخريات المراتب .

والإشارة بتلك إلى قسمتهم ، وتقديرهم : أن لهم الذكران ، ولله تعالى البنات .

وكانوا يقولون : إن هذه الأصنام والملائكة بنات الله تعالى .

قال ابن عباس وقتادة : ضيزى : جائرة ؛ وسفيان : منقوصة ؛ وابن زيد : مخالفة ؛ ومجاهد ومقاتل : عوجاء ؛ والحسن : غير معتدلة ؛ وابن سيرين : غير مستوية ، وكلها أقوال متقاربة في المعنى .

وقرأ الجمهور : ﴿ ضيزى ﴾ من غير همز ، والظاهر أنه صفة على وزن فعلى بضم الفاء ، كسرت لتصح الياء .

ويجوز أن تكون مصدراً على وزن فعلى ، كذكرى ، ووصف به .

وقرأ ابن كثير : ضئزى بالهمز ، فوجه على أنه مصدر كذكرى .

وقرأ زيد بن علي : ضيزى بفتح الضاد وسكون الياء ، ويوجه على أنه مصدر ، كدعوى وصف به ، أو وصف ، كسكرى وناقة خرمى .

ويقال : ضوزى بالواو وبالهمز ، وتقدّم في المفردات حكاية لغة الهمز عن الكسائي .

وأنشد الأخفش :

(44/733)

فإن تنأ عنها تقتضيك وإن تغب . . .

فسهمك مضؤوز وأنفك راغم

﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ : تقدّم تفسير نظيرها في سورة هود ، وفي سورة الأعراف .

وقرأ الجمهور : ﴿ إن يتبعون ﴾ بياء الغيبة ؛ وعبد الله وابن عباس وابن وثاب وطلحة والأعمش وعيسى بن عمر : بتاء الخطاب ، ﴿ إلا الظن ﴾ : وهو ميل النفس إلى أحد معتقدين من غير حجة ، ﴿ وما تهوى ﴾ : أي تميل إليه بلذة ، وإنما تهوى أبداً ما هو غير

الأفضل ، لأنها مجبولة على حب الملاذ ، وإنما يسوقها إلى حسن العاقبة العقل .

﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ : توبيخ لهم ، والذي هم عليه باطل واعتراض بين الجملتين ، أي يفعلون هذه القبائح ؛ والهدى قد جاءهم ، فكانوا أولى من يقبله ويترك عبادة من لا يجدي عبادته .

﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ : هو متصل بقوله : ﴿ وما تهوى الأنفس ﴾ ، بل للإنسان ، والمراد به الجنس ، ﴿ ما تمنى ﴾ : أي ما تعلقت به أمانيه ، أي ليست الأشياء والشهوات تحصل بالأماني ، بل لله الأمر .

وقولكم : إن آلهتكم تشفع وتقرب زلفى ، ليس لكم ذلك .

وقيل : أمنيتهم قولهم : ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ وقيل : قول الوليد بن المغيرة : ﴿ لأوتين مالا وولداً ﴾ وقيل : تمنى بعضهم أن يكون النبي .

﴿ فللّه الآخرة والأولى ﴾ : أي هو مالكهما ، فيعطي منهما ما يشاء ، ويمنع من يشاء ، وليس لأحد أن يبلغ منهما إلا ما شاء الله .

وقدّم الآخرة على الأولى ، لتأخرها في ذلك ، ولكونها فاصلة ، فلم يراع الترتيب الوجودي ، كقوله : ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾

هي أصنام كانت لهم فاللات كما قال قتادة : لثقيف بالطائف ، وأنشدوا :

وفرت ثقيف إلى (لاتها) . . .

بمقلب الخائب الخاسر

وقال أبو عبيدة .

وغيره : كان بالكعبة ، وقال ابن زيد : كان بنخلة عند سوق عكاظ يعبده قريش ، ورجح ابن عطية قول قتادة ، وقال أبو حيان : يمكن الجمع بأن يكون المسمى بذلك أصناماً فأخبر عن كل صنم بمكانه ، والتاء فيه قيل : أصلية وهي لام الكلمة كالباء في باب ، وألفه منقلبة فيما يظهر من ياء لأن مادة (ل ي ت) موجودة فإن وجدت مادة (ل و ت) جاز أن تكون منقلبة من واو ، وقيل : تاء العوض ، والأصل لوية بزنة فعلة من لوى لأنهم كانوا يلوون عليه ويعتكفون للعبادة ، أو يلتون عليه أي يطوفون فخفف بحذف الياء وأبدلت واوه ألفاً ، وعوض عن الياء تاءاً فصارت كتاء أخت وبنت ، ولذا وقف عليها بالتاء ، وقرأ ابن عباس .

ومجاهد .

ومنصور بن المعتمر .

وأبو صالح .

وطلحة .

وأبو الجوزاء .

ويعقوب .

وابن كثير في رواية بتشديد التاء على أنه اسم فاعل من لت يلت إذا عجن قيل : كان رجل يلت السويق للحاج على حجر فلما مات عبدوا ذلك الحجر إجلالاً له وسموه بذلك ، وعن مجاهد أنه كان على صخرة في الطائف يصنع حيسا ويطعم من يمرّ من الناس فلما مات عبدوه ، وأخرج ابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يلت السويق على الحجر فلا يشرب منه أحد إلا سمن فعبدوه ، وأخرج الفاكهي عنه أنه لما مات قال لهم عمرو بن حلى : إنه لم يمت ولكنه دخل الصخرة فعبدوها وبنوا عليها بيتاً ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال : كان رجل من ثقيف يلت السويق بالزيت فلما توفي جعلوا قبره وثناً ، وزعم الناس أنه عامر بن الظرب أحد عدوان ، وقيل : غير ذلك ﴿ والعزى ﴾ لغطفان وهي على المشهور سمرة بنخلة كما قال قتادة وأصلها تأنيث الأعز ، وأخرج النسائي .

وابن مردويه عن أبي الطفيل قال : " لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى فأتاها خالد وكانت ثلاث سمرات فقطع السماوات وهدم البيت الذي كان عليها ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : ارجع فإنك لم تصنع شيئاً فرجع خالد فلما أبصرته السدنة مضوا وهم يقولون يا عزي يا عزي فأتاها فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال عليه الصلاة والسلام : تلك العزى "

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم بعث إليها خالداً فقطعها فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية ويلها واضعة يدها على رأسها فضربها بالسيف حتى قتلها وهو يقول :

يا عز كفرانك لا سبحانك . . .

إني رأيت الله قد أهانك

ورجع فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه الصلاة والسلام : " تلك العزى ولن تعبد أبداً " وقال ابن زيد : كانت العزى بالطائف ، وقال أبو عبيدة : كانت بالكعبة ، وأيده في البحر بقول أبي سفيان في بعض الحروب للمسلمين لنا العزى ولا عزى لكم ؛ وذكر فيه أنه صنم وجمع بمثل ما تقدم ، ﴿ ومناة ﴾ قيل : صخرة كانت لهذيل .

وخزاعة ، وعن ابن عباس لثقيف ، وعن قتادة للأنصار بقديد ، وقال أبو عبيدة : كانت بالكعبة أيضاً ، واستظهر أبو حيان أنها ثلاثتها كانت فيها قال : لأن المخاطب في قوله تعالى : أفرأيتم قريش ؟ وفيه بحث ، ومناة مقصورة قيل : وزنها فعلة ، وسميت بذلك لأن دماء النسائك كانت تمنى عندها أي تراق ، وقرأ ابن كثير على ما في البحر مناءة بالمد والهمز كما في قوله :

ألا هل أتي تميم بن عبد (مناءة) . . .

على النأى فيما بيننا ابن تميم

(47/733)

ووزنها مفعلة فالألف منقلبة عن واو كما في مقالة ، والهمزة أصل وهي مشتقة من النوء كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنوار تبركاً بها ، والظاهر أن (الثالثة الأخرى) صفتان لمناة وهما على ما قيل : للتأكيد فإن كونها ثالثة وأخرى مغايرة لما تقدمها معلوم غير محتاج للبيان ، وقال بعض الأجلة : (الثالثة) للتأكيد ، و(الأخرى) للذم بأنها متأخرة في الرتبة وضيعة المقدار ، وتعقبه أبو حيان بأن آخر ومؤنثة أخرى لم يوضعا لذم ولا لمدح وإنما يدلان على معنى غير ، والحق أن ذلك باعتبار المفهوم الأصلي وهي تدل على ذم السابقتين أيضاً

قال في الكشف : هي اسم ذم يدل على وضاعة السابقتين بوجه أيضاً لأن ﴿ أخرى ﴾ تأنيث آخر تستدعي المشاركة مع السابق فإذا أتى بها لقصد التأخر في الرتبة عملاً بمفهومها الأصلي إذ لا يمكن العمل بالمفهوم العرفي لأن السابقتين ليستا ثالثة أيضاً استدعت المشاركة قضاءاً لحق التفضيل ، وكأنه قيل : (الأخرى) في التأخر انتهى وهو حسن ، وذكر في نكتة ذم مناة بهذا الذم أن الكفرة كانوا يزعمون أنها أعظم الثلاثة فأكذبهم الله تعالى بذلك .

(48/733)

وقال الإمام : (الأخرى) صفة ذم كأنه قال سبحانه : (ومناة الثالثة) الذليلة وذلك لأن اللات كان على صورة آدمي ﴿ والعزى ﴾ صورة نبات ﴿ ومناة ﴾ صورة صخرة ، فالآدمي أشرف من النبات ، والنبات أشرف من الجماد فالجماد متأخر ومناة جماد فهي في أخريات المراتب ، وأنت تعلم أنه لا يتأتى على كل الأقوال ، وقيل : (الأخرى) صفة للعزى لأنها ثانية اللات ، والثانية يقال لها (الأخرى) وأخرت لموافقة رؤوس الآي ، وقال الحسن ابن المفضل : في الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير والعزى الأخرى ﴿ ومناة الثالثة كَذَبَ الفؤاد مَا رأى أفتمارونه على مَا يرى وَلَقَدْ رَءاهُ نَزْلَةً أُخرى عِندَ سِدْرَةِ المنتهى

عِندَهَا جَنَّةُ المأوى إِذْ يغشى السدرة مَا يغشى مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى لَقَدْ رأى مِنْ ءايات رَبِّهِ الكبرى أَفَرَءَيْتُمُ ﴾ الخ والهمزة للإنكار والفاء لتوجيهه إلى ترتيب الرؤية على ما ذكر من شؤون الله تعالى المنافية لها غاية المنافاة وهي علمية عند كثير ، ومفعولها الثاني على ما اختاره بعضهم محذوف لدلالة الحال عليه ، فالمعنى أعقيب ما سمعتم من آثار كمال عظمة الله عز وجل في ملكه وملكوته وجلاله وجبروته وإحكام قدرته ونفاذ أمره رأيتم هذه الأصنام مع غاية حقارتها بنات الله سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى :

أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (21)

(49/733)

توبيخ مبني على ذلك التوبيخ ومداره تفضيل جانب أنفسهم على جنابه عز وجل حيث جعلوا له تعالى الإناث واختاروا لأنفسهم الذكور ، ومناط الأول نفس تلك النسبة ، وقيل : المعنى ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ هذه الأصنام مع حقارتها وذلتها شركاء لله سبحانه مع ما تقدم من عظمته ، وقيل : المعنى اخبروني عن آلهتكم هل لها شيء من القدرة والعظمة التي وصف بها رب العزة في الآي السابقة ، وقيل : المعنى أظننتم أن هذه الأصنام التي تعبدونها تنفعكم

؛ وقيل المعنى ﴿ فرأيتم ﴾ هذه الأصنام إن عبدتموها لا تنفعكم وإن تركتموها لا تضركم ، ولا يخفى أن قوله تعالى : ﴿ الاخرى أَلَكُمُ ﴾ الخ لا يلتئم مع ما قبله على جميع هذه الأقوال التئامة على القول السابق ، وقيل : إن قوله سبحانه : ﴿ أَلَكُمُ ﴾ الخ في موضع المفعول الثاني للرؤية وخلوها عن العائد إلى المفعول الأول لما أن الأصل أخبروني أن اللات والعزى ومناة ألكم الذكر وله هن أي تلك الأصنام فوضع موضعها الأنثى لمراعاة الفواصل وتحقيق مناط التوبيخ وهو على تكلفه يقتضي اقتصار التوبيخ على ترجيح جانبهم الحقير الذليل على جناب الله تعالى العزيز الجليل من غير تعرض للتوبيخ على نسبة الولد إليه سبحانه ، وفي الكشف وجه النظم الجليل أنه بعد ما صور أمر الوحي تصويراً تاماً وحققه بأن ما يستمعه وحي لا شبهة فيه لأنه رأى الآتي به وعرفه حق المعرفة قال سبحانه : ﴿ أفتمارونه على مَا يرى ﴾ [النجم : 12] على معنى أتلاحونه بعد هذه البيانات على ما يرى من الآيات المحقق لأنه على بينة من ربه سبحانه هادياً مهدياً ، وأني يبقى للمراء مجال وقد رآه نزلة أخرى ؟! وعرفه حق المعرفة ، ثم قيل : ﴿ لَقَدْ رأى مِنْ ءايات ﴾ [النجم : 18] الخ تنبيهاً على أن ما عدّ منها فهو أيضاً نفي للضلالة والغواية وتحقيق للدراية والهداية .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ﴾ [النجم : 19] عطف على تمارونه وإدخال الهمزة لزيادة الإنكار والفاء لأن القول بأمثاله مسبب عن الطبع والعناد وعدم الإصغاء لداعي الحق ، والمعنى أبعد هذا البيان تستمرون على ما أنتم عليه من المراء فترون اللات والعزى ومناة أولاداً له تعالى ثم أخسها وسد مسد المفعول الثاني قوله تعالى : ﴿ أَلَكُمُ ﴾ الخ زيادة للإنكار فعلى هذا ليس ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ﴾ في معنى الاستخبار وجاز أن يكون في معناه على معنى ﴿ أفتمارونه ﴾ فأخبروني هل لكم الذكر وله الأنثى ، والقول مقدر أي فقل لهم أخبروني والمعنى هو كذا تهكماً وتنبيهاً على أنه نتيجة مرائهم وأن من كان هذا معتقده فهو على الضلال الذي لا ضلال بعده ولا يبعد عن أمثاله نسبة الهادين المهديين إلى ما هو فيه من النقص انتهى ، وما ذكره أولاً أولى وهو ليس بالبعيد عما ذكرنا .

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى القسمة المنفهمة من الجملة الاستفهامية ﴿ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى ﴾ أي جائرة حيث جعلتم له سبحانه ما تستنكفون منه وبذلك فسر ضيزى ابن عباس . وقتادة ، وفي معناه قول سفيان منقوصة ، وابن زيد مخالفة ، ومجاهد . ومقاتل عوجاء ، والحسن غير معتدلة ، والظاهر أنه صفة ، واختلف في يائه فقيل : منقلبة عن واو ، وقيل : أصلية ، ووزنه فعلى بضم الفاء كحبلى وأنثى ، ثم كسرت لتسلم الياء كما فعل ذلك في بيض جمع أبيض فإن وزنه فعل بضم الفاء كحمر ثم كسرت الفاء لما ذكر

ومثله شائع ، ولم يجعل وزنه فعلى بالكسر ابتداءاً لما ذهب إليه سيبويه من أن فعلى بالكسر لم يجيء عن العرب في الصفات وجعله بعضهم كذلك متمسكاً بورود ذلك .

(51/733)

فقد حكى ثعلب مشية حيكى ، ورجل كيصى ، وغيره امرأة عزهي وامرأة سعلى ، ورد بأنه من النوادر والحمل على الكثير المطرد في بابه أولى ، وأيضاً يمكن أن يقال في حيكى وكيصى ما قيل في ضيزى ؛ ويمنع ورود عزهي وسعلى فإن المعروف عزهاة وسعلاة ، وجوز أن يكون ضيزى فعلى بالكسر ابتداءاً على أنه مصدر كذكرى ووصف به مبالغة ، ومجيء هذا الوصف في المصادر كما ذكر ، والأسماء الجامدة كدفلى وشعرى ، والجموع كحجلى كثير ، وقرأ ابن كثير ضئزى بالهمز على أنه مصدر وصف به ، وجوز أن يكون وصفاً وهو مضموم عومل معاملة المعتل لأنه يؤول إليه .

وقرأ ابن زيد ضيزى بفتح الضاد وبالياء على أنه كدعوى أو كسكرى ، ويقال ضؤزى بالواو والهمز وضم الفاء ؛ وقد حكى الكسائي ضأز يضأز ضأزاً بالهمز وأنشد الأخفش :

فإن تنأ عنها تقتنصك وإن تغب . . .

فسهمك (مضؤز) وأنفك راغم

والأكثر ضاز بلا همز كما في قول امرىء القيس

: (ضازت) بنو أسد بحكمهم . . .

إذ يجعلون الرأس كالذنب

وأنشده ابن عباس على تفسيره السابق .

(52/733)

﴿ إِنْ هِيَ ﴾ الضمير للأصنام أي ما الأصنام باعتبار الألوهية التي تدعونها ﴿ إِلاَّ أَسْمَاء ﴾ محضة ليس فيها شيء مّا أصلاً من معنى الألوهية ؛ وقوله تعالى : ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ صفة للأسماء وضميرها لها لا للأصنام ، والمعنى جعلتموها أسماء فإن التسمية نسبة بين الاسم والمسمى فإذا قيست إلى الاسم فمعناها جعله اسماً للمسمى وإن قيست إلى المسمى فمعناها جعله مسمى للاسم وإنما اختير ههنا المعنى الأول من غير تعرض للمسمى لتحقيق أن تلك الأصنام التي يسمونها آلهة أسماء مجردة ليس لها مسميات قطعاً كما في قوله سبحانه : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء ﴾ [يوسف : 40] الآية لا أن هناك مسميات لكنها لا تستحق التسمية ، وقيل : هي للأسماء الثلاثة المذكورة حيث كانوا يطلقونها على تلك الأصنام لاعتقادهم أنها تستحق العكوف على عبادتها

والأعزاز والتقرب إليها بالقرابين ، وتعقب بأنه لو سلم دلالة الأسماء المذكورة على ثبوت تلك المعاني الخاصة للأصنام فليس في سلبها عنها مزيد فائدة بل إنما هي في سلب الألوهية عنها كما هو زعمهم المشهور في حق جميع الأصنام على وجه برهاني فإن انتفاء الوصف بطريق الأولوية أي ما هي شيء من الأشياء إلا أسماء خالية عن المسميات وضعتموها ﴿ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُم ﴾ بمقتضى الأهواء الباطلة ﴿ مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سلطان ﴾ برهان يتعلقون به ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما يتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بها ﴿ إِلاَّ الظن ﴾ إلا توهم أن ما هم عليه حق توهماً باطلاً ، فالظن هنا مراد به التوهم وشاع استعماله فيه ، ويفهم من كلام الراغب أن التوهم من أفراد الظن ﴿ وَمَا تَهْوَى الأنفس ﴾ أي والذي تشتهيه أنفسهم الأمارة بالسوء على أن ﴿ مَا ﴾ موصولة وعائدها مقدر وأل في الأنفس للعهد ، أو عوض عن المضاف إليه ، وجوز كون ﴿ مَا ﴾ مصدرية وكذا جوز كون أل للجنس والنفس من حيث هي إنما تهوى غير الأفضل لأنها

(53/733)

مجبولة على حب الملاذ وإنما يسوقها إلى حسن العاقبة العقل ، والالتفات في ﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾ إلى الغيبة للإيذان بأن تعداد قبائحهم اقتضى الإعراض عنهم ، وحكاية جناياتهم لغيرهم ،

وقرأ ابن عباس .

وابن مسعود .

وابن وثاب .

وطلحة .

والأعمش وعيسى بن عمر تتبعون بتاء الخطاب ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُم مّن رَّبِّهِمُ الهدى ﴾

حال من ضمير .

أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (24)

﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾ مقررة لبطلان ما هم عليه من اتباع الظن والهوى ، والمراد بالهدى الرسول صلى الله عليه وسلم أو القرآن العظيم على أنه بمعنى الهادي أو جعله هدى مبالغة أي ما يتبعون إلا ذلك ، والحال لقد جاءهم من ربهم جل شأنه ما ينبغي لهم معه تركه واتباع سبيل الحق .

وحاصله ﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾ ذلك في حال ينافيه ، وجوز أن تكون الجملة معترضة وهي أيضاً مؤكدة لبطلان ذلك ﴿ أَمْ للإنسان مَا تمنى ﴾ ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة مقدرة ببل وهي للانتقال من بيان أن ما هم عليه غير مستند إلا إلى توهمهم وهوى أنفسهم إلى بيان أن ذلك مما لا يجدي نفعاً أصلاً ؛ والهمزة وهي للإنكار والنفي أي بل ليس للإنسان كل ما يتمناه وتشتهيه نفسه ، ومفاده قيل : رفع الإيجاب الكلي ومرجعه إلى سالبة جزئية ، وإليه يشير قول

بعضهم : المراد نفي أن يكون للكفرة ما كانوا يطمعون فيه من شفاعة الآلهة والظفر بالحسنى عند الله تعالى يوم القيامة وما كانوا يشتهونه من نزول القرآن على رجل من إحدى القريتين عظيم ونحو ذلك ، ويفهم من كلام بعض المحققين أن المراد السلب الكلي ، والمعنى لا شيء مما يتمناه الإنسان مملوكاً له مختصاً به يتصرف فيه حسب إرادته ويتضمن ذلك نفي أن يكون للكفرة ما ذكر وليس الإنسان خاصاً بهم كما قيل ، وقوله تعالى :

فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (25)

(54/733)

تعليل لانتفاء ذلك فإن اختصاص ملك أمور الآخرة والأولى جميعاً به تعالى مقتض لانتفاء أن يكون للإنسان أمر من الأمور بل ما شاء الله تعالى له كان وما لم يشأ لم يكن ، وقدمت الآخرة اهتماماً برد ما هو أهمّ أطماعهم عندهم من الفوز فيها ، ولذا أردف ذلك بقوله تعالى :

﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (26) ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(55/733)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) ﴾

اختلف العلماء في المراد بهذا النجم الذي أقسم الله به في هذه الآية الكريمة ، فقال بعضهم : المراد به النجم إذا رجمت به الشياطين ، وقال بعضهم : إن المراد به الثريا ، وهو مروي عن ابن عباس وغيره ، ولفظة النجم علم للثريا بالغلبة ، فلا تكاد العرب تطلق لفظ النجم مجرداً إلا عليها ، ومنه قول نابغة ذبيان :

أقول والنجم قد مالت أواخره . . . إلى المغيب تثبت نظرة حار

فقوله : ﴿ وَالنَّجْمِ ﴾ : يعني الثريا . وقوله تعالى : ﴿ إِذَا هَوَى ﴾ : أي سقط مع الصبح ، وهذا اختيار ابن جرير : وقيل النجم : الزهرة ، وقيل المراد بالنجم نجوم السماء ، وعليه فهو من إطلاق المفرد وإرادة الجمع كقوله : ﴿ وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] يعني الأدبار . وقوله : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ والملك صَفّاً صَفّاً ﴾ [الفجر : 22] أي والملائكة . وقوله : ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الفرقان : 75] أي الغرف .

وقد قدمنا أمثلة كثيرة لهذا في القرآن ، وفي كلام العرب في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ [الحج : 5] ، وإطلاق النجم مراداً به النجوم معروف في اللغة ، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة :

ثم قالوا تحبها قلت بهرا . . . عدد النجم والحصى والتراب

وقول الراعي :

باتت تعد النجم في مستحيرة . . . سريع بأيدي الآكلين جمودها

وعلى هذا القول ، فمعنى هوى النجوم سقوطها إذا غربت أو انتثارها يوم القيامة . وقيل : النجم النبات الذي لا ساق له . وقال بعض أهل العلم : المراد بالنجم الجملة النازلة من القرآن ، فإنه نزل على النبي صلى الله عليه وسلم أنجماً منجماً في ثلاث وعشرين سنة ، وكل جملة منه وقت نزولاه يصدق عليها اسم النجم صدقاً عربياً صحيحاً كما يطلق على ما حان وقته من الدية المنجمة على العاقلة ، والكتابة المنجمة على العبد المكاتب .

(56/733)

وعلى هذا فقوله : ﴿ إِذَا هَوَى ﴾ ، أي نزل به الملك من السماء إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وقوله ﴿ هَوَى ﴾ يهوي هُوياً إذا اخترق الهوى نازلاً من أعلا إلى أسفل .

اعلم أولاً أن الوقل بأنه الثريا وأن المراد بالنجم خصوصها ، وإن اختاره ابن جرير وروي عن ابن عباس وغير واحد ن ليس بوجيه عندي .

والأظهر أن النجم يراد به النجوم . وإن قال ابن جرير بأنه لا يصح ، والدليل على ذلك جمعه

تعالى للنجوم في القسم في قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم ﴾ [الواقعة : 75] ، لأن الظاهر أن المراد بالنجم إذا هوى هنا ، كالمراد بمواقع النجوم في الواقعة .

وقد اختلف العلماء أيضاً في المراد بمواقع النجوم فقال بعضهم : هي مساقطها إذا غابت . وقال بعضهم انتثارها يوم القيامة . وقال بعضهم : منازلها في السماء ، لأن النازل في محل واقع فيه . وقال بعضهم : هي مواقع نجوم القرآن النازل بها الملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر الأقوال عندي وأقربها للصواب في نظري ، أن المراد بالنجم إذا هوى هنا في هذه السورة ، وبمواقع النجوم في الواقعة هو نجوم القرآن التي نزل بها الملك نجماً فنجماً ، وذلك لأمرين أحدهما أن هذا الذي أقسم الله عليه بالنجم إذا هوى الذي هو أن النبي صلى الله عليه وسلم على حق وأنه ما ضل وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى موافق في المعنى لما أقسم عليه بمواقع النجوم ، وهو قوله ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة : 77 - 78] - إلى قوله - ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ [الواقعة : 80] .

(57/733)

والإقسام بالقرآن على صحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى صدق القرآن العظيم وأنه منزل من الله جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ يس والقرآن الحكيم إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ تَنزِيلَ العزيز الرحيم ﴾ [يس : 1 – 5] وقوله تعالى : ﴿ حموالكتاب المبين إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكتاب لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف : 1 – 4] وخير ما يفسر به القرآن القرآن .

والثاني : أن كون المقسم به المعبر عنه النجوم ، هو القرآن العظيم أنسب لقوله بعده : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة : 76] ، لأن هذا التعظيم من الله يدل على أن هذا المقسم به في غاية العظمة .

ولا شك أن القرآن الذي هو كلام الله أنسب لذلك من نجوم السماء ونجم الأرض . والعلم عند الله تعالى .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ ، قال بعض العلماء : الضلال يقع من الجهل بالحق ، والغيي هو العدول عن الحق مع معرفته ، أي ما جهل الحق وما عدل عنه ، بل هو عالم بالحق متبع له .

وقد قدمنا إطلاقات الضلال في القرآن بشواهدها العربية في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعال : ﴿ واغفر لأبي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالين ﴾ [الشعراء : 20] وفي سورة الكهف

في الكلام على قوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ ﴾ [الكهف : 103 - 104] الآية .

(58/733)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كونه صلى الله عليه وسلم على هدى مستقيم ، جاء موضحاً في آيات كثيرة ، من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّكَ عَلَى الحق المبين ﴾ [النمل : 79] وقوله تعالى ﴿ فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأمر وادع إلى رَبِّكَ إِنَّكَ لعلى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج : 67] وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لتهدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : 52] .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فاستمسك بالذي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف : 43] . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى ﴾ [النجم : 4] استدل به علماء الأصول على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يجتهد ، والذين قالوا إنه قد يقع منه الاجتهاد ، استدلوا بقوله تعالى : ﴿ عَفَا الله عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُم ﴾ [التوبة : 43] الآية . وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أسرى حتى يُثْخِنَ فِي

الأرض ﴾ [الأنفال: 67] الآية. وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة: 113] الآية.

قالوا: فلو لم يكن هذا عن اجتهاد، لما قال ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ الآية. ولما قال: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى ﴾، ولا منافقة بين الآيات، لأن قوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ معناه أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يبلغ عن الله إلا شيئاً أوحى الله إليه أن يبلغه، فمن يقول: إنه شعر أو سحر أو كهانة، أو أساطير الأولين هو أكذب خلق الله وأكفرهم، ولا ينافي ذلك أنه أذن للمتخلفين عن غزة تبوك، وأسر الأسارى يوم بدر، واستغفر لعمه أبي طالب من غير أن ينزل عليه وحي خاص في ذلك، وقد أوضحنا هذا في غير هذا الموضع.

(59/733)

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5)

المراد بشديد القوى في هذه الآية: هو جبريل عليه السلام، والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم علمه هذا الوحي. ملك شديد القوى هو جبريل.

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت أمرين:

أحدهما : أن هذا الوحي الذي من أعظمه هذا القرآن العظيم ، علمه جبريل النبي صلى الله عليه وسلم بأمر من الله .

والثاني : أن جبريل شديد القوى .

وهذان الأمران جاءان موضحين في غير هذا الموضع .

أما الأول منهما وهو كاون جبريل نزل عليه بهذا الوحي وعلمه إياه ، فقد جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : 97] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : 192 - 194] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [طه : 14] . وقوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ [القيامة : 16 - 18] أي إذا قرأه عليك الملك المرسل به إليك منا مبلغاً له عنا فاتبع قرآنه ، أي اقرأ كما سمعته يقرأ .

(60/733)

وأما الأمر الثاني ، وهو شدة قوة جبريل النازل بهذا الوحي ، فقد ذكره في قوله ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ ﴾ [التكوير : 19 – 20] . وقوله في آية التكوير هذه : ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ ﴾ أي لقوله المبلغ له عن الله ، فقرينته ذكر الرسول تدل على أنه إنما بلغ شيئاً أرسل به ، فالكلام كلام الله بألفاظه ومعانيه ، وجبريل مبلغ عن الله ، وبهذا الاعتبار نسب القول له . لأن النبي صلى الله عليه وسلم ما سمعه إلا منه ، فهو القول الذي أرسله الله به . وأمره بتبليغه ، كما تدل عليه قرينة ذكر السول ، وسيأتي إيضاح هذه المسألة إن شاء الله في سورة التكوير . والعلم عند الله تعالى .

مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17)

قد قدمنا بعض الكلام عليه في أول سورة الإسراء .

أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (21) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى (22)

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل : 57] الآية ، وفي مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك .

فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (25)

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن له الآخرة والأولى وهي الدنيا ، وبيَّن هذا في غير هذا الموضع كقوله ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا للهدى وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ والأولى ﴾ [الليل : 12 – 13] وبين

في موضع آخر أن له كل شيء ، وذلك في قوله : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البلدة الذي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ [النمل : 91] ، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(61/733)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) ﴾

لما جرى في صفة الوحي ومشاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام ما دل على شؤون جليلة من عظمة الله تعالى وشرف رسوله صلى الله عليه وسلم وشرف جبريل عليه السلام إذ وصف بصفات الكمال ومنازل العزة كما وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالعروج في المنازل العليا ، كان ذلك مما يثير موازنة هذه الأحوال الرفيعة بحال أعظم آلهتهم الثلاث في زعمهم وهي : اللاتُ ، والعزّى ، ومناةُ التي هي أحجار مقرّها الأرض لا تملك تصرفاً ولا يعرج بها إلى رفعة .

فكان هذا التضاد جامعاً خيالياً يقتضي تعقيب ذكر تلك الأحوال بذكر أحوال هاته .

فانتقل الكلام من غرض إثبات أن النبي صلى الله عليه وسلم موحىً إليه بالقرآن ، إلى إبطال

عبادة الأصنام ، ومناط الإِبطال قوله : ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباءكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ .

فالفاء لتفريع الاستفهام وما بعده على جملة ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ [النجم : 12] المفرعة على جملة ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ [النجم : 11] .

والروية في ﴿ أفرأيتم ﴾ يجوز أن تكون بَصَرية تتعدّى إلى مفعول واحد فلا تطلب مفعولاً ثانياً ويكون الاستفهام تقريرياً تهكمياً ، أي كيف ترون اللات والعزّى ومناةَ بالنسبة لما وصف في عظمة الله تعالى وشرف ملائكته وشرف رسوله صلى الله عليه وسلم وهذا تهكم بهم وإبطال لإِلهية تلك الأصنام بطريق الفحوى ، ودليله العيان .

وأكثر استعمال "أرأيت" أن تكون للرؤية البصرية على ما اختاره رضيّ الدين .

وتكون جملة ﴿ ألكم الذكر ﴾ الخ استئنافاً وارتقاء في الرد أو بَدلَ اشتمال من جملة ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ لأن مضمونها مما تشتمل عليه مزاعمهم ، كانوا يزعمون أن اللات والعزى ومناة بنات الله كما حكى عنهم ابن عطية وصاحب "الكشاف" وسياق الآيات يقتضيه .

ويجوز أن تكون الرؤية علمية ، أي أزعمتم اللات والعزى ومناةَ ، فحذف المفعول الثاني اختصاراً لدلالة قوله : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ عليه ، والتقدير : أزعمتموهن بنات الله ، أتجعلون له الأنثى وأنتم تبتغون الأبناء الذكور ، وتكون جملة ﴿ ألكم الذكر ﴾ الخ بياناً للإنكار وارتقاء في إبطال مزاعمهم ، أي أتجعلون لله البنات خاصة وتغتبطون لأنفسكم بالبنين الذكور .

وجعل صاحب "الكشْف" قوله : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ سادًّا مسدَّ المفعول الثاني لفعل "أرأيتم" .

وأيضاً لما كان فيما جرى من صفة الوحي ومنازل الزلفى التي حظي بها النبي صلى الله عليه وسلم وعظمة جبريل إشعار بسعة قدرة الله تعالى وعظيم ملكوته مما يسجِّل على المشركين في زعمهم شركاء لله أصناماً مثل اللات والعزى ومناة .

فسادَ زعمهم وسفاهة رأيهم أعقب ذكر دلائل العظمة الإلهية بإبطال إلهية أصنامهم بأنها أقل من مرتبة الإلهية إذ تلك أوهام لا حقائق لها ولكن اخترعتها مُخيّلات أهل الشرك ووضعوا لها أسماء ما لها حقائق ، ففرّع ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ الخ فيكون الاستفهام تقريرياً إنكاريًّا ، والرؤية علميةَ والمفعول الثاني هو قوله : ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها ﴾ .

وتكون جملة ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ الخ معترضة بين المفعولين للارتقاء في الإِنكار ، أي وزعمتوهن بنات لله أو وزعمتم الملائكة بنات لله .

وهذه الوجوه غير متنافية فنحملها على أن جميعها مقصود في هذا المقام .

ولك أن تجعل فعل "أرأيتم" (على اعتبار الرؤية علمية) معلّقاً عن العمل لوقوع ﴿ إنْ ﴾ النافية بعده في قوله : ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها ﴾ وتجعل جملة ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ إلى قوله : ﴿ ضيزى ﴾ اعتراضاً .

واللاتُ : صنم كان لثقيف بالطائف ، وكانت قريش وجمهور العرب يعبدونه ، وله شهرة عند قريش ، وهو صخرة مربعة بنوا عليها بناء .

(63/733)

وقال الفخر : "كان على صورة إنسان ، وكان في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى" كذا قال القرطبي فلعل المسجد كانت له منارتان .

والألف واللام في أول ﴿ اللات ﴾ زائدتان .

و(ال) الداخلة عليه زائدة ولعل ذلك لأن أصله : لاَتْ ، بمعنى معبود ، فلما أرادوا جعله علماً على معبود خاص أدخلوا عليه لام تعريف العهد كما في ﴿ الله ﴾ فإن أصله إله .

ويوقف عليه بسكون تائه في الفصحى .

وقرأ الجمهور : ﴿ اللات ﴾ بتخفيف المثناة الفوقية .

وقرأه رويس عن يعقوب بتشديد التاء وذلك لغة في هذا الاسم لأن كثيراً من العرب يقولون : أصل صخرته موضع كان يجلس عليه رجل في الجاهلية يلتّ السويق للحاج فلما مات اتخذوا مكانه معبداً .

و﴿ العُزى ﴾ : فُعلَي من العِزّ : اسم صنم حجر أبيض عليه بناء وقال الفخر : "كان على صورة نبات" ولعله يعني : أن الصخرة فيها صورة شجر ، وكان ببطن نخلة فوق ذات عرق وكان جمهور العرب يعبدونها وخاصة قريش وقد قال أبو سفيان يوم أُحد يخاطب المسلمين "لنا العزى ولا عزى لكم" .

وذكر الزمخشري في تفسير سورة الفاتحة أن العرب كانوا إذا شَرعوا في عمل قالوا : بسم اللات باسم العزى .

وأما ﴿ مناة ﴾ فعَلَم مرتجل ، وهو مؤنث فحقه أن يكتب بهاء تأنيث في آخره ويوقف عليه بالهاء ، ويكون ممنوعاً من الصرف ، وفيه لغة بالتاء الأصلية في آخره فيوقف عليه بالتاء ويكون مصروفاً لأن تاء لات مثل باء باب ، وأصله : مَنَواة بالتحريك وقد يمد فيقال : مناآة وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث .

وقياس الوقف عليه أن يوقف عليه بالهاء ، وبعضهم يقف عليه بالتاء تبعاً لخط المصحف ،

وكان صخرة وقد عبده جمهور العرب وكان موضعه في المشلل حذوَ قديد بين مكة والمدينة ، وكان الأوس والخزرج يطوفون حَوله في الحج عوضاً عن الصفا والمروة فلما حج المسلمون وسعَوا بين الصفا والمروة تحرج الأنصار من السعي لأنهم كانوا يسعون بين الصفا والمروة فنزل فيهم قوله تعالى:

(64/733)

﴿ إن الصفا والمروة من شعائر اللَّه فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما كما تقدم عن حديث عائشة في الموطأ ﴾ في سورة البقرة (158) .

وقرأ الجمهور ﴿ ومناة ﴾ بتاء بعد الألف .

وقرأه ابن كثير بهمزة بعد الألف على إحدى اللغتين .

والجمهور يقفون عليه بالتاء تبعاً لرسم المصحف فتكون التاء حرفاً من الكلمة غير علامة تأنيث فهي مثل تاء ﴿ اللات ﴾ ويجعلون رسمها في المصحف على غير قياس .

ووصفها بالثالثة لأنها ثالثة في الذّكر وهو صفة كاشفة ، ووصفها بالأخرى أيضاً صفة كاشفة لأن كونها ثالثة في الذكر غير المذكورتين قبلها معلوم للسامع ، فالحاصل من الصفتين تأكيدٌ ذكرها لأن اللات والعزى عند قريش وعند جمهور العرب أشهر من مناة لبعد مكان

مناة عن بلادهم ولأن ترتيب مواقع بيوت هذه الأصنام كذلك ، فاللات في أعْلى تهامة بالطائف ، والعُزَّى في وسطها بنخلةَ بين مكة والطائف ، ومناة بالمُشلل بين مكة والمدينة فهي ثالثة البقاع .

وقال ابن عطية : كانت مناة أعظم هذه الأوثان قدراً وأكثرها عابداً ولذلك قال تعالى : ﴿ الثالثة الأخرى ﴾ فأكدها بهاتين الصفتين .

والأحسن أن قوله : ﴿ الثالثة الأخرى ﴾ جرى على أسلوب العرب إذا أخبروا عن متعدد وكان فيه من يظنّ أنه غير داخل في الخبر لعظمة أو تباعد عن التلبس بمثل ما تلبس به نظراؤه أن يختموا الخبر فيقولوا : "وفلانٌ هو الآخَر" ووجهه هنا أن عُبَّاد مناة كثيرون في قبائل العرب فنبه على أن كثرة عبدتها لا يزيدها قوة على بقية الأصنام في مقام إبطال إلهيتها وكل ذلك جار مجرى التهكم والتسفيه .

(65/733)

وجملة ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ ارتقاء في الإبطال والتهكم والتسفيه كما تقدم ، وهي مجاراة لاعتقادهم أن تلك الأصنام الثلاثة بنات الله وأن الملائكة بنات الله ، أي أجعلتم لله البنات خاصة وأنتم تعلمون أن لكم أولاداً ذكوراً وإناثاً وأنكم تفضلون الذكور وتكرهون

الإِناث وقد خصصتم الله بالإِناث دون الذكور والله أولَى بالفضل والكمالِ لو كنتم تعلمون فكان في هذا زيادة تشنيع لكفرهم إذ كان كفراً وسخافة عقل .

وكون العزَّى ومناة عندهم انثتين ظاهر من صيغة اسميهما ، وأما اللات فبقطع النظر عن اعتبار التاء في الاسم علامة تأثيث أو أصلاً من الكلمة فهم كانوا يتوهمون اللات أنثى ، ولذلك قال أبو بكر رضي الله عنه لعُروة بن مسعود الثقفي يوم الحُديبية "امصُصْ أو اعضُضْ بَظْرَ اللات" .

وتقديم المجرورين في ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ للاهتمام بالاختصاص الذي أفادته اللام اهتماماً في مقام التهكم والتسفيه على أن في تقديم ﴿ وله الأنثى ﴾ "إفادة الاختصاص" أي دون الذكر .

وجملة ﴿ تلك إذا قسمة ضيزى ﴾ تعليل للإنكار والتهكم المفاد من الاستفهام في ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ ، أي قد جرتُم في القسمة وما عدلتم فأنتم أحقاء بالإِنكار .

والإِشارة بـ ﴿ تلك ﴾ إلى المذكور باعتبار الإِخبار عنه بلفظ ﴿ قسمة ﴾ فإنه مؤنث اللفظ .

و ﴿ إذن ﴾ حرف جواب أريد به جواب الاستفهام الإِنكاري ، أي ترتب على ما زعمتم أن ذلك قسمة ضِيزى ، أي قسمتم قسمة جائرة .

و ﴿ ضيزى ﴾ : وزنه فُعْلى بضم الفاء من ضازة حَقَّه ، إذا نقصه ، وأصل عين ضاز

همزة ، يقال : ضَأَزه حقه كمنعه ثم كثر في كلامهم تخفيف الهمزة فقالوا : ضَازهُ بالألف .

ويجوز في مضارعه أن يكون يائي العين أو واويها قال الكسائي : يجوز ضَاز يضِيز ، وضَاز يضُوز .

(66/733)

وكأنه يريد أن لك الخيار في المهموز العين إذا خفف أن تُلحقه بالواو أو الياء ، لكن الأكثر في كلامهم اعتبار العين ياء فقالوا : ضَازه حقه ضَيْزاً ولم يقولوا ضَوْزاً لأن الضوز لوك التمر في الفم ، فأرادوا التفرقة بين المصدرين ، وهذا من محاسن الاستعمال وعن المؤرّج السَّدُوسي كرهوا ضم الضاد في ضوزى فقالوا : ضيزى .

كأنه يريد استثقلوا ضم الضاد ، أي في أول الكلمة مع أن لهم مندوحة عنه بالزنة الأخرى .

ووزن ﴿ ضيزى ﴾ : فُعْلى اسم تفضيل (مثل كُبْرى وطُوبى) أي شديدة الضيز فلما وقعت الياء الساكنة بعد الضمة حرّكوه بالكسر محافظة على الياء لئلا يقلبوها واواً فتصير ضوزى وهو ما كرهوه كما قال المؤرج .

وهذا كما فعلوا في بيض جمع أبيض ولو اعتبروه تفضيلاً من ضاز يضوز لقالوا : ضُوزى ولكنهم أهملوه .

وقيل : وزن ﴿ ضِيزى ﴾ فِعلى بكسر الفاء على أنه اسم مثل دِفلى وشِعْرى ، ويبعّد هذا أنه مشتق فهو بالوصفية أجدر .

قال سيبويه : لا يوجد فِعلَى بكسر الفاء في الصفات ، أو على أنه مصدر مثل ذِكرى وعلى الوجهين كسرته أصلية .

وقرأ الجمهور ﴿ ضيزى ﴾ بياء ساكنة بعد الضاد .

وقرأه ابن كثير بهمزة ساكنة بعد الضاد مراعاة لأصل الفعل كما تقدم آنفاً .

وهذا وسم لهم بالجور زيادة على الكفر لأن التفكير في الجور كفعله فإن تخيلات الإِنسان ومعتقداته عنوان على أفكاره وتصرفاته .

وجملة ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها ﴾ استئناف يكر بالإِبطال على معتقدهم من أصله بعد إبطاله بما هو من لوازمه على مجاراتهم فيه لإِظهار اختلال معتقدهم وفي هذه الجملة احتراس لئلا يتوهم مُتَوَهم إنكار نسبتهم البنات لله إنه إنكار لتخصيصهم الله بالبنات وأن له أولاداً ذكوراً وإناثاً أو أن مصب الإِنكار على زعمهم أنها بنات وليست ببنات فيكون كالإِنكار عليهم في زعمهم الملائكة بنات .

والضمير ﴿ هي ﴾ عائد إلى اللات والعزى ومناةَ .

وَمَا صدق الضمير الذات والحقيقة ، أي ليست هذه الأصنام إلا أسماءُ لا مسمّيا تتٍ لها ولا حقائق ثابتة وهذا كقوله تعالى : ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها ﴾ [يوسف : 40] .

والقصر إضافي ، أي هي أسماء لا حقائق عاقِلة متصرفة كما تزعمون ، وليس القصر حقيقياً لأنّ لهاته الأصنام مسميات وهي الحجارة أو البيوت التي يقصدونها بالعبادة ويجعلون لها سدنة .

وجملة ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ تعليل لمعنى القصر بطريقة الاكتفاء لأن كونها لا حقائق لها في عالم الشهادة أمر محسوس إذ ليست إلا حجارة .

وأما كونها لا حقائق لها من عالم الغيب فلأن عالم الغيب لا طريق إلى إثبات ما يحتويه إلا بإعلام من عالم الغيب سبحانه ، أو بدليل العقل كدلالة العالم على وجود الصانع وبعض صفاته والله لم يخبر أحداً من رسله بأن للأصنام أرواحاً أو ملائكة ، مثل ما أخبر عن حقائق الملائكة والجن والشياطين .

والسلطان : الحجة ، وإنزالها من الله : الإِخبار بها ، وهذا كناية عن انتفاء أن تكون عليها حجة لأن وجود الحجة يستلزم ظهورها ، فنفي إنزال الحجة بها من باب:

على لاحب لا يهتدي بمناره . . .

أي لا منار له فيهتدى به .

وعبر عن الإِخبار الموحَى به بفعل (أنزل) لأنه إخبار يَرد من العالم العلوي فشُبّه بإدلاء جسم من أعلى إلى أسفل .

وكذلك عُبّر عن إقامة دلائل الوجود بالإِنزال لأن النظر الفكري من خلق الله فشبه بالإِنزال كقوله : ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ﴾ [الفتح : 4] ، فاستعمال ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ من استعمال اللفظ في معنييه المجازيَيْن .

(68/733)

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون اللَّه ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم ﴾ في سورة الحج (71) ، وتقدم في سورة يوسف (40) قوله : ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل اللَّه بها من سلطان ﴾ وأكد نفي إنزال السلطان بحرف (من) الزائدة لتوكيد نفي الجنس .

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَمَا تَهْوَى الانفس وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الهُدَى ﴾ .

هذا تحويل عن خطاب المشركين الذي كان ابتداؤه من أول السورة وهو من ضروب الالتفات ، وهو استئناف بياني فضمير ﴿ يتبعون ﴾ عائد إلى الذين كان الخطاب موجهاً

إليهم .

أعقب نفي أن تكون لهم حجة على الخصائص التي يزعمونها لأصنافهم أو على أن الله سماهم بتلك الأسماء بإثبات أنهم استندوا فيما يزعمونه إلى الأوهام وما تحبه نفوسهم من عبادة الأصنام ومحبة سدنتها ومواكب زيارتها ، وغرورهم بأنها تسعى في الوساطة لهم عند الله تعالى بما يرغبونه في حياتهم فتلك أوهام وأمانيّ محبوبة لهم يعيشون في غرورها .

وجيء بالمضارع في ﴿ يتبعون ﴾ للدلالة على أنهم سيسمرُّون على اتباع الظن وما تهواه نفوسهم وذلك يدل على أنهم اتبعوا ذلك من قبل بدلالة لحن الخطاب أو فحواه .

وأصل الظن الاعتقاد غير الجازم ، ويطلق على العلم الجازم إذا كان متعلقاً بالمغيبات كما في قوله تعالى : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾ في سورة البقرة (46) ، وكثر إطلاقه في القرآن على الاعتقاد الباطل كقوله تعالى : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾

في سورة الأنعام (116) ، ومنه قول النبي : إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث وهو المراد هنا بقرينة عطف وما تهوى الأنفس ﴾ عليه كما عطف ﴿ وإن هم إلا يخرصون

﴿ على نظيره في سورة الأنعام ، وهو كناية عن الخطأ باعتبار لزومه له غالباً كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ [الحجرات : 12] .

وهذا التفنن في معاني الظن في القرآن يشير إلى وجوب النظر في الأمر المظنون حتى يلحقه المسلم بما يناسبه من حُسن أو ذم على حسب الأدلة ، ولذلك استنبط علماؤنا أن الظن لا يغني في إثبات أصول الاعتقاد وأن الظن الصائب تناط به تفاريع الشريعة .

والمراد بـ ﴿ ما تهوى الأنفس ﴾ : ما لا باعث عليه إلا الميل الشهواني ، دون الأدلة فإن كان الشيء المحبوب قد دلت الأدلة على حقيقته فلا يزيده حُبه إلا قبولاً كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد " وقال : " وجعلت قُرّة عيني في الصلاة " .

فمناط الذم في هذه الآية هو قصر اتباعهم على ما تهواه أنفسهم .

ثم إن للظن في المعاملات بين الناس والأخلاق النفسانية أحكاماً ومراتب غير ما له في الديانات أصولها وفروعها ، فمنه محمود ومنه مذموم ، كما قال تعالى : ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾ وقيل : الحزم سوء الظن بالناس .

والتعريف في ﴿ الأنفس ﴾ عوض عن المضاف إليه ، أي وما تهواه أنفسهم و ﴿ ما ﴾ موصولة .

وعطف ﴿ وما تهوى الأنفس ﴾ على الظن عطف العلة على المعلول ، أي الظن الذي

يبعثهم على إتباعه أنه موافق لهداهم وإلفهم .

وجملة ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ حالية مقررة للتعجيب من حالهم ، أي يستمرون على اتباع الظن والهوى في حال أن الله أرسل إليهم رسولاً بالهدى .

(70/733)

ولام القسم لتأكيد الخبر للمبالغة فيما يتضمنه من التعجيب من حالهم كأن المخاطب يشك في أنه جاءهم ما فيه هدى مقنع لهم من جهة استمرارهم على ضلالهم استمراراً لا يظن مثله بعاقل .

والتعبير عن الجلالة بعنوان ﴿ ربهم ﴾ لزيادة التعجيب من تصاممهم عن سماع الهدى مع أنه ممن تجب طاعته فكان ضلالهم مخلوطاً بالعصيان والتمرد على خالقهم .

والتعريف في ﴿ الهدى ﴾ للدلالة على معنى الكمال ، أي الهدى الواضح .

أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (24) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (25)

إضراب انتقالي ناشىء عن قوله : ﴿ وما تهوى الأنفس ﴾ [النجم : 23] .

والاستفهام المقدّر بعد ﴿ أم ﴾ إنكاريّ قصد به إبطال نوال الإنسان ما يتمناه وأن يجعل ما يتمناه باعثاً عن أعماله ومعتقداته بل عليه أن يتطلب الحق من دلائله وعلاماته وإن

خالف ما يتمناه .

وهذا متصل بقوله : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ [النجم : 23] .

وهذا تأديب وترويض للنفوس على تحمل ما يخالف أهواءها إذا كان الحق مخالفاً للهوى وليحمل نفسه عليه حتى تتخلق به .

وتعريف ﴿ الإنسان ﴾ تعريف الجنس ووقوعه في حيّز الإنكار المساوي للنفي جَعلَه عاماً في كل إنسان .

والموصول في ﴿ ما تمنى ﴾ بمنزلة المعرّف بلام الجنس فوقوعه في حيّز الاستفهام الإنكاري الذي بمنزلة النفي يقتضي العموم ، أي ما للإنسان شيء مما تمنّى ، أي ليس شيء جارياً على إرادته بل على إرادة الله وقد شمل ذلك كل هوى دعاهم إلى الإعراض عن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فشمل تمنيهم شفاعة الأصنام وهو الأهم من أحوال الأصنام عندهم وذلك ما يؤذن به قوله بعد هذا ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً ﴾ [النجم : 26] الآية .

وتمنيَهم أن يكون الرسول ملَكاً وغير ذلك نحو قولهم : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] ، وقولهم : ﴿ ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴾ [يونس : 15] .

وفُرع على الإِنكار أن الله مالك الآخرة والأولى ، أي فهو يتصرف في أحوال أهلهما بحسب إرادته لا بحسب تمني الإِنسان .

وهذا إبطال لمعتقدات المشركين التي منها يقينهم بشفاعة أصنامهم .

وتقديم المجرور في ﴿ للإنسان ما تمنى ﴾ ، لأن محط الإِنكار هو أمنيتهم أن تجري الأمور على حسب أهوائهم فلذلك كانوا يُعرضون عن كل ما يخالف أهواءهم .

فتقديم المعمول هنا لإِفادة القصر وهو قصر قلب ، أي ليس ذلك مقصوراً عليهم كما هو مقتضى حالهم فنزلوا منزلة من يرون الأمور تجري على ما يتمنّون ، أي بل أماني الإِنسان بيد الله يعطي بعضها ويمنع بعضها كما دل عليه التفريع عقبه بقوله : ﴿ فللَّه الآخرة والأولى ﴾ .

وهذا من معاني الحكمة لأن رغبة الإِنسان في أن يكون ما يتمناه حاصلاً رغبة لو تبصّر فيها صاحبها لوجد تحقيقها متعذراً لأن ما يتمناه أحد يتمناه غيره فتتعارض الأماني فإذا أُعطي لأحد ما يتمنّاه حُرم من يتمنَّى ذلك معه فيفضي ذلك إلى تعطيل الأمنيتين بالأخارة ، والقانون الذي أقام الله عليه نظام هذا الكون أن الحظوظ مقسمة ، ولكل أحد نصيب ،

ومن حق العاقل أن يتخلق على الرضى بذلك وإلا كان الناس في عيشة مريرة .

وفي الحديث " لا تَسْأَلِ المرأةُ طلاق أختها لتستفرغ صحفتها ولتقعُد فإن لها ما كُتب لها ".

وتفريع ﴿ فللَّه الآخرة والأولى ﴾ تصريح بمفهوم القصر الإِضافي كما علمت آنفاً .

وتقديم المجرور لإِفادة الحصر ، أي لله لا للإِنسان .

و ﴿ الآخرة ﴾ العالم الأخروي ، و ﴿ الأولى ﴾ العالم الدنيوي .

والمراد بهما ما يحتويان عليه من الأمور ، أي أمور الآخرة وأمور الأولى ، والمقصود من ذكرهما تعميم الأشياء مثل قوله : ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ [الرحمن : 17] .

(72/733)

وإنما قدمت الآخرة للاهتمام بها والتنبية إلى أنها التي يجب أن يكون اعتناء المؤمنين بها لأن الخطاب في هذه الآية للنبيء صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، مع ما في هذا التقديم من الرعاية للفاصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(73/733)

قوله تعالى ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (26) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (27) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (28) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (30) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : فكم من شخص ترونه في الأرض مع أنه في غاية المكنة فيما يظهر لكم لا يصل إلى ربع ما يتمناه ، عطف عليه قوله ، مظهراً لضخامة ملكه وأنه لا يبالي بأحد ، دالاً على الكثرة : ﴿ وكم من ملك ﴾ أي مقرب ، ودل على زيادة قربه بشرف مسكنه فقال : ﴿ في السماوات ﴾ أي وهم في الكرامة والزلفى ﴿ لا تغني ﴾ أي لا تجزي وتسد وتكفي ، ولما كان رد الجمع لحال اجتماعهم أدل على العظمة ، عبر بما يحتمل ذلك فقال :

﴿ شفاعتهم ﴾ أي عن أحد من الناس ﴿ شيئاً ﴾ فقصر الأمر ورده بحذافيره إليه بقوله : ﴿ إلا ﴾ ودل باثبات الجار على أنه مع ما يحده سبحانه لا مطلقاً فقال : ﴿ من بعد أن يأذن ﴾ أي يمكن ويريد ﴿ الله ﴾ أي الذي لا أمر لأحد أصلاً معه ، وعبر بأن والفعل دلالة

على أنه لا عموم بعد الإذن بجميع الأوقات ، وإنما ذلك يجدد بعد تجدد الإذن على حينه وقبل الأمر الباب ؟ لعموم العظمة بقوله : ﴿ لمن يشاء ﴾ أي بتجدد تعلق مشيئته به لأن يكون مشفوعاً أو شافعاً .

ولما كان الملك قد يأذن في الشفاعة وهو كاره ، قال معلماً أنه ليس كأولئك : ﴿ ويرضى ﴾ فحينئذ تغني شفاعتهم إذا كانوا من المأذون لهم - كل هذا قطعاً لأطماعهم وعن قولهم بمجرد الهوى أي آلهتهم تشفع لهم .

(74/733)

ولما أخبر باتباعهم للهوى ونفى أن يكون لهم من ذلك ما يتمنونه دل على اتباعهم للهوى بقوله موضع ﴿ أنهم ﴾ : ﴿ إن الذين ﴾ وأكد تنبيهاً على أنه قول بالغ في العجب الغاية فلا يكاد يصدق أن عاقلاً بالآخرة يقوله بما جرى لهم على قولهم ذلك وأمثاله بقوله : ﴿ لا يؤمنون ﴾ أي لا يصدقون ولا هم يقرون ﴿ بالآخرة ﴾ ولذلك أكد قوله : ﴿ ليسمون الملائكة ﴾ أي كل واحد وهم رسل الله ﴿ تسمية الأنثى ﴾ بأن قالوا : هي بنات الله ، كما يقال في جنس الأنثى : بنات ﴿ وما ﴾ أي والحال أنهم ما ﴿ لهم به ﴾ أي بما سموهم به ، وأعرق في النفي بقوله : ﴿ من علم ﴾ ولما نفى علمهم تشوف السامع إلى الحامل لهم على ذلك فقال :

﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ يتبعون ﴾ أي بغاية ما يكون في ذلك وغيره ﴿ إلا الظن ﴾ .

ولما كانوا كالقاطعين بأن ذلك ينفعهم ، أكد قوله : ﴿ وإن الظن ﴾ أي مطلقاً في هذا وغيره ، ولذلك أظهر في موضع الإضمار ﴿ لا يغني ﴾ إغناءً مبتدئاً ﴿ من الحق ﴾ أي الأمر الثابت في نفس الأمر الذي هو حقيقة الشيء وذاته بحيث يكون الظن بدله ، والظن إنما يعبر به في العمليات لا العلميات ولا سيما الأصولية ﴿ شيئاً ﴾ من الإغناء عن أحد من الخلق فإنه لا يؤدي أبداً إلى الجزم بالعلم بالشيء على ما هو عليه في نفس الأمر فهو ممنوع في أصول الدين ، فإن المقصود بتحقق الأمر على ما هو عليه في الواقع ، وأما الفروع فإن المكلف به فيها هو الظن لكن بشرطه المأذون فيه ، وهو رده إلى الأصول المستنبط منها لعجز الإنسان على القطع في جميع الفروع ، تنبيهاً على عجزه وافتقاره إلى الله ليقبل عليه ويتبرأ من حوله وقوته ليكشف له من الأحقاف .

(75/733)

ولما كانوا بعد مجيء الهدى قد أصبروا على الهوى ، وكانت هذه السورة في أوائل ما نزل ، والمؤمنون قليل ، سبب عن ذلك : ﴿ فأعرض عن من تولى ﴾ أي كلف نفسه خلاف ما يدعو إليه العقل والفطرة من ولى ﴿ عن ذكرنا ﴾ أي ذكره إيانا ، فأعرض عن الذكر الذي

أنزلناه فلم ينله ولم يتدبر معانيه فلا يلتفت إلى شيء علمه فإنه مطموس على قلبه ولو كان ذهنه أرق من الشعر فإنه لا يؤول إلا إلى شر ﴿ ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ [فاطر : 8] فإنه ما عليك إلا البلاغ .

(76/733)

ولما كان المعرض في وقت قد يقبل في آخر ، دل على دوامه على وجه بليغ بقوله : ﴿ ولم يرد ﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿ إلا الحياة الدنيا ﴾ أي الحاضرة ليقصده بالمحسوسات كالبهائم في العمى عن دناءتها وحقارتها ، ثم ترجم جملتي الإعراض والإرادة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر المتناهي في الجهل والقباحة ﴿ مبلغهم ﴾ أي نهاية بلوغهم وموضع بلوغهم والحاصل لهم ، وتهكم بهم بقوله : ﴿ من العلم ﴾ أنه لا علم لهم لأن عيون بصائرهم عمي ، ومرائبها كثيفة مظلمة لا تكشف عن نظر الآخرة التي هي أصل العلوم كلها ، ثم علل هذه الجملة بقوله مؤكداً قطعاً لطمع من يظن أن وعظه وكلامه يرد أحداً من غيه وإن أبلغ في أمره ودعائه في سره وجهره ، وإعلاماً بأن ذلك إنما هو من الله ، فمن وعظ له سبحانه راجياً منه في إيمانه أوشك أن ينفع به كما فعل في وعظ مصعب بن عمير ـ رضى الله عنه ـ فصغى له أسيد بن حضير وسعد بن معاذ ـ رضى الله عنهما ـ في ساعة واحدة كما هو

مشهور ﴿ إن ربك ﴾ أي المحسن إليك بالإرسال وغيره ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ أعلم بمن ضل عن سبيله ﴾ ضلالاً مستمراً ، فلا تعلق أملك بأن يصل علمه إلى ما وراء الدنيا ، وعبر بالرب إشارة إلى أن ضلال هذا من الإحسان إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه لو دخل في دنيه لأفسد أكثر مما يصلح كما قال تعالى : ﴿ ولا أوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ﴾ [التوبة : 47] وذلك لأنه جبل جبلة غير قابلة للخير ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ أعلم بما اهتدى ﴾ أي ظاهراً وباطناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 325 . 327 ﴾

(77/733)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ ﴾ وقد علم وجه تعلقها بما قبلها في الوجوه المتقدمة في قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الأخرة ﴾ [النجم : 25] إن قلنا إن معناه أن اللات والعزى وغيرهما ليس لهم من الأمر شيء ﴿ فَلِلَّهِ الآخرة والأولى ﴾ فلا يجوز إشراكهم فيقولون نحن لا نشرك بالله شيئاً ، وإنما نقول هؤلاء شفعاؤنا

فقال كيف تشفع هذه ومن في السموات لا يملك الشفاعة ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

﴿كَمْ﴾ كلمة تستعمل في المقادير ، إما لاستبانتها فتكون استفهامية كقولك كم ذراعاً طوله وكم رجلاً جاءك أي كم عدد الجائين تستبين المقدار وهي مثل كيف لاستبانة الأحوال وأي الاستبانة الأفراد ، وما لاستبانة الحقائق ، وإما لبيانها على الإجمال فتكون خبرية كقولك كم رجل أكرمني أي كثير منهم أكرموني غير أن عليه أسئلة الأول : لم لم يجز إدخال من على الاستفهامية وجاز على الخبرية الثاني : لم نصب مميز الاستفهامية وجر الذي للخبرية الثالث : هي تستعمل في الخبرية في مقابلة رب فلم جعل اسماً مع أن رب حرف ، أما الجواب عن الأول فهو أن من يستعمل في الموضع المتعين بالإضافة تقول خاتم من فضة كما تقول خاتم فضة ، ولما لم تضف في الاستفهامية لم يجز استعمال ما يضاهيه وسنبين هذا الجواب ، والجواب عن السؤال الثاني هو أن نقول إن الأصل في المميز الإضافة ، وعن الثالث هو أن كم يدخل عليه حرف الجر فتقول إلى كم تصبر ، وفي كم يوم جئت ، وبكم رجل مررت ومن حيث المعنى إن كم إذا قرن بها من وجعل مميزه جمعاً كما في قول القائل كم من رجال خدمتهم ويكون معناه كثير من الرجال خدمتهم ورب وإن كانت للتقليل لكن لا تقوم مقام القليل ، فلا يمكن أن يقال في رب إنها عبارة عن قليل كما قلنا في كم إنه عبارة عن كثير .

المسألة الثانية :

قال شفاعتهم على عود الضمير إلى المعنى ، ولو قال شفاعته لكان العود إلى اللفظ فيجوز أن يقال كم من رجل رأيته ، وكم من رجل رأيتهم ، فإن قلت هل بينهما فرق معنوي ؟ قلت نعم ، وهو أنه تعالى لما قال : ﴿ لا تُغْنِي شفاعتهم ﴾ [النجم : 26] يعني شفاعة الكل ، ولو قال شفاعته لكان معناه كثير من الملائكة كل واحد لا تغني شفاعته فربما كان يخطر ببال أحد أن شفاعتهم تغني إذا جمعت ، وعلى هذا ففي الكلام أمور كلها تشير إلى عظم الأمر أحدها : كم فإنه للتكثير ثانيها : لفظ الملك فإنه أشرف أجناس المخلوقات ثالثها : في السموات فإنها إشارة إلى علو منزلتهم ودنو مرتبتهم من مقر السعادة رابعها : اجتماعهم على الأمر في قوله ﴿ شفاعتهم ﴾ وكل ذلك لبيان فساد قولهم إن الأصنام يشفعون أي كيف تشفع مع حقارتها وضعفها ودناءة منزلتها فإن الجماد أخس الأجناس والملائكة أشرفها وهم في أعلى السموات ولا تقبل شفاعة الملائكة فكيف تقبل شفاعة الجمادات .

المسألة الثالثة :

ما الفائدة في قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ ﴾ بمعنى كثير من الملائكة مع أن كل من في السموات منهم لا يملك الشفاعة ؟ نقول المقصود الرد عليهم في قولهم هذه الأصنام تشفع ، وذلك لا يحصل ببيان أن ملكاً من الملائكة لا تقبل شفاعته فاكتفى بذكر الكثيرة ، ولم يقل ما منهم أحد يملك الشفاعة لأنه أقرب إلى المنازعة فيه من قوله كثير مع أن المقصود حاصل به ، ثم ههنا بحث وهو أن في بعض الصور يستعمل صيغة العموم والمراد الكثير ، وفي البعض يستعمل الكثير والمراد الكل وكلاهما على طريقة واحد ، وهو استقلال الباقي وعدم الاعتداد ، ففي قوله تعالى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأحقاف : 25] كأنه يجعل الخارج عن الحكم غير ملتفت إليه ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ ﴾ وقوله ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 75] وقوله ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : 41] يجعل المخرج غير ملتفت إليه فيجعل كأنه ما أخرجه كالأمر الخارج عن الحكم كأنه ما خرج ، وذلك يختلف بختلاف المقصود من الكلام ، فإن كان الكلام مذكوراً لأمر فيه يبالغ يستعمل الكل ، مثاله يقال للملك كل الناس يدعون لك إذا كان الغرض بيان كثرة الدعاء له لا غير ، وإن كان الكلام مذكوراً لأمر خارج عنه لا يبالغ فيه لأن المقصود غيره فلا يستعمل الكل ، مثاله إذا قال الملك لمن قال له اغتنم دعائي كثير من الناس يدعون لي ، إشارة إلى عدم احتياجه إلى دعائه لا لبيان كثرة الدعاء له ، فكذلك ههنا .

المسألة الرابعة :

قال : ﴿ لاَ تُغْنِى شفاعتهم ﴾ ولم يقل لا يشفعون مع أن دعواهم أن هؤلاء شفعاؤنا لا أن شفاعتهم تنفع أو تغني وقال تعالى في مواضع أخرى ﴿ مَن ذَا الذى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] فنفى الشفاعة بدون الإذن وقال : ﴿ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ ﴾ [السجدة : 4] نفى الشفيع وههنا نفى الإغناء ؟ نقول هم كانوا يقولون هؤلاء شفعاؤنا وكانوا يعتقدون نفع شفاعتهم ، كما قال تعالى : ﴿ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : 3] ثم نقول نفي دعواهم يشتمل على فائدة عظيمة ، أما نفي دعواهم لأنهم قالوا الأصنام تشفع لنا شفاعة مقربة مغنية فقال : ﴿ لاَ تُغْنِى شفاعتهم ﴾ بدليل أن شفاعة الملائكة لا تغني ، وأما الفائدة فلأنه لما استثنى بقوله ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ ﴾ أي فيشفع ولكن لا يكون فيه بيان أنها تقبل وتغني أو لا تقبل ، فإذا قال : ﴿ لاَ تُغْنِى شفاعتهم ﴾ ثم قال : ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ ﴾ فيكون معناه تغني فيحصل البشارة ، لأنه تعالى قال : ﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾

[غافر : 7] وقال تعالى : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى الأرض ﴾ [الشورى : 5] والاستغفار

شفاعة.

وأما قوله ﴿ مَن ذَا الذى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] فليس المراد نفي الشفاعة وقبولها كما في هذه الآية حيث رد عليهم قولهم وإنما المراد عظمة الله تعالى ، وأنه لا ينطق في حضرته أحد ولا يتكلم كما في قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ﴾ [النبأ : 38] .

المسألة الخامسة :

(81/733)

اللام في قوله ﴿ لِمَن يَشَاء ويرضى ﴾ تحتمل وجهين أحدهما : أن تتعلق بالإذن وهو على طريقين أحدهما : أن يقال إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء من الملائكة في الشفاعة لمن يشاء الشفاعة ويرضى الثاني : أن يكون الإذن في المشفوع له لأن الإذن حاصل للكل في الشفاعة للمؤمنين لأنهم جميعهم يستغفرون لهم فلا معنى للتخصيص ، ويمكن أن ينازع فيه وثانيهما : أن تتعلق بالإغناء يعني إلا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة فتغني شفاعتهم لمن يشاء ويمكن أن يقال بأن هذا بعيد ، لأن ذلك يقتضي أن تشفع الملائكة ، والإغناء لا يحصل إلا لمن يشاء ، فيجاب عنه بأن التنبيه على معنى عظمة الله تعالى فإن الملك إذا

شفع فالله تعالى على مشيئته بعد شفاعتهم يغفر لمن يشاء .

المسألة السادسة :

(82/733)

ما الفائدة في قوله تعالى : ﴿ ويرضى ﴾ ؟ نقول فيه فائدة الإرشاد ، وذلك لأنه لما قال : ﴿ لِمَن يَشَاء ﴾ كان المكلف مترددا لا يعلم مشيئته فقال : ﴿ ويرضى ﴾ ليعلم أنه العابد الشاكر لا المعاند الكافر ، فإنه تعالى قال : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ اللّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكفر وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : 7] فكأنه قال : ﴿ لِمَن يَشَاء ﴾ ثم قال : ﴿ ويرضى ﴾ بيانا لمن يشاء ، وجواب آخر على قولنا : لا تغني شفاعتهم شيئا ممن يشاء ، هو أن فاعل يرضى المدلول عليه لمن يشاء كأنه قال ويرضى هو أي تغنيه الشفاعة شيئاً صالحاً فيحصل به رضاه كما قال : ويرضى هو أي تغنيه الشفاعة وحينئذ يكون يرضى للبيان لأنه لما قال : ﴿ لاَ تُغْنِي شفاعتهم ﴾ إشارة إلى نفي كل قليل وكثير كان اللازم عنده بالاستثناء أن شفاعتهم تغني شيئاً ولو كان قليلاً ويرضى المشفوع له ليعلم أنها تغني أكثر من اللازم بالاستثناء ، ويمكن أن يقال ﴿ ويرضى ﴾ لتبيين أن قوله ﴿ يَشَاء ﴾ ليس المراد المشيئة التي هي الرضا ، فإن الله تعالى إذا شاء الضلالة بعبد لم يرض به ، وإذا شاء الهداية

رضي فقال : ﴿لِمَن يَشَاء ويرضى﴾ ليعلم أن المشيئة ليست هي المشيئة العامة ، إنما هي الخاصة .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى (27)

(83/733)

وقد بينا ذلك في سورة الطور واستدللنا بهذه الآية ونذكر ما يقرب منه ههنا فنقول ﴿الذين لا يُؤْمِنُونَ بالأخرة﴾ هم الذين لا يؤمنون بالرسل ولا يتبعون الشرع ، وإنما يتبعون ما يدعون أنه عقل فيقولون أسماء الله تعالى ليست توقيفية ، ويقولون الولد هو الموجود من الغير ويستدلون عليه بقول أهل اللغة : كذا يتولد منه كذا ، يقال الزجاج يتولد من الآجر بمعنى يوجد منه ، وكذا القول في بنت الكرم وبنت الجبل ، ثم قالوا الملائكة وجدوا من الله تعالى فهم أولاده بمعنى الإيجاد ثم إنهم رأوا في الملائكة تاء التأنيث وصح عندهم أن يقال سجدت الملائكة فقالوا : بنات الله ، فقال : ﴿إِنَّ الذين لا يُؤْمِنُونَ بالآخرة لَيُسَمُّونَ الملائكة تَسْمِيَةَ الأنثى﴾ أي كما سمي الإناث بنات .

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

كيف يصح أن يقال إنهم لا يؤمنون بالآخرة مع أنهم كانوا يقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، وكان من عادتهم أن يربطوا مركوباً على قبر من يموت ويعتقدون أنه يحشر عليه ؟ فنقول الجواب عنه من وجهين أحدهما : أنهم لما كانوا لا يجزمون به كانوا يقولون لا حشر ، فإن كان فلنا شفعاء يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِّعْتُ إلى رَبِّى إِنَّ لِى عِندَهُ للحسنى ﴾ [فصلت : 50] ثانيهما : أنهم ما كانوا يعترفون بالآخرة على الوجه (الحق) وهو ما ورد به الرسل .

المسألة الثانية :

قال بعض الناس أنثى فعلى من أفعل يقال في فعلها آنث ويقال في فاعلها آنث يقال حديد ذكر وحديد أنيث ، والحق أن الأنثى يستعمل في الأكثر على خلاف ذلك بدليل جمعها على إناث .

المسألة الثالثة :

كيف قال تسمية الأنثى ولم يقل تسمية الإناث ؟ نقول عنه جوابان أحدهما : ظاهر والآخر دقيق ، أما الظاهر فهو أن المراد بيان الجنس ، وهذا اللفظ أليق بهذا الموضع لما جاء على وفقه آخر الآيات .

والدقيق هو أنه لو قال يسمونهم تسمية الإناث كان يحتمل وجهين : أحدهما : البنات وثانيهما : الأعلام المعتادة للإناث كعائشة وحفصة ، فإن تسمية الإناث كذلك تكون فإذا قال تسمية الأنثى تعين أن تكون للجنس وهي البنت والبنات ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها هي أنهم لما قيل لهم إن الصنم جماد لا يشفع وبيّن لهم إن أعظم أجناس الخلق لا شفاعة لهم إلا بالإذن قالوا نحن لا نعبد الأصنام لأنها جمادات وإنما نعبد الملائكة بعباتها فإنها على صورها وننصبها بين أيدينا ليذكرنا الشاهد والغائب ، فنعظم الملك الذي ثبت أنه مقرب عظيم الشأن رفيع المكان فقال تعالى رداً عليهم كيف تعظمونهم وأنتم تسمونهم تسمية الأنثى ، ثم ذكر فيه مستندهم في ذلك وهو لفظ الملائكة ، ولم يقل إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى بل قال : ﴿ لَيُسَمُّونَ الملائكة ﴾ فإنهم اغتروا بالتاء واغترارهم باطل لأن التاء تجيء لمعان غير التأنيث الحقيقي والبنت لا تطلق إلا على المؤنث الحقيقي بالإطلاق والتاء فيها لتأكيد معنى الجمع كما في صياقلة وهي تشبه تلك التاء ، وذلك لأن الملائكة في المشهور جمع ملك ، والملك اختصار من الملأك بحزف الهمزة ، والملأك قلب المألك من الألوكة وهي الرسالة ، فالملائكة على هذا القول مفاعلة ، والأصل مفاعل ورد إلى ملائكة في الجمع فهي تشبه فعائل وفعائلة ، والظاهر أن الملائكة فعائل جمع

مليكي منسوب إلى المليك بدليل قوله تعالى : ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ في وعد المؤمن ، وقال في وصف الملائكة

(85/733)

﴿ الذين عِندَ رَبِّكَ ﴾ [الأعراف : 206] وقال أيضاً في الوعد ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى ﴾ [ص : 40] وقال في وصف الملائكة ﴿ وَلاَ الملئكة المقربون ﴾ [النساء : 172] فهم إذن عباد مكرمون اختصهم الله بمزيد قربه ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل : 50] كأمر الملوك والمستخدمين عند السلاطين الواقفين بأبوابهم منتظرين لورود أمر عليهم ، فهم منتسبون إلى المليك المقتدر في الحال فهم مليكيون وملائكة فالتاء للنسبة في الجمع كما في الصيارفة والبياطرة .

فإن قيل هذا باطل من وجوه الأول : أن أحداً لم يستعمل لواحد منهم مليكي كما استعمل صيرفي والثاني : أن الإنسان عندما يصير عند الله تعالى يجب أن يكون من الملائكة ، وليس كذلك لأن المفهوم من الملائكة جنس غير الآدمي الثالث : هو أن فعائلة في جمع فعيلى لم يسمع وإنما يقال فعيلة كما يقال جاء بالتميمة والحقيبة الرابع : لو كان كذلك لما جمع ملك ؟ نقول :

الجواب عن الأول : أما عدم استعمال واحده فمسلم وهو لسبب وهو أن الملك كلما كان أعظم كان حكمه وخدمه وحشمه أكثر ، فإذا وصف بالعظمة وصف بالجمع فيقال صاحب العسكر الكثير ولا يوصف بواحد وصف تعظيم ، وأما ذلك الواحد فإن نسب إلى المليك عين للخبر بأن يقال هذا مليكي وذلك عندما تعرف عينه فتجعله مبتدأ وتخبر بالمليكي عنه ، والملائكة لم يعرفوا بأعيانهم إلا قليلاً منهم كجبريل وميكائيل ، وحينئذ لا فائدة في قولنا جبريل مليكي ، لأن من عرف الخبر ولا يصاغ الحمل إلا لبيان ثبوت الخبر للمبتدأ فلا يقال للإنسان حيوان أو جسم لأنه إيضاح واضح ، اللّهم إلا أن يستعمل ذلك في ضرب مثال أو في صورة نادرة لغرض ، وأما أن ينسب إلى المليك وهو مبتدأ فلا ، لأن العظمة في أن يقول واحد من الملائكة فنبه على كثرة المقربين إليه كما تقول واحد من أصحاب الملك ولا تقول صاحب الملك ، فإذا أردت التعظيم البالغ فعند الواحد استعمل اسم الملك غير منسوب بل هو موضوع لشدته وقوته كما قال تعالى : ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ [النجم : 6] و ﴿ ذِى قُوَّةٍ ﴾ [التكوير : 20] فقال : ﴿ شَدِيدُ القوى ﴾ [النجم : 5] وم لك تدل على الشدة في تقاليبها على ما عرف وعند الجمع استعمل الملائكة للتعظيم ، كما قاله

تعالى :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [المدثر : 31] .

الجواب عن الثاني : نقول قد يكون الاسم في الأول لوصف يختص ببعض من يتصف به وغيره لو صار متصفاً بذلك الوصف لا يسمى بذلك الاسم كالدابة فاعلة من دب ، ولا يقال للمرأة ذات الدب دابة اسماً وربما يقال لها صفة عند حالة ما تدب بدب مخصوص غير الدب العام الذي في الكل كما لو دبت بليل لأخذ شيء أو غيره ، أو يقال إنما سميت الملائكة ملائكة لطول انتسابهم من قبل خلق الآدمي بسنين لا يعلم عددها إلا الله ، فمن لم يصل إلى الله ويقوم ببابه لا يحصل له العهد والانتساب فلا يسمى بذلك الاسم .

(87/733)

الجواب عن الثالث : نقول الجموع القياسية لا مانع لها كفعال في جمع فعل كجال وثمار وأفعال كأثقال وأشجار وفعلان وغيرها ، وأما السماع وإن لم يرد إلا قليلاً فاكتفى بما فيه من التعظيم من نسبة الجمع إلا باب الله ويكون من باب المرأة والنساء .

الجواب عن الرابع : فالمنع ولعل هذا منه أو نقول حمل فعيلى على فعيل في الجمع كما حمل فيعل في الجمع على فعيل فقيل في جمع جيد جياد ولا يقال في فعيل أفاعل ، ويؤيد ما ذكرنا

أن إبليس عندما كان واقفاً بالباب كان داخلاً في جملة الملائكة ، فنقول قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لِآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ [الكهف : 50] عندما صرف وأبعد خرج عنهم وصار من الجن .

وأما ما قاله بعض أهل اللغة من أن الملائكة جمع ملأك ، وأصل ملأك مألك من الألوكة وهي الرسالة ففيه تعسفات أكثر مما ذكرنا بكثير ، منها أن الملك لا يكون فعل بل هو مفعل وهو خلاف الظاهر ، ولم لم يستعمل مألك على أصله كمآرب ومآثم ومآكل وغيرها مما لا يعد إلا بتعسف ؟ ومنها أن ملكاً لم جعل ملأك ولم يفعل ذلك بأخواته التي ذكرناها ؟ ومنها أن التاء لم ألحقت بجمعه ولم لم يقل ملائك كما في جمع كل مفعل ؟ والذي يرد قولهم قوله تعالى : ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ﴾ [فاطر : 1] فهي غير الرسل فلا يصح أن يقال جعلت الملائكة رسلاً كما لا يصح جعلت الرسل مرسلين وجعل المقترب قريباً ، لأن الجعل لا بد فيه من تغيير ومما يدل على خلاف ما ذكروا أن الكل منسوبون إليه موقوفون بين يديه منتظرون أمره لورود الأوامر عليهم .

وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (28)

وفيما يعود إليه الضمير في ﴿ بِهِ ﴾ وجوه أحدها : ما نقله الزمخشري وهو أنه عائد إلى ما كانوا يقولون من غير علم ثانيها : أنه عائد إلى ما تقدم في الآية المتقدمة من علم ، أي ما لهم بالله من علم فيشركون وقرىء ﴿ مَّا لَهُم بِهَا ﴾ .

(89/733)

وفيه وجوه أيضاً أحدها : ما لهم بالآخرة وثانيها : ما لهم بالتسمية ثالثها : ما لهم بالملائكة ، فإن قلنا (ما لهم بالآخرة) فهو جواب لما قلنا إنهم وإن كانوا يقولون الأصنام شفعاؤنا عند الله وكانوا يربطون الإبل على قبور الموتى ليركبوها لكن ما كانوا يقولون به عن علم ، وإن قلنا بالتسمية قد تكون وهو أن العلم بالتسمية حاصل لهم ، فإنهم يعلمون أنهم ليسوا في شك ، إذ التسمية قد تكون وضعاً أولياً وهو لا يكون بالظن بل بالعلم بأنه وضع ، وقد يكون استعمالاً معنوياً ويتطرق إليه الكذب والصدق والعلم ، مثال الأول : من وضع أولاً اسم السماء لموضوعها وقال هذا سماء ، مثال الثاني : إذا قلنا بعد ذلك للماء والحجر هذا سماء ، فإنه كذب ، ومن يعتقده فهو جاهل ، وكذلك قولهم في الملائكة إنها بنات الله ، لم تكن تسمية وضعية ، وإنما أرادوا به أنهم موصوفون بأمر يجب استعمال لفظ البنات فيهم ، وذلك كذب ومعتقده جاهل ، فهذا هو المراد بما ذكرنا أن الظن يتبع في الأمور المصلحية ،

والأفعال العرفية أو الشرعية عند عدم الوصول إلى اليقين ، وأما في الاعتقادات فلا يغني الظن شيئاً من الحق ، فإن قيل : أليس الظن قد يصيب ، فكيف يحكم عليه بأنه لا يغني أصلاً ؟ نقول المكلف يحتاج إلى يقين يميز الحق من الباطل ، ليعتقد الحق ويميز الخير من الشر ليفعل الخير ، لكن في الحق ينبغي أن يكون جازماً لاعتقاد مطابقه ، والظان لا يكون جازماً ، وفي الخير ربما يعتبر الظن في مواضع ، ويحتمل أن يقال المراد من الحق هو الله تعالى ، ومعناه أن الظن لا يفيد شيئاً من الله تعالى ، أي الأوصاف الإلهية لا تستخرج بالظنون يدل عليه قوله تعالى : ﴿ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق ﴾ [الحج : 6] وفيه لطيفة ، وهي أن الله تعالى في ثلاثة مواضع منع من الظن ، وفي جميع تلك المواضع كان المنع عقيب التسمية ، والدعاء باسم موضعان منها في هذه السورة أحدهما : قوله تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ

(90/733)

أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءابَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ الله بِهَا مِن سلطان إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ [النجم : 23] .

والثاني : قوله تعالى : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ ، والثالث : في الحجرات ، قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنَابَزُواْ بالألقاب بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الإيمان وَمَن

لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظالمون * يا أيها الذين ءامَنُواْ اجتنبوا كَثِيراً مّنَ الظن ﴾ [الحجرات : 11 ، 12] عقيب الدعاء بالقلب ، وكل ذلك دليل على أن حفظ اللسان أولى من حفظ غيره من الأركان ، وأن الكذب أقبح من السيئات الظاهرة من الأيدي والأرجل ، وهذه المواضع الثلاثة أحدها : مدح من لا يستحق المدح كاللاّت والعزى من العز وثانيها : ذم من لا يستحق الذم ، وهم الملائكة الذين هم عباد الرحمن يسمونهم تسمية الأنثى وثالثها : ذم من لم يعلم حاله ، وأما مدح من حاله لا يعلم ، فلم يقل فيه : لا يتبعون إلا الظن ، بل الظن فيه معتبر ، والأخذ بظاهر حال العاقل واجب .

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29)

(91/733)

أي اترك مجادلتهم فقد بلغت وأتيت بما كان عليك ، وأكثر المفسرين يقولون : بأن كل ما في القرآن من قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضَ ﴾ منسوخ بآية القتل وهو باطل ، فإن الأمر بالإعراض موافق لآية القتال ، فكيف ينسخ به ؟ وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان مأموراً بالدعاء بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلما عارضوه بأباطيلهم قيل له ﴿ وجادلهم بالتى هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] ثم لما لم ينفع ، قال له ربه : فأعرض عنهم ولا تقابلهم

بالدليل والبرهان ، فإنهم لا يتبعون إلا الظن ، ولا يتبعون الحق ، وقابلهم بالإعراض عن المناظرة بشرط جواز المقابلة ، فكيف يكون منسوخاً ، والإعراض من باب أشكاه والهمزة فيه للسلب ، كأنه قال : أزل العرض ، ولا تعرض عليهم بعد هذا أمراً ، وقوله تعالى : ﴿ عن مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا ﴾ لبيان تقديم فائدة العرض والمناظرة ، لأن من لا يصغي إلى القول كيف يفهم معناه ؟ وفي ﴿ ذِكْرِنَا ﴾ وجوه الأول : القرآن الثاني : الدليل والبرهان الثالث : ذكر الله تعالى ، فإن من لا ينظر في الشيء كيف يعرف صفاته ؟ وهم كانوا يقولون : نحن لا نتفكر في آلاء الله لعدم تعلقنا بالله ، وإنما أمرنا مع من خلقنا ، وهم الملائكة أو الدهر على اختلاف أقاويلهم وتباين أباطيلهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحياة الدنيا ﴾ إشارة إلى إنكارهم الحشر ، كما قالوا ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا ﴾ [المؤمنون : 37] وقال تعالى : ﴿ أَرَضِيتُمْ بالحياة الدنيا ﴾ [التوبة : 38] يعني لم يثبتوا وراءها شيئاً آخر يعملون له ، فقوله ﴿ عن مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا ﴾ إشارة إلى إنكارهم الحشر ، لأنه إذا ترك النظر في آلاء الله تعالى لا يعرفه فلا يتبع رسوله فلا ينفعه كلامه .

(92/733)

وإذا لم يقل بالحشر والحساب لا يخاف فلا يرجع عما هو عليه ، فلا يبقى إذن فائدة في الدعاء ، واعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان طبيب القلوب ، فأتى على ترتيب الأطباء ، وترتيبهم أن الحال إذا أمكن إصلاحه بالغذاء لا يستعملون الدواء ، وما أمكن إصلاحه بالدواء الضعيف لا يستعملون الدواء القوي ، ثم إذا عجزوا عن المداواة بالمشروبات وغيرها عدلوا إلى الحديد والكي وقيل آخر الدواء الكي ، فالنبي صلى الله عليه وسلم أولاً أمر القلوب بذكر الله فحسب فإن بذكر الله تطمئن القلوب كما أن بالغذاء تطمئن النفوس ، فالذكر غذاء القلب ، ولهذا قال أولاً : قولوا لا إله إلا الله أمر بالذكر لمن انتفع مثل أبي بكر وغيره ممن انتفع ، ومن لم ينتفع ذكر لهم الدليل ، وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ﴾ [الأعراف : 184] ﴿ قُلِ انظروا ﴾ [يونس : 101] ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ ﴾ [الغاشيه : 17] إلى غير ذلك ، ثم أتى بالوعيد والتهديد ، فلما لم ينفعهم قال : أعرض عن المعالجة ، واقطع الفاسد لئلا يفسد الصالح .

(93/733)

ثم قال تعالى : ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ ﴿ ذلك ﴾ فيه وجوه الأول : أظهرها أنه عائد إلى الظن ، أي غاية ما يبلغون به أنهم يأخذون بالظن وثانيها : إيثار الحياة الدنيا مبلغهم من

العلم ، أي ذلك الإيثار غاية ما بلغوه من العلم ثالثها : ﴿ فَأَعْرِضْ عن من تولى ﴾ [النجم : 29] وذلك الإعراض غاية ما بلغوه من العلم ، والعلم على هذا يكون المراد منه العلم بالمعلوم ، وتكون الألف واللام للتعريف ، والعلم بالمعلوم هو ما في القرآن ، وتقرير هذا أن القرآن لما ورد بعضهم تلقاه بالقبول وانشرح صدره فبلغ الغاية القصوى ، وبعضهم قبله من حيث إنه معجزة ، واتبع الرسول فبلغ الدرجة الوسطى ، وبعضهم توقف فيه كأبي طالب ، وذلك أدنى المراتب ، وبعضهم رده وعابه ، فالأولون لم يجز الإعراض عنهم ، والآخرون وجب الإعراض عنهم ، وكان موضع بلوغه من العلم أنه قطع الكلام معه الإعراض عنه ، وعليه سؤال وهو : أن الله تعالى بين أن غايتهم ذلك : ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها والمجنون الذي لا علم له ، والصبي لا يؤمر بما فوق احتماله فكيف يعاقبهم الله ؟ .

نقول ذكر قبل ذلك أنهم تولوا عن ذكر الله ، فكأن عدم علمهم لعدم قبولهم العلم ، وإنما قدر الله توليهم ليضاف الجهل إلى ذلك فيحقق العقاب ، قال الزمخشري : ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ العلم ﴾ كلام معترض بين كلامين ، والمتصل قوله تعالى : ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ [النجم : 29] ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ﴾ وعلى ما ذكرنا المقصود لا يتم إلا به ، يكون كأنه تعالى قال : أعرض عنهم فإن ذلك غايتهم ، ولا يوجد وراء ما ظهر منهم شيء ، وكأن قوله : ﴿ عن من تولى ﴾ إشارة إلى قطع عذرهم بسبب الجهل ، فإن الجهل كان بالتولي وإيثار العاجل .

ثم ابتدأ وقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهتدى ﴾ وفي المناسبة وجوه الأول : أنه تعالى لما قال : للنبي صلى الله عليه وسلم ، أعرض وكان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الميل إلى إيمان قومه وكان ربما هجس في خاطره ، أن في الذكرى بعد منفعة ، وربما يؤمن من الكافرين قوم آخرون من غير قتال فقال له : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ علم أنه يؤمن بمجرد الدعاء أحد من المكلفين ، وإنما ينفع فيهم أن يقع السيف والقتال فأعرض عن الجدال وأقبل على القتال ، وعلى هذا فقوله : ﴿ بِمَنِ اهتدى ﴾ أي علم في الأزل ، من ضل في تقديره ومن اهتدى ، فلا يشتبه عليه الأمران ، ولا يأس في الإعراض ويعد في العرف مصلحة ثانيها : هو على معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 24] وقوله تعالى : ﴿ يَحْكُمُ اللهُ بَيْنَنَا ﴾ [الأعراف : 87] ووجهه أنهم كانوا يقولون : نحن على الهدى وأنتم مبطلون وأقام النبي صلى الله عليه وسلم الحجة عليهم فلم ينفعهم ، فقال تعالى : أعرض عنهم وأجرك وقع على الله ، فإنه يعلم أنكم مهتدون ، ويعلم أنهم ضالون ، والمتناظران إذا تناظرا عند ملك قادر مقصودهم ظهور الأمر عند الملك

فإن اعترف الخصم بالحق فذاك ، وإلا فغرض المصيب يظهر عند الملك فقال تعالى : جادلت وأحسنت ، والله أعلم بالمحق من المبطل ثالثها : أنه تعالى لما أمر نبيه بالإعراض وكان قد صدر منهم إيذاء عظيم وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتحمله رجاء أن يؤمنوا ، فنسخ جميع ذلك فلما لم يؤمنوا فكأنه قال : سعيي وتحملي لإيذائهم وقع هباء ، فقال الله تعالى : إن الله يعلم حال المضلين والمهتدين : لله ما في السموات والأرض ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا من المهتدين .

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(95/733)

﴿ هُوَ ﴾ يسمى عماداً وفصلاً ، ولو قال : إن ربك أعلم لتمّ الكلام ، غير أن عند خلو الكلام عن هذا العماد ربما يتوقف السامع على سماع ما بعده ، ليعلم أن : ﴿ أَعْلَمُ ﴾ خبر : ﴿ رَبَّكَ ﴾ أو هو مع شيء آخر خبر ، مثاله لو قال : إن زيداً أعلم منه عمرو يكون خبر زيد الجملة التي بعده ، فإن قال : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ إنتفى ذلك التوهم .

المسألة الثانية :

﴿ أَعْلَمُ ﴾ يقتضي مفضلاً عليه يقال : زيد أعلم من عمرو ، والله أعلم ممن ؟ نقول : أفعل يجيء كثيراً بمعنى عالم لا عالم مثله ، وحينئذ إن كان هناك عالم فذلك مفضل عليه وإن لم يكن ففي الحقيقة هو العالم لا غير ، وفي كثير من المواضع أفعل في صفات الله بذلك المعنى يقال : الله أكبر وفي الحقيقة لا كبير مثله ولا أكبر إلا هو ، والذي يناسب هذا أنه ورد في الدعوات يا أكرم الأكرمين كأنه قال : لا أكرم مثلك ، وفي الحقيقة لا أكرم إلا هو وهذا معنى قول من يقول : ﴿ أَعْلَمُ ﴾ بمعنى عالم بالمهتدي والضال ، ويمكن أن يقال : أعلم من كل عالم بفرض عالم غيره .

المسألة الثالثة :

(96/733)

علمته وعلمت به مستعملان ، قال الله تعالى في الأنعام : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام : 117] ثم ينبغي أن يكون المراد من المعلوم العلم إذا كان تعلقه بالمعلوم أقوى ، إما لقوة العلم وإما لظهور المعلوم وإما لتأكيد وجوب العلم به ، وإما لكون الفعل له قوة ، أما قوة العلم فكما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ ﴾ [المزمل : 20] وقال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ [العلق : 14] لما كان علم الله تعالى تاماً شاملاً

علقه بالمفعول الذي هو حال من أحوال عبده الذي هو بمرأى منه من غير حرف ، ولما كان علم العبد ضعيفاً حادثاً علقه بالمفعول الذي هو صفة من صفات الله تعالى الذي لا يحيط به علم البشر بالحرف أو لما كان كون الله رائياً لم يكن محسوساً به مشاهداً علق الفعل به بنفسه وبالآخر بالحرف ، وأما ظهور المعلوم فكما قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَاء ﴾ [الزمر : 52] وهو معلوم ظاهر وأما تأكيد وجوب العلم به كما في قوله تعالى ﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إِلا الله ﴾ [محمد : 19] ويمكن أن يقال : هو من قبيل الظاهر ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ واعلموا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي الله ﴾ [التوبة : 2] وأما قوة الفعل فقال تعالى : ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ [المزمل : 20] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى ﴾ لما كان المستعمل صفة الفعل علقه بالمفعول بغير حرف وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ﴾ كما كان المستعمل اسماً دالاً على فعل ضعف عمله لتعلقه بالمفعول .

المسألة الرابعة :

قدم العلم بمن ضل على العلم بالمهتدي في كثير من المواضع منها في سورة الأنعام ومنها في سورة : ﴿ ن ﴾ ومنها في السورة ، لأن في المواضع كلها المذكور نبيه صلى الله عليه وسلم والمعاندون ، فذكرهم أولاً تهديداً لهم وتسلية لقلب نبيه عليه الصلاة والسلام .

المسألة الخامسة :

قال في موضع واحد من المواضع : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام : 117] وفي غيره قال : ﴿ بِمَن ضَلَّ ﴾ فهل عندك فيه شيء ؟ قلت : نعم ، ونبين ذلك ببحث عقلي وآخر نقلي : أما العقلي : فهو أن العلم القديم يتعلق بالمعلوم على ما هو عليه ، إن وجد أمس علم أنه وجد أمس في نهار أمس ، وليس مثل علمنا حيث يجوز أن يتحقق الشيء أمس ، ونحن لا نعلمه إلا في يومنا هذا بل : ﴿ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السموات وَلاَ فِى الأرض ﴾ ولا يتأخر الواقع عن علمه طرفة عين وأما النقلي : فهو أن اسم الفاعل يعمل عمل الفعل إذا كان بمعنى المستقبل ولا يعمل عمله إذا كان ماضياً فلا تقول : أنا ضارب زيداً أمس ، والواجب إن كنت تنصب أن تقول : ضربت زيداً وإن كنت تستعمل اسم الفاعل فالواجب الإضافة تقول : ضارب زيد أمس أنا ويجوز أن يقال : أنا غداً ضارب زيداً والسبب فيه أن الفعل إذا وجد فلا تجدد له في (غير) الاستقبال ، ولا تحقق له في الحال فهو عدم وضعف عن أن يعمل ، وأما الحال وما يتوقع فله وجود فيمكن إعماله .

إذا ثبت هذا فنقول : لما قال ﴿ ضَلَّ ﴾ كان الأمر ماضياً وعلمه تعلق به وقت وجوده فعلم ، وقوله ﴿ أَعْلَمُ ﴾ بمعنى عالم فيصير كأنه قال : عالم بمن ضل فلو ترك الباء لكان إعمالاً للفاعل بمعنى الماضي ، ولما قال : ﴿ يُضِلُّ ﴾ كان يعلم الضلال عند الوقوع وإن كان قد علم في الأزل أنه سيضل لكن للعلم بعد ذلك تعلق آخر سيوجد ، وهو تعلقه بكون الضلال قد وقع وحصل ولم يكن ذلك في الأزل ، فإنه لا يقال : إنه تعالى علم أن فلاناً ضل في الأزل ، وإنما الصحيح أن يقال : علم في الأزل ، فإنه سيضل ، فيكون كأنه يعلم أنه يضل فيكون اسم الفاعل بمعنى المستقبل وهو يعمل عمل الفعل ، فلا يقال : زيد أعلم مسألتنا من عمرو ، وإنما الواجب أن يقال : زيد أعلم بمسألتنا من عمرو ، ولهذا قالت النحاة في سورة الأنعام ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ ﴾ يعلم من يضل وقالوا : ﴿ أَعْلَمُ ﴾ للتفضيل لا يبنى إلا من فعل لازم غير متعد ، فإن كان متعدياً يرد إلى لازم .

وقولنا : علم كأنه من باب علم بالضم وكذا في التعجب إذا قلنا : ما أعلمه بكذا كأنه من فعل لازم .

وأما أنا فقد أجبت عن هذا بأن قوله : ﴿ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ ﴾ معناه عالم ، وقد قدمنا ما يجب أن يعتقد في أوصاف الله في أكثر الأمر أن معناه أنه عالم ولا عالم مثله فيكون أعلم على حقيقته وهو أحسن من أن يقال : هو بمعنى عالم لا غير ، فإن قيل : فلم قال ههنا : ﴿ بِمَن

ضَلَّ ﴾ وقال هناك : ﴿ يُضِلَّ ﴾ ؟ قلنا : لأن ههنا حصل الضلال في الماضي وتأكد حيث حصل يأس الرسول صلى الله عليه وسلم وأمر بالإعراض ، وأما هناك فقال تعالى من قبل : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى الأَرضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام : 116] . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن يُضِلَّ ﴾ بمعنى إن ضللت يعلمك الله فكان الضلال غير حاصل فيه فلم يستعمل صيغة الماضي .

المسألة السادسة :

(99/733)

قال في الضلال عن سبيله وهو كاف في الضلال لأن الضلال لا يكون إلا في السبيل ، وأما بعد الوصول فلا ضلال أو لأن من ضل عن سبيله لا يصل إلى المقصود سواء سلك سبيلاً أو (لم) يسلك وأما من اهتدى إلى سبيل فلا وصول إن لم يسلكه ، ويصحح هذا أن من ضل في غير سبيله فهو ضال ومن اهتدى إليها لا يكون مهتدياً إلا إذا اهتدى إلى كل مسألة يضر الجهل بها بالإيمان فكان الاهتداء اليقيني هو الاهتداء المطلق فقال ﴿ بِمَنِ اهتدى ﴾ وقال ﴿ بالمهتدين ﴾ [القلم : 7] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 28 صـ 263 : حـ 29 صـ 6 ﴾

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم ﴾

مخاطبة لقريش ، وهي من رؤية العين ، لأنه أحال على أجرام مرئية ، ولو كانت : أرأيت : التي هي استفتاء لم تتعد . ولما فرغ من ذكر عظمة الله وقدرته ، قال على جهة التوقيف : أرأيتم هذه الأوثان وحقارتها وبعدها عن هذه القدرة والصفات العلية و: ﴿ اللات ﴾ اسم صنم كانت العرب تعظمه ، قال أبو عبيدة وغيره : كان في الكعبة ، وقال قتادة : كان بالطائف . وقال ابن زيد : كان بنخلة عند سوق عكاظ ، وقول قتادة أرجح يؤيده قول الشاعر : [المتقارب]

وفرّت ثقيف إلى لاتها . . . بمنقلب الخائب الخاسر

والتاء في : ﴿ اللات ﴾ لام فعل كالباء من باب ، وقال قوم هي تاء تأنيث ، والتصريف يأبى ذلك ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وأبو صالح : " اللاّت " بشد التاء ، وقالوا : كان هذا الصنم حجراً وكان عنده رجل من بهزيلت سويق الحاج على ذلك الحجر ويخدم الأصنام ، فلما مات عبدوا الحجر الذي كان عنده إجلالاً لذلكا لرجل وسموه باسمه ، ورويت هذه

القراءة عن ابن كثير وابن عامر ، ﴿ والعزى ﴾ : صخرة بيضاء كانت العرب تعبدها وتعظمها ، قاله سعيد بن جبير وقال ابن مجاهد : كانت شجيرات تعبد ثم ببلاها انتقل أمرها إلى صخرة . و" عزى " مؤنثة عزيز ككبرى وعظمى ، وكانت هذه الأوثان تعظم الوثن منها قبيلة وتعبدها ، ويجيء كل من عز من العرب فيعظمها بتعظيم حاضرها . وقال أبو عبيدة معمر : كانت ﴿ العزى ﴾ ﴿ ومناة ﴾ في الكعبة ، وقال ابن زيد : وكانت ﴿ العزى ﴾ بالطائف ، وقال قتادة : كانت بنخلة وأما ﴿ مناة ﴾ فكانت بالمشلل من قديد ، وذلك بين مكة والمدينة ، وكانت أعظم هذه الأوثان قدراً وأكثرها عابداً ، وكانت الأوس والخزرج تهل لها ، ولذلك قال تعالى : ﴿ الثالثة الأخرى ﴾ فأكدها بهاتين الصفتين ، كما تقول رأيت فلاناً وفلاناً ثم تذكر ثالثاً أجل منهما ، فتقول وفلاناً الآخر الذي من أمره وشأنه .

(101/733)

ولفظة آخر وأخرى يوصف به الثالث من المعدودات ، وذلك نص في الآية ، ومنه قول ربيعة بن مكدم : [الكامل]

ولقد شفعتهما بآخر ثالث . . . وهو التأويل الصحيح في قول الشاعر [عبيد بن الأبرص]

: [مجزوء الكامل]

جعلت لها عودين من . . . نشم وآخر من ثمامه

وقرأ ابن كثير وحده : " ومناءة " بالهمز والمد وهي لغة فيها ، والأول أشهر وهي قراءة الناس ، ومنها قول جرير : [الوافر]

أزيد مناة توعد بابن تيم . . . تأمل أين تاه بك الوعيد

ووقف تعالى الكفار على هذه الأوثان وعلى قولهم فيها ، لأنهم كانوا يقولون : هي بنات الله ، فكأنه قال : أرأيتم هذه الأوثان وقولكم هي بنات الله ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ ، أي النوع المستحسن المحبوب هو لكم وموجود فيكم ؟ والمذموم المستثقل عندكم هو له بزعمكم ، ثم قال تعالى على جهة الإنكار : ﴿ تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ أي عوجاء ، قاله مجاهد ، وقيل ﴿ ضيزى ﴾ معناه : جائرة ، قاله ابن عباس وقتادة ، وقال سفيان معناه : منقوصة ، وقال ابن زيد معناه : مخالفة ، والعرب تقول : ضزته حقه أضيزه ، بمعنى : منعته منه وظلمته فيه ، و: ﴿ ضيزى ﴾ من هذا التصريف وأصلها فُعلى بضم الفاء ضوزى لأنه القياس ، إذ لا يوجد في الصفات فِعلى بكسر الفاء ، كذا قال سيبويه وغيره ، فإذا كان هذا فهي ضوزى : كسر أولها كما كسر أول عِين وبيض طلباً للتخفيف ، إذ الكسرة والياء أخف من الضمة والواو كما قالوا بيوت وعصى هي في الأصل فعول بضم الفاء ، وتقول العرب : ضزته أضوزه فكان يلزم على هذا التصريف أن يكون ضوزى فعلى

، وفي جميع هذا نظر .

وقرأ ابن كثير : " ضئيزى " بالهمز على أنه مصدر كذكرى ، وقرأ الجمهور بغير همز .

(102/733)

ثم قال تعالى : ﴿ إن هي إلا أسماء ﴾ يعني أن هذه الأوصاف من أنها إناث وأنها تعبد آلهة ونحو هذا إلا أسماء ، أي تسميات اخترعتموها ﴿ أنتم وآباؤكم ﴾ لا حقيقة لها ولا أنزل الله تعالى بها برهاناً ولا حجة ، وقرأ عيسى بن عمر : " سلُطان " بضم اللام ، وقرأ هو وابن مسعود وابن عباس وابن وثاب وطلحة والأعمش " إن تتبعون " بالتاء على المخاطبة ، وقرأ أبو عمرو وعاصم ونافع والأعمش أيضاً والجمهور : " يتبعون " بالياء على الحكاية عن الغائب و ﴿ الظن ﴾ : ميل النفس إلى أحد معتقدين متخالفين دون أن يكون ميلها بحجة ولا برهان وهوى الأنفس : هو إرادتها الملذة لها وإنما تجد هوى النفس أبداً فيترك الأفضل ، لأنها مجبولة بطبعها على حب الملذ ، وإنما يردعها ويسوقها إلى حسن العاقبة العقل والشرع .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ اعتراض بين الكلام فيه توبيخ لهم ، لأن سرد القول إنما هو يتبعون ولا ﴿ الظن وما تهوى الأنفس ﴾ ، ﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ ،

وقف على جهة التوبيخ والإنكار لحالهم ورأيهم ، ثم اعترض بعد قوله : ﴿ وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ جملة في موضع الحال ، والهدى المشار إليه ، ومحمد وشرعه .

وقرأ ابن مسعود وابن عباس : " ولقد جاءكم من ربكم " بالكاف فيهما ، وقال الضحاك إنهما قرآ " ولقد جاءك من ربك " .

(103/733)

و " الإنسان " في قوله : ﴿ أم للإنسان ﴾ ، اسم الجنس ، كأنه يقول ليست الأشياء بالتمني والشهوات ، إنما الأمر كله لله والأعمال جارية على قانون أمره ونهيه فليس لكم ، أيها الكفرة مرادكم في قولكم هذه آلهتنا وهي تنفعنا وتقربنا زلفى ونحو هذا . وقال ابن زيد والطبري : " الإنسان " هنا : محمد ، بمعنى أنه لم ينل كرامتنا بتأميل ، بل بفضل الله أو بمعنى بل إنه تمنى كرامتنا فنالها ، إذ الكل لله يهب ما شاء ، وهذا لا تقتضيه الآيات ، وإن كان اللفظ يعمه . و: ﴿ الآخرة والأولى ﴾ الداران ، أي له كل أمرهما ملكاً ومقدوراً وتحت سلطانه .

وقوله تعالى : ﴿ وكم من ملك ﴾ الآية ، رد على قريش في قولهم : الأوثان شفعاؤنا ، كأنه

يقول : هذه حال الملائكة الكرام ، فكيف بأوثانكم ، و﴿ كم ﴾ للتكثير وهي في موضع رفع بالابتداء والخبر : ﴿ لا تغني ﴾ والغناء حلب النفع ودفع الضر بحسب الأمر الذي يكون فيه الغناء وجمع الضمير في ﴿ شفاعتهم ﴾ على معنى : ﴿ كم ﴾ ومعنى الآية : ﴿ أن يأذن الله ﴾ في أن يشفع لشخص ما ويرضى عنه كما أذن في قوله : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله ﴾ [غافر : 7] .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (27)

﴿ الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ هم كفار العرب ، وقوله : ﴿ ليسمون الملائكة ﴾ معناه : ليصفون الملائكة بأوصاف الأنوثة وأخبر تعالى عنهم أنهم لا علم لهم بذلك ، وإنما هي ظنون منهم لا حجة لهم عليها وقرأ ابن مسعود : " من علم إلا اتباع الظن " .

وقوله : ﴿ إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ أي في المعتقدات المواضع التي يريد الإنسان أن يحرر ما يعقل ويعتقد فإنها مواضع حقائق لا تنفع الظنون فيها ، وأما في الأحكام وظواهرها فيجتزى فيها بالظنونات ، ثم سلى تعالى نبيه وأمره بالإعراض عن هؤلاء الكفرة ، وما في الآية من موادعتهم منسوخ بآية السيف .

(104/733)

وقوله : ﴿ ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ معناه لا يصدق بغيرها ، فسعيه كله وعمله إنما هو لدنياه .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ معناه هنا انتهى تحصيلهم من المعلومات ، وذلك أن المعلومات منها ما هي معقولات نافعة في الآخرة ، ومنها ما هي أمور فانية وأشخاص بادية كالفلاحة وكثير من الصنائع وطلب الرئاسة على الناس بالمخرقة ، فكلها معلومات ولها علم ومبلغ الكفرة إنما هو في مدة الدنيا ويات .

وقوله تعالى : ﴿ إن ربك هو أعلم ﴾ الآية تصل بمعنى التسلية في قوله : ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ﴾ ، وقوله : ﴿ إن ربك هو أعلم ﴾ الآية ، ووعيد للكفار ووعد للمؤمنين ، وأسند الضلالة والهدى إليهم بكسبهم وإن كان الجميع خلقاً له واختراعاً ، واللام في قوله : ﴿ ليجزي ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ ضل ﴾ وبقوله : ﴿ اهتدى ﴾ فكأنه قال : ليصير أمرهم جميعاً إلى أن يجزى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(105/733)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السماوات لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ الله

لِمَن يَشَآءُ ويرضى ﴾

هذا توبيخ من الله تعالى لمن عبد الملائكة والأصنام ، وزعم أن ذلك يقرّبه إلى اللَّه تعالى ، فأعلم أن الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له .

قال الأخفش : الملَك واحد ومعناه جمع ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : 47] .

وقيل : إنما ذكر ملَكاً واحداً ، لأن كَمْ تدل على الجمع .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾

هم الكفار الذين قالوا الملائكة بنات الله والأصنام بنات الله .

﴿ لَيُسَمُّونَ الملائكة تَسْمِيَةَ الأنثى ﴾ أي كتسمية الأنثى ، أي يعتقدون أن الملائكة إناث وأنهم بنات الله .

﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي إنهم لم يشاهدوا خلقه الملائكة ، ولم يسمعوا ما قالوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يروه في كتاب .

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما يتبعُونَ ﴿ إِلاَّ الظن ﴾ في أن الملائكة إناث .

﴿ وَإِنَّ الظن لاَ يُغْنِي مِنَ الحق شَيْئاً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّن تولى عَن ذِكْرِنَا ﴾ يعني القرآن والإيمان .

وهذا منسوخ بآية السيف .

﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحياة الدنيا ﴾ نزلت في النَّضر .

وقيل : في الوليد .

﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ العلم ﴾ أي إنما يبصرون أمر دنياهم ويجهلون أمر دينهم .

قال الفراء : صغّرهم وازدرى بهم ؛ أي ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة .

وقيل : أن جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي حاد عن دينه ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهتدى ﴾ فيجازي كُلاًّ بأعمالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(106/733)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى ﴾

هي أصنامٌ كانتْ لهم ، فاللاتُ كانتْ لثقيفٍ بالطائفِ وقيلَ لقريشٍ بنخلةَ . وهيَ فعَلة من لَوَى لأنَّهم كانُوا يلوُون علَيها ويطوفُونَ بها . وقُرِىءَ بتشديدِ التاءِ على أنَّه اسمُ فاعلٍ اشتُهِرَ به رجلٌ كانَ يلتُّ السمنَ بالزيتِ ويطعمُه الحاجَّ وقيلَ كان يلتُّ السويقَ بالطائفِ ويطعمُه

الحاجَّ فلمَّا ماتَ عكفُوا على قبرِه يعبدونَهُ وقيلَ كانَ يجلسُ على حجرٍ فلما ماتَ سُمِّيَ الحجرُ باسمِه وعُبدَ منْ دونِ الله وقيلَ : كانَ الحجرُ على صورتِه .

(107/733)

والعُزَّى تأنيثُ الأعزِّ كانتْ لغطفانَ وهي سَمُرةٌ كانُوا يعبدونَها فبعثَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خالدَ بنَ الوليدِ فقطعَها فخرجتْ منَها شيطانةٌ ناشرةٌ شعرَها واضعةً يدَها على رأسِها وهي تُولْوِلُ فجعلَ خالدٌ يضربُها بالسيفِ حتى قتلَها فأخبرَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالَ : " تلكَ العُزَّى ولنْ تُعبد أبداً " . ومناةُ صخرةٌ لهُذَيلٍ وخُزاعةَ وقيلَ لثقيفٍ وكأنَّها سميتْ مناةَ لأنَّ دماءَ النسائكَ تُمْنَى عندَها أي تُراقُ . وقُرىءَ ومناءة وهي مفعلة من النَّوءِ كأنَّهم كانُوا يستمطرونَ عندَها الأنواءَ تبركاً بها ، و (الأُخْرى) صفةُ ذمَ لهَا وهي المتأخرةُ الوضيعةُ المقدارِ . وقدْ جُوِّزَ أنْ تكونَ الأوليةَ والتقدمَ عندهم للاتِ والعُزَّى . ثمَّ أنَّهم كانُوا معَ ما ذُكِرَ من عبادتِهم لها يقولونَ إنَّ الملائكةَ وتلكَ الأصنامَ بناتُ الله تعالَى الله عن ذلكَ عُلواً كبيراً فقيلَ لهم توبيخاً وتبكيتاً أفرأيتُم الخ . والهمزةُ للإنكارِ ، والفاءُ لتوجيهه إلى ترتيب الرؤيةِ على ما ذُكِرَ من شؤونِ الله تعالى المنافيةِ لها غايةَ المُنافاةِ ، وهي قلبيةٌ ومفعولُها الثَّاني محذوفٌ لدلالةِ الحال عليهِ فالمَعْنى أعَقيبَ ما سمعتُم من آثارِ

كمالِ عظمةِ الله عزَّ وجلَّ في مُلكِه وملكوتِه وجلالِه وجبروتِه وإحكامِ قدرتِه ونفاذِ أمرِه في الملأ الأَعْلى وما تحتَ الثَّرى وما بينهما رأيتُم هذهِ الأصنامَ مع غايةِ حقارتِها وقماءتِها بناتٍ له تعالَى وقيلَ المعَنْى أفرأيتُم هذِه الأصنامَ مع حقارتِها وذلَّتِها شركاءَ الله تعالَى معَ ما تقدمَ من عظمتِه وقيلَ أخبرونِي عن آلهتِكم هلْ لهَا شيءٌ من القُدرةِ والعظمةِ التي وُصفَ بها ربُّ العزةِ في الآيِ السابقةِ وقيلَ المَعْنى أظننتُم أنَّ هذه الأصنامَ التي تعبدونها تنفعُكم وقيل أظننتُم أنَّها تشفعُ لكُم في الآخرةِ وقيل أفرأيتُم إلى هذهِ الأصنامِ إنْ

(108/733)

عبدتُموها لا تنفعْكُم وإنْ تركتُموَها لا تضرَّكم والأولُ هو الحقُّ كما يشهدُ به قولُه تعالَى : ﴿ أَلَكُمُ الذكر ولَهُ الانثى ﴾ شهادةٌ بينةٌ فإنَّه توبيخٌ مبنيٌّ على التوبيخِ الأولِ وحيثُ كانَ مدارُه تفضيلَ جانبِ أنفسِهم على جنابِه تعالى بنسبتِهم إليه تعالى الإناثَ مع اختيارِهم لأنفسِهم الذكورَ وجبَ أن يكون مناطُ الأولِ نفسَ تلك النسبةِ حتَّى يتسنَّى بناءُ التوبيخِ الثانِي عليهِ ، وظاهرٌ أنْ ليسَ في شيءٍ من التقديراتِ المذكورةِ من تلكَ النسبةِ عينٌ ولا أثرٌ وأما ما قيلَ من أنَّ هذه الجملةَ مفعولٌ ثانٍ للرؤيةِ وخلوُّها عن العائدِ إلى المفعولِ الأولِ لما أنَّ الأصلَ أخبرونِي أن اللاتَ والعُزَّى ومناةَ ألكُم الذكرُ وله هُنَّ أي تلكَ الأصنامُ فوضعَ

موضَعها الأُنثى لمراعاةِ الفواصلِ وتحقيقِ مناطِ التوبيخِ فمعَ ما فيه من التمحلاتِ التي ينبغي تنزيهُ ساحةِ التنزيلِ عن أمثالها يقتضِي اقتصارَ التوبيخِ على ترجيحِ جانبِهم الحقيرِ على جنابِ اللهِ العزيزِ الجليلِ من غيرِ تعرضٍ للتوبيخِ على نسبةِ الولدِ إليه سبحانَهُ .

تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى (22)

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارةٌ إلى القسمةِ المنفهمةِ من الجملةِ الاستفهاميةِ ﴿ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ أي جائرةٌ حيثُ جعلتُم له تعالَى ما تستنكفونَ منه وهي فُعْلَى من الضيزِ وهُو الجورُ لكنَّه كُسرَ فاؤُه لتسلمَ الياءُ كما فُعلَ في بِيْضٍ فإنَّ فِعْلى بالكسرِ لم يأتِ في الوصفِ ، وقُرِىءَ ضُئْزَى بالهمزةِ من ضأَزَهُ إذا ظلمَهُ على أنه مصدرٌ نُعتَ . وقُرِىءَ ضَيزى إما على أنه مصدرٌ وصف به كدعوى أو على أنه صفة كسَكْرى وعطشى .

(109/733)

﴿ إِنْ هِىَ ﴾ الضميرُ للأصنامِ أيْ ما الأصنامُ باعتبارِ الألوهيةِ التي يدَّعُونها ﴿ إِلاَّ أَسْمَاء ﴾ محضةٌ ليسَ تحتَها مما تنبىءُ هي عنْهُ من معَنْى الألوهيةِ شيءٌ ما أصلاً . وقوله تعالى ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ صفة لأسماء وضميرها لها لا للأصنام والمعَنْى جعلتمُوها أسماءً لا جعلتُم لها أسماءً فإنَّ التسميةَ نسبةٌ بين الاسمِ والمُسمَّى فإذا قيستْ إلى الإسمِ فمعناهَا

جعلُه إسماً للمسمَّى وإن قيستْ إلى المسمَّى فمعناهَا جعلُه مسمَّى للإسمِ ، وإنما اختيرَ ههنا المعَنْى الأولُ من غيرِ تعرضٍ للمسمَّى لتحقيق أن تلكَ الأصنامَ التي يسمُّونها آلهةً أسماءً مجردةٌ ليسَ لها مسمياتٌ قطعاً كما في قولِه تعالى : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ الآيةَ لا أنَّ هناكَ مسمياتٍ لكنَّها لا تستحقُ التسميةَ وقيلَ هي للأسماءِ الثلاثةِ المذكورةِ حيثُ كانُوا يطلقونَها على تلك الأصنامِ لاعتقادِهم أنَّها تستحقُّ العكوفَ على عبادتِها والإعزازَ والتقربَ إليها بالقرابينِ وأنتَ خبيرٌ بأنَّه لو سُلِّم دلالةُ الأسماءِ المذكورةِ على ثبوبِ تلك المعانِي الخاصَّةِ للأصنامِ فليسَ في سلبِها عنها مزيدُ فائدةٍ بل إنَّما يه في سلبِ الألوهيةِ عنها كما هو زعمُهم المشهورُ في حقِّ جميعِ الأصنامِ على وجهٍ برهانيَ ، فإنَّ انتفاءَ الموصوفِ يقتضِي انتفاءَ الوصفِ بطريقِ الأولويةِ أيْ ما هيَ إلا أسماءٌ خاليةٌ عنِ المسمياتِ وضمعتُموها ﴿ أَنتُمْ وَءابَاؤُكُم ﴾ بمقتضَى أهوائكم الباطلةِ ﴿ مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سلطان ﴾ برهانٍ تتعلقونَ به ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ التفاتٌ إلى الغَيبةِ للإيذانِ بأنَّ تعدادَ قبائحِهم اقتضَى الإعراضَ عنهم وحكايةَ جناياتِهم لغيرِهم أي ما يتبعونَ فيما ذُكرَ من التسميةِ والعملِ بموجبِها ﴿ إِلاَّ الظن ﴾ إلا توهمَ أن ما هُم عليهِ حقٌّ توهماً باطلاً ﴿ وَمَا تَهْوَى الأنفس ﴾ أي

تشتهيه أنفسُهم الأمارةُ بالسُّوءِ ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُم مّن رَّبِّهِمُ الهدى ﴾ قيلَ هي حالٌ من فاعلِ يتبعونَ أو اعتراضٌ وأياً ما كان ففيهِ تأكيدٌ لبطلانِ اتباعِ الظنّ وهو النفسُ وزيادةُ تقبيحٍ لحالِهم فإنَّ اتباعَهما من أيِّ شخصٍ كان قبيحٌ وممن هداهُ الله تعالَى بإرسالِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم وإنزالِ الكتابِ أقبحُ .

﴿ أَمْ للإنسان مَا تمنى ﴾ أمْ منقطعةٌ وما فيهَا من بلْ للانتقالِ من بيانِ أنَّ ما هُم عليهِ غيرُ مستندٍ إلا إلى توهمِهم وهوَى أنفسِهم إلى بيانِ أنَّ ذلكَ مِمَّا لا يُجدي نفعاً أصلاً . والهمزةُ للإنكارِ والنَّفي ، أي ليسَ للإنسانِ كلُّ ما يتمنَّاهُ وتشتهيه نفُسه من الأمورِ التي من جُمْلتِها أطماعُهم الفارغةُ في شفاعةِ الآلهةِ ونظائرِها التي لا تكادُ تدخلُ تحتَ الوجودِ ﴿ فَلِلَّهِ الأخرة والأولى ﴾ تعليلٌ لانتفاءِ أنْ يكونَ للإنسانِ ما يتمنَّاهُ حتماً فإنَّ اختصاصَ أمورِ الآخرةِ والأُولى جميعاً بهِ تعالى مقتضٍ لانتفاءِ أن يكونَ له أمرٌ من الأمور .

(111/733)

وقولُه تعالى : ﴿ وَكَمْ مّن مَّلَكٍ فِى السموات لاَ تُغْنِى شفاعتهم شَيْئاً ﴾ إقناطٌ لهم عمَّا علَّقُوا به أطماعَهم من شفاعةِ الملائكةِ لهم موجبٌ لإقناطِهم من شفاعةِ الأصنامِ بطريقِ

الأولويةِ وكم خبريةٌ مفيدةٌ للتكثيرِ محلُّها الرفعُ على الابتداءِ ، والخبرُ هي الجملةُ المنفيةُ وجمعُ الضميرِ في شفاعتِهم مع إفرادِ المَلكِ باعتبارِ المَعْنى أي وكثيرٌ من الملائكةِ لا تُغني شفاعتُهم عند الله تعالى شيئاً من الإغناءِ في وقتٍ من الأوقاتِ ﴿ إلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ الله ﴾ لهمُ في الشفاعةِ ﴿ لِمَن يَشَاء ﴾ إنْ يشفعوا له ﴿ ويرضى ﴾ ويراهُ أهلاً للشفاعةِ من أهلِ التوحيدِ والإيمانِ ، وأمَّا من عداهُم من أهلِ الكفرِ والطغيانِ فهمُ من إذنِ الله تعالى بمعزلٍ من الشفاعةِ بألفِ منزلٍ ، فإذا كانَ حالُ الملائكةِ في بابِ الشفاعةِ كما ذُكِرَ فما ظنُّهم بحالِ الأصنامِ ﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالأخرة ﴾ وبما فيها من العقابِ على ما يتعاطَونه من الكفرِ والمعاصي ﴿ لَيُسَمُّونَ الملائكة ﴾ المنزهينَ عن سماتِ النقصانِ على الإطلاقِ أي يسمون كلَّ واحدٍ منهم ﴿ تَسْمِيَةَ الأنثى ﴾ فإن قولَهم الملائكةُ بناتُ الله قولٌ منهُم بأنَّ كلاً منهم بنتُه سبحانَهُ ، وهي التسميةُ بالأُنثى ، وفي تعليقِها بعدمِ الإيمانِ بالآخرةِ إشعارٌ بأنَّها في الشناعةِ والفظاعةِ واستتباعِ العقوبةِ في الآخرةِ بحيثُ لا يجترىءُ عليها إلا مَنْ لا يؤمنُ بها رأساً . وقولُه تعالى : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ حالٌ من فاعِلِ يسمُّون أي يسمونَهم والحالُ أنَّه لا علمَ لهم بما يقولونَ أصلاً . وقُرِىءَ بَها أي بالملائكةِ أو بالتسميةِ . ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ في ذلكَ ﴿ إِلاَّ الظن ﴾ الفاسدَ ﴿ وَإِنَّ الظن ﴾ أي جنسَ الظنِّ كما يلوحُ به الإظهارُ في موقعِ الإضمارِ ﴿ لاَ يُغْنِى مِنَ الحق شَيْئًا ﴾ من الإغناءِ ، فإن الحقَّ الذي هو عبارةٌ عن

حقيقةِ الشيءِ لا يُدرك إلا بالعلمِ ، والظنُّ لا اعتدادَ به في شأنِ المعارفِ الحقيقيةِ وإنما يعتدُّ به في العملياتِ وما يؤدّي إليها . ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا ﴾ أي عنْهم . ووضعُ الموصولِ موضعَ ضميرِهم للتوسلِ بهِ ، أي وصفُهم بما في حيزِ صلتِه من الأوصافِ القبيحةِ وتعليلِ الحكمِ بهَا أيْ فأعرضْ عمَّن أعرضَ عن ذكرِنا المفيدِ للعلمِ اليقينيِّ وهو القُرآنُ المُنطوي عَلى علومِ الأولينَ والآخرينَ المذكرِ لأمورِ الآخرةِ أو عن ذكرِنا كما ينبغِي فإنَّ ذلكَ مستتبعٌ لذكرِ الآخرة وما فيها من الأمور المرغوبِ فيها والمرهوبِ عنَها . ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحياة الدنيا ﴾ راضياً بها قاصراً نظرَهُ عليها ، والمرادُ النهيُ عن دعوتِه والاعتناءُ بشأنِه فإنَّ من أعرضَ عمَّا ذُكرَ وانهمكَ في الدُّنيا بحيثُ كانتْ هي مُنتهَى همتِه وقُصارَى سعيِه لا تزيدُه الدعوةُ إلى خلافِها إلا عناداً وإصراراً على الباطلِ .

(113/733)

﴿ ذلك ﴾ أي ما أدَّاهم فيهِ من التولّي وقصْرِ الإرادةِ على الحياةِ الدُّنيا ﴿ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ العلم ﴾ لا يكادونَ يجاوزونَهُ إلى غيرِه حتَّى تُجديهم الدعوةُ والإرشادُ وجمعُ الضميرِ في مبلغُهم باعتبارِ مَعْنى مَنْ كما أنَّ إفرادَه فيمَا سبقَ باعتبارِ لفظِها ، والمرادُ بالعلمِ مطلقُ

الإدراكِ المنتظمِ للظنِّ الفاسدِ والجملةُ اعتراضٌ مقررٌ لمضمونِ ما قبلَها من قصرِ الإرادةِ على الحياةِ الدُّنيا . وقولُه تعالَى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهتدى ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالإعراضِ وتكريرُ قولِه تعالى هو أعلمُ لزيادةِ التقريرِ والإيذانِ بكمالِ تباينِ المعلومَينِ والمرادُ بمَنْ ضَلَّ منْ أصرَّ عليهِ ولم يرجعُ إلى الهُدَى أصلاً وبمَنْ اهتدَى مَنْ شأنُه الاهتداءُ في الجملةِ أي هو المبالغُ في العلمِ بمن لا يرعوي عنِ الضلالِ أبداً وبمن يقبلُ الاهتداءَ في الجملةِ لا غيرُه فلا تُتعبْ نفسَك في دعوتِهم فإنَّهم من القبيلِ الأولِ ، وفي تعليلِ الأمرِ بإعراضِه عليهِ السلامُ عن الاعتناءِ بأمرِهم باقتصارِ العلمِ بأحوالِ الفريقينِ عليهِ تعالَى رمزٌ إلى أنَّه تعالَى يعاملُهم بموجبِ علمِه بهم فيجزي كلاً منْهم بما يليقُ بهِ من الجزاءِ ففيهِ وعيدٌ ووعدٌ ضِمناً كما سيأتي صَريحاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(114/733)

وقال الآلوسى :

﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِى السماوات لاَ تُغْنِى شفاعتهم شَيْئاً ﴾

وإقناطهم عما طمعوا به من شفاعة الملائكة عليهم السلام موجب لإقناطهم عن شفاعة

الأصنام بطريق الأولوية ﴿ وَكَمْ ﴾ خبرية مفيدة للتكثير محلها الرفع على الابتداء ، والخبر الجملة المنفية ، وجمع الضمير في شفاعتهم مع إفراد الملك باعتبار المعنى أي وكثير من الملائكة لا تغني شفاعتهم عند الله تعالى شيئاً من الإغناء في وقت من الأوقات ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ الله ﴾ لهم في الشفاعة .

﴿ لِمَن يَشَاء ﴾ أن يشفعوا له ﴿ ويرضى ﴾ ويراه سبحانه أهلاً للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان ، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم من إذن الله تعالى بمعزل . وعنه بألف ألف منزل ، وجوز أن يكون المراد إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء من الملائكة بالشفاعة ويراه عز وجل أهلاً لها ، وأياً مّا كان فالمعنى على أنه إذا كان حال الملائكة في باب الشفاعة كما ذكر فما ظنهم بحال الأصنام ، والكلام قيل من باب

: على لاحب لا يهتدى بمناره . . .

فحاصله لا شفاعة لهم ولا غناء بدون أن يأذن الله سبحانه الخ ، وقيل : هو وارد على سبيل الفرض فلا يخالف قوله تعالى : ﴿ مَن ذَا الذى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] ، وقرأ زيد بن علي شفاعته بإفراد الشفاعة والضمير ، وابن مقسم شفاعاتهم بجمعهما وهو اختيار صاحب الكامل أبي القاسم الهذلي ، وأفردت الشفاعة في قراءة الجمهور قال أبو حيان : لأنها مصدر ولأنهم لو شفع جميعهم لواحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئاً .

﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ وبما فيها من العقاب على ما يتعاطونه من الكفر والمعاصي ﴿ لَيُسَمُّونَ الملائكة ﴾ المنزهين عن سمات النقصان على الإطلاق ﴿ تَسْمِيَةَ الانثى ﴾ فإنهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عما يقولون ، ﴿ والملائكة ﴾ في معنى استغراق المفرد فيكون التقدير ليسمون كل واحد من ﴿ الملائكة تَسْمِيَةَ الانثى ﴾ أي يسمونه بنتاً لأنهم إذا قالوا ذلك فقد جعلوا كل واحد منهم بنتاً ، فالكلام على وزان كسانا الأمير حلة أي كسا كل واحد منا حلة ، والإفراد لعدم اللبس ، ولذا لم يقل تسمية الإناث فلا حاجة إلى تأويل الأنثى بالإناث ولا إلى كون المراد الطائفة الأنثى ، وما ذكر أولاً قيل : مبني على أن تسمية الأنثى في "النظم الجليل" ليس نصباً على التشبيه وإلا فلا حاجة إليه أيضاً ، وفي تعليق التسمية بعدم الإيمان بالآخرة إشعار بأنها في الشناعة والفظاعة واستتباع العقوبة في الآخرة بحيث لا يجترىء عليها إلا من لا يؤمن بها رأساً ، وقوله تعالى :

﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ حال من فاعل ﴿ يسمون ﴾ [النجم : 27] وضمير به للمذكور من التسمية وبهذا الاعتبار ذكر ، أو باعتبار القول أي يسمونهم إناثاً ، والحال أنهم

لا علم لهم بما يقولون أصلاً ، وقرأ أبيّ بها أي بالتسمية ، أو بالملائكة ﴿ اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما يتبعون في ذلك ﴿ إِلاَّ الظن ﴾ أي التوهم الباطل ﴿ وَإِنَّ الظن ﴾ أي جنس الظن كما يلوح به الإظهار في موقع الإضمار ، وقيل : الإظهار ليستقل الكلام استقلال المثل .

﴿ لاَ يُغْنِى مِنَ الحق شَيْئًا ﴾ من الإغناء فإن الحق الذي هو عبارة عن حقيقة الشيء وما هو عليه إنما يدرك إدراكاً معتداً به إذا كان عن يقين لا عن ظن وتوهم فلا يعتدّ بالظن في شأن المعارف الحقيقية أعني المطالب الاعتقادية التي يلزم فيها الجزم ولو لم يكن عن دليل ، وإنما يعتدّ به في العمليات وما يؤدى إليها .

(116/733)

وفسر بعضهم الحق بالله عز وجل لقوله سبحانه : ﴿ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق ﴾ [الحج : 6] ، واستدل بالآية من لم يعتبر التقليد في الاعتقاديات وفيه بحث والظاهرية على إبطاله مطلقاً ، وإبطال القياس ورده على أتم وجه في الأصول ، وما أخرج ابن أبي حاتم عن أيوب قال : قال عمر بن الخطاب : احذروا هذا الرأي على الدّين فإنما كان الرأي من رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيباً لأن الله تعالى كان يريه وإنما هو منا تكلف وظن ﴿ وَإِنَّ الظن لاَ يُغْنِى مِنَ الحق شَيْئاً ﴾ هو أحد أدلتهم على إبطال القياس أيضاً ، وقد حكى الآمدي

في الأحكام نحوه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما فقال : قال ابن عمر : اتهموا الرأي عن الدّين فإن الرأي منا تكلف وظن ﴿ وَإِنَّ الظن لاَ يُغْنِى مِنَ الحق شَيْئاً ﴾ وأجاب عنه بأن غايته الدلالة على احتمال الخطأ فيه وليس فيه ما يدل على إبطاله ، وأن المراد بقوله : ﴿ إِنَّ الظن ﴾ الخ استعمال الظن في مواضع اليقين وليس المراد به إبطال الظن بدليل صحة العمل بظواهر الكتاب والسنة ، ويقال نحو هذا في كلام عمر رضي الله تعالى عنه ، وقد ذكر جملة من الآثار استدل بها المبطل على ما زعمه وردها كلها فمن أراد ذلك فليراجعه .

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا ﴾ أي عنهم ووضع الموصول موضع ضميرهم للتوسل به إلى وصفهم بما في حيز صلته من الأوصاف القبيحة ، وتعليل الحكم بها أي فأعرض عمن أعرض عن ذكرنا المفيد للعلم الحق وهو القرآن العظيم .

المنطوي على بيان الاعتقادات الحقة .

المشتمل على علوم الأولين والآخرين .

(117/733)

المذكر للآخرة وما فيها من الأمور المرغوب فيها والمرهوب عنها ، والمراد بالإعراض عنه ترك الأخذ بما فيه وعدم الاعتناء به ، وقيل : المراد بالذكر الرسول صلى الله عليه وسلم

وبالإعراض عنه ترك الأخذ بما جاء به ، وقيل : المراد به الإيمان ، وقيل : هو على ظاهره والإعراض عنه كناية عن الغفلة عنه عز وجل ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحياة الدنيا ﴾ راضياً بها قاصراً نظره عليها جاهداً فيما يصلحها كالنضر بن الحرث .

والوليد بن المغيرة ، والمراد من الأمر المذكور النهي عن المبالغة في الحرص على هداهم كأنه قيل : لا تبالغ في الحرص على هدى من تولى عن ذكرنا وانهمك في الدنيا بحيث كانت منتهى همته وقصارى سعيه ، وقوله تعالى :

﴿ ذلك ﴾ أي أمر الحياة الدنيا المفهوم من الكلام ولذا ذكر اسم الإشارة ، وقيل : أي ما أداهم إلى ما هم فيه من التولي وقصر الإرادة على الحياة الدنيا ، وقيل : ذلك إشارة إلى الظن الذي يتبعونه ، وقيل : إلى جعلهم الملائكة بنات الله سبحانه وكلا القولين كما ترى ﴿ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ العلم ﴾ أي منتهى علمهم لا علم لهم فوقه اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها من قصر الإرادة على الحياة الدنيا .

والمراد بالعلم مطلق الإدراك المنتظم للظن الفاسد ، وضمير ﴿ مَبْلَغُهُمْ ﴾ لمن وجمع باعتبار معناه كما أن إفراده قبل باعتبار لفظه ، وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهتدى ﴾ تعليل للأمر بالإعراض ، وتكرير قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ لزيادة التقرير والإيذان بكمال تباين المعلومين ، والمراد ﴿ بِمَن ضَلَّ ﴾ من أصر على الضلال ولم يرجع إلى الهدى أصلاً ، و﴿ بِمَنِ اهتدى ﴾ من شأنه الاهتداء في الجملة ، أي هو جل شأنه المبالغ في العلم بمن لا يرعوي عن الضلال أبداً ، وبمن يقبل الاهتداء في الجملة لا غيره سبحانه فلا تتعب نفسك في دعوتهم ولا تبالغ في الحرص عليها فإنهم من القبيل الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(119/733)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾

التعريف للجنس ، والمراد به : جنس النجوم ، وبه قال جماعة من المفسرين ، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة :

أحسن النجم في السماء الثريا . . . والثريا في الأرض زين النساء

وقيل : المراد به : الثريا ، وهو اسم غلب فيها ، تقول العرب : النجم ، وتريد به الثريا ، وبه قال مجاهد ، وغيره ، وقال السديّ ، النجم هنا : هو الزهرة ؛ لأن قوماً من العرب كانوا

يعبدونها ، وقيل : النجم هنا : النبت الذي لا ساق له ، كما في قوله : ﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن : 6] قاله الأخفش .

وقيل : النجم محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : النجم القرآن ؛ وسمي نجماً لكونه نزل منجماً مفرّقاً ، والعرب تسمي التفريق تنجيماً ، والمفرّق : المنجم ، وبه قال مجاهد ، والفراء ، وغيرهما ، والأوّل أولى .

قال الحسن : المراد بالنجم : النجوم إذا سقطت يوم القيامة .

وقيل المراد بها : النجوم التي ترجم بها الشياطين ، ومعنى هويه : سقوطه من علو ، يقال : هوى النجم يهوي هوياً : إذا سقط من علو إلى سفل ، وقيل : غروبه ، وقيل : طلوعه ، والأوّل أولى ، وبه قال الأصمعي وغيره ، ومنه قول زهير :

تسيح بها الأباعر وهي تهوى . . . هويّ الدَّلْوِ أَسْلَمَها الرشَاءُ

ويقال : هوى في السير : إذا مضى ؛ ومنه قول الشاعر :

بينما نَحْنُ بالبلاكثِ فالقا . . . عِ سِراعاً والعِيسُ تَهْوِى هُويا

خَطَرتْ خَطْرة على القلب من ذك . . . رَاكِ وَهناً فما استطعت مُضيا

(120/733)

ومعنى الهوَي على قول من فسر النجم بالقرآن : أنه نزل من أعلا إلى أسفل ، وأما على قول من قال إنه الشجر الذي لا ساق له ، أو أنه محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يظهر للهويّ معنى صحيح ، والعامل في الظرف فعل القسم المقدّر ، وجواب القسم قوله : ﴿ مَا ضَلَّ صاحبكم وَمَا غوى ﴾ أي : ما ضلّ محمد صلى الله عليه وسلم عن الحق والهدى ، ولا عدل عنه ، والغيّ : ضدّ الرشد ، أي : ما صار غاوياً ولا تكلم بالباطل ، وقيل : ما خاب فيما طلب ، والغَيّ : الخيبة ، ومنه قول الشاعر :

فمن يْلَق خيراً يحمِد النّاسُ أَمْرَهُ . . . وَمْن يَغْوَ لا يعدم على الغيِّ لائماً

وفي قوله : ﴿ صاحبكم ﴾ إشارة بأنهم المطلعون على حقيقة حاله ، والخطاب لقريش ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ أي : ما يصدر نطقه عن الهوى لا بالقرآن ولا بغيره ، فعن على بابها .

وقال أبو عبيدة : إنّ عن بمعنى الباء أي : بالهوى .

قال قتادة : أي : ما ينطق بالقراءة عن هواه ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يوحى ﴾ أي : ما هو الذي ينطق به إلاّ وحي من الله يوحيه إليه .

وقوله : ﴿ يُوحَى ﴾ صفة لوحي تفيد الاستمرار التجددي ، وتفيد نفي المجاز ، أي : هو وحي حقيقة لا لمجرد التسمية ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى ﴾ القوى جمع قوّة ، والمعنى : أنه علمه جبريل الذي هو شديد قواه ، هكذا قال أكثر المفسرين : إن المراد : جبريل .

وقال الحسن : هو الله عزّ وجلّ ، والأوّل أولى ، وهو من باب إضافة الصفة إلى الموصوف ﴿ ذُو مِرَّةٍ فاستوى ﴾ المرّة : القوّة والشدّة في الخلق ، وقيل : ذو صحة جسم وسلامة من الآفات ، ومنه قول النبيّ : " لا تحل الصدقة لغنيّ ولا لذي مرّة سوي " وقيل : ذو حصانة عقل ، ومتانة رأي .

قال قطرب : العرب تقول لكلّ من هو جزل الرأي ، حصيف العقل ذو مرّة ، ومنه قول الشاعر :

قد كنت قبلَ لقائكُمُ ذا مِرّةٍ . . . عندي لِكلِّ مخاصِمٍ مِيزانُهُ

(121/733)

والتفسير للمرّة بهذا أولى ؛ لأن القوّة والشدّة قد أفادها قوله : ﴿ شَدِيدُ القوى ﴾ قال الجوهري : المرّة إحدى الطبائع الأربع ، والمرّة : القوّة وشدّة العقل ، والفاء في قوله : ﴿ فاستوى ﴾ للعطف على علَّمه ، يعني جبريل ، أي : ارتفع وعاد إلى مكانه في السماء بعد أن علم محمداً صلى الله عليه وسلم ، قاله سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، وقيل : معنى استوى : قام في صورته التي خلقه الله عليها ؛ لأنه كان يأتي النبي في صورة الآدميين ، وقيل المعنى : فاستوى القرآن في صدره صلى الله عليه وسلم .

وقال الحسن : - فاستوى يعني : الله عزّ وجلّ - على العرش ﴿ وَهُوَ بالأفق الأعلى ﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال أي : فاستوى جبريل حال كونه بالأفق الأعلى ، والمراد بالأفق الأعلى : جانب المشرق ، وهو فوق جانب المغرب ، وقيل المعنى : فاستوى عالياً ، والأفق : ناحية السماء ، وجمعه آفاق ، قال قتادة ، ومجاهد : هو الموضع الذي تطلع منه الشمس ، وقيل : هو يعني جبريل ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم بالأفق الأعلى ليلة المعراج ، ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة .

﴿ ثُمَّ دَنَا فتدلى ﴾ أي : دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى ، أي : قرب من الأرض فتدلى ، فنزل على النبيّ بالوحي ، وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : ثم تدلى فدنى ، قاله ابن الأنباري ، وغيره .

قال الزجاج : معنى ﴿ دَنَا فتدلى ﴾ واحد ، أي : قرب وزاد في القرب ؛ كما تقول : فدنا مني فلان وقرب ، ولو قلت : قرب مني ودنا جاز .

قال الفراء : الفاء في فتدلى بمعنى الواو ، والتقدير : ثم تدلى جبريل ودنا ، ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحداً أن تقدّم أيهما شئت .

قال الجمهور : والذي دنا فتدلى هو جبريل ، وقيل : هو النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : دنا منه أمره وحكمه ، والأوّل أولى .

قيل : ومن قال : إن الذي استوى هو جبريل ومحمد ، فالمعنى عنده : ثم دنا محمد من ربه دنوّ كرامة ، فتدلى ، أي : هوى للسجود ، وبه قال الضحاك ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنى ﴾ أي : فكان مقدار ما بين جبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم ، أو ما بين محمد وربه قاب قوسين ، أي : قدر قوسين عربيين .

والقاب والقيب ، والقاد والقيد : المقدار ، ذكر معناه في الصحاح .

قال الزجاج : أي : فيما تقدّرون أنتم ، والله سبحانه عالم بمقادير الأشياء ، ولكنه يخاطبنا على ما جرت به عادة المخاطبة فيما بيننا .

وقيل : " أو " بمعنى الواو ، أي : وأدنى ، وقيل : بمعنى بل ، أي : بل أدنى .

وقال سعيد بن جبير ، وعطاء ، وأبو إسحاق الهمداني ، وأبو وائل شقيق بن سلمة ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ : قدر ذراعين ، والقوس : الذّراع يقاس بها كل شيء ، وهي لغة بعض الحجازيين ، وقيل : هي لغة أزد شنوءة .

وقال الكسائي : فكان قاب قوسين أراد قوساً واحدة .

﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ مَا أوحى ﴾ أي : فأوحى جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى ، وفيه تفخيم للوحي الذي أوحي إليه ، والوحي : إلقاء الشيء بسرعة ، ومنه الوحا وهو السرعة ، والضمير في ﴿ عبده ﴾ يرجع إلى الله ، كما في قوله : ﴿ مَا تَرَكَ

على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر : 45] وقيل المعنى : فأوحى الله إلى عبده جبريل ما أوحى ، وبالأوّل قال الربيع ، والحسن ، وابن زيد ، وقتادة .

وقيل : فأوحى الله إلى عبده محمد .

قيل : وقد أبهم الله سبحانه ما أوحاه جبريل إلى محمد ، أو ما أوحاه الله إلى عبده جبريل ، أو إلى محمد ولم يبينه لنا ، فليس لنا أن نتعرّض لتفسيره .

وقال سعيد بن جبير : الذي أوحى إليه هو ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح : 1] إلخ ، و ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ [الضحى : 6] إلخ .

وقيل : أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك .

(123/733)

وقيل : إن " ما " للعموم لا للإبهام ، والمراد : كل ما أوحى به إليه ، والحمل على الإبهام أولى لما فيه من التعظيم .

﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾ أي : ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه بصره ليلة المعراج ، يقال : كذبه : إذا قال له الكذب ، ولم يصدقه .

قال المبرد : معنى الآية : أنه رأى شيئاً فصدق فيه ، قرأ الجمهور : (ما كذب) مخففاً ، وقرأ هشام ، وأبو جعفر بالتشديد " وَمَا " في : ﴿ مَا رأى ﴾ موصولة أو مصدرية في محل نص ﴿ بكذب ﴾ مخففاً ومشدّداً ﴿ أفتمارونه على مَا يرى ﴾ .

قرأ الجمهور : ﴿ أفتمارونه ﴾ بالألف من المماراة ، وهي المجادلة والملاحاة ، وقرأ حمزة ، والكسائي : (أفتمرونه) بفتح التاء وسكون الميم ، أي : أفتجدونه ، واختار أبو عبيد القراءة الثانية .

قال : لأنهم لم يماروه ، وإنما جحدوه ، يقال : مراه حقه ، أي : جحده ، ومريته أنا : جحدته ، قال : ومنه قول الشاعر :

لأن هَجَوْتَ أَخَا صِدْق وَمَكْرُمَة . . . لَقَدْ مَرَيْتَ أخاً ما كان يَمْرِيكا

أي : جحدته .

قال المبرد : يقال : أمرأه عن حقه ، وعلى حقه : إذا منعه منه ودفعه .

وقيل : على بمعنى عن ، وقرأ ابن مسعود ، والشعبي ، ومجاهد ، والأعرج : (أفتمرونه) بضم التاء من أمريت ، أي : أتريبونه وتشكون فيه ، قال جماعة من المفسرين : المعنى على قراءة الجمهور : أفتجادلونه ، وذلك أنهم جادلوه حين أسري به ، فقالوا : صف لنا مسجد بيت المقدس ، أي : أفتجادلونه جدالاً ترومون به دفعه عما شاهده وعلمه ، واللام في قوله : ﴿ وَلَقَدْ رَءاهُ نَزْلَةً أُخرى ﴾ هي الموطئة للقسم ، أي : والله لقد رآه نزلة أخرى ، والنزلة

: المرة من النزول ، فانتصابها على الظرفية ، أو منتصبة على المصدر الواقع موقع الحال ، أي : رأى جبريل نازلاً نزلة أخرى ، أو على أنه صفة مصدر مؤكد محذوف ، أي : رآه رؤية أخرى .

(124/733)

قال جمهور المفسرين : المعنى أنه رأى محمد جبريل مرّة أخرى ، وقيل : رأى محمد ربه مرّة أخرى بفؤاده ﴿ عِندَ سِدْرَةِ المنتهى ﴾ الظرف منتصب ب ﴿ رآه ﴾ ، والسدر : هو شجر النبق ، وهذه السدرة هي في السماء السادسة ، كما في الصحيح ، وروي أنها في السماء السابعة ، والمنتهى : مكان الانتهاء ، أو هو مصدر ميمي ، والمراد به : الانتهاء نفسه ، قيل : إليها ينتهي علم الخلائق ، ولا يعلم أحد منهم ما وراءها ، وقيل : ينتهي إليها ما يعرج به في الأرض ، وقيل : تنتهي إليها أرواح الشهداء ، وقيل غير ذلك .

وإضافة الشجرة إلى المنتهى من إضافة الشيء إلى مكانه ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ المأوى ﴾ أي : عند تلك السدرة جنة تعرف بجنة المأوى ، وسميت جنة المأوى لأنه أوى إليها آدم ، وقيل : إن أرواح المؤمنين تأوي إليها .

قرأ الجمهور ﴿ جنة ﴾ برفع جنة على أنها مبتدأ ، وخبرها الظرف المتقدّم .

وقرأ عليّ ، وأبو الدرداء ، وأبو هريرة ، وابن الزبير ، وأنس ، وزر بن حبيش ، ومحمد بن كعب ، ومجاهد ، وأبو سبرة الجهني : (جنه) فعلاً ماضياً من جنّ يجن ، أي : ضمه المبيت ، أو سترة إيواء الله له ، قال الأخفش : أدركه ، كما تقول : جنه الليل أي : ستره وأدركه ، والجملة في محل نصب على الحال ﴿ إِذْ يغشى السدرة مَا يغشى ﴾ العامل في الظرف ﴿ رآه ﴾ أيضاً ، وهو ظرف زمان ، والذي قبله ظرف مكان ، والغشيان بمعنى : التغطية والستر ، وبمعنى الإتيان ، يقال : فلان يغشاني كل حين أي : يأتيني ، وفي الإبهام في قوله : ﴿ مَا يغشى ﴾ من التفخيم ما لا يخفى ، وقيل : يغشاها جراد من ذهب ، وقيل : طوائف من الملائكة .

وقال مجاهد : رفرف أخضر ، وقيل : رفرف من طيور خضر ، وقيل : غشيها أمر الله ، والمجيء بالمضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً للصورة البديعة ، أو للدلالة على الاستمرار التجددي .

(125/733)

﴿ مَا زَاغَ البصر ﴾ أي : ما مال بصر النبي صلى الله عليه وسلم عما رآه ﴿ وَمَا طغى ﴾ أي : ما جاوز ما رأى ، وفي هذا وصف أدب النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك المقام

، حيث لم يلتفت ، ولم يمل بصره ، ولم يمده إلى غير ما رأى ، وقيل : ما جاوز ما أمر به ﴿ لَقَدْ رأى مِنْ ءايات ربّهِ الكبرى ﴾ أي : والله لقد رأى تلك الليلة من آيات ربه العظام ما لا يحيط به الوصف ، قيل : رأى رفرفاً سدّ الأفق ، وقيل : رأى جبريل في حلة خضراء قد ملأ ما بين السماء والأرض له ستمائة جناح ، كذا في صحيح مسلم ، وغيره ، وقال الضحاك : رأى سدرة المنتهى ، وقيل : هو كل ما رآه تلك الليلة في مسراه وعوده ، و " من " للتبعيض ، ومفعول رأى : الكبرى ، ويجوز أن يكون المفعول محذوفاً ، أي : رأى شيئًا عظيماً من آيات ربه ، ويجوز أن تكون " من " زائدة .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى ﴾ لما قصّ الله سبحانه هذه الأقاصيص قال للمشركين ، موبخاً لهم ومقرّعاً ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ﴾ أي : أخبروني عن الآلهة التي تعبدونها من دون الله هل لها قدرة توصف بها ؟ وهل أوحت إليكم شيئًا ، كما أوحى الله إلى محمد ، أم هي جمادات لا تعقل ولا تنفع ؟ ثم ذكر هذه الأصنام الثلاثة التي اشتهرت في العرب ، وعظم اعتقادهم فيها .

قال الواحدي وغيره : وكانوا يشتقون لها أسماء من أسماء الله تعالى ، فقالوا : من الله اللات ، ومن العزيز العزّى ، وهي تأنيث الأعزّ بمعنى العزيزة ، ومناة من منى الله الشيء : إذا قدّره .

قرأ الجمهور ﴿ اللات ﴾ بتخفيف التاء ، فقيل : هو مأخوذ من اسم الله سبحانه كما

تقدّم ، وقيل : أصله : لات يليت ، فالتاء أصلية ، وقيل : هي زائدة ، وأصله لوى يلوي ؛ لأنهم كانوا يلوون أعناقهم إليها ، أو يلتون عليها ، ويطوفون بها .

(126/733)

واختلف القراء هل يوقف عليها بالتاء ، أو بالهاء ؟ فوقف عليها الجمهور بالتاء ، ووقف عليها الكسائي بالهاء ، واختار الزجاج ، والفراء الوقف بالتاء ؛ لاتباع رسم المصحف ، فإنها تكتب بالتاء ، وقرأ ابن عباس ، وابن الزبير ، ومجاهد ، ومنصور بن المعتمر ، وأبو الجوزاء ، وأبو صالح ، وحميد : (اللات) بتشديد التاء ، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير ، فقيل : هو اسم رجل كان يلتّ السويق ، ويطعمه الحاج ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه ، فهو اسم فاعل في الأصل غلب على هذا الرجل .

قال مجاهد : كان رجلاً في رأس جبل يتخذ من لبنها وسمنها حيساً ، ويطعم الحاج ، وكان ببطن نخلة فلما مات عبدوه .

وقال الكلبي : كان رجلاً من ثقيف له صرمة غنم ، وقيل : إنه عامر بن الظرب العدواني ، وكان هذا الصنم لثقيف ، وفيه يقول الشاعر :

لا تنْصُروا اللاتَ إنَّ اللهَ مُهْلِكُها . . . وكَيْفَ يَنْصُرُكُمْ مَنْ لَيْس يَنْتَصِرُ

قال في الصحاح: و ﴿ اللات ﴾ اسم صنم لثقيف، وكان بالطائف، وبعض العرب يقف عليها بالتاء، وبعضهم بالهاء ﴿ والعزى ﴾: صنم قريش، وبني كنانة.

قال مجاهد: هي شجرة كانت بغطفان، وكانوا يعبدونها، فبعث إليها النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد، فقطعها، وقيل: كانت شيطانة تأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة.

وقال سعيد بن جبير: العزى: حجر أبيض كانوا يعبدونه.

وقال قتادة: هي بيت كان ببطن نخلة ﴿ ومناة ﴾: صنم بني هلال.

وقال ابن هشام: صنم هذيل وخزاعة.

وقال قتادة: كانت للأنصار.

قرأ الجمهور ﴿ مناة ﴾ بألف من دون همزة، وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وحميد، ومجاهد، والسلمي بالمدّ والهمز.

فأما قراءة الجمهور، فاشتقاقها من منى يمنى، أي: صبّ؛ لأن دماء النسائك كانت تصب عندها يتقرّبون بذلك إليها.

(127/733)

وأما على القراءة الثانية ، فاشتقاقها من النوء ، وهو المطر ؛ لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء ، وقيل : هما لغتان للعرب ، ومما جاء على القراءة الأولى قول جرير :

أزيد مناة توعد يا بن تيم . . . تأمل أين تاه بك الوعيد

ومما جاء على القراءة الأخرى قول الحارثي :

ألا هَلْ أتى التَّيْم بن عبد مناءة . . . على السر فيما بيننا ابنُ تَمِيمِ

وقف جمهور القراء عليها بالتاء اتباعاً لرسم المصحف ، ووقف ابن كثير ، وابن محيصن عليها بالهاء .

قال في الصحاح : ومناة اسم صنم كان بين مكة والمدينة ، والهاء للتأنيث ، ويسكت عليها بالتاء ، وهي لغة .

قوله : ﴿ الثالثة الأخرى ﴾ هذا وصف لمناة ، وصفها بأنها ثالثة ، وبأنها أخرى ، والثالثة لا تكون إلاّ أخرى .

قال أبو البقاء : فالوصف بالأخرى للتأكيد ، وقد استشكل وصف الثالثة بالأخرى ، والعرب إنما تصف به الثانية ، فقال الخليل : إنما قال ذلك لوفاق رؤوس الآي كقوله : ﴿ مَآرِبُ أخرى ﴾ [طه : 18] وقال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : أفرأيتم اللات والعزّى الأخرى ومناة الثالثة .

وقيل : إن وصفها بالأخرى لقصد التعظيم ؛ لأنها كانت عند المشركين عظيمة ، وقيل : إن

ذلك للتحقير والذم ، وإن المراد المتأخرة الوضيعة ، كما في قوله : ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأولاهم ﴾ [الأعراف : 38] أي : وضعاؤهم لرؤسائهم .

ثم كرّر سبحانه توبيخهم وتقريعهم بمقالة شنعاء قالوها ، فقال : ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى ﴾ أي : كيف تجعلون لله ما تكرهون من الإناث ، وتجعلون لأنفسكم ما تحبون من الذكور ، قيل : وذلك قولهم : إن الملائكة بنات الله ، وقيل : المراد : كيف تجعلون اللات ، والعزّى ومناة ، وهي إناث في زعمكم ، شركاء لله ، ومن شأنهم أن يحتقروا الإناث .

(128/733)

ثم ذكر سبحانه أن هذه التسمية ، والقسمة المفهومة من الاستفهام قسمة جائرة ، فقال : ﴿ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ قرأ الجمهور ﴿ ضيزى ﴾ بياء ساكنة بغير همزة ، وقرأ ابن كثير بهمزة ساكنة ، والمعنى : أنها قسمة خارجة عن الصواب ، جائرة عن العدل ، مائلة عن الحق .

قال الأخفش : يقال : ضاز في الحكم ، أي : جار ، وضازه حقه يضيزه ضيزاً ، أي : نقصه وبخسه ، قال : وقد يهمز ، وأنشد :

فإن تَنْأَ عَنَّا نَنْتَقِصْكَ وإن تَغِبْ . . . فحقك مضئوز وأنفُكَ رَاغِمُ

وقال الكسائي : ضاز يضيز ضيزاً ، ء وضاز يضوز ضوزاً : إذا تعدى وظلم وبخس وانتقص ، ومنه قول الشاعر :

ضازَتْ بنو أَسدٍ بِحُكمِهِم . . . إِذْ يَجْعَلُون الرأسَ كالذَّنَبِ

قال الفراء : وبعض العرب يقول : " ضئزى " بالهمز ، وحكى أبو حاتم عن أبي زيد أنه سمع العرب تهمز ضيزى ، قال البغوي : ليس في كلام العرب فعلى بكسر الفاء في النعوت إنما تكون في الأسماء مثل ذكرى ، قال المؤرج : كرهوا ضم الضاد في ضيزى ، وخافوا انقلاب الياء واواً وهي من بنات الواو ، فكسروا الضاد لهذه العلة ، كما قالوا في جمع أبيض : بيض ، وكذا قال الزجاج : وقيل : هي مصدر كذكرى ، فيكون المعنى : قسمة ذات جور وظلم .

ثم ردّ سبحانه عليهم بقوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءآبَآؤُكُم ﴾ أي : ما الأوثان ، أو الأصنام باعتبار ما تدعونه من كونها آلهة إلاّ أسماء محضة ، ليس فيها شيء من معنى الألوهية التي تدعونها ؛ لأنها لا تبصر ولا تسمع ، ولا تعقل ولا تفهم ، ولا تضر ولا تنفع ، فليست إلاّ مجرّد أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، قلد الآخر فيها الأول .

(129/733)

وتبع في ذلك الأبناء الآباء ، وفي هذا من التحقير لشأنها ما لا يخفى ، كما تقول في تحقير رجل : ما هو إلاّ اسم إذا لم يكن مشتملاً على صفة معتبرة ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ [يوسف : 40] يقال : سميته زيداً وسميته بزيد ، فقوله : ﴿ سميتموها ﴾ صفة لأصنام ، والضمير يرجع إلى الأسماء لا إلى الأصنام ، أي : جعلتموها أسماء لا جعلتم لها أسماء .

وقيل : إن قوله : ﴿ هِيَ ﴾ راجع إلى الأسماء الثلاثة المذكورة ، والأوّل أولى ﴿ مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سلطان ﴾ أي : ما أنزل بها من حجة ولا برهان .

قال مقاتل : لم ينزل لنا كتاباً لكم فيه حجة ، كما تقولون : إنها آلهة ، ثم أخبر عنهم بقوله : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ أي : ما يتبعون فيما ذكر من التسمية ، والعمل بموجبها إلاَّ الظنّ الذي لا يغني من الحق شيئًا ، والتفت من الخطاب إلى الغيبة إعراضاً عنهم وتحقيراً لشأنهم ، فقال : ﴿ وَمَا تَهْوَى الأنفس ﴾ أي : تميل إليه ، وتشتهيه من غير التفات إلى ما هو الحق الذي يجب الاتباع له .

قرأ الجمهور ﴿ يتبعون ﴾ بالتحتية على الغيبة ، وقرأ عيسى بن عمر ، وأيوب ، وابن السميفع بالفوقية على الخطاب ، ورويت هذه القراءة عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وطلحة ، وابن وثاب ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُم مّن رَّبِّهِمُ الهدى ﴾ أي : البيان الواضح الظاهر بأنها ليست بآلهة ، والجملة في محل نصب على الحال من فاعل يتبعون ، ويجوز أن يكون

اعتراضاً ، والأوّل أولى .

والمعنى : كيف يتبعون ذلك ، والحال أن قد جاءهم ما فيه هدًى لهم من عند الله على لسان رسوله الذي بعثه الله بين ظهرانيهم ، وجعله من أنفسهم .

(130/733)

﴿ أَمْ للإنسان مَا تمنى ﴾ "أم" هي المنقطعة المقدرة ببل ، والهمزة التي للإنكار ، فأضرب عن اتباعهم الظنّ الذي هو مجرّد التوهم ، وعن اتباعهم هوى الأنفس ، وما تميل إليه ، وانتقل إلى إنكار أن يكون لهم ما يتمنون من كون الأصنام تنفعهم ، وتشفع لهم .

ثم علل انتفاء أن يكون للإنسان ما تمنى بقوله : ﴿ فَلِلَّهِ الآخرة والأولى ﴾ أي : أن أمور الآخرة والدنيا بأسرها لله عزّ وجلّ ، فليس لهم معه أمر من الأمور ، ومن جملة ذلك أمنياتهم الباطلة ، وأطماعهم الفارغة ، ثم أكد ذلك ، وزاد في إبطال ما يتمنونه ، فقال : ﴿ وَكَمْ مّن مَّلَكٍ فِى السموات لاَ تُغْنِى شفاعتهم شَيْئاً ﴾ وكم هنا هي الخبرية المفيدة للتكثير ، ومحلها الرفع على الابتداء ، والجملة بعدها خبرها ، ولما في ﴿ كم ﴾ من معنى التكثير ، جمع الضمير في شفاعتهم مع إفراد الملك ، والمعنى : التوبيخ لهم بما يتمنون ، ويطمعون فيه من شفاعة الأصنام مع كون الملائكة مع كثرة عبادتها ، وكرامتها على الله لا تشفع إلاّ لمن

أذن أن يشفع له ، فكيف بهذه الجمادات الفاقدة للعقل والفهم ، وهو معنى قوله : ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ الله ﴾ لهم بالشفاعة ﴿ لِمَن يَشَاء ﴾ أن يشفعوا له ﴿ ويرضى ﴾ بالشفاعة له لكونه من أهل التوحيد ، وليس للمشركين في ذلك حظّ ، ولا يأذن الله بالشفاعة لهم ولا يرضاها ؛ لكونهم ليسوا من المستحقين لها .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ والنجم إِذَا هوى ﴾ قال : إذا انصبّ .

وأخرج ابن المنذر عنه قال : هو الثريا إذا تدلت .

وأخرج عنه أيضاً قال : أقسم الله أن ما ضلّ محمد ، ولا غوى .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ قال : ذو خلق حسن .

(131/733)

وأخرج أحمد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير جبريل في صورته إلاّ مرّتين ، أما واحدة : فإنه سأله أن يراه في صورته فأراه صورته ، فسدّ الأفق ، وأما الثانية : فإنه كان معه حيث صعد ، فذلك قوله : ﴿ وَهُوَ بالافق الأعلى ﴾ .

﴿ لَقَدْ رأى مِنْ ءايات ربِّهِ الكبرى ﴾ قال : خلق جبريل .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " رأيت جبريل عند سدرة المنتهى له ستمائة جناح " ، وأخرجه أحمد عنه أيضاً .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وَهُوَ بالافق الاعلى ﴾ قال : مطلع الشمس .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن ابن مسعود في قوله : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنى ﴾ قال : رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم جبريل له ستمائة جناح .

وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي عنه في قوله : ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾ قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه حلة رفرف أخضر قد ملأ ما بين السماء والأرض .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا فتدلى ﴾ قال : هو محمد صلى الله عليه وسلم دنا فتدلى إلى ربه .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، عنه قال : دنا ربه فتدلى .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ قال : دنا جبريل منه حتى كان قدر ذراع أو ذراعين .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه ، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال : القاب : القيد ، والقوسين : الذراعين .

(132/733)

وأخرج ابن المنذر ، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : لما أسري بالنبيّ صلى الله عليه وسلم اقترب من ربه ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، ألم ترى إلى القوس ما أقربها من الوتر .

وأخرج النسائي ، وابن المنذر ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ مَا أوحى ﴾ قال : عبده محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج مسلم ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عنه في قوله : ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ رَءاهُ نَزْلَةً أُخرى ﴾ قال : رأى محمد ربه بقلبه مرّتين .

وأخرج نحوه عنه عبد بن حميد ، والترمذي وحسنه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : رأى محمد ربه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعينه .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه عنه قال : رأى محمد ربه مرّتين مرّة ببصره ، ومرّة بفؤاده .

وأخرج الترمذي وحسنه ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي عنه أيضاً قال : لقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ربه عزّ وجلّ .

وأخرج النسائي ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه أيضاً قال : أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم ، والكلام لموسى ، والرؤية لمحمد ؟ وقد روي نحو هذا عنه من طرق .

وأخرج مسلم ، والترمذي ، وابن مردويه عن أبي ذرّ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ قال : " نور أنى أراه ؟ " وأخرج مسلم ، وابن مردويه عنه : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ قال : " رأيت نوراً " وأخرج عبد بن حميد ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه بقلبه ، ولم يره ببصره .

وأخرج مسلم عن أبي هريرة في قوله : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخرى ﴾ قال : جبريل .

(133/733)

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، والترمذي ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي عن ابن مسعود قال : لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى إلى سدرة المنتهى ، وهي في السماء السادسة ينتهي ما يعرج من الأرواح ، فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها ، فيقبض منها ﴿ إِذْ يغشى السدرة مَا يغشى ﴾ قال : فراش من ذهب .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود قال : الجنة في السماء السابعة العليا ، والنار في الأرض السابعة السفلى .

وأخرج البخاري ، وغيره عن ابن عباس قال : كان اللات رجلاً يلتّ السويق للحاجّ .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه عنه أن العزى كانت ببطن نخلة ، وأن اللات كانت بالطائف ، وأن مناة كانت بقديد .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ ضيزى ﴾ قال : جائرة لا حقّ لها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 103 . 111 ﴾

(134/733)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ ﴾

لما بين الله أن أمور الدارين بيد الله تعالى وأن ليس للإنسان ما تمنّى ، ضَرب لذلك مِثالاً من الأماني التي هي أعظم أمانيّ المشركين وهي قولهم في الأصنام ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللَّه زلفى ﴾ [الزمر : 3] ، وقولهم : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند اللَّه ﴾ [يونس : 18] ، فبينّ إبطال قولهم بطريق فحوى الخطاب وهو أن الملائكة الذين لهم شرف المنزلة لأن الملائكة من سكان السماوات (فهم لا يستطيعون إنكار أنهم أشرف من الأصنام) لا يملكون الشفاعة إلا إذا أذن الله أن يشفع إذا شاء أن يقبل الشفاعة في المشفوع له ، فكيف يكون للمشركين ما تمنوا من شفاعة الأصنام للمشركين الذين يقولون ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند اللَّه ﴾ وهي حجارة في الأرض وليست ملائكة في السماوات ، فثبت أن لا شفاعة إلا لمن شاء الله ، وقد نفي الله شفاعة الأصنام فبطل اعتقاد المشركين أنهم شفعاؤهم ، فهذه مناسبة عطف هذه الجملة على جملة ﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ [النجم : 24] . وليس هذا الانتقال اقتضاباً لبيان عظم أمر الشفاعة .

و﴿ كم ﴾ اسم يدل على كثرة العدد وهو مبتدأ والخبر ﴿ لا تغني شفاعتهم ﴾ .

وقد تقدم الكلام على ﴿ كم ﴾ في قوله تعالى : ﴿ سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ﴾ في سورة البقرة (211) ، وقوله : ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ في الأعراف (4

) .

وفي ﴿ السموات ﴾ صفة ل ﴿ ملك ﴾ .

والمقصود منها بيان شرفهم بشرف العالم الذي هم أهله ، وهو عالم الفضائل ومنازل الأسرار .

وجملة ﴿ لا تغني شفاعتهم ﴾ الخ ، خبر عن ﴿ كم ﴾ ، أي لا تغني شفاعة أحدهم فهو عام لوقوع الفعل في سياق النفي ، ولإِضافة شفاعة إلى ضميرهم ، أي جميع الملائكة على كثرتهم وعلوّ مقدارهم لا تغني شفاعة واحد منهم .

(135/733)

و ﴿ شيئاً ﴾ مفعول مطلق للتعميم ، أي شيئاً من الإِغناء لزيادة التنصيص على عموم نفي إغناء شفاعتهم .

ولما كان ظاهر قوله : ﴿ لا تغني شفاعتهم ﴾ يوهم أنهم قد يشفعون فلا تقبل شفاعتهم ، وليس ذلك مراداً لأن المراد أنهم لا يجْرَأون على الشفاعة عند الله فلذلك عقب بالاستثناء بقوله : ﴿ إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ ، وذلك ما اقتضاه قوله : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] وقوله : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده

إلا بإذنه ﴾ [البقرة : 225] أي إلا من بعد أن يأذن الله لأحدهم في الشفاعة ويرضى بقبولها في المشفوع له .

فالمراد بـ ﴿ لمن يشاء ﴾ من يشاؤه الله منهم ، أي فإذا أذن لأحدهم قبلت شفاعته .

واللام في قوله : ﴿ لمن يشاء ﴾ هي اللام التي تدخل بعد مادة الشفاعة على المشفوع له فهي متعلقة بشفاعتهم على حد قوله تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ ، وليست اللامُ متعلقة بـ ﴿ يأذن الله ﴾ .

ومفعول ﴿ يأذن ﴾ محذوف دل عليه قوله : ﴿ لا تغني شفاعتهم ﴾ ، وتقديره : أن يأذنهم الله .

ويجوز أن تكون اللام لتعدية ﴿ يأذن ﴾ إذا أريد به معنى يستمع ، أي أن يُظهر لمن يشاء منهم أنه يقبل منه .

ومعنى ذلك أن الملائكة لا يزالون يتقربون بطلب إلحاق المؤمنين بالمراتب العليا كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ [غافر : 7] وقوله : ﴿ ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ [الشورى : 5] فإن الاستغفار دعاء والشفاعة توجه أَعلى ، فالملائكة يعلمون إذا أراد الله استجابة دعوتهم في بعض المؤمنين أذن لأحدهم أن يشفع له عند الله فيشفع فتقبل شفاعته ، فهذا تقريب كيفية الشفاعة .

ونظيره ما ورد في حديث شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم في موقف الحشر .

وعُطف ﴿ ويرضى ﴾ على ﴿ لمن يشاء ﴾ للإشارة إلى أن إذن الله بالشفاعة يجري على حسب إرادته إذا كان المشفوع له أهلاً لأن يُشفع له .

(136/733)

وفي هذا الإبهام تحريض للمؤمنين أن يجتهدوا في التعرض لرضَى الله عنهم ليكونوا أهلاً للعفو عما فرطوا فيه من الأعمال .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (27)

اعتراض واستطراد لمناسبة ذكر الملائكة وتبعاً لما ذكر آنفاً من جعل المشركين اللاّت والعُزى ومناة بناتٍ لله بقوله : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى إلى قوله : ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ [النجم : 19 21] ثُنّيَ إليهم عنان الرد والإبطال لزعمهم أن الملائكة بنات الله جمعاً بين ردّ باطلين متشابهين ، وكان مقتضى الظاهر أن يعبر عن المردود عليهم بضمير الغيبة تبعاً لقوله : ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ [النجم : 28] ، فعدل عن الإضمار إلى الإظهار بالموصولية لما تؤذن به الصلة من التوبيخ لهم والتحقير لعقائدهم إذ كفروا بالآخرة وقد تواتر إثباتها على ألسنة الرسل وعند أهل الأديان المجاورين لهم من اليهود والنصارى والصابئة ، فالموصولية هنا مستعملة في التحقير والتهكم نظير حكاية الله عنهم : ﴿ وقالوا يا أيها الذي

نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ [الحجر : 6] إلا أن التهكم المحكي هنالك تهكم المبطل بالمحق لأنهم لا يعتقدون وقوع الصلة ، وأما التهكم هنا فهو تهكم المحق بالمبطل لأن مضمون الصلة ثابت لهم .

والتسمية مطلقة هنا على التوصيف لأن الاسم قد يطلق على اللفظ الدال على المعنى وقد يطلق على المدلول المسمى ذاتاً كان أو معنى كقول لبيد :

إلى الحول ثم اسمُ السلام عليكما

أي السُلام عليكما ، وقوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] وقوله تعالى : ﴿ عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ﴾ [الإنسان : 18] أي توصف بهذا الوصف في حسن مآبها ، وقوله تعالى : ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ [مريم : 65] ، أي ليس لله مثيل .

وقد مرّ بيانه مستوفى عند تفسير ﴿ بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴾ في أول الفاتحة (1) .

(137/733)

والمعنى : أنهم يزعمون الملائكة إناثاً وذلك توصيف قال تعالى : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ [الزخرف : 19] ، وكانوا يقولون الملائكة بنات الله من سروات الجن قال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ [الأنبياء :

26] وقال : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ [الصافات : 158] .

والتعريف في ﴿ الأنثى ﴾ تعريف الجنس الذي هو في معنى المتعدد والذي دعا إلى هذا النظم مراعاةُ الفواصل ليقع لفظ ﴿ الأنثى ﴾ فاصلة كما وقع لفظ ﴿ الأولى ﴾ ولفظ ﴿ يرضَى ﴾ ولفظ ﴿ شيئاً ﴾ .

وجملة ﴿ وما لهم به من علم ﴾ حال من ضمير ﴿ يسمون ﴾ ، أي يثبتون للملائكة صفات الإِناث في حال انتفاء علم منهم بذلك وإنما هو تخيل وتوهم إذ العلم لا يكون إلا عن دليل لهم فنفي العلم مراد به نفيه ونفي الدليل على طريقة الكناية .

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنَّ الظن لاَ يُغْنِى مِنَ الحق شَيْئًا ﴾ .

موقع هذه الجملة ذو شعب : فإن فيها بياناً لجملة ﴿ وما لهم به من علم ﴾ وعوداً إلى جملة ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ ، وتأكيداً لمضمونها وتوطئة لتفريع ﴿ فأعرض عن مَّن تولى عن ذكرنا ﴾

[النجم : 29] .

واستعير الاتّباع للأخذ بالشيء واعتقاد مقتضاه أي ما يأخذون في ذلك إلا بدليل الظن المخطىء .

وأطلق الظن على الاعتقاد المخطىء كما هو غالب إطلاقه مع قرينة قوله عقبه ﴿ وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ وتقدم نظيره آنفاً .

وأظهر لفظ ﴿ الظن ﴾ دون ضميره لتكون الجملة مستقلة بنفسها فتسير مسير الأمثال .

ونفي الإِغناء معناه نفي الإِفادة ، أي لا يفيد شيئاً من الحق فحرف ﴿ مِن ﴾ بيان وهو مقدم على المبينّ أعني شيئاً .

و ﴿ شيئاً ﴾ منصوب على المفعول به ل ﴿ يغني ﴾ .

(138/733)

والمعنى : أن الحق حقائق الأشياء على ما هي عليه وإدراكها هو العلم (المعرف بأنه تصور المعلوم على ما هو عليه) والظن لا يفيد ذلك الإِدراك بذاته فلو صادف الحق فذلك على وجه الصدفة والاتفاق ، وخاصة الظن المخطىء كما هنا .

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29)

بعد أن وصف مداركهم الباطلة وضلالهم فرّع عليه أمرَ نبيه صلى الله عليه وسلم بالإِعراض عنهم ذلك لأن ما تقدم من وصف ضلالهم كان نتيجة إعراضهم عن ذكر الله وهو التولّي عن الذكر فحق أن يكون جزاؤهم عن ذلك الإِعراض إعراضاً عنهم فإن الإِعراض والتولي مترادفان أو متقاربان فالمراد بـ ﴿ من تولى ﴾ الفريق الذين أعرضوا عن القرآن وهم المخاطبون آنفاً بقوله : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ [النجم : 2]

وقوله : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ [النجم : 19] والمخبر عنهم بقوله : ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ [النجم : 28] الخ وقوله : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ [النجم : 27] الخ .

والإِعراض والتولي كلاهما مستعمل هنا في مجازه ؛ فأما الإِعراض فهو مستعار لترك المجادلة أو لترك الاهتمام بسلامتهم من العذاب وغضب الله ، وأما التولي فهو مستعار لعدم الاستماع أو لعدم الامتثال .

وحقيقة الإِعراض : لفت الوجه عن الشيء لأنه مشتق من العارض وهو صفحة الخد لأن الكاره لشيء يصرف عنه وجهه .

(139/733)

وحقيقة التولي : الإِدبار والإِنصراف ، وإعراض النبي صلى الله عليه وسلم عنهم المأمور به مراد به عدم الاهتمام بنجاتهم لأنهم لم يقبلوا الإِرشاد وإلا فإن النبي صلى الله عليه وسلم مأمور بإدامة دعوتهم للإِيمان فكما كان يدعوهم قبل نزول هذه الآية فقد دعاهم غير مرة بعد نزولها ، على أن الدعوة لا تختص بهم فإنها ينتفع بها المؤمنون ، ومن لم يسبق منه إعراض من المشركين فإنهم يسمعون ما أنذر به المعرضون ويتأملون فيما تصفهم به آيات

القرآن ، وبهذا تعلم أن لا علاقة لهذه الآية وأمثالها بالمتاركة ولا هي منسوخة بآيات القتال .

وقد تقدم الكلام على ذلك في قوله : ﴿ فأعرض عنهم وعظهم ﴾ في سورة النساء (63) وقوله : ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ في سورة الأنعام (106) ، فضُم إليه ما هنا .

وما صدق ﴿ من تولى ﴾ القوم الذين تولوا وإنما جرى الفعل على صيغة المفرد مراعاة للفظ ﴿ مَن ﴾ ألا ترى قوله : ﴿ ذلك مبلغهم ﴾ بضمير الجمع .

وجيء بالاسم الظاهر في مقام الإِضمار فقيل ﴿ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ﴾ دون : فأعرض عنهم لما تؤذن به صلة الموصول من علة الأمر بالإِعراض عنهم ومن ترتب توليهم عن ذكر الله على ما سبق وصفه من ضلالهم إذ لم يتقدم وصفهم بالتولّي عن الذكر وإنما تقدم وصف أسبابه .

والذكر المضاف إلى ضمير الجلالة هو القرآن .

ومعنى ﴿ ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ كناية عن عدم الإِيمان بالحياة الآخرة كما دل عليه قوله : ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ لأنهم لو آمنوا بها على حقيقتها لأرادُوها ولو ببعض أعمالهم .

وجملة ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ اعتراض وهو استئناف بياني بيِّن به سبب جهلهم بوجود الحياة الآخرة لأنه لغرابته مما يسأل عنه السائل وفيه تحقير لهم وازدراء بهم بقصور

معلوماتهم .

وهذا الاستئناف وقع معترضاً بين الجمل وعلتها في قوله : ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ﴾ الآية .

وأعني حاصل قوله : ﴿ ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ .

(140/733)

وقوله : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى المذكور في الكلام السابق من قوله : ﴿ ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ استعير للشيء الذي لم يعلموه اسم الحد الذي يبلغ إليه السائر فلا يعلم ما بعده من البلاد .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ .

تعليل لجملة ﴿ فأعرض عن من تولى ﴾ وهو تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم والخبر مستعمل في معنى أنه متولي حسابهم وجزائهم على طريقة الكناية ، وفيه وعيد للضالّين .

والتوكيد المفاد بـ ﴿ إنَّ ﴾ وبضمير الفصل راجع إلى المعنى الكنائي ، وأما كونه تعالى أعلم بذلك فلا مقتضى لتأكيدها لما كان المخاطب به النبي صلى الله عليه وسلم والمعنى : هو أعلم منك بحالهم .

وضمير الفصل مفيد القصر وهو قصر حقيقي .

والمعنى : أنت لا تعلم دخائلهم فلا تتحسر عليهم .

وجملة ﴿ وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ تتميم ، وفيه وعد للمؤمنين وبشارة للنبي صلى الله عليه وسلم والباء في بـ ﴿ من ضل ﴾ وفي بـ ﴿ من اهتدى ﴾ لتعدية صفتي ﴿ أعلم ﴾ وهي للملابسة ، أي هو أشد علماً ملابساً لمن ضل عن سبيله ، أي ملابساً لحال ضلاله ، وتقديم ذكر ﴿ من ضل ﴾ على ذكر ﴿ من اهتدى ﴾ لأن الضالّين أهمّ في هذا المقام ، وأما ذكر المهتدين فتتميمِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(141/733)

قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (31) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا ربما أوهم أن من ضل على هذه الحالة ليس في قبضه ، قال نافعاً لهذا الإبهام مبيناً أن له الأسماء الحسنى ومقتضياتها في العالم موضع " والحال أنه له " أو عطفاً على ما تقديره : فللّه من في السماوات ومن في الأرض : ﴿ ولله ﴾ أي الملك الأعظم وحده ﴿ ما في السماوات ﴾ من الذوات والمعاني فيشمل ذلك السماوات والأراضي ، فإن كل سماء في التي تليها ، والأرض في السماء ﴿ وما في الأرض ﴾ وكذلك الأراضي والكل في العرش وهو ذو العرش العظيم .

(142/733)

ولما أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإعراض عنهم وسلاه وأعلمه أن الكل في ملكه ، فلو شاء لهداهم ورفع النزاع ، ولكنه له في ذلك حكم تحار فيها الأفكار ، علل الإعراض كما تقدم في الجاثية في قوله : ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا ﴾ [الجاثية : 14] بقوله :

﴿ ليجزي ﴾ أي يعاقب هو سبحانه كافياً لك ما أهمك من ذلك ، ويجوز أن يكون التقدير : وكما أنه سبحانه مالك ذلك فهو ملكه ليحكم بجزاء كل على حسب ما يستحق ، فإن الحكم نتيجة الملك ﴿ الذين أساؤوا ﴾ بالضلال ﴿ بما عملوا ﴾ أي بسببه وبحسبه إما بواسطتك وبسيوفك وسيوف أتباعك إذا أذنت لكم في القتال ، وإما بغير ذلك بالموت

حتف الأنف بضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم ، ثم بعذاب الآخرة على جميع ذنوبهم من غير أن يكون عجل لهم في الدنيا شيء ينقص بسببه عذاب الآخرة ﴿ ويجزي ﴾ أي يثبت ويكرم ﴿ الذين أحسنوا ﴾ أي على ثباتهم على الدين وصبرهم عليه وعلى أذى أعدائهم ﴿ بالحسنى ﴾ أي الثبوت الذي هو في غاية الحسن ما بعدها غاية ، فإن الحسنى تأنيث الأحسن .

ولما وعد الذين وقع منهم الإحسان ، وصفهم فقال : ﴿ الذين يجتنبون ﴾ أي يكلفون أنفسهم ويجهدونها على أن يتركوا ﴿ كبائر الإثم ﴾ أي ما عظم الشارع إثمه بعد تحريمه بالوعيد والحد ، وعطف على ﴿ كبائر الإثم ﴾ قوله : ﴿ والفواحش ﴾ والفاحشة من الكبائر ما يكرهه الطبع وينكره العقل ويستخسّه .

(143/733)

ولما أفهم هذا التقييد أن من خالط ما دون كان مغفوراً له ، صرح به فقال : ﴿ إلا ﴾ أي لكن ﴿ اللمم ﴾ معفو ، فمن خالطه لا يخرج عن عداد من أحسن ، فهو استثناء منقطع ، ولعله وضع فيه ﴿ إلا ﴾ موضع ﴿ لكن ﴾ إشارة إلى الصغير يمكن أن يكون كبيراً باستهانته مثلاً كما قال تعالى ﴿ وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾ [النور : 15]

واللمم هو صغار الذنوب ، والمراد هنا ما يحصل منها في الأحيان كأنه وقع في صحابه فلتة بغير اختيار منه ، لا ما يتخذ عادة أو يكثر حتى يصير كالعادة ، قال الرازي في اللوامع : وأصله مقاربة الذنب ثم الامتناع منه قبل الفعل ، قال ذو النون : ذكر الفاحشة من العارف كفعلها من غيره – انتهى .

يقال : وألم بالمكان – إذا قل لبثه فيه ، وقال البغوي : قال السدي : قال أبو صالح أنه سئل عن اللمم فقال : هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاوده ، قال : فذكرت ذلك لابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فقال : لقد أعانك عليها ملك كريم ، ثم قال البغوي : فأصل الملم والإلمام ما يعمله الإنسان الحين بعد الحين ، ولا يكون له إعادة ولا إقامة عليه – انتهى – وعلى هذا يصح أن يكون الاستثناء متصلاً .

ولما كان الملوك لا يغفرون لمن تكررت ذنوبه إليهم وإن صغرت ، فكان السامع يستعظم أن يغفر ملك الملوك سبحانه مثل هذا ، علل ذلك بقوله : ﴿ إن ربك ﴾ أي المحسن إليك بإرسالك رحمة للعالمين والتخفيف عن أمتك ﴿ واسع المغفرة ﴾ فهو يغفر الصغائر حقاً أوجبه على نفسه ويغفر الكبائر إن شاء بخلاف غيره من الملوك فإنه لو أراد ذلك ما أمكنه اتباعه ، ولو جاهد حتى تمكن من ذلك في وقت فسدت مملكته فأدى ذلك إلى زوال الملك من يده أو اختلاله .

ولما وصف الذين أحسنوا فكان ربما وقع في وهم أنه لا يعلمهم سبحانه إلا بأفعالهم ، وربما قطع من عمل بمضمون الآية أنه ممن أحسن ، قال نافياً لذلك : ﴿ هو أعلم بكم ﴾ أي بذواتكم وأحوالكم منك بأنفسكم ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ أنشاكم ﴾ ابتداء ﴿ من الأرض ﴾ التي طبعها طبع الموت : البرد واليبس بإنشاء أبيكم آدم عليه السلام منها وتهيئتكم للتكوين بعد أن لم يكن فيكم تقوية قريبة ولا بعيدة أصلاً يميز الثواب الذي يصلح لتكونكم منه والذي لا يصلح ﴿ وإذ ﴾ أي حين ﴿ أنتم أجنة ﴾ أي مستورون .

ولما كان البشر قد يكون في بطن الأرض وإن كان الجنين معروفاً للطفل في البطن ، حقق معناه بقوله : ﴿ في بطون أمهاتكم ﴾ بعد أن مزج بذلك التراب البارد اليابس الماء والهواء ، فنشأت الحرارة والرطوبة ، فكانت هذه الأربعة الأخلاط الزكية والدنية ، ولكن لا علم لكم أصلاً ، فهو يعلم إذ ذاك ما أنتم صائرون إليه من خير وشر وإن عملتم مدة من العمر بخلاف ذلك فإنه يعلم ما جبلكم عليه من ذلك وأنتم لا تعلمون إلا ما يكون في أنفسكم حال كونه أنكم لا تحيطون به إذ ذاك علماً .

(145/733)

ولما كان من عادة من سلم من الذنوب أن يفتخر على من قارفها لما بني الإنسان عليه من محبة الفخر لما جبل عليه من النقصان ، وكان حاله قد يتبدل فيسبق عليه الكتاب فيشقى ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ فلا تزكوا ﴾ أي تمدحوا بالزكاة وهو البركة والطهارة عن الدناءة ﴿ أنفسكم ﴾ أي حقيقة بان يثني على نفسه فإن تزكيته لنفسه من علامات كونه محجوباً عن الله – قال القشيري – أو مجازاً بأن يثني على غيره من إخوانه فإنه كثيراً ما يثني بشيء فيظهر خلافه ، وربما حصل له الأذى بسببه " وإن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع " الحديث ، ولذلك علل بقوله : ﴿ هو أعلم ﴾ أي منكم ومن جميع الخلق ﴿ بمن اتقى ﴾ أي جاهد نفسه حتى حصل فيه تقوى ، فهو يوصله فوق ما يؤمل من الثواب في الدارين ، فكيف بمن صارت له التقوى وصفاً ثابتاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 327 . 329 ﴾

(146/733)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

إشارة إلى كمال غناه وقدرته ليذكر بعد ذلك ويقول : إن ربك هو أعلم من الغني القادر لأن من علم ولم يقدر لا يتحقق منه الجزاء فقال : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(147/733)

قال الزمخشري : ما يدل على أنه يعتقد أن اللام في قوله : ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ كاللام في قوله تعالى : ﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا ﴾ [النحل : 8] وهو جرى في ذلك على مذهبه فقال : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ معناه خلق ما فيهما لغرض الجزاء وهو لا يتحاشى مما ذكره لما عرف من مذهب الاعتزال ، وقال الواحدي : اللام للعاقبة كما في قوله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً ﴾ [القصص : 8] أي أخذوه وعاقبته أنه يكون لهم عدواً ، والتحقيق فيه وهو أن حتى ولام الغرض متقاربان في المعنى ، لأن الغرض نهاية الفعل ، وحتى للغاية المطلقة فبينهما مقاربة فيستعمل أحدهما مكان الآخر ، يقال : سرت حتى أدخلها ولكي أدخلها ، فلام العاقبة هي التي تستعمل في موضع حتى للغاية ، ويمكن أن يقال : هنا وجه أقرب من الوجهين وإن كان أخفى منهما وهو أن يقال : إن قوله : ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾

متعلق بقوله : ضل واهتدى لا بالعلم ولا بخلق ما في السموات ، تقديره كأنه قال : هو أعلم بمن ضل واهتدى : ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ أن من ضل واهتدى يجزي الجزاء ، والله أعلم به ، فيصير قوله : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ كلاماً معترضاً ، ويحتمل أن يقال : هو متعلق بقوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضَ ﴾ [النجم : 29] أي أعرض عنهم ليقع الجزاء ، كما يقول المريد فعلاً لمن يمنعه منه زرني لأفعله ، وذلك لأن ما دام النبي صلى الله عليه وسلم لم ييأس ما كان العذاب ينزل والإعراض وقت اليأس ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَجْزِي الذين أَحْسَنُواْ بالحسنى ﴾ حينئذ يكون مذكوراً ليعلم أن العذاب الذي عند إعراضه يتحقق ليس مثل الذي قال تعالى فيه : ﴿ واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال : 25] بل هو مختص بالذين ظلموا وغيرهم لهم الحسنى ، وقوله تعالى في حق المسيء ﴿ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ وفي حق المحسن ﴿ بالحسنى ﴾ فيه لطيفة لأن جزاء المسيء عذاب فنبه على ما

(148/733)

يدفع الظلم فقال : لا يعذب إلا عن ذنب ، وأما في الحسنى فلم يقل : بما عملوا لأن الثواب إن كان لا على حسنة يكون في غاية الفضل فلا يخل بالمعنى هذا إذا قلنا الحسنى هي المثوبة

بالحسنى ، وأما إذا قلنا الأعمال الحسنى ففيه لطيفة غير ذلك ، وهي أن أعمالهم لم يذكر فيها التساوي ، وقال في أعمال المحسنين ﴿ الحسنى ﴾ إشارة إلى الكرم والصفح حيث ذكر أحسن الإسمين والحسنى صفة أقيمت مقام الموصوف كأنه تعالى قال بالأعمال الحسنى كقوله تعالى : ﴿ الأسماء الحسنى ﴾ [الأعراف : 180] وحينئذ هو كقوله تعالى : ﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت : 7] أي يأخذ أحسن أعمالهم ويجعل ثواب كل ما وجد منهم لجزاء ذلك الأحسن أو هي صفة المثوبة ، كأنه قال : ويجزي الذين أحسنوا بالمثوبة الحسنى أو بالعاقبة الحسنى أي جزاؤهم حسن العاقبة وهذا جزاء فحسب ، وأما الزيادة التي هي الفضل بعد الفضل فغير داخلة فيه .

الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ

(149/733)

ثم قال تعالى : ﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ كبائر الإثم والفواحش إِلاَّ اللمم ﴾ (الذين) يحتمل أن يكون بدلاً عن الذين أحسنوا وهو الظاهر ، وكأنه تعالى قال ليجزي الذين أساءوا ويجزي الذين أحسنوا ، ويتبين به أن المحسن ليس ينفع الله بإحسانه شيئاً وهو الذي لا يسيء ولا

يرتكب القبيح الذي هو سيئة في نفسه عند ربه فالذين أحسنوا هم الذين اجتنبوا ولهم الحسنى ، وبهذا يتبين المسيء والمحسن لأن من لا يجتنب كبائر الإثم يكون مسيئاً والذي يجتنبها يكون محسناً ، وعلى هذا ففيه لطيفة وهو أن المحسن لما كان هو من يجتنب الآثام فالذي يأتي بالنوافل يكون فوق المحسن ، لكن الله تعالى وعد المحسن بالزيادة فالذي فوقه يكون له زيادات فوقها وهم الذين لهم جزاء الضعف ، ويحتمل أن يكون ابتداء كلام تقديره الذين يجتنبون كبائر الإثم يغفر الله لهم والذي يدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ واسع المغفرة ﴾ وعلى هذا تكون هذه الآية مع ما قبلها مبينة لحال المسيء والمحسن وحال من لم يحسن ولم يسيء وهم الذين لم يرتكبوا سيئة وإن لم تصدر منهم الحسنات ، وهم كالصبيان الذين لم يوجد فيهم شرائط التكليف ولهم الغفران وهو دون الحسنى ، ويظهر هذا بقوله تعالى بعده : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ أي يعلم الحالة التي لا إحسان فيها ولا إساءة ، كما علم من أساء وضل ومن أحسن واهتدى ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

إذا كان بدلاً عن الذين أحسنوا فلم خالف ما بعده بالمضي والاستقبال حيث قال تعالى : ﴿ الذين أَحْسَنُواْ ﴾ [النجم : 31] وقال : ﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ ﴾ ولم يقل اجتنبوا ؟ نقول : هو كما يقول القائل الذين سألوني أعطيتهم ، الذين يترددون إلى سائلين أي الذين عادتهم التردد والسؤال سألوني وأعطيتهم فكذلك ههنا قال : ﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ ﴾ أي الذين عادتهم ودأبهم الاجتناب لا الذين اجتنبوا مرة وقدموا عليها أخرى ، فإن قيل : في كثير من المواضع قال في الكبائر ﴿ والذين يَجْتَنِبُونَ كبائر الإثم والفواحش وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى : 37] وقال في عباد الطاغوت : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُواْ إِلَى الله ﴾ [الزمر : 17] فما الفرق ؟ نقول : عبادة الطاغوت راجعة إلى الاعتقاد والاعتقاد إذا وجد دام ظاهراً فمن اجتنبها اعتقد بطلانها فيستمر ، وأما مثل الشرب والزنا أمر يختلف أحوال الناس فيه فيتركه زماناً ويعود إليه ولهذا يستبرأ الفاسق إذا تاب ولا يستبرأ الكافر إذا أسلم ، فقال في الآثام : ﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ ﴾ دائماً ، ويثابرون على الترك أبداً ، وفي عبادة الأصنام : ﴿ اجتنبوا ﴾ بصيغة الماضي ليكون أدل على الحصول ، ولأن كبائر الإثم لها عدد أنواع فينبغي أن يجتنب عن نوع ويجتنب عن آخر ويجتنب عن ثالث ففيه تكرر وتجدد فاستعمل فيه صيغة الاستقبال ، وعبادة الصنم أمر واحد متحد ، فترك فيه ذلك الاستعمال وأتى بصيغة الماضي الدالة على وقوع الاجتناب

لها دفعة .

المسألة الثانية :

(151/733)

الكبائر جمع كبيرة وهي صفة فما الموصوف ؟ نقول : هي صفة الفعلة كأنه يقول : الفعلات الكبائر من الإثم ، فإن قيل : فما بال اختصاص الكبيرة بالذنوب في الاستعمال ، ولو قال قائل : الفعلة الكبيرة الحسنة لا يمنعه مانع ؟ نقول : الحسنة لا تكون كبيرة لأنها إذا قوبلت بما يجب أن يوجد من العبد في مقابلة نعم الله تعالى تكون في غاية الصغر ، ولولا أن الله يقبلها لكانت هباء لكن السيئة من العبد الذي أنعم الله عليه بأنواع النعم كبيرة ، ولولا فضل الله لكان الاشتغال بالأكل والشرب والإعراض عن عبادته سيئة ، ولكن الله غفر بعض السيئات وخفف بعضها .

المسألة الثالثة :

إذا ذكر الكبائر فما الفواحش بعدها ؟ نقول : الكبائر إشارة إلى ما فيها من مقدار السيئة ، والفواحش إشارة إلى ما فيها من وصف القبح كأنه قال : عظيمة المقادير قبيحة الصور ، والفاحش في اللغة مختص بالقبيح الخارج قبحه عن حد الخفاء وتركيب الحروف في

التقاليب يدل عليه فإنك إذا قلبتها وقلت : حشف كان فيه معنى الرداءة الخارجة عن الحد ، ويقال : فشحت الناقة إذا وقفت على هيئة مخصوصة للبول فالفحش يلازمه القبح ، ولهذا لم يقل : الفواحش من الإثم وقال في الكبائر : ﴿كبائر الإثم﴾ لأن الكبائر إن لم يميزها بالإضافة إلى الإثم لما حصل المقصود بخلاف الفواحش .

المسألة الرابعة :

(152/733)

كثرت الأقاويل في الكبائر والفواحش ، فقيل : الكبائر ما أوعد الله عليه بالنار صريحاً وظاهراً ، والفواحش ما أوجب عليه حداً في الدنيا ، وقيل : الكبائر ما يكفر مستحله ، وقيل : الكبائر ما لا يغفر الله لفاعله إلا بعد التوبة وهو على مذهب المعتزلة ، وكل هذه التعريفات تعريف الشيء بما هو مثله في الخفاء أو فوقه ، وقد ذكرنا أن الكبائر هي التي مقدارها عظيم ، والفواحش هي التي قبحها واضح فالكبيرة صفة عائدة إلى المقدار ، والفاحشة صفة عائدة إلى الكيفية ، كما يقال مثلاً : في الأبرص علته بياض لطخة كبيرة ظاهرة اللون فالكبيرة لبيان الكمية والظهور لبيان الكيفية وعلى هذا فنقول على ما قلنا : إن الأصل في كل معصية أن تكون كبيرة ، لأن نعم الله كثيرة ومخالفة المنعم سيئة عظيمة ،

غير أن الله تعالى حط عن عباده الخطأ والنسيان لأنهما لا يدلان على ترك التعظيم ، إما لعمومه في العباد أو لكثرة وجوده منهم كالكذبة والغيبة مرة أو مرتين والنظرة والقبائح التي فيها شبهة ، فإن المجتنب عنها قليل في جميع الأعصار ، ولهذا قال أصحابنا : إن استماع الغناء الذي مع الأوتار يفسق به ، وإن استمعه من أهل بلدة لا يعتدون أمر ذلك لا يفسق فعادت الصغيرة إلى ما ذكرنا من أن العقلاء إن لم يعدوه تاركاً للتعظيم لا يكون مرتكباً للكبيرة ، وعلى هذا تختلف الأمور باختلاف الأوقات والأشخاص فالعالم المتقي إذا كان يتبع النساء أو يكثر من اللعب يكون مرتكباً للكبيرة ، والدلال والباعة والمتفرغ الذي لا شغل له لا يكون كذلك ، وكذلك اللعب وقت الصلاة ، واللعب في غير ذلك الوقت ، وعلى هذا كل ذنب كبيرة إلا ما علم المكلف أو ظن خروجه بفضل الله وعفوه عن الكبائر .

المسألة الخامسة :

(153/733)

في اللمم وفيه أقوال : أحدها : ما يقصده المؤمن ولا يحققه وهو على هذا القول من لم يلم إذا جمع فكأنه جمع عزمه وأجمع عليه وثانيها : ما يأتي به المؤمن ويندم في الحال وهو من اللمم الذي هو مس من الجنون كأنه مسه وفارقه ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ والذين إِذَا فَعَلُواْ

فاحشة أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللهَ فاستغفروا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : 135] ثالثها : اللمم الصغير من الذنب من ألم إذا نزل نزولاً من غير لبث طويل ، ويقال : ألم بالطعام إذا قلل من أكله ، وعلى هذا فقوله : ﴿ إِلاَّ اللمم ﴾ يحتمل وجوهاً : أحدها : أن يكون ذلك استثناء من الفواحش وحينئذ فيه وجهان : أحدهما : استثناء منقطع لأن اللمم ليس من الفواحش وثانيهما : غير منقطع لما بينا أن كل معصية إذا نظرت إلى جانب الله تعالى وما يجب أن يكون عليه فهي كبيرة وفاحشة ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فاحشة ﴾ [الأعراف : 28] غير أن الله تعالى استثنى منها أموراً يقال : الفواحش كل معصية إلا ما استثناه الله تعالى منها ووعدنا بالعفو عنه ثانيها : ﴿ إِلا ﴾ بمعنى غير وتقديره والفواحش غير اللمم وهذا للوصف إن كان للتمييز كما يقال : الرجال غير أولي الإربة فاللمم عين الفاحشة ، وإن كان لغيره كما يقال الرجال غير النساء جاؤوني لتأكيد وبيان فلا وثالثها : هو استثناء من الفعل الذي يدل عليه قوله تعالى : ﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ ﴾ لأن ذلك يدل على أنهم لا يقربونه فكأنه قال : لا يقربونه إلا مقاربة من غير مواقعة وهو اللمم .

(154/733)

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ واسع المغفرة ﴾ وذلك على قولنا : ﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ ﴾ ابتداء الكلام في غاية الظهور ، لأن المحسن مجزى وذنبه مغفور ، ومجتنب الكبائر كذلك ذنبه الصغير مغفور ، والمقدم على الكبائر إذا تاب مغفور الذنب ، فلم يبق ممن لم تصل إليهم مغفرة إلا الذين أساؤا وأصروا عليها ، فالمغفرة واسعة وفيه معنى آخر لطيف ، وهو أنه تعالى لما أخرج المسيء عن المغفرة بين أن ذلك ليس لضيق فيها ، بل ذلك بمشيئة الله تعالى ، ولو أراد الله مغفرة كل من أحسن وأساء لفعل ، وما كان يضيق عنهم مغفرته ، والمغفرة من الستر ، وهو لا يكون إلا على قبيح ، وكل من خلقه الله إذا نظرت في فعله ، ونسبته إلى نعم الله تجده مقصراً مسيئاً ، فإن من جازى المنعم بنعم لا تحصى مع استغنائه الظاهر ، وعظمته الواضحة بدرهم أو أقل منه يحتاج إلى ستر ما فعله .

(155/733)

ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ وفي المناسبة وجوه أحدها : هو تقرير لما مر من قوله : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ ﴾ [النجم : 30] كأن العامل من الكفار يقول : نحن نعمل أموراً في جوف الليل المظلم ، وفي البيت الخالي فكيف يعلمه الله تعالى ؟ فقال : ليس عملكم أخفى

من أحوالكم وأنتم أجنة في بطون أمهاتكم ، والله عالم بتلك الأحوال ثانيها : هو إشارة إلى الضال والمهتدي حصلا على ما هما عليه بتقدير الله ، فإن الحق علم أحوالهم وهم في بطون الأمهات ، فكتب على البعض أنه ضال ، والبعض أنه مهتد ثالثها : تأكيد وبيان للجزاء ، وذلك لأنه لما قال : ﴿لِيَجْزِيَ الذين أَسَاءواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ [النجم : 31] قال الكافرون : هذا الجزاء لا يتحقق إلا بالحشر ، وجمع الأجزاء بعد تفرقها وإعادة ما كان لزيد من الأجزاء في بدنه من غير اختلاط غير ممكن ، فقال تعالى : ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ﴾ فيجمعها بقدرته على وفق علمه كما أنشأكم ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

العامل في : ﴿إِذْ﴾ يحتمل أن يكون ما يدل عليه : ﴿أَعْلَمُ﴾ أي علمكم وقت الإنشاء ، ويحتمل أن يكون اذكروا فيكون تقريراً لكونه عالماً ويكون تقديره : ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ وقد تم الكلام ، ثم يقول : إن كنتم في شك من علمه بكم فاذكروا حال إنشائكم من التراب .

المسألة الثانية :

ذكرنا مراراً أن قوله : ﴿مِّنَ الأرض﴾ من الناس من قال آدم فإنه من تراب ، وقررنا أن كل أحد أصله من التراب ، فإنه يصير غذاء ، ثم يصير نطفة .

المسألة الثالثة :

لو قال قائل : لا بد من صرف ﴿ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ ﴾ إلى آدم ، لأن ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ عائد إلى غيره ، فإنه لم يكن جنيناً ، ولو قلت بأن قوله تعالى ﴿ إِذْ أَنشَأَكُمْ ﴾ عائد إلى جميع الناس ، فينبغي أن يكون جميع الناس أجنة في بطون الأمهات ، وهو قول الفلاسفة ؟ نقول ليس كذلك ، لأنا نقول : الخطاب مع الموجودين حالة الخطاب ، وقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ خطاب مع كل من بعد الإنزال على قول ، ومع من حضر وقت الإنزال على قول ، ولا شك أن كل هؤلاء من الأرض وهم كانوا أجنة .

المسألة الرابعة :

الأجنة هم الذين في بطون الأمهات ، وبعد الخروج لا يسمى إلا ولداً أو سقطاً ، فما فائدة قوله تعالى : ﴿ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ ؟ نقول : التنبيه على كمال العلم والقدرة ، فإن بطن الأم في غاية الظلمة ، ومن علم بحال الجنين فيها لا يخفى عليه ما ظهر من حال العباد .

المسألة الخامسة :

لقائل أن يقول : إذا قلنا إن قوله ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ تقرير لكونه عالماً بمن ضل ، فقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ تعلقه به ظاهر ، وأما إن قلنا إنه تأكيد وبيان للجزاء ، فإنه يعلم الأجزاء فيعيدها إلى أبدان أشخاصها ، فكيف يتعلق به ﴿ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ ؟ نقول : معناه حينئذ فلا تبرئوا أنفسكم من العذاب ، ولا تقولوا تفرقت الأجزاء فلا يقع العذاب ،

لأن العالم بكم عند الإنشاء عالم بكم عند الإعادة ، وعلى هذا قوله : ﴿ أَعْلَمُ بِمَنِ اتقى ﴾ أي يعلم أجزاءه فيعيدها إليه ، ويثيبه بما أقدم عليه .

المسألة السادسة :

(157/733)

الخطاب مع من ؟ فيه ثلاثة احتمالات الأول : مع الكفار ، وهذا على قولنا إنهم قالوا كيف يعلمه الله ، فرد عليهم قولهم الثاني كل من كان زمان الخطاب وبعده من المؤمنين والكفار الثالث هو مع المؤمنين ، وتقريره : هو أن الله تعالى لما قال : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا ﴾ [النجم : 29] قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : قد علم كونك ومن معك على الحق ، وكون المشركين على الباطل ، فأعرض عنهم ولا تقولوا : نحن على الحق وأنتم على الضلال ، لأنهم يقابلونكم بمثل ذلك ، وفوض الأمر إلى الله تعالى ، فهو أعلم بمن اتقى ومن طغى ، وعلى هذا فقول من قال : ﴿ فَأَعْرَضَ ﴾ منسوخ أظهر ، وهو كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدِىَ أَوْ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 24] والله أعلم بجملة الأمور ، ويحتمل أن يقال : على هذا الوجه الثالث إنه إرشاد للمؤمنين ، فخاطبهم الله وقال : هو أعلم بكم أيها المؤمنون ، علم ما لكم من أول خلقكم إلى آخر يومكم ، فلا تزكوا أنفسكم رياء وخيلاء

، ولا تقولوا لآخر أنا خير منك وأنا أزكى منك وأتقى ، فإن الأمر عند الله ، ووجه آخر وهو إشارة إلى وجوب الخوف من العاقبة ، أي لا تقطعوا بخلاصكم أيها المؤمنون ، فإن الله يعلم عاقبة من يكون على التقي ، وهذا يؤيد قول من يقول : أنا مؤمن إن شاء الله للصرف إلى العاقبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 10.6 ﴾

(158/733)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض لِيَجْزِيَ الذين أَسَاءُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ الذين أَحْسَنُواْ بالحسنى ﴾

اللام متعلقة بالمعنى الذي دلّ عليه ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ كأنه قال : هو مالك ذلك يهدي من يشاء ويضل من يشاء ليجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

وقيل : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ معترض في الكلام ؛ والمعنى : إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ليجزي .

وقيل : هي لام العاقبة ، أي ولله ما في السموات وما في الأرض ؛ أي وعاقبة أمر الخلق أن

يكون فيهم مسيء ومحسن ؛ فللمسيء السوءى وهي جهنم ، وللمحسن الحسنى وهي الجنة .

قوله تعالى : ﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإثم والفواحش إِلاَّ اللمم ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإثم والفواحش ﴾ هذا نعت للمحسنين ؛ أي هم لا يرتكبون كبائر الإثم وهو الشرك ؛ لأنه أكبر الآثام .

وقرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب وحمزة والكسائي "كَبِيرَ" على التوحيد وفسره ابن عباس بالشرك .

﴿ والفواحش ﴾ الزنى : وقال مقاتل : ﴿ كَبَائِرَ الإثم ﴾ كل ذنب ختم بالنار .

﴿ والفواحش ﴾ كل ذنب فيه الحدّ .

وقد مضى في "النساء" القول في هذا .

ثم استثنى استثناء منقطعاً وهي :

المسألة الثانية : فقال : ﴿ إِلاَّ اللمم ﴾ وهي الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه .

وقد اختلف في معناها ؛ فقال أبو هريرة وابن عباس والشعبي : "اللَّمَمُ" كل ما دون الزنى .

وذكر مقاتل بن سليمان : " أن هذه الآية نزلت في رجل كان يسمى نبهان التمار ؛ كان له حانوت يبيع فيه تمراً فجاءته امرأة تشتري منه تمراً فقال لها : إن داخل الدكان ما هو خير من هذا ، فلما دخلت راودها فأبت وانصرفت فندم نبهان ؛ فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته إلا الجماع ؛ فقال : "لعل زوجها غازٍ" " فنزلت هذه الآية ، وقد مضى في آخر "هود" وكذا قال ابن مسعود وأبو سعيد الخُدري وحذيفة ومسروق : إن اللمم ما دون الوطء من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة .

وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : زنى العينين النظر ، وزنى اليدين البطش ، وزنى الرِّجلين المشي ، وإنما يصدِّق ذلك أو يكذِّبه الفرج ؛ فإن تقدّم كان زنًى وإن تأخر كان لَمَاً .

وفي صحيح البخاري ومسلم عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله كتب على ابن آدم حظّه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فزنى العينين النظر وزنى اللسان النطق والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدِّق ذلك أو يكذِّبه "

والمعنى : أن الفاحشة العظيمة والزنى التام الموجب للحدّ في الدنيا والعقوبة في الآخرة هو

في الفرج وغيرهُ له حظٌّ من الإثم .

والله أعلم .

وفي رواية أبي صالح (عن أبي هريرة) عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كُتِب على ابن آدم نصيبه من الزنى مُدْرِكٌ لا محالة فالعينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرِّجل زناها الخُطَا والقلب يَهْوَى ويتمنى ويصدّقِ ذلك الفرج ويكذِّبه " خرجه مسلم .

وقد ذكر الثعلبي حديث طاوس عن ابن عباس فذكر فيه الأُذن واليد والرِّجل ، وزاد فيه بعد العينين واللسان : "وزنى الشفتين القُبلة" .

فهذا قول .

وقال ابن عباس أيضاً : هو الرجل يُلِمُّ بذنب ثم يتوب .

(160/733)

قال : ألم تسمع النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقول :

إن يَغفر اللَّهُ يغفر جَمّا . . .

وأيُّ عبدٍ لكَ لا ألَمّا

رواه عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس .

قال النحاس : هذا أصح ما قيل فيه وأجلها إسناداً .

وروى شعبة عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس في قول الله عز وجل "إِلاَّ اللَّمَمَ" قال : هو أن يلمّ العبد بالذنب ثم لا يعاوده ؛ قال الشاعر :

إن تَغفِرِ اللهم تغفر جَمَّا . . .

وأيُّ عبدٍ لكَ لا أَلَمَّا

وكذا قال مجاهد والحسن : هو الذي يأتي الذنب ثم لا يعاوده ، ونحوه عن الزهري ، قال : اللمم أن يزني ثم يتوب فلا يعود ، وأن يسرق أو يشرب الخمر ثم يتوب فلا يعود .

ودليل هذا التأويل قوله تعالى : ﴿ والذين إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظلموا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ الله فاستغفروا لِذنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : 135] الآية .

ثم قال : ﴿ أولئك جَزَآؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [آل عمران : 136] فضمن لهم المغفرة ؛ كما قال عقيب اللمم : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المغفرة ﴾ فعلى هذا التأويل يكون ﴿ إِلاَّ اللمم ﴾ استثناء متصل .

قال عبد الله بن عمرو بن العاص : اللمم ما دون الشرك .

وقيل : اللمم الذنب بين الحدّين وهو ما لم يأت عليه حدّ في الدنيا ، ولا تُوعِّد عليه بعذاب في الآخرة تكفِّره الصلوات الخمس .

قاله ابن زيد وعكرمة والضحاك وقتادة .

ورواه العوفي والحكم بن عتيبة عن ابن عباس .

وقال الكلبي : اللمم على وجهين : كل ذنب لم يذكر الله عليه حدّاً في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة ؛ فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش .

والوجه الآخر هو الذنب العظيم يلمّ به الإنسان المرة بعد المرة فيتوب منه .

وعن ابن عباس أيضاً وأبي هريرة وزيد بن ثابت : هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم به .

(161/733)

وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين : إنما كنتم بالأمس تعملون معنا فنزلت وقاله زيد بن أسلم وابنه ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء : 23] .

وقيل : اللّمم هو أن يأتي بذنب لم يكن له بعادة ؛ قاله نفطويه .

قال : والعرب تقول ما يأتينا إلاَّ لِمَاماً ؛ أي في الحين بعد الحين .

قال : ولا يكون أن يلمّ ولا يفعل ، لأن العرب لا تقول ألمّ بنا إلا إذا فعل الإنسان لا إذا همّ ولم

يفعله .

وفي الصحاح : وألّم الرجل من اللمم وهو صغائر الذنوب ، ويقال : هو مقاربة المعصية من غير مواقعة .

وأنشد غير الجوهري :

بِزينَب أَلْمِمْ قَبْلَ أَن يَرْحَلَ الرَّكبُ . . .
وقُلْ إِنْ تَمَلِّينَا فما مَلَّكِ الْقَلْبُ

أي اقرب .

وقال عطاء بن أبي رباح : اللّمم عادة النفس الحين بعد الحين .

وقال سعيد بن المسيّب : هو ما ألّم على القلب ؛ أي خطر .

وقال محمد بن الحنفية : كلّ ما هممت به من خير أو شر فهو لَمَم .

ودليل هذا التأويل قوله عليه الصلاة والسلام : " إن للشيطان لَمّة وللملَك لَمَّة " الحديث .

وقد مضى في "البقرة" عند قوله تعالى : ﴿ الشيطان يَعِدُكُمُ الفقر ﴾ [البقرة : 286] .

وقال أبو إسحاق الزجاج : أصل اللّمم والإلمام ما يعمله الإنسان المرة بعد المرة ولا يتعمق فيه ولا يقيم عليه ؛ يقال : ألممت به إذا زرته وانصرفت عنه ، ويقال : ما فعلته إلا لَمَاً وإلماماً ؛ أي الحين بعد الحين .

وإنما زيارتك إلمام ، ومنه إلمام الخيال ؛ قال الأعشى :

أَلَمّ خَيَالٌ مِن قُتَيْلَةَ بَعْدَمَا . . .

وَهَى حَبْلُها مِن حَبْلِنَا فَتَصَرَّمَا

وقيل : إلا بمعنى الواو .

وأنكر هذا الفرّاء وقال : المعنى إلا المتقارب من صغار الذنوب .

وقيل : اللَّمم النظرة التي تكون فجأة .

قلت : هذا فيه بعدٌ إذ هو معفوّ عنه ابتداء غير مؤاخذ به ؛ لأنه يقع من غير قصد واختيار ، وقد مضى في "النور" بيانه .

(162/733)

واللّمم أيضاً طرف من الجنون ، ورجل ملموم أي به لَمَمٌ .

ويقال أيضاً : أصابت فلان لَمّةٌ من الجنّ وهي المسّ والشيء القليل ؛ قال الشاعر :

فإذا وذِلك يا كُبَيْشَةُ لَمْ يَكُنْ . . .

إلاَّ كَلَمَّةِ حالِمٍ بخَيالِ

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المغفرة ﴾ لمن تاب من ذنبه واستغفر ؛ قاله ابن عباس .

وقال أبو ميسرة عمرو بن شَرَحْبيل وكان من أفاضل أصحاب ابن مسعود : رأيت في المنام كأني دخلت الجنة فإذا قِباب مضروبة ، فقلت : لمن هذه ؟ فقالوا : لذي الكَلاَع وحَوْشَب ، وكانا ممن قتل بعضهم بعضاً ، فقلت : وكيف ذلك ؟ فقالوا : إنهما لقيا الله فوجداه واسع المغفرة .

فقال أبو خالد : بلغني أن ذا الكَلاَع أعتق اثني عشر ألف بنت .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ من أنفسكم ﴿ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرض ﴾ يعني أباكم آدم من الطين وخرج اللفظ على الجمع .

قال الترمذيّ أبو عبد الله : وليس هو كذلك عندنا ، بل وقع الإنشاء على التربة التي رفعت من الأرض ، وكنا جميعاً في تلك التربة وفي تلك الطينة ، ثم خرجت من الطينة المياه إلى الأصلاب مع ذَرْوِ النفوس على اختلاف هيئتها ، ثم استخرجها من صُلْبها على اختلاف الهيئات ؛ منهم كالدرّ يتلألأ ، وبعضهم أنور من بعض ، وبعضهم أسود كالحُمَمَة ، وبعضهم أشدّ سواداً من بعض ؛ فكان الإنشاء واقعاً علينا وعليه .

حدّثنا عيسى بن حماد العسقلاني قال : حدّثنا بِشر بن بَكرٍ ، قال : حدّثنا الأوزاعي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " "عُرض عليّ الأوّلون والآخرون بين يدي حجرتي هذه الليلة" فقال قائل : يا رسول الله ! وَمن مضى من الخلق ؟ قال : "نعم عُرض

عليّ آدم فمن دونه فهل كان خُلِقَ أحد " قالوا : ومن في أصلاب الرجال وبطون الأمهات ؟ قال : "نعم مثلوا في الطين فعرفتهم كما علم آدم الأسماء كلها" " .

(163/733)

قلت : وقد تقدّم في أوّل "الأنعام" أن كل إنسان يخلق من طين البقعة التي يدفن فيها .

﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ جمع جَنِين وهو الولد ما دام في البطن ، سمي جنِيناً لاجتنانه واستتاره .

قال عمرو بن كُلْثوم :

هِجانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا . . .

وقال مكحول : كنا أجنّة في بطون أمهاتنا فسقط منا من سقط وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا رُضَّعاً فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا يَفَعةً فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا شباباً فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا شيوخاً لا أبالك ! فما بعد هذا ننتظر ؟ ! وروى ابن لهيعة عن الحرث بن يزيد عن ثابت بن الحرث الأنصاري قال : "كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبيّ صغير : هو صِدّيق ؛ فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد" "

فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ ﴾ إلى آخرها .

ونحوه عن عائشة : "كان اليهود" .

بمثله .

﴿ فَلاَ تزكوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [النجم : 32] أي لا تمدحوها ولا تثنوا عليها ، فإنه أبعد من الرياء وأقرب إلى الخشوع .

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتقى ﴾ أي أخلص العمل واتقى عقوبة الله ؛ عن الحسن وغيره .

قال الحسن : قد علم الله سبحانه كل نفس ما هي عاملة ، وما هي صانعة ، وإلى ما هي صائرة .

وقد مضى في "النساء" الكلام في معنى هذه الآية عند قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ فتأمله هناك .

وقال ابن عباس : ما من أحد من هذه الآمة أزكّيه غير رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(164/733)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (26) ﴾

﴿ وكم ﴾ : هي خبرية ، ومعناها هنا : التكثير ، وهي في موضع رفع بالابتداء ، والخبر ﴿ لا تغني ﴾ ؛ والغنى : جلب النفع ودفع الضر ، بحسب الأمر الذي يكون فيه الغنى .

وكم لفظها مفرد ، ومعناها جمع .

وقرأ الجمهور : ﴿ شفاعتهم ﴾ ، بإفراد الشفاعة وجمع الضمير ؛ وزيد بن علي : شفاعته ، بإفراد الشفاعة والضمير ؛ وابن مقسم : شفاعاتهم ، بجمعهما ، وهو اختيار صاحب الكامل ، أي القاسم الهذلي .

وأفردت الشفاعة في قراءة الجمهور لأنها مصدر ، ولأنهم لو شفع جميعهم لواحد ، لم تغن شفاعتهم عنه شيئاً .

فإذا كانت الملائكة المقربون لا تغني شفاعتهم إلا بعد إذن الله ورضاه ، أي يرضاه أهلاً للشفاعة ، فكيف تشفع الأصنام لمن يعبدها ؟ ومعنى ﴿ تسمية الأنثى ﴾ : كونهم يقولون إنهم بنات الله ، ﴿ والذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ : هم العرب منكر والبعث .

﴿ وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ : أي ما يدركه العلم لا ينفع فيه الظن ، وإنما يدرك بالعلم واليقين .

قيل : ويحتمل أن يكون المراد بالحق هنا هو الله تعالى ، أي الأوصاف الإلهية لا تستخرج بالظنون ، ويدل عليه ذلك بأن الله هو الحق .

﴿ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ﴾ ، موادعة منسوخة بآية السيف .

﴿ ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ : أي لم تتعلق إرادته بغيرها ، فليس له فكر في سواها ، كالنضر بن الحارث والوليد بن المغيرة .

والذكر هنا : القرآن ، أو الإيمان ، أو الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أقوال .

﴿ عن من تولى عن ذكرنا ﴾ : هو سبب الأعراض ، لأن من لا يصغي إلى قول ، كيف يفهم معناه ؟ فأمر (صلى الله عليه وسلم) بالإعراض عن من هذه حاله ، ثم ذكر سبب التولي عن الذكر ، وهو حصر إرادته في الحياة الدنيا .

(165/733)

فالتولي عن الذكر سبب للإعراض عنهم ، وإيثار الدنيا سبب التولي عن الذكر ، وذلك إشارة إلى تعلقهم بالدنيا وتحصيلها .

﴿ مبلغهم ﴾ : غايتهم ومنتهاهم من العلم ، وهو ما تعلقت به علومهم من مكاسب الدنيا ، كالفلاحة والصنائع ، لقوله تعالى : ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ ولما ذكر ما هم

عليه ، أخبر تعالى بأنه عالم بالضال والمهتدي ، وهو مجازيهما .

وقال الزمخشري : وقوله : ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ : اعتراض .

انتهى ، وكأنه يقول : هو اعتراض بين ﴿ فأعرض ﴾ وبين ﴿ إن ربك ﴾ ، ولا يظهر هذا الذي يقوله من الاعتراض .

وقيل : ذلك إشارة إلى جعلهم الملائكة بنات الله .

وقال الفراء : صغر رأيهم وسفه أحلامهم ، أي غاية عقولهم ونهاية علومهم أن آثروا الدنيا على الآخرة .

وقيل : ذلك إشارة إلى الظن ، أي غاية ما يفعلون أن يأخذوا بالظن .

وقوله : ﴿ إن ربك هو أعلم ﴾ في معرض التسلية ، إذ كان من خلقه عليه الصلاة والسلام الحرص على إيمانهم ، وفي ذلك وعيد للكفار ، ووعد للمؤمنين .

﴿ ولله ما في السماوات وما في الأرض ﴾ : أخبر أن من في العالم العلوي والعالم السفلي ملكه تعالى ، يتصرف فيهما بما شاء .

واللام في ﴿ ليجزي ﴾ متعلقة بما دل عليه معنى الملك ، أي يضل ويهدي ليجزي .

وقيل : بقوله : ﴿ بمن ضل ﴾ ، و ﴿ بمن اهتدى ﴾ ، واللام للصيرورة ، والمعنى : إن عاقبة أمرهم جميعاً للجزاء بما عملوا ، أي بعقاب ما عملوا ، والحسنى : الجنة .

وقيل : التقدير بالأعمال الحسنى ، وحين ذكر جزاء المسيء قال : بما عملوا ، وحين ذكر

جزاء المحسن أتى بالصفة التي تقتضي التفضل ، وتدل على الكرم والزيادة للمحسن ، كقوله تعالى : ﴿ ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون ﴾ والأحسن تأنيث الحسنى .

وقرأ زيد بن علي : لنجزي ونجزي بالنون فيهما .

وتقدّم الكلام في الكبائر في قوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ في سورة النساء .

(166/733)

والذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر ، والفواحش معطوف على كبائر ، وهي ما فحش من الكبائر ، أفردها بالذكر لتدل على عظم مرتكبها .

وقال الزمخشري : والكبائر : الذنوب التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة .

انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال .

﴿ إلا اللمم ﴾ : استثناء منقطع ، لأنه لم يدخل تحت ما قبله ، وهو صغار الذنوب ، أو صفة إلى كبائر الإثم غير اللمم ، كقوله : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله ﴾ ، أي غير الله ﴿ لفسدتا ﴾ وقيل : يصح أن يكون استثناء متصلاً ، وهذا يظهر عند تفسير اللمم ما هو ، وقد اختلفوا فيه اختلافاً ، فقال الخدري : هو النظرة والغمزة والقبلة .

وقال السدي : الخطرة من الذنب .

وقال أبو هريرة وابن عباس والشعبي والكلبي : كل ذنب لم يذكر الله تعالى عليه حداً ولا عذاباً .

وقال ابن عباس أيضاً وابن زيد : ما ألموا به من الشرك والمعاصي في الجاهلية قبل الإسلام .

وعن ابن عباس وزيد بن ثابت وزيد بن أسلم وابنه : أن سبب الآية قول الكفار للمسلمين : قد كنتم بالأمس تعملون أعمالنا ، فنزلت ، وهي مثل قوله : ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف ﴾ وقيل : نزلت في نبهان التمار ، وحديثه مشهور .

وقال ابن عباس وغيره : العلقة والسقطة دون دوام ، ثم يتوب منه .

وقال الحسن : والزنا والسرقة والخمر ، ثم لا يعود .

وقال ابن المسيب : ما خطر على القلب .

وقال نفطويه : ما ليس بمعتاد .

وقال الرماني : الهم بالذنب ، وحديث النفس دون أن يواقع .

وقيل : نظرة الفجأة .

﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ ، حيث يكفر الصغائر باجتناب الكبائر .

وقال الزمخشري : والكبائر بالتوبة .

انتهى ، وفيه نزغة الاعتزال .

﴿ هو أعلم بكم ﴾ : قيل نزلت في قوم من اليهود عظموا أنفسهم ، وإذا مات طفل لهم قالوا : هذا صديق عند الله .

وقيل : في قوم من المؤمنين فخروا بأعمالهم ، والظاهر أنه خطاب عام ، وأعلم على بابها من التفضيل .

وقال مكي : بمعنى عالم بكم ، ولا ضرورة إلى إخراجها عن أصل موضوعها .

(167/733)

كان مكياً راعى عمل أعلم في الظرف الذي هو : ﴿ إذ أنشأكم من الأرض ﴾ ، والظاهر أن المراد بأنشأكم : أنشأ أصلكم ، وهو آدم .

ويجوز أن يراد من فضلة الأغذية التي منشؤها من الأرض ، ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ : أي لا تنسبوها إلى زكاء الأعمال والطهارة عن المعاصي ، ولا تثنوا عليها واهضموها ، فقد علم الله منكم الزكي والتقي قبل إخراجكم من صلب آدم ، وقبل إخراجكم من بطون أمهاتكم .

وكثيراً ما ترى من المتصلحين ، إذا حدثوا ، كان وردنا البارحة كذا ، وفاتنا من وردنا البارحة ، أو فاتنا وردنا ، يوهمون الناس أنهم يقومون بالليل .

وترى لبعضه في جبينه سواداً يوهم أنه من كثرة السجود ، ولبعضهم احتضار النية حالة الإحرام ، فيحرك يديه مراراً ، ويصعق حتى ينزعج من بجانبه ، وكأنه يخطف شيئاً بيديه وقت التحريكة الأخيرة ، يوهم أنه يحافظ على تحقيق النية .

وبعضهم يقول في حلفه : وحق البيت الذي زرت ، يعلم أنه حاج ، وإذا لاح له فلس يثب عليه وثوب الأسد على الفريسة ، ولا يلحقه شيء من الواسوس ، ولا من إحضار النية في أخذه ، وتراه يحب الثناء عليه بالأوصاف الجميلة التي هو عارضها .

وقيل : المعنى لا يزكي بعضكم بعضاً تزكية السمعة أو المدح للدنيا ، أو تزكية بالقطع .

وأما التزكية لإثبات الحقوق فجائزة للضرورة .

والجنين : ما كان في البطن ، فإذا خرج سمي ولداً أو سقطاً .

وقوله : ﴿ في بطون أمهاتكم ﴾ تنبيه على كمال العلم والقدرة ، فإن بطن الأم في غاية الظلمة ، ومن علم حاله وهو مجنّ ، لا يخفى عليه حاله وهو ظاهر .

﴿ بمن اتقى ﴾ : قيل الشرك .

وقال علي : عمل حسنة وارعوى عن معصية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(168/733)

وقال الثعالبى :

وقوله : ﴿ إِلاَّ اللمم ﴾ هو استثناء يَصِحُّ أَنْ يكونَ مُتَّصِلاً ، وإِنْ قدرته مُنْقَطِعاً ساغ ذلك ، وبِكُلٍّ قد قيل ، واخْتُلِفَ في معنى ﴿ اللمم ﴾ فقال أبو هريرة ، وابن عباس ، والشَّعْبِيُّ ، وغيرهم : اللمم : صِغَارُ الذنوب التي لا حَدَّ فيها ولا وَعِيدَ عليها ؛ لأَنَّ الناسَ لا يتخلَّصُونَ من مُوَاقَعَةِ هذه الصغائر ، ولهم مع ذلك الحُسْنَى إذا اجتنبوا الكبائر ، وتظاهر العلماءُ في هذا القول ، وكَثُرَ المائِلُ إليه ، وحُكِيَ عن ابن المُسَيِّب أَنَّ اللمم : ما خطر على القلب ، يعني بذلك لَمَّةَ الشيطان ، وقال ابن عباس : معناه : إلاَّ ما أَلَمُّوا به من المعاصي الفَلْتَةُ والسَّقْطَةُ دون دوام ثم يتوبون منه ، وعنِ الحسن بن أبي الحسن أَنَّهُ قال : في اللَّمَّةِ من الزنا ، والسَّرِقَةِ ، وشرب الخمر ثم لا يعود ، قال *ع* : وهذا التأويل يُقتضي الرِّفْقَ بالناس في إدخالهم في الوعد بالحسنى ؛ إذِ الغالب في المؤمنين مواقعةُ المعاصي ، وعلى هذا أنشدوا ، وقد تَمَثَّلَ به النبي صلى الله عليه وسلم : [الرجز]

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا . . . وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لاَ أَلَمَّا

وقوله سبحانه : ﴿ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض ﴾ يريد : خلق أبيهم آدم ، ويحتمل أَنْ يرادَ به إنشاء الغذاء ، وأجِنَّةٌ : جمع جنين .

وقوله سبحانه : ﴿ فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ظاهره النهيُ عن تزكية الإنسانِ نَفْسَهُ ، ويحتمل

أَنْ يكونَ نهياً عن أنْ يُزَكِّيَ بعضُ الناسِ بعضاً ، وإذا كان هذا ، فَإِنَّما يُنْهَى عن تزكية السمعة والمدح للدنيا أو القطع بالتزكية ، وأَمَّا تزكيةُ الإمامِ والقُدْوَةِ أحداً لِيُؤْتَمَّ به أو ليتهمم الناسَ بالخير ، فجائز ، وفي الباب أحاديثُ صحيحة ، وباقي الآية بَيِّنٌ .

(169/733)

---

* ت * : قال صاحِبُ «الكَلِمِ الفارِقِيَّةِ» : أَعْرَفُ الناسِ بنفسه أَشَدُّهُمْ إيقاعاً للتهمة بها في كل ما يبدو ويظهرُ له منها ، وأجهلهم بمعرفتها وخفايا آفاتها وكوامن مكرها مَنْ زَكَّاها ، وأَحْسَنَ ظَنَّهُ بها ؛ لأَنَّها مُقْبِلَةٌ على عاجل حظوظها ، مُعْرِضَةٌ عنِ الاستعداد لآخرتها ، انتهى ، وقال ابن عطاء اللَّه : أَصْلُ كل معصيةٍ وغفلة ، وشهوة الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة ، ويقظة ، وعِفَّةٍ عَدَمُ الرضا منك عنها ؛ قال شارحه ابن عُبَّاد : الرضا عن النفس : أصل جميع الصفات المذمومة ، وعَدَمُ الرضا عنها أصلُ الصفات المحمودة ، وقدِ اتَّفق على هذا جميعُ العارفين وأرباب القلوب ؛ وذلك لأَنَّ الرضا عن النفس يوجب تغطيةَ عيوبِهَا ومساويها ، وعَدَمَ الرضا عنها على عكس هذا ؛ كما قيل : [الطويل]

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ . . . وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِيَا .

انتهى . انتهى . اهـ ﴿الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾

أي له ذلك على الوجه الأتم أي خلقاً وملكاً لا لغيره عز وجل أصلاً لا استقلالاً ولا اشتراكاً ، ويشعر بفعل يتعلق به قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِىَ الذين فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ أي خلق ما فيهما ليجزي الضالين بعقاب ما عملوا من الضلال الذي عبر عنه بالإساءة بياناً لحاله ؛ أو بمثل ما عملوا ، أو بسبب ما عملوا على أن الباء صلة الجزاء بتقدير مضاف أو للسببية بلا تقدير ﴿ وَيِجْزِى الذين أَحْسَنُواْ ﴾ أي اهتدوا ﴿ بالحسنى ﴾ أي بالمثوبة الحسنى التي هي الجنة ، أو بأحسن من أعمالهم أو بسبب الأعمال الحسنى تكميل لما قبل لأنه سبحانه لما أمره عليه الصلاة والسلام بالإعراض نفي توهم أن ذلك لأنهم يتركون سدى ، وفي العدول عن ضمير ربك إلى الاسم الجامع ما ينبىء عن زيادة القدرة وأن الكلام مسوق لوعيد المعرضين وأن تسوية هذا الملك العظيم لهذه الحكمة فلا بدّ من ضال ومهتد ، وَمِن أن يلقى كل ما يستحقه ، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم يلقى الحسنى جزاءاً لتبليغه وهم يلقون

السوأى جزاءاً لتكذيبهم ، وكرر فعل الجزاء لإبراز كمال الاعتناء به والتنبيه على تباين الجزاءين .

(171/733)

وجوز أن يكون معنى ﴿ فَأَعْرَضَ ﴾ [النجم : 29] الخ لا تقابلهم بصنيعهم وكلهم إلى ربك أنه أعلم بك وبهم فيجزى كلاً ما يستحقه ، ولا يخفى ما في العدول عن الضميرين في ﴿ بِمَن ضَلَّ ﴾ ﴿ وَبِمَن اهتدى ﴾ [النجم : 30] وجعل قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ على هذا متعلقاً بما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ الخ أي ميز الضال عن المهتدي وحفظ أحوالهم ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ الخ ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات ﴾ جملة معترضة تؤكد حديث أنهم يجزون البتة ولا يهملون كأنه قيل : هو سبحانه أعلم بهم وهم تحت ملكه وقدرته ، وجوز على ذلك المعنى أن يتعلق ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ بقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السموات ﴾ كما تقدم على تأكيد أمر الوعيد ، أي هو أعلم بهم وإنما سوي هذا الملك للجزاء ، ورجح بعضهم ذلك المعنى بالوجهين المذكورين على ما مرّ ، وجوز في جملة ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السموات ﴾ كونها حالاً من فاعل أعلم سواء كان بمعنى عالم أولاً ، وفي ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ تعلقه بضل .

واهتدى على أن اللام للعاقبة أي هو تعالى ﴿ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ ﴾ ليؤول أمره إلى أن يجزيه الله تعالى بعمله ، و ﴿ بِمَنِ اهتدى ﴾ ليؤول أمره إلى أن يجزيه بالحسنى ، ولا يخفى بعده ، وأبعد منه بمراحل تعلقه بقوله سبحانه : ﴿ لاَ تُغْنِى شفاعتهم ﴾ [النجم : 26] كما ذكره مكي ، وقرأ زيد بن علي لنجزى ونجزى بالنون فيهما ﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ كبائر الإثم ﴾ بدل من الموصول الثاني وصيغة الاستقبال في صلته للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره .

أو بيان .

أو نعت .

أو منصوب على المدح .

أو مرفوع على أنه خبر محذوف ؛ و ﴿ الإثم ﴾ الفعل المبطىء عن الثواب وهو الذنب .

وكبائره ما يكبر عقابه ، وقرأ حمزة .

والكسائي .

(172/733)

وخلف كبير الاثم على إرادة الجنس ، أو الشرك ﴿ والفواحش ﴾ ما عظم قبحه من الكبائر فعطفه على ما تقدم من عطف الخاص على العام ، وقيل : الفواحش والكبائر مترادفان ﴿ إِلاَّ اللمم ﴾ ما صغر من الذنوب وأصله ما قل قدره ، ومنه لَمَةُ الشعر لأنها دون الوفرة ، وفسره أبو سعيد الخدري بالنظرة .

والغمزة .

والقبلة وهو من باب التمثيل ، وقيل : معناه الدنو من الشيء دون ارتكاب له من ألممت بكذا أي نزلت به وقاربته من غير مواقعة وعليه قول الرماني هو الهمّ بالذنب وحديث النفس دون أن يواقع ، وقول ابن المسيب : ما خطر على القلب ، وعن ابن عباس .

وابن زيد هو ما ألموا به من الشرك والمعاصي في الجاهلية قبل الإسلام ، والآية نزلت لقول الكفار للمسلمين قد كنتم بالأمس تعملون أعمالنا فهي مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الاختين إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء : 23] على ما في "البحر" ، وقيل : هو مطلق الذنب .

(173/733)

وفي رواية عن ابن عباس أنه ما يلم به المرء في الحين من الذنوب ثم يتوب ، والمعظم على تفسيره بالصغائر والاستثناء منقطع ، وقيل : إنه لا استثناء فيه أصلاً ، و﴿ إِلا ﴾ صفة بمعنى غير إما لجعل المضاف إلى المعرف باللام الجنسية أعني كبائر الاثم في حكم النكرة ، أو لأن غير و﴿ إِلا ﴾ التي بمعناها قد يتعرفان بالإضافة كما في ﴿ غَيْرِ المغضوب ﴾ [الفاتحة : 7] وتعقبه بعضهم بأن شرط جواز وقوع ﴿ إِلا ﴾ صفة كونها تابعة لجمع منكر غير محصور ولم يوجد هنا ، ورد بأن هذا ما ذهب إليه ابن الحاجب ، وسيبويه يرى جواز وقوعها صفة مع جواز الاستثناء فهو لا يشترط ذلك ، وتبعه أكثر المتأخرين ، نعم كونها هنا صفة خلاف الظاهر ولا داعي إلى ارتكابه ، والآية عند الأكثرين دليل على أن المعاصي منها كبائر ومنها صغائر وأنكر جماعة من الأئمة هذا الانقسام وقالوا : سائر المعاصي كبائر ، منهم الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني ، والقاضي أبو بكر البلاقلاني ، وإمام الحرمين في "الإرشاد" ، وتقي الدين السبكي .

وابن القشيري في المرشد بل حكاه ابن فورك عن الأشاعرة .

(174/733)

واختاره في تفسيره فقال معاصي الله تعالى كلها عندنا كبائر وإنما يقال لبعضها صغيرة وكبيرة بالإضافة ، وحكى الانقسام عند المعتزلة ، وقال : إنه ليس بصحيح ، وقال القاضي عبد الوهاب : لا يمكن أن يقال في معصية إنها صغيرة إلا على معنى أنها تصغر باجتناب الكبائر ويوافق ذلك ما رواه الطبراني عن ابن عباس لكنه منقطع أنه ذكر عنده الكبائر فقال : كل ما نهى الله تعالى عنه فهو كبيرة ، وفي رواية كل شيء عصى الله تعالى فيه فهو كبيرة ، والجمهور على الانقسام قيل : ولا خلاف في المعنى ، وإنما الخلاف في التسمية ، والإطلاق لإجماع الكل على أن من المعاصي ما يقدح في العدالة ومنها ما لا يقدح فيها وإنما الأولون فروا من التسمية فكرهوا تسمية معصية الله تعالى صغيرة نظراً إلى عظمة الله عز وجل وشدة عقابه سبحانه وإجلالاً له جل شأنه عن تسمية معصيته صغيرة لأنها بالنظر إلى باهر عظمته كبيرة أيّ كبيرة ، ولم ينظر الجمهور إلى ذلك لأنه معلوم ؛ وقسموها إلى ما ذكر لظواهر الآيات والأحاديث ولذلك قال الغزالي : لا يليق إنكار الفرق بين الكبائر والصغائر وقد عرفنا من مدارك الشرع ، ثم القائلون بالفرق اختلفوا في حد الكبيرة فقيل : هي ما لحق صاحبها عليها بخصوصها وعيد شديد بنص كتاب أو سنة وهي عبارة كثير من الفقهاء ، وقيل : كل معصية أوجبت الحدّ وبه قال البغوي .

وغيره والأول أوفق لما ذكروه في تفصيل الكبائر إذ عدوا الغيبة والنميمة والعقوق وغير ذلك منها ولا حدّ فيه فهو أصح من الثاني وإن قال الرافعي : إنهم إلى ترجيحه أميل ، وقد يقال :

يرد على الأول أيضاً أنهم عدوا من الكبائر ما لم يرد فيه بخصوصه وعيد شديد .

وقيل : هي كل ما نص الكتاب على تحريمه أو وجب في جنسه حدّ وترك فريضة تجب فوراً والكذب في الشهادة والرواية واليمين ، زاد الهروي .

(175/733)

وشريح وكل قول خالف الإجماع العام ، وقيل : كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة وهو المحكي عن إمام الحرمين ، ورجحه جمع لما فيه من حسن الضبط ، وتعقب بأنه بظاهره يتناول صغيرة الخسة ، والإمام كما قال الأذرعي إنما ضبط به ما يبطل العدالة من المعاصي الشاملة لذلك لا الكبيرة فقط ، نعم هو أشمل من التعريفين الأولين ، وقيل : هي ما أوجب الحدّ أو توجه إليه الوعيد ذكره الماوردي في فتاويه ، وقيل : كل محرم لعينه منهي عنه لمعنى في نفسه فإن فعله على وجه يجمع وجهين أو وجوهاً من التحريم كان فاحشة ، فالزنا كبيرة وبحليلة الجار فاحشة والصغيرة تعاطي ما تنقص رتبته عن رتبته المنصوص عليه .

أو تعاطيه على وجه دون المنصوص عليه فإن تعاطاه على وجه يجمع وجهين أو أكثر من التحريم كان كبيرة .

فالقبلة .

واللمس .

والمفاخذة صغيرة ، ومع حليلة الجار كبيرة كذا نقله ابن الرفعة وغيره عن القاضي حسين عن الحليمي ، وقيل : هي كل فعل نص الكتاب على تحريمه أي بلفظ التحريم وهو أربعة أشياء ، أكل الميتة ، ولحم الخنزير ، ومال اليتيم ، والفرار من الزحف ورد بمنع الحصر ، وقيل : إنها كل ذنب قرن به حدّ ، أو وعيد .

أو لعن بنص كتاب .

أو سنة .

أو علم أن مفسدته كمفسدة ما قرن به ذلك .

أو أكثر .

أو أشعر بتهاون مرتكبه في دينه إشعاراً صغر الكبائر المنصوص عليها بذلك كما لو قتل من يعتقده معصوماً فظهر أنه مستحق لدمه أو وطىء امرأة ظاناً أنه زان بها فإذا هي زوجته أو أمته ، وإليه ذهب شيخ الإسلام البارزي وقال : هو التحقيق ؛ وقيل : غير ذلك ، واعتمد الواحدي أنها لا حدّ لها يحصرها فقال : الصحيح أن الكبيرة ليس لها حدّ يعرفها العباد به وإلا لاقتحم الناس الصغائر واستباحوها ولكن الله تعالى أخفى ذلك عنهم ليجتهدوا في اجتناب المنهي عنه رجاء أن تجتنب الكبائر ، ونظير ذلك إخفاء الاسم الأعظم .

والصلاة الوسطى .

وليلة القدر .

(176/733)

وساعة الإجابة ، وقال العلامة ابن حجر الهيتمي : كل ما ذكر من الحدود إنما قصد به التقريب فقط وإلا فهي ليست بحدود جامعة ، وكيف يمكن ضبط ما لا مطمع في ضبطه ؟

وذهب جمع إلى تعريفها بالعدّ ، فعن ابن عباس أنها ما ذكره الله تعالى في أول سورة النساء إلى قوله سبحانه : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَائِرَ مَا تُنهَوْنَ عَنْهُ ﴾ [النساء : 31] .

وقيل : هي سبع وروي ذلك عن علي كرم الله تعالى وجهه .

وعطاء .

وعبيد بن عمير ، واستدل له بما في الصحيحين " اجتنبوا السبع الموبقات .

الإشراك بالله تعالى .

والسحر .

وقتل النفس التي حرم الله تعالى إلا بالحق .

وأكل مال اليتيم .

وأكل الربا .

والتولي يوم الزحف .

وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات " وقيل : خمس عشرة ، وقيل : أربع عشرة ، وقيل : أربع ، وعن ابن مسعود ثلاث ، وفي رواية أخرى عشرة ، وقال شيخ الإسلام العلائي : المنصوص عليه في الأحاديث أنه كبيرة خمس وعشرون ، وتعقبه ابن حجر بزيادة على ذلك ، وقال أبو طالب المكي : هي سبع عشرة أربع في القلب .

الشرك .

والإصرار على المعصية .

والقنوط .

والأمن من المكر ، وأربع في اللسان .

القذف .

وشهادة الزور .

والسحر ، وهو كل كلام يغير الإنسان أو شيئاً من أعضائه .

واليمين الغموس وهي التي تبطل بها حقاً أو تثبت بها باطلاً ، وثلاث في البطن .

أكل مال اليتيم ظلماً .

وأكل الربا .

وشرب كل مسكر ، واثنان في الفرج.

الزنا .

واللواط ، واثنتان في اليد القتل .

والسرقة ، وواحدة في الرجل .

(177/733)

الفرار من الزحف ، وواحدة في جميع الجسد عقوق الوالدين ، وفيه ما فيه ، وروى الطبراني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رجلاً قال له : كم الكبائر سبع هي ؟ فقال هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار ، وقد ألف فيها غير واحد من العلماء ، وفي كتاب الزواجر تأليف العلامة ابن حجر ما فيه كفاية فليراجع ، والله تعالى الموفق وإنا لنستغفره ونتوب إليه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ واسع المغفرة ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر ، فالجملة تعليل لاستثناء اللمم ، وتنبيه على أن إخراجه عن حكم المؤاخذة ليس لخلوه عن الذنب في نفسه بل لسعة المغفرة الربانية ، وجوز أن يكون المعنى له سبحانه أن يغفر لمن يشاء من المؤمنين ما يشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها ، ولعل تعقيب وعيد المسيئين ووعد المحسنين بذلك حينئذٍ لئلا ييأس صاحب الكبيرة من

رحمته تعالى ولا يتوهم وجوب العقاب عليه عز وجل ، وزعم بعض جواز كون الموصول مبتدأ وهذه الجملة خبره والرابط محذوف أي ﴿ واسع المغفرة ﴾ لهم ليس بشيء كما لا يخفى .

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أي بأحوالكم من كل أحد ﴿ إِذْ أَنشَأَكُمْ ﴾ في ضمن إنشاء أبيكم آدم عليه السلام .

﴿ مِّنَ الأَرْضِ ﴾ إنشاءاً إجمالياً حسبما مر تحقيقه ، وقيل : إنشاؤهم من الأرض باعتبار أن المني الذي يتكونون منه من الأغذية التي منشؤها من الأرض ، وأياً مّا كان فإذا ظرف لأعلم وهو على بابه من التفضيل .

(178/733)

وقال مكي : هو بمعنى عالم إذ تعلق علمه تعالى بأحوالهم في ذلك الوقت لا مشارك له تعالى فيه ، وتعقب بأنه قد يتعلق علم من أطلعه الله تعالى من الملائكة عليه ، وقيل : ﴿ إِذْ ﴾ منصوب بمحذوف ، والتقدير اذكروا ﴿ إِذْ أَنشَأَكُمْ ﴾ وهو كما ترى ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ ووقت كونكم أجنة ﴿ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ على أطوار مختلفة مترتبة لا يخفى عليه سبحانه حال من أحوالكم وعمل من أعمالكم التي من جملتها اللمم الذي لولا المغفرة

الواسعة لأصابكم وباله ، فالجملة استئناف مقرر لما قبلها وذكر ﴿ فِى بُطُونِ أمهاتكم ﴾ مع أن الجنين ما كان في البطن للإشارة إلى الأطوار كما أشرنا إليه ، وقيل : لتأكيد شأن العلم لما أن بطن الأم في غاية الظلمة ، والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ لترتيب النهي عن تزكية النفس على ما سبق من أن عدم المؤاخذة باللمم ليس لعدم كونه من قبيل الذنوب بل لمحض مغفرته تعالى مع علمه سبحانه بصدوره عنكم أي إذا كان الأمر كذلك فلا تثنوا على أنفسكم بالطهارة عن المعاصي بالكلية أو بزكاء العمل وزيادة الخير بل اشكروا الله تعالى على فضله ومغفرته جل شأنه ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتقى ﴾ المعاصي جميعاً وهو استئناف مقرر للنهي ومشعر بأن فيهم من يتقيها بأسرها كذا في "الإرشاد" ، وقيل : اتقى الشرك ، وقيل : اتقى شيئاً من المعاصي ، والآية نزلت على ما قيل : في قوم من المؤمنين كانوا يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا وهذا مذموم منهي عنه إذا كان بطريق الإعجاب ، أو الرياء أما إذا لم يكن كذلك فلا بأس به ولا يعد فاعله من المزكين أنفسهم ، ولذا قيل : المسرة بالطاعة طاعة وذكرها شكر ، ولا فرق في التزكية بين أن تكون عبارة وأن تكون إشارة وعدّ منها التسمية بنحو برّة ، أخرج أحمد .

ومسلم .

وأبو داود .

وابن مردويه .

وابن سعد عن زينب بنت أبي سلمة أنها سميت برّة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم سموها زينب " وكذا غير عليه الصلاة والسلام إلى ذلك اسم برة بنت جحش ، وتغيير مثل ذلك مستحب وكذا ما يوقع نفيه بعض الناس في شيء من الطيرة كبركة ويسار ، والنهي عن التسمية به للتنزيه وقوله صلى الله عليه وسلم كما روى جابر : " إن عشت إن شاء الله أنهى أمتي أن يسموا نافعاً وأفلح وبركة " محمول كما قال النووي على إرادة أنهى نهي تحريم ، والظاهر أن كراهة ما يشعر بالتزكية مخصوصة بما إذا كان الإشعار قوياً كما إذا كان الاسم قبل النقل ظاهر الدلالة على التزكية مستعملاً فيها فلا كراهة في التسمية بما يشعر بالمدح إذا لم يكن كذلك كسعيد وحسن ، وقد كان لعمر رضي الله تعالى عنه ابنة يقال لها : عاصية فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم جميلة كذا قيل ، والمقام بعد لا يخلو عن بحث فليراجع ، وقيل : معنى لا تزكوا أنفسكم لا يزكى بعضكم بعضاً ، والمراد النهي عن تزكية السمعة أو المدح للدنيا ، أو تزكية على سبيل القطع ، وأما التزكية لإثبات الحقوق ونحوه فهي جائزة ، وذهب بعضهم إلى أن الآية نزلت في اليهود .

أخرج الواحدي .

وابن المنذر .

وغيرهما عن ثابت بن الحرث الأنصاري قال : "كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا : هو صديق فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله تعالى في بطن أمها إلا يعلم سعادتها أو شقاوتها " فأنزل الله سبحانه عند ذلك ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(180/733)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾

عطف على قوله : ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ﴾ الخ فبعد أن ذكر أن لله أمور الدارين بقوله : ﴿ فللَّه الآخرة والأولى ﴾ [النجم : 25] انتقل إلى أهم ما يجري في الدارين من أحوال الناس الذين هم أشرف ما على الأرض بمناسبة قوله : ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ﴾ [النجم : 30] المراد به الإِشارة إلى الجزاء وهو إثبات لوقوع البعث والجزاء .

فالمقصود الأصلي من هذا الكلام هو قوله : ﴿ وما في الأرض ﴾ لأن المهم ما في الأرض إذ هم متعلق الجزاء ، وإنما ذكر معه ما في السماوات على وجه التتميم للإِعلام بإحاطة ملك الله لما احتوت عليه العوالم كلها ونكتة الابتداء بالتتميم دون تأخيره الذي هو مقتضى ظاهر في التتميمات هي الاهتمام بالعالم العلوي لأنه أوسع وأشرف وليكون المقصود وهو قوله : ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ﴾ الآية مقترناً بما يناسبه من ذكر ما في الأرض لأن المجزيين هم أهل الأرض ، فهذه نكتة مخالفة مقتضى الظاهر .

فيجوز أن يتعلق قوله : ﴿ ليجزى ﴾ بما في الخبر من معنى الكون المقدَّر في الجار والمجرور المخبر به عن ﴿ ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي كائن ملكاً لله كوناً علته أن يجزي الذين أساءوا والذين أحسنوا من أهل الأرض ، وهم الذين يصدر منهم الإِساءة والإِحسان فاللام في قوله : ﴿ ليجزي ﴾ لام التعليل ، جعل الجزاء علة لثبوت ملك الله لما في السموات والأرض .

(181/733)

ومعنى هذا التعليل أنّ من الحقائق المرتبطة بثبوت ذلك الملك ارتباطاً أوّليًّا في التعقل والاعتبار لا في إيجاد فإن ملك الله لما في السماوات وما في الأرض ناشىء عن إيجاد الله

تلك المخلوقات والله حين أوجدها عالم أن لها حياتين وأن لها أفعالاً حسنة وسيئة في الحياة الدنيا وعالم أنه مجزيها على أعمالها بما يناسبها جزاء خالداً في الحياة الآخرة فلا جرم كان الجزاء غايةً لإيجاد ما في الأرض فاعتبر هو العلة في إيجادهم وهي علة باعثة يحتمل أن يكون معها غيرُها لأن العلة الباعثة يمكن تعددها في الحكمة .

ويجوز أن يتعلق بقوله : ﴿ أعلم ﴾ من قوله : ﴿ هو أعلم بمن ضل عن سبيله ﴾ [النجم : 30] ، أي من خصائص علمه الذي لا يعزب عنه شيء أن يكون علمه مرتباً عليه الجزاءُ .

والباءانِ في قوله : ﴿ بما عملوا ﴾ وقوله : ﴿ بالحسنى ﴾ لتعدية فعْلي ﴿ ليجزي ﴾ و ﴿ يجزي ﴾ فما بعد الباءَيْن في معنى مفعول الفعلين ، فهما داخلتان على الجزاء ، وقوله : ﴿ بما عملوا ﴾ حينئذٍ تقديره : بمثل ما عملوا ، أي جزاء عادلاً مماثلاً لما عملوا ، فلذلك جعل بمنزلة عين ما عملوه على طريقة التشبيه البليغ .

وقوله : ﴿ بالحسنى ﴾ أي بالمثوبة الحسنى ، أي بأفضل مما عملوا ، وفيه إشارة إلى مضاعفة الحسنات كقوله : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ [النمل : 89] .

والحسنى : صفة لموصوف محذوف يدل عليه ﴿ يجزي ﴾ وهي المثوبة بمعنى الثواب .

وجاء ترتيب التفصيل لجزاء المسيئين والمحسنين على وفق ترتيب إجماله الذي في قوله : ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ [النجم : 30] على طريقة

اللف والنشر المرتب .

وقوله : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم ﴾ الخ صفة ل ﴿ الذين أحسنوا ﴾ ، أي الذين أحسنوا واجتنبوا كبائر الإِثم والفواحش ، أي فعلوا الحسنات واجتنبوا المنهيات ، وذلك جامع التقوى .

(182/733)

وهذا تنبيه على أن اجتناب ما ذكر يعُدّ من الإِحسان لأن فعل السيئات يُنافي وصفهم بالذين أحسنوا فإنهم إذا أتوا بالحسنات كلها ولم يتركوا السيئات كان فعلهم السيئات غير إحسان ولو تركوا السيئات وتركوا الحسنات كان تركهم الحسنات سيئات .

وقرأ الجمهور ﴿ كبائر الإثم ﴾ بصيغة جمع (كبيرة) .

وقرأ حمزة والكسائي ﴿ كبيرَ الإِثم ﴾ بصيغة الإِفراد والتذكير لأن اسم الجنس يستوي فيه المفرد والجمع .

والمراد بكبائر الإِثم : الآثام الكبيرة فيما شرع الله وهي ما شدد الدين التحذير منه أو ذكر له وعيداً بالعذاب أو وصف على فاعله حداً .

قال إمام الحرمين : "الكبائر كل جريمة تؤذن بقلة اكتراثِ مرتكبها بالدين وبرقة ديانته" .

وعطف الفواحش يقتضي أن المعطوف بها مغاير للكبائر ولكنها مغايرة بالعموم والخصوص الوجهي ، فالفواحش أخص من الكبائر وهي أقوى إثماً .

والفواحش : الفعلات التي يعد الذي فعلها متجاوزاً الكبائر مثل الزنى والسرقة وقتل الغيلة ، وقد تقدم تفسير ذلك في سورة الأنعام عند قوله تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ [الأعراف : 33] الآية وفي سورة النساء (31) في قوله : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ واستثناء اللمم استثناء منقطع لأن اللمم ليس من كبائر الإِثم ولا من الفواحش .

فالاستثناء بمعنى الاستدراك .

ووجهه أن ما سمي باللمم ضرب من المعاصي المحذر منها في الدين ، فقد يظن الناس أن النهي عنها يلحقها بكبائر الإِثم فلذلك حق الاستدراك ، وفائدة هذا الاستدراك عامة وخاصة : أما العامة فلكي لا يعامِل المسلمون مرتكب شيء منها معاملة من يرتكب الكبائر ، وأما الخاصة فرحمة بالمسلمين الذين قد يرتكبونها فلا يَقُل ارتكابها من نشاط طاعة المسلم ، ولينصرف اهتمامه إلى تجنب الكبائر .

فهذا الاستدراك بشارة لهم ، وليس المعنى أن الله رخص في إتيان اللمم .

وقد أخطأ وضاح اليَمن في قوله الناشىء عن سوء فهمه في كتاب الله وتطفله في غير صناعته:

فما نوَّلَتْ حتى تضرعتُ عندها . . .

وأنبأتُها ما رَخَّص الله في اللَّمم

واللمم : الفعل الحرام الذي هو دون الكبائر والفواحش في تشديد التحريم ، وهو ما يندر ترك الناس له فيكتفى منهم بعدم الإكثار من ارتكابه .

وهذا النوع يسميه علماء الشريعة الصغائر في مقابلة تسمية النوع الآخر بالكبائر .

فمثلوا اللمم في الشهوات المحرمة بالقبلة والغمزة .

سمي : اللمم ، وهو اسم مصدر أَلَمَّ بالمكان إلماماً إذا حلّ به ولم يُطل المكث ، ومن أبيات الكتاب:

قريشي منكمُ وَهَوَايَ مَعْكُم . . .

وإن كانت زيارتكم لِمامَا

وقد قيل إن هذه الآية نزلت في رجل يسمى نَبْهان التَمَّار كان له دُكان يبيع فيه تمراً (أي بالمدينة) فجاءته امرأة تشتري تمراً فقال لها : إنّ داخل الدُكان ما هو خير من هذا ، فلما دخلت راودها على نفسها فأبت فندم فأتى النبي وقال : ما من شيء يصنعه الرجل إلا

وقد فعلته (أي غصباً عليها) إلا الجماع ، فنزلت هذه الآية ، أي فتكون هذه الآية مدنية أُلحقت بسورة النجم المكية كما تقدم في أول السورة .

والمعنى : أن الله تجاوز له لأجل توبته .

ومن المفسرين من فسر اللَّمم بِالهَمّ بالسيئة ولا يفعل فهو إلمام مجازي .

وقوله : إن ربك واسع المغفرة ﴾ تعليل لاستثناء اللمم من اجتنابهم كبائر الإِثم والفواحش شرطاً في ثبوت وصف ﴿ الذين أحسنوا ﴾ لهم .

وفي بناء الخبر على جعل المسند إليه ﴿ ربك ﴾ دون الاسم العلم إشعار بأن سعة المغفرة رفق بعباده الصالحين شأن الرب مع مربوبه الحق .

وفي إضافة (رب) إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم دون ضمير الجماعة إيماء إلى أن هذه العناية بالمحسنين من أمته قد حصلت لهم ببركته .

(184/733)

والواسع : الكثير المغفرة ، استعيرت السعة لكثرة الشمول لأن المكان الواسع يمكن أن يحتوي على العدد الكثير ممن يحلّ فيه قال تعالى : ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ وتقدم في سورة غافر (7) .

هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أمهاتكم فَلاَ تزكوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى ﴾ .

الخطاب للمؤمنين ، ووقوعه عقب قوله : ﴿ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ ينبىء عن اتصال معناه بمعنى ذلك فهو غير مُوجه لليهود كما في "أسباب النزول" للواحدي وغيره .

وأصله لعبد الله بن لهيعة عن ثابت بن حارث الأنصاري .

قال : "كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير يقولون : هو صدّيق ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : كذبت يهود ، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد " فأنزل الله هذه الآية .

وعبد الله بن لهيعة ضَعفه ابن معين وتَركه وكيع ويحيى القطان وابن مهدي .

وقال الذهبي : العَمل على تضعيفه ، قلت : لعل أحد رواة هذا الحديث لم يضبط فقال : فأنزل الله هذه الآية ، وإنما قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذاً بعموم قوله : ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ﴾ الخ ، حجة عليهم ، وإلاّ فإن السورة مكية والخوض مع اليهود إنما كان بالمدينة .

وقال ابن عطية : حكى الثعلبي عن الكلبي ومقاتل أنها نزلت في قوم من المؤمنين فخروا بأعمالهم .

وكأنَّ الباعث على تطلب سبب لنزولها قصد إبداء وجه اتصال قوله : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ بما قبله وما بعده وأنه استيفاء لمعنى سعة المغفرة ببيان سعة الرحمة واللطف بعباده إذْ سلك بهم مسلك اليسر والتخفيف فعفا عمّا لو آخذهم به لأحرجهم فقوله : ﴿ هو أعلم بكم ﴾ نظير قوله : ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ﴾ [الأنفال : 66] الآية ثم يجيء الكلام في التفريع بقوله : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ .

(185/733)

فينبغي أن تحل جملة ﴿ هو أعلم بكم ﴾ إلى آخرها استئنافاً بيانياً لجملة ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ لما تضمنته جملة ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ من الامتنان ، فكأن السامعين لما سمعوا ذلك الامتنان شكروا الله وهجس في نفوسهم خاطر البحث عن سبب هذه الرحمة بهم فأجيبوا بأن ربهم أعلم بحالهم من أنفسهم فهو يدبر لهم ما لا يخطر ببالهم ، ونظيره ما في الحديث القدسي قال الله تعالى : " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر خيراً من بَلْه ما أطَّلَعتم عليه " .

وقوله : ﴿ إذ أنشأكم ﴾ ظرف متعلق بـ (أعلم) ، أي هو أعلم بالناس من وقت إنشائه إياهم من الأرض وهو وقت خلق أصلهم آدم .

والمعنى : أن إنشاءهم من الأرض يستلزم ضعف قدرهم عن تحمل المشاق مع تفاوت أطوار نشأة بني آدم ، فالله علم ذلك وعلم أن آخر الأمم وهي أمة النبي صلى الله عليه وسلم أضعف الأمم .

وهذا المعنى هو الذي جاء في حديث الإِسراء من قول موسى لمحمد عليهما الصلاة والسلام حين فرض الله على أمته خمسين صلاة "إن أمتك لا تطيق ذلك وإني جربت بني إسرائيل" أي وهم أشد من أمتك قوة ، فالمعنى أن الضعف المقتضي لسعة التجاوز بالمغفرة مقرر في علم الله من حين إنشاء آدم من الأرض بالضعف الملازم لجنس البشر على تفاوت فيه قال تعالى : ﴿ وخلق الإِنسان ضعيفاً ﴾ [النساء : 28] ، فإن إنشاء أصل الإِنسان من الأرض وهي عنصر ضعيف يقتضي ملازمة الضعف لجميع الأفراد المنحدرة من ذلك الأصل .

ومنه قوله النبي : " إن المرأة خُلقت من ضِلَع أعوج " .

وقوله : ﴿ وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴾ يختص بسعة المغفرة والرفق بهذه الأمة وهو مقتضى قوله تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة : 185] .

والأجنة : جمع جنين ، وهو نسل الحيوان ما دام في الرحم ، وهو فعيل بمعنى مفعول لأنه مستور في ظلمات ثلاث .

وفي ﴿ بطون أمهاتكم ﴾ صفة كاشفة إذ الجنين لا يقال إلا على ما في بطن أمه .

وفائدة هذا الكشف أن فيه تذكيراً باختلاف أطوار الأجنة من وقت العلوق إلى الولادة ، وإشارة إلى إحاطة علم الله تعالى بتلك الأطوار .

وجملة ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ اعتراض بين جملة ﴿ هو أعلم بكم ﴾ وجملة ﴿ أفرأيت الذي تولى ﴾ [النجم : 33] الخ ، والفاء لتفريع الاعتراض ، وهو تحذير للمؤمنين من العُجب بأعمالهم الحسنة عجباً يحدثه المرء في نفسه أو يدخله أحدٌ على غيره بالثناء عليه بعمله .

و ﴿ تزكوا ﴾ مضارع زكى الذي هو من التضعيف المراد منه نسبة المفعول إلى أصل الفعل نحو جَهَّله ، أي لا تنسبوا لأنفسكم الزكاة .

فقوله : ﴿ أنفسكم ﴾ صادق بتزكية المرء نفسه في سره أو علانيته فرجع الجمع في قوله : ﴿ فلا تزكوا ﴾ إلى مقابلة الجمع بالجمع التي تقتضي التوزيع على الآحاد مثل : ركب القوم دوابهم .

والمعنى : لا تحسبوا أنفسكم أزكياء وابتغوا زيادة التقرب إلى الله أولاً تثقوا بأنكم أزكياء فيدخلكم العجب بأعمالكم ويشمل ذلك ذكر المرء أعماله الصالحة للتفاخر بها ، أو إظهارها للناس ، ولا يجوز ذلك إلا إذا كان فيه جلب مصلحة عامة كما قال يوسف : ﴿

اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ [يوسف : 55] .

وعن الكلبي ومقاتل : كان ناس يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون : صلاتنا وصيامنا وحجنا وجهادنا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

ويشمل تزكية المرء غيره فيرجع ﴿ أنفسكم ﴾ إلى معنى قَومكم أو جماعتكم مثل قوله تعالى : ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ﴾ [النور : 61] أي ليسلم بعضكم على بعض .

والمعنى : فلا يثني بعضكم على بعض بالصلاح والطاعة لئلا يغيرُه ذلك .

وقد ورد النهي في أحاديث عن تزكية الناس بأعمالهم .

(187/733)

ومنه حديث أم عطية حين مات عثمان بن مظعون في بيتها ودخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت أم عطية : " رحمةُ الله عليك أبا السائب (كنية عثمان بن مظعون) فشهادتي عليك لقد أكرمكَ الله فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يُدريك أن الله أكرمه ، فقالت : إذا لم يُكرمه الله فمنْ يكرمهُ الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما هو فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير وإني والله ما أدري وأنا رسولُ الله ما

يُفعل بي " .

قالت أم عطية : فلا أزكي أحداً بعدَ ما سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد شاع من آداب عصر النبوة بين الصحابة التحرز من التزكية وكانوا يقولون إذا أثنوا على أحد لا أعلم عليه إلا خيراً ولا أزكي على الله أحداً .

وروى مسلم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : " سميت ابنتي بَرة فقالت لي زينب بنت بن سلمة إن رسول الله نهى عن هذا الإسم ، وسُمِّيتُ برة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر منكم ، قالوا : بم نسميها ؟ قال : سموها زينب " .

وقد ظهر أن النهي متوجه إلى أن يقول أحد ما يفيد زكاء النفس ، أي طهارتها وصلاحها ، تفويضاً بذلك إلى الله لأن للناس بواطن مختلفةَ الموافقةِ لظواهرهم وبين أنواعها بَون .

وهذا من التأديب على التحرز في الحكم والحيطة في الخِبرة واتهام القرائن والبوارق .

فلا يدخل في هذا النهي الإِخبارُ عن أحوال الناس بما يعلم منهم وجربوا فيه من ثقة وعدالة في الشهادة والرواية وقد يعبر عن التعديل بالتزكية وهو لفظ لا يراد به مثل ما أريد من قوله تعالى : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ بل هو لفظ اصطلح عليه الناس بعد نزول القرآن ومرادهم منه واضح .

ووقعت جملة ﴿ هو أعلم بمن اتقى ﴾ موقع البيان لسبب النهي أو لأهمِّ أسبابه ، أي

فوضوا ذلك إلى الله إذ هو أعلم بمن اتقى ، أي بحال من اتقى من كمال تقوى أو نقصها أو تزييفها .

(188/733)

وهذا معنى ما ورد في الحديث أن يقول من يخبر عن أحد بخير : " لا أزكي على الله أحداً " أي لا أزكى أحداً معتلياً حق الله ، أي متجاوزاً قدري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(189/733)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾

وهي الصغائر قال ابن عباس رضي الله عنهما ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة رضي الله عنه إن العين تزني وزناها النظر واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي

والفم يزني وزناه القبل ومنه ألم بكذا أي قاربه ودنا منه وغلام ملم أي قارب البلوغ وفي الحديث إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم أي يقرب من ذلك وبالجملة فلا يستبين كون اللمم من أسماء الحب وإن كان قد ذكره جماعة إلا أن يقال إن المحبوب قد ألم بقلب المحب أي نزل به ومنه ألمم بنا أي انزل بنا ومنه قوله

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا . . . تجد حطبا جزلا ونارا تأججا . انتهى انتهى . اهـ ﴾

روضة المحبين صـ 46. 47 ﴾

(190/733)

قوله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (34) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (35) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أمره سبحانه بالإعراض عمن تولى عن التشرف بذكر الملك الأعظم واللجاء إليه ،

ونهى عن التزكية للجهل بالعواقب ، وكان قد ارتد ناس عن الإسلام ، كان سبب ارتدادهم إخباره ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن بعض ما رأى من الآيات الكبرى ليلة الإسراء ، وكان لما نزلت عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ سجدة النجم وسجد فيها ـ صلى الله عليه وسلم ـ سجد معه – كما في البخاري – المسلمون والمشركون والجن والإنس ، ولم يكن في ظن أحد من الخلق انقلابهم على أدبارهم بعد حتى ولا في ظن المرتدين ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ أفرأيت ﴾ أي أخبروني ﴿ الذي تولّى ﴾ أي عن ذكرنا بعد أن كان حريصاً عليه ، يظن هو وأهله أنه عريق في أهله بإيمانه وأعماله في أيام إيمانه ﴿ وأعطى قليلاً وأكدى ﴾ أي قطع ذلك العطاء على مكده وقلته وأبطله وأفسده فصار كالحافر الذي وصل في حفره إلى كدية ، يقال لحافر البئر : أجبل – إذا وصل إلى جبل ، وأكدى – إذا وصل إلى كدية أي صفاة عظيمة شديدة لا تعمل فيها المعاول ، فصار لا يقدر معها على شيء من علمه ، ولا يستطيع النفوذ فيها بشيء من حيله ، وقد كان قبل ذلك لما صادف التراب الليل يظن أنه لا يمنعه مانع مما يريد ، فهذا دليل خبري شهودي على أنه لا علم لأحد من الخلق بما حباه الله في نفسه فضلاً عن غيره ، فلا ينبغي لأحد أن يزكي نفسه ولا غيره ، قيل : نزلت في الوليد بن المغيرة أسلم ثم ارتد لتعيير بعض المشركين له ، وقوله له " ارجع وأنا أتحمل عنك العذاب " وهي تصلح لكل من ارتد ظاهراً أو نافق أو انهمك في المعاصي بعد إيمانه معرضاً عن الأعمال الصالحة .

ولما كان هذا – وقد وقع في خطر عظيم من إفساد العمل في الماضي وتركه في المستقبل فصار على خطأ عظيم في أحدهما – يتعلق بأصل الدين : الكفر والإيمان ، وكان مثل هذا لا يفعله عاقل بنفسه إلا عن بصيرة ، قال تعالى موبخاً له مقرعاً : ﴿ أعنده ﴾ أي خاصة ﴿ علم الغيب ﴾ أي كله بحيث لا يشاركه في مشارك يمكن أن يخفى عليه شيء منه ﴿ فهو ﴾ أي فيتسبب عن ذلك أنه ﴿ يرى ﴾ أي الرؤية الكاملة فيعلم جميع ما ينفعه فيرتكبه وجميع ما يضره فيجتنبه ويعلم أن هذا القليل الذي أعطاه قد قبل وأمن به من العطب فاكتفى به .

ولما كان الغبي قد يظن أن عمل غيره ينفعه ، عبر عنه جامعاً للوعظ والتهويل بقوله : ﴿ أم لم ينبأ ﴾ أي يخبر إخباراً عظيماً متتابعاً ﴿ بما في صحف موسى ﴾ أي التوراة المنسوبة إليه بإنزالها عليه وكذا ما يتبعها من أسفار الأنبياء الذين جاؤوا بعده بتقريرها .

ولما قدم كتاب موسى عليه السلام لكونه أعظم كتاب بعد القرآن مع أنه موجود بين الناس يمكن مراجعته ، قال : ﴿ وإبراهيم ﴾ ومدحه بقوله دالاً بتشديد الفعل على غاية الوفاء : ﴿ الذي وفى ﴾ أي أتم ما أمر به وما امتحن به وما قلق شيئاً من قلق ، وكان أول من

هاجر قومه وصبر على حر ذبح الولد وكذا على حر النار ولم يستعن بمخلوق ، وخص هذين النبيين لأن المدعين من بني إسرائيل اليهود والنصارى يدعون متابعة عيسى عليه السلام ، ومن العرب يدعون متابعة إبراهيم عليه السلام ، ومن عداهم لا متمسك لهم ولا سلف في نبوة محققة ولا شريعة محفوظة ، ثم فسر الذي في الصحف أو استأنف بقوله : ﴿ ألا تزر ﴾ أي تأثم وتحمل ﴿ وازرة ﴾ أي نفس بلغت مبلغاً تكون فيه حاملة ﴿ وزر أخرى ﴾ أي حملها الثقيل من الإثم ، يعني فمن يحمل عنه أثم أحد الشقين الذي لزمه فلا بد أن يكون آثماً وهما قبل التولي وما بعده .

(192/733)

ولما نفى أن يضره إثم غيره نفى أن ينفعه سعي غيره فقال : ﴿ وأن ليس للإنسان ﴾ كائناً من كان ﴿ إلا ما سعى ﴾ فلا بد أن يعلم الحق في أي جهة فيسعى ، ودعاء المؤمنين للمؤمن سعيه بموادته لهم ولو بموافقته لهم في الدين وكذا الحج عنه والصدقة ونحوهما ، وأما الولد فواضح في ذلك ، وأما ما كان لسبب العلم ونحوهما فكذلك ، وتضحية للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في عزامته أصل كبير في ذلك ، فإن من تبعه فقد وادده ، وهذا أصل في التصدق عن الغير وإهداء ما له من الثواب في القراءة ونحوها .

ولما ثبت أنه ليس له ولا عليه إلا ما عمل ، وكان في الدنيا قد يفعل الشيء من الخير والشر ولا يراه من فعله لأجله ولا غيره نفى أن يكون الآخرة كذلك بقوله : ﴿ وأن سعيه ﴾ أي من خير وشر ﴿ سوف ﴾ أي من غير شك بوعد لا خلف فيه وإن طال المدى .

ولما كان الاطلاع نفسه مرضياً أو مخزياً لا بالنسبة لأحد بعينه ، بناه للمجهول بقوله : ﴿ يرى ﴾ ولما كان المخوف منه المجازاة مطلقاً لا من مجاز معين قال : ﴿ ثم يجزاه ﴾ ولما كان في هذه الدار ربما وقعت المسامحة ببعض الأشياء والغفلة عن بعضها ، قال : ﴿ الجزاء الأوفى ﴾ أي الإثم الأكمل ، إن كان خيراً فمع المضاعفة ، وإن كان غيره فعلى السواء لمن أراد الله ذلك له ويعفو عن كثير ، لكنه تذكرة له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 331.329 ﴾

(193/733)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال بعض المفسرين : نزلت الآية في الوليد بن المغيرة جلس عند النبي صلى الله عليه وسلم وسمع وعظه ، وأثرت الحكمة فيه تأثيراً قوياً ، فقال له رجل : لم تترك دين آبائك ، ثم قال له : لا تخف وأعطني كذا وأنا أتحمل عنك أوزارك ، فأعطاه بعض ما التزمه ، وتولى عن الوعظ وسماع الكلام من النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم : نزلت في عثمان رضي الله عنه ، كان يعطي ماله عطاء كثيراً ، فقال له أخوه من أمه عبد الله بن سعد بن أبي سرح : يوشك أن يفنى مالك فأمسك ، فقال له عثمان : إن لي ذنوباً أرجو أن يغفر الله لي بسبب العطاء ، فقال له أخوه : أنا أتحمل عنك ذنوبك إن تعطي ناقتك مع كذا ، فأعطاه ما طلب وأمسك يده عن العطاء ، فنزلت الآية ، وهذا قول باطل لا يجوز ذكره ، لأنه لم يتواتر ذلك ولا اشتهر ، وظاهر حال عثمان رضي الله عنه يأبى ذلك ، بل الحق أن يقال : إن الله تعالى لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم من قبل ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحياة الدنيا ﴾ [النجم : 29] وكان التولي من جملة أنواعه تولي المستغني ، فإن العالم بالشيء لا يحضر مجالس ذكر ذلك الشيء ، ويسعى في تحصيل غيره ، فقال ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذى تولى ﴾ عن استغناء ، أعلم بالغيب ؟ .

المسألة الثانية :

الفاء تقتضي كلاماً يترتب هذا عليه ، فماذا هو ؟ نقول : هو ما تقدم من بيان علم الله

وقدرته ، ووعده المسيء والمحسن بالجزاء وتقديره هو أن الله تعالى لما بين أن الجزاء لا بد من وقوعه على الإساءة والإحسان ، وأن المحسن هو الذي يجتنب كبائر الإثم ، فلم يكن الإنسان مستغنياً عن سماع كلام النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه ، فبعد هذا من تولى لا يكون توليه إلا بعد غاية الحاجة ونهاية الافتقار .

المسألة الثالثة :

(194/733)

﴿ الذى ﴾ على ما قال بعض المفسرين عائد إلى معلوم ، وهو ذلك الرجل وهو الوليد ، والظاهر أنه عائد إلى مذكور ، فإن الله تعالى قال من قبل ﴿ فَأَعْرَضَ عن مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا ﴾ وهو المعلوم لأن الأمر بالإعراض غير مختص بواحد من المعاندين فقال : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذى تولى ﴾ أي الذي سبق ذكره ، فإن قيل : كان ينبغي أن يقول الذين تولوا ، لأن (من) في قوله : ﴿ الذى تولى ﴾ للعموم ؟ نقول : العود إلى اللفظ كثير شائع قال تعالى : ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ ﴾ [القصص : 84] ولم يقل فلهم .

المسألة الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ وأعطى قَلِيلاً ﴾ ما المراد منه ؟ نقول : على ما تقدم هو المقدار الذي

أعطاه الوليد ، وقوله : ﴿ وأكدى ﴾ هو ما أمسك عنه ولم يعط الكل ، وعلى هذا لو قال قائل إن الإكداء لا يكون مذموماً لأن الإعطاء كان بغير حق ، فالامتناع لا يذم عليه ، وأيضاً فلا يبقى لقوله ﴿ قَلِيلاً ﴾ فائدة ، لأن الإعطاء حينئذ نفسه يكون مذموماً ، نقول فيه بيان خروجهم عن العقل والعرف أما العقل فلأنه منع من الإعطاء لأجل حمل الوزر ، فإنه لا يحصل به ، وأما العرف فلأن عادة الكرام من العرب الوفاء بالعهد ، وهو لم يف به حيث التزم الإعطاء وامتنع ، والذي يليق بما ذكرنا هو أن نقول : تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، يعني إعطاء ما وجب إعطاؤه في مقابلة ما يجب لإصلاح أمور الآخرة ، ويقع في قوله تعالى : ﴿ أعندهُ عِلْمُ الغيب ﴾ في مقابلة قوله تعالى :

(195/733)

﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ العلم ﴾ [النجم : 30] أي لم يعلم الغيب وما في الآخرة وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ موسى * وإبراهيم الذى وفى * أَلَّا تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى ﴾ [النجم : 36 38] في مقابلة قوله : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ ﴾ [النجم : 30] إلى قوله : ﴿ لِيَجْزِىَ الذين أساؤا ﴾ [النجم : 31] لأن الكلامين جميعاً لبيان الجزاء ، ويمكن أن يقال : إن الله تعالى لما بين حال المشركين المعاندين العابدين للات والعزى والقائلين

بأن الملائكة بنات الله شرع في بيان أهل الكتاب ، وقال بعد ما رأيت حال المشرك الذي تولى عن ذكرنا ، أفرأيت حال من تولى وله كتاب وأعطى قليلاً من الزمان حقوق الله تعالى ، ولما بلغ زمان محمد أكدى فهل علم الغيب فقال شيئاً لم يرد في كتبهم ولم ينزل عليهم في الصحف المتقدمة ، ووجد فيها بأن كل واحد يؤاخذ بفعله ويجازى بعمله ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ موسى * وإبراهيم الذى وفى ﴾ يخبر أن المتولي المذكور من أهل الكتاب .

المسألة الخامسة :

(196/733)

﴿ أكدى ﴾ قيل هو من بلغ الكدية وهي الأرض الصلبة لا تحفر ، وحافر البئر إذا وصل إليها فامتنع عليه الحفر أو تعسر يقال : أكدى الحافر ، والأظهر أنه الرد والمنع يقال : أكديته أي رددته وقوله تعالى : ﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الغيب فَهُوَ يرى ﴾ قد علم تفسيره جملة أن المراد جهل المتولي وحاجته وبيان قبح التولي مع الحاجة إلى الإقبال وعلم الغيب ، أي العلم بالغيب ، أي علم ما هو غائب عن الخلق وقوله : ﴿ فَهُوَ يرى ﴾ تتمة بيان وقت جواز التولي وهو حصول الرؤية وهو الوقت الذي لا ينفع الإيمان فيه ، وهناك لا يبقى وجوب

متابعة أحد فيما رآه ، لأن الهادي يهدي إلى الطريق فإذا رأى المهتدي مقصده بعينه لا ينفيه السماع ، فقال تعالى : هل علم الغيب بحيث رآه فلا يكون علمه علماً نظرياً بل علماً بصرياً فعصى فتولى وقوله تعالى : ﴿ فَهُوَ يرى ﴾ يحتمل أن يكون مفعول ﴿ يرى ﴾ هو احتمال الواحد وزر الآخر كأنه قال فهو يرى أن وزره محمول ألم يسمع أن وزره غير محمول فهو عالم بالحمل وغافل عن عدم الحمل ليكون معذوراً ، ويحتمل أن لا يكون له مفعول تقديره فهو يرى رأي نظر غير محتاج إلى هاد ونذير .

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36)

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ موسى * وإبراهيم الذى وفى ﴾ حال أخرى مضادة للأولى يعذر فيها المتولي وهو الجهل المطلق فإن من علم الشيء علماً تاماً لا يؤمر بتعلمه ، والذي جهله جهلاً مطلقاً وهو الغافل على الإطلاق كالنائم أيضاً لا يؤمر فقال : هذا المتولي هل علم الكل فجاز له التولي أو لم يسمع شيئاً وما بلغه دعوة أصلاً فيعذر ، ولا واحد من الأمرين بكائن فهو في التولي غير معذور ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله تعالى : ﴿ بِمَا وفى ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون المراد ما فيها لا بصفة كونه فيها ، فكأنه تعالى يقول : أم لم ينبأ بالتوحيد والحشر وغير ذلك ، وهذه أمور مذكورة في صحف موسى ، مثال : يقول القائل لمن توضأ بغير الماء توضأ بما توضأ به النبي صلى الله عليه وسلم وعلى هذا فالكلام مع الكل لأن المشرك وأهل الكتاب نبأهم النبي صلى الله عليه وسلم بما في صحف موسى ثانيهما : أن المراد بما في الصحف مع كونه فيها ، كما يقول القائل فيما ذكرنا من المثال توضأ بما في القربة لا بما في الجرة فيريد عين ذلك لا جنسه وعلى هذا فالكلام مع أهل الكتاب لأنهم الذين نبئوا به .

المسألة الثانية :

صحف موسى وإبراهيم ، هل جمعها لكونها صحفاً كثيرة أو لكونها مضافة إلى اثنين كما قال تعالى : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم : 4] ؟ الظاهر أنها كثيرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ الأَلواح ﴾ [الأعراف : 154] وقال تعالى : ﴿ وَأَلْقَى الأَلواح ﴾ [الأعراف : 150] وكل لوح صحيفة .

المسألة الثالثة :

ما المراد بالذي فيها ؟ نقول قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى * وَأَن لَّيْسَ للإنسان إِلَّا مَا سعى ﴾ [النجم : 38 ، 39] وما بعده من الأمور المذكورة على قراءة من قرأ أن بالفتح وعلى قراءة من يكسر ويقول : ﴿ وَأَنَّ إلى ربّكَ المنتهى ﴾ [النجم : 42] ففيه وجوه أحدها : هو ما ذكر بقوله : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى ﴾ وهو الظاهر ، وإنما احتمل غيره ، لأن صحف موسى وإبراهيم ليس فيها هذا فقط ، وليس هذا معظم المقصود بخلاف قراءة الفتح ، فإن فيها تكون جميع الأصول على ما بين ثانيها : هو أن الآخرة خير من الأولى يدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى * صُحُفِ إبراهيم وموسى ﴾ [الأعلى : 18 ، 19] ثالثها : أصول الدين كلها مذكورة في الكتب بأسرها ، ولم يخل الله كتاباً عنها ، ولهذا قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] وليس المراد في الفروع ، لأن فروع دينه مغايرة لفروع دينهم من غير شك .

المسألة الرابعة :

قدم موسى ههنا ولم يقل كما قال في ﴿ سَبِّحِ اسم ربّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] فهل فيه فائدة ؟ نقول : مثل هذا في كلام الفصحاء لا يطلب له فائدة ، بل التقديم والتأخير سواء في كلامهم فيصح أن يقتصر على هذا الجواب ، ويمكن أن يقال : إن الذكر هناك لمجرد الإخبار والإنذار وههنا المقصود بيان انتفاء الأعذار ، فذكر هناك على ترتيب الوجود صحف

إبراهيم قبل صحف موسى في الإنزال ، وأما ههنا فقد قلنا إن الكلام مع أهل الكتاب وهم اليهود فقدم كتابهم ، وإن قلنا الخطاب عام فصحف موسى عليه السلام كانت كثيرة الوجود ، فكأنه قيل لهم انظروا فيها تعلموا أن الرسالة حق ، وأرسل من قبل موسى رسل والتوحيد صدق والحشر واقع فلما كانت صحف موسى عند اليهود كثيرة الوجود قدمها ، وأما صحف إبراهيم فكانت بعيدة وكانت المواعظ التي فيها غير مشهورة فيما بينهم كصحف موسى فأخر ذكرها .

(199/733)

المسألة الخامسة :

كثيراً ما ذكر الله موسى فأخر ذكره عليه السلام لأنه كان مبتلى في أكثر الأمر بمن حواليه وهم كانوا مشركين ومتهودين والمشركون كانوا يعظمون إبراهيم عليه السلام لكونه أباهم ، وأما قوله تعالى : ﴿ وفى ﴾ ففيه وجهان أحدهما : أنه الوفاء الذي يذكر في العهود وعلى هذا فالتشديد للمبالغة يقال وفى ووفى كقطع وقطع وقتل وقتل ، وهو ظاهر لأنه وفى بالنذر وأضجع ابنه للذبح ، وورد في حقه : ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ [الصافات : 105] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين ﴾ [الصافات : 106] وثانيهما : أنه من التوفية

التي من الوفاء وهو التمام والتوفية الإتمام يقال وفاه أي أعطاه تاماً ، وعلى هذا فهو من قوله : ﴿ وَإِذَا ابتلى إبراهيم رَبُّهُ بكلمات فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة : 124] وقيل : ﴿ وفى ﴾ أي أعطى حقوق الله في بدنه ، وعلى هذا فهو على ضد من قال تعالى فيه : ﴿ وأعطى قَلِيلاً وأكدى ﴾ مدح إبراهيم ولم يصف موسى عليه السلام ، نقول : أما بيان توفيته ففيه لطيفة وهي أنه لم يعهد عهداً إلا وفى به ، وقال لأبيه : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ [يوسف : 98] فاستغفر ووفى بالعهد ولم يغفر الله له ، فعلم ﴿ أَن لَّيْسَ للإنسان إِلاَّ مَا سعى ﴾ وأن وزره لا تزره نفس أخرى ، وأما مدح إبراهيم عليه السلام فلأنه كان متفقاً عليه بين اليهود والمشركين والمسلمين ولم ينكر أحد كونه وفياً ، وموفياً ، وربما كان المشركون يتوقفون في وصف موسى عليه السلام ، ثم قال تعالى : ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى ﴾ وقد تقدم تفسيره في سورة الملائكة ، والذي يحسن بهذا الموضع مسائل :

الأولى : أنا بينا أن الظاهر أن المراد من قوله : ﴿ بِمَا فِى صُحُفِ موسى ﴾ هو ما بينه بقوله ﴿ أَلاَّ تَزِرُ ﴾ فيكون هذا بدلاً عن ما وتقديره أم لم ينبأ بألا تزر وذكرنا هناك وجهين أحدهما : المراد أن الآخرة خير وأبقى وثانيهما : الأصول .

المسألة الثانية :

﴿ أَلَّا تَزِرُ ﴾ أن خفيفة من الثقيلة كأنه قال : أنه لا تزر وتخفيف الثقيلة لازم وغير لازم جائز وغير جائز ، فاللازم عندما يكون بعدها فعل أو حرف داخل على فعل ، ولزم فيها التخفيف ، لأنها مشبهة بالفعل في اللفظ والمعنى ، والفعل لا يمكن إدخاله على فعل فأخرج عن شبه الفعل إلى صورة تكون حرفاً مختصاً بالفعل فتناسب الفعل فتدخل عليه .

المسألة الثالثة :

إن قال قائل : الآية مذكورة لبيان أن وزر المسيء لا يحمل عنه وبهذا الكلام لا تحصل هذه الفائدة لأن الوازرة تكون مثقلة بوزرها فيعلم كل أحد أنها لا تحمل شيئاً ولو قال لا تحمل فارغة وزر أخرى كان أبلغ تقول ليس كما ظننت ، وذلك لأن المراد من الوازرة هي التي يتوقع منها الوزر والحمل لا التي وزرت وحملت كما يقال : شقاني الحمل ، وإن لم يكن عليه في الحال حمل ، وإذا لم تزر تلك النفس التي يتوقع منها ذلك فكيف تتحمل وزر غيرها فتكون الفائدة كاملة .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ تتمة بيان أحوال المكلف فإنه لما بين له أن سيئته لا يتحملها عنه أحد بين له أن حسنة الغير لا تجدي نفعاً ومن لم يعمل صالحاً لا ينال خيراً فيكمل بها ويظهر أن المسيء لا يجد بسبب حسنة الغير ثواباً ولا يتحمل عنه أحد عقاباً ، وفيه أيضاً مسائل :

الأولى : ﴿ لَّيْسَ للإنسان ﴾ فيه وجهان أحدهما : أنه عام وهو الحق وقيل عليه بأن في الأخبار أن ما يأتي به القريب من الصدقة والصوم يصل إلى الميت والدعاء أيضاً نافع فللإنسان شيء لم يسمع فيه ، وأيضاً قال الله تعالى : ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : 160] وهي فوق ما سعى ، الجواب عنه أن الإنسان إن لم يسع في أن يكون له صدقة القريب بالإيمان لا يكون له صدقته فليس له إلا ما سعى ، وأما الزيادة فنقول : الله تعالى لما وعد المحسن بالأمثال والعشرة وبالأضعاف المضاعفة فإذا أتى بحسنة راجياً أن يؤتيه الله ما يتفضل به فقد سعى في الأمثال ، فإن قيل : أنتم إذن حملتم السعي على المبادرة إلى الشيء ، يقال : سعى في كذا إذا أسرع إليه ، والسعي في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَا سعى ﴾ معناه العمل يقال : سعى فلان أي عمل ، ولو كان كما ذكرتم لقال : إلا ما سعى فيه نقول على الوجهين جميعاً : لا بد من زيادة فإن قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ للإنسان إِلاَّ مَا سعى ﴾ ليس المراد منه أن له عين ما سعى ، بل المراد على ما ذكرت ليس له إلا ثواب ما سعى ، أو إلا أجر ما سعى ، أو يقال : بأن المراد أن ما سعى محفوظ له مصون عن الإحباط فإذن له فعله يوم القيامة الوجه الثاني : أن المراد من الإنسان الكافر دون المؤمن

وهو ضعيف ، وقيل بأن قوله : ﴿ لَّيْسَ للإنسان إِلاَّ مَا سعى ﴾ كان في شرع من تقدم ، ثم إن الله تعالى نسخه في شرع محمد صلى الله عليه وسلم وجعل للإنسان ما سعى وما لم يسع وهو باطل إذ لا حاجة إلى هذا التكلف بعد ما بان الحق ، وعلى ما ذكر فقوله : ﴿ مَا سعى ﴾ مبقى على حقيقته معناه له عين ما سعى محفوظ عند الله تعالى ولا نقصان يدخله ثم يجزى به كما قال تعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7] .

المسألة الثانية :

(202/733)

أن ﴿ مَا ﴾ خبرية أو مصدرية ؟ نقول : كونها مصدرية أظهر بدليل قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرى ﴾ أي سوف يرى المسعي ، والمصدر للمفعول يجيء كثيراً يقال : هذا خلق الله أي مخلوقه .

المسألة الثالثة :

المراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة أو بيان كل عمل ، نقول : المشهور أنهما لكل عمل فالخير مثاب عليه والشر معاقب به والظاهر أنه لبيان الخيرات يدل عليه اللام في قوله تعالى :

﴿ للإنسان ﴾ فإن اللام لعود المنافع وعلى لعود المضار تقول : هذا له ، وهذا عليه ، ويشهد له ويشهد عليه في المنافع والمضار ، وللقائل الأول أن يقول : بأن الأمرين إذا اجتمعا غلب الأفضل كجموع السلامة تذكر إذا اجتمعت الإناث مع الذكور ، وأيضاً يدل عليه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الجزاء الأوفى ﴾ [النجم : 41] والأوفى لا يكون إلا في مقابلة الحسنة ، وأما في السيئة فالمثل أو دونه العفو بالكلية .

المسألة الرابعة :

﴿ إِلاَّ مَا سعى ﴾ بصيغة الماضي دون المستقبل لزياد الحث على السعي في العمل الصالح وتقريره هو أنه تعالى لو قال : ليس للإنسان إلا ما يسعى ، تقول النفس إني أصلي غداً كذا ركعة وأتصدق بكذا درهماً ، ثم يجعل مثبتاً في صحيفتي الآن لأنه أمر يسعى وله فيه ما يسعى فيه ، فقال : ليس له إلا ما قد سعى وحصل وفرغ منه ، وأما تسويلات الشيطان وعداته فلا اعتماد عليها .

وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41)

أي يعرض عليه ويكشف له من أريته الشيء ، وفيه بشارة للمؤمنين على ما ذكرنا ، وذلك أن الله يريه أعماله الصالحة ليفرح بها ، أو يكون يرى ملائكته وسائر خلقه ليفتخر العامل به على ما هو المشهور وهو مذكور لفرح المسلم ولحزن الكافر ، فإن سعيه يرى للخلق ، ويرى لنفسه ويحتمل أن يقال : هو من رأى يرى فيكون كقوله تعالى : ﴿ وَقُلِ اعملوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : 105] وفيها وفي الآية التي بعدها مسائل :

الأولى : العمل كيف يرى بعد وجوده ومضيه ؟ نقول فيه وجهان : أحدهما : يراه على صورة جميلة إن كان العمل صالحاً ثانيهما : هو على مذهبنا غير بعيد فإن كل موجود يرى ، والله قادر على إعادة كل معدوم فبعد الفعل يرى (1) وفيه وجه ثالث : وهو أن ذلك مجاز عن الثواب يقال : سترى إحسانك عند الملك أي جزاءه عليه وهو بعيد لما قال بعده : ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الجزاء الأوفى ﴾ .

المسألة الثانية :

الهاء ضمير السعي أي ثم يجزى الإنسان سعيه بالجزاء ، والجزاء يتعدى إلى مفعولين قال تعالى : ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ [الإنسان : 12] ويقال : جزاك الله خيراً ، ويتعدى إلى ثلاثة مفاعيل بحرف يقال : جزاه الله على عمله الخير الجنة ، ويحذف الجار ويوصل الفعل فيقال : جزاه الله عمله الخير الجنة ، هذا وجه ، وفيه وجه آخر وهو أن الضمير للجزاء ، وتقديره ثم يجزى جزاء ويكون قوله : ﴿ الجزاء الأوفى ﴾ تفسيراً أو بدلاً

مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ ﴾ [الأنبياء : 3] فإن التقدير والذين ظلموا أسروا النجوى ، الذين ظلموا ، والجزاء الأوفى على ما ذكرنا يليق بالمؤمنين الصالحين لأنه جزاء الصالح ، وإن قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاء مَّوفُورًا ﴾ [الإسراء : 63] وعلى ما قيل : يجاب أن الأوفى بالنظر إليه فإن جهنم ضررها أكثر بكثير مع نفع الآثام فهي في نفسها أوفى .

---

(1) ثبت علميا أن أعمال الإنسان وغيره مثبتة كما هي على لوحات الأثير كالصورة الفوتوغرافية تماما وكذلك الأصوات فإنها تسجل في الموجات الأثيرية غير أنها تبتعد عنا بتقدم الزمان وقد استطاع العلماء سماع تلك الأصوات بمكبرات صوتية والراديو والتليفزيون أمثلة مصغرة لذلك وهذا من أدلة القدرة الباهرة ومن الأدلة على البعث والحساب ، فمحال أن يكون حفظها عبثا .

المسألة الثالثة :

﴿ ثُمَّ ﴾ لتراخي الجزاء أو لتراخي الكلام أي ثم نقول يجزاه فإن كان لتراخي الجزاء فكيف يؤخر الجزاء عن الصالح ، وقد ثبت أن الظاهر أن المراد منه الصالح ؟ نقول : الوجهان

محتملان وجواب السؤال هو أن الوصف بالأوفى يدفع ما ذكرت لأن الله تعالى من أول زمان يموت الصالح يجزيه جزاء على خيره ويؤخر له الجزاء الأوفى ، وهي الجنة أو نقول الأوفى إشارة إلى الزيادة فصار كقوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى ﴾ [يونس : 26] وهي الجنة : ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ وهي الرؤية فكأنه تعالى قال وأن سعيه سوف يرى ثم يرزق الرؤية ، وهذا الوجه يليق بتفسير اللفظ فإن الأوفى مطلق غير مبين فلم يقل : أوفى من كذا ، فينبغي أن يكون أوفى من كل واف ولا يتصف به غير رؤية الله تعالى .

المسألة الرابعة :

في بيان لطائف في الآيات الأولى : قال في حق المسيء : ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى ﴾ وهو لا يدل إلا على عدم الحمل عن الوازرة وهذا لا يلزم منه بقاء الوزر عليها من ضرورة اللفظ ، لجواز أن يسقط عنها ويمحو الله ذلك الوزر فلا يبقى عليها ولا يتحمل عنها غيرها ولو قال : لا تزر وازرة إلا وزر نفسها كان من ضرورة الاستثناء أنها تزر ، وقال في حق المحسن : ليس للإنسان إلا ما سعى ، ولم يقل : ليس له ما لم يسع لأن العبارة الثانية ليس فيها أن له ما سعى ، وفي العبارة الأولى أن له ما سعى ، نظراً إلى الاستثناء ، وقال : في حق المسيء بعبارة لا تقطع رجاءه ، وفي حق المحسن بعبارة تقطع خوفه ، كل ذلك إشارة إلى سبق الرحمة الغضب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 10 . 16 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيتَ الذي تولى وأعطى قَلِيلاً وأكدى ﴾ الآيات

لما بيّن جهل المشركين في عبادة الأصنام ذكر واحداً منهم معيناً بسوء فعله .

قال مجاهد وابن زيد ومقاتل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم على دينه فعيّره بعض المشركين ، وقال : لِمَ تركتَ دين الأشياخ وضَلَّلتهم وزعمت أنهم في النار ؟ ! قال : إني خشيت عذاب الله ؛ فضمن له إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله ، فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له ثم بخل ومنعه فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال مقاتل : كال الوليد مدح القرآن ثم أمسك عنه فنزل : ﴿ وأعطى قَلِيلاً ﴾ أي من الخير بلسانه "وَأَكْدَى" أي قطع ذلك وأمسك عنه .

وعنه أنه أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد الإيمان ثم تولى فنزلت : ﴿ أَفَرَأَيتَ الذي تولى ﴾ الآية .

وقال ابن عباس والسُّدي والكلبي والمسيّب بن شريك : نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يتصدّق وينفق في الخير ، فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبي سَرْح : ما هذا الذي تصنع ؟ يوشك ألاّ يبقى لك شيء .

فقال عثمان : إن لي ذنوباً وخطايَا ، وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوها فقال له عبد الله : أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها .

فأعطاه وأشهد عليه ، وأمسك عن بعض ما كان يصنع من الصدقة فأنزل الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذي تولى ﴾ ﴿ وأعطى قَلِيلاً وأكدى ﴾ فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله .

ذكر ذلك الواحديّ والثعلبيّ .

وقال السّديّ أيضاً : نزلت في العاص بن وائل السَّهْميّ ، وذلك أنه كان ربما يوافق النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقال محمد بن كعب القرظيّ : نزلت في أبي جهل بن هشام ، قال : واللَّهِ ما يأمر محمدٌ إلا بمكارم الأخلاق ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وأعطى قَلِيلاً وأكدى ﴾ .

(206/733)

وقال الضحاك : هو النَّضْر بن الحرث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حين ارتد عن دينه ، وضمن له أن يتحمل عنه مأثم رجوعه .

وأصل "أَكْدَى" من الكُدْية يقال لمن حَفَر بئراً ثم بلغ إلى حجر لا يتهيّأ له فيه حَفْر : قد أَكْدَى ، ثم استعملته العرب لمن أعطى ولم يُتمِّم ، ولمن طلب شيئاً ولم يبلغ آخره .

وقال الحُطَيْئة :

فأعطى قليلاً ثم أَكْدَى عطاءَه . . .

ومن يَبْذُلِ المعروفَ في الناسِ يُحمَدِ

قال الكسائيّ وغيره : أَكْدَى الحافرُ وأَجبْل إذا بلغ في حَفْره كُدْيَة أو جبلاً فلا يمكنه أن يَحفِر .

وحفر فأَكْدَى إذا بلغ إلى الصُّلْب .

ويقال : كدِيت أصابعه إذا كَلَّتْ من الحفر .

وكَدِيت يدهُ إذا كَلَّتْ فلم تعمل شيئاً .

وأَكْدَى النَّبتُ إذا قلّ رَيْعه ، وكَدَتِ الأرض تَكْدُو كَدْواً (وكُدُوًّا) فهي كَادِيَةٌ إذا أبطأ نباتها ؛ عن أبي زيد .

وأَكْدَيْتُ الرجلَ عن الشيء رددته عنه .

وأَكْدَى الرجلُ إذا قلّ خيره .

وقوله : ﴿ وأعطى قَلِيلاً وأكدى ﴾ أي قطع القليل .

قوله تعالى : ﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الغيب فَهُوَ يرى ﴾ أي أعند هذا المكدِي علمُ ما غاب عنه من أمر العذاب ؟ .

﴿ فَهُوَ يرى ﴾ أي يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة ، وما يكون من أمره حتى يضمن حمل

العذاب عن غيره ، وكفى بهذا جهلاً وحمقاً .

وهذه الرؤية هي المتعدية إلى مفعولين والمفعولان محذوفان ؛ كأنه قال : فهو يرى الغيبَ مثلَ الشهادة .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ موسى وَإِبْرَاهِيمَ ﴾

أي صحف ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى ﴾ كما في سورة "الأعلى" ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وموسى ﴾ [الأعلى : 19] أي لا تؤخذ نفس بدلاً عن أخرى ؛ كما قال : ﴿ أَن لاَّ تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى ﴾ وخصّ صحف إبراهيم وموسى بالذكر ؛ لأنه كان ما بين نوح وإبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة أخيه وابنه وأبيه ؛ قاله الهذيل ابن شرحبيل .

(207/733)

"وأنْ" هذه المخففة من الثقيلة وموضعها جرٌّ بدلاً من "ما" أو يكون في موضع رفع على إضمار هو .

وقرأ سعيد بن جبير وقتادة "وَفَى" خفيفة ومعناها صدق في قوله وعمله ، وهي راجعة إلى معنى قراءة الجماعة "وَفَّى" بالتشديد أي قام بجميع ما فرض عليه فلم يَخْرم منه شيئاً .

وقد مضى في "البقرة" عند قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [

البقرة : 124] والتوفية الإتمام .

وقال أبو بكر الورّاق : قام بشرط ما ادعى ؛ وذلك أن الله تعالى قال له : ﴿ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالمين ﴾ [البقرة : 131] فطالبه الله بصحة دعواه ، فابتلاه في ماله وولده ونفسه فوجده وافياً بذلك ؛ فذلك قوله : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى ﴾ أي ادعى الإسلام ثم صحح دعواه .

وقيل : وفّي عمله كل يوم بأربع ركعات في صدر النهار ؛ رواه الهيثم عن أبي أمامة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وروى سهل بن سعد الساعدي عن أبيه : " أَلاَ أخبركم لم سَمَّى اللَّه تعالى خليلَه إبراهيمَ "الَّذِي وَفَّى" لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : ﴿ فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ " [الروم : 17] الآية .

ورواه سهل بن معاذ عن أنس عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقيل : "وفَّى" أي وَفَّى ما أرسل به ، وهو قوله : ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ قال ابن عباس : كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنب غيره ، ويأخذون الوليَّ بالوليِّ في القتل والجراحة ؛ فيقتل الرجل بأبيه وابنه وأخيه وعمه وخاله وابن عمه وقريبه وزوجته وزوجها وعبده ، فبلغهم إبراهيم عليه السلام عن الله تعالى : ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ .

وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير في قوله تعالى "وَفَّى" : عمل بما أمر به وبلّغ رسالات ربه .

وهذا أحسن ؛ لأنه عام .

وكذا قال مجاهد : "وَفَّى" بما فرض عليه .

(208/733)

وقال أبو مالك الغفاريّ قوله تعالى : ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ إلى قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكَ تتمارى ﴾ في صحف إبراهيم وموسى ، وقد مضى في آخر "الأنعام" القول في ﴿ وَلاَ تزروازرة وِزْرَ أُخرى ﴾ [الأنعام : 164] مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ روي عن ابن عباس أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور : 21] فيحصل الولد الطفل يوم القيامة في ميزان أبيه ، ويشفّع الله تعالى الآباء في الأبناء والأبناء في الآباء ؛ يدل على ذلك قوله تعالى

﴿ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً ﴾ [النساء : 11] .

وقال أكثر أهل التأويل : هي محكمة ولا ينفع أحداً عمل أحدٍ ، وأجمعوا أنه لا يصلّي أحد

عن أحد .

ولم يُجزِ مالك الصيام والحج والصدقة عن الميت ، إلا أنه قال : إن أوصى بالحج ومات جاز أن يحج عنه .

وأجاز الشافعي وغيره الحج التطوّع عن الميّت .

وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها اعتكفت عن أخيها عبد الرحمن وأعتقت عنه .

وروي " أن سعد بن عبادة قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن أمِّي توفيت أفأتصدق عنها ؟ قال : "نعم" قال : فأي الصدقة أفضل ؟ قال : "سقي الماء" " وقد مضى جميع هذا مستوفًى في "البقرة" و "آل عمران" "والأعراف" .

وقد قيل : إن الله عز وجل إنما قال : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ ولام الخفض معناها في العربية الملك والإيجاب فلم يجب للإنسان إلا ما سعى ، فإذا تصدّق عنه غيره فليس يجب له شيء إلا أن الله عز وجل يتفضل عليه بما لا يجب له ، كما يتفضل على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل .

وقال الربيع بن أنس : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ يعني الكافر وأما المؤمن فله ما سَعَى وما سَعَى له غيره .

قلت : وكثير من الأحاديث يدل على هذا القول ، وأن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره ، وقد تقدّم كثير منها لمن تأملها ، وليس في الصدقة اختلاف ، كما في صدر كتاب مسلم عن عبد الله بن المبارك .

وفي الصحيح : " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث " وفيه " أو ولد صالح يدعو له " وهذا كله تفضل من الله عز وجل ، كما أن زيادة الأضعاف فضل منه ؛ كتب لهم بالحسنة الواحدة عشراً إلى سبعمائة ضعف إلى ألف ألف حسنة ؛ كما قيل لأبي هريرة : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة " فقال سمعته يقول : " إن الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة " فهذا تفضل .

وطريق العدل ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ .

قلت : ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ خاص في السيئة ؛ بدليل ما في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله عز وجل إذا همّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضِعف وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئةً واحدة " وقال أبو بكر الورّاق : ﴿ إِلاَّ مَا سعى ﴾ إلا ما نوى ؛ بيانه قوله صلى الله

عليه وسلم :

"يُبعث الناس يوم القيامة على نياتهم"

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرى ﴾ أي يُريه الله تعالى جزاءه يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ ﴾ أي يجزى به ﴿ الجزآء الأوفى ﴾ .

قال الأخفش : يقال جزيته الجزاء ، وجزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما ؛ قال الشاعر :

إنْ أَجْزِ عَلْقَمَةَ بنَ سَعْدٍ سَعْيَه . . .

لم أَجْزِه ببَلاءِ يَوْمٍ واحِدِ

فجمع بين اللغتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(210/733)

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَرَأَيْتَ الذى تولى ﴾

أي عن اتباع الحق والثبات عليه .

﴿ وأعطى قَلِيلاً ﴾ أي شيئاً قليلاً ، أو إعطاءاً قليلاً ﴿ وأكدى ﴾ أي قطع العطاء من قولهم حفر فأكدى إذا بلغ إلى كديه أي صلابة في الأرض فلم يمكنه الحفر ، قال مجاهد .

وابن زيد : نزلت في الوليد بن المغيرة كان قد سمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس إليه ووعظه فقرب من الإسلام وطمع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إنه عاتبه رجل من المشركين ، وقال له : أتترك ملة آبائك ؟! ارجع إلى دينك وأثبت عليه وأنا أتحمل عنك كل شيء تخافه في الآخرة لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال فوافقه الوليد على ذلك ورجع عما هم به من الإسلام وصل ضلالاً بعيداً ، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشح ، وقال الضحاك : هو النضر بن الحرث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حتى ارتد عن دينه وضمن له أن يحمل عنه مأثم رجوعه ، وقال السدي : نزلت في العاص بن وائل السهمي كان يوافق النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأمور ، وقال محمد بن كعب : في أبي جهل قال : والله ما يأمر محمد إلا بمكارم الأخلاق ، والأول هو الأشهر الأنسب لما بعده من قوله سبحانه :

(211/733)

﴿ عِلْمُ الغيب فَهُوَ ﴾ إلى آخره ، وأما ما في "الكشاف" من أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه كان يعطي ماله في الخير فقال له عبد الله بن سعيد بن أبي سرح : يوشك أن لا يبقى لك شيء فقال عثمان : إن لي ذنوباً وخطايا وإني أطلب بما أصنع رضا

الله تعالى وأرجو عفوه فقال عبد الله : أعطني ناقتك برحلها وأنا أحمل عنك ذنوبك كلها فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء فباطل كما قال ابن عطية ولا أصل له ، وعثمان رضي الله تعالى عنه منزه عن مثل ذلك ، و ﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ [النجم : 33] هنا على ما في "البحر" بمعنى أخبرني ومفعولها الأول الموصول ، والثاني : الجملة الاستفهامية ، والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَهُوَ يَرَى ﴾ للتسبب عما قبله أي أعنده علم بالأمور الغيبية فهو بسبب ذلك يعلم أن صاحبه يتحمل عنه يوم القيامة ما يخافه ، وقيل : يرى أن ما سمعه من القرآن باطل ، وقال الكلبي : المعنى أأنزل عليه قرآن فرأى أن ما صنعه حقه ، وأياً مّا كان فيرى من الرؤية القلبية ، وجوز أن تكون من الرؤية البصرية أي فهو يبصر ما خفى عن غيره مما هو غيب .

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ ﴾ أي بل ألم يخبر .

﴿ بِمَا فِى صُحُفِ موسى ﴾ وهي التوراة .

(212/733)

﴿ وإبراهيم ﴾ وبما في صحف إبراهيم التي نزلت عليه ﴿ الذى وفى ﴾ أي وفر وأتم ما أمر به ، أو بالغ في الوفاء بما عاهد عليه الله تعالى ، وقال ابن عباس : وفي بسهام الإسلام

كلها ولم يوفها أحد غيره وهي ثلاثون سهماً منها عشرة في براءة ﴿ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وأموالهم ﴾ الآيات ، وعشرة في [الأحزاب : 35] ﴿ إِنَّ المسلمين والمسلمات ﴾ الآيات ، وست في قد أفلح المؤمنون الآيات التي في أولها ، وأربع في سأل سائل ﴿ والذين يُصَدّقُونَ بِيَوْمِ الدين ﴾ [المعارج : 26] الآيات ، وفي حديث ضعيف عن أبي أمامة يرفعه ، " وفيّ بأربع ركعات كان يصليهن في كل يوم " وفي رواية " يصليهن أول النهار " وأخرج أحمد من حديث معاذ بنأنس مرفوعاً أيضاً " إلا أخبارَكم لَمْ رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا وَلِقَاء الآخرة فَأُوْلَئِكَ فِى العذاب مُحْضَرُونَ فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ الآية " وقال عكرمة : ﴿ وَفِى ﴾ بتبليغ هذه العشرة ﴿ ألا تزر ﴾ [النجم : 38] إلى آخره ﴿ وَقِيلَ وَقِيلَ ﴾ والأولى العموم وهو مروي عن الحسن قال : ما أمره الله تعالى بشيء إلا وفى به وتخصيصه عليه السلام بهذا الوصف لاحتماله ما لا يحتمله غيره ، وفي قصة الذبح ما فيه كفاية وخص هذان النبيان عليهما السلام بالذكر قيل : لأنه فيما بين نوح .

وإبراهيم كانوا يأخذون الرجل بابنه وبأبيه وعمه وخاله ، والزوج بامرأته ، والعبد بسيده فأول من خالفهم إبراهيم وقرر ذلك موسى ولم يأت قبله مقرر مثله عليه السلام ، وتقديمه لما أن صحفه أشهر عندهم وأكثر ، وقرأ أبو أمامة الباهلي .

وسعيد بن جبير .

وأبو مالك الغفاري .

وابن السميقع .

وزيد بن علي ﴿ وفى ﴾ بتخفيف الفاء .

(213/733)

﴿ أَلاَّ تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى ﴾ أي أنه لا تحمل نفس من شأنها الحمل حمل نفس أخرى على أن ﴿ إن ﴾ هي المخففة من الثقيلة وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوف ، والجملة المنفية خبرها ومحل الجملة الجر على أنها بدل مما ﴿ في صحف موسى ﴾ [النجم : 36] ، أو الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والاستئناف بياني كأنه قيل : ما في صحفهما ؟ فقيل : هو ﴿ أَن لا تَزِرُ ﴾ الخ ، والمعنى أنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ليتخلص الثاني عن عقابه ، ولا يقدح في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة " فإن ذلك وزر الإضلال الذي هو وزره لا وزر غيره ، وقوله تعالى :

﴿ وَأَن لَّيْسَ للإنسان إِلاَّ مَا سعى ﴾

بيان لعدم إثابة الإنسان بعمل غير إثر بيان عدم مؤاخذته بذنب غيره ﴿ وَأَنْ ﴾ كأختها

السابقة ، و﴿ مَا ﴾ مصدرية وجوز كونها موصولة أي ليس له إلا سعيه ، أو إلا الذي سعى به وفعله ، واستشكل بأنه وردت أخبار صحيحة بنفع الصدقة عن الميت ، منها ما أخرجه مسلم .

والبخاري .

وأبو داود .

والنسائي عن عائشة " أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أمي افتلتت نفسها وأظنها لو تكلمت تصدقت فهل لها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال : نعم " وكذا بنفع الحج .

أخرج البخاري .

ومسلم .

(214/733)

والنسائي عن ابن عباس قال : " أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أختي نذرت لأن تحج وأنها ماتت فقال النبي عليه الصلاة والسلام : لو كان عليها دين أكنت قاضيه ؟ قال : نعم قال : فحق الله أحق بالقضاء " وأجيب بأن الغير لما نوى ذلك الفعل له

صار بمنزلة الوكيل عنه القائم مقامه شرعاً فكأنه بسعيه ، وهذا لا يتأتى إلا بطريق عموم المجاز ، أو الجمع بين الحقيقة والمجاز عند من يجوزه ، وأجيب أيضاً بأن سعي غيره لما لم ينفعه إلا مبنياً على سعي نفسه من الايمان فكأنه سعيه ، ودل على بنائه على ذلك ما أخرجه أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن العاص بن وائل نذر في الجاهلية أن ينحر مائة بدنة وأن هشاماً ابنه نحر حصته خمسين وأن عمراً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : " أما أبوك فلو كان أقرّ بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك " وأجيب بهذا عما قيل : إن تضعيف الثواب الوارد في الآيات ينافي أيضاً القصر على سعيه وحده ، وأنت تعلم ما في الجواب من النظر ، وقال بعض أجلة المحققين إنه ورد في الكتاب والسنة ما هو قطعي في حصول الانتفاع بعمل الغير وهو ينافي ظاهر الآية فتقيد بما لا يهبه العامل ، وسأل والي خراسان عبد الله بن طاهر الحسين بن الفضل عن هذه الآية مع قوله تعالى : ﴿ والله يضاعف لِمَن يَشَاء ﴾ [البقرة : 261] فقال : ليس له بالعدل إلا ما سعى وله بالفضل ما شاء الله تعالى فقبل عبد الله رأس الحسين ، وقال عكرمة : كان هذا الحكم في قوم إبراهيم .

وموسى عليهما السلام ، وأما هذه الأمة فللإنسان منها سعي غيره يدل عليه حديث سعد بن عبادة " هل لأمي إذا تطوعت عنها ؟ قال صلى الله عليه وسلم : نعم " وقال الربيع :

الإنسان هنا الكافر ، وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره ، وعن ابن عباس أن الآية منسوخة بقوله تعالى :

(215/733)

﴿ والذين ءامَنُواْ واتبعتهم ﴾ [الطور : 12] وقد أخرج عنه ما يشعر به أبو داود والنحاس كلاهما في الناسخ ، وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن مردويه ، وتعقب أبو حيان رواية النسخ بأنها لا تصح لأن الآية خبر لم تتضمن تكليفاً ولا نسخ في الأخبار .

وما يتوهم جواباً من أنه تعالى أخبر في شريعة موسى .

وإبراهيم عليهما السلام أن لا يجعل الثواب لغير العامل ثم جعله لمن بعدهم من أهل شريعتنا مرجعه إلى تقييد الأخبار لا إلى النسخ إذ حقيقته أن يراد المعنى ، ثم من بعد ذلك ترتفع إرادته ، وهذا تخصيص الإرادة بالنسبة إلى أهل الشرائع فافهمه ، وقيل : اللام بمعنى على أي ليس على الإنسان غير سعيه ، وهو بعيد من ظاهرها ومن سياق الآية أيضاً فإنها وعظ للذي تولى وأعطى قليلاً وأكدى ، والذي أميل إليه كلام الحسين ، ونحوه كلام ابن

عطية قال : والتحرير عندي في هذه الآية أن ملاك المعنى هو اللام من قوله سبحانه : ﴿ أَلِيمٌ كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ للإنسان ﴾ فإذا حققت الشيء الذي حق الإنسان أن يقول فيه لي كذا لم تجده إلا سعيه وما يكون من رحمة بشفاعة ، أو رعاية أب صالح ، أو ابن صالح ، أو تضعيف حسنات ، أو نحو ذلك فليس هو للإنسان ولا يسعه أن يقول لي كذا وكذا إلا على تجوّز ، وإلحاق بما هو حقيقة انتهى .

ويعلم من مجموع ما تقدم أن استدلال المعتزلة بالآية على أن العبد إذا جعل ثواب عمله أي عمل كان لغيره لا يجعل ويلغو جعله غير تام ؛ وكذا استدلال الإمام الشافعي بها على أن ثواب القراءة لا تلحق الأموات وهو مذهب الإمام مالك بل قال الإمام ابن الهمام : إن مالكاً .

(216/733)

والشافعي لا يقولان بوصول العبادات البدنية المحضة كالصلاة والتلاوة بل غيرها كالصدقة والحج ، وفي "الأذكار" للنووي عليه الرحمة المشهور من مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه وجماعة أنها لا تصل ، وذهب أحمد بن حنبل وجماعة من العلماء ومن أصحاب الشافعي إلى أنها تصل ، فالاختيار أن يقول القارىء بعد فراغه اللهم أوصل ثواب ما قرأته إلى فلان ، والظاهر أنه إذا قال ذلك ونحوه كوهبت ثواب ما قرأته لفلان بقلبه كفى ، وعن

بعضهم اشتراط نية النيابة أول القراءة وفي القلب منه شيء ، ثم الظاهر أن ذلك إذا لم تكن القراءة بأجرة أما إذا كانت بها كما يفعله أكثر الناس اليوم فإنهم يعطون حفظة القرآن أجرة ليقرءوا لموتاهم فيقرءون لتلك الأجرة فلا يصل ثوابها إذ لا ثواب لها ليصل لحرمة أخذ الأجرة على قراءة القرآن وإن لم يحرم على تعليمه كما حققه خاتمة الفقهاء المحققين الشيخ محمد الأمين بن عابدين الدمشقي رحمه الله تعالى ، وفي "الهداية" من كتاب الحج عن الغير إطلاق صحة جعل الإنسان عمله لغيره ولو صلاة وصوماً عند أهل السنة والجماعة ، وفيه ما علمت ما مرّ آنفاً .

وقال الخفاجي : هو محتاج إلى التحرير وتحريره أن محل الخلاف العبادة البدنية هل تقبل النيابة فسقط عمن لزمته بفعل غيره سواء كان بإذنه أم لا بعده حياته أم لا فهذا وقع في الحج كما ورد في الأحاديث الصحيحة ، أم الصوم فلا ، وما ورد في حديث " من مات وعليه صيام صام عنه وليه " وكذا غيره من العبادات فقال الطحاوس : إنه كان في صدر الإسلام ثم نسخ وليس الكلام في الفدية وإطعام الطعام فإنه بدل وكذا إهداء الثواب سواء كان بعينه أو مثله فإنه دعاء وقبوله بفضله عز وجل كالصدقة عن الغير فاعرفه انتهى فلا تغفل .

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرى ﴾ أن يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة في صحيفته وميزانه من أريته الشيء ، وفي "البحر" يراه حاضرو القيامة ويطلعون عليه تشريفاً للمحسن وتوبيخاً للمسيء .

﴿ ثُمَّ ﴾ أي يجري الإنسان سعيه ، يقال : جزاه الله عز وجل بعمله وجزاه على عمله وجزاه عمله بحذف الجار وإيصال الفعل ، وقوله تعالى : ﴿ يُجْزَاهُ الجزاء الاوفى ﴾ مصدر مبين للنوع وإذا جاز وصف المجزى به بالأوفى جاز وصف الحدث عن الجزاء لملابسته له ، وجوز كونه مفعولاً به بمعنى المجزى به وحينئذ يكون الفعل في حكم المتعدي إلى ثلاثة مفاعيل .

ولا بأس لأن الثاني بالحدث والإيصال لا التوسع فيجيء فيه الخلاف ، وبعضهم يجعل الجزاء منصوباً بنزع الخافض ، وجوز أن يكون الضمير المنصوب في ﴿ يُجْزَاهُ ﴾ للجزاء لا للسعي ، و﴿ الجزاء الاوفى ﴾ عليه عطف بيان ، أو بدل كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ ﴾ [الأنبياء : 3] وتعقبه أبو حيان بأن فيه إبدال الظاهر من الضمير وهي مسألة خلافية والصحيح المنع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) ﴾

الفاء لتفريع الاستفهام التعجيبي على قوله (ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) إذ كان حال هذا الذي تولى وأعطى قليلا وأكدا جهلا بأن للإنسان ما سعى وقد حصل في وقت نزول الآية المتقدمة أو قبلها حادث أنبأ عن سوء الفهم لمراد الله من عباده مع أنه واضح لمن صرف حق فهمه .

ففرع على ذلك كله تعجيب من انحراف أفهامهم

فالذي تولى وأعطى قليلا هو هنا ليس فريقا مثل الذي عناه قوله (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا) بل هو شخص بعينه .

واتفق المفسرون والرواة على أن المراد به هنا معين ولعل ذلك وجه التعبير عنه بلفظ (الذي) دون كلمة (من) لأن (الذي) أظهر في الإطلاق على الواحد المعين دون لفظ (من) .

واختلفوا في تعيين هذا (الذي تولى وأعطى قليلا) فروى الطبري والقرطبي عن مجاهد وابن زيد أن المراد به الوليد بن المغيرة قالوا : كان يجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويستمع إلى قراءته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظه فقارب أن يسلم فعاتبه رجل من المشركين (لم يسموه) وقال : لم تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم في النار كان ينبغي أن تنصرهم فكيف يفعل بآبائك فقال : (إني خشيت عذاب الله) فقال : (

اعطني شيئا وأنا أحمل عنك كل عذاب كان عليك) فأعطاه (ولعل ذلك كان عندهم التزاما يلزم ملتزمه وهم لا يؤمنون بجزاء الآخرة فلعله تفادى من غضب الله في الدنيا ورجع إلى الشرك) ولما سأله الزيادة بخل عنه وتعاسر وأكدى

وروى القرطبي عن السدي : أنها نزلت في العاصي بن وائل السهمي وعن محمد بن كعب : نزلت في أبي جهل وعن الضحاك : نزلت في النضر بن الحارث

ووقع في أسباب النزول للواحدي والكشاف أنها نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي السرح حين صد عثمان بن عفان عن نفقة في الخير كان ينفقها " أي قبل أن يسلم عبد الله بن سعد " رواه الثعلبي عن قوم .

(219/733)

قال ابن عطية : وذلك باطل وعثمان منزه عن مثله, أي عن أن يصغي إلى أنه تولى عن النظر في الإسلام بعد أن قاربه

وأشار قوله (وأعطى قليلا وأكدى) إلى ما أعطاه للذي يحمله عنه العذاب

وليس وصفه بـ (تولى) داخلا في التعجيب ولكنه سيق مساق الذم ووصف عطاؤه بأنه قليل توطئة لذمه بأنه مع قلة ما أعطاه قد شح به فقطعه .

وأشار قوله (وأكدى) إلى بخله وقطعه العطاء يقال : أكدى الذي يحفر إذا اعترضته كدية أي حجر لا يستطيع إزالته .

وهذه مذمة ثانية بالبخل زيادة على بعد الثبات على الكفر فحصل التعجيب من حال الوليد كله تحقيرا لعقله وأفن رأيه .

وقيل المراد بقوله (وأعطى قليلا) أنه أعطى من قبله وميله للإسلام قليلا وأكدى أي انقطع بعد أن اقترب كما يكدى حافر البئر إذا اعترضته كدية

والاستفهام في (أعنده علم الغيب) إنكاري على توهمه أن استئجار أحد ليتحمل عنه عذاب الله ينجيه من العذاب أي ما عنده علم الغيب .

وهذا الخبر كناية عن خطئه فيما توهمه

والجملة استئناف بياني للاستفهام التعجيبي من قوله (أفرأيت الذي تولى) الخ

وتقديم (عنده) وهو مسند على (علم الغيب) وهو مسند إليه للاهتمام بهذه العندية العجيب ادعاؤها والإشارة إلى بعده عن هذه المنزلة

وعلم الغيب : معرفة العوالم المغيبة أي العلم لاصل من أدلة فكأنه شاهد الغيب بقرينة قوله (فهو يرى)

وفرع على هذا التعجيب قوله (فهو يرى) أي فهو يشاهد أمور الغيب بحيث عاقد على التعارض في حقوقها .

والرؤية في قوله (فهو يرى) بصرية ومفعولها محذوف والتقدير : فهو يرى الغيب

والمعنى : أنه آمن نفسه من تبعة التولي عن الإسلام ببذل شيء لمن تحمل عنه تبعة توليه كأنه يعلم الغيب ويشاهد أن ذلك يدفع عنه العقاب فقد كان فعله ضغثا على إبالة لأنه ظن أن التولي جريمة وما بذل المال إلا لأنه توهم أن الجرائم تقبل الحمالة في الآخرة

(220/733)

وتقديم الضمير المسند إليه على فعله المسند دون أن يقول : فيرى لإفادة تقوي الحكم نحو : هو يعطي الجزيل .

وهذا التقوي بناء على ما أظهر من اليقين بالصفقة التي عاقد عليها وهو أدخل في التعجيب من حاله

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36)

﴿ أم ﴾ لإِضراب الانتقال إلى متعجَّب منه وإنكارٍ عليه آخَر وهو جهله بما عليه أن يعلمه الذين يخشون الله تعالى من عِلم ما جاء على ألسنة الرسل الأولين فإن كان هو لا يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فهلاّ تطلب ما أخبرت به رسل من قبلُ ، طالما ذكَر هو وقومه أسماءهم وشرائعهم في الجملة ، وطالما سأل هو وقومه أهل الكتاب عن أخبار موسى ،

فهلاّ سأل عمّا جاء عنهم في هذا الغرض الذي يسعى إليه وهو طلب النجاة من عذاب الله فينبئه العالمون ، فإن مآثر شريعة إبراهيم مأثور بعضها عند العرب ، وشريعة موسى معلومة عند اليهود .

فالاستفهام المقدر بعد ﴿ أم ﴾ إنكار مثل الاستفهام المذكور قبلها في قوله : ﴿ أعنده علم الغيب ﴾ والتقدير : بل ألم ينبأ بما في صحف موسى الخ .

و﴿ صحف موسى ﴾ : هي التوراة ، وصحف ﴿ إبراهيم ﴾ : صحفٌ سُجِّل فيها ما أوحَى الله إليه ، وهي المذكورة في سورة الأعلى (18 ، 19) ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ﴾ روى ابن حبّان والحاكم عن أبي ذر أنه سأل النبي عن الكتب التي أنزلت على الأنبياء فذكر له منها عشرة صحائف أنزلت على إبراهيم ، أي أنزل عليه ما هو مكتوب فيها .

وإنما خص هذه الصحف بالذكر لأن العرب يعرفون إبراهيم وشريعته ويسمونها الحنيفية وربما ادّعى بعضهم أنه على إثارة منها مثل : زيد بن عَمرو بن نُفيل .

وأما صحف موسى فهي مشتهرة عند أهل الكتاب ، والعربُ يخالطون اليهود في خيبر وقريظة والنضير وتَيما ، ويخالطون نصارى نجران ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثلَ ما أُوتي موسى ﴾ [القصص : 48] .

وتقديم ﴿ صحف موسى ﴾ لأنها اشتهرت بسعة ما فيها من الهدى والشريعة ، وأما صحف إبراهيم فكان المأثور منها أشياء قليلة .

وقدّرت بعشر صحف ، أي مقدار عشر ورقات بالخط القديم ، تسَع الورقة قُرابة أربع آيات من آي القرآن بحيث يكون مجموع ملفي صحف إبراهيم مقدار أربعين أية .

وإنما قدم في سورة الأعلى صحف إبراهيم على صحف موسى مراعاةً لوقوعهما بَدلاً من الصحف الأولى فقدم في الذكر أقدمهما .

وعندي أن تأخير ذكر صحف إبراهيم ليقع ما بعدها هنا جامعاً لما احتوت عليه صحف إبراهيم فتكون صحف إبراهيم هي الكلمات التي ابتلَى الله بها إبراهيم المذكورةُ في قوله في سورة البقرة (124) : ﴿ وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن أي بلغهن إلى قومه ومن آمن به ، ويكون قوله هنا الذي وفى ﴾ في معنى قوله : ﴿ فأتمهن ﴾ في سورة البقرة (124) .

ووصفُ إبراهيم بذلك تسجيل على المشركين بأن إبراهيم بلَّغ ما أوحي إليه إلى قومه وذريته ولكن العرب أهملوا ذلك واعتاضوا عن الحنيفية بالإِشراك .

وحُذف متعلِّق وفى ﴾ ليشمل توفيات كثيرة منها ما في قوله تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ وما في قوله تعالى:

﴿ قد صدقت الرؤيا ﴾ [الصافات : 105] وقوله : ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من ما في صحف موسى وإبراهيم بدلَ مفصَّل من مجمل ، فتكون (أنْ) مخففة من الثقيلة .

والتقدير : أم لم ينبَّأ بأنه لا تزر وازرة وزر أخرى .

ويجوز أن تكون (أَن) تفسيرية فَسَّرت ما في صحف موسى وإبراهيم لأن ما من الصحف شيء مكتوب والكتابة فيها معنى القَول دون حروفه فصلَح "ما في صحف موسى" لأن تفسره (أنْ) التفسيرية .

(222/733)

وقد ذكر القرطبي عند تفسير قوله تعالى : ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ [النجم : 56] في هذه السورة عن السدّي عن أبي صالح قال : هذه الحروف التي ذَكر الله تعالى من قوله : ﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم ﴾ إلى قوله : ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ [النجم : 56] كل هذه في صحف إبراهيم وموسى .

و ﴿ تزر ﴾ مضارع وزر ، إذا فَعَل وِزرا .

وتأنيث ﴿ وازرة ﴾ بتأويل : نفس ، وكذلك تأنيث ﴿ أخرى ﴾ ، ووقوع "نفس" و ﴿

أخرى ﴾ في سياق النفي يفيد العموم فيشمل نفي ما زعمه الوليد بن المغيرة من تحمل الرجل عنه عذاب الله .

وهذا مما كان في صحف إبراهيم ، ومنه ما حكى الله في قوله : ﴿ ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ [الشعراء : 87 89] .

وحكي في التوراة عن إبراهيم أنه قال في شأن قوم لوط : "أفتُهلك البارَّ مع الآثم" .

وأما نظيره في صحف موسى ففي التوراة "لا يقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيئته يقتل" .

وحكى الله عن موسى قوله : ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ [الأعراف : 155] .

وعموم لفظ ﴿ وزر ﴾ يقتضي اطراد الحكم في أمور الدنيا وأمور الآخرة .

وأما قوله في التوراة أن الله قال : "أفتقد الأبناء بذنوب الآباء إلى الجيل الثالث" فذلك في ترتيب المسببات على الأسباب الدنيوية وهو تحذير .

وليس حَملُ المتسبب في وزر غيره حَمْلاً زائداً على وِزره من قبيل تحمُّل وزر الغير ، ولكنه من قبيل زيادة العقاب لأجل تضليل الغير ، قال تعالى : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ [النحل : 25] .

وفي الحديث : " ما من نفس تُقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأولِ كِفل من دمها ، ذلك أنه

أول مَن سنَّ القتل " .

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39)

(223/733)

عطف على جملة ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [النجم : 38] ، فيصح أن تكون عطفاً على المجرور بالباء فتكون (أنْ) مخففة من الثقيلة ، ويصح أن تكون عطفاً على ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى فتكون أَنْ ﴾ تفسيرية ، وعلى كلا الاحتمالين تكون ﴿ أنْ ﴾ تأكيداً لنظيرتها في المعطوف عليها .

وتعريف ﴿ الإِنسان ﴾ تعريف الجنس ، ووقوعه في سياق النفي يفيد العموم ، والمعنى : لا يختص به إلا ما سعاه .

والسعي : العمل والاكتساب ، وأصل السعي : المشي ، فأطلق على العمل مجازاً مرسلاً أو كناية .

والمراد هنا عمل الخير بقرينة ذكر لام الاختصاص وبأن جعل مقابلاً لقوله : ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [النجم : 38] .

والمعنى : لا تحصل لأحد فائدة عَمل إلا ما عمله بنفسه ، فلا يكون له عملُ غيره ، ولام

الاختصاص يرجح أن المراد ما سَعاه من الأعمال الصالحة ، وبذلك يكون ذكر هذا تتميماً لمعنى ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ ، احتراساً من أن يخطُر بالبال أن المدفوع عن غير فاعله هو الوزر ، وإنّ الخير ينال غيرَ فاعله .

ومعنى الآية محكي في القرآن عن إبراهيم في قوله عنه : ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ [الشعراء : 89] .

وهذه الآية حكاية عن شرعيْ إبراهيم وموسى ، وإذ قد تقرر أن شرع مَن قَبْلَنَا شرعٌ لنا ما لم يرد ناسخ ، تدل هذه الآية على أن عمل أحد لا يجزىء عن أحد فرضاً أو نفلاً على العين ، وأما تحمل أحد حِمالة لفعل فعله غيره مثل دِيَات القتل الخطأ فذلك من المؤاساة المفروضة .

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية ومحملها : فعن عكرمة أن قوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ حكاية عن شريعة سابقة فلا تلزم في شريعتنا يريد أن شريعة الإِسلام نسخت ذلك فيكون قبول عمل أحد عن غيره من خصائص هذه الأمة .

وعن الربيع بن أنس أنه تأول (الإِنسان) في قوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ بالإِنسان الكافر ، وأما المؤمن فله سعيه ومَا يسعى له غيره .

ومن العلماء من تأول الآية على أنها نفت أن تكون للإِنسان فائدة ما عمله غيره إذا لم يجعل الساعي عمله لغيره .

وكأنَّ هذا ينحو إلى أن استعمال ﴿ سعى ﴾ في الآية من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه العقليين .

ونقل ابن الفرس : أن من العلماء من حمل الآية على ظاهرها وأنه لا ينتفع أحد بعمل غيره ، ويؤخذ من كلام ابن الفرس أن ممن قال بذلك الشافعي في أحد قوليه بصحة الإِجارَة على الحج .

واعلم أن أدلة لحاق ثواب بعض الأعمال إلَى غير من عملها ثابتة على الجملة وإنما تتردد الأنظار في التفصيل أو التعميم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ [الطور : 21] ، وقد بيناه في تفسير سورة الطور .

وقال تعالى : ﴿ ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ﴾

[الزخرف : 70] ، فجعل أزواج الصالحين المؤمناتِ وأزواج الصالحاتِ المؤمنين يتمتعون في الجنة مع أن التفاوت بين الأزواج في الأعمال ضروري وقد بيناه في تفسير سورة الزخرف .

وفي حديث مسلم " إذا مات الإِنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة إلا مِن صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولدٍ صالح يدعو له " وهو عام في كل ما يعمله الإِنسان ، ومعيار عمومه الاستثناء فالاستثناء دليل على أن المستثنيات الثلاثة هي من عمل الإِنسان .

وقال عياض في "الإِكمال" هذه الأشياء لما كان هو سببها فهي من اكتسابه .

قلت : وذلك في الصدقة الجارية وفي العلم الذي بثه ظاهر ، وأما في دعاء الولد الصالح لأحد أبويه فقال النووي لأن الولد من كسبه .

قال الأبي : الحديث " ولد الرجل من كسبه " فاستثناء هذه الثلاثة متصل .

(225/733)

وثبتت أخبار صحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم تدل على أن عمل أحد عن آخر يُجزي عن المنوب عنه ، ففي "الموطأ" حديث الفضل بن عباس "أن امرأة من خثعم سألت رسول الله فقالت : إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يثبت على الراحلة أفيجزىء أن أحج عنه ؟ قال : نعم حُجّي عنه" .

وفي قولها : لا يثبت على الراحلة دلالة على أن حجها عنه كان نافلة .

وفي "كتاب أبي داود" حديثُ بريدَة "أن امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت

: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر أفيجزىء أو يَقضي عنها أن أصوم عنها ؟ قال : نعم .

قالت : وإنها لم تحج أفيجزىء أو يقضي أن أحج عنها ؟ قال : نعم" .

وفيه أيضاً حديث ابن عباس "أن رجلاً قال : يا رسول الله إن أمي توفيت أفينفعها إن تصدقت عنها ؟ قال : نعم" .

وفيه حديث عمرو بن العاص وقد أعتق أخوه هشام عن أبيهم العاص بن وائل عبيداً فسأل عَمرو رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أَن يفعل مثل فعل أخيه فقال له "لو كان أبوكَ مسلماً فأعتقتم عنه أو تصدقتم عنه أو حججتم عنه بلغه ذلك" .

وروي أن عائشة أعتقت عن أخيها عبد الرحمان بعد موته رقاباً واعتكفت عنه .

وفي "صحيح البخاري" عن ابن عُمر وابن عباس "أنهما أفتيا امرأة جعلت أمُّها على نفسها صلاة بمسجد قباء ولم تف بنذرها أن تصلي عنها بمسجد قباء" .

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن عبادة أن يقضي نذراً نذرته أمه ، قيل كان عتقاً ، وقيل صدقة ، وقيل نذراً مطلقاً .

وقد كانت هذه الآية وما ثبت من الأخبار مجالاً لأنظار الفقهاء في الجمع بينهما والأخذِ بظاهر الآية وفي الاقتصار على نوع ما ورد فيه الإِذن من النبي صلى الله عليه وسلم أو القياس عليه .

ومما يجب تقديمه أن تعلم أن التكاليف الواجبة على العين فرضاً أو سنة مرتّبة المقصد من مطالبة المكلف بها ما يحصل بسببها من تزكية نفسه ليكون جزءاً صالحاً فإذا قام بها غيره عنه فات المقصود من مخاطبة أعيان المسلمين بها ، وكذا اجتناب المنهيات لا تتصور فيها النيابة لأن الكف لا يقبل التكرر فهذا النوع ليس للإِنسان فيه إلا ما سعى ولا تجزىء فيه نيابة غيره عنه في أدائها ، فأما الإِيمان فأمره بَيِّنٌ لأن ماهية الإِيمان لا يتصور فيها التعدد بحيث يؤمن أحد عن نفسه ويؤمن عن غيره لأنه إذا اعتقد اعتقاداً جازماً فقد صار ذلك إيمانه .

قال ابن الفرس في "أحكام القرآن" : "أجمعوا على أنه لا يؤمن أحد عن أحد" .

وأما ما عدا الإِيمان من شرائع الإِسلام الواجبة فأما ما هو منها من عمل الأبدان فليس للإِنسان إلا ما سعى منه ولا يجزىء عنه سعي غيره لأن المقصود من الأمور المعيَّنة المطالبِ بها المرءُ بنفسه هو ما فيها من تزكية النفس وارتياضها على الخير كما تقدم آنفاً . ومثل ذلك الرواتب من النوافل والقربات حتى يصلح الإِنسان ويرتاض على مراقبة ربه بقلبه وعمله والخضوع له تعالى ليصلح بصلاح الأفراد صلاح مجموع الأمة والنيابة تفيت هذا المعنى .

فمَا كان من أفعال الخير غير معينٍّ بالطلب كالقُرَب النافلة فإن فيه مقصدين مقصد ملحق

بالمقصد الذي في الأعمال المعيّنة بالطلب ، ومقصد تكثير الخير في جماعة المسلمين بالأعمال والأقوال الصالحة وهذا الاعتبار الثاني لا تفيته النيابة .

(227/733)

والتفرقة بين ما كان من عمل الإِنسان ببدنه وما كان من عمله بماله لا أراهُ فرقاً مؤثراً في هذا الباب ، فالوجه اطراد القول في كلا النوعين بقبول النيابة أو بعدم قبولها : من صدقات وصيام ونوافل الصلوات وتجهيز الغزاة للجهاد غير المتعينّ على المسلم المجهِّز (بكسر الهاء) ولا على المجهَّز (بفتح الهاء) ، والكلمات الصالحة من قراءة القرآن وتسبيح وتحميد ونحوهما وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وبهذا يكون تحرير محل ما ذكره ابن الفرس من الخلاف في نقل عمل أحد إلى غيره .

قال النووي : "الدعاء يصل ثوابه إلى الميت وكذلك الصدقة وهما مُجمَع عليهما .

وكذلك قضاء الدين" أ هـ .

وحكى ابن الفرس مثل ذلك ، والخلاف بين علماء الإسلام فيما عدا ذلك .

وقال مالك : "يتطوع عن الميت فيتصدق عنه أو يعتق عنه أو يهدي عنه ، وأما ما كان من القُرَب الواجبة مركَّباً من عمل البدن وإنفاق المال مثل الحج والعمرة والجهاد" فقال الباجي :

"حكى القاضي عبد الوهاب عن المذهب أنها تصح النيابة فيها" وقال ابن القصار : "لا تصح النيابة فيها" .

وهو المشتهر من قول مالك ومبنى اختلافهما أن مالكاً كره أن يحج أحد عن أحد إلا أنه إن أوصى بذلك نفذت وصيته ولا تسقط الفرض .

ورجح الباجي القول بصحة النيابة في ذلك بأن مالكاً أمضى الوصية بذلك ، وقال : لا يُستأجَر له إلا من حَجَّ عن نفسه فلا يحج عنه ضَرُرَوة ، فلولا أن حج الأجير على وجه النيابة عن الموصي لما اعتُبرت صفة المباشر للحج .

قال ابن الفرس : "أجاز مالك الوصية بالحج الفرض ، ورأى أنه إذا أوصى بذلك فهو من سعيه والمحرر من مذهب الحنفية صحة النيابة في الحج لغير القادر بشرط دوام عجزه إلى الموت فإن زال عجزه وجب عليه الحج بنفسه ، وقد ينقل عن أبي حنيفة غير ذلك في كتب المالكية .

وجوز الشافعي الحج عن المِّيت ووصية الميت بالحج عنه .

(228/733)

قال ابن الفرس : "وللشافعي في أحد قوليه أنه لا يجوز واحتج بقوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ أ هـ .

ومذهب أحمد بن حنبل جوازه ولا تجب عليه إعادة الحج إن زال عذره .

وأما القُرَب غير الواجبه وغيرُ الرواتب من جميع أفعال البر والنوافل ؛ فأما الحج عن غير المستطيع فقال الباجي : "قال ابن الجلاب في "التفريع" يكره أن يستأجر من يحجّ عنه فإن فعل ذلك لم يفسخ" وقال ابن القصار : "يجوز ذلك في الميت دون المعضوب" (وهو العاجز عن النهوض) .

وقال ابن حبيب : "قد جاءت الرخصة في ذلك عن الكبير الذي لا ينهض وعن الميت أنه يُحج عنه ابنه وإن لم يوص به" .

وقال الأُبيّ في "شرح مسلم" : "ذكر أن الشيخ ابن عرفة عام حجّ اشترى حجة للسلطان أبي العباس الحفصي على مذهب المخالف" ، أي خلافاً لمذهب مالك .

وأما الصلاة والصيام ، فسئل مالك عن الحج عن الميت فقال : "أما الصلاة والصيام والحج عنه فلا نرى ذلك" .

وقال في "المدونة" : "يتطوع عنه بغير هذا أحب إليّ : يُهدى عنه ، أو يُتصدق عنه ، أو يُعتق عنه" .

قال الباجي : "ففصل بينها وبين النفقات" .

وقال الشافعي في أحد قوله : لا يصله ثواب الصلوات التطوع وسائر التطوعات .

قال صاحب "التوضيح" من الشافعية : "وعندنا يجوز الاستنابة في حجة التطوع على أصح القولين" ، وقال أحمد : "يصله ثواب الصلوات وسائر التطوعات" .

والمشهور من مذهب الشافعي : أن قراءة القرآن وإهداء ثوابها للميت لا يصله ثوابها ، وقال أحمد بن حنبل وكثير من أصحاب الشافعي : يصله ثوابها .

وحكى ابن الفرس عن مذهب مالك : أن من قرأ ووهب ثواب قراءته لميت جاز ذلك ووصل للميت أجرُه ونفعُه فما ينسب إلى مالك من عدم جواز إهداء ثواب القراءة في كتب المخالفين غير محرر .

(229/733)

وقد ورد في حديث عائشة قالت : "كان رسول الله يعوّذ نفسه بالمعوذات فلما ثقل به المرض كنت أنا أُعوذه بهما وأضَع يده على جسده رجاء بركتها" فهل قراءة المعوذتين إلا نيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كان يفعله بنفسه ، فإذا صحت النيابة في التعوذ والتبرك بالقرآن فلماذا لا تصح في ثواب القراءة .

واعلم أن هذا كله في تطوع أحد عن أحد بقربة ، وأما الاستئجار على النيابة في القُرب :

فأما الحج فقد ذكروا فيه جوازَ الاستئجار بوصية ، أو بغيرها ، لأن الإنفاق من مقومات الحج ، ويظهر أن كل عبادة لا يجوز أخذ فاعلها أجرةً على فعلها كالصلاة والصوم لا يصح الاستئجار على الاستنابة فيها ، وأن القرب التي يصح أخذ الأجر عليها يصح الاستئجار على النيابة فيها مثل قراءة القرآن ، فقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم فِعل الذين أَخذوا أجراً على رُقية الملدوغ بفاتحة الكتاب .

وإذا علمَت هذا كله فقوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ هو حكم كان في شريعة سالفة ، فالقائلون بأنه لا ينسحب علينا لم يكن فيما ورد من الأخبار بصحة النيابة في الأعمال في ديننا معارض لمقتضَى الآية ، والقائلون بأن شرع غيرنا شَرعٌ لنا ما لم يرد ناسخ ، منهم من أعمل عموم الآية وتأول الأخبار المعارضة لها بالخصوصية ، ومنهم من جعلها مخصِّصَةً للعموم ، أو ناسخةً ، ومنهم من تأول ظاهر الآية بأن المراد ليس له ذلك حقيقة بحيث يعتمد على عمله ، أو تأول السعي بالنية .

وتأول اللام في قوله : ﴿ للإنسان ﴾ بمعنى (على) ، أي ليس عليه سيئات غيره .

وفي تفسير سورة الرحمان من "الكشاف" : أن عبد الله بنَ طَاهر قال للحُسين بن الفَضل : أشكلتْ عليّ ثلاث آيات .

فذكر له منها قوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ فما بال الأضعاف ، أي قوله تعالى : ﴿ فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ [البقرة : 245] ، فقال الحسين : معناه أنه ليس له إلا ما سعى عَدلاً ، ولي أن أجزيه بواحدة ألفاً فضلاً .

وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41)

يجوز أن تكون عطفاً على جملة ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [النجم : 38] فهي من تمام تفسير ﴿ ما في صحف موسى وإبراهيم ﴾ [النجم : 36 ، 37] فيكون تغيير الأسلوب إذ جيء في هذه الآية بحرف ﴿ أنَّ ﴾ المشددة لاقتضاء المقام أن يقع الإِخبار عن سَعي الإنسان بأنه يُعلن به يوم القيامة (وذلك من توابع أن ليس به إلاّ ما سعى) ، فلما كان لفظ ﴿ سعيه ﴾ صالحاً للوقوع اسماً لحرف ﴿ أنَّ ﴾ زال مقتضِي اجتلاب ضمير الشأن فزال مقتضِي (أَنْ) المخففة .

وقد يكون مضمون هذه الجملة في شريعة إبراهيم ما حكاه الله عنه من قوله : ﴿ ولا تخزني يوم يبعثون ﴾ [الشعراء : 87] ويجوز أن لا يكون قوله مضمون قوله : ﴿ وأن سعيه ﴾ مشمولاً لما في صحف موسى وإبراهيم فعطفُه على (ما) الموصولة من قوله : ﴿ بما في صحف موسى وإبراهيم ﴾ [النجم : 36 ، 37] ، عطف المفرد على المفرد فيكون معمولاً لباء الجر في قوله : ﴿ فِي صُحُفِ مُوسَى ﴾ الخ ، والتقدير : لم ينبأ بأن سعي

الإنسان سوف يُرى ، أي لا بد أن يرى ، أي يجازى عليه ، أي لم ينبأ بهذه الحقيقة الدينية وعليه فلا نتطلب ثبوت مضمون هذه الجملة في شريعة إبراهيم عليه السلام .

و ﴿ سوف ﴾ حرف استقبال والأكثر أن يراد به المستقبل البعيد .

ومعنى ﴿ يرى ﴾ يشاهد عند الحساب كما في قوله تعالى : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ [الكهف : 49] ، فيجوز أن تجسم الأعمال فتصير مشاهدة وأمور الآخرة مخالفة لمعتاد أمور الدنيا .

(231/733)

ويجوز أن تجعل علامات على الأعمال يُعلن بها عنها كما في قوله تعالى : ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ [التحريم : 8] .

وما في الحديث "يُنْصَب لكل غادر لواء يوم القيامة فيقال : هذه غدرة فلان " فيقدر مضاف تقديره : وأن عنوان سعيه سوف يرى .

ويجوز أن يكون ذلك بإشهار العمل والسعي كما في قوله تعالى : ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة ﴾ [الأعراف : 49] الآية ، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم " من سمع بأخيه فيما يكره سمع الله به سامع خلقه يوم القيامة " فتكون الرؤية

مستعارة للعلم لقصد تحقق العلم واشتهاره .

وحكمة ذلك تشريف المحسنين بحسن السمعة وانكسار المسيئين بسُوء الأحدوثة .

وقوله : ﴿ ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ هو المقصود من الجملة .

و﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي لأن حصول الجزاء أهم من إظهاره أو إظهار المجزي عنه .

وضمير النصب في قوله : ﴿ يجزاه ﴾ عائد إلى السعي ، أي يجزى عليه ، أو يجزى به فحذف حرف الجر ونصب على نزع الخافض فقد كثر أن يقال : جزاهُ عَمَله ، وأصله : جزاه على عمله أو جزاه بعمله .

والأوفى : اسم تفضيل من الوفاء وهو التمام والكمال ، والتفضيل مستعمل هنا في القوة ، وليس المراد تفضيله على غيره .

والمعنى : أن الجَزاء على الفعل من حَسن أو سيء موافق للمجزيِّ عليه ، قال تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ [النساء : 173] وقال : ﴿ وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ [هود : 109] وقال : ﴿ ووجد الله عنده فوفاه حسابه ﴾ [النور : 39] وقال : ﴿ فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً ﴾ [الإسراء : 63] .

وانتصب ﴿ الجزاء الأوفى ﴾ على المفعول المطلق المبين للنوع .

وقد حكى الله عن إبراهيم ﴿ ولا تخزني يوم يبعثون ﴾ [الشعراء : 87] . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(232/733)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾

هذه الآية الكريمة تدل على أنه لا ينتفع أحد بعمل غير .

وقد جاءت آية أخرى تدل على أن بعض الناس ربما انتفع بعمل غيره وهي قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ﴾ الآية .

فرفع درجات الأولاد سواء قلنا انهم الكبار أو الصغار نفع حاصل لهم وإنما حصل لهم بعمل آبائهم لا بعمل أنفسهم .

اعلم أولا أن ما روي عن ابن عباس من أن هذا كان شرعا لمن قبلنا فنسخ في شرعنا غير صحيح بل آية وأن ليس للإنسان محكمة كما أن القول بأن المراد بالإنسان خصوص الكافر غير الصحيح أيضا والجواب من ثلاثة أوجه:

الأول – إن الآية إنما دلت على نفي ملك الإنسان لغير سعيه ولم تدل على نفي انتفاعه بسعي غيره لأنه لم يقل وأن لن ينتفع الإنسان إلا بما سعى .

وإنما قال وأن ليس للإنسان .

وبين الأمرين فرق ظاهر لأن سعي الغير ملك لساعيه إن شاء بذله لغيره فانتفع به ذلك الغير وإن شاء أبقاه لنفسه وقد أجمع العلماء على انتفاع الميت بالصلاة عليه والدعاء له والحج عنه ونحو ذلك مما ثبت الانتفاع بعمل الغير فيه .

الثاني – أن إيمان الذرية هو السبب الأكبر في رفع درجاتهم إذ لو كانوا كفارا لما حصل لهم ذلك فإيمان العبد وطاعته سعي منه في انتفاعه بعمل غيره من المسلمين كما وقع في الصلاة في الجماعة فإن صلاة بعضهم مع بعض يتضاعف بها الأجر زيادة على صلاته منفردا وتلك المضاعفة انتفاع بعمل الغير سعى فيه المصلي بإيمانه وصلاته في الجماعة .

وهذا الوجه يشير بعضهم مع بعض يتضاعف بها الأجر زيادة على صلاته منفردا وتلك المضاعفة انتفاع بعمل الغير سعى فيه المصلي بإيمانه وصلاته في الجماعة .

وهذا الوجه يشير ليه قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ﴾ .

(233/733)

الثالث – إن السعي الذي حصل به رفع درجات الأولاد ليس للأولاد كما هو نص قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ .

ولكنه من سعي الآباء فهو سعي الآباء أقر الله عيونه بسببه بأن رفع إليهم أولادهم ليتمتعوا في الجنة برؤيتهم فالآية تصدق الأخرى ولا تنافيها لأن المقصود بالرفع إكرام الآباء لا الأولاد فانتفاع الأولاد تبع فهو بالنسبة إليهم تفضل من الله عليهم بما ليس لهم كما تفضل بذلك على الولدان والحور العين والخلق الذين ينشؤهم للجنة والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 277. 279 ﴾

(234/733)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) ﴾)

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ قال : الثريا إذا غابت ، وفي لفظ إذا سقطت مع الفجر ، وفي لفظ قال : الثريا إذا وقعت .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ قال : الثريا إذا تدلت .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ قال : إذا انصب .

وأخرج عبد الرزاق عن الحسن رضي الله عنه ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ قال : إذا غاب .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ قال : القرآن إذا نزل .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن معمر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ قال : " قال عتبة بن أبي لهب : إني كفرت برب النجم ، قال معمر : فأخبرني ابن طاووس عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ، له : أما تخاف أن يسلط الله عليك كلبه ؟ فخرج ابن أبي لهب مع الناس في سفر حتى إذا كانوا ببعض الطريق سمعوا صوت الأسد ، فقال : ما هو إلا يريدني ، فاجتمع أصحابه حوله وجعلوه في وسطهم حتى إذا ناموا جاء الأسد فأخذ هامته " .

وأخرج أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني عن عكرمة رضي الله عنه قال : " لما نزلت ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ قال عتبة بن أبي لهب للنبي صلى الله عليه وسلم : إني كفرت برب النجم إذا هوى فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اللهم أرسل عليه كلباً من كلابك " قال : فقال ابن عباس رضي الله عنهما : فخرج إلى الشام في ركب فيهم هبار بن الأسود حتى إذا

كانوا بوادي الغاضرة وهي مسبعة نزلوا ليلاً فافترشوا صفاً واحداً ، فقال عتبة : أتريدون أن تجعلوا حجزة ؟ لا والله لا أبيت إلا وسطكم فما انبهني إلا السبع يشم رؤوسهم رجلاً رجلاً حتى انتهى إليه فالتفت أنيابه في صدغيه " .

(235/733)

وأخرج أبو نعيم في الدلائل وابن عساكر من طريق عروة عن هبار بن الأسود قال : " كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام وتجهزت معهما فقال ابن أبي لهب : والله لأنطلقن إلى محمد فلأوذينه في ربه ، فانطلق حتى أتاه ، فقال : يا محمد هو يكفر بالذي ﴿ دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم أبعث عليه كلبا من كلابك " " .

وأخرج أبو نعيم عن طاووس قال : " لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ قال عتبة بن أبي لهب : كفرت برب النجم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سلط الله عليه كلباً من كلابه " " .

وأخرج أبو نعيم " عن أبي الضحى رضي الله عنه قال : قال ابن أبي لهب : هو يكفر بالذي قال ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عسى أن يرسل

عليه كلباً من كلابه " فبلغ ذلك أباه فأوصى أصحابه إذا نزلتم منزلاً فاجعلوه وسطكم ، ففعلوا حتى إذا كان ليلة بعث الله عليه سبعاً فقتله " .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ والنجم إذا هوى ما ضل ﴾ قال : أقسم الله أنه ما ضل محمد وما غوى .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ قال : أقسم الله لك بنجوم القرآن ما ضل محمد صلى الله عليه وسلم وما غوى .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ قال : ما ينطق عن هواه ! ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ قال : يوحي الله إلى جبريل ويوحي جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

(236/733)

وأخرج ابن مردويه عن أبي الحمراء وحبة العرني قالا : " أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسد الأبواب التي في المسجد ، فشق عليهم ، قال حبة : إني لأنظر إلى حمزة بن عبد المطلب وهو تحت قطيفة حمراء وعيناه تذرفان ، وهو يقول : أخرجت عمك وأبا بكر وعمر والعباس ، وأسكنت ابن عمك ؟ فقال رجل يومئذ : ما يألوا يرفع ابن عمه ، قال

: فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد شق عليهم ، فدعا الصلاة جامعة ، فلما اجتمعوا صعد المنبر فلم يسمع لرسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة قط كان أبلغ منها تمجيداً وتوحيداً ، فلما فرغ قال : يا أيها الناس ما أنا سددتها ولا أنا فتحتها ولا أنا أخرجتكم وأسكنته ، ثم قرأ ﴿ والنجم إذا هوى ما ضلّ صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ " .

وأخرج أحمد والطبراني والضياء عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " " ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثل الحيين أو مثل أحد الحيين ربيعة ومضر " فقال رجل : يا رسول الله وما ربيعة من مضر ؟ قال : " إنما أقول ما أقول " .

وأخرج البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما أخبرتكم أنه من عند الله فهو الذي لا شك فيه " .

وأخرج أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا أقول إلا حقّاً ، قال بعض أصحابه : فإنك تداعبنا يا رسول الله ، قال : إني لا أقول إلا حقّاً " .

وأخرج الدارمي عن يحيى بن أبي كثير قال : كان جبريل ينزل بالسنّة كما ينزل بالقرآن .

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع رضي الله عنه في قوله ﴿ علمه شديد القوى ﴾ قال : جبريل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ علمه شديد القوى ﴾ يعني جبريل ﴿ ذو مرة ﴾ قال : ذو خلق طويل حسن .

(237/733)

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ علمه شديد القوى ذو مرة ﴾ قال : ذو قوّة جبريل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله ﴿ ذو مرة ﴾ ذو خلق حسن .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن ﴿ ذو مرة ﴾ قال : ذو شدة في أمر الله ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول نابغة بني ذبيان :

فدى أقربه إذ ضافني . . . وهنا قرى ذي مرة حازم

وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير جبريل في صورته إلا مرتين أما واحدة فإنه سأله أن يراه

في صورته فأراه صورته فسد الأفق ، وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد ، فذلك قوله ﴿ وهو بالأفق الأعلى لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ قال : خلق جبريل .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " رأيت جبريل عند سدرة المنتهى له ستمائة جناح ينفض من ريشه التهاويل والدر والياقوت " .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ قال : مطلع الشمس .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ قال : قال الحسن : الأفق الأعلى على أفق المشرق ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ يعني جبريل ﴿ فكان قاب قوسين ﴾ قال : قيد قوسين ﴿ أو أدنى ﴾ قال : حيث الوتر من القوس ، الله من جبريل .

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ قال : رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل له ستمائة جناح .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ قال : رأى صلى الله عليه وسلم . جبريل عليه حلتا رفرف أخضر قد ملأ ما بين السماء والأرض .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان أول شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى في منامه جبريل بأجياد ثم خرج لبعض حاجته فصرخ به جبريل يا محمد يا محمد ، فنظر يميناً وشمالاً فلم ير شيئاً ثلاثاً ، ثم رفع بصره فإذا هو ثانٍ إحدى رجليه على الأخرى على أفق السماء ، فقال : يا محمد جبريل جبريل يسكنه فهرب النبي صلى الله عليه وسلم حتى دخل في الناس فنظر فلم ير شيئاً ، ثم خرج من الناس فنظر فرآه فذلك قول الله ﴿ والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ إلى قوله ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ يعني جبريل إلى محمد ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ جبريل إلى عبد ربه .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ قال : هو محمد صلى الله عليه وسلم دنا فتدلى إلى ربه عز وجل .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ثم دنا ﴾ قال دنا ربه ﴿ فتدلى ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فكان قاب قوسين ﴾ قال : كان دنوه قدر قوسين ، ولفظ عبد بن حميد قال : كان بينه وبينه مقدار قوسين .

(239/733)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ فكان قاب قوسين ﴾ قال : دنا جبريل منه حتى كان قدر ذراع أو ذراعين .

وأخرج الطبراني وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ قال : القاب القيد والقوسين الذراعين .

وأخرج الطبراني في السنة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ قاب قوسين ﴾ قال : ذراعين ، القاب المقدار ، القوس الذراع .

وأخرج عن شقيق بن سلمة في قوله ﴿ فكان قاب قوسين ﴾ قال ذراعين ، والقوس الذراع يقاس به كل شيء .

وأخرج سعيد بن جبير في الآية قال : الذراع يقاس به .

وأخرج آدم بن أبي اياس والفريابي والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد في قوله ﴿ قاب قوسين ﴾ قال : حيث الوتر من القوس يعني ربه .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد وعكرمة قالا : دنا منه حتى كان بينه وبينه مثل ما بين كبدها إلى الوتر .

وأخرج الطبراني في السنة عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ قاب قوسين ﴾ قال : قدر قوسين .

وأخرج الحسن في قوله ﴿ قاب قوسين ﴾ قال : من قسيكم هذه .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : لما أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم اقترب من ربه ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ قال : ألم تر إلى القوس ما أقربها من الوتر .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ذكر لنا أن القاب فضل طرف القوس على الوتر .

وأخرج النسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ قال : عبده محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج الطبراني في السنة والحكيم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأيت النور الأعظم ولط دوني بحجاب رفرفه الدر والياقوت فأوحى الله إليّ ما شاء أن يوحي " .

(240/733)

وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم في الدلائل عن سريج بن عبيد قال : لما صعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء فأوحى الله إلى عبده ما أوحى قال : فلما أحس جبريل بدنو الرب خر ساجداً فلم يزل يسبحه تسبيحات ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة حتى قضى الله إلى عبده ما قضى ، ثم رفع رأسه فرأيته في خلقه الذي خلق عليه منظوم أجنحته بالزبرجد واللؤلؤ والياقوت ، فخيل إليّ أن ما بين عينيه قد سد الأفقين وكنت لا أراه قبل ذلك إلا على صور مختلفة وأكثر ما كنت أراه على صورة دحية الكلبي ، وكنت أحياناً لا أراه قبل ذلك إلا كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغربال " .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عمر أن جبريل كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي .

وأخرج مسلم وأحمد والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس

في قوله ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ قال : رأى محمد ربه بقلبه مرتين .

وأخرج عبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر والطبراني عن ابن عباس في قوله ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ قال : رآه بقلبه .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن إبراهيم النخعي أنه كان يقرأ [أفتمرونه] وفسرها أفتجحدونه .

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ ﴿ افتمرونه ﴾ قال : من قرأ ﴿ أفتمارونه ﴾ قال : أفتجادلونه .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس أنه كان يقرأ [افتمرونه] .

وأخرج عبد بن حميد عن الشعبي أن شريحاً كان يقرأ ﴿ افتمارونه ﴾ بالألف وكان مسروق يقرأ [أفتمرونه] .

وأخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : رأى محمد ربه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعينه .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : إن محمداً رأى ربه مرتين مرة ببصره ومرة بفؤاده .

وأخرج الترمذي وحسنه والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله الله ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ قال ابن عباس : قد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل .

وأخرج عبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر والحاكم وابن مردويه عن الشعبي قال : لقي ابن عباس كعباً بعرفة فسأله عن شيء فكبر حتى جاوبته الجبال ، فقال ابن عباس : إنا بنو هاشم نزعم أن نقول : إن محمداً قد رأى ربه مرتين ، فقال كعب : إن الله قسم رؤيته وكلامه بين موسى ومحمد عليهما السلام ، فرأى محمد ربه مرتين وكلم موسى مرتين . قال مسروق : فدخلت عليَّ عائشة فقلت : هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : لقد تكلمت بشيء وقف له شعري قلت : رويداً ثم قرأت ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ قالت : أين يذهب بك إنما هو جبريل من أخبرك أن محمداً رأى ربه أو كتم شيئاً مما أمر به أو يعلم الخمس التي قال الله إن الله عنده علم الساعة الآية ؛ فقد أعظم الفرية ولكنه رأى جبريل لم يره في صورته إلا مرتين مرة عند سدرة المنتهى ، ومرة عند أجياد له ستمائة جناح قد سد الأفق .

وأخرج النسائي والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال : أتعجبون أن تكون

الخلة لإِبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد صلى الله عليه وسلم ؟

وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال : رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه .

(242/733)

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قال صلى الله عليه وسلم : " رأيت ربي في أحسن صورة فقال لي : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت : لا يا رب ، فوضع يده بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي ، فعلمت ما في السماء والأرض ، فقلت : يا رب في الدرجات والكفارات ونقل الأقدام إلى الجماعات وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فقلت : يا رب إنك اتخذت إبراهيم خليلاً وكلمت موسى تكليماً وفعلت وفعلت ، فقال : ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أضع عنك وزرك ؟ ألم أفعل بك ؟ ألم أفعل ؟ فأفضى إليّ بأشياء لم يؤذن لي أن أحدثكموها ، فذلك قوله ﴿ ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ فجعل نور بصري في فؤادي فنظرت إليه بفؤادي " .

وأخرج ابن إسحق والبيهقي في الأسماء والصفات وضعفه عن عبد الله بن أبي سلمة أن عبد الله بن عمر بن الخطاب بعث إلى عبد الله بن عباس يسأله هل رأى محمد ربه ؟ فأرسل إليه عبد الله بن عباس أن نعم ، فرد عليه عبد الله بن عمر رسوله أن كيف رآه ؟ فأرسل :

إنه رآه في روضة خضراء دونه فراش من ذهب على كرسي من ذهب يحمله أربعة من الملائكة : ملك في صورة رجل ، وملك في صورة ثور ، وملك في صورة نسر ، وملك في صورة أسد .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات وضعفه من طريق عكرمة عن ابن عباس أنه سئل هل رأى محمد ربه ؟ قال : نعم رآه كأنّ قدميه على خضرة دونه ستر من لؤلؤ ، فقلت : يا أبا عباس أليس يقول الله : لا تدركه الأبصار ؟ قال : لا أم لك ذاك نوره الذي هو نوره إذا تجلى بنوره لا يدركه شيء .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : " قالوا يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ قال : لم أره بعيني ورأيته بفؤادي مرتين ثم تلا ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ " .

(243/733)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ قال : رأيت نهراً ، ورأيت وراء النهر حجاباً ، ورأيت الحجاب نوراً لم أره غير ذلك " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي العالية في قوله ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ قال : محمد رآه بفؤاده ولم يره بعينيه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي صالح في قوله ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ قال : رآه مرتين بفؤاده .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال : ما أزعم أنه رآه وما أزعم أنه لم يره .

وأخرج مسلم والترمذي وابن مردويه عن أبي ذر قال : " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم " هل رأيت ربك ؟ فقال : نوراني أراه " " .

وأخرج مسلم وابن مردويه عن أبي ذر " أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ فقال : رأيت نوراً " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي ذر قال : رآه بقلبه ولم يره بعينيه .

وأخرج النسائي عن أبي ذر قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه بقلبه ولم يره ببصره .

وأخرج مسلم والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة في قوله ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ قال : رأى جبريل عليه السلام .

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم قال : رأى جبريل في صورته .

وأخرج عبد بن حميد عن مرة الهمداني قال : لم يأته جبريل في صورته إلا مرتين فرآه في خضر يتعلق به الدر .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ قال : رأى نوراً عظيماً عند سدرة المنتهى .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ قال : رأى جبريل معلقاً رجله بسدرة عليه الدر كأنه قطر المطر على البقل .

(244/733)

وأخرج أبو الشيخ عن ابن مسعود ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ﴾ قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته عند السدرة له ستمائة جناح ؛ جناح منها سد الأفق يتناثر من أجنحته التهاويل والدر والياقوت ما لا يعلمه إلا الله .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال : لما أسريَ برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السادسة إليها ينتهي ما يعرج من الأرواح فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ قال :

فراش من ذهب قال : وأعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : أعطي الصلوات الخمس ، وأعطي خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المقحمات .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه سئل عن سدرة المنتهى قال : إليها ينتهي علم كل عالم وما وراءها لا يعلمه إلا الله .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن الضحاك أنه قيل له : لم تسمى سدرة المنتهى ؟ قال : لأنه ينتهي إليها كل شيء من أمر الله لا يعدوها .

وأخرج ابن جرير عن شمر قال : جاء ابن عباس إلى كعب فقال : حدثني عن سدرة المنتهي قال : إنها سدرة في أصل العرش إليها ينتهي علم كل ملك مقرب أو نبي مرسل ما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله تعالى .

وأخرج ابن جرير عن كعب قال : إنها سدرة على رؤوس حملة العرش إليها ينتهي علم الخلائق ، ثم ليس لأحد وراءها علم ، فلذلك سميت سدرة المنتهى لانتهاء العلم إليها .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال : سألت كعباً ما سدرة المنتهى ؟ قال : سدرة ينتهي إليها علم الملائكة ، وعندها يجدون أمر الله لا يجاوزها علم ، وسألته عن جنة المأوى ، فقال : جنة فيها طير خضر ترتقي فيها أرواح الشهداء .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير والطبراني عن ابن مسعود في قوله ﴿ عند سدرة المنتهى ﴾ قال : صبو الجنة يعني وسطها جعل عليها فضول السندس والاستبرق .

وأخرج أحمد وابن جرير عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " انتهيت إلى السدرة فإذا نبقها مثل الجراد وإذا ورقها مثل آذان الفيلة ، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تحولت ياقوتاً وزمرداً ونحو ذلك " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد في قوله ﴿ سدرة المنتهى ﴾ قال : أول يوم من الآخرة وآخر يوم من الدنيا فهو حيث ينتهي .

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه عن أسماء بنت أبي بكر : " سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يصف سدرة المنتهى ، قال : " يسير الراكب في الفنن منها مائة سنة يستظل بالفنن منها مائة راكب فيها فراش من ذهب كأن ثمرها القلال " " .

وأخرج الحكيم الترمذي وأبو يعلى عن ابن عباس ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأيتها حين استبنتها ثم حال دونها فراش الذهب " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أنه قرأ ﴿ عندها جنة المأوى ﴾ وعاب على من قرأ جنة المأوى .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن الزبير قال : من قرأ ﴿ جنة المأوى ﴾ فأجنه الله إنما

هي جنة المأوى .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ عندها جنة المأوى ﴾ قال : هي عن يمين العرش وهي منزل الشهداء .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود قال : الجنة في السماء السابعة العليا والنار في الأرض السابعة السفلى .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب أنه قرأ : جنة المأوى قال : جنة المبيت .

وأخرج آدم ابن أبي أياس والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ قال : كان أغصان السدرة من لؤلؤ وياقوت وقد رآها محمد بقلبه ورأى ربه .

(246/733)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج عبد بن حميد عن سلمة بن وهرام ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ قال : استأذنت الملائكة الرب تبارك وتعالى أن ينظروا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأذن لهم

، فغشيت الملائكة السدرة لينظروا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن يعقوب بن زيد قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيت بفناء السدرة ؟ قال : " فراشاً من ذهب " " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ قال : رآها ليلة أسري به يلوذ بها جراد من ذهب .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ ما زاغ البصر ﴾ قال : ما ذهب يميناً ولا شمالاً ﴿ وما طغى ﴾ قال : ما جاوز ما أمر به .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ابن مسعود في قوله ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ قال : رأى رفرفاً أخضر من الجنة قد سد الأفق .

وأخرج ابن جرير عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما عرج بي مضى جبريل حتى جاء الجنة ، فدخلت فأعطيت الكوثر ، ثم مضى حتى جاء السدرة المنتهى ، فدنا ربك فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما انتهيت إلى السدرة إذا ورقها مثل آذان الفيلة وإذا نبقها أمثال القلال ، فلما غشيها من أمر الله ما غشي

تحوّلت فذكر الياقوت " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن كعب قال : سدرة المنتهى منتهى إليها أمر كل نبي وملك .

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20)

(247/733)

أخرج عبد بن حميد والبخاري وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان اللات رجلاً يلت سويق الحاج ، ولفظ عبد بن حميد : يلت السويق يسقيه الحاج .

وأخرج النسائي وابن مردويه عن أبي الطفيل قال : " لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة ، وكان بها العزى فأتاها خالد وكانت على ثلاث سمرات فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليها ، ثم أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : ارجع فإنك لم تصنع شيئاً ، فرجع خالد ، فلما أبصرته السدنة ، وهم حجبتها ، امعنوا في الجبل وهم يقولون يا عزى يا عزى ، فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها ، فعممها بالسيف حتى قتلها ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : تلك العزى " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن العزى كانت ببطن نخلة وأن اللات كانت

بالطائف ، وأن مناة كانت بقديد .

وأخرج سعيد بن منصور والفاكهي عن مجاهد قال : كانت اللات رجلاً في الجاهلية على صخرة بالطائف وكان له غنم فكان يأخذ من رسلها ويأخذ من زبيب الطائف والأقط فيجعل منه حيساً ويطعم من يمر من الناس ، فلما مات عبدوه وقالوا : هو اللات ، وكان يقرأ اللات مشددة .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان اللات يلت السويق على الحاج فلا يشرب منه أحداً إلا سمن فعبدوه .

وأخرج الفاكهي عن ابن عباس أن اللات لما مات قال لهم عمرو بن لحي : إنه لم يمت ولكنه دخل الصخرة فعبدوها وبنوا عليها بيتاً .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ أفرأيتم اللات ﴾ قال : كان رجل من ثقيف يلت السويق بالزيت فلما توفي جعلوا قبره وثناً ، وزعم الناس أنه عامر بن الظرب أخذ عدواناً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ قال : اللات كان يلت السويق بالطائف فاعتكفوا على قبره ، والعزى شجرات .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة ﴾ قال : آلهة كانوا يعبدونها ، فكان اللات لأهل الطائف وكانت العزى لقريش بسقام شعب ببطن نخلة ، وكانت مناة للأنصار بقديد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي صالح قال : اللات الذي كان يقوم على آلهتهم ، وكان يلت لهم السويق ، والعزى بنخلة كانوا يعلقون عليها السبور والعهن ، ومناة حجر بقديد .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي الجوزاء قال : اللات حجر كان يلت السويق عليه فسمي اللات .

قوله تعالى : ﴿ تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ .

أخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ ضيزى ﴾ قال : جائرة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول امرىء القيس :

ضازت بنو أسد بحكمهم . . . إذ يعدلون الرأس بالذنب

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ ضيزى ﴾ قال : منقوصة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ ضيزى ﴾ قال :

جائرة .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك مثله .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ ضيزى ﴾ قال : جائرة لا حق فيها .

قوله تعالى : ﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ .

وأخرج أحمد والبخاري والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا تمنى أحدكم فلينظر ما تمنى فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته " .

قوله تعالى : ﴿ وكم من ملك في السماوات ﴾ الآية .

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً ﴾ قال : لقولهم : إن الغرانقة ليشفعون .

وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (28)

(249/733)

أخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب قال : احذروا هذا الرأي على الدين ، فإنما كان الرأي من رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيباً لأن الله كان يريه ، وإنما هو ههنا تكلف وظن ﴿ وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ .

أخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ قال : رأيهم .

وأخرج الترمذي وحسنه عن ابن عمر قال : قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه : " اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما يهون علينا مصيبات الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا " .

قوله تعالى : ﴿ ولله ما في السماوات ﴾ الآية .

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ﴾ قال : أهل الشرك ﴿ ويجزي الذين أحسنوا ﴾ قال : المؤمنين .

الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإِثم والفواحش ﴾ قال : الكبائر ما سمى الله فيه النار ﴿ والفواحش ﴾ ما كان فيه حد في الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ إلا اللمم ﴾ .

أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وابن جرير

وابن المنذر وابن مردوية والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه " .

(250/733)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود في قوله ﴿ إلا اللمم ﴾ قال : زنا العينين النظر ، وزنا الشفتين التقبيل ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين المشي ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه ، فإن تقدم بفرجه كان زانياً وإلا فهو اللمم .

وأخرج مسدد وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي هريرة أنه سئل عن قوله ﴿ إلا اللمم ﴾ قال : هي النظرة والغمزة والقبلة والمباشرة فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل وهو الزنا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن الزبير قال : اللمم ما بين الحدين .

وأخرج سعيد بن منصور والترمذي وصححه والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي

حاتم والحاكم وصححه وابن مردوية والبيهقي في شعب الإِيمان عن ابن عباس في قوله ﴿ إلا اللمم ﴾ قال : هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب منها ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن تغفر اللهم تغفر جماً وأيّ عبد لك لا ألّما " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ إلا اللمم ﴾ يقول : إلا ما قد سلف .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : قال المشركون : إنما كانوا بالأمس يعملون معنا فأنزل الله ﴿ إلا اللمم ﴾ ما كان منهم في الجاهلية قبل الإِسلام ، وغفرها لهم حين أسلموا .

وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم في قوله ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإِثم ﴾ قال : الشرك ﴿ والفواحش ﴾ قال : الزنا تركوا ذلك حين دخلوا في الإِسلام ، وغفر الله لهم ما كانوا ألموا به وأصابوا من ذلك قبل الإِسلام .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردوية والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة أراه رفعه في قوله ﴿ إلا اللمم ﴾ قال : اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود ، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود ، قال : فتلك الإِلمام .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن في قوله ﴿ إلا اللمم ﴾ قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : هو الرجل يصيب اللمة من الزنا واللمة من شرب الخمر فيجتنبها أو يتوب منها .

وأخرج ابن مردوية عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتدرون ما اللمم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هو الذي يلم بالخطرة من الزنا ثم لا يعود ، ويلم بالخطرة من شرب الخمر ثم لا يعود ، ويلم بالسرقة ثم لا يعود " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ إلا اللمم ﴾ قال : يلم بها في الحين ثم يتوب .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح قال : سئلت عن اللمم ، فقلت : هو الرجل يصيب الذنب ثم يتوب ، وأخبرت بذلك ابن عباس ، فقال : لقد أعانك عليها ملك كريم .

وأخرج البخاري في تاريخه عن الحسن في قوله ﴿ إلا اللمم ﴾ قال : الزنية في الحين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي صالح في قوله ﴿ إلا اللمم ﴾ قال : الوقاعة من الزنا لا يعود لها .

وأخرج ابن المنذر عن عطاء في قوله ﴿ إلا اللمم ﴾ قال : هو ما دون الجماع .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة أنه ذكر له قول الحسن في اللمم في الخطرة من الزنا ، فقال : لا ولكنها الضمة والقبلة والشمة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عمرو قال : اللمم ما دون الشرك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس قال : اللمم كل شيء بين الحدين حد الدنيا وحد الآخرة يكفره الصلاة ، وهو دون كل موجب ، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا ، وأما حد الآخرة فكل شيء ختمه الله بالنار ، وأخر عقوبته إلى الآخرة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ إلا اللمم ﴾ قال : اللمم ما بين الحدين ما لم يبلغ حد الدنيا ولا حد الآخرة موجبة قد أوجب الله لأهلها النار أو فاحشة يقام عليه الحد في الدنيا .

(252/733)

وأخرج ابن جرير عن محمد بن سيرين قال : سأل رجل زيد بن ثابت عن هذه الآية ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإِثم والفواحش إلا اللمم ﴾ فقال : حرم الله عليك الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

قوله تعالى : ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ﴾ .

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو نعيم في المعرفة وابن مردوية والواحدي عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال : "كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا : هذا

صديق ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمها إلا أنه شقي أو سعيد " فأنزل الله عند ذلك ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ﴾ الآية كلها " .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ﴾ قال : هو كنحو قوله ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله ﴿ إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة ﴾ قال : حين خلق الله آدم من الأرض ثم خلقكم من آدم .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن في قوله ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴾ قال : علم الله من كل نفس ما هي عاملة وما هي صانعة وما هي إليه صائرة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن زيد بن أسلم في قوله ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ قال : لا تبرئوا أنفسكم .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ قال : لا تعملوا بالمعاصي وتقولون : نعمل بالطاعة .

وأخرج ابن سعد وأحمد ومسلم وأبو داود وابن مردوية " عن زينب بنت أبي سلمة أنها سميت برة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ الله أعلم

بأهل البر منكم سموها زينب " " .

وأخرج الزبير بن بكار في الموفقيات عن جده عبد الله بن مصعب قال : قال أبو بكر الصديق لقيس بن عاصم : صف لنا نفسك . فقال : إن الله يقول ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ فلست ما أنا بمزك نفسي ، وقد نهاني الله عنه ، فأعجب أبا بكر ذلك منه .

(253/733)

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33)

أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج في معزاة فجاء رجل فلم يجد ما يخرج عليه فلقي صديقاً له فقال : أعطني شيئاً ، قال : أعطيك بكري هذا على أن تتحمل بذنوبي ، فقال له : نعم ، فأنزل الله ﴿ أفرأيت الذي تولى وأعطى قليلاً وأكدى ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن دراج أبي السمح قال : " خرجت سرية غازية فسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحمله ، فقال : لا أجد ما أحملك عليه فانصرف حزيناً فمر برجل رحاله منيخة بين يديه فشكا إليه ، فقال له الرجل : هل لك أن أحملك فتلحق الجيش ؟ فقال : نعم ، فنزلت ﴿ أفرأيت الذي تولى ﴾ إلى قوله ﴿ ثم يجزاه الجزاء الأوفى

﴾ " .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : إن رجلاً أسلم فلقيه بعض من يعيره فقال : أتركت دين الأشياخ وضللتهم ، وزعمت أنهم في النار ؟ قال : إني خشيت عذاب الله قال : أعطني شيئاً وأنا أحمل كل عذاب كان عليك فأعطاه شيئاً ، فقال : زدني فتعاسرا حتى أعطاه شيئاً وكتب له كتاباً وأشهد له ، ففيه نزلت هذه الآية ﴿ أفرأيت الذي تولى وأعطى قليلاً وأكدى أعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ أفرأيت الذي تولى ﴾ قال : الوليد بن المغيرة ، كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر فيسمع ما يقولان وذلك ﴿ ما أعطى ﴾ من نفسه أعطى الاستماع ﴿ وأكدى ﴾ قال : انقطع عطاؤه نزل في ذلك ﴿ أعنده علم الغيب ﴾ قال : الغيب القرآن أرأى فيه باطلاً أنفذه ببصره إذ كان يختلف إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر .

وأخرج ابن مردوية عن ابن عباس في قوله ﴿ وأعطى قليلاً وأكدى ﴾ قال : قطع نزلت في العاص بن وائل .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وأعطى قليلاً وأكدى ﴾ قال : أطاع قليلاً ثم انقطع .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ أعطى قليلاً وأكدى ﴾ قال : أعطى قليلاً من ماله ، ومنع الكثير ثم كدره بمنه قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول الشاعر :

أعطى قليلاً ثم أكدى بمنه . . . ومن ينشر المعروف في الناس يحمد

قوله تعالى : ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ .

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردوية والشيرازي في الألقاب والديلمي بسند ضعيف عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أتدرون ما قوله ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : وفى عمل يومه بأربع ركعات كان يصليهن من أول النهار وزعم أنها صلاة الضحى " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ قال : وفى الله بالبلاغ .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ قال : وفى ما فرض عليه .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردوية عن ابن عباس قال : سهام الإِسلام ثلاثون سهماً لم يمسها أحد قبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، قال الله ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن قتادة ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ قال : وفى طاعة الله وبلغ رسالة ربه إلى خلقه .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد وعكرمة ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ قال : بلغ هذه الآية ﴿ أن لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ قال : بلغ ما أمر به .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ يقول : الذي استكمل الطاعة فيما فعل بابنه حين رأى الرؤيا والذي في صحف موسى ﴿ أن لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج ابن جرير عن القرظي ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ قال : وفى بذبح ابنه .

(255/733)

وأخرج ابن مردوية عن ابن عباس في قوله ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ قال : وفى سهام الإِسلام كلها ولم يوفها أحد غيره ، وهي ثلاثون سهماً منها عشرة في براءة ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ﴾ [التوبة : 111] الآيات كلها وعشرة في الأحزاب ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ [الأحزاب : 35] الآيات كلها وستة في ﴿ قد أفلح المؤمنين ﴾

[المؤمنون : 1] من أولها الآيات كلها وأربع في ﴿ سأل سائل ﴾ [المعارج : 1] ﴿ والذين يصدقون بيوم الدين ﴾ [المعارج : 26] ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴾ [المعارج : 27] الآيات كلها فذلك ثلاثون سهماً فمن وافى الله بسهم منها فقد وافاه بسهم من سهام الإِسلام ولم يوافه بسهام الإِسلام كلها إلا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، قال الله ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ .

أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (38)

أخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه وابن مردوية عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ والنجم ﴾ فبلغ ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ قال : وفى ﴿ أن لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ إلى قوله ﴿ من النذر الأولى ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية في قوله ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ قال : أدى عن ربه ﴿ أن لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

وأخرج الشافعي وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن عمرو بن أوس قال : كان الرجل يؤخذ بذنب غيره حتى جاء إبراهيم فقال الله ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ قال : بلغ وأدى ﴿ أن لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ قال : كانوا قبل إبراهيم يأخذون الولي بالمولى حتى كان إبراهيم فبلغ ﴿ أن لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ لا يؤخذ

أحد بذنب غيره .

وأخرج ابن المنذر عن هذيل بن شرحبيل قال : كان الرجل يؤخذ بذنب غيره فيما بين نوح إلى إبراهيم حتى جاء إبراهيم ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإِنسان إلا ما سعى ﴾ .

(256/733)

أخرج أبو داود والنحاس كلاهما في الناسخ وابن جرير وابن المنذر وابن مردوية عن ابن عباس قال ﴿ وأن ليس للإِنسان إلا ما سعى ﴾ فأنزل الله بعد ذلك ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ [الطور : 21] فأدخل الله الأبناء الجنة بصلاح الآباء .

وأخرج ابن مردوية عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ ﴿ وأن ليس للإِنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ استرجع واستكان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ 639.662 ﴾

(257/733)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والثلاثون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع والثلاثون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 42 ﴾ من (سورة النجم)

وحتى الآية ﴿ 62 ﴾ آخر السورة

(4/734)

قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (43) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (44) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (47) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (48) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (49) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (55) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (56) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت رؤية الأعمال لا تقطع برؤية المتوكلين بها من الملائكة أو غيرها ممن أقامه الله لذلك ، وكان الرائي كلما كان أكثر كان الأمر أهول ، وكان رؤية الملك الأعظم أخوف ، قال

عاطفاً على ﴿ لا تزر ﴾ مبيناً بحروف الغاية أن الرائين للأعمال كثير لكثرة جنوده سبحانه : ﴿ وأن إلى ربك ﴾ أي المحسن إليك لا غيره ﴿ المنتهى ﴾ أي الانتهاء برجوع الخلائق حساً بالبعث ومعنى بالعمل والعلم ، وإسناد الأمور وإرسال الآمال ، ومكان رجوعهم وزمانه كما كان منه المبتدأ ، أكد ذلك خلقاً لذلك كله وحساباً عليه ، روى البغوي من طريق أبي جعفر الرازي عن أبي بن كعب ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هذه الآية قال " لا فكرة في الرب " قال : ومثل هذا ما روي عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ مرفوعاً : " تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فإنه لا يحيط به الفكرة " ورواه أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : " لا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره " ، هذا هو المراد وهو واضح ، فمن أول الآية باتحاد أو غير ذلك من الإلحاد فعليه لعنة الله وعلى الذاب عنه والساكت عنه .

(5/734)

ولما ذكر تعالى الأمور الاختيارية وقدمها لأنها محط للبلاء وسلب علمها عن أصحابها ، وحذر من عاقبتها بإحاطته بكل شيء ، وكان معنى ذلك أنه القادر على غيره والعالم لا غيره ، عطف عليه قوله ذاكراً للأمور الاضطرارية التي هي في غاية التنافي إكمالاً للدليل

على أنه يعلم ما في النفوس دون أصحابها وغيرهم وأنه إليه المنتهى إعادة وإبداء ، يوقف ما يشاء على ما يريد من الأسباب التي تفعل بإذنه من الضحك أو البكاء وغيرهما من الأمور المنافية التي لولا الإلف لها لقضى الإنسان أن المتلبس بأحدهما لا يتلبس بضده أصلاً من غيرها ﴿ وأنه ﴾ ولما كانت التأثيرات الإدراكية تحال على أسبابها ، أكد الكلام فيها فقال : ﴿ هو ﴾ أي لا غيره ﴿ أضحك وأبكى ﴾ أي ولا يعلم أحد قبل وقت الضحك أو البكاء أنه يضحك أو يبكي ولا أنه يأتيه ما يعجبه أو يحزنه ، ولو قيل له حالة الضحك أنه بعد ساعة يبكي لأنكر ذلك ، وربما أدركه ما أبكاه وهو في الضحك وبالعكس .

ولما كانت الإماتة والإحياء أعظم تنافياً بما مضى ، فكانت القدرة على إيجادها في الشخص الواحد أعظم ما يكون ، وكان ربما نسب إلى من قتل داوى من مرض أو أطلق من وجب قتله ، أكد فقال : ﴿ وأنه هو ﴾ أي لا غيره .

ولما كان الإلباس في الموت أكبر ، وكان الموت انسب للبكاء ، والإحياء أنسب للضحك ، وكان طريق النشر المشوش أفصح ، قدمه فقال : ﴿ أمات وأحيا ﴾ وإن رأيتم أسباباً ظاهرية فإنه لا عبرة بها أصلاً في نفس الأمر بل هو الذي خلقها .

(6/734)

ولما كان ذكر الإحياء ، وكان تصنيف الولد إلى نوعيه ظاهراً في اختصاصه ، بل وهو في غاية التعذر على من سواه ، أعراه عن مثل التأكيد في الذي قبله فقال : ﴿ وأنه خلق الزوجين ﴾ ثم فسرها بقوله : ﴿ الذكر والأنثى ﴾ فإنه لو كان ذلك في غيره لمنع البنات لأنها مكروهة لكل أحد ، ثم ذكر ما يظهر ولا بد أنه من صنعه فتسبب أن مادة الاثنين واحدة وهو الماء الذي هو أشد الأشياء امتزاجاً فقال : ﴿ من نطفة ﴾ وصور كونها منها بقوله : ﴿ إذا تمنى ﴾ أي تراق وتدفق بالفعل لا قبل ذلك ليمكن فيه طعن بأنه كان بدءاً أو غيره بل أنتم تعلمون أنه لا يخلق الولد إلا بعد الإمناء بالفعل ، وخرج أصله ما يمكن خلقاً من خلق الله أن يعرف بمجرد رؤيته أهو صالح للأنثى فقط أو للذكر فقط أو لهما أو للأشكال بالخنوثة .

ولما ساق هذه الأشياء دليلاً على إحاطة علمه فلزمها أن دلت على تمام قدرته ، وختمها بالنشأة الأولى فلزم من ذلك الإقرار حتماً بأنه قادر على البعث ، عبر بما يقتضي أنه لما تقدم به وعده على جميع ألسنة رسله صار واجباً عليه بمعنى أنه لا بد من كونه لأنه لا يبدل القول لديه ، لا غير ذلك ، فعبر بحرف الاستعلاء تأكيداً له رداً لإنكارهم إياه فقال : ﴿ وأن عليه ﴾ أي خاصاً به علماً وقدرة ﴿ النشأة ﴾ أي الحياة وهو ممدود لابن كثير وأبي عمرو ومقصور لغيرهما مصدر نشأ - إذا حنى وربى وسن ﴿ الأخرى ﴾ أي التي ينشأ بها الخلق بعد أن يميتهم .

ولما كان الغنى والفقر من الأمور المتوسطة بين الاختيارية والاضطرارية له بكل الأمرين لسبب وكان مقسوماً بين الإناث والذكور بحكمة ربانية لا ينفع الذكر فيها قوته ولا يضر الأنثى ضعفها ، وكان ذكر النشأة الآخرة كالمعترض إنما أوجب ذكر النشأة الأولى ، تعقب ذكرهما به وكان ذكر الغنى مع أنه يدل على الفقر أليق بالامتنان ، والنسبة إلى الرب ، وكان الغنى الحقيقي إنما يكون في تلك الدار ، أخر ذكره فقال : ﴿ وأنه ﴾ ولما كان ربما نسب إلى السعي وغيره ، أكد بالفعل فقال : ﴿ هو ﴾ أي وحده من غير نظر إلى سعي ساع ولا غيره ﴿ أغنى ﴾ ولما كان الغنى في الحقيقة إنما هو غنى النفس ، وهو رضاها بما قسم لها وسكونها وطمأنينتها ، وإنما سمي ذو المال غنياً لأن المال بحيث تطمئن معه النفس ، فمن كان راضياً بكل ما قسم الله به فهو غني ، وهو في الجنانة مغني وإن كان في الدنيا

﴿ وأقنى ﴾ أي أمكن من المال وأرضى بجميع الأحوال قال البغوي : أعطى أصول المال وما يدخر بعد الكفاية ، قال : وقال الأخفش أقنى أفقر – انتهى .

ونقل الأصبهاني مثله عن أبي زيد ، فتكون الهمزة للإزالة ويقال ، أفناه بكذا أرضاه ، وأقناه الصد : أمكنه منه .

ولما كانت الشعرى لأنها تقطع السماء عرضاً أدل النجوم بعد تمام القدرة على الفعل بالاختيار مع أنها مما دخل تحت ذلك الجنس المقسم به أول السورة ، وهي لمرورها في سيرها عرضاً على جميع المنازل التي كانت العرب تستمطر بها وتنسب بالإتيان بالحد الموجب للغنى إليها كانت قد عبدها من دون الله أبو كبشة الخزاعي لكونها عنده أجل الكواكب ، قال تعالى دالاً بالتأكيد على سفاهة من عبدها : ﴿ وأنه هو ﴾ أي لا غيره ﴿ رب الشعرى ﴾ أي الكاملة في معناها وهي العبور ، وأهل علم النجوم يقولون ، إن الأحكام النجومية المنسوبة إليها أصح ما ينسب إلى العالم العلوي ، وهي نجم يضيء خلف الجوزاء ، ويسمى كلب الجبال ، وسميت الجوزاء بالجبار تشبيهاً لها بملك على كرسيه وعلى رأسه تاج ، وقال الرازي في اللوامع : هي أحد كوكبي ذراعي الأسد ، وقال ابن القاص في كتاب دلائل القبلة : وترى عند صلاة الصبح نيرة زائداً نورها على نور سائر الكواكب حولها ، وقد طمس الصبح نور سائر الكواكب ، وأما الشعرى الأخرى فهي الغميصاء – بالغين المعجمة والصاد المهملة – فهي أقل نوراً منها ، ولذلك سميت الغميصاء ، وقال القزاز في جامعه : وقيل : بكت على أختها فغمصت عينها ، أي غارت وذهبت .

ولما دل سبحانه على كمال علمه وشمول قدرته بأمور الخافقين : العلوي والسفلي ، فكان ذلك داعياً إلى الإقبال على ما يرضيه ، وناهياً عن الإلمام بما يسخطه ، شرع في التهديد لمن وقف عن ذلك بما وقع في مصارع الأولين من عجائب قدرته فقال : ﴿ وأنه أهلك عاداً ﴾ ولم يأت بضمير الفصل لأنه لم يدع في أحد غيره إهلاكهم ، وهول أمرهم بقوله : ﴿ الأولى ﴾ أي القدماء في الزمان جداً دلالة على أنه المنصرف في جميع الأزمنة ، وقدمهم لأن الشر أتاهم من حيث ظنوه خيراً وجزموا بأنه من الأنواء النافعة التي كانت عادتهم استمطارها ، وقيل : إن عاداً قبيلتان : والأولى قوم هود عليه السلام والأخرى إرم ذات العماد – قاله جماعة منهم القشيري ، قال البغوي : وكان لهم عقب فكانوا عاداً الأخرى ، وقال ابن جرير : وعاداً الأولى هم الذين عنى الله بقوله ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ﴾ [الفجر : 6 – 7] وإنما قيل لهم عاداً الأولى لأن بني لقيم بن هزال هزيل بن عنبل بن عاد كانوا أيام أرسل الله على هؤلاء عذابه سكاناً بمكة مع إخوانهم من العمالقة ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام فلم يصبهم من العذاب ما أصاب قومه وهم عاد الأخرى ، ثم هلكوا بعد بغي بعضهم على بعض فتفانوا ، وقال غير ابن جرير : إن إرم هم عاد الأخرى ، وعطف

عليهم قوله : ﴿ وثموداً ﴾ أي أهلكهم ثم سبب عن الإهلاك قوله : ﴿ فما أبقى ﴾ أي من الفريقين أحداً ، ومن قال : إن عاداً قبيلتان جعل عدم الإبقاء خاصاً بثمود ، وقراءة عاصم وحمزة ويعقوب بمنع الصرف نص في أنه قوم صالح عليه السلام ، وقراءة الباقين بالصرف أنسب للإهلاك والإعدام .

(10/734)

ولما قدم من كان إهلاكهم بنفس الريح التي هي مبدأ الأمطار الآتية لهم في السحاب ، وأتبعهم من إهلاكهم بها بحملها للصيحة إرجافها بهم ، أتبعهم من كان إهلاكهم بالماء الذي هو غاية السحاب فقال : ﴿ وقوم نوح ﴾ أي أهلكهم لأجل ظلمهم بالتكذيب ، ولما كان إهلاكهم في بعض الزمان الماضي قال : ﴿ من قبل ﴾ أي قبل الفريقين فصار في الكلام تهويلان يهزان القلب ويفعلان في النفس وصف هؤلاء بالقبيلتين وأولئك بالأولى ، ولولا تقديمهم ما كان هذا ، وعلل هلاكهم بما يؤذن أنه لا فرق عنده بين قوي وضعيف وقليل وكثير مؤكداً لان ما اشتهر من طغيان عاد يوجب أنهم أطغى الناس : ﴿ إنهم كانوا ﴾ أي بما لهم من الأخلاق التي هي كالجبال التي لا انفكاك عنها ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ أظلم ﴾ من الطائفتين المذكورتين ﴿ وأطغى ﴾ أي وأشد تجاوزاً في الظلم وعلواً وإسرافاً في

المعاصي وتجبراً وعتواً لتمادي دعوة نوح عليه السلام ولأنهم أطول أعماراً وأشد أبداناً ، وكانوا مع ذلك ملء الأرض ، ويجوز أن يكون الضمير للفرق الثلاثة .

(11/734)

ولما ذكر الهلاك بالريح العاصفة الناشئة عنها ثم بالماء الناشئ عن السحاب الناشئ عن الريح ، ذكر الإهلاك بالريح والنار والماء إعلاماً بأنه الفاعل وحده بما أراد من العذاب من العناصر التي سبب الحياة مجتمعة ومنفردة ، فقال مقدماً عن العامل إعلاماً بالتخصيص بما ذكر من العذاب إفادة بإنه تعالى قادر على كل شيء فلم يعذب فرقة بما عذب به الأخرى : ﴿ والمؤتفكة ﴾ أي المدن المقلبة عن وجوهها إلى أقفائها بقدرة جعلتها من شدتها وعظمتها كأنها انقلبت نفسها من غير قالب وذلك أنه سبحانه فتقها من الأرض ففتقها ثم دفعها في الهواء إلى عنان السماء ثم قلبها وأتبعها حجارة النار الكبريتية وغمرها بالماء الذي لا يشبهه شيء من مياه الدنيا ، ولذلك قال : ﴿ أهوى ﴾ أي رفع وحط وأنزل ، فكان الإنزال إهواءً حقيقياً ، والرفع مجازياً لأنه سببه وهي مدن قوم لوط عليه السلام ، وأشار إلى الحجارة والماء بقوله مسبباً عن الإهواء ومعقباً له : ﴿ فغشاها ﴾ أي أتبعها ما غطاها فكان لها بمنزلة الغشاء ، وهولها بقوله : ﴿ ما غشى ﴾ أي أمراً عظيماً من

الحجارة وغيرها لا يسع العقول وصفه ، وقد اشتمل ما ذكره سبحانه من الصحف على بيان ما ينفع من الأعمال وما يضر وبيان التوحيد باحاطة الله سبحانه بالنهايات التي لا نهاية بعدها علماً وقدرة لاختصاصه ببيان المصنوعات وببيان البعث للتخويف بالآجل وإهلاك المرتدين للتخويف بالعاجل لمن كان قلبه جافياً عن النفوذ إلى الآجل .

(12/734)

ولما أهلك كل واحدة من هذه الفرقة فلم يبق من فجارها أحد ، وأنجى من أطاعه منهم فلم يهلك منهم أحد ، وكان إهلاكه لكل منها بشيء غير ما هلك به الفريق الآخر ، فدل كل من ذلك على تمام علمه وكمال قدرته ، وكان كمل ما تقدم في هذه السورة من النعم والنقم لكونه كان أتم أوجه الحكم نعمة على كل مؤمن لما فيها من الترغيب في ثوابه والترهيب من عقابه ، خاطب سبحانه رأس المؤمنين لأن خطابه له أشد في تذكير غيره فقال مسبباً عما مضى : ﴿ فبأيّ آلاء ربك ﴾ أي عطية المحسن إليك التي هي وجه الإنعام والإكرام وهي إشارة المعرفة به سبحانه بمنزلة ظل الشخص من الشخص كما أنه لا يتصور ظل إلا لشخص فكذلك فعل الفاعل ولا أثر للمؤثر ﴿ تتمارى ﴾ أي تشك بإجالة الخواطر في فكرك في إرادة هداية قومك بحيث لا تريد أن أحداً منهم يهلك وقد حكم ربك بإهلاك كثير منهم لما

اقتضته حكمته ، وكان بعض خطرك في تلك الإجالة يشككك بعضاً ، ولما تم الكلام على هذا المنهاج البديع والنمط الرفيع في حسان البيان للمواعظ والشرع والقصص القديمة والإنذار العظيم التام على وجه معجز من وجوه شتى ، أنتج قوله مرغباً مرهباً خاتماً السورة بما بدأ هنا به من ذكره ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿ هذا ﴾ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ نذير ﴾ أي محذر بليغ التحذير ، ولما كانت الرسل الماضون عليهم الصلاة والسلام قد تقررت رسالتهم في النفوس وسكنت إليها القلوب ، بحيث أنه لا يسع إنكارها ، فكان قد أخبر عن إنكار من كذبهم لأجل تكذيبهم ، وإنجائهم وإنجاء من صدقهم لأجل نصرتهم ، وكان لا فرق بينه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبينهم في ذلك إلا أن الرحمة به أبلغ وأغلب ، مرعباً في اتباعه مرهباً من نزاعه ، قال : ﴿ من النذر الأولى ﴾ يجب له ما وجب لهم وأنتم كالمنذرين الأولين ، فاحذروا ما حل بالمكذبين منهم وارجوا ما كان للمصدقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 331 ـ 336 ﴾

(13/734)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42) ﴾

القراءة المشهورة فتح الهمزة على العطف على ما ، يعني أن هذا أيضاً في الصحف وهو الحق ، وقرىء بالكسر على الاستئناف ، وفيه مسائل :

(14/734)

الأولى : ما المراد من الآية ؟ قلنا فيه وجهان : أحدهما : وهو المشهور بيان المعاد أي للناس بين يدي الله وقوف ، وعلى هذا فهو يتصل بما تقدم لأنه تعالى لما قال : ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ ﴾ كأن قائلاً قال لا ترى الجزاء ، ومتى يكون ، فقال : إن المرجع إلى الله ، وعند ذلك يجازى الشكور ويجزي الكفور وثانيهما : المراد التوحيد ، وقد فسر الحكماء أكثر الآيات التي فيها الانتهاء والرجوع بما سنذكره غير أن في بعضها تفسيرهم غير ظاهر ، وفي هذا الموضع ظاهر ، فنقول : هو بيان وجود الله تعالى ووحدانيته ، وذلك لأنك إذا نظرت إلى الموجودات الممكنة لا تجد لها بدأً من موجد ، ثم إن موجدها ربما يظن أنه ممكن آخر كالحرارة التي تكون على وجه يظن أنها من إشراق الشمس أو من النار فيقال الشمس والنار ممكنتان فمم وجودهما ؟ فإن استندتا إلى ممكن آخر لم يجد العقل بدأً من الانتهاء إلى غير ممكن فهو واجب الوجود فإليه ينتهي الأمر فالرب هو المنتهى ، وهذا في هذا الموضع

ظاهر معقول موافق للمنقول ، فإن المروي عن أبي بن كعب أنه قال عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " وأن إلى ربك المنتهى ، لا فكرة في الرب " أي انتهى الأمر إلى واجب الوجود ، وهو الذي لا يكون وجوده بموجد ومنه كل وجود ، وقال أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا ذكر الرب فانتهوا " وهو محتمل لما ذكرنا ، وأما بعض الناس فيبالغ ويفسر كل آية فيها الرجعى والمنتهى وغيرهما بهذا التفسير حتى قيل : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ [فاطر : 10] بهذا المعنى وهذا دليل الوجود ، وأما دليل الوحدانية فمن حيث إن العقل انتهى إلى واجب الوجود من حيث إنه واجب الوجود ، لأنه لو لم يكن واجب الوجود لما كان منتهى بل يكون له موجد ، فالمنتهى هو الواجب من حيث إنه واجب ، وهذا المعنى واحد في الحقيقة والعقل ، لأنه لا بد من الانتهاء إلى هذا الواجب أو إلى ذلك الواجب فلا يثبت الواجب معنى غير أنه

(15/734)

واجب فيبعد إذاً وجوبه ، فلو كان واجبان في الوجود لكان كل واحد قبل المنتهى لأن المجموع قبله الواجب فهو المنتهى وهذان دليلان ذكرتهما على وجه الاختصار .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ إلى ربّكَ المنتهى ﴾ في المخاطب وجهان : أحدهما : أنه عام تقديره إلى ربك أيها السامع أو العاقل ثانيهما : الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم وفيه بيان صحة دينه فإن كل أحد كان يدعى رباً وإلهاً ، لكنه صلى الله عليه وسلم لما قال :

" ربي الذي هو أحد وصمد " يحتاج إليه كل ممكن فإذاً ربك هو المنتهى ، وهو رب الأرباب ومسبب الأسباب ، وعلى هذا القول الكاف أحسن موقعاً ، أما على قولنا : إن الخطاب عام فهو تهديد بليغ للمسيء وحث شديد للمحسن ، لأن قوله : أيها السامع كائناً من كان إلى ربك المنتهى يفيد الأمرين إفادة بالغة حد الكمال ، وأما على قولنا : الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم فهو تسلية لقلبه كأنه يقول : لا تحزن فإن المنتهى إلى الله فيكون كقوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [ياس : 76] إلى أن قال تعالى في آخر السورة : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [ياس : 83] وأمثاله كثيرة في القرآن .

المسألة الثالثة :

اللام على الوجه الأول للعهد لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : أبداً إن مرجعكم إلى الله فقال : ﴿ وَأَنَّ إلى ربّكَ المنتهى ﴾ الموعود المذكور في القرآن وكلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى الوجه الثاني للعموم أي إلى الرب كل منتهى وهو مبدأ ، وعلى هذا الوجه نقول : منتهى الإدراكات المدركات ، فإن الإنسان أولاً يدرك الأشياء الظاهرة ثم يمعن النظر فينتهي إلى الله فيقف عنده .

وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (43)

وفيه مسائل :

(16/734)

الأولى : على قولنا : إليه المنتهى المراد منه إثبات الوحدانية ، هذه الآيات مثبتات لمسائل يتوقف عليها الإسلام من جملتها قدرة الله تعالى ، فإن من الفلاسفة من يعترف بأن الله المنتهى وأنه واحد لكن يقول : هو موجب لا قادر ، فقال تعالى : هو أوجد ضدين الضحك والبكاء في محل واحد والموت والحياة والذكورة والأنوثة في مادة واحدة ، وإن ذلك لا يكون إلا من قادر واعترف به كل عاقل ، وعلى قولنا : إن قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾ [النجم : 42] بيان المعاد فهو إشارة إلى بيان أمره فهو كما يكون في بعضها ضاحكاً فرحاً وفي بعضها باكياً محزوناً كذلك يفعل به في الآخرة .

المسألة الثانية :

﴿ أَضْحَكَ وأبكى ﴾ لا مفعول لهما في هذا الموضع لأنهما مسوقتان لقدرة الله لا لبيان المقدور ، فلا حاجة إلى المفعول .

يقول القائل : فلأن بيده الأخذ والعطاء يعطي ويمنع ولا يريد ممنوعاً ومعطى .

المسألة الثالثة :

اختار هذين الوصفين للذكر والأنثى لأنهما أمران لا يعللان فلا يقدر أحد من الطبيعيين أن يبدي في اختصاص الإنسان بالضحك والبكاء وجهاً وسبباً ، وإذا لم يعلل بأمر ولا بد له من موجد فهو الله تعالى ، بخلاف الصحة والسقم فإنهم يقولون : سببهما اختلال المزاج وخروجه عن الاعتدال ، ويدلك على هذا أنهم إذا ذكروا في الضحك أمراً له الضحك قالوا : قوة التعجب وهو في غاية البطلان لأن الإنسان ربما يبهت عند رؤية الأمور العجيبة ولا يضحك ، وقيل : قوة الفرح ، وليس كذلك لأن الإنسان يفرح كثيراً ولا يضحك ، والحزين الذي عند غاية الحزن يضحكه المضحك ، وكذلك الأمر في البكاء ، وإن قيل لأكثرهم علماً بالأمور التي يدعيها الطبيعيون إن خروج الدمع من العين عند أمور مخصوصة لماذا ؟ لا يقدر على تعليل صحيح ، وعند الخواص كالتي في المغناطيس وغيرها ينقطع الطبيعي ، كما أن عند أوضاع الكواكب ينقطع هو والمهندس الذي لا يفوض أمره إلى قدرة الله تعالى وإرادته .

(17/734)

وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (44)

والبحث فيه كما في الضحك والبكاء ، غير أن الله تعالى في الأول بين خاصة النوع الذي هو أخص من الجنس ، فإنه أظهر وعن التعليل أبعد ثم عطف عليه ما هو أعم منه ودونه في البعد عن التعليل وهي الإماتة والإحياء وهما صفتان متضادتان أي الموت والحياة كالضحك والبكاء والموت على هذا ليس بمجرد العدم وإلا لكان الممتنع ميتاً ، وكيفما كان فالإماتة والإحياء أمر وجودي وهما من خواص الحيوان ، ويقول الطبيعي في الحياة لاعتدال المزاج ، والمزاج من أركان متضادة هي النار والهواء والماء والتراب وهي متداعية إلى الانفكاك ومالا تركيب فيه من المتضادات لا موت له ، لأن المتضادات كل أحد يطلب مفارقة مجاوره ، فقال تعالى : الذي خلق ومزج العناصر وحفظها مدة قادر على أن يحفظها أكثر من ذلك فإذا مات فليس عن ضرورة فهو بفعل فاعل مختار وهو الله تعالى : فهو الذي أمات وأحيا .

فإن قيل : متى أمات وأحيا حتى يعلم ذلك بل مشاهدة الإحياء والإماتة بناء على الحياة والموت ؟ نقول : فيه وجوه أحدها : أنه على التقديم والتأخير كأنه قال : أحيا وأمات ثانيها : هو بمعنى المستقبل ، فإن الأمر قريب يقال : فلان وصل والليل دخل إذا قرب مكانه وزمانه ، فكذلك الإحياء والإماتة ثالثها : أمات أي خلق الموت والجمود في العناصر ، ثم

ركبها وأحيا أي خلق الحس والحركة فيها .

وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (45)

(18/734)

وهو أيضاً من جملة المتضادات التي تتوارد على النطفة فبعضها يخلق ذكراً ، وبعضها أنثى ولا يصل إليه فهم الطبيعي الذي يقول : إنه من البرد والرطوبة في الأنثى ، فرب امرأة أيبس مزاجاً من الرجل ، وكيف وإذا نظرت في المميزات بين الصغير والكبير تجدها أموراً عجيبة منها نبات اللحية ، وأقوى ما قالوا في نبات اللحية أنهم قالوا : الشعور مكونة من بخار دخاني ينحدر إلى المسام ، فإذا كانت المسام في غاية الرطوبة والتحلل كما في مزاج الصبي والمرأة ، لا ينبت الشعر لخروج تلك الأدخنة من المسام الرطبة بسهولة قبل أن يتكون شعراً ، وإذا كانت في غاية اليبوسة والتكاثف ينبت الشعر لعسر خروجه من المخرج الضيق ، ثم إن تلك المواد تنجذب إلى مواضع مخصوصة فتندفع ، إما إلى الرأس فتندفع إليه لأنه مخلوق كقبة فوق الأبخرة والأدخنة فتتصاعد إليه تلك المواد ، فلهذا يكون شعر الرأس أكثر وأطول ، ولهذا في الرجل مواضع تنجذب إليها الأبخرة والأدخنة ، منها الصدر لحرارة القلب والحرارة تجذب الرطوبة كالسراج للزيت ، ومنها بقرب آلة التناسل لأن حرارة الشهوة تجذب

أيضاً ، ومنها اللحيان فإنها كثيرة الحركة بسبب الأكل ، والكلام والحركة أيضاً جاذبة ، فإذا قيل لهم : فما السبب الموجب لتلازم نبات شعر اللحية وآلة التناسل فإنها إذا قطعت لم تنبت اللحية ؟ وما الفرق بين سن الصبا وسن الشباب وبين المرأة والرجل ؟ ففي بعضها يبهت وفي بعضها يتكلم بأمور واهية ، ولو فوضها إلى حكمة إلهية لكان أولى ، وفي مسألتان :

(19/734)

الأول : قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ ﴾ ولم يقل : وأنه هو خلق كما قال : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى ﴾ [النجم : 43] وذلك لأن الضحك والبكاء ربما يتوهم متوهم أنه بفعل الإنسان ، وفي الإماتة والإحياء وإن كان ذلك التوهم بعيداً ، لكن ربما يقول به جاهل ، كما قال من حاج إبراهيم الخليل عليه السلام حيث قال : ﴿ أَنَا أُحْيِ وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة : 258] فأكد ذلك بذكر الفصل ، وأما خلق الذكر والأنثى من النطفة فلا يتوهم أحد أن يفعل أحد من الناس فلم يؤكد بالفصل ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أغنى وأقنى ﴾ [النجم : 48] حيث كان الإغناء عندهم غير مستند إلى الله تعالى وكان في معتقدهم أن ذلك بفعلهم كما قال قارون : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عِندِى ﴾ [القصص : 78] ولذلك قال :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشعرى ﴾ [النجم : 49] لأنهم كانوا يستبعدون أن يكون رب محمد هو رب الشعرى فأكد في مواضع استبعادهم النسبة إلى الله تعالى الإسناد ولم يؤكده في غيره .

المسألة الثانية :

(20/734)

الذكر والأنثى اسمان هما صفة أو اسمان ليسا بصفة ؟ المشهور عند أهل اللغة الثاني والظاهر أنهما من الأسماء التي هي صفات ، فالذكر كالحسن والعزب والأنثى كالحبلى والكبرى وإنما قلنا : إنها كالحبلى في رأي لأنها حيالها أنشئت لا كالكبرى ، وإن قلنا : إنها كالكبرى في رأي ، وإنما قلنا : إن الظاهر أنهما صفتان ، لأن الصفة ما يطلق على شيء ثبت له أمر كالعالم يطلق على شيء له علم والمتحرك يقال لشيء له حركة بخلاف الشجر والحجر ، فإن الشجر لا يقال لشيء بشرط أن يثبت له أمر بل هو اسم موضوع لشيء معين ، والذكر اسم يقال لشيء له أمر ، ولهذا يوصف به ، ولا يوصف بالشجر ، يقال جاءني شخص ذكر ، أو إنسان ذكر ، ولا يقال جسم شجر ، والذي ذهب إلى أنه اسم غير صفة إنما ذهب إليه ، لأنه لم يرد له فعل ، والصفة في الغالب له فعل كالعالم والجاهل والعزب والكبرى والحبلى ، وذلك لا يدل على ما ذهب إليه ، لأن الذكورة والأنوثة من الصفات التي

لا يتبدل بعضها ببعض ، فلا يصاغ لها أفعال لأن الفعل لما يتوقع له تجدد في صورة الغالب ، ولهذا لم يوجد للإضافيات أفعال كالأبوة والبنوة والأخوة إذ لم تكن من الذي يتبدل ، ووجد للإضافيات المتبدلة أفعال يقال : واخاه وتبناه لما لم يكن مثبتاً بتكلف فقبل التبدل .

مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46)

وقوله تعالى : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي قطعة من الماء .

(21/734)

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا تمنى ﴾ من أمنى المني إذا نزل أو منى يمني إذا قدر وقوله تعالى : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ تنبيه على كمال القدرة لأن النطفة جسم متناسب الأجزاء ، ويخلق الله تعالى منه أعضاء مختلفة وطباعاً متباينة وخلق الذكر والأنثى منها أعجب ما يكون على ما بينا ، ولهذا لم يقدر أحد على أن يدعيه كما لم يقدر أحد على أن يدعي خلق السموات ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [الزخرف : 87] كما قال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [الزمر : 38] .

وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (47)

(22/734)

وهي في قول أكثر المفسرين إشارة إلى الحشر ، والذي ظهر لي بعد طول التفكر والسؤال من فضل الله تعالى الهداية فيه إلى الحق ، أنه يحتمل أن يكون المراد نفخ الروح الإنسانية فيه ، وذلك لأن النفس الشريفة لا الأمارة تخالط الأجسام الكثيفة المظلمة ، وبها كرم الله بني آدم ، وإليه الإشارة في قوله : ﴿ فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ثُمَّ أنشأناه خَلْقاً ءاخَرَ ﴾ [المؤمنون : 14] غير خلق النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاماً ، وبهذا الخلق الآخر تميز الإنسان عن أنواع الحيوانات ، وشارك الملك في الإدراكات فكما قال هنالك : ﴿ أنشأناهُ خلقاً آخر ﴾ بعد خلق النطفة قال ههنا : ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النشأة الأخرى ﴾ فجعل نفخ الروح نشأة أخرى كما جعله هنالك إنشاء آخر ، والذي أوجب القول بهذا هو أن قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ إلى ربّكَ المنتهى ﴾ [النجم : 42] عند الأكثرين لبيان الإعادة ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الجزاء الأوفى ﴾ [النجم : 41] كذلك فيكون ذكر النشأة الأخرى إعادة ، ولأنه تعالى قال بعد هذا : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أغنى وأقنى ﴾ [النجم : 48] وهذا من أحوال الدنيا ، وعلى ما ذكرنا يكون الترتيب في غاية الحسن فإنه تعالى يقول : خلق الذكر والأنثى ونفخ فيهما الروح الإنسانية الشريفة ثم أغناه بلبن الأم وبنفقة الأب في صغره ، ثم أقناه بالكسب بعد كبره ، فإن قيل : فقد وردت النشأة الأخرى للحشر في قوله تعالى : ﴿ فانظروا كَيْفَ بَدَأَ الخلق ثُمَّ الله يُنشِىء النشأة الآخرة ﴾ [العنكبوت : 20] نقول

الآخرة من الآخر لا من الآخر لأن الآخر أفعل ، وقد تقدم على أن هناك لما ذكر البدء حمل على الإعادة وههنا ذكر خلقه من نطفة ، كما في قوله : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً ﴾ ثم قال : ﴿ أنشأناهُ خلقاً آخر ﴾ [المؤمنون : 14] وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(23/734)

﴿ على ﴾ للوجوب ، ولا يجب على الله الإعادة ، فما معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ﴾ قال الزمخشري على ما هو مذهبه عليه عقلاً ، فإن من الحكمة الجزاء ، وذلك لا يتم إلا بالحشر ، فيجب عليه عقلاً الإعادة ، ونحن لا نقول بهذا القول ، ونقول فيه وجهان الأول : عليه بحكم الوعد فإنه تعالى قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الموتى ﴾ [ياس : 12] فعليه بحكم الوعد لا بالعقل ولا بالشرع الثاني : عليه للتعيين فإن من حضر بين جمع وحاولوا أمراً وعجزوا عنه ، يقال : وجب عليك إذن أن تفعله أي تعينت له .

المسألة الثانية :

قرىء : ﴿ النشأة ﴾ على أنه مصدر كالضربة على وزن فعلة وهي للمرة ، تقول : ضربته ضربتين ، أي مرة بعد مرة ، يعني النشأة مرة أخرى عليه ، وقرىء النشأة بالمد على أنه

مصدر على وزن فعالة كالكفالة ، وكيفما قرىء فهي من نشأ ، وهو لازم وكان الواجب أن يقال : عليه الإنشاء لا النشأة ، نقول فيه فائدة وهي أن الجزم يحصل من هذا بوجود الخلق مرة أخرى ، ولو قال : عليه الإنشاء ربما يقول قائل : الإنشاء من باب الإجلاس ، حيث يقال في السعة أجلسته فما جلس ، وأقمته فما قام فيقال : أنشاء وما نشأ أي قصده لينشأ ولم يوجد ، فإذا قال : عليه النشأة أي يوجد النشء ويحققه بحيث يوجد جزماً .

المسألة الثالثة :

هل بين قول القائل : عليه النشأة مرة أخرى ، وبين قوله : عليه النشأة الأخرى فرق ؟ نقول : نعم إذا قال : عليه النشأة مرة أخرى لا يكون النشء قد علم أولاً ، وإذا قال : ﴿ عَلَيْهِ النشأة الأخرى ﴾ يكون قد علم حقيقة النشأة الأخرى ، فنقول ذلك المعلوم عليه .

وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (48)

(24/734)

وقد ذكرنا تفسيره فنقول : ﴿ أغنى ﴾ يعني دفع حاجته ولم يتركه محتاجاً لأن الفقير في مقابلة الغني ، فمن لم يبق فقيراً بوجه من الوجوه فهو غني مطلقاً ، ومن لم يبق فقيراً من وجه فهو غني من ذلك الوجه ، قال صلى الله عليه وسلم : " أغنوهم عن المسألة في هذا اليوم "

وحمل ذلك على زكاة الفطر ، ومعناه إذا أتاه ما احتاج إليه ، وقوله تعالى : ﴿ أقنى ﴾ معناه وزاد عليه الإقناء فوق الإغناء ، والذي عندي أن الحروف متناسبة في المعنى ، فنقول لما كان مخرج القاف فوق مخرج الغين جعل الإقناء لحالة فوق الإغناء ، وعلى هذا فالإغناء هو ما آتاه الله من العين واللسان ، وهداه إلى الارتضاع في صباه أو هو ما أعطاه الله تعالى من القوت واللباس المحتاج إليهما وفي الجملة كل ما دفع الله به الحاجة فهو إغناء ؛ وكل ما زاد عليه فهو إقناء .

وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (49)

إشارة إلى فساد قول قوم آخرين ، وذلك لأن بعض الناس يذهب إلى أن الفقر والغنى بكسب الإنسان واجتهاده فمن كسب استغنى ، ومن كسل افتقر وبعضهم يذهب إلى أن ذلك بالبخت ، وذلك بالنجوم ، فقال : ﴿ هُوَ أغنى وأقنى ﴾ وإن قائل الغنى بالنجوم غالط ، فنقول هو رب النجوم وهو محركها ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ رَبُّ الشعرى ﴾ وقوله : ﴿ هُوَ رَبُّ الشعرى ﴾ لإنكارهم ذلك أكد بالفصل ، والشعرى نجم مضيء ، وفي النجوم شعريان إحداهما شامية والأخرى يمانية ، والظاهر أن المراد اليمانية لأنهم كانوا يعبدونها .

وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (50)

لما ذكر أنه : ﴿ أغنى وأقنى ﴾ [النجم : 48] وكان ذلك بفضل الله لا بعطاء الشعرى وجب الشكر لمن قد أهلك وكفى لهم دليلاً حال عاد وثمود وغيرهم : و ﴿ عَاداً الأولى ﴾ قيل : بالأولى تميزت من قوم كانوا بمكة هم عاد الآخرة ، وقيل : الأولى لبيان تقدمهم لا لتمييزهم ، تقول : زيد العالم جاءني فتصفه لا لتميزه ولكن لتبين علمه ، وفيه قراءات ﴿ عَاداً الأولى ﴾ بكسر نون التنوين لالتقاء الساكنين ، و ﴿ عَادٍ الأولى ﴾ بإسقاط نون التنوين أيضاً لالتقاء الساكنين كقراءة ﴿ عُزَيْرُ ابن الله ﴾ [التوبة : 30] ﴿ وَقُلْ هُوَ الله أَحَدٌ الله الصمد ﴾ [الإخلاص : 1 ، 2] و ﴿ عَاداً الأولى ﴾ بإدغام النون في اللام ونقل ضمة الهمزة إلى اللام و ﴿ عادالؤلي ﴾ بهمزة الواو وقرأ هذا القارىء ﴿ على سؤقه ﴾ ودليله ضعيف وهو يحتمل هذا في موضع ﴿ المؤقدة ﴾ و ﴿ المؤصدة ﴾ للضمة والواو فهي في هذا الموضع تجزي على الهمزة ، وكذا في سؤقه لوجود الهمزة في الأصل ، وفي موسى وقوله لا يحسن .

وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51)

يعني وأهلك ثمود وقوله : ﴿ فَمَا أبقى ﴾ عائد إلى عاد وثمود أي فما أبقى عليهم ، ومن المفسرين من قال : فما أبقاهم أي فما أبقى منهم أحداً ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ ترى لَهُم مّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 8] وتمسك الحجاج على من قال : إن ثقيفاً من ثمود بقوله تعالى :

﴿ فَمَا أبقى ﴾ .

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52)

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ أي أهلكهم ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ والمسألة مشهورة في قبل وبعد تقطع عن الإضافة فتصير كالغاية فتبنى على الضمة .

أما البناء فلتضمنه الإضافة ، وأما على الضمة فلأنها لو بنيت على الفتحة لكان قد أثبت فيه ما يستحقه بالإعراب من حيث إنها ظروف زمان فتستحق النصب والفتح مثله ، ولو بنيت على الكسر لكان الأمر على ما يقتضيه الإعراب وهو الجر بالجار فبنى على ما يخالف حالتي إعرابها .

(26/734)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وأطغى ﴾ أما الظلم فلأنهم هم البادئون به المتقدمون فيه "ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها" والبادىء أظلم ، وأما أطغى فلأنهم سمعوا المواعظ وطال عليهم الأمد ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم نبيهم ، ولا يدعو نبي على قومه إلا بعد الإصرار العظيم ، والظالم واضع الشيء في غير موضعه ، والطاغي المجاوز الحد فالطاغي أدخل في الظلم فهو كالمغاير والمخالف فإن المخالف مغاير مع وصف

آخر زائد ، وكذا المغاير والمضاد وكل ضد غير وليس كل غير ضداً ، وعليه سؤال وهو أن قوله : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ المقصود منه تخويف الظالم بالهلاك ، فإذا قال : هم كانوا في غاية الظلم والطغيان فأهلكوا يقول الظالم هم كانوا أظلم فأهلكوا لمبالغتهم في الظلم ، ونحن ما بالغنا فلا نهلك ، وأما لو قال أهلكوا لأنهم ظلمة لخاف كل ظالم فما الفائدة في قوله : ﴿ أَظْلَمَ ﴾ ؟

نقول : المقصود بيان شدتهم وقوة أجسامهم فإنهم لم يقدموا على الظلم والطغيان الشديد إلا بتماديهم وطول أعمارهم ، ومع ذلك ما نجا أحد منهم فما حال من هو دونهم من العمر والقوة فهو كقوله تعالى : ﴿ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ [الزخرف : 8] .

وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53)

المؤتفكة المنقلبة ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرىء : ﴿ والمؤتفكات ﴾ والمشهور فيه أنها قرىء قوم لوط لكن كانت لهم مواضع ائتفكت فهي مؤتفكات ، ويحتمل أن يقال المراد كل من انقلبت مساكنه ودثرت أماكنه ولهذا ختم المهلكين بالمؤتفكات كمن يقول : مات فلان وفلان وكل من كان من أمثالهم وأشكالهم .

المسألة الثانية :

﴿ أهوى ﴾ أي أهواها بمعنى أسقطها ، فقيل : أهواها من الهوى إلى الأرض من حيث

حملها جبريل عليه السلام على جناحه ، ثم قلبها ، وقيل : كانت عمارتهم مرتفعة فأهواها بالزلزلة وجعل عاليها سافلها .

المسألة الثالثة :

(27/734)

قوله تعالى : ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ على ما قلت : كقول القائل والمنقلبة قلبها وقلب المنقلب تحصيل الحاصل ، نقول : ليس معناه المنقلبة ما انقلبت بنفسها بل الله قلبها فانقلبت .

المسألة الرابعة :

ما الحكمة في اختصاص المؤتفكة باسم الموضع في الذكر ، وقال في عاد وثمود ، وقوم نوح اسم القوم ؟ نقول : الجواب عنه من وجهين أحدهما : أن ثمود اسم الموضع فذكر عاداً باسم القوم ، وثمود باسم الموضع ، وقوم نوح باسم القوم والمؤتفكة باسم الموضع ليعلم أن القوم لا يمكنهم صون أماكنهم عن عذاب الله تعالى ولا الموضع يحصن القوم عنه فإن في العادة تارة يقوي الساكن فيذب عن مسكنه وأخرى يقوي المسكن فيرد عن ساكنه وعذاب الله لا يمنعه مانع ، وهذا المعنى حصل للمؤمنين في آيتين أحدهما قوله تعالى : ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ

عَنْكُمْ ﴾ [الفتح : 20] وقوله تعالى : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ [الحشر : 2] ففي الأول لم يقدر الساكن على حفظ مسكنه وفي الثاني لم يقو الحصن على حفظ الساكن والوجه الثاني : هو أن عاداً وثمود وقوم نوح ، كان أمرهم متقدماً ، وأماكنهم كانت قد دثرت ، ولكن أمرهم كان مشهوراً متواتراً ، وقوم لوط كانت مساكنهم وآثار الانقلاب فيها ظاهرة ، فذكر الأظهر من الأمرين في كل قوم .

فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54)

يحتمل أن يكون ما مفعولاً وهو الظاهر ، ويحتمل أن يكون فاعلاً يقال : ضربه ، وعلى هذا نقول : يحتمل أن يكون الذي غشَّ هو الله تعالى فيكون كقوله تعالى : ﴿ والسماء وَمَا بناها ﴾ [الشمس : 5] ويحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى سبب غضب الله عليهم أي غشاها عليهم السبب ، بمعنى أن الله غضب عليهم بسببه ، يقال لمن أغضب ملكاً بكلام فضربه الملك كلامك الذي ضربك .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (55)

قيل هذا أيضاً مما في الصحف ، وقيل هو ابتداء كلام والخطاب عام ، كأنه يقول : بأي النعم أيها السامع تشك أو تجادل ، وقيل : هو خطاب مع الكافر ، ويحتمل أن يقال مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يقال : كيف يجوز أن يقول للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ تتمارى ﴾ لأنا نقول هو من باب : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] يعني لم يبق فيه إمكان الشك ، حتى أن فارضاً لو فرض النبي صلى الله عليه وسلم ممن يشك أو يجادل في بعض الأمور الخفية لما كان يمكنه المراء في نعم الله والعموم هو الصحيح كأنه يقول : بأي آلاء ربك تتمارى أيها الإنسان ، كما قال : ﴿ يا أيها الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ [الانفطار : 6] وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيء جَدَلاً ﴾ [الكهف : 54] فإن قيل : المذكور من قبل نعم والآلاء نعم ، فكيف آلاء ربك ؟ نقول : لما عد من قبل النعم وهو الخلق من النطفة ونفخ الروح الشريفة فيه والإغناء والإقناء ، وذكر أن الكافر بنعمه أهلك قال : ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكَ تتمارى ﴾ فيصيبك مثل ما أصاب الذين تماروا من قبل ، أو تقول : لما ذكر الإهلاك ، قال للشاك : أنت ما أصابك الذي أصابهم وذلك بحفظ الله إياك : ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكَ تتمارى ﴾ وسنزيده بياناً في قوله : ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 13] في مواضع .

هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (56)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(29/734)

المشار إليه بهذا ماذا ؟ نقول فيه وجوه أحدها : محمد صلى الله عليه وسلم من جنس النذر الأولى ثانيها : القرآن ثالثها : ما ذكره من أخبار المهلكين ، ومعناه حينئذ هذا بعض الأمور التي هي منذرة ، وعلى قولنا : المراد محمد صلى الله عليه وسلم فالنذير هو المنذر و ﴿ مِنْ ﴾ لبيان الجنس ، وعلى قولنا : المراد هو القرآن يحتمل أن يكون النذير بمعنى المصدر ، ويحتمل أن يكون بمعنى الفاعل ، وكون الإشارة إلى القرآن بعيد لفظاً ومعنى ، أما معنى : فلأن القرآن ليس من جنس الصحف الأولى لأنه معجز وتلك لم تكن معجزة ، وذلك لأنه تعالى لما بين الوحدانية وقال : ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكَ تتمارى ﴾ [النجم : 55] قال : ﴿ هذا نَذِيرٌ ﴾ إشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم وإثباتاً للرسالة ، وقال بعد ذلك : ﴿ أَزِفَتِ الآزفة ﴾ [النجم : 57] إشارة إلى القيامة ليكون في الآيات الثلاث المرتبة إثبات أصول ثلاث مرتبة ، فإن الأصل الأول هو الله ووحدانيته ثم الرسول ورسالته ثم الحشر والقيامة ، وأما لفظاً فلأن النذير إن كان كاملاً ، فما ذكره من حكاية المهلكين أولى

لأنه أقرب ويكون على هذا من بقي على حقيقة التبعيض أي هذا الذي ذكرنا بعض ما جرى ونبذ مما وقع ، أو يكون لابتداء الغاية ، بمعنى هذا إنذار من المنذرين المتقدمين ، يقال : هذا الكتاب ، وهذا الكلام من فلان وعلى الأقوال كلها ليس ذكر الأولى لبيان الموصوف بالوصف وتمييزه عن النذر الآخرة كما يقال : الفرقة الأولى احترازاً عن الفرقة الأخيرة ، وإنما هو لبيان الوصف للموصوف ، كما يقال : زيد العالم جاءني فيذكر العالم ، إما لبيان أن زيداً عالم غير أنك لا تذكره بلفظ الخبر فتأتي به على طريقة الوصف ، وإما لمدح زيد به ، وإما لأمر آخر ، والأولى على العود إلى لفظ الجمع وهو النذر ولو كان لمعنى الجمع لقال : من النذر الأولين يقال من الأقوام المتقدمة والمتقدمين على اللفظ والمعنى . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 16.24 ﴾

(30/734)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾

أي المرجع والمردّ والمصير فيعاقب ويثيب .

وقيل : منه ابتداء المِنَّة وإليه انتهاء الأمان .

وعن أبيّ بن كعب قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَأَنَّ إلى رَبِّكَ المنتهى ﴾ قال : " لا فكرة في الربّ " وعن أنس : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذ ذكر الله تعالى فانْتَه " .

قلت : ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام : " يأتي الشيطان أحدَكم فيقول من خَلَق كذا وكذا حتى يقول له من خَلَق ربَّكَ فإذا بلغ ذلك فلْيستعِذْ بالله ولْيَنْتَه " وقد تقدّم في آخر "الأعراف" .

ولقد أحسن من قال :

ولا تُفْكِرنْ في ذِي العُلاَ عَزَّ وجهُهُ . . .
فإنَّكَ تُردَى إنْ فعلتَ وتُخْذَلُ

ودونَك مصنوعَاتِه فاعتَبِرْ بها . . .
وقُلْ مِثلَ ما قال الخَلِيلُ المبَجَّلُ

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى ﴾

ذهبت الوسائط وبقيت الحقائق لله سبحانه وتعالى فلا فاعل إلا هو ؛ وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : لا والله ما قال رسول الله قطُّ إنّ الميّت يعذَّب ببكاء أحدٍ ، ولكنه قال : " إنّ الكافرَ يزيدهُ الله ببكاء أهله عذاباً وإنّ الله لهو أضحك وأبْكَى وما تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى " وعنها قالت : " مَرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على قوم من

أصحابه وهم يضحكون ، فقال : "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً" فنزل عليه جبريل فقال : يا محمد ! إن الله يقول لك : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ .

فرجع إليهم فقال : "ما خطوت أربعين خطوة حتى أتاني جبريل فقال ايت هؤلاء فقل لهم إن الله تعالى يقول : ﴿ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ "أي قضى أسباب الضحك والبكاء .

وقال عطاء بن أبي مسلم : يعني أفرح وأحزن ؛ لأن الفرح يجلب الضحك والحزن يجلب البكاء .

(31/734)

وقيل لعمر : هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون ؟ قال : نعم ! والإيمان والله أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي .

وقد تقدّم هذا المعنى في "النمل" و "براءة" .

قال الحسن : أضحك الله أهل الجنة في الجنة ، وأبكى أهل النار في النار .

وقيل : أضحك من شاء في الدنيا بأن سَرَّه وأبكى من شاء بأن غَمَّه .

الضحاك : أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر .

وقيل : أضحك الأشجار بالنَّوَّار ، وأبكى السحاب بالأمطار .

وقال ذو النون : أضحك قلوب المؤمنين والعارفين بشمس معرفته ، وأبكى قلوب الكافرين والعاصين بظلمة نكرته ومعصيته .

وقال سهل بن عبد الله : أضحك الله المطيعين بالرحمة وأبكى العاصين بالسخط .

وقال محمد بن علي الترمذي : أضحك المؤمن في الآخرة وأبكاه في الدنيا .

وقال بسام بن عبد الله : أضحك الله أسنانهم وأبكى قلوبهم .

وأنشد :

السِّنُّ تَضحَكُ والأحشاءُ تَحْتَرِقُ . . .
وإنما ضِحْكُها زُورٌ ومُخْتَلَقُ

يا رُبَّ باكٍ بعَيْنٍ لا دموعَ لها . . .
ورُبَّ ضاحِكِ سنٍّ ما بِهِ رَمَقُ

وقيل : إن الله تعالى خصّ الإنسان بالضحك والبكاء من بين سائر الحيوان ، وليس في سائر الحيوان من يضحك ويبكي غير الإنسان .

وقد قيل : إن القرد وحده يضحك ولا يبكي ، وإن الإبل وحدها تبكي ولا تضحك .

وقال يوسف بن الحسين : سئل طاهر المقدسي أتضحك الملائكة ؟ فقال : ما ضحكوا ولا كلّ من دون العرش منذ خلقت جهنم .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ أي قضى أسباب الموت والحياة .

وقيل : خلق الموت والحياة كما قال : ﴿ الذي خَلَقَ الموت والحياة ﴾ [الملك : 2] قاله ابن بحر .

وقيل : أمات الكافر بالكفر وأحيا المؤمن بالإيمان ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ [الأنعام : 122] الآية .

(32/734)

وقال : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ والموتى يَبْعَثُهُمُ الله ﴾ [الأنعام : 36] على ما تقدّم ، وإليه يرجع قول عطاء : أمات بعدله وأحيا بفضله .

وقول من قال : أمات بالمنع والبخل وأحيا بالجود والبذل .

وقيل : أمات النطفة وأحيا النَّسَمة .

وقيل : أمات الآباء وأحيا الأبناء .

وقيل : يريد بالحياة الخصب وبالموت الجدب .

وقيل : أنام وأيقظ .

وقيل : أمات في الدنيا وأحيا للبعث .

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ أي من أولاد آدم ولم يرد آدم وحوّاء بأنهما خلقا من

نُطْفة .

والنطفة الماء القليل ، مشتق من نطفَ الماءُ إذا قَطَر .

﴿ تمنى ﴾ تُصبّ في الرحم وتراق ؛ قال الكلبي والضحاك وعطاء بن أبي رباح .

يقال : مَنَى الرجل وأَمْنى من الْمَنِيّ ، وسميت مِنًى بهذا الاسم لما يُمْنَى فيها من الدماء أي يُراق .

وقيل : ﴿ تمنى ﴾ تُقدَّر ؛ قاله أبو عبيدة .

يقال : مَنَيت الشيء إذا قَدّرته ، ومُنِي له أي قُدّر له ؛ قال الشاعر :

حَتّى تُلاَقِيَ ما يَمْنِي لَكَ الْمَانِي . . .

أي ما يقدر لك القادر .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النشأة الأخرى ﴾

أي إعادة الأرواح في الأشباح للبعث .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو "النشأة" بفتح الشين والمدّ ؛ أي وعد ذلك ووعده صدق .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أغنى وأقنى ﴾ قال ابن زيد : أغنى من شاء وأفقر من شاء ؛ ثم قرأ ﴿ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ [العنكبوت : 62] وقرأ ﴿ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ﴾ [البقرة : 245] واختاره الطبري .

وعن ابن زيد أيضاً ومجاهد وقتادة والحسن : "أَغْنَى" مَوَّلَ "وأَقْنَى" أَخْدم .

وقيل : "أَقْنَى" جعل لكم قِنْية تقتنونها ، وهو معنى أخدم أيضاً .

وقيل : معناه أرضى بما أعطى أي أغناه ثم رضّاه بما أعطاه ؛ قاله ابن عباس .

(33/734)

وقال الجوهري : قَنِيَ الرجل يَقْنَى قِنًى ؛ مثل غَنِي يَغْنَى غِنًى ، وأقناه الله أي أعطاه الله ما يُقتنى من القِنْية والنَّشَب .

وأقناه الله أيضاً أي رضّاه .

والقِنَى الرضا ، عن أبي زيد ؛ قال وتقول العرب : من أُعطي مائةً من المعز فقد أعطِي القِنَى ، ومن أُعطي مائةً من الضأن فقد أُعطَي الغِنى ، ومن أُعطيَ مائة من الإبل فقد أعطِي المُنى .

ويقال : أغناه الله وأقناه أي أعطاه ما يسكن إليه .

وقيل : ﴿ أغنى وأقنى ﴾ أي أغْنَى نفسه وأفقر خلقه إليه ؛ قاله سليمان التيمي .

وقال سفيان : أغنى بالقناعة وأقنى بالرضا .

وقال الأخفش : أقنى أفقر .

قال ابن كيسان : أولد .

وهذا راجع لما تقدّم.

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشعرى ﴾ "الشِّعْرَى" الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه في شدّة الحرّ، وهما الشّعريان العَبُور التي في الجوزاء والشِّعرى الغُمَيْصَاءُ التي في الذراع؛ وتزعم العرب أنهما أختا سُهَيل.

وإنما ذكر أنه رَبُّ الشِّعْرى وإن كان ربًّا لغيره؛ لأن العرب كانت تعبده؛ فأعلمهم الله جل وعز أنّ الشِّعْرى مربوب وليس بربّ.

واختلف فيمن كان يعبده؛ فقال السدي: كانت تعبده حِمْير وخُزَاعة.

وقال غيره: أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد النبيّ صلى الله عليه وسلم من قبل أمهاته، ولذلك كان مشركو قريش يسمون النبيّ صلى الله عليه وسلم ابن أبي كبشة حين دعا إلى الله وخالف أديانهم؛ وقالوا: ما لقينا من ابن أبي كبشة! وقال أبو سفيان يوم الفتح وقد وقف في بعض المضايق وعساكر رسول الله صلى الله عليه وسلم تمرّ عليه: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة.

وقد كان من لا يعبد الشِّعْرى من العرب يعظّمها ويعتقد تأثيرها في العالم، قال الشاعر:

مضَى أَيْلُولُ وارتفع الحَرُورُ . . .

وأَخْبَتْ نارَها الشِّعرى العَبُورُ

وقيل : إن العرب تقول في خرافاتها : إن سُهَيْلاً والشِّعرى كانا زوجين ، فانحدر سُهَيل فصار يمانياً ، فاتبعته الشِّعرى العَبُور فعبرت المجرة فسميت العبور ، وأقامت الغُمَيْصاء فبكت لفقد سُهَيل حتى غَمِصت عيناه ؛ فسمِّيت غميصاء لأنها أخفى من الأخرى .

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولى ﴾ سماها الأولى لأنهم كانوا مِن قبل ثمود .

وقيل : إن ثمود مِن قبل عاد .

وقال ابن زيد : قيل لها عاد الأولى لأنها أوّل أمة أهلكت بعد نوح عليه السلام .

وقال ابن إسحاق : هما عادان فالأولى أهلكت بالريح الصّرصر ، ثم كانت الأخرى فأهلكت بالصيحة .

وقيل : عاد الأولى هو عاد بن إِرم بن عوص بن سام بن نوح ، وعاد الثانية من ولد عاد الأولى ؛ والمعنى متقارب .

وقيل : إن عاد الآخرة الجبارون وهم قوم هود .

وقراءة العامة "عَاداً الأُولَى" ببيان التنوين والهمز .

وقرأ نافع وابن مُحَيصن وأبو عمرو "عَاداً الأُولَى" بنقل حركة الهمزة إلى اللام وإدغام التنوين فيها ، إلا أنّ قالون والسوسي يظهران الهمزة الساكنة .

وقلبها الباقون واواً على أصلها ؛ والعرب تقلب هذا القلب فتقول : قُم الآن عنًّا وضُمَّ لِثْنَين

أي قم الآن وضم الاثنين ﴿ وَثَمُودَ فَمَآ أَبقَى ﴾ ثمود هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة .

قرىء "ثُموداً" "وَثَمُود" وقد تقدّم .

وانتصب على العطف على عاد .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ أي وأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وأطغى ﴾ وذلك لطول مدّة نوح فيهم ، حتى كان الرجل فيهم يأخذ بيد ابنه فينطلق إلى نوح عليه السلام فيقول : احذر هذا فإنه كذّاب ، وإن أبي قد مشى بي إلى هذا وقال لي مثل ما قلت لك ؛ فيموت الكبير على الكفر ، وينشأ الصغير على وصية أبيه .

وقيل : إن الكناية ترجع إلى كلّ مَن ذُكر من عاد وثمود وقوم نوح ؛ أي كانوا أكفر من مشركي العرب وأطغى .

(35/734)

فيكون فيه تسلية وتعزية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فكأنه يقول له : فاصبر أنت أيضاً فالعاقبة الحميدة لك .

﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ يعني مدائن قوم لوط عليه السلام ائتفكت بهم ، أي انقلبت وصار عاليها سافلها .

يقال : أَفَكْته أي قلبته وصرفته .

"أَهْوَى" أي خسف بهم بعد رفعها إلى السماء ؛ رفعها جبريل ثم أهوى بها إلى الأرض .

وقال المبرّد : جعلها تهوِي .

ويقال : هَوَى بالفتح يَهْوِي هُوِيًّا أي سقط و "أَهْوَى" أي أسقط .

﴿ فَغَشَّاهَا مَا غشى ﴾ أي ألبسها ما ألبسها من الحجارة ؛ قال الله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر : 74] وقيل : إن الكناية ترجع إلى جميع هذه الأمم ؛ أي غَشَّاها من العذاب ما غشاهم ، وأبهم لأن كلاًّ منهم أهلِك بضرب غير ما أُهْلِك به الآخر .

وقيل : هذا تعظيم الأمر .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكَ تتمارى ﴾ أي فبأيِ نِعَم ربّك تشكّ .

والمخاطبة للإنسان المكذب .

والآلاء النعم واحدها أَلًى وإِلًى وإِلْيٌ .

وقرأ يعقوب "تَمَّارَى" بإدغام إحدى التاءين في الأخرى والتشديد .

قوله تعالى : ﴿ هذا نَذِيرٌ مِّنَ النذر الأولى ﴾

قال ابن جُرَيج ومحمد بن كعب : يريد أن محمداً صلى الله عليه وسلم نذير بالحق الذي أنذر به الأنبياء قبله ، فإن أطعتموه أفلحتم ، وإلاّ حلّ بكم ما حلّ بمكذّبي الرسل السالفة .

وقال قتادة : يريد القرآن ، وأنه نذير بما أَنذرت به الكتب الأولى .

وقيل : أي هذا الذي أخبرنا به من أخبار الأمم الماضية الذين هلكوا تخويف لهذه الأمة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك من النذر أي مثل النذر ؛ والنذر في قول العرب بمعنى الإنذار كالنُّكُر بمعنى الإنكار ؛ أي هذا إنذار لكم .

وقال أبو مالك : هذا الذي أنذرتكم به من وقائع الأمم الخالية هو في صحف إبراهيم وموسى .

(36/734)

وقال السديّ أخبرني أبو صالح قال : هذه الحروف التي ذكر الله تعالى من قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ موسى * وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ إلى قوله : ﴿ هذا نَذِيرٌ مِّنَ النذر الأولى ﴾ كل هذه في صحف إبراهيم وموسى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(37/734)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾

أي إن انتهاء الخلق ورجوعهم إليه تعالى لا إلى غيره سبحانه استقلالاً ولا اشتراكاً ، والمراد بذلك رجوعهم إليه سبحانه يوم القيامة حين يحشرون ولهذا قال غير واحد : أي إلى حساب ربك أو إلى ثوابه تعالى من الجنة وعبقابه من النار الانتهاء ، وقيل : المعنى أنه عز وجل منتهى الأفكار فلا تزال الأفكار تسير في بيداء حقائق الأشياء وماهياتها والإحاطة بما فيها حتى إذا وجهت إلى حرم ذات الله عز وجل وحقائق صفاته سبحانه وقفت وحرنت وانتهى سيرها ، وأيد بما أخرجه البغوي عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الآية : " لا فكرة في الرب " وأخرجه أبو الشيخ في العظمة عن سفيان الثوري ، وروى عنه عليه الصلاة والسلام : " إذا ذكر الرب فانتهوا " وأخرج ابن ماجه عن ابن عباس قال : " مر النبي صلى الله عليه وسلم على قوم يتفكرون في الله فقال : تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لن تقدروه " وأخرج أبو الشيخ عن أبي ذر قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا " .

واستدل بذلك من قال باستحالة معرفته عز وجل بالكنه ، والبحث في ذلك طويل ، وأكثر الأدلة النقلية على عدم الوقوع ، وقرأ أبو السماء ، وإن بالكسر هنا وفيما بعد على أن الجمل منقطعة عما قبلها فلا تكون مما في الصحف .

وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (43)

خلق فعلي الضحك والبكاء ، وقال الزمخشري : خلق قوتي الضحك والبكاء ، وفيه دسيسة اعتزال ، وقال الطيبي : المراد خلق السرور والحزن أو ما يسر ويحزن من الأعمال الصالحة والطالحة ، ولذا قرن بقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ وعليه فهو مجاز ولا يخفى أن الحقيقة أيضاً تناسب الإماتة والإحياء لا سيما والموت يعقبه البكاء غالباً والاحياء عند الولاد الضحك وما أحسن قوله :

ولدتك أمك يا ابن آدم باكيا . . .

(38/734)

والناس حولك يضحكون سروراً

فاجهد لنفسك أن تكون إذا بكوا . . .

في يوم موتك ضاحكاً مسروراً

وقال مجاهد .

والكلبي : ﴿ أَضْحَكَ ﴾ أهل الجنة ﴿ وأبكى ﴾ أهل النار ، وقيل : ﴿ أَضْحَكَ ﴾

الأرض بالنبات ﴿ وأبكى ﴾ السماء بالمطر ، وتقديم الضمير وتكرير الإسناد للحصر أي أنه تعالى فعل ذلك لا غيره سبحانه ، وكذا في أنه ﴿ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ فلا يقدر على الإماتة والإحياء غير عز وجل ، والقاتل إنما ينقض البنية الإنسانية ويفرق أجزاءها والموت الحاصل بذلك فعل الله تعالى على سبيل العادة في مثله فلا إشكال في الحصر .

وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (45)

من نوع الإنسان وغيره من أنواع الحيوانات ولم يذكر الضمير على طرز ما تقدم لأنه لا يتوهم نسبة خلق الزوجين إلى غيره عز وجل .

﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾ أي تدفق في الرحم يقال : أمنى الرجل ومنى بمعنى ، وقال الأخفش : أي تقدر يقال منى لك الماني أي قدر لك المقدر ، ومنه المنا الذي يوزن به فيما قيل ، والمنية وهي الأجل المقدر للحيوان .

وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (47)

أي الإحياء بعد الإماتة وفاءاً بوعده جل شأنه ، وفي "البحر" لما كانت هذه النشأة ينكرها الكفار بولغ بقوله تعالى كأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه ، وفي الكشاف قال سبحانه : ﴿ عَلَيْهِ ﴾ لأنها واجبة في الحكمة ليجازي على الإحسان والإساءة وفيه مع كونه على طريق الاعتزال نظر ، وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو النشاءة بالمد وهي أيضاً مصدر نشأة الثلاثي .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أغنى وأقنى ﴾ وأعطى القنية وهو ما يبقى ويدوم من الأموال ببقاء نفسه أو أصله كالرياض والحيوان والبناء ، وإفراد ذلك بالذكر مع دخوله في قوله تعالى : ﴿ أغنى ﴾ لأن القنية أنفس الأموال وأشرفها ، وفي "البحر" يقال : قنيت المال أي كسبته ويعدي أيضاً بالهمزة والتضعيف فيقال : أقناه الله تعالى مالاً وقناه الله تعالى مالاً ، وقال الشاعر

(39/734)

: كم من غني أصاب الدهر ثرواته . . .

ومن فقير (يقني) بعد إقلال

أي يقني المال ، وعن ابن عباس ﴿ أغنى ﴾ مول ، و ﴿ أقنى ﴾ أرضى .

وهو بهذا المعنى مجاز من القنية قتل الراغب : وتحقيق ذلك أنه جعل له قنية من الرضا والطاعة وذلك أعظم القنائن ، ولله تعالى در من قال

: هل هي إلا مدة وتنقضي . . .

ما يغلب الأيام إلا من رضى

وعن ابن زيد .

والأخفش ﴿ أقنى ﴾ أفقر ، ووجه بأنهما جعلا الهمزة فيه للسلب والإزالة كما في

أشكى ، وقيل : إنهما جعلا ﴿ أقنى ﴾ بمعنى جعل له الرضا والصبر قنية كناية عن ذلك ليظهر فيه الطباق كما في ﴿ هُوَأَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ [النجم : 44] و ﴿ أَضْحَكَ وأبكى ﴾ [النجم : 43] وفسره بأفقر أيضاً الحضرمي إلا أنه كما أخرج عنه ابن جرير .

وأبو اليخ قال ﴿ أغنى ﴾ نفسه سبحانه و ﴿ أفقر ﴾ الخلائق إليه عز وجل ، والظاهر على تقدير اعتبار المفعول في جميع الأفعال المتقدمة أن يكون من المحدثات الصالحة لتعلق الفعل ، وعندي أن ﴿ وَمَا أُغْنِى ﴾ سبحانه نفسه كأوجد جل شأنه نفسه لا يخلو عن سماجة وإيهام محذور ، وإنما لم يذكر مفعول لأن القصد إلى الفعل نفسه .

(40/734)

﴿ وَأَنَّهُ هُوَرَبُّ الشعرى ﴾ هي ﴿ الشعرى ﴾ العبور بفتح العين المهملة والباء الموحدة والراء المهملة بعد الواو ، وتقال ﴿ الشعرى ﴾ أيضاً على الغميصاء بغين معجمة مضمومة وميم مفتوحة بعدها ياء مثناة تحتية وصاد مهملة ومد ، والأولى : في الجوزاء ، وإنما قيل لها العبور لأنها عبرت المجرة فلقيت سهيلاً ولأنها تراه إذا طلع كأنها ستعبر وتسمى أيضاً كلب الجبار لأنها تتبع الجوزاء المسماة بالجبار كما يتبع الكلب الصائد أو الصيد ، والثانية : في ذراع الأسد المبسوط ، وإنما قيل لها الغميصاء لأنها بكت من فراق

سهيل فغمصت عينها ، والغمص ما سال من الرمص وهو وسخ أبيض يجتمع في الموق ، وذلك من زعم العرب أنهما أختا سهيل ، وفي "القاموس" من أحاديثهم أن الشعري العبور قطعت المجرة فسميت عبوراً وبكت الأخرى على أثرها حتى غمصت ويقال لها الغموس أيضاً ، وقيل : زعموا أن سهيلاً و﴿ الشعري ﴾ كانا زوجين فانحدر سهيل وصار يمانياً فاتبعه الشعري فعبرت المجرة فسميت العبور وأقامت الغميصاء وسميت بذلك لأنها دون الأولى ضياءاً ، وكل ذلك من تخيلاتهم الكاذبة التي لا حقيقة لها ، والمتبادر عند الإطلاق وعدم الوصف العبور لأنها أكبر جرماً وأكثر ضياءاً وهي التي عبدت من دون الله سبحانه في الجاهلية .

قال السدي : عبدها حمير .

(41/734)

وخزاعة ، وقال غيره : أول من عبدها أبو كبشة رجل من خزاعة ، أو هو سيدهم واسمه وخز بن غالب وكان المشركون يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم : ابن أبي كبشة شبهوه به لمخالفته قومه في عبادة الأصنام ، وذكر بعضهم أنه أحد أجداده عليه الصلاة والسلام من قبل أمه وأنهم كانوا يزعمون أن كل صفة في المرء تسري إليه من أحد أصوله فيقولون نزع إليه

عرق كذا ، وعرق الخال نزاع ، وقيل : هو كنية وهب بن عبد مناف جده صلى الله عليه وسلم من قبل أمه ، وقولهم له عليه الصلاة والسلام ذلك على ما يقتضيه ظاهر القاموس لأنه صلى الله عليه وسلم في الشبه الخلقي دون المخالفة ، وقيل : كنية زوج حليمة السعدية مرضعته عليه الصلاة والسلام ، وقيل : كنية عم ولدها ولكونها عبدت من دونه عز وجل خصت بالذكر ليكون ذلك تجهيلاً لهم بجعل المربوب ربا ، ولمزيد الاعتناء بذلك جيء بالجملة على ما نطق به النظم الجليل .

ومن العرب من كان يعظمها ويعتقد تأثيرها في العالم ويزعمون أنها تقطع السماء عرضاً وسائر النجوم تقطعها طولاً ويتكلمون على المغيبات عند طلوعها ففي قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ ﴾ إشارة إلى نفي تأثيرها .

وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (50)

أي القدماء لأنهم أولى الأمم هلاكاً بعد قوم نوح كما قاله ابن زيد والجمهور ، وقال الطبري : وصفت بالأولى لأن في القبائل ﴿ عَاداً ﴾ أخرى وهي قبيلة كانت بمكة مع العماليق وهم بنو لقيم بن هزال ، وقال المبرد : عاد الأخرى هي ثمود ، وقيل : الجبارون ، وقيل : عاد الأولى ولد عاد بن إرم بن عوف بن سام بن نوح ، وعاد الأخرى من ولد عاد الأولى ، وفي "الكشاف" ﴿ الاولى ﴾ قوم هود والأخرى إرم ، والله تعالى أعلم .

وجوز أن يراد بالأولى المتقدمون الأشراف ؛ وقرأ قوم عاد الولي بحذف الهمزة ونقل ضمها إلى اللام قبلها ، وقرأ نافع .

(42/734)

وأبو عمرو عاداً لولي بإدغام التنوين في اللام المنقول إليها حركة الهمزة المحذوفة ، وعاب هذه القراءة المازني .

والمبرد ، وقالت العرب : في الابتداء بعد النقل الحمر ، ولحمر فهذه القراءة جاءت على لحمر فلا عيب فيها ، وأتى قالون بعد ضمة اللام بهمزة ساكنة في موضع الواو كما في قوله : أحب الموقدين إلى موسى . . .

وكما قرأ بعضهم ﴿ على سؤقه ﴾ [الفتح : 29] وفيه شذوذ ، وفي حرف أبيّ عاد غير مصروف للعلمية والتأنيث ومن صرفه فباعتبار الحي ، أو عامله معاملة هند لكونه ثلاثياً ساكن الوسط .

وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51)

﴿ وَثَمُودَاْ ﴾ عطف على ﴿ عَاداً ﴾ [النجم : 50] ولا يجوز أن يكون مفعولاً لأبقى في قوله تعالى : ﴿ فَمَا أبقى ﴾ لأن ما النافية لها صدر الكلام والفاء على ما قيل : مانعة

أيضاً فلا يتقدم معمول ما بعدها ، وقيل : هو معمول لأهلك مقدر ولا حاجة إليه ، وقرأ عاصم .

وحمزة .

ثمود بلا تنوين ويقفان بغير ألف .

والباقون بالتنوين ويقفون بالألف ، والظاهر أن متعلق ﴿ أبقى ﴾ يرجع إلى عاد وثمود معاً أي فما أبقى عليهم ، أي أخذهم بذنوبهم ، وقيل : أي ما أبقى منهم أحداً ، والمراد ما أبقى من كفارهم .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ عطف على ﴿ عَاداً ﴾ أيضاً ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل إهلاك عاد وثمود ، وصرح بالقبلية لأن نوحاً عليه الصلاة والسلام آدم الثاني وقومه أول الطاغين والهالكين .

(43/734)

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وأطغى ﴾ أي من الفريقين حيث كانوا يؤذونه ويضربونه حتى لا يكاد يتحرك وكان الرجل منهم يأخذ بيد ابنه يتمشى به إليه يحذره منه ويقول : يا بني إن أبي مشى بي إلى هذا وأنا مثلك يومئذ فإياك أن تصدقه فيموت الكبير على الكفر وينشأ

الصغير على وصية أبيه ولم يتأثروا من دعائه وقد دعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وقيل : ضمير ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ يعود على جميع من تقدم عاد ، وثمود وقوم نوح أي كانوا أظلم من قريش وأطغى منهم ، وفيه من التسلية للنبي عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى ، و ﴿ هُمْ ﴾ يجوز أن يكون تأكيداً للضمير المنصوب ويجوز أن يكون فصلاً لأنه واقع بين معرفة وأفعل التفضيل ، وحذف المفضول مع الواقع خبراً لكان لأنه جار مجرى خبر المبتدأ وحذفه فصيح فيه فكذلك في خبر كان .

﴿ والمؤتفكة ﴾ هي قرى قوم لوط سميت بذلك لأنها ائتفكت بأهلها أي انقلبت بهم ، ومنه الإفك لأنه قلب الحق ، وجوز أن يراد بالمؤتفكة كل ما انقلبت مساكنه ودثرت أماكنه .

وقرأ الحسن والمؤتفكات جمعاً ﴿ أهوى ﴾ أي أسقطها إلى الأرض بعد أن رفعها على جناح جبيريل عليه السلام إلى السماء ، وقال المبرد : جعلها تهوى .

والظاهر أن أهوى ناصب للمؤتفكة وأخر العامل لكونه فاصلة ، وجوز أن يكون المؤتفكة معطوفاً على ما قبله و ﴿ أهوى ﴾ مع فاعله جملة في موضع الحال بتقدي قد ، أو بدونه توضح كيفية إهلاكهم .

﴿ فغشاها مَا غشى ﴾ فيه تهويل للعذاب وتعميم لما أصابهم منه لأن الموصول من صيغ

العموم العموم والتضعيف في غشاها يحتمل أن يكون للتعدية فيكون ﴿ مَا ﴾ مفعولاً ثانياً والفاعل ضميره تعالى ، ويحتمل أن يكون للتكثير والمبالغة ف ﴿ مَا ﴾ هي الفاعل .

(44/734)

﴿ فَبِأَيِّ الاء رَبِّكَ تتمارى ﴾ تتشكك والتفاعل هنا مجرد عن التعدد في الفاعل والمفعول للمبالغة في الفعل ، وقيل : إن فعل التماري للواحد باعتبار تعدد متعلقه وهو الآلاء المتماري فيها ، والخطاب قيل : لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه من باب الإلهاب والتعريض بالغير ، وقيل : للإنسان على الإطلاق وهو أظهر والاستفهام للإنكار ، والآلاء جمع إلى النعم ، والمراد به ما عد في الآيات قبل وسمي الكل بذلك مع أن منه نقماً لما في النقم من العبر والمواعظ للمعتبرين والانتفاع للأنبياء والمؤمنين فهي نعم بذلك الاعتبار أيضاً ، وقيل : التعبير بالآلاء للتغليب وتعقب بأن المقام غير مناسب له ، وقرأ يعقوب .

وابن محيصن ربك تمارى بتاء مشددة .

﴿ هذا نَذِيرٌ مِّنَ النذر الأولى ﴾ الإشارة إلى القرآن .

وقال أبو مالك : إلى الأخبار عن الأمم ، أو الإشارة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، والنذير يجيء مصدراً ووصفاً ، والنذر جمعه مطلقاً وكل من الأمرين محتمل هنا ، ووصف

﴿ النذر ﴾ جمعاً للوصف بالأولى على تأويل الفرقة ، أو الجماعة ، واختير على غيره رعاية للفاصلة ، وأياً مّا كان فالمراد ﴿ هذا نَذِيرٌ مّنَ ﴾ جنس ﴿ النذر الاولى ﴾ .

وفي "الكشف" أن قوله تعالى : ﴿ هذا نَذِيرٌ ﴾ الخ فذلكة للكلام إما لما عدد من المشتمل عليه الصحف وإما لجميع الكلام من مفتتح السورة فتدبر ولا تغفل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(45/734)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة لَيُسَمُّونَ الملائكة تَسْمِيَةَ الآنثى ﴾

أي : أن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث ، وما بعده من الدار الآخرة ، وهم الكفار يضمون إلى كفرهم مقالة شنعاء ، وجهالةً جهلاء ، وهي أنهم يسمون الملائكة المنزهين عن كل نقص تسمية الأنثى ، وذلك أنهم زعموا أنها بنات الله ، فجعلوهم إناثاً ، وسموهم بنات ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال ، أي : يسمونهم هذه التسمية ، والحال أنهم غير عالمين بما يقولون ، فإنهم لم يعرفوهم ، ولا شاهدوهم ، ولا بلّغ إليهم ذلك من طريق من الطرق التي يخبر المخبرون عنها ، بل قالوا ذلك جهلاً وضلالةً وجرأة .

وقرىء (ما لهم بها) أي: بالملائكة، أو التسمية ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ أي: ما يتبعون في هذه المقالة إلاّ مجرّد الظنّ، والتوهم.

ثم أخبر سبحانه عن الظنّ وحكمه، فقال: ﴿ وَإِنَّ الظن لاَ يُغْنِى مِنَ الحق شَيْئاً ﴾ أي: إن جنس الظنّ لا يغني من الحق شيئًا من الإغناء، والحقّ: هنا العلم.

وفيه دليل على أن مجرّد الظن لا يقوم مقام العلم، وأن الظانّ غير عالم.

وهذا في الأمور التي يحتاج فيها إلى العلم، وهي المسائل العلمية؛ لا فيما يكتفي فيه بالظنّ، وهي المسائل العملية، وقد قدّمنا تحقيق هذا.

ولا بدّ من هذا التخصيص، فإن دلالة العموم والقياس وخبر الواحد، ونحو ذلك ظنية، فالعمل بها عمل بالظن، وقد وجب علينا العمل به في مثل هذه الأمور، فكانت أدلة وجوبه العمل به فيها مخصصة لهذا العموم، وما ورد في معناه من الذمّ؛ لمن عمل بالظن؛ والنهي عن اتباعه.

(46/734)

﴿ فَأَعْرَضَ عمن تولى عَن ذِكْرِنَا ﴾ أي: أعرض عن ذكرنا، والمراد بالذكر هنا: القرآن، أو ذكر الآخرة، أو ذكر الله على العموم، وقيل: المراد بالذكر هنا: الإيمان، والمعنى: اترك

مجادلتهم ، فقد بلغت إليهم ما أمرت به ، وليس عليك إلاّ البلاغ ، وهذا منسوخ بآية السيف ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحياة الدنيا ﴾ أي : لم يرد سواها ، ولا طلب غيرها بل قصر نظره عليها ، فإنه غير متأهل للخير ، ولا مستحقّ للاعتناء بشأنه .

ثم صغر سبحانه شأنهم وحقر أمرهم ، فقال : ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ العلم ﴾ أي : إن ذلك التولي وقصر الإرادة على الحياة الدنيا هو مبلغهم من العلم ليس لهم غيره ، ولا يلتفتون إلى سواه من أمر الدين .

قال الفرّاء : أي : ذلك قدر عقولهم ، ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة ، وقيل : الإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى جعلهم للملائكة بنات الله ، وتسميتهم لهم تسمية الأنثى ، والأوّل أولى .

والمراد بالعلم هنا : مطلق الإدراك الذي يندرج تحته الظنّ الفاسد ، والجملة مستأنفة لتقرير جهلهم ، واتباعهم مجرّد الظن ، وقيل : معترضة بين المعلل والعلة وهي قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهتدى ﴾ ، فإن هذا تعليل للأمر بالإعراض ، والمعنى : أنه سبحانه أعلم بمن حاد عن الحق ، وأعرض عنه ، ولم يهتد إليه ، وأعلم بمن اهتدى ، فقبل الحق ، وأقبل إليه ، وعمل به ، فهو مجاز كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشرّ .

وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإرشاد له بأن لا يتعب نفسه في دعوة من

أصرّ على الضلالة ، وسبقت له الشقاوة ، فإن الله قد علم حال هذا الفريق الضال ، كما علم حال الفريق الراشد .

(47/734)

ثم أخبر سبحانه عن سعة قدرته ، وعظيم ملكه ، فقال : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ أي : هو المالك لذلك ، والمتصرّف فيه لا يشاركه فيه أحد ، واللام في : ﴿ لِيَجْزِيَ الذين أَسَاءواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ متعلقة بما دلّ عليه الكلام ، كأنه قال : هو مالك ذلك يضلّ من يشاء ، ويهدي من يشاء ليجزي المسيء بإساءته ، والمحسن بإحسانه .

وقيل : إن قوله : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ معترضة ، والمعنى : إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى ليجزي ، وقيل : هي لام العاقبة ، أي : وعاقبة أمر الخلق الذين فيهم المحسن والمسيء أن يجزي الله كلاً منهما بعمله .

وقال مكي : إن اللام متعلقة بقوله : ﴿ لاَ تُغْنِي شفاعتهم ﴾ وهو بعيد من حيث اللفظ ، ومن حيث المعنى .

قرأ الجمهور : ﴿ ليجزي ﴾ بالتحتية .

وقرأ زيد بن عليّ بالنون ، ومعنى ﴿ بالحسنى ﴾ أي : بالمثوبة الحسنى ، وهي الجنة ، أو

بسبب أعمالهم الحسنى .

ثم وصف هؤلاء المحسنين ، فقال : ﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ كبائر الإثم والفواحش ﴾ فهذا الموصول في محل نصب على أنه نعت للموصول الأوّل في قوله : ﴿ الذين أَحْسَنُواْ ﴾ وقيل : بدل منه ، وقيل : بيان له ، وقيل : منصوب على المدح بإضمار أعني ، أو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : هم الذين يجتنبون كبائر الإثم .

قرأ الجمهور ﴿ كبائر ﴾ على الجمع .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، والأعمش ، ويحيى بن وثاب : ﴿ كبير ﴾ على الإفراد ، والكبائر : كل ذنب توعد الله عليه بالنار ، أو ذمّ فاعله ذماً شديداً ، ولأهل العلم في تحقيق الكبائر كلام طويل .

وكما اختلفوا في تحقيق معناها وماهيتها اختلفوا في عددها ، والفواحش جمع فاحشة : وهي ما فحش من كبائر الذنوب كالزنا ، ونحوه .

(48/734)

وقال مقاتل : كبائر الإثم كل ذنب ختم بالنار ، والفواحش : كل ذنب فيه الحد ، وقيل : الكبائر : الشرك ، والفواحش : الزنا ، وقد قدّمنا في سورة النساء ما هو أبسط من هذا ،

وأكثر فائدة ، والاستثناء بقوله : ﴿ إِلاَّ اللمم ﴾ منقطع ، وأصل اللمم في اللغة : ما قلّ وصغر ، ومنه ألمّ بالمكان : قلّ لبثه فيه ، وألمّ بالطعام : قل أكله منه .

قال المبرد : أصل اللمم أن تلمّ بالشيء من غير أن تركبه يقال : ألم بكذا : إذا قاربه ولم يخالطه .

قال الأزهري : العرب تستعمل الإلمام في معنى الدنوّ والقرب ، ومنه قول جرير :

بنفسي من تجنبه عزيز . . . عليّ ومن زيارته لمام

وقول الآخر :

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا . . . تجد حطباً جزلاً وناراً تأججاً

قال الزجاج : أصل اللمم والإلمام : ما يعمله الإنسان المرّة بعد المرّة ، ولا يتعمق فيه ، ولا يقيم عليه ، يقال : ألممت به : إذا زرته ، وانصرفت عنه ، ويقال : ما فعلته إلاّ لماماً وإلماماً ، أي : الحين بعد الحين ، ومنه إلمام الخيال .

قال الأعشى :

ألمّ خيال من قبيلة بعد ما . . . وهَى حبلها من حبلنا فتصرّما

قال في الصحاح : ألمّ الرجل من ألمم وهو صغائر الذنوب ، ويقال : هو مقاربة المعصية من غير مواقعة ، وأنشد غيره :

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب . . . وقلّ أن تملينا فما ملك القلب

وقد اختلفت أقوال أهل العلم في تفسير هذا اللمم المذكور في الآية ، فالجمهور على أنه صغائر الذنوب ، وقيل : هو ما كان دون الزنا من القبلة ، والغمزة ، والنظرة ، وقيل : هو الرجل يلم بذنب ، ثم يتوب ، وبه قال مجاهد ، والحسن ، والزهري ، وغيرهم ، ومنه :

إن تغفر اللَّهم تغفر جمّا . . . وأيّ عبد لك إلاّ ألّما

اختار هذا القول الزجاج ، والنحاس ، وقيل : هو ذنوب الجاهلية ، فإن الله لا يؤاخذ بها في الإسلام ، وقال نفطويه : هو أن يأتي بذنب لم يكن له بعادة .

(49/734)

قال : والعرب تقول : ما تأتينا إلاّ إلماماً ، أي : في الحين بعد الحين ، قال : ولا يكون أن يلمّ ولا يفعل ؛ لأن العرب لا تقول : ألمّ بنا إلاّ إذا فعل ، لا إذا همّ ولم يفعل ، والراجح الأول ، وجملة : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ واسع المغفرة ﴾ تعليل لما تضمنه الاستثناء ، أي : إن ذلك وإن خرج عن حكم المؤاخذة ، فليس يخلو عن كونه ذنباً يفتقر إلى مغفرة الله ، ويحتاج إلى رحمته ، وقيل : إنه سبحانه يغفر لمن تاب عن ذنبه .

ثم ذكر سبحانه إحاطة علمه بأحوال عباده ، فقال : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض ﴾ أي : خلقكم منها في ضمن خلق أبيكم آدم .

وقيل : المراد آدم ، فإنه خلقه من طين ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ أي : هو أعلم بأحوالكم وقت كونكم أجنة ، والأجنة جمع جنين وهو الولد ما دام في البطن سمي بذلك لاجتنانه ، أي : استتاره ، ولهذا قال : ﴿ فِى بُطُونِ أمهاتكم ﴾ فلا يسمى من خرج عن البطن جنيناً ، والجملة مستأنفة ؛ لتقرير ما قبلها ﴿ فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي : لا تمدحوها ولا تبرئوها عن الآثام ولا تثنوا عليها ، فإن ترك تزكية النفس أبعد من الرياء ، وأقرب إلى الخشوع ، وجملة ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتقى ﴾ : مستأنفة مقررة للنهي ، أي : هو أعلم بمن اتقى عقوبة الله ، وأخلص العمل له .

قال الحسن : وقد علم سبحانه من كل نفس ما هي عاملة ، وما هي صانعة ، وإلى ما هي صائرة .

ثم لما بيّن سبحانه جهالة المشركين على العموم خصّ بالذمّ بعضهم فقال : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذى تولى ﴾ أي : تولى عن الخير ، وأعرض عن اتباع الحق ﴿ وأعطى قَلِيلاً وأكدى ﴾ أي : أعطى عطاءً قليلاً ، أو أعطى شيئًا قليلاً ، وقطع ذلك وأمسك عنه ، وأصل أكدى من الكدية وهي الصلابة ، يقال لمن حفر بئرًا ثم بلغ فيها إلى حجر لا يتهيأ له فيه حفر : قد أكدى ، ثم استعملته العرب لمن أعطى فلم يتمّ ، ولمن طلب شيئًا فلم يبلغ آخره ، ومنه قول الحطيئة :

فأَعطى قليلاً ثم أَكْدَى عطاؤه . . . ومن يَبْذُلِ المعروف في الناس يحمد

قال الكسائي ، وأبو زيد ، ويقال : كديت أصابعه : إذا محلت من الحفر ، وكدت يده : إذا كلت ، فلم تعمل شيئًا ، وكدت الأرض : إذا قل نباتها ، وأكديت الرجل عن الشيء رددته ، وأكدى الرجل : إذا قلّ خيره .

قال الفراء : معنى الآية : أمسك من العطية وقطع .

وقال المبرد : منع منعاً شديداً .

قال مجاهد ، وابن زيد ، ومقاتل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم على دينه ، فعيره بعض المشركين ، فترك ورجع إلى شركه .

قال مقاتل : كان الوليد مدح القرآن ، ثم أمسك عنه ، فأعطى قليلاً من لسانه من الخير ثم قطعه .

وقال الضحاك : نزلت في النضر بن الحارث .

وقال محمد بن كعب القرظي : نزلت في أبي جهل ﴿ أعنده عِلْمُ الغيب فَهُوَ يرى ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والمعنى : أعند هذا المكدي علم ما غاب عنه من أمر العذاب ، فهو يعلم ذلك ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ موسى * وإبراهيم الذى وفى ﴾ أي : ألم

يخبر ، ولم يحدّث بما في صحف موسى ، يعني : أسفاره ، وهي التوراة ، وبما في صحف إبراهيم ، الذي وفى أي : تمم وأكمل ما أمر به .

(51/734)

قال المفسرون : أي : بلغ قومه ما أمر به وأدّاه إليهم ، وقيل : بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه ، ثم بيّن سبحانه ما في صحفهما ، فقال : ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى ﴾ أي : لا تحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى ، ومعناه : لا تؤخذ نفس بذنب غيرها ، وأن هي المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن مقدّر ، وخبرها الجملة بعدها ، ومحل الجملة الجرّ على أنها بدل من صحف موسى ، وصحف إبراهيم ، أو الرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، وقد مضى تفسير هذه الآية في سورة الأنعام ﴿ وَأَن لَّيْسَ للإنسان إِلاَّ مَا سعى ﴾ عطف على قوله : ﴿ أَلاَّ تَزِرُ ﴾ وهذا أيضاً مما في صحف موسى ، والمعنى : ليس له إلاّ أجر سعيه ، وجزاء عمله ، ولا ينفع أحداً عمل أحد ، وهذا العموم مخصوص بمثل قوله سبحانه : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور : 21] ، وبمثل ما ورد في شفاعة الأنبياء ، والملائكة للعباد ، ومشروعية دعاء الأحياء للأموات ، ونحو ذلك ، ولم يصب من قال : إن هذه الآية منسوخة بمثل هذه الأمور ، فإن الخاصّ لا ينسخ العام بل يخصصه ، فكل ما قام الدليل على

أن الإنسان ينتفع به وهو من غير سعيه ، كان مخصصاً لما في هذه الآية من العموم : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرى ﴾ أي : يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ ﴾ أي : يجزى الإنسان سعيه ، يقال : جزاه الله بعمله ، وجزاء على عمله ، فالضمير المرفوع عائد إلى الإنسان ، والمنصوب إلى سعيه .

وقيل : إن الضمير المنصوب راجع إلى الجزاء المتأخر وهو قوله : ﴿ الجزاء الأوفى ﴾ فيكون الضمير راجعاً إلى متأخر عنه هو مفسر له ، ويجوز أن يكون الضمير المنصوب راجعاً إلى الجزاء الذي هو مصدر يجزاه ، ويجعل الجزاء الأوفى تفسيراً للجزاء المدلول عليه بالفعل ، كما في قوله : ﴿ اعدلوا هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [المائدة : 8] قال الأخفش : يقال : جزيته الجزاء ، وجزيته بالجزاء سواءً لا فرق بينهما .

(52/734)

﴿ وَأَنَّ إلى ربّكَ المنتهى ﴾ أي : المرجع والمصير إليه سبحانه لا إلى غيره ، فيجازيهم بأعمالهم .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ كبائر الإثم والفواحش ﴾ قال : الكبائر : ما سمى الله فيه النار ، والفواحش : ما كان فيه حدّ الدنيا .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تتمنى وتشتهي ، والفرج يصدّق ذلك ، أو يكذبه " وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود في قوله : ﴿ إِلاَّ اللمم ﴾ قال : زنا العينين : النظر ، وزنا الشفتين : التقبيل ، وزنا اليدين : البطش ، وزنا الرجلين : المشي ، ويصدّق ذلك الفرج ، أو يكذبه ، فإن تقدم بفرجه كان زانياً ، وإلاّ فهو اللمم .

وأخرج مسدد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن أبي هريرة أنه سئل عن قوله : ﴿ إِلاَّ اللمم ﴾ قال : هي : النظرة ، والغمزة ، والقبلة ، والمباشرة ، فإذا مسّ الختان الختان ، فقد وجب الغسل ، وهو الزنا .

وأخرج سعيد بن منصور ، والترمذي وصححه ، والبزار ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال في قوله : ﴿ إِلاَّ اللمم ﴾ هو : الرجل يلم بالفاحشة ، ثم يتوب منها .

قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن تغفر اللَّهم تغفر جما . . . وأيّ عبد لك لا ألما

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ اللمم ﴾ يقول : إلاّ ما قد سلف .

(53/734)

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة في قوله : ﴿ إِلاَّ اللمم ﴾ قال : اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود ، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود ، فذلك الإلمام .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير عن ابن عباس قال : اللمم كل شيء بين الحدّين حدّ الدنيا وحدّ الآخرة يكفره الصلاة ، وهو دون كلّ موجب ، فأما حدّ الدنيا ، فكلّ حدّ فرض الله عقوبته في الدنيا ؛ وأما حدّ الآخرة ، فكلّ شيء ختمه الله بالنار ، وأخر عقوبته إلى الآخرة .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في المعرفة عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال : كانت اليهود إذا هلك لهم صبيّ صغير قالوا : هو صدّيق ، فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "كذبت يهود ما من نسمة يخلقها في بطن أمها إلاّ أنه شقيّ ، وسعيد " ، فأنزل الله عند ذلك ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرض ﴾

الآية كلها .

وأخرج أحمد ، ومسلم ، وأبو داود عن زينب بنت أبي سلمة أنها سميت برّة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البرّ منكم ، سموها زينب "

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأعطى قِلِيلاً وأكدى ﴾ قال : قطع ، نزلت في العاص بن وائل .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه قال : أطاع قليلاً ثم انقطع .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والشيرازي في الألقاب ، والديلمي قال السيوطي : بسند ضعيف عن أبي أمامة عن النبيّ قال : " أتدرون ما قوله : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : " وفّى عمل يومه بأربع ركعات كان يصليهنّ ، وزعم أنها صلاة الضحى " ، وفي إسناده جعفر بن الزبير ، وهو ضعيف .

(54/734)

وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : سهام الإسلام ثلاثون سهماً لم يتممها أحد قبل إبراهيم عليه السلام قال الله : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ .

وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : يقول إبراهيم الذي استكمل الطاعة فيما فعل بابنه حين رأى الرؤيا ، والذي في صحف موسى ، ﴿ أَلَّا تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سهل بن معاذ بن أنس ، عن أبيه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذي وفى ؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ إلى آخر الآية [الروم : 17] " ، وفي إسناده ابن لهيعة .

وأخرج عبد بن حميد ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس .

قال : لما نزلت : ﴿ والنجم ﴾ فبلغ : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ قال : وفّى ﴿ أَلَّا تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى ﴾ إلى قوله : ﴿ مّنَ النذر الأولى ﴾ .

وأخرج أبو داود ، والنحاس كلاهما في الناسخ ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عنه قال : ﴿ وَأَن لَّيْسَ للإنسان إِلاَّ مَا سعى ﴾ فأنزل الله بعد ذلك : ﴿ والذين ءامَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بإيمان أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور : 21] ، فأدخل الله الأبناء الجنة بصلاح الآباء .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ للإنسان إِلاَّ مَا سعى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الجزاء الأوفى ﴾ استرجع واستكان .

وأخرج الدارقطني في الأفراد ، والبغوي في تفسيره عن أبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾ قال : " لا فكرة في الرب " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير جـ 5 صـ 111.116 ﴾

(55/734)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42) ﴾

القول في موقعها كالقول في موقع جملة ﴿ وأن سعيه سوف يرى ﴾ [النجم : 40] سواءً ، فيجوز أن تكون هذه الجملة معطوفة على جملة ﴿ وأن سعيه سوف يرى ﴾ فتكون تتمة لما في صحف موسى وإبراهيم ، ويكونَ الخطاب في قوله : ﴿ إلى ربك ﴾ التفاتاً من الغيبة إلى الخطاب والمخاطب غيرُ معينّ فكأنه قيل : وأن إلى ربه المنتهى ، وقد يكون نظيرها من كلام إبراهيم ما حكاه الله عنه بقوله : ﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ [الصافات : 99] .

ويجوز أنها ليست مما اشتملت عليه صحف موسى وإبراهيم ويكون عطفُها عطفَ مفرد على مفرد ، فيكون المصدر المنسبك من ﴿ أنّ ﴾ ومعمولها مدخولاً للباء ، أي لم ينبأ بأن

إلى ربك المنتهى ، والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم وعليه فلا نتطلب لها نظيراً من كلام إبراهيم عليه السلام .

ومعنى الرجوع إلى الله الرجوع إلى حكمه المحض الذي لا تلابسه أحكامٌ هي في الظاهر من تصرفات المخلوقات مما هو شأن أمور الدنيا ، فالكلام على حذف مضاف دل عليه السياق .

والتعبير عن الله بلفظ ﴿ ربك ﴾ تشريف للنبيء صلى الله عليه وسلم وتعريض بالتهديد لمكذبيه لأن شأن الرب الدفاع عن مربوبه .

وفي الآية معنى آخر وهو أن يكون المنتهى مجازاً عن انتهاء السير ، بمعنى الوقوف ، لأن الوقوف انتهاء سير السائر ، ويكون الوقوف تمثيلاً لحال المطيع لأمر الله تشبيهاً لأمر الله بالحَد الذي تحدد به الحَوائط على نحو قول أبي الشيص:

وقَف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي . . .

متَأَخَّر عنه ولا مُتَقَدم

كما عبر عن هذا المعنى بالوقوف عند الحد في قوله تعالى : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ [البقرة : 229] .

والمعنى : التحذير من المخالفة لما أَمَر الله ونَهى .

وفي الآية معنى ثالث وهو انتهاء دلالة الموجودات على وجودِ الله ووحدانيتِه لأن الناظر إلى الكائنات يعلم أن وجودها ممكن غير واجب فلا بد لها من موجود ، فإذا خَيَّلت الوسوسة للناظر أن يفرض للكائنات موجداً مما يبدو له من نحو الشمس أو القمر أو النار لما يرى فيها من عِظم الفاعلية ، لم يلبَث أن يظهر له أن ذلك المفروض لا يخلو عن تَغير يدل على حدوثه فلا بد له من مُحدث أوْجَدَهُ فإذا ذهب الخيال يسلسل مفروضات الإلهية (كما في قصة إبراهيم ﴿ فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ﴾ [الأنعام : 76] الآيات) لم يجد العقل بُداً من الانتهاء إلى وجوب وُجودِ صَانع لممكنات كلها ، وجودُه غيرُ ممكن بل واجب ، وأن يكون متصفاً بصفات الكمال وهو الإله الحق ، فالله هو المنتهى الذي ينتهي إليه استدلال العقل ، ثم إذا لاح له دليل وجود الخالق وأفضى به إلى إثبات أنه واحد لأنه لو كان متعدّداً لكان كلٌّ من المتعدد غيرَ كامل الإلهية إذ لا يتصرف أحد المتعدِد فيما قد تصرف فيه الآخر ، فكان كل واحد محتاجاً إلى الآخر ليرضى بإقراره على إيجاد ما أوجده ، وإلا لقدر على نقض ما فعله ، فيلزم أن يكون كل واحد من المتعدد محتاجاً إلى من يسمح له بالتصرف ، قال تعالى : ﴿ وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾ [المؤمنون : 91] وقال : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما تقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ [الإسراء : 42] وقال : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله

لفسدتا ﴾ [الأنبياء : 22] فانتهى العقل لا محالة إلى منتهى .

وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (43)

انتقال من الاعتبار بأحوال الآخرة إلى الاعتبار بأحوال الحياة الدنيا وضمير ﴿ هو ﴾ عائد إلى ﴿ ربك ﴾ من قوله : ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ [النجم : 42] .

(57/734)

والضحك : أثر سرور النفس ، والبكاء : أثر الحزن ، وكل من الضحك والبكاء من خواص الإِنسان وكلاهما خلق عجيب دال على انفعال عظيم في النفس .

وليس لبقية الحيوان ضحك ولا بكاء وما ورد من إطلاق ذلك على الحيوان فهو كالتخيل أو التشبيه كقول النابغة:

بكاء حماقة تدعو هَديلا . . .

مطوقة على فنن تغني

ولا يخلو الإِنسان من حالي حزن وسرور لأنه إذا لم يكن حزيناً مغموماً كان مسروراً لأن الله خلق السرور والانشراح ملازماً للإِنسان بسبب سلامة مزاجه وإدراكه لأنه إذا كان سالماً كان نشيط الأعصاب وذلك النشاط تنشأ عنه المسرة في الجملة وإن كانت متفاوتة في

الضعف والقوة ، فذكر الضحك والبكاء يفيد الإحاطة بأحوال الإِنسان بإيجاز ويرمز إلى أسباب الفرح والحزن ويذكر بالصانع الحكيم ، ويبشر إلى أن الله هو المتصرف في الإنسان لأنه خلق أسباب فرحه ونكده وألهمه إلى اجتلاب ذلك بما في مقدوره وجعل حداً عظيماً من ذلك خارجاً عن مقدور الإِنسان وذلك لا يمتري فيه أحد إذا تأمل وفيه ما يرشد إلى الإِقبال على طاعة الله والتضرع إليه ليقدّر للناس أسباب الفرح ، ويدفع عنهم أسباب الحزن وإنما جرى ذكر هذا في هذا المقام لمناسبة أن الجزاء الأوفى لسعي الناس : بعضه سارٌّ لفريق وبعضه محزن لفريق آخر .

وأفاد ضمير الفصل قصراً لصفة خلق أسباب الضحك والبكاء على الله تعالى لإِبطال الشريك في التصرف فتبطل الشركة في الإِلهية ، وهو قصر إفراد لأن المقصود نفي تصرف غير الله تعالى وإن كان هذا القصر بالنظر إلى نفس الأمر قصراً حقيقياً لإِبطال اعتقاد أن الدهر متصرف .

وإسناد الإِضحاك والإِبكاء إلى الله تعالى لأنه خالق قوتي الضحك والبكاء في الإِنسان ، وذلك خلق عجيب ولأنه خالق طبائع الموجودات التي تجلب أسباب الضحك والبكاء من سرور وحزن .

ولم يذكر مفعول ﴿ أضحك وأبكى ﴾ لأن القصد إلى الفعلين لا إلى مفعوليهما فالفعلان منزلان منزلة اللازم ، أي أوجد الضحك والبكاء .

ولما كان هذا الغرض من إثبات انفراد الله تعالى بالتصرف في الإِنسان بما يجده الناس في أحوال أنفسهم من خروج أسباب الضحك والبكاء عن قدرتهم تعين أن المراد : أضحك وأبكى في الدنيا ، ولا علاقة لهذا بالمسرة والحزن الحاصلين في الآخرة .

وفي الاعتبار بخلق الشيء وضده إشارة إلى دقائق حكمة الله تعالى .

وفي هذه الآية محسن الطباق بين الضحك والبكاء وهما ضدان .

وتقديم الضحك على البكاء لأن فيه امتناناً بزيادة التنبيه على القدرة وحصل بذلك مراعاة الفاصلة .

وموقع هذه الجملة في عطفها مثل موقع جملة ﴿ وأن سعيه سوف يرى ﴾ [النجم : 40] في الاحتمالين ، فإن كانت مما شملته صحف إبراهيم كانت حكاية لقوله : ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ [الشعراء : 80] .

وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (44)

انتقل من الاعتبار بانفراد الله بالقدرة على إيجاد أسباب المسرة والحزن وهما حالتان لا تخلو عن إحداهما نفس الإِنسان إلى العبرة بانفراده تعالى بالقدرة على الإِحياء والإِماتة ، وهما

حالتان لا يخلو الإِنسان عن إحداهما فإن الإِنسان أول وجوده نطفة ميتة ثم علقة ثم مضغة (قطعة ميتة وإن كانت فيها مادة الحياة إلا أنها لم تبرز مظاهر الحياة فيها) ثم ينفخ فيه الروح فيصير إلى حياة وذلك بتدبير الله تعالى وقدرته .

ولعل المقصود هو العبرة بالإِماتة لأنها أوضح عبرة وللرد عليهم قولهم : ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية : 24] ، وأن عطف ﴿ وأحيا تتميم واحتراس كما في قوله : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ [الملك : 2] .

ولذلك قدم ﴿ أمات على أحيا ﴾ مع الرعاية على الفاصلة كما تقدم في ﴿ أضحك وأبكى ﴾ [النجم : 43] .

وموقع الجملة كموقع جملة ﴿ وأن سعيه سوف يرى ﴾ [النجم : 40] .

فإن كان مضمونها مما شملته صحف إبراهيم كان المحكي بها من كلام إبراهيم ما حكاه الله عنه بقوله : ﴿ والذي يميتني ثم يحيين ﴾ [الشعراء : 81] .

(59/734)

وفعلا ﴿ أمات وأحيا ﴾ منزلان منزلة اللازم كما تقدم في قوله : ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ [النجم : 43] إظهاراً لبديع القدرة على هذا الصنع الحكيم مع التعريض

بالاستدلال على كيفية البعث وإمكانه حيث أحاله المشركون ، وشاهدُه في خلق أنفسهم .

وضمير الفصل للقصر على نحو قوله : ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ [النجم : 43] رداً على أهل الجاهلية الذين يسندون الإِحياء والإِماتة إلى الدهر فقالوا ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية : 24] .

فليس المراد الحياة الآخرة لأن المتحدث عنهم لا يؤمنون بها ، ولأنها مستقبلة والمتحدث عنه ماض .

وفي هذه الآية محسن الطباق أيضاً لما بين الحياة والموت من التضاد .

وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46)

هذه الآية وإن كانت مستقلة بإفادة أن الله خالق الأزواج من الإِنسان خلقاً بديعاً من نطفة فيصير إلى خصائص نوعه وحسبك بنوع الإِنسان تفكيراً أو مقدرة وعملاً ، وذلك ما لا يجهله المخاطبون فما كان ذكره إلا تمهيداً وتوطئة لقوله : ﴿ وأن عليه النشاة الأخرى ﴾ [النجم : 47] على نحو قوله تعالى : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ [الأنبياء : 104] وباعتبار استقلالها بالدلالة على عجيب تكوين نسل الإِنسان ، عُطفت عليها جملة ﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ [النجم : 47] وإلا لكان مقتضى الظاهر أن يقال : إنَّ عليه النشأة الأخرى بدون عطف وبكسر همزة (إنّ) .

ومناسبة الانتقال إلى هذه الجملة أن فيها كيفية ابتداء الحياة .

والمراد بالزوجين : الذكر والأنثى من خصوص الإِنسان لأن سياق الكلام للاعتبار ببديع صنع الله وذلك أشد اتفاقاً في خلقة الإِنسان ، ولأن اعتبار الناس بما في أحوال أنفسهم أقرب وأمكن ولأن بعض الأزواج من الذكور والإِناث لا يتخلق من نطفة بل من بَيْض وغيره .

(60/734)

ولعل وجه ذكر الزوجين والبدل منه ﴿ الذكر والأنثى ﴾ دون أن يقول : وأنه خلقه ، أي الإِنسان من نطفة ، كما قال : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق ﴾ [الطارق : 5 ، 6] الآية أمران:

أحدهما : إدماج الامتنان في أثناء ذكر الانفراد بالخلق بنعمة أن خلق لكل إنسان زوجه كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ﴾ [الروم : 21] الآية .

الثاني : الإِشارة إلى أن لكلا الزوجين حظاً من النطفة التي منها يخلق الإِنسان فكانت للذكر نطفة وللمرأة نطفة كما ورد في الحديث الصحيح أنه " إذا سبق ماء الرجل أشبه المولود أباه وإن سبق ماء المرأة أشبه المولود أمه " وبهذا يظهر أن لكل من الذكر والأنثى نطفة وإن كان

المتعارف عند الناس قبل القرآن أن النطفة هي ماء الرجل إلا أن القرآن يخاطب الناس بما يفهمون ويشير إلى ما لا يعلمون إلى أن يفهمه المتدبرون .

وحسبك ما وقع بيانه بالحديث المذكور آنفاً .

والنطفة : فُعلة مشتقة من : نطفَ الماءُ ، إذا قطر ، فالنطفة ماء قليل وسمي ما منه النسل نطفة بمعنى منطوف ، أي مصبوب فماء الرجل مصبوب ، وماء المرأة أيضاً مصبوب فإن ماء المرأة يخرج مع بويضة دقيقة تتسرب مع دم الحيض وتستقر في كيس دقيق فإذا باشر الذكر الأنثى انحدرت تلك البيضة من الأنثى واختلطت مع ماء الذكر في قرارة الرحم .

و﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ من نطفة ﴾ ابتدائية فإن خَلق الإِنسان آتٍ وناشىءٌ بواسطة النطفة ، فإذا تكونت النطفة وأُمنيت ابتدأ خلق الإِنسان .

و﴿ تمنى ﴾ تُدْفق وفسروه بمعنى تقذف أيضاً .

وقيل إن ﴿ تمنى ﴾ بمعنى تُراق ، وجعلوا تسمية الوادي الذي بقرب مكة منى لأنه تراق به دماء البُدْن من الهدايا .

ولم يذكر أهل اللغة في معاني مني أو أمنى أن منها الإِراقة .

وهذا من مشكلات اللغة .

ثم إن ﴿ تمنى ﴾ يحتمل أنه مضارع أَمنى بهمزة التعدية وسقطت في المضارع فوَزْنُهُ تُأْفعَل ، ويحتمل أنه مضارع مَنى مثل رَمَى فوزنه : تُفْعَل .

وبني فعل ﴿ تمنى ﴾ إلى المجهول لأن النطفة تدفعها قوة طبيعية في الجسم خفية فكان فاعل الإِمناء مجهولاً لعدم ظهوره .

وعن الأخفش ﴿ تمنى ﴾ تقدّر ، يقال : منى الماني ، أي قَدَّر المقدر .

والمعنى : إذا قُدر لها ، أي قدر لها أن تكون مخلَّقة كقوله تعالى : ﴿ مخلقة وغير مخلقة ﴾ [الحج : 5] .

والتقييد بـ ﴿ إذا تمنى ﴾ لما في اسم الزمان من الإِيذان بسرعة الخَلق عند دفق النطفة في رحم المرأة فإنه عند التقاء النطفتين يبتدىء تخلق النسل فهذا إشارة خفية إلى أن البويضة التي هي نطفة المرأة حاصلة في الرحم فإذا أُمنيت عليها نطفة الذكر أخذت في التخلق إذا لم يعقها عائق .

ثم لما في فعل ﴿ تمنى ﴾ من الإِشارة إلى أن النطفة تقطر وتصب على شيء آخر لأن الصب يقتضي مصبوباً عليه فيشير إلى أن التخلق إنما يحصل من انصباب النطفة على أخرى ، فعند اختلاط الماءين يحصل تخلق النسل فهذا سر التقييد بقوله : ﴿ إذا تمنى ﴾ .

وفي الجمع بين الذكر والأنثى محسّن الطباق لما بين الذكر والأنثى من شبه التضاد .

ولم يؤت في هذه الجملة بضمير الفصل كما في اللتين قبلها لعدم الداعي إلى القصر إذ لا ينازع أحد في أن الله خالق الخلق وموقع جملة ﴿ وأنه خلق الزوجين ﴾ إلى آخرها كموقع جملة ﴿ وأن سعيه سوف يرى ﴾ [النجم : 40] .

وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (47)

كان مقتضى الظاهر من التنظير أن يقدم قوله : ﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ [النجم : 48] على قوله : ﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ لما في قوله : ﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ من الامتنان وإظهار الاقتدار المناسبين لقوله : ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا وأنه خلق الزوجين ﴾ [النجم : 43 45] الخ .

(62/734)

إذ ينتقل من نعمة الخلق إلى نعمة الرزق كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم ﴿ الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين ﴾ [الشعراء : 78 ، 79] وقوله تعالى : ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ﴾ [الروم : 40] ولكن عدل عن ذلك على طريقة تشبه الاعتراض ليُقرن بين البيانين ذكر قدرته على النشأتين .

ومما يشابه هذا ما قاله الواحدي في شرح قول المتنبي في سيف الدولة:

وقفتَ وما في الموت شك لواقف . . .

كأنك في جن الردى وهو نائم

تَمُرُّ بك الأبطال كلْمَى هَزِيمةً . . .

ووجهُكَ وَضاء وثَغرك باسم

أنه لما أنشد هذين البيتين أنكر عليه سيف الدولة تطبيق عَجزي البيتين على صدريْهما

وقال : ينبغي أن تطبق عجز الأول على الثاني وعجز الثاني على الأول ثم قال له : وأنت في

هذا مثلُ امرىء القيس في قوله:

كأني لم أركب جواداً للذة . . .

ولم أتَبطَّن كاعبا ذات خَلخال

ولم أسبإِ الزق الرويّ ولم أقل . . .

لخيليَ كُرّي كَرَّة بعد إجفال

(63/734)

ووجه الكلام في البيتين على ما قاله أهل العلم بالشعر أن يكون عجُز الأول على الثاني والثاني على الأول (أي مع نقل كلمة (لَلذة) من صدر الأول إلى الثاني ، وكلمة (ولم أقل) من صدر الثاني إلى الأول ليستقيم الكلام) فيكون ركوب الخيل مع الأمر للخيل بالكرّ وسَبْأُ الخمر مع تبطّنِ الكاعب فقال أبو الطيب : "أدام الله عز مولانا إن صح أن الذي استدرك هذا على امرىء القيس أعلم منه بالشعر فقد أخطأ أمرؤ القيس وأخطأتُ أنا ، ومولانا يعرف أن البزّاز لا يعرف الثوب معرفة الحائك لأن البزاز يعرف جملته والحائك يعرف جملته وتفصيله ، وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد وقَرن السماحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء ، وإنما لما ذكرتُ الموت في أول البيت اتبعتُه بذكر الردى ليجانسه ، ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً وعينهُ من أن تكون باكية قلت : ووجهك وضاءُ ، لأجمع بين الأضداد في المعنى" أ هـ .

ولو أن أبا الطيب شعر بهذه الآية لذكرها لسيف الدولة فكانت له أقوى حجة من تأويله شعر امرىء القيس .

وفي جملة ﴿ وأن عليه النشأة ﴾ تحقيق لفعله إياها شَبهاً بالحق الواجب على المحقوق به بحيث لا يتخلف فكأنه حق واجب لأن الله وعد بحصول بما اقتضته الحكمة الإلهية لظهور أن الله لا يكرهه شيء ، فالمعنى : أن الله أراد النشأة الأخرى كقوله تعالى:

﴿ كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة ﴾ [الأنعام : 12] .

و﴿ النشأة ﴾ : المرة من الإِنشاء ، أي الإِيجاد والخلق .

و﴿ الأخرى ﴾ : مؤنث الأخير ، أي النشأة التي لا نشأة بعدها ، وهي مقابل النشأة الأولى التي يتضمنها قوله تعالى : ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [النجم : 45] .

وهذه المقابلة هي مناسبة ذكر هذه النشأة الأخرى .

وقرأ الجمهور ﴿ النشأة ﴾ بوزن الفعلة وهو اسم مصدر أَنشأ ، وليس مصدراً ، إذ ليس نشأ المجرد بمتعد وإنما يقال : أنشأ .

(64/734)

وقرأها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب ﴿ النشاءة ﴾ بألف بعد الشين المفتوحة بوزن الفَعالة وهو من أوزان المصادر لكنه مقيس في مصدر الفعل المضموم العين في الماضي نحو الجزالة والفصاحة .

ولذلك فالنشاءة بالمد مصدر سماعي مثل الكآبة .

ولعل مدّتَها من قبيل الإشباع مثل قول عنترة:

ينْبَاع من ذفرَى غَضوب جَسْرة . . .

أي : ينبع .

وتقديم الخبر على اسم ﴿ أن ﴾ للاهتمام بالتحقيق الذي أفادته (على) تنبيها على زيادة تحقيقه بعد أن حقق بما في (أن) من التوكيد .

وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (48)

ومعنى ﴿ أغنى ﴾ جَعَل غِنيًّا ، أي أعطى ما به الغِنى ، والغنى التمكن من الانتفاع بما يحب الانتفاع به .

ويظهر أن معنى ﴿ أقنى ﴾ ضد معنى ﴿ أغنى ﴾ رعيا لنظائره التي زاوجت بين الضدين من قوله : ﴿ أضحك وأبكى ﴾ [النجم : 43] و ﴿ أمات وأحيا ﴾ [النجم : 44] ، و ﴿ الذكر والأنثى ﴾ [النجم : 45] ، ولذلك فسره ابن زيد والأخفش وسليمان التيمي بمعنى أرضى .

وعن مجاهد وقتادة والحسن : ﴿ أقنى ﴾ : أخدَم ، فيكون مشتقاً من القِنّ وهو العبد أو المولود في الرّق فيكون زيادة على الإِغناء .

وقيل : ﴿ أَقنى ﴾ : أعطى القنية .

وهذا زيادة في الغنى .

وعن ابن عباس : ﴿ أقنى ﴾ : أرضى ، أي أرضى الذي أغناه بما أعطاه ، أي أغناه حتى أرضاه فيكون زيادة في الامتنان .

والإِتيان بضمير الفصلِ لقصر صفة الإِغناء والإِقناء عليه تعالى دون غيره وهو قصر ادعائيٍ لمقابلة ذهول الناس عن شكر نعمة الله تعالى بإسنادهم الأرزاق لوسَائله العادية ، مع عدم التنبه إلى أن الله أوجد مواد الإِرزاق وأسبابها وصرف موانعها ، وهذا نظير ما تقدم من القصر في قوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] .

وموقع جملة ﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ كموقع جملة ﴿ وأن سعيه سوف يرى ﴾ [النجم : 40] .

وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (49)

فهذه الجملة لا يجوز اعتبارها معطوفة على جملة ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [النجم : 38] إذ لا تصلح لأن تكون مما في صحف موسى وإبراهيم لأن الشعرى لم تعبد في زمن إبراهيم ولا في زمن موسى عليهما السلام فيتعين أن تكون معطوفة على (ما) الموصولة من قوله ﴿ بما في صحف موسى وإبراهيم ﴾ [النجم : 36 ، 37] الخ .

الشعرى : اسم نجم من نجوم برج الجوزاء شديد الضياء ويسمى : كَلْب الجَبّار ، لأن برج الجوزاء يسمى الجَبّار عند العرب أيضاً ، وهو من البروج الربيعية ، أي التي تكون مدةُ حلول

الشمس فيها هي فصل الربيع .

وسميت الجوزاء لشدة بياضها في سواد الليل تشبيهاً له بالشاة الجوزاء وهي الشاة السوداء التي وسطها أبيض .

وبرج الجوزاء ذو كواكب كثيرة ولكثير منها أسماء خاصة والعرب يتخيلون مجموع نجومها في صورة رجل واقف بيده عصا وعلى وسطه سيف ، فلذلك سموه الجَبّار .

وربما تخيّلوها صورة امرأة فيطلقون على وسطها اسم المنطقة .

ولم أقف على وجه تسميتها الشّعرى ، وسُميتْ كَلْب الجَبّار تخيلوا الجبار صائداً والشعرى يتبعه كالكلب وربما سمّوا الشعرى يَد الجوزاء ، وهو أبهر نجم برج الجوزاء ، وتوصف الشعرى باليمانيَة لأنها إلى جهة اليمن .

وتوصف بالعبور (بفتح العين) لأنهم يزعمون أنها زَوج كوكب سُهيل وأنهما كانا متصلين وأن سُهيلاً انحدر نحو اليَمن فتبعته الشِعرى وعَبَرت نهر المَجَرة ، فلذلك وصفت بالعَبور فَعول بمعنى فاعلة ، وهو احتراز عن كوكب آخر ليس من كواكب الجوزاء يسمونه الشِعرى الغُمَيْصَاء (بالغين المعجمة والصاد المهملة بصيغة تصغير) وذكروا لتسميته قصة .

والشعرى تسمى المِرزم (كمنبر) ويقال : مرزم الجوزاء لأن نوءه يأتي بمطر بارد في فصل الشتاء فاشتق له اسم آلة الرَّزم وهو شدة البرد (فإنهم كنَّوا ريح الشّمال أمَّ رِزَم) .

وكان كوكب الشعرى عبدتْه خزاعة والذي سنّ عبادته رجل من سادة خزاعة يكنَى أبا كبشة .

(66/734)

واختلف في اسمه ففي "تاج العروس" عن الكلبي أن اسمه جَزْء (بجيم وزاي وهمزة) .

وعن الدارقطني أنه وَجز (بواو وجيم وزاي) بن غالب بن عامر بن الحارث بن غُبشان كذا في "التاج" ، والذي في "جمهرة ابن حزم" أن الحارث هو غُبشان الخزاعي .

ومنهم من قال : إن اسم أبي كبشة عَبْد الشِعرى .

ولا أحسب إلا أن هذا وصفٌ غلب عليه بعد أن اتخذ الشّعرى معبوداً له ولقومه ، ولم يعرج ابن حزم في "الجمهرة" على ذكر أبي كَبشة .

والذي عليه الجمهور أن الشّعرى لم يعبدها من قبائل العرب إلاّ خزاعة .

وفي "تفسير القرطبي" عن السدّي أن حمير عبدوا الشعرى .

وكانت قريش تدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا كبشة خيل لمخالفته إياهم في عبادة الأصنام ، وكانوا يصفونه بابن أبي كبشة .

قيل لأن أبا كبشة كان من أجداد النبي صلى الله عليه وسلم من قِبل أمه يُعرِّضون أو يموّهون

على دهمائهم بأنه يدعو إلى عبادة الشِعرى يريدون التغطية على الدعوة إلى توحيد الله تعالى فمن ذلك قولهم لما أراهم انشقاق القمر "سَحركم ابن أبي كبشة" وقول أبي سفيان للنفر الذين كانوا معه في حضرة هرقل "لقد أَمِرَ أَمْر ابن أبي كبشة أنه يخافه ملك بني الأصفر" .

قال ابن أبي الأصبع "في هذه الآية من البديع محسن التنكيت وهو أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره مما يسده مسد لأجل نكتة في المذكور ترجح مجيئه فقوله تعالى : ﴿ وأنه هو رب الشعرَى ﴾ خَص الشعرى بالذكر دون غيرها من النجوم لأن العرب كان ظهر فيهم رجل يعرف بأبي كبشة عبدَ الشعرى ودعا خلقاً إلى عبادتها" .

(67/734)

وتخصيص الشعرى بالذكر في هاته السورة أنه تقدم ذكر اللاّت والعزَّى ومناة وهي معبودات وهمية لا مسميات لها كما قال تعالى : ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها ﴾ [النجم : 23] وأعقبها بإبطال إلهية الملائكة وهي من الموجودات المجردات الخفية ، أعقب ذلك بإبطال عبادة الكواكب وخزاعة أجوار لأهل مكة فلما عبدوا الشعرى ظهرت عبادة الكواكب في الحجاز ، وإثبات أنها مخلوقة لله تعالى دليل على إبطال إلهيتها لأن المخلوق لا يكون إلهاً ،

وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ﴾ [فصلت : 37] مع ما في لفظ الشعرى من مناسبة فواصل هذه السورة .

والإِتيان بضمير الفصل يفيد قصر مربوبية الشعرى على الله تعالى وذلك كناية عن كونه رب ما يعتقدون أنه من تصرفات الشعرى ، أي هو رب تلك الآثار ومقدرها وليست الشعرى ربة تلك الآثار المسندة إليها في مزاعمهم ، وليس لقصر كون رب الشعرى على الله تعالى دون غيره لأنهم لم يعتقدوا أن للشعرى ربّاً غير الله ضرورة أن منهم من يزعم أن الشعرى ربة معبودةٌ ومنهم من يعتقد أنها تتصرف بقطع النظر عن صفتها .

وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (50)

لما استُوفي ما يستحقه مقام النداء على باطل أهل الشرك من تكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم وطعنهم في القرآن ، ومن عبادة الأصنام ، وقولهم في الملائكة ، وفاسد معتقدهم في أمور الآخرة ، وفي المتصرف في الدنيا ، وكان معظم شأنهم في هذه الضلالات شبيهاً بشأن أمم الشرك البائدة نقل الكلام إلى تهديدهم بخوف أن يحل بهم ما حل بتلك الأمم البائدة فذكر من تلك الأمم أشهرها عند العرب وهم : عاد ، وثمود ، وقوم نوح ، وقوم لوط .

فموقع هذه الجملة كموقع الجمل التي قبلها في احتمال كونها زائدة على ما في صحف موسى وإبراهيم ويحتمل كونُها مما شملته الصحف المذكورة فإن إبراهيم كان بعد عاد وثمود وقوم نوح ، وكان معاصراً للمؤتفكة عالماً بهلاكها .

ولكون هلاك هؤلاء معلوماً لم تقرن الجملة بضمير الفصل .

ووصف عاد بـ ﴿ الأولى ﴾ على اعتبار عاد اسماً للقبيلة كما هو ظاهر .

ومعنى كونها أولى لأنها أول العرب ذكراً وهم أول العرب البائدة وهم أول أمة أهلكت بعد قوم نوح .

وأما القول بأن عاداً هذه لما هلكت خلفتها أمة أخرى تُعرف بعاد إرم أو عاد الثانية كانت في زمن العماليق فليس بصحيح .

ويجوز أن يكون ﴿ الأولى ﴾ وصفاً كاشفاً ، أي عاداً السابقة .

وقيل ﴿ الأولى ﴾ صفة عظمة ، أي الأولى في مراتب الأمم قوة وسعة ، وتقدم التعريف بعاد في سورة الأعراف .

وتقدم ذكر ثمود في سورة الأعراف أيضاً .

وتقدم ذكر نوح وقومه في سورة آل عمران وفي سورة الأعراف .

وإنما قدم في الآية ذكر عاد وثمود على ذكر قوم نوح مع أن هؤلاء أسبق لأن عاداً وثموداً أشهر في العرب وأكثر ذكراً بينهم وديارهم في بلاد العرب .

وقرأ الجمهور ﴿ عاداً الأولى ﴾ بإظهار تنوين ﴿ عاداً ﴾ وتحقيق همزة ﴿ الأولى ﴾ .

وقرأ ورش عن نافع وأبو عمرو ﴿ عاد لُولى ﴾ بحذف همزة (الأولى) بعد نقل حركتها إلى اللام المعرِّفة وإدغام نون التنوين من ﴿ عاداً ﴾ في لاَم ﴿ لُولى ﴾ .

وقرأه قالون عن نافع بإسكان همزة ﴿ الأولى ﴾ بعد نقل حركتها إلى اللام المعرِفة (عاد لُؤْلى) على لغة من يبدل الواو الناشئة عن إشباع الضمة همزاً ، كما قرىء ﴿ فاستوى على سؤقه ﴾ [الفتح : 29] .

وقرأ الجمهور ﴿ وثموداً ﴾ بالتنوين على إطلاق اسم جد القبيلة عليها .

وقرأه عاصم وحمزة بدون تنوين على إرادة اسم القبيلة .

وجملة ﴿ إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾ تعليل لجملة ﴿ أهلك عاداً ﴾ إلى آخرها ، وضمير الجمع في ﴿ إنهم كانوا ﴾ يجوز أن يعود إلى قوم نوح ، أي كانوا أظلم وأطغى من عاد وثمود .

(69/734)

ويجوز أن يكون عائداً إلى عاد وثمود وقوم نوح والمعنى : إنهم أظلم وأطغى من قومك الذين كذبوك فتكون تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن الرسل من قبله لقُوا من أممهم أشد مما

لقيه محمد صلى الله عليه وسلم وفيه إيماء إلى أن الله مبق على أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يهلكها لأنه قدّر دخول بقيتها في الإسلام ثم أبنائها .

وضمير الفصل في قوله ﴿ كانوا هم أظلم ﴾ لتقوية الخبر .

وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54)

والمؤتفكة صفة لموصوف محذوف يدل عليه اشتقاق الوصف كما سيأتي ، والتقدير : القرى المؤتفكة ، وهي قرى قوم لوط الأربعُ وهي (سَدوم) و (عُمورة) و (آدمة) و (صبوييم) .

ووصفت في سورة براءة (70) بالمؤتفِكات لأن وصف جمع المؤنث يجوز أن يجمع وأن يكون بصيغة المفرد المؤنث .

وقد صار هذا الوصف غالباً عليها بالغلبة .

وذكرت القرى باعتبار ما فيها من السكان تفنناً ومراعاة للفواصل .

ويجوز أن تكون المؤتفكة هنا وصفاً للأمة ، أي لأمة لوط ليكون نظيراً لذكر عاد وثمود وقوم نوح كما في قوله تعالى : ﴿ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ﴾ في سورة الحاقة (9) .

والائتفاك : الانقلاب ، يقال : أفكها فانفكت .

والمعنى : التي خسف بها فجعل عاليها سافلها ، وقد تقدم ذكرها في سورة براءة .

وانتصب المؤتفكة ﴾ مفعول ﴿ أهوى ﴾ أي أسقط أي جعلها هاوية .

والإِهواء : الإِسقاط ، يقال : أهواه فهوَى ، ومعنى ذلك : أنه رفعها في الجو ثم سقطت أو أسقطها في باطن الأرض وذلك من أثر زلازل وانفجارات أرضية بركانية .

ولكون ﴿ المؤتفة ﴾ عَلَما انتفى أن يكون بين ﴿ المؤتفكة ﴾ و ﴿ أهوى ﴾ تكرير .

وتقديم المفعول للاهتمام بعبرة انقلابها .

وغشاها : غطاها وأصابها من أعلَى .

و ﴿ ما غشى ﴾ فاعل ﴿ غشّاها ﴾ ، و (ما) موصولة ، وجيء بصلتها من مادة وصيغة الفعل الذي أسند إليها ، وذلك لا يفيد خبراً جديداً زائداً على مفاد الفعل .

(70/734)

والمقصود منه التهويل كأنَّ المتكلم أراد أن يبين بالموصول والصلة وصف فاعل الفعل فلم يجد لبيانه أكثر من إعادة الفعل إذ لا يستطاع وصفه .

والذي غشاها هو مَطر من الحجارة المحماة ، وهي حجارة بركانية قذفت من فوهات كالآبار كانت في بلادهم ولم تكن ملتهبة من قبل قال تعالى : ﴿ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء ﴾ [الفرقان : 40] وقال : ﴿ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل

﴾ [هود : 82] .

وفاضت عليها مياه غمرت بلادهم فأصبحت بحراً ميتاً .

وأفاد العطف بفاء التعقيب في قوله : ﴿ فغشاها ﴾ إن ذلك كان بعقب أهوائها .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (55)

تفريعُ فذلكةٍ لما ذُكر من أول السورة : مما يختص بالنبي صلى الله عليه وسلم من ذلك كقوله : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ إلى قوله : ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ [النجم : 18 2] .

ومما يشمله ويشمل غيره من قوله : ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ إلى قوله : ﴿ هو رب الشعرى ﴾ [النجم : 43 49] فإن ذلك خليط من نِعَمٍ وضدها على نوع الإنسان وفي مجموعها نعمة تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته بمنافع الاعتبار بصنع الله .

ثم من قوله : ﴿ وأنه أهلك عاداً ﴾ [النجم : 50] إلى هنا .

فتلك نقم من الضالين والظالمين لنصر رسل الله ، وذلك نعمة على جميع الرسل ونعمة خاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم وهي بشارته بأن الله سينصره ، فجميع ما عدد من النعم على أقوام والنقم عن آخرين هو نعم محضة للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين .

و (أي) اسم استفهام يطلب به تمييز متشارك في أمر يعم بما يميز البعض عن البقية من حال يختص به مستعمل هنا في التسوية كناية عن تساوي ما عُدد من الأمور في أنها نعم على الرسول صلى الله عليه وسلم إذ ليس لواحد من هذه المعدودات نقص عن نظائره في النعمة كقول فاطمة بنت الخرشُب [وقَد سُئلت : أيّ بنيكِ أفضل] "ثَكِلتهُم إن كنتُ أدرى أيهم أفضل" ، أي إن كنت أدري جواب هذا السؤال ، وكقول الأعشى:

بأشجعَ أخّاذ على الدهر حكمه . . .

فمن أي ما تأتي الحوادث أفرق

والمقصود من هذا الاستفهام تذكير النبي صلى الله عليه وسلم بهذه النعم .

فالمعنى أنك لا تحصل لك مِرْيَة في واحدة من آلاء ربك فإنها سواء في الإِنعام ، والخطاب بقوله : ﴿ ربك ﴾ الأظهر أنه للنبيء صلى الله عليه وسلم وهو المناسب لذكر الآلاء والموافق لإِضافة (رب) إلى ضمير المفرد المخاطب في عُرف القرآن .

وجوزوا أن يكون الخطاب في قوله : ﴿ فبأي آلاء ربك ﴾ لغير معين من الناس ، أي المكذبين أي باعتبار أنه لا يخلو شيء مما عدد سابقاً عن نعمة لبعض الناس أو باعتبار عدم تخصيص الآلاء بما سبق ذكره بل المراد جنس الآلاء كما في قوله تعالى : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ [الرحمن : 16] .

والآلاء : النعم ، وهو جمع مفردُه : إلىً ، بكسر الهمزة وبفتحها مع فتح اللام مقصوراً ، ويقال : إِلىً ، وأُلي ، بسكون اللام فيهما وآخره ياء متحركة ، ويقال : أُلو ، بهمز مفتوحة بعدها لام ساكنة وآخره واو متحركة مثل : دلو .

والتماري : التشكك وهو تفاعل من المرية فإن كان الخطاب بقوله : ﴿ ربك ﴾ للنبيء صلى الله عليه وسلم كان ﴿ تتمارى ﴾ مُطاوع مَاراه مثل التدَافع مطاوع دَفع في قول المنخّل:

فدفعتُها فتدافَعَتْ . . .

مَشْيَ القَطاة إلى الغَدِير

(72/734)

والمعنى : فبأي آلاء ربك يشككونك ، وهذا ينظر إلى قوله تعالى : ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ [النجم : 12] ، أي لا يستطيعون أن يشككوك في حصول آلاء ربك التي هي نعم النبوءة والتي منها رؤيتُه جبريل عند سدرة المنتهى .

فالكلام مسوق لتأييس المشركين من الطمع في الكف عنهم .

وإن كان الخطاب لغير معين كان ﴿ تتمارى ﴾ تفاعلاً مستعملاً في المبالغة في حصول

الفعل ، ولا يعرف فعل مجرد للمراء ، وإنما يقال : امْترى ، إذا شك .

هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (56)

استئناف ابتدائي أو فذلكةٌ لما تقدم على اختلاف الاعتبارين في مرجع اسم الإِشارة فإن جعلتَ اسم الإِشارة راجعاً إلى القرآن فإنه لحضوره في الأذهان ينزل منزلة شيء محسوس حاضر بحيث يشار إليه ، فالكلام انتقال اقتضابي تنهية لما قبله وابتداءٌ لما بعد اسم الإِشارة على أسلوب قوله تعالى : ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ [إبراهيم : 52] .

والكلام موجه إلى المخاطبين بمعظم ما في هذه السورة فلذلك اقتصر على وصف الكلام بأنه نذير ، دون أن يقول : نذير وبشير ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ إن أنا إلاّ نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ [الأعراف : 188] .

والإِنذار بعضه صريح مثل قوله : ﴿ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ﴾ [النجم : 31] الخ ، وبعضه تعريض كقوله : ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴾ [النجم : 50] وقوله : ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ [النجم : 42] .

وإن جعلتَ اسم الإِشارة عائداً إلى ما تقدم من أول السورة بتأويله بالمذكور ، أو إلى ما لم ينبأ به الذي تولى وأعطى قليلاً ، ابتداءً من قوله : ﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى ﴾ [النجم : 36] إلى هنا على كلا التأويلين المتقدمين ، فتكون الإِشارة إلى الكلام المتقدم تنزيلاً لحضوره في السمع منزلة حضوره في المشاهدة بحيث يشار إليه .

و"النذر" حقيقته المخبر عن حدوث حدث مضرّ بالمخبَر (بالفتح) ، وجمعه : نُذر ، هذا هو الأشهر فيه .

(73/734)

ولذلك جعل ابن جريج وجمع من المفسرين الإِشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم وهو بعيد .

ويطلق النذير على الإِنذار وهو خبر المخبِر على طريقة المجاز العقلي .

قال أبو القاسم الزجاجي : يطلق النذير على الإِنذار (يريد أنه اسم مصدر) ومنه قوله تعالى : ﴿ فستعلمون كيف نذير ﴾ [الملك : 17] أي إنذاري وجمعه نُذر أيضاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾ [القمر : 23] ، أي بالمنذِرين .

وإطلاق نذير على ما هو كلام وهو القرآن أو بعض آياته مجاز عقلي ، أو استعارة على رأي جمهور أهل اللغة وهو حقيقة على رأي الزجاجي .

والمراد بالنذر الأولى : السالفة ، أي أن معنى هذا الكلام من معاني الشرائع الأولى كقوله النبي : " إنّما أدرك الناسُ من كلام النبوءة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئتَ " أي من كلام الأنبياء قبل الإِسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الإفك)

وقد ورد فى نصّ القرآن على سبعة أَوجه :

الأَوّل : بمعنى الكذب : ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ أَى كذِب .

الثانى : بمعنى العبادة : ﴿ أَإِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ .

الثَّالث : بمعنى وصف الحقّ بالشريك والولد : ﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ ﴾ .

الرّابع : بمعنى قَذْف المحصنات : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَآءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ ﴾ .

الخامس : بمعنى الصّرف والقَلْب ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أَى يُصْرف ، ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أَى تُصرفون .

السّادس : بمعنى الانقلاب : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾ .

السّابع : بمعنى السّحر : ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أَى ما يسحرون .

والإِفك فى الأَصل كلّ مصروف عن وجهه الذى يحقّ أَن يكون عليه .

وقوله تعالى : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا ﴾ استعمله فى ذلك لمّا اعتقدوا أَنَّ ذلك من الكذب .

ورجل مأفوك : مصروف عن الحقّ إِلى الباطل ، وعن العقل إِلى الخيال . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 101 ﴾

(75/734)

قوله تعالى ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (58) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (61) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان كل آت قريباً ، وكانت الساعة – وهي ما أنذر به من القيامة ومما دونها – لا بد من إتيانها لما وقع من الوعد الصادق به المتحف بالدلائل التي لا تقبل شكاً بوجه من الوجوه ، فكان باعتبار ذلك لا شيء أقرب منها ، قال دالاً على ذلك بصيغة الماضي الذي قد تحقق وقوعه وباشتقاق الواقع الفاعل مما منه الفعل : ﴿ أزفت الآزفة ﴾ أي دنت الساعة الدانية

في نفسها التي وصفت لكم بالفعل بالقرب غير مرة لأنها محط الحكمة وإظهار العظمة ، وما خلق الخلق إلا لأجلها ، المشتملة على الضيق وسوء العيش من القيامة ، وكل ما وعدتموه في الدنيا مما يكون به ظهور هذا الدين وقمع المفسدين .

ولما ضاق الخناق من ذكرها على هذا الوجه ، تشوف السامع إلى دفعها ، فاستأنف قوله : ﴿ ليس لها ﴾ واستدرك بقوله : ﴿ من دون الله ﴾ أي من أدنى رتبة من رتبة الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ كاشفة ﴾ أي كاشف يوجدها ويقيمها ويجلي علمها ، أو يدفع كربها وهمها وإن بالغ في الكشف وبذلك الجهد فيه ، فالهاء للمبالغة ، ويجوز أن تكون مصدراً كالجاثية والكاذبة والباقية فيكون الهاء للتأنيث .

ولما أفهم هذا أن الله يكشفها أي يكشف كربها ممن يريد من عباده ويثقله على من يشاء ، ويكشف علمها بإقامتها ، ولا حيلة لغيره في شيء من ذلك بوجه ، سبب عنه وعما تقدمه من الإنذار قوله منكراً موبخاً ، ﴿ أفمن هذا الحديث ﴾ أي القول العظيم الذي يأتيكم على سبيل التجدد بحسب الوقائع والحاجات ﴿ تعجبون ﴾ إنكاراً وهو في غاية ما يكون من ترقيق القلوب .

ولما كان المعجب قد يمسك نفسه عن الضحك ، بين أنهم ليسوا كذلك فقال :

﴿ وتضحكون ﴾ أي استهزاء تجددون ذلك في كل وقت مبتدأ ضحككم منه وهو بعيد من ذلك ، ولما كان إنما يورث الحزن بكونه نزل بالحزن قال : ﴿ ولا تبكون ﴾ أي كما هو حق من يسمعه .

ولما كان البكاء قد يكون على التقصير في العمل ، بين أن الأمر أخطر من ذلك فقال :

﴿ وأنتم ﴾ أي والحال أنكم في حال بكائكم ﴿ سامدون ﴾ أي دائبون في العمل جاهدون في العمل ، فإن الأمر جد ، فالدأب في العمل والجد فيه حينئذ علة للبكاء ، فكأنه قيل : ولا تدأبون في العمل فتبكون ، وإنما قلت ذلك لأن " سمد " معناه دأب في العمل ورفع رأسه تكبراً وعلاً ، وسمد الإبل : جد في السير ، وسار سيراً شديداً ، واسمادّ : ورم ، وسمد : قام متحيراً وحزن وسر وغفل ولها وقام وحصل ونام واهتم وتكبر وتحير وبطر وأشر ، وسمد الأرض : سهلها ، وأيضاً جعل فيها السماد ، أي السرقين ، والشعر : استأصله ، وهو لك سمداً أي سرمداً ، والسميد : الحواري ، ذكر ذلك مبسوطاً القزاز في جامعه وصاحب القاموس .

فالمادة كما ترى تدور على انتشارها على الدأب في العمل فتارة بذكر مبدئه الباعث عليه ، وتارة الناشئ عنه ، وتارة ما بينهما ، وهو الجد في العمل ، فينطلق الاسم على كل من ذلك تارة حقيقة ومرة بمجاز الأول ، وأخرى بمجاز الكون ، فالقصد باعث ، وكذا الاهتمام والقيام ورفع الرأس ناشئان عنهما ، وذلك أوله ، والسدم بمعنى احرص والهم واللهج بالشيء ، والسديم : الضباب الرقيق ، هو مبدأ الكشف ، والمسدم : البعير المهمل وما دبر ظهره ، كأنه من الإزالة ، وركية سدم : متدفقة – للمعالجة في فتحها ، ولأن تدفقها دأب في العمل ، وكذا سدم الباب أي ردمه ، والدسم : الودك ، لأنه منشط على العمل ومنشأ منه ، والوضر والدنس ، ودسم المطر الأرض : بلها قليلاً ، لأنه مبدأ الكثير ، والقارورة : سدها ، والباب : أغلقه ، لأنه يعالج في فتحه ، والدسمة : غبرة إلى السواد – كأنه مبدأ السواد والدسيم لما لم يكن أبواه من نوع واحد – كأنه مبدأ لكل نوع منهما ولأنه يلزم الخلط في العادة العلاج ، ومنه الدسمة للرديء من الرجال – كأنه لم يكمل فيه النوع ، ولأن نقص الشيء عن عادته يلزمه العلاج والفعل بالاختيار ، والديسم : الرفيق بالعمل المشفق ، وأنا على دسم من الأمر أي طرف منه ، والمسد – محركة : المحور من الحديد ، لأنه آلة الفتل ، وحبل من الليف أو ليف المقل لأنه محل الدأب ، والمساد : نحى السمن ، ودمسه : دفنه ، يصلح أن يكون مبدأ ومقصداً ، ومنه دمس بينهم : أصلح لأنه دفن أحقادهم وعالج في ذلك ، والدمس : إخفاء الشيء والظلام ، لأنه منشئ التعب ، ودمس الموضع : درس – للتعب

في معرفته ، ودمس الإهاب : غطاه فيمشط شعره ، والدمس : الشخص ، وبالتحريك : ما غطى ، والدودمس بالضم : حية مجر نفشة الغلاصيم تنفخ فتحرق ما أصابت بنفخها ، ومن آثاره الناشئة عن الورم ، وكذ القيام متحيراً والغفلة والسرور والحزن واللهو والنوم والكبر والتبختر والعلو والعتا ، والسميد أي الحواري

(78/734)

، والسمد بمعنى السرمد : والسمد : الهم مع ندم أو الغيظ مع حزن ، والديماس : الكن ، وما بين ذلك سمد الأرض والشعر والسير الشديد والجد فيه ، وهو نفس الدأب ، وكذا السديم للكثير الذكر ، وماء مسدم وعاشق مسدم : شديد العشق ، والدسيم : ظلمة السواد ، والدسيم ، الكثير الذكر ، ودسم البعير : طلاه بالحناء – والمسد : إداب السير – وبالتحريك : المضفور المحكم الفتل ، ورجل ممسود : مجدول الخلق – شبه به – وهي بها ، ودمس بينهم : أصلح ، وهو من الدفن أيضاً لأنه دفن أحقادهم فنبين أن جعل السمود في الآية بمعنى الدأب في العمل هو الأولى ، وأن كون الجملة حالاً من جعلها معطوفة على ﴿ تضحكون ﴾ – انتهى والله أعلم .

ولما حث على السمود ، فسره مسبباً عن الاستفهام ومدخوله قوله : ﴿ فاسجدوا ﴾ أي

اخضعوا خضوعاً كثيراً بالسجود الذي في الصلاة ﴿ لله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ واعبدوا ﴾ أي بكل أنواع العبادة فإنه ﴿ ما ضل صاحبكم ﴾ عن الأمر بذلك ﴿ وما غوى ﴾ قال الرازي في اللوامع : قال الإمام محمد بن علي الترمذي : تعبدنا ربنا مخلصين أن نكون له كالعبيد وأن يكون لعبيده كما هو لهم - انتهى ، ولو كان السمود بمعنى اللهو كان الأنسب تقديمه على ﴿ تبكون ﴾ - والله أعلم ، وقد ظهر أن آخرها نتيجة أولها ، ومفصلها ثمرة موصلها - والله الهادي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 336 . 338 ﴾

(79/734)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57) ﴾

وهو كقوله تعالى : ﴿ وَقَعَتِ الواقعة ﴾ [الواقعة : 1] ويقال : كانت الكائنة .

وهذا الاستعمال يقع على وجوه منها ما إذا كان الفاعل صار فاعلاً لمثل ذلك الفعل من قبل ، ثم صدر منه مرة أخرى مثل الفعل ، فيقال : فعل الفاعل أي الذي كان فاعلاً صار فاعلاً

مرة أخرى ، يقال : حاكه الحائك أي من شغله ذلك من قبل فعله ، ومنها ما يصير الفاعل فاعلاً بذلك الفعل ، ومنه يقال : "إذا مات الميت انقطع عمله" وإذا غصب العين غاصب ضمنه ، فقوله : ﴿ أَزِفَتِ الآزفة ﴾ يحتمل أن يكون من القبيل الأول أي قربت الساعة التي كل يوم يزداد قربها فهي كائنة قريبة وازدادت في القرب ، ويحتمل أن يكون كقوله تعالى : ﴿ وَقَعَتِ الواقعة ﴾ أي قرب وقوعها وأزفت فاعلها في الحقيقة القيامة أو الساعة ، فكأنه قال : أزفت القيامة الآزفة أو الساعة أو مثلها .

لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (58)

فيه وجوه أحدها : لا مظهر لها إلا الله فمن يعلمها لا يعلم إلا بإعلام الله تعالى إياه وإظهاره إياها له ، فهو كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ [لقمان : 34] وقوله تعالى : ﴿ لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأعراف : 187] .

ثانيها : لا يأتي بها إلا الله ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : 17] وفيه مسائل :

الأولى : ﴿ مِنْ ﴾ زائدة تقديره ليس لها غير الله كاشفة ، وهي تدخل على النفي فتؤكد معناه ، تقول : ما جاءني أحد وما جاءني من أحد ، وعلى هذا يحتمل أن يكون فيه تقديم وتأخير ، تقديره ليس لها من كاشفة دون الله ، فيكون نفياً عاماً بالنسبة إلى الكواشف ، ويحتمل أن يقال : ليست بزائدة بل معنى الكلام أنه ليس في الوجود نفس تكتشفها أي تخبر عنها كما هي ومتى وقتها من غير الله تعالى يعني من يكشفها فإنما يكشفها من الله لا من غير الله يقال : كشف الأمر من زيد ، ودون يكون بمعنى غير كما في قوله تعالى : ﴿ أَإِفْكاً ءَالِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ ﴾ [الصافات : 86] أي غير الله .

المسألة الثانية :

كاشفة صفة لمؤنث أي نفس كاشفة ، وقيل هي للمبالغة كما في العلامة وعلى هذا لا يقال بأنه نفى أن يكون لها كاشفة بصيغة المبالغة ولا يلزم من الكاشف الفائق نفي نفس الكاشف ، لأنا نقول : لو كشفها أحد لكان كاشفاً بالوجه الكامل ، فلا كاشف لها ولا يكشفها أحد وهو كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق : 29] من حيث نفى كونه ظالماً مبالغاً ، ولا يلزم منه نفي كونه ظالماً ، وقلنا هناك : إنه لو ظلم عبيده الضعفاء بغير حق لكان في غاية الظلم وليس في غاية الظلم فلا يظلمهم أصلاً .

المسألة الثالثة :

إذا قلت : إن معناه ليس لها نفس كاشفة ، فقوله : ﴿ مِن دُونِ اللهِ ﴾ استثناء على الأشهر

من الأقوال ، فيكون الله تعالى نفساً لها كاشفة ؟ نقول : الجواب عنه من وجوه الأول : لا فساد في ذلك قال الله تعالى : ﴿ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : 116] حكاية عن عيسى عليه السلام والمعنى الحقيقة .

الثاني : ليس هو صريح الاستثناء فيجوز فيه أن لا يكون نفساً الثالث : الاستثناء الكاشف المبالغ .

أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59)

(81/734)

قيل : من القرآن ، ويحتمل أن يقال : هذا إشارة إلى حديث : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَة ﴾ [النجم : 57] فإنهم كانوا يتعجبون من حشر الأجساد وجمع العظام بعد الفساد .

وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60)

وقوله تعالى : ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ يحتمل أن يكون المعنى وتضحكون من هذا الحديث ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ [الزخرف : 47] في حق موسى عليه السلام ، وكانوا هم أيضاً يضحكون من حديث النبي والقرآن ، ويحتمل أن يكون إنكاراً على مطلق الضحك مع سماع حديث القيامة ، أي أتضحكون وقد سمعتم أن

القيامة قربت ، فكان حقاً أن لا تضحكوا حينئذ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَبْكُونَ ﴾ أي كان حقاً لكم أن تبكوا منه فتتركون ذلك وتأتون بضده .

وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (61)

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ سامدون ﴾ أي غافلون ، وذكر باسم الفاعل ، لأن الغفلة دائمة ، وأما الضحك والعجب فهما أمران يتجددان ويعدمان .

فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62)

يحتمل أن يكون الأمر عاماً ، ويحتمل أن يكون التفاتاً ، فيكون كأنه قال : أيها المؤمنون اسجدوا شكراً على الهداية واشتغلوا بالعبادة ، ولم يقل : اعبدوا الله إما لكونه معلوماً ، وإما لأن العبادة في الحقيقة لا تكون إلا لله ، فقال : ﴿ واعبدوا ﴾ أي ائتوا بالمأمور ، ولا تعبدوا غير الله ، لأنها ليست بعبادة ، وهذا يناسب السجدة عند قراءته مناسبة أشد وأتم مما إذا حملناه على العموم .

والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 24 . 25 ﴾

(82/734)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقوله : ﴿ ولله ما في السماوات وما في الأرض ﴾ اعتراض بين الكلام بليغ ، وقال بعض النحويين اللام متعلقة بما في المعنى من التقدير ، لأن تقديره : ﴿ ولله ما في السماوات وما في الأرض ﴾ يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿ ليجزي ﴾ والنظر الأول أقل تكلفاً من هذا الإضمار . وقال قوم : اللام متعلقة في أول السورة : ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ [النجم : 4] وهذا بعيد ، و: ﴿ الحسنى ﴾ هي الجنة ولا حسنى دونها .

الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ

قوله : ﴿ الذين ﴾ نعت ل ﴿ الذين ﴾ [النجم : 31] المتقدم قبله ، و: ﴿ يجتنبون ﴾ معناه : يدعون جانباً . وقرأ جمهور القراء والناس : "كبائر الإثم" وقرأ ابن وثاب وطلحة والأعمش وعيسى وحمزة والكسائي : "كبير الإثم" على الإفراد الذي يراد به الجمع وهذا كقوله : ﴿ فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ [الشعراء : 100] ، وكقوله : ﴿ وحسن أولئك رفيقاً ﴾ [النساء : 69] ونحو هذا .

واختلف الناس في الكبائر ما هي ؟ فذهب الجمهور إلى أنها السبع الموبقات التي وردت في الأحاديث وقد مضى القول في ذكرها واختلاف الأحاديث فيها في سورة النساء . وتحرير القول في الكبائر أنها كل معصية يوجد فيها حد في الدنيا ، أو توعد بنار في الآخرة ، أو لعنة ونحو هذا خاصاً بها فهي كثيرة العدد ، ولهذا قال ابن عباس حين قيل له أسبع هي ؟ فقال

: هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع . وقال زيد بن أسلم : "كبير الإثم" هنا يراد به : الكفر . و﴿ الفواحش ﴾ هي المعاصي المذكورة .

(83/734)

وقوله : ﴿ إلا اللمم ﴾ هو استثناء يصح أن يكون متصلاً ، وإن قدرته منقطعاً ساغ ذلك ، واختلف في معنى ﴿ اللمم ﴾ فقال ابن عباس وابن زيد معناه : ما ألموا به من الشرك والمعاصي في الجاهلية قبل الإسلام . قال الثعلبي عن ابن عباس وزيد بن ثابت وزيد بن أسلم وابنه : إن سبب الآية أن الكفار قالوا للمسلمين : قد كنتم بالأمس تعملون أعمالنا ، فنزلت الآية وهي مثل قوله تعالى : ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف ﴾ [النساء : 23] وقال ابن عباس وغيره : ما ألموا من المعاصي الفلتة والسقطة دون دوام ثم يتوبون منه ، ذكر الطبري عن الحسن أنه قال في اللمة : من الزنا والسرقة والخمر ثم لا يعود .

قال القاضي أبو محمد : وهذا كالذي قبله ، فكأن هذا التأويل يقتضي الرفق بالناس في إدخالهم في الوعد بالحسنى ، إذ الغالب في المؤمنين مواقعة المعاصي ، وعلى هذا أنشدوا وقد تمثل به النبي صلى الله عليه وسلم : [الرجز]

إن تغفر اللهم تغفر جما . . . وأي عبد لك لا ألما

وقال أبو هريرة وابن عباس والشعبي وغيرهم : ﴿ اللمم ﴾ صغار الذنوب التي بين الحدين الدنيا والآخرة وهي ما لا حد فيه ولا وعيد مختصاً بها مذكوراً لها ، وإنما يقال صغار بالإضافة إلى غيرها ، وإلا فهي بالإضافة إلى الناهي عنها كبائر كلها ، ويعضد هذا القول ، قول النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا لا محالة ، فزنى العين : النظر ، وزنى اللسان : المنطق ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه فإن تقدم فرجه فهو زان ، وإلا فهو اللمم " وروي أن هذه الآية نزلت في نبهان التمار فالناس لا يتخلصون من مواقعة هذه الصغائر ولهم مع ذلك الحسنى إذا اجتنبوا التي هي في نفسها كبائر .

(84/734)

وتظاهر العلماء في هذا القول ، وكثر المائل إليه . وذكر الطبري عن عبد الله بن عمرو بن العاصي أنه قال : ﴿ اللمم ﴾ ما دون الشرك ، وهذا عندي لا يصح عن عبد الله بن عمرو . وذكر المهدوي عن ابن عباس والشعبي : ﴿ اللمم ﴾ ما دون الزنا . وقال نفطويه : ﴿ اللمم ﴾ ما ليس بمعتاد . وقال الرماني : ﴿ اللمم ﴾ الهم بالذنب وحديث النفس به دون أن يواقع . وحكى الثعلبي عن سعيد بن المسيب : أنه ما خطر على القلب ، وذلك هو لمة الشيطان . قال الزهراوي وقيل : ﴿ اللمم ﴾ نظرة الفجأة ، وقاله الحسين بن الفضل .

ثم أنس تعالى بعد هذا بقوله : ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هو أعلم بكم ﴾ الآية ، روي عن عائشة أنها نزلت بسبب قوم من اليهود كانوا يعظمون أنفسهم ويقولون للطفل إذا مات لهم هذا صديق عند الله ، ونحو هذا من الأقاويل المتوهمة ، فنزلت الآية فيهم ، ثم هي بالمعنى عامة جميع البشر ، وحكى الثعلبي عن الكلبي ومقاتل أنها نزلت في قوم من المؤمنين فخروا بأعمالهم ، وقوله : ﴿ أعلم بكم ﴾ قال مكي بن أبي طالب في المشكل معناه : هو عالم بكم . وقال جمهور أهل المعاني : بل هو التفضيل بالإطلاق ، أي هو أعلم من الموجودين جملة ، والعامل في ﴿ إذ ﴾ ﴿ أعلم ﴾ ، وقال بعض النحاة العامل فيه فعل مضمر تقديره : اذكروا إذ ، والمعنى الأول أبين ، لأن تقديره : فإذا كان علمه قد أحاط بكم وأنتم في هذه الأحوال فأحرى أن يقع بكم وأنتم تعقلون وتجترحون ، والإنشاء من الأرض : يراد به خلق آدم عليه السلام ، ويحتمل أن يراد به إنشاء الغذاء . و: ﴿ أجنة ﴾ جمع جنين .

(85/734)

وقوله : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ ظاهره النهي عن أن يزكي نفسه ، ويحتمل أن يكون نهياً عن أن يزكي بعض الناس بعضاً وإذا كان هذا فإنما ينهى عن تزكية السمعة والمدح للدنيا

والقطع بالتزكية ، ومن ذلك الحديث في عثمان بن مظعون عند موته . وأما تزكية الإمام والقدرة أحداً ليؤتم به أوليتهم الناس بالخير فجائز ، وقد زكى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه أبا بكر وغيره ، وكذلك تزكية الشهود في الحقوق جائزة للضرورة إليها ، وأصل التزكية إنما هو التقوى ، والله تعالى هو أعلم بتقوى الناس منكم .

وقوله تعالى : ﴿ أفرأيت الذي تولى ﴾ الآية ، قال مجاهد وابن زيد وغيرهما نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي وذلك أنه سمع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وجلس إليه ووعظه رسول الله ، فقرب من الإسلام ، وطمع النبي عليه السلام فيه ، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين وقال له : أتترك ملة آبائك ؟ ارجع إلى دينك واثبت عليه وأنا أتحمل لك بكل شيء تخافه في الآخرة ، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال ، فوافقه الوليد على ذلك ، ورجع عما هم به من الإسلام وضل ضلالاً بعيداً ، وأعطى بعض ذلك المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشح ، فنزلت الآية فيه .

(86/734)

وذكر الثعلبي عن قوم أنها نزلت في عثمان بن عفان في قصة جرت له مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح وذلك كله عندي باطل ، وعثمان رضي الله عنه منزه عن مثله ، وقال السدي :

نزلت في العاصي بن وائل ، فقوله : ﴿ وأعطى قليلاً وأكدى ﴾ ، وعلى هذا القول في المال ، وقال مقاتل بن حيان في كتاب الثعلبي المعنى : وأعطى من نفسه قليلاً من قربه من الإيمان ثم ﴿ أكدى ﴾ أي انقطع ما أعطى ، وهذا بين من اللفظ ، والآخر يحتاج إلى رواية . و: ﴿ تولى ﴾ معناه : أدبر وأعرض ومعناه عن أمر الله . ﴿ وأكدى ﴾ معناه : انقطع عطاؤه وهو مشبه بالحافر في الأرض ، فإذا انتهى إلى كدية ، وهي ما صلب من الأرض وقف وانقطع حفره ، وكذلك أجبل الحافر إذ انتهى إلى جبل ، ثم قيل لمن انقطع عمله : أكدى وأجبل .

وقوله تعالى : ﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ معناه : أعلم من الغيب أن من تحمل ذنوب آخر فإن المتحمل عنه ينتفع بذلك ، فهو لهذا الذي علمه يرى الحق وهو له فيه بصيرة أم هو جاهل لم ينبأ أي يعلم ما في صحف موسى وهي التوراة وفي صحف إبراهيم وهي كتب نزلت عليه من السماء من أنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، أي لا تحمل حاملة حمل أخرى ، وإنما يؤخذ كل واحد بذنوب نفسه ، أي فلما كان جاهلاً بهذا وقع في عطاء ماله للذي قال له : إني أتحمل عنك درك الآخرة .

(87/734)

واختلف المفسرون في معنى قوله : ﴿ وفى ﴾ ما هو الموفى ؟ فقال ابن عباس : كانوا قبل إبراهيم يأخذون الولي بالولي في القتل ونحوه فوفى إبراهيم وبلغ هذا الحكم من أنه ﴿ لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ ، وقال ابن عباس ايضاً والربيع : وفى طاعة الله في أمر ذبح ابنه .

وقال الحسن وابن جبير وقتادة وغيره ، وفي تبليغ رسالته والظاهر في ذات ربه ، وقال عكرمة ، وفي هذه العشر الآيات ، ﴿ ألا تزر ﴾ وما بعدها ، وقال ابن عباس وقتادة وغيره ﴿ وفى ﴾ ما افترض عليه من الطاعات على وجهها وتكلمت له شعب الإيمان والإسلام فأعطاه الله براءته من النار . قال ابن عباس : وفي شرائع الإسلام ثلاثين سهماً .

وقال أبو أمامة ورفعه إلى النبي عليه السلام ﴿ وفى ﴾ أربع صلوات في كل يوم ، والأقوى من هذه الأقوال كلها القول العام لجميع الطاعات المستوفية لدين الإسلام ، فروي أنها لم تفرض على أحد مكملة فوفاها الأعلى وإبراهيم ومحمد عليهما السلام ومن الحجة لذلك قوله تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ [البقرة : 124] .

وقرأ ابن جبير وأبو مالك وابن السميفع : " وفى " مخففة الفاء ، والخلاف فيما وفى به كالخلاف فيما وفاه على القراءة الأولى التي فسرنا ، ورويت القراءة عن النبي عليه السلام ، وقرأها أبو أمامة .

والوزر : الثقل ، وأنث الوزارة إما لأنه أراد النفس وإما أراد المبالغة كعلامة ونسابة وما جرى مجراها و" أن " في قوله : ﴿ ألا تزر ﴾ مخففة من الثقيلة ، وتقديرها أنه لا تزر ،

وحسن الحائل بينها وبين الفعل ان بقي الفعل مرتفعاً ، فهي كقوله : ﴿ أن سيكون منكم مرضى ﴾ [المزمل : 20] ونحوه ، و" أن " في موضع رفع أو خفض ، كلاهما مرتب .

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39)

(88/734)

قوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان ﴾ وقوله بعد ذلك ﴿ وأنه ﴾ ، ﴿ وأنه ﴾ معطوف كل ذلك على أن المقدرة أولاً في قوله : " أنه لا تزر " وهي كلها بفتح الألف في قراءة الجمهور . وقرأ أبو السمال قعنب " وإن إلى ربك " بكسر الهمزة فيهما وفيما بعدها وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أن قوله : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ منسوخ بقوله : ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتم ﴾ [الطور : 21] وهذا لا يصح عندي على ابن عباس ، لأنه خبر لا ينسخ ، ولأن شروط النسخ ليست هنا ، اللهم إلا أن يتجوز في لفظة النسخ ليفهم سائلاً ، وقال عكرمة : كان هذا الحكم في قوم إبراهيم وموسى ، وأما هذه الأمة فلها سعي غيرها ، والدليل حديث سعد بن عبادة قال : يا رسول الله هل لأمي إن تطوعت عنها ؟ قال : نعم . وقال الربيع بن أنس : " الإنسان " الذي في هذه الآية هو الكافر وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره . وسأل عبد الله بن

طاهر بن الحسين والي خراسان الحسين بن الفضل عن هذه الآية مع قوله : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ [البقرة : 261] فقال ليس له بالعدل إلا ما سعى ، وله بفضل الله ما شاء الله ، فقبل عبد الله رأس الحسين . وقال الجمهور : الآية محكمة . والتحرير عندي في هذه الآية أن ملاك المعنى هو في اللام من قوله : ﴿ للإنسان ﴾ فإذا حققت الشيء الذي هو حق الإنسان يقول فيه لي كذا لم يجده إلا سعيه ، وما بعد من رحمة ثم شفاعة أو رعاية أب صالح أو ابن صالح أو تضعيف حسنات أو تغمد بفضل ورحمة دون هذا كله فليس هو للإنسان ولا يسعه أن يقول لي كذا إلا على تجوز وإلحاق بما هو له حقيقة . واحتج بهذه الآية من يرى أنه لا يعمل أحد عن أحد بعد موته ببدن ولا مال . وفرق بعض العلماء بين البدن والمال ، وهي عندي كلها فضائل للعامل وحسنات تذكر للمعمول عنه . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سعداً بالصدقة عن أمه ، والسعي : التكسب .

(89/734)

وقوله : ﴿ يرى ﴾ فاعله حاضر والقيامة ، أي يراه الله ومن شاهد الأمر ، وفي عرض الأعمال على الجميع تشريف للمحسنين وتوبيخ للمسيئين ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " من سمع بأخيه فيما يكره سمع الله به سامع خلقه يوم القيامة " . وفي قوله : ﴿ ثم

يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ وعيد للكافرين ووعد للمؤمنين . و: ﴿ المنتهى ﴾ يحتمل أن يريد به الحشر ، والمصير بعد الموت فهو منتهى بالإضافة إلى الدنيا وإن كان بعده منتهى آخر وهو الجنة أو النار ، ويحتمل أن يريد ب ﴿ المنتهى ﴾ : الجنة أو النار ، فهو منتهى على الإطلاق ، لكن في الكلام حذف مضاف إلى عذاب ربك أو رحمته .

وقال أبي بن كعب قال النبي عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ لا فكرة في الرب . وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا ذكر الرب فانتهوا " . وقال أبو هريرة : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً إلى أصحابه فقال : " فيم أنتم " قالوا : نتفكر في الخالق ، فقال : " تفكروا في الخلق ، لا تتفكروا في الخالق ، فإنه لا تحيط به الفكرة " الحديث ، وذكر الضحك والبكاء لأنهما صفتان تجمعان أصنافاً كثيرة من الناس ، إذ الواحدة دليل السرور ، والأخرى دليل الحزن في الدنيا والآخرة ، فنبه تعالى على هاتين الخاصتين اللتين هما للإنسان وحده ، وقال مجاهد المعنى : ﴿ أضحك ﴾ الله أهل الجنة ﴿ وأبكى ﴾ أهل النار . وحكى الثعلبي في هذا أقوالاً استعارية كمن قال ﴿ أضحك ﴾ الأرض بالنبات ، ﴿ وأبكى ﴾ السماء بالمطر ، ونحوه : و ﴿ أمات وأحيا ﴾ . وحكى الثعلبي قولاً إنه أحيا بالإيمان وأمات بالكفر . و ﴿ الزوجين ﴾ في هذه الآية يريد به المصطحبين من الناس من الرجل والمرأة وما ضارع من الحيوان ، والخنثى متميز ولا بد

لأحد الجهتين . والنطفة في اللغة : القطعة من الماء كانت يسيرة أو كثيرة . ويراد بها هاهنا ماء الذكران .

(90/734)

وقوله : ﴿ تمنى ﴾ يحتمل أن يكون من قولك : أمنى الرجل : إذا خرج منه المني ، ويحتمل أن يكون من قولك منى الله الشيء : إذا خلقه ، فكأنه قال : إذا تخلق وتقدر ، و : ﴿ النشأة الأخرى ﴾ هي إعادة الأجسام إلى الحشر بعد البلي في التراب . وقرأ الناس : " النشْأة " بسكون الشين والهمز والقصر ، وقرأ أبو عمرو والأعرج : " النشآة " ممدودة . ﴿ وأقنى ﴾ معناه : أكسب ، يقال : قنبت المال ، أي كسبته ، ثم يعدى بعد ذلك بالهمزة ، وقد يعدى بالتضعيف ، ومنه قول الشاعر : [البسيط]

كم من غني أصاب الدهر ثروته . . . ومن فقير يقنّى بعد إقلالِ

وعبر المفسرون عن ﴿ أقنى ﴾ بعبارات مختلفة . وقال بعضهم : ﴿ أقنى ﴾ معناه : أكسب ما يقتني ، وقال مجاهد معناه : أغنى وأرضى . وقال حضرمي معناه : أغنى عن نفسه ﴿ وأقنى ﴾ أفقر عباده إليه . وقال الأخفش : ﴿ أقنى ﴾ أفقر ، وهذه عبارات لا تقتضيها اللفظة ، والوجه فيها بحسب اللغة أكسب ما يقتني . وقال ابن عباس : ﴿ أقنى

﴿ قنع . والقناعة خير قنية ، والغنى عرض زائل ، فلله در ابن عباس . و: ﴿ الشعرى ﴾ نجم في السماء ، قال مجاهد وابن زيد : هو من زمر الجوزاء وهم شعريان ، إحداهما : الغميصاء ، والأخرى العبور ، لأنها عبرت المجرة ، وكانت خزاعة ممن يعبد هذه ﴿ الشعرى ﴾ ، ومنهم أبو كبشة ، ذكره الزهراوي واسمه عبد العزى ، فلذلك خصت بالذكر ، أي وهو رب هذا المعبود الذي لكم .

وعاد : هم قوم هود ، واختلف في معنى وصفها ب ﴿ الأولى ﴾ ، فقال ابن زيد والجمهور : ذلك لأنها في وجه الدهر وقديمه ، فهي أولى بالإضافة إلى الأمم المتأخرة ، وقال الطبري : سميت أولى ، لأن ثم عاداً أخيرة وهي قبيلة كانت بمكة مع العماليق وهم بنو لقيم بن هزال . قال القاضي أبو محمد : والقول الأول أبين ، لأن هذا الأخير لم يصح . وقال المبرد عاداً الأخيرة هي ثمود ، والدليل قول زهير : [الطويل]

كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم . . . ذكره الزهراوي ، وقيل الأخيرة : الجبارون .

(91/734)

وقرأ ابن كثير وعاصم ، وابن عامر وحمزة ، والكسائي " عاد الأولى " منونة وبهمز . وقرأ نافع فيما روي عنه : " عادا الأولى " بإزالة التنوين والهمز . وهذا كقراءة من قرأ " أحد الله

" وكقول الشاعر [أبو الأسود الدؤلي] : [المتقارب]

ولا ذاكر الله إلا قليلا . . . وقرأ قوم : ﴿ عاداً الأولى ﴾ والنطق بها " عادن الأولى " . واجتمع سكون نون التنوين وسكون لام التعريف فكسرت النون للالتقاء ، ولا فرق بينهما وبين قراءة الجمهور ولا ترك الهمز . وقرأ نافع أيضاً وأبو عمرو بالوصل والإدغام " عاد الولى " بإدغام النون في اللام ونقل حركة الهمزة إلى اللام . وعاب أبو عثمان المازني والمبرد هذه القراءة ، وقال : إن هذا النقل لا يخرج اللام عن حد السكون وحذف ألف الوصل أن تبقى كما تقول العرب إذا نقلت الهمزة من قولهم الأحمر فإنهم يقولون الحمر جاء فكذلك يقال هاهنا " عاداً الولى " ، قال أبو علي : والقراءة سائغة ، وأيضاً فمن العرب من يقول : لحمر جاء فيحذف الألف مع النقل ويعتد بحركة اللام ولا يراها في حكم السكون ، وقرأ نافع فيما روي عنه " عاداً الأولى " بهمز الواو ، ووجه ذلك أنه لما لم يكن بين الواو والضمة حائل تخيل الضمة عليها فهمزها كما تهمز الواو المضمومة ، وكذلك فعل من قرأ : " على سؤقه " ، وكما قال الشاعر [جرير] : [الوافر]

لَحَبّ المؤقدان إلي موسى . . . وهي لغة . وقرأ الجمهور : " وثموداً " بالنصب عطفاً على عاد . وقرأ عاصم وحمزة والحسن وعصمة " وثمود " بغير صرف ، وهي في مصحف ابن مسعود بغير ألف بعد الدال .

وقوله : ﴿ فما أبقى ﴾ ظاهره : ﴿ فما أبقى ﴾ عليهم ، وتأول ذلك بعضهم ﴿ فما

أبقى ﴾ منهم عيناً تطرف ، وقد قال ذلك الحجاج حين سمع قول من يقول إن ثقيفاً من ثمود فأنكر ذلك وقال : إن الله تعالى قال : ﴿ وثموداً فما أبقى ﴾ . وهؤلاء يقولون بقي منهم باقية .

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52)

(92/734)

نصب ﴿ قوم نوح ﴾ عطفاً على " ثمود " وقوله : ﴿ من قبل ﴾ لأنهم كانوا أول أمة كذبت من أهل الأرض ، و ﴿ نوح ﴾ أول الرسل ، وجعلهم ﴿ أظلم وأطغى ﴾ : لأنهم سبقوا إلى التكذيب دون اقتداء بأحد قبلهم ، وأيضاً فإنهم كانوا في غاية من العتو ، وكان عمر نوح قد طال في دعائهم ، فكان الرجل يأتي إليه مع ابنه فيقول : أحذرك من هذا الرجل فإنه كذاب ، ولقد حذرني منه أبي وأخبرني أن جدي حذره منه ، فمشت على ذلك أخلافهم ألفاً إلا خمسين عاماً .

و ﴿ المؤتفكة ﴾ قرية قوم لوط بإجماع من المفسرين ، ومعنى ﴿ المؤتفكة ﴾ : المنقلبة لأنها أفكت فائتفكت ، ومنه الإفك ، لأنه قلب الحق كذباً ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن : " والمؤتفكات أهوى " على الجمع . و ﴿ أهوى ﴾ معناه : طرحها من هواء عال إلى أسفل ،

هذا ما روي من أن جبريل عليه السلام اقتلعها بجناحه حتى بلغ بها قرب السماء ثم حولها قلبها فهبط الجميع واتبعوا حجارة وهي التي غشاها الله تعالى .

وقوله : ﴿ فبأي ألاء ربك تتمارى ﴾ مخاطبة للإنسان الكافر ، كأنه قيل له : هذا هو الله الذي له هذه الأفاعيل ، وهو خالقك المنعم عليك بكل النعم ، ففي أيها تشك . و: ﴿ تتمارى ﴾ معناه : تتشكك . وقرأ يعقوب " ربك تتمارى " بتاء واحدة مشددة . وقال أبو مالك الغفاري إن قوله : ﴿ ألا تزر ﴾ [النجم : 38] إلى قوله : ﴿ تتمارى ﴾ هو في صحف إبراهيم وموسى .

وقوله : ﴿ هذا نذير ﴾ يحتمل أن يشير إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا قول قتادة وأبي جعفر ومحمد بن كعب القرظي ، ويحتمل أن يشير إلى القرآن ، وهو تأويل قوم ، وقال أبو مالك : الإشارة بهذا النذير إلى ما سلف من الأخبار عن الأمم . و: ﴿ نذير ﴾ يحتمل أن يكون بناء اسم فاعل ، ويحتمل أن يكون مصدراً ، ونذر جمع نذير . وقال ﴿ الأولى ﴾ بمعنى أنه في الرتبة والمنزلة والأوصاف من تلك المتقدمة ، والأشبه أن تكون الإشارة إلى محمد .

وقوله : ﴿ أزفت ﴾ معناه : قربت القريبة . و : ﴿ الآزفة ﴾ عبارة عن القيامة بإجماع من المفسرين . وأزف معناه : قرب جداً ، قال كعب بن زهير : [البسيط]

بان الشباب وأمسى الشيب قد أزفا . . . ولا أرى لشباب ذاهب خلفا

وقوله : ﴿ كاشفة ﴾ يحتمل أن يكون صفة لمؤنث ، التقدير : حالة ﴿ كاشفة ﴾ ، أو منة ﴿ كاشفة ﴾ . قال الرماني أو جماعة ، ويحتمل أن يكون مصدراً كالعاقبة و ﴿ خائنة الأعين ﴾ [غافر : 19] . ويحتمل أن يكون بمعنى كاشف ، والهاء للمبالغة ، كما قال : ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ [الحاقة : 8] وأما معنى ﴿ كاشفة ﴾ فقال الطبري والزجاج : هو من كشف السر ، أي ليس من دون الله من يكشف وقتها ويعلمه . وقال الزهراوي عن منذر بن سعيد : هو من كشف الضر ودفعه ، أي ليس من يكشف خطبها وهولها .

وقرأ طلحة : ﴿ ليس لها ﴾ مما تدعون ﴿ من دون الله كاشفة ﴾ وهي على الظالمين سوءات الغاشية ، وهذا الحديث هو القرآن .

وقوله : ﴿ أفمن ﴾ توقيف وتوبيخ . وفي حرف أبيّ وابن مسعود : " تعجبون " " تضحكون " بغير واو العطف ، وفي قوله عز وجل : ﴿ ولا تبكون ﴾ حض على البكاء عند سماع القرآن . وروى سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن هذا القرآن أنزل بحزن ، فإذا قرأتموه فابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا " ذكره الثعلبي ،

والسامد : اللاعب اللاهي ، وبهذا فسر ابن عباس وغيره من المفسرين . وقال الشاعر [هذيلة بنت بكر] : [مجزوء الكامل]

قيل قم فانظر إليهم . . . ثم دع عنك السمود

وسمد بلغة حمير غنى ، وهو معنى كله قريب من بعض ، وأسند الطبري عن أبي خالد الوالي قال : خرج علينا عليّ ونحن قيام ننتظر الصلاة فقال : ما لي أراكم سامدين .

قال القاضي أبو محمد : يشبه أنه رآهم في أحاديث ونحوه مما يظن أنه غفلة ما . وقد قال إبراهيم كانوا يكرهون أن ينتظروا خروج الإمام قياماً ، وفي الحديث : " إذا أقيمت الصلاة فلا تقوموا حتى تروني " .

(94/734)

ثم أمر تعالى بالسجود وعبادة الله تحذيراً وتخويفاً ، وها هنا سجدة في قول كثير من أهل العلم ، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وردت بها أحاديث صحاح ، وليس يراها مالك رحمه الله ، وقال زيد بن وثاب إنه قرأ بها عند النبي صلى الله عليه وسلم فلم يسجد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(95/734)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الآزفة ﴾

أي قربت الساعة ودنت القيامة .

وسماها آزفة لقرب قيامها عنده ؛ كما قال : ﴿ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ [المعارج : 6]

وقيل : سماها آزفة لدنوّها من الناس وقربها منهم ليستعدّوا لها ؛ لأن كل ما هو آت قريب .

قال :

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غيرَ أَنّ رِكَابَنَا . . .

لَمَّا تَزَلْ بِرِحالنا وكأَنْ قَدِ

وفي الصحاح : أَزِف الترحل يَأْزَف أَزَفاً أي دنا وأَفِد ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الآزفة ﴾ يعني القيامة ، وأزِف الرجل أي مَجِل فهو آزِف على فاعل ، والمتآزِف القصير وهو المتداني .

قال أبو زيد : قلت لأعرابي ما الْمُحْبَنْطِىءُ ؟ قال : المتَكَأْكِىءُ .

قلت : ما الْمُتَكَأْكِىءُ ؟ قال : المتآزِف .

قلت : ما المتآزف ؟ قال : أنت أحمق وتركني وَمَّر .

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أي ليس لها من دون الله من يؤخرها أو يقدّمها .

وقيل : كاشفة أي انكشاف أي لا يكشف عنها ولا يبديها إلا الله ؛ فالكاشفة اسم بمعنى المصدر والهاء فيه كالهاءِ في العاقبة والعافية والداهية والباقية ؛ كقولهم : ما لفلان من باقية أي من بقاء .

وقيل : أي لا أحد يردّ ذلك ؛ أي إن القيامة إذا قامت لا يكشفها أحد من آلهتهم ولا ينجيهم غير الله تعالى .

وقد سميت القيامة غاشية ، فإذا كانت غاشية كان ردّها كشفاً ، فالكاشفة على هذا نعت مؤنث محذوف ؛ أي نفس كاشفة أو فرقة كاشفة أو حال كاشفة .

وقيل : إن "كاشِفة" بمعنى كاشف والهاء للمبالغة مثل راوية وداهية .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمِنْ هذا الحديث ﴾ يعني القرآن .

وهذا استفهام توبيخ ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ تكذيباً به ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ استهزَاء ﴿ وَلاَ تَبْكُونَ ﴾ انزجارا وخوفاً من الوعيد .

وروي : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ما رؤي بعد نزول هذه الآية ضاحكاً إلا تبسُّماً "

وقال أبو هريرة : لما نزلت ﴿ أَفَمِنْ هذا الحديث تَعْجَبُونَ ﴾ قال أهل الصفة :

﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعونَ ﴾ [البقرة : 156] ثم بكوا حتى جرت دموعهم على خدودهم ، فلما سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم بكاءهم بكى معهم فبكينا لبكائه ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يلج النار مَن بكى من خشية الله ولا يدخل الجنة مُصِرٌّ على معصية الله ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيغفر لهم ويرحمهم إنه هو الغفور الرحيم " وقال أبو حازم : نزل جبريل على النبيّ صلى الله عليه وسلم وعنده رجل يبكي ، فقال له : من هذا ؟ قال : هذا فلان ؛ فقال جبريل : إنا نزِن أعمال بني آدم كلها إلا البكاء ، فإن الله تعالى ليطفىء بالدمعة الواحدة بحوراً من جهنم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ أي لاهون معرضون .

عن ابن عباس ؛ رواه الواليّ والعوفيّ عنه .

وقال عكرمة عنه : هو الغناء بلغة حِمْيَر ؛ يقال : سمِّد لنا أي غنِّ لنا ، فكانوا إذا سمعوا القرآن يتلى تغنوا ولعبوا حتى لا يسمعوا .

وقال الضحاك : سامدون شامخون متكبرون .

وفي الصحاح : سَمَدَ سُمُوداً رفع رأسه تكبُّراً وكل رافع رأسه فهو سامد ؛ قال :

سَوَامِدُ اللَّيْلِ خِفَافُ الأَزْوَادْ . . .

يقول : ليس في بطونها علف .

وقال ابن الأعرابي : سَمَدت سُمُوداً علوت .

وسَمَدَت الإبلُ في سيرها جدّت .

والسُّمُود اللّهو ، والسامد اللّاهي ؛ يقال للقَيْنة : أَسمِدينا ؛ أي ألهينا بالغناء .

وتسميد الأرض أن يجعل فيها السماد وهو سِرْجين ورَمَاد .

وتسميد الرأس استئصال شعره ، لغة في التّسبيد .

واسمأد الرجل بالهمز اسمئدادا أي وَرِم غضباً .

وروي عن عليّ رضي الله عنه أن معنى "سَامِدُونَ" أن يجلسوا غير مصلّين ولا منتظرين الصلاة .

وقال الحسن : واقفون للصلاة قبل وقوف الإمام ؛ ومنه ما " روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه خرج والناس ينتظرونه قياماً فقال : "مالي أراكم سامدين" " حكاه الماوردي .

(97/734)

وذكره المهدوي عن عليّ ، وأنه خرج إلى الصلاة فرأى الناس قياماً (ينتظرونه) فقال : "ما لكم سامدون" قاله المهدوي .

والمعروف في اللغة : سَمَد يَسْمُد سُمُوداً إذا لَهَا وأعرض .

وقال المبرّد : سامدون خامدون ؛ قال الشاعر :

أَتَى الحِدْثَانُ نِسوةَ آلِ حَرْبٍ . . .

بِمَقْدورٍ سَمَدْنَ له سُمُوداً

وقال صالح أبو الخليل : لما قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ أَفَمِنْ هذا الحديث تَعْجَبُونَ . وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ .

وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ لم يُرَ ضاحكاً إلا مبتسماً حتى مات صلى الله عليه وسلم .

ذكره النحاس .

قوله تعالى : ﴿ فاسجدوا لِلَّهِ واعبدوا ﴾ قيل : المراد به سجود تلاوة القرآن .

وهو قول ابن مسعود .

وبه قال أبو حنيفة والشافعي .

وقد تقدّم أوّل السورة من حديث ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سجد فيها

وسجد معه المشركون .

وقيل : إنما سجد معه المشركون لأنهم سمعوا أصوات الشياطين في أثناء قراءة رسول الله

صلى الله عليه وسلم عند قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللات والعزى .

وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى ﴾ وأنه قال : تلك الغَرَانِيقُ العُلاَ وشفاعتهنّ تُرْتَجَى .

كذا في رواية سعيد بن جُبير ترتجى .

وفي رواية أبي العالية وشفاعتهنّ ترتضى ، ومثلهنّ لا يناسى .

ففرح المشركون وظنوا أنه من قول محمد صلى الله عليه وسلم على ما تقدّم بيانه في "الحج" .

فلما بلغ الخبر بالحبشة مَن كان بها من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم رجعوا ظنًّا منهم أنّ أهل مكة آمنوا ؛ فكان أهل مكة أشدّ عليهم وأخذوا في تعذيبهم إلى أن كشف الله عنهم .

وقيل : المراد سجود الفرض في الصلاة وهو قول ابن عمر ؛ كان لا يراها من عزائم السجود . وبه قال مالك .

وروى أبيّ ابن كعب رضي الله عنه : كان آخر فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم ترك السجود في المفصّل .

والأوّل أصح وقد مضى القول فيه آخر "الأعراف" مبيناً والحمد لله رب العالمين .

تم تفسير سورة "والنجم" . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(98/734)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) ﴾

﴿ أفرأيت ﴾ الآية ، قال مجاهد وابن زيد ومقاتل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، كان قد سمع قراءة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وجلس إليه ووعظه ، فقرب من الإسلام ، وطمع فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

ثم إنه عاتبة رجل من المشركين ، فقال له : أتترك ملة آبائك ؟ ارجع إلى دينك واثبت عليه ، وأنا أتحمل لك بكل شيء تخافه في الآخرة ، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال .

فوافقه الوليد على ذلك ، ورجع عن ما هم به من الإسلام ، وضل ضلالاً بعيداً ، وأعطى بعض ذلك المال لذلك الرجل ، ثم أمسك عنه وشح .

وقال الضحاك : هو النضر بن الحارث ، أعطى خمس فلايس لفقير من المهاجرين حتى ارتد عن دينه ، وضمن له أن يحمل عنه مآثم رجوعه .

وقال السدي : نزلت في العاصي بن وائل السهمي ، كان ربما يوافق النبي (صلى الله عليه وسلم) في بعض الأمور .

وقال محمد بن كعب : في أبي جهل بن هشام ، قال : والله ما يأمر محمد إلا بمكارم الأخلاق .

وروي عن ابن عباس والسدي أنها نزلت في عثمان بن عفان ، رضي الله تعالى عنه ؛ كان يتصدق ، فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح نحواً من كلام القائل للوليد بن المغيرة الذي بدأنا به .

وذكر القصة بتمامها الزمخشري ، ولم يذكر في سبب النزول غيرها .

قال ابن عطية : وذلك كله عندي باطل ، وعثمان رضي الله عنه منزه عن مثله . انتهى .

وأفرأيت هنا بمعنى : أخبرني ، ومفعولها الأول الموصول ، والثاني الجملة الاستفهامية ، وهي : ﴿ أعنده علم الغيب ﴾ .

و ﴿ تولى ﴾ : أي أعرض عن الإسلام .

وقال الزمخشري : ﴿ تولى ﴾ : ترك المركز يوم أحد . انتهى .

لما جعل الآية نزلت في عثمان ، فسر التولي بهذا .

وإذا ذكر التولي غير مقيد في القرآن ، فأكثر استعماله أنه استعارة عن عدم الدخول في الإيمان .

﴿ وأعطى قليلاً وأكدى ﴾ ، قال ابن عباس : أطاع قليلاً ثم عصى .

(99/734)

وقال مجاهد : أعطى قليلاً من نفسه بالاستماع ، ثم أكدى بالانقطاع .

وقال الضحاك : أعطى قليلاً من ماله ثم منع .

وقال مقاتل : أعطى قليلاً من الخير بلسانه ثم قطع .

﴿ أعنده علم الغيب ﴾ : أي أعلم من الغيب أن من تحمل ذنوب آخر ، فإنه المتحمل عنه ينتفع بذلك ، فهو لهذا الذي علمه يرى الحق وله فيه بصيره ، أم هو جاهل ؟ وقال الزمخشري : ﴿ فهو يرى ﴾ : فهو يعلم أن ما قاله أخوه من احتمال أوزاره حق .

وقيل : يعلم حاله في الآخرة .

وقال الزجاج : يرى رفع مأثمه في الآخرة .

وقيل : فهو يرى أن ما سمعه من القرآن باطل .

وقال الكلبي : أنزل عليه قرآن ، فرأى ما منعه حق .

وقيل : ﴿ فهو يرى ﴾ : أي الأجزاء ، واحتمل يرى أن تكون بصرية ، أي فهو يبصر ما خفي عن غيره مما هو غيب ، واحتمل أن يكون بمعنى يعلم ، أي فهو يعلم الغيب مثل الشهادة .

﴿ أم لم ينبأ ﴾ : أي بل ألم يخبر ؟ ﴿ بما في صحف موسى ﴾ ، وهي التوراة .

﴿ وإبراهيم ﴾ : أي وفي صحف إبراهيم التي أنزلت عليه ، وخص هذين النبيين عليهما أفضل الصلاة والسلام .

قيل : لأنه ما بين نوح وإبراهيم كانوا يأخذون الرجل بأبيه وابنه وعمه وخاله ، والزوج بامرأته ، والعبد بسيده .

فأول من خالفهم إبراهيم ، ومن شريعة إبراهيم إلى شريعة موسى (صلى الله عليه وسلم)

عليهما ، كانوا لا يأخذون الرجل بجريمة غيره .

﴿ الذي وفى ﴾ ، قرأ الجمهور : وفي بتشديد الفاء .

وقرأ أبو أمامة الباهلي وسعيد بن جبير وأبو مالك الغفاري وابن السميفع وزيد بن علي : بتخفيفها ، ولم يذكر متعلق وفي ليتناول كل ما يصلح أن يكون متعلقاً له ، كتبليغ الرسالة والاستقلال بأعباء الرسالة ، والصبر على ذبح ولده ، وعلى فراق اسماعيل وأمه ، وعلى نار نمروذ وقيامه بأضيافه وخدمته إياهم بنفسه .

وكان يمشي كل يوم فرسخاً يرتاد ضيفاً ، فإن وافقه أكرمه ، وإلا نوى الصوم .

وعن الحسن : ما أمره الله بشيء إلا وفى به .

وعن عطاء بن السائب : عهد أن لا يسأل مخلوقاً .

(100/734)

وقال ابن عباس والربيع : وفي طاعة الله في أمر ذبح ابنه .

وقال الحسن وقتادة : وفى بتبليغ الرسالة والمجاهدة في ذات الله .

وقال عكرمة : وفي هذه العشر الآيات : ﴿ أن لا تزر ﴾ فما بعدها .

وقال ابن عباس أيضاً وقتادة : وفي ما افترض عليه من الطاعة على وجهها ، وكملت له

شعب الإيمان والإسلام ، فأعطاه الله براءته من النار .

وقال ابن عباس أيضاً : وفي شرائع الإسلام ثلاثين سهماً ، يعني : عشرة في براءة التائبون الخ ، وعشرة في قد أفلح ، وعشرة في الأحزاب إن المسلمين .

وقال أبو أمامة : ورفعه إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وفي أربع صلوات في كل يوم .

وقال أبو بكر الوراق : قام بشرط ما ادّعى ، وذلك أن الله تعالى قال له : أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين ، فطالبه بصحة دعواه ، فابتلاه في ماله وولده ونفسه ، فوجده وافياً .

انتهى ، وللمفسرين أقوال غير هذه .

وينبغي أن تكون هذه الأقوال أمثلة لما وفى ، لا على سبيل التعيين ، وأن هي المخففة من الثقيلة ، وهي بدل من ما في قوله : ﴿ بما في صحف ﴾ ، أو في موضع رفع ، كأن قائلاً قال : ما في صحفهما ، فقيل : ﴿ لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ ، وتقدم شرح ﴿ لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ : الظاهر أن الإنسان يشمل المؤمن والكافر ، وأن الحصر في السعي ، فليس له سعي غيره ، وقال عكرمة : كان هذا الحكم في قوم إبراهيم وموسى ، وأما هذه الأمّة فلها سعي غيرها ، يدل عليه حديث سعد بن عبادة : هل لأمي ، إن تطوعت عنها ؟ قال : نعم .

وقال الربيع : الإنسان هنا الكافر ، وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره .

وسأل والي خراسان عبد الله بن طاهر الحسين بن الفضل عن هذه الآية مع قوله : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ فقال : ليس له بالعدل إلا ما سعى ، وله بالفضل ما شاء الله ، فقبل عبد الله رأس الحسين .

(101/734)

وما روي عن ابن عباس أنها منسوخة لا يصح ، لأنه خبر لم يتضمن تكليفاً ؛ وعند الجمهور : إنها محكمة .

قال ابن عطية : والتحرير عندي في هذه الآية أن ملاك المعنى هو اللام من قوله : ﴿ للإنسان ﴾ .

فإذا حققت الذي حق الإنسان أن يقول فيه لي كذا ، لم تجده إلا سعيه ، وما تم بعد من رحمة بشفاعة ، أو رعاية أب صالح ، أو ابن صالح ، أو تضعيف حسنات ، أو تعمد بفضل ورحمة دون هذا كله ، فليس هو للإنسان ، ولا يسعه أن يقول لي كذا وكذا إلا على تجوز وإلحاق بما هو حقيقة .

واحتج بهذه الآية من يرى أنه لا يعمل أحد عن أحد بعد موته ببدن أو مال ، وفرق بعض

العلماء بين البدن والمال . انتهى .

والسعي : التكسب ، ويرى مبني للمفعول ، أي سوف يراه حاضراً يوم القيامة .

وفي عرض الأعمال تشريف للمحسن وتوبيخ للمسيء ، والضمير المرفوع في يجزاه عائد على الإنسان ، والمنصوب عائد على السعي ، والجزاء مصدر .

قال الزمخشري : ويجوز أن يكون الضمير للجزاء ، ثم فسره بقوله : ﴿ الجزاء الأوفى ﴾ .

وإذا كان تفسيراً للمصدر المنصوب في يجزاه ، فعلى ماذا انتصابه ؟ وأما إذا كان بدلاً ، فهو من باب بدل الظاهر من الضمير الذي يفسره الظاهر ، وهي مسألة خلاف ، والصحيح المنع .

وقرأ الجمهور : ﴿ وأن إلى ربك ﴾ وما بعدها من ﴿ وأنه ﴾ ، وأن بفتح الهمزة عطفاً على ما قبلها .

وقرأ أبو السمال : بالكسر فيهن ، وفي قوله : ﴿ الأوفى ﴾ وعيد للكافر ووعد للمؤمن ، ومنتهى الشيء : غايته وما يصل إليه ، أي إلى حساب ربك والحشر لأجله ، كما قال : ﴿ وإلى الله المصير ﴾ أي إلى جزائه وحسابه ، أو إلى ثوابه من الجنة وعقابه من النار ؛ وهذا التفسير المناسب لما قبله في الآية .

وعن أبي ، عن النبي (صلى الله عليه وسلم) في قوله تعالى : ﴿ وأن إلى ربك لمنتهى ﴾ ، لا فكرة في الرب .

وروى أنس عنه (صلى الله عليه وسلم) : " إذا ذكر الرب فانتهوا " .

﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ : الظاهر حقيقة الضحك والبكاء .

(102/734)

قال مجاهد : أضحك أهل الجنة ، وأبكى أهل النار .

وقيل : كنى بالضحك عن السرور ، وبالبكاء عن الحزن .

وقيل : أضحك الأرض بالنبات ، وأبكى السماء بالمطر .

وقيل : أحيا بالإيمان ، وأبكى بالكفر .

وقال الزمخشري : ﴿ أضحك وأبكى ﴾ : خلق قوتي الضحك والبكاء .

انتهى ، وفيه دسيسة الاعتزال ، إذ أفعال العباد من الضحك والبكاء وغيرهما مخلوقة للعبد عندهم ، لا لله تعالى ، فلذلك قال : خلق قوتي الضحك والبكاء .

﴿ وأنه خلق الزوجين ﴾ المصطحبين من رجل وامرأة وغيرهما من الحيوان ، ﴿ من نطفة إذا تمنى ﴾ : أي إذا تدفق ، وهو المني .

يقال : أمنى الرجل ومنى .

وقال الأخفش : إذا يمنى : أي يخلق ويقدر من مني الماني ، أي قدر المقدر .

﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ : أي إعادة الأجسام : أي الحشر بعد البلى ، وجاء بلفظ عليه المشعرة بالتحتم لوجود الشيء لما كانت هذه النشأة ينكرها الكفار بولغ بقوله : ﴿ عليه ﴾ بوجودها لا محالة ، وكأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه ، وتقدم الخلاف في قراءة النشأة في سورة العنكبوت .

وقال الزمخشري : وقال ﴿ عليه ﴾ ، لأنها واجبة عليه في الحكمة ليجازي على الإحسان والإساءة .

انتهى ، وهو على طريق الاعتزال .

﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ : أي أكسب القنية ، يقال : قنيت المال : أي كسبته ، وأقنيته إياه : أي أكسبته إياه ، ولم يذكر متعلق أغنى وأقنى لأن المقصود نسبة هذين الفعلين له تعالى .

وقد تكلم المفسرون على ذلك فقالوا اثني عشر قولاً ، كقولهم : أغنى نفسه وأفقر خلقه إليه ، وكل قول منها لا دليل على تعينه ، فينبغي أن تجعل أمثلة .

والشعرى التي عبدت هي العبور .

وقال السدّي : كانت تعبدها حمير وخزاعة .

وقال غيره : أول من عبدها أبو كبشة ، أحد أجداد النبي (صلى الله عليه وسلم) ، من

قبل أمهاته ، وكان اسمه عبد الشعرى ، ولذلك كان مشركو قريش يسمونه عليه السلام : ابن أبي كبشة ، ومن ذلك كلام أبي سفيان : لقد أمر أمر ابن أبي كبشة .

(103/734)

ومن العرب من كان يعظمها ولا يعبدها ، ويعتقد تأثيرها في العالم ، وأنها من الكواكب الناطقة ، يزعم ذلك المنجمون ويتكلمون على المغيبات عند طلوعها ، وهي تقطع السماء طولاً ، والنجوم تقطعها عرضاً .

وقال مجاهد وابن زيد : هو مرزم الجوزاء .

﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴾ : جاء بين أن وخبرها لفظ هو ، وذلك في قوله : ﴿ وأن هو أضحك ﴾ ، ﴿ وأنه هو أمات ﴾ ، ﴿ وأنه هو أغنى ﴾ ، ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ .

ففي الثلاثة الأول ، لما كان قد يدعي ذلك بعض الناس ، كقول نمروذ : ﴿ أنا أحيي وأميت ﴾ احتيج إلى تأكيد في أن ذلك إنما هو لله لا غيره ، فهو الذي يضحك ويبكي ، وهو المميت المحيي ، والمغني ، والمقني حقيقة ، وإن ادّعى ذلك أحد فلا حقيقة له .

وأما ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ ، فلأنها لما عبدت من دون الله تعالى ، نص على أنه تعالى

هو ربها وموجدها .

ولما كان خلق الزوجين ، والإنشاء الآخر ، وإهلاك عاد ومن ذكر ، لا يمكن أن يدعي ذلك أحد ، لم يحتج إلى تأكيد ولا تنصيص أنه تعالى هو فاعل ذلك .

وعاد الأولى هم قوم هود ، وعاد الأخرى إرم .

وقيل : الأولى : القدماء لأنهم أول الأمم هلاكاً بعد قوم نوح عليه السلام .

وقيل : الأولى : المتقدّمون في الدنيا الأشراف ، قاله الزمخشري .

وقال ابن زيد والجمهور : لأنها في وجه الدهر وقديمه ، فهي أولى بالإضافة إلى الأمم المتأخرة .

وقال الطبري : وصفت بالأولى ، لأن عاداً الآخرة قبيلة كانت بمكة مع العماليق ، وهو بنو لقيم بن هزال .

وقال المبرد : عاد الأخيرة هي ثمود ، والدليل عليه قول زهير :

كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم . . .

ذكره الزهراوي .

وقيل : عاد الأخيرة : الجبارون .

وقيل : قبل الأولى ، لأنهم كانوا من قبل ثمود .

وقيل : ثمود من قبل عاد .

وقيل : عاد الأولى : هو عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح ؛ وعاد الثانية : من ولد عاد الأولى .

(104/734)

وقرأ الجمهور : ﴿ عاداً الأولى ﴾ ، بتنوين عاداً وكسره لالتقائه ساكناً مع سكون لام الأولى وتحقيق الهمزة بعد اللام .

وقرأ قوم كذلك ، غير أنهم نقلوا حركة الهمزة إلى اللام وحذفوا الهمزة .

وقرأ نافع وأبو عمرو : بإدغام التنوين في اللام المنقول إليها حركة الهمزة المحذوفة ، وعاد هذه القراءة للمازني والمبرد .

وقالت العرب في الابتداء بعد النقل : الحمر ولحمر ، فهذه القراءة جاءت على الحمر ، فلا عيب فيها ، وهمز قالون عين الأولى بدل الواو الساكنة .

ولما لم يكن بين الضمة والواو حائل ، تخيل أن الضمة على الواو فهمزها ، كما قال :

أحب المؤقدين إليّ مؤسى . . .

وكما قرأ بعضهم : على سؤقه ، وهو توجيه شذوذ ، وفي حرف أبي عاد غير مصروف جعله اسم قبيلة ، فمنعه الصرف للتأنيث والعملية ، والدليل على التأنيث وصفه بالأولى .

وقرأ الجمهور : وثمودا مصروفاً ، وقرأه غير مصروف : الحسن وعاصم وعصمة .

﴿ فما أبقى ﴾ : الظاهر أن متعلق أبقى يرجع إلى عاد وثمود معاً ، أي فما أبقى عليهم ، أي أخذهم بذنوبهم .

وقيل : ﴿ فما أبقى ﴾ : أي فما أبقى منهم عيناً تطرف .

وقال ذلك الحجاج بن يوسف حين قيل له إن ثقيفاً من نسل ثمود ، فقال : قال الله تعالى : ﴿ وثموداْ فما أبقى ﴾ ، وهؤلاء يقولون : بقيت منهم بقية ، والظاهر القول الأول ، لأن ثمود كان قد آمن منهم جماعة بصالح عليه السلام ، فما أهلكهم الله مع الذين كفروا به .

﴿ وقوم نوح من قبل ﴾ : أي من قبل عاد وثمود ، وكانوا أول أمة كذبت من أهل الأرض ، ونوح عليه السلام أول الرسل .

والظاهر أن الضمير في ﴿ إنهم ﴾ عائد على قوم نوح ، وجعلهم ﴿ أظلم وأطغى ﴾ لأنهم كانوا في غاية العتو والإيذاء لنوح عليه السلام ، يضربونه حتى لا يكاد يتحرك ، ولا يتأثرون لشيء مما يدعوهم إليه .

(105/734)

وقال قتادة : دعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، كلما هلك قرن نشأ قرن ، حتى كان الرجل يأخذ بيد ابنه يتمشى به إليه ، يحذره منه ويقول : يا بني إن أبي مشى بي إلى هذا ولنا مثلك يومئذ ، فإياك أن تصدقه ، فيموت الكبير على الكفر ، وينشأ الصغير على وصية أبيه .

وقيل : الضمير في إنهم عائد على من تقدم عاد وثمود وقوم نوح ، أي كانوا أكفر من قريش وأطغى ، ففي ذلك تسلية لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وهم يجوز أن يكون تأكيداً للضمير المنصوب ، ويجوز أن يكون فصلاً ، لأنه واقع بين معرفة وأفعل التفضيل ، وحذف المفضول بعد الواقع خبراً لكان ، لأنه جار مجرى خبر المبتدأ ، وحذفه فصيح فيه ، فكذلك في خبر كان .

﴿ والمؤتفكة ﴾ : هي مدائن قوم لوط بإجماع من المفسرين ، وسميت بذلك لأنها انقلبت ، ومنه الإفك ، لأنه قلب الحق كذباً ، أفكه فأئتفك .

قيل : ويحتمل أن يراد بالمؤتفكة : كل ما انقلبت مساكنه ودبرت أماكنه .

﴿ أهوى ﴾ : أي خسف بهم بعد رفعهم إلى السماء ، رفعها جبريل عليه السلام ، ثم أهوى بها إلى الأرض .

وقال المبرد : جعلها تهوي .

وقرأ الحسن : والمؤتفكات جمعاً ، والظاهر أن أهوى ناصب للمؤتفكة ، وأخر العامل لكونه

فاصلة .

ويجوز أن يكون ﴿ والمؤتفكة ﴾ معطوفاً على ما قبله ، و ﴿ أهوى ﴾ جملة في موضع الحال يوضح كيفية إهلاكهم ، أي وإهلاك المؤتفكة مهوياً لها .

﴿ فغشاها ما غشى ﴾ : فيه تهويل للعذاب الذي حل بهم ، لما قلبها جبريل عليه السلام اتبعت حجارة غشيتهم .

واحتمل أن يكون فعل المشدد بمعنى المجرد ، فيتعدى إلى واحد ، فيكون الفاعل ما ، كقوله تعالى : ﴿ فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾ ﴿ فبأي آلاء ربك تتمارى ﴾ : الباء ظرفية ، والخطاب للسامع ، وتتمارى : تتشكك ، وهو استفهام في معنى الإنكار ، أي آلاؤه ، وهي النعم لا يتشكك فيها سامع ، وقد سبق ذكر نعم ونقم ، وأطلق عليها كلها آلاء لما في النقم من الزجر والوعظ لمن اعتبر .

(106/734)

وقرأ يعقوب وابن محيصن : ربك تمارى ، بتاء واحدة مشددة .

وقال أبو مالك الغفاري : إن قوله : ﴿ أن لا تزر ﴾ إلى قوله : ﴿ تتمارى ﴾ هو في صحف إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام .

﴿ هذا نذير ﴾ ، قال قتادة ومحمد بن كعب وأبو جعفر : الإشارة إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، افتتح أول السورة به ، واختتم آخرها به .

وقيل : الإشارة إلى القرآن .

وقال أبو مالك : إلى ما سلف من الأخبار عن الأمم ، أي هذا إنذار من الإنذارات السابقة ، والنذير يكون مصدراً أو اسم فاعل ، وكلاهما من أنذر ، ولا يتقاسان ، بل القياس في المصدر إنذار ، وفي اسم الفاعل منذر ؛ والنذر إما جمع للمصدر ، أو جمع لاسم الفاعل . فإن كان اسم فاعل ، فوصف النذر بالأولى على معنى الجماعة .

ولما ذكر إهلاك من تقدّم ذكره ، وذكر قوله : ﴿ هذا نذير ﴾ ، ذكر أن الذي أنذر به قريب الوقوع فقال : ﴿ أزفت الآزفة ﴾ : أي قربت الموصوفة بالقرب في قوله : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ وهي القيامة .

﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ : أي نفس كاشفة تكشف وقتها وتعلمه ، قاله الطبري والزجاج .

وقال القاضي منذر بن سعيد : هو من كشف الضر ودفعه ، أي ليس لها من يكشف خطبها وهولها . انتهى .

ويجوز أن تكون الهاء في كاشفة للمبالغة .

وقال الرماني وجماعة : ويحتمل أن يكون مصدراً ، ﴿ كالعاقبة ﴾ ، ﴿ وخائنة الأعين

﴾ ، أي ليس لها كشف من دون الله .

وقيل : يحتمل أن يكون التقدير حال كاشفة .

﴿ أفمن هذا الحديث ﴾ .

وهو القرآن ، ﴿ تعجبون ﴾ فتنكرون ، ﴿ وتضحكون ﴾ مستهزئين ، ﴿ ولا تبكون ﴾ جزعاً من وعيده .

﴿ وأنتم سامدون ﴾ ، قال مجاهد : معرضون .

وقال عكرمة : لاهون .

وقال قتادة : غافلون .

وقال السدّي : مستكبرون .

وقال ابن عباس : ساهون .

وقال المبرد : جامدون ، وكانوا إذا سمعوا القرآن غنوا تشاغلاً عنه .

وروي أنه عليه الصلاة والسلام لم ير ضاحكاً بعد نزولها .

(107/734)

فاسجدوا : أي صلوا له ، ﴿ واعبدوا ﴾ : أي أفردوه بالعبادة ، ولا تعبدوا اللات والعزى ومناة والشعرى وغيرها من الأصنام .

وخرّج البغوي بإسناد متصل إلى عبد الله ، قال : أول سورة نزلت فيها السجدة النجم ، فسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً ، والرجل أمية بن خلف .

وروي أن المشركين سجدوا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وفي حرف أبي وعبد الله : تضحكون بغير واو .

وقرأ الحسن : تعجبون تضكحون ، بغير واو وبضم التاء وكسر الجيم والحاء .

وفي قوله : ﴿ ولا تبكون ﴾ ، حض على البكاء عند سماع القرآن .

والسجود هنا عند كثير من أهل العلم ، منهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، ووردت به أحاديث صحاح ، وليس يراها مالك هنا .

وعن زيد بن ثابت : أنه قرأ بها عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فلم يسجد ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(108/734)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾

أي خَلقاً ومُلكاً لا لغيرِه أصلاً لا استقلالاً ولا اشتراكاً . وقوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِىَ ﴾ الخ متعلقٌ بما دلَّ عليهِ أعلمُ الخ وما بينهما اعتراضٌ مقررٌ لما قبلَهُ فإنَّ كونَ الكُلِّ مخلوقاً له تعالى ممَّا يقررُ علمَهُ تعالَى بأحوالِهم ﴿ ألا يعلمُ منْ خلقَ ﴾ كأنَّه قيلَ فيعلمُ ضلالَ من ضلَّ واهتداءَ من اهتدَى ويحفظُهما ليجزيَ ﴿ الذين أَسَاءوا بِمَا عَمِلُواْ ﴾ أي بعقابِ ما عملُوا من الضلالِ الذي عبَّر عنْهُ بالإساءةِ بياناً لحالِهِ أو بسببِ ما عملوا .

﴿ وَيِجْزِى الذين أَحْسَنُواْ ﴾ أي اهتدوا ﴿ بالحسنى ﴾ أي بالمثوبةِ الحُسْنَى التي هي الجنةُ أو بسببِ أعمالِهم الحُسْنَى ، وقيلَ متعلقٌ بما دلَّ عليهِ قولُه تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ كأنَّه قيلَ خلقَ ما فيهمَا ليجزيَ الخ ، وقيلَ : متعلقٌ بضلَّ واهتدَى على أن اللامَ للعاقبةِ أي هُو أعلمُ بمن ضلَّ ليؤولَ أمرُه إلى أنْ يجزيَهُ الله تعالى بعملِه وبمنِ اهتدَى ليؤولَ أمرُهُ إلى أنْ يجزيَهُ بالحُسْنَى وفيهِ من البُعدِ ما لا يَخْفى ، وتكريرُ الفعلِ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بأمرِ الجزاءِ والتنبيهِ على تباينِ الجزاءينِ .

(109/734)

﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ كبائر الإثم ﴾ بدلٌ من الموصولِ الثَّاني . وصيغةُ الاستقبال في صلتِه للدلالةِ على تجددِ الاجتناب واستمرارِه ، أو بيانٌ أو نعتٌ أو منصوبٌ على المدحِ ، وكبائرُ الإثمِ ما يكبرُ عقابُه من الذنوبِ وهو ما رتبَ عليه الوعيدُ بخصوصِه . وقُرِئَ كبيرَ الإثمِ ، على إرادةِ الجنسِ أو الشركِ ﴿ والفواحش ﴾ وما فُحش من الكبائِر خُصُوصاً ﴿ إلاَّ اللمم ﴾ أي إلا ما قلَّ وصغُرَ فإنَّه مغفورٌ ممَّن يجتنبُ الكبائرَ قيلَ هي النظرةُ والغمزةُ والقبلةُ وقيلَ هي الخطرةُ من الذنبِ وقيلَ كلُّ ذنبٍ لم يذكرِ الله عليهِ حدّاً ولا عذاباً ، وقيلَ عادةُ النفسِ الحينِ بعد الحين والاستثناءُ منقطعٌ ﴿ إنَّ ربَّكَ واسع المغفرة ﴾ حيث يغفرُ الصغائرَ باجتنابِ الكبائرِ ، فالجملةُ تعليلٌ لاستثناءِ اللممِ وتنبيهٌ على أنَّ إخراجَهُ عن حُكمِ المؤاخذةِ به ليسَ لخلوِه عن الذنبِ في نفسِه بل لسَعةِ المغفرةِ الربانيَّةِ وقيلَ المَعْنى له أن يغفرَ لمن يشاءُ من المؤمنينَ ما يشاءُ من الذنوبِ صغيرِها وكبيرِها ، ولعلَّ تعقيبَ وعيدِ المسيئينَ ووعدِ المحسنينَ بذلكَ حينئذٍ لئلاَّ ييأسَ صاحبُ الكبيرةِ من رحمتِه تعالى ولا يتوهَم وجوبَ العقابِ عليه تعالى .

(110/734)

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أي بأحوالِكم يعلمُها ﴿ إِذْ أَنشَأَكُمْ ﴾ في ضمنِ إنشاءِ أبيكم آدمَ عليهِ السَّلامُ ﴿ مِّنَ الأَرْضِ ﴾ إنشاءً إجمالياً حسبَما مرَّ تقريرُه مراراً ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ أي ووقتَ كونِكم أجنةً ﴿ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ على أطوارٍ مختلفةٍ مترتبةٍ لا يخفى عليه حالٌ من أحوالِكم وعملٌ من أعمالِكم التي منْ جُملتِها اللممُ الذي لولا المغفرةُ الواسعةُ لأصابكُم وبالُه فالجملةُ استئنافٌ مقررٌ لما قبلَها والفاءُ في قولِه تعالى ﴿ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ لترتيبِ النَّهي عن تزكيةِ النفسِ على ما سبقَ منْ أنَّ عدمَ المؤاخذةِ باللممِ ليسَ لعدمِ كونِه من قبيلِ الذنوبِ بلْ لمحضِ مغفرتِه تعالى مع علمِه بصدورِه عنكُم أي إذا كانَ الأمرُ كذلكَ فلا تُثنوا عليها بالطهارةِ عن المعاصِي بالكليةِ أو بما يستلزمُها من زكاءِ العملِ ونماءِ الخيرِ بلِ اشكرُوا اللهَ تعالى على فضلِه ومغفرتِه . ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ المعاصيَ جميعاً ، وهو استئنافٌ مقررٌ للنَّهي ومشعرٌ بأنَّ فيهم منْ يتقيها بأسرِها ، وقيلَ كانَ ناسٌ يعملونَ أعمالاً حسنةً ثم يقولونَ صلاتُنا وصيامُنا وحجُّنا فنزلتْ وهَذا إذا كانَ بطريقِ الإعجابِ أو الرياءِ فأمَّا منِ اعتقدَ أنَّ ما عملَهُ من الأعمالِ الصالحةِ من اللهِ تعالى وبتوفيقِه وتأييدِه ولم يقصدْ بِهِ التمدحَ لم يكنْ من المزكينَ أنفسَهُم فإن المسرةَ بالطاعةِ طاعةٌ وذكرَهَا شكرٌ .

(111/734)

﴿ أَفَرَأَيْتَ الذى تولى ﴾ أي عنِ اتباعِ الحقّ والثباتِ عليهِ ﴿ وأعطى قَلِيلاً ﴾ أي شيئاً قليلاً أو إعطاءً قليلاً ﴿ وأكدى ﴾ أي قطعَ العطاءَ من قولِهم أكدَى الحافرُ إذا بلغَ الكُديةَ أي الصَّلابةَ كالصَّخرةِ فلا يمكنه أنْ يحفرَ قالُوا نزلتْ في الوليدِ بنِ المغيرةَ كانَ يتبعُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فعيَّره بعضُ المشركينَ ، وقالَ له تركتَ دينَ الأشياخِ وضلَّلتَهم فقالَ أخشَى عذابَ الله فضمن أنْ يتحملَ عنه العذابَ إن أعطاهُ بعضَ مالِه فارتدَّ وأعطاهُ بعضَ المشروطِ وبخلَ بالباقِي وقيلَ نزلتْ في العاصِ بنِ وائلٍ السَّهميّ لما أنَّه كانَ يوافقُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في بعضِ الأمورِ ، وقيلَ في أبي جهلٍ كان رُبَّما يوافقُ الرسولُ صلى الله عليه وسلم في بعضِ الأمورِ ، وكان يقولُ والله ما يأمرُنا محمدٌ إلا بمكارمِ الأخلاقِ وذلكَ قولُه تعالى : ﴿ وأعطى قَلِيلاً وأكدى ﴾ والأولُ هو الأشهرُ المناسبُ لما بعدَهُ من قولِه تعالى : ﴿ عِلْمُ الغيب فَهُوَ يرى أَمْ ﴾ الخ أي أعندَهُ علمٌ بالأمورِ الغيبيةِ التي منْ جُملتِها تحمّلُ صاحبِه عنه يومَ القيامةِ .

(112/734)

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ موسى * وإبراهيم الذى وفى ﴾ أيْ وفَّر وأتمَّ ما ابتُلي به من الكلماتِ أو أُمرَ به أو بالغَ في الوفاءِ بما عاهدَ الله وتخصيصُه بذلكَ لاحتمالِه ما لم يحتملْهُ

غيرُه كالصبرِ على نارِ نمرودَ حتَّى إنه أتاهُ جبريلُ عليهِ السَّلامُ حينَ يُلقى في النَّارِ فقالَ ألكَ حاجةٌ فقالَ أمَّا إليكَ فلاَ وعلى ذبحِ الولدِ ويُروَى أنَّه كانَ يمشِي كلَّ يومٍ فرسخاً يرتادُ ضيفاً فإنْ وافقَهُ أكرمَهُ وإلا نوَى الصومَ وتقديمُ مُوسى لما أنَّ صحفَهُ التي هي التوراةُ أشهرُ عندَهُم وأكثرُ. ﴿ أَلَّا تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى ﴾ أي أنهُ لا تحملُ نفسٌ من شأنِها الحملُ حِملَ نفسٍ أُخْرَى على أنَّ "أن" هيَ المخففةُ منَ الثقيلةِ وضميرُ الشأنِ الذي هو اسمُها محذوفٌ والجملةُ المنفيةُ خبرُها ومحلُّ الجملةِ الجرُّ على أنَّها بدلٌ ممَّا في صحفِ مُوسى أو الرفعُ على أنَّها خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ كأنَّهُ قيلَ: ما في صحفِهما فقيلَ هو أنْ لا تزرُ الخ والمَعْنى أنَّه لا يُؤاخذُ أحدٌ بذنبِ غيرِه ليتخلصَ الثَّاني عن عقابِهِ ولا يقدحُ في ذلك قولُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ منْ سَنَّ سُنَّةً سيئةً فعليهِ وزرُهَا ووزرُ مَنْ عمِلَ بها إلى يومِ القيامةِ فإنَّ ذلكَ وزرُ الإضلالِ الذي هُو وزرُهُ. وقولُه تعالَى:

(113/734)

﴿ وَأَن لَّيْسَ للإنسان إِلاَّ مَا سعى ﴾ بيانٌ لعدمِ انتفاعِ الإنسانِ بعملِ غيرِه من حيثُ جلبُ النفعِ إليهِ إثرَ بيانِ عدمِ انتفاعِه بهِ منْ حيثُ دفعُ الضررِ عنْهُ، وأما شفاعةُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ واستغفارُ الملائكةِ عليهم السَّلامُ ودعاءُ الأحياءِ للأمواتِ وصدقتُهم عنهم وغيرُ

ذلكَ مِمَّا لا يكادُ يُحصَى من الأمورِ النافعةِ للإنسانِ مع أنَّها ليستْ من عملِه قطعاً فحيثُ كان مناطُ منفعةِ كلٍّ منهَا عمله الذي هو الإيمانُ والصَّلاحُ ولم يكن لشيءٍ منها نفعٌ مَا بدونِه جُعل النافعُ نفسَ عملِه وإنْ كان بانضمامِ عملِ غيرِه إليهِ وأنْ مخففةٌ كأختِها معطوفةٌ عليهَا وكَذا قولُه تعالَى :

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرى ﴾ أي يُعرضُ عليهِ ويكشفُ له يومَ القيامةِ في صحيفتِه وميزانِه من أريتُه الشيءَ .

(114/734)

﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ ﴾ أي يُجزى الإنسانُ سعيَهُ يقالُ جزاهُ اللهُ بعملِه وجَزَاهُ على عملِه بحذفِ الجارِّ وإيصالِ الفعلِ ويجوزُ أنْ يُجعلَ الضميرُ للجزاءِ ثم يُفسَّرَ بقولِه تعالى : ﴿ الجزاء الأوفى ﴾ أو يبدلُ هو عنْهُ كما في قولِه تعالى : ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ ﴾ ﴿ وَأَنَّ إلى ربِّكَ المنتهى ﴾ أي انتهاءَ الخلقِ ورجوعَهم إليهِ تعالى لا إلى غيرِه استقلالاً ولا اشتراكاً وقرىءَ بكسرِ إنَّ على الابتداءِ ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى ﴾ أي هو خلقَ قُوتَي الضحكِ والبكاءِ ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ ﴾ لا يقدرُ على الإماتةِ والإحياءِ غيرُه فإنَّ أثرَ القاتلِ نقضُ البنيةِ وتفريقُ الاتصالِ وإنما يحصلُ الموتُ عندَهُ بفعلِ اللهِ تعالَى على العادةِ ﴿ وَأَنَّهُ

خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تمنى ﴾ تدفقُ في الرحمِ أو تخلقُ أو يقدرُ منها الولدُ من مَنَى بمعنى قَدر ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النشأة الأخرى ﴾ أَى الإحياءَ بعد الموتِ وفاءً بوعدِه وقُرِىءَ النشاءةَ بالمدّ وهي أيضاً مصدرُ نشأهُ . ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أغنى وأقنى ﴾ وأعطَى القُنيةَ وهي ما يُتأثل من الأموالِ وأفردَها بالذكرِ لأنَّها أشرفُ الأموالِ أو أَرْضى ، وتحقيقُه جعلُ الرِّضا له قنيةً ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشعرى ﴾ أي ربُّ معبودِهم وهي العَبورُ وهي أشدُّ ضياءً من الغِميصاءِ وكانتْ خزاعةُ تعبدُها سنَّ لهم ذلكَ أبو كبشةَ رجلٌ من أشرافِهم وكانتْ قريشٌ تقولُ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم : أبو كبشةَ تشبيهاً له عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ به لمخالفتِه إيَّاهم في دينِهم .

(115/734)

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأولى ﴾ هي قومُ هودٍ عليه السلامُ وعادٌ الأُخرى إرامُ ، وقيلَ : الأُولى القدماءُ لأنَّهم أُوْلى الأممِ هلاكاً بعدَ قومِ نوحٍ ، وقُرِىءَ عاداً نِ الاولى بحذفِ الهمزةِ ونقلِ ضمتِها إلى اللامِ وعادَ لُولى بإدغامِ التنوينِ في اللامِ وطرحِ همزةِ أولى ونقلِ حركتِها إلى لامِ التعريفِ .

(116/734)

﴿ وَثَمُودُ ﴾ عطفٌ عَلى عاداً لأنَّ ما بعدَهُ لا يعملُ فيهِ وقُرِئَ وثموداً بالتنوينِ ﴿ فَمَا أبقى ﴾ أي أحداً من الفريقينِ ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ عطفٌ عليهِ أَيضاً ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبلِ إهلاكِ عادٍ وثمودَ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وأطغى ﴾ من الفريقينِ حيثُ كانُوا يؤذونَهُ وينفّرون الناسَ عنْهُ وكانُوا يحذرونَ صبيانَهُم أن يسمعُوا منه وكانوا يضربونَهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حتَّى لا يكونُ به حَراكٌ وما أثر فيهم دُعاؤُه قريباً من ألفِ سنةٍ ﴿ والمؤتفكة ﴾ هي قُرَى قومِ لوطٍ ائتفكتْ بأهلِها أي انقلبتْ بهم ﴿ أهوى ﴾ أي أسقطَها إلى الأرضِ بعد أنْ رفعَها على جناحِ جبريلَ عليهِ السلامُ إلى السماءِ ﴿ فغشاها مَا غشى ﴾ من فنونِ العذابِ وفيه منَ التهويلِ والتفظيعِ ما لا غايةَ وراءَهُ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاء رَبِّكَ تتمارى ﴾ تشكُ. والخطابُ للرسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ على طريقةِ قولِه تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ أو لكلِّ أحدٍ . وإسنادُ فعلِ التَّماري إلى الواحدِ باعتبارِ تعددِه بحسبِ تعددِ متعلقِه فإنَّ صيغةَ التفاعلِ وإن كانتْ موضوعةً لإفادةِ صدورِ الفعلِ عن المتعدد ووقوعِه عليهِ بحيث يكونُ كلٌّ منْ ذلكَ فاعلاً ومفعولاً معاً لكنَّها قد تجردُ عن المَعْنى الثانِي فيرادُ بها المَعْنى الأولَ فقط كما في يتداعونهم أي يدعونهم وقد تُجرّد عنهم أيضاً فيُكتفى بتعدد الفعل بتعدد متعلّقه كما فيما نحن فيه فإن المِراء متعددٌ بتعدد الآلاء فتدبر ، وتسمية الأمور

المعدودة آلاءَ مع أن بعضها نِقمٌ لما أنها أيضاً نعم من حيث إنها نُصرة للأنبياءِ والمؤمنين وانتقام لهم وفيها عظاتٌ وعِبر للمعتبرين .

(117/734)

﴿ هذا نَذِيرٌ مّنَ النذر الأولى ﴾ هَذا إمَّا إشارةٌ إلى القُرآنِ ، والنذيرُ مصدرٌ ، أو إلى الرسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ والنذيرُ بمَعْنى المُنذرِ ، وأياً ما كانَ فالتنوينُ للتفخيمِ ومِنْ متعلقةٌ بمحذوفٍ هو نعتٌ لنذيرٌ مقررٌ له ومتضمنٌ للوعيدِ أي هَذا القرآنُ الذي تشاهدونَهُ نذيرٌ من قبيلِ الإنذاراتِ المتقدمةِ التي سمعتُم عاقبتَها ، أو هذا الرسولُ منذرٌ من جنسِ المنذرينَ الأولينَ والأُولى على تأويلِ الجماعةِ لمراعاةِ الفواصلِ وقد علمتُم أحوالَ قومِهم المنذرين وفي تعقيبِهِ بقولِه تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الأزفة ﴾ إشعارٌ بأنَّ تعذيبَهُم مؤخرٌ إلى يومِ القيامةِ أي دنتِ الساعةُ الموصوفةُ بالدنوّ في نحوِ قولِه تعالى : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ الله كَاشِفَةٌ ﴾ أي ليسَ لها نفسٌ قادرةٌ على كشفِها عندَ وقوعِها إلا الله تعالَى لكنَّه لا يكشفُهَا أو ليسَ لها الآنَ نفسٌ كاشفةٌ بتأخيرِها إلا الله تعالَى فإنَّه المؤخّرُ لَها أو ليسَ لها كاشفةٌ لوقتِها إلا الله تعالَى كقولِه تعالى : ﴿ لاَ يُجَلّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ أو ليسَ لها من غيرِ الله تعالى كشفٌ على أنّ كاشفةٌ مصدرٌ كالعافيةِ .

﴿ أَفَمِنْ هذا الحديث ﴾ أي القرآنِ ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ إنكاراً ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ استهزاءً مع كونِه أبعدَ شيءٍ من ذلكَ ﴿ وَلاَ تَبْكُونَ ﴾ حُزناً على ما فرَّطتُم في شأنِه وخوفاً من أنْ يَحيقَ بكُم ما حاقَ بالأممِ المذكورةِ ﴿ وَأَنتُمْ سامدون ﴾ أي لاهونَ أو مستكبرونَ من سَمد البعيرُ إذا رفعَ رأسَهُ أو مغنونَ لتشغَلوا النَّاسَ عن استماعِه من السمودِ بمَعْنى الغناءِ على لغةِ حِميرَ أو خاشعونَ جامدونَ من السمودِ بمَعْنى الجمودِ والخشوعِ كما في قولِ مَنْ قالَ

رَمَى الحِدْثانُ نِسْوَةَ آلِ سَعْدٍ . . . بمِقْدارٍ سَمَدْنَ لَهُ سُمُوداً

(118/734)

فردَّ شعورَهُنَّ السودَ بيْضاً . . . وردَّ وجوهُنَّ البيضَ سُوداً

والجملةُ حالٌ مِنْ فاعلِ لا تبكونَ خَلاَ أنَّ مضمونَها على الوجهِ الأخيرِ قيدٌ للنفيِّ والإنكارُ واردٌ على نَفي البكاءِ والسمودِ معاً ، وعلى الوجوهِ الأُولِ قيدٌ للنفي والإنكارُ متوجهٌ إلى نفي البكاءِ ووجودِ السمودِ والأولُ أوفَى بحقِّ المقامِ فتدبرْ . والفاءُ في قولِه تعالى ﴿ فاسجدوا لِلَّهِ واعبدوا ﴾ لترتيبِ الأمرِ أو موجبِه على ما تقررَ من بُطلانِ مقابلةِ القرآنِ بالإنكارِ والاستهزاءِ ووجوبِ تلقيهِ بالإيمانِ مع كمالِ الخضوعِ والخشوعِ أي وإذا كانَ الأمرُ

كذِلكَ فاسجدُوا للهِ الذي أنزلَهُ واعبدُوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(119/734)

وقال الآلوسى :

﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57) ﴾

أي قربت الساعة الموصوفة بالقرب في غير آية من القرآن ، فأل في ﴿ الازفة ﴾ كاللعهد لا للجنس ، وقيل : ﴿ الازفة ﴾ علم بالغلبة للساعة هنا ، وقيل : لا بأس بإرادة الجنس ووصف القريب بالقرب للمبالغة .

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ ﴾ أي غير الله تعالى أو إلا الله عز وجل ﴿ كَاشِفَةٌ ﴾ نفس قادرة على كشفها إذا وقعت لكنه سبحانه لا يكشفها ؛ والمراد بالكشف الإزالة ، وقريب من هذا ما روى عن قتادة .

وعطاء .

والضحاك أي إذا غشيت الخلق أهوالها وشدائدها لم يكشفها ولم يردها عنهم أحد ، أو ليس لها الآن نفس كاشفة أي مزيلة للخوف منها فإنه باق إلى أن يأتي الله سبحانه بها وهو

مراد الزمخشري بقوله : أوليس لها الآن نفس كاشفة بالتأخير ، وقيل : معناه لو وقعت الآن لم يردّها إلى وقتها أحد إلا الله تعالى ، فالكشف بمعنى التأخير وهو إزالة مخصوصة ، وقال الطبري .

والزجاج : المعنى ليس لها من دون الله تعالى نفس كاشفة تكشف وقت وقوعها وتبينه لأنها من أخفى المغيبات ، فالكشف بمعنى التبيين والآية كقوله تعالى : ﴿ لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأعراف : 187] والتاء في ﴿ كَاشِفَةٌ ﴾ على جميع الأوجه للتأنيث ، وهو لتأنيث الموصوف المحذوف كما سمعت ، وبعضهم يقدر الموصوف حالاً ، والأول أولى ؛ وجوز أن تكون للمبالغة مثلها في علامة ، وتعقب بأن المقام يأباه لإيهامه ثبوت أصل الكشف لغيره عز وجل وفيه نظر ، وقال الرماني .

وجماعة : يحتمل أن يكون ﴿ كَاشِفَةٌ ﴾ مصدراً كالعافية ، وخائنة الأعين أي ليس لها كشف من دون الله تعالى .

﴿ أَفَمِنْ هذا الحديث ﴾ أي القرآن ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ إنكاراً .

﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ استهزاءاً مع كونه أبعد شيء من ذلك ﴿ وَلاَ تَبْكُونَ ﴾ حزناً على ما فرطتم في شأنه وخوفاً من أن يحيق بكم ما حاق بالأمم المذكورة .

﴿ وَأَنتُمْ سامدون ﴾ أي لاهون كما روى عن ابن عباس جواباً لنافع بن الأزرق ، وأنشد عليه قول هزيلة بنت بكر وهي تبكي قوم عاد :

ليت (عاداً) قبلوا الحق . . .

ولم يبدوا جحودا

قيل : قم فانظر إليهم . . .

ثم دع عنك (السمودا)

وفي رواية أنه رضي الله تعالى عنه سئل عن السمود ، فقال : البرطمة وهي رفع الرأس تكبراً أي وأنتم رافعون رؤوسكم تكبراً ، وروى تفسيره بالبرطمة عن مجاهد أيضاً ، وقال الراغب : السامد اللاهي الرافع رأسه من سمد البعير في سيره إذا رفع رأسه ، وقال أبو عبيدة : السمود الغناء بلغة حمير يقولون : يا جارية اسمدي لنا أي غنى لنا ، وروى نحوه عن عكرمة ، وأخرج عبد الرزاق .

والبزار .

وابن جرير .

والبيهقي في "سننه" وجماعة عن ابن عباس أنه قال : هو الغناء باليمانية وكانوا إذا سمعوا القرآن غنوا تشاغلاً عنه ، وقيل : يفعلون ذلك ليشغلوا الناس عن استماعه ، والجملة

الاسمية على جميع ذلك حال من فاعل لا تبكون ومضمونها قيد للنفي والانكار متوجه إلى نفي البكاء ووجود السمود ، وقال المبرد : السمود الجمود والخشوع كما في قوله :

رمى الحدثان نسوة آل سعد . . .

بمقدار سمدن له (سمودا)

فرد شعورهن السود بيضا . . .

ورد وجوههن البيض سودا

والجملة عليه حال من فاعل ﴿ تبكون ﴾ [النجم : 60] أيضاً إلا أن مضمونها قيد للمنفى ، والإنكار وارد على نفي البكاء والسمود معاً فلا تغفل ، وف حرف أبيّ .

(121/734)

وعبد الله تضحكون بغير واو ، وقرأ الحسن تعجبون تضحكون بغير واو وضم التاءين وكسر الجيم والحاء ، واستدل بالآية كما في أحكام القرآن على استحباب البكاء عند سماع القرآن وقراءته ، أخرج البيهقي في "شعب الايمان" عن أبي هريرة قال : "لما نزلت ﴿ أَفَمِنْ هذا الحديث ﴾ [النجم : 59] الآية بكى أصحاب الصفة حتى جرت دموعهم على خدودهم فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينهم بكى معهم فبكينا

ببكائه فقال عليه الصلاة والسلام : " لا يلج النار من بكى من خشية الله تعالى ولا يدخل الجنة مصرّ على معصيته ولو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم "

وأخرج أحمد في الزهد .

وابن أبي شيبة .

وهناد .

وغيرهم عن صالح أبي الخليل قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ أَفَمِنْ هذا الحديث تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ ﴾ [النجم : 59-60] ما ضحك النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إلا أن يتبسم" ولفظ عبد بن حميد " فما رؤى النبي عليه الصلاة والسلام ضاحكاً ولا متبسماً حتى ذهب من الدنيا " وفيه سد باب الضحك عند قراءة القرآن ولو لم يكن استهزاءاً والعياذ بالله عز وجل .

﴿ فاسجدوا لِلَّهِ واعبدوا ﴾

الفاء لترتيب الأمر أو موجبه على ما تقرر من بطلان مقابلة القرآن بالتعجب والضحك وحقية مقابلته بما يليق به ، ويدل على عظم شأنه أي وإذا كان الأمر كذلك فاسجدوا لله تعالى الذي أنزله واعبدوه جل جلاله ، وهذه آية سجدة عند أكثر أهل العلم ، وقد سجد النبي صلى الله عليه وسلم عندها .

أخرج الشيخان .

وأبو داود .

والنسائي .

وابن مردويه عن ابن مسعود قال : " أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿ والنجم ﴾ فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد الناس كلهم إلا رجلاً " الحديث .

وأخرج ابن مردويه .

(122/734)

والبيهقي في السنن عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما " قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ النجم فسجد بنا فأطال السجود " وكذا عمر رضي الله تعالى عنه ، أخرج سعيد بن منصوب عن سبرة قال : صلى بنا عمر بن الخطاب الفجر فقرأ في الركعة الأولى سورة يوسف ، ثم قرأ في الثانية سورة النجم فسجد ، ثم قام فقرأ إذا زلزلت ثم ركع ، ولا يرى مالك السجود هنا ، واستدل له بما أخرجه أحمد .

والشيخان .

وأبو داود .

والترمذي .

والنسائي والطبراني وغيرهم عن زيد بن ثابت قال : قرأت النجم عند النبي صلى الله عليه وسلم فلم يسجد فيها ، وأجيب بأن الترك إنما ينافي وجوب السجود وليس بمجمع عليه وهو عند القائل به على التراخي في مثل ذلك على المختار وليس في الحديث ما يدل على نفيه بالكلية فيحتمل أنه عليه الصلاة والسلام سجد بعد ، وكذا زيد رضي الله تعالى عنه ، نعم التأخير مكروه تنزيهاً ولعله فعل لبيان الجواز ، أو لعذر لم نطلع عليه ، وما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس من قوله : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحول إلى المدينة" ناف وضعيف ، وكذا قوله فيما رواه أيضاً عنه "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد في النجم بمكة فلما هاجر إلى المدينة تركها " على أن الترك إنما ينافي كما سمعت الوجوب ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(123/734)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى ﴾

أي : هو الخالق لذلك والقاضي بسببه .

قال الحسن ، والكلبي : أضحك أهل الجنة في الجنة ، وأبكى أهل النار في النار .

وقال الضحاك : أضحك الأرض بالنبات ، وأبكى السماء بالمطر ، وقيل : أضحك من شاء في الدنيا بأن سرّه ، وأبكى من شاء بأن غمه .

وقال سهل بن عبد الله : أضحك المطيعين بالرحمة ، وأبكى العاصين بالسخط ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ أي : قضى أسباب الموت والحياة ، ولا يقدر على ذلك غيره ، وقيل : خلق نفس الموت والحياة ، كما في قوله : ﴿ خَلَقَ الموت والحياة ﴾ [الملك : 2] وقيل : أمات الآباء ، وأحيا الأبناء ، وقيل : أمات في الدنيا وأحيا للبعث ، وقيل : المراد بهما : النوم واليقظة .

وقال عطاء : أمات بعدله وأحيا بفضله ، وقيل : أمات الكافر وأحيا المؤمن ، كما في قوله : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فأحييناه ﴾ [الأنعام : 122] .

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تمنى ﴾ المراد : بالزوجين : الذكر والأنثى من كل حيوان ، ولا يدخل في ذلك آدم وحوّاء ، فإنهما لم يخلقا من النطفة ، والنطفة : الماء القليل ، ومعنى ﴿ إِذَا تمنى ﴾ : إذ تصبّ في الرحم وتدفق فيه ، كذا قال الكلبي ، والضحاك ، وعطاء بن أبي رباح ، وغيرهم ، يقال : مني الرجل وأمنى ، أي : صب المنيّ .

وقال أبو عبيدة ﴿ إِذَا تمنى ﴾ إذا تقدّر ، يقال : منيت الشيء : إذا قدّرته ومني له ، أي : قدر له ، ومنه قول الشاعر :

حَتَّى تلاقي ما يُمْني لَكَ الماني . . . والمعنى : أنه يقدّر منها الولد .

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النشأة الأخرى ﴾ أي : إعادة الأرواح إلى الأجسام عند البعث وفاء بوعده .

قرأ الجمهور : ﴿ النشأة ﴾ بالقصر بوزن الضربة ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بالمدّ بوزن الكفالة ، وهما على القراءتين مصدران .

(124/734)

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أغنى وأقنى ﴾ أي : أغنى من شاء وأفقر من شاء ، ومثله قوله : ﴿ يَبْسُطُ الرزقِ لِمَنْ يَشَاء وَيَقدِرُ ﴾ [الرعد : 26] وقوله : "يَقْبِضُ ويبسط " [البقرة : 245] قاله ابن زيد ، واختاره ابن جرير .

وقال مجاهد ، وقتادة ، والحسن : أغنى : موّل ، وأقنى : أخدم ، وقيل : معنى أقنى : أعطى القنية ، وهي ما يتأثل من الأموال .

وقيل : معنى أقنى : أرضى بما أعطى ، أي : أغناه ثم رضاه بما أعطاه .

قال الجوهري : قنّى الرجل قنًى ، مثل غنّى غنًى ، أي : أعطاه ما يقتني ، وأقناه : أرضاه ، والقنى : الرضى .

قال أبو زيد : تقول العرب : من أعطى مائة من البقر فقد أعطى القنى ، ومن أعطى مائة من الضأن فقد أعطى الغنى ، ومن أعطى مائة من الإبل فقد أعطى المنى .

قال الأخفش ، وابن كيسان : أقنى : أفقر ، وهو يؤيد القول الأوّل .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشعرى ﴾ هي كوكب خلف الجوزاء كانت خزاعة تعبدها ، والمراد بها : الشعرى التي يقال لها : العبور ، وهي أشدّ ضياء من الشعرى التي يقال لها : الغميصاء ، وإنما ذكر سبحانه أنه ربّ الشعرى مع كونه رباً لكلّ الأشياء للردّ على من كان يعبدها ، وأوّل من عبدها أبو كبشة ، وكان من أشراف العرب ، وكانت قريش تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ابن أبي كبشة تشبيهاً له به لمخالفته دينهم ، كما خالفهم أبو كبشة ، ومن ذلك قول أبي سفيان يوم الفتح : لقد أمر أمْر ابن أبي كبشة .

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأولى ﴾ وصف عاداً بالأولى لكونهم كانوا من قبل ثمود .

قال ابن زيد : قيل لها : عاداً الأولى ، لأنهم أوّل أمة أهلكت بعد نوح .

وقال ابن إسحاق : هما عادان ، فالأولى أهلكت بالصرصر ، والأخرى أهلكت بالصيحة .

وقيل : عاد الأولى قوم هود ، وعاد الأخرى : إرم .

قرأ الجمهور : ﴿ عاداً الأولى ﴾ بالتنوين والهمز ، وقرأ نافع ، وابن كثير ، وابن محيصن بنقل حركة الهمزة على اللام ، وإدغام التنوين فيها .

﴿ وَثَمُودَ فَمَا أبقى ﴾ أي : أهلك ثموداً كما أهلك عاداً ، فما أبقى أحداً من الفريقين ، وثمود هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة ، وقد تقدّم الكلام على عاد ، وثمود في غير موضع .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ أي : وأهلك قوم نوح من قبل إهلاك عاد وثمود ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وأطغى ﴾ أي : أظلم من عاد وثمود وأطغى منهم ، أو أظلم وأطغى من جميع الفرق الكفرية ، أو أظلم وأطغى من مشركي العرب ، وإنما كانوا كذلك ، لأنهم عتوا على الله بالمعاصي مع طول مدة دعوة نوح لهم ، كما في قوله : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ [العنكبوت : 14] ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ الائتفاك : الانقلاب ، والمؤتفكة : مدائن قوم لوط ، وسميت المؤتفكة لأنها انقلبت بهم وصار عاليها سافلها ، تقول : أفكته : إذا قلبته ، ومعنى أهوى : أسقط ، أي : أهواها جبريل بعد أن رفعها .

قال المبرد : جعلها تهوي .

﴿ فغشاها مَا غشى ﴾ أي : ألبسها ما ألبسها من الحجارة التي وقعت عليها ، كما في قوله : ﴿ فَجَعَلْنَا عاليها سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر : 74] وفي هذه العبارة تهويل للأمر الذي غشاها به ، وتعظيم له ، وقيل : إن الضمير راجع إلى

جميع الأمم المذكورة ، أي : فغشاها من العذاب ما غشّى على اختلاف أنواعه .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكَ تتمارى ﴾ هذا خطاب للإنسان المكذب ، أي : فبأي نعم ربك أيها الإنسان المكذب تشكك وتمتري ، وقيل : الخطاب لرسول الله تعريضاً لغيره ، وقيل : لكلّ من يصلح له ، وإسناد فعل التماري إلى الواحد باعتبار تعدّده بحسب تعدد متعلقه ، وسمى هذه الأمور المذكورة آلاء ، أي : نعماً مع كون بعضها نقماً لا نعماً ؛ لأنها مشتملة على العبر والمواعظ ، ولكون فيها انتقام من العصاة ، وفي ذلك نصرة للأنبياء والصالحين .

(126/734)

قرأ الجمهور ﴿ تتمارى ﴾ من غير إدغام ، وقرأ يعقوب ، وابن محيصن بإدغام إحدى التاءين في الأخرى .

﴿ هذا نَذِيرٌ مِّنَ النذر الاولى ﴾ أي : هذا محمد رسول إليكم من الرسل المتقدّمين قبله ، فإنه أنذركم ، كما أنذروا قومهم ، كذا قال ابن جريج ، ومحمد بن كعب ، وغيرهما .

وقال قتادة : يريد القرآن ، وأنه أنذر بما أنذرت به الكتب الأولى ، وقيل : هذا الذي أخبرنا به عن أخبار الأمم تخويف لهذه الأمة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك ، كذا قال أبو مالك .

وقال أبو صالح : إن الإشارة بقوله : ﴿ هذا ﴾ إلى ما في صحف موسى ، وإبراهيم ،

والأوّل أولى .

﴿ أَزِفَتِ الازفة ﴾ أي : قربت الساعة ودنت ، سماها آزفة لقرب قيامها ، وقيل : لدنوّها من الناس ، كما في قوله : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ [القمر : 1] أخبرهم بذلك ليستعدّوا لها .

قال في الصحاح : أزفت الآزفة : يعني : القيامة ، وأزف الرجل : عجل ، ومنه قول الشاعر :

أزف الترحل غير أن ركابنا . . . لما تزل برحالنا وكأن قد

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أي : ليس لها نفس قادرة على كشفها عند وقوعها إلاّ الله سبحانه ، وقيل : كاشفة بمعنى انكشاف ، والهاء فيها كالهاء في العاقبة والداهية ، وقيل : كاشفة بمعنى كاشف ، والهاء للمبالغة كرواية ، والأوّل أولى .

وكاشفة صفة لموصوف محذوف ، كما ذكرنا ، والمعنى : أنه لا يقدر على كشفها إذا غشت الخلق بشدائدها ، وأهوالها أحد غير الله ، كذا قال عطاء ، والضحاك ، وقتادة ، وغيرهم .

ثم وبّخهم سبحانه ، فقال : ﴿ أَفَمِنْ هذا الحديث تَعْجَبُونَ ﴾ المراد بالحديث : القرآن ، أي : كيف تعجبون منه تكذيباً ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ منه استهزاءً مع كونه غير محلّ للتكذيب ، ولا موضع للاستهزاء ﴿ وَلاَ تَبْكُونَ ﴾ خوفاً وانزجاراً لما فيه من الوعيد الشديد ، وجملة : ﴿ وَأَنتُمْ سامدون ﴾ في محل نصب على الحال ، ويجوز أن تكون مستأنفة لتقرير ما فيها ، والسمود : الغفلة والسهو عن الشيء ، وقال في الصحاح : سمد سموداً .

رفع رأسه تكبراً ، فهو سامد ، قال الشاعر :

سوامد الليل خفاف الأزواد . . . وقال ابن الأعرابي : السمود : اللهو ، والسامد : اللاهي ، يقال للقينة : أسمدينا ، أي : ألهينا بالغناء ، وقال المبرد : سامدون ، خامدون .

قال الشاعر :

رمى الحدثان نسوة آل عمرو . . . بمقدار سمدن له سمودا

فردّ شعورهنّ السود بيضا . . . وردّ وجوههنّ البيض سودا

﴿ فاسجدوا لِلَّهِ واعبدوا ﴾ لما وبّخ سبحانه المشركين على الاستهزاء بالقرآن ، والضحك منه ، والسخرية به ، وعدم الانتفاع بمواعظه وزواجره ، أمر عباده المؤمنين بالسجود لله ، والعبادة له ، والفاء جواب شرط محذوف ، أي : إذا كان الأمر من الكفار كذلك ، فاسجدوا لله واعبدوا ، فإنه المستحق لذلك منكم ، وقد تقدم في فاتحة السورة

أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد عند تلاوة هذه الآية ، وسجد معه الكفار ، فيكون المراد بها سجود التلاوة ، وقيل : سجود الفرض .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أغنى وأقنى ﴾ قال : أعطى وأرضى .

وأخرج ابن جرير عنه ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشعرى ﴾ قال : هو الكوكب الذي يدعى الشعرى .

وأخرج الفاكهي عنه أيضاً قال : نزلت هذه الآية في خزاعة ، وكانوا يعبدون الشعرى ، وهو الكوكب الذي يتبع الجوزاء .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في قوله : ﴿ هذا نَذِيرٌ مّنَ النذر الأولى ﴾ قال : محمد صلى الله عليه وسلم .

(128/734)

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : الآزفة من أسماء القيامة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد في الزهد ، وهناد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن صالح أبي الخليل قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ أَفَمِنْ هذا الحديث تَعْجَبُونَ *

وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ ﴾ فما ضحك النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إلاّ أن يتبسم .

ولفظ عبد بن حميد : فما رؤي النبيّ صلى الله عليه وسلم ضاحكاً ، ولا متبسماً حتى ذهب من الدنيا .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ سامدون ﴾ قال : لاهون معرضون عنه .

وأخرج الفريابي ، وأبو عبيد في فضائله ، وعبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي ، والبزار ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في سننه عنه : ﴿ وَأَنتُمْ سامدون ﴾ قال : الغناء باليمانية ، كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا .

وأخرج الفريابي ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه أيضاً في قوله : ﴿ سامدون ﴾ قال : كانوا يمرّون على النبيّ صلى الله عليه وسلم شامخين ، ألم تر إلى البعير كيف يخطر شامخاً .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير عن أبي خالد الوالبي قال : خرج عليّ بن أبي طالب علينا ، وقد أقيمت الصلاة ، ونحن قيام ننتظره ليتقدّم ، فقال : ما لكم سامدون ، لا أنتم في صلاة ولا أنتم في جلوس تنتظرون ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 119.116 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى ﴿ واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ [البقرة : 48] الآية ، وفي غير ذلك من المواضع .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (27)

وقد قدمنا الآيات الموضحة في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثاً ﴾ [الزخرف : 19] ، وفي غير ذلك من المواضع .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (31)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأحقاف في الكلام على قوله تعالى ﴿ مَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الأحقاف : 3] ، وفي سورة الذاريات في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [

الذاريات : 56] .

قوله تعالى : ﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإثم والفواحش إِلاَّ اللمم ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الشورى في الكلام على قوله تعالى : ﴿ والذين يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإثم والفواحش وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى : 37] .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تزكوا أَنفُسَكُمْ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ الله يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : 49] ، وفي غير ذلك من المواضع .

(130/734)

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33)

قوله ﴿ تَوَلَّى ﴾ : أي رجع وأدبر عن الحق . وقوله : ﴿ وأعطى قَلِيلا ﴾ ، قال بعضهم قليلاً من المار . وقال بعضهم : أعطى قليلاً من الكلام الطيب . وقوله : ﴿ وأكدى ﴾ أي قطع ذلك العطاء ولم يتمه ، وأصله من أكدى صاحب الحفر . إذا انتهى في حفرة إلى صخرة

لا يقدر على الحفر فيها ، وأصله من الكدية وهي الحجار تعترض حافر البئر ونحوه فتمنعه الحفر ، وهذا الذي أعطى قليلاً وأكدى ، اختلف فيه العلماء ، فقيل هو الوليد بن المغيرة قارب أن يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم فعيَّره بعض المشركين ، فقال : أرتكت دين الأشياخ وضللتهم ؟ قال : إني خشيت عذاب الله ، فضمن له الذي عاتبه إن هو أعطاه كذا من ماله ورجع إلى شركه أيتحمل عنه عذاب الله ، فرجع الوليد إلى الشرك وأعطى الذي غيَّره بعض ذلك المال الذي ضمن ومنعه ثمامة . فأنزل الله عز وجل الآيات .

وعلى هذا فقوله : ﴿ تَوَلَّى ﴾ : أي الوليد عن الإسلام بعد أن قارب ، وأعطى قليلاً من المال للذي ضمن له أن يتحمل عنه ذنوبه . ﴿ وأكدى ﴾ : أي بخل عليه بالباقي ، وقيل أعطى قليلاً من الكلام الطيب كمدحه للقرآن ، واعترافه بصدق النبي صلى الله عليه وسلم ، وأكدى أي انقطع عن ذلك ورجع عنه . وقيل : هو العاص بن وائل السهمي ، كان ربما وافق النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأمور ، وذلك هو معنى إعطائه القليل ثم انقطع عن ذلك ، وهو معنى إكدائه ، وهذا قول السدي ولم ينسجم مع قوله بعده : ﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الغيب ﴾ الآية .

وعن محمد بن كعب القرظي أنه أبو جهل ، قال : والله ما يأمرنا محمد صلى الله عليه وسلم إلا بمكارم الأخلاق ، وذلك معنى غعطائه قليلاً ، وقطعه لذلك معروف .

واتصر الزمخشري على أنه عثمان بن عفان رضي الله عنه ، قال : روي أن عثمان بن عفان كان يعطي ماله في الخير فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وهو أخوه من الرضاعة : يوشك ألا يبقى لك شيء . فقال عثمان : إن لي ذنوباً وخطايا ، وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى ، وأرجوا عفوه ، فقال عبد الله : أعطني ناقتك برحلها ، وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها ، فأعطاه وأشهد عليه ، وأمسك عن العطاء فنزلت الآية .

ومعنى تولى ترك المركز يوم أحد ، فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل . انتهى منه .

ولا يخفى سقوط هذا القول وبطلانه ، وأنه غير لائق بمنصب أمي المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة سبعة أمور .

الأول : إنكار علم الغيب المدلول عليه بالهمزة في قوله : ﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الغيب ﴾ والمراد نفي علمه للغيب .

الثاني : أن لكل من إبراهيم وموسى صحفاً لم ينبأ بما فيها هذا الكافر .

الثالث : أن إبراهيم وفَّى أي أتم القيامة بالتكاليف التي كلفه ربه بها .

الخامس : أن فيها أيضاً أنه ليس للإنسان إلا ما سعى .

السادس : أن سعيه سوف يُرى .

السابع : أنه يجزاه جزاء الأوفى ، أي الأكل الأتم .

وهذه الأمور السبعة قد جاءت كلها موضحة في غير هذا الموضع .

أما الأول منها ، وهو عدم علمهم الغيب ، فقد ذكره تعالى في مواضع كثيرة كقوله تعالى : ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الغيب فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الطور : 41 والقلم : 47] . وقوله : ﴿ أَطَّلَعَ الغيب أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ﴾ [مريم : 78] . وقوله ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغيب ﴾ [آل عمران : 179] وقوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن : 26 - 27] وقوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السماوات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾ [النمل : 65] والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة ، وقد قدمناها مراراً .

(132/734)

والثاني : الذي هو أن لإبراهيم وموسى صحفاً لم يكن هذا المتولي المعطي قليلاً المكدي عالماً بها ، ذكره تعالى في قوله : ﴿ إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى (*) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وموسى ﴾ [الأعلى : 18 - 19] .

والثالث : منها وهو إبراهيم وفي تكاليفه ، فقد ذكره تعالى في قوله : ﴿ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ

رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: 124] ، وقد قدمنا أن الأصح في الكلمات التي ابتلى بها أنها التكاليف.

وأما الرابع منها: وهو أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، فقد ذكره تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ اتبعوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [العنكبوت: 12] وقوله تعالى ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ﴾ [فاطر: 18].

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا، والجواب عما يرد عليها من الإشكال، في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: 15] وذكرنا وجه الجمع بين الآيات الواردة في ذلك في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: 25].

وأما الخامس منها : وهو أنه ليس للإنسان إلا ما سعى ، فقد جاء موضحاً في آيات من كتاب الله ، كقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : 7] الآية . وقوله : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : 46] الآية وقوله : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : 44] والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ يدل على أن الإنسان لا يستحق أجراً إلا على ما سعيه بنفسه ، ولم تتعرض هذه الآية لانتفاعه بسعي غيره بنفي ولا إثبات ، لأن قوله : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ قد دلت اللام فيه على أنه لا يستحق ولا يملك شيئاً إلا بسعيه ، ولم تتعرض لنفي الانتفاع بما ليس ملكاً له ولا مستحقاً له .

وقد جاءت آية من كتاب الله تدل على أن الإنسان قد ينتفع بسعي غيره وهي قوله تعالى ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا آلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الطور : 21] .

وقد أوضحنا وجه الجمع بين قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ وبين قوله : ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ﴾ الآية . في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في سورة النجم ، وقلنا فيه ما نصه والجواب من ثلاثة أوجه :

الأول : أن الآية إنما دلت على نفي ملك الإنسان لغير سعيه ، ولم تدل على نفي انتفاعه

بسعي غيره ، لأنه لم يقل : وأن لن ينتفع الإنسان إلا بما سعى ، وإنما قال وأن ليس للإنسان ، وبين الأمرين فرق ظاهر ، لأن سعي الغير ملك لساعيه إن شاء بذله لغيره فانتفع به ذلك الغير ، وإن شاء أبقاه لنفسه .

(134/734)

وقد أجمع العلماء على انتفاع الميت بالصلاة عليه والدعاء له والحج عنه ونحو ذلك ما ثبت الانتفاع بعمل الغير فيه .

الثاني : أن إيمان الذرية هو السبب الأكبر في رفع درجاتهم ، إذ لو كانوا كفاراً لما حصل لهم ذلك . فإيمان العبد وطاعته سعي منه في انتفاعه بعمل غيره من المسلمين ، كما وقع في الصلاة في الجماعة ، فإن صلاة بعضهم مع بعض يتضاعف بها الأجر زيادة على صلاته منفرداً ، وتلك المضاعفة انتفاع بعمل الغير سعى فيه المصلي بإيمانه وصلاته في الجماعة ، وهذا الوجه يشير إليه قوله تعالى : ﴿ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ﴾ .

الثالث : أن السعي الذي حصل به رفع درجات الأولاد ليس للأولاد كما هو نص قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ [النجم : 39] ولكن من سعي الآباء فهو سعي للآباء أقر الله عيونهم بسببه ، بأن رفع إليهم أولادهم ليتمتعوا في الجنة برؤيتهم .

فالآية تصدق الأخرى ولا تنافيها ، لأن المقصود بالرفع إكرام الآباء لا الأولاد ، فانتفاع الأولاد تبع فهو بالنسبة إليه تفضل من الله عليهم بما ليس لهم ، كما تفضل بذلك على الولدان والحور العين ، والخلق الذين ينشؤهم للجنة . والعلم عند الله تعالى . اه منه .

والأمر السادس والسابع : وهما أن عمله سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، فقد جاءا موضحين في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ والوزن يَوْمَئِذٍ الحق فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأولئك هُمُ المفلحون وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأولئك الذين خسروا أَنْفُسَهُم ﴾ [الأعراف : 8 - 9] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7 - 8] .

(135/734)

وقوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكفى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : 47] .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقرأ كِتَابَكَ كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾

[الإسراء : 13 - 14] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فَهُوَ يرى ﴾ أي يعلم ذلك الغيب ، والآية تدل على أن سبب النزول لا يخلو من إعطاء شيء في مقابلة تحمل الذنوب عمن أعطى لأن فاعل ذلك ليس عنده علم الغيب ، فيعلم به أن الذي ضمن له تحمل ذنوبه بفعل ذلك ، ولم ينبأ بما في الصحف الأولى ، من أنه لا تزر وازرة وزر أخرى أي لا تتحمل نفس ذنب نفس أخرى .

وقد قدمنا تفسيره موضحاً في سورة بني إسرائيل ، وأنه لا يملك الإنسان ولا يستحق إلا سعي نفسه ، وقد اتضح بذلك أنه لا يمكن أن يتحمل إنسان ذنوب غيرهن وقد دلت على ذلك آيات كثيرة معلومة .

وقال أبو حيان في البحر : أفرأيت بمعنى أخبرني ، والمفعول الأول هو الموصول وصلته .

والمفعول الثاني هو جملة ﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الغيب فَهُوَ يرى ﴾ .

وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه خلق الزوجين أي النوعين الذكر والأنثى من نطفة ، وهي نطفة المني إذا تمنى أي تصب وتراق في الرحم ، على أصح القولين .

ويدل قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخالقون ﴾ [الواقعة : 58 - 59] وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ﴾ [القيامة : 37] .

والعرب تقول : أمنى الرجل ومني إذا أراق المني وصبه .

وقال بعض العلماء : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تمنى ﴾ أي تقدر بأن يكون الله قدر أن ينشأ منها حمل ، ومن قول العرب :

منى الماني إذا قدر . ومن هذا المعنى قول أبي قلابة الهذلي ، وقيل سويد بن عامر المصطلقي :

لا تأمن الموت في حل وفي حرم . . . إن المنايا توافي كل إنسان

واسلك سبيلك فيها غير محتشم . . . حتى تلاقي ما يمني لك الماني

وقد قدمنا الكلام على النطفة مستوفىً من جهات في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [النحل : 4] الآية . وفي سورة الحج في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث ﴾ [الحج : 5] ، وفي كل من الموضعين زيادة ليست في الآخر . وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الاستدلال بخلق النوعين ، أعني الذكر والأنثى من النطفة جاء موضحاً في غير هذا الموضع ، وأنه يستدل به على أمرين : هما قدرة الله على البعث ، وأنه ما خلق الإنسان إلا ليكلفه ويجازيه ، وقد جمع الأمرين قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ثُمَّ

كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فسوى فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أَنْ يُحْيِيَ الموتى ﴾ [القيامة : 36 – 46] فذكر دلالة ذلك على البعث في قوله : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أَنْ يُحْيِيَ الموتى ﴾ ، وذكر أنه ما خلقه ليهمله من التكليف والجزاء ، منكراً على من ظن ذلك بقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أي مهملاً من التكليف والجزاء .

وقد قدمنا بعض الكلام على هذا في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ مِنَ المآء بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ [الفرقان : 54] .

وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (47)

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، وأحلنا عليها مراراً كثيرة .

(137/734)

وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51)

وقد قدمنا الآيات الموضحة لما أهلك به عاداً ، والآيات الموضحة لما أهلك به ثمود في سورة فصلت في قوله تعالى في الكلام في شأن عاد : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ [فصلت : 16] الآية . وقوله في شأن ثمود : ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ العذاب الهون ﴾ [

فصلت : 17] الآية .

قوله : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولى ﴾ أي وأهلك قوم نوح ولم يبين هنا كيفية إهلاكهم ، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر من كتاب كقوله تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرسل أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ [الفرقان : 37] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطوفان وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : 14] .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء : 77] .

وقوله تعالى : ﴿ مِّمَّا خطيائاتهم أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ [نوح : 5] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذين ظلموا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود : 37 والمؤمنون : 27] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون قوم نوح أظلم وأطغى ، أي أشد ظلماً وطغياناً من غيرهم ، قد بينه تعالى في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دعائي إِلاَّ فِرَاراً وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعلوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ واستغشوا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ واستكبروا استكبارا ﴾ [نوح : 5 - 7] .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي واتبعوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً ﴾ [نوح : 21- 22] - إلى قوله - ﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً ﴾ نوح : 24] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يلدوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح : 27] .

وقوله : ﴿ وَيَصْنَعُ الفلك وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ [هود : 38] .

ومن أعظم الأدلة على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ [العنكبوت : 14] لأن قوماً لم يتأثروا بدعوة نبي كريم ناصح في هذا الزمن الطويل ، لا شك أنهم أظلم الناس وأطغاهم .

وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53)

المؤتفكة ، مفتعلة من الإفك ، وهو القلب والصرف ، والمراد بها قرى قوم لوط بدليل قوله في غير هذا الموضع : ﴿ والمؤتفكات ﴾ [التوبة : 70 والحاقة : 9] بالجمع . فهو من إطلاف المفرد وإرادة الجمع كما أوضحناه مراراً ، وأكثرنا من أمثلته في القرآن وفي كلام العرب وأحلنا عليه مراراً ، وإنما قيل لها : مؤتفكة ، لأن جبريل أفكها فأتفكت ، ومعن أفكها أنه رفعها نحو السماء ثم قلبها جاعلاً أعلاها أسفلها ، وجعل عاليها أسفلها ، هو

ائتفاكها وإفكها .

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في سورة هود في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً ﴾ [هود : 82] الآية .

وقوله تعالى في سورة الحجر : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر : 73 - 74] .

(139/734)

وقد بينا قصة قوم لوط في هود والحجر ، وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ أهوى ﴾ تقول العرب : هوى الشيء إذا انحدر من عال إلى أفل . وأهواه : غيره إذا ألقاه من العلو إلى السفل ، لأن الملك رفع قراهم ثم أهواها أي ألقاها تهوي إلى الأرض ، منقبلة أعلاها أسفلها

أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة النحل في الكلام على قوله تعالى ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ ، وفي سورة المؤمن في قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأزفة ﴾ [غافر : 18] الآية .

أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59)

قد قدمنا الآيات التي فيها إطلاق اسم الحديث على القرآن في سورة الطور . في الكلام على

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ [الطور : 34] آية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(140/734)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57) ﴾

تتنزل هذه الجملة من التي قبلها منزلة البيان للإِنذار الذي تضمّنه قوله : ﴿ هذا نذير ﴾ [النجم : 56] .

فالمعنى : هذا نذير بآزفة قربت ، وفي ذكر فعل القرب فائدة أخرى زائدة على البيان وهي أن هذا المنذَر به دَنا وقته ، فإنّ : أزف معناه : قَرب وحقيقته القرب المكان ، واستعير لقرب الزمان لكثرة ما يعاملون الزمان معاملة المكان .

والتنبيه على قرب المنذر به من كمال الإِنذار للبدار بتجنب الوقوع فيما ينذر به .

وجيء لفعل ﴿ أزفت ﴾ بفاعل من مادة الفعل للتهويل على السامع لتذهب النفس كل مذهب ممكن في تعيين هذه المحادثة التي أزفت ، ومعلوم أنها من الأمور المكروهة لورود ذكرها عقب ذكر الإِنذار .

وتأنيث ﴿ الأزفة ﴾ بتأويل الوقعة ، أو الحادثة كما يقال : نَزلت به نازلة ، أو وقعت الواقعة ، وغشيته غاشية ، والعرب يستعملون التأنيث دلالة على المبالغة في النوع ، ولعلهم راعوا أن الأنثى مصدر كثرة النوع .

والتعريف في ﴿ الأزفة ﴾ تعريف الجنس ، ومنه زيادة تهويل بتمييز هذا الجنس من بين الأجناس لأن في استحضاره زيادة تهويل لأنه حقيق بالتدبر في المخلَص منه نظير التعريف في ﴿ الحمد لله ﴾ [الفاتحة : 2] ، وقولهم : أرسلها العِراك .

والكلام يحتمل آزفة في الدنيا من جنس ما أُهلك به عاد وثمود وقوم نوح فهي استئصالهم يوم بدر ، ويحتمل آزفة وهي القيامة .

وعلى التقديرين فالقرب مراد به التحقق وعدم الانقلاب منها كقوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ [القمر : 1] وقوله : ﴿ إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ﴾ [المعارج : 6 ، 7] .

وجملة ﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ مستأنفة بيانية أو صفة ل ﴿ الأزفة ﴾ .

و ﴿ كاشفة ﴾ يجوز أن يكون مصدراً بوزن فاعلة كالعافية ، وخائنة الأعين ، وليس لوقعتها كاذبة .

والمعنى ليس لها كشف .

ويجوز أن يكون اسمَ فاعل قرن بهاء التأنيث للمبالغة مثل راوية ، وباقعة ، وداهية ، أي ليس لها كاشف قوي الكشف فضلاً عمن دونه .

والكشف يجوز أن يكون بمعنى التعرية مراد به الإِزالة مثل ويكشف الضر ، وذلك ضد ما يقال : غشية الضر .

فالمعنى : لا يستطيع أحد إزالة وعيدها غير الله ، وقد أخبر بأنها واقعة بقوله : ﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ كناية عن تحقق وقوعها .

ويجوز أن يكون الكشف بمعنى إزالة الخفاء ، أي لا يبين وقت الآزفة أحد له قدرة على البيان على نحو قوله تعالى : ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ [الأعراف : 187] .

فالمعنى : أن الله هو العالم بوقتها لا يعلمه أحد إلا إذا شاء أن يطلع عليه أحداً من رسله أو ملائكته .

و﴿ من دون الله ﴾ أي غير الله ، و ﴿ من ﴾ مزيدة للتوكيد ، وهو متعلق بالكون الذي ينوى في خبر ليس قوله : ﴿ لها ﴾ .

أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59)

تفريع على ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ [النجم : 56] وما عطف عليه ويُبيّن به من بيان أو صفة ، فرع عليه استفهام إنكار وتوبيخ .

والحديث : الكلام والخبر .

والإِشارة إلى ما ذكر من الإِنذار بأخبار الذين كذبوا الرسل ، فالمراد بالحديث بعض القرآن بما في قوله : ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ﴾ [الواقعة : 81] .

ومعنى العجب هنا الاستبعاد والإِحالة كقوله : ﴿ أتعجبين من أمر الله ﴾ [هود : 73] ، أو كناية عن الإنكار .

والضحك : ضحك الاستهزاء .

والبكاء مستعمل في لاَزمه من خشية الله كقوله تعالى : ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾ [الإسراء : 109] .

ومن هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين حيث حلوا بحجر ثمود في غزوة تبوك " لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم " أي ضارعين الله أن لا يصيبكم مثل ما أصابهم أو خاشين أن يصيبكم مثل ما أصابهم .

والمعنى : ولا تخشون سوء عذاب الإِشراك فتقلعوا عنه .

و ﴿ سامدون ﴾ : من السمود وهو ما في المرء من الإِعجاب بالنفس ، يقال : سمد البعير ، إذا رفع رأسه في سيره ، مُثل به حال المتكبر المعرض عن النصح المعجب بما هو فيه بحال البعير في نشاطه .

وقيل السمود : الغِناء بلغة حِمْير .

والمعنى : فرحون بأنفسكم تتغنون بالأغاني لقلة الاكتراث بما تسمعون من القرآن كقوله : ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾ [الأنفال : 35] على أحد تفسيرين .

وتقديم المجرور للقصر ، أي هذا الحديث ليس أهلاً لأن تقابلوه بالضحك والاستهزاء والتكذيب ولا لأن لا يتوب سامعه ، أي لو قابلتم بفعلكم كلاماً غيره لكان لكم شبهة في فعلكم ، فأمّا مقابلتكم هذا الحديث بما فعلتم فلا عذر لكم فيها .

فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62)

تفريع على الإِنكار والتوبيخ المفرعين على الإِنذار بالوعيد ، فرع عليه أمرهم بالسجود لله لأن ذلك التوبيخ من شأنه أن يعمق في قلوبهم فيكفّهم عما هم فيه من البطر والاستخفاف بالداعي إلى الله .

ومقتضى تناسق الضمائر أن الخطاب في قوله : ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ موجه إلى المشركين .

والسجود يجوز أن يراد به الخشية كقوله تعالى : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ والمعنى : أمرهم بالخضوع إلى الله والكف عن تكذيب رسوله وعن إعراضهم عن القرآن لأن ذلك كله استخفاف بحق الله وكان عليهم لما دُعوا إلى الله أن يتدبروا وينظروا في دلائل صدق الرسول والقرآن .

ويجوز أن يكون المراد سجود الصلاة والأمر به كناية عن الأمر بأن يُسلموا فإن الصلاة شعار الإسلام ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ﴾ [المدثر : 42 ، 43] ، أي من الذين شأنهم الصلاة وقد جاء نظيره الأمر بالركوع في قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ في سورة المرسلات (48) فيجوز فيه المحملان .

(143/734)

وعطف على ذلك أمرهم بعبادة الله لأنهم إذا خضعوا له حَقَّ الخضوع عبدوه وتركوا عبادة الأصنام وقد كان المشركون يعبدون الأصنام بالطواف حولها ومعرضين عن عبادة الله ، ألاَ ترى أنهم عمدوا إلى الكعبة فوضعوا فيها الأصنام ليكون طوافهم بالكعبة طوافاً بما فيها من الأصنام .

أو المراد : واعبدوه العبادة الكاملة وهي التي يُفرد بها لأن إشراك غيره في العبادة التي

يستحقها إلا هو كعدم العبادة إذ الإِشراك إخلال كبير بعبادة الله قال تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ﴾ [النساء : 36] .

وقد ثبت في الأخبار الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ النجم فسجد فيها أي عند قوله : ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ وسجد من كان معه من المسلمين والمشركين إلا شيخاً مشركاً (هو أمية بن خلف) أخذ كفًّا من تراب أو حصى فرفعه إلى جهته وقال : يكفيني هذا .

وروي أن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود كانا يسجدان عند هذه الآية في القراءة في الصلاة .

وفي "أحكام" ابن العربي أن ابن عمر سجد فيها ، وفي "الصحيحين" و "السنن" عن زيد بن ثابت قال : قرأت النجم عند النبي صلى الله عليه وسلم فلم يسجد فيها .

وفي "سنن ابن ماجه" عن أبي الدرداء "سجدت مع النبي صلى الله عليه وسلم إحدَى عشرة سجدة ليس فيها من المفصّل شيء" .

وعن أبي بن كعب : كان آخر فعل النبي صلى الله عليه وسلم ترك السجود في المفصّل .

وعن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسجد في المفصل منذ تحول إلى المدينة ، وسورة النجم من المفصَّل .

واختلف العلماء في السجود عند هذه الآية فقال مالك : سجدة النجم ليست من عزائم القرآن (أي ليست مما يسنّ السجود عندها .

(144/734)

هذا مراده بالعزائم وليس المراد أن من سجود القرآن عَزائمَ ومنه غيرُ عزائم ف (عزائم) وصف كاشف) ولم ير سجود القرآن في شيء من المفصل ، ووافقه أصحابه عدا ابن وهب قرآها من عزائم السجود ، هي وسجدة سورة الانشقاق وسجدة سورة العلق مثل قول أبي حنيفة .

وفي "المنتقى" : أنه قول ابن وهب وابن نافع .

وقال أبو حنيفة : هي من عزائم السجود .

ونسب ابن العربي في "أحكام القرآن" مثله إلى الشافعي ، وهو المعروف في كتب الشافعية والحنابلة .

وإنما سجد النبي صلى الله عليه وسلم فيها وإن كان الأمر في قوله : ﴿ فاسجدوا ﴾ مفرعاً على خطاب المشركين بالتوبيخ ، لأن المسلمين أولى بالسجود لله وليعضد الأمر القولي بالفعل ليبادر به المشركون .

وقد كان ذلك مذكراً للمشركين بالسجود لله فسجدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم نسخ السجود فيها بعد ذلك فلم يروَ عن النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة ، ولخبر زيد بن ثابت وأُبي بن كعب وعمل معظم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من أهل المدينة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(145/734)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون ﴾ [النجم : 59] قال عكرمة عن ابن عباس : السمود : الغناء في لغة حمير يقال : اسمدى لنا أي غنى لنا وقال أبو زبيد :

وكأن العزيف فيها غناء . . . للندامى من شارب مسمود

قال أبو عبيدة : المسمود : الذي غنى له وقال عكرمة : كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا فنزلت هذه الآية

وهذا لا يناقض ما قيل في هذه الآية من أن السمود الغفلة والسهو عن الشيء قال المبرد : هو

الاشتغال عن الشيء بهم أو فرح يتشاغل به وأنشد :

رمى الحدثان نسوة آل حرب . . . بمقدار سمدن له سمودا

وقال ابن الأنباري : السامد اللاهي والسامد الساهي والسامد المتكبر والسامد القائم

وقال ابن عباس في الآية : وأنتم مستكبرون وقال الضحاك أشرون بطرون وقال مجاهد :

غضاب مبرطمون وقال غيره : لاهون غافلون معرضون

فالغناء يجمع هذا كله ويوجبه فهذه أربعة عشر اسما سوى اسم الغناء . انتهى انتهى . اهـ

﴿ إغاثة اللهفان صـ 258 ﴾

(146/734)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42) ﴾

أخرج الدارقطني في الأفراد والبغوي في تفسيره عن أُبيّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ قال : لا فكرة في الرب ، وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن سفيان الثوري في قوله ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ قال : لا فكرة في الرب .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم على قوم يتفكرون في الله فقال : " تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فإنكم لن تقدرونه " .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا " .

وأخرج أبو الشيخ عن يونس بن مسيرة قال : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يذكرون عظمة الله تعالى ، فقال : " ما كنتم تذكرون " ؟ قالوا : كنا نتفكر في عظمة الله تعالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا في الله فلا تفكروا ثلاثاً ألا فتفكروا في عظم ما خلق ، ثلاثاً " " .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي أمية مولى شبرمة واسمه الحكم عن بعض أئمة الكوفة قال : " قال ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصد نحوهم فسكتوا ، فقال : " ما كنتم تقولون " ؟ قالوا : نظرنا إلى الشمس فتفكرنا فيها من أين تجيء ومن أين تذهب ، وتفكرنا في خلق الله ، فقال : "كذلك فافعلوا تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في الله فإن لله تعالى وراء المغرب أرضاً بيضاء بياضها ونورها مسيرة الشمس أربعين يوماً فيها خلق من خلق الله لم يعصوا الله طرفة عين " قيل : يا رسول الله من ولد آدم هم ؟ قال : " ما يدرون خلق آدم أم لم يخلق " قيل : يا نبي الله فأين إبليس عنهم ؟ قال : " لا يدرون خلق إبليس أم لم يخلق " " .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : " دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في المسجد حلق حلق ، فقال لنا : فيم أنتم ؟ قلنا : نتفكر في الشمس كيف طلعت ، وكيف غربت ؟ قال : " أحسنتم كونوا هكذا تفكروا في المخلوق ولا تفكروا في الخالق فإن الله خلق ما شاء لما شاء وتعجبون من ذلك إن من وراء (ق) سبع بحار كل بحر خمسمائة عام ، ومن وراء ذلك سبع أرضين يضيء نورها لأهلها ومن وراء ذلك سبعين ألف أمة خلقوا على أمثال الطير هو وفرخه في الهواء ، لا يفترون عن تسبيحة واحدة ومن وراء ذلك سبعين ألف أمة خلقوا من ريح ، فطعامهم ريح ، وشرابهم ريح ، وثيابهم من ريح ، وآنيتهم من ريح ، ودوابهم من ريح ، لا تستقر حوافرهم إلى الأرض إلى قيام الساعة ، أعينهم في صدروهم ينام أحدهم نومة واحدة ، ينتبه وعند رأسه رزقه ، ومن وراء ذلك ظل العرش ، وفي ظل العرش سبعون ألف أمة ما يعلمون أن الله خلق آدم ولا ولد آدم ولا إبليس ولا ولد إبليس ، وهو قوله تعالى ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ [النحل : 8] " " .

وأخرج ابن مردوية عن عائشة قالت : " مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم يضحكون فقال : " لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً ، فنزل عليه جبريل ،

فقال : إن الله ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ فرجع إليهم فقال : ما خطوت أربعين خطوة حتى أتاني جبريل ، فقال : ائت هؤلاء فقل لهم : " إن الله أضحك وأبكى " " .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة وابن مردوية عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " هبط آدم من الجنة بياقوتة بيضاء تمسح بها دموعه ، قال : وبكى آدم على الجنة أربعين عاماً ، فقال له جبريل : يا آدم ما يبكيك إن الله بعثني إليك معزياً ، فضحك آدم ، فذلك قول الله ﴿ هو أضحك وأبكى ﴾ فضحك آدم ، وضحكت ذريته وبكى آدم وبكت ذريته " .

(148/734)

وأخرج ابن أبي شيبة عن جبار الطائي قال : شهدت جنازة أم مصعب بن الزبير وفيها ابن عباس ، فسمعنا أصوات نوائح فقلت : عباس يصنع هذا وأنت ههنا ؟ فقال : دعنا عنك يا جبار فإن الله أضحك وأبكى .

وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (48)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ قال : أعطى وأرضى .

وأخرج الفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ أغنى ﴾ قال : أكثر ﴿ وأقنى ﴾ قال : قنع .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ أغنى وأقنى ﴾ قال : أغنى من الفقر وأقنى من الغنى فقنع به ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول عنترة العبسي :

فأقنى حياءك لا أبالك واعلمي . . . أني امرؤ سأموت إن لم أقتل

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : أغنى أرضى وأقنى موّن .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح في قوله ﴿ أغنى وأقنى ﴾ قال : غنى بالمال وأقنى من القنية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة والضحاك مثله .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الحضرمي في قوله ﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ قال : أغنى نفسه وأفقر الخلائق إليه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ قال : هو الكوكب الذي يدعى الشعرى .

وأخرج الفاكهي عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في خزاعة ، وكانوا يعبدون الشعرى وهو الكوكب الذي يتبع الجوزاء .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد قال : الشعرى الكوكب الذي خلف الجوزاء كانوا يعبدونه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال : كان ناس في الجاهلية يعبدون هذا النجم الذي يقال له : الشعرى فنزلت .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴾ قال : كانت الآخرة بحضرموت .

(149/734)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾ قال : لم يكن قبيل من الناس هم أظلم وأطغى من قوم نوح ، دعاهم نوح ألف سنة إلا خمسين عاماً كلما هلك قرن ونشأ قرن دعاهم ، حتى لقد ذكر لنا أن الرجل كان يأخذ بيد أخيه أو ابنه فيمشي إليه فيقول : يا بني إن أبي قد مشى بي إلى هذا وأنا مثلك يومئذ . تتابعاً في الضلالة وتكذيباً بأمر الله عز وجل .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ قال : أهوى بها جبريل بعد أن رفعها إلى السماء .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في قوله ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ قال : قوم لوط ائتفكت بهم الأرض بعد أن رفعها الله إلى السماء ، فالأرض تجلجل بها إلى يوم القيامة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ قال : قرى قوم لوط ﴿ فغشاها ما غشى ﴾ قال : الحجارة ﴿ فبأي آلاء ربك ﴾ قال : فبأي نعم ربك .

وأخرج ابن جرير عن أبي مالك الغفاري في قوله ﴿ أن لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ إلى قوله ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ قال : محمد صلى الله عليه وسلم أنذر ما أنذر الأولون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ قال : إنما بعث محمد بما بعث به الرسل قبله ، وفي قوله ﴿ أزفت الآزفة ﴾ قال : الساعة ﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ أي رادة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الآزفة من أسماء يوم القيامة .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ أزفت الآزفة ﴾ قال : اقتربت الساعة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ أزفت الآزفة ﴾ قال : اقتربت الساعة ﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ قال : لا يكشف عنها إلا هو .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في الآية قال : ليس لها من دون الله من آلهتهم كاشفة .

أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59)

(150/734)

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ أفمن هذا الحديث ﴾ قال : القرآن .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن صالح أبي الخليل قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون ﴾ فما ضحك النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إلا أن يتبسم ولفظ عبد بن حميد فما رؤي النبي صلى الله عليه وسلم ضاحكاً ولا متبسماً حتى ذهب من الدنيا .

وأخرج ابن مردوية عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون ﴾ فما رؤي النبي صلى الله عليه وسلم بعدها ضاحكاً حتى ذهب من الدنيا .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال : لما نزلت ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون ﴾ بكى أصحاب الصَّفَّة حتى جرت دموعهم على

خدودهم ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينهم بكى ، فبكينا ببكائه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يلج النار من بكى من خشية الله ، ولا يدخل الجنة مصر على معصية الله ، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيغفر لهم " .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ سامدون ﴾ قال : لاهون معرضون عنه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ وأنتم سامدون ﴾ قال : غافلون .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وأبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله ﴿ وأنتم سامدون ﴾ قال : الغناء باليمانية كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة في قوله ﴿ سامدون ﴾ قال : هو الغناء بالحميرية .

وأخرج الفريابي وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ سامدون ﴾ قال : كانوا يمرون على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي شامخين ، ألم تر إلى البعير كيف يخطر شامخاً .

وأخرج الطستي في مسائله والطبراني عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ سامدون ﴾ قال : السمود اللهو والباطل ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول هزيلة بنت بكر وهي تبكي قوم عاد :

ليت عاداً قبلوا الحق . . . ولم يبدوا حجوداً

قيل قم فانظر إليهم . . . ثم دع عنك السمودا

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ سامدون ﴾ قال : غضاب مبرطمون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير من طريق منصور عن إبراهيم قال : كانوا يكرهون أن يقوم القوم ينتظرون الإِمام وكان يقال ذاك من السمود أو هو السمود ، وقال منصور : حين يقوم المؤذن فيقومون ينتظرون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير من طريق سعيد بن أبي عروبة عن أبي معشر عن النخعي أنه كان يكره أن يقوم إذا أقيمت الصلاة حتى يجيء الإِمام ويقرأ هذه الآية ﴿ وأنتم سامدون ﴾ قال سعيد : وكان قتادة يكره أن يقوم حتى يجيء الإِمام ولا يفسر هذه الآية

على ذا .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن أبي خالد الوالبي قال : خرج علي بن أبي طالب علينا وقد أقيمت الصلاة ونحن قيام ننتظره ليتقدم ، فقال : ما لكم سامدون لا أنتم في صلاة ولا أنتم جلوس منتظرون ؟ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ قال : أعنتوا هذه الوجوه لله وعفروها في طاعة الله .

وأخرج البخاري والترمذي وابن مردويه عن ابن عباس قال : سجد النبي صلى الله عليه وسلم في النجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإِنس .

وأخرج أحمد والنسائي وابن مردوية عن المطلب بن أبي وداعة قال : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ﴿ والنجم ﴾ فسجد وسجد من معه .

(152/734)

وأخرج سعيد بن منصور عن سبرة قال : صلى بنا عمر بن الخطاب الفجر فقرأ في الركعة الأولى سورة يوسف ، ثم قرأ في الثانية النجم ، فسجد ثم قام فقرأ إذا زلزلت ثم ركع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ 662 . 668 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ والنجم إذَا هوى ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنه : أقسم الله تعالى بالقرآن ، إذا نزل نجوماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتاً بعد وقت .

الآية ، والآيتان ، والسورة ، والسورتان ، وكان بين أوله وآخره إحدى وعشرون سنة .

قال مجاهد : أقسم الله بالثريا إذا غابت ، وسقطت .

والعرب تسمي الثريا : نجماً .

ويقال : أقسم بالكواكب المضيئة .

ويقال : أقسم بجميع الكواكب .

﴿ مَا ضَلَّ صاحبكم ﴾ وذلك أن قريشاً قالوا له : قد تركت دين آبائك ، وخرجت من الطريق ؛ وتقول شيئاً من ذات نفسك فنزل : ﴿ والنجم إذَا هوى ﴾ ﴿ مَا ضَلَّ صاحبكم ﴾ يعني : ما ترك دين أبيه إبراهيم ﴿ وَمَا غوى ﴾ يعني : لم يضل قوماً .

والغاوي والضال واحد .

يقال : الضلال : قبل البيان .

والفساد ؛ بعد البيان .

قرأ حمزة والكسائي : ﴿ إِذَا هوى ﴾ ﴿ وَمَا غوى ﴾ كله بالإمالة في جميع السورة .

وقرأ نافع وأبو عمرو : بين الإمالة ، والفتح في جميع السورة .

والباقون : بالتخفيف .

وكل ذلك جائز في اللغة .

ثم قال : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ يعني : ما ينطق بهذا القرآن بهوى نفسه ، والعرب تجعل عن مكان الباء .

تقول : رميت عن القوس ، أي : بالقوس ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ أي : بالهوى ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يوحى ﴾ يعني : ما هذا القرآن إلا وحي يوحى إليه ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى ﴾ يعني : أتاه جبريل عليه السلام ، وعلمه ، وهو ﴿ شَدِيدُ القوى ﴾ وأصله في اللغة ، من قوى الجبل ، وهو طاقاته ، والواحد قوة .

ويقال : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى ﴾ يعني : الله تعالى يعلمه بالوحي وهو ذو القوة المتين .

قوله عز وجل : ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ يعني : ذي قوة .

وأصل المرة : القتل ، فيعبر به عن القوة .

ومنه الحديث : " لاتَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيَ وَلا لِذِي مَرَّةٍ سَوِيٍ " .

ثم قال عز وجل : ﴿ فاستوى ﴾ يعني : جبريل عليه السلام .

(154/734)

ويقال : ﴿ فاستوى ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ وَهُوَ بالافق الاعلى ﴾ يعني : من قبل مطلع الشمس جبريل ، فرآه على صورته ، وله جناحان ، أحدهما بالمشرق ، والآخر بالمغرب .

﴿ ثُمَّ دَنَا فتدلى ﴾ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكل ما دنا منه ، انتقص حتى إذا قرب منه مقدار قوسين ، رآه كما في سائر الأوقات ، حتى لا يشك جبريل ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ يعني : في القرب مقدار قوسين .

وقال بعضهم : ليلة المعراج ، دنا من العرش مقدار قوسين ، وإنما ذكر القوسين لأن القرآن نزل بلغة العرب ، والعرب تجعل مساحة الأشياء بالقوس .

ويقال : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ يعني : قدر ذراعين ، وإنما سمي الذراع قوساً ، لأنه تقاس به الأشياء .

﴿ أَوْ أدنى ﴾ يعني : بل أدنى .

ويقال : أو بمعنى واو العطف .

يعني : مقدار قوسين أو أقرب من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ مَا أوحى ﴾ يعني : أوحى الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقرأ عليه جبريل ما قرأ .

ويقال : تكلم مع عبده ليلة المعراج ما تكلم .

ويقال : أمر عبده بما أمر .

ثم قال : ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾ يعني : ما كذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ما رأى بصره من أمر ربه في رؤية جبريل عليه السلام .

ويقال : في رؤية الله تعالى بقلبه .

قال محمد بن كعب القرظي ، والربيع بن أنس ، سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل رأيت ربك : فقال : رأيته بفؤادي .

ولم أره بعيني ، قرأ الحسن ما كذَّب بتشديد الذال وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس ومعناه لم يجعل الفؤاد رؤية العين كذباً .

والباقون : بالتخفيف .

يعني : ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم فيما رأى .

ثم قال عز وجل : ﴿ أفتمارونه على مَا يرى ﴾ قرأ حمزة : ﴿ أفتمارونه ﴾ بنصب التاء

، وجزم الميم بغير ألف .

وهكذا روي عن ابن مسعود ، وابن عباس رضي الله عنهما ، ومعناه : أفتجحدونه فيما رأى .

(155/734)

والباقون : ﴿ أفتمارونه ﴾ يعني : أفتجادلونه لأنه رأى من آيات ربه الكبرى .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ رَءاهُ نَزْلَةً أُخرى ﴾ يعني : لقد رأى جبريل مرة أخرى .

وروي عن كعب الأحبار أنه قال : رأى ربه مرة ، فقال : إن الله كلم موسى مرتين ، ورأى محمداً مرتين ، فبلغ ذلك إلى عائشة رضي الله عنها ، وعن أبيها ، فقالت : قد اقشعر جلدي من هيبة هذا الكلام ؛ فقيل لها : يا أم المؤمنين أليس يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءاهُ نَزْلَةً أُخرى ﴾ فقالت : أنا سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال : رأيت جبريل نازلاً في الأفق على خلقته ، وصورته .

ويقال : ﴿ وَلَقَدْ رَءاهُ نَزْلَةً أُخرى ﴾ يعني : رآه بفؤاده وأكثر المفسرين يقولون : إن المراد به جبريل .

يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم لما رجع من عند ربه ليلة أسري به ، رأى جبريل .

﴿ عِندَ سِدْرَةِ المنتهى ﴾ فقال مقاتل : السدرة هي شجرة طوبى ، ولو أن رجلاً ركب نجيبه ، وطاف على ساقها حتى أدركه الهرم ، لما وصل إلى المكان الذي ركب منه ، تحمل لأهل الجنة الحلي والحلل ، وجميع ألوان الثمار .

ويقال : هي شجرة غير شجرة طوبى ، وهي شجرة عن يمين العرش فوق السماء السابعة ، تخرج أنهار الجنة من أصل تلك الشجرة .

وإنما سميت ﴿ سِدْرَةِ المنتهى ﴾ لأن أرواح المؤمنين تنتهي إليها .

ويقال : أرواح الشهداء تنتهي إليها .

ويقال : الملائكة ينتهون إليها ، ولا يجاوزنها .

ويقال : لأن علم كل واحد ينتهي إليها ، ولا يتجاوزنها ، ولا يدري ما فوق ذلك .

وروي عن طلحة بن مطرف ، عن مرة ، عن عبد الله قال : لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به إلى سدرة المنتهى ، وإليها ينتهي ما عرف من تحتها ، وإليها ينتهي ما هبط من فوقها ، وهي النهاية التي ينتهي إليها من فوق ، ومن تحت ، ولا يتجاوز عن ذلك .

ثم قال عز وجل : ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ المأوى ﴾ وإنما سميت المأوى لأنه يأوي إليها أرواح الشهداء .

قرأ سعد بن أبي وقاص ، وعائشة رضي الله عنهما : ﴿ جَنَّةُ المأوى ﴾ بالتاء .

وقيل لسعد : إن فلاناً يقرأ عندها ﴿ جَنَّةُ المأوى ﴾ بالهاء .

قال سعد : ما له أجنه الله .

وعن أبي العالية قال : سألني ابن عباس : كيف تقرأها يا أبي العالية ؟ قال : قلت له جنة .

قال : صدقت هي مثل قوله : ﴿ جنات المأوى ﴾ .

وقراءة العامة ﴿ جَنَّةُ ﴾ وهي من جنات .

ثم قال : ﴿ إِذْ يغشى السدرة مَا يغشى ﴾ يعني : يغشاها من الملائكة ما يغشى .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل ماذا يغشى ؟ قال : جراد من ذهب .

ويقال : فراش من ذهب .

وقال الحسن : يغشاها نور مثل الجراد من ذهب .

ثم قال : ﴿ مَا زَاغَ البصر ﴾ يعني : ما مال ، وما عدل بصر محمد صلى الله عليه وسلم عما رأى ﴿ وَمَا طغى ﴾ وما تعدى ، وما جاوز إلى غيره .

ويقال : ﴿ وَمَا طغى ﴾ يعني : وما ظلم صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما رأى تلك الليلة التي عرج به إلى السماء ﴿ لَقَدْ رأى مِنْ ءايات رَبِّهِ الكبرى ﴾ وهو الرفرف الأخضر ، قد غطى الأفق ، فجلس عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وجاوز سدرة

المنتهى .

وقال ابن مسعود : رأى جبريل وله ستمائة جناح ، وهم ﴿ مِنْ ءايات ربِّهِ الكبرى ﴾ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أخبر برؤية جبريل ، تعجبوا منه ، وأنكروا ، فأخبر الله تعالى أنه قد رآه مرة أخرى ، وأنه قد ﴿ لَقَدْ رأى مِنْ ءايات ربِّهِ ﴾ .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى ﴾ قرأ مجاهد : ﴿ اللات ﴾ بتشديد التاء .

يقال : كان رجلاً يلت السويق بالزيت ، ويطعم الناس .

وقال السدي : كان رجلاً يقوم على آلهتهم ، ويلت السويق لهم .

ويقال : كانت حجارة يعبدونها ، وينزل عندها رجل يبيع السويق ، ويلته ، فسميت تلك الحجارة باللات .

وقرأه العامة بغير تشديد .

(157/734)

قال مقاتل : وإنما سمي ﴿ اللات والعزى ﴾ لأنهم قالوا : هكذا أسماء الملائكة ، وهم بناته فنزل ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ والانثى ﴾ وقال قتادة : ﴿ اللات ﴾ كان لأهل الطائف ، ﴿ والعزى ﴾ لقريش ، ومناة للأنصار .

ويقال : إن المشركين أرادوا أن يجعلوا من آلهتهم من أسماء الحسنى ، فأرادوا أن يسموا الواحد منها الله ، فجرى على لسانهم ﴿ اللات ﴾ وأرادوا أن يسموا الواحد منها العزيز ، فجرى على لسانهم العزى ، وأرادون أن يسموا الواحد منها المنان فجرى على لسانهم مناة .

ويقال : إن العزى كانت نخلة بالطائف يعبدونها ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد حتى قطع تلك النخلة ، فخرجت منها امرأة تجر شعرها على الأرض ، فأتبعها بفأس ، فقتلها ، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " تِلْكَ العُزَّى قَتَلَهَا فَلاَ تُعْبَدُ العُزَّى أَبَداً " .

ويقال : أول الأصنام كانت اللات ، ثم العزَّى ثم مناة .

وهو قوله : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى ﴾ ﴿ ومناة الثالثة الاخرى ﴾ يعني : أفرأيتم عبادتها تنفعهم في الآخرة .

ثم قال : ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الانثى ﴾ يعني بني مدلج ، ويعبدون الملائكة ، ويقولون : هم بناته فيشفعوا لنا ﴿ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ أي : جائرة معوجة .

قرأ ابن كثير : بهمز الألف ، والمد .

والباقون : بغير همز ، ومعناهما واحد ، وهو اسم الصنم .

وقرأ ابن كثير : ﴿ ضئزى ﴾ بالهمزة .

والباقون : بغير همزة ، ومعناهما واحد .

يقال : ضازه ، يضيزه ، إذا نقصه حقه .

يقال : ضزت في الحكم أي جرت .

(158/734)

ثم قال : ﴿ ضيزى إِنْ هِىَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ يعني : الأصنام ، ﴿ أَنتُمْ وَءابَاؤُكُم ﴾ بالتقليد ﴿ مَّا أَنزَلَ الله بِهَا مِن سلطان ﴾ يعني : من عذر ، وحجة لكم بما تقولون ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ يعني : ما يعبدون ، وما يتبعون إلا الظن ، ولا تعرفونها أنها يقينا آلهة ، ﴿ وَمَا تَهْوَى الانفس ﴾ يعني : يتبعون ما تشتهي أنفسهم ، وعبدوه ، وتركوا دين الله ، ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُم مّن رَّبِّهِمُ الهدى ﴾ يعني : أتاهم الكتاب ، والرسول ، وبين لهم طريق الهدى .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَمْ للإنسان مَا تمنى ﴾ يعني : ما يتمنى بأن الملائكة تشفع له ، فيكون الأمر بتمنيه ، ﴿ فَلِلَّهِ الآخرة والاولى ﴾ يعني : ثواب الآخرة والأولى .

ويقال : أهل السموات ، وأهل الأرض كلهم عبيده ويقال : له نفاذ الأمر في الآخرة ، والأولى .

ويقال : جميع ما فيها يدل على وحدانيته .

ثم قال : ﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِى السموات لاَ تُغْنِى شفاعتهم شَيْئاً ﴾ يعني : لا تنقطع شفاعتهم ، رداً لقولهم : إنهم يشفعون لنا .

ثم استثنى فقال : ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاء ويرضى ﴾ يعني : من كان معه التوحيد ، فيشفع له بإذن الله تعالى .

ثم قال : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ يعني : لا يصدقون بالبعث ﴿ لَيُسَمُّونَ الملائكة تَسْمِيَةَ الانثى ﴾ باسم البنات ، وفيه تنبيه للمؤمنين ، لكي لا تقولوا مثل مقالتهم ، وزجراً للكافرين عن تلك المقالة .

قال عز وجل : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ يعني : ليس لهم حجة على مقالتهم ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ يعني : ما يتبعون إلا الظن يعني : على غير يقين ﴿ وَإِنَّ الظن لاَ يُغْنِى مِنَ الحق شَيْئاً ﴾ يعني : لا يمنعهم من عذاب الله شيئاً ﴿ فَأَعْرَضَ مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا ﴾ يعني : اترك من أعرض عن القرآن ، ولا يؤمن به .

﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحياة الدنيا ﴾ يعني : لم يرد بعلمه الدار الآخرة ، إنما يريد به منفعة الدنيا ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ العلم ﴾ يعني : غاية علمهم الحياة الدنيا .

ويقال : ذلك منتهى علمهم ، لا يعلمون من أمر الآخرة شيئاً ، وهذا كقوله : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا وَهُمْ عَنِ الآخرة غافلون ﴾ .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ يعني : هو أعلم بمن ترك طريق الهدى ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهتدى ﴾ يعني : من تمسك بدين الإسلام ، ومعناه : فأعرض عنهم ، ولا تعاقبهم ، فإن الله عليم بعقوبة المشركين ، وبثواب المؤمنين ، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال .

ثم عظم نفسه بأنه غني عن عبادتهم فقال : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ من الخلق ﴿ لِيَجْزِىَ الذين فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ يعني : ليعاقب في الآخرة الذين أشركوا ، وعملوا المعاصي ﴿ وَيِجْزِى الذين أَحْسَنُواْ بالحسنى ﴾ يعني : ويثيب الذين آمنوا ، وأدوا الفرائض الخمسة بإحسانهم .

ثم نعت المحسنين فقال : ﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ كبائر الإثم والفواحش ﴾ قرأ حمزة والكسائي : ﴿ كَبِير الإثم ﴾ بلفظ الوحدان ، والمراد به : الجنس .

والباقون : ﴿ يَجْتَنِبُونَ كبائر الإثم ﴾ بلفظ الجماعة .

قال بعضهم : ﴿ كبائر الإثم ﴾ يعني : الشرك بالله ، ﴿ والفواحش ﴾ يعني : المعاصي .

وقال بعضهم : ﴿ كبائر الإثم والفواحش ﴾ بمعنى واحد ، لأن كل فاحشة كبيرة ، وكل كبيرة فاحشة .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " الْكَبَائِرُ أَرْبَعَةٌ : الشِّرْكُ بِاللهِ ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ " .

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : الكبائر سبعة .

فبلغ ذلك إلى عبد الله بن عباس ، فقال : هي إلى السبعين أقرب .

ويقال : كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة .

(160/734)

وقيل : كل ما أصر العبد عليه فهو كبيرة ، كما روي عن بعضهم أنه قال : لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار .

قال : ﴿ إِلاَّ اللمم ﴾ وقال بعضهم : ﴿ اللمم ﴾ هو الصغائر من الذنوب .

يعني : إذا اجتنبت الكبائر ، يغفر الله صغار الذنوب من الصلاة إلى الصلاة ، ومن الجمعة إلى الجمعة ، وهو كقوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سيئاتكم وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلاً كَرِيماً ﴾ [النساء : 31] قال مقاتل : نزلت في شأن نبهان التمار ،

وذلك أن امرأة أتت لتشتري التمر ، فقال لها : ادخلي الحانوت ، فعانقها ، وقبلها ، فقالت المرأة : خنت أخاك ولم تصب حاجتك ، فندم ، وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى مسروق عن ابن مسعود : قال زنى العينين النظر ، وزنى اليدين البطش ، وزنى الرجلين المشي ، وإنما يصدق ذلك الفرج ، أو يكذبه .

فإن تقدم كان زنى وإن تأخر كان لماً .

وقال عكرمة : ﴿ اللمم ﴾ النظر ، وحديث النفس ، ونحو ذلك .

وروى طاوس ، عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَى .

فَزِنَى الْعَيْنَيْنِ نَظَرُ النَّاظِرِ ، وَزِنَى اللِّسَانِ النُّطْقُ ، وَالنَّفْسُ تَتَمَنَّى ، وَتَشْتَهِي ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ " .

وقال عبد الله بن الزبير : ﴿ اللمم ﴾ القبلة ، واللمس باليد .

وقال بعضهم : ﴿ اللمم ﴾ كل ذنب يتوب عنه ولا يصر عليه .

وروى منصور ، عن مجاهد قال : في قوله : ﴿ إِلَّا اللمم ﴾ هو الرجل يذنب الذنب ، ثم ينزع عنه .

وروي عن أبي هريرة : قال : ﴿ اللمم ﴾ النكاح .

وذكر ذلك لزيد بن أسلم فقال : صدق إنما اللمم لمم أهل الجاهلية .

(161/734)

يقول الله تعالى في كتابه ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وَبَنَاتُ الاخ وَبَنَاتُ الاخت وأمهاتكم اللاَّتِى أَرْضَعْنَكُمْ وأخواتكم مِّنَ الرضاعة وأمهات نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاتى فِى حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاتى دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وحلائل أَبْنَآئِكُمُ الذين مِنْ أصلابكم وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الاختين إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ الله كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [النساء : 23] .

وروي عن الحسن أنه قال : ﴿ اللمم ﴾ هو أن يصيب النظرة من المرأة ، والشربة من الخمر .

ثم ينزع عنه .

وروي عن مجاهد أنه قال : الذي يلم بالذنب ، ثم يدعه .

وقد قال الشاعر

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا .

. . وَأيّ عَبْدِ للّه لا أَلَمَّا

وقال بعضهم : ﴿ إِلاَّ اللمم ﴾ ومعناه : ولا اللمم .

ومعناه : أن تجتنبوا صغائر الذنوب ، وكبائرها ، كما قال القائل : وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير ، والعيش .

يعني : ولا اليعافير ، ولا العيس .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِيَّاكُمْ وَالمُحَقَّرَاتِ مِنَ الذُّنُوبِ " .

وسئل زيد بن ثابت عن قوله : ﴿ إِلاَّ اللمم ﴾ قال : حرم الله الفواحش ما ظهر منها ، وما بطن .

ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ واسع المغفرة ﴾ يعني : واسع الفضل ، غافر الذنوب للذين يتوبون .

ويقال : معناه رحمته واسعة على الذين يجتنبون الكبائر .

ثم قال : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ يعني : هو أعلم بحالكم منكم ﴿ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض ﴾ يعني : إذ هو خلقكم من الأرض .

يعني : خلق آدم من تراب ، وأنتم من ذريته .

﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ يعني : كنتم صغاراً ﴿ فِى بُطُونِ أمهاتكم ﴾ كان هو أعلم بحالكم منكم في ذلك كله ، ﴿ فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ يعني : لا تبرؤوا أنفسكم من الذنوب ، ولا تمدحوها .

ويقال : ﴿ وَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ يعني : لا يمدح بعضكم بعضاً .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا رَأَيْتُمُ المَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرابَ " .

والمدح على ثلاثة أوجه : أوله أن يمدحه في وجهه ، فهو الذي نهي عنه .

والثاني : أن يمدحه بغير حضرته ، ويعلم أنه يبلغه ، فهو أيضاً منهي عنه .

والثالث : أن يمدحه في حال غيبته ، وهو لا يبالي بلغه أو لم يبلغه ، ويمدحه بما هو فيه ، فلا بأس بهذا .

ويقال : ﴿ فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ يعني : لا تطهروا أنفسكم من العيوب .

وهذا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " النَّاسُ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لَمْ يَكُنْ فِيهَا رَاحِلَةً " .

﴿ بِمَنِ اتقى ﴾ يعني : من يستحق المدح ، ومن لا يستحق المدح .

ثم قال : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذى تولى ﴾ يعني : أعرض عن الحق ، وهو الوليد بن المغيرة ، ومن كان في مثل حاله ﴿ وأعطى قَلِيلاً ﴾ يعني : وأنفق قليلاً من ماله ﴿ وأكدى ﴾ يعني : هو أمسك عن النفقة .

قال مقاتل : أنفق الوليد بن المغيرة على أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم نفقة قليلة ، ثم انتهى عن ذلك .

وقال القتبي : ﴿ وأكدى ﴾ أصله من كديه الدكية وهي الصلابة فيها .

فإذا بلغها الحافر ، يبس حفرها ، فقطع الحفرة .

يعني : تركها .

فقيل : لمن طلب شيئاً ، ولم يدرك أخره ، وأعطى شيئاً ، ولم يتم وأكدى .

ثم قال عز وجل : ﴿ عِلْمُ الغيب فَهُوَ يرى أَمْ ﴾ يعني : أعنده علم الآخرة ﴿ فَهُوَ يرى ﴾ صنيعه .

وقيل : يعلم ما في اللوح المحفوظ ، فيرى صنيعه .

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ موسى ﴾ يعني : ألم يخبر بما بيّن الله تعالى في صحف موسى .

(163/734)

قال بعضهم : ﴿ صُحُفِ موسى ﴾ يعني : التوراة .

وقال بعضهم : هو كتاب أنزل عليه قبل التوراة ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ يعني : في كتاب إبراهيم ﴿ الذى وفى ﴾ يعني : بلغ الرسالة .

ويقال : ﴿ وفى ﴾ بمعنى عمل ما أمر به .

وذلك أن الوليد بن عقبة بن أبي معيط قال لعثمان : إنك تنفق مالك ، فعن قريب تفتقر .

فقال عثمان : إن لي ذنوباً .

فقال الوليد : ادفع إلي بعض المال حتى أدفع ذنوبك ، فدفع إليه ، فأنزل الله تعالى ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ موسى ﴾ يعني : ألم يبين الله تعالى في كتاب موسى ، وكتاب إبراهيم ، ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى ﴾ يعني : لا تحمل نفس خطيئة نفس أخرى .

ويقال : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ يعني : بما ابتلاه الله تعالى بعشر كلمات .

ويقال : بذبح الولد .

ويقال : كان يصلي كل غداة أربع ركعات ، صلاة الضحى فسماه وفياً .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَأَن لَّيْسَ للإنسان إِلاَّ مَا سعى ﴾ يعني : ليس للإنسان في الآخرة إلا ما عمل في الدنيا من خير أو شر ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرى ﴾ يعني : يرى ثواب عمله في الآخرة .

قوله عز وجل ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الجزاء الاوفى ﴾ يعني : يعطى ثوابه كاملاً ﴿ وَأَنَّ إلى رَبّكَ المنتهى ﴾ يعني : إليه ينتهي أعمال العباد ، وإليه يرجع الخلق كلهم ، فهذا كله في مصحف موسى ، وإبراهيم .

ثم قال : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى ﴾ يعني : ﴿ أَضْحَكَ ﴾ أهل الجنة في الجنة .

قال : ﴿ وأبكى ﴾ أهل النار في النار .

ويقال : ﴿ أَضْحَكَ ﴾ في الدنيا أهل النعمة ، ﴿ وأبكى ﴾ أهل الشدة ، والمعصية .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ يعني : يميت في الدنيا ، ويحيي في الآخرة للبعث ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين ﴾ يعني : اللونين ، والصنفين ، ﴿ الذكر والانثى مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تمنى ﴾ يعني : تهراق في رحم الأنثى .

وقال القتبي : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تمنى ﴾ يعني : تقدر ، وتخلق .

ويقال : ما تدري ما يمني لك الماني .

(164/734)

يعني : ما يقدر لك المقدر .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النشأة الاخرى ﴾ يعني : البعث بعد الموت .

يعني : ذلك إليه ، وبيده ، وهو قادر على ذلك ، فاستدل عليهم بالفعل الآخر بالفعل الأول ، أنه خلقهم في الابتداء من النطفة ، وهو الذي يحييهم بعد الموت ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أغنى وأقنى ﴾ يعني : حول وأعطى المال .

﴿ وأقنى ﴾ يعني : أفقر .

ويقال : ﴿ أغنى ﴾ يعني : يعطي ﴿ وأقنى ﴾ يعني : يُرضي بما يُعطي .

ويقال : ﴿ أغنى ﴾ نفسه عن الخلق ﴿ وأقنى ﴾ يعني : أفقر الخلق إلى نفسه .

وروى السدي عن أبي صالح : ﴿ أغنى ﴾ بالمال ، ﴿ وأقنى ﴾ يعني : بالقنية .

وقال الضحاك : ﴿ أغنى ﴾ بالذهب ، وبالفضة ، والثياب ، والمسكن ، ﴿ وأقنى ﴾ بالإبل ، والبقر ، والغنم ، والدواب .

وقال عكرمة : ﴿ أغنى ﴾ يعني : أرضى ﴿ وأقنى ﴾ يعني : وأقنع .

ثم قال : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشعرى ﴾ يعني : وأن الله هو خالق الشعرى .

قال ابن عباس : هو كوكب تعبده خزاعة يطلع بعد الجوزاء ، يقول الله تعالى وأنا ربها ، وأنا خلقتها ، فاعبدوني .

ثم خوفهم فقال عز وجل : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الاولى ﴾ بالعذاب ، وهم قوم هود عليه السلام ، وكان بعدهم عاد آخر سواهم ، فلهذا سماهم عاد الأُولى ﴿ وَثَمُودَ فَمَا أبقى ﴾ يعني : قوم صالح عليه السلام ، فأهلكهم الله ، وما بقي منهم أحد .

قرأ نافع ، وأبو عمرو ﴿ عَادٍ الاولى ﴾ بحذف الهمزة ، وإدغام التنوين .

والباقون : ﴿ عَاداً ﴾ بالتنوين الأولى ، بالهمزة .

وكلاهما جائز عند العرب .

وقرأ حمزة ، وعاصم ، رواية حفص : ﴿ وَثَمُودُ ﴾ بغير تنوين .

والباقون : ﴿ ثموداً ﴾ بالتنوين .

قال أبو عبيد نقرأ بالتنوين مكان الألف الثانية في المصحف .

(165/734)

ثم قال : ﴿ مُنتَصِرِينَ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ يعني : أهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وأطغى ﴾ يعني : أشد في كفرهم ، وطغيانهم ، لأنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فدعاهم ، فلم يجيبوا ، وكان الآباء يوصون الأبناء بتكذيبه .

ثم قال عز وجل : ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ يعني : مدينة قوم لوط .

وسماها مؤتفكة لأنها ائتفكت .

أي : انقلبت ﴿ أهوى ﴾ أي : أسقط .

ويقال : ﴿ المؤتفكة ﴾ يعني : المكذبة ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ يعني : أهوى من السماء إلى الأرض ، وذلك أن جبريل عليه السلام حيث قلع تلك المدائن ، فرفعها إلى قريب من السماء ، ثم قلبها ، وأهواها إلى الأرض .

﴿ فغشاها مَا غشى ﴾ يعني : فغشاها من الحجارة ﴿ مَا غشى ﴾ كقوله : ﴿ فَجَعَلْنَا عاليها سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر : 74] .

ثم قال : ﴿ فَبِأَيِّ الاء رَبِّكَ تتمارى ﴾ يعني : بأي نعمة من نعماء ربك تتجاحد أيها الإنسان ، بأنها ليست من الله تعالى .

قوله عز وجل : ﴿ هذا نَذِيرٌ مِّنَ النذر الاولى ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ نَّذِيرٍ ﴾ مثل ﴿ النذر الاولى ﴾ يعني : رسولاً مثل الرسل الأولى ، ثم نوح ، وهود ، وصالح صلوات الله عليهم ، وقد خوفهم الله ليحذروا معصيته ، ويتبعوا ما أمرهم الله تعالى ، ورسوله صلى الله عليه وسلم .

(166/734)

ثم قال : ﴿ أَزِفَتِ الازفة ﴾ يعني : دنت القيامة ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ الله كَاشِفَةٌ ﴾ يعني : ليس للساعة من دون الله ﴿ كَاشِفَةٌ ﴾ عن علم قيامها ، وهذا كقوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مرساها قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِى السماوات والأرض لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ الله ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 187] .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَفَمِنْ هذا الحديث تَعْجَبُونَ ﴾ يعني : من القرآن تعجبون تكذيباً ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ استهزاءً .

﴿ وَلاَ تَبْكُونَ ﴾ مما فيه من الوعد ﴿ وَأَنتُمْ سامدون ﴾ يعني : لاهين عن القرآن .

روي عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : هو الغناء .

كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ، ولعبوا ، وهي بلغة أهل اليمن .

وقال قتادة ﴿ سامدون ﴾ يعني : غافلون .

ثم قال عز وجل : ﴿ فاسجدوا لِلَّهِ ﴾ يعني : صلوا لله .

ويقال : اخضعوا لله ﴿ واعبدوا ﴾ يعني : أطيعوا .

ويقال : ﴿ فاسجدوا لِلَّهِ ﴾ في الصلاة ﴿ واعبدوا ﴾ يعني : وحدوه .

ويقال : هو سجدة التلاوة بعينها .

وروي عن الشعبي أنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد في النجم ، وسجد معه المؤمنون ، والمشركون ، والجن ، والإنس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 348.339 ﴾

(167/734)

وقال الثعلبى :

﴿ والنجم إِذَا هوى ﴾

قال ابن عباس في رواية الوالبي والعوفي ومجاهد برواية ابن أبي نجيح : يعني والثريّا إذا سقطت وغابت ، والعرب تسمّي الثريّا نجماً ، وإن كانت في العدد نجوماً .

قال أبو بكر محمد بن الحسن الدربندي : هي سبعة أنجم ، ستة منها ظاهرة ، وواحد منها خفي ، يختبر الناس به أبصارهم ، ومنه قول العرب إذا طلع النجم عشاءً : ابتغى الراعي كساءً وعن مجاهد أيضاً : يعني نجوم السماء كلها حتى تغرب ، لفظه واحد ومعناه الجمع ، كقول الراعي :

فباتت تعدّ النجم في مستحيره . . . سريع بأيدي الآكلين جمودها

وسمّي الكوكب نجماً لطلوعه ، وكلّ طالع نجم ، ويقال : نجمَ السر والقرب والندب إذا طلع .

وروى عكرمة عن ابن عباس أنّه الرجم من النجوم ، يعني ما يرمى به الشياطين عند استراقهم السمع ، وقال الضحاك : يعني القرآن إذا نزل ثلاث آيات وأربع وسورة ، وكان بين أوله وآخره ثلاث وعشرون سنة ، وهي رواية الأعمش عن مجاهد وحيان عن الكلبي ، والعرب تسمّي التفريق تنجيماً والمفرق نجوماً ومنه نجوم الدَّين .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا محمد بن خلف قال : حدّثنا إسحاق بن محمد قال : حدّثنا أبي ، قال : حدّثنا إبراهيم بن عيسى قال : حدّثنا علي بن علي قال : حدّثني أبو حمزة الثمالي ﴿ والنجم إذَا هوى ﴾ قال : يقال : هي النجوم إذا انتثرت يوم القيامة ، وقال

الأخفش هي النبت ، ومنه قوله : ﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن : 6]

وهويّه : سقوطه على الأرض ، لأنه ما ليس له ساق ، وقال جعفر الصادق : يعني محمداً صلى الله عليه وسلم إذا نزل من السماء ليلة المعراج .

فالهويّ : النزول والسقوط ، يقال : هوى يهوى هويّاً : مضى يمضي مضيّاً ، قال زهير :

يشج بها الأماعز وهي تهوي . . . هوي الدلو أسلمها الرشاء

(168/734)

وروى عروة بن الزبير عن رجال من أهل بيته قالوا : "كانت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم عند عتبة بن أبي لهب فأراد الخروج إلى الشام فقال : الأبتر محمد فلأوذينّه في ابنته فأتاه فقال : يا محمد هو يكفر بالنجم إذا هوى وبالذي دنا فتدلى ، ثم تفل في وجهه ورد عليه ابنته وطلّقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اللهم سلّط عليه كلباً من كلابك " قال : وأبو طالب حاضر فوجم لها وقال : ما كان أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة .

فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره بذلك ثم خرجوا إلى الشام ، فنزلوا منزلا فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم : هذه أرض مسبعة ، فقال أبو لهب لأصحابه : أعينونا يا معشر قريش هذه الليلة فإني أخاف على ابني دعوة محمد ، فجمعوا أحمالهم وفرشوا لعتبة في أعلاها

وناموا حوله ، فجاء الأسد فجعل يتشمم وجوههم ثم ثنى ذنبه فوثب وضرب عتبة بيده ضربة ، وأخذه فخدشه ، فقال : قتلني ومات مكانه "

فقال في ذلك حسان بن ثابت :

سائل بني الأصغر إنْ جئتهم . . . ما كان أنباءُ أبي واسع

لا وسّع الله له قبره . . . بل ضيّق الله على القاطع

رمى رسول الله من بينهم . . . دون قريش رمية القاذع

واستوجب الدعوة منه بما . . . بُيّن للنّاظر والسامع

فسلّط الله به كلبه . . . يمشي الهوينا مشية الخادع

حتى أتاه وسط أصحابه . . . وفد عليهم سمة الهاجع

فالتقم الرأس بيافوخه . . . والنحر منه قفرة الجائع

ثم علا بعدُ بأسنانه . . . منعفراً وسط دم ناقع

قد كان هذا لكمُ عبرة . . . للسيّد المتبوع والتابع

من يرجعِ العامَ إلى أهله . . . فما أكيل السبع بالراجع

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ محمد ﴿ وَمَا غوى ﴾ وهذا جواب القسم .

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ أي بالهوى يعاقب بين عن وبين الباء ، فيقيم أحدهما مكان الآخر .

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ ما ينطقه في الدّين ﴿ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى ﴾ إليه .

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى ﴾ وهو جبريل .

(169/734)

﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ قوة وشدّة ، ورجل ممرّ أي قوي ، قال الشاعر :

ترى الرجل النحيف فتزدريه . . . وفي أثوابه رجل مرير

وأصله من أمررت الحبل إذا أحكمت فتله ، ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم " لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرّة سويّ " .

قال الكلبي : وكانت شدّته أنّه اقتلع قريات قوم لوط من الماء الأسود ، وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء ثم قلبها ، وكانت شدّته أيضاً أنّه أبصر إبليس وهو يكلّم عيسى على بعض عقاب الأرض المقدّسة فنفحه بجناحه نفحة ألقاه في أقصى جبل بالهند ، وكانت شدّته أيضاً صيحته بثمود فأصبحوا جاثمين خامدين ، وكانت شدّته أيضاً هبوطه من السماء على الأنبياء وصعوده إليها في أسرع من الطرف ، وقال قطرب : يقول العرب لكل حرك الرأي حصف العقل : ذو مرة ، قال الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مِرّة . . . عندي لكل مخاصم ميزانه

وكان من جزالة رأيه وحصافة عقله أن الله تعالى ائتمنه على تبليغ وحيه إلى جميع رسله .

وقال ابن عباس : ذو مِرّة ، أي ذو منظر حسن ، وقال قتادة : ذو خَلق طويل حسن .

﴿ فاستوى ﴾ يعني جبريل ﴿ وَهُوَ ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم وأكثر كلام العرب إذا أرادوا العطف في مثل هذا الموضع أن يظهروا كناية المعطوف عليه فيقولون : استوى هو وفلان ، ما يقولون : استوى وفلان ، وأنشد الفرّاء :

ألم تر أنّ النبع يصلب عوده . . . ولا يستوي والخروع المتقصف

والمعنى : لا يستوي هو والخروع .

(170/734)

ونظير هذه الآية قوله سبحانه : ﴿ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَآؤُنَآ ﴾ [النمل : 67] فعطف بالآباء على الكنى في ﴿ كُنَّا ﴾ من غير إظهار نحن ، ومعنى الآية : استوى جبريل ومحمد ليلة المعراج ﴿ بالأفق الأعلى ﴾ وهو أقصى الدنيا عند مطلع الشمس في السماء ، وقيل : استويا في القوة والصعود إلى السماء ، وقيل : استويا في العلم بالوحي ، وقال بعضهم : معنى الآية : استوى جبريل أي ارتفع وعلا في السماء بعد أن علّم محمداً ، عن سعيد بن المسيب ، وقيل : فاستوى أي قام في صورته التي خلقه الله سبحانه عليها ، وذلك أنه كان يأتي

رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة الآدميين كما كان يأتي النبيين ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريه نفسه على صورته التي يُجبلَ عليها ، وأراه نفسه مرّتين : مرة في الأرض ، ومرّة في السماء فأمّا في الأرض ففي الأُفق الأعلى ، وذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان بحراء فطلع له جبريل من المشرق فسدّ الأفق إلى المغرب ، فخرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مغشياً عليه ، ونزل جبريل في صورة الآدميين وضمّه إلى نفسه ، وجعل يمسح الغبار عن وجهه .

يدل عليه قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بالأفق المبين ﴾ [التكوير : 23] ، وأما في السماء فعند سدرة المنتهى ، ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلاّ محمد المصطفى صلوات الله عليه .

﴿ ثُمَّ دَنَا فتدلى ﴾ اختلف العلماء في معنى هذه الآية فقال بعضهم : معناها ثم دنا جبرئيل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض ، فتدلّى فنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم بالوحي وهوى عليه ﴿ فَكَانَ ﴾ منه ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنى ﴾ أي : بل أدنى ، وبه قال ابن عباس والحسن وقتادة والربيع .

قال أهل المعاني : في الكلام تقديم وتأخير ، تقديره : ثم تدلّى فدنا ؛ لأن التدلّي : الدنوّ ، ولكنه سامع حسن ؛ لأن التدلّي يدل على الدنوّ ، والدنو يدل على التدلّي ، وإنّما تدلى للدنوّ ودنا للتدلّي ، وقال آخرون : معناه ثم دنا الرب سبحانه من محمد صلى الله عليه وسلم فتدلّى فقرب منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، وأصل التدلّي : النزول إلى الشيء حتى يقرب منه ، فوضع موضع القرب ، قال لبيد :

فتدلّيت عليه قافلا . . . وعلى الأرض غيابات الطفل

وهذا معنى قول أنس ورواية أبي سلمة عن ابن عباس .

وأخبرني عقيل بن محمد أنّ أبا الفرج البغدادي ، أخبرهم عن محمد بن جرير قال : حدّثنا الربيع قال : حدّثنا ابن وهب عن سليمان بن بلال عن شريك بن أبي نمر قال : سمعت أنس بن مالك يحدّثنا عن ليلة المسرى أنّه عرج جبريل برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء السابعة ، ثم علا به بما لا يعلمه إلاّ الله (عز وجل) حتى جاء سدرة المنتهى ، ودنا الجبار ربّ العزة فتدلّى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إليه ما شاء ، ودنوّ الله من العبد ودنوّ العبد منه بالرتبة والمكانة والمنزلة وإجابة الدعوة وإعطاء المنية ، لا بالمكان والمسافة والنقلة ، كقوله سبحانه : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : 186] .

وقال بعضهم : معناه : ثم دنا جبريل من ربّه عزّوجل فكان منه قاب قوسين أو أدنى ، وهذا

قول مجاهد ، يدلّ عليه ما روي في الحديث : " إنه أقرب الملائكة من جبرائيل الى الله سبحانه " .

وقال الضحاك : ثم دنا محمد من ربّه عز وجل فتدلّى فأهوى للسجود ، فكان منه قاب قوسين أو أدنى ، وقيل : ثم دنا محمد من ساق العرش فتدلّى ، أي : جاور الحجب والسرادقات ، لا نقلة مكان ، وهو قائم بإذن الله كالمتعلق بالشيء لا يثبت قدمه على مكان ، وهذا معنى قول الحسين بن الفضل .

(172/734)

ومعنى قوله ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ قدر قوسين عربيتين عن ابن عباس وعطاء ، والقاب والقيب والقاد والقيد عبارة عن مقدار الشيء ، ونظيره من الكلام زير وزار . قال صلى الله عليه وسلم " لقاب قوس أحدكم من الجنة خير من الدينا وما فيها " .

وقال مجاهد : معناه حيث الوتر من القوس ، وقال سعيد بن المسيب : القاب صدر القوس العربية حيث يشدّ عليه السير الذي يتنكّبه صاحبه ، ولكل قوس قاب واحد ، فأخبر أنّ قرب جبرئيل من محمد صلى الله عليه وسلم عند الوحي كقرب قاب قوسين .

وقال أهل المعاني : هذا إشارة إلى تأكيد المحبة والقربة ورفع المنزلة والرتبة ، وأصله أنّ

الحليفَين والمحبَّين في الجاهلية كانا إذا أرادا عقد الصفاء والعهد والوفاء خرجا بقوسيهما والصفا بينهما يريدان بذلك أنّهما متظاهران متحاميان يحامي كل واحد منهما عن صاحبه .

وقيل : هذا تمثيل في تقريب الشيء من الشيء ، وهو مستعمل في أمثال العرب وأشعارهم ، وقال سفيان بن سلمة وسعيد بن جبير وعطاء وابن إسحاق الهمداني : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ قدر ذراعين ، والقوس : الذراع يقاس بها كل شيء ، وهي لغة بعض أهل الحجاز . ﴿ أَوْ أدنى ﴾ بل أقرب .

وقال بعض : إنّما قال ﴿ أَوْ أدنى ﴾ ؛ لأنه لم يردْ أن يجعل لذلك حدّاً محصوراً .

وسئل أبو العباس بن عطاء عن هذه الآية فقال : كيف أصف لكم مقاماً انقطع عنه جبريل وميكائيل وإسرافيل ، ولم يكن إلاّ محمد وربّه ؟ وقال الكسائي : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ أراد قوساً واحداً كقول الشاعر :

ومَهْمَهَيْنِ قَذَقَيْنِ مَرْتَيْنْ . . . قطعته بالسّمْتِ لا بالسّمْتَيْنْ

أراد مهمهاً واحداً .

وقال بعض أهل المعاني : معنى قوله : ﴿ فتدلّى ﴾ فتدلّل من الدلال كقولهم : (تظني بمعنى تظنن) وأملى وأملل بمعنى واحد .

﴿ فأوحى ﴾ يعني فأوحى الله سبحانه وتعالى ﴿ إلى عَبْدِهِ مَا أوحى ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مَا أوحى ﴾ قال الحسن والربيع وابن زيد : معناه فأوحى جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أوحى إليه ربّه ، قال سعيد : أوحى إليه ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً ﴾ [الضحى : 6] إلى قوله ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : 4] ، وقيل : أوحى إليه أن الجنة محرّمة على الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأُمم حتى تدخلها أُمّتك ، وسئل أبو الحسن الثوري عنه فقال : أوحى إليه سرّاً بسرّ من سرّ في سرّ وفي ذلك يقول القائل :

بين المحبين سر ليس يفشيه . . . قول ولا قلم للخلق يحكيه

سرٌّ يمازجه أنس يقابله . . . نور تحيّر في بحر من التّيه

﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾ قرأ الحسن وأبو جعفر (والحجدري) وقتادة (كذّب) بتشديد الذال ، أي : ما كذّب قلب محمد ما رآى بعينه تلك الليلة ، بل صدّقه وحقّقه ، وقرأ الباقون بالتخفيف ، أي ما كذب فؤاد محمد محمداً الذي رآى بل صدّقه ، ومجاز الآية : ما كذب الفؤاد فيما رأى ، فأسقط الصفة ، كقول الشاعر :

لو كنت صادقة الذي حدثتني . . . لنجوت منجى الحارث بن هشام

أي : في التي حدّثتني ، وقال بندار بن الحسن : الفؤاد وعاء القلب فيما ارتاب الفؤاد فيما أرى الأصل وهو القلب .

واختلفوا في الذي رآه . فقال قوم : رأى جبريل ، وإليه ذهب ابن مسعود ، وقال آخرون : هو الله سبحانه ، ثم اختلفوا في معنى الرؤية ، فقال بعضهم : جعل بصرهُ في فؤاده ، فرآه في فؤاده ولم يره بعينه ، وقال قوم : بل رآه بعينه .

ذكر من قال : إنّه رآه بعينه أخبرني الحسن بن الحسين قال : حدّثنا الفضل بن الفضل ، قال : حدّثنا أبو يعلى محمد بن زهير الإبلي ، قال : حدّثنا بن نحويه ، قال : حدّثنا سلمة ، قال : حدّثنا عبد الرزاق ، قال : حدّثنا ابن التيمي عن المبرك بن فضالة ، قال : كان الحسن يحلف بالله عز وجل لقد رأى محمد ربّه .

(174/734)

وانبأني عقيل بن محمد قال : أخبرنا المعافي بن زكريا قال : حدّثنا محمد بن جرير قال : حدّثنا ابن حميد قال : حدّثنا مهران عن سفيان عن أبي إسحاق عمّن سمع ابن عباس يقول : ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾ قال : رأى محمد ربّه .

وبإسناده عن ابن حميد قال : حدّثنا يحيى بن واضح قال : حدّثنا عيسى بن عبيد سمعت عكرمة و [قد] سئل : هل رأى محمد ربّه ؟ فقال : نعم ، قد رأى ربّه .

وبه عن ابن حميد قال : حدّثنا حكام عن أبي جعفر عن الربيع ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى

﴿ قال : رأى ربّه عز وجل .

ذكر من قال : لم يره

أخبرنا أبو عبيد الله الحسين بن محمد الحافظ بقراءتي عليه في داري قال : حدّثنا موسى ابن محمد بن علي ، قال : حدّثنا إبراهيم بن زهير ، قال : حدّثنا مكي بن إبراهيم ، قال : حدّثنا موسى بن عبيده عن محمد بن كعب قال : " قال بعض أصحاب رسول الله : يا رسول الله ، أرأيت ربّك ؟ قال : " رأيته مرّتين ، بفؤادي ولم أره بعيني " ثم تلا هذه الآية ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾ ومثله روي عن ابن الحنفية عن أبيه ، وأبو العالية عن ابن عباس .

وأخبرني الحسن ، قال : حدّثنا أبو القاسم عن بن محمد بن عبد الله بن حاتم الترمذي ، قال : حدّثنا جدي لأمي محمد بن عبد الله بن مرزوق ، قال : حدّثنا عفان بن مسلم قال : " حدّثنا همان بن عبد الله بن شفيق قال : قلت لأبي ذر : لو رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لسألته ، قال : وعما كنت تسأله ؟ قلت : كنت أسأله : هل رأى ربّه عز وجل ؟ قال : فإني قد سألته فقال : " قد رأيت نوراً ، أنى أراه ؟ " " .

وكذلك روي عن أبي سعيد الخدري أنّه قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ قال : " رأيت نوراً "

، ومثله روى مجاهد وعكرمة عن ابن عباس .

وقد ورد في هذا الباب حديث جامع وهو ما أخبرني الحسين بن الحسن ، قال : حدّثنا ابن حبش ، قال : أخبرنا علي بن زنجويه ، قال : حدّثنا سلمة بن عبدالرزاق ، قال : أخبرنا ابن عيينة عن مجالد عن سعيد عن الشعبي عن عبد الله بن الحرث قال : اجتمع ابن عباس وكعب فقال ابن عباس : أمّا نحن بنو هاشم فنقول : إنّ محمداً رأى ربّه مرتين ، وقال ابن عباس يحبّون أن تكون الخِلّة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد . قال : فكبّر كعب حتى جاوبته الجبال ، ثم قال : إن الله سبحانه قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى عليه السلام ، فكلّمه موسى ورآه محمد .

قال مجالد : وقال الشعبي : فأخبرني مسروق أنّه قال لعائشة رضي الله عنها : يا أمتاه ، هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربّه تعالى قط ؟ ، قالت : إنك لتقول قولاً ، إنّه ليقف منه شعري ، قال : قلت : رويداً فقرأت عليها : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ حتى ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنى ﴾ . فقالت : رويداً ، أين يُذهب بك ؟ إنّما رأى جبريل في صورته . من حدّثك أن محمداً رأى ربّه فقد كذب ، والله عز وجل يقول : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ [الأنعام : 103] ، ومن حدّثك أنّه يعلم الخمس من الغيب فقد كذب ، والله سبحانه يقول

: ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ [لقمان : 34] الآية ، ومن حدّثك أنّ محمداً كتم شيئاً من الوحي فقد كذب ، والله عز وجلّ يقول : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة : 67] الآية .

قال عبد الرزاق : فذكرت هذا الحديث لعمر ، فقال : ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس .

﴿ أَفَتُمَارُونَهُ على مَا يرى ﴾ أي : رأى .

قرأ علي وابن مسعود وابن عباس وعائشة ومسروق والنخعي وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب ﴿ أَفَتَمَارُونَهُ ﴾ بفتح الباء من غير ألف على معنى أفتجحدونه ، واختاره أبو عبيد ، قال : لأنهم لم يماروه وإنّما يجحدونه ، يقول العرب : مريت الرجل حقّه إذا جحدته . قال الشاعر :

(176/734)

لئن هجرتَ أخا صدق ومكرمة . . . لقد مريتَ أخاً ما كان يمريكا

أي جحدته .

وقرأ سعيد بن جبير وطلحة بن مسرف ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ ﴾ بضم التاء بلا ألف ، أي تريبونه

وتشككونه ، وقرأ الباقون ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ ﴾ بالألف وضم التاء على معنى أفتجادلونه ، وهو اختيار أبي حاتم ، وفي الحديث " لا تماروا في القرآن فإن المراء فيه كفر " .

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخرى ﴾ مرة أخرى ، فسمّاها نزلة على الاستعارة ، وذلك أنّ جبريل رآه النبيّ صلى الله عليه وسلم على صورته التي خلق عليها مرتين : مرة بالأُفق الأعلى في الأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى في السماء ، وهذا قول عائشة وأكثر العلماء وهو الاختيار ، لأنه قرن الرؤية بالمكان فقال ﴿ عِندَ سِدْرَةِ المنتهى ﴾ ، ولأنه قال : ﴿ نَزْلَةً أخرى ﴾ وتقديرها : ولقد رآه نازلا نزلة أُخرى ، ووصف الله سبحانه بالمكان والنزول الذي هو الانتقال محال ؛ ولأنه قال : ﴿ نَزْلَةً أُخرى ﴾ ولم يروَ في الحديث أنّه صلى الله عليه وسلم رأى ربّه عزّوجل قبل ليلة المعراج فيراه تلك الليلة مرة أُخرى ، يدل عليها ما أخبرني عقيل بن محمد أنّ أبا الفرج أخبرهم عن محمد بن جرير عن محمد بن المثنى قال : حدّثنا عبدالوهاب الثقفي . قال : حدّثنا داود بن عامر عن مسروق أن عائشة رضي الله عنها قالت : من زعم أنّ محمداً رآى ربّه فقد أعظم الفرية على الله .

(177/734)

قال : وكنت متكئاً فجلست فقلت : يا أُم المؤمنين ، أنظريني ولا تعجلي ، أرأيت قول الله سبحانه ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخرى ﴾ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بالأفق المبين ﴾ [التكوير : 23] .

قالت : إنّما هو جبريل رآه على صورته التي خلق عليها مرتين : مرة حين هبط من السماء إلى الأرض سادّاً أعظم حلقة ما بين السماء إلى الأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى . قالت : وأنا أوّل من سأل النبي " عن هذه الآية فقال : " هو جبريل " . ﴿ عِندَ سِدْرَةِ المنتهى ﴾ (عند) صلة من قوله : ﴿ رَآهُ ﴾ والسدرة : شجرة النبق ، وقيل لها سدرة المنتهى ؛ لأنه إليها ينتهي علم كل عالم .

وقال هلال بن سياف : سأل ابن عباس كعباً عن سدرة المنتهى وأنا حاضر فقال كعب : إنها سدرة في أصل العرش على رؤوس حملة العرش ، وإليها ينتهي علم الخلائق ، وما خلفها غيب لا يعلمه إلاّ الله سبحانه .

وقال ابن مسعود : سمّيت بذلك ؛ لأنّه ينتهي إليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من أمر الله سبحانه وتعالى إذا انتهى من يصعد إليها من الأرض قبض منها ، وقيل : لأنّه ينتهي إليها ما عرج من أرواح المؤمنين ، وقيل : لأنّه ينتهي إليها كل من مات على سنّة رسول الله " ومنهاجه .

روى الربيع عن أبي العالية عن أبي هريرة قال : " لمّا أُسري بالنبي " انتهى إلى السدرة ، فقيل له : هذه السدرة ينتهي إليها كل أحد خلا من أمتك على سنتك ، فإذا هي شجرة يخرج من

أصلها أنهار من ماء غير آسن إلى قوله : مصفى ، وهي شجرة يسير الراكب في ظلّها سبعين عاماً لا يقطعها ، والورقة منها مغطّية الأُمة كلها " .

وأخبرني ابن فنجويه ، قال : حدّثنا بن شيبة ، قال : حدّثنا التنوخي قال : حدّثنا عبيد بن يعيش ، قال : حدّثنا يونس بن بكير ، قال : أخبرنا محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير عن أبيه عن جدته أسماء بنت أبي بكر قال :

(178/734)

" سمعت النبي " يذكر سدرة المنتهى قال : يسير الراكب في ظلّ الفنن منها مائة عام ، ويستظلّ في الفنن منها مائة راكب . فيها فراش من ذهب ، كأنّ ثمارها القلال " .

وقال مقاتل : هي شجرة لو أنّ ورقة منها وضعت في الأرض لأضاءت لأهل الأرض ، تحمل الحليّ والحلل والثمار من جميع الألوان ، ولو أنّ رجلا ركب حقّةً فطاف على ساقها ما بلغ المكان الذي ركب منه حتى يقتله الهرم ، وهي طوى التي ذكرها الله سبحانه في سورة الرعد ، وقد تقصيت وصفها في قصة المسرى .

﴿ عِندَهَا جَنَّةُ المأوى * إِذْ يغشى السدرة مَا يغشى ﴾ قال ابن مسعود وأصحابه : فراش من ذهب ، وهي رواية الضحاك عن ابن عباس ، ورفعه إلى النبي صلى الله عليه

وسلم قال الحسن : غشيها نور ربّ العزة فاستنارت ، وقيل : الملائكة ، ويروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " رأيت على كلّ ورقة من ورقها ملكاً قائماً يسبّح الله عزّ وجل " ، وروى الربيع عن أبي هريرة أو غيره قال : لمّا أُسري بالنبي صلى الله عليه وسلم انتهى إلى السدرة ، قال : فغشيها نور الخلائق وغشيها الملائكة من حب الله مثل الغربان حين يقعن على الشجر .

قال : فكلّمه عند ذلك وقال له : سل .

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " فغشيها رفرف من طير خضر " .

قال السدي : من الطيور فوقها ، وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : " انتهيت إلى السدرة وأنا لأعرف أنّها سدرة ، أعرف ورقها وثمرها ، وإذا ينعها مثل الجرار ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة . فلمّا غشيها من أمر الله ما غشيها تحولت ياقوتاً وزمرداً حتى ما يستطيع أحد يصفها ، عندها جنة المأوى " .

(179/734)

قال ابن عباس : هي يمين العرش ، وهي منزلة الشهداء ، نظيره ﴿ فَلَهُمْ جَنَّاتُ المأوى ﴾ [السجدة : 19] وأخبرنا الحسن بن محمد قال : حدّثنا أبو عبد الله عمر بن أحمد بن

محمد بن الحرث القضباني . قال : حدّثنا علي بن العباس المقانعي ، قال : حدّثنا ميمون بن الأصبع ، قال : حدّثنا يحيى بن صالح الوحاطي قال : حدّثنا محمد بن سليمان بن حمزة البصري ، قال : حدّثنا عبدالله بن أبي قيس ، قال سمعت عبد الله بن الزبير يقرأ هذه الآية ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ﴾ بالهاء ﴿ المأوى ﴾ يعني جنّة المبيت ، وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا طلحة بن محمد وعبيد الله بن أحمد قالا : حدّثنا أبو بكر بن مجاهد ، قال : حدّثني أبو صدقة قال : حدّثنا أبو الأسباط قال : حدّثنا عبد الرَّحْمن عن علي بن القاسم الكندي عن موسى بن عبيدة ، قال : سمعت محمد بن كعب القرظي يقرأ ﴿ جَنَّةُ المأوى ﴾ وقال مجاهد : يريد أجنّه ، والهاء في هذه القراءة كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أبو حاتم : وهي قراءة علي وأنس يعني ستره ، وقال الأخفش : أدركه .

﴿ مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى ﴾ أي : ما جاور ما أمر به ، ولا مال عمّا قصد له .

﴿ لَقَدْ رأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكبرى ﴾ أي الآية الكبرى .

قال ابن مسعود : رأى رفرفاً أخضر من الجنة قد سدّ الأُفق ، وقال الضحاك : سدرة المنتهى ، وقال عبد الرَّحْمن بن يزيد ومقاتل بن حيان : رأى جبريل في صورته التي تكون في السماوات ، وقيل : المعراج ، وما أُري تلك الليلة في مسراه في عوده وبدئه . دليله قوله سبحانه ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَآ ﴾ [الإسراء : 1] .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللات ﴾ قراءة العامة بتخفيف التاء ، وهي من (الله) ألحقت بها التاء فاثبت

. كما قيل : عمر للذكر ، ثم قيل : للانثى عمرة ، وكما قيل عباس وعباسة ، وكذلك سمّى المشركون أوثانهم بأسماء الله فقالوا : من الله (اللات) ، ومن العزيز (العزّى) .

(180/734)

قال قتادة : أمّا اللات فكانت بالطائف . ابن زيد : اللات بيت بنخلة كانت قريش تعبده .

وقرأ ابن عباس ومجاهد وأبو صالح اللات بتشديد التاء ، وقالوا : كان رجلا يلتّ السويق للحاج ، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه ، وروى السدي عن أبي صالح أنّه كان بالطائف ، وكان يقوم على آلهتهم ويلتّ لهم السويق ، فلمّا مات عبدوه .

وقال مجاهد : كان رجلا في رأس جبل له غنم يسلى منها لسمن ، ويأخذ منها الأقط ، ويجمع رسلها ثم يتخذ منها (حيساً) فيطعم الحاج ، وكان ببطن نخلة ، فلما مات عبدوه ، وهو اللات ، وقال الكلبي : كان رجلا من ثقيف يقال له : (صرمة) بن غنم كان يسلأ السمن فيضعها على صخرة ثم تأتيه العرب فتلتّ به سيوفهم ، فلمّا مات الرجل (اخذت) ثقيف الصخرة الى منازلها فعبدتها فمدرة الطائف على وضع اللات .

﴿ والعزى ﴾ اختلفوا فيها فقال مجاهد : هي شجرة لغطفان يعبدونها ، وهي التي بعث إليها رسول الله خالد بن الوليد فقطعها ، وجعل خالد يضربها بالفأس ويقول :

يا عز كفرانك لا سبحانك . . . إني رأيت الله قد أهانك

فخرجت منها شيطانة ، ناشرة شعرها داعية ويلها ، واضعة يدها على رأسها ، ويقال : " إن خالداً رجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال قد قطعتها ، فقال : " ما رأيت ؟ " ، قال : لم أر شيئاً ، قال صلى الله عليه وسلم " ما قطعت " . فعاودها ومعه المعول فقلعها واجتثّ أصلها ، فخرجت منها امرأة عريانة فقتلها ، ثم رجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك فقال : " تلك العزى ولن تعبد أبداً " " .

(181/734)

وقال الضحاك : وهي صنم لغطفان وضعها لهم سعد بن ظالم الغطفاني ، وذلك أنّه قدم مكة فرأى الصفا والمروة ، ورأى أهل مكة يطوفون بينهما ، فعاد إلى (بطن نخلة) وقال لقومه : إنّ لأهل مكة الصفا والمروة وليست لكم ، ولهم اله يعبدونه وليس لكم ، قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : أنا أصنع لكم كذلك ، فأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة فنقلهما إلى بطن نخلة ، فوضع الذي من الصفا ، فقال : هذا الصفا ، ثم وضع الذي أخذ من المروة ، فقال : هذه المروة ، ثم أخذ ثلاثة أحجار فاسندها إلى شجرة وقال : هذا ربّكم ، فجعلوا يطوفون بين الحجرين وعبدون الحجارة حتى افتتح رسول الله مكة فأمر برفع الحجارة ،

وبعث خالد بن الوليد إلى العزى فقطعهما ، وقال ابن زيد : هي بيت بالطائف كانت تعبده ثقيف .

﴿ وَمَنَاةَ ﴾ قرأ ابن كثير بالمد ، ومثله روى الشموني عن أبي بكر عن عاصم وأنشد :

ألا هل أتى التيم بن عبد مناءة . . . على الشنئ فيما بيننا ابن تميم

والباقون بالقصر .

قال قتادة : هي حجارة كانت تعبد . ابن زيد : بيت كان بالمشلل يعبده بنو كعب .

الضحاك : مناة صنم لهذيل وخزاعة يعبدها أهل مكة ، وقيل : إن اشتقاقه من ناءَ النجم ينوء نوءاً ، وقال بعضهم : اللات والعزى ومناة أصنام من حجارة كانت في جوف الكعبة يعبدونها .

واختلف القراء في الوقف على اللات ومناة ، فوقف بعضهم عليهما بالهاء وبعضهم بالتاء ، وقال بعضهم : كل شيء في القرآن مكتوب بالتاء فإنه يوقف عليه بالتاء نحو ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ [الطور : 29] و ﴿ شَجَرَةُ الزقوم ﴾ [الصافات : 62] ونحوهما ، وما كان منها مكتوباً بالهاء فالوقف عليه بالهاء ، وقال بعضهم : الاختيار في كل ما لم يضف ان يكون بالهاء ، نحو ﴿ رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ [الكهف : 98] و ﴿ شَجَرَةٌ تَخْرُجُ ﴾ وما كان مضافاً فجائز بالهاء والتاء ، فالتاء للأضافة والهاء لأنه تفرد دون التاء .

وأما قوله سبحانه ﴿ الثالثة الأخرى ﴾ قال : العرب لا تقول للثالثة أُخرى وأنّما الأخرى نعت للثانية ، واختلفوا في وجهها فقال الخليل : إنّما قال ذلك لوفاق رؤوس الآي كقوله : ﴿ مَآرِبُ أخرى ﴾ [طه : 18] ولم يقل : أُخَر ، وقال الحسين بن الفضل : في الآية تقديم وتأخير ، مجازها : أفرأيتم اللات والعزى الاخرى ومناة الثالثة ، ومعنى الآية : أفرأيتم أيها الزاعمون أن اللات والعزى ومناة بنات الله .

﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ روى القواس والبزي عن ابن كثير بالهمز . الباقون بغير همز ، وقال ابن عباس وقتادة : يعني قسمة جائرة حيث جعلتم لربّكم من الولد ما تكرهون لأنفسكم . مجاهد ومقاتل : عوجاً . الحسن : غير معتدلة . ابن سيرين : غير مستوية أن يكون لهم الذكور ولله الإناث . الضحاك : ناقصة . سفيان منقوصة . ابن زيد : مخالفة .

قال الكسائي : يقال فيه : ضاز يضيز ضيزاً . ضاز يضوز ضوزاً . ضاز يضاز ضأزاً إذا ظلم ونقص . قال الشاعر :

ضازت بنو أسد بحكمهم . . . إذ يجعلون الرأس كالذَّنَبِ

وأنشد الأخفش :

فإن تَنأَ عنا ننتقصْك وإن تغبْ . . . فسهمك مضئوز وأنفك راغم

وتقدير ضيزى من الكلام فعلى بضم الفاء ؛ لأنها صفة من الصفات ، والصفات لا تكون إلاّ (فُعلى) بضم الفاء ، نحو : حُبلى وأُنثى ويُسرى ، أو (فَعلى) بفتح الفاء نحو : غَضبى وسَكرى وعَطشى ، وليس في كلام العرب (فِعلى) بكسر الفاء في النعوت ، إنّما يكون في الأسماء نحو : دفرى ، وذكرى وشعرى .

قال المؤرخ : كرهوا ضم الضاد وخافوا انقلاب الياء واواً وهو من بنات الياء فكسروا الضاد لهذه العلّة ، كما قالوا في جمع أبيض : بيض ، والأصل بوض مثل : حمر وصفر ، وأما من قال : ضاز يضوز فالاسم منه ضوزى مثل شورى .

(183/734)

﴿ إِنْ هِيَ ﴾ يعني هذه الأوثان ﴿ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ قرأ العامة بالياء ، وقرأ عيسى بالتاء ﴿ إِلاَّ الظن ﴾ في قولهم : إنّها آلهة وإنّها شفعاؤهم ﴿ وَمَا تَهْوَى الأنفس وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الهدى ﴾ لبيان أنّها ليست بآلهة وأن العبادة لا تصلح إلاّ لله الواحد القهار .

﴿ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تمنى ﴾ اشتهى ، وهم الكفار وزعموا أن الأصنام تشفع لهم عند الله ، يعني : أتظنون أنّ لهم ما يتمنون من شفاعة الأصنام ، ليس كما ظنوا أو تمنوا ، بل لله الآخرة

والأُولى ، يعني الدنيا ، يعطي ما يشاء ويمنع ما يشاء ، لا ما تمنّى الانسان واشتهى ، وهذا كقوله : ﴿ أإله مّعَ الله ﴾ [النمل : 60] أي لا إله مع الله ، وقال ابن زيد : إنْ كان محمد تمنّى شيئاً فأعطاه الله ذلك فلا تنكروه .

﴿ فَلِلَّهِ الآخرة والأولى ﴾ يعطي من يشاء ما يشاء ، ويحرم من يشاء ما يشاء .

﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السماوات ﴾ ممن يعبدونهم هؤلاء الكفار ويزعمون أنهم بنات الله ويرجون شفاعتهم عند الله . ﴿ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَآءُ ويرضى ﴾ قال الاخفش : الملك موحّد ومعناه الجمع ، وهو مثل قوله : ﴿ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَآءُ ويرضى ﴾ .

﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة لَيُسَمُّونَ الملائكة تَسْمِيَةَ ﴾ أي كتسمية أو بتسمية ﴿ الأنثى * وَمَا لَهُم ﴾ وذلك حين قالوا : إنهم بنات الله سبحانه ، تعالى الله عن افترائهم ﴿ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنَّ الظن لاَ يُغْنِي مِنَ الحق ﴾ أي من العذاب ﴿ شَيْئاً ﴾ نظيره ﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكة إِلاَّ بالحق ﴾ [الحجر : 8] . يعني أنها لا تشفع لهم ، وأن ظنهم لا ينقذهم من العذاب .

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا ﴾ يعني القرآن ، وقيل : الإيمان ، وقيل محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحياة الدنيا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ العلم ﴾ قال الفرّاء : وذلك حين قالوا : إنهم بنات اللّه ، تعالى اللّه عن افترائهم وازرى بهم بعد ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ دينه ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهتدى * وَلِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض لِيَجْزِيَ الذين أَسَاءُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيِجْزِيَ الذين أَحْسَنُواْ بالحسنى * الذين يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإثم والفواحش إِلاَّ اللمم ﴾ اختلفوا في معنى ﴿ إِلاَّ ﴾ فقال قوم : هو استثناء صحيح ، واللمم من الكبائر والفواحش ، ومعنى الآية : إلاّ ان يلم بالفاحشة ثم يتوب وتقع الوقعة ثم ينتهي ، وهو قول أبي هريرة ومجاهد والحسن وأبي صالح ، ورواية عطاء عن ابن عباس قال : هو الرجل يلمّ بالفاحشة ثم يتوب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن تغفر اللّهم تغفر جمّا . . . وأي عبد لك لا ألمّا

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : اللمم : ما دون الشرك .

(185/734)

قال آخرون : هو استثناء منقطع مجازه : لكن اللمم ، ولم يجعل اللمم من الكبائر والفواحش ، ثم اختلفوا في معناه ، فقال بعضهم : هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم به ، وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين : إنما كانوا بالأمس يعملون معنا ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية ، وهذا قول زيد بن ثابت وزيد بن أسلم وابنه ، وروى الوالبي عن ابن عباس ، وقال بعضهم : هو صغار الذنوب مثل النظرة والغمزة والقُبلة ، وهو من ألّم بالشيء إذا لم يتعمق فيه ولم يلزمه ، وهو قول ابن مسعود ومسروق والشعبي وأبي سعيد الخدري وحذيفة بن اليمان ، ورواية طاووس عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم

" إن الله عز وجل كتب على ابن آدم حظّه من الزنا أدركه ذلك لا محالة ، فزنا العينين النظر ، وزنا اللسان المنطق ، وزنا الشفتين التقبيل ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين المشي ، والنفس تتمنى وتشتهي ، والفرج يصدق أو يكذبه ، فإنْ تقدّم بفرجه كان زانياً وإلاّ فهو اللمم " .

وقال ابن الزبير وعكرمة وقتادة والضحاك : هو ما بين الحدّين : حدّ الدنيا وعذاب الآخرة ، وهي رواية العوفي والحكم بن عيينة عن ابن عباس ، وقال الكلبي : اللمم على وجهين ، كل ذنب لم يذكر عليه حدّاً في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة ، فذلك الذي تكفره الصلوات ما لم يبلغ الكبائر ، والوجه الآخر هو الذنب العظيم يلمّ به المسلم المرة بعد المرة فيتوب منه ، وقال

مقاتل : اللمم ما بين الحدّين من الذنوب . [نزلت في نبهان التمار وقد مضت القصة في سورة آل عمران ، وقال عطاء بن أبي رباح : اللمم عباده النفس الحين بن الحين ، وقال سعيد بن المسيب : هو ما لمّ على القلب ، اي حظر ، وقال محمد بن الحنفية : كل ما هممت به من خير أو شرّ فهو لمم .

(186/734)

ودليل هذا التأويل الخبر المروي " إنّ للشيطان لمّة ، وللملك لمّة ، فلمّة الشيطان الوسوسة ، ولمّة الملك الإلهام " وقال الحسين بن الفضل : اللمم : النظرة من غير تعمد ، وهو مغفور ، فإن أعاد النظر فليس بلمم وهو ذنب ، وقال الفرّاء : اللمم : المتقارب من صغار الذنوب ، وأصل اللمم والإلمام هو ما يعمله الانسان المرة بعد المرة ، والحين بعد الحين ولا يتعمق فيه ولا يقيم عليه . يقال : ألممتُ به إذا زرته وانصرفت ، المام الخيال ، قال الاعشى :

ألمّ خيال من قتيلة بعدما . . . وهى حبلها من حبلنا فتصرّما

وقال آخر :

أنى ألمّ بك الخيال يطيف . . . ومطافه لك ذكرة وشغوف

﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المغفرة ﴾ لا يتعاظمه ذنب ، نظيره ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

[الأعراف : 156] .

أخبرني ابن فنجويه ، قال : حدّثنا الفضل بن الفضل الكندي ، قال : حدّثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن النعمان بن عبد السلام الأصفهاني قال : حدّثنا محمد بن عاصم ، قال : حدّثنا يزيد بن هارون ، قال : أخبرنا العوام بن حوشب عن عمرو بن مرة عن أبي وائل قال : رأى أبو مسيرة عمرو بن شرحبيل ، وكان من أفاضل أصحاب عبد الله في المنام قال : رأيت كأني دخلت الجنة فإذا قباب مضروبة فقلت : لمن هذه ؟ فقالوا : لذي الكلاع وحوشب وكانا ممن قتل مع معاوية فقلت فأين عمار وأصحابه ؟ فقالوا : أمامك ، قلت : وقد قتل بعضهم بعضاً ؟ : إنهم لقوا الله سبحانه فوجدوه واسع المغفرة .

قال أبو خالد : بلغني أن ذا الكلاع أعتق اثنتي عشر ألف بنت .

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ ﴾ أي خلق أباكم من التراب ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ جمع جَنين ، وهو الولد ما دام في البطن ، سمّي جنيناً لاجتنانه أي استتاره .

(187/734)

روى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت اليهود إذا هلك لهم صديق قالوا : هو صديق . فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وقال : "كذبوا ما من نسمة يخلقها الله

سبحانه في بطن أمها إلاّ شقي أو سعيد " فأنزل الله سبحانه ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ .

﴿ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تزكوا أَنفُسَكُمْ ﴾ قال ابن عباس : لا تمدحوها . مجاهد وزيد بن أسلم : فلا تبرّئوها ، وقال الكلبي ومقاتل : كان أُناس يعملون أعمالا خبيثة ثم يقولون : صلاتنا وصيامنا وحجّنا . فأنزل الله سبحانه هذه ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم " إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب " .

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتقى ﴾ الشرك فآمن ، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : يعني عمل حسنة وارعوى عن سيئة ، وقال الحسن : أخلص العمل لله .

﴿ أَفَرَأَيْتَ الذي تولى ﴾ . . . الآيات ، قال ابن عباس والسدي والكلبي والمسيب بن شريك : نزلت في عثمان بن عفان رضوان الله عليه كان يتصدق وينفق في الخير ، فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبي سرح : ما هذا الذي تصنع ؟ يوشك أن لا يبقى لك شيء . فقال عثمان : إن لي ذنوباً وخطايا ، وإني أطلب بما أصنع رضا الله وأرجو عفوه . فقال له عبد الله : أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها ، فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن بعض ما كان يصنع من الصدقة والنفقة فأنزل الله سبحانه ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذي تولى ﴾ يعني يوم أُحد حين نزل ترك المركز .

﴿ وأعطى ﴾ يعني صاحبه ﴿ قَلِيلاً وأكدى ﴾ ثم قطع نفقته فعاد عثمان رضي الله عنه إلى أحسن ذلك وأجمله .

(188/734)

وقال مجاهد وابن زيد : نزلت في الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم على دينه فعيّره بعض المشركين وقال له : أتركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم في النار ، كان ينبغي لك ان تنصرهم . قال : إني خشيت عذاب الله ، فضمن له الذي عاتبه ان هو اعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله ، ففعل وأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له ، ثم بخل ومنحه تمام ما ضمن له فأنزل الله سبحانه ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذي تولى ﴾ أدبر عن الإيمان ﴿ وأعطى ﴾ يعني صاحبه الضامن قليلا ﴿ وأكدى ﴾ بخل بالباقي ، وقال مقاتل : يعني أعطى الوليد قليلا من الخير بلسانه ثم اي قطعه ولم يقم عليه .

وروى موسى بن عبيدة الزبيدي عن عطاء بن يسار قال : نزلت في رجل قال لأهله : جهّزوني انطلق إلى هذا الرجل يعني النبي صلى الله عليه وسلم فتجهّز وخرج ، فلقيه رجل من الكفار فقال له : أين تريد ؟ قال : محمداً ، لعلّي أُصيب من خيره ، فقال له الرجل :

أعطني جهازك وأحمل عنك إثمك ، فنزلت فيه هذه الآية .

وروي عن السدّي أيضاً قال : نزلت في العاص بن وائل السهمي ، وذلك أنّه كان ربما يوافق رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأُمور ، وقال محمد بن كعب القرظي : نزلت في أبي جهل ، وذلك أنه قال : والله ما يأمرنا محمد إلاّ بمكارم الاخلاق فذلك قوله : ﴿ وأعطى قَلِيلاً وأكدى ﴾ أي لم يؤمن .

قال المفسّرون : أكدى أي قطعه ولم يقم عليه ، وأصله من الكدية وهي حجر يظهر في البئر ويمنع من الحفر ويؤيس من الماء .

قال الكسائي : تقول العرب : أكدى الحافر وأجبل إذا بلغ في الحفر الكدية والجبل ، وقال : كديتْ أصابعه إذا محلتْ ، وكديتْ يده إذا كلّت فلم يعمل شيئاً ، وكدى النبت إذا قلّ ريعه ، وقال المؤرخ : أكدى أي منع الخير ، قال الحطيئة :

فأعطى قليلا ثم أكدى عطاءه . . . ومن يبذل المعروف في الناس يُحمدِ

(189/734)

﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الغيب فَهُوَ يرى * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ ﴾ يخبر ﴿ بِمَا فِي صُحُفِ موسى ﴾ يعني أسفار التوراة ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى ﴾ ما أُرسل به من تبليغ رسالة الله وهي قوله : ﴿

أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ روى عكرمة وطاووس عن ابن عباس قال : كانوا قبل إبراهيم صلوات الله عليه يأخذون الرجل بذنب غيره ، ويأخذون الولي بالولي في القتل ، حتى أنّ الرجل يُقتل بأبيه وأخيه وابنه وعمه وخاله ، والزوج يُقتل بامرأته ، والسيد يُقتل بعبده ، حتى كان إبراهيم عليه السلام فنهاهم عن ذلك وبلّغهم عن الله ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ .

(190/734)

وقال الحسن وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد : عمل بما أمر به وبلغ رسالات ربّه الى خلقه مجاهد : وفّى بما فرض عليه . ربيع : وفّى رؤياه وقام بذبح ابنه . عطاء الخراساني : استعمل الطاعة . أبو العالية : وفّى بتمام الإسلام وهو قوله : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة : 124] ، وما ابتلى بهذا الدين أحد فأقام سهامه كلها إلاّ إبراهيم ، والتوفية : الاتمام . فقال : وفيت عليه حقّه ووفرته ، قال الله سبحانه : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ [فاطر : 30] . سفيان بن عيينة : أدّى الأمانة . الضحّاك : وفّى بشأن المناسك . عطاء بن السائب : بلغني أن إبراهيم كان عهد أن لا يسأل مخلوقاً شيئاً ، فلمّا قُذف في النار وأتاه جبريل فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، فأثنى الله

سبحانه وتعالى عليه بقيامه بما قال ووفائه بما عهد فقال عز من قائل : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى ﴾ . الحسين ابن الفضل : وفّى بشأن الأضياف حتى سمّي أبا الأضياف . أبو بكر الورّاق : قام بشرط ما ادّعى ، وذلك ان الله سبحانه قال له : أسلم قال : اسلمت ، فطالبه الله سبحانه بصحة دعواه ، فابتلاه في ماله وولده ونفسه ، فوجده في ذلك كلّه وافياً ، فقال سبحانه ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى ﴾ أي ادعى الاسلام ثم صحح دعواه .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير هذه الآية قولان :

أحدهما : ما أخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا القطيعي قال : حدّثنا ابن حنبل قال : حدّثني أبي ، قال : حدّثنا حسين ، قال : حدّثنا ابن لهيعة قال : حدّثنا ريان بن فائد عن سهل عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال : " ألا أُخبركم لِمَ سمّى تعالى إبراهيم خليله الذي وفّى ؛ لأنه كان يقول كلّما أصبح وأمسى : (سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) حتى تختم الآية " .

(191/734)

والآخر : ما أخبرنا الحسن بن محمد قال : حدّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان ، قال : حدّثنا أحمد بن الفرج المقري ، قال : حدّثنا أبو عمر ، قال : حدّثنا نصر بن علي قال : أخبرنا

معمر بن سليمان عن جعفر عن القاسم عن أبي أمانة " أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى ﴾ قال : " أتدرون بما وفّى ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : وفّى : يعني عمل يومه بأربع ركعات كان يصلّيهن من أول النهار .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن ملك قال : حدّثنا ابن حنبل ، قال : حدّثنا أبي : قال : حدّثنا ابن مهدي ، قال : حدّثنا معاوية عن أبي الزاهرية عن كثير بن مرة عن نعيم بن همار أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله تعالى : يا بن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره " " .

وأخبرني ابن فنجويه ، قال : حدّثنا عبيد الله بن أبي سمرة قال : حدّثنا أبو طلحة أحمد بن محمد بن عبد الكريم قال : حدّثنا نصر بن علي قال : حدّثنا المعمر بن سليمان ، قال : حدّثنا محمد بن المعتصم ابو جميل عن أبي يزيد عن سعيد بن جبير أنه قرأ ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى ﴾ خفيفة .

فأما الجامع بين قوله سبحانه : ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ وبين قوله : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 13] فهو ما قال الحسين بن الفضل : ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ طوعاً ، ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 13] كرهاً .

أخبرني الحسين بن محمد قال : حدّثنا موسى بن محمد بن علي ، قال : حدّثنا أحمد بن يحيى الحلواني ، قال : حدّثنا يحيى بن عبد الحميد ، قال : حدّثنا عبد الله بن أياد بن لقيط " عن أبي رمثة ، قال : انطلقت مع أبي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلما رأيته قال لي أبي : أتدري من هذا ؟ ، هذا رسول الله . قال : فاقشعررت عن ذلك حين قال لي ، وكنت أظن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً لا يشبه الناس ، فإذا هو بشر ذو وفرة بها ردع من حناء وعليه ثوبان أخضران ، فسلّم عليه أبي ، ثم جلسنا فتحدّثنا ساعة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي : " هذا ابنك ؟ " قال أبي : ورب الكعبة حقاً أشهد به ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكاً من تثبيت شبهي في أبي ، ومن حلف أبي عليّ قال : " أما إنّه لا يجني عليك ولا تجني عليه " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ . ثم نظر أبي إلى مثل السلعة بين كتفيه ، فقال : يا رسول الله إني أُطبّب الرجال ، ألا أُعالجها لك ؟ قال : " لا طبيبها الذي خلقها " " .

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ أي عمل . نظيره قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ [الليل : 4] .

قال ابن عباس : هذه الآية منسوخة ، فأنزل الله بعدها ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ ﴾ [الطور : 21] فادخل الأبناء بصلاح الآباء الجنة

، وقال عكرمة : كان ذلك لقوم إبراهيم وموسى ، فأما هذه الأُمّة فلهم ما سعوا وما سعى غيرهم .

" بخبر سعد حين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لأُمّي إنْ تطوعت عنها ؟ قال : " نعم " " ، وخبر المرأة التي سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن أبي مات ولم يحجّ ، قال : " فحجي عنه " " .

(193/734)

وقال الربيع بن أنس : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ ﴾ يعني الكافر ، فأمّا المؤمن فله ما سعى وما سُعي ، وقيل : ليس للكافر من الخير إلاّ ما عمله فيثاب عليه في دار الدنيا حتى لا يبقى له في الآخرة خير .

ويروى أن عبد الله بن أُبيّ كان أعطى العباس قميصاً ألبسه إياه ، فلمّا مات عبد الله أرسل رسول الله قميصه ليكفّن فيه . فلم تبق له حسنة في الآخرة يثاب عليها .

وسمعت ابن حبيب يقول : سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب يقول : سمعت أبي يقول : دعا عبد الله بن طاهر والي خراسان الحسين بن الفضل قال : أشكلت عليّ ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لي ، قال : وما هي أيها الأمير ؟ ، قال : قوله تعالى في وصف ابني آدم ﴿

فَأَصْبَحَ مِنَ النادمين ﴾ [المائدة : 31] وصحّ الخبر بأن "الندم توبة" ، وقوله : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : 29] ، وصحّ الخبر "جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة" ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ فما بال الأضعاف فقال الحسين : يجوز ان لا يكون ندم قابيل توبة له ، ويكون ندم هذه الأُمة توبة لها ، إن الله سبحانه خص هذه الأُمة بخصائص لم يشركهم فيها الأمم .

وفيه قول آخر : وهو أن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ، وإنما كان على حمله ، وأما قوله : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ يعني عن طريق العدل ، ومجاز الآية : وأنْ ليس للانسان إلاّ ما سعى عدلا ، (ولى أن أجزيه بواحدة ألفاً فضلاً) ، وأمّا قوله : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : 29] فإنّها شؤون يعيدها لا شؤون يبديها ، ومجاز الآية سوق المقادير إلى المواقيت . قال : فقام عبد الله بن طاهر وقبّل رأسه وسوّغ خراجه .

قال أبو بكر الوراق : ﴿ إِلاَّ مَا سعى ﴾ أي نوى ، بيانه قوله صلى الله عليه وسلم " يبعث الناس على نيّاتهم " .

(194/734)

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الجزآء الأوفى ﴾ قال الأخفش : يقال : جزيته الجزاء وجزيته بالجزاء لا فرق بينهما ، قال الشاعر :

إن أجز علقمة بن سعد سعيه . . . لم أجزه ببلاء يوم واحد

فجمع بين اللغتين .

﴿ وَأَنَّ إلى رَبِّكَ المنتهى ﴾ أي منتهى الخلق ومصيرهم ، وهو مجازيهم بأعمالهم ، وقيل : منه ابتداء المنّة وإليه انتهاء الآمال .

أخبرني الحسن بن محمد السفياني قال : حدّثنا محمد بن سماء بن فتح الحنبلي ، قال : حدّثنا علي بن محمد المصري قال : حدّثنا اسحق بن منصور الصعدي ، قال : حدّثنا العباس بن زفر عن أبي جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب

" عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ إلى رَبِّكَ المنتهى ﴾ قال : لا فكرة في اللّه " .

والشاهد لهذا الحديث ما أخبرني ابن فنجويه ، قال : حدّثنا ابن شيبة ، قال : حدّثنا عمير بن مرداس قال : حدّثنا عبد الرَّحْمن بن إبراهيم السلمي ، قال : حدّثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن سنان بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا ذكر الله عز وجل فانتهوا " .

(أخبرنا) أبو منصور محمد بن عبد الله الجمشاذي لفظاً سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، قال : حدّثنا أبو محمد عبد الرَّحْمن بن محمد بن مجبور قال : حدّثنا أبو يحيى البزاز قال : حدّثني محمد ابن زكريا ، قال : حدّثني إبراهيم بن الجنيد ، قال : محمد بن يحيى المغني ، قال : حدّثنا داود عم الحسين بن قابيل عن قتادة عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة ، قال : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يتفكرون ، فقال : " فيم أنتم ؟ " قالوا : نتفكر في الخالق . فقال : " تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق ، فإنه لا تحيط به الفكرة ، تفكّروا أنّ الله خلق السموات والأرض سبعاً غلظ كل أرض خمسمائة عام ، وما بين كلّ أرضين خمسمائة عام ، وما بين السماء والأرض خمسمائة عام ، غلظ كل سماء خمسمائة عام ، وما بين كل سمائين خمسمائة عام ، وفي السماء السابعة بحر عمقه مثل ذلك كلّه ، فيه ملك لم يجاور الماء كعبه " " .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ ﴾ من شاء من خلقه ﴿ وأبكى ﴾ من شاء منهم .

أخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا عمر بن الخطاب ، قال : حدّثنا عبد الله بن الفضل ، قال : حدّثنا محمد بن أبي بكر المقدمي ، قال : حدّثتنا دلال بنت أبي المدل ، قالت : حدّثتنا

الصهباء ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : " مرّ النبي صلى الله عليه وسلم على قوم يضحكون فقال : لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلا " فنزل عليه جبريل فقال : إن الله تعالى يقول : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى ﴾ فرجع إليهم فقال "ما خطوت اربعين خطوة حتى أتى جبريل وقال : أئتِ هؤلاء فقل لهم : إن الله عز وجل يقول : هو أضحك وأبكى " .

وقال عطاء بن أبي أسلم : يعني : أفرح وأحزن ، لأن الفرح يجلب الضحك والحزن يجلب البكاء .

(196/734)

سمعت ابا منصور الحمساذي يقول : سمعت أبا بكر بن عبد الله الرازي يقول : سمعت يوسف بن جبير يقول : سئل طاهر المقدسي : اتضحك الملائكة ؟ فقال : ما ضحك من دون العرش منذ خلقت جهنم ، وقيل لعمر : هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون ؟ قال : نعم والله ، والإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي ، وقال مجاهد : أضحك اهل الجنة في الجنة ، وأبكى أهل النار في النار ، وقال الضحاك : أضحَك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر ، وقيل : أضحك الاسحار بالانوار وأبكى السماء

بالأمطار .

ذون النون : أضحك قلوب المؤمنين والعارفين بشمس معرفته ، وأبكى قلوب الكافرين العاصين بظلمة نكرته ومعصيته . سهل : أضحك المطيع بالرحمة وأبكى العاصي بالسخط . محمد بن علي الترمذي : أضحك المؤمن في الآخرة ، وأبكاه في الدنيا . قسام بن عبد الله : أضحك اسنانهم وأبكى قلوبهم وأنشد في معناه :

اللسن تضحك والأحشاء تحترق . . . وإنما ضحكها زور ومختلق

يا رُبّ باك بعين لا دموع لها . . . ورُبّ ضاحك سنَ ما به رمق

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ ﴾ أفنى في الدنيا ﴿ وَأَحْيَا ﴾ للبعث ، وقيل : أمات الآباء وأحيى الأبناء ، وقيل : أمات النطفة وأحيى النسمة ، وقيل : أمات الكافر بالنكرة والقطيعة ، وأحيى المؤمن بالمعرفة والوصلة ، قال سبحانه : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ [الأنعام : 122] ، وقال القاسم : أمات عن ذكره وأحيى بذكره . ابن عطاء : أمات بعدله وأحيا بفضله ، وقيل : أمات بالمنع والبخل وأحيى بالجود والبذل .

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تمنى ﴾ تصبّ في الرحم ، يقال : مني الرجل وأمنى ، قاله الضحاك ، وعطاء بن أبي رباح ، وقال آخرون : تُقدَّر ، يقال : منيت الشيء إذا قدّرته ، ويقال : إرضَ بما يمنى لك الماني ، ومنه سمّيت المنية ؛ لأنها مقدّرة ، وأصلها مميّنة .

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النشأة الأخرى ﴾ الخلق الآخر ، يعيدهم أحياءً .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أغنى وأقنى ﴾ قال أبو الصلاح : أغنى الناس بالمال ، وأقنى : أعطى القينة وأصول الأموال . الضحّاك : أغنى بالذهب والفضة وصنوف الأموال ، وأقنى بالإبل والغنم والبقر . مجاهد والحسن وقتادة : أخدم . ابن عباس : أرضى بما أعطى ، وهي رواية بن أبي نجيح وليث عن مجاهد . سليمان التيمي عن الحضرمي : أغنى نفسه وأفقر الخلائق إليه . ابن زيد : أغنى : أكثر وأفقر : أقل ، وقرأ ﴿ يَبْسُطُ الرزقِ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الإسراء : 30] . الأخفش أقنى : أفقر . ابن كيسان : أولد .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشعرى ﴾ وهي كوكب خلف الجوزاء تتبعه ، يقال له مرزم الجوزاء ، وهما شعريان يقال لأحدهما : العبور ، وللأُخرى : الغميضاء .

وقالت العرب في خرافاتها : إن سهيلا والشعرتين كانت مجتمعة فأخذ سهيل فصار يمانياً فتبعته الشعرى العبور فعبرت المجرة ، فسمّيت العبور ، فأقامت الغميضاء فبكت لفقد سهيل حتى غمضت عينها ؛ لأنه أخفى من الآخر ، وأراد هاهنا الشعرى العبور ، وكانت خزاعة تعبده ، وأول مَن سنّ لهم ذلك رجل من أشرافهم يقال له : أبو كبشة عبد الشعرى

العبور وقال : لأن النجوم تقطع السماء عرضاً والشعرى طولا فهي مخالفة لها ، فعبدتها خزاعة جميعاً ، فلمّا خرج رسول الله على خلاف العرب في الدين شبّهوه بأبي كبشة فسمّوه بأبي كبشة ، بخلافه إياهم كخلاف أبي كبشة في عبادة الشعرى .

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأولى ﴾ وهم قوم هود .

وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو ويعقوب عاداً الأُولى مدرجاً مدغماً ، وهمز واوه نافع برواية المسيبي ، وقال بطريق الحلواني : ، والعرب تفعل ذلك فتقول : قم لان عنّا . يريدون قم الآن عنّا وضمّ لثنين يريدون : ضم الإثنين .

(198/734)

﴿ وَثَمُودَ ﴾ يعني قوم صالح ﴿ فَمَا أبقى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وأطغى * والمؤتفكة ﴾ المنقلبة ، وهي قرى لوط الأربع : صنواهم ، وداذوما ، وعامورا ، وسدوم . ﴿ أهوى ﴾ يعني اهواها جبريل إلى الأرض بعدما رفعها إلى السماء .

﴿ فَغَشَّاهَا مَا غشى ﴾ يعني الحجارة المنضودة المسوّمة .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكَ ﴾ أي نعمائه عليك ﴿ تتمارى ﴾ تشك وتجادل .

﴿ هذا ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ نَذِيرٌ ﴾ رسول ﴿ مِّنَ النذر ﴾ الرسل

﴿ الأولى ﴾ أرسل إليكم كما أُرسلوا الى أقوامهم ، وهذا كما يقال : فلان واحد من بني آدم ، وواحد من الناس ، وقال أبو ملك : يعني هذا الذي أنذرتكم به من وقائع الأُمم الخالية العاصية في صحف إبراهيم وموسى .

﴿ أَزِفَتِ الآزِفة ﴾ قربت القيامة .

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ ﴾ مطهرة مقيمة ، و (الهاء) فيه للمبالغة ، بيانه قوله : ﴿ لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأعراف : 187] ، وقال قتادة : ليس لها من دون الله رادّ ، وقيل : ليس لها من دون الله كشف وقيام ، ولا تقوم إلاّ بإقامة الله إياها ، وهي على هذا القول اسم و (الهاء) فيه كالهاء في الباقية والعافية والراهية . ثم قال لمشركي العرب : ﴿ أَفَمِنْ هذا الحديث تَعْجَبُونَ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ ساهون لاهون غافلون . يقال : دع عنك سمودك أي لهوك ، وهي رواية الوالبي والعوفي عن ابن عباس ، وقال عكرمة : عنه هو الغناء وكانوا إذا سمعوا القرآن سمدوا ولعبوا ، وهي لغة أهل اليمن يقولون : اسمدْ لنا أي تغنَّ .

قال الكلبي : السامد : الحزين بلسان طي ، وبلسان أهل اليمن : اللاهي . الضحّاك : أشرون بطرون . قال : وقال ابن عباس : كانوا يمرّون على النبي صلى الله عليه وسلم شامخين ، ألم تر إلى الفحل يخطر شامخاً . عكرمة : هو الغناء باللغة الحميرية .

قال أبو عبيدة : يقال للجارية : اسمدي لنا أي غنّي . مجاهد : غضاب مبرطمون ، فقيل له : ما البرطمة قال الإعراض .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن صقلاب ، قال : حدّثنا ابن أبي الخصيب . قال : حدّثنا محمد بن يونس ، قال : حدّثنا عبد الله بن عمرو الباهلي قال : حدّثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة ، قال : لمّا نزلت هذه الآية ﴿ أَفَمِنْ هذا الحديث تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ ﴾ بكى أهل الصفة حتى جرت دموعهم على خدودهم ، فلمّا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينهم بكى معهم فبكينا ببكائه ، فقال صلى الله عليه وسلم " لا يلج النار من بكى من خشية الله ، ولا يدخل الجنة مصرّ على معصية ، ولو لم تذنبوا لجاء الله سبحانه بقوم يذنبون ثم يغفر لهم " .

وأخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا القطيعي قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد قال : حدّثنا أبي . قال : حدّثنا إبراهيم بن خالد ، قال : حدّثنا رباح قال : حدّثنا أبو الجراح عن رجل من أصحابهم يقال له : حارم " أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل عليه جبريل وعنده رجل يبكي فقال له : من هذا ؟ قال : " فلان " قال : إنّا نزن أعمال بني آدم كلها إلاّ البكاء فإن الله سبحانه ليطفئ بالدمعة بحوراً من نيران جهنم " .

وأخبرني ابن فنجويه ، قال : حدّثنا ابن حمدان بن عبد الله ، قال : حدّثنا إبراهيم بن

سهلويه قال : حدّثنا جعفر بن محمد أبو بكر الجرار ، قال : حدّثنا سعيد بن يعقوب والطالقاني ، قال : حدّثنا الوليد بن مسلم ، قال : حدّثنا إسماعيل بن رافع ، قال : حدّثني ابن أبي مليكة الأحول عن عبد الله بن السايب ، قال : قدم علينا سعد بن أبي وقاص بعد ما كفّ بصره ، فأتيته مسلّماً عليه ، فانتسبني فانتسبت ، فقال : مرحباً بابن أخي بلغني أنك حسن الصوت بالقرآن ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا " .

(200/734)

وأخبرني ابن فنجويه ، قال : حدّثنا القطيعي ، قال : حدّثنا عبد الله ، قال : حدّثني أبي ، قال : حدّثنا وكيع ، قال : حدّثنا زياد بن أبي مسلم عن صالح أبي الخليل ، قال : لما نزل ﴿ أَفَمِنْ هذا الحديث تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ ﴾ ما رُأِيَ النبي صلى الله عليه وسلم ضاحكاً .

﴿ فاسجدوا لِلَّهِ واعبدوا ﴾ أخبرنا الحسين قال : حدّثنا ابن حمدان ، قال : حدّثنا ابن ماهان ، قال : حدّثنا أبو عبد الله محمد بن محبوب بن حسان البصري ، قال : حدّثنا عبد الوارث ابن سعيد قال : حدّثنا ايوب عن عكرمة عن ابن عباس قال : قرأ رسول الله صلى

الله عليه وسلم سورة النجم فسجد فيها ، فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس .

وأخبرنا أحمد بن محمد بن يوسف ، قال : أخبرنا مكي بن عبدان ، قال : حدّثنا محمد بن يحيى ، قال : وفيما قرأت على عبد الله بن نافع ، وحدّثني مطرف بن عبد الله ، عن ملك ، عن ابن شهاب ، عن عبد الرَّحْمن الأعرج عن أبي هريرة أن عمر بن الخطاب قرأ لهم ﴿ والنجم إذَا هوى ﴾ فسجد فيها .

وأخبرني ابن فنجويه ، قال : حدّثنا بن حمدان ، قال : حدّثنا بن ماهان ، قال : حدّثنا عبد الله ابن مسلمة عن ابن أبي ذيب عن زيد بن عبد الله بن قسيط عن عطاء بن يسار عن زيد بن ثابت أنه قرأ عند النبي بالنجم صلى الله عليه وسلم فلم يسجد فيها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 134 . 159 ﴾

(201/734)

وقال الزمخشرى :

سورة النجم

مكية [إلا آية 32 فمدنية] وآياتها 62 وقيل 61 آية [نزلت بعد الإخلاص] بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النجم (53) : الآيات 1 إلى 18]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذا هَوى (1) ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى (2) وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى (3) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى (4)

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى (7) ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى (8)

فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى (9)

فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى (10) ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى (11) أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى (14)

عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى (16) ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى (17) لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى (18)

النجم : الثريا ، وهو اسم غالب لها . قال :

إذا طلع النّجم عشاء ابتغى الرّاعى كساء «1»

---

(1) . هذا تقوله العرب عند الشتاء ، وتقول عند الصيف :

طلع النجم غدية وابتغى الراعي شكية

والنجم :

اسم غالب على الثريا ، قيل : إنها تخفى في السنة أربعين يوما يسترها ضوء الشمس ، وتظهر عند دخول الشتاء عشاء ، وعند دخول الصيف صباحا ، والكساء : ثوب سابغ . والغدية : تصغير غدوة : وهي أول النهار . والشكية :

تصغير شكوة ، وهي قربة صغيرة جرداء ، لأنه في الشتاء يطلب كساء بدنية لكثرة البرد ، وفي الصيف يطلب قربة يشرب منها لكثرة الحر ، والأول كناية عن دخول البرد ، والثاني كناية عن دخول الحر .

(202/734)

أو جنس النجوم . قال :

فباتت تعد النّجم في مستحيرة «1»

يريد النجوم إِذا هَوى إذا غرب أو انتثر يوم القيامة . أو النجم الذي يرجم به إذا هوى : إذا انقض . أو النجم من نجوم القرآن ، وقد نزل منجما في عشرين سنة ، إذا هوى : إذا نزل .

أو النبات إذا هوى : إذا سقط على الأرض . وعن عروة بن الزبير أنّ عتبة بن أبى لهب وكانت تحته بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أراد الخروج إلى الشام ، فقال : لآتين

محمدا فلأوذينه ، فأتاه فقال : يا محمد ، هو كافر بالنجم إذا هوى ، وبالذي دنا فتدلى ، ثم تفل في وجه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وردّ عليه ابنته وطلقها ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك ، وكان أبو طالب حاضرا ، فوجم «2» لها وقال : ما كان أغناك يا ابن أخى عن هذه الدعوة ! فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره ، ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلا ، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم : إن هذه أرض مسبعة ، فقال أبو لهب لأصحابه : أغيثونا يا معشر

---

(1) فقد علموا أنى وفيت لربها فراح على عنس بأخرى يقودها

قريت الكلابي الذي يبتغى القرى وأمك إذ يحدى إلينا قعودها

فباتت تعد النجم في مستحيرة سريع بأيدى الآكلين جمودها

فلما سقيناها العكيس تملأت مذاخرها وارفض منها وريدها

ولما قضت من ذى الإناء لبانة أرادت إلينا حاجة لا نريدها

للراعي النميري من بنى قطن بن ربيعة : نزل به أضياف من بنى كلاب وقد غابت إبله ، فنحر لهم ناقة من ركابهم ، فلما أصبح أقبلت عليه إبله ، فأعطى صاحب الناقة مثلها ، وأعطاه ثنية زيادة عليها ، نذمه خنزر بن أرقم من بنى بدر ابن ربيعة على ذبحها ، فأجابه الراعي بقصيدة منها ذلك . والعنس : الناقة الصلبة . وأمك : عطف على الكلابي . ويحدى : مبنى للمجهول ، أى : يساق بالغناء له . والقعود - كصبور - : البكر من الإبل ،

لأنه لا يمكن الراكب من القعود على ظهره . وروى : إذ يحدى إليك ، بدل إلينا . ولعله بعد الضيافة الآتية أو تحريف ، فباتت أمك تعد النجم ، أى : تحسب صور النجوم ، أو تحسب فقاقع المرق في الجفنة ، فاستعار لها النجم على سبيل التصريحية .

أو تحسب الثريا ، لأن النجم اسم غالب عليها ، وهي سبعة نجوم : ترى صورتها في ليالي الشتاء . وقيل : المراد بالعد هنا : الظن ، أى باتت تظنا فيها . والمستحيرة : المتحيرة بامتلائها من المرق . ويروى : مستجرة لأنها تجر الناس للأكل منها والعكس : المرق الممزوج باللبن الحليب . وتملأت : امتلأت . ويروى : تمدحت ، بالدال المهملة ، أى : اتسعت من الشبع . ويروى بالمعجمة ، أى : اصطكت واضطربت . والمذاخر : مواضع الذخائر : والمراد بها المعدة والأمعاء . ويروى : خواصرها ، أى : جوانبها . وارفض : رشح وترشرش وارتعد ونفر ، ويروى :

وازداد رشحا وريدها . أى : باتت تنظر النجوم في جفنة كثيرة المرق والدسم ، سريع جمود دسمها على أيدى الآكلين من برد الشتاء ، حتى إذا امتلأت بطنها ونفرت عروق عنقها وقضت لبانة ، أى : حاجة من صاحب الإناء وهو المرق واللبن : طلبت منا حاجة لا نريدها ولا نرضاها ، لأنها فاحشة وكأنه ضمن أرادت معنى التضرع أو الميل أو النسبة فعداء بإلى . ويجوز أنها بمعنى من ، كما أوضحناه في آخر حرف الباء .

(2) . قوله «فوجم لها» أى اشتد حزنه . أفاده الصحاح . (ع)

قريش هذه الليلة ، فإني أخاف على ابني دعوة محمد ، فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم ، وأحدقوا بعتبة ، فجاء الأسد يتشمم وجوههم ، حتى ضرب عتبة فقتله «1» . وقال حسان :

من يرجع العام إلى أهله فما أكيل السّبع بالرّاجع «2»

ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ يعني محمدا صلى اللّه عليه وسلم : والخطاب لقريش ، وهو جواب القسم ، والضلال : نقيض الهدى ، والغي نقيض الرشد ، أي : هو مهتد راشد وليس كما تزعمون من نسبتكم إياه إلى الضلال والغي ، وما أتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه ورأيه ، وإنما هو وحي من عند اللّه يوحى إليه . ويحتج بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء ، ويجاب بأنّ اللّه تعالى إذا سوّغ لهم الاجتهاد ، كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحيا لا نطقا عن الهوى شَدِيدُ الْقُوى ملك شديد قواه ، والإضافة غير حقيقية ، لأنها إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها ، وهو جبريل عليه السلام ، ومن قوّته أنه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود ، وحملها على جناحه ، ورفعها إلى السماء ثم قلبها ، وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين ، وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده في أوحى من رجعة الطرف

«3» ، ورأى إبليس يكلم عيسى عليه السلام على

---

(1) . أخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق ابن إسحاق عن عثمان بن عروة عن أبيه فذكر مثله . إلا أنه قال «فضربه الأسد بذنبه ضربة واحدة فمات مكانه» ورواه البيهقي في الدلائل والطبراني من طريق سعيد عن قتادة مطولا نحوه . لكن قال عنبسة : ورواه الحاكم والبيهقي في الدلائل أيضا . من رواية أبى نوفل بن أبى عقرب عن أبيه . قال «كان لهب بن أبى لهب» فذكره مختصرا . وقال البيهقي : هكذا قال عباس بن الفضل الأزرق . وليس بالقوى . وأهل المغازي يقولونه عتبة أو عتيبة . [. . . . .]

(2) لا يرفع الرحمن مصروعكم ولا يوهن قوة الصارع

وكان فيه لكم عبرة السيد المتبوع والتابع

من يرجع العلم إلى أهله فما أكيل السبع بالراجع

من عاد فالليث له عائد أعظم به من خبر شائع

لحسان بن ثابت . روى عن عروة بن الزبير أن عتبة بن أبى لهب كان تحته بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فذهب إليه وقال : إنه كافر بالنجم إذا هوى وبالذي دنا فتدلى ثم تفل في وجهه وطلق ابنته وخرج إلى الشام فقال صلى اللّه عليه وسلم : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك ، فبينما هم يحرسونه ذات ليلة في سفر ، إذ جاء أسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عتبة فقتله ، فقال حسان ذلك ، والفعلان مجزومان بلا الدعائية . ويوهن

بالتشديد ، والمعنى الدعاء على القتيل والدعاء للقاتل . والمصروع : المطروح . والعبرة : الاعتبار أو ما يعتبر به . والتابع عطف على السيد .

من يرجع في هذا العام إلى أهله فلن يوجب رجوع غيره ، لأن من أكله السبع لا يرجع فلا يتمن أهله رجوعه ، لاستحالته وسكون السبع لغة ، ثم قال : من عاد لمثل فعل عتبة فالأسد عائد له ، وأعظم به : صيغة تعجب ، من خبر : تمييز مقترن بمن ، شائع : ذائع منتشر .

(3) . قوله «في أوحى من رجعة الطرف» أى : أسرع من الوحى وهو السرعة ، يمد ويقصر ، كذا في الصحاح . وفيه أيضا : نفحت الناقة : ضربت برجلها ، ونفحه بالسيف : تناوله . (ع)

(204/734)

بعض عقاب الأرض المقدّسة ، فنفحه بجناحه نفحة فألقاه في أقصى جبل بالهند ذُو مِرَّةٍ ذو حصافة في عقله «1» ورأيه ومتانة في دينه فَاسْتَوى فاستقام على صورة نفسه الحقيقية دون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي ، وكان ينزل في صورة دحية ، وذلك أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أحب أن يراه في صورته التي جبل عليها ، فاستوى له في الأفق الأعلى وهو أفق الشمس فملأ الأفق «2» . وقيل : ما رآه أحد من الأنبياء في

صورته الحقيقية غير محمد صلى اللّه عليه وسلم مرتين : مرة في الأرض ، ومرة في السماء «3» ثُمَّ دَنَا من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فَتَدَلَّى فتعلق عليه في الهواء . ومنه :

تدلت الثمرة ، ودلى رجليه من السرير .

والدوالي : الثمر المعلق . قال :

تدلّى عليها بين سب وخيطة «4»

ويقال : هو مثل القرلى : إن رأى خيرا تدلى ، وإن لم يره تولى قابَ قَوْسَيْنِ مقدار قوسين عربيتين : والقاب والقيب ، والقاد والقيد ، والقيس : المقدار . وقرأ زيد بن على : قاد . وقرئ :

قيد ، وقدر . وقد جاء التقدير بالقوس والرمح ، والسوط ، والذراع ، والباع ، والخطوة ، والشبر ، والفتر ، والأصبع . ومنه «لا صلاة إلى أن ترتفع الشمس مقدار رمحين» «5» . وفي الحديث «لقاب قوس أحدكم من الجنة وموضع قدّه خير من الدنيا وما فيها «6»» والقدّ : السوط .

ويقال : بينهما خطوات يسيرة . وقال :

---

(1) . قوله «ذو حصافة في عقله» أى : استحكام» أفاده الصحاح . (ع)

(2) . لم أجده هكذا . وفي الصحيحين من رواية مسروق عن عائشة «أنا أول من سأل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقال : إنما هو جبريل لم أره على صورته التي رأيته عليها

غير هاتين المرتين : رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض»

وللترمذي وابن حبان «ولكنه رأى جبريل ، لم يره في صورته إلا مرتين :

مرة عند سدرة المنتهى . ومرة في أجياد ، له ستمائة جناح ، وقد سد الأفق» .

(3) . لم أجده . هكذا . وذكر المرتين ، تقدم في الذي قبله .

(4) تدلى عليها بين سب وخيطة تدلى دلو المائح المنشمر

يروى لأبي ذؤيب بدل الشطر الثاني : بجرداء مثل الوكف يكبو غرابها . والسب –

بالكسر – : الحبل ، والخمار ، والعمامة ، والخيطة كذلك الوتد ونحوه : في لغة هذيل .

والمائح : مالئ الدلو من أسفل البئر . والمائح – بالتاء – :

المستقى ، يصف جانى العسل بأنه تدلى على النحل أو العسل ، لأنه يؤنث أيضا ، أى : نزل

متمسكا بحبل مشدود في وتد ، كتدلى دلو المالئ النشيط . والجرداء : فرس قليلة الشعر .

والوكف : النطع . وكبا الجواد يكبو : سقط على وجهه . وغراب الدابة : أعلى ظهرها ،

أى : كأن غرابها ينحدر لسرعة سيرها .

(5) . أخرجه الحاكم من حديث عمرو بن عبسة في حديث طويل ورواه إسحاق

والدارقطني من حديث كعب بن مرة نحوه في حديث ، ورواه الطبراني من حديث عبد

الرحمن بن عوف مختصرا .

(6) . أخرجه البخاري من طريق حميد عن أنس أتم من هذا .

وقد جعلتني من حزيمة أصبعا «1»

فإن قلت : كيف تقدير قوله فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ ؟ قلت : تقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين «2» ، فحذفت هذه المضافات كما قال أبو علي في قوله :

وقد جعلتني من حزيمة أصبعا

أى : ذا مقدار مسافة أصبع أَوْ أَدْنى أى على تقديركم ، كقوله تعالى أَوْ يَزِيدُونَ . إِلى عَبْدِهِ إلى عبد اللّه ، وإن لم يجر لاسمه عزّ وجل ذكر ، لأنه لا يلبس ، كقوله عَلى ظَهْرِها . ما أَوْحى تفخيم للوحى الذي أوحى «3» إليه : قيل أوحى إليه «إنّ الجنة محرّمة على الأنبياء حتى تدخلها وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك» ما كَذَبَ فؤاد محمد صلى اللّه عليه وسلم ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام ، أى : ما قال فؤاده لما رآه : لم أعرفك ، ولو قال ذلك لكان كاذبا ، لأنه عرفه ، يعنى : أنه رآه بعينه وعرفه بقلبه ، ولم يشك في أنّ ما رآه حق وقرئ : ما كذب ، أى صدقه ولم يشك أنه جبريل عليه السلام بصورته أَفَتُمارُونَهُ من المراء وهو الملاحاة والمجادلة واشتقاقه من مرى الناقة ، «4» كأن كل واحد من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه . وقرئ : أفتمرونه : أفتغلبونه في المراء ، من ماريته فمريته ، ولما فيه من معنى

الغلبة عدّى بعلى ، كما تقول : غلبته على كذا : وقيل : أفتمرونه : أفتجحدونه . وأنشدوا :

لئن هجوت أخا صدق ومكرمة لقد مريت أخا ما كان يمريكا «5»

---

(1) فأدرك إبقاء العراوة ظلعها وقد جعلتني من حزيمة أصبعا

للكلحية ، وهو لقب لعبد اللّه بن هبيرة . وقيل : جرير بن هبيرة . وقيل : هبيرة بن عبد مناف . وقيل : هو للأسود بن يعفر . وقيل : لرؤبة وليس بشيء . والإبقاء : ما تبقيه الفرس من الهمة لتبذله قرب بلوغ المقصد .

والعراوة كجرادة . وقيل : بالكسر اسم فرسه . والظلع - بالفتح - : غمز في المشية من وجع الرجل ، أى : أدرك الظلع ما أبقته الفرس فلم تقدر على بذله ، والحال أنها جعلتني قريبا من عدوى حزيمة بمهملة مفتوحة فمعجمة مكسورة :

رجل كان قد أغار على إبل الشاعر فتبعه . وقيل : قبيلته وليس بذاك . ويروى : فأدرك إرقال العراوة . والإرقال :

الاسراع في السير ، أى : أبطل إسراعها العرج ، ولا بد من تأويل قوله : جعلتني أصبعا أى : جعلتني ذا مسافة أصبع . أو جعلت مسافتي مقدار أصبع .

(2) . قال محمود : «تقديره : فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين إلى آخره» قال أحمد : وقد قال بعضهم :

إنه كناية عن المعاهدة على لزوم الطاعة ، لأن الحليفين في عرف العرب إذا تحالفا على الوفاء والصفاء ألصقا وترى قوسيهما » قال أحمد : وفيه ميل لقوله أَوْ أَدْنى .

(3) . قال محمود : «هذا تفخيم للوحى الذي أوحى اللّه إليه» قال أحمد : التفخيم لما فيه من الإبهام ، كأنه أعظم من أن يحيط به بيان ، وهو كقوله : إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى وقوله فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ .

(4) . قوله «من مرى الناقة» في الصحاح : مريت الناقة ، إذا مسحت ضرعها لتدر . (ع)

(5) . يقول لصاحبه : لئن ذممت أخا صدق ومكرمة ، يعنى : نفسه . ويقال : مرى الناقة ، أى : حلبها . ومنه المماراة . كأن كلا من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه . ومنه : فقد مريت أخا صدق ، أى : غلبته في الجدال وأنفذت ما عنده ، لأن من حلب الناقة يتركها يابسة الضرع ، أو جحدت حقه كأنك أخذته منه ، أو تسببت في إخراج ما عنده ، فيذمك كما ذممته . ما كان يمريك ، أى : ما كان يفعل بك كذلك .

(206/734)

وقالوا : يقال مريته حقه إذا جحدته ، وتعديته بعلى لا تصح إلا على مذهب التضمين نَزْلَةً أُخْرى مرة أخرى من النزول ، نصبت النزلة نصب الظرف الذي هو مرة ، لأنّ الفعلة اسم

للمرّة من الفعل ، فكانت في حكمها ، أى : نزل عليه جبريل عليه السلام نزلة أخرى في صورة نفسه ، فرآه عليها ، وذلك ليلة المعراج. قيل في سدرة المنتهى : هي شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش : ثمرها كقلال هجر ، وورقها كآذان الفيول ، تنبع من أصلها الأنهار التي ذكرها اللّه في كتابه ، يسير الراكب في ظلها سبعين عاما لا يقطعها .

والمنتهى : بمعنى موضع الانتهاء ، أو الانتهاء ، كأنها في منتهى الجنة وآخرها . وقيل : لم يجاوزها أحد ، وإليها ينتهى علم الملائكة وغيرهم ، ولا يعلم أحد ما وراءها . وقيل : تنتهي إليها أرواح الشهداء جَنَّةُ الْمَأْوى الجنة التي يصير إليها المتقون : عن الحسن . وقيل : تأوى إليها أرواح الشهداء .

وقرأ على وابن الزبير وجماعة : جنة المأوى ، أى ستره بظلاله ودخل فيه . وعن عائشة : أنها أنكرته وقالت : من قرأ به فأجنه اللّه ما يَغْشى تعظيم وتكثير لما يغشاها ، فقد علم بهذه العبارة أن ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة اللّه وجلاله : أشياء لا يكتنهها النعت ولا يحيط بها الوصف . وقد قيل : يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون اللّه عندها . وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «رأيت على كل ورقة من ورقها ملكا قائما يسبح اللّه» «1» . وعنه عليه السلام : يغشاها رفرف من طير خضر «2» . وعن ابن مسعود وغيره : يغشاها فراش من ذهب «3» ما زاغَ بصر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وَما طَغى أى أثبت ما رآه إثباتا مستيقنا صحيحا ، من غير أن يزيغ بصره عنه أو

يتجاوزه ، أو ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ومكن منها ، وما طغى : وما جاوز ما أمر برؤيته لَقَدْ رَأَى واللّه لقد رأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الآيات التي هي كبراها وعظماها «4» ، يعنى : حين رقى ربه إلى السماء فأرى عجائب الملكوت .

---

(1) . أخرجه الطبري من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال قيل له : يا رسول اللّه ، أى شيء رأيت يغشى تلك الشجرة ؟ فذكره وأتم منه» وعبد الرحمن ضعيف وهذا معضل . [. . . . .]

(2) . لم أجده .

(3) . أما حديث ابن مسعود فرواه إسحاق بن راهويه من طريق مرة عنه بهذا وأتم منه وأما غيره فرواه [بياض بالأصل] .

(4) . قال محمود : «معناه قد رأى من آيات ربه الآيات التي . . . الخ» قال أحمد : ويحتمل أن تكون الكبرى صفة آيات ربه ، لا مفعولا به ، ويكون المرئي محذوفا لتفخيم الأمر وتعظيمه ، كأنه قال : لقد رأى من آيات ربه الكبرى أمورا عظاما لا يحيط بها الوصف ، والحذف في مثل هذا أبلغ وأهول ، وهذا – واللّه أعلم – أولى من الأول ، لأن فيه تفخيما لآيات اللّه الكبرى ، وأن فيها ما رآه وفيها ما لم يره ، وهو على الوجه الأول يكون مقتضاه أنه رأى جميع الآيات الكبرى على الشمول والعموم ، وفيه بعد ، فان آيات اللّه تعالى لا يحيط

أحد علما بجملتها .

فان قال : عام أريد به خاص ، فقد رجع إلى الوجه الذي ذكرناه والله أعلم .

(207/734)

[سورة النجم (53) : الآيات 19 إلى 23]

أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى (20) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى (21) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى (22) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى (23)

اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ أصنام كانت لهم ، وهي مؤنثات ، فاللات كانت لثقيف بالطائف . وقيل : كانت بنخلة تعبدها قريش ، وهي فعلة من لوى ، لأنهم كانوا يلوون عليها ويعكفون للعبادة . أو يلتوون عليها «1» : أي يطوفون . وقرئ : اللات ، بالتشديد . وزعموا أنه سمى برجل كان يلت عنده السمن بالزيت ويطعمه الحاج . وعن مجاهد : كان رجل يلت السويق بالطائف ، وكانوا يعكفون على قبره ، فجعلوه وثنا ، والعزى كانت لغطفان وهي سمرة ، وأصلها تأنيث الأعز ، وبعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها ، فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية ويلها ، واضعة يدها على رأسها ،

فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها وهو يقول :

يا عزّ كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك «2»

---

(1) . قال محمود : «اشتقاق اللات من لوى على كذا إذا قام عليه لأنهم كانوا . . . الخ» قال أحمد : الأخرى تأنيث آخر ، ولا شك أنه في الأصل مشتق من التأخير الوجودي ، إلا أن العرب عدلت به عن الاستعمال في التأخير الوجودي إلى الاستعمال حيث يتقدم ذكر مغاير لا غير ، حتى سلبته دلالته على المعنى الأصلي ، بخلاف آخر وآخرة ، على وزن فاعل وفاعلة ، فان إشعارهما بالتأخير الوجودي ثابت لم يغير . ومن ثم عدلوا عن أن يقولوا : ربيع الآخر ، على وزن الأفعل ، وجمادى الأخرى : إلى ربيع الآخر ، على وزن فاعل ، وجمادى الآخرة على وزن فاعلة ، لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجودي ، لأن الأفعل والفعلى من هذا الاشتقاق مسلوب الدلالة على غرضهم ، فعدلوا عنها إلى الآخر والآخرة ، والتزموا ذلك فيهما . وهذا البحث مما كان الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه اللّه تعالى قد حرره آخر مدته ، وهو الحق إن شاء اللّه تعالى ، وحينئذ يكون المراد الاشعار بتقدم مغاير في الذكر ، مع ما نعتقده في الوفاء بفاصلة رأس الآية ، واللّه أعلم .

(2) . لخالد بن الوليد رضى اللّه عنه . وعز : مرخم عزى . وترخيمه شاذ ، لأنه ليس رباعيا ولا مؤنثا بالهاء ، وهي شجرة كانت تعبدها الجاهلية ، فضربها بسيفه فخرجت منها جنية صارخة ، فقال لها ذلك البهت . وقيل : ضربها بالفأس حتى قطعها وقتل

الجنية . وكفرانك : نصب بمحذوف وجوبا ، كسبحان ، أى : أكفر كفرانا بك ، لا أنزه تنزيها لك ، فهما مصدران مغنيان عن اللفظ بفعليهما . والاهانة : الاذلال .

(208/734)

ورجع فأخبر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال عليه السلام تلك العزى ولن تعبد أبدا «1» . ومناة : صخرة كانت لهذيل وخزاعة . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : لثقيف . وقرئ :

ومناءة ، وكأنها سميت مناة لأنّ دماء النسائك كانت تمنى عندها ، أى : تراق ، ومناءة مفعلة من النوء ، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركا بها . والأخرى ذمّ ، وهي المتأخرة الوضيعة المقدار ، كقوله تعالى قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ أى وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرافهم .

ويجوز أن تكون الأوّلية والتقدّم عندهم للات والعزى . كانوا يقولون إنّ الملائكة وهذه الأصنام بنات اللّه ، وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند اللّه تعالى مع وأدهم البنات ، فقيل لهم أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى ويجوز أن يراد : أنّ اللات والعزى ومناة إناث ، وقد جعلتموهنّ للّه شركاء ، ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث وتستنكفوا من أن يولدن لكم

وينسبن إليكم ، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أندادا للّه وتسمونهنّ آلهة قِسْمَةٌ ضِيزى جائرة ، من ضازه يضيزه إذا ضامه ، والأصل : ضوزى «2» . ففعل بها ما فعل ببيض ، لتسلم الياء . وقرئ : ضئزى ، من ضأزه بالهمز . وضيز : بفتح الضاد هِيَ ضمير الأصنام ، أى ما هي إِلَّا أَسْماءٌ ليس تحتها في الحقيقة مسميات ، لأنكم تدعون الإلهية لما هو أبعد شيء منها وأشدّه منافاة لها . ونحوه قوله تعالى ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أو ضمير الأسماء وهي قولهم ، اللات والعزى ومناة ، وهم يقصدون بهذه الأسماء الآلهة ، يعنى : ما هذه الأسماء إلا أسماء سميتموها بهواكم وشهوتكم ، ليس لكم من اللّه على صحة تسميتها برهان تتعلقون به . ومعنى سَمَّيْتُمُوها سميتم بها ، يقال : سميته زيدا ، وسميته بزيد إِنْ يَتَّبِعُونَ وقرئ بالتاء إِلَّا الظَّنَّ إلا توهم أنّ ما هم عليه حق ، وأنّ آلهتهم شفعاؤهم ، وما تشتهيه أنفسهم ، ويتركون ما جاءهم من الهدى والدليل على أنّ دينهم باطل .

---

(1) . أخرجه ابن مردويه من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن السائب الكلبي عن أبى صالح وعن عكرمة عن ابن عباس أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعث خالد بن الوليد إلى العزى ليهدمها . وكانت بنخلة عليها سادن فجاءها خالد فهدمها فذكر نحوه إلى آخره ورواه الواقدي في المغازي والأزرقى في التاريخ من طريقه عن عبد اللّه بن يزيد الهذلي عن سعيد بن عمرو الهذلي قال «قدم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مكة فذكر القصة

وفيها : فبعث خالد ابن الوليد إلى العزى يهدمها فذكر القصة . وكذا ذكره ابن سعد في الطبقات في السرايا وأصل هذه القصة رواها النسائي وأبو يعلى والطبراني وأبو نعيم في الدلائل من حديث أبي الطفيل قال «لما فتح رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مكة - بعث خالد بن الوليد إلى نخلة - وكانت بها العزى فأتاها خالد ، وكانت على ثلاث شجرات فقطع الشجرات» .

(2) . قوله «و الأصل قوله ضوزى» لعل صوابه «ضيزى» بكسر الضاد . ويؤيده ما قبله وما بعده اه ملخصا من هامش . (ع)

(209/734)

[سورة النجم (53) : الآيات 24 إلى 25]

أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى (24) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولى (25)

أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى هي أم المنقطعة ومعنى الهمزة فيها لإنكار ، أى : ليس للإنسان ما تمنى ، والمراد طمعهم في شفاعة الآلهة ، وهو تمنّ على اللّه في غاية البعد ، وقيل : هو قولهم : وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى وقيل : هو قول الوليد بن المغيرة «لأوتين مالا وولدا» وقيل هو تمنى بعضهم أن يكون هو النبي صلى اللّه عليه وسلم فللّه الآخرة والأولى

أى هو مالكهما .

فهو يعطى منهما من يشاء ويمنع من يشاء ، وليس لأحد أن يتحكم عليه في شيء منهما .

[سورة النجم (53) : آية 26]

وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى (26)

يعنى : أنّ أمر الشفاعة ضيق وذلك أنّ الملائكة مع قربتهم وزلفاهم وكثرتهم واغتصاص السماوات بجموعهم لو شفعوا بأجمعهم لأحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئا قط ولم تنفع ، إلا إذا شفعوا من بعد أن يأذن اللّه لهم في الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلا لأن يشفع له ، فكيف تشفع الأصنام إليه بعبدتهم «1» .

[سورة النجم (53) : الآيات 27 إلى 30]

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى (27) وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (28) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَياةَ الدُّنْيا (29) ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى (30)

لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ أى كل واحد متهم تَسْمِيَةَ الْأُنْثى لأنهم إذا قالوا : الملائكة بنات اللّه ، فقد سموا كل واحد منهم بنتا وهي تسمية الأنثى بِهِ مِنْ عِلْمٍ أى بذلك وبما يقولون «2» .

وفي قراءة أبيّ : بها ، أى : بالملائكة . أو التسمية لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً يعنى إنما يدرك الحق الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه بالعلم والتيقن لا بالظنّ والتوهم فَأَعْرِضْ عن دعوة من رأيته معرضا عن ذكر اللّه عن الآخرة ولم يرد إلا الدنيا ، ولا تتهالك على إسلامه ، ثم قال إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ

---

(1) . قوله «بعبدتهم» لعله لعبدتهم ، كعبارة النسفي . (ع)

(2) . قوله «ربما يقولون» لعله أو بما يقولون . (ع)

أى إنما يعلم اللّه من يجيب ممن لا يجيب ، وأنت لا تعلم ، فخفض على نفسك ولا تتعنها ، فإنك لا تهدى من أحببت ، وما عليك إلا البلاغ . وقوله تعالى ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ اعتراض أو فأعرض عنه ولا تقابله ، إنّ ربك هو أعلم بالضال والمهتدى ، وهو مجازيهما بما يستحقان من الجزاء .

[سورة النجم (53) : الآيات 31 إلى 32]

وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (31) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ

أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32)

قرئ : ليجزي . ويجزى ، بالياء والنون فيهما . ومعناه : أنّ اللّه عز وجل إنما خلق العالم وسوّى هذه الملكوت لهذا الغرض : وهو أن يجازى المحسن من المكلفين والمسيء منهم . ويجوز أن يتعلق بقوله هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى لأنّ نتيجة العلم بالضال والمهتدى جزاؤهما بِما عَمِلُوا بعقاب ما عملوا من السوء . وبِالْحُسْنَى بالمثوبة الحسنى وهي الجنة . أو بسبب ما عملوا من السوء وبسبب الأعمال الحسنى كَبائِرَ الْإِثْمِ أى الكبائر من الإثم ، لأن الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر ، والكبائر : الذنوب التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة . وقيل : التي يكبر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها وَالْفَواحِشَ ما فحش من الكبائر ، كأنه قال : والفواحش منها خاصة : وقرئ : كبير الإثم ، أى : النوع الكبير منه وقيل : هو الشرك باللّه . واللمم : ما قل وصغر . ومنه : اللمم المس من الجنون ، واللوثة منه .

وألم بالمكان إذا قل فيه لبثه . وألم بالطعام : قل منه أكله : ومنه :

لقاء أخلّاء الصّفاء لمام «1»

---

(1) لقاء أخلاء الصفاء لمام وكل وصال الغانيات ذمام

أى : لقاء الأحباب الذين صفت مودتهم لمام ، أى : قليل فهو مفاعلة من الإلمام وهو الزيادة

بلا تلبث ولا تمكث وكل وصال النساء المستغنيات بجمالهن عن التحلي بالحلى أو المخدرات المقيمات في بيوتهن ، من غنى بالمكان كرضى :

أقام به ذمام أى شيء قليل من حقوق الحرمة والذمة ، وإطلاقه على ذلك مجاز ، وحقيقته : الحرمة والذمة والمعاهدة والعهد الذي يتعاهد به المتعاهدان وما يذم الشخص على إضاعته من العهد ، فهو إما مفاعلة من الذمة ، وإما اسم آلة : كالحزام والوثاق ، وقد يستعمل صفة لبئر قليلة الماء ، ويستعمل جمع ذمة . والمعنى أن رؤية الأحباب قليلة إما حقيقة في العادة ، وإما ادعاء واستقلالا لها . ورؤية غيرهم كثيرة . وفيه معنى التحزن . ويجوز أن يقرأ : الدمام بالمهملة ، وهو ما يطلى به الوجه ليحسن ، والمعنى : أن وصالهن مجرد تمويه لا حقيقة له ، والمعنى على التشبيه .

(211/734)

والمراد الصغائر من الذنوب ، ولا يخلو قوله تعالى إِلَّا اللَّمَمَ من أن يكون استثناء منقطعا أو صفة ، كقوله تعالى لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ كأنه قيل : كبائر الإثم غير اللمم ، وآلهة غير اللّه :

وعن أبى سعيد الخدري : اللمم هي النظرة ، والغمزة ، والقبلة : وعن السدّى :

الخطرة من الذنب : وعن الكلبي : كل ذنب لم يذكر اللّه عليه حدّا ولا عذابا : وعن عطاء :

عادة النفس الحين بعد الحين إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ حيث يكفر الصغائر باجتناب الكبائر ، «1» والكبائر بالتوبة فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ فلا تنسبوها إلى زكاء العمل وزيادة الخير وعمل الطاعات : أو إلى الزكاء والطهارة من المعاصي ، ولا تثنوا عليها واهضموها ، فقد علم اللّه الزكي منكم والتقى أوّلا وآخرا قبل أن يخرجكم من صلب آدم ، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم . وقيل : كان ناس يعملون أعمالا حسنة ثم يقولون : صلاتنا وصيامنا وحجنا ، فنزلت : وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء : فأما من اعتقد أن ما عمله من العمل الصالح من اللّه وبتوفيقه وتأييده ولم يقصد به التمدح : لم يكن من المزكين أنفسهم ، لأن المسرة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكر .

[سورة النجم (53) : الآيات 33 إلى 54]

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وَأَعْطى قَلِيلاً وَأَكْدى (34) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى (35)
أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى (36) وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37)
أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى (40) ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى (41) وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى (42)
وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكى (43) وَأَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَأَحْيا (44) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى (46) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى (47)
وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَأَقْنى (48) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى (49) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى (50)

وَثَمُودَ فَما أَبْقى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغى (52)
وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى (53) فَغَشَّاها ما غَشَّى (54)

---

(1) . قوله «يكفر الصغائر باجتناب الكبائر» هذا عند المعتزلة ، وعند أهل السنة بذلك . أو بمجرد الفضل ، وكذا ما بعده . (ع)

أَكْدى قطع عطيته وأمسك ، وأصله : إكداء الحافر ، وهو أن تلقاه كدية : وهي صلابة كالصخرة فيمسك عن الحفر ، ونحوه : أجبل الحافر ، ثم استعير فقيل : أجبل الشاعر إذا أفحم . روى أن عثمان رضى اللّه عنه كان يعطى ما له في الخير ، فقال له عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح وهو أخوه من الرضاعة : يوشك أن لا يبقى لك شيء ، فقال عثمان : إن لي ذنوبا وخطايا ، وإنى أطلب بما أصنع رضا اللّه تعالى وأرجو عفوه ، فقال عبد اللّه : أعطنى ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها ، فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء . فنزلت . ومعنى تَوَلَّى ترك المركز يوم أحد ، فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل فَهُوَ يَرى فهو يعلم أن ما قال له أخوه من احتمال أوزاره حق وَفَّى قرئ مخففا ومشدّدا ، والتشديد مبالغة في الوفاء . أو بمعنى :

وفر وأتم ، كقوله تعالى فَأَتَمَّهُنَّ وإطلاقه ليتناول كل وفاء وتوفية ، من ذلك : تبليغه الرسالة ، واستقلاله بأعباء النبوّة ، والصبر على ذبح ولده وعلى نار نمروذ ، وقيامه بأضيافه وخدمته إياهم بنفسه ، وأنه كان يخرج كل يوم فيمشى فرسخا يرتاد ضيفا ، فإن وافقه أكرمه ، وإلا نوى الصوم . وعن الحسن : ما أمره اللّه بشيء إلا وفي به . وعن الهزيل بن شرحبيل «1» : كان بين نوح وبين إبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة غيره ، ويقتل بأبيه وابنه وعمه وخاله ، والزوج بامرأته ، والعبد بسيده ، فأوّل من خالفهم إبراهيم . وعن عطاء بن السائب : عهد أن لا يسأل مخلوقا ، فلما قذف في النار قال له جبريل وميكائيل : ألك حاجة ؟ فقال . أمّا إليكما فلا . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : وفي عمله كل يوم بأربع ركعات في صدر «2» النهار ، وهي : صلاة الضحى .

وروى : ألا أخبركم لم سمى اللّه خليله الَّذِي وَفَّى ؟ كان يقول إذا أصبح وأمسى : فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ . . . إلى . . . حِينَ تُظْهِرُونَ «3» وقيل : وفي سهام الإسلام : وهي ثلاثون : عشرة في التوبة التَّائِبُونَ . . . وعشرة في الأحزاب : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ . . . وعشرة في المؤمنين قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . . . وقرئ : في صحف ، بالتخفيف أَلَّا تَزِرُ أن مخففة من الثقيلة . والمعنى : أنه

---

(1) . قوله «وعن الهزيل بن شرحبيل» لعله : الهذيل . (ع)

(2) . أخرجه الطبري وابن أبى حاتم وغيرهما من رواية جعفر بن الزبير عن القاسم عن

أبى أمامة مرفوعا به وأتم منه .

(3) . أخرجه أحمد والطبراني وابن السنى والطبري وابن أبى حاتم من رواية ابن لهيعة عن زياد عن زيان عن ابن فائد عن سهل بن معاذ عن أبيه به . [. . . . .]

(213/734)

لا تزر ، والضمير ضمير الشأن ، ومحل أن وما بعدها : الجر بدلا من ما في صحف موسى . أو الرفع على : هو أن لا تزر ، كأن قائلا قال : وما في صحف موسى وإبراهيم ، فقيل : أن لا تزر إِلَّا ما سَعى إلا سعيه . فإن قلت : أما صح في الأخبار : الصدقة عن الميت ، والحج عنه ، وبه الإضعاف ؟ قلت : فيه جوابان ، أحدهما : أن سعى غيره لما لم ينفعه إلا مبنيا على سعى نفسه .

وهو أن يكون مؤمنا صالحا وكذلك الإضعاف - كأن سعى غيره كأنه سعى نفسه ، لكونه تابعا له وقائما بقيامه . والثاني ، أن سعى غيره لا ينفعه إذا عمله لنفسه ، ولكن إذا نواه به فهو بحكم الشرع كالنائب عنه والوكيل القائم مقامه ثُمَّ يُجْزاهُ ثم يجزى العبد سعيه ، يقال : جزاه اللّه عمله وجزاه على عمله ، بحذف الجار وإيصال الفعل . ويجوز أن يكون الضمير للجزاء ، ثم فسره بقوله الْجَزاءَ الْأَوْفى أو أبدله عنه ، كقوله تعالى : وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ

ظَلَمُوا ، وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى قرئ بالفتح على معنى : أن هذا كله في الصحف ، وبالكسر على الابتداء ، وكذلك ما بعده . والمنتهى : مصدر بمعنى الانتهاء ، أى : ينتهى إليه الخلق ويرجعون إليه ، كقوله تعالى إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ . أَضْحَكَ وَأَبْكى خلق قوتي الضحك والبكاء «1» إِذا تُمْنى إذا تدفق في الرحم ، يقال : منى وأمنى . وعن الأخفش : تخلق من منى المانى ، أى قدر المقدّر : قرئ : النشأة والنشاءة بالمد . وقال عَلَيْهِ لأنها واجبة «2» عليه في الحكمة «3» ، ليجازى على الإحسان والإساءة وَأَقْنى وأعطى القنية وهي المال الذي تأثلته وعزمت أن لا تخرجه من يدك الشِّعْرى مرزم الجوزاء «4» : وهي التي تطلع وراءها ، وتسمى كلب الجبار ، وهما شعريان الغميصاء والعبور وأراد العبور . وكانت خزاعة تعبدها ، سنّ لهم ذلك أبو كبشة رجل من أشرافهم ،

---

(1) . قال محمود : «أى خلق قوتي الضحك والبكاء» قال أحمد : وخلق أيضا فعلى الضحك والبكاء على قواعد السنة ، وعليه دلت الآية غير مثابرة لتحريفه ، والله الموفق .

(2) . قال محمود : «إنما قال عليه لأنها واجبة عليه . . . الخ» قال أحمد : هذا من فساد اعتقاد المعتزلة الذي يسمونه مراعاة الصلاح والحكمة ، وأى فساد أعظم مما يؤدى إلى اعتقاد المعتزلة الإيجاب على رب الأرباب ، تعالى الله عن ذلك . ومثل هذه القاعدة التي عفت البراهين القاطعة رسمها وأبطلت حكمها لا يكفى فيها كلمة محتملة : هي لو كانت ظاهرة لوجب تنزيلها على ما يوفق بينها وبين القواطع ، والذي حملت عليه لفظة عليه غير

هذا المعنى : وهو أن المراد أن أمر النشأة الأخرى يدور على قدرته عز وجل وإرادته ، كما يقال : دارت قضية فلان على يدي .

وقول المحدثين . على يدي دار الحديث ، أى هو الأصل فيه والسند ، والله أعلم .

(3) . قوله «لأنها واجبة عليه في الحكمة» هذا عند المعتزلة لا عند أهل السنة . (ع)

(4) . قوله «مرزم الجوزاء» في الصحاح «المرزمان» مرزما الشعريين ، وهما نجمان : أحدهما في الشعرى ، والآخر في الذراع اه . (ع)

(214/734)

وكانت قريش تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أبو كبشة ، تشبيها له به لمخالفته إياهم في دينهم «1» ، يريد : أنه رب معبودهم هذا . عاد الأولى : قوم هود ، وعاد الأخرى : إرم . وقيل :

الأولى القدماء ، لأنهم أوّل الأمم هلاكا بعد قوم نوح ، أو المتقدمون في الدنيا الأشراف .

وقرئ :

عادا لولى . وعاد لولى ، بإدغام التنوين في اللام وطرح همزة أولى ونقل ضمتها إلى لام التعريف

وَثَمُودَ وقرئ : وثمود أَظْلَمَ وَأَطْغى «2» لأنهم كانوا يؤذونه ويضربونه حتى لا يكون به

حراك ، وينفرون عنه حتى كانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه ، وما أثر فيهم دعاؤه «3» قريبا من ألف سنة وَالْمُؤْتَفِكَةَ والقرى التي ائتفكت بأهلها ، أى : انقلبت ، وهم قوم لوط ، يقال : أفكه فأتفك :

وقرئ : والمؤتفكات أَهْوى رفعها إلى السماء على جناح جبريل ، ثم أهواها إلى الأرض أى :

أسقطها ما غَشَّى تهويل وتعظيم لما صب عليها من العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود .

[سورة النجم (53) : الآيات 55 إلى 58]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى (55) هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى (56) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57) لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ (58)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى تتشكك ، والخطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أو للإنسان على الإطلاق ، وقد عدد نعما ونقما وسماها كلها آلاء من قبل ما في نقمه من المزاجر والمواعظ للمعتبرين هذا القرآن نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى أى إنذار من جنس الإنذارات الأولى التي أنذر بها من قبلكم . أو هذا الرسول منذر من المنذرين الأولين ، وقال : الأولى على تأويل الجماعة أَزِفَتِ الْآزِفَةُ قربت الموصوفة بالقرب في قوله تعالى اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ، لَيْسَ لَها نفس كاشِفَةٌ أى مبينة متى تقوم ، كقوله تعالى لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ أو ليس لها نفس كاشفة

، أى : قادرة على كشفها إذا وقعت إلا اللّه ، غير أنه لا يكشفها . أو ليس لها الآن نفس كاشفة بالتأخير ، وقيل الكاشفة مصدر بمعنى الكشف : كالعافية . وقرأ طلحة : ليس لها مما يدعون من دون اللّه كاشفة ، وهي على الظالمين ساءت الغاشية .

[سورة النجم (53) : الآيات 59 إلى 62]

أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سامِدُونَ (61) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62)

---

(1) . هذا وهم ، والمعروف أنهم كانوا يقولون له : ابن أبى كبشة ، كما في حديث أبى سفيان الطويل في الصحيحين حيث قال : لقد أمر أمر ابن أبى كبشة أن يخافه ملك بنى الأصفر . يعنى هرقل .

(2) . قوله «و قرئ وثمود أظلم وأطغى» يفيد أن قراءة التنوين أشهر . (ع)

(3) . قوله «و ما أثر فيهم دعاؤه» أى دعاؤه إياهم إلى الإسلام . (ع)

أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ وهو القرآن تَعْجَبُونَ إنكارا وَتَضْحَكُونَ استهزاء وَلا تَبْكُونَ والبكاء والخشوع حق عليكم . وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أنه لم ير ضاحكا بعد

نزولها «1» . وقرئ: تعجبون تضحكون، بغير واو وَأَنْتُمْ سامِدُونَ شامخون مبرطمون «2» .

وقيل: لاهون لاعبون. وقال بعضهم لجاريته: اسمدى لنا، أى غنى لنا فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ولا تعبدوا الآلهة.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من قرأ سورة النجم أعطاه اللّه عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وجحد به بمكة» «3» . انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 416. 430﴾

---

(1) . أخرجه أحمد في الزهد والثعلبي من حديث صالح بن أبى الخليل. ورواه ابن مردويه من طريق سعيد ابن جبير عن ابن عباس بإسناد ضعيف.

(2) . قوله «شامخون مبرطمون» في الصحاح «البرطمة» الانتفاخ من الغضب اه. وفيه «السامد»: رافع رأسه تكبرا، واللاهي، والمعنى، والقائم، والساكت، والحزين الخاشع، واسمأد الرجل بالهمز اسمئدادا: أى ورم غضبا. (ع)

(3) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبى بن كعب رضى اللّه عنه.

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾

فيه خمسة أقاويل :

أحدها : نجوم القرآن إذا نزلت لأنه كان ينزل نجوماً ، قاله مجاهد .

الثاني : أنها الثريا ، رواه ابن أبي نجيح ، لأنهم كانوا يخافون الأمراض عند طلوعها .

الثالث : أنها الزهرة ، قاله السدي ، لأن قوماً من العرب كانوا يعبدونها .

الرابع : أنها جماعة النجوم ، قاله الحسن ، وليس بممتنع أن يعبر عنها بلفظ الواحد كما قال عمر بن أبي ربيعة :

أحسن النجم في السماء الثريا . . . والثريا في الأرض زين النساء

الخامس : أنها النجوم المنقضة ، وسببه أن الله تعالى لما أراد بعث محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً ، كثر انقضاض الكواكب قبل مولده ، فذعر أكثر العرب منها ، وفزعوا إلى كاهن لهم ضرير كان يخبرهم بالحوادث ، فسألوه عنها ، فقال انظروا البروج الاثني عشر ، فإن انقض منها شيء ، فهو ذهاب الدنيا ، وإن لم ينقض منها شيء ، فسيحدث في الدنيا أمر عظيم ، فاستشعروا ذلك ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان هو الأمر العظيم الذي استشعروه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ أي ذلك النجم الذي هوى ، هو لهذه النبوة التي حدثت .

وفي قوله تعالى ﴿ إِذَا هَوَى ﴾ ستة أقاويل :

أحدها : النجوم إذا رقي إليها الشياطين ، قاله الضحاك .

الثاني : إذا سقط .

الثالث : إذا غاب .

الرابع : إذا ارتفع .

الخامس : إذا نزل .

السادس : إذا جرى ، ومهواها جريها ، لأنها لا تفتر في جريها في طلوعها وغروبها ، وهذا قول أكثر المفسرين .

وهذا قسم ، وعلى القول الخامس في انقضاض النجوم خبر .

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم ، وفيه وجهان :

أحدهما : ما ضل عن قصد الحق ولا غوى في اتباع الباطل .

الثاني : ما ضل بارتكاب الضلال ، وما غوى بأن خاب سعيه ، وألفى الخيبة كما قال الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره . . . ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً

أي : من خاب في طلبه لامه الناس ، وهذا جواب القسم على قول الأكثرين ، قال مقاتل : وهي أول سورة أعلنها رسول الله بمكة .

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وما ينطق عن هواه ، وهو ينطق عن أمر الله ، قاله قتادة .

الثاني : ما ينطق بالهوى والشهوة ، إن هو إلا وحي يوحى بأمر ونهي من الله تعالى له .

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ أي يوحيه الله إلى جبريل ويوحيه جبريل إليه .

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ يعني : جبريل في قول الجميع .

﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : ذو منظر حسن ، قاله ابن عباس .

الثاني : ذو غناء ، قاله الحسن .

الثالث : ذو قوة ، قاله مجاهد وقتادة ، ومن قول خفاف بن ندبة :

إني امرؤ ذو مرة فاستبقني . . . فيما ينوب من الخطوب صليب

الرابع : ذو صحة في الجسم وسلامة من الآفات ، ومن قول امرىء القيس :

كنت فيهم أبداً ذا حيلة . . . محكم المرة مأمون العقد

الخامس : ذو عقل ، قاله ابن الأنباري ، قال الشاعر :

قد كنت عند لقاكم ذا مرة . . . عندي لكل مخاصم ميزانه

وفي قوله ﴿ فَاسْتَوَى ﴾ خمسة أوجه :

أحدها : فاستوى جبريل في مكانه ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : قام جبريل على صورته التي خلق عليها لأنه كان يظهر له قبل ذلك في صورة لا رجل . حكى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير جبريل على صورته إلا مرتين : أما واحدة ، فإنه سأله أن يراه في صورته فسد الأفق . وأما الثانية ، فإنه كان معه حين صعد ، وذلك قوله ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ .

الثالث : فاستوى القرآن في صدره ، وفيه على هذا وجهان :

أحدهما : فاعتدل في قوته .

الثاني : في رسالته .

الرابع : يعني : فارتفع ، وفيه على هذا وجهان :

أحدهما : أنه جبريل ارتفع إلى مكانه .

الثاني : أنه النبي صلى الله عليه وسلم ، ارتفع بالمعراج .

﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه جبريل حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم بالأفق الأعلى ، قاله السدي .

الثاني : أنه النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل بالأفق الأعلى ، قاله عكرمة . وفي الأفق الأعلى ثلاثة أقاويل :

أحدها : هو مطلع الشمس ، قاله مجاهد .

الثاني : هو الأفق الذي يأتي منه النهار ، قاله قتادة ، يعني طلوع الفجر .

الثالث : هو أفق السماء وهو جانب من جوانبها ، قاله ابن زيد ، ومنه قول الشاعر :

أخذنا بآفاق السماء عليكم . . . لنا قمراها والنجوم والطوالع

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه جبريل ، قاله قتادة .

الثاني : أنه الرب ، قاله ابن عباس .

وقوله ﴿ فَتَدَلَّى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تعلق فيما بين والسفل لأنه رآه منتصباً مرتفعاً ثم رآه متدلياً ، قاله ابن بحر .

الثاني : معناه قرب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾ أي تقربوها إليهم ، وقال الشاعر :

أتيتك لا أدلي بقربى قريبة . . . إليك ولكني بجودك واثق

وقيل فيه تقديم وتأخير ، وتقديره : ثم تدلى فدنا ، قاله ابن الأنباري .

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : قيد قوسين ، قاله قتادة والحسن .

الثاني : أنه بحيث الوتر من القوس ، قاله مجاهد .

الثالث : من مقبضها إلى طرفها ، قاله عبد الحارث .

الرابع : قدر ذراعين ، قاله السدي ، فيكون القاب عبارة عن القدر ، والقوس عبارة عن الذراع .

ثم اختلفوا في المعنى بهذا الداني على ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه جبريل من ربه ، قاله مجاهد وهو قول ابن عباس .

الثاني : أنه محمد صلى الله عليه وسلم من ربه ، قاله محمد بن كعب .

الثالث : أنه جبريل من محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ في عبده الموحى إليه قولان :

أحدهما : أنه جبريل عليه السلام أوحى إليه ما يوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالته عائشة ، والحسن ، وقتادة .

الثاني : أنه محمد صلى الله عليه وسلم أوحي إليه على لسان جبريل ، قاله ابن عباس والسدي .

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ في الفؤاد قولان :

أحدهما : أنه أراد صاحب الفؤاد فعبر عنه بالفؤاد لأنه قطب الجسد وقوام الحياة .

الثاني : أنه أرد نفس الفؤاد لأنه محل الاعتقاد وفيه قولان :

أحدهما : معناه ما أوهمه فؤداه ما هو بخلافه كتوهم السراب ماء ، فيصير فؤاده بتوهم المحال كالكاذب له ، وهو تأويل من قرأ ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ ﴾ بالتخفيف .

الثاني : معناه ما أنكر قلبه ما رأته عينه ، وهو تأويل من قرأ ﴿ كَذَّبَ ﴾ بالتشديد .

وفي الذي رأى خمسة أقاويل :

أحدها : رأى ربه بعينه ، قاله ابن عباس .

الثاني : في المنام ، قاله السدي .

الثالث : أنه بقلبه روى محمد بن كعب قال : قلنا يا رسول الله [هل رأيت ربك] ؟ قال : " رَأَيْتُهُ بِفُؤَادِي مَرَّتَيْنِ " ثم قرأ : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ .

الرابع : أنه رأى جلاله ، قاله الحسن ، وروى أبو العالية قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " رَأَيتُ نَهْرَاً وَرَأَيتُ وَرَاءَ النَّهْرِ حَجَاباً وَرَأَيتُ وَرَاءَ الحِجَابِ نُوراً لَمْ أَرَ غَيرَ

ذَلِكَ" .

الخامس : أنه رأى جبريل على صورته مرتين ، قاله ابن مسعود .

﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أفتجادلونه على ما يرى ، قاله إبراهيم .

الثاني : أفتجادلونه على ما يرى ، وهو مأثور .

الثالث : أفتشككونه على ما يرى ، قاله مقاتل .

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ يعني أنه رأى ما رآه ثانية بعد أُولى ، قال كعب : إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين محمد وموسى عليهما السلام ، فرآه محمد مرتين ، وكلمه موسى مرتين .

﴿ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ﴾ روي فيها خبران .

(220/734)

أحدهما : ما روى طلحة بن مصرف عن مرة عن ابن مسعود قال : لما أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم انتهى إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السادسة ، وإليها ينتهي ما يعرج من الأرواح فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها الخبر .

الثاني : ما رواه معمر عن قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " رُفِعَتْ لِيَ سِدْرَةُ الْمُنتَهَى فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، ثَمَرُهَا مِثْلُ قِلاَلِ هَجْرٍ ، وَوَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الفِيَلَةِ ، يَخْرُجُ مِن سَاقِهَا نَهْرَانِ ظَاهِرَانِ وَنَهْرَانِ بَاطِنَانِ ، قُلْتُ : يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا ؟ قَالَ : أَمَّا النَّهْرَانِ البَاطِنَانِ فَفِي الجَنَّةِ ، وَأَمَّا النَّهْرَانِ الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالفُرَاتُ " .

وفي سبب تسميتها سدرة المنتهى خمسة أوجه :

أحدها : لانه ينتهي علم الأنبياء إليها ، ويعزب علمهم عما وراءها ، قاله ابن عباس .

الثاني : لأن الأعمال تنتهي إليها وتقبض منها ، قاله الضحاك .

الثالث : لانتهاء الملائكة والنبيين إليها ووقوفهم عندها ، قاله كعب .

الرابع : لأنه ينتهي إليها كل من كان على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهاجه ، قاله الربيع بن أنس .

الخامس : لأنه ينتهي إليها كل ما يهبط من فوقها ويصعد من تحتها ، قاله ابن مسعود .

﴿ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ فيه قولان :

أحدهما : جنة المبيت والإقامة ، قاله علي ، وأبو هريرة .

الثاني : أنها منزل الشهداء ، قاله ابن عباس ، وهي عن يمين العرش وفي ذكر جنة المأوى وجهان على ما قدمناه في سدرة المنتهى :

أحدهما : أن المقصود بذكرها تعريف موضعها بأنه عند سدرة المنتهى ، قاله الجمهور .

﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الذي يغشاها فراش من ذهب ، قاله ابن مسعود ورواه مرفوعاً .

الثاني : أنهم الملائكة ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه نور رب العزة ، قاله الضحاك .

(221/734)

فإن قيل لم اختيرت السدرة لهذا الأمر دون غيرها من الشجر ؟ قيل : لأن السدرة تختص بثلاثة أوصاف : ظل مديد ، وطعم لذيذ ، ورائحة ذكية ، فشابهت الإيمان الذي يجمع قولاً وعملاً ونية ، فظلها بمنزلة العمل لتجاوزه ، وطعمها بمنزلة النية لكمونه ، ورائحتها بمنزلة القول لظهوره .

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ في زيغ البصر ثلاثة أوجه ؛ أحدها : انحرافه .

الثاني : ذهابه ، قاله ابن عباس .

الثالث : نقصانه ، قاله ابن بحر .

وفي طغيانه ثلاثة أوجه :

أحدها : ارتفاعه عن الحق .

الثاني : تجاوزه للحق ، قاله ابن عباس .

الثالث : زيادته ، ويكون معنى الكلام أنه رأى ذلك على حقه وصدقه من غير نقصان عجز عن إدراكه ، ولا زيادة توهمها في تخليه ، قاله ابن بحر .

﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : ما غشي السدرة من فراش الذهب ، قاله ابن مسعود .

الثاني : أنه قد رأى جبريل وقد سد الأفق بأجنحته ، قاله ابن مسعود أيضاً .

الثالث : ما رأه حين نامت عيناه ونظر بفؤاده ، قاله الضحاك .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ﴾ أما اللات فقد كان الأعمش يشددها ، وسائر القراء على تخفيفها ، فمن خففها فلهم فيها قولان :

أحدهما : أنه كان صنماً بالطائف زعموا أن صاحبه كان يلت عليه السويق لأصحابه ، قاله السدي .

الثاني : أنه صخرة يلت عليها السويق بين مكة والطائف ، قاله عكرمة . وأما من شددها فلهم فيها قولان :

أحدهما : أنه كان رجلاً يلت السويق على الحجر فلا يشرب منه أحد إلا سمن معبوده ، ثم مات فقلبوه على قبره ، قاله ابن عباس ، ومجاهد .

الثاني : أنه كان رجلاً يقوم على آلهتهم ويلت لهم السويق بالطائف قاله السدي ، وقيل إنه

عامر بن ظرب العدواني ثم اتخذوا قبره وثناً معبوداً ، قال الشاعر :

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها . . . وكيف ينصركم من ليس ينتصر .

وأما ﴿ الْعُزَّى ﴾ ففيه قولان :

(222/734)

أحدهما : أنه صنم كانوا يعبدونه ، قاله الجمهور .

الثاني : أنها شجرة كان يعلق عليها ألوان العهن تعبدها سليم ، وغطفان ، وجشم ، قال مقاتل : وهي سمرة ، قاله الكلبي : هي التي بعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد حتى قطعها ، وقال أبو صالح : بل كانت نخلة يعلق عليها الستور والعهن .

وقيل في اللات والعزى قول ثالث : أنهما كانا بيتين يعبدهما المشركون في الجاهلية ، فاللات بيت كان بنخلة يعبده كفار قريش ، والعزى بيت كان بالطائف يعبده أهل مكة والطائف .

﴿ وَمَنَوةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه كان صنماً بقديد بين مكة والمدينة ، قاله أبو صالح .

الثاني : أنه بيت كان بالمسلك يعبده بنو كعب .

الثالث : أنها أصنام من حجارة كانت في الكعبة يعبدونها .

الرابع : أنه وثن كانوا يريقون عنده الدماء يتقربون بذلك إليه ، وبذلك سميت منى لكثرة ما يراق بها من الدماء .

وإنما قال : مناة الثالثة الأخرى ، لأنها كانت مرتبة عند المشركين في التعظيم بعد اللات والعزى ، وروى سعيد بن جبير وأبو العالية الرياحي أنه لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ﴾ الآية . ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهم ترتجى ، وفي رواية أبي العالية : وشفاعتهم ترتضى ومثلهم لا ينسى ، ففرح المشركون وقالوا : قد ذكر آلهتنا ، فنزل جبريل فقال : أعرض عليّ ما جئتك به فعرض عليه ، فقال : لم آتك أنا بهذا وهذا من الشيطان ، فأنزل الله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُوْلٍ وَلاَ نَبِيٍ إِلاَّ إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ .

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى ﴾ حيث جعلوا الملائكة بنات الله .

﴿ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : قسمة عوجاء ، قاله مجاهد .

الثاني : قسمة جائرة ، قاله قتادة .

الثالث : قسمة منقوصة ، قاله سفيان وأكثر أهل اللغة ، قال الشاعر :

فإن تنأى عنا ننتقصك وإن تقم . . . فقسمك مضئوز وأنفك راغم

ومعنى مضئوز أي منقوص .

الرابع : قسمة مخالفة ، قاله ابن زيد .

﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من البنين أن يكونوا له دون البنات .

الثاني : من النبوة أن تكون فيه دون غيره .

﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني أنه أقدر من خلقه ، فلو جاز أن يكون له ولد – كما نسبه إليه المشركون حين جعلوا له البنات دون البنين وتعالى عن ذلك علواً كبيراً – لكان بالبنين أحق منهم .

الثاني : أنه لا يعطي النبوة من تمناها ، وإنما يعطيها من اختاره لها لأنه مالك السموات والأرض .

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ أما كبائر الإثم ففيها . خمسة أقاويل ؛

أحدها : أنه الشرك بالله ، حكاه الطبري .

الثاني : أنه ما زجر عنه بالحد ، حكاه بعض الفقهاء .

الثالث : ما لا يكفر إلا بالتوبة ، حكاه ابن عيسى .

الرابع : ما حكاه شرحبيل عن ابن مسعود قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكبائر فقال : " أن تدعو لله نداً وهو خلقك وأن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك وأن تزاني حليلة جارك "

الخامس : ما روى سعيد بن جبير أن رجلاً سأل ابن عباس عن الكبائر أسبع هي ؟ قال : إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبعة ، لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار ، فكأنه يذكر أن كبائر الإثم ما لم يستغفر منه .

وأما الفواحش ففيها قولان :

أحدهما : أنها جميع المعاصي .

الثاني : أنها الزنى . وأما اللمم المستثنى ففيه ثمانية أقاويل :

أحدها : إلا اللمم الذي ألموا به في الجاهلية من الإثم والفواحش فإنه معفو عنه في الإسلام ، قاله ابن زيد بن ثابت .

الثاني : هو أن يلم بها ويفعلها ثم يتوب منها ، قاله الحسن ومجاهد .

الثالث : هو أن يعزم على المواقعة ثم يرجع عنها مقلعاً وقد روى عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمْ تغفر جَمَّاً . . . وَأَيِ عَبْدٍ لَّكَ لاَ أَلَمَّا

الرابع : أن اللمم ما دون الوطء من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة ، قاله ابن مسعود ، روى طاووس عن ابن عباس قال : ما رأيت أشبه باللمم من قول أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : "كَتَبَ اللَّهُ عَلَى كلِّ نَفْسٍ خَطَّهَا مِن الزِّنَى أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ ، فَزِنَى الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ وَزِنَى اللِّسَانِ المَنطِقُ وَهِيَ النَّفْسُ تُمَنّي وَتَشْتَهِي ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُه "

الخامس : أن اللمم الصغائر من الذنوب .

السادس : أن اللمم ما لم يجب عليه حد في الدنيا ولم يستحق عليه في الآخرة عذاب ، قاله ابن عباس ، وقتادة .

السابع : أن اللمم النظرة الأولى فإن عاد فليس بلمم ، قاله بعض التابعين ، فجعله ما لم يتكرر من الذنوب ، واستشهد بقول الشاعر :

وما يستوي من لا يرى غير لمة . . . ومن هو ناو غيرها لا يريمها

والثامن : أن اللمم النكاح ، وهذا قول أبي هريرة .

وذكر مقاتل بن سليمان أن هذه الآية نزلت في رجل كان يسمى نبهان التمار كان له حانوت

يبيع فيه تمراً ، فجاءته امرأة تشتري منه تمراً ، فقال لها : إن بداخل الدكان ما هو خير من هذا ، فلما دخلت راودها عن نفسها ، فأبت وانصرفت ، فندم نبهان وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته إلا الجماع ، فقال :

" لَعَلَّ زَوْجَهَا غَازٍ " فنزلت هذه الآية .

﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ ﴾ يعني أنشأ آدم .

(225/734)

﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ قال مكحول : في بطون أمهاتنا فسقط منا من سقط ، وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا يفعة فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا شباباً فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقي ، ثم صرنا شيوخاً لا أبالك فما بعد هذا تنتظر ؟

﴿ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني لا تمادحوا ، قاله ابن شوذب .

الثاني : لا تعملوا بالمعاصي وتقولوا نعمل بالطاعة ، قاله ابن جريج . الثالث : إذا عملت خيراً فلا تقل عملت كذا وكذا .

ويحتمل رابعاً : لا تبادلوا قبحكم حسناً ومنكركم معروفاً .

ويحتمل خامساً : لا تراؤوا بعملكم المخلوقين لتكونوا عندهم أزكياء .

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ قال الحسن : قد علم الله كل نفس ما هي عاملة وما هي صانعة وإلى ما هي صائرة .

﴿ أَفَرَءَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه العاص بن وائل السهمي ، قاله السدي .

الثاني : أنه الوليد بن المغيرة المخزومي ، قاله مجاهد ، كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضي الله عنه يسمع ما يقولان ثم يتولى عنهما .

الثالث : أنه النضر بن الحارث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حين ارتد عن دينه وضمن له أن يتحمل مأثم رجوعه ، قاله الضحاك .

﴿ وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه أعطى قليلاً من نفسه بالاستمتاع ثم أكدى بالانقطاع ، قاله مجاهد .

الثاني : أطاع قليلاً ثم عصى ، قاله ابن عباس .

الثالث : أعطى قليلاً من ماله ثم منع ، قاله الضحاك .

الرابع : أعطى بلسانه وأكدى بقلبه ، قاله مقاتل .

وفي ﴿ أَكْدَى ﴾ وجهان :

أحدهما : قطع ، قاله الأخفش .

الثاني : منع ، قاله قطرب .

﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : معناه أعلم الغيب فرأى أن ما سمعه باطل .

الثاني : أنزل عليه القرآن فرأى ما صنعه حقاً ، قاله الكلبي .

(226/734)

ويحتمل ثالثاً : أعلم أن لا بعث ، فهو يرى أن لا جزاء .

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ فيه سبعة أقاويل :

أحدها : وفّى عمل كل يوم بأربع ركعات في أول النهار ، رواه الهيثم عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثاني : أن يقول كلما أصبح وأمسى ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ الآية . رواه سهل بن معاذ عن أنس عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الثالث : وفيما أمر به من طاعة ربه ، قاله ابن عباس .

الخامس : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ لأنه كان بين نوح وإبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة

ابنه وأبيه فأول من خالفهم إبراهيم ، قاله الهذيل .

السادس : أنه ما أُمر بأمر إلا أداه ولا نذر إلا وفاه ، وهذا معنى قول الحسن .

السابع : وفَّى ما امتحن به من ذبح ابنه وإلقائه في النار وتكذيبه .

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : إلى إعادتكم لربكم بعد موتكم يكون منتهاكم .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : قضى أسباب الضحك والبكاء .

الثاني : أنه أراد بالضحك السرور ، وبالبكاء الحزن .

والثالث : أنى خلق قوتي الضحك والبكاء ، فإن الله ميز الإنسان بالضحك والبكاء من بين سائر الحيوان ، فليس في سائر الحيوان ما ضحك ويبكي غير الإنسان ، وقيل إن القرد وحده يضحك ولا يبكي ، وإن الإبل وحدها تبكي ولا تضحك .

ويحتمل وجهاً رابعاً : أن يريد بالضحك والبكاء النعم والنقم .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : قضى أسباب الموت والحياة .

الثاني : خلق الموت والحياة كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْمَوتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ قاله ابن بحر .

الثالث : أن يريد بالحياة الخصب وبالموت الجدب .

الرابع : أمات بالمعصية وأحيا بالطاعة .

الخامس : أمات الآباء وأحيا الأبناء .

ويحتمل سادساً : أن يريد به أنام وأيقظ .

(227/734)

﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾ وجهان :

أحدهما : إذا تخلق وتقدر ، قاله الأخفش .

الثاني : إذا نزلت في الرحم ، قاله الكلبي .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ فيه ثمانية تأويلات :

أحدها : أغنى بالكفاية وأقنى بالزيادة ، وهو معنى قول ابن عباس .

الثاني : أغنى بالمعيشة وأقنى بالمال ، قاله الضحاك .

الثالث : أغنى بالمال وأقنى بأن جعل لهم قنية ، وهي أصول الأموال ، قاله أبو صالح .

الرابع : أغنى بأن مَوّل وأقنى بأن حرم ، قاله مجاهد .

الخامس : أغنى نفسه وأفقر خلقه إليه ، قاله سليمان التيمي .

السادس : أغنى من شاء وأفقر من شاء ، قاله ابن زيد .

السابع : أغنى بالقناعة وأقنى بالرضا ، قاله سفيان .

الثامن : أغنى عن أن يخدم وأقنى أن يستخدم ، وهذا معنى قول السدي .

ويحتمل تاسعاً : أغنى بما كسبه [الإنسان] في الحياة وأقنى بما خلفه بعد الوفاة مأخوذ من اقتناء المال وهو استبقاؤه .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ والشعرى نجم يضيء وراء الجوزاء ، قال مجاهد : تسمى هوزم الجوزاء ، ويقال إنه الوقاد ، وإنما ذكر أنه رب الشعرى وإن كان رباً لغيره لأن العرب كانت تعبده فأعلموا أن الشعرى مربوب وليس برب .

واختلف فيمن كان يعبده فقال السدي : كانت تعبده حمير وخزاعة وقال غيره : أول من عبده أبو كبشة ، وقد كان من لا يعبدها من العرب يعظمها ويعتقد تأثيرها في العالم ، قال الشاعر :

مضى أيلول وارتفع الحرور . . . وأخبت نارها الشعرى العبور

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أن عاد الأولى عاد بن إرم ، وهم الذين أهلكوا بريح صرصر عاتية ، وعاداً الآخرة قوم هود .

الثاني : أن عاداً الأولى قوم هود والآخرة قوم كانوا بحضرموت ، قاله قتادة .

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾ والمؤتفكة المنقلبة بالخسف ، قاله محمد بن كعب : هي مدائن قوم لوط وهي خمسة : صبغة وصغيرة وعمرة ودوماً وسدوم وهي العظمى ، فبعث الله عليهم جبريل فاحتملها بجناحه ثم صعد بها حتى أن أهل السماء يسمعون نباح كلابهم وأصوات دجاجهم ثم كفأها على وجهها ثم أتبعها بالحجارة كما قال تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِن سِجِّيْلٍ ﴾ قال قتادة : كانوا أربعة آلاف ألف .

﴿ أَهْوَى ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : أن جبريل أهوى بها حين احتملها حتى جعل عاليها سافلها .

الثاني : أنهم أكثر ارتكاباً للهوى حتى حل بهم ما حل من البلاء .

﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ يعني المؤتفكة ، وفيما غشاها قولان :

أحدهما : جبريل حين قلبها .

الثاني : الحجارة حتى أهلكها .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ وهذا خطاب للمكذب أي فبأي نعم ربك تشك فيما أولاك وفيما كفاك .

وفي قوله : ﴿ فَغَشَّاهَا ﴾ وجهان :

أحدهما : ألقاها .

الثاني : غطاها .

﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن محمداً نذير الحق أنذر به الأنبياء قبله ، قاله ابن جريج .

الثاني : أن القرآن نذير بما أنذرت به الكتب الأولى ، قاله قتادة .

ويحتمل قولاً ثالثاً : أن هلاك من تقدم ذكره من الأمم الأولى نذير لكم .

﴿ أَزِفَتِ الأَزِفَةُ ﴾ أي اقتربت الساعة ودنت القيامة ، وسماها آزفة لقرب قيامها عنده .

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أي من يكشف ضررها .

﴿ أَفَمِنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من القرآن في نزوله من عند الله .

الثاني : من البعث والجزاء وهو محتمل .

﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : تضحكون استهزاء ولا تبكون انزجاراً .

الثاني : تفرحون ولا تحزنون ، وهو محتمل .

﴿ وَأَنتُم سَامِدُونَ ﴾ فيه تسعة تأويلات :

أحدها : شامخون كما يخطر البعير شامخاً ، قاله ابن عباس .

(229/734)

الثاني : غافلون ، قاله قتادة .

الثالث : معرضون ، قاله مجاهد .

الرابع : مستكبرون ، قاله السدي .

الخامس : لاهون لاعبون ، قاله عكرمة .

السادس : هو الغناء ، كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ، وهي لغة حمير ، قاله أبو عبيدة .

السابع : أن يجلسوا غير مصلين ولا منتظرين قاله علي رضي الله عنه .

الثامن : واقفون للصلاة قبل وقوف الإمام ، قاله الحسن ، وفيه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خرج والناس ينتظرونه قياماً فقال : ما لي أراكم سامدين .

التاسع ؛ خامدون قاله المبرد ، قال الشاعر :

رمى الحدثان نسوة آل حرب . . . بمقدٍ سمدن له سموداً

﴿ فَاسْجُدُواْ لِلَّهِ وَاعْبُدُواْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه سجود تلاوة القرآن ، قال ابن مسعود ، وفيه دليل على أن في المفصل سجوداً .

الثاني : أنه سجود الفرض في الصلاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ 407.389 ﴾

(230/734)

وقال ابن الجوزى :

سورة النجم

قوله تعالى : ﴿ والنَّجْمِ إذا هوى ﴾

هذا قسم .

وفي المراد بالنجم خمسة أقوال .

أحدها : أنه الثُّرّيا ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وابن أبي نجيح عن مجاهد ، قال ابن قتيبة : والعرب تسمي الثريا - وهي ستة أنجُم - نجماً .

وقال غيره : هي سبعة ، فستة ظاهرة ، وواحد خفي ، يمتحن به الناسُ أبصارَهم .

والثاني : الرُّجوم من النُّجوم ، يعني ما يرمى به الشياطين ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثالث : أنه القرآن نزل نجوماً متفرّقة ، قاله عطاء عن ابن عباس ، والأعمش عن مجاهد .

وقال مجاهد : كان ينزل نجوماً ثلاث آيات وأربع آيات ونحو ذلك .

والرابع : نجوم السماء كلِّها ، وهو مروي عن مجاهد أيضاً .

والخامس : أنها الزُّهَرَةُ : قاله السدي .

فعلى قول من قال : النجم : الثريا ، يكون "هوى" بمعنى "غاب" ؛ ومن قال : هو الرُّجوم ، يكون هُوِيُّها في رمي الشياطين ، ومن قال : القرآن ، يكون معنى "هوى" نزل ، ومن قال : نجوم السماء كلِّها ، ففيه قولان .

أحدهما : أن هُوِيَّها أن تغيب .

والثاني : أن تنتثر يوم القيامة .

قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر هذه السورة كلَّها بفتح أواخر آياتها .

وقرأ أبو عمرو ونافع بين الفتح والكسر .

وقرأ حمزة والكسائي ذلك كلَّه بالإمالة .

قوله تعالى : ﴿ ما ضَلَّ صاحبُكم ﴾ هذا جواب القَسَم ؛ والمعنى : ما ضَلَّ عن طريق الهُدى ، والمراد به : رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ وما يَنْطِقُ عن الهَوى ﴾ أي : ما يتكلَّم بالباطل .

وقال أبو عبيدة : "عن" بمعنى الباء .

وذلك أنهم قالوا : إنه يقول القرآن من تلقاء نفسه .

﴿ إنْ هُوَ ﴾ أي : ما القرآنُ ﴿ إلاّ وَحْيٌ ﴾ من الله ﴿ يُوحَى ﴾ وهذا ممّا يحتجُّ به من لا يُجيز للنبيّ أن يجتهد ، وليس كما ظنُّوا ، لأن اجتهاد الرأي إذا صدر عن الوحي ، جاز أن يُنْسَبَ إلى الوحي .

(231/734)

قوله تعالى : ﴿ عَلَّمه شديدُ القُوى ﴾ وهو جبريل عليه السلام علَّم النبيَّ صلى الله عليه وسلم ؛ قال ابن قتيبة : وأصل هذا من "قُوَى الحَبْل" وهي طاقاتُه ، الواحدة : قُوَّةٌ ﴿ ذو مِرَّةٍ ﴾ أي : ذو قُوَّة ، وأصل المِرَّة : الفَتْلُ .

قال المفسرون : وكان من قُوَّته أنه قلع قَرْيات لوط وحملها على جناحه فقلبها ، وصاح بثمود فأصبحوا خامدين .

قوله تعالى : ﴿ فاستوى ، وهُو بالأُفُق الأعلى ﴾ فيه قولان .

أحدهما : فاستوى جبريل ، وهو يعني النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : أنهما استويا بالأفق الأعلى لمّا أُسري برسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله الفراء .

والثاني : فاستوى جبريل ، وهو يعني جبريل بالأفق الأعلى على صورته الحقيقية ، لأنه كان

يَتمثَّل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا هبط عليه بالوحي في صورة رجُل ، وأحبَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يراه على حقيقته ، فاستوى في أفق المَشْرِق ، فملأ الأفق ؛ فيكون المعنى ؛ فاستوى جبريلُ بالأفق الأعلى في صورته ، هذا قول الزجَّاج .

قال مجاهد : والأفق الأعلى : هو مَطْلِع الشمس .

وقال غيره : إنما قيل له : "الأعلى" لأنه فوق جانب المَغْرب في صعيد الأرض لا في الهواء .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دنا فتَدَلَّى ﴾ قال الفراء : المعنى : ثم تَدلَّى فدنا .

ولكنه جائز أن تقدّمِ أيَّ الفعلين شئتَ إذا كان المعنى فيهما واحداً ، فتقول : قد دنا فقَربُ ، وقَرُبَ فدنا ، وشتم فأساء ، وأساء فشتم ، ومنه قوله : ﴿ اقتربتِ الساعةُ وانشقَّ القمر ﴾ [القمر : 1] المعنى والله أعلم : انشق القمر واقتربت الساعة .

قال ابن قتيبة : المعنى : تَدلَّى فدنا ، لأنه تَدَلَّى للدُّنُوّ ، ودنا بالتَّدلِّي .

وقال الزجاج : دنا بمعنى قَرُبَ ، وتدلى : زاد في القُرْب ، ومعنى اللفظتين واحد .

وقال غيرهم : أصل التَّدلِّي : النُّزول إلى الشيء حتى يقرب منه ، فوُضع موضع القُرْب .

وفي المشار إليه بقوله : "ثُمَّ دنا" ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الله عز وجل .

روى البخاري ومسلم في "الصحيحين" من حديث شريك بن أبي نَمِر عن أنس بن مالك قال : دنا الجبّار ربُّ العِزَّة فتدلَّى حتى كان منه قابَ قوسين أو أدنى .

وروى أبو سلمة عن ابن عباس : "ثم دنا" قال : دنا ربُّه فتدلَّى ، وهذا اختيار مقاتل .

قال : دنا الرَّبُّ من محمد ليلةَ أُسْرِي به ، ، فكان منه قابَ قوسين أو أدنى .

وقد كشفتُ هذا الوجه في كتاب "المُغْني" وبيَّنتُ أنه ليس كما يخطُر بالبال من قُرب الأجسام وقطع المسافة ، لأن ذلك يختص بالأجسام ، والله منزَّه عن ذلك .

والثاني : أنه محمد دنا من ربِّه ، قاله ابن عباس ، والقرظي .

والثالث : أنه جبريل .

ثم في الكلام قولان .

أحدهما : دنا جبريلُ بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض ، فنزل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله الحسن ، وقتادة .

والثاني : دنا جبريلُ من ربِّه عز وجل فكان منه قابَ قوسين أو أدنى ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ فكان قابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى ﴾ وقرأ ابن مسعود ، وأبو رزين : "فكان قاد قوسين" بالدال .

وقال أبو عبيدة : القابُ والقادُ : القَدْر .

وقال ابن فارس : القابُ : القدر .

ويقال : بل القابُ : ما بين المَقْبِض والسِّية ، ولكل قوس قابان .

وقال ابن قتيبة : سِيَة القَوْس : ما عُطِفَ من طَرَفَيْها .

وفي المراد بالقوسين قولان .

أحدهما : أنها القوس التي يُرمى بها ، قاله ابن عباس ، واختاره ابن قتيبة ، فقال : قَدْر قوسين .

وقال الكسائي : أراد بالقوسين : قوساً واحداً .

والثاني : أن القوس : الذراع ؛ فالمعنى : كان بينهما قَدْر ذراعين ، حكاه ابن قتيبة .

وهو قول ابن مسعود ، وسعيد بن جبير ، والسدي .

قال ابن مسعود : دنا جبريل منه حتى كان قَدْرَ ذراع أو ذراعين .

قوله تعالى : ﴿ أو أدنى ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنها بمعنى "بل" ، قاله مقاتل .

والثاني : أنهم خوطبوا على لغتهم ؛ والمعنى : كان على ما تقدِّرونه أنتم قَدْرَ قوسين أو أقلَّ ، هذا اختيار الزجّاج .

قوله تعالى : ﴿ فأَوْحى إلى عَبْده ما أَوْحى ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أَوْحى اللهُ إلى محمد كِفاحاً بلا واسطة ، وهذا على قول من يقول : إنه كان في ليلة المعراج .

والثاني : أَوحى جبريلُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما أَوحى اللهُ إليه ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : أَوحى [اللهُ] إلى جبريل ما يوحيه ، روي عن عائشة رضي الله عنها ، والحسن ، وقتادة .

قوله تعالى : ﴿ ما كَذَبَ الفؤادُ ما رأى ﴾ قرأ أبو جعفر ، وهشام عن ابن عامر ، وأبان عن عاصم : "ما كَذَّب" بتشديد الذّال ؛ وقرأ الباقون بالتخفيف .

فمن شدَّد أراد : ما أَنكر فؤادُه ما رأته عينُه ؛ ومن خفَّف أراد : ما أوهمه فؤادُه أنه رأى ، ولم ير ، بل صَدَّقَ الفؤاد رؤيته .

وفي الذي رأى قولان .

أحدهما : أنه رأى ربَّه عز وجل ، قاله ابن عباس ، [وأنس] ، والحسن ، وعكرمة .

والثاني : أنه رأى جبريلَ في صورته التي خُلق عليها ، قاله ابن مسعود وعائشة .

قوله تعالى : ﴿ أَفَتُمَارُونَه ﴾ وقرأ حمزة ، والكسائي ، والمفضل ، وخلف ، ويعقوب : "أَفَتَمْرُونَه" .

قال ابن قتيبة : معنى "أَفَتُمَارُونَه" : أفتُجادِلونه ، مِن المِراء ، ومعنى "أَفَتَمْرُونَه" : أَفَتَجْحدونه .

قوله تعالى : ﴿ ولقد رآه نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ قال الزجّاج : أي : رآه مَرَّةً أُخرى .

قال ابن عباس : رأى محمدٌ ربَّه ؛ وبيان هذا أنه تردَّد لأجل الصلوات مراراً ، فرأى ربَّه في بعض تلك المرّات مَرَّةً أُخرى .

قال كعب : إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين محمد وموسى ، فرآه محمد مرتين ، وكلَّمه موسى مرتين .

وقد روي عن ابن مسعود أن هذه الرؤية لجبريل أيضاً ، رآه على صورته التي خُلق عليها .

(234/734)

فأمّا سِدْرة المُنتهى ، فالسِّدْرة : شجرة النَّبق ، وقد صح في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " نَبقُها مِثْلُ قِلال هَجَر ، ووَرَقُها مِثل آذان الفِيَلة "

وفي مكانها قولان .

أحدهما : أنها فوق السماء السابعة ، وهذا مذكور في "الصحيحين" من حديث مالك بن صعصعة .

قال مقاتل : وهي عن يمين العرش .

والثاني : أنها في السماء السادسة ، أخرجه مسلم في أفراده عن ابن مسعود وبه قال الضحاك .

قال المفسرون : وإنما سُمِّيتْ سِدْرة المُنتهى ، لأنه إليها مُنتهى ما يُصْعَد به من الأرض ، فيُقْبَض منها ، وإليها ينتهي ما يُهبْطَ به من فوقها فيُقْبَض منها ، وإليها ينتهي عِلْم جميع الملائكة .

قوله تعالى : ﴿ عِنْدَها ﴾ وقرأ معاذ القارىء ، وابن يعمر ، وأبو نهيك : "عِنْدَهُ" بهاءٍ مرفوعة على ضمير مذكَّر ﴿ جَنَّةُ المأوى ﴾ قال ابن عباس : هي جنة يأوي إليها جبريل والملائكة .

وقال الحسن : هي التي يصير إليها أهل الجنة .

وقال مقاتل : هي جَنَّة إليها تأوي أرواح الشهداء .

وقرأ سعيد بن المسيّب ، والشعبي ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وأبو العالية : "جَنَّهُ المأوى" بهاءٍ صحيحة مرفوعة .

قال ثعلب : يريدون أَجنَّهُ ، وهي شاذَّة .

وقيل : معنى "عندها" : أدركه المبيت يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ إذ يَغْشى السِّدْرَةَ ما يغْشى ﴾ روى مسلم في أفراده من حديث ابن مسعود قال : غَشِيَها فَراشٌ مِنْ ذهب .

وفي حديث مالك بن صعصعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لمّا غَشِيَها مِنْ أمْر الله ما غَشِيَها ، تغيَّرتْ ، فما أحدٌ مِنْ خَلْقِ الله يستطيع أن يَصِفها مِنْ حُسْنها " وقال الحسن ، ومقاتل : تَغْشاها الملائكةُ أمثالَ الغِرْبان حين يَقَعْنَ على الشجرة .

وقال الضحاك : [غَشِيها] نور ربِّ العالمين .

(235/734)

قوله تعالى : ﴿ ما زاغ البَصَرُ ﴾ أي : ما عَدَلَ بَصرُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يميناً ولا شِمالاً ﴿ وما طغى ﴾ أي : ما زاد ولا جاوز ما رأى ؛ وهذا وصف أدبه صلى الله عليه وسلم في ذلك المقام .

﴿ لقد رأى مِنْ آياتِ ربِّه الكُبرى ﴾ فيه قولان .

أحدهما : [لقد] رأى من آياتِ ربِّه العِظام .

والثاني : لقد رأى من آيات ربِّه [الآية] الكُبرى .

وللمفسرين في المراد بما رأى من الآيات ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه رأى رفرفاً أخضر من الجنة قد سَدَّ الأفق ، قاله ابن مسعود .

والثاني : أنه رأى جبريل في صورته التي يكون عليها في السماوات ، قاله ابن زيد .

والثالث : أنه رأى من أعلام ربّه وأدلَّته [الأعلامَ والأدلةَ] الكُبرى ، قاله ابن جرير :

قال الزجاج : فلمّا قَصَّ اللهُ تعالى هذه الأقاصيص قال : ﴿ أفرَأيتم اللاّت والعُزَّى ﴾

المعنى : أخبِرونا عن هذه الآلهة التي تعبدونها هل لها من القُدرة والعظمة التي وُصف بها ربُّ العِزَّة شيءٌ ؟ !

فأمّا "اللاّت" فقرأ الجمهور بتخفيف التاء ، وهو اسم صنم كان لثقيف اتَّخذوه مِن دون الله ، وكانوا يَشتقُّون لأصنامهم من أسماء الله تعالى ، فقالوا من "الله" : اللات ، : ومن "العزيز" : العُزَّى .

قال أبو سليمان الخطابي : كان المشركون يتعاطَون "الله" اسماً لبعض أصنامهم ، فصرفه الله إلى اللاّت صيانةً لهذا الاسم وذَبّاً عنه .

وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والضحاك ، وابن السميفع ، ومجاهد ، وابن يعمر ، والأعمش ، وورش عن يعقوب : "اللاتّ" بتشديد التاء ؛ ورد في تفسير ذلك عن ابن عباس ومجاهد أن رجلاً كان يلُتُّ السَّويق للحاجّ ، فلمّا مات عكفوا على قبره فعبدوه .

وقال الزجاج: زعموا أن رجلاً كان يلُتُّ السَّويق ويبيعه عند ذلك الصنم، فسُمِّي الصنمُ: اللاّتّ.

وكان الكسائي يقف عليه بالهاء، فيقول: "اللاّه"؛ وهذا قياس، والأجود الوقوف بالتاء، لاتباع المصحف.

(236/734)

وأما "العُزَّى" ففيها قولان.

أحدهما: أنها شجرة لغطفان كانوا يعبدونها، قاله مجاهد.

والثاني: صنم لهم، قاله الضحاك.

قال: وأمّا "مَناةَ" فهو صنم لهُذَيل وخُزاعة يعبُده أهلُ مكة.

وقال قتادة: بل كانت للأنصار.

وقال أبو عبيدة: كانت اللاّت والعُزَّى ومَناة أصناماً من حجارة في جوف الكعبة يعبدونها.

وقرأ ابن كثير "ومَناءَةَ" ممدودة مهموزة.

فأمّا قوله: ﴿ الثالثةَ ﴾ فانه نعت ل "مَناة"، هي ثالثة الصنمين في الذِّكر، و"الأُخرى"

نعت لها .

قال الثعلبي : العرب لا تقول للثالثة : الأُخرى ، وإنما الأُخرى نعت للثانية ؛ فيكون في المعنى وجهان .

أحدهما : أن ذلك لِوفاق رؤوس الآي ، كقوله ﴿ مَآرِبُ أُخرى ﴾ [طه : 18] ولم يقل ، أُخَر ، قاله الخليل .

والثاني : أن في الآية تقديماً وتأخيراً تقديره : أفرأيتم اللاّت والعُزَّى الأخرى ومَناة الثالثة ، قاله الحسين بن الفضل .

قوله تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ ﴾ قال ابن السائب : إن مشركي قريش قالوا للأصنام والملائكة : بناتُ الله ، وكان الرجُل منهم إذا بُشِّر بالأُنثى كرِه ، فقال الله تعالى مُنْكِراً عليهم : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وله الأُنثى ﴾ ؟ ! يعني الأصنام وهي [إناث] في أسمائها .

﴿ تلك إذاً قِسْمةٌ ضِيزى ﴾ قرأ عاصم ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : ["ضِيزى"] بكسر الضاد من غير همز ؛ وافقهم ابن كثير [في] كسر الضاد ، لكنه همز .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، ومعاذ القارىء : "ضَيْزى" بفتح الضاد من غير همز .

قال الزجاج : الضِّيزى في كلام العرب : الناقصةُ الجائرة ، يقال : ضازه يَضِيزُه : إذا نقصه حَقَّه ، ويقال : ضَأَزَه يَضْأَزُه بالهمز .

وأجمع النحويُّون أن أصل ضِيزَى : ضُوزَى ، وحُجَّتُهم أنها نُقلت من "فُعْلى" من ضُوْزى إلى ضِيزى ، لتَسلم الياء ، كما قالوا : أبيض وبِيْض ، وأصله : بُوضٌ ، فنُقلت الضَّمَّة إلى الكسرة .

(237/734)

وقرأت على بعض العلماء باللُّغة : في "ضيزى" لغات ؛ يقال : ضِيزَى ، وضُوزَى ، وضُؤْزَى ، وضَأْزَى على "فَعْلى" مفتوحة ؛ ولا يجوز في القرآن إلاّ "ضِيزى" بياءٍ غير مهموزة ؛ وإنما لم يقُل النحويُّون : إنها على أصلها لأنهم لا يعرفون في الكلام "فِعْلى" صفة ، إنما يعرفون الصِّفات على "فَعْلَى" بالفتح ، نحو سَكْرَى وغَضْبى ، أو بالضم ، نحو حُبْلى وفُضْلى .

قوله تعالى : ﴿ إن هي ﴾ يعني الأوثان ﴿ إلاّ أسماءٌ ﴾ والمعنى : إن هذه الأوثان التي سمَّوها بهذه الأسامي لا معنى تحتها ، لأنها لا تضر ولا تنفع ، فهي تسميات أُلقيت على جمادات ، ﴿ ما أَنزل اللهُ بها من سُلطان ﴾ أي : لم يُنزل كتاباً فيه حُجّة بما يقولون : إنها آلهة .

ثم رجع إلى الإخبار عنهم بعد الخطاب لهم فقال : ﴿ إن يَتَّبِعونَ ﴾ في أنها آلهة ، [﴿ إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾] وهو ما زيَّن لهم الشيطان ، ﴿ ولقد جاءهم مِن ربِّهم الهُدى

﴿ وهو البيان بالكتاب والرسول ، وهذا تعجيب من حالهم إذ لم يتركوا عبادتها بعد وُضوح البيان .

ثم أنكر عليهم تَمنّيهم شفاعتَها فقال : ﴿ أَم للإنسان ﴾ يعني الكافر ﴿ ما تَمنَّى ﴾ من شفاعة الأصنام ﴿ فِللَّهِ الآخِرةُ والأُولى ﴾ أي لا يَملك فيهما أحد شيئاً إلاّ بإذنه .

ثم أكَّد هذا بقوله : ﴿ وكم مِنْ مَلَكٍ في السموات لا تُغْني شفاعتُهم شيئاً ﴾ فجمع في الكناية ، لأن معنى الكلام الجمع ﴿ إلاّ مِنْ بَعْدِ أن يأذن اللهُ ﴾ في الشفاعة ﴿ لِمن يشاءُ ويَرضى ﴾ ؛ والمعنى أنهم لا يَشفعون إلاّ لِمن رضي اللهُ عنهم .

(238/734)

قوله تعالى : ﴿ إن الذين لا يؤمِنون بالآخرة ﴾ أي : بالبعث ﴿ لَيُسَمُّونَ الملائكةَ تسميةَ الأُنثى ﴾ وذلك حين زعموا أنها بنات الله ، ﴿ وما لهم ﴾ بذلك ، ﴿ من عِلْمٍ ﴾ أي : ما يَستيقِنون أنها إناث ﴿ إن يَتَّبعون إلاّ الظَّنَّ وإن الظَّنَّ لا يُغْني مِن الحقِّ شيئاً ﴾ أي : لا يقوم مقامَ العِلْم ؛ فالحقُّ ها هنا بمعنى العِلْم .

﴿ فأَعْرِضْ عمَّن تولَّى عن ذِكْرِنا ﴾ يعني القرآن ؛ وهذا عند المفسرين منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ ذلك مَبلغُهم من العِلْم ﴾ قال الزجّاج : إنَّما يعلمون ما يحتاجون إليه في معايشهم ، وقد نبذوا أمر الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ هو أعلمُ بمن ضَلَّ عن سبيله . . .

﴾ الآية ؛ والمعنى أنه عالِمٌ بالفريقين فيجازيهم .

قوله تعالى : ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ﴾ هذا إخبار عن قُدرته وسَعَة مُلكه ، وهو كلام معترض بين الآية الأولى وبين قوله : ﴿ لِيَجْزِيَ الذين أساؤوا ﴾ لأن اللام في "ليجزي" متعلقة بمعنى الآية الأولى ، لأنه إذا كان أعلم بهما ، جازى كُلاًّ بما يستحقُّه ، وهذه لام العاقبة ، وذلك أن عِلْمه بالفريقين أدَّى إلى جزائهم باستحقاقهم ، وإنما يَقْدِر على مُجازاة الفريقين إذا كان واسع المُلك ، فلذلك أخبر به في قوله : ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ﴾ .

قال المفسرون : و"أساؤوا" بمعنى أشركوا ، و"أحسنوا" بمعنى وحَّدوا .

والحُسنى : الجنَّة .

والكبائر مذكورة في سورة [النساء : 31] وقيل : كبائر الإثم : كُلُّ ذنْب خُتم بالنّار ، والفواحش : كُلُّ ذنْب فيه الحدّ .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، والمفضل ، وخلف : "يَجْتَنِبون كبِيرَ الإثم" واللَّمم في كلام العرب : المُقارَبة للشيء .

وفي المراد به هاهنا ستة أقوال .

أحدها : ما أَلَمُّوا به من الإثم والفواحش في الجاهلية ، فإنه يُغْفَر في الإسلام ، قاله زيد بن ثابت .

(239/734)

والثاني : أن يُلِمَّ بالذَّنب مَرَّةً ثم يتوب ولا يعود ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والسدي .

والثالث : أنه صِغار الذُّنوب ، كالنَّظرة والقُبلة وما كان دون الزِّنا ، قاله ابن مسعود ، وأبو هريرة ، والشعبي ، ومسروق ، ويؤيِّد هذا حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنَّ الله كتب على ابن آدم حظَّه من الزِّنا ، فزِنا العينين النَّظر ، وزِنا اللسان النُّطق ، والنفس تشتهي وتتمنَّى ، ويصدِّق ذلك ويكذِّبه الفَرْج ، فإن تقدَّم بفَرْجه كان الزِّنا ، وإلا فهو اللَّمم " .

والرابع : أنه ما يَهُمُّ به الإنسان ، قاله محمد بن الحنفية .

والخامس : أنه أَلَّم بالقلب ، أي : خَطَر ، قاله سعيد بن المسيّب .

والسادس : أنه النَّظر من غير تعمُّد ، قاله الحسين بن الفضل .

فعلى القولين [الأولين] يكون الاستثناء من الجنس ، وعلى باقي الأقوال ليس من الجنس .

قوله تعالى : ﴿ إنَّ ربَّكَ واسعُ المغفرة ﴾ قال ابن عباس : لِمَن فعل ذلك ثم تاب .

وها هنا تمَّ الكلام .

ثم قال ﴿ هو أعْلَمُ بِكُمْ ﴾ يعني قبل خَلْقكم ﴿ إذ أنشأكم من الأرض ﴾ يعني آدم عليه السلام ﴿ وإذا أنتم أجِنَّةٌ ﴾ جمع جَنِين ؛ والمعنى أنه عَلِم ما تفعلون وإلى ماذا تصيرون ، ﴿ فلا تُزَكُّوا أنفُسَكم ﴾ أي : لا تَشهدوا لها أنَّها زكيَّة بريئة من المعاصي .

وقيل : لا تمدحوها بحُسن أعمالها .

وفي سبب نزول هذه الآية قولان .

أحدهما : أن اليهود كانوا إذا هلك لهم صبيّ ، قالوا : صِدِّيق ، فنزلت هذه الآية ، هذا قول عائشة رضي الله عنها .

والثاني : أن ناساً من المسلمين قالوا : قد صلّينا وصُمنا وفعلنا ، يُزَكُّون أنفُسَهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ وهو أعلَمُ بِمَنِ اتَّقى ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : عمل حسنة وارعوى عن معصية ، قاله عليّ رضي الله عنه .

والثاني : أخلص العملَ لله ، قاله الحسن .

والثالث : اتَّقى الشِّرك فآمن ، قاله الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ أفرأيتَ الذي تَوَلَّى ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال .

أحدها : أنه الوليد بن المغيرة ، وكان قد تَبِع رسول الله صلى الله عليه وسلم على دينه ، فعيَّره بعضُ المشركين ، وقال : تركتَ دين الأشياخ وضلَّلتَهم ؟ قال : إنِّي خشيتُ عذابَ الله ، فضَمِن له إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجَع إلى شِركه أن يتحمَّل عنه عذابَ الله عز وجل ففعل ، فأعطاه بعضَ الذي ضَمِن له ، ثم بَخِل ومنعه ، فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد ، وابن زيد .

والثاني : أنه النَّضر بن الحارث أعطى بعضَ الفقراء المسلمين خمسَ قلائص حتى ارتدَّ عن إسلامه ، وضَمِن له أن يَحْمِل عنه إثمه ، قاله الضحاك .

والثالث : أنه أبو جهل ، وذلك أنه قال : واللهِ ما يأمُرُنا محمدٌ إلاّ بمكارم الأخلاق ، قاله محمد بن كعب القرظي .

والرابع : أنه العاص بن وائل السهمي ، وكان ربَّما وافق رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأُمور ، قاله السدي .

ومعنى "تَوَلَّى" : أعرضَ عن الإيمان .

﴿ وأعطى قليلاً ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : أطاع قليلاً ثم عصى .

قاله ابن عباس .

والثاني : أعطى قليلاً من نَفْسه بالاستماع ثم أكدى بالانقطاع ، قاله مجاهد .

والثالث : أعطى قليلاً من ماله ثم مَنَع ، قاله الضحاك .

والرابع : أعطى قليلاً من الخير بلسانه ثم قطع ، قاله مقاتل .

قال ابن قتيبة : ومعنى "أَكْدَى" : قَطَع ، وهو من كُدْية الرَّكِيَّة ، وهي الصَّلابة فيها ، وإذا بلغها الحافر يئس من حَفْرها ، فقطع الحَفْر ، فقيل لكل من طلب شيئاً فلم يبلُغ آخِرَه ، أو أعطَى ولم يُتِمَّ : أَكْدَى .

قوله تعالى : ﴿ أعِنْدَهُ عِلْمُ الغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ فيه قولان .

أحدهما : فهو يرى حاله في الآخرة ، قاله الفراء .

والثاني : فهو يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة وغيرها ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما في صُحُفِ موسى ﴾ يعني التوراة ، ﴿ وإبراهيمَ ﴾ أي : وصحف إبراهيم .

وفي حديث أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن الله تعالى أَنزل على إبراهيمَ عشر صحائف ، وأنزل على موسى قَبْلَ التَّوراة عشر صحائف " .

قوله تعالى : ﴿ الذي وَفَّى ﴾ قرأ سعيد بن جبير ، وأبو عمران الجوني ، وابن السميفع اليماني "وَفَى" بتخفيف الفاء .

قال الزجاج : قوله : "وَفَّى" أبلغ من "وَفَى" ، لأن الذي امتُحن به مِنْ أعظمِ المِحن .

وللمفسرين في الذي وفَّى عشرة أقوال .

أحدها : أنه وفَّى عملَ يومه بأربع ركعات في أول النهار ، رواه أبو أُمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والثاني : أنه وفَّى في كلمات كان يقولها .

روى سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ألا أُخْبِرُكم لِمَ سمَّى اللهُ إبراهيمَ خليله [الذي وفَّى] ؟ "

لأنه كان يقول كلمَّا أصبحَ وكلمَّا أمسى : ﴿ فسُبْحانَ اللهِ حينَ تُمْسونُ وحين تُصْبِحونَ . . ﴾ [الروم : 17] وختم الآية .

والثالث : أنه وفَّى الطاعة فيما فعل بابنه ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال القرظي .

والرابع : أنه وفَّى ربَّه جميع شرائع الإسلام ، روى هذا المعنى عكرمة عن ابن عباس .

والخامس : أنه وفَّى ما أُمر به من تبليغ الرِّسالة ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والسادس : أنه عَمِل بما أُمر به ، قاله الحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وقال مجاهد : وفَّى ما فُرض عليه .

والسابع : أنه وفَّى بتبليغ هذه الآيات ، وهي : "ألاّ تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخْرى" وما بعدها ، وهذا مروي عن عكرمة ، ومجاهد ، والنخعي .

والثامن : وفَّى شأن المناسك ، قاله الضحاك .

والتاسع : أنه عاهد أن لا يَسأل مخلوقاً شيئاً ، فلمّا قُذف في النار قال له جبريل ، أَلَكَ حاجةٌ ؟ فقال : أمّا إليك فلا ، فوفَّى بما عاهد ، ذكره عطاء بن السائب .

والعاشر : أنه أدَّى الأمانة ، قاله سفيان بن عيينة .

(242/734)

ثم بيَّن ما في صحفهما فقال : ﴿ ألاّ تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أُخْرى ﴾ أي : لا تَحْمِل نَفْس حاملةٌ حِمْلَ أُخْرى ؛ والمعنى : لا تؤخَذ بإثم غيرها .

﴿ وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى ﴾ قال الزجّاج : هذا في صحفهما أيضاً .

ومعناه : ليس للإنسان إلاّ جزاء سعيه ، إن عَمِل خيراً جُزِي عليه خيراً ، وإن عَمِل شرّاً .

جزي شَرّاً .

واختلف العلماء في هذه الآية على ثمانية أقوال .

أحدها : أنها منسوخة بقوله : ﴿ وأَتْبَعْناهم ذُرِّيَاتِهم بإيمان ﴾ [الطور : 21] فأُدخل الأبناء الجَنَّة بصلاح الآباء ، قاله ابن عباس ، ولا يصح ، لأن لفظ الآيتين لفظ خبر ، والأخبار لا تُنْسَخ .

والثاني : أن ذلك كان لقوم إبراهيم وموسى ، وأما هذه الأمَّة فلهم ما سَعَوا وما سعى غيرُهم ، قاله عكرمة ، واستدل " بقول النبي صلى الله عليه وسلم للمرأة التي سألته : إنَّ أبي مات ولم يحُجَّ ، فقال : "حُجِّي عنه" " .

والثالث : أن المراد بالإنسان هاهنا : الكافر ، فأمّا المؤمن ، فله ما سعى وما سُعي له ، قاله الربيع بن أنس .

والرابع : أنه ليس للإنسان إلاّ ما سعى من طريق العدل ، فأمّا مِنْ باب الفَضْل ، فجائز أن يَزيده اللهُ عز وجل ما يشاء ، قاله الحسين بن الفضل .

والخامس : أن معنى "ما سعى" ما نوى ، قاله أبو بكر الورّاق .

والسادس : ليس للكافر من الخير إلا ما عمله في الدُّنيا ، فيُثاب عليه فيها حتى لا يبقى له في الآخرة خير ، ذكره الثعلبي .

والسابع : أن اللام بمعنى "على" فتقديره : ليس على الإنسان إلا ما سعى .

والثامن : أنه ليس له إلاّ سعيه ، غير أن الأسباب مختلفة ، فتارة يكون سعيه في تحصيل قرابة وولد يترحم عليه وصديق ، وتارة يسعى في خِدمة الدّين والعبادة ، فيكتسب محبة أهل الدّين ، فيكون ذلك سببا حصل بسعيه ، حكى القولين شيخنا علي بن عبيد الله الزاغوني .

قوله تعالى : ﴿ وأنَّ سَعْيَه سوف يُرَى ﴾ فيه قولان .

أحدهما : سوف يُعْلَم ، قاله ابن قتيبة .

(243/734)

والثاني : سوف يرى العبدُ سعيَه يومَ القيامة ، أي : يرى عمله في ميزانه ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ يُجْزاه ﴾ الهاء عائدة على السعي ﴿ الجزاءَ الأَوْفَى ﴾ أي : الأكمل الأَتمّ .

﴿ وأنَّ إلى ربّك المُنتهى ﴾ أي : مُنتهى العباد ومَرجِعهُم .

قال الزجاج : هذا كُلُّه في صحف إبراهيم وموسى .

قوله تعالى : ﴿ وأنَّه هو أضْحك وأبْكى ﴾ قالت عائشة : " مَرَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقوم يضحكون ، فقال : لو تَعْلَمونَ ما أعْلَمُ لَضَحِكتم قليلاً ، ولبَكَيتم كثيراً " ، فنزل

جبريل عليه السلام بهذه الآية ، فرجع إليهم ، فقال : ما خطَوْتُ أربعينَ خطوة حتى أتاني جبريل ، فقال : إئت هؤلاء فقُل لهم : إن الله يقول : وأَنَّه هو أضحك وأبْكى ، وفي هذا تنبيه على أن جميع الأعمال بقضاء الله وقدره حتى الضحك والبُكاء .

وقال مجاهد : أضْحكَ أهلَ الجَنَّة ، وأبكى أهل النّار .

وقال الضحاك : أضْحَك الأرض بالنبات .

وأبكى السماءَ بالمطر .

قوله تعالى : ﴿ وأَنَّه هو أمات ﴾ في الدُّنيا ﴿ وأحْيا ﴾ للبعث .

﴿ وأَنَّه خَلَق الزَّوجَين ﴾ أي : الصِّنفين ﴿ الذَّكر والأنثى ﴾ من جميع الحيوانات ، ﴿ مِنْ نُطْفة إذا تُمْنى ﴾ فيه قولان .

أحدهما : إذا تُراق في الرَّحِم ، قاله ابن السائب .

والثاني : إذا تُخْلق وتُقَدَّر ، ﴿ وأنَّ عليه النَّشْأَةَ الأخْرى ﴾ وهي الخَلْق الثاني للبعث يوم القيامة .

﴿ وأَنَّه هو أغْنى ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : أغنى بالكفاية ، قاله ابن عباس .

والثاني : بالمعيشة ، قاله الضحاك .

والثالث : بالأموال ، قاله أبو صالح .

والرابع : بالقناعة ، قاله سفيان .

وفي قوله : ﴿ أقنى ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : أرْضى بما أعطى ، قاله ابن عباس .

والثاني : أخْدم ، قاله الحسن ، وقتادة ، وعن مجاهد كالقولين .

والثالث : جعل للإنسان قِنْيَةً ، وهو أصل مال ، قاله أبو عبيدة .

(244/734)

قوله تعالى : ﴿ وأنَّه هو ربُّ الشِّعْرى ﴾ قال ابن قتيبة : هو الكوكب الذي يطْلُع بعد الجَوْزاء ، وكان ناس من العرب يعبُدونها .

قوله تعالى : ﴿ وأنَّه أهلك عاداً الأولى ﴾ قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "عاداً الأولى" منوّنة .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو : "عاداً لُولى" موصولة مدغمة .

ثم فيهم قولان .

أحدهما : أنهم قوم هود ، وكان لهم عقب فكانوا عاداً الأخرى ، هذا قول الجمهور .

والثاني : أن قوم هود هم عادٌ الأخرى ، وهم من أولاد عادٍ الأولى ، قاله كعب الأحبار .

وقال الزجاج: وفي "الأولى" لغات، أجودها سكون اللام وإثبات الهمزة، والتي تليها في الجودة ضم اللام وطرح الهمزة، ومن العرب من يقول: لُولى، يريد: الأُولى، فتطرح الهمزة لتحرّك اللاّم.

قوله تعالى: ﴿ وقومَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي: مِن قَبْل عادٍ وثمودَ ﴿ إنَّهم كانوا هُمْ أظلمَ وأطغى ﴾ من غيرهم، لطول دعوة نوح إيّاهم، وعتوّهم.

﴿ والمُؤتفِكةَ ﴾ قُرى قوم لوط ﴿ أهوى ﴾ [أي]: أسقط، وكان الذي تولَّى ذلك جبريل بعد أن رفعها، وأتبعهم اللهُ بالحجارة، فذلك قوله: ﴿ فغشّاها ﴾ أي: ألبسها ﴿ ما غشَّى ﴾ يعني الحجارة ﴿ فبأيِّ آلاءِ ربّكَ تتمارى ﴾ هذا خطاب للإنسان، لمّا عدَّد اللهُ ما فعله ممّا يَدلُّ على وحدانيّته قال: فبأيِّ نعم ربّك التي تدُلُّ على وحدانيّته تتشكَّك؟ وقال ابن عباس: فبأي آلاءِ ربّك تكذِّب يا وليد، يعني [الوليد] بن المغيرة.

قوله تعالى: ﴿ هذا نذيرٌ ﴾ فيه قولان.

أحدهما: أنه القرآن، نذيرٌ بما أنذرتْ الكتبُ المتقدّمة، قاله قتادة.

والثاني: أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، نذيرٌ بما أنذرتْ به الأنبياءُ، قاله ابن جريج.

قوله تعالى: ﴿ أزِفت الآزفة ﴾ أي: دَنَت القيامة، ﴿ ليس لها مِنْ دُون الله كاشفة ﴾ فيه قولان.

أحدهما : إذا غَشِيَت الخَلْقَ شدائدُها وأهوالُها لمْ يَكْشِفها أحد ولم يرُدَّها ، قاله عطاء ، وقتادة ، والضحاك .

والثاني : ليس لِعِلْمها كاشف دونَ الله ، أي : لا يَعلم عِلْمها إلاّ الله ، قاله الفراء ، قال : وتأنيث "كاشفة" كقوله : ﴿ هل ترى لهم من باقيةٍ ﴾ [الحاقة : 8] يريد : مِن بقاءٍ ؛ والعافية والباقية والناهية كلُّه في معنى المصدر .

وقال غيره : تأنيث "كاشفة" على تقدير : نفس كاشفة .

قوله تعالى : ﴿ أفَمِن هذا الحديث ﴾ قال مقاتل : يعني القرآن ﴿ تَعْجَبونَ ﴾ تكذيباً به ، ﴿ وتَضْحَكون ﴾ استهزاءً ﴿ ولا تَبْكون ﴾ مّما فيه من الوعيد ؟ ! ويعني بهذا كفار مكة ، ﴿ وأنتم سامِدون ﴾ فيه خمسة أقوال .

أحدها : لاهون ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الفّراء والزجّاج .

قال أبو عبيدة : يقال : دَعْ عنك سُمودَك ، أي : لَهْوك .

والثاني : مُعْرِضون ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه الغِناء ، وهي لغة يمانية ، يقولون : اسْمُد لنا ، أي : تَغَنَّ لنا ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

وقال عكرمة : هو الغِناء بالحِمْيَرِيَّة .

والرابع : غافلون ، قاله قتادة .

والخامس : أشِرون بَطِرون ، قاله الضحاك .

قوله تعالى : ﴿ فاسْجُدوا لله ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه سُجود التلاوة ، قاله ابن مسعود .

والثاني : سُجود الفرض في الصلاة .

قال مقاتل : يعني بقوله : "فاسْجُدوا" : الصلوات الخمس .

وفي قوله : ﴿ واعْبُدوا ﴾ قولان .

أحدهما : أنه التوحيد .

والثاني : العبادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿زاد المسير حـ 8 صـ 62.86 ﴾

(246/734)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾

قال ابن عباس يعني الثريا إذا سقطت وغابت والعرب تسمي الثريا نجماً ومنه قولهم إذا طلع النجم عشاء ابتغى الراعي كساء وجاء في الحديث عن أبي هريرة مرفوعاً : " ما طلع

النجم قط وفي الأرض من العاهة شيء إلا رفع " أراد بالنجم الثريا ، وقيل : هي نجوم السماء كلها وهويها غروبها فعلى هذا لفظه واحد ومعناه الجمع .

وروي عن ابن عباس أنه الرجوم من النجوم وهي ما ترمى به الشياطين عند استراق السمع .

وقيل : هي النجوم إذا انتثرت يوم القيامة .

وقيل : أراد بالنجم القرآن سمي نجماً لأنه نزل نجوماً متفرقة في عشرين سنة وهو قول ابن عباس أيضاً .

وقيل : النجم هو النبت الذي لا ساق له وهويه سقوطه إذا يبس على الأرض .

وقيل : النجم هو محمد (صلى الله عليه وسلم) وهويه نزوله ليلة المعراج من السماء

وجواب القسم قوله تعالى : ﴿ ما ضل صاحبكم ﴾ يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) ما ضل عن طريق الهدى ﴿ وما غوى ﴾ أي ما جهل .

وقيل : الفرق بين الضلال والغي أن الضلال هو أن لا يجد السالك إلى مقصده طريقاً أصلاً والغواية أن لا يكون له طريق إلى مقصده مستقيم وقيل : إن الضلال أكثر استعمالاً من الغواية ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ أي بالهوى والمعنى لا يتكلم بالباطل وذلك أنهم قالوا : إن محمداً يقول القرآن من تلقاء نفسه ﴿ إن هو ﴾ أي ما هو يعني القرآن وقيل : نطقه في الدين ﴿ إلا وحي ﴾ من الله ﴿ يوحى ﴾ إليه .

﴿ علمه شديد القوى ﴾ يعني جبريل علم محمداً (صلى الله عليه وسلم) ما أوحى الله إليه وكونه شديد القوى أنه اقتلع قرى قوم لوط وحملها على جناحه حتى بلغ بها السماء ثم قلبها وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين وكان هبوطه بالوحي على الأنبياء أسرع من رجعة الطرف ﴿ ذو مرة ﴾ أي ذو قوة وشدة .

وقال ابن عباس : ذو منظر حسن وقيل : ذو خلق طويل حسن .

(247/734)

﴿ فاستوى ﴾ يعني جبريل ﴿ وهو ﴾ يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) والمعنى استوى جبريل ومحمد ليلة المعراج ﴿ بالأفق الأعلى ﴾ عند مطلع الشمس وقيل : فاستوى يعني جبريل وهو كناية عن جبريل أيضاً أي قام في صورته التي خلقه الله فيها وهو بالأفق الأعلى وذلك أن جبريل كان يأتي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في صورة الآدميين كما كان يأتي الأنبياء قبله فسأله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يريه نفسه على صورته التي جبل عليها فأراه نفسه مرتين مرة في الأرض ومرة في السماء فأما التي في الأرض فبالأفق الأعلى والمراد بالأفق الأعلى جانب المشرق وذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان بحراء ، فطلع له جبريل من ناحية المشرق ، فسد الأفق إلى المغرب

فخرَّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مغشياً عليه فنزل جبريل عليه ، الصلاة والسلام في صورة الآدميين فضمه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه وهو قوله تعالى : ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ وأما التي في السماء فعند سدرة المنتهى ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة التي خلق عليها إلا نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) قوله تعالى : ﴿ ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ .

اختلف العلماء في معنى هذه لآية فروي عن مسروق بن الأجدع قال " قلت لعائشة فأين قوله ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ؟ قالت ذلك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته فسد الأفق " أخرجاه في الصحيحين .

(248/734)

وعن زر بن حبيش في قوله تعالى : ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ وفي قوله ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ وفي قوله ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ قال : فيها كلها أن ابن مسعود قال " رأى جبريل له ستمائة جناح " زاد في رواية أخرى " رأى جبريل في صورته " أخرجه مسلم والبخاري في قوله تعالى : ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ فعلى هذا يكون معنى الآية ثم دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من

الأرض فتدلى إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) فكان منه قاب قوسين أو أدنى أي : بل أدنى وبه قال ابن عباس والحسن وقتادة .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير تقديره ثم تدلى فدنا لأن التدلي سبب الدنو .

وقال آخرون : ثم دنا الرب من محمد (صلى الله عليه وسلم) فتدلى أي فقرب منه حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى وقد ورد في الصحيحين في حديث المعراج من رواية شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن أنس ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى .

وهذه رواية أبي سلمة عن ابن عباس والتدلي هو النزول إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) .

قال الحافظ عبد الحق في كتابه .

الجمع بين الصحيحين ، بعد ذكر حديث أنس من رواية شريك ، وقد زاد فيه زيادة مجهولة وأتى فيه بألفاظ غير معروفة .

وقد روى حديث الإسراء جماعة من الحفاظ المتقنين كابن شهاب وثابت البناني وقتادة يعني عن أنس فلم يأت أحد منهم بما أتى به وفي رواية شريك قدم وآخر وزاد ونقص فيحتمل أن هذا اللفظ من زيادة شريك في الحديث وقال الضحاك دنا محمد (صلى الله عليه وسلم

) من ربه فتدلى أي فأهوى للسجود فكان منه قاب قوسين أو أدنى والقاب القدر والقوس الذي يرمي به وهو رواية عن ابن عباس .

(249/734)

وقيل : معناه حيث الوتر من القوس فأخبر أنه كان بين جبريل ومحمد (صلى الله عليه وسلم) مقدار قوسين وهذا إشارة إلى تأكيد القرب وأصله أن الحليفين من العرب كانا إذا أرادا عقد الصفاء والعهد بينهما خرجا بقوسيهما فألصقا بينهما يريد أن بذلك أنهما متظاهران يحامي كل واحد منهما عن صاحبه .

وقال عبد الله بن مسعود : قاب قوسين قدر ذراعين والقوس الذراع التي يقاس بها من قاس يقيس أو أدنى بل أقرب ﴿ فأوحى ﴾ أي فأوحى الله ﴿ إلى عبده ﴾ محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ ما أوحى ﴾ وعن ابن عباس قال أوحى جبريل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما أوحى إليه ربه وقال سعيد بن جبير : أوحى إليه ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ إلى قوله ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ وقيل : أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها أنت وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك قوله : ﴿ ما كذب الفؤاد ﴾ قرىء بالتشديد أي ما كذب محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ ما رأى ﴾ أي بعينه تلك الليلة

بل صدقه وحققه وقرىء بالتخفيف أي ما كذب فؤاد محمد الذي رآه بل صدقه والمعنى : ما كذب الفؤاد فيما رأى .

واختلفوا في الذي رآه ، فقيل : رأى جبريل وهو قول ابن عباس وابن مسعود وعائشة وقيل : هو الله ثم اختلفوا في معنى الرؤية فقيل جعل بصره في فؤاده وهو قول ابن عباس (م) .

﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ يعني أفتجادلونه على ما يرى وذلك أنهم جادلوه حين أسري به وقالوا له صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عيرنا في الطريق وغير ذلك مما جادلوه به .

والمعنى : أفتجادلونه جدالاً ترومون به دفعه عما رآه وعلمه ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ يعني رأى جبريل في صورته التي خلق عليها نازلاً من السماء نزلة أخرى وذلك أنه رآه في صورته مرتين مرة في الأرض ومرة عند سدرة المنتهى (م) عن أبي هريرة ولقد رآه نزلة أخرى قال : رأى جبريل .

(250/734)

وعلى قول ابن عباس : يعني نزلة أخرى هو أنه كانت للنبي (صلى الله عليه وسلم) في تلك الليلة عرجات لمسألة التخفيف من أعداد الصلوات فيكون لكل عرجة نزلة فرأى ربه في بعضها .

وروي عن ابن عباس أنه رأى ربه بفؤاده مرتين وعنه أنه رآه بعينه ﴿ عند سدرة المنتهى ﴾ (م) عن ابن مسعود قال : " لما أسري برسول الله (صلى الله عليه وسلم) انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السادسة وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها وقال إذ يغشى السدرة ما يغشى قال فراش من ذهب " .

وفي رواية الترمذي إليها ينتهي علم الخلائق لا علم لهم فوق ذلك وفي حديث المعراج المخرج في الصحيحين " ثم صعد بي إلى السماء السابعة ثم قال ثم رفعت إلى سدرة المنتهى " فإذا نبقها مثل قلال هجر وإذا ورقها كآذان الفيلة قال : هذه سدرة المنتهى .

وفي أفراد مسلم من حديث أنس قال : " ثم عرج بنا إلى السماء السابعة وذكره إلى أن قال فيه ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال قال فلما غشيها من نور الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها " وقال هلال بن يساف سأل ابن عباس كعباً عن سدرة المنتهى وأنا حاضر فقال كعب إنها سدرة في أصل العرش على رؤوس حملة العرش وإليها ينتهي علم الخلائق وما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله وعن أسماء بنت أبي بكر قالت : " سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذكر سدرة المنتهى فقال : يسير الراكب في ظل الفنن منها مائة سنة أو قال يستظل بظلها مائة ألف راكب فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال " أخرجه الترمذي .

وقال : مقاتل هي شجرة تحمل الحلي والحلل والثمار من جميع الألوان ولو أن ورقة وضعت منها في الأرض لأضاءت لأهل الأرض وهي شجرة طوبى التي ذكرها الله في سورة الرعد ﴿ عندها جنة المأوى ﴾ قال ابن عباس : جنة المأوى يأوي إليها جبريل والملائكة وقيل : يأوي إليها أرواح الشهداء ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ قال ابن مسعود : فراش من ذهب وقيل : يغشاها ملائكة أمثال الغربان .

وقيل : أمثال الطيور حتى يقعن عليها .

وقيل : غشيها نور الخلاق وغشيتها الملائكة من حب الله تعالى أمثال الغربان حتى يقعن عليها وقيل : هو نور رب العزة ويروى في الحديث قال : رأيت على كل ورقة منها ملكاً قائماً يسبح الله .

﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ يعني ما مال بصر النبي (صلى الله عليه وسلم) في ذلك المقام وفي تلك الحضرة المقدسة الشريفة يميناً وشمالاً ولا جاوز ما رأى وقيل : ما أمر به وهذا وصف أدبه (صلى الله عليه وسلم) في ذلك المقام الشريف إذ لم يلتفت إلى شيء سوى ما أمر به .

وفي معنى الآية إن قلنا إن الذي يغشى السدرة فراش من ذهب أي لم يلتفت إليه ولم يشتغل به وفيه بيان أدبه (صلى الله عليه وسلم) إذ لم يقطع بصره عن المقصود وإن قلنا الذي يغشى السدرة هو نور رب العزة ففيه وجهان :

أحدهما : أنه (صلى الله عليه وسلم) لم يلتفت عنه يمنة ولا يسرة ولا يشتغل بغير مطالعة ذلك النور .

الوجه الثاني : ما زاغ البصر بصعقة ولا غشية كما أخبر عن موسى بقوله ﴿ وخر موسى صعقاً ﴾ وذلك أنه لما تجلى رب العزة وظهر نوره على الجبل قطع نظره وغشي عليه ونبينا (صلى الله عليه وسلم) ثبت في ذلك المقام العظيم الذي تحار فيه العقول وتزل فيه الأقدام وتميل فيه الأبصار فوصف الله قوة نبينا (صلى الله عليه وسلم) في ذلك المقام العظيم بقوله تعالى ما زاغ البصر وما طغى .

(252/734)

وقوله تعالى : ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ يعني رأى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الآيات العظام وقيل : أراد ما رأى تلك الليلة في مسيره ورجوعه وقيل : معناه لقد رأى من آيات ربه الآيات الكبرى (م) عن عبد الله بن مسعود قال : لقد رأى من آيات ربه

الكبرى .

قال : رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح (خ) عنه قال لقد رأى من آيات ربه الكبرى قال رأى رفرفاً أخضر سد أفق السماء .

(فصل من كلام الشيخ محيي الدين النووي في معنى قوله تعالى ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ وهل رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) ربه ليلة الإسراء)

قال القاضي عياض اختلف السلف والخلف هل رأى نبينا (صلى الله عليه وسلم) ربه ليلة الإسراء فأنكرته عائشة كما وقع في صحيح مسلم .

وجاء مثله عن أبي هريرة وجماعة وهو المشهور عن ابن مسعود وإليه ذهب جماعة من المحدثين والمتكلمين .

وروي عن ابن عباس أنه رآه بعينه ومثله عن أبي ذر وكعب والحسن وكان يحلف على ذلك وحكي مثله عن ابن مسعود وأبي هريرة وأحمد بن حنبل وحكى أصحاب المقالات عن أبي الحسن الأشعري وجماعة من أصحابه أنه رآه ووقف بعض مشايخنا في هذا وقال : ليس عليه دليل واضح ولكنه جائز ورؤية الله في الدنيا جائزة وسؤال موسى إياها دليل على جوازها إذ لا يجهل نبي ما يجوز أن يمتنع على ربه .

واختلفوا في أن نبينا (صلى الله عليه وسلم) هل كلم ربه ليلة الإسراء بغير واسطة أم لا ، فحكي عن الأشعري وقوم من المتكلمين أنه كلمه .

وعزا بعضهم هذا القول إلى جعفر بن محمد وابن مسعود وابن عباس وكذلك اختلفوا في قوله : ثم دنا فتدلى فالأكثر على أن هذا الدنو والتدلي منقسم بين جبريل والنبي (صلى الله عليه وسلم) أو مختص بأحدهما من الآخر أو من سدرة المنتهى .

(253/734)

وذكر ابن عباس والحسن ومحمد بن كعب وجعفر بن محمد وغيرهم أنه دنو من النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى ربه أو من الله فعلى هذا القول يكون الدنو والتدلي متأولاً ليس على وجهه بل كما قال جعفر بن محمد الدنو من الله لا حد له ومن العباد بالحدود فيكون معنى دنو النبي (صلى الله عليه وسلم) وقربه منه ظهور عظيم منزلته لديه وإشراق أنوار معرفته عليه واطلاعه من غيبه وأسرار ملكوته على ما لم يطلع سواه عليه .

والدنو من الله تعالى له إظهار ذلك وعظيم بره وفضله العظيم لديه ويكون قوله تعالى : قاب قوسين أو أدنى ، هنا عبارة عن لطف المحل وإيضاح المعرفة والإشراف على الحقيقة من نبينا (صلى الله عليه وسلم) ومن الله تعالى إجابة الرغبة وإبانة المنزلة هذا آخر كلام القاضي عياض .

قال الشيخ محيي الدين : وأما صاحب التحرير فإنه اختار إثبات الرؤية .

قال : والحجج في المسألة وإن كانت كثيرة ولكن لا تتمسك إلا بالأقوى منها وهو حديث ابن عباس : " أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد (صلى الله عليه وسلم) وعليهم أجمعين " وعن عكرمة قال : سئل ابن عباس هل رأى محمد (صلى الله عليه وسلم) ربه ؟ قال : نعم .

وقد روي بإسناد لا بأس به عن شعبة عن قتادة عن أنس قال : رأى محمد ربه وكان الحسن يحلف لقد رأى محمد (صلى الله عليه وسلم) ربه .

(254/734)

والأصل في المسألة حديث ابن عباس حبر هذه الأمة وعالمها والمرجوع إليه في المعضلات وقد راجعه ابن عمر في هذه المسألة وراسله هل رأى محمد (صلى الله عليه وسلم) ربه فأخبره أنه رآه ولا يقدح في هذا حديث عائشة لأن عائشة لم تخبر أنها سمعت النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول : لم أر ربي وإنما ذكرت ما ذكرت متأولة لقول الله تعالى ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً ﴾ ولقوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ والصحابي إذا قال قولاً وخالفه غيره منهم لم يكن قوله حجة وإذا قد صحت الروايات عن ابن عباس أنه تكلم في هذه المسألة بإثبات الرؤية وجب المصير إلى إثباتها

لأنها ليست مما يدرك بالعقل ويؤخذ بالظن وإنما يتلقى بالسمع ولا يتسجيز أحد أن يظن بابن عباس أنه تكلم في هذه المسألة بالظن والاجتهاد وقد قال معمر بن راشد حين ذكر اختلاف عائشة وابن عباس ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس ثم إن ابن عباس أثبت ما نفاه غيره والمثبت مقدم على النفي هذا كلام صاحب التحرير في إثبات الرؤية .

قال الشيخ محيي الدين فالحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رأى ربه بعيني رأسه ليلة الإسراء لحديث ابن عباس وغيره مما تقدم وإثبات هذا لا يأخذونه إلا بالسماع من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذا مما لا ينبغي أن يتشكك فيه ثم إن عائشة لم تنف الرؤية بحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولو كان معها حديث لذكرته وإنما اعتمدت على الاستنباط من الآيات وسنوضح الجواب عنها فنقول : أما احتجاج عائشة رضي الله تعالى عنها بقوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ فجوابه ظاهر ، فإن الإدراك هو الإحاطة والله تعالى لا يحاط به وإذا ورد النص بنفي الإحاطة لا يلزم منه نفي الرؤية بغير إحاطة وهذا الجواب في نهاية الحسن مع اختصاره .

(255/734)

وأما احتجاجها بقوله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ﴾ الآية ، فالجواب عنه من أوجه : أحدها أنه لا يلزم مع الرؤية وجود الكلام حال الرؤية فيجوز وجود الرؤية من غير كلام ، الوجه الثاني : أنه عام مخصوص بما تقدم من الأدلة .

الوجه الثالث : ما قاله بعض العلماء إن المراد بالوحي الكلام من غير واسطة وهذا القول وإن كان محتملاً لكن الجمهور .

على أن المراد بالوحي هنا إلهام والرؤية في المنام وكلاهما يسمى وحياً وأما قوله تعالى : ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ فقال الواحدي وغيره معناه غير مجاهر لهم بالكلام بل يسمعون كلامه سبحانه من حديث لا يرونه وليس المراد أن هناك حجاباً يفصل موضعاً عن موضع ويدل على تحديد المحجوب فهو بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب حيث لم ير المتكلم وقول عائشة في أول الحديث " لقد قف شعري " فمعناه قام شعري من الفزع لكوني سمعت ما لا ينبغي أن يقال تقول العرب عند إنكار الشيء : قف شعري واقشعر جلدي واشمأزت نفسي وقوله (صلى الله عليه وسلم) في حديث أبي ذر " نور أني أراه " فهو بتنوين نور وبفتح الهمزة في أني وتشديد النون المفتوحة ومعناه : حجابه نور فكيف أراه قال الماوردي الضمير في أراه عائد على الله تعالى والمعنى أن النور يمنعني من الرؤية كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار ومنعها من إدراك ما حال بين الرائي وبينه وفي رواية رأيت نوراً معناه : رأيت النور فحسب ولم أر غيره وفي رواية ذاته نور أني أراه ومعناه هو خالق النور

المانع من رؤيته فيكون من صفات الأفعال ومن المستحيل أن تكون ذات الله نوراً إذ النور من جملة الأجسام والله يتعالى عن ذلك هذا مذهب جميع أئمة المسلمين والله أعلم .

﴿ ومناة ﴾ قيل : هي لخزاعة كانت بقديد وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها في الأنصار كانوا يهلون لمناة وكانت حذو قديد وقيل : هي بيت بالمشلل كانت تعبده بنو كعب .

(256/734)

وقيل : مناة ، صنم لهذيل وخزاعة وكانت تعبدها أهل مكة وقيل : اللات والعزى ومناة أصنام من الحجارة كانت في جوف الكعبة يعبدونها ﴿ الثالثة الأخرى ﴾ الثالثة نعت لمناة إذ هي الثالثة في الذكر وأما الأخرى فإن العرب لا تقول الثالثة الأخرى وإنما الأخرى هنا نعت للثلاثة قال الخليل : قالها لوفاق رؤوس الآي كقوله ﴿ مآرب أخرى ﴾ ولم يقل أخر .

وقيل : في الآية تقديم وتأخير تقديره أفرأيتم اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة .

وقيل : هي صفة ذم كأنه تعالى قال ومناة الثالثة المتأخرة الذليلة .

فعلى هذا فالأصنام ترتب مراتب ، وذلك لأن اللات كان صنماً على صورة آدمي والعزّى

شجرة فهي نبات ومناة صخرة فهي جماد وهي في أخريات المراتب .

ومعنى الآية : هل رأيتم هذه الأصنام حق الرؤية ، وإذا رأيتموها علمتم أنها لا تصلح للعبادة لأنها لا تضر ولا تنفع وقيل : أفرأيتم أيها الزاعمون أن اللات والعزى ومناة بنات الله ألكم الذكر وله الأنثى .

وقيل : كان المشركون بمكة يقولون : الأصنام والملائكة بنات الله وكان الرجل منهم إذا بشر بالأنثى كره ذلك فقال الله منكراً عليهم ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ قال ابن عباس : أي قسمة جائرة حيث جعلتم لربكم ما تكرهون لأنفسكم وقيل : قسمة عوجاء غير معتدلة ﴿ إن هي ﴾ أي ما هذه الأصنام ﴿ إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ والمعنى : أنكم سميتموها آلهة وليست حقيقة ولا بمعبودة حقيقة وقيل : معناه قلتم لبعضها عزى ولا عزة لها فلا يكون لها مسمى حقيقة .

(257/734)

﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أي حجة بما تقولون إنها آلهة ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ أي في قولهن إنها آلهة ﴿ وما تهوى الأنفس ﴾ يعني هو ما زين لهم الشيطان من عبادة الأصنام وقيل : وضعوا عبادتهم بمقتضى شهواتهم والذي ينبغي أن تكون العبادة بمقتضى

الشرع لا بمتابعة هوى النفس ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ أي البيان بالكتاب المنزل والنبي المرسل أن الأصنام ليست بآلهة وأن العبادة لا تصلح إلا لله الواحد القهار .

﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ معناه أيظن الكافر أن له ما يتمنى ويشتهي من شفاعة الأصنام أي ليس الأمر كما يظن ويتمنى ﴿ فلله الآخرة والأولى ﴾ أي لا يملك أحد فيها شيئاً أبداً إلا بإذنه وقيل : معناه أن الإنسان إذا اختار معبوداً على ما تمناه واشتهاه فلله الآخرة والأولى يعاقبه على فعله ذلك إن شاء في الدنيا والآخرة وإن شاء أمهله إلى الآخرة ﴿ وكم من ملك في السموات ﴾ أي ممن يعبدهم هؤلاء ويرجون شفاعتهم عند الله ﴿ لا تغني شفاعتهم شيئاً ﴾ يعني أن الملائكة ، مع علو منزلتهم ، لا تغني شفاعتهم ، شيئاً فكيف تشفع الأصنام مع حقارتها ثم أخبر أن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه فقال تعالى : ﴿ إلا من بعد أن يأذن الله ﴾ أي في الشفاعة ﴿ لمن يشاء ويرضى ﴾ أي من أهل التوحيد قال ابن عباس يريد لا تشفع الملائكة إلا لمن وقيل : إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء من الملائكة في الشفاعة لمن شاء الشفاعة له ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ يعني الكفار الذين أنكروا البعث ﴿ ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ﴾ أي بتسمية الأنثى حيث قالوا إنهم بنات الله .

فإن قلت كيف قال تسمية الأنثى ولم يقل تسمية الإناث .

قلت المراد منه بيان الجنس وهذا اللفظ أليق بهذا الموضع لمناسبته رؤوس الآي وقيل : إن كل واحد من الملائكة يسمونه تسمية الأنثى وذلك لأنهم إذا قالوا الملائكة بنات الله فقد سموا كل واحد منهم بنتاً وهي تسمية الأنثى ﴿ وما لهم به من علم ﴾ يعني بالله فيشركون به ويجعلون له ولداً وقيل : ما يستيقنون أن الملائكة أناث ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ يعني في تسمية الملائكة بالإناث ﴿ وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ يعني لا يقوم الظن مقام العلم الذي هو الحق وقيل معناه إنما يدرك الحق الذي هو حقيقة الشيء بالعلم واليقين لا بالظن والتوهم وقيل : الحق هو الله تعالى والمعنى أن الأوصاف الإلهية لا تستخرج بالظنون ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ﴾ يعني القرآن .

وقيل : عن الإيمان ﴿ ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ يعني أنهم لا يؤمنون بالآخرة حتى يردوها ويعملوا لها وفيه إشارة إلى إنكارهم الحشر ثم صغر رأيهم فقال تعالى : ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ أي ذلك نهاية علمهم وقلة عقولهم أن آثروا الدنيا على الآخرة وقيل : معناه أنهم لم يبلغوا من العلم إلا ظنهم أن الملائكة بنات الله وأنهم يشفعون لهم فاعتمدوا على ذلك وأعرضوا عن القرآن والإيمان ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ أي هو عالم بالفريقين ويجازيهم بأعمالهم .

﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ﴾ وهذه إشارة إلى كمال قدرته وغناه وهو معترض

بين الآية الأولى وبين قوله ﴿ ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ﴾ .

والمعنى :

(259/734)

إذا كان أعلم بهم جازى كل أحد بما يستحقه فيجزي الذين أساؤوا أي أشركوا بما عملوا من الشرك ﴿ ويجزي الذين أحسنوا ﴾ أي وحدوا ربهم ﴿ بالحسنى ﴾ يعني الجنة وإنما يقدر على مجازاة المحسن والمسيء إذا كان كثير الملك كامل القدرة فلذلك قال ولله ما في السموات وما في الأرض ثم وصف المحسنين فقال : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم ﴾ قيل : الإثم ، الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب وقيل : هو اسم للأفعال المبطئة عن الثواب ، وقيل : هو فعل ما لا يحل وقيل : الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر وجمعه آثام والكبيرة متعارفة في كل ذنب تعظم عقوبته وجمعه كبائر ﴿ والفواحش ﴾ جمع فاحشة ، وهي ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال وقيل : هي ما فحش من الكبائر ﴿ إلا اللمم ﴾ أي إلا ما قل وصغر من الذنوب وقيل : هي مقاربة المعصية من قولك ألممت بكذا إذا قاربته من غير مواقعة واختلفوا في معنى الآية فقيل هذا استثناء صحيح واللمم من الكبائر والفواحش ومعنى الآية : إلا إن يلم بالفاحشة مرة ثم يتوب أو يقع الوقعة ثم ينتهي وهو قول أبي هريرة

ومجاهد والحسن ورواية عن ابن عباس .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : اللمم ما دون الشرك .

وقال أبو صالح : سئلت عن قول الله إلا اللمم فقلت : هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاوده فذكرت ذلك لابن عباس فقال : أعانك عليها ملك كريم .

عن ابن عباس في قوله : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ .

(260/734)

قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن تغفر اللهم تغفر جماً وأي عبد لك لا ألما " أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح غريب وقيل : أصل اللمم والإلمام ما يعمله الإنسان الحين بعد الحين ولا يكون له إعادة ولا إقامة وقيل : هو استثناء منقطع مجازه لكن اللمم ولم يجعل اللمم من الكبائر والفواحش ثم اختلفوا في معناه فقيل هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم به في الإسلام وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين : إنهم كانوا بالأمس يعملون معنا فأنزل الله هذه الآية وهذا قول زيد بن ثابت وزيد بن سلم .

وقيل : اللمم هو صغار الذنوب كالنظرة والغمزة والقبلة ونحو ذلك مما هو دون الزنى وهو قول ابن مسعود وأبي هريرة ومسروق والشعبي والرواية الأخرى عن ابن عباس (ق) عن ابن

عباس قال " ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فزنى العينين النظر وزنى اللسان النطق والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه " .

ولمسلم قال : "كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى مدرك ذلك لا محالة العينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه " وقيل : اللمم على وجهين ، أحدهما أنه كل ذنب لم يذكر الله تعالى عليه حداً في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس وصوم رمضان ما لم يبلغ الكبائر والفواحش .

والوجه الثاني : هو الذنب العظيم يلم به المسلم المرة بعد المرة فيتوب منه وقيل : هو ما لم على القلب أي خطر وقيل : اللمم النظرة من غير عمد فهو مغفور فإن أعاد النظر فليس بلمم فهو ذنب والله سبحانه وتعالى أعلم .

(فصل : في بيان الكبيرة وحدها وتمييزها عن الصغيرة)

قال العلماء : أكبر الكبائر الشرك بالله وهو ظاهر لا خفاء به لقوله تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ويليه القتل بغير حق فأما ما سواهما من الزنا واللواط وشرب الخمر وشهادة الزور وأكل مال اليتيم بغير حق والسحر وقذف المحصنات وعقوق الوالدين والفرار من الزحف وأكل الربا وغير ذلك من الكبائر التي ورد بها النص فلها تفاصيل وأحكام تعرف بها مراتبها ويختلف أمرها باختلاف الأحوال والمفاسد المرتبة عليها .

فعلى هذا يقال في كل واحدة منها ، هي من أكبر الكبائر بالنسبة إلى ما دونها .

وقد جاء عن ابن عباس أنه سئل عن الكبائر أسبع هي قال هي إلى السبعين أقرب .

وفي وراية إلى سبعمائة أقرب وقد اختلف العلماء في حد الكبيرة وتمييزها عن الصغيرة فجاء عن ابن عباس : كل شيء نهى الله عنه فهو كبيرة .

وبهذا قال الأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني وحكاه القاضي عياض عن المحققين واحتج القائلون بهذا بأن كل مخالفة فهي بالنسبة إلى جلال الله كبيرة وذهب الجماهير من السلف والخلف من جميع الطوائف إلى انقسام المعاصي إلى صغائر وكبائر وقد تظاهرت على ذلك دلائل الكتاب والسنة واستعمال سلف الأئمة .

وإذا ثبت انقسام المعاصي إلى صغائر وكبائر ، فقد اختلف في ضبطها ، فروي عن ابن عباس أنه قال : الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب وعن الحسن نحو هذا وقيل : هي ما وعد الله عليه بنار في الآخرة وأحد في الدنيا .

وقال الغزالي : في البسيط الضابط الشامل في ضبط الكبيرة أن كل معصية يقدم عليها المرء من غير استشعار خوف أو استحداث ندم كالمتهاون في ارتكابها والمستجرىء عليها اعتياداً فما أشعر بهذا الاستخفاف والتهاون فهو كبيرة وما تحمل عليه فلتات النفس وفترة مراقبة التقوى ولا ينفك عن ندم يمتزج به تنغيص التلذذ بالمعصية فهذا لا يمنع العدالة وليس بكبيرة .

(262/734)

﴿ أفرأيت الذي تولى ﴾ نزلت في الوليد بن المغيرة كان قد اتبع النبي (صلى الله عليه وسلم) على دينه فغيره بعض المشركين وقالوا : أتركت دين الأشياخ وضللت .

قال : إني خشيت عذاب الله فضمن له الذي عاتبه إن أعطاه كذا من ماله ورجع إلى الشرك أن يتحمل عنه عذاب الله فرجع الوليد إلى الشرك وأعطى للذي عيره بعض الذي ضمن له من المال ومنعه تمامه فأنزل الله أفرأيت الذي تولى يعني أدبر وأعرض عن الإيمان ﴿ وأعطى ﴾ يعني لصاحبه الذي عيره ﴿ قليلاً وأكدى ﴾ أي بخل بالباقي .

وقيل : أعطى قليلاً يعني من الخير بلسانه وأكدى يعني قطعه وأمسك ولم يعم بالعطية .

وقيل : نزلت في العاص بن وائل السهمي وذلك أنه كان ربما يوافق النبي (صلى الله عليه

وسلم) في بعض الأمور .

وقيل : نزلت في أبي جهل وذلك أنه قال والله ما يأمرنا محمد إلا بمكارم الأخلاق فذلك قوله : وأعطى قليلاً وأكدى يعني لم يؤمن به ومعنى الآية أكدى يعني قطع وأصله من الكدية وهي حجر يظهر في البئر يمنع من الحفر ﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ أي ما غاب عنه يعني أن صاحبه يتحمل عنه عذابه ﴿ أم لم ينبأ ﴾ يعني يخبر ﴿ بما في صحف موسى ﴾ يعني أسفار التوراة .

﴿ وإبراهيم ﴾ يعني ويخبر بما في صحف إبراهيم ﴿ الذي وفى ﴾ يعني كمل وتمم مما أمر به وقيل : عمل بما أمر به وبلغ رسالات ربه إلى خلقه وقيل وفى فرض عليه وقيل قام بذبح ولده وقيل استكمل الطاعة .

وقيل : وفى بما فرض عليه في سهام الإسلام وهو قوله ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ والتوفية الإتمام .

وقيل : وفي شأن المناسك .

وروى البغوي بسنده عن أبي أمامة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال إبراهيم الذي وفى عمله كل يوم بأربع ركعات أول النهار .

عن أبي الدرداء وأبي ذر عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الله تبارك وتعالى أنه قال " ابن آدم اركع لي أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره " أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب ثم بين ما في صحفهما فقال تعالى : ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي لا تحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى .

والمعنى : لا تؤخذ نفس بإثم غيرها .

وفي هذا إبطال قول من ضمن للوليد بن المغيرة أن يحمل عنه الإثم .

وقال ابن عباس : كانوا قبل إبراهيم يأخذون الرجل بذنب غيره كان الرجل يقتل بقتل أبيه وابنه وأخيه وامرأته وعبده حتى كان إبراهيم فنهاهم عن ذلك وبلغهم عن الله تعالى : ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ أي عمل وهذا في صحف إبراهيم وموسى أيضاً قال ابن عباس هذا منسوخ الحكم في هذه الشريعة بقوله تعالى : ﴿ ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ فأدخل الأبناء الجنة بصلاح الآباء وقيل كان ذلك لقوم إبراهيم وموسى فأما هذه الأمة فلها ما سعوا وما سعى لهم غيرهم لما روي عن ابن عباس " أن امرأة رفعت صبياً لها فقالت يا رسول الله ألهذا حج ؟ قال نعم ولك أجراً " أخرجه مسلم وعنه " أن رجلاً قال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) إن أمي توفيت أينفعها إن تصدقت عنها ؟ قال نعم " .

وفي رواية أن سعد بن عبادة أخا بني سعد وذكر نحوه وأخرجه البخاري وعن عائشة ا قالت : " إن رجلاً قال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) إن أمي افتلتت نفسها وأظنها لو تكلمت تصدقت فهل لها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال نعم .

" أخرجاه في الصحيحين .

وفي حديث ابن عباس دليل لمذهب الشافعي ومالك وأحمد وجماهير العلماء أن حج الصبي منعقد صحيح يثاب عليه وإن كان لا يجزيه عن حجة الإسلام بل يقع تطوعاً .

وقال أبو حنيفة : لا يصح حجه وإنما يكون ذلك تمريناً للعبادة .

وفي الحديثين الآخرين دليل على أن الصدقة عن الميت تنفع الميت ويصله ثوابها .

(264/734)

﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ أي إليه منتهى الخلق ومصيرهم إليه في الآخرة وهو مجازيهم بأعمالهم وفي المخاطب بهذا وجهان أحدهما أنه عام تقديره وأن إلى ربك أيها السامع أو العاقل كائناً من كان المنتهى فهو تهديد بليغ للمسيء وحث شديد للمحسن ليقلع المسيء عن إساءته ويزداد المحسن في إحسانه الوجه الثاني أن المخاطب بهذا النبي (صلى الله عليه وسلم) فعلى هذا ، ففيه تسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) .

والمعنى : لا تحزن فإن إلى ربك المنتهى .

وقيل .

في معنى الآية : منه ابتداء المنة وإليه انتهاء الآمال .

وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي بن كعب عن النبي (صلى الله عليه وسلم) في قوله ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ قال لا فكرة في الرب .

وهذا مثل ما روي عن أبي هريرة مرفوعاً : " تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنه لا تحيط به الفكرة " ومعناه : لا فكرة في الرب أي انتهى الأمر إليه لأنك إذا نظرت إلى سائر الموجودات الممكنة علمت أن لا بد لها من موجد وإذا علمت أن موجدها هو الله تعالى فقد انتهى الأمر إليه فهو إشارة إلى وجوده ووحدانيته سبحانه وتعالى : ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ أي هو القادر على إيجاد الضدين في محل واحد الضحك والبكاء ففيه دليل على أن جميع ما يعمله الإنسان فبقضاء الله وقدره وخلقه حتى الضحك والبكاء وقيل أضحك أهل الجنة في الجنة وأبكى أهل النار في النار قيل أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر وقيل : أفرح وأحزن ، لأن الفرح يجلب الضحك والحزن يجلب البكاء عن جابر بن سمرة قال " جلست مع النبي (صلى الله عليه وسلم) أكثر من مائة مرة وكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت وربما تبسم معهم إذا ضحكوا " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

وفي رواية سماك بن حرب : فيضحكون ويتبسم معهم إذا ضحكوا يعني النبي (صلى الله عليه وسلم) .

(265/734)

وسئل ابن عمر : هل كان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يضحكون ؟ قال : نعم والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبل (ق) .

عن أنس قال : " خطب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خطبة ما سمعت مثلها قط فقال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً فغطى أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وجوههم لهم خنين " وهو بالخاء المعجمة أي بكاء مع صوت يخرج من الأنف ﴿ وأنه هو أمات وأحيا ﴾ أي أمات في الدنيا وأحيا للبعث .

وقيل : أمات الآباء وأحيا الأبناء .

وقيل : أمات الكافر بالنكرة وأحيا المؤمن بالمعرفة ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴾ أي من كل حيوان وهو أيضاً من جملة المتضادات التي تتوارد على النطفة فيخلق بعضها ذكراً وبعضها أنثى وهذا شيء لا يصل إليه فهم العقلاء ولا يعلمونه وإنما هو بقدرة الله تعالى وخلقه لا بفعل الطبيعة ﴿ من نطفة إذا تمنى ﴾ أي تصب في الرحم .

﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ أي أغنى الناس بالأموال وأعطى القنية وهي أصول الأموال وما يدخرونه بعد الكفاية .

وقيل : أغنى بالذهب والفضة وصنوف الأموال وما يدخرونه بعد الكفاية .

وأقنى : بالإبل والبقر والغنم .

وقيل : أقنى أي أخدم .

وقال ابن عباس : أغنى وأقنى ، أي أعطى فأرضى .

وقيل : أغنى يعني رفع حاجته ولم يتركه محتاجاً إلى شيء لأن الغنى ضد الفقر ، وأقنى : أي زاد فوق الغنى ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ أي أنه رب معبودهم وكانت خزاعة تعبد الشعرى وأول من سن لهم ذلك الرجل من أشرافهم يقال له أبو كبشة عبدها وقال : لأن النجوم تقطع السماء عرضاً والشعرى تقطعها طولاً فهي مخالفة لها فعبدها وعبدتها خزاعة فلما خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على خلاف العرب في الدين سموه ابن أبي كبشة تشبيهاً له في خلافه إياهم كما خالفهم أبو كبشة وعبد الشعرى وهو كوكب يضيء خلف الجوازء ويسمى كلب الجبار أيضاً وهما اثنتان : يمانية وشامية يقال لإحداهما العبور والأخرى الغميصاء .

سميت بذلك لأنها أخفى من العبور والمجرة بينهما .

وأراد بالشعرى هنا العبور ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴾ وهم قوم هود أهلكوا بريح صرصر وكان لهم عقب فكانوا عاداً أخرى وقيل : الأخرى إرم .

وقيل : الأولى يعني أول الخلق هلاكاً بعد قوم نوح ﴿ وثمود ﴾ وهم قوم صالح أهلكهم الله بالصيحة ﴿ فما أبقى ﴾ يعني منهم أحداً ﴿ وقوم نوح من قبل ﴾ يعني أهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود بالغرق ﴿ إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾ يعني لطول دعوة نوح إياهم وعتوهم على الله بالمعصية والتكذيب ﴿ والمؤتفكة ﴾ يعني قرى قوم لوط ﴿ أهوى ﴾ أي أسقط وذلك أن جبريل رفعها إلى السماء ثم أهوى بها ﴿ فغشاها ﴾ أي ألبسها الله ﴿ ما غشى ﴾ يعني الحجارة المنضودة المسومة ﴿ فبأي آلاء ربك تتمارى ﴾ أي تشكُّ أيها الإنسان .

وقيل : أراد الوليد بن المغيرة .

قال ابن عباس : تتمارى أي تكذب ﴿ هذا نذير ﴾ يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) ﴿ من النذر الأولى ﴾ أي رسول من الرسل المتقدمة أرسل إليكم كما أرسلت الرسل إلى قومهم وقيل : أنذر محمد كما أنذرت الرسل من قبله .

﴿ أزفت الآزفة ﴾ أي قربت القيامة واقتربت الساعة ﴿ ليس لها من دون الله كاشفة

﴿ أي مظهرة ومبينة متى تقوم .

وقيل : معناه ليس لها نفس قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله غير أنه لا يكشفها .

وقيل : الكاشفة مصدر بمعنى الكشف كالعافية .

والمعنى : لا يكشف عنها ولا يظهرها غيره .

وقيل : معناه ليس لها رد يعني : إذا غشيت الخلق أهوالها وشدائدها لم يكشفها ولم يردها عنهم أحد .

قوله تعالى : ﴿ أفمن هذا الحديث ﴾ يعني القرآن ﴿ تعجبون ﴾ تنكرون ﴿ وتضحكون ﴾ أي استهزاء ﴿ ولا تبكون ﴾ أي مما فيه من الوعيد ﴿ وأنتم سامدون ﴾ أي لاهون غافلون قاله ابن عباس .

وعنه ، أن السمود هو الغناء بلغة أهل اليمن وكانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا .

ولعبوا وأصل السمود في اللغة ، رفع الرأس ، مأخوذ ، من سمد البعير إذا رفع رأسه وجد في سيره والسامد اللاهي والمعنى .

(267/734)

وقيل : معناه أشرون بطرون .

وقال مجاهد : غضاب مبرطمون قيل له : وما البرطمة ؟ قال : الإعراض ﴿ فاسجدوا لله ﴾ يعني أيها المؤمنون شكراً على الهداية .

وقيل : هذا محمول على سجود التلاوة .

وقيل : على سجود الفرض في الصلاة ﴿ واعبدوا ﴾ أي اعبدوا الله وإنما قال : واعبدوا ، إما لكونه معلوماً ، وإما لأن العبادة في الحقيقة لا تكون إلا لله تعالى (ق) عن عبد الله بن مسعود : " أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قرأ والنجم فسجد فيها وسجد من كان معه غير أن شيخاً من قريش أخذ كفاً من حصباء أو تراب فرفعه إلى جبهته وقال : يكفيني هذا قال عبد الله فلقد رأيته بعد قتل كافر " زاد البخاري في رواية له قال : " أول سورة نزلت فيها سجدة النجم وذكره " وقال في آخره وهو " أمية بن خلف " (خ) .

عن ابن عباس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس (ق) عن زيد بن ثابت قال : " قرأت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) النجم فلم يسجد فيها " ففي هذا الحديث دليل على أن سجود التلاوة غير واجب وهو قول الشافعي وأحمد وقال عمر بن الخطاب : إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء وذهب قوم إلى وجوبها على القارىء والمستمع وهو قول سفيان وأصحاب الرأي والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 255 . 272 ﴾

وقال النسفى :

﴿ والنجم ﴾

أقسم بالثريا أو بجنس النجوم ﴿ إِذَا هوى ﴾ إذا غرب أو انتثر يوم القيامة وجواب القسم ﴿ مَا ضَلَّ ﴾ عن قصد الحق ﴿ صاحبكم ﴾ أي محمد صلى الله عليه وسلم والخطاب لقريش ﴿ وَمَا غوى ﴾ في اتباع الباطل .

وقيل : الضلال نقيض الهدى والغي نقيض الرشد أي هو مهتد راشد وليس كما تزعمون من نسبتكم إياه إلى الضلال والغي ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يوحى ﴾ وما أتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه ورأيه إنما هو وحي من عند الله يوحى إليه .

ويحتج بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام ، ويجاب بأن الله تعالى إذا سوغ لهم الاجتهاد وقررهم عليه كان كالوحي لا نطقاً عن الهوى .

﴿ علَّمَهُ ﴾ علم محمداً عليه السلام ﴿ شَدِيدُ القوى ﴾ ملك شديد قواه والإضافة غير حقيقية لأنها إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها ، وهو جبريل عليه السلام عند الجمهور ،

ومن قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء ثم قلبها وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ ذو منظر حسن عن ابن عباس ﴿ فاستوى ﴾ فاستقام على صورة نفسه الحقيقية دون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي ، وكان ينزل في صورة دحية وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب أن يراه في صورته التي جبل عليها فاستوى له في الأفق الأعلى وهو أفق الشمس فملأ الأفق .

وقيل : ما رآه أحد من الأنبياء عليهم السلام في صورته الحقيقية سوى محمد صلى الله عليه وسلم مرتين مرة في الأرض ومرة في السماء .

﴿ وَهُوَ ﴾ أي جبريل عليه السلام ﴿ بالأفق الأعلى ﴾ مطلع الشمس ﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ جبريل من رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فتدلى ﴾ فزاد في القرب ، والتدلي هو النزول بقرب الشيء ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ مقدار قوسين عربيتين .

(269/734)

وقد جاء التقدير بالقوس والرمح والسوط والذراع والباع ومنه : "لا صلاة إلى أن ترتفع الشمس مقدار رمحين" ، وفي الحديث : " لقاب قوس أحدكم من الجنة وموضع قده خير من

الدنيا وما فيها " والقد السوط وتقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين فحذفت هذه المضافات ﴿ أَوْ أدنى ﴾ أي على تقديركم كقوله : ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات : 147] وهذا لأنهم خوطبوا على لغتهم ومقدار فهمهم وهم يقولون هذا قدر رمحين أو أنقص .

وقيل : بل أدنى ﴿ فأوحى ﴾ جبريل عليه السلام ﴿ إلى عَبْدِهِ ﴾ إلى عبد الله وإن لم يجر لاسمه ذكر لأنه لا يلتبس كقوله ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا ﴾ [فاطر : 45] ﴿ مَا أوحى ﴾ تفخيم للوحي الذي أوحي إليه .

قيل : أوحي إليه إن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد ﴾ فؤاد محمد ﴿ مَا رأى ﴾ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام أي ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك ، ولو قال ذلك لكان كاذباً لأنه عرفه يعني أنه رآه بعينه وعرفه بقلبه ولم يشك في أن ما رآه حق .

وقيل : المرئي هو الله سبحانه ، رآه بعين رأسه وقيل بقلبه ﴿ أفتمارونه ﴾ أفتجادلونه من المراء وهو المجادلة واشتقاقه من مرى الناقة كأن كل واحد من المتجادلين يمري ما عند صاحبه ، ﴿ أفتمارونه ﴾ حمزة وعلي وخلف ويعقوب ، أفتغلبونه في المراء من ماريته فمريته ولما فيه من معنى الغلبة قال ﴿ على مَا يرى ﴾ فعدي ب "على" كما تقول غلبته على كذا .

وقيل : أفتمرونه أفتجحدونه يقال : مريته حقه إذا جحدته وتعديته ب "على" لا تصح إلا على مذهب التضمين .

(270/734)

﴿ وَلَقَدْ رَءاهُ ﴾ رأى محمد جبريل عليهما السلام ﴿ نَزْلَةً أخرى ﴾ مرة أخرى من النزول نصبت النزلة نصب الظرف الذي هو مرة لأن الفعلة اسم للمرة من الفعل فكانت في حكمها أي نزل عليه جبريل عليه السلام نزلة أخرى في صورة نفسه فرآه عليها وذلك ليلة المعراج ﴿ عِندَ سِدْرَةِ المنتهى ﴾ الجمهور على أنها شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش .

والمنتهى بمعنى موضع الانتهاء أو الانتهاء كأنها في منتهى الجنة وآخرها ، وقيل : لم يجاوزها أحد وإليها ينتهي علم الملائكة وغيرهم ولا يعلم أحد ما وراءها .

وقيل : تنتهي إليها أرواح الشهداء ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ المأوى ﴾ أي الجنة التي يصير إليها المتقون .

وقيل : تأوي إليها أرواح الشهداء ﴿ إِذْ يغشى السدرة مَا يغشى ﴾ أي رآه إذ يغشى السدرة ما يغشى ، وهو تعظيم وتكثير لما يغشاها ، فقد علم بهذه العبارة أن ما يغشاها

من الخلائق الدالة على عظمة الله تعالى وجلاله أشياء لا يحيط بها الوصف .

وقد قيل : يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله تعالى عندها .

وقيل : يغشاها فراش من ذهب ﴿ مَا زَاغَ البصر ﴾ بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ومكن منها ﴿ وَمَا طغى ﴾ وما جاوز ما أمر برؤيته .

﴿ لَقَدْ رأى ﴾ والله لقد رأى ﴿ مِنْ ءايات رَبِّهِ الكبرى ﴾ الآيات التي هي كبراها وعظماها يعني حين رقي به إلى السماء فأري عجائب الملكوت .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى * ومناة الثالثة ﴾ أي أخبرونا عن هذه الأشياء التي تعبدونها من دون الله عز وجل هل لها من القدرة والعظمة التي وصف بها رب العزة ؟ اللات والعزى ومناة أصنام لهم وهي مؤنثات ، فاللات كانت لثقيف بالطائف .

وقيل : كانت بنخلة تعبدها قريش وهي فعلة من لوى لأنهم كانوا يلوون عليها ويعكفون للعبادة ، والعزى كانت لغطفان وهي ثمرة وأصلها تأنيث الأعز وقطعها خالد بن الوليد ، ومناة صخرة كانت لهذيل وخزاعة .

(271/734)

وقيل : لثقيف وكأنها سميت مناة لأن دماء النسائك كانت تمنى عندها أي تراق ﴿ ومناءة ﴾ مكي مفعلة من النوء كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها ﴿ الأخرى ﴾ هي صفة ذم أي المتأخرة الوضيعة المقدار ، كقوله ﴿ وَقَالَتِ أُخْرَاهُمْ لأولاهم ﴾ [الأعراف : 38] أي وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرافهم ، ويجوز أن تكون الأولية والتقدم عندهم للات والعزى كانوا يقولون : إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله مع وأدهم البنات وكراهتهم لهن فقيل لهم ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ أي جعلكم لله البنات ولكم البنين قسمة ضيزى أي جائرة من ضازه يضيزه إذا ضامه .

و ﴿ ضيزى ﴾ فعلى إذ لا فعلى في النعوت فكسرت الضاد للياء كما قيل "بيض" وهو بوض مثل حمر وسود ، ﴿ ضئزى ﴾ بالهمز : مكي من ضأزه مثل ضازه .

﴿ إِنْ هِيَ ﴾ ما الأصنام ﴿ إِلاَّ أَسْمَاء ﴾ ليس تحتها في الحقيقة مسميات لأنكم تدعون الإلهية لما هو أبعد شيء منها وأشد منافاة لها ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ أي سميتم بها يقال سميته زيداً وسميته بزيد ﴿ أَنتُمْ وَءابَاؤُكُمْ مَّا أَنزَلَ الله بِهَا مِن سلطان ﴾ حجة ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ إلا توهم أن ما هم عليه حق ﴿ وَمَا تَهْوَى الأنفس ﴾ وما تشتهيه أنفسهم ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُم مّن رَّبِّهِمُ الهدى ﴾ الرسول والكتاب فتركوه ولم يعملوا به ﴿ أَمْ للإنسان مَا تمنى ﴾ هي "أم" المنقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار أي ليس للإنسان يعني الكافر ما تمنى

من شفاعة الأصنام أو من قوله : ﴿ وَلَئِن رُّجِّعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ [فصلت : 50] .

وقيل : هو تمني بعضهم أن يكون هو النبي ﴿ فَلِلَّهِ الآخرة والأولى ﴾ أي هو مالكهما وله الحكم فيهما يعطى النبوة والشفاعة من شاء وارتضى لا من تمني .

(272/734)

﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السماوات لاَ تُغْنِي شفاعتهم شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ الله لِمَن يَشَاء ويرضى ﴾ يعني أن أمر الشفاعة ضيق فإن الملائكة مع قربتهم وكثرتهم لو شفعوا بأجمعهم لأحد لم تغن شفاعتهم شيئاً قط ، ولا تنفع إلا إذا شفعوا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلاً لأن يشفع له فكيف تشفع الأصنام إليه لعبدتهم ﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة لَيُسَمُّونَ الملائكة ﴾ أي كل واحد منهم ﴿ تَسْمِيَةَ الأنثى ﴾ لأنهم إذا قالوا للملائكة بنات الله فقد سموا كل واحد منهم بنتاً وهي تسمية الأنثى .

﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي بما يقولون وقرىء بها أي بالملائكة أو التسمية ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ هو تقليد الآباء ﴿ وَإِنَّ الظن لاَ يُغْنِي مِنَ الحق شَيْئاً ﴾ أي إنما يعرف الحق

الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه بالعلم والتيقن لا بالظن والتوهم ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا ﴾ فأعرض عمن رأيته معرضاً عن ذكر الله أي القرآن ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحياة الدنيا * ذلك ﴾ أي اختيارهم الدنيا والرضا بها ﴿ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ العلم ﴾ منتهى علمهم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهتدى ﴾ أي هو أعلم بالضال والمهتدي ومجازيهما .

(273/734)

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السماوات وَمَا فِى الأرض لِيَجْزِىَ الذين أساءوا بِمَا عَمِلُواْ ﴾ بعقاب ما عملوا من السوء أو بسبب ما عملوا من السوء ﴿ وَيَجْزِىَ الذين أَحْسَنُواْ بالحسنى ﴾ بالمثوبة الحسنى وهي الجنة أو بسبب الأعمال الحسنى ، والمعنى أن الله عز وجل إنما خلق العالم وسوى هذه الملكوت ليجزي المحسن من المكلفين والمسيء منهم إذ الملك أهل لنصر الأولياء وقهر الأعداء ﴿ الذين ﴾ بدل أو في موضع رفع على المدح أي هم الذين ﴿ يَجْتَنِبُونَ كبائر الإثم ﴾ أي الكبائر من الإثم لأن الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر والكبائر الذنوب التي يكبر عقابها ، ﴿ كَبِيرٌ ﴾ حمزة وعلي أي النوع الكبير منه ﴿ والفواحش ﴾ ما فحش من الكبائر كأنه قال : والفواحش منها خاصة .

قيل : الكبائر ما أوعد الله عليه النار والفواحش ما شرع فيها الحد ﴿ إِلاَّ اللمم ﴾ أي الصغائر والاستثناء منقطع لأنه ليس من الكبائر والفواحش وهو كالنظرة والقبلة واللمسة والغمزة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ واسع المغفرة ﴾ فيغفر ما يشاء من الذنوب من غير توبة ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ ﴾ أي أباكم ﴿ مِّنَ الأرض وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ جمع جنين ﴿ فِى بُطُونِ أمهاتكم فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ فلا تنسبوها إلى زكاء العمل وزيادة الخير والطاعات ، أو إلى الزكاة والطهارة من المعاصي ولا تثنوا عليها واهضموها فقد علم الله الزكي منكم والتقي أولاً وآخراً قبل أن يخرجكم من صلب آدم عليه السلام ، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم .

وقيل : كان ناس يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا فنزلت .

وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء لا على سبيل الاعتراف بالنعمة فإنه جائز لأن المسرة بالطاعة طاعة وذكرها شكر ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتقى ﴾ فاكتفوا بعلمه عن علم الناس وبجزائه عن ثناء الناس .

﴿ أَفَرَأَيْتَ الذى تولى ﴾ أعرض عن الإيمان .

﴿ وأعطى قِلِيلاً وأكدى ﴾ قطع عطيته وأمسك ، وأصله إكداء الحافر وهو أن تلقاه كدية وهي صلابة كالصخرة فيمسك عن الحفر .

عن ابن عباس رضي الله عنهما : فيمن كفر بعد الإيمان .

وقيل : في الوليد بن المغيرة وكان قد اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فعيره بعض الكافرين وقال له : تركت دين الأشياخ وزعمت أنهم في النار .

قال : إني خشيت عذاب الله .

فضمن له إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله ففعل وأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له ثم بخل به ومنعه ﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الغيب فَهُوَ يرى ﴾ فهو يعلم أن ما ضمنه من عذاب الله حق ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ ﴾ يخبر ﴿ بِمَا فِى صُحُفِ موسى ﴾ أي التوراة ﴿ وإبراهيم ﴾ أي وفي صحف إبراهيم ﴿ الذى وفى ﴾ أي وفر وأتم كقوله ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة : 124] وإطلاقه ليتناول كل وفاء وتوفية .

وقرىء مخففاً والتشديد مبالغة في الوفاء .

وعن الحسن : ما أمره الله بشيء إلا وفى به ، وعن عطاء بن السائب : عهد أن لا يسأل مخلوقاً فلما قذف في النار قال له جبريل : ألك حاجة ؟ فقال أما إليك فلا .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " وفي عمله كل يوم بأربع ركعات في صدر النهار وهي صلاة الضحى "

ورُوي " ألا أخبركم لم سمى الله خليله الذي وفى ؟ كان يقول إذا أصبح وإذا أمسى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ إلى ﴿ حِينٍ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم : 18] " وقيل : وفي سهام الإسلام وهي ثلاثون : عشرة في "التوبة" ﴿ التائبون ﴾ [التوبة : 112] ، وعشرة في "الأحزاب" ﴿ إِنَّ المسلمين ﴾ [الآية : 35] وعشرة في "المؤمنين" ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] ثم أعلم بما في صحف موسى وإبراهيم فقال ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى ﴾ تزر من وزر يزر إذا اكتسب وزراً وهو الإثم ، و "إن" مخففة من الثقيلة والمعنى أنه لا تزر والضمير ضمير الشأن ومحل "أن" وما بعدها الجر بدلاً من ﴿ مَا فِى صُحُفِ موسى ﴾ أو الرفع على هو أن لا تزر كأن قائلاً قال : وما في صحف موسى وإبراهيم ؟ فقيل : ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى ﴾ أي لا تحمل نفس ذنب نفس .

﴿ وَأَن لَّيْسَ للإنسان إِلاَّ مَا سعى ﴾ إلا سعيه وهذه أيضاً مما في صحف إبراهيم وموسى ، وأما ما صح في الأخبار من الصدقة عن الميت والحج عنه فقد قيل : إن سعي غيره لما لم ينفعه إلا مبنياً على سعي نفسه وهو أن يكون مؤمناً كان سعي غيره كأنه سعي نفسه لكونه تابعاً له وقائماً بقيامه ، ولأن سعي غيره لا ينفعه إذا عمله لنفسه ولكن إذا نواه به فهو بحكم

الشرع كالنائب عنه والوكيل القائم مقامه ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرى ﴾ أي يرى هو سعيه يوم القيامة في ميزانه ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ ﴾ ثم يجزى العبد سعيه .

يقال : جزاه الله عمله وجزاه على عمله بحذف الجار وإيصال الفعل ، ويجوز أن يكون الضمير للجزاء .

ثم فسره بقوله ﴿ الجزاء الأوفى ﴾ أو أبدله عنه ﴿ وَأَنَّ إلى ربّكَ المنتهى ﴾ هذا كله في الصحف الأولى .

والمنتهى مصدر بمعنى الانتهاء أي ينتهي إليه الخلق ويرجعون إليه كقوله : ﴿ وإلى الله المصير ﴾ [آل عمران : 28] ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى ﴾ خلق الضحك والبكاء .

(276/734)

وقيل : خلق الفرح والحزن .

وقيل : أضحك المؤمنين في العقبى بالمواهب وأبكاهم في الدنيا بالنوائب و ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ قيل : أمات الآباء وأحيا الأبناء ، أو أمات بالكفر وأحيا بالإيمان ، أو أمات هنا وأحيا ثمة ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تمنى ﴾ إذا تدفق في الرحم يقال منى وأمنى ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النشأة الأخرى ﴾ الإحياء بعد الموت ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ

أغنى وأقنى ﴾ وأعطى القنية وهي المال الذي تأثلته وعزمت أن لا تخرجه من يدك .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشعرى ﴾ هو كوكب يطلع بعد الجوزاء في شدة الحر وكانت خزاعة تعبدها ، فأعلم الله أنه رب معبودهم هذا ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأولى ﴾ هم قوم هود وعاد الأخرى إرم ﴿ عَادٍ الولى ﴾ مدني وبصري غير سهل بإدغام التنوين في اللام وطرح همزة ﴿ أُوْلِى ﴾ ونقل ضمتها إلى لام التعريف ﴿ وَثَمُودَاْ فَمَا أبقى ﴾ حمزة وعاصم الباقون ﴿ وَثَمُودَاْ ﴾ وهو معطوف على ﴿ عَاداً ﴾ ولا ينصب ب ﴿ فَمَا أبقى ﴾ لأن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبله لا تقول : زيداً فضربت ، وكذا ما بعد النفي لا يعمل فيما قبله ، والمعنى وأهلك ثمود فما أبقاهم .

(277/734)

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ أي أهلك قوم نوح ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل عاد وثمود ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وأطغى ﴾ من عاد وثمود لأنهم كانوا يضربونه حتى لا يكون به حرام وينفرون عنه حتى كانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه ﴿ والمؤتفكة ﴾ والقرى التي ائتفكت بأهلها أي انقلبت وهم قوم لوط يقال : أفكه فأتفك ﴿ أهوى ﴾ أي رفعها إلى السماء على جناح جبريل ثم أهواها إلى الأرض أي أسقطها و ﴿ المؤتفكة ﴾ منصوب ب ﴿ أهوى ﴾ ﴿

فغشاها ﴿ ألبسها ﴿ مَا غشى ﴾ تهويل وتعظيم لما صب عليها من العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكَ ﴾ أيها المخاطب ﴿ تتمارى ﴾ تتشكك بما أولاك من النعم أو بما كفاك من النقم ، أو بأي نعم ربك الدالة على وحدانيته وربوبيته تشكك ﴿ هذا نَذِيرٌ ﴾ أي محمد منذر ﴿ مِّنَ النذر الأولى ﴾ من المنذرين الأولين . وقال ﴿ الأولى ﴾ على تأويل الجماعة أو هذا القرآن نذير من النذر الأولى أي إنذار من جنس الإنذارات الأولى التي أنذر بها من قبلكم ﴿ أَزِفَتِ الآزفة ﴾ قربت الموصوفة بالقرب في قوله : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ [القمر : 1] ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ الله كَاشِفَةٌ ﴾ أي ليس لها نفس كاشفة أي مبينة متى تقوم كقوله : ﴿ لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأعراف : 187] .

أو ليس لها نفس كاشفة أي قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله تعالى غير أنه لا يكشفها ﴿ أَفَمِنْ هذا الحديث ﴾ أي القرآن ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ إنكاراً ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء ﴿ وَلاَ تَبْكُونَ ﴾ خشوعاً ﴿ وَأَنتُمْ سامدون ﴾ غافلون أو لاهون لاعبون ، وكانوا إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء ليشغلوا الناس عن استماعه ﴿ فاسجدوا لِلَّهِ واعبدوا ﴾ أي فاسجدوا لله واعبدوه ولا تعبدوا الآلهة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفي حـ 4 صـ 194 . 200 ﴾

وقال ابن جزى :

سورة النجم

﴿ والنجمِ إذَا هوى ﴾

فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنها الثريا لأنها غلب عليها التسمية بالنجم ، ومعنى هوى غرب وانتثر يوم القيامة ، الثاني أنه جنس النجوم ، ومعنى هوى كما ذكرنا ، أو انقضت تَرْجُم الشياطين . الثالث أنه من نجوم القرآن ، وهو الجملة التي تنزل ، وهوى على هذا معناه نزل ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غوى ﴾ هذا جواب القسم ، والخطاب لقريش ، وصاحبكم هو النبي صلى الله عليه وسلم ، فنفى عنه الضلال والغيّ ، والفرق بينهما : أن الضلال بغير قصد ، والغيّ بقصد وتكسب ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ أي ليس يتكلم بهواه وشهوته ، إنما يتكلم بما يوحي الله إليه ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى ﴾ يعني القرآن .

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى ﴾ ضمير المفعول للقرآن أو للنبي صلى الله عليه وسلم ، والشديد القوي : جبريل ، وقيل : الله تعالى ، والأول أرجح لقوله : ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش ﴾ [التكوير : 20] والقُوى جمع : قوة ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أي ذو قوّة ، وقيل : ذو هيئة حسنة ، والأول هو الصحيح في اللغة ﴿ فاستوى ﴾ أي استوى جبريل في الجو ؛ إذ رآه النبي صلى الله عليه وسلم وهو بحراء ، وقيل : معنى استوى : ظهر في صورته على ستمائة جناح ،

قد سدّ الأفق بخلاف ما كان يتمثل به من الصور إذا نزل بالوحي ، وكان غالباً ما ينزل في صورة الصحابي دحية الكلبي ﴿ وَهُوَ بالأفق الأعلى ﴾ الضمير لجبريل وقيل : لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والأول أصح ﴿ ثُمَّ دَنَا فتدلى ﴾ الضميران لجبريل أي دنا من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فتدلّى في الهواء ، وهو عند بعضهم من المقلوب تقديره : فتدلى فدنا .

(279/734)

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنى ﴾ القابُ : مقدار المسافة ، أي كان جبريل من سيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام في القرب بمقدار قوسين عربيتين ، ومعناه من طرف العود إلى الطرف الآخر ، وقيل : من الوتر إلى العود ، وقيل : ليس القوس التي يرمى بها ، وإنما هي ذراع تقاس بها المقادير ذكر الثعلبي . وقال : إنه من لغة أهل الحجاز ، وتقدير الكلام : فكان مقدار مسافة جبريل من سيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام مثل قاب قوسين . ثم حذفت هذه المضافات ، ومعنى ﴿ أَوْ أدنى ﴾ أو أقرب و ﴿ أَوْ ﴾ هنا مثل قوله : ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات : 147] وأشبه التأويلات فيها أنه إذا نظر إليه البشر احتمل عنده أن يكون قاب قوسين أو يكون أدنى ، وهذا الذي ذكرنا أن هذه الضمائر المتقدمة

لجبريل هو الصحيح ، وقد ورد ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح ، وقيل : إنها لله تعالى ، وهذا القول يردّ عليه الحديث والعقل ، إذ يجب تنزيه الله تعالى عن تلك الأوصاف من الدنو والتدلي وغير ذلك .

﴿ فأوحى إلى عَبْدِهِ مَا أوحى ﴾ في هذه الضمائر ثلاثة أقوال : الأول أن المعنى أوحى الله إلى عبده محمد صلى الله عليه وسلم . الثاني أوحى الله إلى عبده جبريل ما أوحى ، وعاد الضمير على الله في القولين ، لأن سياق الكلام يقتضي ذلك وإن لم يتقدم ذكره ، فهو كقوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] . الثالث أوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى ، وفي قوله : ﴿ مَا أوحى ﴾ إبهام مراد يقتضي التفخيم والتعظيم .

(280/734)

﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾ أي ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه بعينه ، بل صدق بقلبه أن الذي رآه بعينه حق ، والذي رأى هو جبريل ، يعني حين رآه بمقدار ملأ الأفق ، وقيل : رأى ملكوت السموات والأرض ، والأول أرجح لقوله : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أخرى ﴾ وقيل : الذي رآه هو الله تعالى ، وقد أنكرت ذلك عائشة ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟ فقال : نور أنَّى أراه ؟ ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ على مَا يرى

﴿ هذا خطاب لقريش ، والمعنى أتجادلونه على ما يرى ، وكانت قريش قد كذبت لما قال إنه رأى ما رأى ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخرى ﴾ أي لقد رأى محمد جبريل عليهما الصلاة والسلام مرة أخرى وهو ليلة الإسراء ، وقيل : ضمير المفعول لله تعالى ، وأنكرت ذلك عائشة ، وقالت : " من زعم أن محمداً رأى ربه ليلة الإسراء فقد أعظم الفرية على الله تعالى " ﴿ عِندَ سِدْرَةِ المنتهى ﴾ هي شجرة في السماء السابعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثمرتها كالقلال وورقها كآذان الفيلة " ، وسميت سدرة المنتهى ؛ لأن إليها ينتهي علم كل عالم ، ولا يعلم ما وراءها إلا الله تعالى . وقيل : سميت بذلك لأن ما نزل من أمر الله يلتقي عندها ، فلا يتجاوزها ملائكة العلو إلى أسفل ، ولا يتجاوزها ملائكة السفل إلى أعلى ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ المأوى ﴾ يعني أن الجنة التي وعدها الله عباده هي سدة المنتهى ، وقيل : هي جنة أخرى تأوي إليها أرواح الشهداء ، والأول أظهر وأشهر .

(281/734)

﴿ إِذْ يغشى السدرة مَا يغشى ﴾ فيه إبهام لقصد التعظيم ، قال ابن مسعود : غشيها فراش من ذهب ، وقيل : كثرة الملائكة ، وفي الحديث " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فغشيها ألوان لا أدري ما هي " وهذا أولى أن تفسر به الآية : ﴿ مَا زَاغَ البصر وَمَا

طغى ﴾ أي ما زاغ بصر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عما رآه من العجائب ، بل أثبتها وتيقنها ، ﴿ وَمَا طغى ﴾ : أي ما تجاوز ما رأى إلى غيره .

﴿ لَقَدْ رأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكبرى ﴾ يعني ما رأى ليلة الإسراء من السموات والجنة والنار والملائكة والأنبياء وغير ذلك . ويحتمل أن تكون الكبرى مفعولاً أو نعتاً لآيات ربه ، والمعنى يختلف على ذلك .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللات والعزى * وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى ﴾ هذه أوثان كانت تعبد من دون الله ، فخاطب الله من كان يعبدها من العرب على وجه التوبيخ لهم ، وقال ابن عطية : الرؤيا هنا رؤية العين ؛ لأن الأوثان المذكورة أجرام مرئية ، فأما اللات فصنم كان بالطائف ، وقيل : كان بالكعبة ، وأما العزّى فكانت صخرة بالطائف ، وقيل : شجرة فبعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها تدعو بالويل ؛ فضربها بالسيف حتى قتلها ، وقيل : كانت بيتاً تعظمه العرب وأصل لفظ العزى مؤنثة الأعز ، وأما مناة فصخرة كانت لهذيل وخزاعة بين مكة والمدينة . وكانت أعظم هذه الأوثان قال ابن عطية : ولذلك قال تعالى : الثالثة الأخرى فأكدها بهاتين الصفتين ، وقال الزمخشري : الأخرى ذم وتحقير أي المتأخرة الوضيعة القدر .

ومنه : ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ ﴾ [الأعراف : 38] .

﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى ﴾ كانوا يقولون : إن الملائكة وهذه الأوثان بنات الله ، فأنكر الله عليهم ذلك أي كيف تجعلون لأنفسكم الأولاد الذكور ، وتجعلون لله البنات التي هي عندكم حقيرة بغيضة ، وقد ذكر هذا المعنى في النحل وغيرها ، ويحتمل أن يكون أنكر عليهم جعل هذه الأوثان شركاء الله تعالى ؛ مع أنهن إناث والإناث حقيرة بغيضة عندهم .

﴿ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ أي هذه القسمة التي قسمتم جائرة غير عادلة ، يعني جعلهم الذكور لأنفسهم والإناث لله تعالى ووزن ضيزى فُعلى بضم الفاء ، ولكنها كسرت لأجل الياء التي بعدها .

﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ الضمير للأوثان ، وقد ذكر هذا المعنى في [الأعراف : 71] في قوله : ﴿ أتجادلونني في أَسْمَآءٍ ﴾ ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ يعني أنهم يقولون أقوالاً بغير حجة كقولهم : إن الملائكة بنات الله ، وقولهم : إن الأصنام تشفع لهم غير ذلك .

﴿ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تمنى ﴾ أم هنا للإنكار ، والإنسان هنا جنس بني آدم : أي ليس لأحد ما يتمنى بل الأمر بيد الله ، وقيل : إن الإشارة إلى ما طمع فيه الكفار من شفاعة الأصنام ، وقيل : إلى قول العاصي بن وائل : لأوتين مالاً وولداً ، وقيل : هو تمني بعضهم أن يكون نبياً ، والأحسن حمل اللفظ على إطلاقه .

﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السماوات ﴾ الآية : رد على الكفار في قولهم : إن الأوثان تشفع لهم

، كأنه يقول : الملائكة الكرام لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا بإذن الله فكيف أوثانكم ؟ ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَآءُ ويرضى ﴾ معناه أن الملائكة لا يشفعون لشخص إلا بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة فيه ويرضى عنه .

﴿ لَيُسَمُّونَ الملائكة تَسْمِيَةَ الأنثى ﴾ يعني قولهم : إن الملائكة بنات الله ، ثم ردّ عليهم بقوله : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ .

(283/734)

﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ العلم ﴾ أي إلى ذلك انتهى علمهم ، لأنهم عملوا ما ينفع في الدنيا ولم يعلموا ما ينفع في الآخرة ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ اللام متعلقة بمعنى ما قبلها والتقدير : أن الله مالك أمر السموات والأرض ليجزي الذي أساءوا بما عملوا وقيل : يتعلق بضل واهتدى ﴿ كَبَائِرَ الإثم ﴾ ذكرنا الكبائر في [النساء : 31] ﴿ إِلاَّ اللمم ﴾ فيه إربعة أقوال : الأول : أنه صغائر الذنوب فالاستثناء على هذا منقطع . الثاني : أنه الإلمام بالذنوب على وجه الفلتة والسقطة دون دوام عليها . الثالث : أنه ما ألموا به في الجاهلية من الشرك والمعاصي : الرابع : أنه الهمّ بالذنوب وحديث النفس به دون أن يفعل ﴿ أَجِنَّةٌ ﴾ جمع جنين ﴿ فَلاَ تزكوا أَنفُسَكُمْ ﴾ أي لا تنسبوا أنفسكم إلى الصلاح والخير ، قال ابن عطية : ويحتمل أن

يكون نهى عن أن يزكي بعض الناس بعضاً ، وهذا بعيد لأنه تجوز التزكية في الشهادة وغيرها .

﴿ أَفَرَأَيْتَ الذي تولى ﴾ الآية : نزلت في الوليد بن المغيرة ، وقيل : نزلت في العاصي بن وائل

﴿ وأكدى ﴾ أي قطع العطاء وأمسك .

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى ﴾ قيل : وفي طاعة الله في ذبح ولده ، وقيل : وفي تبليغ الرسالة ، وقيل : وفي شرائع الإسلام ، وقيل : وفي الكلمات التي ابتلاه الله بهن ، وقيل : وفي هذه العشر الآيات .

﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ ذكر فيما تقدم ، وهذه الجملة لما في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام .

(284/734)

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ﴾ السعي هنا بمعنى العمل ، وظاهرها أنه لا ينتفع أحد بعمل غيره ، وهي حجة لمالك في قوله : لا يصوم أحد عن وليه إذا مات وعليه صيام ، واتفق العلماء على أن الأعمال المالية كالصدقة والعتق يجوز أن يفعلها الإنسان عن غيره ، ويصل نفعها إلى من فعلت عنه ، واختلفوا في الأعمال كالصلاة والصيام وقيل : إن هذه الآية

منسوخة بقوله : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور : 21] والصحيح أنها مُحكمة لأنها خبر : والأخبار لا تنسخ . وفي تأويلها ثلاثة أقوال : الأول : أنها إخبار عما كان في شريعة غيرنا فلا يلزم في شريعتنا الثاني : أن للإنسان ما عمل بحق وله ما عمل له غيره بهبة العامل له ، فجاءت الآية في أثبات الحقيقة دون ما زاد عليها الثالث : أنها في الذنوب ، وقد اتفق أنه لا يحتمل أحد ذنب أحد ، ويدل على هذا قوله بعدها : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ وكأنه يقول : لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ولا يؤاخذ إلا بذنب نفسه : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ قيل : معناه يراه الخلق يوم القيامة ، والأظهر أنه صاحب لقوله : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7] .

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾ فيه قولان أحدهما أن معناه إلى الله المصير في الآخرة ، والآخر أن معناه أن العلوم تنتهي إلى الله ، ثم يقف العلماء عند ذلك ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا فكرة في الرب .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ قيل : معناه أضحك أهل الجنة ، وأبكى أهل النار ، وهذا تخصيص لا دليل عليه ، وقيل : أبكى السماء بالمطر وأضحك الأرض بالنبات ، وهذا مجاز وقيل : خلق في بني آدم الضحك والبكاء والصحيح أنه عبارة عن الفرح والحزن لأن الضحك دليل على السرور والفرح ، كما أن البكاء دليل على الحزن . فالمعنى أن الله تعالى أحزن من شاء من عباده ، وأسر من أشاء .

﴿ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ يعني الحياة المعروفة والموت المعروف وقيل : أحيا بالإيمان وأمات بالكفر والأول أرجح ، لأنه حقيقة .

﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ يعني المني ﴿ إِذَا تمنى ﴾ من قولك : أمنى الرجل إذا خرج من المنيّ ﴿ النشأة الأخرى ﴾ يعني الإعادة للحشر ﴿ وأقنى ﴾ يعني أكسب عباده المال ، وهو من قنية المال وهو كسبه وأدخاره وقيل : معنى ﴿ أقنى ﴾ : أفقر وهذا لا تقتضيه اللغة ، وقيل : معناه أرضى وقيل : قنع عبده ﴿ الشعرى ﴾ نجم في السماء ، وتسمى كلب الجبار وهما شعريان وهما : الغميصاء والعبور . وخصها بالذكر دون سائر النجوم لأن بعض العرب كان يعبدها .

﴿ عَاداً الأولى ﴾ وصفها بالأولى لأنها كانت في قديم الزمان ، فهي الأولى بالإضافة إلى الأمم المتأخرة ، وقيل : إنما سميت أولى لأن ثم عاداً أخرى متأخرة وهذا لا يصح ، وقرأ نافع عادَ لولى بإدغام تنوين عاد في لام الأولى بحذف الهمزة ، ونقل حركتها إلى اللم وضعّف المزني والمبرد هذه القراءة وهَمَزَ قالون الأولى دون وَرْشَ وقرأ الباقون على الأصل بكسر تنوين عادا وإسكان لام الأولى ﴿ وَثَمُودَ فَمَآ أبقى ﴾ أي ما أبقى منهم أحداً ، وقيل : ما

أبقى عليهم : ﴿ والمؤتفكة أهوى * فَغَشَّاهَا مَا غشى ﴾ هي مدينة قوم لوط ، ومعنى أهوى طرحها من علو إلى أسفل ، وفي قوله : ما غشى تعظيم للأمر .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكَ تتمارى ﴾ هذا مخاطبة للإنسان على الاطلاق معناه : بأي نعم ربك تشك .

﴿ هذا نَذِيرٌ مِّنَ النذر الأولى ﴾ يعني القرآن أو النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعنى من النذر الأولى من نوعها وصفتها .

﴿ أَزِفَتِ الآزفة ﴾ أي قربت القيامة .

(286/734)

﴿ كَاشِفَةٌ ﴾ يحتمل لفظه ثلاثة أوجه : أن يكون مصدراً كالعافية ، أي ليس لها كشف وأن يكون بمعنى كاشف والتاء للمبالغة كعلامة ، وأن يكون صفة لمحذوف تقديره : نفس كاشفة أو جماعة كاشفة ويحتمل معناه وجهين : أحدهما أن يكون من الكشف بمعنى : الإزالة أي ليس لها من يزيلها إذا وقعت والآخر أن يكون بمعنى الاطلاع ؛ أي ليس لها من يعلم وقتها إلا الله .

﴿ أَفَمِنْ هذا الحديث تَعْجَبُونَ ﴾ الإشارة إلى القرآن وتعجبهم منه إنكاره .

﴿ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ أي لاعبون لاهون ، وقيل : غافلون مفرطون .

﴿ فاسجدوا لِلَّهِ واعبدوا ﴾ هذا موضع سجدة عند الشافعي وغيره ، وقد قال ابن مسعود قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسجد وسجد كل من كان معه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 75.79 ﴾

(287/734)

وقال البيضاوى :

سورة النجم

مكية وآيها إحدى أو اثنتان وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ والنجم إِذَا هوى ﴾

أقسم بجنس النجوم أو الثريا فإنه غلب فيها إذا غرب أو انتثر يوم القيامة أو انقض أو طلع فإنه يقال : هوى هوياً بالفتح إذا سقط وغرب ، وهويا بالضم إذا علا وصعد ، أو بالنجم من نجوم القرآن إذا نزل أو النبات إذا سقط على الأرض ، أو إذا نما وارتفع على قوله : ﴿ مَا ضَلَّ صاحبكم ﴾ ما عدل محمد صلى الله عليه وسلم عن الطريق المستقيم ،

والخطاب لقريش . ﴿ وَمَا غوى ﴾ وما اعتقد باطلاً والخطاب لقريش ، والمراد نفي ما ينسبون إليه .

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ وما يصدر نطقه بالقرآن عن الهوى .

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ ما القرآن أو الذي ينطق به . ﴿ إِلاَّ وَحْىٌ يوحى ﴾ أي إلا وحي يوحيه الله إليه ، واحتج به من لم ير الاجتهاد له . وأجيب عنه بأنه إذا أوحي إليه بأن يجتهد كان اجتهاده وما يستند إليه وحياً ، وفيه نظر لأن ذلك حينئذ يكون بالوحي لا الوحي .

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى ﴾ ملك شديد قواه وهو جبريل عليه السلام فإنه الواسطة في إبداء الخوارق ، روي أنه قلع قرى قوم لوط ورفعها إلى السماء ثم قلبها وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين .

﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ حصافة في عقله ورأيه . ﴿ فاستوى ﴾ فاستقام على صورته الحقيقية التي خلقه الله تعالى عليها . قيل ما رآه أحد من الأنبياء في صورته غير محمد عليه الصلاة والسلام مرتين ، مرة في السماء ومرة في الأرض ، وقيل استوى بقوته على ما جعل له من الأمر .

﴿ وَهُوَ بالأفق الاعلى ﴾ في أفق السماء والضمير لجبريل عليه السلام .

﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ من النبي عليه الصلاة والسلام. ﴿ فتدلى ﴾ فتعلق به وهو تمثيل لعروجه بالرسول صلى الله عليه وسلم. وقيل ثم تدلى من الأفق الأعلى فدنا فيكون من الرسول إشعاراً بأنه عرج به غير منفصل عن محله تقريراً لشدة قوته، فإن التدلي استرسال مع تعلق كتدلي الثمرة، ويقال دلى رجليه من السرير وأدلى دلوه، والدوالي الثمر المعلق.

﴿ فَكَانَ ﴾ جبريل عليه السلام كقولك: هو مني معقد إزار، أو المسافة بينهما. ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ مقدارهما. ﴿ أَوْ أدنى ﴾ على تقديركم كقوله أو يزيدون، والمقصود تمثيل ملكة الاتصال وتحقيق استماعه لما أوحي إليه بنفي البعد الملبس.

﴿ فأوحى ﴾ جبريل عليه السلام. ﴿ إلى عَبْدِهِ ﴾ عبد الله واضماره قبل الذكر لكونه معلوماً كقوله: ﴿ على ظَهْرِهَا ﴾ ﴿ مَا أوحى ﴾ جبريل عليه السلام وفيه تفخيم للموحى به أو الله إليه، وقيل الضمائر كلها لله تعالى وهو المعني بشديد القوى كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الله هُوَ الرزاق ذُو القوة المتين ﴾ ودنوه منه برفع مكانته وتدليه جذبه بشراشره إلى جناب القدس.

﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾ ما رأى ببصره من صورة جبريل عليه السلام أو الله تعالى، أي ما كذب بصره بما حكاه له فإن الأمور القدسية تدرك أولاً بالقلب ثم تنتقل منه إلى البصر، أو ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك ولو قال ذلك كان كاذباً لأنه عرفه بقلبه كما رآه

ببصره ، أو ما رآه بقلبه والمعنى أنه لم يكن تخيلاً كاذباً . ويدل عليه " أنه عليه الصلاة والسلام سئل هل رأيت ربك ؟ فقال رأيته بفؤادي " . وقرأ هشام ما كذب أي صدقه ولم يشك فيه .

(289/734)

﴿ أفتمارونه على مَا يرى ﴾ أفتجادلونه عليه ، من المراء وهو المجادلة واشتقاقه من مرى الناقة كأن كلا من المتجادلين يمري ما عند صاحبه . وقرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب "أفتمرونه" أي أفتغلبونه في المراء من ماريته فمريته ، أو أفتجحدونه من مراه حقه إذا جحده وعلى لتضمين الفعل معنى الغلبة فإن الماري والجاحد يقصدان بفعلهما غلبة الخصم .

﴿ وَلَقَدْ رَءاهُ نَزْلَةً أُخرى ﴾ مرة أخرى فعلة من النزول أقيمت مقام المرة ونصبت نصبها إشعاراً بأن الرؤية في هذه المرة كانت أيضاً بنزول ودنو والكلام في المرئي والدنو ما سبق . وقيل تقديره ولقد رآه نازلاً نزلة أخرى ، ونصبها على المصدر والمراد به نفي الريبة عن المرة الأخيرة .

﴿ عِندَ سِدْرَةِ المنتهى ﴾ التي ينتهي إليها أعمال الخلائق وعلمهم ، أو ما ينزل من فوقها

ويصعد من تحتها ، ولعلها شبهت بالسدرة وهي شجرة النبق لأنهم يجتمعون في ظلها .

وروي مرفوعاً أنها في السماء السابعة .

﴿ عِندَهَا جَنَّةُ المأوى ﴾ الجنة التي يأوي إليها المتقون أو أرواح الشهداء .

﴿ إِذْ يغشى السدرة مَا يغشى ﴾ تعظيم وتكثير لما يغشاها بحيث لا يكتنهها نعت ولا يحصيها عد ، وقيل يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله عندها .

﴿ مَا زَاغَ البصر ﴾ ما مال بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم عما رآه . ﴿ وَمَا طغى ﴾ وما تجاوزه بل أثبته إثباتاً صحيحاً مستيقناً ، أو ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها وما جاوزها .

﴿ لَقَدْ رأى مِنْ ءايات رَبِّهِ الكبرى ﴾ أي والله لقد رأى من آياته وعجائبه الملكية والملكوتية ليلة المعراج وقد قيل إنها المعنية بما ﴿ رأى ﴾ . ويجوز أن تكون ﴿ الكبرى ﴾ صفة لل ﴿ ءايات ﴾ على أن المفعول محذوف أي شيئاً من آيات ربه أو ﴿ مِنْ ﴾ مزيدة .

(290/734)

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ هي أصنام كانت لهم ، فاللات كانت لثقيف بالطائف أو لقريش بنخلة وهي فعلة من لوى لأنهم كانوا يلوون عليها أي يطوفون . وقرأ هبة الله عن البزي ورويس عن يعقوب "اللات" بالتشديد على أنه سمي به لأنه صورة رجل كان يلت السويق بالسمن ويطعم الحاج . ﴿ والعزى ﴾ بالتشديد سمرة لغطفان كانوا يعبدونها فبعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها ، وأصلها تأنيث الأعز ﴿ ومناة ﴾ صخرة كانت لهذيل وخزاعة أو لثقيف وهي فعلة من مناه إذا قطعه فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين ومنه منى . وقرأ ابن كثير ﴿ مناة ﴾ وهي مفعلة من النوء فإنهم كانوا يستمطرون الأنواء عندها تبركاً بها ، وقوله ﴿ الثالثة الأخرى ﴾ صفتان للتأكيد كقوله تعالى : ﴿ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ أو ﴿ الأخرى ﴾ من التأخر في الرتبة .

﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى ﴾ إنكار لقولهم الملائكة بنات الله ، وهذه الأصنام استوطنها جنيات هن بناته ، أو هياكل الملائكة وهو المفعول الثاني لقوله ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ﴾ .

﴿ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ جائرة حيث جعلتم له ما تستنكفون منه وهي فعلى من الضيز وهو الجور ، لكنه كسر فاؤه لتسلم الياء كما فعل في بيض فإن فعلى بالكسر لم تأت وصفاً . وقرأ ابن كثير بالهمز من ضأزه إذا ظلمه على أنه مصدر نعت به .

﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء ﴾ الضمير للأصنام أي ما هي باعتبار الألوهية إلا أسماء تطلقونها

عليها لأنهم يقولون أنها آلهة وليس فيها شيء من معنى الألوهية ، أو للصفة التي تصفونها بها من كونها آلهة وبنات وشفعاء ، أو للأسماء المذكورة فإنهم كانوا يطلقون اللات عليها باعتبار استحقاقها للعكوف على عبادتها ، والعزى لعزتها ومناة لاعتقادهم أنها تستحق أن يتقرب إليها بالقرابين . ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ سميتم بها .

(291/734)

﴿ أَنتُمْ وَءابَاؤُكُمُ ﴾ بهواكم . ﴿ مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سلطان ﴾ برهان تتعلقون به . ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ وقرىء بالتاء . ﴿ إِلاَّ الظن ﴾ إلا توهم أن ما هم عليه حق تقليداً وتوهماً باطلاً . ﴿ وَمَا تَهْوَى الأنفس ﴾ وما تشتهيه أنفسهم . ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُم مّن رَّبِّهِمُ الهدى ﴾ الرسول أو الكتاب فتركوه .

﴿ أَمْ للإنسان مَا تمنى ﴾ ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار ، والمعنى ليس له كل ما يتمناه والمراد نفي طمعهم في شفاعة الآلهة وقولهم : ﴿ لَئِنْ رُّجِّعْتُ إلى رَبّى إِنَّ لى عِندَهُ للحسنى ﴾ وقوله : ﴿ لَوْلاَ نُزّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ ونحوهما .

﴿ فَلِلَّهِ الآخرة والأولى ﴾ يعطي منهما ما يشاء لمن يريد وليس لأحد أن يتحكم عليه في

شيء منهما .

﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِى السموات لاَ تُغْنِى شفاعتهم شَيْئاً ﴾ وكثير من الملائكة لا تغني شفاعتهم شيئاً ولا تنفع .

﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ الله ﴾ في الشفاعة . ﴿ لِمَن يَشَاء ﴾ من الملائكة أن يشفع أو من الناس أن يشفع له . ﴿ ويرضى ﴾ ويراه أهلاً لذلك فكيف تشفع الأصنام لعبدتهم .

﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة لَيُسَمُّونَ الملائكة ﴾ أي كل واحد منهم . ﴿ تَسْمِيَةَ الأنثى ﴾ بأن يسموه بنتاً .

﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي بما يقولون ، وقرىء بها أي بالملائكة أو بالتسمية . ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنَّ الظن لاَ يُغْنِى مِنَ الحق شَيْئاً ﴾ فإن الحق الذي هو حقيقة الشيء لا يدرك إلا بالعلم ، والظن لا اعتبار له في المعارف الحقيقية ، وإنما العبرة به في العمليات وما يكون وصلة إليها .

(292/734)

﴿ فَأَعْرَضَ عَمَّنْ تولى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحياة الدنيا ﴾ فأعرض عن دعوته والاهتمام بشأنه فإن من غفل عن الله وأعرض عن ذكره . وانهمك في الدنيا بحيث كانت منتهى همته

ومبلغ علمه لا تزيده الدعوة إلا عناداً وإصراراً على الباطل .

﴿ ذلك ﴾ أي أمر الدنيا أو كونها شهية . ﴿ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ العلم ﴾ لا يتجاوزه علمهم والجملة اعتراض مقرر لقصور هممهم بالدنيا وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهتدى ﴾ تعليل للأمر بالإعراض أي إنما يعلم الله من يجيب ممن لا يجيب فلا تتعب نفسك في دعوتهم إذ ما عليك إلا البلاغ وقد بلغت .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ خلقاً وملكاً . ﴿ لِيَجْزِىَ الذين أساؤوا بِمَا عَمِلُواْ ﴾ بعقاب ما عملوا من السوء أو بمثله أو بسبب ما عملوا من السوء ، وهو بمثله دل عليه ما قبله أي خلق العالم وسواه للجزاء ، أو ميز الضال عن المهتدي وحفظ أحوالهم لذلك ﴿ وَيِجْزِى الذين أَحْسَنُواْ بالحسنى ﴾ بالمثوبة الحسنى وهي الجنة ، أو بأحسن من أعمالهم أو بسبب الأعمال الحسنى .

﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ كبائر الإثم ﴾ ما يكبر عقابه من الذنوب وهو ما رتب عليه الوعيد بخصوصه . وقيل ما أوجب الحد . وقرأ حمزة والكسائي وخلف كبير الإثم على إرادة الجنس أو الشرك . ﴿ والفواحش ﴾ ما فحش من الكبائر خصوصاً . ﴿ إِلاَّ اللمم ﴾ إلا ما قل وصغر فإنه مغفور من مجتنبي الكبائر ، والاستثناء منقطع ومحل ﴿ الذين ﴾ النصب على الصفة أو المدح أو الرفع على أنه خبر محذوف . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ واسع المغفرة ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر ، أو له أن يغفر ما شاء من الذنوب صغيرها وكبيرها

، ولعله عقب به وعيد المسيئين ووعد المحسنين لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته ولا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى . ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أعلم بأحوالكم منكم .

(293/734)

﴿ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أمهاتكم ﴾ علم أحوالكم ومصارف أموركم حين ابتدأ خلقكم من التراب بخلق آدم وحينما صوركم في الأرحام . ﴿ فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ فلا تثنوا عليها بزكاء العمل وزيادة الخير ، أو بالطهارة عن المعاصي والرذائل . ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتقى ﴾ فإنه يعلم التقي وغيره منكم قبل أن يخرجكم من صلب آدم عليه السلام .

﴿ أَفَرَأَيْتَ الذى تولى ﴾ عن اتباع الحق والثبات عليه .

﴿ وأعطى قَلِيلاً وأكدى ﴾ وقطع العطاء من قولهم أكدى الحافر إذا بلغ الكدية وهي الصخرة الصلبة فترك الحفر . والأكثر على أنها نزلت في الوليد بن المغيرة وكان يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فعيره بعض المشركين وقال : تركت دين الأشياخ وضللتهم قال أخشى عذاب الله تعالى فضمن أن يتحمل عنه العقاب إن أعطاه بعض ماله فارتد وأعطى بعض المشروط ثم بخل بالباقي .

﴿ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الغيب فَهُوَ يرى ﴾ يعلم أن صاحبه يتحمل عنه .

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ موسى وإبراهيم الذى وفى ﴾ وفى وأتم ما التزمه وأمر به ، أو بالغ في الوفاء بما عاهد الله ، وتخصيصه بذلك لاحتماله ما لم يحتمله غيره كالصبر على نار نمروذ حتى أتاه جبريل عليه السلام حين ألقي في النار فقال ألك حاجة ، فقال أما إليك فلا ، وذبح الولد وأنه كان يمشي كل يوم فرسخاً يرتاد ضيفاً فإن وافقه أكرمه وإلا نوى الصوم ، وتقديم موسى عليه الصلاة والسلام لأن صحفه وهي التوراة كانت أشهر وأكبر عندهم .

(294/734)

﴿ أَلاَّ تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى ﴾ أن هي المخففة من الثقيلة وهي بما بعدها في محل الجر بدلاً مما ﴿ فِى صُحُفِ موسى ﴾ ، أو الرفع على هو أن ﴿ لا تَزِرُ ﴾ كأنه قيل ما في صحفهما ؟ فأجاب به ، والمعنى أنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ولا يخالف ذلك قوله : ﴿ كَتَبْنَا على بَنِى إسراءيل أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأرض فَكَأَنَّمَا قَتَلَ الناس جَمِيعاً ﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام ، " من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة " فإن ذلك للدلالة والتسبب الذي هو وزره .

﴿ وَأَن لَّيْسَ للإنسان إِلاَّ مَا سعى ﴾ إلا سعيه أي كما لا يؤاخذ أحد بذنب الغير لا يثاب

بفعله ، وما جاء في الأخبار من أن الصدقة والحج ينفعان الميت فلكون الناوي له كالنائب عنه .

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرى ثُمَّ يُجْزَاهُ الجزاء الأوفى ﴾ أي يجزى العبد سعيه بالجزاء الأوفر فنصب بنزع الخافض ، ويجوز أن يكون مصدراً وأن تكون الهاء للجزاء المدلول عليه بيجزى و﴿ الجزاء ﴾ بدله .

﴿ وَأَنَّ إلى ربّكَ المنتهى ﴾ انتهاء الخلائق ورجوعهم ، وقرىء بالكسر على أنه منقطع عما في الصحف وكذلك ما بعده .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ لا يقدر على الإِماتة والإِحياء غيره فإن القاتل ينقض البنية والموت يحصل عنده بفعل الله تعالى على سبيل العادة .

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تمنى ﴾ تدفق في الرحم أو تخلق ، أو يقدر منها الولد من منى إذا قدر .

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النشأة الأخرى ﴾ الإِحياء بعد الموت وفاء بوعده ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو النشاءة بالمدة وهو أيضاً مصدر نشأ .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أغنى وأقنى ﴾ وأعطى القنية وهو ما يتأثل من الأموال ، وإفرادها لأنها أشرف الأموال أو أرضى وتحقيقه جعل الرضا له قنية .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشعرى ﴾ يعني العبور وهي أشد ضياء من الغميصاء ، عبدها أبو كبشة أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم وخالف قريشاً في عبادة الأوثان ، ولذلك كانوا يسمون الرسول صلى الله عليه وسلم ابن أبي كبشة ، ولعل تخصيصها للإشعار بأنه عليه الصلاة والسلام وإن وافق أبا كبشة في مخالفاتهم خالفه أيضاً في عبادتها .

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأولى ﴾ القدماء لأنهم أولى الأمم هلاكاً بعد قوم نوح عليه الصلاة والسلام . وقيل ﴿ عَاداً الأولى ﴾ قوم هود وعاد الأخرى إرم . وقرىء "عَاداً لولي" بحذف الهمزة ونقل ضمها إلى لام التعريف وقرأ نافع وأبو عمرو "عَاداً لولي" بضم اللام بحركة الهمزة وبادغام التنوين ، وقالون بعد ضمة اللام بهمزة ساكنة في موضع الواو .

﴿ وَثَمُودَاْ ﴾ عطف على ﴿ عَاداً ﴾ لأن ما بعده لا يعمل فيه ، وقرأ عاصم وحمزة بغير تنوين ويقفان بغير الألف والباقون بالتنوين ويقفون بالألف . ﴿ فَمَا أبقى ﴾ الفريقين .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ أيضاً معطوف عليه . ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل عاد وثمود . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وأطغى ﴾ من الفريقين لأنهم كانوا يؤذونه وينفرون عنه ويضربونه حتى لا يكون به حراك .

﴿ والمؤتفكة ﴾ والقرى التي ائتفكت بأهلها أي انقلبت وهي قرى قوم لوط . ﴿ أهوى ﴾ بعد أن رفعها فقلبها .

﴿ فغشاها مَا غشى ﴾ فيه تهويل وتعميم لما أصابهم .

﴿ فَبِأَيّ آلاَءِ رَبّكَ تتمارى ﴾ تتشكك والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، أو لكل أحد والمعدودات وإن كانت نعماً ونقماً سماها ﴿ ءالآء ﴾ من قبل ما في نقمه من العبر والمواعظ للمعتبرين ، والانتقام للأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين .

﴿ هذا نَذِيرٌ مّنَ النذر الأولى ﴾ أي هذا القرآن إنذار من جنس الإنذارات المتقدمة ، أو هذا الرسول نذير من جنس المنذرين الأولين .

﴿ أَزِفَتِ الأزفة ﴾ دنت الساعة الموصوفة بالدنو في نحو قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ .

(296/734)

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ الله كَاشِفَةٌ ﴾ ليس لها نفس قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله لكنه لا يكشفها ، أو الآن بتأخيرها إلا الله ، أو ليس لها كاشفة لوقتها إلا الله إذ لا يطلع عليه سواه ، أو ليس لها من غير الله كشف على أنها مصدر كالعافية .

﴿ أَفَمِنْ هذا الحديث ﴾ يعني القرآن ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ إنكاراً .

﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء . ﴿ وَلاَ تَبْكُونَ ﴾ تحزناً على ما فرطتم .

﴿ وَأَنتُمْ سامدون ﴾ لاهون أو مستكبرون من سمد البعير في مسيره إذا رفع رأسه ، أو مغنون لتشغلوا الناس عن استماعه من الثمود وهو الغناء .

﴿ فاسجدوا لِلَّهِ واعبدوا ﴾ أي واعبدوه دون الآلهة .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة النجم أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وجحد به بمكة " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 262.252 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(297/734)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) ﴾

(298/734)

التفسير : لما ختم السورة المتقدمة بالنجوم خص الأقسام في أول هذه السورة بالنجم واللام فيه للعهد أو للجنس . والأول قول من قال : إنه الثريا وهو اسم غالب لها وصورتها في السماء كعنقود عنب . وأظهر كواكبها سبعة وهي المنزل الثالث من منازل القمر . قال : إذا طلع النجم عشاء ابتغى الراعي كساء . وذلك أن الشمس تكون في أول العقرب حينئذ في مقابلتها فتطلع بغروبها . وعلى الثاني فيه وجوه أحدها . نجوم السماء وهويها غروبها . وفائدة هذا القيد أن النجم إذا كان في وسط السماء لم يهتد به الساري لأنه لا يعلم المغرب من المشرق والجنوب من الشمال ، فإذا مال إلى الأفق عرف به هذه الجهات والميل إلى أفق المغرب أولى بالذكر من الناظر إليه حينئذ يستدل بغروبها على أفوله في حيز الإمكان فيتم له اهتداء الدين مع اهتداء الدنيا . وقيل : هويها انتثارها يوم القيامة . وثانيها النجم هو الذي يرجم به الشياطين وهويها نقضاضها . وثالثها النجم النبات إذا هوى إذا سقط على الأرض وهو غاية نشوة . ورابعها النجم أحد نجوم القرآن وقد نزل منجماً في عشرين سنة فيكون كقوله ﴿ والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم ﴾ [يس : 2 ، 3] وعلى القول الآخر فالثريا أظهر النجوم عند الناظرين وأشهر المنازل للسائرين وأنها تطلع عشاء في وقت إدراك الثماء . والنبي صلى الله عليه وسلم تميز من سائر الأنبياء بالمعجزات الباهرات ولا سيما فإنه حين ظهر زال يبس الكوك وحرارة الحمية الجاهلية وأدرك الحكمة ورجم به شياطين الإنس المضلين لعباد الله في أرضه ، ونبت بوجوده

أصناف الأغذية الروحانية تامة كاملة . قال جار الله : الضلال نقيض الهدى ، والغي نقيض الرشد ، والخطاب لقريش . قلت : هذا صادق من حيث الاستعمال لقوله ﴿ قد تبين الرشد من الغي ﴾ [البقرة : 256] ﴿ من يضلل الله فلا هادي له ﴾ [الأعراف : 186] إلا أنه ينبغي أن يتبين لا فرق بين الضلال والغواية . والظاهر أن الضلال أعم وهو أن

(299/734)

لا يجد السالك إلى مقصده طريقاً أصلاً ، والغواية أن لا يكون له إلى المقصد طريق مستقيم ولهذا لا يقال للمؤمن من إنه ضال أو غير مهتد ويقال له إنه غوي غير رشيد . قال عز من قائل ﴿ فإن آنستم منهم رشداً ﴾ [النساء : 6] فكأنه سبحانه نفى الأعم أولاً ثم نفى الأخص ليفيد أنه على الجادة غير منحرف عنها أصلاً . ويحتمل أن يكون قوله ﴿ ما ضل ﴾ نفياً لقولهم هو كاهن أو مجنون لأن الكهانة أيضاً من مسيس الجن .

(300/734)

وقوله ﴿ وما غوى ﴾ نفي لقولهم هو شاعر والشعراء يتبعهم الغاوون . ويحتمل أن يكون الأول عبارة عند صلاحه في أمور المعاد ، والثاني إشارة إلى رشده في أمور المعاش ومنه يعلم أن أقواله كلها على سنن الصواب إلا أنه كان يمكن أن تكون مستنبطة من العقل أو العرف أو العادة ، فأسندها الله سبحانه إلى طريق أخص وأشرف وهو أن تكون مستندة إلى الوحي فقال بصيغة تفيد الاستمرار ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ أي ليس كل ما ينطق به ولا بعضه بصادر عن الرأي والتشهي إنما وحي يوحى إليه من الله ، واستدل به بعض من لا يرى الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام ، وأجيب بأن الله تعالى إذا سوغ له الاجتهاد كان لك من قبيل الوحي أيضاً . وأما من يخص النطق بالقرآن فلا اعتراض عليه . قال أهل اللغة : الهوى المحبة النفسانية ، والتركيب يدل على النزول والسقوط ومنه الهاوية . ومبة النفس الأمارة لا أصل لها ولا تصدر إلا عن خسة ودناءة ، وقوله ﴿ إن هو إلا وحي ﴾ أبلغ مما لو قيل هو " وحي " وهو ظاهر . وقوله ﴿ يوحى ﴾ لتحقيق الحقيقة كقوله ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : 38] فإن الفرس الشديد العدو بما يقال إنه طائر ، فإذا قيل يطير بجناحيه زال جواز ذلك المجاز فكذلك ههنا ربما يقال للكلام الصادق الفصيح هو وحي أو سحر حلال . فلما قيل ﴿ يوحى ﴾ اندفع التجوز . ثم بين طريق الوحي بقوله ﴿ علمه ﴾ أي الموحي أو محمداً ﴿ شديد القوى ﴾ وهو جبرائيل عليه السلام أي قواه العلمية والعملية كلها شديدة مدح المعلم ليلزم منه فضيلة المتعلم . ولو قال " علمه جبرائيل

عليه السلام " لم يفهم منه فضل المتعلم ظاهراً . وفيه رد على من زعم أنه يعلمه بشر لأن الإنسان خلق ضعيفاً وما أوتي من العلم إلا قليلاً . وفيه أن جبرائيل عليه السلام أمين موثوق به من حيث قوته المدركة والحافظة ولو كان مختل الذهن أو الحفظ لم يوثق بروايته ، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم كيلا يضيق صدره حين علم بواسطة الملك

(301/734)

فكأنه قيل له : ليس لك في ذلك نقص لأنه شديد القوى على أنه قال في موضع آخر ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ [النساء : 113] وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن حاله فقال " أدبني ربي فأحسن تأديبي " والمرة القوة . والظاهر أنها القوة الجسمانية كقوله ﴿ وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾ [البقرة : 247] فمن قوته أنه قلع قريات قوم لوط وقلبها بجناحه ، وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين ، وكان ينزل إلى الأنبياء ويصعد في لمحة . ويجوز أن يراد بقوله ﴿ شديد القوى ﴾ قواه الجسمانية وبقوله ﴿ ذو مرة ﴾ القوى العقلية . والتنكير للتعظيم . قوله ﴿ فاستوى ﴾ المشهور أن فاعله جبرائيل عليه السلام أي فاستقام على صورته الحقيقية دون صورة دحية ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب أن يراه في صورته التي جبل عليها فاستوى له في الأفق الأعلى أي الأشرف

وهو الشرقي ﴿ ثم دنا ﴾ جبرائيل من الرسول صلى الله عليه وسلم على الصورة المعتادة ﴿ فتدلى ﴾ قيل : فيه تقديم وتأخير أي فتعلق عليه في الهواء ثم دنا منه .

(302/734)

وقيل : دنا أي قصد القرب من محمد أو تحرك من المكان الذي كان فيه ، فنزل إلى النبي صلى الله عليه وسلم . يقال : تدلت اثمرة ودلى رجليه من السرير وقد يقال : الدنو والتدلي بمعنى واحد فلا يفيد إلا التأكيد . ثم زاد تأكيداً بقوله ﴿ فكان قاب قوسين ﴾ قال أهل العربية . هو من باب حذف المضافات أي فكان مقدار مسافة قرب جبرائيل عليه السلام مثل " قاب قوسين " . والقاب والقيب والقاد والقيد والقيس كلها المقدار . والعرب تقدر الأشياء بالقوس والرمح والسوط والذراع والباع وغيرها . وفي الحديث " لا صلاة إلى أن ترتفع الشمس مقدار رمحين " وقال صلى الله عليه وسلم " لقاب قوس أحدكم من الجنة وموضع قده خير من الدنيا وما فيها " والقد السوط . وقوله ﴿ أو أدنى ﴾ أي في تقديركم كقوله ﴿ مائة ألف أو يزيدون ﴾ [الصافات : 147] وقال بعضهم : الضمير في ﴿ فاستوى ﴾ لمحمد صلى الله عليه وسلم وذلك أن تعليم جبرائيل إياه كان قبل كماله واستوائه ، فحين تكاملت قواه النظرية والعلمية وصار بالأفق الأعلى أي بالرتبة العليا من

المراتب الإنسانية دنا من الأمة فتدلى أي لان لهم ورفق بهم حتى قال ﴿ إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ ﴾ [الكهف : 110] فكان الفرق بينه وبين جبرائيل قليلاً جداً . وعلى هذا يمكن أن يكون الرجحان في الكمال للنبي صلى الله عليه وسلم كما يقول أكثر أهل السنة ، أو بالعكس كما تزعم طائفة منهم ومن غيرهم ، ويحتمل على هذا القول أن يكون الضمير في ﴿ دنا ﴾ لجبريل والمراد أن النبي صلى الله عليه وسلم وإن زال عن الصفات البشرية من الشهوة والغضب والجهل وبلغ الأفق الأعلى الإنساني ، ولكن نوعيته لم تزل عنه وكذلك جبرائيل .

(303/734)

وإن ترك اللطافة المانعة من الرؤية ونزل إلى الأفق الأدنى من الآفاق الملكية ولكن لم يخرج عن كونه ملكاً فلم يبقى بينهما إلا اختلاف حقيقتهما نظيره ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ [التكوير : 23] أي رأى جبرائيل وهو أي محمد بالأفق الفارق بين درجة الإنسان ومنزلة الملك كقول القائل : " رأيت الهلال على السطح " أي وأنا على السطح . وقد يجعل ذكر القوس عبارة عن معنى آخر هو أن العرب كانوا إذا عاهدوا فيما بينهم طرحوا قوساً أو قوسين لتأكيد العهد بين الاثنين ، فأخبر الله سبحانه أنه كان بين جبرائيل ومحمد عليه

الصلاة والسلام من المحبة وقرب المنزلة مثل ما تعرفونه فيما بينكم عند المعاقدة . وقيل : الضمير لمحمد صلى الله عليه وسلم أو لله والمراد قرب المكان بينهما .

وهذا يشبه مذهب المجسمة إلا أن يقال : دنا دنو ألفة ولا دنو زلفة . دنا دنو إكرام لا دنو أجسام ، دنا دنو أنس لا دنو نفس . والقوسان أحدهما صفة الحدوث والأخرى صفة القدم . أخبر بالقصة إكراماً وكتم الإسرار عظاماً .

(304/734)

قوله ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ الضمير في الفعلين إما لله أو لجبرائيل ، والمراد بالعبد إما محمد صلى الله عليه وسلم أو جبريل عليه السلام فيحصل تقديرات أحدها : فأوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى وفيه تفخيم لشأن الوحي . وقيل : أوحى إليه الصلاة . وقيل : أوحى الله إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها . وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك . والظاهر أنها أسرار وحقائق ومعارف لا يعلمها إلا الله ورسوله . ثانيها فأوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى أولاً جبرائيل يعني أن الوحي كان ينزل عليه أولاً بواسطة جبرائيل وقد ارتفعت الآن تلك الواسطة . وعلى هذا يحتمل أن يقال " ما " مصدرية أي أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم الإيحاء أي العلم

بالإيحاء كي يفرق بين الملك والجن . أو كلمة أنه وحي أو خلق فيه علماً ضرورياً . ثالثها فأوحى الله إلى عبده جبريل ما أوحى . رابعها فأوحى الله إلى جبرائيل ما أوحى جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء قبله . وفيه إشارة إلى أن جبريل عليه السلام أمين لم يجن قط في شيء مما أوحى إلى الأنبياء . خامسها فأوحى فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى الله إليه . سادسها فأوحى جبرائيل إلى عبد الله ما أوحى هو . وفي هذين الوجهين لا يمكن أن يراد بالعبد إلا محمد صلى الله عليه وسلم . قوله ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ الأشهر أن اللام للعهد وهو فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم أي ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك . ولو قال ذلك لكان كاذباً لأنه عرفه . ومن قرأ بالتشديد فظاهر أي صدق فؤاده ما عاينه ولم يشك في ذلك . وقيل : اللام للجنس والمراد أن جنس الفؤاد لا ينكر ذلك وإن كان الوهم والخيال ينكره . والمقصود نفي الجواز لا نفي الوقوع كقوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ [الأنعام : 103] ﴿ وما ربك بغافل ﴾ [الأنعام : 132] بخلاف قوله ﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ [التوبة :

120] ﴿ لا يغفر أن يشرك به ﴾ [النساء : 48] فإنه لنفس الوقوع . والظاهر أن فاعل رأى محمد صلى الله عليه وسلم وقيل : الفؤاد أو البصر أي ما رآه الفؤاد ولم يقل له إنه جن أو شيطان أو لم يكذب الفؤاد ما رآه بصر محمد صلى الله عليه وسلم . وما المرئي فيه أقوال : أحدها ما مر وهو أنه رأى جبريل في صورته بالأفق الشرقي .

(306/734)

والثاني الآيات العجيبة الإلهية . والثالث الرب تعالى والمسألة مبنية على جواز الرؤية وقد تقدم البحث عن ذلك في قوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ [الأنعام : 103] ثم على وقوع الرؤية وقد تقدم خلاف الصحابة فيه في حديث معراج النبي صلى الله عليه وسلم وذلك في أول " سبحان الذي " . ولعل القول الأول أصح . يروي أنه ما رأى جبريل أحد من الأنبياء في صورته الحقيقية غير محمد صلى الله عليه وسلم مرتين مرة في الأرض ومرة في السماء ، وإليه إشارة بقوله ﴿ أفتمارونه ﴾ من المراء أي أتجادلونه ﴿ على ما يرى ﴾ ومن قرأ ﴿ أفتمرونه ﴾ فمعناه أتغلبونه في المراء يقال : ماريته فمريته . ولما فيه من معنى الغلبة عدي ب " على " وقيل : معناه افتجحدونه . ولا بد من تضمين معنى الغلبة . ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ أي مرة أخرى فانتصبت على الظرف لأن الفعلة صيغة المرة فكانت النزلة في

حكم المرة أي نزل عليه جبريل في صورته تارة أخرى في ليلة المعراج ووجه الاستفهام الإنكاري أنه لما رآه وهو على بسيط الأرض احتمل أن يقال : إنه كان من الجن احتمالاً بعيداً فلما رآه ﴿ عند سدرة المنتهى ﴾ لم يحتمل أن يكون هناك جن ولا إنس فلم يبق للجدال مجال . أما القائل بالقول الثالث فزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بقلبه مرتين . والنزلة إما لله بمعنى الحركة والانتقال عند من يجوز ذلك ، أو بمعنى قرب الرحمة والإفضال ، وإما للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه نزل عن متن الهوى ومركب النفس . وقيل : أراد بالنزلة ضدها وهي العرجة ، واختير هذه العبارة ليعلم أن هذه عرجة تتبعها النزلة ليست عرجة لا نزلة لها وهي عرجة الآخرة . وعلى القول الأول أيضاً يحتمل أن تكون النزلة لمحمد صلى الله عليه وسلم وذلك أن جبرائيل تخلف عنه في مقام " لو دنوت أنملة لاحترقت " ثم عاد النبي صلى الله عليه وسلم إليه . ومعنى أخرى أنه صلى الله عليه وسلم تردد في أمر الصلاة مراراً فلعله كان ينزل إلى جبرائيل كل مرة لا

(307/734)

أقل من نزلتين . أما السدرة فالأكثرون على أنها شجرة في السماء السابعة : وقيل : في السادسة . " نبقها كقلال هجر وورقها كآذان الفيلة ، يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا

يقطعها " وقد ورد الحديث بذلك . فعلى هذا ﴿ عند ﴾ ظرف مكان . ثم إن كان المرئي جبريل فلا إشكال ، إن كان هو الله تعالى فكقول القائل " رأيت الهلال على السطح " وقد مر . وقال بعضهم ﴿ عند ﴾ ظرف زمان كما يقال : صليت عند طلوع الفجر . والمعنى رآه عند الحيرة القصوى أي في وقت تحار عقول العقلاء فيه ولكنه ما حار ولم يعرض له سدر . وإضافة سدرة إلى المنتهى إما من إضافة الشيء إلى مكانه كما يقال " أشجار البلدة الفلانية كذا " وأشجار الجنة لا تيبس ولا تخلو من الثمار .

(308/734)

فالمنتهى حينئذ موضع لا يتعداه ملك ولا يعلم ما وراءه أحد وإليه ينتهي أرواح الشهداء . وإما من إضافة المحل إلى الحال كما يقال " ظرف المداد " أي سدرة هي محل انتهاء الجنة . وإما من إضافة الملك إلى مالكه كما يقال " دار زيد وأشجار عمرو " فيكون التقدير سدرة المنتهى إليه وهو الله سبحانه قال ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ فالإضافة للتشريف " نحو بيت الله وناقة الله " . وقال الحسن : ﴿ جنة المأوى ﴾ هي التي يصير إليها المتقون . وقيل : يأوي إليها أرواح الشهداء والظاهر أن الضمير في ﴿ عندها ﴾ للسدرة . وقيل : للنزلة من ذهب إلى أن سدرة المنتهى معناها الحيرة القصوى . قال ﴿ إذ يغشى السدرة ما

يغشى ﴾ معناه ورود حالة على حالة أي طرأ على محمد حين ما يحار العقل ما طرأ من فضل الله ومن رحمته . والأكثرون قالوا فيه تعظيم وتكثير لما يغشى الشجرة من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله مما لا يحيط بها الوصف . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم " رأيت على كل ورقة من ورقها ملكاً قائماً يسبح الله " وعنه عليه السلام " يغشاها رفرف من طير خضر " والرفرف كل ما يبسط من أعلى إلى أسفل . وعن ابن مسعود وغيره : يغشاها فراش أو جراد من ذهب . والمحققون على أنها أنوار الله تعالى تجلى للسدرة كما تجلى للجبل لكن السدرة كانت أقوى من الجبل ، ومحمد صلى الله عليه وسلم كان أثبت من موسى فلم تضطرب الشجرة ولم يصعق محمد صلى الله عليه وسلم . قوله ﴿ ما زاغ البصر ﴾ فيه وجهان : أشهرهما أنه بصر محمد صلى الله عليه وسلم أي لم يلتفت إلى ما يغشاها . فإن كان الغاشي هو الفراش أو الجراد من ذهب فمعناه ظاهر ويكون ذلك ابتلاء وامتحاناً لمحمد صلى الله عليه وسلم بالأمور الدنيوية ، وإن كان الغاشي أنوار الله فالمراد أنه لم يلتفت إلى غير المقصود ولم يشتغل بالنور عن ذي النور . أو المراد ما زاغ البصر بالصعقة بخلاف موسى عليه السلام . وفي الأول بيان أدب محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي

الثاني بيان مزيته . وذهب بعضهم إلى أن اللام للجنس أي ما زاغ بصره أصلاً في ذلك الموضع هيبة وإجلالاً . والظاهر أن الضمير في قوله ﴿ وما طغى ﴾ للبصر أي ما جاوز حده المعين المأمور برؤيته . ويحتمل أن يكون لمحمد صلى الله عليه وسلم أي ما زاغ بصره بالميل إلى غير المقصود ، وما طغى محمد بسبب الالتفات . قال بعض العلماء : فيه بيان لوصول محمد صلى الله عليه وسلم إلى سدرة اليقين الذي لا يقين فوقه إذ لم ير الشيء على خلاف ما هو عليه بخلاف الناظر إلى عين الشمس فإنه إذا نظر إلى شيء آخر رآه أبيض أو أصفر أو أخضر .

قوله ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ الظاهر أن الكبرى صفة الآيات أي لقد رأى بعض آيات ربه الكبرى . وذلك البعض إما جبرائيل على صورته ، وإما سائر عجائب الملكوت . ويحتمل أن يكون صفة لمحذوف أي لقد رأى من آيات ربه آية هي الكبرى . وعلى هذا لا تكون تلك الآية رؤية جبريل لما ورد في الاخبار أن الله ملائكة أعظم منه كالملك الذي يسمى روحاً . نعم لو قيل : إنها رؤية الله الأعظم كان له وجه عند من يقول بأنه صلى الله عليه وسلم رأي الله ليلة المعراج . وفيه خلاف تقديم .

قوله ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ الخ . أي عقيب ما سمعتم من عظمة الله تعالى ونفاذ أمره في الملأ الأعلى ، وأن الذي سد الأفق ببعض أجنحته تخلف عند سدره المنتهى ، هل تنظرون إلى هذه الأصنام مع قلتها وفقرها حتى تعلموا فساد ما ذهبتم إليه وعولتم عليه ؟ قال في الكشاف : اللات اسم صنم كان لثقيف بالطائف وأصله " فعلة " من لوى يلوي لأنهم كانوا يلوون عليها ويعكفون للعبادة ، أو يتلوون عليها أي يطوفون فكأنه حذفت الياء تخفيفاً وحركت الواو فانقلبت ألفاً . والوقف عليه بالتاء كيلا يشبه اسم الله : وقيل : أصله اللات بالتشديد وقد قرىء به . زعموا أنه سمي برجل كان يلت عنده السمن بالزيت ويطعمه الحاج . وعن مجاهد : كان رجل يلت السويق بالطائف وكانوا يعكفون على قبره فجعلوه وثناً . والعزى تأنيث الأعز وكان لغطفان وهي شجرة سمرة بعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد ابن الوليد فقطعها فخرجت منها شيطانة مكشوفة الرأس ناشرة الشعر تضرب رأسها وتدعو بالويل والثبور فجعل خالد يضربها بالسيف حتى قتلها وهو يقول :

يا عز كفرانك لا سبحانك . . . إني رأيت الله قد أهانك

فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما فعل . فقال : تلك العزى ولن تعبد أبداً .
وأما مناة فهي صخرة كانت لهذيل وخزاعة كأنها سميت بذلك لأن دماء النسائك كانت تمنى عندها أي تراق . ومن قرأ بالمد فلعلها " مفعلة " من النوء كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها . و ﴿ الأخرى ﴾ لا يطلق إلاّ إذا كان الأول مشاركاً كالثاني فلا يقال : رأيت رجلاً وامرأة أخرى . وإنما يقال رأيت رجلاً ورجلاً آخر . وههنا ليست عزى ثالثة فكيف قال ﴿ ومناة الثالثة الأخرى ﴾ ؟ وأجيب بأن الأخرى صفة ذم لها أي المتأخرة الوضيعة المقدار كقوله ﴿ وقالت أخراهم لأولاهم ﴾ [الأعراف : 38] أي وضعاؤهم لرؤسائهم . ويجوز أن تكون الأولية والتقدم عندهم للات والعزى وذلك أن الأول كان على صورة آدمي ، والعزى كانت من النبات ومناة من الجماد . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير أي ومناة الأخرى .

(312/734)

الثالثة . وقيل : إن الأصنام فيها كثرة فإذا أخذنا اللات والعزى مقدمين كانت لهما ثوالث كثيرة هذه ثالثة أخرى . وقيل : فيه حذف والتقدير أفرأيتم اللات والعزى المعبودتين .

بالباطل ومناة الثالثة المعبودة الأخرى . ثم إنه تعالى حين وبخهم على الشرك فكأنهم قالوا نحن لا نشك في أن شيئاً منها ليس مثلاً لله تعالى ولكنا صورنا هذه الأشياء على صور الملائكة المعظمين الذين اعترف بهم الأنبياء وقالوا : إنهم يرتقون ويقفون عند سدرة المنتهى ، ويرد عليهم الأمر والنهي ويصدر عنهم إلينا فوبخهم على قولهم إن هؤلاء الأصنام التي هي إناث أنداد الله تعالى ، أو على قولهم الملائكة بنات الله فاستفهم منكراً ﴿ ألكم الذكر ﴾ الذي ترغبون فيه ﴿ وله الأنثى ﴾ التي تستنكفون عنها ﴿ تلك ﴾ القسمة ﴿ إذا ﴾ أي إذا صح ما ذكرتم ﴿ قسمة ضيزى ﴾ أي جائرة غير عادلة من ضازه يضيزه إذا ضامه ، وهي " فعلى " بالضم ، وكان يمكن أن تقلب الياء واواً لتسلم الضمة إلا أنه فعل بالعكس أي قبلت الضمة كسرة لتسلم الياء فإن إبقاء الحرف أولى من إبقاء الحركة . ومن قرأ بالهمزة فمن ضأزه بالهمزة والمعنى واحد ولكنها " فعلى " بالكسر . قال بعضهم : إنهم ما قسموا ولم يقولوا لنا البنون وله البنات ولكنهم نسبوا إلى الله البنات وكانوا يكرهونهن ، فلزم من هذه النسبة قسمة جائرة ، فتقدير الكلام تلك النسبة قسمة غير عادلة إذ العدالة تقتضي أن يكون الشريف للشريف والوضيع للوضيع ﴿ إن هي ﴾ يعني ليس الأصنام أو أسماؤها المذكورات ﴿ إلا أسما سميتموها ﴾ وقد مر في " الأعراف " وفي " يوسف " . قال الإما فخر الالدين الرازي رحمه الله : الم يتم بقوله ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ فإن إطلاق اللاسم على المسمى إنما يجوز إذا لم يتبعه مفسدة دينية . وههنا يمكن أن يكون

مرادهم من قولهم " الملائكة بنات الله " أنهم أولاد الله من حيث إنه لا واسطة بينهم وبينه في الإيجاد كما تقوله الفلاسفة . والعرب قد تستعمل

(313/734)

البنت مكان الولد كما يقال " بنت الجبل وبنت الشفة " لما يظهر منهما بغير واسطة خصوصاً إذا كان في اللفظ تاء التأنيث كالملائكة إلا أنه لم يجز في الشرع إطلاق هذا اللفظ على الملائكة لأنه يوهم النقص في حقه تعالى ثم قال : وهذا بحث يدق عن إدراك اللغوي إن لم يكن عنده من العلوم حظ عظيم . قلت : هذا البحث الدقيق يوجب أن يكون الذم راجعاً إلى ترك الأدب فقط . وليس الأمر كذلك فإن الذم إنما توجه إلى المشرك لأنه ادعى الإلهية لما هو أبعد شيء منها . وما أمكن له على تصحيح دعواه حجة عقلية ولا سمعية . ومعنى ﴿ ما أنزل الله بها ﴾ أي بسببها وصحتها .

(314/734)

وقال الرازي : الباء للمصاحبه كقول القائل " ارتحل فلان بأهله ومتاعه " أي ارتحل ومعه الأهل والمتاع . ومن قرأ ﴿ إن تبعون ﴾ على الخطاب فظاهر ، ومن قرأ على الغيبة فإما للالتفات ، وأما لأن الضمر للآباء وصيغة الاستقبال حكاية الحال الماضية ويحتمل أن يكون المراد عامة الكفار . قوله ﴿ وما تهوى الأنفس ﴾ يجوز أن تكون " ما " مصدرية ، وفائدة العدول عن صريح المصدر إلى العبارة الموجودة أن القاتل إذا قال : أعجبني صنعك . لم يعلم أن الإعجاب من أمر قد تحقق أو من أمر هو فيه . وإذا قال : أعجبني ما تصنع . شمل الحال والاستقبال . ويجوز أن تكون " ما " موصولة والفرق أن المتبع في الأول الهوى وفي الثاني مقتضى الهوى . وقوله ﴿ الأنفس ﴾ من باب مقابلة الجمع بالجمع . والمعنى اتبع كل واحد منهم ما تهواه نفسه كقولك : خرج الناس بأهلهم أي كل واحد بأهله ولعل الظن يختص بالاعتقاد وهوى النفس بالعمل . ويجوز أن يكون الظن مقصوداً به كل ماله محمل مرجوح والهوى يراد به ما لا وجه له أصلاً . ويحتمل أن يراد بالظن ماله محمل راجح أيضاً وهو إن كان واجب العمل به في المسائل الاجتهادية إلا أنه مذموم عند القدرة على اليقين وإلى هذا أشار بقوله ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ وهو القرآن أو الرسول أو المعجزة ، وفي هذه الحالة لا يجوز البناء على الظن بل يجب التعويل على اليقين .

قوله ﴿ أم للإنسان ﴾ أم منقطعة والهمزة فيها للإنكار والمراد تمنيهم شفاعة الآلهة وأن لهم عند الله الحسنى على تقدير البعث إذ تمنى أشرافهم أن يكونوا أنبياء دون محمد صلى الله عليه وسلم . قوله ﴿ فالله الآخرة والأولى ﴾ رد عليهم أي هو مالكها فهو المعطي والمانع ولا حكم لأحد عليه . ومعنى الفاء أنه إذا تقرر أن شيئاً من الأشياء ليس بتمني الإنسان فلا حكم إلا لله . ثم بين أن الشفاعة عند الله لا تكون إلا برضاه . وفيه أصناف من المبالغة من جهة أن "كم" للتكثير والعرب تستعمل الكثير وتريد الكل كما قد تستعمل الكل وتريد به الكثير كقوله ﴿ تدمر كل شيء ﴾ [الأحقاف : 25] ومن جهة لفظ الملك فإنهم أشرف المخلوقات سوى الأنبياء عند بعض ، ومن قبل أنهم في السموات فإن ذلك يدل على علو مرتبتهم ودنو منزلتهم ، ومن قبل اجتماعهم المدلول عليه بضمير الجمع في شفاعتهم وإذا كان حالهم هكذا فكيف يكون حال الجمادات ؟ وقوله ﴿ لمن يشاء ﴾ أي لمن يريد الشفاعة له ﴿ ويرضى ﴾ أي ويراه أهلاً أن يشفع له فههنا أيضاً أنواع أخر من المبالغة . الأول توقيف الشفاعة على الإذن . والثاني تعليقها بالمشيئة فيهم منه أنه بعد أن يؤذن في مطلق الشفاعة يحتاج إلى الأذن في كل مرة معينة . والثالث رضا الله الشفاعة فقد يشاء ولكن لا يرضاه كقوله

﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ [الزمر : 7] وهذا عند أهل السنة واضح . ثم صرح بالتوبيخ على قولهم الملائكة بنات الله فقال ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة ﴾ أي كل واحد منهم ﴿ تسمية الأنثى ﴾ لأنهم إذا جعلوا الكل بنات فقد جعلوا كل واحدة بنتاً وبالعكس . وههنا سؤالان : أحدهما : إن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعم من هؤلاء المسلمين فكان الأولى أن يقال : إن الذين يسمون لا يؤمنون . وثانيهما أنه كيف يلزم من عدم الإيمان بالآخرة هذه التسمية ؟ والجواب عن الأول أن اللام للعهد وبه خرج الجواب عن الثاني أيضاً لأنه يخبر عن جميع معهود أنهم يسمون . ولا يلزم من حمل شيء على شيء أن يكون بينهما ملازمة . ولو سلم أن اللام للعموم فالمراد بمثل هذا التركيب المبالغة والتوكيد كما تقول : الإنسان زيد . وعلى هذا فإن أريد بالحمل مجرد الإخبار فلا إشكال وإن أريد الملازمة فمعناه المبالغة أيضاً لأن غاية جهلهم بالآخرة وبالجزاء حملهم على ارتكاب مثل هذا الافتراء على الله ، وإلى هذا أشار بقوله ﴿ ما لهم به من علم أن يتبعون إلا الظن ﴾ واعلم أن الإمام فخر الدين الرازي رضي الله عنه بحث مع هؤلاء المشركين الذين سموا الملائكة إناثاً بحثاً طويلاً بناء على ظنه بهم أنهم رأوا في لفظ الملائكة تاء فلذلك جعلوه

مؤنثاً . وحاصل ذلك البحث يرجع إلى أن التاء لا يلزم أن تكون للتأنيث فقد تكون لتأكيد الجمع كحجارة وصقورة ، أو لغير ذلك من المعاني ، ونحن قد أسقطنا تلك البحوث لعدم فائدتها كما نبهناك عليه . ثم بين الله سبحانه قاعدة كلية فقال : ﴿ وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ أي كل ما يجب أن يحصل منه المكلف على العلم واليقين فلا ينفع فيه الظن والتخمين ، ومن جملته مسائل المبدأ والمعاد التي ينبني البحث فيها على البراهين العقلية والدلائل السمعية ، ومن قنع في أمثالها بالوهم والظن لعدم الاستعداد أو لحفظ بعض المنافع الدنيوية وجب الإعراض عنه كما قال ﴿

(317/734)

فأعرض ﴾ أي إذا وقفت على قلة استعدادهم وعدم طلبهم للحق فأعرض يا محمد يا طالب الحق ﴿ عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ ويجوز أن يكون هذا الإعراض متضمناً للأمر . بالقتال أي أعرض عن المقال وأقبل على القتال . وقوله ﴿ ذلك ﴾ أي الذي ذكر من التسمية أو من اعتقاد كون الأصنام شفعاء ﴿ مبلغهم من العلم ﴾ جملة معترضة . ثم بين علة الإعراض قائلاً ﴿ إن ربك هو أعلم ﴾ إلى آخره ، وفيه بيان أنه تعالى يجازي كل فريق بحسب ما يستحقه ، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم كيلا

يتعب نفسه في تحصيل ما ليس يرجى حصوله وهو إيمان أهل العناد الذين قنعوا بالظن بدل العلم ووقفوا لدى الباطل دون الحق .

ثم قرر أنه سوى الملك والملكوت لغرض الجزاء والإثابة . والحسنى صفة المثوبة والأعمال ، وإضافة الكبائر إلى الإثم إضافة النوع إلى الجنس لأن الإثم يشمل الكبائر والصغائر .

واختلف في الكبائر وقد أشبعنا القول القول فيها في سورة النساء في قوله ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ [الآية : 31] والفواحش ام تزايد قبحه من الكبائر كأنها مع كبر مقدار عقابها قبيحة في الصورة كالشرك بالله . والمراد باللمم الصغائر ، والتركيب يدل على القلة ومنه اللمم المس من الجنون وألم بالمكان إذا قل لبثه فيه قال :

ألمت فحيث ثم قامت فودعت . . . وإلا صفة كأنه قيل : كبائر الإثم وفواحشه غير اللمم ، أو استثناء منقطع لأن اللمم ليس من الفواحش . عن أبي سعيد الخدري : اللمم هي النظرة والغمزة والقبلة . عن السدي : الخطرة من الذنب . وعن الكلبي : كل ذنب لم يذكر الله عز وجل عليه حداً ولا عذاباً . وعن عطاء : هي ما تعتاده النفس حيناً بعد حين .

(318/734)

قال جار الله : معنى قوله ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ أنه يكفر الصغائر باجتناب الكبائر ويكفر الكبائر بالتوبة . وأقول : فيه إشارة إلى أن اللمم ما لا يمكن فيه الاجتناب عنه لكل الناس أو لأكثرهم فالعفو عن ذلك يحتاج إلى سعة وكثرة ، بل فيه بشارة أنه سبحانه يغفر الذنوب جميعاً سوى الشرك لأن غفران اللمم لا يوجب الوصف بسعة المغفرة وإنما يوجب ذلك أن لو غفر معها الكبائر . وقوله ﴿ هو أعلم بكم ﴾ إلى آخره . دليل على وجوب وقوع الغفران لأنه إذا كان عالماً بأصلهم وفرعهم كان عالماً بضعفهم ونقصهم فلا يؤاخذهم بما يصدر عنهم على مقتضى جبلتهم وطبعهم . فكل شيء يرجع إلى الأصل والأرض بطبعها تميل إلى الأسفل . والجنين أوله نطفة مذرة وآخره الاغتذاء بدماء قذرة ، وإذا كان مبدأ حاله هكذا وهو في أوسط أمره متصف بالظلم والجهل والعاقبة غير معلومه وجب عليه أن لا يزكي نفسه فإن الله تعالى أعلم بالزكي والتقي أولاً وآخراً باطناً وظاهراً ، وما أحسن نسق هذه الجمل . وقد أبعد بعض أهل النظم فقال لما ذكر أنه أعلم بمن ضل كان للكافر أن يقول : كيف يعلم الله أموراً نعلمها في البيت الخالي وفي جوف الليل المظلم ؟ فأجاب الله تعالى بأنا نعلم ما هو أخفى من ذلك وهو أحوالكم وقت كونكم أجنة . وقوله ﴿ في بطون أمهاتكم ﴾ للتأكيد فإنه إذا خرج من بطن الأم يدعى سقطاً أو ولداً . وقيل : أراد أن الضال والمهتدي حصلا على ما هما عليه بتقدير الله وبأنه كتب عليهما في رحم أمهما أنه ضال أو مهتد . وقيل : فيه تقرير الجزاء وتحقيق الجزاء وتحقيق الحشر فإن العالم

بأحوال المكلف وهو جنين القادر على إنشائه من الأرض أول مرة ، عالم بأجزائه بعد التفرق ، قادر على جمعه بعد التمزق . والعامل في " إذ " هو " اذكر " أو ما يدل عليه ﴿ أعلم ﴾ أي يعلمكم وقت الإنشاء .

(319/734)

والخطاب للموجودين وقت نزول الآية وللآخرين بالتبعية . ويجوز أن يكون الإنشاء من الأرض إشارة إلى خلق أبينا آدم . وقوله ﴿ وإذ أنتم ﴾ يكون خطاباً لنا . قوله ﴿ أفرأيت الذي تولى ﴾ قال بعض المفسرين : نزل في الوليد بن المغيرة جلس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع وعظه وأثرت الحكمة فيه تأثيراً قوياً فقال له رجل : لم تترك دين آبائك ؟ قال : أخاف . ثم قال له : لا تخف وأعطني كذا وأنا أتحمل عنك أوزارك فأعطاه ما ألزمه وتولى عن الوعظ واستماع كلام النبي صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم : نزل في عثمان بن عفان كان يعطي ماله عطاء فقال له أخوه من أمه عبد الله بن سعد بن أبي سرح . ويوشك أن يفنى مالك فأمسك فقال له عثمان : إن لي ذنوباً وخطايا وإني أرجو أن يغفر الله لي بسبب العطاء . فقال عبد الله : أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن الإعطاء ومعنى تولي ترك المركز يوم أحد فعاد عثمان إلى خير من

ذلك . يقال : أكدى الحافر إذا لقيته كدية وهي أرض صلبة كالصخرة ونحوه " أجبل الحافر وأجبل الشاعر " إذا أفحم . ثم وبخه بأنه لا يعلم الغيب فكيف يعلم أن أوزاره محمولة عنه ؟ وقيل : نزلت في أهل الكتاب وذلك أنه لما بين حال المشركين المعاندين شرع في قصة هؤلاء والمعنى : أفرأيت الذي تولى أي صار متوليا لكتاب الله وأعطى قليلاً من الزمان حق الله فيه ، ولما بلغ عصر محمد صلى الله عليه وسلم أمسك عن العمل به . قالوا : يؤيد هذا التفسير قوله ﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى ﴾ عينها أو جنسها وهو ما نبأهم به نبينا صلى الله عليه وسلم . وجمع الصحف إما لأن موسى له صحيفة وإبراهيم له صحيفة فذكر التثنية بصيغة الجمع ، وإما لأن كل واحد منهما له صحف لقوله تعالى ﴿ وألقى الألواح ﴾ [الأعراف : 15] وكل لوح صحيفة . وتقديم صحف موسى إما لأنها أقرب وأشهر وأكثر وإما لأنه رتب وصف إبراهيم عليه ، وإما لحسن رعاية الفاصلة وقد راعى في

(320/734)

آخر " سبح اسم ربك " هذا المعنى مع ترتيب الوجود . والتشديد في قوله ﴿ وفي ﴾ للمبالغة في الوفاء ، أو لأنه بمعنى وفر وأتم كقوله ﴿ فأتمهن ﴾ [البقرة : 124] وأطلق

الفعل ليتناول كل وفاء وتوفية من ذلك تبليغه الرسالة واستقلاله بأعباء النبوة والصبر على ذبح الولد وعلى نار نمرود وقيامه بأضيافه بنفسه . يروى أنه كان يخرج كل يوم فيمشي فرسخاً يطلب ضيفاً فإن وافقه أكرمه وإلا نوى الصوم . وعن عطاء بن السائب : عهد أن لا يسأل مخلوقاً فلما رمي في النار قال له جبريل وميكائيل : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليكم فلا .

(321/734)

قالا : فسل الله . قال : حسبي من سؤالي علمه بحالي . وروي في الكشاف عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي عمله كل يوم بأربع ركعات في صدر النهار وهي صلاة الفجر والضحى . وروي " ألا أخبركم لم سمى الله خليله الذي وفى ؟ كان يقول إذا أصبح وإذا أمسى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون إلى حين تظهرون " وعن الهزيل بن شرحبيل كان بين نوح وإبراهيم صلى الله عليه وسلم يؤخذ الرجل بجريرة غيره ويقتل الزوج بامرأته والعبد بسيده ، وأول من خالفهم إبراهيم فلهذا قال سبحانه ﴿ ألا تزر وازرة ﴾ وهي مخففة من الثقيلة ولهذا لم ينصب الفعل وضمير الشأن محذوف ومحله الجر بدلاً مما في صحف موسى ، أو الرفع كأن قائلاً قال : وما في صحف موسى وإبراهيم ؟ فقيل : هو أنه

لا تزر نفس من شأنها أن تزر وزر نفس أخرى إذا لم تحمل التي يتوقع منها ذلك فغيرها أولى بأن لا تحمل . ثم عطف على قوله ﴿ ألا تزر ﴾ قوله ﴿ وأن ليس ﴾ وحكمه حكم ما يتلوه من المعطوفات فيما مر . وفيه مباحث : الأول الإنسان عام وقيل : هو الكافر . وأورد عليه أن الله سبحانه قال ﴿ ليس للإنسان ﴾ ولو أراد الكافر لقال " ليس على الإنسان " وهذا بالحقيقة غير وارد فإن اللام قد تستعمل في مثل هذا المعنى قال تعالى ﴿ وإن أسأتم فلها ﴾ [الإسراء : 7] وورد على الأول أن الدعاء والصدقة والحج ينفع الميت كما ورد في الأخبار ، وأيضاً قال تعالى ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام : 160] والأضعاف فوق ما سعى . وأجاب بعضهم بأن قوله ﴿ ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ كان في شرع من تقدم ثم إنه تعالى نسخه في شريعتنا وجعل للإنسان ما سعى وما لم يسع . وقال المحققون : إن سعي غيره وكذا الأضعاف لما لم ينفعه إلا مبنياً على سعي نفسه وهو أن يكون مؤمناً صالحاً كان سعي غيره كأنه سعي نفسه . والثاني " ما " مصدرية والمضاف محذوف أي الأثواب أو جزاء سعيه . ويجوز أن تكون موصولة أي إلا الجزاء الذي سعى فيه . الثالث في صيغة المضي

إشارة إلى أنه لا يفيد الإنسان إلا الذي قد حصل فيه ووجد ، وأما مجرد النية مع التواني والتراخي فذلك مما لا اعتماد عليه ولعل ذلك من مكايد الشيطان يمنيه ويعده إلى أن يحل اوجل بغتة . قوله ﴿ وأن سعيه سوف يرى ﴾ إن كان من الرؤية فكقوله ﴿ اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ [التوبة : 105] وإن كان من الإراءة فالفائدة في إراءته وعرضه عليه أن يفرح به هو ويحزن الكافر والله قادر على إعادة كل معدوم عرضاً كان أو جوهراً ، والمراد أن يريه الله إياه على صورة جميلة إن كان عملاً صالحاً وبالضد إن كان بالضد .

(323/734)

ويجوز أن يكون مجازاً عن الثواب كما يقال " سترى إحسانك عند الملك " أي جزاءه إلا أن القول الأول أقوى لقوله ﴿ ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ اللهم إلا أن يراد تراخي الرتبة والفائدة تعود إلى الوصف بالأوفى وهو الرؤية التي هي أوفى من كل وافٍ أي يجزى العبد بسعيه الجزاء الأتم . وجوز أن يكون الضمير للجزاء ثم فسره بقوله ﴿ الجزاء الأوفى ﴾ وأبدل عنه كقوله ﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ [الأنبياء : 3] ومن لطائف الآية أنه قال في حق المسيء ﴿ لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ ولا يلزم منه أن يبقى الوزر على المذنب بل

يجوز أن يسقط عنه بالمحو والعفو ، ولو قال " كل وازرة تزر وزر نفسها " لم يكن بد من بقاء وزرها عليها . وقال في حق المحسن " ليس له ما سعى " ولم يقل " ليس له ما لم يسع " إذا العبارة الثانية لا يلزمها أن له ما سعى ، والعبارة الأولى يلزمها ذلك لأنها في قوة كلامين إثبات ونفي والحاصل أنه قال هي حق المسيء بعبارة لا تقطع رجاءه ، وفي حق المحسن بعبارة توجب رجاءه كل ذلك لأن رحمته سبقت غضبه . قوله ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ المشهور أن فيه بيان المعاد كقوله عز من قائل ﴿ وإلى الله المصير ﴾ [آل عمران : 28] أي للناس بين يدي الله وقوف وفيه بيان وقت الجزاء . وقد يقال : المراد به التوحيد وهو تأويل أهل العرفان . والحكماء يستدلون به على وجود الصانع فإن الممكن لا بد أن ينتهي إلى الواجب . وقيل : أراد أن البحث والإدراك ينتهي عنده كما قيل : إذا بلغ الكلام إلى الله فأمسكوا . وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إذا ذكر الرب فانتهوا " والخطاب عام لكل سامع مكلف وفيه تهديد للمسيء ووعد للمحسن : وقيل : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وفيه تسلية له . ثم بين غاية قدرته وهي إيجاده الضدين الضحك والبكاء والإماتة والإحياء في شخص واحد ، وكذا الذكورة والأنوثة في مادة واحدة هي النطفة نطفت إذا تمنى تدفق في الرحم . يقال : منى وأمنى . وقال

الأخفش : تخلق والمنى والتقدير وفيه إبطال قول الطبيعيين أن مبدأ الضحك قوة التعجب ، ومبدأ الكباء رقة القلب ، وإن الحياة مستندة إلى الطبيعة كالنبات ، والموت أمر ضروري وهو تداعي الأجزاء العنصرية إلى الانفكاك بعد اجتماعها على سبيل الاتفاق أو لاقتضاء سبب سماوي من اتصال أو انفصال وذلك أن انتهاء كل ممكن إلى الواجب واجب . قوله ﴿ أمات وأحيي ﴾ إما لأجل الفاصلة أو لأنه اعتبر حالة كون الإنسان نطفة ميتة . قال الأطباء : الذكر أسخن وأجف والأنثى أبرد وأرطب . وقالوا في نبات شعر الرجل : إن الشعور تتكون من بخار دخاني منجذب إلى المسام فإذا كانت المسام في غاية الرطوبة والتحلل كما في مزاج الصبي والمرأة ، لا ينبت الشعر لخروج تلك الأدخنة من المسام الرطبة بسهولة قبل أن يتكون شعراً .

وإذا كانت في غاية اليبوسة والتكاثف لم ينبت لعسر خروجه من المخرج الضيق وإنما يندفع كثرة تلك الأبخرة إلى الرأس حتى رأس المرأة والصبي لأنه مخلوق كقبة فوق الأبخرة والأدخنة فيتصاعد إليها . وأما في الرجل فيندفع إلى صدره كثيراً لحرارة القلب . وإلى آلات التناسل لحرارة الشهوة ، وإلى اللحيين لكثرة الحرارة بسبب الأكل والكلام ومع حرارة الأبخرة ، ومن شأن الحرارة جذب الرطوبة كجذب السراج الزيت . هذا أقوى ما قالوا في هذا الباب .

ويرد عليه أنه ما السبب لتلازم شعر اللحية وآلة التناسل فإنها لو قطعت لم تنبت اللحية ،

ولو سلم التلازم من حيث إن حرارة الخصيان تقل بسبب قطع آلة الشهوة فلا بد أن يعترفوا بانتهاء جميع الممكنات إلى الواجب بالذات .

(325/734)

واعلم أنه سبحانه في هذه الآية وسط الفصل بين الاسم والخبر حيث كان توهم الحملية فيه أكثر وترك الفصل حيث لم يكن كذلك . ففي آيات الضحك والبكاء والإماتة والإحياء وسط الفصل للتوهمات المذكورة حتى قال نمرود ﴿ أنا أحي وأميت ﴾ [البقرة : 258] وأما خلق الذكر والأنثى فلم يتوهم أحد أنه بفعل المخلوقين فلم يؤكد بالفصل وعلى هذا القياس قوله ﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ ظاهرة وجوب وقوع الحشر في الحكمة الإلهية للمجازاة على الإحسان والإساءة وقال في التفسير الكبير : هو كقوله ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ [المؤمنون : 14] أي بعد خلقته ذكراً وأنثى نفخ فيه الروح الإنساني ثم أغناه بلبن الأم وبنفقة الأب في صغره ، ثم أقناه بالكسب بعد كبره أي أعطاه القنية وهي المال الذي تأثله وعزمت أن لا تخرجه من يدك ، وبالجملة فالإغناء بكل ما تدفع به الحاجة والإقناء بما زاد عليه . وإنما وسط الفصل لأن كثيراً من الناس يزعم أن الفقر والغنى بكسب الإنسان واجتهاده ، فمن كسب استغنى ومن كسل افتقر . وذهب بعضهم إلى أنه بالبخت

أو النجوم فقال رداً عليهم ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ وهما شعريان شامية ويمانية وهذه أنورهما . وخصت بالذكر لأن أبا كبشة أحد أجداد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل أمه قال : لا أرى شمساً ولا قمراً ولا نجماً تقطع السماء عرضاً غيرها فليس شيء مثلها فعبدها وعبدتها خزاعة فخالفوا قريشاً في عبادة الأوثان . وكانت قريش يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم " أبو كبشة " تشبيهاً له لمخالفته إياهم في دينهم . وحين ذكر أنه أغنى وأقنى وذلك كان بفضل المولى لا بعطاء الشعرى ، ذكرهم حال الأقدمين الهلكى . وعاد الأولى قوم هود والأخرى ، إرم ميزوا عن قوم كانوا بمكة . وقيل : أراد التقدم في الدنيا وأنهم كانوا أشرافاً قوله ﴿ وثمود ﴾ عطف على ﴿ عاد ﴾ أي ما رحم عليهم . ومن المفسرين من قال فما أبقى أي ما ترك أحداً منهم كقول

(326/734)

﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ [الحاقة : 8] وبه تمسك الحجاج على من زعم أن ثقيفاً من ثمود . وإنما وصف قوم نوح بأنهم كانوا هم أظلم وأطغى فبالغ بتوسيط الفصل وبناء التفضيل لأن نوحاً عليه السلام كان أول الرسل إلى أهل الأرض ، وكان قومه أول من سن التكذيب وإيذاء النبي والبادي أظلم . ومن سن سنة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها .

ولأنهم كانوا مجاوزين حد الاعتدال يضربون نبيهم حتى لم يربه حراك وينفرون عنه الناس ويخوفون صبيانهم وما نجع فيهم وعظه ألف سنة إلا خمسين عاماً . وليس قوله ﴿ أنهم كانوا ﴾ تعليلاً للإهلاك حتى يرد عليه أن غيرهم من الظالمين والطاغين لا يلزم أن يهلكوا وإنما هي جملة معترضة بياناً لشدة طغيانهم وفرط ظلمهم . ﴿ والمؤتفكة ﴾ يعني قريات قوم لوط لأنها ائتفكت بأهلها أي انقلبت وقد مر في هود ﴿ أهوى ﴾ أي رفعها إلى السماء على جناح جبريل فأسقطها إلى الأرض ﴿ فغشاها ما غشي ﴾ من الحجار المسومة وفيه تهويل وتفخيم لما صب عليهم من العذاب . وجوز أن يكون " ما " فاعلاً كقوله ﴿ والسماء وما بناها ﴾ [الشمس : 5] هذا كله حكاية ما في الصحف إلا فيمن قرأ ﴿ وإن إلى ربك المنتهي ﴾ بالكسر على الابتداء وكذا ما بعده أما قوله ﴿ فبأي آلاء ربك تتمارى ﴾ فقد قيل : هو أيضاً مما في الصحف وقيل : هو ابتداء كلام ، والخطاب لكل سامع ولرسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [الزمر : 65] والمراد أنه لم يبق فيها إمكان الشك ، وقد عد نعماً ونقماً وجعل كلها آلاء لأن النقم أيضاً نعم إن أراد أن يعتبر . ويحتمل أن يقال لما عد نعمه على الإنسان من خلقه وإغنائه وإقنائه . ثم ذكر أنه أهلك من كفر بها ، وبخ الإنسان على جحد شيء من نعمة فيصيبه مثل ما أصاب المتمارين : أو يقال : لما حكى الإهلاك قال للشاك : أنت ما أصابك الذي

أصابهم وذلك بحفظ الله إياك فبأي آلاء ربك تتمارى وسيجيء له مزيد بيان في سورة الرحمن ﴿ هذا ﴾ القرآن أو

(327/734)

الرسول ﴿ نذير ﴾ أي إنذار أو منذر من جنس الإنذارات أو المنذرين . وقال ﴿ الأولى ﴾ على تأويل الجماعة . وحين فرغ من بيان التوحيد والرسالة ختم السورة بذكر اقتراب الحشر فقال ﴿ أزفت الآزفة ﴾ أي قربت الموصوفة بالقرب في قوله ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ [الأنبياء : 1] ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ [الشورى : 17] وفيه تنبيه على أن قرب الساعة يزداد كل يوم وأنها تكاد تقوم ﴿ ليس لها من دون الله ﴾ نفس ﴿ كاشفة ﴾ تكشف عن وقت مجيئها أو تقدر على كشفها ودفعها إذا وقعت ، ولا يلزم من قدرة الله على دفعها وجوب وقوع الدفع فإن كل مقدور لا يلزم أن يكون واقعاً . والتاء في ﴿ كاشفة ﴾ للتأنيث كما مر ، أو للمبالغة أي لا أحد يكشف حقيقتها ، أو هي مصدر كالعافية ، و " من " زائدة والتقدير ليس لها كاشفة دون الله ، ويحتمل أن يراد لها في الوجود نفس تكشف عنها من غير الله بل إنما يكشفها من عند الله ومن قبل علمه وإخباره .

ثم وبخهم على التعجب من القرآن ومن حديث القيامة وضحكهم من استهزاء وإنكاراً .

وفي قوله ﴿ ولا تبكون ﴾ إلى آخره تنبيه على أن البكاء والخشوع وحضور القلب حق عليهم عند سماع القرآن كما قال ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾ [مريم : 57] والسمود الغفلة وقد يكون مع اللهو . وعن مجاهد : كانوا يمرون بالنبي صلى الله عليه وسلم غضاباً مبرطمين . وقال : البرطمة الإعراض ثم إنهم كانوا أنصفوا من أنفسهم وقالوا : لا نعجب ولا نضحك ولا نسمد بل نبكي ونخشع فلا جرم قال ﴿ فاسجدوا ﴾ أي إذا اعترفتم لله بالعبودية فاخضعوا له وأقيموا وظائف العبادة . وقد مر في سورة الحج في قوله ﴿ ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ ﴿ الآية : 52] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه السورة في الصلاة ثم سجد فسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس وذكرنا سببه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 198 . 213 ﴾

(328/734)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة النجم

مكية ثنتان وستون آية وثلاثمائة وستون كلمة وألف وأربعمائة وخمسة أحرف

﴿ بسم الله ﴾ الذي أحاط بصفات الكمال ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ الموجودات بصفة الجمال ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أهل ودّه بصالح الأعمال .

﴿ والنجم إذا هوى ﴾ قال ابن عباس في رواية العوفي : يعني الثريا إذا غابت وسقطت وهوت مغيبة ، والعرب تسمي الثريا نجماً ، وجاء في الحديث عن أبي هريرة مرفوعاً "ما طلع النجم قط وفي الأرض شيء من العاهات إلا رفع" وأراد بالنجم الثريا ، وقال مجاهد : هو نجم السماء كلها حين يغرب ، لفظه واحد ومعناه الجمع سمى الكوكب نجماً لطلوعه وكلّ طالع نجم يقال : نجم السن والنبت والقرن إذا طلع .

وروى عكرمة عن ابن عباس أنها ما يرجم به الشياطين عند استراقهم السمع وقال أبو حمزة الثمالي : هي النجوم إذا انتثرت يوم القيامة وقيل : المراد بالنجم القرآن سمي نجماً لأنه نزل نجوماً متفرقة في عشرين سنة ويسمى التفريق تنجيماً والمفرّق منجما هذا قول ابن عباس في رواية عطاء ، وقال الكلبي : والهوى النزول من أعلى إلى أسفل وقال الأخفش : النجم هو النبت الذي لا ساق له ومنه قوله تعالى : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ (الرحمن :)

وهويه سقوطه على الأرض .

وقال جعفر الصادق : يعني محمداً صلى الله عليه وسلم إذا نزل من السماء ليلة المعراج والهوى النزول يقال هوى يهوى هوياً والكلام في قوله تعالى : ﴿ والنجم ﴾ كالكلام في قوله

تعالى ﴿ والطور ﴾ حيث لم يقل والنجوم والأطوار وقال : ﴿ والذاريات ﴾ (الذاريات :)

﴿ والمرسلات ﴾ (المرسلات :)

كما مر .

(329/734)

تنبيه : أوّل هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها فإنه تعالى قال في آخر تلك ﴿ وأدبار النجوم ﴾ وقال تعالى في أوّل هذه : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ قال الرازي : والفائدة في تقييد القسم به في وقت هويه أنه إذا كان في وسط السماء يكون بعيداً عن الأرض لا يهتدي به الساري لأنه لا يعلم به المشرق من المغرب ولا الجنوب من الشمال ، فإذا نزل عن وسط السماء تبين بنزوله جانب المغرب عن المشرق والجنوب عن الشمال .

وقوله تعالى : ﴿ ما ضل ﴾ أي : عن طريق الهداية ﴿ صاحبكم ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم وقتاً من الأوقات ، جواب القسم وعبر بالصحبة لأنها مع كونها أدلّ على القصد مرغبة لهم فيه وقتاً من الأوقات جواب القسم وعبر بالصحبة لأنها مع كونها أدلّ على القصد مرغبة لهم فيه ومقبلة بهم إليه ومقبحة عليهم اتهامه في إنذاره وهم يعرفون طهارة شمائله ﴿ وما غوى ﴾ أي : وما مال أدنى ميل ولا كان مقصده مما يسوء فإنه محروس من

أسباب غواية الشياطين وغيرها .

تنبيه : الغي جهل عن اعتقاد فاسد بخلاف الضلال ، وذهب أكثر المفسرين إلى أن الغي والضلال بمعنى واحد وفرق بعضهم بينهما فقال : الضلال في مقابلة الهدى ، والغي في مقابلة الرشد قال تعالى : ﴿ قد تبين الرشد من الغي ﴾ (البقرة :)

وقال تعالى ﴿ وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغيّ يتخذوه سبيلاً ﴾ (الأعراف :)

قال الرازي : وتحقيق القول فيه أنّ الضلال أعم استعمالاً في الوضع تقول : ضل بعيري ورحلي ولا تقول غيّ .

فائدة : قد دافع الله سبحانه عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأمّا باقي الأنبياء فدافعوا عن أنفسهم ليس بي ضلالة ليس بي سفاهة ونحو ذلك قاله القشيري فإن قيل : كيف الجمع بين قوله تعالى : ﴿ ما ضلّ صاحبكم ﴾ وبين قوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ (الضحى :)

أجيب : بأنّ المراد من الآية الآتية وجدك ضالاً عما أنت عليه الآن من الشريعة فهداك إليها بخلاف هذه الآية .

﴿ وما ينطق ﴾ أي : يجاوز نطقه فمه في وقت من الأوقات لا في هذا الحال ولا في الاستقبال نطقاً ناشئاً ﴿ عن الهوى ﴾ أي : عن أمره كالكهان الذين يغلب كذبهم صدقهم ، والشعراء وغيرهم وما يقول هذا القرآن من عند نفسه .

﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ هو ﴾ أي : الذي يتكلم به من القرآن وكلّ أقواله وأفعاله وأحواله ﴿ إلا وحي ﴾ أي : من الله تعالى وأكده بقوله تعالى : ﴿ يوحى ﴾ أي : يجدد إليه إيحاؤه منا وقتاً بعد وقت .

تنبيه : استدل بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء ، وأجيب : بأنّ الله تعالى إذا سوغ لهم الاجتهاد كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحياً لا نطقاً عن الهوى .

﴿ علمه ﴾ أي : صاحبكم الوحي الذي أتاكم به ملك ﴿ شديد القوى ﴾ فلا تعجبوا من هذه البحار الزاخرة فإنّ معلمه بهذه الصفة التي هو بها بحيث ينفذ كلّ ما أمره الله تعالى به وهو جبريل عليه السلام ، فإنه الواسطة في إبداء الخوارق . روي أنه قلع قرى قوم لوط ورفعها إلى السماء ثم قلبها وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين ، وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده في أوحى من رجعة الطرف ، ورأى إبليس يكلم عيسى على بعض عقاب الأرض المقدسة فنفحه نفحة بجناحه فألقاه في أقصى بلاد الهند .

﴿ ذو مرّة ﴾ قال ابن عباس : ذو منظر حسن وقال أكثر المفسرين : ذو قوة وقدرة عظيمة

على الذهاب فيما أمر به ، والطاقة لحمله بغاية النشاط والحدة كأنه ذو مزاج غلبت عليه الحدة فهو صعب المراس في مزاولته ماض على طريقة واحدة على غاية من الشدّة لا توصف لا التفات له بوجه إلى غير ما أمر به ، فهو مجتمع القوى مستحكم الشأن شديد الشكيمة لا يسأم في شيء يزاوله ، ومن جملة ما أعطي من القوّة القدرة على التشكل وإلى ذلك أشار بما تسبب عن هذا من قوله تعالى ﴿ فاستوى ﴾ أي : فاستقام واعتدل بغاية ما يكون من قوّته على أكمل حالاته في الصورة التي فطر عليها .

(331/734)

﴿ وهو ﴾ أي : والحال أنّ جبريل عليه السلام ﴿ بالأفق الأعلى ﴾ أي : عند مطلع الشمس ، وذلك أنّ جبريل عليه السلام كان يأتي النبيّ صلى الله عليه وسلم في صورة الآدميين كما كان يأتي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريه نفسه على صورته التي خلق عليها ، فأراه نفسه مرتين مرّة في الأرض ومرّة في السماء ، فأمّا التي في الأرض ففي الأفق الأعلى ، والمراد بالأعلى جانب المشرق وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان بحراء وكان جبريل واعده أن يأتيه وهو بحراء فطلع له جبريل من المشرق فسد الأفق إلى المغرب فخر صلى الله عليه وسلم مغشياً عليه فنزل له

جبريل عليه السلام في صورة الآدميين .

﴿ ثم دنا ﴾ أي قرب منه ﴿ فتدلى ﴾ أي زاد في القرب .

﴿ فكان ﴾ منه ﴿ قاب ﴾ أي قدر ﴿ قوسين ﴾ أي عربيتين ﴿ أو أدنى ﴾ من ذلك وضمه إلى نفسه حتى أفاق وسكن روعه وجعل يمسح التراب عن وجهه ، وأمّا في السماء فعند سدرة المنتهى ولم يره أحد من الأنبياء في صورته الحقيقية غير محمد صلى الله عليه وسلم

تنبيه : القاب والقيب والقاد والقيد والقيس المقدار ، وقد جاء التقدير بالقوس والرمح والسوط والذراع والباع والخطوة والشبر والفتر والأصبع ومنه "لا صلاة إلى أن ترتفع الشمس مقدار رمحين" وفي الحديث "لقاب قوس أحدكم من الجنة وموضع قده خير من الدنيا وما فيها" والقد : السوط ، ويقال بينهما خطوات يسيرة وقال الشاعر :

* * * وقد جعلتني من خزيمة أصبعا

فإن قيل : كيف تقدير قوله : ﴿ فكان قاب قوسين ﴾ أجيب : بأنّ تقديره فكان مسافة قربه مثل قاب قوسين فحذفت هذه المضافات كما قال أبو علي في قوله : وقد جعلتني من خزيمة أصبعا أي ذا مقدار مسافة أصبع .

وروى الشيباني قال : سألت زراً عن قوله تعالى : ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ قال أخبرنا عبد الله يعني ابن مسعود "أنه محمد صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح" وبهذا قال ابن عباس والحسن وقتادة ، وقال آخرون : دنا الرب عز وجل من محمد صلى الله عليه وسلم فتدلى فقرب منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، ومعنى دنوه تعالى : قرب منزلة كقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه تبارك وتعالى "من تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً ومن تقرّب إليّ ذراعاً تقرّبت إليه باعاً ومن مشى إليّ أتيته هرولة" وهذا إشارة إلى المعنى المجازي قال البغوي : وروينا في قصة المعراج من رواية شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن أنس : فدنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى وهذه رواية أبي سلمة عن ابن عباس وقال مجاهد : دنا جبريل من ربه وقد قدّمت الكلام على المعراج وعلى جواز رؤيته صلى الله عليه وسلم ربه في أوّل الإسراء . وقال الضحاك : دنا محمد صلى الله عليه وسلم من ربه عز وجلّ فتدلى فأهوى للسجود فكان منه قاب قوسين أو أدنى وتقدّم الكلام على القاب ، والقوس : ما يرمى به في قول مجاهد وعكرمة وعطاء عن ابن عباس ، فأخبر أنه كان بين جبريل عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم مقدار قوسين . وقال مجاهد : معناه حيث الوتر من القوس وهذا إشارة إلى تأكيد القرب والأصل في ذلك أنّ الحليفين من العرب كانا إذا أراد الصفاء والعهد خرجا بقوسيهما فالصقا بينهما

يريدان بذلك أنهما متظاهران يحامي كل واحد منهما عن صاحبه ، وقال عبد الله بن مسعود : قاب قوسين قدر ذراعين وهو قول سعيد بن جبير ، والقوس الذراع يقاس بها كل شيء أو أدنى بل أقرب وإنما ضرب المثل بالقوس لأنها لا تختلف بالقاب .

(333/734)

﴿ فأوحى ﴾ أي : الله تعالى وإن لم يجر له ذكر لعدم اللبس ﴿ إلى عبده ﴾ أي : جبريل عليه السلام ﴿ ما أوحى ﴾ أي : جبريل عليه السلام إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يذكر الموحي تفخيماً لشأنه وهذا التفسير ما جرى عليه الجلال المحلي وهو ظاهر ، وقيل : فأوحى إلى جبريل بسبب هذا القرب وعقبه إلى عبده أي عبد الله ما أوحى أي جبريل وقيل : الضمائر كلها لله تعالى وهو المعني بشديد القوى كما في قوله تعالى : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ (الذاريات :)

ودنوه منه برفع مكانته وتدليه جذبه بكليته إلى جانب القدس ، واختلف في الموحى على أقوال الأول قال سعيد ابن جبير : أوحى إليه ﴿ ألم يجدك يتيماً ﴾ (الضحى :)

إلى قوله تعالى : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ (الشرح :)

الثاني : أوحى إليه الصلاة . الثالث : أن أحداً من الأنبياء لا يدخل الجنة قبلك وأنّ أمة من

الأمم لا تدخلها قبل أمتك . الرابع : أنه مبهم لا يطلع عليه أحد وتعبدنا به على الجملة . الخامس : أنّ ما للعموم والمراد كل ما جاء به جبريل .

﴿ ما كذب الفؤاد ﴾ أي : فؤاد النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ ما رأى ﴾ أي : ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام ، وهذا أيضاً ما جرى عليه الجلال المحلي . وقال البقاعي : ما رأى البصر أي حين رؤية البصر كأنه حاضر القلب لا أنها رؤية بصر فقط يمكن فيها الخلو عن حضور القلب وقال القشيري ما معناه : ما كذب فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم ما رآه ببصره على الوصف الذي علمه قبل أن رآه ، فكان علمه حق اليقين وقرأ هشام بتشديد الذال والباقون بالتخفيف .

(334/734)

وقوله تعالى : ﴿ أفتمارونه ﴾ أي : تجادلونه وتغلبونه ﴿ على ما يرى ﴾ خطاب للمشركين المكذبين رؤية النبيّ صلى الله عليه وسلم لجبريل ، وهذا ما قاله ابن مسعود وعائشة . ومن قال : إنّ المرئي هو الله تعالى اختلفوا في معنى الرؤية فقال بعضهم : جعل بصره في فؤاده فرآه بفؤاده وهو قول ابن عباس قال : رآه بفؤاده مرّتين ما كذب الفؤاد ما رأى ، وقال أنس والحسن وعكرمة : رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل بعينه ، وروى عكرمة

عن ابن عباس قال : إنّ الله تعالى اصطفى إبراهيم عليه السلام بالخلة واصطفى في موسى عليه السلام بالكلام واصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم بالرؤية وكانت عائشة تقول لم ير محمد صلى الله عليه وسلم ربه وتحمل الرؤية على رؤية جبريل قال مسروق قلت لعائشة : يا أمّتاه هل رأى محمد ربه فقالت لقد قف شعري مما قلت ، أين أنت من ثلاث من حدّثكهنّ فقد كذب ؟ من حدّثك أنّ محمداً رأى ربه فقد كذب ثم قرأت ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ (الأنعام :)

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ﴾ (الشورى :)

ومن حدّثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ، ثم قرأت ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ (لقمان :)

. ومن حدّثك أنه كتم شيئاً مما أنزل الله تعالى فقد كذب ، ثم قرأت ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ (المائدة :)

(335/734)

الآية ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين" ، وروى أبو ذر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك "قال نور أنّى أراه" وحاصل المسألة : أنّ الصحيح ثبوت الرؤية

وهو ما جرى عليه ابن عباس حبر الأمّة ، وهو الذي يرجع إليه في المعضلات ، وقد راجعه أبو عمرو فأخبره أنه رآه ولا يقدح في ذلك حديث عائشة ، لأنها لم تخبر أنها سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لم أر وإنما اعتمدت على الاستنباط مما تقدم وجوابه ظاهر ، فإنّ الإدراك هو الإحاطة والله تعالى لا يحاط به وإذا ورد النص بنفي الإحاطة لا يلزم منه نفي الرؤية بغير إحاطة ، وأجيب عن احتجاجها بقوله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله ﴾ (الشورى :)

الآية بأنه لا يلزم من الرؤية وجود الكلام حال الرؤية فيجوز وجود الرؤية من غير كلام ، وبأنه عام مخصوص بما تقدّم من الأدلة .

وأمّا قوله صلى الله عليه وسلم "نور أنّى أراه" فقال الماوردي : الضمير في أراه عائد إلى الله تعالى ومعناه : إنه خالق النور المانع من رؤيته أي رؤية إحاطة كما مرّ إذ من المستحيل أن تكون ذات الله نوراً إذ النور من جملة الأجسام والله تعالى منزه عن ذلك فإن قيل : هلا قيل أفتمارونه على ما رأى بصيغة الماضي لأنهم إنما جادلوه حين أسري به فقالوا : صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عيرنا في الطريق وغير ذلك مما جادلوه به وما الحكمة في إبرازه بصيغة المضارع أجيب : بأنّ التقدير أفتمارونه على ما يرى فكيف وهو قد رآه في السماء فماذا تقولون فيه .

والواو في قوله تعالى : ﴿ ولقد رآه ﴾ يحتمل أن تكون عاطفة ويحتمل أن تكون للحال أي :

كيف تجادلونه فيما رآه وهو قد رآه ﴿ نزلة أخرى ﴾ على وجه لا شك فيه .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ نزلة ﴾ فعلة من النزول كجلسة من الجلوس فلا بدّ من نزول ، واختلفوا في ذلك النزول . وفيه وجوه:

(336/734)

الأوّل : أنّ الضمير في رآه عائد إلى جبريل أي رأى جبريل نزلة أخرى أي رأى جبريل في صورته التي خلق عليها نازلاً من السماء مرّة أخرى وذلك أنه رآه في صورته مرتين مرة في الأرض ومرّة في السماء ﴿ عند سدرة المنتهى ﴾ قال الرازي : ويحتمل أن تكون النزلة لمحمد صلى الله عليه وسلم

الثاني : أن الضمير عائد إلى الله تعالى أي رأى الله نزلة أخرى ، وهذا قول من قال في قوله تعالى : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ هو الله تعالى وقد قيل : إنّ النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بقلبه مرتين وعلى هذا ففي النزول وجهان : أحدهما : قول من يجوز على الله الحركة من غير تشبيه . وثانيهما : أنّ نزوله بمعنى القرب بالرحمة والفضل ، الثالث : أن محمداً رأى الله تعالى نزلة أخرى والمراد من النزلة : ضدّها وهي العرجة كأنه قال : رآه عرجة أخرى قال ابن عباس : نزلة أخرى هو أنه كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم عرجات

في تلك الليلة لمسألة التخفيف في الصلوات فيكون لكلّ عرجة نزلة فرأى ربه في بعضها .

وروي عن ابن عباس أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى ربه بفؤاده مرتين وعنه أنه رأى ربه بعينه وعلى أنّ المرئي هو الله تعالى فيكون قوله تعالى : ﴿ عند سدرة المنتهى ﴾ ظرفاً للرائي كما إذا قال القائل رأيت الهلال فيقال له : أين رأيته فيقول : على السطح ، وقد يقول : عند الشجرة الفلانية ، وأمّا قول من قال : بأنّ الله تعالى في مكان فذلك باطل ، وإن قيل : بأنّ المرئي جبريل عليه السلام فظاهر .

الآية بأنه لا يلزم من الرؤية وجود الكلام حال الرؤية فيجوز وجود الرؤية من غير كلام ، وبأنه عام مخصوص بما تقدّم من الأدلة .

(337/734)

وأمّا قوله صلى الله عليه وسلم "نور أنّى أراه" فقال الماوردي : الضمير في أراه عائد إلى الله تعالى ومعناه : إنه خالق النور المانع من رؤيته أي رؤية إحاطة كما مرّ إذ من المستحيل أن تكون ذات الله نوراً إذ النور من جملة الأجسام والله تعالى منزه عن ذلك فإن قيل : هلا قيل أفتمارونه على ما رأى بصيغة الماضي لأنهم إنما جادلوه حين أسري به فقالوا : صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عيرنا في الطريق وغير ذلك مما جادلوه به وما الحكمة في إبرازه

بصيغة المضارع أجيب : بأنّ التقدير أفتمارونه على ما يرى فكيف وهو قد رآه في السماء فماذا تقولون فيه .

والواو في قوله تعالى : ﴿ ولقد رآه ﴾ يحتمل أن تكون عاطفة ويحتمل أن تكون للحال أي : كيف تجادلونه فيما رآه وهو قد رآه ﴿ نزلة أخرى ﴾ على وجه لا شك فيه .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ نزلة ﴾ فعلة من النزول كجلسة من الجلوس فلا بدّ من نزول ، واختلفوا في ذلك النزول . وفيه وجوه:

الأوّل : أنّ الضمير في رآه عائد إلى جبريل أي رأى جبريل نزلة أخرى أي رأى جبريل في صورته التي خلق عليها نازلاً من السماء مرّة أخرى وذلك أنه رآه في صورته مرتين مرة في الأرض ومرّة في السماء ﴿ عند سدرة المنتهى ﴾ قال الرازي : ويحتمل أن تكون النزلة لمحمد صلى الله عليه وسلم

الثاني : أن الضمير عائد إلى الله تعالى أي رأى الله نزلة أخرى ، وهذا قول من قال في قوله تعالى : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ هو الله تعالى وقد قيل : إنّ النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بقلبه مرتين وعلى هذا ففي النزول وجهان : أحدهما : قول من يجوز على الله

الحركة من غير تشبيه . وثانيهما : أنّ نزوله بمعنى القرب بالرحمة والفضل ، الثالث : أن محمداً رأى الله تعالى نزلة أخرى والمراد من النزلة : ضدّها وهي العرجة كأنه قال : رآه عرجة أخرى قال ابن عباس : نزلة أخرى هو أنه كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم عرجات في تلك الليلة لمسألة التخفيف في الصلوات فيكون لكلّ عرجة نزلة فرأى ربه في بعضها .

وروي عن ابن عباس أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى ربه بفؤاده مرتين وعنه أنه رأى ربه بعينه وعلى أنّ المرئي هو الله تعالى فيكون قوله تعالى : ﴿ عند سدرة المنتهى ﴾ ظرفاً للرائي كما إذا قال القائل رأيت الهلال فيقال له : أين رأيته فيقول : على السطح ، وقد يقول : عند الشجرة الفلانية ، وأمّا قول من قال : بأنّ الله تعالى في مكان فذلك باطل ، وإن قيل : بأنّ المرئي جبريل عليه السلام فظاهر .

تنبيه : إضافة السدرة إلى المنتهى تحتمل وجوهاً :

أحدها : إضافة الشيء إلى مكانه كقولك أشجار بلدة كذا ، فالمنتهى حينئذ موضع لا يتعدّاه ملك ، قال هلال بن كيسان : سأل ابن عباس كعباً عن سدرة المنتهى وأنا حاضر فقال كعب : إنها سدرة في أصل العرش على رؤوس حملة العرش وإليها ينتهي علم الخلائق ، وما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله تعالى ، وقيل : ينتهي إليها ما هبط من فوقها ويصعد من تحتها ، وقال كعب : تنتهي إليها الملائكة والأنبياء ، وقال الربيع : تنتهي إليها أرواح المؤمنين .

وثانيها : إضافة الملك إلى مالكه كقولك : دار زيد وشجر زيد وحينئذ المنتهى فيه محذوف تقديره سدرة المنتهى إليه قال الله تعالى : ﴿ إلى ربك المنتهى ﴾ (النجم :)

(339/734)

فالمنتهى إليه هو الله تعالى وإضافة السدرة إليه حينئذ كإضافة البيت إليه للتشريف والعظيم ، كما يقال في التسبيح يا غاية رغبتاه ويا منتهى أملاه .

وثالثها : إضافة المحل إلى الحال فيه كقولك كتاب الفقه وعلى هذا فالتقدير سدرة عندها منتهى العلوم فتتلقى هناك .

قال البقاعي : وذلك والله أعلم ليلة الإسراء في السنة الثالثة عشرة من النبوّة قبل الهجرة بقليل بعد أن ترقى في معارج الكمالات من السنين على عدد السموات وما بينها من المسافات فانتهى إلى منتهى سمع فيه صرير الأقلام .

وعظمها بقوله تعالى : ﴿ عندها ﴾ أي : السدرة ﴿ جنة المأوى ﴾ أي : التي لا مأوى في الحقيقة غيرها وهي الجنة التي وعدها المتقون كقوله تعالى : ﴿ دار المقامة ﴾ (فاطر :) وقيل هي جنة أخرى عندها تكون أرواح الشهداء تأوي إليها وقيل هي جنة الملائكة .

(340/734)

وقوله تعالى : ﴿ إذ ﴾ معمول لرأى أي : رأى من آيات ربه الكبرى حين ﴿ يغشى السدرة ﴾ وهي شجرة النبق وقوله تعالى : ﴿ ما يغشى ﴾ تعظيم وتكثير لما يغشاها واختلفوا فيما يغشاها فقيل : فراش أو جراد من ذهب وهو قول ابن عباس وابن مسعود والضحاك قال الرازي : وهذا ضعيف لأنّ ذلك لا يثبت إلا بدليل سمعي ، فإن صح فيه خبر وإلا فلا وجه له ا . هـ . قال القرطبي ورواه ابن مسعود وابن عباس مرفوعاً إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال أيضاً عن النبيّ صلى الله عليه وسلم إنه قال "رأيت السدرة يغشاها فراش من ذهب ، ورأيت على كلّ ورقة ملكاً قائماً يسبح الله تعالى وذلك قوله عز من قائل : ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ " وقيل : ملائكة تغشاها كأنهم طيور يرتقون إليها متشوقين متبركين بها زائرين كما يزور الناس الكعبة وروي في حديث المعراج عن أنس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ذهب بي إلى سدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كقلال هجر قال : فلما غشيها من أمر الله تعالى ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى يقدر أن ينعتها من حسنها ، فأوحى إلي ما أوحى ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة" .

وقيل : يغشاها أنوار الله تعالى ، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لما وصل إليها تجلى ربه لها كما تجلى للجبل فظهرت الأنوار ، ولكن السدرة كانت أقوى من الجبل وأثبت فجعل دكا ولم تتحرّك الشجرة وخر موسى عليه السلام صعقاً ولم يتزلزل محمد صلى الله عليه وسلم وقيل : أبهمه تعظيماً له والغشيان يكون بمعنى التغطية قال الماوردي في معاني القرآن : فإن قيل : لم اختيرت السدرة لهذا الأمر دون غيرها من الشجر قلنا : لأنّ السدرة تختص بثلاثة أوصاف : ظلّ مديد وطعم لذيذ ورائحة ذكية ، فشابهت الإيمان الذي يجمع قولاً وعملاً ونية فظلها من الإيمان بمنزلة العمل لتجاوره ، وطعمها بمنزلة النية لكمونه ، وريحها بمنزلة القول لظهوره ، وروى أبو داود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قطع سدرة صوب الله تعالى رأسه في النار" وسئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال : هو مختصر يعني : من قطع سدرة في فلاة يستظلّ بها ابن السبيل والبهائم ، عبثاً وظلماً بغير حق يكون له فيها ، صوب الله تعالى رأسه في النار .

ثم أكد سبحانه الرؤية وقرّرها بقوله تعالى ﴿ ما زاغ ﴾ أي : ما مال أدنى ميل ﴿ البصر ﴾ أي الذي لا بصر لمخلوق أكمل منه فما قصر عن النظر إلى ما أذن له فيه وما زاد ﴿ وما طغى ﴾ أي : تجاوز الحد إلى ما لم يؤذن له فيه ، مع أنّ ذاك العالم غريب عن بني آدم وفيه من العجائب ما يحير الناظر ، بل كانت له الصفة الصادقة المتوسطة بين الشره والزهادة على

أتم قوانين العدل فأثبت ما رآه على حقيقته ، وكما هو قال السهروردي في أول الباب الثاني والثلاثين من عوارفه : وأخبر تعالى بحسن أدبه في الحضرة بهذه الآية وهذه غامضة من غوامض الأدب اختص بها رسول الله صلى الله عليه وسلم

تنبيه : اللام في البصر تحتمل وجهين:

(342/734)

أحدهما : المعروف أي ما زاغ بصر محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا إن قيل بأنّ الغاشي للسدرة هو الجراد والفراش فمعناه لم يلتفت إليه ولم يشتغل به ولم يقطع نظره عن مقصوده فيكون غشيان الجراد والفراش ابتلاء وامتحاناً لمحمد صلى الله عليه وسلم وإن قيل إنّ الغاشي أنوار الله تعالى ففيه وجهان : أحدهما : لم يلتفت يمنة ولا يسرة بل اشتغل بمطالعتها . الثاني : ما زاغ البصر بصعقه بخلاف موسى عليه السلام فإنه قطع النظر وغشي عليه ، ففي الأوّل بيان أدب محمد صلى الله عليه وسلم وفي الثاني بيان قوّته . الوجه الثاني : أنّ اللام لتعريف الجنس أي ما زاغ بصره أصلاً في ذلك الموضع لعظم هيبته فإن قيل : لو كان كذلك لقال ما زاغ بصره فإنه أدلّ على العموم فإنّ النكرة في معرض النفي تعم ، أجيب : بأنّ هذا مثل كقوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ (الأنعام :)

ولم يقل ولا يدركه بصر .

ولما كانوا قد أنكروا الإسراء إنكاراً لم يقع لهم في غيره مثله زاد في تأكيده على وجه يعمّ غيره فقال تعالى : ﴿ لقد رأى ﴾ أي : أبصر ما أهلناه له من الرسالة تلك الليلة إبصاراً سارياً إلى البواطن غير مقتصر على الظواهر ﴿ من آيات ربه ﴾ أي : المحسن إليه بما لم يصل إليه أحد قبله ولا يصل إليه أحد بعده ﴿ الكبرى ﴾ أي : العظام أي بعضها ، واختلف في ذلك البعض فقيل جبريل عليه السلام رآه في صورته له ستمائة جناح . وقال الرازي : والظاهر أن هذه الآيات غير تلك لأنّ جبريل عليه السلام وإن كان عظيماً لكنه ورد في الأخبار أنّ لله تعالى ملائكة أعظم منه ، والكبرى تأنيث الأكبر فكأنه تعالى قال رأى من آيات ربه آيات هنّ أكبر الآيات وقيل رأى : رفرفاً أخضر سد الأفق وقيل : أراد ما رأى في تلك الليلة في مسيره وعوده ومن اجتماعه تلك الليلة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام في السموات .

ولما قرّر تعالى الرسالة ذكر ما ينبغي أن يبتدئ به الرسول وهو التوحيد ومنع الخلق عن الإشراك بقوله تعالى:

إشارة إلى إبطال قولهم كما إذا ادّعى ضعيف الملك ثم رآه العقلاء في غاية البعد عما يدعيه يقولون : انظروا إلى هذا الذي يدعي الملك منكرين عليه غير مستدلين بدليل لظهور أمره ، فلذلك قال تعالى : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ أي كما هما فكيف تشركونهما بالله سبحانه وتعالى ، واللات صنم ثقيف والعزى شجرة لغسان وهما أعظم أصنامهم ، اشتقوا لهما اسمين من أسماء الله تعالى فقالوا من الله اللات ومن العزيز العزى وقيل : العزى تأنيث الأعز وعن ابن عباس كان اللات رجلاً يلت السويق للحاج فلما مات عكفوا على قبره .

وعن مجاهد أن العزى شجرة لغطفان كانوا يعبدونه فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها فجعل خالد يضربها بالفأس ويقول:

*يا عز كفرانك لا سبحانك ** إني رأيت الله قد أهانك*

فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية بويلها واضعة يدها على رأسها ويقال إنّ خالداً رجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : قد قلعتها فقال ما رأيت قال ما رأيت شيئاً فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم ما فعلت فعاودها ومعه المعول فقلعها واجتث أصلها فخرجت منها امرأة عريانة فقتلها ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال تلك العزى ولن تعبد أبداً .

وقال الضحاك : هي صنم لغطفان وضعها لهم سعيد بن ظالم الغطفاني ، وذلك أنه لما قدم مكة فرأى الصفا والمروة ورأى أهل مكة يطوفون بهما فعاد إلى نخلة وقال لقومه : إن لأهل مكة الصفا والمروة وليستا لكم ولهم إله يعبدونه وليس لكم قالوا : فما تأمرنا به ، قال : أنا أصنع لكم كذلك وأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ونقلهما إلى نخلة فوضع الذي أخذه من الصفا وقال : هذا الصفا ووضع الذي أخذه من المروة ، وقال هذه المروة : ثم أخذ ثلاثة أحجار فاسندها إلى شجرة فقال : هذا ربكم ، فجعلوا يطوفون بين الحجرين ويعبدون الحجارة حتى افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فأمر برفع الحجارة وبعث خالد بن الوليد إلى العزى فقطعها وقال ابن زيد : هي بيت بالطائف كان تعبده ثقيف .

وأما قوله تعالى ﴿ ومناة ﴾ فقال قتادة : هي صخرة كانت لخزاعة بقديد ، وقالت عائشة في الأنصار كانوا يصلون لمناة فكانت حذو قديد . وقال ابن زيد بيت بالمشلل تعبده بنو كعب وقال الضحاك : مناة صنم لهذيل وخزاعة يعبده أهل مكة وقيل اللات والعزى ومناة أصنام من حجارة كانت في جوف الكعبة يعبدونها .

وقوله تعالى : ﴿ الثالثة الأخرى ﴾ نعت لمناة إذ هي الثالثة للصنمين في الذكر ، وأما الأخرى فقال أبو البقاء : توكيد لأنّ الثالثة لا تكون إلا أخرى ، وقال الزمخشري : الأخرى

ذم وهي المتأخرة الوضيعة المقدار كقوله تعالى : ﴿ وقالت أخراهم ﴾ أي : وضعاؤهم ﴿ لأولاهم ﴾ أي : لأشرافهم ، ويجوز أن تكون الأولية والتقدّم عندهم للات والعزى ا . ه . قال ابن عادل : وفيه نظر لأنّ الأخرى إنما تدل على الغيرية وليس فيها تعرّض لمدح ولا ذم فإن جاء شيء فلقرينة خارجية ا . ه . ووجه الترتيب أنّ اللات كان وثناً على صورة آدمي ، والعزى شجرة نبات ، ومناة صخرة فهي جماد فهي في أخريات المراتب .

فإن قيل : ما فائدة الفاء في قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم ﴾ وقد وردت في مواضع بغير فاء كقوله تعالى : ﴿ أرأيتم ما تدعون من دون الله ﴾ (الأحقاف :)

(345/734)

﴿ أرأيتم شركاءكم ﴾ (فاطر :)

أجيب : بأنه تعالى لما قدم عظمته في ملكوته وأنّ رسوله إلى الرسل يسد الآفاق ببعض أجنحته ويهلك المدائن بشدّته وقوّته ولا يمكنه مع هذا أن يتعدّى السدرة في مقام جلال الله وعزته قال : أفرايتم هذه الأصنام مع ذلتها وحقارتها شركاء الله تعالى مع ما تقدّم ، فقال بالفاء أي عقب ما سمعتم من عظمة آيات الله الكبرى ونفاذ علمه في الملأ الأعلى وما تحت الثرى انظروا إلى اللات والعزى تعلموا فساد ما ذهبتم إليه .

تنبيه : مفعول أرأيت الأول اللات وما عطف عليه والثاني : محذوف والمعنى أخبروني ألهذه الأصنام قدرة على شيء ما فتعبدونها دون الله القادر على ما تقدّم ذكره .

وقرأ ابن كثير ﴿ مناة ﴾ بهمزة مفتوحة بعد الألف والباقون بغير همز .

ولما زعموا أيضاً أنّ الملائكة بنات الله مع كراهتهم للبنات نزل ﴿ ألكم ﴾ أي : خاصة ﴿ الذكر ﴾ أي : النوع الأعلى ﴿ وله ﴾ أي : وحده ﴿ الأنثى ﴾ أي : النوع الأسفل .

﴿ تلك ﴾ أي : هذه القسمة البعيدة عن الصواب ﴿ إذاً ﴾ أي : إذ جعلتم البنات له والبنين لكم ﴿ قسمة ضيزى ﴾ أي : جائرة ظالمة ناقصة فيها بخس للحق إلى الغاية عوجاء غير معتدلة ، حيث خصصتم به ما أوصلتكم الكراهة له إلى دفنه حياً بل كان ينبغي أن تجعلوا الأعظم للعظيم والأنقص للحقير فخالفتم العقل والنقل والعادة .

﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ هي ﴾ أي : هذه الأصنام ﴿ إلا أسماء ﴾ أي : لا حقائق لها فيما ادعيتم لها من الإلهية ليس لها من ذلك غير الأسماء وأكد ذلك بقوله تعالى :

﴿ سميتموها ﴾ أي : ابتدعتم تسميتها .

فإن قيل : الأسماء لا تسمى وإنما يسمى بها أجيب : بأن التسمية وضع الاسم فكأنه قال أسماء وضعتموها فاستعمل سميتموها استعمال وضعتموها ﴿ أنتم وآباؤكم ﴾ أي : لا غير ﴿ ما أنزل الله ﴾ أي : الذي له جميع صفات الكمال ﴿ بها ﴾ أي باستحقاقها للأسماء أو لما سميتموها به من الإلهية ، وأغرق في النفي فقال : ﴿ من سلطان ﴾ أي : حجة تصلح مسلطاً على ما يدعى فيها بل لمجرد الهوى لم تروا منها آية ولا كلمتكم قط بكلمة تعتمدونها وعلى تقدير أن تتكلم الشياطين على ألسنتها فأيّ طريقة قويمة شرعت لكم ، وأيّ كلام صالح أو بليغ برز إليكم منها وأيّ آية كبرى أرَتْكموها .

﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ يتبعون ﴾ أي : في وقت من الأوقات في أمر هذه الأوثان بغاية جهدهم من أنها آلهة وأنها تشفع لهم أو تقربهم إلى الله تعالى ﴿ إلا الظن ﴾ أي : وهو غاية أمرهم لمن يحسن الظن بهم والظن ترجيح أحد الجائزين على زعم الظان . ولما كان الظن قد يكون موافقاً للحق مخالفاً للهوى قال تعالى : ﴿ وما تهوى الأنفس ﴾ أي : تشتهي وهي لما لها من النقص لا تشتهي أبداً إلا ما يهوى بها عن غاية أوجها إلى أسفل حضيضها ، وأما المعالي وحسن العواقب فإنما يسوق إليها العقل .

قال القشيري : فأما الظن الجميل بالله تعالى فليس من هذا الباب ، والتباس عواقب الشخص عليه ليس من هذه الجملة بسبيل إنما الظن المعلول في الله تعالى وأحكامه وصفاته ا . هـ . ولهذا كان كثير من الفقه ظنياً وقال صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه "أنا عند

ظن عبدي بي" .

﴿ ولقد جاءهم ﴾ أي : العجب أنهم يقولون ذلك والحال أنهم قد جاءهم ﴿ من ربهم ﴾ المحسن إليهم ﴿ الهدى ﴾ على لسان النبيّ صلى الله عليه وسلم بالبرهان القاطع أنها ليست بآلهة ، وأنّ العبادة لا تصلح إلا لله الواحد القهار فلم يرجعوا عما هم عليه ، وقرأ حمزة والكسائي في الوصل بضم الهاء والميم وقرأ أبو عمرو بكسرهما والباقون بكسر الهاء وضم الميم .

(347/734)

﴿ أم للإنسان ﴾ أي : كل إنسان منهم ﴿ ما تمنى ﴾ أي : من اتباع ما يشتهي من جاه ومال وطول عمر ورفاهة عيش ، ومن أن الأصنام تشفع له ليس الأمر كذلك .

﴿ فللّه ﴾ أي : الملك الأعظم وحده ﴿ الآخرة ﴾ فهو لا يعطي ما فيها إلا لمن تبع هداه وترك هواه ﴿ والأولى ﴾ أي : الدنيا فهو لا يعطي جميع الأماني فيها لأحد أصلاً كما هو مشاهد ولكنه يعطي منها ما يشاء لمن يريد وليس لأحد أن يتحكم عليه سبحانه في شيء منها .

﴿ وكم من ملك ﴾ أي : كثير من الملائكة أي ممن يعبدهم هؤلاء الكفار ، ودلّ على زيادة

قوّتهم بشرف مسكنهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ في السموات ﴾ أي : وهم في الكرامة والزلفى ﴿ لا تغني شفاعتهم ﴾ أي : عن أحد من الناس ﴿ شيئاً ﴾ ثم قصر الأمر عليه ورده بحذافيره إليه بقوله تعالى : ﴿ إلا من بعد أن يأذن ﴾ أي : يمكن ويريد ﴿ الله ﴾ أي الملك الذي لا أمر أصلاً لأحد معه ﴿ لمن يشاء ﴾ من عباده من الملائكة أو من الناس أن يشفع ﴿ ويرضى ﴾ أي : ويراه أهلاً لذلك فكيف تعبد الأصنام مع حقارتها لتشفع لهم .

﴿ إنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي : لا يصدقون ولا يقرّون بالبعث وغيره من أحوال يوم القيامة ﴿ ليسمون الملائكة ﴾ أي : كل واحد منهم ﴿ تسمية الأنثى ﴾ بأن سموه بنتاً ، وذلك أنهم كانوا يقولون : الملائكة وجدوا من الله تعالى فهم أولاده بمعنى الإيجاد ، ثم إنهم رأوا في الملائكة تاء التأنيث وصح عندهم أن يقال : سجدت الملائكة فقالوا بنات الله فسموهم تسمية الإناث .

فإن قيل : كيف يقال إنهم لا يؤمنون بالآخرة مع أنهم كانوا يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، وكان من عادتهم أن يربطوا مركوباً على قبر من يموت ويعتقدون أنه يحشر عليه أجيب : بأنهم ما كانوا يجزمون به بل كانوا يقولون لا حشر فإن كان فلنا شفعاء بدليل ما حكى الله تعالى عنهم : ﴿ وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إنّ لي عنده للحسنى ﴾ (فصلت :)

وبأنهم ما كانوا يعترفون بالآخرة على الوجه الذي وردت به الرسل فإن قيل : كيف قال : تسمية الأنثى ولم يقل تسمية الإناث أجيب بأن المراد بيان الجنس وهذا اللفظ أليق بهذا الموضع لمؤاخاة رؤوس الآي .

﴿ وما ﴾ أي : والحال أنهم ما ﴿ لهم به ﴾ أي : بما يقولون ، وقيل : الضمير يعود إلى ما تقدّم من عدم قبول الشفاعة وقيل : يعود إلى الله تعالى أي ما لهم بالله تعالى ﴿ من علم ﴾ ثم بين تعالى الحامل لهم على ذلك بقوله تعالى : ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ يتبعون ﴾ أي بغاية ما يكون من شهوة النفس في ذلك وغيره ﴿ إلا الظن ﴾ أي الذي يتخيلونه ﴿ وإن ﴾ أي : والحال أن ﴿ الظن ﴾ أي : مطلقاً في هذا وفي غيره ، ولذلك أظهر في موضع الإضمار ﴿ لا يغني ﴾ أي إغناء مبتدأ ﴿ من الحق ﴾ أي : الأمر الثابت في نفس الأمر الذي هو حقيقة الشيء وذاته بحيث يكون الظن بدله والظن إنما يعتبر في العمليات لا في العلميات ولا سيما الأصولية ﴿ شيئاً ﴾ أي : من الإغناء عن أحد من الخلق فإنه لا يؤدّي أبداً إلى الجزم بالعلم بالشيء على ما هو عليه في نفس الأمر فهو ممنوع في أصول الدين ، فإنّ المقصود فيها تحقيق الأمر على ما هو عليه في الواقع ، وأما الفروع فإنّ المكلف به فيها هو الظن لكن بشرطه المأذون فيه وهو ردّه إلى الأصول المستنبط منها ، لعجز الإنسان عن القطع في جميع الفروع تنبيهاً على عجزه وافتقاره إلى الله تعالى ليقبل عليه ويتبرأ من حوله وقوّته ليكشف له عن

الحقائق .

ولما أن أصروا على الهوى بعد مجيء الهدى سبب عن ذلك قوله تعالى : ﴿ فأعرض ﴾ أي : يا أشرف الرسل ﴿ عمن تولى ﴾ أي : كلف نفسه خلاف ما يدعو إليه العقل والفطرة الأولى ﴿ عن ذكرنا ﴾ أي : القرآن الذي أنزلناه فلم يتله ولم يتدبر معانيه ﴿ ولم يرد ﴾ أي : في وقت من الأوقات ﴿ إلا الحياة الدنيا ﴾ أي الحاضرة لتقيده بالمحسوسات كالبهائم مع العمى عن دناءتها وحقارتها . قال الجلال المحلي : وهذا قبل الأمر بالجهاد .

(349/734)

قال الرازي : وأكثر المفسرين يقولون : بأن كل ما في القرآن من قوله تعالى : ﴿ فأعرض ﴾ منسوخ بآية القتال وهو باطل ، لأنّ الأمر بالإعراض موافق لآية القتال فكيف ينسخ بها وذلك لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم في الأول كان مأموراً بالدعاء بالحكمة والموعظة الحسنة فلما عارضوه بأباطيلهم أمر بإزالة شبههم والجواب عن أباطيلهم . وقيل له : وجادلهم بالتي أحسن ثم لما لم ينفع قال له ربه : أعرض عنهم ولا تقل لهم بالدليل والبرهان فإنهم لا ينتفعون به ولا يتبعون الحق ، وقاتلهم والإعراض عن المناظرة شرط لجواز المقاتلة فكيف يكون منسوخاً بها .

﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر المتناهي في الجهل والقباحة ﴿ مبلغهم ﴾ أي : نهاية بلوغهم وموضع بلوغهم والحاصل لهم وتهكم بهم بقوله تعالى : ﴿ من العلم ﴾ أي غايتهم من العلم أنهم آثروا الدنيا على الآخرة ، والجملة اعتراض مقرر لقصور همتهم على الدنيا وقوله تعالى : ﴿ إنّ ربك ﴾ أي : المحسن إليك بالرسالة ﴿ هو أعلم ﴾ أي : عالم ﴿ بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ أي : ظاهراً وباطناً ، تعليل للأمر بالإعراض أي إنما يعلم الله من يجيب ممن لا يجيب فلا تتعب نفسك في دعوتهم إذ ما عليك إلا البلاغ وقد بلغت ، لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان كالطبيب للقلوب فأتى على ترتيب الأطباء في أنّ المرض إذا أمكن إصلاحه بالغذاء لا يستعملون الدواء ، وما أمكن إصلاحه بالدواء الضعيف لا يستعملون الدواء القويّ ، ثم إذا عجزوا عن المداواة بالمشروبات وغيرها عدلوا إلى الحديد والكي كما قيل : آخر الدواء الكي فالنبيّ صلى الله عليه وسلم أولاً أمر القلوب بذكر الله تعالى فقط ، فإن بذكر الله تطمئن القلوب ، كما أنّ بالغذاء تطمئن النفوس والذكر غذاء القلوب ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم أولاً : "قولوا لا إله إلا الله أمر بالذكر فانتفع مثل أبي بكر ، ومن لم ينتفع ذكر لهم الدليل وقال ﴿ أو لم يتفكروا ﴾ (الأعراف :)

﴿ قل انظروا ﴾ (يونس :)

﴿ أفلا ينظرون ﴾ (الغاشية :)

إلى غير ذلك ، فلما لم ينتفعوا أتى بالوعيد والتهديد فلما لم ينفعهم قال أعرض عن المعالجة واقطع الفاسد لئلا يفسد الصالح .

فإن قيل : إنّ الله تعالى بين أنّ غايتهم ذلك في العلم ولا يكلف الله تعالى نفساً إلا وسعها والمجنون الذي لا علم له أو الصبيّ الذي لا يؤمر بما فوق احتماله فكيف يعاقبهم الله تعالى ؟

أجيب : بأنه ذكر قبل ذلك أنهم تولوا عن ذكر الله فكان عدم علمهم لعدم قبولهم العلم ، وإنما قدر الله تعالى توليهم ليضاف الجهل إلى ذلك فيتحقق العقاب .

﴿ ولله ﴾ أي : الملك الأعظم وحده ﴿ ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي : من الذوات والمعاني فيشمل ذلك السموات والأرض معترض بين الآية الأولى وبين قوله تعالى ﴿ ليجزي الذين أساؤوا ﴾ أي : بالضلال ﴿ بما عملوا ﴾ أي : بسببه أو بجنسه إما بواسطتك بسيوفك وبسيوف أتباعك إذ أذنت لكم في القتال ، وإما بغير ذلك بالموت حتف الأنف تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم ثم بعذاب الآخرة على جميع ذنوبهم من غير أن يكون عجل لهم في الدنيا شيء ينقص بسببه عذاب الآخرة .

تنبيه : اللام في ليجزي يجوز أن تتعلق بقوله تعالى : ﴿ بمن ضل ﴾ و ﴿ بمن اهتدى ﴾ ، واللام للصيرورة أي عاقبة أمرهم جميعاً للجزاء بما عملوا قال معناه الزمخشري ، وأن تتعلق

بما دلّ عليه قوله تعالى : ﴿ أعلم بمن ضلّ ﴾ أي : حفظ ذلك ليجزي قاله أبو البقاء ﴿ ويجزي ﴾ أي : ويثيب ويكرم ﴿ الذين أحسنوا ﴾ أي : على ثباتهم على الدين وصبرهم عليه وعلى أذى أعدائهم ﴿ بالحسنى ﴾ أي : بالمثوبة الحسنى وهي الجنة .

(351/734)

وبين المحسنين بقوله تعالى : ﴿ الذين يجتنبون ﴾ أي : يكلفون أنفسهم ويجهدونها على أن يتركوا ﴿ كبائر الإثم ﴾ أي : ما عظم الشارع إثمه بعد تحريمه بالوعيد والحد ، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الباء الموحدة وبعدها ياء ساكنة والباقون بفتح الموحدة وبعدها ألف وبعد الألف همزة مكسورة وعطف على كبائر قوله تعالى : ﴿ والفواحش ﴾ والفاحشة من الكبائر ما كرهه الطبع وأنكره العقل واستخبثه الشرع والكبيرة صفة عائدة إلى الكيفية .

وقوله تعالى : ﴿ إلا اللمم ﴾ فيه أوجه : أحدها وهو المشهور أنه استثناء منقطع أي لكن اللمم ، لأنه الصغائر فلم تندرج فيما قبلها ثانيها : أنه صفة وإلا بمعنى غير كقوله تعالى ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ (الأنبياء :)

أي كبائر الأثم والفواحش غير اللمم . ثالثها : أنه متصل وهذا عند من يفسر اللمم بغير

الصغائر قالوا : إنّ اللمم من الكبائر والفواحش قالوا : إن معنى الآية إلا أن يلم بالفاحشة مرّة ثم يتوب ويقع الوقعة ثم ينتهي وهو قول أبي هريرة ومجاهد والحسن ورواه عطاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال عبد الله بن عمرو بن العاص : اللمم ما دون الشرك قال السدي : قال أبو صالح : سئلت عن قول الله عز وجل إلا اللمم فقلت : هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاوده فذكرت ذلك لابن عباس رضي الله تعالى عنهما فقال : لقد أعانك عليها ملك كريم وروى : عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أن الله عز وجل كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر ، وزنا اللسان النطق والنفس تتمنى وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه" ولمسلم "كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا يدرك ذلك لا محالة العينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه النطق واليد زناها البطش والرجل زناها الخطأ والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه" .

(352/734)

تنبيه : ذهب الجماهير من السلف والخلف من جميع الطوائف إلى انقسام المعاصي إلى كبائر وصغائر ، وقد تظاهرت على ذلك دلائل الكتاب والسنة ، وقد اختلف في ضبط الكبيرة بالحد فقال جمع : هي ما لحق صاحبها وعيد شديد بنص كتاب أو سنة ، وقال جمع : هي المعصية الموجبة للحد والأوّل أوجه لأنهم عدوا الربا وأكل مال اليتيم وشهادة الزور ونحوها من الكبائر ولا حد فيها وقال إمام الحرمين : هي كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ، وأما تعريفها بالعد فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : هي إلى السبعين أقرب وقال سعيد بن جبير هي إلى السبعمائة أقرب أي باعتبار أصناف أنواعها وما عدا المحدود من المعاصي فمن الصغائر ولا بأس بذكر شيء من النوعين .

فمن الأوّل تقديم الصلاة أو تأخيرها عن وقتها بلا عذر ومنع الزكاة وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة ونسيان القرآن واليأس من رحمة الله تعالى ، وأمن مكر الله تعالى ، وقتل النفس عمداً أو شبه عمد ، والفرار من الزحف وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والإفطار في رمضان من غير عذر ، وعقوق الوالدين والزنا واللواط وشهادة الزور ، وشرب الخمر وإن قل ، والسرقة والغصب وقيده جماعة بما يبلغ ربع مثقال كما يقطع به في السرقة ، وكتمان الشهادة بلا عذر ، وضرب المسلم بغير حق ، وقطع الرحم والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمداً ، وسب الصحابة ، وأخذ الرشوة ، والسحر والنميمة ، وأما الغيبة فإن كانت في أهل العلم وحملة القرآن فهي كبيرة وإلا فصغيرة . q

ومن الصغائر النظر المحرم وكذب لا حد فيه ولا ضرر ، والإشراف على سوآت الناس ، وهجر المسلم فوق ثلاث والضحك في الصلاة المفروضة ، والنياحة وشق الجيب في المصيبة والتبختر في المشي والجلوس بين الفساق إيناساً لهم ، وإدخال مجانين وصبيان ونجاسة يغلب تنجيسهم المسجد ، واستعمال نجاسة في بدن أو ثوب لغير حاجة ، والإصرار على صغيرة من نوع أو أنواع يصيرها كبيرة إلا أن تغلب طاعاته معاصيه كما أوضحت ذلك في شرح المنهاج وغيره .

﴿ إنّ ربك ﴾ أي : المحسن إليك بإرسالك رحمة للعالمين والتخفيف عن أمتك ﴿ واسع المغفرة ﴾ يغفر الصغائر باجتناب الكبائر ، ويغفر الكبائر بالتوبة وله أن يغفر ما شاء من الذنوب ما عدا الشرك صغيرها وكبيرها كما قال تعالى : ﴿ إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (النساء :)

بخلاف غيره من الملوك فإنه لا يغفر لمن تكرّرت ذنوبه إليهم وإن صغرت قال البيضاويّ : ولعله عقب به وعيد المسيئين لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته ولا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى ا . ه . ونزل فيمن كان يقول صلاتنا صيامنا حجنا ﴿ هو أعلم

بكم ﴾ أي : بذواتكم وأحوالكم منكم بأنفسكم ﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ أنشأكم من الأرض ﴾ أي : التي طبعها طبع الموت البرد واليبس بإنشاء أبيكم آدم عليه السلام منها ، وتهيئتكم للتكوين بعد أن لم يكن فيكم وأنتم تراب قابلية للحياة بقوة قريبة ولا بعيدة أصلاً فميز التراب الذي يصلح لتكوينكم منه والذي لا يصلح ﴿ وإذ ﴾ أي : وحين ﴿ أنتم أجنة ﴾ أي : مستورون ﴿ في بطون أمهاتكم ﴾ فهو يعلم إذ ذاك ما أنتم صائرون إليه من خير وشرّ وإن عملتم مدة من العمر بخلافه ، لأنه يعلم ما جبلكم عليه من ذلك .

وقرأ حمزة والكسائيّ في الوصل بكسر الهمزة والباقون بضمها ، وكسر حمزة الميم وفتحها الباقون ، وأما في الابتداء بالهمزة فالجميع بضمها .

(354/734)

﴿ فلا تزكوا ﴾ أي : تمدحوا بالزكاة وهي البركة والطهارة عن الدناءة ﴿ أنفسكم ﴾ أي : حقيقة بأن يثني الإنسان على نفسه فإنّ تزكيته لنفسه قال القشيري : من علامات كونه محجوباً عن الله تعالى أي : من مدح نفسه على سبيل الإعجاب ، أما على سبيل الاعتراف بالنعمة فحسن ، أو مجازاً بأن يثنى على غيره من إخوانه وأنه كثيراً ما يثنى بشيء فيظهر خلافه وربما حصل له الأذى بسببه "وإنّ العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه

وبينها إلا باع أو ذراع" الحديث ولذلك علل بقوله تعالى : ﴿ هو أعلم ﴾ أي : منكم ومن جميع الخلق ﴿ بمن اتقى ﴾ أي فإنه يعلم المتقي وغيره منكم قبل أن يخرجكم من صلب أبيكم آدم عليه السلام فمن جاهد نفسه حتى حصل منه تقوى فهو يوصله فوق ما يؤمل من الثواب في الدارين فكيف بمن صارت له التقوى وصفا ثابتاً .

ولما بين جهل المشركين في عبادة الأصنام ذكر واحد منهم بسوء فعله فقال تعالى:

﴿ أفرأيت الذي تولى ﴾ أي : عن اتباع الحق والثبات عليه . قال مجاهد وأبو زيد ومقاتل نزلت في الوليد بن المغيرة كان قد اتبع النبيّ صلى الله عليه وسلم على دينه فعيره بعض المشركين وقال له تركت دين الأشياخ وضللتهم فقال : إني خشيت عذاب الله تعالى فضمن الذي عاتبه إن هو أعطاه كذا من ماله ، ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله فرجع الوليد إلى الشرك وأعطى الذي عيره بعض ذلك الذي ضمن ومنعه تمامه ، فأنزل الله تعالى ﴿ أفرأيت الذي تولى ﴾ أي أدبر عن الإيمان .

﴿ وأعطى قليلا ﴾ أي : من المال المسمى ﴿ وأكدى ﴾ أي : منع الباقي ، مأخوذ من الكدية أرض صلبة كالصخرة تمنع حافر البئر إذا وصل إليها من الحفر ، فأكدى أصله من أكدى الحافر إذا حفر شيئاً فصادف كدية منعته من الحفر ومثله : أجبل إذا صادف جبلاً منعه من الحفر وكديت أصابعه كَلَّت من الحفر ثم استعمل في كل من طلب شيئاً فلم يصل إليه أو لم يتممه ولمن طلب شيئاً ولم يبلغ آخره قال الحطيئة:

*وأعطى قليلاً ثم أكدى عطاءه ** ومن يفعل المعروف في الناس يحمد *

وقال السدي : نزلت في العاصي بن وائل السهمي وذلك أنه ربما يوافق النبيّ صلى الله عليه وسلم في بعض الأمور وقال محمد بن كعب القرظي : نزلت في أبي جهل وذلك أنه قال والله ما يأمرنا محمد إلا بمكارم الأخلاق فذلك قوله تعالى : ﴿ وأعطى قليلاً وأكدى ﴾ أي لم يؤمن به ومعنى أكدى قطع ، وروي أنّ عثمان رضى الله تعالى عنه كان يعطي ماله في الخير فقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهو أخوه من الرضاعة : يوشك أن لا يبقى لك شيء فقال عثمان : إنّ لي ذنوباً وخطايا وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه فقال عبد الله : أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء فنزلت .

وقوله تعالى : ﴿ أعنده علم الغيب ﴾ أي : ما غاب هو المفعول الثاني لرأيت بمعنى أخبرني ، والمفعول الأوّل محذوف اقتصاراً لأعطى ﴿ فهو ﴾ أي : فتسبب عن ذلك أنه ﴿ يرى ﴾ أي : يعلم أنّ صاحبه يتحمل عنه ذنوبه .

﴿ أم ﴾ أي : بل ﴿ لم ينبأ ﴾ أي : يخبر أخباراً عظيماً متتابعاً ﴿ بما في صحف

موسى ﴾ أي : التوراة المنسوبة إليه بإنزالها عليه ، وكذا ما تبعها من أسفار الأنبياء الذين جاؤوا بعده بتقريرها .

(356/734)

وقدم صحف موسى عليه السلام على قوله : ﴿ وإبراهيم ﴾ أي : وصحفه لأنّ كتاب موسى عليه السلام أعظم كتاب بعد القرآن مع أنه موجود بين الناس تمكن مراجعته ، ثم مدح إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ الذي وفى ﴾ أي : أتم ما أمر به من ذلك تبليغ الرسالة واستقلاله بأعباء النبوة وقيامه بأضيافه وخدمتهم إياه بنفسه ، وإنه كان يخرج كل يوم فيمشي فرسخاً يرتاد ضيفاً فإن وافقه أكرمه وإلا نوى الصوم وعن الحسن : ما أمر الله تعالى بشيء إلا وفى به وصبر على ما امتحن به ، وما قلق شيئاً من قلق وصبر على حر ذبح الولد وعلى حر النار ولم يستعن بمخلوق بل قال لجبريل عليه السلام لما قال له : ألك حاجة قال : أما إليك فلا وقال الضحاك : وفي المناسك ، وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال "إبراهيم الذي وفى أربع ركعات من أول النهار" وهي صلاة الضحى وروي "ألا أخبركم لم سمى الله خليله الذي وفى كان يقول : إذا أصبح وأمسى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون إلى تظهرون" وقيل : وفى سهام الإسلام وهي ثلاثون عشرة في

التوبة ﴿ التائبون . . . ﴾ (التوبة :) ، وعشرة في الأحزاب ﴿ إنّ المسلمين . . . ﴾ (الأحزاب :) ، وعشرة في المؤمنون ، ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ (المؤمنون :)

وخص هذين النبيين لأنّ الموعودين من بني إسرائيل اليهود والنصارى يدعون متابعة موسى عليه السلام ، ومن العرب يدعون متابعة إبراهيم عليه السلام ومن عداهم لا متمسك لهم ولا سلف في نبوّة محققة ولا شريعة محفوظة ، وقرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها والباقون بكسر الهاء وياء بعدها .

(357/734)

ثم فسر تعالى الذي في الصحف واستأنف بقوله تعالى : ﴿ ألا تزر ﴾ أي : تأثم وتحمل ﴿ وازرة ﴾ أي : نفس بلغت مبلغاً تكون فيه حاملة لوزر ﴿ وزر أخرى ﴾ أي : حملها الثقيل من الإثم ، وفي هذا إبطال قول من ضمن للوليد بن المغيرة أن يحمل عنه الإثم ، وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنب غيره ، وكان الرجل يقتل بقتل أبيه وابنه وأخيه وعمه وخاله وامرأته والعبد بسيده ، حتى جاءهم إبراهيم عليه السلام فنهاهم عن ذلك وبلغهم عن الله عز وجل ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِنسَانِ إِلا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَآءَ اوْفَى * وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾

ولما نفى أن يضرّه أثم غيره نفي أن ينفعه سعي غيره بقوله تعالى:

﴿ وأن ليس للإنسان ﴾ كائناً من كان ﴿ إلا ما سعى ﴾ فلا بد أن يعلم الحق في أي جهة فيسعى فيه ودعاء المؤمنين للمؤمن من سعيه بموادته ولو بموافقته لهم في الدين فقط ، وكذا الحج عنه والصدقة ونحوها ، وأما الولد فواضح في ذلك ، وأما ما كان بسبب العلم والصدقة ونحوها فكذلك ، وتضحية النبيّ صلى الله عليه وسلم عن أمته أصل كبير في ذلك فإنّ من تبعه فقد واده وهو أصل في التصدق عن الغير وإهداء ما له من الثواب في القراءة ونحوها إليه .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هذا منسوخ الحكم في هذه الشريعة أي : وإنما هو في صحف موسى وإبراهيم عليهما السلام بقوله : ﴿ ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ (الطور :)

(358/734)

فأدخل الأبناء الجنة بصلاح الآباء وقال عكرمة إنّ ذلك لقوم موسى وإبراهيم عليهما السلام ، وأما هذه الأمة فلهم ما سعوا وما سعى لهم غيرهم لما يروى أن امرأة رفعت صبياً

لها فقالت يا رسول الله ألهذا حج فقال نعم ولك أجر "وقال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم إنّ أمي انسلت نفسها فهل لها أجر إن تصدقت عنها قال نعم" .

قال الشيخ تقيّ الدين أبو العباس أحمد بن تيمية : من اعتقد أنّ الإنسان لا ينتفع إلا بعمله فقد خرق الإجماع وذلك باطل من وجوه كثيرة : أحدها : أنّ الإنسان ينتفع بدعاء غيره وهو انتفاع بعمل الغير . ثانيها : أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم يشفع لأهل الموقف في الحساب ، ثم لأهل الجنة في دخولها ثم لأهل الكبائر في الخروج من النار وهذا انتفاع بعمل الغير . ثالثها : أن كل نبي وصالح له شفاعة وذلك انتفاع بعمل الغير . رابعها : أنّ الملائكة يدعون ويستغفرون لمن في الأرض وذلك منفعة بعمل الغير . خامسها : أنّ الله تعالى يخرج من النار من لم يعمل خيراً قط بمحض رحمته وهذا انتفاع بغير عملهم . سادسها : أنّ أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بعمل آبائهم وذلك انتفاع بمحض عمل الغير . سابعها : قال تعالى في قصة الغلامين اليتيمين ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ (الكهف :)

(359/734)

فانتفعا بصلاح أبيهما وليس هو من سعيهما . ثامنها : أنّ الميت ينتفع بالصدقة عنه والعتق بنص السنة والإجماع وهو من عمل الغير . تاسعها : أنّ الحج المفروض يسقط عن الميت

بحج وليه بنص السنة وهو انتفاع بعلم الغير . عاشرها : أنّ الحج المنذور أو الصوم المنذور يسقط عن الميت بعمل غيره بنص السنة وهو انتفاع بعمل الغير . حادي عشرها : أن المدين الذي امتنع صلى الله عليه وسلم من الصلاة عليه حتى قضى دينه أبو قتادة ، وقضى دين الآخر علي بن أبي طالب وانتفع بصلاة النبيّ صلى الله عليه وسلم وبردت جلدته بقضاء دينه وهو من عمل الغير . ثاني عشرها : أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لمن صلى وحده "ألا رجل يتصدّق على هذا فيصلى معه" فقد حصل له فضل الجماعة بفعل الغير . ثالث عشرها : أنّ الإنسان تبرأ ذمته من ديون الخلق إذا قضاها قاض عنه وذلك انتفاع بعمل الغير . رابع عشرها : أن من عليه تبعات ومظالم إذا حلل منها سقطت عنه وهذا انتفاع بعمل الغير . خامس عشرها : أنّ الجار الصالح ينفع في المحيا والممات كما جاء في الأثر وهذا انتفاع بعمل الغير . سادس عشرها : أنّ جليس أهل الذكر يرحم بهم وهو لم يكن منهم ولم يجلس لذلك بل لحاجة عرضت له والأعمال بالنيات فقد انتفع بعمل غيره . سابع عشرها : الصلاة على الميت والدعاء له في الصلاة انتفاع للميت بصلاة الحيّ عليه وهو عمل غيره . ثامن عشرها : أنّ الجمعة تحصل باجتماع العدد وكذلك الجماعة بكثرة العدد وهو انتفاع للبعض بالبعض . تاسع عشرها : أنّ الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ (الأنفال :)

وقال تعالى : ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ﴾ (الفتح :)

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ (البقرة :)

(360/734)

فقد دفع الله تعالى العذاب عن بعض الناس بسبب بعض وذلك انتفاع بعمل الغير .

عشروها : أنّ صدقة الفطر تجب عن الصغير وغيره ممن يمونه الرجل فينتفع بذلك من يخرج عنه ولا سعي لهما . حادي عشريها : أنّ الزكاة تجب في مال الصبي والمجنون ويثاب على ذلك ولا سعي له ومن تأمّل العلم وجد من انتفاع الإنسان بما لم يعمله ما لا يكاد يحصى ، فكيف يجوز أن تتأوّل الآية على خلاف صريح الكتاب والسنة وإجماع الأمة .

والمراد بالإنسان العموم وقال الربيع بن أنس : ليس للإنسان يعني الكافر : وأما المؤمن فله ما سعي وما سعى له وقيل : ليس للكافر من الخير إلا ما عمله يثاب عليه في الدنيا حتى لا يبقى له في الآخرة خير ، وروي "أنّ عبد الله بن أبي كان أعطى العباس قميصاً ألبسه إياه فلما مات أرسل النبيّ صلى الله عليه وسلم قميصه ليكفن فيه فلم تبق له حسنة في الآخرة يثاب عليها" .

﴿ وأن سعيه ﴾ أي : من خير وشر ﴿ سوف يرى ﴾ أي : في ميزانه من غير شك يوم

القيامة بوعد لا خلف فيه وإن طال المدى ، من : أريته الشيء ، أي : يعرض عليه ويكشف له .

فإن قيل : العمل كيف يرى بعد وجوده ومضيه ؟

أجيب : بأنه يرى على صورة جميلة إن كان العمل صالحاً قال الرازي وذلك على مذهبنا غير بعيد ، فإن كل موجود يرى والله تعالى قادر على إعادة كل ما عدم فيعيد الفعل فيرى ، وفيه بشارة للموحد وذلك أنّ الله تعالى يريه أعماله الصالحة ليفرح بها ويحزن الكافر بأعماله الفاسدة فيزداد غماً .

﴿ ثم يجزاه ﴾ أي : السعي ﴿ الجزاء الأوفى ﴾ أي : الأتمّ الأكمل والمعنى : أنّ الإنسان يجزى جزاء سعيه بالجزاء الأوفى يقال : جزيت فلاناً سعيه وبسعيه . قال الرازي : الجزاء الأوفى يليق بالمؤمنين الصالحين ، لأنّ جزاء الطالح وافر قال تعالى : ﴿ فإنّ جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً ﴾ (الإسراء :)

وذلك أن جهنم ضررها أكثر من نفع الآثام فهي في نفسها أوفر .

(361/734)

﴿ وأنّ إلى ربك ﴾ أي : المحسن إليك لا إلى غيره ﴿ المنتهى ﴾ أي : الانتهاء برجوع الخلائق ومصيرهم إليه فيجازيهم بأعمالهم وقيل : منه ابتداء المنة وإليه انتهاء الآمال ، وروى أبو هريرة مرفوعاً "تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فإنّ الله تعالى لا يحيط به الفكر" وفي رواية "لا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره" قال القرطبي : ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم "يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول له من خلق ربك فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله تعالى" ولقد أحسن من قال:

*ولا تفكرن في ذي العلا عز وجهه ** فإنك تردى إن فعلت وتخذل*

*ودونك مخلوقاته فاعتبر بها ** وقل مثل ما قال الخليل المبجل*

وقيل : المراد من الآية التوحيد وفي المخاطب وجهان : أحدهما : أنه عام تقديره إلى ربك أيها السامع أو العاقل والثاني : أنه خطاب مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فعلى الأول يكون تهديداً وعلى الثاني يكون تسلية لقلب النبيّ صلى الله عليه وسلم فعلى الأول تكون اللام في المنتهى للعهد المعهود في القران وعلى الثاني تكون للعموم أي إلى ربك كل منتهى .

وقوله تعالى : ﴿ وأنه هو ﴾ أي : لا غيره ﴿ أضحك وأبكى ﴾ يدل على أنّ كل ما يعمله الإنسان فبقضاء الله تعالى وخلقه حتى الضحك والبكاء ، وروي أنه صلى الله عليه وسلم مر على قوم من أصحابه وهم يضحكون فقال صلى الله عليه وسلم "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً" فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال يا محمد إنّ الله

يقول لك : ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ أي : قضى أسبابهما فرجع إليهم صلى الله عليه وسلم فقال ما خطوت أربعين خطوة حتى أتاني جبريل فقال : ائت هؤلاء فقل لهم إن الله تعالى يقول : ﴿ هو أضحك وأبكى ﴾ أي قضى أسباب الضحك والبكاء وقال بسام بن عبد الله أضحك أسنانهم وأبكى قلوبهم وأنشد يقول:

*السنّ تضحك والأحشاء تحترق ** وإنما ضحكها زور ومختلق*

(362/734)

---

*يا رب باك بعين لا دموع لها ** ورب ضاحك سنّ ما به رمق*

وقال مجاهد والكلبي أضحك أهل الجنة في الجنة وأبكى أهل النار في النار ، وقال الضحاك : أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر وقال عطاء بن أبي مسلم : يعني أفرح وأحزن لأنّ الفرح يجلب الضحك ، والحزن يجلب البكاء وقيل : إنّ الله تعالى خص الإنسان بالضحك والبكاء من سائر الحيوان وقيل : القرد وحده يضحك ولا يبكي وإنّ الإبل وحدها تبكي ولا تضحك وقال يونس بن الحسين : سئل طاهر المقدسي أتضحك الملائكة ؟ فقال : ما ضحكوا ولا كل من دون العرش منذ خلقت جهنم وعن عائشة قالت : "لا والله ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قط إن الميت يعذب ببكاء أحد ولكنه

قال إنّ الكافر يزيده الله ببكاء أهله عذاباً وإنّ الله تعالى هو أضحك وأبكى" .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ وما بعده يسميه البيانيون الطباق المتضادّ وهو نوع من البديع ، وهو : أن يذكر ضدّان أو نقيضان أو متنافيان بوجه من الوجوه ، وأضحك وأبكى لا مفعول لهما في هذا الموضع لأنهما سيقا لقدرة الله تعالى لا لبيان المقدور فلا حاجة إلى المفعول كقول القائل : فلان بيده الأخذ والعطاء يعطي ويمنع ، ولا يريد ممنوعاً ومعطى واختار هذين الموضعين المذكورين لأنهما أمران لا يعللان فلا يقدر أحد من الطبائعيين يبين لاختصاص الإنسان بالضحك والبكاء وجهاً ولا سبباً ، وإذا لم يعلل بأمر فلا بدّ له من موجد وهو الله تعالى بخلاف الصحة والسقم فإنهم يقولون : سببهما اختلال المزاج وخروجه عن الاعتدال ومما يدل على ذلك أنهم إذا عللوا الضحك قالوا : لقوّة التعجب وهو باطل ، لأنّ الإنسان ربما بهت عند رؤية الأمور العجيبة ولا يضحك وقيل : لقوّة الفرح وليس كذلك لأنّ الإنسان قد يبكي لقوّة الفرح كما قال بعضهم:

*هجم السرور على حتى أنه ** من عظم ما قد سرني أبكاني*

(363/734)

﴿ وأنه هو ﴾ أي : لا غيره ﴿ أمات وأحيا ﴾ وإن رأيتم أسباباً ظاهرة فإنها لا عبرة بها في نفس الأمر بل هو الذي خلقها أي أمات في الدنيا وأحيا في البعث وقال القرطبي : قضى أسباب الموت والحياة وقيل : أمات الآباء وأحيا الأبناء وقيل : أمات الكافر بالكفر وأحيا المؤمن بالإيمان .

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى * وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾

﴿ وأنه خلق الزوجين ﴾ ثم فسرهما بقوله تعالى : ﴿ الذكر والأنثى ﴾ فإنه لو كان ذلك في يد غيره لمنع البنات لأنها مكروهة لغالب الناس .

وقوله تعالى : ﴿ من نطفة إذا تمنى ﴾ أي : تصب يشمل سائر الحيوانات لا أن ذلك مختص بآدم وحوّاء عليهما السلام ، لأنهما ما خلقا من نطفة ، وهذا أيضاً تنبيه على كمال القدرة لأنّ النطفة جسم متناسب الأجزاء ويخلق الله تعالى منها أعضاء مختلفة وطباعاً متباينة ، وخلق الذكر والأنثى منها أعجب ما يكون ولهذا لم يقدر أحد على أن يدعي خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله ﴾ (الزخرف :)

وقال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله ﴾ (لقمان :)

فإن قيل : ما الحكمة في قوله تعالى : ﴿ وأنه خلق ﴾ ولم يقل وأنه هو خلق كما قال تعالى : ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ ؟

(364/734)

أجيب بأن الضحك والبكاء ربما يتوهم أنهما بفعل الإنسان ، والإماتة والإحياء وإن كان ذلك التوهم أبعد فيهما لكن ربما يقول به جاهل كما قال من حاج إبراهيم عليه السلام أنا أحيي وأميت فأكد ذلك بالفصل ، وأما خلق الذكر والأنثى من النطفة فلا يتوهم أحد أنه بخلق أحد من الناس فلم يؤكد بالفصل ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ (النجم :)

حيث كان الإغناء عندهم غير مستند إلى الله تعالى ، وكان في معتقدهم أن ذلك بفعلهم كما قال قارون : ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ (القصص :)

ولذلك قال : ﴿ هو رب الشعرى ﴾ (النجم :)

فأكد في مواضع استبعادهم إلى الإسناد ولم يؤكد في غيره .

﴿ وأن عليه ﴾ أي : خاصاً به علماً وقدرة ﴿ النشأة ﴾ أي الحياة ﴿ الأخرى ﴾ للبعث

يوم القيامة بعد الحياة الأولى فإن قيل : الإعادة لا تجب على الله تعالى فما معنى عليه ؟

أجيب : بأنه عليه بحكم الوعد فإنه قال : ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ﴾ (يس :)

فعليه بحكم الوعد لا بالعقل ولا بالشرع ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الشين وبعدها ألف ممدودة قبل الهمزة والباقون بسكون الشين وبعدها الهمزة المفتوحة وإذا وقف حمزة نقل حركة الهمزة إلى الشين .

﴿ وأنه هو ﴾ أي : وحده من غير نظر إلى سعي ساع ولا غيره ﴿ أغنى ﴾ قال أبو صالح : أغنى الناس بالأموال ﴿ وأقنى ﴾ أعطى القنية وأصول الأموال وما يدخرونه بعد الكفاية وقال الضحاك : أغنى بالذهب والفضة وصنوف الأموال ، وأقنى بالإبل والبقر والغنم وقال الحسن وقتادة : أخدم ، وقال ابن عباس : أغنى وأقنى أعطى فأرضى وقال مجاهد ومقاتل : أقنى أرضى بما أعطى وقنع قال الراغب : وتحقيقه أنه جعل له قنية من الرضا وقال سليمان التيمي : أغنى نفسه وأفقر خلقه إليه وقال ابن زيد : أغنى أكثر وأقنى أقل وقرأ ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ (الرعد :)

وقال الأخفش : أقنى أفقر وقال ابن كيسان : أولد وقال الزمخشري : أقنى أعطى القنية وهي المال الذي تأثلته وعزمت على أن لا يخرج من يدك .

تنبيه : حذف مفعولا أغنى وأقنى لأنّ المراد نسبة هذين الفعلين إليه ، وكذلك باقيها وألف أقنى منقلبه عن ياء لأنه من القنية قال الشاعر :

* * * ألا إنّ بعد العدم للمرء قنية *

ويقال : قنيت كذا وأقنيته قال الشاعر :

* * * قنيت حياتي عفة وتكرّما *

﴿ وأنه هو ﴾ أي : لا غيره ﴿ رب الشعرى ﴾ أي : رب معبودهم وكانت خزاعة تعبد الشعرى ، وأوّل من سنّ ذلك رجل من أشرافهم يقال له أبو كبشة عبدها وقال : لأن النجوم تقطع السماء عرضاً والشعرى تقطعها طولاً فهي مخالفة لها فعبدها وعبدتها خزاعة وحمير ، وأبو كبشة أحد أجداد النبيّ صلى الله عليه وسلم من قبل أمّهاته وبذلك كان مشركو قريش يسمون النبيّ صلى الله عليه وسلم بابن أبي كبشة حين دعا إلى الله تعالى وخالف أديانهم تشبيهاً بذلك الرجل في أنه أحدث ديناً غير دينهم .

والشعرى في لسان العرب كوكبان : تسمى أحدهما الشعرى العبور وهي المرادة في الآية الكريمة وهي تطلع بعد الجوزاء في شدّة الحرّ ويقال لها : مرزم الجوزاء وتسمى كلب الجبار أيضاً ، وتسمى الشعرى اليمانية . والثانية : الشعرى الغميصاء وهي التي في الذراع والمجرة

بينهما ، وتسمى الشامية وسبب تسميتها بالغميضاء على ما زعمه العرب أنهما كانا أختين أو زوجتين لسهيل فانحدر سهيل إلى اليمن فأتبعته الشعرى العبور فعبرت المجرة فسميت العبور ، وأقامت الغميصاء تبكي حتى غمصت عينها ولذلك كانت أخفى من العبور وكان من لا يعبد الشعرى من العرب يعظمها ويعتقد تأثيرها في العالم .

(366/734)

﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴾ وهم قوم هود عليه السلام هلكوا بريح صرصر ، والأخرى قوم صالح وقيل : الأخرى إرم وقيل : الأولى أول الخلق هلاكاً بعد قوم نوح ، وقرأ نافع وأبو عمرو بتشديد اللام بعد الدال المفتوحة نقلاً وهمز قالون الواو بعد اللام همزة ساكنة والباقون بتنوين الدال وكسر التنوين وسكون اللام وبعدها همزة مضمومة ، فإذا قرأ القارئ عاد الأولى لقالون وأبي عمرو فله في الوصل أي وصل عاد بالأولى وجه واحد وهو النقل المذكور ، وقالون على أصله بالهمزة كما ذكر ، فإذا وقف على عاداً وابتدأ بالولى فله الابتداء بهمزة الوصل وهو ألولى ، وله أيضاً الابتداء بغير همز الوصل وهو لولى ، وقالون يهمز الواو في الوجهين الأوّلين ولم يهمز في الوجه الثالث الذي هو الأصل ، ووافقهما ورش في الأوجه المذكورة في الوصل والابتداء لا في الوجه الثالث الذي هو الأصل فإنه ليس من

مذهبه إلا النقل .

﴿ وثموداً ﴾ وهم قوم صالح أهلكهم الله تعالى بصحية ﴿ فما أبقى ﴾ منهم أحداً ، وقرأ عاصم وحمزة بغير تنوين للدّال في الوصل وسكون الدال في الوقف والباقون بالتنوين في الوصل والوقف على الألف .

(367/734)

﴿ وقوم نوح ﴾ أي : أهلكهم لأجل ظلمهم بالتكذيب ﴿ من قبل ﴾ أي : قبل الفريقين ﴿ إنهم ﴾ أي : قوم نوح ﴿ كانوا ﴾ أي : بما لهم من الأخلاق التي هي كالجبلات التي لا انفكاك عنها ﴿ هم ﴾ أي : خاصة ﴿ أظلم ﴾ أي : من الطائفتين المذكورتين ﴿ وأطغى ﴾ أي : وأشدّ تجاوزاً في الظلم وعلوّاً وإسرافاً في المعاصي وتجبراً وعتوّاً لتمادي دعوة نوح عليه السلام قريباً من ألف سنة ، ولأنهم أطول أعماراً وأشدّ أبداناً وكانوا مع ذلك ملء الأرض ، روي أنّ الرجل منهم كان يأخذ بيد ابنه فينطلق به إلى نوح عليه السلام فيقول : احذر هذا فإنه كذاب ، وإنّ أبي قد مشى بي إلى هذا وقال لي ما قلت لك فيموت الكبير على الكفر وينشأ الصغير على وصية أبيه ولهذا قال نوح عليه السلام : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا

فاجراً كفاراً ﴾ (نوح: ٢٧)

وقوله تعالى: ﴿ والمؤتفكة ﴾ منصوب بقوله تعالى: ﴿ أهوى ﴾ وقدّم لأجل الفواصل، والمراد بالمؤتفكة قرى قوم لوط رفعها إلى عنان السماء على جناح جبريل عليه السلام، ثم أهواها إلى الأرض أي أسقطها وأتبعها بحجارة النار الكبريتية، وهو قوله تعالى:

﴿ فغشاها ﴾ أي: أتبعها ما غطاها فكان لها بمنزلة الغشاء وهوّله بقوله تعالى: ﴿ ما غشى ﴾ أي: أمراً عظيماً من الحجارة المنضودة المسمومة وغيرها مما لا تسع العقول وصفه.

﴿ فبأيّ آلاء ﴾ أي: أنعم ﴿ ربك ﴾ أي: المحسن إليك ﴿ تتمارى ﴾ أي: تشك أيها الإنسان وقيل: أراد الوليد بن المغيرة وقال ابن عباس: تتمارى أي تكذب وقيل: الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم أي تشك في إجالة الخواطر في فكرك في إرادة هداية جميع قومك بحيث لا تريد أن أحداً منهم يهلك، وقد حكم ربك بإهلاك كثير منهم لما اقتضته حكمته فكان بعض خواطرك في تلك الإجالة يشككك ببعضها بعضاً.

(368/734)

﴿ هذا ﴾ أي : النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ نذير ﴾ أي : محذر بليغ التحذير ﴿ من النذر الأولى ﴾ أي : من جنسهم أي رسول كالرسل قبله أرسل إليكم كما أرسلوا إلى أقوامهم ، وقال تعالى ﴿ الأولى ﴾ على تأويل الجماعة ، أو هذا القرآن نذير من النذر الأولى أي إنذار من جنس الإنذارات الأولى التي أنذر بها من قبلكم .

﴿ أزفت الأزفة ﴾ أي : قربت الموصوفة بالقرب في قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ (القمر :)

وهو يوم القيامة .

﴿ ليس لها من دون الله ﴾ أي : من أدنى رتبة من رتبة الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً وقوله تعالى : ﴿ كاشفة ﴾ يجوز أن يكون وصفاً وأن يكون مصدراً ، فإن كان وصفا احتمل أن يكون التأنيث لأجل أنه وصف لمؤنث محذوف تقديره نفس كاشفة ، أو حال كاشفة أي مبينة متى تقوم كقول تعالى : ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ (الأعراف :) أو ليس لها نفس كاشفة أي قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله تعالى غير أنه تعالى لا يكشفها ، أو ليس لها الآن نفس كاشفة بالتأخير وإن كان مصدراً فهي بمعنى الكشف كالعافية والمعنى ليس لها من دون الله كشف أي لا يكشف عنها ولا يظهرها غيره .

﴿ أفمن هذا الحديث ﴾ قال : أكثر المفسرين المراد بالحديث القرآن العظيم الذي يأتي على سبيل التجدد بحسب الوقائع والحاجات ﴿ تعجبون ﴾ إنكاراً وهو في غاية ما يكون

من ترقيق القلوب ، وقرأ أبو عمرو بإدغام المثلثة في التاء المثناة بخلاف عنه .

﴿ وتضحكون ﴾ أي : استهزاء من هذا الحديث وتجدّدون ذلك في كل وقت ﴿ ولا تبكون ﴾ أي كما هو حق من يسمعه لما فيه من الوعد والوعيد وغير ذلك وقال الرازي يحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى حديث أزفت الآزفة ، فإنهم كانوا يتعجبون من حشر الأجساد والعظام البالية .

(369/734)

وقوله تعالى : ﴿ وأنتم سامدون ﴾ جملة مستأنفة أخبر الله تعالى عنهم بذلك ويحتمل أن تكون حالاً أي انتفى عنكم البكاء في حال كونكم سامدين ، واختلف في معنى السمود فقيل : هو الإعراض والغفلة عن الشيء أي : وأنتم معرضون غافلون عما يطلب منكم وقيل : هو اللهو يقال : دع عنا سمودك ، أي : لهوك قاله الوالبي والعوفي عن ابن عباس وقال الشاعر :

*ألا أيها الإنسان إنك سامد **كأنك لا تفنى ولا أنت هالك*

فهذا بمعنى لاه لاعب وقيل هو الجمود وقيل هو الاستكبار قال الشاعر :

*رمى الحدثان نسوة آل سعد **بمقدار سمدن له سمودا*

*فردّ شعورهنّ السود بيضا **ورد وجوههنّ البيض سودا*

(370/734)

فهذا بمعنى الجمود والخشوع وقال عكرمة وأبو عبيدة : السمود الغناء بلغة حمير يقولون : يا جارية اسمدي لنا أي : غني ، فكانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا وقال مجاهد أشِرون وقال الضحاك : غضاب يتبرطمون وقال الراغب : السامد اللاهي الرافع رأسه من قولهم بعير سامد في سيره وقال الحسن : السامد الواقف للصلاة قبل وقوف الإمام لما روي : أنه صلى الله عليه وسلم خرج والناس ينتظرونه قياماً فقال : "مالي أراكم سامدين" وتسميد الأرض أن يجعل فيها السماد وهو سرجين ورماد وقوله تعالى : ﴿ فاسجدوا ﴾ أي : اخضعوا خضوعاً كثيراً بالسجود ﴿ لله ﴾ أي الملك الأعظم يحتمل أن يكون المراد به سجود التلاوة وأن يكون المراد به سجود الصلاة ﴿ واعبدوا ﴾ أي : اشتغلوا بكل أنواع العبادة ولم يقل واعبدوا الله إما لكونه معلوماً من قوله تعالى : ﴿ فاسجدوا لله ﴾ وإما لأنّ العبادة في الحقيقة لا تكون إلا لله ويقوّى الاحتمال الأوّل ما روى عكرمة عن ابن عباس أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم "سجد في النجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجنّ

والإنس" وعن عبد الله ابن مسعود قال أوّل سورة أنزلت فيها سجدة النجم قال : فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد من خلفه إلا رجلاً شيخاً من قريش أخذ كفاً من حصا أو تراب فرفعه إلى جبهته وقال : يكفيني هذا ، قال عبد الله : فلقد رأيته بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف كما في بعض الروايات . وروى زيد بن ثابت قال : قرأت على النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ والنجم ﴾ فلم يسجد فيها وهذا يدلّ على أنّ سجود التلاوة غير واجب ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنّ الله تعالى لم يكتبها علينا إلا أن نشاء وهو قول الشافعي وأحمد رضي الله عنهما ، أي : فهي مستحبة وذهب قوم إلى وجوبها على القارئ والمستمع جميعاً وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي وذهب قوم إلى أنها في المفصل غير مستحبة .

(371/734)

وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة والنجم أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد صلى الله عليه وسلم وجحد به" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 7 صـ 185.215 ﴾

(372/734)

وقال القاسمي :

سورة النجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾

أي : إذا غرب وغاب عن الأبصار ، أو انتثر يوم القيامة ، أو انقضّ .

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم . والخطاب لقريش ، أي : ما حاد عن الحق ، ولا زال عنه .

﴿ وَمَا غَوَى ﴾ أي : ما صار غويّاً ، ولكنه على استقامة وسداد ورشد وهدى . وفيه تعريض بأنهم أهل الضلال والغَيِّ . وذكره صلى الله عليه وسلم بعنوان ﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾ للإعلام بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة ، وإحاطتهم بمحاسن شؤونه المنيفة ؛ فهو تبكيت لهم على وجه أبلغ من أن يصرح باسمه .

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [3 - 4]

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ أي : وما ينطق بهذا القرآن عن هواه ورأيه . وفيه تعريض بهم أيضاً ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ أي : ما هذا القرآن إلا وحي من الله يوحيه إليه .

وجملة ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ صفة مؤكدة لـ ﴿ وَحْيٌ ﴾ رافعة لاحتمال المجاز ، مفيدة للاستمرار التجدديّ .

(373/734)

والضمير للقرآن ، لفهمه من السياق ، ولأن كلام المنكرين كان في شأنه . وأرجعه بعضهم إلى ما ينطق به مطلقاً . واستدل على أن السنن القولية من الوحي ، وقوّاه بما في " مراسيل أبي داود " عن حسان بن عطية قال : كان جبريل ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسنة ، كما ينزل عليه بالقرآن ، ويعلمه إياها ، كما يعلمه القرآن ، واستدل أيضاً على منع الاجتهاد له صلى الله عليه وسلم . والصواب هو الأول ، أعني : كون مرجع الضمير للقرآن ، لما ذكرنا ، فإنه ردّ لقولهم ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ [يونس : 38] والقرينة من أكبر المخصصات . وجليّ أنه صلى الله عليه ، كثيراً ما يقول بالرأي في أمور الحرب ، وأمور أخرى ؛ فلا بد من التخصيص قطعا ، وبأنه لا قوة في المراسيل ، لما تقرر في الأصول . وبأن الآية لا تدل على منع الاجتهاد المذكور ، ولو أعيد الضمير لما ينطق مطلقاً ؛ لأن الله تعالى إذا سوغ له الاجتهاد ، كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحياً ، لا نطقاً عن الهوى ؛ لأنه بمنزلة أن يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : متى ما ظننت كذا فهو حكمي ، أي : كل ما ألقيته في

قلبك فهو مرادي ، فيكون وحياً حقيقة ، لاندراجه تحت الإذن المذكور ، لأنه من أفراده .

فما قيل عليه من أن الوحي الكلام الخفيّ المدرك بسرعة ، فلا يندرج فيه الحكم الاجتهاديّ إلا بعموم المجاز ، مع أنه يأباه قوله :

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ [النجم : 5] غير وارد عليه ، بعد ما عرفت من تقريره – نقله في " العناية " عن " الكشف " وتفصيل المسألة في مطولات الأصول .

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ [5]

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ أي : علم محمد صلى الله عليه وسلم مَلَكٌ شديد قواه ، يعني جبريل عليه السلام . كما قال :

(374/734)

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [التكوير : 19 – 20] ، و ﴿ الْقُوَى ﴾ جمع قوة ، بضم القاف . ومن العرب من يكسرها كالرِّشا بكسر الراء في جمع رشوة بضمها والحِبا في جمع حُبوة ، نقله ابن جرير .

﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ [6 – 7]

﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ بكسر الميم ، أي : متانة وإحكام في علمه ، لا يمكن تغيّره ونسيانه .

والعرب تقول لكل قويّ العقل والرأي :

﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ من أمررت الحبل ، إذا أحكمت فتله .

﴿ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ قال الزمخشريّ : فاستقام على صورة نفسه الحقيقة ، دون الصورة التي كان يتمثل بها ، كلما هبط بالوحي . وكان ينزل في صورة دحية . فالفاء – كما قال شراحه – سببية ، لأن تشكله يتسبب عن قوته وقدرته على الخوارق . أو عاطفة على ﴿ عَلَّمَهُ ﴾ أي : علمه على غير صورته الأصلية ، ثم استوى على صورته الأصلية .

وقيل : استوى بمعنى استولى بقوته على ما أمر بمباشرته من الأمور ، حكاه القاضي .

قال الشهاب : الأفق الناحية ، وجمعه آفاق . والمراد الجهة العليا من السماء المقابلة للناظر ، لا مصطلح أهل الهيئة . انتهى .

وقال ابن كثير : وقوله تعالى :

﴿ فَاسْتَوَى ﴾ يعني جبريل عليه السلام ، قاله الحسن ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ يعني جبريل استوى في الأفق الأعلى ، قاله عكرمة وغير واحد .

ثم قال ابن كثير : وقد قال ابن جرير هاهنا قولاً لم أره لغيره ، ولا حكاه هو عن أحد ، وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى فاستوى ، أي : هذا الشديد القوي وصاحبكم محمد صلى الله عليه وسلم بالأفق الأعلى ، أي : استويا جميعاً بالأفق الأعلى ، وذلك ليلة

الإسراء ، كذا قال ، ولم يوافقه أحد على ذلك ، ثم شرع يوجه ما قاله من حيث العربية وهو كقوله :

(375/734)

﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا ﴾ [النمل : 67] ، فعطف بالآباء على المكنيّ في ﴿ كُنَّا ﴾ من غير إظهار نحن ، فكذلك قوله :

﴿ فَاسْتَوَى وَهُوَ ﴾ قال : وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده :

~أَلَم تَرَ أن التَّبْعَ يَصْلُبُ عُودُهُ ولا يستوي والخِرْوعُ الْمُتَقَصِّفُ

وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه ، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك ، فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء ، بل قبلها ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الأرض ، فهبط عليه جبريل عليه السلام ، وتدلى إليه ، فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، يعني ليلة الإسراء ، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة ، بعد ما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة ، فأوحى الله إليه صدر سورة اقرأ ، ثم فترة الوحي فترة < ذهب النبي صلى الله عليه وسلم فيها مراراً ليتردى من رؤوس الجبال > ، فكلما همَّ بذلك ناداه جبريل من الهواء : يا

محمد ! أنت رسول الله حقا ، وأنا جبريل ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقر عينه . وكلما طال عليه الأمر ، عاد لمثلها حتى تبدى له جبريل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بالأبطح في صورته التي خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، قد سدّ عظم خلقه الأفق ، فاقترب منه ، وأوحى إليه عن الله عز وجل ما أمره به ، فعرف عند ذلك عظمة الملَك الذي جاءه بالرسالة ، وجلالة قدره ، وعلو مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه . انتهى .

أقول : قد وافق القاشانيّ ابن جرير في تأويل الآية ، وعبارته :

(376/734)

﴿ فَاسْتَوَى ﴾ فاستقام على صورته الذاتية ، والنبيّ بالأفق الأعلى ، لأنه حين كَوْن النبيّ بالأفق المبين لا ينزل على صورته ، لاستحالة تشكل الروح المجرد في مقام القلب ، إلا بصورة تناسب الصور المتمثلة في مقامه ، ولهذا كان يتمثل بصورة دحية الكلبيّ ، وكان من أحسن الناس صورة ، وأحبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إذ لم يتمثل بصورة يمكن انطباعها في الصدر ، لم يفهم القلب كلامه ، ولم ير صورته . وأما صورته الحقيقية التي جبل عليها فلم تظهر للنبي صلى الله عليه وسلم إلا مرتين : عند عروجه إلى الحضرة الأحدية ووصوله بمقام الروح في الترقي ، وعند نزوله عنها ورجوعه إلى المقام عند سدرة المنتهى في

التدلي . انتهى .

وكذا المهايميّ وافقهما وعبارته :

﴿ فَاسْتَوَى وَهُوَ ﴾ أي : صاحبكم عند استواء نفسه ، صار بالأفق الأعلى الروحانيّ . انتهى .

وكذا الفخر الرازيّ وعبارته :

المشهور أن ﴿ هُوَ ﴾ ضمير جبريل ، وتقديره استوى كما خلقه الله بالأفق الشرقيّ ، فسدّ المشرق لعظمته ، والظاهر أن المراد محمد صلى الله عليه وسلم ، معناه : استوى بمكان ، وهو بالمكان العالي رتبة ومنزلة في رفعة القدر ، لا حقيقة في الحصول في المكان .

فإن قيل : كيف يجوز هذا والله تعالى يقول :

(377/734)

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ [التكوير : 23] ، إشارة إلى أنه رأى جبريل بالأفق المبين ؟ نقول : وفي ذلك الموضع أيضاً نقول كما قلنا هاهنا ، أنه صلى الله عليه وسلم رأى جبريل بالأفق المبين . يقول القائل : رأيت الهلال ، فيقال له : أين رأيته ؟ فيقول : فوق السطح ، أي : إن الرائي فوق السطح ، لا المرئي . و ﴿ الْمُبِينِ ﴾ هو الفارق ، من أبان الْإِنْسَانْ ، أي :

هو بالأفق الفارق بين درجة الْإِنْسَانْ ، ومنزلة الملك ، فإنه صلى الله عليه وسلم انتهى وبلغ الغاية وصار نبياً ، كما صار بعض الأنبياء نبياً يأتيه الوحي في نومه وعلى هيئته ، وهو واصل إلى الأفق الأعلى ، والأفق الفارق بين المنزلتين . فإن قيل : ما بعده يدل على خلاف ما تذهب إليه ، فإن قوله :

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ إلى غير ذلك ، وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ كل ذلك يدل على خلاف ما ذكرته ؟

نقول : سنبين موافقته لما ذكرنا إن شاء الله تعالى في مواضعه ، عند ذكر تفسيره .

فإن قيل : الأحاديث تدل على خلاف ما ذكرته ، حيث ورد في الأخبار أن جبريل عليه السلام أرى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه على صورته ، فسدّ المشرق ؟ فنقول : نحن ما قلنا : إنه لم يكن وليس في الحديث أن الله تعالى أراد بهذه الآية تلك الحكاية ، حتى يلزم مخالفة الحديث ، وإنما نقول : إن جبريل أرى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه مرتين ، وبسط جناحيه ، وقد ستر الجانب الشرقي وسدَّه ، ولكن الآية لم ترد لبيان ذلك . انتهى كلام الرازي .

وفي القرطبيّ حكاية أقوال أخر ، وعبارته :

﴿ فَاسْتَوَى ﴾ أي : ارتفع جبريل وعلا إلى مكانة في السماء ، بعد أن علّم محمداً صلى الله عليه وسلم ، قاله سعيد بن المسيب وابن جبير .

وقيل :

﴿ فَاسْتَوَى ﴾ أي : قام وظهر في صورته التي خُلِق عليها .

(378/734)

وقول ثالث : إن معنى ﴿ فَاسْتَوَى ﴾ أي : استوى القرآن في صدره . وفيه على هذا وجهان :

أحدهما : في صدر جبريل حين نزل به عليه السلام .

الثاني : في صدر محمد صلى الله عليه وسلم حين نزل عليه .

وقول رابع : إن معنى ﴿ فَاسْتَوَى ﴾ فاعتدل ، يعني محمداً في قوّته ، والثاني في رسالته ، ذكره الماورديّ .

وعلى الأول يكون تمام الكلام ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ ، وعلى الثاني ﴿ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾

وقول خامس : إن معناه فارتفع ، وفيه على هذا وجهان :

أحدهما : أنه جبريل ارتفع إلى مكانه ، على ما ذكرناه آنفاً .

الثاني : أنه النبيّ صلى الله عليه وسلم ارتفع بالمعراج .

وقول سادس :

﴿ فَاسْتَوَى ﴾ يعني الله عز وجل ، أي : استوى على العرش ، على قول الحسين . انتهى

.

هذا ما وقفنا عليه الآن من الأقوال في الآية ، وسيأتي في أول التنبيهات إيضاح ما اخترناه منها ، وإنما أخّرنا ذكره لارتباطه بالآيات الآتية .

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ [8 - 9]

﴿ ثم دنا ﴾ أي : ثم بعد استوائه اقترب جبريل من محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فتدلى ﴾ أي : إليه .

قال ابن جرير : هذا من المؤخر الذي معناه التقديم ، وإنما هو ثم تدلى فدنا ، ولكنه حسن تقديم قوله : ﴿ دنا ﴾ إذ كان الدنو يدل على التدلي ، والتدلي على الدنو . كما يقال : زارني فلان فأحسن إليّ فزارني .

وقال الشهاب : التدلي مجاز عن التعلق بالنبيّ بعد الدنو منه ، لا بمعنى التنزل من علوّ ، كما هو المشهور . أو هو دنوّ بحالة التعلق ، فلا قلب ولا تأويل بـ : أراد الدنو ، كما في " الإيضاح "

.

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ أي : كان مسافة ما بينهما مقدار قوسين . أي : بقدرهما إذا مُدّا أو أقرب . أو الضمير لجبريل ، أي : كأنه قربه قدر ذلك .

قال الشهاب : وقاب قوسين وقيبه : ما بين الوتر ومقبضه ، والمراد به المقدار ، فإنه يقدّر بالقوس ، كالذراع .

(379/734)

وقد قيل : إنه مقلوب ، أي : قابي قوس ، ولا حاجة إليه ؛ فإن هذا إشارة إلى ما كانت العرب في الجاهلية تفعله ، إذا تحالفوا أخرجوا قوسين ، ويلصقون إحداهما بالأخرى ، فيكون القاب ملاصقاً للآخر ، حتى كأنهما ذوا قاب واحد ، ثم ينزعانهما معاً ويرميان بهما سهماً واحداً ، فيكون ذلك إشارة إلى أن رضا أحدهما رضا الآخر ، وسخطه سخطه ، لا يمكن خلافه ، كذا قال مجاهد ، وارتضاه عامة المفسرين . انتهى .

قال السمين : وقوله تعالى :

﴿ أَوْ أَدْنَى ﴾ كقوله :

﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات : 147] ، لأن المعنى : فكان بأحد هذين المقدارين في رأي الرائي ، أي : لتقارب ما بينهما ، يشك الرائي في ذلك . فهو تمثيل لشدة القرب ، وتحقيق استماعه لما أوحى إليه بأنه في رأي العين ، ورأى الواقف عليه ، كما مر في ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ فإن المعنى : إذا رآهم الرائي يقول : هم مائة ألف أو يزيدون .

وقيل : أو بمعنى بل ، أي : بل أدنى .

و﴿ أَدْنَى ﴾ أفعل تفضيل ، والمفضل عليه محذوف . أي : أو أدنى من قاب قوسين .

وقوله تعالى :

﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ [10]

﴿ فَأَوْحَى ﴾ أي : جبريل ﴿ إِلَى عَبْدِهِ ﴾ أي : عبد الله تعالى ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وإنما أضمر اسمه تعالى لعدم اللبس ، وغاية ظهوره ، أو : فأوحى الله عز وجل ، بواسطة جبريل الذي تدلى إليه ﴿ مَا أَوْحَى ﴾ أي : مما أمره به . وفيه تفخيم للموحى به ؛ إذ الإبهام يفيد التعظيم ، كأنه أعظم من أن يحيط به بيان .

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ [11]

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ أي : ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه من الملك الذي جاءه بالوحي من ربه . يعني : أنه رآه بعينه وتيقنه بقلب ، لا ولم يشك في أن ما رآه حق وصدق ، وقرئ : ﴿ مَا كَذَّبَ ﴾ بالتشديد ، أي : صدقه ولم يشك أنه ملك رباني ، لا خيال شيطاني ، كما قال : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ [التكوير : 25

] . وقد ذكر ابن كثير أن هذه الرؤية في أوائل البعثة ، كما تقدم النقل عنه .

﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ [12]

﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ أي : أفتجادلونه وتلاحونه على ما يراه معاينة من رؤية الملك والمنزل عليه .

قال القاشانيّ : أي : أفتخاصمونه على شيء لا تفهمونه ولا يمكنكم معرفته وتصوره ، فكيف يمكنكم إقامة الحجة عليه ؟ وإنما المخاصمة حيث يمكن تصور الأمر المختلف فيه ، ثم الاحتجاج عليه بالنفي والإثبات ، فحيث لا تصور ، فلا مخاصمة حقيقية . انتهى . وذلك لأن رؤية الملك وتنزله حالة خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم وإخوانه الأنبياء عليهم السلام ، لا يمكن لغيرهم اكتناهها ، وإنما عليهم الإيمان بها والإذعان لها ، لقيام الدليل عليها . وبالجملة فالمراد أنه لا يصح المجادلة في المرئيّ ، لأنه لا يجوز الجدال في المحسوسات ، لا سيما إذا تعددت المشاهدة لها كما قال :

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ [13 - 18]

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ أي : مرّة أخرى من النزول ، وتأكيد الخبر عن الرؤية الثانية هذه ، لنفي الريبة والشك عنها أيضاً ، وأنه لم يكن فيها التباس واشتباه .

﴿ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ أي : موضع الانتهاء . فـ ﴿ الْمُنْتَهَى ﴾ : اسم مكان ، أو مصدر ميميّ . وقد جاء في الصحيح أنها < شجرة نبق في السماء السابعة ، إليها ينتهي ما يعرج به من أمر الله من الأرض ، فيقبض منها ، وما يهبط به من فوقها ، فيقبض منها > .

قال القاضي : ولعلها شبهت بالسدرة ، وهي شجرة النبق ، لأنهم يجتمعون في ظلها ، يعني أن شجر النبق يجتمع الناس في ظله ، وهذه يجتمع عندها الملائكة ، فشبهت بها ، وسميت ﴿ سِدْرَةِ ﴾ لذلك . فإطلاقها عليها بطريق الاستعارة ، لكن ورد في الحديث < أن كل نبقة فيها كقلة من قلال هَجَر > ، فهي على هذا حقيقية ، وهو الأظهر ، قاله الشهاب .

﴿ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ أي : التي يأوي إليها أرواح المقرّبين .

﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ قال القاشانيّ : أي : من جلال الله وعظمته . معناه أنه رأى جبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى حينما كانت الأرواح والملائكة تغشاها ، وتهبط عليها ، وتحف من حولها .

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ ﴾ أي : ما مال بصر رسول الله ، بل الله عليه وسلم عما رآه .

﴿ وَمَا طَغَى ﴾ أي : ما تجاوز مرئية المقصود له ، بل أثبت ما رآه إثباتاً مستيقناً صحيحاً

لا شبهة فيه . وفيه وصف لأدبه صلى الله عليه وسلم وتمكّنه ، إذ لم يتجاوز ما أمر برؤيته

.

﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ يعني الملك الذي عاينه وأخبره برسالته . وفيه غاية التفخيم لمقامه ، وأنه من الآيات الكبر .

قال الناصر : ويحتمل أن تكون ﴿ الْكُبْرَى ﴾ صفة لآيات ، ويكون المرئيّ محذوفاً لتفخيم الأمر وتعظيمه ، كأنه قال : لَقَدْ رأى من آيات ربه الكبرى أموراً عظاماً لا يحيط بها الوصف . والحذف في مثل هذا أبلغ وأهول .

تنبيهات :

الأول : قدمنا في تفسير قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ ما قاله المفسرون من الأقوال العديدة ، ولا يخفى ما في بعضها من التكلف والتعسف ، كتوجيه ابن جرير والرازيّ ومن وافقهما ، وبعض أقوال حكاها القرطبيّ . والأقرب في معنى الآية ما ذكره الإمام ابن كثير ، كما نقلناه عنه ، لكثرة الأحاديث الواردة فيما يفسرها بذلك ، ونحن نقول في تأييده : إن القرآن يفسر بعضه بعضاً

، لتشابه آياته الكريمة وتماثلها . والآية هذه مشابهة لما في سورة التكوير تمام المشابهة ، فقد قال تعالى ثمة :

(383/734)

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ [التكوير : 19 - 23] ، فترى هذه الآيات مشابهة للآيات هنا ، وإن كان فيما هنا زيادة رؤية ، وبيان دنوّ واقتراب لم يذكر في التكوير . وسر الزيادة هو ارتقاء النبيّ صلى الله عليه وسلم في معارج الكمالات وقتاً فوقتاً ، وسورة النجم مما نزل بعد التكوير ، كما حكاه في " الإتقان " عن ابن عباس وغير واحد من السلف ، فلذلك كان في النجم زيادة هذا التكريم والتفضيل . وحاصل المعنى : أن ما ينطق به من هذا القرآن ليس عن هواه ، وإنما هو وحي علمه إياه ملك كريم ، جمّ المناقب ، لأنه شديد القوى ، ذو مرة ، رفيع المكانة بالأفق الأعلى . ثم لما شاء تعالى إنزال وحيه على نبيّه تنزل من الأفق ودنا إليه ، وكان في غاية القرب منه ، والتمكن من رؤيته ، وتلقي الوحي عنه ، وذلك كله حق وصدق لا مرية فيه . وكيف يماري من يرى ببصره ما يصدقه فؤاده فيه ولا يكذبه ، لا سيما ولم تكن رؤياه له مرة واحدة ، بل رآه نزلة ثانية ، نزل إليه بالوحي في

مكان معين لا يشتبه على رائيه ، وهو سدرة المنتهى . وبالجملة ، فتوافق هذه الآيات لآيات التكوير من تفسير بعضها بعضاً ، أمر لا خفاء به عند المتدبر ، وكله ردٌّ على المشركين المفترين ، وإقسام على حقيقة الوحي والتنزيل ، وصدق ما يخبر به ، لا سيما وهو صادق عندهم لا يكذبونه . فما بقي بعد التعنت والجحد إلا انتظار سنة الله في أمثالهم من الأمم الكافرة الجاحدة ، كما أشار له في آخر السورة .

هذا ملخص معنى الآيات ، وما عداه فتوسع وحمل اللفظ على ما تجوّزه مادته . وكل ما يتسع له اللفظ هو المراد والله الموفِّق .

الثاني : ما قدمناه من رجوع الضمائر في قوله تعالى :

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ إلخ إلى جبريل عليه السلام ، هو الذي عوّل عليه عامة المفسرين ، وقد أيدناه بما رأيت .

قال الإمام ابن تيمية : الدنوّ والتدلّي في سورة النجم هو دنوّ جبريل وتدلّيه – كما قالت عائشة وابن مسعود – والسياق يدل عليه ، فإنه قال : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ وهو جبريل ، ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ فالضمائر كلها

راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوى ، وهو ذو المرة ، أي : القوة ، وهو الذي استوى بالأفق الأعلى ، وهو الذي دنا فتدلّى ، فكان من محمد صلى الله عليه وسلم قدر قوسين أو أدنى ، وهو الذي رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، رآه على صورته مرتين ، مرة في الأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى . انتهى .

وروى البخاري في هذه الآيات عن ابن مسعود قال : < رأى جبريل له ستمائة جناح > .

وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم < رأى جبريل ، ولم يّره في صورته إلا مرتين ، مرة عند سدرة المنتهى ، ومرة في جياد مكان بمكة له ستمائة جناح ، قد سدّ الأفق > .

وأما ما وقع في حديث شريك في البخاريّ من قوله : < دنا الجبّار رب العزة فتدلّى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى > ، فإن لم يكن ذلك من زيادة شريك ، على ما ذهب إليه الإمام مسلم وغيره ، فهو دنو وتدلّ غير ما في سورة النجم ، نؤمن به ونفوض كيفيته إليه تعالى ، كسائر الصفات .

قال ابن كثير : قد تكلم كثير من الناس في رواية شريك ، فإن صح فهو محمول على وقت آخر ، وقصة أخرى ، لا أنها تفسير لهذه الآية ، فإن كانت ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الأرض ، لا ليلة الإسراء . ولهذا قال بعده : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ ، فهذه هي ليلة الإسراء ، والأولى كانت في الأرض . انتهى .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقيّ : وقع في حديث شريك في الإسراء زيادة على مذهب من زعم أنه صلى الله عليه وسلم رأى الله عز وجل . وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤية جبريل ، أصح .

قال العماد بن كثير : وهذا الذي قاله البيهقيّ رحمه الله في هذه المسألة ، هو الحق ، فإن أبا ذّر قال : يا رسول الله ! رأيت ربك ؟ قال : < نور أنّى أراه > . وفي رواية : < رأيت نوراً > أخرجه مسلم .

وقوله :

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ إنما هو جبريل عليه السلام ، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة وعن ابن مسعود . وكذلك هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة ، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذا بهذا . انتهى .

وقال شمس الدين بن القيم في " زاد المعاد " : اختلف الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأى ربه تلك الليلة أم لا ؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه ، وصح عنه أنه قال : رآه بفؤاده ، وصحّ عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك ، وقال : إن قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ إنما هو جبريل . وصحّ عن أبي ذرّ أنه سأله : هل رأيت ربك ؟ قال : < نور أنّى أراه > أي : حال بيني وبين رؤيته النور ، كما في لفظ آخر : < رأيت نوراً > .

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارميّ اتفاق الصحابة على أنه لم يره .

قال الإمام ابن تيمية : وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضاً لهذا ، ولا قوله رآه بفؤاده . وقد صح عنه أنه قال : < رأيت ربي تبارك وتعالى > ، لكن لم يكن هذا في الإسراء ، ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح ، ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه . وعلى هذا بنى الإمام أحمد وقال : نعم رآه حقاً ، فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد . وأما قول ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين ، فإن كان استناده إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ ثم قال :

﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ والظاهر أنه مستنده ، فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أن هذا المرئي جبريل ، رآه مرتين في صورته التي خلق عليها . انتهى .

وقال ابن كثير : أما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : < رأيت ربي عز وجل > فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح ، لكنه مختصر من حديث المنام ، كما رواه الإمام أحمد أيضاً عن ابن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < أتاني ربي الليلة في أحسن صورة – أحسبه ، يعني في النوم – فقال : يا محمد ! أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قال قلت : لا . فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثدييّ – أو قال نحري – فعلمت ما في السماوات وما في الأرض . ثم قال : يا محمد ! هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قال قلت : نعم ! يختصمون في الكفارات والدرجات . قال وما الكفارات ؟ قال : قلت : المكث في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإبلاغ الوضوء في المكاره ! من فعل ذلك عاش بخير ، ومات بخير . وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه . وقال : قل يا محمد إذا صليت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة ، أن تقبضني إليك غير مفتون > .

قال : < والدرجات بذل الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام > .

ثم قال ابن كثير : وقوله تعالى :

﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ ، كقوله :

﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ [طه : 23] ، أي : الدالة على قدرتنا وعظمتنا ، وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة ، أن الرؤية تلك الليلة لم تقع ؛ لأنه قال :

﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ ولو كان رأى لأخبر بذلك ، ولقال ذلك للناس . انتهى

.

(387/734)

الثالث : ذهب بعضهم إلى أن هذه السورة أنزلت لإثبات المعراج النبويّ ، أعني : عروجه صلى الله عليه وسلم ، وصعوده وارتقاءه إلى ما فوق السماوات السبع ، كما ذكر في أحاديث المعراج عند سدرة المنتهى فوق السماوات ، ومشاهدة جبريل على صورته .

قال القليوبيّ : لما كان الإسراء مقدماً في الوجود على المعراج ، لأنه كالوسيلة والبرهان ، إذ يلزم من التصديق بخوارق العادة فيه ، التصديق بالمعراج وما فيه . وكان ما في المعراج من الخوارق أعظم وأكثر ، صدره الله تعالى بالقسم الدال على تأكيد ثبوته ، والرد على منكريه والطاعنين فيه ، واستطرد مع ذلك الرد على من نسب إليه صلى الله عليه وسلم ما لا يجوز عليه ، فقال : ﴿ وَالنَّجْمِ ﴾ إلخ انتهى .

ومما قدمنا يظهر أن نزول السورة لتأييد الرسالة النبوية ، وتحقيق الوحي ، بأنه تعليم ملك كريم ، مرئي للحضرة النبوية رؤية تدفع كل لبس ، لا لإثبات المعراج .

ثم من الغرائب أيضاً هنا ، قول بعضهم محاولاً سرّ إفراد الإسراء عن المعراج ، وذكر كلٍّ في

سورة ، ما مثاله : إن الإسراء أنزل أولاً وحده ، حملاً للمشركين على تسليم ما وضح صدقه صلى الله عليه وسلم فيه ، توصلاً للتصديق بما وراءه فإنه صلى الله عليه وسلم أرشد أن يخبر المشركين أولاً بالإسراء إلى المسجد الأقصى ، لأن قريشاً تعرفه ، فيسألونه عنه فيخبرهم بما يعرفون ، مع علمهم بأنه صلى الله عليه وسلم لم يدخل بيت المقدس قط ، فتقوم الحجة عليهم .

(388/734)

وكذلك وقع ، كما ذكر في الروايات . وعلى أثر هذا الإخبار أنزل بيان الإسراء ، ثم أُلهم صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بالمعراج إلى ملكوت السماوات ، ورؤية جبريل عليه السلام ، وأنزل الله تصديقه في سورة النجم . انتهى . فكل هذا مما لا سند له ، نعم ! روى البيهقيّ وابن أبي حاتم وابن جرير في حديث مطول ، أنه صلى الله عليه وسلم أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب : < إني أتيت البارحة بيت المقدس ، وعرج بي إلى السماء ورأيت كذا وكذا > إلا أن يقال : ليس هذا من مرويات الصحيحين ، ولا حجة في الأخبار إلا مرويّهما . وبالجملة ، فالمعوّل عليه هو أن المعراج لم يرد له ذكر في القرآن مطلقاً ، وما ورد في هذه السورة وسورة التكوير ، فلا علاقة له بالمعراج ، وإنما هي رؤية النبي صلوات الله عليه

لجبريل من الأرض على صورته الحقيقية كما تقدم . وأما المعراج فإنما كان رؤيا منامية روحانية ؛ لصريح حديث البخاريّ في ذلك من طرقه التي عن أنس ومالك بن أبي صعصعة . قال بعضهم ولذلك لم يذكر في حديث المعراج ، بحسب رواية البخاريّ التي هي من أصح الروايات بالإجماع ، أن النبي صلى الله عليه وسلم سار أولاً إلى بيت المقدس ، بل المذكور فيه أنه سار مباشرة من مكة إلى السماء الأولى ، وكذلك لم يذكر فيه أن جبريل فارقه ، ثم ظهر له عند سدرة المنتهى بصورته الحقيقية ، بل المذكور أنه كان مصاحباً له من أول المعراج إلى آخره على صورة واحدة ، وذلك يدل على أن ما ذكر في القرآن مما وقع يقظة ، هو غير ما ذكر في الحديث ، مما وقع مناماً في وقت آخر ، وإلا لذكرا معاً في سياق واحد ، إما في القرآن ، وإما في أصح الأحاديث ، وهو الأمر الذي لم يحصل إلا في بعض روايات لا يعوّل عليها ، وهي من خلط بعض الرواة الحوادث بعضها ببعض . انتهى والله أعلم .

(389/734)

ثم قال تعالى منكراً على المشركين عبادتهم الأوثان ، واتخاذهم لها البيوت ، مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن لعبادته تعالى وحده ، بقوله :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ [19 - 20]

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ ﴾ قال ابن كثير : هي صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له أستار وسَدَنَة ، وحوله فناء معظّم عند أهل الطائف ، هم ثقيف ومن تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش . قال ابن جرير : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله ، فقالوا : ﴿ اللَّاتَ ﴾ يعنون مؤنثة من لفظه ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، كما قالوا : عمرو وعمرة .

وقال الزمخشري : هي فعلة من لوى ؛ لأنهم كانوا يلوون عليها ، ويعكفون للعبادة ، أو يلتوون عليها ، أي : يطوفون .

وحكي عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرؤوا : اللاتّ بتشديد التاء ، وفسروه بأنه كان رجلاً يلتّ للحجيج في الجاهلية السَّويق ، فلما مات عكفوا على قبره وعبدوه .

﴿ وَالْعُزَّى ﴾ وهي شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهي بين مكة والطائف .

قال ابن جرير : اشتقوا اسمها من اسمه تعالى العزيز ، وقال الزمخشريّ : أصلها تأنيث الأعز

.

﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ وهي صخرة كانت بالمشلل عند قديد ، بين مكة والمدينة وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظّمونها ، ويهلون منها للحج إلى الكعبة .

روى البخاريّ عن عائشة نحوه .

قال ابن جرير : وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول : اللات والعُزّى

ومناة الثالثة ، أصنام من حجارة كانت في جوف الكعبة يعبدونها . انتهى .

تنبيهات :

الأول : قال القاضي : مناة فعلة ، من مناه إذا قطعه ؛ فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين .

ومنه سميت منى ؛ لأنه يمنى فيها القرابين ، أي : ينحر .

(390/734)

وقال الزمخشريّ : وكأنها سميت مناة ؛ لأن دماء المناسك كانت تمنى عندها ، أي : تراق . وقرئ : ﴿ مناءة ﴾ مفعلة من النوء ، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها .

فإن قيل : كونها ثالثة وأخرى مغايرة لما تقدمها ، معلوم غير محتاج للبيان .

وأجيب : بأنهما صفتان للتأكيد ، أو ﴿ الثَّالِثَةَ ﴾ للتأكيد ، و ﴿ الأُخْرَى ﴾ بيان لها ، لأنها مؤخرة رتبة عندهم ، عن اللات والعزى .

قال الناصر : ﴿ الأُخْرَى ﴾ ما يثبت آخراً ، ولا شك أنه في الأصل مشتق من التأخير الوجوديّ ، إلا أن العرب عدلت به عن الاستعمال في التأخير الوجوديّ إلى الاستعمال ، حيث يتقدم ذكر معاير لا غير حتى سلبته دلالته على المعنى الأصليّ ، بخلاف آخر وآخرة على وزن فاعل وفاعلة ، فإن إشعارها بالتأخير الوجوديّ ثابت لم يغير ، ومن ثم عدلوا عن

أن يقولوا : ربيع الآخَر ، على وزن الأفعل ، وجمادى الأخرى ، إلى ربيع الآخر على وزن فاعل ، وجمادى الآخرة على وزن فاعلة ؛ لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجوديّ ، لأن الأفعل و الفعلى من هذا الاشتقاق مسلوب للدلالة على غرضهم ، فعدلوا عنها إلى الآخر والآخرة والتزموا ذلك فيهما . وهذا البحث مما كان الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله تعالى قد حرره آخر مدتهُ ، وهو الحق إن شاء الله تعالى ، وحينئذ يكون المراد الإشعار بتقدم مغاير في الذكر مع ما نعتقده في الوفاء بفاصلة رأس الآية . انتهى .

الثاني : قال ابن كثير : كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة ، غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز ، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها .

(391/734)

قال ابن إسحاق في "السيرة" : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ويهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر عندها ، وهي تعرف فضل الكعبة عليها ، أنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده . فكانت لقريش ولبني كنانة العُزّى بنوسلم

خالد سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم حلفاء بني هاشم . وبعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول :

~يا عُزّ كفرانَكِ لا سُبْحانَكِ إِني رأيتُ اللهَ قد أَهَانكِ

روى النسائي عن أبي الطفيل قال : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة ، وكانت بها العزى ، فأتاها خالد ، وكانت على ثلاث سمرات ، فقطع السمرات ، وهدم البيت الذي كان عليها ، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : < ارجع ، فإنك لم تصنع شيئاً > . فرجع خالد فلما أبصر السدنة وهم حجبتها ، أمعنوا في الحيل وهم يقولون : يا عزى ! يا عزى ! فأتاها خالد ، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها ، فغمسها بالسيف حتى قتلها ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : < تلك العزى > ! قال ابن إسحاق : وكانت اللات لثقيف بالطائف ، وكان سدنتها وحجابها بني معتب ، وقد بعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب فهدماها ، وجعلا مكانها مسجداً بالطائف .

قال ابن إسحاق : وكان مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر ، من ناحية المشلل بقديد ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها أبا سفيان ، صخر بن حرب فهدمها . ويقال : عليّ بن أبي طالب . انتهى .

الثالث : قال ابن جرير : اختلف أهل العربية في وجه الوقف على ﴿ اللَّاتَ ﴾ و ﴿ مَنَاةَ ﴾ فكان بعض نحويّ البصرة يقول : إذا سكت قلت : اللات ، وكذلك : مناة ، تقول : منات . وقال : قال بعضهم : اللاتّ فجعله من اللتّ الذي يلت . ولغة العرب يسكتون على ما فيه الهاء بالتاء ، يقولون : رأيت طلحة . وكل شيء مكتوب بالهاء فإنها تقف عليه بالتاء ، نحو نعمة ربك ، وشجرة . وكان بعض نحويي الكوفة يقف على اللات بالهاء ، وكان غيره منهم يقول : الاختيار في كل ما لم يضف ، أن يكون بالهاء ﴿ رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ [الكهف : 98] ، ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ ﴾ [المؤمنون : 20] ، وما كان مضافاً فجائز بالهاء والتاء ، فالتاء للإضافة ، والهاء لأنه يفرد ويوقف عليه دون الثاني . وهذا القول الثالث أفشى اللغات وأكثرها في العرب ، وإن كان للأخرى وجه معروف . انتهى .

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ [21 - 22]

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴾ قال الزمخشريّ : كانوا يقولون : إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله ، وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى ، مع وأدهم البنات ، فقيل لهم : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴾ ويجوز أن يراد أن اللات والعزى ومنات إناث ،

وقد جعلتموهن لله شركاء ، ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث ، وتستنكفوا من أن يولدن لكم ، وينسبن إليكم ، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أنداداً لله ، وتسمونهن آلهة ؟ انتهى .

لطيفة :

قال الشهاب : قد مرّ مراراً الكلام في أرأيت وأنها بمعنى أخبرني ، وفي كيفية دلالتها على ذلك ، واختلاف النحاة في فعل الرؤية فيه ، هل هو بصري ؟ فتكون الجملة الاستفهامية بعدها مستأنفة لبيان المستخبر عنه . وهو الذي اختاره الرضيّ . أو علمية ، فتكون في محل المفعول الثاني ، فالرابط حينئذ أنها في تأويل : أهي بنات الله ؟

(393/734)

قال السمين : وكأن أصل التركيب : ألكم الذكر ، وله هن ، أي : تلك الأصنام . وإنما أوثر هذا الاسم الظاهر لوقوعه رأس فاصلة .

وقوله تعالى :

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى القسمة المفهومة من الجملة الاستفهامية ﴿ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ أي : جائرة ، غير مستوية ، ناقصة غير تامة ، لأنكم جعلتم لربكم من الولد والند ما تكرهون لأنفسكم ، وآثرتم أنفسكم بما ترضونه .

قال ابن جرير : والعرب تقول : ضِزْتُهُ حقّه بكسر الضاد ، وضُزته بضمها ، فأنا أضيزهُ وأضوزهُ ، وذلك إذا نقصته حقَهُ ومنعتهُ .

تنبيه :

قال السمين : قرأ ابن كثير : ﴿ ضئزى ﴾ بهمزة ساكنة ، والباقون بياء مكانها . وقرأ زيد بن علي : ﴿ ضَيزى ﴾ بفتح الضاد والياء ساكنة . فأما قراءة العامة فتحتمل أن تكون من ضازهُ يضيزه إذا ضامه وجار عليه ، فمعنى ضيزى جائرة . وعلى هذا فتحتمل وجهين :

أحدهما : أن تكون صفة على فُعلى بضم الفاء ، وإنما كسرت الفاء لتصح الياء كبيض .

فإن قيل : وأي ضرورة إلى أن يقدر أصلها ضم الفاء ، ولم لا قيل فِعلى بالكسر ؟

فالجواب : أن سيبويه حكى أنه لم يرد في الصفات فِعلى بكسر الفاء ، وإنما ورد بضمها ، نحو حبلى وأنثى وربّى وما أشبهه ، إلا أن غيره حكى في الصفات ذلك . حكى ثعلب : مشية حيكى ، ورجل كيسى . وحكى غيره : امرأة عزهى وامرأة سعلى . وهذا لا ينقض على سيبويه ؛ لأنه يقول في حيكى وكيسى كقوله في ضيزى لتصح الياء ، وأما عزهى وسعلى فالمشهور فيهما عزهاة سعلاة .

والوجه الثاني : أن تكون مصدراً كذكرى . قال الكسائيّ : يقال ضاز يضيز ضيزى ، كذكر يذكر ذكرى . ويحتمل أن تكون من ضأزه بالهمز كقراءة ابن كثير ، إلا أنه خفف همزها ، وإن لم يكن من أصول القراء كلهم إبدال مثل هذه الهمزة ياءً ، لكنها لغة التزمت ، فقرؤوا بها . ومعنى ضأزه يضأزه بالهمزة ، نقصه ظلماً وجوراً ، وهو قريب من الأول . و ضيزى في قراءة ابن كثير مصدر وصف به ، ولا يكون وصفاً أصلياً ؛ لما تقدم عن سيبويه .

فإن قيل : لم لا قيل في ضئزى بالكسر والهمز ، أن أصله ضيزى بالضم فكسرت الفاء ، لما قيل فيها مع الياء ؟

فالجواب : أنه لا موجب هنا للتغيير ، إذ الضم مع الهمز لا يستثقل استثقاله مع الياء الساكنة وسمع منهم : ضؤزى بضم الضاد مع الواو والهمزة .

وأما قراءة زيد فيحتمل أن تكون مصدراً وصف به ، كدعوى ، وأن تكون صفة ككسرى وعطشى . انتهى .

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ [23]

﴿ إِنْ هِيَ ﴾ أي : الأصنام المذكورة باعتبار الألوهية التي يدعونها لهم ﴿ إِلَّا أَسْمَاء ﴾

أي : محضة ليس تحتها مما تنبئ هي عنه من معنى الألوهية ، شيء ما أصلاً . أي : ليس لها نصيب منها إلا إطلاق تلك الأسماء عليها .

قال الشهاب : والمراد لا نصيب لها أصلاً ، ولا وجه لتسميتها بذلك ، ولو كانت الألوهية متحققة بمجرد التسمية كانت آلهة ، فهو من نفي الشيء بإثباته ، أو هو ادعاء محض لا طائل تحته .

(395/734)

﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ أي : جعلتموها أسماء مع خلوها عن المسميات ﴿ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم ﴾ أي : بمقتضى أهوائكم ، وتقليد التابع للمتبوع ﴿ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ أي : برهان يتعلق به ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ أي : إلا توهم أن ما هم عليه حق ﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ﴾ أي : تشتهيه أنفسهم .

قال ابن جرير : لأنهم لم يأخذوا ذلك عن وحي جاءهم من الله ، ولا عن رسول الله أخبرهم به ، وإنما هو اختلاق من قبل أنفسهم ، أو أخذوه عن آبائهم الذين كانوا من الكفر بالله على مثل ما هم عليه منه ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ أي : الدليل الواضح ، والبيان بالوحي ، أن عبادتها لا تنبغي وأنه لا تصلح العبادة إلا له تعالى وحده .

قال أبو السعود : والجملة حال من فاعل ﴿ يُتْبِعُونَ ﴾ أو اعتراض . وأيّاً ما كان ، ففيه تأكيد لبطلان إتباع الظن ، وهوى النفس ، وزيادة تقبيح لحالهم ، فإن اتباعهما من أي : شخص كان ، قبيح ، وممن هداه الله تعالى بإرسال الرسول صلى الله عليه وسلم وإنزال الكتب ، أقبح .

تنبيه :

قال السيوطيّ في " الإكليل " : استدل بقوله :

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء ﴾ إلخ على أن اللغات توقيفية ، ووجهه أنه تعالى ذمهم على تسمية بعض الأشياء بما سموها به ، ولولا أن تسمية غيرها من الله توقيف ، لما صح هذا الذم ، لكون الكل اصطلاحاً منهم .

واستدل بقوله تعالى :

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ﴾ إلخ على إبطال التقليد في العقائد واستدل به الظاهرية على إبطاله مطلقاً ، أو إبطال القياس .

أخرج ابن أبي حاتم عن عمر قال : احذروا هذا الرأي على الدِّين ، فإنما كان الرأي من رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيباً لأن الله كان يريه ، وإنما هو منا تكلف وظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً . انتهى .

﴿ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ [24]

﴿ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ أي : ليس ما يشتهيه من الأمور التي منها طمعه الفارغ في شفاعة الأنداد ، وتعنته في دفاع اليقين بالظن ، وتركه نفسه وهواها بلا شرع يقيده ولا مهيمن يَزَعُهُ . فإن ذلك من المحالات في نظر العقل السليم ، كقوله :

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ [النساء : 123] .

﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ [25]

﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ أي : فمصير الأمر فيهما له تعالى ، لا للإنسان حسب ما تسول له نفسه الأمارة بالسوء ، كما قال :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [المؤمنون : 71] ، ولذا أرسل له الرسل ، وأنزل الكتب ، قطعاً للمعاذير ، ونبهه بالعقل على سبل السعادة التي لا تخفى على بصير .

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [26]

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ

وَيَرْضَى ﴾ هذا توبيخ من الله تعالى لعبدة الأوثان ، بإقناطهم عما علّقوا به أطماعهم من شفاعة أوثانهم ، بأن ملائكته الكرام لا يتفوهون بالشفاعة إلا من بعد إذنه ورضاه . فأنّى لهذه الطواغيت أن تفتات على هذا المقام ، ولها من الذلة والصغار ما يبعدها عنه بألف منزل .

ثم أشار إلى طغيان آخر للمشركين ، بقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى ﴾ [27]

(397/734)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى ﴾ أي : تسمية الإناث ، وذلك أنهم كانوا يقولون : هم بنات الله . فالأنثى بمعنى الإناث ، لأنهم اسم جنس يتناول الكثير والقليل . وقيل : بمعنى الطائفة الأنثى . وقيل : منصوب بنزع الخافض على التشبيه ، فلا تمس الحاجة إلى الجمعية . وقيل : أفرد لرعاية الفاصلة . وقيل : الملائكة في معنى استغراق المفرد ، أي : ليسمون كل واحد منهم بنتاً ، وهي تسمية الأنثى ، على وزن كسانا الأمير حلةً ، أي : كسا كلَّ واحد منا حُلة ، والإفراد لعدم اللبس .

قال أبو السعود : وفي تعليقها بعدم الإيمان بالآخرة ، إشعار بأنها في الشناعة والفظاعة ،

واستتباع العقوبة في الآخرة ، بحيث لا يجترئ عليها إلا من لا يؤمن بها رأساً .

﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا * فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [28 - 29]

﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ أي : لا يفيد فائدته ، ولا يقوم مقامه ، وذلك لأن حقيقة الشيء وما هو عليه ، إنما تدرك إدراكاً معتداً به ، إذا كان عن يقين ، لا عن ظن وتوهم .

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي : من هؤلاء الكفرة الذين يرون غاية سعادتهم التنعم بلذائذها ، لقصر نظرهم على المحسوسات . والمراد من الإعراض هجرهم هجراً جميلاً ، وترك إيذائهم . وقول الزمخشريّ : أي : أعرض عن دعوة من رأيته معرضاً عن ذكر الله . . . إلخ لا يصح ؛ لأن الصدع بالحق لا تسامح فيه ، لاسيما والدعوة للمعرضين ، وهي تستلزم أن يحاجوا به بمنتهى الطاقة لقوله تعالى :

﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ [الفرقان : 52] ، وإنما معنى الآية : فاصفح عنهم ودع أذاهم ، في مقابلة ما يجهلون به عليك ، كما بين ذلك في مواضع من التنزيل ، والقرآن

يفسر بعضه بعضاً .

﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ [30]

﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ يعني أمر الدنيا منتهى علمهم ، لا علم لهم فوقه . ومن كان هذا أقصى معارفه ، فما على داعيه إلا الصفح عنه ، والصبر على جهله .

ومبلغ اسم مكان مجازاً ، كأنه محل وقف فيه علمهم ادعاء – كما حققه الشهاب – والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها من قصر الإرادة على الحياة الدنيا ، ثم علل الأمر بالإعراض بقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ أي : ولا بد أن يعاملهم بموجب علمه فيهم ، فيجزي كلاً بما يقتضيه عمله ، وتقديم العلم بمن ضل ، لأنهم المقصودون من الخطاب ، والسياق فيهم . وقوله :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [31]

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ تنبيه على سعة ملكه ، وعظمة قدرته ، وأن ما فيهما من قبضته ، فلا يعجزه جزاء هؤلاء الفجَرة ، كما قال :

﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ أي : بالمثوبة الحسنى ، وهي الجنة ثم بين صفات هؤلاء المحسنين ، بقوله سبحانه :

(399/734)

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [32]

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ ﴾ يعني ما كبر الوعيد عليه من المناهي ﴿ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ يعني ما فحش منها . والعطف إما من عطف أحد المترادفين أو الخاص على العام ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ أي : الصغائر من الذنوب . ومثّله أبو هريرة بالقُبلة والغمزة والنظرة ، فيما رواه ابن جرير ، وأصل معناه : ما قل قدره . ومنه : لمة الشعر ، لأنها دون الوفرة . وقيل : معناه الدنو من الشيء دون ارتكاب له . والاستثناء منقطع على ما ذكر . وقيل : اللمم بما دون الكبائر والفواحش ، فإنه عفو . وقيل : متصل ، والمراد مطلق الذنوب . وقيل : إنه لا استثناء فيه أصلاً . و ﴿ اللَّمَمَ ﴾ صفة بمعنى غير وتفصيله في "العناية" .

وحكى ابن جرير عن ابن عباس وغيره ، أن معنى ﴿ اللَّمَمَ ﴾ ما قد سلف لهم مما ألموا به

من الفواحش والكبائر في الجاهلية قبل الإسلام ، وغفرها لهم حين أسلموا .

وعن ابن عباس أيضاً قال : هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب ولا يعود . قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

~ < إن تغفر اللهم تغفر جماً وأيّ عبد لك لا ألّما >

وقال الحسن :

﴿ اللَّمَمَ ﴾ أن يقع الوقعة ثم ينتهي . وكل هذا يتناوله اللفظ الكريم والأقوى في معناه هو الأول ؛ ولذا استدل بالآية على تكفير الصغائر باجتناب الكبائر كما قال تعالى :

﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [النساء : 31] .

(400/734)

﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ قال ابن جرير : أي : واسع عفوه للمذنبين الذين لم تبلغ ذنوبهم الفواحش وكبائر الإثم ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ قال ابن جرير : أي : أحدثكم منها بخلق أبيكم آدم منها ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ أي : حيثما يصوركم في الأرحام ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ أي : تشهدوا لها بأنها زكية بريئة من الذنوب والمعاصي ، والمراد به الثناء تمدحاً أو رياءً ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ أي : بمن اتقاه فعمل

بطاعته ، واجتنب معاصيه وأصلح ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [النساء : 49] .

وفي الصحيحين عن أبي بكرة قال : مدح رجل رجلاً عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < ويلك ! قطعت عنق صاحبك > مراراً < إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة ، فليقل : أحسب فلاناً ، والله حسيبه ، ولا أزكي على الله أحداً ، أحسبه : كذا وكذا إن كان يعلم ذلك > .

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى * أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ [33 - 35]

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴾ أي : عن الذكر بعد إذ جاءه ، كما قال تعالى :

﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [القيامة : 31 - 32] .

﴿ وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى ﴾ أي : قطع العطاء بخلاً وشحاً .

﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ أي : يراه حتى يحكم على نفسه بالتزكية والنجاة والفوز ؟ .

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [36 - 37]

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ أي : بالغ في الوفاء بما عاهد الله عليه ، كما قال : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة : 124] .

﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [38]

﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أي : لا تؤاخذ نفس بذنب غيرها ، بل كل آثمة فإنَّ إثمها عليها .

قال القاشانيّ : لأن العقاب يترتب على هيئات مظلمة رسخت في النفس بتكرار الأفاعيل والأقاويل السيئة التي هي الذنوب ، وكذلك الذنوب . وكذلك الثواب ، إنما يترتب على أضدادها من هيئات الفضائل ، كما قال تعالى :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [39]

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ أي : إلا سعيه وكسبه .

تنبيهات :

الأول : قال ابن جرير : إنما عنى بقوله :

﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ الذي ضمن للوليد بن المغيرة أن يتحمل عنه عذاب يوم القيامة ! يقول : ألم يخبر قائل هذا القول ، وضامن هذا الضمان ، بالذي في صحف موسى

وإبراهيم مكتوب : أن لا تأثم آثمة إثم أخرى غيرها ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ أي : وأنه لا يجازى عامل إلا بعمله ، خيراً كان أو شراً . انتهى .

وظاهر السياق يشعر بنزول الآيات رداً على ما كانوا يتخرصونه ويتمنونه ، ويتحكمون فيه على الغيب لجاجاً وجهلاً . ومع ذلك فمفهومها الشموليّ جليّ .

الثاني : قال السيوطيّ في " الإكليل " : استدل به على عدم دخول النيابة في العبادات عن الحيّ والميت . واستدل به الشافعيّ على أن ثواب القراءة لا يلحق الأموات . انتهى .

(402/734)

وقال ابن كثير : ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعيّ رحمه الله ومن تبعه ، أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته ، ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ، ولو كان خيراً لسبقونا إليه . وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء ، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ، ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : < إذا مات الْإِنْسَانُ انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به > فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكدّه وعمله ، كما جاء في الحديث : < إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه > ، والصدقة الجارية – كالوقف ونحوه – هي من آثار عمله ووقفه ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ [يس : 12] . والعلم الذي نشره في الناس ، فاقتدى به الناس بعده ، هو أيضاً من سعيه وعمله .

وثبت في الصحيحين : < من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعهم ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً > . انتهى .

(403/734)

الثالث : قال الرازيّ : المراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة ، أو بيان كل عمل . نقول : المشهور أنها لكل عمل ، فالخير مثاب عليه ، والشر معاقب به ، والظاهر أنه لبيان الخيرات ، يدل عليه اللام في قوله تعالى : ﴿ لِلإِنسَانِ ﴾ فإن اللام لعود المنافع ، وعلى لعود المضار ، تقول : هذا له ، وهذا عليه ، ويشهد له ، ويشهد عليه ، في المنافع والمضار . وللقائل الأول أن يقول بأن الأمرين إذا اجتمعا غلب الأفضل ، كجموع السلامة تذكّر ، إذا اجتمعت

الإناث مع الذكور . وأيضاً يدل عليه قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى ﴾ و ﴿ الْأَوْفَى ﴾ لا يكون إلا في مقابلة الحسنة ، وأما في السيئة فالمثل أو دونه ، أو العفو بالكلية . انتهى .

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى ﴾ [40 - 41]

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ أي : يراه ، ويعرض عليه ، ويكشف له . من أرأيت الشيء ، أو يرى للخلق وللملائكة ؛ ففيه بشارة للمؤمن ، وإفراح له ، ونذارة للكافر ، وإرهاب له ، أو هو من رأى المجرد ، أي : يراه . كقوله تعالى :

﴿ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : 105] ، ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى ﴾ أي : يجزى سعيه جزاءً وافراً لا يبخس منه شيئاً .

قال الشهاب : أصله يجزي الله الْإِنْسَانْ سعيه ، فـ ﴿ الْجَزَاء ﴾ منصوب بنزع الخافض ، و ﴿ سَعْيَهُ ﴾ هو المفعول الثاني ، وهو يتعدى له بنفسه ، نحو : جزاك الله خيرا . وجزاءه سعيه بمعنى جزائه بمثله أو هو مجاز . وقيل : المنصوب بنزع الخافض الضمير ، والتقدير : بسعيه أو على سعيه - كما في " الكشاف " .

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ [42 - 49]

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾ أي: انتهاء الخلق، ورجوعهم لمجازاتهم. والمخاطب إما عام، أي: أيها السامع أو العاقل، ففيه وعد أو وعيد، أو خاص بالنبي صلوات الله عليه، ففيه تسلية عما كان يلاقيه من جفاء قومه وجهلهم.

ثم أشار إلى بعض آياته الدالة على انفراده بالألوهية، بقوله تعالى:

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ أي: خلق قوتي الضحك والبكاء، أو أضحك أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار، أو من شاء من أهل الدنيا، أو أعمّ.

قال الرازيّ: اختار هذين الوصفين لأنهما أمران لا يعللان، فلا يقدر أحد من الطبيعيين أن يبدي في اختصاص الإِنْسَانْ بهما سبباً، وإذا لم يعلل بأمر، فلا بد له من موجد، وهو الله تعالى، وأطال في ذلك وأطاب، رحمه الله تعالى.

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ أي: أمات من شاء من خلقه، وأحيى من شاء، قال: ابن جرير وعنى بقوله: ﴿ أَحْيَا ﴾ نفخ فيه الروح في النطفة الميتة، فجعلها حية بتصييره الروح فيها.

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾ أي: ابتدع إنشاءهما من

نطفة إذا تدفق في الرحم .

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ﴾ أي : إعادة الخلق بعد مماتهم في نشأة أخرى لا تعلم ، كما قال :

﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة : 61] ، وذلك للحساب والجزاء ، المترتب على أعمال الخير والشر ، بالمصير إلى الجنة أو النار .

(405/734)

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ أي : أغنى من شاء بالمال . وأقناه أي : جعل له قنية ، وهو ما يدخره من أشرف أمواله ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ وهو نجم مضيء خلف الجوزاء ، وكان بعض أهل الجاهلية يعبده .

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى * هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى ﴾ [50 - 56]

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴾ يعني قوم هود . وسميت ﴿ الْأُولَى ﴾ لتقدمها في الزمان .

﴿ وَثَمُودَ ﴾ أي : قوم صالح ﴿ فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى

﴿ أي : أشد في كفرهم ﴿ وَأَطْغَى ﴾ أي : أشد طغياناً وعصياناً من الذين أهلكوا بعدهم ، لتمردهم على الكفر ، وردّ دعوته في طول مدته بينهم ، وهي أطول مدد الأنبياء عليهم السلام .

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ ﴾ أي : قرى قوم لوط التي ائتفكت بأهلها ، أي : انقلبت .

﴿ أَهْوَى ﴾ أي : أهواها على أهلها ودمّرها .

﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ أي : من العذاب السماويّ الذي صب عليها .

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ ﴾ أي : نعمائه .

﴿ تَتَمَارَى ﴾ أي : ترتاب وتشك وتجادل في أنها ليست من عنده ، وهو الذي أنعم بالإغناء والإقناء وإرسال الرسل ، وقهر أعدائهم .

﴿ هَذَا ﴾ أي : القرآن ﴿ نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى ﴾ أي : إنذار من جنس الإنذارات الأولى التي أنذر بها من قبلكم . أو هذا الرسول نذير من جنس من تقدمه ، ليس بدعاً من الرسل .

﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [57 – 58]

﴿ أَزِفَتْ الْآزِفَةُ ﴾ أي : قربت القيامة الموصوفة بالقرب . فاللام في ﴿ الْآزِفَةِ ﴾ للعهد وقيل : الآزفة علم بالغلبة للساعة هنا ، لئلا يلزم وصف القريب بالقريب .

قال الشهاب : وفيه نظر ، لأن وصف القريب بالقرب يفيد المبالغة في قربه ، كما يدل على الافتعال في اقتربت .

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أي : ليس لقيامها غير الله مبيّن لوقتها ، كقوله : ﴿ لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأعراف : 187] ، و ﴿ كَاشِفَةٌ ﴾ صفة محذوف ، أي : نفس كاشفة ، أو حال كاشفة أو التاء للمبالغة . أو هو مصدر بني على التأنيث و ﴿ مِّن دُونِ اللّهِ ﴾ بمعنى غير الله ، أو إلا الله . وقيل : الكشف بمعنى الإزالة ، أي : ليس لها نفس كاشفة إذا وقعت ، إلا هو تعالى ، من كشف الغماء .

﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَامِدُونَ * فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ [59 - 62]

﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعني القرآن الذي قص ما تقدم ، وأنذر بما أخبر ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ أي : تعجب إنكار مع أن ما حواه مما يلجئ إلى الإذعان والإقرار ، بل مما يفيض لحقيته الدمع المدرار ، كما قال : ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ أي : استهزاء ﴿ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ أي : مما فيه من وعيد للعصاة ، ومما فرط منكم قبل سماع ذكراه كما يفعله الموقنون به ، المحدث عنهم في آية : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ [الإسراء : 109] ﴿ وَأَنتُمْ

سَامِدُونَ ﴾ أي : لاهون عما فيه من العبر ، معرضون عن آياته كبراً .

قال مجاهد : كانوا يمرون على النبي صلى الله عليه وسلم غضاباً مبرطمين ، أي : شامخين .

(407/734)

وعن ابن عباس : هو الغناء : كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا ، وهي لغة أهل اليمن . يقولون : اسمدْ لنا : تغنّ لنا . والمآل والمشركين . تلفت العبارة عنه . ولا ريب أن كل ذلك مما كان يصدر عن المشركين .

قال في " الإكليل " : فيه استحباب البكاء عند القراءة ، وذم الضحك والغنا واللهو واللعب والغفلة ، كما فسر بالأربعة قوله : ﴿ سَامِدُونَ ﴾ وفسره السديّ بالاستكبار .

﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ أي : واعبدوه دون من سواه من الأوثان ، فإنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلا له ، فلا تجعلوا له شريكاً في عبادته .

وعن عبد الله بن مسعود قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿ وَالنَّجْمِ ﴾ < فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم > وسجد من خلفه . . . الحديث . وتقدم في أول السورة .

وروى الإمام أحمد عن المطّلب بن وداعة قال : < قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة سورة النجم ، فسجد > وسجد من عنده ، فرفعت رأسي فأبيت أن أسجد – ولم يكن أسلم يومئذ المطلب – فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً قرأها إلا سجد معه . ورواه النساني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 15 صـ 512. 541 ﴾

(408/734)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) ﴾

في هذا المطلع نعيش لحظات في ذلك الأفق الوضيء الطليق المرفرف الذي عاش فيه قلب محمد – صلوات الله وسلامه عليه – ونرف بأجنحة النور المنطلقة إلى ذلك الملأ الأعلى ؛ ونستمع إلى الإيقاع الرخي المناسب ، في جرس العبارة وفي ظلالها وإيحائها على السواء . نعيش لحظات مع قلب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكشوفة عنه الحجب ، مزاحة عنه الأستار . يتلقى من الملأ الأعلى . يسمع ويرى ، ويحفظ ما وعى . وهي لحظات خص بها ذلك القلب المصفى ؛ ولكن الله يمن على عباده ، فيصف لهم هذه اللحظات وصفاً موحياً مؤثراً . ينقل أصداءها وظلالها وإيحاءها إلى قلوبهم . يصف لهم رحلة هذا القلب

المصفى ، في رحاب الملأ الأعلى . يصفها لهم خطوة خطوة ، ومشهداً مشهداً ، وحالة حالة ، حتى لكأنهم كانوا شاهديها .

ويبدأ الوصف الموحي بقسم من الله سبحانه : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ . . وحركة تلألؤ النجم ثم هويه ودنوه . أشبه بمشهد جبريل المقسم عليه : ﴿ وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ وهكذا يبدأ التناسق والتوافق في المشهد والحركة والظل والإيقاع منذ اللحظة الأولى .

﴿ والنجم إذا هوى ﴾ . . وقد رويت تفسيرات مختلفة للنجم المقصود في هذا القسم .

(409/734)

وأقرب ما يرد على الذهن إنها إشارة إلى الشعرى ، التي كان بعضهم يعبدها . والتي ورد ذكرها في السورة فيما بعد في قوله : ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ . . وقد كان للشعرى من اهتمام الأقدمين حظ كبير . ومما هو معروف أن قدماء المصريين كانوا يوقتون فيضان النيل بعبور الشعرى بالفلك الأعلى . ويرصدونها من أجل هذا ويرقبون حركاتها . ولها شأن في أساطير الفرس وأساطير العرب على السواء . فالأقرب أن تكون هذه الإشارة هنا إليها . ويكون اختيار مشهد هويّ النجم مقصوداً للتناسق الذي أشرنا إليه . ولمعنى آخر هو

الإيحاء بأن النجم مهما يكن عظيماً هائلاً فإنه يهوي ويتغير مقامه . فلا يليق أن يكون معبوداً . فللمعبود الثبات والارتفاع والدوام .

ذلك هو القسم . فأما المقسم عليه ، فهو أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - مع الوحي الذي يحدثهم عنه :

﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى ﴾ . . فصاحبكم راشد غير ضال . مهتد غير غاو . مخلص غير مغرض . مبلغ بالحق عن الحق غير واهم ولا مفتر ولا مبتدع . ولا ناطق عن الهوى فيما يبلغكم من الرسالة . إن هو إلا وحي يوحى . وهو يبلغكم ما يوحى إليه صادقاً أميناً .

هذا الوحي معروف حامله . مستيقن طريقه . مشهودة رحلته . رآه الرسول - صلى الله عليه وسلم - رأي العين والقلب ، فلم يكن واهماً ولا مخدوعاً :

﴿ علّمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى ؟ ﴾ . .

والشديد القوي ذو المرة " أي القوة " ، هو جبريل – عليه السلام – وهو الذي علم صاحبكم ما بلغه إليكم . وهذا هو الطريق ، وهذه هي الرحلة ، مشهودة بدقائقها : استوى وهو بالأفق الأعلى . حيث رآه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان ذلك في مبدأ الوحي . حين رآه على صورته التي خلقه الله عليها ، يسد بالأفق بخلقه الهائل . ثم دنا منه فتدلى نازلاً مقترباً إليه . فكان أقرب ما يكون منه . على بعد ما بين القوسين أو أدنى – وهو تعبير عن منتهى القرب – فأوحى إلى عبد الله ما أوحى . بهذا الإجمال والتفخيم والتهويل .

فهي رؤية عن قرب بعد الترائي عن بعد . وهو وحي وتعليم ومشاهدة وتيقن .

وهي حال لا يتأتى معها كذب في الرؤية ، ولا تحتمل مماراة أو مجادلة : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى ؟ ﴾ . . ورؤية الفؤاد أصدق وأثبت ، لأنها تنفي خداع النظر . فلقد رأى فتثبت فاستيقن فؤاده أنه الملك ، حامل الوحي ، رسول ربه إليه ، ليعلمه ويكلفه تبليغ ما يعلم . وانتهى المراء والجدال ، فما عاد لهما مكان بعد تثبت القلب ويقين الفؤاد .

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي رآه فيها على صورته . فقد تكررت مرة أخرى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ .

وكان ذلك في ليلة الإسراء والمعراج – على الراجح من الروايات – فقد دنا منه – وهو على هيئته التي خلقه الله بها مرة أخرى ﴿ عند سدرة المنتهى ﴾ . . والسدرة كما يعرف من اللفظ شجرة . فأما أنها سدرة المنتهى . فقد يعني هذا أنها التي ينتهي إليها المطاف . فجنة المأوى عندها . أو التي انتهت إليها رحلة المعراج . أو التي انتهت إليها صحبة جبريل لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث وقف هو وصعد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ درجة أخرى أقرب إلى عرش ربه وأدنى . . وكله غيب من غيب الله ، أطلع عليه عبده المصطفى ، ولم يرد إلينا عنه إلا هذا . وكله أمر فوق طاقتنا أن ندرك كيفيته . فلا يدركها الإنسان إلا بمشيئة من خالقه وخالق الملائكة ، العليم بخصائص الإنسان وخصائص الملائكة . .

ويذكر ما لابس هذه الرؤية عند سدرة المنتهى . زيادة في التوكيد واليقين : ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ . . مما لا يفصله ولا يحدده . فقد كان أهول وأضخم من الوصف والتحديد .

وكان ذلك كله حقاً يقيناً : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ . . فلم يكن زغللة عين ، ولا

تجاوز رؤية . إنما هي المشاهدة الواضحة المحققة ، التي لا تحتمل شكاً ولا ظناً . وقد عاين فيها من آيات ربه الكبرى ، واتصل قلبه بالحقيقة عارية مباشرة مكشوفة .

فالأمر إذن – أمر الوحي – أمر عيان مشهود . ورؤية محققة . ويقين جازم . واتصال مباشر . ومعرفة مؤكدة . وصحبة محسوسة . ورحلة واقعية . بكل تفصيلاتها ومراجعها . . وعلى هذا اليقين تقوم دعوة ﴿ صاحبكم ﴾ الذي تنكرون عليه وتكذبونه وتشككون في صدق الوحي إليه . وهو صاحبكم الذي عرفتموه وخبرتموه وما هو بغريب عنكم فتجهلوه . وربه يصدقه ويقسم على صدقه . ويقص عليكم كيف أوحى إليه . وفي أي الظروف . وعلى يد من وكيف لاقاه . وأين رآه !

(412/734)

ذلك هو الأمر المستيقن ، الذي يدعوهم إليه محمد - صلى الله عليه وسلم - فأما هم فعلام يستندون في عبادتهم وآلهتهم وأساطيرهم ؟ علام يستندون في عبادتهم للات والعزى ومناة ؟ وفي ادعائهم الغامض أنهن ملائكة ، وأن الملائكة بنات الله ؟ وأن لهن شفاعة ترتجى عند الله ؟ إلى أي بينة ؟ وإلى أي حجة ؟ وإلى أي سلطان يرتكنون في هذه الأوهام ؟ هذا ما يعالجه المقطع الثاني في السورة :

﴿ أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذاً قسمة ضيزى ! إن هي إلا أسمآء سميتموها آنتم وآباؤكم ما آنزل الله بها من سلطان . إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس .

ولقد جآءهم من ربهم الهدى . أم للإنسان ما تمنى ؟ فلله الآخرة والأولى . وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشآء ويرضى . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ . .

وكانت ﴿ اللات ﴾ صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظّم عند أهل الطائف وهم ثقيف ومن تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب عدا قريش لأن عندهم الكعبة بيت إبراهيم عليه السلام . ويظن أن اسمها ﴿ اللات ﴾ مؤنث لفظ الجلالة ﴿ الله ﴾ . سبحانه وتعالى .

وكانت ﴿ العزى ﴾ شجرة عليها بناء وأستار بنخلة – وهي بين مكة والطائف – وكانت قريش تعظمها . كما قال أبو سفيان يوم أحد . لنا العزى ولا عزى لكم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم – : " قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم " ويظن أن اسمها ﴿ العزى ﴾ مؤنث ﴿ العزيز ﴾ . .

وكانت ﴿ مناة ﴾ بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة . وكانت خزاعة والأوس

والخزرج في جاهليتهم يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة .

وكان بالجزيرة كثير من هذه المعبودات تعظمها القبائل المختلفة . ولكن هذه الثلاثة كانت أعظمها .

(413/734)

والمظنون أن هذه المعبودات كانت رموزاً لملائكة يعتبرهن العرب إناثاً ويقولون : إنهن بنات الله . ومن هنا جاءت عبادتها ، والذي يقع غالباً أن ينسى الأصل ، ثم تصبح هذه الرموز معبودات بذاتها عند جمهرة العباد . ولا تبقى إلا قلة متنورة هي التي تذكر أصل الأسطورة !

فلما ذكر الله هذه المعبودات الثلاثة معجّباً منها ومن عبادتها كما تفيد صيغة السؤال ولفظه :

﴿ أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى ؟ ﴾ . .

والتعجيب والتشهير واضح في افتتاح السؤال : ﴿ أفرأيتم ؟ ﴾ وفي الحديث عن مناة . . الثالثة الأخرى . . لما ذكر الله هذه المعبودات عقب عليها باستنكار دعواهم أن لله الإناث وأن لهم الذكور :

﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ . .

مما يوحي بأن لهذه المعبودات صلة بأسطورة أنوثة الملائكة ، ونسبتها إلى الله سبحانه . مما يرجح ما ذكرناه عنها . وقد كانوا هم يكرهون ولادة البنات لهم . ومع هذا لم يستحيوا أن يجعلوا الملائكة إناثاً – وهم لا يعلمون عنهم شيئاً يلزمهم بهذا التصور . وأن ينسبوا هؤلاء الإناث إلى الله !

والله – سبحانه – يأخذهم هنا بتصوراتهم وأساطيرهم ؛ ويسخر منها ومنهم : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ ﴾ . . إنها إذن قسمة غير عادلة قسمتكم بين أنفسكم وبين الله ! ﴿ تلك إذاً قسمة ضيزى ! ﴾ . .

والمسألة كلها وهم لا أساس له من العلم ولا من الواقع . ولا حجة فيها ولا دليل :

﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس .

ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ !

هذه الأسماء . اللات . العزى . مناة . . وغيرها . وتسميتها آلهة وتسميتها ملائكة . وتسمية الملائكة إناثاً . وتسمية الإناث بنات الله . . . كلها أسماء لا مدلول لها ، ولا حقيقة وراءها . ولم يجعل الله لكم حجة فيها . وكل ما لم يقرره الله فلا قوة فيه ولا سلطان له . لأنه لا حقيقة له . وللحقيقة ثقل . وللحقيقة قوة . وللحقيقة سلطان فأما الأباطيل فهي خفيفة لا وزن لها . ضعيفة لا قوة لها . مهينة لا سلطان فيها .

وفي منتصف الآية يتركهم وأوهامهم وأساطيرهم ، ويترك خطابهم ، ويلتفت عنهم كأنهم لا وجود لهم ، ويتحدث عنهم بصيغة الغائب : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ . . فلا حجة ولا علم ولا يقين . إنما هو الظن يقيمون عليه العقيدة ، والهوى يستمدون منه الدليل . والعقيدة لا مجال فيها للظن والهوى ؛ ولا بد فيها من اليقين القاطع والتجرد من الهوى والغرض . . وهم لم يتبعوا الظن والهوى ولهم عذر أو علة : ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ . . فانقطع العذر وبطل التعلل !

ومتى انتهى الأمر إلى شهوة النفس وهواها فلن يستقيم أمر . ولن يجدي هدى ؛ لأن العلة هنا ليست خفاء الحق ، ولا ضعف الدليل . إنما هي الهوى الجامح الذي يريد ، ثم يبحث بعد ذلك عن مبرر لما يريد ! وهي شر حالة تصاب بها النفس فلا ينفعها الهدى ، ولا يقنعها الدليل !

ومن ثم يسأل في استنكار :

﴿ أم للإنسان ما تمنى ؟ ﴾ . .

فكل ما يتمنى يتحول إلى حقيقة وكل ما يهوى ينقلب إلى واقع ! والأمر ليس كذلك . فإن الحق حق والواقع واقع . وهوى النفس ومناها لا يغيران ولا يبدلان في الحقائق . إنما يضل الإنسان بهواه . ويهلك بمناه . وهو أضعف من أن يغير أو يبدل في طبائع الأشياء . وإنما الأمر كله لله يتصرف فيه كما يشاء في الدنيا وفي الآخرة سواء :

﴿ فلله الآخرة والأولى ﴾ . .

(415/734)

ولا ننسى أن نلحظ هنا تقديم الآخرة على الأولى . لمراعاة قافية السورة وإيقاعها . إلى جانب النكتة المعنوية المقصودة بتقديم الآخرة على الأولى . كما هي طبيعة الأسلوب القرآني في الجمع بين أداء المعنى وتنغيم الإيقاع . دون إخلال بهذا على حساب ذاك ! شأنه شأن كل ما هو من صنع الله . فالجمال في الكون كله يتناسق مع الوظيفة ويؤاخيها !

وإذا خلص الأمر كله لله في الآخرة والأولى . فإن أوهام المشركين عن شفاعة الآلهة المدعاة – من الملائكة – لهم عند الله . كما قالوا : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ . . إن هذه الأوهام لا أصل لها . فالملائكة الحقة في السماء لا تملك الشفاعة إلا حين يأذن الله

في شيء منها :

﴿ وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً . إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ . .

ومن ثم تسقط دعواهم من أساسها ، فوق ما فيها من بطلان تولى تفنيده في الآيات السابقة .

وتتجرد العقيدة من كل غبش أو شبهة . فالأمر لله في الآخرة والأولى . ومنى الإنسان لا تغير من الحق الواقع شيئاً . والشفاعة لا تقبل إلا بإذن من الله ورضى . فالأمر إليه في النهاية . والاتجاه إليه وحده في الآخرة والأولى .

وفي نهاية الفقرة يناقش للمرة الأخيرة أوهام المشركين – الذين لا يؤمنون بالآخرة – عن الملائكة ؛ ويكشف عن أساسها الواهي ، الذي لا ينبغي أن تقوم عليه عقيدة أصلاً :

﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم . إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ . .

وهذا التعقيب الأخير يوحي بعلاقة اللات والعزى ومناة بأسطورة أنوثة الملائكة ونسبتهم إلى الله سبحانه ! وهي أسطورة واهية ، لا يتبعون فيها إلا الظن . فليس لهم من وسيلة لأن يعلموا شيئاً مستيقناً عن طبيعة الملائكة . فأما نسبتهم إلى الله . فهي الباطل الذي لا دليل عليه إلا الوهم الباطل ! وكل هذا لا يغني من الحق ، ولا يقوم مقامه في شيء . الحق الذي يتركونه ويستغنون عنه بالأوهام والظنون !

وحين يبلغ إلى هذا الحد من بيان وهن عقيدة الشرك وتهافتها عند الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ويشركون بالله ، وينسبون له البنات ويسمون الملائكة تسمية الأنثى ! يتجه بالخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليهمل شأنهم ويعرض عنهم ، ويدع أمرهم لله الذي يعلم المسيء والمحسن ، ويجزي المهدي والضال ، ويملك أمر السماوات والأرض ، وأمر الدنيا والآخرة ، ويحاسب بالعدل لا يظلم أحداً ، ويتجاوز عن الذنوب التي لا يصر عليها فاعلوها . وهو الخبير بالنوايا والطوايا ، لأنه خالق البشر المطلع على حقيقتهم في أطوار حياتهم جميعاً :

﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى . ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى . الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش - إلا اللمم - إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ

أنتم أجنة في بطون أمهاتكم . فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ . .

هذا الأمر بالإعراض عمن تولى عن ذكر الله ، ولم يؤمن بالآخرة ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا .

موجه ابتداء إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليهمل شأن أولئك المشركين الذين سبق الحديث في السورة عن أساطيرهم وأوهامهم وعدم إيمانهم بالآخرة .

(417/734)

وهو موجه بعد ذلك إلى كل مسلم يواجهه من يتولى عن ذكر الله ويعرض عن الإيمان به ؛ ويجعل وجهته الحياة الدنيا وحدها ، لا ينظر إلى شيء وراءها ، ولا يؤمن بالآخرة ولا يحسب حسابها . ويرى أن حياة الإنسان على هذه الأرض هي غاية وجوده ، لا غاية بعدها ؛ ويقيم منهجه في الحياة على هذا الاعتبار ، فيفصل ضمير الإنسان عن الشعور بإله يدبر أمره ، ويحاسبه على عمله ، بعد رحلة الأرض المحدودة ، وأقرب من تتمثل فيه هذه الصفة في زماننا هذا هم أصحاب المذاهب المادية .

والمؤمن بالله وبالآخرة لا يستطيع أن يشغل باله - فضلاً على أن يعامل أو يعايش - من يعرض عن ذكر الله ، وينفي الآخرة من حسابه . لأن لكل منهما منهجاً في الحياة لا يلتقيان في خطوة واحدة من خطواته ، ولا في نقطة واحدة من نقاطه ، وجميع مقاييس الحياة ، وجميع

قيمها ، وجميع أهدافها . تختلف في تصور كل منها فلا يمكن إذن أن يتعاونا في الحياة أي تعاون ، ولا أن يشتركا في أي نشاط على هذه الأرض . مع هذا الاختلاف الرئيسي في تصور قيم الحياة وأهدافها ومناهج النشاط فيها ، وغاية هذا النشاط . وما دام التعاون والمشاركة متعذرين فما داعي الاهتمام والاحتفال ؟ إن المؤمن يعبث حين يحفل شأن هؤلاء الذين يعرضون عن ذكر الله ولا يريدون إلا الحياة الدنيا . وينفق طاقته التي وهبه الله إياها في غير موضعها .

(418/734)

على أن للإعراض اتجاهاً آخر ، هو التهوين من شأن هذه الفئة . فئة الذين لا يؤمنون بالله ؛ ولا يبتغون شيئاً وراء الحياة الدنيا . فمهما كان شأنهم فهم محجوبون عن الحقيقة ، قاصرون عن إدراكها ، واقفون وراء الأسوار . أسوار الحياة الدنيا . . ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ . وهو مبلغ تافه مهما بدا عظيماً . قاصر مهما بدا شاملاً . مضلل مهما بدا هادياً . وما يمكن أن يعلم شيئاً ذا قيمة من يقف بقلبه وحسه وعقله عند حدود هذه الأرض . ووراءها – حتى في رأي العين – عالم هائل لم يخلق نفسه . ووجوده هكذا أمر ترفضه البداهة . ولم يوجد عبثاً متى كان له خالق . وإنه لعبث أن تكون الحياة الدنيا هي

نهاية هذا الخلق الهائل وغايته . . فإدراك حقيقة هذا الكون من أي طرف من أطرافها كفيل بالإيمان بالخالق . وكفيل كذلك بالإيمان بالآخرة . نفياً للعبث عن هذا الخالق العظيم الذي يبدع هذا الكون الكبير .

ومن ثم يجب الإعراض عمن يتولى عن ذكر الله ويقف عند حدود الدنيا ، الإعراض على سبيل صيانة الاهتمام أن يبذل في غير موضعه والإعراض على سبيل التهوين والاحتقار لمن هذا مبلغ علمه . ونحن مأمورون بهذا إن أردنا أن نتلقى أمر الله لنطيعه . لا لنقول كما قالت يهود : سمعنا وعصينا . . والعياذ بالله من هذا !

﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ . .

وقد علم أن هؤلاء ضالون . فلم يرد لنبيه ولا للمهتدين من أمته أن يشغلوا أنفسهم بشأن الضالين . ولا أن يصاحبوهم . ولا أن يحفلوهم . ولا أن يخدعوا في ظاهر علمهم المضلل القاصر ، الذي يقف عند حدود الحياة الدنيا .

ويحول بين الإدراك البشري والحقيقة الخالصة ، التي تقود من يدركها إلى الإيمان بالله ، والإيمان بالآخرة ، وتتخطى به حدود هذه الأرض القريبة ، وهذه الحياة الدنيا المحدودة .

وإن العلم الذي يبلغه هؤلاء القاصرون الضالون ليبدو في أعين العوام وأشباههم ، عوام القلب والإدراك والحس ، شيئاً عظيماً ذا فاعلية وأثر في واقع الحياة الدنيا . ولكن هذا لا ينفي صفة الضلال عنهم في النهاية ، ولا صفة الجهل والقصور . فحقيقة الارتباط بين هذا الوجود وخالقه . وحقيقة الارتباط بين عمل الإنسان وجزائه . هاتان الحقيقتان ضروريتان لكل علم حق . وبدونهما يبقى العلم قشوراً لا تؤثر في حياة الإنسان ولا ترقيها ولا ترفعها . وقيمة كل علم مرهونة بأثره في النفس وفي ارتباطات البشر الأدبية . وإلا فهو تقدم في الآلات وانتكاس في الآدميين . وما أبأسه من علم هذا الذي ترتقي فيه الآلات على حساب الآدميين ! ! !

وشعور الإنسان بأن له خالقاً خلقه وخلق هذا الكون كله ، وفق ناموس واحد متناسق . يغير من شعوره بالحياة ، وشعوره بما حوله وبمن حوله ؛ ويجعل لوجوده قيمة وهدفاً وغاية أكبر وأشمل وأرفع ، لأن وجوده مرتبط بهذا الكون كله ؛ فهو أكبر من ذاته المعدودة الأيام . وأكبر من أسرته المعدودة الأفراد وأكبر من قومه ، وأكبر من وطنه وأكبر من طبقته التي يطنطن بها أصحاب المذاهب المادية الحديثة . وأرفع من اهتمامات هذه التشكيلات جميعاً !

وشعور الإنسان بأن خالقه محاسبه في الآخرة ومجازيه . يغير من تصوراته ومن موازينه ومن حوافزه ومن أهدافه . ويربط الحاسة الأخلاقية في نفسه بمصيره كله ، فيزيدها قوة

وفاعلية . لأن هلاكه أو نجاته مرهونة بيقظة هذه الحاسة وتأثيرها في نيته وعمله . ومن ثم يقوى " الإنسان " ويسيطر على تصرفات هذا الكائن . لأن الرقيب الحارس قد استيقظ ! ولأن الحساب الختامي ينتظره هناك . ومن الناحية الأخرى فهو مطمئن إلى الخير واثق من انتصاره في الحساب الختامي . حتى لو رآه ينهزم في الأرض في بعض الجولات ! وهو مكلف دائماً أن ينصر الخير ويكافح في سبيله سواء هزم في هذه الأرض أم انتصر لأن الجزاء النهائي هناك !

(420/734)

إنها مسألة كبيرة هذا الإيمان بالله والإيمان بالآخرة . مسألة أساسية في حياة البشر . إنها حاجة أكبر من حاجات الطعام والشراب والكساء . وإنها إما أن تكون فيكون " الإنسان " وإما ألا تكون فهو حيوان من ذلك الحيوان !

وحين تفترق المعايير والأهداف والغايات وتصور الحياة كلها هذا الاختلاف ، فلا مجال حينئذ إلى مشاركة أو تعامل أو حتى تعارف ينشأ عنه قسط من الاهتمام .

ومن ثم لا يمكن أن تقوم علاقة أو صحبة أو شركة أو تعاون ، أو أخذ وعطاء ، أو اهتمام واحتفال بين مؤمن بالله . وآخر أعرض عن ذكره ولم يرد إلا الحياة الدنيا . وكل قول غير هذا

فهو محال ومراء ، يخالف عن أمر الله : ﴿ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ .

.

﴿ ولله ما في السماوات وما في الأرض . ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ . .

وهذا التقرير لملكية الله – وحده – لما في السماوات وما في الأرض ، يمنح قضية الآخرة قوة وتأثيراً . فالذي جعل الآخرة وقدرها هو الذي يملك ما في السماوات وما في الأرض وحده ، فهو القادر على الجزاء ، المختص به ، المالك لأسبابه . ومن شأن هذه الملكية أن تحقق الجزاء الكامل العادل : ﴿ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ . .

ثم يحدد الذين أحسنوا هؤلاء ، والذين يجزيهم بالحسنى . . فهم :

﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش . إلا اللمم ﴾ . .

وكبائر الإثم هي كبار المعاصي . والفواحش كل ما عظم من الذنب وفحش . واللمم تختلف الأقوال فيه . فابن كثير يقول : وهذا استثناء منقطع لأن اللمم من صغار الذنوب ومحقرات الأعمال . قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن الله تعالى إذا كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة . فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى وتشتهي ، والفرْج يصدق ذلك أو يكذبه " .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن ثور ، حدثنا معمر ، عن الأعمش ، عن أبي الضحى أن ابن مسعود قال : زنا العين النظر ، وزنا الشفتين التقبيل ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين المشي . ويصدق الفرْج أو يكذبه . فإن تقدم بفرجه كان زانياً وإلا فهو اللمم . وكذا قال مسروق والشعبي .

وقال عبد الرحمن بن نافع الذي يقال له ابن لبابة الطائفي ، قال : سألت أبا هريرة عن قول الله : ﴿ إلا اللمم ﴾ قال : القبلة والنظرة والغمزة والمباشرة . فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل . وهو الزنا .

فهذه أقوال متقاربة في تعريف اللمم .

وهناك أقوال أخرى :

قال علي بن طلحة عن ابن عباس : ﴿ إلا اللمم ﴾ إلا ما سلف . وكذا قال زيد بن أسلم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة بن منصور ، عن مجاهد ، أنه قال في هذه الآية : ﴿ إلا اللمم ﴾ قال : الذي يلم بالذنب ثم يدعه .

وقال ابن جرير : حدثنا سليمان بن عبد الجبار : حدثنا أبو عاصم ، حدثنا زكريا عن ابن إسحاق ، عن عمر بن دينار ، عن عطاء ، عن ابن عباس : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ . . قال هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب . وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن تغفر اللهم تغفر جما . . . وأي عبد لك ما ألما ؟

(422/734)

وهكذا رواه الترمذي عن أحمد بن عثمان البصري عن أبي عاصم النبيل .

ثم قال : هذا حديث صحيح حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق .

وكذا قال البزار لا نعلمه يروى متصلاً إلا من هذا الوجه .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيع . حدثنا يزيد بن زريع . حدثنا يونس ،

عن الحسن ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – (أراه رفعه) في ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ . قال : اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود . واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود . واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود . قال : فذلك الإلمام . .

وروي مثل هذا موقوفاً على الحسن .

فهذه طائفة أخرى من الأقوال تحدد معنى اللمم تحديداً غير الأول .

والذي نراه أن هذا القول الأخير أكثر تناسباً مع قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ . . فذكر سعة المغفرة يناسب أن يكون اللمم هو الإتيان بتلك الكبائر والفواحش ، ثم التوبة . ويكون الاستثناء غير منقطع . ويكون الذين أحسنوا هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش . إلا أن يقعوا في شيء منها ثم يعودوا سريعاً ولا يلجوا ولا يصروا . كما قال الله سبحانه : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ وسمى هؤلاء " المتقين " ووعدهم مغفرة وجنة عرضها السماوات والأرض . . فهذا هو الأقرب إلى رحمة الله ومغفرته الواسعة .

وختم الآية بأن هذا الجزاء بالسوءى وبالحسنى مستند إلى علم الله بحقيقة دخائل الناس في أطوارهم كلها .

﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذْ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴾ . .

فهو العلم السابق على ظاهر أعمالهم . العلم المتعلق بحقيقتهم الثابتة ، التي لا يعلمونها هم ، ولا يعرفها إلا الذي خلقهم . علم كان وهو ينشئ أصلهم من الأرض وهم بعد في عالم الغيب . وكان وهم أجنة في بطون أمهاتهم لم يروا النور بعد . علم بالحقيقة قبل الظاهر . وبالطبيعة قبل العمل .

ومن كانت هذه طبيعة علمه يكون من اللغو – بل من سوء الأدب – أن يعرّفه إنسان بنفسه ، وأن يعلمه – سبحانه – بحقيقته ! وأن يثني على نفسه أمامه يقول له : أنا كذا وأنا كذا : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ . .

فما هو بحاجة إلى أن تدلوه على أنفسكم ، ولا أن تزنوا له أعمالكم ؛ فعنده العلم الكامل . وعنده الميزان الدقيق . وجزاؤه العدل . وقوله الفصل . وإليه يرجع الأمر كله .

بعد ذلك يجيء المقطع الأخير في السورة . في إيقاع كامل التنغيم ، أشبه بإيقاع المقطع الأول . يقرر الحقائق الأساسية للعقيدة كما هي ثابتة منذ إبراهيم صاحب الحنيفية الأولى . ويعرف البشر بخالقهم ، بتعليمهم بمشيئته الفاعلة المبدعة المؤثرة في حياتهم ويعرض آثارها واحداً واحداً بصورة تلمس الوجدان البشري وتذكره وتهزه هزاً عميقاً .

. حتى إذا كان الختام وكان الإيقاع الأخير تلقته المشاعر مرتجفة مرتعشة متأثرة مستجيبة :

﴿ أفرأيت الذي تولى ، وأعطى قليلاً وأكدى ؟ أعنده علم الغيب فهو يرى ؟ أم لم ينبأ بما في صحف موسى ، وإبراهيم الذي وفَّى . ألاّ تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزآء الأوفى . وأن إلى ربك المنتهى . وأنه هو أضحك وأبكى . وأنه هو أمات وأحيا . وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى . وأن عليه النشأة الأخرى ، وأنه هو أغنى وأقنى . وأنه هو رب الشعرى . وأنه أهلك عاداً الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى . فبأي آلاء ربك تتمارى ؟

(424/734)

﴿ هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة . أفمن هذا الحديث تعجبون ، وتضحكون ولا تبكون ، وأنتم سامدون ؟

﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ . .

وذلك ﴿ الذي تولى ، وأعطى قليلاً وأكدى ﴾ . . الذي يعجِّب الله من أمره الغريب ،

تذكر بعض الروايات أنه فرد معين مقصود ، وأنفق قليلاً في سبيل الله ، ثم انقطع عن البذل خوفاً من الفقر . ويحدد الزمخشري في تفسيره " الكشاف " شخصه ، أنه عثمان بن عفان – رضي الله عنه – ويذكر في ذلك قصة ، لا يستند فيها إلى شيء ، ولا يقبلها من يعرف عثمان – رضي الله عنه – وطبيعته وبذله الكثير الطويل في سبيل الله بلا توقف وبلا حساب كذلك ؛ وعقيدته في الله وتصوره لتبعة العمل وفرديته .

وقد يكون المقصود شخصاً بذاته . وقد يكون نموذجاً من الناس سواء . فالذي يتولى عن هذا النهج ، ويبذل من ماله أو من نفسه لهذه العقيدة ثم يكدي – أي يضعف عن المواصلة ويكف – أمره عجيب ، يستحق التعجيب ويتخذ القرآن من حاله مناسبة لعرض حقائق العقيدة وتوضيحها .

﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى ؟ ﴾ . .

والغيب لله . لا يراه أحد سواه . فلا يأمن الإنسان ما خبئ فيه ؛ وعليه أن يواصل عمله وبذله ، وأن يعيش حذراً موفياً طوال حياته ؛ وألا يبذل ثم ينقطع ، ولا ضمان له في الغيب المجهول إلا حذره وعمله ووفاؤه ، ورجاؤه بهذا كله في مغفرة الله وقبوله .

﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى ، وإبراهيم الذي وفَّى . . . ﴾ . .

وهذا الدين قديم ، موصولة أوائله وأواخره ، ثابتة أصوله وقواعده ، يصدّق بعضه بعضاً على توالي الرسالات والرسل ، وتباعد المكان والزمان . فهو في صحف موسى . وهو في

ملة إبراهيم قبل موسى . إبراهيم الذي وفَّى . وفَّى بكل شيء . وفَّى وفاء مطلقاً استحق به هذا الوصف المطلق . ويذكر الوفاء هنا في مقابل الإكداء والانقطاع ، ويذكر بهذه الصيغة ﴿ وفَّى ﴾ بالتشديد تنسيقاً للإيقاع المنغم وللقافية المطردة .

(425/734)

فماذا في صحف موسى ، وإبراهيم الذي وفَّى ؟ فيها :

﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

.

فلا تحمل نفس حمل أخرى ؛ لا تخفيفاً عن نفس ولا تثقيلاً على أخرى . فلا تملك نفس أن تتخفف من حملها ووزرها . ولا تملك نفس أن تتطوع فتحمل عن نفس شيئاً !

﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ . .

كذلك . فما يحسب للإنسان إلا كسبه وسيعه وعمله . لا يزاد عليه شيء من عمل غيره . ولا ينقص منه شيء لينالـه غيره . وهذه الحياة الدنيا هي الفرصة المعطاة له ليعمل ويسعى : فإذا مات ذهبت الفرصة وانقطع العمل . إلا ما نص عليه حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله : " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له .

أو صدقة جارية من بعده . أو علم ينتفع به " . وهذه الثلاثة في حقيقتها من عمله . ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي – رحمه الله – ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم . ولهذا لم يندب إليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمته ، ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة – رضي الله عنهم – ولو كان خيراً لسبقونا إليه . وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء . فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما . .

﴿ وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ . .

فلن يضيع شيء من السعي والعمل والكسب ؛ ولن يغيب شيء عن علم الله وميزانه الدقيق . وسينال كل امرئ جزاء سعيه وافياً كاملاً لا نقص فيه ولا ظلم .

(426/734)

وكذلك يتحدد مبدأ فردية التبعة ، إلى جانب عدالة الجزاء . فتتحقق للإنسان قيمته الإنسانية . القائمة على اعتباره مخلوقاً راشداً مسؤولاً مؤتمناً على نفسه ؛ كريماً تتاح له الفرصة للعمل ثم يؤخذ بما عمل وتتحقق له كذلك الطمأنينة على عدالة الجزاء . عدالة

مطلقة لا يميل بها الهوى ، ولا يقعد بها القصور ، ولا ينقص منها الجهل بحقائق الأمور .

﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ . .

فلا طريق إلا الطريق الذي ينتهي إليه . ولا ملجأ من دونه . ولا مأوى إلا داره : في نعيم أو جحيم . . ولهذه الحقيقة قيمتها وأثرها في تكييف مشاعر الإنسان وتصوره فحين يحس أن المنتهى إلى الله منتهى كل شيء وكل أمر . وكل أحد . فإنه يستشعر من أول الطريق نهايته التي لا مفر منها ولا محيص عنها . ويصوغ نفسه وعمله وفق هذه الحقيقة ؛ أو يحاول في هذا ما يستطيع . ويظل قلبه ونظره معلقين بتلك النهاية منذ أول الطريق !

وبعد ما يصل السياق بالقلب البشري إلى نهاية المطاف يكر راجعاً به إلى الحياة ، يريه فيها آثار مشيئة الله .

في كل مرحلة ، وفي كل حال :

﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ . .

وتحت هذا النص تكمن حقائق كثيرة . ومن خلاله تنبعث صور وظلال موحية مثيرة . . أضحك وأبكى . . فأودع هذا الإنسان خاصية الضحك وخاصية البكاء . وهما سر من أسرار التكوين البشري لا يدري أحد كيف هما ، ولا كيف تقعان في هذا الجهاز المركب المعقد ، الذي لا يقل تركيبه وتعقيده النفسي عن تركيبه وتعقيده العضوي . والذي تتداخل المؤثرات النفسية والمؤثرات العضوية فيه وتتشابكان وتتفاعلان في إحداث

الضحك وإحداث البكاء .

وأضحك وأبكى . . فأنشأ للإنسان دواعي الضحك ودواعي البكاء . وجعله – وفق أسرار معقدة فيه – يضحك لهذا ويبكي لهذا . وقد يضحك غداً مما أبكاه اليوم . ويبكي اليوم مما أضحكه بالأمس . في غير جنون ولا ذهول إنما هي الحالات النفسية المتقلبة . والموازين والدواعي والدوافع والاعتبارات التي لا تثبت في شعوره على الحال !

(427/734)

وأضحك وأبكى . . فجعل في اللحظة الواحدة ضاحكين وباكين . كل حسب المؤثرات الواقعة عليه . وقد يضحك فريق مما يبكي منه فريق . لأن وقعه على هؤلاء غير وقعه على أولئك . . وهو هو في ذاته . ولكنه بملابساته بعيد من بعيد !

وأضحك وأبكى . من الأمر الواحد صاحبه نفسه . يضحك اليوم من الأمر ثم تواجهه عاقبته غداً أو جرائره فإذا هو باك . يتمنى أن لم يكن فعل وأن لم يكن ضحك وكم من ضاحك في الدنيا باك في الآخرة حيث لا ينفع البكاء !

هذه الصور والظلال والمشاعر والأحوال . . وغيرها كثير تنبثق من خلال النص القصير ، وتتراءى للحس والشعور . وتظل حشود منها تنبثق من خلاله كلما زاد رصيد النفس من

التجارب ؛ وكلما تجددت عوامل الضحك والبكاء في النفوس – وهذا هو الإعجاز في صورة من صوره الكثيرة في هذا القرآن .

﴿ وأنه هو أمات وأحيا ﴾ . .

وكذلك تنبثق من هذا النص صور لا عداد لها في الحس .

أمات وأحيا . . أنشأ الموت والحياة ، كما قال في سورة أخرى : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ وهما أمران معروفان كل المعرفة بوقوعهما المتكرر . ولكنهما خافيان كل الخفاء حين يحاول البشر أن يعرفوا طبيعتهما وسرهما الخافي على الأحياء . . فما الموت ؟ وما الحياة ؟ ما حقيقتهما حين يتجاوز الإنسان لفظهما وشكلهما الذي يراه ؟ كيف دبت الحياة في الكائن الحي ؟ ما هي ؟ ومن أين جاءت ؟ وكيف تلبست بهذا الكائن فكان ؟ وكيف سارت في طريقها الذي سارت فيه بهذا الكائن أو بهذه الكائنات الأحياء ؟ وما الموت ؟ وكيف كان . . قبل دبيب الحياة . وبعد مفارقتها للأحياء ؟ إنه السر الخافي وراء الستر المسبل ، بيد الله !

أمات وأحيا . . وتنبثق ملايين الصور من الموت والحياة . في عوالم الأحياء كلها . في اللحظة الواحدة . في هذه اللحظة . كم ملايين الملايين من الأحياء ماتت . وكم ملايين الملايين بدأت رحلة الحياة . ودب فيها هذا السر من حيث لا تعلم ومن حيث لا يعلم أحد إلا الله ! وكم من ميتات وقعت فإذا هي ذاتها بواعث حياة ! وكم من هذه الصور يتراءى على مدار القرون ، حين يستغرق الخيال في استعراض الماضي الطويل ، الذي كان قبل أن يكون الإنسان كله على هذا الكوكب .

وندع ما يعلمه الله في غير هذا الكوكب من أنواع الموت والحياة التي لا تخطر على بال الإنسان !

إنها حشود من الصور وحشود ، تطلقها هذه الكلمات القلائل ، فتهز القلب البشري من أعماقه . فلا يتمالك نفسه ولا يتماسك تحت إيقاعاتها المنوعة الأصداء !

﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تُمنى ﴾ . .

وهي الحقيقة الهائلة الواقعة المتكررة في كل لحظة . فينساها الإنسان لتكرارها أمام عينيه ، وهي أعجب من كل عجيبة تبدعها شطحات الخيال !

نطفة تمنى . . تراق . . إفراز من إفرازات هذا الجسد الإنساني الكثيرة كالعرق والدمع والمخاط ! فإذا هي بعد فترة مقدورة في تدبير الله . . إذا هي ماذا ؟ إذا هي إنسان ! وإذا هذا الإنسان ذكر وأنثى ! كيف ؟ كيف تمت هذه العجيبة التي لم تكن – لولا وقوعها –

تخطر على الخيال ؟ وأين كان هذا الإنسان المركب الشديد التركيب ، المعقد الشديد التعقيد ؟ أين كان كامناً في النقطة المراقة من تلك النطفة . بل في واحد من ملايين من أجزائها الكثيرة ؟ أين كان كامناً بعظمه ولحمه وجلده ، وعروقه وشعره وأظافره . وسماته وشياته وملامحه . وخلائقه وطباعه واستعداداته ؟ ! أين كان في هذه الخلية الميكروسكوبية السابحة هي وملايين من أمثالها في النقطة الواحدة من تلك النطفة التي تمنى ؟ ! وأين على وجه التخصيص كانت خصائص الذكر وخصائص الأنثى في تلك الخلية . تلك التي انبثقت وأعلنت عن نفسها في الجنين في نهاية المطاف ؟ !

(429/734)

وأي قلب بشري يقف أمام هذه الحقيقة الهائلة العجيبة . ثم يتمالك أو يتماسك . فضلاً على أن يجحد ويتبجح ، ويقول : إنها وقعت هكذا والسلام ! وسارت في طريقها هكذا والسلام ! واهتدت إلى خطها المرسوم هكذا والسلام ! أو يتعالم فيقول : إنها سارت هذه السيرة بحكم ما ركب فيها من استعداد لإعادة نوعها ، شأنها شأن سائر الأحياء المزودة بهذا الاستعداد ! فهذا التفسير يحتاج بدوره إلى تفسير . فمن ذا أودعها هذا الاستعداد ؟ من ذا أودعها الرغبة الكامنة في حفظ نوعها بإعادته مرة أخرى ؟ ومن ذا

أودعها القدرة على إعادته وهي ضعيفة ضئيلة ؟ ومن ذا رسم لها الطريق لتسير فيه على هدى ، وتحقق هذه الرغبة الكامنة ؟ ومن ذا أودع فيها خصائص نوعها لتعيدها ؟ وما رغبتها هي وما مصلحتها في إعادة نوعها بهذه الخصائص ؟ لولا أن هنالك إرادة مدبرة من ورائها تريد أمراً ، وتقدر عليه ، وترسم له الطريق ؟ !

ومن النشأة الأولى . وهي واقعة مكرورة لا ينكرها منكر ، يتجه مباشرة إلى النشأة الأخرى .

﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ . .

والنشأة الأخرى غيب . ولكن عليه من النشأة الأولى دليل . دليل على إمكان الوقوع . فالذي خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ، قادر – ولا شك – على إعادة الخلق من عظام ورفات . فليست العظام والرفات بأهون من الماء المراق ! ودليل على حكمة الوقوع . فهذا التدبير الخفي الذي يقود الخلية الحية الصغيرة في طريقها الطويل الشاق حتى تكون ذكراً أو أنثى . هذا التدبير لا بد أن يكون مداه أبعد من رحلة الأرض التي يتم فيها شيء كامل ؛ ولا يجد المحسن جزاء إحسانه كاملاً ، ولا المسيء جزاء إساءته كاملاً كذلك . لأن في حساب هذا التدبير نشأة أخرى يبلغ فيها كل شيء تمامه . فدلالة النشأة الأولى على النشأة الأخرى مزدوجة . ومن هنا جاء ذكرها هكذا قبل النشأة الأخرى . .

وفي النشأة الأولى . وفي النشأة الأخرى . يغني الله من يشاء من عباده ويُقنيه :

﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ . .

(430/734)

أغنى من عباده من شاء في الدنيا بأنواع الغنى وهي شتى . غنى المال . وغنى الصحة . وغنى الذرية . وغنى النفس . وغنى الفكر . وغنى الصلة بالله والزاد الذي ليس مثله زاد .

وأغنى من عباده من شاء في الآخرة من غنى الآخرة !

وأقنى من شاء من عباده . من كل ما يقتنى في الدنيا كذلك وفي الآخرة !

والخلق فقراء ممحلون . لا يغتنون ولا يقتنون إلا من خزائن الله . فهو الذي أغنى . وهو الذي أقنى . وهي لمسة من واقع ما يعرفون وما تتعلق به أنظارهم وقلوبهم هنا وهناك . ليتطلعوا إلى المصدر الوحيد . ويتجهوا إلى الخزائن العامرة وحدها ، وغيرها خواء !

﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ . .

والشعري نجم أثقل من الشمس بعشرين مرة ، ونوره خمسون ضعف نور الشمس . وهي أبعد من الشمس بمليون ضعف بعد الشمس عنا .

وقد كان هناك من يعبد هذا النجم . وكان هناك من يرصده كنجم ذي شأن . فتقرير أن الله هو رب الشعرى له مكانه في السورة التي تبدأ بالقسم بالنجم إذا هوى ؛ وتتحدث عن الرحلة إلى الملأ الأعلى ؛ كما تستهدف تقرير عقيدة التوحيد ، ونفي عقيدة الشرك الواهية المتهافتة .

وبهذا تنتهي تلك الجولة المديدة في الأنفس والآفاق ، لتبدأ بعدها جولة في مصارع الغابرين ، بعدما جاءتهم النذر فكذبوا بها كما يكذب المشركون . وهي جولة مع قدرة الله ومشيئته وآثارها في الأمم قبلهم واحدة واحدة .

﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى . فبأي آلاء ربك تتمارى ؟ ﴾

إنها جولة سريعة . تتألف من وقفة قصيرة على مصرع كل أمة ، ولمسة عنيفة تخز الشعور وخزاً .

وعاد وثمود وقوم نوح يعرفهم قارئ القرآن في مواضع شتى ! والمؤتفكة هي أمة لوط . ومن الإفك والبهتان والضلال . . وقد أهواها في الهاوية وخسف بها ﴿ فغشاها ما غشى ﴾ . . بهذا التجهيل والتضخيم والتهويل ، الذي تتراءى من خلاله صور الدمار والخسف والتنكيل ، الذي يشمل كل شيء ويغشاه فلا يبين !

﴿ فبأي آلاء ربك تتمارى ؟ ﴾ .

.

فلقد كانت إذن تلك المصارع آلاء لله وأفضالاً . ألم يهلك الشر ؟ ألم يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ؟ ألم يترك فيها آيات لمن يتدبر ويعي ؟ أليست هذه كلها آلاء . فبأي آلاء ربك تتمارى ! الخطاب لكل أحد . ولكل قلب ، ولكل من يتدبر صنع الله فيرى النعمة حتى في البلوى !

وعلى مصارع الغابرين المكذبين بالنذر – بعد استعراض مظاهر المشيئة وآثارها في الأنفس والآفاق – يلقي بالإيقاع الأخير قوياً عميقاً عنيفاً . كأنه صيحة الخطر قبيل الطامة الكبرى :

﴿ هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ . .

هذا الرسول الذي تتمارون في رسالته وفي نذارته . هذا نذير من النذر الأولى التي أعقبها ما أعقبها ! وقد ازفت الآزفة . واقتربت كاسحة جارفة . وهي الطامة والقارعة التي جاء هذا النذير يحذركم إياها أو هو هول العذاب الذي لا يعلم إلا الله نوعه وموعده . ولا يملك إلا الله كشفه ودفعه : ﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ . .

وبينما الخطر الداهم قريب . والنذير الناصح يدعوكم إلى النجاة . إذا أنتم سادرون لاهون

لا تقدرون الموقف ولا تفيقون .

﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون ؟ وتضحكون ولا تبكون ؟ وأنتم سامدون . . . ﴾ . .

وهذا الحديث جد عظيم يلقي على كاهل الناس واجبات ضخمة وفي الوقت ذاته يقودهم إلى المنهج الكامل . فهم يعجبون ؟ ومم يضحكون ؟ وهذا الجد الصارم ، وهذه التبعات الكبيرة ، وما ينتظر الناس من حساب على حياتهم في الأرض . . كله يجعل البكاء أجدر بالموقف الجد ، وما وراءه من الهول والكرب . .

وهنا يرسلها صيحة مدوية ، ويصرخ في آذانهم وقلوبهم ، ويهتف بهم إلى ما ينبغي أن يتداركوا به أنفسهم ، وهم على حافة الهاوية :

﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ .

وإنها لصيحة مزلزلة مذهلة في هذا السياق ، وفي هذه الظلال ، وبعد هذا التمهيد الطويل ، الذي ترتعش له القلوب :

ومن ثم سجدوا . سجدوا وهم مشركون . وهم يمارون في الوحي والقرآن . وهم يجادلون في الله والرسول !

سجدوا تحت هذه المطارق الهائلة التي وقعت على قلوبهم والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتلو هذه السورة عليهم . وفيهم المسلمون والمشركون . ويسجد فيسجد الجميع . مسلمين ومشركين . لا يملكون أن يقاوموا وقع هذا القرآن ؛ ولا أن يتماسكوا لهذا السلطان . . ثم أفاقوا بعد فترة فإذا هم في ذهول من سجودهم كذهولهم وهم يسجدون ! بهذا تواترت الروايات . ثم افترقت في تعليل هذا الحادث الغريب . وما هو في الحقيقة بالغريب . فهو تأثير هذا القرآن العجيب ووقعه الهائل في القلوب !

هذا الحادث الذي تواترت به الروايات . حادث سجود المشركين مع المسلمين . كان يحتاج عندي إلى تعليل . قبل أن تقع لي تجربة شعورية خاصة عللته في نفسي ، وأوضحت لي سببه الأصيل .

وكنت قد قرأت تلك الروايات المفتراة عما سمي بحديث الغرانيق ، الذي أورده ابن سعد في طبقاته ، وابن جرير الطبري في تاريخه .

وبعض المفسرين عند تفسيرهم لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . . الخ ﴾ وهي الروايات التي قال فيها ابن كثير – جزاه الله خيراً – " ولكنها من طرق كلها مرسلة . ولم أرها مسندة من وجه صحيح " .

وأكثر هذه الروايات تفصيلاً وأقلها إغراقاً في الخرافة والافتراء على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رواية ابن أبي حاتم . قال : حدثنا موسى بن ابي موسى الكوفي ، حدثنا محمد بن اسحاق الشيبي ، حدثنا محمد بن فليح ، عن موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب . قال : أنزلت سورة النجم ، وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ؛ ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر . وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم ، وأحزنه ضلالهم ؛ فكان يتمنى هداهم . فلما أنزل الله سورة النجم قال : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ؟ ﴾ ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت فقال : وإنهن لهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى . . وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته . . فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة . وزلت بها ألسنتهم . وتباشروا بها . وقالوا : إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه . . فلما بلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ آخر النجم سجد ، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك . غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلاً كبيراً فرفع ملء كفه تراباً فسجد عليه . فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود لسجود رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير

إيمان ولا يقين . ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان في مسامع المشركين . .

فاطمأنت أنفسهم – أي المشركون – لما ألقى الشيطان في أمنية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحدثهم به الشيطان أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قرآها في السورة ، فسجدوا لتعظيم آلهتهم . ففشت تلك الكلمة في الناس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين : عثمان بن مظعون وأصحابه . وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم ، وصلوا

(434/734)

مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه ، وحدثوا أن المسلمين قد أمنوا بمكة ، فأقبلوا سراعاً ، وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، وحفظه من الفرية .

وقال : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي . . الخ ﴾ فلما بين الله قضاءه وبرأه من سجع الشيطان ، انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم على المسلمين ، واشتدوا عليهم " . . انتهى

وهناك روايات أخرى أجرأ على الافتراء تنسب قولة الغرانيق . . تلك . . إلى رسول الله ـ

صلى الله عليه وسلم. وتعلل هذا برغبته – حاشاه صلى الله عليه وسلم – في مراضاة قريش ومهادنتها ! ! !

(435/734)

وقد رفضت منذ الوهلة الأولى تلك الروايات جميعاً . . فهي فضلاً عن مجافاتها لعصمة النبوة وحفظ الذكر من العبث والتحريف ، فإن سياق السورة ذاته ينفيها نفياً قاطعاً . إذ أنه يتصدى لتوهين عقيدة المشركين في هذه الآلهة وأساطيرهم حولها . فلا مجال لإدخال هاتين العبارتين في سياق السورة بحال . حتى على قول من قال : إن الشيطان ألقى بهما في أسماع المشركين دون المسلمين . فهؤلاء المشركون كانوا عرباً يتذوقون لغتهم . وحين يسمعون هاتين العبارتين المقحمتين ويسمعون بعدهما : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذاً قسمة ضيزى . إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان . . الخ ﴾ . ويسمعون بعد ذلك ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى وما لهم به من علم . إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ . . ويسمعون قبله : ﴿ وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ . . حين يسمعون هذا السياق كله فإنهم لا يسجدون مع الرسول. صلى

الله عليه وسلم. لأن الكلام لا يستقيم . والثناء على آلهتهم وتقرير أن لها شفاعة ترتجى لا يستقيم . وهم لم يكونوا أغبياء كغباء الذين افتروا هذه الروايات ، التي تلقفها منهم المستشرقون مغرضين أو جاهلين !

لغير هذا السبب إذن سجد المشركون . ولغير هذا السبب عاد المهاجرون من الحبشة ثم عادوا إليها بعد حين مع آخرين .

وليس هنا مجال تحقيق سبب عودة المهاجرين ، ثم عودتهم إلى الحبشة مع آخرين . .

فأما أمر السجود فهو الذي نتصدى له في هذه المناسبة . .

لقد بقيت فترة أبحث عن السبب الممكن لهذا السجود . ويخطر لي احتمال أنه لم يقع ؛ وإنما هي رواية ذكرت لتعليل عودة المهاجرين من الحبشة بعد نحو شهرين أو ثلاثة . وهو أمر يحتاج إلى التعليل .

وبينما انا كذلك وقعت لي تلك التجربة الشعورية الخاصة التي أشرت إليها من قبل . .

كنت بين رفقة نسمر حينما طرق أسماعنا صوت قارئ للقرآن من قريب ، يتلو سورة النجم . فانقطع بيننا الحديث ، لنستمع وننصت للقرآن الكريم . وكان صوت القارئ مؤثراً

وهو يرتل القرآن ترتيلاً حسناً .

وشيئاً فشيئاً عشت معه فيما يتلوه . عشت مع قلب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في رحلته إلى الملأ الأعلى .

عشت معه وهو يشهد جبريل – عليه السلام – في صورته الملائكية التي خلقه الله عليها . ذلك الحادث العجيب المدهش حين يتدبره الإنسان ويحاول تخيله ! وعشت معه وهو في رحلته العلوية الطليقة . عند سدرة المنتهى . وجنة المأوى . عشت معه بقدر ما يسعفني خيالي ، وتحلق بي رؤاي ، وبقدر ما تطيق مشاعري وأحاسيسي . .

وتابعته في الإحساس بتهافت أساطير المشركين حول الملائكة وعبادتها وبنوتها وأنوثتها . . إلى آخر هذه الأوهام الخرفة المضحكة ، التي تتهاوى عند اللمسة الأولى ووقفت أمام الكائن البشري ينشأ من الأرض ، وأمام الأجنة في بطون الأمهات . وعلم الله يتابعها ويحيط بها .

وارتجف كياني تحت وقع اللمسات المتتابعة في المقطع الأخير من السورة . . الغيب المحجوب لا يراه إلا الله . والعمل المكتوب لا يند ولا يغيب عن الحساب والجزاء . والمنتهى إلى الله في نهاية كل طريق يسلكه العبيد . والحشود الضاحكة والحشود الباكية . وحشود الموتى . وحشود الأحياء . والنطفة تهتدي في الظلمات إلى طريقها ، وتخطو خطواتها وتبرز أسرارها فإذا هي ذكر أو أنثى . والنشأة الأخرى . ومصارع الغابرين . والمؤتفكة

أهوى فغشاها ما غشى !

واستمعت إلى صوت النذير الأخير قبل الكارثة الداهمة : ﴿ هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ . .

ثم جاءت الصيحة الأخيرة . واهتز كياني كله أمام التبكيت الرعيب : ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون . وتضحكون ولا تبكون . وأنتم سامدون ؟ ﴾ .

(437/734)

فلما سمعت : ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ . . كانت الرجفة قد سرت من قلبي حقاً إلى أوصالي . واستحالت رجفة عضلية مادية ذات مظهر مادي ، لم أملك مقاومته . فظل جسمي كله يختلج ، ولا أتمالك أن أثبته ، ولا أن أكفكف دموعاً هاتنة ، لا أملك احتباسها مع الجهد والمحاولة !

وأدركت هذه اللحظة أن حادث السجود صحيح ، وأن تعليله قريب . إنه كامن في ذلك السلطان العجيب لهذا القرآن ، ولهذه الإيقاعات المزلزلة في سياق هذه السورة . ولم تكن هذه أول مرة أقرأ فيها سورة النجم أو أسمعها . ولكنها في هذه المرة كان لها هذا الوقع ، وكانت مني هذه الإستجابة . . وذلك سر القرآن . . فهناك لحظات خاصة موعودة غير

مرقوبة تمس الآية أو السورة فيها موضع الإستجابة ؛ وتقع اللمسة التي تصل القلب بمصدر القوة فيها والتأثير . فيكون منها ما يكون !

لحظة كهذه مست قلوب الحاضرين يومها جميعاً . ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ هذه السورة يقرؤها بكيانه كله . ويعيش في صورها التي عاشها من قبل بشخصه . وتنصب كل هذه القوة الكامنة في السورة من خلال صوت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أعصاب السامعين . فيرتجفون ويسمعون : ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ ويسجد محمد والمسلمون . . فيسجدون . .

ولقد يقال : إنك تقيس على لحظة مرت بك ، وتجربة عانيتها أنت . وأنت مسلم . تعتقد بهذا القرآن . وله في نفسك تأثير خاص . . وأولئك كانوا مشركين يرفضون الإيمان ويرفضون القرآن !

ولكن هنالك اعتبارين لهما وزنهما في مواجهة هذا الذي يقال :

الاعتبار الاول : أن الذي كان يقرأ السورة كان هو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ النبي .

الذي تلقى هذا القرآن مباشرة من مصدره . وعاشه وعاش به . وأحبه حتى لكان يثقل خطاه إذا سمع من يرتله داخل داره ، ويقف إلى جانب الباب يسمع له حتى ينتهي ! وفي هذه السورة بالذات كان يعيش لحظات عاشها في الملأ الأعلى . وعاشها مع الروح الأمين وهو يراه على صورته الأولى . . فأما أنا فقد كنت أسمع السورة من قارئ . والفارق ولا شك هائل !

والاعتبار الثاني : أن أولئك المشركين لم تكن قلوبهم ناجية من الرعشة والرجفة ، وهم يستمعون إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - إنما كان العناد المصطنع هو الذي يحول بينهم وبين الإذعان . . والحادثان التاليان شاهد على ما كان يخالج قلوبهم من الارتعاش .

(439/734)

روى ابن عساكر في ترجمة عتبة بن أبي لهب ، من طريق محمد بن اسحاق ، عن عثمان بن عروة ، ابن الزبير ، عن أبيه ، عن هناد بنت الأسود ، قال : "كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزوا إلى الشام ، فتجهزت معهما ، فقال ابنه عتبة : والله لأنطلقن إلى محمد ، ولأوذينه في ربه (سبحانه وتعالى) . فانطلق حتى أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا محمد . هو يكفر بالذي دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - :

" اللهم سلط عليه كلباً من كلابك " . . ثم انصرف عنه ، فرجع إلى أبيه ، فقال : يا بني ، ما قلت له ؟ فذكر له ما قاله . فقال : فما قال لك ؟ قال : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك .

قال : يا بني والله ما آمن عليك دعاءه ! فسرنا حتى نزلنا أبراه – وهي في سدة – ونزلنا إلى صومعة راهب . فقال الراهب : يا معشر العرب ، ما أنزلكم هذه البلاد ؟ فإنها يسرح فيها الأسد كما تسرح الغنم ! فقال أبو لهب : إنكم قد عرفتم كبر سني وحقي ؛ وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة والله ما آمنها عليه ، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ، وافرشوا لابني عليها ، ثم افرشوا حولها . ففعلنا . فجاء الأسد فشم وجوهنا ، فلما لم يجد ما يريد تقبض فوثب وثبة فوق المتاع ، فشم وجهه ، ثم هزمه هزمة ففسخ رأسه . فقال : أبو لهب : قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمد ! "

هذا هو الحادث الأول صاحبه أبو لهب . أشد المخاصمين لمحمد - صلى الله عليه وسلم - المناوئين له ، المؤلبين عليه هو وبيته . المدعو عليه في القرآن هو وبيته : ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى ناراً ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد ﴾ .

وذلك شعوره الحقيقي تجاه محمد وقول محمد . وتلك ارتجافة قلبه ومفاصله أمام دعوة محمد (صلى الله عليه وسلم) على ابنه .

والحادث الثاني: صاحبه عتبة بن أبي ربيعة . وقد أرسلته قريش إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) يفاوضه في الكف عن هذا الذي فرق قريشا وعاب آلهتهم, على أن يكون له منهم ما يريد من مال أو رياسة أو زواج . فلما انتهى من عرضه قال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "أفرغت يا أبا الوليد ؟" قال: نعم . قال: "فاستمع مني" . قال: أفعل . قال: بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . . ثم مضى حتى قوله تعالى: (فإن أعرضوا فقل: أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) . . عندئذ هب عتبة يمسك بفم النبي (صلى الله عليه وسلم) في ذعر وهو يقول: ناشدتك الرحم أن تكف . . وعاد إلى قريش يقص عليهم الأمر . ويعقب عليه يقول: وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب, فخشيت أن ينزل بكم العذاب .

فهذا شعور رجل لم يكن قد أسلم . والارتجاف فيه ظاهر . والتأثر المكبوت أمام العناد والمكابرة ظاهر .

ومثل هؤلاء إذا استمعوا إلى سورة النجم من محمد (صلى الله عليه وسلم) فأقرب ما يحتمل أن تصادف قلوبهم لحظة الاستجابة التي لا يملكون أنفسهم إزاءها . وأن يؤخذوا

بسلطان هذا القرآن فيسجدوا مع الساجدين . . بلا غرانيق ولا غيرها من روايات المفترين ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3405 . 3422 ﴾

(441/734)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ النَّجْمِ

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى ﴾

يَحْتَجُّ بِهِ مَنْ لَا يُجِيزُ أَنْ يَقُولَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَوَادِثِ مِنْ جِهَةِ اجْتِهَادِ الرَّأْيِ ، بِقَوْلِهِ : ﴿ إنْ هُوَ إلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ وَلَيْسَ كَمَا ظَنُّوا ؛ لِأَنَّ اجْتِهَادَ الرَّأْيِ إذَا صَدَرَ عَنْ الْوَحْيِ جَازَ أَنْ يُنْسَبَ مُوجِبُهُ وَمَا أَدَّى إلَيْهِ أَنَّهُ عَنْ وَحْيٍ .

وقَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ .

رُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَعَائِشَةَ وَمُجَاهِدٍ وَالرَّبِيعِ قَالُوا : ﴿ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : " أَنَّهُ رَأَى رَبَّهُ بِقَلْبِهِ " ؛ وَهَذَا يَرْجِعُ إلَى مَعْنَى الْعِلْمِ وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَالضَّحَّاكِ : " سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ وَإِلَيْهَا

يَنْتَهِي مَا يَعْرُجُ إِلَى السَّمَاءِ " وَقِيلَ : " سَمَّيْتُ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى ؛ لِأَنَّهُ يَنْتَهِي إِلَيْهَا أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ " وَقَالَ الْحَسَنُ : " جَنَّةُ الْمَأْوَى هِيَ الَّتِي يَصِيرُ إِلَيْهَا أَهْلُ الْجَنَّةِ " .

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ وَإِلَى الْجَنَّةِ بِقَوْلِهِ - تَعَالَى - : رَآهُ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَإِنَّ عِنْدَهَا جَنَّةَ الْمَأْوَى .

(442/734)

وقَوْله تَعَالَى - : ﴿ إلَّا اللَّمَمَ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رِوَايَةً : لَمْ أَرَ أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنْ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ ، فَزِنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ أَوْ يُكَذِّبُهُ .

﴾ وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ : " أَنَّهُ النَّظْرَةُ وَالْغَمْزَةُ وَالْقُبْلَةُ وَالْمُبَاشَرَةُ ، فَإِذَا مَسَّ الْخِتَانُ الْخِتَانَ فَهُوَ الزِّنَا وَوَجَبَ الْغُسْلُ " ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا : " إنَّ اللَّمَمَ النِّكَاحُ " ، وَعَنْهُ أَيْضًا : " إنَّ اللَّمَّةَ مِنْ الزِّنَا ثُمَّ يَتُوبُ فَلَا يَعُودُ " .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رِوَايَةً : " اللَّمَمُ مَا بَيْنَ الْحَدَّيْنِ حَدِّ الدُّنْيَا وَحَدِّ الْآخِرَةِ " .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا رِوَايَةً " هُوَ الَّذِي يُلِمُّ بِالْمَرْأَةِ " وَقَالَ عَطَاءٌ : " اللَّمَمُ مَا دُونَ الْجِمَاعِ " وَقَالَ مُجَاهِدٌ : " أَنْ تُصِيبَ الذَّنْبَ ثُمَّ تَتُوبَ " .

(443/734)

وَرَوَى عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إنْ تَغْفِرْ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَك لَا أَلَمَّا ﴾ وَيُقَالُ : إنَّ اللَّمَمَ هُوَ الْهَمُّ بِالْخَطِيئَةِ مِنْ جِهَةِ حَدِيثِ النَّفْسِ بِهَا مِنْ غَيْرِ عَزْمٍ عَلَيْهَا وَقِيلَ : إنَّ اللَّمَمَ مُقَارَبَةُ الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ دُخُولٍ فِيهِ ، يُقَالُ : أَلَمَّ بِالشَّيْءِ إلْمَامًا إذَا قَارَبَهُ وَقِيلَ : إنَّ اللَّمَمَ الصَّغِيرُ مِنْ الذُّنُوبِ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى - : ﴿ إنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ . ﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى - : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ هُوَ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إلَّا عَلَيْهَا ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى - : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إلَّا مَا سَعَى ﴾ فِي مَعْنَى ذَلِكَ وَيُحْتَجُّ بِهِ فِي امْتِنَاعِ جَوَازِ تَصَرُّفِ الْإِنْسَانِ عَلَى غَيْرِهِ فِي إبْطَالِ الْحَجْرِ عَلَى الْحُرِّ الْعَاقِلِ الْبَالِغِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى - : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إذَا تُمْنَى ﴾ .

(444/734)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَمَّا كَانَ قَوْلُهُ : ﴿ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ اسْمًا لِلْجِنْسَيْنِ اسْتَوْعَبَ الْجَمِيعَ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى ، وَأَنَّ الْخُنْثَى وَإِنْ اشْتَبَهَ عَلَيْنَا أَمْرُهُ لَا يَخْلُو مِنْ أَحَدِهِمَا ؛ وَقَدْ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ : إنَّ الْخُنْثَى الْمُشْكِلَ إنَّمَا يَكُونُ مَا دَامَ صَغِيرًا فَإِذَا بَلَغَ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَظْهَرَ فِيهِ عَلَامَةُ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى .

وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِهِ .

آخِرُ سُورَةِ النَّجْمِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(445/734)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة النجم

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1)

قوله : ﴿ إذا هوى ﴾ : في العاملِ في هذا الظرفِ أوجهٌ ، وعلى كلٍ فيها إشكال . أحدُ الأوجهِ : أنه منصوبٌ بفعل القسمِ المحذوفِ تقديرُه : أُقْسِمُ بالنجم وقتَ هُوِيِّه ، قاله أبو

البقاء وغيرُه . وهو مُشْكِلٌ فإن فِعْلَ القسمِ إنشاءٌ ، والإنشاءُ حالٌ ، و " إذا " لِما يُسْتقبل من الزمان فكيف يتلاقيان ؟ الثاني : أنَّ العاملَ فيه مقدرٌ على أنَّه حالٌ من النجم أي : أُقْسِم به حالَ كونِه مستقراً في زمانِ هُوِيِّه . وهو مُشْكِلٌ مِنْ وجهين ، أحدهما : أن النجم جثةٌ ، والزمانُ لا يكونُ حالاً عنها كما لا يكونُ خبراً عنها . والثاني : أنَّ " إذا " للمستقبلِ فكيف يكونُ حالاً ؟ وقد أُجيب عن الأول : بأنَّ المرادَ بالنجم القطعةُ من القرآن ، والقرآنُ قد نَزَلَ مُنَجَّماً في عشرين سنةً . وهذا تفسيرُ ابن عباس وغيرِه . وعن الثاني : بأنها حالٌ مقدرةٌ . الثالث : أنَّ العاملَ فيه نفسُ النجم إذا أُريد به القرآنُ ، قاله أبو البقاء . وفيه نظرٌ ؛ لأنَّ القرآنَ لا يَعْمل في الظرف إذا أُريد به أنه اسمٌ لهذا الكتابِ المخصوص . وقد يُقال : إن النجمَ بمعنى المُنَجَّم كأنه قيل : والقرآنِ المنجَّمِ في هذا الوقتِ . وهذا البحثُ واردٌ في مواضعَ منها ﴿ والشمس وَضُحَاهَا ﴾ [الشمس : 1] وما بعدَه ، وقولُه : ﴿ والليل إِذَا يغشى ﴾ [الليل : 1] ، ﴿ والضحى والليل إِذَا سجى ﴾ [الضحى : 1] . وسيأتي في الشمس بحثٌ أخصُّ مِنْ هذا تقف عليه إنْ شاء الله تعالى . وقيل : المراد بالنجم هنا الجنسُ وأُنْشد :

4121 فباتَتْ تَعُدُّ النجمَ في مُسْتَحيرةٍ . . . سريعٍ بأيدي الآكلين جمودُها

أي : تَعُدُّ النجومَ ، وقيل : بل المرادُ نجمٌ معين . فقيل : الثُّرَيَّا . وقيل : الشِّعْرَى لذِكْرِها في قوله : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشعرى ﴾ [النجم : 49] . وقيل : الزُّهْرة لأنها كانت تُعْبَدُ . والصحيح أنها الثريَّا ، لأنَّ هذا صار عَلَماً بالغَلَبة . ومنه قولُ العرب : " إذا طَلَعَ النجمُ عِشاءً ابتغى الراعي كِساءً " . وقالوا أيضاً : " طَلَعَ النجمُ غُدُيَّة فابتغى الراعي كُسْيَة " . وهَوَى يَهْوي هُوِيّاً أي : سقط من علو ، وهَوِي يَهْوَى هَوَىً أي : صَبَا . وقال الراغب : " الهُوِيُّ سقوطٌ مِنْ عُلُوّ " . ثم قال : والهُوِيُّ : ذهابٌ في انحدارٍ . والهوى : ذهابٌ في ارتفاع وأُنْشد : /

4122 . . . . . يَهْوي

مخارِمَها هُوِيَّ الأجدَلِ

وقيل : هَوَى في اللغة خَرَقَ الهوى ، ومَقْصَدُه السُّفْلُ ، أو مصيرُه إليه وإن لم يَقْصِدْه . قال :

4123 . . . . . هُوِيَّ

الدَّلْوِ أسْلَمَها الرِّشاءُ

وقد تقدَّم الكلامُ في هذا مُشْبَعاً .

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3)

وقوله : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ : هذا جوابُ القسم . و " عن الهوى " أي ما يَصْدُرُ عن

الهوى نُطْقُه ف "عن" على بابِها . وقيل : هي بمعنى الباء . وفي فاعِل "يَنْطِق" وجهان ، أحدُهما : هو ضميرُ النبيِّ عليه السلام ، وهو الظاهرُ . والثاني : أنه ضميرُ القرآنِ كقولِه : ﴿ هذا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق ﴾ [الجاثية : 29] .

إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4)

قوله : ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ : أي : إنْ الذي يَنْطِق به ، أو إنْ القرآنُ .

(447/734)

قوله : ﴿ يوحى ﴾ صفةٌ لـ "وَحْيٌ" . وفائدةُ المجيْءِ بهذا الوصفِ أنه يَنْفي المجازَ أي : هو وحيٌ حقيقةً لا بمجردِ تسميتِه ، كما تقول : هذا قولٌ يقال . وقيل : تقديرُه : يُوحى إليه ، وفيه مزيدُ فائدةٍ .

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5)

قوله : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ هذه الهاءُ للرسول ، وهو الظاهرُ ، فيكونَ المفعولُ الثاني محذوفاً أي : عَلَّم الرسولَ الوحيَ أي : المُوْحى ، وأن تكونَ للقرآنِ والوحيِ ، فيكونَ المفعولُ الأولُ محذوفاً أي : عَلَّمه الرسولَ . وشديدُ القُوى : قيل : جبريلُ وهو الظاهرُ . وقيل : الباري تعالى لقوله : ﴿ الرحمن عَلَّمَ القرآن ﴾ [الرحمن : 1-2]

وشديدُ القُوى : من إضافة الصفةِ المشبهة لمرفوعِها فهي غيرُ حقيقية .

ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6)

قوله : ﴿ مِرَّةٍ ﴾ : المِرَّةُ : القوةُ والشدةُ . ومنه " أَمْرَرْتُ الحَبْلَ " إذا أَحْكَمْتَ فَتْلَه ، والمَرِير : الحَبْلُ ، وكذلك المَمَرُّ ، كأنه كُرِّر فَتْلُه مرةً بعد أخرى . وقال قطرب : " العربُ تقول لكلِّ جَزْلِ الرأي حصيفِ العقلِ : ذو مِرَّة " وأنشد :

4124 وإني لَذو مِرَّةٍ مُرَّةٍ . . . إذا رَكِبَتْ خالةٌ خالَها

وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7)

(448/734)

قوله : ﴿ وَهُوَ بالأفق ﴾ : فيه وجهان ، أظهرهما : أنه مبتدأٌ ، و " بالأفق " خبرُه ، والضميرُ لجبريلَ أو للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم . ثم في هذه الجملةِ وجهان ، أحدُهما : أنَّ هذه الجملةَ حالٌ مِنْ فاعل " استوى " قاله مكي . والثاني : أنها مستأنفةٌ أُخبر تعالى بذلك . والثاني : أنَّ " هو " معطوفٌ على الضميرِ المستترِ في " استوى " . وضميرُ " استوى " و " هو " : إمَّا أن يكونا لله تعالى ، وهو قولُ الحسنِ . وقيل : ضميرُ " استوى " لجبريل و " هو " لمحمد عليه السلام . وقيل : بالعكس . وهذا الوجهُ الثاني إنما يتمشَّى على قول الكوفيين

؛ لأن فيه العطفَ على الضمير المرفوع المتصل مِنْ غيرِ تأكيدٍ ولا فاصلٍ . وهذا الوجهُ منقولٌ عن الفراء والطبريّ .

ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8)

قوله : ﴿ فتدلى ﴾ : التدلّي : الامتداد من عُلُوٍّ إلى سُفْل ، فَيُستعمل في القُرْب من العلوِّ ، قاله الفراء وابن الأعرابي . وقال الهُذلي :

4125 تَدَلَّى علينا وهو زَرْقُ حَمامةٍ . . . له طِحْلِبٌ في مُنْتهى القَيْظِ هامِدُ

وقال آخر :

4126 تَدَلَّى عليها بين سِبٍّ وخَيْطَةٍ . . . . . .

. . . . . .

ويقال : " هو كالقِرلَّى ، إن رأى خيراً تدلَّى ، وإن لم يَرَه تولَّى " . واستوى قال مكي : " يقع للواحد ، وأكثرُ ما يقع من اثنين ، ولذلك جَعَل الفراء الضميرَ لاثنين " .

فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9)

قوله : ﴿ فَكَانَ قَابَ ﴾ : ههنا مضافاتٌ محذوفاتٌ يُضْطَرُّ لتقديرِها أي : فكان مقدارُ مسافةِ قُرْبِه منه مثلَ مقدارِ مسافةِ قابٍ . وقد فَعَل أبو علي هذا في قولِ الشاعر :

4127 . . . . . .

وقد جَعَلَتْني مِنْ حَزِيْمَةَ إصبعا

أي : ذا مقدارِ مسافةِ إصبع . والقابُ : القَدْرُ . تقول : هذا قابُ هذا أي : قَدْرُه . ومثلُه : القِيبُ والقادُ والقِيس قال الزمخشري : " وقد جاء التقديرُ بالقوس والرُّمْح والسَّوْط والذِّراع والباعِ والخُطْوة والشِّبر والفِتْر والإِصبع ، ومنه : لا صَلاةَ إلى أن ترتفعَ الشمسُ مِقدار رُمْحين . وفي الحديث : " لَقابُ قوس أحدِكم من الجنة وموضعُ قِدّه خيرٌ من الدنيا وما فيها " ، والقِدُّ السَّوْط . وألفُ " قاب " عن واوٍ . نصَّ عليه أبو البقاء . وأمَّا " قِيْبٌ " فلا دَلالة فيه على كونِها ياءً ؛ لأنَّ الواوَ إذا انكسر ما قبلها قُلبت ياءً كدِيْمة وقِيمة ، وذكره الراغب أيضاً في مادة " قوب " إلاَّ أنه قال في تفسيره : " هو ما بين المَقْبَضَ والسِّيَةِ من القوس " فعلى هذا يكون مقدارَ نصفِ القوس ؛ لأن المَقْبَضَ في نصفِه . والسِّيَةُ هي الفُرْضَة التي يُخَطُّ فيها الوَتَرُ . وفيما قاله نظرٌ لا يخفى . ويُرْوى عن مجاهد : أنه من الوَتَر إلى مَقْبَضِ القوس في وسَطه . وقيل : إنَّ القوسَ ذراعٌ يُقاس به ، نُقل ذلك عن ابن عباس وأنه لغةٌ للحجازيين .

والقَوْسُ معروفةٌ ، وهي مؤنثةٌ ، وشَذُّوا في تصغيرِها فقالوا : قُوَيْس من غيرِ تأنيثٍ كعُرَيْبٍ وحُرَيْبٍ ، ويُجْمع على قِسِيّ ، وهو مَقْلوب مِنْ قُوُوْس ، ولتصريفِه موضعٌ آخر . /

قوله : ﴿ أَوْ أدنى ﴾ هي كقوله : ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات : 147] لأنَّ المعنى : فكان بأحدِ هذين المقدارَيْنِ في رَأْيِ الرائي ، أي : لتقارُبِ ما بينهما يَشُكُّ الرائي في ذلك . وأَدْنى أفعلُ تفضيلٍ ، والمفضَّلُ عليه محذوفٌ أي : أو أدنى مِن قاب قوسين .

فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10)

(450/734)

قوله : ﴿ فأوحى ﴾ : أي اللَّهُ ، وإنْ لم يَجْرِ له ذِكْرٌ لعدم اللَّبْس . وقوله : " ما أَوْحى " أُبْهِم تعظيماً له ورَفْعاً مِنْ شأنِه ، وبه استدلَّ جمال الدين ابن مالك على أنه لا يُشْتَرَطُ في الصلة أَنْ تكونَ معهودة عند المخاطبِ . ومثلُه ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : 78] ، إلاَّ أنَّ هذا الشرطَ هو المشهورُ عند النَّحْوِيين .

مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11)

قوله : ﴿ مَا كَذَبَ ﴾ : قرأ هشامٌ بتشديدِ الدال . والباقون بتخفيفها . فأمَّا [القراءةُ] الأولى فإنَّ معناها أنَّ ما رآه محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم بعينِه صَدَّقه قلبُه ، ولم يُنْكِرْه أي : لم يَقُلْ له : لم أَعْرِفْك و " ما " مفعولٌ به موصولةٌ ، والعائدُ محذوفٌ . ففاعِلُ " رأى " ضميرٌ يعودُ على النبي صلَّى الله عليه وسلَّم . وأمَّا قراءةُ التخفيفِ فقيل فيها كذلك . و " كذَبَ

" يتعدى بنفسِه . وقيل : هو على إسقاطِ الخافضِ : أي : فيما رآه ، قاله مكي وغيرُه .

وجوَّز في " ما " وجهين ، أحدُهما : أَنْ يكونَ بمعنى الذي . والثاني : أَنْ تكونَ مصدريةً ، ويجوز أَنْ يكونَ فاعلُ " رأى " ضميراً يعودُ على الفؤادِ أي : لم يَشُكَّ قلبُه فيما رآه بعينِه .

أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12)

قوله : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ ﴾ : قرأ الأخَوان " أَفَتَمْرُوْنَه " بفتح التاء وسكون الميمِ ، والباقون " تُمارونه " . وعبد الله بن مسعود والشعبي " أَفَتُمْرُوْنَه " بضمّ التاءِ وسكون الميم . فأمَّا الأولى ففيها وجهان ، أحدهما : أنها مِنْ مَرَيْتُه حَقَّهُ إذا غَلَبْتَه وجَحَدْتَه إياه . وعُدِّي ب " على " لتضمُّنِه معنى الغَلَبة . وأُنشِد :

4128 لَئِن هَجَرْتَ أخا صدقٍ ومَكْرُمَةٍ . . . لقد مَرَيْتَ أخاً ما كان يَمْرِيكا

لأنه إذا جَحَده حقَّه فقد غَلَبه عليه . والثاني : أنها مِنْ مَراه على كذا أي : غَلَبه عليه فهو مِن المِراء وهو الجِدالُ . وأمَّا الثانيةُ فهي مِنْ ماراه يُماريه مُراءاةً أي : جادَلَه . واشتقاقُه مِنْ مَرْيِ الناقةِ ؛ لأنَّ كلَّ واحد من المتجادِلَيْن يَمْري ما عند صاحبه . وكان مِنْ حَقِّه أن يتعدَّى ب " في " كقولك : جادَلْتُه في كذا ، وإنما ضُمِّن معنى الغَلَبة فعُدِّيَ تَعْدِيَتَها . وأمَّا

قراءةُ عبد الله فمِنْ أمراه رباعياً .

وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13)

قوله : ﴿ نَزْلَةً أخرى ﴾ : فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنها منصوبةٌ على الظرفِ . قال الزمخشري : " نَصْبَ الظرفِ الذي هو مَرَّة ؛ لأنَّ الفَعْلَةَ اسمٌ للمَرَّة من الفعلِ فكانَتْ في حُكْمها " قلت : وهذا ليس مذهبَ البصريين ، وإنما هو مذهبُ الفرَّاء ، نقله عنه مكي . الثاني : أنها منصوبةٌ نَصْبَ المصدرِ الواقعِ موقعَ الحالِ . قال مكي : " أي : رآه نازلاً نَزْلة أخرى " ، وإليه ذهب الحوفيُّ وابنُ عطية . والثالث : أنه منصوبٌ على المصدرِ المؤكِّد ، فقدَّره أبو البقاء : " مرةً أخرى أو رُؤْيةً أخرى " . قلت : وفي تأويلِ " نَزْلَةً " برؤية نظرٌ . و " أخرى " تَدُلُّ على سَبْقِ رؤيةٍ قبلها .

عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15)

(452/734)

قوله : ﴿ عِندَ سِدْرَةِ ﴾ : ظرفٌ لِرَآه و " عندها جنةُ " جملةٌ ابتدائيةٌ في موضعِ الحالِ . والأحسنُ أَنْ يكونَ الحالُ الظرفَ ، و " جَنَّةُ المَأْوى " فاعلٌ به . والعامَّةُ على " جنَّة " اسمٌ مرفوعٌ . وقرأ أمير المؤمنين وأبو الدرداء وأبو هريرة وابن الزبير وأنس وزر بن حبيش ومحمد

بن كعب " جَنَّة " فعلاً ماضياً . والهاء ضميرُ المفعول يعود للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم .

والمَأْوَى فاعلٌ بمعنى : سَتَره إيواءُ اللَّهِ تعالى . وقيل : المعنى : ضَمَّه المبيتُ والليلُ . وقيل : جَنَّه بظلالِه ودَخَلَ فيه . وقد رَدَّت عائشةُ رضي الله عنها هذه القراءةَ وتبعها جماعةٌ وقالوا : " أجَنَّ اللَّهُ مَنْ قرأها " ، وإذا ثبتت قراءةً عن مثلِ هؤلاء فلا سبيلَ إلى رَدِّها ، ولكنّ المستعملَ إنما / هو أَجَنَّه رباعياً ، فإن استعمل ثلاثياً تَعَدَّى ب " على " كقولِه ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الليل ﴾ [الأنعام : 76] . وقال أبو البقاء : " وهو شاذٌّ والمستعملُ أُجنَّه " . وقد تقدَّم الكلامُ على هذه المادةِ في الأنعام . و " إذ يَغْشَى " منصوبٌ ب رآه . وقولُه : " ما يَغْشَى " كقولِه : ﴿ مَا أَوحى ﴾ [النجم : 10] .

لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)

قوله : ﴿ الكبرى ﴾ فيه وجهان ، أحدُهما : وهو الظاهرُ أنَّ " الكبرى " مفعولُ رأى ، و ﴿ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ﴾ حالٌ مقدمةٌ . والتقدير : لقد رأى الآياتِ الكبرى من آياتِ ربه . والثاني : أنَّ ﴿ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ﴾ وهو مفعولُ الرؤية والكُبْرى صفةٌ لآيات ربّه . وهذا الجمعُ يجوزُ وَصْفُه بوَصْف المؤنثةِ الواحدةِ ، وحَسَّنه هنا كونُه فاصلةً . وقد تقدَّم مِثْلُه في طه [الآية : 23] كقوله : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الكبرى ﴾

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19)

قوله: ﴿ اللات ﴾: اسمُ صَنَمٍ. قيل: كان لثَقيفِ بالطائف، قاله: قتادة. وقيل: بنخلة. وقيل: بعُكاظ. ورَجَّح ابنُ عطيةَ الأولَ بقولِ الشاعر:

4129 وفَرَّتْ ثَقِيْفٌ إلى لاتِها ... بمُنْقَلَبِ الخائبِ الخاسرِ

والألف واللام في "اللات" زائدةٌ لازمةٌ. فأمَّا قولُه: "إلى لاتِها" فَحَذَفَ للإضافة. وهل هي والعُزَّى عَلَمان بالوَضْع، أو صفتان غالبتان؟ خلافٌ ويَتَرَتَّبُ على ذلك جوازُ حَذْفِ أل وعدمُه. فإنْ قلنا: إنهما ليسا وصفَيْن في الأصلِ فلا تُحْذَفُ منهما أل. وإنْ قلنا: إنهما صفتان، وإنَّ أل للَمْحِ الصفةِ جاز، وبالتقديرَيْن فأل زائدةٌ. وقال أبو البقاء: "وقيل: هما صفتان غالبتان مثلَ: الحارث والعباس فلا تكون أل زائدة" انتهى.

وهو غَلَطٌ لأن التي للَمْحِ الصفةِ منصوصٌ على زيادتِها، بمعنى أنها لم تؤثِّرْ تعريفاً.

واخْتُلِف في تاء "اللات" فقيل: أصلٌ، وأصلُه مِنْ لات يليتُ فألفُها عن ياءٍ، فإنَّ مادةَ ل ي ت موجودةٌ. وقيل: زائدة، وهي مِنْ لَوَى يَلْوي لأنهم كانوا يَلْوُوْن أعناقَهم إليها، أو يَلْتَوون أي: يَعْتَكِفُون عليها، وأصلُها لَوَيَة فحُذِفت لأمُها، فألفُها على هذا مِنْ واوٍ. وقد اختلف القراءُ في الوقف على تائِها. فوقف الكسائيُّ عليها بالهاء والباقون بالتاء، وهو مبنيٌّ على القولَيْن المتقدمَيْن: فمَنْ اعتقدَ تاءَها أصليةً أقَرَّها في الوقف كتاء بَيْت، ومَنْ اعتقد زيادتَها وَقَف عليها هاءً. والعامَّةُ على تخفيفِ تائِها. وقرأ ابن عباس ومجاهد

ومنصور بن المعتمر وأبو الجوزاء وأبو صالح وابن كثير في روايةٍ بتشديدِ التاء . وقيل : هو رجلٌ كان يَلُتُّ السَّوِيْق ويُطْعِمُ الحاجَّ ، فهو اسمُ فاعلٍ في الأصل غَلَبَ على هذا الرجلِ ، وكان يجلسُ عند حَجَرٍ ، فلما مات سُمِّي الحَجَرُ باسمِه وعُبِدَ مِنْ دون الله تعالى .

(454/734)

والعُزَّى فُعْلى من العِزِّ ، وهي تأنيثُ الأَعَزِّ كالفُضْلى ، والأفضل ، وهي اسمُ صنمٍ . وقيل : شجرةٌ كانت تُعْبَدُ .

وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20)

قوله : ﴿ وَمَنَاةَ ﴾ : قرأ ابن كثير " مَناءَة " بهمزةٍ مفتوحةٍ بعد الألف ، والباقون بألفٍ وحدَها ، وهي صخرةٌ كانت تُعْبَدُ من دونِ اللَّه . فأمَّا قراءةُ ابنِ كثير فاشتقاقُها من النَّوْء ، وهو المطرُ لأنهم يَسْتَمطرون عندها الأَنْواء ، ووزنُها حينئذٍ مَفْعَلَة فألفُها عن واوٍ ، وهمزتُها أصليةٌ ، وميمُها زائدةٌ . وأنشدوا على ذلك :

4130 ألا هل أَتَى تَيْمَ بنَ عبدِ مَناءة . . . علَى النَّأْيِ فيما بيننا ابنُ تميمِ

وقد أَنْكر أبو عبيد قراءةَ ابن كثير ، وقال : " لم أسمع الهمز " . قلت : قد سمعه غيرُه ، والبيتُ حُجَّةٌ عليه .

وأمَّا قراءةُ العامَّة فاشتقاقُها مِنْ مَنى يَمْني أي : صبَّ ؛ لأن دماءَ النَّسائِكِ كانت تُصَبُّ عندها ، وأنشدوا لجرير :

4131 أزيدَ مَناةَ تُوْعِدُ يا بنَ تَيْمٍ . . . تَأَمَّلْ أين تاهَ بك الوعيدُ

وقال أبو البقاء : " وألفه من ياءٍ لقولِك : مَنَى يَمْني إذا قدَّر ، ويجوز أَنْ تكونَ من الواو ، ومنه مَنَوان " فوزنُها على قراءة القصر فَعْلة .

(455/734)

" والأُخْرى " صفةٌ لمَناة . قال أبو البقاء : " والأُخْرى توكيدٌ ؛ لأنَّ الثالثةَ لا تكونُ إلاَّ أُخرَى " . وقال الزمخشري : " والأُخْرى ذمٌّ وهي المتأخرةُ الوضيعةُ المقدار ، كقولِه : ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ ﴾ [الأعراف : 38] أي : وُضَعاؤُهم لأَشْرافِهم ، ويجوز أَنْ تكونَ الأَوَّلية والتقدمُ عندهم للاَّت والعُزَّى " . انتهى . وفيه نظرٌ ؛ لأنَّ الأخرى إنما تدلُّ على الغَيْرِيَّة وليس فيها تَعَرُّضٌ لمَدْح ولا ذَمٍّ ، فإن جاء شيءٌ مِنْ هذا فلقرينةٍ خارجيةٍ . وقيل : الأُخْرى صفةٌ للعُزَّى ؛ لأنَّ الثانيةَ أُخْرى بالنسبة إلى الأُوْلى . وقال الحسين ابن الفضل : " فيه تقديمٌ وتأخيرٌ " أي : العُزَّى الأخرى ومناةَ الثالثة ، ولا حاجةَ إلى ذلك لأنَّ الأصلَ عدمُه .

و" أرأيت " بمعنى أَخْبِرْني فيتعدَّى لاثنين ، أوَّلُهما : " اللات وما عُطِف عليها . والثاني : الجملةُ الاستفهاميةُ مِنْ قولِه : " أَلَكُمُ الذَّكَرَ " فإنْ قيل : لم يَعُدْ من هذه الجملةِ ضميرٌ على المفعول الأولِ . فالجوابُ : أنَّ قولَه : " وله الأنثى " في قوةِ " وله هذه الأصنامُ " وإن كان أصلُ التركيبِ : ألكم الذَّكَر وله هُنَّ ، أي : تلك الأصنامُ ، وإنما أُوْثِرَ هذا الاسمُ الظاهرُ لوقوعِه رأْسَ فاصلةٍ . /

(456/734)

وقد جَعَلَ الزجَّاجُ المفعولَ الثاني محذوفاً فإنَّه قال : " وجهُ تَلْفيقِ هذه الآيةِ مع ما قبلَها فيقول : أَخْبِروني عن آلهتِكم هل لها شيءٌ من القدرةِ والعظمة التي وُصِفَ بها ربُّ العزَّةِ في الآي السالفة " انتهى . فعلى هذا يكونُ قولُه : " ألكم الذَّكَرُ " متعلقاً بما قبلَه من حيث المعنى ، لا من حيث الإعرابُ . وجَعَل ابنُ عطية الرؤية هنا بَصَرِيةً فقال : " وهي من رؤيةِ العين ؛ لأنَّه أحال على أَجْرام مرئيةٍ ، ولو كانَتْ " أَرَأَيْتَ " التي هي استفتاءٌ لم تَتَعَدَّ " وهذا كلامٌ مُشْبَجٌ ، وقد تقدَّم لك الكلامُ عليها مُشْبَعاً في الأنعام وغيرها .

تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى (22)

قوله : ﴿ ضيزى ﴾ : قرأ ابنُ كثير " ضِئْزَى " بهمزةٍ ساكنةٍ ، والباقون بياءٍ مكانَها .

وزيدُ علي " ضَيْزَى " بفتح الضادِ والياءِ الساكنة . فأمَّا قراءةُ العامَّةِ فيُحْتمل أَنْ تكونَ مِنْ ضازه يَضيزه إذا ضامه وجارَ عليه . فمعنى ضِيْزَى أي : جائرة . قال الشاعر :

4132 ضازَتْ بنو أُسْدٍ بحُكْمِهِمُ . . . إذ يَجْعلون الرأسَ كالذَّنَبِ

وعلى هذا فتحتملُ وجهين ، أحدُهما : أَنْ تكونَ صفةً على فُعْلى بضم الفاءِ ، وإنما كُسِرت الفاءُ لتصِحَّ الياءُ كبِيْض . فإنْ قيل : وأيُّ فالجوابُ أن سيبويه حكى أنه لم يَرِدْ في الصفاتِ فِعْلَى بكسر الفاء إنما وَرَدَ بضمّها نحو : حُبْلى وأُنْثى ورُبَّى وما أشبهه . إلاَّ أنه قد حَكى غيرُه في الصفات ذلك ، حكى ثعلب : " مِشْية حِيْكى " ، ورجلٌ كِيْصَى . وحكى غيرُه : أمرأةٌ عِزْهى ، وامرأة سِعْلى ، وهذا لا يُنْقَضُ لأن سيبويه يقول : حِيْكى وكِيْصى كقولِه في " ضيزَى " لتَصِحَّ الياءُ ، وأما عِزْهَى وسِعْلى فالمشهورُ فيهما : سِعْلاة وعِزْهاة .

(457/734)

والوجه الثاني : أَنْ تكونَ مصدراً كذِكْرى ، قال الكسائي : يقال : ضازَ يَضيز ضِيْزَى ، كذَكَرَ يَذْكُرُ ذِكْرى . ويُحتمل أَنْ يكونَ مِنْ ضَأَزَه بالهمز كقراءةِ ابن كثير ، إلاَّ أنه خُفِّفَ همزُها ، وإن لم يكنْ من أصولِ القُرَّاءِ كلِّهم إبدالُ مثلِ هذه الهمزة ياءً لكنها لغةٌ التُزِمَتْ فقرؤُوا بها ، ومعنى ضَأَزَه يَضْأَزُه بالهمز : نَقَصه ظُلماً وجَوْراً ، وهو قريبٌ من الأول .

ومِمَّن جَوَّز أَنْ تكونَ الياءُ بدلاً مِنْ همزة أبو عبيد ، وأَنْ يكونَ أصلُها ضُوْزَى بالواوِ لأنه سُمِع ضازَه يَضُوْزُه ضُوْزى ، وضازه يَضِيْزُه ضِيْزى ، وضَأَزه يَضْأَزُه ضَأْزاً ، حكى ذلك كلَّه الكسائيُّ ، وحكى أبو عبيد ضِزْتُه وضُزْتُه بكسرِ الفاء وضمّها . وكُسِرت الضادُ مِنْ ضُوْزَى لأنَّ الضمةَ ثقيلةٌ مع الواو ، وفعلوا ذلك ليَتَوَصَّلوا به إلى قَلْب الواوِ ياءً ، وأنشد الأخفش على لغةِ الهمز :

4133 فإن تَنْأَ عَنَّا نَنْتَقِصْك وإن تَغِبْ . . . فَسَهْمُكَ مَضْؤُوْزٌ وأَنْفُكَ راغِمُ

و" ضِئْزَى " في قراءةِ ابن كثير مصدرٌ وُصِفَ به ، ولا يكون وصفاً أصلياً لِما تقدَّم عن سيبويه . فإنْ قيل : لِم لا قيل في " ضِئْزى " بالكسر والهمز : إنَّ أصلَه ضُئْزَى بالضم فكُسِرَتِ الفاءُ كما قيل فيها مع الياء ؟ فالجواب : أنه لا مُوْجِبَ هنا للتغيير ؛ إذ الضمُّ مع الهمز لا يُسْتثقل استثقالَه مع الياء الساكنة ، وسُمع منهم " ضُوْزَى " بضم الضاد مع الواو أو الهمزة .

وأمَّا قراءةُ زيدٍ فَتَحْتمل أَنْ تكونَ مصدراً وُصِف به كدَعْوى ، وأَنْ تكونَ صفةً كسَكْرى وعَطْشَى .

إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (23)

قوله : ﴿ إِنْ هِيَ ﴾ : في " هي " وجهان ، أحدهما : أنها ضميرٌ للأصنام أي : وما هي إلاَّ أسماءٌ ليس تحتها في الحقيقة مُسَمَّيَاتٌ في الحقيقة لأنكم تَدَّعُوْن الإلهيةِ لما هو أبعدُ شيءٍ منها وأشدُّ منافاةً لها ، كقوله : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ [يوسف : 40] . والثاني : أن تكونَ ضميرَ الأسماءِ ، وهي اللاتُ والعُزَّى ومَناة ، وهم يَقْصِدُون بها أسماءَ الآلهة ، يعني : وما هذه الأسماءُ إلاَّ أسماءٌ سَمَّيْتموها بهواكم وشهواتكم ليس لكم على صحةِ تَسْمِيَتِها بُرْهانٌ تتعلَّقون به ، قاله الزمخشري . وقال أبو البقاء : " أسماء " يجب أن يكون المعنى : ذواتُ أسماءٍ : لقوله " سَمَّيْتُموها " لأنَّ الاسمَ لا يُسَمَّى " .

قوله : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ العامَّةُ على الغَيْبة التفاتاً من خطابهم إلى الغيبة عنهم تحقيراً لهم . وقرأ عبد الله/ وابن عباس وطلحة وعيسى بن عمر وابن وثاب بالخطاب ، وهو حسنٌ موافِقٌ .

قوله : ﴿ وَمَا تَهْوَى الأنفس ﴾ نَسَقٌ على الظنّ ، و " ما " مصدريةٌ ، أو بمعنى الذي .

قوله : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الهدى ﴾ يجوز أَنْ يكونَ حالاً من فاعلِ " يَتَّبعون " أي : يَتَّبعون الظنَّ وهَوَى النفس في حالِ تنافي ذلك وهي مجيْءُ الهدى مِنْ عند ربّهم . ويجوز أَنْ يكونَ اعتراضاً فإنَّ قولَه : " أم للإنسان " متصلٌ بقولِه : ﴿ وَمَا تَهْوَى الأنفس ﴾ وهي أم المنقطعةُ فتتقدَّر ب بل والهمزةِ على الصحيح . قال الزمخشري : " ومعنى الهمزةِ فيها

الإنكارُ أي : ليس للإنسانِ ما تَمَنَّى " .

وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (26)

(459/734)

قوله : ﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ ﴾ : كم هنا خبريةٌ تفيد التكثيرَ ، ومحلُّها الرفعُ على الابتداءِ " ولا تُغْني شفاعتُهم " هو الخبرُ . والعامَّةُ على إفراد الشفاعة وجُمِعَ الضميرِ اعتباراً بمعنى مَلَكَ وبمعنى "كم" . وزيد بن علي " شفاعتُه " بإفرادها اعتبر لفظ "كم" ، و " مَلَكَ " . وابن مقسم " شفاعاتُهم " بجمعها . و " شيئاً " مصدرٌ أي : شيئاً من الإغناء .

وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (28)

قوله : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ ﴾ : أي : بما يقولون أو بذلك . وقال مكي : " الهاءُ تعود على الاسمِ لأنَّ التسميةَ والاسمَ بمعنى " . وقرأ أُبي " بها " أي : بالملائكة أو بالتسمية ، وهذا يُقَوِّي قولَ مكي .

ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (30)

قوله : ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ ﴾ : قال الزمخشري : " هو اعتراض أي : فأَعْرِضْ عنه ولا تُقابِلْه ،

إنَّ ربك هو أعلمُ [بالضالِّ] " . قال الشيخ : "كأنه يقول : هو اعتراضٌ بين " فأعرِضْ " وبين " إنَّ ربك " ، ولا يظهر هذا الذي يقولُه من الاعتراضِ " . قلت : كيف يقولُ : كأنه يقول هو اعتراضٌ وما بمعنى التشبيه ، وهو قد نَصَّ عليه وصرَّح به فقال : أي فأعرِضْ عنه ولا تقابِلْه ، إنَّ ربك ؟ وقوله : " ولا يَظْهر " ، ما أدري عدمَ الظهورِ مع ظهور أنَّ هذا علةٌ لذاك ، أي : قوله : " إنَّ ربَّك " علةٌ لقولِه : " فأعْرِضْ " والاعتراضُ بين العلةِ والمعلولِ ظاهرٌ ، وإذا كانوا يقولون : هذا معترضٌ فيما يجيءُ في أثناء قصةٍ فكيف بما بين علةٍ ومعلول ؟

(460/734)

وقوله : ﴿ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ ﴾ جوَّزَ مكي أن يكونَ على بابِه من التفضيل أي : هو أعلمُ مِنْ كل أحد ، بهذين الوصفَيْن وبغيرِهما ، وأَنْ يكونَ بمعنى عالِم وتقدَّم نظيرُ ذلك مراراً .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (31)

قوله : ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ : في هذه اللامِ أوجهٌ : أحدها : أَنْ تتعلَّقَ بقولِه : ﴿ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ ﴾ ذكره مكي . وهو بعيدٌ من حيث اللفظُ ومن حيث المعنى . الثاني : أَنْ تتعلَّقَ بما دَلَّ عليه قولُه : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السماوات ﴾ أي : له مِلْكُهما يُضِلُّ مَنْ يشاء

ويَهْدي مَنْ يشاء ليجزيَ المحسنَ والمسيءَ . الثالث : أَنْ تتعلَّق بقولِه : " بمنْ ضَلَّ وبمَنْ اهتدى " . واللام للصيرورةِ أي : عاقبة أمرهم جميعاً للجزاءِ بما عملوا ، قال معناه الزمخشري . الرابع : أن تتعلَّقَ بما دَلَّ عليه قولُه : ﴿ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ ﴾ أي : حَفِظ ذلك ليجزيَ ، قاله أبو البقاء . وقرأ زيد بن علي " لنجزيَ ، ونجزيَ " بنونِ العظمة ، والباقون بياء الغَيْبَةِ .

الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32)

قوله : ﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ منصوباً بدلاً أو بياناً أو نعتاً للذين أحسنوا ، وبإضمار أَعْني ، وأن يكونَ خبر مبتدأ مضمرٍ أي : هم الذين ، وقد تقدَّم الخلاف في " كبائر " و " كبير الإِثم " .

(461/734)

قوله : ﴿ إِلاَّ اللمم ﴾ فيه أوجه ، أحدهما : أنه استثناءٌ منقطعٌ لأنَّ اللَّمَمَ الصغائرُ ، فلم تندرِجْ فيما قبلَها ، قاله جماعةٌ وهو المشهور . الثاني : أنه صفةٌ و " إلاَّ " بمنزلة " غير " كقولِه : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ ﴾ [الأنبياء : 22] أي : كبائرَ الإِثم والفواحش غيرِ

اللمم . الثالث : أنه متصلٌ وهذا عند مَنْ يُفَسِّر اللممَ بغير الصغائرِ ، والخلاف مذكور في التفسير . وأصلُ اللَّمَم : ما قَلَّ وصَغُر ، ومنه اللَّمَمُ وهو المَسُّ من الجنون ، وألَمَّ بالمكان قلَّ لُبْثُه به ، ألَمَّ بالطعام أي : قَلَّ أكلُه منه . وقال أبو العباس : " أَصلُ اللَّمم : أَنْ يُلِمَّ بالشيء من غير أن يركَبَه يقال : ألَمَّ بكذا إذا قاربه ، ولم يُخالِطْه " . وقال الأزهري : " العربُ تستعمل الإلمامَ في معنى الدُنوِّ والقُرْب " . وقال جرير :

4134 بنفسي مَنْ تجنُّبُه عزيزٌ . . . عليَّ ومَنْ زيارَتُه لِمامُ

وقال آخر :

4135 متى تأتِنا تُلْمِمْ بنا في ديارِنا . . . تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً ونارا تَأَجَّجا

وقال آخر :

4136 لقاءُ أخِلاَّءِ الصَّفاءِ لِمامُ . . . . . .

. . . . . .

ومنه لِمَّة الشَّعْرِ لما دونَ الوَفْرة .

قوله : ﴿ أَجِنَّةٌ ﴾ جمع جَنين ، وهو الحَمْلُ في البطنِ لاستتارِه . وجنين وأَجِنَّة كسرير وأَسِرة .

وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (34)

قوله : ﴿ وأكدى ﴾ : أصلُه مِنْ أكدى الحافرُ إذا حفر شيئاً فصادف كُدْيَةً مَنَعَتْه من

الحفر ، ومثلُه أَجْبَلَ أي : صادف جبلاً منعه من الحفر ، وكُدِيَتْ أصابعُه : كلَّتْ من الهزِّ ، ثم اسْتُعْمل في كلِّ مَنْ/ طلب شيئاً ، فلم يَصِلْ إليه أو لم يُتَمِّمْه . وأَرَأَيْتَ بمعنى أخبرني .

أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (35)

(462/734)

و ﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ ﴾ : هو المفعولُ الثاني . والمفعولُ الأولُ محذوفٌ اقتصاراً لأعطى .

قوله : " فهو يَرَى " هذه الجملةُ مترتبةٌ على ما قبلَها ترتُّباً ظاهراً . وقال أبو البقاء : " فهو يرى " جملةٌ اسميةٌ واقعةٌ موقعَ الفعليةِ . والأصل : أَعنده عِلْمُ الغيبِ فيَرى . ولو جاء على ذلك لكان نصباً على جوابِ الاستفهام " انتهى . وهذا لا حاجةَ إليه مع ظهورِ الترتُّبِ بالجملةِ الاسميةِ ، وقد تقدَّم له نظيرُ هذا الكلامِ في موضعٍ آخرَ وتقدَّمَ الردُّ عليه .

وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37)

قوله : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ : عطفٌ على " موسى " ، وإنما خَصَّ هذين النبيَّيْن عليهما السلامُ بالذِّكْر ؛ لأنه كان بين إبراهيم وموسى يُؤْخَذُ الرجلُ بجَريرةِ غيره ، فأولُ مَنْ خالفهم إبراهيمُ عليه السلام . و " أم " منقطعةٌ أي : بل ألم يُنَبَّأ . والعامَّةُ على " وَفَّى " بالتشديد . وقرأ أبو أمامةَ الباهلي وسعيد بن جبير وابن السَّمَيْفع " وَفَى " مخففاً . وقد تقدَّم أنَّ فيه ثلاثَ لغاتٍ

، وأَطْلَقَ التوفيةَ والوفاءَ ليتناولا كلَّ ما وَفَى .

أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (38)

قوله : ﴿ أَلَّا تَزِرُ ﴾ : "أَنْ" مخففةٌ من الثقيلة ، واسمُها محذوفٌ هو ضميرُ الشأنِ . ولا تزرُ هو الخبرُ وجيءَ بالنفيِ لكونِ الخبرِ جملةً فعليةً متصرفةً غيرَ مقرونةٍ ب "قد" ، كما تقدَّم تحريرُه في المائدة و "أنْ" وما في حَيِّزها فيها قولان ، أظهرهُما : الجرُّ بدلاً مِنْ "ما" في قوله : ﴿ بِمَا فِي صُحُفِ ﴾ . والثاني : الرفعُ خبراً لمبتدأ مضمر أي : ذلك أَنْ لا تَزِرُ أو هو أَنْ لا تَزِرُ ، وهو جوابٌ لسؤالٍ مقدر كأنَّ قائلاً قال : وما في صُحُفهما ؟ فأجيب بذلك . قلت : ويجوز أَنْ يكونَ نصباً بإضمار أعني جواباً لذلك السَّائل . وكلُّ موضعٍ أُضْمِرَ فيه هذا المبتدأُ لهذا المعنى أُضْمِرَ فيه هذا الفعلُ .

(463/734)

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40)

قوله : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ ﴾ : هي المخففةُ أيضاً . ولم يُفْصَلْ هنا بينها وبين الفعلِ لأنه لا يَتَصَرَّفُ . ومحلُّها الجرُّ أو الرفعُ أو النصبُ لعَطْفِها على أَنْ قبلَها ، وكذلك محلُّ "وأَنَّ سَعْيَه" و "يُرَى" مبني للمفعول فيجوز أَنْ يكونَ من البصرية أي : يُبْصَر ، وأن يكونَ من العِلميَّة ، فيكونُ

الثاني محذوفاً أي: يُرى حاضراً، والأول أُوضحُ. وقال مكي: "وأجاز الزجَّاج "يَرى" بفتح الياء على إضمارِ الهاءِ أي: سوف يَراه، ولم يُجزْه الكوفيون لأنَّ سَعْيَه يَصير قد عملَ فيه "أنَّ" و "يَرى" وهو جائزٌ عند المبرد وغيرِه؛ لأن دخولَ "أنَّ" على "سَعْيَه" وعملَها يَدُلُّ على أن الهاء المحذوفة مِنْ "يَرَى"، وعلى هذا جَوَّز البصريون: "إنَّ زيداً ضربْتُ" بغير هاء". قلت: وهو خلافٌ ضعيفٌ؛ توهَّموا أن الاسمَ تَوَجَّه عليه عاملان مختلفان في الجنسيةِ، وإنما قلتُ في الجنسية لأنَّ رأيَ بعضِهم أنه يُعْمِلُ فعلَيْن في معمولٍ واحدٍ، ومنه بابُ التنازع في بعض صورِه نحو: قام وقعد زيدٌ، وضربْتُ وأكرمْتُ عَمْراً، وأن يعملَ عاملٌ واحدٌ في اسمٍ وفي ضميرِه معاً نحو: "زيداً ضربتُه" في باب الاشتغال، وهذا توهُّمٌ باطلٌ لأنَّا نقولُ "سَعْيَه" منصوبٌ ب "أنَّ"، و "يَرى" متسلِّطٌ على ضميره المقدر.

(464/734)

قلت: فظاهرُ هذا أنه لم يُقْرَأْ به، وقد حكى أبو البقاء أنه قُرِىء به شاذّاً، ولكنه ضَعَّفه مِنْ جهةٍ أخرى فقال: "وقُرِىء بفتح الياء وهو ضعيفٌ؛ لأنه ليس فيه ضميرٌ يعودُ على اسم "أنَّ" وهو السَّعْي، والضميرُ الذي فيه للهاءِ، فيبقى الاسمُ بغير خبرٍ، وهو كقولِك: "إنَّ غلامَ زيدٍ قامَ" وأنت تعني: قام زيدٌ، فلا خبرَ لغلام. وقد وُجِّه على أن التقديرَ: سوف

يَراه فتعودُ الهاءُ على السعي وفيه بُعْدٌ " انتهى . وليت شعري كيف توهَّم المانعَ المذكورَ ، وكيف نَظَّره بما ذكر ؟ ثم أيُّ بُعْدٍ في تقدير : سوف يَرى سعي نفسِه ؟ وكأنَّه اطلع على مذهبِ الكوفيين في المنعِ إلاَّ أنَّ المُدْرَك غيرُ المُدْرِك .

ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41)

قوله : ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ ﴾ : يجوز فيه وجهان ، أظهرهما : أنَّ الضميرَ المرفوعَ عائدٌ على الإنسان ، والمنصوبَ عائدٌ على سعيه . والجزاء مصدرٌ مبيِّنٌ للنوع . والثاني : قال الزمخشريُّ : " ويجوز أَنْ يكونَ الضميرُ للجزاء ، ثم فَسَّره بقولِه " الجزاءَ " ، أو أبدلَه عنه كقولِه : ﴿ وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ ﴾ [الأنبياء : 3] . قال الشيخ : " وإذا كان تفسيراً للضميرِ المنصوبِ في "يُجْزاه" فعلى ماذا ينتصِبُ ، وأمَّا إذا كان بدلاً فهو مِنْ بدلِ الظاهرِ / من المضمرِ ، وهي مسألةُ خلافٍ والصحيحُ المنعُ " .

(465/734)

قلت : العجبُ كيف يقولُ : فعلى ماذا ينتصِبُ ؟ وانتصابُه من وجهَيْن ، أحدُهما : وهو الظاهرُ البيِّن – أنْ يكونَ عطفَ بيانٍ ، وعطفُ البيانِ يَصْدُقُ عليه أنه مُفَسِّرٌ ، وهي عبارةٌ سائغةٌ شائعةٌ . والثاني : أَنْ ينتصِبَ بإضمار أَعْني ، وهي عبارةٌ سائغةٌ أيضاً يُسَمُّون مثلَ

ذلك تفسيراً . وقد مَنَعَ أبو البقاء أن ينتصِبَ الجزاء الأَوْفى على المصدرِ ، فقال : " الجزاءَ الأوفى هو مفعولُ "يُجْزاه" وليس بمصدرٍ لأنَّه وَصَفَه بالأَوْفى ، وذلك مِنْ صفةِ المَجْزِيِّ به لا من صفةِ الفعلِ " . قلت : وهذا لا يَبْعُدُ عن الغلطِ ؛ لأنه يلزَمُ أَنْ يتعدَّى يُجْزى إلى ثلاثةِ مفاعيل . بيانه : أنَّ الأولَ قام مقامَ الفاعلِ ، والثاني : الهاءُ التي هي ضميرُ السعي ، والثالث : الجزاءَ الأوفى . وأيضاً فكيف يَنْتَظم المعنى ؟ وقد يُجاب عنه : بأنه أراد أنه بدلٌ من الهاءِ كما تقدَّم نَقْلُه عن الزمخشريِّ فيَصِحُّ أَنْ يُقالَ : هو مفعولُ "يُجْزاه" ، فلا يتعدَّى لثلاثةٍ حينئذٍ ، إلاَّ أنه بعيدٌ مِنْ غَرَضِه ، ومثلُ هذا إلغازٌ . وأمَّا قولُه : " والأوفى ليس من صفات الفعل "ممنوعٌ ، بل هو من صفاتِه مجازٌ ، كما يُوْصف به المجزيُّ به مجازاً ، فإن الحقيقةَ في كليهما منتفيةٌ ، وإنما المُتَّصِفُ به حقيقةُ المُجازَى .

وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42)

قوله : ﴿ وَأَنَّ إلى رَبِّكَ ﴾ : العامَّةُ على فتح هذه الهمزةِ وما عُطِفَ عليها بمعنى : أن الجميعَ في صُحُفِ موسى وإبراهيم . وقرأ أبو السَّمَّال بالكسرِ في الجميع على الابتداءِ . وقولُه : " أَضْحك وأَبْكى " وما بعده : هذا يُسَمِّيه البيانيون الطباقَ والتضادَّ ، وهو نوعٌ من البديعِ ، وهو أَنْ يُذْكَرَ ضدان أو نَقيضان أو متنافيان بوجهٍ من الوجوه .

وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (48)

قوله : ﴿ أقنى ﴾ : قال الزمخشريُّ : " أعطى القُنْيَة وهي المالُ الذي تأَثَّلْتَه وعَزَمْتَ أن لا يَخْرُجَ مِنْ يَدِك " . قال الجوهري : " قَنِيَ الرجلُ يَقْنَى قِنَىً ، مثلَ : غَنِيَ يَغْنَى غِنَى " . ثم يتعدَّى بتغييرِ الحركة فيقال : قَنَيْتُ مالاً أي : كَسَبْتُه ، وهو نظير : شَتِرَتْ عينُه بالكسر وشَتَرَها اللَّهُ بالفتح ، فإذا دَخَلَتْ عليه الهمزةُ أو التضعيفُ اكتسب مفعولاً ثانياً فيقال : أَقْناه الله مالاً ، وقَنَّاه إياه أي : أَكْسَبه إياه ، قال الشاعر :

4137 كم مِنْ غنيٍّ أصاب الدهرُ ثَرْوَته . . . ومِنْ فقيرٍ تَقَنَّى بعد إقْلالِ

أي : تقنَّى مالاً ، فحذف الثاني ، وحُذِفَ مفعولا أغْنى وأَقْنى ؛ لأنَّ المرادَ نسبةُ هذين الفعلين إليه وحدَه وكذلك في باقيها .

وألفُ " أَقْنى " عن ياءٍ لأنه مِنَ القُنْيَةِ قال :

4138 ألا إنَّ بَعْدَ العُدْمِ للمَرْءِ قُنْيَةً . . . . . .

. . . . .

وقيل : أَقْنى أَرْضَى . قال الراغب : " وتحقيقُه : أنه جَعَلَ له قُنْية من الرضا وقَنَيْتُ كذا واقْتَنَيْتُه قال :

4139 . . . . . قَنِيْتُ حَيائي

عِفَّةً وتَكَرُّما

وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (49)

(467/734)

قوله : ﴿ رَبُّ الشعرى ﴾ : الشِّعْرى في لسان العرب كوكبان يُسَمَّى أحدُهما : الشِّعْرى العَبُور ، وهو المرادُ في الآيةِ الكريمةِ فإنَّ خُزاعةَ كانت تَعْبُدها ، وسَنَّ عبادتَها أبو كبشةَ رجلٌ مِنْ ساداتِهم ، وكانت قريشٌ تقولُ لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم : أبو كبشَة تشبيهاً بذلك الرجل ، في أنه أَحْدَثَ ديناً غيرَ دينهم . والشِّعْرى العَبُور تَطْلُعُ بعد الجوزاءِ في شدَّةِ الحرِّ ، ويُقال لها : مِرْزَمُ الجَوْزاء ويُسَمَّى كلبَ الجبَّار . والثاني : / الشِّعْرَى الغُمَيْصاء ، وهي التي في الذِّراع . وسبب تَسْميتها بذلك ما زَعَمَتْه العربُ : مِنْ أنَّهما كانا أخْتَيْن أو زوجَيْن لسُهَيْل ، فانحدر سهيلٌ إلى اليمن ، فاتَّبَعْته الشِّعْرى العَبُوْر فعبَرَتْ المَجَرَّة فسُمِّيَتِ العَبورَ ، وأقامَتِ الغُمَيْصاءُ ، وبَكَتْ لفَقْدِه حتى غَمَصَتْ عَيْنُها ، ولذلك كانت أَخْفَى من العَبُوْر .

وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (50)

قوله : ﴿ عَاداً الأولى ﴾ : اعلَمْ أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ مِنْ أشكلِ الآياتِ نَقْلاً وتوجيهاً ،

وقد يَسَّرَ اللَّهُ تعالى تحريرَ ذلك كلّه بحولِه وقوتِه فأقول : إنَّ القرَّاءَ اختلفوا في ذلك على أربعِ رُتَبٍ ، إحداها : قرأ ابن كثير وابن عامر والكوفيون " عاداً الأُولى " بالتنوين مكسوراً وسكونِ اللام وتحقيقِ الهمزةِ بعدها ، هذا كلُّه في الوصلِ فإذا وقفوا على " عاداً " وابتدؤوا ب " الأُوْلى " فقياسُهم أَنْ يقولوا " الأولى " بهمزةِ الوصلِ وسكونِ اللامِ وتحقيقِ الهمزة .

(468/734)

الثانيةُ : قرأ قالون " عاداً لُّؤْلَى " بإدغامِ التنوين في اللامِ ، ونَقْلِ حركةِ الهمزةِ إلى لام التعريفِ ، وهمزِ الواوِ ، هذا في الوصل . وأمَّا في الابتداءِ بالأولى فله ثلاثةُ أوجهٍ ، الأولُ : " الُّؤْلَى " بهمزةِ وصل ، ثم بلامٍ مضمومة ، ثم بهمزةٍ ساكنة . الثاني : " لُؤْلَى " بلامٍ مضمومةٍ ثم بهمزةٍ ساكنةٍ . الثالث : كابتداءِ ابنِ كثير ومَنْ معه .

الثالثة : قرأ ورش " عاداً لُّوْلى " بإدغامِ التنوين في اللام ونَقْلِ حركةِ الهمزةِ إليها كقالون ، إلاَّ أنه أبقى الواوَ على حالِها غيرَ مبدلةٍ همزةً هذا في الوصل . وأمَّا في الابتداءِ بها فله وجهان : " أُلُّوْلَى " بالهمزةِ والنقلِ ، و " لُوْلَى " بالنقلِ دونَ همزِ وصلٍ ، والواوُ ساكنةٌ على حالِها في هذَيْن الوجهَيْن .

الرابعة : قرأ أبو عمرو كورْشٍ وَصْلاً وابتداءً سواءً بسواءٍ ، إلاَّ أنه يزيدُ عليه في الابتداءِ بوجهٍ ثالثٍ ، وهو وجهُ ابنِ كثيرٍ ومَنْ ذُكِرَ معه ، فقد تحصَّل أنَّ لكلّ مِنْ قالون وأبي عمرو في الابتداء ثلاثةَ أوجهٍ ، وأنَّ لورشٍ وجهين . فتأمَّلْ ذلك فإنَّ تحريرَه صعبُ المأخذِ من كتب القراءات هذا ما يتعلَّقُ بالقراءات .

وأمَّا توجيهُها فيُوقف على معرفةِ ثلاثةِ أصولٍ ، الأول : حكمُ التنوينِ إذا وقع بعدَه ساكنٌ . الثاني : حكمُ حركةِ النقلِ . الثالث : أصلُ " أُوْلَى " ما هو ؟ إمَّا الأولُ فحكمُ التنوينِ الملاقي أنْ يُكْسَرَ لالتقاءِ الساكنين نحو : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] أو يُحْذَفَ تشبيهاً بحرفِ العلةِ كقراءةِ ﴿ أَحَدُ اللهُ الصمد ﴾ ، وكقولِ الشاعر :

4140 . . . . . ولا ذاكرَ اللَّهَ إلاَّ قليلاً

(469/734)

وهو قليلٌ جداً ، وقد مضى تحقيقُه . وأمَّا الثاني فإنَّ للعرب في الحركة المنقولةِ مذهبين : الاعتدادَ بالحركةِ ، وعدمَ الاعتدادِ بها ، وهي اللغةُ العالية . وأمَّا الثالثُ فأُوْلَى تأنيثُ أَوَّل ، وقد تقدَّم الخلافُ في أصلِه مستوفى في أولِ هذا التصنيفِ فعليك باعتبارِه . إذا تقرَّرَتْ

هذه الأصولُ الثلاثةُ فأقولُ :

أمَّا قراءةُ ابنِ كثيرٍ ومَنْ معه فإنهم صرفوا " عاداً " : إمَّا لأنه اسمٌ للحيِّ أو الأبِ فليس فيه ما يمنعُه ، وإمَّا لأنَّه كان مؤنثاً اسماً للقبيلةِ أو الأمِّ ، إلاَّ أنَّه مثلُ هِنْد ودَعْد فيجوزُ فيه الصرفُ وعدمُه فيكونُ كقوله :

4141 لم تَتَلَفَّعْ بفَضْلِ مِئْزَرِها . . . دَعْدٌ ولم تُسْقَ دعدُ في العُلَب

فصرفَها أولاً ومَنَعَها ثانياً ، ولَم يَنْقُلوا حركةَ الهمزةِ إلى لام التعريف فالتقى ساكنان ، فكسروا التنوينَ لالتقائِهما على ما هو المعروفُ من اللغتين وحذفوا همزةَ الوصلِ من " الأُوْلى " للاستغناءِ عنها بحركة التنوين وَصْلاً فإذا ابتدَؤوا بها احتاجُوا إلى همزة الوصل فأَتَوْا بها فقالوا : الأُوْلى كنظيرِها / من هَمَزاتِ الوصلِ . وهذه قراءة واضحة لا إشكال فيها ومن ثم اختارها الجَمُّ الغفيرُ .

(470/734)

وأمَّا قراءة مَنْ أدغم التنوينَ في لامِ التعريفِ وهما نافعٌ وأبو عمرو مع اختلافِهما في أشياءَ كما تقدَّم بيانُه فوجْهُه الاعتدادُ بحركةِ النقل ؛ وذلك أنَّ مِنَ العربِ مَنْ إذا نَقَل حركة الهمزةِ إلى ساكنٍ قبلَها كلامِ التعريفِ عامَلَها معاملَتَها ساكنةً ، ولا يَعْتَدُّ بحركةِ النقلِ ، فيكسرُ الساكنَ

الواقعَ قبلَها ، ولا يُدْغِم فيها التنوينَ ، ويأتي قبلها بهمزةِ الوصلِ فيقول : لم يَذْهَبِ لَحْمَرُ ، ورأيت زيادا لَعْجَم ، من غيرِ إدغام التنوينِ ، والَحْمَرُ والَعْجَمُ بهمزة الوصلِ لأن اللامَ في حكمِ السكونِ ، وهذه هي اللغةُ المشهورة . ومنهم مَنْ يَعْتَدُّ بها ، فلا يكسِر الساكنَ الأولَ ، ولا يأتي بهمزةِ الوصلِ ، ويُدْغم التنوين في لام التعريف فيقولُ : لم يَذْهَبْ لَحْمر بسكون الباء ، ولَحْمَرُ ولَعْجَمُ من غيرِ همزٍ ، وزيادُ لّعجم بتشديدِ اللامِ ، وعلى هذه اللغةِ جاءَتْ هذه القراءةُ ، هذا من حيث الإجمال .

وأمَّا من حيث التفصيلُ فأقول : أمَّا قالون فإنه نَقَلَ حركة الهمزةِ إلى لام التعريف ، وإنْ لم يكنْ من أصلِه النقلُ لأجل قَصْدِه التخفيفَ بالإدغام ، ولَمَّا نقل الحركةَ اعْتَدَّ بها ، إذ لا يمكن الإدغامُ في ساكنٍ ولا ما هو في حُكْمِه .

(471/734)

وأمَّا همزُه الواوُ ففيه وجهان منقولان ، أحدُهما : أَنْ تكونَ أُوْلى أصلُها عنده وُؤْلَى مِنْ وَأَل أي : نجا ، كما هو قولُ الكوفيين ، ثم أَبْدَلَ الواوَ همزةً لأنها واوٌ مضمومةٌ ، وقد تقدَّم لك أنها لغةٌ مطردةٌ ، فاجتمع همزتان ثانيتُهما ساكنةٌ فوَجَبَ قلبُها واواً نحو : " أُوْمِنُ " ، فلمَّا حُذِفَتْ الهمزةُ الأولى بسببِ نَقْلِ حركتِها رَجَعَتْ الثانيةُ إلى أصلِها من الهمزةِ لأنَّها إنما

قُلِبت واواً من أجلِ الأُولى ، وقد زالَتْ ، وهذا كما رأيتَ تكلُّفٌ لا دليلَ عليه . والثاني : أنَّه لَمَّا نَقَلَ الحركةَ إلى اللامِ صارَت الضمةُ قبل الواوِ كأنَّها عليها ، لأنَّ حركةَ الحرفِ بين يديه ، فأبدل الواوَ همزةً كقولِه :

4142 أَحَبُّ المُؤْقِدِيْنَ إليَّ موسى . . . . . .

. . . .

وكقراءةِ "يُؤْقنون" وهمزِ "السُّؤْقِ" و "سُؤْقِه" وقد تقدَّم تحريرُ ذلك ، وهذا بناءً منه على الاعتدادِ بالحركةِ أيضاً . وليس في هذا الوجهِ دليلٌ على أصلِ "أُوْلى" عنده ما هو ؟ فيُحتمل الخلافُ المذكورُ جميعُه . وأمَّا ابتداؤُه الكلمةَ من غيرِ نَقْلٍ فإنه الأصلُ ، ولأنه إنما نَقَلَ في الوصلِ لقَصْدِه التخفيفَ بالإدغام ، ولا إدغامَ في الابتداءِ فلا حاجةَ إلى النقلِ . وأمَّا الابتداءُ له بالنقلِ فلأنه محمولٌ على الوصل ليجريَ اللفظُ فيهما على سَنَنٍ واحدٍ .

(472/734)

وعلةُ إثباتِ ألفِ الوصلِ مع النقلِ في أحدِ الوجهَين : تَرْكُ الاعتدادِ بحركةِ اللامِ على ما عليه القراءةُ في نظائرِه ممَّا وُجِدَ فيه النقلُ ؛ إذ الغَرَضُ إنما هو جَرْيُ اللفظِ في الابتداءِ والوصلِ على سَنَنٍ واحدٍ ، وذلك يَحْصُل بمجرد النقلِ وإنْ اختلفا في تقديرِ الاعتدادِ بالحركةِ وتركه

. وعلةُ تَرْكِ الإتيانِ بالألفِ في الوجهِ الثاني حَمْلُ الابتداءِ على الوصلِ في النقلِ والاعتدادِ بالحركةِ جميعاً . ويُقَوِّي هذا الوجهَ رسمُ " الأولى " في هذا الموضع بغيرِ ألفٍ . والكلامُ في همزِ الواوِ مع النقلِ في الابتداءِ كالكلامِ عليه في الوَصْلِ كما تقدَّم .

وأمَّا ورشٌ فإنَّ أصلَه أن ينقلَ حركةَ الهمزةِ على اللامِ في الوصلِ فنقل على أصلِه ، إلاَّ أنه اعتدَّ بالحركةِ ليصِحَّ ما قَصَدَه في التخفيفِ بالإدغامِ ، وليس من أصله الاعتدادُ بالحركة في نحو ذلك . ألا ترى أنه يَحْذِفُ الألفَ في ﴿ سِيرَتَهَا الأولى ﴾ [طه : 21] و ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأشقى ﴾ [الأعلى : 11] ولو اعْتَدَّ بالحركةِ لم يَحْذِفْها . وأمَّا ما جاء عنه في بعضِ الرواياتِ : ﴿ قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بالحق ﴾ [البقرة : 71] فإنه وجهٌ نادرٌ مُعَلَّلٌ باتِّباعِ الأثرِ والجَمْعِ بين اللغتين . والابتداءُ له بالنَّقْلِ على أصلِه في ذلك أيضاً ، والابتداءُ له بألفِ الوصلِ على تَرْكِ الاعتدادِ بالحركةِ ، إذْ لا حاجةَ إلى قَصْدِ ذلك في/ الابتداءِ ، وتَرْكِ الإتْيانِ له بالألف على الاعتدادِ له بالحركة حَمْلاً للابتداءِ على الوصل وموافقةَ الرسمِ أيضاً ، لا يُبْتَدأ له بالأصل ، إذ ليس مِنْ أصلِه ذلك ، و " الأُوْلَى " في قراءتِه تَحْتَمل الخلافَ المذكورَ في أصلِها .

وأمَّا أبو عمرو فالعلةُ له في قراءتِه في الوصلِ والابتداءِ كالعلةِ المتقدمةِ لقالون ، إلاَّ أنَّه يُخالفه في همزِ الواو لأنه لم يُعْطِها حكمَ ما جاوَرَها ، وليسَتْ عنده مِنْ وَأَل بل مِنْ غيرِ هذا الوجهِ ، كما تقدَّم لكَ الخلافُ فيه أولَ هذا الموضوع ، ويجوز أَنْ يكونَ أصلُها عندَه مِنْ وَأَل أيضاً إلاَّ أنه أَبْدَلَ في حالِ النقلِ مبالغةً في التخفيف ، أو موافَقَةً لحالِ تَرْكِ النَّقلِ ، وقد عاب هذه القراءةَ أعني قراءةَ الإدغامِ أبو عثمانَ ، وأبو العباس ، ذهاباً منهما إلى أنَّ اللغةَ الفَصيحة عدمُ الاعتدادِ بالعارضِ ، ولكن لا التفاتَ إلى رَدِّهما لثبوتِ ذلك لغةً وقراءةً ، وإن كان غيرُها أَفْصَحَ منها . وقد ثَبَتَ عن العرب أنَّهم يقولون : الَحْمَر ولَحْمَر بهمزةِ الوصلِ وعَدَمِها مع النقل ، واللَّهُ أعلمُ .

وقرأ أُبَيٌّ وهي في حَرْفه " عادَ الأُولى " ، غيرَ مصروفٍ ذهاباً إلى القبيلةِ أو الأمِّ كما تقدَّم ، ففيه العلَمِيَّةُ والتأنيثُ ، ويَدُلُّ على التأنيثِ قولُه : " الأُوْلَى " فوصَفَها بوَصْفِ المؤنث .

وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51)

وقد تقدَّمَ الخلافُ في " ثمود " بالنسبة للصَرْفِ وعَدَمِه في سورة هود ، وفي انتصابِه هنا وجهان ، أحدُهما : أنه معطوفٌ على " عاداً " . والثاني : أنَّه منصوبٌ بالفعلِ المقدَّرِ ، أي : وأهلَك ، قاله أبو البقاء ، وبه بَدَأَ ، ولا حاجةَ إليه ، ولا يجوزُ أن ينتصِبَ ب " أَبْقَى " لأنَّ ما بعد " ما " النافيةِ لا يعملُ فيما قبلها ، والظاهرُ أنَّ متعلَّقَ " أَبْقَى " عائدٌ على مَنْ تقدَّمَ مِنْ عادٍ وثمودَ ، أي : فما أَبْقَى عليهم ، أي : على عادٍ وثمودَ ، أو يكونُ التقديرُ : فما أَبْقَى منهم

أحداً ولا عَيْناً تَطْرُفُ .

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52)

(474/734)

و ﴿ قَوْمَ نُوحٍ ﴾ : كالذي قبلَه . و " مِنْ قبلُ " ، أي : مِنْ قَبْلِ عادٍ وثمودَ .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يكونَ الضميرُ لقومِ نوحٍ خاصةً ، وأن يكونَ لجميعِ مَنْ تقدَّمَ مِن الأمم الثلاثةِ .

وقوله : ﴿ كَانُوا هُمْ ﴾ يجوز في " هم " أَنْ يكون تأكيداً ، وأَنْ يكون فَصْلاً ، ويَضْعُفُ أَنْ يكونَ بدلاً ، والمفضَّل عليه محذوفٌ ، تقديرُه : مِنْ عادٍ وثمودَ ، على قولنا : إن الضميرَ لقومِ نوحٍ خاصةً ، وعلى القول بأنَّ الضميرَ للكلِّ يكون التقديرُ : مِنْ غيرهم . و " المُؤْتَفِكَة " منصوبٌ ب " أَهْوَى " وقُدِّمَ لأَجْلِ الفواصل .

فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54)

قوله : ﴿ مَا غشى ﴾ : كقولِه ﴿ مَا أوحى ﴾ [النجم : 10] في الإبهام وهو المفعولُ الثاني ، إنْ قلنا : إنَّ التضعيفَ للتعديةِ ، وإن قُلْنا : إنه للمبالغةِ والتكثيرِ فتكونُ " ما " فاعلةً كقولِه : ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : 78] .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (55)

قوله : ﴿ فَبِأَيِّ ﴾ متعلقٌ ب " تَتَمارَى " والباءُ ظرفيةٌ بمعنى في . وقرأ ابنُ محيصن ويعقوبُ " تَمارى " بالحذف كقراءةِ " تَذَكَّرون " .

هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (56)

و﴿ هذا ﴾ : إشارةٌ إلى ما تقدَّم من الآي أو إلى القرآن ، وإلى الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم ، ونذير : يجوز أَنْ يكونَ مصدراً ، وأَنْ يكونَ اسمَ فاعلٍ ، وكلاهما لا يَنْقاس ، بل القياسُ في مصدرِه إنذار ، وفي اسمِ فاعِله مُنْذِر ، والنُّذُر يجوز أَنْ يكونَ جمعاً لنَذير بمعنَييْهِ المذكورَيْنِ ، و " الأُوْلَى " صفةٌ حملاً على معنى الجماعةِ كقولِه : ﴿ مَآرِبُ ﴾ ، [طه : 18] والآزِفَةُ ، أي : الساعةُ الآزفة ، كقولِه : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ [القمر : 1] ، ويجوز أن تكونَ الآزفةُ عَلَماً للقيامة بالغَلَبة .

لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (58)

قوله : ﴿ كَاشِفَةٌ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ وصفاً ، وأَنْ يكونَ مصدراً ، فإنْ كانَتْ وصفاً احتمل أَنْ يكونَ التأنيثُ / لأجلِ أَنَّه صفةٌ لمؤنثٍ محذوفٍ وقيل : تقديرُه : نفسٌ كاشفةٌ ، أو

حالٌ كاشِفة ، واحتمل أَنْ تكونَ التاءُ للمبالغة كعلاَّمَة ونَسَّابة ، أي ليس لها إنسانٌ كاشفةٌ ، أي : كثيرُ الكشف ، وإن كان مصدراً فهو كالعافِية والعاقِبَة وخائِنَةِ الأَعْين ، ومعنى الكَشْفِ هنا : إمَّا مِنْ كَشَفَ الشيءَ ، أي : عَرَفَ حقيقتَه كقولِه : ﴿ لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ ، وإمَّا مِنْ كَشَفَ الضرَّ ، أي : أزاله ، أي : ليس لها مَنْ يُزيلها ويُنَجِّيها غيرُ اللَّهِ تعالى ، وقد تقدَّم الكلامُ على مادة " أزف " في سورة غافر .

أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59)

قوله : ﴿ أَفَمِنْ هذا الحديث ﴾ : متعلِّقٌ ب " تَعْجَبون " ولا يجيءُ فيه الإعمالُ ؛ لأنَّ مِنْ شرطِ الإعمال تأخُّرَ المعمولِ عن العوامل ، هنا هو متقدِّمٌ . وفيه خلافٌ بعيدٌ ، وعليه تَتَخرَّجُ الآيةُ الكريمةُ . فإنَّ كلاًّ مِنْ قولِه : تَعْجبون ، وتَضْحكون ولا تَبكون يَطْلُبُ هذا الجارَّ مِنْ حيث المعنى .

والعامَّةُ على فتح التاءِ والجيم والحاءِ مِنْ تَعْجَبون ، تَضْحكون . والحسن : بضم التاءَ وكسرِ الجيمِ والحاءِ مِنْ غيرِ واوٍ عاطفةٍ بين الفعلَيْن ، وهي أَبْلَغُ : مِن حيث إنَّهم إذا أَضْحكوا غيرَهم كان تجرُّؤُهم أكثرَ . وقرأ أُبَيٌّ وعبد الله كالجماعةَ ، إلاَّ أنهما بلا واوٍ عاطفةٍ كالحسن ، فيُحتمل أَنْ تكونَ " تضحكون " حالاً ، وأَنْ تكونَ استئنافاً كالتي قبلها .

وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (61)

قوله : ﴿ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ : هذه الجملةُ تَحْتمل أَن تكونَ مستأنفةً ، أخبرَ اللَّهُ تعالى عنهم بذلك ، وتَحْتمل أَنْ تكونَ حالاً أي : انتفى عنكم التباكي حالَ كونِكم " سامدونَ " . والسُّمُود قيل الإِعراضُ . وقيل : اللهوُ . وقيل : الجمود . وقيل : الاستكبار . قال الشاعر :

4143 رَمَى الحِدْثانُ نِسْوَةَ آلِ سَعْدٍ . . . بمقدارٍ سَمَدْنَ له سُمودا

فرَدَّ شعرورَهن السودَ بيْضاً . . . ورَدَّ وجوهَهن البيضَ سُودا

فهذا بمعنى الجمود والخُشوع ، وقال آخر :

4144 ألا أيها الإِنسانُ إِنَّك سامِدٌ . . . كأَنَّك لا تَفْنَى ولا أنت هالكُ

فهذا بمعنى لاهٍ لاعِبٌ ، وقال أبو عبيدة/ : " السُّمود " : الغناءُ بلغة حمير ، يقولون : يا جاريةُ اسْمُدي لنا ، أي : غَنِّي ، وقال الراغب : " السَّامِدُ : اللاهي الرافعُ رأسَه ، مِنْ قولهم : بعيرٌ سامِدٌ في سَيْرِه ، وقيل : سَمَّدَ رأسَه وسَبَّدَه ، أي : استأصل شَعْرَه " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 117.81 ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى كشف)

الكَشْف والكاشفة : الإظهار .

والكاشفة من المصادر الَّتى جاءَت على فاعلة كالعافية والكاذبة ، قال الله تعالى :

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أَى كَشْف وإظهار .

وقال اللَّيث : الكشْف : رفعك شيئاً عمَّا يواريه ويغطِّيه .

والتكشيف : مبالغة الكشف .

وقال ابن دريد : كشفت فلاناً عن كذا وكذا : إذا أَكرهته على إظهاره .

والتكشُّف : الظُّهور .

وتكشَّف البرق : إذا ملأَ السَّماءَ .

وانكشف : مطاوع الكشف .

واستكشف عن الشىءِ : سَأَل أَن يُكشف له عنه .

وكاشفه بالعداوة : باداه بها ، ويقال : لو تكاشفتم ما تدافنتم ، أَى لو انكشف عيب بعضكم لبعض .

واكتشفت المرأة لزوجها : بالغت فى التكشُّف قاله ابن الاعرابىّ ، وأَنشد :

*واكتشفتِ لنا شىءٍ دَمَكْمَكِ * عن وارمٍ أَكظارُه عضنَّكِ*

والمكاشفة فى اصطلاح الصُّوفية : مهاداة السرّ بين متباطنين ، أَى المكاشفة إِطلاع أَحد المتحابين المتصافيين صاحبه على باطن سرّه وأَمره .

ويعنون بالمتباطنين باطن المكاشِف والمكاشَف ، فيحمل كل منهما سرّه إِلى الآخر ، كما يحمل إِليه هديَّته ، فيسرى سرّ كل منهما إِلى الآخر .

وإِذا بلغ العبد فى مقام المعرفة إِلى حد كأَنه يطَّلع إِلى ما اتصف به الرب سبحانه من صفات الكمال ، ونعوت الجلال ، وأَحسَّت روحه بالقرب الخاصّ الذى ليس كالقرب المحسوس ، حتى يشاهد رفع الحجاب بين روحه وقلبه – فإِنَّ حجابه هو نفسه ، وقد رفع الله عنه سبحانه ذلك الحجاب بحوله وقوته – أَفضى القلب والروح حينئذ إِلى الرَّب ، فصار بعنده كأَنَّه يراه .

فإِذا تحقَّق بذلك ، وارتفع عنه حجاب النفس ، وانقشع عنه ضياؤها ودخانها ، وكُشطت عنه سُحُبها وغيومها ، فهنالك يقال له :

*بَدَا لك سشرّ طال عنك اكتِتامُهُ * ولاحَ صَباحٌ كنت أَنت ظَلامُهُ*

*فأَنت حِجابُ القَلْبِ عن سرّ غَيْبه * ولَوْلاك لم يُطبَعْ عَلَيْكَ خِتامُهُ*

*فإن غبْتَ عنه حَلّ فيه وطنّبت * على منكب الكَشْفِ المصُونِ خيامُه*

*وجاءَ حديثٌ لا يُمَلُّ حديثه * ويُنهَى إلينا نثره ونظامُهُ*

*إذا ذكَرَتهُ النفس زال عَناؤها * وزال عن القلْبِ الكَئِيب قَتَامُه*

والمكاشفة الصحيحة المستديمة عبارة عن علوم يحدثها الرب – تعالى – فى قلب العبد ، ويُطلعه بها على أُمور تخفى على غيره .

وقد يُواليها / سحابه وتعالى ، وقد يُمسكها عنه بالغفلة عنها ، ويواريها عنه بالغَيْن الَّذى يغشى على قلبه ، وهو أَرَقّ الحُجُب ، أَو بالغَيمْ وهو أَغلظ منه ، أَو بالران وهو أَشدّها .

فالأَوّل يقع للأَنبياءِ ، كما قال صلَّى الله عليه وسلَّم : "إِنَّه لَيُغَان على قلبى ، وإِنّى لأَستغفر الله أَكثر من سبعين مرَّة" .

والثانى يكون للمؤمنين .

والثالث لمن غلبت عليه الشهوة .

قال الله تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ، قال ابن عباس وغيره : هو الذنب بعد الذنب يغطِّى القلب ، حتى يصير كالرَّان عليه .

والكشف الصَّحيح أَن يعرف الحقَّ الذى بعث الله به رسله وأَنزل به كتبه معاينة لقلبه ، ويتجرد إِرادة القلب له وجودًا وعدمًا .

هذا هو التحقيق الصحيح ، وما خالفه فغرور قبيح وكلٌّ يدَّعى هذا .

*وكلٌّ يدَّعون وصال ليلى * ولكن لا تُقِرَّ لهم بذاكا* . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 354.356 ﴾

(479/734)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة النجم

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم حليم فيما يعلم ويستر ما يبصر ويغفر ، وعلى العقوبة بقدر ، يرى ويخفي ، ويعلم ولا يبدي .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ .

والثريا إذا سقط وغرب . ويقال : هو جِنْسُ النجوم أقسم بها .

ويقال : هي الكواكب . ويقال : أقسم بنجوم القرآن عَلَى النبي صلى الله عيله وسلم ويقال هي الكواكب التي تُرمَى بها الشياطين .

ويقال أقسم بالنبي صلى الله عليه وسلم عند مُنَصَرفِهِ من المعراج.

ويقال: أقسم بضياء قلوب العارفين ونجوم عقول الطالبين.

وجوابُ القسَم قوله: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾: أي ما ضَلَّ عن التوحيد قط، ﴿ وَمَا غَوَى ﴾: الغَيُّ: نقيضُ الرُّشد.. وفي هذا تخصيصٌ للنبي صلى الله عليه وسلم حيث تولّى – سبحانه – الذّبَ عنه فيما رُميَ به، بخلاف ما قال لنوح عليه السلام وأذِنَ له حتى قال: ﴿ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾ [الأعراف: 61]، وهود قال: ﴿ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ﴾ [الأعراف: 67]. وغير ذلك، وموسى قال لفرعون: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾ [الإسراء: 102]. وقال لنبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾: معناه ما ضلَّ صاحبُكم، ولا غَفَل عن الشهود طَرْفَةَ عينٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾.

أي ما ينطق بالهوى، وما هذا القرآنُ إلا وحيٌ يُوحَى. وفي هذا أيضاً تخصيصٌ له بالشهادة؛ إذ قال لداود: ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى ﴾ [ص: 26].

وقال في صفة نبيّنا صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾.

﴿ ومتى ينطق عن الهوى ﴾ وهو في محل النجوى ؟ في الظاهر مزمومٌ بزمام التقوى ، وفي السرائر في إيواء المولى ، مُصَفًّى عن كدورات البشرية ، مُرَقًّى إلى شهود الأَحَدِية ، مُكاشَفٌ بجلالِ الصمدية ، مُخْتَطَفٌ عنه بالكُلِّيَّة ، لم تبقَ منه إلا للحقِّ بالحقِّ بقية . . .

ومَنْ كان بهذا النعت . . . متى ينطق عن الهوى ؟

قوله جلّ ذكره : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ﴾ .

أي جبريل عليه السلام . و ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ : أي ذو قوة وهو جبريل . ﴿ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ﴾ أي جبريل .

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ .

دنا جبريلُ من محمدٍ عليه السلام . فتدلَّى جبريلُ : أي نَزَلَ من العُلُوِّ إلى محمد .

وقيل : " تدلَّى " تفيد الزيادةَ في القُرْب ، وأَنَّ محمداً عليه السلام هو الذي دنا من ربِّه دُنُوَّ كرامة ، وأَنَّ التدلِّي هنا معناها السجود .

ويقال : دنا محمدٌ من ربِّه بما أُودِعَ من لطائفِ المعرفة وزوائدها ، فتدلَّى بسكون قلبه إلى ما أدناه .

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ : فكان جبريل – وهو في صورته التي هو عليها – من محمد صلى الله عليه وسلم بحيث كان بينهما قَدْرُ قوسين أو أدنى .

ويقال : كان بينه – صلى الله عليه وسلم – وبين الله قَدْر قوسين : أراد به دُنُوَّ كرامة لا دُنُوَّ

مسافة .

ويقال : كان من عادتهم إذا أرادوا تحقيقَ الأُلْفَةِ بينهم إلصاقُ أحدِهم قوسَه بقوس صاحبه عبارةً عن عقد الموالاة بينهما ، وأنزل اللَّهُ – سبحانه – هذا الخطابَ على مقتضى معهودهم . ثم رفع اللَّهُ هذا فقال : ﴿ أَوْ أَدْنَى ﴾ أي بل أدنى .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ .

أي أَوحى اللَّهُ إلى محمدٍ ما أوحى . ويقال : أَحْمَلَه أحْمَالاً لم يَطَّلِعْ عليها أحدٌ .

ويقال : قال له : ألم أجدك يتيماً فآويتُك ؟ ألم أجدك ضالاًّ فهديتُك ؟

(481/734)

أَلم أجدك عائلاً فأغنيتك ؟ أَلم أشرح لك صدرك ؟

ويقال : بَشَّرَه بالحوض والكوثر .

ويقال : أوحى إليه أَنَّ الجنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الأنبياءِ حتى تدخلها ، وعلى الأمم حتى تدخلها أُمتَّك . والأَوْلَى أَن يقال : هذا الذي قالوه كله حَسَنٌ ، وغيره مما لم يَطَّلِعْ أحدٌ . . . كله أيضاً كان له في تلك الليلة وحدَه ؛ إذ رقَّاه إلى ما رقَّاه ، ولقَّاه بما لقَّاه ، وأدناه حيث لا دنوَّ قبله ولا بعده ، وأخذه عنه حيث لا غيرٌ ، وأصحاه له في عين ما محاه عنه ، وقال له ما قال . . .

دون أن يَطَّلِعَ أحدٌ على ما كا بينهما من السِّرِّ. (1)

قوله جلّ ذكره: ﴿ مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾.

ما كذَّبَ فؤادُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ما رآه ببصره من الآيات. وكذلك يقال: رأى ربَّه تلك الليلة على الوصف الذي عَلِمَه قبل أن يراه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾

أفتجادلونه على ما يرى؟

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾.

أي جبريلُ رأى اللَّهَ مرةً أخرى حين كان محمدٌ عند سدرة المنتهى؛ وهي شجرة في الجنة، وهي منتهى الملائكة، وقيل: تنتهي إليها أرواحُ الشهداء. ويقال: تنتهي إليها أرواحُ الخَلْقِ، ولا يَعْلم ما وراءها إلا الله تعالى - وعنداها ﴿ جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ وهي جنة من الجِنان.

قوله جلّ ذكره: ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾.

يغشاها ما يغشاها من الملائكة ما الله أعلمُ به.

وفي خبر: "يغشاها رفرف طير خُضْرٍ".

ويقال: يغشاها فَرَاشٌ من ذَهَبٍ.

ويقال: أُعْطِيَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عندها خواتيم البقرة. وغُفِرَ لمن مات من أُمَّتِه لا يشرك بالله شيئاً.

قوله جلّ ذكره : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ .

---

(1) هذه الفقرة الأخيرة محاولة من جانب أرباب الحقيقة لفهم بعض جوانب في قصة الإسراء والمعراج.

ومضمون كلام القشيري أننا لو كنا نستسيغ حدوث أحوال الكشوفات والمواصلات التي تتاح للأولياء العارفين . .

فكيف لا نتقبلها بالنسبة للمصطفى عليه صلوات اللّه وسلامه ؟ وبمعنى آخر : نجد التفسير الصوفي يبرز نفسه في قوة ونصاعة لتوضيح قضية من قضايا التدين ، كانت موضع جدل في زمانها وبعد زمانها .

(482/734)

ما مَالَ – صلوات الله عليه وسلامه – ببصره عمَّا أُبيح له من النظر إلى الآيات ، والاعتبارِ بدلائلها .

فما جَاوَزَ حَدَّه ، بل رَاعَى شروطَ الأدبِ في الحَضْرة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ .

أي " الآية " الكبرى ، وحَذَفَ الآية . . . وهي تلك التي رآها في هذه الليلة . ويقال : هي

بقاؤه في حال لقائه ربَّه بوصفِ الصَّحْو ، وحَفَظَه حتى رآه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ .

هذه أصنامٌ كانت العرب تعبدها ؛ فاللات صنمٌ لثقيف ، والعُزَّى شجرةٌ لغطفان ، ومناه صخرة لهذيل وخزاعة .

ومعنى الآية : أَخْبِرونا . . . هل لهذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله من القدرة أن تفعل بعائذٍ بها ما فَعَلْنا نحن لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم من الرُّتب والتخصيص ؟ .

ثم وبَّخَهم فقال : أرأيتم كيف تختارون لأنفسكم البنين وتنسبون البنات إلى الله ؟ تلك إذاً قسمةٌ ناقصةٌ !

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ .

أنتم ابتدعتُم هذه الاسماءَ من غير أنْ يكونَ اللَّهُ أَمَركم بهذا ، أو أذِن لكم به .

فأنتم تتبعون الظنَّ ، ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ : فأعرضوا عنه ، وكما أنَّ ظنَّ الكفار أوْجبَ لهم الجهلَ والحَيْرةَ والحُكْمَ بالخطأ – فكذلك في هذه الطريقة : مَنْ عَرَّجَ على أوصاف الظنِّ لا يَحْظَى بشيءٍ من الحقيقة ؛ فليس في هذا الحديث إلا القطعُ والتحقُّق ، فنهارُهم قد مَتَعَ ، وشمسُهم قد طلعت ، وعلومُهم أكثرها صارت ضرورية .

أمَّا الظنُّ الجميلُ بالله فليس من هذا الباب ، والتباسُ عاقبةَ الرجلِ عليه ليس أيضاً من هذه الجملة ذات الظن المعلول في الله ، وفي صفاته وأحكامه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ .

أي ليس للإنسان ما يتمنَّاه ؛ فإنَّه يتمنى طولَ الحياةِ والرفاهيةَ وخِصْبَ العَيْشِ . . . وما لا نهاية له ، ولكنَّ أحداً لا يبلغ ذلك بتمامه .

ويقال : ما يتمنَّاه الإنسانُ أنْ يرتفعَ مرادُه واجباً في كل شيء – وأَن يَرْتفعَ مرادُ عَبْدٍ واجباً في كل شيءٍ ليس من صفات الخَلْقِ بل هو الله ، الذي له ما يشاء :

﴿ فَلِلَّهِ الأَخِرَةُ وَالأُولَى ﴾ .

له الآخرةُ والأُولى خَلْقاً ومِلْكاً ، فهو المَلِكُ المالك صاحبُ المُلْكِ التام . فأمَّا المخلوقُ فالنقصُ لازمٌ للكُلِّ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَى ﴾ .

وهذا ردٌّ عليهم حيث قالوا : إنَّ الملائكةَ شفعاؤنا عند الله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالأَخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ .

هذه التَّسْمِيةُ من عندهم ، وهم لا يتبعون فيها علماً أو تحقيقاً . . . بل ظنًّا – والظنُّ لا يفيد شيئاً .

(484/734)

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ .

أي أَعْرِض عمَّن أَعرض عن القرآنِ والإيمان به وتدبُّرِ معانيه ، ولم يُرِدْ إلا الحياةَ الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم ؛ وإنما رضوا بالدنيا لأنهم لم يعلموا حديث الآخرة ، وإنَّ ربَّك عليمٌ بالضالِّ ، عليمٌ بالمهتدِي . . . وهو يجازي كلاًّ بما يستحق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاؤُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِالْحُسْنَى ﴾ .

يجزي الذين أساؤوا بالعقوبات ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى .

قوله جلّ ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾ .

الذنوبُ كلُّها كبائر لأنها مخالِفةٌ لأمر الله ، ولكن بعضَها أكبرُ من بعضٍ . ولا شيءَ أعظمُ من الشّرك . ﴿ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ المعاصي .

﴿ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾ : تكلموا فيه ، وقالوا : إنه استثناء منقطع ، واللمم ليس بإثم ولا من جملة الفواحش .

ويقال : اللمم من جملة الفواحش ولكن فيها اشتباهاً – فأخبر أنه يغفرها .

ويقال : اللمم هو أن يأتيَ المرءُ ذلك ثم يُقْلِعَ عنه بالتوبة .

وقال لعضُ السَّلَفِ : هو الوقعة من الزِّنا تحصل مرةً ثم لا يعود إليها ، وكذلك شرب الخمر ، والسرقة . . . وغير ذلك ، ثم لا يعود إليها .

ويقال : هو أن يهم بالزَّلَّة ثم لا يفعلها .

ويقال : هو النَّظَر . ويقال : ما لا حدَّ عليه من المعاصي ، وتُكَفِّر عنه الصلوات . (والأصحُّ أنه استثناء منقطع وأن اللمم ليس من جملة المعاصي) .

(485/734)

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ .

﴿ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ ﴾ : يعني خَلْقَ آدم .

ويقال : تزكيةُ النَّفْسِ من علامات كَوْنَ المرءِ محجوباً عن الله ؛ لأنَّ المجذوب إلى الغاية والمستغرق في شهود ربّه لا يُزكّي نفسه .

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ : لأنه أعلمُ بكم منكم .

ويقال : مَنْ اعتقد أنَّ على البسيطة أحداً شرٌّ منه فهو مُتكبِّرٌ .

ويقال : المسلمُ يجب أنْ يكونَ بحيث يرى كلَّ مسلمٍ خيراً منه : فإن رأى شيخاً ، قال : هو أكثرُ منّي طاعةً وهو أفضلُ منّي ، وإنْ رأى شاباً قال : هو أفضلُ مني لأنه أقلُّ منّي ذنْباً .

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (34)

أعرض عن الحقّ ، وتصدَّق بالقليل . ﴿ وَكْدَى ﴾ أي قطع عطاءَه .

﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ .

﴿ فَهُوَ يَرَى ﴾ : فهو يعلم صِحَّةً ذلك . يقال : هو المنافق الذي يُعين على الجهاد قليلاً ثم يقطع ذلك :

﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ ﴾ : فهو يرى حاله في الآخرة ؟

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ .

أم لم يُنبَأْ هذا الكافرُ بما في صحف موسى ، وصحف إبارهيم الذي وفّى ؛ أي أتمَّ ما طُولِبَ به في نَفْسِه ومالِه وولَدِه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ .

(486/734)

الناسُ في سَعْيِهم مختلِفون ؛ فَمَنْ كان سعيُهُ في طلب الدنيا خَسِرت صفقتُه ، ومن كان سعيُهُ في طَلَبِ الجنة ربحت صفقته ، ومن كان سعيُهُ في رياضة نَفْسِه وصل إلى رضوان الله ، ومَنْ كان سعيُه في الإرادة شَكَرَ اللَّهُ سَعْيَه ثم هداه إلى نَفْسِه .

وأمَّا المُذْنِبُ – فإذا كان سعيُهُ في طلب غفرانه ، ونَدَمِ القلبِ على ما اسودَّ من ديوانه ، فسوف يجد من الله الثوابَ والقربة والكرامة والزلفة .

ومَنْ كان سَعْيُه في عَدِّ أنفاسِه مع الله ؛ لا يُعَرِّج على تقصير ، ولا يُفَرِّط في مأمور فسيرى جزاءَ سَعْيِهِ مشكوراً في الدنيا والآخرة ، ثم يشكره بأَنْ يُخاطِبَه في ذلك المعنى بإسماعهِ كلامَه من غير واسطة : عبدي ، سَعْيُك مشكور ، عبدي ، ذَنْبُكَ مغفور .

﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ : هو الجزاءُ الأكبرُ والأَجَلُّ ، جزاءٌ غير مقطوعٍ ولا ممنوعٍ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾ .

إليه المرجعُ والمصيرُ ، فابتداءُ الأشياءِ من الله خَلْقاً . وانتهاءُ الأشياءِ إلى الله مصيراً .

ويقال : إذا انتهى الكلامُ إلى اللَّهِ تعالى فاسْكُتُوا .

ويقال : إذا وَصَلَ العبدُ إلى معرفةِ الله فليس بعدَه شيءٌ إلا ألطافاً من مالٍ أو منالٍ أو تحقيق آمالٍ أو أحولٍ . . . يُجْريها على مرادِه – وهي حظوظٌ للعباد .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ .

أراد به الضحك والبكاء المتعارَف عليهما بين الناس ؛ فهو الذي يُجْريه ويَخْلُقُه .

ويقال : أضحك الأرضَ بالنباتِ ، وأبكى السماءَ بالمطرِ .

ويقال : أضحكَ أهلَ الجنة بالجنة ، وأبكى أهل النار بالنار .

ويقال : أضحك المؤمنَ في الآخرة وأبكاه في الدنيا ، وأضحك الكافرَ في الدنيا وأبكاه في الآخرة .

ويقال : أضحكهم في الظاهر ، وأبكاهم بقلوبهم .

ويقال : أضحك المؤمنَ في الآخرة بغفرانه ، وأبكى الكافرَ بهوانه .

ويقال : أضحك قلوبَ العارِفين بالرضا ، وأبكى عيونهم بخوف الفراق .

ويقال : أضحكهم برحمته ، وأبكى الأعداءَ بسخطه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ .

أماته في الدنيا ، وأحياه في القبر ؛ فالقبر إما للراحة وإِما للإحساس بالعقوبة .

ويقال : أماته في الدنيا ، وأحياه في الحشر .

ويقال : أمات نفوسَ الزاهدين بالمجاهدة ، وأحيا قلوبَ العارفين بالمشاهدة .

ويقال : أماتها بالهيبة ، وأحياها بالأُنْس .

ويقال : بالاستتار ، والتجلِّي .

ويقال : بالإعراض عنه ، والإقبال عليه .

ويقال : بالطاعة ، والمعصية .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾ .

سماهما زوجين لازدواجهما عند خلْقهما من النُّطْفة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ .

﴿ أَغْنَى ﴾ : أعطى الغِنَى ، ﴿ وَأَقْنَى ﴾ : أكثر القنية أي المال : وقيل ﴿ وَأَقْنَى ﴾ :

أي أحوجه إلى المال – فعلى هذا يكون المعنى : أنه خَلَقَ الغِنَى والفقر .

ويقال : ﴿ وَأَقْنَى ﴾ أي أرضاه بما أعطاه .

ويقال : ﴿ أَغْنَى ﴾ أي أقنع ، ﴿ وَأَقْنَى ﴾ : أي أرضى .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ .

(الشِّعرى : كوكبٌ يطلع بعد الجوزاء في شدة الحر ، وكانت خزاعة تعبدها فأَعْلَمَ اللَّهُ أنه ربُّ معبودهم هذا) .

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَى وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ .

عاد الأولى هم قوم هود ، وعاد الأخرى هي إرَم ذات العماد ، كما أهلك ثموداً فما أبقى منهم أحداً . وأهْلَكَ مِنْ قَبْلِهم قومَ نوحٍ الذين كانوا أظلمَ من غيرهم وأغوى لِطُولِ أعمارهم ، وقوة أجسادهم .

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ .

أي المخسوف بها ، وهي قرى قوم لوط ، قَلَبَها جبريل عليهم ، فهي مقلوبة معكوسة .

(488/734)

وقوله : ﴿ أَهْوَى ﴾ أي : أسقطها اللَّهُ إلى الأرض بعد ما اقتلعها من اصلها ، ثم عَكَسَها وألقاها في الأرض ، فغشاها ما غشاها من العذاب .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ .

فبأي آلاء ربك – أيها الإنسان – تتشكك ؟ وقد ذكر هذا بعد ما عدّ إنعامَه عليهم وإحسانَه إليهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى ﴾ .

هو محمد صلى الله عليه وسلم ، أرسلناه نذيراً كما أرسلنا الرُّسُلَ الآخرين .

﴿ أَزِفَتِ الأَزِفَةُ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ .

أي قَرُبَت القيامة . ولا يقدر أحدٌ على إقامتها إلا الله ، وإذا أقامها فلا يقدر أحدٌ على ردّها وكَشْفِها إلا الله .

ويقال : إذا قامت قيامة هذه الطائفة – اليومَ – فليس لها كاشفٌ غيره . وقيامتُهم تقوم في اليوم غيرَ مَرَّةٍ . تقوم بالهَجْرِ والنَّوى والفراق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾ .

أفمن هذا القرآن تعجبون ، وتكونون في شكٍّ ، وتستهزئون ؟

﴿ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ : أي لاهون . . .

﴿ فَاسْجُدُواْ لِلَّهِ وَاعْبُدُواْ ﴾ : فاسجدوا لله ولا تعبدوا سواه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 480.492 ﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة النّجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذا هَوى (1) ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى (2) وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى (3) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى (4)

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى (7) ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى (8)

فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى (9)

فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى (10)

الإعراب :

(والنجم) متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (إذا) ظرف للزمن المستقبل مجرّد من الشرط متعلّق بفعل القسم المحذوف " 1 " ، (ما) نافية في المواضع الثلاثة (عن الهوى) متعلّق بـ (ينطق) . .

جملة : " (أقسم) بالنجم . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة

---

(1) في هذا التعليق إشكال وهو أنّ فعل القسم إنشاء ، والإنشاء يدلّ على الحال ،

والظرف (إذا) يدلّ على المستقبل ، فثمّة اختلاف بين الزمنين . . . ويقدّر الكلام لإزالة الاشكال : أقسم بالنجم وقت هويّه أيّا ما كان هذا الوقت ، فالظرف على هذا مستعار للحال . . .

(490/734)

وجملة : " هوى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " ما ضلّ صاحبكم . . . " لا محلّ لها جواب القسم وجملة : " ما غوى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم وجملة : " ما ينطق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم 4 - 7 - (إن) حرف نفي (إلّا) للحصر ، وضمير الغائب في (علّمه) يعود على الرسول عليه السلام (شديد) فاعل مرفوع ، وهو نعت لمنعوت محذوف أي : ملك شديد القوى (ذو) خبر ثان للمبتدأ (هو) ، (الفاء) عاطفة ، وفاعل (استوى) يعود بحسب الظاهر على جبريل عليه السلام " 1 " ، (الواو) حاليّة (هو) مبتدأ أي جبريل (بالأفق) خبر . . .

وجملة : " إن هو إلّا وحي . . . " لا محلّ لها تعليليّة - أو استئناف بيانيّ - وجملة : " يوحى . . . " في محلّ رفع نعت لوحي وجملة : " علّمه شديد . . . " في محلّ رفع نعت ثان لوحي ، والرابط بينهما مقدّر أي : علّمه إيّاه شديد القوى وجملة : " استوى . . . " في محلّ

رفع معطوفة على جملة علّمه وجملة : " هو بالأفق . . . " في محلّ نصب حال من فاعل استوى " 2 " 8 – 10 – (ثمّ) حرف عطف ، وكذلك (الفاء) في الموضعين ، وفاعل (دنا ، تدلّى) ضمير يعود على جبريل ، وكذلك اسم كان ، (قاب) خبر كان منصوب (أو) حرف عطف ، وفاعل (أوحى) الأول ضمير يعود على اللَّه عزّ وجلّ وهو مفهوم من سياق الآية في قوله عبده ، (إلى عبده) متعلّق

---

(1) ثمّة آراء مختلفة في عودة ضمير الفاعل ، فقيل إنّه يعود على القرآن الكريم وقد استوى في صدر جبريل أو في صدر الرسول عليه السلام . . . أو يعود على الرسول أي اعتدل في قوّته أو في رسالته . . أو يعود على اللَّه تعالى أي استوى على العرش .

(2) على تقدير أنّ الفاعل هو جبريل ، وفي التوجيهات الأخرى للفاعل تكون الجملة استئنافيّة

ب (أوحى) ، والعبد هو جبريل عليه السلام " 1 " ، (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به ، وفاعل (أوحى) الثاني ضمير يعود على عبده أي : ما أوحى به جبريل إلى النبيّ صلّى اللَّه عليه وسلّم .

وجملة : " دنا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة استوى وجملة : " تدلّى . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة دنا وجملة : "كان قاب قوسين . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة تدلّى وجملة : " أوحى (الأولى) " لا محلّ لها تعليل لقوله تعالى : علّمه شديد القوى وجملة : " أوحى (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (ما)

الصرف :

---

(1) وقيل هو النبي صلّى اللَّه عليه وسلم ، والفاعل حينئذ للفعلين هو اللَّه عزّ وجلّ

---

(6) مرّة : اسم بمعنى القوّة والشدّة وأصالة العقل والأحكام . . . إلخ ، وزنه فعلة بكسر الفاء على وزن مصدر الهيئة (8) دنا : فيه إعلال بالقلب ، مضارعه يدنو ، تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا (تدلّى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله تدلّي – لمجيء حرف العلّة خامسا وأصله واو فمنه الدلو – تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا (9) قاب : اسم بمعنى القدر ، ومن القوس ما بين المقبض وطرفه ، وفي القوس قابان ، وزنه فعل بفتحتين والألف فيه منقلبة عن واو أصله قوب بفتحتين ، تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا . وفي التركيب (قاب قوسين) قلب والأصل قابي قوس . . .

(قوسين) ، مثنّى قوس ، اسم ذات لأداة الحرب المعروفة أو بمعنى الذراع ، والقوس يذكّر ويؤنّث ، والجمع قسي وزنه فليّ بكسرتين وياء مشدّدة ،

وأقواس زنة أفعال ، وقياس زنة فعال بكسر الفاء ، وفيه إعلال أصله قواس ، فلمّا كسرت القاف قبل الواو قلبت الواو ياء (10) أوحى : فيه إعلال بالقلب ، أصله أوحي – بياء في آخره – تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا

البلاغة

فن الإبهام : في قوله تعالى فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى

.

وهذا تفخيم للوحى الذي أوحى اللَّه إليه ، والتفخيم لما فيه من الإبهام ، كأنه أعظم من أن يحيط به بيان ، وهو كقوله : (إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى) وقوله (فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ) .

الفوائد :

– الإسراء والمعراج . .

وكان ذلك قبل الهجرة ، وكان ذلك بجسمه وروحه معا ، أما الإسراء فهو توجهه ليلا إلى بيت المقدس ، وأما المعراج فهو صعوده إلى السموات العلى ، وقد ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة .

عن أنس قال : قال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) : أتيت بالبراق ، وهو دابة فوق الحمار ، ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، قال : فركبته حتى أتيت بيت المقدس ، فربطته بالحلقة ، ثم دخلت المسجد ، فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت ، فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن . فقال جبريل :

اخترت الفطرة ، ثم عرج بنا إلى السماء الأولى حتى السابعة ، وكان جبريل يستفتح في كل سماء ، فيقال له : من أنت ، فيقول : جبريل ومعي محمد صلّى اللَّه عليه وسلّم ، فيسأل : وقد بعث إليه ؟ فيقول جبريل : نعم وكان (صلّى اللَّه عليه وسلّم) في كل سماء يلتقي بنبي . ففي الأولى التقى بآدم ، وفي الثانية بيحيى وعيسى ، وفي الثالثة بيوسف ، وفي الرابعة بإدريس ، وفي الخامسة بهارون ، وفي السادسة بموسى ، وفي السابعة بإبراهيم ، عليهم الصلاة والسلام ، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى ، فإذا أوراقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال . فلما غشيها من أمر ربي ما غشيها تغيرت ، فما أحد من خلق اللَّه يستطيع أن ينعتها من

حسنها ، فأوحى اللَّه إليّ ما أوحى ، ففرض عليّ وعلى أمتي خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، فنزلت إلى موسى ، فقال : ارجع وسل ربك التخفيف ، فما زلت أرجع بين موسى وربي حتى قال ربي سبحانه وتعالى : يا محمد إنهن خمس صلوات ، لكل صلاة عشر ، فتلك خمسون صلاة ، فنزلت إلى موسى ، فقال : ارجع وسله التخفيف ، فقلت : لقد استحييت من ربي ، ثم رجع رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) من رحلته ، فأخبر قريشا ، فكذبوه وطلبوا منه أوصاف بيت المقدس ، فجلّاه له ربه ، فجعل يصفه بدقة . وسألوه عن عير لهم فأخبرهم بها ، وقال : تقدم يوم كذا ، مع طلوع الشمس ، يقدمها جمل أورق . وفي اليوم الموعود ، خرج كفار مكة لملاقاة العير ، فقال أحدهم : هذه الشمس قد أشرقت ، وقال آخر : هذه العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق ، فما زادهم ذلك إلا عنادا واستكبارا ، وسعى ناس لزعزعة إيمان أبي بكر فقال : واللَّه لأصدقنّه على أكبر من ذلك .

[سورة النجم (53) : آية 11]

ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى (11)

الإعراب :

(ما) نافية والثانية موصوليّة : وفاعل (رأى) ضمير يعود على النبي صلّى اللَّه عليه وسلّم ،

والعائد محذوف وهو ضمير يدلّ على صورة جبريل عليه السلام " 1 " . . .

جملة : " ما كذب الفؤاد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " رأى . . . " لا محلّ لها

صلة الموصول (ما)

[سورة النجم (53) : آية 12]

أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى (12)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (الفاء) عاطفة (على ما) متعلّق بـ (تمارونه) بتضمينه معنى

تغلبونه

---

(1) وقيل هو ذات اللَّه تعالى ، على خلاف في الآراء حول هذه الأقوال بين الأحاديث

المرويّة عن عائشة والمرويّة عن ابن عبّاس

جملة : " تمارونه . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي أ تنكرون قوله

فتمارونه وجملة : " يرى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما)

]

سورة النجم (53) : الآيات 13 إلى 18]

وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى (14) عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى (16) ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى (17) لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى (18)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (نزلة) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو نوع العدد " 1 " ، (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (رآه) ، (عندها) ظرف متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (جنّة) جملة : " رآه . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " عندها جنّة . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " 16 - 18 - (إذ) ظرف مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (رأى) ، (ما) موصول في محلّ رفع فاعل (يغشى) الأول ، وفاعل (يغشى) الثاني ضمير وهو العائد على ما (ما) نافية في الموضعين (لقد رأى) مثل لقد رآه (من آيات) متعلّق بـ (رأى) و(من) تبعيضيّة " 3 " .

وجملة : " يغشى السدرة . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه

---

(1) أو هو مصدر في موضع الحال أي رآه نازلا مرّة أخرى

(2) أو في محلّ نصب حال من سدرة

(3) أو متعلّق بحال من الكبرى وهو مفعول رأى

وجملة : " يغشى (الثانية) لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " ما زاغ البصر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " وجملة : " ما طغى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما زاغ البصر وجملة : " رأى . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة استئنافيّة

الصرف :

(13) نزلة : مصدر مرّة من (نزل) الثلاثيّ ، وزنه فعلة بفتح فسكون (14) المنتهى : اسم مكان من الخماسيّ انتهى ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وفتح العين ، وقد يقصد به اسم المفعول أي المنتهى إليه .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من فاعل رآه

(16) يغشى : فيه إعلال بالقلب أصله يغشي – بالياء في آخره – ماضيه غشي ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا فأصبح يغشى (17) زاغ : فيه إعلال بالقلب ، أصله زيغ ، مضارعه يزيغ ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا

الفوائد :

– اسما الزمان والمكان . . .

هما اسمان يدلان على زمان الفعل أو مكانه . . .

1 – يصاغان من الثلاثي ، إذا كان مفتوح العين أو مضمومها في المضارع ، على وزن مفعل ، مثل : شرب يشرب : مشرب . كتب يكتب : مكتب ، ويلحق بهذا الوزن الثلاثي المعتل الآخر مثل : أوى يأوي : مأوى ، كما في الآية التي نحن بصددها . سعى يسعى : مسعى . جرى يجري ، مجرى .

2 – يصاغان من الثلاثي ، إذا كان مكسور العين في المضارع ، على وزن (مفعل) مثل نزل ينزل : منزل . غزل يغزل : مغزل . ويلحق بهذا الوزن الثلاثي المعتل الأول الصحيح الآخر ، مثل : وعد يعد : موعد . وقف يقف : موقف .

3 – يصاغان مما فوق الثلاثي على وزن مضارعه بعد إبدال حرف المضارعة ميما وفتح ما قبل الآخر . ازدحم يزدحم : مزدحم . استعمل يستعمل :

مستعمل .

4 – يفرق بين الصيغة ، هل هي اسم زمان أو مكان ، من سياق المعنى . فمثلا إذا قلت : منطلق الطائرة الساعة الخامسة مساء ، فتكون منطلق : اسم زمان أما إذا قلت مجتمع المسافرين في المحطة ، فتكون مجتمع : اسم مكان . أما صيغة اسمي الزمان والمكان مما فوق الثلاثي ، فهي كصيغة اسم المفعول ، ويفرق بينهما من سياق المعنى .

[سورة النجم (53) : الآيات 19 إلى 20]

أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى (20)

الإعراب :

(498/734)

(الهمزة) للاستفهام التقريعيّ (الفاء) عاطفة لترتيب الرؤية على ما ذكر من عظمة اللَّه تعالى (الأخرى) نعت ثان لمناة منصوب جملة : " رأيتم . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : أعرفتم عظمة اللَّه وقدرته فرأيتم اللات . . . كيف هي حقيرة وليست أهلا للعبادة " 1 "

الصرف :

(اللات) ، اسم صنم ، و(الألف) و(اللام) فيه زائدة لازمة مثلها في الذي والتي ، وأمّا (التاء) فاختلف فيها ، فهي أصليّة عند بعضهم من (لات يليت) بمعنى حبس أو نقص . . . وهي زائدة عند آخرين ، فهو من (لوى يلوى) لأنهم كانوا يلوون أعناقهم إليها أو يلتوون أي يعكفون عليها ، وأصل اللفظ لوية فحذفت لأمها ، فالألف منقلبة عن واو ، وإلى هذا ذهب المعجم . . وقال بعضهم إن اللات مأخوذ من اللَّه

---

(1) ومفعول (رأيتم) الثاني محذوف تقديره : كيف هي عاجزة . . وقدّره بعضهم بقوله تعالى :

أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى

[. . . . .]

(499/734)

(العزّى) ، اسم صنم وهو فعلى بضمّ فسكون من العزّ أي هي مؤنّث الأعزّ ، وقيل هو اسم شجرة كانت تعبد (مناة) ، اسم صخرة كانت تعبد من دون اللَّه ، مشتقّة من فعل منى يمني أي صبّ لأنّ دماء الذبائح كانت تصبّ عندها . . . فألفها على هذا ياء . . .

ويقول العكبري : " ألفها من ياء كقولك مني يمني إذا قدر ، ويجوز أن تكون من الواو ومنه

منوان . . . وزنها فعلة بفتح الفاء والعين واللام (الثالثة) ، مؤنث الثالث ، اسم لترتيب العدد على وزن فاعل

[سورة النجم (53) : الآيات 21 إلى 23]

أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى (21) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى (22) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى (23)

الإعراب :

(500/734)

(الهمزة) للاستفهام الإنكاري (لكم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (الذكر) ، (له الأنثى) مثل لكم الذكر .

جملة : " لكم الذكر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " له الأنثى . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة 22 - الإشارة في (تلك) إلى القسمة المفهومة من الاستفهام (إذا) حرف جواب (ضيزى) نعت لقسمة مرفوع وجملة : " تلك . . . قسمة . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ 23 - (إن) حرف نفي (إلّا) للحصر ، و(الواو) في (سمّيتموها)

زائدة إشباع

حركة الميم و(ها) ضمير مفعول به " 1 " (أنتم) ضمير منفصل في محلّ رفع توكيد لفاعل سمّيتم (آباؤكم) معطوف على ضمير الفاعل بالواو ومرفوع (ما) نافية (بها) متعلّق بـ (أنزل) بحذف مضاف أي بعبادتها (سلطان) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (إن ، إلّا) مثل السابقتين (ما) موصول في محلّ نصب معطوف على الظنّ بـ (الواو) ، والعائد محذوف (الواو) استئنافيّة (لقد جاءهم) مثل لقد رآه " 2 " ، (من ربّهم) متعلّق بـ (جاءهم) " 3 "

.

وجملة : " إن هي إلّا أسماء . . . " لا محلّ لها تعليليّة وجملة : " سمّيتموها . . . " في محلّ رفع نعت لأسماء وجملة : " ما أنزل اللَّه بها . . . " في محلّ رفع نعت ثان لأسماء " 4 " وجملة : " إن يتّبعون إلّا الظن . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " تهوى الأنفس . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " جاءهم . . . الهدى " لا محلّ لها جواب القسم . . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة

الصرف :

---

(1) أي سمّيتم بها الأصنام

(2) في الآية (13) من هذه السورة

(3) أو متعلّق بمحذوف حال من الهدى

(4) أو في محلّ نصب حال من الهاء في (سمّيتموها)

(501/734)

(ضيزى) ، بمعنى جائرة ، والكلمة إمّا صفة مشتقّة على وزن فعلى – بضمّ الفاء ثمّ كسرت لمناسبة الياء – وإما مصدر كذكرى استعمل في الوصف ، وفعله ضاز يضيز في الحكم بمعنى جار ، وضازه فيه يضوزه بمعنى نقصه وبخسه باب ضرب . . . وقال العكبري : " ضيزى " أصله ضوزى مثل طوبى كسر أوّله فانقلبت الواو ياء وليس على فعلى في الأصل – بكسر الفاء – " وفي القاموس وتاج العروس هو واوي ويائيّ فلا قلب فيه

البلاغة

فن السجع : في قوله تعالى " قِسْمَةٌ ضِيزى " .

فن رائع في كلمة " ضيزى " ، فقد يتساءل الجاهلون عن السر في استعمال كلمة " ضيزى " ، وهي وحشية غير مأنوسة . في الواقع إن لاستعمال الألفاظ أسرارا ، وهذه اللفظة التي استعملها القرآن الكريم ، في استعمالها سرّ رائع ، وهو أنه لا يسد غيرها مسدها ، ألا ترى أن السورة كلها ، التي هي سورة النجم ، مسجوعة على حرف الياء ، فقال تعالى : "

وَالنَّجْمِ إِذا هَوى ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى " وكذلك إلى آخر السورة ، فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد ، وما كان يزعمه الكفار ، قال ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى . فجاءت هذه اللفظة على الحرف المسجوع ، الذي جاءت السورة جميعها عليه ، وغيرها لا يسد مسدها ، ولما كان الغرض تهجين قولهم ، وتنفيذ قسمتهم ، والتشنيع عليها ، اختيرت لها لفظة مناسبة للتهجين والتشنيع ، كأنما أشارت خساسة اللفظة إلى خساسة أفهامهم .

وهذا من أعجب ما ورد في القرآن الكريم من مطابقة الألفاظ لمقتضى الحال .

[سورة النجم (53) : الآيات 24 إلى 25]

أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى (24) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولى (25)

الإعراب :

(أم) منقطعة بمعنى بل والهمزة التي للإنكار (للإنسان) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (ما) الموصول ، والعائد محذوف (الفاء) تعليليّة (اللَّه) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (الآخرة) . . . جملة : " للإنسان ما تمنّى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " تمنّى . . . " لا محلّ لها

صلة الموصول (ما) وجملة : " للَّه الآخرة . . . " لا محلّ لها تعليليّة

الصرف :

(تمنّى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله تمنّي ، جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا .

[سورة النجم (53) : آية 26]

وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى (26)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (كم) خبريّة بمعنى كثير في محلّ رفع مبتدأ (من ملك) تمييز كم (في السموات) متعلّق بنعت لملك (لا) نافية (شيئا) مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه من نوع الصفة أي شيئا من الإغناء (إلّا) للاستثناء (من بعد) متعلّق بنعت هو المستثنى المقدّر أي : إلّا شفاعة من بعد أن يأذن (أن) حرف مصدري ونصب . . .

والمصدر المؤوّل (أن يأذن) في محلّ جرّ مضاف إليه (لمن) متعلّق بـ (يأذن) ، وفاعل (يشاء ، يرضى) ضمير يعود على لفظ الجلالة جملة : "كم من ملك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " لا تغني شفاعتهم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (كم) وجملة : " يأذن اللَّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول

(من) وجملة: "يرضى . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة يشاء

[سورة النجم (53) : الآيات 27 إلى 30]

(503/734)

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى (27) وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (28) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا (29) ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى (30)

الإعراب:

(لا) نافية (بالآخرة) متعلّق بـ (يؤمنون) ، (اللام) للتوكيد (تسمية) مفعول مطلق منصوب " 1 " .

جملة: "إنّ الذين لا يؤمنون . . . "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: "لا يؤمنون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة: "يسمّون . . . "في محلّ رفع خبر إنّ 28 - (الواو) حاليّة (ما) نافية (لهم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (به) متعلّق بحال من علم (علم) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (إن) نافية (إلا) للحصر (لا) نافية (من الحقّ) متعلّق بـ (يغني)

" 2 " بتضمينه معنى يفيد (شيئا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو من نوع الصفة أي إغناء لا قليلا ولا كثيرا . . .

وجملة : " ما لهم به من علم . . . " في محلّ نصب حال وجملة : " إن يتّبعون إلّا الظن . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " انّ الظن لا يغني . . . " في محلّ نصب حال وجملة : " لا يغني من الحقّ . . . " في محلّ رفع خبر إن 29 - (الفاء) رابطة الجواب شرط مقدّر (عمّن) متعلّق بـ (أعرض) ، (عن ذكرنا) متعلّق بـ (تولّى) ، (إلّا) للحصر

---

(1) أو منصوب بنزع الخافض أي : يسمّون الملائكة بتسمية الأنثى

(2) أو متعلّق بحال من (شيئا)

وجملة : " أعرض . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كانوا يتّبعون الظن وهو غير الحقّ فأعرض عنهم وجملة : " تولّى . . . " لا محل لها صلة الموصول (من) وجملة : " لم يرد إلّا الحياة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة 30 - الإشارة في (ذلك) إلى طلب الدنيا (من العلم) متعلّق بالخبر (مبلغهم) (هو) ضمير منفصل مبتدأ في محلّ رفع خبره (أعلم) ، (بمن) متعلّق بـ (أعلم) (عن سبيله) متعلّق بـ (ضلّ) ، (هو أعلم بمن اهتدى) مثل

هو أعلم بمن ضلّ وجملة : " ذلك مبلغهم . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة وجملة : " إنّ ربّك . . . " لا محلّ لها تعليل لأمر الإعراض وجملة : " هو أعلم . . . " في محلّ رفع خبر انّ وجملة : " ضلّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول وجملة : " هو أعلم (الثانية) " في محلّ رفع معطوفة على جملة هو أعلم (الأولى) وجملة : " اهتدى " لا محل لها صلة الموصول (من) الثاني

الصرف :

(27) يسمون : فيه إعلال بالحذف ، حذفت لام الفعل الياء – لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة (27) تسمية : مصدر قياسي لفعل سمّى الرباعيّ ، والتاء في آخره عوض من ياء تفعيل لوجود الياء لام الكلمة (29) عن من : الرسم في المصحف جاء منفصلا وقياس القاعدة الإملائيّة فيه أن يكون متّصلا (عمّن) (30) مبلغهم : مصدر ميمّي من الثلاثيّ بلغ ، وزنه مفعل بفتح الميم

والعين . . . أو هو اسم مكان إذا قصد به درجة البلوغ من العلم بكون العلم درجات .

(اهتدى) ، قياس الإعلال فيه مثل (هدى) . . . انظر الآية (82) من سورة طه

[سورة النجم (53) : آية 31]

وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا

بِالْحُسْنَى (31)

الإعراب :

(505/734)

(الواو) استئنافيّة (للَّه) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر (ما) ، (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة ما (ما في الأرض) معطوف على ما في السموات (اللام) للتعليل (يجزي) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل ضمير مستتر يعود على لفظ الجلالة (ما) حرف مصدري " 1 " ، (يجزي) الثاني معطوف على الأول منصوب (بالحسنى) متعلّق بـ (يجزي) الثاني والمصدر المؤوّل (أن يجزي . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف تقديره ملك " 2 " والمصدر المؤوّل (ما عملوا) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (يجزي) جملة : " للَّه ما في السموات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يجزي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أنّ) المضمر وجملة : " أساؤوا . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما)

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف ، والجملة صلة

(2) أو متعلّق بـ (أعلم بمن ضلّ . . وبمن اهتدى) ، واللام عند الزمخشريّ هي لام العاقبة وليست لام التعليل

(506/734)

وجملة : " يجزي (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة يجزي (الأولى) وجملة : " أحسنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني

[سورة النجم (53) : آية 32]

الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى (32)

الإعراب :

(507/734)

(الذين) موصول في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف " 1 " ، (الفواحش) معطوف على كبائر منصوب (إلا) للاستثناء (اللمم) منصوب على الاستثناء المنقطع " 2 " ، (بكم) متعلّق بـ (أعلم) (إذ) ظرف مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (أعلم) (من الأرض) متعلّق بـ (أنشأكم) بحذف مضاف أي : أنشأ أباكم (إذ) الثاني معطوف على الأول (في بطون) متعلّق بنعت لـ (أجنّة) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة (بمن) متعلّق بـ (أعلم)

. . .

جملة : " (هم) الذين . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " يجتنبون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) وجملة : " إنّ ربّك واسع . . . " لا محلّ لها تعليل لاستثناء اللمم وجملة : " هو أعلم بكم . . . " لا محلّ لها تعليل آخر

---

(1) أو هو في محلّ نصب بدل من الذين أحسنوا – في الآية السابقة – أو عطف بيان عليه

. .

أو مفعول لفعل أعني مقدّرا

(2) بعضهم يجعل اللمم من جملة الكبائر ، فالاستثناء متّصل

وجملة : " أنشأكم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " أنتم أجنّة . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " لا تزكّوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كان هذا أمركم فلا تزكّوا وجملة : " هو أعلم . . . " لا محلّ لها تعليل لعدم التزكية وجملة : " اتّقى " لا محلّ لها صلة الموصول (من)

الصرف :

(اللمم) ، اسم لما صغر من الذنوب ، وأصله اسم مصدر من الرباعيّ ألم بالمكان أي قلّ لبثه فيه ، وألّم بالشيء إذا قاربه ولم يخالطه ، وزنه فعل بفتحتين (أجنّة) ، جمع جنين اسم الطفل في بطن أمّه ، وسمّي جنينا لاستتاره في بطن أمّه ، وزنه فعيل والجمع أفعلة ، وعينه ولامه من حرف واحد

[سورة النجم (53) : الآيات 33 إلى 35]

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وَأَعْطى قَلِيلاً وَأَكْدى (34) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى (35)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (الفاء) استئنافيّة (قليلا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته

(الهمزة) للإنكار (عنده) ظرف منصوب متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (علم) ، (الفاء) عاطفة

. . .

جملة : " رأيت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " تولّى . . . " لا محلّ لها صلة

الموصول (الذي) وجملة : " أعطى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تولّى وجملة : "

أكدى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تولّى

وجملة : " عنده علم الغيب . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان عامله رأيت أي أخبرني

وجملة : " هو يرى . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة عنده علم . . .

وجملة : " يرى . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو)

الصرف :

(أعطى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله أعطي بالياء ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا ،

وأصل لامه واو فالثلاثيّ منه عطا يعطو عطوا الشيء أي تناوله (أكدى) ، فيه إعلال

بالقلب مثل أعطى وعلى قياسه ولكنّ لامه ياء ، فالثلاثي منه كديت أصابعه من الحفر أي

كلّت . . . ثمّ استعمل في كلّ طلب لا يوصل لشيء . . .

البلاغة

1 – الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى .

فقد استعار الإدبار والإعراض ، لعدم الدخول في الايمان ، ويمكن أن يجري هذا ضابطا لذكر التولي في القرآن ، بحيث ورد مطلقا غير مقيد ، يكون معناه عدم الايمان .

2 - الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى وَأَعْطى قَلِيلًا وَأَكْدى .

حيث شبه من يعطي قليلا ، ثم يمسك عن العطاء ، بمن يكدي ، أي يمسك عن الحفر ، بعد أن حيل دونه بصلابة كالصخرة .

[سورة النجم (53) : الآيات 36 إلى 55]

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى (36) وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى (40)

ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى (41) وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى (42) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكى (43) وَأَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَأَحْيا (44) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى (46) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى (47) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَأَقْنى (48) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى (49) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى (50) وَثَمُودَ فَما أَبْقى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغى (52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ

أَهْوى (53) فَغَشّاها ما غَشّى (54) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى (55)

الإعراب :

(أم) منقطعة بمعنى بل والهمزة التي للإنكار ، ونائب الفاعل للمجهول ضمير مستتر تقديره هو أي الذي تولى (بما) متعلّق بـ (ينبّأ) ، (في صحف) متعلّق بمحذوف صلة الموصول (ما) . . .

جملة : " لم ينبأ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة 37 - (الواو) عاطفة (إبراهيم) معطوف على موسى مجرور وعلامة جرّه الفتحة (الذي) موصول في محلّ جرّ نعت لإبراهيم وجملة : " وفّي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) 38 - (أَلّا) مخفّفة من الثقيلة ، لا نافية ، واسم أنّ ضمير الشأن محذوف (وازرة) فاعل مرفوع وهو نعت ناب عن منعوت محذوف أي نفس وازرة (أخرى) مضاف إليه مجرور ، وهو نعت ناب عن منعوت محذوف أي نفس أخرى . . .

(511/734)

والمصدر المؤوّل (أَلّا تزر وازرة . . .) في محلّ جرّ بدل من الموصول (ما) " 1 " وجملة : " لا تزر وازرة . . . " في محلّ رفع خبر أن المخفّفة (الواو) عاطفة (أن) مثل الأولى (للإنسان)

متعلّق بخبر ليس (إلّا) للحصر (ما) حرف مصدريّ والمصدر المؤوّل (ما سعى) في محلّ رفع اسم ليس مؤخّر والمصدر المؤوّل (أن ليس للإنسان إلّا ما سعى) في محلّ جرّ معطوف على المصدر ألّا تزر وازرة وجملة: "ليس للإنسان . . . " في محلّ رفع خبر (أن) المخفّفة الثانية

40 - (الواو) عاطفة (سوف) حرف استقبال، ونائب الفاعل للمجهول (يرى) ضمير مستتر تقديره هو يعود على سعيه والمصدر المؤوّل (أنّ سعيه . . .) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل الأول (ألّا تزر وازرة . . .) وجملة: "سوف يرى . . . " في محلّ رفع خبر أنّ (ثمّ) حرف عطف، ونائب الفاعل للمجهول (يجزاه) ضمير مستتر يعود على الإنسان، وضمير الغائب البارز مفعول به، وهو يعود على السعي (الجزاء) مفعول مطلق منصوب . . .

وجملة: "يجزاه . . . " في محلّ رفع معطوفة على خبر أنّ

---

(1) يجوز أن يكون في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره ذلك، أو هو، والجملة إمّا تفسير لـ(ما) وإمّا حال

42 – 43 – (الواو) عاطفة (إلى ربّك) متعلّق بخبر أنّ المقدّم (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ . . . " 1 "

والمصدر المؤوّل (أنّ إلى ربّك المنتهى) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل أَلّا تزر وازرة والمصدر المؤوّل (أنّه هو أضحك) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل أَلّا تزر وازرة وجملة : " هو أضحك . . . " في محلّ رفع خبر أنّ وجملة : " أضحك . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو) وجملة : " أبكى . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أضحك 44 – 46 – (الواو) عاطفة (أنّه هو أمات وأحيا) مثل (أنه هو أضحك وأبكى) مفردات وجملا (الواو) عاطفة (الذكر) بدل من الزوجين منصوب (من نطفة) متعلّق بـ (خلق) ، (إذا) ظرف مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بالجواب المقدّر . . .

وجملة : " خلق . . . " في محلّ رفع خبر أنّ والمصدر المؤوّل (أنّه خلق . . .) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل أَلّا تزر وازرة . . .

وجملة : " تمنى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : إذا تمني تخلق زوجين . . .

47 – 51 – (الواو) عاطفة في المواضع التالية (أنّ عليه النشأة) مثل أنّ إلى ربّك المنتهى

---

(1) أو ضمير أستعير لمحلّ النصب توكيدا لضمير اسم أنّ . . . أو هو ضمير فصل للتوكيد

والمصدر المؤوّل (أنّ عليه النشأة) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل ألّا تزر وازرة

. .

(أنّه هو أغنى واقنى) مثل أنّه هو أضحك وأبكى مفردات وجملا . . .

وكذلك (أنّه هو ربّ . . .) و(أنّه أهلك . . .) ، (عادا) مفعول به منصوب وعنى به

القبيلة فوصف بالأولى ، وكذلك ثمود (الفاء) عاطفة (ما) نافية ، ومفعول (أبقى) محذوف

أي أحدا منهم . . .

وجملة : " أبقى . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة خبر أنّ : (أهلك) 52 - 53 -

(قوم) معطوف على (عادا) منصوب (قبل) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ

(أهلك) ، (هم) ضمير فصل للتوكيد (المؤتفكة) مفعول به مقدّم عامله (أهوى) . . .

وجملة : " إنّهم كانوا . . . " لا محلّ لها تعليليّة وجملة : " كانوا . . . أظلم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ وجملة : " أهوى . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أهلك 54 – (الفاء) عاطفة (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به ثان ، والعائد محذوف أي ما غشّاها به وجملة : " غشّاها . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أهوى وجملة : " غشّى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) 55 – (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (بأي) متعلّق بـ (تتمارى) ، والمجرور اسم استفهام ، وضمير الفاعل في (تتمارى) يعود على الإنسان المعاند . . . وجملة : " تتمارى . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كانت قدرة اللَّه متمثّلة بما ذكر فبأيّ آلاء ربّك تتمارى

الصرف :

(37) وفّي : فيه إعلال بالقلب أصله وفي – بالياء – تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا ، وزنه فعّل (41) الأوفى : اسم تفضيل من الثلاثي وفى ، وزنه أفعل بفتح الهمزة والعين ، فيه قلب الياء ألفا (43) أبكى : فيه إعلال بالقلب قياسه كقياس (وفّي) . . .

(46) تمنّى : فيه إعلال بالقلب قياسه كقياس وفّى انظر الآية (24) من هذه السورة

(48) أقنى : فيه إعلال بالقلب قياسه كقياس (وفّى) (49) الشعرى : اسم لكوكب في السماء – قيل هما كوكبان – كما جاء في لسان العرب . . . أحدهما الشعرى العبور – وهي الشعرى اليمانيّة – وهذه كانت خزاعة تعبدها ، والشعرى الغميصاء بضمّ الغين

وفتح الميم . ووزن الشعرى الفعلى بكسر الفاء (51) أبقى : فيه إعلال بالقلب قياسه كقياس (وفّى) (52) أطغى : فيه إعلال بالقلب قياسه كقياس (وفّى) وهو اسم تفضيل من الثلاثي طغى وزنه أفعل (53) أهوى : اللفظ يحتمل أن يكون فعلا وأن يكون اسم تفضيل ، والفعليّة أوضح . . . وفيه إعلال بالقلب قياسه ك (وفّى) .

(54) غشي : فيه إعلال بالقلب قياسه كما في (وفّى) (55) تتمارى : فيه إعلال بالقلب قياسه كما في (وفّى)

البلاغة :

(515/734)

- المقابلة : في قوله تعالى الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى .

ذكر اللَّه سبحانه " أَضْحَكَ وَأَبْكَى " و " أَمَاتَ وَأَحْيَا " و " الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى " فقد تعدد الطباق ، ولهذا دخل في باب المقابلة ، وقد زاد هذا الطباق حسنا أنه أتى في معرض التسجيع الفصيح ، لمجيء المناسبة التامة في فواصل الآي .

الفوائد :

- الضمير المسمى فصلا وعمادا . . .

يرد هذا الضمير في مواطن كثيرة من آيات الكتاب الحكيم ، وقد ورد في الآية التي نحن بصددها (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى) ، فالضمير (هو) في الآية يسمى ضمير (فصل) ، لأنه فصل بين الخبر والتابع ، كقوله تعالى : كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ فالضمير أنت فصل بين اسم كنت وخبرها . وباعتبار أن هذا الضمير يقوي الكلام ويؤكده سمّاه بعض الكوفيين (دعامة) لأنه يدعم به الكلام .

محله من الإعراب : ذهب البصريون إلى أنه ضمير لتوكيد الكلام ، لا محل له من الإعراب ، وقال الكوفيون : له محل . ثم قال الكسائي : محله بحسب ما بعده ، وقال الفراء : محله بحسب ما قبله ، فمحله بين المبتدأ والخبر رفع ، وبين معمولي ظن نصب ، وبين معمولي كان رفع عند الفراء ونصب عند الكسائي ، وبين معمولي إن بالعكس .

ما يحتمل من الأوجه : قوله تعالى : كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ يحتمل الضمير أن يكون للفصل ، أو للتوكيد ولا يصح أن يكون مبتدأ ، لأن ما بعده منصوب .

وفي قوله تعالى : وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وقولنا : (زيد هو العالم) و(إن زيدا هو الفاضل) يحتمل الضمير الفصل والابتداء ، دون التوكيد ، لدخول اللام في الأولى ، ولكون ما قبله ظاهرا في الثانية والثالثة ، لأنه لا يؤكد الظاهر بالمضمر ، لأنه ضعيف والظاهر قوي . ويحتمل الأوجه الثلاثة في قولنا : (أنت أنت الفاضل) وقوله تعالى : إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ .

أما في قوله تعالى : أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ فالضمير هي :

مبتدأ ، لأن ما قبله اسم ظاهر فيمتنع التوكيد ، ونكرة فيمتنع الفصل .

[سورة النجم (53) : آية 56]

هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى (56)

الإعراب :

(من النذر) متعلّق بنعت لـ (نذير) ، والإشارة إلى القرآن الكريم أو إلى الرسول عليه السلام

جملة : " هذا نذير . . . " لا محلّ لها استئنافيّة

الصرف :

(نذير) ، مصدر سماعيّ للرباعيّ أنذر ، أو هو اسم مصدر للفعل إذا كانت الإشارة للقرآن

الكريم ، وهو صفة مشتقة من الفعل إن كانت الإشارة إلى الرسول عليه السلام ، وزنه فعيل

(النذر) ، جميع نذير . . . وزنه فعل بضمّتين

[سورة النجم (53) : الآيات 57 إلى 58]

أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57) لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ (58)

الإعراب :

(لها) متعلّق بخبر ليس (من دون) متعلّق بحال من ضمير (كاشفة) وهو اسم ليس مؤخّر .

جملة : " أزفت الآزفة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " ليس لها . . . كاشفة " في محلّ نصب حال من الآزفة " 1 "

الصرف :

(كاشفة) ، قد يكون وصفا ، اسم فاعل مؤنّث كاشف ، وقد يكون مصدرا كالعافية ، وزنه فاعلة

[سورة النجم (53) : الآيات 59 إلى 62]

أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سامِدُونَ (61) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) استئنافيّة (من هذا) متعلّق بـ (تعجبون) . .

---

(1) أو لا محلّ لها استئناف بيانيّ

جملة : " تعجبون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة 60 - 61 - (الواو) عاطفة في الموضعين ، وفي الثالث حاليّة (لا) نافية . . .

وجملة : " تضحكون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تعجبون وجملة : " لا تبكون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تعجبون وجملة : " أنتم سامدون . . . " في محلّ نصب حال " 1 " 62 - (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (للَّه) متعلّق بـ (اسجدوا) ، (الواو) عاطفة وجملة : " اسجدوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن أردتم الخلاص من العذاب فاسجدوا . . .

وجملة : " اعبدوا . . . " معطوفة على جملة جواب الشرط

الصرف :

(تبكون) ، فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف . . . أصله تبكيون - بياء مضمومة قبل الواو - استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت الحركة إلى الكاف - إعلال بالتسكين - التقى ساكنان ، الياء والواو ، حذفت الياء لام الكلمة فأصبح تبكون وزنه تفعون - إعلال بالحذف - (سامدون) ، جمع سامد ، اسم فاعل من (سمد) الثلاثي بمعنى لها من باب نصر ، والسمود قيل هو الإعراض وقيل اللهو وقيل الخمود وقيل الاستكبار . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 27 صـ 37.62 ﴾

---

(1) أو استئنافيّة لا محلّ لها [. . . . .]

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(53) سورة النّجم

مكيّة وآياتها ثنتان وستّون

[سورة النجم (53) : الآيات 1 إلى 11]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذا هَوى (1) ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى (2) وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى (3) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى (4)

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى (7) ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى (8)

فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى (9)

فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى (10) ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى (11)

اللغة :

(النَّجْمِ) معروف وجمعه نجوم وأنجم وأنجام ونجم وهو الكوكب وعند الإطلاق الثريا ، وفي المراد به هنا أقوال منها أن المراد به جماعة النجوم إذا هوت أي سقطت وغابت عن الحسّ وأراد به الجنس قال الراعي :

وبات يعدّ النجم في مستحيرة سريع بأيدي الآكلين جمودها

وقيل أراد الثريا وأقسم بها إذا سقطت وغابت مع الفجر ، والعرب

تطلق اسم النجم على الثريا خاصة قال أبو ذؤيب :

فوردن والعيوق مقعد رائي الضرباء فوق النجم لا يتتلع

قال ابن دريد والثريا سبعة أنجم ستة ظاهرة وواحد خفي يمتحن الناس به أبصارهم وقيل

إن اللّه أقسم بالقرآن إذا أنزله نجوما متفرقة على رسول اللّه في ثلاث وعشرين سنة .

(هَوى) غرب وهو في الأصل سقط من علو قال الراغب : " الهوى سقوط من علو " .

(مِرَّةٍ) قوة وشدة أو حصافة في عقله ورأيه ومتانة في دينه وأصل المرة شدة الفتل وفي معاجم

اللغة : المرة : الفتل يقال حبل شديد المرة والحالة التي يستمر عليها الشيء وطاقة الحبل وقوة

الخلق وشدّته وأصالة العقل وخلط من أخلاط البدن وهو الصفراء والسوداء .

(قابَ قَوْسَيْنِ) القاب والقيب والقاد والقيد : المقدار قال الزجّاج :

(519/734)

" إن العرب قد خوطبوا على لغتهم ومقدار فهمهم قيل لهم في هذا ما يقال للذي يحدّد

فالمعنى فكان على ما تقدرونه أنتم قدر قوسين أو أقل من ذلك " وقال ابن السكّيت : "

قاس الشيء يقوسه قوسا لغة في قاسه يقيسه إذا قدّره وقد جاء تقديرهم بالقوس والرمح

والسوط والذراع والباع والخطوة والشبر والفتر والإصبع " وفي القرطبي : " والقاب ما بين المقبض والسية ولكل قوس قابان وقال بعضهم في قوله تعالى : فكان قاب قوسين أراد قابي قوس فقلبه " وفي المصباح " سية القوس خفيفة الياء ولامها محذوفة وترد في النسبة فيقال سيوي والهاء عوض عنها طرفها المنحني قال أبو عبيدة : وكان رؤبة يهمزه والعرب لا تهمزه ويقال لسيتها العليا يدها ولسيتها السفلى رجلها " .

الإعراب :

(وَالنَّجْمِ إِذا هَوى)

الواو للقسم والنجم مجرور بالواو والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن والعامل في هذا الظرف فعل القسم المحذوف أي أقسم بالنجم وقت هويه وقيل النجم نزول القرآن فيكون العامل في الظرف نفس النجم على أن هذا الإعراب معترض عليه وإن كنّا نرجحه وفيما يلي ما أورده السمين ننقله بنصه لنفاسته " وفي العامل في هذا الظرف أوجه وعلى كلّ منها أشكال ، أحد الأوجه أنه منصوب بفعل القسم المحذوف تقديره أقسم بالنجم وقت هويه قاله أبو البقاء وغيره وهو مشكل فإن فعل القسم إنشاء والإنشاء حال وإذا لما يستقبل من الزمان فكيف يتلاقيان ؟

الثاني أن العامل فيه مقدّر على أنه حال من النجم أي أقسم به حال كونه مستقرا في زمان هويه وهو مشكل من وجهين أحدهما أن النجم جثة والزمان لا يكون حالا منها كما لا يكون خبرا والثاني أن إذا للمستقبل فكيف يكون حالا ؟ وقد أجيب عن الأول بأن المراد بالنجم القطعة من القرآن والقرآن قد نزل منجما في عشرين سنة وهذا تفسير ابن عباس وغيره وعن الثاني بأنها حال مقدّرة ، والثالث أن العامل فيه نفس النجم إذا أريد به القرآن قاله أبو البقاء وفيه نظر لأن القرآن لا يعمل في الظرف إذا أريد أنه اسم لهذا الكتاب المخصوص وقد يقال :

إن النجم بمعنى المنجم كأنه قيل والقرآن المنجم في هذا الوقت وهذا البحث وارد في مواضع منها والشمس وضحاها وما بعده ومنها قوله :

والليل إذا يغشى ومنها والضحى والليل إذا سجا وسيأتي في والشمس بحث أخصّ من هذا تقف عليه إن شاء اللّه تعالى . أما أبو حيان فاختار الحالية قال : " وإذا ظرف زمان والعامل فيه محذوف تقديره كائنا إذا هوى وكائنا منصوب على الحال اقسم تعالى بالنجم في حال هويه " وجملة

هوى في محل جر بإضافة الظرف إليها (ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى) الجملة لا محل لها لأنها جواب القسم وعبّر بالصحبة لأنها أدلّ على القصد مرغبة لهم فيه ومقبلة بهم إليه ومقبحة اتهامه في إنذاره مع معرفتهم بطهارة شمائله ، وضلّ صاحبكم فعل وفاعل وما غوى عطف على ما ضلّ (وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى) الواو عاطفة وما نافية وينطق فعل مضارع وفاعله هو وعن الهوى متعلقان بينطق أي وما يصدر نطقه عن هوى في نفسه فعن للمجاوزة على بابها وقيل إنها بمعنى الباء فتكون متعلقة بمحذوف حال (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى) إن نافية وهو مبتدأ وإلا أداة حصر ووحي خبر هو وجملة يوحى صفة لوحي (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى) الجملة صفة ثانية لوحي وعلّمه فعل ومفعول به وشديد القوى فاعل علّمه والمراد به جبريل (ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى) ذو مرة صفة لشديد القوى والفاء عاطفة واستوى فعل وفاعل مقدّر (وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى) الواو حالية وهو مبتدأ وبالأفق خبر والأعلى صفة للأفق والجملة في موضع الحال (ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى) ثم حرف عطف للتراخي ودنا فعل وفاعله مقدّر تقديره هو أي جبريل فتدلى عطف على دنا والتدلّي الامتداد من علو إلى أسفل ومن التدلي اشتقت الدوالي التي تحمل العنب المعلق (فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى) الفاء عاطفة وكان واسمها المستتر وقاب قوسين خبرها وتقدير الكلام فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين وفيه حذف ثلاث متضايفات أي فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب

قوسين وفيه فحذفت ثلاثة من اسم كان وواحد من خبرها ، وأو حرف عطف أو للإباحة وأدنى عطف على قاب وهذه الآية كقوله تعالى : أو يزيدون وقد تقدم القول في أو والمعنى فكان بأحد هذين المقدارين في رأي الرائي أي لتقارب ما بينهما يشك الرائي في ذلك وأدنى اسم تفضيل والمفضل عليه محذوف تقديره أو أدنى من قاب قوسين أو هي بمعنى بل

أي بل أدنى (فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى)

(522/734)

الفاء عاطفة راجعة إلى علمه شديد القوى

وأوحى فعل وفاعل مقدّر وإلى عبده متعلقان بأوحى وما موصولة أو مصدرية وعلى كل حال هي ومدخولها في موضع نصب على أنها مفعول به على الأول أو مفعول مطلق على الثاني وسيرد مزيد بحث عنها في باب البلاغة (ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى) ما نافية وكذب الفؤاد فعل وفاعل وقد قرئ كذب بالتشديد أيضا وما موصولة مفعول به لأن كذب فعل يتعدى إلى مفعول قال الأخطل :

كذبتك عينك أم رأيت بواسط غلس الظلام من ارباب خيالا

وقيل لا يتعدى فيكون نصب ما على إسقاط الخافض أي فيما رآه وزعم صاحب المنجد أن كذب قد يتعدى إلى اثنين قال : " وقد يتعدى إلى مفعولين فيقال كذبه الحديث إذا نقل الكذب وقال خلاف الواقع فإذا شدّد اقتصر على مفعول واحد " ولم أجد فيما بين يدي من كتب اللغة ما يؤيد ذلك ، أما كذبه الحديث فالحديث نصب بنزع الخافض على الأصح ، هذا ويجوز أن تكون ما مصدرية وهي مع مدخولها في موضع نصب لأنه مفعول كذب والمعنى أنه ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم ير بل صدقه الفؤاد رؤيته .

البلاغة :

1- في قوله " ثم دنا فتدلى " فن القلب وهو من المقلوب الذي تقدم فيه ما يوضّحه التأخر وتأخر ما يوضّحه التقديم أي تدلى فدنا لأنه تدلى للدنو ودنا بالتدلي .

2- في قوله " فأوحى إلى عبده ما أوحى " فن الإبهام وقد تقدم القول فيه وهو كثير شائع في القرآن كأنه أعظم من أن يحيط به بيان ، فأبهم الأمر الذي أوحاه إلى عبده وجعله عاما وذلك أبلغ لأن السامع

يذهب وهمه فيه كل مذهب ، وجميل قول دريد بن الصمة :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل أبعد

وقول أبو نواس :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت سرح اللحظ حين أساموا

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فإذا عصارة كل ذلك آثام

(523/734)

فقوله " وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه " من المليح النادر ، ومثله قول الآخر في وصف الخمر :

مضى بها ما مضى من عقل شاربها وفي الزجاجة باق يطلب الباقي

3- " في قوله تعالى والنجم إلى قوله وأدنى " ، جرس ساحر أخّاذ في تقطيع لفظي عجيب يصوّران موضوعا جليلا ببراعة معجزة ، فقد بدأت الآية الكريمة بالقسم بالنجم الذي كان بعض العرب يحلّونه محلّ الإله ولكن القسم ليس بالإله المزعوم فحسب بل به حين يهوي ويسقط من عليائه التي خدعت بعض السذّج وضعاف العقول فجعلوا منه إلها غير اللّه ، فهذا السقوط يجرح الألوهية ، وقد أورده القرآن الكريم مع القسم تتميما له لأن له أبعادا معنوية خارقة ، ثم نفت الآية الكريمة عن الرسول العربي صفة الضلال التي اتهمه بها الجاحدون أولئك الذين بلغ الضلال منهم أن عبدوا النجم الذي ليست له مناعة ضد السقوط ، ونصّت الآية في تنزيه القرآن الذي نزل على الرسول الأمين عن الهوى والعاطفة وقال فيه : إنه وحي من اللّه الخالق القوي الذي أمر الرسول بحمل رسالة القرآن فصدع

بالأمر ونهض يبشّر قومه بهداه وينذرهم في تنكرهم لرشاده ولم يكن هذا الوحي في ذلك يدعو إلى التشكّك أو التشكيك بل كان والرسول الكريم أقرب ما يكون إلى ربه سبحانه وتعالى ، أنه كان على بعد ما بين طرفي القوس والعرب يعرفون قصر المسافة بينهما حقّ المعرفة لأن القوس تعيش بين أيديهم وتصحبهم طول الوقت .

[سورة النجم (53) : الآيات 12 إلى 18]

أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى (14)

عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى (16)

ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى (17) لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى (18)

اللغة :

)

(524/734)

أَفَتُمارُونَهُ) من المماراة والمراء أي الملاحاة والمجادلة واشتقاقه من مرى الناقة كأن كل واحد من المتجادلين يمري ما عند صاحبه .

(سِدْرَةِ الْمُنْتَهى) شجرة نبق في منتهى الجنة تأوي إليها أرواح الشهداء ، وقد اختلف في

سبب تسميتها على ثمانية أقوال تفصيلها في المطوّلات .

الإعراب :

(أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى) الهمزة للاستفهام الإنكاري وتمارونه فعل وفاعل ومفعول به وعلى ما يرى متعلقان بتمارونه وكان من حقه أن يتعدّى بفي كقولك جادلته في كذا وإنما ضمن معنى الغلبة فعدّي تعديتها ، وجملة يرى صلة الموصول ويجوز أن تكون ما مصدرية (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى) الواو للحال واللام جواب للقسم المحذوف وقد

(525/734)

حرف تحقيق ورآه فعل وفاعل مستتر ومفعول به ونزلة يجوز إعرابها ظرفا للزمان أي مرة أخرى لأن مصدر النزلة بمثابة المرة منها ويجوز إعرابها حالا نصبت نصب المصدر الواقع موقع الحال ويجوز إعرابها مفعولا مطلقا على أنه مصدر مؤكد وإلى ذلك ذهب أبو البقاء وقدّره مرة أخرى أو رؤية أخرى وإلى الأول ذهب الزمخشري وأجاز أبو حيان الأوجه الثلاثة ولم يعمد إلى الترجيح ، وأخر نعت لنزلة (عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى) الظرف متعلق برآه أو حال من الفاعل أو المفعول أو منهما معا وسدرة مضاف إليه والمنتهى مضاف إلى سدرة (عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى) الظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وجنة المأوى مبتدأ مؤخر

والجملة حال من سدرة المنتهى (إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى) الظرف متعلق برآه وجملة يغشى السدرة في محل جر بإضافة الظرف إليها والسدرة مفعول به وما اسم موصول فاعل يغشى وفيه الإبهام المتقدم ذكره (ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى) ما نافية وزاغ البصر فعله ماض وفاعل وما طغى عطف على ما زاغ أي ما مال بصره عن مرئيه ولا جاوزه تلك الليلة (لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى) اللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق ورأى فعل ماض وفاعله مستتر ومن آيات ربه حال مقدّمة على المفعول والكبرى مفعول رأى والتقدير لقد رأى الآيات الكبرى حال كونها من جملة آيات ربه ويحتمل أن تكون الكبرى صفة آيات ربه لا مفعولا به ويكون المرئي محذوفا لتضخيم الأمر وتعظيمه كأنه قال : لقد رأى من آيات ربه الكبرى أمورا عظاما لا يحيط بها الوصف ، والحذف في مثل هذا أبلغ وأهول لأن فيه تفخيما لآيات اللّه الكبرى وأن فيها ما رآه وفيها ما لم يره وهو على الوجه الأول يكون مقتضاه أنه رأى جميع الآيات الكبرى على الشمول والعموم مع أن آيات اللّه مما لا يحيط أحد بجملتها .

[سورة النجم (53) : الآيات 19 إلى 25]

أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى (20) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى (21)
تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى (22) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ
سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى (23)
أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى (24) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولى (25)

اللغة :

(اللَّاتَ) جاء في القاموس ما يلي : " واللات مشددة التاء صنم وقرأ بها ابن عباس وعكرمة وجماعة ، سمي بالذي كان يلت عنده السويق بالسمن ثم خفف ، وجاء في البحر قوله : واللات صنم كانت العرب تعظمه قال قتادة كان بالطائف وقال أبو عبيدة وغيره كان في الكعبة وقال ابن زيد : كان بنخلة عند سوق عكاظ قال ابن عطية وقول قتادة أرجح ويؤيده قول الشاعر :

وفرّت ثقيف إلى لاتها بمنقلب الخائب الخاسر

والتاء في اللات قيل أصلية لام الكلمة كالباء من باب وألفه منقلبة فيما يظهر من ياء لأن مادة ليت موجودة فإن وجدت مادة من ل وت جاز أن تكون منقلبة من واو وقيل التاء للتأنيث ووزنها فعلة من لوى قيل لأنهم كانوا يلوون عليها ويعكفون للعبادة أو يلتوون عليها أي يطوفون حذفت لامها وقرأ الجمهور اللات خفيفة التاء وابن عباس ومجاهد ومنصور بن

المعتمر وأبو صالح وطلحة وأبو الجوزاء ويعقوب وابن كثير في رواية بشدّها قال ابن عباس كان هذا رجلا بسوق عكاظ يلت السمن والسويق عند صخرة .

(527/734)

)

الْعُزَّى) فعلى من العز وهي تأنيث الأعز كالفضلى والأفضل وهي اسم صنم وقيل شجرة كانت تعبد وعبارة الكشاف : " والعزى كانت لغطفان وهي سمرة وأصلها تأنيث الأعز وبعث إليها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية ويليها واضعة يدها على رأسها فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها وهي تقول :

يا عزّ كفرانك لا سبحانك إني رأيت اللّه قد أهانك

ورجع فأخبر رسول اللّه فقال عليه السلام تلك العزى ولن تعبد أبدا " وجاء في القاموس " والعزى العزيزة وتأنيث الأعز ، وصنم أو سمرة عبدتها غطفان أول من اتخذها ظالم بن أسعد فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال بنى عليها بيتا وسمّاه بسا وكانوا يسمعون فيها الصوت فبعث إليها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خالد بن الوليد فهدم البيت

وأحرق السمرة" .

(مَناةَ) صخرة كانت لهذيل وخزاعة وعن ابن عباس لثقيف واشتقاقها من منى يمنى أي صبّ لأن دماء النسائك كانت تصب عندها .

(ضِيزى) جائرة من ضازه يضيزه إذا ضامه وجار عليه وعلى هذا فتحتمل وجهين أحدهما أن تكون صفة على فعلى بضمّ الفاء وإنما كسرت الفاء لتصحّ الياء كبيض ، فإن قيل : وأي ضرورة تدعو إلى أن يقدّر أصلها ضم الفاء ولم لا قيل فعلى بالكسر ؟ فالجواب أن سيبويه حكى أنه لم يرد في الصفات فعلى بكسر الفاء وإنما ورد بضمها نحو حبلى وأنثى وربا وما أشبهه إلا أن غيره حكى في الصفات ذلك حكى ثعلب : ميتة حيكى ورجل كيسى وحكى غيره امرأة عزهى وامرأة سعلى

(528/734)

و هذا لا ينقض على سيبويه لأن سيبويه يقول في حيكى وكيسى كقوله في ضيزى لتصحّ الياء وأما عزهى وسعلى فالمشهور فيهما عزهاة وسعلاة والوجه الثاني أن تكون مصدرا كذكرى قال الكسائي : يقال ضاز يضيز ضيزى كذكر يذكر ذكرى وقرئ ضئزى بهمزة ساكنة ومعنى ضأزه يضأزه : نقصه ظلما وجورا وهو قريب من الأول ، وفي المختار ضاز

في الحكم جار وضازه فيه نقصه وبخسه وبابهما باع ، وسيأتي مزيد بحث عن هذه الكلمة في باب البلاغة .

الإعراب :

(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى) الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء حرف عطف لترتيب الرؤية على ما ذكر من شئونه تعالى المنافية لها غاية المنافاة والتقدير : أعقيب ما سمعتم من آثار كماله ونفاذ أمره في الملأ الأعلى وما تحت أطباق الثرى أرأيتم هذه الأصنام مع غاية حقارتها وفسولتها شركاء للّه تعالى . ورأيتم فعل وفاعل واللات مفعوله والعزى ومناة معطوفتان على اللات والثالثة الأخرى صفتان الأولى صفة للتين قبلها والثانية صفة ذم للثالثة ، وستأتي أسرار هذه الصفات في باب البلاغة ، ومفعول رأيتم الثاني محذوف تقديره قادرة على شيء ويجوز أن تكون من رؤية العين فلا تحتاج إلى مفعول ثان (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى) الهمزة للاستفهام الإنكاري أيضا ولكم خبر مقدم والذكر مبتدأ مؤخر وله الأنثى عطف على لكم الذكر (تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى) تلك مبتدأ والإشارة إلى القسمة المفهومة من الجملة الاستفهامية وإذن بمعنى الجواب والجزاء والمعنى إذ جعلتم له البنات ولكم البنين وقسمة خبر وضيزى صفة لقسمة (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ) إن نافية وهي مبتدأ

و إلا أداة حصر وأسماء خبر هي وسميتموها فعل وفاعل ومفعول به ثان والأول محذوف تقديره أصناما وأنتم تأكيد للفاعل ليصحّ عطف وآباؤكم عليه على حدّ قول صاحب الخلاصة :

وإن على ضمير رفع متصل عطفت فافصل بالضمير المنفصل

وجملة سميتموها صفة لأسماء وكذلك جملة ما أنزل وما نافية وأنزل اللّه فعل وفاعل وبها حال لأنه كان في الأصل صفة لسلطان ومن حرف جر زائد وسلطان مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول به (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى) إن نافية ويتبعون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وإلا أداة حصر والظن مفعول يتبعون والواو حرف عطف وما موصول معطوف على الظن ولك أن تجعلها مصدرية والواو حالية أو اعتراضية واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وجاءهم فعل ماض ومفعول به مقدّم ومن ربهم متعلقان بجاءهم والهدى فاعل جاءهم والجملة إما حالية من فاعل يتبعون أو معترضة لا محل لها ، والتفت من الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم وتحقيرا لشأنهم (أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى) أم منقطعة بمعنى بل والهمزة للإنكار وللإنسان خبر مقدم وما مبتدأ مؤخر وجملة تمنى صلة ما أي الذي تمنّاه وترجّاه في الأصنام (فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولى) الفاء عاطفة على مقدّر مفهوم من معنى أم أي ليس الأمر كذلك وللّه خبر مقدم

والآخرة مبتدأ مؤخر والأولى عطف على الآخرة .

البلاغة :

1 - في قوله تعالى " ومناة الثالثة الأخرى " أسرار مدهشة تحتاج إلى كثير من الفطنة والدقة لاستخراج ما تنطوي عليه من جمال آسر ، فقد وصف مناة بقوله الثالثة لأنها أقل بالرتبة من اللات والعزّى فقد

كانت عندهم دونهما في المنزلة ، أما الوصف بقوله الأخرى فإنها تقوّي هذا المعنى وتزيد في وضاعتها وإلا لقال الأخريات ، وقد فطن الزمخشري إلى هذا السر الدقيق فقال " والأخرى ذم وهي المتأخرة الوضيعة المقدار كقوله تعالى : وقالت أخراهم لأولاهم أي وضعاؤهم لرؤسائهم ، وأشرافهم " وهذه النكتة تنساق بنا إلى بحث طريف عن الأخرى فهي تأنيث آخر ولا شك أنه في الأصل من التأخر الوجودي إلا أن العرب عدلت به عن الاستعمال في التأخير الوجودي إلى الاستعمال حيث يتقدم ذكر مغاير لا غير حتى سلبته دلالته على المعنى الأصلي بخلاف آخر وآخره على وزن فاعل وفاعلة فإنّ إشعارهما بالتأخير الوجودي ثابت لم يغيّر ومن ثم عدلوا عن أن يقولوا ربيع الآخر على وزن الأفعل

وجمادى الأخرى إلى الآخر على وزن فاعل وجمادى الآخرة على وزن فاعلة لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجودي لأن الأفعل والفعلى من هذا الاشتقاق مسلوب الدلالة على غرضهم فعدلوا عنها إلى الآخر والآخرة والتزموا ذلك فيهما .

2- وفي قوله " تلك إذن قسمة ضيزى " فن عجيب أيضا فقد يتساءل الجاهلون عن السر في استعمال كلمة ضيزى وهي وحشية غير مأنوسة ، وسنورد ما أورده ابن الأثير في مثله السائر ثم نردفه بما استخرجناه نحن قال ابن الأثير : " وحضر عندي في بعض الأيام رجل متفلسف فجرى ذكر القرآن الكريم فأخذت في وصفه وذكر ما اشتملت عليه ألفاظه ومعانيه من الفصاحة والبلاغة فقال ذلك الرجل وأيّ فصاحة هناك وهو يقول : تلك إذن قسمة ضيزى ؟ فهل في لفظة ضيزى من الحسن ما يوصف فقلت له : اعلم أن لاستعمال الألفاظ أسرارا لم تقف عليها أنت ولا أئمتك مثل ابن سينا والفارابي ولا من أضلّهم مثل أرسطاطاليس وأفلاطون وهذه اللفظة التي أنكرتها في القرآن وهي لفظة

ضيزى فإنها في موضعها لا يسدّ غيرها مسدّها ، ألا ترى أن السورة كلها التي هي سورة النجم مسجوعة على حرف الياء فقال تعالى : والنجم إذا هوى ، ما ضلّ صاحبكم وما

غوى وكذلك إلى آخر السورة فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد وما كان يزعمه الكفّار قال : ألكم الذّكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى ، فجاءت هذه اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه وغيرها لا يسدّ مسدّها في مكانها وإذا نزلنا معك أيها المعاند على ما تريد قلنا : إن غير هذه اللفظة أحسن منها ولكنها في هذا الموضع لا ترد ملائمة لأخواتها ولا مناسبة لأنها تكون خارجة عن حرف السورة ، وسأبيّن ذلك فأقول : إذا جئنا بلفظة في معنى هذه اللفظة قلنا قسمة جائرة أو ظالمة ولا شك أن جائرة أو ظالمة أحسن من ضيزى إلا أنّا إذا نظمنا الكلام فقلنا : ألكم الذّكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ظالمة لم يكن النظم كالنظم الأول وصار الكلام كالشيء المعوز الذي يحتاج إلى تمام وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام فلما سمع ذلك الرجل ما أوردته عليه ربا لسانه في فمه إفحاما ، ولم يكن عنده في ذلك شيء سوى العناد " .

هذا ما قاله ابن الأثير وهو جيد يدل على ذوق وفهم ولكنه لا يخرج عن الحدود اللفظية ، وسنذكر ما سنح للخاطر من أمر معنوي يتعلق بهذا الكلام فنقول لما كان الغرض تهجين قولهم ، وتفنيد قسمتهم ، والتشنيع عليها اختيرت لها لفظة مناسبة للتهجين والتشنيع كأنما أشارت خساسة اللفظة إلى خساسة أفهامهم وهذا من أعجب ما ورد في القرآن الكريم من مطابقة الألفاظ لمقتضى الحال .

[سورة النجم (53) : الآيات 26 إلى 30]

وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى (26) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى (27) وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (28) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَياةَ الدُّنْيا (29) ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى (30)

الإعراب :

(وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ)

و الأرض الواو عاطفة وكم خبرية في محل رفع مبتدأ ومن ملك في محل نصب تمييز كم الخبرية وقد تقدم بحثه وفي السموات والأرض صفة لملك وجملة لا تغني شفاعتهم خبر وشيئا مفعول تغني أو مفعول مطلق أي شيئا من الإغناء (لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ

يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى) إلا أداة حصر ومن بعد متعلق بتغني وأن وما في حيزها في تأويل مصدر مجرور بالإضافة لبعد والله فاعل يشاء ويرضى معطوف على يشاء (إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى) إن واسمها وجملة لا يؤمنون صلة الموصول وبالآخرة متعلقان بيؤمنون واللام المزحلقة ويسمّون الملائكة فعل مضارع وفاعل ومفعول به والجملة خبر إن وتسمية الأنثى مفعول مطلق (وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ) الواو حالية وما نافية ولهم خبر مقدم ومن حرف جر زائد وعلم مبتدأ مؤخر والجملة في محل نصب على الحال (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً) إن نافية ويظنون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وإلا أداة حصر

(534/734)

و الظن مفعول به والواو للحال وإن حرف مشبّه بالفعل والظن اسمها وجملة لا يغني خبرها ومن الحق متعلقان بيغني وشيئا مفعول به أو مفعول مطلق (فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا) الفاء الفصيحة وأعرض فعل أمر وعمّن متعلق بأعرض وجملة تولى عن ذكرنا صلة من والجار والمجرور متعلقان بتولي والواو عاطفة ولم حرف نفي وقلب وجزم ويرد فعل مضارع مجزوم بلم وإلّا أداة حصر والحياة مفعول به والدنيا صفة (ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ

الْعِلْمِ) ذلك مبتدأ والإشارة إلى التهالك على الدنيا والإعراض عن ذكر اللّه وقيل ذلك إشارة إلى جعلهم الملائكة بنات اللّه وقيل إشارة إلى الظن أي غاية ما يفعلون أن يأخذوا بالظن ، ومبلغهم خبر ومن العلم متعلقان بمبلغهم والجملة اعتراضية بين الأمر وهو أعرض وبين تعليله الآتي ، واختاره الزمخشري وقال أبو حيان أنه غير ظاهر (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى) إن واسمها وهو مبتدأ وأعلم خبر وبمن متعلقان بأعلم وجملة ضلّ عن سبيله صلة وجملة هو أعلم خبر إن وجملة هو أعلم بمن اهتدى عطف على الجملة السابقة .

الفوائد :

1- اعلم إن كم اسم مفرد مذكر موضوع للكثرة يعبّر به عن كل معدود كثيرا كان أو قليلا ، وسواء في ذلك المذكر والمؤنث ، فقد صار لها معنى ولفظ وجرت في ذلك مجرى كلّ وأيّ ومن وما في أن كل واحد منها له لفظ ومعنى فلفظه مذكر مفرد وفي المعنى يقع على التثنية والجمع فقد جمع الضمير في الآية نظرا إلى المعنى ولو حمل على اللفظ لقال شفاعته .

2- من مبتكرات الخطيب في تفسيره الكبير تعليل طريف لتسميته

الملائكة تسمية الإناث قال " وذلك أنهم رأوا في الملائكة تاء التأنيث وصحّ عندهم أن يقال سجدت الملائكة فقالوا : الملائكة بنات اللّه فسمّوهم تسمية الإناث " ولعلّ هذا ما أراده الزمخشري وتبعه البيضاوي بقولهما : " لأنهم إذا قالوا الملائكة بنات اللّه فقد سمّوا كل واحد منهم بنتا " .

[سورة النجم (53) : الآيات 31 إلى 32]

وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (31) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى (32)

اللغة :

(اللَّمَمَ) قال الفرّاء : " أن يفعل الإنسان الشيء في الحين ولا يكون له عادة ومنه إلمام الخيال ، والإلمام الزيادة التي لا تمتد وكذلك اللمام ، قال أمية :

إن تغفر اللّهمّ تغفر جما وأيّ عبد لك لا ألمّا

وقد روي أن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان ينشدهما ويقولهما أي لم يلم بمعصية ، وقال أعشى باهلة :

تكفيه خرة فلذ إن ألمّ بها من الشواء ويروي شربه الغمر "

وعن أبي سعيد الخدري " اللّمم هي النظرة والغمزة والقبلة " وعن السدي : " الخطرة من الذنب " وعن الكلبي : "كل ذنب لم يذكر اللّه عليه حدّا ولا عذابا " وعن عطاء " عادة النفس في الحين بعد الحين " وقال أبو العباس المبرد : " أصل اللّمم أن يلمّ بالشيء ولم يرتكبه يقال :

(536/734)

ألمّ بكذا إذا قاربه ولم يخالطه " وقال الأزهري : " العرب تستعمل الإلمام في معنى الدنو والقرب " وفي المصباح : " واللّمم بفتحتين مقاربة الذنب وقيل هو الصغائر وقيل هو فعل الصغيرة ثم لا يعاوده ولمّ بالشيء يلمّ من باب ردّ " .

ومن غريب أمر اللام والميم إذا وقعتا فاء وعينا للكلمة دلّتا على معنى اللّمح السريع والمرور العاجل اللطيف فمن ذلك : ألمأ اللص على الشيء : ذهب به ، وما ذقت لماجا بفتح اللام : ما يتلمّج به أي يتلمظ ، ولمح البرق والنجم : لمع من بعيد وبرق لمّاح ولمحته ببصري ورأيته لمحة البرق وهو أسرع من لمح البصر ومن لمح بالبصر ، واللّمس معروف وفيه معنى المخالسة ، ومن المجاز لامس المرأة ولمسها : جامعها ، ولا يخفى ما توحي به هذه من مخالسة وانتهاز ونأي عن الأنظار ، ولمظ الرجل يلمظ وتلمظ إذا تتبع بلسانه بقية الطعام بعد الأكل أو مسح

به شفتيه واسم تلك البقية اللمّاظة وشرب الماء لماظا بالكسر ذاقه بطرف لسانه ومن

المجاز تلمظت الحيّة أخرجت لسانها وتلمظ بذكره قال رجل من بني حنيفة :

فدع عربيا لا تلمظ بذكره فألأم منه حين ينسب عائبه

لقد كان متلافا وصاحب نجدة ومرتفعا عن جفن عينيه حاجبه

أي لم يأت بخزية يغضّ لها بصره وما الدنيا إلا لماظة أيام وقال :

وما زالت الدنيا يخون نعيمها وتصبح بالأمر العظيم تمخض

لماظة أيام كأحلام نائم يذعذع من لذّاتها المتبرض

أي المتبلغ ، ولمع البرق والصبح وغيرهما لمعا ولمعانا وكأنه لمع البرق وبرق لامع ولمّاع وبروق

لمع ولوامع ومن أقوالهم " أخدع من يلمع " وهو البرق الخلّب والسراب وفلاة لمّاعة تلمح

بالسراب وبه لمعة ولمع من سواد أو بياض أو أي لون كان وثوب ملمّع وقد لمّع ولمّعه ناسجه

وفيه تلميع وتلاميع إذا كانت فيه ألوان شتّى قال لبيد بن ربيعة :

"

إن استه من برص ملمّعه " ورجل ألمعي ويلمعي فرّاس ومن المجاز لمع الزمام : خفق لمعانا

وزمام لامع ولموع قال ذو الرمّة :

فعاجا علندى ناجيا ذا براية وعوّجت مذعانا لموعا زمامها

والطائر يلمع بجناحيه يخفق بهما وخفق بملمعيه : بجناحيه ولمع بثوبه ويده وسيفه : أشار

وما بالدار لامع وأصاب لمعة من الكلأ ومعه لمعة من العيش : ما يكتفى به قال عدي :

تكذب النفوس لمعتها وتعود بعد آثارا

أي يذهب عنها العيش ويرجع آثارا وأحاديث ، وذكر أعرابي مصدّقا فقال : فلمقه بعد ما

نمقه أي فمحاه بعد ما كتبه وما ذقت لماقا :

شيئا ، وامرأة لمياء بيّنة اللّمى وهو السمرة في باطن الشفة ومن المجاز رمح ألمى أسمره وقناة

لمياء وظل ألمى كثيف أسود وشجر ألمى الظلال وشجرة لمياء الظل :

إلى شجر ألمى الظلال كأنه رواهب أحر من الشراب عذوب

(أَجِنَّةٌ) جمع جنين وسمي جنينا لاستتاره في بطن أمه ، وقد تقدم بحث هذه المادة وما تدل

عليه .

الإعراب :

)

وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ) الواو استئنافية ولله خبر مقدم وما مبتدأ مؤخر وفي السموات صلة ما وما في الأرض عطف على ما في السموات والجملة استئناف مسوق للإخبار عن كمال قدرته (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) اللّام لام العاقبة أو الصيرورة وليست للتعليل بمعنى أن عاقبة أمر الخلق أن يكون فيهم محسن ومسيء فللمسيء السوءى وللمحسن الحسنى وهي متعلقة بما دلّ عليه معنى الملك ، ويجزي فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام العاقبة وقيل هي بمعنى التعليل وإيضاح هذا المعنى أن التعليل لإضلال من شاء وهداية من شاء ، والذين مفعول به وجملة أساءوا صلة الذين وبما عملوا متعلقان بيجزي ، والذين أحسنوا بالحسنى عطف على ما تقدم (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ) الذين في موضع نصب على أنه بدل من الذين أو هو في موضع رفع على أنه خبر مبتدأ مضمر أي هم الذين يجتنبون وجملة يجتنبون صلة الذين وكبائر الإثم مفعول يجتنبون والفواحش عطف على كبائر الإثم وإلا أداة استثناء واللّمم مستثنى بإلا وهو استثناء منقطع لأنه ليس قبله ما يندرج فيه ويجوز أن يكون متصلا عند من يفسّر اللّمم بغير الصغائر ، وأجاز الزمخشري أن يكون من باب " لو كان فيهما آلهة إلا اللّه " فتكون إلا بمعنى غير صفة لكبائر الإثم وقد ظهر إعرابها فيما بعدها (إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ) إن واسمها وواسع المغفرة خبرها والجملة تعليلية لاستثناء

اللّمم لا محل لها (هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ) هو مبتدأ وأعلم خبر ولكم متعلقان بأعلم وإذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بأعلم أيضا وجملة أنشأكم في محل جر بإضافة الظرف إليها ومن الأرض متعلقان بأنشأكم و

(539/734)

إذ عطف على إذ الأولى وأنتم مبتدأ وأجنّة خبره وفي بطون أمهاتكم صفة لأجنّة

(فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى) الفاء الفصيحة ولا ناهية وتزكوا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل وأنفسكم مفعول به وهو مبتدأ وأعلم خبر وبمن اتقى متعلقان بأعلم وجملة اتقى صلة الموصول.

[سورة النجم (53) : الآيات 33 إلى 62]

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وَأَعْطى قَلِيلاً وَأَكْدى (34) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى (35)

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى (36) وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37)

أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى (40) ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى (41) وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى (42)

وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكى (43) وَأَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَأَحْيا (44) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ

وَالْأُنْثى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى (46) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى (47)
وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَأَقْنى (48) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى (49) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى (50)
وَثَمُودَ فَما أَبْقى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغى (52)
وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى (53) فَغَشَّاها ما غَشَّى (54) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى (55) هذا
نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى (56) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57)
لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ (58) أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلا
تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سامِدُونَ (61) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62)

اللغة :

(540/734)

(تَوَلَّى) عنه : أعرض عنه وتركه وتولّى هاربا أدبر وسيأتي المزيد من معناه في باب البلاغة .

(أَكْدى) منع عطيته وقطعها وأصله إكداء الحافر وهو أن تلقاه كدية وهي صلابة كالصخرة فيمسك عن الحفر وسيأتي المزيد من معناه في باب البلاغة .

(أَقْنى) أعطى المال الذي اتخذ قنية والقنية المال الذي تأثلته وعزمت أن لا يخرج من يدك

وفي الصحاح : " قني الرجل يقنى قنى مثل غني يغنى غنى ثم يتعدى بتغيير الحركة فيقال قنيت له مالا كسبته نحو شترت عين الرجل وشترها اللّه " وقال الراغب والحقيقة أنه جعل له مالا قنية وقنيت كذا وأقنيته .

(الشِّعْرى) هما شعريان أي كوكبان يسمى أحدهما الشعرى العبور وهو المراد في الآية الكريمة فإن خزاعة كانت تعبدها وقد سنّ عبادتها أبو كبشة وهو رجل من ساداتهم وقال لأن النجوم تقطع السماء عرضا والشعرى تقطعها طولا فهي مخالفة لها فعبدها وعبدتها خزاعة وحمير ، وأبو كبشة أحد أجداد النبي صلى اللّه عليه وسلم من قبل أمهاته ولذلك كان مشركو قريش يسمّون النبي صلى اللّه عليه وسلم ابن أبي كبشة حين دعا إلى اللّه تعالى وخالف أديانهم تشبيها بذلك الرجل في أنه أحدث دينا غير دينهم ، وهي تطلع بعد الجوزاء في شدة الحر وتسمى الشعرى اليمانية ، والثاني الشعرى الغميصاء من الغمص بفتحتين وهو سيلان دمع العين .

(الْمُؤْتَفِكَةَ) المنقلبة وهي التي صار أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها .

(أَزِفَتِ الْآزِفَةُ) أي دنت الدانية ، قال النابغة :

أزف الترحل غير أن ركابنا لما تزل برحالنا وكأن قد

وقال كعب بن زهير :

بان الشباب وأمسى الشيب قد أزفا ولا أرى لشباب ذاهب خلفا

وفي المصباح : " أزف الرحيل أزفا من باب تعب وأزفا أيضا دنا وقرب ، وأزفت الأزفة : دنت القامة " .

)

(541/734)

سامِدُونَ) السمود اللهو وقيل الإعراض وقيل الاستكبار وقال أبو عبيدة : السمود الغناء بلغة حمير يقولون : يا جارية اسمدي لنا أي غنّي لنا وقال الراغب : " السامد اللاهي الرافع رأسه من قولهم بعير سامد في مسيره وقيل سمد رأسه وجسده أي استأصل شعره " وفي المختار :

" السامد اللاهي وبابه دخل " وفسر الزمخشري السمود بالبرطمة وهي عامية فصيحة ، ففي الصحاح البرطمة الانتفاخ من الغضب .

الإعراب :

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى) الهمزة للاستفهام التقريري والفاء عاطفة على محذوف مقدّر ورأيت فعل وفاعل بمعنى أخبرني والذي مفعول رأيت الأول وجملة تولى صلة الموصول (وَأَعْطى قَلِيلًا وَأَكْدى) الواو عاطفة وأعطى معطوف على تولى وقليلا صفة لمصدر محذوف ولك

أن تجعله مفعولا به وأكدى عطف على أعطى (أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى) الهمزة للاستفهام الإنكاري وعنده ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم

(542/734)

و علم الغيب مبتدأ مؤخر والجملة في موضع نصب على أنها مفعول ثان لرأيت والفاء عاطفة وهو مبتدأ وجملة يرى خبره والجملة عطف على جملة أعنده علم الغيب فهي داخلة في حيز الاستفهام (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى) أم منقطعة بمعنى بل ولم حرف نفي وقلب وجزم وينبأ فعل مضارع مجزوم بلم ونائب الفاعل مستتر تقديره هو وبما في موضع نصب مفعول ثان لينبأ وفي صحف موسى متعلقان بمحذوف صلة ما (وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى) وإبراهيم عطف على موسى والذي صفة ووفى صلة الموصول (أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى) أن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وجملة لا تزر خبرها ووازرة فاعل تزر ووزر أخرى مفعول تزر وأن وما في حيزها بدل من ما في صحف موسى فهي في محل جر أو خبر لمبتدأ محذوف أي هو أن لا تزر فهي في محل رفع (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى) وأن عطف على أن لا تزر فهي مخففة مثلها وجملة ليس خبرها وللإنسان خبر مقدم لليس وإلا أداة حصر وما مصدرية وسعى فعل والمصدر المؤول اسم ليس (وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى)

عطف على ما تقدم وسعيه اسم أن وجملة سوف يرى خبر أن (ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى)

ثم حرف عطف ويجزاه فعل مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو والهاء

نصب بنزع الخافض أو هو مفعول ثان يقال جزيته سعيه وبسعيه والجزاء مفعول مطلق

والأوفى صفة والضمير المرفوع يعود على الإنسان والمنصوب يعود على الجزاء وقال أبو

البقاء : " قوله الجزاء الأوفى هو مفعول يجزى وليس بمصدر لأنه وصف بالأوفى وذلك من

صفة المجزى به لا من صفة الفعل " وليس قوله ببعيد وعندئذ يتعين كون الضمير المنصوب

منصوبا بنزع الخافض على أنه لا يمنع وصف المصدر من بقائه مصدرا لأن الفعل قد

يوصف بذلك مبالغة ، ويجوز أن يكون الضمير المنصوب للجزاء ثم فسّر بقوله الجزاء

الأوفى فهو بدل منه

(543/734)

أو عطف بيان (وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى) عطف

على ما تقدم وإلى ربك خبر أن المقدم والمنتهى اسم أن المؤخر (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكى)

عطف أيضا وأن واسمها وهو مبتدأ وجملة أضحك خبر والجملة خبر أن ويجوز إعراب هو

تأكيدا لاسم أن ، وعن بعضهم هو ضمير فصل وجملة أضحك خبر أن ورجحه الأكثرون

قالوا " في قوله تعالى وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى إنما أتى بضمير الفصل في الأولين دون الثالث لأن بعض الجهّال قد يثبت هذه الأفعال لغير اللّه تعالى كقول نمروذ أنا أحيي وأميت وأما الثالث فلم يدعه أحد من الناس " (وَأَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَأَحْيا) عطف على الآية السابقة مماثلة لها في إعرابها (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى) جملة خلق خبر أن والزوجين مفعول به والذكر بدل من الزوجين والأنثى عطف على الذكر (مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى) من نطفة متعلقان بخلق وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن خافض لشرطه منصوب بجوابه وجملة تمنى في محل جر بإضافة الظرف إليها (وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى) الآية معطوفة على ما قبلها وعليه خبر أن المقدّم والنشأة اسمها المؤخر والأخرى صفة للنشأة (وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَأَقْنى) عطف على ما تقدم وقد سبق إعرابها (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى) عطف أيضا (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى) أن واسمها وجملة أهلك خبرها وعادا مفعول أهلك والأولى صفة (وَثَمُودَ فَما أَبْقى) عطف على عاد والفاء عاطفة وما أبقى معطوف على أهلك ، وقال أبو البقاء : " وثمودا منصوب بفعل مضمر أي وأهلك ثمودا ، ولا يصحّ أن يكون مفعولا مقدما

لأبقى لأن لما النافية الصدر فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها " (وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى) وقوم نوح عطف على ثمود ومن قبل متعلقان بمحذوف على الحال وقد بنيت قبل على الضم لانقطاعها عن الإضافة لفظا لا معنى وإن واسمها وصلة كانوا خبرها وكان واسمها وهم ضمير فصل لا محل له ويجوز أن يكون تأكيدا للضمير في كانوا وأظلم خبر كانوا وأطغى

عطف على أظلم (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى) الواو عاطفة والمؤتفكة مفعول مقدم لأهوى فتكون الجملة معطوفة ويجوز لك عطف المؤتفكة على ما قبله (فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى) الفاء حرف عطف وغشاها فعل وفاعل مستتر وما موصول مفعول ثان لغشى وجملة غشى صلة ويجوز أن يكون غشى المشدد بمعنى المجرد فيتعدى لواحد ويكون الفاعل ما كقوله تعالى : "

(545/734)

فغشيهم من اليمّ ما غشيهم " (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى) الفاء الفصيحة أي إن عرفت هذا كله فبأيّ آلاء ربك تتمارى والباء ظرفية والخطاب للسامع والجار والمجرور متعلقان بتتمارى أي تتشكك وهو استفهام إنكاري وأطلق على النعم والنقم لفظ الآلاء وهي النعم

التي لا يتشكك فيها سامع لما في النقم من الزجر والوعظ لمن اعتبر وتدبر (هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى) اسم الإشارة مبتدأ والإشارة إلى القرآن أو إلى الرسول صلى اللّه عليه وسلم ونذير خبر وتنوينه للتفخيم ومن النذر نعت لنذير والنذر إما جمع لاسم الفاعل إذا اعتبرنا نذيرا اسم فاعل غير قياسي أو للمصدر إذا اعتبرنا نذيرا مصدرا غير قياسي لأنه من أنذر وقياس اسم الفاعل منه منذر وقياس المصدر منه منذر والأولى نعت للنذر (أَزِفَتِ الْآزِفَةُ) فعل وفاعل أي قربت الموصوفة بالقرب وهي يوم القيامة (لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ) الجملة حال من الآزفة وليس فعل ماض ناقص ولها خبر مقدم ومن دون اللّه حال وكاشفة اسم ليس وهو تحتمل أن تكون وصفا أو مصدرا فإذا كانت وصفا فالتاء فيها للتأنيث لأنها عندئذ صفة لمحذوف أي نفس كاشفة أو حال كاشفة ويجوز أن تكون التاء فيها للمبالغة كعلّامة ونسّابة وأن تكون مصدرا كما قال الرمّاني وجماعته كالعاقبة وخائنة الأعين (أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء استئنافية ومن هذا متعلقان بتعجبون والحديث بدل من اسم الإشارة وتعجبون فعل مضارع مرفوع والعجب قد يكون للتكذيب وقد يكون للاستحسان والتصديق والأول هو المقصود بالإنكار

)

وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ) عطف على تعجبون (وَأَنْتُمْ سامِدُونَ) الواو للحال أو للاستئناف وأنتم مبتدأ وسامدون خبر والجملة إما حالية وإما مستأنفة (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا) الفاء الفصيحة أي إن تدبرتم هذا كله ووعيتموه حق الوعي فاسجدوا ، واسجدوا فعل أمر مبني على حذف النون ولله متعلقان باسجدوا واعبدوا فعل أمر معطوف على فاسجدوا والمفعول به محذوف .

البلاغة :

1- في قوله تعالى " أفرأيت الذي تولى " استعارة تصريحية لأنه استعار الإدبار والإعراض لعدم الدخول في الإيمان ، ويمكن أن يجري هذا ضابطا لذكر التولي في القرآن فحيث ورد مطلقا غير مقيد يكون معناه عدم الإيمان . وفي قوله " وأعطى قليلا وأكدى " استعارة تصريحية ، شبّه من يعطى قليلا ثم يمسك عن العطاء بمن يكدي أي يمسك عن الحفر بعد أن حيل دونه بصلابة كالصخرة . قال الإمام الراغب في مفرداته " الكدية صلابة الأرض ، يقال حفر فأكدى فاستعير ذلك للطالب الملحف والمعطي المقل كما قال تعالى : أعطى قليلا وأكدى " .

2- وفي قوله " اضحك وابكى " و" أمات وأحيا " و" أعطى وأكدى " و" الذّكر والأنثى "

طباق لا يخفى وهو في السورة جميعها متعدد ولهذا يدخل في باب المقابلة . وقد زاد هذا الطباق حسنا أنه أتى في معرض التسجيع الفصيح لمجيء المناسبة التامة في فواصل الآي .

3- وفي قوله " وأنه هو رب الشعرى " فن التنكيت وهو أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره مما يسدّ مسدّه لأجل نكتة في المذكور ترجح مجيئه على سواه وقد خصّ اللّه سبحانه الشعرى بالذكر دون غيرها من النجوم وهو رب كل شيء لما ذكرنا في باب اللغة من أن

العرب كان قد ظهر فيهم رجل يعرف بأبي كبشة عبد الشعرى ودعا إلى عبادتها فأنزل اللّه الآية .

(547/734)

4- وفي قوله " ليس لها من دون اللّه كاشفة " فن التمثيل فقد أخرج الكلام مخرج المثل السائر يتمثل به في الوقائع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 9 صـ 343 . 370﴾

(548/734)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَولَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الخامس والثلاثون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخامس والثلاثون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة القمر)

(4/735)

(سورة القمر)

(5/735)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة القمر

مقصودها بيان آخر النجم في أمر الساعة من تحققها وشدة قربها وتصنيفر آن والضحك والبكاء والعمل - إلى طالب علم مهتد به ، وإلى متبع نفسه هواها وشهواتها ضال بإهمالها فهو خائب ، وذلك لأنه سبحانه وعد بذلك بإخبار نبيه (صلى الله عليه وسلم) وتحقق

صدقه بما أيده به من آياته التي ثبت بها اقتداره على ما يريد من الإيجاد الإعدام ، فثبت تفرده بالملك وأيد اقترابها بالتاثير في آية الليل بما يدل على الاقتدار على نقض السماوات المستلزم لإهلاك . . . فإن ذلك . . . بأنه ما بقي يدل على الاقتدار على نقض السماوات المستلزم لإهلاك . . فإن ذلك . . . بأنه ما بقي إلا تأثير آية النهار وعندما يكون طي الانتشار وعموم البوار المؤذن بالإحضار لدى الواحد القهار ، وأدل ما فيها على هذا الغرض كله أول آياتها ، فلذلك سميت بما تضمنته من الاقتراب المنجم به النجم بالإشارة لا بالعبارة ، ولم تسم بالانشقاق لأنه إذا أطلق انصرف إلى الأتم ، فالسماء أحق به

أهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 339 ﴾

(6/735)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . اقتربت الساعة)

السّورة مكِّيّة بالاتِّفاق .

وآياتها خمس وخمسون .

وكلماتها ثلاثمائة واثنتان وأَربعون .

وحروفها أَلْف وأَربعمائة وثلاث وعشرون .

فواصل آياتها كلّها على حرف الرّاءِ .

وسمِّيت سورة القمر ؛ لاشتمالها على ذكر انشقاق القمر .

معظم مقصود السّورة : تخويف بهجوم القيامة ، والشكوى من عبادة أَهل الضَّلالة وذلّهم في وقت البعث وقيام السّاعة ، وخبر الطُّوفان ، وهلاك الأَمم المختلفة ، وحديث العاديّين ونكبتهم بالنكباءِ ، وقصة ناقة صالح ، وإِهلاك جبريل قومه بالصيحة ، وحديث قوم لوط ، وتماديهم في المعصية ، وحديث فرعون ، وتعدّيه في الجهالة ، وتقرير القضاءِ والقدر ، وإِظهارِ علامة القيامة ، وبروز المتقين (في الجنة) في مقعد صدق ، ومقام القُرْبة في قوله : ﴿ مَقْعَدَ صِدْقٍ ﴾ .

المنسوخ :

فيه آية ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ آية السّيف ن .

[المتشابه من سورة القمر

قصة نوح وعاد وثمود ولوط ذكر في كل واحد منها من التخويف والتحذير ما حلّ بهم ليتَّعظ به حامل القرآن وتاليه ويعظ غيره .

وأَعاد في قصة عاد ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ مرّتين ؛ لأَنَّ الأُولى في الدنيا والثانية

فى العُقبى ؛ كما قال فى هذه القصة : ﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى ﴾ وقيل : الأَول لتحذيرهم قبل إِهلاكهم ، والثانى لتحذير غيرهم بعد إِهلاكهم] .

فضل السّورة

فيه حديث أُبىّ الواهى السند : مَنْ قرأَ سورة اقتربت فى كلّ غِبٍّ بُعث يوم القيامة ، ووجهه (على صورة القمر ليلة البدر من كل ليلة بل [أَفضل] وجاءَ يوم القيامة ووجهه مُسفِر على وجوه الخلائق) ، وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَ (اقتربت السّاعة) فكأَنّما قرأَ القرآن كلَّه ، وكُتِب له بكلّ آية قرأَها ثوابُ الدّالّ على الخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 445.446 ﴾

(7/735)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة القمر

420 - مسألة :

قوله تعالى : (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) ثم أعاده في القصة الثانية ، فما فائدة ذلك ؟ .

جوابه :

يحتمل وجوها :

الأول : أن الأول وعيد لهم بما تقدم لغيرهم من قوم نوح ، والثاني لهم ولغيرهم من بعدهم .

الثاني : أن الأول أريد به عذاب الدنيا ، والثاني أريد به عذاب الآخرة ، وعبر بلفظ الماضي لتحقق وقوعه .

الثالث : أن الأول فيه حذف مضاف تقديره : فكيف كان وعيد عذابي ، والثاني أريد به نفس العذاب بعد وقوعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 345 ﴾

(8/735)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة القمر

اسمها بين السلف سورة اقتربت الساعة .

ففي حديث أبي واقد الليثي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الفطر والأضحى ، وبهذا الاسم عنون لها البخاري في كتاب التفسير .

وتسمى سورة القمر وبذلك ترجمها الترمذي .

وتسمى سورة اقتربت حكاية لأول كلمة فيها .

وهي مكية كلها عند الجمهور ، وعن مقاتل : أنه استثنى منها قوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر : 44 ، 46] قال : نزل يوم بدر ولعل ذلك من أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية يوم بدر .

وهي السورة السابعة والثلاثون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد ، نزلت بعد سورة الطارق وقبل سورة ص .

وعدد آيها خمس وخمسون باتفاق أهل العدد .

وسبب نزولها ما رواه الترمذي عن أنس بن مالك قال سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر بمكة فنزلت ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ إلى قوله ﴿ سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر : 1 ، 2] .

وفي أسباب النزول للواحدي بسنده إلى عبد الله بن مسعود قال : انشق القمر على عهد محمد صلى الله عليه وسلم فقالت قريش هذا سحر ابن أبي كبشة سحركم ، فسألوا

السفار ، فقالوا نعم قد رأينا ، فأنزل الله عز وجل ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر : 1] الآيات

وكان نزولها في حدود سنة خمس قبل الهجرة ففي الصحيح أن عائشة قالت :

(9/735)

أنزل على محمد بمكة وإني لجارية ألعب ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ [القمر : 46] .

وكانت عقد عليها في شوال قبل الهجرة بثلاث سنين ، أي في أواخر سنة أربع قبل الهجرة بمكة ، وعائشة يومئذ بنت ست سنين ، وذكر بعض المفسرين أن انشقاق القمر كان سنة خمس قبل الهجرة وعن ابن عباس كان بين نزول آية ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر : 45] وبين بدر سبع سنين .

أغراض هذه السورة

تسجيل مكابرة المشركين في الآيات المبينة ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن مكابرتهم .

وإنذارهم باقتراب القيامة وبما يلقونه حين البعث من الشدائد .

وتذكيرهم بما لقيته الأمم أمثالهم من عذاب الدنيا لتكذيبهم رسل الله وأنهم سيلقون مثل ما لقي أولئك إذ ليسوا خيرا من كفار الأمم الماضية .

وإنذارهم بقتال يهزمون به ، ثم لهم عذاب الآخرة وهو أشد .

وإعلامهم بإحاطة الله علما بأفعالهم وأنه مجازيهم شر الجزاء ومجاز المتقين خير الجزاء .

وإثبات البعث ، ووصف بعض أحواله .

وفي خلال ذلك تكرير التنويه بهدي القرآن وحكمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 27 صـ 161.162﴾

(10/735)

وقال الشيخ سيد قطب :

التعريف بسورة القمر

هذه السورة من مطلعها إلى ختامها حملة رعيبة مفزعة عنيفة على قلوب المكذبين بالنذر , بقدر ما هي طمأنينة عميقة وثيقة للقلوب المؤمنة المصدقة . وهي مقسمة إلى حلقات متتابعة , كل حلقة منها مشهد من مشاهد التعذيب للمكذبين , يأخذ السياق في ختامها بالحس البشري فيضغطه ويهزه ويقول له: (فكيف كان عذابي ونذر ؟) . . ثم يرسله بعد

الضغط والهز ويقول له:(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟) .

ومحتويات السورة الموضوعية واردة في سور مكية شتى . فهي مشهد من مشاهد القيامة في المطلع , ومشهد من هذه المشاهد في الختام . وبينهما عرض سريع لمصارع قوم نوح . وعاد وثمود . وقوم لوط . وفرعون وملئه . وكلها موضوعات تزخر بها السور المكية في صور شتى . .

ولكن هذه الموضوعات ذاتها تعرض في هذه السورة عرضا خاصا , يحيلها جديدة كل الجدة . فهي تعرض عنيفة عاصفة , وحاسمة قاصمة ; يفيض منها الهول , ويتناثر حولها الرعب , ويظللها الدمار والفزع والانبهار !

(11/735)

وأخص ما يميزها في سياق السورة أن كلا منها يمثل حلقة عذاب رهيبة سريعة لاهثة مكروبة . يشهدها المكذبون , وكأنما يشهدون أنفسهم فيها , ويحسون إيقاعات سياطها . فإذا انتهت الحلقة وبدأوا يستردون أنفاسهم اللاهثة المكروبة عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولا ورعبا . . وهكذا حتى تنتهي الحلقات السبعة في هذا الجو المفزع الخانق . فيطل المشهد الأخير في السورة . وإذا هو جو آخر , ذو ظلال أخرى . وإذا هو الأمن

والطمأنينة والسكينة . إنه مشهد المتقين: (إن المتقين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر) . . في وسط ذلك الهول الراجف , والفزع المزلزل , والعذاب المهين للمكذبين: (يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر) . .

فأين وأين ? مشهد من مشهد ? ومقام من مقام ? وقوم من قوم ? ومصير من مصير ? .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3424 . 3425 ﴾

(12/735)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة القمر

مكية وآياتها خمس وخمسون آية

بين يدي السورة

* سورة القمر في السور المكية ، وقد عالجت أصول العقيدة الإسلامية ، وهي من بدئها إلى نهايتها ، حملة عنيفة مفزعة على المكذبين بآيات القرآن ، وطابع السورة الخاص ، هو طابع التهديد والوعيد ، والإعذار ، والإنذار ، مع صور شتى من مشاهد العذاب والدمار .

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر تلك " المعجزة الكونية ، معجزة انشقاق القمر ، التي هي إحدى المعجزات العديدة لسيد البشر (صلى الله عليه وسلم) ، وذلك حين طلب المشركون منه معجزة جلية ، تدل على صدقه ، وخصصوا بالذكر أن يشق لهم القمر ، ليشهدوا له بالرسالة ، ومع ذلك عاندوا وكابروا [اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . .] الآيات .

* ثم انتقلت للحديث عن أهوال القيامة وشدائدها ، بأسلوب مخيف يهز المشاعر هزا ، ويحرك في النفس الرعب والفزع ، من هول ذلك اليوم العصيب [فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر] .

* وبعد الحديث عن كفار مكة ، يأتى الحديث عن مصارع المكذبين ، وما نالهم في الدنيا من ضروب العذاب والدمار ، بدءا بقوم نوح [كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . .] .

* ثم تلاه الحديث عن الطغاة المتجبرين من الأمم السالفة ، الذين كذبوا الرسل ، فأهلكهم الله إهلاكا فظيعا ، ودمرهم عن بكرة أبيهم ، وقد تحدثت الآيات عن قوم (عاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وقوم فرعون) وغيرهم من الطغاة المتجبرين بشيء من الإسهاب ، مع تصوير

أنواع العذاب [كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ؟ إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر . .] الآيات .

(13/735)

---

* وبعد عرض هذه المشاهد الأليمة – مشاهد العذاب والنكال – الذي حل بالمكذبين لرسل الله (صلى الله عليه وسلم) توجهت السورة إلى مخاطبة قريش ، وحذرتهم مصرعا كهذه المصارع ، بل ما هو أشد وأنكى [سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر . .] الآيات .

* وختمت السورة ببيان مال المتقين ، بعد ذكر مال الأشقياء المجرمين ، على طريقة القرآن في الجمع بين (الترغيب) و(الترهيب) بأسلوبه العجيب [إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 282 . 283 ﴾

(14/735)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة القمر

اقتربت : أي دنت وقربت ، وانشق القمر : أي انفصل بعضه من بعض وصار فرقتين ، آية :

أي دليلا على نبوتك ، مستمر : أي مطرد دائم ، أهواءهم : أي ما زينه لهم الشيطان من

الوساوس والأوهام ، مستقر : أي منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة ، الأنباء أخبار القرون

الماضية وما حاق بهم من العذاب جزاء تكذيبهم للرسل ، واحدها نبأ ، بالغة : أي واصلة

غاية الإحكام والإبداع ، تغنى : أي تفيد وتنفع ، والنذر : واحدهم نذير بمعنى منذر ،

فتولّ عنهم : أي لا تجادلهم ولا تحاجهم ، نكر : أي أمر تنكره النفوس إذ لا عهد لها بمثله ،

خشعا : واحدهم خاشع : أي ذليل ، والأجداث : القبور ، مهطعين :

أي مسرعين منقادين ، عسر : أي صعب شديد الهول .

وازدجر : أي وزجر عن التبليغ بأنواع الأذى والتخويف ، فانتصر : أي فانتقم لى منهم ،

منهمر : أي كثير كما قال :

أعيناى جودا بالدموع الهوامر على خير باد من معدّ وحاضر

فالتقى الماء : أي ماء السماء وماء الأرض ، على أمر : أي على حال ، قد قدر :

أي قد قدّره اللّه فى الأزل ، ذات ألواح : أي ذات خشب عريضة ، دسر : أي مسامير

واحدها دسار ككتب وكتاب ، بأعيننا : أي بمرأى منه والمراد بحراستنا وحفظنا ، كفر : أي جحد به وهو نوح عليه السلام ، تركناها : أي أبقينا السفينة ، آية : أي علامة ودليلا ، مدكر : أي متذكر ومعتبر ، ونذر : واحدها نذير بمعنى إنذار ، يسرنا : أي سهلنا ، للذكر : أي للعظة والاعتبار ، مدكر : أي متعظ بمواعظه .

الريح الصرصر : الباردة أشد البرد ، والنحس : الشؤم ، منقعر : أي مقتلع من أصوله يقال قعرت النخلة : أي قلعتها من أصلها فانقعرت .

(15/735)

بالنذر : أي بالرسل ، وتكذيب صالح تكذيب لهم جميعا لاتفاقهم على أصول الشرائع ، وسعر : أي جنون ، ومنه ناقة مسعورة : إذا كانت تفرط فى سيرها كأنها مجنونة ، والذكر : الوحى والمراد بالغد وقت نزول العذاب بهم ، والأشر : شديد البطر ، والبطر : دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها ، فتنة : أي امتحانا واختبارا ، فارتقبهم : أي فانتظرهم ، واصطبر : أي واصبر على أذاهم ، والشّرب : النصيب ، محتضر : أي يحضره صاحبه فى نوبته ، فتحضر الناقة مرة ويحضرون أخرى ، صاحبهم : هو قدار بن سالف أحيمر ثمود ، فتعاطى : أي فاجترأ على تعاطى الأمر

العظيم غير مكترث به ، فعقر : أي فضرب قوائم الناقة بالسيف ، صيحة واحدة : هى صيحة صاحها جبريل عليه السلام ، والهشيم : ما تهشم وتفتت من الشجر ، والمحتظر : الذي يعمل الحظيرة فتتساقط منه بعض أجزاء وتتفتت حال العمل .

حاصبا : أي ريحا ترميهم بالحصباء وهى الحصا ، قال فى الصحاح : الحاصب الريح الشديدة التي تثير الحصباء ، والحصب (بفتحتين) ما تحصب به النار : أي ترمى ، وكل ما ألقيته فى النار فقد حصبتها به ، والسحر : السدس الأخير من الليل ، وقال الراغب : السحر والسّحرة : اختلاط ظلام آخر الليل بصفاء النهار ، والبطش : الأخذ الشديد بالعذاب ، فتماروا بالنذر : أي فشكوا فى الإنذارات ولم يصدقوها ، راودوه عن ضيفه : أي صرفوه عن رأيه فيهم فطلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه ليفجروا بهم ، فطمسنا أعينهم : أي فحجبناها عن الأبصار فلم تر شيئا ، بكرة : أي أول النهار ، مستقرّ : أي دائب بهم إلى أن يهلكوا .

النذر : واحدها نذير بمعنى إنذار وهى الآيات التسع التي أنذرهم بها موسى صلوات اللّه عليه ، عزيز : أي لا يغالب ولا يغلب ، مقتدر : أي لا يعجزه شىء

(16/735)

براءة : أي صك مكتوب بالنجاة من العذاب ، والزبر : الكتب السماوية واحدها زبور ، يولون : أي يرجعون ، والدبر : أي الأدبار هاربين منهزمين ، والساعة : هى القيامة ، موعدهم : أي موعد عذابهم ، أدهى : أي أعظم داهية وهى الأمر الفظيع الذي لا يهتدى الخلاص منه ، يقال دهاه أمر كذا : أي أصابه ، وأمرّ : أي أشد مرارة فى الذوق والمراد الشدة والهول .

المراد بالمجرمين : المشركون كما جاء فى قوله : "يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ" .

فى ضلال : أي فى الدنيا عن الحق ، وسعر : أي نيران واحدها سعير ، يسحبون : أي يجرّون ، سقر : اسم لجهنم ، ومسها : حرها ، بقدر : أي مقدر مكتوب فى اللوح المحفوظ ، أمرنا : أي شأننا ، واحدة : أي كلمة واحدة وهى قوله (كن) كلمح البصر : أي فى اليسر والسرعة ، أشياعكم : أي أشباهكم فى الكفر من الأمم السالفة ، واحدهم شيعة ، وهم من يتقوى بهم المرء من الأتباع ، مدكر : أي متعظ ، فى الزبر : أي فى كتب الحفظة ، مستطر : أي مسطور مكتوب فى اللوح بتفاصيله ، نهر : أي أنهار ، فى مقعد صدق : أي فى مكان مرضى ، عند مليك مقتدر : أي عند ملك عظيم القدرة واسع السلطان .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المراغى حـ 27 صـ 75 . 100 ﴾ . باختصار .

(17/735)

وقال الفراء :

سورة (القمر)

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَانشَقَّ الْقَمَرُ . . . ﴾ ذُكِرَ: أنّهُ انشقَّ ، وأَنَّ عبدَ الله بن مسعودٍ رأى حراء من بَيْن فِلقتيه فلقتى القمر .

﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً . . . ﴾ . يعنى القمرَ ﴿ يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ . . . ﴾ .

أى: سيبطل ويذهَبُ .

وقَالَ بَعْضهم: سِحْرٌ يُشبهُ بعضُه بعضاً .

﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾

وقوله: ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ . . . ﴾ .

سيقر قرار تكذيبهم ، وقرارُ قولِ المصدّقينَ حتَّى يَعْرِفوا حقيقَتَهُ بالعقاب والثواب .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾

وقوله: ﴿ مُزْدَجَرٌ . . . ﴾ مُنتهىً .

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾

وقوله: ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ . . . ﴾ .

مرفوعٌ على الردّ على (ما فيه مُزْدجَر) ، و (ما) فى موضع رفع ، ولو رفعته على الاستئناف كأنّكَ تُفَسِّرُ به (ما) لكانَ صواباً ، ولو نُصبَ على القطع لأنّهُ نكرَة ، وما معرفة كانَ صواباً .

ومثله فى رَفْعه: ﴿ هذا ما لدىَّ عتيدٌ ﴾ ولو كان (عتيدٌ) منصوباً كان صواباً .

وقوله: ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ . . . ﴾ .

إن شئت جعلتَ (ما) جحداً تُريدُ: ليْسَت تُغنى عَنْهم النذرُ ، وإن شئتَ جعلتها فى موضع أىّ. كأنكَ قلتَ . فأىّ شىء تُغنى النذرُ . [/١]

﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾

وقوله: ﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ . . . ﴾ .

إذا تقدّمَ الفِعلُ قبل اسمٍ مؤنثٍ ، وهوَ لَهُ أو قبل جمع مؤنثٍ مثل: الأبصارِ ، والأعمار وما أشبهُهَا ـ جَازَ تأنيثُ الفِعْل وتذكيرهُ وجَمْعُهُ ، وقد أتى بذلك فى هذا الحرف ، فقرأهُ ابن عباس (خاشعاً) .

(18/735)

[حدثنى محمد بن الجهم قال] حدثنا الفراءُ قالَ: وحدثنى هشيمٌ وأبو معاوية عن وائل ابن داودَ عن مُسلم بن يسارٍ عن ابن عباسٍ أنَّه قرأها (خاشعاً) .

[حدثنى محمد قال] حدثنا الفراء قالَ: وحدثنى هُشيمٌ عن عوفٍ الأعرابى عن الحسن وأبى رجاء العُطاردىّ أن أحدَهُما قال: (خاشعاً) والآخر (خُشَّعاً) .

قال الفراءُ: وهى فى قراءة عبد اللهِ (خاشِعةً أبصارُهُم) . وقراءةُ الناس بَعْدُ (خُشعاً أبصارُهم) .

وقد قال الشاعرُ:

وشبَابٍ حَسنٍ أوجُهُهُمْ * من إياد بن نزار نب مَعَدّ

وقال الآخرُ .

يرمى الفِجاجَ الركبانُ مُعترضاً * أعناقَ بُزّلِها مُرْخًى لها الجدُلُ

قال الفراءُ: الجدُلُ: جَمْعُ الجَديلِ ، وهوَ الزمَامُ ، فلو قالَ: مُعترضاتٍ ، ، أو مُعترضةً لكان صواباً ، مُرْخاةً ومرخياتٍ .

﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَاذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾

وقوله: ﴿ مُّهْطِعِينَ . . . ﴾ . ناظِرينَ قِبلَ الداع .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾

وقوله: ﴿ وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ . . . ﴾ .

زُجِرَ بالشتم ، وازْدُجِر افْتعل من زَجَرْتُ ، وإذا كانَ الحرف أَوَّلُهُ زايٌ صارتْ تاء الافتِعال فيه دالاً ؛ مِنْ ذِلكَ: زُجِرَ ، وازْدُجِرَ ، ومُزْدَجَرٌ ، ومن ذِلكَ: المُزْدَلِفُ ويزدادَ هيَ من الفِعل يَفتَعِلُ فَقِس عليه ما وردَ .

﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى المَآءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾

وقوله: ﴿ فَالْتَقَى المَآءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . . . ﴾ .

أرادَ الماءين: ماء الأرض ، وماء السماء ، ولا يَجُوزُ التقاءٌ إلاّ لاسمين ، فما زاد ، وإنّما جَازَ فِي الماء ، لأن الماءَ يكُونُ جمعاً وواحداً .

وقوله: ﴿ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ . قُدر فى أمّ الكتاب .

ويقال: قد قُدِرَ أَن الماءين كانَ مقدارُهُما واحداً . ويقال: قد قُدرَ لما أرادَ اللهُ من تعذيبهم .

(19/735)

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ . . . ﴾ .

حَملْنا نُوحاً على ذاتِ ألواحٍ يعنى: السفينة ، ﴿ وَدُسُرٍ . . . ﴾ مَسامِيرُ السفينة ،

وشُرُطُها التى تُشَد بها .

﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾

وقوله: ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ . . . ﴾ .

أى: جُحِدَ .

يقولُ: فَعلنا به وبهم ما فعلنا جزاءً لِما صُنِعَ بنوحٍ وأصحابه ، فقال: لِمَنْ يُريدُ القَومَ ، وفيه مَعْنى ما . ألا تَرى أنَّك تقولُ: غرّقوا لنوحٍ ولِما صُنِعَ بنُوح ، والمعنى واحد .

﴿ وَلَقَدْ تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ تَّرَكْنَاهَا آيَةً . . . ﴾ .

يقولُ: أبقيناهَا من بعد نُوحٍ آيَةً .

وقوله: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ . . . ﴾ .

المعنى: مُذتَكِرٍ ، وإذا قلتَ: مُفْتعلٌ فيما أوّلهُ ذالٌ صارت الذالُ وتاءُ الإفتعال دالاً مُشدَّدة وبعض بنى أسدٍ يقولونَ: مُذّكرٌ ، فيُغلِّبُونَ الذَّال فتصيرُ ذالاً مشددةً .

[حدثنا محمد بن الجهم قال]: حدثنا الفراء قال: وحدثنى الكسائى . [وكان والله ما علمته إلاّ صدوقا] . عن إسرائيلَ والقَرْزمىّ عن أبى إسحاق عن الأسود بن يزيد قال: قلنا لعبدالله: فهلم من مُذَّكرٍ ، أو مُدَّكرٍ ، فقال: أقرأنى رسول الله [/ب] صلى الله عليه: (مُدَّكِرٌ) بالدال .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾

وقوله: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . . . ﴾ .

النذرُ ها هُنا مصدَرٌ معناهُ: فكيْفَ كانَ إنذارى ، ومثلُهُ ﴿ عذراً أو نذراً ﴾ يُخفّفانِ ويثقلان كما قال ﴿ إلى شَىء نُّكُرٍ ﴾ فثُقّلَ فى "اقتربَتْ" وخفف فى سورة النساء القصرَى فقيل "نُكْراً" .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ . . . ﴾ .

(20/735)

يقولُ: هوّناه ولولا ذلِكَ ما أطاقَ العبادُ أن يتكلمُوا بكلام الله . ويقال: ولقد يسرنا القرآن للذكر: للحِفْظ ، فليس من كتاب يُحفَظُ ظاهراً غيرُه .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾

وقوله: ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ . . . ﴾ . استمر عليهم بنُحُوسَتِه .

﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾

وقوله: ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ . . . ﴾ أسَافلُهَا . مُنقَعِرٌ المصرَّعُ من النخل .

﴿ فَقَالُواْ أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّآ إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ . . . ﴾ . أرادَ بالسُّعُر: العَنَاءِ للعَذاب:

﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ ﴾

وقوله: ﴿ كَذَّابٌ أَشِرٌ . . . ﴾ قرأ مُجاهدٌ وحدَهُ: الأَشُر .

[حدثنا محمد بن الجهم قال:] حدثنا الفراء قال: وحدثنى سفيان بن عيينَة عن رجلٍ عن مجاهدٍ أنه قرأ (سَيَعْلَمُونَ) بالياء كذا قال سفيانُ ﴿ مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ . . . ﴾ وهو بمنزلة قولك فى الكلام: رجل حَذِر ، وحَذُرٌ ، وفطِنٌ ، وفطُنٌ . وعجِل ، وعَجُلٌ .

[حدثنا محمد بن الجهم قال] حدثنا الفراء قال: حدثنى محمد بن الفضل عن عطاء بن السائب عن أبى عبد الرحمن عن على بن أبى طالب أنه قرأ: سيعلمون غدا ـ بالياء .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَآءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَآءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ . . . ﴾ .

للناقة يوم ، ولهم يوم ، فقال: بينهم وبين الناقة .

وقوله: ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ . . . ﴾ . يحتضره أهله ومن يستحقه .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾

وقوله: ﴿ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ . . . ﴾ .

الذى يحتظرُ على هشيمه ، وقرأ الحسن وحده: كهشيم المحتظَر ، فتح الظاء فأضاف الهشيم إلى المحتظَر ، وهو كما قال: ﴿ إِنَّ هذا لهو حقُّ اليقين ﴾ ، والحق هو اليقين ، وكما قال: ﴿ ولَدَارُ الآخِرةِ خَيْرٌ ﴾ فأضاف الدار إلى الآخرة ، وهى الآخرة ، والهشيم: الشجر إذا يبس .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾

وقوله: ﴿ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ . . . ﴾ .

سحر ههنا يجرى ؛ لأنه نكرة ، كقولك: نجيناهم بليلٍ ، فإذا ألقت منه العرب الباء لم يجروه ، فقالوا: فعلت هذا سحر يا هذا ، وكأنهم فى تركهم إجراءه أنّ كلامهم كان فيه بالألف واللام ، فجرى على ذلك ، فلما حذفت الألف واللام ، وفيه نيتهما لم يصرف . كلام العرب أن يقولوا: ما زال عندنا مذ السحر ، لا يكادون يقولون غيره .

﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِالنُّذُرِ ﴾

وقوله: ﴿ فَتَمَارَوْاْ بِالنُّذُرِ . . . ﴾ . كذّبوا بما قال لهم .

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ . . . ﴾ :

العرب تجرى: غدوة ، وبكرة ، ولا تجريها ، وأكثر الكلام فى غدوة ترك الإجراء وأكثره فى

بكرة أن تُجرَى .

قال: سمعت بعضهم يقول: أتيته بكرةَ باكرا ، فمن لم يجرها جعلها معرفة ؛ لأنها اسم تكون أبداً فى وَقت واحد بمنزلة أمسِ وغدٍ ، وأكثر ما تجرى العرب غدوة إذا قرنت بعشية ، فيقولون: إنى لآتيك غُدوةً وَعشيةً ، وَبعضهم غدوةً وعشيةَ ، ومنهم من لا يجرى عشية [/1] لكثرة ما صحبت غدوةَ .

وقوله: ﴿ عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ . . . ﴾ .

يقول: عذابٌ حق .

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾

وقوله: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ . . . ﴾ .

(22/735)

يقول: أكفاركم يأهل مكة خير من هؤلاء الذين أصابهم العذاب أم لكم براءة فى الزبر ؟

يقول: أم عندكم براءة من العذاب ، ثم قال: أم يقولون: أى أيقولون: نحن جميع كثير منتصر ، فقال الله: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . . . ﴾ وهذا يوم بدر .

وقال: الدبر فوحّد ، ولم يقل: الأدبار ، وكلّ جائز ، صواب أن تقول: ضربْنا منهم الرءوس والأعين ، وضربنا منهم الرأس واليد ، وهو كما تقول: إنه لكثير الدينار والدرهم ، تريد الدنانير والدراهم .

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾

وقوله: ﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ . . . ﴾ يقول: أشد عليهم من عذاب يوم بدر ، وأَمرُّ من المرارة .

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾

وقوله: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ . . . ﴾ .

وفى قراءة عبد الله "يوم يسحبون إلى النار على وجوههم" .

وقوله: ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . . . ﴾ . سقر: اسم من أسماء جهنم لا يجرى ، وكل اسم كان لمؤنث فيه الهاء أو ليس فيه الهاء فهو يجرى إلا أسماء مخصوصة خفت فأجريت ، وترك بعضهم إجراءها ، وهى: هند ، ودعد ، وجُمل ، ورئم ، تُجرى ولا تُجرى . فمن لم يُجرها قال: كل مؤنث فحظه ألا يجرى ، لأن فيه معنى الهاء ، وإن لم تظهر ألا ترى أنك إذا حقّرتها وصغرتها قلت: هنيدة ، ودعيدة ، ومن أجراها قال: خفت لسكون الأوسط منها ، وأسقطت الهاء ، فلم تظهر فخفّفت فجرت .

﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاَّ وَاحِدَةٌ . . . ﴾ أى: مرة واحدة هذا للساعة كلمح خطفة.

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ . . . ﴾ . يريد: كل صغير من الذنوب أو كبير فهو مكتوب.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾

(23/735)

وقوله: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ . . . ﴾ معناه: أنهار، وهو فى مذهبه كقوله: ﴿ سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ . وزعم الكسائى أنه سمع العرب يقولون: أتينا فلاناً فكنّا في لحمةٍ ونبيذة فوحد ومعناه الكثير.

ويقال: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ فى ضياء وسعة، وسمعت بعض العرب ينشد:

إِن تك ليليا فإنى نَهِرُ * متى أرى الصبح فلا أنتظرُ

ومعنى نهر: صاحب نهار وقد روى "وما أَمْرُنا إلاَّ وَحدةً" بالنصب وكأنه أضمر فعلا ينصب به الواحدة، كما تقول للرجل: ما أنت إلا ثيابَك مرة، وَدابتك مرة، وَرأسك مرة، أى: تتعاهد ذاك.

وَقال الكسائى: سمعت العرب تقول: إنما العامرى عِمَّتَه ، أى: ليس يعاهد من لباسه إلا العمة ، قال الفراء: وَلا أشتهى نصبها فى القراءة. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 104. 111 ﴾

(24/735)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة القمر

(وانشق القمر) [1] قال الحسن: أي: ينشق . فجاء على صيغة الماضي وهي للمستقبل ، إما لتحقيق أمره ووجوب وقوعه ، أو لتقارب/وقته . أو لأن المعنى مفهوم أنه في المستقبل ، فلا يلتبس ، وعلى هذا نظائر هذا القول ، كقوله: (وإذ قال [الله] يا عيسى ابن مريم) ، وقوله: (ونادى أصحاب الجنة) ، وغيرهما . قال الحطيئة:

1180- شهد الحطيئة يوم يلقى ربه أن الوليد أحق بالعذر . والذي يدل على هذا القول: أنه لو انشق لما بقي أحد إلا رآه . وقال القاضي الماوردي ، وهذا على طريق الاستعارة والمثل لوضوح الأمر ، كما يقال في الأمثال: (الليل طويل وأنت مقمر) . قال الشنفري:

1181- أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى أهل سواكم لأميل 1182- وقد

حمت الحاجات والليل مقمر وشدت [لطيات] مطايا [وأرحل] . وقال الجعدي:

1183- فلما أدبروا ولهم دوي دعانا حين شق الصبح داعي

وأكثر الناس على ظاهر الأمر ، وأن القمر انشق بنصفين حين سأله حمزة بن عبد المطلب .

وعن ابن مسعود قال: "رأيت القمر منشقاً شقين ، شقة على أبي قبيس ، وشقى على السويداء ، فقالوا: سحر القمر" .

(خاشعاً أبصارهم) [7] ثم الفعل إذا تقدم على المؤنث والجمع جاز تذكيره وتوحيده ، فكذلك الصفة الجارية مجراه ، كما قال الشاعر: 1184- وشباب حسن أوجههم من إياد بن نزار بن معد . [وأما] قراءة "خشعاً" ، فعلى هذا الأصل كان من حق "خاشع" أن يجمع على "الخاشعين" جمع التصحيح ، أي: يشابه الفعل ، لأنك تقول في الفعل: "يخشعون" ، ولكنه بالأسماء التي ليست بصفة ، فوقع (خشعاً أبصارهم) موقع "خاشعة" ليدل على تأنيث الأبصار .

(25/735)

وانتصاب/القراءتين من الضمير في يخرجون ، فتقدمت الحال . والمعنى بهما: ذلة الأبصار ، فإن هذه العوارض إنما [تظهر] في البصر ، كما قال زهير في موضعين من شعره ، أحدهما:

1185- لسانك لي حلو ونفسك مرة وخيرك كالمرقاة في جبل وعر 1186- تبين لي عيناك ما أنت كاتمي ولا جن بالبغضاء والنظر الشزر . والآخر: 1187- فإن تك في عدو أو صديق يخبرك العيون عن القلوب

1188- فلا تكثر على ذي الضغن عتباً ولا ذكر التجرم للذنوب . (مهطعين إلى الداع) [8] مسرعين . وقيل: ناظرين . وقيل: مستمعين ، كما قال الشاعر: 1189- بدجلة دارهم ولقد أراهم بدجلة مهطعين إلى السماع .

(فالتقى الماء) [12] أي: التقى المياه ، لأن الجنس كالجمع . (على أمر قد قدر) [12] أي: في أم الكتاب ، وذلك الأمر إهلاكهم . (ودسر) [13] المسامير التي يدسر بها السفن ويشد ، واحدهما دسار . وقيل: صدور السفن ، لأنها تدسر الماء ، أي: تدفعها .

(تجري بأعيننا) [14] بمرأى منا . وقيل: بوحينا وأمرنا . (جزاء لمن كان كفر) [14] جزاءً لهم لكفرهم بنوح .

[فاللام] الأولى التي هي مفعول بها محذوفة ، واللام الثانية الظاهرة في قوله: (لمن كان كفر) [لام المفعول له ، وهنا مضاف محذوف ، أي: جزاء لهم ، لكفر من كفر] ، أي: لكفرهم ، من كفروا به ، فهذا واضح ، وقول الزجاج أوضح ، أي: فعلنا ذلك جزاء لما صنع به .

(مدكر) [15] مفتعل من الذكر ، وكان متذكراً فأدغم . (يوم نحس) [19] يوم ريح ، والدبور من بين الرياح يسمى النحس ، كما قال أوس بن حجر: 1190- بجنبي [حبي]

ليلتين كأنما يفرط نحساً أو يفيض بأسهم 1191- فجلجلها طورين ثم أجالها [كما]

أرسلت [مخشوبة] لم تقرم

(تنزع الناس) [20]/تخلعهم [ثم] ترمي بهم على رؤوسهم. (أعجاز نخل) [20]

أصولها التي قطعت فروعها. (منقعر) منقلع من مكانه، ساقط على الأرض. سئل المبرد

عن "المنقعر" في هذا الموضع، و"الخاوية" في موضع آخر؟!

(26/735)

فقال: للقائل في هذا الباب اختياران، إن شاء رده إلى اللفظ تذكيراً، وإن شاء إلى المعنى

تأنيثاً. (ضلال وسعر) [24] أي: إن فعلنا ذلك كنا على خطر عظيم، كمن هو في النار،

أي: النار التي تنذرنا بها، كأنهم قالوا تركنا دين آبائنا، أو التعير بذلك كدخول النار.

وقيل: إن السعر: الجنون، كما قال امرؤ القيس: 1192- وسالفة كسحوق الليان أضرم

فيها الغوي السعر

وأنشد أبو عبيدة: 1193- [تخال] بها سعراً إذا العيس هزها ذميل وتوضيع من السير

متعب. فيكون على هذا حركة عين السعر، كما قال الأعشى: 1194- وإذا الغيث

صوبه وضع القدح وجن التلاع والآفاق 1195- لم يزدهم سفاهة شرب الخمر ولا اللهو

فيهم والسباق. (المحتظر) [31]

صاحب الحظية [التي] فيها الهشيم، وتفسير الهشيم والحاصب قد مضى. (أم يقولون نحن جميع) [44] أي: يدلون بكثرتهم فسيهزمون. (خلقناه بقدر) [49] قال الحسن: قدر الله لكل خلق قدره الذي ينبغي له. (وما أمرنا إلا واحدة) [50] أي: مرة واحدة، أو كلمة واحدة، أو إرادة واحدة. (أشياعكم) [51] أشباهكم. (ونهر) [54] أي: سعة العيش، كما قال ابن الخطيم:

1196- ملكت بها كفي فأنهرت فتقها يرى قائم من خلفها ما وراءها.

[تمت سورة القمر]. انتهى انتهى. اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 1410.1423 ﴾

(27/735)

وقال الأخفش:

سورة (القمر)

﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾

قال ﴿ خُشَّعاً ﴾ نصب على الحال، اي يخرجون من الاجداث خشعا. وقرأ بعضهم ﴿ خاشِعا ﴾ لأنها صفة مقدمة فأجراها مجرى الفعل نظيرها ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ﴾.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾

وقال ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ و ﴿ يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ على الصفة .

﴿ فَقَالُواْ أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ﴾

وقال ﴿ أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ ﴾ فنصب البشر لما وقع عليه حرف الاستفهام وقد اسقط الفعل على شيء من سببه .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾

وقال ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ فجعل للجماعة دبرا واحدا في اللفظ . وقال ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ وقال ﴿ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ .

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾

وقال ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ فجعل المس يذاق في جواز الكلام ويقال: "كيفَ وَجَدْتَ طعمَ الضَرْبِ" ؟ وهذا مجاز . واما نصب ﴿ كلّ ﴾ ففي لغة من قال "عبدَ اللهِ ضَرَبْتُه" وهو في كلام العرب كثير . وقد رفعت "كلٌّ" في لغة من رفع ورفعت على وجه آخر .

[173ء] قال ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ ﴾ فجعل ﴿ خَلَقْنَاهُ ﴾ من صفة الشيء .

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾

وقال ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ فجعل الخبر واحدا على الكل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 528.529 ﴾

(28/735)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة القمر

مكية كلها

1 - اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ أي قربت .

2 - سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ أي شديد قويّ . وهو من «المرّة» مأخوذ .

والمرة : الفتل ، يقال : استمرت مريرته .

ويقال : هو من «المرارة» . [يقال] : امر الشيء واستمر [إذا صار مرّا] .

4 - ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ أي متّعظ ومنتهى .

6 - إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ أي منكر .

8 - مُهْطِعِينَ قال أبو عبيدة : مسرعين إِلَى الدَّاعِ .

وفي التفسير : «ناظرين قد دفعوا رؤوسهم إلى الداعي» .

9 - وَازْدُجِرَ أي زجر . وهو : «افتعل» من ذلك .

11 - بِماءٍ مُنْهَمِرٍ أي كثير سريع الانصباب . ومنه يقال : همر الرجل ، إذا اكثر من الكلام وأسرع .

(29/735)

---

12 - فَالْتَقَى الْماءُ أي التقي ماء الأرض وماء السماء .

13 - و(الدسر) : المسامير ، واحدها : «دسار» . وهي أيضا :

الشّرط التي تشدّ بها السفينة .

14 - تَجْرِي بِأَعْيُنِنا أي بمرأي منا وحفظ ، جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ يعني : نوحا - عليه السّلام - ومن حمله معه من المؤمنين .

و«كفر» : جحد ما جاء به .

15 - و51 - فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ أي معتبر ومتعظ «1» . وأصله «مفتعل» من الذكر : «مذتكر» . فأدغمت الذال في التاء ، ثم قلبتا دالا مشدّدة .

16 - ،

18 - ،

21 - ،

30 - فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ جمع نذير . و«نذير» بمعنى الإنذار ، أي فكيف كان عذابي وإنذاري . ومثله : «النّكير» بمعنى الإنكار .

17 - ،

22 - ،

32 - ،

40 - وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ أي سهلناه للتلاوة .

ولولا ذلك : ما أطلق العباد ان يلفظوا به ، ولا ان يستمعوا [له] .

19 - (الصرصر) : الريح الشديدة ذات الصوت .

فِي يَوْمِ نَحْسٍ أي في يوم شؤم مُسْتَمِرٍّ أي استمر عليهم بالنحوسة .

20 - تَنْزِعُ النَّاسَ أي تقلعهم من مواضعهم ، كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ أي أصول نخل ، مُنْقَعِرٍ : منقطع ساقط . يقال : قعرته فأنقعر ، أي قلعته فسقط .

24 - إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ أي جنون . وهو من - «تسعّرت

---

(1) قال مجاهد : يسرنا هونا قرأته . [. . . . .]

النار» : إذا التهبت . يقال : ناقة مسعورة ، أي كأنها مجنونة من النشاط .

25 - ، 26 - و(الأشر) : المرح المتكبر .

27 - ، 28 - إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ ، أي مخرجوها فِتْنَةً لَهُمْ ، فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ، وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ وبين الناقة : لها يوم ، ولهم يوم .

كُلُّ شِرْبٍ أي كل حظ منه لأحد الفريقين مُحْتَضَرٌ : يحتضره صاحبه ومستحقه .

29 - فَتَعاطى أي تعاطى عقر الناقة ، فَعَقَرَ أي قتل .

و«العقر» قد يكون : القتل ،

قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم - حين ذكر الشهداء - : «من عقر جواده ، وهريق دمه» .

31 - فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ و«الهشيم» : يابس النبت الذي يتهشّم ، أي تكسر .

و«المحتظر» صاحب الحظيرة . وكأنه يعني : صاحب الغنم الذي يجمع الحشيش في الحظيرة لغنمه .

ومن قرأه الْمُحْتَظِرِ بفتح الظاء ، أراد الحظار ، وهو : الحظيرة .

ويقال : (المحتظر) هاهنا : الذي يحظر على غنمه وبيته بالنبات ، فييبس ويسقط ، ويصير هشيما بوطء الدوابّ والناس .

36 - فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ أي شكوا في الإنذار .

43 - أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ ؟ ! أي يا أهل مكة ! أنتم خير من أولئك الذين أصابهم العذاب ؟ ! أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ من العذاب فِي الزُّبُرِ ؟ ! يعني : الكتب المتقدمة . واحدها : «زبور» .

45 - سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ : يوم بدر ، وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ .

(31/735)

---

53 - مُسْتَطَرٌ أي مكتوب : «مفتعل» من «سطرت» : إذا كتبت . وهو مثل «مسطور» .

54 - إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ . قال الفراء : «وحّد : لأنه رأس آية ، فقابل بالتوحيد رؤوس الآي» .

قال : ويقال : «النهر : الضياء والسعة ، من قولك : أنهرت الطعنة ، إذا وسعتها . قال قيس بن الخطيم يصف طعنة :

ملكت بها كفى ، فأنهرت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها

أي وسعت فتقها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 373.376 ﴾

(32/735)

وقال الغزنوى :

فسئل عن البرطمة ، فقال : الإعراض «1» .

سورة [القمر] «2»

1 وَانْشَقَّ الْقَمَرُ : قال الحسن «3» : أي ينشق ، فجاء/ المستقبل على [93/أ] صيغة الماضي لوجوب وقوعه . أو لتقارب وقته . أو لأنّ المعنى مفهوم أنّه في المستقبل .

وقيل : إنه على الاستعارة والمثل لوضوح الأمر كما يقال في المثل :

اللّيل طويل وأنت مقمر .

والمنقول المقبول «4» أنه على الحقيقة ، انشق القمر نصفين حين سأله حمزة «5» بن عبد المطلب فرآه جلة الصّحابة . . . . .

---

(1) نص هذه الرواية عن مجاهد في تفسير البغوي : 4/ 257 .

وأخرج - نحوه - الطبري في تفسيره : 27/ 83 عن مجاهد ، وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 667 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن مجاهد أيضا .

(2) في الأصل «الساعة» ، والمثبت في النص عن «ك» و«ج» .

(3) نقله الماوردي في تفسيره : 4/ 135 ، والقرطبي في تفسيره : 17/ 126 .

وذكره ابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 88 دون عزو ، وعقّب عليه بقوله : «و هذا القول الشاذ لا يقاوم الإجماع ، ولأن قوله : وَانْشَقَّ لفظ ماض . وحمل لفظ الماضي على المستقبل يفتقر إلى قرينة تنقله ودليل ، وليس ذلك موجودا .

وفي قوله : وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا دليل على أنه قد كان ذلك» . اه – .

وانظر رد أبي حيان في البحر المحيط : 8/ 173 لقول الحسن .

(4) ورد في ذلك أخبار صحيحة كثيرة .

ينظر ذلك في صحيح البخاري : (6/ 52 ، 53) ، كتاب التفسير ، تفسير سورة اقتربت الساعة .

وصحيح مسلم : 4/ 2158 كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب «انشقاق القمر» .

وأسباب النزول للواحدي : 462 ، وتفسير ابن كثير : (7/ 447 – 450) .

(5) ذكره الماوردي في تفسيره : 4/ 135 ، والقرطبي في تفسيره : 17/ 126 .

والذي ورد في الصحيح أن أهل مكة هم الذين سألوا وطلبوا أن يريهم آية ، فكانت هذه المعجزة العظيمة .

(33/735)

وقال ابن مسعود «1» : رأيت شقة من القمر على أبي قبيس «2» وشقة على السّويداء «3» . فقالوا : سحر القمر .

ولا يقال : لو انشق لما خفي على أهل الأقطار لجواز أن يحجبه اللّه عنهم بغيم .

2 سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ : من السّماء إلى الأرض «4» . وقيل «5» : شديد محكم .

استمرّ الأمر : استحكم ، وأمّره : أحكمه «6» .

3 وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ : أي للجزاء «7» .

---

(1) أخرج الحاكم هذا القول عن ابن مسعود في المستدرك : 2/ 471 ، كتاب التفسير : «سورة القمر» وقال : «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . . .» ، ووافقه الذهبي .

وأخرجه - أيضا - البيهقي في الدلائل : 2/ 265 .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 670 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن مردويه عن ابن مسعود رضي اللّه عنه .

وأخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود أنه قال : «انشق القمر على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فرقتين ، فرقة فوق الجبل وفرقة دونه . فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : اشهدوا» .

صحيح البخاري : 6/ 52 ، كتاب التفسير ، «تفسير سورة اقتربت الساعة» .

وصحيح مسلم : 4/ 2158 ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب «انشقاق القمر» .

(2) أبو قبيس : جبل معروف بمكة المكرمة .

معجم البلدان : (1/ 80 ، 81) .

(3) السّويداء : موضع بمكة المكرمة تلى الخندمة ، والخندمة : بفتح الخاء المعجمة – أحد جبال مكة يطل على أبي قبيس من جهة الشرق .

ينظر أخبار مكة للفاكهي : 4/ 47 ، والروض المعطار : (222 ، 223) .

[. . . . .]

(4) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 135 عن مجاهد .

وذكره القرطبي في تفسيره : 17/ 128 ، وأبو حيان في البحر المحيط : 8/ 174 دون عزو .

(5) هذا قول أبي عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 240 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 431 ، ونقله القرطبي في تفسيره : 17/ 127 عن أبي العالية ، والضحاك .

(6) تفسير البغوي : 4/ 258 ، واللسان : 5/ 169 (مرر) .

(7) معاني القرآن للزجاج : 5/ 85 ، وتفسير الماوردي : 4/ 136 ، وتفسير البغوي : 4/ 258 ، وزاد المسير : 8/ 89 .

---

5 حِكْمَةٌ بالِغَةٌ: نهاية الصّواب.

4 مُزْدَجَرٌ: منتهى «1»، مفتعل من «الزّجر»، أبدلت التاء دالا لتؤاخي الزاي بالجهر «2».

و«النكر»: «3» ما تنكره النّفس. صفة ك «جنب».

7 خاشعا «4» أبصارهم: لم يجمع خاشعا وأجرى مجرى الفعل أن «5» تخشع «6» أبصارهم، ووصف الأبصار بالخشوع لأنّ ذلة الذليل وعزّة العزيز في نظره.

8 مُهْطِعِينَ: مسرعين «7»، وقيل «8»: ناظرين لا يقلعون البصر.

12 فَالْتَقَى الْماءُ: التقى المياه، إذ الجنس كالجمع. أو التقى ماء السماء، وماء الأرض «9».

وكانت السّفينة تجري بينهما.

عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ: في أمّ الكتاب، وهو إهلاكهم.

---

(1) ينظر معاني القرآن للفراء: 3/ 104، وتفسير الطبري: 27/ 89، ومعاني الزجاج: 5/ 85.

(2) عن معاني القرآن للزجاج: 5/ 85 ، وانظر إعراب القرآن للنحاس: 4/ 286 ، وتفسير القرطبي: 17/ 128 .

(3) من قوله تعالى: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ: آية: 6 .

(4) ينظر التبيان للعكبري: 2/ 1192 ، والبحر المحيط: 8/ 175 .

(5) هذه قراءة حمزة، والكسائي، وأبي عمرو، كما السبعة لابن مجاهد: 618 ، والتبصرة لمكي: 340 ، والتيسير للداني: 205 .

(6) في «ك» و«ج»: أي تخشع .

(7) هذا قول أبي عبيدة في مجاز القرآن: 2/ 240 ، واختاره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن:

233 ، وذكره مكي في تفسير المشكل: . 329

(8) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج: 5/ 86 . وانظر معاني الفراء: 3/ 106 ، وتفسير الطبري: 27/ . 91

(9) ينظر هذا القول في معاني القرآن للفراء: 3/ 106 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة: 2/ 240 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 432 ، وتفسير الطبري: 27/ 92 ، ومعاني الزجاج:

5/ 87 ، وتفسير البغوي: 4/ 260 .

وفي الحديث «1» : «خلقت الأقوات قبل الأجساد وخلق القدر قبل البلاء» .

13 وَدُسُرٍ : المسامير التي تدسر بها السّفن وتشدّ ، واحدها دسار «2» .

14 تَجْرِي بِأَعْيُنِنا : بمرأى منا «3» . أو بوحينا وأمرنا «4» .

جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ : جزاء لهم لكفرهم بنوح عليه السلام .

أو فعلنا ذلك جزاء لنوح فنجيناه ومن معه وأغرقنا المكذّبين جزاء لما صنع به .

15 فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ : طالب علم فيعان عليه ، وهو «مذتكر» مفتعل من الذكر فأدغم «5» .

19 يَوْمِ نَحْسٍ : يوم ريح النحس الدّبور .

مُسْتَمِرٍّ : دائم الهبوب .

[39/ب] 20 تَنْزِعُ النَّاسَ : تقلعهم من حفر حفروها للامتناع/ من الريح ، ثم ترمي بهم على رؤوسهم فيدقّ رقابهم .

كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ : أصولها التي قطعت فروعها «6» .

---

(1) أخرجه الطبري في تفسيره : 27/ 93 عن محمد بن كعب القرظي بلفظ : «كانت

الأقوات قبل الأجساد ، وكان القدر قبل البلاء» .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 675 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن محمد بن كعب رحمه اللّه تعالى . [. . . . .]

(2) ينظر معاني الفراء : 3/ 106 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 240 ، والمفردات : 169 ، واللسان : 4/ 285 (دسر) .

(3) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 432 ، واختاره الطبري في تفسيره : 27/ 94 ، وانظر تفسير البغوي : 4/ 260 ، وزاد المسير : 8/ 93 ، والبحر المحيط : 8/ 178 .

(4) نقله الماوردي في تفسيره : 4/ 137 عن الضحاك ، وعزاه البغوي في تفسيره : 4/ 260 إلى سفيان .

(5) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 240 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 432 ، وتفسير الطبري : (27/ 95 ، 96) ، ومعاني الزجاج : 5/ 88 .

(6) معاني القرآن للفراء : 3/ 108 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 241 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 433 ، وتفسير الطبري : 27/ 99 .

مُنْقَعِرٍ : منقلع عن مكانه ، و«كأنّ» في موضع الحال ، أي : تنزعهم مشبهين بالنخل المقلوع من أصله «1» .

22 وَلَقَدْ يَسَّرْنَا : أعيد ذكر [التيسير] «2» ليتبين عن أنه يسّر بهذا الوجه من الوعظ كما يسّر بالوجه الأول . أو يسّر بحسن التأليف للحفظ كما يسّر بحسن البيان للفهم .

24 ضَلَالٍ وَسُعُرٍ : أي تركنا دين آبائنا . أو التغير به كدخول النّار التي تنذرنا بها «3» . وقيل «سعر» : جنون ناقة مسعورة «4» .

29 فَنَادَوْا صاحِبَهُمْ : نادى مصدع بن زهير «5» قدار «6» بن سالف بعد ما رماه مصدع سهمه «7» [فعقرها قدار] «8» .

---

(1) عن معاني القرآن للزجاج : 5/ 89 .

وانظر إعراب القرآن للنحاس : (4/ 291 ، 292) ، والتبيان للعكبري : 2/ 1194 ، وتفسير القرطبي : 17/ 137 .

(2) في الأصل : «اليسير» ، والمثبت في النص عن هامش الأصل الذي أشار ناسخه إلى وروده في نسخة أخرى .

(3) ذكره الماوردي في تفسيره : 4/ 139 .

(4) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 433 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 89 ، والبحر المحيط : 8/ 180 ، واللسان : 4/ 366 (سعر) .

(5) في المحبّر لابن حبيب : 357 «مصدع بن دهر» ، وفي المعارف لابن قتيبة : 29 ، والبداية والنهاية : 1/ 127 : «مصرع بن مهرج» .

قال ابن قتيبة : «كان رجلا نحيفا طويلا أهوج مضطربا» .

(6) قدار بن سالف : هو عاقر الناقة في ثمود ، وكان رجلا قويا في قومه .

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : 8/ 437 : «كان هذا الرجل عزيزا فيهم ، شريفا في قومه ، نسيبا رئيسا مطاعا .

وانظر المعارف لابن قتيبة : 29 ، والبداية والنهاية : 1/ 127 .

(7) في «ك» : بسهمه .

(8) ما بين معقوفين عن نسخة «ج» .

(37/735)

---

31 الْمُحْتَظِرِ : المبتني الحظيرة التي يجمع فيها الهشيم «1» ، و«الهشيم» : حطام العشب إذا يبس «2» ، ومثله الدّرين والثّنّ «3» .

الحاصب «4» : السحاب حصبهم بالحجارة «5» .

وآل لوط : ابنتاه زعورا وريثا «6» .

37 وَنُذُرِ : هو الإنذار . ك [النكر] «7» . أو جمع «نذير» «8» .

44 أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ : أي : يدلّون بكثرتهم «9» .

45 سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ : أي : يوم بدر «10» ، وهذا من آياته صلى اللّه عليه وسلم .

---

(1) تفسير غريب القرآن : 434 . [. . . . .]

(2) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 241 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 434 ، وتفسير المشكل لمكي : 330 ، والمفردات للراغب : 543 ، واللسان : 12/ 612 (هشم) .

(3) الدّرين : يبيس الحشيش وكل حطام من حمض أو شجر .

والتّنّ : اليابس من العيدان .

ينظر اللسان (13/ 83 ، 153) (ثنن ، درن) .

(4) من قوله تعالى : إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ آية : 34 .

(5) ذكر الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 141 دون عزو .

(6) جاء في هامش الأصل : «الصحيح «ربثا» بالباء المنقوط بواحدة من تحت» ونقل ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 141 عن مقاتل أن اسميهما : ريثا وزعرثا ، وعن السدي

: رية وعروبة .

(7) في الأصل : النكير ، والمثبت في النص عن «ج» .

(8) ينظر المفردات للراغب : 487 ، وتفسير القرطبي : 17/ 129 ، والبحر المحيط : 8/ 182 .

(9) عن معاني القرآن للزجاج : 5/ 91 .

(10) يدل عليه ما أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال وهو في قبة يوم بدر : اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم ، فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك يا رسول اللّه ألححت على ربك وهو يثب في الدرع فخرج وهو يقول : (سيهزم الجمع ويولون الدّبر) اه - .

صحيح البخاري : 6/ 54 ، كتاب التفسير ، تفسير سورة اقتربت الساعة .

وعدّ المؤلف - رحمه اللّه - هذه الآية من معجزات النبي صلى اللّه عليه وسلم لأن هذه السورة مكية ونزلت قبل وقعة بدر بسنين عديدة .

(38/735)

48 ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ : هو كقولك : وجدت مسّ الحمّى «1» .

49 خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ : قدّر اللّه لكل خلق قدره الذي ينبغي له .

50 وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ : مرة واحدة . أو كلمة واحدة . أو إرادة واحدة «2» .

54 وَنَهَرٍ : سعة العيش «3» . أو وضع موضع «أنهار» على مذهب الجنس . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 783.777 ﴾

---

(1) تفسير الطبري : 27/ 110 .

(2) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 110 ، وزاد المسير : 8/ 102 ، وتفسير القرطبي : 17/ 149 .

(3) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 143 عن قطرب .

وذكر نحوه البغوي في تفسيره : 4/ 266 عن الضحاك .

(39/735)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة القمر

عدد 37 - 54

نزلت بمكة بعد طارق ، عدا الآيات 44 و45 و46 فانها نزلت بالمدينة ، وهي خمس وخمسون آية وثلاثمائة واثنتان وأربعون كلمة ، والف وأربعمائة وثلاثة عشر حرفا ، وتسمى سورة اقتربت ويوجد سورة الأنباء مبدوءة بلفظ اقترب ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به في القرآن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "اقْتَرَبَتِ" وفي وقت "السَّاعَةُ" القيامة "وَانْشَقَّ الْقَمَرُ 1" انشقاقا حقيقيا علامة على قربها ومعجزة لرسول اللّه ، والسبب في نزول هذه الآية ، أن قريشا سألت رسول اللّه أن يريهم آية دالة على صدقه في ادعاء النبوة ، لأنهم لم يعتبروا بما نزل في القرآن الذي هو أعظم آية وأدومها ولم يكتفوا به فأراهم انشقاق القمر مرتين ، أخرجه البخاري ومسلم عن أنس وزاد الترمذي : فنزلت هذه السورة أي عدا الآيات المدنيات .

وقوله مرتين قيد للرؤية وتعددها لا يقتضي تعدد الانشقاق بأن يكون رآه منشقا ، فصرف نظره عنه ثم أعاده فرآه كذلك لم يتغير .

وفيه إشارة إلى أنها رؤية لا شبهة فيها .

وقد فعل نحوه الكفرة لأنهم لما رأوه مسحوا أبصارهم ثم أعادوا النظر فلما رأوه لم يتغير قالوا ما هذا إلا سحر فلو قال أحد هؤلاء رأيته ثلاث مرات أو أكثر صح بلا غبار .

قال الأبوصيري رحمه اللّه :

شق عن صدره وشق له البدر ومن شرط كل شرط جزاء

مطلب معجزة انشقاق القمر :

فتعدد الرؤية لا يقتضي تعدد الانشقاق إذ لم يقل به أحد ، وأخرجا عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول اللّه شقتين فقال صلّى اللّه عليه وسلم اشهدوا : وفي رواية قال : بينما نحن مع رسول اللّه إذ انفلق القمر فلقتين ، فلقة فوق الجبل وفلقة أدناه فقال لنا صلّى اللّه عليه وسلم اشهدوا .

ولا يعارض هذا ما صح عن أنس أن ذلك كان بمكة

(40/735)

لأنه لم يصرح بأنه كان ليلتئذ بمكة فالمراد أن الانشقاق كان والنبي صلّى اللّه عليه وسلم مقيم بمكة أي قبل الهجرة .

ولهما عن ابن عباس قال : إن القمر انشق في زمن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم .

وروى مسلم عن ابن عمر قال : انشق القمر على عهد رسول اللّه فلقتين فستر الجبل فلقة وكانت فلقة فوق الجبل ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم : اشهدوا .

وعن جبير بن مطعم قال : انشق القمر على عهد رسول اللّه فصار فلقتين فقالت قريش

سحر محمد أعيننا فقال بعضهم لئن كان سحرنا أما يستطيع أن يسحر الناس كلهم ؟

أخرجه الترمذي ، وزاد غيره : فكانوا يتلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم قد رأوه فيكذبونهم .

وروى مسروق عن عبد اللّه بن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول اللّه فقالت قريش سحركم ابن أبي كبشة فسألوا السفارة فقالوا نعم رأيناه .

وقال مقاتل انشق ثم التأم .

(41/735)

فهذه الأحاديث مصدق بعضها لبعض وكلها صحاح ، قد وردت في هذه المعجزة العظيمة مع شهادة القرآن بها الذي هو أول دليل وأقوى شاهد مثبت لوقوعها ، ولا يشكّ فيها مؤمن ، وقد أخبر بها الصادق المصدوق ، وناهيك باخباره من برهان ، فيجب الاعتقاد بوقوعه والإيمان به ، وذلك في السنة السادسة من البعثة ولا يقدح في صحة الحديثين المرويين عن ابن عباس وأنس كونهما لم يولدا إذ ذاك لأنهما ثقتان ولا ينقلان إلا عن ثقة كما هو المشهور عنهما وأنهما لم يقولا رأيناه انشق ليقدح في رؤيتهما وإنما يخبران عن الانشقاق الذي بلغهم عن رسول اللّه وهما أصدق صادق فيما يخبران به ، ولا يقال لو كان لما خفي على أهل

الأقطار الأخر ولو رأوه لنقلوه متواترا لأن الطباع جبلت على نشر العجائب ، إذ يجوز ان اللّه حجبه عنهم بغيم أو نحوه ولا سيما أنه وقع ليلا حال غفلة الناس لقلة من يتفكر في ملكوت السموات ، وكثيرا ما يخسف القمر وتكسف الشمس ويحدث في السماء ليلا من العجائب والبدائع والأنوار والطوالع والشهب العظام ، ولا يتحدث بها إلا آحاد الناس لغفلة الآخرين عنها ، ولأنها قد تكون في موضع آخر ، وكثيرا ما نقرأ الآن في الصحف على سبيل التواتر أن الشمس كسفت في محل كذا والقمر خسف في مكان كذا ، ولم نر شيئا من ذلك في بلادنا ، تأمل على أن الركبان

(42/735)

و المسافرين الذين قدموا مكة وخرجوا منها إذ ذاك أخبروا بوقوع ذلك كما ثبت بالأحاديث الصحيحة التي درجت آنفا وغيرها مما لم يدرج كثير ، ويجوز أن يكون القمر في مجرى ومنزلة يظهر فيه لبعض الأماكن دون بعض كما يكون ظاهرا عند قوم غائبا عند آخرين ، هذا ولم ينكر هذه المعجزة المشهورة المشهودة الا المبتدعة والملاحدة الذين أعمى اللّه أبصارهم كما أعمى بصائرهم وطبع على قلوبهم ولا صحة لهم بعدم معقوليتها لأن العقل يجوزها ، إذ أن القمر مخلوق للّه يفعل به خالقه ما يشاء ، فكما أنه يسلب نوره ويفنيه

ويكوره في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة ، يفلقه في الدنيا معجزة لنبيه على أن المعجزات هي نفسها خوارق للعادات يظهرها اللّه على أيدي رسله لإيمان البشر وهي فوق العقل ، فهل إحياء الموتى وجعل الطين طيرا معقول وإبراء الأكمه والأبرص دون عقاقير يقبله العقل ، فان إنكار ذلك يؤدي لإنكار هذا الذي يؤدي إنكاره إلى الكفر والعياذ باللّه ومثل انشقاق القمر وكسوف الشمس الثابت بالأحاديث الصحيحة بدعوته صلّى اللّه عليه وسلم عليه لعلي كرم اللّه وجهه حتى صلّى العصر حيث قال صلّى اللّه عليه وسلم اللهم انه كان في طاعتك وطاعة رسولك فاردد له الشمس فردت وصلّى الوقت فيها .

(43/735)

وهذا ثابت بالتواتر ، واختار العلامة ابن السبكي أن الأحاديث صحيحة ومتواترة كما جاء في شرح الواقف الشريفي في شرحه مختصر ابن الحاجب قال : الصحيح عندي الانشقاق وأنه متواتر ومنصوص عليه في القرآن ومروى في الصحيحين وغيرهما وقد جاء اخبار اللّه بلفظ الماضي لأن السورة نزلت بعد إظهار هذه المعجزة تحقيقا لوقوعها ومن قال إن الفعل بمعنى المضارع فقد أخطأ لإجماع المفسرين على خلافه ولأنه شاذ لا يصح ، باطل لا يثبت ، لان حمل الماضي على المستقبل يفتقر إلى قرينة تنقله أو دليل يدل عليه كما في قوله

تعالى (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) أول سورة النحل في ج 2 فان جملة فلا تستعجلوه أدت إلى نقله إلى المستقبل وهنا لا شيء من ذلك فتصور ذلك هنا بعيد عن الحقيقة وهو من قول المبتدعة والملحدين حتى ان حذيفة قرأ وقد انشق أي افتريت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق

وذلك تحقيقا لما ثبت عنده من أمر الانشقاق ، جعل الجملة حالية تقتضى المقارنة بزيادة قد التحقيق بقراءته من حيث لا وجود لها في القرآن تفسيرا منه لإثبات الانشقاق ، هذا وإن ما احتج به المنكر من استحالة الخرق والالتئام على الأجرام العلوية ولأن خرقها يوجب صوتا هائلا يهلك أكثر أهل الأرض ولذهاب قوة التجاذب يلزم بقاؤه منشقا كالجبل إذا انشق مردود أيضا ، لإن إرادة الله

كافية في الانشاق وفي كل المعجزات الخارقة للعادة ، ولو اشترط لكل حادث سبب لزم التسلسل ، وقد قامت الأدلة على بطلانه ، وكون الخرق يوجب صوتا هائلا ممنوع أيضا فيما نحن فيه ، وكذلك التجاذب لأن الأجسام مختلفة من حيث الخواص فلا يلزم اتخاذ جرم القمر والأرض فيها ويمكن أن يكون إحدى القطعتين كالجبل العظيم بالنسبة إلى الأرض إذا ارتفع عنها تعاسر مثلا جذبته اليه إذا لم يخرج عن حد جذبتها على زعمهم .

ويلتزم في تلك القطعة عدم الخروج عن حد الجذب .

على أننا في غنى عن ذلك كله بعد اثبات الإمكان وشمول قدرة القادر عز وجل ، وانكار هذا بحجة الخرق والالتئام تستوجب إنكار المعراج أيضا ، تدبر ما يحوكه هؤلاء الفسقة المارقون ، وأعلم أن غاية الحجة استبعاد هذا الأمر بدون دليل على الاستحالة الذاتية واستبعاد الخوارق جنون قد يؤدي إلى الكفر ، إذ لا مجال للعقل فيها أما إنكار الانشقاق نفسه من حيث الكيفية والكمية فلا يكفر فيه لامكان التأويل في الآية فقط فظهر من هذا أنه لا مانع عقلا ولا حسا من أن اللّه تعالى خلق السرعة في الانشقاق والالتئام بمقدار ما رآه الناس وأمعنوا نظرهم فيه للتأكيد عن صحته مرتين أو أكثر أما ما قاله الحكماء من أن بين الشمس والأرض ثلاثمائة الف فرسخ وأربعين الف فرسخ وأن ضوء الشمس يصل إلى الأرض في ثماني دقائق وثلاث عشرة ثانية ، وأن الضوء يقطع في كل ثانية سبعين الف فرسخ ، ويستبعدون الانشقاق لهذا السبب ، فيقال لهم : أن الذي خلق هذه السرعة في الشمس والضوء ألا يخلقها في الإنشقاق وهو الفعال لما يريد ، وهل من مانع يمنعه من ذلك وهو على كل شيء قدير ولا شيء عليه بعزيز .

هذا والمراد باقتراب الساعة المنوه به في

الآية القرب الزماني ، وكل آت قريب ، وإن ما بقي من الدنيا نسبة لما مضى منها يسير جدا لا يقدر أن يعارض به أحد وهو أمر مقطوع به ، واستعمال القرب في الآية كاستعمال لعل في

قوله تعالى (لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً) الآية 63 من الأحزاب في ج 3 وأن الأمر معلوم عند اللّه وانشقاق القمر آية ظاهرة على هذا القرب .

هذا وقد ذكرت الصحف الأجنبية مقالة عربتها جريدة الإنسان التي كانت بالأستانه حاصلها أنه عثر في ممالك الصين على بناء قديم مكتوب عليه أنه بني عام كذا أي الذي وقع فيه حادث سماوي عظيم ، وهو انشقاق القمر نصفين .

وقد حرر الحساب فوجد موافقا سنة انشقاقه لسيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم .

(45/735)

فينبغي لمن فيه مسكة من عقل ألا يرتاب في شيء مما جاءت به الشريعة الإسلامية .

وقد نقل هذا على ورقة التقويم العربي الهاشمي حمزة فتح اللّه في 11 جمادى الأولى سنة 1348 الموافق 13 تشرين الأول سنة 1929 قال تعالى : "وَإِنْ يَرَوْا آيَةً" من آيات اللّه الباهرة الدالة على صدق محمد الصادق الأمين "يُعْرِضُوا" هؤلاء الكفرة عنها ويولوها أدبارهم "وَيَقُولُوا" هذه "سِحْرٌ" سحرنا به محمد وقد قالوا ذلك فيما تقدم من آياته الظاهرة حتى انهم قالوه في هذه الآية بأنها سحر "مُسْتَمِرٌّ 2" مطرد دائم يأتينا بمثله ، وأنه وإن كان استمر وجود هذه الآية بضعة من الزمن فإنها ذاهبة لا تبقى فلا تصدقوا به ، وفي تنوين

(آية) دلالة على أنهم ينكرون كل الآيات لأن النكرة إذا نونت عمت فتشمل كثيرا من نوعها هذا وما ذكره بعض القصاص من أن القمر حينما انشق دخلت فلقة منه جيب رسول اللّه وخرجت من كمه وفلقة كللت رأسه صلّى اللّه عليه وسلم باطل لا أصل له ، إلا أنه شاع أن حضرة الرسول لما طلب منه بعض كفار قريش ، العاص بن هشام ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن عبد المطلب ، وربيعة بن الأسود ، والنضر بن الحارث ، واضرابهم المار ذكرهم في الآية 5 من سورة القيامة المارة أن يظهر لهم آية ليؤمنوا ، وكانت ليلة بدر فسأل ربه وأشار إلى القمر بسبابته الشريفة فانشق وبقي لحظات ثم التأم "وَكَذَّبُوا" بعد إظهار هذه الآية الباهرة "وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ" التي زينها لهم الشيطان ولم يصدقوا

(46/735)

بها وقالوا سحر مستمر ولكنه زائل مهما بقي "وَكُلُّ أَمْرٍ" يأتي به الرسول لا يكون سحرا وإنما هو حق ثابت "مُسْتَقِرٌّ 3" لا يتغير ولا يتبدل ويتبين أنه حق وهذه جملة مستأنفة مسوقة للرد على الكفار بمقابلة قولهم سحر مستمر ، وإنما قالوا مستمر ، لأن السحر لا يدوم وهو كذلك ولكنهم لما رأوا آيات الرسول متتابعة قالوا إن ما يأتي به سحر ولكنه مستمر "وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ" أخبار الأمم الماضية التي قصها عليهم والمعجزات التي

أظهرها على أيدي رسلهم من غير آيات محمد "ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ 4" منتهى الاتعاظ لو كانوا يؤمنون بمحمد وما أنزل عليه ولكنهم لم يتعظوا وأصل مزدجر مزتجر أبدلت التاء دالا لأنها حرف مهموس والزاي حرف مجهور فأبدل التاء المهموس بالدال المجهور ليتناسبا ، وهكذا كل تاء من هذا القبيل ومعناه الزجر والمنع .

(47/735)

واعلم أن هذا القرآن وحده "حِكْمَةٌ بالِغَةٌ" واصلة حد الإحكام في الوعظ فاذا لم ينتهوا به "فَما تُغْنِ النُّذُرُ 5" أي الأنبياء والرسل بعد القرآن "فَتَوَلَّ" يا سيد الرسل "عَنْهُمْ" فانهم لم ينتفعوا بوعظك وإرشادك لأنهم بعد اعراضهم عن إنذار اللّه لا يغنيهم إنذارك شيئا فاتركهم واذكر لهم "يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ" إسرافيل عليه السلام ويناديهم ببوقه في النفخة الثانية من قبورهم يقول لهم هلموا "إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ 6" فظيع هائل ينكرونه لعدم رؤيتهم مثله قبل وما قيل ان هذه الآية منسوخة لا قيمة له لأنه لم يؤمر بعد بقتالهم بل بإرشادهم تدريجا لأن الحكمة الإلهية اقتضت إنزال الشرائع تدريجا أمرا ونهيا ووعدا ووعيدا وإرشادا وانذارا وتبشيرا وتهديدا ، وهكذا من المقدمات التي اقتضتها الحكمة الإلهية ليتعظ من يتعظ ، وتحق الكلمة على المصر ، وتظهر الحكمة فيمن يؤمن فيقومون من مدافنهم "خُشَّعاً"

منصوب بالفعل بعده وفيه معنى الحال "أَبْصارُهُمْ" ذليلة خاضعة خائفة حين "يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ" القبور وما شابهها من مكامنهم وخص الأبصار مع أن كل الأعضاء ترجف وتختلج من شدة الهول ، لانها علامة على الحزن والذلة للأشقياء ، والفرح والعزة للسعداء ، قال :

والعين تعرف من عيني محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها

(48/735)

فتظهر الكآبة على وجه الفاسق ، والصباحة على وجه الطائع لأول وهلة "كَأَنَّهُمْ" في الكثرة "جَرادٌ مُنْتَشِرٌ 7" يموج بعضهم في بعض حيارى لا يعرفون أين يتوجهون وشبههم بالجراد لانه يركب بعضه بعضا عند سيره لكثرته وتفرقه في كل جهة حالة كونهم "مُهْطِعِينَ" مسرعين خائفين لا ينظرون إلا "إِلَى الدَّاعِ" أي لجهة صوته مادّين أعناقهم شاخصين بأبصارهم مهرولين نحوه وإذ ذاك "يَقُولُ الْكافِرُونَ" بعضهم لبعض "هذا يَوْمٌ عَسِرٌ 8" شديد الصعوبة وفي تخصيص الكافرين بشارة على أن المؤمنين يكون عليهم سهلا يسرا راجع تفسير الآيتين 25 - 26 من سورة الفرقان والآية 10 من سورة طه الآتيتين ، واعلم يا أكمل الرسل أن قومك لم يبتدعوا التكذيب حيث "كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا"

نوحا عليه السلام وكرره لأنه عاش فيهم ما لم يعشه نبي في قومه بالدعوة وعدم الإيمان وكلما كذب أهل قرن تبعه القرن الآخر ، إذ كانوا يتواصون أي أن كل جيل يوصي من بعده بعدم اتباعه وتصديقه ويقولون لهم إنه ساحر كذاب قاتلهم اللّه "وَقَالُوا" له مثل ما قال لك قومك "مَجْنُونٌ" ولم يقتصروا على تكذيبه ، بل إنهم منعوه عن أداء الرسالة التي كلفه ربه أداءها ، بدليل قوله "وَازْدُجِرَ 9" أي منع وهدد بالقتل عدا السب والشتم الذي فعلوا مثله بك وازدجر مثل مزدجر فعل به ما فعل به ، ولما ضاق بالسيد نوح الحال وتأكد عدم ايمانهم زهد فيهم ورفع يديه "فَدَعَا رَبَّهُ" وقال في دعائه يا رب "أَنِّي مَغْلُوبٌ" على أمري الذي أمرتني به من جهة قومي ولا قدرة لي عليهم "فَانْتَصِرْ 10" لي بنصرك الذي وعدتنيه وانتقم لي منهم وذلك بعد إياسه من قبول دعوته وايحاء اللّه له بعدم إيمانهم ، راجع الآية 36 من سورة هود ج 2 ، فأجاب دعاءه قال تعالى (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا) الآية 110 من سورة يوسف في ج 2 ،

(49/735)

ثم بين كيفية نصره له بقوله "فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ 11" متدفق بشدة انصبابه وعظمة نبعه

وكثرة هطوله المنبئ عنه قوله تعالى "وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً" شققناها عن عيون جارية "فَالْتَقَى الْماءُ" النازل من السماء مع النابع من الأرض "عَلى أَمْرٍ" حال ووقت "قَدْ قُدِرَ 12" زمانا ومكانا ، حسبما هو مقدر في علم اللّه وقوعه عليهم بهذه الصورة المقدرة على عدم ايمانهم بأن يخالفوا رسولهم ويموتوا غرقا ، فقضى عليهم قضاء مبرما لا مرد له فأهلكوا جميعا غيره ومن آمن به لقوله جل قوله "وَحَمَلْناهُ" أي نوحا وأهله المؤمنين ومن آمن به لأنهم تبع له "عَلى ذاتِ أَلْواحٍ" من الخشب "وَدُسُرٍ 13" مسامير "تَجْرِي" بهم تلك السفينة التي أمرنا بصنعها الموصوفة بصفة تقوم مقامها ونعت ينوب منابها ، وهو جائز إذا لم يفصل بينها وبين صفتها فاصل كما هنا ، وهو ومن فصيح الكلام وبديعه كما تقول حيّ مستقيم القامة عريض الأظفار كناية عن الإنسان ، ومنه قوله :

مفرشي صهوة الحصان ولكنّ قميصي مسرودة من حديد

أي أنه درع ، وقد يكون من باب حذف الموصوف لدلالة الصفة عليه حسب القواعد النحوية أي سفينة ذات ألواح ودسر ، وهو جائز فيما هو معلوم كهذه وجريانها ذلك "بِأَعْيُنِنا" ومرأى منا بحفظنا ورعايتنا ، وكان هلاكهم بهذه الكيفية "جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ 14" به وهو نوح عليه السلام لأنه كان نعمة لهم فكفروا به ، وهكذا كل نبي فإنه يرسل نعمة لقومه لينقذهم من الهلاك ، قال تعالى :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً) الآية 28 من سورة إبراهيم في ج 2 ، قال تعالى "وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا" أي تلك السفينة وأبقيناها "آيَةً" دالة على قدرتنا ليعتبر بها من رآها ومن يأت بعدهم "فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ 15" متعظ بها فيعتبر وعود الضمير هنا للسفينة على ما جرينا عليه لسبق ذكرها أولى من عوده إلى الواقعة أي الحادثة نفسها ، وهي الفعلة التي فعلها اللّه بهم وأبقى ذكرها مستمرا تتناقله الأجيال وتذكره الكتب القديمة والحديثة بأن أبقاها بأرض الجزيرة حتى رآها أوائل هذه الأمة ، وحتى الآن يشار إلى موضعها فيها . وأصل مدكر مذدكر ، أبدلت الدال والتاء دالين وأدغمتا في بعضها ، وهكذا كل كلمة من باب افتعل يفعل بها

(51/735)

هكذا ، قال تعالى "فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ 16" بحق المنكرين المكذبين وهذا الاستفهام تعظيم وتعجب أي أنهما كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف وستأتي القصة مفصلة في الآية 25 من سورة هود في ج 2 ، "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ" سهلناه لقومك يا محمد بأن جعلناه بلغتهم وشحناه بأنواع المواعظ والعبر والأمثال ، وكررنا فيه الوعد

والوعيد والقصص والأخبار "لِلذِّكْرِ" التذكر به "فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ 17" متعظ يعتبر به ، وهذه جملة قسم كررها الله في آخر هذه القصة والقصص الثلاث الآتية تقريرا لمضمونها وتنبيها على أن كل منها مستقلة بإيجاب الادكار كافية في الازدجار ، وفيها حث على تعليم القرآن ولزوم العمل به لأن الله يسره للكبير والصغير والعربي والعجمي ، ولما انتهى من ذكر قصة نوح مع قومه ذكر قصة أخرى فقال "كَذَّبَتْ عادٌ" نبيهم هودا عليه السلام "فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ 18" في هؤلاء المكذبين الآخرين وكيفية عذابهم الفظيع بعد أن وعظناهم ونصحناهم بواسطة رسلنا ولم يؤمنوا "فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً" شديدة الهبوب باردة ذات حول هائل "فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ 19" دائم الشؤم وهو مطلق الزمن لقوله تعالى في الآية 16 من سورة فصلت "فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ" وقال جل شأنه في الآية 7 من سورة الحاقة من ج 29 .

(سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً)

مطلب في أربعاء صفر وعيادة المريض .

قيل كان وقوع هذا الريح يوم الأربعاء من آخر شهر صفر قال ابن عباس آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر وأخذ به كثير من الناس وتطيروا منه حتى أنهم تركوا السعي فيه ونسبو لعلي كرم الله وجهه أنه قال :

وآخر أربعا في الشهر ترك . . . . . .

ولكن ابن عباس وسيدنا علي على فرض صحة ما نسب إليهما لم يعيناه في صفر ولكن الناس خصوه فيه ، وحتى الآن تراهم يتركون أعمالهم ويخرجون إلى النزهات ويعملون فيه أعمالا واهية كتكسير الجرار والسبح في الماء وغيرها من الترهات

مع أنه لم يثبت فيها شيء صحيح يركن اليه ، وجزم ابن الجوزي بوضع ما روي عن ابن عباس ، وقال ابن رجب لا يصح ورفعه غير متفق عليه .

وقال السخاوي طرقه كلها واهية وما جاء في الفردوس عن عائشة رضي اللّه عنها وعن أبيها لولا أن تكره أمتي لأمرتها أن لا يسافروا يوم الأربعاء إلخ غير معلوم الصحة .

وما أخرجه ابن يعلى عن ابن عباس يوم السبت يوم مكر وخديعة ، ويوم الأحد يوم غرس وبناء ، ويوم الاثنين يوم سفر وطلب رزق ، ويوم الثلاثاء يوم حديد وبأس ، ويوم الأربعاء لا أخذ ولا عطاء ، ويوم الخميس يوم طلب الحوائج والدخول على السلطان ، ويوم الجمعة يوم خطبة ونكاح قد ضعفه السخاوي ، وضعفوا أيضا خبر الطبراني وهو يوم الأربعاء يوم نحس مستمر ، إذ جاء في الأخبار ما يشعر بمدحه فقد جاء في منهاج الحليمي وشعب البيهقي أن الدعاء يستجاب يوم الأربعاء وذكر برهان الإسلام في شرح تعليم المتعلم نقلا عن

صاحب الهداية (ما بدأ شيء يوم الأربعاء إلا وتم) ، ولذلك فإن بعض المشايخ يبدأون تدريس طلبتهم فيه وروى عن جابر مرفوعا في غرس الأشجار يوم الأربعاء ، وقال سبحان الباعث الوارث آتته أكلها ، وهناك أخبار أخر منها ما رواه ابن ماجه ، وخرجه الحاكم عن ابن عمرو مرفوعا أيضا لا يبدو جذام ولا برص إلا يوم الأربعاء ومنها ما يفيد النهي عن قص الأظفار فيه وانه يورث البرص وكرّه بعضهم عيادة المريض فيه وفيه يقال :

لم يؤت في الأربعاء مريض إلا دفناه في الخميس

(53/735)

و لهذا فإن أهالي دمشق يتورعون عن عيادة المريض فيه وقد يغضب أهل المريض إذا وقع هذا ممن لا يعرفه ويولولون عند دخوله ، لهذا ينبغي التحاشي عن عيادة المريض يوم الأربعاء لمن يعتقد ذلك لما فيه من إلقاء الرعب على أهل المريض والمريض أيضا لأن العائد لم يقصد بعيادته إلا الأجر وسرور المريض واهله ، فإذا علم أن ذلك على العكس كان عليه التباعد عنه ، حكي أن رجلا قال لأخيه أخرج في حاجة فقال إنه في يوم الأربعاء ، فقال له : ولد فيه يونس عليه السلام ، قال قد بانت بركته في اتساع موضعه وحسن كسوته حتى خلصه اللّه .

فقال

فيه ولد يوسف عليه السلام ، قال ما أحسن ما فعل به إخوته حتى طال حبسه وغربته ، فقال فيه نصر المصطفى ، قال بعد أن زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر هذا وقد نسب الحافظ الوميطي لعلي كرم اللّه وجهه هذه الأبيات :

فنعم اليوم يوم السبت حقا لعيد إن أردت بلا امتراء

وفي الأحد البناء لأن فيه تبدى اللّه في خلق السماء

وفي الإثنين إن سافرت فيه سترجع بالنجاح وبالثراء

ومن يرد الحجامة فالثلاثا ففي ساعاته هرق الدماء

وإن شرب امرؤ يوما دواء فنعم اليوم يوم الأربعاء

وفي يوم الخميس قضاء حاج فإن اللّه يأذن بالقضاء

وهذا العلم لا يرويه إلا نبيّ أو وصيّ الأنبياء

(54/735)

قال الآلوسي لا أظنها تصح عنه ، وإن الأيام كلها لا تنفع ولا تضر بذاتها ومن تطيّر بها حاقت به نحوستها ، ومن أيقن بأنه لا يضر ولا ينفع إلا اللّه لم يؤثر فيه شيء ، وعلى فرض

صحة بعض الأخبار من حضرة الرسول من نحوسة آخر أربعا في الشهر من باب النظير ضرورة أنه ليس من الدين بل من فعل الجاهلية ، ولا يبني على قول المخمنين أنه يوم عطارد وهو نحس مع النحوس سعد مع السعود فإنه قول باطل أيضا ، ويجوز أن يكون من باب التخويف والتحذير عن مثل ذلك اليوم الذي نزل فيه العذاب ووقع فيه الهلاك أي احذروه وجددوا التوبة فيه خشية أن يلحقكم بؤس كما وقع فيمن قبلكم ، وهذا كما قال صلّى اللّه عليه وسلم حينما أتى الحجر : لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين .

وهكذا ينبغي أن لا يقف أحد في كل موضع وقع فيه عذاب اللّه على بعض خلقه ويتحاشى المرور فيه إلا لقصد الاعتبار وجاءت آثار في غير الأربعاء لم تصح أيضا ، منها نعوذ باللّه من يوم الأحد فإن له حدا أحد من السيف ، ولو فرض صحته فهو في يوم مخصوص علم بالوحي ما يحدث فيه .

ومنها ما جاء في الفردوس من حديث ابن مسعود : خلق اللّه الأمراض يوم الثلاثاء ، وفيه أنزل إبليس إلى الأرض ، وفيه

خلق اللّه جهنم ، وفيه سلط ملك الموت على أرواح بني آدم ، وفيه قتل قابيل هابيل ، وفيه توفي موسى وهارون ، وفيه ابتلي أيوب .

وهذا ان صح لا يدل على نحوسة ، وغاية ما فيه أنه وقع فيه ما وقع ، وجاء في رواية مسلم (خلف المنفق) أي ما يقوم به المعاش .

يوم الثلاثاء هذا والله أعلم أنه لا اختصاص ليوم أو ساعة بالنحس والسعد فما من يوم أو ساعة إلا وهما على أناس سعد ونحس على آخرين ، باعتبار ما يحدث الله تعالى فيهما على خلقه من نعم ونقم .

(55/735)

وإذا تتبعت التواريخ وجدت في كل يوم حوادث عظيمة ، وناهيك حادثة عاد فإنها استغرقت الأسبوع كله ، فإذا كانت النحوسة لذلك فلم يخل يوم منها فعلى العاقل أن لا يتقيد بشيء من ذلك ويتوكل على الله ، وليعلم أنه لا دخل للأوقات بما يوقعه الله فيها ، وهذا هو الحكم الشرعي في ذلك ، نعم جاء لبعض الأوقات فضل لا ينكر كيوم الجمعة والساعة فيه للإجابة ويوم عرفة وشهر رمضان وليلة القدر وليلتي العيدين ، وليلة البراءة ، والعاشر من المحرم ، ولبعضها ذم كالأوقات التي تكره فيها الصلاة والحال التي وقع فيها العذاب على الكافرين ولأيام التي كان الهلاك فيها بخصوصها لا مثلها ، فقد ثبت أن العنكبوت عشش على الغار الذي دخله محمد صلّى الله عليه وسلم وأبو بكر ، فهذا بخصوصه ممدوح أما غيره فلا ، فقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام اقتلوا العنكبوت فإنه شيطان .

وقس على هذا قال تعالى في وصف تلك الريح "تَنْزِعُ النَّاسَ" تقلعهم من محالهم فتدق رقابهم بالأرض فتصيرهم "كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ" أي أصولها من غير فروعها "مُنْقَعِرٍ 20" منقلع من مغارسه ساقط على الأرض ، أي كل واحد من قوم عاد صار كجذع نخل خاو لا حراك به وإنما شبههم بالنخل لطول قامتهم وعظم أجسادهم

"فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ 21" فانظروا أيها الناس وتفكروا فيه واستعيذوا من مثله بالله وتعجبوا منه "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ 22" يتذكر به ويتدبر عاقبة أمره ثم بدأ يذكر القصة الثالثة فقال : "كَذَّبَتْ ثَمُودُ" نبيهم صالحا "بِالنُّذُرِ 23" الرسل وجاء بلفظ الجمع ، لأن تكذيب واحد منهم كتكذيبهم كلهم ، لأنهم كلهم ت (19)

(56/735)

مرسلون من الله ، ومتفقون على أصول الدين والتشريع ، ولأن ثمود منحدرون من عاد التي كذبت هودا فلما كذبوا صالحا فكأنهم كذبوا هودا أيضا فمن قبله ، ثم بين صورة تكذيبهم بقوله : "فَقالُوا أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ" أي لا نتبع واحدا منا لأن الاستفهام انكاري ولا يجاب إلا بلا كما أن الاستفهام التقريري لا يجاب إلا ببلى مثل (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) وقالوا "إِنَّا إِذاً" إذا اتبعنا فردا من جنسنا "لَفِي ضَلالٍ" عن الصواب والسداد منحطين عن الحق

والهدى "وَسُعُرٍ 24" جنون أو جمع سعير أي في شدة من العذاب وهذه الجملة في الأصل قول صالح عليه السلام لهم بأنكم إذا لم تتبعوني تكونوا في ضلال عن الحق في الدنيا وفي سعر النار في الآخرة فعكسوا عليه قوله لتعنتهم وعتوهم المشعر به حكاية اللّه عنهم وقالوا "أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ" الوحي الذي يزعم أنه نزل "عَلَيْهِ" من ربه "مِنْ بَيْنِنا" وفينا من هو على زعمهم أحق منه به وهذا كقول قريش في الآية 31 من سورة الزخرف في ج 2 "بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ 25" متكبر حمله بطره لأن يتعظم علينا مع أن فينا من هو أحسن منه للنبوة ، فرد اللّه عليهم رد تهديد وتخويف بقوله عز قوله : "سَيَعْلَمُونَ غَداً" حين نزول العذاب بهم "مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ 26" هم أم هو "إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ" نختبرهم فيها هل يمتثلون أمرنا أم لا "فَارْتَقِبْهُمْ" يا صالح وانظر ماذا يفعلون بها "وَاصْطَبِرْ 27" على أذاهم ولا تعجل عليهم ، وأصل اصطبر اصتبر فأبدلت التاء طاء وهكذا كل ما كان فعله افتعل فان تاءه تقلب طاء ، وهو مبالغة اصبر "وَنَبِّئْهُمْ" يا رسولي "أَنَّ الْماءَ" الموجود في القرية هو "قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ" يوم للناقة ويوم لهم كلهم "كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ 28" في نوبته قال قوم صالح ان كنت نبيا فأخرج لنا من هذه الصخرة ناقة فدعا اللّه فأجابه

و امتحنهم بقسمة الماء فأبوا وأجمعوا على قتلها الدال عليه قوله "فَنادَوْا صاحِبَهُمْ" الذي أجمع رأيهم عليه بأن يتولى قتلها "فَتَعاطى" اجترأ دون اكتراث بأنها آية اللّه على صدق نبيهم "فَعَقَرَ 29" الناقة بالسيف الذي ناولوه إياه "فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ 30" لأمثال هؤلاء أي شيء عظيم هو وبينه بقوله :

"إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً" من قبل عبدنا جبرائيل "فَكانُوا" بسببها "كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ 31" كيبيس الشجر إذا كسر وحطم وصار محتضرا لوم البهائم وقدمنا في الآية 11 من سورة الشمس ما يتعلق بهذا وله صلة في الآية 157 من سورة الشعراء الآتية وسنفصل القصة إن شاء اللّه في الآية 119 من الأعراف الآتية أيضا قال تعالى :

"وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ 32" ثم طفق يبين القصة الرابعة فقال : "كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ 33" ثم وصف تعذيبهم بقوله : "إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً" ريحا ممزوجة بالحصى الصغار المسمى حصباء وأمرناها بحصبهم جميعا "إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ 34" إذ أوحينا اليه أن يخرج أهله معه آخر الليل لئلا يصيبهم ذلك وأنعمنا عليهم بالنجاة منه "نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا" نحن إله الكل "كَذلِكَ" مثل هذا الجزاء الحسن "نَجْزِي مَنْ شَكَرَ 35" نعمنا من عبادنا الطائعين وقرىء نعمة بالرفع على الخبرية ، أي وهذا الإنجاء نعمة من لدنا .

وبالنصب مفعول مطلق وعليه المصاحف وهو أليق "وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ" نبيهم لوط عليه السلام "بَطْشَتَنَا" هذه وحذرهم عقوبتنا القاسية ليؤمنوا فلم ينجح بهم بل أصروا على تكذيبه والسخرية به كما يدل عليه قوله "فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ 26" وشكوا بصدقهم بل كذبوهم لأن الفعل يتضمن معنى التكذيب إذ عدي بالباء ، ولو كان المراد الشك لعدي بالفاء إذ يقال شك في الأمر وكذب به ، تأمل "وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ" أي طلبوا منه أن يفتعلوا بهم وحاولوا فتح الباب ليفجروا بهم وقد عجز عن مقاومتهم "فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ" بصفقة من جناح عبدنا جبريل فصير عيونهم من جملة وجوههم حتى كأنها لم تنشق ، ومنعناهم من التعرض لأضيافه بعد أن خالفوه وأرادوا أن يدخلوا داره قسرا عنه ليتعرضوا لأضيافه فنصره ربه وقال "فَذُوقُوا" أيها الفاحشون الخبثاء "عَذَابِي" الذي أوقعه عليكم "وَنُذُرِ 37" أي ما أنذرتكم به على لسان نبيكم من العذاب "وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً) هي أخص في الصباح لأنها تطلق على الغدوة أيضا بخلافه "عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ 38"

ثابت دائم إلى يوم القيامة حتى يقضى بسوقهم إلى النار ويقال لهم فيها "فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ 39" تشديدا للعذاب وزيادة للحسرة "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ 40" وفي تكرير هذه الآية معنى آخر وهو حث للسامع على تجديد الاتعاظ وتكرير الانتباه عند سماع تكرار هذه الآية آخر كل قصة لتكون عبرة دائمة في القلوب مستمرا تصورها في

الأذهان وكذلك الأمر في تكرار (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) في سورة المرسلات المارة ، وجملة فبأي آلاء ربكما تكذبان من سورة الرحمن في ج 3

(59/735)

قال تعالى "وَلَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ 41" أي موسى وهرون "كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها" أي الآيات التسع الآتية في سورة الأعراف مفصلة من الآية 102 فما بعد "فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ 42" غالب قهار جبار لا يعجزه شيء ولا يحول دون أمره شيء "أَكُفَّارُكُمْ" يا أمة محمد ويا أهل مكة "خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ" الذين قصصنا عليكم أمرهم وكيفية تعذيبهم في الدنيا وما خبأناه لهم في الآخرة أدهى وأمر وأدوم "أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ" يأمنكم من الإهلاك أخبرتم بها أم نزلت عليكم "فِي الزُّبُرِ 43" الكتب المتقدمة ، كلا لا مأمن لكم من العذاب البتة ولستم بأحسن ممن قبلكم ولا أقل كفرا منهم ولم ينزل بأمتكم من عذاب اللّه شيء وسيصيبكم ما أصابهم إن لم تؤمنوا .

مطلب الآيات المدنية وحكم ما تأخر حكمه عن نزوله :

وهذه أولى الآيات المدنيات قال تعالى "أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ" الذين حضروا واقعة بدر كما سيأتي بيانها في الآية 5 من سورة الأنفال في ج 3 "جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ 44" كثيرون أقوياء ممتنعون لا

نظلم ولا نرام فردّ عليهم بقوله "سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ 45" هاربين لا يلوون على أحد ، واعلم يا حبيبي أن ليس الأمر كما يقولون ويتوهمون "بَلِ السَّاعَةُ" هذه التي يتوخون النصر فيها هي "مَوْعِدُهُمْ" للقتل والأسر والسبي في الدنيا وهذه من علامات النبوة حيث صدق اللّه وعده رسوله "وَالسَّاعَةُ" الداهية الدهماء الموعودون بها يوم القيامة "أَدْهى " من عذاب هذه

الساعة الدنيوية "وَأَمَرُّ 46" منها مذاقا وأدوم عذابا من القتل والأسر والسبي .

انتهت الآيات المدنيات .

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه وهو في قبة يوم بدر : اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد هذا اليوم أبدا .

(60/735)

فأخذ أبو بكر بيده فقال حسبك يا رسول اللّه فقد ألححت على ربك ، فخرج وهو في الدرع وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر .

وقد مر في الآية 14 من سورة الأعلى المارة أن هذه الآية مما تأخر حكمها عن نزولها وهو الصحيح واللّه أعلم لأنها إحدى الآيات السبع المبينين هناك أربع منها وهذه الخامسة

والسادسة الآية 56 من سورة النور ج 3 وهي (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ) والسابعة قوله (لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ) الآية 21 من سورة الفتح في ج 3 أيضا وللبحث صلة في تفسيرها تين الآيتين الأخيرتين بمحلهما إن شاء اللّه .

أما الأربع الأول فقد تقدم في سورة الأعلى بيانها وسببها قال تعالى "إِنَّ الْمُجْرِمِينَ" من الأولين والآخرين "فِي ضَلالٍ" في هذه الدنيا "وَسُعُرٍ 47" في الآخرة "يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ" وتقول لهم زبانية العذاب "ذُوقُوا" أيها المجرمون "مَسَّ سَقَرَ 48" ألمها عند ما تمس جلودكم كما يقال الآن ذق طعم الضرب ومس الحمّى قال تعالى ردا لما يقال من قبل أهل الضلال "إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ 49" معلوم وتقدير سابق مثبت في اللوح المحفوظ وسنظهره عند إرادتنا له قال ابن عباس كل شيء بقدر حتى وضع يدك على خذك ، روى مسلم عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال : قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول كتب اللّه مقادير الخلائق كلها قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال وكان عرشه على الماء ، أي قبل خلقهما .

راجع الآية 6 من سورة هود في ج 2 .

مطلب في القدر وما يتعلق به :

والمراد من هذا تحديد وقت الكتابة في اللوح لا أصل القدر لأنه أزلي لا أول له ، وروي أيضا

عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم يخاصمونه في القدر فنزلت هذه الآية .

(61/735)

وروي عن طاووس قال : أدركت أناسا من أصحاب

رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقولون كل شيء بقدر اللّه تعالى .

وسمعت عبد اللّه بن عمر يقول :

قال صلّى اللّه عليه وسلم : كل شيء يقدر حتى العجز (عدم القدرة على الفعل) والكيس (النشاط والحذق بالأمور) أي قدر اللّه ذلك في البشر أيضا وأخرج الترمذي عن علي كرم اللّه وجهه قال : قال رسول اللّه : لا يؤمن أحدكم حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا اللّه ، واني رسول اللّه بعثني بالحق ، ويؤمن بالموت وبالبعث ، ويؤمن بالقدر .

وأخرج أيضا عن جابر قال : قال صلّى اللّه عليه وسلم : لا يؤمن أحدكم حتى يؤمن بالقدر خيره وشره وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

وهذا حديث غريب يعرف من طريق عبد اللّه بن ميمون وهو منكر الحديث .

أما الحديث المتفق عليه فهو حديث جبريل عليه السلام المشهور الذي فيه ، وتؤمن بالقدر

خيره وشره ، قال صدقت .

وهو الذي رواه مسلم عن عمر رضي اللّه عنه ، والحديث الآخر الذي رواه الترمذي عن ابن عباس وكلاهما في حديث الأربعين ، وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي وحسنه ابن ماجه وابن عدي وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال صلّى اللّه عليه وسلم صنفان من أمتي ليس لهما نصيب في الإسلام : المرجئة والقدرية ، أنزلت فيهم آية في كتاب اللّه (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ) الآية المارة وإن الذين ينكرون القدر هم خصماء اللّه لأنهم يقولون لا يقدر اللّه المعصية على العبد ثم يعذبه عليها ويسمون القدرية لإنكارهم القدر وزعمهم ان اللّه تعالى لم يتقدم علمه بالأشياء وانه يعلمها بعد وقوعها ، تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا ، وقد أجمعت الأئمة من أهل السنة والجماعة على اثبات القدر وانه تعالى قدر جميع الأشياء في القدم وعلم انها ستقع في أوقات معلومة عنده على صفات مخصوصة فتقع بحسب ما قدرها .

(62/735)

والحكم الشرعي هو وجوب اعتقاد ما قرره هذا المذهب الحق وأجمع عليه جمهور المحققين ورفض قول المبتدعة وتفسيقهم .

قال امام الحرمين قال رسول اللّه : القدرية مجوس هذه الأمة رواه أبو حاتم عن ابن عمر عن رسول اللّه وأخرجه أبو داوود في سننه والحاكم أبو عبد اللّه في المستدرك على شروط الصحيحين ، وقال صحيح على شرط الشيخين ان صح سماع ابي حاتم عن ابن عمر .

قال الخطابي : انما جعلهم حضرة الرسول مجوسا لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس لقولهم بالأصلين النور والظلمة أي الخير في النور والشر في الظلمة ، فصاروا ثنوية ، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى اللّه والشر إلى غيره مع أنه لا يكون شيء إلا بمشيئة اللّه فالخير والشر مضافان إلى اللّه خلقا وإيجادا ، وإلى العبد فعلا واكتسابا .

ويزعم كثير من الناس ان معنى القضاء والقدر إجبار اللّه العبد على ما قدره وقضاه عليه ، وليس الأمر كذلك بل معناه الاخبار عن تقدم علم اللّه بما يكون من اكساب العبد وصدورها عن تقدير منه وخلق لها ، ومعنى القدر ما صدر مقدرا عن فعل القادر ومعنى القضاء الخلق .

(63/735)

قال تعالى (فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ) الآية 12 من فصلت في ج 2 أي خلقهن قال محمد بن قتيبة في كتاب غريب الحديث ، وأبو المعالي إمام الحرمين في كتاب الإرشاد في

أصول الدين : ان بعض القدرية قالوا لسنا بقدرية بل أنتم يا أهل السنة والجماعة القدرية ، لاعتقادكم اثبات القدر ، وهذا تمويه من هؤلاء الجهلة ومباهتة وتواقح لأن أهل الحق يفوضون أمورهم إلى اللّه تعالى ويضيفون القدر والأفعال إلى اللّه وهم يضيفونه إلى أنفسهم ومدعي الشيء لنفسه ومضيفه إليها اولى بأن ينسب إليه من يعتقده لغيره ، وينفيه عن نفسه ، والمرجئة الذين يقولون بالتأخير أي يؤخرون حتى ينزل اللّه فيهم ما يريد فهؤلاء يؤخرون العمل عن الرتبة وعن الاعتقاد أو لأنهم يقولون لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم خمس فرق ، ومن أراد أن يطلع على عقائدهم وماهيتهم فليراجع ص 193 من الجزء الثالث من المواقف ففيه كفاية .

قال تعالى "وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ" أي كلمة أو إشارة مفردة إذا أردنا شيئًا نقول له "كُنْ" فيكون بين الكاف والنون وليعلم ان الارادة غير الأمر وغير القول والفرق بينهما ان الارادة قدر والقول قضاء وقد يؤمر بالشيء ولا يراد وضدّه النهي وضد القول السكوت ، وفي قوله تعالى واحدة اشارة إلى إنفاذ الأمر بلا تكرار القول .

ثم بين سرعة ذلك الأمر بالنسبة إلينا وهو عنده دون ذلك فقال إذا رمزنا إلى شيء بالكونية كان حالا ووجد "كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ 50" أي بقدر ما يرد أحدكم طرفه وهذا تمثيل لما تقبله عقولنا والا فهو أقل وأقل فالذي جاء بعرش بلقيس من سبأ إلى القدس بلمحة بصر هو عبد من عبيده فكيف برب ذلك العبد الذي أقدره على ذلك راجع الآية 40 من سورة النمل

الآتية

قال تعالى "وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ"

(64/735)

أشباهكم في الكفر ونظرائكم في العناد يا قوم محمد ويا أهل مكة المشرفة من الأمم السابقة "فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ 51" يخاف ويعتبر بمن سلف قبل ان يحل فيه ما حل بهم "وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ" المتقدمون وما يفعله المتأخرون مثل كفار مكة ومن قبلهم وبعدهم الخير والشر كله مدون "فِي الزُّبُرِ 52" من قبل الحفظة في اللوح المحفوظ مما وقع وسيقع إلى يوم القيمة قدره ونوعه وجنسه ومكانه وزمانه وصفته "وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ" من العوالم وأفعالهم "مُسْتَطَرٌ 53" عند الله أزلا لا يعزب شيء منه عنه ، الذرة فما فوقها وما دونها "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ 54" أنهار كثيرة وإنما جاء بلفظ نهر لموافقة رؤوس الآي وهذه الأنهار من ماء صاف بارد وعسل مصفى وخمر لا غول فيه ولبن خالص واشربة متنوعه مما لذ وطاب مهيئة هذه الأنهار للمتقين "فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ" مجلس لا لغو فيه ومسرح لا فجور فيه ومكان مرضي لا غضب فيه لا نظير له ولا شبيه "عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ 55" على كل شيء وتحت ملكه كل شيء عظيم القدرة على كل شيء فأي منزلة أكرم من هذه وأجمع للسعادة والغبطة .

وفقنا اللّه لها بمنه وكرمه وجعلنا من أهلها بجوار حرمه .

قال الإمام جعفر الصادق رضي اللّه عنه وصف اللّه تعالى المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق وهو منهم جعلنا اللّه من أتباعه وقال بعض أهل المعرفة ان اللّه تعالى أبهم العذبة والقرب ونكر مليكا ومقتدرا اشارة إلى ان ملكه وقدرته لا تدرك الأفهام كنهها ، وان قربهم منه سبحانه بمنزلة من الكرامة والسعادة بحيث لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر يجل عنه اللسان وتكل دونه الأذهان .

(65/735)

وهذه الآية من المتشابه الذي سبق أن نوهنا به في الآية 30 من سورة ق المارة إذ درجنا فيها ما يتعلق بآيات الصفات وأحاديثها هذا ، واللّه أعلم ، واستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه ، العلي العظيم ، وصلّى اللّه وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 278.296 ﴾

(66/735)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة القمر

وانشق القمر كاف وكذا مستمر أهواءهم تام وكذا مستقر مزدجر حسن وقال أبو عمرو كاف هذا إن رفعت حكمة بأنها خبر مبتدأ محذوف فأن رفعت بدلا ما لم يكن ذلك وقفا حكمة بالغة كاف عند أبي حاتم والأحسن الوقف على فما تغنى النذر تول عنهم تام ويوم يدع الداع منصوب بيخرجون منتشر صالح إلى الداع كاف يوم عسر تام وازدجر كاف فأنتصر صالح وكذا منهمر وقد ورد سر وكفر كاف وكذا مدكر ونذر حسن من مدكر تام عند أبي حاتم ونذر حسن منقعر حسن من مدكر تام بالنذر صالح نتبعه وقف عند بعضهم ولا أحبه لبشاعة الابتداء بما بعده ضلال وسعر كاف كذاب أشر حسن الأشر تام واصطبر كاف وكذا قسمة بينهم ومحتضر وفعقر ونذر حسن المحتظر تام وكذا من مدكر بالنذر كاف وكذا من عندنا من شكر حسن وكذا بالنذر ونذر تام وكذا من مدكر النذر كاف مقتدر حسن منتصر تام الدبر كاف أدهى وأمر تام وسعر سقر حسن بقدر تام وكذا بالبصر ومن مدكر وفي الزبر ومستطر ونهر كاف آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة القمر

مكية خمس وخمسون آية وكلمها ثلاثمائة واثنتان وأربعون كلمة وحروفها ألف وأربعمائة وثلاثة وعشرون حرفاً

القمر (كاف) للابتداء بالشرط ومثله مستمر وكذا أهواءهم

مستقر (تام)

مزدجر (كاف) إن رفعت حكمه بتقدير هي وليس بوقف إن رفعتها بدلاً من قوله ما فيه أو نصبتها حالاً من ما وهي موصولة أو موصولة أو موصوفة وتخصصت بالصفة فنصب عنها الحال و قرئ مدَّجر بالإدغام

بالغة (كاف) عند أبي حاتم وقال نافع تام

فما تغني النذر (أكفى) مما قبله

فتول عنهم (تام) عند أبي حاتم ولا يجوز وصله لأَنَّه لو وصل بما بعده صار يوم يدع ظرفا للتولي عنهم وليس كذلك بل هو ظرف يخرجون والمعنى عندهم على التقديم والتأخير أي يخرجون من الأجداث يوم يدع الدَّاع فإذا كان كذلك فالتام فتول عنهم لأنَّ الظرف إذا تعلق بشيء قبله لم يوقف على ما قبله فلا يوقف على شيء نكر وكذا لا يوقف على أبصارهم

لأنَّ خاشعاً أو خشعاً منصوب على الحال من الضمير في يخرجون أي يخرجون خشعاً

أبصارهم يوم يدع الداع وكذا منتشر لأنَّ قوله مهطعين منصوب على الحال من فاعل

يخرجون فهي حال متداخلة

إلى الداع (تام) عند نافع

يوم عسر (تام)

وازدجر (كاف) ومثله فانتصر على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده

متصلاً بما قبله

منهمر (جائز) ومثله عيوناً

قد قدر (كاف) على استئناف ما بعده وكذا ودسر على استئناف تجري وليس بوقف إن

جعل في موضع نصب أو جر

بأعيننا (جائز) لأنَّ جزاء يصلح مفعولاً للجزاء أو مصدر المحذوف أي جوز واجزاء

كفر (كاف) ومثله آية وكذا مدكر

ونذر (تام) ومثله مدكر وكذا ونذر

مستمر ليس بوقف لأنَّ تنزع صفة للريح ومثله في عدم الوقف الناس

منقعر (تام) ومثله ونذر وكذا مدكر

بالنذر (جائز) ومثله نتبعه ولا كراهة ولا بشاعة بالابتداء بما بعده لأنَّ القارئ غير معتقد معنى ذلك وإنَّما هو حكاية قول قائلها حكاها الله عنهم وليس بوقف إن عاق إذا بنتبعه أي إنَّا إذاً نتبعه فنحن في ضلال وسعر

وسعر (كاف) على استئناف الاستفهام ومثله أشر

الأشر (تام) فتنة لهم (حسن) وقيل كاف على استئناف ما بعده

واصطبر (كاف) ومثله قسمة بينهم لأنّ كل مبتدأ

محتضر (كاف)

فعقر (حسن

ونذر (تام) ومثله المحتظر وكذا فهل من مدكر

بالنذر (جائز) ومثله إلاَّ آل لوط لأنَّ الجملة لا تصلح صفة للمعرفة ولا عامل يجعلها حالاً قاله السجاوندي

نجيناهم بسحر (تام) عند نافع إن نصب نعمة بفعل مضمر وليس بوقف إن نصب بمعنى ما قبله على المصدر أو على المفعول من أجله

من شكر (تام)

بالنذر (كاف) ومثله فطمسنا أعينهم

ونذر (تام) ومثله مستقر وكذا ونذر وكذا من مدكر

النذر (كاف) على استئناف ما بعده

كلها (جائز) على استئناف ما بعده

مقتدر (تام) لأَنَّه انتقل من قصص الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام ثم استأنف فقال يا أهل مكة أكفاركم خير من أولئكم

وأولئكم (حسن)

في الزبر (كاف)

منتصر (تام)

الدبر (كاف)

بل الساعة موعدهم (أكفى) منه

وأمر (تام) للابتداء بإنْ

وسعر (كاف) إن نصب يوم يذوقوا على التقديم والتأخير أي يقال لهم ذوقوا مس سقر يوم يسحبون وليس يوم ظرف إضلالهم فإن جعل الظرف متعلقاً بما قبله ومتصلاً به لم يوقف على سعر

بقدر (تام) ونصب كل على الاشتغال والنصب أولى لدلالته على عموم الخلق والرفع لا يدل على عمومه قال أهل الزيغ إن ثم مخلوقات لغير الله تعالى فرفع كل يوهم ما لا يجوز وذلك انه

إذا رفع كل كان مبتدأ وخلقناه صفة لكل أو لشيء وبقدر خبر وحينئذ يكون له مفهوم لا يخفى على متأمله لأنَّ خلقناه صفة وهي قيد فيفيد أنَّه إذا انتفى فيلزم أن يكون الشيء الذي ليس مخلوقاً لله لا بقدر راجع السمين

(69/735)

بالبصر (تام) ومثله من مدكر وكذا في الزبر وفعلوه صفة والصفة لا تعمل في الموصوف ومن ثم لم يجز تسليط العامل على ما قبله إذ لو صح لكان تقديره فعلوا كل شيء في الزبر وهو باطل فرفع كل واجب على الابتداء وجملة فعلوه في موضع رفع صفة لكل وفي موضع جر صفة لشيء وفي الزبر خبر كل والمعنى وكل شيء مفعول ثابت في الزبر أي في الكتب وكذا مستطر

ونهر (جائز) وقيل لا يجوز لأنَّ ما بعده ظرف لما قبله لأنَّ الجار بدل من الأول

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(70/735)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة القمر :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ حذيفة : "اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ1" .

قال أبو الفتح : هذا يجري مجرى الموافقة على إسقاط العذر ورفع التشاك ، أي : قد كان انشقاق القمر متوقعا دلالة على قرب الساعة ، فإذا كان قد انشق – وانشقاقه من أشراطها ، وأحد أدلة قربها – فقد توكد الأمر في قرب وقوعها . وذلك أن "قد" إنما هي جواب وقوع أمر كان متوقعا ، يقول القائل : انظر أقام زيد ؟ وهل قام زيد ؟ وأرجو ألا يتأخر زيد . فيقول المجيب : قد قام ، أي : قد وقع ما كان متوقعا .

ومن ذلك قراءة أبي جعفر يزيد : "وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِر2" .

قال أبو الفتح : رفعه3 عندي عطف على الساعة ، أي : اقتربت الساعة وكل أمر4 أي : قد اقترب استقرار الأمور في يوم القيامة ، من حصول أهل الجنة في الجنة ، وحصول أهل النار في النار . هذا وجه رفعه . والله أعلم .

---

1 سورة القمر : 1 .

2 سورة القمر : 3 .

3 أي رفع "كل" كما لا يخفى .

4 قال أبو حيان : وهذا بعيد ، لطول الفصل بجمل ثلاث . وبعيد أن يوجد مثل هذا التركيب في كلام العرب ، نحو أكلت خبزان وضربت زيدا ، بل لا يوجد مثله في كلام العرب . وخرجه صاحب اللوامع على أنه خبر لكل ، فهو مرفوع في الأصل ، لكنه جر للمجاورة . وهذا ليس بجيد . لأ ، الخفض بالجوار في غاية الشذوذ ، ولأنه لم يعهد في خبر المبتدأ ، إنما عقد في الصفة على اختلاف النحاة في وجوده, والأسهل أن يكون الخبر مضمرا لدلالة المعنى عليه . والتقدير : وكل أمر مستقر بالغوه ، لأن قبله : "وكل أمر مستقر بالغوه ، لأن قبله : ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ . البحر : 8 : 174 .

(71/735)

من ذلك قراءة مجاهد والجحدري وأبي قلابة : "إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ 1" .

قال أبو الفتح : يقال : أنكرت الشيء فهو منكر ، ونكرته فهو منكور . وجمع الأعشى بين اللغتين ، فقال :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا 2

وكذلك هذه القراءة : "إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ" ، إلى شيء يجهل . ومثله مررت بصبي ضرب ،

ونظرت إلى امرأة أكرمت ، وصف بالفعل الماضي .

ومن ذلك قراءة يزيد بن رومان3 وقتادة : "لِمَنْ كَانَ كُفِر4" .

قال أبو الفتح : أي : جزاء الكافرين بنوح عليه السلام .

وأما قراءة الجماعة : ﴿ جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ فتأويله : جزاء لهم بكفرهم بنوح ، "عليه السلام" ، فاللام الأولى التي هي مفعول بها محذوفة ، واللام الثانية الظاهرة في قوله : ﴿ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ لام المفعول له . وهناك مضاف محذوف ، أي : جزاء لهم ؛ لكفر من كفر ، أي : لكفرهم بمن كفروا به .

ومن ذلك قراءة أبي السمال : "أبشر منا" – بالرفع – "وَاحِدًا نَتَّبِعُه5" ، بالنصب .

قال أبو الفتح : "بشر" عندي مرفوع بفعل يدل عليه قوله : "أولقى عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا" ، فكأنه قال : أينبأ ، أو يبعث بشر منا ؟

فأما انتصاب "واحدا" فإن شئت جعلته حالا من الضمير [154و] في "منا6" أي : أينبأ بشر كائن منا ؟ والناصب لهذه الحال الظرف ، كقولك : زيد في الدار جالسا .

---

1 سورة القمر : 6 .

2 من قصيدة في مدح هوذة بن علي الحنفي . وانظر الديوان : 101 .

3 هو يزيد بن رومان أبو روح المدني مولى الزبير ، ثقة ، ثبت ، فقيه ، قارئ ، محدث .

عرض على عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة ، وروى القراءة عنه عرضا نافع وأبو عمرو .

وروى عنه مالك بن أنس وجرير بن حازم وابن إسحاق ، وحديثه في الكتب الستة ، وقال ابن معين وغيره : ثقة . مات سنة 120 ، وقيل غير ذلك . طبقات ابن الجزري : 2 : 381

4 سورة القمر : 14 .

5 أي الضمير المستقر في متعلقه .

وإن شئت جعلته حالا من الضمير في قوله : "تتبعه" أي : تتبعه واحد منفردا ولا ناصر له . ويؤكده قوله : ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ1 ﴾ . ونظائره في القرآن كثيرة ، نحو قوله "تعالى" ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ2 ﴾ ؟ وقوله : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا3 ﴾ ؟ ونحو ذلك .

ومن ذلك قراءة أبي قلابة : "الْكَذَّابُ الْأَشِرُ4" .

مجاهد : "الأشر" ، بضم الشين خفيفة .

قال أبو الفتح : "الأشر" بتشديد الراء هو الأصل المرفوض ، لأن أصل قولهم : هذا خير منه وهذا شر منه – هذا أخير منه ، وأشر منه . فكثر استعمال هاتين الكلمتين ، فحذف الهمزة منهما . ويدل على ذلك قولهم : الخورى والشرى ، تأنيث الأخير والأشر . وقال

رؤبة :

بلاد خير الناس وابن الأخير5

فعلى هذا جاءت هذه القراءة .

وأما "الأشر" بضم الشين ، وتخفيف الراء فعلى أنه من الأوصاف التي اعتقب عليها المثالان اللذان هما فعل وفعل فأشر وأشر ، كحذر وحذر ، ويقظ "ويقظ" ، ورجل حدث وحدث : حسن الحديث ، ووظيف عجر وعجر ، أي : صلب . والضم أقوى معنى من الكسر ؛ لأنه أبعد عن مثال الفعل ، فأشر – من آشر – كضروب من ضارب . ومطعان من طاعن ، والاسم البطر6 .

ومن ذلك قراءة الحسن : "كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ7" ، بفتح الظاء .

---

1 سورة القمر : 9 .

2 سورة الشعراء : 111 .

3 سورة الشعراء : 18 ، والخطاب في هذه الآية لموسى عليه السلام ، أما الآيتان قبلها فعن نوح عليه السلام .

4 سورة القمر : 26 .

5 لم نعثر عليه في ديوانه ، ولا في ديوان العجاج .

6 كذا في نسختي الأصل ، كأنه يريد تفسير "الأشر" مصدر أشر ، واستعمل الاسم فيما

يقابل المصدر .

7 سورة القمر : 31 .

(73/735)

قال أبو الفتح : المحتظر هنا مصدر ، أي : كهشيم الاحتظار ، كقولك : كآجر البناء وخشب النجارة . والاحتظار : أن يجعل حظيرة . وإن شئت جعلت "المحتظر" هنا هو الشجر ، أي : كهشير الشجر المتخذة منها الحظيرة ، أي : كما يتهافت من الشجر المجعولة حظيرة والهشيم : ما تهشم منه ، وانتشر .

ومن ذلك قراءة أبي السمال : "إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ1" ، بالرفع .

قال أبو الفتح : الرفع هنا أقوى من النصب ، وإن كانت الجماعة على النصب ؛ وذلك أنه من مواضع الابتداء ، فهو كقولك : زيد ضربته ، وهو مذهب صاحب الكتاب2 والجماعة . وذلك لأنها جملة3 وقعت في الأصل خبرا عن مبتدأ في قولك : نحن كل شيء حلقناه بقدر ، فهو كقولك : هند زيد ضربها ، ثم تدخل إن ، فتنصب الاسم ، وبقي الخبر على تركيبه الذي كان عليه من كونه جملة من مبتدأ وخبر .

واختار محمد بن يزيد هنا النصب ، وقال : لأن تقديره إنا فعلنا كذا ، وقال : فالفعل منتظر

بعد إنا ، فلما دل ما قبله عليه حسن إضمار . وليس هذا شيئًا ؛ لأن أصل خبر المبتدأ أن يكون اسما لا فعلا ، جزءا منفردا . فما معنى توقع الفعل هنا ، وخبر إن وأخواتها كأخبار المبتدأ ؟ وعليه قول الله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ4 ﴾ ، فهذه الجملة التي هي وجوههم مسودة في موضع المفعول الثاني لرأيت ، وهو في الأصل خبر المبتدأ . وقد ذكرنا هذا في غير موضع من كتبنا والعليق عنا .

ومن ذلك قراءة زهير الفرقبي : "فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ5" .

قال [154ظ] أبو الفتح : هذا جمع نهر ، كما جاء عنهم من تكسير فعل على فعل ، كأسد وأسد ، ووثن ووثن .

---

1 سورة القمر : 49 .

2 انظر الكتاب : 1 : 74 ، وفيه عن الآية : "فأما قوله – عز وجل – : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ ، فإنما هو على قوله : زيدا ضربته ، وهو عربي كثير .

3 في ك : وذلك لأنه في الأصل جملة وقعت .

4 سورة الزمر : 60 .

5 سورة القمر : 54 .

وحكى سيبويه قراءة : "إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أُثنا 1" ، جمع وثن . وذهب محمد بن السري في قولهم : أسد وأسد إلى أنه مقصور من فعول ، يريد أسودا ، فحذفت الواو ، فبقى أسد ، ثم أسكنت السين تخفيفا ، كقولهم في طنب2 : طنب .

وهذه القراءة التي هي "نهر" تشهد لقوله : إن أصله أسود ، ثم حذفت الواو ، فبقى أسد .

فإن قلت : فقد جاء أسود ، ولم يأت نهور جمع نهر .

قيل : وإن لم يأت لفظا فهو مقدر تصورا ، كأشياء تثبت تقديرا ، فتعامل معاملة المستعمل .

فإن شئت قلت في "نهر" : إنه جمع نهر الساكن العين ، فيكون كسقف وسقف ، ورهن ورهن ، وثط3 وثط ، وسهم حشر4 وسهام حشر وفرس ورد5 فصارت نهر ، ثم ثقل إتباعا ، فصارت إلى "نهر" .

وأنس بذلك أن ما قبل الراء في أواخر هذه الآي ، وهي "سقر" ، و"قدر" ، و"نكر" ، و"مدكر" ، و"زبر" ، و"مستطر" ، و"مقتدر" محرك ، فكأنه الرغبة في استواء هذه الفواصل هو الذي زاد في الأنس بتثقيل "النهر" على هذا التأويل الذي في "نهر" ، كما يختار ترك همز "الشان"6 في سورة الرحمن ؛ لتوافق رءوس الآي فيها : "تكذبان" ، ونحوها ، وإليه ذهب الفراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 296 ـ 300﴾

1 سورة النساء : 117 .

2 الطنب : حبل طويل يشد به سرادق البيت ، أو هو الوتد .

3 الثط : القليل شعر اللحية والحاجبين .

4 سهم حشر : دقيق النصل ، وأصل الحشر الدقيق من الأسنة .

5 فرس ورد : بين الكميت والأشقر .

6 من قوله تعالى في سورة الرحمن "29" : ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة القمر

مكية عند الجمهور وقيل إلا ثلاث آيات أولها أم يقولون نحن إلى وأمر وآيها خمس وخمسون إجماعا القراآت اختلف في (مستقر) الآية 3 فأبو جعفر بخفض الراء صفة إلى واو رفع كل حينئذ بالعطف على الساعة كما قاله القاضي تبعا للزمخشري وقيل بالابتداء والخبر أي بالغوه لدلالة ما قبله عليه أي وكل أمر مستقر لهم في القدر بالغوه والباقون بالرفع خبر كل أي

منته إلى غاية وأدغم دال ( ) ولقد جاءهم ( ) أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف ووقف يعقوب على (تغن) بالياء ويوقف للكل على) يوم يدع ( ) بحذف الواو للرسم وما ذكره في الأصل هنا من القطع ليعقوب بالواو و لقنبل بخلفه تقدم التنبيه عليه في الشورى عند ويمح الله وأثبت الياء في ( ) الداع إلى (وصلا ورش وابو عمرو وأبو جعفر وفي الحالين البزي ويعقوب وقرأ نكر بسكون الكاف ابن كثير ومر بالبقرة واختلف في خشعا فأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بفتح الخاء وألف بعدها وكسر الشين مخففة بالإفراد وهي الفصحى من حيث أن الفعل وما جرى مجراه إذا قدم على الفاعل وحد وافقهم اليزيدي والحسن والأعمش والباقون بضم الخاء وفتح الشين وتشديدها بلا ألف وهو فصيح أيضا كثير لكونه جمع تكسير وهو كالواحد بجامع الإعراب بالحركة فلا يخرج على لغة أكلوني البراغيث وأثبت الياء في الداع وصلا نافع وابو عمرو وأبو جعفر وفي الحالين ابن كثير ويعقوب واتفقوا على فتح فدعا ربه لكونه واويا مرسوما بالألف

وقرأ ﴿ فتحنا ﴾ الآية 11 بتشديد التاء وابن عامر وأبو جعفر وروح ورويس من طريق النحاس كما مر بالأنعام

وقرأ (عيونا) الآية 12 بكسر العين ابن كثير وابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائي وضهما الباقون وعن المطوعي إدغام النون الأولى من (بأعيننا) في الثانية وأثبت في الياء في نذر في السنة وصلا ورش وفي الحالين يعقوب وعن الحسن في يوم نحس بتنوين ميمه ووصفه بنحس وأدغم تاء كذبت ثمود أبو عمرو وهشام وابن ذكوان

من طريق الأخفش وحمزة والكسائي وسهل الثانية من أألقى مع إدخال ألف بينهما قالون وأبو عمرو بخلفهما في الإدخال وأبو جعفر وقرأ ورش وابن كثير ورويس بالتسهيل بلا فصل ولهشام ثلاثة أوجه الأول التسهيل مع المد والثاني التحقيق مع المد والثالث التحقيق مع القصر وبه قرأ الباقون ومر تفصيله

واختلف في (سيعملون) الآية 26 فابن عامر وحمزة وبالتاء من فوق وافقهما الأعمش والباقون بالغيب من تحت وأمال (فتعاطى) حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وعن الحسن كهشيم المحتظر بفتح الظاء فقيل مصدر بمعنى الاحتظار وقيل اسم مكان وقيل اسم مفعول والجمهور بكسرها اسم فاعل وأدغم دال ولقد صبحهم أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وكذا حكم ولقد جاء وأما جاء آل فرعون فسبق الكلام عليه في) فلما جاء آل لوط (بالحجر مفصلا وعن ابن محيصن من المفردة ونهر بضمتين بالتحريك كأسد أو جمع ساكن كسقف وسقف والجمع مناسب لجمع جنات والجمهور على فتحها على الإفراد اسم جنس

المرسوم خشعا بحذف الألف بعد خاء وفي بعضها بإثباتها واتفقوا على حذف الواو من يدع الداع والزوائد ثمان (الداع) الآية 6 ( ) إلى الداع (الآية 8 (ونذر) الآية 16 18 21 30 37 39 ستة وأما (تغن) الآية 5 ليعقوب فليست من الزوائد المصطلح عليها كما في المرسوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(77/735)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة القمر "

" مستقر " قرأ أبو جعفر بخفض الراء وغيره برفعها ، ورقق الراء في الحالين ورش وأبو جعفر وغيرهما في الوقف فقط .

" فما تغن " وقف عليه يعقوب بالياء وغيره بحذفها .

" الداع إلى " أثبت الياء وصلا أبو عمرو وأبو جعفر وورش وفي الحالين البزي ويعقوب

" نكر " أسكن الكاف المكي وضمها غيره .

" خشعا " قرأ البصريان والأخوان وخلف بفتح الخاء وألف بعدها وكسر الشين مخففة والباقون بضم الخاء وفتح الشين مشددة .

" إلى الداع " أثبت الياء وصلا المدنيان والبصري ، وفي الحالين المكي ويعقوب وحذفها غيرهم في الحالين .

" الكافرون " رقق الراء ورش .

" عسر " آخر الربع .

الممال

رءوس الآي الممالة:

" ويرضى " الأنثى ، الدنيا ، اهتدى ، الحسنى ، اتقى ، تولى ، وأكدى ، يرى ، موسى ، وفى ، أخرى ، سعى ، يرى ، الأوفى ، المنتهى ، وأبكى ، وأحيا ، والأنثى ، تمنى الأخرى ، وأقنى ، الشعرى ، الأولى ، أبقى ، وأطغى ، أهوى غشى ، تتمارى ، الأولى ، وكلها ممالة للأخوين وخلف ، ومقللة لورش والبصري إلا ذوات الراء منها فما .

" ما ليس برأس آية ":

من تولى وأعطى ويجزاه ، أغنى فغشاها ، بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه جاءهم لابن ذكوان وخلف وحمزة .

المدغم

" الصغير " ولقد جاءهم للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " الملائكة تسمية ، أعلم بمن الثلاثة ، أعلم بكم ، وأنه هو ، الأربعة ، الحديث

تعجبون ، ووافقه رويس على إدغام وأنه هو الأربعة بخلف عنه والله تعالى أعلم .

" ففتحنا " شدد التاء ابن عامر ، وأبو جعفر ويعقوب وخففها غيرهم .

" عيونا " كسر العين المكي وابن ذكوان وشعبة والأخوان وضمها غيرهم .

" ونذر " في مواضعه الستة أثبت الياء وصلا ورش وفي الحالين يعقوب وحذفها غيرهما مطلقا .

" القرآن " عليهم كله الذكر خير ، شيء خلقناه ، فعلوه ، لا يخفى .

(78/735)

" ءألقي " سهل الهمزة الثانية مع إدخال ألف الفصل بينهما قالون وأبو جعفر وسهلها مع الإدخال وعدمه أبو عمرو وسهلها من غير إدخال ورش والمكي ورويس ، ولهشام ثلاثة أوجه التسهيل مع الإدخال والتحقيق مع الإدخال وعدمه وللباقين التحقيق بلا إدخال .

" سيعلمون " قرأ الشامي وحمزة بتاء الخطاب وغيرهما بياء الغيبة .

" ونبئهم " لا يبدل همزه أحد من العشرة إلا حمزة عند الوقف فحسب .

" جاء آل " قرأ قالون والبزي والبصري بإسقاط الأولى وتحقيق الثانية مع القصر والمد . وورش وقنبل وأبو جعفر ورويس بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية مع ثلاثة البدل لورش وله

أيضا ولقنبل إبدالها ألفا مع القصر والمد . فيكون لورش خمسة أوجه ولقنبل ثلاثة وإن وصلت إلى بآياتنا يكون لورش تسعة أوجه التسهيل مع قصر البدلين وتوسطهما ومدهما ، ثم إبدال همزة آل مع القصر والمد وعلى كل القصر والتوسط والطول في بآياتنا .

" مقتدر " آخر السورة وأخر الربع .

الممال

فالتقى لدى الوقف عليه فتعاطى وأدهى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، جاء لابن ذكوان وخلف وحمزة النار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، ودعا وادى فلا إمالة فيه .

المدغم

" الصغير " ولقد تركناها للجميع . كذبت ثمود للبصري والشامي والأخوين ، ولقد صبحهم ولقد جاء للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " آل لوط ، يقولون نحن ، مقعد صدق . ولا إدغام في مس سقر لتشديد السين الأولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 315.317 ﴾

(79/735)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة القمر

قوله تعالى ﴿ يوم يدع الداع ﴾ و ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ يقرآن بإثبات الياء وحذفها وقد ذكرت علله ومعنى مهطعين مسرعين

قوله تعالى ﴿ إلى شيء نكر ﴾ يقرأ بضم الكاف واسكانها والاختيار الضم لموافقة رؤوس الآي ولانه الاصل وان كان الاسكان تخفيفا

قوله تعالى ﴿ خشعا أبصارهم ﴾ يقرأ بضم الخاء وتشديد الشين من غير ألف وبفتح الخاء والف بعدها وتخفيف الشين وكسرها فالحجة لمن ضم الخاء وحذف الالف انه اراد جمع التكسير على خاشع فقال خشع كما قال تعالى في جمع راكع والركع السجود والحجة لمن فتح الخاء واثبت الالف انه اراد باللفظ التوحيد وبالمعنى الفعل للمضارعة التي بينهما لان ما بعده مرتفع به كما قال الشاعر

وشباب حسن اوجههم

من اياد بن نزار بن معد

فأما النصب في قوله خاشعا وخشعا فعلى الحال

قوله تعالى ﴿ ففتحنا أبواب السماء ﴾ يقرأ بالتخفيف اجماع الا ما اختاره ابن عامر من

التشديد فوجه التخفيف ان الفتح انما كان في وقت واحد ووجه التشديد ان التفتح من السماء كان كالتفجير من الارض شيئا بعد شيء ودام وكثر

قوله تعالى ﴿ سيعلمون غدا ﴾ يقرأ بالتاء والياء وقد تقدم القول فيه

وغد ها هنا يوم القيامة وانما كنى عنه ب غد لقوله عز وجل ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ عند الله تعالى من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 337 . 338 ﴾

(80/735)

وقال ابن زنجلة :

54 - سورة القمر

فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر خشعا أبصرهم 6و7

قرأ ابن كثير إلى شيء نكر بإسكان الكاف وقرأ الباقون بضم الكاف وهما لغتان مثل الرعب والرعب وإنما خالف أبو عمرو أصله فقرأها ها هنا بالتثقيل لأن رؤوس الآي مثقلة نحو عذر كذا ونذر ولهذا اختار التثقيل

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي خاشعا أبصارهم بالألف على التوحيد واحتجوا بحرف

ابن مسعود خاشعة أبصارهم على التوحيد والعرب تجتزئ في مثل هذا وتختار التوحيد لأنه قد جرى مجرى الفعل إذ كان ما بعده قد ارتفع به نحو مررت بقوم حسن وجوههم والتقدير حسن وجوههم

وقرأ الباقون خشعا بضم الخاء وتشديد الشين جمع خاشع وخشع وراكع وركع وتنصب خشعا و خاشعا على الحال قال الزجاج ولك في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد نحو خاشعا أبصارهم والتأنيث لتأنيث الجماعة نحو خاشعة أبصارهم ولك الجمع نحو خشعا أبصارهم تقول مررت بشباب حسن أوجههم وحسان أوجههم وحسنة أوجههم

ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر 11

قرأ ابن عامر ففتحنا أبواب السماء بالتشديد أي مرة بعد مرة وشيئًا بعد شيء وحجته قوله مفتحة لهم الأبواب جمعوا على التشديد لأنه ذكر الأبواب كما ذكر عند قوله ففتحنا أبواب السماء

وقرأ الباقون ففتحنا بالتخفيف لأنه وإن كثر فإن فتحه كان بمرة واحدة لا بمرات

سيعلمون غدا من الكذاب الأشر 26

قرأ ابن عامر وحمزة ستعلمون غدا بالتاء على الخطاب على أن رسولهم خاطبهم فقال لهم ستعلمون غدا

وقرأ الباقون سيعلمون غدا بالياء وحجتهم قوله بعدها فتنة لهم ولم يقل لكم

الياءات قرأ قالون عن نافع والذي وأبو عمرو يوم يدعو الداعي بالياء في الوصل وحذفها الباقون

(81/735)

وقرأ أهل الحجاز والبصرة مهطعين إلى الداعي بالياء في الوصل وأثبتها ابن كثير في الوقف إثبات الياء فيهما أجود على الأصل ويجوز حذفهما لأن الكسرة تدل عليهما وحجة من أثبت الياء هي أن الياء سقطت في نحو داع لسكونها وسكون التنوين فإذا جاء الألف واللام بطل التنوين فرجعت الياء

وقرأ الباقون بحذف الياء في الوصل والوقف اتباعا للمصحف

قرأ ورش نذري 16 و18 و21و 30و 37و 39 وقرأ الباقون بحذف الياء . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 688.690 ﴾

(82/735)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة القمر 54

مكية وقد ذكر نظيرتها في الشامي ونظيرتها في المدني الأخير والمكي المدثر ولا نظير لها في غيرهما

وكلمها ثلاث مئة واثنتان وأربعون كلمة

وحروفها ألف وأربع مئة وثلاثة وعشرون حرفا

وهي خمسون وخمس آيات في جميع العدد ليس فيها اختلاف ولا مما يشبه الفواصل شيء ورؤوس الآي

القمر

1 مستمر

2 مستقر

3 مزدجر

4 النذر

5 نكر

6 منتشر

7 عسر

8 وازدجر

9 فانتصر

10 منهمر

11 قدر

12 ودسر

13 كفر

14 مدكر

15 ونذر

16 مدكر

17 ونذر

18 مستمر

19 منقعر

20 ونذر

21 مدكر

22 بالنذر

23 وسعر

24 أشر

25 الأشر

26 واصطبر

27 محتضر

28 فعقر

29 ونذر

30 المحتظر

31 مدكر

32 بالنذر

33 بسحر

34 شكر

35 بالنذر

36 ونذر

37 مستقر

38 ونذر

39 مدكر

40 النذر

41 مقتدر

42 الزبر

43 منتصر

44 الدبر

45 وأمر

46 وسعر

47 سقر

48 بقدر

49 بالبصر

50 مدكر

51 الزبر

52 مستطر

53 ونهر

54 مقتدر

55 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 236 ﴾

(83/735)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (وكل أمر) هو مبتدأ ، و (مستقر) خبره ، ويقرأ بفتح القاف أي مستقر عليه ، ويجوز أن يكون مصدر كالاستقرار ، ويقرأ بالجر صفة الأمر ، وفي كل وجهان: أحدهما هو مبتدأ ، والخبر محذوف: أي معمول به أو أتى .

والثانى هو معطوف على الساعة .

قوله تعالى (حكمة) هو بدل من " ما " وهو فاعل جاءهم ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف (فما تغنى) يجوز أن تكون نافية ، وأن تكون استفهاما في موضع نصب بتغنى ، و (النذر) جمع نذير .

قوله تعالى (نكر) بضم النون والكاف ، وبإسكان القاف: وهو صفة بمعنى منكر ، ويقرأ بضم النون وكسر الكاف وفتح الراء على أنه فعل لم يسم فاعله .

قوله تعالى (خشعا) هو حال ، وفي العامل وجهان: أحدهما يدعو: أي يدعوهم الداعي ، وصاحب الحال الضمير المحذوف ، و (أبصارهم) مرفوع بخشعا ، وجاز أن يعمل الجمع لأنه مكسر ، والثاني العامل (يخرجون) وقرئ خاشعا ، والتقدير فريقا خاشعا ، ولم يؤنث لأن تأنيث الفاعل تأنيث الجمع وليس بحقيقي ، ويجوز أن ينتصب خاشعا بيدعو على أنه مفعول له ، ويخرجون على هذا حال من أصحاب الأبصار و (كأنهم) حال من الضمير في يخرجون ، و (مهطعين) حال من الضمير في منتشر عند قوم ، وهو بعيد لأن الضمير في منتشر للجراد ، وإنما هو حال من يخرجون ، أو من الضمير المحذوف ، و (يقول) حال من الضمير في مهطعين .

قوله تعالى (وازدجر) الدال بدل من التاء ، لأن التاء مهموسة والزاي مجهورة فأبدلت حرفا مجهورا يشاركها في المخرج وهو الدال .

قوله تعالى (أني) يقرأ بالفتح: أي بأني ، وبالكسر لأن دعا بمعنى قال .

قوله تعالى (فالتقى الماء) أراد الماآن ، فاكتفى بالواحد لإنه جنس ، و (على أمر) حال أو ظرف ، والهاء في (حملناه) لنوح عليه السلام ، و (تجرى) صفة في موضع جر ، و (بأعيننا) حال من الضمير في تجرى: أي محفوظة ، و (جزاء) مفعول له ، أو بتقدير جازيناهم ، و (كفر) أي به ، وهو نوح عليه السلام ،

ويقرأ "كفر" على تسمية الفاعل: أي للكافر ، و (مدكر) بالدال ، وأصله الذال والتاء ، وقد ذكر في يوسف ، ويقرأ بالذال مشددا وقد ذكر أيضا (ونذر) بمعنى إنذار ، وقيل التقدير: ونذرى ، و (مستمر) نعت لنحس ، وقيل اليوم ، و (كأنهم) حال ، و (منقعر) نعت لنخل ، ويذكر ويؤنث .

قوله تعالى (أبشرا) هو منصوب بفعل يفسره المذكور: أي أنتبع بشرا ، و (منا) نعت ، ويقرأ "أبشر" بالرفع على الابتداء ، ومنا نعت له ، و (واحدا) حال من الهاء في (نتبعه) .

قوله تعالى (من بيننا) حال من الهاء: أي عليه منفردا ، و (أشر) بكسر الشين وضمها لغتان مثل فرح وفرح ، ويقرأ بتشديد الراء ، وهو أفعل من الشر ، وهو شاذ ، و (فتنة) مفعول له أو حال ، و (قسمة) بمعنى مقسوم .

قوله تعالى (كهشيم المحتظر) يقرأ بكسر الظاء: أي كهشيم الرجل الذى يجعل الشجر حظيرة ، ويقرأ بفتحها: أي كهشيم الشجر المتخذ حظيرة ، وقيل هو بمعنى الاحتظار .

قوله تعالى (إلا آل لوط) هو استثناء منقطع ، وقيل متصل لأن الجميع أرسل عليهم الحاصب

فهلكوا إلا آل لوط .

وعلى الوجه الأول يكون الحاصب لم يرسل على آل لوط ، و (سحر) مصروف لأنه نكرة ، و (نعمة) مفعول له أو مصدر .

قوله تعالى (إنا كل شئ) الجمهور على النصب ، والعامل فيه فعل محذوف يفسره المذكور ، و (بقدر) حال من الهاء أو من كل : أي مقدرا ، ويقرأ بالرفع على الابتداء ، وخلقناه نعت لكل أو لشئ ، وبقدر خبره ، وإنما كان النصب أقوى لدلالته على عموم الخلق والرفع لا يدل على عمومه ، بل يفيد أن كل شئ مخلوق فهو بقدر .

قوله تعالى (فعلوه) هو نعت لشئ أو كل ، وفي (الزبر) خبر المبتدأ .

(85/735)

قوله تعالى (ونهر) يقرأ بفتح النون ، وهو واحد في معنى الجمع ، ويقرأ بضم النون والهاء على الجمع مثل أسد وأسد ، ومنهم من يسكن الهاء فيكون مثل سقف وسقف ، و (في مقعد صدق) هو بدل من قوله " في جنات " والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(86/735)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة القمر

[سورة القمر (54) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1)

"اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ" ماض وفاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "وَانْشَقَّ الْقَمَرُ" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة القمر (54) : آية 2]

وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2)

"وَإِنْ يَرَوْا" الواو حرف عطف وإن شرطية ومضارع مجزوم فعل الشرط والواو فاعله "آيَةً" مفعول به والجملة ابتدائية لا محل لها "يُعْرِضُوا" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب الشرط "وَيَقُولُوا" معطوف على يعرضوا "سِحْرٌ" خبر لمبتدأ محذوف "مُسْتَمِرٌّ" صفة سحر والجملة الاسمية مقول القول .

[سورة القمر (54) : آية 3]

وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3)

"وَكَذَّبُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَاتَّبَعُوا" معطوف على كذبوا "أَهْواءَهُمْ" مفعول به "وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ" الواو حرف استئناف ومبتدأ وأمر مضاف إليه ومستقر خبر والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة القمر (54) : آية 4]

وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4)

"وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "جاءَهُمْ" ماض ومفعوله "مِنَ الْأَنْباءِ" متعلقان بالفعل "ما" فاعل والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها "فِيهِ" خبر مقدم "مُزْدَجَرٌ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية صلة ما .

[سورة القمر (54) : آية 5]

حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ (5)

"حِكْمَةٌ" بدل من ما وبالغة صفة حكمة ، "فَما" الفاء حرف استئناف وما نافية "تُغْنِ" مضارع "النُّذُرُ" فاعله والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة القمر (54) : آية 6]

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ (6)

"فَتَوَلَّ" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر "عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "يَوْمَ" ظرف زمان "يَدْعُ الدَّاعِ" مضارع وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "إِلى شَيْءٍ" متعلقان بالفعل "نُكُرٍ" صفة شيء .

[سورة القمر (54) : آية 7]

خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ (7)

"خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ" حال وأبصارهم فاعل خشعا "يَخْرُجُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله "مِنَ الْأَجْداثِ" متعلقان بالفعل والجملة حال "كَأَنَّهُمْ" كأن واسمها "جَرادٌ مُنْتَشِرٌ" خبرها ومنتشر صفة جراد والجملة الاسمية حال .

[سورة القمر (54) : آية 8]

مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ (8)

"مُهْطِعِينَ" حال "إِلَى الدَّاعِ" متعلقان بما قبلهما . "يَقُولُ الْكافِرُونَ" مضارع وفاعله الجملة استئنافية لا محل لها ، "هذا يَوْمٌ" مبتدأ وخبره "عَسِرٌ" صفة يوم والجملة الاسمية مقول القول .

[سورة القمر (54) : آية 9]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9)

"كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ" ماض وظرف زمان "قَوْمُ" فاعله "نُوحٍ" مضاف إليه والجملة استئنافية لا محل لها "فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَقَالُوا" معطوف على كذبوا "مَجْنُونٌ" خبر لمبتدأ محذوف والجملة الاسمية مقول القول "وَازْدُجِرَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة القمر (54) : آية 10]

فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10)

"فَدَعا رَبَّهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها ، "أَنِّي مَغْلُوبٌ" أن واسمها وخبرها والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل نصب بنزع الخافض ، "فَانْتَصِرْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر والجملة الفعلية جواب شرط غير جازم لا محل لها .

[سورة القمر (54) : آية 11]

فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ (11)

"فَفَتَحْنا" حرف عطف وماض وفاعله "أَبْوابَ" مفعوله "السَّماءِ" مضاف إليه "بِماءٍ" متعلقان بالفعل "مُنْهَمِرٍ" صفة ماء والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة القمر (54) : آية 12]

وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12)

"وَفَجَّرْنَا" حرف عطف وماض وفاعله "الْأَرْضَ" مفعوله "عُيُوناً" تمييز ، والجملة معطوفة على ما قبلها ، "فَالْتَقَى" معطوف على فجرنا "الْماءُ" فاعل "عَلى أَمْرٍ" متعلقان بالفعل "قَدْ" حرف تحقيق "قُدِرَ" ماض مبني للمجهول والجملة صفة أمر .

[سورة القمر (54) : آية 13]

وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ (13)

"وَحَمَلْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "عَلى ذاتِ" متعلقان بالفعل "أَلْواحٍ" مضاف إليه "وَدُسُرٍ" معطوف على ألواح.

[سورة القمر (54) : آية 14]

تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ (14)

"تَجْرِي" مضارع فاعله مستتر "بِأَعْيُنِنا" متعلقان بمحذوف حال "جَزاءً" مفعول لأجله والجملة حال .

"لِمَنْ" متعلقان بجزاء "كانَ" ماض ناقص اسمه مستتر "كُفِرَ" ماض مبني للمجهول وجملة كفر

خبر كان وجملة كان كفر صلة من لا محل لها .

[سورة القمر (54) : آية 15]

وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (15)

(89/735)

"وَلَقَدْ" انظر الآية رقم - 4 - من نفس السورة "تَرَكْناها" ماض وفاعله ومفعوله الأول "آيَةً" مفعوله الثاني والجملة جواب القسم لا محل لها ، "فَهَلْ" الفاء حرف استئناف وهل حرف استفهام "مِنْ مُدَّكِرٍ" مجرور لفظا بمن الزائدة مرفوع محلا على أنه مبتدأ خبره محذوف والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

[سورة القمر (54) : آية 16]

فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (16)

"فَكَيْفَ" الفاء حرف استئناف وكيف اسم استفهام خبر كان المقدم "كانَ" ماض ناقص "عَذابِي" اسمه "وَنُذُرِ" معطوف على عذابي .

[سورة القمر (54) : آية 17]

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (17)

"وَلَقَدْ" سبق إعرابها في الآية - 4 - من السورة "يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة جواب القسم لا محل لها ، "لِلذِّكْرِ" متعلقان بالفعل "فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ" سبق إعرابها في الآية - 15 - من السورة.

[سورة القمر (54) : آية 18]

كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (18)

"كَذَّبَتْ عادٌ" ماض وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها ، "فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ" : سبق إعرابها في الآية - 16 - من السورة.

[سورة القمر (54) : آية 19]

إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19)

"إِنَّا" إن واسمها ، "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "رِيحاً" مفعول به "صَرْصَراً" صفة ريحا وجملة أرسلنا . . خبر إن وجملة إنا . . استئنافية لا محل لها "فِي يَوْمِ" متعلقان بأرسلنا "نَحْسٍ" مضاف إليه "مُسْتَمِرٍّ" صفة نحس.

[سورة القمر (54) : آية 20]

تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20)

"تَنْزِعُ النَّاسَ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صفة ريحا "كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ" كأن واسمها وخبرها "نَخْلٍ" مضاف إليه "مُنْقَعِرٍ" صفة أعجاز وجملة كأنهم . . حال .

[سورة القمر (54) : الآيات 21 الى 22]

فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (21) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (22)

تقدم إعرابهما .

[سورة القمر (54) : آية 23]

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23)

"كَذَّبَتْ ثَمُودُ" ماض وفاعله "بِالنُّذُرِ" متعلقان بالفعل والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة القمر (54) : آية 24]

فَقالُوا أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (24)

"فَقالُوا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله "أَبَشَراً" الهمزة حرف استفهام وبشرا منصوب على الاشتغال "مِنَّا" صفة بشرا "واحِداً" صفة بشرا "نَتَّبِعُهُ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة تفسيرية لا محل لها "إِنَّا إِذاً" إن واسمها وإذن حرف جواب وجزاء "لَفِي" اللام والمزحلقة "فِي ضَلالٍ" متعلقان بمحذوف خبر إن "وَسُعُرٍ" معطوف على ضلال .

وجملة إنا . . مقول القول .

[سورة القمر (54) : آية 25]

أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذّابٌ أَشِرٌ (25)

"أَأُلْقِيَ" الهمزة حرف استفهام وماض مبني للمجهول "الذِّكْرُ" نائب فاعل "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "مِنْ بَيْنِنا" متعلقان بمحذوف حال والجملة مقول القول "بَلْ" حرف عطف وانتقال "هُوَ كَذّابٌ" مبتدأ وخبره "أَشِرٌ" صفة والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة القمر (54) : آية 26]

سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذّابُ الْأَشِرُ (26)

"سَيَعْلَمُونَ" السين حرف استقبال ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله "غَداً" ظرف زمان "مَنِ الْكَذّابُ" مبتدأ وخبره "الْأَشِرُ" صفة والجملة الاسمية سدت مسد مفعولي يعلمون .

(91/735)

[سورة القمر (54) : آية 27]

إِنّا مُرْسِلُوا النّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27)

"إِنّا مُرْسِلُوا" إن واسمها وخبرها المرفوع بالواو وحذفت النون للإضافة "النّاقَةِ" مضاف

إليه "فِتْنَةً" مفعول لأجله "لَهُمْ" متعلقان بفتنة ، "فَارْتَقِبْهُمْ" الفاء الفصيحة وأمر ومفعوله والفاعل مستتر والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "وَاصْطَبِرْ" معطوف على ارتقبهم والجملة الاسمية مقول القول أيضا .

[سورة القمر (54) : آية 28]

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (28)

"وَنَبِّئْهُمْ" أمر ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ" أن واسمها وخبرها "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي نبئ الثاني والثالث "كُلُّ" مبتدأ مضاف إلى شرب "شِرْبٍ" مضاف إليه "مُحْتَضَرٌ" خبر والجملة الاسمية تعليلية .

[سورة القمر (54) : آية 29]

فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى فَعَقَرَ (29)

"فَنادَوْا صاحِبَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها والفاء حرف عطف "فَتَعاطى " ماض فاعله مستتر "فَعَقَرَ" معطوف على تعاطى والجملتان الفعليتان معطوفتان على ما قبلهما .

[سورة القمر (54) : آية 30]

فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (30)

سبق إعرابها في الآية - 16 - من السورة.

[سورة القمر (54) : آية 31]

إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31)

"إِنَّا" إن واسمها "أَرْسَلْنا" فعل ماض وفاعله والجملة خبر إن "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "صَيْحَةً" مفعول به "واحِدَةً" صفة صيحة وجملة إنا أرسلنا استئنافية لا محل لها.

"فَكانُوا" حرف عطف وكان واسمها "كَهَشِيمِ" متعلقان بمحذوف خبر كان "الْمُحْتَظِرِ" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها.

(92/735)

[سورة القمر (54) : آية 32]

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (32)

انظر الآية رقم - 17 - من السورة.

[سورة القمر (54) : آية 33]

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33)

"كَذَّبَتْ قَوْمُ" ماض وفاعله "لُوطٍ" مضاف إليه "بِالنُّذُرِ" متعلقان بالفعل والجملة استئنافية

لا محل لها . [سورة القمر (54) : آية 34]

إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ (34)

"إِنَّا أَرْسَلْنا" إن واسمها وماض وفاعله والجملة الفعلية خبر إن "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "حاصِباً" مفعول به "إِلَّا" أداة استثناء "آلَ" مستثنى بإلا مضاف إلى لوط "لُوطٍ" مضاف إليه "نَجَّيْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة حال "بِسَحَرٍ" متعلقان بالفعل وجملة إنا أرسلنا . . استئنافية لا محل لها .

[سورة القمر (54) : آية 35]

نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35)

"نِعْمَةً" مفعول لأجله "مِنْ عِنْدِنا" متعلقان بنعمة "كَذلِكَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف ، "نَجْزِي" مضارع فاعله مستتر والجملة استئنافية لا محل لها "مِنْ" مفعول به "شَكَرَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة من .

[سورة القمر (54) : آية 36]

وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ (36)

"وَلَقَدْ" انظر الآية - 4 - ، "أَنْذَرَهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "بَطْشَتَنا" مفعول به ثان والجملة جواب القسم لا محل لها "فَتَمارَوْا" ماض وفاعله "بِالنُّذُرِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة القمر (54) : آية 37]

وَلَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ (37)

(93/735)

"وَلَقَدْ" سبق إعرابها ، "راوَدُوهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة جواب القسم لا محل لها ، "عَنْ ضَيْفِهِ" متعلقان بالفعل ، "فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها ، "فَذُوقُوا" حرف عطف وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله "عَذابِي" مفعوله "وَنُذُرِ" معطوف على عذابي والجملة مقول قول محذوف .

[سورة القمر (54) : آية 38]

وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ (38)

"وَلَقَدْ" سبق إعرابها . "صَبَّحَهُمْ" ماض ومفعوله "بُكْرَةً" ظرف زمان "عَذابٌ" فاعل "مُسْتَقِرٌّ" صفة عذاب والجملة جواب القسم لا محل لها .

[سورة القمر (54) : الآيات 39 الى 40]

فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ (39) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (40)

سبق إعراب الآيتين .

[سورة القمر (54) : آية 41]

وَلَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41)

"وَلَقَدْ" سبق إعرابها . "جاءَ آلَ" ماض ومفعوله "فِرْعَوْنَ" مضاف إليه "النُّذُرُ" فاعل والجملة جواب القسم لا محل لها .

[سورة القمر (54) : آية 42]

كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42)

"كَذَّبُوا" ماض وفاعله "بِآياتِنا" متعلقان بالفعل "كُلِّها" توكيد والجملة استئنافية لا محل لها .

"فَأَخَذْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "أَخْذَ" مفعول مطلق مضاف إلى عزيز "عَزِيزٍ" مضاف إليه "مُقْتَدِرٍ" صفة عزيز .

[سورة القمر (54) : آية 43]

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43)

(94/735)

"أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ" الهمزة حرف استفهام إنكاري ومبتدأ وخبره والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "مِنْ أُولئِكُمْ" متعلقان بخير "أَمْ" حرف عطف "لَكُمْ" خبر مقدم "بَراءَةٌ" مبتدأ

مؤخر "فِي الزُّبُرِ" متعلقان ببراءة والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة القمر (54) : آية 44]

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44)

"أَمْ" حرف عطف "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "نَحْنُ جَمِيعٌ" مبتدأ وخبره والجملة مقول القول "مُنْتَصِرٌ" صفة جميع .

[سورة القمر (54) : آية 45]

سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45)

"سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ" السين للاستقبال ومضارع مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة استئنافية لا محل لها . "وَيُوَلُّونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "الدُّبُرَ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة القمر (54) : آية 46]

بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهى وَأَمَرُّ (46)

"بَلِ" حرف عطف وإضراب "السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها .

"وَالسَّاعَةُ أَدْهى " مبتدأ وخبره والجملة معطوفة على ما قبلها "وَأَمَرُّ" معطوف على ما قبله .

[سورة القمر (54) : آية 47]

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (47)

"إِنَّ الْمُجْرِمِينَ" إن واسمها "فِي ضَلالٍ" خبرها "وَسُعُرٍ" معطوف على ضلال والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة القمر (54) : آية 48]

يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (48)

"يَوْمَ يُسْحَبُونَ" ظرف زمان ومضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة في محل جر بالإضافة "فِي النَّارِ" متعلقان بالفعل "عَلى وُجُوهِهِمْ" متعلقان بالفعل أيضا "ذُوقُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة مقول قول مقدر "مَسَّ" مفعول به مضاف إلى سقر "سَقَرَ" مضاف إليه .

[سورة القمر (54) : آية 49]

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ (49)

"إِنَّا" إن واسمها "كُلَّ" مفعول به لفعل محذوف مضاف إلى شيء "شَيْءٍ" مضاف إليه

والجملة استئنافية لا محل لها . "خَلَقْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله "بِقَدَرٍ" متعلقان بمحذوف حال والجملة الفعلية تفسيرية لا محل لها والجملة الفعلية المقدرة خبر إن .

[سورة القمر (54) : آية 50]

وَما أَمْرُنا إِلاَّ واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50)

"وَما" الواو حالية وما نافية "أَمْرُنا" مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "واحِدَةٌ" خبر "كَلَمْحٍ" متعلقان بمحذوف حال "بِالْبَصَرِ" متعلقان بلمح والجملة حالية .

[سورة القمر (54) : آية 51]

وَلَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (51)

"وَلَقَدْ" سبق إعرابها "أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة جواب القسم لا محل لها "فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ" : انظر - 16 - الآية .

[سورة القمر (54) : آية 52]

وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52)

"وَكُلُّ" الواو حرف استئناف ومبتدأ "شَيْءٍ" مضاف إليه "فَعَلُوهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صفة شيء و"فِي الزُّبُرِ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

[سورة القمر (54) : آية 53]

وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (53)

"وَكُلُّ صَغِيرٍ" مبتدأ ومضاف إليه "وَكَبِيرٍ" معطوف على صغير "مُسْتَطَرٌ" خبر والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة القمر (54) : آية 54]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54)

(96/735)

"إِنَّ الْمُتَّقِينَ" إن واسمها "فِي جَنَّاتٍ" متعلقان بمحذوف خبر إن "وَنَهَرٍ" معطوف على ما قبله والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة القمر (54) : آية 55]

فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55)

"فِي مَقْعَدِ" بدل من قوله في جنات "صِدْقٍ" مضاف إليه "عِنْدَ" ظرف مكان مضاف إلى مليك "مَلِيكٍ" مضاف إليه "مُقْتَدِرٍ" صفة مليك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 283. 289﴾

(97/735)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الْقَمَر

ذكر فِيهَا أَرْبَعَة أَحَادِيث

1276 - الحَدِيث الأول

عَن ابْن عَبَّاس وَأنس وَابْن مَسْعُود أَن الْكفَّار سَأَلُوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم آية فانشق الْقَمَر مرَّتَيْن

قَالَ ابْن عَبَّاس انْفَلق فلقَتَيْن فلقَة ذهبت وَفلقَة بقيت

وَقَالَ ابْن مَسْعُود رَأَيت حراء بَين فِلْقَتَيْ الْقَمَر

قلت أما حَدِيث أنس فَفِي الصَّحِيحَيْن من حَدِيث قَتَادَة عَنهُ أَن أهل مَكَّة سَأَلُوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَن يُرِيهم آية فَأَرَاهُم انْشِقَاق الْقَمَر مرَّتَيْن رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي التَّفْسِير وَفِي الْفَضَائِل وَمُسلم فِي صفة الْقِيَامَة زَاد البُخَارِيّ فِي لفظ حَتَّى رَأَوْا حراء بَينهمَا انْتَهَى

وَأما حَدِيث ابْن عَبَّاس فَفِي الصَّحِيحَيْن أَيْضا من رِوَايَة عراك بن مَالك عَن عبيد الله بن عبد الله بن عتبَة عَن ابْن عَبَّاس قَالَ انْشَقَّ الْقَمَر عَلَى زمَان رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَتَّى رَأَوْا حراء بَينهمَا انْتَهَى

وَأما حَدِيث ابْن مَسْعُود فَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضا من حَدِيث أبي معمر عَنهُ قَالَ بَيْنَمَا نَحن مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بمنى إِذْ انْفَلق الْقَمَر فلقتَيْن وَكَانَت فلقَة وَرَاء الْجَبَل وَكَانَت فلقَة دونه فَقَالَ لنا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (اشْهَدُوا) انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث مَنْصُور بن الْمُعْتَمِر عَن زيد بن وهب عَن عبد الله بن مَسْعُود قَالَ وَلَقَد رَأَيْت حراء بَين الشقتَيْنِ

(98/735)

وَرَوَى أَبُو نعيم فِي دَلَائِل النُّبُوَّة فِي الْبَاب التَّاسِع عشر من طَرِيق الْكَلْبِيّ عَن أبي صَالح عَن ابْن عَبَّاس قَالَ انْفَلق الْقَمَر عَلَى عهد النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فلقتَيْن فلقَة ذهبت وَفلقَة بقيت قَالَ ابْن مَسْعُود وَلَقَد رَأَيْت جبل حراء بَين فِلْقَتَيْ الْقَمَر انْتَهَى

وَقد وري حَدِيث انْشِقَاق الْقَمَر من حَدِيث ابْن عمر وَهُوَ فِي مُسلم من رِوَايَة مُجَاهِد عَنهُ وَمن حَدِيث جُبَير بن مطعم رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه عَن حُصَيْن ابْن عبد الرَّحْمَن عَن مُحَمَّد بن جُبَير بن مطعم عَن أَبِيه قَالَ انْشَقَّ الْقَمَر عَلَى عهد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَصَار فرْقَتَيْن فرقة عَلَى هَذَا الْجَبَل وَفرْقَة عَلَى هَذَا الْجَبَل فَقَالُوا سحرنَا مُحَمَّد فَقَالُوا إِن كَانَ سحرنَا فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيع أَن يسحر النَّاس كلهم انْتَهَى

وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَالْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة

1277 - الْحَدِيث الثَّانِي

عَن حُذَيْفَة أَنه خطب بِالْمَدَائِنِ فَقَالَ أَلَا إِن السَّاعَة قد اقْتَرَبت وَإِن الْقَمَر قد انْشَقَّ عَلَى عهد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(99/735)

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي الْأَهْوَال من حَدِيث إِسْمَاعِيل بن علية عَن عَطاء بن السَّائِب عَن أبي عبد الرَّحْمَن السّلمِيّ قَالَ نزلنَا الْمَدَائِن فَكُنَّا مِنْهَا عَلَى فرسخ فَجَاءَت الْجُمُعَة فَحَضَرَ أبي وَحَضَرت مَعَه فَخَطَبنَا حُذَيْفَة فَقَالَ أَلَا إِن الله يَقُول اقْتَرَبت السَّاعَة وَانْشَقَّ الْقَمَر أَلَا وَإِن السَّاعَة قد اقْتَرَبت وَإِن الْقَمَر قد انْشَقَّ عَلَى عهد نَبيكُم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَلَا وَإِن الدُّنْيَا قد أَذِنت بِفِرَاق أَلَا وَإِن الْيَوْم الْمِضْمَار وَغدا السباق فَقلت إِنِّي لأستبق النَّاس غَدا فَقَالَ يَا بني إِنَّك لجَاهِل إِنَّمَا السباق بِالْأَعْمَالِ انْتَهَى

وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه فِي الْجُمُعَة وَأَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة حُذَيْفَة

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ وَمن طَرِيقه الثَّعْلَبِيّ فِي تفسيرهما

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من طَرِيق أَحْمد بن حَنْبَل ثَنَا مُحَمَّد بن جَعْفَر ثَنَا شُعْبَة عَن عَطاء بن السَّائِب

1278 - الْحَدِيث الثَّالِث

عَن عِكْرِمَة قَالَ لما نزلت سَيهْزَمُ الْجمع قَالَ عمر أَي جمع يهْزم فَلَمَّا رَأَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ثَبت فِي الدرْع وَهُوَ يَقُول سَيهْزَمُ الْجمع عرف تَأْوِيلهَا

قلت رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره أَنا معمر عَن قَتَادَة عَن أَيُّوب عَن عِكْرِمَة أَن عمر بن الْخطاب قَالَ لما نزلت سَيهْزَمُ الْجمع ويُوَلُّونَ الدبر قَالَ عمر أَي جمع يهْزم أَي جمع يغلب قَالَ عمر فَلَمَّا كَانَ يَوْم بدر رَأَيْت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ثَبت فِي الدرْع وَهُوَ يَقُول سَيهْزَمُ الْجمع ويُوَلُّونَ الدبر فَعرفت تَأْوِيلهَا يَومئِذٍ انْتَهَى

(100/735)

وَعَن عبد الرَّزَّاق رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي كمسنده بِسَنَدِهِ وَمَتنه

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرِيّ وَابْن أبي حَاتِم فِي تفسيريهما

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره وَأَخرجه الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط عَن عبد

الْمجِيد بن عبد الْعَزِيز بن أبي رواد عَن معمر عَن قَتَادَة عَن أنس أَن عمر بن الْخطاب قَالَ

. . . الحَدِيث بحُرُوفِهِ

1279 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من قَرَأَ سُورَة الْقَمَر فِي كل غب بَعثه الله يَوْم الْقِيَامَة وَوَجهه مثل الْقَمَر لَيْلَة الْبَدْر) من قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره أخبرنَا أَبُو الْحسن مُحَمَّد بن الْقَاسِم الْفَقِيه ثَنَا أَبُو عبد الله مُحَمَّد بن يزِيد الْعدْل ثَنَا أَبُو يَحْيَى الْبَزَّار ثَنَا مُحَمَّد بن مَنْصُور

ثَنَا مُحَمَّد بن عمرَان بن عبد الرَّحْمَن بن أبي لَيْلَى ثني أبي عَن مجَالد بن عبد الْوَاحِد عَن الْحجَّاج بن عبد الله عَن أبي الْجَلِيل عَن عَلّي بن زيد وَعَطَاء بن أبي مَيْمُونَة عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من قَرَأَ سُورَة اقْتَرَبت السَّاعَة فِي كل غب بعث يَوْم الْقِيَامَة وَوَجهه عَلَى صُورَة الْقَمَر لَيْلَة الْبَدْر وَمن قَرَأَهَا فِي كل لَيْلَة فَهُوَ أفضل وَجَاء يَوْم الْقِيَامَة وَوَجهه مُسْفِر عَلَى وُجُوه الْخَلَائق) انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ الثَّانِي فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 389.392 ﴾

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة القمر

قوله تعالى : (وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ) ، الآية/ 28 .

يدل على جواز المهايأة «1» على الماء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 395﴾

---

(1) والمهايأة : الأمر المتوافق عليه وهو قسمة المنافع .

(102/735)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة القمر» (54)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ» (2) شديد . .

«مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ «1»» (8) مسرعين . .

«وَازْدُجِرَ» (9) افتعل من زجر . .

«فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ» (12) مجازه: الماء الذي خرج من الأرض وما سال من السماء . .

«أَلْواحٍ وَدُسُرٍ» (13) الدّسر المسامير والخرز واحدها دسار، يقال: هات لى دسارا . .

«مُدَّكِرٍ» (15) مذتكر فلما أدغم التاء فى الذال تحولت الذال دالا . .

«صَرْصَراً» (19) شديدة ذات صوت . .

«مُسْتَمِرٍّ» (19) شديد قد استمرّ.

---

(1) . - 4 «و منه قول . . . السماع» الذي ورد فى الفروق: رواه القرطبي (17/ 130) عن أبى عبيدة.

«أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ» (20) أسافل نخل منقلع من أصله ، يقال : هى النخل وهو النخل فمجازها هاهنا : لغة من ذكر وفى آية أخرى «أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ» (69/ 7) فى لغة من أنّث .

«ضَلالٍ وَسُعُرٍ» (24) جميع سعيرة . .

«أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا» (25) أجاءه الذكر كما تقول : ألقيت عليه مسئلة وألقيت عليه حسابا . .

«الْأَشِرُ» (26) ذو التجبّر والكبرياء وربما كان النّشاط . .

«كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ «1»» (31) صاحب الحظيرة والمحتظر هو الحظار ، والهشيم ما يبس من الشجر أجمع . .

«أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً» (34) حجارة «2» والحاصب أيضا يكون من الجليد قال الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور (447)

على عمائمنا يلقى وأرحلنا على زواحف تزجى مخّها رير

.

«فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ» (37) لا يرى شقّ العين والريح تطمس الأعلام . .

«فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ» (52) جماعة زبور ويقال : زبرت الكتاب وذبرته . .

«مُسْتَطَرٌ» (53) أي مفتعل مكتوب، مجازها مجاز مسطور . .

«فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ» (54) مجازها : أنهار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 241.240 ﴾

---

(1) . - 8 «المحتظر» قرأ الحسن وقتادة وأبو العالية المحتظر بفتح الظاء أرادوا الحظيرة وقرىء كهشيم المحتظر فمن كسره جعله الفاعل ومن فتحه جعله المفعول به (القرطبي 17/ 143) .

(2) . - 10 حجارة» : رواه القرطبي (17/ 143) عن أبى عبيدة .

(104/735)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «انشقاق القمر»

[سورة القمر (54) : الآيات 11 الى 12]

فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12)

قوله تعالى: فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ [11، 12] وهذه استعارة. والمراد- والله أعلم- بتفتيح أبواب السماء تسهيل سبل الأمطار حتى لا يحبسها حابس، ولا يلفتها لافت. ومفهوم ذلك إزالة العوائق عن مجارى العيون من السماء، حتى تصير بمنزلة حبيس فتح عنه باب، أو معقول أطلق عنه عقال. وقوله تعالى: فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ أي اختلط ماء الأمطار المنهمرة، بماء العيون المتفجرة، فالتقى ماءاهما على ما قدره الله سبحانه، من غير زيادة ولا نقصان. وهذا من أفصح الكلام، وأوقع العبارات عن هذه الحال.

[سورة القمر (54): آية 25]

أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذّابٌ أَشِرٌ (25)

وقوله سبحانه: أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذّابٌ أَشِرٌ [25] ولفظ إلقاء الذّكر هاهنا مستعار: والمراد به أن القرآن لعظم شأنه، وصعوبة أدائه، كالعبء الثقيل الذي يشقّ على من حمّله، وألقى عليه ثقله.

وكذلك قال تعالى: إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا «1». وكذلك قول القائل: (ألقيت على فلان سؤالا، وألقيت عليه حسابا) أي سألته عما يستكدّ له هاجسه، ويستعمل به خاطره.

[سورة القمر (54): آية 46]

بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهى وَأَمَرُّ (46)

وقوله سبحانه: بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ، وَالسَّاعَةُ أَدْهى وَأَمَرُّ [46] وهذه استعارة. لأن المرارة لا يوصف بها إلا المذوقات والمتطعمات، ولكنّ الساعة لما كانت مكروهة عند مستحقّى العقاب، حسن وصفها بما يوصف به الشيء المكروه المذاق.

ومن عادة من يلاقى ما يكرهه، ويرى ما لا يحبّه، أن يحدث ذلك تهيّجا فى وجهه، يدل

(1) سورة المزمل. الآية رقم 5.

على نفور جأشه، وشدة استيحاشه، فكذلك هؤلاء إذا شاهدوا أمارات العذاب، ونوازل العقاب، ظهر فى وجوههم ما يستدل به على فظاعة الحال عندهم، وبلوغ مكروهها من قلوبهم، فكانوا كلائك «1» المضغة المقرة، «2» وذائق الكأس الصّبرة، فى فرط التقطيب، وشدة التهيج. وشاهد ذلك قوله سبحانه: تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيها كالِحُونَ «3». انتهى انتهى. اهـ ﴿تلخيص البيان صـ 318.319﴾

(1) اللائك: اسم فاعل من لاك يلوك أي مضغ.

(2) المقرة على وزن فرحة : المرة الطعم يقال : مقر الشيء مقرا إذا صار مرا

(3) سورة المؤمنون . الآية رقم 104 .

(106/735)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة القمر

" اقتربت الساعة وانشق القمر " . ظاهر العبارة أن هذا الانشقاق يقع آخر الزمان مع الاضطراب الفلكى الذى يعترى الأفلاك ومسيرتها . ومن هذا القبيل ما جاء فى سورة القيامة " فإذا برق البصر * وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذ أين المفر " . ولكن ورد حديث عن ابن مسعود يفيد أن انشقاق القمر وقع على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن المشركين رفضوا الإذعان له ، وبقوا على مكابرتهم يزعمون أن الرسول ساحر ! ! " وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر " . يعنون أن جهد الرسول فى هدم الوثنية وزلزلة الأصنام ذهب سدى . فالعقائد كما هى ، وأوضاع الجاهلية مستقرة لم يستطع المسلمون زحزحتها ! مع أن الوحى النازل يدك الباطل ويمحو

الظلمات . "ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغن النذر " . إنه إذا لم يتحرك الضمير داخل الإنسان ويغريه بالإذعان والإيمان ، فلا غناء فى الدعوة مهما كانت بليغة . ولقد هدد الله المشركين بيوم البعث والجزاء ، ثم ذكر لهم أن الأمم الضالة سوف تلقى مصيرا أليما قبل ذلك "ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله " . ومن هنا شرعت السورة تحكى فى إيجاز شديد عواقب الضلال والعناد من عهد نوح "كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر * فدعا ربه أني مغلوب فانتصر " . كنت أسمع هذه الآيات من فم قارئ ندى الصوت وقف على كلمة مغلوب وأطال مد الواو

(107/735)

ست حركات مليئة بالقهر والضراعة والاستنجاد ، خيل إلى أنها امتلأت بآلام تسعة قرون ونصف من جهاد الدعوة ، وفشل الاستجابة ، ونظرت حولى ، فرأيت الدموع تطفر من الأعين رقة لعبودية نوح واستغاثته . ! " ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر " . وبعد قوم نوح جاءت عاد ، وكانت قبيلة مغرورة متكبرة ، أوتيت بسطة فى الأموال والأجساد ولم تستح أن تصف رسولها

بالسفاهة وهو يدعوها إلى توحيد الله ! "إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر * تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر" . كانت الريح العقيم تجلد الأرض بأجساد هؤلاء العماليق أو تجلد أجسادهم بالأرض ، فإذا هم ممددون على الثرى كجذوع النخل التى طاحت رءوسها " فكيف كان عذابي ونذر " لقد هلك قوم نوح بالماء وقوم هود بالهواء ، وهذه عناصر مأنوسة بيننا ، ولكن الله إذا شاء أغرق بالماء ، ودمر بالهواء ! ! "ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر" وجاءت ثمود بعد عاد ، وأبرزت السورة الكريمة خطابها لنبيها صالح لأنه شبيه بما قاله أهل مكة لخاتم المرسلين ، قالوا " أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري" وقبل ذلك " وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب" . ما أشبه ذلك بما قالته ثمود عن نبيها " فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر * أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر" أى مترقع دعى . وقتلت ثمود ناقة صالح التى خلقها الله من الصخر معجزة له ، فنزل بهم عذاب حول أشخاصهم إلى غثاء كالهشيم الذى يفرش فى الحظائر وتطؤه الدواب " إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر" . وننتقل إلى المدينة الفاجرة التى طغت شهواتها واستمرأت الشذوذ وفتحت له نوادى تقارفه . إن نبيها الصالح لوطا أعلن مقته لهذه الفاحشة ، وحاول تهذيب طباعهم ، لكنهم أبوا وحاولوا السطو على ضيوفه من الملائكة ، فكانت عقوبتهم دمار مدينتهم . ويرى بعض المحققين أن

تفجيرا ذريا جعل عاليها سافلها وأصاب من رأوه بالعمى !

"ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر * ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر" . واللواطة معروفة فى الحضارة الحديثة ، وقد أعقبت وباغ الإيدز المهلك . والغريب أن التوبة منها لم تخطر بالبال ، وإنما النصيحة المبذولة: اقضوا شهوتكم ، واحتاطوا لصحتكم ! ! ذلك ما يقوله رجال الدين وهم ينشرون الغشاء الواقى . . ! وماذا تنتظر ممن نسى الله ؟ وختمت سير الأوائل بالحديث عن الفراعنة الذين يحكمون الناس قسرا وينشدون الاستعلاء فى الأرض " ولقد جاء آل فرعون النذر * كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر" . ثم قيل لمن يعى الخطاب: إن أعداء الإسلام لن يفلتوا من المصير الذى نال أسلافهم ! "أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر * أم يقولون نحن جميع منتصر * سيهزم الجمع ويولون الدبر" . وقد تحقق هذا الوعيد ، ونزلت بالمشركين هزيمة مُذَّلة فى معركة بدر طاحت برءوس الكفر وأرغمت أنوفهم ، وما ينتظرهم فى الآخرة أقسى " ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون " .

وختمت السورة بحديث عن يوم الحساب ، يوم يساق الجزاء العدل للفريقين " إن المجرمين في

ضلال وسعر * يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر" . أما المسلمون فلهم شأن آخر "إن المتقين في جنات ونهر * في مقعد صدق عند مليك مقتدر" . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 419. 421 ﴾

(109/735)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والثلاثون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/736)

الجزء السادس والثلاثون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من (سورة القمر)

وحتى الآية ﴿ 32 ﴾ من السورة

(4/736)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/736)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة القمر

أقول: لا يخفى ما في توالى هاتين السورتين من حسن التناسق في التسمية ، لما بين النجم والقمر من الملابسة ، ونظيره توالى الشمس والليل والضحى ، وقبلها سورة الفجر ووجه آخر ، وهو: أن هذه السورة بعد النجم كالأعراف بعد الأنعام ، وكالصافات بعد يس ، في أنها تفصيل لأحوال الأمم المشار إلى إهلاكهم إلى قوله هناك: (وأَنه أَهلكَ عاداً الأولى وثمود فما أَبقى وقوم نوح من قبل إِنهم كانوا هُم أَظلم وأَطغى والمؤتفِكة أَهوى) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 133.134 ﴾

(6/736)

قوله تعالى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (5) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (6) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (7) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ

هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي أحاط علمه فتمت قدرته (الرحمن) الذي وسعت رحمته كل شيء فعمت الشقي والسعيد (الرحيم) الذي خص بإتمام النعمة من اصطفاه فأسعدتهم رحمته .

لما ختمت النجم بالتهديد باقتراب القيامة التي ينكرونها بعد أن فتحها بالأقسام البلس (؟) في النجم الذي هو أعم من القمر وغيره بتسييره طلوعاً وأفولاً وصعوداً وهبوطاً ، افتتح هذه بذلك مع الدلالة عليه عقلاً وسمعاً في التأثير في أعظم آيات الله وغير ذلك ليقطع العباد عن الفساد ، ويستعدوا لها قبل مجيئها أحسن استعداد ، فقال دالا على عظيم اقتداره عليها بتأنيث فعلها : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ اشتدت قرباً الساعة : اللحظة التي لا ساعة في الحقيقة غيرها التي تقوم فيها القيامة لأنه قل ما بقي بيننا وبينها بالنسبة إلى ما مضى من زمن آدم عليه السلام لبعث خاتم الأنبياء الذي لم يبق بعد أمته أمة تنتظر ، فيكون في الزمان مهلة لذلك .

ولما كان الإخبار باقترابها يحتاج عند المعاند إلى آية دالة عليه ، وكانت الآيات السماوية أعظم ، فالتأثير فيها أدل على تمام الاقتدار ، وكان القمر أدل على الأنواء التي بها منافع الخلق في معاشهم ، وكانت العرب أعرف الناس بها ، دلهم على التأثير فيه على اقترابها مع الإرهاب من شدائد العذاب بإعدام الأسباب فقال : ﴿ وانشق ﴾ بغاية السرعة والسهولة ﴿ القمر ﴾ آية للرسول المنذر لكم بها ، فكان انشقاقه – مع الدلالة على ذلك بإعجاز القرآن وغيره – دالاً على كونها وقربها أيضاً بالتأثير العظيم الخارق لعادة ما قبله من التأثير في أحد النيرين اللذين هما أعظم الأسباب المقامة للمعايش الدال على القدرة على التأثير في الآخرة الدال ذلك على القدرة على تمام التصرف فيهما من جمعهما وخسفهما واعتدامهما ولسببهما (؟) الذي هو من أسباب خراب الأرض ، يقول الإنسان عنده : أين المفر ؟ المؤذن بطيّ العالم المعلم بأن له رباً فاعلاً بالاختيار مدبراً بالحكم الدال على بعث عباده ليحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ، فيثيب من تابع رسله ويعاقب من خالفهم ، وانشقاق القمر على حقيقته في زمان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر شهير جداً ، وإجماع أهل التفسير عليه كما قاله القشيري ، وقال : رواه ابن مسعود رضي الله عنده ولا مخالف له فيه – انتهى .

(8/736)

وذلك أن قريشاً سألوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يريهم آية " فأراهم انشاق القمر بحيث طلعت فرقة عن يمين حراء وأخرى عن يساره " – رواه الشيخان عن ابن مسعود وأنس ـ رضى الله عنهما ـ ، ومعلوم أن الأمة تلقت كتابيهما بالقبول فهو يكاد يلحق بالمتواتر وقد أيده القرآن فلم يبق فيه شك ، قال القشيري : وروى أيضاً ابن عمر وحذيفة وابن عباس وجبير بن مطعم ـ رضى الله عنه ـ م ، وقال أبو حيان : سبب نزولها أن مشركي العرب من قريش قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين ، ووعدوه بالإيمان إن فعل ذلك ، وكانت ليلة البدر فسأل ربه فانشق – انتهى ، ومن قال : المراد به " سينشق " يحتاج في صرف الماضي عن حقيقته إلى المستقبل إلى صارف وأنى له ذلك ولا سيما وقد تأيدت الحقيقة بالنسبة الصحيحة الشهيرة .

(9/736)

وقال الإمام أبو جعفر ابن الزبير : لما أعلمهم سبحانه بأن إليه المنتهى ، وأن عليه النشأة الأخرى ، وإذا ذاك يقع جزاء كل نفس بما أسلفت ، أعلمهم سبحانه بقرب ذلك وحسابه ليزدجر من وفقه للازدجار فقال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ثم إن سورة ص تضمنت من عناد المشركين وسوء حالهم وتوبيخهم في عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع ما يكاد يوجد في غيرها مما تقدمها ، وبعد التنبيه في السورة قبلها والتحريك بآيات لا يتوقف عنها إلا من أضله الله وخذله ، وأثبتت السورة بعد على تمهيد ما تضمنته سورة ص فلم يخل سورة منها من توبيخهم وتقريعهم لقوله في الزمر ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر : 3] وقوله : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء ﴾ [الزمر : 4] وقوله : ﴿ قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه ﴾ [الزمر : 14] وقوله مثلاً لحالهم : ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ﴾ [الزمر : 29] الآية إلى ما بعد من التقريع والتوبيخ ، وقوله في سورة غافر : ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ [غافر : 4] وقوله : ﴿ ذلكم بأنه إذ دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله ﴾ [غافر : 12] وقوله : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ [غافر : 21 - 82] الآية ، وقوله : ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴾ [غافر : 56] وقوله : ﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون في أيات الله أنى يصرفون ﴾ [

غافر : 69] ﴿ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ﴾ [غافر : 70] إلى قوله : ﴿ فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون ﴾ [غافر : 77] وقوله : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض ﴾ [غافر : 82] إلى ما تخلل هذه الآيات ، وقوله في فصلت ﴿ فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا في أكنة ﴾ [فصلت : 5

(10/736)

] ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ [فصلت : 26] ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا ﴾ [فصلت : 40 - 44] إلى قوله : ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ [فصلت : 40 - 44] وقوله : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ [فصلت : 53] إلى آخر السورة ، وقوله في الشورى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل ﴾ [الشورى : 6] ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ [الشورى : 13] الآية ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ [الشورى : 21] الآية ﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ ﴾

[الشورى : 48] وقوله في الزخرف : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً ﴾ [الزخرف : 5] الآية ، ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً ﴾ [الزخرف : 15] إلى ما تردد في هذه السورة مما قرعوا به أشد التقريع ، وتكرر في آيات كثيرة فتأملها مثل قوله تعالى في الدخان ﴿ بل هم في شك يلعبون ﴾ [الدخان : 9] إلى قوله : ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ [الدخان : 16] وقوله : ﴿ إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ﴾ [الدخان : 40] إلى قوله هذا ﴿ ما كنتم به تمترون ﴾ [الدخان : 50] وقوله في الأعراف : ﴿ فبأيّ حديث بعده يؤمنون ﴾ [الأعراف : 185] إلى قوله : ﴿ والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴾ [الجاثية : 11] وقوله : ﴿ أفرءيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ [الجاثية : 23] إلى آخر السورة ، وقوله في الأحقاف : ﴿ والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴾ [الأحقاف : 3] ومعظم هذه الآية لم يخرج عن هذا إلى ختامها ، وكذلك سورة القتال ولم يتضمن إلا الأمر بقتلهم وأسرهم وتعجيل حربهم ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾ [محمد : 4] وأما سورة الفتح فما تضمنته من البشارة والفتح أشد على الكفار من كل ما قرعوا به ، ولم تخرج عن الغرض المتقدم ، وكذا سورة

الحجرات لتضمنها من الأمر بتقدير النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإجلاله ما يقر عين المؤمن ويقتل العدو الحاسد وما فيها أيضاً من إتلاف أمر المؤمنين وجمع كلمتهم وتآخيهم ، وموقع هذا لا يخفى على أحد ، وأما سورة الذاريات والطور والنجم فما تضمنته مما ذكرناه قبل أوضح شيء ، وبذلك افتتحت كل سورة منها فتأمل مطالعها ففي ذلك كفاية في الغرض – والله تعالى هو أعلم بالصواب ، فلما انتهى ما قصد من تقريع مكذبي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبلغت الآي في هذه السورة من ذلك أقصى غاية ، وتمحض باطلهم وانقطع دابرهم ، ولم يحيروا جواباً فيما عرض عليهم سبحانه في سورة القمر من أحوال الأمم مع أنبيائهم ، وكان القصد من ذلك – والله أعلم –

(12/736)

مجرد التعريف بأنهم ذكروا فكذبوا فأخذوا ليتبين لهؤلاء أن لا فرق بينهم وبين غيرهم وأن لا يغرهم عظيم حلمه سبحانه عنهم ، فهذه السورة إعذار عند تبكيتهم وانقطاع حجتهم بما تقدم وبعد أن انتهى الأمر في وعظهم وتنبيههم بكل آية إلى غاية يعجز عنها البشر ، ولهذا افتتح سبحانه هذه السورة بقوله تعالى : ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغن النذر ﴾ وختمها سبحانه بقوله : ﴿ أكفاركم خير من أولائكم أم لكم براءة في

الزبر ﴾ وهذا يبين ما قدمنا ، وكان قد قيل لهم : أي فرق بينكم وبين من تقدم حتى ترتكبوا مرتكبهم وتظنوا أنكم ستفوزون بعظيم جزائكم ، فذكر سبحانه لهم قصة كل أمة وهلاكها عند تكذيبها بأعظم إيجاز وأجزل إيراد وأفخم عبارة وألطف إشارة ، فبدأ بقصة قوم نوح بقوله : ﴿ كذبت قوم نوح ﴾ إلى قوله : ﴿ ولقد تركناها آية فهل من مدكر فكيف كان عذابي ونذر ﴾ ثم استمر في ذكر الأمم مع أنبيائهم حسبنا ذكروا في السورة الوارد فيها إخبارهم من ذكر أمة بعد أمة إلا أن الواقع هنا من قصصهم أوقع في الزجر وأبلغ في الوعظ وأعرق في الإفصاح بسوء منقلبهم وعاقبة تكذيبهم ، ثم ختمت كل قصة بقوله : ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ وتخلل هذه القصص بقوله تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ وهي إشارة إلى ارتفاع عذر من تعلق باستصعاب الأمور على زواجره وتنبيهاته ومواعظه ويدعي بعد ذلك واستعلاقه فقيل له إنه ميسر قريب المرام ، وهذا فيما يحصل عند التنبيه والتذكير لما عنده بكون الاستجابة بإذن الله تعالى ووراء ذلك من المشكل والمتشابه ما لا يتوقف عليه ما ذكره وحسب عموم المؤمنين الإيمان بجميعه والعمل بمحكمه ، ثم يفتح الله تعالى فهم ذلك على من شرفه به وأعلى درجته ، فيتبين بحسب ما يشرح الله تعالى صدره ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ ومن تيسر المقصود المتقدم تكرار قصص الأنبياء مع أممهم في عدة سور أيّ حفظ مها اطلع على ما هو

(13/736)

كاف في الاعتبار بهم ، ثم إذا ضم بعضه إلى بعض اجتمع منه ما لم يكن ليحصل من بعض تلك السورة ، فسبحان من جعله حجة باهرة وبرهاناً على صدق الآتي به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وصراطاً مستقيماً ونوراً مبيناً ، ولما ذكر سبحانه عواقب الأمم في تكذيبهم قال لمشركي العرب : ﴿ أكفاركم خير من أولائكم ﴾ ومن هذا النمط قول شعيب عليه السلام :

(14/736)

﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ [هود : 89] ثم قال تعالى : ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ إي إنكم تعلقتم بتألفكم وجماعتكم فسأفرق ذلك بهزيمتكم يوم بدر بقتل صناديدكم فما حجتكم بعد هذا ، إنما مساق القصص في هذه السورة واعتماد التعريف بحال من ذكر في أن كذبوا وعاندوا ، فأعقب تكذيبهم أخذهم وهلاكهم

، ثم تعقب هذا كله بصرف الكلام في مشركي العرب في قوله : ﴿ أكفاركم خير من أولائكم ﴾ وليس شيء من السور المذكورة فيها قصص على هذا الاستيفاء كالأعراف وهود ، وبظاهرهما ليس في شيء من ذلك تعقيب بذكر مشركي العرب على الصفة الواردة هنا ، فأنبأ ذلك بكمال المقصود من الوعظ والتحريك بذكره وانقضاء هذا الغرض ، وذلك أنهم ذكروا أولاً بعرض أحوال الأمم والتعريف بما آل إليه أمرهم ، وكان ذلك في صورة عرض من يريد تأديب طائفة من إليه نظرهم قبل أن يظهر منهم تمرد وعناد ، فهو يستلطف في دعائهم ولا يكلمهم تكليم الواجد عليهم ، بل يفهم الإشفاق والاستعطاف وإرادة الخير بهم ثم يذكرهم بذلك ويكرره عليهم المرة بعد المرة وإن تخلل ذلك ما يبين منهم فظاعة التهديد وشدة الوعيد ، فلا يصحبه تعيين المخاطب وصرف الكلام بالكلية إليه ، بل يكون ذلك على طريق التعريض والتوبيخ ، ثم لو كان لا يحتقر بما قبله وما بعده من التلطف حتى إذا تكررت الموعظة فلم تقبل ، فهنا محل الغضب وشدة الوعيد ، وعلى هذا وردت السور المذكور فيها حال الأمم كسورة الأعراف وهود والمؤمنين والظلة والصافات ، وما من سورة منها إلا والتي بعدها أشد في التعريف وأمل في الزجر بعد التعريف ، فتأمل تعقيب القصص في سورة الأعراف بقوله تعالى :

﴿ وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾ [الأعراف : 174] وقوله بعد موعظة بالغة بذكر من حرمه بعد إشرافه عل الفوز وهو الذي أخلد إلى الأرض واتبع هواه فقال بعد ذلك ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ [الأعراف : 176] وتذكيره إياه لمحنة الغفلة إلى ما ختمت به السورة وذلك غير خاف في التلطف بالموعظة وقال تعالى بعد قصص سورة هود : ﴿ وكذلك أخذ ربك ﴾ [هود : 102] الآية ، وقال تعالى : ﴿ فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ﴾ [هود : 109] - إلى قوله - ﴿ وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ [هود : 109] وتكررت الآية إلى آخر السورة يجاري ما ذكر ولم تبق هذه وآي الأعراف في تلطف الاستدعاء ، وقال تعالى في قصص آخر سورة المؤمنين : ﴿ فذرهم في غمرتهم حتى حين ﴾ [المؤمنون : 54] - إلى قوله - ﴿ لا يشعرون ﴾ [المؤمنون : 56] ثم قال : ﴿ ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ﴾ [المؤمنون : 64] استمرت الآي على شدة الوعيد يتلو بعضها بعضاً إلى قوله : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ [المؤمنون : 115] وقوله تعالى بعد : ﴿ إنه لا يفلح الكافرون ﴾ [المؤمنون : 17] ولم يبين هذه الآي ، وبين الواقعة عقب قصص سورة هود ، وقال في آخر قصص الظلمة : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾ [الشعراء : 192] إلى قوله خاتمة السورة : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ [

الشعراء : 227] فوبخهم وعنفهم ونزه نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن توهمهم وعظيم إفكهم وافترائهم ، وكل هذا تعنيف وإن لم يتقدم له مثله في السورة المذكورة ، ثم هو صريح في مشركي العرب معين لهم في غير تلويح ولا تعريض ، ثم إنه وقع عقب كل قصة في هذه السورة قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك ﴾ وفيه تهديد ووعيد ، وقال تعالى في آخر والصافات : ﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون ﴾ [

(16/736)

الصافات : 149] وهذا أعظم التوبيخ وأشد التقريع ، ثم نزه نبيه سبحانه عن بهتان مقالهم وسوء ارتكابهم وقبح فعالهم ، بقوله : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ [الصافات : 180] فلما أخذوا بكل مأخذ فما أغنى ذلك عنهم قال تعالى في سورة القمر : ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ﴾ ﴿ حكمة بالغة فما تغني النذر ﴾ ، ثم قال تعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿ فتول عنهم ﴾ ولم يقع أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتركهم والإعراض عنهم والتولي إلى بعد حصول القصص في السورة المذكورة وأخذهم بكل طريق ، وأول أمره بذلك ـ صلى الله عليه وسلم ـ في سورة السجدة ﴿ فأعرض عنهم

وانتظر إنهم منتظرون ﴾ ثم في سورة والذريات ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ بأشد وعيد وأعظم تهديد بعقب كل قصة بقوله : ﴿ ولقد تركناها آية فهل من مذكر ﴾ وقوله : ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ ثم صرف إليهم بما تقدم قوله : ﴿ أكفاركم خير من أولائكم أم لكم براءة في الزبر ﴾ فبلغ ذلك أعظم مبلغ في البيان وإعذار ، ثم قال تعالى : ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾ ففرق سبحانه بسابق حكمته فيهم ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ وانقضى ذكر القصص فلم يتعرض لها مستوفاة على المساق فيما بعد إلى آخر الكتاب - فسبحان من رحم به عباده المتقين وجعله آية وأي آية باهرة إلى يوم الدين ، وقطع عناد الجاحدين وغائلة المعتدين وجعله بياناً كافياً ونوراً هادياً وواعظاً شافياً - جعلنا الله سبحانه وتعالى ممن اهتدى واعتلق بسببه إنه أهل الاستجابة والعفو والمغفرة - انتهى .

(17/736)

ولما كان التقدير : فأعرض الكفار عن آية انشقاقه وقالوا : سحر ، مع علمهم بأنه دال قطعاً على صدق من انشق لتصديقه ، عطف عليه الإعلام بحالهم في المستقبل فطماً لمن يطلبه من المؤمنين إجابة مقترحة من مقترحاتهم رجاء إيمانهم فقال : ﴿ وإن يروا ﴾ أي فيما يأتي ﴿ آية ﴾ أي أية آية كانت ﴿ يعرضوا ﴾ أي عن الانتفاع بها كما أن أعرضوا عن هذه

لما رأوها ، وقال بعضهم : سحر ، وقال بعضهم : أمهلوا حتى يجيء السفار ، فإن قالوا : إنهم رأوا كما رأيتم فليست بسحر ، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر أهل الأرض كلهم ، فجاء السفار وشهدوا برؤيته منشقاً ، ومع ذلك فلم يؤمنوا ﴿ ويقولوا ﴾ أي على سبيل التجديد منهم والاستمرار : هذا ﴿ سحر ﴾ أي هذا الذي يأتينا به هذا الرجل من وادي الخيال الذي لا حقيقة له وهو ﴿ مستمر ﴾ أي لأنه فارق السحر بأنه لا ينكشف في الحال لأنه محكم ثابت دائم بشموله وإحاطته بجميع الأنواع ، ولذلك يتأثر عنه غاية الخوارق المتباينة الأنواع الكثيرة .

ولما فطم عن التشوف إلى إجابتهم في المقترحات على ما قدرته ، تسبب منهم عن الانشقاق بقوله : ﴿ وكذبوا ﴾ أي بكون الانشقاق دالاً على صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجزموا بالتكذيب عناداً أو خبثاً منهم .

ولما كان التكذيب في نفسه قد يكون حقاً ، قال مبيناً أنه باطل ، فبين عن حالهم بقوله : ﴿ واتبعوا ﴾ أي بمعالجة فطرهم الأولى المستقيمة في دعائها إلى التصديق ﴿ أهواءهم ﴾ أي حتى نابذوا ما دلتهم عليه بعد الفطرة الأولى عقولهم ، قال القشيري : إذا حصل اتباع الهوى فمن شؤمه يحصل التكذيب ، لأن الله سبحانه وتعالى يلبس على قلب صاحبه حتى لا يستبصر الرشد ، واتباع الرضى مقرون بالتصديق لأن الله تعالى ببركات الاتباع للحق يفتح عين البصيرة فيأتي بالتصديق – والله الهادي .

ولما كان ذلك مفظعاً لقلوب المحقين ، سلاهم بالوصول إلى محط تظهر فيه الحقائق وتضمحل فيه الشقاشق ، فقال عاطفاً على ما تقديره : فسيستقر أمر كل من أمر المحق والمبطل في قراره ، ويطلع على دقائقه وأسراره : ﴿ وكل أمر ﴾ من أموركم وغيرها ﴿ مستقر ﴾ أي ثابت وموجود ، انتهاؤه إلى غاية تظهر فيها حقيقته من غير حيلة تصاحبه إلى رد ذلك القرار ولا خفاء على أحد ، فلا بد أن ينتهي الحق من كل شيء من الآجال والهدايات والضلالات والسعادات والشقاوات وغيرها إلى نهايته فيثبت ثبوتاً لا زوال له ، وينتهي الباطل مما دعاه الخلق فيه إلى غايته فيتلاشى تلاشياً لا ثبات له بوجه من الوجوه ، فإذا استقرت الأمور ظهر ما لهم عليه وعلموا الخاسر من الفائز ، وفي مثل هذا قال ابن عمرو التيمي أخو القعقاع في وقعة السي (؟) من بلاد العراق :

والموت خيلنا لما التقينا . . .

بقارن والأمور لها انتهاء

وقرأ أبو جعفر بالجر صفة لأمر ، فيكون معطوفاً على الساعة أي واقترب كل أمر مستقر أي ثابت وهو الحق أي اقترب الظهور وثباته ، وذلك لا يكون إلا وقد كان خفاء الباطل

وفواته .

ولما حذر وبشر قال معلماً أنه محيط العلم بأمرهم من قبل الإجابه إلى شق القمر وأنه ما شقه لطمع في إيمانهم بلا للأعلام بخذلانهم مؤكداً لمن يتعلق رجاؤه بأن تواتر الآيات ربما أوجب لهم التصديق المتضمن لأن ما جاءهم ليس فيه كفاية : ﴿ ولقد جاءهم ﴾ من قبيل الانشقاق ﴿ من الأنباء ﴾ أي الأمور العظيمة المرئية ، المسموعة التي تستحق لعظمتها أن يخبر بها إخباراً عظيماً سيما ما جاء في القرآن من تفصيل أصول الدين وفروعه وأخبار الأولين والآخرين والأولى والأخرى ﴿ ما فيه ﴾ خاصة ﴿ مزدجر ﴾ أي موضع للزجر من شأنه أن يكون لهم به انزجار عظيم عما فيه من الباطل ، ولكن لم يزدجر منهم إلا من أراد الله ، قال القشيري : لأن الله أسبل على أبصارهم سجوف الجهل فعموا عن مواضع الرشد .

(19/736)

ولما كان ما فيه ذلك قد لا يكون محكماً ، بينه بقوله : ﴿ حكمة ﴾ عظيمة ﴿ بالغة ﴾ أي لها معظم البلوغ إلى منتهى غايات الحكمة لصحتها وطهارتها ووضوحها ، ففيها مع الزجر ترجية ومواعظ وأحكام ودقائق تجل عن الوصف .

ولما تسبب عنها انزجارهم ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ فما ﴾ نفياً صريحاً أو باستفهام إنكاري موبخ ﴿ تغن النذر ﴾ الإنذارات والمنذرون والأمور المنذر بها - إنما المعني بذلك هو الله تعالى ، فما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن ، ولعل الإشارة بإسقاط يا " تغني " بإجماع المصاحف من غير موجب في اللفظ إلى أنه كما سقطت غاية أحرف الكلمة سقطت ثمرة الإنذار وهو القبول .

ولما كان - صلى الله عليه وسلم - التعلق بطلب نجاتهم ، فهو لذلك ربما اشتهى إجابتهم إلى مقترحاتهم ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ فتول عنهم ﴾ أي كلف نفسك الإعراض عن ذلك فما عليك إلا البلاغ ، وأما الهداية فإلى الله وحده .

ولما بين اقتراب الساعة بالإجابة إلى بعض مقترحاتهم القائمة مقامها كلها بدلالته على القدرة عليها ، وأتبع ذلك الفطم عن طلب الإجابة إلى شيء فيها لأنها لا تغني شيئاً ، تطلعت النفوس الكاملة إلى وصف الساعة فأجاب عن ذلك على سبيل الاستئناف بذكر ظرفها وذكر .

ما يقع فيه من الأهوال ، فقال معلقاً بما تقديره : الساعة كائنة على وجه الاقتراب الشديد : ﴿ يوم يدع ﴾ ويجوز - والله أعلم - أن يكون الناصب له ﴿ تول ﴾ لأنهم لما أعرضوا حين دعاهم كان جزاءهم أن يعرض عنهم يوم حاجتهم إليه لأن الجزاء من جنس العمل ، فكأنه

قيل بعد أن عد القيامة أمراً محققاً لا يأتي النزاع فيه : تول عنهم في ذلك اليوم العبوس الذي أنت فيه الشافع المقبول .

(20/736)

واتركهم لأهواله ودواهيه ، فقد بان الخاسر فتوليهم إنما يضرهم ، لأن توليهم عنك لا يضرك شيئاً أصلاً ، وتوليك عنهم يضرهم ضرراً ما بعدهم ضرر – والله أعلم ، وحذف واو " يدعو " للرسم بإجماع المصاحف من غير موجب لأن المقام لبيان اقترابها ، فكأنه إشارة إلى كونها بأدنى دعاء ، وأيضاً ففي حذفه تشبيه للخبر بالأمر إشارة إلى أن هذا الدعاء لا بد على أن يكون على أعظم وجه وأتقنه وأهوله وأمكنه كما يكون كل مأمور من الأمر المطاع ، والوقف على هذا وأمثاله بغير واو لجميع القراء موافقة للرسم لأن القاعدة أن ما كان فيها رواية أتبعت وإن خالفت الرسم أو الأصل ، وما لم يرد فيه عن أحد منهم رواية اتبع فيه الرسم وإن خولف الأصل ، لأن التخفيف معهود في كلام العرب كالوال والمتعال من أسمائه الحسنى ، لكن قال علامة القراءات شمس الدين الجزري في كتابه المسمى بالنشر في هذه الأحرف الأربعة : هذا و ﴿ يدع الإنسان ﴾ في سبحان و ﴿ يمح الله الباطل ﴾ في شورى و ﴿ سندع الزبانية ﴾ في العلق : نص الحافظ أبو عمرو الداني عن يعقوب على الوقف

عليها بالواو على الأصل ، ثم قال : قلت : وهو من انفراده ، وقد قرأت به من طريقه ﴿ الداع ﴾ أي النفخ في الصور ﴿ إلى شيء نكر ﴾ عظيم الوصف في النكارة بما تكرهه النفوس فتوجل منه القلوب لأنه لا شيء منه إلا وهو خارج عما تقدمه من العادة .

(21/736)

ولما بين دعاءه بما هال أمره ، بين حال المدعوين زيادة في الهول فقال : ﴿ خشعاً أبصارهم ﴾ أي ينظرون نظرة الخاضع الذليل السافل المنزلة المستوحش الذي هو بشر حال ، ونسب الخشوع إلى الأبصار لأن العز والذل يتبين من النظر فإن الذل أن يرمي به صاحبه إلى الأرض مثلاً مع هيئة يعرف منها ذلك كما قال تعالى : ﴿ خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي ﴾ وإفراده في قراءة أبي عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي على أن الخشوع بلغ في النهاية من الشدة ونسبته إلى كل بصر على حد سواء ، وجمع على لغة " أكلوني البراغيث " تفي قراءة الباقين بضم الخاء وتشديد الشين مفتوحة أو مستنداً المدعوين ، والإبصار يدل بعض الإشارة إلى أن كل ذلك موزع على الأبصار .

ولما بين من حالهم هكذا ما يدل على نكارة ذلك اليوم ، بين كيفية خروجهم بياناً لما يلزم من تصوره زيادة الذعر فقال : ﴿ يخرجون ﴾ أي على سبيل التجدد الأشرف فالأشرف

﴿ من الأجداث ﴾ أي القبور المهيأة لسماع النفخ في الصور ﴿ كأنهم ﴾ في كثرتهم وتراكم بعضهم على بعض من كبيرهم وصغيرهم وضعيفهم وقويهم ﴿ جراد منتشر ﴾ أي منبث متفرق حيران مطاوع لمن نشره بعد ما كان فيه من سكون مختلط بعضه ببعض ، لا جهة له في الحقيقة يقصدها لو خلى ونفسه .

ولما كان الانتشار قد يكون وجه المهل والوقار ، قال مبيناً أن الأمر على خلاف ذلك زيادة في هول ذلك اليوم وتقريراً لما تقدم من وصفه : ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ أي مسرعين خائفين مقبلين بأبصارهم عليه لا يقلعون عنه ، مادين أعناقهم نحوه مصوبي رؤوسهم لا يلتفتون إلى سواه كما يفعل من ينظر في ذلك وخضوع وصمت واستكانة .

(22/736)

ولما بين حال الكل حصر حال المبطلين فقال : ﴿ يقول ﴾ أي على سبيل التكرار : ﴿ الكافرين ﴾ أي الذين كانوا في الدنيا عريقين في ستر الأدلة وإظهار الأباطيل المضلة : ﴿ هذا ﴾ أي الوقت الذي نحن فيه بما نرى من الأهوال ﴿ يوم عسر ﴾ أي في غاية العسر الصعوبة والشدة ، وذلك بحسب حالهم فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 348.339 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ مستقر ﴾ بالجر : يزيد ﴿ الداعي ﴾ ﴿ إلى الداعي ﴾ بالياء في الحالين : سهل ويعقوب وابن كثير غير ابن فليح وزمعة وافق أبو عمرو وأبو جعفر ونافع غير قالون في الوصل فيهما بالياء ﴿ يدع الداع ﴾ بغير ياء في الحالين ﴿ إلى الداع ﴾ في الوصل : قالون . الباقون : بغير ياء في الحالين ﴿ شيء نكر ﴾ بسكون الكاف : ابن كثير ﴿ خاشعاً ﴾ بالألف : أبو عمرو وسهل ويعقوب وحمزة وعلي وخلف . الآخرون ﴿ خشعاً ﴾ كركع . ﴿ ففتحنا ﴾ بالتشديد : ابن عامر ويزيد وسهل ويعقوب ﴿ وفجرنا ﴾ بالتخفيف : أبو زيد عن المفضل و ﴿ ونذري ﴾ وما بعده بالياء في الحالين : يعقوب وافق ورش وسهل وعباس في الوصل . ﴿ أولقي ﴾ مثل أو " نبئكم " ﴿ ستعلمون ﴾ على الخطاب : ابن عامر وحمزة ﴿ سنهزم ﴾ بالنون الجمع بالنصب : روح وزيد عن يعقوب .

الوقوف ﴿ القمر ﴾ ه ﴿ مستمر ﴾ ه ﴿ مستقر ﴾ ه ﴿ مزدجر ﴾ ه لا بناء على أن قوله ﴿ حكمه ﴾ بدل من "ما" أو من ﴿ مزدجر ﴾ ﴿ النذر ﴾ ه لا للعطف مع اتصاله المعنى ﴿ عنهم ﴾ م لأنه لو وصل لأوهم أن الظرف متصل به وليس كذلك بل هو ظرف ﴿ يخرجون ﴾ ﴿ نكر ﴾ ه لا لاتصال الحال بالظرف من قبل اتحاد عاملها ﴿ منتشر ﴾ ه لا لأن ﴿ مهطعين ﴾ حال بعد حال ﴿ الداع ﴾ ط ﴿ عسر ﴾ ه ﴿ وازدجر ﴾ ه ﴿ فانتصر ﴾ ه ﴿ منهمر ﴾ ه ز للعطف مع اتحاد مقصود الكلام ﴿ قدر ﴾ ه ج للعارض من الجملتين المتفقتين وللآية مع احتمال الحال أي وقد حملناه ﴿ ودسر ﴾ ه لا لأن ﴿ تجري ﴾ صفة لها ﴿ بأعيننا ﴾ ج لأن جزاء مفعول له أو مصدر لفعل محذوف ﴿ كفر ﴾ ه ﴿ مدكر ﴾ ه ﴿ ونذر ﴾ ه ﴿ مدكر ﴾ ه ﴿ ونذر ﴾ ه ﴿ مستمر ﴾ ه لا لأن ما بعده صفة الناس لا لأن ﴿ كأنهم ﴾ حال ﴿ منقعر ﴾ ه ﴿ ونذر ﴾ ه ﴿ مدكر ﴾ ه ﴿ بالنذر ﴾ ه ﴿ نتبعه ﴾ لا لتعلق "إذا" بها ﴿ وسعر ﴾ ه ﴿ أشر ﴾ ه ﴿ الأشر ﴾ ه ﴿ واصطبر ﴾ ه لا للعطف ﴿ بينهم ﴾ ج لأن كل مبتدأ مع أن الجملة من بيان ما تقدم ﴿ محتضر ﴾ ه ﴿ فعقر ﴾ ه ﴿ ونذر ﴾ ه ﴿ المحتظر ﴾ ه ﴿ مدكر ﴾ ه ﴿ بالنذر ﴾ ه ﴿ لوط ﴾ ط لأن الجملة لا تصلح صفة للمعرفة ﴿ بسحر ﴾ ه لا ﴿ عندنا ﴾ ط ﴿ شكر ﴾ ه ﴿ بالنذر ﴾ ه ﴿ ونذر ﴾ ه ﴿ مستقر ﴾ ه

ج للفاء أي فقيل لهم ذقوا ﴿ ونذر ﴾ ه ﴿ مدكر ﴾ ه ﴿ النذر ﴾ ه ج لاتصال المعنى بلا عطف ﴿ مقتدر ﴾ ه ﴿ في الزبر ﴾ ه ج لأن ما بعده يصلح استفهام إنكار مستأنف ويصلح بدلاً عن "أم" قبلة ﴿ منتصر ﴾ ه ﴿ الدبر ﴾ ه ﴿ وأمر ﴾ ه ﴿ وسعر ﴾ ط بناء على أن ﴿ يوم ﴾ ليس ظرفاً لضلال وإنما هو ظرف لمحذوف أي يقال لهم ذقوا ﴿ وجوهم ﴾ ط ﴿ سقر ﴾ ه ﴿ بقدر ﴾ ه ﴿ بالبصر ﴾ ج ﴿ مدكر ﴾ ه ﴿ الزبر ﴾ ه ﴿ مستطر ﴾ ه ﴿ ونهر ﴾ ه لا لأن ما بعده بدل ﴿ مقتدر ﴾ ه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 215.216 ﴾

(25/736)

فصل

قال الفخر:

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) ﴾

أول السورة مناسب لآخر ما قبلها، وهو قوله: ﴿ أَزِفَتِ الآزفة ﴾ [النجم: 57] فكأنه أعاد ذلك مع الدليل، وقال قلت: ﴿ أَزِفَتِ الآزفة ﴾ وهو حق، إذ القمر انشق، والمفسرون بأسرهم على أن المراد أن القمر انشق، وحصل فيه الانشقاق، ودلت الأخبار

على حديث الانشقاق ، وفي الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة ، وقالوا : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الانشقاق بعينها معجزة ، فسأل ربه فشقه ومضى ، وقال بعض المفسرين المراد سينشق ، وهو بعيد ولا معنى له ، لأن من منع ذلك وهو الفلسفي يمنعه في الماضي والمستقبل ، ومن يجوزه لا حاجة إلى التأويل ، وإنما ذهب إليه ذلك الذاهب ، لأن الانشقاق أمر هائل ، فلو وقع لعم وجه الأرض فكان ينبغي أن يبلغ حد التواتر ، نقول : النبي صلى الله عليه وسلم لما كان يتحدى بالقرآن ، وكانوا يقولون : إنا نأتي بأفصح ما يكون من الكلام ، وعجزوا عنه ، فكان القرآن معجزة باقية إلى قيام القيامة لا يتمسك بمعجزة أخرى فلم ينقله العلماء بحيث يبلغ حد التواتر .

وأما المؤرخون فتركوه ، لأن التواريخ في أكثر الأمر يستعملها المنجم ، وهو لما وقع الأمر قالوا : بأنه مثل خسوف القمر ، وظهور شيء في الجو على شكل نصف القمر في موضع آخر فتركوا حكايته في تواريخهم ، والقرآن أدل دليل وأقوى مثبت له ، وإمكانه لا يشك فيه ، وقد أخبر عنه الصادق فيجب اعتقاد وقوعه ، وحديث امتناع الخرق والالتئام حديث اللئام ، وقد ثبت جواز الخرق والتخريب على السموات ، وذكرناه مراراً فلا نعيده .

وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2)

تقديره : وبعد هذا إن يروا آية يقولوا سحر ، فإنهم رأوا آيات أرضية ، وآيات سماوية ، ولم يؤمنوا ، ولم يتركوا عنادهم ، فإن يروا ما يرون بعد هذا لا يؤمنون ، وفيه وجه آخر وهو أن يقال : المعنى أن عادتهم أنهم إن يروا آية يعرضوا ، فلما رأوا انشقاق القمر أعرضوا لتلك العادة ، وفيه مسائل :

(27/736)

الأولى : قوله : ﴿ ءايَةً ﴾ ماذا ؟ نقول آية اقتراب الساعة ، فإن انشقاق القمر من آياته ، وقد ردوا وكذبوا ، فإن يروا غيرها أيضاً يعرضوا ، أو آية الانشقاق فإنها معجزة ، أما كونها معجزة ففي غاية الظهور ، وأما كونها آية الساعة ، فلأن منكر خراب العالم ينكر انشقاق السماء وانفطارها وكذلك قوله : في كل جسم سماوي من الكواكب ، فإذا انشق بعضها ثبت خلاف ما يقول به ، وبان جواز خراب العالم ، وقال أكثر المفسرين : معناه أن من علامات قيام الساعة انشقاق القمر عن قريب ، وهذا ضعيف حملهم على هذا القول ضيق المكان ، وخفاء الأمر على الأذهان ، وبيان ضعفه هو أن الله تعالى لو أخبر في كتابه أن القمر ينشق ، وهو علامة قيام الساعة ، لكان ذلك أمراً لا بد من وقوعه مثل خروج دابة

الأرض ، وطلوع الشمس من المغرب ، فلا يكون معجزة النبي صلى الله عليه وسلم ، كما أن هذه الأشياء عجائب ، وليست بمعجزة للنبي ، لا يقال : الإخبار عنها قبل وقوعها معجزة ، لأنا نقول : فحينئذ يكون هذا من قبيل الإخبار عن الغيوب ، فلا يكون هو معجزة برأسه وذلك فاسد ، ولا يقال : بأن ذلك كان معجزة وعلامة ، فأخبر الله في الصحف والكتب السالفة أن ذلك يكون معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم وتكون الساعة قريبة حينئذ ، وذلك لأن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم علامة كائنة حيث قال : " بعثت أنا والساعة كهاتين " ولهذا يحكى عن سطيح أنه لما أخبر بوجود النبي صلى الله عليه وسلم قال عن أمور تكون ، فكان وجوده دليل أمور ، وأيضاً القمر لما انشق كان انشقاقه عند استدلال النبي صلى الله عليه وسلم على المشركين ، وهم كانوا غافلين عما في الكتب ، وأما أصحاب الكتب فلم يفتقروا إلى بيان علامة الساعة ، لأنهم كانوا يقولون بها وبقربها ، فهي إذن آية دالة على جواز تخريب السموات وهو العمدة الكبرى ، لأن السموات إذا طويت وجوز ذلك ، فالأرض ومن عليها لا يستبعد فناؤهما ، إذا ثبت هذا فنقول : معنى

﴿ اقتربت الساعة ﴾ يحتمل أن يكون في العقول والأذهان ، يقول : من يسمع أمراً لا يقع هذا بعيد مستبعد ، وهذا وجه حسن ، وإن كان بعض ضعفاء الأذهان ينكره ، وذلك لأن حمله على قرب الوقوع زماناً لا إمكاناً يمكن الكافر من مجادلة فاسدة ، فيقول : قال الله تعالى في زمان النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ اقتربت ﴾ ويقولون بأن من قبل أيضاً في الكتب (السابقة) كان يقول : (اقترب الوعد) ثم مضى مائة سنة ولم يقع ، ولا يبعد أن يمضي ألف آخر ولا يقع ، ولو صح إطلاق لفظ القرب زماناً على مثل هذا لا يبقى وثوق بالإخبارات ، وأيضاً قوله : ﴿ اقتربت ﴾ لانتهاز الفرصة ، والإيمان قبل أن لا يصح الإيمان ، فللكافر أن يقول ، إذا كان القرب بهذا المعنى فلا خوف منها ، لأنها لا تدركني ، ولا تدرك أولادي ، ولا أولاد أولادي ، وإذا كان إمكانها قريباً في العقول يكون ذلك رداً بالغاً على المشركين والفلاسفة ، والله سبحانه وتعالى أول ما كلف الاعتراف بالوحدانية واليوم الآخر ، وقال : اعلموا أن الحشر كائن فخالف المشرك والفلسفي ، ولم يقنع بمجرد إنكار ما ورد الشرع ببيانه ، ولم يقل لا يقع أو ليس بكائن ، بل قال ذلك بعيد ، ولم يقنع بهذا أيضاً ، بل قال ذلك غير ممكن ، ولم يقنع به أيضاً ، بل قال فإن امتناعه ضروري ، فإن مذهبهم أن إعادة المعدوم وإحياء الموتى محال بالضرورة ، ولهذا قالوا :

﴿ أَءِذَا مِتْنَا ﴾ [المؤمنون : 82] ﴿ أَءِذَا كُنَّا عظاما ﴾ [الأسراء : 49] ﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض ﴾ [السجدة : 10] بلفظ الاستفهام بمعنى الإنكار مع ظهور الأمر ، فلما استبعدوا لم يكتف الله ورسوله ببيان وقوعه ، بل قال : ﴿ إِنَّ الساعة ءَاتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ [الحج : 7] ولم يقتصر عليه بل قال : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة تَكُونُ قَرِيباً ﴾ [الأحزاب : 63] ولم يتركها حتى قال (اقتربت الساعة واقترب الوعد الحق اقترب للناس حسابهم) اقترابا عقليا لا يجوز أن ينكر ما يقع في زمان طرفة عين ، لأنه على الله يسير ، كما أن تقليب الحدقة علينا يسير ، بل هو أقرب منه بكثير ، والذي يقويه قول العامة : إن زمان وجود العالم زمان مديد ، والباقي بالنسبة إلى الماضي شيء يسير ، فلهذا قال : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : " بعثت أنا والساعة كهاتين " فمعناه لا نبي بعدي فإن زماني يمتد إلى قيام الساعة ، فزماني والساعة متلاصقان كهاتين ، ولا شك أن الزمان زمان النبي صلى الله عليه وسلم ، وما دامت أوامره نافذة فالزمان زمانه وإن كان ليس هو فيه ، كما أن المكان الذي تنفذ فيه أوامر الملك مكان الملك يقال له بلاد فلان ، فإن قيل : كيف يصح حمله على القرب بالمعقول مع أنه مقطوع به ؟ قلت : كما صح قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّ الساعة تَكُونُ قَرِيباً ﴾ [الأحزاب : 63] فإن لعل للترجي والأمر عند الله معلوم ،

وفائدته أن قيام الساعة ممكن لا إمكاناً بعيداً عن العادات كحمل الآدمي في زماننا حملاً في غاية الثقل أو قطعة مسافة بعيدة في زمان يسير ، فإن ذلك ممكن إمكاناً بعيداً ، وأما تقليب الحدقة فممكن إمكاناً في غاية القرب .

المسألة الثانية :

الجمع الذين تكون الواو ضميرهم في قوله ﴿ يَرَوْاْ ﴾ و ﴿ يُعْرِضُواْ ﴾ غير مذكور فمن هم ؟ نقول : هم معلومون وهم الكفار تقديره : وهؤلاء الكفار إن يروا آية يعرضوا .

(30/736)

المسألة الثالثة :

التنكير في الآية للتعظيم أي إن يروا آية قوية أو عظيمة يعرضوا .

المسألة الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ ما الفائدة فيه ؟ نقول : فائدته بيان كون الآية خالية عن شوائب الشبه ، وأن الاعتراف لزمهم لأنهم لم يقدروا أن يقولوا : نحن نأتي بمثلها وبيان كونهم معرضين لا إعراض معذور ، فإن من يعرض إعراض مشغول بأمر مهم فلم ينظر في الآية لا يستقبح منه الإعراض مثل ما يستقبح لمن ينظر فيها إلى آخرها ويعجز عن نسبتها إلى

أحد ودعوى الإتيان بمثلها ، ثم يقول : هذا ليس بشيء هذا سحر لأن ما من آية إلا ويمكن المعاند أن يقول فيها هذا القول .

المسألة الخامسة :

ما المستمر ؟ نقول : فيه وجوه أحدها : دائم فإن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يأتي كل زمان بمعجزة قولية أو فعلية أرضية أو سماوية ، فقالوا : هذا سحر مستمر دائم لا يختلف بالنسبة إلى النبي عليه السلام بخلاف سحر السحرة ، فإن بعضهم يقدر على أمر وأمرين وثلاثة ويعجز عن غيرها وهو قادر على الكل وثانيها : مستمر أي قوى من حبل مرير الفتل من المرة وهي الشدة وثالثها : من المرارة أي سحر مر مستبشع ورابعها : مستمر أي مار ذاهب ، فإن السحر لا بقاء له .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَذَّبُواْ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ وهو يحتمل أمرين أحدهما : وكذبوا محمداً المخبر عن اقتراب الساعة وثانيهما : كذبوا بالآية وهي انشقاق القمر ، فإن قلنا : كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقوله : ﴿ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ أي تركوا الحجة وأولوا الآيات وقالوا : هو مجنون تعينه الجن وكاهن يقول : عن النجوم ويختار الأوقات للأفعال وساحر ، فهذه أهواءهم ، وإن قلنا : كذبوا بانشقاق القمر ، فقوله : ﴿ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ في أنه سحر القمر ، وأنه خسوف والقمر لم يصبه شيء فهذه أهواءهم ، وكذلك قولهم في كل آية .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ فيه وجوه أحدها : كل أمر مستقر على سنن الحق يثبت والباطل يزهق ، وحينئذ يكون تهديداً لهم ، وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم ﴾ [الزمر : 7] أي بأنها حق ثانيها : وكل أمر مستقر في علم الله تعالى : لا يخفى عليه شيء فهم كذبوا واتبعوا أهواءهم ، والأنبياء صدقوا وبلغوا ما جاءهم ، كقوله تعالى : ﴿ لاَ يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ﴾ [غافر : 16] ، وكما قال تعالى في هذه السورة : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزبر * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر : 52 ، 53] ، ثالثها : هو جواب قولهم : ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ أي ليس أمره بذاهب بل كل أمر من أموره مستقر .

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4)

(32/736)

إشارة إلى أن كل ما هو لطف بالعباد قد وجد ، فأخبرهم الرسول باقتراب الساعة ، وأقام الدليل على صدقه ، وإمكان قيام الساعة عقيب دعواه بانشقاق القمر الذي هو آية لأن من يكذب بها لا يصدق بشيء من الآيات فكذبوا بها واتبعوا الأباطيل الذاهبة ، وذكروا

الأقاويل الكاذبة فذكر لهم أنباء المهلكين بالآيتين تخويفاً لهم ، وهذا هو الترتيب الحكمي ، ولهذا قال بعد الآيات : ﴿ حِكْمَةٌ بالغة ﴾ [القمر : 5] أي هذه حكمة بالغة ، والأنباء هي الأخبار العظام ، ويدلك على صدقه أن في القرآن لم يرد النبأ والأنباء إلا لما له وقع قال : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل : 22] لأنه كان خبراً عظيماً وقال : ﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ﴾ [الحجرات : 6] أي محاربة أو مسالمة وما يشبهه من الأمور العرفية ، وإنما يجب التثبت فيما يتعلق به حكم ويترتب عليه أمر ذو بال ، وكذلك قال تعالى : ﴿ ذلك مِنْ أَنبَاء الغيب نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ [آل عمران : 44] فكذلك الأنباء ههنا ، وقال تعالى عن موسى : ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ ﴾ [القصص : 29] حيث لم يكن يعلم أنه يظهر له شيء عظيم يصلح أن يقال له : نبأ ولم يقصده ، والظاهر أن المراد أنباء المهلكين بسبب التكذيب وقال بعضهم : المراد القرآن ، وتقديره جاء فيه الأنباء ، وقيل قوله : ﴿ جَاءَكُم مِّنَ الأنباء ﴾ يتناول جميع ما ورد في القرآن من الزواجر والمواعظ وما ذكرناه أظهر لقوله : ﴿ فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ وفي : ﴿ مَا ﴾ وجهان أحدهما : أنها موصولة أي جاءكم الذي فيه مزدجر ثانيهما : موصوفة تقديره : جاءكم من الأنباء شيء موصوف بأن فيه مزدجر وهذا أظهر والمزدجر فيه وجهان أحدهما ازدجار وثانيهما موضع ازدجار ، كالمرتقى ، ولفظ المفعول بمعنى المصدر كثير لأن المصدر هو المفعول الحقيقي .

حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (5)

وفيه وجوه الأول : على قول من قال : ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الأنباء ﴾ المراد منه القرآن ، قال : ﴿ حِكْمَةٌ بالغة ﴾ بدل كأنه قال : ولقد جاءهم حكمة بالغة ثانيها : أن يكون بدلاً عن ما في قوله : ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ الثاني : حكمة بالغة خبر مبتدأ محذوف تقديره هذه حكمة بالغة والإشارة حينئذ تحتمل وجوهاً أحدها : هذا الترتيب الذي في إرسال الرسول وإيضاح الدليل والإنذار بمن مضى من القرون وانقضى حكمة بالغة ثانيها : إنزال ما فيه الأنباء : ﴿ حِكْمَةٌ بالغة ﴾ ثالثها : هذه الساعة المقتربة والآية الدالة عليها حكمة الثالث : قرىء بالنصب فيكون حالاً وذو الحال ما في قوله : ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أي جاءكم ذلك حكمة ، فإن قيل : إن كان ﴿ مَا ﴾ موصولة تكون معرفة فيحسن كونه ذا الحال فأما إن كانت بمعنى جاءهم من الأنباء شيء فيه ازدجار يكون منكراً وتنكير ذي الحال قبيح نقول : كونه موصوفاً يحسن ذلك .

وقوله : ﴿ فَمَا تُغْنِ النذر ﴾ فيه وجهان أحدهما : أن ﴿ مَا ﴾ نافية ، ومعناه أن النذر لم يبعثوا ليغنوا ويلجئوا قومهم إلى الحق ، وإنما أرسلوا مبلغين وهو كقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَا أرسلناك عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ [الشورى : 48] ويؤيد هذا قوله تعالى :

﴿ فتولى عَنْهُمْ ﴾ [القمر : 6] أي ليس عليك ولا على الأنبياء الإغناء والإلجاء ، فإذا بلغت فقد أتيت بما عليك من الحكمة البالغة التي أمرت بها بقوله تعالى : ﴿ ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ [النحل : 125] وتول إذا لم تقدر ثانيهما : ﴿ مَا ﴾ استفهامية ، ومعنى الآيات حينئذ أنك أتيت بما عليك من الدعوى وإظهار الآية عليها وكذبوا فأنذرتهم بما جرى على المكذبين فلم يفدهم فهذه حكمة بالغة وما الذي تغني النذر غير هذا فلم يبق عليك شيء آخر .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾

(34/736)

قد ذكرنا أن المفسرين يقولون إلى قوله : ﴿ تَوَلَّ ﴾ منسوخ وليس كذلك ، بل المراد منه لا تناظرهم بالكلام .

ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُو الداع إلى شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾ قد ذكرنا أيضاً أن من ينصح شخصاً ولا يؤثر فيه النصح يعرض عنه ويقول مع غيره : ما فيه نصح المعرض عنه ، ويكون فيه قصد إرشاده أيضاً فقال بعد ما قال : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُو الداع ﴾ ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث ﴾ [المعارج : 43] للتخويف ، والعامل في : ﴿ يَوْمٍ ﴾ هو ما بعده ، وهو قوله :

﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث ﴾ والداعي معرف كالمنادي في قوله : ﴿ يَوْمَ يُنَادِ المناد ﴾ [ق : 41] لأنه معلوم قد أخبر عنه ، فقيل : إن منادياً ينادي وداعياً يدعو وفي الداعي وجوه أحدها أنه إسرافيل وثانيها : أنه جبريل وثالثها : أنه ملك موكل بذلك والتعريف حينئذ لا يقطع حد العلمية ، وإنما يكون ذلك كقولنا : جاء رجل فقال : الرجل ، وقوله تعالى : ﴿ إلى شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ أي منكر وهو يحتمل وجوهاً أحدها : إلى شيء نكر في يومنا هذا لأنهم أنكروه أي يوم يدعو الداعي إلى الشيء الذي أنكروه يخرجون ثانيها : نكر أي منكر يقول : ذلك القائل كان ينبغي أن لا يكون أي من شأنه أن لا يوجد يقال : فلان ينهى عن المنكر ، وعلى هذا فهو عندهم كان ينبغي أن لا يقع لأنه يرديهم في الهاوية ، فإن قيل : ما ذلك الشيء النكر ؟ نقول : الحساب أو الجمع له أو النشر للجمع ، وهذا أقرب ، فإن قيل : النشر لا يكون منكراً فإنه إحياء ولأن الكافر من أين يعرف وقت النشر وما يجري عليه لينكره ؟ نقول : يعرف ويعلم بدليل قوله تعالى عنهم : ﴿ يا ويلنا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ [يس : 52] .

خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (7)

(35/736)

وفيه قراءات خاشعاً وخاشعة وخشعاً ، فمن قرأ خاشعاً على قول القائل : يخشع أبصارهم على ترك التأنيث لتقدم الفعل ومن قرأ خاشعة على قوله : تخشع أبصارهم ومن قرأ خشعاً فله وجوه أحدها : على قول من يقول : يخشعن أبصارهم على طريقة من يقول : أكلوني البراغيث ثانيها : في : ﴿ خُشَّعاً ﴾ ضمير أبصارهم بدل عنه ، تقديره يخشعون أبصارهم على بدل الاشتمال كقول القائل : أعجبوني حسنهم .

(36/736)

ثالثها : فيه فعل مضمر يفسره يخرجون تقديره يخرجون خشعاً أبصارهم على بدل الاشتمال والصحيح خاشعاً ، روي أن مجاهداً رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه فقال له : يا نبي الله خشعاً أبصارهم أو خاشعاً أبصارهم ؟ فقال عليه السلام : خاشعاً ، ولهذه القراءة وجه آخر أظهر مما قالوه وهو أن يكون خشعاً منصوباً على أنه مفعول بقوله : ﴿ يَوْمَ يَدْعُو الداع ﴾ خشعاً أي يدعو هؤلاء ، فإن قيل : هذا فاسد من وجوه أحدها : أن التخصيص لا فائدة فيه لأن الداعي يدعو كل أحد ، ثانيها : قوله : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث ﴾ بعد الدعاء فيكونون خشعاً قبل الخروج وإنه باطل ، ثالثها : قراءة خاشعاً تبطل هذا ، نقول أما الجواب عن الأول فهو أن يقال قوله : ﴿ إِلَى شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾ يدفع ذلك

لأن كل أحد لا يدعى إلى شيء نكر وعن الثاني المراد : (من شيء نكر) الحساب العسر يعني يوم يدع الداع إلى الحساب العسر خشعاً ولا يكون العامل في : ﴿ يَوْمَ يَدْعُو ﴾ يخرجون بل اذكروا ، أو : ﴿ فَمَا تُغْنِي النذر ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شفاعة الشافعين ﴾ [المدثر : 48] ويكون يخرجون ابتداء كلام ، وعن الثالث أنه لا منافاة بين القراءتين ؛ وخاشعاً نصب على الحال أو على أنه مفعول يدعو كأنه يقول : يدعو الداعي قوماً خاشعة أبصارهم والخشوع السكون قال تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ الأصوات ﴾ [طه : 108] وخشوع الأبصار سكونها على كل حال لا تنفلت يمنة ولا يسرة كما في قوله تعالى : ﴿ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ [إبراهيم : 43] وقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ مثلهم بالجراد المنتشر في الكثرة والتموج ، ويحتمل أن يقال : المنتشر مطاوع نشره إذا أحياه فكأنهم جراد يتحرك من الأرض ويدب إشارة إلى كيفية خروجهم من الأجداث وضعفهم .

(37/736)

ثم قال تعالى : ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع ﴾ أي مسرعين إليه إنقياداً ﴿ يَقُولُ الكافرون هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ يحتمل أن يكون العامل الناصب ليوم في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُو الداع ﴾ [القمر :

6] أي يوم يدعو الداعي : ﴿ يَقُولُ الكافرون هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ ، وفيه فائدتان إحداهما : تنبيه المؤمن أن ذلك اليوم على الكافر عسير فحسب ، كما قال تعالى : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الكافرين غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر : 9 ، 10] يعني له عسر لا يسر معه ثانيتهما : هي أن الأمرين متفقان مشتركان بين المؤمن والكافر ، فإن الخروج من الأجداث كأنهم جراد والانقطاع إلى الداعي يكون للمؤمن فإنه يخاف ولا يأمن العذاب إلا بإيمان الله تعالى إياه فيؤتيه الله الثواب فيبقى الكافر فيقول : ﴿ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 26 . 31 ﴾

(38/736)

وقال ابن عطية :

﴿ اقتربت ﴾ معناه : قربت إلا أنه أبلغ ، كما أن اقتدر أبلغ من قدر . و : ﴿ الساعة ﴾ القيامة وأمرها مجهول التحديد لم يعلم ، إلا أنها قربت دون تحديد ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " بعثت أنا والساعة كهاتين " ، وأشار بالسبابة والوسطى . وقال أنس : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كادت الشمس تغيب فقال : " ما بقي من الدنيا فيما مضى إلا كمثل ما بقي من هذا اليوم " .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إني لأرجو أن يؤخر الله أمتي نصف يوم " وهذا منه على جهة الرجاء والظن لم يجزم به خبراً ، فأناب الله به على أمله وأخر أمته أكثر من رجائه ، وكل ما يروى عن عمر الدنيا من التحديد فضعيف واهن .

وقوله : ﴿ انشق القمر ﴾ إخبار عما وقع في ذلك ، وذكر الثعلبي أنه قيل إن المعنى ينشق القمر يوم القيامة ، وهذا ضعيف الأمة على خلافه ، وذلك أن قريشاً سألت رسول الله آية فقيل مجملة ، وهذا قول الجمهور ، وقيل بل عاينوا شق القمر ، ذكره الثعلبي عن ابن عباس فأراهم الله انشقاق القمر ، فرآه رسول الله وجماعة من المسلمين والكفار ، فقال رسول الله " اشهدوا " وممن قال من الصحابة رأيته : عبد الله بن مسعود وجبير بن مطعم وأخبر به عبد الله بن عمر وأنس وابن عباس وحذيفة بن اليمان ، وقال المشركون عند ذلك : سحرنا محمد . وقال بعضهم : سحر القمر وقالت قريش استخبروا المسافرين القادمين عليكم ، فما ورد أحد إلا أخبر بانشقاقه وقال ابن مسعود : رأيته انشق فذهبت فرقة وراء جبل حراء ، وقال ابن زيد : كان يرى نصفه على قعيقعان والآخر على أبي قبيس .

وقرأ حذيفة : " اقتربت الساعة وقد انشق القمر " ، وذكر الثعلبي عنه أن قراءته : " اقتربت الساعة انشق القمر " دون واو .

وقوله : ﴿ وإن يروا ﴾ جاء اللفظ مستقبلاً لينتظم ما مضى وما يأتي ، فهو إخبار بأن حالهم هكذا ، واختلفت الناس في معنى : ﴿ مستمر ﴾ فقال الزجاج قيل معناه : دائم متماد . وقال قتادة ومجاهد والكسائي والفراء معناه : مار ذاهب عن قريب يزول . وقال أبو العالية والضحاك معناه : مشدود من مرائير الحبل كأنه سحر قد أمر ، أي أحكم . ومنه قول الشاعر [لقيط بن زرارة] : [البسيط]

حتى استمرت على شزر مريرته . . . صدق العزيمة لا رتّاً ولا ضرعا

ثم أخبر تعالى بأنهم كذبوا واتبعوا شهواتهم وما يهوون من الأمور لا بدليل ولا بتثبت ، ثم قال على جهة الخبر الجزم ، ﴿ وكل أمر مستقر ﴾ يقول : وكل شيء إلى غاية فالحق يستقر ظاهراً ثابتاً ، والباطل يستقر زاهقاً ذاهباً .

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع " وكل مستقرٍ " بجر " مستقر " ، يعني بذلك أشراطها .

والجمهور على كسر القاف من " مستقِر " وقرأ نافع وابن نصاح بفتحها ، قال أبو حاتم : لا وجه لفتح القاف .

و: ﴿ الأنباء ﴾ جمع نبأ ، ويدخل في هذا جميع ما جاء به القرآن من المواعظ والقصص ومثلات الأمم الكافرة ، و: ﴿ مزدجر ﴾ معناه : موضع زجر وانتهاء ، وأصله : مزتجر ،

قلبت التاء دالاً ليناسب مخرجها مخرج الزاي ، وكذلك تبدل تاء افتعل من كل فعل أوله زاي كازدلف وازداد ونحوه .

(40/736)

وقوله : ﴿ حكمة ﴾ مرتفع إما على البدل من ﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ ما فيه ﴾ ، وإما على خبر ابتداء تقديره : هذه حكمة و : ﴿ بالغة ﴾ معناه : يبلغ المقصد بها من وعظ النفوس والبيان لمن له عقل . وقوله : ﴿ فما تغني النذر ﴾ ، يحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ نافية ، أي ليس تغني مع عتو هؤلاء الناس ، ويحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ استفهاماً بمعنى التقرير ، أي فما غناء النذر مع هؤلاء الكفرة ، ثم سلى نبيه بقوله : ﴿ فتول عنهم ﴾ أي لا تذهب نفسك عليهم حسرات ، وتم القول في قوله : ﴿ عنهم ﴾ ثم ابتدأ وعيدهم ، والعامل في ﴿ يوم ﴾ قوله : ﴿ يخرجون ﴾ ، و : ﴿ خشعاً ﴾ حال من الضمير في ﴿ يخرجون ﴾ وتصرف الفعل يقتضي تقدم الحال ، قال المهدوي : ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿ عنهم ﴾ . قال الرماني المعنى : ﴿ فتول عنهم ﴾ واذكر ﴿ يوم ﴾ . وقال الحسن المعنى : ﴿ فتول عنهم ﴾ إلى ﴿ يوم ﴾ ، وانحذفت الواو من ﴿ يدع ﴾ لأن كتبة المصحف اتبعوا اللفظ لا ما يقتضيه الهجاء ، وأما حذف الياء من : ﴿ الداع ﴾

ونحوه ، فقال سيبويه : حذفوه تخفيفاً . وقال أبو علي : حذفت مع الألف واللام إذ هي تحذف مع معاقبهما وهو التنوين .

وقرأ جمهور الناس : " نكُر " بضم الكاف . وقرأ ابن كثير وشبل والحسن : " نكِر " بكسر الكاف ، وقرأ مجاهد والجحدري وأبو قلابة : " نُكِرَ " بكسر الكاف وفتح الراء على أنه فعل مبني للمفعول ، والمعنى في ذلك كله أنه منكور غير معروف ولا مرئي مثله . قال الخليل : النكر : نعت للأمر الشديد والرجل الداهية . وقال مالك بن عوف النصري : [الرجز]

أقدم محاج إنه يوم نكر . . . مثلي على مثلك يحمى ويكر

ونكر فعل وهو صفة ، وذلك قليل في الصفات ، ومنه مشية سجح وقال الشاعر [حسان بن ثابت الأنصاري] : [البسيط]

دعوا التخاجؤ وامشوا مشية سجحاً . . . إن الرجال ذوو عصب وتذكير

ومنه رجل شلل وناقة أجد .

وقرأ جمهور القراء : " خشعاً " وهي قراءة الأعرج وأبي جعفر وشيبة والحسن وقتادة .

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي : " خاشعاً " ، وهي قراءة ابن عباس وابن جبير ومجاهد

والجحدري ، وهو إفراد بمعنى الجمع ، ونظيره قول الشاعر [الحارث بن أوس الإيادي] : [الرمل]

وشباب حسن أوجههم . . . من إياد بن نزار بن معد

ورجح أبو حاتم هذه القراءة وذكر أن رجلاً من المتطوعة قال قبل أن يستشهد : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فسألته عن " خشعاً وخاشعاً " فقال : " خاشعاً " بالألف ، وفي مصحف أبيّ بن كعب وعبد الله : " خاشعة " .

وخص الأبصار بالخشوع لأنه فيها أظهر منه في سائر الجوارح ، وكذلك سائر ما في نفس الإنسان من حياء أو صلف أو خوف ونحوه إنما يظهر في البصر . و: ﴿ الأجداث ﴾ جمع جدث وهو القبر ، وشبههم بالجراد المنتشر ، وقد شبههم في أخرى ب ﴿ الفراش المبثوث ﴾ [القارعة : 4] ، وفيهم من كل هذا شبه ، وذهب بعض المفسرين إلى أنهم أولاً كالفراش حين يموجون بعض في بعض ثم في رتبة أخرى كالجراد إذا توجهوا نحو المحشر والداعي ، وفي الحديث : إن مريم بنت عمران دعت للجراد فقالت : اللهم اعشها بغير رضاع وتابع بينها بغير شباع .

والمهطع : المسرع في مشيه نحو الشيء مع هز ورهق ومد بصر نحو المقصد ، إما لخوف أو طمع أو نحوه ، و ﴿ يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ لما يرون من مخايل هوله وعلامات مشقته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾

"اقتربت" أي قربت مثل ﴿ أَزِفَتِ الآزفة ﴾ [النجم : 57] على ما بيناه .

فهي بالإضافة إلى ما مضى قريبة ؛ لأنه قد مضى أكثر الدنيا كما روى قتادة عن أنس قال : " خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كادت الشمس تغيب فقال : "ما بقي من دنياكم فيما مضى إلاّ مثل ما بقي من هذا اليوم فيما مضى" " وما نرى من الشمس إلا يسيراً .

وقال كعب ووهب : الدنيا ستة الاف سنة .

قال وهب : قد مضى منها خمسة آلاف سنة وستمائة سنة .

ذكره النحاس .

ثم قول تعالى : ﴿ وانشق القمر ﴾ أي وقد انشق القمر .

وكذا قرأ حُذيفة "اقتربت السَّاعَةُ وَقَدِ انشق الْقَمَرُ" بزيادة "قد" وعلى هذا الجمهور من العلماء ؛ ثبت ذلك في صحيح البخاري وغيره من حديث ابن مسعود وابن عمر وأنس

وجبير بن مُطْعِم وابن عباس رضي الله عنهم .

وعن أنس قال : سأل أهل مكة النبيّ صلى الله عليه وسلم آية ، فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ إلى قوله : ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ يقول ذاهب قال أبو عيسى الترمذيّ : هذا حديث حسن صحيح .

ولفظ البخاريّ عن أنس قال : انشق القمر فرقتين .

وقال قوم : لم يقع انشقاق القمر بعدُ وهو منتظر ؛ أي اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر ؛ وأن الساعة إذا قامت انشقت السماء بما فيها من القمر وغيره .

وكذا قال القشيري .

وذكر الماورديّ : أن هذا قول الجمهور ، وقال : لأنه إذا انشق ما بقي أحد إلا رآه ؛ لأنه آية والناس في الآيات سواء .

وقال الحسن : اقتربت الساعة فإذا جاءت انشق القمر بعد النفخة الثانية .

وقيل : ﴿ وانشق القمر ﴾ أي وضح الأمر وظهر ؛ والعرب تضرب بالقمر مثلاً فيما وضَحَ ؛ قال :

أقيمُوا بَني أميّ صُدُورَ مَطِيّكُمْ . . .
فإنّي إلى حَيٍّ سواكم لأَمْيَلُ

فقد حُمَّتِ الحاجاتُ والليلُ مُقْمِرٌ . . .

وشُدَّتِ لِطيَّاتٍ مَطايا وأَرْحُلُ

(43/736)

وقيل : انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه بطلوعه في أثنائها ، كما يسمى الصبح فلقاً ؛ لآنفلاق الظلمة عنه .

وقد يعبر عن انفلاقه بانشقاقه كما قال النابغة :

فلمَّا أدْبَرُوا ولَهُمْ دَوِيٌّ . . .

دعانا عِند شَقِّ الصُّبحِ داعِ

قلت : وقد ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر انشق بمكة ، وهو ظاهر التنزيل ، ولا يلزم أن يستوي الناس فيها ؛ لأنها كانت آية ليلية ؛ وأنها كانت باستدعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم من الله تعالى عند التحدّي .

فروي أنّ حمزة بن عبد المطلب حين أسلم غضباً من سبّ أبي جهل الرسول صلى الله عليه وسلم طلب أن يريه آية يزداد بها يقيناً في إيمانه .

وقد تقدّم في الصحيح أن أهل مكة هم الذين سألوا وطلبوا أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق

القمر فلقتين كما في حديث ابن مسعود وغيره .

وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال : ألا إن الساعة قد اقتربت ، وأن القمر قد انشق على عهد نبيكم صلى الله عليه وسلم .

وقد قيل : هو على التقديم والتأخير ، وتقديره انشق القمر واقتربت الساعة ؛ قاله ابن كيسان .

وقد مرّ عن الفرّاء أن الفعلين إذا كانا متقاربي المعنى فلك أن تقدّم وتؤخر عند قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فتدلى ﴾

[النجم : 8] قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ آيَةً يُعْرِضُواْ ﴾ هذا يدل على أنهم رأوا انشقاق القمر .

(44/736)

قال ابن عباس : " اجتمع المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : إن كنت صادقاً فاشقق لنا القمر فرقتين ، نصف على أبي قُبَيس ونصف على قُعَيْقَعَان ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن فعلت تؤمنون" قالوا : نعم ؟ وكانت ليلة بدر ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربّه أن يعطيه ما قالوا ؛ فانشق القمر فرقتين ، ورسول الله

صلى الله عليه وسلم ينادي المشركين : "يا فلان يا فلان اشهدوا" " وفي حديث ابن مسعود : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت قريش : هذا من سحر ابن أبي كبشة ؛ سَحَرَكم فاسألوا السُّفَّار ؛ فسألوهم فقالوا : قد رأينا القمر انشق فنزلت : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر .

وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ أي إن يروا آية تدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم أعرضوا عن الإيمان ﴿ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ أي ذاهب ؛ من قولهم : مَرَّ الشيءُ واستمر إذا ذهب ؛ قاله أنس وقتادة ومجاهد والفراء والكسائي وأبو عبيدة ، واختاره النحاس .

وقال أبو العالية والضحاك : محكَم قويّ شديد ، وهو من المِرَّة وهي القوّة ؛ كما قال لقيط :

حتى استمرت عَلَى شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ . . .

مُرُّ العَزِيمَةِ لاَ (قحما) ولا ضَرَعاً

وقال الأخفش : هو مأخوذ من إمرار الحبل وهو شدّة فتله .

وقيل : معناه مُرٌّ من المرارة .

يقال : أَمَرَّ الشيء صار مُرًّا ، وكذلك مَرَّ الشيءُ يَمَرُّ بالفتح مرارة فهو مُرٌّ ، وأَمَرَّه غيره ومَرَّه .

وقال الربيع : مستمر نافذ .

يمان : ماضٍ .

أبو عبيدة : باطل .

وقيل : دائم .

قال :

وليس على شيء قويم بمَسْتمرْ . . .

أي بدائم .

وقيل : يشبه بعضه بعضاً ؛ أي قد استمرت أفعال محمد على هذا الوجه فلا يأتي بشيء له حقيقة بل الجميع تخييلات .

وقيل : معناه قد مر من الأرض إلى السماء .

﴿ وَكَذَّبُواْ ﴾ نبيّنا ﴿ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أي ضلالاتهم واختياراتهم .

(45/736)

﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ أي يستقر بكل عامل عمله ، فالخير مستقرّ بأهله في الجنة ، والشر مستقر بأهله في النار .

وقرأ شيبة "مُسْتَقَر" بفتح القاف ؛ أي لكل شيء وقت يقع فيه من غير تقدّم وتأخر .

وقد روي عن أبي جعفر بن القَعْقَاع "وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٍّ" بكسر القاف والراء جعله نعتاً لأمر و "كُلُّ" على هذا يجوز أن يرتفع بالابتداء والخبر محذوف ، كأنه قال : وكل أمر مستقر في أمّ الكتاب كائن .

ويجوز أن يرتفع بالعطف على الساعة ؛ المعنى : اقتربت الساعة وكل أمرٍ مستقر ؛ أي اقترب استقرار الأمور يوم القيامة .

ومن رفعه جعله خبراً عن "كلّ" .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ الأَنبَآءِ ﴾ أي من بعض الأنباء ؛ فذكر سبحانه من ذلك ما علم أنهم يحتاجون إليه ، وأن لهم فيه شفاء .

وقد كان هناك أمور أكثر من ذلك ، وإنما اقتص علينا ما علم أن بنا إليه حاجة وسكت عما سوى ذلك ؛ وذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ الأَنبَآءِ ﴾ أي جاء هؤلاء الكفار من أنباء الأمم الخالية ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أي ما يزجرهم عن الكفر لو قبلوه ، وأصله مُزْتَجَر فقلبت التاء دالاً ؛ لأن التاء حرف مهموس والزاي حرف مجهور ، فأبدل من التاء دالاً توافقها في المخرج وتوافق الزاي في الجهر .

و "مُزْدجَر" من الزجر وهو الانتهاء ، يقال : زجره وازدجره فانزجر وازدجر ، وزجرته أنا فانزجر أي كففته فكف ، كما قال :

فأصبحَ ما يطلبُ الغانيا . . .

تُ مُزْدَجَراً عن هواه ازدجارا

وقرىء "مُزّجَرٌ" بقلب تاء الأفتعال زايا وإدغام الزاي فيها ؛ حكاه الزمخشري .

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ يعني القرآن وهو بدل من "ما" من قوله : ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ .

ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف ؛ أي هو حكمة .

(46/736)

﴿ فَمَا تُغْنِي النذر ﴾ إذا كذّبوا وخالفوا كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيات والنذر عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : 101] ف "مَا" نفي أي ليست تغني عنهم النذر .

ويجوز أن يكون استفهاما بمعنى التوبيخ ؛ أي فأي شيء تغني النذر عنهم وهم معرضون عنها .

و ﴿ والنذر ﴾ يجوز أن تكون بمعنى الإنذار ، ويجوز أن تكون جمع نذير .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عنهم .

قيل : هذا منسوخ بآية السيف .

وقيل : هو تمام الكلام .

ثم قال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُو الداع ﴾ العامل في "يَوْمَ" ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث ﴾ أو ﴿

خُشَّعاً ﴾ أو فعل مضمر تقديره واذكر يوم .

وقيل : على حذف حرف الفاء وما عملت فيه من جواب الأمر ، تقديره : فتولّ عنهم فإن لهم يوم يدعو الداعي .

وقيل : تَوَلَّ عنهم يا محمد فقد أقمت الحجة وأبصرهم يوم يدعو الداعي .

وقيل : أي أعرض عنهم يوم القيامة ولا تسأل عنهم وعن أحوالهم ، فإنهم يدعون ﴿ إلى شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ وينالهم عذاب شديد .

وهو كما تقول : لا تسأل عما جرى على فلان إذا أخبرته بأمر عظيم .

وقيل : أي وكلّ أمر مستقرّ يوم يدعو الداعي .

وقرأ ابن كثير "نُكْرٍ" بإسكان الكاف ، وضمها الباقون وهما لغتان كعُسْر وعُسُر وشُغْل وشُغُل ، ومعناه الأمر الفظيع العظيم وهو يوم القيامة .

والداعي هو إسرافيل عليه السلام .

وقد روي عن مجاهد وقتادة أنهما قرأا "إِلَى شَيْءٍ نُكِرَ" بكسر الكاف وفتح الراء على الفعل المجهول .

﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ ﴾ الخشوع في البصر الخضوع والذلة ، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأن أثر العزّ والذّل يتبين في ناظر الإنسان ؛ قال الله تعالى :

﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ [النازعات : 9] وقال تعالى : ﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الذل يَنظُرُونَ

مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورى : 45] ويقال : خَشَعَ واختشع إذا ذلَّ .

وخَشَعَ ببصره أي غضّه .

(47/736)

وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو "خَاشِعاً" بالألف ويجوز في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد ، نحو : "خَاشِعاً أَبْصَارُهُمْ" والتأنيث نحو : ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ [القلم : 43] ويجوز الجمع نحو : ﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ ﴾ قال :

وَشَبَابٍ حَسَنٍ أَوْجُهُهمْ . . .

مِنْ إيادِ بنِ نزارِ بنِ مَعَد

و"خُشَّعاً" جمع خاشع والنصب فيه على الحال من الهاء والميم في "عَنْهُمْ" فيقبح الوقف على هذا التقدير على "عَنْهُمْ" .

ويجوز أن يكون حالاً من المضمر في "يَخْرُجُونَ" فيوقف على "عَنْهُمْ" .

وقرىء "خُشَّعٌ أَبْصَارُهُمْ" على الابتداء والخبر ، ومحل الجملة النصب على الحال ، كقوله :

وجدته حَاضِرَاه الجودُ والْكَرَمُ . . .

﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث ﴾ أي القبور واحدها جدث .

﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ .

مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع ﴾ .

وقال في موضع آخر : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ الناس كالفراش المبثوث ﴾ [القارعة : 4] فهما صفتان في وقتين مختلفين ؛ أحدهما عند الخروج من القبور ، يخرجون فزِعين لا يهتدون أين يتوجهون ، فيدخل بعضهم في بعض ؛ فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضه في بعض لا جهة له يقصدها (الثاني) فإذا سمعوا المنادي قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر ؛ لأن الجراد له جهة يقصدها .

و "مُهْطِعِينَ" معناه مسرعين ؛ قاله أبو عبيدة .

ومنه قول الشاعر :

بدِجْلَةَ دَارُهمْ ولقد أراهم . . .

بدِجْلَةَ مُهْطِعِينَ إلى السَّماعِ

الضحاك : مقبلين .

قتادة : عامدين .

ابن عباس : ناظرين .

عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت .

والمعنى متقارب .

يقال : هَطَعَ الرجلُ يَهْطَعُ هُطُوعاً إذا أقبل على الشيء ببصره لا يقلع عنه ؛ وأهطع إذا مدّ عنقه وصوّب رأسه .

قال الشاعر :

تَعَبَّدَنِي نِمْرُ بنُ سَعْدٍ وقد أَرى . . .

وِنِمْرُ بنُ سَعْدٍ لِي مُطِيعٌ ومُهْطِعُ

وبعير مُهْطِع : في عنقه تصويبٌ خِلْقةً .

وأهطع في عَدْوه أي أسرع .

﴿ يَقُولُ الكافرون هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ يعني يوم القيامة لما ينالهم فيه من الشدّة . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(48/736)

وقال الآلوسى :

﴿ اقتربت الساعة ﴾

أي قربت جداً ﴿ وانشق القمر ﴾ انفصل بعضه عن بعض وصار فرقتين وذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة بنحو خمس سنين فقد صح من رواية

الشيخين .

وابن جرير عن أنس أن أهل مكة سألوه عليه الصلاة والسلام أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما ، وخبر أبي نعيم من طريق الضحاك عن ابن عباس أن أحبار اليهود سألوا آية فأراهم الله تعالى القمر قد انشق لا يعوّل عليه ، وفي "الصحيحين" وغيرهما من حديث ابن مسعود " انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين فرقة على الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا " ومن حديثه أيضاً " انشق القمر على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة فقال رجل : انتظروا ما يأتيكم به السفار فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم فجاء السفار فأخبروهم بذلك " رواه أبو داود .

والطيالسي ، وفي رواية البيهقي "فسألوا السفار وقد قدموا من كل وجه فقالوا : رأيناه" فأنزل الله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس من وجه ضعيف قال : "اجتمع المشركون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم الوليد بن المغيرة .

وأبو جهل بن هشام .

والعاص بن وائل .

والعاص بن هشام .

والأسود بن عبد يغوث .

والأسود بن المطلب .

وربيعة بن الأسود .

والنضر بن الحرث فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قينقاع فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : " إن فعلت تؤمنوا ؟ قالوا : نعم وكانت ليلى بدر فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل أن يعطيه ما سألوا فأمسى القمر قد مثل نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قينقاع ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي يا أبا سلمة بن عبد الأسد .

والأرقم بن الأرقم اشهدوا " .

(49/736)

والأحاديث الصحيحة في الانشقاق كثيرة ، واختلف في تواتره فقيل : هو غير متواتر ، وفي شرح المواقف الشريفي أنه متواتر وهو الذي اختاره العلامة ابن السبكي قال في شرحه لمختصر ابن الحاجب : الصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر وهو الذي اختاره العلامة ابن السبكي قال في شرحه لمختصر ابن الحاجب : الصحيح عندي أن انشقاق القمر

متواتر منصوص عليه في القرآن مروى في "الصحيحين" وغيرهما من طرق شتى بحيث لا يمتري في تواتره انتهى باختصار ، وقد جاءت أحاديثه في روايات صحيحة عن جماعة من الصحابة منهم علي كرم الله تعالى وجهه .

وأنس .

وابن مسعود .

وابن عباس .

وحذيفة .

وجبير بن مطعم .

وابن عمر .

وغيرهم ، نعم إن منهم من لم يحضر ذلك كابن عباس فإنه لم يكن مولوداً إذ ذاك وكأنس فإنه كان ابن أربع أو خمس بالمدينة ، وهذا لا يطعن في صحة الخبر كما لا يخفى ، ووقع في رواية البخاري .

وغيره عن ابن مسعود "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى فانشق القمر " ولا يعارض ما صح عن أنس أن ذلك كان بمكة لأنه لم يصرح بأنه عليه الصلاة والسلام كان ليلتئذٍ بمكة ، فالمراد أن الانشقاق كان والنبي صلى الله عليه وسلم إذ ذاك مقيم بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة ، ووقع في نظم السيرة للحافظ أبي الفضل العراقي ما هو نص في وقوع

الانشقاق مرتين ، وظاهر في أنه مجمع على وقوعه كذلك حيث قال : وانشق مرتين بالإجماع ، وكأن مستند الأول ما أخرجه عبد بن حميد .

والحاكم وصححه .

وابن مردويه .

(50/736)

والبيهقي في الدلائل من طريق مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود قال : رأيت القمر منشقاً شقتين مرتين بمكة قبل مخرج النبي صلى الله عليه وسلم الحديث ، وأما الإجماع فغير مسلم ، وفي المواهب قال الحافظ ابن حجر : أظن أن قوله : بالإجماع يتعلق بانشق لا بمرتين فإني لا أعلم من جزم من علماء الحديث بتعدد الانشقاق في زمنه صلى الله عليه وسلم ، ولعل قائل مرتين أراد فرقتين ، وهذا الذي لا يتجه غيره جمعاً بين الروايات انتهى ، ولا يخفى أن هذا التأويل مع بعده لا يتسنى في خبر ابن مسعود المذكور آنفاً لمكان شقتين وهي بمعنى فرقتين ومرتين معاً ، والذي عندي في تأويل ذلك أن مرتين في كلام ابن مسعود قيد للرؤية وتعددها لا يقتضي تعدد الانشقاق بأن يكون رآه منشقاً فصرف نظره عنه ثم أعاده فرآه كذلك لم يتغير ففيه إشارة إلى أنها رؤية لا شبهة فيها وقد فعل نحو ذلك الكفرة ، أخرج أبو نعيم من

طريق عطاء عن ابن عباس قال : انتهى أهل مكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : هل من آية نعرف بها أنك رسول الله ؟ فهبط جبريل عليه السلام فقال : يا محمد قل لأهل مكة أن يجتمعوا هذه الليلة يروا آية فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقالة جبريل عليه السلام فخرجوا ليلة أربع عشرة فانشق القمر نصفين نصفاً على الصفا ونصفاً على المروة فنظروا ثم قالوا بأبصارهم فمسحوها ثم أعادوا النظر فنظروا ثم مسحوا أعينهم ثم نظروا فقالوا ما هذا إلا سحر فأنزل الله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ فلو قال أحد هؤلاء رأيت القمر منشقاً ثلاث مرات على معنى تعدد الرؤية صح بلا غبار ولم يقتض تعدد الانشقاق فليخرج كلام ابن مسعود على هذا الطرز ليجمع بين الروايات ، ثم هذا الحديث إن صح كان دليلاً لما أشار إليه البوصيري في قوله

: شق عن صدره وشق له البد . . .

ر ومن شرط كل شرط جزاء

(51/736)

من أن الشق كان ليلة أربع عشرة لأن البدر هو القمر ليلة أربع عشرة ويعلم من ذلك ما في قول العلامة ابن حجر الهيتمي في شرحه : ظاهر التعبير بالبدر دون القمر أن الشق كان ليلة

أربع عشرة ولم أر له في ذلك سلفاً ، ولعله أراد بالبدر مطلق القمر ، ويؤيد كونه ليلة البدر ما أخرجه الطبراني ، وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : كسف القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : سحر القمر فنزلت ﴿ اقتربت الساعة ﴾ إلى ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر : 2] فإن الكسوف وإن جاز عادة أن يكون ليلة الثالث عشر وليلة الخامس عشر إلا أن الأغلب كونه ليلة الرابع عشر ولا ضرورة إلى حمل الكسوف في هذا الخبر على الانشقاق إذ لا مانع كما في البداية والنهاية أن يكون قد حصل للقمر مع انشقاقه كسوف ، نعم ذكر فيها أن سياق الخبر غريب .

ثم إن القمر بعد انشقاقه لم تفارق قطعتاه السماء بل بقيتا فيها متباعدتين تباعداً مّا لحظة ثم اتصلتا ، وما يذكره بعض القصاص من أنه دخل في جيب النبي صلى الله عليه وسلم وخرج من كمه فباطل لا أصل له كما حكاه الشيخ بدر الدين الزركشي عن شيخه العماد بن كثير ولعنة الله تعالى على من وضعه .

وما في خبر أبي نعيم الذي أخرجه من طريق الضحاك عن ابن عباس من أنه انشق فصار قمرين أحدهما على الصفا والآخر على المروة قدر ما بين العصر إلى الليل ينظرون إليه ثم غاب لا يعوّل عليه ، كيف وقد تضمن ذلك الخبر أن الانشقاق وقع لطلب أحبار اليهود وأن القائل هذا ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر : 2] هم ، وهو مخالف لما نطقت به الأخبار

الصحيحة الكثيرة كما لا يخفى على المتتبع ، وقد شاع " أن النبي صلى الله عليه وسلم أشار إلى القمر بسبابته الشريفة فانشق " ولم أره في خبر صحيح والله تعالى أعلم .

(52/736)

وأنكر الفلاسفة أصل الانشقاق بناءاً على زعمهم استحالة الخرق والالتئام على الأجرام العلوية ودليلهم على ذلك أوهن من بيت العنكبوت وقد خرق بأدنى نسمة من نسمات أفكار أهل الحق العلويين خرقاً لا يقبل الالتئام كما بين في موضعه ، وقال بعض الملاحدة : لو وقع لنقل متواتراً واشترك أهل الأرض كلهم في معرفته ولم يختص بها أهل مكة لأنه أمر محسوس مشاهد والناس فيه شركاء والطباع حريصة على رواية الغريب ونقل ما لم يعهد ، ولا أغرب من انشقاق هذا الجرم العظيم ولم يعهد أصلاً في الزمن القديم ولو كان له أصل الخلد أيضاً في كتب التسيير والتنجيم ولذكره أهل الأرصاد فقد كانت موجودة قبل البعثة بكثير وإطباقهم على تركه وإغفاله مع جلالة شأنه ووضوح أمره مما لا تجوزه العادة ، وأيضاً لا يعقل سبب لخرق هذا الجرم العظيم وأيضاً خرقه يوجب صوتاً هائلاً أشد من أصوات الصواعق المهلكة بأضعاف مضاعفة لا يبعد هلاك أكثر أهل الأرض منه ، وأيضاً متى خرق وصار قطعتين ذهبت منه قوة التجاذب كالجبل إذا انشق فيلزم بقاؤه منشقاً ولا أقل

من أن يبقى كذلك سنين كثيرة ؛ والجواب عن ذلك أنه وقع في الليل وزمان الغفلة وكان في زمان قليل ورؤية القمر في بلد لا تستلزم رؤيته في جميع البلاد ضرورة اختلاف المطالع فقد يكون القمر طالعاً على قوم غائباً عن آخرين ومكسوفاً عند قوم غير مكسوف عند آخرين والاعتناء بأمر الأرصاد لم يكن بمثابته اليوم وغفلة أهلها لحظة غير مستبعد والانشقاق لا تختلف به منازله ولا يتغير به سيره غاية ما في الباب أن يحدث في القطعة الشرقية قوة سير لتلحق أختها الغربية ، وأي مانع من أن يخلق الله تعالى فيها من السرعة نحو ما خلق الله سبحانه في ضوء الشمس فقد قال أهل الحكمة الجديدة : إن بين الأرض والشمس ثلثمائة ألف فرسخ وأربعون ألف فرسخ وأن ضوءها ليصل إلى الأرض في مدة ثمان دقائق وثلاث عشرة ثانية فيقطع الضوء في كل ثانية سبعين ألف فرسخ ولا يلزم أن

(53/736)

يعلم سبب كل حادث بل كثير من الحوادث المتكررة المشاهدة لم يوقف على أسبابها كرؤية الكواكب قريبة مع بعدها المفرط فقد ذكروا أنهم لم يقفوا على سببه ويكفي في ذلك عدم وقوفهم على سبب الإبصار بالعين على الحقيقة ولو أخبرهم مخبر بفرض إن لم يكن لهم أبصار بخواص البصر مع كونه قطعة شحم صغيرة معروفة أحوالها عند أهل التشريح

لأنكروا عليه غاية الإنكار وكذبوه غاية التكذيب ونسبوه إلى الجنون .

ومن سلم تأثير النفوس إلى حدّ أن يصرع الشخص آخر بمجرد النظر إليه وتوجيه نفسه نحوه لم يستبعد أن يكون هناك سبب نحو ذلك ، وقد صح في إصابة العين أن بعض الأعراب ممن لن عين صائبة يفلق سنام الناقة فلقتين ، وربما تصور له من رمل فينظر إليه ويفلقه فينفلق سنامها مع عدم رؤيته لها نفسها وهذا كله من باب المماشاة وإلا فإرادة الله تعالى كافية في الانشقاق وكذا في كل المعجزات وخوارق العادات ولو كان لكل حادث سبب لزم التسلسل وقد قامت الأدلة على بطلانه ، وكون الخرق يوجب صوتاً هائلاً ممنوع فيما نحن فيه ومثله ذهاب التجاذب والأجسام مختلفة من حيث الخواص فلا يلزم اتحاد جرم القمر والأرض فيها ويمكن أن يكون إحدى القطعتين كالجبل العظيم بالنسبة إلى الأرض إذا ارتفع عنها بقاسر مثلاً جذبته إليه إذا لم يخرج عن حدّ جذبها على ما زعموه ويلتزم في تلك القطعة عدم الخروج عن حدّ الجذب على أنا في غنى عن كل ذلك أيضاً بعد إثبات الإمكان لشمول قدرته عز وجل وأنه سبحانه فعال لما يريد .

(54/736)

والحاصل أنه ليس عند المنكر سوى الاستبعاد ولا يستطيع أن يأتي بدليل على الاستحالة الذاتية ولو انشق ، والاستبعاد في مثل هذه المقامات قريب من الجنون عند من له عقل سليم ، وروي عن الحسن أنه قال : هذا الانشقاق بعد النفخة الثانية ، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع ، وروي ذلك عن عطاء أيضاً ، ويؤيد ما تقدم الذي عليه الأكثرون قراءة حذيفة وقد انشق القمر فإن الجملة عليها حالية فتقتضي المقارنة لاقتراب الساعة ووقوع الانشقاق قبل يوم القيامة ، وكذا قوله تعالى :

﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ ﴾ فإنه يقتضي أن الانشقاق آية رأوها وأعرضوا عنها ، وزعم بعضهم أن انشقاق القمر عبارة عن انشقاق الظلمة عند طلوعه وهذا كما يسمى الصبح فلقاً عند انفلاق الظلمة عنه وقد يعبر عن الانفلاق بالانشقاق كما في قوله النابغة

: فلما أدبروا ولهم دوي . . .

دعانا عند ﴿ شق ﴾ الصبح داعي

وزعم آخر أن معنى انشق القمر وضح الأمر وظهر وكلا الزعمين مما لا يعول عليه ولا يلتفت إليه ولا أظن الداعي إليهما عند من يقرّ بالساعة التي هي أعظم من الانشقاق ويعترف بالعقائد الإسلامية التي وقع عليها الاتفاق سوى عدم ثبوت الأخبار في وقوع ذلك على عهده عليه الصلاة والسلام عنده ؛ ومنشأ ذلك القصور التام والتمسك بشبه هي على طرف الثمام ، ومع هذا لا يكفر المنكر بناءاً على عدم الاتفاق على تواتر ذلك وعدم كون

الآية نصفاً فيه ، والإخراج من الدين أمر عظيم فيحتاط فيه ما لا يحتاط في غيره والله تعالى الموفق .

(55/736)

والظاهر أن المراد باقتراب الساعة القرب الشديد الزماني ، وكل آت قريب ، وزمان العالم مديد ، والباقي بالنسبة إلى الماضي شيء يسير ، ومال الإمام إلى أن المراد به قربها في العقول والأذهان ، وحاصله أنها ممكنة إمكاناً قريباً لا ينبغي لأحد إنكارها ، واستعمال الاقتراب مع أنه أمر مقطوع به كاستعمال ﴿ يُدْرِيكَ لَعَلَّ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ [الأحزاب : 63] مع أن الأمر معلوم عند الله تعالى وانشقاق القمر آية ظاهرة على هذا القرب ، وعلى الأول قيل : هو آية لأصل الإمكان الذي يقتضيه قرب الوقوع ، وقيل : هو آية لقرب الوقوع ومعجزة للنبي صلى الله عليه وسلم باعتبار أن الله تعالى مخبر في كتبه السالفة بأنه إذا قربت الساعة انشق القمر معجزة وكلاهما كما ترى ، واختار بعضهم أنه آية لصدق النبي عليه الصلاة والسلام في جميع ما يقول ويبلغ ربه سبحانه لأنه معجزة له صلى الله عليه وسلم ومنه دعوى الرسالة والأخبار باقتراب الساعة وغير ذلك ، و ﴿ ءايَةً ﴾ نكرة في سياق الشرط فتعم ، فالمعنى ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ يُعْرِضُواْ

﴿ عن التأمل فيها ليقفوا على وجه دلالتها وعلو طبقتها ﴿ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ ﴾ أي هذا أو هو أي ما نراه سحر ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ أي مطرد دائم يأتي به محمد صلى الله عليه وسلم على مر الزمان وهو ظاهر في ترادف الآيات وتتابع المعجزات .

وقال أبو العالية .

والضحاك : ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ محكم موثق من المرة بالفتح أو الكسر بمعنى القوة وهو في الأصل مصدر مررت الحبل مرة إذا فتلته فتلاً محكماً فأريد به مطلق المحكم مجازاً مرسلاً ،

وقال أنس .

ويمان .

ومجاهد .

والكسائي .

والفراء واختاره النحاس مستمر أي مارّ ذاهب زائل عن قريب عللوا بذلك أنفسهم ومنوهاً بالأماني الفارغة كأنهم قالوا : إن حاله عليه الصلاة والسلام وما ظهر من معجزاته سبحانه

.

سحابة صيف عن قريب تقشع . . .

﴿ ويأبى الله إلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ [التوبة : 32] وقيل : ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ مشتدّ المرارة أي مستبشع عندنا منفور عنه لشدة مرارته يقال : مرّ الشيء وأمرّ إذا صار مرّاً وأمرّ غيره ومرّه يكون لازماً ومتعدياً ، وقيل : ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ يشبه بعضه بعضاً أي استمرت أفعاله على هذا الوجه من التخييلات ، وقيل : ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ مار من الأرض إلى السماء أي بلغ من سحره أنه سحر القمر وهذا ليس بشيء ، ولعل الأنسب بغلوهم في العناد والمكابرة ما روي عن أنس ومن معه ، وقرىء وأن يروا بالبناء للمفعول من الإراءة .

(57/736)

﴿ وَكَذَّبُواْ ﴾ النبي صلى الله عليه وسلم وبما أظهره الله تعالى على يده من الآيات ﴿ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ التي زينها الشيطان لهم ، وقيل : ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ الآية التي هي انشقاق القمر ﴿ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ وقالوا سحر القمر أو سحرت أعيننا والقمر بحاله ، والعطف على الجزاء السابق وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ، وقيل : العطف على ﴿ اقتربت ﴾ [القمر : 1] والجملة الشرطية اعتراض لبيان عادتهم إذا شاهدوا الآيات ، وقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ استئناف مسوق للرد على الكفار في تكذيبهم

ببيان أنه لا فائدة لهم فيه ولا يمنع علو شأنه صلى الله عليه وسلم ، أو لإقناطهم عما علقوا به أمانيهم الفارغة من عدم استقرار أمره عليه الصلاة والسلام حسبما قالوا : ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر : 2] ببيان ثبوته ورسوخه أي وكل أمر من الأمور منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة ومن جملتها أمر النبي صلى الله عليه وسلم فسيصير إلى غاية يتبين عندها حقيته وعلو شأنه ، وللإشارة إلى ظهور هذه الغاية لأمره عليه الصلاة والسلام لم يصرح بالمستقر عليه ، وفي "الكشاف" أي كل أمر لا بدّ أن يصير إلى غاية يستقر عليها وأن أمره صلى الله عليه وسلم سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق أو باطل وسيظهر له عاقبتهم أو وكل أمر من أمره عليه الصلاة والسلام ، وأمرهم مستقر أي سيثبت ويستقر على حالة نصرة أو خذلان في الدنيا أو سعادة وشقاوة في الآخرة ، قال في "الكشف" : والكلام على الأول تذييل جار مجرى المثل وعلى الثاني تذييل غير مستقل ، وقرأ شيبة ﴿ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ بفتح القاف ورويت عن نافع ، وزعم أبو حاتم أنها لا وجه لها وخرجت على أن مستقراً مصدر بمعنى استقرار ، وحمله على كل أمر بتقدير مضاف أي ذو مستقر ولو لم يقدر وقصد المبالغة صح ، وجوز كونه اسم زمان أو مكان بتقدير مضاف أيضاً أي ذو زمان استقرار ، أو ذو موضع استقرار ، وتعقب بأن كون

كل أمر لا بد له من زمان أو مكان أمر معلوم لا فائدة في الأخبار به ، وأجيب بأن فيه إثبات الاستقرار له بطريق الكناية وهي أبلغ من التصريح .

وقرأ زيد بن علي ﴿ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ بكسر القاف والجر ، وخرج على أنه صفة أمر وأن كل معطوف على ﴿ الساعة ﴾ [القمر : 1] أي اقتربت الساعة ؛ واقترب كل أمر يستقر ويتبين حاله أي بقربها ، قال في "الكشف" : وفيه شمة من التجريد وتهويل عظيم حيث جعل في اقترابها اقتراب كل أمر يكون له قرار وتبين حال مما له وقع ، وقوله تعالى : ﴿ وانشق القمر ﴾ على هذا إما على تقدير قد وينصره القراءة بها ، وإما منزل منزلة الإعراض لكونه مؤكداً لقرب الساعة ، وقوله سبحانه :

﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً ﴾ [القمر : 2] الخ مستطرد عند ذكر انشقاق القمر .

واعترض ذلك أبو حيان بأنه بعيد لكثرة الفواصل بين المعطوف والمعطوف عليه وجعل الكلام عليه نظير أكلت خبزاً ، وضربت خالداً ، وإن يجيء زيد أكرمه ، ورحل إلى بني فلان ، ولحماً بعطف لحماً على خبزاً ثم قال بل لا يوجد مثله في كلام العرب ، وتعقب بأنه ليس بشيء لأنه إذا دل على العطف الدليل لا يعد ذلك مانعاً منه على أن بين الآية والمثال فرقاً لا يخفى ، وقال صاحب اللوامح إن ﴿ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ خبر كل ، والجر للجوار ، واعترضه أبو حيان أيضاً بأنه ليس بجيد لأن الجر على الجوار في غاية الشذوذ في مثله إذ لم

يعهد في خبر المبتدأ ، وإنما عهد في الصفة على اختلاف النحاة في وجوده ، واستظهر كون كل مبتدأ وخبره مقدر كآت ، أو معمول به ونحوه مما يشعر به الكلام أو مذكور بعد وهو قوله تعالى : ﴿ حِكْمَةٌ بالغة ﴾ [القمر : 5] وقد اعترض بينهما بقوله سبحانه :

(59/736)

﴿ وَلَقَدْ جَاءهُمْ ﴾ في القرآن ﴿ مّنَ الانباء ﴾ أي أخبار القرون الخالية ، أو أخبار الآخرة ، والجار والمجرور في موضع الحال من ما في قوله عز وجل : ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ قدم عليه رعاية للفاصلة وتوبقاً إليه و ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض ، أو للتبيين بناءاً على المختار من جواز تقديمه على المبين ، قال الرضى : إنما جاز تقديم ﴿ مِنْ ﴾ المبينة على المبهم في نحو عندي من المال ما يكفي لأنه في الأصل صفة لمقدر أي شيء من المال ، والمذكور عطف بيان للمبين المقدر قبلها ليحصل البيان بعد الإبهام أي بالله لقد جاءهم كائناً من الأنباء ما فيه ازدجار لهم ومنع عما هم فيه من القبائح ، أو موضع ازدجار ومنع ، وهي أنباء التعذيب ، أو أنباء الوعيد ، وأصل ﴿ مُزْدَجَرٌ ﴾ مزتجر بالتاء موضع الدال وتاء الافتعال تقلب دالاً مع الدال والذال والراء للتناسب ، وقرىء مزجر بقلبها زاياً وإدغام الزاي فيها ، وقرأ زيد بن علي مزجر اسم فاعل من أزجر أي صار ذا زجر كأعشب صار

ذا عشب .

﴿ حِكْمَةٌ بالغة ﴾ أي واصلة غاية الإحكام لا خلل فيها ، ورفع ﴿ حِكْمَةٌ ﴾ على أنها بدل كل ، أو اشتمال من ﴿ مَا ﴾ ، وقيل : من ﴿ مُزْدَجَرٌ ﴾ [القمر : 4] أو خبر مبتدأ محذوف أي هي ، أو هذه على أن الإشارة لما يشعر به الكلام من إرسال الرسل وإيضاح الدليل والإنذار لمن مضى ، أو إلى ما في الأنباء ، أو إلى الساعة المقتربة ، والآية الدالة عليها كما قاله الإمام وتقدم آنفاً احتمال كونها خبراً عن كل في قراءة زيد ، وقرأ اليماني ﴿ حِكْمَةٌ بالغة ﴾ بالنصب حالاً من ﴿ مَا ﴾ فإنها موصولة أو نكرة موصوفة ، ويجوز مجيء الحال منها مع تأخرها أو هو بتقدير أعني .

(60/736)

﴿ فَمَا تُغْنِى النذر ﴾ نفي للإغناء أو استفهام إنكاري والفاء لترتيب عدم الإغناء على مجيء الحكمة البالغة مع كونه مظنة للإغناء وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار ، و﴿ مَا ﴾ على الوجه الثاني في محل نصب على أنها مفعول مطلق أي فأي إغناء تغني النذر ، وجوز أن تكون في محل رفع على الابتداء ، والجملة بعدها خبر ، والعائد مقدر أي فما تغنيه النذر وهو جمع نذير بمعنى المنذر ، وجوز أن يكون جمع نذير

بمعنى الإنذار ، وتعقب بأن حق المصدر أن لا يثنى ولا يجمع وأن يكون مصدراً كالإنذار ، وتعقب بأنه يأباه تأنيث الفعل المسند إليه وكونه باعتبار أنه بمعنى النذارة لا يخفى حاله .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ الفاء للسببية والمسبب التولي أو الأمر به والسبب عدم الإغناء أو العلم به ، والمراد بالتولي إما عدم القتال ، فالآية منسوخة ، وإما ترك الجدال للجلاد فهي محكمة ، والظاهر الأول ﴿ يَوْمَ يَدْعُو الداع ﴾ ظرف ليخرجون أو مفعول به لأذكر مقدراً ، وقيل : لانتظر ، وجوز أن يكون ظرفاً لتغني ، أو لمستقر وما بينهما اعتراض ، أو ظرفاً ليقول الكافر أو لتول أي تول عن الشفاعة لهم يوم القيامة ، أو هو معمول له بتقدير إلى ، وعليه قول الحسن فتول عنهم إلى يوم .

(61/736)

والمراد استمرار التولي والكل كما ترى ، والداعي إسرافيل عليه السلام ، وقيل : جبرائيل عليه السلام ، وقيل : ملك غيرهما موكل بذلك ، وجوز أن يكون الدعاء للإعادة في ذلك اليوم كالأمر في ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] على القول بأنه تمثيل ، فالداعي حينئذٍ هو الله عز وجل ، وحذفت الواو من ﴿ يَدْعُ ﴾ لفظاً لالتقاء الساكنين ورسماً اتباعاً للفظ ، والياء من ﴿ الداع ﴾ تخفيفاً ، وإجراءاً لال مجرى التنوين لأنها تعاقبه ، والشيء يحمل

على ضده كما يحمل على نظيره ﴿ إلى شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾ أي فظيع تنكره النفوس لعدم العهد بمثله وهو هول القيامة ويكنى بالنكر عن الفظيع لأنه في الغالب منكر غير معهود ، وجوز أن يكون من الإنكار ضد الإقرار وأيما كان فهو وصف على فعل بضمتين وهو قليل في الصفات ، ومنه روضة أنف لم ترع ، ورجل شلل خفيف في الحاجة سريع حسن الصحبة طيب النفس ، وسجح لين سهل ، وقرأ الحسن .

وابن كثير .

وشبل ﴿ نُّكُرٍ ﴾ بإسكان الكاف كما قالوا : شغل وشغل ، وعسر وعسر وهو إسكان تخفيف ، أو السكون هو الأصل والضم للاتباع ، وقرأ مجاهد .

وأبو قلابة .

والجحدري .

وزيد بن علي ﴿ نُّكُرٍ ﴾ فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول بمعنى أنكر .

﴿ خُشَّعاً أبصارهم ﴾ حال من فاعل ﴿ يُخْرِجُونَ ﴾ أي يخرجون ﴿ مّنَ الاجداث ﴾ أي القبور أذلة أبصارهم من شدة الهول أي أذلاء من ذلك ، وقدم الحال لتصرف العامل والاهتمام ، وفيه دليل على بطلان مذهب الجرمي من عدم تجويز تقدم الحال على الفعل وإن كان متصرفاً ، ويرده أيضاً قولهم : شتى تؤب الحلبة ، وقوله

: سريعاً يهون الصعب عند ألى النهى . . .

إذا برّ جاء صادق قابلوا البأسا

وجعل حالاً من ذلك لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الاجداث سِرَاعاً ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ [المعارج: 43 ، 44] .

(62/736)

وقيل : هو حال من الضمير المفعول المحذوف في ﴿ يَدْعُ الداع ﴾ [القمر : 6] أي يدعوهم الداع ؛ وتعقب بأنه لا يطابق المنزل وأيضاً يصير حالاً مقدرة لأن الدعاء ليس حال خشوع البصر وليست في الكثرة كغيرها وكذلك جعله مفعول يدعو على معنى يدعو فريقاً خاشعاً أبصارهم أي سيخشع وإن كان هذا أقرب مما قبل ، وقيل : هو حال من الضمير المجرور في قوله تعالى : ﴿ فتولى عَنْهُمْ ﴾ وفيه ما لا يخفى ، وأبصارهم فاعل خشعاً وطابقه الوصف في الجمع لأنه إذا كسر لم يشبه الفعل لفظاً فتحسن فيه المطابقة وهذا بخلاف ما إذا جمع جمع مذكر سالم فإنه لم يتغير زنته وشبهه للفعل فينبغي أن لا يجمع إذا رفع الظاهر المجموع على اللغة الفصيحة دون لغة أكلوني البراغيث ، لكن الجمع حينئذٍ في الاسم أخف منه في الفعل كما قال الرضي ، ووجهه ظاهر ، وفي التسهيل إذا رفعت الصفة اسماً ظاهراً مجموعاً فإن أمكن تكسيرها كمررت برجل ﴿ قِيَامٍ ﴾ غلمانه فهو أولى من إفراده

كمررت برجل ﴿ قَائِمٌ ﴾ غلمانه وهذا قول المبرد ومن تبعه والسماع شاهد له كقوله

: وقوفاً بها صحبي على مطيهم . . .

يقولون لا تهلك أسى وتجملي

وقوله

: بمطرد لدن صحاح كعوبه . . .

وذي رونق عضب يقد القوانسا

وقال الجمهور : الإفراد أولى والقياس معهم ، وعليه قوله

: ورجال حسن أوجههم . . .

من إياد بن نزار بن معد

وقيل : إن تبع مفرداً فالإفراد أولى كرجل ﴿ قَائِمٌ ﴾ غلمانه وإن تبع جمعاً فالجمع أولى كرجال قيام غلمانهم وأما التثنية والجمع السالم فعلى لغة أكلوني البراغيث ؛ وجوز أن يكون في ﴿ خُشَّعاً ﴾ ضمير مستتر ، و﴿ أبصارهم ﴾ بدلاً منه ، وقرأ ابن عباس .

وابن جبير .

ومجاهد .

والجحدري .

وأبو عمرو .

وحمزة .

والكسائي خاشعاً بالإفراد ، وقرأ أبيّ .

(63/736)

وابن مسعود خاشعة وقرىء خشع على أنه خبر مقدم ، و﴿ أبصارهم ﴾ مبتدأ ، والجملة في موضع الحال ، وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ حال أيضاً وتشبيههم بالجراد المنتشر في الكثرة والتموج والانتشار في الأقطار ، وجاء تشبيههم بالفراش المبثوث ولهم يوم الخروج سهم من الشبه لكل ، وقيل : يكونون أولاً كالفراش حين يموجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون لأن الفراش لا جهة لها تقصدها ، ثم كالجراد المنتشر إذا توجهوا إلى المحشر فهما تشبيهان باعتبار وقتين ، وحكي ذلك عن مكي بن أبي طالب .

﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع ﴾ مسرعين إليه قال أبو عبيدة : وزاد بعضهم مادّي أعناقهم ، وآخر مع هز ورهق ومدّ بصر .

وقال عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت ، وعن ابن عباس ناظرين إليه لا تقلع أبصارهم عنه وأنشد قول تبع

: تعبدني نمر بن سعد وقد أرى . . .

ونمر بن سعد لي "مطيع ومهطع"

وفي رواية أنه فسره بخاضعين وأنشد البيت ، وقيل : خافضين ما بين أعينهم ، وقال سفيان : شاخصة أبصارهم إلى السماء ، وقيل : أصل الهطع مد العنق ، أو مد البصر ، ثم يكنى به عن الإسراع ، أو عن النظر والتأمل فلا تغفل ، ﴿ يَقُولُ الكافرون هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ صعب شديد لما يشاهدون من مخايل هوله وما يرتقبون من سوء منقلبهم فيه ، وفي إسناد القول المذكور إلى الكفار تلويح بأنه على المؤمنين ليس كذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(64/736)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

54 ـ سورة القمر

نزولها : مكية باتفاق عدد آياتها : خمس وخمسون آية عدد كلماتها : ثلاثمائة واثنتان وأربعون كلمة عدد حروفها : ألف وأربعمائة وثلاثة وعشرون حرفا .

مناسبتها لما قبلها

فى ختام سورة « ق » جاء قوله تعالى : « أَزِفَتِ الْآزِفَةُ » ـ منذرا بقرب يوم القيامة ، ثم فى

بدء سورة القمر قوله : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » . مخبرا عن اقتراب الساعة ، منبئا عن الأحداث التي تقع فى هذا اليوم العظيم . .

وبهذا تلاقى ختام « ق » وبدء « القمر » على موضوع واحد ، هو وقوع يوم القيامة ، واقتراب هذا الوقوع ، وأن ختام سورة « ق » يقرر هذه الحقيقة ، وبدء سورة « القمر » يؤكدها ، ويطلع بالإرهاصات التي تقوم بين يديها .

(65/736)

التفسير :

قوله تعالى : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » .

هذا خبر ، عام ، مرسل من غير توكيد ، إشارة إلى أنه حقيقة مقررة ، لا تحتمل مكابرة ، ولا تقبل جدلا . .

وقوله تعالى : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ » هو مثل قوله تعالى : « أَزِفَتِ الْآزِفَةُ » وقوله سبحانه : « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ » (1 : الأنبياء) .

أما قوله تعالى : « وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » . فهو أمارة من أمارات هذا اليوم ، يوم القيامة . . الذي تتبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات .

وفى عطف انشقاق القمر على اقتراب الساعة - إشارة إلى أن هذا الاقتراب قد أصبح لقربه كأنه واقع فعلا ، وأن انشقاق القمر هو أول بوادر الوقوع ، وكأن الواو هنا ، واو المعية أو المصاحبة . . ومعنى انشقاق القمر ظهوره فى ذلك اليوم على حقيقته فى أعين الناس . . فالناس يرونه فى هذه الدنيا صفحة بيضاء بلورية ، أشبه بالمرآة الصقيلة . . ولكنهم يوم القيامة يرونه جرما معتما ، شبيها بالأرض ، تختلف طبيعة سطحه بين سهول ، وأودية ، وأغوار ، ونجود ، وجبال . .

هكذا القمر فى حقيقته . . كما يقرر ذلك العلم ، وكما أثبتته التجربة العملية ، حين صعد الإنسان إلى القمر فى هذا العام - عام ألف وثلاثمائة وتسع وثمانين من الهجرة - ومشى عليه كما يمشى على الأرض ! ! فلم يره إلا جرما معتما كالأرض تماما ، طبيعة ، وشكلا .

(66/736)

ويمكن أن يقوم هذا الحدث ، الذي مكن للإنسان أن يرى رأى العين انشقاق القمر - يمكن أن يقوم هذا شاهدا على أن يوم القيامة قد أظل ، وأن أشراط الساعة قد جاءت ، وأن الناس قد بدءوا يرون طلائع ما سيرونه يوم القيامة من حقائق الأشياء بعد أن ينكشف الغطاء عن العيون ! !

[النبي . . وانشقاق القمر]

ولا بد من وقفة هنا عند قوله تعالى : « وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » .

فلقد كاد يجمع المفسرون على أن انشقاق القمر كان فى عهد الرسول ـ صلوات اللّه ، وسلامه عليه ـ وأنه كان آية معجزة ، وقعت على يد النبي ، وهو فى مكة قبل الهجرة .

يقول القاضي عياض فى تفسير هذه الآية فى كتابه : « الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى » : « أخبر اللّه تعالى بوقوع انشقاق القمر بلفظ الماضي ، وإعراض الكفرة عن آياته ـ أي ما فى انشقاقه من آيات ـ وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه » .

وروى البخاري عن ابن مسعود ـ رضى اللّه عنه ، قال : « انشقّ القمر على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فرقتين ، فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « اشهدوا » .

وروى مسلم عن أنس ، قال : « سأل أهل مكة النبي صلى اللّه عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر فرقتين حتى رأوا حراء بينهما » .

وروى البخاري عن عبد اللّه بن مسعود ـ من رواية مسروق عنه ـ قال :

« انشقّ القمر على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقالت قريش : هذا سحر

ابن أبى كبشة « 1 » ، ثم قالوا : انظروا ما يأتيكم به السفّار ، فإن محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم ، فجاء السفار ، فقالوا ذلك » .

وروى ابن جرير عن ابن عباس ، فى قوله تعالى : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » قال : « قد مضى ذلك ، كان قبل الهجرة ، انشق القمر حتى رأوا شقيه » ويعلق القاضى « عياض » على هذه الأحاديث المروية فى انشقاق القمر ، فيقول :

« وأكثر طرق هذه الأحاديث صحيحة ، والآية مصرحة ، ولا يلتفت إلى اعتراض مخذول بأن لو كان هذا لم يخف على أهل الأرض ، إذ هو شىء ظاهر لجميعهم » .

ويدفع القاضي « عياض » هذا الاعتراض بقوله : « لم ينقل إلينا عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة فلم يروه انشق ولو نقل إلينا - أي عدم انشقاقه - عمن لا يجوز تمالؤهم على الكذب لكثرتهم - لما كانت علينا به حجة ، إذا ليس القمر فى حد واحد لجميع أهل الأرض ، فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين ، وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابليهم من أقطار الأرض ، أو يحول بين قوم وبينه سحاب أو جبال ، ولهذا نجد الكسوفات فى بعض البلاد دون بعض ، وفى بعضها جزئية ، وفى بعضها كلية . . ذلك تقدير العزيز العليم .

هذا هو مجمل ما عند المفسرين فى آية القمر ، قد لخصه القاضي عياض ، وأيده وقال مع

القائلين ، إن القمر قد انشق فى عهد النبي ، كمعجزة من معجزاته . !

---

(1) يقصد بهذا نسبة النبي إلى رجل كان فى الجاهلية الأولى ، وكان أول من دعا إلى عبادة « الشعرى » واعتبارها ابنة للّه . . فلما جاء النبي يدعو قومه إلى اللّه ، نسبوه إلى هذا الرجل الذي أحدث فى قومه عبادة الكواكب .

ونحن إذ نخالف هذا الرأى لا نخالفه ، استكثارا على النبي الكريم أن يضع اللّه سبحانه فى يده هذه المعجزة ، فإن ما بيد الرسول من آيات اللّه وكلماته مالا يبلغ انشقاق القمر شيئا إزاء حرف من كلمة من كلمات اللّه . ! كما لا نخالفه ونحن نعتقد بصحة هذه الأحاديث فى سندها إلى أن تصل إلى أصحاب رسول اللّه ، فإننا من صحابة رسول اللّه فى مقام الأعمى بين يدى المبصر . . ولكنا إذ نخالف هذه الأخبار ، فإنما نخالفها ونحن فى شك من صحة السند . . وإذا شككنا فى السند كان المتن مجرد قول يضاف إلى آخر راو روى عنه .

وإننا نخالف هذا القول بانشقاق القمر فى عهد الرسول ، لأمور :

فأولا : لم يكن الرسول الكريم معجزة متحدية ، قائمة على الزمن ، إلا القرآن الكريم الذي

تحدّى به العرب ، وأفحمهم ، وأقام الحجة عليهم .

وثانيا : لو صحّ أن يكون للنبى معجزات أخرى متحدية غير القرآن ، لما كان انشقاق القمر واحدة منها ، لأن العرب لم يتحدوه بأن يأتيهم بمعجزة معلقة فى السماء ، وإنما كان من تحدّيهم له ما حكاه القرآن عنهم فى قوله تعالى : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً » (90-92 الإسراء) .

وثالثا : لو كان انشقاق القمر معجزة متحدية ، لأنذرهم النبي صلى اللّه عليه وسلم بذلك ، ولحدّد لهم الليلة ، والساعة ، حتى يشهدوا ذلك ، ليكون حجة عليهم . . ولكن الذي ترويه الآحاديث لا يشير إلى شىء من هذا ، ولا يدل على أن قريشا قد رصدت هذه الظاهرة المتحدية . وإنما الذي يفهم من هذه الأحاديث ، أن القمر قد انشق فى ليلة ما ، وأن النبي وبعض الناس قد رأوه ، فقال النبي عندئذ : « اشهدوا ! » .

(69/736)

ولا يعقل أن يقيم النبي من انشقاق القمر - إن كان قد انشق - شهادة على صدق رسالته ، وعلى أن انشقاق القمر كان معجزة شاهدة له ، إذا لم يكن قد آذن القوم بوقوع هذا الحدث

العظيم قبل أن يقع . . أمّا أن يجىء بعد وقوع الحدث ويقيم منه شاهدا له ، فهذا قلب لأوضاع الأمور وقد عصم اللّه رسوله ، وجنبه الزلل والعثار . .

ورابعا : خسفت الشمس على عهد الرسول الكريم بالمدينة ، وصادف ذلك أن كان يوم موت ابنه إبراهيم ، فقال الناس خسفت الشمس لموت إبراهيم ! ! فدعا الرسول الناس إليه ، ثم خطبهم فقال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللّه ، لا يخسفان لموت أحد ، ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر اللّه ، وإلى الصلاة » .

هذا ، هو رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه ، وذلك هو موقفه من الأحداث التي تقع فى الطبيعة . . إنه يصحح المفاهيم الخاطئة التي تقع الناس ، من ربط الأحداث التي تقع لهم بالكواكب والنجوم ، وأن ما يجرى على الشمس والقمر من خسوف وكسوف ، ليس إلا من العوارض التي تعرض لهما فى نظام دورتهما فى الفلك .

وخامسا : إذا كان النبىّ يريد أن يتحدى قومه بمعجزة مادية ، يطلب من اللّه سبحانه وتعالى أن يؤيده بها ، فلم يختار انشقاق القمر ، وتمزقه قطعا فى السماء ؟

أليس الأولى من ذلك أن يريهم أثرا محسوسا بين أيديهم ، كأن يفجّر لهم عين ماء ، أو أن يشير إلى جبل من الجبال المحيطة بهم فيتحول عن مكانه ؟

هذا ، وليس فى الإخبار فى القرآن عن انشقاق القمر بلفظ الماضي قرينة على وقوع الفعل ، فكما يدل الماضي على حدوث الفعل فعلا ، ويخبر عن وقوعه فى الماضي كذلك يعبر

بالفعل الماضي عن الأمر الذي سيقع مستقبلا ، وذلك لغرض بلاغي ، وهو الدلالة على أن هذا الفعل محقق الوقوع لا محالة ، وأن

(70/736)

وقوعه فى المستقبل أشبه بوقوعه فى الماضي ، فإن لم يكن وقع ، فكأنه قد وقع ، لتحقق وقوعه .

والقرآن الكريم يستخدم هذا الأسلوب كثيرا فى الأمور ذات الخطر ، التي يقف كثير من الناس إزاءها موقف الشك والارتياب ، فى إصرار وعناد ، فلا يلقاهم القرآن حينئذ ، اللقاء الذي ينتظرونه فى شأن هذا الأمر الخطير ، ولا يجعل لقاءهم معه معلقا بالمستقبل ، بل يجذبهم إليه جذبا قويا ، فإذا هم فى مواجهة هذا الأمر ، وجها لوجه ، وقد أصبح خبرا بعد أن وقع ! . .

يقول سبحانه وتعالى فى شأن البعث : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ » (68 : الزمر) ويقول سبحانه عن يوم القيامة :

« وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الْكِتابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ » (69 . 70 الزمر) . .

وأكثر ما ورد فى القرآن عن البعث ، والحساب والجزاء ، قد جاء فى صورة الماضي ، الذي وقع فعلا ، وعاش فى الناس ، وعاش الناس فيه . . وذلك لتحقق وقوع هذه الأحداث . .

وعلى هذا ، فإن الحديث عن انشقاق القمر بالفعل الماضي ، لا تقوم منه حجة على وقوع هذا الانشقاق ، بل إنه إذا نظر إليه باعتبار أنه من أحداث يوم القيامة ، كان التعبير عنه بالماضي دليلا على أنه مراد به الإخبار عن المستقبل الذي لم يقع . .

فإذا نظرنا إلى انشقاق القمر ، مع قوله تعالى : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ » ومع ما يقع يوم القيامة من تبدل وتحول فى العوالم السفلية والعلوية ، رأينا أن انشقاق القمر لا يعدو أن يكون حدثا من الأحداث التي تقع يوم القيامة . .

للقمر ، ولغيره من العوالم الأخرى . . كما يقول سبحانه عن القمر يوم القيامة

(71/736)

« فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ » (7 . 10 : القيامة) ولا نريد أن نطيل الوقوف هنا ، ولا أن نجعل من هذا الأمر قضية للجدل والخلاف . . فإن الخطب هيّن ، وإنه لن ينقص من قدر النبي الكريم ، وقد كمل قدرا ،

وشرفا ـ ألا ينشق القمر له ، كما أنه لن يزيد من قدره ـ وقد استوفى غاية الكمال والشرف ـ أن يضاف إليه انشقاق القمر ، أو عشرات ومئات من مثل هذا الانشقاق . .

وإنما الذي دعانا إلى هذه الوقفة ، هو ما نجد من بعد بعيد بين مفهوم الآية الكريمة ، واتساق هذا المفهوم مع موقع الآية فى النظم القرآنى ، ومع ما جاء من آيات الكتاب عن يوم القيامة ، وما يقع فيه من أحداث ـ وبين هذا التخريج الذي خرّجت عليه الآية الكريمة ، وتوارد عليه المفسرون ، قولا واحدا ، بأن القمر قد انشق للنبى ، وهو فى مكة ، تحدّيا لتحدى قومه المكذبين به . . والله أعلم .

قوله تعالى : « وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ » .

هو معطوف على قوله تعالى : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » أي وإن ير هؤلاء المشركون آية يعرضوا عنها ، ويقولوا سحر مستمر . .

فهذه كلها أخبار عن حال واقعة ، هى اقتراب الساعة ، وانشقاق القمر ، وإصرار المشركين على التكذيب برسول الله واتهامه بالسحر ، كلما جاءهم بآية من آيات الله . .

فقوله تعالى : « وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ » هو أسلوب خبرى ، وإن جاء فى صورة الشرط . . فهو إخبار عن مستقبل كثير من هؤلاء المشركين مع الدعوة الإسلامية ، وأنهم سيظلّون على ما هم عليه من كفر وعناد ، وأنه كلما تلا عليهم الرسول بعض آيات اللّه ، لم يجدوا إلا قولا واحدا فيها ، قد استقر عليه رأيهم ، وهو أن هذا الكلام من واردات السحر ، لما فيه من قوّى خفية ، تكاد تملك وجودهم ، وتستولى على مشاعرهم . .

فقالوا : « إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ » .

. وقالوا : « سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ » أي متصل ، يشبه بعضه بعضا ، ويلتقى لاحقه مع سابقه . . أو هو سحر مستمر ، من المرّة وهى القوة ، أي قوى محكم . . كما قال فرعون عن موسى وعصاه : « إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ » (109 : الأعراف) . .

فالآية إخبار عن المستقبل ، وأن كثيرا من هؤلاء المشركين ، لن يؤمنون باللّه ، بل يموتون على كفرهم ، وأنهم كلما استمعوا إلى ما يتلو النبي من آيات اللّه ، قالوا سحر مستمر .

هذا هو موقف المعاندين الضالين من المشركين ، فى الوقت الذي تطرقهم فيه الأنباء بأن يوم القيامة قد قرب ، بل إن إرهاصاته قد أخذت تظهر فى الوجود . .

والآية التي يرونها ، هى آيات اللّه التي تتلى عليهم ، وعبر عن سماعها بالرؤية ، إشارة إلى أنها من الوضوح ، والبيان ، بحيث تبدو كأنها حاضر شاخص يرى ، لا حديث يسمع .

ويجوز أن تكون الآية هنا آية محسوسة ، مما يقترحه المشركون على النبي ، وقد أبى اللّه سبحانه وتعالى أن يجيبهم إلى ما سألوا ، لأنهم لن يؤمنوا بأية آية

(73/736)

تأتيهم ، بعد أن كذبوا بآيات اللّه المتلوّة عليهم ، والتي فيها الهدى لمن اهتدى ، وفيها النور لمن فتح عينيه النور . . وفى هذا يقول اللّه تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » (7 : الأنعام) . ويقول سبحانه : « وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » (15 : الحجر) . .

فهذه آيات محسوسة ، لو طلعت عليهم ورأوها رأى العين ، لأعرضوا عنها ، وكذبوا بها ، وقالوا سحر مستمر .

قوله تعالى : « وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ » .

الواو الحال ، والجملة بعدها حال من الفاعل فى قوله تعالى « وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا » .

أي أنهم يقفون هذا الموقف من آيات اللّه إذا تليت عليهم ، والحال أنهم قد كذبوا بها من قبل واتبعوا أهواءهم . . فهذا الذي هم فيه حالا أو مستقبلا مع آيات اللّه ، ليس جديدا عليهم

، بل هو داء يعيش معهم إلى أن يجىء أجلهم .

وقوله تعالى : « وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ » .

. تهديد ووعيد لهؤلاء المشركين ، وأن هذا الذي هم فيه من كفر وضلال ، له نهاية ينتهى إليها ، وقرار يستقر عنده . .

وليس لما هم فيه من نهاية ، إلا العذاب الأليم فى نار جهنم ، وليس لأمرهم هذا من مستقر ، إلّا سواء الجحيم . . وهذا مثل قوله تعالى : « لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ » (67 : الأنعام) .

قوله تعالى : « وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ » .

أي أن هؤلاء المشركين ، قد كذبوا ، واتبعوا أهواءهم ، وقد جاءتهم النذر من بين أيديهم ومن خلفهم ، ولفتتهم آيات اللّه التي يتلوها الرسول عليهم ،

إلى ما أخذ اللّه به الظالمين قبلهم ، الذين كفروا باللّه ، وعصوا رسله . فما انتفع هؤلاء المشركون الضالون بتلك النذر ، ولم يكن لهم منها عبرة واعظة ، أو عظة زاجرة .

قوله تعالى : « حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ » .

« حِكْمَةٌ بالِغَةٌ » بدل من « ما » فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ

» .

. فالذى فيه مزدجر ، هو حكمة بالغة ، يجدها ذوو العقول فى أخبار الماضين ، وما حل بأهل الكفر والضلال منهم .

وقوله تعالى : « فَما تُغْنِ النُّذُرُ » .

. « ما » نافية ، أي لا تغنى النذر ، ولا تنفع عند من هم فى غفلة ساهون . . وهذا مثل قوله تعالى : « وَما تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ » (101 : يونس) . .

فهؤلاء الضالون المعاندون من المشركين ، لا ينتفون بهذه النذر ، ولا يستيقظون من غفلتهم على صوتها المجلجل المدوىّ . .

قوله تعالى : « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ » . .

هو دعوة إلى النبي الكريم أن يدع هؤلاء الضالين ، الذين لا تنفع معهم النذر ، ولا يزيدهم النور إلا عمى وضلالا . . فليدعهم النبي ، حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون . .

وقوله تعالى : « يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ » .

. الداعي ، هو نافخ النفخة الثانية فى الصور ، وهى نفخة البعث . . كما يقول سبحانه :

« وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ » (68 : الزمر) . .

والشيء النكر الذي يدعو إليه الداعي ، هو هذا البلاء الذي يساق إليه أهل الضلال . . « يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ » (13 ، 14 : الطور) . .

وفى قوله تعالى : « شَيْءٍ نُكُرٍ » مع تجهيل هذا الشيء وتنكيره ، ثم وصفه بهذا الوصف الذي يلقى عليه ظلالا كثيفة من السواد - فى هذا إشارة إلى شناعة هذا الشيء ، وما يخفى فى أطوائه من أهوال ، لا يحيط بها وصف . .

والظرف « يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ » متعلق بمحذوف دل عليه سياق النظم ، أي فتول عنهم ، وانتظر ما يحل بهم يوم يدعو الداعي إلى الحساب والجزاء ، وهو يوم عسير على الكافرين غير يسير . .

قوله تعالى : « خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ » . .

أي فتول عنهم ، وانتظرهم يوم يدعوهم الداعي إلى شيء نكر ، فتراهم وقد خشعت أبصارهم ، ذلة وانكسارا ، كما يقول سبحانه وتعالى :

« وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ » (45 : الشورى) . .

فقوله تعالى « خشعا » حال من مفعول فعل محذوف ، وتقديره تراهم . .

وقوله تعالى : « يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ » حال

(76/736)

أخرى من المفعول به الفعل المحذوف ، أي تراهم خشعا أبصارهم ، وتراهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . .

والأجداث : جمع جدث ، وهو القبر الذي يلحد فيه الميت . .

وقد أشرنا من قبل إلى دلالة هذا التشبيه ، الذي شبّه به الموتى فى خروجهم من أجداثهم يوم البعث « 1 » . .

قوله تعالى : « مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ » . .

هو حال ثالثة من أحوال الناس يوم البعث ، أي تراهم فى هذا اليوم مهطعين إلى الداعي ، أي مسرعين إليه ، مستجيبين لدعوته ، منقادين لأمره . . وهو أمر اللّه ، الذي به يبعث الموتى من القبور : كما يقول سبحانه .

« ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ » وقوله تعالى : « يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ » مقولة من مقولات الكافرين حين يلقاهم هذا اليوم . . إذ ما أكثر مقولات الندم

والحسرة ، التي يتنادون بها فى هذا اليوم . . « يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ » . . « يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا » . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 14 صـ 626. 638 ﴾

(77/736)

وقال ابن عاشور :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) ﴾

من عادة القرآن أن ينتهز الفرصة لإعادة الموعظة والتذكير حين يتضاءل تعلق النفوس بالدنيا ، وتُفكّر فيما بعد الموت وتُعير آذانها لداعي الهدى .

فتتهيأ لقبول الحق في مظانّ ذلك على تفاوت في استعدادها وكم كان مثل هذا الانتهاز سبباً في إيمان قلوب قاسية ، فإذا أظهر الله الآيات على يد رسوله صلى الله عليه وسلم لتأييد صدقه شفع ذلك بإعادة التذكير كما قال تعالى : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ [الإسراء : 59] .

وجمهورُ المفسرين على أن هذه الآية نزلت شاهدة على المشركين بظهور آية كبرى ومعجزة من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وهي معجزة انشقاق القمر .

ففي "صحيح البخاري" و "جامع الترمذي" عن أنس بن مالك قال : "سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر" .

زاد الترمذي عنه "فانشق القمر بمكة فِرقتين ، فنزلت : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ إلى قوله : ﴿ سحر مستمر ﴾ [القمر : 2] .

وفي رواية الترمذي عن ابن مسعود قال : "بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنَى فانشق القمر .

وظاهره أن ذلك في موسم الحج .

وفي "سيرة الحلبي" كان ذلك ليلة أربع عشرة (أي في آخر ليالي منى ليلة النفْر) .

وفيها "اجتمع المشركون بمنى وفيهم الوليد بن المغيرة ، وأبو جهل ، والعاصي بن وائل ، والعاصي بن هشام ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن عبد المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والنضر بن الحارث فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم إن كنتَ صادقاً فشُقّ لنا القمر فرقتين فانشق القمر" .

والعمدة في هذا التأويل على حديث عبد الله بن مسعود في "الصحيح" قال : " انشق القمر ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم بِمنى فانشق فرقتين فرقةً فوق الجَبل وفرقة دونه فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا اشهَدوا " .

زاد في رواية الترمذي عنه "يعني ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ .

قلت : وعن ابن عباس نصفٌ على أبي قُبيس ونصفٌ على قُعَيْقِعَان .

وروي مثله عن علي بن أبي طالب وابن عباس وابن عمر وحذيفةَ بن اليمان وأنس بن مالك وجبير بن مطعم ، وهؤلاء لم يشهدوا انشقاق القمر لأن من عدا علياً وابن عباس وابنَ عمر لم يكونوا بمكة ولم يسلموا إلا بعد الهجرة ولكنهم ما تكلموا إلا عن يقين .

وكثرة رواة هذا الخبر تدل على أنه كان خبراً مستفيضاً .

وقال في "شرح المواقف" : هو متواتر .

وفي عبارته تسامح لعدم توفر شرط التواتر .

ومراده : أنه مستفيض .

وظاهر بعض الروايات لحديث ابن مسعود عند الترمذي أن الآية نزلت قبل حصول انشقاق القمر الواقع بمكة لمّا سأل المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم آية أو سألوه انشقاق القمر فأراهم انشقاق القمر وإنما هو انشقاق يحصل عند حلول الساعة .

وروي هذا عن الحسن وعطاء وهو المعبر عنه بالخسوف في سورة القيامة (7 ، 8) ﴿ فإذا برق البصر وخسف القمر ﴾ الآية .

وهذا لا ينافي وقوع انشقاق القمر الذي سأله المشركون ولكنه غير المراد في هذه الآية لكنه

مؤوّل بما في روايته عند غير الترمذي .

ولحديث أنس بن مالك أن الآية نزلت بعد انشقاق القمر .

وعلى جميع تلك الروايات فانشقاق القمر الذي هو معجزة حصل في الدنيا .

وفي البخاري عن ابن مسعود أنه قال : "خمس قد مضين اللزام والروم والبطشة والقَمر والدخان .

وعن الحسن وعطاء أن انشقاق القمر يكون عند القيامة واختاره القشيري ، وروي عن البلخي .

وقال الماوردي : هو قول الجمهور ، ولا يعرف ذلك للجمهور .

وخبر انشقاق القمر معدود في مباحث المعجزات من كتب "السيرة" و"دلائل النبوة" .

وليس لفظ هذه الآية صريحاً في وقوعه ولكن ظاهر الآية يقتضيه كما في "الشفاء" .

(79/736)

فإن كان نزول هذه الآية واقعاً بعد حصول الانشقاق كما اقتضاه حديث ابن مسعود في "جامع الترمذي" فتصدير السورة بـ ﴿ اقتربت الساعة ﴾ للاهتمام بالموعظة كما قدمناه آنفاً إذ قد تقرر المقصود من تصديق المعجزة .

فجعلت تلك المعجزة وسيلة للتذكير باقتراب الساعة على طريقة الإِدماج بمناسبة أن القمر كائن من الكائنات السماوية ذات النظام المساير لنظام الجو الأرضي فلما حدث تغير في نظامه لم يكن مألوفاً ناسب تنبيه الناس للاعتبار بإمكان اضمحلال هذا العالم ، وكان فعل الماضي مستعملاً في حقيقته .

وروي أن حذيفة بن اليمان قرأ ﴿ وقد انشق القمر ﴾ .

وإن كان نزولها قبل حصول الانشقاق كما اقتضاه حديث أنس بن مالك فهو إنذار باقتراب الساعة وانشقاق القمر الذي هو من أشراط الساعة ومع الإِيماء إلى أن الانشقاق سيكون معجزة لما يسأله المشركون .

ويرجح هذا المحمل قوله تعالى عقبه : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ [القمر : 2] كما سيأتي هنالك .

وإذ قد حمل معظم السلف من المفسرين ومن خلفهم هذه الآية على أن انشقاق القمر حصل قبل نزولها أو بقرب نزولها فبنا أن نبين إمكان حصول هذا الانشقاق مسايرين للاحتمالات الناشئة عن روايات الخبر عن الانشقاق إبطالاً لجحد الملحدين ، وتقريباً لفهم المصدقين .

فيجوز أن يكون قد حدث خسف عظيم في كرة القمر أحدث في وجهه هوة لاحت للناظرين في صورة شقه إلى نصفين بينهما سواد حتى يخيل أنه منشق إلى قمرين ، فالتعبير

عنه بالانشقاق مطابق للواقع لأن الهوة انشقاق وموافق لمرأى الناس لأنهم رأوه كأنه مشقوق .

ويجوز أن يكون قد حصل في الأفق بين سمت القمر وسمت الشمس مرور جسم سماوي من نحو بعض المذنبات حجب ضوء الشمس عن وجه القمر بمقدار ظل ذلك الجسم على نحو ما يسمى بالخسوف الجُزئيّ ، وليس في لفظ أحاديث أنس بن مالك عند مسلم والترمذي ، وابن مسعود وابن عباس عند البخاري ما يناكد هذا .

(80/736)

ومن الممكن أن يكون هذا الانشقاق حدثاً مركباً من خسوف نصفي في القمر على عادة الخسوف فحجب نصف القمر ، والقمر على سمت أحد الجبلين وقد حصل في الجو ساعتئذٍ سحاب مائي انعكس في بريق مائه صورة القمر مخسُوفاً بحيث يخاله الناظر نصفاً آخر من القمر دون كسوف طالعاً على جهة ذلك الجبل ، وهذا من غرائب حوادث الجوّ .

وقد عُرفت حوادث من هذا القبيل بالنسبة لأشعة الشمس ، ويجوز أن يحدث مثلها بالنسبة لضوء القمر على أنه نادر جداً وقد ذكرنا ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم ﴾ في سورة الأعراف (171) .

ويؤيد هذا ما أخرجه الطبراني وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : كسف القمر على عهد رسول الله فقالوا : سحر القمر فنزلت اقتربت الساعة ﴿ الآية فسماه ابن عباس كسوفاً تقريباً لنوعه .

وهذا الوجه لا ينافي كون الانشقاق معجزة لأن حصوله في وقت سؤالهم من النبي صلى الله عليه وسلم آيةً وإلهام الله إياهم أن يسألوا ذلك في حين تقدير الله كاف في كونه آيةً صدق . أو لأن الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن يتحدّاهم به قبلَ حصوله دليل على أنه مرسل من الله إذ لا قبل للرسول صلى الله عليه وسلم بمعرفة أوقات ظواهر التغيرات للكواكب .

وبهذا الوجه يظهر اختصاص ظهور ذلك بمكة دون غيرها من العالم ، وإما على الوجه الأول فإنما لم يَشعُر به غيرُ أهل مكة من أهل الأرض لأنهم لم يكونوا متأهبين إليه إذ كان ذلك ليلاً وهو وقت غفلة أو نوم ولأن القمر ليس ظهوره في حد واحد لأهل الأرض فإن مواقيت طلوعه تختلف باختلاف البلدان في ساعات الليل والنهار وفي مسامتة السماء .

قال ابن كيسان : هو على التقديم والتأخير .

وتقديره : انشق القمر واقتربت الساعة ، أي لأن الأصل في ترتيب الأخبار أن يجري على ترتيبها في الوقوع وإن كان العطف بالواو لا يقتضي ترتيباً في الوقوع .

﴿ وانشق ﴾ مطاوع شقه ، والشق : فرج وتفرّق بين أديم جسم مَّا بحيث لا تنفصل قطعة مجموع ذلك الجسم عن البقية ، ويُسمى أيضاً تصدعاً كما يقع في عُود أو جدار .

فإطلاق الانشقاق على حدوث هوة في سطح القمر إطلاق حقيقي وإطلاقه على انطماس بعض ضوئه استعارة ، وإطلاقه على تفرقة نصفين مجاز مرسل .

والاقتراب أصله صيغة مطاوعة ، أي قبول فعل الفاعل ، وهو هنا للمبالغة في القرب فإن حمل على حقيقة القرب فهو قرب اعتباري ، أي قرب حلول الساعة فيما يأتي من الزمان قرباً نسبياً بالنسبة لما مضى من الزمان ابتداء من خلق السماء والأرض على نحو قول النبي صلى الله عليه وسلم

" بعثت أنا والساعةَ كهاتين " وأشار بسبابته والوسطى فإن تحديد المدة من وقت خلق العالم أو من وقت خلق الإِنسان أمر لا قبل للناس به وما يوجد في كتب اليهود مبنى على الحدس والتوهمات ، قال ابن عطية : "وكل ما يروى من التحديد في عُمر الدنيا فضعيف واهن" أ هـ .

وفائدة هذا الاعتبار أن يقبل الناس على نبذ الشرك وعلى الاستكثار من الأعمال الصالحات واجتناب الآثام لقرب يوم الجزاء .

والساعة : علم بالغلبة على وقت فناء هذا العالم .

ويجوز أن يراد بالساعة ساعة معهودة أنذروا بها في آيات كثيرة وهي ساعة استئصال المشركين بسيوف المسلمين .

وإن حمل القرب على المجاز ، أي الدلالة على الإمكان ، فالمعنى : اتضح للناس ما كانوا يجدونه محالاً من فناء العالم فإن لحصول المُثُل والنظائر إقناعاً بإمكان أمثالها التي هي أقوى منها .

وعطفُ ﴿ وانشق القمر ﴾ عطفُ جملة على جملة .

(82/736)

والخبر مستعمل في لازم معناه وهو الموعظة إن كانت الآية نزلت بعد انشقاق القمر كما تقدم لأن علمهم بذلك حاصل فليسوا بحاجة إلى إفادتهم حكم هذا الخبر وإنما هم بحاجة إلى التذكير بأن من أمارات حلول الساعة أن يقع خسف في القمر بما تكررت موعظتهم به كقوله تعالى : ﴿ فإذا برق البصر وخسف القمر ﴾ [القيامة : 7 ، 8] الآية إذ ما يأمنهم أن يكون ما وقع من انشقاق القمر أمارة على اقتراب الساعة فما الانشقاق إلا نوع من الخسف فإن أشراط الساعة وعلاماتها غير محدودة الأزمنة في القرب والبعد من مشروطها .

وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2)

يجوز أن يكون تذييلاً للإِخبار بانشقاق القمر فيكون المراد بـ ﴿ آية ﴾ في قوله : ﴿ وإن يروا آية ﴾ القمرَ .

فقد جاء في بعض الآثار : أن المشركين لما رأوا انشقاق القمر قالوا : "هذا سحر محمد بن أبي كبشة" وفي رواية قالوا : "قد سَحَر محمد القمر" ، ويجوز أن يكون كلاماً مستأنفاً من ذكر أحوال تكذيبهم ومكابرتهم وعلى كلا الوجهين فإن وقوع ﴿ آية ﴾ ، وهو نكرة في سياق الشرط يفيد العموم .

وجيء بهذا الخبر في صورة الشرط للدلالة على أن هذا ديدنهم ودأبهم .

وضمير ﴿ يروا ﴾ عائد إلى غير مذكور في الكلام دال عليه المقام وهم المشركون ، كما جاء في مواضع كثيرة من القرآن ، مع أن قصة انشقاق القمر وطعنهم فيها مشهور يومئذٍ معروفة أصحابه ، فهم مستمرون عليه كلما رأوا آية على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم

ووصف ﴿ مستمر ﴾ يجوز أن يكون مشتقاً من فعل مَرّ الذي هو مجاز في الزوال والسين والتاء للتقوية في الفعل ، أي لا يبقى القمر منشقاً .

ويجوز أن يكون مشتقاً من المِرة بكسر الميم ، أي القوة ، والسين والتاء للطلب ، أي طلب لفعله مِرّة ، أي قوة ، أي تمكناً .

والمعنى : هذا سحر معروف متكرر ، أي معهود منه مثله .

﴿ وَكَذَّبُواْ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ .

(83/736)

هذا إخبار عن حالهم فيما مضى بعد أن أخبر عن حالهم في المستقبل بالشرط الذي في قوله : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ﴾ [القمر : 2] .

ومقابلة ذلك بهذا فيه شبه احتباك كأنه قيل : وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا : سحر ، وقد رأوا الآيات وأعرضوا وقالوا : سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهوائهم وسيكذبون ويتبعون أهواءهم .

وعَطْف ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ عطفُ العلة على المعلول لأن تكذيبهم لا دافع لهم إليه إلا اتباعُ ما تهواه أنفسهم من بقاء حالهم على ما ألفوه وعهدوه واشتهر دوامه .

وجمع الأهواء دون أن يقول واتبعوا الهوى كما قال : ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ [الأنعام : 116] ، حيث إن الهوى اسم جنس يصدق بالواحد والمتعدد ، فعدل عن الإِفراد إلى الجمع لمزاوجة ضمير الجمع المضاف إليه ، وللإِشارة إلى أن لهم أصنافاً متعددة من الأهواء : من حب الرئاسة ، ومن حسد المؤمنين على ما آتاهم الله ، ومن حب اتباع ملة آبائهم ،

ومن محبة أصنامهم ، وإلفٍ لعوائدهم ، وحفاظ على أنفتهم .

﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرّ ﴾ .

هذا تذييل للكلام السابق من قوله : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ﴾ إلى قوله : ﴿ أهواءهم ﴾ [القمر : 2 ، 3] ، فهو اعتراض بين جملة ﴿ وكذبوا ﴾ وجملة ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ﴾ [القمر : 4] ، والواو اعتراضية وهو جار مجرى المثل .

و ﴿ كل ﴾ من أسماء العموم .

وأمر : اسم يدل على جنس عالٍ ومثله شيء ، وموجود ، وكائن ، ويتخصص بالوصف كقوله تعالى : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ﴾ [النساء : 83] وقد يتخصص بالعقل أو العادة كما تخصّص شيء في قوله تعالى عن ريح عَاد ﴿ تدمّر كل شيء ﴾ [الأحقاف : 25] أي من الأشياء القابلة للتدمير .

(84/736)

وهو هنا يعم الأمور ذوات التأثير ، أي تتحقق آثار مواهِيها وتظهر خصائصها ولو اعترضتها عوارض تعطل حصول آثارها حيناً كعوارضَ مانعة من ظهور خصائصها ، أو مدافعات يراد منها إزالة نتائجها فإن المؤثرات لا تلبث أن تتغلب على تلك الموانع والمدافعات في

فُرصصِ تَمكنها من ظهور الآثار والخصائص .

والكلام تمثيل شبهت حالة تردد آثار الماهية بين ظهور وخفاء إلى إبان التمكن من ظهور آثارها بحالة سير السائر إلى المكان المطلوب في مختِلف الطرق بين بُعد وقرب إلى أن يستقر في المكان المطلوب .

وهي تمثيلية مكنية لأن التركيب الذي يدل على الحالة المشبه بها حُذِف ورمز إليه بذكر شيء من روادف معناه وهو وصف مستقر .

ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون ﴾ [الأنعام : 67] وقد أخذه الكميّت بن زيد في قوله:

فالآن صِرت إلى أمي

ةَ والأمورُ إلى مصائر

فالمراد بالاستقرار الذي في قوله : ﴿ مستقر ﴾ الاستقرار في الدنيا .

وفي هذا تعريض بالإِيماء إيماء إلى أن أمر دعوة محمد صلى الله عليه وسلم سيرسخ ويستقر بعد تقلقله .

ومستقِر : بكسر القاف اسم فاعل من استقر ، أي قَرّ ، والسين والتاء للمبالغة مثل السين والتاء في استجاب .

وقرأ الجمهور برفع الراء من ﴿ مستقر ﴾ .

وقرأه أبو جعفر بخفض الراء على جعل ﴿ كل أمر ﴾ عطفاً على ﴿ الساعة ﴾ [القمر : 1] .

والتقدير : واقترب كل أمر .

وجَعل ﴿ مستقر ﴾ صِفة ﴿ أمر ﴾ .

والمعنى : أن إعراضهم عن الآيات وافتراءهم عليها بأنها سحر ونحوه وتكذيبهم الصادق وتمالؤهم على ذلك لا يوهن وقعها في النفوس ولا يعوق إنتاجها .

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم صائر إلى مصير أمثاله الحق من الانتصار والتمام واقتناع الناس به وتزايد أتباعه ، وأن اتباعهم أهواءهم واختلاق معاذيرهم صائر إلى مصير أمثاله الباطلة من الانخذال والافتضاح وانتقاص الأَتباع .

(85/736)

وقد تضمن هذا التذييل بإجماله تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم وتهديداً للمشركين واستدعاء لنظر المترددين .

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4)

عطف على جملة ﴿ وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾ [القمر : 3] أي جاءهم في القرآن من

أنباء الأمم ما فيه مزدجر لهؤلاء ، أو أريد بالأنباء الحجج الواردة في القرآن ، أي جاءهم ما هو أشد في الحجة من انشقاق القمر .

و﴿ من الأنباء ﴾ بيان ما فيه مزدجر قدم على المبين و ﴿ من ﴾ بيانية .

والمُزدجر : مصدر ميمي ، وهو مصاغ بصيغة اسم المفعول الذي فعله زائد على ثلاثة أحرف .

ازدجره بمعنى زجره ، ومادة الافتعال فيه للمبالغة .

والدال بدل من تاء الافتعال التي تبدل بعد الزاي إلاّ مثل ازْداد ، أي ما فيه مانع لهم من ارتكاب ما ارتكبوه .

والمعنى : ما هو زاجر لهم فجعل الازدجار مظروفاً فيه مجازاً للمبالغة في ملازمته له على طريقة التجريد كقوله تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ [الأحزاب : 21] أي هو أسوة .

و﴿ حكمة بالغة ﴾ بدل من ﴿ مَا ﴾ ، أي جاءهم حكمةٌ بالغة .

والحكمة : إتقان الفهم وإصابة العقل .

والمراد هنا الكلام الذي تضمن الحكمة ويفيد سامعه حكمة ، فوصْفُ الكلام بالحكمة مجاز عقلي كثير الاستعمال ، وتقدم في سورة البقرة (269) ، ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ والبالغة : الواصلة ، أي واصلة إلى المقصود مفيدة لصاحبها .

وفرع عليه قوله : ﴿ فما تغن النذر ﴾ ، أي جاءهم ما فيه مزدجر فلم يُغن ذلك ، أي لم يحصل فيه الإقلاع عن ضلالهم .

و ﴿ ما ﴾ تحتمل النفي ، أي لا تغني عنهم النذر بعد ذلك .

(86/736)

وهذا تمهيد لقوله : ﴿ فتول عنهم ﴾ [القمر : 6] ، فالمضارع للحال والاستقبال ، أي ما هي مغنية ، ويفيد بالفحوى أن تلك الأنباء لم تغن عنهم فيما مضى بطريق الأحرى ، لأنه إذا كان ما جاءهم من الأنباء لا يغني عنهم من الانزجار شيئاً في الحال والاستقبال فهو لم يغن عنهم فيما مضى إذ لو أغنى عنهم لارتفع اللوم عليهم .

ويحتمل أن تكون ﴿ مَا ﴾ استفهامية للإنكار ، أي ماذا تفيد النذر في أمثالهم المكابرين المصرين ، أي لا غناء لهم في تلك الأنباء ، ف ﴿ ما ﴾ على هذا في محل نصب على المفعول المطلق ل ﴿ تغن ﴾ ، وحذف ما أضيفت إليه ﴿ ما ﴾ .

والتقدير : فأي غناء تغني النذر وهو المخبر بما يسوء ، فإن الأنباء تتضمن إرسال الرسل من الله منذرين لقومهم فما أغنوهم ولم ينتفعوا بهم ولأن الأنباء فيها الموعظة والتحذير من مثل صنيعهم فيكون المراد بـ ﴿ النذر ﴾ آيات القرآن ، جعلت كل آية كالنذير : وجمعت

على نُذُر ، ويجوز أن يكون جمع نذير بمعنى الإِنذار اسم مصدر ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ في آخر سورة النجم (56) .

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (6)

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ .

تفريع على ﴿ فما تغن النذر ﴾ [القمر : 5] ، أي أعرِضْ عن مجادلتهم فإنهم لا تفيدهم النذر كقوله : ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ﴾ [النجم : 29] ، أي أنك قد بلّغت فما أنت بمسؤول عن استجابتهم كما قال تعالى : ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ [الذاريات : 54] .

وهذا تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم وتطمين له بأنه ما قَصر في أداء الرسالة .

ولا تعلّق لهذه الآية بأحكام قتالهم إذ لم يكن السياق له ولا حدثت دواعيه يومئذٍ فلا وجه للقول بأنها منسوخة .

(87/736)

﴿ يَوْمَ يَدْعُو الداع إلى شَىْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعاً أبصارهم يَخْرُجُونَ مِنَ الاجداث كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع يَقُولُ الكافرون هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ .

استئناف بياني لأن الأمر بالتولّي مؤذن بغضب ووعيد فمن شأنه أن يثير في نفس السامع تساؤلاً عن مجمل هذا الوعيد .

وهذا الاستئناف وقع معترضاً بين جملة ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ﴾ [القمر : 4] وجملة ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ [القمر : 9] .

وإذ قد كان المتوعد به شيئاً يحصل يوم القيامة قدم الظرف على عامله وهو ﴿ يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ ليحصل بتقديمه إجمال يفصّله بعض التفصيل ما يُذكر بعده ، فإذا سمع السامع هذا الظرف علم أنه ظرف لأهوال تذكر بعده هي تفصيل ما أجمله قوله : ﴿ فتول عنهم ﴾ من الوعيد بحيث لا يحسن وقع شيء مما في هذه الجملة هذا الموقع غير هذا الظرف ، ولولا تقديمه لجاء الكلام غير موثوق العرى ، وانظر كيف جمع فيما بعد قوله : ﴿ يوم يدع الداع ﴾ كثيراً من الأهوال آخذٌ بعضها بحجز بعض بحسن اتصال ينقل كل منها ذهن السامع إلى الذي بعده من غير شعور بأنه يُعدّد له أشياءَ .

وقد عُدّ سبعة من مظاهر الأهوال:

أولها : دعاء الداعي فإنه مؤذن بأنهم محضرون إلى الحساب ، لأن مفعول ﴿ يدع ﴾ محذوف بتقدير : يدعوهم الداعي لدلالة ضمير ﴿ عنهم ﴾ على تقدير المحذوف .

الثاني : أنه يدعو إلى شيء عظيم لأن ما في لفظ ﴿ شيء ﴾ من الإِبهام يُشعر بأنه مهول ، وما في تنكيره من التعظيم يجسم ذلك الهول .

وثالثها : وصف شيء بأنه ﴿ نكر ﴾ ، أي موصوف بأنه تنكره النفوس وتكرهه .

والنكُر بضمتين : صفة ، وهذا الوزن قليل في الصفات ، ومنه قولهم : روضة أُنُف ، أي جديدة لم ترعها الماشية ، ورجل شُلُل ، أي خفيف سريع في الحاجات ، ورجل سُجُح بجيم قبل الحاء ، أي سمح ، وناقة أُجُد : قوية موثقة فَقار الظهر ، ويجوز إسكان عين الكلمة فيها للتخفيف وبه قرأ ابن كثير هنا .

(88/736)

ورابعها : ﴿ خشعاً أبصارهم ﴾ أي ذليلة ينظرون من طرف خفي لا تثبت أحداقهم في وجُوه الناس ، وهي نظرة الخائف المفتضح وهو كناية لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تَظهران في عيونهما .

وخامسها : تشبيههم بالجراد المنتشر في الاكتظاظ واستتار بعضهم ببعض من شدة الخوف زيادة على ما يفيده التشبيه من الكثرة والتحرك .

وسادسها : وصفهم بمهطعين ، والمُهطع : الماشي سريعاً مادًّا عنقه ، وهي مشيئة مذعور غير ملتف إلى شيء ، يقال : هطع وأهطع .

وسابعها : قولهم : ﴿ هذا يوم عسر ﴾ وهو قولٌ من أثر ما في نفوسهم من خوف .

و﴿ عسر ﴾ : صفة مشبهة من العُسر وهو الشدة والصعوبة .

ووصف اليوم بـ ﴿ عسر ﴾ وصف مجازي عقلي باعتبار كونه زماناً لأمور عسرة شديدة من شدة الحساب وانتظار العذاب .

وأبهم ﴿ شيء نكر ﴾ للتهويل ، وذلك هو أهوال الحساب وإهانة الدفع ومشاهدة ما أُعد لهم من العذاب .

وانتصب ﴿ خشعاً أبصارهم ﴾ على الحال من الضمير المقدر في ﴿ يدع الداع ﴾ وإمّا من ضمير ﴿ يخرجون ﴾ مقدماً على صاحبه .

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ﴿ خشعاً ﴾ بصيغة جمع خاشع .

وقرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف ﴿ خَاشِعاً ﴾ بصيغة اسم الفاعل .

قال الزجاج : "لك في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيدُ والتذكيرُ نحو خاشعاً أبصارُهم .

ولك التوحيد والتأنيث نحو قراءة ابن مسعود ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ ولك الجمع نحو ﴿ خشعاً أبصارهم ﴾ أهـ .

و﴿ أبصارهم ﴾ فاعل ﴿ خشعاً ﴾ ولا ضير في كون الوصف الرافع للفاعل على صيغة الجمع لأن المحْظور هو لحاق علامة الجمع والتثنية للفعل إذا كان فاعله الظاهر جمعاً أو مثنى ، وليس الوصف كذلك ، كما نبه عليه الرضِيُّ على أنه إذا كان الوصف جمعاً

مكسَّراً ، وكان جارياً على موصوف هو جمع ، فرفع الاسم الظاهر الوصف المجموع أولى من رفعه بالوصف المجموع المفرد على ما اختاره المبرد وابن مالك كقول امرىء القيس:

(89/736)

وقوفاً بها صحبي على مطيّهم . . .

وشاهد هذا القراء .

وقوله : ﴿ يقول الكافرون ﴾ إظهار في مقام الإِضمار لوصفهم بهذا الوصف الذميم وفيه تفسير الضمائر السابقة .

والأجداثُ : جمع جَدث وهو القبر ، وقد جعل الله خروج الناس إلى الحشر من مواضع دفنهم في الأرض ، كما قال : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ [طه : 55] فيعاد خلق كل ذات من التراب الذي فيه بقية من أجزاء الجسم وهي ذرات يعلمها الله تعالى .

والجراد : اسم جمع واحدُهُ جرادة وهي حشرة ذات أجنحة أربعة مطوية على جنبيها وأرجل أربعة ، أصفر اللون .

والمنتشر : المنبثّ على وجه الأرض .

والمراد هنا : الدَّبَى وهو فراخ الجراد قبل أن تظهر له الأجنحة لأنه يخرج من ثُقبٍ في الأرض هي مَبيضاتُ أصوله فإذا تم خلقه خرج من الأرض يزحف بعضه فوق بعض قال تعالى : ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ [القارعة : 4] .

وهذا التشبيه تمثيلي لأنه تشبيه هيئة خروج الناس من القبور متراكمين بهيئة خروج الجراد متعاظلاً يسير غير ساكن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(90/736)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) ﴾

أخرج النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة القمر بمكة .

وأخرج ابن الضريس وابن مردوية والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت بمكة سورة ﴿ اقتربت الساعة ﴾ .

وأخرج ابن مردوية عن ابن الزبير مثله .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان عن ابن عباس قال : قارىء اقتربت تدعى في التوراة

المبيضة تبيض وجه صاحبها يوم تبيضّ الوجوه قال البيهقي : منكر .

وأخرج الديلمي عن عائشة مرفوعاً من قرأ ب (الم تنزيل) و (يس) و ﴿ اقتربت الساعة ﴾ و ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ كن له نوراً وحرزاً من الشيطان والشرك ، ورفع له في الدرجات يوم القيامة .

وأخرج ابن الضريس عن إسحق بن عبد الله بن أبي فروة رفعه من قرأ ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ في كل ليلتين بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر .

وأخرج ابن الضريس عن ليث عن معن عن شيخ من همدان رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ ﴿ اقتربت الساعة ﴾ غبا ليلة وليلة حتى يموت لقي الله تعالى ووجهه كالقمر ليلة البدر " .

وأخرج أحمد عن بريدة أن معاذاً بن جبل صلى بأصحابه صلاة العشاء فقرأ فيها ﴿ اقتربت الساعة ﴾ فقام رجل من قبل أن يفرغ فصلى وذهب ، فقال له معاذ قولاً شديداً فأتى الرجل النبي صلى الله عليه وسلم فاعتذر إليه فقال : إني كنت أعمل في نخل وخفت على الماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلي بالشمس وضحاها ونحوها من السور " .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر والترمذي وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أنس قال : سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم آية

فانشق القمر بمكة فرقتين فنزلت ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ إلى قوله ﴿ سحر مستمر ﴾ أي ذاهب .

(91/736)

وأخرج البخاري ومسلم وابن جرير عن أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما .

وأخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طريق مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود قال : رأيت القمر منشقّاً شقتين بمكة قبل أن يخرج النبي صلى الله عليه وسلم شقة على أبي قبيس وشقة على السويداء ، فقالوا : سحر القمر ، فنزلت ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ قال مجاهد : يقول كما رأيتم القمر منشقاً فإن الذي أخبركم عن ﴿ اقتربت الساعة ﴾ حق .

وأخرج عبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن مردويه من طريق أبي معمر " عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين ، فرقة فوق الجبل وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اشهدوا " " .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم في

الدلائل من طريق الأسود عن عبد الله قال : رأيت القمر على الجبل وقد انشق فأبصرت الجبل من بين فرجتي القمر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق مسروق عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة ، فقالوا : انتظروا ما يأتيكم به السفار فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم ، فجاء السفار فسألوهم فقالوا : نعم قد رأيناه فأنزل الله ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ .

وأخرج البخاري ومسلم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : انشق القمر في زمان النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل من طريق علقمة عن ابن مسعود قال : "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بمنى فانشق القمر حتى صار فرقتين ، فتوارت فرقة خلف الجبل فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اشهدوا " " .

(92/736)

وأخرج مسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والحاكم والبيهقي وأبو نعيم في الدلائل من طريق مجاهد " عن ابن عمر في قوله ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ قال : كان ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم انشق فرقتين فرقة من دون الجبل وفرقة خلفه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اللهم اشهد " " .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير والحاكم وأبو نعيم والبيهقي عن جبير بن مطعم في قوله ﴿ وانشق القمر ﴾ قال : انشق القمر ونحن بمكة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صار فرقتين ، فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، فقال الناس : سحرنا محمد ، فقال رجل : إن كان سحركم فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس في قوله ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ قال : قد مضى ذلك قبل الهجرة انشق القمر حتى رأوا شقيه .

وأخرج الطبراني وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : كسف القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : سحر القمر ، فنزلت ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ إلى قوله ﴿ مستمر ﴾ .

وأخرج أبو نعيم في الحلية من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس في قوله ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ قال : " اجتمع المشركون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاصي بن وائل والعاصي بن هشام والأسود بن عبد يغوث والأسود بن المطلب وزمعة بن الأسود والنضر بن الحرث ، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قعيقعان ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : " إن فعلت تؤمنوا ؟ قالوا : نعم ، وكانت ليلة بدر فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه أن يعطيه ما سألوا فأمسى القمر قد مثل نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قعيقعان ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي يا أبا سلمة ، بن عبد الأسد والأرقم بن أبي الأرقم اشهدوا " " .

وأخرج أبو نعيم من طريق عطاء عن ابن عباس قال : انتهى أهل مكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : هل من آية نعرف بها أنك رسول الله ؟ فهبط جبريل ، فقال : يا محمد قل : يا أهل مكة إن تختلفوا هذه الليلة فسترون آية فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقالة جبريل ، فخرجوا ليلة أربع عشرة ، فانشق القمر نصفين نصفاً على الصفا ونصفاً على المروة ، فنظروا ثم مالوا بأبصارهم فمسحوها ثم أعادوا النظر فنظروا ، ثم مسحوا أعينهم ، ثم نظروا ، فقالوا : يا محمد ما هذا إلا سحر ذاهب ، فأنزل الله ﴿ اقتربت

الساعة وانشق القمر ﴾ .

وأخرج أبو نعيم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال : جاءت أحبار اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أرنا آية حتى نؤمن فسأل النبي صلى الله عليه وسلم ربه أن يريه آية فأراهم القمر قد انشق فصار قمرين أحدهما على الصفا والآخر على المروة قدر ما بين العصر إلى الليل ينظرون إليه ، ثم غاب القمر ، فقالوا : هذا ﴿ سحر مستمر ﴾ .

(94/736)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : خطبنا حذيفة بن اليمان بالمدائن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم الضمار وغداً السباق .

وأخرج ابن المنذر عن حذيفة أنه قرأ [اقتربت الساعة وقد انشق القمر] .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك قال : كان انشقاق القمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل أن يهاجر ، فقالوا : هذا سحر أسحر السحرة فاقلعوا كما فعل المشركون إذا

كسف القمر ضربوا بطساسهم وعما اصفر أحبارهم ، وقالوا : هذا فعل السحر وذلك قوله ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : ثلاث ذكرهن الله في القرآن قد مضين ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ قد انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شقتين حتى رآه الناس ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ [القمر : 45] وقد ﴿ فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد ﴾ [المؤمنون : 77] .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ قال : رأوه منشقاً فقالوا : هذا سحر ذاهب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وكل أمر مستقر ﴾ قال : يوم القيامة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ وكل أمر مستقر ﴾ قال : بأهله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير عن قتادة ﴿ وكل أمر مستقر ﴾ قال : مستقر بأهل الخير الخير وبأهل الشر الشر .

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4)

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ﴾ قال : هذا القرآن مزدجر قال : منتهى .

وأخرج عبد بن حميد عن عمر بن عبد العزيز أنه خطب بالمدينة فتلا هذه الآية ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ﴾ قال : أحل فيه الحلال وحرم فيه الحرام وأنبأكم فيه ما تأتون وما تدعون ، لم يدعكم في لبس من دينكم ، كرامة أكرمكم بها ، ونعمة أتم بها عليكم .

قوله تعالى : ﴿ خشعاً أبصارهم ﴾ .

أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن عباس أنه كان يقرأ [خاشعاً أبصارهم] بالألف .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ خُشَّعاً أبصارهم ﴾ برفع الخاء .

وأخرج ابن جرير عن قتادة [خاشعاً أبصارهم] أي ذليلة أبصارهم ، والله أعلم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ قال : ناظرين .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ مهطعين ﴾ قال : مذعنين خاضعين ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت قول تبع :

تعبدني نمر بن سعد وقد درى . . . ونمر بن سعد لي مدين ومهطع

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ قال : عامدين

إلى الداعي .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في قوله ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ قال : منطلقين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن تميم بن حدلم في قوله ﴿ مهطعين ﴾ قال : الإِهطاع التجميح .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ قال : هو النسلان .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ قال : صائخي أذانهم إلى الصوت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ 669.674 ﴾

(96/736)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(66) اقتربت الساعة وانشق القمر *

القمر: 1

بقلم: زغلول النجار

هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في مطلع سورة القمر , وهي سورة مكية , يدور محورها حول قضية الإيمان بوحي السماء الذي أنزله ربنا (تبارك وتعالي) علي فترة من الرسل , وأتمه وأكمله , وحفظه في الوحي الخاتم المنزل علي الرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) ; ولذلك تحمل السورة علي المكذبين ببعثته الشريفة , وبالآيات التي أيده الله (تعالي) بها , وفي مقدمتها القرآن الكريم , وذلك انطلاقا من غرورهم , وكبرهم , وغطرستهم , وصلفهم , وتتوعدهم الآيات بالشقاء في الدنيا وبالمصير المخزي في الآخرة كما حدث مع الذين كذبوا بالرسالات السابقة .

وتطالب سورة القمر رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بالإعراض عن هؤلاء الكافرين , وإمهالهم إلي يوم البعث العظيم , يوم يخرجون من قبورهم كأنهم جراد منتشر . . . وهو يوم الفزع الأكبر , والهول الأكبر الذي نسأل الله (تعالي) أن يجيرنا من فزعه وأهواله . . . اللهم آمين .

وقد ابتدأت سورة القمر بالتحذير من اقتراب وقت الساعة , ومن الثابت عن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) قوله الشريف : بعثت أنا والساعة هكذا وأشار بإصبعيه السبابة والوسطي .

ثم تابعت السورة بذكر تلك المعجزة الحسية ـ معجزة انشقاق القمر ـ التي أجراها ربنا (تبارك وتعالي) تأييدا لخاتم أنبيائه ورسله في مواجهة تكذيب مشركي قريش لنبوته ولرسالته , وعلي الرغم من وقوع المعجزة ـ التي لم ينكرها أحد منهم ـ فإنهم بدلا من أن يؤمنوا بها اتهموا رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بالسحر , وهم الذين لم يشهدوا عليه كذبا أبدا , وذلك انطلاقا من كبرهم

وعنادهم واتباعهم لأهوائهم , ولم تزجرهم عن ذلك الأنباء , ولم تغنهم النذر . . . ! !

(97/736)

ومن قبيل تذكير هؤلاء الكافرين بمصائرهم استعرضت سورة القمر مصارع المكذبين في عدد من الأمم السابقة ومنهم أقوام نوح , وعاد , وثمود , ولوط , وفرعون , مؤكدة أن كفار قريش لم يكونوا بأقوي ولا بأشد من تلك الأمم السابقة عليهم (والخطاب هنا يشمل المتجبرين من الكفار والمشركين في زماننا , وفي كل زمان من أمثال الصهاينة المجرمين وإبادتهم المستمرة لشعب فلسطين , والأمريكان وأعوانهم من المتجبرين علي شعب أفغانستان وغيره من شعوب العالمين العربي والإسلامي , وكل من الروس , والهندوس , والبوذيين واستباحتهم لأراضي كل من الشيشان , وكشمير , وأراكان , وجنوب الفلبين ,

وغيرهم ممن يستبيح أراضي الصومال , والسودان , وسبتة ومليلية والجزر المحيطة بهما , أو يقوم بمحاصرة العديد من الدول المسلمة مثل العراق , وليبيا , والسودان) .

وفي نهاية كل خبر من أخبار الأمم البائدة تدعو السورة الكريمة كفار قريش ـ كما تدعو الكفار والمشركين في زماننا وفي كل زمان ومكان إلي الاعتبار والتذكر وذلك بقول الحق (تبارك وتعالي) :

ولقد تركناها آية فهل من مدكر ؟

(القمر :15) .

أو بقوله (عز من قائل) : فكيف كان عذابي ونذر (القمر :30,21,16) .

وقد تكررت هذه الآية الكريمة ثلاث مرات في سياق السورة .

وبين كل خبر من أخبار تلك الأمم الهالكة والذي يليه تنبه سورة القمر إلي حقيقة أن القرآن الكريم ميسر لكل من يطلبه , ويطلب العظة والاعتبار منه , ولذلك تكرر في ثنايا هذه السورة المباركة أربع مرات قول الحق (تبارك وتعالي) : ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (القمر

:40,32,22,17) .

وبعد هذا الاستعراض التاريخي المعجز عاودت سورة القمر توجيه الحديث إلي كفار قريش ـ كما توجهه إلي كفار اليوم وإلي كفار كل يوم حتي قيام الساعة ـ محذرة إياهم من

مصير كمصائر المكذبين السابقين أو أشد وأنكي , في الدنيا قبل الآخرة , ومذكرة إياهم بمواقف الذل والمهانة التي سوف يتعرضون لها في الآخرة , وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالي) :

أكفاركم خير من أولائكم أم لكم براءة في الزبر , أم يقولون نحن جميع منتصر , سيهزم الجمع ويولون الدبر , بل الساعة موعدهم والساعة أدهي وأمر , إن المجرمين في ضلال وسعر , يوم يسحبون في النار علي وجوههم ذوقوا مس سقر (القمر :43.48) .

وبعد تأكيد أن الله (تعالي) هو خالق كل شيء بتقدير دقيق , وحكمة بالغة , وأن أمره سبحانه (واحدة كلمح بالبصر) , وأن الاعتبار بهلاك الأمم البائدة من صميم التعقل ومن حسن الاستفادة بدروس التاريخ , وأن كل ما فعلته تلك الأمم , ويفعله غيرهم من الخلق مدون , ومسطر , ومسجل عليهم , وأنهم سوف يواجهون به , ويحاسبون عليه يوم القيامة .

بعد استعراض ذلك كله ختمت سورة القمر ببيان منازل التكريم التي أعدت للمتقين من عباد الله الصالحين والتي ختمها الحق (تبارك وتعالي) بقوله (عز من قائل) :

إن المتقين في جنات ونهر , في مقعد صدق عند مليك مقتدر (القمر :55,54) .

وجوانب الإعجاز في سورة القمر تشمل إثبات حقيقة انشقاق القمر , ومواقف كفار قريش منها , ووصف خروج الناس من قبورهم كأنهم جراد منتشر , وتشمل الإعجاز التاريخي بذكر عدد من الأمم السابقة , وذكر مواقفهم من أنبيائهم ورسلهم , ومن وحي الله (تعالي) إليهم , وذكر ما أصابهم من مختلف صور العذاب جزاء استكبارهم وصلفهم , وإنكار رسالة السماء إليهم , ثم جاءت الكشوف العلمية والأثرية في القرن العشرين مؤكدة صدق كل ما جاء في هذه السورة المباركة , وفي غيرها من سور القرآن الكريم عن تلك الأمم البائدة .

وسوف

يتم التركيز هنا علي قضية انشقاق القمر , وهي معجزة خارقة , لا يكاد العقل البشري أن يتصورها , ولكن من رحمة الله بنا أن

أبقي لنا في صخور القمر من الشواهد الحسية ما يؤكد وقوعها . . . ! ! وأعان الإنسان علي الوصول إلي تلك الشواهد حتي تقوم الحجة البالغة علي الناس في عصر العلم والتقنية

الذي نعيشه بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق , وأن النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه كان موصولا بالوحي , ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض , وقبل الحديث عن معجزة انشقاق القمر لابد من استعراض لأقوال عدد من المفسرين في شرح هذه الآية القرآنية الكريمة .

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله تعالي : اقتربت الساعة وانشق القمر (القمر : 1) . .

* ذكر بن كثير (يرحمه الله) ما نصه : يخبر تعالي عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها , كما قال تعالي :(أتي أمر الله فلا تستعجلوه) , وقال :(اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) , وقد وردت الأحاديث بذلك . . . وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي (صلي الله عليه وسلم) , وأنه كان إحدي المعجزات الباهرات .

* وجاء في تفسير الجلالين (رحم الله كاتبيه برحمته الواسعة) ما نصه :(اقتربت الساعة) قربت القيامة (وانشق القمر) انفلق فلقتين علي جبلي أبي قبيس وقعيقعان , آية له صلي الله عليه وسلم , وقد سئلها [أي : سأله أهل مكة أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر] فقال :(اشهدوا) رواه الشيخان .

* وذكر صاحب الظلال (رحمه الله رحمة واسعة) ما نصه : مطلع باهر مثير , علي

حادث كوني كبير , وإرهاص بحادث أكبر , لا يقاس إليه ذلك الحدث الكوني الكبير :

اقتربت الساعة وانشق القمر فياله من إرهاص ! وياله من خبر , ولقد رأوا الحدث الأول فلم يبق إلا أن ينتظروا الحدث الأكبر ; والروايات عن انشقاق القمر ورؤية العرب له في حالة انشقاقه أخبار متواترة , تتفق كلها في إثبات وقوع الحادث . . . .

(100/736)

وبعد استعراض لعدد من الروايات أضاف صاحب الظلال (يرحمه الله) : فهذه روايات متواترة من طرق شتي عن وقوع هذا الحادث , وتحديد مكانه في مكة - باستثناء رواية لم نذكرها عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه , أنه كان في منى - وتحديد زمانه في عهد النبي (صلي الله عليه وسلم) قبل الهجرة , وتحديد هيئته - في معظم الروايات أنه انشق فلقتين , وفي رواية واحدة أنه كسف (أي خسف) . . فالحادث ثابت من هذه الروايات المتواترة المحددة للمكان والزمان والهيئة .

وهو حادث واجه به القرآن المشركين في حينه , ولم يرو عنهم تكذيب لوقوعه , فلابد أن يكون قد وقع فعلا بصورة يتعذر

معها التكذيب , ولو علي سبيل المراء الذي كانوا يمارونه في الآيات , لو وجدوا منفذا

للتكذيب . وكل ما روي عنهم أنهم قالوا : سحرنا ! ولكنهم هم أنفسهم اختبروا الأمر , فعرفوا أنه ليس بسحر ; فلئن كان قد سحرهم فإنه لا يسحر المسافرين خارج مكة الذين رأوا الحادث وشهدوا به حين سئلوا عنه .

(101/736)

وأضاف (يرحمه الله) : بقيت لنا كلمة في الرواية التي تقول : إن المشركين سألوا النبي (صلي الله عليه وسلم) آية , فانشق القمر . فإن هذه الرواية تصطدم مع مفهوم نص قرآني مدلوله أن الرسول (صلي الله عليه وسلم) لم يرسل بخوارق من نوع الخوارق التي جاءت مع الرسل قبله , لسبب معين : وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون . . . فمفهوم هذه الآية أن حكمة الله اقتضت منع الآيات - أي الخوارق - لما كان من تكذيب الأولين بها . . . فالقول بأن انشقاق القمر كان استجابة لطلب المشركين آية - أي خارقة - يبدو بعيدا عن مفهوم النصوص القرآنية , وعن اتجاه هذه الرسالة الأخيرة إلي مخاطبة القلب البشري بالقرآن وحده , وما فيه من إعجاز ظاهر , ثم توجيه هذا القلب - عن طريق القرآن - إلي آيات الله القائمة في الأنفس والآفاق , وفي أحداث التاريخ سواء . . . فأما ما وقع فعلا للرسول (صلي الله عليه وسلم) من خوارق شهدت بها روايات صحيحة فكان إكراما

من الله لعبده , لا دليلا لإثبات رسالته . . . ومن ثم نثبت الحادث ـ حادث انشقاق القمر ـ بالنص القرآني وبالروايات المتواترة التي تحدد مكان الحادث وزمانه وهيئته , ونتوقف في تعليله الذي ذكرته بعض الروايات , ونكتفي بإشارة القرآن إليه مع الإشارة إلي اقتراب الساعة , باعتبار هذه الإشارة لمسة للقلب البشري ليستيقظ ويستجيب . . . .

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن (رحم الله كاتبه رحمة واسعة) ما نصه :(اقتربت الساعة) قربت القيامة جدا . (وانشق القمر) وانفلق فلقتين معجزة له صلي الله عليه وسلم وهو بمكة قبل الهجرة بنحو خمس سنين , حين سأله أهل مكة أن يريهم آية تدل علي صدقه , فأراهم القمر فلقتين حتي رأوا جبل حراء بينهما , فقال صلي الله عليه وسلم : اشهدوا ! ! وقد رآه كثير من الناس ; والأحاديث الصحيحة في هذه المعجزة كثيرة . وقيل : اقتربت الساعة , فإذا جاءت انشق القمر بعد النفخة الثانية .

(102/736)

---

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزاهم الله خيرا) ما نصه : دنت القيامة وسينشق القمر لا محالة .

* وجاء في صفوة التفاسير (جزي الله كاتبها خيرا) ما نصه : . . . أي دنت القيامة وقد

انشق القمر .

واقعة انشقاق القمر في التراث الإسلامي

رويت واقعة انشقاق القمر عن طريق عدد كبير من صحابة رسول الله (صلي الله عليه وسلم) منهم عبد الله بن مسعود , وعبد الله بن عباس , وعبد الله بن عمر , وأنس بن مالك , وجبير بن مطعم وغيرهم (رضي الله تبارك وتعالي عنا وعنهم أجمعين) .

* فقد روي الإمام البخاري في صحيحه وأخرج الإمام أحمد في مسنده , وروي كل من الإمامين أبي داود والبيهقي عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قوله : انشق القمر علي عهد رسول الله (صلي الله عليه وسلم) فقالت قريش : هذا سحر بن أبي كبشة , قال : فقالوا : انظروا ما يأتيكم به السفار , فإن محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم , قال : فجاء السفار فقالوا ذلك . وفي لفظ انظروا السفار , فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق , وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به , قال : فسئل السفار , قال : وقدموا من كل جهة , فقالوا : رأينا , فأنزل الله عز وجل :(اقتربت الساعة وانشق القمر) . وروي عنه أيضا قوله : انشق القمر علي عهد رسول الله (صلي الله عليه وسلم) فرقتين : فرقة فوق الجبل , وفرقة دونه , فقال رسول الله (صلي الله عليه وسلم) : اشهدوا .

* كذلك روي كل من

الإمامين البخاري وأحمد عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) أنه قال : إن أهل مكة سألوا رسول الله (صلي الله عليه وسلم) أن يريهم آية , فأراهم انشقاق القمر .

(103/736)

---

* وروي الإمام البيهقي , كما أخرج كل من الأئمة البخاري ومسلم والترمذي (جزاهم الله خيرا) عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قوله : . . . وقد كان ذلك علي عهد رسول الله (صلي الله عليه وسلم) , انشق فلقتين , فلقة من دون الجبل , وفلقة من خلف الجبل , فقال النبي (صلي الله عليه وسلم) : اللهم اشهد .

* وروي كل من الإمامين البخاري ومسلم (رحمهما الله) عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) قوله : انشق القمر في زمان النبي (صلي الله عليه وسلم) . كذلك روي ابن جرير عن ابن عباس قوله : . . . قد مضي ذلك , كان قبل الهجرة , انشق القمر حتي رأوا شقيه .

* وروي الإمام أحمد عن جبير بن مطعم (رضي الله عنه) قوله : انشق القمر علي عهد رسول الله (صلي الله عليه وسلم) فصار فرقتين فرقة علي هذا الجبل , وفرقة علي هذا الجبل , فقالوا : سحرنا محمد , وقال غيرهم : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر

الناس كلهم .

* وروي الإمام ليث عن مجاهد (رضي الله عنه) قوله : انشق القمر علي عهد رسول الله (صلي الله عليه وسلم) فصار فرقتين , فقال النبي (صلي الله عليه وسلم) لأبي بكر (رضي الله عنه) : اشهد يا أبا بكر , فقال الكافرون : سحر القمر حتي انشق .

* وفي إحدي المخطوطات الهندية القديمة والمحفوظة في مكتبة المركز الهندي بمدينة لندن (تحت رقم 173.2807/152) ذكر المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ الدكتور محمد حميد الله في كتابه المعنون محمد رسول الله أن أحد ملوك ماليبار (وهي إحدي مقاطعات جنوب غربي الهند) وكان اسمه شاكرواتي فارماس (ChakarawatiFarmas) شاهد انشقاق القمر علي عهد رسول الله (صلي الله عليه وسلم) وأخذ يحدث الناس بذلك .

(104/736)

وحدث أن مر عدد من التجار المسلمين بولاية ماليبار , وهم في طريقهم إلي الصين , وسمعوا حديث الملك شاكرواتي فارماس عن انشقاق القمر فأخبروه أنهم أيضا قد رأوا ذلك ,

وأفهموه أن انشقاق القمر معجزة أجراها ربنا (تبارك وتعالي) تأييدا لخاتم أنبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) في مواجهة تكذيب مشركي قريش لنبوته ولرسالته . فأمر الملك بتنصيب ابنه وولي عهده قائما بأعمال مملكة ماليبار وتوجه إلي الجزيرة العربية لمقابلة المصطفي (صلي الله عليه وسلم) . وبالفعل وصل الملك الماليباري إلي مكة المكرمة وأعلن إسلامه أمام رسول الله (صلي الله عليه وسلم) , وتعلم ركائز الدين الأساسية , وأفل راجعا , ولكن شاءت إرادة الله (تعالي) أن ينتهي أجله قبل مغادرته أرض الجزيرة العربية فمات ودفن في أرض ظفار , وحين وصل الخبر إلي ماليبار كان ذلك حافزا لدخول أهلها الإسلام زرافات ووحدانا .

شاهد من عصرنا علي انشقاق القمر

عقب محاضرة لي عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ألقيت باللغة الإنجليزية في كلية الطب بجامعة كاردف عاصمة مقاطعة ويلز في غربي الجزر البريطانية , دار حوار ممتع مع جمهور الحضور من المسلمين وغير المسلمين , ومن جملة الأسئلة التي أثيرت من أحد الحضور سؤال عن واقعة انشقاق القمر كما جاء ذكرها في مطلع سورة القمر , وهل تمثل لمحة من لمحات الإعجاز العلمي في كتاب الله ؟

وعلي الفور أجبت بأنها معجزة من المعجزات الحسية العديدة التي حدثت تأييدا لرسول الله (صلي الله عليه وسلم) في مواجهة تكذيب كفار قريش لبعثته الشريفة , وأن

المعجزات هي خوارق للسنن والقوانين الحاكمة للكون , فلا يستطيع العلم الكسبي تفسيرها , ولو استطاع تفسيرها ما كانت معجزة .

وأضفت أن المعجزات الحسية التي جاء ذكرها في كتاب الله , أو في سنة رسوله (صلي الله عليه وسلم)

(105/736)

هي حجج علي من شاهدها من الخلق , وبما أننا لم نشاهدها فهي ليست حجة علينا , ولكننا نؤمن بوقوعها لورود ذكرها في كتاب الله أو في الأقوال الصحيحة المنسوبة إلي رسول الله (صلي الله عليه وسلم) , وكتاب الله كله حق مطلق , لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه , ورسول الله (صلي الله عليه وسلم) يصفه القرآن الكريم بقول الحق (تبارك وتعالي) : وما ينطق عن الهوي , إن هو إلا وحي يوحي , علمه شديد القوي (النجم :3 - 5) .

وحادثة انشقاق القمر جاء ذكرها في مطلع سورة القمر , علي أنها قد وقعت بالفعل تحديا لكفار ومشركي قريش , وتأييدا لرسول الله (صلي الله عليه وسلم) في مواجهة تكذيبهم لنبوته ولرسالته , ولم يرو عن أحد منهم تكذيب تلك الواقعة التي نسبوها تارة لتعرضهم هم

لعملية سحر , وتارة أخري لتعرض القمر للسحر , حتي هيئ لهم أنه قد انشق بالفعل مما يفهم منه تأييدهم لوقوع تلك المعجزة , وإن حاولوا التقليل من شأنها بنسبتها إلي السحر . . . ! ! , ثم عاودوا نفي فرية السحر بأنفسهم وذلك بقول نفر من عقلائهم كما جاء في روايات الواقعة . : لئن كان قد سحرنا فإنه لا يمكن أن يكون قد سحر معنا المسافرين خارج مكة ; فتسارعوا إلي مداخل المدينة في انتظار الركبان القادمين من السفر , وعند سؤالهم شهدوا بأنهم في الليلة نفسها التي شاهد فيها أهل مكة تلك الواقعة رأوا هم كذلك انشقاق القمر إلي فلقتين تباعدتا عن بعضهما البعض لعدة ساعات ثم التحمتا , فآمن من آمن وكفر من كفر . ولذلك تقول الآيات في مطلع سورة القمر :

اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغني النذر (القمر : 1 . 5) .

كذلك روي حادثة انشقاق القمر بصورة متواترة عدد غير قليل من كبار صحابة رسول الله (صلي الله عليه

وسلم) من أمثال عبد الله بن عباس , وعبد الله بن عمر , وعبد الله بن مسعود , وأنس بن مالك , وجبير بن مطعم (رضي الله تبارك وتعالي عنا وعنهم أجمعين) , ولا يمكن أن تجتمع كلمة هؤلاء جميعا علي باطل , وهم من أهل التقي والورع (ولا نزكي علي الله أحدا) .

وقد حقق أحاديث انشقاق القمر عدد كبير من أئمة علماء الحديث في مقدمتهم البخاري , ومسلم , وأبو داود , والترمذي , والنسائي , وبن ماجة , وأحمد , والبيهقي , وغيرهم كثير مما يجزم بوقوعها , ومن هنا فإننا نرفض قول بعض المفسرين إن الحادثة من إرهاصات الآخرة انطلاقا من استهلال السورة بقول الحق (تبارك وتعالي) :

اقتربت الساعة وانشق القمر ; وهؤلاء قد لا يعلمون أن عمر الأرض التي نحيا عليها يقدر بنحو خمسة آلاف مليون سنة (علي أقل تقدير) , وأن عمر مادة كل من الأرض والكون المحيط بها يقدر بنحو عشرة آلاف مليون سنة (علي أقل تقدير) , وأن بعثة المصطفي (صلي الله عليه وسلم) كانت منذ أربعة عشر قرنا فقط , ونسبة هذا التاريخ إلي ملايين السنين التي مضت من عمر كل من الأرض والكون يؤكد قرب نهاية العالم . ولذلك يروي عنه (عليه أفضل الصلاة وأزكي التسليم) قوله الشريف : بعثت أنا والساعة هكذا وأشار بإصبعيه السبابة والوسطي . وهي قولة حق خالص , وإعجاز علمي صادق لأنه لم يكن لأحد في زمانه (صلي الله عليه وسلم) أدني تصور عن قدم الأرض إلي مثل تلك الآماد الموغلة في القدم ; وهذا كاف للرد علي الذين قالوا إن في استهلال سورة القمر بالقرار

الإلهي اقتربت الساعة وانشق القمر إيحاء بأن انشقاق القمر مرتبط باقتراب الساعة , بمعني أنها إذا جاءت انشق القمر , لأن المعجزة قد وقعت فعلا علي زمن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) . وقد يشير إلي ذلك وجود شق كبير بالقرب من القطب الجنوبي للقمر علي الوجه الذي لا يري من فوق سطح الأرض يزيد طوله علي 225 كيلو

(107/736)

مترا ويدعمه عدم تماثل نصفي القمر الحالي , ويؤكده وصف القرآن الكريم لنهاية القمر بابتلاع الشمس له (لا بانشقاقه) وذلك كما جاء في قوله (تعالي) :

فإذا برق البصر , وخسف القمر , وجمع الشمس والقمر (القيامة : 7 ـ 9) .

ويأتي العلم في قمة من قممه مؤكدا تباعد القمر عن الأرض بمعدل ثلاثة سنتيمترات في كل سنة مما يشير إلي حتمية دخوله في مجال جاذبية الشمس فتبتلعه , وإن كان ذلك ـ كغيره من إرهاصات الآخرة سوف يتم بالأمر الإلهي : كن فيكون , وليس بالسنن الدنيوية التي يبقيها لنا ربنا (تبارك وتعالي) لإثبات إمكان وقوع الآخرة ; بل حتميتها .

وبعد فراغي من الإجابة علي سؤال السائل الكريم وقف بريطاني مسلم عرف نفسه باسم داود موسي بيدكوك

(DavidMusaPidcock)

وبمنصبه كرئيس للحزب الإسلامي البريطاني , واستأذن في إمكان إضافة شيء إلي ما قلته في إجابتي فأذنت له بذلك فقال : إن هذه الآية كانت مدخلي لقبول الإسلام دينا , فقد شغفت بعلم مقارنة الأديان , وأهداني صديق مسلم نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم فأخذتها منه شاكرا وتوجهت بها إلي مسكني , وعند تصفحها لأول مرة فوجئت بسورة القمر فقرأت : اقتربت الساعة وانشق القمر ثم توقفت متسائلا : كيف يمكن للقمر أن ينشق ثم يعود ليلتحم ؟ وما هي القوة القادرة علي إعادته إلي سيرته الأولي ؟ فتوقفت عن القراءة وكأن هذه الآية الكريمة قد صدتني عن الاستمرار في ذلك . . . ! !

ولكن لعلم الله (تعالي) بمدي إخلاصي في البحث عن الحقيقة أجلسني أمام التلفاز لأشاهد حوارا بين مذيع بريطاني يعمل بقناة التليفزيون البريطاني

B.B.C

واسمه جيمس بيرك

(JamesBurck)

وثلاثة من علماء الفضاء الأمريكيين , وجري عتاب علي الإسراف المخل في الإنفاق علي رحلات الفضاء في الوقت الذي تتعرض جماعات بشرية عديدة لأخطار المجاعات ,

والأمراض , وانتشار الأمية بين البالغين , ولمختلف صور التخلف العمراني والعلمي والتقني .

(108/736)

ووقف علماء الفضاء مدافعين عن مهنتهم بأن الإنفاق علي رحلات الفضاء ليس مالا مهدرا لأنه يعين علي تطوير تقنيات تطبق في مختلف المجالات الطبية والصناعية والزراعية , ويمكن أن تعود بمردودات مادية وعلمية كبيرة , وفي غمرة هذا الحوار جاء ذكر رحلة إنزال رجل علي سطح القمر علي أنها كانت من أكثر هذه الرحلات كلفة فقد تكلفت عشرات المليارات من الدولارات . فسأل المحاور : هل كان كل ذلك لمجرد وضع العلم الأمريكي علي سطح القمر ؟ وجاءت الإجابة بالنفي , وبأن الهدف كان دراسة علمية لأقرب أجرام السماء إلينا ; فسأل المحاور : ألم يكن من الأجدي إنفاق تلك المبالغ الطائلة علي عمارة الأرض ؟ وجاء الجواب بأن الرحلة أوصلتنا إلي حقيقة علمية لو أنفقنا أضعاف هذا المبلغ لإقناع الناس بها ما صدقنا أحد . . . ! !

فسأل المحاور : وما هذه الحقيقة العلمية ؟ فكان الجواب أن هذا القمر كان قد انشق في يوم من الأيام ثم التحم بدليل وجود تمزقات طويلة جدا وغائرة في جسم القمر , تتراوح أعماقها

بين عدة مئات من الأمتار وأكثر من الكيلو متر وأعراضها بين نصف الكيلو متر وخمسة كيلو مترات وتمتد إلي مئات من الكيلو مترات في خطوط مستقيمة أو متعرجة . وتمر هذه الشقوق الطولية الهائلة بالعديد من الحفر التي يزيد عمق الواحدة منها علي تسعة كيلو مترات , ويزيد قطرها علي الألف كيلو متر , ومن أمثلتها الحفرة العميقة المعروفة باسم بحر الشرق

(MareOrientalis) .

وقد فسرت هذه الحفر العميقة باصطدام أجرام سماوية بحجم الكويكبات

(ImpactofAsteroid–SizedObjects)

أما الشقوق التي تعرف باسم شقوق القمر

(RimaeorLunarRilles)

فقد فسرت علي أنها شروخ ناتجة عن الشد الجانبي

(TensionalCracks)

أو متداخلات نارية علي هيئة الجدد القاطعة , ولكن أمثال هذه الأشكال علي الأرض لا تصل إلي تلك الأعماق الغائرة , ومن هنا فقد فسرت علي أنها من آثار انشقاق القمر وإعادة التحامه .

يقول السيد بيدكوك : حين سمعت هذا الكلام انتفضت من فوق الكرسي الذي كنت أجلس عليه أمام التلفاز , وتساءلت : معجزة تحدث لمحمد (صلي الله عليه وسلم) من قبل ألف وأربعمائة سنة يثبتها العلم في زمن التقنية الذي نعيشه بهذه البساطة , وبهذا الوضوح الذي لا يخفي علي عالم في مجال علم الفلك اليوم , فلابد أن يكون القرآن حقا مطلقا وصادقا صدقا كاملا في كل خبر جاء به ; وعلي الفور عاودت القراءة في ترجمة معاني القرآن الكريم , وكانت هذه الآية التي صدتني في بادئ الأمر عن الاستمرار في قراءة هذا الكتاب المجيد هي مدخلي لقبول الإسلام دينا .

ولا أستطيع أن أصف لكم وقع هذه الكلمات , ووقع النبرة الصادقة التي قيلت بها علي كل الحضور من المسلمين وغير المسلمين فقد هزت القلوب والعقول , وأثارت المشاعر والأفكار , ولم أجد ما أقوله أبلغ من أن أردد قول الحق (تبارك وتعالي) :

سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه علي كل شيء شهيد (فصلت :53) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم : د . زغلول النجار ﴾ .

من عجائب الله تعالى فى بعض المخلوقات

- الجراد في سورة القمر

بقلم الدكتور كارم السيد غنيم

أستاذ علم الحشرات في جامعة الأزهر

قال تعالى : (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿ 1 ﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿ 2 ﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿ 3 ﴾ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الْأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿ 4 ﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿ 5 ﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿ 6 ﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿ 7 ﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ) .

يوم البعث[1] :

يعيش الإنسان عدة مراحل في الحياة، أو هو يحيا أنماطاً من الحياة، فمن " الحياة الجنينية" أي حياة الجنين في بطن أمه، إلى " الحياة الدنيوية" ، ثم يموت فيعيش حياة من نوع آخر هي

"الحياة البرزخية"، فإذا جاء موعد القيامة الكبرى بدأت حياة من نوع جديد، إنها الحياة الدائمة الباقية السرمدية، أي "الحياة الأخروية" .

(111/736)

تبدأ الحياة الأخروية بالبعث، أي بعث الناس من قبورهم، والبعث هو إعادة الميت حياً بعد فنائه، والإعادة عقلياً ممكنة، وأهون من الخلق الأول، حتى ولو تفرقت أجزاء الجسم في أماكن مختلفة، أو دخلت في نمو بعض النباتات أو كانت أطعمة لبعض الحيوانات، أو امتزجت بمحتويات الأرض ومعادنها، أو أصبحت أجزاء في أحجار أو حديد أو خلافة، فإن الله قادر على إعادتها مرة أخرى في صورة إنسان كامل سوى الخلقة كما كان في البدء . يقول الله تعالى : (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين (104)) [الواقعة]، أي نخلقكم في أشياء لا تعلمونها وعناصر لا تدركونها، ويقول سبحانه أيضاً : (قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿ 50 ﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿ 51 ﴾ [الإسراء] .

الإيمان بالبعث :

الإيمان بيوم البعث عموماً (أو الحياة الأخروية بطولها وعرضها) ركن من أركان الإيمان، لا يصح إيمان المرء إلا به .

وهذا الإيمان يحقق للمرء في الدنيا المعرفة بالمصير الذي ينتهي إليه وهو أن الإنسان لم يُخلق عبثاً وإنما خُلق لرسالة هي : " عمارة الدنيا " ثم يموت فيُبعث ليحاسب، وأن الله الذي خلقه أول مرة لقادر على أن يعيده : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى (36) ألم يك نطفة من مني يمنى (37) ثم كان علقة فخلق فسوى (38) فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى (39) أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى (40)) [القيامة] .

(112/736)

ولقد نعى القرآن في أكثر من موضع فيه على منكري البعث وساق إجابات شافية توضح جهلهم بل ومكابرتهم في الإيمان به على الرغم من أن كل الأدلة تؤكد انتظار مثل هذا اليوم : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿ 78 ﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿ 79 ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿ 80 ﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿ 81 ﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

) [يس] .

أحداث القيامة الكبرى

يوم البعث هو أول مراحل القيامة، وكل أحوالها من بعث وحشر وتوزيع الكتب وتطاير الصحب والميزان والحساب والصراط وسؤال الرسل والشهادة ومراحل الشفاعة والجنة والنار . . . وهذا كلها أمور غيبية أمر الله المؤمنين به أن يؤمنوا بها ويصدقوا ويعملوا في الدنيا على يقين من وقوع هذه الأحداث يوم القيامة، وهو الذي احتفظ الله بموعد بدئه وأخفاه عن خلقه .

(113/736)

ومعلوم أن يوم القيامة له كثير من الأسماء المشتقة من الأحداث التي سوف تقع فيه ومن الأحوال التي سوف تمر به، ولقد تتبع هذا الموضوع علماء أفاضل من سلف الأمة، منهم ابن نجاح في (سبل الخيرات) ، وأبو حامد الغزالي في (الإحياء) وغيره، والقتبي في (عيون الأخبار) ، والقاضي أبو بكر بن العربي في (سراج المريدين) ، والقرطبي في التذكرة (التذكرة) ، وهذا الأخير شرح تسعة وخمسين أسما ليوم القيامة، منها : يوم الساعة، يوم النفخة، يوم الزلزلة، يوم الحشر، يوم العرش، يوم الجمع . . إلخ . وقال في خاتمة كلامه : ولا

يمتنع أن تسمى القيامة بغير ما ذكرنا بحسب الأحوال الكائنات فيه من الازدحام والتضايق والاختلاف والإهداء والخزي والهوان والذل والافتقار والصّغار والانكسار والميقات والمرصاد . . إلى غير ذلك من الأسماء .

حينما يأتي موعد القيامة ويشاء الله ببدئها فإنه سبحانه يأمر بالنفخ في الصور (القرن) النفخة الأولى التي تموت بها الأحياء ، ثم يأمر بالنفخة الثانية التي بها تحيا الأموات جميعاً لتقوم الله في خشوع (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ) [الزمر] .

يخرج الناس بعد قيامهم فتصور آيات سورة القمر (التي نحن بصددها) حال اتجاههم إلى أرض المحشر ، إلى الساحات التي نصب فيها الميزان وسوف يتم فيها حسابهم ، كأنهم جراد منتشر في سرعتهم وتلبيتهم للنداء : (فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر . خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر) .

(114/736)

يقول البيضاوي في (أنوار التنزيل) : (يخرجون من الأجداث) أي يخرجون من قبورهم خاشعة ذليلة أبصارهم من الهول (كأنهم جراد منتشر) في الكثرة والتموج والانتشار في الأمكنة (مهطعين إلى الداع) مسرعين مادي أعناقهم إليه ناظرين إليه .

ويقول النيسابوري (غرائب القرآن) : خشوع الأبصار سكونها على هيئة لا تلتفت يمنة أو يسره، والأجداث : القبور، شبههم بالجراد المنتشر للكثرة والتموج والذهاب في كل مكان . وقيل : المنتشر مطاوع أنشره إذا أحياه، فكأنهم جراد يتحرك من الأرض ويدب، فيكون إشارة إلى كيفية خروجهم من الأجداث وضعف حالهم . ونحو هذا الكلام قاله الفخر الرازي أيضاً في (مفاتيح الغيب) .

أما الجلالين (المحلى والسيوطي) فيقولان : (كأنهم جراد منتشر) أي لا يدرون أين يذهبون من الخوف والحيرة . ولكن صاحب (الأساس في التفسير) قد شغل (في تفسير سورة القمر) بآيتين اثنتين هما (اقتربت الساعة وانشق القمر) ، (إنّا كل شيء خلقناه بقدر) ، مما جعله يغفل تفصيل القول في آيات أُخر بالسورة، ومنها ما نحن بصدده من تصوير هيئة بعث الناس يوم القيامة . وأما في (جامع البيان) وفي (الظلال) وفي (روح المعاني) وعند النسفي وابن كثير وفي (المنتخب) وعند القرطبي، فلم نجد أكثر مما أوردناه تقريباً .

دقة التمثيل وجمال التشبيه :

يقول علماء البيان العربي إن " التمثيل " هو القالب الذي يبرز المعاني في صورة حية تستقر

في الأذهان، بتشبيه الغائب بالحاضر، والمعقول بالمحسوس، وقياس النظير على النظير، وكم من معنّى جميل أكسبه التمثيل روعة وجمالاً، فكان ذلك أدعى لتقبل النفس له، واقتناع العقل به، وهو من أساليب القرآن الكريم، في ضرب بيانه ونواحي إعجازه . . وسوف يتضح هذا جلياً بعدما نشرح هيئة انتشار الجراد في أسرابه محلقاً في جو السماء، ومتجهاً نحو هدف معين وقاصداً جهة محددة .

نبذة عن الجراد

(115/736)

جاء في المعجم الوسيط (باب جَرَدَ) : جرده ـ جرداً : قشره وأزال ما عليه .

ويقال : جرده من ثوبه : عرّاه . وجرد الجلد : نزع عنه الشعر، وجرد الجراد الأرض : أكل ما عليها من النبات فلم يبقِ منه شيئاً . وجرد القحط الأرض : أذهب نباتها . وجرد السيف من غمده : سلّه . وجرد القطن : حلجهُ . جرد المكان : خلا من النبات، فهو أجرد، وجرد، وجرد . وأرض جردة وجرداء . جرد الرجل : شرى جلده من أكله الجراد، فهو جرد . جرد الرجال : اشتكى بطنه من أكل الجراد . جُرد الزرع : أصابه الجراد، فهو مجرود، ويقال أرضٌ مجرودة : كثيرة الجراد .

الجراد (Locusts) يشترك مع النطاطات (Grasshoppers) في الانتساب إلى فصيلة الجراديات (Acridiidae) وهي التابعة لرتبة الحشرات مستقيمة الأجنحة (Orthoptere) في عالم الحشرات .

وتضم فصيلة أكريديدي أي الجراديات الكثير من أنواع الجراد والنطاطات التي تلحق الضرر بالمزروعات وتدمر الحاصلات الزراعية، سواء كان ذلك في قارة أفريقيا أم في قارة آسيا أم في مناطق أخرى من العالم، وعلى وجه الخصوص الجراد الصحراوي، وتنشر من الجراد أنواع مختلفة في مناطق متفرقة من العالم، منها على سبيل المثال :

الجراد الصحراوي (الرّحال) Schistocerca gregaria

الجراد الآسيوي المهاجر Locusta migratoria migratoria

الجراد الإفريقي المهاجر Locusta migratoria migratorioides

الجراد المصري Anacidium aegyptim

الجراد الأحمر Nomadacris septemfasciata

ويتكون جسم الجرادة من رأس وصدر وبطن، أما الرأس فيغلفها جلُيد سميك متصلب يسمى علبة الرأس (Head capsule) ، وتوجد بها العيون المركبة والعيون البسيطة وقرناً الاستشعار (الزباني) وأجزاء الفم القاضمة . وتتكون علبة الرأس من

مساحات تفصلها عن بعضها البعض حزوز أو دروز (Sutures) ، وهي الجبة والدرقة والجداريّات والوجنة .

(116/736)

وأما الصدر فيتصل بالرأس عن طريق العنق، ويتكون من ثلاث عقل أو شدف، تحمل كل منها زوجاً من الأرجل المجهرية للمشي والوثب العالى .

أما الشدفة الصدرية الثانية والشدفة الصدرية الثالثة فيحمل كل منها زوجاً من الأجنحة الغشائية الواسعة المساحة .

وهي التي تتصل بالصدر عن طريق دواعم .

ويتحرك الجناحان بعضلات قوية ترفوف بقوة تمكن الجراد من الطيران لمسافات طويلة تقطع خلالها مسافات شاسعة .

أما دودة حياة الجراد فإنه يتكاثر في أجيال متعاقبة، وفي العادة يبدأ الجيل بوضع البيض وينتهي بقيام الإناث البوالغ بوضع البيض لإنتاج جيل جديد لاحق . ومن المعروف في الجراد أن البيض الموضوع يفقس لتخرج منه حوريات (NymphS) ، وهي التي سماها الجاحظ والدميري وغيرها " دبا " أو " دبى " وهذه تضطر للقيام بعمليات انسلاخ (

Moulting) حتى تتمكن من النمو والازدياد في الحجم، والوصول إلى الشكل اليافع في حياتها، وهذه العملية العامة التي تسمى " التحول " (Metamorphosis) .

للجراد الصحراوي مظاهر ثلاثة في حياته، المظهر التجميعي (Migratory Phase) وهو الذي يتجمع ويطير في أسراب ويهاجر ويسبب الخسائر الأقتصادية للناس، المظهر الانعزالي أو الأنفرادي (Solitary Phase) ، وهذا لا يهاجر لأنه لا يتجمع ولا يكون أسراباً ، ومن ثم فأضراره الاقتصادية أقل بكثير من أضرار المظهر السابق .

لكنه يمثل الخامة الأولية التي منها يتشكل أو يتكون أو ينتج المظهر التجميعي، وهذه مرحلة أو مظهر انتقالي يسمى المظهر التحولي (Transition Phase) .

ولأطوار الجراد في دورة حياته أسماء عديدة. نرجع إلى علماء التراث العلمي لنتعرف عليها .وأشهرها : الدّبي : (بتشديد الدال وتخفيفها ، وإبدال الياء ألفا أحياناً) ، وهو أول ما يفقس من البيض، ومفرده (دباة) ، وأرض مدبية أي كثير الدّبي . الجنادب : ومفردها (جندب) وهو حوريات منسلخة من الدبى .

(117/736)

الكتفان : ومفردها : كُتفانة . ويقول الدميري في كتابه (حياة الحيوان الكبرى) : هو الجراد أول ما يطير، وقد يكون هو الجراد بعد الغوغاء . وقيل أن أول الجراد السرء (أي البيض) ثم الدبى ثم الغوغاء ثم الكتفان . خَيفان : ومفردها خيفانة . وغوغاء : ومفردها غوغاءة وغوغاة .

فإذا هزلت الجرادة سميت حرشوف، وقد شبهت خولة بنت ثعلبة زوجها أوس بن الصامت بالحرشاف (أو الحرشوف) ، وهي الجرادة الهزيلة الكثيرة الأكل . وقد وجدنا عند الجاحظ في كتابه الموسوعي (الحيوان) أن صوت الجراد هو الصوصأة .

انتشار الجراد وأسرابه وغاراته :

تكمن خطورة الجراد الصحراوي في قدرته على الترحل والقيام برحلات الهجرة والطيران التي تقطع فيها مسافات شاسعة، وكذلك اقتداره التكاثري (Reproductive potential) في أجواء مختلفة حيث ينتشر في مناطق تضم أربعاً وستين دولة هي معظم دول إفريقيا حول خط الاستواء ، وفي آسيا تشمل الدول شبه الجزيرة العربية وفلسطين ولبنان وسوريا وتركيا والعراق وإيران وأفغانستان وباكستان والهند وحدود ما كان يسمى " الأتحاد السوفيتي " المتاخمة لأفغانستان وإيران وتركيا .

صورة لأحد أسراب الجراد وهو في حالة انتشار

مناطق التكاثر الموسمية للجراد الصحراوي :

تشمل هذه المناطق ما يلي :

1 . منطقة التكاثر الصيفي : وتضم الهند والباكستان واليمن وعدن وإثيوبيا والسودان وتشاد والنيجر ونيجيريا وموريتانيا ومالي والسنغال .

2 . منطقة التكاثر الشتوي : وتضم شبه جزيرة الصومال وشواطئ البحر الأحمر لليمن والسعودية وأريتريا والسودان ومصر وعمان وساحل إيران على الخليج العربي .

3 . منطقة التكاثر الربيعي : وتشمل بلاد شمال إفريقيا والشرق الأوسط وإيران وأفغانستان وغرب الباكستان والحدود الجنوبية لما كان يسمى " الاتحاد السوفيتي " وشبه جزيرة الصومال .

(118/736)

تخرج أسراب الجراد من مناطق التكاثر المذكورة، وتعود إليها ، بقصد المحافظة على النوع، مع اختلافات الظروف البيئة، وأهم ما يؤثر على مصر هو الأسراب الناتجة من مناطق التكاثر الصيفي بشرق إفريقيا وخاصة إثيوبيا والصومال واريتريا والسودان. وكذلك الأسراب الناتجة من المناطق الشرقية من الهند والباكستان وإيران والمملكة العربية

السعودية حيث تهاجر الأسراب من هذه المناطق إلى منطقة الشرق الأوسط .

حينما يلاحظ المرء تحرُّك أسراب الجراد الصحراوي في منطقة من مناطق انتشاره، يعرف أن هناك غزوة أو غارة جراد تنذر بالكارثة، أما إذا لم ير المرء أسراب في تلك المناطق فإنه يطلق على هذه الحالة " تراجع " أو " انحسار " أو " سكون " الغزوات .

ويلاحظ أنه لا توجد فترات سكون أو دورات منتظمة للغارات، وبذلك لا يتمكن المراقبون من الاستعانة بتاريخ الغارة السابقة في التنبؤ بالتطورات المتوقعة للغارات المستقبلة .

وقد يستمر التكاثر المحدود للجراد الصحراوي عدداً من السنوات في إحدى مناطق التكاثر الموسمي دون أن يخرج منها أسراب، بينما في منطقة أخرى قد تتزايد أعداد الجراد فيها بشكل سريع . وتتكاثف الحشرات وتتكون الأسراب، وتعرف هذه المناطق بالمنابت الأصلية للجراد، وهذه المنابت الأصلية لا تتصف بأنها دائمة بل هي مؤقتة، تتغير من وقت لآخر في مناطق انتشاره .

كيف نتفادى أسراب الجراد ؟

تكمن كوارث الجراد ـ كما أشرنا آنفاً ـ في قدراته التجمعية وتكوينه للأسراب المهاجرة، ومن هنا فإننا إذا استطعنا منع أو إيقاف هذا التجمع أو أعقنا عملية تكوين الأسراب، خصوصاً عملية تحول الجراد من المظهر الانعزالي إلى المظهر التجمعي، فإننا نقي البلاد من

الغارات والكوارث منذ لحظة منشئها بدلا من انتظار مجيء الأسراب إلينا ثم نقوم بمكافحتها .

(119/736)

وللوصول إلى هذا الهدف لابد من الإلمام الكامل بمواطن التكاثر والانتشار التي يوجد فيها المظهر الانعزالي للجراد ، ومنها سواحل البحر الأحمر ومصر والسودان والمملكة العربية السعودية، وهي مناطق تعد بحق مخازن طبيعية للجراد الانعزالي، وقد قلنا من قبل إنها الخامة الأولية لنشأة أسراب الجراد المهاجر ، ومن هنا تبرز خطورته، أي الجراد الانعزالي . وعلى الرغم من صعوبة تحديد المنابت الأصلية للجراد الصحراوي، إلا أنه يمكن تحديد الأماكن التي تعتبر مناسبة لتكاثره، وهي التي يجب وضعها تحت الملاحظات المستمرة .

قدرات الجراد على الطيران :

يستطيع الجراد أن يطير لمسافات بعيدة، فتقطع الجرادة الواحدة مائة كيلومتر في اليوم الواحد (وثلاثمائة وخمسين كيلومتراً في الشهر) وذلك بما لديها من قدرة عضلية تمكنها من الرفرفة بالجناحين لمدة تتراوح ما بين ست وست عشرة ساعة، وهي قدرة تساعدها على اجتياز الموانع المائية والطبوغرافية .

وبدراسة قدرة عضلات الطيران في الجراد، وجد أنها تعمل بكفاءة تفوق كفاءة عضلات الحركة في الإنسان بنحو ثماني مرات (إذا أخذنا في الاعتبار الفرق في الحجم) فإذا علمنا هذه القدرة الهائلة على الطيران لساعات طويلة أثناء النهار، فمن أين لهذه العضلات أن تأتي بالطاقة المطلوبة لهذا النشاط؟ تأتيها هذه الطاقة من عمليات أيض (Metabolism) المواد النشوية داخل خلايا الجسم، فإذا نفد ما لديها من مخزون النشا تبدأ في استنزاف احتياجاتها من مخزون الدهن الموجود بها، فهو الذي يمدها بالطاقة اللازمة لقطع مسافات طويلة في الطيران.

تكوين وتوزيع وتنظيم الأسراب المهاجرة:

من المعروف أن أسراب الجراد الطائرة في الهواء تحط ليلا على النباتات وتجثم على الأشجار لتلتهم كميات من الغذاء الأخضر تعينها على استئناف الرحلة في صبيحة اليوم التالي.

(120/736)

حينما تشرق الشمس صباحاً تشعر أفراد السرب الجاثمة على النباتات بالدفء فتبدأ في هز أجنحتها، ثم تطير أفراد منه متنقلة في مسافات محدودة داخل منطقة الانتشار،

وحينما تزداد حرارة الجو تبدأ تيارات الحمل فيه تتجه إلى أعلى حاملة معها مجموعات من سرب الجراد، وهكذا يرى السرب معلقاً في جو منطقة الانتشار، بينما تظل المجموعات الأخرى من السرب في حالة جثوم، وهي المجموعات التي تمثل مؤخرة السرب فلا تطير إلا بعد أن يأخذ السرب وجهته، وهذا السلوك يتيح لمؤخرة السرب أن تتناول كميات أخرى من الغذاء، ثم لا تلبث أن تحلق في الهواء لتلحق بمقدم السرب، وهو الذي تهبط أفراده فوق ما تراه من كساء أخضر على سطح الأرض، بقصد التهام كميات منه، بينما لا تزال المؤخرة في الهواء ولم تهبط بعد، وهكذا تهبط المقدمة قبل المؤخرة، ثم تصعد المؤخرة بعد المقدمة، فيبدو السرب في حلقات متصلة دون استقرار كامل في الجو.

وعند توفر درجة الحرارة الجوية الملائمة (23 ـ 40م) فإن السرب يظهر كاملاً وبشكل واضح التنظيم في الجو.

صورة لسرب جراد أفريقي وهو ينتشر

ويوجد من الأسراب الطائرة نوعان:

1. Stratiform swarm السرب الطبقي ( ): ويرى عادة في ظروف جوية غائمة أو متأخرا بعد الظهر حين يبرد سطح الأرض وتنتهي تيارات الحمل المتنقلة. وهذا النوع من الأسراب يظهر في شكل مساحة مسطحة مكونة من أفراد الجراد المتراصة. ويطير هذا

النوع على ارتفاعات قليلة لا تزيد على (200) متر من سطح الأرض .

2 . السرب الركامي (Cumuliform swarm) : يرى في أكثر ساعات النهار في ظروف تسودها الشمس الساطعة، وتتراكم أفراده فوق بعضها في الجو فتشكل ما يشبه البرج. وغالباً ما يطير هذا النوع من الأسراب على ارتفاعات شاهقة تصل أحياناً إلى (1000) متر من سطح الأرض وتساعدها في ذلك تيارات الحمل المتنقلة، وتظهر في السرب تغيرات مستمرة بالنسبة لكثافة أجزائه المختلفة أثناء الطيران .

(121/736)

أما عن توزيع الأفراد داخل السرب، فيتميز النوع الأول المذكور سابقاً بأن الكثافة العددية لأفراد كبيرة [2] أما النوع الثاني فكثافة توزيع أفراده قليلة جداً [3] حتى يمكنها أن تملأ حدود السرب المنتشر إلى أعلى .

وإنه لمن المدهش أن تعرف أن طلائع السرب إذا شعرت بين الحين والآخر أن مؤخرة السرب قد بعدت عن مقدمته وكاد السرب يتمزق شمله وتشتت أجزاؤه، فإن المقدمة ـ أو الطلائع ـ تبطئ من حركتها حتى يتمكن المتأخرون عنها من اللحاق بها والالتحام بالسرب، وبهذا يحتفظ السرب دائماً بشكله وانتظامه، ولا يمكن لأية جرادة أن تنفر من السرب وتخرج

بعيداً عن إطاره العام، فإذا حدث ذلك أسرعت بالدخول ثانية في الجماعة.

أما سرعة التقدم إلى الأمام، فإنها لا تزيد عن نصف سرعة الريح المواتية والمصاحبة له، وذلك لعدم استمرار طيران السرب حيث أنه يتوقف مرات عديدة في طريق الهجرة خصوصاً مع دخول الليل كل يوم من أيام الرحلة، ولكن إذا فرض أن السرب يواصل طيرانه بلا توقف فإن سرعته حينئذ تكون مساوية لسرعة الريح المواتية، وهذا ما لم يحدث.

كيف يحصل الجراد على حاجته من الماء أثناء رحلة الهجرة؟

(122/736)

يمكن للجراد المهاجر أن يقطع مسافة تبلغ آلاف الكيومترات خلال ثلاث أسابيع وفي عام 1956م لوحظ أن الجراد الحاج هو الأكثر قدرة على التحليق من أي نوع آخر، ولمسافات بعيدة، فلقد تمكن من عبور البحر المسافة 500 كيلو متر للوصول إلى جزيرة Cap vert وطالما تم التساؤل حول الكيفية التي يستطيع بها الجراد قطع مسافة شاسعة من الصحراء دون ماء، والحقيقة أنه من خلال الدراسات تم التواصل إلى أن الجراد يقوم بهضم السليولوز (Cellulose) الذي يعثر عليه في الأدغال اليابسة ويحلله إلى مادة دهنية تحتوي الهيدروجين، وعندما تدخل تلك الدهنيات في الدم، وتحصل عملية الاحتراق

بواسطة الأوكسجين خلال الطيران، يتحرر ماء بمعدل (7) ملليجرامات من كل (10) مليجرامات دهون . وهذا يسمى فسيولوجيا " الماء الأيضي" وهذه عملية تدل على المرونة الفزيولوجية لهذا النوع من الجراد ، فقد واجه اختفاء الماء في الصحراء بإنتاج ما يحتاج إليه بطريقة كيميائية .

وبعد فهذه كانت محاولة متواضعة لإجلاء وجه من وجوه الإعجاز العلمي لآية قرآنية، شبه الله فيها انتشار الناس يوم البعث وتحركهم نحو ربهم للعرض عليه، بالجراد في انتشاره وتحرك أسرابه وتقدمها في أجواء الفضاء وهي صورة تشبيهية لتقريب المقصود ، كما أننا قدمنا للقارئ جرعة علمية تناسب الهدف من الموضوع، والله سبحانه أعلى وأعلم . . .

[1] لمزيد من التفصيلات انظر كتابنا "رحلة مع الجراد" دار الآفاق العلمية بمصر ط1 1994 .

[2] معدل توزيع الأفراد في السرب يتراوح بين جرادة ـ عشر جرادات في المتر المربع الواحد من السرب .

[3] معدل توزيع الأفراد في السرب يتراوح بين 0.001 جرادة ـ 0.1 جرادة في المتر المربع الواحد .

.

.

.

0-دورات من الحياة وإعجازها العلمي

وتقديرها الإلهي-المياه الأرضية-

د . نظمي خليل أبو العطا موسى

دكتور الفلسفة في العلوم (نبات) جامعة عين شمس

(123/736)

يقولون بلا علم ولا حياء ، أن الحياة خلقت بالمصادفة والعشوائية وتطورت بالطفرة والانتخاب الطبيعي، وأنه لا خالق لهذا الكون أو أن للكون خالق لا يتكفل بتدبير شؤون مخلوقاته، بل خلقهم وأجهزة خلقه فاستراح بعد ذلك والعياذ بالله وترك عباده هملاً هكذا يقولون .

والله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه خلق هذا الكون بقدرته وحكمته وتدبير وبأمره وأنه سبحانه يعلم من خلق (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) ، وأنه أعطى كل مخلوق هيئته اللائقة بمعيشة قال تعالى (قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فالحياة

منظمة ومرتبة ودقيقة ومقدرة لأنه خالقها قادر مقدر عظيم لطيف .

دورة الماء في الأرض : (Water cycle on the earth)

الماء سائل الحياة المعجز والفريد [1] الذي جعل الله منه كل شيء حي قال تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي ألا يؤمنون) الأنبياء (30) .

فبالماء يحيا كل شيء على الأرض لأن الماء ضروري لجميع العلميات الحيوية، والماء هو مصدر الأوكسجين الأرضي لأنه مصدر الأوكسجين في عملية البناء الضوئي[2] وهذا ما توصلت إليه وأنا أعد أسواق الطاقة الحيوية فرغم أنني درست هذه الدورات مئات المرات ودرستها ولكن هذا المعنى المتميز لم يفتح الله علي به إلا في فبراير 2005م .

والماء يغطي 75% من سطح كرتنا الأرضية لدرجة أن البعض يسميها الكرة المائية ويقدر حجم الماء الأرضي والمرتبط به إلى 1.37.000.000 كيلو متر مربع يرتفع بالبخر سنويا (95) ألف ميل مكعب، والميل المكعب يحتوي 4.000.000.000 طن ماء . يتوزع بالعدل على البحار والمحطيات فيخص اليابسة منه (24) ألف ميل مكعب، ويخص البحار (71) ألف ميل مكعب .

صورة توضيحية لدورة المياه في الأرض

ويدور هذا الماء بين أجسام الكائنات الحية والمكونات الميتة على الأرض في دورات معجزة وعجيبة .

(124/736)

وأذكر أنن أول مرة ركبت الطائرة وشاهدت السحاب المسخر بين السماء والأرض انهمرت الدموع من عيني خوفاً من الله وطمعاً في رحمته فأنا ما كنت أتصور نظرياً هذا المشهد العجيب والمعجز قال تعالى : (وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقولون) البقرة 164 .

وقال سبحانه : (ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً) النور 43 .

هذه الآيات القرآنية شاهدتها بنفسي بعد سنوات من الدراسة النظرية فكانت النتيجة المذهلة التي أذهلتني وانهمرت عيناي بالدموع كأنها الماء المنهمر .

هذا الماء يدور بكمية ثابتة ومقدرة بين البحار والمستنقعات والأرض الزراعية والمصانع والكائنات الحية في دورة معجزة وبكمية ثابتة خلقها الله وقدرها بأمره وعلمه وقدرته .

وأجسام الكائنات الحية وخلاياها هي خلايا مائية فالطماطم تحتوي (94%) من وزنها ماء والكرنب (الملفوف) يحتوي (93.5%) ، والمانجو (86%) ولحم الضأن (63%)

وقنديل البحر 99% تناولها تتناولها تلك الكائنات الحية وتمتصها من المياه الخارجية لتدخل في دورتها الأيضية (Metabolism cycle) الحيوية من البناء (Anabolism) والهدم (Catabolism) .

الشكل التالي يبين دورة النبات الأيضية الحيوية ودور الماء في البناء والهدم

ويفقد جسم الإنسان يومياً 2600ملم من الماء بالتبول والتعرق والتنفس .

ويحتاج نبات واحد من الذرة خلال حياته 180لتر من الماء، فكم تحتاج نباتات الفدان ؟ !

ويحتاج إنتاج كيلو واحد من اللحم إلى (22000) لتر ماء .

والإنسان يستهلك (900) لتر من الماء في كل عام ويفقد نبات دوار الشمس يومياً حوالي كيلوجرام من الماء .

(125/736)

ويفقد فدان القطن بالتنتح (50) طن من الماء يومياً ، وهو مهم في عمليات الأيض في جسم الإنسان والحيوان فهو ضروري لمضغ الطعام وبلعه وهضمه وامتصاصه ودورانه داخل

الخلايا التوزيع الغذاء والطاقة والفيتامينات والأملاح والمعادن وإخراج الناتج من عمليات الهدم والبناء .

والماء ينظم بدقة جميع العمليات الحيوية في جسم الكائنات الحية، ويستخدم في ضبط درجة حرارة الجسم في الكائنات ذوات الدم الحار والنبات .

وهو ضروري لعمليات البناء الضوئي في النبات حيث ينشطر في الداخل ليعطي الهيدروجين اللازم لبناء المواد الكربوهيدراتية وينتج الأوكسجين اللازم لتنفس الكائنات الحية هوائية التنفس، فهو يدور في عمليات البناء الضوئي المعتمد على الماء أو العمليات الضوئية، ويدور في عمليات البناء الضوئي غير المعتمد على الضوء وينتج منها .

وهو ضروري لإجراء عمليات تحرير الطاقة في دورات الأحماض العضوية ثلاثية الكربوكسيل (Tricarboxyleic acid cycle) أي دورة كربس (Krebs) أساس عمليات الهدم وتحرير الطاقة في معظم الكائنات الحية .

وهو يدور مع هدم الدهون في دورات الأكسدة والاحتراق لتلك الدهون كما دار من قبلها في عملية بنائها ، والحال كذلك مع البروتين والفيتامينات والهرمونات ويدور الماء مع دورات النيتروجين والفوسفور والكربون، والطاقة، والانقسام الخلوي ودورة الصخور والهواء، وسلسلة الغذاء وشكلها وجميع دورات الحياة التي نعرفها .

وهو ضروري لإنبات النبات وانشقاق الأرض وتفتيت الصخور وحملها وترسيبها .

ويدور في آلات الاحتراق الداخلي لتبريدها ويدور مع الطعام وقت إنباته ونموه إلى وقت طهيه وأكله . ويدور داخل المصانع والمدارس والمزارع والبيوت فهو سائل الحياة الفريد والمعجز[3] .

فماذا فعلنا في الماء الأرضي :

لوثنا البحار والمحيطات بالنفايات الحربية والصناعية والزراعية والبشرية .

لوثنا الأنهار والعيون والآبار وسممناها بالمخلفات السامة والملوثة .

(126/736)

أسرفنا في استغلال الماء في الزراعة والصناعة والأنشطة البشرية الأخرى .

قطعنا الغابات التي تقوم بدور رئيس في دورة الماء على الأرض وإمدادها بماء المطر .

أحدثنا خللا في درجات حرارة الأرض فظاهرة الدفيئة أو البيوت الخضراء الزجاجية فاختلت مخازن المياه العذبة والمالحة في الأرض .

أفسدنا في الأرض بالمعاصي والذنوب وحاربنا الله وأشركنا به وجاهرنا بالمعاصي فكانت النتيجة خلل دورة المياه على الأرض .

المراجع :

http : //web.indstate.edu/thcme/mwking/nitrogen-metabolism.html

http : //umbbd.ahc.umn.edu/C1cyc/C1cyc_map.html

http : //www.ds-health.com/abst/a0108.htm

http : //print.google.com/print?q=Water+cycle+on+the+earth+print=oi

[1] أنظر موضوع سائل الحياة الفريد . معجزة علمية د . نظمي خليل أبو العطا موسى .

وأنظر الماء ومعجزة الحياة وعالم النبات د . نظمي خليل أبو العطا

[2] أنظر أسواق الطاقة الحيوية العالمية د . نظمي خليل أبو العطا

[3] انظر الماء ومعجزة الحياة في كتابنا آيات معجزات من القرآن الكريم وعالم النبات

انظر موضوع سائل الحياة الفريد (مرجع سابق) .

.

.

.

0-الولادة ذلك الإعجاز الرباني

الدكتور محمد السقا عيد

في الماضي كانت الولادة عملية شديدة الخطورة لدرجة أن بعض حالاتها كانت تنتهي بوفاة الأم أو الجنين أو وفاتهما معا . كما كانت حمى النفاس منتشرة بين الوالدات . [1] . .

ولكن بحمد الله تعالى وفضله ثم بفضل التقدم العلمي الحديث في مجال الطب والتعقيم أدى إلى خفض مضاعفات الحمل والولادة إلى حد كبير .

ولعل ما دفعني إلى الكتابة في هذا الموضوع هو حرصي الشديد على نقل جانب يسير من الإعجاز الرباني في عملية " التوليد " للقارئ العزيز . تذكرته وتأملته في لحظات قليلة عندما دعيت لمساعدة [2] فتاة في العقد الثالث من عمرها في ولادتها .

(127/736)

وبرغم أن هذه ليست هي المرة الأولى لي ولا المائة من نوعها إلا أنني وقفت مشدوها أتأمل كل حركة وسكنة للجنين، وكل انقباضه للرحم إلى أن تمت عملية طرد الجنين من رحم أمه بطريقة فسيولوجية منظمة تستدعى منا أن نحنى الجباة لخالق ا

لموت والحياة . .

وهكذا خرج المولود إلى حياتنا الدنيا باكيا وكأنه يعلم مدى الشقاء والعناء الذي سيلاقيه في هذه الدار . . وصدق الإمام الشافعي :

ولدتك أمك يا بن آدم باكيا والناس حولك يضحكون سرورا

فاعمل ليوم أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكا مسرورا

إن الوضع هو نهاية الحمل عن طريق خروج الطفل من الرحم في حالة طرد نتيجة للانقباضات المتزايدة للرحم والتي تصير قوية لدرجة تمكنها من طرد الطفل .

ويقرر الطب الحديث أن الولادة نفسها عملية لا دخل لأي إنسان فيها ، فهي عملية لا إرادية . فعندما يصل الحمل إلى نهايته ويحين موعد الولادة الذي لا يعلمه إلا الله . . عندما يشاء الله للحامل أن تلد . . ينقبض الرحم على الجنين ليطرده إلى الخارج . ولم يعرف الطب بعد شيئًا عن هذا الانقباض ولا عن الأجهزة التي تشرف عليه .

ولعل ما وصل إليه الطب للآن كلها نظريات لم تصل إلى درجة اليقين العلمي بعد . . .

بهذا تعلم – أخي القارئ – بأن الطبيب أو القابلة يتلخص دورهما في مساعدة الحامل في استقبال مولودها وإعداده . . وكما رأينا ونرى أن هناك ملايين الولادات تتم دون الاستعانة بأحد .

وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول في سورة النحل :

) والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا . . . . . (آية (78)

وتمر عملية الولادة بمراحل ثلاث :

§ المرحلة الأولى : "St.stage 1" اتساع عنق الرحم "Effacement" .

§ المرحلة الثانية : "nd. stage2" ولادة (طرد) الجنين من الرحم "Expulsion" .

§ المرحلة الثالثة : "rd. stage 3" وتشمل ولادة المشيمة (الخلاص) بأغشيتها

المرحلة الأولى :

(128/736)

قد تستغرق عملية توسيع عنق الرحم ساعتين وأحيانا تمتد إلى ست عشرة ساعة (16) ساعة أو أكثر . وفى البداية ينقبض الرحم وتكون مدة كل انقباضه من (30 –35) ثانية . وتحدث هذه الانقباضات كل 15 – 20 دقيقة، وتكون هذه الانقباضات لا إرادية بحيث لا تستطيع الأم أن تبدأها أو توقفها أو تجعلها تسرع أو تبطئ .

وتزداد معدل الانقباضات في هذه المرحلة (st. Stage 1) من الوضع حتى تصير كل دقيقة أو دقيقتين وتستغرق مدة أطول حتى تصل إلى 90 ثانية . ولعله من الضروري أن نشير إلى تأثير الحالة النفسية على عملية الولادة . . فالعامل النفسي أمر بالغ الأهمية إذ أن

الخوف والقلق من أهم أسباب تعسر الولادة . . والرضا والاطمئنان من أهم أسباب تيسير الولادة . وإذا لاحظنا الحالة النفسية للأم في المرحلة الأولى نجد أنها متغيرة . . ففي البداية تشعر الأم بالراحة أثناء الانقباضات لأن ما انتظرته على مدى تسعة أشهر قد حان موعده . . ولكن بعد عدة ساعات من الولادة وعندما تصير الانقباضات أسرع وأطول فإنها تنشغل عن هذا التفكير بشدة الألم .

المرحلة الثانية :

وقد تستغرق هذه المرحلة عدة دقائق في الأم المتعددة الحمل إلى نصف ساعة أو أكثر في أول حمل .

وفى هذه المرحلة يحدث طرد "Expulsion" وفيها تكون الانقباضات اللاإرادية أطول مدة وأقصر مسافة فيما بينها .

وللعلم فإن كمية الضغط على عضلات الرحم والبطن أثناء الولادة على المولود تعادل ما يوازى 25 رطلا تقريبا أثناء كل انقباض قوية . ومن رحمة الله تعالى أن تحدث انقباضات الولادة متقطعة، لأنه في كل انقباض قوية يمنع الدم من الوصول من خلال المشيمة للمولود ، ولذلك فلو كانت هذه الانقباضات مستمرة فإنها تسبب وفاة الجنين .

ولعل هذا ينبهنا كأطباء إلى خطورة استخدام بعض الأدوية القابضة للرحم مثل

"Oxytocin" التي تجعل الرحم في حالة تشنج لدرجة أنها تؤدى إلى وفاة المولود إذا ما أسيء استخدامها .

(129/736)

ونلاحظ أنه في كل انقباضة يظهر جزء من رأس المولود ، ثم يختفي هذا الجزء ثانية بعد زوال الانقباضة . . ولكن في كل انقباضة يزداد ظهور هذا الجزء إلى أن تخرج رأس الطفل كلها حرة خارج المهبل .

وفى بعض الحالات لا يحدث هذا تلقائيا نظرا لكبر رأس المولود . . . . الخ، وفى هذه الحالات يلجأ أطباء الولادة إلى شق العجان في اتجاه فتحة الشرج ليساعد خروج الرأس وليمنع أي تمزق للأنسجة .

ولنعلم أن 19 من كل 20 ولادة تكون الرأس فيها هي أول جزء في الطفل عند الخروج .

أما باقي الحالات فقد تكون المقعدة أو أحد القدمين أو الحبل السري هي أو ما يخرج من الطفل . . وعلى الطبيب أن يتعامل مع هذه الحالات بالمهارة المطلوبة .

وعلى الطبيب أن يلاحظ الأم والمولود باستمرار وإذا حدث أي قلق على أي منهما فعليه أن يتدخل إما بإخراج الجنين بالشفط (Suction) أو باستخدام الآلات كالجفت "

Forceps" وغيره أو حتى بالتدخل الجراحي عن طريق "العملية القيصرية" .

وهى عملية " Cessarian Section" تنسب إلى يوليوس قيصر لأنه أول من ولد بهذه الطريقة . . إذ ماتت أمه أثناء الطلق . . وقام الطبيب عندئذ بشق بطنها وأخرجه منها . وعاش قيصر ليصبح إمبراطور روما . . وأطلق عليه " قيصر " ولهذا نسبت إليه هذه العملية وهى الآن تجرى بيسر ومهارة فائقة إذا دعت الحاجة إليها .

آلام الطلق ومنشؤها

إن آلام الطلق ربما فاقت أي ألم آخر ، ولكن لا يكاد الطفل يخرج إلى الدنيا ويلامس جسده جسد أمه حتى ينفرج ثغرها عن ابتسامة متعبة . ولعل منشأ الألم في المرحلة الأولى من الولادة يرجع إلى نقص الأكسجين لعضلات الرحم بسبب الانقباض على الأوعية الدموية للرحم .

أما في المرحلة الثانية من الولادة فإن المولود في خروجه من المهبل يصحبه آلام أكثر شدة وذلك بسبب اتساع عنق الرحم واتساع العجان والمهبل مع محاولة التمزق .

المرحلة الثالثة :

وتبدأ هذه المرحلة مع ولادة الجنين وتنتهي بولادة المشيمة (الخلاص) . ونعنى بولادة المشيمة : انفصال المشيمة وأغشيتها من جدار الرحم، وبعد أن تنفصل هذه المكونات تطرد من الرحم بفعل الانقباضات التي تحدثها عضلات الرحم والتي تشترك جميعها في هذه العملية حتى العضلات الموجودة في مكان التصاق المشيمة بالرحم . .

ولكن ينبغي أن نعلم أن المشيمة نفسها لا تنقبض ولكن ما يحدث هو أن مكان التصاق المشيمة بالرحم ينكمش بالتدريج مع كل انقباضة للرحم حتى تنفصل نهائيا وتصبح حرة في الرحم، وعندئذ تطرد بفعل قوة الطرد التي تحدثنا عنها آنفا .

وتستغرق هذه المرحلة من 15-60 دقيقة في كل من الأم المتعددة الحمل وكذلك الحامل في أول حمل " Primipara " . أي أن متوسط هذه المرحلة 30 دقيقة .

وباختصار فإنه بعد عملية ولادة الجنين بحوالى نصف ساعة ينقبض الرحم إلى حجم صغير جدا بحيث يحدث انفصال بينه وبين المشيمة .

ومن المعلوم أنه لولا رحمة الله التي جعلت الرحم ينقبض انقباضا شديدا بعد الولادة حتى يصير مثل الكرة لنزفت النفساء حتى الموت . . ذلك لأن فوهات دموية عديدة تنفتح بعد زوال المشيمة وتبقى الأوعية الدموية التي كانت تصل ما بين الرحم والمشيمة مفتحة وكأنها الجداول والأنهار . . . .

ولولا هذه الانقباضات الرحمية الشديدة لجرت الدماء من النفساء جريان الجداول

والأنهار .

ومن إعجاز الحق سبحانه وتعالى أن نظم عضلات الرحم بطريقة خاصة على شكل حرف " 8 " بحيث تضغط هذه العضلات على الأوعية الدموية وتقفلها . لذا فإن انقباض الرحم بعد الولادة يقفل الأوعية الدموية التي كانت تغذى المشيمة .

وبعد الولادة بأربعة أو خمسة أسابيع يعود الرحم إلى حجمه الطبيعي قبل الحمل . أما بقايا الجزء من المشيمة في جدار الرحم فإنه يتحلل وينزل إلى الخارج مدمما في البداية ثم أصفر اللون . وصدق الله العظيم إذ يقول في سورة فصلت :

) وما تحمل من أنثى ولا تضع إلى بعلمه (فصلت آية : (47)

(131/736)

مضاعفات الحمل والولادة

بالنسبة للأم : رغم التقدم العلمي الكبير في مجال الولادة إلا أنه لم يتمكن من إزالة جميع مخاطر الولادة وإن كان فعلا قد تمكن من خفض نسبتها . فهناك مجموعة من النساء يصبن بأمراض الكلى المزمنة وضغط الدم من جراء الحمل، وبعضهن يصبن بحالات تسمم للحمل .

أما مضاعفات الحمل خارج الرحم وما ينتج عنه من إنثقاب قناة الرحم مما قد يؤدى إلى وفاة

الأم فلا تزال نسبة الوفيات فيها عالية . ولا تزال بعض مضاعفات الولادة من تمزقات بعنق الرحم وانثقاب بالمثانة أو إنثقاب جدار المهبل . . وكذلك حدوث ناصور خلفي وأمامي . . الخ . ات عضلات العجان . . . الخ .

لا تزال هذه المضاعفات تؤدى إلى أمراض مزمنة . ورغم أن الطب استطاع أن يخفض من حالات حمى النفاس " Puerperal Sepsis" . . . إلا أنه لم يقض عليها حتى الآن في البلاد المتقدمة طبيا .

ولا تزال الأمراض النفسية وأمراض الكآبة تنتاب كثيرا من الحوامل والوالدات أثناء الحمل والنفاس . . هذا بالنسبة للأم .

أما بالنسبة للمولود :

فلا تزال الأمراض والعيوب الخلقية موجودة بل في ازدياد نتيجة استعمال بعض العقاقير، وكذلك نتيجة تدخين بعض الأمهات أثناء الحمل، ونتيجة شرب بعضهن (في البلاد الأوربية) للخمور . . . . .

ولا تزال مضاعفات الولادة المتعسرة عالية النسبة على الأطفال الذين يولدون بهذه الطرق المتعسرة ولم تنخفض نسبتها كثيرا خلال الفترة الماضية .

تيسير سبيل الولادة :

قال الله تعالى في سورة عبسى :

) قتل الإنسان ما أكفره، من أي شيء خلقه، من نطفة خلقه فقدره، ثم السبيل يسره (آية (17- 20)

ولعله من أحد المفاهيم التي تشملها الآية هو أن الله تعالى يسَّر للمولود سبيله عند خروجه من الرحم . . هكذا تبدو الرعاية الربانية للنطفة من بداية كونه نطفة ثم بعد اكتمالها في خروجها وتيسير سبيلها ثم تنتهي الدورة .

(132/736)

) ثم أماته فأقبره، ثم إذا شاء أنشره ((عبس : 21-22) . . فتمر بلقطات سريعة تبدأ بالنطفة وتنتهي بالحشر والنشر .

ومن إعجاز الله تعالى وقدرته في الخلق أن يمر الجنين في هذا الممر الضيق، وهو عنق الرحم والذي لا يسمح في العادة لأكثر من إبرة لدخوله، فيتسع ذلك العنق ويرتفع تدريجيا في مرحلة المخاض حتى يتسع إصبعا ثم إصبعين ثم ثلاثة ثم أربعة، فإذا وصل الاتساع إلى خمسة أصابع فإن الجنين يكون على وشك الخروج، ليس هذا فحسب ولكن الزوايا الموجودة بين الرحم وعنقه تنفرج لتجعل ما بين الرحم وعنقه طريقا واحدا أو سبيلا واحدا ليس فيه اعوجاج كما هو معتاد من حيث يكون الرحم مائلا للأمام بزاوية درجتها تسعين درجة

تقريبا . وفى الحمل يكون وضع الرحم مع الحمل بدون زوايا .

ثم يأتي دور الإفرازات والهرمونات التي تسهل عملية الولادة وتجعل عظام الحوض وعضلاته ترتخي وخاصة تحت مفعول هرمون الارتخاء . وهكذا تتضافر هذه العوامل جميعها لتيسر لهذا المخلوق سبيل خروجه

إلى الدنيا .

ولا يقتصر معنى تيسير السبيل على هذا وإنما يستمر ذلك التيسير بعد الولادة حيث ييسر الله تعالى للرضيع لبن أمه وحنانها ، ثم ييسر له عطف الوالدين وحبهما . ثم يستمر التيسير لسبل المعاش من لحظة الولادة إلى لحظة الممات . .

ولله الحمد على هذه النعم والآلاء التي لا تحصى ولا تعد

الولادة المبكرة :

ما هي الولادة المبكرة ؟ ؟ [3]

الولادة المبكرة هي حدوث الولادة قبل وصول الجنين إلى مرحلة النمو الكامل والمقدرة على المعيشة خارج الرحم . والطفل يصل إلى تمام المقدرة على المعيشة الطبيعية خارج الرحم بعد مرور 37 أسبوعا منذ أول يوم في آخر دورة (ثمانية أشهر وأسبوع) . . هذا إذا أخذنا باستمرار فترة الحمل . أما إذا أخذنا بوزن الطفل ساعة الولادة فإن الطفل يصل إلى

مرحلة تمام النمو والمقدرة على المعيشة الطبيعية خارج الرحم إذا زاد الوزن ساعة الولادة عن 2500 جم . .

(133/736)

وعلى هذا فإن الولادة المبكرة هي حدوث الولادة قبل ثمانية أشهر وأسبوع (37 أسبوع) أو ولادة طفل يقل في الوزن عن 2500 جم .

وفى كلتا الحالتين فإن الطفل لن يقدر على الحياة خارج الرحم ويحتاج إلى وجوده داخل الحضانة . . وفى حالة الولادة المبكرة فإن الطفل يسمى " الطفل المبتسر " .

مقومات البقاء داخل الرحم :

وفى هذا المجال فإنه يهمنا أن نشرح أن الطفل أثناء وجوده داخل الرحم يحتاج لمقومات معينة ليستمر في النمو ومن هذه المقومات مثلا : حصوله على الغذاء الكامل اللازم لنموه، ويتأتى ذلك عن طريق المشيمة (الخلاص) (Placenta) وكذلك وجود درجة حرارة مناسبة (حوالي 37 درجة مئوية وهى درجة حرارة الجسم) وكذلك بُعد الجنين عن أية مؤثرات خارجية وأهمها بعده عن الميكروبات وذلك بوجوده داخل الرحم مغلفا بالمياه ، وصدق الله تعالى حين قال :) فجعلناه في قرار مكين (. (سورة المرسلات (21

) .

رعاية الطفل المبتسر :

وعلى هذا فإذا تمت ولادة طفل مبتسر فيجب وضعه في الحضانة وهو جهاز يقلد (ولكن بكفاءة أقل) ما يحدث داخل الرحم فالجهاز يستطيع ضبط درجة الحرارة بما يناسب – الطفل المبتسر – وكذلك فإن الحضانة تبعد الطفل عن الميكروبات والجراثيم الموجودة في الجو، وغالبا ما يحتاج الطفل المبتسر بخلاف وجوده في الحضانة إلى استعمال بعض المضادات الحيوية التي تساعد على وقايته من الالتهابات .

أما عن تغذية الطفل المبتسر فإن ذلك يتم عن طريق الأوردة الموجودة في الرأس، أو الموجودة في منطقة الحبل السري، أو عن طريق أنبوبة توضع من الفم لتصل إلى المعدة .

ويقرر طبيب الأطفال المعالج ما يحتاجه الطفل المبتسر من الغذاء المناسب الذي يتكون غالبا من لبن صناعي أو محاليل الجلوكوز ومحاليل الأحماض الأمينية (البروتينات) وكذلك يجب إعطاء الطفل المبتسر جرعات مناسبة من الفيتامينات، إما عن طريق الحقن بالوريد أو بالعضل أو بالفم .

وأفضل الحالات التي تعطى أكبر فرصة للجنين للحياة هي :

1–خلو الأم من الأمراض مثل ارتفاع الضغط أو السكر في الدم .

2– أن يتراوح وزن الطفل عند الولادة ما بين 1700 جم إلى 2500 جم .

3– عدم تعرض الطفل لأية جراثيم أو ميكروبات .

4– خبرة الأطباء القائمين على رعاية الطفل المبتسر .

5– الأجهزة والإمكانيات الموجودة بوحدة رعاية الأطفال المبتسرين .

أسباب الولادة المبكرة :

أ – عند الأم

1– ارتفاع ضغط الدم

2– مرض السكر .

3– التهاب المزمن بالكلى أو الفشل الكلوي .

4– الحمل الخطر (الحمل قبل سن العشرين، وبعد سن الخامسة والثلاثين، والحمل المتكرر والمتقارب أو بعد الولادة الرابعة) .

5– الأمراض التناسلية (مثل الزهري وغيره) .

ب– أسباب في الجنين :

1– الحمل التوأمى .

2- وجود تشوهات خلقية في الجنين .

جـ- أسباب في الرحم والمشيمة والأغشية المحيطة بالجنين :

1- ضعف عضلات عنق الرحم .

2- أورام ليفية بالرحم .

3- عيوب خلقية بالرحم .

4- ضعف الأغشية : تنفجر الأغشية ويتسرب الماء الموجود حول الجنين ويفقد الطفل واحدة من أهم العوامل التي تحافظ على وجوده داخل الرحم .

وفى كثير من الأحيان لا يستطيع الأطباء تحديد سبب معين لحالات الولادة المبكرة كما أن كثيرا من حالات الولادة المبكرة تحدث بصفة متكررة أي يتكرر حدوث الولادة المبكرة في كل حمل .

التشخيص :

يعتمد العلاج على تشخيص السبب أولا . . وهذا لا يتم إلا بأن تحصل كل سيدة حامل على رعاية كاملة أثناء الحمل . . .

وهنا يجب الاستعلام الكامل عن التاريخ المرضى للأم والأسرة وكذلك التاريخ المرضى لجميع الولادات السابقة .

وبعد ذلك يتم الفحص الطبي، ثم يأتي دور التحاليل المعملية، وهى هامة جدا إذ يجب عمل تحليل بول كامل لنسبة الهيموجلوبين وفصيلة الدم وأيضا عامل الريسيس .

(135/736)

وقد يرى الطبيب عمل أية تحاليل أخرى قد يراها لازمة مثل تحاليل وظائف الكبد أو تحاليل وظائف الكلى كما أن فحص الموجات الصوتية للجنين هام جدا في هذه الحالات إذ أنه يساعد على :

1- تشخيص العيوب الخلقية بالجنين .

2- تشخيص ضعف عضلات عنق الرحم .

3- تحديد ميعاد الولادة وفترة استمرار الحمل .

4- تحديد بعض العيوب الموجودة في المشيمة .

5- تحديد الوزن التقريبي للطفل وهو داخل الرحم .

عامل الريسيس

يمكن شرح عامل الريسيس كالتالي :

عامل الريسيس هو جسم إضافي موجود على كرات الدم الحمراء، وهذا الجسم الإضافي

يوجد لدى 85% من الذكور والإناث وينعدم لدى 15% منهم .

وإذا وجد هذا العامل لدى شخص ما فإنه يسمى : إيجابي الريسيس وإذا لم يوجد سمي الشخص : سلبي الريسيس .

وحين تتزوج فتاة سلبية والريسيس من شاب إيجابي الريسيس وتحمل منه، ويكون الجنين إيجابي الريسيس كأبيه، تبدأ المشكلة لأن دم الأم السلبي الريسيس يعتبر عنصر الريسيس الذي ينتقل إليه بصفة مستمرة عن طريق المشيمة (الخلاص) جسماً غريباً عليه، وبالتالي يبدأ جهاز المناعة لدى الأم في تكوين أجسام مضادة . . .

هذه الأجسام المضادة تقوم أول الأمر بتكسير الخلايا الواصلة من الجنين ثم تقوى هذه الأجسام بعد فترة لتقوم بتكسير خلايا الجنين نفسه ومن هنا يعانى الجنين من الأنيميا ، والصفراء ، وهذان المرضان قد يسببان له الوفاة داخل الرحم، أو الولادة المبكرة والوفاة بعد الولادة مباشرة .

طرق العلاج :

ويجب أن نوضح هنا بعض الطرق المستعملة للعلاج ولو أنها لا يجب أن تتم إلا بإشراف طبيب نساء وتوليد متخصص له خبرة عالية :

1 – علاج أي أمراض موجودة في الأم .

2 – علاج أي نقص فيتامينات أو بروتينات عند الأم .

3- علاج الأنيميا أو فقر الدم .

4- استعمال حقن البنسلين طويلة المدى .

5- ربط عنق الرحم .

6- الراحة التامة في الفراش عند ظهور أي أعراض لحدوث الولادة المبكر أو طول فترة الحمل إذا استدعت الأمور .

(136/736)

7- استعمال بعض الأدوية الحديثة المهدئة للرحم . . . لكن هذا لا يجب أن يتم مطلقاً بإشراف الطبيب المعالج .

8- استعمال دواء " الكورتيزون " على أساس أن دواء " الكورتيزون " يرفع من كفاءة عمل الرئتين حتى يستطيع الطفل المبتسر التنفس السليم بعد الولادة . (وذلك لمدة ثلاثة أيام قبل تحريض الولادة) .

9- العلاج الجراحي قبل الولادة لإزالة الأورام الليفية أو إصلاح التشوهات الخلقية بالرحم .

وأحب أن أوضح هنا أن نتائج علاج الولادة المبكرة عادة ما تعطى نتائج ممتازة مما يؤكد على

ضرورة التعاون بين الأم الحامل وطبيبها الأخصائي وكذلك الزميل أخصائي الأطفال الذي لا يمكن الاستغناء عنه في مثل هذه الحالات .

الولادة المتأخرة

ما هي الولادة المتأخرة ؟

المقصود بالولادة المتأخرة كل ولادة بعد انقضاء وتمام فترة التسعة أشهر . فمدة الحمل عادة تقدر بأربعين أسبوعا (تسعة أشهر وسبعة أيام منذ أول يوم في آخر دورة شهرية) . . ولذلك فإن تأخر الولادة إلى ما بعد الأسبوع الثاني والأربعين من بداية الحمل تسمى ولادة متأخرة (ونسبة هذه الحالة تصل إلى 60% من جميع الولادات أي أنه في كل مائة حالة حمل هناك احتمال أن تلد ست سيدات بعد الأسبوع الثاني والأربعين) وفى هذه الحالة فإنه يكون هناك خطر على الجنين سواء إذا استمر حجمه في النمو أو إذا تضاءل حجمه وصغر وزنه، وذلك للأسباب الآتية :

§ في حالة استمرار كبر حجم الجنين وزيادة وزنه فإن هذا يؤدى إلى تعسر الولادة بسبب كبر حجم الجنين بطريقة لا تتناسب مع حجم عظام الحوض وحجم عضلاته .

§ أما في حالة صغر حجم الجنين وقلة وزنه فهناك أيضا خطر على الجنين .

§ إن المشيمة (الخلاص) التي تقوم بوظيفة إمداد الطفل بالطعام والغذاء تكون قد وصلت

إلى أقصى مداها عند نهاية الشهر التاسع ويبدأ بعد ذلك في المعاناة تماما مثل الكهل الذي وصل إلى قرب نهاية عمره فقلت كفاءته على القيام بوظائفه .

(137/736)

والحقيقة العلمية هي أن الرحم ليس في كل الحالات أفضل مكان للجنين، فهناك حالات يكون فيها الأفضل للجنين إخراجه من الرحم حتى ولو بدون اكتمال مدة الحمل أو بدون انتظار البدء الطبيعي للولادة، ومن هذه الحالات حالة استمرار الحمل بعد 42 أسبوعا إذ أن هذا يشكل خطرا كبيرا على الجنين .

شكل الطفل المولود بعد 42 أسبوعاً :

والواقع أن الطفل الذي يولد بعد الأسبوع الثاني والأربعين من بداية الحمل له مظاهر معينة :

1- له أظافر طويلة تتعدى طول الأصابع .

2- غزير شعر الرأس .

3- يبدأ الجلد في فقدان الطبقات السطحية منه .

4- تقل المادة الورنيشية حول الجنين .

5- يقل حجم السائل الأمينوسى الموجود في الرحم .

6- تبدو تغيرات الوجه مثل تغيرات شخص هرم عجوز .

7- بعد الولادة يعانى هذا الجنين من ضيق التنفس، وقلة نسبة السكر في الدم .

وهذا الطفل يجب مراعاته مراعاة كاملة كما لو كان طفلا ناقص النمو وكثيرا ما يحتاج إلى وضعه في الحضَّانة وفى حالة اكتشاف الطبيب أن الحمل قد تعدى الأسبوع الثاني والأربعين فإنه يجب عليه في هذه الحالة القيام بما يسمى تحريض الولادة .

تحريض الولادة :

يعنى عدم انتظار البدء الذاتي أو آلام الولادة ذلك بعمل طلق صناعي . . . وهو صناعي من حيث أن السبب فيه ليس الطبيعة الذاتية للرحم وإنما لأنه ينتج من تدخل الطبيب .

ويمكن للطبيب عمل تحريض الولادة أو الطلق الصناعي بإعطاء محلول الجلوكوز وبداخله دواء معين يقوم بالتأثير على الرحم فيحدث طلقاً مماثلاً تماماً للطلق الطبيعي للرحم . . .

وفى العادة فإن الولادة تسير سيراً طبيعياً وتنتهي بولادة طبيعية في أغلب الأحوال . . .

وكذلك قد يقوم الطبيب أحياناً بفتح جيب المياه الموجود حول الطفل إذ أن هذا يساعد على تقوية الطلق تأكيداً لحدوث الولادة الطبيعية، لكن في بعض الحالات قد يرى الطبيب أن مصلحة الجنين أو الجنين والأم هي التوليد العاجل وعليه يضطر الطبيب إلى التوليد بالعملية القيصرية .

والتوليد بالقيصرية في الطب الحديث لا يجب أن ينظر إليه على أنه كارثة لا قدر الله . . .

إذ أن نسبة الأمان في عمليات القيصرية الآن عالية ولا تقل تقريباً عن نسبة الأمان في الولادة الطبيعية . . . بل أن بعض أطباء الولادة يعتبرون أن عملية القيصرية هي مجرد طريقة من طرق الولادة وهم يقولون أن هناك طريقتين يمر بهما الجنين قبل الخروج إلى حياتنا الدنيا :

§ الطريقة الأولى : هي طريق المهبل من أسفل على نحو ما ذكرنا .

§ والطريقة الثانية : هي طريق البطن من أعلى .

هذا الكلام سليم منطقياً ودقيق علمياً ، وأحب أن أعرف سيداتنا بأن الولادة عن طريق المهبل في حالات معينة قد تكون ضارة للجنين أو للأم أو لكليهما معاً وفى هذه الحالة فلا يجب التردد مطلقاً في اختيار الطريق الآخر الذي " سيكون في هذه الحالات " هو الطريق الأكثر أماناً وهو طريق البطن من أعلى وذلك بإجراء العملية القيصرية .

والموضوع يمكن أن يكون بالبساطة التي يقول بها أحد المرشدين السياحيين لمن يريدون السفر إلى الخارج مثلاً أن أمامكم السفر عن طريق البر بالباخرة أو عن طريق الجو بالطائرة وعلى كل أن يختار أنسب الطرق أي الطريقة التي تتلاءم ظروفه المالية وحالته النفسية والوقت المطلوب منه وجوده في مكان الوصول .

وكما أن اختيار طريق ووسيلة السفر يهدف إلى سلامة الوصول وفى الوقت المناسب –

فإن الهدف في الولادة هو سلامة الأم والجنين بغض النظر عن اختيار طريق المهبل والولادة الطبيعية، أو البطن والولادة القيصرية طالما سنضمن الوصول إلى الهدف النهائي وهو سلامة الأم والجنين .

كلمة أخيرة :

(139/736)

بالرغم من أن فترة الحمل الطبيعية تسعة أشهر، وبالرغم من أن الأطباء يحتسبون فترة الحمل 280 يوما في المتوسط من أول أيام الحيض السابق للحمل مباشرة . . إلا أنه لوحظ أن الولادة لا تتحدد في اليوم المرتقب، فقد تسبق الحامل هذا التاريخ أو تتأخر عنه بأيام قليلة أو كثيرة . . . وهكذا بالرغم من دقة الحسابات وتقدم الكشف . . . وبراعة الطب . . . وموالاة الفحص فإنه يستحيل تحديد يوم الوضع إذ لا دخل للحامل ولا للطب فيه . . . وينتظر الطبيب كما تنتظر الحامل أمر الله بالولادة

" ألا جلت قدرتك وتعالت عظمتك يا الله " ؟

(1) انظر مقالنا بمجلة الوعى الإسلامى " الكويتية –العدد (340) .

(2) أقصد المساعدة فعلاً لأن الطبيب لا يقوم بعملية التوليد فهي عملية فسيولوجية

نظمها الخالق تبارك وتعالى . . . وكل ما على الطبيب أن يقوم بتشجيع (الوالدة) على تحمل الألم وأن يرشدها إلى محاولة التنفس الطبيعي والاسترخاء بين النوبات المتكررة للطلق . . . وكذلك يوجهها إلى الطريقة الصحيحة لعملية (الحذق) . . . ويقوم بتسهيل سبيل الخروج للجنين من الرحم . . . د . محمد السقا .

(1) أنظر كتاب "الولادة المبكرة والولادة المتأخرة" تأليف د . عادل القاضي –وزارة الصحة المصرية –مشروع السكان الثاني .

.

.

.

0–آيات الله في كلية الإنسان

أعظم منظم ومرشح للسائل الحيوي في العالم

بقلم الدكتور نظمي خليل أبو العطا

حديثنا اليوم عن أعظم مرشح ومنظم للسائل الحيوي في العالم، إنها كلية (kidney) الإنسان، تلك الكلية التي تحافظ على الاتزان (Homeostasis) في الجسم البشري عن طريق :

- استخلاص المواد الإخراجية من الدم وإخراجها في البول .

- تخليص الدم من الماء الزائد ، وبذلك تحافظ على نسبة الماء في الدم ثابتة مما يثبت الضغط الأسموزي (Osmotic pressior) للدم .

- المحافظة على مكونات الدم الرئيسة مثل خلايا الدم والجلوكوز والأملاح وغيرها .

(140/736)

- المحافظة على التوازن الحامضي القاعدي للدم بحيث تجعل الأس الأيدروجيني ph الدم عند مستوى (4,7) وذلك بإعادة امتصاص الصوديوم والبوتاسيوم والبيكربونات والفوسفات .

كما تحافظ الكلية على التأثير الأسموزي للدم وإحداث التوازن بين المحتوى الملحي للدم والمحتوى الملحي للخلايا وإخراج الكميات الزائدة منه .

وكل هذه العمليات المعقدة والضرورية لحياة الإنسان تتم في كليتي الإنسان ذات الشكل الكلوي المعهود والتي يغذيها الشريان الكلوي (Renal artery) الذي يدخل إلى الكلية ويتفرع فيها ليمر جميع الدم على وحدات الترشيح والتنقية في الكلية ويخرج فيها الوريد الكلوي (Renal vein) الذي يحمل الدم المنقى بالكلية ليصب في الوريد

الأجوف السفلي الذي يصب في القلب ويخرج من كل كلية أنبوب ضيق يسمى بالحالب (ureter) ينقل البول وما يحتويه من الكلية إلى مخزن البول وهو المثانة البولية (Urinary bladder) وتخرج من المثانة قناة مجرى البول (Urethra) الذي يحمل البول بعيدا عن الجسم .

وإذا أردت أن تعرف عظمة الخالق في الشكل الظاهري للجهاز البولي السابق وصفه عليك أن تنظر إلى جمال جسم الإنسان وعدم رؤية كل هذه المجاري فهي قد وضعت بإتقان وحكمة وجمال واتزان داخل جسم الإنسان .

وإذا أردت المزيد قم بزيارة إلى قسم المسالك البولية في إحدى المستشفيات لترى العجب العجاب لمن يعانون من مشكلات في الكلية والمثانة والعضلات المتحكمة في البول لتشكر الله على هذا الوضع الدقيق والأنيق والنظيف والمبدع للكليتين والحالبين والمثانة وتجميع البول وإخراجه .

وقد أحاط الله سبحانه وتعالى الكليتين بكمية من الدهن المثبت والمحيط بها يتلقى عنهما الصدمات ويحميهما ويثبتهما في مكانهما أثناء المشي والجري واللعب والاستحمام، والقفز، والجلوس والنوم، والصلاة ، ولعب الرياضة وباقي مناشط الحياة .

(141/736)

أما التركيب التشريحي والداخلي للكلية فإنها من بدائع صنع الله وخلقه حيث تحاط الكلية من الخارج بالقشرة (Cortex) المحتوية على أجسام صغيرة كروية الشكل تظهر كالحبيبات تسمى كريات ملبيجي (Malpghiam corpusles) تصل عددها إلى حوالي مليون يخرج منها أنابيب تسمى بالأنابيب الكلوية (Renal tubules) توصل كريات ملبيجي بحوض الكلية (Renal pelvis) .

وتنقسم تلك الأنابيب الكلوية في منطق القشرة إلى :

الأنابيب الملتفة القريبة (proximal convoluted tubules) والأنابيب الملتفة البعيدة (distal convoluted tubules) .

ويلي القشرة منطقة النخاع (Medulla) وهي المنطقة الوسطى في الكلية ، وتظهر فيها خطوط طفيفة مستقيمة هي الأنيبات الجامعة (collecting tubules) تنتهي على شكل هرمي يسمى بأهرامات ملبيجي (Pyramids of Malpighi) تفتح في نهايتها الأنيبات الجامعة .

ويلي النخاع للداخل حوض الكلية (Pelvis) وهو المنطقة الداخلية من الكلية، وهو تجويف متسع تصب فيه الأنيبات الجامعة قطرات البول، ومن هذا التجويف يحمل الحالب البول إلى المثانة حيث يخزن إلى وقت إخراجه والتخلص منه .

وتحتوي الكلية حوالي مليون وحدة فسيولوجية تسمى بالنفرون (Nephron) وإذا فردنا نفرونات كل كلية يصل طولها إلى 380 متر يدور فيها الدم لاستخلاص البول والمواد الأخرى منه .

صورة توضيحية لآلية عمل النفرون فتأمل خلق الله سبحانه وتعالى

ويتكون كل نفرون من جزء متضخم يسمى محفظة يومان (Bowmans capsule) يحيط بكمية متجمعة غزيرة من الشعيرات الدموية تسمى بالكلبة أو الجمع (Glomerulus) ويسمى الجمع والمحفظة بكرية ملبيجي (Malpighian corpuscle) تخرج من كرية ملبيجي أنبوبة دقيقة هي الأنيبة البولية (uriniferous tubule) توصل كريات ملبيجي بحوض الكلية وتنقسم الأنيبة البولية الواحدة إلى الأجزاء التالية :

(142/736)

1- الأنيبة الملتفة القريبة (Proximal convolvulated) (PCT tubule) تقع قريبا من كرية ملبيجي في منطقة القشرة .

2- الفرع النازل على شكل حرف U تسمى لفة هنل Loop of Henel يتجه للنخاع.

3- الفرع الصاعد من لفة هنل الذي يتجه مرة أخرى إلى الخارج في منطقة القشرة.

4- الأنيبة الملتفة البعيدة (Distal convoluted tubule) (DCT)

وهي أنبوبة ملتفة في منطقة القشرة.

5- الأنيبة الجامعة (collecting tubule) :

وهي أنبوبة مستقيمة تصب فيها الأنيبة الملتفة البعيدة وتوجد في منطقة النخاع تتحد هذه الأنيبات مع أخرى اكبر واكبر وتصب في النهاية في نهاية هرم مالبيجي.

وهذا التركيب الدقيق لم يخلق عبثا ولكنه خلق لغاية مقدرة وبحكمة بالغة تتضح في كيفية عمل الكلية.

تكوين البول :

يتكون البول في الكلية في عمليات ثلاث رئيسة هي :

1- عملية رشح لبلازما الدم تحت ضغط خلال الشعيرات الدموية في كرية ملبيجي.

2- عمليتا إعادة امتصاص وإفراز تقوم بهما خلايا الأنيبة البولية ينتج عنها تكوين البول في شكله النهائي.

1- عملية الرشح تحت ضغط (Ultera-filtration) :

وهي الخطوة الأولى في تكوين البول وتتم في كريات ملبيجي في منطقة الجمع أو الكبة التي يتجمع فيها أعداد كبيرة من الشعيرات الدموية الذي يجعل سطح الرشح كبيرة جدا حيث تنتقل المواد الموجودة في بلازما الدم تحت الضغط إلى تجويف محفظة بومان وقد تلاءم تركيب كريات ملبيجي مع وظيفته من رقة الجدر وكثرة الالتفاف .

فمن هيأ هذا التركيب المعجز لهذه الوظيفة المعجزة التي يتوقف عليها حياة الإنسان ؟ (قال ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى) .

(143/736)

وقد هيأ الله سبحانه وتعالى قوى الضغط الهيدروستاتي للدم والضغط الأسموزي وضغط الأنسجة للقيام بهذه الوظيفة حيث يساوي الضغط داخل الكلبة 70 مجم/زئبق ويؤدي ارتفاع الضغط هنا إلى دفع المواد الموجودة في بلازما الدم إلى تجويف محفظة بومان وبذلك تتلاءم كريه ملبيجي مع الوظيفة التي خلقت من اجلها وهنا ترشح كل مكونات بلازما الدم ما عدا البروتين فهو يحتوي : الماء والجلوكوز والأملاح والفضلات النيتروجينية وأي مواد أخرى في بلازما الدم كبقايا الأدوية يمكن نفاذ جزيئاتها مع الرشيح الذي يسمى برشح الكلبة (Glomerular filtrate) أو سائل المحفظة (capsular

fluid) والذي يصل حجمه إلى 180 لتر في اليوم الواحد .

2-عمليتي إعادة الامتصاص (Reabsorption) :

أ عملية إعادة امتصاص بالانتشار Diffusion والنقل النشط (Active transport)

ب عملية الإفراز (secration) :

حيث يتم إرجاع 99% من الماء الراشح إلى الدم ويسمح فقط بخروج 1% من الماء إلى البول وتقوم خلايا الأنيبة الملتفة القريبة بهذا الامتصاص والإرجاع للماء . وتمتص خلايا الأنيبة القريبة أيضا الجلوكوز والبوتاسيوم وبعض الصوديوم والفوسفات والبيكربونات والأحماض الأمينية والبروتينات التي قد تنفذ إلى تجويف محفظة بومان .

من هنا فان البول غير المرضي لا يحتوي الجلوكوز .

وللكلية حد أقصى لامتصاص السكر بما يسمى بالعتبة الكلوية (Renal threshold for glucose) وهي كل ما زاد عن 150 ملجم جلوكوز في الدم فان زاد تركيز الجلوكوز في البول عن العتبة الكلوية أي 150 ملجم فانه يظهر في البول ويحتاج طرد هذه الكمية إلى كميات زائدة من الماء وهذا ما يحدث عند الإصابة بمرض البول السكري (Diabetes mellitus) .

وفي لفة هنل (loop of Henle) تنشط خلايا اللفة لامتصاص الماء وإفراز وتركيز البولينا لذلك يصبح سائل الأنيبة مركزا بعد عبوره لفه هنل .

(144/736)

وتحدد الأنيبة الملتفة البعيدة كمية الصوديوم النهائية التي سوف تمتص، كما يحدد هذا الجزء الحجم النهائي للبول وينظم هذه العملية هرمون إدارة البول ADH (Antidiuretic hormone) يفرز من سرير المخ Hypothalamus وقشرة الغدة الكظرية Adrenal cortex وبذلك يصل البول إلى حجمه وتركيبه النهائي .

وإذا اختل عمل الكلية في الترشيح وتنظيم مكونات البول والدم احتاج الإنسان إلى عمليات غسيل الدم باستمرار وهذا شئ مكلف ومجهد كفى الله الكثير من عباده أعباءه المادية والنفسية والصحية والاجتماعية .

لذلك كان عمل الكلية من العمليات المعجزة في جسم الإنسان وعلى العبد أن يحمد الله على هذه النعمة التي تساوي ملايين الملايين من الدولارات ولا تكافأ بمال الدنيا فالحمد لله رب العالمين

المصادر :

- كتاب أساسيات عامة في علم الفسيولوجيا ، رشدي فتوح عبد الفتاح، دار السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع (1988م) (ص377)

- كتاب الأيض والاتزان (1) ،نظمي خليل أبوالعطا موسى وآخرون مملكة البحرين : إدارة المناهج

- Biology, life on earth, Teresa Aduesirk and Gerald Audesirk (p : 642)

- The complete Illustrated medical hand book, Mervyn Lloyd M.D and Joan Gomez M.D, new burington books : London (p : 91)

.

.

.

0-حديث الدموع سياحة علمية حول أسرار البكاء والدموع

الدكتور محمد السقا عيد

مقدمة :

هذه السوائل التى تخرج من مآقينا حينما تُلم بنا الأفراح والأتراح ما كنهها وما حقيقتها ؟ ؟

إنها ليست إلا سائلاً غامضاً يجعل البريق في عيوننا يستمر، إنها الدموع . . .

وما أدراك ما الدموع ؟

لقد أجريت الأبحاث الحديثة على هذا السائل لفهم تركيبه ومحتوياته ومازال العلم يخبئ في جعبته الكثير والكثير عنه مما لا نعرفه .

والآن تعال معي – عزيزي القارئ – في جولة قصيرة لنقف سوياً على بعض مظاهر الإعجاز التى توصل إليها العلم بخصوص هذا السائل الرقراق .

إضاءة

(145/736)

هذه القطرات المتلألئة التى تترقرق في العين عندما تجيش النفس بشتى الانفعالات، هل خلقت عبثاً ؟

لقد قيل إن الدموع سلاح المرأة عندما تضعف الكلمة عن البيان وتقصر الحجة عن

الإيضاح، يراها البعض ضعفا مهينا ، ويراها آخرون تنفيساً وترويحاً ويحسبها البعض في عيون المسنين انكسارا وتسليما 0 هذه الدموع لعل بها أسراراً كثيرة اكتشفها العلماء وأسراراً أخرى مازالت طي الخباء تنتظر أن يطلقها المستقبل 0

فهل لك – عزيزي القارئ – أن تستزيد معرفة عنها لتعرف أنها ما خلقت عبثا أنها من أكثر الدلالات وضوحا وكشفا لتعابير إنسانية شتى . . . عندما يعترى النفس الحزن والألم والفرح . . . الخ

هل البكاء عيب ؟

عرف البكاء منذ فجر التاريخ وارتبط بمشاعر الإنسان، وهو شائع في مختلف الأعمار والأجناس والبيئات، ولعل من الأخطاء الشائعة اعتبار البعض البكاء دليلاً على ضعف الإنسان مع أنه عملية طبيعية يجب أن لا نخجل منها ، وذلك لأنه استجابة طبيعية لانفعالاتنا الداخلية، ويكفى أن نعلم أننا جميعاً إذا تعلمنا كيف نجعل دموعنا تسيل فإننا بذلك نكون قادرين على التخلص من بعض أدويتنا ، وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال مُلِح وهو . هل البكاء عيب ؟ وهل التعبير عن المشاكل والانفعالات ضعف ؟

ينصح العلماء بالتعبير والإفصاح عن الأفعال وعدم كبتها حيث وجد العلماء أن البكاء يريح الإنسان من الضغوط المُعرض لها إذ يُخلِّص الجسم من الكيماويات السامة التى تكونت نتيجة الضغوط والانفعالات .

فالدموع تغسل العين وتنظفها من كل جسم غريب وضار بها ، فهي تعمل كأحد أنظمة طرح النفايات خارج الجسم .

أما كبت الدموع وعدم إظهار الانفعالات فإنها تؤدى إلى الكثير من الأمراض . . . مثل الطفح الجلدي أو إصابة الجهاز التنفسي أو الجهاز المعوي أو المعدي مثل قرحة المعدة أو إصابة القولون .

فالإنسان الذي يبكى هو الذي يُمزِّق كل الأقنعة وكل الاعتبارات وكل الأدوار الاجتماعية .

(146/736)

وقد أثبتت الإحصائيات أن البكاء يختلف باختلاف المجتمعات . . . فهناك شعوب لا تبكى كثيراً مثل الشعب الفرنسي الذي لا يبكى فيه إلا 8% فقط والسبب الحب ! .

دموع . . . ودموع ! !

هذه السوائل التى تخرج من مآقينا حينما تُلِّم بنا الأفراح أو الأتراح ما كنهها ؟ وما حقيقتها ؟ ؟ إنها ليست إلا سائلاً غامضاً ساحراً يجعل البريق في عيوننا يستمر . إنها الدموع . . . وما أدراك ما الدموع ؟

وهى أنواع . . . فهناك دموع الآلام . . . ودموع الإثارة والانفعال . . . ودموع التماسيح . . . والدموع الطبيعية التى تُذرف نتيجة بعض التهيجات العضوية في العين . وهناك الدموع الصِّحية وهى دموع إجبارية وثابتة في نوعيتها وكميتها ، كما أنها تخرج بسرعة عن طريق الفم، وليس هناك أدنى خوف من هذه الدموع التى تذرفها العين بغزارة . وإنما الخوف كل الخوف من العين (الجافة) . . .

وهى تلك العين التى لا تذرف الدموع والتي دُربت على عدم البكاء وتخاف من الوقوع زلة له . . . وعوضاً عن ذلك تقع فيما هو أسوأ وهو الإصابة بقرح مُعدية . . . ولهذا السبب نجد أن نسبة الرجال الذين يصابون بهذا المرض بل بالعديد من الأمراض يفوق نسبة النساء اللاتي يصبن به .

وقد أجريت الأبحاث الحديثة على هذا السائل لفهم تركيبها ومحتوياتها . وقد بدأ الباحثون في فهم عملية الدموع منذ حوالي خمسة عشر عاماً ،فالدموع تركيبة كيماوية معقدة ؟ وهى سائل ملحي المذاق . . . تفرز من غدد بالعين تُسمى بالغدد الدمعية LACRIMAL GLAND .

وتوجد في كل عين غدة دمعية من أعلى خلف الجفن، وهى في حجم اللوزة، وتفرز السائل خلال قنوات صغيرة عديدة في الجانب الأسفل من الجفن . . . من (10 – 15 قناة صغيرة تفتح على سطح الملتحمة المغطى للفص الجفني العلوي) .

سؤال وجواب :

ومن هنا يجئ التساؤل عما إذا كانت هناك علاقة بين عدم ذرف الدموع والإصابة بالمرض ؟

(147/736)

والإجابة بالطبع : كما يقول العالم الأمريكي (وليم فرى) : " بدون شك فالدموع تعمل على إخراج المواد السامة التى تولدها بعض حالات الانفعال . ولذا فإن حبس الدموع يُعرض الإنسان للإصابة بالتسمم البطيء " .

علاوة على ما ذكرنا آنفاً من تعرّضه للإصابة بالقرح المعدية وغيرها من الأمراض التى سنتحدث عنها لاحقاً في حينها .

إفرازات الدموع

تومض العين ست عشرة مرة في الدقيقة، ومع كل ومضة لجفن العين فإنها تسحب قليلاً من سائل الغدد . وعندما يشعر الإنسان ببعض الانفعال مثل الحزن أو الغضب أو السعادة البالغة تضيق العضلات التى حول الغدد الدمعية وتعصر السائل الدمعي .

ويحدث الشيء نفسه إذا ضحك الإنسان من أعماقه . . . وبمرور الدموع فوق مقلة العين

تنساب خلال قناة دمعية تفتح في الركن الداخلي من كل عين وتقود إلى جيب دمعي . . . ثم إلى مجرى أنفي . . . وتجرى هذه القناة على امتداد الأنف ثم تفتح داخلها . ولعل هذا يُفسر سيلان الأنف عند جريان الدموع من هذه الفتحة .

طبقات الدموع

إذا نظرنا إلى الدموع من الناحية التشريحية . . . نجد أنها تتكون من طبقات، فقد توّصِل الباحثون إلى أن العين مُغطاة بثلاث طبقات من الدموع .

- طبقة ميكويد (inner mucin layer) (Mucoid) : وهى التى تُمكِّن الدمع من الانتشار على القرنية، وهى تأتى من خلايا على سطح العين .
- طبقة مائية متوسطة : (Midlle aqueous layer) : وهى التى تحفظ سطح العين مبللاً والرؤية سليمة .
- الطبقة الثالثة (Outer lipid layer) : وهى طبقة خارجية زيتية من المُعتقد أنها تعوق التبخر وهى تُفرز عن طريق غدد صغيرة على حواف الجفن .

وكما أن الدموع طبقات من الناحية التشريحية فهي كذلك طبقات من الناحية الفلسفية . . . فالنساء تملك نسبة 67% من مجال إمكانية تساقط الدموع في كل الأوقات والمناسبات حتى السعيدة منها . . . كما أن نسبة 62% ممن يعملون في الزراعة والأرض لا يعرفون الدموع .

أما أصحاب المراكز العليا فنسبة صفر % إلى 23% فقط هم الذين يمكن أن تنزل دموعهم لأسباب هامة وخاصة جداً .

والدراسة التى أثبتت ذلك تؤكد أنه بتلك النسب فإن البشر في نهاية هذا القرن سيعانون (من الأمية) في الأحاسيس والجهل بالمشاعر .

آخر الدراسات النفسية عن الدموع :

خلصت هذه الدراسات إلى بعض الحقائق الهامة التى تهمنا في بحثنا هذا والتي سنورد منها ما يلي :

o يتجدد فيلم الدموع داخل عينيك (13 ألف مرة) في اليوم الواحد . . . لذلك من لا يبكى أبداً ولا تتساقط دموعه فإنه يعانى حقاً من ظاهرة مرضية غير طبيعية .

o هناك شعوب لا تبكى كثيراً . . . مثل الشعب الفرنسي الذي لا يبكى منه إلا 8% .

o الذي يبكى هو الذي يُمزق كل الأقنعة والاعتبارات وكل الأدوار الاجتماعية .

o إذا أحببت هذا النبع الغامض (الدموع) فإنك تمسح قسوة نفسك على نفسها ، وبالتالي على بقية البشر . . . لذلك دائماً يقولون : " إن من لا يعرف الدموع لا يعرف الرحمة " . وإن

الذي لا يبكى عندما يتألم فإنه يتألم أكثر لأنه يشعر بالألم مرتين .

o الانفعالات المؤلمة والعنيفة لابد وأن تظهر من خلال العينين، وهى دائماً ما تكون أقوى من أي حوار صادق لأنها عبارة عن عبارات تترجم نبضات القلب تجاه الموقف .

إن نقطة الدموع التى تنساب من العين يومياً وبطريقة آلية ضرورية جداً لنظافة العين وتشحيمها . . . وإن اختلاج الجفون الذي يحدث ما بين عشر مرات إلى خمس عشرة مرة في الدقيقة يعمل على توزيع الدمعة بالتساوي على قرنية عين الإنسان الطبيعي الذي يبكى حينما يشعر بذلك ولا يحبس الدموع .

ومن المؤكد أن الدموع لم تعد تُوزع كما يجب منذ أن أصيب الإنسان بحالة مرضية سميت (مرض التمساح) . . . وهو البكاء بغزارة كلما جرى المضغ .

ابك بدون خجل :

(149/736)

الدموع هي إهداء النفس للنفس، وعندما تبكى بدون خجل فقد وصلت إلى قمة النضج النفسي والذهني . . . فالدموع البشرية تروى النفس وتغذيها . . . ويفرز الإنسان العادي بمعدل ثابت حوالي نصف لتر من الدموع في العام أي بمقدار 1.5 سم مكعب في اليوم .

مكونات الدموع :

وأنت – عزيزي القارئ – إذا حلَّلت الدموع هذا السائل فإنك ستجد مكونات راقية جداً هي : الأكسجين والصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والماغنسيوم والأمونيا والآزوت وفيتامين ب 12 وفيتامين (ج) والأحماض الأمينية والحديد والنحاس والزنك والمنغنيز والكلورين والفسفور والبيكربونات وحمض البوليك والإنزيمات وستون نوعاً من البروتينات .

- ويؤلف الماء 98 – 99% من السائل الدمعي، أما التوتر السطحي فيبلغ 0.6 – 0.7 من توتر الماء السطحي والمشعر الانكسارى 1.337 .
- وتوتر الدمع يماثل توتر البلازما الدموية والضغط الحلوى فيها 0.9% من كلور الصوديوم عندما تكون العين مغلقة، 1% عندما تكون العين مفتوحة لذلك تتألم العين إذا وضعت فيها محاليل تزيد أو تنقص في الضغط الحلوى عن الدمع
- ولهذا السبب فعلى مصانع الأدوية أن تراعى دقة الضغط الحلوى في الفلزات والمراهم العينية
- أما البوتاسيوم فيزيد في الدمع أضعافاً عما في مصل الدم
- والكلور يزيد في الدمع قليلاً جداً عن سبته في مصل الدم
- ويميل الدمع قليلاً نحو القلوية .

هذه المكونات تزداد تعقيداً عند ملامستها للأغشية المخاطية في القناة الدمعية فيضاف إليها الدهنيات والسكريات والأحماض الأمينية، كذلك الإفرازات الدهنية الغنية بالكولسترول وثلاثي الجلسرين . . . وكل هذه الإفرازات تغذى العين بأكملها وتحميها من الالتهابات عند البكاء .

مناسبات الدموع

تتفاوت مناسبات الدموع بين البشر . . . فهناك نسبة من البشر يبكون عند مشاهدتهم للفيلم التليفزيوني أو السينمائي، ونسبة أخرى عند فراق الأحبة، ونسبة عند المشاجرة مع الأزواج، ونسبة عند سماع الموسيقى .

(150/736)

أما بقية البشر والتي نسبتها 51% في بعض الشعوب المتقدمة فإنهم لا يبكون أبداً . وتكاد تبكى نتائج هذه الدراسة الفرنسية وهى تعلن أن الأمل الوحيد في زيادة نسبة البكاء وزيادة الدموع لن يكون إلا عند النساء والشباب الصغير .

هذا لأن نسبة 61% ممن تتراوح أعمارهم بين 15 عاماً و24 عاماً يُعتبرون أرضاً خصبة لإمكانية تساقط الدموع فيها . . . أما الأرض الجرداء التى تنعدم فيها فرص

الدموع فهي أرض من بلغت أعمارهم الخامسة والثلاثين وحتى التاسعة والأربعين . ويبدو أن هؤلاء قد جفَّت دموعهم من إثر فزع الحياة المبكر . . .

وتتعرض الدراسة لمن يحترفون الدموع فتقول : إن للدموع مهاماً خاصة وتحت الطلب فقد كان من تقاليد الموت والعزاء استدعاء " النَّدابة " التى تأتى خصيصاً وبعد أن تقبض الثمن لتبكى وتصرخ وتقطع في شعرها حزناً وكمداً وألماً على الفقيد الذي دفع لها أهله ثمن الحزن عليه .

دموع التماسيح :

المعروف والثابت علمياً أن الحيوانات لا تعرف الدمع أبداً (الناتج عن الشعور بالألم الروحي) ، فالحيوانات لا تبكى أبداً بالرغم من أنهم يملكون قنوات دمعية ولديهم دموعا ولكنها لا تظهر إلا لأسباب عضوية بحتة إذا هيجت النهايات الحسية العصبية في عينيها . . . مثل ترطيب العينين، ولكنها لا تبكى مثلنا أبدا من أجل المشاعر وأحاسيس معينة .

وهنالك حيوانات لا يُستثار دمعها أبداً كالتماسيح التى امتنعت استثارة الدمع فيها على العلماء والباحثين مع أن التشريح أثبت وجود غدد دمعية متكاملة لديها . لذلك كان مثل " دموع التماسيح " مجانباً للدقة .

وفى رأيي أن عبارة " دموع التماسيح " هذه تطلق على الإنسان الغير صادق في مشاعره

أو الذي يصطنع البكاء في المواقف التى تحتاج البكاء والتحزن الذي يعقبه عذر وإفك، تماماً كالتماسيح (التى ينزل الدمع بغزارة من عينيها كلما جرى المضغ) مع أن المعروف عنها عدم البكاء .

قال ابن المعتز :

ثم بكوا من بعده وناحوا

(151/736)

كذباً كما يفعل التمساح

وفى النهاية أعلنت الدراسة أن الخوف كل الخوف أن تكون خطوات الإنسان تتجه في نهايات هذا القرن إلى تصرفات الحيوان الذي يجهل معنى الدموع والذي يتألم حتى دون أن يستطيع التعبير إلى أن يموت الألم بداخله، وقانا الله شر ذلك .

لما تبكى المرأة أكثر من الرجل ؟ ؟

يعتقد البعض أن البكاء بالنسبة للرجل إشارة إلى ضعفه، لهذا فالرجل أقل بكاء، وقد أيد ذلك بعض العلماء، إلا أنهم وجدوا حديثاً أن هرمون " البرولكتين Prolactin "وهى المادة الضرورية في تكوين الدموع موجودة بنسبة كبيرة في المرأة عنها في الرجل .

وهذه الحقيقة توضّح أن المرأة لديها قابلية طبيعية للبكاء أكثر من الرجل . . . ولعل السؤال السابق يجر سؤالاً آخر ربما يلقى لنا الضوء على حقيقة أخرى . . . وهذا السؤال هو :

لماذا يميل الرجل إلى عدم البكاء ؟ ؟

إذا تسللنا إلى أعماق الرجل نراه يجد صعوبة كبيرة في التحدث أو التعبير عن مشاعره الدفينة وأسباب ذلك كثيرة . . . فالبعض تعلم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة أنه لا يليق بالرجل أن يعبر عن مشاعره علانية وبخاصة مشاعر الألم حيث يعتبر ذلك ليس من الرجولة .

كذلك فهناك مجتمعات لا تحترم الشخص الذي يبكي وتُعلِّم أبناءها منذ الصغر أن البكاء للأطفال والضعفاء فقط . وعلى عكس ذلك فهناك مجتمعات أخرى تعبِّر عن انفعالاتها بشكل ملحوظ ولا تستطيع السيطرة على مشاعرها أو التحكم في دموعها .

(152/736)

ويعتقد البعض الآخر أن التعبير عن الألم يُظهر نقص الإيمان بالله تعالى . وهذا اعتقاد خاطئ لأنه على العكس والنقيض من ذلك . . . فالبكاء عند سماع الموعظة أو عند التأثر بموقف معين هو صميم الإيمان بالله تعالى . . . يقول الحق سبحانه وتعالى (تولوا

وأعينهم تفيض من الدمع ألا يجدوا ما ينفقون (البقرة آية 92 . ويقول جل شأنه في سورة مريم : آية (58) ((إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سُجدا وبُكياً) كذلك فهناك الحديث المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم عندما حزن وبكى على فقدان ابنه إبراهيم . . . فقال " إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون وإنا لله وإنا إليه راجعون . "

فعندما يغمر (الرجل) الحزن والأسى فإنه لا يعرف كيف يُعّبِر عن مشاعره بطريقة إيجابية وقد يتمركز حول ذاته، وقد ينغمس في عادات معتقداً أنها يمكن أن تُبَّدل أحزانه، وقد يفقد اهتمامه بالعمل ببعض المسئوليات التى يقوم بها .

البكاء بين الرجل والمرأة

أجرى الكيميائي " وليم فرى " عدة دراسات وأبحاث مع فريق من زملائه، منها دراسة على (331) متطوعاً من الجنسين تتراوح أعمارهم بين 18 – 75 سنة وقد طلب من متطوع تسجيل يومياته عن البكاء لمدة ثلاثين يوماً .

وقد أظهرت النتائج أن السيدات سجلن 5.4 حالة بكاء كاستجابة لجهد انفعالي خلال هذه المدة، على حين سجل الرجال متوسط 1.4 حالة . . . وأتضح من الدراسة أن 73% من الرجال و85% من السيدات بصفة عامة شعروا بارتياح بعد البكاء .

من بين أفراد تلك المجموعة لم يبك 45% من الرجال و6% من السيدات الذين يتمتعون

بصحة جيدة .

أما أسباب البكاء الرئيسية للمرأة فقد تضمنت علاقات مع الناس وغالباً لانفصالها عن شخصية محبوبة . . . وكانت الانفعالات الأساسية هي الحزن بنسبة 49% والفرح بنسبة 21% والغضب 10% بينما عبرت معظم السيدات عن غضبهن بالدموع فإن الرجال لم يفعلوا ذلك .

(153/736)

وأكدت تجارب " فرى " أن الدموع تخلص الإنسان من مواد سامة يصنعها الجسم كله في حالة توتر . . . وأنه يجب أن يُنظر للبكاء على أنه عملية تنظيف مثل التبول والعرق وكشفت الدراسة أن تركيب الدموع يختلف تبعاً لمسبباته وللأشخاص الباكين أيضاً . فقد تبين أن دموع الفرح مثلاً تحتوى على نسبة كبيرة من الزلال تزيد بح والى 25% عن الدموع الأخرى .

كما أتضح أن نوبات البكاء تحدث بشكل أساسي بين السابعة والعاشرة مساءاً . . . وأن احتمال البكاء أثناء مشاهدة فيلم مؤثر أكثر في المساء عنه في الصباح .

كيف تتعامل مع بكاء الأطفال ؟ ؟

يثير كثير من الوالدين تساؤلات عدة حول موقفهم من بكاء الأطفال المستمر ولأتفه الأسباب . . . ويجيب المتخصصون على ذلك بعدم تلبية كل طلبات الطفل عندما يبدأ في البكاء، وأن يوضحوا له بطريقة حازمة أنه إذا طلب شيئاً بهذه اللهجة الباكية فإنه لن يحصل عليها .

وفى الواقع فقد اختلف العلماء في موضع الاستجابة لبكاء الطفل : فبعضهم يرى عدم الاستجابة لبكاء الطفل إلا بعد فترة لأن ذلك حسب آرائهم مفيد في تقوية عضلات الصدر والرئتين . . . أما البعض الآخر فيرى ضرورة الاستجابة فوراً عند بكائه وذلك بإطعامه أو بالهزهزة السريعة لأن ذلك حسب قولهم له تأثير كبير على الجهاز العصبي للطفل مما يجعله يستجيب ويتوقف عن البكاء .

متى يكون بكاء الطفل ضاراً ؟ ؟

قد يلجأ الطفل في شهوره الأولى إلى البكاء كوسيلة للتعبير عن نفسه ولجذب الانتباه إلى ضيقاته . . . فيلجأ إلى التباكي (الغير مصحوب بالدموع) وهذا البكاء قد يكون ضاراً . . . لأنه من المحتمل أن يعمل على جفاف الغشاء المخاطي للأنف والزور مما يجعله أكثر حساسية للبكتريا الضارة .

الدموع بين الشح والإفراط

تختلف وتتفاوت نسبة الدمع المفرزة كماً ونوعاً حسب اختلاف الظروف الداخلية والخارجية . ولكن يبلغ ذلك معدل يتراوح بين 0.7 – 100 ميكروليتر في الدقيقة، ويبدو أن النساء أكثر ذرفاً للدمع من الرجال . وهذا قد يفسر كونهن أكثر نجاحاً في لبس العدسات اللاصقة .

وعند الولادة يكون إفراز الدمع في حده الأصغر، وقد لا يلاحظ الدمع قبل الأسابيع الأربعة الأولى من العمر وقد لا يبدأ إفراز الدمع المائي قبل الشهور الستة الأولى .

وكذلك تقل كمية الدمع عند كبار المسنين، ويقل إفراز الدمع في حالات الإرهاق العصبي والجسمي، ومن الملاحظ قلة إفراز الدمع وحدوث جفاف العين والفم في نهاية النهار بعد يوم حافل بالتعب المتواصل .

وقد يشح الدمع في أمراض كثيرة لا حصر لها فيحدث جفاف للعين منها : نقص فيتامين أ من الغذاء أو عدم امتصاصه بسبب أمراض الجهاز الهضمي، والتهاب العين السطحية وخاصة مرض التراخوما ، والحماة الراشحة الأخرى والدفتيريا وأمراض المناعة الذاتية، وخاصة التى يرافقها التهابات مفصلية، فقد يحدث فيها تليفات في الغدد الدمعية وشح في إفراز الدمع، والرضوض التى تحدث تشوهات في الأجفان وقصوراً في الرمش وعيباً في إغلاق العين والحروق الشديدة سواء كانت كيماوية أو حرارية أو إشعاعية، إذ أنها تُعري

العين من الدمع الواقي وتجدب الغدد المفرزة للدمع . وهذا يحدث آلاماً شديدة وتقرحات قرنية مستمرة وتغيماً في الرؤية يحمل المريض رهن التعاسة، ويصبح مأساة من الجفاف الذي يؤدى لموت الخلايا السطحية وإنقلاعها . . . كذلك هناك بعض الأدوية التى تنقص إفراز الدمع كالاتروبين والحبوب المانعة للحمل والأدوية المُدرة للبول .

(155/736)

وقد يفرط إفراز الدمع عند استخدام القطرات الخافضة لضغط العين كالبايلوكابين، في معظم الحميات التى يرافقها التهابات في الملتحمة أو القرنية، وفى التهابات العين الحادة، ولدى انغلاق الطرق المفرغة، إذ أن الدمع عندما يفيض عن حاجة ترطيب العين ينصرف من خلال قنوات صغيرة إلى كيس الدمع الموجود في الناحية الأنسية من الجوف الحجاجى، حيث يفرغ في الأنف عبر القناة الأنفية الدمعية، فإذا طرأ انسداد على مسار الأنابيب المفرغة، يركد الدمع في العين فيطفح وينهمر، وكذلك إذا زاد إفراز الدمع عن طاقة استيعاب ضخه عبر كيس الدمع يحدث الدمع، إذن لا بد من إعاضة العين بالبديل الدمعية إذا شح الدمع . ويجب معالجة أسباب نقصه حتى لا تذوي العين وتجف وتنكدر وتعمي وكذلك لا بد من معالجة فرط الدماع وفتح مجاري الدمع المغلقة إذا طفح الدمع لئلا

يضطرب البصر وتتقرح الأجفان ويصبح وضع الشخص في مجتمعه محرجاً مؤرقاً . حتى تبقى دورة الدمع متزنة مقدرة حسب حاجة العين والتي تختلف حسب الشخص والمكان والزمان .

لماذا الجفاف يا عين ؟

الجفاف الاحمرار، الحرقان، الدمعان، إرهاق العينين . . . . . يمكن أن تكن علامات لأعراض متلازمة جفاف العين . . . . . والآن هل تعانى من جفاف العينين ؟ ؟

هناك خمسة أسباب شائعة لأعراض متلازمة جفاف العين وهى :

1- الرمش .

2- التقدم في السن .

3- البيئة .

4- العدسات اللاصقة .

5- الأدوية .

(1) الرمش :

الرمش يساعد على ترطيب العين بالدمع عن طريق نشر الدمع على سطحها . وعندما ترمش فإن الدمع يجبر على الاتجاه إلى داخل الأنف، حيث ينساب إلى مسارب تصريف الدمع، ويجرى داخل الأنف والحلق . وإذا كان نظام تصريف الدمع يعمل بصورة زائدة فإن

أعراض متلازمة جفاف العين أو الاحتقان المصاحب للأنف والحلق أو الجيوب يمكن أن تظهر .

(2) التقدم في السن :

(156/736)

إن إنتاج الدمع يتناقص مع تقدم السن . وفى الحقيقة فإن حجم الترطيب بالدموع الدائمة يتناقص بمقدار 60% في سن 65 عنه في سن 18 . وهذا التناقص في انسياب الدموع الدائمة والمتسبب في أذى العين يمكن أن يسبب الانهيار العرضي للدموع اللاإرادية .

(3) البيئة :

المناطق عالية الارتفاع، والأجواء المشمسة، حالات الريح الجافة، استعمال السخانات، ومجففات الشعر (سشوار) ، ومكيفات الهواء تزيد من تبخر الدمع في العين وتخفض من ترطيبها .

(4) العدسات اللاصقة :

إن استخدام العدسات اللاصقة يعمل على زيادة تبخر الدمع بصورة كبيرة، ويتسبب في إيذاء العين، والعدوى، والمخلفات البروتينية، والألم. لقد دلت الأبحاث على أن جفاف

العين مسبب مساهم في إجهاد العين من العدسات اللاصقة، وعلى هذا فإن الإجهاد من العدسات اللاصقة يمكن أن يكون دليلاً على جفاف العين .

5- الأدوية :

بعض الأدوية تخفض من قدرة الجسم على إنتاج الدموع المرطبة للعين . من هذه الأدوية تلك المانعة للاحتقان . والمضادة للحساسية، والمدرة للبول والوصفات الطبية لأمراض القلب والقرحة، والمضادة للإحباط والأدوية المخدرة والأدوية التى تحتوى على مضادات بيتا . مع ملاحظة أن ما يقرب من نصف هذه الحالات تنتابهم علامات تشمل الأنف والحلق والجيوب . هذه العلامات تشمل :

- احتقان الأنف أو الجيوب، قطر الأنف الداخلي والعطس .
- علامات الحساسية والحمى القشية .
- احتقان الأذن الوسطى .
- سعال مزمن .
- صداع .

العلاج :

وعلاج هذه الحالة لا يمكن أن يكون ناجحاً بقطرة من القطرات وذلك لأن قطرات العين والدموع الاصطناعية تستطيع في أحسن الأحوال أن تلطف بصورة مؤقتة علامات أعراض

متلازمة جفاف العين، وبصورة أكثر أهمية فإن هذه المحاليل قد تسبب في إزالة الطبقة الطبيعية الرقيقة من الدموع المقاومة للعدوى في العين .

والحل طويل المدى موجود الآن وذلك من خلال الانسداد

(157/736)

القنوى – الاصطلاح الطبي الذي يصف إغلاق مسارب تصريف الدمع في عينيك – فهناك إجراء غير جراحي وبسيط يوفر إراحة على المدى الطويل من أعراض متلازمة جفاف العين واحتقان الأنف والجيوب التي غالباً ما تتصاحب معها .

وقد تم العلاج بنجاح لأكثر من 100.000 من الأشخاص المصابين بجفاف العين من خلال الانسداد القنوى بواسطة سدادات صغيرة تسمى سدادات "هاريك لاكريمال" وهي سدادات صغيرة غير قابلة للذوبان تحقن في مسارب تصريف الدمع .

ومع انسداد جريان الدموع فإن كثيراً من الدموع الطبيعية المقاومة للعدوى يفشل وتلطف العين مما يزيل الحاجة لاستعمال قطرات العين جميعها .

وهذه السدادات تستطيع أن تقلل أو تزيل السبب الرئيسي لإجهاد العين المصاحب للعدسات اللاصقة .

وظائف الدموع :

للدموع وظائف عديدة نذكر منها :

(الوظيفة البصرية : تكاد تكون من أهم وظائف الدمع إذ تحافظ الدموع على ألق القرنية، وتسد الثغور الموجودة بين خلايا السطح القرني الظهارى، فيُسوي ويمهد بطلائه سطح القرنية لتقوم بوظيفتها البصرية خير قيام .

(وظيفة دفاعية وقائية، فبواسطة المواد التى يحتويها وخاصة الليزوزيم أو الخمائر الحالّة يستطيع إذابة وتخريب جدر الكثير من الجراثيم فلا تعود قادرة على الغزو والاستفحال والتكاثر . فتبقى العين سليمة صحيحة رغم تعرضها للجراثيم والعضويات الضارة الموجودة بكثرة في الهواء ، لذلك فالعين منيعة على الغزو الجرثومي، بمقدار كفاءة المواد الدمعية الحالة للخمائر فإذا قصر الدمع واضطرب تركيبه لأمر ما سهل على العضويات المؤذية غزو العين وإحداث الالتهابات والتخريب بها ، وقد أخذ العلماء يجرون التجارب الخصبة على مادة الليزوزيم الدمعي قبل البدء بتطبيق أي عقار عيني جديد .

)

وظيفة مرطبة، فهي سقاء للعين وطلاء ضروري لأن الجفاف أذى وبلاء فطالما بقيت العين رطبة، كانت خلاياها السطحية سليمة صحيحة، فإذا ما جفت انعدم البريق منها فتنكمش الخلايا وتتليف، وتغزوها العروق الدموية ويتجلد سطحها ، ولتنظيم توزيع الدمع على سطح العين كلما جفت طبقة الدمع التى تطليه خلقت عملية الرمش، التى تحدث طوعياً ولا إراديا بمعدل 12.5 مرة في الدقيقة (في المتوسط) ويدوم إغلاق العين فيها 0.3 من الثانية في كل رمشة عين، فلو فتح جفنا العين قسريا وامتنع الرمش مدة شعرت العين بالجفاف وبألم حارق وواخز، وربما يحدث بعد ذلك دماع انعكاسي فينهمر الدمع .

ولو فُحص سطح العين أثناء ذلك لوجد أن فتح العين القسري مدة نصف دقيقة كاف لإحداث بقع جافة على سطح القرنية خالية من طبقة الدمع التى سبق الحديث عنها .

وقد لوحظ أن بقع الجفاف تتشكل بسرعة أكثر إذا كانت العين قد عانت سابقاً عملاً جراحياً من استئصال السداد أو مكافحة داء الزرق (الجلوكوما) .

(وظيفة طارحة للفضلات، فيما ينتج عن مخلفات استلاب سطح ولحمة القرنية من الماء وثاني أكسيد الكربون وتوسف الخلايا الميتة وما يفيض عن المواد المخاطية والمفرزات الدهنية يجرفها الدمع وينقلها إلى زاوية العين الأنسية حيث تُضخ في مجاري الدمع إلى الأنف . وهذا ما يحدث بالنسبة للقطاعات الهوائية والغازات وجزيئات الغبار التى لا تحس بها القرنية كأجسام غريبة فتجرف بواسطة الدمع على سطح العين الأمامي .

(وظيفة غذائية ، بالرغم من عدم كبر أهميته كطريق غذائي فإنه يحمل بعض المواد المغذية للغشاء الظهارى في العين، والأهم من ذلك هو أن الجزء الأكبر من مادة الأوكسجين تأتى للقرنية من أوكسجين الجو الذي يحل في الدمع كما في النوم العميق لساعات أو أيام .

)

(159/736)

وظيفة تزليج وطلاء ، فلولا الدموع لما أمكن تثبيت العدسات اللاصقة إذ تتيح درجة تحمل العدسات اللاصقة ونجاح استعمالها درجة القوة المزلجة في الدمع . إذن فالدموع تهب الرطوبة الكافية والطلاء الواقي والملوسة الضرورية للقرنية، وتنقل للقرنية أوكسجين الجو الضروري لغذائها وتطرح فضلات النسج السطحية في العين . وهى خط الدفاع الأول في العين ضد غزو الجراثيم والعضويات المؤذية، تغسل العين مما يعتريها من الشوائب وتنهمر بشدة لتجريف كل جسم غريب متطفل، كل ذلك حفاظاً على ألق العين ودعماً لوظيفة البصر .

كلمة أخيرة

وقبل أن أنهى حديثي عن البكاء معك – عزيزي القارئ – أرى أن أتحدث معك في نبذة

مختصرة عن فوائد البكاء . . . يقول الأديب الإنجليزى (ريتشارد ديكنز) :

" إن البكاء يُوسع الرئة ويغسل الملامح ويُدرب العيون وغالباً ما يُهدىء المزاج فإبك كما تريد " لأنك – أولاً وقبل كل شيء –إنسان له أحاسيس ومشاعر فعبر عن نفسك وانفعالاتك وأطلق العنان لدموعك لتغسل همومك وأحزانك، ولكي تعيد الراحة إلى نفسك والبسمة إلى حياتك .

فالبكاء أفضل علاج للأعصاب المتوترة، يُنقذ من الكتب الذي يعانيه إنسان العصر الحديث ويُفرِّغ الشحنة التى يسببها الإرهاق والتعب، فالبكاء صحة . . . والدموع تغسل النفس، وللبكاء فائدة عظيمة في الترويح عن الإنسان .

والإنسان – رجلاً كان أو امرأة – مخلوق وهبه الله الدموع، وفى انسياب الدموع تفريغ للشحنات السامة التى تُحدثها التوترات العاطفية، وفى حبسها وكبتها تسمم بطيء لصاحبها . . . كما أن بالسائل الدمعي إنزيم خاص يقضى على الميكروبات التى تدخل في العين فيحميها .

(160/736)

فقد أسفرت التجارب التى قام بها عدد من العلماء عن ظهور علم جدد هو " علم الدموع " الذي أنعقد أول مؤتمر طبي له عام 1985 م بالولايات المتحدة تحت شعار : " ابك تعش أكثر " حيث دعا المؤتمر إلى أن يصبح تحليل الدموع من التحاليل الطبية الشائعة مثل تحليل الدم وتحليل البول لأن نتائجه تقدم للطبيب معلومات وافية عن حالة الجسم .

هذا وقد أكد آخر الأبحاث التى أجرتها جامعة " ميتسونا " . . . أن الدموع هي أفضل طريقة للتخلص من المواد الكيماوية المصاحبة للتوتر النفسي والقلق التى يفرزها الجسم في أوقات الحزن والغضب .

كما ثبت أن البكاء يزيد من عدد ضربات القلب وهو في حد ذاته يُعد تمريناً مفيداً لعضلات الصدر والكتفين والحجاب الحاجز . . . وعند الانتهاء من البكاء يعود القلب إلى حالته الطبيعية وتسترخي عضلات الصدر .

فابك – عزيزي القارئ – كما تريد

ابك بدون خجل

ففي البكاء شفاء وعلاج لكثير من الأمراض .

مع تحيات د . محمد السقا عيد

ماجستير وأخصائي جراحة العيون

عضو الجمعية الرمدية المصرية

جمهورية مصر العربية

دمياط - المياسرة (34731)

ت : 851395 عيادة

854754 منزل

فاكس : 057/359192

المصادر

- مجلة (العربي) الكويتية العدد (284) - يوليو 1982 ، مقال الدموع لماذا ؟ بقلم د . سرى فايز .

- مجلة " هووهى " السنة الحادية عشر (11) ، العدد (112) .

- جريدة " الأهرام " القاهرية، عدد 1991/9/6 .

- مجلة " الوعي الإسلامي " الكويتية - السنة الثلاثون - العدد رقم (327) - مقال : هل البكاء عيب، د . محمد السقا عيد .

- Ophthalmology for medical students and Practitioners .Prof. Ismail Gawdat

- Physiology of the eye. Prof. Salah El Din

.

.

.

0-السيقان النباتية من دلائل القدرة الإلهية

الدكتور نظمي خليل أبو العطا

(161/736)

السيقان (Stems) النباتية عامة هي الجزء من النبات الذي يحمل الأوراق والبراعم والأزهار والثمار فوق سطح التربه في وضعها البيئي الأمثل , كما أن هناك بعض السيقان الأرضية (Subterranean stem) .

وتبدأ السيقان في التكوين داخل البذور والحبوب على هيئة الرويشة (Plumule) التي تخرج من البذور والحبوب أثناء الانبات , لتعطي بعد ذلك الساق (Stem) , وتنقسم الساق عرضياً إلى سلاميات (Internodes) محصورة بين العقد (Nodes) وتنتهي من أعلى بالبرعم القمي أو الطرفي (Apical bud) أو (Terminal bud) .

وتحمل الساق عند العقد البراعم الابطية أو الجانبية (Axillary or lateral buds) محصورة في إبط الأوراق (Leaves) التي يحملها الساق .

وتحمل الساق نوعين من البراعم هي البراعم الصيفية (Summer buds) والبراعم الشتوية (Winter buds) .

والبراعم الصيفية : هي براعم ذات أوراق خصوصية (Flage leaves) خضراء , غير محكمة الاغلاق , تعطي الأوراق الخضراء مثل براعم نبات الدورانتا Duranta ونبات الياسمين الزفر (الداباي) Clerodendron .

أما البراعم الشتوية : فهي براعم لمجابهة موسم الشتاء البارد , لذلك فهي مغطاه من الخارج بأوراق حرشفية (Scale leaves) تغطي الأوراق الخضراء العادية للبراعم , وهي مغطاه من الخارج ببعض الصموغ والمواد الراتنجيه, وتوجد هذه البراعم في النباتات متساقطة الأوراق شتوياً كالتوت Mours والحور Populus .

فسبحان من زود هذه البراعم بتلك الأغطية الحرشفية, والمواد الصمغية التي تساعدها على عبور أيام الشتاء القاسية البرودة .

(162/736)

فالأوراق هي نوافذ النبات على الخارج وعند حلول الشتاء تسقط بعض النباتات أوراقها لمجابهة انخفاض درجة الحرارة , وتظل براعمها كامنة في الشتاء , وعندما يحل الربيع , وتعتدل درجة الحرارة , ينشط النبات وينشط صعود العصارة فيه , وتنشط البراعم الشتوية لتعطي الأوراق والأفرع الجانبية الساقية والزهرية .

فمن علم هذا النبات هذا السلوك العلمي البيئي العجيب ؟ !

إنه الخالق سبحانه وتعالى : (قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) طه 50 .

وإذا دققنا وفحصنا سيقان النباتات المحيطة بنا وجدناها تنقسم إلى عدة أقسام فهي : إما سيقان خشبية (Woody stems) قوية قائمة (Erect stems) كسيقان نباتيْ التوت Mous alba والكافور Eucalyptus , أو سيقان عشبية (Herbaceous) ضعيفة (WeakStems) خالية من الأخشاب القوية كسيقان نباتيْ الفول Vicia faba , والقمح Triticm .

وتنقسم السيقان العشبية الضعيفة إلى :

سيقان متسلقة (Climbing stems) وهي تتسلق بالمعاليق (Tendrils) مثل سيقان نبات العنب Vitis التي تتسلق بالمعاليق الملتفة حول الدعامات .

كما توجد بعض السيقان المتسلقة بالالتفاف حول الدعامات تسمى بالسيقان الملتفة (Twining stems) مثل نبات العليق Convolvulus .

ونرى بعض السيقان لاتلتف على الدعامات وتزحف على الأرض دون أن تتصل بالأرض إلا من جذورها الأصلية بحيث أنك تستطيع رفع النبات من على الأرض بسهولة حتى تصل إلى مكان جذوره ومن أمثلة ذلك سيقان الخيار Cucumber والقرع Cucurbita وتسمى بالسيقان الزاحفة (Prostrate stems) , وبعض السيقان الضعيفة تخرج جذور عرضية (Adventitious roots) تتصل بها بالأرض في مواضع متعددة خلاف موضع الجذر الأصلي وتسمى هذه السيقان بالسيقان الجارية (Runners) ومن أمثلتها نبات الفراولة Fragaria .

(163/736)

ومن السيقان ما هو مجوف (Hollow) مثل سيقان نبات البرسيم Trifolium ومنها ما هو مصمت (Solid) مثل سيقان القطن Gossybium والملوخية Corchorus .

وتغطي سطح بعض النباتات بشعيرات فهي ساق مشعرة (Hairy stem) مثل نبات القرع Cucurbita , ومنها سيقان ملساء (Glabrous) مثل نبات الغاب Bamboo , وبعض السيقان مغطى بالأشواك (Prickles) فهي ساق شوكية (

Prickly stem) مثل نبات الورد Rosa .

وبعض السيقان قرصية (Disky stems) مثل البصل Allium وتسمى أحياناً بالسيقان القزمية (Dwarf stems) ومعظم النبات ذات سيقان طويله (Long stems) .

وبعض السيقان خلقها الله لوظيفة مغايرة للوظيفة العامة للساق النباتية المتمثلة في حمل الأوراق والبراعم والأزهار والثمار في الهواء , ومع ذلك فما زالت هوائية مثل السيقان التي تفلطحت لتقوم بوظيفة البناء الضوئي ومن أمثلتها نبات السفندر Ruscus ونبات كشك الماظ أو الأسبرجس Asparagus .

وتوجد السيقان المفلطحة العصيرية مثل سيقان نبات التين الشوكي Opounta والتي تفلطحت وحوت اليخضور للقيام بعملية البناء الضوئي وتخزين الماء في البيئة الصحراوية .

أما في نبات العاقول Alhagi ونبات القتاد Zilla فقد تحورت الساق إلى أشواك (Spine) ولذلك فهي ساق شوكية (Spiny stem) , كما تحولت بعض السيقان إلى معاليق (Tendrils) كما هو الحال في نبات العنب Vitus .

وبعض السيقان أبعدت تماماً عن العيش فوق سطح الأرض فعاشت تحت الثرى ومنها ريزومات (Rhizomes) نباتات الغاب Arundo والنجيل Cynodon

والكانا Cana وهي تقوم بعمليتي تخزين الغذاء والتكاثر الخضري بالشطء كما قال تعالى (كزرع أخرج شطأه) الفتح 29 .

(164/736)

وهناك سيقان أرضية درنية (Tuber) مثل البطاطس Solanum tuborosum وهي تقوم بوظيفتي تخزين الغذاء والتكاثر الخضري (Vegetative reproduction) . أما في القلقاس Colocasia antiguorum فقد تضخمت الساق الأرضية بدرجة ملحوظة لتخزين الكمية الهائلة من المواد النشوية التي تنتجها الأوراق العريضة للنبات , كما أنها تقاوم ظروف البرودة والطقس غير المواتية لتستأنف التكاثر الخضري والنمو في العام القادم . أما في البصلة كما قلنا سابقاً فقد تقزمت الساق وأصبحت قرصية .

وبذلك تقوم الساق في النبات بالعديد من الوظائف مثل رفع الأوراق والبراعم والأزهار والثمار في الوضع الأمثل لعملية البناء الضوئي, والقيام بتخزين المواد الغذائية كما هو الحال في نبات قصب السكر Saccharum والبطاطس والقلقاس والريزومات .

كما أنها تنتج الأخشاب وعندما يصاب الساق ببعض الطفيليات فإنه ينتج أغنى أنواع

العطور مثل عطر دهن العود والصندل Santalum album .

ويستخدم القلف في صناعة المشروبات كما هو الحال في نبات القرفة أو الدارسين Cinnamoumus .

كما تستخدم في إنتاج الصموغ كما هو الحال في الصمغ العربي الناتج من سيقان نبات السنط Acacia .

وتنتج بعض النباتات المواد الراتنجية (Resin) , المستخدمة في العلاج والتخدير وهي تنتج من العديد من النباتات منها الصنوبر Pinus sp . .

وتستخدم السيقان لنبات السواك أو الأراك Salvadora persica في تنظيف الأسنان وتطهير اللثة , كما ينتج اللبان من سيقان شجرة اللبان Boswelia sacra , وينتج المطاط من سيقان شجرة المطاط .

(165/736)

فسبحان من خلق هذا التنوع العجيب في سيقان النبات في الشكل الظاهري والفوائد الاقتصادية والغذائية . أما في التشريح الداخلي فالمعجزة كبرى فجميع السوق النباتية تحتوي على البشرة (Epidermis) , والقشرة (Cortex) , وأوعية توصيل للماء

والمعادن والأملاح وهي أوعية الخشب (Xylem) , وأوعية توصيل الغذاء الناضج المنتج من البناء الضوئي وتسمى باللحاء (Phloem) .

وفي معظم نباتات ذوات الفلقتين (Monocotyledon) تنتظم الحزم الوعائية (Vascular bundle) في ترتيب منظم في حلقة في الساق بحيث يكون الخشب واللحاء على أنصاف أقطار واحده , ويوجد نسيج الكامبيوم (Cambium) الذي يعطي التغلظات الثانوية في أنسجة الخشب وأنسجة اللحاء , ويتم نمو الساق بانتظام بحيث يمكن معرفة عدد السنوات التي مرت على هذا النبات , ومواسم الجفاف ومواسم الأمطار من خصائص تلك الحلقات وسمكها , وهذا دليل الابداع في الخلق والتقدير والانتظام , وكلما احتاج النبات إلى ماء أكثر لكبر حجم النبات نشأت أوعية خشب جديده تتناسب مع المتطلبات الجديدة .

وبعض السيقان وصل بها السمك أن شقت في إحدى الأشجار أنفاق تمر منها السيارات , ويصل طول بعض الأشجار إلى أربعين طابقاً سكنياً , ومع ذلك تصل المياه إلى آخر مكان في الشجرة وهي البراعم القمية (Apical buds) ولو توقف هذا الامداد لساعات قليلة لماتت تلك البراعم .

فمن دبر ذلك ؟

ومن هيأ هذا الساق لتلك الوظيفة ؟

كما أن نباتات ذوات الفلقة (Monocotyledon) تتميز بخواص عامة حيث تتبعثر الحزم الوعائية في الساق ولا يحدث النمو الثانوي في السمك عادة لأنها عادة نباتات حولية تعيش مواسم محدده .

(166/736)

وطلاب السنوات الأولى في الجامعة يدرسون الفوارق والمتشابهات في التركيب الداخلي لسيقان النبات , بحيث يستطيع الطالب من الدقة والتقدير في الخلق أن يفرق بين أنواع السيقان المختلفة , كما تختلف سيقان النباتات الأرضية عن سيقان النباتات المائية التي تتميز بأوعية خشبية مناسبه لوفرة الماء , وبها العديد من الفراغات الهوائية (Air spaces) وقلة فيأنسجة البشرة (Epidernis) مع القلة في الأنسجة المغلظة لأن البيئة المائية أقل قساوة من البيئة الأرضية خاصة البيئة الجفافية .

وعند فحص أحد القطاعات العرضية في الساق (T.S of stems) فإننا نشاهد أكبر تحفة فنية في العالم خاصة إذا تم صبغ تلك السيقان بالأصباغ المتخصصة في تلوين أنسجة الخشب (Xylem tissues) وأنسجة اللحاء (Phloem tissue) والبشرة والقشرة والخلايا البرانشيمية (Paranchyma) والخلايا الأسكلرنشيمية (

Sclerenchyma) لدرجة أن مؤلف أحد كتب التشريح في النبات وضع قطاعاً عرضياً في الخشب الثانوي لنبات الماس الأمريكي وكتب أسفله (2) : إن مادة القطاع جميلة حتى أن دودة الحرير لاتستطيع أن تنسج مايدانيها جمالاً . إن من يحمل عصا يتوكأ عليها , مهما يكن خشبها متواضعاً إنما يمسك قطعة من صنع (الله) تفوق بمراحل أتقن نسيج في الدنيا أبدعته يد صانع في أشغال الإبرة .

وقد وضع هذا المعلق كلمة الطبيعة مكان كلمة (الله) التي وضعناها سابقاً , فانظروا إلى عقل هذا الكاتب المتميز كيف يجعل الطبيعة الصماء هي الصانعة مع أن بعض علماء أمريكا عندما وجه إليهم هذا السؤال : هل لهذا الكون إله ؟

فأجاب أكثر من مئتي عالم كل في مجال تخصصه عن هذا السؤال ليثبت أن للكون إلهاً خالقاً مبدعاً , وكتب ذلك وترجم إلى العربية سنة (1960م) في كتاب بعنوان الله يتجلى في عصر العلم, وفيه كتب وولتر إدوارد لامبرتس أخصائي علم الوراثة (2) عن خلق الله قال :

قد تؤدي الطفرة في بعض الحالات النادرة إلى تحسين صفة من الصفات كما يحدث في جناح الدروسوفيلا , ولكن اجتماع هذه الصفة مع بعض الصفات الأخرى التي تطرأ على الجناح , قد يؤدي إلى تكوين حشرات أقصر عمراً وأقل قدرة على الحياة , ولكن دعنا نسلم جدلاً بحدوث طفرات نادرة تصحبها تحسينات تبلغ 1% فكم تحتاج هذه الطفرات من الأجيال لكي يتراكم ويظهر أثرها وينتج عنها نوعاً جديداً ؟

لقد أوضح باتو في كتابه (التحليل الرياضي لنظرية التطور) أن تعميم صفة من الصفات عن طريق الطفرة في سلالة من السلالات , لايمكن أن يستغرق أقل من مليون جيل من الأجيال المتتابعة .

ونحن نتسائل كم من الأجيال تحتاج الطبيعة لصناعة هذا التشابه في الخلق بين سيقان نباتات ذوات الفلقة الواحدة وبين سيقان نباتات ذوات الفلقتين ؟ !

وكم أجيال تحتاج لصناعة هذا القطاع في الساق الذي قال المعلق عليه أن الطبيعة هي التي صنعته ؟ !

إن دراسة الشكل الظاهري , والوظائف الحيوية , والتحورات التركيبية , والتشريح الداخلي للسيقان النباتية والأهمية الاقتصادية والغذائية والطبية يدلل دلالة قاطعة على القدرة الإلهية وكما قال الله تعالى (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين) لقمان 11 .

الهوامش :

(1) – انظر كتاب اعجاز النبات في القرآن الكريم , نظمي خليل أبو العطا (ص 66) .

(2) – الله يتجلى في عصر العلم , نخبه من العلماء الأمريكين بمناسبة السنة الدولية لطبيعيات الأرض, الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع (ص 71) .

.

.

.

0–من دلائل القدرة الإلهية في آليات الانتشار النباتية

بقلم الدكتور نظمي خليل أبو العطا

السعي على الرزق سنة من سنن الله في الخلق , الكل يسعى على رزقه , فالانسان يسعى عليه بقدميه, وعلى الدواب , والعجلات , ويركب الطائرات والسفن المائية والفضائية

مصداقاً لقول الله تعالى : (فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) الجمعة 10 .

والطير يسعى على رزقه فيطير بجناحيه , ويمشي على رجليه , فيغدوا جائعاً ويعود وقد ملأ حوصلته بعد ما التقط الحب والبذور والحيوان بمنقاره ونبش الأرض بأرجله , وغاص في الماء بكل جسمه فيحضر الرزق الوفير لفراخه في اليوم مرات عده, وفي وقت الغروب يعود إلى وكره حامداً شاكراً فقد حصل رزقه والحمد لله .

والسمك يسبح ويغوص في الأنهار والبحار والمصارف المائية والبحيرات العذبه والمالحة بحثاً عن رزقه , ويدفع الماء بذيله وزعانفه , ويغوص بعضلاته ومثانته الهوائية , ويتنفس بخياشيمه , ويصفي بها الغذاء ويقطع بأسنانه ليحصل رزقه .

والبهائم تسعى على رزقها في حركة نشطة إيجابية , وتأكل وترعى وتفترس وتقتل , وتقضم وتقتنص بأسنانها ومخالبها وقرونها وأنيابها وبكل وسيلة هيأها الله لها .

فماذا يفعل النبات المسكين الذي يدعي الدروانيون أنه خلق بالصدفة والعشوائية, ومن دون تدبير في هذه البيئة الأرضية الواسعة ؟ ! وكيف يسعى إلى رزقه وقد شدته جذوره بقوة إلى الأرض , والشجرة الواحدة تنتج ملايين البذور والثمار والحبوب التي إن بقيت في مكانها بعد سقوطها هددت أمها وأخواتها ونفسها بالهلاك لنفاد الغذاء وضيق المكان وحجب الضوء ؟ !

ماذا يفعل النبات في هذا المكان الضيق والمحدد والمحدود وأرض الله من حوله واسعة ,

والكل يسرح ويمرح وينتقل ويهاجر فيها بحثاً عن رزقه وعن المعيشه الطيبة ؟ ! !

هذا النبات إذا اعتمد على الصدفة والعشوائية والطفرة والانتخاب الطبيعي , كما خطط له دارون , فإن مآله إلى الجوع والضعف والهلاك والدمار والانقراض ! !

(169/736)

ولكن الله سبحانه وتعالى الذي غفل الدارونيون عن وجوده , والذي رزق الانسان وزوده بالعقل والأيدي والأرجل والخامات لصناعة الآلات, والذي خلق الجناحين للطير والحشرات تطير بهما , وخلق للسمك الزعانف والعضلات والمثانات ورزق الثعبان بالعضلات , والنمل بالأرجل والفكوك لم ينس هذا النبات الذي كلفه بصناعة الغذاء لكل هذه الموجودات الأرضية , الله سبحانه وتعالى الرزاق , العليم , الخبير , اللطيف المدبر لم ينس أحداً من خلقه , وشملت رحمته النبات وجميع خلقه زود النبات بآليات , ووسائل انتشار وانتثار للسعي على الرزق في أرض الله الواسعة , زوده سبحانه وتعالى وعطف عليه بهذه الآليات المعجزة التي سبق بها الانسان والحيوان في تعمير الكون فتسلق الجبال , وطار في الهواء , وسبح في الماء , وركب الانسان والحيوان , وهبط الوديان , وقطع الفيافي والمحيطات والبلدان , وانتشر في الهضاب والسهول , والحقول والصحاري , والعيون الباردة

والساخنه , وفي المناطق الحارة والباردة , كل ذلك بآليات معجزة ووسائل مبدعة متقننة حملت الجراثيم والبذور والحبوب والثمار والأوراق والسيقان والجذور لكل مكان معمور وغير معمور في هذه الأرض .

فبذور بعض النباتات دقيقة الحجم كالدقيق خفيفة الوزن فحملتها الرياح إلى مكان بعيد جداً , كما هو الحال في نباتات الأراشد (Orchids) وحبوب اللقاح (Pollen grains) .

ولثمار بعض النباتات أجنحة تحمل تلك الثمار إلى مسافات بعيدة , فعندما يحرك الهواء أغصان تلك النباتات المحملة بثمارها الجافة المجنحة الخفيفة المتزنه , فإنها تطير في الهواء بطريقة حلزونية طوربيبيه دواميه عجيبه فتصل إلى مسافات بعيدة, ومثالها نبات أبو المكارم Machaerium tipa .

وفي نبات الحميض Romex sp . يتحول الكأس الزهري إلى أجنحة تحمل الثمار بعد تمام نضجها إلى مسافات بعيدة .

وأما في نبات الجعضيض Sonchus sp . فقد تحول كأس الثمرة إلى شعيرات مظلية تحمل الثمار إلى آلاف الكيلومترات , وكم شاهدنا هذه الثمار الطائرة العجيبه وهي تطير في خفة ورشاقة في الهواء في اتزان بنائي وحركي عجيب , وكم جرينا خلفها في الحقول والحدائق, وهي تطير أمامنا , وكلما اقترينا منها دفعها الهواء بعيداً عنا , وهيهات هيهات أن نلحق بها أو نمسكها , وكم كان من الجميل واللطيف أن نأتي بنوارة هذا النبات , وننثر ثماره في الهواء , فتملأ المكان في خفة مبدعة عجيبه وجمال يفوق كل لعب الأطفال الغشائية المائية الحديثة المضرة .

ومع كل ذلك يدعي الداروينيون أن النبات غير العاقل الذي لايمتلك مصانع ولامختبرات ولا أدوات ولاباحثين طور نفسه بالمصادفة والحاجة العشوائية والمحاوله والخطأ حتى صنع هذا النظام الهندسي الفيزيائي الحيوي المبدع في انتثار البذور والثمار وانتشارها , ونسي هؤولاء ملايين المحاولات التي قام بها الانسان من وقت عباس ابن فرناس حتى استطاع أن يصنع الطائرة , فكيف لهذا النبات أن يقدر الثمار وطول الشعيرات ومراكز الثقل والاتزان لنرى هذا الاعجاز في الخلق , الرد العلمي على هؤلاء هو ما قاله موسى عليه السلام عندما حاوره فرعون (قال فمن ربكما ياموسى ؟ ! ! قال : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) طه 49- 50 . وخلقه : بتسكين اللام أي صورته اللائقه بخاصيته (1) .

وهدى : أي أرشده لما يصلح له (ويصلح معيشته) ولا رد أبلغ وأعظم من هذا الرد المعجز (2) .

ولنبات الخشخاش Papaver : ثمرة كبيرة محموله على حامل طويل مرن متلاعب بالهواء وللثمرة في أعلاها ثقوب , فإذا حرك الهواء الثمار تمايلت لطول عنقها , ونثرت بذورها على اليمين وعن الشمال وفي الشرق والغرب وكل مكان حولها .

(171/736)

فمن أعطى هذا النبات في الصحراء الخالية القاحلة المنقطعة هذا العلم الدقيق المتخصص لتصنع هذا التركيب العجيب من المظلات والأجنحة لاجتياز الفيافي والقفار , وعبور البحار والأنهار (3) ؟ ! !

وهكذا وسعت رحمة ربك , التي وسعت كل شيء , هذا النبات فطارت ثماره كما يطير الطير في الهواء بجناحيه بحثاً عن الرزق والمكان المناسب في أرض الله الواسعة , فقد شملت رحمة الله كل جنس (Genes) نباتي, وكل نوع (Species) وكل صنف (Varaites) وكأن لكل منها عناية خاصة به وحده من دون خلق الله , فمن دبر أحوال ترليونات الأجناس والأنواع والأصناف النباتية , وحسب لها الغذاء , وهيأ لها المكان ,

ورزقها بآليات للوصول إلى مكان الرزق ؟ ! ! .

وبعض النباتات تركب الحيوان والانسان وتتعلق به لتصل إلى مسافات بعيده فنبات الشبيط Xanthium زوده الله سبحانه وتعالى بخطاطيف تتعلق بفراء الحيوان وشعره وصوفه وريشه , وتتعلق بملابس الانسان فتنتقل إلى كل مكان يصل إليه الحيوان والانسان , كما أنها تتعلق بأجولة التعبئة للمحاصيل لتصل إلى بلاد بعيدة عبر الشحن البري والمائي والجوي .

كما يقوم الانسان في عمليات التصدير والاستيراد , والتهادي , والبيع والشراء بنقل النباتات والبذور والحبوب وتوزيعها على البلاد القريبة والبعيدة , وينقل الانسان والحيوان والطير البذور التي يأكلها ولاتتأثر بالعصارات الهاضمة بما وهبها الله من أغلفة حامية لها من العصارة الهاضمة , ينقل الانسان والحيوان والطير هذه البذور والحبوب إلى أماكن بعيده, وتقوم الأبقار والأغنام والخيول والغزلان بنفس الآلية مع العديد من النباتات البرية .

(172/736)

ويقوم الماء في العيون والأنهار والبحار والمحيطات والسيول والمصارف وقنوات الري والصرف المنتشرة في العالم , يقوم بنقل الثمار والحبوب والبذور المهيأة للنقل المائي إلى

مسافات بعيدة , وقد زود الله هذه الثمار والحبوب والبذور بأغلفة عوامة وحافظة للثمار حتى لاتتلف , وقد تتبع أحد المصورين ثمرة نبات انتقلت عبر المحيط من الهند إلى أوروبا في آلية معجزة وغريبة .

وهناك الآليات الذاتية الميكانيكية لتفتح الثمار وانتثار البذور وانتشارها وتبدوا هذه الآليات مبكرا في الحزازيات المنبطحة (Hepaticeae or Liverworts) حيث توجد آلية ميكانيكية لتفتح الحوافظ الجرثومية (Capsule) للنبات الجرثومي (Sporophyte) حيث توجد تراكيب عقيمة ملتوية بين الجراثيم الخصبة كما في نبات الماركانتيا Marchantia sp . فإذا انفتحت الحوافظ تطايرت الخيوط العقيمة الناثرة (Elaters) بما لها من خاصية هيجروسكوبية (Hygroscopic) فتنثر الجراثيم بعيداً عن النبات الأم .

وفي نبات الفيوناريا Funaria sp . تتكون أسنان بريستومية (Peristome teeth) والطوق (Annulus) والغطاء (Operculum) وهي تراكيب توجد في الطور الجرثومي (Sporophyte) , تقوم بفتح الحافظة الجرثومية (Capsule) بآلية عجيبة في الجو الجاف , ناثرة الجراثيم إلى مسافات بعيده , كما تخرج الرصاصات من بندقية الصيد بالرش (الخرطوش) .

وفي السراخس (Ferns) مثل نبات كزبرة البئر Adiantum تنفتح الحافظة

الجرثومية (Sporangium) بآلية تلقي بالجراثيم (Spores) بعيداً عن الأم كما تلقي الكرة بالمضرب في لعبة التنس (4) .

وكما قلنا سابقاً فإن حبوب اللقاح نفسها خفيفة الوزن وكثيرة العدد حيث تحملها الرياح لأميال لتلقيح الأزهار المؤنثة واتمام عملية التلقيح والاخصاب .

(173/736)

وهناك الفطريات التي فصلت في مملكة مستقلة كما قلنا في مقالات أخرى تلك الفطريات تنتج العديد من الجراثيم يصل عددها في فطر البافبول العملاق (Gaint puffball) إلى خمسة ترليون جرثومة (5) تطلقها في الهواء ناشرة إياها في مساحات واسعة , فتصور معي أن هذا العدد من الجراثيم قد سقط ونبت ونمى في نفس المكان فأي كارثة حيوية وبيئية تنتظر هذا الفطر الضعيف ؟ ! .

كل ذلك يدلل على أن الله قد خلق هذه الكائنات وقدر لها رزقها , ووهبها على ضعفها من الأليات التي تنشرها بفضل الله في الأرض لتحصل على رزقها مصداقاً لقول الله تعالى : (وعنده مفاتيح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) الأنعام59 .

فهو سبحانه يعلم كل حبة من ترليونات الحبوب والبذور والثمار والأوراق التي تسقط على الأرض , وتنتقل في الرطب واليابس , والسهل والجبل , والبحر والهواء وتنضج وتيبس ثم تنبت وتترطب في البيئة الأرضية , فإذا كانت فطرة البافبول العملاقة Gaint puffball)) الواحدة تعطي خمس ترليون جرثومة في الثمرة الزقية (Ascocarp) الواحدة , وكل جرثومه تطير وتسقط وتنبت وتنمو وتتزاوج وتتكاثر وتنقسم حتى تعطي من جديد الثمرة الزقية (Ascocarp) كل ذلك لايمكن أن يحدث دون علم الله وتقديره وتدبيره , فالله لم يخلق الخلق عبثاً , ولم يتركهم هملا , بل خلقهم لغايات مقدره , ورعاهم برعايته , وتكفل برزقهم سبحانه وتعالى كما قال في كتابه الكريم (ومامن دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين) هود 6 .

(174/736)

فكل بذرة تدب على الأرض , وكل ثمرة تدب على الأرض , وكل جرثومة تدب على الأرض , وإذا استطعنا أن نكبر أصوات دب تلك المخلوقات لسمعنا دبيب سقوطها , ودبيب تحرك جذورها وسيقانها , وكل هذه الترليونات على الله وحده رزقها مصداقاً لقوله تعالى (وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين) فصلت 10 (5) .

وهو سبحانه الذي هيأ لها آليات الانتثار والانتشار في الأرض لتحصل على رزقها المقدر لها , وهذا مايجب على كل مؤمن أن يتعلمه ولاتنسيه ألفة الأشياء عظمتها , فكل شيء مخلوق لغاية مقدره , وبتقدير فائق , وبحكمة بالغة , وآليات انتثار البذور والثمار والحبوب والجراثيم من دلائل القدرة الإلهية في المخلوقات النباتية

(1) – انظر : كلمات القرآن, تفسير وبيان الشيخ حسنين مخلوف, الاسكندرية : دار الصفا والمروة للنشر والتوزيع .

(2) انظر موضوع (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) في كتابنا آيات معجزات من القرآن الكريم وعالم النبات .

(3) انظر موضوع اوائل المعمرين جاءوا بالبارشوتات في كتابنا اعجاز النبات في القرآن الكريم : مكتبة النور – القاهرة .

(4) لم أشأ أن ادخل القارئ غير المختص في تفاصيل تلك التراكيب وأجزائها حتى لاتضيع الفكرة في خضم التفاصيل العلمية .

(5) Biology life on Earth , Teresa Audesirk and Gerald Audesirk. Prentice Hall , upper River. New jersey (1996) (P.432) .

(6) انظر موضوع (وقدر فيها أقواتها) من كتابنا آيات معجزات من القرآن الكريم وعالم

.

.

.

0-آيات عظمة الله في الإلهام

قال الله تعالى (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ) (الجاثية : 6)

(175/736)

الإلهام هو أبلغ دليل على وجود الملهم فلو رأيت طفلاً يسير في طريقه، من منزله إلى مكان يبعد كثيراً عنه، وهو يلتزم جانب الطريق الصحيح، وإذا حاول عبور الطريق التفت يمنه ويسره فلم يخطئ . . عجبت من حسن استعداده، وأثنيت على من أرشده ! ! .

وإذا وجدت طفلاً قد حسن هندامه، ونُظفت ملابسه، وتناسقت ألوانها ، أعجبت بنظافتها ، وأثنيت على راعيه ! ! وإذا رأيت أُماً تُرضع أبنها في حنان، انتشرت الغبطة إذا

ما رأيت ما يدعو إلى الغبطة . . أو ألهمك الغضب، إذا ما رأيت ما يثيرك أو يحرك استياءك . . أننا نسر ونحزن وننشرح وننقبض ونثور ونهدأ، وتمتلىء صدورنا بالمشاعر والأحاسيس التي لا سلطان لنا عليها، إنما هي إلهام من الخالق الأعظم .

وإن كافة الكائنات الحية، لتأتي بأعمال لا إرادية لها فيها، إنما تقوم بما نسميه إلهاماً فلابد من وجود الملهم إذن، وفيما يلي بعض عجائب الإلهام في الأحياء .

تناسل الأحياء

ينشأ الطفل ولا تربطه بغيره من أفراد الجنس الآخر أية رابطة، سوى رابطة الطفولة فلا يرى الولد في البنت إلا رفيقة لهوه ولعبه، لا فرق بينها وبين زميلها . . فإذا ما شب عن طوقه، وبدأ يقرب من طور الشباب، يرى فيها شيئاً مخالفا عما كان يراه . لم تعد زميلته في لعبه ولهو . وإنما هي دنيا جميلة، ينجذب إليها ولا سلطان له على ذلك، وإذا به يرى فيها أشياء لم يكن يراها رغم وجودها، أصبحت في نظره الجديد جميلة الطلعة، حسنة المنظر . . يديم النظر إليها، فيرتاح لوجودها، حتى إذا اكتملت رجولته، ونضجت أنوثة الفتاة، إذ بإرادة الله تناديهما، أن حي على الزواج السبيل الوحيد للتناسل للإبقاء على حياة الإنسان . . ويتم كل ذلك خضوعاً لقوة قهرية لا يستطيع الرجل أو المرأة لها قهراً .

ولم تختلف هذه الحالة في الإنسان عن آخر، بل لم تختلف في الإنسان منذ كان يعيش في عصر الحجر بل منذ بدء الخليقة حتى الآن، لا فرق بين رجل ورجل . وأنثى وأنثى، مهما اختلفت الفواصل الاجتماعية التي يعشون فيها .

وللرجل وسائل لا حصر لها لإبداء الرغبة في التزاوج . . وتختلف هذه الوسائل في شبابه عنها في طفولته وفي شيخوخته . . فهو دائم العناية بمظهره وهندامه في شبابه ورجولته، يحاول أن يلفت نظر أنثاه بأناقته، وهي كذلك تتخذ كل ما يمكن من سبل لإظهار محاسنها وفتنته، اجتذاباً للرجل نزولاً على رغبة خالق السموات والأرض .

وقد هيئت الأجهزة التناسلية للذكر والأنثى، تهيئة متلائمة لحفظ النوع، حفظاً تاماً بل أحيطت عملية التزاوج بكل ما يضمن الحياة ويحافظ عليها .

فالحيوان المنوي، الذي يحاط بكمية من سائل يحفظ عليه درجة حرارته ويمنع عنه الهواء، هيئ بذيل يتحرك به الحيوان . والبويضة التي تهبط إلى مكانها في الرحم لملاقاة الحيوان المنوي، ثم تتحد نواة الحيوان بنواة البويضة ثم تنقسم إلى اثنتين، فأربع، فثمان، لتكون الكائن الحي، الذي ينموا ليكون طفلاً يخرج إلى الحياة، فتستقبله عاطفة الأبوة، وحنان الأمومة وتبذل الأم من رعايتها، والأب من كده وعنايته، لا فرق بين إنسان وآخر، ولا بين جيل وجيل، وإذ بالطفل يشب ليتخذ دورته، لا فرق في الحياة، ويعيد الدورة التي مر بها من قبل

أبوه لا دخل للإنسان في شيء إلا التسليم بأن هناك قوة علمت فقدرت، وكتبت فألهمت !

قال تعالى : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) (الشمس : 8)

الحيوانات

لا يختلف معظم الحيوان عن الإنسان في التزاوج، فهو دائب البحث عن أليفه، وإلفات نظره إليه . وهو دائم الرعاية لصغاره بعد التزاوج . . ولعل أدلة الإلهام في تناسل الحيوان أبلغ من أدلتها في الإنسان، لطرافتها وكثرتها مما حوت مجلدات عديدة في دراستها .

(177/736)

فطائر البطريق له أسلوبه في الغزل لا يحيد عنه، فإن أراد التودد إلى أنثاه، اختار حصاة تقدم بها في زهو وحنان، ووضعها تحت قدميها ، فإذا التقطتها ،كان ذلك دليل قبولها له زوجاً لها ، فيتزوجان . وإذا لم يمس وتراً في فوادها ، تركت الحصاة ولم تمسها ، وعندئذ يعود فيلتقط حصاه وينصرف بها إلى أخرى . . . ! !

ومما يؤكد أن هذه العملية التي يقوم بها البطريق عن إدراك، ما رواه " تشايمان آندروز " في أحد كتبه العلمية، من أنه قد حدث ذات يوم أن جاء بطريق عجوز إلى الدكتور "روبرت مورفي " أحد علماء متحف التاريخ الطبيعي في أمريكا ، وألقى تحت أقدامه في حديقته

حصاة كبيرة، فلما التقطها الدكتور، صار البطريق والعالم صديقين حميمين ولم يغادر البطريق حديقة العالم حياً .

ويعتبر طائر الروبين، من أوضح الأمثلة على ما تتخذه الطيور من خطوات طويلة للزواج . ففي صيف السنة السابقة لبناء العش، يستولي الذكر على قطعة من الأرض كبيرة المساحة في حقل أو غابة، وحين يحط عليها يأخذ في الدفاع عنها ، ومهاجمة أي طائر أو حيوان يحاول أن يستولي عليها أو يحط عليها فيها ، وحين يأمن وتثبت ملكيته لها ، يقبع على شجرة قريبة، ويأخذ في الصياح إعلاناً وإشعاراً لباقي الطيور بامتلاكه الأرض . ويظل على هذا الإعلان ستة أشهر كاملة . وفي منتصف الشتاء ينقلب صياحه إلى تغريد عذب، فتنجذب إليه الأنثى التي تعيش معه إلى الربيع بعدئذ يتعاونان في بناء عشيهما ، ثم يتلاقحان وتضع الأنثى البيض الذي يفقس بعد ذلك . فالتزاوج قد سبقته مقدمات منتظمة مقصودة الغرض، دامت ما يقرب من العام . وكافة أفراد هذا النوع من الطير تتفق في دون شذوذ أو تغيير . إن هذه الحيوانات تتلقى كل ذلك في مدرسة واحدة هي مدرسة الإلهام ! .

وقد لوحظ أن الطيور المهاجرة، ترجع إلى موطنها في مواعيد تكاد تكون محددة مهما كانت المسافات التي تفصل بين الطير ووطنه ليتم التزاوج والتناسل .

الأسماك

(178/736)

و من أعجب أدلة الإلهام، تلك التي نراها في تنافس بعض أصناف السمك التي تعيش في الأعماق الغائرة، واهتداء ذكور كل صنف إلى أنثاه في هذا الخضم الهائل، ووسط الظلام الدامس ! !

و كانت هذه إحدى دراسات العلماء ، التي أتضح منها أن الأسماك التي تعيش في الأعماق السحيقة تنبعث من أجسامها أشعة لامعة قوية، تشابه أشعة النجوم في شدة تألقها ، وجمال بريقها . وقد عرفوا أن هذه الأشعة بمثابة إشارات ضوئية ، وتتشابه في نظامها ، وطريقة إشعاعها ، وذلك في كل من الأنواع الواحدة، فبعضها يحمل صفاة واحدة من بقع مضيئة ممتدة على طول أجسامها ، وفي البعض الآخر نجد صفوفاً متراصة فوق بعضها ، وفي غيرها تشع أنواع زاهية كأنها الألعاب النارية، وهكذا يعرف كل نوع أليفه ويتم التناسل . ! !

و قد أثبت العلماء أن توليد الحيوانات للضوء ظاهرة شائعة في ما لا يقل عن ست وثلاثين

رتبة من رتب الحيوان . وهذه الظاهرة واضحة في الحيوان المسمى (ضوء الليل) وهو الذي يجعل البحار تتألق بالضوء ليلاً في الصيف، وكذلك في (قلم البحر) ، و(نجمة البحر) .

و يستطيع الإنسان أن يقرأ ويكتب ليلاً على ضوء حيوان (الاسيكيدا) . وفي أمريكا حشرات تشع ضوءً أبيض براق، جعل الأهالي هناك يتخذون منها مصابيح في الليل، وهذه الأضواء الحيوانية تفوق الأضواء الصناعية . وقد ثبت أن الحيوان لا يبذل في إحداث الضوء أي مجهود يذكر، ولذا يسميه العلماء الضوء البارد، لأنه يحدث دون ارتفاع في الحرارة . .

و دليل الإلهام في ذلك، أن صنف السمك لا يمكن أن يرى شكل الضوء الذي على ظهره حتى يمكن أن نقول أنه يبحث عن الضوء المماثل وينجذب إليه . . ! ! فهو إذاً يذهب إلى ضوء معين . . . ! ! رغم تعدد الأضواء وتباين قوتها . . ! ! إنه الإلهام . . .

قال تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ) (يس : 36)

النبات

أول من اكتشف أن الحشرات تنقل حبوب اللقاح من زهرة إلى أخرى، هو القس (كرستيان شبرنجل) في عام 1793 بألمانيا . وقد اعترف أن هذا العمل من معجزات الله وقضى كثيراً من الوقت يدرس الزهر والحشرات حتى أشغله ذلك عن كنيسته التي يتولى الوعظ فيها فانصرفت عنه رعيته .

وجاء " داروين" بعده بستين سنة يعلن أن النباتات لها وسائل معقدة، بعضها تمنع التزاوج بين أعضاء تذكير وتأنيث نفس الزهرة، وإذا لقحت صناعياً لا تنتج بذوراً . ففي بعض الأزهار نرى عضو التذكير يبلغ نضجه قبل عضو التأنيث، فلا يتم التلقيح إلا إذا جِيء بحبوب اللقاح من نبتة أخرى، قد تم نضج أعضاء التذكير فيها ، في موعد يوافق تلقيح عضو التأنيث في تلك . وبعضها تلقح نفسها بنفسها ، دون معونة لنقل حبوب اللقاح بالهواء أو الحشرات . وهذه قد توافقت تراكيبها كما في الذرة والقمح وغيرها ، فأعضاء التذكير التي تحمل اللقاح، تميل إلى مواضع فتحات أعضاء التأنيث بتقدير وضبط لا يمكن استناده إلى شيء فتنعقد بذلك الحبوب . . فهل هذا مصادفة ؟ .

أما أصناف النوع الأول فنرى أن للأزهار حِيلاً عجيبة، فبعضها ما إن يحس بالحشرة تطأ أعضائها ، حتى يهوي عليها وعاء اللقاح، فيضربها ضرباً رقيقا ليغمرها باللقاح، وبعضها يقوم بما يدل على قوة الإلهام في وضوح ودون لبس، فزهرة القطرب لا يتم تلقيحها إلا بفراش

الليل ، فلذلك تذبل بالنهار ، فإذا غابت الشمس تفتحت أكمامها ، وانتشرت رائحتها الجذابة، وبرزت أعضاؤها الداخلية بما عليها من حبوب اللقاح استعداداً لتلقي فراش الليل، فإذا ما أقبل الفجر عادت الزهرات إلى حالتها الأولى .

فإذا كان هذا هو الشأن في الإنسان والحيوان والنبات، فسبحان من لا شغله شأن عن شأن . . . ! ! !

(180/736)

قال تعالى : (فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَأُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى : 11)

الأمومة

تسمو عاطفة الأمومة على أية عاطفة على وجه الأرض، وقد أودعت كافة الأحياء تلك العاطفة التي تتجلى فيها بوضوح، قدرة الخالق ورحمته عموماً . . فهل إذا نزعت هذه العاطفة من قلوب الأحياء يعمر الكون ؟ ! .

تتحمل الأم في سبيل هذه العاطفة من الآلام ما لا طاقة عليها . وفي سبيلها تهون كل ما تجده من عذاب دونه من عذاب دونه أي عذاب في الدنيا . . . ونحن نلمس في حياتنا كيف أن

الأم تفيض سعادة، بقدر ما يفيض عليها حملها من نصب وتعب . . . . وكلما زاد حملها عليها وزنه، أشرقت العاطفة بنورها بين جنباتها . . ومن عجب أن الإنسان دائما يطلب تأخير كل ما يتصل تحياته من جراحة أو تمريض . فيما عدا الأم . . التي تستعجل . . . وضع وليدها ، بالرغم مما في هذا الوضع من آلام تتفق كافة الآراء على شدتها . والأمثلة على تضحية الأم بحياتها ، في سبيل وليدها بسخاء وجود ، كثيرة لا تقع تحت حصر . . . وتعلق الأم بطفلها . . وسهرها عليه . . وحبها له لما هو مضرب الأمثال .

و الإلهام في عاطفة الأمومة، يظهر أوضح في الحيوانات، فهي تأتي في سبيل وليدها من العجيب ما حير الباحثين . . . فالقطط والكلاب التي تحمل أولادها بأنيابها الحادة المخيفة، وتعدوا بها المسافات الشاسعة، دون أن تخدش جلدها وطيران الخفاش وصغاره معلقة به، وهو ينوء بحملها ولا يضعها إلا حيث الأمان ،ولو اقتضى ذلك منه طيران الليالي بأكملها وحملالكنجارو لوليدها في كيس بطنها ، والقفز به من مناطق الخطر، كل هذه أمثلة توضح إلهاما من الله، سبب عاطفة، هي أرق واخلص عاطفة من كائن لكائن . . ! !

(181/736)

و من أروع الأمثلة على الإلهام، ما نراه في حيوانا الاكسيلوكوب الذي يعيش منفرداً في فصل الربيع، ومتى باض مات فالأمهات لا ترى صغارها ولا تعيش لتساعدها في غذائها لمدة سنة كاملة، لذلك نرى الأم تعمد إلى قطعة من الخشب فتحفر فيها حفرة مستطيلة ثم تجلب طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية، وتحشوا بها ذلك السرداب، ، فمتى فقست البيضة وخرجت الدودة كفاها الطعام المدخر سنة . فانظر إلى ذلك التدبير الحكيم، وتلك الرحمة من حيوان على ولده، الذي سيرى العالم بعد فمن أودع فيه تلك الرحمة . . ومن ألهمه ذلك الحنان ! !

و حشرة الزنبور الحفار تحفر أنثاه نفقاً في الأرض تضع فيه بيضها ، وبعد أن تحفر النفق لا تضع فيه البيض مباشرة . بل تبحث عن دودة تلسعها لسعة تخدرها ولا تميتها ثم تسحبها إلى داخل النفق، وتضع عليها البيض وتسد النفق . وتموت الأنثى عن بيض قد توافر لدوده عنده عند فقسه ما يكفيه من القوت .

و لعل من أعجب ما أكتشفه العلم، أن كل إناث الطير من أي نوع كانت تضع من البيض عادة نفس العدد الذي تضعه في كل بطن، فبعضها يضع من ثلاث بيضات إلى خمس، وبعضها من خمس إلى ست وهكذا . غير أنه قد لوحظ أنه إذا رفع من تحتها بعض بيضها وضعت بدلاً منه لتساويه في العدد وهذه القدرة على إنتاج البيض تكاد تكون عجيبة لا يصدقها العقل . . . . . !!

وقد ذكرت مجلة " ذي اوك " أن بعض علماء الطير عمدوا إلى طائر النقار، فأخذوا من وكره بيضه ما عدا واحدة، وظلوا يكرر أخذ البيض ليروا إلى متى يظل يضع من البيض بدل ما سرق، فوضع الطائر الذي حيره الأمر 71 بيضة في 73 يوماً .

و الجهد الي يعانيه الطير في جلب الطعام لصغاره وتغذيتهم لأمرٌ يعلمه كل من رأى الطير وصغارها .

و يقول الدكتور " أرثر ألن " من جامعة "كورنل " أنه تحرى الدقة في عدد رحلات أنثى عصفور العصو، تطلب الطعام لتغذية صغرها ، فوجد أطعمتها 1217 مرة، ما بين الفجر ومغرب الشمس .

(182/736)

أما كيف تميز أم أفراخ الطير أياً من صغارها ينبغي أن يتغذى، فهو من دلائل ما أودعه الله من أسرار وإلهام . فإن النظام الدقيق الذي ركب في حلق كل فرخ . يقضي بأنه إذا أمتلأ أبطأ في ابتلاع ما يزق به، فما على الأم إلا أن تزق الذي يفتح لها منقارها ، ثم تراقب العاقبة بدقة، فإذا رأت الطعام لا ينزلق في الحلقوم، امتصته ثانية وزقت به الذي يليه . أي أن الذي يبتلع الطعام من فوره، هو أفرغها من الطعام جوفاً . . ! !

وحزن الأم على فقد ولدها إذا كان مضرب الأمثال في الإنسان، فإن من الحيوان، يأتي من ضرب الحزن والألم، في هذا الحال، أكثر مما يشاهد في الإنسان .

فحزن الناقة على صغيرها ، أو الكلبة على جروها . . لما يتوارد في الأحاديث، على سبيل العظمة والعبرة، وقد ضرب الخيل أروع الأمثلة في هذا الشأن،، ومن يشاهد حياتها يعرف أن الفرس إذا مات صغيرها نهنهت بصوت مسموع يعرفه القاصي والداني، وكثيراً ما يفيض الحزن بالفرس فتأتي من الأعمال ما لا يصدقه العقل . . فهذه الفرس التي صاحت وبكت حتى نزلت من عينها الدموع لموت صغيرها وفاض بها الحزن حتى أنها توحشت ولم يستطع انسان أن يقترب من جسد صغيرها ، وما إن هدأت وحمل جسد الصغير حتى سارت خلفه . ولما دفن لازمت قبره، وانقطعت عن الأكل والشرب، ولم تفد فيها أية محاولة، حتى قادها عذابها وحزنها إلى الموت . . تتكرر حالاتها بين الحين والآخر في مختلف أنحاء العالم .

من عجائب الإلهام

رضاع الطفل

تنمو الغدد التي تصنع اللبن في مدة الحمل ويدفعها إلى هذا النمو مواد يفرزها المبيضان، وفي نهاية الحمل وبدء الوضع، تتلقى هذه الغدد من الغدة النخامية القائمة في قاعدة الجمجمة، امراً بالبدء في صنع اللبن . . وتعتبر عملية الرضاع أُولى عمليات الإلهام للكائن الحي، فإنها عملية شاقة، تتم للطفل عن طريق الإلهام فهي لذلك تشهد بقدرة الخالق، إذ أنها أنها تقضي انقباضات متوالية في عضلات وجه الرضيع، ولسانه وعنقه، وحركات متلاحقة في فكه الأسفل وتنفساً من انفه، ولا يمكن أن يتم ذلك مصادفة من أول رضعة لرضيع، إلى آخر رضعة لفطيم، بل قرر العلماء أكثر من ذلك، أنه لا يمكن للرجل أن يقوم بها بالنجاح الذي يقوم به الطفل الذي لا يتجاوز عمره ساعات، بل دقائق، ولم يحدث أن أخطأ طفل واحد من ملايين الأطفال الذين ولدوا من يوم أن قامت الدنيا، إلى الآن وإلى ما شاء الله في طريقة الرضاع .

تزاوج ثعبان السمك والسلمون

ما زال علماء الأحياء في حيرة ودهشة من قصة ثعبان السمك ورحلاته العجيبة، لا يجدون لها تعليلاً إذ أنها لا تنضوي إلا تحت أدلة الإلهام التي تثبت وجود الخالق .

يعيش ثعبان السمك في الأنهار عندما يكتمل نموه بأن يبلغ العاشرة من عمره، يهاجر من البرك والأنهار في مختلف أنحاء العالم، فتلك التي تعيش في أنهار أوربا، تسبح حتى المحيط الأطلسي، وتلك التي تعيش في النيل وأنهار أفريقيا، تسبح إلى البحر المتوسط ثم تخترق مضيق جبل طارق إلى المحيط الأطلسي، ثم تستأنف جميعاً رحلة تقطع فيها آلاف الأميال قاصدة إلى الأعماق السحيقة في جزر الهند الغربية، جنوب برمودا، حيث تتزاوج وتضع البيض، فتكون مخلوقات صلبة شفافة، كأنها خيوط صغيرة لها عيون بارزة، وتتهيأ للعودة إلى مواطن آبائها، في رحلة تستغرق أكثر من ثلاثة سنوات في بعض الجهات لتصل إلى مصاب الأنهار التي عاش فيها آباؤها، سواء أكان أنهاراً في أوربا، أم ترعاً في أواسط أفريقيا، أم بحيرات في آسيا . ولم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكي في المياه الأوربية، او ثعبان أوربي في المياه الأمريكية إطلاقا . . ! !

وسمك السالمون الذي يعيش في البحار، حين يبلغ طور النضج الجنسي، وتكون له القدرة على التناسل يرحل إلى الأنهار ذات المياه العذبة، لتضع الإناث البيض، وتصب الذكور عليه حيواناتها المنوية . . وعندما تخرج الأجنة تمضي فترة من حياتها في ماء النهر حوالي سنتين، ترجع بعدها إلى البحر . . . ومتى أصبحت قادرة على التناسل، تعود إلى النهر الذي فقست فيه، ولا يخطىء السالمون النهر الذي فقس فيه مهما تقاربت مصاب الأنهار

بعضها من بعض ! ! .

اهتداء الحيوان إلى موطنه

كشف العلماء بعض أسباب هجرة الحيوان ظناً . غير أنهم وقفوا حيارى عند سر اهتداء الحيوان إلى موطنه، وقدموا بعض الفروض العلمية المختلفة اتفقت جميعها على أنها إلهام من الله .

(185/736)

ويقول العلامة " منروفكسي " أستاذ علم الحيوان في جامعة برمنجهام في معرض الاستدلال على قوة الإلهام، أن رجالاً صحب كلابه الخمسة في رحلة صيد ، في منطقة لم يزرها من قبل، لا هو ولا كلابه، وأثناء الرحلة وفي منتصف النار ، هبت عاصفة شديدة وهطل الثلج وفُصل الرجل عن كلابه، واضطر إلى أن يرجع إلى منزله وحيداً وهو يظن أن الكلاب إن لم تهلك فهي بلا شك لن تهتدي إلى المنزل، ولكن من العجيب أن أربعة كلاب من الخمسة رجعت إلى المنزل بعد أسبوع قاطعة هذه المسافة الطويلة ! !

لا نستطيع أن نقول أن للخبرة السابقة دخلاً في رجوعها فهي لم تقطع هذا الطريق من قبل حتى يمكن القول أنها حفظت علامات استدلت بها في عودتها كما أنه لا يمكن القول أنها

رجعت مسترشدة بحاسة شمها القوية، فالمسافة شاسعة والمدة التي تقضيها طويلة والثلج المنهمر أزال كل أثر لأية رائحة . . إنها حاسة لم يهتد بعد إلى كشفها ، إنها إحدى الشواهد الناطقة بعظمة الخالق ! !

إن هجرة الحيوان لاسيما تلك التي تتم أول مرة فتهاجر الأبناء إلى حيث سبق أن هاجرت الآباء . . دون دليل أو مرشد . . ثم عودتها . . لمن الأسرار ولكنها تشير إلى وجود الواحد القهار . . .

تكوين ثمرة البلح

يمتص جذور النخلة العناصر الغذائية من التربة بالشعيرات الجذرية، وتصعد العصارة بالضغط الاسموزي إلى أعلى، ويتغذى جذع النخلة بما أمتص من هذه العصارة ،أما العصارة فتصعد إلى حيث تغذي الأجزاء العلوية، ويأخذ كل جزء غذاءه ،و ترتفع العصارة الدقيقة، لتكون الثمرة فقمع البلحة هو مصفاتها ، التي تسمح بمرور المواد الغذائية الذائبة تماماً إلى الداخل فقط . وهي التي تكون الحلو من البلحة وغير الحلو من النواة . . والتي منها ينشأ جسم البلحة الطري وهيكل النواة الصلب والطري غلاف رقيق شفاف يكاد لا يرى ! !

ولم يحدث إطلاقا أن أخطأت نخلة فكونت نواة البلحة في الخارج والبلحة من الداخل . أو كونت البلحة الصلبة، والنواة طرية، ولا يمكن أن يعزى ذلك غلى ميكانيكية النخلة، أو طبيعتها . . فهذا شيء لا يمكن إلا أن يقال إنه إلهام . .

تقليب البيض للتفريخ

خطر لعلم أمريكي، أن يستفرخ البيض دون حضانة الدجاج ، بأن يضع البيض في نفس الحرارة التي ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة له، فلما جُمع البيض ووضع في جهاز التفريخ نصحه فلاح أن يقلب البيض إذ أنه رأى الدجاجة تفعل ذلك . . . ! فسخر منه العالم، وأفهمه أن الدجاجة إنما تقلب البيض لتعطي الجزء الأسفل منه، حرارة جسمها الذي حرمته . . أما هو فقد أحاط البيض بجهاز يشع حرارة ثابتة لكل أجزاء البيضة . . واستمر العالم في عمله حتى جاء دور الفقس وفات ميعاده ولم تفقس بيضة واحدة ! !و أعاد التجربة وقد استمع إلى نصيحة الفلاح، أو بالأحرى إلى تقليد الدجاجة، فصار يقلب البيض حتى إذا واتى ميعاد الفقس خرجت الفراريج . . ؟ ! !

وآخر تعليل علمي لتقليب البيض، أن الرخ حينما يخلق في البيضة، ترسب المواد الغذائية في الجزء الأسفل من جسمه، إذا بقي بدون تحريك ،فتتمزق أوعيته . . ولذل فإن الدجاجة لا تقلب البيض في اليوم الأول والأخير . . ! أفليس في هذا ما يدل على أن

الدجاجة عند الحضانة بإلهام عجز عن معرفته الإنسان بالمحاكمة، بالرغم من كثرة ما يعلمه . . وأننا إذا سألناها كيف أنها فعلت ذلك لتقول : علمني الخبير العليم .

حماية بيض الحشرات من غوائل الجو

(187/736)

من قديم الزمان تصنع الحشرات لبيضها ما يشبه الزجاجة المفرغة، التي تحفظ فيها السوائل على درجتها من الحرارة، وتنتفع بها في حماية بيضها من عوادي الجو المتقلب، فهي تحيط البيض بكتلة هشة خفيفة من الفقاعات، وما تحوي هذه الفقاعات من هواء يقوم مقام الطبقة المفرغة حول الزجاج، فيقل تسرب الحرارة والبرودة إلى داخلها . . فمهما اشتدت حرارة الجو أو قرص البرد، نرى البيض داخل هذه الغلالة على درجة ثابتة وبمنجاة من تقلب الجو .

حفظ اللحم حياً

تستطيع طوائف من العناكب والزنابير أن تحفظ اللحم أسابيع فلا يفسد، دون الاستعانة بما تفتق به حيل الإنسان من تبريد أو ثلج . بل فهي لما كانت تحتاج إلى اللحم طرياً في طعامها ولا تضمن الظفر به كل يوم، لذلك تحفظ صيدها، من الحشرات التي تزيد على حاجتها،

بطريقة لم يستطع الإنسان أن يصل إليها ، فيه تفرز في أبدانها مادة تخدرها دون أن تميتها ، فيبقى غذاؤها دائما طرياً طازجاً بل حياً لحين استهلاك، ولم يتمكن العلم حتى الآن من تخدير ذبيحة الإنسان، والإبقاء عليها بحياة كاملة دون موت لحين استهلاكها . . ! ! !

تكييف حرارة وهواء خلية النحل

لما كان يلزم ليرقات نحل العسل حفظ الهواء على درجة ثابتة من الحرارة والتهوية التامة، لتظفر بأسباب الحياة والنمو في الخلية فإن هناك طائفة من النحل، لا عمل لها في الخلية إلا إجهاد عضلاتها لتولد حرارة في أبدانها ، لتشع في أرجاء الخلية، بينما هناك طائفة أخرى تجثم على الأرض وتحرك أجنحتها بسرعة معينة محكمة لتوليد تياراً من الهواء يكفي الخلية فتكون بذلك مكيفة الجو هواء وحرارة ! !

أبقار النمل وزراعتها

(188/736)

يقول العلامة "رويال ديكنسون " أحد علماء التاريخ الطبيعي، في كتابه شخصية الحشرات، لقد ظللت أدرس مدينة النمل حوالي عشرين عاماً في بقاع مختلفة من العالم فوجدت أن كل شيء يحدث في هذه المدينة بدقة بالغة، وتعاون عجيب، ونظام لا يمكن أن

نراه في مدن البشر، علاوة على الهدوء والسكون . . لقد راقبته وهو يرعى أبقاره، وما هذه الأبقار إلا خنافس صغيرة، رباها النمل في جوف الأرض زمنا طويلاً حتى فقدت في الظلام بصرها .

ولا يدري أحد في أي عصر بدأ النمل حرفة الرعي وتسخير الأبقار، بل كل ما نعلمه أن الإنسان، إن كان قد سخر نحو من عشرين حيواناً لمنافعه فإن النمل قد سخر مئات الأجناس من حيوانات أدنى منه جنساً . فإن بق النبات، حشرة من الحشرات التي يعسر استئصالها، وما ذلك إلا لأن أجناساً كثير من النمل ترعى الحشرات التي يعسر استئصالها، وما ذلك إلا أجناساً كثيرة من النمل ترعى الحشرات . . . . ففي الربيع الباكر، يرسل النمل الرسل ليجمع له بيض هذا البق، فإذا جيء به وضع في المستعمرة موضع البيض، ويعنى به حتى يفقس وتخرج صغار، ومتى كبرت تدر سائلاً حلوا يقوم على حلبه جماعة من النمل، لا عمل لها إلا حلب هذه الحشرات بمسها بقرونها وتنتج هذه الحشرات 48 قطرة من العسل كل يوم، أو بمقدار يزيد مائة ضعف عما تنتجه البقرة بالنسبة إلى حجم الحشرات من حجم البقرة .

ويزرع النمل زراعات خاصة به، ويقول العالم المذكور أن النمل زرع مساحة بلغت خمسة عشرة متراً من الأرض، وأنه وجد جماعة من النمل تقوم بحرثها على أحسن ما يقضي به

علم الزراعة، فبعضها زرع الأرز، وجماعة أزالت الأعشاب، وغيرها قامت لحراسة الزراعة من الديدان .

(189/736)

و لما بلغت عيدان الأرز تمام نموها ، كان يرى صفا من شغالة النمل لا ينقطع، يتجه إلى العيدان، فيتسلقها إلى حب الأرز، فتنزع كل شغالة من النمل حبة، وتنزل بها سريعة إلى مخازن تحت الأرض . . وقد طلى العالم أفراد النمل بالألوان، فوجد أن الفريق الواحد من النمل يذهب دائما إلى العود الواحد ، حتى يفرغ ما عليه من الأرز .

و لما فرغ من الحصاد ، هطل المطر أياماً وما أن أنقطع حتى أسرع إلى مزرعة النمل ليتعرف أحواله فوجد البيوت تحت الأرض مزدحمة بالعمل والعمال والأعمال ووجد النمل تخرج من بيتها للشمس، وتضع حبتها لتجف من ماء المطر . وما إن ولى الظهر حتى جف الأرز وعاد الشغالة به إلى مخازن تحت الأرض . . ! ! !

قال تعالى : (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (الأنعام : 102)

المصدر : كتاب " الله والعلم الحديث " بقلم عبد الرزاق نوفل ط : دار الناشر العربي الطبعة

الثالثة

.

.

.

0-آيات عظمة الله في الكبد

لا يستطيع أحد أن يدعي أن وجود معمل مجهز كامل ذي تكنولوجيا عالية المستوى ما هو إلا نظام عفوي فطري ، ولكن المثير للسخرية أن أنصار الداروينية يدّعون بأن المعمل المتكامل الذي يوجد داخل الكبد خلق من نفسه ، ويدافعون عن ذلك الهراء بغير دليل و هذا من أوضح الأدلة على أن الداروينية دين باطل وسحر مبين تسيطر على عقول أتباعها

.

تحدث في الخلية الكبدية الواحدة ما يقرب من خمسمئة تفاعل كيميائي مختلف ، وإلى الآن من الصعب تقليد كثير من هذه العلميات التي تتم بأسلوب رفيع المستوى خلال واحد من ألف من الثانية .

ثم إن الخلايا داخل الكبد تحول كل الغذاء الذي تتناوله إلى جلوكوز حسب احتياج الخلايا

إلى الطاقة ، وتخزن السكر الذي لا يستهلك في صورة دهون تحت الجلد ، فتتحول الدهون والبروتينات إلى سكر عندما يتعرض الحسم إلي نقص في السكر .

(190/736)

الخلاصة : إن الكبد يحول الغذاء الذي تتناوله بشهية إلى مواد حسب احتياجات جسدنا ويخزن الباقي ، لذا فإن بلايين الخلايا الموجودة في الكبد تعمل بنفس الوعي والعلم دون الوقوع في أخطاء منذ بداية الخليقة إلى يومنا هذا .

المصدر : كتاب السلوك الذكي لدى الخلية تأليف هارون يحيى .

.

.

.

0-الأفخاخ الميكانيكية

بقلم الكاتب التركي هارون يحيى

جينيليسا (Genlisea)

يشبه فخ الجينليسا أمعاء الحيوانات الدقيقة . فالجذور التي تمتد تحت الأرض هي عبارة عن أنابيب مجوفة منتفخة . يحدث التدفق إلى داخل النبتة من خلال الشقوق المواجودة في الأنابيب، يساعد على ذلك الشعيرات الداخلية الدقيقة، حيث تطفو الحشرات والعضلات الدقيقة في الداخل بسبب تدفق المياه . تغطي شعيرات خشنة تتجه نحو الأسفل جميع الأقسام التي يمر فيها التيار المائي، وفي الطريق تواجه الفريسة مجموعة من الغدد الهاضمة، التي تعمل كصمام وتشكل قوة ثانية تدفع بالحشرات إلى الداخل النبتة، لتصبح في النهاية غداءً لذيذاً [1] .

فخ نبتة (Bladderwort)

هي نبتة بحرية شائعة يطلق عليها في الحقل العلمي اسم Utricularia . هناك ثلاثة أنواع من الغدد في فخ هذه النبتة : النوع الأول " الغدد الكروية " التي تتوضع خارج الفخ، والنوعان الثاني والثالث هما " الغدة الرباعية المدببة " و" الغدة الثنائية المدببة " والتي تتوضع في الداخل . تستخدم النبتة هذه الغدد كمراحل مختلفة للإيقاع في الفخ .

في البداية تقوم الغدد بتفعيل الامتدادات المتصلة بها ، وتبدأ بضخ الماء منها .

مقطع لبنات (Bladderwort) وترتيب الفخ : 1. تلامس الفريسة شعيرات الفخ 2. يفتح الفخ في الحال وتدخل الفريسة 3. تغلق البوابة وراء الفريسة .

(191/736)

يتشكل جوف هام جداً في الداخل . وفي المدخل يوجد باب الفخ الذي يمنع الماء من التدفق نحو الداخل . وتكون الشعيرات الموجودة في الداخل حساسة جداً ، فعندما تلامس إحدى الحشرات أو العضلات هذه الشعيرات يفتح الباب على الفور . يتدفق الماء بقوة إلى داخل النبتة، ويغلق الباب وراء الفريسة بلمح البصر . بعد هذه العملية التي لا تستغرق أكثر من 1/1000 من الثانية، تبدأ العصارات الهاضمة بإطلاع المفرزات الهاضمة على الفور[2] .

السوط البكتيري

تستخدم بعض أنواع البكتيريا ما يشبه السوط، ويطلق عليه " السوط " ليساعدها على الحركة في المحيط السائل . يتصل هذا السوط بغشاء الخلية ويسمح للبكتريا حسب الاتجاه الذي ترغب به بسرعة محددة .

عرف العلماء السوط منذ زمن، إلا أن بنيته التي لم يكشف عنها النقاب قبل عقد تقريباً، كانت مفاجأة كبيرة لهم . لقد اكتشفوا أن هذا السوط يتحرك من خلال " محرك عضوي" في غاية التعقيد، وليس عن طريق آلية اهتزازية بسيطة كما كان شائعاً .

تقوم بنية المحرك الدافع على مبدأ المحرك الكهربائي . هناك جزئين رئيسيين له : " ثابت " و" الدوران " .

يختلف السوط البكتيري عن باقي الأنظمة العضوية بأنه يولد حركة ميكانيكية . لا تستخدم الخلية الطاقة المختزلة في جزيئات ATP وإنما لديها مصدر خاص للطاقة : التي تستخدمها البكتيريا تنتج عن الأيوانات المتدفقة عبر أغشية الخلية الخارجية . البنية الداخلية للمحرك معقدة جداً . يشترك ما يقارب من 240 بروتين مختلف في بناء السوط . يتوضع كل منها في مكانه المناسب بكل عناية . يعتقد العلماء أن هذه البروتينات هي التي تحمل إشارات تشغيل المحرك وتوقيفه، وتشكل نقاط اتصال تسهل الحركة بمقاييس ذرية، كما تفعل بروتينات أخرى مهمتها وصل السوط بغشاء الخلية . هذه الخصائص التي يمتاز بها عمل هذا النظام تدل على الطبيعة المعقدة له[3] .

يعتبر السوط البكتيري بتركيبته المعقدة دليلاً كافياً على بطلان نظرية التطور . فلو حصل وتعطل أو فقد جزء صغير من هذا النظام لعجز عن القيام بمهمته وأصبح دون أدنى فائدة للبكتريا .

يجب أن يكون عمل السوط متقناً منذ اللحظة التي خلق فيها . هذه الحقيقة تلغي أيضاً المزاعم التطورية التي تعتمد مبدأ " التطور خطوة خطوة " .

يدلنا هذا السوط على أن أشكال الحياة البدائية أيضاً تحمل تصميماً على جانب من التعقيد .

وكلما تعمق الإنسان في دقائق هذا العالم، كلما اكتشف أن ما كان يظنه علماء الأحياء في القرن التاسع عشر، بما فيهم داروين، أحياء أو عضيات بسيطة هي في الواقع معقد تماماً كغيرها .

تصميم معجز حتى في المخلوقات الصغيرة التي كان داروين وحاشيته يعتبرونها " بسيطة " . يعتبر السوط البكتيري أحد الأمثلة التي لا تعد ، تتحرك البكتريا في الماء بتحريك هذا العضو المتصل بغشائها ، كان الكشف عن التفاصيل الداخلية لهذا العضو صدمة بالنسبة للعلماء تبين أن البكتيريا تحتوي عل محرك كهربائي مقعد . هذا المحرك الكهربائي الذي يتكون من خمسة عشر جزيئاً مختلفاً هو تصميم معجز في حد ذاته كما يظهر في الأعلى .

التصميم في الدلفين :

يتنفس كل من الدلفين والحوت عن طريق الرئتين تماماً كما تفعل باقي الثدييات، وهذا يعني أنه من الصعب عليها أن تتنفس في الماء مثل الأسماك وهذا هو السبب وراء زيارتها المتكررة للسطح . تعمل الفتحة الموجودة في أعلى الرأس على إدخال الهواء . صمم هذا العضو بطريقة تؤمن له إغلاقاً آمناً عند الغوص في الماء، حيث تغلق الفتحة أوتوماتيكياً بغطاء يمنع تسرب الماء، وعندما يعود الدلفين إلى السطح يفتح الغطاء أوتوماتيكياً أيضاً .

نظام يسهل النوم دون التعرض لخطر الغرق :

(193/736)

يملأ الدلفين من 80 ـ 90 ٪ من رئتيه بالهواء في كل مرة يخرج فيها للتنفس . هذه النسبة لا تتعدى 15 ٪ عند الإنسان، وهي عند الدلفين عمل إرادي وليس كباقي الثدييات الأرضية التي تتم فيها هذه العملية بشكل لا إرادي 54 .

خلق الدلفين بجسم مثالي يلائم بيئته

بتعبير آخر : يقرر الدلفين أن يتنفس تماماً كما نقرر نحن الخروج في نزهة . يوجد في جسم الدلفين نظام خاص يحميه من الهلاك عندما ينام في الماء . يستخدم الدلفين النائم نصفي الدماغ بشكل متناوب كل 15 دقيقة، فبينما ينام النصف الأول يبقى النصف الثاني متجهاً إلى السطح للتنفس . إن خطم الدلفين الموجود في منقاره هو عضو آخر يعينه على السباحة، فالدلفين يستخدم طاقة أقل في أختراق الماء ويسبح بسرعات عالية . تستفيد السفن الحديثة من خطم الدلفين الذي يشبه القوس المصمم وفق الديناميكية الهيدروليكية لزيادة سرعتها كما يفعل الدلفين .

الحياة الاجتماعية عند الدلفين :

يعيش الدلفين في مجموعة كبيرة . ومن أجل مزيد من الحماية تحتل الإناث والمواليد الجدد مركز السرب . أما الأفراد المريضة فلا تترك وحيدة، بل تبقى ضمن السرب إلى أن تموت . تبدأ الروابط التكافلية عند الدلفين منذ اللحظة الأولى التي ينضم فيها المولود الجديد إلى السرب .

يخرج ذيل الدلفين منذ اللحظة الأولى التي ينظم فيها المولود الجديد إلى السرب .

يخرج ذيل الدلفين الوليد من رحم الأم أولاً، بهذه الطريقة يبقى متصلاً بأمه مما يضمن له الأوكسجين اللازم أثناء الوضع . وعندما يخرج الرأس في النهاية، يتجه الرضيع في الحال إلى السطح ليستنشق أول كمية من هواء الحياة الجديدة، عادة ترافق الأم التي تستعد للوضع أنثى أخرى. ترعى الأم وليدها منذ لحظة الولادة، إذ يتلقى المولود الذي يفتقد الشفتان الحليب من مصدرين يخرج الحليب من خلالهما من شق في بطن الأم. عندما يطرق الوليد برفق على هذا القسم من البطن يتدفق الحليب. يستهلك الدلفين الرضيع عشرات الليترات من الحليب يومياً، وتشكل الدهون 50% من هذا الحليب (مقارنة مع نسبة 15% في حليب البقر) وفي الحال يعمل هذا الحليب عمله في تشكيل الطبقة الجلدية الضرورية لتنظيم درجة حرارة الدلفين . تعين إناث أخريات الدلافين الصغيرة خلال الغوص العميق بدفعها إلى الأسفل.

كذلك يتم تعليمها الصيد وكيف تستخدم السونار، هذه العملية التعليمية التي تستغرق عدة سنوات في بعض الأحيان يبقى الدلفين ملتزماً بعائلته حتى ثلاثين سنة.

النظام المانع للانحناء :

يستطيع الدلفين أن يغوص إلى أعماق لا يمكن أن يصل إليها الإنسان. الرقم القياسي لهذا

العمق يحققه نوع من الحيتان يغوص حتى 3000 متر بنفس واحد . صمم الدلفين والحوت ليتوافقا مع هذا النوع من الغوص العميق يجعل تفلطح الذيل عملية الغوص والعودة إلى السطح أكثر سهولة .

من الأعضاء الأخرى التي تساعد في الغوص الرئتين : عندما ينزل الدلفين في الماء يزداد وزن أو ضغط عمود الماء فوقه، وبالتالي يزداد الضغط داخل الرئتين لإيجاد توازن مع الخارج. لو تعرضت رئة الإنسان إلى هذا الضغط فستتمزق في الحال . ومن أجل التغلب على هذا الخطر، أوجد نظام خاص في جسم الدلفين حيث تؤمن حلقات غضروفية متينة الحماية اللازمة للخلايا الرغامية والهوائية الموجودة داخل رئتي الدلفين .

(195/736)

نظام آخر من أنظمة الحماية في هذا المخلوق الرائع هو النظام المانع للانحناء . عندما يغطس الغطاس إلى الأعماق بسرعة كبيرة، يواجه هذا النوع من الخطر .

ويكون سبب الالتواء دخول الهواء مباشرة إلى الدم، وبالتالي تشكل الفقاعات الهوائية في الشرايين . يمكن أن تؤدي هذه الفقاعات إلى الموت لما تسببه من إعاقة للدوران الدموي .

إلا أن الدلافين والحيتان لا يواجهون هذه المشكلة عل الرغم من أنها تتنفس عن طريق

الرئتين والسبب هوأنها .

تغوص برئتين فارغتين، وبما أنها لا تحمل هواء في رئتيها فهي ليست عرضة للانحناء .

إلا أن هذا يقود إلى سؤال هام إذا كانت رئتاها فارغتين من الهواء فلماذا لا تختنق بسبب نقص الأوكسجين .

الجواب على هذا السؤال يحمله بروتين " الميوغولبين "الذي يتواجد في أنسجة العضلات بنسب كبيرة . يتميز هذا البروتين " الميوغلوبين "بجاذبية قوية جداً للأوكسجين في عضلاته . يستطيع الدلفين أو الحوت أن يسبح دون تنفس لفترات طويلة، كما يمكنه أن يغوص إلى العمق الذي يريده . يحتوي الجسم البشري أيضاً على الميوغلوبين، لكنه لا يمكن أن يتحمل نفس الظروف بسبب حجمه الصغير هذا التصميم الفريد الذي يختص به الدلفين والحوت آية من آيات الحكمة والخلق الإلهي المعجز . خلق الله الثديات مثل باقي الحيوانات ببنية تناسب الظروف التي تعيش بها .

قال الله تعالى : (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) .

[1] rsel Bilim ve Teknik Bilim ve Teknik G Ansiklopedisi (Encyclopedia of Science and Technology) , p. 2995

[2] 52 . Stanley Taylor, "Life underwater" Botanic,

.Issue 83, February 1988, p. 24

[3] Michael Behe, Darwin's Black Box, New York : .Free Press, 1996, pp. 69-73

.

.

.

0-الأذان 24ساعة لا ينقطع

(196/736)

لقد توصل باحث في علوم الرياضيات بدولة الإمارات العربية المتحدة لمعادلة حسابية عبقرية تؤكد إعجاز الخالق عز وجل في إعلاء نداء الحق " صوت الأذان " طوال 24 ساعة يومياً وقال الباحث في دراسته : أن الأذان الذي هو دعاء الإسلام إلى عبادة الصلاة لا ينقطع عن الكرة الأرضية كلها أبداً على مدار الساعة , فما أن ينتهي في منطقة حتى ينطلق في الأخرى ! ! !

وشرح الباحث " عبد الحميد الفاضل " فكرته بشرحه كيف أن الكرة الأرضية تنقسم إلى 360 خطاً تحدد الزمن في كل منطقة منها , يفصل كل خط عن الخط الذي يليه أربع دقائق بالضبط , والأصل في الأذان أن ينطلق في موعده المحدد , ويفترض أن يؤديه المؤذن أداء حسنا يستمر أربع دقائق من الزمن .

ولتقريب الصورة أكثر فإذا افترضنا أن الأذان انطلق الآن في المنطقة الواقعة عند خط الطول واحد , واستمر أربع دقائق , وانتهت الأربع دقائق فإنه سينطلق في المنطقة الواقعة عند الخط اثنين , وعندما ينتهي سينطلق في الخط الثالث ثم الرابع وهكذا لا ينقطع الأذان طوال اليوم الكامل من حياة أرضنا , ويمكن التأكد بعملية حسابية صغيرة :

4×360 (خط طول) = 1440 دقيقة

1440 / 60 (دقيقة) = 24 ساعة

المصدر : بحث للباحث عبد الحميد الفاضل

.

.

.

0–سحرة فرعون وسحرة الكومبيوتر

د . احمد عدنان الجبوري أخصائي جراحة الأعصاب والدماغ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :

(197/736)

لا يدرك روائع الصنعة أو الأعجاز الذي فيها إلا من حاول الصناعة وكابد الصعاب وصابر الفشل حتى توصل إلى تلك الصنعة أو عجز دونها فكانت بالنسبة أليه معجزة، وهذا ما حدث لسحرة فرعون فإنهم أهل اختصاص وخبرة وكرسوا حياتهم للسحر فأتقنوا فنونه وعلمه وعلموا خباياه وحدوده وما يمكن أن يكون سحراً وما هو فرق السحر، ولما جاء موسى (عليه السلام) بمعجزة العصا أدركوا أن ذلك ليس بسحر ولا يمكن أن ينتج بالسحر فخروا سجدا بإعجاب وتذلل إلى الله (عز وجل) الذي استحالة بقدرته العصا إلى أفعى تلقف ما يأفكون، كذلك الأمر مع بقية المخلوقات، فربما كان اقرب للناس إلى الشعور بالأعجاز في خلقها هم أولئك حاولوا تقليدها فحالت الصعوبات دون هدفهم هذا فكان الفشل الذي قاسوا مرارته هو في حقيقته نجاح في الوقوف على المعجزة الخلق وهاك خبر أحد هؤلاء هو هانز مورافك (Hans marafek) الذي قضى أربعين سنه في صناعة الربوت (الإنسان الآلي) وهو يأمل في يوم من الأيام أن توصله بحوثه إلى الصناعة

روبوت بقدرات عقليه تضاهي قدرات العقل الإنسان فكتب مقالا في مجلة العلم الأمريكي لشهر شباط سنة 2000 يبين في هذا المقال نتائج بحثه لهذه السنين الطوال يقول هذا العالم في البداية تمت بدراسة الجهاز العصبي للحشرات والطيور والقوارض والإنسان ولم اكتف بالدراسة الوصفية الظاهرة بل طفقت أتابع الإشارات الكهربائية وهي تنتقل من شبكة الخلايا العصبية وعلمت بعد ذلك إن في الجهاز العصبي عمليات حسابيه تقوم بها خلايا الدماغ وهي تعالج المعلومات الواردة أليها من المحيط الخارجي عند ذلك أدركت أهمية وضع وحدة قياسية لحساب سرعة ومعدل معالجة المعلومات من قبل الخلايا العصبية فكانت هذه الوحدة هي MIP –Million Instruction Per se وتعني مليون عمليه حسابيه في الثانية الواحدة وقد تتصور أنها وحده كبيرة جداً لكنها في الحقيقة ليست كذلك ذلك لان دماغ الحشرات (الذبابة مثلا) يقوم

(198/736)

بعشرة MIPS

أي انه يقوم بحساب ومعالجة (10) ملايين إشارة عصبيهفي الثانية الواحدة واعتقد انك الآن تتساءل عن دماغ الإنسان والقابليات التي أودعها الله (جل شأنه) فيه في البداية أود

أن أعلمك انه لم يكن أمراً يسيراً حساب قابلية الدماغ البشري على معالجة الإشارات العصبية الواردة إليه . لكن العلماء لم يتركوا الموضوع بشكل نهائي بل احتالوا عليه وذلك باستئصال جزء صغير من الدماغ وحساب العمليات التي يقوم بها ذلك الجزء ثم قياس هذا على الدماغ كله ورغم أن هذه الطريقة هي غير دقيقه تماماً (وذلك لأن الجزء قد لا يمثل من حيث التعقيد الدماغ ككل) إلا أن هذا هو ما بالمستطاع عمله، يعني سؤال أي جزء من الدماغ يمكن أن يستخرج ويوضع في ظروف هي قريبة من تلك التي في الجسد بحيث يبقى هذا النسيج العصبي يحافظ على حيويته وقابليته على معالجة المعلومات بشكل صحيح كي يتسنى للعلماء حساب هذه القابلية ومن ثم تعميم النتائج على الدماغ كله وبعد محاولات عديدة وقع الاختيار على شبكة العين التي هي في حقيقتها امتداد للجهاز العصبي في كرة العين تقوم هذه الشبكة بتحويل الضوء إلى إشارات كهربائية ثم تعالج هذه الإشارات معالجه أوليه قبل أن ترسل الدماغ عن طريق العصب البصري، وعند حساب معدل العمليات الرياضية التي تقوم بها شبكة العين تبين أنها تساوي ألف mips أي أن شبكه تقوم بمعالجة ألف مليون إشارة كهربائية في الثانية الواحدة !

ولما كان وزن الدماغ أثقل من شبكة العين بحوالي خمسه وسبعون ألف مره (75000) فلان هذا يعني أن الدماغ يقوم بمائة مليون عمليه حسابيه في الثانية الواحده أي مائة مليون mtps !

أن أحدث الكومبيوترات التي صنعت في البداية القرن الواحد والعشرين يقوم بحوالي ألف وبذلك تكون قابلية الدماغ البشري واحد تعادل قابلية مليون كومبيوتر حديث ربطت بعضها ببعض لتقوم مجتمعه بمعالجة المعلومات التي يتعامل معها دماغ بشري واحد تخيل لو انك أردت أن تصنع روبوت (إنسان آلي) يضاهي قدرتك، فان عليك إن تصنع في رأسه مليون حاسبة من النوع الحديث ولا أظن أن مخازن شركة صناعة الحاسبات يتسع هذا العدد فضلاً عن راس الروبوت، ثم هب انك نجحت في حشر وحقب هذه الحاسبات في رأس (إنسانك) !

فمن أين لك بالقدرة الكهربائية لتشغيل كل هذه الحاسبات معا انك ستحتاج ملايين من واطات الطاقة الكهربائية لتشغيل هذا الرأس العملاق في حين أن دماغك الذي يقرأ هذه الكلمات لا يحتاج إلى أكثر من عشرة واطات ليقوم بعمله على أتم وجه، ويبقى أن أخبرك إن أحدث الروبوتات التي صنعت حتى يومنا هذا هو ذلك الذي أنتجته شركة هوندا اليابانية والذي يصمم إنسان لكن له عقل لا يضاهي في قدرته عقل البعوض ! فهو قادر على المشي وارتقاء السلم لكنه يقف بعد (25) دقيقه ذلك لان دماغه يستهلك ما في بطاريته من

الكهرباء فتنفذ بعد

25 دقيقه من بداية مشيته، أرأيت ؟ هذا مظهر واحد من مظاهر القدرة ألالهيه تجلت لنا واضحة متلألئة عندما فشلنا في الارتقاء إليها فضلا على التغلب عليها وأظن إن ذلك قريب من موقف سحرة فرعون أمام عصا موسى (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام) إلا إن هؤلاء سجدوا كلهم أجمعون أما سحرة الكومبيوتر فان فيهم من تكبر وطغى فارتد فرعونيا ولكل حساب عند رب السموات والأرض القادر على كل شيء .

(200/736)

قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿ 73 ﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) وصدق الله العظيم

.

.

.

0-مكة مركز يابسة العالم

المساحة والهندسة :

علم المساحة والخرائط من العلوم الأساسية التي تعنى بالإسقاط الفعلي للمشروع الهندسي على أرض الواقع كما تعنى بالخرائط الكنتورية التي تستخدم في إسقاط المشاريع الهندسية .

(201/736)

وهنا يبدر سؤال مهم وهو ما السر الذي جعل مكة المكرمة المكان الذي يختاره الله تعالى ليكون مكان بيته الحرام ومبعث آخر أنبياءه محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا الأمر لا نعرف على وجه التحديد جوابه فهو من أمر الله وغيب الله ، إلا أننا قد نجد في بعض بحوثنا التي تجود بها قرائحنا وعقولنا القاصرة بعض الأجوبة التي قد تشبع فضولنا وشغفنا وعطشنا لعلم الله الذي لا نهاية له . ففي حقل الجيولوجيا الهندسية هنالك ما يعرف بعلم المساحة والخرائط ، وفي هذا العلم الجميل والواسع استطاع فريق علمي يرأسه الدكتور حسين كمال الدين أستاذ المساحة في إثبات أن مكة المكرمة هي مركز اليابسة في الكرة الأرضية ، وقد كان هدفه في البداية الوصول إلى وسيلة تساعد أي مسلم من تحديد مكان

القبلة من أي مكان هو فيه في الأرض (قلنا في الأرض وليس على الأرض لأن الغلاف الجوي تابع لكوكب الأرض وعليه يكون الإنسان دائما داخل الأرض إلا إذا نفذ إلى الفضاء) إلا أنه توصل أثناء بحثه إلى ما يشبه النظرية الجغرافية بأن مكة المكرمة هي مركز لدائرة تمر بأطراف جميع القارات ، فقد اتجه إلى رسم خريطة الكرة الأرضية تحدد عليها اتجاهات القبلة فبعد أن قام برسم القارات حسب أبعاد كل الأماكن على القارات الستة وموقعها من مدينة مكة المكرمة ثم أوصل بين الخطوط المتساوية مع بعضها ليعرف كيف يكون إسقاط خطوط الطول وخطوط العرض عليها ، فتبين له أن مكة المكرمة هي بؤرة هذه الخطوط ، ثم رسم خطوط القارات وسائر التفاصيل على هذه الشبكة واستعان في بحثه بالعقل الإلكتروني لتحديد المسافات والانحرافات المطلوبة ، ولاحظ أنه يستطيع أن يرسم دائرة يكون مركزها مكة المكرمة وحدودها خارج القارات الأرضية ومحيطها يدور مع حدود القارات الخارجية ، وتوصل في نظريته إلى مغزى الحكمة الإلهية من اختيار مكة المكرمة مكانا لبيت الله الحرام (عن مجلة العربي العدد 237 أغسطس 1978) .

(202/736)

وقد أكدت هذه النظرية التي وضعت في السبعينيات صور الأقمار الصناعية وتحليلاتها الطبوغرافية وطبقية وجغرافية الأرض التي أجريت في هذا العهد التسعيني للقرن العشرين الميلادي .

وحول هذا الموضوع يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام :

((وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)) (الآية رقم 92) .

فلماذا مكة أم القرى ؟ . ولماذا أطلق الله تعالى على بقية الأرض لفظ من حولها ؟ .

وكان الأمر يتعلق بمركز ما والأفلاك التي تدور حوله ، لنرى ماذا يفصل برنامج المعجزة الخالدة هذا الموضوع .

فضّل الله جلّ وعلا بعض الأماكن على بعض كتفضيل مكة على سائر بقاع العالم لتكون مركزا لظهور الدين الخاتم وانتشاره إلى باقي بقاع الأرض . ومعلوم أن عدد قارات العالم في الأرض سبع قارات منها خمس مأهولة بالسكان والقارتان القطبيتان خاليتان من الحياة البشرية وكذلك من المعروف أن الرقم (7) ذو أهمية كبيرة في الحقائق الكونية فهناك سبع قارات وسبعة ألوان طيف وسبع سموات (إذ أن آخر تقسيم علمي فلكي لطبقات السماء هو سبعة – من محاضرة الدكتور أنيس الراوي بعنوان الكيمياء الذرية) ، أما في القرآن فإن الرقم سبعة له دلالة وأهمية عظيمة .

فضّل الله تبارك وتعالى مكة وكرمها حين جعلها مركز جذب الإشعاعات الروحية ، مركزا يحج إليه المسلمون من كل فج عميق ، وشاءت إرادة الله تبارك وتعالى أن يوضع أول بيت للناس لعبادته وحده لا شريك له في مكة ، فهي وجهة الناس ومتجههم في الحج والعمرة وهي ذات موقع متوسط في العالم إذ أنها تمثل المعنى والمفهوم الجغرافي لوسطية الأمة الإسلامية كما قال تعالى : ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)) (البقرة 143) .

وهي وسطية في الإسلام شاملة المعاني ، وسطية في التمتع بطيبات الحياة دون إفراط أو تفريط ، وسطية في الأمور العامة والخاصة فلا تبذير ولا تقتير ، ثم أنها وسطية بالموقع والمكان ولذلك اختارها الله تبارك وتعالى لتكون مهبط خاتم رسالاته . ومكة كما هو معروف تحتل موقعا متميزا منذ أقدم العصور ، وهي حتى الآن منطقة عبور القوافل التجارية .

مكة مركز التجمع الإشعاعي للتجاذب المغناطيسي بالكرة الأرضية

نعود ونتكلم بعض الشيء عن الجغرافية وعلم المساحة والخرائط الذي سبق أن أشرنا إليه فنقول : تطور علم الخرائط تطورا كبيرا بعد اختراع الأقمار الصناعية وسفن الفضاء ، وهي التي قامت ولا تزال بتصوير وجه الكرة الأرضية من أبعاد واتجاهات مختلفة وظهرت حقائق علمية عديدة لم تكن معلومة للإنسان عن مساحات ، ومسافات ، وتضاريس لقارات ، وبحار ، وجزر ، ومحيطات . وتوضع على الخرائط الجغرافية خطوط ودوائر ، أما الخطوط فهي خطوط الطول وهي عبارة عن خطوط يتصورها العلماء على سطح الكرة الأرضية ، وتصل فيما بين القطبين ، وخط الطول الأساسي فيها يأخذ رقم الصفر ، وهو الخط المار بضاحية غرينتش بالقرب من لندن ، وعدد خطوط الطول هذه هو 360 خطا نصفها شرق غرينتش ، والنصف الآخر غربه ، تساعد هذه الخطوط على تحديد المكان على سطح الكرة الأرضية . وأما الدوائر فهي دوائر يتصورها العلماء على وجه الأرض ومنها دائرة أو خط الاستواء ، وتقع في منتصف المسافة بين القطبين ودرجتها الصفر ، ثم توجد دوائر موازية لخط الاستواء هذا عند 90 درجة شماله وكذلك 90 درجة جنوبه ، والمسافة بين دوائر العرض واحدة تقريبا على خرائط العالم ، أما فائدتها فهي معرفة بعد الموقع محددا بالدرجات عن خط الاستواء شمالا أو جنوبا .

وحديثا استطاع العلماء أن يتحققوا من وسطية مكة المكرمة بواسطة الصور الحقيقية التي يصورها القمر الصناعي عندما يلتقط صورا للكرة الأرضية مبتعدا عن سطحها بما لا يقل عن مائة كيلومتر في الفضاء وهو البعد الذي تستطيع أجهزة التصوير بالقمر الصناعي أن تلتقط صورا للكرة الأرضية مشتملة على القطبين . وباستعمال أجهزة التكبير في فحص هذه الصور الحقيقية تتضح وسطية مكة بين أقصى يابسة في القطب الشمالي ، وأقصى يابسة في القطب الجنوبي . وفي النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي ، قام أحد العلماء الأمريكان والمتخصص في علم الطبوغرافيا بإجراء بحوث استنتج منها أن مكة المكرمة هي المركز المغناطيسي للكرة الأرضية ، وقد قامت بحوث هذا العلم على أساس ظاهرة كونية موجودة منذ خلق الكون ، وهي ظاهرة التجاذب في ما بين الأجرام السماوية (التجاذب المتبادل فيما بينها) ، وتصدر فاعلية هذا التجاذب من مراكز هذه الأجرام أي الكواكب والنجوم ، والكرة الأرضية شأنها شأن أي كوكب آخر ، تصدر قوة جذبها للأشياء من مركزها في باطنها ، وهي النقطة أو المركز الذي درسه ذلك العالم الأمريكي وتحقق من وجوده وموقعه والمكان الذي يدل عليه على سطح الأرض ، وإذا به يجد أن

موقع مكة هو الموقع الذي تتلاقى فيه الإشعاعات الكونية ، وأعلن بحوثه هذه دون أن يدفعه على إجرائها أو إعلانها أي وازع ديني ، وبعد ذلك نشرت جريدة الأهرام القاهرية في عددها الصادر بتاريخ 1977/2/4م . نبأ العالم المصري الدكتور حسين كمال الدين الذي كان يعمل آنذاك رئيسا لقسم المساحة التصويرية بجامعة الرياض في السعودية ، تذكر فيه أنه توصل لنفس النتيجة التي توصل إليها العالم الأمريكي ، وهي أن مكة مركز التجمع الإشعاعي للتجاذب المغناطيسي بالكرة الأرضية ، وقد ذكر هذا البحث بالتفصيل في مجلة العربي الكويتية .

المصدر : كتاب المنظار الهندسي للقرآن الكريم لمؤلفه د . خالد فائق العبيدي

.

.

.

0-التصميم الخاص لعناصر الحياة

قال تعالى في محكم تنزيله : (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) (الفرقان : 2) .

وقال تعالى : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ) (المؤمنون : 115)

.

وقال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذريات : 56) .

ويقول " جون بولكنغهورن " وهو فيزيائي إنكليزي [1] .

"إنكم إذا تأملتم في النظام الخارق الذي بني به الكون ولاحظتم التصميم غير العادي الذي خلق به، فلابد أن يوحي لكم ذلك بأن ثمة هدفاً وغاية وراء كل ذلك" .

حتى هذه اللحظة مازلنا نفحص كيف أمكن تصميم كل التوازنات الفيزيائية للكون الذي نحيا فيه كلي نتمكن من الحياة ولقد رأينا أيضاً أن التركيب العام للكون وكذلك موقع الأرض فيه عوامل مثل الهواء والضوء والماء قد صممت بدقة لكي يكون فيها ما تحتاجه مساهماتنا ، بالإضافة لذلك فنحن بحاجة لأن نلقي نظرة على العناصر التي صنعت منها أجسامنا ، تلك العناصر الكيميائية والتي هي القطع البناء التي تشكلت منها أيدينا وأعيننا وشعرنا وأعضاؤنا تماماً مثل بقية الكائنات الحية الأخرى كالنباتات والحيوانات، والتي هي مصادر غذائية وهي صممت لتخدم الأهداف التي تفعلها بالضبط .

يشير الفيزيائي (روبيرت ـ س ـ د ـ كلارك) إلى التصميم الراقي والخاص في بناء قطع الحياة عندما قال : " لقد أعطانا الخالق مجموعة أجزاء مسبقة الصنع وجاهزة لأن تساهم في كل ما هو قيد التصنيع "[2] وأكثر تلك القطع البناءة أهمية هي الكربون .

التصميم في الكربون :

(207/736)

وصفنا في الفصول السابقة العملية غير العادية والتي أنتج بها عنصر الكربون في أعماق النجوم الهائلة والتي تدعى العمالقة الحمراء ، حيث يشغل هذا العنصر الموقع السادس في الجدول الدوري، كما شاهدنا كيف أمكن اكتشاف تلك العملية المدهشة في تركيب العناصر ، وقد تقدم (فريد هويل) بالقول في هذا الموضوع معلناً " أن قوانين الفيزياء النووية صممت بتأن مع الأخذ بالحسبان مستقبل النواتج لما يصنع داخل النجوم "[3] .

عندما فحصنا الكربون عن قرب وجدنا أنه ليس الشكل الفيزيائي لهذا العنصر صمم بتأن فقط بل رتبت خواصه الكيميائية بإتقان أيضاً كي تكون على ما هي عليه فعلاً .

يوجد الكربون الصافي في الطبيعة بشكلين الغرافيت والألماس، وهو يدخل مع عديد من

العناصر الأخرى مشكلاً مواد كثيرة مختلفة الأنواع، وخاصة في ذلك المجال المتعدد الواسع الذي لا يصدق من المواد العضوية الحية، ومثل تلك المواد العضوية الحية أغشية الخلايا ولحاء الشجر وعدسة العين وأظلاف الغزال وبياض البيضة وصفارها وسم الأفعى فكلها صنعت من مركبات أصلها كربون .

يتحد الكربون مع الهيدروجين والأوكسجين والنتروجين بكميات مختلفة عديدة وبتركيبات هندسية متنوعة، منتجة أصنافاً واسعة من المواد ذات الخواص المختلفة الواسعة . بحيث تحتوي جزيئات بعض المركبات الكربونية بالضبط عدد قليل من الذرات وبعضها الآخر يحتوي آلاف وربما الملايين من الذرات، والأكثر من ذلك هو أنه لا يوجد عنصر آخر متقلب ومتعدد الجوانب كالكربون في تشكيله جزيئات غاية في المتانة والثبات

.

ولنقتبس بعض ما جاء في كتاب (دافيد بورني) والذي عنوانه (الحياة) ما يلي :

" الكربون هو عنصر غير عادي تماماً ، فبدون وجود الكربون وخواصه غير العادي لا يحتمل وجود الحياة على الأرض "[4] .

وأيضاً فيما يتعلق بالكربون فقد كتب الكيميائي البريطاني (نيغيل شيدويك) في كتابه (العناصر الكيميائية ومركباتها) ما يلي :

" الكربون هو الوحيد والفريد من كل العناصر في عدد وتنوع المركبات التي يستطيع تركيبها ، ولقد تم إلى حدّ الآن عزل ووصف أكثر من ربع مليون مركب للكربون، ومع ذلك فإن ذلك لا يعطي فكرة كاملة عن قدراته طالما أنه الأساس في كل أشكال المادة الحية اللامحدودة التعقيد " .[5]

لأسباب فيزيائية وكيميائية ليس بإمكان الحياة أن تبنى على أن عنصر آخر غير عنصر الكربون ن وفي وقت ما اقترح عنصر آخر بديل عنه وهو عنصر السيليكون ولربما كان بإمكان الحياة أن تبنى عليه، لكننا نعلم الآن أن مثل ذلك التخمين غير ممكن إطلاقاً ، وإذا رجعنا للاقتباس من (شيدويك) ثانية نجد :

" نحن نعلم الآن ما يكفي لنكون واثقين من استحالة فكرة أن يحل عنصر السيليكون محل عنصر الكربون كأساس للحياة في هذا العالم " [6]

الروابط المشتركة :

تدعى الروابط الكيميائية التي يدخل فيها الكربون عندما يشكل المركبات العضوية بالروابط المشتركة، ويقال عن تلك الروابط أنها تحدث عندما تتشارك ذرتان بإلكتروناتهما .

تشغل إلكترونات الذرة طبقات مدارية مخصصة متمركزة في مدارات حول النواة، ويشغل المدار الأقرب للنواة إلكترونات فقط، بينما يشغل المدار التالي بثمانية إلكترونات كحد أقصى، أما المدار الثالث الأبعد عن النواة فيمكن أن يصل عدد إلكتروناته إلى ثمانية عشر، ويستمر زيادة عدد الإلكترونات مع إضافة مدارات أكبر للذرة، والمظهر العجيب لهذا المخطط هو إرادة تلك الذرات لأن تتمم عدد إلكتروناتها في طبقاتها المدارية السطحية لثمانية إلكترونات، فمثلاً للأوكسجين في مداره الثاني الأبعد عن النواة ستة إلكترونات، وهذا يسبب له رغبة في أن يدخل في اتحادات مع ذرات أخرى تقدم له إلكترونين من عندها يحتاجهم كي يوصل عدد إلكتروناته لثمانية . . أما لماذا تسلك الذرات هذا السلوك ؟ فهو سؤال لا جواب له ؟ ؟

ولكنه عمل جيد ، لأنه لو لم يحدث ذلك العمل فلن تكون هناك حياة ممكنة .

(209/736)

تحدث الروابط المشتركة نتيجة لذلك الميل عند الذرات لتتم طبقاتها المدارية الخارجية لثمانية الكترونات، ومثال جيد على ذلك هو جزيء الماء H2O والذي قطعة البناء هما ذرتا هيدروجين وذرة أوكسجين حيث تشكلان رابطة تشاركية في هذا المركب حيث

يتمم الأوكسجين عدد إلكتروناته في مدارها الثاني لثمانية بالمشاركة بإلكترونين (واحد لكل ذرة هيدروجين) ، وبالطريقة نفسها فإن كلاً من ذرتي الهيدروجين تقترض ألكتروناً من الأوكسجين لتتم طبقاتها الخاصة .

الكربون جيد جداً في تشكيل الروابط المشتركة مع ذرات أخرى بما فيها ذرات الكربون ذاتها ، ومن ذلك يمكن صنع عدد هائل من المركبات المختلفة وأحد أبسط تلك المركبات هي غاز الميتان، وهو غاز شائع ومألوف ويتشكل بالترابط المشترك لأربع ذرات هيدروجين وذرة كربون واحدة فالكربون يحوي في مداره الأول إلكترونين وأربعة فقط في مداره الثاني فهو يحتاج لأربعة أخرى ليتم ذلك المدار لثمانية لهذا السبب يكفي أربعة ذرات هيدروجين لتلبي هذه الحاجة وتتم مداره الأخير .

(210/736)

تقول أن الكربون هو عنصر متقلب متعدد الوجوه خاصة في تشكيل الروابط مع غيره من الذرات، وهذا التقلب يمكنه من تركيب أعداد ضخمة من المركبات المختلفة الأشكال والخواص، ويدعى صنف المركبات التي يشكلها الكربون مع الهيدروجين حصراً بالهيدروكربون، وهي عائلة ضخمة من المركبات تشمل الغاز الطبيعي والبترول السائل

والكيروسين وزيوت التشحيم، وتعتبر من ضمن هذه العائلة من الهيدروكربون المادتان الأثيلين والبروبلين الأساس الوطيد . الذي تنصب عليه الصناعة البتروكيميائية الحديثة، ومن أمثلة تلك المواد البتروكيميائية التي أساسها الهيدروكربون البنزين والتولوين والتربنتين، وتلك المواد مألوفة لأي شخص يعمل في الدهانات، وكذلك النفتالين الذي يحمي ملابسنا من العث هو أيضاً مركب هيدروكربون آخر، وبإضافة الفلورين تعطي الفريون وهو الغاز الذي يستعمل بشكل واسع في التبريد .

يوجد صنف آخر من المركبات العضوية الهامة والتي تتشارك فيها العناصر التالية : الكربون والهيدروجين والأوكسجين بحيث يتشارك كل اثنين معاً بروابط مشتركة، وفي تلك العائلة نجد الكحوليات مثل الاثانول والبروبانول والكيتونات والحموض الدسمة مع عديد وعديد من المواد الأخرى، كما توجد مجموعة أخرى من المركبات مكونة من هذه العناصر بالذات لكنها تعطي السكاكر بما فيها الغلوكوز والفراكتوز .

وما السيللوز الذي يتركب منه هيكل الخشب والمادة الخام للورق إلا كربوهيدرات (أي سكاكر) ، ومثله الخل وشمع العسل (شمع النحل) وحمض الفورميك، وكل واحد من تلك المركبات يأتي بجلة رسمية لا تصدق أن أصله مواد ومركبات تحدث طبيعياً في عالمنا وهي ليست أكثر من ترتيب مختلف للكربون والهيدروجين والأوكسجين تترابط مع بعضها بروابط مشتركة .

عندما يشكل الكربون الهيدروجين والأوكسجين والنتروجين (هذه المرة) رابطة مشتركة فالنتيجة هي صنف آخر من الجزيئات العضوية، تلك هي الأساس ومادة الحياة بذاتها ، تلك هي الحموض الأمينية التي تصنع البروتينات، وما النيوكليوئيدات التي تصنع الدنا (DNA) سوى جزيئات تشكلت من الكربون والهيدروجين والأوكسجين والنتروجين .

باختصار إن الروابط التشاركية التي تستطيع ذرة الكربون الدخول فيها هي حيوية لوجود الحياة وبقائها فذا لم يكن للهيدروجين والكربون والأوكسجين والنروجين الرغبة في التشارك الألكتروني فيما بينها فستكون الحياة غير ممكنة واقعياً .

إن الشيء الذي يجعل تشكل هذه الروابط ممكنة للكربون هي الخاصية التي يدعوها الكيميائيون بشبه الاسقرار " وهي تعني ان يكون لشيء ما ثبات ضعيف هامشي، وقد وصف عالم الكيمياء الحيوية (ج. ب . س هالدان) شبه الاستقرار هكذا :

" يقصد بالجزيء الشبه مستقر بأنه ذلك الجزيء الذي يستطيع أن يحرر طاقة حرة بالتحول، لكنه مستقر بشكل كافٍ ولمدة طويلة من الزمن ما لم ينشط بالحرارة أو بالإشعاع أو بالاتحاد مع وسيط كيميائي [7]

الذي يقصده هذا التعريف الشبه تقني أن لهذا الكربون تركيباً فريداً يعود له الفضل في تسهيل دخول الكربون في روابط مشتركة تحت شروط نظامية .

وهنا يجب أن نكون أكثر دقة فالوضع بدأ يصبح جدياً ذلك بأن الكربون هو شبه مستقر إطلاقاً عندما ترتفع درجة الحرارة لأعلى من (100س) .

(212/736)

هذه الحقيقة اعتيادية ومألوفة في حياتنا اليومية بحيث أن معظمنا يأخذ ذلك كمسلمة فمثلاً عندما نطبخ اللحم فالذي نفعله حقيقة هو أننا نغير تركيب مركباته الكربونية لكن توجد نقطة هامة يجب أن نلاحظها وهي أن اللحم المطبوخ صار ميتاً تماماً وهذا يعني أن تركيبه الكيميائي صار يختلف عما كان عليه عندما كان جزءاً من العضوية الحية، لأنه من المعروف أن معظم المركبات الكربونية تصبح فاسدة عند درجات حرارة فوق (100س) ومعظم الفيتامينات مثلاً تتفكك عند تلك الدرجة من الحرارة، وكذلك يتغير تركيب السكر ويفقد بعضاً من قيمته الغذائية ومن حوالي الدرجة (150س) تبدأ المركبات الكربونية في الاحتراق .

وبكلمة أخرى إذا كان على ذرات الكربون أن تدخل في روابط مشتركة مع ذرات أخرى

وإذا أريد للمركبات الناتجة أن تبقى مستقرة فيجب ألا ترتفع درجة الحرارة المكتنفة فيها عن (100س) .

وأن أخفض حدود لدرجة الحرارة يجب أن تكون حول درجة الصفر مائوية، فإذا هبطت درجة الحرارة كثيراً جداً تحت تلك الدرجة فإن النشاط الحيوي العضوي سوف لن يكون ممكناً .

أما في حالة مركبات أخرى فهذه الحالة ليست عامة، فمعظم المركبات اللاعضوية هي مركبات ليست شبه مستقرة، أي أن استقرارها لا تتأثر كثيراً بتغيرات درجة الحرارة، ولنفهم ذلك دعنا نجري التجربة التالية :

لنثبت قطعة من اللحم على طرف قطعة معدن رقيقة وطويلة مثل الحديد ولنسخن الاثنين معاً على النار، فكلما ازدادت درجة الحرارة سخونة أصبح لون اللحم قاتماً ثم لا يلبث أن يحترق أخيراً وقبل أن يحدث أي شيء للمعدن بزمن طويل . والشيء نفسه سيحدث حقيقة إذا استخدمت الحجر أو الزجاج مع المعدن، لكنك يجب أن ترفع درجة الحرارة عدة مئات من الدرجات قبل أن يبدأ تركيبها في التغير .

لابد أنك راقبت التشابه بين مجال درجة الحرارة اللازم لكي تتكون مركبات الكربون ذات الرابطة المشتركة وبقائها مستقرة والمجال لدرجات الحرارة السائدة في كوكبنا ، وكما قلنا في مكان من هذا الكتاب أن مجال درجات الحرارة في كل الكون يتراوح بين ملايين الدرجات في أعماق النجوم إلى الصفر المطلق لكن الأرض التي خلقت للبشرية كي تحيا فيها هي الوحيدة التي تملك مجال درجات حرارة ضيق وهو ضروري لتشكل المركبات الكربونية والتي هي القطع البناءة للحياة .

لكن الصدفة العجيبة لا تنتهي هنا ، وهذا المجال لدرجة الحرارة هو الوحيد الذي يبقى فيه الماء سائلاً، وكما رأينا في فصل سابق أن الماء هو أحد المتطلبات الأساسية للحياة ولكي يبقى سائلاً فإنه يتطلب بالضبط درجات حرارة مركبات الكربون نفسه اللازمة لتشكلها واستقرارها ، ولا يوجد قانون فيزيائي ولا طبيعي بإمكانه أن يأمر بذلك فيكون وتحت الظروف السائدة، وهذه الحالة هي دليل على أن الخواص الفيزيائية للماء والكربون وكذلك الشروط على كوكب الأرض خلقت جميعاً بهذه الطريقة لتتناسق وتتوافق مع بعضها البعض .

الروابط الضعيفة :

ليست الروابط المشتركة هي النموذج الوحيد للترابط الكيميائي الذي يحفظ مركبات

الحياة مستقرة، لكنه يوجد صنف آخر مختلف من الروابط يدعى بالروابط الضعيفة ومثل تلك الروابط هي أضعف بحوالي عشرين مرة من الروابط المشتركة ومن هنا أتى اسمها ومع ذلك فهي ليست أقل صرامة وحدية في عمليات الكيمياء العضوية، فبفضل هذه الروابط الضعيفة تتمكن البروتينات التي تصنع القطع البناءة لكل ذي حياة من أن تحافظ على تركيبها المعقد النشط الثلاثي الأبعاد .

(214/736)

لتفسير ذلك يجب أن نتناول باختصار تركيب البروتينات، فالبروتينات عادة تكون بشكل سلسلة من أحماض أمينية، وكلمة سلسلة هنا هي استعارة مجازية صحيحة أساساً لكنها ليست تامة، وعدم كمالها سببه أن معظم الناس تثير في عقولهم عبارة سلسلة الأحماض الأمينية التي تصنع البروتينات تركيباً ثلاثي الأبعاد وأكثر شبهاً بشجرة ذات فروع مورقة .

فالروابط المشتركة هي التي تضم ذرات الأحماض الأمينية معاً ، بينما الروابط الضعيفة هي التي تحفظ التركيب الثلاثي الأبعاد الأساسي لتلك الأحماض، ولا يمكن للبروتين أن يبقى موجوداً بدون تلك الروابط الضعيفة وطبعاً بدون البروتينات لا توجد حياة .

الجزء الممتع الآن في هذا العمل هو أن مجال درجة الحرارة والتي تتمكن فيه الروابط الضعيفة هي التي تحفظ التركيب الثلاثي الأبعاد الأساسي لتلك الأحماض، ولا يمكن للبروتين أن يبقى موجوداً بدون تلك الروابط الضعيفة وطبعاً بدون البروتينات لا توجد الحياة .

الجزء الممتع الآن في هذا العمل هو أن مجال درجة الحرارة والتي تتمكن فيه الروابط الضعيفة من ممارسة وظيفتها هو ذاته المجال السائد على الأرض ويبدوا ذلك غريباً بسبب أن الطبيعة الفيزيائية والكيميائية للروابط المشتركة قبالة الرابط الضعيفة هي أشياء مختلفة كلياً كما أن كلاً منها مستقل عن الآخر .

وبكلمة أخرى لا يوجد سبب جوهري يدعو لأن يتطلب كلاهما مجال درجة الحرارة نفسه ومع ذلك فهي تفعل ذلك بحيث يستطيع كل من نموذجي الروابط أن يتشكل ويحافظ على الاستقرار ضمن هذا المجال الضيق من درجة الحرارة، وإذا هما لم يفعلا ذلك أي إذا تطلبت الروابط المشتركة مجال درجات حرارة يختلف بشكل واسع عن ذلك الذي للروابط الضعيفة عندئذ سيكون من المستحيل بناء التركيبات الثلاثية الأبعاد للبروتينات المطلوبة

.

يشير كل شيء رأيناه ويتعلق بالخواص الكيميائية غير العادية لذرة الكربون إلى وجود تلاؤم وتناسق ضخم بين هذا العنصر الذي تعتبر القطعة البناءة الأساسية للحياة والماء الذي هو حيوي أيضاً للحياة، وكذلك الأرض باعتبارها ملاذ الحياة ومأوى لها، ويؤكد كتاب (قدرة الطبيعة) لمؤلفه (ميشيل دينتون) هذا التلاؤم بقوله :

" من ضمن المجال الضخم لدرجة الحرارة في الكون يوجد فقط نطاق حرارة ضغير جداً يكون فيه (1) الماء سائلاً . (2) المركبات العضوية الشبه مستقرة وافرة بكثير . (3) روابط ضعيفة لاستقرارية الجزيئات المعقدة ثلاثية الأبعاد "[8] .

من بين جميع الأجرام السماوية التي رصدي أي وقت فإن ذلك النطاق الصغير جداً من درجات الحرارة موجود فقط على الأرض، وبالإضافة إلى ذلك يوجد عليها قطعتان أساسيتان في بناء الحياة وهما الكربون والماء، والأرض مصدر كريم لهذين المكونين .

كل ذلك يشير إلى أن ذرة الكربون وخواصها غير العادية تم تصميمها خصيصاً للحياة، وأن كوكبنا خلق خصيصاً ليكون بيتاً لأشكال الحياة أساسية الكربون .

التصميم في الأوكسجين :

رأينا كيف أن الكربون هو القطعة البناءة الأعظم أهمية للعضوية الحية، كما رأينا كيف أنه صمم خصيصاً ليلبي تلك الوظيفة . ولكن على كل حال فإن بقاء كل أشكال الحياة ذات

الأساسي الكربوني مشروط ومنوط بالحاجة الثانية لها وهي الطاقة . فالطاقة هي متطلب لا مفر منه للحياة .

تأخذ النباتات الخضراء طاقتها من الشمس من خلال عملية التركيب الضوئي، لكن من أجل بقية الكائنات الحية التي تسكن الأرض بما فيها نحن فالمصدر الوحيد للطاقة هو عملية التأكسد ، وكلمة تأكسد هي الكلمة الفنية لكلمة الاحتراق، ومصدر طاقة العضويات التي تتنفس الأوكسجين هو من إحتراق الغذاء النباتي والحيواني الذي تتناوله تلك الكائنات الحية .

(216/736)

وحسبما يتراءى لك فإن الأكسدة أي الاحتراق هي تفاعل كيميائي تتأكسد فيه المواد ، أي يحدث لها اتحاد بالأكسجين، وهذا هو السبب في كون الأوكسجين هاماً حيوياً للحياة مثل الكربون والهيدروجين . والصيغة العامة للاحتراق (الأكسدة) تبدو كما يلي :

المركب الكربوني + أوكسجين ماء ? غاز الكربون + طاقة

وما يعنيه ذاك هو أنه عندما تتحد مركبات الكربون والأوكسجين معاً (في شروط مناسبة طبعاً) يحدث لها تفاعل ويتولد ماء غاز الكربون وتتحرر كمية لا بأس بها من الطاقة،

ويحدث هذا التفاعل بسهولة في مركبات الهيدروكربون، وما احتراق الغلوكوز (وهو أيضاً هيدروكربون) في جسمك بانتظام إلا ليبقيه مغذى بالطاقة .

وتعتبر عناصر الهيدروجين والكربون التي تتركب منها الهيدروكربون من أعظم العناصر سريعة التأكسد وكذلك اتحاد الهيدروجين بالأوكسجين يعتبر من التفاعلات الأكثر سهولة ويرافقها انتشار طاقة عظيمة، فإذا احتجت وقوداً لتحرقه بالأوكسجين فلن تجد أفضل من الهيدروجين ليفعل ذلك، ومن وجهة نظر الطاقة يأتي الكربون في الدرجة الثالثة بعد الهيدروجين والبورون، ويعلق (لورنس هندرسون) في كتابه (التلاؤم في البيئة) (The Fitness of the environment) على التلاؤم الأكثر من عادي بما يلي :

" التغيرات الكيميائية الحقيقية والتي تبدو لأسباب عديدة أخرى أنها أنسب تلاؤماً مع العمليات الفيزيائية هي التي تحول الطاقة إلى مجرى الحياة" [9] .

التصميم في النار (لماذا لا نشتعل فجأة ؟) :

من خلال ماسبق نجد أن التفاعل الأساسي الذي يحرر، طاقة ضرورية لبقاء العضويات الحية هو عملية تأكسد مواد هيدروكربونية، ولكن تلك الحقيقة البسيطة تثير سؤالاً مربكاً وهو إذا كانت أجسامنا مكونة من مواد هيدروكربونية فلماذا لا نتأكسد نحن ؟ أو بصيغة أخرى لماذا لا نشتعل مثل الثقاب عندما يقدح ؟ وأجسامنا على تماس مستمر بالأكسجين الجوي، ومع ذلك فهي لا تتأكسد ولا تنطلق فيها النيران ؟ فلم لا ؟

السبب في هذا التناقض الظاهري هو أن لجزيء الأوكسجين تحت الشروط النظامية من الضغط والحرارة درجة عالية من الخمولية، وما يقصده الكيميائيون بكلمة النبالة هو عدم قدرة مادة على الدخول في تفاعلات كيميائية مع مواد أخرى، لكن يبرز هنا سؤال آخر وهو إذا كان الأكسجين على هذا القدر من النبالة بحيث يجنبنا الاحتراق وتحويلنا إلى رماد، فكيف يمكن لهذا الجزئ ذاته أن يقوم بالدخول في تفاعلات كيميائية داخل أجسامنا ؟

والجواب على هذا السؤال حير الكيميائيين منذ بدايات منتصف القرن التاسع عشر ولم يتم الوصول إليه إلا في النصف الثاني من القرن العشرين، وتم ذلك عندما اكتشف باحثون في الكيمياء الحيوية وجود الأنزيمات في الجسم البشري، واكتشفوا أن الوظيفة الوحيدة لهذه الأنزيمات هي مواجهة الأوكسجين وإدخاله في تفاعلات كيميائية وكنتيجة لسلسلة من الخطوات المعقدة تستخدم تلك الأنزيمات ذرات الحديد والنحاس في أجسامنا كوسطاء،

والوسيط هو مادة تسهل التفاعل الكيميائي وتسمح له بأن يتقدم ويتطور تحت شروط مختلفة (مثل درجة الحرارة الأخفض . . الخ) فهو مثلاً يهدأ من عنف التفاعل الكيميائي ويجعله ممكناً .[10]

(218/736)

بكلمة أخرى يوجد هنا وضع ممتع جداً، وهو أن الأوكسجين الذي يدعم التأكسد والاحتراق بشكل طبيعي، فيتوقع الإنسان أن ذلك العنصر سوف يحرقه، لكنه من ناحية أخرى، فهو خامل كيميائياً ولا يدخل في التفاعلات بسهولة، ومع ذلك فأجسامنا تعتمد على خلاصة التأكسد بالأكسجين للحصول على الطاقة اللازمة، لهذا فإن خلايانا تلاءمت مع نظام الأنزيم المعقد بشدة وحولت ذلك الغاز النبيل الخامل إلى غاز فعّال نشط تماماً .

وطالما أننا بصدد هذا الموضوع فيجب أن نشير إلى أن نظام الأنزيم هذا هو مثال رائع للتصميم المقصود والتلاؤم الجيد بحيث لا تستطيع أية نظرية ثورية أن تتحمل مسؤولية التصريح بأن الحياة تطورت نتيجة الصدفة، رغم أنها تأمل تفسير ذلك .

ما زال يوجد هنا احتياط آخر يحفظ أجسامنا من الاحتراق، وهذا ما دعاه الكيميائي

البريطاني (نيغيل شيدويك) بـ (ميزة الخمولية للكربون) [11] .

وهذا يعني أن الكربون ليست مستعجلاً جداً للدخول في تفاعل مع الأوكسجين تحت ضغوط عادية ودرجات حرارة نظامية، وقد يبدو ذلك كأنه سر أو لغز لكن في الحقيقة إن ما قيل هنا أي شخص يعرفه، فلطالما أشعل الإنسان مدفأة أو موقداً وقوده الحطب من جذوع الأشجار، ولكي لا تسمح للنار بالاشتعال يجب أن تأخذ حذرك وتطبق إجراءات أولية كأن تبعد القادح للنار عن المواد القابلة للاشتعال، أو أن تمنع الارتفاع المفاجئ لدرجة حرارة الوقود ووصولها لدرجة عالية جداً (كما يحدث عند استعمال وابور لحام المعادن) . لكن فور بداية احتراق الوقود فالكربون يدخل في تفاعل مع الأوكسجين بسرعة فجائية تماماً وتتحرر كمية كبيرة من الطاقة لهذا كان من الصعب جعل النار تبدأ بدون منبع آخر للحرارة، وبعد بداية الاحتراق وتحرر مقدار كبير من الحرارة، فإنها تسبب للمركبات الكربونية الأخرى المجاورة لأن تمسك بالنار جيداً مما يجعلها تنتشر .

عندما نتمعن في هذا الأمر بدقة كبيرة، فإننا نرى أن النار ذاتها هي مثال رائع على التصميم والتخطيط الرائعين، وأن الخواص الكيميائية للأوكسجين والكربون قد تم ترتيبها بحيث يدخل هذان العنصران في تفاعل احتراق حالما يتوفر لهما كمية كبيرة من الحرارة يقدمه لهما قادح ناري مناسب، والاحتراق عملية مفيدة كثيراً، لأنه إذا لم تكن تلك الحالة قائمة فإن الحياة على هذا الكوكب ستكون غير مقبولة إن لم تكن غير ممكنة .

لنفرض أنه كان للأوكسجين والكربون رغبة أو ميل ضعيف لأن يتفاعل أحدهما مع الآخر عندئذ يصبح الاحتراق الذاتي او الاشتعال الذاتي للأشجار أو الناس والحيوانات من الحوادث المألوفة كلما صار الجو أدفأ قليلاً عما هو عليه، وربما يحترق الشخص الذي يسير في الصحراء فجأة عند الظهيرة وعندما تكون الحرارة في شدتها العظمى، وقد تتعرض النباتات والحيوانات للخطر نفسه في مثل تلك الحالات، وحتى لو كانت الحياة موجودة في ذلك العالم فبالتأكيد لن تكون تلك سعيدة أبداً .

أما إذا كان هذان العنصران (الكربون والأوكسجين) أكثر نبلاً وبالتالي أقل نشاطاً تفاعلياً مما هم عليه، فسيكون هناك صعوبة وربما استحالة حقيقية في إضرام النار في ذلك العالم .

ومن المعلوم أنه بدون النار فلن نكون قادرين على حفظ أنفسنا دافئين ومن المحتمل عندئذ أنه لن يكون هناك تقدم تقني على كوكبنا ، فذلك التقدم يعتمد على القدرة في تصنيع المواد ومنها المعدنية وطبعاً بدون الحرارة الموقدة من النار فلن تكون هناك إمكانية لتنقية المعادن

أو تصنيعها .

كل ذلك يشير إلى أن الخواص الكيميائية للكربون والأوكسجين قد تم ترتيبها ليكونا في حالة تلاؤم أعظمي مع حاجات الجنس البشري، وبالتركيز على تلك النقطة يقول (ميشيل دينتون) ما يلي :

(220/736)

" هذه اللاتفاعلية العجيبة لذات الكربون والأوكسجين عند درجات الحرارة المحيطة تسبب لهما عند لهما عند إنجاز اتحاد بينهما أن تتأصل في بنية المادة الناتجة طاقات كبيرة، وتلك الطاقات على قدر كبير من التكيف المجدي على الأرض، كما مكّن هذا التفاعل العجيب أشكال الحياة المتقدمة من استخدام الطاقات الواسعة للتأكسد بأسلوب منظم ومنضبط ومكّن الجنس البشري من أن يستعمل النار بشكل منضبط وسخر طاقات الاحتراق الضخمة لصالح التطور التكنولوجي " [12]

وبكلمة أخرى فقد خُلق كل من الكربون والأوكسجين بخواص هي الأكثر ملاءمة لحياة الإنسان، وتسمح لنا تلك الخواص بأن نستعمل النار بأكثر الطرق راحة وفائدة، والأكثر من ذلك فإن العالم مملوء بمصادر الكربون (كالأخشاب) التي تلائم الاحتراق ، وطبعاً كل ذلك

يوضح أن النار والمواد اللازمة لها خلقت خصيصاً لتلائم حياة الإنسان وفي ذلك إشارة في القرآن للجسن البشري نحو هذه الظاهرة . . قال تعالى (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً . .

الانحلالية المثالية للأوكسجين :

يعتمد استعمال الأوكسجين من قبل الجسم بشدة على خاصة هذا الغاز في انحلاله بالماء ، فالأوكسجين الذي يدخل رئتينا اثناء استنشاق الهواء ينحل فوراً في الدم، ويدعى البروتين الذي يأسر جزيئات الأوكسجين ويحملها لخلايا أخرى من الجسم بالهيموغلوبين . ويوجد في تلك الخلايا نظام أنزيم خاص يعود له الفضل في استعمال الأوكسجين في أكسدة مركبات الكربون وتحرير طاقاتها ، ويدعى ذلك الأنزيم بـ (ATP) كل العضويات المعقدة تستخلص طاقاتها بهذه الطريقة، وعمل هذا النظام يعتمد خصيصاً على انحلالية الأوكسجين، فإذا كان الأوكسجين غير منحل بشكل كافٍ فلن يدخل ما يكفي منه في مجرى الدم ولن تتمكن الخلايا من توليد الطاقة اللازمة لها ، ومن ناحية أخرى إذا كان الأوكسجين شديد الانحلال فسوف يكون هناك زيادة منه في الدم، مسبباً ذلك ما يعرف باسم سمية الأوكسجين .

والفرق في الانحلالية في الماء للغازات المختلفة تتغير بعامل مقداره مليون مرة من أقل الغازات انحلالية، وبالتالي لا يمكن أن يوجد غازات لها انحلالية متماثلة، وعلى سبيل المثال فإن انحلالية غاز الكربون في الماء هي أكثر بعشرين مرة من انحلالية غاز الأوكسجين، ومن ضمن هذا المجال الواسع للانحلاليات الكامنة لمختلف الغازات هي تلك التي يمتلكها الأوكسجين فهي بالضبط ما يلزم ويتلاؤم مع حياة الإنسان .

ما الذي يحدث إذا كانت نسبة انحلالية الماء للأوكسجين مختلفة أي إذا كانت أكثر بقليل أو أقل بقليل عما هي عليه، ولنأخذ مثالاً على الحالة الأولى . فإذا كان الأوكسجين أقل انحلالية في الماء (وكذلك في الدم) فسيدخل مجرى الدم كمية أوكسجين أقل وستكون خلايا الجسم جائعة للأوكسجين مما يجعل الحياة أكثر صعوبة للعضويات ذات النشاط الأيضي مثل الكائنات البشرية، ولا يهم كم هي المشقة التي بذلتها أنت أثناء التنفس وسف تواجه بانتظام خطر الاختناق بسبب عدم كفاية الأوكسجين الواصل إلى خلايا جسمك .

ومن ناحية أخرى إذا كانت انحلالية الماء للأوكسجين أعلى من ذلك فإنك تتحدى وتجابه تهديد السمية الأوكسجينية والتي ذكرناها منذ قليل . حيث يصبح الأوكسجين مادة خطرة، فإذا حصلت عضوية على كثير منه فالنتيجة مميتة لها ، قد يدخل بعض الأوكسجين في الدم في تفاعلات كيميائية مع ماء الدم ذاته . فإذا صارت كمية الأوكسجين

المنحلة عالية يمارس النظام المعقد للأنزيمات وظيفته في الدم ويمنع حدوث ذلك، لكن إذا أصبحت كمية الأوكسجين المنحلة عالية جداً عندئذ لا تستطيع الأنزيمات ان تمارس عملها ، ونتيجة لذلك فإن كل نفسٍ سنأخذه سوف يسممنا شيئاً فشيئاً ويقودنا ذلك إلى الموت سريعاً ، ولقد علق (إيرين فريد وفيتش) على ذلك بقوله :

(222/736)

"كل العضويات التي تتنفس واقعة في فخ قاسٍ، فالأوكسجين بالذات الذي يدعم حياتهم هو سام لهم، ويبقون أحياء مع وجود الشك، والفضل في بقائهم أحياء هي آليات دفاع متقنة "[13]

إن ما ينقذنا من هذا الفخ (وهو التسمم بزيادة الأوكسجين الكثير وتعرضنا للاختناق في حال نقصانه) هو حقيقة التصميم الدقيقة بين نظام انحلالية الأوكسجين ونظام الأنزيم المعقد في الجسم) . بحيث خُلق هذا الترتيب ليكون كما يريد هذان النظامان، فالله سبحانه وتعالى لم يخلق الهواء لكي تتنفسه فقط لكنه خلق أيضاً أنظمة تجعلنا نستعمل هذا الهواء بتوافق تام بين هذين النظامين .

العناصر الأخرى :

طبعاً ليس الكربون والأوكسجين هما العنصران الوحيدان اللذان تم تصميمها بدقة لجعل الحياة ممكنة، بل هناك عناصر أخرى كالهيدروجين والنتروجين اللذين يشكلان الجزء الأكبر من أجسام كل ذي حياة، لهما أيضاً مساهماتهما في جعل الحياة ممكنة، وفي الحقيقة يبدو أن كل عنصر موجود في الجدول الدوري له دور في الوظائف الداعمة للحياة .

يوجد في الجدول الدوري اثنان وتسعون عنصراً تتراوح ما بين الهيدروجين الأخف وزناً على الإطلاق إلى اليورانيوم أثقلها جميعاً ، وطبعاً توجد عناصر أخرى بعد اليورانيوم لكنها لا تتشكل طبيعياً بل يتم توليدها تحت شروط مخبرية، ليس فيها عنصر مستقر، ومن الاثنين والتسعين عنصراً يوجد خمس وعشرون منها ضرورية مباشرة للحياة، ومن بينها أحد عشر عنصراً تشكل 99% من وزن الإنسان وأيضاً للكائنات الحية الأخرى، وتلك العناصر هي :

(الهيدروجين، الكربون ـ الأوكسجين ـ الصوديوم ـ المنغنزيوم ـ الفوسفات ـ الكبريت ـ الكلور ـ البوتاسيوم ـ الكالسيوم) .

أما الأربعة عشر عنصراً الأخرى فهي موجودة في العضويات الحية بكميات صغيرة جداً ، ومع ذلك لها وظائفها الهامة حيوياً وهؤلاء هم :

(

الفناديوم-الكروم-المنغنزيوم-الحديد -الكوبالات-النيكل-النحاس-التوتياء -الموليبدوم-البورون-السيليكون-الفلور-اليود) .

كما وجد في بعض العضويات الحية ثلاثة عناصر هي :

(الآسينيك، القصدير، التنغستن)

حيث تقوم هذه العناصر الأخيرة بوظائف لم تفهم بعد ، ولقد ثبت وجود ثلاثة عناصر أخرى (البروم-السترونسيوم-الباريوم) في معظم العضويات الحية لكن وظائفها ما زالت غامضة . [14]

يشير هذا الطيف الواسع المتضمن ذرات كل السلاسل المختلفة في الجدول الدوري والتي رتبت عناصره طبعاً لصفحات ذراتها إلى أن كل مجموعات العناصر في الجدول الدوري

والتي رتبت عناصره طبعاً لصفحات ذراتها إلى أن كل مجموعات العناصر في الجدول

الدوري ضرورية بطريقة أو بأخرى لكي تكون الحياة ممكنة، وقد علق ذلك الكاتبان (ج ج فراستودي سيلفا . رج ب وليامز) في كتابهما (الكيمياء الحيوية والعناصر) (The Biological chemistry of the elements) بما يلي :

" يبدو أن العناصر الحيوية قد تم اختيارها عملياً من كل المجموعات، والمجموعات الجزئية في الجدول الدوري . . . وهذا يعني عملياً أن كل أنواع الخواص الكيميائية مرتبطة بعمليات الحياة وضمن حدود مفروضة من تقييدات البيئة " [15]

(224/736)

حتى العناصر الثقيلة والنشطة إشعاعياً والتي وردت في نهاية الجدول الدوري قد سخرت هي أيضاً لخدمة حياة الإنسان، ويصف (ميشيل دينتون) بالتفصيل في كتابه (قدر الطبيعة) الدور الأساسي لتلك العناصر النشطة إشعاعياً مثل اليورانيوم الذي لعب دوراً أساسياً في تشكل التراكيب الجيولوجي للأرض، أن للنشاط الإشعاعي الذي لعب دوراً أساسياً في تشكل التراكيب الجيولوجي للأرض، أن للنشاط الإشعاعي الذي لعب دوراً أساسياً في تشكل التراكيب الجيولوجية للأرض، أن للنشاط الإشعاعي الذي يحدث طبيعياً في بعض العناصر ارتباط وثيق بحقيقة قدرة لب الأرض على الاحتفاظ بحرارته، وتلك الحرارة هي التي تبقى محتوياته من الحديد والنيكل في حالة سائلة، وأن ذلك اللب السائل هو مصدر الحقل المغناطيسي الأرضي والذي كنا رأينا سابقاً أنه يحمي كوكبنا من الإشعاع الخطر والجسيمات الآتية من الفضاء وكذلك له وظائف أخرى لا تقل أهمية عن

ذلك .

حتى الغازات الخاملة والعناصر مثل المعادن الترابية النادرة يبدو أنه لا أحد من هذه العناصر يتدخل في دعم الحياة، لكنها ظاهرياً موجودة بسبب الحاجة لتأمين ذلك المجال من العناصر التي تحدث إشعاعاً طبيعياً قد يمتد ذلك المجال لأبعد من اليورانيوم في الجدول الدوري 100

باختصار : إن كل العناصر الموجودة لها دور وظيفي محدد لخدمة حياة الإنسان، ولا يوجد من تلك العناصر ما يمثل زيادة أولا هدف منه، وهذه الحالة هي أقصى دليل على أن الله هو الذي خلق الكون وسخره للإنسان .

استنتاج :

(225/736)

كل خاصة كيميائية أو فيزيائية في هذا الكون أمكننا فحصها أتت في مكانها المناسب ودورها الصحيح بالضبط، كما أتت طبقاً لما تحتاجه مساهمتها في نظام الحياة لتحافظ عليها ، ومع كل تلك الدراسة في هذا الكتاب فإننا لم نخط على سطح الدليل الشامل للحقيقة سوى خدش بسيط منها ، ومهما تعمق الإنسان في التنقيب عن معلومات

وتفاصيل، ومهما توسع بالبحث فستبقى تلك النظرة العامة التي ذكرناها حقيقة، ففي كل تفصيل لدقيقة من دقائق هذا الكون يوجد هدف يخدم حياة الإنسان، وكل جزء دقيق مهما كان صغيراً في هذا الكون صمم ليكون كاملاً ومتوازناً ومتناسقاً ومضبوطاً لإنجاز الهدف من وجوده .

بالتأكيد هذا برهان على وجود خالق أسمى، وهذا الخالق هو الذي أتى بهذا الكون وأظهره في هذا الوجود لهذا الغرض، فكل مادة نفحص خواصها نرى فيها معلومات لا نهاية ولا حدود لها، وتبدو فيها حكمة الله وقدرته، فالله خلقها من العدم فأتى كل شيء ينحني لإرادته تعالى، وهذا هو السبب في أن كل شيء وأي شيء في الكون يتناسق مع كل شيء آخر فيه .

هذا هو الاستنتاج الذي توصل إليه أخيراً علم القرن العشرين، وما ذاك إلا كشف لحقيقة بينها الله للإنسان في القرآن قبل أربعة عشر قرناً مضى، وقد خلق الله كل جزء في هذا الكون ووضع كمال خلقه في الآية التالية :

قال تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (الملك : 1) .

المصدر : كتاب خلق الكون من العدم هارون يحيى .

[1] "Science Finds God .Newsweek .27 July 1998 .

[2] Robert E. D. Clark .The Universe :

Press.1961.p.98

Ferd Hoyle .Religion and the Scientists london [3]

: scm .1959 ;p. 341

Daved Burnie , life.Eyewitess Science [4]

..Londone : Dorling Kindersely .1996.p.8

Nevil v . sidgwick ,TheChemicalElemenets and [5]

Their compounds ,vol, 1. oxford Universty press

.,1950,p.12

]

Nevil v . sidgwick ,TheChemicalElemenets and [6

Their compounds ,vol, 1. oxford Universty press

.,1950,p.12

TheOrigin of life". J.B.S.Haldane [7]

NewBiology.1954.vol.16.p.12,"

[8] Michael Denton .Nature,s .p .115-116.

[9] Lawrence Henderson .The Fitness of the Envirnoment .Boston.Beacon press .1958.p.247-48.

[10] Enzymic Activation of Oxygen Comprehensive Biochemisty. (ed M.florkin .E ." H.Stotz) .Amsterdam : L.L.Ingraham". Elsevier.vol.14.p.424.

[11] Nevil V. Sidgwick.The chemicale Elements and Their Compounds.vol 1.Oxford : Oxford University press .1950.p.490

[12] Michael Denton .Nature,s .p .115-116.

[13] Irwin Fridovich, "Hydrogen Oxygen Radicals .peroxid e .and Oxygen Toxicity .free Radicals in Biology.

[14] J.J .R.Frausto da silva .R.j.p.Williams.The Biological Chemistry of the elements.oxford :

.oxford university press .p.3-4

J.J .R.Frausto da silva .R.j.p.Williams.The [15]

Biological Chemistry of the elements..p.5

.100Michael Denton .Nature .s Destiny .p.79-85

.

.

.

0-التوازن الموجود في كوكب الأرض

قال تعالى : (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (سورة غافر) .

و قال تعالى : (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) (الرحمن : 9) .

إن مقدار حجم الأرض مهم جداً كأهمية بعدها عن الشمس وأهمية سرعة دورانها أو الشكل الخارجي لها . وكبر الأرض هو بقدر ما يتلاءهم مع وجود البشرية عليها واستمرارها بصورة متطابقة تماماً من ناحية المقاييس المفترض وجودها ، ولو قارنا كتلة عطارد التي تشكل نسبة 8% من كتلة الأرض أو مع كتلة المشتري التي تكبر الأرض بمقدار 318 مرة لوجدنا أن هذه الكواكب تختلف من حيث الكتلة اختلافاً كبيراً . ويمكننا عبر هذه المقارنة أن ندرك بان كتلة الأرض لها قيمة معينة هي الأمثل والأكثر ملاءمة وأن هذه القمية لم تأت مصادفة قط . ولو تأملنا وتمعنا مقاييس معينة هي الأمثل والأكثر ملاءمة وأن هذه القيمة لم تأت مصادفة قط . ولو تأملنا وتمعنا في مقاييس الكرة الأرضية لتوصلنا إلى كونها الأمثل والأنسب لمثل هذه الكوكب . ويعطي عالمنا جيولوجيان أمريكيان هما بريس وسيفر معلومات قيمة عن مدى ملاءمة مقاييس الأرض وأبعادها كما يلي :

إن كبر الأرض هو بالضبط بقدر ما يفترض فيه أن يكون، ولو كان ذا قيمة أصغر لضعفت جاذبيتها ولما استطاعت أن تمسك الغلاف الجوي المحيط بها ، ولو كان ذا قيمة أكبر لقامت بمسك الغازات السامة أيضاً ولتسمم غلافها الجوي وبالتالي تنعدم الحياة على سطحها [1] .

و هناك عامل آخر يضاف إلى عامل الكتلة من جملة العوامل المتلائمة وهو عامل البناء

الداخلي للأرض، فالطبقات المكونة لكوكب الأرض تكسبه مجالاً مغناطيسياً يعلب دوراً رئيسياً للحفاظ على حياتنا . ويعلق بريس وسيفر على هذا الأمر بالقول :

(228/736)

إن نواة الأرض تعتبر مولد للحرارة يستمد قوته عبر الإشعاعات النووية، وتتميز هذه النواة بتوازن حساس جداً . . ولو كان هذا المولد يعمل بشكل أبطأ لما استطاعت القارات أن تتخذ شكلها الحالي . . . وكذلك لما انصهر الحديد وبالتالي لا يسيل نحو المركز ومن ثم لما تكون المجال المغناطيسي المعروف للأرض . . ولو كان هذا المولد يعمل بسرعة أكبر مما هو عليه كافتراض لوجود وقود إشعاعي أكثر للأرض لتكونت السحب البركانية ملبدة السماء وحاجبة ضوء الشمس مؤدية بذلك إلى زيادة كثافة الغلاف الجوي مع زيادة ملحوظة في الانفجاريات البركانية والزلازل الأرضية . [2]

و المجال المغناطيسي الذي يتحدث عنه العالمان مهم جداً بالنسبة إلى حياة البشرية، وهذا المجال ناشيء من مكونات الأرض كما ذكرنا . فمركز الأرض يحتوي على عناصر ذات صفات مغناطيسية كالحديد والنيكل، ويتميز مركز الأرض بأنه يتألف من جزأين : خارجي ويكون سائل وآخر داخلي ويكون صلباً ، وهذان الجزءان يدوران حول بعضهما

البعض وينتج من هذا الدوران نوع من الحثّ المغناطيسي على المعادن الثقيلة وبالتالي ينشأ مجال مغناطيسي، ويمتد تأثير هذا المجال المغناطيسي حتى خارج الغلاف الجوي للأرض ويشكل حزاماً واقياً لهذا الكوكب يقيه من الأخطار القادمة من الفضاء الخارجي، ومن جملة هذه الأخطار الإشعاعات الكونية القادمة من النجوم والتي تعتبر مميتة طبعاً ولا تستطيع ان تخترق هذا الحزام الواقي، ويمتد هذا الحزام حتى عشرات الآلآف من الكيلومترات في الفضاء الخارجي على شكل أحزمة مغناطيسية تدعى أحزمة فان آلين والتي تقي الأرض من الإشعاعات المميتة .

(229/736)

هناك أنواع من السحب الكونية تدعى بالسحب البلازمية وهي تجوب الكون وتقدر الطاقة التي تحملها بما يعادل 100 مليار ضعف للطاقة التي تولدها قنبلة ذرية كالتي ألقيت على هيروشيما وتستهدف الأرض أيضاً الأشعة الكونية الشديدة جداً بين الحين والأخر، إلا أن هذه الأخطار لا تستطيع اختراق المجال المغناطيسي للأرض إلا بمقدار واحد فقط . وهذا الجزء الضئيل كهربائية تقدر بمليار أمبير وهذا الرقم يعادل تقريباً مجموع الطاقة الكهربائية التي ولدها الإنسان عبر التاريخ ولم يكن هذا الحزام المغناطيسي الواقي موجودا

لكانت الأرض عرضة للإشعاعات الكونية وربما لم تكن هناك إمكانية كي تنشأ الحياة على هذا الكوكب أصلاً، ولكن كما يقول العالمان بريس وسيفر إن مركز الأرض هو تماماً حسب ما يجب أن يكون بالضبط . وهذا هو ما حفظ الأرض وصانها .

المرجع :

كتاب سلسلة المعجزات تأليف هارون يحيى

[1] F. Press, R. Siever, Earth, New York : W. H. Freeman, 1986, p. 4.

[2] F. Press, R. Siever, Earth, New York : W. H. Freeman, 1986, p. 4.

.

.

.

0-الكون تحت سيطرة مركزية

اريل تشتر ريكس[1]

كثيراً ما تكون الأفكار والمعتقدات الشائعة خاطئة مضللة، فهنالك اعتقاد شائع بأن العلوم

تشبه عجوزاً متحدثاً لديه عن كل سؤال جواب .

و الواقع أن العلوم تشبه شاباً كثير الأسئلة والتفكير والبحث، يحاول أن يسجل ملاحظات منظمة عن كل شيء، ولا يقنع بما وصل إليه من النتائج في البحث عن الحقيقة .

ومن المعتقدات كذلك أن العلوم تتبع طريقاً مستقيماً في الاستدلال والتفكير، والواقع أن العلوم تشبه نبات العنب المتسلق الذي يحاول دائماً أن يمتد إلى أعلى ولكنه لا يستطيع أن يسلك طريقاً مستقيماً، فيلتف ويدور حول الأشياء .

(230/736)

و على ذلك فإن الطريق الذي تسلكه العلوم والاتجاه الذي يسير فيه لابد أن يكون مرناً قابلاً للتعديل والتغير كلما دعت إلى ذلك الظروف أم الدراسات الرياضية ،و أنا من المشتغلين بها ، فإنها تشبه شعاعاً من الضوء يضيء السبيل أمام العلوم ،و لكن اتجاه هذا الشعاع لابد أن يتغير دائماً لكي يسير في نفس الاتجاه الذي تسلكه العلوم . فمن المتفق عليه في الطريقة العلمية عند المفاضلة بين فرضية أو نظرية المبدأ للمفاضلة بين الفرضين اللذين يقول أحدهما بأن الأرض مركز هذا الكون ويقول الآخر بان الشمس هي مركز المجموعة الشمسية .

وقد فضل هذا الفرض الأخير على الأول بسبب ما يترتب على الأخذ بالفرض الأول من تعقيدات وصعوبات .

وبرغم ما للعلوم من قيود وحدود ، فلنظرياتها ونتائجها فوائد لا تحصى، وكذلك الحال بالنسبة لموقف العلوم من كشف أسرار هذا الكون والدلالة على خالقها . فدراسة الظواهر الكونية دراسة بعيدة عن التحيز وتتسم بالعدل والإنصاف قد أقنعتني بأن لهذا الكون إلهاً ، وأنه هو الذي يسيطر عليه ويوجهه ،أي إن هنالك سيطرة مركزية هي سيطرة الله تعالى وقوته التي توجه هذا الكون .

وهنالك من الأدلة ما يوضح أن بعض الظواهر التي تبدو متباعدة ، تقوم على أساس مشترك من التفسير ، ويتوضح ذلك من قوانين كولمب عن تجاذب الشحنات وتنافرها .

فقد أتضح لي أن هذه القوانين تشبه إلى حد كبير قوانين التجاذب والتنافر بين قطبين مغناطيسيين ، بل إنها تتشابه إلى حد كبير مع قوانين نيوتن عن الجاذبية العامة ففي كل حالة من الحالات الثلاثة السابقة ، تتناسب القوة تناسباً طردياً مع حاصل ضرب الشحنتين أو قوة القطبين المغناطيسيين أو الكتلتين ، كما أنها تتناسب عكسياً مع مربع المسافة

.

حقيقة هنالك بعض الفروق ، فمن ذلك مثلاً أنه بينما تسير الموجات الكهرومغناطيسية ، بسرعة الضوء ، فإن التجاذب الأرضي ينتقل بسرعة لا نهائية ، ولكن هذه الفروق تشير إلى الاختلافات في طبيعة الأشياء وتدفعنا نحو دراسة الموضوع بصورة أشمل .

وهنالك ظواهر عديدة تدل على وحدة الغرض في هذا الكون وتشير إلى أن نشأته والسيطرة عليه لابد أن تتم على يد إله واحد لا آلهة متعددة .

ويحدثنا علماء الأحياء عن توافق مشابة فيما يتعلق بتركيب الكائنات الحية ووظائفها ، فالأجسام الطبيعية تؤدي وظائفها على أكمل وأتم صورة .

خذ مثلاً الكريات الدموية الحمراء التي بجسم الإنسان، تجد أن شكلها وحجمها يتناسبان إلى أقصى حد مع الوظائف التي خلقت من أجلها . وينطبق هذا على سائر الأعضاء والأجزاء ودقائق الجسم . فإذا ذهبنا إلى عالم الحشرات فقد يكفينا أن نفحص خلية النحل لكي تستولي علينا روعة الدقة والكمال والتشابه العجيب بين عيونها . وكل خلية من ملايين الخلايا الموجودة في سائر أنحاء العالم مصممة بصورة هندسية وبدقة رائعة وتناسب العمل الذي خلقت من أجله إلى أقصى الحدود .

وليست خلايا النحل إلا مثلاً من آلاف الأمثلة التي نستطيع أن نضربها لبيان الورعة والإتقان والتوافق في كل ما هو طبيعي، فإذا كان كل ذلك وغيره مما لا يحصى لا يدل على

وجدود إله مدبر يسيطر على هذا الكون ويوجهه ، فليت شعري كيف أستطيع بعد ذلك أن أنتسب إلى دائرة العلماء والمشتغلين .

إنني أجد بوصفي من المشتغلين بالعلوم أن النتائج التي وصلت إليها بدراستي العلمية عن الله والكون تتفق كل الاتفاق مع الكتب المقدسة ، التي أؤمن بها وأعتقد في صدق ما جاءت به عن نشأة الكون وتوجيه الله له وقد يرجع ما نشاهده أحيانا من التعارض بين ما توصلت إليه العلوم وبين ما جاء في هذه الكتب المقدسة إلى نقص في معلوماتنا .

(232/736)

فقد أشار الإنجيل مثلاً إلى أن قدماء المصريين ، كانوا يستخدمون القش في صناعة الطوب وهو رأي لم تؤيده دراسة الحفريات المصرية .

ولكن علماء الآثار ما لبثوا أن اكتشفوا أن القش كان يعطن أولاً في المخامر ثم يؤخذ بعد ذلك فيخلط بالطين ويدخل في صناعة الطوب ليزيد من صلابته . فعلينا إذن أن نتريث عندما نجد بعض التعارض بين ما تحدثنا عنه العلوم وبين ما يحدثنا عنه الدين حتى تتبين لنا الحقيقة .

والنظريات الحديثة التي تفسر نشأة الكون والسيطرة عليه بصورة تخالف ما جاء في الكتب

السماوية تعجز جميع الحقائق وتزج بنفسها في ظلمات اللبس والغموض ، وإنني شخصياً أؤمن بوجود الله وأعتقد في سيطرته على هذا الكون

عن كتاب "الله يتجلى في عصر العلم . . "

بقلم : جون كلوفر مونسما

ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان

الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع القاهرة

[1] .عالم الرياضيات والفيزياء حاصل على درجة الماجستير من جامعة واشنطن عضو الجمعية الرياضية الأمريكية

.

.

.

0–الله والقوانين الكيماوية

جون أزولف بوهلر

لكي ندرك كيف تنسب القوانين الكيماوية إلى الله ونتبين مبلغ قصور العقلالإنساني ، ونعرف لماذا ينبغي أن يتواضع الناس جميعاً حتى أولئك الذين نعتبرهم من العباقرة فإنني

أحب أن أعرض على قرائي لمحة موجزة عن علم الكيمياء ، الذي هو ميدان تخصصي . وسوف أحاول الابتعاد عن المصطلحات الفنية وأن أكون واضحا ما استطعت .

فمنذ فجر المَدنية والإنسان يحاول أن يفهم كنه التغيرات التي تطرأ على ما يحيط به من عالم الماديات . وقد كان فهمه للمادة في بادئ الأمر يشوبه النقص والغموض ، وكان ديمقريطس الذي عاش قبل الميلاد بنحو 400 سنة أول من وصل عن طريق التخمين إلى أن جميع الأشياء تتألف من دقائق صغيرة تعتبر كل منها وحدة قائمة بذاتها . وتختلف هذه الفكرة عما كان شائعاً من قبل من أن المادة تتألف من كتلة واحدة متصلة .

(233/736)

و لما كانت فكرة ديمقريطس لا تتفق مع ما تشاهده العين من أمر المادة ، فقد بقيت هذه الفكرة مدفوعة تحت أنقاض ما كان يسود ذلك العهد من شك في صحتها .

و ظلت الكيمياء القديمة من ضروب الشعوذة والسحر ألفي سنة وهي تحاول أن تجد تفسيراً لمعنى المادة . وفي حوالي منتصف القرن السابع عشر عاد روبرت بويل إلى فكرة ديمقريطس من جديد وأطلق اسم العنصر على كل مادة من المواد البسيطة التي لا يمكن تحويلها في المعمل إلى أبسط منها . و العناصر بهذا المعنى تختلف عن المعنى الذي ذهب

إليه أرسطوطاليس حينما رأى أن العناصر التي تتألف منها المادة هي الأرض والنار والهواء والماء . وفي سنة 1774 أكتشف جون بريستلي الأوكسجين وفي سنة 1776 توصل لورد كافينديش إلى عنصر الإيدروجين ،وبعد فترة وجيزة اكتشف لافوزييه أن الهواء خليط من الأوكسجين والنيتروجين . واستنبط أن الماء هو الآخر لا يمكن أن يكون عنصراً لأنه يمكن تحضيره بإحراق الأيدروجين في الهواء لقد كان علم الكيمياء يتقدم بحق ، وفي عام 1799 توصل الكيماوي الفرنسي جوزيف براوست إلى أن المواد الكيماوية النقية مثل ملح الطعام يكون لها تركيب ثالث ، بصرف النظر عن مصدرها . أما بيرثوليت فكان يناقضه ويرى أن الملح المحضر من أماكن مختلفة على سطح الأرض يختلف في تركيبها تبعاً لاختلاف هذه الأماكن .

و لقد كسب براوست الجولة بعد مضي ثمان سنوات قضاها في إجراء التجارب وبذلك تبين أن للمركبات تركيباً ثابتاً .

و في سنة 1808 حاول دالتون ـ وكان مدرساً ـ أن يجمع كل ما هو معروف من المعلومات الكيماوية حتى ذلك الوقت ، وأن يجد تفسيراً لثبات العناصر والمركبات . وقد توصل إلى النظرية الذرية للمادة . فقد كان يرى أن العناصر تتكون من جزيئات صغيرة سماها الذرات وتوصل إلى أن الذرات العنصر الواحد لابد أن تكون متكافئة من جميع الوجوه أما ذرات العناصر المختلفة فمتباينة .

و قد افترض دالتون أن الذرات غير قابلة للكسر فهي لا تستطيع أن تتحول إلى صورة أصغر . وقد أرجع اختلاف العناصر في صفاتها الطبيعية والكيماوية إلى ما بين ذراتها من اختلاف في الوزن والخواص الأخرى . كما بين أن ثبات المركبات يرجع إلى اتحاد العناصر الداخلية في تركيبها بنسب دقيقة ثابتة في المركب الواحد . وعندئذ أتضح أن الظواهر الكيماوية تخضع لقوانين معينة مثل قانون بقاء المادة وقانون ثبات التركيب وقانون بقاء الطاقة .

و بهذه الوسائل التي تسلح بها الكيماويون في بحوثهم العلمية ، تحول علم الكيمياء من علم وصفي إلى علم قياسي يعتمد على القياس الدقيق . و ما إن فتح ذلك الطريق على أساس الاتجاه حتى ظهر التقدم الحقيقي ، وصار من المقرر أن دراسة الكيمياء تقوم على أساس الانتظام والقوانين . بذلك تحولت الكيمياء إلى صف العلوم . وتقدمت دراستها في نصف القرن الذي تلا دالتون تقدماً كبيراً وسارت في نفس الاتجاه الذي حددته قوانين نيوتن ، ونجح العلماء في زيادة عدد العناصر في سنة 1900 وبذلك ضربت الكيمياء رقماً قياسياً في تقدمها .

لقد كان دالتون يعتبر الذرة كتلة صلبة من المادة تخضع لقوانين نيوتن . وفي النصف الأخير من القرن التاسع عشر أجريت تجارب عديدة اتضح منها أن هنالك ذرات أكثر تعقيداً من الذرات التي وصفها دالتون ، فقد بدأ ماسون في سنة 1853 بإمرار تيار كهربائي خلال أنبوبة مفرغة . ثم حاول جسلر أن يعيد التجربة السابقة مستخدما تياراً أقوى ومجموعة من الغازات المختلفة داخل الأنابيب المفرغة .

(235/736)

وفي سنة 1878 استطاع كروكس باستخدام أنابيب مفرغة إلى درجة لم يحصل عليها سابقوه ، أن يلاحظ بريقا عجيبا داخل الأنبوب عند إمرار التيار الكهربي بها . وقد أثبت طويون أن هذه الأشعة العجيبة تحمل شحنات كهربية سالبة ، وأنها تتحرك بسرعة لا يتصورها العقل ، وأنها تكاد تكون عديمة الوزن ،وقد سميت هذه الأشعة أشعة المهبطية ، كما سميت الأنابيب التي تتلون داخلها أشعة المهبط . وقد تبين أخيراً أن هذه الأشعة ليست إلا سيلا من الالكترونات المتدفقة .

ثم اكتشفت بعد ظاهرة النشاط الإشعاعي ، التي اكتشفتها بكويرل وآل كوري . وقد فتح هذا الاكتشاف عالما جديدا من الجزيئات التي هي دون الذرات . ولم يعد ينظر إلى الذرة

على أنها جسم صلب مصمت ، بل صار ينظر إليها على أنها تشبه مجموعة شمسية مصغرة ن تقع كتلتها الكبرى في مركزها حيث تتجمع البروتونات الموجبة ، ومن حول هذه الكتلة يتم توزيع الالكترونات السالبة التي هي ليست إلا وحدات من الطاقة تتحرك حول المركز في نظام معين .

و تتوقف الخواص الطبيعة والكيماوية للذرة على ما يحمله حول المركز في نظام معين .

وتتوقف على طريقة ترتيب الالكترونات حول النواة . وقد بذلت محاولات في بادئ الأمر لتطبيق قوانين نيوتن على الجزيئات دون الذرة ، ولكن اتضح بعد قليل أن هذه القوانين لا تنطبق على تلك الجزيئات الدقيقة . وقد دعا ذلك إلى ضرورة قيام طرق جديدة أخرى للحساب فنشأت نظرية " الكوانتم " أو نظرية الكم . وهي تساعدنا على أن تعبر تعبيراً رياضياً عن احتمال سلوك البروتونات والالكترونات وغيرها من الجزيئات دون الذرية .

(236/736)

وفي سنة 1927 توصل هايزنبرج إلى نظرية " الشك " أو عدم التحديد لكي يبين لماذا لا تخضع الجزيئات دون الذرية لقوانين نيوتن وينص هذا المبدأ على أنه من المحال تعيين موضع أي جزيء وسرعته في لحظة واحدة . فكلما حاولنا أن نشاهد إلكترونا نجد أننا نغير من

حالته ، وقد يتناول التغيير مكانه أو سرعته أو كليهما .

وعلى ذلك فإننا نستطيع أن نتكلم عن احتمال حدوث ظاهرة ، ولكننا لا نستطيع أن نحددها تحداً دقيقاً ، وعندئذ نقول إن الطبيعة تخضع لقوانين المصادفة الإحصائية . ونحن في العادة نتعامل مع أعداد كبيرة جداً من الأيونات أو الجزيئات في المعمل ، أعداد تبلغ الملايين ، فعندما نمزج المحاليل يسلك كل أيون من الأيونات الداخلة في التفاعل سلوكا خاصاً ، سلوك غير منتظم ، لا نستطيع أن نتنبأ به ، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نقدر نتائج التفاعل الكلي تقديرا بالغ الدقة . وقد يكون هنالك مئات الآلاف من الأيونات التي لم تشترك في التفاعل ولكن مادامت الموازين التي نستخدم عاجزة عن تقدير هذا القدر الضئيل منها فإننا نعتبر أن التفاعل قد أكتمل وبلغ درجة التمام .

ويشير دينوي إلى ذلك فيقول : إن كل شيء يتوقف على معايير الملاحظة التي تستخدمها ، وإن ما قد نعتبره تاماً أو كاملا باستخدام أحد المعايير قد لا يكون كذلك عندما نستخدم معياراً آخر ، فإذا مزجنا جراماً من الكربون لأحد الميكروبات التي تزحف فوق هذا التل من الخليط ، فإنه يبدو على صورة مجموعة من الكتل السوداء التي تجاورها كتل بيضاء . ويرجع ذلك إلى اختلاف مستوى الملاحظة في حالة الميكروب عنده في حالتنا .

أما لماذا تخضع الكيمياء للقوانين التي اكتشفناها ، فيرجع إلى أنها علم إحصائي . وعلى ذلك فإن القوانين الطبيعية الكيماوية تقوم في أساسها على عدم الانتظام . أما ما نشاهده من انتظام الظواهر فيرجع إلى أننا نتعامل مع أعداد بالغة الكبر تخضع في مجموعها لقوانين الإحصاء وتعطي نتائج محددة . ومن أن النظام الذي نشاهده والتوافق الذي نلاحظ إنما يخرجان من الفوضى .

فما هي القوى الموجهة التي وراء هذه القوانين الإحصائية ؟

عندما يطبق الإنسان قوانين المصادفة لمعرفة مدى احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في الطبيعة مثل تكون جزيء واحد من جزيئات البروتين من العناصر التي تدخل في تركيبه ، فإننا نجد أن عمر الأرض الذي يقدر بثلاثة بلايين من السنين أو أكثر لا يعتبر زمنا كافيا لحدوث هذه الظاهرة وتكون هذا الجزيء عن طرق المصادفة إن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا كانت هناك قوة موجهة إلى غاية محددة وتعيننا على إدراك كيف يخرج النظام من الفوضى .

ولابد أن نسلم بأننا لا نعرف حتى الآن كل ما يمكن أن يعرف عن المادة والطاقة ، فنحن لا نزال في بداية الطريق . وقد يكون ما سميناه عدم نظام أو فوضى على المستوى دون الذري

مخالفاً لذلك كل المخالفة ، فقد تكون أفكارنا خاطئة أو متأثرة بنقص معلوماتنا عن الظواهر المختلفة أو تقيدنا بجانب غير سليم من الملاحظة .

(238/736)

إن الإنسان يشاهد التنظيم والإبداع حيثما ولى وجهة في نواحي هذا الكون . ويبدو أن هذا الكون يسير نحو هدف معين ، كما يدل على ذلك النظام الذي نشاهده في الذرات ، فهناك نظام معين تتبعه الذرات جميعها من الأيدروجين إلى اليورانيوم وما بعد اليورانيوم . و كلما أزداد علمنا بالقوانين التي تتحكم في توزيع البروتونات والإلكترونات لإنتاج العناصر المختلفة ، أزداد إيماننا بما يسود عالم المادة من توافق ونظام ، وقد يجيء اليوم الذي ينكشف لنا فيه كيف تتجمع الطاقة لكي تكون تلك الكتل من المادة . ولقد كان أينشتاين أول من أظهر العلاقة الموجودة بين المادة والطاقة . ولا يزال الإنسان في بداية الطريق لكشف أسرار الطاقة الذرية ، وقد نستطيع في يوم من الأيام أن تحول الطاقة إلى مادة . و تدل الشواهد على وحدة الكون من الوجهة الكيماوية . ولدينا من الطرق والوسائل ما يمكننا من اختبار كثير من العناصر الموجودة في الكواكب الأخرى ، ومعرفة أنها هي نفس العناصر التي توجد على الأرض . وحتى النجوم البعيدة عنا فإنها تشتمل على عناصر

مشابهة لعناصر الأرض . ويعتقد العلماء أن القوانين الطبيعية التي تتحكم في هذا الكوكب هي عينها القوانين التي تخضع لها النجوم والكواكب الأخرى في أفلاكها النائية المترامية في الفضاء . فحيثما اتجهنا نجد الإبداع والنظام والتوافق ، حتى هنالك ظل من شك عندي في أن إلهاً قادراً قد أبدع هذا الكون وبناه وحدد وجهته وغايته .

وكنت أرجو أن يتسع الوقت والمكان لذكر كثير من الأمثلة الأخرى التي تدل على روعة الإبداع وجلال النظام ،ولكنني أحب ا ، أوجه نظر القارئ إلى دورة الماء على الأرض ودورة ثاني أوكسيد الكربون ودورة النشادر ودورة الأكسجين التي تشهد كل منها بحكمة وتدبير وقوة لأحد لها .

(239/736)

وبرغم أن هنالك كثيراً من الأشياء في الطبيعة مما لم يصل الإنسان بعد إلى معرفة كنهه أو تفسيره ومما لا يزال يكتنفه الغموض ،فإننا لا نريد أن نقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه الأقدمون عندما اتخذوا آلهة لكي يجدوا تفسيراً لما غمض عليهم ، وحددوا لكل إله قدرته وعينوا له وظيفته ودائرة تخصصه . . . وعندما تقدمت العلوم وأمكن فهم كثير من الظواهر الغامضة ومعرفة القوانين التي تخضع لها ، لم يعد هؤلاء الناس في حاجة إلى الآلهة

التي نتلمس قدرة الله في النظام الذي خلقه والقوانين التي تحكمها ولكن الإنسان عاجز عن أن يسن تلك القوانين ، فهي من صنع الله وحده . ولا يفعل الإنسان أكثر من أنه يكتشفها ثم يستخدمها في محاولة إدراك أسرار هذا الكون .

وكل قانون يكتشفه الإنسان يزيده قربا من الله ، وقدرة على إدراكه ، فتلك هي الآيات التي يتجلى بها الله علينا ، وقد لا تكون هذه هي طريقته الوحيدة في هذا التجلي ، فهو يتجلى أيضا في كتبه المقدسة مثلاً، ومع ذلك فإن طرقة تجليه تعالى في آياته التي نشاهدها في هذا الكون تعتبر بالغة الأهمية بالنسبة لنا .

عن كتاب "الله يتجلى في عصر العلم . ."

جمعها : جون كلوفر مونسما

ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان

الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع القاهرة

.

.

.

0-آيات الله في السماوات والأرض

قال تعالى في كتابه العزيز :

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) (يونس : 101) .

هذا الكون

(240/736)

تبعد الأرض التي نعيش عليها عن الشمس ، التي تبلغ درجة الحرارة على سطحها 12 ألف درجة فهرنهيت ، بمقدار يبلغ 92 مليون ونصف مليون ميل ، وتبعد عن القمر بمقدار 240 ألف ميل . وهذه الأبعاد هي التي تكفي لتهيئة البيئة الصالحة للحياة بالصورة التي تعرفها على الأرض ، إذ لو قربت الأرض عن ذلك لاحترقت الأحياء التي عليها في التو واللحظة ، وانعدمت منها كل مظاهر الحياة ، ولو بعدت الشمس أكثر من ذلك لأصاب التجمد ، ثم الموت ، كل كائن حي على الأرض . ولو قرب القمر أو بعد عن ذلك ، لغمر المدّ القارات بالماء ، ولأهلك الجزر الأحياء ، ومن قوة جاذبيته تفتت الجبال والتلال ، وتلاشت الحياة .

و تدور الأرض على محورها بسرعة ألف ميل في الساعة ، أي بما يعادل مرة كل أربع وعشرين ساعة . ولو قل معدل دورانها عن ذلك ، لطال النهار بما قد يؤثر في النبات والأحياء صيفاً ، وطال الليل بما قد تتجمد بسببه السوائل شتاءً ، وبذلك تقل مسببات الحياة ، والتي لو زادت لانعدم شيئاً فشيئاً .

(241/736)

و إذا زاد سمك قشرة الأرض عما عليه قليلاً ، لنقص الأوكسجين ، وقلّت فرص الحياة . فإذا فرضنا أن سمك القشرة الأرضية زاد بمقدار عشرة أقدام ، لانعدمت بانعدام الأكسجين الذي إذا زاد زيادة طفيفة ، لسبب فناء العالم ، بما يسببه من اختلال في كثافة الهواء . . فتتهاوى الكواكب والأجرام . إن من يسكنون بجوار البحار والمحيطات ، أو يضطرون إلى الحياة بجوارها ، يقومون بعملية معقدة لتبخير هذا الماء ثم تكثيفه ، لاستبعاد الملح الذي به ، ليكون بذلك صالحاً للشرب . ولطالما تمنوا أن تكون هذه المياه المالحة حلوة كمياه الأنهار ، فلو أن أمنيتهم تحققت ، وصارت المياه كلها خلوة ، لصارت عفنا منتشراً ، ولانتهت الحياة على سطح الأرض ، وأصبحت خراباً قفراً . فمياه المحيطات والبحار مياه واقفة أو مقفلة ، والملح فيها مادة حافظة تمنع عنها التعفن والعطن . انظر إلى الدورة

المائية في الأرض ، تجد أنها خلقت بإحكام وقدر ، فالشمس تبخر مياه البحار والمحطات التي تعتبر مستودعا لا ينفد من المياه المحفوظة ، فتصعد إلى الطبقات الباردة في السماء فتتكاثف لتسقط مياهاً حلوة تجري في الأنهار ، تسقي الزرع والضرع ، وتمد الكون بالحياة .

فهل هذا نشأ مصادفة ؟ وانظر دوران الأرض حول نفسها ، وحول الشمس ، وميل محورها البالغ 23درجة ، وكيف تتكون فصول السنة التي تتغير من برد قارص إلى ربيع معتدل ، ثم صيف حار وخريف مقبول . لو كان المحور معتدلاً لم تدور الأرض حول نفسها ، ولتجمعت قطرات المياه المتبخرة من المحيطات والبحار ونزلت في مكانين محددين في الشمال والجنوب ، وكونت قارات من الجليد ولظل الصيف دائما والشتاء إلى الأبد ، ولهلك الناس والحياة والأحياء ، فهل ذلك نشأ مصادفة ؟

عظمة الكون

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) (الذريات : 47)

يقول العالم بليفن في كتابه (العلم ينظر إلى السماء) : إن الكون أرحب وأعظم مما كنا نتخيله ، وإن الأجزاء النائية من الكون تندفع في الفضاء بعيداً بسرعة مخيفة .

و قد انتهى رأي علماء الفلك إلى أنَّ ما بين النجوم فضاءً تاماً ، والحقيقة أنه ممتلئ بالغازات والمواد المختلفة ، وفي السماء سحب غازية سابحة في الفضاء ، يبلغ قطر كل منها نحوا من ستة آلاف مليون ميل . والشمس والكواكب السيارة التي تدور حولها جميعها حديثة العمر بحسب التقدير الفلكي ، فإن الكواكب السيارة لا يزيد عمرها كثيراً على ثلاثة آلاف مليون من السنين .

و يقول بلفن كذلك : إن الكون كله بنجومه المختلفة الأحجام التي لا حصر لها ، والتي تندفع في جميع الاتجاهات كأنها شظايا قنبلة متفجرة ، صورة لا يكاد المرء يتخيلها حتى يدركه الانبهار و تنقطع أنفاسه ، ولكن يبدوا أن الأجدر بأن يبهر ويقطع الأنفاس هو رؤية هذا الكائن البشري الضئيل ، الذي يعيش على شظية من شظايا نجم صغير ، في زاوية حقير من زوايا مجرة لا تختلف شيئًا عن الملايين من أمثالها ، هذا الكائن يجرؤ عل أن يسمو ببصره إلى أطراف الفضاء ، يجرؤ فيتحدى ثم يجرؤ فيحاول أن يعرف الكون .

و يقول الفلكيون أن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم ، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه ، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض ، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي

لنجم من مجال منن مجال نجم آخر ، أو يصطدم كوكب بآخر إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي يسيران في اتجاه واحد ، وهو احتمال بعيد وبعيد جداً ، إن لم يكن مستحيلاً .

(243/736)

يقرر العلم أن سرعة الضوء هي 186 ألف ميل في الثانية ، ومن النجوم ما ترسل ضوءها فيصل إلينا في دقائق ، ومنها ما سيصل في شهور وهناك نجوم أرسلت ضوءها وأمكن معرفة ذلك بأجهزة خاصة من ملايين السنين ولم يصل إلينا ضوءها بعد . فكم بذلك يبلغ اتساع الكون ؟

ويحيط بالكرة الرضية غلاف جوي يبلغ سمكه مائة ميل ، ويتكون من مزيج من الأكسيجين والآزوت وثاني أكسيد الكربون وبخار الماء والأزون وغازات أخرى ممتزجة بنسب ثابتة ، وأي تغيير في هذه النسب زيادة أو نقصان يسبب فقدان الحياة والأحياء .

يبلغ الضغط الجوي 14,7 رطلا على البوصة المربعة عند سطح البحر ، وهذا الضغط هو الذي يدفع الأكسجين خلال أغشية الرئة ثم في الدورة الدموية ليتوزع على أجزاء الجسم المتلفة ، وإن أي تغيير طفيف في هذا الضغط يسبب ما قد ينتهي بالموت . وقد وجد

بالتجارب أنه حالة الطيران العالي إذا تجاوز الطيار ارتفاع 15 ألف قدم يتعرض لما يسمى بانسداد الشرايين الهوائية ، ثم يموت إذا وصل إلى ارتفاع 25 ألف قدم .

بعض ما في الكون :

قال تعالى : أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (سورة ق)

قال العلامة سينكا : " لا يستطيع المرء أن يرفع بصره نحو السماوات العليا إلا ويغضي إجلالاً ووقاراً ، إذ يرى ملايين من النجوم الزاهرة الساطعة ويراقب سيرها في أفلاكها ويتنقل في أبراجها " .

وكل نجم وأي كوكب ، وكل سديم وأي سيار ، أنما هو دنيا قائمة بذاتها ، أكبر من الأرض ، وما عليها وما حولها .

الأرض :

الأرض كوكب من الكواكب التي تدور حول الشمس وتتبعها في سيرها أينما سارت .

وهي الكوكب الخامس من حيث الحجم ، والثالث من حيث القرب من بين الكواكب التسعة التي تتكون منها المجموعة الشمسية .

(244/736)

و الأرض تكاد تكون كرة ، إلا إنها منبعجة قليلاً عند الاستواء ومفلطحة عند القطبين . و يقدر طول قطر الأرض المار بالقطبين 7900 ميل ، وقطرها الاستوائي 9727 ميلاً ، ومحيط الأرض عند القطبين 24220 ميلاً ، ومحيطها حول خط الاستواء 24900 ميل .

و مساحة سطحها 200 مليون من الأميال المربعة , ويشغل اليابسة منها نحواً من 50 مليون ميل مربع ، والماء حوالي 150 مليون ميل مربع .

و هي تدور بنا حول نفسها مرة كل أربع وعشرين ساعة ، فمن كان في المناطق الحارة فهو يتحرك بسرعة معدلها ألف ميل في الساعة أو 16 ميلا في الدقيقة . وتدور حول الشمس في فلك يبلغ محيطه 580 مليون ميل ، فمعدل سرعتها في هذه الحركة يبلغ 60 ألف ميل في الساعة ، أو بنحو ألف ميل في الدقيقة , والنظام الشمسي كله بما فيه الأرض ينهب الفضاء نهبا بسرعة لا تقل عن 20 ألف ميل في الساعة ، أي أكثر من 300 ميل في الدقيقة ،

متجهة نحو برج هركيوليس .

أما عمر الأرض فقد بدأ الإنسان تكهناته عنه من آماد بعيدة ففي القرن السابع عشر قال الأسقف جمس أوثر أن العالم بدأ يوم 26 أكتوبر سنة 4004 قبل الميلاد . وجاء في أحد الكتب الهندية المقدسة أن عمر العالم هو 1972949056 سنة , وفي العصر الحديث بدأت الجهود التي يبذلها الفلكيون في المرصد تلتقي عند أدق رقم يمكن أن يعتبر أصح تقدير لعمر الكرة الأرضية . فقد دلت آخر التقديرات القائمة على دراسات فلكية وأبحاث علمية في مراصد ليك ومونت ويلسون وبالومار ، على أن عمر الكرة الأرضية حوالي 54000000000 سنة ، ونسبة الخطأ في تقدير هذا الرقم تقرب من 20% .

الشمس

أما الشمس فهي كرة من الغازات الملتهبة عمرها 5000 مليون سنة ، قطرها يزيد عن مليون وثلث مليون كيلومتر ، ومحيطها مثل محيط الأرض 325 مرة ، ويبلغ ثقلها 332 ألف ضعف ثقل الأرض ، وتبلغ حرارتها الداخلية 20 مليون درجة مئوية بينما حرارة سطحها نحو 6000 درجة .

و هذا السطح تندلع منه السنة اللهب إلى ارتفاع نصف مليون كيلومتر . وهي تنثر في الفضاء باستمرار طاقة قدرها 167400 حصان من كل متر مربع ، ولا يصل للأرض منها سوى جزء من 2 مليون جزء ، وهي لا تعتبر إلا نجمة ولكنها ليست في عداد النجوم الكبرى . وسطحها به عواصف وزوابع كهربائية ومغناطيسية شديدة ، والمشكلة التي حيرت العلماء هي أن الشمس كما يؤخذ من علم طبقات الأرض لم تزل تشع نفس المقدار من الحرارة منذ ملايين السنين ، فان كانت فلا شك أن طرقة الاحتراق الجارية فيها غير ما نعهد ونأف ن وإلا لكفاها ستة آلاف سنة لتحترق وتنفذ حرارتها , وقد زعم البعض أن النيازك والشهب التي تتساقط على سطحها تعوض الحرارة التي تفقد بطريق الإشعاع ،و لقد ثبت مؤخراً أن عملية توليد الطاقة الشمسية هو تحول الوقود الغازي الهدروجيني الموجود بوفرة في الشمس وغير من النجوم إلى غاز الهليوم وذلك خلال سلسلة من التفاعلات النووية المعقدة والتي ينشأ عنها طاقة هائلة جداً لا يمكن تصورها .

وقد أعلن الدكتور توماس جولد ، نائب مدير مرصد مرينتش ، أن انفجار حدث في الشمس يوم 13 فبراير سنة 1956 يعادل القوة الناجمة عن مليون قنبلة هدروجينية ، وأدى هذا الانفجار إلى قذف الأرض بوابل من الإشعاعات الكونية . وقال الدكتور في بيانه : إن الزيادة في الإشعاعات الكونية بدأت في الساعة 3.45 صباحاً بتوقيت جرينتش ، واستمرت حوالي ساعتين ، وهذه الزيادة التي تعرضت لها الأرض من الإشعاعات الكونية تعتبر أكبر زيادة في التاريخ " ووصف الدكتور الانفجار بأنه حدث في منطقة أكبر من مساحة الكرة الأرضية وأن قوته كانت منن الشدة بحيث لا يمكن أن يدركها العقل البشري في الإشعاع اكوني كان جسم كل رجل وامرأة وطفل وكل كائن حي يتلقى ضعف الكمية العادية من الإشعاع في كافة أنحاء العالم . أما مرصد هارفارد ،ن فقد أذاع بيانا قال فيه الدكتور دونالد ميتزال مدير المرصد أن الانفجار الذي حدث في الشمس ، قد سجلته عدة أفلام بواسطة الكونجراف ، وهو جهاز لتسجيل الشعلات النارية والضوئية الخارجة من الشمس وأتضح أن قوة الانفجار الذي حدث يعادل انفجار 100 مليون قنبلة هيدروجينية دفعة واحدة ، وأن قوتها تزيد ألف مرة على الجاذبية الأرضية

المصدر : كتاب " الله والعلم الحديث " بقلم عبد الرزاق نوفل ط : دار الناشر العربي الطبعة الثالثة 1393هـ

.

.

.

0-التوازنات الدقيقة في كوكب الأرض

(247/736)

الأرض بجوها ومحيطاتها وكرتها الحيوية المعقدة وبقشرتها المؤكسدة نسبياً وغناها بالسيليكا والرسوبيات والبركانيات والصخور التحويلية (سيليكات الماغنيزيوم غلافاً ولباً) ويكسوها حديد معدني، وبقبعاتها الجليدية وصحاريها وغاباتها والتندرا (سهل أجرد في منطقة القطب الشمالي) والأدغال والسهول العشبية وبحيراتها العذبة وفحمها وترسبات الزيت والبراكين والمنافذ البركانية التي تنبعث منها الأبخرة والمصانع والسيارات التي تنبعث منها الأبخرة والمصانع والسيارات والمزارع والحيوانات والحقل المغناطيسي والإينوسفير (الكرة المتأينة) والسلاسل الجبلية في منتصف المحيط والغطاء المقنع، هي نظام فائق التعقيد . .

ج . س . لوسي . جيولوجي أمريكي[1]

لو قمت بجولة في النظام الشمسي فإنك سوف تشاهد منظراً غاية في الإبداع .

دعنا نتخيل أننا مثل ذلك المسافر وأننا وصلنا دائرة الكسوف العظيمة (دائرة البروج) للكرة السماوية والتي تتحرك فيها كل الكواكب الرئيسية لنظامنا الشمسي، فأول كوكب سوف نقابله هو (بلوتو) ، وهذا الكوكب هو مكان بارد جداً ودرجة حرارته نحو (– 238) درجة مئوية، وله جو لطيف يكون في حالته الغازية فقط عندما يكون أقرب إلى الشمس في مداره الشبه اهليلجي، أما في الأوقات الأخرى فيصبح جوه كتلة من الجليد ، إذاً (بلوتو) باختصار هو كرة لا حياة فيها مغلفة بالجليد .

وبالتقدم نحو الشمس فإنك ستواجه الكوكب التالي وهو (نبتون) وهو أيضاً بارد جداً ودجة حرارته حوالي (–218) درجة مئوية، وجوه يحتوي على غاز الهيدروجين والهليوم والميتان وهو سام للحياة وتهب فيه الرياح بسرعة 2000 كيلومتر في الساعة عاصفةً عبر سطح الكوكب .

الكوكب التالي هو (أورانوس) وهو كوكب غازي فيه صخور غازية فيه صخور وجليد على سطحه ودرجة حرارته (–214) درجة مئوية وجوه يحتوي على الهيدروجين والهليوم والمتيان وبالتالي فهو غير ملائم لحياة الجنس البشري .

نصل إلى كوكب زحل بعد أورانوس وهو ثاني أكبر الكواكب في المجموعة الشمسية ويتميز بخاصية في امتلاكه جملة من الحلقات المحيطة به، وتلك الحلقات مكونة من الغازات والصخور والجليد . وتعتبر تلك الحلقات واحدة من أجمل الأشياء حول زحل وهي مكونة كلياً من غازين (75% هيدروجين و25% هيليوم) .

وكثافتها أقل منها للماء، وإذا أردت أن تهبط على زحل فالأفضل أن تصمم سفينتك الفضائية بشكل تشبه فيه قارب منفوخاً واسعاً، ولا تنسى أن درجة الحرارة الوسطية منخفضة جداً وتصل إلى (-178) درجة مئوية .

و بالاقتراب من المشتري وهو أضخم كواكب النظام الشمسي، واتساعه يعادل 238 مرة اتساع الأرض، والمشتري هو مثل زحل أي هو كوكب غازي، وطالما أنه من الصعب أن نميز بين الجو والسطح على مثل تل الكواكب فمن الصعب أن نقول ما هي درجة حرارة السطح، لكنها في أعالي الجو تصل في الغلاف الجوي حوالي -143 درجة مئوية ومن المظاهر الملحوظة في جو المشتري شيء ما يدعى النقطة الحمراء العظمى، وقد لوحظت قبل ثلاثمائة سنة، ويعرفها الفلكيون الآن بأنها عبارة عن نظام عاصفة ضخمة هائجة في جو المشتري لعدة قرون، وهي من الاتساع بحيث تستطيع ابتلاع كوكبين بحجم الأرض، ويرى المشتري كأنه كوكب مثير لكنه وجوه مكون من غاز الكربون في معظمه، والضغط الجوي

عند سطحه يعادل (تسعين) ضغط جوي أرضي، وعلى الأرض يجب أن تغوص كيلومتراً داخل ماء البحر قبل أن تصل لمثل ذلك الضغط العالي، ويحتوي جو الزهرة على طبقات غازية من حامض الكبريت وسمكها تبلغ عدة كيلومترات . وعندما تمطر الزهرة، فكما تعلم فهي لا تمطر مطراً بل تمطر حمضاً .

لذلك لا يمكن لأي إنسان أو لأي كائن حي آخر أن يعيش في مثل ذلك المكان الجهنمي ولو لثانية واحدة .

(249/736)

نتابع رحلتنا فنصل إلى كوكب عطارد وهو عالم صخري صغير مدمر بالحرارة والإشعاع من الشمس، ودورانه حدث له إبطاء بسبب قربه من الشمس بحيث يصنع ذلك الكوكب ثلاثة دورات كاملة محورية (حول نفسه) في الوقت الذي يأخذه ذاته ليدور مرتين حول الشمس، وبكلمة أخرى فإن سنتين من عطارد تساوي ثلاثة من أيامه . وبسبب تلك الدورة اليومية المطولة يكون أحد وجهي عطارد حاراً تماماً بينما الطرف الآخر يكون بارداً تماماً والفرق بين درجتي حرارة وجهي النهار والليل لعطارد يزيد على ألف درجة مئوية . وطبعاً مثل تلك البيئة لا تسمح بالحياة فيها .

ليس صالحاً للإقامة فيه بسبب درجة الحرارة الباردة جداً حدّ التّجمد والرياح العنيفة والإشعاع الشديد .

الآن يأتي دور المريخ فجو المريخ ليس مكاناً ملائماً للحياة لأن معظمه غاز كربون وسطحه في كل الأماكن يطفح بالبثور، وتلك البثور هي ثقوب لفوهات بركانية، أو نتيجة لصدمات النيازك والرياح القوية العاتية التي تهب عبر السطح حاملة معها عواصف رملية والتي تدوم أياماً وأسابيع متواصلة، وتتغير درجة الحرارة كثيراً وقد تصل إلى مستويات منخفضة في حدود -53درجة مئوية .

مرت فترة ساد الاعتقاد فيها بأن المريخ ربما كان يحتوي على شكل من الحياة، لكن كل الأدلة بينت أنه عالم لا حياة فيه .

بالانطلاق بعيداً عن المريخ باتجاه الشمس نلاحظ كوكباً أزرق وسنقرر أن نتخطاه لفترة حتى نتمكن من اكتشاف ما هو أكبر . ويوصلنا بحثنا إلى كوكب يدعى الزهرة وهذا الكوكب في أماكنه مغطى ومحجوب بسحب ساطعة لكن درجة حرارته عند السطح هي 450 درجة مئوية، هي كافية لانصهار الرصاص (إذابته) .

وفي مجمل القول، ألقينا النظر على الكواكب الثمانية وليس لواحد منها بما فيها توابعها الثلاث والخمسين، وهي لم تبد شيئاً يساعد كملاذ يؤوي الحياة .

أما الكوكب الأزرق الذي تخطيناه لفترة مضت فهو واحد يختلف كثيراً جداً عن الآخرين فكل ما فيه ينبض حياةً جوه وتضاريس سطحه ودرجات حرارته الملائمة وحقله المغناطيسي ومصادر عناصره وهو موضوع على البعد المناسب من الشمس، فهو يبدو كما لو كان قد خلق خصيصاً ليصبح موطن الحياة، والذي سنكشف حقيقة لاحقاً .

درجة حرارة الأرض :

درجة الحرارة والجو هي أول عوامل أساسية للحياة على الأرض . والكوكب الأزرق له درجة الحرارة الحياتية والجو التنفسي للكائنات الحية . خاصة لمثل تلك الكائنات الحية المعقدة كالجنس البشري .

وعلى كل حال أتى هذان العاملان المختلفان كلياً إلى الوجود نتيجة انقلاب الشروط لتصبح مثالية لهما .

وأحد تلك العوامل هي المسافة بين الأرض والشمس، فالأرض لا يمكن أن تكون مقراً للحياة إذا كانت أقرب إلى الشمس مثل الزهرة، أو كانت بعيدة مثل بعد المشتري ،و الجزيئات ذات الأساس الكربوني يمكن أن تبقى حية بين حدين هما (-20) و(120) ، والأرض هي الكوكب الوحيد الذي له درجة حرارة وسطية بين هذين الحدين .

عندما يفكر شخص في الكون ككل مستعرضاً ضيق مجال درجات الحرارة فتلك مهمة صعبة جداً لأن الحرارة في الكون تتراوح بين بلايين الدرجات في أسخن النجوم إلى درجة الصفر المطلق أي لـ (-273س) .

وفي مثل ذلك المجال الواسع لدرجات الحرارة يكون الفاصل الحراري الذي يسمح للحياة بأن توجد هو ضئيل جداً بالفعل، لكن كوكب الأرض له هذا الفاصل .

الجيولوجي الأمريكي (فرانك بريس) و(ريموند سيفر) جذبا الانتباه لمتوسط درجات الحرارة السائدة على الأرض . ولاحظا كما نعلم أن الحياة ممكنة ضمن فاصل حراري ضيق، وذلك الفاصل هو من واحد إلى اثنين بالمئة من المجال بين درجة حرارة الصفر المطلق ودرجة حرارة سطح الشمس . .

(251/736)

إن الاحتفاظ بهذا المجال الحراري مرتبط أيضاً بكمية الحرارة التي تشعها الشمس وكذلك بالمسافة بين الأرض والشمس، ووفق الحسابات فإن نقصان 10% من طاقة الإشعاع الشمسي سيؤدي إلى تغطية سطح الأرض بطبقات من الجليد سمكها عدة أمتار، وإذا زادت تلك النسبة عن ذلك بقليل فكل الكائنات الحية سوف تتجمد وتموت .

لا يكفي أن تكون درجات الحرارة المتوسطة مثالية، بل يجب أن تكون الحرارة المتوفرة أيضاً موزعة بالتساوي تقريباً على سطح الكوكب وأن عدداً من الوقائيات الخاصة يجب توفرها ، وبالفعل فقد تم تأمينها .

يميل محور دوران الأرض بزاوية 23و27 على مستوى دائرة البروج، وهذا الميل يمنع الإفراط الحراري للجو في المناطق بين القطبين وخط الاستواء ومسببة لها اعتدلاً حرارياً أكثر، وإذا لم يكن ذلك الميل موجوداً فالتدرج الحراري بين القطبين وخط الاستواء سيكون أكثر ارتفاعاً مما هو عليه، والمناطق المعتدلة سوف لن تكون معتدلة بعد أو ملائمة للعيش فيها .

وسرعة دوران الأرض حول محورها تساعد أيضاً في حفظ التوازن الحراري في حالة توازن، وتقوم الأرض بدورة واحد كل 24 ساعة، والنتيجة هي فترات متناوبة قصيرة تقريباً من الليل والنهار، وبسبب قصرهما يكون التدرج الحراري بين الطرفين المضيء والمظلم للكوكب معتدلاً تماماً ، وأهمية ذلك يمكن رؤيته في المثال المتطرف لعطارد، حيث أن يومه أطول من سنته فيكون الفرق بين درجات حرارة النهار والليل فيه حوالي ألف درجة مئوية .

تساعد الجغرافية أيضاً في توزيع الحرارة وتساويها على سطح الأرض، بحيث يكون الفرق بين درجتي حرارة المناطق القطبية والاستوائية للأرض حوالي مئة درجة مئوية فقط، وإذا كان مثل ذلك التدرج الحراري موجوداً على مساحات مستوية كلياً لا تضاريس فيها فستكون النتيجة رياحاً سرعتها عالية جداً ربما بلغت ألف كيلومتر في الساعة وجارفة معها كل شيء في مسارها، ولكن بدلاً عن ذلك فالأرض مملوءة بالعوائق الجيولوجيه التي توقف الحركات الهائلة للهواء التي يسببها التدرج الحراري . وتلك العوائق هي السلاسل الجبلية والممتدة من المحيط الهادي في الشرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب، ويبدأ بجبال الهملايا في الصين ويستمر حتى جبال طوروس في الأناضول والألب في أوربا، وفي البحر تنتقل الزيادة في الحرارة في المناطق الاستوائية شمالاً وجنوباً، والفضل في ذلك لقابلية الماء المثلى في نقل الحرارة وتبديدها .

كتلة الأرض والحقل المغناطيسي للكوكب :

حجم الأرض ليس أقل أهمية للحياة من بعدها عن الشمس وسرعة دورانها وتضاريسها الجغرافية . وبالنظر إلى الكواكب نرى أن هناك تفاوتاً كبيراً في أحجامها، فعطارد حجمه صغير وأصغر بعشر مرات من حجم الأرض بينما المشتري أكبر منها بحوالي 318 مرة،

والسؤال الآن هو، هل كان حجم الأرض إذا ما قورن بحجم الكواكب الأخرى مصادفة ؟ أم هو مدروس ؟ .

عندما نفحص أبعاد الأرض نرى بسهولة أن كوكبنا صمم تماماً بهذا الحجم وقد علق الجولوجيان الأمريكيان (فرانك بريس) و(ريموند سيفر) على تلائم الأرض بقولهما : " إن حجم الأرض هو تماماً ما ينبغي أن يكون عليه، فهي ليست صغيرة جدا فتخسر جوها لكون جاذبيتها الثقالية عندئذ صغيرة فلا تستطيع منع هروب الغازات منها إلى الفضاء، وهي ليست كبيرة بالقدر الذي يجعل جاذبيتها الثقالية تزداد كثيراً فتحتفظ بجو غزي أكبر بما فيها غازات ضارة . [2] .

(253/736)

بالإضافة إلى كتلتها فإن أعماق الأرض أيضاً مصممة بطريقة تخصصية مضبوطة وذلك من ناحية لبها وحقلها المغناطيسي القوي والذي له دور حيوي هام في حفظ الحياة، ووفق ما كتبه العالمان (بريس وسيفر) يكون : " أعماق الأرض هي محرك عملاق متوازن حرارياً بلطف . وقوده النشاط الإشعاعي . . وعندما تباطأت حركتها صار نشاطها الجيولوجي يتقدم بخطوات بطيئة موزونة ، ولنفرض أنه ربما لم ينصهر الحديد ويغوص ليشكل

لباً سائلاً، والحقل المغناطيسي ربما لم يتطور إطلاقاً . . فإذا كان هناك زيادة من الوقود (أي النشاط الإشعاعي) وكان المحرك يدور أسرع فإن غازات البراكين والغبار بما حجبت الشمس وعندئذ سيكون الجو كثيفاً ، والسطح سيكون مدمراً بالزلازل اليومية والإنفجارات البركانية . [3]

الحقل المغناطيسي الذي تحدث عنه الجيولوجيون له أهمية كبيرة عل الحياة وينشأ هذا الحقل المغناطيسي في جوف الأرض، فهو يحتوي على عناصر ثقيلة مثل الحديد والنيكل وهما معدنان قادران على حمل شحنات مغناطيسية، والجوف الداخلي صلب أما اللب الخارجي الذي يعلوه فهو سائل، وتتحرك هاتان الطبقتان من اللب حول بعضهما البعض، وتلك الحركة هو التي تولد الحقل المغناطيسي الأرضي، ويمتد هذا الحقل بعيداً خلف السطح، وهذا الحقل يحمي الأرض من تأثيرات الإشعاع الضار الوارد من الفضاء الخارجي، أما الإشعاعات الوردة من النجوم عدا الإشعاع الشمس فهو لا تستطيع السفر عبر ذلك الدرع، فحزام (فان آلن) الذي تمتد خطوطه المغناطيسية عشرة آلاف ميل من الأرض تحمي الكرة الأرضية من هذه الطاقة المميتة .

حسبت طاقة السحب البلازمية التي يأسرها حزام (فان آلن) فوجد أنها تبلغ في بعض الأحيان سويات عالية ربما وصلت لأكثر من مئة بليون مرة من طاقة القنبلة التي ألقيت فوق (هيروشيما) .

وكما هو معلوم فإن الأشعة الكونية ضارة على جميع المستويات، والحقل المغناطيس هي تقريباً بحدود بليون أمبير، وهذا أكثر مما ولده الجنس البشري عبر التاريخ كله .

فإذا لم يكن ذلك الدرع الحامي موجوداً فمن المفروض أنها دُمرت بالإشعاعات الضارة والمؤذية من وقت لآخر، . وبالتالي لم يكن للحياة أن تظهر على الأرض إطلاقاً، ولكن كما أشار (بريس وسيفر) فإن لب الأرض مصمم تماماً كي يحفظ سلامه الأرض .

وبكلمه أخرى، فإن يوجد هدف خاص كما نص القرآن :

(وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتنا معروضون) الأبنياء .

التلاؤم الجوي :

كما رأينا فإن المميزات والتضاريس والمظاهر الفيزيائية للأرض مثل الكتلة والتركيب ودرجة الحرارة . . الخ هي مضبوطة بالتحديد لحفظ الحياة، ومثل تلك المظاهر وحدها غير كافية لتسمح بوجود الحياة وبقائها كيفياً على الأرض، ويوجد عامل حيوي آخر هو مكونات الغلاف الجوي الأرضي .

يتكون الجو الأرضي من 77٪ نتروجين (آزوت) و 21٪ غاز الكربون، لنبدأ بأكثر غاز أهمية وهو غاز الأوكسجين فالأكسجين هو غاز هام حيوياً للحياة لأنه يدخل في معظم التفاعلات الكيميائية التي تتحرر منها الطاقة والتي تتطلبها أشكال الحياة المعقدة .

تتفاعل المركبات الكربونية مع الأوكسجين ونتيجة لتلك التفاعلات ينتج الماء وغاز الكربون والطاقة، وتتولد من تلك التفاعلات رزم صغيرة من الطاقة تدعى (ATP) وهي (أدينوسين ثلاثي الفوسفات) وتستخدم في الخلايا الحية، وهذا هو السبب الذي يجعلنا نحتاج إلى الأوكسجين باستمرار للحياة وأن نتنفس لتلبية تلك الحاجة .

الشيء العجيب هنا هو أن النسبة المئوية للأوكسجين في الهواء الذي نتنفسه معينة بدقة عالية جداً، وقد كتب (ميشيل دينتون) حول هذا الموضوع . فقال :

هل يمكن للجو أن يحتوي أوكسجيناً أكثر ويبقى داعماً للحياة ؟

(255/736)

الجواب لا : فالأوكسجين هو عنصر فعال جداً حتى النسبة المئوية الدائمة له في الجو وهي 21٪ قريبة إلى الحد الأعلى للأمان من أجل الحياة عند درجات الحرارة المكتنفة فيه .

واحتمال احتراق الغابات واشتعال النار فيها يزداد بمعدل 70٪ لك لزيادة مقدارها

واحد بالمئة فقط في النسبة المئوية في أوكسجين الجو [4] وهذا يتفق مع ما ذكره الكيميائي الحيوي الإنكليزي (جيمس لوفلك) ، الذي قال :

في حال أصبحت نسبة الأوكسجين أكثر من 25% فإن بعضاً من أراضينا الزراعية قد يشهد حرائق عنيفة هائجة والتي قد تدمر الغابات الاستوائية، وبطريقة مماثلة سهول التندرا الجرداء في المنطقة لأن نسبة الأوكسجين في جوها مرتفعة بشكل طبيعي) .

إذن " إن مستوى الأوكسجين الحالي هي عند نقطة يتوازن عندها الخطر والنفع بلطافة " [5]

إبقاء تلك النسبة من الأوكسجين في الجو عند تلك القيمة الصحيحة بالضبط هو نتيجة النظام الرائع القائم بين الحيوانات التي تستهلك الأوكسجين بانتظام وتنتج غاز الكربون الذي لا يصلح لتنفس الحيوانات التي تعمل بطريقة معاكسة تماماً فهي تأخذ غاز الكربون لأنها تحتاجه لتنفسها وحياتها ، ومن ثم تطلق غاز الأوكسجين بدلاً منها ، وبفضل ذلك النظام تستمر الحياة، وهكذا تطلق النباتات ملايين الأطنان من الأوكسجين في الجو كل يوم .

بدون وجود تعاون وتوازن بين هاتين المجموعتين المختلفتين من الأشياء الحية، فإن كوكبنا سيكون كوكباً لا حياة فيه، ومثال على ذلك إذا كانت الأشياء الحية تأخذ فقط غاز الكربون وتطلق غاز الأوكسجين عندئذ يدعم جو الأرض الاحتراق بسهولة أكثر بكثير مما يفعله عادة، وحتى أن شرارة صغيرة تستطيع أن تسبب حرائق ضخمة .

وبطريقة مماثلة إذا أخذت تلك الأشياء الحية الأوكسجين فقط وأطلقت غاز الكربون فالحياة ستنعدم أخيراً عندما يستهلك كل الأوكسجين .

في الحقيقة إن الجو هو في حالة توازن والتي يتوازن فيها الخطر والمنفعة بشكل مثالي لتنفسنا .

(256/736)

الجو والتنفس :

نحن نتنفس في كل لحظة من حياتنا ونستنشق باستمرار الهواء ثم نطلقه . ونحن نفعلها كثيراً بحيث يمكن الاعتقاد بأنها عادة نظامية لدينا ، وفي الحقيقة، إن التنفس هو عملية معقدة جداً .

إن كمال تصميم أنظمة أجسامنا لا يضطرنا لأن نفكر في التنفس . وجسمنا يقدر كم يحتاج لأوكسجين وينظم لاستلام الكمية الصحيحة منه سواء أكان يمشي أم يركض أم يقرأ كتاباً أم كان نائماً ، والداعي للتنفس هو أهميته البالغة لنا بسبب أن ملايين التفاعلات والتي يجب أن تحدث بانتظام في أجسامنا لتبقينا أحياء تتطلب الأوكسجين .

إن قدرتك على أن تقرأ هذا الكتاب يعود فضله لملايين الخلايا في قرنية عينك والتي تغذي دوماً بطاقة مشتقة من الأوكسجين وبطريقة مماثلة فكل النسج في أجسامنا وخلايانا تأخذ طاقتها من حرق المركبات الكربونية في الأوكسجين، وناتج هذا الاحتراق هو غاز الكربون الذي يجب أن يتخلص منه الجسم، فإذا كان مستوى الأوكسجين في قطرات الدم الجاري في عروقك منخفضاً فالنتيجة هي ضعف، وفي حال غياب الأوكسجين لفترة تزيد عن بضع دقائق فالنتيجة هي الموت .

وهذا هو السبب في تنفسنا ، فعندما نستنشق فالأوكسجين سوف يغمر بطوفانه جوف 300 مليون حجيرة صغيرة دقيقة في رئتينا ، وتتصل تلك الحجيرات بعروق شعرية هي التي تمتص الأوكسجين في طرفة عين (في لمحة) وتحولها أولاً إلى القلب وبعدها لك عضو آخر في أجسامنا ، وتستخدم خلايا جسمنا هذا الأوكسجين وتطلق غاز الكربون داخل الدم، والذي يحولها ثانية إلى الرئتين حيث تزفر ، وتأخذ كل هذه العملية فترة لا تزيد عن نصف ثانية . وخلالها يدخل الأوكسجين النظيف ويخرج غاز الكربون الملوث .

ربما تتساءل لماذا يوجد مقدار 300 مليون من تلك الحجيرات الصغيرة في الرئتين، والسبب هو لتكبير سطح المنطقة التي تتعرض للهواء، وهي مطوية بدقة وبتأن لتحتل أصغر فضاء ممكن بحيث إذا نشرت فالنتيجة ستكون كافية لتغطية ملعب تنس . توجد نقطة أخرى هنا يجب أن نتذكرها باستمرار، وهي أن حجيرات الرئتين والشعيرات الدموية التي تتصل بالرئتين مصممة من الصغر والكمال لكي تزيد من المعدل الذي يجري فيه تبادل الأوكسجين وغاز الكربون، لكن ذلك التصميم الكامل يعتمد على عوامل أخرى مثل الكثافة واللزوجة وضغط الهواء فيجب أن تكون كلها صحيحة لكي يتحرك الهواء بشكل ملائم وهو يدخل ويخرج من رئتينا .

عند سطح البحر يكون ضغط الهواء هو 760 ميلمتراً زئبقياً وكثافته ولزوجته وضغطه . . الخ . .

ويجب أن تكون مقاديرها مشابهة تماماً لما هي عليه في الواقع وهذا ضروري جداً خاصة للعضويات هوائية التنفس . [6]

عندما تتنفس فإن رئتينا تستخدم طاقة لتتغلب على القوة التي تدعى مقاومة منفذ الهواء وتلك القوة هي نتيجة مقاومة الهواء للحركة بسبب الخواص الفيزيائية للجو، على كل حال هذه المقاومة ضعيفة بشكل كاف بحيث أن رئتينا تستطيع أن تأخذ الهواء إلى الداخل وتطرحه إلى الخارج مع أقل ضياع ممكن للطاقة، فإذا كانت مقاومة الهواء أعلى فإن رئتينا

سوف تجبر على العمل بمشقة لتمكننا من التنفس، وهذا يمكن تفسيره بمثال :

من السهل أن نسحب الماء داخل إبرة حقن لكن سحب العسل بواسطة تلك الإبرة أكثر صعوبة، والسبب في ذلك هو أن العسل أكثف من الماء ويتحرك أيضاً بلزوجة أكبر .

(258/736)

إذا كانت الكثافة واللزوجة والضغط في الهواء أعلى فإن التنفس سيكون صعباً كما في عملية سحب العسل لداخل إبرة الحقن، وربما يقول شخص لكن ذلك سهل وذلك بإجراء إصلاح (أو تقويم) ! كأن نجعل فتحة الإبرة أوسع لزيادة معدل السريان، لكن إذا نحن فعلنا ذلك في حالة الأنابيب الشعرية في الرئتين، فالنتيجة هي تخفيض في اتساع مساحة منطقة التماس مع الهواء .

وبالنتيجة فإن أقل أوكسجين وغاز كربون سوف يتبادلان في الوقت نفسه وذلك لن يرضي حاجات الجسم التنفسية، وبكلمة أخرى القيم الإفرادية لكثافة الهواء ولزوجة والضغط كلها يجب أن تقع ضمن حدود معينة لكي تكون قابلة للتنفس وهذا ما هو حاصل فعلاً في الهواء الذي نتنفسه .

وقد علق (ميشل دنيتون) على ذلك بقوله :

" من الواضح أنه إذا كانت اللزوجة أو الكثافة أكبر بكثير من ذلك، فإن مقاومة منفذ الهواء سوف تصبح مانعة ومعوقة، وإن إعادة تصميم النظام التنفسي لا يمكن التصور أنه قادر على أن يقدم أوكسجيناً كافياً لعضويات هوائية التنفس والنشطة أيضاً .

وأنه برسم المنحني البياني لتغيرات الضغوط الجوية بدلالة كل محتوياته الممكنة من الأوكسجين فإنه يتضح أنه توجد على المنحني منطقة صغيرة فريدة واحد فقط . . تلبي كل الشروط المختلفة للحياة، وبالتأكيد تلك الفكرة هي ذات معنى كبير في أن عدداً من الشروط الأساسية يمكن أن يلبي في هذه المنطقة الصغيرة في الفضاء لكل الأجواء المختلفة [7]. .

القيم العددية للجو ليست ضرورية لتنفسنا فقط لكنها ضرورية أيضاً لكوكبنا الأزرق كي يبقى أزرق، فإذا انخفض الضغط الجوي عند سطح البحر كثيراً عن قيمة الحالية، فإن معدل تبخر الماء سيكون أعلى، وزيادة الماء في الجو سيكون له تأثير مفعول البيت الزجاجي الذي يأسر حرارة أكثر ويرفع بذلك درجة الحرارة الوسطية للكوكب، ومن ناحية أخرى إذا كان الضغط أعلى بكثير، فإن معدل تبخر الماء سيكون أقل ومحولاً أجزاء واسعة من الكوكب إلى صحارى .

تشير كل تلك التوازنات المضبوطة بدقة إلى أن جونا صمم بدقة متأنية كي تبقى الحياة قائمة على الأرض . هذه حقيقة كشفها العلم وهي تبين لنا مرة أخرى أن الكون ليس مزيجاً أو خليطاً من مادة أتت بالصدفة، وبدون شك يوجد خالق يحكم الكون ويشكل المادة كما يريد لها أن تكون، كما يحكم على كل المجرات والنجوم والكواكب والكل تحت حكمه وسلطته العليا .

تلك القدرة الأسمى كما نحيا عليه صمم خصصياً وتم تمهيده من قبل الله للناس كما ذكر في القرآن :

. . (والأرض بعد ذلك دحاها) [النازعات : 30] .

وتوجد آيات أخرى توضح أن الله هو خالق الأرض ليحيا عليها الإنسان . .

(الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين) [غافر : 64] .

. . . . (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور . .) [الملك : 15] .

التوازنات التي جعلت الحياة ممكنة

قال الله تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ) (الذريات : 20) .

الأشياء التي ذكرناها سابقاً هي بالضبط بعض التوازنات الدقيقة اللطيفة الضرورية للحياة على الأرض، وبدراسة الأرض نستطيع أن نضع قائمة للعوامل الأساسية الضرورية للحياة، ولقد وضع الفلكي الأمريكي

(هيوج روس) قائمة خاصة به تضمنت ما يلي :

1 . الجاذبية الثقافية السطحية :

إذا كانت أقوى : فالجو سيحتجز كثيراً من غاز الأمونيا والميتان

إذا كانت أضعف : جو الكوكب سوف يخسر كثيراً من الماء .

2 . البعد عن النجم الأم :

إذا كان أبعد : الكوكب سيكون بارداً جداً من أجل دورة مائية منتظمة .

إذا كان أقرب : الكوكب سيكون ساخناً جداً من أجل دورة مائية منتظمة .

3 . سمك القشرة :

إذا كانت أكثر سمكاً : كثير من الأوكسجين سوف ينتقل من الجو إلى القشرة .

إذا كانت أرق : النشاط البركاني التكتوني سيكون كبيراً جداً .

4 . فترة الدوران :

إذا كانت أطول : فوق درجات الحرارة اليومية سيكون كبيراً جداً .

إذا كانت أقصر : سرعات الرياح الجوية ستكون كبيراً جداً .

5 . التفاعل الجاذبي الثقالي مع القمر :

إذا كان أكبر : تأثيرات المد على المحيطات والجو ودور الدوران سيكون قاسياً جداً .

إذا كان أقل : تغيراً في الميل المداري سوف يسبب عدم استقرار مناخي .

6 . الحقل المغناطيسي :

إذا كان أقوى : العواصف الكهرطيسية ستكون عنيفة .

إذا كان أضعف : الحماية غير ملائمة غير ملائمة من الإشعاعات النجمية القاسية .

7 . البيدو (نسبة الضوء المنعكس إلى مجمل كمية الضوء الساقط على السطح) :

إذا كان كبيراً : ستحل عصور جليدية .

إذا كان صغيراً : ستذوب الثلوج وتغرق الأرض في الماء ، ثم تصبح جافة قاحلة .

8 . نسبة الأوكسجين إلى النتروجين في الجو :

إذا كان أكبر : توابع تطور الحياة سوف تقدم بسرعة كبيراً .

إذا كانت أصغر : توابع تطور الحياة سوف تتقدم بسرعة بطيئة .

9 . مستوى غاز الكربون وبخار الماء في الجو :

إذا كانت كبيرة : ترتفع درجة الحرارة الجو بشكل أكبر .

إذا كانت أصغر : تنخفض درجة حرارة الجو .

10 . مستوى الأوزون في الجو :

إذا كان أكبر : درجة حاررة السطح ستكون منخفضة جداً .

إذا كان أقل : درجة حرارة السطح ستكون عالية جداً ، وسيكون هناك كثير من الإشعاع فوق البنفسجي عند السطح .

11 . النشاط الزلزالي :

إذا كان أكبر : سيتحطم كثير من أشكال الحياة .

إذا كان أقل : المادة الغذائية على قيعان المحيطان (الآتية من مقذوفات الأنهار) .

لن تخضع للدورة المتكررة لارتفاع القارات التكتوني . 64

هذه بالضبط بعض من صور التصميم الدقيق لتوازنات بيئية والتي صنعت لكي تبقي الحياة قائمة، ولكن حتى هذه الصور ليست كافية لإظهار أن الأرض لم تأت للوجود نتيجة مصادفة أو أنها تشكلت نتيجة سلسلة حوادث سعيدة .

هذه التفاصيل وغيرمما لا يحصى يؤكد حقيقة واضحة بسيطة وهي أن الله والله وحدة هو الذي خلق هذا الكون والنجوم والكوكب والجبال والبحار كاملة، وأنه هو الذي أعطى الحياة للمخلوقات البشرية والأشياء الحية الأخرى .

وسخر ما خلقه لسيطرة الإنسان، الله والله وحده هو منبع الرحمة والقدرة، وقدرته كافيه لأن يخلق أشياء من العدم . هذا الخلق الكامل من قبله سبحانه وتعالى وصف في القرآن بالآن التالية .

المصدر : نقلاً عن كتاب خلق الكون لمؤلفه الكاتب التركي هارون يحيى

[1] : F.pess,R.Siever,Earth,new York

.w.h.Freeman,1986,p.2

[2] . F.press ,r.siever,earth ,new york : w .h

freeman ,1986 ,p4

[3] : F.pess,R.Siever,Earth,new York

.w.h.Freeman,1986,p.2

[4] Michael Denton,Naturems Destiny ,p121

[5] JAMES J.LOVELOCK ,NATURE,S DESTING

,P.121

Michael Denton,Naturems Destiny ,p121[6]

Michael Denton,Naturems Destiny ,p121 [7]

.

.

.

0-الإيمان بالله والدلائل العلمية على وجود الله

الإيمان بوجود الله فطرة في النفس الإنسانية ، وهو أمر ضروري يحصل للإنسان كثمرة من ثمرات مواهبه العقلية1 .

فمن الأمور المتفق عليها أن كل شيء له علة توجده ،أو صانع يصنعه، فإذا نظر الإنسان إلى الكون واستعرض ما فيه من كائنات حصل له علم ضروري بأن هذه الكائنات لم بوجد صدفة بل لابد لها من موجد أوجدها

البرهان على وجود الله

" اعتقاد الأفراد والنوع الإنساني بأسره بالخالق اعتقاداً اضطرارياً قد نشأ قبل حدوث البراهين الدالة على وجوده ، ومهما صعد الإنسان بذاكرته في تاريخ طفولته فلا يستطيع أن

يحدد الساعة التي حدثت فيها عقيدته بالخالق، تلك العقيدة التي نشأت صامتة وصار لها أكبر الأثر في حياته .

فقد حدثت هذه العقيدة في أنفسنا ككل المدركات الرئيسية على غير علم منا .

(262/736)

ولا شك أنها كانت تحت تأثير أغاني الأمومة والدروس والبحث ، أو بالتغييرات التي تحدثها الأحوال على أرق عواطفنا . . . وكل ما يحدث في طفولة الإنسان يحدث نظيره في طفولة الأمم . . . فالتاريخ يرينا الناس حاملين عقيدة فطرية على وجود قدرة خالقة للعالم وحاكمة بين الناس بالعدل ، تكافئ على الحسنة والسيئة سواء في هذه الدنيا أو في الحياة المستقبلية "2 .

تطور الإنسان القديم في مجال الاعتقاد بالله وانتابته الشكوك في الخالق، فأرسل الله أنبياء تباعاً لإرشاد الناس إلى الطريق القويم وأيدهم بالمعجزات ، وهي الأفعال التي فاقت مقدور البشر ليستجيب الناس لهم ويصدقوهم بأنهم مرسلون من عند الله ، فيهتدوا بعد الضلال الذي لازمهم

أما العقل البشري البري اليوم فلم تعد المعجزات تؤثر فيه ذلك التأثير الكلي كما كان بالأمس

، بل أصبح العقل والإقناع هما السبيل الأول للفكر الإنساني المعاصر ، ولهذا كان على (الدين) أن يبرز أدلة جديدة على وجود الخالق .

وقد كان من المحال على الإسلام ما ادعاه الأب تيري الذي قال : " حرم النبي محمد صراحة أي استعمال للعقل في المشكلة الدينية لأن وجود الله لا يمكن البرهنة عليه والاجتهاد فيه ، وانطلاق العقل ليس من الواجبات الأساسية في القرآن "3 وهذا القول كما سيتبين لنا . فيما بعد . لا يمت إلي الحقيقة بصلة .

ومن المدهش أن الدلالة على الخالق، والآيات القرآنية التي دعت إلى الإيمان بالله ارتكزت على العقل والفطرة الإنسانية وجعلنهما سبيل المؤمنين في تدعيم إيمانهم .

وها نحن سنعرض هذه الأدلة ونترك للقارئ أن يحكم بنفسه على مدى قوتها ، وكيف راعى الإسلام تطور العقل البشري الذي توصل إلى الكشف عن كثير من أسرار هذا الكون الذي يشهد بأن هناك خالقاً حكيماً أبدع كل شيء على الصورة وهذه السنن البالغة نهاية الدقة والنظام .

هذا الكون آية على وجود الله

من أعظم الدلائل على وجود الله : خلق الكون، فالأرض التي نعيش عليها والمجموعة الهائلة من النجوم التي تتراءى لنا تبهر النظر عند التأمل فيها ، فتقف النفس أمامها حائرة تسودها الرهبة ويسيطر عليها الإعجاب ، فتزداد إيمانا بعظمة الخالق .

و القرآن الكريم كثرت فيه الآيات التي تدعوا الإنسان بأن يوجه نظره إلى خلق هذا الكون. من سمائه وأرضه. وتدعوه إلى التفكر في أسراره ليدعم إيمانه ويطرد الشك من نفسه قال الله : (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) (يونس : 101)

فالقرآن يصرح بأن الإلحاد إذا استمر بعد النظر في هذا الكون وما فيه من حكم وأسرار تدل على التصميم وعلى وجود خالق له ، فليست هناك أدلة أقوى من هذه ،كما أنه لن يؤثر في الملحدين أي دليل آخر .

فالمؤمنون هم الذين يستدلون بخلق هذا الكون على وجود الله ، جاء في القرآن (خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ) (العنكبوت : 44)

وجاء أيضاً (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ) (الجاثية : 3)

ولكن ما هذا الكون ؟ . .

يقول علماء الفلك : إن الأرض ليست إلا فرداً من أفراد الأسرة الشمسية ، والأسرة

الشمسية ليست إلا فردا من أفراد المجموعة المجرية ، والمجموعة المجرية ليست إلا فرداً من مجموعة المدن النجومية التي في الفضاء ، ثم إن هناك أيضاً نيازك وشهباً وأقماراً ومذنبات ثم ما هو عدد النجوم في مجرتنا وهي ما يطلق عليه " درب التبانة " وهي التي تنتسب شمسنا وكواكبنا إليها ؟

فإذا نظرنا إلها بالعين المجردة فإن العدد الكلي لهذه النجوم التي تظهر في نصف الكرة الشمالي أو ما يظهر في النصف الجنوبي - لا يزيد على ستة آلاف .

(264/736)

ولكن إذا نظرنا إلها خلال المناظير فان الموقف يتغير تغيراً تاماً ، فالعالم الفلكي كابتن يقدر عددها بـ : 40000 مليون نجم 4 وترتقي في تقدير شابيل 5 إلى 100000 مليون نجم ، وقدر عدد المجرات بما يزيد على 100 مليون مجرة تحتوي على ملايين النجوم المشتعلة .

و ما هي أحجام هذه النجوم بالنسبة للشمس ؟

فالشمس نجم كسائر ما نرى في السماء من نجوم وهي إن تراءت لنا نجماً متوسطاً ، فأصغر النجوم التي اكتشفت للآن نجم (فان مانن) إن زاد قدره عن الأرض فلا يزيد إلا قليلاً ، فمليون من مثل هذا النجم يمكن إن يزج فيه في الشمس ويبقى محل لغيره ، وهناك نجم

منكب الجوزاء هو من العظم بحيث يمكن أن يزج فيها بملايين كثيرة من الشمس في الحجم وزيادة .

ثم ما هي أبعاد هذه النجوم عنا ؟

إن المجموعة الشمسية التي تنتسب لها الأرض تكاد تكون منعزلة انعزالاً تاماً في الفضاء بالنسبة لما تبعد عنها النجوم الأخرى ، وإليك البيان : الشمس تبعد عنا أقل من 93مليون ميل أي أبعد 400 مرة تقريباً من القمر ، أما إذا احتجنا أن نقيس أبعاد النجوم الأخرى فلا يكفي الألف مليون بل لا بد من مليون المليون ، ولهذا اتخذ علماء الفلك من سرعة الضوء وحدة للقياس وقدّرها العلماء 186000 ميلاً في الثانية .

فأبعد الكواكب السيارة وهو (بلوتوا) الذي ينتسب للمجموعة الشمسية يستغرق الضوء المنبعث منه إلينا ما بين أربع ساعات وخمس مع أن الضوء الآتي من أقرب النجوم يستغرق ما بين أربع سنوات وخمس ، وأقصى ما توصلت المراصد إليه وآلات التصوير الحساسة رؤية مجموعات من النجوم تبعد عنا بمدى ألفي مليون سنة ضوئية .

ومما يلفت النظر أنه قد تبين أن مجموعتنا النجمية تدور ببطء حول محورها المركزي ، ولقد وجد أيضاً إن المجامع النجمية الأخرى في حالة دوران مشابهة6 .

إن هذه البلايين من النجوم الموزعة توزيعاً منتظماً في هذا الكون وتحركاتها وفق قانون معلوم بحيث لا يصطدم ببعضها لبرهان على وجود الله لا يقف أمامه برهان ، وهذا ما استدل به القرآن :

فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم الواقعة : 75 .

وإن في قوله تعالى (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) (الواقعة : 76) لشاهد على أن القرآن وحي إلهي ، فهذا التعبير لم يدرك إلا علماء الفلك حديثاً وذلك بعد اختراع المناظير الضخمة التي أرتهم من عجائب الكون ما كان خافياً .

يقول انشتاين : " إن ديني يشتمل على الإعجاب المتواضع بتلك الروح العليا غير المحددة والتي تكشف في سرها عن بعض التفصيلات القلية التي تستطيع عقولنا المتواضعة إدراكها وهذا الإيمان القلبي العميق والاعتقاد بوجود قوة حكيمة عليا نستطيع إدراك خلال ذلك الكون الغامض يلهمني فكرتي عن الإله "9 .

ويقول الدكتور ماريت ستانلي كونجدن10 : أن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه ويدل على قدرته، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها حتى باستحداثها الطريقة الاستدلالية فاننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته 11 .

ألا يحق لنا أمام هذا الكون وما تكشف لنا حقائقه أن نؤمن إيماناً عن عقل واقتناع لخالقه، ونردد ما جاء في القرآن في تقرير هذه الحقيقة : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة : 164) .

)

(266/736)

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران : 191) .

الليل والنهار آيات على وجود الله

جاء في القرآن الكريم : (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (فصلت : 37) .

فاختلاف الليل والنهار هو من تأثير دوران الأرض حول نفسها ، وهذا الدوران من الآيات الباهرة التي تدل على وجود الله ، ذلك لما يتراءى للناظر من الدقة في دوراتها بحيث لا

تخطئ ثانية من الثواني . إن ساعة من معدن بزن جرامات معدودة تدور فتخطئ في اليوم بضع ثوان ومع ذلك نقول عنها ما أضبطها ، فما أمر ساعة وهي هذه الكرة الأرضية جرمها ملايين ملايين الملايين من الأطنان تدور فلا تخطئ في اليوم ثوان ولا أعشار ثوان ولكن بضعة أجزاء من ألف من الثانية وتخطئها لأسباب معلومة محسوبة فما هي بأخطاء .

ودوران لأرض له تأثير عظيم على الحياة على سطح هذه الأرض ، فلولا هذا الدوران المنتظم لفرغت البحار والمحيطات من مائها ، ولو دارت الأرض أتسرع مما تدور لتأثرت المنازل وتفكك ما على الأرض ، ولو دارت الأرض أبطأ مما لهلك من عليها من حر ومن برد12 .

و القرآن الكريم أشار إلى دوران الأرض بهذه الآية الكريمة ونبه الأنظار إلى دقة دورانها و(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) (النمل : 88) .

صوّر الله في هذه الآية حركة الأرض وبدورانها بمرور الجبال التي هي أبرز ما على الأرض وهذا يستتبع دوران الكرة الأرضية لأن الجبال ملتصقة فيها .

والشمس هي الآية الكبرى على وجود الله والتي سخرها الله لحياة جميع الكائنات الأرضية ، فمن أين تأتي بوقودها ؟

إن كانت تنفق من مخزن في باطنها إذن لانخفضت درجة حرارة الشمس عاماً بعد عام ، ومعنى هذا أن عمر الشمس لن يمتد كثيراً ، ولكن إذا نظرنا إلى الماضي البعيد رأينا الشمس أعطت الأرض من الحرارة بمقدار لا يزيد ولا ينقص في الحدود التي يعيش فيها النبات والحيوان والإنسان .

لابد إذن من شيء يعطي للشمس من الحرارة ما تفقد منها ويستمر في إمدادها بمقدار معين فيحرق ولا ينقص فيجمد . والقمر الذي سخره الله لنا لحساب الزمن وجعله منيراً في الليل وما يستتبع هذا من فائدة للكائنات الحية ، ألا يدل على وجود إرادة إلهية خالقة وجود التصميم في الطبيعة

هذه السماء تحميه من بلايين النجوم المشتعلة والكواكب السيارة التي يحفظها قانون الجاذبية من إن تتصادم أو يرتطم بعضها بكوكب السيارة التي يحفظها قانون الجاذبية من إن تتصادم أو يرتطم بعضها بكوكبنا الأرضي الذي نعيش عليه فتنسفه ، هذه الكرة الأرضية التي نعيش عليها وما فيها من نبات وحيوان سهول وجبال وبحار كل ذلك يسير منفعة الإنسان إن ذلك من البراهين القوية على وجود قدرة إلهية حكيمة وعلى بطلان مزاعم الماديين بأن الكون وجد اتفاقاً وصدفة .

يقول العلامة أ . كريسي موريسون " إن استعراض عجائب الطبيعة ليدل دلالة قاطعة على أن هناك تصميماً وقصداً في كل شيء ، وثمة برنامجاً ينفذ بحذافيره طبقاً لمشيئة الخالة جل وعز "13 ويقول : إن حجم الكرة الأرضية ، وبعدها عن الأرض ، وبعدها عن الشمس ، ودرجة حرارة الشمس أشعتها الباعثة للحياة ، وسمك قشرة الأرض وكمية الماء ، ومقدار ثاني أكسيد الكربون ، وحجم النتروجين ، وظهور الإنسان وبقاء الحياة كل أولاء تدل على خروج النظام من الفوضى وعلى التصميم والقصد 14إت هذا التصميم والقصد هو الذي لفت القرآن إليه الأنظار في آيات كثيرة نذكر منها قوله تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة : 164) .

فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها فيكون في ذلك تابع الليل والنهار وبالتالي فإن دوران الأرض له تأثير على تحركات الرياح ، والرياح تنقل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات حيث يمكن أن يتكاثف ويتحول إلى مطر ، والمطر مصدر

الماء العذب ولولاه لأصبحت الأرض جرداء خالية من كل أثر للحياة .

هذا مع العلم ما وضعه الله من العناصر التي يمتصها النبات ويتمثلها ويحولها إلى أنواع مختلفة من الغذاء يفتقر إليها الحيوان .

(269/736)

هذه حقائق علمية عن سر الحياة على هذه لأرض فصلته الآية القرآنية وبينت وجوده التصميم في الطبيعة والعلاقة المنتظمة بين عناصرها كافة وهي دلائل واضحة على وجوده سبحانه وتعالى عن طريق العقل كما هو مطلوب في آخر الآية : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة : 164) .

وجاء في القرآن وصف قدرته سبحانه وتعالى : (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الرعد : 3)

فالرواسي في هذه الآية هي الجبال التي يحسبها الجاهل فضلة في الأرض لا حاجة إليها

ولكنها ذات فائدة عظيمة إذ ينزل عليها الثلج فيبقي في ثناياها حافظاً لشرت الناس يذوب بالتدريج فتسيل منه الأنهار ، ومن الماء تخرج أصناف متنوعة من الثمرات تتوقف حياتها على اختلاف الليل والنهار بهذا الطول المعروف الآن ، فلو كان نهارنا أطول مما هما الآن عشر مرات لأحرقت شمس الصيف نباتاتنا نهاراً ، ولتجمد ليلاً كل نبت في الأرض .

هذه هي الحقائق التي ذكرتها الآية القرآنية والتي تبين وجود التصميم في الطبيعة ووجود إرادة حكيمة وهي إرادة حكيمة وهي إرادة الله سبحانه وتعالى .

(270/736)

و من الدلائل على وجود الله في القرآن : ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون الروم : 24 . ما هي العلاقة التي تربط بين البرق ونزول المطر إلى الأرض وأحيائها ؟

و هل حياة الأرض ترتكز على الماء فقط ؟ لا . . فهناك عنصر أساسي لنمو النباتات وهو غاز النتروجين الذي بدونه في شكل ما لا يمكن أن ينمو أي نبات من النباتات الغذائية .

و هناك وسيلتان يدخل بهما النتروجين في التربة الزراعية : أحدهما عن طريق عواصف الرعد ، فكلما أومض البرق وحّد قدر قليل من الأوكسجين والنتروجين فيسقطهما المطر

إلى الأرض كنتروجين مركب 15 ، وحين يتحلل النبات يبقى بعض هذا النتروجين المركب في الأرض .

فذكر البرق في القرآن السابقة والتعقيب على ذكره بنزول المطر وأحياء الأرض هي حقائق علمّية أشار إليها القرآن قبل أربعة عشر قرناً ، وهي آية كبرى على وجود التصميم في الطبيعة الذي هو من صنع الله تعالى .

الخلايا الحية آية على وجود الله

جاء في القرآن : (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) (الأنعام : 95)

وجاء أيضاً : (إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (التوبة : 116)

إذا كان لكل مادة وحدة أساسية هي وحدة تركيبها ، فالكائنات الحية ـ من ابسط أنواعها إلى اعقد مخلوقاتها ـ تتكون من وحدات أساسية هي الخلايا .

فالخلايا هي الوحدة المتناهية في الصغر التي تحتوي على مادة الحياة ،وبها القدرة على توزيع هذه الحياة على كل كائن حي كبيراً كان أو صغيراً .

و تؤدي كل خلية وظائفها الحيوية العديدة بدرجة من الدقة يتضاءل بجانبها أقصى ما وصل إليه الإنسان من مهارة في صناعة الساعات الدقيقة ،وهي التي يطلق عليها اسم (البرتوابلازم) .

يقول الدكتور وليم سيفرتيز في تعريفها : (إن المادة الحية المعروفة اسم (البرتوابلازم) هي خليط معقد جداً من الماء والأملاح والسكريات والدهون والبروتينات . وفي هذه المادة الحية غير المتجانسة تحدث تلك العمليات التي تؤلف في مجموعها الحياة .)

و تتألف كل النباتات والحيوانات من البروتولازم . وبروتوبلازم النباتات والحيوانات واحدة تقريباً و لكنه ليس نفس الشيء تماماً . وهذه الفروق أساسية وحيوية ، وإلا لما نمت بيضة الضفدعة فصارت ضفدعة ، ولما نمت بذرة البلوط فاستحالت شجرة بلوط .

وهذه الفروق كلية ولكنها مخيفة عنا عمن ابرز الحقائق في علم الحياة إن كل أنواع (البروتوبلازم) مهما كان مصدرها خافية تبدو متشابهة إلى حد كبير وتشبه بياض البيضة وفيه نقط دقيقة منتشرة17 .

و يقول رسل شارلز ارتست18 : إنني اعتقد إن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقيد درجة يصعب علينا فهمها ، وإن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرة الله شهادة تقوم على الفكر والمنطق ولذلك فإنني أومن بوجود

الله إيماناً راسخاً .

خلق النبات آية على وجود الله

من الأدلة على وجود الله ما تنبت الأرض من النبات والحبوب والفواكه ، قال تعالى : (وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن لآيات لقوم يؤمنون) الأنعام : 99 .

(272/736)

تأمل قوله تعالى في هذه الآية : فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً أي إن الله يخرج الحبّ من النبات الأخضر وهذا ما أدركه العلم من أن النبات ينتج المواد الغذائية بواسطة خلايا الورقة الخضراء ، إن أحسن معمل لدى الإنسان لا يقارن بنشاط ذلك المعمل الموجد في الورقة الخضراء فتأمل سر تعبير القرآن الدقيق .

و بين القرآن اختلاف النبات في الطعم رغم اتحاد التربة والماء : (وفي الأرض قطعٌ متجاورات وجنّات من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغير صنوان يسقى بماء واحد

ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) الرعد : 21 .

ويلفت القرآن النظر إلى اختلاف لون الأرض : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (الزمر : 21)

ويجعل القرآن من انقسام أعضاء النبات إلى تذكير وتأنيث من الآيات الدالة على وجود الله ، فبعض النباتات تلقح نفسها بنفسها ،ويعضها يأتيها اللقاح بواسطة الهواء والحشرات من نبتة أخرى ، ولهذا يقول تعالى : (أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوجٍ كريم إنّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) الشعراء : 7،8 .

يتساءل الدكتور لسترجون زمران 19 عن كيفية نمو النبات فيقول : "لا يكفي أن يكون هنالك ضوء ومواد كيماوية وماء وهواء لكي ينموا النبات ، إن هنالك قوة داخل البذرة تنبثق في الظروف المناسبة فتؤدي إلى قيام كثير من التفاعلات المتشابهة المعقدة والتي تعمل معاً في توافق عجيب . والبذرة التي بدأت من اتحاد خليتين مجهريتين تتألف كل منهما من عدد كبير من العناصر والعمليات ، تكوّن تكون فرداً جديداً يشق طريقه في الحياة ويكون

مشابهاً للنبات الذي أنتجه بحيث لا تنتج حبة القمح إلا قمحاً ولا بذرة البلوط إلا شجرة البلوط . ورغم ما بين أنواع النبات من تشابه تجد لكل صفاته وخواصه المميزة " .

وبينما تختلف النباتات الراقية اختلافات فردية بعضها عن بعض ، نجد لها بعض الصفات العامة التي تشترك فيها جميعاً ، فكلها مثلاً تقوم بعملية التمثيل الضوئي الذي ينتج فيه النبات المواد الغذائية من ثاني أكسيد الكربون والماء في وجود الضوء ،وهنالك التشابه في تركيب البذرة والسيقان والأوراق والأزهار وما يؤدي كل منها من الوظائف المتماثلة في النباتات المختلفة . و هناك الاستجابة الموحدة للمؤثرات الخارجية ، فكلها تنتحي نحو الضوء تموت عندما تحرم من الضوء أو الأوكسجين ، إلى غير ذلك من الصفات العديدة التي تشترك فيها جميع النباتات .

فمن الذي قدّر وأوجد تلك القوانين العديدة التي تتحكم في وراثة الصفات وفي النبات ؟

وسوف يقودنا هذا السؤال إلى سؤال آخر أشد تعقيداً وأكبر عمقاً ، وهو : منأين جاء النبات الأولى ؟ أو بعبارة أخرى كيف خلق النبات الأولي ؟

و نحن لا نستطيع أن نصل بعقلنا الطبيعي ومنطقنا السليم إلى أن هذه الأشياء قد أنشأت نفسها أو نشأت هكذا بمحض المصادفة ، ولابد لنا من البحث عن خالق مبدع ، ويعتبر التسليم بوجود الخالق أمراً بديهياً تفرضه عقولنا علينا 20 .

وحدات الوراثة آية على وجود الله

(274/736)

من المعلوم انه لكي تتكون حياة جديدة لإنسان ما ، لابد من اندماج خليتين متميزتين : أحدهما من الذكر والأخرى من الأنثى ، وهذه الناحية وجّه الله الأنظار إليها بقوله : قتل الإنسان ما أكفره . من أي شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدره . عبس : 17 ،19 .

يقول العلامة أ . كرسي مورسون عن وحدات الوراثة الموجودة في نوات خلية كل ذكر وأنثى مستدلاً بذلك على وجود الله : وتبلغ الجنات وحدات الوراثة من الدقة أنها ـ وهي المسئولة عن المخلوقات البشرية جميعاً التي على سطح الأرض من حيث خصائصها الفردية وأحوالها النفسية وألوانها وأجناسها ـ لو جمعت كلها ووضعت في مكان واحد ، لكان حجمها أقل من حجم الكشتبان والكشتبان الذي يسع الصفات الفردية لبليونين من البشر هو بلا ريب مكان صغير الحجم ومع ذلك فان هذه الحقيقة التي لا جدل فيها . . فهي التي تحبس كل الصفات المتوارثة العادية لجمع من الأسلاف وتحتفظ بنفسية كل فرد منهم في تلك المساحة الضئيلة21 . .

وإن مسألة توارث الصفات اللونية والجنسية لهي من الأمور التي استدل بها القرآن على وجود الله. قال تعالى : ومن آياته خلف السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآياتٍ للعالمين الروم : 22 .

خلق الإنسان آية على وجود الله

ومن الدلائل على وجود الإنسان . قال الله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ) (الروم : 20) . وقال أيضاً : (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ) (المؤمنون : 78)

ما الدلائل على وجود الله في الأنفس فهي أكثر من أن تحصى ، وكلما اتسع نطاق العلم تضافرت الأدلة على أن لهذا الإنسان البديع الصنع إلهاً حكيماً .

أي ناحية من نواحي الإنسان ليست مثار دهشة وعجب ؟

أليس أطواره في الرحم آية من آيات الله ؟

أليس نظام طعامه وشرابه وتحليل الطعام إلى عناصر مختلفة بموازين يذهب كل عنصر الى حيث يؤدي وظيفته عدا العنصر الذي لا يفيد فيطرد إلى الخارج ،أليس هذا كله آية من آياته ؟

أليس نظام توزيع الدم من مكانه الرئيسي وهو القلب إلى جميع أنحاء الجسم بواسطة الشرايين التي لا يحصي عددها إلا الله ، ثم عودته إلى القلب بواسطة الأوردة ،و مرور الهواء الجديد الذي جلبه التنفس ليصلح الدم بعد الفساد فيفيد منه الجسم ، أليس ذلك آية من آياته ؟

دع سمع الإنسان وبصره ونطقه وإحساسه ، بل دع ما يعرض له من تذكر ونسيان وحزن وسرور وعلم وجهل ومحبة وبغض فإنها آيات كبرى على وجود الله الخالق .

خلق الذكر بجانب الأنثى آية على وجود الله

و من الدلائل على وجود الله خلق الأنثى بجانب الذكر ، قال تعالى : (مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الروم : 21)

فوجود الأنثى بجانب الذكر لأجل النسل ، ودوام بقاء الحياة للنوع الإنساني من البراهين القوية على وجود الله وعلى وجود القصد في هذا الكون ، وهذا يدحض الزعم القائل بقيام الكون على المادة دون سواها .

و قد كتب الأستاذ مونيه بحثاً في مجلة الوسموس الفرنسية أثبت فيه وجود الخالق فقال إذا افترضنا بطريقة تعلوا عن متناول العقل إن الكون خلق اتفاقاً بلا فاعل مريد مختار، وإن الاتفاقات المتكررة توصلت إلى تكوين رجل، فهل يعقل أن الاتفاقات والمصادفات تكوّن كائناً آخر مماثل اله تماماً في الشكل الظاهري ومباينا له في التركيب الداخلي وهو المرأة بقصد عمارة الأرض بالناس وإدامة النسل فيها ؟ ألا يدل هذا على أن في الوجود خالقاً مريداً مختاراً أبدع الكائنات، وغرز في كل نوع غرائز، ومعه بمواهب يقوم بها أمره ويرقى عليها نوعه 22؟ .

(276/736)

توالد الإنسان والحيوان آية على وجود الله

و من الدلائل على وجود الله التوالد المستمر في الإنسان والحيوان ،جاء في القرآن : (اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) (النحل : 72)

ويلفت القرآن النظر إلى توالد الإبل : أفلا ينظر إلى الإبل كيف خلقت الغاشية : 17 .

يقول العلامة أ . موريسون : إن الحياة ترغم على التناسل ، لكي يبقى النوع ،وهو دافع من

القوة إن كل مخلوق يبذل أقصى تضحية في سبيل هذا الغرض . . . وهذه القوة الإلزامية لا توجد حيث لا توجد الحياة . فمن أين ينشأ هذه الدوافع القاهرة ؟ ولماذا ، بعد أن نشأت ، تستمر ملايين السنين ؟ انه قانون الطبيعة الحية . . . . الذي يأتي من إرادة الخالق 23 .

وقد ضرب العالم بالي مثلاً من تأثره في ذلك بساعة يده ، ولفت النظر بأن مثل هذه الأداة تثبت لأداة لأكثر الناس شكاً بساعة أن هناك عملية ذهنية طبقت على الميكانيكا ، ثم قال : إننا لو فرضنا أن هذه الساعة قد منحت القدرة على إيجاد ساعات أخرى فان ذلك لا يكون معجزة توالد الإنسان والحيوان .

خلق الحيوان والزواحف والطير آية على وجود الله

ومن الدلائل على وجود الله خلق الحيوان والزواحف . قال تعالى : والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين،و منهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير النور : 45 .

و الطير من الدلائل على وجود الله . قال تعالى : (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (النحل : 79)

والدلائل على وجود الله في الحيوانات والطير لا تحصى ، ويحتاج تفصيلها إلى مجلدات ، وقد تكفل بذلك علم الحيوان . وقد قرأنا بحثاً للفيلسوف نيوتن يستدل فيه على وجود الخالق يقول فيه : كيف تكونت أجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة ؟ ولأي المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة ؟ هل يعقل أن تصنع العين المبصرة بدون علم بأصول الأبصار ونواميسه ، والأذن بدون إلمام بقوانين الصوت ؟ . .

كيف يحدث أن حركات الحيوانات تتجدد بإرادتها ؟ ومن أين جاء هذا الإلهام الفطري في نفوس الحيوانات ؟ إلى إن قال : وهذه الكائنات كلها في قيامها على الأشكال وأكملها ألا تدل على وجود إله منزه عن الجسمانية حي حكيم موجود في كل مكان يرى حقيقة كل شيء ويدركه ؟ .

الإيمان بالله فطرة في النفس الإنسانية

إن الدراسات الدينية الحديثة كشفت عن أمور كثيرة جديرة بإمعان النظر وهي : أن التدين صفة عامة لجميع البشر قديمهم وحديثهم ، فلم يعثر على أمة لا دين لها .

وقد ذهب الكثير من العلماء إلى أن فكرة الله أو الدين على العموم إنما هي فكرة فطرية وجدت في عقل الإنسان ، ولكن أوجدها فينا موجد أعلى وهو الله سبحانه .

وأبرز العلماء الذين اعتنقوا الفكرة الفطرية هو العلامة الاسكتلندي اندريه لنج ، وتتلخص آراؤه فيها يلي :

أولاً : كل إنسان يحمل في يفيه فكرة العلية وإن هذه الفكرة كافية لتكوين العقيدة : إن ثمة آلهة صانعة وخالقة للكون، وإن كل إنسان لديه فكرة عن صنع الأشياء ، انه يعتقد في وجود صانع يفعلها ولا يستطيع هو أن يفعلها .

ثانياً : إننا نجد لدى القدماء والمتوحشين الاعتقاد في أب ، في سيد ، في خالق .

ثالثاً : وجد العنصر الديني عند البدائيين في حالة من الطهر والنقاء الكاملين ، ثم تلا هذا ظهور العنصر الأسطوري .

(278/736)

غير أن نظرية لنج هذه بقيت في مجموعها غير مسلم بها حتى ظهور المنهج التاريخي في الأجناس ، وقد وافق هذا المنهج على كثير من النتائج التي انتهى إليها لنج ، وأهم الأبحاث التي تثبت فكرة لنج هي أبحاث الأستاذ ليوبرلد فون شرودر الأستاذ بجامعة فيينا عن الهند الأوربية ، وقد توصل هذا الباحث إلى وجود فكرة الإله الأسمى عند الآليين ،واعتبر أساس الدين عندهم ثلاثة أصول : عبادة الطبيعة ، وعبادة الموتى ، والاعتقاد في

إله أعلى خيّر وخالق ، ولكنه لم يبين أي هؤلاء الثلاثة أقدم في الوجود . وقد ذكر في أحد المواضيع أن الأمر يحتاج إلى مزيد بحث .

وفي ذلك الوقت نشر الدكتور كروبر أبحاثاً معددة عن هنود كليفورنيا ، أثبت فيها إن تلك القبائل هي أقدم القبائل في أمريكا الشمالية ويبدو بوضوح من دراسته انه عثر على إله خير سام . بل إنه جزم بأن هؤلاء الهنود عرفوا الخالق بواسطة موجود سام ، بيده كل القوى وتنسب إليه كل القدر .

وقد أثبت شمت ـ عالم الأجناس ـ أن أقزام أفريقيا وهم أقدم الأجناس البشرية يؤمنون بوجود إله سام ، كما توصل إلى وجود فكرة الوحدانية عند معظم القبائل الزنجية وعند كثير من القبائل الأسترالية الجنوبية الشرقية والقبائل الهندية الأميركية الشمالية . أما عند غير تلك القبائل فقد ظهر إله سام موحد ، ثم تقدمت تلك القبائل وانتقلت إلى أطوار أخرى من الثقافة فساد الفكرة الديني تعقدت وتشابك أنتج فكرة تعدد الإله الواحد . وقد أنتج أيضاً فكرة موجودات عليا بجانب هذا الموجود الواحد الأسمى 23 . . .

(279/736)

وقد أدعى رينان RENAN أن الساميين موحدون بطبعهم ، وقد أقام رينان نظريته هذه من دراسة للآلهة التي عبدها الساميون ، ومن وجود أصل كلمة ايل في لهجتهم ، فادعى إن الشعوب السامية كانت تتعبد لإله واحد هو ايل في لهجاتهم ، فادعى أن الشعوب السامية كانت تتعبد لإله واحد هو ايل الذي تحرف اسمه بين هذه اللهجات فصار يهو ويهوه والوهيم عند العبريين واللات والله واله عند العرب والأصل عند الجميع هو الإله ايل .

ويقول الدكتور بول كليرانس ايوسولد أستاذ الطبيعة الحيوية : ولا شك أن اتجاه الإنسان وتطلعه إلى البحث عن عقل أكبر من عقله وتدبير أحكم من تدبيره وأوسع لكي يستعين به على تفسير هذا الكون يعد في ذاته دليلاً على وجود قوة أكبر وتدبير أعظم ، هي قوة الله وتدبيره وقد لا يستطيع الإنسان أن يسلم بوجود الخالق تسليماً على أساس الأدلة العلمية المادية وحدها . ولكننا يصل إلى الإيمان الكامل بالله عندما نمزج بين الأدلة العلمية والأدلة الروحية ، أي عندما ندمج معلوماتنا عن هذا الكون المتسع إلى أقصى حدود الاتساع ، المعقد إلى أقصى حدود التعقيد مع إحساسنا الداخلي والاستجابة إلى نداء العاطفة والروح الذي ينبعث من أعماق نفوسنا . ولو ذهبنا نحصي الأسباب والدوافع الداخلية التي تدعو ملايين الأذكياء من البشر إلى الإيمان بالله لوجدناها متنوعة لا يحصيها حصر ولا عد ، ولكنها قوية في دلالتها على وجوده تعالى ، مؤدية إلى الإيمان به 24 .

إن من الآيات التي تبهر الألباب في الإسلام انه سبق العلم في هذه الناحية بنحو ثلاثة عشر

قرناً قرّر القرآن هذه الحقيقة بقوله : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (الروم : 30) .

(280/736)

فالقرآن يقرر بأن الدين فطرة في الإنسان فطر الله الناس عليها ، وأن أساسه الاعتقاد بخالق الكون ، وانه واحد لا شريك له ، فإذا انفرد المرء بنفسه حكم بأنه مخلوق لإله قادر حكيم وأنعم عليه . لاحظ قوله تعالى حنيفا أي موحداً لله ، ثم انظر كيف ختم الله الآية بقوله : ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وهذا القول حق ، فإنه لا يعلم إن الدين فطرة النفس إلا أفراد ممن وقفوا أنفسهم على الأبحاث العلمية في منشأة الدين وأثره في النفس .

لاجرم إن هذا الأمر معجزة علمية للقرآن وقد زاد النبي هذا المعنى تأكيداً فيما يرويه عن ربه : (كل عبادي خلقت حنفاء فاجتالتهم25 الشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بي غيري) .

و يقول النبي في هذا المعنى أيضاً (كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) أي كل مولود على ما قرره الإسلام من التوحيد الخالص الذي لا تشوبه شائبة من الإشراك وإنما البيئة والعائلة ـ وفيما الأبوان ـ هما اللتان تحولان فطرته عن الحقيقة التي اطبع

عليها نفسه .

والدعاء الذي يدعو به الإنسان خالقه ـ عند اشتداد المحن ـ يظهر بأن الدين فطرة في الإنسان .

والقرآن أعلن هذه الحقيقة في كثير من آياته مثل قوله تعالى : (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) (الروم : 33)

(وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين) لقمان : 32

فالنفس تدرك وجود الله بفطرتها وترجع إليه في الشدائد تستمد منه العون وتطلب منه النجدة .

(281/736)

مما تقدم يتبين لنا إن الدراسات الدينية الحديثة أثبتت ما قرّره القرآن من أن وجود الله فطرة في النفس الإنسانية ، وإذا نظرنا إلى الزمن الذي نزل فيه القرآن رأينا الناس في ذلك الوقت لا يعرفون شيئاً من أسرار الفطرة الدينية ، ألا يدل ذلك على أن القرآن من عند الله وعلى صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ .

العلم يدعو إلى الإيمان

يظن بعض الناس الذين لم يدركوا من العلم إلا قليلاً إن الكفر من ضروريات العلم وإن أكثر الناس علماً هم أشدهم إلحادا .

والحقيقة أن العلم لا يؤدي بصاحبه إلى الإلحاد في أي عهد من العهود ، فأن العالم المنقب عن الحقائق يجد نفسه في هذا الوجود في عالم لا حدّ له

يسود مجموعه نظام محكم لا تشوبه شائبة من الفوضى ، لا بعد تأمله أن يخرّ ساجداً للقدرة الإلهية التي أوجدت هذا الكون العظيم .

فقد نشر الدكتور دينرت الالماني بحثاً حلل فيه الآراء الفلسفية لأكابر العلماء الذين أناروا العقول في القرون الأربعة الأخيرة ، وتوخى أن يدقق في تعرف عقائدهم فتبين له من دراسة 290 منهم

28 منهم لم يصلوا إلى عقيدة ما .

242 أعلنوا على رؤوس الأشهاد الإيمان بالله .

و 20 فقط على انهم غير مبالين بالوجهة الدينية أو ملاحدة .

فإذا اعتبرنا غير المبالين كلهم من الملحدة ، وجدنا أن 92 في المائة من كبار العلماء يعتقدون بوجود الله تعالى .

فهذه النسبة الكبيرة تدل دلالة صريحة على إن التناقض بين الإيمان والعلم الذي يزعم

الماديون أنه وصف مميز للعلماء ليس له أصل ، وتشير أيضاً إلى أن الإيمان يتكاملان ولا يتنافيان .

(282/736)

فالدكتور ليون ووتي الذي أخذنا عنه هذا الإحصاء : إن العلامة الكبير باستور هو أكبر عقل ظهر في القرن الماضي كتب يقول : الإيمان لا يمنع أي ارتقاء كان ، ولو كانت علمت أكثر مما أعلم اليوم ، لكان إيماني بالله أشد وأعمق مما هو عليه الآن ثم عقب هذا بقوله : إن العلم الصحيح لا يمكن أن يكون مادياً ولكنه على خلاف ذلك يؤدي إلى زيادة العلم بالله ،لأنه يدل بواسطة تحليل الكون على مهارة وتبصرّ، وكمال عقل الحكمة التي خلقت الناموس المدبّرة للوجود ، كمالاً لا حدَّ له .أما الدكتور وتز الكيميائي وعضو أكاديمية العلوم وعميد كلية الطب الباريزية يقول : إذا أحسستُ في حِينٍ من الأحيان أن عقيدتي بالله قد تزعزعت وجهت وجهي إلى أكاديمية العلوم لتثبيتها .

و قال الفلكي الكبير فاي العضو بأكاديمية العلوم في مؤلفه أصل العلوم : من الخطأ أن يؤدي إلى الكفر ، ولا إلى المادية ،و لا يفضي إلى التشكيك .

و قال العلامة والمؤرخ الطبيعي فابر : كل عهد له أهواء جنونية . فإني اعتبر الكفر بالله من

الأهواء الجنونية وهو مرض العهد الحالي،وأيسر عندي أن ينزعوا جلدي من أن ينزعوا مني العقيدة بالله .

هذه آراء بعض أقطاب الطبيعي اخترناها من كثير مما ذكره ليون ووتي 27 .

و قد سُئل الدكتور أندروكونواي ايفي 28 من أحد رجال الأعمال هذا السؤال : سمعت إن معظم المشتغلين بالعلوم ملحدون . فهل هذا صحيح ؟ .

فأجابه قائلاً :

(283/736)

إنني لا أعتقد أن هذا القول صحيح . بل إنني ـ على نقيض ذلك ـ وجدت في قراءتي ومناقشاتي أن معظم من اشتغلوا في ميدان العلوم من العباقرة لم يكونوا ملحدين ، ولكن الناس أساءوا نقل أحاديثهم أو أساءوا فهمهم ثم استطرد قائلاً : إن الإلحاد ،أو الإلحاد المادي ، يتعارض مع الطريقة التي لا يمكن أن توجد آلة دون صانع . وهو يستخدم العقل على أساس الحقائق المعروفة ويدخل إلى معمله يحدوه الأمل ويمتلىء قلبه بالإيمان ،و معظم رجال العلوم يقومون بأعمالهم حباً في المعرفة وفي الناس وفي الله . و نقل عن الدكتور البرت ماكوت ومشتر قوله :

. . . إن اشتغالي بالعلوم قد دعم إيماني بالله حتى صار أشد قوة وامتن أساساً مما كان عليه من قبل . ليس من شك أن العلوم تزيد الإنسان تبصرا بقدرة الله وجلاله ،وكلما اكتشف الإنسان جديداً في دائرة بحثه ودراسته ازداد أيمانا بالله . وننقل عن اللورد كلفن* قوله إذا فكرت تفكيرا عميقاً فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد في وجود الله29 .

ويقول العالم المشهور أيشتين : إن الإيمان هو أقوى وأنبل نتائج البحوث العلمية 30 .

و نختم هذه الأقوال بما قاله الفيلسوف الإنجليزي فرانسس بيكون : إن قليلاً من الفلسفة يقرب الإنسان من الإلحاد . أما التعمق في الفلسفة فيرده إلى الدين .

فترى من أقوال هؤلاء العلماء أن العلوم هي سبب إيمانهم بالله تعالى .

ومما يسجّل للقرآن أنه سبق أن قرّر هذه الحقيقة منذ ثلاثة عشر قرناً ،وفقد حصر خشية اله على وجهها الأكمل في العلماء . قال الله تعالى :

(وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) (فاطر : 28)

لأن العلماء بما أُوتوا من صفات النظر العميق والتحقيق الدقيق يقفون على أسرار الإبداع الإلهي في الوجود ونواحي الإعجازية فيه مما لا يظهر لغيرهم .

كما أن القرآن اعتد بشهادة العلماء ،قال الله تعالى :

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(آل عمران : 18)

فالعلم أقام -في كتاب الكون- البرهان على وجود الله ،والقرآن سبق إلى الأدلة جاء بها العلم، فاتحد البرهان على وجود الله برهان القرآن الكريم ،و برهان كتاب الكون .

مناقشة الماديّين

الماديون لا يعتقدون أن للوجود خالقاً بل يقولون بأن كل ما في الوجود أزلي صادر عن المادة ، والنواميس الطبيعية نشأت على سبيل الصدف والاتفاق وبلغت من الكمال والارتقاء عن طريق التطورات المتعاقبة ،و قد سرت تعاليم المادة إلى بعض الناس فألحدوا فتصدى كثير من العلماء للرد على هؤلاء وبيان فساد مزاعم ، وإليك بعضاً من أقوالهم :

بطلان نظرية المصادفة

يقول الدكتور ارفنج وليم 31 : إنني اعتقد في وجود الله سبحانه لأني لا أستطيع أن أتصور أن المصادفة وحدها تستطيع أن تفسير لنا ظهور الإلكترونات والبروتونات الأولى ، أو

الذرات الأولى ، أو الأحماض الأمينية الأولى ، أو البروتوبلازم الأول ، أو البذرة الأولى، أو العقل الأول ، إنني اعتقد في وجود الله ، لأن وجود الله هو التفسير المنطقي الوحيد لكل ما يحيط بنا من ظواهر هذا الكون التي نشاهدها32 .

(285/736)

ويقول الدكتور وأين اولت33 : أما النظريات التي ترمي إلى تفسير الكون تفسيراً آلياً فإنها تعجز عن تفسير كيف بدأ الكون ، ثم ترجع ما حدث من الظواهر التالية للنشأة الأولى إلى محض المصادفة ، فالمصادفة هنا فكرة يستعاض بها عن فكرة وجود الله بقصد إكمال الصورة والبعد بها عن التشويه ولكن حتى بغض النزر عن الاعتبارات الدينية عامة ،نجد أن فكرة وجود الله أقرب إلى العقل والمنطق من فكرة الصدفة ولا شك بل إن ذلك النظام البديع الذي يسود الكون يدل دلالة حتمية على وجود إله منظم وليس على وجود مصادفة عمياء تخبط خبط عشواء34 .

ويتساءل العلامة أ . كريسي مورسون35 عن سر الحياة وهل هي من صنع المادة : إن المتفق عليه ما هو البيئة وحدها ولا المادة كانت ملائمة للحياة ولا أي اتفاق في الظروف الكيميائية والطبيعية قد تخلقه المصادفة يمكنها أن تأتي بالحياة إلي الوجود ، ويقول : فالحياة

هي المصدر الوحيد للوعي والشعور ، وهي وحدها التي ندرك صنع الله ، ويبهرنا جماله، وإن كانت أعيينا لا تزال فوقها غشاوة36 .

فنظرية المصادفة لا تقوم على دليل علمي مقبول ، ولا يقبلها أي عقل سليم ،و لهذا نرى القرآن يخاطب هؤلاء المتشككين بأسلوب إقناعي يبين فيه إن الكون لابد من مسبب وهو الله سبحانه .

(قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) (ابراهيم : 10)

أي أفي وجود الله وألوهيته وحده شك ؟ وهو خالق السموات والأرض .

(286/736)

و يلفت القرآن إلى الحكمة المتمثلة في خلق المخلوقات والتي تدل على خالق في نهاية العلم والحكمة : صنع الله الذي أتقن كل شيء ، وجاء في القرآن في وصف الله الذي أحسن كل شيء خلقه السجدة : 7 . فالمصادفة لا تخلق وجوداً فيه علم وحكمة وإتقان صنع .

للكون بداية

ويرد الدكتور ادورد لوثر كسيل 37 على الماديين الذين قالوا بأزلية الكون فيقول : فالعلوم تثبت بكلّ وضوح إن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة ،ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة . ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام ، وينصت فيها معين الطاقة .

ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيماوية ، أو ولن يكون هناك أثر للحياة نفيها في هذا الكون .

ولما كانت الحياة لا تزال العمليات الكمياوية والطبيعة تسير في طريقها ، فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً ، وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجد ، وهذا توصلت العلوم ـ دون قصد ـ إلى أن لهذا الكون بداية . وهي بذلك مبدىء ، أو من محرك أول ، أو من خالق ، وهو الإله38

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم نراه يصرّح بأن للكون بداية ، وأن ذلك من صنع الله في قوله تعالى :

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (العنكبوت : 19)

ويصرح القرآن بأن الكون صائر إلى نهاية ، وهو يوم القيامة ، وفيه تنعدم الطاقة ويخبو نور

الشمس :

(لشمس كورت وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ) (التكوير : 2)

التكوير : 1، 2 . وبعد ذلك يعيد الله الخلق بصورة أخرى .

المصدر : هذا البحث هو فصل من كتاب روح الدّين الإسلامي تأليف عفيف عبد الفتاح

طبارة ط : دار العلم للملايي

(287/736)

---

1 من مراجع هذا البحث كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) تأليف جون كلوفر مونسما ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان . وكتاب (الإنسان لا يقوم وحده) تأليف كريسي مورسون الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك ترجمة الأستاذ محمد صالح الفلكي الذي أطلق على الترجمة اسم (العلم يدعوا إلى الإيمان) .

2 نقلاً عن دائرة معارف وجدي التي نقلت هذا القول عن كتاب (التذكرة في تاريخ البرهان على وجود الخالق) تأليف بوشيت) .

3 عن محاضرات في الفلسفة الإسلامية و(الثقافة الفرنسية)

4 عن كتاب (الشمس) تأليف جورج جاموا الأستاذ بجامعة واشنطن .

5 من علماء مرصد هارفرد .

6 عن كتاب (الشمس) جورج جامو .

7 لا أقسم بمواقع النجوم : لا ، زائدة للتوكيد ، والمعنى أقسم بمواقع النجوم ، وقد أقسم الله في القرآن بكثير من مخلوقاته دلالة على أهمية الشيء المقسم به والتي تدل على وجوده سبحانه .

8 مواقع : جاء في تفسير الألوسي نقلا عن قتادة إن المواقع مقصود بها منازل ومجاري النجوم .

9 عن كتاب (العالم اينشتين) تأليف لنكولن بارنت ترجمة محمد عاطف البرقوقي ص 116 .

10 عضوا الجمعية الأمريكية الطبيعية .

11 عن كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) ص 22 .

12 عن كتاب (مع الله في السماء) للدكتور أحمد زكي .

13 نقلاً عن كتاب (الإنسان لا يقوم وحده) ص 186 من الترجمة العربية

14 نفس المصدر ص 193 .

15 يقدر أحد خبراء الصواعق الدكتور كارل ماكرون إنتاج الصواعق من النتروجين بـ 100 مليون طن في أي ما يوازي عشر أضعاف ما تنتجه معامل الأسمدة في العالم .

16 تؤفكون : تصرفون عن عبادته .

17 عن كتاب (العلم يزحف) تأليف جيمس ستوكلي ترجمة محمد الشحات .

18 أستاذ في جامعة فرنكفورت بألمانيا وعضوا الأكاديمية العلمية بانديانا نقلا عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص 79 من الترجمة العربية .

(288/736)

---

19 أستاذ الزراعة والرياضيات بكلية جوش ، وعضوا الجمعية العلمية لدراسة التربة بأمريكا .

20 من كتاب الله في عصر العلم ص 124 .

21 عن كتاب الإنسان لا يقوم وحده ص 137 الترجمة العربية .

22 نقلاً عن دائرة معارف وجدي (مادة اله) .

23 نقلاً عن كتاب الإنسان لا يقوم وحده ص 146 .

23 اقتبسنا هذه النصوص من كتاب نشأة الدين تأليف الأستاذ علي سامي النشارة ابتداء من صفحة 181 .

24 عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص 8 .

25 اجتالتهم : إدارتهم .

26 عن كتاب الإنسان يتجلى في عصر العلم ص 290 .

27 ترجم هذه النصوص الأستاذ محمد فريدة وجدي ونشرها في مجلة الأزهر مجلد 19 .

28 من العلماء البارزين ذوي الشهرة العالمية ، يشغل حالياً وظيفة أستاذ قسم الفسيولوجيا ورئس قسم العلوم بكلية الطب بجامعة شيكاغو .

* من علماء الطبيعة البارزين في العالم .

29 عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص 152 .

30 عن كتاب العالم واينشتين .

31 أستاذ العلوم الطبيعية في جامعة ميشيغان ،واختصاصي في وراثة النبات ودراسة شكلها الظاهري .

32 عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص56 .

33 عضو الجمعية الجيولوجية الأمريكية .

34 عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص 133 134 .

35 الرئيس الأسبق لأكاديمية العلوم في نيويورك .

36 عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص 96 .

37 أستاذ علم الأحياء ، ورئيس قسم بجامعة سان فرانسيسكوا .

38 عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص29 .

39 أخصائي ي الإشعاع الشمسي والبصريات الهندسية والطبيعية .

40 عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص43 .

41 عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص 31 .

.

.

.

0–التوازن الدقيق في الانفجار الكوني الكبير

قال تعالى : (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (الأنعام : 14) .

قال تعالى : (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) (الرحمن : 7) .

رافقت قوة انفجار الكون العشوائية دقة في طاقة جاذبيته الثقالية لا يمكن تخيلها ، والانفجار الكبير لم تكن واضحة . . فهي ضربة قديمة . . إلا أن مقادير انفجارها كانت مرتبة بعناية فائقة مختارة .

(باول دفز) . أستاذ الفيزياء النظرية .

يقدر العلماء أنه يوجد أكثر من ثلاثمائة بليون مجرة في كل الكون ، ولتلك المجرات عدد من الأشكال المختلفة (الحلزون ، الإهليلجية . . الخ) ، ولك واحد تحتوي من النجوم بقدر ما يحتوي الكون كله من المجرات، وأحد تلك النجوم هو الشمس ولها تسعة كواكب أساسية تدور حولها في توافق عظيم ، وكل منا يعيش على الكوكب الثالث من تلك الكواكب الثالث من تلك الكواكب المعدودة بدءاً من الشمس .

انظر حولك : هل أن ما تقع عليه عينك يتسم بالفوضى والعشوائية أم بالانتظام والدقة ؟ لكن كيف يمكن للمادة أن تكون قد شكلت مجرات منظمة إذا كانت تبعثرت عشوائياً ؟ لماذا تجمعت وتراكمت المادة عند نقاط معينة وشكلت النجوم ؟ كيف أمكن لتوازن الدقيق المرهف لمجموعتنا الشمسية أن انبثق من انفجار عنيف . تلك الأسئلة هامة جداً لأنها تقودنا إلى السؤال الحقيقي الذي هو : كيف تركب الكون بعد الانفجار الكبير ؟ .

إذا كان الانفجار الكبير في الحقيقة هو انفجار هائل وعظيم فمن المعقول أن المادة تبعثرت في كل مكان بشكل عشوائي ، لكنها حالياً ليست كذلك وبدلاً من ذلك نراها منظمة في كواكب ونجوم ومجرات وعناقيد مجرية ، ومجرات فوق عنقودية ، وعناقيد عملاقة ، وكأن ذلك يماثل انفجار قنبلة في مخزن قمح ، وأدى لسقوط كل حبات القمح على شبكة ذات أكياس مرتبة ملساء ومرزومة بشكل بالات ومحمولة على ظهور عربات نقل وجاهزة للتسليم بدلاً من تناثرها كالمطر بشكل قطرات في كل اتجاه ، ولقد عبر (فريد هويل) الذي يعتبر معارضاً شرساً لنظرية الانفجار الكبير لعدة سنوات عن دهشته الشديدة لهذا التركيب فقال :

" تقتضي نظرية الانفجار الكبير أن الكون بدأ بانفجار واحد ، وحالياً كما نشاهد فإن أي انفجار يلقي المادة ويفرقها كلياً ، بينما الانفجار الكبير أنتج بشكل غامض وسري تأثيراً معاكساً فجعل المادة تتجمع وتتراكم مع بعضها البعض في شكل مجرات " [1]

قُدر للمادة التي نتجت من الانفجار الكبير أن تكون أشكالاً منظمة مرتبة وهذا في الحقيقة شيء غريب وغير متوقع ، وحدوث مثل تلك التوافقية والانسجام بين أجزاء الكون كله يقودنا إلى حقيقة هي أن الكون كله كان نتيجة الخلق الكامل من قبل الله ، وفي هذا البحث

سوف ندرس هذا الكمال المدهش والرائع ونفصل فيه القول .

سرعة الانفجار :

الناس الذين سمعوا عن الانفجار الكبير لم يهتموا بالموضوع بتفاصيل تام ولم يفكروا في هدفه هذا الانفجار والغاية منه وما يختفي خلفه ، ذلك بأن فكرة الانفجار لا توحي لمعظم الناس بوجود أي توافق أو خطة أو تنظيم بين مكونات الانفجار لكن الأمر في هذا الانفجار الكبير مختلف لوجود عدد من المظاهر المحيرة جداً في الترتيب المعقد الذي نتج عن هذه الظاهرة

.

(291/736)

أحد تلك الأمور المحيرة والمربكة تلك التي تتعلق بالتسارع الناتج عن قوة الانفجار ، فعندما حدث الانفجار بدأت المادة تتحرك بسرعة هائلة في كل الاتجاهات ، وتوجد هنا نقطة أخرى هامة يجب أن نلفت الانتباه إليها ، وهي وجوب وجود قوة تجاذب كبيرة جداً منذ اللحظة الأولى للانفجار ، أي القوة الجاذبة كانت ن الكبر بشكل يكفي لتجمع كل الكون في نقطة واحدة .

وهكذا كان هناك قوتان مختلفتان تعملان متعاكستين ، الأولى قوة الانفجار وهي تدفع

المادة بعيداً ونحو الخارج بينما قوة التجاذب والتي تحاول أن تقاوم الأولى تجذب كل شيء إلى الخلف ، ، وهما تعملان معاً في كل أرجاء الكون وفي كل لحظة ، وقد ظهر الكون إلى الوجود بسبب عمل هاتين القوتين اللتين كانتا في حالة توازن ، لأنه إذا كانت قوة التجاذب أكبر منها للانفجار فالكون سوف ينهار داخلياً ، على نفسه ، أما إذا كانت قوة الانفجار الخارجية المعاكسة أكبر ، فالمادة سوف تتناثر في كل اتجاه بطريقة لا اتحاد إطلاقاً .

إذن كم هي عظيمة حساسية ذلك التوازن ؟

وكم هو دقيق عامل الارتخاء (تخفيف السرعة) والموجود بين هاتين القوتين ؟

أجرى عالم الفيزياء الرياضي (باول ديفز) الأستاذ في جامعة (إديليارد) في استراليا حسابات مطولة للشروط والظروف التي ربما وجدت لحظة الانفجار الكبير ، وتوصل إلى نتيجة على الأقل يمكن وصفها بأنها مذهلة ، فوفق حسابات (ديفز) إذا اختلفت معدل التمدد بأكثر من (10-18 من الثانية) (واحد من كوينتليون من الثانية) فيجب ألا يكون هناك كون .

ووصف (ديفز) استنتاجه كما يلي :

أوصلت القياسات الدقيقة معدل التمدد لقيمة حدية قريبة جداً للقيمة التي عندها سيهرب الكون من جاذبيته الخاصة ويبقى يتمدد إلى الأبد . أما لو أبطأ قليلاً وكان معدل

تمدده أقل من القيمة الحدية له فسوف ينهار الكون على نفسه ، ولو كان أكثر سرعة بقليل فإن مادة الكون ستكون قد اختفت كليلاً ومنذ زمن بعيد .

(292/736)

من المثير أن نسأل بدقة كيف هي رقة ورهافة معدل التمدد هذا ؟ وكيف أمكن ضبطه وتنظيمه ليقع على خط التقسيم الضيق الفاصل بين الحدثين الأخيرين ؟ فتقول أنه إذا أسسنا نموذجاً زمنياً للانفجار وبشكل صارم فبعد ثانية واحدة يكون معدل التمدد قد تغير عن قيمته الحدية بما يزيد عن 10 –18 وهذا كاف لأن يلقي بالتوازن الدقيق (المرهف) بعيداً ، وهنا تكتشف أن قوة الانفجار للكون تلاءمت وتوافقت بدقة لا معقولة مع قوة جاذبيته الثقالية ، والانفجار الكبير هو بالتأكيد ليس انفجاراً عبثياً إنما كان انفجاراً منظماً ومقدراً بعناية فائقة وإتقان[2] .

وقد نشرت مجلة العلم (Science) المشهورة مقالاً عن النظام المدهش الذي تكون مع بداية وجود الكون جاء فيه : إذا كانت كثافة الكون أكثر بجزء صغير جداً مما هي عليه ففي تلك الحالة ووفق نظرية (اينشتاين) في النسبية فالكون سوف لن يتمدد بسبب قوة التجاذب الهائلة للجسيمات الذرية وبدلاً من ذلك فإنه يتقلص وأخيراً ينتهي ويزول في نقطة

.

أما إذا كانت الكثافة الابتدائية أقل بجزء ضئيل صغير فالكون سوف يتمدد فجأة ، لكن في هذه الحالة لا تتجاذب الجسيمات الذرية مع بعضها وبالتالي لا تتشكل إطلاقاً أية نجوم أو مجرات ، وبالنتيجة لن يظهر الإنسان في هذا الكون أبداً ، ووفق الحسابات في الفرق بين الكثافة الحقيقية الابتدائية للكون وكثافته الحدية والتي لا يحتمل حدوثها هي أقل من واحد بالمائة من (الكوادر ليون) فهذا يشبه وضع قلم رصاص في وضعية يقف فيها على طرفه الحاد لمدة تزيد عن بليون سنة ، والأكثر من ذلك وطالما أن الكون يتمدد فإن ذلك التوازن سوف يصبح أكثر دقة [3]

(293/736)

العالم (ستيفن هاوكنغ) الذي حاول بشدة أن يحيد في تفسير الخالق للكون واعتبر أن ذلك الخلق ليس سوى سلسلة من المصادفات في كتابه "مختصر تاريخ الزمن" اعترف بالتوازن العجيب في معدل التمدد وقائل : " إذا كان معدل التمدد بعد ثانية واحدة من الانفجار الكبير أصغر بمقدار حتى جزء واحد من مائة ألف مليون بليون ، فالكون سينهار ثانية على نفسه قبل أن يصل إلى حجمه الحالي . [4]

والسؤال الآن هو : على ماذا يدل مثل هذا التوازن الدقيق المميز كما تبين لنا من قبل ؟ . .

والجواب المقنع الوحيد على هذا السؤال هو أن تلك الدقة تبرهن على وجود تصميم مدرك ، وأنه لا يمكن أن يكون ذلك مصادفة ، ورغم أن الدكتور " ديفز " مادي ومتحمس لماديته إلا أنه يعترف بهذه الحقيقة قائلاً : " من الصعب أن نقاوم تركيب الكون الحالي ، إذا يبدو أنه حساس جداً لتبديلات الأعداد ، فهي تميل لأن تكون مدروسة بحذر شديد ، وعلى ما يبدو فإن الطبيعة اختارت لثوابتها الأساسية قيماً عددية بتوافق إعجازي معها ، بحيث تبقى الدليل الأكثر قوة في جوهر التصميم الكوني [5]

القوى الأربعة :

تعتبر سرعة الانفجار الكبير واحدة من الحالات المعتبرة للتوازن الدقيق منذ اللحظة الابتدائية للخلق ، وفور وقوع الانفجار كانت القوى التي تشكل الكون الذي نعيش فيه مضبوطة عددياً بشكل صحيح تماماً ، لأنه لو وجد أي خلاف عن ذلك فلن يكون هناك كون .

ميّزت الفيزياء الحديثة وجود أربع قوى أساسية تعمل في الكون ، وكل تركيب وحركة في الكون تخضع لحكم تلك القوى وسيطرتها ، وهذه القوى تعرف على أنه قوى الجاذبية الثقالية والقوة الضعيفة والقوة النووية القوية والقوة الكهرطيسية فهما محكومتان بتراكم

الذرات ، أي بكلمة أخرى محكومتان بالمادة ، وهذه القوى الأربع كانت في حالة عمل فوري عقب الانفجار الكبير ، وهي نتجت ورافقت خلق الذرات والمادة .

(294/736)

إن الهدف من مقارنة قيم هذه القوى هو تنوير دورها ومدى فعاليتها وبيان لقيمها والاختلافات المذهلة من واحدة لأخرى ، ويعطي الجدول التالي تلك القيم بوحدات القياس العالمية :

قوة نووية قوية 15

قوة نووية ضعيفة 7.03×10^{-3}

قوة كهرطيسية 3.05×10^{-12}

قوة تجاذب ثقالية 5.90×10^{-39}

لاحظ كم أن الفروق كبيرة في قوة تلك القوى الأساسية الأربع ، وأن الفرق بين أقواها (القوى النووية القوية) وأضعفها (قوة التجاذب الثقالية) هو حوالي 52 متبوعة بـ 83 صفراً .

فلماذا هذا الفرق ؟

عالم الأحياء البيولوجية (مايكل دينتون) طرح هذا السؤال في كتابه " قدر الطبيعة " قائلاً :

" مثلاً إذا كانت قوة الجاذبية الثقالية أقوى بتريليون مرة فالكون سيكون غاية في الصغر وتاريخ حياته قصير جداً ، فمن أجل نجم متوسط كتلته أقل بتريليون مرة منها للشمس فسوف لن تمتد حياته لحوالي سنة ومن ناحية أخرى إذا كانت الجاذبية الثقالية أقل طاقة فلن تتشكل نجوم ولا مجرات إطلاقاً ، وكذلك فإن العلاقات الأخرى والقيم ليست أقل حدية من ذلك ، فإذا ضعفت القوة القوية بمقدار قليل جداً فسيكون العنصر الوحيد المستقر هو غاز الهيدروجين ولن توجد ذرات لعناصر أخرى في هذه الحالة ، وإذا كانت أقوى بقليل بعلاقتها مع الكهراطيسية عندئذ تحتوي نواة الذرة على بروتونين وسيكون ذلك مظهراً لاستقرار الكون عندئذ وأنه لن يحتوي على غاز الهيدروجين ، وإذا تطورت نجوم أو مجرات فيه فسوف تكون تماماً عن طبيعتها الحالية .

واضح أنه إذا لم يكن لتلك القوى المختلفة وثوابتها القيم التي أخذتها بالضبط فسوف لن يكون هناك نجوم ولا مستعرات ولا كواكب ولا ذرات ولا حياة "[6] .

علق (باول ديفز) على كيفية تقديم قوانين الفيزياء شروطاً مثالية لحياة الناس :

ماذا لو اختارت الطبيعة وآثرت مجموعة أعداد تختلف قليلاً عما هي عليه فعلاً ؟

. . الجواب هو : أ، العالم سيكون مكاناً مختلفاً تماماً ، ونحن سوف لن نكون هنا لنراه ، والاكتشافات الحالية المتعلقة بالكون البدائي يجبرنا على قبول أنه قد تم ضبط الحركة في الكون المتمدد بنظام ودقة مدهشة . [7]

كان العالمان (أرنوبنزياس وروبيرت ويليسون) يعملان معاً في البحث عن الاكتشاف جائزة نوبل في عام 1965 على ضوء اكتشافهما بوجود إشعاع خلفي للكون علق (بنزياس) على التصميم الجميل للكون بقوله :

" يقودنا علم الفلك إلى حادثة فريدة ووحيدة لكون خلق وانبثاق من لا شيء . . . ومصحوب بتوازن دقيق كان ضرورياً ليقد الظروف المناسبة والتي تسمح بالحياة بالضبط . . فكان هذا الكون الذي نعيش فيه والذي صمم وفق مخطط خارق كما يقول البعض " [8]

العلماء الذي اقتبسنا بعضاً من أقوالهم للتو توصلوا إلى استنتاجات هامة من مشاهداتهم ، فبالفحص والتفكير حول التوازنات الا معقولة وكذلك ترتيبها الجميل في التصميم الدقيق والصارم للكون يقود الشخص إلى الحقيقة التالية وهي :

يوجد في الكون تصميم أسمى وتناسق كامل ،و بدون تردد فالمؤلف والمنفذ لهاذ التصميم والتناسق هو الله ، هو الذي خلق كل شيء بدون أي خلل ، ولقد لفت الله انتباهنا في

إحدى آياته إلى الترتيب والتخطيط والحساب في تفصيل في خلق الكون :

قال تعالى : (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) (الفرقان : 2) .

الحسابات الرياضية في الاحتمال تدحض الصدفة :

(296/736)

يوضح كل ما قيل سابقاً التوازنات الغريبة بين القوى التي جعلت حياة الإنسان ممكنة في هذا الكون ، فسرعة انفجار الكبير وقيم القوى الأربعة الأساسية وكل المتحولات الأخرى التي سوف نتناولها بالدراسة في الفصول القادمة والتي هي حيوية للبقاء تم ترتيبها وفق دقة عالية غير عادية . والآن دعنا نصنع استطراداً مختصراً ونهتم بنظرية الصفة التي تبنتها النظرية المادية :

الصدفة هي تعبير رياضي يمكن استخدامه في دراسة إمكانية وقوع حدث ما . ومن الممكن حسابها باستخدام علم الرياضيات في فرع الاحتمال ، ودعنا نفعل ذلك :

لنأخذ في الحسبان المتغيرات الفيزيائية ، ونتساءل عن الاحتمال القوي للكون الذي أعطانا

الحياة والذي أتى إلى الوجود مع الصدفة ؟ فعل هو واحد في بليونا تت البليونات ؟ أو في تريليونات التريليونات ؟ أم أكثر من ذلك ؟ ؟

(روجر بنروز) وهو رياضي إنكليزي وصديق مقرب لـ (ستيفن هاوكنغ) تساءل حول هذا الموضوع وحاول حساب الاحتمال لمثل تلك الصدفة وضمنه لما اعتبره متحولات ضرورية لبقاء الكائنات البشرية حياتها على سطح كوكب مثل كوكبنا .

وطبق حسابات بنزوز كانت الأرجحية ضد وقوع مثل ذلك الاحتمال هو من رتبة (10 123 10) إلى واحد ! ! وهذا لا يمكن حتى تخيله لما يعني ذلك العدد من غرابة ، ففي الرياضيات القيمة (10 123) تعني واحداً متبوعاً بـ مئة وثلاثة وعشرين صفراً . (وهذا على سبيل المثال أكثر من العدد الكلي لذرات مقدراها 10 78 والتي يعتقد أنها موجودة في كل الكون لكن جواب (بنروز) كان أكبر من ذلك بكثير فهو يتطلب رقماً واحداً متبوعاً بـ 10 123 صفراً .

إذا اعتبرنا أن 10 3 هي ألف ، و(10 10 123) هو رقم يعني واحد ومتبوعاً بألف صفر ، وفي حال وجود ستة أصفار فقط نسمي العدد مليون ، وإذا كان عددها تسعة نسميه بليون ، وإذا كان أثنا عشر صفراً سمي تريليون . . وهكذا . ولا يوجد حتى اسم إطلاقه على رقم متبوع بـ 10 123 صفراً .

وباستخدام تعابير تطبيقية في الرياضيات فاحتمال قيمته واحد في 10 50 يعني احتمالاً يساوي الصفر، وعدد (بنروز) هو أكثر من تريليون ترليون تريليون مرة أقل من الصفر، وباختصار يخبرنا عدد (بنروز) أن الخلق صدفة أو بصدفة اعتمدت على حدوث نوع من التوافق في الزمان والمكان في كوننا مستحيل تماماً .

و بالتركيز على هذا العدد الآن عن مدى دقة الهدف الذي ينشده الخالق أي يبين لنا مدى تلك الدقة التي يجب أن يكون عليها الكون كي ينبثق ، وتعني تلك الدقة اسمياً جزءاً واحداً في (10 10 123) ، وهذا عدد غير طبيعي ، والشخص لا يمكنه حتى كتابة هذا العدد بشكله الكامل بطريقة التدوين العشري فهو واحداً متبوعاً ب 10 123 صفراً متتابعاً فإذا فرضنا أننا كتبنا صفراً على كل بروتون منفصل وكذلك على نيوتون منفصل وفي كل الكون وأن نوزع بباقي الأصفار على الجسيمات الأخرى ذات المقياس الجيد ، فسوف نفشل ونعجز تماماً عن كتابة هذا العدد من الأصفار لعدم توفر العدد اللازم من دقائق الكون كله من البروتونات والنترونات . . ألخ[9]

يحدثنا (روجر بنروز) عن هذا الموضوع بقوله : " يخبرنا هذا العدد عن مدى دقة هدف الخالق والتي يجب أن يكون عليها هذا الهدف (الكون) " .

وقد صرح (بنروز) بهذا الأمر قائلاً : أن الأعداد التي تحدد التصميم والتنفيذ لتوازن

الكون تلعب دوراً حاسماً في وجوده ، وهي من الغرابة بحيث تتجاوز الفهم والإدراك ، وتبرهن تلك الأعداد على أن الكون لا يمكن بأية حال أن يكون ناتجاً عن صدفة في الزمان والمكان وتبين تلك الأعداد مدى دقة هدف الخالق والتي يجب أن يكون عليها ذلك الهدف (الكون) لكي ينبثق ويبقى قائماً في هذا الوجود .

(298/736)

في الحقيقة لكي نميز أن الكون ليس ناتجاً من الصدفة فالشخص حقيقة لا يحتاج إلى أي من تلك الحسابات إطلاقاً ، وببساطة إذا نظر الإنسان حوله فإنه يستطيع بسهولة أن عي ويدرك حقيقة الخلق أو حتى في اصغر التفاصيل لما يراه ، وكيف يمكن لكون مثل هذا . . كامل في أنظمته (الشمس والأرض والناس والبيوت والسيارات والأشجار والأزهار والحشرات ، وكل الأشياء الأخرى فيه) أن تأتي إلى الوجود نتيجة لتساقط الذرات مع بعضها بالصدفة بعد الانفجار وتصنع كوناً .

كل شيء يقع أمام أعيننا هو دليل على قدرة الله وعظمته ، فقط أولئك الذين يفكرون هم وحدهم الذي يفهمون تلك الإشارات .

قال تعالى : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي

فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة : 164)

رؤية الحقيقة الواضحة :

أتت علوم القرن العشرين بدليل مطلق وهو أن الكون خلق من قبل الله ، ويوضح مبدأ الأنتبروبي الذي ذكرناه من قبل كل تفصيل للكون والذي تم تصميمه كي يعيش فيه البشر والذي لا وجود للصدفة فيه .

(299/736)

الشيء المثير للانتباه هو أن الأشخاص الذي اكتشفوا ك لذلك وتوصلوا إلى الاستنتاج وهو أن الكون لا يمكن أن يكون قد أتى إلى الوجود بالصدفة هم نفس الأشخاص الذي دافعوا قديماً عن الفلسفة المادية وحموها ، ومن هؤلاء العلماء (باول ديفز وأرنوبنزاياس وفريد هويل وروجر بنروز) فهم لم يكونوا أتقياء ورعين وبالتأكيد لم يكن ليدهم نية برهان وجود الله أثناء متابعتهم أعمالهم، ويستطيع الشخص أن يتخيل المفاجأة التي واجهتهم عندما

توصلوا إلى استنتاجاتهم حول تصميم الكون من قبل قدرة سامية بغير قصد منهم .

وقد اعترف الفلكي الأمريكي جورج غرنشتاين في كتابه الكون التكافلي كيف من الممكن لقواني الفيزياء أن تتشكل من نفسها وتتماثل مع الحياة ومع كل دليل تتم معاينته فإنه تتجلى بإلحاح فكرة وجود قوة خارقة للطبيعة . إنه من الممكن وبشكل مفاجيء أن نثبت علمياً وجود الكائن الخارق ؟ فهل هو الله من تدخل وبشك متعمد خلق وأبدع الكون لمنفعتنا .

رغم أن الملحد (غرنيشتاين) يتجاهل تلك الحقيقة البسيطة ومع ذلك فهو لا يستطيع إلا أن يفكر ويتعجب ، ومن ناحية أخرى فهناك علماء آخرون أقل إنكاراً وغروراً ومع ذلك فهم مستعدون للإقرار أن الكون قد صمم خصيصاً لحياة الجنس البشري فيه ، أما لفلكي الأمريكي (هيوج روس) فقد أنهى مقالة : " تصميم ومبدأ الأنتروبي " بالكلمات التالي .

" لابد أن هناك خالقاً عبقرياً متعالياً فائقاً ووراء نطاق الخبرة البشرية هو الذي أتى بالكون إلى الوجود ، وهو الخالق الذي خلق الكون وهو الخالق المبدع المتعال الذي خلق كوكب الأرض وهو الذي خلق الحياة فيها "

(300/736)

وهكذا فإن العلم يدلل على حقيقة الخلق ، وبالتأكيد يوجد إله خلق كل شيء حولنا المرئي منه واللامرئي . هو الخالق الوحيد الذي أقام هذا التوازن البارع اللاطبيعي ، وصمم خصيصاً ليمكن المخلوقات الإنسانية من الحياة والعيش فيها ، وقد وضح العالم ديفز في كتابه (النسخة الكونية) هذه الحقيقة ، في الفقرة الأخيرة وتحت عنوان : " بصمة التصميم غامرة " [10]فقال :

" بدون شك إن تصميم الكون هو دليل على قدرة الإله في الخق ، والموازين الدقيقة ، وكل الكائنات البشرية والمخلوقات الأخرى هي دليل الإله ذي القدرة الأسمى وقوة الخلق ، تلك النتيجة اكتشفت من قبل علوم حديثة وهي بالضبط تجديد لحقيقة تم الإعلان عنها قبل أربعة عشر قرناً في القرآن الكريم :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (لأعراف : 54) .

المصدر : كتاب خلق الكون تأليف الكاتب التركي هارون يحيى .

[1] Fred Hoyle,The intelligent universe,London,1984,p.184-185

[2] Paul Davies,Superforce : The Search for agrand unified Theory of nature .1984.p.189

[3] Bilim ve Teknik (scinence and technics) .201.p.16

[4] Stephen Hawking ,A brief History of time , .Bantame press ,london : 1988.p.121-125

[5] Paul davies .God and the new physics .New .york : simon and schuster .1983.p.189

[6] Michael Denton .nature,s Destiny : Hom the laws of Biology Purpose in the universe The new .york : The free press .1998.p.12-13

---

[7] Paul Davies . The accidental universe cambridge : cambridge University press .1982.foreword

]

[8 Hugh Ross .The Creator and the Cosmos

..p.122-22

[9] Roger Penrose.The amperors new Mind.1989.michael Denton natures desting ..Thenew york : the free press 1988.p.9

[10] Paul davies.the cosmic blueprint .london : penguin books 1987.p.203

.

.

.

0-النظام الدقيق في الكون

قال تعالى : (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) (الرحمن : 7)

وقال سبحانه : (لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (يس : 40)

ويقول أحد العلماء : "إذا كان الأمر كذلك فلابد أن يكون وراء المادة شيء آخر ، هو شيء يتحكم في هذه المادة ، يمكن أن يقال عن هذا إنه دليل رياضي على وجود خالق " .

غي مارشي "كاتب علمي أمريكي " 44

خلال ليل الرابع من تموز من عام 1054 شاهد الفلكيون الصينيون حادثاً غير طبيعي ! نجم ساطع ظهر فجأة بالقرب من برج (الثور) ، وكان سطوعه شديداً بحيث كان يرى بسهولة أثناء النهار ، لكن في الليل كان أكثر سطوعاً من القمر .

فالذي شاهده الصينيون كان أحد أعظم الظواهر الفلكية الكارثية المثيرة للاهتمام في كوننا ، لقد كان (سوبر نوفا) .

(السوبر نوفا) هو نجم يتفتت بالانفجار ، أي هو نجم هائل يفجر نفسه انفجاراً ضخماً هائلاً ، وتتبعثر مادته في كل الاتجاهات ، والضوء الناتج خلال تلك الحادثة هو أشد بآلاف المرات من الضوء الطبيعي .

(302/736)

العلماء اليوم يظنون أن (السوبرنوفا) يلعب دور مفتاح في تشكيل الكون ، وأن تلك الانفجارات هي التي تسبب نشوء العناصر المختلفة وتنقلها إلى الأجزاء المختلفة من الكون ، وافترض أن المادة المقذوفة بهذه الانفجارات تتحد فيما بعد لتشكل مجرة جيدة أو نجماً في مكان ما آخر من الكون . ووفق تلك الفرضية فإن نظامنا الشمسي ، الشمس وكواكبها بما فيها الأرض هي نواتج لبعض انفجارات (السوبرنوفا) القديمة ، التي لا تصدق

.

على الرغم من أن (السوبرنوفا) قد يبدو انفجاراً عادياً لكن هذه الانفجارات في الحقيقة مكونة بتفاصيلها من دقائق صغيرة جداً . ولقد كتب ميشيل دنتون في كتابه " قدر الطبيعة " ما يلي :

" المسافة بين (السوبر نوفات) (وفي الحقيقة بين كل النجوم) هي مسافات حرجة لأسباب أخرى والمسافة بين نجوم مجرتنا هي حوالي ثلاثين مليون ميل ، فإذا كانت تلك المسافة بمقدار أقل فالمدارات الكوكبية ستكون غير مستقرة (أي فاقدة للاستقرار) ، وإذا كانت أكثر من ذلك فإن الشظايا المقذوفة من انفجار (السوبرنوفا) ستكون موزعة ومنتشرة جداً بحيث أن أي نظام كوكبي مثل نظامنا سوف لن يتشكل في كل الاحتمالات وعلى جميع المستويات .

فإذا أريد للكون أن يكون مكاناً للحياة عندئذ يجب أن تحدث الضربة السريعة (السوبرنوفا) بمعدل دقيق جداً ، ويجب أن يكون متوسط المسافة بينهما (وفي الحقيقة بين كل النجوم) قريباً جداً من الرقم المشاهد فعلاً في الكون . [1]

إن المسافات الموجودة بين (السوبر نوفات والنجوم) هي مسافات غاية في الدقة والضبط ، وإذا تأملنا في هذا الكون بشكل أعمق فإننا نلاحظ نظاماً إعجازياً خارقاً .

لماذا يوجد فضاء :

(303/736)

لنحدد الإطار الخارجي لبعض ما بحثنا سابقاً ، فالكون الذي أعقب الانفجار العظيم كان سديمياً من غازي الهيدروجين والهليوم ، والعناصر الأثقل أنتجت فيما بعد ما يسمى بمفاعلات نووية متعمدة التصميم . وعلاوة على ذلك فإن وجود العناصر الأثقل ليس سبباً كافياً للكون لأن يصبح مكاناً مناسباً للحياة . والمسألة الأكثر أهمية هي كيف تشكل الكون وانتظم ؟

وسوف نبدأ بالسؤال كم هو واسع هذا الكون ؟ .

وقبل أن نشرح ذلك ، نبدأ في بيان مدى اتساع الكون .

كوكب الأرض هو جزء من النظام الشمسي ، ففي هذا النظام يوجد تسعة كواكب أساسية مع أربعة وخمسين تابعاً (قمرا) وعدد غير معروف من النجميات (كويكبات صغيرة كالجبال مختلفة الأحجام وتسبح في الفضاء) تدور حول نجم واحد يدعى الشمس . والشمس هي نجم متوسط الحجم بالمقارنة مع غيره في الكون والأرض هي الكوكب

الثالث بعداً عن الشمس .

لنحاول أولاً أن نفهم حجم هذا النظام ، إن قطر الشمس هو أكبر بمئة وثلاث مرات من قطر الأرض ، ولكي نتخيل ذلك نقول إن قطر الأرض هو 12.200 كيلومتر، فإذا خفضناه سلمياً (عددياً) لأبعاد كرة زجاجية ، فالشمس سوف تكون بحجم ملعب كرة القدم ، لكن الشيء العجيب في ذلك هي المسافة بينهما ، وبالاحتفاظ بمقاييس هذا السلم المخفض فالمسافة الفاصلة بين الكرتين هي 280 متراً .

وبعض الأجرام التي تمثل الكواكب الخارجية ستكون لها أبعاد قد تصل عدة كيلومترات بعيداً عن الشمس .

قد يبدو ذلك ضخماً جداً ، ومع ذلك فالنظام الشمسي ضئيل جداً في الحجم إذا قورن بالطريق اللبني والذي هو مجرة تسبح فيه تلك الهباءة . ويوجد في تلك المجرة أكثر من 250 بليون نجم بعضها يشبه شمسنا والبعض الآخر أكبر من ذلك وبعضها أصغر ، وأقرب نجم لشمسنا هو نجم (ألفا سنتوري) فإن ذلك النجم سيكون نجم (ألفا سنتوري) موجوداً على بعد 640 كيلومتراً عن شمسنا .

(304/736)

تحتوي مجرة الطريق اللبني على حوالي 250 بليون نجم مع مسافات بينهما محيرة للعقل من ناحية اتساعها ، والشمس أقرب إلى طرف المجرة والتي لها شكل الحلزون أكثر من مركزها . حتى ولو كانت مجرة الطريق اللبني مقزمة بالمقارنة بالاتساع الهائل لكل الكون ، فهي واحد من عديد المجرات التي ربما بلغ عددها 300 بليون مجرة وذلك وفق الحسابات الحالية ، وأن المسافات بين المجرات هي ملايين المرات أكبر من تلك التي بين الشمس والنجم (ألفاسنتوري) .

علق (جورج غرينشاين) في كتاب " الكون التكافلي" على هذا الاتساع الذي لا يمكن تخيلة بقوله :

" لو كانت النجوم أكثر بعداً من بعضها البعض مما هي عليه بقليل لما كانت الفيزياء الفلكية أكثر اختلافاً عما هي عليه " .

ولن يكون هناك أي تغير ، مهما كان بسيطاً ، في النجوم والسدم وفي بقية الأجسام السماوية ، وعند النظر إلى مجراتنا من نقطة بعيدة فإن هذه المجرة سوف تكون كما هي عليه الآن والفرق الوحيد ، هو أنني عندما أستلقي على العشب ليلاً وأنظر إلى السماء فإنني سوف أبصر عدداً أكبر من النجوم ،عفواً ثمة اختلاف آخر : إن الذي يتابع ذلك المشهد سوف لن أكون " أنا " فالفضاء الشاسع الموجود في السماء هو شرط أساسي لوجودنا .[2]

فسر (غرينشاين) سبب ذلك الاتساع الفضائي من وجهة نظره بأن المسافات الهائلة في

الفضاء تجعله ممكناً لأن تترتب فيه بعض المتحولات الفيزيائية كي تكون ملائمة تماماً لحياة الإنسان ، كما أنه لاحظ أهمية هذا الاتساع الفضائي في السماح للأرض كي تبقى موجودة وذلك بتخفيض أخطار التصادم مع النجوم الأخرى .

باختصار ، إن توزع الأجرام السماوية في الفضاء هو بالضبط ما يلزم لحياة الإنسان كي تبقى قائمة على سطح كوكبنا ، وسبب تلك المسافات الشاسعة الهائلة هو أنها نتيجة تصميم مقصود لغرض ما وليس نتيجة للمصادفة .

الإنتروبي والانتظام :

(305/736)

كي نستوعب مفهوم الانتظام في الكون فإننا نحتاج أولاً نحتاج أولاً إلى الحديث عن القانون الثاني في الترموديناميك يقول بأن جميع الأنظمة في الكون إذا تركت للظروف الطبيعية فإنها مع الزمن سوف تدخل في حالة من الفوضى وعدم الانتظام . وهذا القانون يدعى أيضاً بقانون (الانتروبي) وفي الفيزياء تعني الانتروبي كمية عدم الانتظام (الفوضى) في جملة ، وانتقال الجملة من حالة مستقرة إلى حالة أخرى غير مستقرة هو ذاته كزيادة في الانتروبي لها . وعدم الاستقرار يتعلق مباشرة بالانتروبي لتلك الجملة .

هذه المعلومة مألوفة واعتيادية وكثيراً من الأمثلة نشاهدها في حياتنا اليومية عنها . فأنت إذا تركت سيارة وهجرتها ف يمكان لمدة سنة أو حتى لمدة شهرين ، ومن المحتمل أنك ستلاحظ أن الإطارات فارغة ومسواة بالأرض والنوافذ محطمة وأجزاء الجسم والمحرك متآكلة صدئة . .الخ . وبطريقة مماثلة إذا أهملت العناية ببيتك لبضعة أيام فسوف تجده مغبراً وأكثر فوضى مع مرور الوقت ، هذا نوع من الأنتروبي ، على كل حال تستطيع إزالته بالتنظيف والتقاط الأشياء ، ثم تأخذ النفايات إلى خارج البيت .

القانون الثاني في الترموديناميك مقبول بشكل واسع لأنه فعال وصفته الربط ، أما العالم (أينشتاين) وهو أهم عالم في قرننا فقد قال إن ذلك القانون هو أول قانون في جميع العلوم .

كما أن العالم الأمريكي (جيرمي زفنك) علق في كتاب " الإنتروبي ، نظرة العالم الجديد " بما يلي :

" قانون الأنتروبي سوف يسيطر كقانون نموذجي في الفترة التاريخية التالية . وقال (إلبرت أينشتاين) أن القانون الأول هو الأسبق لكل العلوم . أما السير (آرثر أدينغتون) فقد أرجع ذلك القانون إلى كونه قانوناً ميتافيزقياً أسمى لكل الكون . (وكلمة ميتافيزيقي تعني ما وراء الطبيعة وما يكون ذا نظام غيبي معين) 47 .

من المهم أن نلاحظ أن قانون الأنتروبي بذاته يعالج كثيراً من قضايا المادية غير الصالحة وبالضبط من البداية ، لأنه إذا كان يوجد تصميم معين ونظام في الكون ، فإن القانون ينص على أنه مع مرور الوقت فإن هذه الحالة سوف تزول من قبل الكون ذاته ، توجد استنتاجات يتم الوصول إليها من هذه المشاهد :

1 . إذا ترك الكون لوحده فلا يمكن أن يبقى إلى الأبد ، والقانون الثاني يقول أنه بدون تدخل خارجي من نوع ما فالأنتروبي أخيراً سوف يتعاظم عبر الكون مسبباً حالة متجانسة كلياً .

2 . الادعاء بأن النظام والترتيب اللذين نشاهدهما ليسا نتيجة لتدخل خارجي هو أيضاً غير صحيح ، فعقب الانفجار العظيم كان الكون في حالة فوضى تامة والتي كانت ستبقى لو أن الأنتروبي تعاظم ، ولكن ذلك تغير لأننا نستطيع أن نرى ذلك بوضوح بالنظر فيما حولنا ، وذلك التغير حدث بالخروج عن واحد من القوانين الأساسية في الطبيعة وهو قانون الأنتروبي .

ولا توجد طريقة لتعليل وتفسير ذلك التغير ما عدا افتراض وجود نوع من الخلق الفوق طبيعي (الخارق للطبيعة) .

سنذكر مثالاً ربما يجعل النقطة الثانية أكثر وضوحاً ، تخيل أن الكون عبارة عن كهف هائل

مملوء بخليط من الماء والصخور والوحل ، فإذا تركنا ذلك الكهف وحيداً لبضع بلايين من السنين ثم عدنا إليه فإننا سنلاحظ أن بعض الصخور صار أصغر حجماً وبعضها اختفى ، وأن مستوى الوحل صار أعلى . وأنه صار فيه طين أكثر . .

وهكذا صارت الأشياء أكثر فوضوية وبالضبط هذا ما كنا نتوقعه . ولكن إذا وجدت بعد بلايين السنين لاحقاً أن الصخور منحوتة بنعومة ولطافة وبشكل تماثيل ، فأنت بالتحديد ستقرر أن هذا الترتيب لا يمكن تفسيره بقوانين طبيعية ، والتفسير المعقول لذلك هو أنه من تدبير عقل مدرك واع وهو الذي أراد لتلك الأشياء أن تكون على هذا النحو .

(307/736)

لذلك فإن التركيب في هذا الكون هو أعظم دليل على وجود إدراك ووعي فائق أسمى ، والفيزيائي الألماني الحائز على جائزة نوبل وهو (ماكس بلانك) يفسر الترتيب في الكون كما يلي :

" إجمالاً نقول أنه وفق كل شيء تعلمناه بالعلوم القطعية عن المملكة الضخمة للطبيعة والتي يلعب فيها كوكبنا الصغير دوراً تافهاً ، أنه يسود نوع من الترتيب والنظام في كل الحوادث لا يستطيع عقل إنسان أن يستوعبه ، وفوق ذلك فنحن من خلال شعورنا نستطيع أن نؤكد أن

ذلك الترتيب والنظام لا يمكن أن يصاغ إلا من قبل فعالية هادفة وثمة دليل يؤكد وجود ترتيب في هذا الكون " [3]

فسر (باول ديفز) انتصار التوازن الرائع والتناسق على المادية هكذا : " أينما نظرنا في الكون من المجرات المندفعة بعيداً وإلى أعمق أعماق الذرة فإننا نواجه الترتيب والنظام . . والفكرة الرئيسية لشيء خاص حقيقي مثل الكون المنظم ، وهذا بدوره يحتاج إلى معلومات كثيرة لوصفه ، وبديلاً عن ذلك ربما نقول أن ذلك النظام يحتوي كثيراً من المعلومات .

ويحضرنا الآن سؤال فضولي وهو إذا كانت المعلومات والنظام لهما دوماً ميل نحو الاختفاء فمن أين أتت أصلاً كل هذه المعلومات التي جعلت العالم في هذه المكانة الخاصة ؟

الكون مثل الساعة يجري ببطء شديد والسؤال الآن هو كيف أمكن لتلك الساعة أن يعبأ دورانها ؟[4]

لقد عبر أينشتاين أن النظام الموجود في الكون لا يمكن تخيله ، ويمكن وصفه بالمعجزة وعبر عن ذلك قائلاً :

" حسناً ، وفق المبدأ الأسبق في الكون (البرهان على الناشئ من السبب إلى الأثر) كان الإنسان يتوقع أن العالم يعالج بالقوانين ، وأنه طيع مذعن للقانون والنظام ، وحدود ذلك المبدأ هو المدى الذي يتدخل فيه ذكاؤنا الإنساني المنظم . . . لكن بدلاً من ذلك فنحن نجد أن العالم المادي على درجة عالية من الترتيب لم نكن نتوقعه ، كما لا توجد لدينا طريقة مسبقة تقربه أو تجيزه ، وتلك هي معجزة تقوى أكثر فأكثر مع نمو معلوماتنا " [5]

وبالاختصار يتطلب النظام في الكون معلومات وفهم عميقين ، فهو كون مصمم ومنظم ومحفوظ من قبل الله .

لقد أوضح الله في القرآن كيف أن السماء والأرض حفظتا بقدرته العلية السامية :

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً) (فاطر : 41)

يكشف النظام الإلهي في هذا الكون ضعف الاعتقاد المادي حول الكون باعتباره كتلة من مادة لا تخضع لشيء . وهذا ما توضحه آية أخرى هي :

(ولو اتبع الحق أهوائهم .

النظام الشمس :

وقال سبحانه : (لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ

يَسْبَحُونَ) (يّس : 40)

النظام الشمس هو واحد من أروع الأمثلة لهذا التناسق التناغمي الجميل الذي يمكن مشاهدته ، يوجد فيه تسعة كواكب مع أربعة وخمسين تابعاً وعدد غير معروف من الأجسام الصغيرة ، والكواكب الرئيسة المعدودة بالابتعاد خارجاً من الشمس هي " عطارد ، الزهرة الأرض ، المريخ ، المشتري زحل أورانوس ، نبتون ، وبلوتو ، والأرض هي الكوكب الوحيد الذي عرف أن الحياة موجودة فيه ، وبالتأكيد هي الوحيدة التي تستطيع الكائنات البشرية أن تحيا عليها وتبقى وتدين بالفضل لوفرة الأرض اليابسة والماء والجو القابل للتنفس .

(309/736)

في تركيب المجموعة الشمسية نواجه مثالاً جميلاً آخر من التوازن ، وهو التوازن بين القوى النابذة والتي يقابها التجاذب الثقالي من أوليتها (ويقصد بالأولية في علم الفلك بأنه شيء يدور حول جسم آخر) ، فالأولية للأرض هي الشمس ، والأولية للقمر هي الأرض ، وبدون ذلك التوازن فسوف يقذف كل شيء في هذا النظام بعيداً في الأعماق الباردة للفضاء الخارجي ، وبدون التوازن بين هاتين القوتين يكون له محصلة في المسارات (

المدارات) .

والمدارات هي المسارات التي ترسمها الكواكب أو الأجسام أثناء دورانها حول أوليتها ، فإذا تحرك جسم بسرعة بطيئة جداً فسوف يسقط على الأولية ويغوص فيها ، أما إذا تحرك بسرعة أكبر (أسرع) فالأولية سوف لن تتمكن من الإمساك به ، وسوف يطير ذلك الجسم بعيداً في الفضاء ، وبدلاً من ذلك لابد أن يتحرك كل جسم بالسرعة الصحيحة تماماً كي يحتفظ بمداره ، والأكثر من ذلك هو أن التوازن يجب أن يختلف من جسم إلى آخر بسبب أن المسافة للكوكب مختلفة بحيث لا تغوص في الشمس ولا تقذف بعيداً عنها وتطير في أعماق الفضاء .

يتضمن علم الفلك المادي فكرة وهي أن أصل النظام الشمس وبقاءه يمكن تفسيره بالصدفة ، وفي القرون الثلاثة الماضية صار عديد من المناصرين لها يتأملون في مدى روعة هذا النظام وفي كيفية ظهوره وبقائه لكنهم فشلوا كيفما توجهوا ، لأن بالنسبة للمادية فإن التوازن والنظام في المجموعة الشمسية هي أمور غامضة لا تفسير لها عنده .

يعتبر الفلكيون من أمثال (كبلر وغاليليو) من أوائل الذين اهتموا باكتشاف ذلك التوازن الأمثل . وقد أعترف هؤلاء أن تصميمه تم بتأن وتؤدة ،و أن هناك إشارة للتدخل الإلهي في كل الكون .

كذلك يتعبر (إسحاق نيوتن) من العقول العلمية العظيمة والمتميزة في كل الأزمان ، وقد كتب مرة :

(310/736)

" النظام الرائع للشموس والكواكب والمذنبات يمكن أن تشرق من هذف وغرض لسلطة عليا لكائن قدير وعبقري . . وهو يحكمها كلها ليس كروح بل كسيد مالك لكل الأشياء وبسبب سلطته العليا الغالبة فهو يدعى بالسيد الإله القدير " [6]

موقع الأرض :

بالإضافة إلى ذلك التوازن الرائع فإن موقع الأرض في النظام الشمسي وفي الكون هو أيضاً آية أخرى على كمال العمل الإلهي في الخلق .

بينت آخر الاكتشافات أهمية وجود الكواكب الأخرى للأرض ، فحجم المشتري وموضعه مثلاً أتيا على نحو كانا فيه حديان ، كما بينت الحسابات الفلكية ذلك ، فأكبر كوكب في المجموعة الشمسية وهو المشتري يقدم الثبات لمدارات الأرض ، وكل الكواكب الأخرى ، ويفسر النص التالي دور المشتري في حماية الأرض ، والذي عنوانه """كيف يكون المشتري المميز " وكاتبه هو (جورج ويذرك) :

" بدون وجود كوكب ضخم متوقع بدقة حيث المشتري موجود ، فإن الأرض كانت ستصطدم في الماضي ألوف المرات وبشكل تكراري بالمذنبات والشهب وغيرها من الحطام بين الكوكبية ، فإذا لم يكن المشتري موجوداً فلن نكون موجودين لندرس أصل النظام الشمسي . " [7]

ونقولها باختصار :

إن تركيب المجموعة الشمسية صمم خصيصاً لحياة الجنس البشرين ولنأخذ بالحسبان أيضاً مكان النظام الشمسي في الكون ، فالنظام الشمسي موجود في أحد الأذرع الحلزونية الضخمة لمجرة الطريق اللبني ، وهي أقرب إلى الطرف منا المركز .

والسؤال المطروح هنا ، ما هي المحسنة التي يمكن أن تكون فيها ؟ ويفسر (ميشل دينتون) في كتابه "قدرة الطبيعة " ذلك بقوله :

(311/736)

" الذي يصدم بشدة هو أن الكون يبدو كما لو أنه ليس ملائماً مثالياً لجنسنا ولتكيفنا الحيوي . ولكن من أجل أن نفهم أكثر وبسبب موضع مجموعتنا الشمسية في طرف الحافة المجرية فإننا نستطيع أن نحرق (نتفرس) أبعد في الليل للمجرات البعيدة ، وأن نكسب معلومات

عن كل التركيب الشامل للكون ، في حين إذا كان موضعنا في مركز المجرة فسوف لن نتمكن من النظر إلى جمال مجرة حلزونية ولا حتى أن نأخذ فكرة عن تركيب الكون "

بكلمات أخرى . يعتبر حتى موقع الأرض في المجرة دليلاً على أن ذلك الموقع كان مقصوداً لصالح الجنس البشري ليحيا عليها ، ومع ذلك فهي تخضع لقوانين الفيزياء نفسها التي يخضع لها الكون . وهي الحقيقة الواضحة في أن الكون خلق ونظم من قبل الله .

والسبب في أن بعض الناس لا يستطيعون فهم تلك النقطة هو إنكارهم . ولكن أي فكر موضوعي سيفهم بسهولة أن الكون خلق ونظم من قبل الله لحياة الجنس البشري كما وضح ذلك في الآيات التالية :

قال تعالى : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) (صّ : 27) .

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران : 191) . انتهى

انتهى .

المصدر :

كتاب " خلق الكون " تأليف الكاتب التركي هارون يحيى .

[1] Michael Denton ,Nature,Destiny,p.11

[2] George Greenstein ,The Symbiotic
.Universe,p21

[3] Max planck ,May1937 address,quoted in
.a.barth ,The creation (1968) ,p.144

[4] Paul Davies, the Accidental Universe, (1982)
.cambridge : cambridge University press .preface

---

[5] Albert einstein ,Letters to Maurice
.Solovine,1956,p.114-115

[6] Michale A.Corey, God and the new Cosmology
: The Anthropic Design Argument Maryland
Romanand Little fieled Publishers, inc
.,1993,p.259

[7] how Specialis Jupiter?,Nature ",G.W.wetherrill
.,vol.373,1995,p.470

قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (14) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (15) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (16) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (17) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقدم أمره سبحانه لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتولي عنهم تهديداً لهم ، وصرح بما أراد من أمر الساعة لما دعا إلى ذلك من تقدم ذكرها ، ولأنها أشد هول يهددون به ، وبياناً أن الخلق ما خلق إلا لأجلها لأنها محط الحكمة ، وختم بعسرها على الكافرين ، تمم ذلك التهديد بعذاب الدنيا ردعاً لأهل الغلظة الموكلين بالمحسوسات ، فذكر عسر يوم كان على الكافرين فيها ، فقال مهدداً لقريش بجعل القصة مثلاً لهم في إهلاكهم وفي أمر الساعة من حيث إنه كما أهلك أهل الأرض في آن واحد بما أرسله من الماء فهو قادر على أن يهلكهم

في آن واحد بالصيحة ، وكما صرف هذا التصريف الذي ما سمع بمثله في الإهلاك فهو قادر على أن يصرفه في الإحياء عند البعث على وجه ما عهد مثله تنبت فيه الأجساد وتحيا فيه العباد ، جواباً لمن كأنه قال : هذا ما يوعدونه بعد الموت ، فهل لهم عذاب قبله دال على كمال القدرة : ﴿كذبت﴾ أو أوقعت التكذيب العظيم الذي عموا به جميع الرسالات وجميع الرسل ، وأنث فعلهم تحقيراً لهم وتهويناً لأمرهم في جنب قدرته .

ولما كان ما كان من تصميمهم عليه وعزمهم على عدم الانفكاك عنه لكونه جبلة مستغرقاً لجميع ما بعدهم من الزمان ، وكانوا قد سنوا سنة التكذيب فكان عليهم مع وزرهم وزر من أتى بعدهم ، وكان ما قبلهم من الزمان يسيراً في جنب ما بعده عدماً ، فلذلك ذكر الظرف من غير حرف جر لأنه مع أنه الحق أعظم في التسلية فقال : ﴿قبلهم﴾ أي في جميع ما سلف من الزمان ومضى بعضه بالفعل وبعضه بالقوة لقوة العزم : ﴿قوم نوح﴾ مع ما كان بهم من القوة ولهم من الانتشار في جميع الأقطار .

(314/736)

ولما ذكر تكذيبهم إشارة إلى أنه جبلة لهم جحدوا بها النبوة رأساً فلاحظ لهم في التصديق للحق فلا يفترق حالهم بالنسبة إلى أحد من الناس كان من كان ، فلذلك سبب عن هذا

المطلق قوله : ﴿ فكذبوا عبدنا ﴾ أي على ما له من العظمة نسبة إلينا لكونه لم يتعبد لغيرنا قط مع تشريفنا إياه بالرسالة ، فكان تكذيبهم فراً مما دخل في تكذيبهم المطلق الشامل لكل ما يمكن تكذيبه وهو ميد (؟) ﴿ وقالوا ﴾ مع التكذيب أيضاً زيادة على تغطية ما ظهر منه من الهداية : ﴿ مجنون ﴾ أي فهذا الذي يظهر له من الخوارق من أمر الجن .

ولما كان إعلاء الصوت على النبي كائناً من كان عظيم القباحة جداً زائد الفظاظة فكيف إذا كان مرسلاً فكيف إذا كان من أولي العزم فكيف إذا كان على سبيل الإنكار عليه ، فكيف إذا كان على صورة ما يفعل ممن لا خطر له بوجه ، قال بانياً للمجهول إشارة إلى تبشيعه من غير نظر إلى قائل وإيذاناً بأن ذلك لم يكن من أكابرهم فقط بل من كبيرهم وصغيرهم : ﴿ وازدجر ﴾ أي أعملوا أنفسهم في انتهاره وتوعده وتهديده وانتشر ذلك في جميعهم بغاية ما يكون من الغلظة كفاله عن الرسالة ومنعاً له عنها ، والمعنى أنهم قالوا : إنه استظهر عليهم بالجنون .

(315/736)

ولما طال ذلك منهم ومضت عليه أجيالهم جيلاً بعد جيل حتى مضى له من إنذارهم أكثر مما مضى من الزمان لأمة هذا النبي الخاتم إلى يومنا هذا ، وأخبره الله أنه لن يؤمن منهم إلا من

قد آمن معه ، تسبب عن ذلك الدعاء بالراحة منهم ، فلذلك قال صارفاً وجه الخطاب إلى صفة الإحسان والربوبية والامتنان إيذاناً بأنه أجاب دعاءه ولبى نداءه : ﴿ فدعا ربه ﴾ أي الذي رباه بالإحسان إليه برسالته معلماً له لما أيس من أجابتهم : ﴿ أني مغلوب ﴾ أي من قومي كلهم بالقوة والمنعة لا بالحجة ، وأكده لأنه من يأبى عن الملك الأعظم يكون مظنة النصرة ، وإبلاغاً في الشكاية إظهاراً لذل العبودية ، لأن الله سبحانه عالم بسر العبد وجهره ، فما شرع الدعاء في أصله إلا لإظهار التذلل ، وكذا الإبلاغ فيه ﴿ فانتصر ﴾ أي أوقع نصري عليهم أنت وحدك على أبلغ وجه .

ولما استجاب له سبحانه ، سبب عن دعائه قوله ، عائداً إلى مظهر العظمة إعلاماً بمزيد الغضب الموجب دائماً للاستيعاب بالغضب : ﴿ ففتحنا ﴾ أي تسبب عن دعائه أنا فتحنا فتحاً يليق بعظمتنا ﴿ أبواب السماء ﴾ كلها في جميع الأقطار ، وعبر بجمع القلة عن الكثرة لأن عادة العرب أن تستعيره لها وهو أرشق وأشهر من بيبان ، وسياق العظمة يأبى كونه لغيرها .

ولما كان المراد تهويل أمر الماء بذكر حاله التي كان عليها حتى كأن المحدث بذلك شاهده جعلت كأنه آية فتحت بها السماء فقال : ﴿ بماء منهمر ﴾ أي منصب بأبلغ ما يكون من السيلان والصب عظماً وكثرة ، ولذلك لم يقل : بمطر ، لأنه خارج عن تلك العادة ، واستمر ذلك أربعين يوماً ﴿ وفجرنا ﴾ أي صدعنا بما لنا من العظمة وشققنا وبعثنا وأرسلنا

﴿ الأرض عيوناً ﴾ أي جميع عيون الأرض ، ولكنه عدل عنه للتهويل بالإبهام ثم البيان ، وإفادة لأن وجه الأرض صار كله عيوناً .

(316/736)

ولما كان الماء اسم جنس يقع على الأنواع المختلفة كما يقع على النوع الواحد ، وكان قد ذكر ماء السماء والأرض ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ فالتقى الماء ﴾ أي المعهود وهو ماء السماء وماء الأرض بسبب فعلنا هذا ، وزاد في تعظيمه بأداة الاستعلاء فقال : ﴿ على أمر ﴾ ولما تقررت هذه العظمة لهذه الواقعة ، فكان ربما ظن أنه صار جزافاً ، وزاد على الحد المأمور به ، أشار إلى أنه بالنسبة إلى عظمته في غاية الحقارة فقال : ﴿ قد قدر ﴾ أي مع كونه مقدوراً عليه في كل وقت بغاية السهولة قد وقع تقديره في الأزل ، فلم يستطع أن يزيد على ذلك قطرة فما فوقها ولا أن يهلك غير من أمرناه بإهلاكه ، وأشار بالتخفيف إلى غاية السهولة في ذلك سبحانه .

ولما ذكر ما علم منه بقرينة ما ذكر من خرقه للعادة ، وأن إجابته لدعوته عليه الصلاة والسلام ، ذكر تمام الانتصار بنجاته فقال : ﴿ وحملناه ﴾ أي بما لنا من العظمة على متن ذلك الماء بعد أن صار جميع وجه الأرض مجرى واحداً ، وحذف الموصوف تهويلاً بالحث

على تعرفة بتأمل الكلام فقال : ﴿ على ذات ﴾ أي سفينة ذات ﴿ ألواح ﴾ أي أخشاب نجرت حتى صارت عريضة ﴿ ودسر ﴾ جمع دسار وهو ما يشد به السفينة وتوصل بها ألواحها ويلج بعضها ببعض بمسمار من حديد أو خشب أو من خيوط الليف على وجه الضخامة والقوة الدفع والمتانة ، ولعله عبر عن السفينة بما شرحها تنبيهاً على قدرته على ما يريد من فتق الرتق ورتق الفتق بحيث يصير ذلك المصنوع ، فكان إلى ما هيأه ليراد منه وإن كان ذلك المراد عظيماً وذلك المصنوع .

(317/736)

ولما كان ذلك خارقاً للعادة فكان يمكن أن يكون في السفينة خارق آخر بإسكانها على ظهر الماء من غير حركة ، بين أن الأمر ليس كذلك فقال مظهراً خارقاً آخر في جريها : ﴿ تجري ﴾ أي السفينة ﴿ بأعيننا ﴾ أي محفوظة أن تدخل بحر الظلمات ، أو يأتي عليها غير ذلك من الآفات ، بحفظنا على ما لنا من العظمة حفظ من ينظر الشيء كثرة ولا يغيب عنه أصلاً ، وجوزوا أن يكون جمع تكسير لعين الماء ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ جزاء ﴾ أي لعبدنا نوح عليه السلام ، ولكنه عبر هنا بما يفهم العلة ليحذر السامع وقوع مثل ذلك العذاب له إن وقع منه مثل فعل قومه فقال : ﴿ لمن ﴾ وعبر عن طول زمان كفرهم بقوله : ﴿ كان

كفر ﴾ أي وقع الكفر به وهو أجل النعم ، فقال على أهل ذلك الزمان وذلك جزاء من كفر النعم ، ويجوز أن يكون المراد به قومه بين أنه وقع الكفر منهم وقوعاً كأنهم مجبولون عليه حتى كأنه وقع عليهم لتوافق قراءة مجاهد بالبناء .

للفاعل .

ولما تم الخبر عن نجاته بحمله فيها ، نبه عن آثارها بقوله : ﴿ ولقد تركناها ﴾ أي هذه الفعلة العظيمة من جري السفينة على هذا الوجه وإبقاء نوعها دالة على ما لنا من العظمة ، وقيل : تلك السفينة بعينها بقيت على الجودي حتى أدرك بقايا ما هذه الأمة ﴿ آية ﴾ أي علامة عظيمة على ما لنا من العلم المحيط والقدرة التامة ﴿ فهل من مدكر ﴾ أي مجتهد في التذكير بسبب هذا الأمر لما يحق على الخلق من شكر الخالق بما هدت إليه رسله كما قالوه .

(318/736)

ولما قدم تعالى قوله : ﴿ فما تغن النذر ﴾ وأتبعه ذكر إهلاكه المكذبين ، وكان ما ذكره من شأنهم أمرهم في الجلالة والعظمة بحيث يحق للسامع أن يسأل عنه ويتعرف أحواله ليهتدي بها على ذلك بقوله مسبباً عن التذكير باستفهام الإنكار والتوبيخ : ﴿ فكيف كان ﴾ أي وجد وتحقق ﴿ عذابي ﴾ أي لمن كذب وكفر وكذب رسلي ﴿ ونذر ﴾ أي الإنذارات

الصادرة عني والمنذرون المبلغون عني فإنه أنجى نوحاً عليه السلام ومن آمن معه من أولاده وغيرهم ومتعهم بعد إهلاك عدوهم وجعل الناس الآن كلهم من نسله ، قال القشيري : في هذا قوة لرجاء أهل الدين إذا لقوا في دين الله محنة فجحد غيرهم ما آتاه الله أن يهلك الله عن قريب عدوهم ويمكنهم من ديارهم وبلادهم ويورثهم ما كان إليهم ، وكذلك سنة الله في جميع أهل الضلال – انتهى .

وكان المعنى في تكرير ذلك عليهم بعد التذكير بما أتيناهم به من قصص هذه الأمم ميسراً لفهم صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم كيف كان أخذي لهم وعاقبة تخويفي إياهم لعلهم يتعظون فينفعهم إنذار المنذرين .

ولما كان هذا التفصيل مما أنزل أول القرآن تيسيراً على الأمة ، نبه على ذلك بقوله : ﴿ ولقد يسرنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ القرآن ﴾ أي على ما له من الجمع والفرق والعظمة المناسبة لكونه صفة لنا ﴿ للذكر ﴾ أي الاتعاظ والتذكر والتدبر والفهم والحفظ والتشريف لمن يراعيه ، قال ابن برجان : أنزلناه باللسان العربي وأنزلناه للأفهام تنزيلاً وخاطبناهم بعوائدهم وأعلمنا من قبل أعمالهم وأقبسناهم المعرفة واليقين من قبل ذواتهم وضربنا لهم الأمثال وأطلنا لهم في هذه الأعمال ليتذكروا الميثاق المأخوذ عليهم ، وقال القشيري : يسر قراءته على ألسنة قوم ، وعلمه على قلوب قوم ، وفهمه على قلوب قوم ، وحفظه على قلوب قوم ، وكلهم أهل القرآن وكلهم أهل الله وخاصته – انتهى .

والآية ناظرة بالعطف والمعنى إلى ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ﴾ الآيتين ، فالمعنى أنا ولو شئنا بما لنا من العظمة لجئناهم بعبارات لا يشمون رائحتها ، وبلاغات لا يهتدون إلى وجه معناها أصلاً لكننا لم نفعل ذلك بل خاطبناهم بأبلغ من بلاغتهم مع تيسير فهم ما خاطبناهم به فكان في ذلك إعجازان : أحدهما أنه فوق بلاغتهم ، والثاني أنه مع علوه يشترك في أصل فهمه الذكي والغبي .

ولما كان هذا القرآن العظيم الجامع ترجمة لأفعاله سبحانه في هذا الوجود الشاهد والغائب الذي أخبرنا عنه وشرحنا لما أنزل علينا من أسمائه الحسنى وصفاته العليا التي تعرف لنا بها ، وكان سبحانه قد جعل خلق الآدمي جامعاً ، فما من شيء من أفعاله إلا وفي نفسه منه أثر ظاهر ناظر للتفكر في القرآن والتعرف للأسرار منه بالتذكير الذي يكون .

لما كان الإنسان يعرفه ثم نسيه حتى صار لا يستقل باستحضاره فإذا ذكر به ذكره ، فقال منبهاً على عظيم فعل العلم والقرآن الذي هو طريقه بالتكرار والتعبير بما هو من الذكر على أنه المحفوظ للإنسان بما هيأ له من تيسير أمره ﴿ فهل من مدكر ﴾ قال البخاري في آخر صحيحه : قال مطر الوراق : هل من طالب علم فيعان عليه ، وقد تكررت هذه الموعظة في هذه السورة أربع مرات ، وذكرت الجملة الأخيرة منها منفكة عن تيسير القرآن مرتين : مرة في أول القصص وهي قصة نوح عليه السلام ، ومرة كما يأتي في آخرها ، وذلك عقب قصة فرعون وهو قوله : ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ مثل ذلك ، وكررت ﴿ فبأي ألاء ربكما تكذبان ﴾ في الرحمن إحدى وثلاثين مرة ، فنظرت في سر ذلك فظهر لي – والله الهادي – أن الذي تقدم في سورة المفصل على هذه السورة أربع سور هذه السورة خاتمتها فأشير إلى التذكر بكل سورة منها حثاً على تدبرها بآية ختمت كلماتها بكلمة عادت حروفها في السور الخمس وأدغم حرف منها في آخر بعد قلب كل منهما ، فكانت هذه الكلمة التي مدلولها الذكر مشيرة إلى الحواس الخمس الظاهرة التي هي مبادئ العلم ، وكان ما في أول هذه المواعظ وآخرها لخلوه عن ذكر القرآن موازياً للحرفين اللذين طرفهما للوهن بالتعبير والقلب لكن كان الحرفان بالإدغام كحرف واحد ، كانت الجملتان الموازيتان لهما كآية واحدة من تلك الأربع ، وكان هذا الأول والآخر مشاراً به إلى هذه السورة التي جمعت التذكير بالسورة الأربع ، وأعريت عن ذكر تيسير القرآن لافتتاح السور السور بمحو وما

يقرب من المحو وهو آية الليل والتيسير فيها والساعة التي هي أغيب الغيب ، وكل من فيها سوى الله محو لسلب الأمر كله عنهم وخصت بها الأولى والآخرة لجامع بينهما من غرق العصا في الماء ونجاة المطيعين بعضهم بالسفينة وبعضهم بنفس البحر الذي هو مسرح السفن ، وكانت الموعظة المذكور فيها القرآن في ختام قصة نوح عليه السلام مع عمومها لجميع القرآن

(321/736)

إشارة إلى خصوص التذكير بسورة ق لما بينهما من جامع الإحاطة بإحاطة جبل ق بالأرض كلها وطوفان قوم نوح عليه السلام بعموم جميع الأرض والتي في سورة عاد إشارة إلى سورة الذاريات لأن كلاهم كان بالريح ، والتي في قصة ثمود إشارة إلى التذكير بالطور بجامع ما بينهما من الرج والرجف والذل والصعق ، أما في قصة ثمود فظاهر ، وأما في الطور فلما كان من دكه وصعق بني إسرائيل فيه ، وقد ذكر الصعق في آخر الطور ، وما في قصة لوط إشارة إلى النجم لأن مدائنهم ارتفعت إلى عنان السماء ثم أهويت وأتبعت الحجارة ، فلما كان الأمر هكذا ، وكانت النعم محيطة بالإنسان من جهاته الست ، فضربت الحواس الخمس في الجهات الست ، فكانت ثلاثين ، كأنه قيل : هل مذكر بهذا القرآن ، ولا سيما ما تقدم

على هذه السورة منه في المفصل ما لله عليه من النعم في نفسه وفي الآفاق المشار إلى القسم الأول منها بمذكر وإلى الثاني بتكرير ذكر الآلاء فكل آية تكرير انتهى إلى العدد المخصوص وإلى المجموع بالمجموع ليعلم أن نعم الله محيطة به على وجه لا يقدر على صنعه إلا الله الذي له الإحاطة بجميع صفات الكمال التي أعظمها – من حيث كونه أساساً يبنى عليه – الوحدانية المنزهة عن الشركة فيخشى من معصيته أن يسلبه نعمه أو واحدة منها فلا يجد من يقوم بها ولا بشيء منها غيره أو يعذبه بشيء مثل عذاب هذه الأمم أو بغير ذلك مما له من إحاطة القدرة والعلم فلا يجد من يرد عنه شيئاً منه سبحانه ، وأما الواحد الزائد فهو إشارة إلى أن المدار في ذلك الإدراك هو العقل والحواس كما أن المقصود بذلك كله واحد وهو الله تعالى ، وكل هذه الأشياء أسباب لمعرفته وأيضاً فالواحد إشارة إلى أن زيادة الآلاء من فضل الله تعالى لا تنقطع كما أن الواحد الذي هو أصل العدد لا يزال ، فكلما أغنت زيادتها ابتدأ دور ثم ابتدأ دور آخر دائماً أبداً ، وللتكرير نكتة أخرى بديعة جداً ، وهي تأكيد التقرير دلالة على اشتداد الغضب

(322/736)

المقتضي لأنهى العقوبة كما أن من اشتد غضبه من إنكار شخص لشيء من قتله إذا بينه غاية البيان بأمور متنوعة وهو يتمرد ويلد غاية اللدد يأخذه فيجمع له جمعاً لا يقدر على العدول عن الحق بحضرتهم .

(323/736)

وهو يذعن وهو في قبضته فيذكر تلك المعاني بين ذلك الجمع ، فيصير كلما ذكر له نوعاً منها بحضرتهم ، قال له : هل ظهر لك هذا ؟ فيقول ذاك المنكر : نعم ظهر لي ، فلا يريد ذلك إلا غضباً لما تقدم له من عظيم غضبه ولدده فيذكر له معنى آخر ثم يقول : هل ظهر لك هذا ؟ فيقول : نعم والله لا يعرج على اعترافه ذلك ويذكر له نوعاً آخر ، ويقول مثل ذلك يريد الزيادة في تبكيته وتخجيله ، وهكذا إلى أن يشتفي – كل ذلك للتنبيه على لدده وكفاية كل نوع منها لما أريد منه من البيان ، وقال في الكشاف : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين أذكاراً واتعاظاً وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحث عليه والبعث على ذلك كله وأن يقرع لهم العصى مرات ويقعقع لهم السن تارات ، لئلا يغلبهم السهود ويستولي عليهم حكم الغفلة ، وهكذا حكم التكريرات لتكون العبر حاضرة للقلوب مصورة للأذهان مذكورة غير منسية في أوان – انتهى ، ولمثل ما مضى أو قريب منه كرر التهويل

بالعذاب ست مرات : أربع منها ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ واثنان منها ﴿ فذوقوا عذابي ونذر ﴾ فهما بمنزلة واحدة من الأربع ليرجع الست إلى الخمس الدال عليها ﴿ مدكر ﴾ إشارة إلى أن الحواس الخمس كما ضربت في الجهات الست لأجل النعم التي هي جلب المصالح ضربت فيها للتذكير بدفع النقم الذي هو درأ المفاسد والتحذير منها ، ومن فوائد تكرر الست الراجعة إلى الخمس مرتين : مرة لجلب النعم وأخرى لدفع النقم أن الحواس مكررة ظاهراً وباطناً ، فمن ذل لسانه بالقرآن ظاهراً صحت حواسه الظاهرة ونورت له الباطنة ، ومن أبى عذب بسبب الباطنة فتفسد الظاهرة ، واختير للموعظتين عدد الست مع إرادة جماعة إلى خمسة لأن الست عدد تام وذلك لأن عدد كسورها إذا جمعت سادتها ولم تزد عنها ولم تنقص وهي النصف والثلث والسدس ، وهذا العدد مساو لدعائم الإسلام الخمس وحظيرته الجهاد التي هي عماد تقوى المتقين أهل مقعد الصدق الذين يؤمنون

(324/736)

بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إلى نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أنزل من قبله المشار به إلى الصيام

﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾ [البقرة: 183] والحج ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً﴾ [البقرة: 125] والجهاد ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ [البقرة: 214] إلى قوله: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ [البقرة: 216] وذلك إشارة إلى أن هذا الدين تام لا زيادة فيه ولا نقص لأن النبي الذي أرسل ختام الأنبياء، وتمام الرسل الأصفياء.

ولما كان قوم عاد قد تكبروا بشدتهم وقوتهم، وكانت حال قريش قريبة من ذلك لقولهم إنهم أمنع العرب وأقواهم وأجمعهم للكمالات وأعلاهم، كرر ذلك في قصتهم مرتين زيادة في تذكير قريش وتحذيرهم ولا سيما وقد كان بدء عذابهم من بلدهم مكة المشرفة كما هو مشروح في قصتهم، وكرر الأمر بالذوق في قصة لوط عليه السلام لأنهم عذبوا بما يردع من كان له قلب بالطمس، فلما لم ينفعهم ذلك أتاهم أكبر منه فكانوا كأمس الدابر، فلكل مرة من العذاب من الأمر بالذوق، وخصوا بالأمر بالذوق لما في فاحشتهم الخبيثة ما يستلذونه، وقد عم عذاب هذه الأمم جميع الجهات بما لقوم نوح ولوط عليهما السلام من جهة الغرق بالماء الماطر وحجارة السجيل ومن البحث من الماء النابع والخسف، وما في عموم عذابهم من استغراق بقية الجهات – والله الهادي. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 7 صـ 348.355﴾

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى أعاد بعض الأنباء فقال : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وازدجر﴾ فيها تهوين وتسلية لقلب محمد صلى الله عليه وسلم فإن حاله كحال من تقدمه وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

إلحاق ضمير المؤنث بالفعل قبل ذكر الفاعل جائز بالاتفاق وحسن ، وإلحاق ضمير الجمع به قبيح عند الأكثرين ، فلا يجوزون كذبوا قوم نوح ، ويجوزون كذبت فما الفرق ؟ نقول : التأنيث قبل الجمع لأن الأنوثة والذكورة للفاعل أمر لا يتبدل ولا تحصل الأنوثة للفاعل بسبب فعلها الذي هو فاعله فليس إذا قلنا : ضربت هذه كانت هذه أنثى لأجل الضرب بخلاف الجمع ، لأن الجمع للفاعلين بسبب فعلهم الذي هم فاعلوه ، فإنا إذا قلنا : جمع ضربوا وهم ضاربون ليس مجرد اجتماعهم في الوجود يصحح قولنا : ضربوا وهم ضاربون ، لأنهم إن اجتمعوا في مكان فهم جمع ، ولكن إن لم يضرب الكل لا يصح قولنا : ضربوا ، فضمير الجمع من الفعل فاعلون جمعهم بسبب الاجتماع في الفعل والفاعلية ، وليس بسبب الفعل ، فلم يجز أن يقال : ضربوا جمع ، لأن الجمع لم يفهم إلا بسبب أنهم ضربوا جميعهم ، فينبغي أن يعلم

أولاً اجتماعهم في الفعل ، فيقول : الضاربون ضربوا ، وأما ضربت هند فصحيح ، لأنه لا يصح أن يقال : التأنيث لم يفهم إلا بسبب أنها ضربت ، بل هي كانت أنثى فوجد منها ضرب فصارت ضاربة ، وليس الجمع كانوا جمعاً فضربوا فصاروا ضاربين ، بل صاروا ضاربين لاجتماعهم في الفعل ولهذا ورد الجمع على اللفظ بعد ورود التأنيث عليه فقيل : ضاربة وضاربات ولم يجمع اللفظ أولاً لأنثى ولا لذكر ، ولهذا لم يحسن أن يقال : ضرب هند ، وحسن بالإجماع ضرب قوم والمسلمون .

المسألة الثانية :

(326/736)

لما قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ﴾ ما الفائدة في قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ﴾ ؟ نقول : الجواب عنه من وجوه الأول : أن قوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ أي بآياتنا وآية الانشقاق فكذبوا الثاني كذبت قوم نوح الرسل وقالوا : لم يبعث الله رسولاً وكذبوهم في التوحيد : فكذبوا عبدنا كما كذبوا غيره وذلك لأن قوم نوح مشركون يعبدون الأصنام ومن يعبد الأصنام يكذب كل رسول وينكر الرسالة لأنه يقول : لا تعلق لله بالعالم السفلي وإنما أمره إلى الكواكب فكان مذهبهم التكذيب فكذبوا الثالث : قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ﴾

للتصديق والرد عليهم تقديره : كذبت قوم نوح وكان تكذيبهم عبدنا أي لم يكن تكذيباً بحق كما يقول القائل : كذبني فكذب صادقاً .

المسألة الثالثة :

كثيراً ما يخص الله الصالحين بالإضافة إلى نفسه كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى ﴾ [الحجر : 42] ﴿ يا عِبَادِى ﴾ [العنكبوت : 56] ﴿ واذْكُرْ عَبْدَنَا ﴾ [ص : 17] ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [يوسف : 24] وكل واحد عبده فما السر فيه ؟ نقول : الجواب عنه من وجوه الأول : ما قيل : في المشهور أن الإضافة إليه تشريف منه فمن خصصه بكونه عبده شرف وهذا كقوله تعالى :

﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ ﴾ [البقرة : 125] وقوله تعالى : ﴿ نَاقَةُ الله ﴾ [الأعراف : 73] الثاني : المراد من عبدنا أي الذي عبدنا فالكل عباد لأنهم مخلوقون للعبادة لقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] لكن منهم من عبد فحقق المقصود فصار عبده ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ كُونُواْ عِبَادًا لّى ﴾ [آل عمران : 79] أي حققوا المقصود الثالث : الإضافة تفيد الحصر فمعنى عبدنا هو الذي لم يقل : بمعبود سوانا ، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهاً فالعبد المضاف هو الذي بكليته في كل وقت لله فأكله وشربه وجميع أموره لوجه الله تعالى وقليل ما هم .

المسألة الرابعة :

ما الفائدة في اختيار لفظ العبد مع أنه لو قال رسولنا لكان أدل على قبح فعلهم ؟ نقول : قوله عبدنا أدل على صدقه وقبح تكذيبهم من قوله رسولنا لو قاله لأن العبد أقل تحريفاً لكلام السيد من الرسول ، فيكون كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل * لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ﴾ [الحاقة : 44 46] .

المسألة الخامسة :

قوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ مَجْنُونٌ ﴾ إشارة إلى أنه أتى بالآيات الدالة على صدقه حيث رأوا ما عجزوا منه ، وقالوا : هو مصاب الجن أو هو لزيادة بيان قبح صنعهم حيث لم يقنعوا بقولهم إنه كاذب ، بل قالوا مجنون ، أي يقول مالا يقبله عاقل ، والكاذب العاقل يقول ما يظن به أنه صادق فقالوا : مجنون أي يقول ما لم يقل به عاقل فبين مبالغتهم في التكذيب .

المسألة السادسة :

﴿ وازدجر ﴾ إخبار من الله تعالى أو حكاية قولهم ، نقول : فيه خلاف منهم من قال : إخبار من الله تعالى وهو عطف على كذبوا ، وقالوا : أي هم كذبوا وهو ازدجر أي أوذي وزجر ، وهو كقوله تعالى : ﴿ كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ ﴾ [الأنعام : 34] وعلى هذا إن قيل : لو

قال كذبوا عبدنا وزجروه كان الكلام أكثر مناسبة ، نقول : لا بل هذا أبلغ لأن المقصود تقوية قلب النبي صلى الله عليه وسلم بذكر من تقدمه فقال : وازدجر أي فعلوا ما يوجب الإنزجار من دعائهم حتى ترك دعوتهم وعدل عن الدعاء إلى الإيمان إلى الدعاء عليهم ، ولو قال : زجروه ما كان يفيد أنه تأذى منهم لأن في السعة يقال : آذوني ولكن ما تأذيت ، وأما أوذيت فهو كاللازم لا يقال إلا عند حصول الفعل لا قبله ، ومنهم من قال : ﴿ وازدجر ﴾ حكاية قولهم أي هم قالوا ازدجر ، تقديره قالوا : مجنون مزدجر ، ومعناه : ازدجره الجن أو كأنهم قالوا : جن وازدجر ، والأول أصح ويترتب عليه قوله تعالى : فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10)

(328/736)

ترتيباً في غاية الحسن لأنهم لما زجروه وانزجر هو عن دعائهم دعا ربه أني مغلوب وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرىء ﴿ إِنِّى ﴾ بكسر الهمزة على أنه دعاء ، فكأنه قال : إني مغلوب ، وبالفتح على معنى بأني .

المسألة الثانية :

ما معنى مغلوب ؟ نقول فيه وجوه الأول : غلبني الكفار فانتصر لي منهم الثاني : غلبتني نفسي وحملتني على الدعاء عليهم فانتصر لي من نفسي ، وهذا الوجه نقله ابن عطية وهو ضعيف الثالث : وجه مركب من الوجهين وهو أحسن منهما وهو أن يقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم لا يدعو على قومه ما دام في نفسه احتمال وحلم ، واحتمال نفسه يمتد ما دام الإيمان منهم محتملاً ، ثم إن يأسه يحصل والاحتمال يفر بعد اليأس بمدة ، بدليل قوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ [الكهف : 6] ، ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حسرات ﴾ [فاطر : 8] وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تخاطبنى فِى الذين ظَلَمُواْ إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ [المؤمنون : 27] فقال نوح : يا إلهي إن نفسي غلبتني وقد أمرتني بالدعاء عليهم فأهلكهم ، فيكون معناه (إني) مغلوب بحكم البشرية أي غلبت وعيل صبري فانتصر لي منهم لا من نفسي .

المسألة الثالثة :

فانتصر معناه انتصر لي أو لنفسك فإنهم كفروا بك وفيه وجوه أحدها : فانتصر لي مناسب لقوله مغلوب ثانيها : فانتصر لك ولدينك فإني غلبت وعجزت عن الانتصار لدينك ثالثها : فانتصر للحق ولا يكون فيه ذكره ولا ذكر ربه ، وهذا يقوله قوي النفس بكون الحق معه ، يقول القائل : اللهم أهلك الكاذب منا ، وانصر المحق منا .

فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11)

عقيب دعائه وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(329/736)

المراد من الفتح والأبواب والسماء حقائقها أو هو مجاز ؟ نقول فيه قولان أحدهما : حقائقها وللسماء أبواب تفتح وتغلق ولا استبعاد فيه وثانيهما : هو على طريق الاستعارة ، فإن الظاهر أن الماء كان من السحاب ، وعلى هذا فهو كما يقول القائل في المطر الوابل جرت ميازيب السماء وفتح أفواه القرب أي كأنه ذلك ، فالمطر في الطوفان كان بحيث يقول القائل فتحت أبواب السماء ، ولا شك أن المطر من فوق كان في غاية الهطلان .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَا ﴾ بيان أن الله انتصر منهم وانتقم بماء لا بجند أنزله ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا على قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السماء وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ [ياس : 28 ، 29] بياناً لكمال القدرة ، ومن العجيب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين فأهلكهم بمطلوبهم .

المسألة الثالثة :

الباء في قوله : ﴿ بِمَاء مُّنْهَمِرٍ ﴾ ما وجهه وكيف موقعه ؟ نقول فيه وجهان أحدهما : كما هي في قول القائل فتحت الباب بالمفتاح وتقديره هو أن يجعل كأن الماء جاء وفتح الباب وعلى هذا تفسير قول من يقول : يفتح الله لك بخير أي يقدر خيراً يأتي ويفتح الباب ، وعلى هذا ففيه لطيفة وهي من بدائع المعاني ، وهي أن يجعل المقصود مقدماً في الوجود ، ويقول كأن مقصودك جاء إلى باب مغلق ففتحه وجاءك ، وكذلك قول القائل : لعل الله يفتح برزق ، أي يقدر رزقاً يأتي إلى الباب الذي كالمغلق فيدفعه ويفتحه ، فيكون الله قد فتحه بالرزق ثانيهما : ﴿ فَتَحْنَا أبواب السماء ﴾ مقرونة ﴿ بِمَاء مُّنْهَمِرٍ ﴾ والانهمار الانسكاب والانصباب صباً شديداً ، والتحقيق فيه أن المطر يخرج من السماء التي هي السحاب خروج مترشح من ظرفه ، وفي ذلك اليوم كان يخرج خروج مرسل خارج من باب .

وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12)

(330/736)

وفيه من البلاغة ما ليس في قول القائل : وفجرنا عيون الأرض ، وهذا بيان التمييز في كثير من المواضع ، إذا قلت ضاق زيد ذرعاً ، أثبت مالا يثبته قولك ضاق ذرع زيد ، وفيه

مسائل :

المسألة الأولى :

قال : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً ﴾ ولم يقل ففتحنا السماء أبواباً ، لأن السماء أعظم من الأرض وهي للمبالغة ، ولهذا قال : ﴿ أبواب السماء ﴾ ولم يقل : أنابيب ولا منافذ ولا مجاري أو غيرها .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً ﴾ فهو أبلغ من قوله : وفجرنا عيون الأرض ، لأنه يكون حقيقة لا مبالغة فيه ، ويكفي في صحة ذلك القول أن يجعل في الأرض عيوناً ثلاثة ، ولا يصلح مع هذا في السماء إلا قول القائل : فأنزلنا من السماء ماء أو مياهاً ، ومثل هذا الذي ذكرناه في المعنى لا في المعجزة ، والحكمة قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الأرض ﴾ [الزمر : 21] حيث لا مبالغة فيه ، وكلامه لا يماثل كلام الله ولا يقرب منه ، غير أني ذكرته مثلاً : ﴿ وَلِلَّهِ المثل الأعلى ﴾ [النحل : 60] .

المسألة الثانية :

العيون في عيون الماء حقيقة أو مجاز ؟ نقول : المشهور أن لفظ العين مشترك ، والظاهر أنها حقيقة في العين التي هي آلة الأبصار ومجاز في غيرها ، أما في عيون الماء فلأنها تشبه العين الباصرة التي يخرج منها الدمع ، أو لأن الماء الذي في العين كالنور الذي في العين غير أنها مجاز مشهور صار غالباً حتى لا يفتقر إلى القرينة عند الاستعمال إلا للتمييز بين العينين ، فكما لا

يحمل اللفظ على العين الباصرة إلا بقرينة ، كذلك لا يحمل على الفوارة إلا بقرينة مثل : شربت من العين واغتسلت منها ، وغير ذلك من الأمور التي توجد في الينبوع ، ويقال : عانه يعينه إذا أصابه بالعين ، وعينه تعييناً ، حقيقته جعله بحيث تقع عليه العين ، وعاينه معاينة وعياناً ، وعين أي صار بحيث تقع عليه العين .

(331/736)

المسألة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَى الماء ﴾ قرىء فالتقى الماءان ، أي النوعان ، منه ماء السماء وماء الأرض ، فتثنى أسماء الأجناس على تأويل صنف ، تجمع أيضاً ، يقال : عندي تمران وتمور وأتمار على تأويل نوعين وأنواع منه والصحيح المشهور : ﴿ فَالْتَقَى الماء ﴾ وله معنى لطيف ، وذلك أنه تعالى لما قال : ﴿ فَفَتَحْنَا أبواب السماء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ ﴾ [القمر : 11] ذكر الماء وذكر الانهمار وهو النزول بقوة ، فلما قال : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً ﴾ كان من الحسن البديع أن يقول : ما يفيد أن الماء نبع منها بقوة ، فقال : ﴿ فَالْتَقَى الماء ﴾ أي من العين فار الماء بقوة حتى ارتفع والتقى بماء السماء ، ولو جرى جرياً ضعيفاً لما كان هو يلتقي مع ماء السماء بل كان ماء السماء يرد عليه ويتصل به ، ولعل المراد من قوله :

﴿ وَفَارَ التنور ﴾ [هود : 40] مثل هذا .

وقوله تعالى : ﴿ على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ فيه وجوه الأول : على حال قد قدرها الله تعالى كما شاء الثاني : على حال قدر أحد الماءين بقدر الآخر الثالث : على سائر المقادير ، وذلك لأن الناس اختلفوا ، فمنهم من قال : ماء السماء كان أكثر ، ومنهم من قال : ماء الأرض ، ومنهم من قال : كانا متساويين ، فقال : على أي مقدار كان ، والأول إشارة إلى عظمة أمر الطوفان ، فإن تنكير الأمر يفيد ذلك ، يقول القائل : جرى على فلان شيء لا يمكن أن يقال إشارة إلى عظمته ، وفيه احتمال آخر ، وهو أن يقال : التقى الماء ، أي اجتمع على أمر هلاكهم ، وهو كان مقدوراً مقدراً ، وفيه رد على المنجمين الذين يقولون إن الطوفان كان بسبب اجتماع الكواكب السبعة حول برج مائي ، والغرق لم يكن مقصوداً بالذات ، وإنما ذلك أمر لزم من الطوفان الواجب وقوعه ، فقال : لم يكن ذلك إلا لأمر قد قدر ، ويدل عليه أن الله تعالى أوحى إلى نوح بأنهم من المغرقين .

وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13)

أي سفينة ، حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه ، إشارة إلى أنها كانت من ألواح مركبة موثقة بدثر ، وكان انفكاكها في غاية السهولة ، ولم يقع فهو بفضل الله ، والدسر المسامير .

تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (14)

وقوله تعالى : ﴿ تَجْرِى ﴾ أي سفينة ذات ألواح جارية ، وقوله تعالى : ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بمرأى منا أو بحفظنا ، لأن العين آلة ذلك فتستعمل فيه .

وقوله تعالى : ﴿ جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ يحتمل وجوهاً أحدها : أن يكون نصبه بقوله : ﴿ حملناه ﴾ أي حملناه جزاء ، أي ليكون ذلك الحمل جزاء الصبر على كفرانهم وثانيها : أن يكون بقوله : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ لأن فيه معنى حفظنا ، أي ما تركناه عن أعيننا وعوننا جزاء له ثالثها : أن يكون بفعل حاصل من مجموع ما ذكره كأنه قال : فتحنا أبواب السماء وفجرنا الأرض عيوناً وحملناه ، وكل ذلك فعلناه جزاء له ، وإنما ذكرنا هذا ، لأن الجزاء ما كان يحصل إلا بحفظه وإنجائه لهم ، فوجب أن يكون جزاء منصوباً بكونه مفعولاً له بهذه الأفعال ، ولنذكر ما فيه من اللطائف في مسائل :

المسألة الأولى :

قال في السماء : ﴿ فَفَتَحْنَا أبواب السماء ﴾ [القمر : 11] لأن السماء ذات الرجع وما لها فطور ، ولم يقل : وشققنا السماء ، وقال في الأرض : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأرض ﴾ [القمر : 12] لأنها ذات الصدع .

الثانية : لما جعل المطر كالماء الخارج من أبواب مفتوحة واسعة ، ولم يقل في الأرض وأجرينا من الأرض بحاراً وأنهاراً ، بل قال : ﴿ عُيُوناً ﴾ والخارج من العين دون الخارج من الباب ذكر في الأرض أنه تعالى فجرها كلها ، فقال : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأرض ﴾ لتقابل كثرة عيون الأرض سعة أبواب السماء فيحصل بالكثرة ههنا ما حصل بالسعة ههنا .

(333/736)

الثالثة : ذكر عند الغضب سبب الإهلاك وهو فتح أبواب السماء وفجر الأرض بالعيون ، وأشار إلى الإهلاك بقوله تعالى : ﴿ على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر : 12] أي أمر الإهلاك ولم يصرح وعند الرحمة ذكر الإنجاء صريحاً بقوله تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ ﴾ وأشار إلى طريق النجاة بقوله : ﴿ ذَاتِ أَلواح ﴾ وكذلك قال في موضع آخر : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطوفان ﴾ [العنكبوت : 14] ، ولم يقل فأهلكوا ، وقال : ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾ [العنبكوت : 15] فصرح بالإنجاء ولم يصرح بالإهلاك إشارة إلى سعة الرحمة وغاية الكرم أي خلقنا سبب الهلاك ولو رجعوا لما ضرهم ذلك السبب كما قال صلى الله عليه وسلم : ﴿ يا بنى اركب مَّعَنَا ﴾ [هود : 42] وعند الإنجاء أنجاه وجعل للنجاة طريقاً وهو اتخاذ السفينة ولو انكسرت لما ضره بل كان ينجيه فالمقصود عند الإنجاء هو النجاة فذكر

المحل والمقصود عند الإهلاك إظهار البأس فذكر السبب صريحاً .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ أبلغ من حفظنا ، يقول القائل اجعل هذا نصب عينك ولا يقول احفظه طلباً للمبالغة .

الخامسة : ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ يحتمل أن يكون المراد بحفظنا ، ولهذا يقال : الرؤية لسان العين .

السادسة : قال : كان ذلك جزاء على ما كفروا به لا على إيمانه وشكره فما جوزي به كان جزاء صبره على كفرهم ، وأما جزاء شكره لنا فباق ، وقرىء : ﴿ جِزَاء ﴾ بكسر الجيم أي مجازاة كقتال ومقاتلة وقرىء : ﴿ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ بفتح الكاف ، وأما : ﴿ كُفِرَ ﴾ ففيه وجهان : أحدهما : أن يكون كفر مثل شكر يعدى بالحرف وبغير حرف يقال شكرته وشكرت له ، قال تعالى : ﴿ واشكروا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة : 152] وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بالطاغوت وَيُؤْمِن بالله ﴾ [البقرة : 256] .

ثانيهما : أن يكون من الكفر لا من الكفران أي جزاء لمن ستر أمره وأنكر شأنه ويحتمل أن يقال : كفر به وترك الظهور المراد .

وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (15)

وفي العائد إليه الضمير وجهان أحدهما : عائد إلى مذكور وهو السفينة التي فيها ألواح وعلى هذا ففيه وجهان أحدهما : ترك الله عينها مدة حتى رؤيت وعلمت وكانت على الجودي بالجزيرة وقيل بأرض الهند وثانيهما : ترك مثلها في الناس يذكر وثاني الوجهين الأولين أنه عائد إلى معلوم أي تركنا السفينة آية ، والأول أظهر وعلى هذا الوجه يحتمل أن يقال : ﴿ تركناها ﴾ أي جعلناها آية لأنها بعد الفراغ منها صارت متروكة ومجعولة يقول القائل : تركت فلاناً مثلة أي جعلته ، لما بينا أنه من فرغ من أمر تركه وجعله فذكر أحد الفعلين بدلاً عن الآخر .

وقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ إشارة إلى أن الأمر من جانب الرسل قد تم ولم يبق إلا جانب المرسل إليهم بأن كانوا منذرين متفكرين يهتدون بفضل الله فهل من مدكر مهتد ، وهذا الكلام يصلح حثاً ويصلح تخويفاً وزجراً ، وفيه مسائل :

(335/736)

الأولى : قال ههنا ﴿ وَلَقَدْ تركناها ﴾ وقال في العنكبوت : ﴿ وجعلناها ءايَةً ﴾ [العنكبوت : 15] قلنا هما وإن كانا في المعنى واحداً على ما تقدم بيانه لكن لفظ الترك يدل

على الجعل والفراغ بالأيام فكأنها هنا مذكورة بالتفصيل حيث بين الإمطار من السماء وتفجير الأرض وذكر السفينة بقوله : ﴿ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر : 13] وذكر جريها فقال : ﴿ تركناها ﴾ إشارة إلى تمام الفعل المقدور وقال هناك ﴿ وجعلناها ﴾ إشارة إلى بعض ذلك فإن قيل : إن كان الأمر كذلك فكيف قال ههنا ﴿ وَحَمَلْنَاهُ ﴾ [القمر : 13] ولم يقل : وأصحابه وقال هناك ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾ ؟ نقول : النجاة ههنا مذكورة على وجه أبلغ مما ذكره هناك لأنه قال : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر : 14] أي حفظنا وحفظ السفينة حفظ لأصحابه وحفظ لأموالهم ودوابهم والحيوانات التي معهم فقوله : ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾ لا يلزم منه إنجاء الأموال إلا ببيان آخر والحكاية في سورة هود أشد تفصيلاً وأتم فلهذا قال : ﴿ قُلْنَا احمل فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ [هود : 40] يعني المحمول ثم قال تعالى : ﴿ واستوت عَلَى الجودى ﴾ [هود : 44] تصريحاً بخلاص السفينة وإشارة إلى خلاص كل من فيها وقوله : ﴿ ءايَةً ﴾ منصوبة على أنها مفعول ثان للترك لأنه بمعنى الجعل على ما تقدم بيانه وهو الظاهر ، ويحتمل أن يقال حال فإنك تقول تركتها وهي آية وهي إن لم تكن على وزن الفاعل والمفعول فهي في معناه كأنه قال : تركناها دالة ، ويحتمل أن يقال : نصبها على التمييز لأنها بعض وجوه الترك كقوله ضربته سوطاً .

المسألة الثانية :

﴿ مُّدَّكِرٍ ﴾ مفتعل من ذكر يذكر وأصله مذتكو (لما) كان مخرج الذال قريباً من مخرج التاء ، والحروف المتقاربة المخرج يصعب النطق بها على التوالي ولهذا إذا نظرت إلى الذال مع التاء عند النطق تقرب الذال من أن تصير تاء والتاء تقرب من أن تصير دالاً فجعل التاء دالاً ثم أدغمت الدال فيها ومنهم من قرأ على الأصل مذتكر ومنهم من قلب التاء دالاً وقرأ مذدكر ومن اللغويين من يقول في مدكر مذدكر فيقلب التاء ولا يدغم ولكل وجهة ، والمدكر المعتبر المتفكر ، وفي قوله : ﴿ مُّدَّكِرٍ ﴾ إما إشارة إلى ما في قوله : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ [الأعراف : 172] أي هل من يتذكر تلك الحالة وإما إلى وضوح الأمر كأنه حصل للكل آيات الله ونسوها ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ يتذكر شيئاً منها .

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (16)

وفيه وجهان أحدهما : أن يكون ذلك استفهاماً من النبي صلى الله عليه وسلم تنبيهاً له ووعداً بالعاقبة وثانيهما : أن يكون عاماً تنبيهاً للخلق ونذر أسقط منه ياء الإضافة كما حذف ياء يسري في قوله تعالى : ﴿ والليل إِذَا يَسْرِ ﴾ [الفجر : 4] وذلك عند الوقف ومثله كثير كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِيَّايَ فاعبدون ﴾ [العنكبوت : 51] ﴿ وَلاَ هُمْ

يُنقَذُونَ ﴾ [ياس : 43] ﴿ يا عباد فاتقون ﴾ [الزمر : 16] وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة : 152] وقرىء بإثبات الياء : ﴿ عَذَابِى ونذري ﴾ وفيه مسائل :

(337/736)

الأولى : ما الذي اقتضى الفاء في قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ ﴾ ؟ نقول : أما إن قلنا إن الاستفهام من النبي صلى الله عليه وسلم ، فكأنه تعالى قال له قد علمت أخبار من كان قبلك فكيف كان أي بعد ما أحاط بهم علمك بنقلها إليك ، وأما إن قلنا الاستفهام عام فنقول لما قال : ﴿ هَلْ مِنْ مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : 15] فرض وجودهم وقال : يا من يتذكر ، وعلم الحال بالتذكير : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى ﴾ ويحتمل أن يقال : هو متصل بقوله : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ تقديره مدكر كيف كان عذابي .

المسألة الثانية :

ما رأوا العذاب ولا النذر فكيف استفهم منهم ؟ نقول : أما على قولنا الاستفهام من النبي صلى الله عليه وسلم فقد علم لما علم ، وأما على قولنا عام فهو على تقدير الإدكار وعلى تقدير الإدكار يعلم الحال ، ويحتمل أن يقال : إنه ليس باستفهام وإنما هو إخبار عن عظمة الأمر كما في قوله تعالى : ﴿ الحاقة * مَا الحاقة ﴾ [الحاقة : 1 ، 2] و ﴿ القارعة * مَا

القارعة ﴾ [القارعة : 1 ، 2] وهذا لأن الاستفهام يذكر للإخبار كما أن صيغة هل تذكر للاستفهام فيقال زيد في الدار ؟ بمعنى هل زيد في الدار ، ويقول المنجز وعده هل صدقت ؟ فكأنه تعالى قال : عذابي وقع وكيف كان أي كان عظيماً وحينئذ لا يحتاج إلى علم من يستفهم منه .

المسألة الثالثة :

(338/736)

قال تعالى من قبل : ﴿ فَفَتَحْنَا ، وَفَجَّرْنَا ، وبأعيننا ﴾ ولم يقل كيف كان عذابنا نقول لوجهين أحدهما : لفظي وهو أن ياء المتكلم يمكن حذفها لأنها في اللفظ تسقط كثيراً فيما إذا التقى ساكنان ، تقول : غلامي الذي ، وداري التي ، وهنا حذفت لتواخي آخر الآيات ، وأما النون والألف في ضمير الجمع فلا تحذف وأما الثاني : وهو المعنوي فنقول : إن كان الاستفهام من النبي صلى الله عليه وسلم فتوحيد الضمير للأنباء ، وفي فتحنا وفجرنا لترهيب العصاة ، ونقول : قد ذكرنا أن قوله : ﴿ مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : 15] فيه إشارة إلى قوله : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : 172] فلما وحد الضمير بقوله : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ ﴾ قال فكيف كان .

المسألة الرابعة :

النذر جمع نذير فهل هو مصدر كالنسيب والنحيب أو فاعل كالكبير والصغير ؟ نقول : أكثر المفسرين على أنه مصدر ههنا ، أي كيف كان عاقبة عذابي وعاقبة إنذاري والظاهر أن المراد الأنباء ، أي كيف كان عاقبة أعداء الله ورسله ؟ هل أصاب العذاب من كذب الرسل أم لا ؟ فإذا علمت الحال يا محمد فاصبر فإن عاقبة أمرك كعاقبة أولئك النذر ولم يجمع العذاب لأنه مصدر ولو جمع لكان في جمعه تقدير وفرض ولا حاجة إليه ، فإن قيل : قوله تعالى : (كذبت ثمود بالنذر) أي بالإنذارات لأن الإنذارات جاءتهم ، وأما الرسل فقد جاءهم واحد ، نقول : كل من تقدم من الأمم الذين أشركوا بالله كذبوا بالرسل وقالوا : ما أنزل الله من شيء وكان المشركون مكذبين بالكل ما خلا إبراهيم عليه السلام فكانوا يعتقدون فيه الخير لكونه شيخ المرسلين فلا يقال (كذبت ثمود بالنذر) ، أي بالأنبياء بأسرهم ، كما أنكم أيها المشركون تكذبون بهم .

ثم قال تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ وفيه وجوه الأول : للحفظ فيمكن حفظه ويسهل ، ولم يكن شيء من كتب الله تعالى يحفظ على ظهر القلب غير القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي هل من يحفظ ويتلوه الثاني : سهلناه للاتعاظ حيث أتينا فيه بكل حكمة الثالث : جعلناه بحيث يعلق بالقلوب ويستلذ سماعه ومن لا يفهم يتفهمه ولا يسأم من سمعه وفهمه ولا يقول قد علمت فلا أسمعه بل كل ساعة يزداد منه لذة وعلماً .

الرابع : وهو الأظهر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر بحال نوح عليه السلام وكان له معجزة قيل له : إن معجزتك القرآن ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءانَ لِلذِّكْرِ ﴾ تذكرة لكل أحد وتتحدى به في العالم ويبقى على مرور الدهور ، ولا يحتاج كل من يحضرك إلى دعاء ومسألة في إظهار معجزة ، وبعدك لا ينكر أحد وقوع ما وقع كما ينكر البعض انشقاق القمر ، وقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي متذكر لأن الافتعال والتفعل كثيراً ما يجيء بمعنى ، وعلى هذا فلو قال قائل : هذا يقتضي وجود أمر سابق فنسي ، نقول : ما في الفطرة من الانقياد للحق هو كالمنسي فهل من مدكر يرجع إلى ما فطر عليه وقيل : فهل من مدكر أي حافظ أو متعظ على ما فسرنا به قوله تعالى : ﴿ يَسَّرْنَا القرءانَ لِلذِّكْرِ ﴾ وقوله : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ وعلى قولنا المراد متذكر إشارة إلى ظهور الأمر فكأنه لا يحتاج إلى نكر ، بل هو أمر حاصل عنده لا يحتاج إلى معاودة ما عند غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 31.39 ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) ﴾

سوق هذه القصة وعيد لقريش وضرب مثل لهم ، وقوله : ﴿ وازدجر ﴾ إخبار من الله أنهم زجروا نوحاً بالسب والنجه والتخويف ، قاله ابن زيد وقرأ : ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ [الشعراء : 116] ، وذهب مجاهد إلى أن ﴿ وازدجر ﴾ من كلام ﴿ قوم نوح ﴾ ، كأنهم قالوا ﴿ مجنون وازدجر ﴾ ، والمعنى : استطير جنوناً واستعر جنوناً ، وهذا قول فيه تعسف وتحكم .

وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم والأعرج والحسن " أني " بفتح الألف ، أي " بأنه " كان دعاءه كان هذا المعنى . وقرأ عاصم أيضاً وابن أبي إسحاق وعيسى " إني " بكسر الألف كأن دعاءه كان هذا اللفظ قال سيبويه : المعنى قال إني .

وذهب جمهور المفسرين إلى أن المعنى أني قد غلبني الكفار بتكذيبهم وتخويفهم ، انتصر لي منهم بأن تهلكهم ، ويحتمل أن يريد : فانتصر لنفسك إذ كذبوا رسولك . ويؤيده قول ابن عباس إن المراد بقوله : لمن كان كفر الله تعالى ، فوقعت الإجابة على نحو ما دعا نوح عليه السلام ، وذهبت المتصوفة إلى أن المعنى : إني قد غلبتني نفسي في إفراطي في الدعاء على قومي فانتصر مني يا رب بمعاقبة إن شئت . والقول الأول هو الحق إن شاء الله يدل على

ذلك اتصال قوله : ﴿ ففتحنا ﴾ الآية ، وذلك هو الانتصار في الكفار .

وقرأ جمهور القراء : " ففتَحنا " بتخفيف التاء . وقرأ ابن عامر وأبو جعفر والأعرج : " ففتّحنا " بشدها على المبالغة ورجحها أبو حاتم لقوله تعالى : ﴿ مفتحة لهم الأبواب ﴾ [ص : 50] ، قال النقاش : يعني بالأبواب المجرة وهي شرج السماء كشرج العبية ، وقال قوم من أهل التأويل : الأبواب حقيقة فتحت في السماء أبواب جرى منها الماء . وقال جمهور المفسرين : بل هو مجاز وتشبيه ، لأن المطر كثر كأنه من أبواب . والمنهمر الشديد الوقوع الغزير . قال امرؤ القيس : [الرمل]

راح تمْريه الصبا ثم انتحى . . . فيه شؤبوب جنوب منهمر

وقرأ الجمهور : " وفجّرنا " بشد الجيم . وقرأ ابن مسعود وأصحابه وابو حيوة عن عاصم " وفجَرنا " بتخفيفها . وقرأ الجمهور " فالتقى الماء " على اسم الجنس الذي يعم ماء السماء وماء العيون . وقرأ الحسن وعلي بن أبي طالب وعاصم الجحدري . " فالتقى الماءان " ويروى عن الحسن : " فالتقى الماوان " .

وقوله : ﴿ على أمر قد قدر ﴾ قال فيه الجمهور على رتبة وحالة قد قدرت في الأزل

وقضيت . وقال جمهور من المتأولين المعنى : على مقادير قد قدرت ورتبت وقت التقائه ، ورووا أن ماء الأرض علا سبعة عشر ذراعاً وكان ماء السماء ينزل عليه بقية أربعين ذراعاً أو نحو هذا لأنه مما اختلفت فيه الروايات ولا خبر يقطع العذر في شيء من هذا التحرير .

وقرأ أبو حيوة : " قدّر " بشد الدال . وذات الألواح والدسر : هي السفينة قيل كانت ألواحها وخشبها من ساج ، والدسر : المسامير ، واحدها : دسار ، وهذا هو قول الجمهور ، وهو عندي من الدفع المتتابع ، لأن المسمار يدفع أبداً حتى يستوي . وقال الحسن وابن عباس أيضاً : الدسر : مقادم السفينة ، لأنها تدسر الماء أي تدفعه والدسر : الدفع . وقال مجاهد وغيره : نطق السفينة . وقال أيضاً : هو أرض السفينة . وقال أيضاً : أضلاع السفينة ، وقد تقدم القول في شرح قصة السفينة مستوعباً ، وجمهور الناس على أنها كانت على هيئة السفن اليوم كجؤجؤ الطائر ، وورد في بعض الكتب أنها كانت مربعة ، طويلة في السماء ، واسعة السفل ، ضيقة العلو ، وكان أعلاها مفتوحاً للهواء والتنفس ، قال : لأن الغرض منها إنما كانت السلامة حتى ينزل الماء ، ولم يكن طلب الجري وقصد المواضع المعينة ، ومع هذه الهيئة فلها مجرى ومرسى ، والله أعلم كيف كانت ، والكل محتمل .

وقوله : ﴿ بأعيننا ﴾ قال الجمهور معناه : بحفظنا وحفايتنا وتحت نظرنا لأهلها ، فسمى هذه الأشياء أعيناً تشبيهاً ، إذ الحافظ المتحفي من البشر إنما يكون ذلك الأمر نصب عينه ، وقيل المراد من حفظها من الملائكة سماهم عيوناً ، وقال الرماني وقيل إن قوله : ﴿ بأعيننا ﴾ يريد العيون المفجرة من الأرض .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف .

وقرأ أبو السمال : " بأعينا " مدغمة . وقرأ جمهور الناس : "كُفِر " بضم الكاف وكسر الفاء ، واختلفوا في المعنى فقال ابن عباس ومجاهد : " من " ، يراد بها الله تعالى كأنه قال : غضباً وانتصاراً لله ، أي انتصر لنفسه فأنجى المؤمنين وأغرق الكافرين . وقال مكي وقيل " من " ، يراد بها نوح والمؤمنين ، لأنهم كفروا من حيث كفر بهم فجازاهم الله بالنجاة . وقرأ يزيد بن رومان وعيسى وقتادة : "كَفَر " بفتح الكاف والفاء ، والضمير في : ﴿ تركناها ﴾ قال مكي بن أبي طالب هو عائد على هذه الفعلة والقصة . وقال قتادة والنقاش وغيره : هو عائد على هذه السفينة ، قالوا وإن الله تعالى أرسلها على الجودي حين تطاولت الجبال وتواضع وهو جبيل بالجزيرة بموضع يقال له باقردى ، وأبقى خشبها هنالك حتى رأت بعضه أوائل هذه الأمة . وقال قتادة : وكم من سفينة كانت بعدها صارت رصودا و: ﴿ مدكر ﴾ أصله : مذتكر ، أبدلوا من التاء ذالاً ليناسب الدال في النطق ، ثم أدغموا

الدال في الدال ، وهي قراءة الناس ، قال أبو حاتم : رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد صحيح وقرأ قتادة : " مذكر " بالذال على إدغام الثاني في الأول ، قال أبو حاتم : وذلك رديء ويلزمه أن يقرأ واذكر بعد أمة وتذخرون في بيوتكم .

وقوله تعالى : ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ توقيف لقريش وتوبيخ ، والنذر : جمع نذير ، المصدر بمعنى كان عاقبة إنذاري لمن لم يجعل به كأنتم أيها القوم .

(343/736)

و : ﴿ يسرنا القرآن ﴾ معناه : سهلناه وقربناه و" الذكر " : الحفظ عن ظهر قلب ، قال ابن جبير : لم يستظهر من كتب الله سوى القرآن .

قال القاضي أبو محمد : يسر بما فيه من حسن النظم وشرف المعاني فله لوطة بالقلوب ، وامتزاج بالعقول السليمة .

وقوله : ﴿ فهل من مدكر ﴾ استدعاء وحض على ذكره وحفظه لتكون زواجره وعلومه وهداياته حاضرة في النفس . قال مطرف في قوله تعالى : ﴿ فهل من مدكر ﴾ هل من طالب علم فيعان عليه .

قال القاضي أبو محمد : الآية تعديد نعمة في أن الله يسر الهدى ولا بخل من قبله ، فلله در من

قبل وهدى . وقد تقدم تعليل : ﴿ مدكر ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(344/736)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾

ذكر جملاً من وقائع الأمم الماضية تأنيساً للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتعزية له .

﴿ قَبْلَهُمْ ﴾ أي قبل قومك .

﴿ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ﴾ يعني نوحاً .

الزَّمَخْشَرِيُّ : فإن قلت ما معنى قوله : ﴿ فَكَذَّبُواْ ﴾ بعد قوله : ﴿ كَذَّبَتْ ﴾ ؟ قلت : معناه كذّبوا فكذَّبوا عبدنا ؛ أي كذّبوه تكذيباً على عقب تكذيب ؛ كلما مضى منهم قَرْن مكذِّب تبعه قَرْن مكذّب ، أو كذّبت قوم نوح الرسل فكذّبوا عبدنا ؛ أي لما كانوا مكذِّبين بالرسل جاحدين للنبوة رأساً كذّبوا نوحاً لأنه من جملة الرسل .

﴿ وَقَالُواْ مَجْنُونٌ ﴾ أي هو مجنون ﴿ وازدجر ﴾ أي زجر عن دعوى النبوة بالسبّ والوعيد بالقتل .

وقيل إنما قال : ﴿ وازدجر ﴾ بلفظ ما لم يسم فاعله لأنه رأس آية .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ أي دعا عليهم حينئذ نوح وقال : رَبِّ ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ ﴾ أي غلبوني بتمردهم ﴿ فانتصر ﴾ أي فانتصر لي .

وقيل : إن الأنبياء كانوا لا يدعون على قومهم بالهلاك إلا بإذن الله عز وجل لهم فيه .

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السمآء ﴾ أي فأجبنا دعاءه وأمرناه باتخاذ السفينة وفتحنا أبواب السماء ﴿ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ أي كثير ؛ قاله السدّي .

قال الشاعر :

أعينيّ جُودَا بالدُّموعِ الهَوَامرِ . . .

على خيرِ بادٍ من مَعَدٍّ وحاضِرِ

وقيل : إنه المنصبّ المتدفّق ؛ ومنه قول امرىء القيس يصف غيثاً :

رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ثم انتحى . . .

فيه شُؤْبُوبُ جَنُوبٍ مُنْهَمِرْ

الهَمْر الصبّ ؛ وقد هَمَر الماءَ والدَّمْعَ يَهْمِرُ هَمْراً .

وهَمَر أيضاً إذا أكثر الكلام وأسرع .

وهَمَر له من ماله أي أعطاه .

قال ابن عباس : ففتحنا أبواب السماء بماء (مُنْهَمِرٍ) من غير سحاب لم يقلع أربعين يوماً .

وقرأ ابن عامر ويعقوب : "فَفَتَّحْنَا" مشدّدة على التكثير .

الباقون "فَفَتَحْنَا" مخفَّفاً .

ثم قيل : إنه فتح رتاجها وسعة مسالكها .

(345/736)

وقيل : إنه المجرَّة وهي شَرَج السماء ومنها فتحت بماء منهمر ؛ قاله عليّ رضي الله عنه .

﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرض عُيُوناً ﴾ قال عُبَيد بن عُمير : أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها فتفجّرت بالعيون ، وإن عيناً تأخّرت فغضب عليها فجعل ماءها مُرّاً أُجاجاً إلى يوم القيامة .

﴿ فَالْتَقَى المآء ﴾ أي ماء السماء وماء الأرض ﴿ على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر ؛ حكاه ابن قتيبة .

أي كان ماء السماء والأرض سواء .

وقيل : "قُدِرَ" بمعنى قضى عليهم .

قال قتادة : قدر لهم إذا كفروا أن يَغْرَقُوا .

وقال محمد بن كعب : كانت الأقوات قبل الأجساد ، وكان القدر قبل البلاء ؛ وتلا هذه

الآية.

وقال: "الْتَقَى الْمَاءُ" والالتقاء إنما يكون في اثنين فصاعداً؛ لأن الماء يكون جمعاً وواحداً.

وقيل: لأنهما لما اجتمعا صارا ماء واحداً.

وقرأ الجحَدْري: "فَالْتَقَى الْمَاءَانِ".

وقرأ الحسن: "فَالْتَقَى الْمَاوَانِ" وهما خلاف المرسوم.

القُشيري: وفي بعض المصاحف "فَالْتَقَى الْمَاوَانِ" وهي لغة طيّىء.

وقيل: كان ماء السماء بارداً مثل الثلج وماء الأرض حاراً مثل الحميم.

﴿ وَحَمَلْنَاهُ على ذَاتِ أَلْوَاحٍ ﴾ أي على سفينة ذات ألواحٍ.

﴿ وَدُسُرٍ ﴾ قال قتادة: يعني المسامير التي دُسِرت بها السفينة أي شدّت؛ وقاله القُرَظِيّ وابن زيد وابن جبير، ورواه الوالبي عن ابن عباس.

وقال الحسن وشَهْر بن حَوْشَب وعكرمة: هي صدر السفينة التي تضرب بها المَوْج سُمِّيت بذلك لأنها تَدْسُر الماء أي تدفعه، والدَّسْرُ الدّفع والمَخْر؛ ورواه العَوْفي عن ابن عباس قال: الدَّسْر كَلْكَلُ السفينة.

وقال الليث: الدِّسار خيط من ليف تُشد به ألواح السفينة.

وفي الصحاح: الدِّسار واحد الدُّسر وهي خيوط تشدّ بها ألواح السفينة، ويقال: هي

المسامير ، وقال تعالى : ﴿ على ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ .

ودُسْر أيضاً مثل عُسُر وعُسْر .

(346/736)

والدَّسْر الدفع ؛ قال ابن عباس في العنبر : إنما هو شيء يَدْسُره البحر دَسْراً أي يدفعه .

ودَسَره بالرمح .

ورجل مِدْسر .

﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بمرأىً منَّا .

وقيل : بأمرنا .

وقيل : بحفظ منّا وكِلاَءة : وقد مضى في "هود" .

ومنه قول الناس للمودَّع : عين الله عليك ؛ أي حفظه وكِلاءته .

وقيل : بوَحينا .

وقيل : أي بالأعين النابعة من الأرض .

وقيل : بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها ، وكل ما خلق الله تعالى يمكن أن يضاف إليه .

وقيل : أي تجرى بأوليائنا ، كما في الخبر : مرض عين من عيوننا فلم تعده .

﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ أي جعلنا ذلك ثواباً وجزاء لنوح على صبره على أذى قومه وهو المكفور به ؛ فاللام في "لِمَنْ" لام المفعول له ؛ وقيل : "كُفِرَ" أي جحد ؛ ف "من" كناية عن نوح .

وقيل : كناية عن الله والجزاء بمعنى العقاب ؛ أي عقاباً لكفرهم بالله تعالى .

وقرأ يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد "جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كَفَرَ" بفتح الكاف والفاء بمعنى : كان الغرق جزاءً وعقاباً لمن كفر بالله ، وما نجا من الغرق غير عوج بن عنق ؛ كان الماء إلى حُجْزته .

وسبب نجاته أن نوحاً احتاج إلى خشبة الساج لبناء السفينة فلم يمكنه حملها ، فحمل عُوجٌ تلك الخشبة إليه من الشام فشكر الله له ذلك ، ونَجّاه من الغرق .

﴿ وَلَقَدْ تَّرَكْنَاهَا آيَةً ﴾ يريد هذه الفعلة عبرةً .

وقيل : أراد السفينة تركها آية لمن بعد قوم نوح يعتبرون بها فلا يكذّبون الرسل .

قال قتادة : أبقاها الله ببَاقِرْدَى من أرض الجزيرة عبرة وآية ، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة ، وكم من سفينة كانت بعدها فصارت رماداً .

﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ مُتَّعظ خائف ، وأصله مُذْتَكِر مُفْتَعِل من الذكر ، فثقلت على

الألسنة فقلبت التاء دالاً لتوافق الذال في الجهر وأدغمت الذال فيها .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أي إنذاري ؛ قال الفراء : الإنذار والنذر مصدران .

(347/736)

وقيل : "نُذُر" جمع نذير ونذير بمعنى الإنذار كنكير بمعنى الإنكار .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآنَ للذِّكْرِ ﴾ أي سهلناه للحفظ وأعنّا عليه من أراد حفظه ؛ فهل من طالب لحفظه فيعان عليه ؟ ويجوز أن يكون المعنى : ولقد هيّأناه للذكر مَأْخوذ من يَسَّر ناقته للسَّفر : إذا رَحَلها ، ويَسَّر فرسه للغزو إذا أسرجه وألجمه ؛ قال :

وقُمْتُ إليهِ باللِّجامِ مُيَسِّراً . . .

هُنَالكَ يَجْزِيني الذي كنتُ أَصْنَعُ

وقال سعيد بن جبير : ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن ؛ وقال غيره : ولم يكن هذا لبني إسرائيل ، ولم يكونوا يقرؤون التوراة إلا نظراً ، غير موسى وهارون ويوشع بن نون وعزير صلوات الله عليهم ، ومن أجل ذلك افتتنوا بعزير لما كتب لهم التوراة عن ظهر قلبه حين أحرقت ؛ على ما تقدّم بيانه في صورة "براءة" فيسّر الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ليذّكّروا ما فيه ؛ أي يفتعلوا الذّكر ، والافتعال هو أن ينجع فيهم ذلك حتى يصير

كالذات وكالتركيب فيهم .

﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ قارىء يقرؤه .

وقال أبو بكر الوراق وابن شَوْذب : فهل من طالب خير وعلم فيعانَ عليه ، وكرّر في هذه السورة للتنبيه والإفهام .

وقيل : إن الله تعالى اقتص في هذا السورة على هذه الأمة أنباء الأمم وقصص المرسلين ، وما عاملتهم به الأمم ، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المرسلين ، فكان في كل قصة ونبأ ذكْر للمستمع أن لو ادكر ، وإنما كرّر هذه الآية عند ذكر كل قصة بقوله : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ لأن "هَلْ" كلمة استفهام تستدعي أفهامهم التي ركبت في أجوافهم وجعلها حجة عليهم ؛ فاللام من "هَلْ" للاستعراض والهاء للاستخراج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(348/736)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) ﴾

قال : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ .

وممن عاين انشقاق القمر ابن مسعود جبير بن مطعم ، وأخبر به ابن عمر وأنس وحذيفة وابن عباس .

وحين أرى الله الناس انشقاق القمر ، قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : "اشهدوا" ، وقال المشركون إذ ذاك : سحرنا محمد .

وقال بعضهم : سحر القمر .

والأمة مجمعة على خلاف من زعم أن قوله : ﴿ وانشق القمر ﴾ معناه : أنه ينشق يوم القيامة ، ويرده من الآية قوله : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ .

فلا يناسب هذا الكلام أن يأتي إلا بعد ظهور ما سألوه معيناً من انشقاق القمر .

وقيل : سألوا آية في الجملة ، فأراهم هذه الآية السماوية ، وهي من أعظم الآيات ، وذلك التأثير في العالم العلوي .

وقرأ حذيفة : وقد انشق القمر ، أي اقتربت ، وتقدم من آيات اقترابها انشقاق القمر ، كما تقول : أقبل الأمير وقد جاء المبشر بقدومه .

وخطب حذيفة بالمدائن ، ثم قال : ألا إن الساعة قد اقتربت ، وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم ، ولا التفات إلى قول الحسن أن المعنى : إذ جاءت الساعة انشق القمر بعد النفخة الثانية ، ولا إلى قول من قال : إن انشقاقه عبارة عن انشقاق الظلمة عند طلوعه في أثنائها ، فالمعنى : ظهر الأمر ، فإن العرب تضرب بالقمر مثلاً فيما وضح ، كما يسمى

الصبح فلقاً عند انفلاق الظلمة عنه ، وقد يعبر عن الانفلاق بالانشقاق .

قال النابغة :

فلما أدبروا ولهم دويّ . . .

دعانا عند شق الصبح داعي

وهذه أقوال فاسدة ، ولولا أن المفسرين ذكروها ، لأضربت عن ذكرها صفحاً .

﴿ وإن يروا آية يعرضوا ﴾ ، وقرىء : وإن يروا مبنياً للمفعول : أي من شأنهم وحالتهم أنهم متى رأوا ما يدل على صدق الرسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الآيات الباهرة أعرضوا عن الإيمان به وبتلك الآية .

(349/736)

وجاءت الجملة شرطية ليدل على أنهم في الاستقبال على مثل حالهم في الماضي ، ويقولوا : ﴿ سحر مستمر ﴾ : أي دائم ، ومنه قول الشاعر :

ألا إنما الدنيا ليال وأعصر . . .

وليس على شيء قويم بمستمر

لما رأوا الآيات متوالية لا تنقطع ، قالوا ذلك .

وقال أبو العالية والضحاك والأخفش : مستمر : مشدود موثق من مرائر الحبل ، أي سحر قد أحكم ، ومنه قول الشاعر :

حتى استمرت على سر مريرته . . .

صدق العزيمة لا رياً ولا ضرعا

وقال أنس ويمان ومجاهد والكسائي والفراء ، واختاره النحاس : مستمر : مار ذاهب زائل عن قريب ، عللوا بذلك أنفسهم .

وقيل مستمر : شديد المرارة ، أي مستبشع عندنا مر ، يقال : مر الشيء وأمر ، إذا صار مراً ، وأمر غيره ومره ، يكون لازماً ومتعدياً .

وقيل : مستمر : يشبه بعضه بعضاً ، أي استمرت أفعاله على هذا الوجه من التخيلات .

وقيل : مستمر : مار من الأرض إلى السماء ، أي بلغ من سحره أنه سحر القمر .

﴿ وكذبوا ﴾ : أي بالآيات وبمن جاء بها ، أي قالوا هذا سحر مستمر سحرنا محمد .

﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ : أي شهوات أنفسهم وما يهوون .

﴿ وكل أمر مستقر ﴾ ، بكسر القاف وضم الراء : مبتدأ وخبر .

قال مقاتل : أي له غاية ينتهي إليها .

وقال الكلبي : مستقرّ له حقيقة ، فما كان في الدنيا فسيظهر ، وما كان في الآخرة فسيعرف .

وقال قتادة : معناه أن الخير يستقر بأهل الخير ، والشر بأهل الشر .

وقيل : يستقر الحق ظاهراً ثابتاً ، والباطل زاهقاً ذاهباً .

وقيل : كل أمر من أمرهم وأمره يستقر على خذلان أو نصرة في الدنيا وسعادة ، أو شقاوة في الآخرة .

وقرأ شيبة : مستقر بفتح القاف ، ورويت عن نافع ؛ وقال أبو حاتم : لا وجه لفتح القاف . انتهى .

وخرجت على حذف مضاف ، أي ذو استقرار ، وزمان استقرار .

وقرأ أبو جعفر وزيد بن علي : مستقر بكسر القاف والراء معاً صفة لأمر .

(350/736)

وخرجه الزمخشري على أن يكون وكل عطفاً على الساعة ، أي اقتربت الساعة ، واقترب كل أمر مستقر يستقر ويتبين حاله ، وهذا بعيد لطول الفصل بجمل ثلاث ، وبعيد أن يوجد مثل هذا التركيب في كلام العرب ، نحو : أكلت خبزاً وضربت زيداً ، وأن يجيء زيد أكرمه ورحل إلى بني فلان ولحماً ، فيكون ولحماً عطفاً على خبزاً ، بل لا يوجد مثله في كلام العرب .

وخرجه صاحب اللوامح على أنه خبر لكل ، فهو مرفوع في الأصل ، لكنه جر للمجاورة ، وهذا ليس بجيد ، لأن الخفض على الجوار في غاية الشذوذ ، ولأنه لم يعهد في خبر المبتدأ ، إنما عهد في الصفة على اختلاف النحاة في وجوده ، والأسهل أن يكون الخبر مضمراً لدلالة المعنى عليه ، والتقدير : ﴿ وكل أمر مستقر ﴾ بالغوه ، لأن قبله : ﴿ وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾ : أي وكل أمر مستقر لهم في القدر من خير أو شر بالغه هم .

وقيل : الخبر حكمة بالغة ، أي وكل أمر مستقر حكمة بالغة .

ويكون : ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ﴾ اعتراض بين المبتدأ وخبره .

﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ﴾ : أي من الأخبار الواردة في القرآن في إهلاك من كذب الأنبياء وما يؤولون إليه في الآخرة ، ﴿ ما فيه مزدجر ﴾ : أي ازدجار رادع لهم عن ما هم فيه ، أو موضع ازدجار وارتداع ، أي ذلك موضع ازدجار ، أو مظنة له .

وقرىء مزجر ، بإبدال تاء الافتعال زاياً وإدغام الزاي فيها .

وقرأ زيد بن علي : مزجر اسم فاعل من أزجر ، أي صار ذا زجر ، كأعشب : أي صار ذا عشب .

وقرأ الجمهور : ﴿ حكمة بالغة ﴾ برفعهما ، وجوزوا أن تكون حكمة بدلاً من مزدجر أو من ما ، أو خبر مبتدأ محذوف ، وتقدم قول من جعله خبراً عن كل في قراءة من قرأ مستقر بالجر .

وقرأ اليماني : حكمة بالغة بالنصب فيهما حالاً من ما ، سواء كانت ما موصولة أم موصوفة تخصصت بالصفة ، ووصفت الحكمة ببالغة لأنها تبلغ غيرها .

﴿ فما تغنى النذر ﴾ مع هؤلاء الكفرة .

(351/736)

ثم سلى رسوله (صلى الله عليه وسلم) فقال : ﴿ فتول عنهم ﴾ أي أعرض عنهم ، فإن الإنذار لا يجدي فيهم .

ثم ذكر شيئاً من أحوال الآخرة وما يؤولون إليه ، إذ ذاك متعلق باقتراب الساعة ، فقال : ﴿ يوم يدعو الداعي ﴾ ، والناصب ليوم اذكر مضمرة ، قاله الرماني ، أو يخرجون .

وقال الحسن : المعنى : فتول عنهم إلى يوم ، وهذا ضعيف من جهة اللفظ ومن جهة المعنى .

أما من جهة اللفظ فحذف إلى ، وأما من جهة المعنى فإن توليه عنهم ليس مغياً بيوم يدع الداع .

وجوزوا أن يكون منصوباً بقوله : ﴿ فما تغني النذر ﴾ ، ويكون ﴿ فتول عنهم ﴾ اعتراضاً ، وأن يكون منصوباً بقوله : ﴿ يقول الكافرون ﴾ ، ومنصوباً على إضمار انتظر

، ومنصوباً بقوله : ﴿ فتول ﴾ ، وهذا ضعيف جداً ، ومنصوباً بمستقر ، وهو بعيد أيضاً .

وحذفت الواو من يدع في الرسم اتباعاً للنطق ، والياء من الداع تخفيفاً أجريت أل مجرى ما عاقبها ، وهو التنوين .

فكما تحذف معه حذفت معها ، والداع هو إسرافيل ، أو جبرائيل ، أو ملك غيرهما موكل بذلك ، أقوال .

وقرأ الجمهور : ﴿ نكر ﴾ بضم الكاف ، وهو صفة على فعل ، وهو قليل في الصفات ، ومنه رجل شلل : أي خفيف في الحاجة ، وناقة أجد ، ومشية سجح ، وروضة أنف .

وقرأ الحسن وابن كثير : وشبل بإسكان الكاف ، كما قالوا : شغل وشغل ، وعسر وعسر .

وقرأ مجاهد وأبو قلابة والجحدري وزيد بن علي : نكر فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول ، أي جهل فنكر .

وقال الخليل : النكر نعت للأمر الشديد ، والوجل الداهية ، أي تنكره النفوس لأنها لم تعهد مثله ، وهو يوم القيامة .

قال مالك بن عوف النضري :

أقدم محاج أنه يوم نكر . . .

مثلي على مثلك يحمي ويكر

وقرأ قتادة وأبو جعفر وشيبة والأعرج والجمهور : خشعاً جمع تكسير ؛ وابن عباس وابن جبير ومجاهد والجحدري وأبو عمرو وحمزة والكسائي : خاشعاً بالإفراد .

وقرأ أبيّ وابن مسعود : خاشعة ، وجمع التكسير أكثر في كلام العرب .

وقال الفراء وأبو عبيدة : كله جائز .

(352/736)

انتهى ، ومثال جمع التكسير قول الشاعر :

بمطرد لذن صحاح كعربه . . .

وذي رونق عضب يقد الوانسا

ومثال الإفراد قوله :

ورجال حسن أوجههم . . .

من أياد بن نزار بن معد

وقال آخر :

ترمي الفجاج به الركبان معترضاً . . .

أعناق بزلها مرخى لها الجدل

وانتصب خشعاً وخاشعا وخاشعة على الحال من ضمير يخرجون ، والعامل فيه يخرجون ، لأنه فعل متصرف ، وفي هذا دليل على بطلان مذهب الجرمى ، لأنه لا يجوز تقدم الحال على الفعل وإن كان متصرفاً .

وقد قالت العرب : شتى تؤب الحلبة ، فشتى حال ، وقد تقدمت على عاملها وهو تؤب ، لأنه فعل متصرف ، وقال الشاعر :

سريعاً يهون الصعب عند أولي النهى . . .

إذا برجاء صادق قابلوه البأسا

فسريعاً حال ، وقد تقدمت على عاملها ، وهو يهون .

وقيل : هو حال من الضمير المجرور في عنهم من قوله : ﴿ فتول عنهم ﴾ وقيل : هو مفعول بيدع ، أي قوماً خشعاً ، أو فريقاً خشعاً ، وفيه بعد .

ومن أفرد خاشعاً وذكر ، فعلى تقدير تخشع أبصارهم ؛ ومن قرأ خاشعة وأنث ، فعلى تقدير تخشع ؛ ومن قرأ خشعاً جمع تكسير ، فلأن الجمع موافق لما بعده ، وهو أبصارهم ، وموافق للضمير الذي هو صاحب الحال في يخرجون ، وهو نظير قولهم : مررت برجال كرام آباؤهم .

وقال الزمخشري : وخشعاً على يخشعن أبصارهم ، وهي لغة من يقول : أكلوني البراغيث ،

وهم طيء . انتهى .

ولا يجري جمع التكسير مجرى جمع السلامة ، فيكون على تلك اللغة النادرة القليلة .

وقد نص سيبويه على أن جمع التكسير أكثر في كلام العرب ، فكيف يكون أكثر ، ويكون على تلك اللغة النادرة القليلة ؟ وكذا قال الفراء حين ذكر الإفراد مذكراً ومؤنثاً وجمع التكسير ، قال : لأن الصفة متى تقدمت على الجماعة جاز فيها جميع ذلك ، والجمع موافق للفظها ، فكان أشبه . انتهى .

وإنما يخرج على تلك اللغة إذا كان الجمع مجموعاً بالواو والنون نحو : مررت بقوم كريمين آباؤهم .

(353/736)

والزمخشري قاس جمع التكسير على هذا الجمع السالم ، وهو قياس فاسد ، ويزده النقل عن العرب أن جمع التكسير أجود من الإفراد ، كما ذكرناه عن سيبويه ، وكما دل عليه كلام الفراء ؛ وجوز أن يكون في خشعاً ضمير ، وأبصارهم بدل منه .

وقرىء : خشع أبصارهم ، وهي جملة في موضع الحال ، وخشع خبر مقدم ، وخشوع الأبصار كناية عن الذلة ، وهي في العيون أظهر منها في سائر الجوارح ؛ وكذلك أفعال النفس

من ذلة وعزة وحياء وصلف وخوف وغير ذلك .

﴿ كأنهم جراد منتشر ﴾ : جملة حالية أيضاً ، شبههم بالجراد في الكثرة والتموج ، ويقال : جاءوا كالجراد في الجيش الكثير المتموج ، ويقال : كالذباب .

وجاء تشبيههم أيضاً بالفراش المبثوث ، وكل من الجراد والفراش في الخارجين يوم الحشر شبه منهما .

وقيل : يكونون أولاً كالفراش حين يموجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون ، لأن الفراش لا جهة له يقصدها ، ثم كالجراد المنتشر إذا توجهوا إلى المحشر والداعي ، فهما تشبيهان باعتبار وقتين ، قال معناه مكي بن أبي طالب .

﴿ مهطعين ﴾ ، قال أبو عبيدة : مسرعين ، ومنه قوله :

بدجلة دارهم ولقد أراهم . . .

بدجلة مهطعين إلى السماع

زاد غيره : مادّي أعناقهم ، وزاد غيره : مع هز ورهق ومد بصر نحو المقصد ، إما لخوف أو طمع ونحوه .

وقال قتادة : عامدين .

وقال الضحاك : مقبلين .

وقال عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت .

وقال ابن عباس : ناظرين .

ومنه قول الشاعر :

تعبدني نمر بن سعد وقد أرى . . .

ونمر بن سعد لي مطيع ومهطع

وقيل : خافضين ما بين أعينهم .

وقال سفيان : خاشعة أبصارهم إلى السماء .

﴿ يوم عسر ﴾ ، لما يشاهدون من مخايل هوله ، وما يرتقبون من سوء منقلبهم فيه .

﴿ كذبت قبلهم ﴾ : أي قبل قريش ، ﴿ قوم نوح ﴾ وفيه وعيد لقريش وضرب مثل لهم .

ومفعول كذبت محذوف ، أي كذبت الرسل ، فكذبوا نوحاً عليه السلام .

لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوة رأساً ، كذبوا نوحاً لأنه من جملة الرسل .

(354/736)

ويجوز أن يكون المحذوف نوحاً أول مجيئه إليهم ، فكذبوه تكذيباً يعقبه تكذيب .

كلما مضى منهم قرن مكذب ، تبعه قرن مكذب .

وفي لفظ عبدنا تشريف وخصوصية بالعبودية ، كقوله تعالى : ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ﴾ ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ ﴿ وقالوا مجنون ﴾ : أي هو مجنون .

لما رأوا الآيات الدالة على صدقه قالوا : هو مصاب الجن ، لم يقنعوا بتكذيبه حتى نسبوه إلى الجنون ، أي يقول ما لا يقبله عاقل ، وذلك مبالغة في تكذيبهم .

﴿ وازدجر فدعا ربه أني مغلوب ﴾ ، الظاهر أن قوله : ﴿ وازدجر ﴾ من أخبار الله تعالى ، أي انتهروه وزجروه بالسبب والتخويف ، قاله ابن زيد وقرأ : ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ .

قيل : والمعنى أنهم فعلوا به ما يوجب الانزجار من دعائهم حتى ترك دعوتهم إلى الإيمان وعدل إلى الدعاء عليهم .

وقال مجاهد : وازدجر من تمام قولهم ، أي قالوا وازدجر : أي استطير جنوناً ، أي ازدجرته الجن وذهبت بلبه وتخبطته .

وقرأ ابن إسحاق وعيسى والأعمش وزيد بن عليّ ، ورويت عن عاصم : إني بكسر الهمزة ، على إضمار القول على مذهب البصريين ، أو على إجراء الدعاء مجرى القول على مذهب الكوفيين .

وقرأ الجمهور : بفتحها ، أي بأني مغلوب ، أي غلبني قومي ، فلم يسمعوا مني ، ويئست من إجابتهم لي .

﴿ فانتصر ﴾ : أي فانتقم بعذاب تبعثه عليهم .

وإنما دعا عليهم بعد ما يئس منهم وتفاقم أمرهم ، وكان الواحد من قومه يخنقه إلى أن يخر مغشياً عليه ، وقد كان يقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ، ومتعلق ﴿ فانتصر ﴾ محذوف .

وقيل : التقدير فانتصر لي منهم بأن تهلكهم .

وقيل : فانتصر لنفسك ، إذ كذبوا رسولك فوقعت الإجابة .

وللمتصوفة قول في ﴿ مغلوب فانتصر ﴾ حكاه ابن عطية ، يوقف عليه في كتابه .

﴿ ففتحنا ﴾ : بيان أن الله تعالى انتصر منهم وانتقم .

قيل : ومن العجب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين ، فأهلكهم الله تعالى بمطلوبهم .

(355/736)

﴿ أبواب السماء بماء ﴾ : جعل الماء كأنه آلة يفتح بها ، كما تقول : فتحت الباب بالمفتاح ، وكأن الماء جاء وفتح الباب ، فجعل المقصود ، وهو الماء ، مقدّماً في الوجود على فتح الباب المغلق .

ويجوز أن تكون الباء للحال ، أي ملتبسة بماء منهمر .

وقرأ ابن عامر وأبو جعفر والأعرج ويعقوب : ففتحنا مشدّداً ؛ والجمهور : مخففاً ، ﴿ أبواب السماء ﴾ ، هذا عند الجمهور مجاز وتشبيه ، لأن المطر كثره كأنه نازل من أبواب ، كما تقول : فتحت أبواب القرب ، وجرت مزاريب السماء .

وقال عليّ ، وتبعه النقاش : يعني بالأبواب المجرة ، وهي سرع السماء كسرع العيبة .

وذهب قوم إلى أنها حقيقة فتحت في السماء أبواب جرى منها الماء ، ومثله مروي عن ابن عباس ، قال : أبواب السماء فتحت من غير سحاب ، لم تغلق أربعين يوماً .

قال السدي : ﴿ منهمر ﴾ : أي كثير .

قال الشاعر :

أعينيّ جودا بالدموع الهوامر . . .

على خير باد من معد وحاضر

وقرأ الجمهور : ﴿ وفجرنا ﴾ بتشديد الجيم ؛ وعبد الله وأصحابه وأبو حيوة والمفضل عن عاصم : بالتخفيف ؛ والمشهور أن العين لفظ مشترك .

والظاهر أنها حقيقة في العين الباصرة ، مجاز في غيرها ، وهو في غير الماء مجاز مشهور ، غالب وانتصب عيوناً على التمييز ، جعلت الأرض كلها كأنها عيون تتفجر ، وهو أبلغ من : وفجرنا عيون الأرض ، ومن منع مجيء التمييز من المفعول أعربه حالاً ، ويكون حالاً مقدرة ، وأعربه بعضهم مفعولاً ثانياً ، كأنه ضمن ﴿ وفجرنا ﴾ : صيرنا بالتفجير ، ﴿ الأرض

عيوناً ﴾ .

وقيل : وفجرت أربعين يوماً .

وقرأ الجمهور : ﴿ فالتقى الماء ﴾ ، وهو اسم جنس ، والمعنى : ماء السماء وماء الأرض .

وقرأ عليّ والحسن ومحمد بن كعب والجحدري : الماءان .

وقرأ الحسن أيضاً : الماوان .

وقال الزمخشري : وقرأ الحسن ماوان ، بقلب الهمزة واواً ، كقولهم : علباوان . انتهى .

شبه الهمزة التي هي بدل من هاء في الماء بهمزة الإلحاق في علبا .

(356/736)

وعن الحسن أيضاً : المايان ، بقلب الهمزة ياء ، وفي كلتا القراءتين شذوذ .

﴿ على أمر قد قدر ﴾ : أي على حالة ورتبة قد فصلت في الأزل .

وقيل : على مقادير قد رتبت وقت التقائه ، فروى أن ماء الأرض كان على سبعة عشر ذراعاً ، ونزل ماء السماء على تكملة أربعين ذراعاً .

وقيل : كان ماء الأرض أكثر .

وقيل : كانا متساويين ، نزل من السماء قدر ما خرج من الأرض .

وقيل : ﴿ على أمر قد قدر ﴾ : في اللوح أنه يكون ، وهو هلاك قوم نوح عليه السلام بالطوفان ، وهذا هو الراجح ، لأن كل قصة ذكرت بعد هذه القصة ذكر الله هلاك مكذبي الرسل فيها ، فيكون هذا كناية عن هلاك قوم نوح ، ولذلك ذكر نجاة نوح بعدها في قوله : ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴾ .

وقرأ أبو حيوة : قدر بشد الدال ؛ والجمهور ؛ بتخفيفها ، وذات الألواح والدسر هي السفينة التي أنشأها نوح عليها السلام .

ويفهم من هذين الوصفين أنها السفينة ، فهي صفة تقوم مقام الموصوف وتنوب عنه ، ونحوه : قميصي مسرودة من حديد ، أي درع ، وهذا من فصيح الكلام وبديعه .

ولو جمعت بين الصفة والموصوف فيه ، لم يكن بالفصيح والدسر المسامير ، قاله الجمهور .

وقال الحسن وابن عباس : مقاديم السفينة لأنها تدسر الماء ، أي تدفعه ، والدسر : الدفع .

وقال مجاهد وغيره : بطن السفينة .

وعنه أيضاً : عوارض السفينة .

وعنه أيضاً : أضلاع السفينة ، تجري في ذلك الماء المتلقي بحفظ منا وكلاءة ، بحيث نجا من كان فيها وغرق غيرهم .

وقال مقاتل بن سليمان : ﴿ بأعيننا ﴾ : بوحينا .

وقيل : بأمرنا .

وقيل : بأوليائنا .

يقال : فلان عين من عيون الله تعالى : أي ولي من أوليائه .

وقيل : بأعين الماء التي أنبعناها .

وقيل : من حفظها من الملائكة سماهم أعيناً .

وقرأ زيد بن علي وأبو السمال : بأعينا بالإدغام ؛ والجمهور : بالفك .

(357/736)

﴿ جزاء ﴾ : أي مجازاة ، ﴿ لمن كان كفر ﴾ : أي لنوح عليه السلام ، إذ كان نعمة أهداها الله إلى قومه لأن يؤمنوا فكفروها ، المعنى : أنه حمله في السفينة ومن آمن معه كان جزاء له على صبره على قومه المئين من السنين ، ومن كناية عن نوح .

قيل : يعني بمن كفر لمن جحدت نبوته .

وقال ابن عباس ومجاهد : من يراد به الله تعالى ، كأنه قال : غضباً وانتصاراً لله تعالى ، أي انتصر لنفسه ، فأغرق الكافرين ، وأنجى المؤمنين ، وهذان التأويلان في من على قراءة

الجمهور .

كفر : مبنياً للمفعول .

وقرأ مسلمة بن محارب : بإسكان الفاء خفف فعل ، كما قال الشاعر :

لو عصر منه البان والمسك انعصر . . .

يريد : لو عصر .

وقرأ زيد بن رومان وقتادة وعيسى : كفر مبنياً للفاعل ، فمن يراد به قوم نوح : أي إن ما نشأ من تفتيح أبواب السماء بالماء ، وتفجر عيون الأرض ، والتقاء الماءين من غرق قوم نوح عليه الصلاة والسلام ، كان جزاء لهم على كفرهم .

وكفر : خبر لكان ، وفي ذلك دليل على وقوع الماضي بغير قد خبراً لكان ، وهو مذهب البصريين وغيرهم .

يقول : لا بد من قد ظاهرة أو مقدرة ، على أنه يجوز إن كان هنا زائدة ، أي لمن كفر ، والضمير في ﴿ تركناها ﴾ عائد على الفعلة والقصة .

وقال قتادة والنقاش وغيرهما : عائد على السفينة ، وأنه تعالى أبقى خشبها حتى رآه بعض أوائل هذه الأمة .

وقال قتادة : وكم من سفينة بعدها صارت رماداً ! وقرأ الجمهور : ﴿ مدكر ﴾ ، بإدغام الذال في الدال المبدلة من تاء الافتعال ؛ وقتادة : فيما نقل ابن عطية بالذال ، أدغمه بعد

قلب الثاني إلى الأول .

وقال صاحب كتاب اللوامح قتادة : فهل من مذكر ، فاعل من التذكير ، أي من يذكر نفسه أو غيره بما مضى من القصص . انتهى .

وقرىء : مدتكر على الأصل .

(358/736)

﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ : تهويل لما حل بقوم نوح من العذاب وإعظام له ، إذ قد استأصل جميعهم وقطع دابرهم ، فلم ينسل منهم أحد ؛ أي كيف كان عاقبة إنذاري ؟

والنذر : جمع نذير وهو الإنذار ، وفيه توقيف لقريش على ما حل بالمكذبين أمثالهم .

وكان ، إن كانت ناقصة ، كانت كيف في موضع خبر كان ؛ وإن كانت تامة ، كانت في موضع نصب على الحال .

والاستفهام هنا لا يراد به حقيقته ، بل المعنى على التذكير بما حل بهم .

﴿ ولقد يسرنا ﴾ : أي سهلنا ، ﴿ القرآن للذكر ﴾ : أي للإذكار والاتعاظ ، لما تضمنه من الوعظ والوعد والوعيد .

﴿ فهل من مدكر ﴾ ، قال ابن زيد : من متعظ .

وقال قتادة : فهل من طالب خير ؟ وقال محمد بن كعب : فهل من مزدجر عن المعاصي ؟

وقيل : للذكر : للحفظ ، أي سهلناه للحفظ ، لما اشتمل عليه من حسن النظم وسلامة اللفظ ، وعروه عن الحشو وشرف المعاني وصحتها ، فله تعلق بالقلوب .

﴿ فهل من مدكر ﴾ : أي من طالب لحفظه ليعان عليه ، وتكون زواجره وعلومه حاضرة في النفس .

وقال ابن جبير : لم يستظهر شيء من الكتب الإلهية غير القرآن .

وقيل : يسرنا : هيأنا ﴿ القرآن للذكر ﴾ ، كقولهم : يسر ناقته للسفر إذا رحلها ، ويسر فرسه للغزو إذا أسرجه وألجمه ، قال الشاعر :

وقمت إليه باللجام ميسراً . . .

هنالك يجزيني الذي كنت أصنع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(359/736)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾

رُوِيَ أَنَّ الكُفَّارَ سأَلُوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم آيةً ، فانشقَّ القمرُ . قالَ ابنُ عبَّاسٍ

رضيَ اللهُ عنهُمَا : انفلقَ فلقتينِ فلقةٌ ذهبتْ وفلقةٌ بقيتْ . وقالَ ابنُ مسعودٍ رأيتُ حِراءَ بينَ فلقتَيْ القمرِ . وعنْ عثمانَ بنِ عطاءٍ عنْ أبيهِ أنَّ معناهُ سينشقُّ يومَ القيامةِ ويردُّه قولُه تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ فإنَّه ناطقٌ بأنَّه قدْ وقعَ وأنَّهم قدْ شاهدُوا بعدَ مُشاهدةِ نظائرِه . وقُرِئَ وقَدِ انشقَّ القمرُ . أي اقتربتِ الساعةُ وقدُ حصلَ منْ آياتِ اقترابِها أنَّ القمرَ قدِ انشقَّ ومَعْنى الاستمرارِ الاطرادُ أو الاستحكامُ أيْ وإنْ يَرَوا آيةً من آياتِ اللهِ يُعرضُوا عنِ التأملِ فيها ليقفُوا على حقّيتها وعلوّ طبقتِها ويقولُوا سحرٌ مطردٌ دائمٌ يأتي به محمدٌ عَلى مرِّ الزمانِ لا يكادُ يختلفُ بحالٍ كسائرِ أنواعِ السحرِ ، أو قويٌّ مستحكمٌ لا يمكنُ إزالتُه وقيلَ مستمرٌ : ذاهبٌ يزولُ ولا يَبْقى تمنيةً لأنفسِهم ، وتعليلاً وهو الأنسبُ بغلوّهِم في العِنادِ والمُكابرةِ ويؤيدُه ما سيأتي لردّه . وقُرِئَ وإنْ يُرَوا على البناءِ للمفعولِ منَ الإراءةِ ﴿ وَكَذَّبُوا ﴾ أي بالنبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم وما عاينُوه مما أظهرَهُ اللهُ تعالَى على يدِه من المعجزاتِ ﴿ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ التي زيَّنها الشيطانُ لهم أو كذَّبُوا الآيةَ التي هيَ انشقاقُ القمرِ واتَّبعُوا أهواءَهُم وقالُوا سحرَ القمرَ أو سحرَ أَعْيُننا والقمرُ بحالِه . وصيغةُ الماضِي للدلالةِ على التحققِ . وقولُه تعالى : ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لإقناطِهم عمَّا علَّقوا به أمانيَّهم الفارغةَ من عدمِ استقرارِ أمرِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ حسبمَا قالُوا سحرٌ مستمرٌّ ببيانِ ثباتِه ورسوخِه أي وكلُّ أمرٍ من الأمورِ مستقرٌّ أي مُنتهٍ إلى غايةٍ يستقرُّ

عليَها لا محالةَ ، ومن جُملتِها أمرُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم فسيصيرُ إلى غايةٍ يتبينُ عندَهَا حقّيتُه وعلُّو شأنِه . وإبهامُ المستقَرِّ عليهِ للتنبيهِ على كمالِ ظهورِ الحالِ وعدمِ الحاجةِ إلى التصريحِ بهِ ، وقيلَ : المَعْنى كلُّ أمرٍ من أمرِهم وأمرِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مستقرٌّ أي سيثبتُ ويستقرُّ على حالةِ خذلانٍ أو نصرةٍ في الدُّنيا وشقاوةٍ أو سعادةٍ في الآخرةِ . وقُرِىءَ بالفتحِ على أنَّه مصدرٌ أو اسمُ مكانٍ أو اسمُ زمانٍ أي ذُو استقرارٍ أو ذُو موضعَ استقرارٍ أو ذُو زمانِ استقرارٍ ، وبالكسرِ والجرِّ عَلى أنَّه صفةُ أمرَ ، وكلُّ عطفٌ على الساعةُ أي اقتربتِ الساعةُ وكلُّ أمرٍ مستقرٌّ .

﴿ وَلَقَدْ جَاءهُمْ ﴾ أي في القُرانِ . وقولُه تعالَى : ﴿ مّنَ الأنباء ﴾ أي أنباءِ القرونِ الخاليةِ أو أنباءِ الآخرةِ ، متعلقٌ بمحذوفٍ هو حالٌ مما بعدَهُ أيْ وبالله لقد جاءهُم كائناً من الأنباءِ ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أي ازدجارٌ من تعذيبٍ أو وعيدٍ ، أو موضعُ ازدجارٍ على أنَّ في تجريديةٌ والمَعْنى أنَّه في نفسِه موضعُ ازدجارٍ ، وتاءُ الافتعالِ تقلبُ دالاً مع الدالِ والذالِ والزَّاي للتناسبِ وقُرِىءَ مُزَّجَرٌ بقلبِها زاء وإدغامِها ﴿ حِكْمَةٌ بالغة ﴾ غايتَها لا خللَ فيها وهي بدلٌ منْ مَا أو خبرٌ لمحذوفٍ . وقُرِىءَ بالنصبِ حالاً منَها فإنَّها موصولةٌ أو

موصوفةٌ تخصصتْ بصفتِها فساغَ نصبُ الحالِ عنها . ﴿ فَمَا تُغْنِى النذر ﴾ نفيٌ للإغناءِ ، أو إنكارٌ لهُ . والفاءُ لترتيبِ عدمِ الإغناءِ على مجيءِ الحكمةِ البالغةِ مع كونِه مظنّةً للإغناءِ وصيغةُ المُضارعِ للدلالةِ على تجددِ عدمِ الإغناءِ واستمرارِه حسبَ تجددِ مجيءِ الزواجرِ واستمرارِه ، وما على الوجهِ الثانِي منصوبةٌ أي فأيُّ إغناء تُغني النذرُ وهو جمعُ نذيرٍ بمعنى المنذرِ أو مصدرٌ بمَعْنى الإنذارِ .

(361/736)

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ لعلمكَ بأنَّ الإنذارَ لا يُؤثرُ فيهم ألبتةَ ﴿ يَوْمَ يَدْعُو الداع ﴾ منصوبٌ بيخرُجونَ أو باذكُرْ . والدَّاعِي إسرافيلُ عليهِ السَّلامُ ويجوزُ أنْ يكونَ الدعاءُ فيهِ كالأمرِ في قولِه تعالى : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وإسقاطُ الياءِ للاكتفاءِ بالكسرِ تخفيفاً ﴿ إلى شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾ أي منكرٍ فظيعٍ تنكرُه النفوسُ لعدمِ العهدِ بمثلِه وهو هَولُ القيامةِ وقُرِىءَ نُكْرٍ بالتخفيفِ ونكر بمَعْنى أنكر ﴿ خُشَّعاً أبصارهم ﴾ حالٌ من فاعلِ ﴿ يُخْرِجُونَ ﴾ والتقديمُ لأنَّ العاملَ متصرفٌ أي يخرجونَ ﴿ مّنَ الأجداث ﴾ أذلةً أبصارُهم من شدةِ الهولِ وقُرِىءَ خاشعاً والإفرادُ والتذكيرُ لأنَّ فاعلَه ظاهرٌ غيرُ حقيقيِّ التأنيثِ . وقُرِىءَ خاشعةً على الأصلِ ، وقُرِىءَ خُشَّعٌ أبصارُهم عَلَى الابتداءِ والخبرِ على أنَّ الجملةَ حالٌ ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ

مُّنتَشِرٌ ﴾ في الكثرةِ والتموجِ والتفريقِ في الأقطارِ ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع ﴾ مسرعينَ مادِّي أعناقِهُم إليهِ أو ناظرينَ إليهِ ﴿ يَقُولُ الكافرون ﴾ استئنافٌ وقعَ جواباً عمَّا نشأَ من وصفِ اليومِ بالأهوالِ وأهلِه بسوءِ الحالِ كأنَّه قيلَ فماذا يكونُ حينئذٍ فقيلَ يقولُ الكافرونَ ﴿ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ أي صعبٌ شديدٌ ، وفي إسنادِ القولِ المذكورِ إلى الكفارِ تلويحٌ بأنَّ المؤمنينَ ليسُوا في تلكَ المرتبةِ من الشدةِ ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ شروعٌ في تعدادِ بعضِ ما ذُكِرَ منَ الأنبياءِ الموجبةِ للازدجارِ ، ونوعُ تفصيلٍ لها وبيانٌ لعدمِ تأثرِهم بها تقريراً لفحْوَى قولِه تعالى : ﴿ فَمَا تُغْنِى النذر ﴾ أي فعلَ التكذيبَ قبلَ تكذيبِ قومِك قومُ نوحٍ وقولُه تعالَى : ﴿ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ﴾ تفسيرٌ لذلكَ التكذيبِ المبهمِ كما في قولِه تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبّ ﴾ الخ ، وفيه مزيدُ تقريرٍ وتحقيقٍ للتكذيبِ وقيلَ :

(362/736)

معناهُ كذَّبوه تكذيباً إثرَ تكذيبٍ كلَما خَلاَ منهم قرنٌ مكذبٌ جاءَ عقيبَه قرنٌ آخر مكذبٌ مثلُه .

وقيلَ : كذبتْ قومُ نوحٍ الرسلَ فكذبُوا عبدنَا لأنَّه من جُملتِهم وفي ذِكرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعنوانِ العبوديةِ مع الإضافةِ إلى نونِ العظمةِ تفخيمٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ورفعٌ لمحلِّه وزيادةُ

تشنيعٍ لمكذبيهِ ﴿ وَقَالُواْ مَجْنُونٌ ﴾ أي لم يقتصرُوا على مجردِ التكذيبِ بل نسبُوه إلى الجنونِ ﴿ وازدجر ﴾ عطفٌ على قالُوا أي وزُجِرَ عن التبليغِ بأنواعِ الأذيةِ وقيلَ : هو من جُملةِ ما قالُوه أي هُو مجنونٌ وقد ازدجرتْهُ الجِنُّ وتخبطتْهُ .

(363/736)

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى ﴾ أي بأنِّي وقُرِىءَ بالكسرِ على إرادةِ القولِ ﴿ مَغْلُوبٌ ﴾ أي من جهةِ قومِي ما لي قدرةٌ على الانتقامِ منْهم ﴿ فانتصر ﴾ أي فانتقِمْ لي منُهم وذلكَ بعد تقررِ يأسِه منُهم بعد اللَّتيا والتي فقد رُويَ أنَّ الواحدَ منْهم كان يلقاهُ فيخنقُه حتَّى يخرَّ مغشياً عليهِ ويقولَ اللهمَّ اغفرْ لقومِي فإنَّهم لا يعلمونَ ﴿ فَفَتَحْنَا أبواب السماء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ ﴾ منصبَ وهُو تمثيلٌ لكثرةِ الأمطارِ وشدةِ انصبابِها وقُرِىءَ ففتَّحنا بالتشديدِ لكثرةِ الأبوابِ ﴿ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً ﴾ أي جعلنَا الأرض كُلَّها كأنَّها عيونٌ متفجرةٌ وأصلُه وفجرنَا عيونَ الأرضِ فغُيرَ قضاءً لحقِّ المقامِ ﴿ فَالْتَقَى الماء ﴾ أي ماءُ السماءِ وماءُ الأرضِ والإفرادُ لتحقيقِ أنَّ التقاءَ الماءينِ لم يكُنْ بطريقِ المجاورةِ والتقاربِ بلْ بطريقِ الاختلاطِ والاتحادِ وقُرِىءَ المَاءانِ لاختلافِ النوعينِ والماوانِ بقلبِ الهمزةِ واواً . ﴿ على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي كائناً على حالٍ قد قدَّرَها اللهُ تعالَى من غيرِ تفاوتٍ أو على حالٍ قدرتْ وسويتْ وهو أنَّ

قدرَ ما أُنزلَ على قدرِ ما أُخرجَ أو على أمرٍ قدرَهُ الله تعالَى وهو هلاكُ قومِ نوحٍ بالطُّوفانِ ﴿ وَحَمَلْنَاهُ ﴾ أي نوحاً عليهِ السَّلامُ ﴿ على ذَاتِ أَلواح ﴾ أي أخشابٍ عريضةٍ ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ ومسامير جمعُ دِسارٍ من الدَّسرِ وهو الدفعُ وهي صفةٌ للسفينةِ أقيمتْ مقامَها من حيثُ إنَّها كالشرحِ لها تؤدّي مُؤدَّاها ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى منَّا أي محفوظةً بحفظِنا ﴿ جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ أي فعلنَا ذلكَ جزاءَ لنوحٍ عليهِ السَّلامُ لأنَّه كانَ نعمةً كفرُوها فإنَّ كلَّ نبيٍّ نعمةٌ من الله تعالَى على أمتِهِ ورحمةٌ وأيُّ نعمةٍ ورحمةٍ وقد جُوِّزَ أن يكونَ على حذفِ الجارِّ وإيصالِ الفعلِ إلى الضميرِ واستتارُهُ في الفعلِ بعد انقلابِه مرفوعاً

(364/736)

وقُرِىءَ لَمنْ كَفَرَ أي للكافرينَ .

﴿ وَلَقَدْ تركناها ﴾ أي السفينةَ أو الفعلةَ ﴿ ءايَةً ﴾ يعتبرُ بها من يقفُ على خَبرِها . وقالَ قَتَادةُ أبقاهَا الله تعالَى بأرضِ الجزيرةِ ، وقيلَ : على الجُودِّي دَهْراً طويلاً حتى نظرَ إليها أوائلُ هذه الأمةِ . ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي معتبرٍ بتلكَ الآيةِ الحقيقةِ بالاعتبارِ وقُرِىءَ مُذْتكرٍ على الأصلِ ومُذَّكرٍ بقلبِ التاءِ ذالاً والإدغامِ فيها ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ استفهامُ تعظيمٍ وتعجيبٍ أيْ كانا على كيفيةٍ هائلةٍ لا يُحيطُ بها الوصفُ ، والنذرُ جمعُ

نذيرٍ بمَعْنى الإنذارِ . ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءان ﴾ الخ جملةٌ قسميةٌ وردتْ في أواخرِ القصصِ الأربعِ تقريراً لمضمونِ ما سبقَ من قولِه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُم مّنَ الأنباء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بالغة فَمَا تُغْنِى النذر ﴾ وتنبيهاً على أنّ كلَّ قصةٍ منها مستقلةٌ بإيجابِ الإدكارِ كافيةٌ في الازدجارِ ومع ذلكَ لم تقعْ واحدةٌ في حيزِ الاعتبارِ ، أي وباللهِ لقد سهَّلنا القرآنَ لقومِكَ بأنْ أنزلناهُ على لغتِهم وشحنَّاهُ بأنواعِ المواعظِ والعبرِ وصرَّفنا فيهِ من الوعيدِ والوعدِ ﴿ لِلذّكْرِ ﴾ أي للتذكرِ والاتعاظِ ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ إنكارٌ ونفيٌ للمتعظِ على أبلغِ وجهٍ وآكدِه حيثُ يدلُّ على أنَّه لا يقدرُ أحدٌ أنْ يجيبَ المستفهَمَ بنَعَمْ وحَملُ تيسيرِه على تسهيلِ حفظِه بجزالةِ نظمِه وعذوبةِ ألفاظِه وعباراتِه مما لا يساعدُه المقامُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(365/736)

وقال الآلوسى :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾

شروع في تعداد بعض ما ذكر من الأنباء الموجبة للازدجار ؛ ونوع تفصيل لها وبيان لعدم تأثرهم بها تقريراً لفحوى قوله تعالى : ﴿ فَمَا تُغْنِى النذر ﴾ [القمر : 5] والفعل منزل

منزلة اللازم أي فعلت التكذيب قبل تكذيب قومك قوم نوح ، وقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ﴾ تفسير لذلك التكذيب المبهم كما في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ ﴾ [هود : 45] الخ ، وفيه مزيد تحقيق وتقرير للتكذيب ، وجوز أن يكون المعنى كذبوا تكذيباً إثر تكذيب كلما خلا منهم قرن مكذب جاء عقيبه قرن آخر مكذب مثله ، أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا أي لما كانوا مكذبين للرسل جاحدين للنبوة رأساً كذبوا نوحاً لأنه من جملة الرسل ، والفاء عليه سببية ، وقيل : معنى كذبت قصدت التكذيب وابتدأته ، ومعنى فكذبوا وبلغوا نهايته كما قيل في قوله :

قد جبر الدين الأله فجبر . . .

وفي ذكره عليه السلام بعنوان العبودية مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيم له عليه السلام ورفع لمحله وتشنيع لمكذبيه .

﴿ وَقَالُواْ مَجْنُونٌ ﴾ أي لم يقتصروا على مجرد التكذيب بل نسبوه إلى الجنون فقالوا هو مجنون ﴿ وازدجر ﴾ عطف على قالوا وهو إخبار منه عز وجل أي وزجر عن التبليغ بأنواع الأذية والتخويف قاله ابن زيد ، وقرأ ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يالوط نُوحٌ لَتَكُونَنَّ مِنَ المرجومين ﴾ [الشعراء : 116] وقال مجاهد : هو من تمام قولهم أي هو مجنون ، وقد ازدجرته الجن وذهبت بلبه وتخبطته ، والأول أظهر وأبلغ ، وجعل مبنياً للمفعول لغرض الفاصلة ، وطهر الألسنة عن ذكرهم دلالة على أن فعلهم أسوأ من قولهم :

فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10)

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى ﴾ أي بأني .

وقرأ ابن أبي اسحق .

وعيسى .

والأعمش .

(366/736)

وزيد بن علي ورويت عن عاصم ﴿ إِنِّى ﴾ بكسر الهمزة على إضمار القول عند البصريين ، وعلى إجراء الدعاء مجرى القول عند الكوفيين ﴿ مَغْلُوبٌ ﴾ من جهة قومي مالي قدرة على الانتقام منهم ﴿ فانتصر ﴾ فانتقم لي منهم ، وقيل : فانتصر لنفسك إذ كذبوا رسولك ، وقيل : المراد بمغلوب غلبتني نفسي حتى دعوت عليهم بالهلاك وهو خلاف الظاهر وما دعا عليه السلام عليهم إلا بعد اليأس من إيمانهم ، والتأكيد لمزيد الاعتناء بأمر الترحم المقصود من الأخبار .

﴿ فَفَتَحْنَا أبواب السماء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ ﴾ أي منصب ، وقيل : كثير قال الشاعر : أعيناي جوداً بالدموع (الهوامر) . . .

على خير باد من معد وحاضر

والباء للآلة مثلها في فتحت الباب بالمفتاح ، وجوز أن تكون للملابسة والأول أبلغ ، وفي الكلام استعارة تمثيلية بتشبيه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهاء انفتحت بها أبواب السماء وانشق أديم الخضراء .

وهو الذي ذهب إليه الجمهور ، وذهب قوم إلى أنه على حقيقته وهو ظاهر كلام ابن عباس .

أخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم عنه أنه قال : لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب ، وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم فالتقى الماآن ، وفي رواية لم تقلع أربعين يوما ، وعن النقاش أنه أريد بالأبواب المجرة وهي شرج السماء كشرج العيبة ، والمعروف من الأرصاد أن المجرة كواكب صغار متقاربة جداً ، والله تعالى أعلم .

ومن العجيب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين فأهلكهم الله تعالى بمطلوبهم ، وقرأ ابن عامر .

وأبو جعفر .

والأعرج .

ويعقوب ﴿ فَفَتَّحْنَا ﴾ بالتشديد لكثرة الأبواب ، والظاهر أن جمع القلة هنا للكثرة .

﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرض عُيُوناً ﴾ وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة وأصله فجرنا عيون الأرض فغير إلى التمييز للمبالغة بجعل الأرض كلها متفجرة مع الابهام والتفسير ، فالتمييز محول عن المفعول ، وجعله بعضهم محولا عن الفاعل بناءاً على أنه الأكثر ، والأصل انفجرت عيون الأرض وتحويله كما يكون عن فاعل الفعل المذكور يكون عن فاعل فعل آخر يلاقيه في الاشتقاق وهذا منه وهو تكلف لا حاجة إليه ، ومنع بعضهم مجيء التمييز من المفعول فأعرب ﴿ عُيُوناً ﴾ حالا مقدرة ، وجوز عليه أن يكون مفعولاً ثانياً لفجرنا على تضمينه ما يتعدى إليه أي صيرنا بالتفجير الأرض عيوناً وكان ذلك على ما في بعض الروايات أربعين يوماً ، وقرأ عبد الله .

وأصحابه .

وأبو حيوة .

والمفضل عن عاصم ﴿ فجرنا ﴾ بالتخفيف ﴿ عُيُوناً فَالْتَقَى الماء ﴾ أي ماء السماء وماء الأرض ، والإفراد لتحقيق أن التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة بل بطريق الاختلاط والاتحاد ، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

والحسن .

ومحمد بن كعب .

والجحدري الماآن والتثنية لقصد بيان اختلاف النوعين وإلا فالماء شامل لماء السماء وماء الأرض ، ونحوه قوله

: لنا (إبلان) فيهما ما علمتم . . .

فعن (أيها) ما شئتم فتنكبوا

وقيل : فيها إشارة إلى أن ماء الأرض فار بقوة وارتفع حتى لاقى ماء السماء وفي ذلك مبالغة لا تفهم من الأفراد ، وقرأ الحسن أيضاً ما وان بقلب الهمزة واواً كقولهم : علبا وان كما قال الزمخشري ، ولم يرد أنه نظيره بل أراد كما أن هنالك إبدالاً بعلة أنها غير أصلية لأنها زائدة للالحاق كذلك ههنا لانها مبدلة والبدل وإن كان من الهاء لكنه أجريت مجرى البدل عن الواو فقيل في النسبة فيه : ماوى ، وجاء في جمعه أمواء كما جاء أمواه ، ولا يبعد أن يكون من ثناه بالواو قاسه على النسبة كذا في الكشف ، وعنه أيضاً المايان بقلب الهمزة ياءاً .

(368/736)

﴿ على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي كائناً على حال قد قدرها الله تعالى في الازل من غير تفاوت أو على حال قدرت وسويت وهي أن ما نزل على قدر ما خرج .

وقيل : إن ماء الأرض علا سبعة عشر ذراعاً ونزل ماء السماء مكملاً أربعين ، وقيل : ماء الأرض كان أكثر وله مقدار معين عند الله عز وجل ، أو على أمر قدره الله تعالى وكتبه في اللوح المحفوظ وهو هلاك قوم نوح بالطوفان ، ورجحه أبو حيان بأن كل قصة ذكرت بعد ذكر الله تعالى فيها هلاك المكذبين فيكون هذا كناية عن هلاك هؤلاء ، و ﴿ على ﴾ عليه للتعليل ، ويحتمل تعلقها بالتقى .

وفيه ردّ على أهل الأحكام النجومية حيث زعموا أن الطوفان لاجتماع الكواكب السبعة ما عدا الزهرة في برج مائي ، وقرأ أبو حيوة .

وابن مقسم ﴿ قُدِرَ ﴾ بتشديد الدال .

﴿ وَحَمَلْنَاهُ ﴾ أي نوحاً عليه السلام ﴿ على ذَاتِ أَلواح ﴾ أخشاب عريضة ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ أي مسامير كما قاله الجمهور .

وابن عباس في رواية ابن جرير ، وابن المنذر جمع دسار ككتاب وكتب ، وقيل : (دسر) كسقف وسقف .

وأصل الدسر الدفع الشديد بقهر فسمى به المسمار لأنه يدق فيدفع بشدة .

وقيل : حبال من ليف تشد بها السفن .

وقال الليث : خيوط تشد بها ألواحها ، وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة .

والحسن أنها مقاديم السفينة وصدرها الذي تضرب به الموج وتدفعه .

وروي عن ابن عباس نحوه .

وأخرج عن مجاهد أنها عوارض السفينة أي الخشبات التي تعرض في وسطها .

وفي رواية عنه هي أضلاع السفينة .

وأياً مّا كان فقوله تعالى : ﴿ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات على سبيل الكناية كقولهم : حي مستوى القامة عريض الأظفار في الكناية عن الإنسان وهو من فصيح الكلام وبديعه .

ونظير الآية قول الشاعر

: مفرشي صهوة الحصان ولكن . . .

(قميصي) مسرودة من حديد

فإنه أراد قميصي درع .

وقوله يصف هزال الإبل

: تراءى الها في كل عين مقابل . . .

ولو في (عيون النازيات بأكرع)

فإنه أراد في عيون الجراد لأن النزو بالأكرع يختص بها .

وأما كونه على حذف الموصوف لدلالة الصفة عليه على ما في المفصل وغيره فكلام نحوى .

﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى منا .

وكني به عن الحفظ أي تجري في ذلك الماء بحفظنا وكلاءتنا ، وقيل : بأوليائنا يعني نوحاً عليه السلام ومن آمن معه يقال : مات عين من عيون الله تعالى أي ولي من أوليائه سبحانه ، وقيل : بأعين الماء التي فجرناها ، وقيل : بالحفظة من الملائكة عليهم السلام سماهم أعيناً وأضافهم إليه جل شأنه والأول أظهر ، وقرأ زيد بن علي .

وأبو السمال بأعينا بالادغام .

﴿ جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ أي فعلنا ذلك جزاءاً لنوح عليه السلام فإنه كان نعمة أنعمها الله تعالى على قومه فكفروها وكذا كل نبي نعمة من الله تعالى على أمته ، وجوز أن يكون على حذف الجاء وإيصال الفعل إلى الضمير واستتاره في الفعل بعد انقلابه مرفوعاً أي لمن كفر به وهو نوح عليه السلام أيضاً أي جحدت نبوته ، فالكفر عليه ضد الإيمان ، وعلى الأول كفران النعمة ، وعن ابن عباس .

ومجاهد من يراد به الله تعالى كأنه قيل : غضباً وانتصاراً لله عز وجل وهو كما ترى ، وقرأ مسلمة بن محارب كفر بإسكان الفاء خفف فعل كما في قوله

: لو عصر منه البان والمسك (انعصر) . . .

وقرأ يزيد بن رومان .

وقتادة .

وعيسى ﴿ كُفِرَ ﴾ مبنياً للفاعل فمن يراد بها قوم نوح عليه السلام لا غير ، وفي هذه القراءة دليل على وقوع الماضي بغير قد خبراً لكان وهو مذهب البصريين وغيرهم يقول لا بد من وقوع قد ظاهرة أو مقدرة ، وجوز أن تكون ﴿ كَانَ ﴾ زائدة كأنه قيل : جزءاً لمن ﴿ كُفِرَ ﴾ ولم يؤمن .

﴿ وَلَقَدْ تركناها ﴾ أي أبقينا السفينة ﴿ ءايَةً ﴾ بناءاً على ما روي عن قتادة .

(370/736)

والنقاش أنه بقي خشبها على الجودي حتى رآه بعض أوائل هذه الأمة ، أو أبقينا خبرها ، أو أبقينا جنسها وذلك بإبقاء السفن ، أو تركنا بمعنى جعلنا ، وجوز كون الضمير للفعلة وهي إنجاء نوح عليه السلام ومن معه وإغراق الكافرين ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي معتبر بتلك الآية الحرّية بالاعتبار ، وقرأ قتادة على ما نقل ابن عطية مذكر بالذال المعجمة على قلب تار الافتعال ذالا وإدغام الذال في الذال ، وقال صاحب اللوامح : قرأ قتادة فهل من

مذكر بتشديد الكاف من التذكير أي من يذكر نفسه أو غيره بها ، وقرىء مذتكر بذال معجمة بعدها تاء الافتعال كما هو الأصل .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ استفهام تعظيم وتعجيب أي كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف ، والنذر مصدر كالإنذار ، وقيل : جمع نذير بمعنى الإنذار ، وجعله بعضهم بمعنى المنذر منه ، وليس بشيء ، وكذا جعله بمعنى المنذر ، وكان يحتمل أن تكون ناقصة فكيف في موضع الخبر ؟ وتامة فكيف في موضع الحال ؟

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءان ﴾ الخ جملة قسمية وردت في آخر القصص الأربع تقريراً لمضمون ما سبقَ من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُمْ ﴾ [القمر : 4] الخ وتنبيهاً على أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الادكار كافية في الازدجار ، ومع ذلك لم يحصل فيها اعتبار ، أي وبالله لقد سهلنا القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم وشحناه بأنواع المواعظ والعبر وصرفنا فيه من الوعيد والوعد ﴿ لِلذِّكْرِ ﴾ أي للتذكر والاتعاظ ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ إنكار ونفي للمتعظ على أبلغ وجه وأكده يدل على أنه لا يقدر أحد أن يجيب المستفهم بنعم ، وقيل : المعنى سهلنا القرآن للحفظ لما اشتمل عليه من حسن النظم وسلاسة اللفظ وشرف المعاني وصحتها وعروّه عن الوحشي ونحوه فله بالقلوب وحلاوة في السمع فهل من طالب لحفظه ليعان عليه ؟ ومن هنا قال ابن جبير : لم يستظهر شيء من الكتب الإلهية غير القرآن ، وأخرج ابن المنذر .

وجماعة عن مجاهد أنه قال : يسرنا القرآن هونا قراءته .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس لولا أن الله تعالى يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله تعالى .

وأخرج الديلمي عن أنس مرفوعاً مثله .

وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين أنه مرّ برجل يقول سورة خفيفة فقال : لا تقل ذلك ولكن قل سورة يسيرة لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءانِ للذِّكْرِ ﴾ والمعنى الذي ذكر أولاً أنسب بالمقام ، ولعل خبر أنس إن صح ليس تفسيراً للآية ، وجوز تفسير ﴿ يَسَّرْنَا ﴾ بهيأنا من قولهم : يسر ناقته للسفر إذا رحلها ، ويسر فرسه للغزو إذا أسرجه وألجمه قال الشاعر

: وقمت إليه باللجام (ميسراً) . . .

هنالك يجزيني الذي كنت أصنع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾

أي : قربت ، ولا شك أنها قد صارت باعتبار نسبة ما بقي بعد قيام النبوّة المحمدية إلى ما مضى من الدنيا قريبة .

ويمكن أن يقال : إنها لما كانت متحققة الوقوع لا محالة كانت قريبة ، فكلّ آت قريب ﴿ وانشق القمر ﴾ أي : وقد انشقّ القمر ، وكذا قرأ حذيفة بزيادة " قد " ، والمراد الانشقاق الواقع في أيام النبوّة معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى هذا ذهب الجمهور من السلف والخلف .

قال الواحدي : وجماعة المفسرين على هذا إلاّ ما روى عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال : المعنى : سينشقّ القمر ، والعلماء كلهم على خلافه .

قال : وإنما ذكر اقتراب الساعة مع انشقاق القمر ؛ لأن انشقاقه من علامات نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، ونبوّته وزمانه من أشراط اقتراب الساعة .

قال ابن كيسان : في الكلام تقديم وتأخير ، أي : انشقّ القمر ، واقتربت الساعة .

وحكى القرطبي عن الحسن مثل قول عطاء أنه الانشقاق الكائن يوم القيامة .

وقيل : معنى ﴿ وانشقّ القمر ﴾ : وضح الأمر وظهر ، والعرب تضرب بالقمر المثل فيما وضح ، وقيل : انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه ، وطلوعه في أثنائها ، كما يسمى

الصبح فلقاً لانفلاق الظلمة عنه .

قال ابن كثير : قد كان الانشقاق في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة .

قال : وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .

قال الزجاج : زعم قوم عندوا عن القصد وما عليه أهل العلم أن تأويله أن القمر ينشقّ يوم القيامة ، والأمر بين في اللفظ ، وإجماع أهل العلم ، لأن قوله : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ يدلّ على أن هذا كان في الدنيا لا في القيامة .

(373/736)

انتهى ، ولم يأت من خالف الجمهور ، وقال إن الانشقاق سيكون يوم القيامة إلاّ بمجرد استبعاد ، فقال : لأنه لو انشق في زمن النبوّة لم يبق أحد إلاّ رآه ؛ لأنه آية والناس في الآيات سواء .

ويجاب عنه بأنه لا يلزم أن يراه كل أحد لا عقلاً ، ولا شرعاً ، ولا عادة ، ومع هذا ، فقد نقل إلينا بطريق التواتر ، وهذا بمجرده يدفع الاستبعاد ، ويضرب به في وجه قائله .

والحاصل أنا إذا نظرنا إلى كتاب الله ، فقد أخبرنا بأنه انشقّ ، ولم يخبرنا بأنه سينشق ، وإن نظرنا إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد ثبت في الصحيح ، وغيره من طرق متواترة أنه قد كان ذلك في أيام النبوّة ، وإن نظرنا إلى أقوال أهل العلم ، فقد اتفقوا على هذا ، ولا يلتفت إلى شذوذ من شذّ ، واستبعاد من استبعد ، وسيأتي ذكر بعض ما ورد في ذلك إن شاء الله .

﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ قال الواحدي : قال المفسرون : لما انشقّ القمر قال المشركون : سحرنا محمد ، فقال الله : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً ﴾ يعني : انشقاق القمر يعرضوا عن التصديق والإيمان بها ، ويقولوا : سحر قويّ شديد يعلو كل سحر ، من قولهم استمرّ الشيء : إذا قوي واستحكم ، وقد قال بأن معنى ﴿ مستمرّ ﴾ : قوي شديد جماعة من أهل العلم .

قال الأخفش : هو مأخوذ من إمرار الحبل ، وهو شدّة فتله ، وبه قال أبو العالية ، والضحاك ، واختاره النحاس ، ومنه قول لقيط :

حتَّى استمرّت على شَزر لا يزنه . . . صِدْقُ العزيمة لا رثا ولا ضَرَعا

وقال الفراء ، والكسائي ، وأبو عبيدة : ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ أي : ذاهب ، من قولهم مرّ الشيء ، واستمرّ إذا ذهب ، وبه قال قتادة ، ومجاهد ، وغيرهما ، واختاره النحاس .

وقيل : معنى مستمرّ : دائم مطرد ، ومنه قول الشاعر :

ألا إنما الدنيا ليال وأعصر . . . وليس على شيء قديم بمستمر

أي : بدائم باق ، وقيل : ﴿ مستمرّ ﴾ : باطل ، روي هذا عن أبي عبيدة أيضاً .

(374/736)

وقيل : يشبه بعضه بعضاً ، وقيل : قد مرّ من الأرض إلى السماء ، وقيل : هو من المرارة ، يقال : مرّ الشيء صار مرًّا ، أي : مستبشع عندهم .

وفي هذه الآية أعظم دليل على أن الانشقاق قد كان ، كما قررناه سابقاً .

ثم ذكر سبحانه تكذيبهم ، فقال : ﴿ وَكَذَّبُواْ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ أي : وكذبوا رسول الله ، وما عاينوا من قدرة الله ، واتبعوا أهواءهم ، وما زيّنه لهم الشيطان الرجيم ، وجملة : ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ مستأنفة لتقرير بطلان ما قالوه من التكذيب ، واتباع الأهواء ، أي : وكل أمر من الأمور منته إلى غاية ، فالخير يستقرّ بأهل الخير ، والشرّ يستقر بأهل الشرّ .

قال الفراء : يقول يستقرّ قرار تكذيبهم ، وقرار قول المصدّقين حتى يعرفوا حقيقته بالثواب والعقاب .

قال الكلبي : المعنى لكل أمر حقيقة ما كان منه في الدنيا فسيظهر ، وما كان منه في الآخرة فسيعرف .

قرأ الجمهور ﴿ مستقرّ ﴾ بكسر القاف ، وهو مرتفع على أنه خبر المبتدأ وهو "كل" .
وقرأ أبو جعفر ، وزيد بن علي بجر (مستقرّ) على أنه صفة ل ﴿ أمر ﴾ ، وقرأ شيبة بفتح القاف ، ورويت هذه القراءة عن نافع .

(375/736)

قال أبو حاتم : ولا وجه لها ، وقيل : لها وجه بتقدير مضاف محذوف ، أي : وكل أمر ذو استقرار ، أو زمان استقرار ، أو مكان استقرار ، على أنه مصدر ، أو ظرف زمان ، أو ظرف مكان ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أي : ولقد جاء كفار مكة ، أو الكفار على العموم من الأنباء ، ومن أخبار الأمم المكذبة المقصوصة علينا في القرآن ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أي : ازدجار على أنه مصدر ميميّ ، يقال : زجرته : إذا نهيته عن السوء ووعظته ، ويجوز أن يكون اسم مكان ، والمعنى : جاءهم ما فيه موضع ازدجار ، أي : أنه في نفسه موضع لذلك ، وأصله : مزتجر ، " وتاء " الافتعال تقلب دالاً مع الزاي والدال والذال ، كما تقرّر في موضعه ، وقرأ زيد بن عليّ : (مزجّر) بقلب تاء الافتعال زاياً وإدغام الزاي في الزاي ، و " من " في قوله : ﴿ مِّنَ الأَنبَاء ﴾ للتبعيض ، وهي وما دخلت عليه في محل نصب على الحال ، وارتفاع ﴿ حِكْمَةٌ بالغة ﴾ على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أو

بدل من " ما " بدل كل من كل ، أو بدل اشتمال ، والمعنى : أن القرآن حكمة قد بلغت الغاية ليس فيها نقص ولا خلل ، وقرىء بالنصب على أنها حال من ما أي : حال كون ما فيه مزدجر حكمة بالغة ﴿ فَمَا تُغْنِى النذر ﴾ " ما " يجوز أن تكون استفهامية ، وأن تكون نافية ، أي : أيّ شيء تغني النذر ، أو لم تغن النذر شيئًا ، والفاء لترتيب عدم الإغناء على مجيء الحكمة البالغة ، والنذر جمع نذير بمعنى : المنذر ، أو بمعنى الإنذار على أنه مصدر .

(376/736)

ثم أمره الله سبحانه بالإعراض عنهم ، فقال : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي : أعرض عنهم حيث لم يؤثر فيهم الإنذار ، وهي منسوخة بآية السيف ﴿ يَوْمَ يَدْعُو الداع إلى شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾ انتصاب الظرف إما بفعل مقدّر ، أي : اذكر ، وإما ب ﴿ يخرجون ﴾ المذكور بعده ، وإما بقوله : ﴿ فَمَا تُغْنِى ﴾ ، ويكون قوله : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ اعتراض ، أو بقوله : ﴿ يَقُولُ الكافرون ﴾ أو بقوله : ﴿ خُشَّعاً ﴾ وسقطت الواو من ﴿ يدع ﴾ اتباعاً للفظ ، وقد وقعت في الرسم هكذا ، وحذفت الياء من الداع للتخفيف ، واكتفاء بالكسرة ، والداع : هو إسرافيل ، والشيء النكر : الأمر الفظيع الذي ينكرونه استعظاماً له لعدم تقدّم العهد لهم بمثله .

قرأ الجمهور بضم الكاف .

وقرأ ابن كثير بسكونها تخفيفاً .

وقرأ مجاهد ، وقتادة بكسر الكاف ، وفتح الراء على صيغة الفعل المجهول ﴿ خُشَّعاً أبصارهم ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ خشعاً ﴾ جمع خاشع .

وقرأ حمزة ، والكسائي وأبو عمرو : ﴿ خاشعاً ﴾ على الإفراد ، ومنه قول الشاعر :

وَشَبَاب حَسَن أَوْجُهُهُم من . . . إياد بن نزارِ بن مَعد

وقرأ ابن مسعود (خاشعة) قال الفراء : الصفة إذا تقدّمت على الجماعة جاز فيها التذكير والتأنيث والجمع ، يعني : جمع التكسير لا جمع السلامة ؛ لأنه يكون من الجمع بين فاعلين ، ومثل قراءة الجمهور قول امرىء القيس :

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم . . . يقولون لا تهلك أسى وتجلد

وانتصاب ﴿ خشعاً ﴾ على الحال من فاعل يخرجون ، أو من الضمير في ﴿ عنهم ﴾ ، والخشوع في البصر : الخضوع والذلة ، وأضاف الخشوع إلى الأبصار ؛ لأن العزّ والذلّ يتبين فيها ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ أي : يخرجون من القبور ، وواحد الأجداث : جدث ، وهو القبر ، كأنهم لكثرتهم واختلاط بعضهم ببعض جراد منتشر ، أي : منبث في الأقطار مختلط بعضه ببعض .

﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع ﴾ الإهطاع : الإسراع ، أي : قال كونهم مسرعين إلى الداعي ، وهو إسرافيل ، ومنه قول الشاعر :

بِدجْلَةَ دَارهُم ولقد أرَاهُمْ . . . بِدجْلَةَ مُهْطِعين إلى السَّماعِ

أي : مسرعين إليه ، وقال الضحاك : مقبلين ، وقال قتادة : عامدين .

وقال عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت ، والأوّل أولى ، وبه قال أبو عبيدة ، وغيره ، وجملة : ﴿ يَقُولُ الكافرون هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير ﴿ مهطعين ﴾ ، والرابط مقدر ، أو مستأنفة جواب سؤال مقدّر ؛ كأنه قيل : فماذا يكون حينئذ ، والعسر : الصعب الشديد ، وفي إسناد هذا القول إلى الكفار دليل على أن اليوم ليس بشديد على المؤمنين .

ثم ذكر سبحانه تفصيل بعض ما تقدّم من الأنباء المجملة فقال : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ أي : كذبوا نبيهم ، وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله : ﴿ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ﴾ تفسير لما قبله من التكذيب المبهم ، وفيه مزيد تقرير وتأكيد ، أي : فكذبوا عبدنا نوحاً ، وقيل المعنى : كذبت قوم نوح الرسل ، فكذبوا عبدنا نوحاً بتكذيبهم للرسل فإنه منهم .

ثم بيّن سبحانه أنهم لم يقتصروا على مجرّد التكذيب ، فقال : ﴿ وَقَالُواْ مَجْنُونٌ ﴾ أي :

نسبوا نوحاً إلى الجنون ، وقوله : ﴿ وازدجر ﴾ معطوف على قالوا ، أي : وزجر عن دعوى النبوّة ، وعن تبليغ ما أرسل به بأنواع الزجر ، والدال بدل من تاء الافتعال ، كما تقدّم قريباً ، وقيل : إنه معطوف على ﴿ مجنون ﴾ أي : وقالوا إنه ازدجر .

أي : ازدجرته الجنّ ، وذهبت بلبه ، والأوّل أولى .

قال مجاهد : هو من كلام الله سبحانه أخبر عنه بأنه انتهر وزجر بالسبّ وأنواع الأذى .

قال الرازي : وهذا أصح ؛ لأن المقصود تقوية قلب النبيّ صلى الله عليه وسلم بذكر من تقدّمه .

(378/736)

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فانتصر ﴾ أي : دعا نوح ربه على قومه بأني مغلوب من جهة قومي ، لتمرّدهم عن الطاعة ، وزجرهم لي عن تبليغ الرسالة ، فانتصر لي ، أي : انتقم لي منهم .

طلب من ربه سبحانه النصرة عليهم لما أيس من إجابتهم ، وعلم تمرّدهم وعتوّهم ، وإصرارهم على ضلالتهم .

قرأ الجمهور : ﴿ أني ﴾ بفتح الهمزة ، أي : بأني .

وقرأ ابن أبي إسحاق ، والأعمش بكسر الهمزة ، ورويت هذه القراءة عن عاصم على تقدير إضمار القول ، أي : فقال .

ثم ذكر سبحانه ما عاقبهم به فقال : ﴿ فَفَتَحْنَا أبواب السماء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ ﴾ أي منصبّ انصباباً شديداً ، والهمر : الصبّ بكثرة ، يقال : همر الماء والدمع يهمر همراً ، وهموراً : إذا كثر ، ومنه قول الشاعر :

أعينيّ جُودا بالدَّموعِ الهَوَامرِ . . . على خيرِ بَادٍ من مَعَدٍّ وحَاضِرِ

ومنه قول امرىء القيس يصف عيناً :

رَاحَ تمرّ به الصَّبَا ثم انْتَحَى . . . فيه بشُؤْبُوبٍ جَنُوبٍ مُنْهَمِرِ

قرأ الجمهور ﴿ فتحنا ﴾ مخففاً .

وقرأ ابن عامر ، ويعقوب بالتشديد ﴿ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً ﴾ أي : جعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة ، والأصل : فجرنا عيون الأرض .

قرأ الجمهور ﴿ فجرنا ﴾ بالتشديد .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو حيوة ، وعاصم في رواية عنه بالتخفيف .

قال عبيد بن عمير : أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها ، فتفجرت بالعيون .

﴿ فَالْتَقَى الماء على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي : التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قضي عليهم ، أي : كائناً على حال قدّرها الله وقضى بها .

وحكى ابن قتيبة أن المعنى على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر ، بل كان ماء السماء وماء الأرض على سواء .

قال قتادة : قدّر لهم إذا كفروا أن يغرقوا .

(379/736)

وقرأ الجحدري (فالتقى الماءان) وقرأ الحسن (فالتقى الماوان) ورويت هذه القراءة عن عليّ بن أبي طالب ، ومحمد بن كعب : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ على ذَاتِ أَلواحٍ وَدُسُرٍ ﴾ أي : وحملنا نوحاً على سفينة ذات ألواح ، وهي الأخشاب العريضة ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ قال الزجاج : هي المسامير التي تشدّ بها الألواح واحدها : دسار ، وكل شيء أدخل في شيء يشدّه فهو الدسر ، وكذا قال قتادة ، ومحمد بن كعب ، وابن زيد ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم .

وقال الحسن ، وشهر بن حوشب ، وعكرمة : الدسر : ظهر السفينة التي يضربها الموج ، سميت بذلك لأنها تدسر الماء ، أي : تدفعه ، والدسر : الدفع .

وقال الليث : الدسار : خيط تشدّ به ألواح السفينة .

قال في الصحاح : الدسار واحد الدسر : وهي خيوط تشدّ بها ألواح السفينة ، ويقال : هي المسامير ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي : بمنظر ومرأى منا وحفظ لها ، كما في قوله : ﴿

واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا ﴾ [هود : 37] وقيل : بأمرنا ، وقيل : بوحينا ، وقيل : بالأعين النابعة من الأرض ، وقيل : بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها ﴿ جَزَاء لّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ قال الفراء : فعلنا به وبهم ما فعلنا من إنجائه وإغراقهم ثواباً لمن كفر به وجحد أمره ، وهو نوح عليه السلام ، فإنه كان لهم نعمة كفروها ، فانتصاب ﴿ جزاء ﴾ على العلة ، وقيل : على المصدرية بفعل مقدّر ، أي : جازيناهم جزاء .

قرأ الجمهور (كفر) مبنياً للمفعول ، والمراد به نوح .

وقيل : هو الله سبحانه ، فإنهم كفروا به ، وجحدوا نعمته .

وقرأ يزيد بن رومان ، وقتادة ، ومجاهد ، وحميد ، وعيسى كفر بفتح الكاف ، والفاء مبنياً للفاعل ، أي : جزاء وعقاباً لمن كفر بالله .

﴿ وَلَقَدْ تركناها ءايَةً ﴾ أي : السفينة تركها الله عبرة للمعتبرين ، وقيل المعنى : ولقد تركنا هذه الفعلة التي فعلناها بهم عبرة ، وموعظة .

(380/736)

﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أصله : مذتكر ، فأبدلت التاء دالاً مهملة ، ثم أبدلت المعجمة مهملة لتقاربهما ، وأدغمت الدال في الذال ، والمعنى : هل من متعظ ومعتبر يتعظ بهذه الآية ،

ويعتبر بها .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ أي : إنذاري .

قال الفراء : الإنذار والنذر مصدران ، والاستفهام للتهويل والتعجيب ، أي : كانا على كيفية هائلة عجيبة لا يحيط بها الوصف ، وقيل : نذر جمع نذير ، ونذير بمعنى الإنذار كنكير : بمعنى الإنكار ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءانَ لِلذِّكْرِ ﴾ أي : سهلناه للحفظ ، وأعنا عليه من أراد حفظه ، وقيل : هيأناه للتذكر والاتعاظ ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي : متعظ بمواعظه ومعتبر بعبره .

وفي الآية الحث على درس القرآن ، والاستكثار من تلاوته ، والمسارعة في تعلمه ، ومدكر أصله : مذتكر ، كما تقدّم قريباً .

وقد أخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن أنس : أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما .

وروي عنه من طريق أخرى عند مسلم ، والترمذي ، وغيرهم وقال : فنزلت : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين : فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اشهدوا " وأخرج عبد بن حميد ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عنه قال : رأيت القمر منشقاً شقتين مرّتين :

مرّة بمكة قبل أن يخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم : شقة على أبي قبيس ، وشقة على السويداء .

وذكر أن هذا سبب نزول الآية .

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم عنه أيضاً قال : رأيت القمر وقد انشقّ ، وأبصرت الجبل بين فرجتي القمر .

وله طرق عنه .

(381/736)

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن ابن عباس قال : انشقّ القمر في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وله طرق عنه .

وأخرج مسلم ، والترمذي ، وغيرهما عن ابن عمر في قوله : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ قال : كان ذلك على عهد رسول الله انشقّ فرقتين : فرقة من دون الجبل ، وفرقة خلفه ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " اللَّهم اشهد " وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، وابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي عن جبير

بن مطعم عن أبيه في قوله : ﴿ وانشق القمر ﴾ قال : انشقّ القمر ونحن بمكة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صار فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، فقال الناس : سحرنا محمد ، فقال رجل : إن كان سحركم ، فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن جرير ، وابن مردويه ، وأبو نعيم عن عبد الرحمن السلمي قال : خطبنا حذيفة بن اليمان بالمدائن ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ، ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشقّ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، اليوم المضمار وغداً السباق .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ قال : ناظرين .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه ﴿ فَفَتَحْنَا أبواب السماء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ ﴾ قال كثير : لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ، ولا بعده إلاّ من السحاب ، وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم ، فالتقى الماءان .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿ على ذَاتِ أَلواح وَدُسُرٍ ﴾ قال : الألواح :

ألواح السفينة ، والدسر : معاريضها التي تشد بها السفينة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ قال : المسامير .

(382/736)

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه قال : الدسر كلكل السفينة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءان لِلذِّكْرِ ﴾ قال : لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلموا بكلام الله .

وأخرج الديلمي عن أنس مرفوعاً مثله .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ قال : هل من متذكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 119.124 ﴾

(383/736)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) ﴾

استئناف بيانيّ ناشىء عن قوله : ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ﴾ [القمر : 4] فإن من أشهرها تكذيب قوم نوح رسولهم ، وسبق الإنباء به في القرآن في السور النازلة قبل هذه السورة .

والخبر مستعمل في التذكير وليفرع عليه ما بعده .

فالمقصود النعي عليهم عدم ازدجارهم بما جاءهم من الأنباء بتعداد بعض المهمّ من تلك الأنباء .

وفائدة ذكر الظرف ﴿ قبلهم ﴾ تقرير تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم أي أن هذه شنشنة أهل الضلال كقوله تعالى : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ﴾ [فاطر : 4] ألا ترى أنه ذكر في تلك الآية قوله : ﴿ من قبلك ﴾ نظير ما هنا مع ما في ذلك من التعريض بأن هؤلاء معرِضون .

واعلم أنه يقال : كذَّب ، إذا قال قولاً يدل على التكذيب ، ويقال كذّب أيضاً ، إذا اعتقد أن غيره كاذب قال تعالى : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ﴾ [الأنعام : 33] في قراءة الجمهور بتشديد الذال ، والمعنيان محتملان هنا ، فإن كان فعل ﴿ كذبت ﴾ هنا مستعملاً في معنى القول بالتكذيب ، فإن قوم نوح شافهوا نوحاً بأنه كاذب ، وإن كان مستعملاً في

اعتقادهم كذبه ، فقد دلّ على اعتقادهم إعراضهم عن إنذاره وإهمالهم الانضواء إليه عندما أنذرهم بالطوفان .

وعُرِّف ﴿ قوم نوح ﴾ بالإِضافة إلى اسمه إذ لم تكن للأمة في زمن نوح اسم يعرفون به .

وأسند التكذيب إلى جميع القوم لأن الذين صدقوه عدد قليل فإنه ما آمن به إلا قليل ، كما تقدم في سورة هود .

(384/736)

والفاء في قوله : ﴿ فكذبوا عبدنا ﴾ لتفريع الإِخبار بتفصيل تكذيبهم إياه بأنهم قالوا : ﴿ مجنون وازدجر ﴾ ، على الإِخبار بأنهم كذّبُوه على الإِجمال ، وإنما جيء بهذا الأسلوب لأنه لما كان المقصود من الخبر الأول تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم فرّع عليه الإخبار بحصول المشابهة بين تكذيب قومِ نوح رسولهم وتكذيب المشركين محمداً صلى الله عليه وسلم في أنه تكذيب لمن أرسله الله واصطفاه بالعبودية الخاصة ، وفي أنه تكذيب مشوب ببهتان إذ قال كلا الفريقين لرسوله : مَجنون ، ومشوب ببذاءة إذ آذى كلا الفريقين رسولهم وازدجروه .

فمحل التفريع هو وصف نوح بعبودية الله تكريماً له ، والإِخبار عن قومه بأنهم افتروا عليه

وصفَه بالجنون ، واعتدوا عليه بالأذى والازدجارِ .

فأصل تركيب الكلام : كذبت قبلهم قوم نوح فقالوا : مجنون وازدجر .

ولما أريد الإيماء إلى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ابتداء جعل ما بعد التسلية مفرعاً بفاء التفريع ليظهر قصد استقلال ما قبله ولولا ذلك لكان الكلام غنياً عن الفاء إذ كان يقول : كذبت قوم نوح عبدنا .

وأعيد فعل ﴿ كذَّبوا ﴾ لإفادة توكيد التكذيب ، أي هو تكذيب قويّ كقوله تعالى : ﴿ وإذا بطشتم بطشتم جَبارين ﴾ [الشعراء : 130] وقوله : ﴿ ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا ﴾ [القصص : 63] ، وقول الأحوص:

فإذا تزول تزول عن متخمط . . .

تُخشى بوادِره على الأقران

وقد نبه على ذلك ابن جنيّ في إعراب هذا البيت من "ديوان الحماسة" ، وذَكَر أن أبا عليّ الفارسي نحا غير هذا الوجه ولم يبيّنه .

وحاصل نظم الكلام يرجع إلى معنى : أنه حصل فعل فكان حصوله على صفة خاصة أو طريقة خاصة .

ويجوز أن يكون فعل ﴿ كذبت ﴾ مستعملاً في معنى : إنهم اعتقدوا كذبه ، فتفريع ﴿ فكذّبوا عبدنا ﴾ عليه تفريع تصريحهم بتكذيبه على اعتقادهم كذبه .

فيكون فعل ﴿ كذبوا ﴾ مستعملاً في معنى غير الذي استعمل فيه فعل ﴿ كذبت ﴾ ، والتفريع ظاهر على هذا الوجه .

وهذا الوجه يتأتّى في قوله تعالى : ﴿ وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي ﴾ في سورة سبأ (45) .

ويجوز أن يكون قوله : كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ إخباراً عن تكذيبهم بتفرد الله بالإلهية حين تلقوه من الأنبياء الذين كانوا قبل نوح ولم يكن قبله رسول وعلى هذا الوجه يكون التفريع ظاهراً .

و﴿ ازدجر ﴾ معطوف على ﴿ قالوا ﴾ وهو افتعل من الزجر .

وصيغة الافتعال هنا للمبالغة مثلها : افتقر واضطر .

ونكتة بناء الفعل للمجهول هنا التوصل إلى حذف ما يسند إليه فعل الازدجار المبني للفاعل وهو ضمير ﴿ قوم نوح ﴾ ، فعدل على أن يقال : وازدجروه ، إلى قوله : ﴿ وازدجر ﴾ مُحاشاة للدّال على ذات نوح وهو ضمير من أن يقع مفعولاً لضميرهم .

ومرادهم أنهم ازدجروه ، أي نهوه عن ادعاء الرسالة بغلظة قال تعالى : ﴿ قال الملأ الذين

كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ [الأعراف : 66] وقال : ﴿ قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ [الشعراء : 116] وقال : ﴿ وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾ [هود : 38] .

فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10)

تفريع على ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ [القمر : 9] وما تفرع عليه .

والمغلوب مجاز ، شبه يأسه من إجابتهم لدعوته بحال الذي قاتل أو صارع فغلبه مقاتله ، وقد حكى الله تعالى في سورة نوح كيف سلك مع قومه وسائل الإقناع بقبول دعوته فأعيته الحيل .

و ﴿ أني ﴾ بفتح الهمزة على تقدير باء الجر محذوفة ، أي دعا بأني مغلوب ، أي بمضمون هذا الكلام في لغته .

وحذف متعلق ﴿ فانتصر ﴾ للإِيجاز وللرعي على الفاصلة والتقدير : فانتصر لي ، أي انصرني .

وجملة ﴿ ففتحنا أبواب السماء ﴾ إلى آخرها مفرعة على جملة ﴿ فدعا ربه ﴾ ، ففهم من التفريع أن الله استجاب دعوته وأن إرسال هذه المياه عقاب لقوم نوح .

وحاصل المعنى : فأرسلنا عليهم الطوفان بهذه الكيفية المحكمة السريعة .

وقرأ الجمهور ﴿ ففتحنا ﴾ بتخفيف التاء .

وقرأه ابن عامر بتشديدها على المبالغة .

والفتح بمعنى شدة هطول المطر .

وجملة ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ مركب تمثيلي لهيئة اندفاق الأمطار من الجو بهيئة خروج الجماعات من أبواب الدار على طريقة:

وسالتْ بأعناق المطيّ الأباطح . . .

والمنهمر : المنصب ، أي المصبوب يقال : عمرَ الماء إذا صبه ، أي نازل بقوة .

والتفجير : إسالة الماء ، يقال : تفجر الماء ، إذا سال ، قال تعالى : ﴿ حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ [الإسراء : 90] .

وتعدية ﴿ فجّرنا ﴾ إلى اسم الأرض تعدية مجازية إذ جعلت الأرض من كثرة عيونها كأنها عين تتفجر .

وفي هذا إجمال جيء من أجله بالتمييز له بقوله : ﴿ عيوناً ﴾ لبيان هذه النسبة ، وقد جعل هذا ملحقاً بتمييز النسبة لأنه محول عن المفعول إذ المعنى : وفجرنا عيون الأرض ،

وهو مثل المحول عن الفاعل في قوله تعالى : ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ [مريم : 4] ، أي شيب الرأس إذ لا فرق بينهما ، ونكتة ذلك واحدة .

قال في "المفتاح" : "إسناد الاشتعال إلى الرأس لإفادة شُمول الاشتعالِ الرأسَ إذ وزان اشتعل شيبُ الرأس ، واشتعل الرأس شيباً وزان اشتعلت النار في بيتي واشتعل بيتي ناراً" أ هـ .

والتقاء الماء : تجمع ماءِ الأمطار مع ماء عيون الأرض فالإلتقاء مستعار للاجتماع ، شبه الماء النازل من السماء والماء الخارج من الأرض بطائفتين جاءت كل واحدة من مكان فالتقتا في مكان واحد كما يلتقي الجيشان .

والتعريف في ﴿ الماء ﴾ للجنس .

وعلم من إسناد الإلتقاء أنهما نوعان من الماء ماء المطر وماء العيون .

(387/736)

و ﴿ على ﴾ من قوله : ﴿ على أمر ﴾ يجوز أن تكون بمعنى (في) كقوله تعالى : ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾ [القصص : 15] ، وقول الفرزدق:

على حالةٍ لو أن في البحر حاتماً . . .

على جوده لضنَّ بالماء حاتم

والظرفية مجازية .

ويجوز أن تكون ﴿ على ﴾ للاستعلاء المجازي ، أي ملابساً لأمر قد قدر ومتمكناً منه .

ومعنى التمكن : شدة المطابقة لما قُدر ، وأنه لم يحد عنه قيد شَعَرة .

والأمر : الحال والشأن وتنوينه للتعظيم .

ووصف الأمر بأنه ﴿ قد قدر ﴾ ، أي أتقن وأحكم بمقدار ، يقال : قدَره بالتخفيف إذا ضبطه وعينه كما قال تعالى:

﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ [القمر : 49] ومحل ﴿ على أمر ﴾ النصب على الحال من الماء .

واكتفي بهذا الخبر عن بقية المعنى ، وهو طغيان الطوفان عليهم اكتفاء بما أفاده تفريع ﴿ ففتحنا أبواب السماء ﴾ كما تقدم انتقالاً إلى وصف إنجاء نوح من ذلك الكرب العظيم ، فجملة ﴿ وحملناه ﴾ معطوفة على التفريع عطف احتراس .

والمعنى : فأغرقناهم ونجَّيْناه .

و ﴿ ذات ألواح ودُسُر ﴾ صفة السفينة ، أقيمت مقام الموصوف هنا عوضاً عن أن يقال : وحملناه على الفلك لأن في هذه الصفة بيان متانة هذه السفينة وإحكام صنعها .

وفي ذلك إظهار لعناية الله بنجاة نوح ومن معه فإن الله أمره بصنع السفينة وأوحى إليه كيفية

صنعها ولم تكن تعرف سفينة قبلها ، قال تعالى : ﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ [هود : 36 ، 37] ، وعادة البلغاء إذا احتاجوا لذكر صفة بشيء وكان ذكرها دالاً على موصوفها أن يستغنوا عن ذكر الموصوف إيجازاً كما قال تعالى : ﴿ أن اعمل سابغات ﴾ [سبأ : 11] ، أي دروعاً سابغات .

والحمل : رفع الشيء على الظهر أو الرأس لنقله ﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ [النحل : 7] وله مجازات كثيرة .

والألواح : جمع لوح ، وهو القطعة المسوّاة من الخشب .

والدسر : جمع دِسار ، وهو المسمار .

(388/736)

وعدي فعل (حملنا) إلى ضمير نوح دون من معه من قومه لأن هذا الحمل كان إجابة لدعوته ولنصره فهو المقصود الأول من هذا الحمل ، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا ﴾ [الأعراف : 72] وقوله : ﴿ فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك ﴾ [المؤمنون : 28] ونحوه من الآيات الدالة على أنه المقصود بالإنجاء

وأن نجاة قومه بمعيته ، وحسبك قوله تعالى في تذييل هذه الآية ﴿ جزاء لمن كان كفر ﴾ فإن الذي كان كُفِر هو نوح كفر به قومه .

و ﴿ على ﴾ للاستعلاء المجازي وهو التمكن كقوله تعالى : ﴿ فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك ﴾ ، وإلا فإن استقراره في السفينة كائن في جوفها كما قال تعالى : ﴿ إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية ﴾ [الحاقة : 11] ﴿ قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ﴾ [هود : 40] .

والباء في ﴿ بأعيننا ﴾ للملابسة .

والأعين : جمع عين بإطلاقه المجازي ، وهو الاهتمام والعناية ، كقول النابغة:

علمْتك ترعاني بعين بصيرة . . .

وقال تعالى : ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ [الطور : 48] .

وجُمع العين لتقوية المعنى لأن الجمع أقوى من المفرد ، أي بحراسات منّا وعنايات .

ويجوز أن يكون الجمع باعتبار أنواع العنايات بتنوع آثارها .

وأصل استعمال لفظ العين في مثله تمثيل بحال الناظر إلى الشيء المحروس مثل الراعين كما يقال للمسافر : "عين الله عليك" ، ثم شاع ذلك حتى ساوى الحقيقة فجمع بذلك الاعتبار .

وتقدم في سورة هود .

و﴿ جزاء ﴾ مفعول لأجله ل﴿ فتحنا ﴾ وما عُطف عليه ، أي : فعلنا ذلك كله جزاء لنوح .

(389/736)

و ﴿ من كان كُفِر ﴾ هو نوح فإن قومه كَفَروا به ، أي لم يؤمنوا بأنه رسول وكان كفرهم به منذ جاءهم بالرسالة فلذلك أقحم هنا فعل ﴿ كان ﴾ ، أي لمن كُفِر منذ زمان مضى وذلك ما حكي في سورة نوح (95) بقوله : ﴿ قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ﴾ إلى قوله : ﴿ ثم إني دعوتهم جهاراً ثم إنِّي أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ﴾ وحذف متعلق كفر لدلالة الكلام عليه .

وتقديره : كفر به ، أو لأنه نصح لهم ولقي في ذلك أشد العناء فلم يشكروا له بل كفروه فهو مكفور فيكون من باب قوله تعالى : ﴿ ولا تكفرون ﴾ [البقرة : 152] .

وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (15)

ضمير المؤنث عائد إلى ﴿ ذات ألواح ودسر ﴾ ، أي السفينة .

والترك كناية عن الإبقاء وعدم الإزالة ، قال تعالى : ﴿ وتركنا فيها آية ﴾ في سورة الذاريات (37) ، وقال : ﴿ وتركهم في ظلمات لا يبصرون ﴾ في سورة البقرة (17) ،

أي أبقينا سفينة نوح محفوظة من البِلى لتكون آية يشهدها الأمم الذين أرسلت إليهم الرسلُ متى أراد واحد من الناس رؤيتها ممن هو بجوار مكانها تأييداً للرسل وتخويفاً بأول عذاب عُذبت به الأمم أمة كذبت رسولها فكانت حجة دائمة مثل ديار ثمود .

ثم أخذت تتناقص حتى بقي منها أخشاب شهدها صدر الأمة الإسلامية فلم تضمحل حتى رآها ناس من جميع الأمم بعد نوح فتواتر خبرها بالمشاهدة تأييداً لتواتر الطوفان بالأخبار المتواترة .

وقد ذكر القرآن أنها استقرت على جبل الجوديّ فمنه نزل نوح ومن معه وبقيت السفينة هنالك لا ينالها أحد ، وذلك من أسباب حفظها عن الاضمحلال .

واستفاض الخبر بأن الجودي جُبيل قرب قرية تسمى (باقِرْدَى) بكسر القاف وسكون الراء ودال مفتوحة مقصوراً من جزيرة ابن عمر قرب المَوْصل شرقيَّ دجلة .

وفي "صحيح البخاري" قال قتادة : "لقد شَهدها صدر هذه الأمة" قال تعالى في سورة العنكبوت (15) ﴿ وجعلناها آية للعالمين ﴾ وقد تقدم ذلك مفصلاً هنالك .

(390/736)

والآية : الحجة .

وأصل الآية الأمارة التي يصطلح عليها شخصان فأكثر ﴿ قال رب اجعل لي آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام ﴾ [آل عمران : 41] .

وإنما قال هنا ﴿ ولقد تركناها ﴾ وقال في سورة العنكبوت (15) ﴿ وجعلناها آية للعالمين ﴾ لأن ذكرها في سورة القمر وردَ بعد ذكر كيفية صنعها وحدوث الطوفان وحمل نوح في السفينة .

فأخبر بأنها أُبقيت بعد تلك الأحوال ، فالآية في بقائها ، وفي سورة العنكبوت وَرَد ذِكر السفينة ابتداء فأخبر بأن الله جعلها آية إذْ أوحى إلى نوح بصنعها ، فالآية في إيجادها وهو المعبر عنه بـ ﴿ جعلناها ﴾ .

وفرع على إبقاء السفينة آية استفهام عمن يتذكر بتلك الآية وهو استفهام مستعمل في معنى التحضيض على التذكر بهذه الآية واستقصاء خبرها مثل الاستفهام في قول طرفة:

إذا القوم قالوا من فتى . . .

البيت . . .

والتحضيض موجه إلى جميع من تبلغه هذه الآيات ومن ﴾ زائدة للدلالة على عموم الجنس في الإِثبات على الأصح من القولين .

و ﴿ مُدَّكر ﴾ أصله : مُذتَكر مفتعل من الذُكر بضم الذال ، وهو التفكر في الدليل فقلبت

تاء الافتعال دالاً لتقارب مخرجيهما ، وأدغم الذال في الدال لذلك ، وقرَاءة هذه الآية مروية بخصوصها عن النبي صلى الله عليه وسلم وتقدم في سورة يوسف (45) ﴿ وادَّكَر بعد أمة ﴾ .

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (16)

تفريع على القصة بما تضمنته من قوله : ﴿ ففتحنا أبواب السماء ﴾ [القمر : 11] إلى آخره .

و(كيف) للاستفهام عن حالة العذاب .

وهو عذاب قوم نوح بالطوفان والاستفهام مستعمل في التعجيب من شدة هذا العذَاب الموصوف .

والجملة في معنى التذييل وهو تعريض بتهديد المشركين أن يصيبهم عذاب جزاء تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وإعراضهم وأذاهم كما أصاب قوم نوح .

وحُذف ياء المتكلم من ﴿ نذر ﴾ وأصله : نُذري .

وحذفها في الكلام في الوقف فصيح وكثر في القرآن عند الفواصل .

والنذر : جمع نذير الذي هو اسم مصدر أَنذر كالنذارة وتقدم آنفاً في هذه السورة وإنما جمعت لتكرر النذارة من الرسول لقومه طلباً للإيمانهم .

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (17)

لمّا كانت هذه النذارة بُلغت بالقرآن والمشركون معرضون عن استماعه حارمين أنفسهم من فوائده ذُيّل خبرها بتنويه شأن القرآن بأنه من عند الله وأن الله يسّره وسَهله لتذكّر الخلق بما يحتاجونه من التذكير مما هو هدى وإرشاد .

وهذا التيسير ينبىء بعناية الله به مثل قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر : 9] تبصرة للمسلمين ليزدادوا إقبالاً على مدارسته وتعريضاً بالمشركين عسى أن يَرْعَوُوا عن صدودهم عنه كما أنبأ عنه قوله : ﴿ فهل من مدكر ﴾ .

وتأكيد الخبر باللام وحرف التحقيق مراعى فيه حَال المشركين الشاكين في أنه من عند الله .

والتيسير : إيجاد اليسر في شيء ، من فعل كقوله : ﴿ يريد الله بكم اليسر ﴾ [البقرة : 185] أو قولٍ كقوله تعالى : ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ﴾ [الدخان : 58] .

واليسر : السهولة ، وعدم الكلفة في تحصيل المطلوب من شيء .

وإذ كان القرآن كلاماً فمعنى تيسيره يرجع إلى تيسير ما يُراد من الكلام وهو فهم السامع المعاني التي عناها المتكلم به بدون كلفة على السامع ولا إغلاق كما يقولون : يدخل للأذن

بلا إذن .

وهذا اليسر يحصل من جانب الألفاظ وجانب المعاني ؛ فأما من جانب الألفاظ فلذلك بكونها في أعلى درجات فصاحة الكلمات وفصاحة التراكيب ، أي فصاحة الكلام ، وانتظام مجموعها ، بحيث يخف حفظها على الألسنة .

وأما من جانب المعاني ، فبوضوح انتزاعها من التراكيب ووفرة ما تحتوي عليه التراكيب منها من مغازي الغرض المسوقة هي له .

وبتولد معانٍ من معانٍ أُخر كلّما كرّر المتدبر تدبّره في فهمها .

(392/736)

ووسائل ذلك لا يحيط بها الوصف وقد تقدم بسطها في المقدمة العاشرة من مقدمات هذا التفسير ومن أهمها إيجاز اللفظ ليسرع تعلقه بالحفظ ، وإجمالُ المدلولات لتذهب نفوس السامعين في انتزاع المعاني منها كل مذهب يسمح به اللفظ والغرض والمقامُ ، ومنها الإِطناب بالبيان إذا كان في المعاني بعض الدقة والخفاء .

ويتأتّى ذلك بتأليف نظم القرآن بلغة هي أفصح لغات البشر وأسمحُ ألفاظاً وتراكيب بوفرة المعاني ، وبكَوْن تراكيبه أقصى ما تسمح به تلك اللغة ، فهو خيار من خيار من خيار .

قال تعالى : ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ [الشعراء : 195] .

ثم يكون المتلقين له أمة هي أذكى الأمم عقولاً وأسرعها أفهاماً وأشدها وعْياً لما تسمعه ، وأطولها تذكراً له دون نسيان ، وهي على تفاوتهم في هذه الخلال تفاوتاً اقتضته سنة الكون لا يناكد حالهم في هذا التفاوت ما أراده الله من تيسيره للذكر ، لأن الذكر جنس من الأجناس المقول عليها بالتشكيك إلا أنه إذا اجتمع أصحاب الأفهام على مدارسته وتدبره بدَت لجموعهم معان لا يحصيها الواحد منهم وحده .

وقد فرض الله على علماء القرآن تبيينَه تصريحاً كقوله : ﴿ لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ [النحل : 44] ، وتعريضاً كقوله : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننّه للناس ﴾

[آل عمران : 187] فإن هذه الأمة أجدر بهذا الميثاق .

وفي الحديث : " ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلُون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاّ نزلتْ عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده " .

(393/736)

واللام في قوله : ﴿ للذكر ﴾ متعلقة بـ ﴿ يسرنا ﴾ وهي ظرف لغو غيرُ مستقر ، وهي لام تدل على أن الفعل الذي تعلقت به فُعِل لانتفاع مدخول هذه اللام به فمدخولها لا يراد منه مجرد تعليل فعل الفاعل كما هو معنى التعليل المجرد ومعنى المفعول لأجله المنتصبِ بإضمار لام التعليل البسيطة ، ولكن يراد أن مدخول هذه اللام علة خاصة مراعاةٌ في تحصيل فعل الفاعل لفائدته ، فلا يصح أن يقع مدخول هذه اللام مفعولاً لأن المفعول لأجله علة بالمعنى الأعَمّ ومدخول هذه اللام علة خاصَّة فالمفعول لأجله بمنزلة سبب الفعل وهو كمدخول باء السببية في نحو ﴿ فكلّاً أخذنا بذنبه ﴾ [العنكبوت : 40] ، ومجرور هذه اللام بمنزلة مجرور باء الملابسة في نحو ﴿ تنبت بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] ، وهو أيضاً شديد الشبه بالمفعول الأول في باب كسَا وأعطى ، فهذه اللام من القسم الذي سماه ابن هشام في "مغني اللبيب" : شبه التمليك .

وتبع في ذلك ابنَ مالك في "شرح التسهيل" .

وأحسن من ذلك تسمية ابن مالك إياه في "شرح كافيته" وفي "الخلاصة" معنى التعدية .

ولقد أجاد في ذلك لأن مدخول هذه اللام قد تعدى إليه الفعل الذي تعلقت به اللام تعديةً مثلَ تعدية الفعل المتعدي إلى المفعول ، وغفل ابن هشام عن هذا التدقيق ، وهو المعنى الخامس من معاني اللام الجارة في "مغني اللبيب" وقد مثله بقوله تعالى : ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ [الشورى : 11] ، ومثّل له ابن مالك في "شرح التسهيل" بقوله تعالى

: ﴿ فهب لي من لدنك ولياً ﴾ [مريم : 5] ، ومن الأمثلة التي تصلح له قوله تعالى : ﴿ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ [يس : 72] وقوله تعالى : ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ [الأعلى : 8] وقوله : ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ [الليل : 7] وقوله : ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ [الليل : 10] ، ألا ترى أن مدخول اللام في هذه الأمثلة دال على المتنفعين بمفاعيل أفعالها فهم مثل أول المفعولين من باب كسا .

(394/736)

وإنما بسطنا القول في هذه اللام لدقة معناها وليتّضح معنى قوله تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ .

وأصل معاني لام الجر هو التعليل وتنشأ من استعمال اللام في التعليل المجازي معان شاعت فساوت الحقيقة فجعلها النحويون معاني مستقلة لقصد الإِيضاح .

والذكر : مصدر ذكر الذي هو التذكر العقلي لا اللساني ، والذي يرادفه الذُكر بضم الذال اسماً للمصدر ، فالذكر هو تذكر ما في تذكره نفع ودفع ضر ، وهو الاتعاظ والاعتبار .

فصار معنى ﴿ يسرنا القرآن للذكر ﴾ أن القرآن سُهلت دلالته لأجل انتفاع الذكر بذلك التيسير ، فجعلت سرعة ترتب التذكر على سماع القرآن بمنزلة منفعة للذكر لأنه يشيع

ويروج بها كما ينتفع طالب شيء إذا يُسرت له وسائل تحْصيله ، وقربت له أباعدها .

ففي قوله : ﴿ يسرنا القرآن للذكر ﴾ استعارة مكنية ولفظ ﴿ يسرنا ﴾ تخييل .

ويؤول المعنى إلى : يسرنا القرآن للمتذكرين .

وفرع على هذا المعنى قوله : ﴿ فهل من مدكر ﴾ .

والقول فيه كالقول في نظيره المتقدم آنفاً ، إلا أن بين الادّكارين فرقاً دقيقاً ، فالادّكار السالف ادّكار اعتبار عن مشاهدة آثار الأمة البائدة ، والادّكار المذكور هنا ادكار عن سماع مواعظ القرآن البالغة وفهم معانيه والاهتداء به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(395/736)

قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (21) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (22) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انقضت قصة نوح عليه السلام على هذا الهول العظيم ، كان ذلك موجباً للسامع أن يظن أنه لا يقصر أحد بعدهم وإن لم يرسل برسول فكيف إذا أرسل ، فتشوف إلى علم ما كان بعده هل كان كما ظن أم رجع الناس إلى طباعهم ؟ وكانت قصة عاد أعظم قصة جرت بعد قوم نوح عليه السلام فيما يعرفه العرب فيصلح أن يكون واعظاً لهم ، وكان عذابهم بالريح التي أهلكتهم ونسفت جبالهم التي كانت في محالهم من الرمال المتراكمة ، فنقلها إلى أمكنة أخرى أقرب دليل إلى أنه تعالى يسير الجبال يوم الدين ، هذا إلى ما في صفها الخارج عن العوائد من تصوير النفخ في الصور تارة للقيامة وتارة للأحياء ، فأجيب بقوله : ﴿ كذبت عاد ﴾ أي أوقعت التكذيب العام المطلق الذي أوجب تكذيبهم برسولي هود عليه السلام في دعوته لهم إليّ وإنذاره لهم عذابي .

ولما كان عادة الملوك أو بعضهم أنه إذا أهلك قوماً كثيرين من جنده نجا ناس مثلهم بمثل ذنوبهم أن يرفع بهم ، ويستألفهم لئلا يهلك جنده ، فيختل ملكه ، عقب الإخبار بتكذيبهم الإعلام بتعديهم لأنه لا يبالي بشيء لأن كل شيء في قبضته ، ولما كان تكذيبهم إلا بإرادته كا أن عذابه بمشيئته ، قال مسبباً عن ذلك : ﴿ فكيف ﴾ أي فعلى الأحوال لأجل تكذيبهم ﴿ كان عذابي لهم ونذر ﴾ أي وإنذاري إياهم بلسان رسولي ، وكرر في آخر قصتهم هذا الاستخبار ، فكان في قصتهم مرتين كما تقدم من سره – والله أعلم .

ولما ذكر تكذيبهم وأعقبه تعذيبهم ، علم السامع أنه شديد العظمة فاستمطر أن يعرفه

فاستأنف قوله ، مؤكداً تنبيهاً على أن قريشاً أفعالهم في التكذيب كأفعالهم كأنهم يكذبون بعذابهم : ﴿ إنا أرسلنا ﴾ بعظمتنا ، وعبر بحرف الاستعلاء إعلاماً بالنقمة فقال : ﴿ عليهم ريحاً ﴾ ولما كانت الريح ربما كانت عياناً ، وصفها بما دل على حالها فقال : ﴿ صرصراً ﴾ أي شديد البرد والصوت .

(396/736)

ولما كان مقصود السورة تقريب قيام الساعة ووصف سيرهم إلى الداعي بالإسراع ، ناسب أن يعبر عن عذابهم بأقل ما يمكن ، فعبر باليوم الذي يراد به الجنس الشامل للقليل والكثير وقد يعبر به عن مقدار من الزمان يتم فيه أمر ظاهر سواء لحظة أو أياماً أو شهوراً أو كثيراً من ذلك أو أقل كيوم البعث ويوم بدر ويوم الموت بقوله تعالى : - ﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ - [القيامة : 35] : ﴿ في يوم ﴾ وأكد شؤمها بذم زمانها فقال : ﴿ نحس ﴾ أي شديد القباحة ، قيل : كان يوم الأربعاء آخر الشهر وهو شوال لثمان بقيت إلى غروب الأربعاء ، وحقق لأن المراد باليوم الجنس لا الواحد بالوصف فقال : ﴿ مستمر ﴾ أي قوي في نحوسته نافذ ماض فيما أمر به من ذلك شديد أسبابه ، موجود مرارته وجوداً مطلوباً من مرسله في كل وقت ، مستحكم المرارة قويها دائمها إلى وقت إنفاذ المراد .

ولما علم وصفها في ذاتها ، أتبعه وصفها بما يفعل فيه فقال : ﴿ تنزع ﴾ أي تأخذ من الأرض بعضهم من وجهها وبعضهم من حفر حفروها ليتمنعوا بها من العذاب ، وأظهر موضع الإضمار ليكون نصاً في الذكور ، والإناث فعبر بما هو من النوس تفضيلاً لهم فقال : ﴿ الناس ﴾ الذين هم صور لا ثبات لهم بأرواح التقوى ، فتطيرهم بين السماء والأرض كأنهم الهباء المنثور ، فتقطع رؤوسهم من جثثهم وتغير ألوانهم تعتيماً لهم إلى السواد ، ولذا قال : ﴿ كأنهم ﴾ أي حين ينزعون فيلقون لا أرواح فيهم كأنهم ﴿ أعجاز ﴾ أي أصول ﴿ نخل ﴾ قطعت رؤوسها .

ولما كان الحكم هنا على ظاهر حالهم ، وكان الظاهر دون الباطن ، حمل على اللفظ قوله : ﴿ منقعر ﴾ أي منقصف أي منصرع من أسفل قعره وأصل مغرسه ، والتشبيه يشير إلى أنهم طوال قد قطعت رؤوسهم ، وفي الحافة وقع التشبيه في الباطن الذي فيه الأعضاء الرئيسة ، والمعاني اللطيفة ، فأنث الوصف حملاً على معنى النخل لا للطفها – والله أعلم .

(397/736)

ولما طابق ما أخبر به من عذابهم ما هو له به أولاً ، أكد ذلك لما تقدم من سره فقال مسبباً عنه مشيراً إلى أنه لشدة هوله مما يجب السؤال عنه : ﴿ فكيف كان ﴾ أيها السائل ، ولفت

القول إلى الإقرار تنبيهاً للعبيد على المحافظة على مقام التوحيد : ﴿ عذابي ﴾ لمن كذب رسلي ﴿ ونذر ﴾ أي وإنذاري أو رسلي في إنذارهم هل صدق .

(398/736)

ولما أتم سبحانه تحذيره من مثل حالهم بأمر ناظر أتم نظر إلى تدبير ما في سورة الذاريات ، أتبع ذلك التنبيه على أنه ينبغي للسامع أن يتوقع الحث على ذلك ، فقال مؤكداً لما لأكثر السامعين من التكذيب بالقال أو بالحال معلماً أنه سهل طريق الفرار من مثل هذه الفتن الكبار إليه ، وسوى من الاعتماد عليه ، عائداً إلى مظهر العظمة إيذاناً بأن تيسير القرآن لما ذكر من إعجازه لا يكون إلا لعظمة تفوت قوى البشر ، وتعجز عنها القدرة ﴿ ولقد يسرنا ﴾ على ما لنا من العظمة في الذات والصفات ﴿ القرآن ﴾ الجامع الفارق كله وما أشارت إليه هذه القصة من مفصله ﴿ للذكر ﴾ للحفظ والشرف والفهم والتدبير والوعظ والاتعاظ ما صرفنا فيه من أنواع الوعظ مع التنبيه للحفظ بالإيجاز وعذوبة اللفظ وقرب الفهم وجلالة المعاني وجزالة السبك وتنويع الفنون وتكثير الشعب وإحكام الربط ﴿ فهل من مدّكر ﴾ أي تسبب عن هذا الأمر العظيم الذي فعلناه أنه موضع السؤال عن أحوال السامعين : هل فيهم من يقبل على حفظه ثم تدبره وفهمه ويتعظ بما حل بالأمم السالفة ،

ويتذكر جميع ما صرف من الأقوال وينزلها على نفسه وما لها من الأحوال ، ويجعل ذلك لوجهنا فيلقيه بتشريفه به أمر دنياه وأخراه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 357.355 ﴾

(399/736)

فصل

قال الفخر :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18) ﴾

وفيه مسائل :

الأولى : قال في قوم نوح : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ [الشعراء : 105] ولم يقل في عاد كذبت قوم هود وذلك لأن التعريف كلما أمكن أن يؤتى به على وجه أبلغ فالأولى أن يؤتى به والتعريف بالاسم العلم أولى من التعريف بالإضافة إليه ، فإنك إذا قلت : بيت الله لا يفيد ما يفيد قولك الكعبة ، فكذلك إذا قلت : رسول الله لا يفيد ما يفيد قولك محمد فعاد اسم علم للقوم لا يقال قوم هود أعرف لوجهين أحدهما : أن الله تعالى وصف عاداً بقوم هود حيث قال : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود : 60] ولا يوصف الأظهر بالأخفى

والأخص بالأعم ثانيهما : أن قوم هود واحد وعاد ، قيل : إنه لفظ يقع على أقوام ولهذا قال تعالى : ﴿ عَاداً الأولى ﴾ [النجم : 50] لأنا نقول : أما قوله تعالى : ﴿ لعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود : 60] فليس ذلك صفة وإنما هو بدل ويجوز في البدل أن يكون دون المبدل في المعرفة ، ويجوز أن يبدل عن المعرفة بالنكرة ، وأما عاداً الأولى فقد قدمنا أن ذلك لبيان تقدمهم أي عاداً الذين تقدموا وليس ذلك للتمييز والتعريف كما تقول محمد النبي شفيعي والله الكريم ربي ورب الكعبة المشرفة لبيان الشرف لا لبيانها وتعريفها كما تقول : دخلت الدار المعمورة من الدارين وخدمت الرجل الزاهد من الرجلين فتبين المقصود بالوصف .

المسألة الثانية :

(400/736)

لم يقل كذبوا هوداً كما قال : ﴿ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ﴾ [القمر : 9] وذلك لوجهين أحدهما : أن تكذيب نوح كان أبلغ وأشد حيث دعاهم قريباً من ألف سنة وأصروا على التكذيب ، ولهذا ذكر الله تعالى تكذيب نوح في مواضع ولم يذكر تكذيب غير نوح صريحاً وإن نبه عليه (في) واحد منها في الأعراف قال : ﴿ فأنجيناه والذين مَعَهُ فِي الفلك ﴾ [الأعراف : 64] وقال حكاية عن نوح : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴾ [الشعراء : 117] وقال :

﴿ إِنَّهُمْ عصونى ﴾ [نوح : 21] وفي هذه المواضع لم يصرح بتكذيب قوم غيره منهم إلا قليلاً ولذلك قال تعالى في مواضع ذكر شعيب فكذبوه : وقال ﴿ الذين كَذَّبُواْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف : 92] وقال تعالى عن قومه : ﴿ وإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكاذبين ﴾ [الأعراف : 66] لأنه دعا قومه زماناً مديداً وثانيهما : أن حكاية عاد مذكورة ههنا على سبيل الاختصار فلم يذكر إلا تكذيبهم وتعذيبهم فقال : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ كما قال : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ولم يذكر دعاءه عليهم وإجابته كما قال في نوح.

المسألة الثالثة :

قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ قبل أن بين العذاب وفي حكاية نوح بين العذاب ، ثم قال : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ ﴾ فما الحكمة فيه ؟ نقول : الاستفهام الذي ذكره في حكاية نوح مذكور ههنا ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ كما قال من قبل ومن بعد في حكاية ثمود غير أنه تعالى حكى في حكاية عاد ﴿ فَكَيْفَ كَانَ ﴾ مرتين ، المرة الأولى استفهم ليبين كما يقول المعلم لمن لا يعرف كيف المسألة الفلانية ليصير المسئول سائلاً ، فيقول : كيف هي فيقول إنها كذا وكذا فكذلك ههنا قال : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى ﴾ فقال السامع : بين أنت فإني لا أعلم فقال :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا ﴾ [القمر : 19] وأما المرة الثانية فاستفهم للتعظيم كما يقول القائل للعارف المشاهد كيف فعلت وصنعت فيقول : نعم ما فعلت ويقول : أتيت بعجيبة فيحقق عظمة الفعل بالاستفهام ، وإنما ذكر ههنا المرة الأولى ولم يذكر في موضع آخر لأن الحكاية ذكرها مختصرة فكان يفوت الاعتبار بسبب الاختصار فقال : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَذَابِى ﴾ حثاً على التدبر والتفكر ، وأما الاختصار في حكايتهم فلأن أكثر أمرهم الاستكبار والاعتماد على القوة وعدم الالتفات إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم ، ويدل على قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فاستكبروا فِى الأرض بِغَيْرِ الحق وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت : 15] وذكر استكبارهم كثيراً ، وما كان قوم محمد صلى الله عليه وسلم مبالغين في الاستكبار وإنما كانت مبالغتهم في التكذيب ونسبته إلى الجنون ، وذكر حالة نوح على التفصيل فإن قومه جمعوا بين التكذيب والاستكبار ، وكذلك حال صالح عليه السلام ذكرها على التفصيل لشدة مناسبتها بحال محمد صلى الله عليه وسلم .

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى ﴾ [القمر : 18] بتوحيد الضمير هناك ولم يقل عذابنا

، وقال : ههنا ﴿ أَنَّا ﴾ ، ولم يقل إني ، والجواب ما ذكرناه في قوله تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَا أبواب السماء ﴾ [القمر : 11] .

المسألة الثانية :

الصرصر فيها وجوه أحدها : الريح الشديدة الصوت من الصرير والصرة شدة الصياح ثانيها : دائمة الهبوب من أصر على الشيء إذا دام وثبت ، وفيه بحث وهو أن الأسماء المشتقة هي التي تصلح لأن يوصف بها ، وأما أسماء الأجناس فلا يوصف بها سواء كانت أجراماً أو معاني ، فلا يقال : إنسان رجل جاء ولا يقال : لون أبيض وإنما يقال : إنسان عالم وجسم أبيض .

(402/736)

وقولنا : أبيض معناه شيء له بياض ، ولا يكون الجسم مأخوذاً فيه ، ويظهر ذلك في قولنا رجل عالم فإن العالم شيء له علم حتى الحداد والخباز ولو أمكن قيام العلم بهما لكان عالماً ولا يدخل الحي في المعنى من حيث المفهوم فإنا إذا قلنا : عالم يفهم أن ذلك حي لأن اللفظ ما وضع لحي يعلم بل اللفظ وضع لشيء يعلم ويزيده ظهوراً قولنا : معلوم فإنه شيء يعلم أو أمر يعلم وإن لم يكن شيئاً ، ولو دخل الجسم في الأبيض لكان قولنا جسم أبيض كقولنا جسم له

بياض فيقع الوصف بالجثة ، إذا علمت هذا فمن المستفاد بالجنس شيء دون شيء ، فإن قولنا الهندي يقع على كل منسوب إلى الهند وأما المهند فهو سيف منسوب إلى الهند فيصح أن يقال : عبد هندي وتمر هندي ولا يصح أن يقال : مهند وكذا الأبلق ولون آخر في فرس ولا يقال للثوب أبلق ، كذلك الأفطس أنف فيه تقعير إذا قال لقائل : أنف أفطس فيكون كأنه قال أنف به فطس فيكون وصفه بالجثة وكان ينبغي أن لا يقال فرس أبلق ولا أنف أفطس ولا سيف مهند وهم يقولون فما الجواب ؟ وهذا السؤال يرد على الصرصر لأنها الريح الباردة ، فإذا قال : ريح صرصر فليس ذلك كقولنا : ريح باردة فإن الصرصر هي الريح الباردة فحسب ، فكأنه قال : ريح باردة فنقول : الألفاظ التي في معانيها أمران فصاعداً ، كقولنا : عالم فإنه يدل على شيء له علم ففيه شيء وعلم هي على ثلاثة أقسام أحدها : أن يكون الحال هو المقصود والمحل تبع كما في العالم والضارب والأبيض فإن المقاصد في هذه الألفاظ العلم والضرب والبياض بخصوصها ، وأما المحل فمقصود من حيث إنه على عمومه حتى أن البياض لو كان يبدل بلون غيره اختل مقصوده كالأسود .

(403/736)

وأما الجسم الذي هو محل البياض إن أمكن أن يبدل وأمكن قيام البياض بجوهر غير جسم لما اختل الغرض ثانيها : أن يكون المحل هو المقصود كقولنا الحيوان لأنه اسم لجنس ما له الحياة لا كالحي الذي هو اسم لشيء له الحياة ، فالمقصود هنا المحل وهو الجسم حتى لو وجد حي ليس بجسم لا يحصل مقصود من قال : الحيوان ولو حمل اللفظ على الله الحي الذي لا يموت لحصل غرض المتكلم ولو حمل لفظ الحيوان على فرس قائم أو إنسان نائم لم تفارقه الحياة لم يبق للسامع نفع ولم يحصل للمتكلم غرض فإن القائل إذا قال لإنسان قائم وهو ميت هذا حيوان ثم بان موته لا يرجع عما قال بل يقول : ما قلت إنه حي بل قلت إنه حيوان فهو حيوان فارقته الحياة ثالثها : ما يكون الأمران مقصودين كقولنا رجل وامرأة وناقة وجمل فإن الرجل اسم موضوع لإنسان ذكر والمرأة لإنسان أنثى والناقة لبعير أنثى والجمل لبعير ذكر فالناقة إن أطلقت على حيوان فظهر فرساً أو ثوراً اختل الغرض وإن بان جملاً كذلك ، إذا علمت هذا ففي كل صورة كان المحل مقصوداً إما وحده وإما مع الحال فلا يوصف به فلا يقال جسم حيوان ولا يقال بعير ناقة وإنما يجعل ذلك جملة ، فيوصف بالجملة ، فيقال جسم هو حيوان وبعير هو ناقة ، ثم إن الأبلق والأفطس شأنه الحيوان من وجه وشأنه العالم من وجه وكذلك المهند لكن دليل ترجيح الحال فيه ظاهر ، لأن المهند لا يذكر إلا لمدح السيف ، والأفطس لا يقال إلا لوصف الأنف لا لحقيقته ، وكذلك الأبلق بخلاف الحيوان فإنه لا يقال لوصفه ، وكذلك الناقة ، إذا علمت هذا فالصرصر يقال لشدة الريح أو لبردها فوجب أن

يعمل به ما يعمل بالبارد والشديد فجاز الوصف وهذا بحث عزيز .

المسألة الثالثة :

(404/736)

قال تعالى ههنا ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ وقال في الطور : ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الريح العقيم ﴾ [الذاريات : 41] فعرف الريح هناك ونكرها هنا لأن العقم في الريح أظهر من البرد الذي يضر النبات أو الشدة التي تعصف الأشجار لأن الريح العقيم هي التي لا تنشىء سحاباً ولا تلقح شجراً وهي كثيرة الوقوع ، وأما الريح المهلكة الباردة فقلما توجد ، فقال : الريح العقيم أي هذا الجنس المعروف ، ثم زاده بياناً بقوله : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كالرميم ﴾ [الذاريات : 42] فتميزت عن الرياح العقم ، وأما الصرصر فقليلة الوقوع فلا تكون مشهورة فنكرها .

المسألة الرابعة :

(405/736)

قال هنا ﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرّ ﴾ وقال في السجدة : ﴿ فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت : 16] وقال في الحاقة : ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وثمانية أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾ [الحاقة : 7] والمراد من اليوم هنا الوقت والزمان كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ [مريم : 33] وقوله : ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ يفيد ما يفيده الأيام لأن الاستمرار ينبىء عن إمرار الزمان كما ينبىء عنه الأيام ، وإنما اختلف اللفظ مع اتحاد المعنى ، لأن الحكاية هنا مذكورة على سبيل الاختصار ، فذكر الزمان ولم يذكر مقداره ولذلك لم يصفها ، ثم إن فيه قراءتين إحداهما : ﴿ يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ بإضافة يوم ، وتسكين نحس على وزن نفس ، وثانيتهما : ﴿ يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ بتنوين الميم وكسر الحاء على وصف اليوم بالنحس ، كما في قوله تعالى : ﴿ فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ فإن قيل أيتهما أقرب ؟ قلنا : الإضافة أصح ، وذلك لأن من يقرأ : ﴿ يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرّ ﴾ يجعل المستمر صفة ليوم ، ومن يقرأ يوم نحس مستمر يكون المستمر وصفاً لنحس ، فيحصل منه استمرار النحوسة فالأول أظهر وأليق ، فإن قيل : من يقرأ يوم نحس بسكون الحاء ، فماذا يقول في النحس ؟ نقول : يحتمل أن يقول هو تخفيف نحس كفخذ وفخذ في غير الصفات ، ونصر ونصر ورعد ورعد ، وعلى هذا يلزمه أن يقول تقديره : يوم كائن نحس ، كما تقول في قوله تعالى :

﴿ بِجَانِبِ الغربى ﴾ [القصص : 44] ويحتمل أن يقول : نحس ليس بنعت ، بل هو اسم

معنى أو مصدر ، فيكون كقولهم يوم برد وحر ، وهو أقرب وأصح .

المسألة الخامسة :

ما معنى ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ ؟ نقول فيه وجوه الأول : ممتد ثابت مدة مديدة من استمر الأمر إذا دام ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت : 16] لأن الجمع يفيد معنى الاستمرار والامتداد ، وكذلك قوله : ﴿ حُسُوماً ﴾ [الحاقة : 7] الثاني : شديد من المرة كما قلنا من قبل في قوله : ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر : 2] وهذا كقولهم أيام الشدائد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخزى ﴾ [فصلت : 16] فإنه يذيقهم المر المضر من العذاب .

تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ تَنزِعُ الناس ﴾ وصف أو حال ؟ نقول : يحتمل الأمرين جميعاً ، إذ يصح أن يقال : أرسل ريحاً صرصراً نازعة للناس ، ويصح أن يقال : أرسل الريح نازعة ، فإن قيل : كيف يمكن جعلها حالاً ، وذو الحال نكرة ؟ نقول : الأمر هنا أهون منه في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الأنباء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ [القمر : 4] فإنه نكرة ، وأجابوا عنه بأن ﴿ مَا ﴾ موصوفة فتخصصت فحسن جعلها ذات الحال ، فكذلك نقول ههنا الريح موصوفة بالصرصر ، والتنكير فيه للتعظيم ، وإلا فهي ثلاثة فلا يبعد جعلها ذات حال ، وفيه وجه آخر ، وهو أنه كلام مستأنف على فعل وفاعل ، كما تقول : جاء زيد جذبني ، وتقديره جاء فجذبني ، كذلك ههنا قال : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً ﴾ [القمر : 19] فأصبحت ﴿ تَنزِعُ الناس ﴾ ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى القوم فِيهَا صرعى ﴾ [الحاقة : 7] فالتاء في قوله : ﴿ تَنزِعُ الناس ﴾ إشارة إلى ما أشار إليه بقوله : ﴿ صرعى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ فيه وجوه أحدها : نزعتهم فصرعتهم : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ ﴾ كما قال : ﴿ صرعى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ ﴾ ثانيها : نزعتهم فهم بعد النزع : كأنهم أعجاز نخل وهذا أقرب ، لأن الانقعار قبل الوقوع ، فكأن الريح تنزع (الواحد) وتقعر (ه) فينقعر فيقع فيكون صريعاً ، فيخلو الموضع عنه فيخوى ، وقوله في الحاقة : ﴿ فَتَرَى القوم فِيهَا صرعى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ إشارة إلى حالة بعد الانقعار الذي هو بعد النزع

، وهذا يفيد أن الحكاية ههنا مختصرة حيث لم يشر إلى صرعهم وخلو منازلهم عنهم بالكلية ، فإن حال الانقعار لا يحصل الخلو التام إذ هو مثل الشروع في الخروج والأخذ فيه ثالثها : تنزعهم نزعاً بعنف كأنهم أعجاز نخل تقعرهم فينقعروا إشارة إلى قوتهم وثباتهم على الأرض ، وفي المعنى وجوه أحدها : أنه ذكر ذلك إشارة إلى عظمة أجسادهم وطول

(408/736)

أقدادهم ثانيها : ذكره إشارة إلى ثباتهم في الأرض ، فكأنهم كانوا يعملون أرجلهم في الأرض ويقصدون المنع به على الريح وثالثها : ذكره إشارة إلى يبسهم وجفافهم بالريح ، فكانت تقتلهم وتحرقهم ببردها المفرط فيقعون كأنهم أخشاب يابسة .

المسألة الثانية :

قال ههنا : ﴿ مُّنقَعِرٍ ﴾ فذكر النخل ، وقال في الحاقة : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ فأنثها ، قال المفسرون : في تلك السورة كانت أواخر الآيات تقتضي ذلك لقوله : ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر : 19] ﴿ ومنهمر ﴾ [القمر : 11] ﴿ ومنتشر ﴾ [القمر : 7] وهو جواب حسن ، فإن الكلام كما يزين بحسن المعنى يزين بحسن اللفظ ، ويمكن أن يقال : النخل لفظه لفظ الواحد ، كالبقل والنمل ومعناه معنى الجمع ، فيجوز أن يقال فيه : نخل

منقعر ومنقعرة ومنقعرات ، ونخل خاوٍ وخاوية وخاويات ونخل باسق وباسقة وباسقات ، فإذا قال قائل : منقعر أو خاوٍ أو باسق جرد النظر إلى اللفظ ولم يراع جانب المعنى ، وإذا قال : منقعرات أو خاويات أو باسقات جرد النظر إلى المعنى ولم يراع جانب اللفظ ، وإذا قال : منقعرة أو خاوية أو باسقة جمع بين الاعتبارين من حيث وحدة اللفظ ، وربما قال : منقعرة على الإفراد من حيث اللفظ ، وألحق به تاء التأنيث التي في الجماعة إذا عرفت هذا فنقول : ذكر الله تعالى لفظ النخل في مواضع ثلاثة ، ووصفها على الوجوه الثلاثة ، فقال : ﴿ والنخل باسقات ﴾ [ق : 10] فإنها حال منها وهي كالوصف ، وقال : ﴿ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 7] وقال : ﴿ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ فحيث قال : ﴿ مُّنقَعِرٍ ﴾ كان المختار ذلك لأن المنقعر في حقيقة الأمر كالمفعول ، لأنه الذي ورد عليه القعر فهو مقعور ، والخاو والباسق فاعل ومعناه إخلاء ما هو مفعول من علامة التأنيث أولاً ، كما تقول : امرأة كفيل ، وامرأة كفيلة ، وامرأة كبير ، وامرأة كبيرة .

(409/736)

وأما الباسقات ، فهي فاعلات حقيقة ، لأن البسوق أمر قام بها ، وأما الخاوية ، فهي من باب حسن الوجه ، لأن الخاوي موضعها ، فكأنه قال : نخل خاوية المواضع ، وهذا غاية

الإعجاز حيث أتى بلفظ مناسب للألفاظ السابقة واللاحقة من حيث اللفظ ، فكان الدليل يقتضي ذلك ، بخلاف الشاعر الذي يختار اللفظ على المذهب الضعيف لأجل الوزن والقافية .

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (21) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (22)

وتفسيره قد تقدم والتكرير للتقرير ، وفي قوله : ﴿ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ لطيفة ما ذكرناها ، وهي تثبت بسؤال وجواب لو قال القائل : أكثر المفسرين على أن النذر في هذا الموضع جمع نذير الذي هو مصدر معناه إنذار ، فما الحكمة في توحيد العذاب حيث لم يقل : فكيف كان أنواع عذابي ووبال إنذاري ؟ نقول : فيه إشارة إلى غلبة الرحمة الغضب ، وذلك لأن الإنذار إشفاق ورحمة ، فقال : الإنذارات التي هي نعم ورحمة تواترت ، فلما لم تنفع وقع العذاب دفعة واحدة ، فكانت النعم كثيرة ، والنقمة واحدة وسنبين هذا زيادة بيان حين نفسر قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 13] حيث جمع الآلاء وكثر ذكرها وكررها ثلاثين مرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 39 . 43 ﴾

(410/736)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾

هم قوم هود .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ وقعت "نُذُر" في هذه السورة في ستة أماكن محذوفة الياء في جميع المصاحف ، وقرأها يعقوب مثبتة في الحالين ، وورش في الوصل لا غير ، وحذف الباقون .

ولا خلاف في حذف الياء من قوله : ﴿ فَمَا تُغْنِي النذر ﴾ والواو من قوله : ﴿ يَدْعُو ﴾ فأما الياء من ﴿ الداع ﴾ الأول فأثبتها في الحالين ابن مُحيصن ويعقوب وحُميد والبَزّي ، وأثبتها ورش وأبو عمرو في الوصل ، وحذف الباقون .

وأما ﴿ الداع ﴾ الثانية فأثبتها يعقوب وابن مُحَيْصن وابن كثير في الحالين ، وأثبتها أبو عمرو ونافع في الوصل ، وحذفها الباقون .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ أي شديدة البرد ؛ قاله قتادة والضحاك .

وقيل : شديدة الصوت .

وقد مضى في "حم السجدة" .

﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ أي في يوم كان مشؤوماً عليهم .

وقال ابن عباس : أي في يوم كانوا يتشاءمون به .

الزجاج : قيل في يوم أربعاء .

ابن عباس : كان آخر أربعاء في الشهر أفنى صغيرهم وكبيرهم .

وقرأ هارون الأعور "نَحِسٍ" بكسر الحاء وقد مضى القول فيه في حم السجدة ﴿ فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت : 16] .

و ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ أي دائم الشؤم استمر عليهم بنحوسه ، واستمر عليهم فيه العذاب إلى الهلاك .

وقيل : استمر بهم إلى نار جهنم .

وقال الضحاك : كان مُرًّا عليهم .

وكذا حكى الكسائي أن قوماً قالوا هو من المرارة ؛ يقال : مُرَّ الشيء وأَمرَّ أي كان كالشيء المرّ تكرهه النفوس .

وقد قال : "فَذُوقُوا" والذي يذاق قد يكون مُرّاً .

وقد قيل : هو من المِرّة بمعنى القوّة .

أي في يوم نحس مستمر مستحكم الشؤم كالشيء المحكم الفتل الذي لا يطاق نقضه .

فإن قيل : فإذا كان يوم الأربعاء يوم نحس مستمر فكيف يستجاب فيه الدعاء ؟ وقد جاء أن النبيّ صلى الله عليه وسلم استجيب له فيه فيما بين الظهرِ والعصرِ .

وقد مضى في "البقرة" حديث جابر بذلك .

فالجواب والله أعلم ما جاء في خبر يرويه مسروق عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أتاني جبريل فقال إن الله يأمرك أن تقضي باليمين مع الشاهد وقال يوم الأربعاء يوم نحس مستمر " ومعلوم أنه لم يرد بذلك أنه نحس على الصالحين ، بل أراد أنه نحس على الفجار والمفسدين ؛ كما كانت الأيام النحسات المذكورة في القرآن ؛ نحسات على الكفار من قوم عاد لا على نبيهم والمؤمنين به منهم ، وإذا كان كذلك لم يبعد أن يمهل الظالم من أوّل يوم الأربعاء إلى أن تزول الشمس ، فإذا أدبر النهار ولم يحدث رجعة استجيب دعاء المظلوم عليه ، فكان اليوم نحساً على الظالم ؛ ودعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم إنما كان على الكفار ، وقول جابر في حديثه "لم ينزل بي أمر غليظ" إشارة إلى هذا .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ تَنزِعُ الناس ﴾ في موضع الصفة للريح أي تَقْلَعهم من مواضعهم .

قيل : قلعتهم من تحت أقدامهم اقتلاع النخلة من أصلها .

وقال مجاهد : كانت تقلعهم من الأرض ، فترمي بهم على رؤوسهم فتندقّ أعناقهم وتَبِين رؤوسهم عن أجسادهم .

وقيل : تنزع الناس من البيوت .

وقال محمد بن كعب عن أبيه قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " انتزعت الريح الناس من قبورهم " وقيل : حفروا حُفَراً ودخلوها فكانت الريح تنزعهم منها وتكسرهم ، وتبقى تلك الحفر كأنها أصول نخل (قد) هلك ما كان فيها فتبقى مواضعها منقعرة .

ويروى أن سبعة منهم حفروا حفراً وقاموا فيها ليردُّوا الريح .

قال ابن إسحاق : لما هاجت الريح قام نفر سبعة من عاد سمى لنا منهم ستة من أشد عاد وأجسمها منهم عمرو بن الحلي والحرث بن شداد والهِلْقام وابنا ِتقْن وخلجان بن سعد فأُولجوا العيال في شِعب بين جبلين ، ثم اصطفوا على باب الشّعب ليردّوا الريح عمن في الشّعب من العيال ، فجعلت الريح تَجْعَفهم رجلاً رجلاً ، فقالت امرأة من عاد :

ذهبَ الدهرُ بعمرِو ب . . .

ن حلّيٍ والهنيّات

(412/736)

ثم بالحرث والهِلْ . . .

قامِ طَلاّعِ الثنِيات

والذي سدّ مهبّ الر . . .

يح أيام البِليّات

الطبريّ : في الكلام حذف ، والمعنى تنزع الناس فتتركهم كأنهم أعجاز نخل منقعر ؛

فالكاف في موضع نصب بالمحذوف .

الزجاج : الكاف في موضع نصب على الحال ، والمعنى تنزع الناس مشبهين بأعجاز نخل .

والتشبيه قيل إنه للحُفَر التي كانوا فيها .

والأعجاز جمع عَجُز وهو مؤخر الشيء ، وكانت عاد موصوفين بطول القامة ، فشُبِّهوا

بالنخل انكبت لوجوهها .

وقال : ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ للفظ النخل وهو من الجمع الذي يذكّر ويؤنّث .

والمنقعر : المنقلع من أصله ؛ قعرت الشجرة قعراً قلعتها من أصلها فانقعرت .

الكسائي : قعرت البئر أي نزلت حتى انتهيت إلى قعرها ، وكذلك الإناء إذا شربت ما فيه

حتى انتهيت إلى قعره .

وأقعرت البئر جعلت لها قعراً .

وقال أبو بكر بن الأنباري : سئل المبرّد بحضرة إسماعيل القاضي عن ألف مسألة هذه من

جملتها ، فقيل له : ما الفرق بين قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ [الأنبياء :

81] و ﴿ جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ [يونس : 22] ، وقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ

خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 7] و ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ ؟ فقال : كلما ورد عليك من هذا

الباب فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيراً ، أو إلى المعنى تأنيثاً .

وقيل : إن النخل والنخيل بمعنًى يذكّر ويؤنث كما ذكرنا .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآنَ للذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (تقدّم) .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(413/736)

وقال الآلوسى :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾

شروع في قصة أخرى ولم تعطف وكذا ما بعدها من القصص إشارة إلى أن كل قصة مستقلة في القصد والاتعاظ ولما لم يكن لقوم نوح اسم علم ذكروا بعنوان الإضافة ولما كان لقوم هود علم وهو (عاد) ذكروا به لأنه أبلغ في التعريف ، والمراد كذبت عاد هوداً عليه السلام ولم يتعرض لكيفية تكذيبهم له عليه السلام روما للاختصار ومسارعة إلى بيان ما فيه الازدجار من العذاب ، وقوله :

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ لتوجيه قلوب السامعين نحو الإصغاء إلى ما يلقى إليهم قبل ذكره لا لتهويله وتعظيمه وتعجيبهم من حاله بعد بيانه كما قبله وما بعده كأنه قيل : ﴿

كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ فهل سمعتم ، أو فاسمعوا كيف عذابي وإنذاري لهم ، وقيل : هو للتهويل أيضاً لغرابة ما عذبوا به من الريح وانفراده بهذا النوع من العذاب ، وفيه بحث

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ استئناف لبيان ما أجمل أولا ، والصرصر الباردة على ما روي عن ابن عباس .

وقتادة .

والضحاك ، وقيل : شديدة الصوت وتمام الكلام قد مر في ﴿ فُصِّلَتْ ﴾ .

﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ شؤم عليهم ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ ذلك الشؤم لأنهم بعد أن أهلكوا لم يزالوا معذبين في البرزخ حتى يدخلوا جهنم يوم القيامة ، والمراد باليوم مطلق الزمان لقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت : 16] ، وقوله سبحانه : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ لَيَالٍ وثمانية أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾ [الحاقة : 7] والمشهور أنه يوم الأربعاء وكان آخر شوّال على معنى أن ابتداء إرسال الريح كان فيه فلا ينافي آيتي ﴿ فُصِّلَتْ ﴾ .

(414/736)

وجوز كون ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ صفة يوم أي في يوم استمر عليهم حتى أهلكهم ، أو شمل كبيرهم وصغيرهم حتى لم تبق منهم نسمة على أن أن الاستمرار بحسب الزمان أو بحسب

الأشخاص والأفراد لكن على الأول لا بد من تجوز بإرادة استمرار نحسه ، أو بجعل اليوم بمعنى مطلق الزمان لأن اليوم الواحد لم يستمر فتدبر ، وجوز كون ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ بمعنى محكم وكونه بمعنى شديد المرارة وهو مجاز عن بشاعته وشدة هوله إذ لا طعم له ، وجوز كونه بدلاً ، أو عطف بيان وهو كما ترى ، وقرأ الحسن ﴿ يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ بتنوين يوم وكسر حاء نحس ، وجعله صفة ليوم فيتعين كون ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ صفة ثانية له ، وأيد بعضهم بالآية ما أخرجه وكيع في الغرر .

وابن مردويه .

والخطيب البغدادي عن ابن عباس مرفوعاً آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر وأخذ بذلك كثير من الناس فتطيروا منه وتركوا السعي لمصالحهم فيه ويقولون له : أربعاء لا تدور ، وعليه قوله :

لقاؤك للمبكر فأل سوء . . .

ووجهك أربعاء لا تدور

وذلك مما لا ينبغي ، والحديث المذكور في سنده مسلمة بن الصلت قال أبو حاتم : متروك ، وجزم ابن الجوزي بوضعه ؛ وقال ابن رجب : حديث لا يصح ورفعه غير متفق عليه فقد رواه الطيوري من طريق آخر موقوفاً على ابن عباس ، وقال السخاوي : طرقه كلها واهية ، وضعفوا أيضاً خبر الطبراني يوم الأربعاء يوم نحس مستمر ، والآية قد علمت معناها ،

وجاء في الأخبار والآثار ما يشعر بمدحه ففي منهاج الحليمي ، وشعب البيهقي أن الدعاء يستجاب يوم الأربعاء بعيد الزوال ، وذكر برهان الإسلام في تعليم المتعلم عن صاحب الهداية أنه ما بدىء شيء يوم الأربعاء إلا وتم وهو يوم خلق الله تعالى فيه النور فلذلك كان جمع من المشايخ يتحرون ابتداء الجلوس للتدريس فيه ، واستحب بعضهم غرس الأشجار فيه لخبر ابن حبان .

والديلمي عن جابر مرفوعاً " من غرس الأشجار يوم الأربعاء وقال : سبحان الباعث الوارث أتته أكلها "

(415/736)

نعم جاءت أخبار وآثار تشعر بخلاف ذلك ، ففي الفردوس عن عائشة مرفوعاً " لولا أن تكره أمتي لأمرتها أن لا يسافروا يوم الأربعاء ، وأحب الأيام إلى الشخوص فيها يوم الخميس " وهو غير معلوم الصحة عندي .

وأخرج أبو يعلى عن ابن عباس .

وابن عدى .

وتمام في فوائده عن أبي سعيد مرفوعاً " يوم السبت يوم مكر وخديعة .

ويوم الأحد يوم غرس وبناء .

ويوم الاثنين يوم سفر وطلب رزق .

ويوم الثلاثاء يوم حديد وبأس .

ويوم الأربعاء لا أخذ ولا عطاء .

ويوم الخميس يوم طلب الحوائج والدخول على السلطان .

والجمعة يوم خطبة ونكاح " وتعقبه السخاوي بأن سنده ضعيف ، وروي ابن ماجه عن ابن عمر مرفوعاً ، وخرجه الحاكم من طريقين آخرين " لا يبدو جذام ولا برص إلا يوم الأربعاء " وفي بعض الآثار النهي عن قص الأظفار ويوم الأربعاء وأنه يورث البرص ، وكره بعضهم عيادة المرضى فيه ، وعليه قيل :

لم يؤت في الأربعاء مريض . . .

إلا دفناه في الخميس

(416/736)

وحكى عن بعضهم أنه قال لأخيه : أخرج معي في حاجة فقال : هو الأربعاء قال : فيه ولد يونس قال : لا جرم قد بانت له بركته في اتساع موضعه وحسن كسوته حتى خلصه الله

تعالى قال : وفيه ولد يوسف عليه السلام قال : فما أحسن ما فعل أخوته حتى طال حبسه وغربته قال : وفيه نصر المصطفى صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب قال : أجل لكن بعد أن زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ونقل المناوي عن البحر أن أخباره عليه الصلاة والسلام عن نحوسة آخر أربعاء في الشهر من باب التطير ضرورة أنه ليس من الدين بل فعل الجاهلية ولا مبني على قول المنجمين أنه يوم عطارد وهو نحس مع النحوس سعد مع السعود فإنه قول باطل ، ويجوز أن يكون من باب التخويف والتحذير أي احذروا ذلك اليوم لما نزل فيه من العذاب وكان فيه من الهلاك وجددوا فيه لله تعالى توبة خوفاً أن يلحقكم فيه بؤس كما وقع لمن قبلهم ، وهذا كما قال حين أتى الحجر : لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين إلي غير ذلك ، وحكى أيضاً عن بعضهم أنه قال : التطير مكروه كراهية شرعية إلا أن الشرع أباح لمن أصابه في آخر أربعاء شيء في مصالحه أن يدع التصرف فيه لا على جهة التطير واعتقاد أنه يضر أو ينفع بغير إذن الله تعالى بل على جهة اعتقاد إباحة الإمساك فيه لما كرهته النفس لا افتقاءاً للتطير ولكن إثباتاً للرخصة في التوقي فيه لمن يشاء مع وجوب اعتقاد أن شيئاً لا يضر شيئاً ؛ ونقل عن الحليمي أنه قال : علمنا ببيان الشريعة أن من الأيام نحساً ، ويقابل النحس السعد وإذا ثبت الأول ثبت الثاني أيضاً ، فالأيام منها نحس ومنها سعد كالأشخاص منهم شقي ومنهم سعيد ، لكن زعم أن الأيام والكواكب تنحس أو تسعد باختيارها أوقاتاً وأشخاصاً باطل ، والقول إن الكواكب قد تكون

أسباباً للحسن والقبيح والخير والشر والكل فعل الله تعالى وحده مما لا بأس به ، ثم قال المناوي : والحاصل أن توقي الأربعاء على جهة الطيرة وظن

(417/736)

اعتقاد المنجمين حرام شديد التحريم إذ الأيام كلها لله تعالى لا تنفع ولا تضر بذاتها وبدون ذلك لا ضير ولا محذور فيه ؛ ومن تطير حاقت به نحوسته ، ومن أيقن بأنه لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل لم يؤثر فيه شيء من ذلك كما قيل :

تعلم أنه لا طير إلا . . .

على (متطير) وهو الثبور

انتهى ، وأقول كل الأيام سواء ولا اختصاص لذلك بيوم الأربعاء وما من ساعة من الساعات إلا وهي سعد على شخص نحس على آخر باعتبار ما يحدث الله تعالى فيها من الملائم والمنافر والخير والشر ، فكل يوم من الأيام يتصف بالأمرين لاختلاف الاعتبار وإن استنحس يوم الأربعاء لوقوع حادث فيه فليستنحس كل يوم فما أولج الليل في النهار في الليل إلا لايلاد الحوادث ، وقد قيل :

ألا إنما الأيام أبناء واحد . . .

وهذي الليالي كلها أخوات

وقد حكى أنه صبح ثمود العذاب يوم الأحد ، وورد في الأثر ولا أظنه يصح " نعوذ بالله تعالى من يوم الأحد فإن له حداً أحد من السيف " ولو صح فلعله في أحد مخصوص علم بالوحي ما يحدث فيه ، وزعم بعضهم أن من المجرب الذي لم يخط قط أنه متى كان اليوم الرابع عشر من الشهر القمري الأحد وفعل فيه شيء لم يتم غير مسلم ، وورد في الفردوس من حديث ابن مسعود خلق الله تعالى الأمراض يوم الثلاثاء ، وفيه أنزل إبليس إلى الأرض ، وفيه خلق جهنم ، وفيه سلط الله تعالى ملك الموت على أرواح بني آدم .

(418/736)

وفيه قتل قابيل هابيل ، وفيه توفي موسى وهارون عليهم السلام ، وفيه ابتلى أيوب الحديث ، وهو إن صح لا يدل على نحوسته غايته أنه وقع فيه ما وقع وقد وقع فيه غير ذلك مما هو خير ، ففي رواية مسلم خلق المنفق أي ما يقوم به المعاش يوم الثلاثاء وإذا تتبعت التواريخ وقفت على حوادث عظيمة في سائر الأيام ، ويكفي في هذا الباب أن حادثة عاد استوعبت أيام الأسبوع فقد قال سبحانه : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وثمانية أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾ [الحاقة : 7] فإن كانت النحوسة لذلك فقل لي أي يوم من الأسبوع خلا

منها ؟! ومثل أمر النحوسة فيما أرى أمر تخصيص كل يوم بعمل كما يزعمه كثير من الناس ، ويذكرون في ذلك أبياتاً نسبها الحافظ الدمياطي لعليّ كرم الله تعالى وجهه وهي :

فنعم اليوم (يوم السبت) حقا . . .

لصيد إن أردت بلا امتراء

وفي (الأحد) البناء لأن فيه . . .

تبدى الله في خلق السماء

وفي (الاثنين) إن سافرت فيه . . .

سترجع بالنجاح وبالثراء

ومن يرد الحجامة (فالثلاثا) . . .

ففي ساعاته هرق الدماء

وإن شرب امرأ يوماً دواءا . . .

فنعم اليوم يوم (الأربعاء)

وفي (يوم الخميس) قضاء حاج . . .

فإن الله يأذن بالقضاء

وفي (الجمعات) تزويج وعرس . . .

ولذات الرجال مع النساء

وهذا العلم لا يدريه إلا . . .

نبي أو وصى الأنبياء

ولا أظنها تصح ، وقصارى ما أقول : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لا دخل في ذلك لوقت ولا لغيره ، نعم لبعض الأوقات شرف لا ينكر كيوم الجمعة وشهر رمضان وغير ذلك ، ولبعضها عكس ذلك كالأوقات التي تكره فيها الصلاة لكن هذا أمر ومحل النزاع أمر فاحفظ ذاك ، والله تعالى يتولى هداك ، وقوله تعالى :

(419/736)

﴿ تَنزِعُ الناس ﴾ يجوز أن يكون صفة للريح وأن يكون حالا منها لأنها وصفت فقربت من المعرفة ، وجوز أن يكون مستأنفاً ، وجيء بالناس دون ضمير عاد قيل : ليشمل ذكورهم وإناثهم والنزع القلع ، روي أنهم دخلوا الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فقلعتهم الريح وصرعتهم موتى .

﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ أي منقلع عن مغارسه ساقط على الأرض ، وقيل : شبهوا بأعجاز النخل وهي أصولها بلا فروع لأن الريح كانت تقلع رؤوسهم فتبقى أجساداً وجثثاً بلا رؤوس ، ويزيد هذا التشبيه حسناً أنهم كانوا ذوي جثث عظام طوال ، والنخل

اسم جنس يذكر نظراً للفظ كما هنا ويؤنث نظراً للمعنى كما في قوله تعالى : ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 2] واعتبار كل في كل من الموضعين للفاصلة ، والجملة التشبيهية حال من الناس وهي حال مقدرة ، وقال الطبري : في الكلام حذف والتقدير فتركتهم كأنهم الخ ، فالكاف على ما في البحر في موضع نصب بالمحذوف وليس بذاك وقرأ أبو نهيك أعجز على وزن أفعل نحو ضبع وأضبع ، وقوله تعالى :

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ تهويل لهما وتعجيب من أمرهما بعد بيانهما فليس فيه شائبة تكرار مع ما تقدم ، وقيل : إن الأول لما حاق بهم في الدنيا والثاني لما يحيق بهم في الآخرة ، و﴿ كَانَ ﴾ للمشاكلة ، أو للدلالة على تحققه على عادته سبحانه في إخباره ، وتعقب بأنه يأباه ترتيب الثاني على العذاب الدنيوي .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(420/736)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18) ﴾

موقع هذه الجملة كموقع جملة ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ [القمر : 9] فكان مقتضى الظاهر أن تعطف عليها ، وإنما فصلت عنها ليكون في الكلام تكرير التوبيخ والتهديد والنعي عليهم عقب قوله : ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغن النذر ﴾ [القمر : 4 ، 5] .

ومقام التوبيخ والنعي يقتضي التكرير .

والحكم على عاد بالتكذيب عموم عرفي بناء على أن معظمهم كذبوه وما آمن به إلا نفر قليل قال تعالى : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ [هود : 58] .

وفرع على التذكير بتكذيب عاد قوله : ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ قبل أن يذكر في الكلام ما يشعر بأن الله عذبهم فضلاً عن وصف عذابهم .

فالاستفهام مستعمل في التشويق للخبر الوارد بعده وهو مجاز مرسل لأن الاستفهام يستلزم طلب الجواب والجواب يتوقف على صفة العذاب وهي لَمّا تذكر فيحصل الشوق إلى معرفتها وهو أيضاً مكنى به عن تهويل ذلك العذاب .

وفي هذا الاستفهام إجمال لحال العذاب وهو إجمال يزيد التشويق إلى ما يبينه بعده من قوله : ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ الآية ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ عم يتساءلون ﴾ [النبأ : 1] ثم قوله : ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ [النبأ : 2] الآية .

وعطف ﴿ ونذر ﴾ على ﴿ عذابي ﴾ بتقدير مضاف دل عليه المقام ، والتقدير :

وعاقبة نذري ، أي إنذاراتي لهم ، أي كيف كان تحقيق الوعيد الذي أنذرهم .

ونُذر : جمع نذير بالمعنى المصدري كما تقدم في أوائل السورة وقد علمت بما ذكرنا أن جملة "فكيف كان عذابي ونذري" هذه ليست تكريراً لنظيرها السابق في خبر قوم نوح ، ولا اللاحق في آخر قصة عاد للاختلاف الذي علمته بين مُفادها ومفاد مماثلتها وإن اتحدت ألفاظهما .

(421/736)

والبليغ يتفطن للتغاير بينهما فيصرفه عن توهم أن تكون هذه تكريراً فإنه لما لم يسبق وصف عذاب عاد لم يستقم أن يكون قوله : ﴿ فكيف كان عذابي ﴾ تعجيباً من حالة عذابهم .

وقوله : ﴿ ونذر ﴾ موعظة من تحقق وعيد الله إياهم ، وقد أشار الفخر إلى هذا وقفينا عليه ببسط وتوجيه .

وأصل السؤال عن تكرير هذه الجملة أثناء قصة عاد هنا أورده في كتاب "درة التنزيل وغرة التأويل" المنسوب إلى الفخر وإلى الراغب إلا أن كلام الفخر في "التفسير" أجدر بالتعويل مما في "درة التنزيل" .

وجملة ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ الخ بيان للإجمال الذي في قوله : ﴿ فكيف

كان عذابي ونذر ﴾ .

وهو في صورة جواب للاستفهام الصوري .

وكلتا الجملتين يفيد تعريضاً بتهديد المشركين بعذاب على تكذيبهم .

وجملة البيان إنما اتصف حال العذاب دون حال الإِنذار ، أو حال رسولهم وهو اكتفاء لأن التكذيب يتضمن مجيء نذير إليهم وفي مفعول ﴿ كذبت ﴾ المحذوف إشعار برسولهم الذي كذبوه وبعث الرسول وتكذيبهم إياه بتضمن الإِنذار لأنهم لما كذبوه حق عليه إنذارهم .

وتعدية إرسال الريح إلى ضميرهم هي كإسناد التكذيب إليهم بناء على الغالب وقد أنجى الله هوداً والذين معه كما علمت آنفاً أو هو عائد إلى المكذبين بقرينة قوله : ﴿ كذبت عاد ﴾ .

والصرصر : الشديدة القوية يكون لها صوت ، وتقدم في سورة فصّلت .

وأريد بـ ﴿ يوم نحس ﴾ أول أيام الريح التي أرسلت على عاد إذ كانت سبعة أيام إلا يوماً كما في قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات ﴾ في سورة فصّلت (16) وقوله : ﴿ سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ في سورة الحاقة (7) .

والنحْس : سوء الحال .

وإضافة يوم ﴾ إلى ﴿ نحس ﴾ من إضافة الزمان إلى ما يقع فيه كقولهم يوم تحلاق اللمم ،

ويوم فتح مكة .

وإنما يضاف اليوم إلى النحس باعتبار المنحوس ، فهو يوم نحس للمعذبين يوم نصر للمؤمنين ومصائب قوم عند قوم فوائد .

.

(422/736)

وليس في الأيام يوم يوصف بنحس أو بسعد لأن كل يوم تحدث فيه نحوس لقوم وسعود لآخرين ، وما يروى من أخبار في تعيين بعض أيام السنة للنحس هو من أغلاط القصاصين فلا يلقي المسلم الحق إليها سمعه .

واشتهر بين كثير من المسلمين التشاؤم بيوم الأربعاء .

وأصل ذلك انجرّ لهم من عقائد مجوس الفرس ، ويسمون الأربعاء التي في آخر الشهر "الأربعاء التي لا تدور" ، أي لا تعود ، أرادوا بهذا الوصف ضبط معنى كونها آخر الشهر لئلا يظن أنه جميع النصف الأخير منه وإلاّ فأيّة مناسبة بين عدم الدوران وبين الشؤم ، وما من يوم إلاّ وهو يقع في الأسبوع الأخير من الشهر ولا يدور في ذلك الشهر .

ومن شعر بعض المولدين من الخراسانيين:

لقاؤك للمبكِّر فَأْلُ سوء . . .

ووجهك أربعاءُ لا تدور

وانظر ما تقدم في سورة فصّلت .

و﴿ مستمر ﴾ : صفة ﴿ نحس ﴾ ، أي نحس دائم عليهم فعُلِم من الاستمرار أنه أبادهم إذ لو نجوا لما كان النحس مستمراً .

وليس ﴿ مستمر ﴾ صفة ل ﴿ يوم ﴾ إذ لا معنى لوصفه بالاستمرار .

والكلام في اشتقاق مستمر تقدم آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ ويقولوا سحر مستمر ﴾ [القمر : 2] .

ويجوز أن يكون مشتقاً من مرّ الشيء قاصراً ، إذا كان مُرّاً ، والمرارة مستعارة للكراهية والنفرة فهو وصف كاشف لأن النحس مكروه .

والنزع : الإِزالة بعُنف لئلا يبقى اتصال بين المزال وبين ما كان متصلاً به ، ومنه نزع الثياب .

والأعجاز جمع عَجُز : وهو أسفل الشيء ، وشاع إطلاق العَجُز على آخر الشيء لأنهم يعتبرون الأجسام منتصبة على الأرض فأولاها ما كان إلى السماء وآخرها ما يلي الأرض .

وأطلقت الأعجاز هنا على أصول النخل لأن أصل الشجرة هو في آخرها مما يلي الأرض .

وشبه الناس المطروحون على الأرض بأصول النخيل المقطوعة التي تقلع من منابتها لموتها إذ تزول فروعها ويتحاتّ ورقها فلا تبقى إلا الجذوع الأصلية فلذلك سميت أعجازاً .

(423/736)

و ﴿ منقعر ﴾ : اسم فاعل انقعر مطاوع قَعره ، أي بلغ قَعْره بالحفر يقال : قَعَرَ البئرَ إذا انتهى إلى عمقها ، أي كأنهم أعجاز نخل قعرت دواخله وذلك يحصل لعُود النخل إذا طال مكثه مطروحاً .

ومنقعر : وصف النخل ، روعي في إفراده وتذكيره صورة لفظ نخل دون عدد مدلوله خلافاً لما في قوله تعالى : ﴿ كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ [الحاقة : 7] وقوله : ﴿ والنخل ذات الأكمام ﴾ [الرحمن : 11]

قال القرطبي : "قال أبو بكر ابن الأنباري سئل المبرد بحضرة إسماعيل القاضي عن ألف مسألة من جملتها ، قيل له : ما الفرق بين قوله تعالى : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة ﴾ [الأنبياء : 81] و ﴿ جاءتها ريح عاصف ﴾ [يونس : 22] وقوله : ﴿ أعجاز نخل خاوية ﴾ [الحاقة : 7] و ﴿ أعجاز نخل منقعر ﴾ ؟ فقال كل ما ورد عليك من هذا الباب فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيراً أو إلى المعنى تأنيثاً " أ هـ .

وجملة ﴿ كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ في موضع الحال من ﴿ الناس ﴾ ووجه الوصف بـ ﴿ منقعر ﴾ الإشارة إلى أن الريح صرعتهم صرعاً تفلقت منه بطونهم وتطايرت أمعاؤهم وأفئدتهم فصاروا جثثاً فُرغا .

وهذا تفظيع لحالهم ومثلة لهم لتخويف من يراهم .

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (21)

تكرير لنظيره السابق عقب قصة قوم نوح لأن مقام التهويل والتهديد يقتضي تكرير ما يفيدهما .

و(كيف) هنا استفهام على حالة العذاب ، وهي الحالة الموصوفة في قوله : ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ إلى ﴿ منقعر ﴾ [القمر : 19 ، 20] ، والاستفهام مستعمل في التعجيب .

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (22)

تكرير لنظيره السابق في خبر قوم نوح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (24) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (26) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (28) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (30) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (32) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا موضع الإقبال على تدبر مواعظ القرآن ، وكان ثمود أعظم وعظ كان بعد عاد لما في صيحتهم الخارجة عن العهود من تصوير الساعة بنفختيها المميتة ثم المحيية ، وقال مؤنثاً فعلهم إشارة إلى سفول هممهم وسفول فعلهم معلماً أن من كذب هلك – على طريق الجواب لمن لعله يقول استبعاداً لتكذيب بعد ما جرى في القصتين الماضيتين من التعذيب : ﴿ كذبت ثمود ﴾ أي قوم صالح ﴿ بالنذر ﴾ الإنذارات والمنذرين كلهم لأنهم شرع واحد ، ثم علل ذلك وعقبه بقوله معلماً بالضمير أن المباشر بهذا الكفر رجالهم لئلا يظن أنهم نساء فقط : ﴿ فقالوا ﴾ منكرين لما جاءهم من الله غاية الإنكار : ﴿ أبشراً ﴾ إنكاراً لرسالة هذا النوع ليكون إنكار النبوة إنكاراً لنبوة نبيهم على أبلغ الوجوه ، وأعظم

الإنكار بقولهم مقدمين عدم الانفراد عنهم لخصوصيته : ﴿ منا ﴾ أي فلا فضل له علينا فما وجه اختصاصه بذلك من بيننا ، وزادوا ذلك تأكيداً فقالوا : ﴿ واحداً ﴾ أي ليس معه من يؤيده ، ثم فسر الناصب لقوله : ﴿ بشراً ﴾ بقوله : ﴿ نتبعه ﴾ أي نجاهد نفسنا في خلع مألوفنا وخلاف آبائنا والإقرار على أنفسنا بسخافة العقل والعراقة في الجهل ونحن أشد الناس كثرة وقوة وفهماً ودراية ، ثم استنتجوا عن هذا الإنكار الشديد قولهم مؤكدين الاستشعار بأن كلامهم أهل لأن يكذب : ﴿ إنا إذاً ﴾ أي إن اتبعناه ﴿ لفي ضلال ﴾ أي ذهاب عن الصواب محيط بنا ﴿ وسعر ﴾ أي تكون عاقبتنا في ذلك الضلال الكون في أوائل أمر لا ندري عاقبته ، فإنه لم يجرب ولم يختبر ولم يمعن أحد قبلنا سلفاً لنا فيجرنا ذلك إلى جنون وجوع ونار كما يكون من يأتوه في القفار في أنواع من الحر بتوقد حر الجبال وحر الضلال وحر الهموم والأوجال – وذلك من النار التي توعدنا بها ، وهو معنى تفسير ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ له بالعذاب ، وجعل سفيان بن عيينه له جمع سعير ، والمعنى إنا نكون إذا اتبعناك كما تقول جامعين بين الضلال والعذاب بسائر أنواعه .

ولما كان فيما قالوه أعظم تكذيب مدلول على صحته في زعمهم بما أمؤوا إليه من كونه آدمياً مثلهم ، وهو مع ذلك واحد من أحادهم فليس هو بأمثلهم وهو منفرد فلم يتأيد فكره بفكر غيره حتى يكون موضع الوثوق به ، دلوا عليه بأمر آخر ساقوه أيضاً مساق الإنكار ، وأموؤا بالإلقاء إلى أنه في إسراعه كأنه سقط من علو فقالوا : ﴿ أألقي ﴾ أي أنزل بغتة في سرعة لأنه لم يكن عندهم في مضمار هذا الشأن ولم يأتمروا فيه قبل إتيانه به شيء منه بل أتاهم به بغتة في غاية الإسراع .

ولما كان الإلقاء يكون للأجسام غالباً ، فكان لدفع هذا الوهم تقديم النائب عن الفاعل أولى بخلاف ما تقدم في ص فقالوا : ﴿ الذكر ﴾ أي الوحي الذي يكون به الشرف الأعظم ، وعبروا بعلى إشارة إلى أن مثل هذا الذي تقوله لا يقال إلا عن قضاء غالب وأمر قاهر فقال : ﴿ عليه ﴾ ودلوا على وجه التعجب والإنكار بالاختصاص بقولهم : ﴿ من بيننا ﴾ أي وبيننا من هو أولى بذلك سناً وشرفاً ونبلاً .

ولما كان هذا الاستفهام لكونه إنكارياً بمعنى النفي ، أضربوا عنه بقولهم على وجه النتيجة عطفاً على ما أفهمه الاستفهام من نحو : ليس الأمر كما زعم : ﴿ بل هو ﴾ لما أبديناه من الشبه ﴿ كذاب ﴾ أي بليغ في الكذب ﴿ أشر ﴾ أي مرح غلبت عليه البطالة حتى أعجبته نفسه بمرح وتجبر وبطر ، ونشط في ذلك حتى صار كالمنشار الذي هو متفرغ للقطع مهيأ له خشن الأمر سيئ الخلق والأثر فهو يريد الترفع .

ولما كان هذا غاية الذم لمن يستحق منهم غاية المدح ، أجاب تعالى عنه موعظة لعباده لئلا يتقولوا ما يعلمون بطلانه أو يقولوا ما لا يعلمون صحته بقوله : ﴿ سيعلمون ﴾ بوعد لا خلف فيه .

(426/736)

ولما كان المراد التقريب لأنه أقعد في التهديد ، قال : ﴿ غداً ﴾ أي في الزمن الآتي القريب لأن كل ما حقق إتيانه قريب عند نزول العذاب في الدنيا ويوم القيامة ، وقراءة ابن عامر وحمزة ورويس عن يعقوب بالخطاب التفات يعلم بغاية الغضب ﴿ من الكذاب الأشر ﴾ أي الكذب والأشر وهو احتقار الناس والاستكبار على ما أبدوه من الحق مختص به ومقصود عليه لا يتعداه إلى مرميه وذلك بأنهم جعلوا الكذب ديدنه ولم يتعدهم حتى يدعى شيء منه لصالح عليه الصلاة والسلام ، فكان الكلام معيناً لهم في الكذب قاصراً عليهم بسياقه على هذا الوجه المبهم المنصف الذي فيه من روعة القلب وهز النفس ما لا يعلمه حق علمه إلا الله تعالى ، وكلما كان الإنسان أسلم طبعاً وأكثر علماً كان له أعظم ذوقاً .

(427/736)

ولما علم من هذا أنه سبحانه فصل الأمر بينهم ، تشوف السامع إلى علم ذلك فقال تعالى مستأنفاً دالاً بأنهم طالبوه بآية دالة على صدقه : ﴿ إنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ مرسلو الناقة ﴾ أي موجدوها ومخرجوها كما اقترحوا من حجر أهلناه لذلك وخصصناه من بين الحجارة دلالة على إرسالنا صالحاً عليه السلام : مخصصين له من بين قومه ، وذلك أنهم قالوا لصالح عليه السلام : نريد أن نعرف المحق منا بأن ندعو آلهتنا وتدعو إلهك فمن أجابه إلهه علم أنه المحق ، فدعوا أوثانهم فلم تجبهم ، فقالوا : ادع أنت ، فقال : فما تريدون ؟ قالوا : تخرج لنا من هذه الصخرة ناقة تبعر عشراء ، فأجابهم إلى ذلك بشرط الإيمان ، فوعدوه بذلك وأكدوا فكذبوا بعد ما كذبوا في أن آلهتهم تجيبهم ، وصدق هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كل ما قال فأخبره ربه سبحانه أنه يجيبهم إلى إخراجها ﴿ فتنة لهم ﴾ أي امتحاناً يخالطهم به فيميلهم عن حالتهم التي وعدوا بها ويجيبهم عنها ، وسبب سبحانه عن ذلك أمره بانتظارهم فيما يصنعون بعد إخراجهم لما توصلهم إليه عواقب الفتنة فقال : ﴿ فارتقبهم ﴾ أي كلف نفسك انتظارهم فيما يكون لهم جزاء على أعمالهم انتظار من يحرسهم وهو عالم عليم فإنهم واصلون بأعمالهم إلى الداهية التي تسمى بأم العرقوب ليكونوا كمن جعل في رقبته ، ودل بصيغة الافتعال على أنه يكون له منه أذى بالغ قبل انفصال النزاع فقال : ﴿ واصطبر ﴾ أي عالج نفسك واجتهد في الصبر عليهم ﴿ ونبئهم ﴾ أي

أخبرهم إخباراً عظيماً بأمر عظيم ، وهو أن الماء الذي يشربونه وهو ماء بئرهم ﴿ أن الماء قسمة بينهم ﴾ أي بين ثمود وبين الناقة ، غلب عليها ضمير من يعقل ، يعني إذا بعثناها كان لهم يوم لا تشاركهم فيه في الماء ، ولها يوم لا تدع في البئر قطرة يأخذها أحد منهم ، وتوسع الكل بدل الماء لبناً .

(428/736)

ولما أخبر بتوزيع الماء ، أعلم أنه على وجه غريب بقوله استئنافاً : ﴿ كل شرب ﴾ أي من ذلك وحظ منه ومورد البر ووقت يشرب فيه ﴿ محتضر ﴾ أي أهل لما فيه من الأمر العجيب أن يحضره الحاضرون حضوراً عظيماً ، وتتكلف أنفسهم لذلك لأنه صار في كثرته وحسنه كماء الحاضرة للبادية وتأهل لأن تعارضه حاضروه من حسنه ويرجعوا إليه وأن يجتمع عليه الكثير ويعودوا أنفسهم عليه .

ولما كان التقدير : فكان الأمر كما ذكرنا ، واستمر الأمد الذي ضربنا فافتتنوا كما أخبرنا ﴿ فنادوا ﴾ بسبب الفتنة ﴿ صاحبهم ﴾ قذار بن سالف الذي انتدبوه بطراً وأشراً لقتل الناقة وكذبنا فيها بوعدهم الإيمان وإكرامها بالإحسان وهو أشقى الأولين

﴿ فتعاطى ﴾ أي أوقع بسبب ندائهم التعاطي الذي لا تعاطي مثله ، فتناول ما لا يحق له

أن يتناوله بسبب الناقة وهو سيفه بيده قائماً في الأمر الناشئ عن هذا الأخذ على كل حال ، ورفع رأسه بغاية الهمة ومد يديه مداً عظيماً ورفعها وقام على أصابع رجليه حين عاطوه ذلك أي سألوه فيه فطاوعهم وتناول الناقة بذلك السيف غير مكترث ولا مبال ﴿ فعقر ﴾ أي فتسبب عن هذا الجد العظيم أن صدق فيما أثبت لهم الكذب في الوعد بالإحسان إليها والأشر ، وهو إيقاع العقر الذي ما كان في ذلك الزمان عقر مثله وهو عقر الناقة التي هي آية الله وإهلاكها .

ولما وقع كذبهم على هذا الوجه العظيم المبني على غاية الأشر ، حقق الله تعالى صدقه في توعدهم على تقدير وقوع ذلك ، فأوقع عذابهم سبحانه على وجه هو من عظمه أهل لأن يتساءل عنه ، فنبه سبحانه على عظمة بإيراده في أسلوب الاستفهام مسبباً عن فعل الأشقى فقال : ﴿ فكيف كان ﴾ وحافظ على مقام التوحيد كما مضى فقال : ﴿ عذابي ﴾ أي كان على حال ووجه هو أهل لأن يجتهد في الإقبال على تعرفه والسؤال عنه ﴿ ونذر ﴾ أي إنذاري .

(429/736)

ولما علم تفرغ ذهن السائل الواعي ، استأنف قوله مؤكداً إشارة إلى أن عذابهم مما يستلذ وينجح به ، وإرغاماً لمن يستبعد النصيحة الواحد بفعل مثل ذلك ، وإعلاماً بأن القدرة على عذاب من كذب من غيرهم كهي على عذابهم فلا معنى للتكذيب : ﴿ إنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ أرسلنا ﴾ إرسالاً عظيماً ، ودل على كونه عذاباً بقوله : ﴿ عليهم صيحة ﴾ وحقر شأنهم بالنسبة إلى عظمة عذابهم بقوله تعالى : ﴿ واحدة ﴾ صاحها عليهم جبريل عليه السلام فلم يكن بصيحته هذه التي هي واحدة طاقة ، وتلاشى عندها صياحهم حين نادوا صاحبهم لعقر الناقة .

ولما تسبب عنها هلاكهم قال : ﴿ فكانوا ﴾ كوناً عظيماً ﴿ كهشيم المحتظر ﴾ أي محطمين كالشجر اليابس الذي جعله الراعي ومن في معناه ممن يجعل شيئاً يأوي إليه ويحتفظ به ويحفظ به ماشيته في وقت ما لا يقاله (؟) وهو حظيره أي شيء مستدير مانع في ذلك الوقت لمن يدخل إليه فهو يتهشم ويتحطم كثير منه وهو يعمله فتدوسه الغنم ثم تتحطم أولاً فأولاً ، وكل ما سقط منه شيء فداسته الغنم كان هشيماً ، وكأنه الحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته .

ولما كان التقدير : فلقد أبلغنا في الموعظة لكل من يسمع هذه القصة ، عطف عليه قوله مؤكداً لأجل من يعرض عن هذا القرآن ويعلل إعراضه عنه بصعوبته : ﴿ ولقد يسرنا ﴾ أي على ما لنا من القدرة والعظمة ﴿ القرآن ﴾ أي الكتاب الجامع لكل خير ، الفارق بين كل

ملبس ﴿ للذكر ﴾ أي الحفظ والتذكير والتذكر وحصول النباهة به والشرف إلى الدارين .

ولما كان هذا غاية في وجوب الإقبال عليه لجميع المتولين ، قال : ﴿ فهل من مدكر ﴾ أي ناظر فيه بسبب قولنا هذا بعين الإنصاف والتجرد عن الهوى ليرى كل ما أخبرنا به فنعينه عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 357 . 361 ﴾

(430/736)

فصل

قال الفخر :

ثم بين الله تعالى حال قوم آخرين .

فقال : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) ﴾

وقد تقدم تفسيره غير أنه في قصة عاد قال : ﴿ كَذَّبَتْ ﴾ [القمر : 18] ولم يقل : بالنذر ، وفي قصة نوح قال : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ بالنذر ﴾ [الشعراء : 105] فنقول : هذا يؤيد ما ذكرنا من أن المراد بقوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ [القمر : 9] أن عادتهم ومذهبهم إنكار الرسل وتكذيبهم فكذبوا نوحاً بناء على مذهبهم وإنما صرح ههنا لأن كل قوم يأتون بعد قوم وأتاهما رسولان فالمكذب المتأخر يكذب المرسلين جميعاً حقيقة والأولون يكذبون

رسولاً واحداً حقيقة ويلزمهم تكذيب من بعده بناء على ذلك لأنهم لما كذبوا من تقدم في قوله : الله تعالى واحد ، والحشر كائن ، ومن أرسل بعده كذلك قوله ومذهبه لزم منه أن يكذبوه ويدل على هذا أن الله تعالى قال في قوم نوح : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فأنجيناه ﴾ [الأعراف : 64] وقال في عاد : ﴿ وتلك عَادٌ جَحَدُواْ بآيات رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ واتبعوا ﴾ [هود : 59] وأما قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرسلين ﴾ [الشعراء : 105] فإشارة إلى أنهم كذبوا وقالوا ما يفضي إلى تكذيب جميع المرسلين ، ولهذا ذكره بلفظ الجمع المعرف للاستغراق ، ثم إنه تعالى قال هناك عن نوح : ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴾ [الشعراء : 117] ولم يقل : كذبوا رسلك إشارة إلى ما صدر منهم حقيقة لا أن ما ألزمهم لزمه .

(431/736)

إذا عرفت هذا فلما سبق قصة ثمود ذكر رسولين ورسولهم ثالثهم قال : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنذر ﴾ هذا كله إذا قلنا إن النذر جمع نذير بمعنى منذر ، أما إذا قلنا إنها الإنذارات فنقول : قوم نوح وعاد لم تستمر المعجزات التي ظهرت في زمانهم ، وأما ثمود فأنذروا وأخرج لهم ناقة من صخرة وكانت تدور بينهم وكذبوا فكان تكذيبهم بإنذارات وآيات ظاهرة فصرح بها ، وقوله : ﴿ فَقَالُواْ أَبَشَراً مِّنَّا واحدا نَّتَّبِعُهُ ﴾ [القمر : 24] يؤيد الوجه الأول ،

لأن من يقول لا أتبع بشراً مثلي وجميع المرسلين من البشر يكون مكذباً للرسل والباء في قوله ﴿ بالنذر ﴾ يؤيد الوجه الثاني لأنا بينا أن الله تعالى في تكذيب الرسل عدى التكذيب بغير حرف فقال : ﴿ كَذَّبُوهُ ﴾ [الأعراف : 64] ﴿ وَكَذَّبُواْ (. . .) رُسُلَنَا ﴾ [غافر : 70] ﴿ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ﴾ [القمر : 9] ﴿ وكذبوني ﴾ [المؤمنون : 26] وقال : ﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنفال : 54] ﴿ وبآياتنا ﴾ [البقرة : 39] فعدى بحرف لأن التكذيب هو النسبة إلى الكذب والقائل هو الذي يكون كاذباً حقيقة والكلام والقول يقال فيه كاذب مجازاً وتعلق التكذيب بالقائل أظهر فيستغني عن الحرف بخلاف القول ، وقد ذكرنا ذلك وبيناه بياناً شافياً .

فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (24)

وفي قوله تعالى : ﴿ فَقَالُواْ أَبَشَراً مِّنَّا واحداً نَّتَّبِعُهُ ﴾ مسائل :

المسألة الأولى :

زيداً ضربته وزيد ضربته كلاهما جائز والنصب مختار في مواضع منها هذا الموضع وهو الذي يكون ما يرد عليه النصب والرفع بعد حرف الاستفهام ، والسبب في اختيار النصب

أمر معقول وهو أن المستفهم يطلب من المسئول أن يجعل ما ذكره بعد حرف الاستفهام مبدأ لكلامه ويخبر عنه ، فإذا قال : أزيد عندك معناه أخبرني عن زيد واذكر لي حاله ، فإذا انضم إلى هذه الحالة فعل مذكور ترجح جانب النصب فيجوز أن يقال : أزيداً ضربته وإن لم يجب فالأحسن ذلك فإن قيل : من قرأ ﴿ أَبَشَرٌ * مِّنَّا واحدا نَّتَّبِعُهُ ﴾ كيف ترك الأجود ؟ نقول : نظراً إلى قوله تعالى : ﴿ فَقَالُواْ ﴾ إذ ما بعد القول لا يكون إلا جملة والاسمية أولى والأولى أقوى وأظهر .

المسألة الثانية :

إذا كان بشراً منصوباً بفعل ، فما الحكمة في تأخر الفعل في الظاهر ؟ نقول : قد تقدم مراراً أن البليغ يقدم في الكلام ما يكون تعلق غرضه به أكثر وهم كانوا يريدون تبيين كونهم محقين في ترك الاتباع فلو قالوا : أنتبع بشراً يمكن أن يقال نعم اتبعوه وماذا يمنعكم من اتباعه ، فإذا قدموا حاله وقالوا هو نوعنا بشر ومن صنفنا رجل ليس غريباً نعتقد فيه أنه يعلم ما لا نعلم أو يقدر ما لا نقدر وهو واحد وحيد وليس له جند وحشم وخيل وخدم فكيف نتبعه ، فيكونون قد قدموا الموجب لجواز الامتناع من الاتباع ، واعلم أن في هذه الآية إشارات إلى

ذلك أحدها : نكروه حيث قالوا ﴿ أَبَشَراً ﴾ ولم يقولوا : أنتبع صالحاً أو الرجل المدعي النبوة أو غير ذلك من المعرفات والتنكير تحقير ثانيها : قالوا أبشراً ولم يقولوا أرجلاً ثالثها : قالوا ﴿ مِنَّا ﴾ وهو يحمل أمرين أحدهما من صنفنا ليس غريباً ، وثانيهما ﴿ مِنَّا ﴾ أي تبعنا يقول القائل لغيره أنت منا فيتأذى السامع ويقول : لا بل أنت منا ولست أنا منكم ، وتحقيقه أن من للتبعيض والبعض يتبع الكل لا الكل يتبع البعض رابعها : ﴿ واحدا ﴾ يحتمل أمرين أيضاً أحدهما : وحيداً إلى ضعفه وثانيهما : واحداً أي هو من الآحاد لا من الأكابر المشهورين ، وتحقيق القول في استعمال الآحاد في الأصاغر حيث يقال : هو من آحاد الناس هو أن من لا يكون مشهوداً بحسب ولا نسب إذا حدث عنه من لا يعرفه فلا يمكن أن يقول عنه قال فلان أو ابن فلان فيقول قال واحد وفعل واحد فيكون ذلك غاية الخمول ، لأن الأرذل لا ينضم إليه أحد فيبقى في أكثر أوقاته واحداً فيقال : للأرذال آحاد .

(434/736)

وقوله تعالى عنهم : ﴿ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أن يكونوا قد قالوا في جواب من يقول لهم إن لم تتبعوه تكونوا في ضلال ، فيقولون له : لا بل إن تبعناه نكون في ضلال ثانيهما : أن يكون ذلك ترتيباً على ما مضى أي حاله ما ذكرنا من الضعف والوحدة

فإن اتبعناه نكون في ضلال وسعر أي جنون على هذا الوجه ، فإن قلنا : إن ذلك قالوه على سبيل الجواب فيكون القائل قال لهم : إن لم تتبعوه فإنا إذاً في الحال في ضلال وفي سعر في العقبى فقالوا : لا بل لو اتبعناه فإنا إذاً في الحال في ضلال وفي سعر من الذل والعبودية مجازاً فإنهم ما كانوا يعترفون بالسعير .

المسألة الثالثة :

السعير في الآخرة واحد فكيف جمع ؟ نقول : الجواب عنه من وجوه أحدها : في جهنم دركات يحتمل أن تكون كل واحدة سعيراً أو فيها سعير ثانيها : لدوام العذاب عليهم فإنه كلما نضجت جلودهم يبدلهم جلوداً كأنهم في كل زمان في سعير آخر وعذاب آخر ثالثها : لسعة السعير الواحد كأنها سعر يقال للرجل الواحد : فلان ليس برجل واحد بل هو رجال .

أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25)

وقد تقدم أن النفي بطريق الاستفهام أبلغ لأن من قال : ما أنزل عليه الذكر ربما يعلم أو يظن أو يتوهم أن السامع يكذبه فيه فإذا ذكر بطريق الاستفهام يكون معناه أن السامع يجيبني بقوله : ما أنزل فيجعل الأمر حينئذ منفياً ظاهراً لا يخفى على أحد بل كل أحد يقول : ما أنزل ، والذكر الرسالة أو الكتاب إن كان ويحتمل أن يراد به ما يذكره من الله تعالى كما يقال الحق

ويراد به ما يحل من الله وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(435/736)

قولهم أألقي بدل أأنزل وفيه إشارة إلى ما كانوا ينكرونه من طريق المبالغة وذلك لأن الإلقاء إنزال بسرعة والنبي كان يقول : " جاءني الوحي مع الملك في لحظة يسيرة " فكأنهم قالوا : الملك جسم والسماء بعيدة فكيف ينزل في لحظة فقالوا : أألقي وما قالوا : أأنزل ، وقولهم عليه إنكار آخر كأنهم قالوا : ما ألقى ذكر أصلاً ، قالوا : إن ألقى فلا يكون عليه من بيننا وفينا من هو فوقه في الشرف والذكاء ، وقولهم أألقى بدل عن قولهم أألقي الله للإشارة إلى أن الإلقاء من السماء غير ممكن فضلاً عن أن يكون من الله تعالى .

المسألة الثانية :

عرفوا الذكر ولم يقولوا : أألقى عليه ذكر ، وذلك لأن الله تعالى حكى إنكارهم لما لا ينبغي أن ينكر فقال : أنكروا الذكر الظاهر المبين الذي لا ينبغي أن ينكر فهو كقول القائل : أنكروا المعلوم .

المسألة الثالثة :

﴿ بَلِ ﴾ يستدعي أمراً مضروباً عنه سابقاً فما ذاك ؟ نقول قولهم : أألقى للإنكار فهم قالوا : ما ألقى ، ثم إن قولهم : أألقى عليه الذكر لا يقتضي إلا أنه ليس بنبي ، ثم قالوا : بل هو ليس بصادق .

المسألة الرابعة :

(436/736)

﴿ الكذاب ﴾ فعال من فاعل للمبالغة أو يقال : بل من فاعل كخياط وتمار ؟ نقول : الأول هو الصحيح الأظهر على أن الثاني من باب الأولى لأن المنسوب إلى الشيء لا بد له من أن يكثر من مزاولة الشيء فإن من خاط يوماً ثوبه مرة لا يقال له خياط ، إذا عرفت هذا فنقول المبالغة إما في الكثرة ، وإما في الشدة فالكذاب ، إما شديد الكذب يقول ما لا يقبله العقل أو كثير الكذب ، ويحتمل أن يكونوا وصفوه به لاعتقادهم الأمرين فيه وقولهم : ﴿ أَشِرٌ ﴾ إشارة إلى أنه كذب لا لضرورة وحاجة إلى خلاص كما يكذب الضعيف ، وإنما هو استغنى وبطر وطلب الرياسة عليكم وأراد اتباعكم له فكان كل وصف مانعاً من الاتباع لأن الكاذب لا يلتفت إليه ، ولا سيما إذا كان كذبه لا لضرورة ، وقرىء : ﴿ أَشِرٌ ﴾ فقال المفسرون : هذا على الأصل المرفوض في الأشر والأخير على وزن أفعل التفضيل ، وإنما

رفض الأصل فيه لأن أفعل إذا فسر قد يفسر بأفعل أيضاً والثاني بأفعل ثالث ، مثاله إذا قال : ما معنى الأعلم ؟ يقال : هو الأكثر علماً فإذا قيل : الأكثر ماذا ؟ فيقال : الأزيد عدداً أو شيء مثله فلا بد من أمر يفسر به الأفعل لا بمن با به فقالوا : أفعل التفضيل والفضيلة أصلها الخير والخير أصل في باب أفعل فلا يقال : فيه أخير ، ثم إن الشر في مقابلة الخير يفعل به ما يفعل بالخير فيقال هو شر من كذا وخير من كذا والأشر في مقابلة الأخير ، ثم إن خيراً يستعمل في موضعين : أحدهما : مبالغة الخير بفعل أو أفعل على اختلاف يقال : هذا خير وهذا أخير ويستعمل في مبالغة خير على المشابهة لا على الأصل فمن يقول : أشر يكون قد ترك الأصل المستعمل لأنه أخذ في الأصل المرفوض بمعنى هو شر من غيره وكذا معنى الأعلم أن علمه خير من علم غيره ، أو هو خير من غرة الجهل كذلك القول في الأضعف وغيره .

سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (26)

(437/736)

فإن قال قائل : سيعلم للاستقبال ووقت أنزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم كانوا قد علموا ، لأن بعد الموت تتبين الأمور وقد عاينوا ما عاينوا فكيف القول فيه ؟ نقول : فيه

وجهان أحدهما : أن يكون هذا القول مفروض الوقوع في وقت قولهم : بل هو كذاب أشر ، فكأنه تعالى قال يوم قالوا : بل هو كذاب أشر سيعلمون غداً وثانيهما : أن هذا التهديد بالتعذيب لا بحصول العلم بالعذاب الأليم وهو عذاب جهنم لا عذاب القبر فهم سيعذبون يوم القيامة وهو مستقبل وقوله تعالى : ﴿ غَداً ﴾ لقرب الزمان في الإمكان والأذهان ثم إن قلنا : إن ذلك للتهديد بالتعذيب لا للتكذيب فلا حاجة إلى تفسيره بل يكون ذلك إعادة لقولهم من غير قصد إلى معناه ، وإن قلنا : هو للرد والوعد ببيان انكشاف الأمر فقوله تعالى : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً ﴾ معناه سيعلمون غداً أنهم الكاذبون الذين كذبوا لا لحاجة وضرورة ، بل بطروا وأشروا لما استغنوا ، وقوله تعالى : ﴿ غَداً ﴾ يحتمل أن يكون المراد يوم القيامة ، ويحتمل أن يكون المراد يوم العذاب وهذا على الوجه الأول .

إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ الناقة ﴾ بمعنى الماضي أو بمعنى المستقبل ، إن كان بمعنى الماضي فكيف يقول : ﴿ فارتقبهم واصطبر ﴾ وإن كان بمعنى المستقبل فما الفرق بين حكاية عاد وحكاية ثمود حيث قال هناك : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا ﴾ [القمر : 19] وقال ههنا : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ الناقة ﴾ بمعنى إنا نرسل ؟ نقول : هو بمعنى المستقبل ، وما قبله وهو قوله : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً ﴾ يدل عليه ، فإن قوله : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ الناقة ﴾ كالبيان له ، كأنه قال سيعلمون حيث : نرسل الناقة وما بعده من قوله : ﴿ فارتقبهم ﴾ ﴿ وَنَبِّئْهُمْ ﴾ [القمر : 28] أيضاً يقتضي ذلك ، فإن قيل قوله تعالى : ﴿ فَنَادَوْاْ ﴾ [القمر : 29] دليل على أن المراد الماضي قلنا سنجيب عنه في موضعه ، وأما الفارق فنقول : حكاية ثمود مستقصاة في هذا الموضع حيث ذكر تكذيب القوم بالنذر وقولهم لرسولهم وتصديق الرسل بقوله : ﴿ سيَعْلَمُونَ ﴾ وذكر المعجزة وهي الناقة وما فعلوه بها والعذاب والهلاك يذكر حكاية على وجه الماضي والمستقبل ليكون وصفه للنبي صلى الله عليه وسلم كأنه حاضرها فيقتدي بصالح في الصبر والدعاء إلى الحق ويثق بربه في النصر على الأعداء بالحق فقال : إني مؤيدك بالمعجزة القاطعة ، واعلم أن الله تعالى ذكر في هذه السورة خمس قصص ، وجعل القصة المتوسطة مذكورة على أتم وجه لأن حال صالح كان أكثر مشابهة بحال محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه أتى بأمر عجيب أرضى كان أعجب مما جاء به الأنبياء ، لأن عيسى عليه السلام أحيا الميت لكن الميت كان محلاً للحياة فأثبت بإذن الله الحياة في محل

كان قابلاً لها ، وموسى عليه السلام انقلبت عصاه ثعباناً فأثبت الله له في الخشبة الحياة لكن الخشبة نبات كان له قوة في النماء يشبه الحيوان في النمو فهو أعجب ، وصالح عليه السلام كان الظاهر في يده خروج الناقة من الحجر والحجر جماد لا محل للحياة ولا محل للنمو (فيه) والنبي صلى الله عليه وسلم أتى

(439/736)

بأعجب من الكل وهو التصرف في جرم السماء الذي يقول المشرك لا وصول لأحد إلى السماء ولا إمكان لشقه وخرقه ، وأما الأرضيات فقالوا : إنها أجسام مشتركة المواد يقبل كل واحد منها صورة الأخرى ، والسموات لا تقبل ذلك فلما أتى بما عرفوا فيه أنه لا يقدر على مثله آدمي كان أتم وأبلغ من معجزة صالح عليه السلام التي هي أتم معجزة من معجزات من كان من الأنبياء غير محمد صلى الله عليه وسلم وفيه لطيفة وهو أن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضي .

وذكر معه مفعوله فالواجب الإضافة تقول : وحشي قاتل عم النبي صلى الله عليه وسلم .

فإن قلنا : قاتل عم النبي بالإعمال فلا بد من تقدير الحكاية في الحال كما في قوله تعالى :

(440/736)

﴿ وَكَلْبُهُمْ باسط ذِرَاعَيْهِ ﴾ [الكهف : 18] على أنه يحكي القصة في حال وقوعها تقول : خرجت أمس فإذا زيد ضارب عمراً كما تقول : يضرب عمراً ، وإن كان الضرب قد مضى ، وإذا كان بمعنى المستقبل فالأحسن الإعمال تقول : إني ضارب عمراً غداً ، فإن قلت إني ضارب عمرو غداً حيث كان الأمر وقع وكان جاز لكنه غير الأحسن ، والتحقيق فيه أن قولنا : ضارب وسارق وقاتل أسماء في الحقيقة غير أن لها دلالة على الفعل فإذا كان الفعل تحقق في الماضي فهو قد عدم حقيقة فلا وجود للفعل في الحقيقة ولا في التوقع فيجب الحمل على ما للاسم من الإضافة وترك ما للفعل من الأعمال لغلبة الإسمية وفقدان الفعل بالماضي ، وإذا كان الفعل حاضراً أو متوقعاً في الاستقبال فله وجود حقيقة أو في التوقع فتجوز الإضافة لصورة الاسم ، والإعمال لتوقع الفعل أو لوجوده ولكن الإعمال أولى لأن في الاستقبال لن يضرب يفيد لا يكون ضارباً فلا ينبغي أن يضاف ، أما الإعمال فهو ينبىء عن توقع الفعل أو وجوده ، لأنه إذا قال : زيد ضارب عمراً فالسامع إذا سمع بضرب عمرو علم أنه يفعل فإذا لم يره في الحال يتوقعه في الاستقبال غير أن الإضافة تفيد تخفيفاً حيث سقط بها التنوين والنون فتختار لفظاً لا معنى ، إذا عرفت هذا فنقول : ﴿ مُرْسِلُواْ الناقة ﴾ مع ما فيه من التخفيف فيه تحقيق الأمر وتقديره كأنه وقع وكان بخلاف ما لو قيل :

إنا نرسل الناقة .

المسألة الثانية :

(441/736)

﴿ فِتْنَةً ﴾ مفعول له فتكون الفتنة هي المقصودة من الإرسال لكن المقصود منه تصديق النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو صالح عليه السلام لأنه معجزة فما التحقيق في تفسيره ؟ نقول : فيه وجهان أحدهما : أن المعجزة فتنة لأن بها يتميز حال من يثاب ممن يعذب ، لأن الله تعالى بالمعجزة لا يعذب الكفار إلا إذا كان ينبئهم بصدقه من حيث نبوته فالمعجزة ابتلاء لأنها تصديق وبعد التصديق يتميز المصدق عن المكذب وثانيهما : وهو أدق أن إخراج الناقة من الصخرة كان معجزة وإرسالها إليهم ودورانها فيما بينهم وقسمة الماء كان فتنة ولهذا قال : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ الناقة فِتْنَةً ﴾ ولم يقل : إنا مخرجوا الناقة فتنة ، والتحقيق في الفتنة والابتلاء والامتحان قد تقدم مراراً وإليه إشارة خفية وهي أن الله تعالى يهدي من يشاء وللهداية طرق ، منها ما يكون على وجه يكون للإنسان مدخل فيه بالكسب ، مثاله يخلق شيئاً دالاً ويقع تفكر الإنسان فيه ونظره إليه على وجه يترجح عنده الحق فيتبعه وتارة يلجئه إليه ابتداء ويصونه عن الخطأ من صغره فإظهار المعجز على يد الرسول أمر يهدي به

من يشاء اهتداء مع الكسب وهداية الأنبياء من غير كسب منهم بل يخلق فيهم علوماً غير كسبية فقوله : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ الناقة فِتْنَةً ﴾ إشارة إليهم ، ولهذا قال لهم : ومعناه على وجه يصلح لأن يكون فتنة وعلى هذا كل من كانت معجزته أظهر يكون ثواب قومه أقل ، وقوله تعالى : ﴿ فارتقبهم ﴾ أي فارتقبهم بالعذاب ، ولم يقل : فارتقب العذاب إشارة إلى حسن الأدب والاجتناب عن طلب الشر وقوله تعالى : ﴿ واصطبر ﴾ يؤيد ذلك بمعنى إن كانوا يؤذونك فلا تستعجل لهم العذاب ، ويحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى قرب الوقت إلى أمرهما والأمر بحيث يعجز عن الصبر .

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (28)

(442/736)

أي مقسوم وصف بالمصدر مراداً به المشتق منه كقوله ماء ملح وقوله زور وفيه ضرب من المبالغة يقال للكريم : كرم كأنه هو عين الكرم ويقال : فلان لطف محض ، ويحتمل أن تكون القسمة وقعت بينهما لأن الناقة كانت عظيمة وكانت حيوانات القوم تنفر منها ولا ترد الماء وهي على الماء ، فصعب عليهم ذلك فجعل الماء بينهما يوماً للناقة ويوماً للقوم ، ويحتمل أن تكون لقلة الماء فشربه يوماً للناقة ويوماً للحيوانات ، ويحتمل أن يكون الماء كان بينهم قسمة

يوم لقوم ويوم لقوم ولما خلق الله الناقة كانت ترد الماء يوم فكان الذين لهم الماء في غير يوم ورودها يقولون : الماء كله لنا في هذا اليوم ويومكم كان أمس والناقة ما أخرت شيئاً فلا نمكنكم من الورود أيضاً في هذا اليوم فيكون النقصان وارداً على الكل وكانت الناقة تشرب الماء بأسره وهذا أيضاً ظاهر ومنقول والمشهور هنا الوجه الأوسط ، ونقول : إن قوماً كانوا يكتفون بلبنها يوم ورودها الماء والكل ممكن ولم يرد في شيء خبر متواتر والثالث : قطع وهو من القسمة لأنها مثبتة بكتاب الله تعالى أما كيفية القسمة والسبب فلا وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ مما يؤيد الوجه الثالث أي كل شرب محتضر للقوم بأسرهم لأنه لو كان ذلك لبيان كون الشرب محتضراً للقوم أو الناقة فهو معلوم لأن الماء ما كان يترك من غير حضور وإن كان لبيان أنه تحضره الناقة يوماً والقوم يوماً فلا دلالة في اللفظ عليه ، وأما إذا كانت العادة قبل الناقة على أن يرد الماء قوم في يوم وآخرون في يوم آخر ، ثم لما خلقت الناقة كانت تنقص شرب البعض وتترك شرب الباقين من غير نقصان ، فقال : ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ كم أيها القوم فردوا كل يوم الماء وكل شرب ناقص تقاسموه وكل شرب كامل تقاسموه .

فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (29)

ثم قال تعالى : ﴿ فَنَادَوْاْ صاحبهم ﴾ نداء المستغيث كأنهم قالوا : يا قدار للقوم ، كما يقول القائل : يا لله للمسلمين وصاحبهم قدار وكان أشجع وأهجم على الأمور ويحتمل أن يكون رئيسهم .

وقوله تعالى : ﴿ فتعاطى فَعَقَرَ ﴾ يحتمل وجوهاً الأول : تعاطى آلة العقر فعقر الثاني : تعاطى الناقة فعقرها وهو أضعف الثالث : التعاطي يطلق ويراد به الإقدام على الفعل العظيم والتحقيق هو أن الفعل العظيم يقدم كل أحد فيه صاحبه ويبرىء نفسه منه فمن يقبله ويقدم عليه يقال : تعاطاه كأنه كان فيه تدافع فأخذه هو بعد التدافع الرابع : أن القوم جعلوا له على عمله جعلاً فتعاطاه وعقر الناقة .

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (30)

وقد تقدم بيانه وتفسيره غير أن هذه الآية ذكرها في ثلاثة مواضع ذكرها في حكاية نوح بعد بيان العذاب ، وذكرها ههنا قبل بيان العذاب ، وذكرها في حكاية عاد قبل بيانه وبعد بيانه ، فحيث ذكر قبل بيان العذاب ذكرها للبيان كما تقول : ضربت فلاناً أي ضرب وأيما ضرب ، وتقول : ضربته وكيف ضربته أي قوياً ، وفي حكاية عاد ذكرها مرتين للبيان والاستفهام وقد ذكرنا السبب فيه ، ففي حكاية نوح ذكر الذي للتعظيم وفي حكاية ثمود ذكر الذي للبيان لأن عذاب قوم نوح كان بأمر عظيم عام وهو الطوفان الذي عم العالم ولا

كذلك عذاب قوم هود فإنه كان مختصاً بهم .

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31)

سمعوا صيحة فماتوا وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

كان في قوله : ﴿ فَكَانُواْ ﴾ من أي الأقسام ؟ نقول : قال النحاة تجيء تارة بمعنى صار وتمسكوا بقول القائل :

بتيماء قفر والمطي كأنها . . قطا الحزن قد كانت فراخاً بيوضها

(444/736)

بمعنى صارت فقال بعض المفسرين : في هذا موضع إنها بمعنى صار ، والتحقيق أن كان لا تخالف غيرها من الأفعال الماضية اللازمة التي لا تتعدى والذي يقال إن كان تامة وناقصة وزائدة وبمعنى صار فليس ذلك يوجب اختلاف أحوالها اختلافاً يفارق غيرها من الأفعال وذلك لأن كان بمعنى وجد أو حصل أو تحقق غير أن الذي وجد تارة يكون حقيقة الشيء وأخرى صفة من صفاته فإذا قلت : كانت الكائنة وكن فيكون جعلت الوجود والحصول للشيء في نفسه فكأنك قلت : وجدت الحقيقة الكائنة وكن أي احصل فيوجد في نفسه

وإذا قلت : كان زيد عالماً أي وجد علم زيد ، غير أنا نقول في وجد زيد عالماً إن عالماً حال ، وفي كان زيد عالماً نقول : إنه خبر كقولنا حصل زيد عالماً غير أن قولنا وجد زيد عالماً ربما يفهم منه أن الوجود والحصول لزيد في تلك الحال كما تقول قام زيد منتحياً حيث يكون القيامة لزيد في تلك الحال ، وقولنا : كان زيد عالماً ليس معناه كان زيد وفي تلك الحال هو عالم لكن هذا لا يوجب أن كان على خلاف غيره من الأفعال اللازمة التي لها بالحال تعلق شديد ، لأن من يفهم من قولنا حصل زيد اليوم على أحسن حال ما نفهمه من قولنا خرج زيد اليوم في أحسن زي لا يمنعه مانع من أن يفهم من قولنا : كان زيد على أحسن حال مثل ما فهم هناك ، إذا عرفت هذا فنقول : الفعل الماضي يطلق تارة على ما يوجد في الزمان المتصل بالحاضر ، كقولنا : قام زيد في صباه ، ويطلق تارة على ما يوجد في الزمان الحاضر كقولنا قام زيد فقم وقم فإن زيداً قام ، وكذلك القول في كان ربما يقال كان زيد قائماً عام كذا وربما يقال كان زيد قائماً الآن كما في قام زيد فقوله تعالى : ﴿ فَكَانُواْ ﴾ فيه استعمال الماضي فيما اتصل بالحال فهو كقولك أرسل عليهم صيحة فماتوا أي متصلاً بتلك الحال ، نعم لو استعمل في هذا الموضع صار يجوز لكن كان وصار كل واحد بمعنى في نفسه وليس وإنما يلزم حمل كان على صار إذا لم يمكن أن يقال هو كذا

كما في البيت حيث لا يمكن أن يقال : البيوض فراخ ، وأما هنا يمكن أن يقال هم كهشيم ولولا الكاف لأمكن أن يقال : يجب حمل كان على صار إذا كان المراد أنهم انقلبوا هشيماً كما يقلب الممسوخ وليس المراد ذلك .

المسألة الثانية :

ما الهشيم ؟ نقول هو المهشوم أي المكسور وسمي هاشم هاشماً لهشمه الثريد في الجفان غير أن الهشيم استعمل كثيراً في الحطب المتكسر اليابس ، فقال المفسرون : كانوا كالحشيش الذي يخرج من الحظائر بعد البلا بتفتت ، واستدلوا عليه بقوله تعالى : ﴿ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرياح ﴾ [الكهف : 54] وهو من باب إقامة الصفة مقام الموصوف كما يقال : رأيت جريحاً ومثله السعير .

المسألة الثالثة :

لماذا شبههم به ؟ قلنا : يحتمل أن يكون التشبيه بكونهم يابسين كالحشيش بين الموتى الذين ماتوا من زمان وكأنه يقول : سمعوا الصيحة فكانوا كأنهم ماتوا من أيام ، ويحتمل أن يكون لأنهم انضموا بعضهم إلى بعض كما ينضم الرفقاء عند الخوف داخلين بعضهم في بعض فاجتمعوا بعضهم فوق بعض كحطب الحاطب الذي يصفه شيئاً فوق شيء منتظراً حضور من يشتري منه شيئاً فإن الحطاب الذي عنده الحطب الكثير يجعل منه كالحظيرة ، ويحتمل

أن يكون ذلك لبيان كونهم في الجحيم أي كانوا كالحطب اليابس الذي للوقيد فهو محقق لقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] وقوله تعالى : ﴿ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ [الجن : 15] وقوله : ﴿ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ [نوح : 25] كذلك ماتوا فصاروا كالحطب الذي لا يكون إلا للإحراق لأن الهشيم لا يصلح للبناء .

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (32)

والتكرار للتذكار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 43. 51 ﴾

(446/736)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنذر ﴾

هم قوم صالح كذبوا الرسل ونبيهم ، أو كذّبوا بالآيات التي هي النذر ﴿ فقالوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ ﴾ وندع جماعة .

وقرأ أبو الأشهب وابن السَّمَيْقَع وأبو السَّمَّال العدويّ "أَبَشَرٌ" بالرفع "وَاحِدٌ" كذلك رفع بالابتداء والخبر "نَتَّبِعُهُ" .

الباقون بالنصب على معنى أنتبع بشراً منا واحداً نتبعه .

وقرأ أبو السَّمَّال : "أَبَشَرٌ" بالرفع "مِنَّا واحِداً" بالنصب ، رفع "أَبَشَرٌ" بإضمار فعل يدل عليه ﴿ أَأُلْقِيَ ﴾ كأنه قال : أينبّأ بشر منّا ، وقوله : "وَاحِداً" يجوز أن يكون حالاً من المضمر في "مِنَّا" والناصب له الظرف ، والتقدير أينبأ بشر كائن منّا منفرداً ؛ ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿ نَّتَّبِعُهُ ﴾ منفرداً لا ناصر له .

﴿ إِنَّآ إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ ﴾ أي ذهاب عن الصواب ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ أي جنون ، من قولهم : ناقة مسعورة ، أي كأنها من شدة نشاطها مجنونة ، ذكره ابن عباس .

قال الشاعر يصف ناقته :

تَخالُ بها سُعْراً إذا السَّفْرُ هَزَّهَا . . .

ذَمِيلٌ وإيقاعٌ من السَّيْرِ مُتْعِبُ

الذميل ضرب من سير الإبل .

قال أبو عبيد : إذا ارتفع السير عن العَنَق قليلاً فهو التَّزَيُّد ، فإذا ارتفع عن ذلك فهو الذميل ، ثم الرَّسيم ؛ يقال : ذمَل يَذْمُل ويَذمِل ذميلاً .

قال الأصمعي : ولا يَذمُل بعير يوماً وليلةً إلا مَهْرِيٌّ قاله .

وقال ابن عباس أيضاً : السُّعر العذاب ، وقاله الفراء .

مجاهد : بعد الحق .

السديّ : في احتراق .

قال :

أصحوتَ اليومَ أَمْ شَاقَتْكَ هِرّ . . .

ومِنَ الْحُبِّ جُنُونٌ مُسْتَعِرْ

أي متقد ومحترق .

أبو عبيدة : هو جمع سعير وهو لهيب النار .

والبعير المجنون يذهب كذا وكذا لما يتلهب به من الحدّة .

ومعنى الآية : إنَّا إذاً لفي شقاء وعناء مما يلزمنا .

(447/736)

قوله تعالى : ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾ أي خصص بالرسالة من بين آل ثمود وفيهم من هو أكثر مالاً وأحسن حالاً ؟ ! وهو استفهام معناه الإنكار .

﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ أي ليس كما يدّعيه ، وإنما يريد أن يتعاظم ويلتمس التكبر علينا من غير استحقاق .

والأَشَر المَرَح والتَجَبُّر والنّشاط .

يقال : فرس أَشِر إذا كان مرحاً نشيطاً ؛ قال امرؤ القيس يصف كلباً :

فيدركنا فَغِمٌ داجِنٌ . . .

سَمِيعٌ بِصيرٌ طَلُوبٌ نَكِرْ

أَلَصُّ الضُّرُوسِ حَنِيُّ الضُّلُوعِ . . .

تَبُوعٌ أَرِيبٌ نَشيطٌ أَشِرْ

وقيل : "أَشِرٌ" بَطِر .

والأَشَر البَطَر ؛ قال الشاعر :

أَشِرْتُمْ بلُبْس الخَزِّ لمّا لَبِسْتُمُ . . .

ومِن قبلُ ما تَدْرونَ مَنْ فَتَحَ القُرَى

وقد أشِر بالكسر يأشَر أَشَراً فهو أَشِر وأَشْران ، وقوم أشَارى مثل سَكْران وسُكَارى ؛ قال الشاعر :

وخَلَّتْ وُعُولاً أَشَارَى بها . . .

وقد أَزْهَفَ الطَّعْنُ أبطالَهَا

وقيل : إنه المتعدي إلى منزلة لا يستحقها ؛ والمعنى واحد .

وقال ابن زيد وعبد الرحمن بن حماد : الأَشِر الذي لا يبالي ما قال .

وقرأ أبو جعفر وأبو قِلابة "أَشَرٌّ" بفتح الشين وتشديد الراء يعني به أشرنا وأخبثنا .

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً ﴾ أي سيرون العذاب يوم القيامة ، أو في حال نزول العذاب بهم في

الدنيا .

وقرأ ابن عامر وحمزة بالتاء على أنه من قول صالح لهم على الخطاب .

الباقون بالياء إخبار من الله تعالى لصالح عنهم .

وقوله : "غَداً" على التقريب على عادة الناس في قولهم للعواقب : إن مع اليوم غداً ؛ قال :

للموتِ فيها سِهامٌ غير مُخْطِئَةٍ . . .

مَنْ لم يكن مَيِّتاً في اليومِ ماتَ غَداَ

وقال الطرِمَّاح :

أَلاَ عَلِّلاَنِي قبل نَوْحِ النَّوَائِح . . .

وقَبْلَ اضطراب النَّفْسِ بَين الْجَوَانِح

وقبلَ غَدٍ يا لَهْفَ نفسي على غَدٍ . . .

إذا رَاحَ أصحابي ولستُ برائِح

(448/736)

إنما أراد وقت الموت ولم يرد غداً بعينه .

﴿ مَّنِ الكذاب الأشر ﴾ وقرأ أبو قِلابة "الأَشَرُّ" بفتح الشين وتشديد الراء جاء به على

الأصل .

قال أبو حاتم : لا تكاد العرب تتكلم بالأَشَرّ والأَخيَر إلا في ضرورة الشعر ؛ كقول رؤبة :

بِلاَلٌ خَيْرُ الناسِ وابن الأَخْيَر . . .

وإنما يقولون هو خير قومه ، وهو شر الناس ؛ قال الله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 110] وقال : ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ [مريم : 75] .

وعن أبي حيوة بفتح الشين وتخفيف الراء .

وعن مجاهد وسعيد بن جُبير ضم الشين والراء والتخفيف ، قال النحاس : وهو معنى "الأَشِر" ومثله رجل حَذِر وحَذُر .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُو الناقة ﴾ أي مخرجوها من الهضبة التي سألوها ، فروي أن صالحاً صلى ركعتين ودعا فانصدعت الصخرة التي عينوها عن سنامها ، فخرجت ناقة عُشَراء وبراء .

﴿ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ أي اختبارا وهو مفعول له .

﴿ فارتقبهم ﴾ أي انتظر ما يصنعون .

﴿ واصطبر ﴾ أي اصبر على أذاهم ، وأصل الطاء في اصطبر تاء فتحوّلت طاء لتكون موافقة للصاد في الإطباق .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ ﴾ : أي أخبرهم ﴿ أَنَّ الْمَآءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين آل ثمود وبين الناقة ، لها يوم ولهم يوم ، كما قال تعالى : ﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء : 155] قال ابن عباس : كان يوم شِربهم لا تشرب الناقة شيئاً من الماء وتسقيهم لبناً وكانوا في نعيم ، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كلّه فلم تُبق لهم شيئاً .

وإنما قال : "بَيْنَهُمْ" لأن العرب إذا أخبروا عن بني آدم مع البهائم غلّبوا بني آدم .

(449/736)

وروى أبو الزبير " عن جابر قال : لما نزلنا الحجرْ في مغزى رسول الله صلى الله عليه وسلم تَبُوك ، قال : "أيها الناس لا تسألوا في هذه الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث الله لهم ناقة فبعث الله عز وجل إليهم الناقة فكانت تَرِد من ذلك الفجّ فتشرب ماءهم يوم وردها ويحلبون منها مثل الذي كانوا يشربون يوم غِبّها " " وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَآءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ .

﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ الشِّرْب بالكسر الحَظ من الماء ؛ وفي المثل : (آخرها أقلّها شِرْباً) وأصله في سقي الإبل ، لأن آخرها يرد وقد نزِف الحوضُ .

ومعنى "مُحْتَضَرٌ" أي يحضُره مَن هو له ؛ فالناقة تَحضُر الماء يوم وِردها ، وتغيب عنهم يوم

وِردهم ؛ قاله مقاتل .

وقال مجاهد : إن ثمود يحضرون الماء يوم غبّها فيشربون ، ويحضرون اللبن يوم وِردها فيحتلبون .

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ ﴾ يعني بالحضّ على عَقْرها ﴿ فتعاطى ﴾ عقرها ﴿ فَعَقَرَ ﴾ هَا ومعنى تعاطى تناول الفعل ؛ من قولهم : عَطَوتُ أي تناولت ؛ ومنه قول حسان :

كلْتَاهُمَا حَلَبُ العَصِيرِ فعَاطِنِي . . .

بزجاجةٍ أرخاهما للمِفْصَلِ

قال محمد بن إسحاق : فكمِن لها في أصل شجرة على طريقها فرماها بسهم فانتظم به عَضَلة ساقها ، ثم شدّ عليها بالسيف فكشف عُرْقوبها ، فخرّت ورَغت رُغاءةً واحدة تَحَدّر سَقْبها من بطنها ثم نَحرها ، وانطلق سَقْبها حتى أتى صخرة في رأس جبل فرغا ثم لاذ بها ، فأتاهم صالح عليه السلام ؛ فلما رأى الناقة قد عُقِرت بكى وقال : قد انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله .

وقد مضى في "الأعراف" بيان هذا المعنى .

قال ابن عباس : وكان الذي عقرها أحمر أزرق أشقر أكشف أقفى .

ويقال في اسمه قُدَار بن سالف .

وقال الأفوه الأَوْدي :

أو قَبْلَه كقُدَارٍ حين تَابَعَهُ . . .

على الغِوَايةِ أقوامٌ فقد بادُوا

(450/736)

والعرب تسمّي الجزّار قُدَاراً تشبيهاً بقُدَار بن سالف مشؤوم آل ثمود ؛ قال مُهلهِل :

إنَّا لَنَضْرِبُ بالسُّيُوفِ رؤُوسَهمْ . . .

ضَرْبَ القُدَارِ نقِيعةَ القُدَّامِ

وذكره زهير فقال :

فَتُنْتَجْ لَكُمْ غِلمانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ . . .

كأحمرِ عادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فتَفْطِمِ

يريد الحرب ؛ فكنَّى عن ثمود بعاد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ يريد صيحة جبريل عليه السلام ،

وقد مضى في "هود" .

﴿ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ المحتظر ﴾ وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية "المحْتَظَر" بفتح الظاء أرادوا

الحظيرة .

الباقون بالكسر أرادوا صاحب الحظيرة .

وفي الصحاح : والمحتِظر الذي يعمل الحظيرة .

وقرىء "كَهَشِيمِ المحتَظِر" فمن كسره جعله الفاعل ومن فتحه جعله المفعول به .

ويقال للرجل القليل الخير : إنَّه لَنَكِدُ الْحظِيرَة .

قال أبو عبيد : أراه سمى أمواله حظيرة لأنه حظرها عنده ومنعها ، وهي فعيلة بمعنى مفعولة .

المهدوي : من فتح الظاء من "المحتظر" فهو مصدر ، والمعنى كهشيم الاحتظار .

ويجوز أن يكون "المحتظَر" هو الشجر المتخذ منه الحظيرة .

قال ابن عباس : "المحتظِر" هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك ؛ فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم .

قال :

أَثَرْنَ عَجاجةً كدخانِ نارٍ . . .

تشبّ بغَرْقَدٍ بالٍ هَشِيمِ

وعنه : كحشيش تأكله الغنم .

وعنه أيضاً : كالعظام النخرة المحترقة ، وهو قول قتادة .

وقال سعيد بن جُبير : هو التراب المتناثر من الحيطان في يوم ريح .

وقال سفيان الثوري : هو ما تناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصا ، وهو فعيل بمعنى مفعول .

وقال ابن زيد : العرب تسمّي كل شيء كان رطباً فيبس هشيماً .

والحظْر المنع ، والمحتظر المفتعل يقال منه : احتظر على إبله وحظر أي جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض ليمنع برد الريح والسباع عن إبله ؛ قال الشاعر :

تَرَى جِيَفَ المَطِيّ بجانبيه . . .

(451/736)

كأنّ عظامَها خَشَبُ الهَشِيمِ

وعن ابن عباس : أنهم كانوا مثل القمح الذي ديس وهشم ؛ فالمحتظر على هذا الذي يتخذ حظيرة على زرعه ، والهشيم فُتات السنبلة والتبن .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(452/736)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18) ﴾

تقدمت قصة عاد مطولة ومتوسطة ، وهنا ذكرها تعالى موجزة ، كما ذكر قصة نوح عليه السلام موجزة .

ولما لم يكن لقوم نوح علم ، ذكر قوم مضافاً إلى نوح .

ولما كانت عاد علماً لقوم هود ، ذكر العلم ، لأنه أبلغ في الذكر من التعريف بالإضافة .

وتكرر التهويل بالاستفهام قبل ذكر ما حل بهم وبعده ، لغرابة ما عذبوا به من الريح ، وانفرادهم بهذا النوع من العذاب ، ولأن الاختصار داعية الاعتبار والتدبر والصرصر الباردة ، قاله ابن عباس والضحاك وقتادة .

وقيل ، المصوتة والجمهور : على إضافة يوم إلى نحس ، وسكون الحاء .

وقرأ الحسن : بتنوين يوم وكسر الحاء ، جعله صفة لليوم ، كقوله تعالى : ﴿ في أيام نحسات ﴾ ﴿ مستمر ﴾ ، قال قتادة : استمر بهم حتى بلغهم جهنم .

وعن الحسن والضحاك : كان مراً عليهم .

وروي أنه كان يوم الأربعاء ، والذي يظهر أنه ليس يوماً معيناً ، بل أريد به الزمان والوقت ، كأنه قيل : في وقت نحس .

ويدل على ذلك أنه قال في سورة فصلت : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيامٍ نحساتٍ ﴾ وقال في الحاقة : ﴿ سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ حسوماً ﴾ إلا أن يكون ابتداء الريح في يوم الأربعاء ، فعبر بوقت الابتداء ، وهو يوم الأربعاء ، فيمكن الجمع بينها .

﴿ تنزع الناس ﴾ : يجوز أن يكون صفة للريح ، وأن يكون حالاً منها ، لأنها وصفت فقربت من المعرفة .

ويحتمل أن يكون تنزع مستأنفاً ، وجاء الظاهر مكان المضمر ليشمل ذكورهم وإناثهم ، إذ لو عاد بضمير المذكورين ، لتوهم أنه خاص بهم ، أي تقلعهم من أماكنهم .

قال مجاهد : يلقى الرجل على رأسه ، فتفتت رأسه وعنقه وما يلي ذلك من بدنه .

وقيل : كانوا يصطفون آخذي بعضهم بأيدي بعض ، ويدخلون في الشعاب ، ويحفرون الحفر فيندسون فيها ، فتنزعهم وتدق رقابهم .

والجملة التشبيهية حال من الناس ، وهي حال مقدرة .

(453/736)

وقال الطبري : في الكلام حذف تقديره : فتتركهم .

﴿ كأنهم أعجاز نخل ﴾ : فالكاف في موضع نصب بالمحذوف شبههم ، بأعجاز النخل

المنقعر ، إذ تساقطوا على الأرض أمواتاً وهم جثث عظام طوال .

والأعجاز : الأصول بلا فروع قد انقلعت من مغارسها .

وقيل : كانت الريح تقطع رؤوسهم ، فتبقى أجساداً بلا رؤوس ، فأشبهت أعجاز النخل التي انقلعت من مغرسها .

وقرأ أبو نهيك : أعجز على وزن أفعل ، نحو ضبع وأضبع .

والنخل اسم جنس يذكر ويؤنث ، وإنما ذكر هنا لمناسبة الفواصل ، وأنث في قوله : ﴿ أعجاز نخل خاوية ﴾ في الحاقة لمناسبة الفواصل أيضاً .

وقرأ أبو السمال ، فيما ذكر الهذلي في كتابه الكامل ، وأبو عمرو والداني : برفعهما .

فأبشر : مبتدأ ، وواحد صفته ، والخبر نتبعه .

ونقل ابن خالويه ، وصاحب اللوامح ، وابن عطية رفع أبشر ونصب واحداً عن أبي السمال .

قال صاحب اللوامح : فأما رفع أبشر فبإضمار الخبر بتقدير : أبشر منا يبعث إلينا ، أو يرسل ، أو نحوهما ؟ وأما انتصاب واحداً فعلى الحال ، إما مما قبله بتقدير : أبشر كائن منا في الحال توحده ، وإما مما بعده بمعنى : نتبعه في توحده ، أو في انفراده .

وقال ابن عطية : ورفعه إما على إضمار فعل مبني للمفعول ، التقدير : أينبأ بشر ؟ وإما على الابتداء ، والخبر في قوله : ﴿ نتبعه ﴾ ، وواحداً على هذه القراءة حال إما من

الضمير في نتبعه ، وإما من المقدر مع منا ، كأنه يقول : أبشر كائن منا واحداً ؟ وفي هذا نظر .

وقولهم ذلك حسد منهم واستبعاد أن يكون نوع البشر يفضل بعضه بعضاً هذا الفضل ، فقالوا : نكون جمعاً ونتبع واحداً ، ولم يعلموا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، ويفيض نور الهدى على من رضيه . انتهى .

(454/736)

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف أنكروا أن يتبعوا بشراً منهم واحداً ؟ قلت : قالوا : أبشراً إنكاراً ؟ لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية ، وطلبوا أن يكونوا من جنس أعلى من جنس البشر ، وهم الملائكة ، وقالوا منا ، لأنه إذا كان منهم ، كانت المماثلة أقوى ، وقالوا واحداً إنكاراً ، لأن تتبع الأمة رجلاً واحداً ، وأرادوا واحداً من أبنائهم ليس بأشرفهم ولا أفضلهم ، ويدل عليه .

﴿ أألقي الذكر عليه من بيننا ﴾ : أي أأنزل عليه الوحي من بيننا ؟ وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوة .

انتهى ، وهو حسن ، على أن فيه تحميل اللفظ ما لا يحتمله .

﴿ إنا إذا ﴾ : أي إن اتبعناه ، فنحن في ضلال : أي بعد عن الصواب وحيرة .

وقال الضحاك : في تيه .

وقال وهب : بعد عن الحق ، ﴿ وسعر ﴾ : أي عذاب ، قاله ابن عباس .

وعنه وجنون يقال : ناقة مسعورة إذا كانت تفرط في سيرها كأنها مجنونة ، وقال الشاعر :

كأن بها سعراً إذا العيس هزها . . .

زميل وإزجاء من السير متعب

وقال قتادة : وسعر : عناء .

وقال ابن بحر : وسعر جمع سعير ، وهو وقود النار ، أي في خطر كمن هو في النار . انتهى .

وروي أنه كان يقول لهم : إن لم تتبعوني ، كنتم في ضلال عن الحق وسعر : أي نيران ، فعكسوا عليه فقالوا : إن اتبعناك كنا إذاً كما تقول .

ثم زادوا في الإنكار والاستبعاد فقالوا : ﴿ أألقي ﴾ : أي أأنزل ؟ قيل : وكأنه يتضمن العجلة في الفعل ، والعرب تستعمل هذا الفعل ، ومنه : ﴿ وألقَيت عليك محبة مني ﴾ ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ والذكر هنا : الوحي والرسالة وما جاءهم من الحكمة والموعظة .

ثم قالوا : ليس الأمر كما تزعم بل هو القرآن .

﴿ أشر ﴾ : أي بطر ، يريد العلوّ علينا ، وأن يقتادنا ويتملك طاعتنا .

وقرأ قتادة وأبو قلابة : بل هو الكذاب الأشر ، بلام التعريف فيهما وبفتح الشين وشد الراء ، وكذا الأشر الحرف الثاني .

(455/736)

وقرأ الحرف الثاني مجاهد ، فيما ذكر صاحب اللوامح وأبو قيس الأودي الأشر بثلاث ضمات وتخفيف الراء .

ويقال : أشر وأشر ، كحذر وحذر ، فضمة الشين لغة وضم الهمزة تبع لضمة الشين .

وحكى الكسائي عن مجاهد : ضم الشين .

وقرأ أبو حيوة : هذا الحرف الآخر الأشر أفعل تفضيل ، وإتمام خير ، وشر في أفعل التفضيل قليل .

وحكى ابن الأنباري أن العرب تقول : هو أخير وهو أشر .

قال الراجز .

بلال خير الناس وابن الأخير . . .

وقال أبو حاتم : لا تكاد العرب تتكلم بالأخير والأشر إلا في ضرورة الشعر ، وأنشد قول رؤبة بلال البيت .

وقرأ علي والجمهور : سيعلمون بياء الغيبة ، وهو من إعلام الله تعالى لصالح عليه السلام ؛ وابن عامر وحمزة وطلحة وابن وثاب والأعمش : بتاء الخطاب : أي قل لهم يا صالح وعداً يراد به الزمان المستقبل ، لا اليوم الذي يلي يوم خطابهم ، فاحتمل أن يكون يوم العذاب الحال بهم في الدنيا ، وأن يكون يوم القيامة ، وقال الطرماح :

ألا عللاني قبل نوح النوائح . . .

وقبل اضطراب النفس بين الجوانح

وقبل غد يا لهف نفسي في غد . . .

إذا راح أصحابي ولست برائح

أراد وقت الموت ، ولم يرد غداً بعينه .

وفي قوله : ﴿ سيعلمون غداً ﴾ تهديد ووعيد ببيان انكشاف الأمر ، والمعنى : أنهم هم الكذابون الأشرون .

وأورد ذلك مورد الإبهام والاحتمال ، وإن كانوا هم المعنيين بقوله تعالى ، حكاية عن قول نوح عليه الصلاة والسلام : ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ والمعنى به قومه ، وكذا قول شعيب عليه السلام : ﴿ سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ﴾ وقول الشاعر :

فلئن لقيتك خاليين لتعلمن . . .

أني وأيك فارس الأحزاب

وإنما عنى أنه فارس الأحزاب ، لا الذي خاطبه .

﴿ إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم ﴾ : أي ابتلاء واختباراً ، وآنس بذلك صالحاً .

(456/736)

ولما هددهم بقوله : ﴿ سيعلمون غداً ﴾ ، وكانوا قد ادعوا أنه كاذب ، قالوا : ما الدليل على صدقك ؟ قال الله تعالى : ﴿ إنا مرسلوا الناقة ﴾ : أي مخرجوها من الهضبة التي سألوها .

﴿ فارتقبهم ﴾ : أي فانتظرهم وتبصر ما هم فاعلون ، ﴿ واصطبر ﴾ على أذاهم ولا تعجل حتى يأتي أمر الله .

﴿ ونبئهم أن الماء ﴾ : أي ماء البئر الذي لهم ، ﴿ قسمة بينهم ﴾ : أي بين ثمود وبين الناقة غلب ثمود ، فالضمير في بينهم لهم وللناقة .

أي لهم شرب يوم ، وللناقة شرب يوم .

وقرأ الجمهور : قسمة بكسر القاف ؛ ومعاذ عن أبي عمرو : بفتحها .

﴿ كل شرب محتضر ﴾ أي محضور لهم وللناقة .

وتقدمت قصة الناقة مستوفاة ، فأغنى عن إعادتها ، وهنا محذوف ، أي فكانوا على هذه الوتيرة من قسمة الماء ، فملوا ذلك وعزموا على عقر الناقة .

﴿ فنادوا صاحبهم ﴾ ، وهو قدار بن سالف ، ﴿ فتعاطى ﴾ : هو مطاوع عاطى ، وكأن هذه الفعلة تدافعها الناس وعاطاها بعضهم بعضاً ، فتعاطاها قدار وتناول العقر بيده .

ولما كانوا راضين ، نسب ذلك إليهم في قوله : ﴿ فعقروا الناقة ﴾ وفي قوله : ﴿ فكذبوه فعقروها ﴾ والصيحة التي أرسلت عليهم .

يروى أن جبريل عليه السلام صاح في طرف منازلهم ، فتفتتوا وهمدوا وصاروا ﴿ كهشيم المحتظر ﴾ وهو ما تفتت وتهضم من الشجر .

والمحتظر : الذي يعمل الحظيرة ، فإنه تتفتت منه حالة العمل وتتساقط أجزاء مما يعمل به ، أو يكون الهشيم ما يبس من الحظيرة بطول الزمان ، تطأه البهائم فيتهشم .

وقرأ الجمهور : بكسر الظاء ؛ وأبو حيوة وأبو السمال وأبو رجاء وأبو عمرو بن عبيد : بفتحها ، وهو موضع الاحتظار .

وقيل : هو مصدر ، أي كهشيم الاحتظار ، وهو ما تفتت حالة الاحتظار .

والحظيرة تصنعها العرب وأهل البوادي للمواشي والسكنى من الأغصان والشجر المورق والقصب .

والحظر : المنع ؛ وعن ابن عباس وقتادة ، أن المحتظر هو المحترق .

قال قتادة : كهشيم محترق ؛ وعن ابن جبير : هو التراب الذي يسقط من الحائط البالي .

(457/736)

وقيل : المحتظر بفتح الظاء هو الهشيم نفسه ، فيكون من إضافة الموصوف إلى صفته ، كمسجد الجامع على من تأوله كذلك ، وكان هنا قيل : بمعنى صار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(458/736)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾

أي هوداً عليهِ السَّلامُ ولم يتعرضْ لكيفيةِ تكذيبهم له رَوْماً للاختصارِ ومُسارعةً إلى بيانِ ما فيه الازدجارُ من العذابِ . وقولُه تعالَى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ لتوجيهِ قلوبِ السامعينَ نحوَ الاصغاءِ إلى ما يُلقى إليهم قبلَ ذكرِه لا لتهويلِه وتعظيمِه وتعجيبِهم من حالةِ

بعدَ بيانِه كما قبلَه وما بعدَهُ كأنَّه قيل كذبتْ عادٌ فهل سمعتُم أو فاسمعُوا كيفَ كانَ عذابِي وإنذاراتِي لهم. وقولُه تعالَى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ استئنافٌ ببيانِ ما أُجمِلَ أولاً أيْ أرسلنَا عليهم ريحاً باردةً أو شديدةَ الصوتِ ﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ شؤمٍ ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ أي شؤمُه أو مستمرٌّ عليهم إلى أنْ أهلكَهُم أو شاملٌ لجميعِهم كبيرِهم وصغيرِهم أو مشتدٌّ مراراتُه، وكانَ يومَ الأربعاءِ آخرَ الشهرِ.

﴿ تَنزِعُ الناس ﴾ تقلعُهم رُويَ أنَّهم دخلُوا الشعابَ والحفرَ وتمسَّكَ بعضُهم ببعضٍ فنزعتْهُم الريحُ وصرعتْهُم مَوْتى ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ أي منقلعٍ عن مغارسِه قيل: شُبهوا بأعجازِ النخلِ وهيَ أصولُها بلا فروعٍ لأنَّ الريحَ كانتْ تقلعُ رؤوسَهُم فتُبقِي أجساداً وجثثاً بلا رؤوسٍ، وتذكيرُ صفةِ نخلٍ للنظرِ إلى اللفظِ كما أنَّ تأنيثَها في قولِه تعالى: ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ للنظرِ إلى المَعْنى. وقولُه تعالَى ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ تهويلٌ لهما وتعجيبٌ من أمرِهما بعد بيانِهما فليسَ فيه شائبةُ تكرارٍ وما قيلَ من أنَّ الأولَ لما حاقَ بهم في الدُّنيا والثانِي لما يحيقُ بهم في الآخرةِ يردُّه ترتيبُ الثَّانِي على العذابِ الدنيويِّ ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ الكلامُ فيهِ كالذي مرَّ فيما سبقَ.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنذر ﴾ أي الإنذاراتِ والمواعظِ التي سمعُوها من صالحٍ أو بالرسلِ عليهم السَّلامُ فإنَّ تكذيبَ أحدِهم تكذيبٌ للكلِّ لاتفاقِهم على أصولِ الشرائعِ ﴿ فَقَالُواْ أَبَشَراً مِّنَّا ﴾ أي كائناً من جنسِنا ، وانتصابُه بفعلٍ يفسرُه ما بعدَهُ ﴿ واحدا ﴾ أي منفرداً لا تبعَ له أو واحداً من آحادِهم لا من أشرافِهم وهو صفةٌ أُخرى لبشراً وتأخيرُه عن الصفةِ المؤولةِ للتنبيهِ على أنَّ كلاً من الجنسيةِ والوحدةِ مما يمنعُ الاتباعَ ولو قُدِّمَ عليَها لفاتتِ هذه النكتةُ وقُرِىءَ أبشرٌ منَّا واحدٌ على الابتداءِ . وقولُه تعالَى : ﴿ نَّتَّبِعُهُ ﴾ خبرُهُ والأولُ أُوجهُ للاستفهامِ ﴿ إِنَّا إِذاً ﴾ أي على تقديرِ اتباعِنا له وهو منفردٌ ونحن أُمَّةٌ جَمَّةٌ ﴿ لَفِى ضلال ﴾ عن الصوابِ ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ أي جنونٍ فإنَّ ذلكَ بمعزلٍ من مُقتَضى العقلِ وقيلَ : كان يقولُ لهم إن لم تتبعوني كنتُم في ضلالٍ عن الحقِّ وسعرٍ أي نيرانٍ جمعُ سعيرٍ فعكسُوا عليهِ عليهِ السَّلامُ لغايةِ عتوهِم فقالُوا إنِ اتبعناكَ كُنَّا إذن كما تقولُ ﴿ أَءُلْقِىَ الذِّكْرُ ﴾ أي الكتابُ والوحيُ ﴿ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾ وفينَا من هو أحقُّ منه بذلكَ ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ أي ليسَ الأمرُ كذلكَ بل هو كَذا وكَذا حملَهُ بطرُه على الترفعِ علينا بما ادَّعاهُ وقولُه تعالَى : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الكذاب الأشر ﴾ حكايةٌ لما قالَهُ تعالَى لصالحٍ عليهِ السَّلامُ وعداً لهُ ووعيداً لقومِه ، والسينُ لتقريبِ مضمونِ الجملةِ وتأكيدِه والمرادُ بالغدِ وقتُ نزولِ العذابِ أي سيعلمونَ ألبتةَ عن قريبٍ من الكذابُ الأشرُ الذي حملَهُ أشرُه وبطرُه على الترفعِ أصالحٌ هو أم مَنْ كذبَهُ . وقُرِىءَ ستعلمونَ ، على الالتفاتِ لتشديدِ التوبيخِ ، أو على

حكايةِ ما أجابَهُم به صالحٌ. وقُرِىءَ الأشر كقولِهم حذر في حذر. وقُرِىءَ الأشرُّ أي الأبلغُ في

(460/736)

الشرارةِ وهو أصلٌ مرفوضٌ كالأخيرِ، وقيلَ: المرادُ بالغدِ يومُ القيامةِ ويأباهُ قولُه تعالَى: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ الناقة ﴾ الخ. فإنَّه استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ مبادِي الموعودِ حتْماً أي مخرجُوها من الهضبةِ حسبمَا سألُوا ﴿ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ أي امتحاناً ﴿ فارتقبهم ﴾ أي فانتظرْهُم وتبصرْ ما يصنعونَ ﴿ واصطبر ﴾ على أذيتِهم.

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الماء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ مقسومٌ، لها يومٌ ولهم يومٌ. وبينهُم لتغليبِ العُقَلاءِ ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ يحضرُه صاحبُه في نوبتِه ﴿ فَنَادَوْاْ صاحبهم ﴾ هو قُدارُ بنُ سالفٍ، أُحيمرُ ثمودَ ﴿ فتعاطى فَعَقَرَ ﴾ فاجترأ على تعاطي الأمرِ العظيمِ غيرِ مكترثٍ له فأخذت العقرَ بالناقةِ، وقيل: فتعاطَى الناقةَ فعقرَها، أو فتعاطَى السيفَ فقتلَها، والتَّعاطِي تناولُ الشيءِ بتكلفٍ. ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ الكلامُ فيهِ كالذي مرَّ في صدرِ قصةِ عادٍ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحدة ﴾ هي صيحةُ جبريلَ عليهِ السَّلامُ ﴿ فَكَانُواْ ﴾ أي فصارُوا ﴿ كَهَشِيمِ المحتظر ﴾ أي كالشجرِ اليابسِ الذي يتخذُه

من يعملُ الحظيرةَ لأجلِها أو كالحشيشِ اليابسِ الذي يجمعُه صاحبُ الحظيرةِ لماشيتِه في الشتاءِ . وقُرِئَ بفتحِ الظاءِ أي كهشيمِ الحظيرةِ أو الشجرِ المتخذِ لها ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءانَ للذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(461/736)

وقال الآلوسى :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنذر ﴾

بالرسل عليهم الصلاة والسلام فإن تكذيب أحدهم وهو صالح عليه السلام هنا تكذيب للكل لاتفاقهم على أصول الشرائع ، وجوز أن يكون مصدراً ، أو جمعاً له وأن يكون جمع نذير بمعنى المنذر منه فلا تغفل .

﴿ فَقَالُواْ أَبَشَراً مِّنَّا ﴾ أي كائناً من جنسنا على أن اجلار والمجرور في موضع الصفة لبشراً وانتصابه بفعل يفسره تتبع بعد أي أتتبع بشراً ﴿ واحدا ﴾ أي منفرداً لاتبع له ، أو واحداً من آحادهم لا من أشرافهم كما يفهم من التنكير الدال على عدم التعيين وهو صفة أخرى لبشر وتأخيره مع إفراده عن الصفة الأولى مع كونها شبه الجملة للتنبيه على أن كلا من الجنسية والوحدة مما يمنع الاتباع ولو قدم عليها لفات هذا التنبيه ، وقرأ أبو السمال فيما

ذكر الهذلي في كتابه الكامل .

وأبو عمرو الداني أبشر منا واحد برفعهما على أن بشر مبتدأ ، وما بعد صفته ، وقوله تعالى : ﴿ نَّتَّبِعُهُ ﴾ خبره .

ونقل ابن خالويه .

وصاحب اللوامح .

وابن عطية عن أبي السمال رفع بشر ونصب ﴿ واحدا ﴾ وخرج ذلك ابن عطية على أن رفع بشر إما على إضمار فعل مبني للمفعول والتقدير أينبأ بشر ، وإما على الابتداء والخبر جملة ﴿ نَّتَّبِعُهُ ﴾ ، ونصب ﴿ واحدا ﴾ على الحال إما من ضمير النصب في ﴿ نَّتَّبِعُهُ ﴾ .

وإما من الضمير المستقر في ﴿ مِنَّا ﴾ وخرج صاحب اللوامح نصب ﴿ واحدا ﴾ على هذا أيضاً ، وأما رفع بشر فخرجه على الابتداء وإضمار الخبر أي أبشر منا يبعث إلينا أو يرسل أو نحوهما ، وتقدم الاستفهام يرجح تقدير فعل يرفع به ﴿ إِنَّا إِذَا ﴾ أي إذا اتبعنا بشراً منا واحداً ﴿ لَفِي ضلال ﴾ عظيم عن الحق ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ أي نيران جمع سعير .

وروي أن صالحاً عليه السلام كان يقول لهم : إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق وسعر فعكسوا عليه لغاية عتوّهم فقالوا : إن اتبعناك كنا إذاً كما تقول ، فالكلام من باب التعكيس والقول بالموجب ، وجمع السعير باعتبار الدركات ، أو للمبالغة ، وروي عن ابن عباس ما يحتمل ما قلنا فإنه قال : أي لفي بعد عن الحق وعذاب ، وفي رواية أخرى عنه تفسير السعر بالجنون على أنه اسم مفرد بمعنى ذلك يقال ناقة مسعورة إذا كانت تفرط في سيرها كأنها مجنونة قال الشاعر

: كأن بها (سعراً) إذا العيس هزها . . .

ذميل وإرخاء من السير متعب

والأول أوجه وأفصح .

﴿ أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾ أي أأنزل عليه الوحي من بيننا وفينا من هو أحس منه بذلك ، والتعبير بألقي دون أنزل قيل : لأنه يتضمن العجلة في الفعل ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ أي شديد البطر وهو على ما قال الراغب : دهش يعتري من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها ووضعها إلى غير وجهها ، ويقاربه الطرب وهو خفة أكثر ما تعتري من الفرح ، ومرادهم ليس الأمر كذلك بل هو كذا وكذا حمله شدّة بطره وطلبه التعظيم علينا على ادعاء ذلك ، وقرأ قتادة .

وأبو قلابة بل هو الكذب الأشر بلام التعريف فيهما وبفتح الشين وشدّ الراء ، وسيأتي إن

شاء الله تعالى قريباً ما في ذلك ، وقوله تعالى :

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الكذاب الاشر ﴾ حكاية لما قاله سبحانه وتعالى بصالح عليه السلام وعداً له ووعيداً لقومه ، والسين لتقريب مضمون الجملة وتأكيده ، والمراد بالغد وقت نزول العذاب الدنيوي بهم ، وقيل : يوم القيامة فهو لمطلق الزمان المستقبل وعبر به لتقريبه ، وعليه قول الطرماح :

ألا عللاني قبل نوح النوائح . . .

وقبل اضطراب النفس بين الجوانح

وقبل (غد) يا لهف نفسي على غد . . .

إذا راح أصحابي ولست برائح

(463/736)

أي ﴿ سَيَعْلَمُونَ ﴾ البتة عن قريب ﴿ مَّنِ الكذاب الاشر ﴾ الذي حمله أشره وبطره على ما حمله أصالح أم من كذبه ، والمراد سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون لكن أورد ذلك مورد الإبهام إيماءاً إلى أنه مما لا يكاد يخفي ، ونحوه قول الشاعر :

فلئن لقيتك خاليين لتعلمن . . .

(أبي وأبيك) فارس الأحزاب

وقرأ ابن عامر .

وحمزة .

وطلحة .

وابن وثاب .

والأعمش ستعلمون بتاء الخطاب على حكاية ما قال لهم صالح مجيباً لهم ، وفي "الكشاف" أو هو كلام على سبيل الالتفات ، قال "صاحب الكشف" : أي هو كلام الله تعالى لقوم ثمود على سبيل الالتفات إليهم إما في خطابه تعالى لرسولنا صلى الله عليه وسلم وهو نظير ما حكاه سبحانه عن شعيب ﴿ فتولى عَنْهُمْ وَقَالَ يا قوم قَوْمٌ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ﴾ [الأعراف : 79] بعد ما استؤصلوا هلاكاً وهو من بليغ الكلام فيه دلالة على أنهم أحقاء بهذا الوعيد وكأنهم حضور في المجلس حول إليهم الوجه لينعى عليهم جناياتهم .

وإما في خطابه عز وجل لصالح عليه السلام والمنزل حكاية ذلك الكلام المشتمل على الالتفات .

وعلى التقديرين لا إشكال فيه كما توهم .

ولفظ الزمخشري على الأول أدل وهو أبلغ انتهى ، ومن التفت إلى ما قاله الجمهور في الالتفات لا أظنه تسكن نفسه بما ذكر فتأمل ، وقرأ مجاهد فيما ذكره "صاحب اللوامح" .

وأبو قيس الأودي ﴿ الاشر ﴾ بثلاث ضمات وتخفيف الراء .

ويقال : أشر وأشر كحذر وحذر فضمة الشين لغة وضم الهمزة تبع لها .

وحكى الكسائي عن مجاهد ضم الشين دون الهمزة فهو كندس .

وقرأ أبو حيوة ﴿ الاشر ﴾ أفعل تفضيل أي الأبلغ في الشرارة وكذا قرأ قتادة .

وأبو قلابة أيضاً وهو قليل الاستعمال وإن كان على الأصل كالأخير في قول رؤبة :

بلال خير الناس وابن الأخير . . .

وقال أبو حاتم : لا تكاد العرب تتكلم بالأخير و ﴿ الاشر ﴾ إلا في ضرورة الشعر وأنشد البيت ، وقال الجوهري : لا يقال ﴿ الاشر ﴾ إلا في لغة رديئة ؛ وقوله تعالى :

﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ الناقة ﴾ الخ استئناف مسوق لبيان مبادي الموعود على ما هو الظاهر ، وبه يتعين كون المراد بالغد وقت نزول العذاب الدنيوي بهم دون يوم القيامة ، والإرسال حقيقة في البعث وقد جعل هنا كناية عن الإخراج ، وأريد المعنى الحقيقي معه كما أوماً إليه بعض الأجلة أي إنا مخرجوا الناقة التي سألوها من الهضبة وباعثوها ﴿ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ امتحاناً ، وجوز إبقاؤها على معناها المعروف ﴿ فارتقبهم ﴾ فانتظرهم وتبصر ما هم

فاعلون ﴿ واصطبر ﴾ على أذاهم ولا تعجل حتى يأتي أمر الله تعالى .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الماء ﴾ وأخبرهم بأن ماء البئر التي لهم ﴿ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ مقسوم لها يوم ولهم يوم ، و ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ لتغلب العقلاء ، وقرأ معاذ عن أبي عمرو و ﴿ قِسْمَةٌ ﴾ بفتح القاف ﴿ كُلُّ شِرْبٍ ﴾ نصيب وحصة منه ﴿ مُّحْتَضَرٌ ﴾ يحضره صاحبه في نوبته فتحتضر الناقة تارة ويحضرونه أخرى ، وقيل : يتحول عنه غير صاحبه من حضر عن كذا تحول عنه وقيل : يمنع عنه غير صاحبه مجاز عن الحظر بالظاء بمعنى المنع بعلاقة السببية فإنه مسبب عن حضور صاحبه في نوبته وهو كما ترى ، وقيل : يحضرون الماء في نوبتهم واللبن في نوبتها ، والمعنى كل شرب من الماء واللبن تحضرونه أنتم .

﴿ فَنَادَوْاْ ﴾ أي فأرسلنا الناقة وكانوا على هذه الوتيرة من القسمة فملوا ذلك وعزموا على عقر الناقة ﴿ فَنَادَوْاْ ﴾ لعقرها ﴿ صاحبهم ﴾ وهو قدار بن سالف أحيمر ثمود وكان أجرأهم ﴿ فتعاطى ﴾ العقر أي فاجترأ على تعاطيه مع عظمه غير مكترث به .

(465/736)

﴿ فَعَقَرَ ﴾ فأحدث العقر بالناقة ، وجوز أن يكون المراد فتعاطى الناقة فعقرها ، أو فتعاطى السيف فقتلها ، وعلى كل فمفعول تعاطى محذوف والتفريع لا غبار عليه ، وقيل :

تعاطى منزل منزلة اللازم على أن معناه أحدث ماهية التعاطي ، وقوله تعالى : ﴿ فَعَقَرَ ﴾ تفسير له لا متفرع عليه ولا يخفى ركاكته ، والتعاطي التناول مطلقاً على ما يفهم من كلام غير واحد ، وزاد بعضهم قيد بتكلف ونسبة العقر إليهم في قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ ﴾ [الأعراف : 77] لأنهم كانوا راضين به .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ الكلام فيه كالذي تقدم .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ هي صيحة جبريل عليه السلام صاح صباح يوم الأحد كما حكى المناوي عن الزمخشري في طرف منازلهم ﴿ فَكَانُواْ ﴾ أي فصاروا ﴿ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ أي كالشجر اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء . وفي "البحر" الهشيم ما تفتت من الشجر ، و﴿ الْمُحْتَظِرِ ﴾ الذي يعمل الحظيرة فإنه يتفتت منه حالة العمل ويتساقط أجزاء مما يعمل به ، أو يكون الهشيم ما يبس من الحظيرة بطول الزمان تطؤه البهائم فيتهشم ، وتعقب هذا بأن الأظهر عليه كهشيم الحظيرة ، والحظيرة الزريبة التي تصنعها العرب .

وأهل البوادي للمواشي والسكنى من الأغصان والشجر المورق والقصب من الحظر وهو المنع .

وقرأ الحسن .

وأبو حيوة .

وأبو السمال .

وأبو رجاء .

وعمرو بن عبيد ﴿ المحتظر ﴾ بفتح الظاء على أنه اسم مكان .

والمراد به الحظيرة نفسها أو هو اسم مفعول قيل : ويقدر له موصوف أي ﴿ كَهَشِيمِ ﴾ الحائط ﴿ المحتظر ﴾ أو لا يقدر على أن ﴿ المحتظر ﴾ الزريبة نفسها كما سمعت .

وجوز أن يكون مصدراً أي كهشيم الاحتظار أي ما تفتت حالة الاحتظار .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ كما مر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(466/736)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) ﴾

القول في موقع جملة ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾ كالقول في موقع جملة ﴿ كذبت عاد ﴾ [القمر : 18] .

وكذلك القول في إسناد حكم التكذيب إلى ثمود وهو اسم القبيلة معتبر فيه الغالب الكثير .

فإن صالحاً قد آمن به نفر قليل كما حكاه الله عنهم في سورة الأعراف .

وثمود : ممنوع من الصرف باعتبار العلمية والتأنيث المعنوي ، أي على تأويل الاسم بالقبيلة .

والنذر : جمع نذير الذي هو اسم مصدر أنذر ، أي كذبوا بالإِنذارات التي أنذرهم الله بها على لسان رسوله .

وليس النُذر هنا بصالح لحمله على جمْع النذير بمعنى المُنذر لأن فعل التكذيب إذا تعدى إلى الشخص المنسوب إلى الكذب تعدى إلى اسمه بدون حرف قال تعالى : ﴿ فكذبوا رسلي ﴾ [سبأ : 45] وقال : ﴿ لما كذبوا الرسل ﴾ [الفرقان : 37] وقال : ﴿ وإن يكذبوك ﴾ [الحج : 42] ، وإذا تعدى إلى الكلام المكذّب تعدى إليه بالباء قال : ﴿ وكذبتم به ﴾ [الأنعام : 57] وقال : ﴿ وكذب به قومك ﴾ [الأنعام : 66] وقال : ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا ﴾ [الأعراف : 40] وقال : ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ [آل عمران : 11] .

وهذا بخلاف قوله : ﴿ كذبت ثمود المرسلين ﴾ في سورة الشعراء (141) .

والمعنى : أنهم كذبوا إنذارات رسولهم ، أي جحدوها ثم كذبوا رسولهم ، فلذلك فُرع على جملة كذبت ثمود بالنذر ﴾ قوله : ﴿ فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه ﴾ إلى قوله : ﴿ بل هو كذاب أشر ﴾ ولو كان المراد بالنذر جمع النذير وأطلق على نذيرهم لكان وجه النظم

أن تقع جملة ﴿ فقالوا أبشراً ﴾ إلى آخرها غير معطوفة بالفاء لأنها تكون حينئذٍ بياناً لجملة ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾ .

(467/736)

والمعنى : أن صالحاً جاءهم بالإنذارات فجحدوا بها وكانت شبهتهم في التكذيب ما أعرب عنه قولهم : ﴿ أبشراً منا واحداً نتبعه ﴾ إلى آخره ، فهذا القول يقتضي كونه جواباً عن دعوة وإنذار ، وإنما فُصّل تكذيب ثمود وأجمل تكذيب عاد لقصد بيان المشابهة بين تكذيبهم ثمود وتكذيب قريش إذ تشابهت أقوالهم .

والقول في انتظام جملة ﴿ فقالوا أبشراً ﴾ الخ بعد جملة ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾ كالقول في جملة ﴿ فكذبوا عبدنا ﴾ [القمر : 9] بعد جملة ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ [القمر : 9] .

وهذا قول قالوه لرسولهم لما أنذرهم بالنذر لأن قوله : ﴿ كذبت ﴾ يؤذن بمخبر إذ التكذيب يقتضي وجود مخبر .

وهو كلام شافهوا به صالحاً وهو الذي عنوه بقولهم : ﴿ أبشراً منَّا ﴾ إلخ .

وعدلوا عن الخطاب إلى الغيبة .

وانتصب ﴿ أبشراً ﴾ على المفعولية ل ﴿ نتبعه ﴾ على طريقة الاشتغال ، وقدم لاتصاله بهمزة الاستفهام لأن حقها التصدير واتصلت به دونَ أن تدخل على نتبع لأن محل الاستفهام الإنكاري هو كون البشر متبوعاً لا اتباعهم له ومثله ﴿ أبشر يهدوننا ﴾ [التغابن : 6] وهذا من دقائق مواقع أدوات الاستفهام كما بين في علم المعاني .

والاستفهام هنا إنكاري ، أنكروا أن يرسل الله إلى الناس بَشراً مثلهم ، أي لو شاء الله لأرسل ملائكة .

ووصف ﴿ بشراً ﴾ بـ ﴿ واحداً ﴾ : إما بمعنى أنه منفرد في دعوته لا أتباع له ولا نصراء ، أي ليس ممن يخشى ، أي بعكس قول أهل مدين

﴿ ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ﴾ [هود : 91] .

وإما بمعنى أنه من جملة آحاد الناس ، أي ليس من أفضلنا .

وإما بمعنى أنه منفرد في ادعاء الرسالة لا سلف له فيها كقول أبي مِحْجن الثقفي:

قد كنت أغنى الناس شخصاً واحداً . . .

سَكن المدينة من مزارع قُوم

يريد : لا يناظرني في ذلك أحد .

وجملة ﴿ إنا إذا لفي ضلال وسعر ﴾ تعليل لإنكار أن يتبعوا بشراً منهم تقديره : أنتّبعك وأنت بشر واحد منا .

و (إذن) حرف جواب هي رابطة الجملة بالتي قبلها .

والضلال : عدم الاهتداء إلى الطريق ، أرادوا : إنا إذن مخطئون في أمرنا .

و ﴿ السُعُر ﴾ : الجُنون ، يقال بضم العين وسكونها .

وفسر ابن عباس السُعُر بالعذاب على أنه جمع سَعير .

وجملة ﴿ ألقى الذكر عليه من بيننا ﴾ تعليل للاستفهام الإِنكاري .

و ﴿ ألقى ﴾ حقيقته : رُميَ من اليد إلى الأرض وهو هنا مستعار لإِنزال الذكر من السماء قال تعالى : ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ [المزمل : 5] .

و(في) للظرفية المجازية ، جعلوا تلبسهم بالضلال والجنون كتلبس المظروف بالظرف .

و ﴿ من بيننا ﴾ حال من ضمير ﴿ عليه ﴾ ، أي كيف يُلقى عليه الذكر دوننا ، يريدون أن فيهم من هو أحق منه بأن يوحى إليه حسب مدارك عقول الجهلة الذين يقيسون الأمور بمقاييس قصور أفهامهم ويحسبون أن أسباب الأثرة في العادات هي أسبابها في الحقائق .

وحرف ﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ من بيننا ﴾ بمعنى الفصل كما سماه ابن مالك وإن أباه ابن هشام أي مفصولاً من بيننا كقوله تعالى : ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ [البقرة :

220] .

و﴿ بل هو كذاب أشر ﴾ إضراب عن ما أنكروه بقولهم : ﴿ أألقى الذكر عليه من بيننا ﴾ أي لم ينزل الذكر عليه من بيننا بل هو كذّاب فيما ادعاه ، بَطر متكبر .

و(الأشر) بكسر الشين وتخفيف الراء : اسم فاعل أَشِر ، إذا فرح وبَطَر ، والمعنى : هو معجَب بنفسه مُدَّعٍ ما ليس فيه .

سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (26)

(469/736)

مقول قول محذوف دل عليه السياق تقديره : قلنا لنذيرهم الذي دل عليه قوله : ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾ [القمر : 23] فإن النذر تقتضي نذيراً بها وهو المناسب لقوله بعده ﴿ فارتقبهم واصطبر ﴾ [القمر : 27] وذلك مبني على أن قوله آنفاً : ﴿ فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه ﴾ [القمر : 25] كلام أجابوا به نِذارة صالح إيّاهم المقدرة من قوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾ [القمر : 23] ، وبذلك انتظم الكلام أتم انتظام .

وقرأ الجمهور ﴿ سيعلمون ﴾ بياء الغيبة .

وقرأ ابن عامر وحمزة ﴿ ستعلمون ﴾ بتاء الخطاب وهي تحتمل أن يكون هذا حكاية

كلام من الله لصالح على تقدير : قلنا له : قل لهم ، ففيه حذف قول .

ويحتمل أن يكون خطاباً من الله لهم بتقدير : قلنا لهم ستعلمون .

ويحتمل أن يكون خطاباً للمشركين على جعل الجملة معترضة .

والمراد من قوله : ﴿ غداً ﴾ الزمن المستقبل القريب كقولهم في المثل : إن مع اليوم غداً ، أي إن مع الزمن الحاضر زمناً مستقبلاً .

يقال في تسلية النفس من ظلم ظالم ونحوه ، وقال الطِرِمَّاح:

وقبْلَ غدٍ يَا ويحَ قلبيَ من غد . . .

إذا راح أصحابي ولستُ برائح

يريد يوم موته .

والمراد به في الآية يوم نزول عذابهم المستقرب .

وتبيينه في قوله : ﴿ إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم ﴾ [القمر : 27] الخ ، أي حين يرون المعجزة وتلوح لهم بوارق العذاب يعلمون أنهم الكذّابون الأشرون لا صالح .

وعلى الوجه الثاني في ضمير ﴿ سيعلمون ﴾ يكون الغد مراداً به : يوم انتصار المسلمين في بدر ويوم فتح مكة ، أي سيعلمون من الكذاب المماثل للكذاب في قصة ثمود .

إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27)

هذه الجملة بيان لجملة ﴿ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ [القمر : 26] باعتبار

ما تضمنته الجملة المبيَّنة بفتح الياء من الوعيد وتقريب زمانه وإن فيه تصديق الرسول الذي كذبوه .

(470/736)

وضمير ﴿ لهم ﴾ جار على مقتضى الظاهر على قراءة الجمهور ﴿ سيعلمون ﴾ بياء الغائبة ، وإما على قراءة ابن عامر وحمزة ﴿ ستعلمون ﴾ بتاء الخطاب فضمير ﴿ لهم ﴾ التفات .

وإرسال الناقة إشارة إلى قصة معجزة صالح أنه أخرج لهم ناقة من صخرة وكانت تلك المعجزة مقدِّمة الأسباب التي عُجل لهم العذاب لأجلها ، فذكر هذه القصة في جملة البيان توطئة وتمهيد .

والإِرسال مستعار لجعلها آية لصالح .

وقد عُرف خَلْق خوارق العادات لتأييد الرسل باسم الإِرسال في القرآن كما قال تعالى : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ [الإسراء : 59] فشبهت الناقة بشاهد أرسله الله لتأييد رسوله .

وهذا مؤذن بأن في هذه الناقة معجزةً وقد سماها الله آية في قوله حكاية عنهم وعن صالح

﴿ فأت بآية إن كنت من الصادقين قال هذه ناقة ﴾ [الشعراء : 154 ، 155] الخ .

و﴿ فتنة لهم ﴾ حال مقدر ، أي تفتنهم فتنة هي مكابرتهم في دلالتها على صدق رسولهم ، وتقدير معنى الكلام : إنا مرسلو الناقة آية لك وفتنة لهم .

وضمير ﴿ لهم ﴾ عائد إلى المكذبين منهم بقرينة إسناد التكذيب كما تقدم .

واسم الفاعل من قوله : ﴿ مرسلوا الناقة ﴾ مستعمل في الاستقبال مجازاً بقرينة قوله : ﴿ فارتقبهم واصطبر ﴾ ، فعدل عن أن يقال : سنرسل ، إلى صيغة اسم الفاعل الحقيقة في الحال لتقريب زمن الاستقبال من زمن الحال .

والارتقاب : الانتظار ، ارتقب مثل : رقب ، وهو أبلغ دلالة من رقب ، لزيادة المبنى فيه .

وعدي الارتقاب إلى ضميرهم على تقدير مضاف يقتضيه الكلام لأنه لا يرتقب ذواتهم وإنما يرتقب أحوالاً تحصل لهم .

وهذه طريقة إسناد أو تعليقِ المشتقات التي معانيها لا تسند إلى الذوات فتكون على تقدير مضاف اختصاراً في الكلام اعتماداً على ظهور المعنى .

وذلك مثل إضافة التحريم والتحليل إلى الذوات في قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ [المائدة : 3] .

والمعنى : فارتقب ما يحصل لهم من الفتنة عند ظهور الناقة .

والاصطبار : الصبر القوي ، وهو كالارتقاب أيضاً أقوى دلالة من الصبر ، أي اصبر صبراً لا يعتريه ملل ولا ضجر ، أي اصبر على تكذيبهم ولا تأيس من النصر عليهم ، وحذف متعلق ﴿ اصطبر ﴾ ليعم كل حال تستدعي الضجر .

والتقديرُ : واصطبر على أذاهم وعلى ما تجده في نفسك من انتظار النصر .

وجملة ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم ﴾ معطوفة على جملة ﴿ إنا مرسلوا الناقة ﴾ باعتبار أن الوعد بخلق آية الناقة يقتضي كلاماً محذوفاً ، تقديره : فأرسلنا لهم الناقة وقلنا نبئهم أن الماء قسمة بينهم على طريقة العطف والحذف في قوله : ﴿ فأوحينا إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر فانفلق ﴾ [الشعراء : 63] ، وإن كان حرف العطف مختلفاً ، ومثل هذا الحذف كثير في إيجاز القرآن .

والتعريف في ﴿ الماء ﴾ للعهد ، أي ماء القرية الذي يستقون منه ، فإن لكل محلة ينزلها قوم ماءً لسقياهم وقال تعالى : ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ [القصص : 23] .

وأخبر عن الماء بأنه ﴿ قسمة ﴾ .

والمراد مقسوم فهو من الإِخبار بالمصدر للتأكيد والمبالغة .

وضمير ﴿ بينهم ﴾ عائد إلى معلوم من المقام بعد ذكر الماء إذ من المتعارف أن الماء يستقي منه أهل القرية لأنفسهم وماشيتهم ، ولما ذكرت الناقة عُلم أنها لا تستغني عن

الشرب فغلّب ضمير العقلاء على ضمير الناقة الواحدة وإذ لم يكن للناقة مالك خاص أمر الله لها بنوبة في الماء .

وقد جاء في آية سورة الشعراء (155) ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ وهذا مبدأ الفتنة ، فقد روي أن الناقة كانت في يوم شربها تشرب ماء البئر كله فشحّوا بذلك وأضمروا حَلْدَها عن الماء فأبلغهم صالح إن الله ينهاهم عن أن يمسوها بسوء .

والمُحْتضر بفتح الضاد اسم مفعول من الحضور وهو ضد الغيبة .

والمعنى : محتضر عنده فحذف المتعلقِ لظهوره .

وهذا من جملة ما أُمر رسولهم بأن ينبئهم به ، أي لا يحضُر القوم في يوم شِرب الناقة ، وهي بإلهامِ الله لا تحضر في أيام شرب القوم .

(472/736)

والشِّرب بكسر الشين : نوبة الاستقاء من الماء .

فنادَوا صاحبهم الذي أغروه بقتلها وهو قُدار بضم القاف وتخفيف الدال بنُ سالف .

ويعرف عند العرب بأحمر ، قال زهير:

فَتُنْتِجْ لكم غلمانَ أشأَمَ كلَّهم . . .

كأحمرِ عَاد ثم تُرضع فَتَفْطِم

يريد أحمر ثمود لأن ثموداً إخوة عاد (ولم أقف على سبب وصفه بأحمر وأحسب أنه لبياض وجهه) .

وفي الحديث بُعثت إلى الأحمر والأسود ، وكان قُدار من سَادتهم وأهل العزة منهم ، وشبههُ النبي بأبي زمعة يعني الأسودَ بن المطلب بن أسد في قوله : فانتدب لها رجل ذو منعة في قومه كأبي زمعة (أي فأجاب نداءهم فَرماها بنبل فقتلها) .

وعبر عنه بصاحبهم للإِشارة إلى أنهم راضون بفعله إذ هم مصاحبون له وممالئون .

ونداؤهم إياه نداء الإِغراء بالناقة وإنما نادوه لأنه مشتهر بالإِقدام وقلة المبالاة لعزته .

وتعاطى ﴿ مطاوع عاطاه وهو مشتق من : عطَا يعطو ، إذا تناول .

وصيغة تفاعل تقتضي تعدد الفاعل ، شبه تخوف القوم من قتلها لما أنذرهم به رسولهم من الوعيد وتردُّدُهم في الإِقدام على قتلها بالمعاطاة فكل واحد حين يُحجم عن مباشرة ذلك ويشير بغيره كأنه يعطي ما بيده إلى يد غيره حتى أخذه قُدار .

وعطف ﴿ فعقر ﴾ بالفاء للدلالة على سرعة إتيانه ما دعوه لأجله .

والعقر : أصله ضرب البعير بالسيف على عراقيبه ليسقط إلى الأرض جاثياً فيتمكن الناحر من نَحره .

قال أبو طالب:

ضروبٌ بنصل السيف سُوق سمانها . . .

إذا عدموا زادا فإنك عاقر

وغلب إطلاقه على قتل البعير كما هنا إذ ليس المراد أنه عَقَرها بل قتلها بنبله .

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (30)

القول فيه كالقول في نظيره الواقع في قصة قوم نوح فليس هو تكريراً ولكنه خاص بهذه القصة .

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31)

(473/736)

جواب قوله : ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ [القمر : 30] فهو مثل موقع قوله : ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ [القمر : 19] في قصة عاد كما تقدم .

والصيحة : الصاعقة وهي المعبر عنها بالطاغية في سورة الحاقة ، وفي سورة الأعراف بالرجفة ، وهي صاعقة عظيمة خارقة للعادة أهلكتهم ، ولذلك وصفت بـ ﴿ واحدة ﴾ للدلالة على أنها خارقة للعادة إذ أتت على قبيلة كاملة وهم أصحاب الحِجْر .

و﴿ كانوا ﴾ بمعنى : صاروا ، وتجيء (كان) بمعنى (صار) حين يراد بها كون متجدد لم

يكن من قبل .

والهشيم : ما يَبِسَ وجفّ من الكلأ ومن الشجر ، وهو مشتق من الهشْم وهو الكَسْر لأن اليابس من ذلك يصير سريع الانكسار .

والمراد هنا شيء خاص منه وهو ما جفّ من أغصَان العضاة والشوك وعظيم الكلأ كانوا يتخذون منه حظائر لحفظ أغنامهم من الريح والعادية ولذلك أضيف الهشيم إلى المُحتظِر .

وهو بكسر الظاء المعجمة : الذي يَعمل الحَظيرة ويَبْنيهَا ، وذلك بأنه يجمع الهشيم ويلقيه على الأرض ليرصفه بعد ذلك سياجاً لحظيرته فالمشبه به هو الهشيم المجموع في الأرض قبل أن يُسيّج ولذلك قال : ﴿ كهشيم المحتظر ﴾ ولم يقل : كهشيم الحظيرة ، لأن المقصود بالتشبيه حالته قبل أن يرصف ويصفف وقبل أن تتخذ منه الحظيرة .

والمحتظر : مفتعل من الحظيرة ، أي متكلف عمل الحظيرة .

والقول في تعدية ﴿ أرسلنا ﴾ إلى ضمير ﴿ ثمود ﴾ [القمر : 23] كالقول في ﴿ أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ [القمر : 19] .

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (32)

تكرير ثان بعد نظيريه السالفين في قصة قوم نوح وقصة عاد تذييلاً لهذه القصة كما ذيلت بنظيريه القصتان السالفتان اقتضى التكرير مقام الامتنان والحث على التدبر بالقرآن لأن

التدبر فيه يأتي بتجنب الضلال ويرشد إلى مسالك الاهتداء فهذا أهم من تكرير ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ [القمر : 30] فلذلك أوثر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(474/736)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾

يدل على أن عاقر الناقة واحد وقد جاءت آيات أُخر تدل على كونه غير واحد كقوله فعقروا الناقة الآية .

وقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ .

والجواب من وجهين:

الأول _ أنهم تمالئوا كلهم على عقرها فانبعث أشقاهم لمباشرة الفعل فأسند العقر إليهم لأنه رضاهم ومما لأتهم .

الوجه الثاني _ هو ما قدمنا في سورة الأنفال من إسناد الفعل إلى المجموع مرادا به بعضه

وذكرنا في الأنفال نظائره في القرآن العظيم والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 280 ﴾

(475/736)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والثلاثون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/737)

الجزء السابع والثلاثون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 33 ﴾ من (سورة القمر)

وحتى الآية ﴿ 55 ﴾ آخر السورة

(4/737)

قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (34) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (36) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (37) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (38) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (39) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان النذير : كأنه قال المنذرين لم يتعظوا به فزاد في وعظهم ، وكانت قصة لوط عليه السلام مع قومه أعظم ما كان بعد ثمود مما تعرفه العرب بالأخبار ورؤية الآثار ، ومع ما في قصتهم من تصوير الساعة من تبديل الأرض غير الأرض ، استأنف قوله : ﴿ كذبت قوم لوط ﴾ أي وهم في قوة عظيمة على ما يحاولونه وإن كانوا في تكذيبهم هذا في ضعف وقوع النساء عن التجرد مما دل عليه تأنيث الفعل بالتاء وكذا ما قبلها من القصص ﴿ بالنذر ﴾ أي الإنذار والإنذارات والمنذرين ، ودل على تناهي القباحة في مرتكبهم بتقديم الإخبار عن عذابهم فقال : ﴿ إنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ أرسلنا ﴾ ودل على أنه إرسال إهانة بقوله : ﴿ عليهم ﴾ ودل على هوانهم وبلوغ أمره كل ما يراد به بقوله : ﴿ حاصباً ﴾ أي ريحاً ترمي بحجارة هي دون ملء فكانت مهلكة لهم محرقة خاسفة مفرقة ﴿ إلا آل لوط ﴾ وهم من آمن به وكان بحيث إذا رأيته فكأنك رأيت لوطاً عليه السلام لما يلوح عليه من أفعاله والمشي على منواله في أقواله وأحواله وأفعاله .

(5/737)

ولما كان استثناؤهم مفهماً إنجاءهم مع التجويز لإرسال شيء عليهم غير مقيد بما ذكر ، قال مستأنفاً جواباً لمن كأنه قال : ما حالهم : ﴿ نجيناهم ﴾ أي تنجية عظيمة بالتدريج ،

وذكر أول الشروع لإنجاءهم فقال : ﴿ بسحر ﴾ أي بآخر ليلة من الليالي وهي التي عذب فيها قومه ، فكأنه تنكيره لأنا لا نعرف تلك الليلة بعينها ، ولو قصدت سحر الليلة التي صبحت منها كان معرفة لا ينصرف ، والسحر : السدس الأخير من الليل : الوقت الذي يكون فيه الإنسان لا سيما النساء والأطفال في غاية الغفلة بالاستغراق في النوم ، ويفتح الله فيها أبواب السماء باذن الدعاء ليحصل منه الإجابة لأن الملوك إذا فتحوا أبوابهم كان ذلك إذناً للناس في الدخول لقضاء الحوائج ، فالنزول وفتح الأبواب كناية عن ذلك – والله سبحانه وتعالى متعال عن حاجة إلى نزول أو فتح باب أو غير ذلك .

ولما كان المراد من الموعظين الطاعة التي هي سبب النجاة ، فلذا قال ذاكراً للإنعام معبراً عنه بغاية المقصود منه معرفاً أن انتقامه عدل ومعافاته فضل ، لأن أحداً لا يقدر أن يكافئ نعمه ولا نعمة منها ، معللاً للنجاة : ﴿ نعمة من عندنا ﴾ أي عظيمة غريبة جداً لشكرهم ، ولما كان كأنه قيل : هل هذا مختص بهم .

الإنجاء من بين الظالمين وهو مختص بهم ، أجاب بقوله : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا الإنجاء العظيم الذي جعلنا جزاء لهم ﴿ نجزي ﴾ بقدرتنا وعظمتنا ﴿ من شكر ﴾ أي أوقع الشكر بجميع أنواعه فآمن وأطاع ليس .

بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كائناً من كان من سوقة أو سلطان جائر شجاع أو جبان ، فاننا عليه بالإنجاء بعد هلاك عدوه ، قال القشيري : والشكر على نعم الدفع أتم من

الشكر على نعم النفع ، ولا يعرف ذلك إلا كل موفق كيس فالآية من الاحتباك : ذكر الإنعام أولاً - لأنه السبب الحقيقي - دليلاً على حذفه ثانياً ، والشكر ثانياً - لأنه السبب الظاهر - دليلاً على حذفه أولاً .

ولما كان التقدير دفعاً لعناد .

(6/737)

استشراف السامع إلى ما كان من حاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معهم قبل العذاب : لقد بالغ في شكرنا بوعظهم ونصحهم ودعائهم إلينا صرفاً لما أنعمنا به عليه من الرسالة في أتم مواضعه ، عطف عليه إيماء إليه قوله ، مؤكداً لأن تمادي المحذور من العذاب على الإقامة في موجبه يكاد أن لا يصدق : ﴿ ولقد أنذرهم ﴾ أي رسولنا لوط عليه السلام ﴿ بطشتنا ﴾ أي أخذتنا لهم المقرونة بشدة ما لنا من العظمة ، ووحد إشارة إلى أنه لا يستهان بشيء من عذابه سبحانه بل الأخذة الواحدة كافية لما لنا من العظمة فهي غير محتاجة إلى التثنية ، ودل على أن إنذاره كان جديراً بالقبول لكونه واضح الحقيقة بما سبب عن ذلك من قوله : ﴿ فتماروا ﴾ أي تكلفوا الشك الواهي ﴿ بالنذر ﴾ أي الإنذار مصدراً والإنذارات أو المنذرين حتى أداهم إلى التكذيب ، فكان سبباً للأخذ .

ولما كان ترك الاحتياط في إعمال الحيلة في وجه الخلاص من إنذار النذير عظيم العرافة في السفه دل على أنهم تجاوزوا ذلك إلى انتهاك حرمة النذير ، فقال مقسماً لأن مثل ذلك لا يكاد يقع فلا يصدق من حكاه : ﴿ ولقد راودوه ﴾ أي زادوا في التكذيب الموجب للتعذيب أن عالجوا معالجة طويلة تحتاج إلى فتل ودوران ﴿ عن ضيفه ﴾ ليسلمهم إليهم وهم ملائكة في هيئة شباب مرد ، وأفردوا وإن كان المراد الجنس استعظاماً لذلك لو كان الضيف واحداً ﴿ فطمسنا ﴾ أي فتسبب عن مراودتهم أن طمسنا بعظمتنا ﴿ أعينهم ﴾ فسويناها مع سائر الوجوه فصارت بحيث لا يرى لها شق ، قال البغوي : هذا قول أكثر المفسرين ، وذلك بصفقة صفقها لهم جبريل عليه الصلاة والسلام ، وقال القشيري : مسح بجناحيه على وجوههم فعموا ولم يهتدوا للخروج ، وقال ابن جرير : والعرب تقول : طمست الريح الأعلام - إذا دفنتها بما يسفي عليها من التراب .

(7/737)

فانطلقوا هراباً مسرعين إلى الباب لا يهتدون إليه ولا يقعون عليه بل يصادمون الجدران خوفاً مما هو أعظم من ذلك وهم يقولون : عند لوط أسحر الناس ، وما أدتهم عقولهم أن يؤمنوا فينجوا أنفسهم مما حل بهم ، قال القشيري : وكذلك أجرى الله سبحانه سنته في

أوليائه بأن يطمس على قلوب أعدائهم حتى يلتبس عليهم كيف يؤذون أولياءه ويخلصهم من كيدهم .

ولما كان أول عذابهم قال : ﴿ فذوقوا ﴾ أي فتسبب عن ذلك أن قال قائل عن الله بلسان القال أو الحال : أيها المكذبون ذوقوا بسبب تكذيبكم لرسلي في إنذارهم ﴿ عذابي ونذر ﴾ أي وعاقبة إنذاري على ألسنة رسلي .

ولما كان بقاؤهم بعد هذا على حال كفرهم عجباً إذ العادة قاضية بأن من أخذ ارعوى ولو كان أفجر الخلق ، وسأل العفو عنه صدقاً أو كذباً خداعاً ومكراً ليخلص مما هو فيه .

بثباتهم على تكذيبهم حتى عذبوا على قرب العهد فقال مقسماً : ﴿ ولقد صبحهم ﴾ أي أتاهم في وقت الصباح ، وحقق المعنى بقوله : ﴿ بكرة ﴾ أي في أول النهار العذاب ، ولو كان أول نهارك الذي أنت به كان معرفة فامتنع .

﴿ عذاب ﴾ أي قلع بلادهم ورفعها ثم قلبها ، وحصبها بحجارة من نار وخسفها وغمرها بالماء المنتن الذي لا يعيش به حيوان ﴿ مستقر ﴾ أي ثابت عليهم غير مزايل بخيال ولا سحر كما قالوا عند الطمس فإنه أهلكهم فاتصل بعذاب البرزخ المتصل بعذاب القيامة المتصل بالعذاب الأكبر في الطبقة التي تناسب أعمالهم من عذاب النار فقال لهم لسان الحال إن لم ينطلق لسان القال : ﴿ فذوقوا ﴾ بسبب أعمالكم ﴿ عذابي ونذر ﴾ .

ولما كرر هذا التكرير ، علم منه أن سبب العذاب التكذيب بالإنذار لأي رسول كان ، وكان استئناف كل قصة منبهاً على أنها أهل على حدتها لأن يتعظ بها ، علم أن التقدير : فلقد بلغت هذه المواعظ النهاية لمن كان له قلب ، فعطف عليه قوله مذكراً بالنعمة التي لا عدل لها : ﴿ ولقد يسرنا ﴾ أي تعالى جدنا وتناهى مجدنا ﴿ القرآن ﴾ الجامع الفارق ﴿ للذكر ﴾ ولو شئنا لأعليناه بما لنا من العظمة إلى الحد حتى تعجز القوي عن فهمه ، كما أعليناه إلى رتبة وقفت القوى عن معارضته في نظمه ، أو مطلع لا يتشبث بأذيال أدنى علمه ، إلا الأفراد من حذاق العباد ، فكيف بما فوق ذلك .

ولما كانوا مع ذلك واقفين عن المبادرة إليه والإقبال عليه ، قال تلطفاً بهم وتعطفاً عليهم مسبباً عن ذلك : ﴿ فهل ﴾ وأكد فقال : ﴿ من مدكر ﴾ مفتك لنفسه من مثل هذا الذي أوقع فيه هؤلاء أنفسهم ظناً منهم أن الأمر لا يصل إلى ما وصل إليه جهلاً منهم وعدم اكتراث بالعواقب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 361.364 ﴾

(9/737)

فصل

قال الفخر :

ثم بين حال قوم آخرون وهم قوم لوط فقال :

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33)

ثم بين عذابهم وإهلاكهم ، فقال :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلآ ءَالَ لُوطٍ نجيناهم بِسَحَرٍ ﴾ .

وفيه مسائل :

الأولى : الحاصب فاعل من حصب إذا رمى الحصباء وهي اسم الحجارة والمرسل عليهم هو نفس الحجارة قال الله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر : 74] وقال تعالى عن الملائكة : ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن طِينٍ ﴾ [الذاريات : 33] فالمرسل عليهم ليس بحاصب فكيف الجواب عنه ؟ نقول : الجواب من وجوه الأول : أرسلنا عليهم ريحاً حاصباً بالحجارة التي هي الحصباء وكثر استعمال الحاصب في الريح الشديدة فأقام الصفة مقام الموصوف ، فإن قيل : هذا ضعيف من حيث اللفظ والمعنى ، أما اللفظ فلأن الريح مؤنثة قال تعالى : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 6] ، ﴿ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [يونس : 22] وقال تعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الريح تَجْرِى بِأَمْرِهِ ﴾ [ص : 36] وقال تعالى : ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ : 12] وقال تعالى في : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح

لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر : 22] وما قال لقاحاً ولا لقحة ، وأما المعنى فلأن الله تعالى بين أنه أرسل عليهم حجارة من سجيل مسومة عليها علامة كل واحد وهي لا تسمى حصباء ، وكان ذلك بأيدي الملائكة لا بالريح ، نقول : تأنيث الريح ليس حقيقة ولها أصناف الغالب فيها التذكير كالإعصار ، قال تعالى : ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ ﴾ [البقرة : 266] فلما كان حاصب حجارة كان كالذي فيه نار ، وأما قوله : كان الرمي بالسجيل لا بالحصباء ، وبأيدي الملائكة لا بالريح ، فنقول : كل ريح يرمي بحجارة يسمى حاصباً ، وكيف لا والسحاب الذي يأتي بالبرد يسمى حاصباً تشبيهاً للبرد بالحصباء ، فكيف لا يقال في السجيل .

(10/737)

وأما الملائكة فإنهم حركوا الريح وهي حصبت الحجارة عليهم الجواب الثاني : المراد عذاب حاصب وهذا أقرب لتناوله الملك والحساب والريح وكل ما يفرض الجواب الثالث : قوله : ﴿ حاصبا ﴾ هو أقرب من الكل لأن قوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا ﴾ يدل على مرسل هو مرسل الحجارة وحاصبها ، فإن قيل : كان ينبغي أن يقول حاصبين ، نقول لما لم يذكر الموصوف رجح جانب اللفظ كأنه قال شيئاً حاصباً إذ المقصود بيان جنس العذاب لا

بيان من على يده العذاب ، وهذا وارد على من قال : الريح مؤنث لأن ترك التأنيث هناك كترك علامة الجمع هنا .

المسألة الثانية :

ما رتب الإرسال على التكذيب بالفاء فلم يقل : كذبت قوم لوط بالنذر فأرسلنا كما قال : ﴿ فَفَتَحْنَا أبواب السماء ﴾ [القمر : 11] لأن الحكاية مسوقة على مساق ما تقدم من الحكايات ، فكأنه قال : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ [القمر : 30] كما قال من قبل ثم قيل : لا علم لنا به وإنما أنت العليم فأخبرنا ، فقال : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا ﴾ .

المسألة الثالثة :

ما الحكمة في ترك العذاب حيث لم يقل : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى ﴾ كما قال في الحكايات الثلاث ، نقول : لأن التكرار ثلاث مرات بالغ ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : " ألا هل بلغت ثلاثاً "

(11/737)

وقال صلى الله عليه وسلم : " فنكاحها باطل باطل باطل " والإذكار تكرر ثلاث مرات فبثلاث مرار حصل التأكيد وقد بينا أنه تعالى ذكر : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى ﴾ في حكاية

نوح للتعظيم وفي حكاية ثمود للبيان وفي حكاية عاد أعادها مرتين للتعظيم والبيان جميعاً واعلم أنه تعالى ذكر : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى ﴾ في ثلاث حكايات أربع مرات فالمرة الواحدة للإنذار ، والمرات الثلاث للإذكار ، لأن المقصود حصل بالمرة الواحدة ، وقوله تعالى : ﴿ فَبِأَىّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ [الرحمن : 13] ذكره مرة للبيان وأعادها ثلاثين مرة غير المرة الأولى كما أعاد : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ ثلاث مرات غير المرة الأولى فكان ذكر الآلاء عشرة أمثال ذكر العذاب إشارة إلى الرحمة التي قال في بيانها ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بالسيئة فَلاَ يَجْزِى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام : 160] وسنبين ذلك في سورة : الرحمن .

المسألة الرابعة :

(12/737)

﴿ إِلا ءالَ لُوطٍ ﴾ استثناء مماذا ؟ إن كان من الذين قال فيهم : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حاصبا ﴾ فالضمير في عليهم عائد إلى قوم لوط وهم الذين قال فيهم : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ﴾ ثم قال : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ لكن لم يستثن عند قوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ﴾ وآله من قومه فيكون آله قد كذبوا ولم يكن كذلك ؟ الجواب عنه من وجهين أحدهما : أن

الاستثناء ممن عاد إليهم الضمير في عليهم وهم القوم بأسرهم غير أن قوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ﴾ لا يوجب كون آله مكذبين ، لأن قول القائل : عصى أهل بلدة كذا يصح وإن كان فيها شرذمة قليلة يطيعون فكيف إذا كان فيهم واحد أو اثنان من المطيعين لا غير ، فإن قيل : ماله حاجة إلى الاستثناء لأن قوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ يصح وإن نجا منهم طائفة يسيرة نقول : الفائدة لما كانت لا تحصل إلا ببيان إهلاك من كذب وإنجاء من آمن فكان ذكر الإنجاء مقصوداً ، وحيث يكون القليل من الجمع الكثير مقصوداً لا يجوز التعميم والإطلاق من غير بيان حال ذلك المقصود بالاستثناء أو بكلام منفصل مثاله : ﴿ فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ [الحجر : 30 ، 31] استثنى الواحد لأنه كان مقصوداً ، وقال تعالى : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النمل : 23] ولم يستثن إذ المقصود بيان أنها أوتيت ، لا بيان أنها ما أوتيت ، وفي حكاية إبليس كلاهما مراد ليعلم أن من تكبر على آدم عوقب ومن تواضع أثيب كذلك القول ههنا ، وأما عند التكذيب فكأن المقصود ذكر المكذبين فلم يستثن الجواب الثاني : أن الاستثناء من كلام مدلول عليه ، كأنه قال : إنا أرسلنا عليهم حاصباً فما أنجينا من الحاصب إلا آل لوط ، وجاز أن يكون الإرسال عليهم والإهلاك يكون عاماً كما في قوله تعالى : ﴿ واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال : 25] فكان الحاصب أهلك من كان

الإرسال عليه مقصوداً ومن لم يكن كذلك كأطفالهم ودوابهم ومساكنهم فما نجا منهم أحد إلا آل لوط.

فإن قيل إذا لم يكن الاستثناء من قوم لوط بل كان من أمر عام فيجب أن يكون لوط أيضاً مستثنى ؟ نقول : هو مستثنى عقلاً لأن من المعلوم أنه لا يجوز تركه وإنجاء أتباعه والذي يدل عليه أنه مستثنى قوله تعالى عن الملائكة : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته ﴾ [العنكبوت : 32] في جوابهم لإبراهيم عليه السلام حيث قال : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطاً ﴾ [العنكبوت : 32] فإن قيل قوله في سورة الحجر : ﴿ إِلا ءالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ [الحجر : 59] استثناء من المجرمين وآل لوط لم يكونوا مجرمين فكيف استثنى منهم ؟ والجواب مثل ما ذكرنا فأحد الجوابين إنا أرسلنا إلى قوم يصدق عليهم إنهم مجرمون وإن كان فيهم من لم يجرم ثانيهما : إلى قوم مجرمين بإهلاك يعم الكل إلا آل لوط ، وقوله تعالى : ﴿ نجيناهم بِسَحَرٍ ﴾ كلام مستأنف لبيان وقت الإنجاء أو لبيان كيفية الاستثناء لأن آل لوط كان يمكن أن يكونوا فيهم ولا يصيبهم الحاصب كما في عاد كانت الريح تقلع الكافر ولا يصيب المؤمن منها مكروه أو يجعل لهم مدفعاً كما في قوم نوح ، فقال :

﴿ نجيناهم بِسَحَرٍ ﴾ أي أمرناهم بالخروج من القرية في آخر الليل والسحر قبيل الصبح

وقيل هو السدس الأخير من الليل .

نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35)

(14/737)

أي ذلك الإنجاء كان فضلاً منا كما أن ذلك الإهلاك كان عدلاً ولو أهلكوا لكان ذلك عدلاً ، قال تعالى : ﴿ واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال : 25] قال الحكماء العضو الفاسد يقطع ولا بد أن يقطع معه جزء من الصحيح ليحصل استئصال الفساد ، غير أن الله تعالى قادر على التمييز التام فهو مختار إن شاء أهلك من آمن وكذب ، ثم يثبت الذين أهلكهم من المصدقين في دار الجزاء وإن شاء أهلك من كذب ، فقال : نعمة من عندنا إشارة إلى ذلك وفي نصبها وجهان أحدهما : أنه مفعول له كأنه قال : نجيناهم نعمة منا ثانيهما : على أنه مصدر ، لأن الإنجاء منه إنعام فكأنه تعالى قال : أنعمنا عليهم بالإنجاء إنعاماً وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾ فيه وجهان أحدهما : ظاهر وعليه أكثر المفسرين وهو أنه من آمن كذلك ننجيه من عذاب الدنيا ولا نهلكه وعداً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنين بأنه يصونهم عن الإهلاكات العامة والسيئات المطبقة الشاملة وثانيهما : وهو الأصح أن ذلك وعد لهم وجزاؤهم بالثواب في دار الآخرة كأنه قال

: كما نجيناهم في الدنيا ، أي كما أنعمنا عليهم ننعم عليهم يوم الحساب والذي يؤيد هذا أن النجاة من الإهلاكات في الدنيا ليس بلازم ، ومن عذاب الله في الآخرة لازم بحكم الوعيد ، وكذلك ينجي الله الشاكرين من عذاب النار ويذر الظالمين فيه ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ مَّن يُرِدْ ثَوَابَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخرة نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشاكرين ﴾ [آل عمران : 145] وقوله تعالى : ﴿ فَأَثَابَهُمُ الله بِمَا قَالُواْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا وذلك جَزَاء المحسنين ﴾ [المائدة : 85] والشاكر محسن فعلم أن المراد جزاؤهم في الآخرة .

وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (36)

(15/737)

وفيه تبرئة لوط عليه السلام وبيان أنه أتى بما عليه فإنه تعالى لما رتب التعذيب على التكذيب وكان من الرحمة أن يؤخره ويقدم عليه الإنذارات البالغة بين ذلك فقال : أهلكناهم وكان قد أنذرهم من قبل ، وفي قوله : ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ وجهان أحدهما : المراد البطشة التي وقعت وكان يخوفهم بها ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حاصبا ﴾ [القمر : 34] فكأنه قال : إنا أرسلنا عليهم ما سبق ، ذكرها للإنذار بها

والتخويف وثانيهما : المراد بها ما في الآخرة كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ البطشة الكبرى ﴾ [الدخان : 16] وذلك لأن الرسل كلهم كانوا ينذرون قومهم بعذاب الآخرة كما قال تعالى : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تلظى ﴾ [الليل : 14] وقال : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأزفة ﴾ [غافر : 18] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أنذرناكم عَذَاباً قَرِيباً ﴾ [النبأ : 40] إلى غير ذلك ، وعلى ذلك ففيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : 12] وقال ههنا : ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ ولم يقل : بطشنا وذلك لأن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ بيان لجنس بطشه ، فإذا كان جنسه شديداً فكيف الكبرى منه ، وأما لوط عليه السلام فذكر لهم البطشة الكبرى لئلا يكون مقصراً في التبليغ ، وقوله تعالى : ﴿ فَتَمَارَوْاْ بالنذر ﴾ يدل على أن النذر هي الإنذارات .

وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (37)

(16/737)

والمراودة من الرود ، ومنه الإرادة وهي قريبة من المطالبة غير أن المطالبة تستعمل في العين يقال : طالب زيد عمراً بالدراهم ، والمراودة لا تستعمل إلا في العمل يقال : راوده عن المساعدة ، ولهذا تعدى المراودة إلى مفعول ثان بعن ، والمطالبة بالباء ، وذلك لأن الشغل

منوط باختيار الفاعل ، والعين قد توجد من غير اختيار منه وهذا فرق الحال ، فإذا قلت : أخبرني بأمره تعين عليه الخبر العين بخلاف ما إذا قيل عن كذا ، ويزيد هذا ظهوراً قول القائل : أخبرني زيد عن مجيء فلان ، وقوله : أخبرني بمجيئه فإن من قال عن مجيئه ربما يكون الإخبار عن كيفية المجيء لا عن نفسه وأخبرني بمجيئه لا يكون إلا عن نفس المجيء والضيف يقع على الواحد والجماعة ، وقد ذكرناه في سورة الذاريات وكيفية المراودة مذكورة فيما تقدم ، وهي أنهم كانوا مفسدين وسمعوا بضيف دخلوا على لوط فراودوه عنهم .

وقوله : ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ نقول : إن جبريل كان فيهم فضرب ببعض جناحه على وجوههم فأعماهم ، وفي الآية مسائل :

(17/737)

الأولى : الضمير في راودوه إن كان عائداً إلى قوم لوط فما في قوله : ﴿ أَعْيُنَهُمْ ﴾ أيضاً عائداً إليهم فيكون قد طمس أعين قوم ولم يطمس إلا أعين قليل منهم وهم الذين دخلوا دار لوط ، وإن كان عائداً إلى الذين دخلوا الدار فلا ذكر لهم فكيف القول فيه ؟ نقول : المراودة حقيقة حصلت من جمع منهم لكن لما كان الأمر من القوم وكان غيرهم ذلك مذهبه أسندها

إلى الكل ثم بقوله راودوه حصل قوم هم المراودون حقيقة فعاد الضمير في أعينهم إليهم مثاله قول القائل : الذين آمنوا صلوا فصحت صلاتهم فيكون هم في صلاتهم عائداً إلى الذين صلوا بعد ما آمنوا ولا يعود إلى مجرد الذين آمنوا لأنك لو اقتصرت على الذين آمنوا فصحت صلاتهم لم يكن كلاماً منظوماً ولو قلت الذين صلوا فصحت صلاتهم صح الكلام ، فعلم أن الضمير عائد إلى ما حصل بعد قوله : ﴿ رَاوَدُوهُ ﴾ والضمير في راودوه عائد إلى المنذرين المتمارين بالنذر .

المسألة الثانية :

(18/737)

قال ههنا : ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ وقال في ياس : ﴿ وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا على أَعْيُنِهِمْ ﴾ [ياس : 66] فما الفرق ؟ نقول : هذا مما يؤيد قول ابن عباس فإنه نقل عنه أنه قال : المراد من الطمس الحجب عن الإدراك فما جعل على بصرهم شيء غير أنهم دخلوا ولم يروا هناك شيئاً فكانوا كالمطموسين ، وفي ياس أراد أنه لو شاء لجعل على بصرهم غشاوة ، أي ألزق أحد الجفنين بالآخر فيكون على العين جلدة فيكون قد طمس عليها ، وقال غيره : إنهم عموا وصارت عينهم مع وجههم كالصفحة الواحدة ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ

عَذَابِى ﴾ لأنهم إن بقوا مصرين ولم يروا شيئاً هناك لا يكون ذلك عذاباً والطمس بالمعنى الذي قاله غير ابن عباس عذاب ، فنقول : الأولى أن يقال : إنه تعالى حكى ههنا ما وقع وهو طمس العين وإذهاب ضوئها وصورتها بالكلية حتى صارت وجوههم كالصفحة الملساء ولم يمكنهم الإنكار لأنه أمر وقع ، وأما هناك فقد خوفهم بالممكن المقدور عليه فاختار ما يصدقه كل أحد ويعرف به وهو الطمس على العين ، لأن إطباق الجفن على العين أمر كثير الوقوع وهو بقدرة الله تعالى وإرادته فقال :

﴿ وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا على أَعْيُنِهِمْ ﴾ [يس : 66] وما شققنا جفنهم عن عينهم وهو أمر ظاهر الإمكان كثير الوقوع والطمس على ما وقع لقوم لوط نادر ، فقال : هناك على أعينهم ليكون أقرب إلى القبول .

المسألة الثالثة :

(19/737)

قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ خطاب ممن وقع ومع من وقع ؟ قلنا : فيه وجوه أحدها : فيه إضمار تقديره فقلت : على لسان الملائكة ذوقوا عذابي ثانيها : هذا خطاب مع كل مكذب تقديره كنتم تكذبون فذوقوا عذابي فإنهم لما كذبوا ذاقوه ثالثها : أن

هذا الكلام خرج مخرج كلام الناس فإن الواحد من الملوك إذا أمر بضرب مجرم وهو شديد الغضب فإذا ضرب ضرباً مبرحاً وهو يصرح والملك يسمع صراخه يقول عند سماع صراخه ذق إنك مجرم مستأهل ويعلم الملك أن المعذب لا يسمع كلامه ويخاطب بكلامه المستغيث الصارخ وهذا كثير فكذلك لما كان كل أحد بمرأى من الله تعالى يسمع إذا عذب معانداً كان قد سخط الله عليه يقول : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] ﴿ فَذُوقُواْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هذا ﴾ [السجدة : 14] ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى ﴾ ولا يكون به مخاطباً لمن يسمع ويجيب ، وذلك إظهار العدل أي لست بغافل عن تعذيبك فتتخلص بالصراخ والضراعة ، وإنما أنا بك عالم وأنت له أهل لما قد صدر منك ، فإن قيل : هذا وقع بغير الفاء ، وأما بالفاء فلا تقول : وبالفاء فإنه ربما يقول : كنتم تكذبون فذوقوا .

المسألة الرابعة :

(20/737)

النذر كيف يذاق ؟ نقول : معناه ذق فعلك أي مجازاة فعلك وموجبه ويقال : ذق الألم على فعلك وقوله : ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى ﴾ كقولهم : ذق الألم ، وقوله : ﴿ وَنُذُرِ ﴾ كقولهم ذق فعلك أي ذق ما لزم من إنذاري ، فإن قيل : فعلى هذا لا يصح العطف لأن قوله : ﴿ فَذُوقُواْ

عَذَابِى ﴾ وما لزم من إنذاري وهو العذاب يكون كقول القائل : ذوقوا عذابي وعذابي ؟

نقول : قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى ﴾ أي العاجل منه ، وما لزم من إنذاري وهو العذاب الآجل ، لأن الإنذار كان به على ما تقدم بيانه ، فكأنه قال : ذوقوا عذابي العاجل وعذابي الآجل ، فإن قيل : هما لم يكونا في زمان واحد ، فكيف يقال : ذوقوا ، نقول : العذاب الآجل أوله متصل بآخر العذاب العاجل ، فهما كالواقع في زمان واحد وهو كقوله تعالى : ﴿ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ [نوح : 25] .

وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (38)

أي العذاب الذي عم القوم بعد الخاص الذي طمس أعين البعض ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(21/737)

﴿ صَبَّحَهُم ﴾ فيه دلالة على الصبح ، فما معنى : ﴿ بُكْرَةً ﴾ ؟ نقول : فائدته تبيين انطراقه فيه ، فقوله : ﴿ بُكْرَةً ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أنها منصوبة على أنها ظرف ، ومثله نقوله في قوله تعالى : ﴿ أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [الإسراء : 1] وفيه بحث ، وهو أن الزمخشري قال : ما الفائدة في قوله : ﴿ لَيْلاً ﴾ وقال : جواباً في التنكير دلالة على أنه كان

في بعض الليل ، وتمسك بقراءة من قرأ : ﴿ مِّنَ الليل ﴾ وهو غير ظاهر ، والأظهر فيه أن يقال : بأن الوقت المبهم يذكر لبيان أن تعيين الوقت ليس بمقصود المتكلم وأنه لا يريد بيانه ، كما يقول : خرجنا في بعض الأوقات ، مع أن الخروج لا بد من أن يكون في بعض الأوقات ، فإنه لا يريد بيان الوقت المعين ، ولو قال : خرجنا ، فربما يقول السامع : متى خرجتم ، فإذا قال : في بعض الأوقات أشار إلى أن غرضه بيان الخروج لا تعيين وقته ، فكذلك قوله تعالى : ﴿ صَبَّحَهُم بُكْرَةً ﴾ أي بكرة من البكر و ﴿ أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ أي ليلاً من الليالي فلا أبينه ، فإن المقصود نفس الإسراء ، ولو قال : أسرى بعبده من المسجد الحرام ، لكان للسامع أن يقول : أيما ليلة ؟ فإذا قال : ليلة من الليالي قطع سؤاله وصار كأنه قال : لا أبينه ، وإن كان القائل ممن يجوز عليه الجهل ، فإنه يقول : لا أعلم الوقت ، فهذا أقرب فإذا علمت هذا في أسرى ليلاً ، فاعلم مثله في : ﴿ صَبَّحَهُم بُكْرَةً ﴾ ويحتمل أن يقال : على هذا الوجه : ﴿ صَبَّحَهُم ﴾ بمعنى قال لهم : عموا صباحاً استهزاء بهم ، كما قال : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران : 21] فكأنه قال : جاءهم العذاب بكرة كالمصبح ، والأول أصح ، ويحتمل في قوله تعالى : ﴿ صَبَّحَهُم بُكْرَةً ﴾ على قولنا : إنها منصوبة على الظرف ما لا يحتمله قوله تعالى : ﴿ أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ وهو أن : ﴿ صَبَّحَهُم ﴾ معناه أتاهم وقت الصبح ، لكن التصبيح يطلق على الإتيان في أزمنة كثيرة من أول

الصبح إلى ما بعد الإسفار ، فإذا قال : ﴿ بُكْرَةً ﴾ أفاد أنه كان أول جزء منه ، وما أخر إلى الإسفار ، وهذا أوجه وأليق ، لأن الله تعالى أوعدهم به وقت الصبح ، بقوله : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح ﴾ [هود : 81] وكان من الواجب بحكم الإخبار تحققه بمجيء العذاب في أول الصبح ، ومجرد قراءة : ﴿ صَبَّحَهُم ﴾ ما كان يفيد ذلك ، وهذا أقوى لأنك تقول : صبيحة أمس بكرة واليوم بكرة ، فيأتي فيه ما ذكرنا من أن المراد بكرة من البكر الوجه الثاني : أنها منصوبة على المصدر من باب ضربته سوطاً ضرباً فإن المنصوب في ضربته ضرباً على المصدر ، وقد يكون غير المصدر كما في ضربته سوطاً ضرباً ، لا يقال : ضرباً سوطاً بين أحد أنواع الضرب ، لأن الضرب قد يكون بسوط وقد يكون بغيره ، وأما : ﴿ بُكْرَةً ﴾ فلا يبين ذلك ، لأنا نقول : قد بينا أن بكرة بين ذلك ، لأن الصبح قد يكون بالإتيان وقت الإسفار ، وقد يكون بالإتيان بالأبكار ، فإن قيل : مثله يمكن أن يقال : في ﴿ أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ قلنا : نعم ، فإن قيل : ليس هناك بيان نوع من أنواع الإسراء ، نقول : هو كقول القائل : ضربته شيئاً ، فإن شيئاً لا بد منه في كل ضرب ، ويصح ذلك على أنه نصب على المصدر ، وفائدته ما ذكرنا من بيان عدم تعلق الغرض بأنواعه ، وكأن القائل

يقول : إني لا أبين ما ضربته به ، ولا أحتاج إلى بيانه لعدم تعلق المقصود به ليقطع سؤال السائل : بماذا ضربه بسوط أو بعصا ، فكذلك القول في : ﴿ أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ يقطع سؤال السائل عن الإسراء ، لأن الإسراء هو السير أول الليل ، والسرى هو السير آخر الليل أو غير ذلك .

المسألة الثانية :

(23/737)

﴿ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ يحتمل وجوهاً أحدها : عذاب لا مدفع له ، أي يستقر عليهم ويثبت ، ولا يقدر أحد على إزالته ورفعه أو إحالته ودفعه ثانيها : دائم ، فإنهم لما أهلكوا نقلوا إلى الجحيم ، فكأن ما أتاهم عذاب لا يندفع بموتهم ، فإن الموت يخلص من الألم الذي يجده المضروب من الضرب والمحبوس من الحبس ، وموتهم ما خلصهم ثالثها : عذاب مستقر عليهم لا يتعدى غيرهم ، أي هو أمر قد قدره الله عليهم وقرره فاستقر ، وليس كما يقال : إنه أمر أصابهم اتفاقاً كالبرد الذي يضر زرع قوم دون قوم ، ويظن به أنه أمر اتفاقي ، وليس لو خرجوا من أماكنهم لنجوا كما نجا آل لوط ، بل كان ذلك يتبعهم ، لأنه كان أمراً قد استقر .

المسألة الثالثة :

الضمير في ﴿ صَبَّحَهُم ﴾ عائد إلى الذين عاد إليهم الضمير في أعينهم فيعود لفظاً إليهم للقرب ، ومعنى إلى الذين تماروا بالنذر ، أو الذين عاد إليهم الضمير في قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا ﴾ [القمر : 36] .

فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (39)

مرة أخرى ، لأن العذاب كان مرتين أحدهما : خاص بالمراودين ، والآخر عام .

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (40)

قد فسرناه مراراً وبينا ما لأجله تكراراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 57.51 ﴾

(24/737)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بالنذر ﴾

أخبر عن قوم لوط أيضاً لما كذّبوا لوطاً .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً ﴾ أي ريحاً ترميهم بالحصباء وهي الحصى ؛ قال النّضر : الحاصب الحصباء في الريح .

وقال أبو عبيدة : الحاصب الحجارة .

وفي الصحاح : والحاصب الريح الشديدة التي تثير الحصباء وكذلك الحَصِبة ؛ قال لَبِيد :

جَرَّتْ عليها أَنْ خَوَتْ مِن أهلَها . . .

أذيالَها كُلُّ عَصُوفٍ حَصِبَهْ

عصفت الريح أي اشتدت فهي ريح عاصفٌ وعَصُوف .

وقال الفَرَزْدق :

مستقبلين شمالَ الشامِ تَضرِبُنَا . . .

بحاصب كنَديفِ القُطْنِ منثورِ

﴿ إِلاَّ آلَ لُوطٍ ﴾ يعني من تبعه على دينه ولم يكن إلا بنتاه ﴿ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ قال الأخفش : إنما أجراه لأنه نكرة ، ولو أراد سَحَر يوم بعينه لما أجراه ، ونظيره : ﴿ اهبطوا مِصْراً ﴾ [البقرة : 61] لما نكّره ، فلما عرّفه في قوله : ﴿ ادخلوا مِصْرَ إِن شَآءَ الله ﴾ [يوسف : 99] لم يُجْرِه ، وكذا قال الزجاج : "سحر" إذا كان نكرة يراد به سحَر من الأسحار يصرف ، تقول أتيته سحراً ، فإذا أردت سحر يومك لم تصرفه ، تقول : أتيته سَحَر يا هذا ، وأتيته بسحر .

والسَّحَرُ : هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر ، وهو في كلام العرب اختلاط سواد الليل ببياض أوّل النهار ؛ لأن في هذا الوقت يكون مخابيل الليل ومخابيل النهار .

﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ إنعاماً منّا على لوط وابنتيه ؛ فهو نَصْب لأنه مفعول به .

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴾ أي من آمن بالله وأطاعه .

﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ ﴾ يعني لوطاً خوّفهم ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ عقوبتنا وأَخْذنا إياهم بالعذاب

﴿ فَتَمَارَوْاْ بالنذر ﴾ أي شَكُّوا فيما أنذرهم به الرسول ولم يصدّقوه ، وهو تفاعل من المِرْية .

(25/737)

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ﴾ أي أرادوا منه تمكينهم ممن كان أتاه من الملائكة في هيئة الأضياف طلباً للفاحشة على ما تقدّم .

يقال : راوَدْته على كذا مُرَاوَدةً ورِوَاداً أي أردتُه .

وراد الكلأَ يروده رَوْداً ورِياداً ، وارتاده ارتياداً بمعنًى أي طلبه ؛ وفي الحديث : " إذا بال أحدكم فلْيَرْتَدْ لبوله " أي يطلب مكاناً ليناً أو منحدراً .

﴿ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾ يروى أن جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه فعَمُوا .

وقيل : صارت أعينهم كسائر الوجه لا يرى لها شقّ ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفي عليها من التراب .

وقيل : لا ، بل أعماهم الله مع صحة أبصارهم فلم يروهم .

قال الضحاك : طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل ؛ فقالوا : لقد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا ؟ فرجعوا ولم يروهم .

﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أي فقلنا لهم ذوقوا ، والمراد من هذا الأمر الخبر ؛ أي فأذقتهم عذابي الذي أنذرهم به لوط .

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ أي دائم عام استقر فيهم حتى يفضي بهم إلى عذاب الآخرة .

وذلك العذاب قَلْب قريتهم عليهم وجعل أعلاها أسفلها .

و "بُكْرَةً" هنا نكرة فلذلك صرفت .

﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ العذاب الذي نزل بهم من طمس الأعين غير العذاب الذي أهلكوا به فلذلك حسن التكرير .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآنِ للذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ ﴾ تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(26/737)

وقال الآلوسى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بالنذر ﴾

على قياس النظير السابق

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حاصبا ﴾

ملكاً على ما قيل يحصبهم أي يرميهم بالحصباء والحجارة أو هم اسم للريح التي تحصب ولم يرد بها الحدوث كما ف ناقة ضامر وهو وجه التذكير ، وقال ابن عباس : هو ما حاصبوا به من السماء من الحجارة في الريح ، وعليه قول الفرزدق

: مستقبلين شمال الشام تضربنا . . .

(بحاصب) كنديف القطن منثور

﴿ إِلا ءال لُوطٍ ﴾ خاصته المؤمنين به ، وقيل : إله ابنتاه ﴿ نجيناهم بِسَحَرٍ ﴾ أي في سحر وهو آخر الليل ، وقيل : السدس الأخير منه ، وقال الراغب : السحر والسحرة اختلاط ظلام آخر الليل بصفاء النهار وجعل اسماً لذلك الوقت ، ويجوز كون الباء للملابسة والجار والمجرور في موضع الحال أي ملتبسين ﴿ بِسَحَرٍ ﴾ داخلين فيه .

﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ أي إنعاماً منا وهو علة لنجينا ، ويجوز نصبه بفعل مقدر من لفظه ، أو بنجينا لأن النتيجة إنعام فهو كقعدت جلوساً ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الجزاء العجيب ﴿ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾ نعمتنا بالايمان والطاعة .

﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ ﴾ لوط عليه السلام ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ أخذتنا الشديدة بالعذاب .

وجوز أن يراد بها نفس العذاب ﴿ فَتَمَارَوْاْ ﴾ فكذبوا ﴿ بالنذر ﴾ متشاكين ، فالفعل مضمن معنى التكذيب ولولاه تعدى بفي .

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ﴾ صرفوه عن رأيه فيهم وطلبوا الفجور بهم وهذا من إسناد ما للبعض للجميع لرضاهم به ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ أي أزلنا أثرها وذلك بمسحها وتسويتها كسائر الوجه ، وهو كما قال أبو عبيدة ، وروى أن جبريل عليه السلام استأذن ربه سبحانه في عقوبتهم ليلة جاءوا وعالجوا الباب ليدخلوا عليهم فصفقهم بجناحه فتركهم عمياناً يترددون لا يهتدون إلى طريق خروجهم حتى أخرجهم لوط عليه السلام وقال ابن عباس .

(27/737)

والضحاك : إنما حجب إدراكهم فدخلوا المنزل ولم يروا شيئاً فجعل ذلك كالطمس فعبر به عنه .

وقرأ ابن مقسم ﴿ فَطَمَّسْنَا ﴾ بتشديد الميم للتكثير في المفعول ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ أي فقلنا لهم ذلك على ألسنة الملائكة عليهم السلام ، فالقول في الحقيقة لهم وأسند إليه

تعالى مجازاً لأنه سبحانه الآمر أو القائل ظاهر الحال فلا قول وإنما هو تمثيل ، والمراد بالعذاب الطمس وهو من جملة ما أنذروه .

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً ﴾ أول النهار وهي أخص من الصباح فليس في ذكرها بعده زيادة وكان ذلك أول شروق الشمس ، وقرأ زيد بن علي ﴿ بُكْرَةً ﴾ غير مصروفة للعلمية والتأنيث على أن المراد بها أول نهار مخصوص .

﴿ عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ يستقر بهم ويدوم حتى يسلمهم إلى النار ، أو لا يدفع عنهم ، أو يبلغ غايته .

﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ حكاية لما قيل لهم بعد التصحيح من جهته تعالى تشديداً للعذاب ، أو هو تمثيل .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ تقدم ما فيه من الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(28/737)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾

هم : قوم عاد ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ أي : فاسمعوا كيف كان عذابي لهم وإنذاري إياهم ، ونذر مصدر بمعنى إنذار ، كما تقدّم تحقيقه ، والاستفهام للتهويل والتعظيم ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ هذه الجملة مبينة لما أجمله سابقاً من العذاب ، والصرصر : شدّة البرد ، أي : ريح شديدة البرد ، وقيل : الصرصر : شدّة الصوت ، وقد تقدّم بيانه في سورة حمالسجدة ﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرّ ﴾ أي : دائم الشؤم استمرّ عليهم بنحوسه ، وقد كانوا يتشاءمون بذلك اليوم .

قال الزجاج : قيل : في يوم الأربعاء في آخر الشهر .

قرأ الجمهور : ﴿ في يوم نحس ﴾ بإضافة ﴿ يوم ﴾ إلى ﴿ نحس ﴾ مع سكون الحاء ، وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أو على تقدير مضاف أي في يوم عذاب نحس .

وقرأ الحسن بتنوين "يوم" على أن ﴿ نحس ﴾ صفة له .

وقرأ هارون بكسر الحاء .

قال الضحاك : كان ذلك اليوم مرّاً عليهم .

وكذا حكى الكسائي عن قوم أنهم قالوا : هو من المرارة ، وقيل : هو من المرّة بمعنى : القوّة ، أي : في يوم قويّ الشؤم مستحكمه ، كالشيء المحكم الفتل الذي لا يطاق نقضه ، والظاهر أنه من الاستمرار ، لا من المرارة ، ولا من المرّة ، أي : دام عليهم العذاب فيه حتى أهلكهم ، وشمل بهلاكه كبيرهم وصغيرهم .

وجملة : ﴿ تَنزِعُ الناس ﴾ : في محل نصب على أنها صفة ل ﴿ ريحاً ﴾ ، أو حال منها ، ويجوز أن يكون استئنافاً ، أي : تقلعهم من الأرض من تحت أقدامهم اقتلاع النخلة من أصلها .

(29/737)

قال مجاهد : كانت تقلعهم من الأرض ، فترمي بهم على رؤوسهم فتدقّ أعناقهم ، وتبين رؤوسهم من أجسادهم ، وقيل : تنزع الناس من البيوت ، وقيل : من قبورهم ؛ لأنهم حفروا حفائر ودخلوها ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ الأعجاز : جمع عجز ، وهو مؤخر الشيء ، والمنقعر : المنقطع المنقلع من أصله ، يقال : قعرت النخلة : إذا قلعتها من أصلها حتى تسقط .

شبههم في طول قاماتهم حين صرعتهم الريح ، وطرحتهم على وجوههم بالنخل الساقط على الأرض التي ليست لها رؤوس ، وذلك أن الرّيح قلعت رؤوسهم أولاً ، ثم كبّتهم على وجوههم ، وتذكير منقعر مع كونه صفة لأعجاز نخل ، وهي مؤنثة اعتباراً باللفظ ، ويجوز تأنيثه اعتباراً بالمعنى ، كما قال : ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 7] قال المبرد : كل ما ورد عليك من هذا الباب إن شئت رددته إلى اللفظ تذكيراً ، أو إلى المعنى تأنيثاً .

وقيل : إن النخل والنخيل يذكر ويؤنث ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ قد تقدّم تفسيره قريباً ، وكذلك قوله : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

ثم لما ذكر سبحانه تكذيب عاد أتبعه بتكذيب ثمود ، فقال : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنذر ﴾ يجوز أن يكون جمع نذير ، أي : كذبت بالرّسل المرسلين إليهم ، ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى الإنذار ، أي : كذبت بالإنذار الذي أنذروا به ، وإنما كان تكذيبهم لرسولهم وهو صالح تكذيباً للرسل ؛ لأن من كذب واحداً من الأنبياء فقد كذب سائرهم ؛ لاتفاقهم في الدعوة إلى كليات الشرائع ﴿ فَقَالُواْ أَبَشَراً مِّنَّا واحدا نَّتَّبِعُهُ ﴾ الاستفهام للإنكار ، أي : كيف نتبع بشراً كائناً من جنسنا منفرداً وحده لا متابع له على ما يدعو إليه .

قرأ الجمهور : بنصب ﴿ بشراً ﴾ على الاشتغال ، أي : أنتبع بشراً واحداً .

(30/737)

وقرأ أبو السماك ، والداني ، وأبو الأشهب ، وابن السميفع بالرفع على الابتداء ، و ﴿ واحداً ﴾ صفته ، و ﴿ نتبعه ﴾ خبره .

وروي عن أبي السماك أنه قرأ برفع (بشراً) ونصب (واحداً) على الحال ﴿ إِنَّا إِذاً لَّفِى ضلال ﴾ أي : إنا إذا اتبعناه لفي خطأ ، وذهاب عن الحق ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ أي : عذاب

وعناء وشدّة كذا قال الفراء ، وغيره .

وقال أبو عبيدة : هو جمع سعير ، وهو لهب النار ، والسعر : الجنون يذهب كذا وكذا لما يلتهب به من الحدّة .

وقال مجاهد : ﴿ وسعر ﴾ وبُعد عن الحقّ .

وقال السديّ : في احتراق ، وقيل المراد به هنا : الجنون ، من قولهم : ناقة مسعورة أي : كأنها من شدّة نشاطها مجنونة ، ومنه قول الشاعر يصف ناقة :

تَخالُ بها سُعْراً إذَا السَّعْرُ هَزَّهَا . . . ذَمِيلٌ وإيقاعٌ من السَّيْرِ مُتْعِبُ

ثم كرّروا الإنكار والاستبعاد فقالوا : ﴿ أَأُلقِي الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾ أي : كيف خصّ من بيننا بالوحي والنبوّة ، وفينا من هو أحقّ بذلك منه ؟ ثم أضربوا عن الاستنكار ، وانتقلوا إلى الجزم بكونه كذاباً أشراً فقالوا : ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ والأشر : المرح والنشاط ، أو البطر والتكبر ، وتفسيره بالبطر والتكبر أنسب بالمقام ، ومنه قول الشاعر :

أشِرتُمْ بِلُبس الخَزِّ لما لَبِستُمُ . . . ومن قبلُ لا تدرون مَنْ فَتَحَ القُرى

قرأ الجمهور ﴿ أشر ﴾ كفرح .

وقرأ أبو قلابة ، وأبو جعفر بفتح الشين وتشديد الرّاء على أنه أفعل تفضيل ، ونقل الكسائي عن مجاهد أنه قرأ بضم الشين مع فتح الهمزة .

ثم أجاب سبحانه عليهم بقوله : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الكذاب الأشر ﴾ والمراد بقوله ﴿

غداً ﴾ : وقت نزول العذاب بهم في الدنيا ، أو في يوم القيامة جرياً على عادة الناس في التعبير بالغد عن المستقبل من الأمر وإن بعد ، كما في قولهم : إن مع اليوم غداً ، وكما في قول الحطيئة :

(31/737)

للموت فيها سِهامٌ غَيْرُ مُخْطِئَةٍ . . . مَنْ لم يكن مَيِّتاً في اليوم ماتَ غَدَا

ومنه قول أبي الطماح :

ألا عَللاِني قَبْل نوح النَّوائحِ . . . وَقَبْلَ اضْطرَابِ النَّفسِ بَين الجَوَانِحِ

وقبلَ غَدٍ يا لَهْفَ نَفْسي على غَد . . . إذَا رَاحَ أَصْحابِي ولستُ برائحِ

قرأ الجمهور ﴿ سيعلمون ﴾ بالتحتية إخبار من الله سبحانه لصالح عن وقوع العذاب عليهم بعد مدة .

وقرأ أبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة بالفوقية على أنه خطاب من صالح لقومه ، وجملة : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ الناقة ﴾ مستأنفة لبيان ما تقدّم إجماله من الوعيد ، أي : إنا مخرجوها من الصخرة على حسب ما اقترحوه ﴿ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ أي : ابتلاء وامتحاناً ، وانتصاب ﴿ فتنة ﴾ على العلة ﴿ فارتقبهم ﴾ أي : انتظر ما يصنعون ﴿ واصطبر ﴾ على ما

يصيبك من الأذى منهم ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الماء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : بين ثمود وبين الناقة ، لها يوم ولهم يوم ، كما في قوله :

﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء : 155] وقال : ﴿ نبئهم ﴾ بضمير العقلاء تغليباً .

﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ الشرب بكسر الشين : الحظ من الماء .

ومعنى ﴿ محتضر ﴾ : أنه يحضره من هو له ، فالناقة تحضره يوماً ، وهم يحضرونه يوماً .

قال مجاهد : إن ثمود يحضرون الماء يوم نوبتهم فيشربون ، ويحضرون يوم نوبتها فيحتلبون .

قرأ الجمهور .

﴿ قسمة ﴾ بكسر القاف بمعنى : مقسوم ، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بفتحها ﴿ فَنَادَوْاْ صاحبهم ﴾ أي : نادى ثمود صاحبهم وهو قدار بن سالف عاقر الناقة يحضونه على عقرها ﴿ فتعاطى فَعَقَرَ ﴾ أي : تناول الناقة بالعقر فعقرها ، أو اجترأ على تعاطي أسباب العقر فعقر .

قال محمد بن إسحاق : كمن لها في أصل شجرة على طريقها ، فرماها بسهم ، فانتظم به عضلة ساقها ، ثم شدّ عليها بالسيف ، فكسر عرقوبها ، ثم نحرها ، والتعاطي : تناول الشيء بتكلف ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ قد تقدّم تفسيره في هذه السورة .

ثم بيّن ما أجمله من العذاب فقال : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحدة ﴾ قال عطاء : يريد صيحة جبريل ، وقد مضى بيان هذا في سورة هود ، وفي الأعراف ﴿ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ المحتظر ﴾ قرأ الجمهور بكسر الظاء ، والهشيم : حطام الشجر ويابسه ، والمحتظر : صاحب الحظيرة ، وهو الذي يتخذ لغنمه حظيرة تمنعها عن برد الرّيح ، يقال : احتظر على غنمه : إذا جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض .

قال في الصحاح : والمحتظر : الذي يعمل الحظيرة .

وقرأ الحسن ، وقتادة ، وأبو العالية بفتح الظاء أي : كهشيم الحظيرة ، فمن قرأ بالكسر أراد الفاعل للاحتظار ، ومن قرأ بالفتح أراد الحظيرة ، وهي فعيلة بمعنى مفعولة ومعنى الآية : أنهم صاروا كالشجر إذا يبس في الحظيرة ، وداسته الغنم بعد سقوطه ، ومنه قول الشاعر :

أثرن عجاجه كدخان نار . . . تشب بغرقد بال هشيم

وقال قتادة : هو العظام النخرة المحترقة .

وقال سعيد بن جبير : هو التراب المتناثر من الحيطان في يوم ريح .

وقال سفيان الثوري : هو ما يتناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصي .

قال ابن زيد : العرب تسمي كل شيء كان رطباً فيبس هشيماً ، ومنه قول الشاعر :

ترى جيف المطيّ بجانبيه . . . كأن عظامها خشب الهشيم

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ قد تقدم تفسير هذا في هذه السورة .

ثم أخبر سبحانه عن قوم لوط بأنهم كذبوا رسل الله ، كما كذبهم غيرهم ، فقال : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بالنذر ﴾ وقد تقدّم تفسير النذر قريباً .

ثم بيّن سبحانه ما عذبهم به ، فقال : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حاصبا ﴾ أي : ريحاً ترميهم بالحصباء ، وهي الحصى .

(33/737)

قال أبو عبيدة ، والنضر بن شميل : الحاصب : الحجارة في الريح .

قال في الصحاح : الحاصب : الريح الشديدة التي تثير الحصباء ، ومنه قول الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام يضربها . . . بحاصب كنديف القطن منثور

﴿ إِلاَّ ال لُوطٍ نجيناهم بِسَحَرٍ ﴾ يعني : لوطاً ومن تبعه ، والسحر : آخر الليل ، وقيل : هو في كلام العرب اختلاط سواد الليل ببياض أوّل النهار ، وانصرف ﴿ سحر ﴾ لأنه نكرة لم

يقصد به سحر ليلة معينة ، ولو قصد معيناً لامتنع .

كذا قال : الزجاج ، والأخفش ، وغيرهما .

وانتصاب ﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ على العلة ، أو على المصدرية ، أي : إنعاماً منا على لوط ، ومن تبعه .

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾ أي : مثل ذلك الجزاء نجزي من شكر نعمتنا ، ولم يكفرها ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا ﴾ أي : أنذر لوط قومه بطشة الله بهم ، وهي عذابه الشديد ، وعقوبته البالغة ﴿ فَتَمَارَوْا بالنذر ﴾ أي : شكوا في الإنذار ولم يصدّقوه ، وهو تفاعلوا من المرية ، وهي الشك ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ﴾ أي : أرادوا منه تمكينهم ممن أتاه من الملائكة ليفجروا بهم ، كما هو دأبهم ، يقال راودته عن كذا مراودة ورواداً ، أي : أردته ، وراد الكلام يروده روداً ، أي : طلبه ، وقد تقدّم تفسير المراودة مستوفى في سورة يوسف ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ أي : صيرنا أعينهم ممسوحة لا يرى لها شقّ ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفي عليها من التراب .

وقيل : أذهب الله نور أبصارهم مع بقاء الأعين على صورتها .

قال الضحاك : طمس الله على أبصارهم ، فلم يروا الرسل ، فرجعوا ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ قد تقدّم تفسيره في هذه السورة ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ أي : أتاهم صباحاً عذاب مستقرّ بهم نازل عليهم لا يفارقهم ولا ينفك عنهم .

قال مقاتل : استقرّ بهم العذاب بكرة ، وانصراف ﴿ بكرة ﴾ لكونه لم يرد بها وقتاً بعينه ، كما سبق في ﴿ بسحر ﴾ : ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ قد تقدّم تفسير هذا في هذه السورة ، ولعل وجه تكرير تيسير القرآن للذكر في هذه السورة الإشعار بأنه منة عظيمة لا ينبغي لأحد أن يغفل عن شكرها .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ قال : باردة ﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ قال : أيام شداد .

وأخرج ابن المنذر ، وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يوم الأربعاء يوم نحس مستمر " ، وأخرجه عنه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعاً .

وأخرجه ابن مردويه عن عليّ مرفوعاً .

وأخرجه ابن مردويه أيضاً عن أنس مرفوعاً ، وفيه قيل : وكيف ذاك يا رسول الله ؟ قال : " أغرق الله فيه فرعون وقومه ، وأهلك فيه عاداً ، وثمود " وأخرج ابن مردويه ، والخطيب بسند .

قال السيوطي : ضعيف عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر " وأخرج ابن المنذر عنه ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ ﴾ قال : أصول النخل ﴿ مُّنقَعِرٍ ﴾ قال : منقلع .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال : أعجاز سواد النخل .

وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ قال : شقاء .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً قال : ﴿ كَهَشِيمِ المحتظر ﴾ قال : كحظائر من الشجر محترقة .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال : كالعظام المحترقة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عنه قال : كالحشيش تأكله الغنم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 125.128 ﴾

(35/737)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33) ﴾

القول في مفرداته كالقول في نظائره ، وقصة قوم لوط تقدمت في سورة الأعراف وغيرها .

وعرف قوم لوط بالإِضافة إليه إذ لم يكن لتلك الأمة اسم يعرفون به عند العرب .

ولم يُحك هنا ما تلقَّى به قوم لوط دعوة لوط كما حكي في القصص الثلاث قبل هذه ، وقد حكي ذلك في سورة الأعراف وفي سورة هود وفي سورة الحجر لأن سورة القمر بنيت على تهديد المشركين عن إعراضهم عن الاتّعاظ بآيات الله التي شاهدوها وآثار آياته على الأمم الماضية التي علموا أخبارها وشهدوا آثارها ، فلم يكن ثمة مقتض لتفصيل أقوال تلك الأمم إلا ما كان منها مشابهاً لأقوال المشركين في تفصيله ولم تكن أقوال قوم لوط بتلك المثابة ، فلذلك اقتصر فيها على حكاية ما هو مشترك بينهم وبين المشركين وهو تكذيب رسولهم وإعراضهم عن نذره .

والنذر تقدم .

وجملة ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً ﴾ استئناف بياني ناشىء عن الإِخبار عن قوم لوط بأنهم كذبوا بالنذر .

وكذلك جملة ﴿ نجيناهم بسحر ﴾ ، وجملة ﴿ كذلك نجزي من شكر ﴾ .

والحاصب : الريح التي تحصِب ، أي ترمي بالحصباء ترفعها من الأرض لقوتها ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ﴾ في سورة [العنكبوت : 40] .

والاستثناء حقيقي لأن آل لوط من جملة قومه .

وآل لوط : قرابته وهم بَنَاتُه ، ولوط داخل بدلالة الفحوى .

وقد ذكر في آيات أخرى أن زوجة لوط لم يُنجها الله ولم يذكر ذلك هنا اكتفاء بمواقع ذكره وتنبيهاً على أن من لا يؤمن بالرسول لا يعد من آله ، كما قال : ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ﴾ [هود : 46] وذكر ﴿ بسحر ﴾ ، أي في وقت السحر للإشارة إلى إنجائهم قبيل حلول العذاب بقومهم لقوله بعده : ﴿ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾ .

وانتصب ﴿ نعمة ﴾ على الحال من ضمير المتكلم ، أي إنعاماً منا .

(36/737)

وجملة ﴿ كذلك نجزي من شكر ﴾ معترضة ، وهي استئناف بياني عن جملة ﴿ نجيناهم بسحر ﴾ باعتبار ما معها من الحال ، أي إنعاماً لأجل أنه شكر ، ففيه إيماء بأن إهلاك غيرهم لأنهم كفروا ، وهذا تعريض بإنذار المشركين وبشارة للمؤمنين .

وفي قوله : ﴿ من عندنا ﴾ تنويه بشأن هذه النعمة لأن ظرف (عند) يدل على الادخار والاستئثار مثل (لدن) في قوله : ﴿ من لدنا ﴾ .

فذلك أبلغ من أن يقال : نعمة منا أو أنعمنا .

وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (36)

عطف على جملة ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً ﴾ [القمر : 34] .

وتأكيد الكلام بلام القسم وحرف التحقيق يقصد منه تأكيد الغرض الذي سيقت القصة لأجله وهو موعظة قريش الذين أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتماروا بالنذر .

والبطشة : المرَّة من البطش ، وهو الأخذ بعنف لعقاب ونحوه ، وتقدم في قوله : ﴿ أم لهم أيد يبطشون بها ﴾ في آخر الأعراف (195) ، وهي هنا تمثيل للإِهلاك السريع مثل قوله : ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى ﴾ في سورة الدخان (16) .

والتماري : تفاعل من المِراء وهو الشك .

وصيغة المفاعلة للمبالغة .

وضمن تماروا ﴾ معنى : كذبوا ، فعدي بالباء ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فبأي آلاء ربك تتمارى ﴾ في سورة النجم (55) .

وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (37)

إجمال لما ذكر في غير هذه السورة في قصة قوم لوط أنه نزل به ضيف فرام قومه الفاحشة بهم وعجز لوط عن دفع قومه إذ اقتحموا بيته وأنّ الله أعمى أعينهم فلم يروا كيف يدخلون .

والمراودة : محاولة رضَى الكَاره شيئاً بقبول ما كرهه ، وهي مفاعلة من راد يرود رَوْداً ، إذا ذهب ورجع في أمر ، مُثّلت هيئة من يكرر المراجعة والمحاولة بهيئة المنْصرف ثم

الراجع .

وضمن ﴿ راودوه ﴾ معنى دفعوه وصرفوه فعدّي بـ ﴿ عن ﴾ .

(37/737)

وأسند المراودة إلى ضمير قوم لوط وإن كان المراودون نفراً منهم لأن ما راودوا عليه هو راد جميع القوم بقطع النظر عن تعيين من يفعله .

ويتعلق قوله : ﴿ عن ضيفه ﴾ بفعل ﴿ راودوه ﴾ بتقدير مضاف ، أي عن تمكينهم من ضيوفه .

وقوله : ﴿ فذوقوا عذابي ونذر ﴾ مقول قول محذوف دل عليه سياق الكلام للنفَر الذين طمسنا أعينهم ﴿ ذوقوا عذابي ﴾ وهو العمى ، أي ألقى الله في نفوسهم أنَّ ذلك عقاب لهم .

واستعمل الذوق في الإِحساس بالعذاب مجازاً مرسلاً بعلاقة التقييد في الإِحساس .

وعطف النذر على العذاب باعتبار أن العذاب تصديق للنذر ، أي ذوقوا مصداق نذري ، وتعدية فعل ﴿ ذوقوا ﴾ إلى ﴿ نذري ﴾ بتقدير مضاف ، أي وآثار نذري .

والقول في تأكيده بلام القسم تقدم ، وحذفت ياء المتكلم من قوله : ﴿ ونذر ﴾ تخفيفاً .

وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (38)

القول في تأكيده بلام القسم تقدم آنفاً في نظيره .

والبكرة : أول النهار وهو وقت الصبح ، وقد جاء في الآية الأخرى قوله : ﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ [هود : 81] ، فذكر ﴿ بكرة ﴾ للدلالة على تعجيل العذاب لهم .

والتصبيح : الكون في زمن الصباح وهو أول النهار .

والمستقر : الثابت الدائم الذي يجري على قوة واحدة لا يقلع حتى استأصلهم .

والعذاب : هو الخسف ومطر الحجارة وهو مذكور في سورة الأعراف وسورة هود .

فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (39)

تفريع قولٍ محذوف خوطبوا به مراد به التوبيخ ؛ إمّا بأن ألقي في روعهم عند حلول العذاب ، بأن ألقَى الله في أسماعهم صوتاً .

والخطاب لجميع الذين أصابهم العذاب المستقر ، وبذلك لم تكن هذه الجملة تكريراً .

وحذفت ياء المتكلم من قوله : ﴿ ونذر ﴾ تخفيفاً .

والقول في استعمال الذوق هنا كالقول في سابقه .

وفائدة الإعلام بما قيل لهم من قوله : ﴿ فذوقوا عذابي ونذر ﴾ في الموضعين أن يتجدد عند استماع كل نبإ من ذلك ادّكار لهم واتّعاظ وإيقاظ استيفاءً لحق التذكير القرآني .

(38/737)

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (40)

تكرير ثالث تنويها بشأن القرآن للخصوصية التي تقدمت في المواضع التي كرر فيها نظيره وما يقاربه وخاصة في نظيره الموالي هو له .

ولم يذكر هنا ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ [القمر : 30] اكتفاء بحكاية التنكيل لقوم لوط في التعريض بتهديد المشركين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(39/737)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (47) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (48) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الآخر ينبغي له أن يحذر ما وقع للأول ، وكان قوم فرعون قد جاء بعد قوم لوط عليه السلام ، فكان ربما ظن أنهم لم ينذروا لأن من علم أن العادة جرت أن من كذب الرسل هلك أنكر أن يحصل ممن تبع ذلك تكذيب ، قال مقسماً : ﴿ ولقد جاء آل فرعون ﴾ أي ملك القبط بمصر وأشرافه الذين إذا رؤوا كان كأنه رئي فيهم لشدة قربهم منه وتخلقهم بأخلاقهم ﴿ النذر ﴾ أي الإنذارات والمنذرون بنذارة موسى وهارون عليهما السلام ، فإن نذارة بعض الأنبياء كنذارة الكل لأنه يأتي أحد منهم إلا وله من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، والمعجزات كلها متساوية في خرق العادة ، وكان قد أنذرهم يوسف عليه السلام ، ولما كان كأنه قيل : فما فعلوا عند مجيء ذلك إليهم ، قال : ﴿ كذبوا ﴾ أي تكذيباً عظيماً متسهينين ﴿ بآياتنا ﴾ التي أتاهم بها موسى عليه السلام وغيرها لأجل تكذيبهم بها على ما لها من العظمة المعرفة قطعاً عن أنها من عندنا .

(40/737)

ولما كانت خوارق العادات كما مضى متساوية الأقدام في الدلالة على صدق الآتي بها ، وكانوا قد صمموا على أنه مهما أتاهم بآية كذبوا بها ، كانوا كأنهم قد أتتهم كل آية فلذلك قال : ﴿ كلها ﴾ وسبب عن ذلك القول : ﴿ فأخذناهم ﴾ أي بما لنا من العظمة بنحو ما أخذنا به قوم نوح من الإغراق ﴿ أخذ عزيز ﴾ أي لا يغلبه شيء وهو يغلب كل شيء ﴿ مقتدر ﴾ أي لا يعجل بالأخذ لأنه لا يخاف الفوت ولا يخشى معقباً لحكمه ، بالغ القدرة إلى حد لا يدرك الوصف كنهه لأن صيغة الافتعال مبناها على المعاجلة من عاجل فعلاً أجهل نفسه فيه ، فكان على أتم الوجوه ، وهذه الغاية هي المرادة ليس غيرها ، فهو تمثيل لأنه سبحانه يخاطبنا بما نعبده ، وبهذه المبالغة فلم يلفت منهم أحد ، وقد ختمت القصص بمثل ما افتتحت به من عذاب المفسدين بالإغراق ليطابق الختم البدء ، وكانت نجاة المصلحين من الأولين بالسفينة ، وكانت نجاة المصلحين من الآخرين بأرض البحر كانت هي سفينتهم ، ليكون الختم أعظم من البدء كما هو شأن أهل الاقتدار .

(41/737)

ولما بلغت هذه المواعظ الانتهاء ، وعلت أقدامها على رتبة السها ، ولم يبين ذلك كفار قريش عن شرادهم ، ولا فتر من جحودهم وعنادهم ، كان لسان حالهم قائلاً : إنا لا

نخاف شيئاً من هذا ، فكان الحال مقتضياً لأن يقال لهم إلزاماً بالحجة : ﴿ أكفاركم ﴾ الراسخون منكم في الكفر الثابتون عليه يا أيها المكذبون لهذا النبي الكريم الساترون لشموس دينه ﴿ خير ﴾ في الدنيا بالقوة والكثرة أو الدين عند الله أو عند الناس ﴿ من أولائكم ﴾ أي الكفار أي الكفار العظماء الجبابرة الأشداء الذين وعظناكم بهم في هذه السورة ليكون ذلك سبباً لافتراق حالهم منهم فيأمنوا العذاب مع جامع التكذيب وإن لم يكن لهم براءة من الله ﴿ أم لكم ﴾ أجمعين دونهم كفاركم وغير كفاركم ﴿ براءة ﴾ من العذاب من الله ﴿ في الزبر ﴾ أي الكتب الآتية من عنده أأمنتم بها من العذاب مع أنهم خير منكم ، فالآية من الاحتباك : أثبت الخيرية أولاً دليلاً على حذفها ثانياً ، والبراءة ثانياً دليلاً على حذفها أولاً .

ولما بلغوا إلى هذا الحد من التمادي في الكفر مع المواعظ البالغة والاستعطاف المكين ، استحقوا أعظم الغضب ، فأعرض عنهم الخطاب إيذاناً بذلك وإهانة لهم واحتقاراً وإقبالاً على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تسلية فقال عاطفاً على ما تقديره : أيدعون جهلاً ومكابرة شيئاً من هذين الأمرين : ﴿ أم يقولون ﴾ أي هؤلاء الذي أنت بين أظهرهم تعاملهم باللين في القال والقيل والصفح الجميل امتثالاً لأمرنا تعظيماً لقدرك فاستهانوا بك : ﴿ نحن جميع ﴾ أي جمع واحد مبالغ في اجتماعه فهو في الغاية من الضم فلا افتراق له ﴿ منتصر ﴾

أي على كل من يناويه لأنهم على قلب رجل واحد ، فالإفراد للفظ " جميع " ولإفهام هذا المعنى ، أو أن كل واحد محكوم له بالانتصار .

(42/737)

ولما كان لسان الحال ناطقاً بأنهم يقولون : هذا كله فأي الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا ونحوها ، وقال بعضهم : لئن بعثنا لأوتينا وولداً ، ولا شك أنهم كانوا في غاية الاستحالة لغلبة المؤمنين لهم على قلتهم وضعفهم ، استأنف الجواب بقوله : ﴿ سيهزم ﴾ بأيسر أمر من أي هازم كان بوعد لا خلف فيه ، وقراءة الجمهور بالبناء للمفعول مفهمة للعظمة بطريقة كلام القدرين ، فهي أبلغ من قراءة يعقوب بالنون والبناء للفاعل الدالة على العظمة صريحاً ﴿ الجمع ﴾ الذي تقدم أنه بولغ في جمعه فصدق الله وعده وهزموا في يوم بدر وغيره في الدنيا عن قريب ، ولم يزالوا يضعفون حتى اضمحل أمرهم وزال بالكلية سرهم ، وهي من دلائل النبوة البينة ﴿ ويولون الدبر ﴾ أي يقع توليتهم كلهم بهذا الجنس بأن يكون والياً لها من منهم مع الهزيمة لأنه لم يتولهم في حال الهزيمة نوع مسكنة يطمعون بها في الخيار ، وكل من إفراد الدبر والمنتصر وجمع المولين أبلغ مما لو وضع غيره موضعه وأقطع للتعنت .

ولما وقع هذا في الدنيا ، وكان في يوم بدر ، وكان ذلك من أعلام النبوة ، وكان ربما ظن ظان

أن ذلك هو النهاية ، كان كأنه قيل : ليس ذلك الموعد الأعظم : ﴿ بل الساعة ﴾ القيامة التي يكون فيها الجمع الأعظم والهول الأكبر ﴿ موعدهم ﴾ أي الأعظم للجزاء المتوعد به ﴿ والساعة أدهى ﴾ من كل ما يفرض وقوعه في الدنيا ، أفعل تفضيل من الداهية وهي أمر هائل لا يهتدي لدوائه ﴿ وأمر ﴾ لأن عذابها للكافر غير مفارق ومزايل .

(43/737)

ولما أخبر عن الساعة بهذا الإخبار الهائل ، علله مقسماً لأهلها مجملاً بعض ما لهم عند قيامها بقوله مؤكداً لما أظهروا من التكذيب : ﴿ إن المجرمين ﴾ أي القاطعين لما أمر الله بأن يوصل ﴿ في ضلال ﴾ أي عمى عن القصد بتكذيبهم بالبعث محيط بهم مانع من الخلاص من دواهي الساعة وغيرها ، ومن الوصول إلى شيء من مقاصدهم التي هم عليها الآن معتمدون ﴿ وسعر ﴾ أي نيران تضطرم وتتقد غاية الاتقاد ﴿ يوم ﴾ أي في ذلك اليوم الموعود به ﴿ يسحبون ﴾ أي في الساعة دائماً بأيسر وجه إهانة لهم من أي صاحب كان ﴿ في النار ﴾ أي الكاملة في النارية ﴿ على وجوههم ﴾ لأنهم في غاية الذل والهوان جزاء بما كانوا يذلون أولياء الله تعالى ، مقولاً لهم من أي قائل اتفق : ﴿ ذوقوا ﴾ أي لأنهم لا منعة لهم ولا حمية عندهم بوجه ﴿ مس سقر ﴾ أي ألم مباشرة الطبقة النارية التي تلفح بحرها

فتلوح الجسم وتذيبه فيسيل ذهنه .

وعصاراً كما يسيل الدبس وعصارة الرطب فتسمى النخلة بذلك مسقاراً . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 364.366 ﴾

(44/737)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما الفائدة في لفظ : ﴿ آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ بدل قوم فرعون ؟ نقول : القوم أعم من الآل ، فالقوم كل من يقوم الرئيس بأمرهم أو يقومون بأمره ، والآل كل من يؤول إلى الرئيس خيرهم وشرهم أو يؤول إليهم خيره وشره ، فالبعيد الذي لا يعرفه الرئيس ولا يعرف هو عين الرئيس وإنما يسمع اسمه ، فليس هو بآله ، إذا عرفت الفرق ، نقول : قوم الأنبياء الذين هم غير موسى عليهم السلام ، لم يكن فيهم قاهر يقهر الكل ويجمعهم على كلمة واحدة ، وإنما كانوا هم رؤساء

وأتباعاً ، والرؤساء إذا كثروا لا يبقى لأحد منهم حكم نافذ على أحد ، أما على من هو مثله فظاهر ، وأما على الأراذل فلأنهم يلجئون إلى واحد منهم ويدفعون به الآخر ، فيصير كل واحد برأسه ، فكأن الإرسال إليهم جميعاً ، وأما فرعون فكان قاهراً يقهر الكل ، وجعلهم بحيث لا يخالفونه في قليل ولا كثير ، فأرسل الله إليه الرسول وحده ، غير أنه كان عنده جماعة من التابعين المقربين مثل قارون تقدم عنده لماله العظيم ، وهامان لدهائه ، فاعتبرهم الله في الإرسال ، حيث قال : في مواضع : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا إلى فِرْعَوْنَ ﴾ [الزخرف : 46] وقال تعالى : ﴿ بآياتنا . . .

إلى فرعون وهامان وقارون ﴾ [غافر : 23 ، 24] وقال في العنكبوت : ﴿ وقارون وَفِرْعَوْنَ وهامان وَلَقَدْ جَاءهُمْ موسى ﴾ [العنكبوت : 39] لأنهم إن آمنوا آمن الكل بخلاف الأقوام الذين كانوا قبلهم وبعدهم ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ جَاء ءالَ فِرْعَوْنَ النذر ﴾ وقال كثيراً مثل هذا كما في قوله : ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ [غافر : 46] ، ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مّنْ ءالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إيمانه ﴾ [غافر : 28] وقال : بلفظ الملأ أيضاً كثيراً .

المسألة الثانية :

قال : ﴿ وَلَقَدْ جَاء ﴾ ولم يقل في غيرهم جاء لأن موسى عليه السلام ما جاءهم ، كما جاء المرسلون أقوامهم ، بل جاءهم حقيقة حيث كان غائباً عن القوم فقدم عليهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآء ءالَ لُوطٍ المرسلون ﴾ [الحجر : 61] وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : 128] حقيقة أيضاً لأنه جاءهم من الله من السموات بعد المعراج ، كما جاء موسى قومه من الطور حقيقة .

المسألة الثالثة :

النذر إن كان المراد منها الإنذارات وهو الظاهر ، فالكلام الذي جاءهم على لسان موسى ويده تلك ، وإن كان المراد الرسل فهو لأن موسى وهرون عليهما السلام جاءه وكل مرسل تقدمهما جاء لأنهم كلهم قالوا ما قالا من التوحيد وعبادة الله وقوله بعد ذلك : ﴿ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا ﴾ من غير فاء تقتضي ترتب التكذيب على المجيء فيه وجهان أحدهما : أن الكلام تم عند قوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاء ءالَ فِرْعَوْنَ النذر ﴾ وقوله : ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ كلام مستأنف والضمير عائد إلى كل من تقدم ذكرهم من قوم نوح إلى آل فرعون ثانيهما : أن الحكاية مسوقة على سياق ما تقدم ، فكأنه قال : (فكيف كان عذابي ونذر وقد كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم) ، وعلى الوجه الأول آياتنا كلها ظاهرة ، وعلى الوجه الثاني المراد آياته التي كانت مع موسى عليه السلام وهي التسع في قول أكثر المفسرين ، ويحتمل أن يقال :

المراد أنهم كذبوا بآيات الله كلها السمعية والعقلية فإن في كل شيء له آية تدل على أنه واحد .

وقوله تعالى : ﴿ فأخذناهم ﴾ إشارة إلى أنهم كانوا كالآبقين أو إلى أنهم عاصون يقال : أخذ الأمير فلاناً إذا حبسه ، وفي قوله : ﴿ عِزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ لطيفة وهي أن العزيز المراد منه الغالب لكن العزيز قد يكون (الذي) يغلب على العدو ويظفر به وفي الأول يكون غير متمكن من أخذه لبعده إن كان هارباً ولمنعته إن كان محارباً ، فقال أحد غالب لم يكن عاجزاً وإنما كان ممهلاً .

(46/737)

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43)

تنبيهاً لهم لئلا يأمنوا العذاب فإنهم ليسوا بخير من أولئك الذين أهلكوا وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الخطاب مع أهل مكة فينبغي أن يكون كفارهم بعضهم وإلا لقال : أنتم خير من أولئكم ، وإذا كان كفارهم بعضهم فكيف قال : ﴿ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ ﴾ ولم يقل : أم لهم كما يقول القائل : جاءنا الكرماء فأكرمناهم ، ولا يقول : فأكرمناكم ؟ نقول : الجواب عنه من وجهين

أحدهما : أن المراد منه أكفاركم المستمرون على الكفر الذين لا يرجعون وذلك لأن جمعاً عظيماً ممن كان كافراً من أهل مكة يوم الخطاب أيقنوا بوقوع ذلك ، والعذاب لا يقع إلا بعد العلم بأنه لم يبق من القوم من يؤمن فقال : الذين يصرون منكم على الكفر يا أهل مكة خير ، أم الذين أصروا من قبل ؟ فيصح كون التهديد مع بعضهم ، وأما قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ ﴾ ففيه وجهان أحدهما : أم لكم لعمومكم براءة فلا يخاف المصر منكم لكونه في قوم لهم براءة وثانيهما : أم لكم براءة إن أصررتم فيكون الخطاب عاماً والتهديد كذلك ، فالشرط غير مذكور وهو الإصرار .

المسألة الثانية :

ما المراد بقوله : ﴿ خَيْرٌ ﴾ ، وقول القائل : خير يقتضي اشتراك أمرين في صفة محمودة مع رجحان أحدهما على الآخر ولم يكن فيهم خير ولا صفة محمودة ؟ نقول : الجواب عنه من وجوه أحدها : منع اقتضاء الاشتراك يدل عليه قول حسان :

(أتهجوه ولست له بكفء) . . فشركما لخيركما الفداء

مع اختصاص الخير بالنبي عليه السلام والشر بمن هجاه وعدم اشتراكهما في شيء منهما

ثانيها : أن ذلك عائد إلى ما في زعمهم أي : أيزعم كفاركم أنهم خير من الكفار المتقدمين الذين أهلكوا وهم كانوا يزعمون في أنفسهم الخير ، وكذا فيمن تقدمهم من عبدة الأوثان ومكذبي الرسل وكانوا يقولون : إن الهلاك كان بأسباب سماوية من اجتماع الكواكب على هيئة مذمومة ثالثها : المراد : أكفاركم أشد قوة ، فكأنه قال : أكفاركم خير في القوة ؟ والقوة محمودة في العرف رابعها : أن كل موجود ممكن ففيه صفات محمودة وأخرى غير محمودة فإذا نظرت إلى المحمودة في الموضعين وقابلت إحداهما بالأخرى ، تستعمل فيها لفظ الخير ، وكذلك في الصفات المذمومة تستعمل فيها لفظ الشر ؟ فإذا نظرت إلى كافرين وقلت : أحدهما خير من الآخر فلك حينئذ أن تريد أحدهما خير من الآخر في الحسن والجمال ، وإذا نظرت إلى مؤمنين يؤذيانك قلت : أحدهما شر من الآخر ، أي في الأذية لا الإيمان فكذلك ههنا أكفاركم خير لأن النظر وقع على ما يصلح مخلصاً لهم من العذاب ، فهو كما يقال أكفاركم فيهم شيء مما يخلصهم لم يكن في غيرهم فهم خير أم لا شيء فيهم يخلصهم لكن الله بفضله أمنهم لا بخصال فيهم .

المسألة الثالثة :

﴿ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ ﴾ إشارة إلى سبب آخر من أسباب الخلاص ، وذلك لأن الخلاص إما أن يكون بسبب أمر فيهم أو لا يكون كذلك ، فإن كان بسبب أمر فيهم وذلك السبب لم يكن في غيرهم من الذين تقدموهم فيكونون خيراً منهم وإن كان لا بسبب أمر فيهم فيكون بفضل الله ومسامحته إياهم وإيمانه إياهم من العذاب فقال لهم : أنتم خير منهم فلا تهلكون أم لستم بخير منهم لكن الله آمنكم وأهلكهم وكل واحد منهما منتف فلا تأمنوا ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِى الزبر ﴾ إشارة إلى لطيفة وهي أن العاقل لا يأمن إلا إذا حصل له الجزم بالأمن أو صار له آيات تقرب الأمر من القطع ، فقال : لكم براءة يوثق بها وتكون متكررة في الكتب ، فإن الحاصل في بعض الكتب ربما يحتمل التأويل أو يكون قد تطرق إليه التحريف والتبديل كما في التوراة والإنجيل ، فقال : هل حصل لكم براءة متكررة في كتب تأمنون بسببها العذاب فإن لم يكن كذلك لا يجوز الأمن لكن البراءة لم تحصل في كتب ولا كتاب واحد ولا شبه كتاب ، فيكون أمنهم من غاية الغفلة وعند هذا تبين فضل المؤمن ، فإنه مع ما في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، من الوعد لا يأمن وإن بلغ درجة الأولياء والأنبياء ، لما في آيات الوعيد من احتمال التخصيص ، وكون كل واحد ممن يستثنى من الأمة ويخرج عنها فالمؤمن خائف والكافر آمن في الدنيا ، وفي الآخرة الأمر على العكس .

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44)

تتميماً لبيان أقسام الخلاص وحصره فيها ، وذلك لأن الخلاص إما أن يكون لاستحقاق من يخلص عن العذاب كما أن الملك إذا عذب جماعة ورأى فيهم من أحسن إليه فلا يعذبه ، وإما أن يكون لأمر في المخلص كما إذا رأى فيهم من له ولد صغير أو أم ضعيفة فيرحمه وإن لم يستحق ويكتب له الخلاص ، وإما أن لا يكون فيه ما يستحق الخلاص بسببه ولا في نفس المعذب مما يوجب الرحمة لكنه لا يقدر عليه بسبب كثرة أعوانه وتعصب إخوانه ، كما إذا هرب واحد من الملك والتجأ إلى عسكر يمنعون الملك عنه ، فكما نفى القسمين الأولين كذلك نفى القسم الثالث وهو التمتع بالأعوان وتحزب الإخوان ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في حسن الترتيب وذلك لأن المستحق لذاته أقرب إلى الخلاص من المرحوم ، فإن المستحق لم يوجد فيه سبب العذاب والمرحوم وجد فيه ذلك ، ووجد المانع من العذاب ، وما لا سبب له لا يتحقق أصلاً ، وماله مانع ربما لا يقوى المانع على دفع السبب ، وما في نفس المعذب من المانع أقوى من الذي بسبب الغير ، لأن الذي من عنده يمنع الداعية ولا يتحقق الفعل عند عدم الداعية ، والذي من الغير بسبب التمتع لا يقطع قصده بل يجتهد وربما

يغلب فيكون تعذيبه أضعاف ما كان من قبل ، بخلاف من يرق له قلبه وتمنعه الرحمة فإنها وإن لم تمنعه لكن لا يزيد في حمله وحبسه وزيادته في التعذيب عند القدرة ، فهذا ترتيب في غاية الحسن .

المسألة الثانية :

(50/737)

﴿ جَمِيعٌ ﴾ فيه فائدتان إحداهما الكثرة والأخرى الاتفاق ، كأنه قال : نحن كثير متفقون فلنا الانتصار ولا يقوم غير هذه اللفظة مقامها من الألفاظ المفردة ، إنما قلنا : إن فيه فائدتين لأن الجمع يدل على الجماعة بحروفه الأصلية من ج م ع وبوزنه وهو فعيل بمعنى مفعول على أنهم جمعوا جمعيتهم العصبية ، ويحتمل أن يقال : معناه نحن الكل لا خارج عنا إشارة إلى أن من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم لا اعتداد به قال تعالى في نوح : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الأرذلون ﴾ [الشعراء : 111] ﴿ إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرأى ﴾ [هود : 27] وعلى هذا ﴿ جَمِيعٌ ﴾ يكون التنوين فيه لقطع الإضافة كأنهم قالوا : نحن جمع الناس .

المسألة الثالثة :

ما وجه إفراد المنتصر مع أن نحن ضمير الجمع ؟ نقول : على الوجه الأول ظاهر لأنه وصف

الجزء الآخر الواقع خبراً فهو كقول القائل : أنتم جنس منتصر وهم عسكر غالب والجميع كالجنس لفظه لفظ واحد ، ومعناه جمع فيه الكثرة ، وأما على الوجه الثاني فالجواب عنه من وجهين أحدهما : أن المعنى وإن كان جميع الناس لا خارج عنهم إلا من لا يعتد به ، لكن لما قطع ونون صار كالمنكر في الأصل فجاز وصفه بالمنكر نظراً إلى اللفظ فعاد إلى الوجه الأول وثانيهما : أنه خبر بعد خبر ، ويجوز أن يكون أحد الخبرين معرفة والآخرين نكرة ، قال تعالى :

(51/737)

﴿ وَهُوَ الغفور الودود * ذُو العرش المجيد * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج : 14 16]

وعلى هذا فقوله : ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ أفرده لمجاورته ﴿ جَمِيعٌ ﴾ ، ويحتمل أن يقال معنى : ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ أن جميعاً بمعنى كل واحد كأنه قال : نحن كل واحد منا منتصر ، كما تقول : هم جميعهم أقوياء بمعنى أن كل واحد منهم قوي ، وهم كلهم علماء أي كل واحد عالم فترك الجمع واختار الإفراد لعود الخبر إلى كل واحد فإنهم كانوا يقولون : كل واحد منا يغلب محمداً صلى الله عليه وسلم كما قال أبي بن خلف الجمحي وهذا فيه معنى لطيف وهو أنهم ادعوا أن كل واحد غالب ، والله رد عليهم بأجمعهم بقوله :

سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45)

وهو أنهم ادعوا القوة العامة بحيث يغلب كل واحد منهم محمداً صلى الله عليه وسلم والله تعالى بين ضعفهم الظاهر الذي يعمهم جميعهم بقوله : ﴿ وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ وحينئذ يظهر سؤال وهو أنه قال : ﴿ يُوَلُّونَ الدبر ﴾ ولم يقل : يولون الأدبار .

وقال في موضع آخر : ﴿ يُوَلُّوكُمُ الأدبار ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ [آل عمران : 111] وقال : ﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عاهدوا الله مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأدبار ﴾ [الأحزاب : 15] وقال في موضع آخر : ﴿ فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأدبار ﴾ [الأنفال : 15] فكيف تصحيح الإفراد وما الفرق بين المواضع ؟ نقول : أما التصحيح فظاهر لأن قول القائل : فعلوا كقوله فعل هذا وفعل ذاك وفعل الآخر .

(52/737)

قالوا : وفي الجمع تنوب مناب الواوات التي في العطف ، وقوله : ﴿ يُوَلُّونَ ﴾ بمثابة يول هذا الدبر ، ويول ذاك ويول الآخر أي كل واحد يولي دبره ، وأما الفرق فنقول اقتضاء أواخر الآيات حسن الإفراد ، فقوله : ﴿ يُوَلُّونَ الدبر ﴾ إفراده إشارة إلى أنهم في التولية كنفس واحدة ، فلا يتخلف أحد عن الجمع ولا يثبت أحد للزحف فهم كانوا في التولية كدبر واحد

، وأما في قوله : ﴿ فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأدبار ﴾ أي كل واحد يوجد به ينبغي أن يثبت ولا يولي دبره ، فليس المنهي هناك توليتهم بأجمعهم بل المنهي أن يولي واحد منهم دبره ، فكل أحد منهي عن تولية دبره ، فجعل كل واحد برأسه في الخطاب ثم جمع الفعل بقوله : ﴿ فَلاَ تُوَلُّوهُمُ ﴾ ولا يتم إلا بقوله : ﴿ الأدبار ﴾ وكذلك في قوله : ﴿ وَلَقَدْ كَانُواْ عاهدوا الله ﴾ [لأحزاب : 15] أي كل واحد قال : أنا أثبت ولا أولي دبري ، وأما في قوله : ﴿ لَيُوَلُّنَّ الأدبار ﴾ [الحشر : 12] فإن المراد المنافقون الذين وعدوا اليهود وهم متفرقون بدليل قوله تعالى : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شتى ﴾ [الحشر : 14] ، وأما في هذا الموضع فهم كانوا يداً واحدة على من سواهم .

بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46)

إشارة إلى أن الأمر غير مقتصر على انهزامهم وإدبارهم بل الأمر أعظم منه فإن الساعة موعدهم فإنه ذكر ما يصيبهم في الدنيا من الدبر ، ثم بين ما هو منه على طريقة الإصرار ، هذا قول أكثر المفسرين ، والظاهر أن الإنذار بالساعة عام لكل من تقدم ، كأنه قال : أهلكنا الذين كفروا من قبلك وأصروا وقوم محمد عليه السلام ليسوا بخير منهم فيصيبهم ما أصابهم إن أصروا ، ثم إن عذاب الدنيا ليس لإتمام المجازاة فإتمام المجازاة بالأليم الدائم .

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما الحكمة في كون اختصاص الساعة موعدهم مع أنها موعد كل أحد ؟ نقول : الموعد الزمان الذي فيه الوعد والوعيد والمؤمن موعود بالخير ومأمور بالصبر فلا يقول هو : متى يكون ، بل يفوض الأمر إلى الله ، وأما الكافر فغير مصدق فيقول : متى يكون العذاب ؟ فيقال له : اصبر فإنه آت يوم القيامة ، ولهذا كانوا يقولون : ﴿ عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ [ص : 16] وقال : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ [الحج : 47] .

المسألة الثانية :

أدهى من أي شيء ؟ نقول : يحتمل وجهين أحدهما : ما مضى من أنواع عذاب الدنيا

ثانيهما : أدهى الدواهي فلا داهية مثلها .

المسألة الثالثة :

ما المراد من قوله : ﴿ وَأَمَرُّ ﴾ ؟ قلنا : فيه وجهان أحدهما : هو مبالغة من المر وهو مناسب لقوله تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى ﴾ [القمر : 37] وقوله : ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر : 48] وعلى هذا فأدهى أي أشد وأمر أي الم ، والفرق بين الشديد والأليم أن الشديد يكون إشارة إلى أنه لا يطيقه أحد لقوته ولا يدفعه أحد بقوته ، مثاله ضعيف ألقى في ماء يغلبه أو نار لا يقدر على الخلاص منها ، وقوي ألقي في بحر أو نار عظيمة يستويان في الألم ويتساويان في الإيلام لكن يفترقان في الشدة فإن نجاة الضعيف من الماء الضعيف بإعانة معين ممكن ، ونجاة القوي من البحر العظيم غير ممكن ثانيهما : أمر مبالغة في المار إذ هي أكثر مروراً بهم إشارة إلى الدوام ، فكأنه يقول : أشد وأدوم ، وهذا مختص بعذاب الآخرة ، فإن عذاب الدنيا إن اشتد قتل المعذب وزال فلا يدوم وإن دام بحيث لا يقتل فلا يكون شديداً ثالثها : أنه المرير وهو من المرة التي هي الشدة ، وعلى هذا فإما أن يكون الكلام كما يقول القائل : فلان نحيف نحيل وقوي شديد ، فيأتي بلفظين مترادفين إشارة إلى التأكيد وهو ضعيف ، وإما أن يكون أدهى مبالغة من الداهية التي هي اسم الفاعل من دهاه أمر كذا إذا أصابه ، وهو أمر صعب لأن الداهية صارت كالاسم الموضوع للشديد على وزن الباطية والسائبة التي لا تكون من أسماء الفاعلين ، وإن كانت الداهية أصلها ذلك ، غير أنها استعملت استعمال الأسماء وكتبت في أبوابها وعلى هذا يكون معناه ألزم وأضيق ، أي هي بحيث لا تدفع .

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (47)

ثم قال تعالى : ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾ وفي الآية مسائل :

(55/737)

الأولى : فيمن نزلت الآية في حقهم ؟ أكثر المفسرين اتفقوا على أنها نازلة في القدرية روى الواحدي في تفسيره قال : سمعت الشيخ رضي الدين المؤيد الطوسي بنيسابور ، قال : سمعت عبد الجبار قال : أخبرنا الواحدي قال : أخبرنا أبو القاسم عبد الرحمن ابن محمد السراج قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله الكعبي ، قال : حدثنا حمدان بن صالح الأشج حدثنا عبد الله بن عبد العزيز بن أبي داود ، حدثنا سفيان الثوري عن زياد بن إسماعيل المخزومي عن محمد بن عباد بن جعفر عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ المجرمين فِى ضلال وَسُعُرٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْء خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] وكذلك نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه الآية نزلت في القدرية .

(56/737)

وروي عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مجوس هذه الأمة القدرية " وهم المجرمون الذين سماهم الله تعالى في قوله : ﴿ إِنَّ المجرمين فِى ضلال وَسُعُرٍ ﴾ وكثرت الأحاديث في القدرية وفيها مباحث الأول : في معنى القدرية الذين قال النبي صلى الله عليه وسلم : نزلت الآية فيهم ، فنقول : كل فريق في خلق الأعمال يذهب إلى أن القدري خصمه ، فالجبري يقول القدري من يقول : الطاعة والمعصية ليستا بخلق الله وقضائه وقدره ، فهم قدرية لأنهم ينكرون القدر والمعتزلي يقول : القدري هو الجبري الذي يقول حين يزني ويسرق الله قدرني فهو قدري لإثباته القدر ، وهما جميعاً يقولان لأهل السنة الذي يعترف بخلق الله وليس من العبد إنه قدري ، والحق أن القدري الذي نزلت فيه الآية هو الذي ينكر القدر ويقول بأن الحوادث كلها حادثة بالكواكب واتصالاتها ويدل عليه قوله جاء مشركو قريش يحاجون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فإن مذهبهم ذلك ، وما كانوا يقولون مثل ما يقول المعتزلة إن الله خلق لي سلامة الأعضاء وقوة الإدراك ومكنني من الطاعة والمعصية ، والله قادر على أن يخلق في الطاعة إلجاء والمعصية إلجاء ، وقادر على أن يطعم الفقير الذي أطعمه أنا بفضل الله ، والمشركون كانوا يقولون : ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء الله أَطْعَمَهُ ﴾ [يس : 47] منكرين لقدرة الله تعالى على الإطعام ، وأما قوله صلى الله عليه وسلم : " مجوس هذه الأمة هم القدرية " فنقول : المراد من هذه الأمة ، إما الأمة التي

كان محمد صلى الله عليه وسلم مرسلاً إليهم سواء آمنوا به أو لم يؤمنوا كلفظ القوم ، وإما أمته الذين آمنوا به فإن كان المراد الأول فالقدرية في زمانه هم المشركون الذين أنكروا قدرة الله على الحوادث فلا يدخل فيهم المعتزلة ، وإن كان المراد هو الثاني فقوله :

(57/737)

" مجوس هذه الأمة " يكون معناه الذين نسبتهم إلى هذه الأمة كنسبة المجوس إلى الأمة المتقدمة ، لكن الأمة المتقدمة أكثرهم كفرة ، والمجوس نوع منهم أضعف شبهة وأشد مخالفة للعقل فكذلك القدرية في هذه الأمة تكون نوعاً منهم أضعف دليلاً ولا يقتضي ذلك الجزم بكونهم في النار فالحق أن القدري هو الذي ينكر قدرة الله تعالى ، إن قلنا : إن النسبة للنفي أو الذي يثبت قدرة غير الله تعالى على الحوادث إن قلنا : إن النسبة للإثبات وحينئذ يقطع بكونه : ﴿ فِى ضلال وَسُعُرٍ ﴾ وإنه ذائق مس سقر .

البحث الثاني : في بيان من يدخل في القدرية التي في النص ممن هو منتسب إلى أنه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، إن قلنا : القدرية سموا بهذا الاسم لنفيهم قدرة الله تعالى فالذي يقول لا قدرة لله على تحريك العبد بحركة هي الصلاة وحركة هي الزنا مع أن ذلك أمر ممكن لا يبعد دخوله فيهم ، وأما الذي يقول : بأن الله قادر غير أنه لم يجبره وتركه مع داعية

العبد كالوالد الذي يجرب الصبي في حمل شيء تركه معه لا لعجز الوالد بل للابتلاء والامتحان ، لا كالمفلوج الذي لا قوة له إذا قال لغيره : احمل هذا فلا يدخل فيهم ظاهراً وإن كان مخطئاً ، وإن قلنا إن القدرية سموا بهذا الاسم لإثباتهم القدرة على الحوادث لغير الله من الكواكب ، والجبري الذي قال : هو الحائط الساقط الذي لا يجوز تكليفه بشيء لصدور الفعل من غيره وهم أهل الإباحة ، فلا شك في دخوله في القدرية فإنه يكفر بنفيه التكليف وأما الذي يقول : خلق الله تعالى فينا الأفعال وقدرها وكلفنا ، ولا يسأل عما يفعل فما هو منهم .

(58/737)

البحث الثالث : اختلف القائلون في التعصب أن الاسم بالمعتزلة أحق أم بالأشاعرة ؟

فقالت : المعتزلة الاسم بكم أحق لأن النسبة تكون للإثبات لا للنفي ، يقال للدهري : دهري لقوله بالدهر ، وإثباته ، وللمباحي إباحي لإثباته الإباحة وللتنوية تنوية لإثباتهم الإثنين وهما النور والظلمة ، وكذلك أمثله وأنتم تثبتون القدر ، وقالت الأشاعرة : النصوص تدل على أن القدري من ينفي قدرة الله تعالى ومشركو قريش ما كانوا قدرية إلا لإثباتهم قدرة لغير الله ، قالت : المعتزلة إنما سمي المشركون قدرية لأنهم قالوا : إن كان قادراً على

الحوادث كما تقول يا محمد فلو شاء الله لهدانا ولو شاء لأطعم الفقير ، فاعتقدوا أن من لوازم قدرة الله تعالى على الحوادث خلقه الهداية فيهم إن شاء ، وهذا مذهبكم أيها الأشاعرة ، والحق الصراح أن كل واحد من المسلمين الذين ذهبوا إلى المذهبين خارج عن القدرية ، ولا يصير واحد منهم قدرياً إلا إذا صار النافي نافياً للقدرة والمثبت منكراً للتكليف .

المسألة الثانية :

المجرمون هم المشركون ههنا كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُؤُوسَهُمْ ﴾ [السجدة : 12] وقوله : ﴿ يَوَدُّ المجرم لَوْ يَفْتَدِي ﴾ [المعارج : 11] وفي قوله : ﴿ يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم ﴾ [الرحمن : 41] فالآية عامة ، وإن نزلت في قوم خاص . وجرمهم تكذيب الرسل والنذر بالإشراك وإنكار الحشر وإنكار قدرة الله تعالى على الإحياء بعد الإماتة ، وعلى غيره من الحوادث .

المسألة الثالثة :

﴿ فِى ضلال وَسُعُرٍ ﴾ يحتمل وجوهاً ثلاثة أحدها : الجمع بين الأمرين في الدنيا أي هم في الدنيا في ضلال وجنون لا يعقلون ولا يهتدون ، وعلى هذا فقوله : ﴿ يُسْحَبُونَ ﴾ بيان حالهم في تلك الصورة وهو أقرب ثانيها : الجمع في الآخرة أي هم في ضلال الآخرة وسعر أيضاً .

أما السعر فكونهم فيها ظاهر ، وأما الضلال فلا يجدون إلى مقصدهم أو إلى ما يصلح مقصداً وهم متحيرون سبيلاً ، فإن قيل : الصحيح هو الوجه الأخير لا غير لأن قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ ﴾ ظرف القول أي يوم يسحبون يقال لهم ذوقوا ، وسنبين ذلك فنقول : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ ﴾ يحتمل أن يكون منصوباً بعامل مذكور أو مفهوم غير مذكور ، والاحتمال الأول له وجهان أحدهما : العامل سابق وهو معنى كائن ومستقر غير أن ذلك صار نسياً منسياً ثانيهما : العامل متأخر وهو قوله : ﴿ ذُوقُواْ ﴾ تقديره : ذوقوا مس سقر يوم يسحب المجرمون ، والخطاب حينئذ مع من خوطب بقوله : ﴿ أَكُفَّارُكُم خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ ﴾ [القمر : 43] والاحتمال الثالث : أن المفهوم هو أن يقال لهم : يوم يسحبون ذوقوا ، وهذا هو المشهور ، وقوله تعالى : ﴿ ذُوقُواْ ﴾ استعارة وفيه حكمة وهو أن الذوق من جملة الإدراكات فإن المذوق إذا لاقى اللسان يدرك أيضاً حرارته وبرودته وخشونته وملاسته ، كما يدرك سائر أعضائه الحسية ويدرك أيضاً طعمه ولا يدركه غير اللسان ، فإدراك اللسان أتم ، فإذا تأذى من نار تأذى بحرارته ومرارته إن كان الحار أو غيره لا يتأذى إلا بحرارته فإذن الذوق إدراك لمسي أتم من غيره في الملموسات فقال :

﴿ ذُوقُواْ ﴾ إشارة إلى أن إدراكهم بالذوق أتم الإدراكات فيجتمع في العذاب شدته وإيلامه بطول مدته ودوامه ، ويكون المدرك له لا عذر له يشغله وإنما هو على أتم ما يكون من الإدراك فيحصل الألم العظيم .

وقد ذكرنا أن على قول الأكثرين يقال لهم أو نقول مضمر .

وقد ذكرنا أنه لا حاجة إلى الإضمار إذا كان الخطاب مع غير من قيل في حقهم : ﴿ إِنَّ المجرمين فِى ضلال ﴾ فإنه يصير كأنه قال : ذوقوا أيها المكذبون بمحمد صلى الله عليه وسلم مس سقر يوم يسحب المجرمون المتقدمون في النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 57.64 ﴾

(60/737)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ آلَ فِرْعَوْنَ النذر ﴾

يعني القبط و "النُّذُرُ" موسى وهارون .

وقد يطلق لفظ الجمع على الاثنين .

﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَاتِنَا ﴾ معجزاتنا الدالة على توحيدنا ونبوّة أنبيائنا ؛ وهي العصا ، واليد ،

والسَّنون ، والطمسة ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

وقيل : ﴿ النذر ﴾ الرسل ؛ فقد جاءهم يوسف وبنوه إلى أن جاءهم موسى .

وقيل : ﴿ النذر ﴾ الإنذار .

﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ ﴾ أي غالب في انتقامه ﴿ مُّقْتَدِرٍ ﴾ أي قادر على ما أراد .

قوله تعالى : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ ﴾ خاطب العرب .

وقيل : أراد كفار أمّة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل : استفهام ، وهو استفهام إنكار ومعناه النفي ؛ أي ليس كفاركم خيراً من كفار من تقدّم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم .

﴿ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي الزبر ﴾ أي في الكتب المنزلة على الأنبياء بالسلامة من العقوبة .

وقال ابن عباس : أم لكم في اللوح المحفوظ براءة من العذاب .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ أي جماعة لا تطاق لكثرة عددهم وقوتهم ، ولم يقل منتصرين اتباعا لرؤوس الآي ؛ فرد الله عليهم فقال : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ﴾ أي جمع كفار مكة ، وقد كان ذلك يوم بدر وغيره .

وقراءة العامة "سَيُهْزَمُ" بالياء على ما لم يسم فاعله "الْجَمْعُ" بالرفع .

وقرأ رُوَيس عن يعقوب "سَنَهْزِمُ" بالنون وكسر الزاي "الْجَمْعَ" نصباً .

﴿ وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ قراءة العامة بالياء على الخبر عنهم .

وقرأ عيسى وابن إسحاق ورُوَيس عن يعقوب "وَتُوَلُّونَ" بالتاء على الخطاب.

و﴿ الدبر ﴾ اسم جنس كالدرهم والدينار فوحّد والمراد الجمع لأجل رؤوس الآي.

وقال مقاتل: ضرب أبو جهل فرسه يوم بدر فتقدّم من الصّف وقال: نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ.

(61/737)

سَيُهْزَمُ الجمع ويُوَلُّونَ الدبر ﴾.

وقال سعيد بن جبير" قال سعد بن أبي وقّاص: لما نزل قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ويُوَلُّونَ الدبر ﴾ كنت لا أدري أي الجمع ينهزم، فلما كان يوم بَدْر رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم يَثِب في الدرع ويقول: اللهم إن قريشاً جاءتك تُحَادُّك وتُحادُّ رسولَك بفخرها و خُيَلائها فأخنهم الغداةَ ثم قال ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ويُوَلُّونَ الدبر ﴾ فعرفت تأويلها " وهذا من معجزات النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أخبر عن غيب فكان كما أخبر.

أخنى عليه الدهر: أي أتى عليه وأهلكه، ومنه قول النابغة:

أَخْنَى عليه الذي أَخْنَى على لُبَدِ . . .

وأخنيت عليه: أفسدت.

قال ابن عباس : كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين ؛ فالآية على هذا مكية .

وفي البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : لقد أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمكة وإني لجارية ألعب : ﴿ بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ والساعة أدهى وَأَمَرُّ ﴾ .

وعن ابن عباس " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال وهو في قبة له يوم بدر : "أَنْشُدُكَ عهدَكَ ووعدَكَ اللّهم إن شئت لم تُعبدْ بعدَ اليوم أبداً" فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال : حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك ؛ وهو في الدّرْع فخرج وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ويُوَلُّونَ الدبر ﴾ ﴿ بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ ﴾ يريد القيامة " ﴿ والساعة أدهى وَأَمَرُّ ﴾ أي أدهى وأمرّ مما لحقهم يوم بدر .

و"أَدْهَى" من الداهية وهي الأمر العظيم ؛ يقال : دهاه أمر كذا أي أصابه دهواً ودهياً .

وقال ابن السكيت : دهته داهية دهواء ودهياء وهي توكيد لها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المجرمين فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المجرمين فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ أي في حَيْدةٍ عن الحق و "سُعُرٍ" أي احتراق .

وقيل : جنون على ما تقدّم في هذه السورة .

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النار على وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القَدَر فنزلت : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النار على وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ خرجه الترمذي أيضاً وقال : حديث حسن صحيح .

وروى مسلم عن طاوس قال : أدركت ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : كل شيء بقَدَر .

قال : وسمعت عبد الله بن عمر يقول : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كلُّ شيءٍ بقَدر حتى العَجْز والكَيْس أو الكَيْس والعَجْز " وهذا إبطال لمذهب القدَرية .

﴿ ذُوقُواْ ﴾ أي يقال لهم ذوقوا ، ومسّها ما يجدون من الألم عند الوقوع فيها .

و"سَقَر" اسم من أسماء جهنم لا ينصرف ؛ لأنه اسم مؤنث معرفة ، وكذا لَظَى وجهنم .

وقال عطاء : "سَقَر" الطبق السادس من جهنم .

وقال قُطْرب : "سَقَر" من سَقَرته الشمسُ وصَقَرته لَوّحَتْه .

ويوم مُسَمْقِرٌ ومُصَمْقِرٌ : شديدُ الحرّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النذر ﴾

صدرت قصتهم بالتوكيد القسمي لإبراز كمال الاعتناء بشأنها لغاية عظم ما فيها من الآيات وكثرتها وهول ما لاقوه من العذاب وقوة إيجابها للاتعاظ والاكتفاء بذكر آل فرعون للعلم بأن نفسه أولى بذلك فإنه رأس الطغيان ومدعي الألوهية ، والقول : بأنه إشارة إلى إسلامه مما لا يلتفت إليه ، و﴿ النذر ﴾ إن كان جمع نذير بمعنى الإنذار فالأمر ظاهر وكذا إن كان مصدراً ، وأما إن كان جمع نذير بمعنى المنذر فالمراد به موسى .

وهرون .

وغيرهما لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون أي وبالله تعالى لقد جاءهم المنذرون ، أو الإنذارات ، أو الإنذار ، وقوله تعالى :

﴿ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كُلِّهَا ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية مجيء النذر كأنه قيل : فماذا فعل آل فرعون حينئذ ؟ فقيل : كذبوا بجميع آياتنا وهي آيات الأنبياء كلهم عليهم السلام فإن تكذيب البعض تكذيب للكل ، أو هي الآيات التسع ، وجوز الواحدي أن يراد بالنذر نفس الآيات فقوله سبحانه : ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ من إقامة الظاهر مقام الضمير والأصل كذبوا بها ، وزعم بعض غلاة الشيعة وهم المسلمون بالكشفية في زماننا أن المراد بالآيات

كلها علي كرم الله تعالى وجهه فإنه الإمام المبين المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أحصيناه فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : 12] وأنه كرم الله تعالى وجهه ظهر مع موسى عليه السلام لفرعون وقومه فلم يؤمنوا وهذا من الهذيان بمكان نسأل الله تعالى وجهه ظهر مع موسى عليه السلام لفرعون وقومه فلم يؤمنوا وهذا من الهذيان بمكان نسأل الله تعالى العفو والعافية ﴿ فأخذناهم ﴾ أي آل فرعون ، وزعم بعض أن ضمير ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ وضمير أخذناهم عائدان على جميع من تقدم ذكره من الأمم وتم الكلام عند قوله تعالى : ﴿ النذر ﴾ [القمر : 41] وليس بشيء ، والفاء للتفريع أي ﴿ فأخذناهم ﴾ وقهرناهم لأجل تكذيبهم .

(64/737)

﴿ أَخْذَ عِزِيزٍ ﴾ لا يغالب ﴿ مُّقْتَدِرٍ ﴾ .

لا يعجزه شيء ، ونصب أخذ على المصدرية لا على قصد التشبيه .

﴿ أكفاركم خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ ﴾ أي الكفار المعدودين قوم نوح .

وهود .

وصالح .

ولوط.

وآل فرعون ، والمراد الخيرية باعتبار الدنيا وزينتها ككثرة القوة والشدة ووفور العدد والعدة ، أو باعتبار لين الشكيمة في الكفر بأن يكون الكفار المحدث عنهم بالخيرية أقل عناداً وأقرب طاعة وانقياداً ، وظاهر كلام كثير أن الخطاب هنا عام للمسلمين وغيرهم حيث قالوا : ﴿ أكفاركم ﴾ يا معشر العرب ﴿ خَيْرٌ ﴾ الخ والاستفهام إنكاري في معنى النفي فكأنه قيل : ما كفاركم خير من أولئكم الكفار المعدودين بأن يكونوا أكثر منهم قوة وشدة وأوفر عدداً وعدة ، أو بأن يكونوا ألين شكيمة في الكفر والعصيان والضلال والطغيان بل هم دونهم في القوة وما أشبهها من زينة الدنيا ، أو أسوأ حالاً منهم في الكفر ، وقد أصاب من هو خير ما أصاب فكيف يطمعون هم في أن لا يصيبهم نحو ذلك ، وكذا قيل : في الخطاب في قوله تعالى :

﴿ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزبر ﴾ وجعل بتقدير أم لكفاركم وهو إضراب وانتقال إلى تنكيت آخر فكأنه قيل : بل ألكفاركم براءة وأمن من تبعات ما يعملون من الكفر والمعاصي وغوائلها في الكتب السماوية فلذلك يصرون على ما هم عليه ولا يخافون ، واختار بعضهم في هذا أنه خاص بالكفار ، وقالوا في قوله تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ إنه إضراب من التبكيت المذكور إلى تبكيت آخر بطريق الالتفات للإيذان بإفضاء حالهم إلى الإعراض عنهم وإسقاطهم عن رتبة الخطاب

وحكاية قبائحهم لغيرهم ، أي بل أيقولون واثقين بشوكتهم نحن جماعة أمرنا مجتمع لا يرام ولا يضام ، أو ﴿ مُّنتَصِرٌ ﴾ من الأعداء لا يغلب ، أو متناصر ينصر بعضنا بعضاً .

(65/737)

والذي يترجح في نظر الفقير أن الخطاب في الموضعين خاص على ما يقتضيه السياق بكفار أهل مكة أو العرب وهو ظاهر في الموضع الثاني لا يحتاج إلى شيء ، وأما في الموضع الأول فوجهه أن تكون الإضافة مثلها في الدراهم كلها كذا ، وطور سيناء ، ويوم الأحد ولم يقل أأنتم للتنصيص على كفرهم المقتضى لهلاكهم ، ويجوز أن يعتبر في ﴿ أكفاركم ﴾ [القمر : 43] ضرب من التجريد الذي ذكروه في نحو ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ [فصلت : 28] فكأنه جرد منهم كفار وأضيفوا إليهم ، وفي ذلك من المبالغة ما فيه ، ويجوز أن يكون هذا وجهاً للعدول عن أأنتم ، وربما يترجح به كون الخيرية المنفية باعتبار لين الشكيمة في الكفر وكأنه لما خوف سبحانه الكفار الذين كذبوا الآيات وأعرضوا عنها ، وقالوا هي سحر مستمر بذكر ما حل بالأمم السالفة مما تبرق وترعد منه أسارير الوعيد قال عز وجل لهم : لم لا تخافون أن يحل بكم مثل ما حل بهم أأنتم أقل كفراً وعناداً منهم ليكون ذلك سبباً للأمن من حلول نحو عذابهم بكم أم أعطاكم الله عز وجل براءة من عذابه أم أنتم أعز منهم

منتصرون على جنود الله تعالى وعدل سبحانه عن أم أنتم جميع منتصر إلى ما في النظم الجليل للإشارة إلى أن ذلك مما لا تحقق له أصلاً إلا باللفظ ومحض الدعوى التي لا يوافق عليها فتأمل ، فأسرار كلام الله تعالى لا تتناهى ، ثم لا تعجل بالاعتراض على ما قلناه وإن لم يكن لنا سلف فيه حسبما تتبعنا ، ثم إن ﴿ جَمِيعٌ ﴾ على ما أشير إليه بمعنى الجماعة التي أمرها مجتمع وليس من التأكيد في شيء بل هو خبر ﴿ نَحْنُ ﴾ ، وجوز أن يكون بمعنى مجتمع خبر مبتدأ محذوف وهو ﴿ أَمْرُنَا ﴾ والجملة خبر ﴿ نَحْنُ ﴾ وأن يكون هو الخبر والإسناد مجازي ، و ﴿ مُّنتَصِرٌ ﴾ على ما سمعت إما بمعنى ممتنع يقال : نصره فانتصر إذا منعه فامتنع .

(66/737)

والمراد بالامتناع عدم المغلوبية أو هو بمعنى منتقم من الأعداء أو هو من النصر بمعنى العون ؛ والافتعال بمعنى التفاعل كالاختصام والتخاصم وكان الظاهر منتصرون إلا أنه أفرد باعتبار لفظ الجميع فإنه مفرد لفظاً جمع معنى ورجح هنا جانب اللفظ عكس ﴿ بل أنتم قوم تجهلون ﴾ [النمل : 55] لخفة الإفراد مع رعاية الفاصلة وليس في الآية رعاية جانب المعنى أولاً ، ثم رعاية جانب اللفظ ثانياً على عكس المشهور ، وإن كان ذلك جائزاً على

الصحيح كما لا يخفى على الخبير ، وقرأ أبو حيوة .

وموسى الأسواري .

وأبو البرهسم أم تقولون بتاء الخطاب ، وقوله تعالى :

﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ﴾ رد لقولهم ذلك والسين للتأكيد أي يهزم جمعهم البتة ﴿ وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ أي الأدبار ، وقد قرىء كذلك ، والإفراد لإرادة الجنس الصادق على الكثير مع رعاية الفواصل ومشاكلة القرائن ، أو لأنه في تأويل يولي كل واحد منهم دبره على حدّ كسانا الأمير حلة مع الرعاية المذكورة أيضاً وقد كان هذا يوم بدر وهو من دلائل النبوة لأن الآية مكية ، وقد نزلت حيث لم يفرض جهاد ولا كان قتال ولذا قال عمر رضي الله تعالى عنه : يوم نزلت أي جمع يهزم أي من جموع الكفار ؟ ولم يتعرض لقتال أحد منهم ، وقد تقدم الخبر .

ومما أشرنا إليه يعلم أن قول الطيبي في هذه الرواية نظر لأن همزة الإنكار في ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ [القمر : 44] الخ دلت على أن المنهزمين من هم ناشيء عن الغفلة عن مراد عمر رضي الله تعالى عنه ، وقرأ أبو حيوة .

وموسى الأسواري .

وأبو البرهسم ستهزم الجمع بفتح التاء وكسر الزاي خطاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونصب الجمع على المفعولية ، وقرأ أبو حيوة أيضاً .

ويعقوب سنهزم بالنون مفتوحة وكسر الزاي على إسناد الفعل إلى ضمير العظمة ، وعن أبي

حيوة .

وابن أبي عبلة ﴿ سَيُهْزَمُ ﴾ الجمع بفتح الياء مبنياً للفاعل ونصب الجمع أي سيهزم الله تعالى الجمع ، وقرأ أبو حيوة .

(67/737)

وداود بن أبي سالم عن أبي عمرو وتولون بتاء الخطاب .

﴿ بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ ﴾ أي ليس هذا تمام عقوبتهم بل الساعة موعد عذابهم وهذا من طلائعه ﴿ والساعة أدهى ﴾ أي أعظم داهية وهي الأمر المنكر الفظيع الذي لا يهتدي إلى الخلاص عنه ﴿ وَأَمَرُّ ﴾ وأشد مرارة في الذوق وهو استعارة لصعوبتها على النفس ، وقيل : أقوى وليس بذاك وإظهار الساعة في موضع إضمارها لتربية تهويلها .

﴿ إِنَّ المجرمين ﴾ من الأولين والآخرين ﴿ فِي ضلال ﴾ في هلاك ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ ونيران مسعرة أو في ضلال عن الحق ونيران في الآخرة ، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : في خسران وجنون ، وقوله تعالى :

(68/737)

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ ﴾ أي يجرون ﴿ فِى النار على وُجُوهِهِمْ ﴾ متعلق بقول مقدر بعده أي يوم يسحبون يقال لهم ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ وجوز أن يكون متعلقاً بمقدر يفهم مما قبل أي يعذبون ، أو يهانون ، أو نحوه ، وجملة القول عليه حال من ضمير ﴿ يُسْحَبُونَ ﴾ وجوز كونه متعلقاً بذوقوا على أن الخطاب للمكذبين المخاطبين في قوله تعالى : ﴿ أكفاركم ﴾ [القمر : 43] الخ أي ذوقوا أيها المكذبون محمداً صلى الله عليه وسلم يوم يسحب المجرمون المتقدمون ، والمراد حشرهم معهم والتسوية بينهم في الآخرة كما ساووهم في الدنيا وهو كما ترى ، والمراد بمس سقر ألمها على أنه مجاز مرسل عنه بعلاقة السببية فإن مسها سبب للتألم بها وتعلق الذوق بمثل ذلك شائع في الاستعمال ، وفي "الكشاف" ﴿ مَسَّ سَقَرَ ﴾ كقولك وجد مس الحمى وذاق طعم الضرب لأن النار إذا أصابتهم بحرها ولحقتهم بإيلامها فكأنها تمسهم مساً بذلك كما يمس الحيوان ويباشر بما يؤذي ويؤلم وهو مشعر بأن في الكلام استعارة مكنية نحو ﴿ يَنقُضُونَ عَهْدَ الله ﴾ [البقرة : 27] ويحتمل غير ذلك ، ﴿ وسقر ﴾ على لجهنم أعاذنا الله تعالى منها ببركة كلامه العظيم وحرمة حبيبه عليه أفضل الصلاة وأكمل التسليم من سرقته للنار وصقرته بإبدال السين صاداً لأجل القاف إذا لوحته وغيرت لونه قال ذو الرمة يصف ثور الوحش

: إذا ذابت الشمس اتقى صقراتها . . .

بأفنان مربوع الصريمة معبل

وعدم الصرف للعلمية والتأنيث ، وقرأ عبد الله إلى النار ، وقرأ محبوب عن أبي عمرو ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ بإدغام السين في السين ، وتعقب ذلك ابن مجاهد بأن إدغامه خطأ لأنه مشدد ، والظن بأبي عمرو أنه لم يدغم حتى حذف إحدى السينين لاجتماع الأمثال ثم أدغم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(69/737)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) ﴾

لما كانت عدوة موسى عليه السلام غير موجهة إلى أمة القبط ، وغيرَ مراد منها التشريع لهم .

ولكنها موجهة إلى فرعون وأهل دولته الذين بأيديهم تسيير أمور المملكة الفرعونية ، ليسمحوا بإطلاق بني إسرائيل من الاستعباد ، ويمكنوهم من الخروج مع موسى خص بالنذر هنا آل فرعون ، أي فرعون وآله لأنه يصدر عن رأيهم ، ألا ترى أن فرعون لم يستأثر بردّ دعوة موسى بل قال لمن حوله : ﴿ ألا تستمعون ﴾ [الشعراء : 25] وقال : ﴿

فماذا تأمرون ﴾ [الشعراء : 35] وقالوا : ﴿ أرْجِهِ وأخاه ﴾ [الشعراء : 36] الآية ، ولذلك لم يكن أسلوب الإخبار عن فرعون ومن معه مماثلاً لأسلوب الإخبار عن قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط إذ صدر الإِخبار عن أولئك بجملة ﴿ كذبت ﴾ [القمر : 18] ، وخولف في الإِخبار عن فرعون فصدر بجملة ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ﴾ وإن كان مآل هذه الأخبار الخمسة متماثلاً .

والآل : القرابَة ، ويطلق مجازاً على من له شدة اتصال بالشخص كما في قوله تعالى : ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ [غافر : 46] .

وكان الملوك الأقدمون ينوطون وزارتهم ومشاورتهم بقرابتهم لأنهم يأمنون كيدهم .

والنُذر : جمع نذير : اسم مصدر بمعنى الإِنذار .

ووجه جمعه أن موسى كرر إنذارهم .

والقول في تأكيد الخبر بالقَسَم كالقول في نظائره المتقدمة .

وإسناد التكذيب إليهم بناء على ظاهر حالهم وإلا فقد آمن منهم رجل واحد كما في سورة غافر .

وجملة ﴿ كذبوا بآياتنا كلها ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ جاء آل فرعون النذر ﴾ لأن مجيء النذر إليهم ملابس للآيات ، وظهور الآيات مقارن لتكذيبهم بها فمجيء النذر مشتمل على التكذيب لأنه مقارنُ مقارنِهِ .

وقوله : ﴿ بآياتنا ﴾ إشارة إلى آيات موسى المذكورة في قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد ﴾ [الأعراف : 133] وهي تسع آيات منها الخمس المذكورة في آية الأعراف والأربع الأخر هي : انقلاب العصا حية ، وظهور يده بيضاء ، وسِنُو القحط ، وانفلاق البحر بمرأى من فرعون وآله ، ولم ينجع ذلك في تصميمهم على اللحاق ببني إسرائيل .

وتأكيد ﴿ آياتنا ﴾ بـ ﴿ كلها ﴾ إشارة إلى كثرتها وأنهم لم يؤمنوا بشيء منها ، وتكذيبهم بآية انفلاق البحر تكذيب فعلي لأن موسى لم يَتحدَّهُم بتلك الآية وقوم فرعون لما رأوا تلك الآية عدّوها سحراً وتوهموا البحر أرضاً فلم يهتدوا بتلك الآية .

والأخذ : مستعار للانتقام ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف ﴾ في سورة النحل (46 ، 47) .

وهذا الأخذ : هو إغراق فرعون ورجالُ دولته وجنده الذين خرجوا لنصرته كما تقدم في الأعراف .

وانتصب أخذ عزيز مقتدر ﴾ على المفعولية المطلقة مبيناً لنوع الأخذ بأفظع ما هو

معروف للمخاطبين من أخذ الملوك والجبابرة .

والعزيز : الذي لا يغلب .

والمقتدر : الذي لا يَعجِز .

وأريد بذلك أنه أخْذ لم يبق على العدوّ أيّ إبقاء بحيث قطع دابر فرعون وآله .

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43)

هذه الجملة كالنتيجة لحاصل القصص عن الأمم التي كذبت الرسل من قوم نوح فمن ذكر بعدهم ولذلك فُصِلت ولم تعطف .

وقد غير أسلوب الكلام من كونه موجَّهاً للرسول صلى الله عليه وسلم إلى توجيهه للمشركين لِيُنتقل عن التعريض إلى التصريح اعتناء بمقام الإِنذار والإِبلاغ .

والاستفهام في قوله : ﴿ أكفاركم خير من أولائكم ﴾ يجوز أن يكون على حقيقته ، ويكون من المحسن البديعي الذي سماه السكاكي "سوْقَ المعلوم مساق غيره" .

وسماه أهل الأدب من قبله بـ "تجاهل العارف" .

وعدل السكاكي عن تلك التسمية وقال لوقوعه في كلام الله تعالى نحو قوله : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ [سبأ : 24] وهو هنا للتوبيخ كما في قول ليلى ابنة طريف الخارجية ترثي أخاها الوليد بن طريف الشيباني:

أبا شَجر الخابُورِ ما لكَ مُورِقَا . . .

كأَنَّك لَم تَجْزَع على ابنِ طريف

الشاهد في قولها : كأنك لم تجزع الخ .

والتوبيخ عن تخطئتهم في عدم العذاب الذي حَلَّ بأمثالهم حتى كأنهم يحسبون كفّارهم خيراً من الكفّار الماضين المتحدَّث عن قصصهم ، أي ليس لهم خاصية تربأ بهم عن أن يلحقهم ما لَحق الكفار الماضين .

والمعنى : أنكم في عدم اكتراثكم بالموعظة بأحوال المكذبين السابقين لا تخلون عن أن أحد الأمرين الذي طمأنكم من أن يصيبكم مثل ما أصابهم .

و﴿ أم ﴾ للإِضراب الانتقالي .

وما يقدر بعدها من استفهام مستعمل في الإِنكار .

والتقدير : بل ما لكم براءة في الزبر حتى تكونوا آمنين من العقاب .

وضمير ﴿ كفاركم ﴾ لأهل مكة وهم أنفُسُهم الكفارُ ، فإضافة لفظ (كفار) إلى ضميرهم إضافة بيانية لأن المضاف صنف من جنس من أضيف هو إليه فهو على تقدير

﴿ مِن ﴾ البيانية .

والمعنى : الكفارُ منكم خير من الكفار السالفين ، أي أأنتم الكفار خير من أولئك الكفار .

والمراد بالأَخْيَرية انتفاء الكفر ، أي خير عند الله الانتقام الإِلهي وادعاء فارق بينهم وبين أولئك .

والبراءة : الخلاص والسلامة مما يضرّ أو يشقّ أو يكلّف كلفة .

والمراد هنا : الخلاص من المؤاخذة والمعاقبة .

و﴿ الزّبر ﴾ : جمع زبور ، وهو الكتاب ، وزبور بمعنى مزبور ، أي براءة كتبت في كتب الله السالفة .

والمعنى : ألكم براءة في الزبر أن كفاركم لا ينالهم العقاب الذي نال أمثالهم من الأمم السالفة .

و﴿ في الزبر ﴾ صفة ﴿ براءة ﴾ ، أي كائنة في الزبر ، أي مكتوبة في صحائف الكتب .

(72/737)

وأفاد هذا الكلام ترديد النجاة من العذاب بين الأمرين : إما الاتصاف بالخَيْر الإِلهي المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [الحجرات : 13] ، وإما المسامحة

والعفو عما يقترفه المرء من السيئات المشار إليه بقول النبي صلى الله عليه وسلم " لعل الله أطّلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " .

والمعنى انتفاء كلا الأمرين عن المخاطبين فلا مَأْمَنَ لهم من حلول العذاب بهم كما حلّ بأمثالهم .

والآية تُوذن بارتقاب عذاب ينال المشركين في الدنيا دون العذاب الأكبر ، وذلك عذاب الجوع الذي في قوله تعالى : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ [الدخان : 10] كما تقدم ، وعذاب السيف يوم بدر الذي في قوله تعالى : ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ [الدخان : 16] .

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45)

﴿ أم ﴾ منقطعة لإضراب انتقالي .

والاستفهام المقدر بعد (أم) مستعمل في التوبيخ ، فإن كانوا قد صرحوا بذلك فظاهر ، وإن كانوا لم يصرحوا به فهو إنباء بأنهم سيقولونه .

وعن ابن عباس : أنهم قالوا ذلك يوم بَدر .

ومعناه : أن هذا نزل قبل يوم بدر لأن قوله : ﴿ سيهزم الجمع ﴾ إنذار بهزيمتهم يوم بدر وهو مستقبل بالنسبة لوقت نزول الآية لوجود علامة الاستقبال .

وغير أسلوب الكلام من الخطاب الموجه إلى المشركين بقوله : ﴿ أكفاركم خير ﴾ [القمر :

43] الخ إلى أسلوب الغيبة رجوعاً إلى الأسلوب الجاري من أول السورة في قوله : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ﴾ [القمر : 2] بعد أن قُضي حق الإِنذار بتوجيه الخطاب إلى المشركين في قوله : ﴿ أكفاركم خير من أولائكم أم لكم براءة في الزبر ﴾ [القمر : 43] .

(73/737)

والكلام بشارة للنبيء صلى الله عليه وسلم وتعريض بالنّذارة للمشركين مبني على أنهم تحدثهم نفوسهم بذلك وأنهم لا يحسبون حالهم وحال الأمم التي سيقت إليهم قصصُها متساويةً ، أي نحن منتصرون على محمد صلى الله عليه وسلم لأنه ليس رسول الله فلا يؤيده الله .

و﴿ جميع ﴾ اسم للجماعة الذين أمرهُم واحد ، وليس هو بمعنى الإحاطة ، ونظيره ما وقع في خبر عمر مع علي وعباس رضي الله عنهم في قضية ما تركه النبي صلى الله عليه وسلم من أرض فَدَكَ ، قال لهما : " ثم جئتماني وأمركما جميع وكلمتكما واحدة " وقول لبيد :

عَرِيت وكان بها الجميعُ فأبكروا . . .
منها وغودَر نُؤْيُها وثُمامها

والمعنى : بل أيدَّعون أنهم يغالبون محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأنهم غالبونهم لأنهم جَميع لا يُغلبون .

ومنتصر : وصف ﴿ جميع ﴾ ، جاء بالإِفراد مراعاة للفظ ﴿ جميع ﴾ وإن كان معناه متعدداً .

وتغيير أسلوب الكلام من الخطاب إلى الغيبة مشعر بأن هذا هو ظنهم واغترارهم ، وقد روي أنّ أبا جهل قال يوم بدر : "نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه" .

فإذا صح ذلك كانت الآية من الإِعجاز المتعلق بالإِخبار بالغيب .

ولعل الله تعالى ألقى في نفوس المشركين هذا الغرور بأنفسهم وهذا الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه ليشغلهم عن مقاومته باليد ويقصرهم على تطاولهم عليه بالألسنة حتى تكثر أتباعه وحتى يتمكن من الهجرة والانتصار بأنصار الله .

فقوله : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ جواب عن قولهم : ﴿ نحن جميع منتصر ﴾ فلذلك لم تعطف الجملة على التي قبلها .

وهذا بشارة لرسوله صلى الله عليه وسلم بذلك وهو يعلم أن الله منجز وعده ولا يَزيد ذلك الكافرين إلا غروراً فلا يعيروه جانب اهتمامهم وأخذ العدة لمقاومته كما قال تعالى في نحو ذلك : ﴿ ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ [الأنفال : 44] .

والتعريف في ﴿ الجمع ﴾ للعهد ، أي الجمع المعهود من قوله : ﴿ نحن جميع منتصر ﴾

والمعنى : سيهزم جمعهم .

وهذا معنى قول النحاة : اللام عوض عن المضاف إليه .

والهزم : الغلب ، والسين لتقريب المستقبل ، كقوله : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون ﴾ [آل عمران : 12] .

وبني الفعل للمجهول لظهور أن الهازم المسلمون .

و ﴿ يولُّون ﴾ : يجعلون غيرهم يلي ، فهو يتعدى بالتضعيف إلى مفعولين ، وقد حذف مفعوله الأول هنا للاستغناء عنه إذ الغرض الإِخبار عنهم بأنهم إذا جاء الوغى يفرون ويولُّونكم الأدبار .

و ﴿ الدُّبر ﴾ : الظهر ، وهو ما أدبر ، أي كان وراءً ، وعكسه القبل .

والآية : إخبار بالغيب ، فإن المشركين هُزموا يوم بدر ، وولوا الأدبار يومئذٍ ، وولوا الأدبار في جمع آخر وهو جمع الأحزاب في غزوة الخندق ففرُّوا بليل كما مضى في سورة الأحزاب وقد ثبت في "الصحيح" أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج لصف القتال يوم بدر تلا هذه الآية قبل القتال ، إيماء إلى تحقيق وعد الله بعذابهم في الدنيا .

وأفرد الدبر ، والمراد الجمعُ لأنه جنس يصدق بالمتعدد ، أي يولي كل أحد منهم دبره ، وذلك

لرعاية الفاصلة ومزاوجة القرائن ، على أن انهزام الجمع انهزامة واحدة ولذلك الجيش جهة تولَ واحدة .

وهذا الهزم وقع يوم بدر .

روي عن عكرمة أن عمر بن الخطاب قال : " لما نَزلت ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ جَعَلْتُ أقول : أيُّ جمع يهزم ؟ فلما كان يومُ بدر رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يثب في الدرع ، ويقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ " انتهى انتهى . ا هـ ، أي لم يتبين له المراد بالجمع الذي سيُهزم ويولِّي الدبر فإنه لم يكن يومئذٍ قتال ولا كان يخطر لهم ببال .

بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46)

﴿ بل ﴾ للإِضراب الانتقالي ، وهو انتقال من الوعيد بعذاب الدنيا كما حل بالأمم قبلهم ، إلى الوعيد بعذاب الآخرة .

(75/737)

قال تعالى : ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾ [السجدة : 21] ، وعذاب الآخرة أعظم فلذلك قال : ﴿ والساعة أدهى وأمر ﴾ وقال في الآية الأخرى ﴿ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ [طه : 127] وفي الآية الأخرى ﴿

ولعذاب الآخرة أخزى ﴾ [فصلت : 16] .

و﴿ الساعة ﴾ : علم بالغلبة في القرآن على يوم الجزاء .

والموعد : وقت الوعد ، وهو هنا وعد سوء ، أي وعيد .

والإِضافة على معنى اللام أي موعد لهم .

وهذا إجمال بالوعيد ، ثم عطف عليه ما يفصّله وهو ﴿ والساعة أدهى وأمر ﴾ .

ووجه العطف أنه أريد جعله خبراً مستقلاً .

و﴿ أدهى ﴾ : اسم تفضيل من دهاه إذا أصابه بداهية ، أي الساعة أشد إصابة بداهية الخلود في النار من داهية عذاب الدنيا بالقتل والأسر .

وأمرُّ : أي أشدّ مرارة .

واستعيرت المرارة للإحساس بالمكروه على طريقة تشبيه المعقول الغائب بالمحسوس المعروف .

وأعيد اسم ﴿ الساعة ﴾ في قوله : ﴿ والساعة أدهى ﴾ دون أن يؤتي بضميرها لقصد التهويل ، ولتكون الجملة مستقلة بنفسها فتسيرَ مسيرَ المثَل .

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (47)

هذا الكلام بيان لقوله : ﴿ والساعة أدهى وأمر ﴾ [القمر : 46] .

واقتران الكلام بحرف ﴿ إن ﴾ لفائدتين ؛ إحداهما : الاهتمام بصريحه الإِخباري ،

وثانيهما : تأكيد ما تضمنه من التعريض بالمشركين ، لأن الكلام وإن كان موجهاً للنبيء صلى الله عليه وسلم وهو لا يشك في ذلك فإن المشركين يبلغهم ويشيع بينهم وهم لا يؤمنون بعذاب الآخرة فكانوا جديرين بتأكيد الخبر في جانب التعريض فتكون ﴿ إنّ ﴾ مستعملة في غرضيها من التوكيد والاهتمام .

والتعبير عنهم بـ ﴿ المجرمين ﴾ إظهار في مقام الإِضمار لإِلصاق وصف الإِجرام بهم .

والضلال : يطلق على ضد الهدى ويطلق على الخُسران ، وأكثر المفسرين على أن المراد به هنا المعنى الثاني .

(76/737)

فعن ابن عباس : المراد الخسران في الآخرة ، لأن الظاهر أن ﴿ يوم يسحبون في النار ﴾ ظرف للكون في ضلال وسعُر على نحو قوله تعالى : ﴿ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذٍ واجفة ﴾ [النازعات : 86] ، وقوله : ﴿ ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ [القصص : 42] فلا يناسب أن يكون الضلال ضد الهدى .

ويجوز أن يكون ﴿ يوم يسحبون ﴾ ظرفاً للكون الذي في خبر ﴿ إن ﴾ ، أي كائنون في ضلال وسعر يوم يسحبون في النار .

فالمعنى : أنهم في ضلال وسعر يوم القيامة و ﴿ سُعُر ﴾ جمع سعير ، وهو النار ، وجُمع السعير لأنه قوي شديد .

والسحْبُ : الجَرّ ، وهو في النار أشد من ملازمة المكان لأنه به يتجدد مماسة نار أخرى فهو أشد تعذيباً .

وجُعل السحْب على الوجوه إهانة لهم .

و ﴿ ذوقوا مس سقر ﴾ مقول قول محذوف ، والجملة مستأنفة .

والذوق مستعار للإِحساس .

وصيغة الأمر مستعملة في الإِهانة والمجازاة .

والمس مستعمل في الإِصابة على طريقة المجاز المرسل .

وسَقَر : عَلَم على جهنم ، وهو مشتق من السَّقْر بسكون القاف وهو التهاب في النار ، ف ﴿ سقر ﴾ وضع علَماً لجهنم ، ولذلك فهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث ، لأن جهنم اسم مؤنث معنىً اعتبروا فيه أن مسماه نار والنار مؤنثة .

والآية تتحمل معنى آخر ، وهو أن يراد بالضلال ضد الهدى وأن الإِخبار عن المجرمين بأنهم ليسوا على هُدى ، وأن ما هم فيه باطل وضلال ، وذلك في الدنيا ، وأن يُراد بالسُّعر نيران جهنم وذلك في الآخرة فيكون الكلام على التقسيم .

أو يكون السُّعر بمعنى الجنون ، يقال : سُعُر بضمتين وسُعْر بسكون العين ، أي جنون ، من

قول العرب ناقة مسعورة ، أي شديدة السرعة كأن بها جنوناً كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إنا إذن لفي ضلال وسعر ﴾ في هذه السورة (24) .

(77/737)

وروي عن ابن عباس وفسر به أبو علي الفارسي قائلاً : لأنهم إن كانوا في السعير لم يكونوا في ضلال لأن الأمر قد كشف لهم وإنما وصف حالهم في الدنيا ، وعليه فالضلال والسعر حاصلان لهم في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(78/737)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الدبر)

الدُّبُرُ والدُّبْر : الظَّهر ، قال الله تعالى : ﴿ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ جعله للجماعة كقوله تعالى : ﴿ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ والجمع أَدبار .

قال تعالى : ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ أَى قُدّامهم وخَلْفهم .

وقال ﴿ فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ أَى لا تنهزموا .

والدُّبر والدُّبْر أَيضا : خلاف القُبُل والقُبْل .

ودُبُر الأَمر ودُبْره : آخره .

قال الكُمَيْت :

*أَعهدكَ من أولَى الشَّبيبَةِ تطْلُبُ * على دُبُرٍ هيهات شَأْوٌ مُغَرِّبُ*

وأَدبار السّجود : أَواخر الصّلوات .

وقرئ ﴿ وإِدبار النُّجوم ﴾ بالفتح والكسر ، فالبكسر مصدر مجعول ظرفاً نحو مَقْدَم الحاجّ وخُفُوق النجم ، وأَدبار بالفتح جمع .

ويشتقّ منه تارة باعتبار دُبُر الفاعل كقولهم : دَبَر فلان ، وأَمس الدابر ﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ وباعتبار [دبر] المفعول ، دَبَر السّهم الهَدَفَ أَى سقط خَلْفه ، ودَبر فلان القوم : صار خلفهم .

والدّابر يقال للمتأَخّر والتّابع إِمّا باعتبار المكان وإِمّا باعتبار الزّمان أَو باعتبار المَرْتبة .

وأَدبر : أَعرض وولّى دُبُره .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ قال صلّى الله عليه وسلّم "لا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إِخواناً" وقيل : لا يذكر أَحدكم صاحبه مِن خلفه .

والاستدبار طلب دُبُر الشَّئ .

وتدابر القوم إذا ولَّى بعضهم عن بعض ، والدِّبار : مصدر دابرته أَى عاديته مِن خلفه .

والتَّدبير : التفكُّر فى دُبُر الأَمور .

قوله تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً ﴾ يعنى : ملائكة موكَّلة بتدبير أُمور .

ودابِرُ كلِّ شئٍ : آخره .

ويقال : قطع الله دابرهم ، أَى آخر من بَقِىَ منهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أَى استأصل الله شأْفتهم .

ودابرهم : أَصلهم .

(79/737)

ومثله قوله تعالى ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ أَى لا يُبقى منهم باقية .

ومثله قوله عزَّ وجلّ ﴿ أَنَّ دَابِرَ

هَؤُلآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ أَى آخرهم .

ودابِر الرّجل : عقبه .

والدَّبار : الهلاك الذى يقطع دابرهم .

ودَبَر اللَّيل : أَدبر ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ وهى قراءَة غير نافع وحمزة وحَفص ويعقوب وخَلَف .

ودَبَر فلان القوم أَى كان آخرهم ، ومنه قول عمر : ولكنّنى كنت أَرجو أَن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلَّم حتَّى يَدْبُرنا .

والدَّبُور .

الرّيح الَّتى تقابل الصَّبا .

ودُبِر كعنى : أَصابته ريحُ الدَّبو .

وأَدبر : خلاف أَقبل ، قال تعالى : ﴿ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ وأَدبر النهار : ولَّى ، قال : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ وهى قراءَة من تقدّم ذكره .

والتدبّر : التفكُّر ، يقال : تدبّرت الأَمر إذا نظرت فى أَدباره .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ أَى أَفلا يتفكَّرون فيعتبروا ، وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ الْقَوْلَ ﴾ أَى أَفلم يتفهَّموا ما خوطبوا به فى القرآن .

والدَّبْر : النَحْل والزنابير ونحوهما مما سلاحها فى أَدبارها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 586. 587 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (49) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (51) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (53) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر بقيام الساعة وما يتفق لهم فيها جزاء لأعمالهم التي قدرها عليهم وهي ستر فرضوا بها لاتباع الشهوات واحتجوا على رضاه بها ، وكان ربما ظن ظان أن تماديهم على الكفر لم يكن بإرادته سبحانه ، علل ذلك منبهاً على أن الكل فعله ، وإنما نسبته إلى العباد بأمور ظاهرية ، تقوم عليهم بها الحجة في مجاري عاداتهم ، فقال : ﴿ إنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ كل شيء ﴾ أي من الأشياء المخلوقة كلها صغيرها وكبيرها .

ولما كان هذا التعميم في الخلق أمراً أفهمه النصب ، استأنف قوله تفسيراً للعامل المطوي وإخباراً بجعل ذلك الخلق كله على نظام محكم وأمر مقدر مبرم ﴿ خلقناه بقدر ﴾ أي قضاء وحكم وقياس مضبوط وقسمة محدودة وقودة بالغة وتدبير محكم في وقت معلوم ومكان محدود مكتوب في ذلك اللوح قبل وقوعه تقيسه الملائكة بالزمان وغيره من العد

وجميع أنواع الأقيسة – فلا يخرم عنه مثقال ذرة لأنه لا منازع لنا مع ما لنا من القدرة الكاملة والعلم التام ، فهذا العذاب بقدرتنا ومشيئتنا فاصبروا عليه وارضوا به كما كنتم ترضون أعمالكم السيئة ثم تحتجون على عبادنا بأنها مشيئتنا بنحو ﴿ ولو شاء الله ما أشركنا ﴾ [الأنعام : 148] فقد أوصلكم إلى ما ترون وانكشف أتم انكشاف أنه لا يكون شيء على خلاف مرادنا ، ولا يقال لشيء قدرناه : لم ؟ قال الرازي في اللوامع : الكمية ساقطة عن أفعاله كما أن الكيفية والكمية ساقطتان عن ذاته وصفته – انتهى .

ولا يكون شيء من أمره سبحانه إلا ما هو على غاية الحكمة ، ولو كان الخلق لا يبعثون بعد الموت ليقع القصاص والقياس العدل ليكون القياس جزافاً لا بقدر وعدل ، لأن المشاهد أن الفساد في هذه الدار من المكلفين من الصلاح أضعافاً مضاعفة ، وقرئ في الشواذ برفع " كل " وجعله ابن جني أقوى من النصب ، وليس كذلك لأن الرفع لا يفيد ما ذكرته ، وما حمله على ذلك إلا أنه معتزلي ، والنصب على ما قدرته قاصم لأهل الاعتزال .

ولما بين أن كل شيء بفعله ، بين يسر ذلك وسهولته عليه فقال : ﴿ وما أمرنا ﴾ أي كل شيء أردناه وإن عظم أثره ، وعظم القدر وحقر المقدورات بالتأنيث فقال : ﴿ إلا واحدة ﴾ أي فعلة يسيرة لا معالجة فيها وليس هناك إحداث قول لأنه قديم بل تعلق القدرة بالمقدور على وفق الأرادة الأزلية ، ثم مثل لنا ذلك بأسرع ما يعقله وأخفه فقال : ﴿ كلمح

بالبصر ﴾ فكما أن لمح أحدكم ببصره لا كلفة عليه فيه ، فكذلك الأفعال كلها ، بل أيسر من ذلك .

(81/737)

ولما أخبر بتمام قدرته ، وكان إهلاك من ذكر من الكفار وإنجاء من ذكر من الأبرار في هذه السورة نحواً مما ذكر من أمر الساعة في السهولة والسرعة ، دل على ذلك بإنجاء أوليائه وإهلاك أعدائه فذكر بهم جملة وبما كان من أحوالهم بأيسر أمر لأن ذلك أوعظ للنفوس وأزجر للعقول ، فقال مقسماً تنبيهاً على عادتهم في الكفر مع هذا الوعظ فعل المكذب بهلاكهم لأجل تكذيبهم عاطفاً على ما تقديره : ولقد أنجينا رسلنا وأشياعهم من كل شيء خطر : ﴿ ولقد أهلكنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ أشياعكم ﴾ الذين أنتم وهم شرع واحد في التكذيب ، والقدرة عليكم كالقدرة عليهم ، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم ، فلذلك سبب عنه قوله : ﴿ فهل من مدكر ﴾ أي بما وقع لهم أنه مثل من مضى بل أضعاف .

، وأن قدرته سبحانه عليه كقدرته عليهم ليرجع عن غيه خوفاً من سطوته سبحانه .

ولما تمت الدلالة على إحاطة القدرة بما شوهد من الأفعال الهائلة التي لا تسعها قدرة غيره

سبحانه ، وكانوا يظنون أن أحواله غير مضبوطة لأنه لا يمكن ضبطها ولا يسعها علم عالم ولا سيما إذا ادعى أنه واحد ، شرع في إتمام الإخبار بعظمة القدر بالإخبار بأن أفعالهم كلها مكتوبة فضلاً عن كونها محفوظة فقال : ﴿ وكل شيء فعلوه ﴾ أي الأشياء في أيّ وقت كان ، كأن بالكتابة ﴿ في الزبر ﴾ أي كتب الحفظة فليحذروا من أفعالهم فإنها غير منسية ، هذا ما أطبق عليه القراء مما أدى إلى هذا المعنى من رفع كل ، لأنه لو نصب لأوهم تعلق الجار بالفعل فيوهم أنهم فعلوا في الزبر كل شيء من الأشياء وهو فاسد .

ولما خصهم ، عم بقوله واعظاً ومخوفاً ومحذراً بأن كل شيء محفوظ فمكتوب فمعروض على الإنسان يوم الجمع : ﴿ وكل صغير وكبير ﴾ من الجواهر والمعاني منهم ومن غيرهم ﴿ مستطر ﴾ أي مكتوب على وجه عظيم من اجتهاد الحفظة في كتابته وتحريره مع يسر ذلك وسهولته .

(82/737)

ولما أخبر عن أحوال الكفرة في الدنيا والآخرة واعظاً بها وإعلاماً بعظمته وعليّ صفاته وسعة مملكته وشامل علمه وقدرته ، ختم بأحوال القسم الآخر من أهل الساعة وهم أهل طاعته تتميماً لذلك وإشارة وبشارة للسالك في أحسن المسالك ، فقال مؤكداً رداً على

المنكر : ﴿ إن المتقين ﴾ أي العريقين في وصف الخوف من الله تعالى الذي أداهم إلى أن لا يفعلوا شيئاً إلا بدليل .

ولما كان من البساتين والمياه وما هو ظاهر بكل مراد على عكس ما عليه الضال البعيد عن القصد الواقع في الهلاك والنار قال : ﴿ في جنات ﴾ أي في بساتين ذات أشجار تسر داخلها ، قال القشيري : والجمع إذا قوبل بالجمع فالأحاد تقابل الأحاد .

ولما كانت الجنان لا تقوم وتدوم إلا بالماء قال : ﴿ ونهر ﴾ وأفرده لأن التعبير ب " في " مفهم لعمومهم به عموم ما كأنه ظرف وهم مظروفون له ، ولكثرة الأنهار وعظمها حتى أنها لقرب بعضها من بعض واتصال منابعها وتهيئ جميع الأرض لجري الأنهار منها كأنها شيء واحد ، وما وعد به المتقون من النعيم في تلك الدار فرقائقه معجلة لهم في هذه الدار ، فلهم اليوم جنات العلوم وأنهار المعارف ، وفي الآخرة الأنهار الجارية والرياض والأشجار والقصور والزخارف ، وهو يصلح مع ذلك لأن يكون مما منه النهار فيكون المعنى : أنهم في ضياء وسعة لا يزايلونه أصلاً بضد ما عليه المجرم من العمى الناشئ عن الظلام ، ولمثل هذه الأغراض أفرد مع إرادة الجنس لا للفاصلة فقط .

(83/737)

ولما كانت البساتين لا تسكن في الدنيا لأنه ليس فيها جميع ما يحتاجه الإنسان ، بين أن حال تلك غير حال هذه ، فقال مبدلاً مما قبله : ﴿ في مقعد ﴾ أي تلك الجنان محل إقامتهم التي تراد للقعود ﴿ صدق ﴾ أي فيما أراده الإنسان صدق وجوده الإرادة ولا يقعد فيه إلا أهل الصدق ، ولا يكون فيه إلا صدقه ، لا لغو فيه ولا تأثيم ، والتوحيد لإرادة الجنس مع أن الإبدال يفهم أنه لا موضع في تلك الجنان إلا وهو الصالح للتسمية بهذا الاسم ولأنهم لاتحاد قلوبهم ورضاهم كأنهم في مقعد واحد على أنه قرئ بالجمع .

ولما كان هذا غير معهود ، بين أن سببه تمكين الله لهم منه لاختصاصه لهم وتقريبه إياهم لإرضائه لهم ، فقال مقيداً لذلك بالتعبير بالعندية لأن عنديته سبحانه تعالى منزهة عن قرب الأجسام والجهات : ﴿ عند مليك ﴾ أي ملك تام الملك ﴿ مقتدر ﴾ أي شامل اقدرة بالغها إلى حد لا يمكن إدراكه لغيره سبحانه كما تقدم قريباً ، فهو يوصلهم إلى كل خير ويدفع عنهم كل ضير ، وكما أن لهم في الآخرة عندية الإشهاد فلهم في الدنيا عندية الإمداد ، ولهذا الاسم الشريف سر في الانتصار على الظالمين ، ولقد ختمت السورة كما ترى كما ابتدئت به من أمر الساعة ، وكانت البداية للبداية والنهاية للنهاية ، وزادت النهاية بيان السبب الموجد لها ، وهو قدرته سبحانه وعز شأنه وعظمت رحمته وإحسانه ، وعفوه ومغفرته ورضوانه ، ولتصنيف الناس فيها إلى كافر مستحق للانتقام ، ومؤمن مؤهل لغاية الإكرام ، لم يذكر الاسم الأعظم الجامع الذي يذكر في سياق مقتضى جمع الجلال والإكرام

لصنف واحد وهو من يقع منه الإيمان ولا يتدنس بالعصيان ، وهم الذين آمنوا ، ولمشاركتها للسورتين اللتين بعدها في هذا العرض ، وهو الكلام في حق الصنفين فقط من غير ذكر عارض ممن آمن ، أشرك الثلاثة في الخلو عن ذكر الاسم الأعظم .

(84/737)

فلم يذكر في واحدة منها وجاء فيها من الصفات ما يقتضي العظمة على أهل الكفران ، وما ينبئ عن الإكرام والإحسان لأهل الإيمان ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [الرحمن : 46] ولهذا ختمت هذه بصفة الملك المقتضي للسطوة التامة والإكرام البالغ وعدم المبالاة بأحد كائناً من كان ، لأن الملك من حيث هو ملك إما يقتضي مقامه إهانة العدو وإكرام الولي ، وجعل ذلك على وجه المبالغة أيضاً ، كل ذلك للإعلام بأن تصريفه سبحانه لأحوال الآخرة كما قصد في هذه السورة من تصريفه في أحوال الدنيا من إهلاك الأعداء وإنجاء الأولياء ، وكأن هذه السورة كانت هكذا لأنها جاءت عقب النجم التي شرح فيها الإسراء وكان للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من العظمة بخرق العوائد باختراق السماوات ، والوصول إلى أنهى الغاية من المناجاة ، وغيره من سر الملكوت ومحل الجبروت ، بعد أن لوح بمقامه عليه الصلاة والسلام بالطور ليعلم الفرق ويوصف كل بما هو الحق ، فكان ذلك

مقتضياً لئلا يكون بعده من الناس إلا مؤمن خالص ، فإن كان غيره فهو معاند شديد الكفر ، وكأنها جعلت ثلاثاً لإرادة غاية التأكيد لهذا المعنى الشديد ، فلما انقضت الثلاثة كان متبركاً به في معظم آيات الحديد ثم توجت كل آية من آيات المجادلة به إشارة إلى أنه قد حصل غاية التشوف إليه ترهيباً لمن يعصي ولا سيما من يظاهر ، وترغيباً في الطاعة للملك الغافر ، والله الموفق لما يريد إنه قوي فعال لما يريد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 370.366 ﴾

(85/737)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (49) ﴾

وفيه مسائل :

الأولى : المشهور أن قوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ ﴾ متعلق بما قبله كأنه قال : ذوقوا فإنا كل شيء خلقناه بقدر ، أي هو جزاء لمن أنكر ذلك ، وهو كقوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] والظاهر أنه ابتداء كلام وتم الكلام عند قوله : ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ

سَقَرَ﴾ [القمر: 48] ثم ذكر بيان العذاب لأن عطف: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ واحدة﴾ [القمر: 50] يدل على أن قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ﴾ ليس آخر الكلام.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الخلق والأمر﴾ [الأعراف: 54] وقد ذكر في الآية الأولى الخلق بقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خلقناه﴾ فيكون من اللائق أن يذكر الأمر فقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ واحدة﴾ وأما ما ذكر من الجدل فنقول النبي صلى الله عليه وسلم تمسك عليهم بقوله: ﴿إِنَّ المجرمين فِى ضلال﴾ [القمر: 47] إلى قوله: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: 48] وتلا آية أخرى على قصد التلاوة، ولم يقرأ الآية الأخيرة اكتفاء بعلم من علم الآية كما تقول في الاستدلالات: ﴿لاَ تَأْكُلُواْ أموالكم﴾ [النساء: 29] الآية: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: 121] الآية: ﴿وَإِذَا تَدَايَنتُم﴾ [البقرة: 283] الآية إلى غير ذلك.

المسألة الثانية:

﴿كُلٌّ﴾ قرىء بالنصب وهو الأصح المشهور، وبالرفع فمن قرأ بالنصب فنصبه بفعل مضمر يفسره الظاهر كقوله: ﴿والقمر قدرناه﴾ [يس: 39] وقوله: ﴿والظالمين أَعَدَّ

لَهُمْ ﴾ [الإنسان : 31] وذلك الفعل هو خلقناه وقد فسره قوله : ﴿ خلقناه ﴾ كأنه قال : إنا خلقنا كل شيء بقدر ، وخلقناه على هذا لا يكون صفة لشيء كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات : 49] غير أن هناك يمنع من أن يكون صفة كونه خالياً عن ضمير عائد إلى الموصوف ، وههنا لم يوجد ذلك المانع ، وعلى هذا فالآية حجة على المعتزلة لأن أفعالنا شيء فتكون داخلة في كل شيء فتكون مخلوقة لله تعالى ، ومن قرأ بالرفع لم يمكنه أن يقول كما يقول في قوله : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فهديناهم ﴾ [فصلت : 17] حيث قرىء بالرفع لأن كل شيء نكرة فلا يصح مبتدأ فيلزمه أن يقول : كل شيء خلقناه فهو بقدر ، كقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : 8] في المعنى ، وهذان الوجهان ذكرهما ابن عطية في تفسيره وذكر أن المعتزلي يتمسك بقراءة الرفع ويحتمل أن يقال : القراءة الأولى وهو النصب له وجه آخر ، وهو أن يقال : نصبه بفعل معلوم لا بمضمر مفسر وهو قدرنا أو خلقنا ، كأنه قال : إنا خلقنا كل شيء خلقناه بقدر ، أو قدرنا كل شيء خلقناه بقدر ، وإنما قلنا : إنه معلوم لأن قوله : ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خالق كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [غافر : 62] دل عليه ، وقوله : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ بِمِقْدَارٍ ﴾ دل على أنه قدر وحينئذ لا يكون في الآية دلالة على بطلان قول المعتزلي وإنما يدل على بطلان قوله :

﴿ اللهُ خالقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر : 62] وأما على القراءة الثانية وهي الرفع ، فنقول : جاز أن يكون كل شيء مبتدأ وخلقناه بقدر خبره وحينئذ تكون الحجة قائمة عليهم بأبلغ وجه ، وقوله : ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ نكرة فلا يصلح مبتدأ ضعيف لأن قوله : ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ عم الأشياء كلها بأسرها ، فليس فيه المحذور الذي في قولنا : رجل قائم ، لأنه لا يفيد فائدة ظاهرة ، وقوله : ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يفيد ما يفيد زيد خلقناه وعمرو خلقناه مع زيادة فائدة ، ولهذا جوزوا ما أحد خير منك لأنه أفاد العموم ولم يحسن قول القائل أحد خير منك حيث لم يفد العموم .

المسألة الثالثة :

(88/737)

ما معنى القدر ؟ قلنا : فيه وجوه أحدها : المقدار كما قال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : 8] وعلى هذا فكل شيء مقدر في ذاته وفي صفاته ، أما المقدر في الذات فالجسم وذلك ظاهر فيه وكذلك القائم بالجسم من المحسوسات كالبياض والسواد ، وأما الجوهر الفرد مالا مقدار له والقائم بالجوهر مالا مقدار له بمعنى الامتداد كالعلم والجهل

وغيرهما ، فنقول : ههنا مقادير لا بمعنى الامتداد ، أما الجواهر الفرد فإن الإثنين منه أصغر من الثلاثة ، ولولا أن حجماً يزداد به الامتداد ، وإلا لما حصل دون الامتداد فيه ، وأما القائم بالجوهر فله نهاية وبداية ، فمقدار العلوم الحادثة والقدر المخلوقة متناهية ، وأما الصفة فلأن لكل شيء ابتدىء زماناً فله مقدار في البقاء لكون كل شيء حادثاً ، فإن قيل : الله تعالى وصف به ، ولا مقدار له ولا ابتداء لوجوده ، نقول : المتكلم إذا كان موصوفاً بصفة أو مسمى باسم ، ثم ذكر الأشياء المسماة بذلك الاسم أو الأشياء الموصوفة بتلك الصفة ، وأسند فعلاً من أفعاله إليه يخرج هو عنه ، كما يقول القائل : رأيت جميع من في هذا البيت فرأيتهم كلهم أكرمني ، ويقول ما في البيت أحد إلا وضربني أو ضربته يخرج هو عنه لا لعدم كونه مقتضى الاسم ، بل بما في التركيب من الدليل على خروجه عن الإرادة ، فكذلك قوله : ﴿ خلقناه ﴾ و ﴿ خالق كُلّ شَىْء ﴾ [الزمر : 62] يخرج عنه لا بطريق التخصيص ، بل بطريق الحقيقة إذا قلنا : إن التركيب وضعي ، فإن هذا التركيب لم يوضع حينئذ إلا لغير المتكلم ثانيها : القدر التقدير ، قال الله تعالى : ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القادرون ﴾ [المرسلات : 23] وقال الشاعر :

وقد قدر الرحمن ما هو قادر . . أي قدر ما هو مقدر ، وعلى هذا فالمعنى أن الله تعالى لم يخلق شيئاً من غير تقدير ، كما يرمي الرامي السهم فيقع في موضع لم يكن قد قدره ، بل خلق الله كما قدر بخلاف قول الفلاسفة إنه فاعل لذاته والاختلاف للقوابل ، فالذي جاء قصيراً أو صغيراً فلاستعداد مادته ، والذي جاء طويلاً أو كبيراً فلاستعداد آخر ، فقال تعالى : ﴿ كُلَّ شَيْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ منا فالصغير جاز أن يكون كبيراً ، والكبير جاز خلقه صغيراً ثالثها : ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ هو ما يقال مع القضاء ، يقال بقضاء الله وقدره ، وقالت الفلاسفة في القدر الذي مع القضاء : إن ما يقصد إليه فقضاء وما يلزمه فقدر ، فيقولون : خلق النار حارة بقضاء وهو مقضي به لأنها ينبغي أن تكون كذلك ، لكن من لوازمها أنها إذا تعلقت بقطن عجوز أو وقعت في قصب صعلوك تخرقه ، فهو بقدر لا بقضاء ، وهو كلام فاسد ، بل القضاء ما في العلم والقدر ما في الإرادة فقوله : ﴿ كُلَّ شَيْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ أي بقدره مع إرادته ، لا على ما يقولون إنه موجب رداً على المشركين .

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50)

(90/737)

أي إلا كلمة واحدة ، وهو قوله له : (كن) هذا هو المشهور الظاهر ، وعلى هذا فالله إذا أراد شيئاً قال له : (كن) فهناك شيئان : الإرادة والقول ، فالإرادة والقول ، فالإرادة قدر ، والقول قضاء ، وقوله : ﴿ واحدة ﴾ يحتمل أمرين أحدهما : بيان أنه لا حاجة إلى تكرير القول إشارة إلى نفاذ الأمر ثانيهما : بيان عدم اختلاف الحال ، فأمره عند خلق العرش العظيم كأمره عند خلق النمل الصغير ، فأمره عند الكل واحد وقوله : ﴿ كَلَمْحٍ بالبصر ﴾ تشبيه الكون لا تشبيه الأمر ، فكأنه قال : أمرنا واحدة ، فإذن المأمور كائن كلمح بالبصر ، لأنه لو كان راجعاً إلى الأمر لا يكون ذلك صفة مدح يليق به ، فإن كلمة (كن) شيء أيضاً يوجد كلمح بالبصر هذا هو التفسير الظاهر المشهور ، وفيه وجه ظاهر ذهب إليه الحكماء ، وهي أن مقدورات الله تعالى هي الممكنات يوجدها بقدرته ، وفي عدمها خلاف لا يليق بيانه بهذا الموضع لطوله لا لسبب غيره ، ثم إن الممكنات التي يوجدها الله تعالى قسمان أحدهما : أمور لها أجزاء ملتئمة عند التئامها يتم وجودها ، كالإنسان والحيوان والأجسام النباتية والمعدنية وكذلك الأركان الأربعة ، والسموات ، وسائر الأجسام وسائر ما يقوم بالأجسام من الأعراض ، فهي كلها مقدرة له وحوادث ، فإن أجزاءها توجد أولاً ، ثم يوجد فيها التركيب والالتئام بعينها ، ففيها تقديرات نظراً إلى الأجزاء والتركيب والأعراض وثانيهما : أمور ليس لها أجزاء ومفاصل ومقادير امتدادية ، وهي الأرواح الشريفة المنورة للأجسام ، وقد أثبتها جميع الفلاسفة إلا قليلاً منهم ، ووافقهم

جمع من المتكلمين ، وقطع بها كثير ممن له قلب من أصحاب الرياضات وأرباب المجاهدات ، فتلك الأمور وجودها واحد ليس يوجد أولاً أجزاء ، وثانياً تتحقق تلك الأجزاء بخلاف الأجسام والأعراض القائمة بها ، إذا عرفت هذا قالوا : الأجسام خلقية قدرية ، والأرواح إبداعية أمرية ، وقالوا إليه الإشارة بقوله تعالى :

(91/737)

﴿ أَلَا لَهُ الخلق والأمر ﴾ [الأعراف : 54] فالخلق في الأجسام والأمر في الأرواح ثم قالوا : لا ينبغي أن يظن بهذا الكلام أنه على خلاف الأخبار فإنه صلى الله عليه وسلم قال : " أول ما خلق الله العقل " ، وروى عنه عليه السلام أنه قال : " خلق الله الأرواح قبل الأجسام بألفي عام " وقال تعالى : ﴿ الله خالق كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر : 62] فالخلق أطلق على إيجاد الأرواح والعقل لأن إطلاق الخلق على ما يطلق عليه الأمر جائز ، وإن العالم بالكلية حادث وإطلاق الخلق بمعنى الإحداث جائز ، وإن كان في حقيقة الخلق تقدير في أصل اللغة ولا كذلك في الأحداث ، ولولا الفرق بين العبارتين وإلا لاستقبح الفلسفي من أن يقول المخلوق قديم كما يستقبح من أن المحدث قديم ، فإذن قوله صلى الله عليه وسلم خلق الله الأرواح بمعنى أحدثها بأمره ، وفي هذا الإطلاق فائدة عظيمة وهي أنه صلى الله عليه

وسلم لو غير العبارة وقال في الأرواح أنها موجودة بالأمر والأجسام بالخلق لظن الذي لم يرزقه الله العلم الكثير أن الروح ليست بمخلوقة بمعنى ليست بمحدثة فكان يضل والنبي صلى الله عليه وسلم بعث رحمة ، وقالوا : إذا نظرت إلى قوله تعالى :

(92/737)

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء : 85] وإلى قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الحديد : 4] وإلى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضغة عظاما ﴾ [المؤمنون : 14] تجد التفاوت بين الأمر والخلق والأرواح والأشباح حيث جعل لخلق بعض الأجسام زماناً ممتداً هو ستة أيام وجعل لبعضها تراخياً وترتيباً بقوله : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ﴾ وبقوله : ﴿ فَخَلَقْنَا ﴾ ولم يجعل للروح ذلك ، ثم قالوا : ينبغي أن لا يظن بقولنا هذا إن الأجسام لا بد لها من زمان ممتد وأيام حتى يوجدها الله تعالى فيه ، بل الله مختار إن أراد خلق السموات والأرض والإنسان والدواب والشجر والنبات في أسرع من لمح البصر لخلقها كذلك ، ولكن مع هذا لا تخرج عن كونها موجودات حصلت لها أجزاء ووجود أجزائها قبل وجود التركيب فيها ووجودها بعد وجود الأجزاء والتركيب فيها فهي ستة ثلاثة في ثلاثة كما يخلق الله الكسر

والإنكسار في زمان واحد ولهما ترتيب عقلي .

فالجسم إذن كيفما فرضت خلقه ففيه تقدير وجودات كلها بإيجاد الله على الترتيب والروح لها وجود واحد بإيجاد الله تعالى هذا قولهم .

(93/737)

ولنذكر ما في الخلق والأمر من الوجود المنقولة والمعقولة أحدها : ما ذكرنا أن الأمر هو كلمة : ﴿كُنَّ﴾ والخلق هو ما بالقدرة والإرادة ثانيها : ما ذكروا في الأجسام أن منها الأرواح ثالثها : هو أن الله له قدرة بها الإيجاد وإرادة بها التخصيص ، وذلك لأن المحدث له وجود مختص بزمان وله مقدار معين فوجوده بالقدرة واختصاصه بالزمان بالإرادة فالذي بقدرته خلق والذي بالإرادة أمر حيث يخصصه بأمره بزمان ويدل عليه المنقول والمعقول ، أما المنقول فقوله تعالى : ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس : 82] جعل ﴿كُنَّ﴾ لتعلق الإرادة ، واعلم أن المراد من : ﴿كُنَّ﴾ ليس هو الحرف والكلمة التي من الكاف والنون ، لأن الحصول أسرع من كلمة كن إذا حملتها على حقيقة اللفظ فإن الكاف والنون لا يوجد من متكلم واحد إلا الترتيب ففي كن لفظ زمان والكون بعد بدليل قوله تعالى : ﴿فَيَكُونُ﴾ بالفاء فإذن لو كان المراد بكن حقيقة الحرف والصوت لكان الحصول

بعده بزمان وليس كذلك ، فإن قال قائل : يمكن أن يوجد الحرفان معاً وليس كلام الله تعالى ككلامنا يحتاج إلى الزمان قلنا : قد جعل له معنى غير ما نفهمه من اللفظ .

(94/737)

وأما المعقول فلأن الاختصاص بالزمان ليس لمعنى وعلة وإن كان بعض الناس ذهب إلى أن الخلق والإيجاد لحكمة وقال : بأن الله خلق الأرض لتكون مقر الناس أو مثل هذا من الحكم ولم يمكنه أن يقول : خلق الأرض في الزمان المخصوص لتكون مقراً لهم لأنه لو خلقها في غير ذلك لكانت أيضاً مقراً لهم فإذن التخصيص ليس لمعنى فهو لمحض الحكمة فهو يشبه أمر الملك الجبار الذي يأمر ولا يقال له : لم أمرت ولم فعلت ولا يعلم مقصود الآمر إلا منه رابعها : هو أن الأشياء المخلوقة لا تنفك عن أوصاف ثلاثة أو عن وصفين متقابلين ، مثاله الجسم لا بد له بعد خلقه أن يكون متحيزاً ولا بد له من أن يكون ساكناً أو متحركاً فإيجاده أولاً يخلقه وما هو عليه بأمره يدل عليه قوله تعالى :

(95/737)

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذى خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الأعراف : 54] إلى أن قال : ﴿ مسخرات بِأَمْرِهِ ﴾ [الأعراف : 54] فجعل مالها بعد خلقها من الحركة والسكون وغيرهما بأمره ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : " أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر " جعل الخلق في الحقيقة والأمر في الوصف ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [السجدة : 4] ثم قال : ﴿ يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السماء إِلَى الأرض ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ ﴾ [السجدة : 5] وقد ذكرنا تفسيره خامسها : مخلوقات الله تعالى على قسمين أحدهما : خلقه الله تعالى في أسرع ما يكون كالعقل وغيره وثانيهما : خلقه بمهلة كالسموات والإنسان والحيوان والنبات ، فالمخلوق سريعاً أطلق عليه الأمر والمخلوق بمهلة أطلق عليه الخلق ، وهذا مثل الوجه الثاني سادسها : ما قاله فخر الدين الرازي في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ [فصلت : 11] وهو أن الخلق هو التقدير والإيجاد بعده بعدية ترتيبية لا زمانية ففي علم الله تعالى أن السموات تكون سبع سموات في يومين تقديرية فهو قدر خلقه كما علم وهو إيجاد فالأول خلق والثاني وهو الإيجاد أمر وأخذ هذا من المفهوم اللغوي قال الشاعر :

وبعض الناس يخلق ثم لا يفري . . أي يقدر ولا يقطع ولا يفصل كالخياط الذي يقدر أولاً ويقطع ثانياً وهو قريب إلى اللغة لكنه بعيد الاستعمال في القرآن ، لأن الله تعالى حيث ذكر الخلق أراد الإيجاد منه قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ﴾ [العنكبوت : 61] ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خلقناه مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [يس : 77] وليس المراد أنا قدرنا أنه سيوجد منها إلى غير ذلك سابعها : الخلق هو الإيجاد ابتداء والأمر هو ما به الإعادة فإن الله خلق الخلق أولاً بمهلة ثم يوم القيامة يبعثهم في أسرع من لحظة ، فيكون قوله : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ واحدة ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ واحدة ﴾ [الصافات : 19] وقوله : ﴿ صَيْحَةً واحدة ﴾ [يس : 29] ﴿ نَفْخَةٌ واحدة ﴾ [الحاقة : 13] وعلى هذا فقوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] إشارة إلى الوحدانية .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ واحدة ﴾ إلى الحشر فكأنه بين الأصل الأول والأصل الآخر بالآيات ثامنها : الإيجاد خلق والإعدام أمر ، يعني يقول للملائكة الغلاظ الشداد أهلكوا وافعلوا فلا يعصون الله ما أمرهم ولا يقفون الامتثال على إعادة الأمر مرة أخرى فأمره مرة واحدة يعقبه العدم والهلاك .

وفيه لطيفة : وهي أن الله تعالى جعل الإيجاد الذي هو من الرحمة بيده ، والإهلاك يسلط

عليه رسله وملائكته ، وجعل الموت بيد ملك الموت ولم يجعل الحياة بيد ملك ، وهذا مناسب لهذا الموضع لأنه بين النعمة بقوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] وبين قدرته على النقمة فقال : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ واحدة ﴾ .

(97/737)

﴿ وَإِنَّا على ذَهَابٍ بِهِ لقادرون ﴾ [المؤمنون : 18] وهو كقوله : ﴿ فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التنور ﴾ [المؤمنون : 27] عند العذاب ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صالحا ﴾ [هود : 66] وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عاليها سَافِلَهَا ﴾ [هود : 82] وكما ذكر في هذه الحكايات العذاب بلفظ الأمر وبين الإهلاك به كذلك ههنا ولا سيما إذا نظرت إلى ما تقدم من الحكايات ووجدتها عين تلك الحكايات يقوي هذا القول وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أشياعكم فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : 51] يدل على صحة هذا القول تاسعها : في معنى اللمح بالبصر وجهان أحدهما : النظر بالعين يقال : لمحته ببصري كما يقال : نظرت إليه بعيني والباء حينئذ كما يذكر في الآيات فيقال : كتبت بالقلم ، واختار هذا المثال لأن النظر بالعين أسرع حركة توجد في الإنسان لأن العين وجد فيها أمور تعين على سرعة الحركة أحدها : قرب المحرك منها فإن المحرك العصبية ومنبتها

الدماغ والعين في غاية القرب منه ثانيها : صغر حجمها فإنها لا تعصى على المحرك ولا تثقل عليه بخلاف العظام ثالثها : استدارة شكلها فإن دحرجة الكرة أسهل من دحرجة المربع والمثلث رابعها : كونها في رطوبة مخلوقة في العضو الذي هو موضعها وهذه الحكمة في أن المرئيات في غاية الكثرة بخلاف المأكولات والمسموعات والمقاصد التي تقصد بالأرجل والمذوقات ، فلولا سرعة حركة الآلة التي بها إدراك المبصرات لما وصل إلى الكل إلا بعد طول زمان وثانيهما : اللمح بالبصر معناه البرق يخطف بالبصر ويمر به سريعاً والباء حينئذ للإلصاق لا للاستعانة كقوله : مررت به وذلك في غاية السرعة ، وقوله : ﴿ بالبصر ﴾ فيه فائدة وهي غاية السرعة فإنه لو قال : كلمح البرق حين برق ويبتدىء حركته من مكان وينتهي إلى مكان آخر في أقل زمان يفرض لصح ، لكن مع هذا فالقدر الذي مروره يكون بالبصر أقل

(98/737)

من الذي يكون من مبتداه إلى منتهاه ، فقال : ﴿ كَلَمْحِ ﴾ لا كما قيل : من المبدأ إلى المنتهى بل القدر الذي يمر بالبصر وهو غاية القلة ونهاية السرعة .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (51)

والأشياع الأشكال ، وقد ذكرنا أن هذا يدل على أن قوله : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ واحدة ﴾ [القمر : 50] تهديد بالإهلاك والثاني ظاهر .

وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52)

إشارة إلى أن الأمر غير مقتصر على إهلاكهم بل الإهلاك هو العاجل والعذاب الآجل الذي هو معد لهم على ما فعلوه ، مكتوب عليهم ، والزبر هي كتب الكتبة الذين قال تعالى فيهم : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدين * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين * كِرَاماً كاتبين ﴾ [الانفطار : 9 11] و : ﴿ فَعَلُوهُ ﴾ صفة شيء والنكرة توصف بالجمل .

وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (53)

(99/737)

تعميم للحكم أي ليست الكتابة مقتصرة على ما فعلوه بل ما فعله غيرهم أيضاً مسطور فلا يخرج عن الكتب صغيرة ولا كبيرة ، وقد ذكرنا في قوله تعالى : ﴿ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السموات وَلاَ فِى الأرض وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِى كتاب ﴾ [سبأ : 3] أن في قوله ﴿ أَكْبَرَ ﴾ فائدة عظيمة وهي أن من يكتب حساب إنسان فإنما يكتبه في غالب الأمر لئلا ينسى فإذا جاء بالجملة العظيمة التي يأمن نسيانها ربما يترك كتابتها ويشتغل بكتابة ما

يخاف نسيانه ، فلما قال : ﴿ وَلَا أَكْبَرَ ﴾ أشار إلى الأمور العظام التي يؤمن من نسيانها أنها مكتوبة أي ليست كتابتنا مثل كتابتكم التي يكون المقصود منها الأمن من النسيان ، فكذلك نقول : ههنا وفي قوله : ﴿ مالِ هذَا الْكِتَابِ لاَ يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف : 49] وفي جميع هذه المواضع قدم الصغيرة لأنها أليق بالتثبت عند الكتابة فيبتدىء بها حفظاً عن النسيان في عادة الخلق فأجرى الله الذكر على عادتهم ، وهذا يؤيد ما ذكرنا من قبل أن كلا وإن كان نكرة يحسن الابتداء به للعموم وعدم الإبهام .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54)

قد ذكرنا تفسير المتقين والجنات في سور منها : ﴿ الطور ﴾ وأما النهر ففيه قراءات فتح النون والهاء كحجر وهو اسم جنس ويقوم مقام الأنهار وهذا هو الظاهر الأصح وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

لا شك أن كمال اللذة بالبستان أن يكون الإنسان فيه ، وليس من اللذة بالنهر أن يكون الإنسان فيه ، بل لذته أن يكون في الجنة عند النهر ، فما فمعنى قوله تعالى : ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ ؟

نقول : قد أجبنا عن هذا في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ [الذاريات : 15] في سورة الذاريات ، وقلنا : المراد في خلال العيون ، وفيما بينها من المكان وكذلك في جنات لأن الجنة هي الأشجار التي تستر شعاع الشمس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فِى ظلال وَعُيُونٍ ﴾ [المرسلات : 41] .

وإذا كانت الجنة هي الأشجار الساترة فالإنسان لا يكون في الأشجار وإنما يكون بينها أو خلالها ، فكذلك النهر ، ونزيد ههنا وجهاً آخر وهو أن المراد في جنات وعند نهر لكون المجاورة تحسن إطلاق اللفظ الذي لا يحسن إطلاقه عند عدم المجاورة كما قال :

" علفتها تبناً وماء بارداً " . . وقالوا : تقلدت سيفاً ورمحاً ، والماء لا يعلف والرمح لا يتقلد ولكن لمجاورة التبن والسيف حسن الإطلاق فكذلك هنا لم يأت في الثاني بما أتى به في الأول من كلمة في .

المسألة الثانية :

وحد النهر مع جمع الجنات وجمع الأنهار وفي كثير من المواضع كما في قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [البقرة : 25] إلى غيره من المواضع فما الحكمة فيه ؟ نقول : أما على الجواب الأول فنقول : لما بين أن معنى في نهر في خلال فلم يكن للسامع حاجة إلى سماع الأنهار ، لعلمه بأن النهر الواحد لا يكون له خلال .

وأما في قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ فلو لم يجمع الأنهار لجاز أن يفهم أن في الجنات كلها نهراً واحداً كما في الدنيا فقد يكون نهر واحد ممتد جار في جنات كثيرة وأما على الثاني فنقول : الإنسان يكون في جنات لأنا بينا أن الجمع في جنات إشارة إلى سعتها وكثرة أشجارها وتنوعها والتوحيد عندما قال : ﴿ مَّثَلُ الجنة ﴾ [محمد : 15] وقال : ﴿ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وأموالهم بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ [التوبة : 111] لاتصال أشجارها ولعدم وقوع القيعان الخربة بينها ، وإذا علمت هذا فالإنسان في الدنيا إذا كان في بيت في دار وتلك الدار في محلة ، وتلك المحلة في مدينة ، يقال إنه في بلدة كذا ، وأما القرب فإذا كان الإنسان في الدنيا بين نهرين بحيث يكون قربه منهما على السواء يقال إنه جالس عند نهرين ، فإذا قرب من أحدهما يقال من عند أحد نهرين دون الآخر ، لكن في دار الدنيا لا يمكن أن يكون عند ثلاثة أنهار وإنما يمكن أن يكون عند نهرين ، والثالث منه أبعد من النهرين ، فهو في الحقيقة ليس يكون في زمان واحد عند أنهار والله تعالى يذكر أمر الآخرة على ما نفهمه في الدنيا ، فقال : عند نهر لما بينا أن قوله : ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ وإن كان يقتضي في نهر لكن ذلك للمجاورة كما في تقلدت سيفاً ورمحاً ، وأما قوله : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ فحقيقته مفهومة عندنا لأن الجنة الواحدة قد يجري فيها أنهار كثيرة أكثر

من ثلاثة وأربعة ، فهذا ما فيه مع أن أواخر الآيات يحسن فيها التوحيد دون الجمع ، ويحتمل أن يقال و ﴿ نهر ﴾ التنكير للتعظيم .

(102/737)

وفي الجنة نهر وهو أعظم الأنهر وأحسنها ، وهو الذي من الكوثر ، ومن عين الرضوان وكان الحصول عنده شرفاً وغبطه وكل أحد يكون له مقعد عنده وسائر الأنهار تجري في الجنة ويراها أهلها ولا يرون القاعد عندها فقال : ﴿ فِى جنات وَنَهَرٍ ﴾ أي ذلك النهر الذي عنده مقاعد المؤمنين ، وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ [البقرة : 249] لكونه غير معلوم لهم ، وفي هذا وجه حسن أيضاً ولا يحتاج على الوجهين أن نقول : نهر في معنى الجمع لكونه اسم جنس .

المسألة الثالثة :

قال ههنا : ﴿ فِى ﴾ وقال في الذاريات : ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ [الذاريات : 15] فما الفرق بينهما ؟ نقول : إنا إن قلنا في نهر معناه في خلال فالإنسان يمكن أن يكون في الدنيا في خلال عيون كثيرة تحيط به إذا كان على موضع مرتفع من الأرض والعيون تنفجر منه وتجري فتصير أنهاراً عند الامتداد ولا يمكن أن يكون وفي خلال أنهار وإنما هي نهران فحسب ،

وأما إن قلنا : إن المراد عند نهر فكذلك وإن قلنا : . . .

أي عظيم عليه مقاعد ، فنقول : يكون ذلك النهر ممتداً واصلاً إلى كل واحد وله عنده مقعد عيون كثيرة تابعة ، فالنهر للتشريف والعيون للتفرج والتنزه مع أن النهر العظيم يجتمع مع العيون الكثيرة فكان النهر مع وحدته يقوم مقام العيون مع كثرتها وهذا كله مع النظر إلى أواخر الآيات ههنا وهناك يحسن ذكر لفظ الواحد ههنا والجمع هناك .

المسألة الرابعة :

قرىء : ﴿ فِى جنات وَنَهَرٍ ﴾ على أنها جمع نهار إذ لا ليل هناك وعلى هذا فكلمة في حقيقة فيه فقوله : ﴿ فِي جنات ﴾ ظرف مكان ، وقوله : ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ أي وفي نهر إشارة إلى ظرف زمان ، وقرىء ﴿ ونهر ﴾ بسكون الهاء وضم النون على أنه جمع نهر كأسد في جمع أسد نقله الزمخشري ، ويحتمل أن يقال : نهر بضم الهاء جمع نهر كثمر في جمع ثمر .

فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ ، كيف مخرجه ؟ نقول : يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون على صورة بدل كما يقول القائل : فلان في بلدة كذا في دار كذا وعلى هذا يكون مقعد من جملة الجنات موضعاً مختاراً له مزية على ما في الجنات من المواضع وعلى هذا قوله : ﴿ عِندَ مَلِيكٍ ﴾ لأنا بينا في أحد الوجوه أن المراد من قوله : ﴿ فِى جنات وَنَهَرٍ ﴾ [القمر : 54] في جنات عند نهر فقال : ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ ويحتمل أن يقال : ﴿ عِندَ مَلِيكٍ ﴾ صفة مقعد صدق تقول درهم في ذمة ملىء خير من دينار في ذمة معسر ، وقليل عند أمين أفضل من كثير عند خائن فيكون صفة وإلا لما حسن جعله مبتدأ ثانيهما : أن يكون : ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ كالصفة لجنات ونهر أي في جنات ونهر موصوفين بأنهما في مقعد صدق ، تقول : وقفة في سبيل الله أفضل من كذا و : ﴿ عِندَ مَلِيكٍ ﴾ صفة بعد صفة .

المسألة الثانية :

(104/737)

قوله : ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ يدل على لبث لا يدل عليه المجلس ، وذلك لأن قعد وجلس ليسا على ما يظن أنهما بمعنى واحد لا فرق بينهما بل بينهما فرق ولكن لا يظهر إلا للبارع ،

والفرق هو أن القعود جلوس فيه مكث حقيقة واقتضاء ، ويدل عليه وجوه الأول : هو أن الزمن يسمى مقعداً ولا يسمى مجلساً لطول المكث حقيقة ومنه سمي قواعد البيت والقواعد من النساء قواعد ولا يقال لهن : جوالس لعدم دلالة الجلوس على المكث الطويل فذكر القواعد في الموضعين لكونه مستقراً بين الدوام والثبات على حالة واحدة ويقال للمركوب من الإبل قعود لدوام اقتعاده اقتضاء ، وإن لم يكن حقيقة فهو لصونه عن الحمل واتخاذه للركوب كأنه وجد فيه نوع قعود دائم اقتضى ذلك ولم يرد للإجلاس الثاني : النظر إلى تقاليب الحروف فإنك إذا نظرت إلى ق ع د وقلبتها تجد معنى المكث في الكل فإذا قدمت القاف رأيت قعد وقدع بمعنى ومنه تقادع الفراش بمعنى تهافت ، وإذا قدمت العين رأيت عقد وعدق بمعنى المكث في غاية الظهور وفي عدق لخفاء يقال : أعدق بيدك الدلو في البئر إذا أمره بطلبه بعد وقوعه فيها والعودقة خشبة عليها كلاب يخرج معه الدلو الواقع في البئر ، وإذا قدمت الدال رأيت دقع ودعق والمكث في الدقع ظاهر والدقعاء هي التراب الملتصق بالأرض والفقر المدقع هو الذي يلصق صاحبه بالتراب .

وفي دعق أيضاً إذ الدعق مكان تطؤه الدواب بحوافرها فيكون صلباً أجزاؤه متداخل بعضها ببعض لا يتحرك شيء منها عن موضعه الوجه الثالث : الاستعمالات في القعود إذا اعتبرت ظهر ما ذكرنا قال تعالى :

﴿ لاَّ يَسْتَوِي القاعدون مِنَ المؤمنين غَيْرُ أُوْلِي الضرر ﴾ [النساء : 95] والمراد الذي لا

يكون بعده اتباع وقال تعالى : ﴿ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ [آل عمران : 121] مع أنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف : 4] فأشار إلى الثبات العظيم .

(105/737)

وقال تعالى : ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾ [الأنفال : 45] فالمقاعد إذن هي المواضع التي يكون فيها المقاتل بثبات ومكث وإطلاق مقعدة على العضو الذي عليه القعود أيضاً يدل عليه ، إذا عرفت هذا الفرق بين الجلوس والقعود حصل لك فوائد منها ههنا فإنه يدل على دوام المكث وطول اللبث ، ومنها في قوله تعالى : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ [ق : 17] فإن القعيد بمعنى الجليس والنديم ، ثم إذا عرف هذا وقيل للمفسرين الظاهرين فما الفائدة في اختيار لفظ القعيد يدل لفظ الجليس مع أن الجليس أشهر ؟ يكون جوابهم أن آخر الآيات من قوله : ﴿ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : 16] ﴿ وَالدَّاعِ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 23] وقوله : ﴿ بِجَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [هود : 59] يناسب القعيد ، ولا الجليس وإعجاز القرآن ليس في السجع ، وإذا نظرت إلى ما ذكر تبين لك فائدة جليلة معنوية حكمية في وضع اللفظ المناسب لأن القعيد دل على أنهما لا يفارقانه ويداومان الجلوس معه ، وهذا هو المعجز

وذلك لأن الشاعر يختار اللفظ الفاسد لضرورة الشعر والسجع ويجعل المعنى تبعاً للفظ ، والله تعالى بين الحكمة على ما ينبغي وجاء باللفظ على أحسن ما ينبغي ، وفائدة أخرى في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى المجالس فافسحوا يَفْسَحِ الله لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشزوا فَانشُزُواْ ﴾ [المجادلة : 11] فإن قوله : ﴿ فافسحوا ﴾ إشارة إلى الحركة ، وقوله : ﴿ فَانشُزُواْ ﴾ إشارة إلى ترك الجلوس فذكر المجلس إشارة إلى أن ذلك موضع جلوس فلا يجب ملازمته وليس بمقعد حتى لا يفارقونه .

المسألة الثالثة :

﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ وجهان أحدهما : مقعد صدق ، أي صالح يقال : رجل صدق للصالح ورجل سوء للفاسد ، وقد ذكرناه في سورة : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السوء ﴾ [الفتح : 12] ، وثانيهما : الصدق المراد منه ضد الكذب ، وعلى هذا ففيه وجهان الأول : مقعد صدق من أخبر عنه وهو الله ورسوله الثاني : مقعد ناله من صدق فقال : بأن الله واحد وأن محمداً رسوله ، وحتمل أن يقال المراد أنه مقعد لا يوجد فيه كذب لأن الله تعالى صادق ويستحيل عليه الكذب ومن وصل إليه امتنع عليه

الكذب لأن مظنة الكذب الجهل والواصل إليه ، يعلم الأشياء كما هي ويستغني بفضل الله عن أن يكذب ليستفيد بكذبه شيئاً فهو مقعد صدق وكلمة ﴿ عِندَ ﴾ قد عرفت معناها والمراد منه قرب المنزلة والشأن لا قرب المعنى والمكان ، وقوله تعالى : ﴿ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ لأن القربة من الملوك لذيذة كلما كان الملك أشد اقتداراً كان المتقرب منه أشد التذاذاً وفيه إشارة إلى مخالفة معنى القرب منه من معنى القرب من الملوك ، فإن الملوك يقربون من يكون ممن يحبونه وممن يرهبونه ، مخافة أن يعصوا عليه وينحازوا إلى عدوه فيغلبونه ، والله تعالى قال : ﴿ مُّقْتَدِرٍ ﴾ لا يقرب أحداً إلا بفضله .

والحمد لله وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه وآله وصحبه وسلامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 64.72 ﴾

(107/737)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18) ﴾

﴿ عاد ﴾ قبيلة وقد تقدم قصصها . وقوله تعالى : ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ ، " كيف " نصب إما على خبر ﴿ كان ﴾ وإما على الحال . و: ﴿ كان ﴾ بمعنى وجد

ووقع في هذا الوجه . ﴿ ونذر ﴾ جمع نذير وهو المصدر . وقرأ ورش وحده : " ونذري " بالياء ، وقرأ الباقون " ونذر " بغير ياء على خط المصحف . و: " الصرصر " قال ابن عباس وقتادة معناه الباردة وهو الصر . وقال جماعة من المفسرين معناه : المصوتة نحو هذين الحرفين مأخوذ من صوت الريح إذا هبت دفعاً ، كأنها تنطق بهذين الحرفين ، الصاد والراء ، وضوعف الفعل كما قالوا : كبكب وكفكف من كب وكب ، وهذا كثير ، ولم يختلف القراء في سكون الحاء من " نحْس " وإضافة اليوم إليه إلا ما روي عن الحسن أنه قرأ : " في يومٍ " بالتنوين و: " نحِس " بكسر الحاء . و﴿ مستمر ﴾ معناه : متتابع ، قال قتادة : استمر بهم ذلك النحس حتى بلغهم جهنم . قال الضحاك في كتاب الثعلبي المعنى كان مراً عليهم ، وذكره النقاش عن الحسن ، وروي أن ذلك اليوم الذي كان لهم فيه ﴿ نحس مستمر ﴾ كان يوم أربعاء ، وورد في بعض الأحاديث في تفسير هذه الآية : ﴿ يوم نحس مستمر ﴾ : يوم الأربعاء ، فتأول في ذلك بعض الناس أنه يصحب في الزمن كله ، وهذا عندي ضعيف وإن كان الدولابي أبو بشر قد ذكر حديثاً رواه أبو جعفر المنصور عن أبيه محمد عن أبيه علي عن أبيه عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آخر أربعاء من الشهر يوم نحس مستمر " ، ويوجد نحو هذا في كلام الفرس والأعاجم ، وقد وجد ذكر الأربعاء التي لا تدور في شعر لبعض الخراسانيين المولدين ، وذكر الثعلبي عن زر بن حبيش في تفسير هذا اليوم لعاد أنه كل يوم أربعاء لا تدور ، وذكره النقاش عن جعفر بن

محمد وقال : كان القمر منحوساً بزحل وهذه نزعة سوء عياذاً بالله أن تصح عن جعفر بن محمد .

(108/737)

وقوله : ﴿ تنزع الناس ﴾ معناه : تنقلهم من مواضعهم نزعاً فتطرحهم . وروي عن مجاهد : أنها كانت تلقي الرجل على رأسه فيتفتت رأسه وعنقه وما يلي ذلك من بدنه فلذلك حسن التشبيه ب " أعجاز " النخل وذلك أن المنقعر هو الذي ينقلب من قعره . فذلك التشعث والشعب التي لأعجاز النخل ، كان يشبهها ما تقطع وتشعث من شخص الإنسان ، وقال قوم : إنما شبههم ب " أعجاز النخل " لأنهم كانوا يحفرون حفراً ليمتنعوا فيها من الريح ، فكأنه شبه تلك الحفر بعد النزع بحفر أعجاز النخل ، والنخل يذكّر ويؤنث فلذلك قال هنا : ﴿ منقعر ﴾ وفي غير هذه السورة :

﴿ خاوية ﴾ [الحاقة : 7] والكاف في قوله : ﴿ كأنهم أعجاز ﴾ في موضع الحال ، قاله الزجاج ، وما روي من خبر الخلجان وغيره وقوتهم ضعيف كله ، وفائدة تكرار قوله : ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ التخويف وهز الأنفس قال الرماني : لما كان الإنذار أنواعاً ، كرر التذكير والتنبيه ، وفائدة تكرار قوله : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾

التأكيد والتحريض وتنبيه الأنفس . وهذا موجود في تكرار الكلام ، مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم : " ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت " . ومثل قوله : " ألا وقول الزور ، ألا وقول الزور ، ألا وقول الزور " . وكان صلى الله عليه وسلم إذا سلم على قوم سلم عليهم ثلاثاً ، فهذا كله نحو واحد وإن تنوع ، و: ﴿ ثمود ﴾ قبيلة صالح عليه السلام وهم أهل الحجر .

(109/737)

وقرأ الجمهور : " أبشراً منا واحداً " ونصب قوله " بشراً " بإضمار " فهل " يدل عليه قوله : ﴿ نتبعه ﴾ ، و: " واحداً " نعت ل " بشر " . وقرأ أبو السمال : " أبشرٌ منا واحداً نتبعه " ورفعه إما على إضمار فعل مبني للمفعول ، التقدير : أينبأ بشر ، وإما على الابتداء والخبر في قوله ﴿ نتبعه ﴾ و: " واحداً " على هذه القراءة إما من الضمير في : ﴿ نتبعه ﴾ وإما عن المقدر مع : ﴿ منا ﴾ كأنه يقول : أبشر كائن منا واحداً ، وفي هذا نظر . وحكى أبو عمرو الداني قراءة أبي السمال : " أبشر منا واحد " بالرفع فيهما .

وهذه المقالة من ثمود حسد منهم واستبعاد منهم أن يكون نوع المبشر يفضل بعضه بعضاً هذا الفضل فقالوا : أنكون جمعاً ونتبع واحداً ، ولم يعلموا أن الفضل بيد الله ، يؤتيه من يشاء ، ويفيض نور الهدى من رضيه .

وقوله : ﴿ في ضلال ﴾ معناه : في أمر متلف مهلك بالإتلاف ، ﴿ وسعر ﴾ معناه : في احتراق أنفس واستعارها حنقاً وهماً باتباعه ، وقيل في السعر : العناء ، وقاله قتادة . وقيل الجنون ، ومنه قولهم ناقة بمعنى مسعورة ، إذا كانت تفرط في سيرها ، ثم زادوا في التوقي بقولهم : ﴿ أألقي الذكر عليه من بيننا ﴾ ، و ﴿ ألقي ﴾ بمعنى أنزل ، وكأنه يتضمن عجلة في الفعل ، والعرب تستعمل هذا الفعل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ [طه : 39] ومنه قوله : ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ [المزمل : 5] ، و ﴿ الذكر ﴾ هنا : الرسالة وما يمكن أن جاءهم به من الحكمة والموعظة ، ثم قالوا : ﴿ بل هو كذاب أشر ﴾ أي ليس الأمر كما يزعم ، والأشر : البطر والمرح ، فكأنهم رموه بأنه ﴿ أشر ﴾ ، فأراد العلو عليهم وأن يقتادهم ويتملك طاعتهم فقال الله تعالى لصالح : ﴿ سيعلمون غداً ﴾ وهذه بالياء من تحت قراءة علي بن أبي طالب وجمهور الناس . وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم وابن وثاب وطلحة والأعمش " ستعلمون " بالتاء على معنى قل لهم يا صالح .

(110/737)

وقوله : ﴿ غداً ﴾ تقريب يريد به الزمان المستقبل ، لا يوماً بعينه ، ونحو المثل : مع اليوم غد .

وقرأ جمهور الناس : " الأشِر " بكسر السين كحذِر بكسر الذال . وقرأ مجاهد فيما ذكر عنه الكسائي : " الأشُر " بضم الشين كحذُر بضم الذال ، وهما بناءان من اسم فاعل . وقرأ أبو حيوة : " الأشَر " بفتح الشين ، كأنه وصف بالمصدر . وقرأ أبو قلابة : " الأشَرّ " بفتح الشين وشد الراء ، وهو الأفعل ، ولا يستعمل بالألف واللام وهو كان الأصل لكنه رفض تخفيفاً وكثرة استعمال .

إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27)

(111/737)

هذه ﴿ الناقة ﴾ التي اقترحوها أن تخرج لهم من صخرة صماء من الجبل ، وقد تقدم قصصها ، فأخبر الله تعالى صالحاً على جهة التأنيس أنه يخرج لهم الناقة ابتلاء واختباراً ، ثم أمره بارتقاب الفرج وبالصبر . ﴿ واصطبر ﴾ أصله : اصتبر . افتعل ، أبدلت التاء طاء لتناسب الصاد . ثم أمره بأن يخبر ثمود ﴿ أن الماء قسمة بينهم ﴾ : و﴿ الماء ﴾ : هو ماء البئر التي كانت لهم ، واختلف المتأولون في معنى هذه القسمة ، فقال جمهور منهم

﴿ قسمة بينهم ﴾ : و﴿ الماء ﴾ : هو ماء البئر التي كانت لهم ، واختلف المتأولون في معنى هذه القسمة ، فقال جمهور منهم ﴿ قسمة بينهم ﴾ : يتواسونه في اليوم الذي لا ترده الناقة وذلك فيما روي أن الناقة كانت ترد البئر غباً ، وتحتاج جميع مائه يومها ، فنهاهم الله عن أن يستأثر أهل اليوم الذي لا ترد الناقة فيه بيومهم ، وأمرهم بالتواسي مع الذين ترد الناقة في يومهم . وقال آخرون معناه : الماء بين جميعهم وبين الناقة قسمة . و: ﴿ محتضر ﴾ معناه : محضور مشهود متواسىً فيه ، وقال مجاهد المعنى : ﴿ كل شرب ﴾ أي من الماء يوماً ومن لبن الناقة يوماً ﴿ محتضر ﴾ لهم ، فكأنه أنبأهم الله عليهم في ذلك . و: ﴿ صاحبهم ﴾ هو قدار بن سالف ، وبسببه سمي الجزار القدار لشبه في الفعل ، قال الشاعر [عدي بن ربيعة] : [الكامل]

إنا لنضرب بالسيوف رؤوسهم . . . ضرب القدار نقيعة القدام

(112/737)

وقد تقدم شرح أمر قدار بن سالف . و: " تعاطى " مطاوع عاطى ، فكأن هذه الفعلة تدافعها الناس وأعطاها بعضهم بعضاً ، فتعاطاها هو وتناول العقر بيده ، قاله ابن عباس ، ويقال للرجل الذي يدخل نفسه في تحمل الأمور الثقال متعاط على الوجه الذي ذكرناه ،

والأصل عطا يعطو ، إذا تناول ، ثم يقال : عاطى ، وهو كما تقول : جرى وجارى وتجارى وهذا كثير ، ويروى أنه كان مع شرب وهم التسعة الرهط ، فاحتاجوا ماء فلم يجدوه بسبب ورد الناقة ، فحمله أصحابه على عقرها . ويروى أن ملأ القبيل اجتمع على أن يعقرها ، ورويت أسباب غير هذين ، وقد تقدم ذلك .

والصيحة : يروى أن جبريل عليه السلام صاحها في طرف من منازلهم فتفتتوا وهمدوا ﴿ فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ . والهشيم : ما تفتت وتهشم من الأشياء .

وقرأ جمهور الناس : "كهشيم المحتظِر" بكسر الظاء ، ومعناه : الذي يصنع حظيرة من الرعاء ونحوهم قاله أبو إسحاق السبيعي والضحاك وابن زيد ، وهي مأخوذة من الحظر وهو المنع ، والعرب وأهل البوادي يصنعونها للمواشي وللسكنى أيضاً من الأغصان والشجر المورق والقصب ونحوه ، وهذا كله هشيم يتفتت إما في أول الصنعة ، وإما عند بلى الحظيرة وتساقط أجزائها . وحكى الطبري عن ابن عباس وقتادة أن "المحتظِر" معناه : المحترق .

(113/737)

قال قتادة : كهشيم محرق . وقرأ الحسن بن أبي الحسن وأبو رجاء : " المحتظَر " بفتح الظاء ، ومعناه الموضع الذي احتظر ، فهو مفعل من الحظر ، أو الشيء الذي احتظر به . وقد روي عن سعيد بن جبير أنه فسر : ﴿ كهشيم المحتظر ﴾ بأن قال : هو التراب الذي سقط من الحائط البالي ، وهذا متوجه ، لأن الحائط حظيرة ، والساقط هشيم . وقال أيضاً هو وغيره : ﴿ المحتظر ﴾ ، معناه : المحرق بالنار ، كأنه ما في الموضع المحتظر بالنار ، وما ذكرناه عن ابن عباس وقتادة هو على قراءة كسر الظاء ، وفي هذا التأويل بعض البعد . وقال قوم : " المحتظَر " بالفتح الهشيم نفسه وهو مفتعل ، وهو كمسجد الجامع وشبهه .

وقد تقدم قصص قوم لوط . والحاصب : السحاب الرامي بالبرد وغيره ، وشبه تلك الحجارة التي رمى بها قوم لوط به بالكثرة والتوالي ، وهو مأخوذ من الحصباء ، كان السحاب يحصب مقصده ، ومنه قول الفرزدق : [البسيط]

مستقبلين شمال الشام تحصبهم . . . بحاصب كنديف القطن منثور

وقال ابن المسيب : سمعت عمر بن الخطاب يقول لأهل المدينة : مصروف ، لأنه نكرة لم يرد به يوم بعينه . وقوله : ﴿ نعمة ﴾ نصب على المصدر ، أي فعلنا ذلك إنعاماً على القوم الذين نجيناهم ، وهذا هو جزاؤنا لمن شكر نعمنا وآمن وأطاع .

وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (36)

المعنى : ولقد أنذر لوط قومه أخذنا إياهم ، و: ﴿ بطشتنا ﴾ بهم ، أي عذابنا لهم . و:

﴿ تماروا ﴾ معناه : تشككوا وأهدى بعضهم الشك إلى بعض بتعاطيهم الشبه والضلال . و: ﴿ النذر ﴾ جمع نذير . وهو المصدر ، ويحتمل أن يراد ﴿ بالنذر ﴾ هنا وفي قوله : ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر ﴾ [القمر : 33] جمع نذير ، الذي هو اسم الفاعل والضيف : يقع للواحد والجميع ، وقد تقدم ذكر أضيافه وقصصهم مستوعباً .

(114/737)

وقوله : ﴿ فطمسنا أعينهم ﴾ قال قتادة : هي حقيقة ، جر جبريل شيئاً من جناحه على أعينهم فاستوت مع وجوههم . قال أبو عبيدة : مطموسة بجلد كالوجه . وقال ابن عباس والضحاك : هي استعارة وإنما حجب إدراكهم فدخلوا المنزل ولم يروا شيئاً ، فجعل ذلك كالطمس .

وقوله تعالى : ﴿ بكرة ﴾ قيل : كان ذلك عند طلوع الفجر ، وأدغم ابن محيصن الدال في الصاد من قوله : ﴿ ولقد صبحهم ﴾ والجمهور على غير الإدغام . ﴿ بكرة ﴾ نكرة ، فلذلك صرفت . وقوله : ﴿ فذوقوا عذابي ﴾ يحتمل أن يكون من قول الله تعالى لهم ، ويحتمل أن يكون من قول الملائكة ، ﴿ ونذر ﴾ جمع المصدر ، أي وعاقبة نذري التي كذبتم بها ، وقوله : ﴿ مستقر ﴾ في صفة العذاب ، لأنه لم يكشف عنهم كاشف ، بل

اتصل ذلك بموتهم ، وهم مدة موتهم تحت الأرض معذبون بانتظار جهنم ، ثم يتصل ذلك بعذاب النار ، فهو أمر متصل مستقر ، وكرر ﴿ فذوقوا عذابي ونذر ﴾ تأكيداً وتوبيخاً ، وروى ورش عن نافع : " نذري " بياء .

و﴿ آل فرعون ﴾ : قومه وأتباعه ومنه قول الشاعر [أراكة الثقفي] : [الطويل]

فلا تبك ميتاً بعد ميت أجنه . . . علي وعباس وآل أبي بكر

يريد : المسلمين في مواراة النبي عليه السلام ، ويحتمل أن يريد ب ﴿ آل فرعون ﴾ : قرابته على عرف الآن ، وخصصهم بالذكر ، لأنهم عمدة القوم وكبراؤهم .

وقوله : ﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ يحتمل أن يريد ﴿ آل فرعون ﴾ المذكورين . و: ﴿ أخذناهم ﴾ كذلك يريدهم بالضمير ، لأن ذلك الإغراق الذي كان في البحر ، كان بالعزة والقدرة ، ويكون قوله : ﴿ بآياتنا ﴾ يريد بها : التسع ، ثم أكد بكلها ، ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ﴾ كلاماً تاماً ، ثم يكون قوله : ﴿ كذبوا بآياتنا كلها ﴾ يعود الضمير في ﴿ كلها ﴾ على جميع من ذكر من الأمم المذكورة .

(115/737)

وقوله تعالى : ﴿ أكفاركم ﴾ الآية خطاب لقريش ، وفهم على جهة التوبيخ . أثم خصلة من المال أو قوة أبدان وبسطة أو عقول أو غير ذلك ممنا يقتضي أنكم خير من هؤلاء المعذبين لما كذبوا ، فيرجى لكم بذلك الفضل النجاء من العذاب حين كذبتم رسولكم ؟ ﴿ أم لكم ﴾ في كتب الله المنزلة ﴿ براءة ﴾ من العذاب ؟ قاله الضحاك وابن زيد وعكرمة ، ثم قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ أم يقولون ﴾ نحن واثقون بجماعتنا منتصرون بقوتنا على جهة الإعجاب والتعاطي ؟ سيهزمون ، فلا ينفع جمعهم . وقرأ أبو حيوة " أم تقولون " بالتاء من فوق .

سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45)

هذه عدة من الله تعالى لرسوله أن جمع قريش سيهزم نصرة له ، والجمهور على أن الآية مكية ، وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال : كنت أقول في نفسي أي جمع يهزم ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثبت في الدرع ويقول ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : فإنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بدر مستشهداً بالآية . وقال قوم : إن الآية نزلت يوم بدر .

وقال أبو حاتم : وقرأ بعض القراء : " سيَهزِم " بفتح الياء وكسر الزاي " الجمعَ " نصباً ، قال أبو عمرو الداني قرأ أبو حيوة : " سنهزِم " بالنون وكسر الزاي " الجمعَ " نصباً . " وتولون "

بالتاء من فوق ، ثم تركت هذه الأقوال ، وأضرب عنها تهمماً بأمر الساعة التي عذابها أشد عليهم من كل هزيمة وقتل فقال : ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ . و: ﴿ أدهى ﴾ أفعل من الداهية : وهي الرزية العظمى تنزل بالمرء . ﴿ وأمرّ ﴾ من المرارة ، واللفظة ليست هنا مستعارة ، لأنها ليست فيما يذاق .

(116/737)

ثم أخبر تعالى عن المجرمين أنهم في الدنيا في حيرة وإتلاف وفقد هدى وفي الآخرة في احتراق وتسعر من حيث هم صائرون إليه ، قال ابن عباس المعنى : في خسران وجنون ، والسعر الجنون . وأكثر المفسرين على أن ﴿ المجرمين ﴾ هنا يراد بهم الكفار . وقال قوم المراد ب ﴿ المجرمين ﴾ : القدرية الذين يقولون إن أفعال العباد ليست بقدر من الله ، وهم المتوعدون بالسحب في جهنم ، والسحب : الجر . وفي قراءة ابن مسعود : " إلى النار " . وقوله تعالى : ﴿ ذوقوا مس ﴾ استعارات ، والمعنى : يقال لهم على جهة التوبيخ . واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ ، فقرأ جمهور الناس : " إنا كلَّ " بالنصب ، والمعنى : خلقنا كل شيء خلقناه بقدر ، وليست ﴿ خلقناه ﴾ في موضع الصفة لشيء ، بل هو فعل دال على الفعل المضمر ، وهذا المعنى يقتضي أن كل

شيء مخلوق ، إلا ما قام دليل العقل على أنه ليس بمخلوق كالقرآن والصفات . وقرأ أبو السمال ورجحه أبو الفتح : " إنا كلُّ " بالرفع على الابتداء ، والخبر : ﴿ خلقناه بقدر ﴾ . قال أبو حاتم : هذا هو الوجه في العربية ، وقراءتنا بالنصب مع جماعة ، وقرأها قوم من أهل السنة بالرفع ، والمعنى عندهم على نحو ما عند الأولى أن كل شيء فهو مخلوق بقدر سابق ، و: ﴿ خلقناه ﴾ على هذا ليست صفة لشيء ، وهذا مذهب أهل السنة ، ولهم احتجاج قوي بالآية على هذين القولين ، وقالت القدرية وهم الذين يقولون : لا قدر ، والمرء فاعل وحده أفعاله . القراءة " إنا كلُّ شيء خلقناه " برفع " كلُّ " : و﴿ خلقناه ﴾ في موضع الصفة ب " كلَّ " ، أي أن أمرنا وشأننا كلُّ شيء خلقناه فهو بقدر وعلى حد ما في هيئته وزمنه وغير ذلك ، فيزيلون بهذا التأويل موضع الحجة عليهم بالآية .

(117/737)

وقال ابن عباس : إني أجد في كتاب الله قوماً ﴿ يسحبون في النار على وجوههم ﴾ لأنهم كانوا يكذبون بالقدر ، ويقولون : المرء يخلق أفعاله ، وإني لا أراهم ، فلا أدري أشيء مضى قبلنا أم شيء بقي ؟ .

وقال أبو هريرة : خاصمت قريش رسول الله في القدر فنزلت هذه الآية ، قال أبو عبد

الرحمن السلمي : فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل ؟ أفي شيء نستأنفه ؟ أم في شيء قد فرغ منه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له ، سنيسره لليسرى وسنيسره للعسرى " ، وقال أنس بن مالك : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " القدرية يقولون الخير والشر بأيدينا ، ليس لهم في شفاعتي نصيب ولا أنا منهم ولا هم مني " .

وقوله : ﴿ إلا واحدة ﴾ ، أي : إلا قولة واحدة وهي : كن . وقوله : ﴿ كلمح بالبصر ﴾ تفهيم للناس بأعجل ما يحسون وفي أشياء أمر الله تعالى أوحى من لمح البصر . والأشياع : الفرق المتشابهة في مذهب ودين ، ونحوه الأول شيعة للآخر ، الآخر شيعة للأول .

ثم أخبر تعالى أن كل أفعال الأمم المهلكة مكتوب محفوظ عليهم إلى يوم الحساب ، قاله ابن عباس وقتادة والضحاك وابن زيد . و: ﴿ مستطر ﴾ مفتعل من السطر ، تقول سطرت واستطرت بمعنى ، وروي عن عاصم شد الراء في " مستطرّ " ، قال أبو عمرو : وهذا لا يكون إلا عند الوقف لغة معروفة .

وقرأ جمهور الناس : " ونَهَر " بفتح الهاء والنون ، على أنه اسم الجنس ، يريد به الأنهار ، أو على أنه بمعنى : وسعة في الأرزاق والمنازل ، ومنه قول قيس بن الخطيم : [الطويل]

ملكت بها كفي فأنهرت فتقها . . . يرى قائم من دونها ما وراءها

فقوله : " أنهرت " معناه : جعلت فتقها كنهر . وقرأ زهير الفرقبي والأعمش : " ونُهُر " بضم النون والهاء ، على أنه جمع نهار ، إذ لا ليل في الجنة ، وهذا سائغ في اللفظ قلق في المعنى ، ويحتمل أن يكون جمع نهر . وقرأ مجاهد وحميد وأبو السمال والفياض بن غزوان : " نهْر " ساكنة الهاء على الإفراد .

وقوله تعالى : ﴿ مقعد صدق ﴾ يحتمل أن يريد به الصدق الذي هو ضد الكذب ، أي في المقعد الذي صدقوا في الخبر به ، ويحتمل أن يكون من قولك : عود صدق ، أي جيد ، ورجل صدق ، أي خبر وخلال حسان .

وقرأ جمهور الناس : " في مقعد " على اسم الجنس . وقرأ عثمان البتي : " في مقاعد " على الجمع . والمليك المقتدر : الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(119/737)

وقال القرطبى :

الثانية : قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ ﴾ قراءة العامة ﴿ كُلَّ ﴾ بالنصب .

وقرأ أبو السَّمَّال "كُلٌّ" بالرفع على الابتداء .

ومن نصب فبإضمار فعل وهو اختيار الكوفيين ؛ لأن إنّ تطلب الفعل فهي به أولى ، والنصب أدلّ على العموم في المخلوقات لله تعالى ؛ لأنك لو حذفت ﴿ خَلَقْنَاهُ ﴾ المفسِّر وأظهرت الأوّل لصار إنا خلقنا كلّ شيء بقدر .

ولا يصح كون خلقناه صفة لشيء ؛ لأن الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف ، ولا تكون تفسيراً لما يعمل فيما قبله .

الثالثة : الذي عليه أهل السنة أن الله سبحانه قدّر الأشياء ؛ أي علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها ، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه ، فلا يحدث حدث في العالم العلويّ والسفليّ إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه ، وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة ، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى وبقدرته وتوفيقه وإلهامه ، سبحانه لا إله إلا هو ، ولا خالق غيره ؛ كما نص عليه القرآن والسنة ، لا كما قالت القدَريّة وغيرهم من أن الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا .

قال أبو ذرٍّ رضي الله عنه : " قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا ؛ فنزلت هذه الآيات إلى قوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ فقالوا : يا محمد يكتب علينا الذنب ويعذبنا ؟ فقال : "أنتم خصماء الله يوم القيامة" " .

الرابعة : روى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن مجوس هذه الأمة المكذّبون بأقدار الله إن مرِضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم وإن لقيتموهم فلا تسلّموا عليهم " خرجه ابن ماجه في سننه .

(120/737)

وخرج أيضاً عن ابن عباس وجابر قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صنفان من أمتي ليس لهم في الإسلام نصيب أهل الإرجاء والقَدَر " وأسند النحاس : وحدّثنا إبراهيم بن شريك الكوفي قال حدّثنا عقبة بن مكرم الضّبي قال حدّثنا يونس بن بكير عن سعيد بن ميسرة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " القدَريّة الذين يقولون الخير والشر بأيدينا ليس لهم في شفاعتي نصيب ولا أنا منهم ولا هم منّي " وفي صحيح مسلم أن ابن عمر تبرأ منهم ولا يتبرأ إلا من كافر ، ثم أكد هذا بقوله : والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحُد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقَدَر . وهذا مثل قوله تعالى في المنافقين : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : 54] وهذا واضح .

وقال أبو هريرة : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " الإيمان بالقدر يذهب الهمّ والحزن " .

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاَّ وَاحِدَةٌ ﴾

أي إلا مرةً واحدة .

﴿ كَلَمْحٍ بالبصر ﴾ أي قضائي في خلْقي أسرع من لَمحْ البصر .

واللَّمح النظر بالعَجَلة ؛ يقال : لَمحَ البرق ببصره .

وفي الصحاح : لمحه وألمحه إذا أبصره بنظر خفيف ، والاسم اللمحة ، ولَمحَ البَرقُ والنجمُ لَمحْاً أي لَمع .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أي أشباهكم في الكفر من الأمم الخالية .

وقيل : أتباعكم وأعوانكم .

﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي من يتذكر .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزبر ﴾ أي جميع ما فعلته الأمم قبلهم من خير أو شر كان مكتوباً عليهم ؛ وهذا بيان قوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

﴿ فِي الزبر ﴾ أي في اللوح المحفوظ .

وقيل : في كتب الحفظة .

وقيل : في أم الكتاب .

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ أي كل ذنب كبير وصغير مكتوب على عامله قبل أن يفعله ليجازى به ، ومكتوب إذا فعله ؛ سَطَرَ يَسْطُرُ سَطْراً كَتَب ؛ واستطر مثله .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ لما وصف الكفار وصف المؤمنين أيضاً .

"وَنَهَرٍ" يعني أنهار الماء والخمر والعسل واللّبن ؛ قاله ابن جريج .

ووحد لأنه رأس الآية ، ثم الواحد قد ينبىء عن الجميع .

وقيل : في "نَهَرٍ" في ضياء وسَعة ؛ ومنه النهار لضيائه ، ومنه أنهرت الجرح ؛ قال الشاعر :

مَلكتُ بها كَفي فأنهرتُ فَتقَها . . .

يَرَى قائمٌ من دونها ما وراءَها

وقرأ أبو مِجْلَز وأبو نهيك والأعرج وطلحة بن مصرِّف وقتادة "وَنُهُرٍ" بضمتين كأنه جمع نهار لا ليل لهم ؛ كسحاب وسُحُب .

قال الفراء : أنشدني بعض العرب :

إنْ تَكُ ليليًّا فإنّي نَهِرُ . . .

مَتَى أَرى الصُّبحَ فلا أَنتَظِرُ

أي صاحب النهار .

وقال آخر :

لَوْلا الثَّرِيدَانِ هَلَكْنا بالضُّمُرْ . . .

ثَرِيدُ لَيْلٍ وثَرِيدٌ بالنُّهُرْ

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ أي مجلس حقّ لا لغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ أي يقدر على ما يشاء .

و"عِنْدَ" هاهنا عندية القُربة والزلفة والمكانة والرتبة والكرامة والمنزلة .

قال الصادق : مدح الله المكان الصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق .

وقرأ عثمان البَتّي "فِي مَقَاعِدِ صِدْقٍ" بالجمع ؛ والمقاعد مواضع قعود الناس في الأسواق وغيرها .

قال عبد الله بن بريدة : إن أهل الجنة يدخلون كل يوم على الجبار تبارك وتعالى ، فيقرؤون القرآن على ربهم تبارك وتعالى ، وقد جلس كل إنسان مجلسه الذي هو مجلسه ، على منابر من الدرّ والياقوت والزبرجد والذّهب والفضَّة بقدر أعمالهم ، فلا تَقَرّ أعينهم بشيء قط كما تَقَرّ بذلك ، ولم يسمعوا شيئاً أعظم ولا أحسن منه ، ثم ينصرفون إلى منازلهم ، قريرة أعينهم إلى مثلها من الغد .

(122/737)

وقال ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان : بلغنا أن الملائكة يأتون المؤمنين يوم القيامة فيقولون : يا أولياء الله انطلقوا ؛ فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة ؛ فيقول المؤمنون : إنكم تذهبون بنا إلى غير بُغْيتنا .

فيقولون : فما بغيتكم ؟ فيقولون : مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وقد روي هذا الخبر على الخصوص بهذا المعنى ؛ ففي الخبر : أن طائفة من العقلاء بالله عز وجل تزفها الملائكة إلى الجنة والناس في الحساب ، فيقولون للملائكة : إلى أين تحملوننا ؟ فيقولون إلى الجنة .

فيقولون : إنكم لتحملوننا إلى غير بغيتنا ؛ فيقولون : وما بغيتكم ؟ فيقولون : المقعد الصدق مع الحبيب كما أخبر ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(123/737)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33) ﴾

تقدمت قصة لوط عليه السلام وقومه .

والحاصب من الحصباء ، وهو المعنيّ بقوله تعالى : ﴿ وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ ﴿ إلا آل لوط ﴾ ، قيل : إلا ابنتاه ، و ﴿ بسحر ﴾ : هو بكرة ، فلذلك صرف ، وانتصب ﴿ نعمة ﴾ على أنه مفعول من أجله ، أي نجيناهم لإنعامنا عليهم أو على المصدر ، لأن المعنى : أنعمنا بالتنجية إنعاماً .

﴿ كذلك نجزي ﴾ : أي مثل ذلك الإنعام والتنجية نجزي ﴿ من شكر ﴾ إنعامنا وأطاع وآمن .

﴿ ولقد أنذرهم بطشتنا ﴾ : أي أخذتنا لهم بالعذاب ، ﴿ فتماروا ﴾ : أي تشككوا وتعاطوا ذلك ، ﴿ بالنذر ﴾ : أي بالإنذار ، أو يكون جمع نذير .

﴿ فطمسنا ﴾ ، قال قتادة : الطمس حقيقة جر جبريل عليه السلام على أعينهم جناحه ، فاستوت مع وجوههم .

وقال أبو عبيدة : مطموسة بجلد كالوجه .

قيل : لما صفقهم جبريل عليه السلام بجناحه ، تركهم يترددون لا يهتدون إلى الباب ، حتى أخرجهم لوط عليه السلام .

وقال ابن عباس والضحاك : هذه استعارة ، وإنما حجب إدراكهم ، فدخلوا المنزل ولم يروا شيئاً ، فجعل ذلك كالطمس .

وقرأ الجمهور : فطمسنا بتخفيف الميم ؛ وابن مقسم : بتشديدها .

﴿ فذوقوا ﴾ : أي فقلت لهم على ألسنة الملائكة : ذوقوا .

﴿ ولقد صبحهم بكرة ﴾ : أي أول النهار وباكره ، لقوله : ﴿ مشرقين ﴾ و ﴿ مصبحين ﴾ وقرأ الجمهور : بكرة بالتنوين ، أراد بكرة من البكر ، فصرف .

وقرأ زيد بن علي : بغير تنوين .

﴿ عذاب مستقر ﴾ : أي لم يكشفه عنهم كاشف ، بل اتصل بموتهم ، ثم بما بعد ذلك من عذاب القبر ، ثم عذاب جهنم .

﴿ فذوقوا عذابي ونذر ﴾ : توكيد وتوبيخ ذلك عند الطمس ، وهذا عند تصبيح العذاب .

(124/737)

قيل : وفائدة تكرار هذا ، وتكرار ﴿ ولقد يسرنا ﴾ ، التجرد عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ، للاتعاظ واستئناف التيقظ إذا سمعوا الحث على ذلك لئلا تستولي عليهم الغفلة ، وهكذا حكم التكرير لقوله : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ عند كل نعمة عدها في سورة الرحمن .

وقوله : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ عند كل آية أوردها في سورة والمرسلات ، وكذلك

تكرير القصص في أنفسها ، لتكون العبرة حاضرة للقلوب ، مذكورة في كل أوان .

﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ﴾ : هم موسى وهارون وغيرهما من الأنبياء ، لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون ، أو يكون جمع نذير المصدر بمعنى الإنذار .

﴿ كذبوا بآياتنا ﴾ هي التسع ، والتوكيد هنا كهو في قوله : ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها ﴾ والظاهر أن الضمير في : ﴿ كذبوا ﴾ ، وفي : ﴿ فأخذناهم ﴾ عائد على آل فرعون . وقيل : هو عائد على جميع من تقدم من الأمم ذكره ، وتم الكلام عند قوله : ﴿ النذر ﴾ .

﴿ فأخذناهم أخذ عزيز ﴾ : لا يغالب ، ﴿ مقتدر ﴾ : لا يعجز شيء .

﴿ أكفاركم ﴾ : خطاب لأهل مكة ، ﴿ خير من أولئكم ﴾ : الإشارة إلى قوم نوح وهود وصالح ولوط ، وإلى فرعون ، والمعنى : أهم خير في القوّة وآلات الحروب والمكانة في الدنيا ، أو أقل كفؤاً وعناداً ؟ فلأجل كونهم خيراً لا يعاقبون على الكفر بالله ، وقفهم على توبيخهم ، أي ليس كفاركم خيراً من أولئكم ، بل هم مثلهم أو شرّ منهم ، وقد علمتم ما لحق أولئك من الهلاك المستأصل لما كذبوا الرسل .

﴿ أم لكم براءة في الزبر ﴾ : أي ألكم في الكتب الإلهية براءة من عذاب الله تعالى ؟ قاله الضحاك وعكرمة وابن زيد .

﴿ أم يقولون نحن جميع ﴾ أي واثقون بجماعتنا ، منتصرون بقوتنا ، تقولون ذلك على سبيل الإعجاب بأنفسكم .

وقرأ الجمهور : أم يقولون ، بياء الغيبة التفاتاً ، وكذا ما بعده للغائب .

وقرأ أبو حيوة وموسى الأسواري وأبو البرهشيم : بتاء الخطاب للكفار ، اتباعا لما تقدم من خطابهم .

(125/737)

وقرأوا : ستهزم الجمع ، بفتح التاء وكسر الزاي وفتح العين ، خطاباً للرسول (صلى الله عليه وسلم) ؛ وأبو حيوة أيضاً ويعقوب : بالنون مفتوحة وكسر الزاي وفتح العين ؛

والجمهور : بالياء مبنياً للمفعول ، وضم العين .

وعن أبي حيوة وابن أبي عبلة أيضاً : بفتح الياء مبنياً للفاعل ونصب العين : أي سيهزم الله الجمع .

والجمهور : ﴿ ويولون ﴾ بياء الغيبة ؛ وأبو حيوة وداود بن أبي سالم ، عن أبي عمرو : بتاء الخطاب .

والدبر هنا : اسم جنس ، وجاء في موضع آخر ﴿ ليولن الأدبار ﴾ وهو الأصل ، وحسن اسم الجنس هنا كونه فاصلة .

وقال الزمخشري : ﴿ ويولون الدبر ﴾ : أي الأدبار ، كما قال : كلوا في بعض بطنكم تعفوا .

وقرىء : الأدبار .

انتهى ، وليس مثل بطنكم ، لأن مجيء الدبر مفرداً ليس بحسن ، ولا يحسن لإفراد بطنكم .

وفي قوله تعالى : ﴿ سيهزم الجمع ﴾ عدة من الله تعالى لرسوله (صلى الله عليه وسلم) بهزيمة جمع قريش ؛ والجمهور : على أنها مكية ، وتلاها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مستشهداً بها .

وقيل : نزلت يوم بدر .

﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ : انتقل من تلك الأقوال إلى أمر الساعة التى عذابها أشد عليهم من كل هزيمة وقتال .

﴿ والساعة أدهى ﴾ : أي أفظع وأشد ، والداهية الأمر : المنكر الذي لا يهتدى لدفعه ، وهي الرزية العظمى تحل بالشخص .

﴿ وأمر ﴾ من المرارة : استعارة لصعوبة الشيء على النفس .

﴿ إن المجرمين في ضلال ﴾ : أي في حيرة وتخبط في الدنيا .

﴿ وسعر ﴾ : أي احتراق في الآخرة ، جعلوا فيه من حيث مصيرهم إليه .

وقال ابن عباس : وخسران وجنون ، والسعر : الجنون ، وتقدم مثله في قصة صالح عليه السلام .

﴿ يوم يسحبون ﴾ : يجرون ﴿ في النار ﴾ ، وفي قراءة عبد الله : إلى النار .

﴿ على وجوههم ذوقوا ﴾ : أي مقولاً لهم : ﴿ ذوقوا مس سقر ﴾ .

وقرأ محبوب عن أبي عمرو : مسقر ، بإدغام السين في السين .

قال ابن مجاهد : إدغامه خطأ لأنه مشدد . انتهى .

(126/737)

والظن بأبي عمرو أنه لم يدغم حتى حذف إحدى السينين لاجتماع الأمثال ، ثم أدغم .

﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ ، قراءة الجمهور : كل شيء بالنصب .

وقرأ أبو السمال ، قال ابن عطية وقوم من أهل السنة : بالرفع .

قال أبو الفتح : هو الوجه في العربية ، وقراءتنا بالنصب مع الجماعة .

وقال قوم : إذا كان الفعل يتوهم فيه الوصف ، وأن ما بعده يصلح للخبر ، وكان المعنى على أن يكون الفعل هو الخبر ، اختير النصب في الاسم الأول حتى يتضح أن الفعل ليس بوصف ، ومنه هذا الموضع ، لأن في قراءة الرفع يتخيل أن الفعل وصف ، وأن الخبر يقدر .

فقد تنازع أهل السنة والقدرية الاستدلال بهذه الآية .

فأهل السنة يقولون : كل شيء فهو مخلوق لله تعالى بقدرة دليله قراءة النصب ، لأنه لا يفسر في مثل هذا التركيب إلا ما يصح أن يكون خبراً لو وقع الأول على الابتداء .

وقالت القدرية : القراءة برفع كل ، وخلقناه في موضع الصفة لكل ، أي إن أمرنا أو شأننا كل شيء خلقناه فهو بقدر أو بمقدار ، على حد ما في هيئته وزمنه وغير ذلك .

وقال الزمخشري : ﴿ كل شيء ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر .

وقرئ : كل شيء بالرفع ، والقدر والقدر هو التقدير .

وقرئ : بهما ، أي خلقنا كل شيء مقدراً محكماً مرتباً على حسب ما اقتضته الحكمة ، أو مقدراً مكتوباً في اللوح ، معلوماً قبل كونه قد علمنا حاله وزمانه . انتهى .

قيل : والقدر فيه وجوه : أحدها : أن يكون بمعنى المقدار في ذاته وصفاته .

والثاني : التقدير ، قال تعالى : ﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾ وقال الشاعر :

وما قدّر الرحمن ما هو قادر . . .

أي ما هو مقدور .

والثالث : القدر الذي يقال مع القضاء ، يقال : كان ذلك بقضاء الله وقدره ، والمعنى : أن القضاء ما في العلم ، والقدر ما في الإرادة ، فالمعنى في الآية : ﴿ خلقناه بقدر ﴾ : أي بقدرة مع إرادة . انتهى .

(127/737)

﴿ وما أمرنا إلا واحدة ﴾ : أي إلا كلمة واحدة وهي : كن كلمح بالبصر ، تشبيه بأعجل ما يحس ، وفي أشياء أمر الله تعالى أوحى من ذلك ، والمعنى : أنه إذا أراد تكوين شيء لم يتأخر عن إرادته .

﴿ ولقد أهلكنا أشياعكم ﴾ : أي الفرق المتشايعة في مذهب ودين .

﴿ وكل شي فعلوه ﴾ : أي فعلته الأمم المكذبة ، محفوظ عليهم إلى يوم القيامة ، قاله ابن عباس والضحاك وقتادة وابن زيد .

ومعنى ﴿ في الزبر ﴾ : في دواوين الحفظة .

﴿ وكل صغير وكبير ﴾ من الأعمال ، ومن كل ما هو كائن ، ﴿ مستطر ﴾ : أي مسطور في اللوح .

يقال : سطرت واستطرت بمعنى .

وقرأ الأعمش وعمران بن حدير وعصمة عن أبي بكر : بشد راء مستطر .

قال صاحب اللوامح : يجوز أن يكون من طرّ النبات ، والشارب إذا ظهر وثبت بمعنى : كل شيء ظاهر في اللوح مثبت فيه .

ويجوز أن يكون من الاستطار ، لكن شدّد الراء للوقف على لغة من يقول : جعفرّ ونفعلّ بالتشديد وقفاً .

انتهى ، ووزنه على التوجيه الأول استفعل ، وعلى الثاني افتعل .

وقرأ الجمهور : ونهر على الإفراد ، والهاء مفتوحة ؛ والأعرج ومجاهد وحميد وأبو السمال والفياض بن غزوان : بسكونها ، والمراد به الجنس ، إن أريد به الأنهار ، أو يكون معنى ونهر : وسعة في الأرزاق والمنازل ، ومنه قول قيس بن الحطيم :

ملكت بها كفي فأنهرت فتقها . . .

يرى قائم من دونها ما وراءها

أي : أوسعت فتقها .

وقرأ زهير العرقبي والأعمش وأبو نهيك وأبو مجلز واليماني : بضم النون والهاء ، جمع نهر ، كرهن ورهن ، أو نهر كأسد وأسد ، وهو مناسب لجمع جنات .

وقيل : نهر جمع نهار ، ولا ليل في الجنة ، وهو بعيد .

﴿ في مقعد صدق ﴾ : يجوز أن يكون ضد الكذب ، أي في المقعد الذي صدقوا في الخبر به ، وأن يكون من قولك : رجل صدق : أي خير وجود وصلاح .

(128/737)

وقرأ الجمهور : في مقعد ، على الإفراد ، يراد به اسم الجنس ؛ وعثمان البتي : في مقاعد على الجمع ؛ وعند تدل على قرب المكانة من الله تعالى ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(129/737)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بالنذر * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حاصبا ﴾

أي ريحاً تحصبُهم أي ترميهم بالحصباءِ ﴿ إِلاَّ ال لُوطٍ نجيناهم بِسَحَرٍ ﴾ في سحرٍ وهو آخرُ الليلِ وقيلَ : هو السدسُ الأخيرُ منْهُ أي ملتبسينَ بسحرٍ ﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ أي إنعاماً منَّا وهو علةٌ لنجينا ﴿ كذلك ﴾ أي مثلَ ذلك الجزاءِ العجيبِ ﴿ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾ نعمتَنَا بالإيمانِ والطاعةِ .

﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ ﴾ لوطٌ عليهِ السَّلامُ ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ أي أَخذتَنَا الشديدةَ بالعذابِ ﴿ فَتَمَارَوْاْ ﴾ فكذَّبوا ﴿ بالنذر ﴾ متشاكينَ ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ﴾ قصدُوا الفجورَ بهم ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ فمسحنَاها وسوَّيناها كسائرِ الوجهِ . رُويَ أَنَّهم لَمَّا دخلُوا دارَهُ عنوةً صفقَهُم جبريلُ عليهِ السَّلامُ صفقةً فتركَهُم يترددونَ لا يهتدونَ إلى البابِ

حتَّى أخرجُهم لوطٌ عليه السَّلامُ ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ أي فقلنَا لهُم ذُوقوا على ألسنةِ الملائكةِ أو ظاهرُ الحالِ والمرادُ به الطمسُ فإنَّه من جملةِ ما أُنذرُوه من العذابِ ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً ﴾ وقُرِىءَ بكرةَ غيرَ مصروفةٍ على أنَّ المرادَ بها أولُ نهارٍ مخصوصٍ ﴿ عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ لا يفارقُهم حتَّى يُسلمَهُم إلى النارِ . وفي وصفِه بالاستقرارِ إيماءٌ إلى أنَّ ما قبلَهُ من عذابِ الطمسِ ينتهي إليهِ ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ حكايةً لما قيلَ لهم حينئذٍ من جهتِه تعالى تشديداً للعذابِ ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءانَ للذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ مرّ ما فيهِ من الكلامِ .

(130/737)

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ ءالَ فِرْعَوْنَ النذر ﴾ صُدِّرتْ قصتُهم بالتوكيدِ القسمِي لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بشأنِها لغايةِ عظمِ ما فيها من الآياتِ وكثرتِها وهولِ ما لاقَوه منَ العذابِ وقوةِ إيجابِها للاتعاظِ . والاكتفاءُ بذكرِ آلِ فرعونَ للعلمِ بأنَّ نفسَه أَوْلى بذلكَ أي وبالله لقد جاءهُم الإنذاراتُ . وقولُه تعالى ﴿ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كُلِّهَا ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ من حكايةِ مجيءِ النذرِ كأنَّه قيلَ : فماذا فعلُوا حينئذٍ فقيلَ : كذَّبُوا بجميعِ آياتِنا ، وهي الآياتُ التسعُ ﴿ فأخذناهم أَخْذَ عَزِيزٍ ﴾ لا يُغالبُ ﴿ مُّقْتَدِرٍ ﴾ لا يُعجزه شيءٌ .

﴿ أكفاركم ﴾ يا معشرَ العربِ ﴿ خَيْرٌ ﴾ قوةً وشدةً وعُدّةً وعدةً أو مكانةً ﴿ مّنْ أُوْلَئِكُمْ ﴾ الكفارِ المعدودينَ والمَعْنى أنه أصابَهُم مَا أصابَهُم مع ظهورِ خيريتِهم منكُم فيما ذُكِرَ من الأمورِ فهلْ تطمعونَ أنْ لا يصيبَكُم مثلُ ذلكَ وأنتُم شرٌّ منهم مكاناً وأسوأُ حالاً .

وقولُه تعالَى : ﴿ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِى الزبر ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من التبكيتِ بما ذُكِرَ إلى التبكيتِ بوجهٍ آخرَ أيْ بلْ ألكم براءةٌ وأمنٌ من تبعاتِ ما تعملونَ من الكفرِ والمعاصِي وغوائِلِهما في الكتبِ السماويةِ فلذلكَ تصرونَ على ما أنتُم عليهِ .

(131/737)

وقولُه تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ إضرابٌ من التبكيتِ المذكورِ إلى وجهٍ آخرَ من التبكيتِ . والالتفاتُ للإيذانِ باقتضاءِ حالِهم للإعراضِ عنهُم وإسقاطِهم عن رتبةِ الخطابِ وحكايةِ قبائِحهم لغيرِهم أي بلْ أيقولونَ واثقينَ بشوكتِهم نحنُ أولُو حزمٍ ورأيٍ أمرُنا مجتمعٌ لا نُرامُ ولا نُضامُ أو منتصرٌ من الأعداءِ لا نُغلبُ أو متناصرٌ بعضُنا بعضاً . والإفرادُ باعتبارِ لفظِ الجميعِ . وقولُه تعالَى : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ﴾ ردٌّ وإبطالٌ لذلكَ ، والسينُ للتأكيدِ أي يُهزم جمعُهم ألبتةَ ﴿ وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ أي الأدبارَ وقد قُرِىءَ كذلكَ . والتوحيدُ لإرادةِ الجنسِ أو إرادةِ أن كلّ واحدٍ منهم يولّي دبرَه وقد كان كذلكَ يومَ بدرٍ . (قال سعيدُ بنُ

المسيّبِ : سمعتُ عمَر بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنْهُ يقولُ : لما نزلتْ سُيهزمُ الجمعُ ويولونَ الدبرَ كنتَ لا أدري أيَّ جمعٍ يُهزمُ فلمَّا كانَ يومَ بدرٍ رأيتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يلبَسُ الدرعَ ويقولُ : ﴿ سُيهزمُ الجمعُ ويولونَ الدبرَ ﴾ فعرفتُ تأويلَها) . وقُرِىءَ سَيهزمُ الجمعَ أي اللهُ عزَّ وعَلاَ ﴿ بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ ﴾ أي ليسَ هَذا تمامَ عقوبتِهم ، بلِ الساعةُ موعدُ أصلِ عذابِهم وهَذا من طلائعِه ﴿ والساعة أدهى وَأَمَرُّ ﴾ أي في أقصى غايةٍ من الفظاعةِ والمرارةِ . والداهيةُ الأمرُ الفظيعُ الذي لا يُهتدَى إلى الخلاصِ عنْهُ . وإظهارُ الساعةِ في موقعِ إضمارِها لتربيةِ تهويلِها .

(132/737)

﴿ إِنَّ المجرمين ﴾ من الأولينَ والآخرينَ ﴿ فِى ضلال وَسُعُرٍ ﴾ أي في هلاكٍ ونيرانٍ مسعرةٍ وقيلَ : في ضلالٍ عن الحقِّ في الدُّنيا ، ونيرانٍ في الآخرةِ . وقولُه تعالَى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ ﴾ الخ منصوبٌ إمَّا بما يُفهمُ من قولِه تعالَى في ضلالٍ أي كائنونَ في ضلالٍ وسعرٍ يومَ يجرونَ ﴿ فِى النار على وُجُوهِهِمْ ﴾ وإما بقولٍ مقدرٍ بعدَه أي يوم يسحبون يقال لهم ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ أي قاسُوا حرَّها وألَمَها . وسقرُ علمُ جهنَّم ولذلكَ لم يُصرفْ منْ سقرتْهُ النارُ وصقرتْهُ إذا لوَّحتْهُ . والقولُ المقدرُ على الوجهِ الأولِ حالٌ من ضميرِ

يسحبونَ. ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ ﴾ من الأشياءِ ﴿ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ أي ملتبساً بقدرٍ معينٍ اقتضتْهُ الحكمةُ التي عليَها يدورُ أمرُ التكوينِ أو مقدراً مكتوباً في اللوحِ قبلَ وقوعِه. وكلَّ شيءٍ منصوبٌ بفعلٍ يفسرُه ما بعدَه وقُرِئَ بالرفعِ على أنَّه مبتدأٌ وخلقناهُ خبرُهُ.

(133/737)

﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ واحدة ﴾ أي كلمةٌ واحدةٌ سريعةُ التكوينِ وهُو قولُه تعالَى كُنْ أو إلا فعلةٌ واحدةٌ هو الإيجادُ بلا معالجةٍ ﴿ كَلَمْحٍ بالبصر ﴾ في اليُسرِ والسرعةِ وقيلَ: معناهُ قولُه تعالَى: ﴿ وَمَا أَمْرُ الساعة إِلاَّ كَلَمْحِ البصر ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أشياعكم ﴾ أي أشباهَكُم في الكفرِ من الأممِ وقيل: أتباعَكُم ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ يتعظُ بذلكَ ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ ﴾ من الكفرِ والمعاصِي مكتوبٌ على التفصيلِ ﴿ فِى الزبر ﴾ أي في ديوانِ الحفظةِ ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ من الأعمالِ ﴿ مُّسْتَطَرٌ ﴾ مسطورٌ في اللوحِ المحفوظِ بتفاصيلِه، ولما كانَ بيانُ سوءِ حالِ الكفرةِ بقولِه تعالى ﴿ إِنَّ المجرمين ﴾ الخ مِمَّا يستدعِي بيانَ حُسنِ حالِ المؤمنينَ ليتكافأَ الترهيبُ والترغيبُ بيّن ما لَهُم من حسنِ الحالِ بطريقِ الإجمالِ فقيلَ: ﴿ إِنَّ المتقين ﴾ بالإيمانِ أي منَ الكفرِ والمعاصِي ﴿ فِي جنات ﴾ عظيمةِ الشأنِ ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ أي أنهارٍ. كذلكَ والإفرادُ للاكتفاءِ باسمِ الجنسِ مراعاةً

للفواصلِ ، وقُرِىءَ نُهْرٍ جمعُ نَهَرٍ كأُسْدٍ وأَسدٍ ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ في مكانٍ مرضيَ وقُرِىءَ في مقاعدِ صدقٍ ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ أي مقربينَ عند مليكٍ لا يُقادَرُ قدرُ ملكِه وسلطانِه فلا شيءَ إلاَّ وهو تحتَ ملكوتِه سبحانَهُ ما أعظمَ شأنَهُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(134/737)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ ﴾

من الأشياء ﴿ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ أي مقدراً مكتوباً في اللوح قبل وقوعه ، فالقدر بالمعنى المشهور الذي يقابل القضاء ، وحمل الآية على ذلك هو المأثور عن كثير من السلف ، وروى الإمام أحمد .

ومسلم .

والترمذي .

وابن ماجه عن أبي هريرة قال : "جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فنزلت ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النار على وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ

شَىْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 48 ، 49] " وأخرج البخاري في "تاريخه" .

والترمذي وحسنه .

وابن ماجه .

وابن عدي .

وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب المرجئة والقدرية " أنزلت فيهم آية في كتاب الله ﴿ إِنَّ المجرمين فِى ضلال وَسُعُرٍ ﴾ [القمر : 47] إلى آخر الآيات ، وكان ابن عباس يكره القدرية جداً ، أخرج عبد بن حميد عن أبي يحيى الأعرج قال سمعت ابن عباس وقد ذكر القدرية يقول : لو أدركت بعضهم لفعلت به كذا وكذا ثم قال : الزنا بقدر .

والسرقة بقدر .

وشرب الخمر بقدر .

وأخرج عن مجاهد أنه قال ؛ قلت لابن عباس : ما تقول فيمن يكذب بالقدر ؟ قال : أجمع بيني وبينه قلت : ما تصنع به ؟ قال : أخنقه حتى أقتله ، وقد جاء ذمهم في أحاديث كثيرة ، منها ما أخرجه أحمد .

وأبو داود .

والطبراني عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لكل أمة مجوس ومجوس

أمتي الذين يقولون لا قدر إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم " .

وجوز كون المعنى إنا كل شيء خلقناه مقدراً محكماً مستوفى فيه مقتضى الحكمة التي يدور عليها أمر التكوين ، فالآية من باب ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : 2] ونصب ﴿ كُلَّ ﴾ بفعل يفسره ما بعده أي إنا خلقنا كل شيء خلقناه ، وقرأ أبو السمال قال : ابن عطية .

(135/737)

وقوم من أهل السنة برفع كل وهو على الابتداء ، وجملة ﴿ خلقناه ﴾ هو الخبر ، و ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ متعلق به كما في القراءة المتواترة ، فتدل الآية أيضاً على أن كل شيء مخلوق بقدر ولا ينبغي أن تجعل جملة خلقناه صفة ، ويجعل الخبر ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ لاختلاف القراءتين معنى حينئذ ، والأصل توافق القراآت ، وقال الرضى : لا يتفاوت المعنى لأن مراده تعالى بكل شيء كل مخلوق سواء نصب ﴿ كُلَّ ﴾ أو رفعته وسواء جعلت ﴿ خلقناه ﴾ صفة مع الرفع ، أو خبراً عنه ، وذلك إن خلقنا كل شيء بقدر لا يريد سبحانه به خلقنا كل ما يقع عليه اسم شيء لأنه تعالى لم يخلق جميع الممكنات غير المتناهية واسم الشيء يقع على كل منها ، وحينئذ نقول : إن معنى ﴿ كُلَّ شَيْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ على أن خلقناه هو الخبر ﴿

كُلٌّ ﴾ مخلوق مخلوق ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ وعلى أن ﴿ خلقناه ﴾ صفة ﴿ كُلّ شَيْء ﴾ مخلوق كائن ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ والمعنيان واحد إذ لفظ ﴿ كُلٌّ ﴾ في الآية مختص بالمخلوقات سواء كان ﴿ خلقناه ﴾ صفة له أو خبراً ، وتعقبه السيد السند قدس سره بأنه لقائل أن يقول : إذا جعلنا ﴿ خلقناه ﴾ صفة كان المعنى ﴿ كُلٌّ ﴾ مخلوق متصف بأنه مخلوقنا كائن بقدر ، وعلى هذا لا يمتنع نظراً إلى هذا المعنى أن يكون هناك مخلوقات غير متصفة بتلك الصفة فلا تندرج تحت الحكم ، وأما إذا جعلناه خبراً أو نصبنا ﴿ كُلّ شَيْء ﴾ فلا مجال لهذا الاحتمال نظراً إلى نفس المعنى المفهوم من الكلام فقد اختلف المعنيان قطعاً ولا يجديه نفعاً أن كل مخلوق متصف بتلك الصفة في الواقع لأنه إنما يفهم من خارج الكلام ولا شك أن المقصود ذلك المعنى الذي لا احتمال فيه ، وذكر نحوه الشهاب الخفاجي ولكون النصب نصاً في المقصود اتفقت القراآت المتواترة عليه مع احتياجه إلى التقدير وبذلك يترجح على الرفع الموهم لخلافه وإن لم يحتج إليه .

(136/737)

﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ واحدة ﴾ أي ما شأننا إلا فعلة واحدة على نهج لا يختلف ووتيرة لا تتعدد وهي الإيجاد بلا معالجة ومشقة ، أو ما أمرنا إلا كلمة واحدة ، وهي قوله تعالى : ﴿

كُنَّ ﴾ فالأمر مقابل النهي وواحد الأمور ، فإذا أراد عز وجل شيئاً قال له : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ﴿ كَلَمْحٍ بالبصر ﴾ أي في السير والسرعة ، وقيل : هذا في قيام الساعة فهو كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ الساعة إِلاَّ كَلَمْحِ البصر ﴾ [النحل : 77] .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أشياعكم ﴾ أي أشباهكم في الكفر من الأمم السالفة ، وأصله جمع شيعة وهم من يتقوى بهم المرء من الأتباع ولما كانوا في الغالب من جنس واحد أريد به ما ذكر إما باستعماله في لازمه ، أو بطريق الاستعارة ، والحال قرينة على ذلك ، وقيل : هو باق على حقيقته أي أتباعكم ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ متعظ بذلك .

﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ ﴾ من الكفر والمعاصي ، والضمير المرفوع للأشياع كما روى عن ابن عباس .

والضحاك .

وقتادة .

وابن زيد ، وجملة ﴿ فَعَلُوهُ ﴾ صفة ﴿ شَىْءٍ ﴾ والرابط ضمير النصب ، وقوله تعالى : ﴿ فِى الزبر ﴾ متعلق بكون خاص خبر المبتدا أي كل شيء فعلوه في الدنيا مكتوب في كتب الحفظة غير مغفول عنه ، وتفسير ﴿ الزبر ﴾ .

اللوح المحفوظ كما حكاه الطبرسي ليس بشيء ، ولم يختلف القراء في رفع ﴿ كُلُّ ﴾ وليست الآية من باب الاشتغال فلا يجوز النصب لعدم بقاء المعنى الحاصل بالرفع لو عمل

المشتغل بالضمير في الاسم كما هو اللازم في ذلك الباب إذ يصير المعنى ههنا حينئذ فعلوا ﴿ فِى الزبر ﴾ كل شيء إن علقنا الجار بفعلوا وهم لم يفعلوا شيئاً من أفعالهم في الكتب بل فعلوها في أماكنهم والملائكة عليهم السلام كتبوها عليهم في الكتب ، أو فعلوا كل شيء مكتوب ﴿ فِى الزبر ﴾ إن جعلنا الجار نعتاً لكل شيء ، وهذا وإن كان معنى مستقيماً إلا أنه خلاف المعنى المقصود حالة الرفع وهو ما تقدم آنفاً .

(137/737)

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ من الأعمال كما روى عن ابن عباس .

ومجاهد وغيرهما ، وقيل : منها ومن كل ما هو كائن إلى يوم القيامة ﴿ مُّسْتَطَرٌ ﴾ مسطور مكتتب في اللوح بتفاصيله وهو من السطر بمعنى الكتب ، ويقال : سطرت واستطرت بمعنى ، وقرأ الأعمش .

وعمران .

وعصمة عن أبي بكر عن عاصم ﴿ مُّسْتَطَرٌ ﴾ بتشديد الراء ، قال "صاحب اللوامع" : يجوز أن يكو من طر النبات والشارب إذا ظهر ، والمعنى كل ﴿ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ ظاهر في اللوح مثبت فيه ويجوز أن يكون من الاستطار لكن شدد الراء للوقف على لغة من يقول

جعفرّ ويفعلّ بالتشديد وقفاً أي ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ووزنه على التوجيه الأول مستفعل وعلى الثاني مفتعل ، ولما كان بيان حال سوء الكفرة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ المجرمين ﴾ [القمر : 47] الخ مما يستدعي بيان حسن حال المؤمنين ليتكافأ الترهيب والترغيب بين سبحانه ما لهم من حسن الحال بطريق الاجمال فقال عز قائلاً :

﴿ إِنَّ المتقين ﴾ أي من الكفر والمعاصي ، وقيل : من الكفر .

﴿ فِي جنات ﴾ عظيمة الشأن ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ أي أنهار كذلك ، والإفراد للاكتفاء باسم الجنس مراعاة للفواصل ، وعن ابن عباس تفسيره بالسعة ، وأنشد عليه قول لبيد بن ربيعة كما في "الدر المنثور" أو قيس بن الخطيب كما في "البحر" يصف طعنة

: ملكت بها كفي (فأنهرت) فتقها . . .

يرى قائم من دونها ما وراءها

أي أوسعت فتقها ، والمراد بالسعة سعة المنازل على ما هو الظاهر ، وقيل : سعة الرزق والمعيشة ، وقيل : ما يعمهما .

وأخرج الحكيم والترمذي في "نوادر الأصول" عن محمد بن كعب قال : ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ أي في نور وضياء وهو على الاستعارة بتشبيه الضياء المنتشر بالماء المتدفق من منبعه ، وجوز أن يكون بمعنى النهار على الحقيقة ، والمراد أنهم لا ظلمة ولا ليل عندهم في الجنات ، وقرأ الأعرج .

ومجاهد .

وحميد .

وأبو السمال .

(138/737)

والفياض بن غزوان ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ بسكون الهاء ، وهو بمعنى ﴿ نهر ﴾ مفتوحها ، وقرأ الأعمش .

وأبو نهيك .

وأبو مجلز .

واليماني ﴿ جنات وَنَهَرٍ ﴾ بضم النون والهاء ، وهو جمع نهر المفتوح أو الساكن كأسد وأسد ، ورهن ورهن وقيل : جمع نهار ، والمراد أنهم لا ظلمة ولا ليل عندهم كما حكى فيما مر ، وقيل : قرىء بضم النون وسكون الهاء

﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ في مكان مرضي على أن الصدق مجاز مرسل في لازمه أو استعارة ، وقيل : المراد صدق المبشر به وهو الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، أو المراد أنه ناله من ماله بصدقه وتصديقه للرسل عليهم السلام ، فالإضافة لأدنى ملابسة ،

وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه : مدح المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق ، وهو المقعد الذي يصدق الله تعالى فيه مواعيد أوليائه بأنه يبيح عز وجل لهم النظر إلى وجهه الكريم ، وإفراد المقعد على إرادة الجنس .

وقرأ عثمان البتي في مقاعد على الجمع وهي توضح أن المراد بالمقعد المقاعد .

﴿ عِندَ مَلِيكٍ ﴾ أي ملك عظيم الملك ، وهو صيغة مبالغة وليست الياء من الإشباع ﴿ مُّقْتَدِرٍ ﴾ قادر عظيم القدرة ، والظرف في موضع الحال من الضمير المستقر في الجار والمجرور ، أو خبر بعد خبر ، أو صفة لمقعد صدق ، أو بدل منه ، والعندية للقرب الرتبي وذكر بعضهم أنه سبحانه أبهم العندية والقرب ونكر مليكاً ، ومقتدراً للإشارة إلى أن ملكه تعالى وقدرته عز وجل لا تدري الإفهام كنههما وأن قربهم منه سبحانه بمنزلة من السعادة والكرامة بحيث لا عين رأيت ولا أذن سمعت مما يجل عن البيان وتكل دونه الأذهان .

(139/737)

وأخرج الحكيم الترمذي عن بريدة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المتقين ﴾ [القمر : 54] الخ قال : إن أهل الجنة يدخلون على الجبار كل يوم مرتين فيقرأ عليهم القرآن وقد جلس كل امرىء منهم مجلسه الذي هو مجلسه على منابر الدر والياقوت

والزمرد والذهب والفضة بالأعمال فلا تقرّ أعينهم قط كما تقرّ بذلك ولم يسمعوا شيئاً أعظم منه ولا أحسن منه ثم ينصرفون إلى رحالهم قريرة أعينهم ناعمين إلى مثلها من الغد وإذا صح هذا فهو من المتشابه كالآية فلا تغفل ، ولهذين الاسمين الجليلين شأن في استجابة الدعاء على ما في بعض الآثار .

أخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن المسيب قال : دخلت المسجد وأنا أرى أني أصبحت فإذا على ليل طويل وليس فيه أحد غيري فنمت فسمعت حركة خلفي ففزعت فقال : أيها الممتلىء قلبه فرقاً لا تفرق أو لا تفزع وقل اللهم إنك مليك مقتدر ما تشاء من أمر يكون ثم سل ما بدا لك قال : فما سألت الله تعالى شيئاً إلا استجاب لي وأنا أقول : اللهم إنك مليك مقتدر ما تشاء من أمر يكون فأسعدني في الدارين وكن لي ولا تكن علي وانصرني على من بغى علي وأعذني من هم الدين وقهر الرجال وشماتة الأعداء ، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(140/737)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) ﴾

﴿ النذر ﴾ يجوز أن يكون جمع نذير ، ويجوز أن يكون مصدر بمعنى : الإنذار كما تقدّم ، وهي الآيات التي أنذرهم بها موسى ، وهذا أولى لقوله : ﴿ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كُلِّهَا ﴾ فإنه بيان لذلك ، والمراد بها : الآيات التسع التي تقدّم ذكرها ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ أي : أخذناهم بالعذاب أخذ غالب في انتقامه قادر على إهلاكهم لا يعجزه شيء ، ثم خوّف سبحانه كفار مكة فقال : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ ﴾ والاستفهام للإنكار ، والمعنى النفي ، أي : ليس كفاركم يا أهل مكة ، أو يا معشر العرب خير من كفار من تقدّمكم من الأمم الذين أهلكوا بسبب كفرهم ، فكيف تطمعون في السلامة من العذاب ، وأنتم شرّ منهم .

ثم أضرب سبحانه عن ذلك ، وانتقل إلى تبكيتهم بوجه آخر هو أشد من التبكيت بالوجه الأوّل ، فقال : ﴿ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزبر ﴾ والزبر هي الكتب المنزلة على الأنبياء ، والمعنى : إنكار أن تكون لهم براءة من عذاب الله في شيء من كتب الأنبياء .

ثم أضرب عن هذا التبكيت ، وانتقل إلى التبكيت لهم بوجه آخر ، فقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ أي : جماعة لا تطاق لكثرة عددنا وقوّتنا ، أو أمرنا مجتمع لا نغلب ، وأفرد منتصراً اعتباراً بلفظ جميع .

قال الكلبي : المعنى نحن جميع أمرنا ننتصر من أعدائنا ، فردّ الله سبحانه عليهم بقوله : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ﴾ أي : جمع كفار مكة ، أو كفار العرب على العموم .

قرأ الجمهور ﴿ سيهزم ﴾ بالتحتية مبنياً للمفعول .

وقرأ ورش عن يعقوب : ﴿ سنهزم ﴾ بالنون وكسر الزاي ونصب الجمع .

(141/737)

وقرأ أبو حيوة ، وابن أبي عبلة بالتحتية مبنياً للفاعل ، وقرىء بالفوقية مبنياً للفاعل ﴿ وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ قرأ الجمهور ﴿ يولون ﴾ بالتحتية ، وقرأ عيسى ، وابن أبي إسحاق ، وورش عن يعقوب بالفوقية على الخطاب ، والمراد بالدبر : الجنس ، وهو في معنى الإدبار ، وقد هزمهم الله يوم بدر ، وولوا الأدبار ، وقتل رؤساء الشرك ، وأساطين الكفر ، فلله الحمد .

﴿ بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ ﴾ أي : موعد عذابهم الأخرويّ ، وليس هذا العذاب الكائن في الدنيا بالقتل والأسر والقهر ، وهو تمام ما وعدوا به من العذاب ، وإنما هو مقدّمة من مقدّماته وطليعة من طلائعه ، ولهذا قال : ﴿ والساعة أدهى وَأَمَرُّ ﴾ أي : وعذاب الساعة أعظم في الضرّ وأفظع ، مأخوذ من الدهاء ، وهو النكر والفظاعة ، ومعنى أمرّ :

أشد مرارة من عذاب الدنيا ، يقال : دهاه أمر كذا ، أي : أصابه دهواً ودهياً .

﴿ إِنَّ المجرمين فِى ضلال وَسُعُرٍ ﴾ أي : في ذهاب عن الحقّ وبعد عنه ، وقد تقدّم في هذه السورة تفسير ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ ، فلا نعيده ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النار على وُجُوهِهِمْ ﴾ والظرف منتصب بما قبله ، أي : كائنون في ضلال وسعر يوم يسحبون ، أو بقول مقدّر بعده ، أي : يوم يسحبون يقال لهم : ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ أي : قاسوا حرّها وشدّة عذابها ، وسقر : علم لجهنم .

وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بإدغام سين ﴿ مسّ ﴾ في سين ﴿ سقر ﴾ ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ قرأ الجمهور بنصب "كل" على الاشتغال .

وقرأ أبو السماك بالرفع ، والمعنى : أن كل شيء من الأشياء خلقه الله سبحانه ملتبساً بقدر قدّره ، وقضاء قضاه سبق في علمه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه ، والقدر : التقدير ، وقد قدّمنا الكلام على تفسير هذه الآية مستوفى .

﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ واحدة كَلَمْحٍ بالبصر ﴾ أي : إلا مرة واحدة ، أو كلمة واحدة كلمح بالبصر في سرعته ، واللمح : النظر على العجلة والسرعة .

وفي الصحاح لمحه وألمحه : إذا أبصره بنظر خفيف ، والاسم اللمحة .

قال الكلبي : وما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلاّ كطرف البصر .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أشياعكم ﴾ أي : أشباهكم ونظراءكم في الكفر من الأمم ، وقيل : أتباعكم وأعوانكم ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ يتذكر ويتّعظ بالمواعظ ، ويعلم أن ذلك حق ، فيخاف العقوبة ، وأن يحل به ما حلّ بالأمم السالفة ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزبر ﴾ أي : جميع ما فعلته الأمم من خير أو شرّ مكتوب في اللوح المحفوظ ، وقيل : في كتب الحفظة ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ أي : كل شيء من أعمال الخلق وأقوالهم وأفعالهم مسطور في اللوح المحفوظ صغيره وكبيره ، وجليله وحقيره ، يقال : سطر يسطر سطراً كتب ، وأسطر مثله .

ثم لما فرغ سبحانه من ذكر حال الأشقياء ذكر حال السعداء فقال : ﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَنَهَرٍ ﴾ أي : في بساتين مختلفة ، وجنان متنوعة ، وأنهار متدفقة .

قرأ الجمهور : ﴿ ونهر ﴾ بفتح الهاء على الإفراد ، وهو جنس يشمل أنهار الجنة ، وقرأ مجاهد ، والأعرج ، وأبو السماك بسكون الهاء وهما لغتان ، وقرأ أبو مجلز ، وأبو نهشل ، والأعرج ، وطلحة بن مصرف ، وقتادة (نهر) بضم النون ، والهاء على الجمع ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ أي : في مجلس حقّ لا لغو فيه ولا تأثيم ، وهو الجنة ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ أي قادر على ما يشاء لا يعجزه شيء ، و ﴿ عند ﴾ هنا كناية عن الكرامة ،

وشرف المنزلة ، وقرأ عثمان البستي : (في مقاعد صدق) .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ أكفاركم خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ ﴾ يقول : ليس كفاركم خير من قوم نوح ، وقوم لوط .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن منيع ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عنه في قوله : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ قال : كان ذلك يوم بدر قالوا : ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ فنزلت هذه الآية .

(143/737)

وفي البخاري ، وغيره عنه أيضاً أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال وهو في قبة له يوم بدر : " أنشدك عهدك ووعدك ، اللَّهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً " ، فأخذ أبو بكر بيده ، وقال : حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ، فخرج ، وهو يثب في الدرع ، ويقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر * بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ والساعة أدهى وَأَمَرُّ ﴾ .

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجه ، وغيرهم عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخاصمونه في القدر ، فنزلت : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النار على وُجُوهِهِمْ ﴾ .

وأخرج مسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل شيء بقدر حتى العجز ، والكيس" .

وأخرج ابن المنذر عنه في قوله : ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ قال : مسطور في الكتاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 128 . 130 ﴾

(144/737)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (49) ﴾

استئناف وقع تذييلاً لما قبله من الوعيد والإِنذار والاعتبار بما حلّ بالمكذبين ، وهو أيضاً توطئة لقوله : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة ﴾ [القمر : 50] إلخ .

والمعنى : إنا خلقنا وفعلنا كلّ ما ذكر من الأفعال وأسبابها وآلاتها وسلّطناه على مستحقيه لأنا خلقنا كل شيء بقدر ، أي فإذا علمتم هذا فانتبهوا إلى أن ما أنتم عليه من التكذيب والإِصرار مماثل لما كانت عليه الأمم السالفة .

واقترانُ الخبر بحرف (إنّ) يقال فيه ما قلناه في قوله : ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾ [القمر : 47] .

والخَلْق أصله : إيجاد ذات بشكل مقصود فهو حقيقة في إيجاد الذوات ، ويطلق مجازاً على إيجاد المعاني التي تشبه الذوات في التميز والوضوح كقوله تعالى : ﴿ وتخلقون إفكاً ﴾ [العنكبوت : 17] .

فإطلاقه في قوله : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه .

و﴿ شيء ﴾ معناه موجود من الجواهر والأعراض ، أي خلقنا كل الموجودات جواهرها وأعراضها بقدَر .

والقدَر : بتحريك الدال مرادف القدْر بسكونها وهو تحديد الأمور وضبطها .

والمراد : أن خلْق الله الأشياء مصاحب لقوانين جارية على الحكمة ، وهذا المعنى قد تكرر في القرآن كقوله في سورة الرعد (8) ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ ومما يشمله عموم كل شيء خلق جهنم للعذاب .

(145/737)

وقد أشار إلى أن الجزاء من مقتضى الحكمة قوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ [المؤمنون : 115] وقوله : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل إن ربك هو الخلاق العليم ﴾

[الحجر : 85 ، 86] وقوله : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ﴾ [الدخان : 38 40] فترى هذه الآيات وأشباهها تُعقّب ذكر كون الخلق كله لحكمة بذكر الساعة ويوم الجزاء .

فهذا وجه تعقيب آيات الإِنذار والعقاب المذكورة في هذه السورة بالتذييل بقوله : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ بعد قوله : ﴿ أكفاركم خير من أولائكم ﴾ [القمر : 43] وسيقول : ﴿ ولقد أهلكنا أشياعكم ﴾ [القمر : 51] .

فالباء في ﴿ بقدر ﴾ للملابسة ، والمجرور ظرف مستقر ، فهو في حكم المفعول الثاني لفعل ﴿ خلقناه ﴾ لأنه مقصود بذاته ، إذ ليس المقصود الإِعلام بأن كل شيء مخلوق لله ، فإن ذلك لا يحتاج إلى الإِعلام به بَلْه تأكيده بل المقصود إظهار معنى العلم والحكمة في الجزاء كما في قوله تعالى في سورة الرعد (8) ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ ومما يستلزمه معنى القَدر أن كل شيء مخلوقٍ هو جارٍ على وفق علم الله وإرادته لأنه خالق أصول الأشياء وجاعلُ القوى فيها لتنبعث عنها آثارها ومتولَّداتُها ، فهو عالم بذلك ومريد لوقوعه .

وهذا قد سمي بالقدَر في اصطلاح الشريعة كما جاء في حديث جبريل الصحيح في ذكر ما يقع به الإِيمان : وتؤمن بالقدر خيره وشره .

وأخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله في القدَر

فنزلت:

﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ [القمر : 48 ، 49] .

(146/737)

ولم يذكُرْ راوي الحديث تعيينَ معنى القَدَر الذي خاصم فيه كفار قريش فبقي مجملاً ويظهر أنهم خاصموا جَدلاً ليدفعوا عن أنفسهم التعنيف بعبادة الأصنام كما قالوا : ﴿ لو شاء الرحمان ما عبدناهم ﴾ [الزخرف : 20] ، أي جدلاً للنبي صلى الله عليه وسلم بموجَب ما يقوله من أن كل كائن بقدر الله جهلاً منهم بمعاني القَدر .

قال عياض في "الإِكمال" "ظاهره أن المراد بالقدر هنا مرادُ الله ومشيئته وما سيق به قدره من ذلك ، وهو دليل مساق القصة التي نزلت بسببها الآية" أ هـ .

وقال الباجي في "المنتقَى" : "يحتمل من جهة اللغة معاني:

أحدها : أن يكون القَدَر ههنا بمعنى مقدر لا يُزاد عليه ولا ينقص كما قال تعالى : ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ [الطلاق : 3] .

والثاني : أن المراد أنه بقدرته ، كما قال : ﴿ بل قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ [القيامة :

4].

والثالث : بقَدر ، أي نخلقه في وقته ، أي نقدّر له وقتاً نخلقه فيه" أ هـ .

قلت : وإذ كان لفظ (قدر) جنساً ، ووقع معلّقاً بفعل متعلق بضمير ﴿ كل شيء ﴾ الدال على العموم كان ذلك اللفظ عاماً للمعاني كلها فكل ما خلقه الله فَخَلْقُه بقدر ، وسبب النزول لا يخصص العموم ، ولا يناكد موقعَ هذا التذييل على أن السلف كانوا يطلقون سبب النزول على كل ما نزلت الآية للدلالة عليه ولو كانت الآية سابقة على ما عَدُّوه من السبب .

(147/737)

واعلم أن الآية صريحة في أن كل ما خلقه الله كان بضبط جارياً على حكمة ، وأما تعيين ما خلقه الله مما ليس مخلوقاً له من أفعال العباد مثلاً عند القائلين بخلق العباد أفعالهم كالمعتزلة أو القائلين بكسب العبد كالأشعرية ، فلا حجة بالآية عليهم لاحتمال أن يكون مصب الإخبار هو مضمون ﴿ خلقناه ﴾ أو مضمون ﴿ بقدر ﴾ ، ولاحتمال عموم ﴿ كل شيء ﴾ للتخصيص ، ولاحتمال المرادِ بالشيء مَا هو ، وليس نفي حجيّة هذه الآية على إثبات القدَر الذي هو محَل النزاع بين الناس بمبطل ثبوت القدَر من أدلة أخرى .

وحقيقة القدر الاصطلاحي خفيّة فإن مقدار تأثر الكائنات بتصرفات الله تعالى وبتسبب أسبابها ونهوض موانعها لم يبلغ علمُ الإِنسان إلى كشف غوامضه ومعرفة ما مكّن الله الإِنسان من تنفيذ لما قدّره الله ، والأدلة الشرعية والعقلية تقتضي أن الأعمال الصالحة والأعمالَ السيئة سَواء في التأثر لإِرَادة الله تعالى وتعلقِ قدرته إذا تعلقت بشيء ، فليست نسبة آثار الخير إلى الله دون نسبة أثر الشر إليه إلا أدباً مع الخالق لقنه الله عبيده ، ولولا أنها منسوبة في التأثر لإرادة الله تعالى لكانت التفرقة بين أفعال الخير وأفعال الشر في النسبة إلى الله ملحقة باعتقاد المجوس بأنّ للخير إلهاً وللشر إلهاً ، وذلك باطل لقول النبي صلى الله عليه وسلم

" وتؤمن بالقدر خيره وشره " وقوله : " القدرية مجوس هذه الأمة " رواه أبو داود بسنده إلى ابن عمر مرفوعاً .

(148/737)

وانتصب ﴿ كل شيء ﴾ على المفعولية ل ﴿ خلقناه ﴾ على طريقة الاشتغال ، وتقديمه على ﴿ خلقناه ﴾ ليتأكد مدلوله بذكر اسمه الظاهر ابتداء ، وذكر ضميره ثانياً ، وذلك هو الذي يقتضي العدول إلى الاشتغال في فصيح الكلام العربي فيحصل توكيد

للمفعول بعد أن حصل تحقيق نسبة الفعل إلى فاعله بحرف ﴿ إنّ ﴾ المفيد لتوكيد الخبر وليتصل قوله : ﴿ بقدر ﴾ بالعامل فيه وهو ﴿ خلقناه ﴾ ، لئلا يلتبس بالنعت لشيء لو قيل : إنا خلقنا كل شيء بقَدَر ، فيظن أن المراد : أنا خلقنا كل شيء مُقدّر فيبقى السامع منتظراً لخبر ﴿ إن ﴾ .

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50)

عطف على قوله : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ [القمر : 49] فهو داخل في التذييل ، أي خلقناه كل شيء بعلم ، فالمقصود منه وما يصلح له معلوم لنا فإذا جاء وقته الذي أعددناه حصل دَفعة واحدة لا يسبقه اختبار ولا نظَر ولا بداء .

وسيأتي تحقيقه في آخر تفسير هذه الآية .

والغرض من هذا تحذيرهم من أن يأخذهم العذاب بغتة في الدنيا عند وجود ميقاته وسبق إيجاد أسبابه ومقوماته التي لا يتفطنون لوجودها ، وفي الآخرة بحلول الموت ثم بقيام الساعة .

وعطف هذا عقب ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ [القمر : 49] مشعر بترتب مضمونه على مضمون المعطوف عليه في التنبيه والاستدلال حسب ما هو جارٍ في كلام البلغاء من مراعاة ترتب معاني الكلام بعضها على بعض حتى قال جماعة من أئمة اللغة : الفَراءُ وثعلبٌ والربعيُ وقطربٌ وهشامٌ وأبو عمرو الزاهد : إن العطف بالواو يفيد الترتيب

، وقال ابن مالك : الأكثر إفادته الترتيب .

والأمر في قوله : ﴿ وما أمرنا ﴾ يجوز أن يكون بمعنى الشأن ، فيكون المراد به الشأن المناسب لسياق الكلام ، وهو شأن الخلق والتكوين ، أي وما شأن خلقنا الأشياء .

ويجوز أن يكون بمعنى الإِذن فيراد به أمر التكوين وهو المعبر عنه بكلمة "كن" والمآل واحد .

(149/737)

وعلى الاحتمالين فصفةُ ﴿ واحدة ﴾ وصف لموصوف محذوف دل عليه الكلام هو خبر عن ﴿ أمرنا ﴾ .

والتقدير : إلا كلمة واحدةٌ ، وهي كلمة (كُنْ) كما قال تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [يس : 82] .

والمقصود الكناية عن أسرع ما يمكن من السرعة ، أي وما أمرنا إلا كلمة واحدة .

وذلك في تكوين العناصر والبسائط وكذلك في تكوين المركبات لأن أمر التكوين يتوجه إليها بعد أن تسبقه أوامر تكوينية بإيجاد أجزائها ، فلكل مكوّن منها أمر تكوين يخصه هو كلمة واحدة فتبين أن أمر الله التكويني كلمة واحدة ولا ينافي هذا قوله : ﴿ ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ﴾ [ق : 38] ونحوه ، فخلق ذلك قد انطوى

على مخلوقات كثيرة لا يُحصر عددها كما قال تعالى : ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق ﴾ [الزمر : 6] فكل خلق منها يحصل بكلمة واحدة كلمح البصر على أن بعض المخلوقات تتولد منه أشياء وآثار فيعتبر تكوينه عند إيجاد أوّله .

وصح الإِخبار عن (أمر) وهو مذكَّر بـ ﴿ واحدة ﴾ وهو مؤنث باعتبار أن ما صُدِق الأمر هنا هو أمر التسخير وهو الكلمة ، أي كلمة (كن) .

وقوله : ﴿ كلمح بالبصر ﴾ في موضع الحال من ﴿ أمرنا ﴾ باعتبار الإِخبار عنه بأنه كلمة واحدة ، أي حصول مرادنا بأمرنا كلمح بالبصر ، وهو تشبيه في سرعة الحصول ، أي ما أمرنا إلا كلمة واحدة سريعة التأثير في المتعلّقِة هي به كسرعة لمح البصر .

وهذا التشبيه في تقريب الزمان أبلغ ما جاء في الكلام العربي وهو أبلغ من قول زهير :

فهن وَوَادِي الرسِّ كاليد للفَم . . .

وقد جاء في سورة النحل (77) ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب فزيد هنالك أو ﴿ هو أقرب ﴾ لأن المقام للتحذير من مفاجأة الناس بها قبل أن يستعدوا لها فهو حقيق بالمبالغة في التقريب ، بخلاف ما في هذه الآية فإنه لتمثيل أمْر الله وذلك يكفي فيه مجرد التنبيه إذ لا يتردد السامع في التصديق به .

وقد أفادت هذه الآية إحاطة علم الله بكل موجود وإيجادَ الموجودات بحكمة ، وصدورها عن إرادة وقدرة .

واللمح : النظر السريع وإخلاس النظر ، يقال : لَمحَ البصر ، ويقال : لَمح البرق كما يقال : لمعَ البرق .

ولما كان لمح البصر أسرع من لمح البرق قال تعالى : ﴿ كلمح بالبصر ﴾ كما قال في سورة النحل (77) ﴿ إلا كلمح البصر ﴾ .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (51)

التُفِتَ من طريق الغيبة إلى الخطاب ومرجع الخطاب هم المشركون لظهور أنهم المقصود بالتهديد ، وهو تصريح بما تضمنه قوله : ﴿ أكفاركم خير من أولائكم ﴾ [القمر : 43] فهو بمنزلة النتيجة لقوله : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر إلى كلمح بالبصر ﴾ [القمر : 49 ، 50] .

وهذا الخبر مستعمل في التهديد بالإِهلاك وبأنه يفاجئهم قياساً على إهلاك الأمم السابقة ، وهذا المقصد هو الذي لأجله أكد الخبر بلام القسم وحرفِ (قد) .

أما إهلاك من قبلهم فهو معلوم لا يحتاج إلى تأكيد .

ولك أن تجعل مناط التأكيد إثبات أن إهلاكهم كان لأجل شِركهم وتكذيبهم الرسل .

وتفريع ﴿ فهل من مدكر ﴾ قرينة على إرادة المعنيين فإن قوم نوح بقُوا أزماناً فما أقلعوا عن إشراكهم حتى أخذهم الطوفان بغتة .

وكذلك عاد وثمود كانوا غير مصدقين بحلول العذاب بهم فلما حل بهم العذاب حل بهم بغتة ، وقوم فرعون خرجوا مقتفين موسى وبني إسرائيل واثقين بأنهم مدركوهم واقتربوا منهم وظنوا أنهم تمكنوا منهم فما راعهم إلا أن أنجى الله بني إسرائيل وانطبق البحر على الآخرين .

(151/737)

والمعنى : فكما أهلكنا أشياعَكم نهلككم ، وكذلك كان ، فإن المشركين لمّا حلوا ببدر وهم أوفر عدداً وعُدداً كانوا واثقين بأنهم مُنقذون عيرهم وهازمون المسلمين فقال أبو جهل وقد ضَرب فرسه وتقدم إلى الصف "اليوم ننتصر من محمد وأصحابه" فلم تَجُل الخيل جَولة حتى شاهدوا صناديدهم صرعى ببدر : أبا جهل ، وشيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف وغيرهم في سبعين رجلاً ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

والأشياع : جمع شيعة .

والشيعة : الجماعة الذين يؤيدون من يُضَافون إليه ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا

دينهم وكانوا شيعا ﴾ في آخر سورة الأنعام (159) .

وأطلق الأشياع هنا على الأمثال والأشباه في الكُفْر على طريق الاستعارة بتشبيههم وهم منقرضون بأشياع موجودين .

وفرع على هذا الإنذار قوله : فهل من مدكر ﴾ وتقدم نظيره في هذه السورة .

وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52)

يجوز أن يكون الضمير المرفوع في قوله : ﴿ فعلوه ﴾ عائداً إلى ﴿ أشياعكم ﴾ [القمر : 51] ، والمعنى : أهلكناهم بعذاب الدنيا وهيّأنا لهم عذاب الآخرة فكتب في صحائف الأعمال كل ما فعلوه من الكفر وفروعه ، فالكناية في الزُبر وقعت هنا كناية عن لازمها وهو المحاسبة به فيما بعد وعن لازم لازمها وهو العقاب بعد المحاسبة .

(152/737)

وهذا الخبر مستعمل في التعريض بالمخاطبين بأنهم إذا تعرضوا لما يوقع عليهم الهلاك في الدنيا فليس ذلك قصارى عذابهم فإن بعده حساباً عليه في الآخرة يعذبون به وهذا كقوله تعالى : ﴿ وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ﴾ [الطور : 47] ويجوز عندي أن يكون الضمير عائداً إلى الجمع من قوله : ﴿ سيهزم الجمع ﴾ [القمر : 45] أو إلى ﴿ المجرمين

﴾ في قوله : ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾ [القمر : 47] الخ ، والمعنى كل شيء فعله المشركون من شرك وأذى للنبيء صلى الله عليه وسلم وللمسلمين معدود عليهم مهيأ عقابهم عليه لأن الإخبار عن إحصاء أعمال الأمم الماضين قد أغنى عنه الإخبار عن إهلاكهم ، فالأجدر تحذير الحاضرين من سوء أعمالهم .

و﴿ الزبر ﴾ : جمع زبور وهو الكتاب مشتق من الزبر ، وهو الكتابة ، وجُمعت الزبر لأن لكل واحد كتاب أعماله ، قال تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً إقرأ كتابك ﴾ [الإسراء : 13 ، 14] الآية .

وعموم ﴿ كل شيء فعلوه ﴾ مراد به خصوص ما كان من الأفعال عليه مؤاخذة في الآخرة .

وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (53)

هذا كالتذييل لقوله : ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾ [القمر : 52] فكل صغير وكبير أعمّ من كل شيء فعلوه ، والمعنى : وكل شيء حقير أو عظيم مستطر ، أي مكتوب مسطور ، أي في علم الله تعالى أي كل ذلك يعلمه الله ويحاسب عليه ، فمستطر : اسم مفعول من سطر إذا كتب سطوراً قال تعالى : ﴿ وكتاب مسطور ﴾ [الطور : 2] .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا

رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ [الأنعام : 59] وقوله : ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ [سبأ : 3] .

(153/737)

فالصغير : مستعار للشيء الذي لا شأن له ولا يَهتم به الناس ولا يؤاخذ عليه فاعله ، أو لا يؤاخذ عليه مؤاخذة عظيمة .

والكبير : مستعار لضده ويدخل في ذلك ما له شأن من الصلاح ومَا له شأن من الفساد وما هو دون ذلك ، وذلك أفضل الأعمال الصالحة وما دونه من الأعمال الصالحة ، وكذلك كبائر الإِثم والفواحش وما دونها من اللمم والصغائر .

والمستطر : كناية عن علم الله به وذلك كناية عن الجزاء عليه مكان ذلك جامعاً للتبشير والإِنذار .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55)

استئناف بياني لأنه لما ذكر أن كل صغير وكبير مستطرِ على إرادة أنه معلوم ومجازىً عليه وقد علم جزاء المجرمين من قوله : ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾ [القمر : 47] كانت نفس السامع بحيث تتشوف إلى مقابل ذلك من جزاء المتقين وجريا على عادة القرآن

من تعقيب النذارة بالبشارة والعكس .

وافتتاح هذا الخبر بحرف ﴿ إن ﴾ للاهتمام به .

و﴿ في ﴾ من قوله : ﴿ في جنات ﴾ للظرفية المجازية التي هي بمعنى التلبس القوي كتلبس المظروف بالظرف ، والمراد في نعيم جنات ونهر فإن للجنات والأنهار لذات متعارفة من اللهو والأُنس والمحادثة ، واجتناء الفواكه ، ورؤية جَرَيَانِ الجداول وخرير الماء ، وأصوات الطيور ، وألوان السوابح .

وبهذا الاعتبار عطف ﴿ نهر ﴾ على ﴿ جنات ﴾ إذ ليس المراد الإخبار بأنهم ساكنون جناتٍ فإن ذلك يغني عنه قوله بعد : ﴿ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ ، ولا أنهم منغمسون في أنهار إذ لم يكن ذلك مما يقصده السامعون .

ونَهَرَ : بفتحتين لغة في نَهْر بفتح فسكون .

والمراد به اسم الجنس الصادق بالمتعدد لقوله تعالى : ﴿ من تحتهم الأنهار ﴾ [الأعراف : 43] ، وقوله : ﴿ في مقعد صدق ﴾ إما في محل الحال من المتقين وإما في محل الخبر الثاني ل ﴿ إنّ ﴾ .

والمقعد : مكان القعود .

والقعود هنا بمعنى الإِقامة المطمئنة كما في قوله تعالى : ﴿ اقعدوا مع القاعدين ﴾ [التوبة : 46] .

والصدق : أصله مطابقة الخبر للواقع ثم شاعت له استعمالات نشأت عن مجاز أو استعارة ترجع إلى معنى مصادفة أحد الشّيء على ما يناسب كمال أحوال جنسه ، فيقال : هو رَجُل صدق ، أي تمام رُجلة ، وقال تأبط شراً :

إني لمهد من ثنائي فقاصد . . .

به لابنِ عَمِّ الصدق شُمس بن مالك

أي ابن العم حقا ، أي موف بحق القرابة .

وقال تعالى : ﴿ ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوّأ صدق ﴾ [يونس : 93] وقال في دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ [الشعراء : 84] ويسمى الحبيب الثابت المحبة صَديقاً وصدّيقاً .

فمقعد صدق ، أي مقعد كامل في جنسه مرضي للمستقر فيه فلا يكون فيه استفزاز ولا زوال ، وإضافة ﴿ مقعد ﴾ إلى ﴿ صدق ﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته للمبالغة في تمكن الصفة منه .

والمعنى : هم في مقعد يشتمل على كل ما يحمده القاعد فيه .

والمَليك : فعيل بمعنى المالك مبالغة وهو أبلغ من مَلِك ، ومقتدر : أبلغ من قادر ، وتنكيره وتنكير مُقتدر للتعظيم .

والعندية عندية تشريف وكرامة ، والظرف خبر بعد خبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(155/737)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) ﴾

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ وقالوا مجنون وازدجر ﴾ قال : استطير جنوناً .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن في قوله ﴿ وازدجر ﴾ قال : تهددوه بالقتل .

وأخرج البخاري في الأدب وابن أبي حاتم عن أبي الطفيل أن ابن الكواء سأل علياً عن المجرة فقال : هي شرخ السماء ، ومنها فتحت أبواب السماء بماء منهمر ، ثم قرأ ﴿ ففتحنا

أبواب السماء ﴾ الآية.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ قال: كثير لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب، وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم فالتقى الماءان.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب في قوله ﴿ فالتقى الماء ﴾ قال: ماء السماء وماء الأرض ﴿ على أمر قد قدر ﴾ قال: كانت الأقوات قبل الأجساد وكان القدر قبل البلاء.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ قد قدر ﴾ قال: صاح بصاع.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودُسر ﴾ قال: الألواح ألواح السفينة والدسر معاريضها التي تشد بها السفينة.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد قال: الألواح الصفائح، والدسر العوارض.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ وحملناه على ذات ألواح ﴾ قال: معاريض السفينة ﴿ ودسر ﴾ قال: دسرت بمسامير.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ ودسر ﴾ قال: المسامير.

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: حدثنا أن دسرها مساميرها التي شدت بها.

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قول الله ﴿ ودسر ﴾ قال : الدسر التي تحرز بها السفينة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ . قال : نعم . أما سمعت الشاعر وهو يقول :

سفينة نوتي قد احكم صنعها . . . مثخنة الألواح منسوجة الدسر

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الدسر كلكل السفينة .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : الدسر صدرها الذي يضرب به الموج .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن نحوه .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله تعالى ﴿ جزاء لمن كان كفر ﴾ قال : جزاء الله هو الذي كفر .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ ولقد تركناها آية ﴾ قال : أبقى الله سفينة نوح على الجودي حتى أدركها أوائل هذه الأمة .

أخرج آدم بن أبي اياس وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ قال : هوّنا قراءته .

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ قال : لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله .

وأخرج الديلمي عن أنس مرفوعاً مثله .

وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين أنه مر برجل يقول سورة خفيفة قال لا تقل سورة خفيفة ، ولكن قل سورة ميسرة لأن الله يقول ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ فهل من مدكر ﴾ قال : هل من متذكر .

وأخرج ابن المنذر عن محمد بن كعب في قوله ﴿ فهل من مدكر ﴾ قال : هل من منزجر عن المعاصي .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ هل من مدكر ﴾ قال : هل من طالب خير يعان عليه ؟

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر عن مطر الوراق في قوله ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ قال : هل من طالب علم فيعان عليه ؟

(157/737)

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير والحاكم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قرأت على النبي صلى الله عليه وسلم [فهل من

مذكر] بالذال ، فقال ﴿ فهل من مدكر ﴾ بالدال .

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18)

أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ قال : باردة ﴿ في يوم نحس ﴾ قال : أيام شداد .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله ﴿ صرصراً ﴾ قال : شديدة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ ريحاً صرصراً ﴾ قال الباردة ﴿ في يوم نحس ﴾ قال : في يوم مشؤوم على القوم مستمر استمر عليهم شره .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ في يوم نحس ﴾ قال : النحس البلاء والشدة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت زهير بن أبي سلمى وهو يقول :

سواء عليه أي يوم أتيته . . . أساعة نحس تتقي أم بأسعد

وأخرج ابن أبي حاتم عن زر بن حبيش ﴿ في يوم نحس مستمر ﴾ قال : يوم الأربعاء .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال لي جبريل : اقض باليمين مع الشاهد وقال : يوم الأربعاء ﴿ يوم نحس مستمر ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن عليّ قال : نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم باليمين مع

الشاهد والحجامة ويوم الأربعاء يوم نحس مستمر .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يوم نحس يوم الأربعاء " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأيام وسئل عن يوم الأربعاء قال : يوم نحس ، قالوا : وكيف ذاك يا رسول الله ؟ قال : أغرق فيه الله فرعون وقومه وأهلك عاداً وثمود " .

(158/737)

وأخرج وكيع في الغرر وابن مردويه والخطيب بسند عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر " .

وأخرج عبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن قال : لما أقبلت الريح قام إليها عاد فأخذ بعضهم بأيدي بعض وغمزوا أقدامهم في الأرض وقالوا : من يزيل أقدامنا عن الأرض إن كان صادقاً ، فأرسل الله عليهم الريح تنزع الناس ﴿ كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي هريرة قال : إن كان الرجل من عاد ليتخذ

المصراعين من حجارة لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يحملوه ، فكان الرجل يغمز قدمه في الأرض فتدخل فيه .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ كأنهم أعجاز نخل ﴾ قال : أصول نخل ﴿ منقعر ﴾ قال : منقطع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ أعجاز نخل منقعر ﴾ قال : أعجاز سود النخل .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ قال : وقعت رؤوسهم كأمثال الأخشبة وتقوّرت أعناقهم فشبهها بأعجاز نخل منقعر .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23)

أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ إنا إذاً لفي ضلال وسعر ﴾ قال : شقاء .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ إنا إذاً لفي ضلال وسعر ﴾ قال : في ضلال وعناء .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ وسعر ﴾ قال : ضلال ، وفي قوله ﴿ كل شرب محتضر ﴾ قال : يحضرون الماء إذا غابت الناقة وإذا جاءت حضروا اللبن ، وفي قوله ﴿ فتعاطى ﴾ قال : تناول ، وفي قوله ﴿ كهشيم المحتظر ﴾ قال

: الرجل هشم الحنتمة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ فتعاطى فعقر ﴾ قال : تناول أحيمر ثمود الناقة فعقرها ، وفي قوله ﴿ كهشيم المحتظر ﴾ قال : كرماد محترق .

(159/737)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فتعاطى ﴾ قال : تناول .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ كهشيم المحتظر ﴾ قال : كالعظام المحترقة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ كهشيم المحتظر ﴾ قال : كالحشيش تأكله الغنم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ كهشيم المحتظر ﴾ قال : هو الحشيش قد حظرته فأكلته يابساً فذهب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير ﴿ كهشيم المحتظر ﴾ قال : التراب الذي يسقط من الحائط .

قوله تعالى : ﴿ كذبت قوم لوط ﴾ الآيات .

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ فتماروا بالنذر ﴾ قال : لم يصدقوا بها ، وفي قوله ﴿ فطمسنا أعينهم ﴾ قال : ذكر لنا أن جبريل استأذن ربه في عقوبتهم ليلة أتوا لوطاً ، وأنهم عاجلوا الباب ليدخلوا عليهم ، فصعقهم بجناحه فتركهم عمياناً يترددون ، وفي قوله ﴿ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾ قال : استقر بهم في نار جهنم ، وفي قوله ﴿ فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ قال : عزيز في نقمته إذا انتقم لا يخاف أن يسبق ، وفي قوله ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ﴾ يقول : أكفاركم خير ممن قد مضى .

وأخرج سعيد بن منصور عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾ قال : عذاب في الدنيا استقر بهم في الآخرة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ﴾ يقول : ليس كفاركم خيراً من قوم نوح وقوم لوط .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الربيع بن أنس رضي الله عنه ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ﴾ قال : أكفاركم أيتها الأمة خير مما ذكر من القرون الأولى الذين أهلكتهم .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ﴾ يقول :

أكفاركم خير من أولئكم الذين مضوا ﴿ أم لكم براءة في الزبر ﴾ يعني في الكتب .

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44)

(160/737)

أخرج ابن أبي شيبة وابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ قال : كان ذلك يوم بدر قالوا ﴿ نحن جميع منتصر ﴾ فنزلت هذه الآية .

وأخرج البخاري والنسائي وابن المنذر والطبراني وأبو نعيم في الدلائل وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو في قبة له يوم بدر : " أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً ، فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ، فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾ " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يثب في الدرع يوم بدر ويقول " هزم الجمع وولوا الدبر " .

وأخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : نزل على محمد صلى الله عليه وسلم وأنا بمكة وإني لجارية ألعب ﴿ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أنزل الله على نبيه بمكة قبل يوم بدر ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قلت : يا رسول الله أي جمع سيهزم ؟ فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في آثارهم مصلتا بالسيف وهو يقول ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ وكانت ليوم بدر فأنزل الله فيهم ﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب ﴾ [المؤمنون : 64] الآية وأنزل الله ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ [إبراهيم : 28] الآية ورماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوسعتهم الرمية وملأت أعينهم وأفواههم ، حتى إن الرجل ليقتل وهو يقذي عينيه ، فأنزل الله ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ [الأنفال : 17] .

(161/737)

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن راهويه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عكرمة رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ سيهزم الجمع

ويولون الدبر ﴾ قال عمر رضي الله عنه : جعلت أقول : أي جمع سيهزم ؟ حتى كان يوم بدر رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يثب في الدرع وهو يقول ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ .

وأخرجه ابن جرير ومن وجه آخر عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما موصولاً .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي العالية رضي الله عنه ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ قال : يوم بدر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه قال : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : " هزموا وولوا الدبر " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن محمد بن كعب رضي الله عنه في قوله ﴿ والساعة أدهى وأمر ﴾ قال : ذكر الله قوم نوح وما أصابهم من العذاب ، وذكر عاداً وما أصابهم من الريح ، وذكر ثمود وما أصابهم من الصيحة ، وذكر قوم لوط وما أصابهم من الحجارة ، وذكر آل فرعون وما أصابهم من الغرق ، فقال : ﴿ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر ﴾ إلى قوله ﴿ والساعة أدهى وأمر ﴾ يعني أدهى مما أصاب أولئك وأمرّ .

وأخرج ابن المبارك في الزهد والترمذي وحسنه والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بادروا بالأعمال سبعاً ما

ينتظر أحدكم إلا غنى مطغياً أو فقراً منسياً أو مرضاً مفسداً أو هرماً مفنداً أو موتاً مجهزاً أو الدجال ، والدجال شر غائب ينتظر أو الساعة ﴿ والساعة أدهى وأمر ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن معقل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله جعل عقوبة هذه الأمة السيف وجعل موعدهم الساعة ﴿ والساعة أدهى وأمر ﴾ " .

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (47)

(162/737)

أخرج أحمد ومسلم وعبد بن حميد والترمذي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء مشركو قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخاصمونه في القدر فنزلت ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسَّ سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ .

وأخرج البزار وابن المنذر بسند جيد من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : ما أنزلت هذه الآية ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ إلا في أهل القدر .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وابن شاهين وابن منده والباوردي في

الصحابة والخطيب في تالي التلخيص وابن عساكر عن زرارة رضي الله عنه " عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تلا هذه الآية ﴿ ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ قال : " في أناس من أمتي في آخر الزمان يكذبون بقدر الله " " .

وأخرج ابن عدي وابن مردويه والديلمي وابن عساكر بسند ضعيف عن أبي أمامة رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن هذه الآية نزلت في القدرية ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾ " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وابن المنذر عن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه ، وكانت أمه لبابة بنت عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قالت : كنت أزور جدي ابن عباس رضي الله عنهما في كل يوم جمعة قبل أن يكف بصره ، فسمعته يقرأ في المصحف فلما أتى على هذه الآية ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾ قال : يا بنية ما أعرف أصحاب هذه الآية ما كانوا بعد وليكونن .

(163/737)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل له : قد تكلم في القدر ، فقال : أو فعلوها ؟ والله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم ﴿ ذوقوا مسَّ سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ أولئك شرار هذه الأمة ، لا تعودوا مرضاهم ، ولا تصلوا على موتاهم إن أريتني واحداً منهم فقأت عينيه بأصبعي هاتين .

وأخرج الطبراني وابن مردويه من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآية في القدرية ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسَّ سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ قال : خلق الله الخلق كلهم بقدر ، وخلق لهم الخير والشر بقدر .

وأخرج مسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس " .

وأخرج البخاري في تاريخه عن ابن عباس قال : كل شيء بقضاء وقدر حتى وضعك يدك على خدك .

وأخرج أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لكل أمة مجوس ، ومجوس أمتي الذين يقولون لا قدر ، إن مرضوا فلا تعودهم ، وإن ماتوا فلا

تشهدوهم " .

وأخرج ابن شاهين في السنة عن محمد بن كعب القرظي قال : طلبت هذا القدر فيما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم فوجدته في ﴿ اقتربت الساعة ﴾ ، ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾ ، ﴿ وكل صغير وكبير مستطر ﴾ .

وأخرج سفيان بن عيينة في جامعه عن محمد بن كعب القرظي قال : إنما نزلت هذه ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسَّ سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ تعيير الأهل القدر .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾ قال : في الكتاب .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ وكل صغير وكبير مستطر ﴾ قال : مسطور في الكتاب .

(164/737)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ وكل صغير وكبير مستطر ﴾ قال : محفوظ مكتوب .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ وكل صغير وكبير مستطر ﴾ قال : مكتوب .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة ﴿ مستطر ﴾ مكتوب في سطر .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد ﴿ ولقد أهلكنا أشياعكم ﴾ قال : أشياعهم من أهل الكفر من الأمم السالفة ﴿ فهل من مدكر ﴾ يقول : هل من أحد يتذكر ؟ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : ما طنَّ ذباب إلا بقدر ، ثم قرأ ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمر قال : المكذبون بالقدر مجرمو هذه الأمة ، وفيهم أنزلت هذه الآية ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾ إلى قوله ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ قال : يقول خلق كل شيء فقدره ، فقدر الدرع للمرأة ، والقميص للرجل ، والقتب للبعير ، والسرج للفرس ، ونحو هذا .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : جاء العاقب والسيد وكانا رأسي النصارى بنجران فتكلما بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم بكلام شديد في القدر ، والنبي صلى الله عليه وسلم ساكت ما يجيبهما بشيء حتى انصرفا ، فأنزل الله ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ﴾ الذين كفروا وكذبوا بالله قبلكم ﴿ أم لكم براءة في الزبر ﴾ في الكتاب الأول إلى قوله ﴿ ولقد أهلكنا أشياعكم ﴾ الذين كفروا وكذبوا بالقدر قبلكم ﴿ وكل شيء

فعلوه في الزبر ﴾ في أم الكتاب ﴿ وكل صغير وكبير مستطر ﴾ يعني مكتوب إلى آخر السورة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن محمد بن كعب قال : كنت أقرأ هذه الآية فما أدري من عني بها حتى سقطت عليها ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾ إلى قوله ﴿ كلمح بالبصر ﴾ فإذا هم المكذبون بالقدر .

(165/737)

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : نزلت هذه الآية في أهل التكذيب إلى آخر الآية ، قال مجاهد : قلت لابن عباس : ما تقول فيمن يكذب بالقدر ؟ قال : اجمع بيني وبينه ، قلت : ما تصنع به ؟ قال : أخنقه حتى أقتله .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صنفان من أمتي ليس لهما في الإِسلام نصيب المرجئة والقدرية ، أنزلت فيهم آية من كتاب الله ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾ إلى آخر الآية " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : إني لأجد في كتاب الله قوماً يسحبون في النار على وجوههم يقال لهم ﴿ ذوقوا مسَّ سقر ﴾ لأنهم كانوا يكذبون بالقدر وإني لا أراهم فلا

أدري أشيء كان قبلنا أم شيء فيما بقي .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : ما نزلت هذه الآية إلا تعييراً لأهل القدر ﴿ ذوقوا مسَّ سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ .

وأخرج أحمد عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لكل أمة مجوساً وإن مجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر ، فمن مرض فلا تعودوه وإن مات فلا تشهدوه ، وهم من شيعة الدجال حق على الله أن يلحقهم به " .

وأخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : سمعت بأذني هاتين رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أول ما خلق الله القلم قيل : اكتب لا بد قال : وما لا بد قال : القدر ، قال : وما القدر ؟ قال : تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك إن مت على غير ذلك دخلت النار " .

(166/737)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي أين خصماء الله ؟ فيقومون مسودة وجوههم مزرقة عيونهم مائلاً شفاههم يسيل لعابهم ، يقذرهم من رآهم ، فيقولون : والله يا ربنا ما عبدنا من دونك

شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً " قال ابن عباس رضي الله عنهما : لقد أتاهم الشرك من حيث لا يعلمون ، ثم تلا ابن عباس ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ [المجادلة : 18] ، هم والله القدريون ثلاث مرات .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه قال : ذكر لابن عباس أن قوماً يقولون في القدر فقال ابن عباس رضي الله عنهما : إنهم يكذبون بكتاب الله فلآخذن بشعر أحدهم فَلأَنصينَّهُ ، ان الله كان على عرشه قبل أن يخلق شيئاً ، وأول شيء خلق القلم ، وأمره أن يكتب ما هو كائن ، فإنما يجري الناس على أمر قد فرغ منه .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي يحيى الأعرج قال : سمعت ابن عباس رضي الله عنهما وذكر القدرية ، فقال : لو أدركت بعضهم لفعلت به كذا وكذا ثم قال : الزنا بقدر ، والسرقة بقدر ، وشرب الخمر بقدر .

وأخرج ابن جرير عن أبي عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ قال رجل : يا رسول الله ففيم العمل ؟ أفي شيء نستأنفه أم في شيء قد فرغ منه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اعملوا فكل ميسر سنيسره لليسرى وسنيسره للعسرى " .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55)

أخرج ابن مردويه بسند واه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " النهر الفضاء والسعة ليس بنهر جار " .

(167/737)

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ في جنات ونهر ﴾ قال : النهر السعة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت لبيد بن ربيعة وهو يقول :

ملكت بها فأنهرت فتقها . . . يرى قائم من دونها ما وراءها

وأخرج عبد بن حميد عن شريك في قوله ﴿ في جنات ونهر ﴾ قال : جنات وعيون .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي بكر بن عياش رضي الله عنه أن عاصماً قرأ ﴿ في جنات ونهر ﴾ مثلثة منتصبة النون ، قال أبو بكر رضي الله عنه : وكان زهير القرشي يقرأ ﴿ ونهر ﴾ يريد جماعة النهر .

وأخرج الحكيم الترمذي عن بريدة " عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ قال : إن أهل الجنة يدخلون على الجبار كل يوم مرتين فيقرأ عليهم القرآن ، وقد جلس كل امرىء منهم مجلس الذي هو مجلسه على

منابر الدر والياقوت والزبرجد والذهب والفضة بالأعمال ، فلا تقر أعينهم قط كما تقر بذلك ، ولم يسمعوا شيئاً أعظم منه ولا أحسن منه ، ثم ينصرفون إلى رحالهم قريرة أعينهم ناعمين إلى مثلها من الغد " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن محمد بن كعب رضي الله عنه في قوله ﴿ إن المتقين في جنات ونهر ﴾ قال : في نور وضياء .

وأخرج الحكيم الترمذي عن ثور بن يزيد رضي الله عنه قال : بلغنا أن الملائكة يأتون المؤمنين يوم القيامة فيقولون : يا أولياء الله انطلقوا ، فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة ، فيقولون : إنكم تذهبون بنا إلى غير بغيتنا ، فيقال لهم : وما بغيتكم ؟ فيقولون : المقعد مع الحبيب وهو قوله ﴿ إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ .

(168/737)

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن المسيب قال : دخلت المسجد وأنا أرى أني قد أصبحت فإذا عليَّ ليل طويل ، وإذا ليس فيه أحد غيري ، فقمت فسمعت حركة خلفي ففزعت فقال : أيها الممتلىء قلبه فرقاً لا تفرق ، أو لا تفزع ، وقل : اللهم إنك مليك مقتدر ما تشاء من أمر يكون ، ثم سل ما بدا لك قال سعيد : فما سألت الله شيئاً إلا استجاب

لي .

وأخرج أبو نعيم عن جابر قال : " بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً في مسجد المدينة فذكر بعض أصحابه الجنة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " يا أبا دجانة أما علمت أن من أحبنا وابتلي بمحبتنا أسكنه الله تعالى معنا " ثم تلا ﴿ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ " . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 7 صـ 675. 688 ﴾

(169/737)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة ﴾

يعني : دنا قيام الساعة ، لأن خروج النبي صلى الله عليه وسلم كان من علامات الساعة ﴿ وانشق القمر ﴾ وذلك أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم علامة لنبوته ، فانشق القمر نصفين .

وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : فانشق القمر نصفين ، فرأيت حراء بين فلقتي القمر ، أي : شقتي القمر .

وعن جبير بن مطعم قال : انشق القمر ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة .

وروى قتادة ، عن أنس قال : سأل أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر بمكة .

وقال بعضهم : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ يعني : تقوم الساعة ، وينشق القمر يوم القيامة .

وأكثر المفسرين قالوا : إن هذا قد مضى .

وقال عبد الله بن مسعود : ما وعد الله ورسوله من أشراط الساعة كلها قد مضى ، إلا أربعة طلوع الشمس من مغربها ، ودابة الأرض ، وخروج الدجال ، وخروج يأجوج ومأجوج .

ثم قال : ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ ﴾ يعني : إذا رأوا آية من آيات الله مثل انشقاق القمر ، يعرضوا عنها ، ولا يتفكروا فيها .

﴿ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ يعني : مصنوعاً .

سيذهب .

ويقال : معناه ذاهباً يذهب ، ثم التأم القمر .

وقال القتبي : ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ يعني : شديد القوى ، وهو من المرة ، وهو القتل .

وقال الزجاج : في مستمر قولان : قول ذاهب ، وقول دائم .

وقال الضحاك : لما رأى أهل مكة انشقاق القمر .

وقال أبو جهل : هذا سحر مستمر فابعثوا إلى أهل الآفاق ، حتى ينظروا إذا رأوا القمر منشقاً أم لا .

فأخبر أهل الآفاق أنهم رأوه منشقاً ، قالوا : هذا سحر مستمر يعني : استمر سحره في الآفاق .

قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَّبُواْ ﴾ يعني : كذبوا بالآية ، وبقيام الساعة .

(170/737)

﴿ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ في عبادة الأصنام ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ يعني : كل قول من الله له حقيقة منه في الدنيا سيظهر ، وما كان منه في الآخرة سيعرف .

يعني : ما وعد لهم من العقوبة .

ويقال : معناه مستقر لأهل النار عملهم ، ولأهل الجنة عملهم .

يعني : يعطي لكل فريق جزاء أعمالهم .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الانباء ﴾ يعني : جَاء لأهل مكة من الأخبار عن الأمم الخالية ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ يعني : ما فيه موعظة لهم ، وزجر عن الشرك ، والمعاصي .

قوله تعالى : ﴿ حِكْمَةٌ بالغة ﴾ يعني : جاءهم كلمة بالغة ، وهو القرآن يعني : حكمة وثيقة ﴿ فَمَا تُغْنِى النذر ﴾ يعني : لا تنفعهم النذر إن لم يؤمنوا ، كقوله : ﴿ قُلِ انظروا مَاذَا فِى السماوات والأرض وَمَا تُغْنِى الآيات والنذر عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : 101]

ويقال : ﴿ فَمَا تُغْنِى النذر ﴾ لم تنفعهم الرسل إذا نزل بهم العذاب إن لم يؤمنوا .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ يعني : اتركهم ، وأعرض عنهم ، بعدما أقمت عليهم الحجة .

﴿ يَوْمَ يَدْعُو الداع ﴾ يعني : يدعو إسرافيل على صخرة بيت المقدس ﴿ إلى شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾ يعني : إلى أمر فظيع ، شديد ، منكر ﴿ خُشَّعاً ﴾ يعني : ذليلة ﴿ أبصارهم ﴾ خاشعاً ، نصب على الحال يعني : يخرجون ، خاشعاً .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو عمرو ﴿ خاشعا ﴾ بالألف مع النصب .

والباقون : خُشعاً بضم الخاء ، بغير ألف ، وتشديد الشين بلفظ الجمع ، لأنه نعت للجماعة .

ومن قرأ : بلفظ الواحد ، فلأجل تقديم النعت .

وقرأ ابن مسعود : ﴿ خاشعة ﴾ بلفظ التأنيث .

وقرأ ابن كثير : ﴿ إلى شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾ بجزم الكاف .

والباقون : بالضم ، وهما لغتان .

ثم قال عز وجل : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث ﴾ يعني : من القبور ، ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ يعني : انتشروا عن معدنهم ، ويجول بعضهم في بعض .

(171/737)

قوله تعالى : ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع ﴾ يعني : مقبلين إلى صوت إسرافيل ﴿ يَقُولُ الكافرون هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ يعني : شديد عَسِر عليه .

وروي في الخبر : " أَنَّهُمْ إذا خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ ، يَمْكِثُونَ وَاقِفِينَ أَرْبَعِينَ سَنَةً " ويقال : مائة سنة ، حتى يقولوا أرحنا من هذا ، ولو إلى النار ، ثم يؤمرون بالحساب .

ثم عزى نبيه صلى الله عليه وسلم ليصبر على أذى قومه كما لقي الرسل من قومهم فقال : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ يعني : قبل قومك يا محمد ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ حين أتاهم بالرسالة ﴿ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ﴾ نوحاً ﴿ وَقَالُواْ مَجْنُونٌ ﴾ يعني : قالوا لنوح : إنك مجنون ﴿ وازدجر ﴾ يعني : أوعد بالوعيد .

ويقال : صاحوا به حتى غشي عليه .

وقال القتبي : ﴿ وازدجر ﴾ أي : زجر .

وهو افتعل من ذلك ، فلما ضاق صدره ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ ﴾ يعني : مقهور فيما

بينهم ﴿ فانتصر ﴾ يعني : أعني عليهم بالعذاب ، فأجابه الله كما في سورة الصافات : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ [الصافات : 75] .

قوله عز وجل : ﴿ فَفَتَحْنَا أبواب السماء ﴾ يعني : طرق السماء ﴿ بِمَاء مُّنْهَمِرٍ ﴾ يعني : منصباً كثيراً .

وقال القتبي : ﴿ بِمَاء مُّنْهَمِرٍ ﴾ أي : كثير ، سريع الانصباب .

ومنه يقال : همر للرجل إذا كثر من الكلام ، وأسرع فيه .

قرأ ابن عامر : ﴿ فَفَتَّحْنَا ﴾ بتشديد التاء على تكثير الفعل .

وقرأ الباقون : بالتخفيف ، لأنها فتحت فتحاً واحداً .

قوله عز وجل : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً ﴾ يعني : أخرجنا من الأرض عيوناً مثل الأنهار الجارية ﴿ فَالْتَقَى الماء ﴾ يعني : ماء السماء ، وماء الأرض ، ﴿ على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ يعني : على وقت قد قضى ﴿ وَحَمَلْنَاهُ ﴾ يعني : حملنا نوحاً ﴿ على ذَاتِ أَلواح ﴾ يعني : على سفينة قد اتخذت بألواح ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ يعني : سفينة قد شدت بالمسامير .

وقال بعضهم : كانت سفينة نوح من صاج .

وقال بعضهم : من خشب شمشار .

ويقال : من الجوز .

وقال القتبي : الدسر المسامير ، واحدها دسار ، وهي أيضاً الشريط الذي يشد بها السفينة .

ثم قال : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ يعني : تسير السفينة بمنظر منا ، وأمرنا .

ويقال : بمراد وحفظ منا .

وقال الزجاج في قوله : ﴿ فَالْتَقَى الماء ﴾ ولم يقل الماءان ، لأن الماء اسم لجميع ماء السماء ، وماء الأرض .

فلو قال : ماءان لكان جائزاً ، لكنه لم يقل .

ثم قال : ﴿ جَزَاء لّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ يعني : الحمل على السفينة ، ثواب لنوح الذي كفر به قومه .

وقرأ بعضهم : ﴿ جَزَاء لّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ بالنصب يعني : الفرق عقوبة لمن كذب بالله تعالى ، وبنوح .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ تركناها ءايَةً ﴾ أي : سفينة نوح أبقيناها عبرة للخلق .

وقال بعضهم : يعني : تلك السفينة بعينها كانت باقية على الجبل إلى قريب من خروج النبي

صلى الله عليه وسلم .

وقال بعضهم : يعني : جنس السفينة صارت عبرة ، لأن الناس لم يعرفوا قبل ذلك سفينة ، فاتخذت الناس السفن بعد ذلك في البحر ، فلذلك كانت آية للناس .

ثم قال : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ يعني : هل من معتبر يعتبر بما صنع الله تعالى بقوم نوح ، فيترك المعصية .

ويقال : فهل من مذكر يتعظ بأنه حق ، ويؤمن به .

وقال أهل اللغة : أصل مدكر ، مفتعل من الذكر ، مذتكر ، فأدغمت الذال في التاء ، ثم قلبت دالاً مشددة .

ثم قال : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ يعني : كيف رأيت عذابي ، وإنذاري لمن أنذرهم الرسل ، فلم يؤمنوا ، والنذر بمعنى الإنذار .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءان ﴾ يعني : هوّنا القرآن ﴿ لِلذِّكْرِ ﴾ يعني : للحفظ .

ويقال : هونا قراءاته .

وروى الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لَوْلا قَوْلُ الله تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ﴿ مَا ألقى مَعَاذِيرَهُ ﴾ ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ ﴾ ويقال : هوناه لكي يذكروا به ثم قال : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ يعني : متعظ ، يتعظ بما هون من قراءة القرآن .

وروى الأسود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : قرأت على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ بالدال ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "فَهَلْ مِنْ مُذَّكِر" يعني : بالذال .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ يعني : كذبوا رسولهم هود ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ يعني : أليس وجوده حقاً ، ونذر جمع نذير قال القتبي : النذر جمع النذير ، والنذير بمعنى الإنذار ، مثل التنكير بمعنى الإنكار .

يعني : كيف كان عذابي ، وإنكاري .

ثم بيّن عذابه فقال عز وجل : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ يعني : سلطنا عليهم ريحاً باردة ﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرّ ﴾ يعني : شديدة استمرت عليهم ، لا تفتر عنهم سبع ليال ، وثمانية أيام ، حسوماً دائمة ﴿ تَنزِعُ الناس ﴾ يعني : تنزع أرواحهم من أجسادهم ، وهذا قول مقاتل .

ويقال : ﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ يعني : يوم مشؤوم عليهم : ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ يعني : استمر عليهم

بالنحوسة .

وقال القتبي : الصرصر ريح شديدة ذات صوت تنزع الناس .

يعني : تقلعهم من مواضعهم .

﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ يعني : صرعهم ، فكبهم على وجوههم كأنهم أصول نخل منقلعة من الأرض ، فشبههم لطولهم بالنخيل الساقطة .

وقال مقاتل : كان طول كل واحد منهم اثني عشر ذراعاً .

(174/737)

وقال في رواية الكلبي : كان طول كل واحد منهم سبعين ذراعاً ، فاستهزؤوا حين ذكر لهم الريح ، فخرجوا إلى الفضاء ، فضربوا بأرجلهم ، وغيبوها في الأرض إلى قريب من ركبهم ، فقالوا : قل للريح حتى ترفعنا ، فجاءت الريح فدخلت تحت الأرض ، وجعلت ترفع كل اثنين ، وتضرب أحدهما على الآخر بعدما ترفعهما في الهواء ، ثم تلقيه في الأرض ، والباقون ينظرون إليهم حتى رفعتهم كلهم ، ثم رمت بالرمل والتراب عليهم ، وكان يسمع أنينهم من تحت التراب كذا وكذا يوماً .

قال الله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

وقد ذكرناه ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنذر ﴾ يعني : صالحاً حين أتاهم ﴿ فَقَالُواْ أَبَشَراً مِّنَّا واحدا ﴾ يعني : خلقاً مثلنا ﴿ نَّتَّبِعُهُ ﴾ في أمره ﴿ إِنَّا إِذاً لَّفِى ضلال وَسُعُرٍ ﴾ يعني : إنا إذا فعلنا ذلك ﴿ لَفِى ﴾ خطأ وعناء .

وقال الزجاج : يعني : إنا إذا فعلنا ذلك ﴿ لَفِى ضلال ﴾ وجنون .

وهذا كما يقال : ناقة مسعورة إذا كان بها جنون .

ويجوز أن يكون ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ جمع في معنى العذاب .

ثم قال عز وجل : ﴿ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ ﴾ يعني : اختص بالنبوة ، والرسالة من بيننا ، ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ يعني : كاذباً على الله ﴿ أَشِرٌ ﴾ يعني : بطراً متكبراً .

قوله عز وجل : حدّثنا ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً ﴾ قرأ ابن عامر ، وحمزة ﴿ ستعلمون ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة .

يعني : أن صالحاً قال لهم ﴿ ذلك غَداً ﴾ والباقون : بالياء على معنى الخبر عنهم من الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم أنهم يعلمون غداً يعني : يوم القيامة ﴿ مَّنِ الكذاب الاشر ﴾ أهم ، أم صالح ؟ ومعناه : أنه يتبين لهم أنهم هم الكاذبون ، وكان صالحاً صادقاً في مقالته .

ثم قال : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ ﴾ يعني : نخرج لهم ﴿ الناقة ﴾ وذلك حين سألوا صالحاً بأن يخرج لهم ناقة من الحجر ، فدعا صالح ربه ، فأوحى الله تعالى إليه أني مخرج الناقة ﴿ فِتْنَةً ﴾ يعني : بلية ﴿ لَّهُمْ فارتقبهم ﴾ يعني : انتظر هلاكهم ﴿ واصطبر ﴾ على الإيذاء .

قوله تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ ﴾ يعني : وأخبرهم ﴿ أَنَّ الماء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ يوم للناقة ، ويوم لأهل القرية ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ يعني : إذا كان يوم الناقة تحضر الناقة ، ولا يحضرون ، وإذا كان يومهم لا تحضر الناقة ، وكل فريق يحضر في نوبته ﴿ فَنَادَوْاْ صاحبهم ﴾ يعني : مصدع أو قذار ﴿ فتعاطى فَعَقَرَ ﴾ يتناول الناقة بالسهم يعقرها ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحدة ﴾ يعني : صيحة جبريل عليه السلام ﴿ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ المحتظر ﴾ قال قتادة : يعني : كرماد محترق .

وقال الزجاج : الهشيم ما يبس من الورق ، وتحطم ، وتكسر قرأ بعضهم : ﴿ كَهَشِيمِ المحتظر ﴾ بنصب الظاء .

وقراءة العامة : بالكسر : فمن قرأ بالنصب فهو اسم الحظيرة ، ومعناه : كهشيم المكان الذي يحضر فيه الهشيم .

ومن قرأ بالكسر : فهو صاحب الحظيرة ، يعني : يجمع الحشيش في الحظيرة ، لغنمه فداسته الغنم .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءانَ لِلذِّكْرِ ﴾ يعني : سهلناه للحفظ ، لأن كُتب الأولين يقرؤها أهلها نظراً ، ولا يكادون يحفظون من أولها إلى آخرها ، كما يحفظ القرآن ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ يعني : متعظ به .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بالنذر ﴾ يعني : بالرسل ، لأن لوطاً عليه السلام يدعوهم إلى الإيمان بجميع الرسل ، فكذبوهم ، ولم يؤمنوا ، فأهلكهم الله تعالى .

وهو قوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حاصبا ﴾ يعني : حجارة من فوقهم ﴿ إِلاَّ ال لُوطٍ نجيناهم بِسَحَرٍ ﴾ يعني : وقت السحر .

(176/737)

قوله تعالى : ﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ يعني : رحمة من عندنا على آل لوط .

صار نعمة نصباً لأنه مفعول .

ومعناه : ونجيناهم بالإنعام عليهم ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾ يعني : هكذا يجزي الله تعالى من شكر نعمته ، ولم يكفرها .

ويقال : ﴿ مَن شَكَرَ ﴾ يعني : من وحد الله تعالى ، لم يعذبه في الآخرة مع المشركين ، فكما أنجاهم في الدنيا ينجيهم في الآخرة ، ولا يجعلهم مع المشركين .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا ﴾ يعني : خوفهم لوط عقوبتنا ﴿ فَتَمَارَوْاْ بالنذر ﴾ يعني : شكوا بالرسل ، فكذبوا ، يعني : لوط .

ويقال : معناه شكوا بالعذاب الذي أخبرهم به الرسل أنه نازل بهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ﴾ يعني : طلبوا منه الضيافة ، وكانت أضيافه جبريل مع الملائكة ، فمسح جبريل بجناحه على أعينهم ، فذهب أبصارهم ، وذلك قوله : ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ يعني : أذهبنا أعينهم ، وأبصارهم ، ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به الخبر .

يعني : فذوقوا عذاب الله تعالى ، أي : عقوبة الله ما أخبر الله تعالى .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ يعني : أخذهم وقت الصبح عذاب دائم .

يعني : عذاب الدنيا موصولة بعذاب الآخرة ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ يقال لهم : ذوقوا عذاب الله تعالى ، وإنذاره .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءان لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ وقد ذكرناها .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاء ءالَ فِرْعَوْنَ النذر ﴾ يعني : الرسل وهو موسى ، وهارون ، ﴿ كَذَّبُواْ بآياتنا كُلِّهَا ﴾ يعني : بالآيات التسع ﴿ فأخذناهم ﴾ يعني : عاقبناهم عند

التكذيب ، ﴿ أَخْذَ عِزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ يعني : عقوبة منيع بالنقمة على عقوبة الكفار ، مقتدراً يعني : قادراً على عقوبتهم ، وهلاكهم .

(177/737)

ثم خوف كفار مكة فقال : ﴿ أكفاركم خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ ﴾ يعني : أكفاركم أقوى في النذر من الذين ذكرناهم ، فأهلكهم الله تعالى ، وهو قادر على إهلاكهم ﴿ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِى الزبر ﴾ يعني : براءة في الكتب من العذاب .

اللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به الزجر .

يعني : ليس لكم براءة ، ونجاة من العذاب .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ يعني : ممتنع من العذاب يقول الله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ﴾ يعني : سيهزم جمع أهل مكة في الحرب ﴿ وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ يعني : ينصرفون من الحرب ، منهزمين .

يعني : به : يوم بدر ، وفي هذا علامة من علامات النبوة ، لأن هذه الآية نزلت بمكة ، وأخبرهم أنهم سيهزمون في الحرب ، فكان كما قال .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، أن عمر رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه

الآية : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ويُوَلُّونَ الدبر ﴾ فكنت لم أعلم ما هي ، وكنت أقول : أي جمع يهزم ؟ فلما كان يوم بدر ، رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يثبت في الدرع ، ويقول : "سَيُهْزَمُ الجَمْعُ ويُوَلَّوْنَ الدُّبُر" وقال الزجاج : "ويولون الدبر" يعني : الإدبار ، كقوله تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يقاتلوكم يُوَلُّوكُمُ الادبار ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ [آل عمران : 111] لأن اسم الواحد يدل على الجمع ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَنَهَرٍ ﴾ [القمر : 54] أي : أنهار .

وذكر عن الفراء أنه قال : إنما وحّد لأنه رأس آية تقابل بالتوحيد رؤوس الآي .

وكذلك في الدبر ، لموافقته رؤوس الآي .

ثم قال : ﴿ بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ ﴾ يعني : مجمعهم ﴿ والساعة أدهى وَأَمَرُّ ﴾ يعني : عذاب الساعة أعظم وأشد من عذاب الدنيا .

ثم وصف عذاب الآخرة فقال : ﴿ إِنَّ المجرمين فِى ضلال وَسُعُرٍ ﴾ يعني : المشركين في الدنيا في ضلالة ، وخطأ ، وخلاف ، وفي سعير في الآخرة .

(178/737)

والسعر جماعة السعير .

ويقال : ﴿ السعر ﴾ يعني : في عناء .

ثم أخبرهم بمستقرهم فقال عز وجل : ﴿ وَسُعُرٍ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النار على وُجُوهِهِمْ ﴾ يعني : يجرون في النار على وجوههم ، ويقول لهم الخزنة : ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ يعني : عذاب النار .

ثم قال : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ يعني : خلقنا لكل شيء شكله مما يوافقه .

وروي عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : هذه الآية نزلت في أهل القدر ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النار على وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ وقال محمد بن كعب القرظي : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ نزلت تعبيراً لأهل القدر .

قال أبو الليث : حدّثنا أبو جعفر .

قال : حدّثنا أبو القاسم ، حدّثنا محمد بن الحسن ، حدّثنا سفيان عن وكيع ، عن زياد بن إسماعيل ، عن محمد بن عبادة ، عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاصمونه في القدر ، فنزلت الآية ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النار على وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ وروى الضحاك ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ قال : خلق لكل شيء من خلقه ما يصلحهم من رزق ، ومن الدواب ، وخلق لدواب البر ، ولغيرها من الرزق ما يصلحها ، وكذلك لسائر

خلقه .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ واحدة ﴾ يعني : وَمَا أمرنا بقيام الساعة إلا مرة واحدة ﴿ كَلَمْحٍ بالبصر ﴾ يعني : كرجع البصر .

ومعناه : إذا أمرنا بقيام الساعة واحدة ، فنقول : كن فيكون أقرب من طرف البصر .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أشياعكم ﴾ يعني : عَذَّبنا أشباهكم ، وأهل ملتكم .

ويقال : إخوانكم حين كذبوا رسلهم ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ يعني : معتبر يعتبر فيكم ، فيعلم أن ذلك حق ، ويخاف عقوبة الله .

(179/737)

ثم قال عز وجل : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزبر ﴾ يعني : وكل شيء عملوه في الكتاب يحصى عليهم ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ يعني : مكتوباً في اللوح المحفوظ .

ثم قال : ﴿ إِنَّ المتقين ﴾ يعني : الذين يتقون الشرك ، والفواحش ، ﴿ فِى جنات وَنَهَرٍ ﴾ يعني : في بساتين ، وأنهار جارية ، ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ يعني : في أرض كريمة .

ويقال في مجلس حسن ، وهي أرض (الجنة) ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ يعني : في جوار مليك ، قادر على الثواب ، قادر على خلقه ، مثيب ، ومعاقب .

وقال القتبي : النهر الضياء ، والسعة ، من قولك انهرت الطعنة إذا وسعتها .

[قال أبي بن كعب رضي الله عنه : من قرأ سورة اقتربت الساعة في كل غب بعثه الله تعالى ووجهه مثل القمر ليلة البدر ، وإن قرأ بها في كل ليلة كان أفضل] .

والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 349 . 357 ﴾

(180/737)

وقال الثعلبى :

﴿ اقتربت الساعة ﴾

دنت القيامة ﴿ وانشق القمر ﴾ قال ابن كيسان : في الآية تقديم وتأخير ، مجازها : انشقّ القمر واقتربت الساعة ، يدل عليه قراءة حذيفة (اقتربت الساعة وقد انشق القمر) ، وروى عثمان بن عطاء عن أبيه أن معناه : (وسينشقّ القمر) ، والعلماء على خلافه والأخبار الصحاح ناطقة بأن هذه الآية قد مضت .

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا مكي ، قال : حدّثنا أبو الازهر قال : حدّثنا روح عن شعبة قال : سمعت سليمان قال : سمعت إبراهيم يحدث عن أبي معمر عن عبد الله " أن القمر انشقّ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين ، فكانت إحداهما فوق

الجبل والأُخرى أسفل من الجبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اللهم اشهد " ، وقال أيضاً : " اشهدوا " " .

وأخبرنا عبد الله بن حامد ، قال : أخبرنا عمر بن الحسن بن علي بن مالك القاضي قال : حدّثنا أحمد بن الحسين بن سعيد قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا حصين عن الأعمش وعبدة الضبي عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأيت فِلقَتَيه . وأخبرنا عبد الله ، قال : أخبرنا مكي ، قال : حدّثنا أبو الأزهر قال : حدّثنا روح عن شعبة عن سليمان عن مجاهد عن ابن عمر نحو حديث ابن مسعود .

وأخبرنا عبد الله قال : أخبرنا محمد بن جعفر بن زيد الصيرفي قال : حدّثنا علي بن حرب ، قال : حدّثنا ابن فضيل ، قال : حدّثنا حصين عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ، قال : انشقّ القمر ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم بمكة .

وأخبرنا عبد الله قال : أخبر عمر بن الحسن الشيباني قال : حدّثنا أحمد بن الحسن قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا حصين عن سعد عن عكرمة عن ابن عباس والحكم عن مجاهد عن ابن عباس ومقسم عن ابن عباس قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم باثنين : شطره على السويداء ، وشطره على الجندمة .

وأخبرني عقيل بن محمد أن أبا الفرج القاضي حدّثهم عن محمد بن جرير قال : حدّثني محمد بن عبد الله بن بزيع ، قال : حدّثنا بشر بن المفضل . قال : حدّثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقتين ، حتى رأوا الجبل بينهما .

وبه عن محمد بن جرير قال : حدّثنا علي بن سهل قال : حدّثنا حجاج بن محمد عن شعبة عن قتادة عن أنس قال : انشقّ القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّتين .

وبه عن محمد بن جرير قال : حدّثني يعقوب قال : حدّثنا ابن عليّة ، قال : حدّثنا عطاء بن السايب عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : نزلنا المدائن فكنّا منها على فرسخ ، فجاءت الجمعة فحضر أبي فحضرنا معه فخطبنا حذيفة ، فقال : ألا إنّ الله سبحانه يقول : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ، ألا فإنّ الساعة قد اقتربت ، ألا وإنّ القمر قد انشقّ ، ألا وإنّ الدنيا قد أذنت بفراق ، . ألا وإنّ اليوم المضمار وغداً السباق ، فقلت لأبي أيستبق الناس غداً ؟ فقال : يا بني إنك لجاهل ، إنّما هو السباق بالأعمال ، ثم جاءت الجمعة الأُخرى فحضرنا فخطب حذيفة فقال : ألا إنّ الله يقول : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ألا وإنّ الساعة قد اقتربت ، ألا وإنّ القمر قد انشقّ ، ألا وإنّ الدنيا قد أذنت بفراق ، ألا وإنّ المضمار اليوم وغداً السباق ، ألا وإنّ الغاية النار والسابق من سبق إلى

الجنة .

وبه عن ابن جرير قال : حدّثنا الحسن بن أبي يحيى المقدسي قال : حدّثنا يحيى بن حماد ، قال : حدّثنا أبو عوانة عن المغيرة عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله قال : انشقّ القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة سحركم ، فسألوا السفار فسألوهم ، فقالوا : نعم قد رأينا . فأنزل الله سبحانه ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ .

(182/737)

﴿ وَإِن يَرَوْاْ آيَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ ذاهب سوف يذهب ويبطل من قولهم : مرّ الشيء واستمر إذا ذهب ، ونظيره : قرّ واستقر ، هذا قول مجاهد وقتادة والفرّاء والكسائي .

وقال أبو العالية والضحاك : محكم شديد قوي . سيان عن قتادة : غالب ، وهو من قولهم : مرّ الحبل إذا صلب واشتد وقوي ، وامررته أنا إذا أحكمتُ فتله . ربيع : نافذ . يمان : ماض . أبو عبيدة : باطل ، وقيل : يشبه بعضه بعضاً .

﴿ وَكَذَّبُواْ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ يقول : وكل أمر من خير أو شر مستقر

قراره ، ومتناه نهايته ، فالخير مستقر بأهله في الجنة ، والشر مستقر بأهله في النار .

قال قتادة : وكل أمر مستقر : أي بأهل الخير الخير ، وبأهل الشر الشر ، وقال مقاتل : لكل امرئ منتهى ، وقيل : لكل أمر حقيقته ، وقال الحسن بن الفضل : يعني يستقر قرار تكذيبهم وقرار تصديق المؤمنين حتى يعرفوا حقيقته في الثواب والعقاب ، وقيل : مجازه : كلّ ما قدّر كائن واقع لا محالة ، وقيل : لكل أمر من أُموري التي أمضيتها في خلقي مستقر قراره لا يزول ، وحكى أبو حاتم عن شيبة ونافع مستقرّ بفتح القاف ، وذكر الفضل بن شاذان عن أبي جعفر بكسر الراء ، ولا وجه لهما .

قال مقاتل : انشقّ القمر ثم التأم بعد ذلك .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم ﴾ يعني أهل مكة ﴿ مِّنَ الأَنبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ متناهى . قاله مجاهد . سفيان : منتهى ، وهو مفتعل من الزجر ، وأصله مزتجر . فقلبت التاء دالا .

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ تامة ليس فيها نقصان وهي القرآن ﴿ فَمَا تُغْنِ النذر ﴾ إذا كذّبوهم وخالفوهم .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ نسختها آية القتال ﴿ يَوْمَ ﴾ الى يوم ﴿ يَدْعُ الداع إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ منكر فظيع عظيم وهو النار ، وقيل : القيامة ، وخفّف الحسن وابن كثير كافه . غيرهما مثقّل ، وقرأ مجاهد (نُكِر) على الفعل المجهول أي أُنكر .

﴿ خُشَّعاً ﴾ ذليلة ﴿ أَبْصَارُهُمْ ﴾ وهو نصب على الحال مجازه ﴿ خُشَّعاً ﴾ ، وقرأ ابن عباس ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف (خاشعاً) بالألف على الواحد ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم اعتباراً بقراءة عبد الله وأبي رجاء خاشعة أبصارهم ، وقرأ الباقون (خشّعاً) بلا ألف على الجمع .

قال الفرّاء وأبو عبيدة : إذا تأخرت الأسماء عن فعلها فلك فيه التوحيد والجمع والتأنيث والتذكير تقول من ذلك : مررت برجال حسن وجوههم ، وحسنة وجوههم وحسان وجوههم . قال الشاعر :

وشباب حسن أوجههم . . . من إياد بن نزار بن معد

فمن وحّد فلأنّه في معنى الجمع ، ومن جمع فلأنّه صفات ، والصفات اسماء ، ومن أنّث فلتأنيث الجماعة ، وقال الآخر :

يرمي الفجاج بها الركبان معترضاً . . . أعناق بزلها مزجىً لها الجدل

قال الفرّاء : لو قال : معترضة أو معترضات أو مزجاة أو مزجيات كان كل ذلك جائزاً .

﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث ﴾ القبور ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ حيارى ، وذكر المنتشر على لفظ الجراد ، نظيره ﴿ كالفراش المبثوث ﴾ [القارعة : 4] .

﴿ مُّهْطِعِينَ ﴾ مسرعين منقلبين عامدين ﴿ إِلَى الداع يَقُولُ الكافرون هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾

.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ أي قبل أهل مكة ﴿ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ﴾ نوحاً ﴿ وَقَالُواْ مَجْنُونٌ ﴾ أي هو مجنون ﴿ وازدجر ﴾ أي زجروه عن دعوته ومقالته ، وقال مجاهد : استطر جنوناً ، وقال ابن زيد : اتهموه وزجروه وواعدوه " لَئِنْ لم تنتهِ لتكونَنّ من المرجومين ".

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ ﴾ مقهور ﴿ فانتصر ﴾ فانتقم لي منهم .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن يوسف ، قال : حدّثنا الوفراوندي ، قال : حدّثنا يوسف ابن موسى ، قال : حدّثنا وكيع عن الأعمش عن مجاهد عن عبد بن عمير ، قال : إن الرجل من قوم نوح ليلقاه فيخنقه حتى يخر مغشياً ، فيفيق حين يفيق وهو يقول : رب اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون .

(184/737)

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السمآء بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ منصبّ مندفق ولم يقلع ولم ينقطع أربعين يوماً . قال ابن عباس والقرظي : منفجر من الأرض . يمان : طبق ما بين السماء والأرض . أبو عبيدة : هايل . الكسائي : سايل . قال امرؤ القيس يصف غيثاً :

راح تمريه الصبا ثم انتحى . . . فيه شؤبوب جنوب منهمر

وقال سلامة بن جندل يصف فرساً :

والماء منهمر والشدّ منحدر . . . والقصب مضطمر واللون غربيب

﴿ وَفَجَّرْنَا ﴾ شققنا ﴿ الأرض ﴾ بالماء ﴿ عُيُوناً فَالْتَقَى المآء ﴾ يعني ماء السماء وماء الأرض ، وانما قال : التقى الماء ، والالتقاء لا يكون من واحد وانما يكون من اثنين فصاعداً ، لأن الماء جمعاً وواحداً .

وقرأ عاصم الجحدري (فالتقى الماءان) ، وقرأ الحسن (فالتقى الماوان) بجعل إحدى الألفين واواً . ﴿ على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ قُضي عليهم في أُم الكتاب .

قال محمد بن كعب القرظي : كانت الأقوات قبل الاجساد ، وكان القدر قبل البلاء ، وتلا هذه الآية .

﴿ وَحَمَلْنَاهُ على ذَاتِ أَلْوَاحٍ ﴾ ذكر النعت وترك الاسم ، مجازه : على سفينة ذات ألواح من الخشب ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ مسامير ، واحدها دسار ، يقال منه : دسرت السفينة إذا شددتها بالمسامير ، وهذا قول القرظي وقتادة ، وابن زيد ورواية الوالبي عن ابن عباس وشهر بن حوشب : هي صدر السفينة سمّيت بذلك لأنها تدسر الماء بجؤجئها ، اي تدفع ، وهي رواية العوفي عن ابن عباس ، قال : الدسر : كلكل السفينة ، وأصل الدسر الجر والدفع ، ومنه الحديث في العنبر " إنما هو شيء دسّره البحر " ، أي دفعه ورمى به ، وقال

مجاهد : هي عوارض السفينة . الضحّاك : ألواح جانبها ، والدسر أصلها وطرفها . ليث بن أبي نجيح عن مجاهد : أضلاعها .

(185/737)

﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بمرأى منّا . مقاتل بن حيان : بحفظنا ، ومنه قول الناس للدموع : عين الله عليك . مقاتل بن سليمان : بوحينا . سفيان : بأمرنا . ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ يعني فعلنا ذلك ثواباً لنوح ، ومجاز الآية : لمن جحد وأنكر وكفر بالله فيه ، وجعل بعضهم ﴿ مَن ﴾ هاهنا بمعنى (ما) ، وقال معناه : جزاء لمن كان كفر من أيادي الله ونعمائه عند الذين غرقهم ، وإليه ذهب ابن زيد ، وقيل : معناه عاقبناهم لله ولأجل كفرهم به .

وقرأ مجاهد ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ بفتح الكاف والفاء يعني كان الغرق جزاء لمن يكفر بالله ، وكذب رسوله فأهلكهم الله .

وما نجا من الكفّار من الغرق غير عوج بن عنق كان الماء إلى حجزته ، وكان السبب في نجاته على ما ذكر أن نوحاً عليه السلام احتاج إلى خشب ساج للسفينة فلم يمكنه نقلها ، فحمل عوج تلك الخشبة إليه من الشام . فشكر الله تعالى ذلك له ونجّاه من الغرق .

﴿ وَلَقَدْ تَّرَكْنَاهَا ﴾ يعني السفينة ﴿ آيَةً ﴾ عبرة .

قال قتادة : أبقاها الله بباقردى من أرض الجزيرة عبرة وآية ، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأُمة نظراً ، وكم من سفينة كانت بعدها قد صارت رمداً . ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ متّعظ معتبر وخائف مثل عقوبتهم .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أي إنذاري . قال الفرّاء : الإنذار والنذر مصدران تقول العرب : أنذرت إنذاراً ونذراً ، كقولك : انفقت إنفاقاً ونفقة ، وأيقنت إيقاناً ويقيناً .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ﴾ سهّلنا وهونّا ﴿ القرآنَ للذِّكْرِ ﴾ اي ليتذكر ويُعتبر به ويتفكر فيه ، وقال سعيد ابن جبير : يسّرنا للحفظ ظاهراً ، وليس من كتب الله كتاباً يقرأ كله ظاهراً إلاّ القرآن . ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ متّعظ بمواعظه .

(186/737)

أخبرني الحسن بن محمد بن الحسين ، قال : حدّثنا موسى بن محمد بن علي ، قال : حدّثنا أبو الحسن محمد بن إسحاق بن راهويه قال : حدّثنا أبو عمير بن النحاس ببيت المقدس ، قال : حدّثنا ضمرة بن ربيعة عن عبد الله بن شوذب عن مطر الوراق في قول الله سبحانه ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ قال : هل من طالب علم فيعان عليه .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ شؤم وشرّ ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ وكان يوم الأربعاء ، مستمر : شديد ماض على الصغير والكبير فلم تُبقِ منهم أحداً إلاّ أهلكته ، وقرأ هارون الاعور ﴿ نَحْسٍ ﴾ بكسر الحاء .

﴿ تَنزِعُ الناس ﴾ تقلع الناس ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتدقّ رقابهم ، قال ابن إسحاق : لمّا هاجت الريح قام نفر من عاد سبعة يسمى لنا منهم ستّة من أشدّ عاد وأجسمها منهم : عمرو بن الحلي ، والحرث بن شداد والهلقام وابنا تيقن ، وخلجان بن سعد فأولجوا العيال في شعب بين جبلين ، ثم اصطفوا على باب الشعب ليردّوا الريح عمن في الشعب من العيال ، فجعلت الريح تخفقهم رجلا رجلا ، فقالت امرأة من عاد :

ذهب الدهر بعمر بن حلي والهنيات . . . ثم بالحرث والهلقام طلاع الثنيات

والذي سدّ مهب الريح أيام البليات . . . وبإسناد أبي حمزة الثمالي قال : حدّثني محمد بن سفيان عن محمد بن قرظة بن كعب عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " انتزعت الريح الناس من قبورهم " .

﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ ﴾ قال ابن عباس : أُصول ، وقال الضحّاك : أوراك . ﴿ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ منقلع من مكانه ، ساقط على الأرض ، وواحد الأعجاز عجز مثل عضد وأعضاد ،

وإنّما قال : أعجاز نخل وهي أُصولها التي تقطعت فروعها ، لأن الريح كانت ترمي رؤوسهم من أجسادهم ، فتبقى أجسام بلا رؤوس .

(187/737)

سمعت أبا القاسم الجنيني يقول : سمعت أبا علي الحسين بن أحمد القاضي البيهقي . يقول : سمعت أبا بكر محمد بن أحمد بن القاسم بن سياب الأنباري يقول : سئل المبرّد بحضرة إسماعيل بن إسحاق القاضي عن ألف مسألة هذه من جملتها ، وهو أن السائل قال : ما الفرق بين قوله : ﴿ جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ [يونس : 22] و ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِيحَ عَاصِفَةً ﴾ [الأنبياء : 81] و ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 7] وقوله : و ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ ؟ فقال : كل ما ورد عليك من هذا الباب فلك أن تردّه إلى اللفظ تذكيراً ، ولك أن ترده إلى المعنى تأنيثاً .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآنَ للذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنذر ﴾ ﴿ فقالوا أَبَشَراً ﴾ آدميّاً واحداً منّا ﴿ إِنَّآ إِذاً ﴾ ونحن جماعة كثيرة وهو واحد ، وقرأ أبو السماك العدوي بالرفع ، وكلا الوجهين سايغ في عايد الذكر ﴿ نَّتَّبِعُهُ ﴾ إنْ فعلنا ذلك وتركنا دين

آبائنا وتابعناه على دينه ، وهو واحد منا آدمي مثلنا ﴿ لَّفِي ضَلَالٍ ﴾ ذهاب عن الصواب ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ قال ابن عباس : يعني وعذاب ، قال الحسن : شدة العذاب . قتادة : عناء . سفيان بن عيينة : هو جمع سعيرة . الفرّاء : جنون ، يقال : ناقة مسعورة إذا كانت خفيفة الرأس هايمة على وجهها . قال الشاعر يصف ناقة :

تخال بها سعراً إذا السفر هزها . . . ذميل وإيقاع من السير متعب

وقال وهب : وسعر : أي بعدٌ من الحق .

﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ ﴾ أأُنزل الوحي ﴿ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ ترح مرح بطر متكبر يريد أن يتعظّم علينا بادّعائه النبوّة .

(188/737)

وقال عبد الرَّحْمن بن أبي حماد : الأشِر الذي لا يبالي ما قال ، وقرأ مجاهد ﴿ أَشِرٌ ﴾ بفتح الألف وضم الشين وهما لغتان مثل حَذِر وحَذُر ويَقِظ ويَقُظ وعَجِل وعَجُل ومَجِد ومَجُد الشجاع .

﴿ سَيَعْلَمُونَ ﴾ غداً بالتاء شامي ، والأعمش ويحيى وابن ثوبان وحمزة وغيره بالياء ، فمن قرأ بالتاء فهو من قول صالح لهم ، ومن قرأ بالياء فهو من قول الله سبحانه ، ومعنى

الكلام : في الغد القريب على عادة الناس في قولهم للعواقب : إنّ مع اليوم غداً ، وإنّ مع اليوم أخاه غداً ، وأراد به وقت نزول العذاب بهم ﴿ مَّنِ الكذاب الأشر ﴾ قرأ أبو قلامة : مَن الكذاب الأشر بفتح الشين وتشديد الراء على وزن أفعل من الشر ، والقراءة الصحيحة ما عليه العامة .

قال أبو حاتم : لا يكاد العربي يتكلم بالأشَرّ والأخير إلا في ضرورة الشعر كقول رؤبة :

بلال خير الناس وابن الأخير . . . إنّما يقولون : خير وشر . قال الله عز وجل ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ [آل عمران : 110] وقال سبحانه ﴿ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ [يوسف : 77] .

﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ الناقة ﴾ باعثوها ومخرجوها من الهضبة التي سألوا ﴿ فِتْنَةً ﴾ محنة ﴿ لَّهُمْ فارتقبهم ﴾ وانتظرهم وننظر ما هم صانعون ﴿ واصطبر ﴾ واصبر على ظلمهم وأذاهم ، ولا تعجل حتى يأتيهم أمري ، واصطبر : افتعل من الصبر ، وأصل (الطاء) فيه (تاء) فحوّلت (طاء) لأجل (الصاد) .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ المآء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ وبين الناقة بالسويّة لها يوم ولهم يوم ، وإنّما قال : بينهم ؛ لأن العرب إذا أخبرت عن بني آدم وعن البهائم غلّبوا بني آدم على البهائم . ﴿ كُلُّ شِرْبٍ ﴾ نصيب من الماء ﴿ مُّحْتَضَرٌ ﴾ يحضره من كانت نوبته ، فإذا كان يوم الناقة حضرت

شربها ، وإذا كان يومهم حضروا شربهم ، وقال مجاهد : يعني يحضرون الماء إذا غابت الناقة ، وإذا جاءت حضروا اللبن .

(189/737)

﴿ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ ﴾ قدار بن سالف وكان أشقر ؛ ولذلك قيل له : أشقر ثمود ﴿ فَعَقَرَ ﴾ فتناول الناقة بسيفه فعقرها ، ولذلك سمّيت العرب الجزار قداراً تشبيها به ، وقال الشاعر :

إنّا لنضرب بالسيوف رؤوسهم . . . ضرب القدار نقيعة القدام

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ثم بيّن عذابهم فقال عز من قائل : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ المحتظر ﴾ قرأ الحسن وقتادة بفتح (الظاء) أراد الحظيرة ، وقرأ الباقون بكسر (الظاء) أرادوا صاحب الحظيرة .

قال ابن عباس : هو أن الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك دون السباع ، فما سقط من ذلك فداسته الغنم فهو الهشيم ، وقال قتادة : يعني كالعظام النخرة المحترقة وهي رواية العوفي عن ابن عباس ورواية أبي ظبيان عنه أيضاً ، كحشيش يأكله الغنم ، وقال سعيد بن جبير : هو التراب الذي يتناثر من الحائط . ابن زيد : هو الشجر البالي الذي تهشّم حتى

ذرّته الريح ، والعرب تسمّي كل شيء كان رطباً فيبس هشيماً .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ﴾ هوّنا عليهم ﴿ القرآنَ للذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بالنذر * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً ﴾ ريحاً ترميهم بالحصباء ، وهي الحصى ، وقال بعضهم : هو الحجر نفسه .

قال الضحّاك : يعني صغار الحصى ، والحاصب والحصب والحصباء هي الحجر الذي دون ملء الكف ، والمحصب الموضع الذي يرمى فيه الجمار ، وقال سعيد بن المسيب : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأهل المدينة : حصّبوا المسجد ، أي صبّوا فيه الحجارة .

ثم استثنى فقال : ﴿ إِلاَّ آلَ لُوطٍ ﴾ أي أتباعه على دينه من أهله وأُمته ﴿ نَّجَّيْنَاهُم ﴾ من العذاب ﴿ بِسَحَرٍ ﴾ قال الأخفش : إنّما أجراه ، لأنه نكرة ، ومجازه : بسحر من الأسحار ، ولو أراد بسحر يوم بعينه لقال : سحر غير مجرى ، ونظيره قوله : ﴿ اهبطوا مِصْراً ﴾ [البقرة : 61] .

﴿ نِّعْمَةً ﴾ يعني كان ذلك أو جعلناه نعمة ﴿ مِّنْ عِندِنَا ﴾ عليهم حيث أنجيناهم وأهلكنا أعداءهم ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما جزيناهم ، لوطاً وآله ﴿ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴾ فآمن بالله وأطاعه .

﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم ﴾ لوط ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ أخذنا لهم بالعقوبة قبل حلولها بهم ﴿ فَتَمَارَوْا بالنذر ﴾ فكذبوا بإنذاره شكاً منهم فيه وهو تفاعل من المرية .

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ﴾ طالبوه وسألوه أن يخلّي بينهم وبينهم . يقول العرب : راده تروده وارتاده وراوده يراوده نظيرها ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ [يوسف : 23] .

﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ أي أعميناهم ، وصيّرناها كساير الوجه لا يُرى لها شق ، وذلك أنّهم لما قصدوا دار لوط عليه السلام وعالجوا بابه ليدخلوا ، قالت الرسل للوط : خلِّ بينهم وبين الدخول فإنّا رسل ربك لن يصلوا إليك ، فدخلوا الدار فاستأذن جبريل ربّه عزّ وجل في عقوبتهم فأذن له فصفقهم بجناحه ، فتركهم عمياً يترددون متحيرين لا يهتدون إلى الباب ، وأخرجهم لوط عمياً لا يبصرون . هذا قول عامة المفسّرين ، وقال الضحّاك : طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل وقالوا : قد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا ؟ ، فلم يروهم ورجعوا ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم ﴾ جاءهم العذاب وقت الصبح ﴿ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ دائم عام

استقر فيهم حتى يُقضى بهم الى عذاب الآخرة .

﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآنَ للذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ * وَلَقَدْ جَآءَ آلَ فِرْعَوْنَ النذر ﴾ يعني موسى وهارون عليهما السلام .

(191/737)

﴿ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ التسع ﴿ كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ قادر لا يعجزه ما أراد ، ثم خوّف أهل مكة فقال عز من قائل : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ ﴾ الذين أحللت بهم نقمتي من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون ﴿ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ ﴾ من العذاب ﴿ فِي الزبر ﴾ الكتب تأمنون .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ يعني كفار مكة ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ أي جماعة لا ترام ولا تضام ، ولا يقصدنا أحد بسوء ، ولا يريد حربنا وتفريق جمعنا إلا انتقمنا منهم ، وكان حقّه : منتصرون فتبع رؤوس الآي .

﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ﴾ قراءة العامة على غير تسمية الفاعل ، وقرأ يعقوب بالنون والنصب وكسر الزاي ، وفتح العين على التعظيم ﴿ وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ أي الأدبار ، فوحّد والمراد الجمع لأجل رؤوس الآي ، كما يقال : ضربنا منهم الرؤوس ، وضربنا منهم الرأس ، إذا كان

الواحد يؤدي عن معنى جميعه ، فصدق الله سبحانه وتعالى وعده وهزمهم يوم بدر .

قال مقاتل : ضرب أبو جهل فرسه فتقدم يوم بدر في الصف وقال : نحن منتصر اليوم من محمد وأصحابه .

قال سعيد بن المسيب : سمعت عمر بن الخطاب لمّا نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ : كنت لا أدري أي جمع نهزم ، فلمّا كان يوم بدر رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ثبت في درعه ويقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ .

﴿ بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ ﴾ جميعاً ﴿ والساعة أدهى وَأَمَرُّ ﴾ أعظم بليّة وأشدّ مرارة من عذاب يوم بدر .

(192/737)

أخبرني الحسين بن محمد قال : حدّثنا عبد الله بن يوسف قال : حدّثنا محمد بن إبراهيم بن زياد ، قالد حدّثنا أبو مصعب قال : حدّثنا مجرد بن هارون عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بادروا بالأعمال سبعاً ما ينتظرون هل هو إلاّ فقر منسي أو غنى مطغ أو مرض مفسد أو كبر معند أو موت مجهز ، والدجال شر مستطر ، والساعة والساعة أدهى وأمرّ " .

﴿ إِنَّ المجرمين ﴾ المشركين ﴿ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ قال الضحاك : يعني ناراً ستعرض عليهم . قال الحسين بن الفضل : إن المجرمين في ضلال في الدنيا ونار في الآخرة ، وقال ابن كيسان : بُعْدٌ من الحق ، وقيل : جنون ، وقال قتادة في عناء وعذاب ، ثم بيّن عذابهم ، فقال : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ ﴾ يُجرّون ﴿ فِي النار على وُجُوهِهِمْ ﴾ ويقال لهم : ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ وإنّما هو كقولك : ذق المر السياط .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ ﴾ بالنصب قراءة العامة ، وقرأ أبو السماك العدوي بالرفع ﴿ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ قال الحسن : قدر الله لكل شيء من خلقه قدره الذي ينبغي له ، وقال الربيع : هو كقوله : ﴿ قَدْ جَعَلَ اللهِ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ [الطلاق : 3] أي أجلا لا يتقدم ولا يتأخر ، وقال ابن عباس : إنّا كل شيء جعلنا له شكلا يوافقه ويصلح له ، فالمرأة للرجل ، والأتان للحمار ، والرمكة للفرس ، وثياب الرجال للرجال لا تصلح للنساء ، وثياب النساء لا تصلح للرجال وكذلك ما شاكلها على هذا .

وروى علي بن أبي طلحة عنه قال : خلق الله سبحانه الخلق كلّهم بقدر ، وخلق لهم الخير والشر فخير الخير السعادة ، وشر الشر الشقاوة .

(193/737)

﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ ﴾ وحقّه واحد ، قال أبو عبيدة هو نعت للمعنى دون اللفظ مجازها : وما أمرنا إلا مرة واحدة ، يعني الساعة وقيل : معناه وما أمرنا الشيء إذا أردنا تكوينه إلا كلمة واحدة (كن فيكون) لا مراجعة فيها . ﴿ كَلَمْحٍ بالبصر ﴾ وذُكر أن هذه الآيات نزلت في القدرية .

أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسن بقراءتي عليه في داري قال : حدّثنا الفضل ابن الفضل الكندي ، قال : حدّثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن النعمان قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن الحسين بن حفص قال : حدّثنا الحسن بن حفص قال : حدّثنا سفيان عن زياد ابن إسماعيل السهمي ، عن محمد بن عباد المخزومي عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاصمونه في القدر ، فنزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ المجرمين فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ الى آخر السورة .

وأخبرنا الحسين قال : حدّثنا ابن شنبة قال : حدّثنا القرماني قال : حدّثنا عبد الأعلى بن حماد قال : حدّثنا المعتمر بن سليمان قال حدّثني أبو مخزوم عن سيار أبي الحكم قال : بلغنا أنّ وفد نجران قالوا : أمّا الارزاق والأقدار فبقدر الله ، وأما الاعمال فليس بقدر ، فأنزل الله سبحانه فيهم ﴿ إِنَّ المجرمين فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ الى آخر الآية .

وأخبرنا الحسين قال : حدّثنا ابن شنبة قال : حدّثنا أبو حامد أحمد بن جعفر المستملي قال : حدّثنا ابن أبي العوام قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا الصباح بن سهل البصري أبو سهل

قال : حدّثنا جعفر بن سليمان عن خالد بن سلمة عن سعيد بن عمر عن عمر بن زرارة عن أبيه قال : كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ : ﴿ إِنَّ المجرمين فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ﴾ الى آخر السورة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " نزلت هذه الآيات في ناس يكونون في آخر أُمتي يكذبون بقدر الله " .

(194/737)

وأخبرنا أحمد بن محمد بن يعقوب بن محمويه الفقيه بالقصر قال : حدّثنا أبو علي إسماعيل بن محمد بن إسماعيل قال : حدّثنا الحسين بن عرفه العبدي قال : حدّثنا مروان بن شجاع الجزري عن عبد الملك بن جريج عن عطاء بن أبي رباح قال : أتيت ابن عباس وهو ينزع في زمزم قد ابتلّت أسافل ثيابه ، فقلت له : قد تكلّم في القدر ، فقال : أو قد فعلوها ؟ ، قلت : نعم ، قال : فوالله ما نزلت هذه الآية إلاّ فيهم ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ ، أُولئك شرار هذه الأُمة ، لا تعودوا مرضاهم ولا تصلّوا على موتاهم . إنْ أريتني أحداً منهم فقأت عينيه بإصبعيَّ هاتين .

وأخبرني عقيل بن محمد الفقيه أن أبا الفرج البغدادي أخبرهم عن محمد بن جرير قال : حدّثني يعقوب بن إبراهيم قال : حدّثنا هشيم قال : أخبرنا حصين عن سعيد بن عبيده

عن أبي عبد الرَّحْمن السلمي قال : لمّا نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ قال رجل : يا رسول الله ففيم العمل في شيء يستأنفه أو في شيء قد فرغ منه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" اعملوا فكل ميسّر ، سنيسره لليسرى وسنيسره للعسرى " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا محمد بن الحسين بن صقلاب قال : حدّثنا أبو الحسن احمد بن محمد بن عبيد الطوابيقي قال : حدّثنا علي بن حرب الطائي قال : حدّثنا أبو مسعود يعني الزجاج . قال : حدّثنا أبو سعد عن طلق بن حبيب عن كعب قال : نجد في التوراة أن القدرية يسحبون في النار على وجوههم .

(195/737)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثني موسى بن محمد بن علي قال : حدّثنا عبد الله بن محمد ابن سنان قال : حدّثنا عمرو بن منصور أبو عثمان العيسي قال : حدّثني أبو أسيد الثقفي ، قال : حدّثني ثابت البناني عن أنس بن مالك قال : تمارينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كل شيء بقدر حتى هذه" وأشار بأصبعه السبابة حتى ضرب على ذراعه الأيسر " .

وأخبرني ابن السري النحوي في (درب حاجب) قال : أخبرنا محمد بن عبد الله بن محمد العماني قال : أخبرنا عبد الله بن احمد بن عامر قال : حدّثنا أبي قال : حدّثني علي بن موسى الرضا قال : حدّثني أبي موسى بن جعفر قال : حدّثني أبي جعفر بن محمد قال : حدّثني أبي محمد بن علي قال : حدّثني أبي علي بن الحسين قال : حدّثني أبي الحسين بن علي قال : حدّثني أبي علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنّ الله عزّوجل قدّر المقادير ودبر التدبر قبل أن يخلق آدم بألفي عام " .

وأخبرني الحسين قال : حدّثنا عمر بن احمد بن القاسم النهاوندي قال : حدّثني أحمد بن حماد بن سفيان قال : حدّثنا السري بن عاصم الهمداني قال : حدّثنا محمد بن مصعب القرقساني عن الاوزاعي عن عبده بن أبي لبابة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الإيمان بالقدر يذهب الهمّ والحزن " .

وأخبرني الحسين بن محمد قال : حدّثنا محمد بن علي بن الحسن الصوفي قال : حدّثنا زكريا بن يحيى الساجي قال : حدّثنا محمد بن المثنى قال : حدّثني إبراهيم بن أبي الوزير قال : حدّثنا مروان بن معاوية الفزاري عن سيف الكوفي عن أبي فزارة قال : قال ابن عباس : إذا كثرت القدرية بالبصرة ائتفكت بأهلها ، وإذا كثرت السبائية بالكوفة ائتفكت بأهلها .

وبه عن الساجي قال : حدّثنا الحسن بن حميد قال : حدّثني عبد الله بن الحسن بن عبد الملك بن حسان الكلبي قال : حدّثني سعيد بن محمد الغساني قال : لما أخذ أبو شاكر الديصاني بالبصرة فأقرّ أنه ديصاني ، وكان يجهر القول بالرفض والقدر ، فقيل له : لِمَ اخترت القول بالقدر والرفض ؟ ، قال : اخترت القول بالقدر لأُخرج أفعال العباد من قدرة الله ، وأنه ليس بخالقها ، فإذا جاز أن يخرج من قدرته شيء جاز أن تخرج الأشياء من قدرته كلها ، واخترت القول بالرفض لاتصول بالطعن الى نقلة هذا الدين ، فإذا بطل النقلة بطل المنقول .

وأخبرني الحسين بن محمد قال : حدّثنا عبد الله بن عبد الرَّحْمن الدقاق قال : حدّثنا محمد ابن عبد العزيز قال : حدّثنا عبد الله بن عبد الوهاب قال : حدّثنا الدراوردي قال : قال لي أبو سهيل : إذا سلم عليك القدرية فردّ عليهم كما ترد على اليهود قل : وعليك .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أشباهكم في الكفر من الأُمم السالفة ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ ﴾ من خير أو شرع يعني الأشياع ﴿ فِي الزبر ﴾ في كتب الحفظة ، وقيل : في اللوح المحفوظ .

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ منهم ومن أعمالهم ﴿ مُّسْتَطَرٌ ﴾ مكتوب محفوظ عليهم . يقال : كتبت واكتتبت وسطرت واستطرت ، وقرأ واقترأت .

﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ ﴾ بساتين ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ أنهار ، ووحّده لأجل رؤوس الآي .

كقوله سبحانه : ﴿ وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] ، وقال الضحاك : يعني في ضياء وسعة ، ومنه النهار قال الشاعر :

ملكت بها كفي وانهرت فتقها . . . يرى قائم من دونها ما وراءها

أي وسعت خرقها .

وقرأ الأعرج وطلحة (ونُهُر) بضمتين كأنها جمع نُهار يعني لا ليل لهم .

قال الفراء : أنشدني بعض العرب :

إن تك ليلياً فإني نهر . . . متى أتى الصبح فلا أنتظر

أي صاحب نهار ، وقال الآخر :

لولا الثريدان هلكنا بالضمر . . . ثريد ليل وثريد بالنُهُر

(197/737)

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ في مجلس حق لا لغو فيه ولا مأثم وهو الجنة ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ ملك قادر و (عند) إشارة إلى القربة والرتبة .

قال الصادق : مدح الله المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلاّ أهل الصدق .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا موسى بن محمد قال : حدّثنا الحسن بن علويه قال : حدّثنا إسماعيل بن عيسى قال : حدّثنا المسيب بن إبراهيم البكري عن صالح بن حيان عن عبد الله بن بريده أنّه قال في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ : إنّ أهل الجنة يدخلون كل يوم على الجبار تبارك وتعالى فيقرأون عليه القرآن ، وقد جلس كل امرئ منهم مجلسه الذي هو يجلسه على منابر الدر والياقوت والزمرد والذهب والفضة باعمالهم ، فلم تقرّ أعينهم بشيء قط كما تقرّ أعينهم بذلك ، ولم يسمعوا شيئاً أعظم ولا أحسن منه ، ثم ينصرفون الى رحالهم ناعمين ، قريرة أعينهم الى مثلها من الغد .

وأخبرني الحسين قال : حدّثنا سعد بن محمد بن أبي إسحاق الصيرفي قال : حدّثنا محمد ابن عثمان بن أبي شيبة قال : حدّثنا زكريا بن يحيى قال : حدّثنا عمرو بن ثابت عن أبيه عن عاصم بن ضمرة عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً في مسجد المدينة ، فذكر بعض أصحابه الجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" " إن لله لواءً من نور وعموداً من زبرجد خلقهما قبل أن يخلق السماوات بألفي عام ، مكتوب على رداء ذلك اللواء : لا إله إلاّ الله ، محمد رسول الله ، محمد خير البرية ، صاحب اللواء أمام القوم " فقال علي : الحمد لله الذي هدانا بك وكرّمنا وشرفنا ، فقال له

النبي صلى الله عليه وسلم " يا علي أما علمت أن من أحبنا وانتحل محبتنا أسكنه الله تعالى معنا " وتلا هذه الآية ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ " .

(198/737)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن ماجة قال : حدّثنا الحسن بن أيوب . قال : حدّثنا عبد الله بن أبي زياد . قال : حدّثنا سيار قال : حدّثنا رياح القيسي عن ثور قال : بلغنا أن الملائكة يأتون المؤمنين يوم القيامة فيقولون : يا أولياء الله انطلقوا ، فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة ، فيقولون : إنكم لتذهبون بنا الى غير بغيتنا ، فيقال لهم : وما بغيتكم ؟ فيقولون : المقعد مع الحبيب .

وسمعت أبا القاسم يقول : سمعت أبا محمد أحمد بن محمد بن إبراهيم البلاذري يقول : سمعت بكر بن عبد الرَّحْمن يقول : كان ذو النون المصري يحضّ أصحابه على التهجّد وقيام الليل . فإذا أحسّ منهم فترة قال : كدّوا يا أولياء الله ، فإن للأولياء [في الجنة] مقعد صدق يكشف حجب يوم يرون الجليل حقّاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 175.160 ﴾

(199/737)

وقال الزمخشري :

سورة القمر

مكية [إلا الآيات 44 و45 و46 فمدنية] وآياتها 55 [نزلت بعد الطارق] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القمر (54) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3)

انشقاق القمر من آيات رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ومعجزاته النيرة . عن أنس بن مالك رضى اللّه عنه أن الكفار سألوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم آية فانشق القمر مرتين «1» .

---

(1) . متفق عليه من رواية قتادة عن أنس رضى اللّه عنه .

وكذا عن ابن عباس وابن مسعود رضى اللّه عنهما ، قال ابن عباس : انفلق فلقتين فلقة ذهبت وفلقة بقيت «1» . وقال ابن مسعود : رأيت حراء بين فلقتى القمر «2» . وعن بعض الناس : أن معناه ينشق يوم القيامة ، وقوله وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ يردّه ، وكفى به رادّا ، وفي قراءة حذيفة : وقد انشق القمر ، أى : اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق ، كما تقول : أقبل الأمير وقد جاء المبشر بقدومه . وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال : ألا إن الساعة قد اقتربت وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم «3» .

مستمر : دائم مطرد ، وكل شيء قد انقادت طريقته ودامت حاله ، قيل فيه : قد استمرّ . لما رأوا تتابع المعجزات وترادف الآيات : قالوا : هذا سحر مستمرّ . وقيل : مستمرّ قوى محكم ، من قولهم : استمر مريره «4» . وقيل : هو من استمر الشيء إذا اشتدّت مرارته ، أى : مستبشع عندنا ، مرّ على لهواتنا ، لا نقدر أن نسيغه كما لا يساغ المر الممقر «5» . وقيل : مستمر مارّ ، ذاهب يزول ولا يبقى ، تمنية لأنفسهم وتعليلا . وقرئ : وإن يروا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وما زين لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ أى كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقرّ عليها ، وإن أمر محمد سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق ، أو باطل وسيظهر لهم عاقبته . أو وكل أمر من أمرهم وأمره مستقر ، أى : سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة في الدنيا ، وشقاوة أو سعادة في الآخرة . وقرئ بفتح القاف ،

يعنى : كل أمر ذو مستقرّ ، أى :

ذو استقرار . أو ذو موضع استقرار أو زمان استقرار . وعن أبى جعفر : مستقر ، بكسر القاف والجرّ عطفا على الساعة ، أى : اقتربت الساعة واقترب كل أمر مستقر يستقر ويتبين حاله .

[سورة القمر (54) : الآيات 4 إلى 7]

وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ (5) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ (6) خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ (7)

---

(1) . أخرجه أبو نعيم في الدلائل ، من رواية الكلبي عن أبى صالح عنه ، وفي الصحيحين عنه : «انشق القمر على زمان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم» .

(2) . أخرجه ابن مردويه من رواية منصور عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال : «و لقد رأيت واللّه حراء بين الشقتين» وفي الصحيحين عن أبى معمر عنه «بينما نحن مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بمنى إذا انفلق القمر فلقتين وكان فلقة وراء الجبل وفلقة دونه . فقال : اشهدوا» وفي الباب عن ابن عمر في مسلم . وعن جبير بن مطعم عن الحاكم في المستدرك ، وعن أحمد أيضا .

(3) . أخرجه الحاكم والطبراني وأبو نعيم منى رواية ابن علية عن عطاء بن السائب عن

ابن عبد الرحمن بهذا وأتم . ورواه عبد الرزاق من وجه آخر عن عطاء ، وكذا أخرجه أحمد من رواية شعبة عن عطاء . [. . . . .]

(4) . قوله «استمر مريره» في الصحاح «المرير» : الغريمة وما لطف وطال واشتد فتله من الحبال . (ع)

(5) . قوله «كما يساغ المر الممقر» في الصحاح . مقر الشيء وأمقر ، أى : صار مرا . (ع)

(201/737)

مِنَ الْأَنْباءِ من القرآن المودع أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة ، وما وصف من عذاب الكفار مُزْدَجَرٌ ازدجار أو موضع ازدجار . والمعنى : هو في نفسه موضع الازدجار ومظنة له ، كقوله تعالى لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ أى هو أسوة . وقرئ مزدجر بقلب تاء الافتعال زايا وإدغام الزاى فيها حِكْمَةٌ بالِغَةٌ بدل من ما . أو على : هو حكمة . وقرئ بالنصب حالا من ما . فإن قلت : إن كانت ما موصولة ساغ لك أن تنصب حكمة حالا ، فكيف تعمل إن كانت موصوفة ؟ وهو الظاهر . قلت : تخصصها الصفة : فيحسن نصب الحال عنها فَما تُغْنِ النُّذُرُ نفى أو إنكار . وما منصوبة ، أى : فأى غناء تغنى النذر فَتَوَلَّ عَنْهُمْ لعلمك أن الإنذار لا يغنى فيهم . نصب يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ بيخرجون ، أو بإضمار

اذكر .

وقرئ بإسقاط الياء اكتفاء بالكسرة عنها ، والداعي إسرافيل أو جبريل ، كقوله تعالى يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ . إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ منكر فظيع تنكره النفوس لأنها لم تعهد بمثله وهو هول يوم القيامة . وقرئ : نكر بالتخفيف ، ونكر بمعنى أنكر خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ حال من الخارجين فعل للأبصار وذكر ، كما تقول : يخشع أبصارهم . وقرئ : خاشعة ، على : تخشع أبصارهم .

وخشعا ، على : يخشعن أبصارهم ، وهي لغة من يقول : أكلونى البراغيث ، وهم طيئ . ويجوز أن يكون في خُشَّعاً ضميرهم ، وتقع أَبْصارُهُمْ بدلا عنه . وقرئ . خشع أبصارهم ، على الابتداء والخبر ، ومحل الجملة النصب على الحال . كقوله :

وجدته حاضراه الجود والكرم «1»

وخشوع الأبصار : كناية عن الذلة والانخزال ، لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما . وقرئ : يخرجون من الأجداث : من القبور كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ الجراد مثل في الكثرة والتموّج . يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض : جاءوا كالجراد ، وكالدبا «2» منتشر في كل مكان لكثرته مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ مسرعين مادّى أعناقهم إليه . وقيل : ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم . قال :

---

(1) إن الذي كنت أرجو فضل نائله وجدته حاضراه الجود والكرم

يقول : إن الذي كنت أرجو بقية عطائه أو زيادة عطائه : وجدته مصاحبا الجود والكرم .

وهما مبتدأ خبره حاضراه ، والجملة محلها نصب مفعول ثان ، وحضورهما : كناية عن قيامهما به .

(2) . قوله «كالجراد وكالدبا» في الصحاح «الدبا» الجراد قبل أن يطير ، والواحدة دباة .

(ع)

(202/737)

تعبّدتى نمر بن سعد وقد أرى ونمر بن سعد لي مطيع ومهطع «1»

[سورة القمر (54) : الآيات 9 إلى 17]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَقالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10) فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ (13)

تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ (14) وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (15) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (16) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (17)

قَبْلَهُمْ قبل أهل مكة فَكَذَّبُوا عَبْدَنا يعنى نوحا . فإن قلت : ما معنى قوله تعالى فَكَذَّبُوا بعد

قوله كَذَّبَتْ «2» ؟ قلت : معناه : كذبوا فكذبوا عبدنا أى : كذبوه تكذيبا على عقب تكذيب ، كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب . أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا ، أى : لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوّة رأسا : كذبوا نوحا ، لأنه من جملة الرسل مَجْنُونٌ هو مجنون وَازْدُجِرَ وانتهروه بالشتم والضرب والوعيد بالرجم في قولهم لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ وقيل : هو من جملة قيلهم ، أى : قالوا هو مجنون ، وقد ازدجرته الجن وتخبطته وذهبت بلبه وطارت بقلبه . قرئ : أنى ، بمعنى : فدعا بأنى مغلوب . وإنى : على إرادة

---

(1) . الكلام على حذف حرف الاستفهام الإنكاري ، أى : أيتخذني عبدا هذا الرجل ، وحذف مفعول أرى لدلالة الحال عليه ، وهو قوله : ونمر بن سعد مطيع لي ومهطع ، أى : منتظر أمرى ليمتثله . أو مسرع إلى امتثاله ، وأظهر في مقام الإضمار تعجبا منه واستخفافا بشأنه ، ونمر : بسكون الميم .

(2) . قال محمود : «إن قلت : ما فائدة كذبوا بعد قوله كذبت قبلهم قوم نوح . . . الخ ؟ قال أحمد : قد تقدم كلامه على قوله تعالى وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي وأجاب عنه بجوابين ، أحدهما متعذر هاهنا ، والآخر : ممكن وهو أن ذلك كقول القائل : أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وقد مضى لي جوابان ، أحدهما : يمكن إجراؤه هنا ، وحاصله منع ورود السؤال ، لأن الأول

مطلق والثاني مقيد ، فليس تكرارا . وهو كقوله في هذه السورة فَتَعاطى فَعَقَرَ فان تعاطيه هو نفس عقره ، ولكن ذكره من جهة عمومه ، ثم من ناحية خصوصه إسهابا ، وهو بمثابة ذكره مرتين ، وجواب آخر هنا : وهو أن المكذب أولا محذوف دل عليه ذكر نوح ، فكأنه قال : كذبت قوم نوح نوحا ، ثم جاء بتكذيبهم ثانيا مضافا إلى قوله عَبْدَنا فوصف نوحا بخصوص العبودية ، وأضافه إليه إضافة تشريف ، فالتكذيب المخبر عنه ثانيا أبشع عليهم من المذكور أولا لتلك اللمحة ، والله أعلم .

(203/737)

القول ، فدعا فقال : إنى مغلوب «1» غلبني قومي ، فلم يسمعوا منى واستحكم اليأس من إجابتهم لي فَانْتَصِرْ فانتقم منهم بعذاب تبعثه عليهم ، وإنما دعا بذلك بعد ما طم عليه الأمر وبلغ السيل الربا «2» ، فقد روى : أنّ الواحد من أمّته كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشيا عليه . فيفيق وهو يقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون . وقرئ : ففتحنا مخففا ومشدّدا ، وكذلك وفجرنا مُنْهَمِرٍ منصب في كثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يوما وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر ، وهو أبلغ من قولك : وفجرنا عيون الأرض ونظيره في النظم وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً . فَالْتَقَى الْماءُ يعنى مياه السماء والأرض . وقرئ :

الماءان ، أى : النوعان من الماء السماوي والأرضى . ونحوه قولك : عندي تمران ، تريد : ضربان من التمر : برني ومعقلي . قال :

لنا إبلان فيهما ما علمتم «3»

وقرأ الحسن : الماوان ، بقلب الهمزة واوا ، كقولهم : علباوان عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ على حال قدرها اللّه كيف شاء . وقيل : على حال جاءت مقدّرة مستوية : وهي أن قدر ما أنزل من السماء كقدر ما أخرج من الأرض سواء بسواء . وقيل : على أمر قد قدر في اللوح أنه يكون ، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ أراد السفينة ، وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتنوب منابها وتودى مؤداها . بحيث لا يفصل بينها وبينها . ونحوه :

. . . . . ولكن قميصي مسرودة من حديد «4»

---

(1) . قوله «فدعا فقال إنى مغلوب» لعله : أى فدعا فقال . (ع)

(2) . قوله «و بلغ السيل الربا» لعله جمع ربوة وهي ما ارتفع من الأرض كالرابية . أفاده الصحاح ، لكن فيه في حرف الزاى : والزبية الرابية لا يعلوها الماء . وفي المثل : قد بلغ السيل الزبى . والزبية : حفرة تحفر للأسد في موضع عال لأجل صيده . اه ملخصا . (ع)

(3) لنا إبلان فيهما ما علمتم فعن أيهما ما شئتم فتنكبوا

يقول : لنا قطيعان من الإبل فيهما قرى الأضياف وصلة الفقراء ، فاحملوا ما شئتم منهما

على مناكبكم ، أى : خذوه وافصلوه عن الباقي . أو المعنى : اعدلوا عنهما وانصرفوا عما أردتموه منهما في مناكب الأرض ، فاننا حماته .

وأيهما : بالسكون لغة في أى المشددة . وما شئتم : بدل منه . ويجوز أن «ما» زائدة ، أى : ففي أيهما شئتم فانصرفوا في مناكب الأرض وطرقها مبعدين عنهما . ويجوز أن «ما شئتم» مفعول به ، أو مفعول مطلق مقدم على عامله ، والفاء الثانية تكرير للأولى . ويجوز أنها إشارة إلى ما في المعمول من معنى الشرط ، أى : فاما عن أيهما . أو فاما ما شئتم فتنكبوا ، أى : تجنبوا .

(4) مفرشى صهوة الحصان ولكن قميصي مسرودة من حديد

الصهوة : مقعد الفارس من ظهر الفرس . يقول : مفرشى ظهر حصانى . وقميصي : درع من حديد متتابعة النسج ، يعنى أنه ليس من أهل التنعم ، بل من أهل البدو والغزو .

والاستدراك من باب استتباع المدح بما يشبه الذم ، مبالغة في المدح .

(204/737)

أراد : ولكن قميصي درع ، وكذلك :

ولو في عيون النّازيات بأكرع «1»

أراد : ولو في عيون الجراد . ألا ترى أنك لو جمعت بين السفينة وبين هذه الصفة ، أو بين الدرع والجراد وهاتين الصفتين : لم يصح ، وهذا من فصيح الكلام وبديعه . والدسر : جمع دسار : وهو المسمار ، فعال من دسره إذا دفعه ، لأنه يدسر به منفذه جَزاءً مفعول له لما قدم من فتح أبواب السماء وما بعده ، أى فعلنا ذلك جزاء لِمَنْ كانَ كُفِرَ وهو نوح عليه السلام ، وجعله مكفورا لأنّ النبي نعمة من اللّه ورحمة . قال اللّه تعالى وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ فكان نوح عليه السلام نعمة مكفورة ، ومن هذا المعنى ما يحكى أنّ رجلا قال للرشيد :

الحمد للّه عليك ، فقال : ما معنى هذا الكلام ؟ قال : أنت نعمة حمدت اللّه عليها . ويجوز أن يكون على تقدير حذف الجار وإيصال الفعل . وقرأ قتادة : كفر ، أى جزاء للكافرين . وقرأ الحسن : جزاء ، بالكسر : أى مجازاة . الضمير في تَرَكْناها للسفينة . أو للفعلة ، أى : جعلناها آية يعتبر بها . وعن قتادة : أبقاها اللّه بأرض الجزيرة . وقيل : على الجودي دهرا طويلا ، حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة . والمدكر : المعتبر . وقرئ : مذتكر ، على الأصل . ومذكر ، بقلب التاء ذالا وإدغام الذال فيها . وهذا نحو : مذجر . والنذر : جمع نذير وهو الإنذار وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ أى سهلناه للادكار والاتعاظ ، بأن شحناه بالمواعظ الشافية وصرفنا فيه من الوعد والوعيد فَهَلْ مِنْ متعظ . وقيل : ولقد سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه ، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه . ويجوز أن يكون

المعنى : ولقد هيأناه للذكر ، من يسر ناقته للسفر : إذا رحلها ، ويسر فرسه للغزو ، إذا أسرجه وألجمه . قال :

وقمت إليه باللجام ميسرا هنالك يجزيني الّذى كنت أصنع «2»

---

(1) وإنى لأستوفى حقوقي جاهدا ولو في عيون النازيات بأكرع

يقول : ولا بد من الاجتهاد في تخليص حقوقي وأخذها ، ولو كانت في أخفى مكان وأبعده كعيون الجراد النازيات الواثبات بأكرع ، أى أرجل دقيقة جمع كراع : فحذف الموصوف وكنى عنه بالنازيات صفته لجريانها مجرى الاسم . وقيل :

المعنى لا بد من أخذ إبلى ولو كانت هزالا جدا بحيث ترى في عيون الجراد لصغرها ، أى : ولو كانت كأنها كذلك

(2) أرى أم سهل لا تزال تفجع تلوم وما أدرى علام توجع

تلوم على أن أمنح الورد لقحة وما تستوي والورد ساعة تفزع

إذا هي قامت حاسرا مشمعلة تخيب الفؤاد رأسها ما يقنع

وقمت إليه باللجام مبسرا هنالك يجزيني الذي كنت أصنع

للأعرج المعنى الخارجي . وتفجع وتوجع : أصلها بتاءين حذفت إحداهما تخفيفا . وعلام : استفهام عن علة التوجع .

وأسنح : أعطى والورد : اسم فرسه . واللقحة : اللبن الحليب . والحاسر : العريانة

الوجه. والمشمعلة: السريعة الجري. والنخيب: الخالية المجوفة. والمراد: التي ذهب عقلها ورأسها، ما يقنع: أى ما يستر بالقناع لدهشتها وخجلتها. وقوله «الورد الأول» مفعول به، والثاني مفعول معه: هذا حال أم سهل. وأما حال مهره، فبينها في قوله: وقمت إليه مهيئا ومعدا له باللجام. أو مسهلا له به، دلالة على أنه كان صعبا لولا اللجام. وهنالك إشارة إلى مكان الحرب، أو إلى زمانها، يجزيني: أى يعطيني جزاء صنعي معه، وشبهه بمن تصح منه المجازاة على طريق المكنية، وصنعه: هو سقيه اللبن.

(205/737)

ويروى: أن كتب أهل الأديان نحو التوراة والإنجيل لا يتلوها أهلها إلا نظرا ولا يحفظونها ظاهرا كما القرآن.

[سورة القمر (54): الآيات 18 إلى 22]

كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (21) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (22)

وَنُذُرِ وإنذارى لهم بالعذاب قبل نزوله. أو إنذار أتى في تعذيبهم لمن بعدهم فِي يَوْمِ نَحْسٍ في

يوم شؤم. وقرئ: في يوم نحس، كقوله فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ. مُسْتَمِرٍّ قد استمر عليهم ودام حتى أهلكهم. أو استمر عليهم جميعا كبيرهم وصغيرهم، حتى لم يبق منهم نسمة، وكان في أربعاء في آخر الشهر لا تدور. ويجوز أن يريد بالمستمر: الشديد المرارة والبشاعة تَنْزِعُ النَّاسَ تقلعهم عن أماكنهم، وكانوا يصطفون آخذين أيديهم بأيدى بعض «1».

ويتدخلون في الشعاب، ويحفرون الحفر فيندسون فيها فتنزعهم وتكبهم وتدق رقابهم كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ يعنى أنهم كانوا يتساقطون على الأرض أمواتا وهم جثث طوال عظام، كأنهم أعجاز نخل وهي أصولها بلا فروع، منقعر: منقلع: عن مغارسه. وقيل: شبهوا بأعجاز النخل، لأنّ الريح كانت تقطع رؤوسهم فتبقى أجسادا بلا رؤوس. وذكر صفة نَخْلٍ على اللفظ، ولو حملها على المعنى لأنث، كما قال أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ.

---

(1). قوله «آخذين أيديهم بأيدى بعض» عبارة النسفي: آخذين بعضهم بأيدى بعض.

(ع)

.

[سورة القمر (54) : الآيات 23 إلى 32]

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقالُوا أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (24)
أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25) سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ
(26) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27)
وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (28) فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى فَعَقَرَ
(29) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (30) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ
الْمُحْتَظِرِ (31) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (32)

أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نصب بفعل مضمر يفسره نَتَّبِعُهُ وقرئ: أبشر منا واحد، على الابتداء. ونتبعه: خبره، والأوّل أوجه للاستفهام. كان يقول: إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق، وسعر: ونيران، جمع سعير، فعكسوا عليه فقالوا: إن اتبعناك كنا إذن كما تقول. وقيل: الضلال: الخطأ والبعد عن الصواب. والسعر: الجنون. يقال: ناقة مسعورة. قال:

كأنّ بها سعرا إذا العيس هزّها ذميل وإرخا من السّير متعب «1»

فإن قلت: كيف أنكروا أن يتبعوا بشرا منهم واحدا؟ قلت: قالوا أبشرا: إنكارا لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر وهم الملائكة «2»، وقالوا مِنَّا لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى، وقالوا واحِداً إنكارا لأن تتبع الأمّة رجلا واحدا. أو أرادوا واحدا من أفنائهم «3» ليس بأشرفهم وأفضلهم، ويدل عليه

قولهم أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا أى أأنزل عليه الوحى من بيننا وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوّة أَشِرٌ بطر متكبر، حمله بطره وشطارته وطلبه التعظم علينا على ادعاء ذلك سَيَعْلَمُونَ غَداً عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ أصالح أم من كذبه. وقرئ: ستعلمون بالتاء على حكاية ما قال لهم صالح مجيبا لهم. أو هو كلام

---

(1). السعر: الجنون، والمسعور: المجنون والذي ضربته السموم. يقول: كأن بناقتي جنون لقوة سيرها، فالعيس: جمع عيساء وهي النوق البيض، حركها ذميل وإرخاء: وهما نوعان من السير متعب كل منهما. وإسناد الهز إليهما مجاز عقلى من باب الاسناد للسبب، وإن أريد بالهز التسيير فيكون من الاسناد للمصدر، كجد جده، لكن المسند هنا من المتعدي، والمسند إليه من اللازم. [.....]

(2). قوله «أعلى من جنس البشر وهم الملائكة» تفضيل الملك على البشر مذهب المعتزلة. وأهل السنة يفضلون البشر على الملك. (ع)

(3). قوله «واحدا من أفنائهم» وفي الصحاح: يقال هو من أفناء الناس، إذا لم يعلم ممن هو. اه، ولم يذكر له واحدا. (ع)

اللّه تعالى على سبيل الالتفات. وقرئ: الأشر، بضم الشين، كقولهم حدث وحدث. وحذر وحذر، وأخوات لها. وقرئ: الأشر، وهو الأبلغ في الشرارة. والأخير والأشر: أصل قولهم: هو خير منه وشر منه، وهو أصل مرفوض، وقد حكى ابن الأنبارى قول العرب:

هو أخير وأشر، وما أخيره وما أشره مُرْسِلُوا النَّاقَةِ باعثوها ومخرجوها من الهضبة «1» كما سألوا فِتْنَةً لَهُمْ امتحانا لهم وابتلاء فَارْتَقِبْهُمْ فانتظرهم وتبصر ما هم صانعون وَاصْطَبِرْ على أذاهم ولا تعجل حتى يأتيك أمرى قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ مقسوم بينهم: لها شرب يوم ولهم شرب يوم. وإنما قال: بينهم، تغليبا للعقلاء مُحْتَضَرٌ محضور لهم أو للناقة. وقيل: يحضرون الماء في نوبتهم واللبن في نوبتها صاحِبَهُمْ قدار بن سالف أحيمر ثمود فَتَعاطى فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث له، فأحدث العقر بالناقة. وقيل فتعاطى الناقة فعقرها، أو فتعاطى السيف صَيْحَةً واحِدَةً صيحة جبريل. والهشيم، الشجر اليابس المتهشم المتكسر. والمحتظر: الذي يعمل الحظيرة وما يحتظر به ييبس بطول الزمان وتتوطؤه البهائم فيتحطم ويتهشم. وقرأ الحسن بفتح الظاء وهو موضع الاحتظار، أى: الحظيرة.

[سورة القمر (54): الآيات 33 إلى 40]

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ (34)

نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ (36)
وَلَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ (37)
وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ (38) فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ (39) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (40)

حاصِباً ريحا تحصبهم بالحجارة ، أى : ترميهم بِسَحَرٍ بقطع من الليل ، وهو السدس الأخير منه . وقيل : هما سحران ، فالسحر الأعلى قبل انصداع الفجر ، والآخر عند انصداعه . وأنشد :

مرّت بأعلى السّحرين تذأل «2»

---

(1) . قوله «و مخرجوها من الهضبة» في الصحاح «الهضبة» الجبل المنبسط على وجه الأرض . (ع)

(2) يا سائلي إن كنت عنها تسأل مرت بأعلى السحرين تذأل

يقول : يا من تسألنى إن كنت تسألنى عن الحمر الوحشية لا غير ، فقد مرت بأعلى السحرين وهو السحر الذي قبل انصداع الفجر . والأدنى : هو الذي عند انصداعه ، أى مرت في السحر الأول تذأل بالهمز ، أى : تسرع في المشي من ذأل كمنع : إذا مشى في خفة . ومنه : ذؤالة الذئب ، وبين تسأل وتذأل الجناس المضارع .

وصرف لأنه نكرة . ويقال : لقيته سحر : إذا لقيته في سحر يومه نِعْمَةً إنعاما ، مفعول له مَنْ شَكَرَ نعمة اللّه بإيمانه وطاعته وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ لوط عليه السلام بَطْشَتَنا أخذتنا بالعذاب فَتَمارَوْا فكذبوا بِالنُّذُرِ متشاكين فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فمسحناها وجعلناها كسائر الوجه لا يرى لها شق . روى أنهم لما عالجوا باب لوط عليه السلام ليدخلوا قالت الملائكة خلهم يدخلوا ، إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فصفقهم جبريل عليه السلام بجناحه صفقة فتركهم يتردّدون لا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط فَذُوقُوا فقلت لهم : ذوقوا على ألسنة الملائكة بُكْرَةً أوّل النهار وباكره ، كقوله : مشرقين ، ومصبحين .

وقرأ زيد بن على رضى اللّه عنهما : بكرة ، غير منصرفة ، تقول : أتيته بكرة وغدوة بالتنوين .

إذا أردت التنكير ، وبغيره إذا عرّفت وقصدت بكرة نهارك وغدوته عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ ثابت قد استقرّ عليهم إلى أن يفضى بهم إلى عذاب الآخرة . فإن قلت : ما فائدة تكرير قوله فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ قلت : فائدته أن يجدّدوا عند استماع كل نبا من أنباء الأوّلين ادكارا واتعاظا ، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا ، إذا

سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات ، ويقعقع لهم الشن «1» تارات ، لئلا يغلبهم السهو ولا تستولى عليهم الغفلة ، وهكذا حكم التكرير ، كقوله فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ عند كل نعمة عدّها في سورة الرحمن ، وقوله فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ عند كل آية أوردها في سورة والمرسلات ، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة القلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية في كل أوان .

[سورة القمر (54) : الآيات 41 إلى 42]

وَلَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42)

النُّذُرُ موسى وهرون وغيرهما من الأنبياء ، لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون . أو جمع نذير وهو الإنذار بِآياتِنا كُلِّها بالآيات التسع أَخْذَ عَزِيزٍ لا يغالب مُقْتَدِرٍ لا يعجزه شيء .

[سورة القمر (54) : الآيات 43 إلى 46]

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44)

سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهى وَأَمَرُّ (46)

---

(1) . قوله «ويقعقع لهم الشن» القربة الخلق ، كذا في الصحاح . (ع)

أَكُفَّارُكُمْ يا أهل مكة خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ الكفار المعدودين : قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون ، أى أهم خير قوّة وآلة ومكانة في الدنيا ، أو أقل كفرا وعنادا يعنى : أنّ كفاركم مثل أولئك بل شر منهم أَمْ أنزلت عليكم يا أهل مكة بَراءَةٌ في الكتب المتقدّمة .

أنّ من كفر منكم وكذب الرسل كان آمنا من عذاب اللّه ، فأمنتم بتلك البراءة نَحْنُ جَمِيعٌ جماعة أمرنا مجتمع مُنْتَصِرٌ ممتنع لا نرام ولا نضام . وعن أبى جهل أنه ضرب فرسه يوم بدر ، فتقدّم في الصف وقال : نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه ، فنزلت سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ عن عكرمة :

لما نزلت هذه الآية قال عمر : أى جمع يهزم ، فلما رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يثب في الدرع ويقول : «سيهزم الجمع» عرف تأويلها «1» وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ أى الأدبار كما قال : كلوا في بعض بطنكم تعفوا «2»

وقرئ : الأدبار أَدْهى أشدّ وأفظع . والداهية : الأمر المنكر لذي لا يهتدى لدوائه وَأَمَرُّ من الهزيمة والقتل والأسر . وقرئ : سنهزم الجمع .

[سورة القمر (54) : الآيات 47 إلى 50]

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (47) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (48) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ (49) وَما أَمْرُنا إِلاَّ واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50)

فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ في هلاك ونيران . أو في ضلال عن الحق في الدنيا ، ونيران في الآخرة مَسَّ سَقَرَ كقولك : وجد مس الحمى وذاق طعم الضرب ، لأنّ النار إذا أصابتهم بحرها ولفحتهم بإيلامها ، فكأنها تمسهم مسا بذلك ، كما يمس الحيوان ويباشر بما يؤذى ويؤلم . وذوقوا : على إرادة القول . وسقر : علم لجهنم . من سقرته النار وصقرته إذا لوحته . قال ذو الرمّة :

---

(1) . أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ، وعن أيوب عن عكرمة «أن عمر - فذكره» وأتم منه ، ورواه من هذا الوجه إسحاق والطبري وابن أبى حاتم ، ورواه الطبري في الأوسط من رواية عبد المجيد بن أبى رواد عن معمر عن قتادة عن أنس عن عمر موصولا .

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 479 فراجعه إن شئت اه مصححه .

إذا ذابت الشّمس اتّقى صقراتها بأفنان مربوع الصّريمة معبل «1»

وعدم صرفها للتعريف والتأنيث كُلَّ شَيْءٍ منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر «2» .

وقرئ : كل شيء بالرفع . والقدر والقدر : التقدير . وقرئ بهما ، أى : خلقنا كل شيء

مقدّرا محكما مرتبا على حسب ما اقتضته الحكمة. أو مقدّرا مكتوبا في اللوح.

معلوما قبل كونه، قد علمنا حاله وزمانه وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ إلا كلمة واحدة سريعة التكوين كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ أراد قوله كن، يعنى أنه إذا أراد تكوين شيء لم يلبث كونه.

[سورة القمر (54): الآيات 51 إلى 53]

وَلَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (51) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (53)

أَشْياعَكُمْ أشباهكم في الكفر من الأمم فِي الزُّبُرِ في دواوين الحفظة وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ من الأعمال ومن كل ما هو كائن مُسْتَطَرٌ مسطور في اللوح.

---

(1). لذي الرمة يصف بقر الوحش، يقال: ذابت الشمس إذا اشتد حرها حتى يتساقط من شعاعها مثل اللعاب، وصقر الصخرة بالمصقر: ضربها بالمعول ليكسرها. وصقرته الشمس: إذا ضربته فغيرت لونه. وصقرة الشمس: اشتداد وقعها على الأرض. والأفنان، جمع فنن وهو مجتمع الورق الملتف المتكاثف في الغصن.

والمربوع: الذي أصابه مطر الربيع. والصريمة: الرملة المتصرمة من الرمال. والمعبل: كثير الورق مفتوله.

يقول: إذا اشتد حر الشمس توقى شدائده بأغصان شجر سقاه الربيع في هذا الموضع من الرمال. والمعبل: كثير الورق. ومعبل: بدل من مربوع، كأنه جامد. ويجوز أنه نعت له،

على أن إضافته من إضافة الوصف إلى الظرف ، فلا تفيده التعريف ، فيصح وصفه بالنكرة .

(2) . قال محمود : «منصوب بمضمر يفسره الظاهر» قال أحمد : كان قياس ما مهده النحاة : اختيار رفع كُلٌّ لكن لم يقرأ بها واحد من السبعة ، وإنما كان كذلك ، لأن الكلام مع الرفع جملة واحدة ، ومع النصب جملتان ، فالرفع أخصر ، مع أنه لا مقتضى النصب ها هنا من أحد الأصناف الستة ، أعني : الأمر ، والنهي . . .

إلى آخرها ، ولا أجد هنا مناسب عطف ولا غيره مما يعدونه من محال اختيارهم للنصب ، فإذا تبين ذلك فاعلم أنه إنما عدل عن الرفع إجماعا لسر لطيف يعين اختيار النصب : وهو أنه لو رفع لوقعت الجملة التي هي خَلَقْناهُ صفة لشيء ، ورفع قوله بِقَدَرٍ خبرا عن كل شيء المقيد بالصفة ، ويحصل الكلام على تقدير : إنا كل شيء مخلوق لنا بقدر ، فأفهم ذلك أن مخلوقا ما يضاف إلى غير اللّه تعالى ليس بقدر ، وعلى النصب يصير الكلام : إنا خلقنا كل شيء بقدر ، فيفيد عموم نسبة كل مخلوق إلى اللّه تعالى ، فلما كانت هذه الفائدة لا توازيها الفائدة اللفظية على قراءة الرفع مع ما في الرفع من نقصان المعنى ومع ما في هذه القراءة المستفيضة من مجيء المعنى تاما واضحا كفلق الصبح ، لا جرم أجمعوا على العدول عن الرفع إلى النصب ، لكن الزمخشري لما كان من قاعدة أصحابه تقسيم المخلوقات إلى مخلوق اللّه ومخلوق لغير اللّه ، فيقولون : هذا للّه بزعمهم ، هذا لنا : فغرت

هذه الآية فاه ، وقام إجماع القراء حجة عليه ، فأخذ يستروح إلى الشقاء ، وينقل قراءتها بالرفع ، فليراجع له ويعرض عليه إعراض القراء السبعة عن هذه الرواية ، مع أنها هي الأولى في العربية ، لولا ما ذكرناه ، أيجوز في حكمه حينئذ الإجماع على خلاف الأولى لفظا ومعنى من غير معنى اقتضى ذلك أم لا ؟ وهو المخير فيما يحكم به ، فالى اللّه ترجع الأمور .

(211/737)

[سورة القمر (54) : الآيات 54 إلى 55]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55)

وَنَهَرٍ وأنهار ، اكتفى باسم الجنس . وقيل : هو السعة والضياء من النهار . وقرئ بسكون الهاء . ونهر : جمع نهر ، كأسد وأسد فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ في مكان مرضىّ . وقرئ : في مقاعد صدق عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ مقرّبين عند مليك مبهم أمره في الملك والاقتدار ، فلا شيء إلا وهو تحت ملكه وقدرته ، فأى منزلة أكرم من تلك المنزلة وأجمع للغبطة كلها والسعادة بأسرها .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة القمر في كل غب «1» بعثه اللّه يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر» «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ

﴿ 442.430

---

(1) . قوله «في كل غب بعثه اللّه» في الصحاح «الغب» : أن ترد الإبل الماء يوما وتدعه يوما . والغب في الزيارة : قال الحسن : في كل أسبوع . (ع)

(2) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب .

(212/737)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾

أي دنت وقربت ، قال الشاعر :

قد اقتربت لو كان في قرب دارها . . . جداء ولكن قد تضر وتنفع

والمراد بالساعة القيامة ، وفي تسميتها بالساعة وجهان :

أحدهما : لسرعة الأمر فيها .

الثاني : لمجيئها في ساعة من يومها .

وروى طارق بن شهاب عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَلاَ يَزْدَادُ النَّاسُ عَلَى الدُّنْيَا إِلاَّ حِرْصاً وَلاَ تَزْدَادُ مِنْهُمْ إِلاَّ بُعْداً " .

﴿ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : معناه وضح الأمر وظهر والعرب تضرب مثلاً فيما وضح أمره ، قال الشاعر :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم . . . فإني إلى قوم سواكم لأميل

فقد حمت الحاجات والليل مقمر . . . وشدت لطيات مطايا وأرحل

والثاني : أن انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه بطلوعه في أثنائها كما يسمى الصبح فلقاً لانفلاق الظلمة عنه ، وقد يعبر عن انفلاقه بانشقاقه ، كما قال النابغة الجعدي :

فلما أدبروا ولهم دوي . . . دعانا عند شق الصبح داعي

الثالث : أنه انشقاق القمر على حقيقة انشقاقه .

وفيه على هذا التأويل قولان :

أحدهما : أنه ينشق بعد مجيء الساعة وهي النفخة الثانية ، قاله الحسن ، قال : لأنه لو انشق ما بقي أحد إلا رأه لأنها آية والناس في الآيات سواء .

الثاني : وهو قول الجمهور وظاهر التنزيل أن القمر انشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن سأله عمه حمزة بن عبد المطلب حين أسلم غضباً لسب أبي جهل لرسول الله ، أن يريه آية يزداد بها يقيناً في إيمانه ، وروى مجاهد عن أبي معمر عن أبي مسعود قال : رأيت القمر منشقاً شقتين بمكة قبل مخرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، شقة على أبي قبيس ، وشقة على السويدا فقالوا : سحر القمر ، فنزلت ﴿

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ .

﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ فيه وجهان :

(213/737)

أحدهما : أنه أراد أي آية رأوها أعرضوا عنها ولم يعتبروا بها ، وكذلك ذكرها بلفظ التنكير دون التعريف ، قاله ابن بحر .

الثاني : أنه عنى بالآية انشقاق القمر حين رأوه .

﴿ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : أن معنى مستمر ذاهب ، قاله أنس وأبو عبيدة .

الثاني : شديد ، مأخوذ من إمرار الحبل ، وهو شدة فتله ، قاله الأخفش والفراء .

الثالث : أنه يشبه بعضه بعضاً .

الرابع : أن المستمر الدائم ، قال امرؤ القيس :

ألا إنما الدنيا ليال وأعصر . . . وليس على شيء قويم بمستمر

أي بدائم .

الخامس : أي قد استمر من الأرض إلى السماء ، قاله مجاهد .

﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يوم القيامة .

الثاني : كل أمر مستقر في أن الخير لأهل الخير ، والشر لأهل الشر ، قاله قتادة .

الثالث : أن كل أمر مستقر حقه من باطله .

الرابع : أن لكل شيء غاية ونهاية في وقوعه وحلوله ، قاله السدي .

ويحتمل خامساً ، أن يريد به دوام ثواب المؤمن وعقاب الكافر .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ الأَنْبَآءِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أحاديث الأمم الخالية ، قاله الضحاك .

الثاني : القرآن .

﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أي مانع من المعاصي .

ويحتمل وجهين :

أحدهما : أنه النهي .

الثاني : أنه الوعيد .

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ قاله السدي : هي الرسالة والكتاب .

ويحتمل أن يكون الوعد والوعيد .

ويحتمل قوله : ﴿ بَالِغَةٌ ﴾ وجهين :

أحدهما : بالغة في زجركم .

الثاني : بالغة من الله إليكم ، فيكون على الوجه الأول من المُبَالَغَةِ ، وعلى الوجه الثاني من الإبلاَغ .

﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ أي فما يمنعهم التحذير من التكذيب .

﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : معناه : مسرعين ، قاله أبو عبيدة ، ومنه قول الشاعر :

بدجلة دارهم ولقد أراهم . . . بدجلة مهطعين إلى السماع

الثاني : معناه : مقبلين ، قاله الضحاك .

الثالث : عامدين ، قاله قتادة .

(214/737)

الرابع : ناظرين ، قاله ابن عباس .

الخامس : فاتحين آذانهم إلى الصوت ، قاله عكرمة .

السادس : قابضين ما بين أعينهم ، قاله تميم .

﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ يعني يوم القيامة ، لما ينالهم فيه من الشدة .

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن المنهمر الكثير ، قاله السدي ، قال الشاعر :

أعيني جودا بالدموع الهوامر . . . على خير باد من معد وحاضر

الثاني : أنه المنصب المتدفق ، قاله المبرد ، ومنه قول امرىء القيس :

راح تمرية الصبا ثم انتحى . . . فيه شؤبوب جنوب منهمر

وفي فتح أبواب السماء قولان :

أحدهما : أنه فتح رتاجها وسعة مسالكها .

الثاني : أنها المجرة وهي شرج السماء ومنها فتحت بماء منهمر ، قاله علي .

﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فالتقى ماء السماء وماء الأرض على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر ، حكاه ، ابن قتيبة .

الثاني : قدر بمعنى قضي عليهم ، قاله قتادة ، وقدر لهم إذا كفروا أن يغرقوا .

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ أي السفينة ، وفي الدسر أربعة أقاويل :

أحدها : المعاريض التي يشد بها عرض السفينة ، قاله مجاهد .

الثاني : أنها المسامير دسرت بها السفينة ، أي شدت ، قاله ابن جبير وابن زيد .

الثالث : صدر السفينة الذي يضرب الموج ، قاله عكرمة ، لأنها تدسر الماء بصدرها ، أي

تدفعه .

الرابع : أنها طرفاها ، وأصلها ، قاله الضحاك .

﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : بمرأى منا .

الثاني : بأمرنا ، قاله الضحاك .

الثالث : بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها .

الرابع : بأعين الماء التي أتبعناها في قوله : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً ﴾ ، وقيل : إنها تجري بين ماء الأرض والسماء ، وقد كان غطاها عن أمر الله سبحانه .

﴿ جَزَآءً لِمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لكفرهم بالله ، قاله مجاهد ، وابن زيد .

والثاني : جزاء لتكذيبهم ، قاله السدي .

الثالث : مكافأة لنوح حين كفره قومه أن حمل ذات ألواح ودسر .

﴿ وَلَقَدْ تَّرَكْنَاهَآ ءَايَةً ﴾ فيها وجهان :

أحدها : الغرق .

الثاني : السفينة روى سعيد عن قتادة أن الله أبقاها بباقردي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة .

وفي قوله : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني فهل من متذكر ، قاله ابن زيد .

الثاني : فهل من طالب خير فيعان عليه ، قاله قتادة .

الثالث : فهل من مزدجر عن معاصي الله ، قاله محمد بن كعب .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه سهلنا تلاوته على إهل كل لسان ، وهذا أحد معجزاته ، لأن الأعجمي قد يقرأه ويتلوه كالعربي .

الثاني : سهلنا علم ما فيه واستنباط معانيه ، قاله مقاتل .

الثالث : هونا حفظه فأيسر كتاب يحفظ هو كتاب الله ، قاله الفراء .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : باردة ، قاله قتادة ، والضحاك .

الثاني : شديدة الهبوب ، قاله ابن زيد .

الثالث : التي يسمع لهبوبها كالصوت ، ومنه قول الشاعر :

. . . . . باز يصرصر فوق المرقب العالي

﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يوم عذاب وهلاك .

الثاني : لأنه كان يوم الأربعاء .

الثالث : لأنه كان يوماً بارداً ، قال الشنفرى :

وليلة نحس يصطلي القوس ربها . . . وأقطعه اللاتي بها ينبل

يعني أنه لشدة بردها يصطلي بقوسه وسهامه التي يدفع بها عن نفسه . وفي ﴿ مُسْتَمِرٍ ﴾

وجهان :

أحدهما : الذاهب .

الثاني : الدائم .

﴿ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : أن السعر الجنون ، قاله ابن كامل .

الثاني : العناء ، قاله قتادة .

الثالث : الافتراق ، قاله السدي .

الرابع : التيه ، قاله الضحاك .

الخامس : أنه جمع سعر وهو وقود النار ، قاله ابن بحر وابن عيسى .

وعلى هذا التأويل في قولهم ذلك وجهان :

أحدهما : أنهم قالوه لعظم ما نالهم أن يتبعوا رجلاً واحداً منهم ، كما يقول الرجل إذا ناله خطب عظيم : أنا في النار .

الثاني : أنهم لما أوعدوا على تكذيبه ومخالفته بالنار ردوا مثل ما قيل لهم إنّا لو اتبعنا رجلاً مثلنا واحداً كنا إذاً في النار .

﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الأشر هو العظيم الكذب ، قاله السدي .

الثاني : أنه البطر ، ومنه قول الشاعر :

أشرتم بلبس الخز لما لبستم . . . ومن قبل لا تدرون من فتح القرى

الثالث : أنه المتعدي إلى منزلة لا يستحقها . ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾ أما الاصطبار فهو الافتعال من الصبر وأصل الطاء تاء أبدلت بطاء ليكون اللفظ أسهل مخرجاً ويعذب مسمعاً . وروى أبو الزبير عن جابر قال : لما نزلنا الحجر فغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك ، قال : " أَيُّهَا النَّاسُ لاَ تَسْأَلُوا عَنْ هَذِهِ الآيَاتِ [هؤلاء] قَوْمُ صَالِحٍ سَأَلُوا نَبِيَّهُمْ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ لَهُمْ آيَةً ، فَبَعَثَ اللَّهُ لَهُمْ نَاقَةً فَكَانَتْ تَرِدُ مِنْ ذَلِكَ الفَجَ

فَتَشْرَبُ مَاءَهُم يَوْمَ وُرُودِهَا وَيَحْلِبُونَ مِنْهَا مِثْلَ الَّذِي كَانُوا يَشْرَبُونَ مِنْهَا يَوْمَ غِبِّهَا وَيَصْدِرُونَ عَن ذَلِكَ ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَآءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُم ﴾ " الآية .

وفيه وجهان :

أحدهما : أن الناقة تحضر الماء يوم ورودهم ، وتغيب عنهم يوم ورودها ، قاله مقاتل .

الثاني : أن ثمود يحضرون الماء يوم غبها فيشربون ، ويحضرون اللبن يوم وردها فيحلبون .

﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : انه أحمر إرم وشقيها ، قاله قتادة ، وقد ذكره زهير في شعره فقال :

(217/737)

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم . . . كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

الثاني : أنه قدار بن سالف ، قاله محمد بن إسحاق ، وقد ذكره الأفوه في شعره :

أو بعده كقدار حين تابعه . . . على الغاوية أقوام فقد بادوا

﴿ فَتَعَاطَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن معناه بطش بيده ، قاله ابن عباس .

الثاني : معناه تناولها وأخذها ، ومنه قول حسان بن ثابت :

كلتاهما حلب العصير فعاطني . . . بزجاجة أرخاهما للمفصل

﴿ فَعَقَرَ ﴾ قال محمد بن إسحاق : كَمَنَ لها قدار في أصل شجرة على طريقها فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها ، ثم شد عليها بالسيف فكشف عرقوبها فخرت ورغت رغاءة واحدة تحدر سقبها [من بطنها وانطلق سقبها] حتى اتى صخرة في رأس الجبل فرغا ثم لاذ بها ، فأتاهم صالح ، فلما رأى الناقة قد عقروها بكى ثم قال : انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله .

قال ابن عباس : وكان الذي عقرها رجل أحمر أزرق أشقر أكشف أقفى .

﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدهما : يعني العظام المحترقة ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه التراب الذي يتناثر من الحائط وتصيبه الريح ، فيحتظر مستديراً ، قاله سعيد بن جبير .

الثالث : أنها الحظار البالية من الخشب إذا صار هشيماً ، ومنه قول الشاعر :

أثرت عجاجة كدخان نار . . . تشب بغرقد بال هشيم

قاله الضحاك .

الرابع : أنه حشيش قد حظرته الغنم فأكلته ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً

الخامس : أن الهشيم اليابس من الشجر الذي فيه شوك والمحتظر الذي تحظر به العرب

حول ماشيتها من السباع ، قاله ابن زيد ، وقال الشاعر :

ترى جيف المطي بجانبيه . . . كان عظامها خشب الهشيم

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : أن الحصب الحجارة التي رموا بها من السماء ، والحصباء هي الحصى وصغار الأحجار .

الثاني : أن الحاصب الرمي بالأحجار وغيرها ، ولذلك تقول العرب لما تسفيه الريح حاصباً ، قال الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام تضربنا . . . بحاصب كنديف القطن منثور

الثالث : أن الحاصب السحاب الذي حصبهم .

الرابع : أن الحاصب الملائكة الذين حصبوهم .

الخامس : أن الحاصب الريح التي حملت عليهم الحصباء .

﴿ إِلاَّ ءَالَ لُوطٍ ﴾ يعني ولده ومن آمن به .

﴿ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ والسحر هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر ، وهو في كلام العرب

اختلاط سواد آخر الليل ببياض أول النهار لأن هذا الوقت يكون مخاييل الليل ومخاييل النهار .

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ﴾ يعني ضيف لوط وهم الملائكة الذين نزلوا عليه في صورة الرجال ، وكانوا على أحسن صورهم ، فراودوا لوطاً عليهم طلباً للفاحشة .

﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ والطمس محو الأثر ومنه طمس الكتاب إذا محي ، وفي طمس أعينهم وجهان :

أحدهما : أنهم اختفوا عن أبصارهم حتى لم يروهم ، مع بقاء أعينهم ، قاله الضحاك .

الثاني : أعينهم طمست حتى ذهبت أبصارهم وعموا فلم يروهم ، قاله الحسن ، وقتادة .

﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه وعيد بالعذاب الأدنى ، قاله الضحاك .

الثاني : أنه تقريع بما نالهم من عذاب العمى الحال ، وهو معنى قول الحسن ، وقتادة .

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ ﴾ يعني أكفاركم خير من كفار من تقدم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم .

﴿ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ يعني في الكتب السالفة براءة من الله تعالى أنكم ليس تهلكون كما أهلكوا ، ومنه قول الشاعر :

وترى منها رسوماً قد عفت . . . مثل خط اللام في وحي الزبر

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ يعني بالعدد والعدة ، وقد كان من هلك قبلهم أكثر عدداً وأقوى يداً ، ويحتمل انتصارهم وجهين :

أحدهما : [لأنفسهم بالظهور] .

الثاني : لآلهتهم بالعبادة .

(219/737)

فرد الله عليهم فقال : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ يعني كفار قريش وذلك يوم بدر ، وهذه معجزة أوعدهم الله بها فحققها ، وفي ذلك يقول حسان :

ولقد وليتم الدبر لنا . . . حين سال الموت من رأس الجبل

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ يعني القيامة .

﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن موقف الساعة أدهى وأمر من موقف الدنيا في الحرب التي تولون فيها الدبر .

الثاني : أن عذاب الساعة أدهى وأمر من عذاب السيف في الدنيا .

وفي قوله ﴿ أَدْهَى ﴾ وجهان :

أحدهما : أخبث .

الثاني : أعظم .

﴿ وَأَمَرُّ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : معناه أشد لأن المرارة أشد الطعوم .

الثاني : معناه أنفذ ، مأخوذ من نفوذ المرارة فيما خالطته .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ روى إسماعيل بن زياد عن محمد بن عباد عن أبي هريرة أن مشركي قريش أتوا النبي صلى الله عليه وسلم يخاصمونه في القدر ، فنزلت .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : على قدر ما أردنا من غير زيادة ولا نقصان ، قاله ابن بحر .

الثاني : بحكم سابق وقضاء محتوم ، ومنه قول الراجز :

وقدر المقدر الأقدارا . . . . ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ يعني أن ما أردناه من شيء أمرنا به مرة واحدة ولم نحتج فيه إلى ثانية ، فيكون ذلك الشيء مع أمرنا به كلمح البصر في سرعته من غير إبطاء ولا تأخير .

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن المستطر المكتوب ، قاله الحسن وعكرمة وابن زيد ، لأنه مسطور .

الثاني : أنه المحفوظ ، قاله قتادة .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن النهر أنهار الماء ، والخمر ، والعسل ، واللبن ، قاله ابن جريج .

الثاني : أن النهر الضياء والنور ، ومنه النهار ، قاله محمد بن إسحاق ، ومنه قول الراجز :

(220/737)

لولا الثريدان هلكنا بالضمر . . . ثريد ليل وثريد بالنهر

الثالث : أنه سعة العيش وكثرة النعيم ، ومنه اسم نهر الماء ، قاله قطرب .

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِند مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : مقعد حق لا لغو فيه ولا تأثيم .

الثاني : مقعد صدق لله وعد أولياءه به ، والمليك والملك واحد ، وهو الله كما قال ابن الزبعري :

يا رسول المليك إن لساني . . . راتق ما فتقت إذا أنا بوا

ويحتمل ثالثاً : أن المليك مستحق الملك ، والملك القائم بالملك والمقتدر بمعنى القادر .

ويحتمل وصف نفسه بالاقتدار ها هنا وجهين :

أحدهما : لتعظيم شأن من عنده من المتقين لأنهم عند المقتدر أعظم قدراً ، وأعلى مجزاً .

الثاني : ليعلموا أنه قادر على حفظ ما أنعم به عليهم ودوامه لهم ، والله أعلم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ 408 . 421 ﴾

(221/737)

وقال ابن الجوزى :

سورة القمر

وهي مكيَّة بإجماعهم ، وقال مقاتل : مكِّيَّة غير آية ﴿ سيُهْزَمُ الجَمْعُ ﴾ [القمر : 45] ، وحكي عنه أنه قال : إلاّ ثلاث آيات ، أولها : ﴿ أم يقولون نحنُ جميعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ [القمر : 44] إلى قوله ﴿ وأمَرُّ ﴾ [القمر : 46] ، قال ابن عباس : " اجتمع المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن كنت صادقاً فشُقَّ لنا القمر فرقتين ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن فعلتُ تؤمنون ؟" قالوا : نعم ، فسأل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ربَّه أن يُعطيَه ما قالوا ، فانشقَّ القمر فرقتين ، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ينادي : "يا فلان يا فلان اشْهَدوا" " وذلك بمكة قبل الهجرة .

وقد روى البخاري ومسلم في "صحيحيهما" من حديث ابن مسعود قال : " انشقَّ القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شقَّتين ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم

: "اشْهَدوا" " وقد روى حديث الانشقاق جماعةٌ ، منهم عبد الله بن عمر ، وحذيفة ، وجبير بن مطعم ، وابن عباس ، وأنس بن مالك ، وعلى هذا جميع المفسرين ، إلاّ أن قوماً شذُّوا فقالوا : سيَنْشَقُّ يوم القيامة .

وقد روى عثمان بن عطاء عن أبيه نحو ذلك ، وهذا القول الشاذ لا يقاوم الإجماع ، ولأن قوله : ﴿ وانْشَقَّ ﴾ لفظ ماض ، وحَمْلُ لفظ الماضي على المستقبل يفتقر إلى قرينة تنقله ودليل ، وليس ذلك موجوداً .

وفي قوله : "وإن يَروا آيةً يُعْرضوا" دليل على أنه قد كان ذلك .

ومعنى ﴿ اقْتَرَبَت ﴾ : دنَتْ ؛ و ﴿ الساعةُ ﴾ القيامة .

وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير ، تقديره : انشقَّ القمر واقتربت الساعة .

وقال مجاهد : انشقَّ القمر فصار فِرقتين ، فثبتت فِرقة ، وذهبت فِرقة وراء الجبل .

وقال ابن زيد : لمّا انشقَّ القمر كان يُرى نصفُه على قُعيقِعَانَ ، والنصف الآخر على أبي قُبيس .

(222/737)

قال ابن مسعود : لمّا انشقَّ القمر قالت قريش : سحركم ابن أَبي كبشة ، فاسألوا السُّفَّار ، فسألوهم ، فقالوا : نعم قد رأيناه ، فأنزل اللهُ عز وجل : "اقتربتِ السّاعةُ وانشَقَّ القمر" .

قوله تعالى : ﴿ وإنْ يروا آيةً ﴾ أي : آية تدُلُّهم على صدق الرسول ، والمراد بها هاهنا : انشقاق القمر ﴿ يُعْرضوا ﴾ عن التصديق ﴿ ويقولوا سِحْرٌ مستمرٌّ ﴾ فيه ثلاثة أَقوال .

أحدها : ذاهبٌ ، من قولهم : مَرَّ الشيءُ واستمرَّ : إذا ذهب ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والكسائي ، والفراء ؛ فعلى هذا يكون المعنى : هذا سِحر ، والسِّحر يذهب ولا يثبت .

والثاني : شديدٌ قويٌّ ، قاله أبو العالية ، والضحاك ، وابن قتيبة ، قال : وهو مأخوذ من المِرَّة ، والمِرَّة : الفَتْل .

والثالث : دائمٌ ، حكاه الزجّاج .

قوله تعالى : ﴿ وكذَّبوا ﴾ يعني كذَّبوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم وما عاينوا من قُدرة الله تعالى ﴿ واتَّبَعوا أَهواءَهم ﴾ ما زيَّن لهم الشيطانُ ﴿ وكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن كُلَّ أَمْر مستقِرٌّ بأهله ، فالخير يستقِرُّ بأهل الخير ، والشر يستقِرُّ بأهل الشر ، قاله قتادة .

والثاني : لكل حديثٍ مُنتهىً وحقيقةٌ ، قاله مقاتل .

والثالث : أن قرار تكذيبهم مستقِرّ ، وقرار تصديق المصدِّقين مستقِرّ حتى يعلموا حقيقته

بالثواب والعقاب ، قاله الفراء .

قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءهم ﴾ يعني أهل مكة ﴿ مِنَ الأنباء ﴾ أي : من أخبار الأُمم المكذِّبة في القرآن ﴿ ما فيه مُزْدَجَرٌ ﴾ قال ابن قتيبة : أي : مُتَّعَظٌ ومُنتهىً .

قوله تعالى : ﴿ حِكْمَةٌ بالغةٌ ﴾ قال الزجّاج : هي مرفوعة لأنها بدل من "ما" فالمعنى : ولقد جاءهم حكمةٌ بالغةٌ [وإن شئت رفعتهما بإضمار : هو حكمة بالغة] .

(223/737)

و"ما" في قوله ﴿ فما تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ جائز أن يكون استفهاماً بمعنى التوبيخ ، فيكون المعنى : أيّ شيء تُغْني النُّذُر ؟ ! وجائز أن يكون نفياً ، على معنى ، فليست تُغْني النُّذُر .

قال المفسرون : والمعنى : جاءهم القرآن وهو حِكْمة تامَّة قد بلغت الغاية ، فما تُغْني النُّذُر إذا لم يؤمِنوا ؟ ! .

﴿ فَتَوَلَّ عنهم ﴾ قال الزجّاج : هذا وقف التمام ، و ﴿ يومَ ﴾ منصوب بقوله : "يخرُجون من الأجداث" وقال مقاتل : فتولَّ عنهم [إلى] يوم ﴿ يَدْعُ الدّاعي ﴾ أثبت هذه الياء في الحالين يعقوب ؛ وافقه أبو جعفر ، وأبو عمرو في الوصل ، وحذفها الأكثرون في الحالين .

و"الداعي" : إسرافيل ينفُخ النفخة الثانية ﴿ إلى شيءٍ نُكُرٍ ﴾ وقرأ ابن كثير : "نُكْرٍ"

خفيفة؛ أي: إلى أمر فظيع.

وقال مقاتل: "النُّكُر" بمعنى المُنْكَر، وهو القيامة، وإنما يُنْكِرونه إعظاماً له.

والتَّوَلِّي المذكور في الآية منسوخ عند المفسرين بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿ خُشَّعاً أبصارُهم ﴾ قرأ أهل الحجاز، وابن عامر، وعاصم: "خُشَّعاً" بضم الخاء وتشديد الشين من غير ألف.

وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: "خاشِعاً" بفتح الخاء وألف بعدها وتخفيف الشين.

قال الزجاج: المعنى: يخرُجون خُشَّعاً، و"خاشعاً" منصوب على الحال، وقرأ ابن مسعود: "خاشعةً"؛ ولك في أسماء الفاعلين إذا تقدَّمت على الجماعة التوحيد والتأنيث والجمع؛ تقول: مررت بشُبّانٍ حَسَنٍ أوجُهُهم، وحِسانٍ أوجُهُهم، وحَسَنَةٍ أوجُهُهم، قال الشاعر:

وشَبابٍ حَسَنٍ أَوْجُهُهُمْ . . .

مِنْ إِيادِ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدّ

قال المفسرون: والمعنى أن أبصارهم ذليلة خاضعة عند رؤية العذاب.

والأجداث: القبور، وإنما شبَّههم بالجراد المنتشِر، لأن الجراد لا جِهةَ له يَقْصِدها، [فهو أبداً مختلف بعضه في بعض]، فهم يخرُجون فزعين ليس لأحد منهم جهة يَقْصِدها.

والدّاعي: إسرافيل.

وقد أثبت ياء "الدّاعي" في الحالين ابن كثير ، ويعقوب ؛ تابعهما في الوصل نافع ، وأبو عمرو ؛ والباقون بحذفها في الحالين .

وقد بيّنّا معنى "مُهْطِعين" في سورة [إبراهيم : 43] والعَسِر : الصَّعب الشَّديد .

قوله تعالى : ﴿ كذَّبتْ قَبْلَهم ﴾ أي : قبل أهل مكة ﴿ قومُ نُوح فكذَّبوا عَبْدَنا ﴾ نوحاً ﴿ وقالوا مجنونٌ وازْدُجِرَ ﴾ قال أبو عبيدة : افتُعِل مِن زُجِر .

قال المفسرون : زجروه عن مقالته ﴿ فدعا ﴾ عليهم نوح ﴿ ربَّه ﴾ ب ﴿ أَنِّي مغلوبٌ فانْتَصر ﴾ أي : فانتَقِم لي ممَّن كذَّبني .

قال الزَّجاج : وقرأ عيسى بن عمر النحوي : "إِنِّي" بكسر الألف ، وفسرها سيبويه فقال : هذا على إرادة القول ، فالمعنى : قال : إني مغلوب ؛ ومن فتح ، وهو الوجه ، فالمعنى : دعا ربَّه ب ﴿ أَنِّي مغلوب ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ففَتَحْنا أبوابَ السماء ﴾ قرأ ابن عامر : "ففَتَّحْنا" بالتشديد .

فأما المُنهمِر ، فقال ابن قتيبة : هو الكثير السريع الانصباب ، ومنه يُقال : هَمَر الرجلُ : إذا أكثر من الكلام وأسرع .

وروى عليٌّ رضي الله عنه أن أبواب السماء فُتحت بالماء من المَجَرَّة ، وهي شَرَجُ السماء .

وعلى ما ذكرنا من القصة في [هود : 44] أن المطر جاءهم ، يكون هو المراد بقوله : ﴿ ففَتَحْنا أبوابَ السماء ﴾ قال المفسرون : جاءهم الماء من فوقهم أربعين يوماً ، وفُجِّرت الأرض من تحتهم عيوناً أربعين يوماً .

﴿ فالتقى الماءُ ﴾ وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وأبو رجاء ، وعاصم الجحدري : "المآءان" بهمزة وألف ونون مكسورة .

وقرأ ابن مسعود : "المايانِ" بياءٍ وألف ونون مكسورة من غير همز .

وقرأ الحسن ، وأبو عمران : "الماوانِ" بواو وألف وكسر النون .

قال الزجاج : يعني بالماء : ماء السماء وماء الأرض ، ويجوز الماءان ، لأن اسم الماء اسم يجمع ماء الأرض وماء السماء .

قوله تعالى : ﴿ على أَمْرٍ قد قُدِرَ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : كان قَدْر ماء السماء كقَدْر ماء الأرض ، قاله مقاتل .

والثاني : قد قُدر في اللوح المحفوظ ، قاله الزجاج .

فيكون المعنى : على أمر قد قُضي عليهم ، وهو الغرق .

قوله تعالى : ﴿ وحَمَلْناه ﴾ يعني نوحاً ﴿ على ذات ألواحٍ ودُسُرٍ ﴾ قال الزجاج : أي : على سفينةٍ ذاتِ ألواحٍ .

قال المفسرون : ألواحها : خشباتها العريضة التي منها جُمعت .

وفي الدُّسُر أربعة أقوال .

أحدها : أنها المسامير ، رواه الوالبي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والقرظي ، وابن زيد ، وقال الزجاج : الدُّسُر : المسامير والشُّرُط التي تُشَدّ بها الألواح ، وكل شيء نحو السَّمْر أو إدخال شيء في شيءٍ بقوّة وشِدة قَهر فهو دَسْر ، يقال : دَسَرْتُ المسمار أدْسُرُه وأَدْسِرُه . والدُّسُر : واحدها دِسار ، نحو حِمار ، وحُمُر .

والثاني : أنه صَدْر السفينة ، سُمِّي بذلك لأنه يَدْسُر الماء ، أي : يدفعه ، رواه العوفي عن ابن عباس وبه قال الحسن وعكرمة ؛ ومنه الحديث في العنبر أنه شيء دسره البحر ، أي : دفعه .

والثالث : أن الدُّسُر : أضلاع السفينة ، قاله مجاهد .

والرابع : أن الدُّسُر : طرفاها وأصلها ، والألواح : جانباها ، قاله الضحاك .

قوله تعالى : ﴿ تَجْري بأعيْننا ﴾ أي : بمَنْظَرٍ ومرأىً مِنّا ﴿ جزاءً ﴾ قال الفراء : فعَلْنا

به وبهم ما فعلنا من إنجائه وإغراقهم ثواباً لمن كُفِر به .

وفي المراد ب "مَنْ" ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الله عز وجل ، وهو مذهب مجاهد ، فيكون المعنى : عوقبوا لله ولكُفرهم به .

والثاني : أنه نوحٌ كُفِر به وجُحِد أمْرُه ، قاله الفراء .

والثالث : أن "مَنْ" بمعنى "ما" ؛ فالمعنى : جزاءً لِما كان كُفِر من نِعم الله عند الذين أغرقهم ، حكاه ابن جرير .

وقرأ قتادة : "لِمَنْ كان كَفَر" بفتح الكاف والفاء .

قوله تعالى : ﴿ ولقد تَرَكْناها ﴾ في المشار إليها قولان .

أحدهما : أَنها السفينة ، قال قتادة : أبقاها الله على الجوديّ حتى أدركها أوائل هذه الأمة .

(226/737)

والثاني : أنها الفَعْلة ، فالمعنى : تركنا هذه الفَعْلة وأمر سفينة نوح آية ، أي : علامة لِيُعتبر بها ، ﴿ فهل مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ وأصله مُدتكِر ، فأبدلت التاء دالاً على ما بيَّنّا في قوله : ﴿

وادَّكَرَ بعدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : 45] قال ابن قتيبة : أصله : مذْتَكِر ، فأُدغمت التاء في الذال ، ثم قُلبت دالاً مشدَّدة .

قال المفسرون : والمعنى : هل من متذكِّر يعتبر بذلك ؟ ﴿ فكيف كان عذابي ونُذُرِ ﴾ وفي هذه السورة "ونُذُر" ستة مواضع ، أثبت الياء فيهن في الحالين يعقوب ، تابعه في الوصل ورش ، والباقون بحذفها في الحالين ، وقوله : "فكيف كان عذابي" استفهام عن تلك الحالة ، ومعناه التعظيم لذلك العذاب .

قال ابن قتيبة : والنُّذُر هاهنا جمع نذير ، وهو بمعنى الإنذار ، ومثله النّكير بمعنى الإنكار .

قال المفسرون : وهذا تخويف لمشركي مكة .

﴿ ولقد يسَّرنا القرآنَ ﴾ أي : سهَّلْناه ﴿ للذِّكر ﴾ أي : للحِفظ والقراءة ﴿ فهل من مُدَّكِرٍ ﴾ أي : من ذاكرٍ يذكره ويقرؤه ؛ والمعنى : هو الحث على قراءته وتعلُّمه قال سعيد بن جبير : ليس من كتب الله كتاب يُقرأ كُلُّه ظاهراً إلاّ القرآن .

وأمّا الرِّيح الصَّرصر ، فقد ذكرناها في [حم السجدة : 160] .

قوله تعالى : ﴿ في يومِ نَحْسٍ مُستمرٍّ ﴾ قرأ الحسن : "في يومٍ" بالتنوين ، على أن اليوم منعوت بالنَّحْس .

والمُستمِر : الدائم الشؤم ، استمر عليهم بنُحوسه .

وقال ابن عباس : كانوا يتشاءمون بذلك اليوم .

وقيل : إنه كان يومَ أربعاء في آخر الشهر .

﴿ تَنْزِعُ النّاسَ ﴾ أي : تقلعهُم من الأرض من تحت أقدامهم فتصرعهم على رقابهم فتدُقّ رقابَهم فتُبين الرّأسَ عن الجسد ، ف ﴿ كأنهم أعجاز نَخْلٍ ﴾ وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وابن السميفع : "أعْجُزُ نَخْلٍ" برفع الجيم من غير ألف بعد الجيم .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو مجلز ، وأبو عمران : "كأنَّهم عُجُز نخل" بضم العين والجيم .

(227/737)

ومعنى الكلام : كأنهم أصول "نَخلٍ مُنْقَعِرٍ" أَي : مُنْقَلِع .

وقال الفراء : المُنْقَعِر : المُنْصَرِع من النَّخْل .

قال ابن قتيبة : يقال : قَعَرْتُه فانْقَعَر ، أي قلعته فسقط .

قال أبو عبيدة : والنَّخْل يُذَكَّر ويؤَنَّث ، فهذه الآية على لغة من ذكَّر ، وقوله : ﴿ أعجازُ نَخْلٍ خاويةٍ ﴾ [الحاقة : 8] على لغة من أَنَّث .

وقال مقاتل : شبَّههم حين وقعوا من شِدَّة العذاب بالنَّخْل الساقطة التي لا رؤوس لها ، وإنما شبَّههم بالنَّخْل لطُولهم ، وكان طول كل واحد منهم اثني عشر ذراعاً .

قوله تعالى : ﴿ كذَّبَتْ ثمودُ بالنُّذُر ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه جمع نذير .

وقد بيَّنّا أن من كذَّب نبيّاً واحداً فقد كذَّب الكُلَّ .

والثاني : أن النُّذُر بمعنى الإنذار كما بيَّنّا في قوله : "فكيف كان عذابي ونُذُرِ" ؛ فكأنهم كذَّبوا الإنذار الذي جاءهم به صالح ، ﴿ قالوا أَبَشَراً مِنّا ﴾ قال الزجاج : هو منصوب بفعل مُضْمَر والذي ظهر تفسيره ، المعنى : أنتبع بَشَراً مِنّا ﴿ واحداً ﴾ ، قال المفسرون : قالوا : هو آدميّ مِثْلَنا ، وهو واحد فلا نكون له تَبَعاً ﴿ إنّا إذاً ﴾ إن فعلنا ذلك ﴿ لَفي ضلالٍ ﴾ أي : خطأٍ وذهاب عن الصواب ﴿ وسُعُرٍ ﴾ قال ابن عباس : أي : جنون .

قال ابن قتيبة : هو من : تَسَعَّرتِ النّارُ : إذا التَهبتْ ، يقال : ناقةٌ مَسْعُورةٌ ، أي : كأنها مجنونة من النشاط .

وقال غيره : لَفي شقاءٍ وعَناءٍ لأجل ما يلزمنا من طاعته .

ثم أنْكَروا أن يكون الوحي يأتيه فقالوا : ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ ؟ ﴾ أي : أُنْزِلَ الوحيُ ﴿ عليه مِنْ بيننا ﴾ أي : كيف خُصَّ من بيننا بالنُّبوَّة والوحي ؟ ! ﴿ بل هو كذّابٌ أَشِرٌ ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : أنه المَرِح المتكبِّر ، قاله ابن قتيبة .

والثاني : البَطِر ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ سيَعْلَمونَ غداً ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة : "ستَعلمون" بالتاء "غداً" فيه قولان .

(228/737)

أحدهما : يوم القيامة ، قاله ابن السائب .

والثاني : عند نزول العذاب بهم ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ إنا مُرْسِلوا النّاقةِ ﴾ وذلك أنهم سألوا صالحاً أن يُظْهِر لهم ناقةً من صخرة ، فقال الله تعالى : "إنّا مُرْسِلوا النّاقةِ" أي : مُخرجوها كما أرادوا ﴿ فِتنةً لهم ﴾ أي : مِحنةً واختباراً ﴿ فارتَقِبْهم ﴾ أي : فانتظر ما هم صانعون ﴿ واصْطَبِر ﴾ على ما يُصيبُك من الأذى ، ﴿ ونَبِّئْهم أنَّ الماءَ قسمةٌ بينهم ﴾ أي : بين ثمود وبين الناقة ، يوم لها ويوم لهم ، فذلك قوله : ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُحتضَرٌ ﴾ يحضُرُهُ صاحبُه ويستحقُّه .

قوله تعالى : ﴿ فنادَوا صاحبَهم ﴾ واسمه قُدار بن سالف ﴿ فتعاطى ﴾ قال ابن قتيبة : تعاطى عَقْر الناقة ﴿ فعَقَر ﴾ أي : قتل ؛ وقد بيَّنا هذا في [الأعراف : 77] .

قوله تعالى : ﴿ إنا أرسلنا عليهم صَيْحةً واحدةً ﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام صاح بهم ؛ وقد أشرنا إلى قصتهم في [هود : 61] ﴿ فكانوا كهَشِيم المُحتظِر ﴾ قال ابن

عباس : هو الرجُل يجعل لغنمه حظيرة بالشَّجر والشوك دون السِّباع ، فما سقط من ذلك وداسته الغنمُ ، فهو الهَشيم .

وقد بيَّنا معنى "الهشيم" في [الكهف : 45] .

وقال الزجَّاج : الهَشيم : ما يَبِس من الورق وتكسَّر وتحطَّم ، والمعنى : كانوا كالهَشِيم الذي يجمعه صاحبُ الحظيرة بعد أن بلغ الغاية في الجفاف ، فهو يُجمع ليوقد .

وقرأ الحسن : "المُحتظَرِ" بفتح الظاء ، وهو اسم الحظيرة ؛ والمعنى : كهشيم المكان الذي يُحتظَر فيه الهشيم من الحطب .

وقال سعيد بن جبير : هو التراب الي يتناثر من الحيطان .

وقال قتادة : كالعظام النَّخِرة المحترقة .

والمراد من جميع ذلك : أنهم بادوا وهلكوا حتى صاروا كالشيء المتحطِّم .

(229/737)

قوله تعالى : ﴿ إنا أرسَلْنا عليهم حاصِباً ﴾ قال المفسرون : هي الحجارة التي قُذِفوا بها ﴿ إلاّ آلَ لوطٍ ﴾ يعني لوط وابنتيه ﴿ نجَّيْناهم ﴾ من ذلك العذاب ﴿ بسَحَرٍ ﴾ قال الفراء : "سَحَرٍ" ها هنا يجري لأنه نكرة ، كقوله : نجَّيناهم بِلَيْلٍ ، فإذا ألقت العرب منه الباء

لم يَجر ، لأن لفظهم به بالألف واللام ، يقولون : ما زال عندنا منذُ السَّحَرِ ، لا يكادون يقولون غيره ، فإذا حذفت منه الألف واللام لم يُصْرَف .

وقال الزجاج : إذا كان السَّحر نكرة يراد به سَحَرٌ من الأسحار ، انصرف ، فإذا أردتَ سَحَرَ يومِك ، لم ينصرف .

قوله تعالى : ﴿ كذلك نجزي من شكرَ ﴾ قال مقاتل : من وحدَّ الله تعالى لم يُعَذَّب مع المشركين .

قوله تعالى : ﴿ ولقد راودوه عن ضَيفه ﴾ أي : طلبوا أن يسلِّم إليهم أضيافه ، وهم الملائكة ﴿ فطَمَسْنا أعيُنهَم ﴾ وهو أن جبريل ضرب أعيُنَهم بجَناحه فأذهبها .

وقد ذكرنا القصة في سورة [هود : 81] .

وتم الكلام هاهنا ، ثم قال : ﴿ فذوقوا ﴾ أي : فقُلنا لقوط لوط لما جاءهم العذاب : ذوقوا ﴿ عذابي ونُذُرِ ﴾ أي : ما أنذركم به لوط ، ﴿ ولقد صبَّحهم بُكْرَةً ﴾ أي : أتاهم صباحاً ﴿ عذابٌ مستقِرٌ ﴾ أي : نازل بهم .

قال مقاتل : استقرَّ بهم العذابُ بُكْرَةً .

قال الفرّاء : والعرب تُجري "غُدوة" و"بُكرة" ولا تُجريهما ، وأكثر الكلام في "غُدوة" ترك الإجراء ، وأكثر في "بكرة" أن تُجرى ، فمن لم يُجرها جعلها معرفة ، لأنها اسم يكون أبداً في وقتٍ واحد بمنزلة "أمسِ" و"غدٍ" وأكثر ما تُجري العربُ "غُدوةً" إذا قُرنت بعشيَّةٍ ،

يقولون : إني لآتيهم غُدوةً وعشيَّةً ، [وبعضهم يقول : "غُدوة" ، فلا يُجريها ، و"عشيةً"] فيُجريها ، ومنهم من لا يُجري "عشيَّة" لكثرة ما صحبت "غُدوةً" .

(230/737)

وقال الزجاج : الغُدوة والبُكرة إذا كانتا نكِرتين نُوِّنتا وصُرِفتا ، فإذا أردتَ بهما بُكرة يومك وغداة يومك ، لم تصرفهما ، والبُكرة ها هنا نكِرة ، فالصرف أجود ، لأنه لم يثبُت رواية في أنه كان في يوم كذا في شهر كذا .

قوله تعالى : ﴿ ولقد جاء آل فرعونَ ﴾ يعني القِبْطَ ﴿ النُّذُرُ ﴾ فيهم قولان .

أحدهما : [أنه] جمع نذير ، وهي الآيات التي أنذرهم بها موسى .

والثاني : أن النُّذُر بمعنى الإنذار ؛ وقد بيَّناه آنفاً ، ﴿ فأخذناهم ﴾ بالعذاب ﴿ أخْذَ عَزيزٍ ﴾ أي : غالبٍ في انتقامه ﴿ مُقْتَدِرٍ ﴾ قادر على هلاكهم .

ثم خوَّف أهل مكة فقال : ﴿ أكُفّاركم ﴾ يا معشر العرب ﴿ خيرٌ ﴾ أي : أشدُّ وأقوى ﴿ مِنْ أولئكم ؟ ! ﴾ وهذا استفهام معناه الإنكار ؛ والمعنى : ليسوا بأقوى من قوم نوح وعاد وثمود ، وقد أهلَكْناهم ﴿ أمْ لكم براءةٌ ﴾ من العذاب أنه لا يصيبكم ما أصابهم ﴿ في الزُّبر ﴾ أي : في الكُتُب المتقدِّمة ، ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾ المعنى :

أيقولون : نحن يدٌ واحدةٌ على مَنْ خالفنا فننتصر منهم ؟ وإنما وحَّد المُنْتَصِر للفظ الجميع ، فإنه على لفظ "واحد" وإن كان اسماً للجماعة ﴿ سيُهْزَمُ الجمع ﴾ وروى أبو حاتم بن يعقوب : "سنهزم" بالنون ، "الجمعَ" بالنصب ، "وتوّلون" بالتاء ، ويعني بالجمع : جمع كفار مكة ﴿ ويوّلون الدُّبرَ ﴾ ولم يقل : الأدبار ، وكلاهما جائز ؛ قال الفراء : مِثْلُه أن يقول : إن فلانا لكثير الدِّينار والدِّرهم .

وهذا مما أخبر اللهُ به نبيَّه من عِلم الغَيب ، فكانت الهزيمة يومَ بدر .

قوله تعالى : ﴿ والسّاعةُ أدهى ﴾ قال مقاتل : هي أفظع ﴿ وأمَرُّ ﴾ من القتل .

قال الزجاج : ومعنى الدّاهية : الأمر الشديد الذي لا يُهتدى لدوائه ؛ ومعنى "أمَرُّ" : أشَدُّ مرارةً من القَتْل والأسْر .

قوله تعالى : ﴿ إنَّ المجرمينَ في ضلالٍ وسُعُرٍ ﴾ في سبب نزولها قولان .

(231/737)

أحدهما : أن مشركي مكة جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخاصِمونَ في القدَرَ ، فنزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ خَلَقْناه بقَدَرٍ ﴾ انفرد بإخراجه مسلم من حديث أبي هريرة وروى أبو أُمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن هذه الآية نزلت في

القَدَرِيَّة" .

والثاني : "أن أُسْقُف نَجران جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم الله عليه وسلم فقال : يا محمد تزعُم أن المعاصي بقَدر ، وليس كذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنتم خُصَماءُ الله" " ، فنزلت : ﴿ إن المجرمين ﴾ إلى قوله ﴿ بقَدرٍ ﴾ ، قاله عطاء .

قوله تعالى : ﴿ وسُعُرٍ ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : الجنون .

والثاني : العَناء ، وقد ذكرناهما في صدر السورة .

والثالث : أنه نار تَسْتَعِرُ عليهم ، قاله الضحاك .

فأمّا ﴿ سَقَر ﴾ فقال الزجّاج : هي اسم من أسماء جهنَّم لا ينصرف لأنها معرفة ، وهي مؤنَّثة .

وقرأت على شيخنا أبي منصور قال : سَقَر : اسم لنار الأخرة أعجميّ ، ويقال : بل هو عربيّ ، من قولهم : سَقَرَتْه الشمس : إذا أذابته ، سمّيتْ بذلك لأنها تُذيب الأجسام .

وروى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا جَمَع اللهُ الخلائق يوم القيامة أمر منادياً فنادى نداءً يسمعُه الأوّلون والآخرون : أين خُصَماءُ الله ؟ فتقوم القَدريَّة ، فيؤمر بهم إلى النار " ، يقول الله تعالى : ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَر إنّا كُلَّ شيء خلقناه بقَدرٍ ﴾ ، وإنما قيل لهم : "خُصَماء الله" لأنهم يُخاصمون في أنه لا يجوز أن

يُقَدِّر المعصية على العَبْد ثم يعذِّبه عليها .

وروى هشام بن حسان عن الحسن قال : والله لو أنّ قدريّاً صام حتى يصير كالحَبْل ، ثم صلَّى حتى يصير كالوتر ، ثم أخذ ظلماً وزُوراً حتى ذُبح بين الرُّكْن والمقام لكبَّه الله على وجهه في سَقَر "إنّا كُلَّ شيءٍ خلقناه بقدرٍ" .

(232/737)

وروى مسلم في أفراده من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كُلُّ شيء بقدرٍ حتى العَجْزُ والكَيْسُ " وقال ابن عباس : كل شيء بقدرٍ حتى وضعُ يدك على خدِّك .

وقال الزجّاج : معنى "بقَدَرٍ" أي : كل شيء خلقناه بقدرٍ مكتوبٍ في اللوح المحفوظ .

قبل وقوعه ، ونصب "كُلَّ شيءٍ" بفعل مضمر ؛ المعنى : إنّا خلقنا كلَّ شيء خلقناه بقَدرٍ .

قوله تعالى : ﴿ وما أمْرُنا إلاّ واحدةٌ ﴾ قال الفراء : أي : إلاّ مرَّة واحدة ، وكذلك قال مقاتل : مرَّة واحدة لا مثنوّية لها .

وروى عطاء عن ابن عباس قال يريد : إن قضائي في خلقي أسرع من لمح البصر .

وقال ابن السائب : المعنى : وما أمرنا بمجيء الساعة في السُّرعة إلاّ كلَمْح البصر .

ومعنى اللَّمْح بالبصر : النَّظر بسرعة .

﴿ ولقد أهلكْنا أشياعَكم ﴾ أي : أشباهكم ونُظَراءكم في الكُفر من الأمم الماضية ﴿ فهل من مُدَّكر ﴾ أي مُتَّعظ ﴿ وكل شيء فعلوه ﴾ يعني الأمم .

وفي ﴿ الزُّبر ﴾ قولان .

أحدهما : أنه كُتُب الحَفَظة .

والثاني : اللَّوح المحفوظ .

﴿ وكُلُّ صغيرٍ وكبيرٍ ﴾ أي : من الأعمال المتقدّمة ﴿ مُسْتَطَرٌ ﴾ أي : مكتوب ، قال ابن قتيبة : هو "مُفْتَعَلٍ" من "سَطَرْتُ" : إذا كتبت ، وهو مثل "مَسْطُور" .

قوله تعالى : ﴿ في جَنّاتٍ ونَهَرٍ ﴾ قال الزجّاج : المعنى : في جنّات وأنهار ، والاسم الواحد يَدلُّ على الجميع ، فيجتزأ به من الجميع .

أنشد سيبويه والخليل :

بها جِيَفُ الْحَسْرَى ، فأَمّا عِظامُها . . .

فَبِيضٌ وأَمّا جِلْدُها فَصَلِيبُ

يريد : وأمّا جلودها ، ومثله :

في حَلْقِكُم عَظْمٌ وقد شجينا . . .

ومثله :

كُلُوا فِي نِصْفِ بَطْنِكُمُ تَعِيشُوا . . .

وحكى ابن قتيبة عن الفراء أنه وُحِّد لأنه رأسُ آية ، فقابل بالتوحيد رؤوس الآي ، قال : ويقال : النَّهَر : الضِّياء والسَّعة ، من قولك : أَنْهَرْتُ الطعنة : إذا وسَّعْتَها ، قال قيس بن الخَطِيم يصف طعنة :

(233/737)

مَلَكْتُ بها كَفِّي فأَنْهَرْتُ فَتْقَهَا . . .

يَرَى قائمٌ مِنْ دُونِها ما وراءَها

أي : أوسعتُ فَتْقَها .

قلت : وهذا قول الضحاك .

وقرأ الأعمش "ونُهُرٍ" .

قوله تعالى : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ أي : مَجلِس حسن ؛ وقد نبَّهْنا على هذا المعنى في قوله : ﴿ أَنَّ لهم قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ [يونس : 2] فأمّا المَلِيك ، فقال الخطابي : المَلِيك : هو المالك ، وبناء فَعِيل للمُبالغة في الوصف ، ويكون المَلِيك بمعنى المَلِك ، ومنه هذه الآية .

والمُقْتَدِر مشروح في [الكهف : 45] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 87 .
104 ﴾

(234/737)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ اقتربت الساعة ﴾

أي دنت القيامة ﴿ وانشق القمر ﴾ قيل : فيه تقديم وتأخير تقديره انشق القمر واقتربت الساعة وانشقاق القمر من آيات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الظاهرة ومعجزاته يدل عليه ما روي عن أنس : " أن أهل مكة سألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين " .

أخرجه البخاري ومسلم .

وزاد الترمذي فنزلت ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ إلى قوله ﴿ سحر مستمر ﴾

ولهما عن ابن مسعود .

قال : " انشق القمر على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) شقتين فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اشهدوا " وفي رواية أخرى قال : " بينما نحن مع رسول الله (صلى

الله عليه وسلم) بمنى إذ انفلق القمر فلقتين ، فلقة فوق الجبل ، وفلقة دونه .

فقال لنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : اشهدوا " ولهما عن ابن عباس قال : " إن القمر انشق في زمن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " (م) عن ابن عمر قال : " انشق القمر على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلقتين فستر الجبل فلقة وكانت فلقة فوق الجبل فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : اشهدوا " وعن جبير بن مطعم قال : " انشق القمر على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فصار فرقتين فقالت قريش سحر محمد أعيننا ، فقال بعضهم لئن كان سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم " أخرجه الترمذي وزاد غيره فكانوا يتلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم قد رأوه فيكذبونهم .

قال مقاتل : انشق القمر ثم التأم بعد ذلك .

وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت قريش : سحركم ابن أبي كبشة فسألوا السفارة فقالوا : نعم .

قد رأيناه فأنزل الله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ .

فهذه الأحاديث الصحيحة قد وردت بهذه المعجزة العظيمة ، مع شهادة القرآن المجيد بذلك فإنه أدل دليل وأقوى مثبت له وإمكانه لا يشك فيه مؤمن وقد أخبر عنه الصادق فيجب الإيمان به واعتقاد وقوعه .

وقال الشيخ محيي الدين النووي في شرح صحيح مسلم ، قال الزجاج : وقد أنكرها بعض المبتدعة المضاهين المخالفي الملة وذلك لما أعمى الله قلبه ولا إنكار للعقل فيها لأن القمر مخلوق لله تعالى يفعل فيه ما يشاء كما يفنيه ويكوره في آخر أمره .

فأما قول بعض الملاحدة لو وقع هذا النقل متواتراً واشترك أهل الأرض كلهم في رؤيتهم له ومعرفته ولم يختص بها أهل مكة فأجاب العلماء عن هذا بأن هذا الانشقاق حصل في الليل ومعظم الناس نيام غافلون والأبواب مغلقة وهم مغطون بثيابهم فقل من يتفكر في السماء أو ينظر إليها إلا الشاذ النادر .

﴿ ولقد جاءهم ﴾ يعني أهل مكة ﴿ من الأنباء ﴾ أي من أخبار الأمم الماضية المكذبة في القرآن ﴿ ما فيه مزدجر ﴾ أي منتهى وموعظة ﴿ حكمة بالغة ﴾ يعني القرآن حكمة تامة قد بلغت الغاية ﴿ فما تغني النذر ﴾ يعني أي غنى تغني النذر إذا خالفوهم وكذبوهم ﴿ فتول عنهم ﴾ أي أعرض عنهم نسختها آية القتال ﴿ يوم يدع الداع ﴾ أي اذكر يا محمد يوم يدع الداعي وهو إسرافيل ينفخ في الصور قائماً على صخرة بيت المقدس ﴿ إلى شيء نكر ﴾ أي منكر فظيع لم يروا مثله ، فينكرونه استعظاماً له ﴿ خشعاً ﴾ وقرىء

خاشعاً ﴿ أبصارهم ﴾ أي ذليلة خاضعة عند رؤية العذاب ﴿ يخرجون من الأجداث ﴾ يعني من القبور ﴿ كأنهم جراد منتشر ﴾ مثل في كثرتهم وتموج بعضهم في بعض حيارى فزعين .

﴿ مهطعين ﴾ مسرعين مادي أعناقهم مقبلين ﴿ إلى الداع ﴾ يعني إلى صوت الداعي وهو إسرافيل وقيل ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم ﴿ يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ أي صعب شديد وفيه إشارة إلى أن ذلك اليوم يوم شديد على الكافرين لا على المؤمنين .

(236/737)

قوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم ﴾ أي قبل أهل مكة ﴿ قوم نوح فكذبوا عبدنا ﴾ يعني نوحاً ﴿ وقالوا مجنون وازدجر ﴾ أي زجروه على دعوته ومقالته بالشم والوعيد بقولهم ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ ﴿ فدعا ﴾ يعني نوحاً ﴿ ربه ﴾ وقال ﴿ إني مغلوب ﴾ أي مقهور ﴿ فانتصر ﴾ أي فانتقم لي منهم ﴿ ففتحنا أبواب السماء ﴾ قيل هو على ظاهره وللسماء أبواب تفتح وتغلق ولا يستبعد ذلك لأنه قد صح في الحديث أن للسماء أبواباً .

وقيل : هو على الاستعارة ، فإن الظاهر أن يكون المطر من السحاب ﴿ بماء منهمر ﴾ أي

منصب انصباباً شديداً لم ينقطع أربعين يوماً ﴿ وفجرنا الأرض عيوناً ﴾ أي وجعلنا الأرض كلها عيوناً تسيل بالماء ﴿ فالتقى الماء ﴾ يعني ماء السماء وماء الأرض ﴿ على أمر قد قدر ﴾ أي قضى عليهم في أم الكتاب .

وقيل قدر الله أن يكون الماءان سواء فكانا على ما قدر ﴿ وحملناه ﴾ يعني نوحاً ﴿ على ذات ألواح ﴾ يعني سفينة ذات ألواح .

وأراد بالألواح ، خشب السفينة العريضة .

﴿ ودسر ﴾ هي المسامير التي تشد بها الألواح وقيل الدسر صدر السفينة .

وقيل : هي عوارض السفينة وأضلاعها .

وقيل : الألواح : جانبا السفينة ، والدسر : أصلها وطرفاها .

﴿ تجري ﴾ يعني السفينة ﴿ بأعيننا ﴾ يعني بمرأى منا .

وقيل : بحفظنا .

وقيل : بأمرنا ﴿ جزاء لمن كان كفر ﴾ يعني فعلنا ذلك به وبهم من إنجاء نوح وإغراق قومه ثواباً لنوح لأنه كان كفر به وجحد أمره .

وقيل لمن بمعنى لما أي جزاء لما كان كفر من أيادي الله ونعمه عند الذين أغرقهم .

وقيل : جزاء لما صنع بنوح وأصحابه .

﴿ ولقد تركناها آية ﴾ يعني الفعلة التي فعلنا بهم آية يعتبر بها .

وقيل : أراد السفينة .

(237/737)

قال قتادة : أبقاها الله تعالى بأرض الجزيرة عبرة حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة ﴿ فهل من مدكر ﴾ يعني متذكر معتبر متعظ خائف مثل عقوبتهم (ق) عن ابن مسعود قال " قرأت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مذكر فردها عليّ " وفي رواية أخرى " سمعته يقرؤها فهل من مدكر دالاً " ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ يعني إنذاري ﴿ ولقد يسرنا القرآن ﴾ يعني سهلنا القرآن ﴿ للذكر ﴾ يعني ليتذكر ويعتبر به قال سعيد بن جبير يسرناه للحفظ والقراءة وليس شيء من كتب الله تعالى يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن ﴿ فهل من مدكر ﴾ يعني متعظ بمواعظه وفيه الحث على تعليم القرآن والاشتغال به لأنه قد يسره الله وسهله على من يشاء من عباده بحيث يسهل حفظه للصغير والكبير والعربي والعجمي وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ﴾ أي إنذاري لهم بالعذاب ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ أي شديدة الهبوب ﴿ في يوم نحس ﴾ أي يوم شؤم ﴿ مستمر ﴾ أي دائم الشؤم استمر على جميعهم بنحو سنة فلم يبق منهم أحد إلا هلك فيه .

وقيل : كان ذلك اليوم يوم الأربعاء في آخر الشهر ﴿ تنزع الناس ﴾ أي الريح تقلعهم ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتدق رقابهم .

قيل : كانت تنزعهم من حفرهم ﴿ كأنهم أعجاز نخل ﴾ قال ابن عباس : أصول نخل ﴿ منقعر ﴾ أي منقطع من مكانه ساقط على الأرض .

قيل : كانت الريح تبين رؤوسهم من أجسامهم فتبقي أجسامهم بلا رؤوس كعجز النخلة الملقاة ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت ثمود بالنذر ﴾ أي بالإنذار الذي جاء به صالح ﴿ فقالوا أبشراً منا واحداً ﴾ يعني آدمياً واحداً منا ﴿ نتبعه ﴾ أي ونحن جماعة كثيرون ﴿ إنا إذاً لفي ضلال ﴾ أي خطأ وذهاب عن الصواب ﴿ وسعر ﴾ قال ابن عباس : عذاب .

وقيل : شدة عذاب وقيل إنا لفي عناء وعذاب مما يلزمنا من طاعته .

وقيل : لفي جنون .

وقيل : لفي بعد عن الحق .

﴿ أألقي الذكر عليه ﴾ يعني أأنزل الوحي عليه ﴿ من بيننا بل هو كذاب أشر ﴾ أي بطر متكبر يريد أن يتعظم علينا بادعائه النبوة ﴿ سيعلمون غداً ﴾ أي حين ينزل بهم العذاب .

وقيل : يعني يوم القيامة وإنما ذكر الغد للتقريب ﴿ من الكذاب الأشر ﴾ أي صالح أم من كذبه ﴿ إنا مرسلوا الناقة ﴾ أي باعثوها ومخرجوها من الهضبة التي سألوا ، وذلك أنهم تعنتوا على صالح فسألوه أن يخرج لهم من صخرة حمراء ناقة عشراء فقال الله تعالى إنا مرسلو الناقة ﴿ فتنة ﴾ أي محنة واختباراً ﴿ لهم فارتقبهم ﴾ أي فانتظر ما هم صانعون ﴿ واصطبر ﴾ أي على أذاهم ﴿ ونبئهم ﴾ أي أخبرهم ﴿ أن الماء قسمة بينهم ﴾ أي بين الناقة وبينهم لها يوم ولهم يوم وإنما قال تعالى بينهم تغليباً للعقلاء ﴿ كل شرب ﴾ أي نصيب من الماء ﴿ محتضر ﴾ أي يحضره من كانت نوبته فإذا كان يوم الناقة حضرت شربها وإذا كان يومهم حضروا شربهم .

وقيل : يعني يحضرون الماء إذا غابت الناقة فإذا جاءت حضروا اللبن ﴿ فنادوا صاحبهم ﴾ يعني قدار بن سالف ﴿ فتعاطى ﴾ أي فتناول الناقة بسيفه ﴿ فعقر ﴾ يعني الناقة ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ ثم بين عذابهم فقال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة ﴾ يعني صيحة جبريل ﴿ فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ قال ابن عباس : هو الرجل يحظر لغنمه حظيرة من الشجر والشوك دون السباع فما سقط من ذلك فداسته الغنم فهو

الهشيم .

وقيل : هو الشجر البالي الذي يهشم حين تذروه الرياح .

والمعنى : أنهم صاروا كيبيس الشجر إذا بلي وتحطم وقيل كالعظام النخرة المحترقة وقيل هو التراب يتناثر من الحائط .

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر إنا أرسلنا عليهم حاصباً ﴾ يعني الحصباء وهي الحجارة التي دون ملء الكف وقد يكون الحاصب الرامي ، فعلى هذا ، يكون المعنى إنا أرسلنا عليهم عذاباً يحصبهم أي يرميهم بالحجارة ثم استثنى .

(239/737)

فقال تعالى : ﴿ إلا آل لوط ﴾ يعني لوطاً وابنتيه ﴿ نجيناهم ﴾ يعني من العذاب ﴿ بسحر نعمة من عندنا ﴾ أي جعلناه نعمة منا عليهم حيث نجيناهم ﴿ كذلك نجزي ﴾ أي كما أنعمنا على آل لوط كذلك نجزي ﴿ من شكر ﴾ يعني أن من وحد الله لم يعذبه مع المشركين ﴿ ولقد أنذرهم ﴾ أي لوط ﴿ بطشتنا ﴾ يعني أخذنا إياهم بالعقوبة ﴿ فتماروا بالنذر ﴾ أي شكوا بالإنذار ولم يصدقوا وكذبوا ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه ﴾

أي طلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه ﴿ فطمسنا أعينهم ﴾ وذلك أنهم لما قصدوا دار لوط عالجوا الباب ليدخلوا عليهم فقالت الرسل للوط خل بينهم وبين الدخول فإنا رسل ربك لن يصلوا إليك فدخلوا الدار فصفقهم جبريل بجناحه فتركهم عمياً بإذن الله يترددون متحيرين لا يهتدون إلى الباب وأخرجهم لوط عمياً لا يبصرون .

ومعنى : فطمسنا أعينهم ، يعني صيرناها كسائر الوجه لا يرى لها شق .

وقيل : طمس الله أبصارهم فلم يروا الرسل فقالوا لقد رأيناهم حين دخلوا فأين ذهبوا ؟ فلم يروهم ﴿ فذوقوا عذابي ونذر ﴾ يعني ما أنذركم به لوط من العذاب ﴿ ولقد صبحهم بكرة ﴾ أي جاءهم وقت الصبح ﴿ عذاب مستقر ﴾ يعني دائم استقر فيهم حتى أفضى بهم إلى عذاب الآخرة ﴿ فذوقوا عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾

قوله : ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ﴾ يعني موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام .

وقيل : النذر ، الآيات التي أنذرهم بها موسى ﴿ كذبوا بآياتنا كلها ﴾ يعني الآيات التسع ﴿ فأخذناهم ﴾ يعني بالعذاب ﴿ أخذ عزيز مقتدر ﴾ يعني غالب في انتقامه قادر على إهلاكهم لا يعجزه عما أراد ثم خوف كفار مكة .

﴿ أكفاركم خير من أولئكم ﴾ يعني أقوى وأشد من الذين أحللت بهم نقمتي مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون وهذا استفهام إنكار ، أي ، ليسوا بأقوى منهم ﴿ أم لكم براءة ﴾ يعني من العذاب ﴿ في الزبر ﴾ أي في الكتب أنه لن يصيبكم ما أصاب الأمم الخالية ﴿ أم يقولون ﴾ يعني كفار مكة ﴿ نحن جميع ﴾ يعني أمرنا ﴿ منتصر ﴾ يعني من أعدائنا والمعنى : نحن يد واحدة على من خالفنا منصرون ممن عادانا .

ولم يقل منصرون لموافقة رؤوس الآي .

وقيل : معناه نحن كل واحد منا منتصر كما يقال : كلهم عالم ، يعني : كل واحد منهم عالم .

قال الله تعالى : ﴿ سيهزم الجمع ﴾ يعني كفار مكة ﴿ ويولون الدبر ﴾ يعني الأدبار فوحد لأجل رؤوس الآي .

وقيل في الإفراد ، إشارة إلى أنهم في التولية والهزيمة كنفس واحدة ، فلا يتخلف أحد عن الهزيمة ولا يثبت أحد للزحف فَهُمْ في ذلك كرجل واحد (خ) .

عن ابن عباس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو في قبة يوم بدر " اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد هذا اليوم أبداً فأخذ ابو بكر بيده فقال : حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك فخرج وهو في الدرع وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر " ﴿ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾ فصدق الله وعده

وهزمهم يوم بدر .

وقال سعيد بن المسيب : سمعت عمر بن الخطاب يقول : لما نزلت سيهزم الجمع ويولون الدبر : كنت لا أدري أي جمع يهزم ، فلما كان يوم بدر ، رأيت النبي (صلى الله عليه وسلم) يثب في درعه ويقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر فعلمت تأويلها ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾ يعني جميعاً والساعة أدهى وأمر ، أي أعظم داهية وأشد مرارة من الأسر والقتل يوم بدر .

قوله : ﴿ إن المجرمين ﴾ يعني المشركين ﴿ في ضلال وسعر ﴾ قيل في بعد عن الحق وسعر أي نار تسعر عليهم .

وقيل : في ضلال في الدنيا ونار مسعرة في الآخرة .

(241/737)

وقيل : في ضلال ، أي عن طريق الجنة وسعر أي عذاب الآخرة ثم بين عذابهم فقال تعالى : ﴿ يوم يسحبون ﴾ أي يجرون ﴿ في النار على وجوههم ﴾ ويقال لهم ﴿ ذوقوا مس سقر ﴾ أي ذوقوا أيها المكذبون لمحمد (صلى الله عليه وسلم) مس سقر .

﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ أي مقدور ومكتوب في اللوح المحفوظ .

وقيل : معناه قدر الله لكل شيء من خلقه قدره الذي ينبغي له .

وقال ابن عباس : كل شيء بقدر حتى وضعك يدك على خدك .

(فصل في سبب نزول الآية وما ورد في القدر وما قيل فيه)

(م) " عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : كتب الله مقادير الخلائق كلها قبل أن يخلق السموات والأرض وخمسين ألف سنة " قال وعرشه على الماء (م) .

عن أبي هريرة قال : " جاء مشركو قريش إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) يخاصمونه في القدر فنزلت هذه الآية ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾ إلى قوله ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ (م) عن طاوس قال : أدركت ناساً من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقولون : كل شيء بقدر الله تعالى قال : وسمعت عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز " .

عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعثني بالحق ، ويؤمن بالموت ، وبالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر " أخرجه الترمذي .

وله عن جابر قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه " وقال : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن ميمون وهو منكر الحديث .

وفي حديث جبريل المتفق عليه : وتؤمن بالقدر خيره وشره .

قال : صدقت ففيه ذم القدرية .

(242/737)

عن حذيفة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " لكل أمة مجوس ومجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر من مات منهم فلا تشهدوا جنازته ومن مرض منهم فلا تعودوه وهم من شيعة الدجال وحق على الله أن يلحقهم بالدجال " .

أخرجه أبو داود وله عن أبي هريرة مثله " وزاد فلا تجالسوهم ولا تفاتحوهم في الكلام " .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب : المرجئة والقدرية " أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب .

وروى ابن الجوزي في تفسيره عن عمر بن الخطاب عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة أمر منادياً فينادي نداء يسمعه الأولون والآخرون أي خصماء الله فتقوم القدرية فيأمر بهم إلى النار يقول الله ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر " .

قال ابن الجوزي : وإنما قيل : خصماء الله ، لأنهم يخاصمون في أنه لا يجوز أن يقدر المعصية على العبد ثم يعذبه عليها .

وروي عن الحسن قال : والله لو أن قدرياً صام حتى يصير كالحبل ، وصلّى حتى يصير كالوتر ، ثم أخذ ظلماً حتى يذبح بين الركن والمقام لكبه الله على وجهه في سقر ثم قيل له ذق مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر .

قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله اعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر ومعناه أن الله تعالى قدر الأشياء في القدم وعلم سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسن ما قدرها الله تعالى وأنكرت القدرية هذا وزعمت أنه سبحانه وتعالى لم يقدرها ولم يتقدم علمه بها وإنها مستأنفة العلم أي إنما يعلمها سبحانه وتعالى بعد وقوعها وكذبوا على الله سبحانه وتعالى عن أقوالهم الباطلة علواً كبيراً .

وسميت هذه الفرقة قدرية ، لإنكارهم القدر .

(243/737)

قال أصحاب المقالات من المتكلمين : وقد انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه .

وصارت القدرية في الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر ولكن تقول الخير من الله والشر من غيره تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

وحكى أبو محمد بن قتيبة في كتابه غريب الحديث ، وأبو المعالي إمام الحرمين في كتابه الإرشاد في أصول الدين ، أن بعض القدرية قالوا : لسنا بقدرية بل أنتم القدرية لاعتقادكم إثبات القدر .

قال ابن قتيبة وإمام الحرمين : هذا تمويه من هؤلاء الجهلة ومباهته وتواقح ، فإن أهل الحق يفرضون أمورهم إلى الله تعالى .

ويضيفون القدر والأفعال إلى الله تعالى وهؤلاء الجهلة يضيفونه إلى أنفسهم ومدعي الشيء لنفسه ومضيفه إليها أولى بأن ينسب إليه ممن يعتقده لغيره وينفيه عن نفسه .

قال إمام الحرمين : وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " القدرية مجوس هذه الأمة " شبههم بهم لتقسيمهم الخير والشر في حكم الإرادة كما قسمت المجوس فصرفت الخير إلى يزدان والشر إلى أهرمن .

ولا خفاء باختصاص هذا الحديث بالقدرية .

وحديث : القدرية مجوس هذه الأمة ، رواه أبو حازم عن ابن عمر عن رسول الله (صلى

الله عليه وسلم) وأخرجه أبو داود في سننه والحاكم أبو عبد الله في المستدرك على الصحيحين .

وقال : صحيح على شرط الشيخين إن صح سماع أبي حازم عن ابن عمر وقال الخطابي : إنما جعلهم (صلى الله عليه وسلم) مجوساً لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس لقولهم بالأصلين : النور والظلمة يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة فصاروا ثنوية وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره والله سبحانه وتعالى خالق كل شيء الخير والشر جميعاً لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته فهما مضافان إليه سبحانه وتعالى خلقاً وإيجاداً وإلى الفاعلين لهما من عباده فعلاً واكتساباً .

(244/737)

﴿ وكل شيء فعلوه ﴾ يعني الأشياع من خير وشر ﴿ في الزبر ﴾ أي في كتب الحفظة وقيل في اللوح المحفوظ ﴿ وكل صغير وكبير ﴾ أي من الخلق وأعمالهم وآجالهم ﴿ مستطر ﴾ أي مكتوب .

قوله : ﴿ إن المتقين في جنات ﴾ أي بساتين ﴿ ونهر ﴾ أي أنهار وإنما وحَّده لموافقة رؤوس الآي وأراد أنها الجنة من الماء والخمر واللبن والعسل .

وقيل : معناه في ضياء وسعة ومنه النهار والمعنى لا ليل عندهم ﴿ في مقعد صدق ﴾ أي في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم وقيل في مجلس حسن وقيل في مقعد لا كذب فيه لأن الله صادق فمن وصل إليه امتنع عليه الكذب فهو في مقعد صدق ﴿ عند مليك ﴾ قيل معناه قرب المنزلة والتشريف لا معنى المكان ﴿ مقتدر ﴾ أي قادر لا يعجزه شيء وقيل مقربين عند مليك أمره في الملك والاقتدار أعظم شيء ، فلا شيء إلا وهو تحت ملكه وقدرته فأي منزلة أكرم من تلك المنزلة وأجمع للغبطة كلها والسعادة بأسرها .

قال جعفر الصادق : وصف الله تعالى المكان بالصدق ، فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق ، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 272 .

281 ﴾

(245/737)

وقال النسفى :

﴿ اقتربت الساعة ﴾

قربت القيامة ﴿ وانشق القمر ﴾ نصفين .

وقرىء ﴿ وَقَدْ انشق ﴾ أي اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد

انشق كما تقول : أقبل الأمير وقد جاء المبشر بقدومه .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : رأيت حراء بين فلقتي القمر .

وقيل : معناه ينشق يوم القيامة .

والجمهور على الأول وهو المروي في الصحيحين .

ولا يقال لو انشق لما خفي على أهل الأقطار ولو ظهر عندهم لنقلوه متواتراً لأن الطباع جبلت على نشر العجائب لأنه يجوز أن يحجبه الله عنهم بغيم ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ﴾ يعني أهل مكة ﴿ ءايَةً ﴾ تدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يُعْرِضُواْ ﴾ عن الإيمان به ﴿ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ محكم قوي من المرة القوة أو دائم مطرد أو مار ذاهب يزول ولا يبقى ﴿ وَكَذَّبُواْ ﴾ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ واتبعوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ وما زين لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ ﴾ وعدهم الله ﴿ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ كائن في وقته .

وقيل : كل ما قدر واقع .

وقيل : كل أمر من أمرهم واقع مستقر أي سيثبت ويستقر عند ظهور العقاب والثواب ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُمْ ﴾ أهل مكة ﴿ مّنَ الأنباء ﴾ من القرآن المودع أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة وما وصف من عذاب الكفار ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ ازدجار عن الكفر .

تقول : زجرته وازدجرته أي منعته وأصله ازتجر ولكن التاء إذا وقعت بعد زاي ساكنة

أبدلت دالاً لأن التاء حرف مهموس والزاي حرف مجهور ، فأبدل من التاء حرف مجهور وهو الدال ليتناسبا وهذا في آخر كتاب سيبويه ﴿ حِكْمَةٌ ﴾ بدل من "ما" أو على "هو حكمة" ﴿ بالغة ﴾ نهاية الصواب أو بالغة من الله إليهم ﴿ فَمَا تُغْنِى النذر ﴾ "ما" نفي و ﴿ النذر ﴾ جمع نذير وهم الرسل أو المنذر به أو النذر مصدر بمعنى الإنذار .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ لعلمك أن الإنذار لا يغني فيهم .

(246/737)

نصب ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الداع ﴾ ب ﴿ يُخْرِجُونَ ﴾ أو بإضمار اذكر .

﴿ الداعى ﴾ ، ﴿ إلى الداعى ﴾ سهل ويعقوب ومكي فيهما ، وافق مدني وأبو عمرو في الوصل ، ومن أسقط الياء اكتفى بالكسرة عنها .

وحذف الواو من ﴿ يَدْعُو ﴾ في الكتابة لمتابعة اللفظ ، والداعي إسرافيل عليه السلام ﴿ إلى شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾ منكر فظيع تنكره النفوس لأنها لم تعهد بمثلة وهو هول يوم القيامة ﴿ نُّكُرٍ ﴾ بالتخفيف : مكي ﴿ خُشَّعاً أبصارهم ﴾ ﴿ خاشعا ﴾ عراقي غير عاصم وهو حال من الخارجين وهو فعل للأبصار ، وذكر كما تقول يخشع أبصارهم غيرهم خشعاً على يخشعن أبصارهم وهي لغة من يقول "أكلوني البراغيث" .

ويجوز أن يكون في ﴿ خُشَّعاً ﴾ ضميرهم وتقع ﴿ أبصارهم ﴾ بدلاً عنه ، وخشوع الأبصار كناية عن الذلة لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث ﴾ من القبور ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ في كثرتهم وتفرقهم في كل جهة .

والجراد مثل في الكثرة والتموج يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض جاءوا كالجراد ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع ﴾ مسرعين مادي أعناقهم إليه ﴿ يَقُولُ الكافرون هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ صعب شديد .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ قبل أهل مكة ﴿ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ﴾ نوحاً عليه السلام .

(247/737)

ومعنى تكرار التكذيب أنهم كذبوه تكذيباً على عقب تكذيب كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب ، أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا أي لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوة رأساً كذبوا نوحاً لأنه من جملة الرسل ﴿ وَقَالُواْ مَجْنُونٌ ﴾ أي هو مجنون ﴿ وازدجر ﴾ زجر عن أداء الرسالة بالشتم وهدد بالشتم وهدد بالقتل ، أو هو من جملة قيلهم أي قالوا هو مجنون وقد ازدجرته الجن وتخبطته وذهبت بلبه ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى ﴾ أي بأني ﴿ مَغْلُوبٌ ﴾ غلبني قومي فلم يسمعوا مني واستحكم اليأس من إجابتهم

لي ﴿ فانتصر ﴾ فانتقم لي منهم بعذاب تبعثه عليهم ﴿ فَفَتَحْنَا أبواب السماء ﴾ ﴿ فَفَتَحْنَا ﴾ شامي ويزيد وسهل ويعقوب ﴿ بِمَاء مُّنْهَمِرٍ ﴾ منصب في كثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يوماً ﴿ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً ﴾ وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر وهو أبلغ من قولك "وفجرنا عيون الأرض" ﴿ فَالْتَقَى الماء ﴾ أي مياه السماء والأرض وقرىء ﴿ الماءان ﴾ أي النوعان من الماء السماوي والأرضي ﴿ على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ على حال قدرها الله كيف شاء أو على أمر قد قدر في اللوح المحفوظ أنه يكون وهو هلاك قوم نوح بالطوفان.

(248/737)

﴿ وَحَمَلْنَاهُ على ذَاتِ أَلواح وَدُسُرٍ ﴾ أراد السفينة وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتنوب منابها وتؤدي مؤداها بحيث لا يفصل بينها وبينها ونحوه "ولكنّ قميصي مسرودة من حديدٍ" أراد ولكن قميصي درع، ألا ترى أنك لو جمعت بين السفينة وبين هذه الصفة لم يصح، وهذا من فصيح الكلام وبديعه، والدسر جمع دسار وهو المسمار فعال من دسره إذا دفعه لأنه يدسر به منفذه ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى منا أو بحفظنا أو ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ حال من الضمير في ﴿ تَجْرِى ﴾ أي محفوظة بنا ﴿ جَزَاء ﴾ مفعول له لما

قدم من فتح أبواب السماء وما بعده أي فعلنا ذلك جزاء ﴿ لّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ وهو نوح عليه السلام وجعله مكفوراً لأن النبي نعمة من الله ورحمة قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] فكان نوح نعمة مكفورة ﴿ وَلَقَدْ تركناها ﴾ أي السفينة أو الفعلة أي جعلناها ﴿ ءايَةً ﴾ يعتبر بها .

وعن قتادة : أبقاها الله بأرض الجزيرة .

وقيل : على الجودي دهراً طويلاً حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ متعظ يتعظ ويعتبر ، وأصله مذتكر بالذال والتاء ولكن التاء أبدلت منها الدال والدال والذال من موضع فأدغمت الذال في الدال ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ جمع نذير وهو الإنذار ﴿ ونذري ﴾ يعقوب فيهما ، وافقه سهل في الوصل .

غيرهما بغير ياء وعلى هذا الاختلاف ما بعده إلى آخر السورة ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءان لِلذّكْرِ ﴾ سهلناه للادّكار والاتعاظ بأن شحناه بالمواعظ الشافية وصرفنا فيه من الوعد والوعيد ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ متعظ يتعظ .

وقيل : ولقد سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه فهل من طالب لحفظه ليعان عليه ؟

ويُروى أن كتب أهل الأديان نحو التوراة والإنجيل والزبور لا يتلوها أهلها إلا نظراً ولا يحفظونها ظاهراً كالقرآن .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ أي وإنذاراتي لهم بالعذاب قبل نزوله أو وإنذاراتي في تعذيبهم لمن بعدهم ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ باردة أو شديدة الصوت ﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ شؤم ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ دائم الشر فقد استمر عليهم حتى أهلكهم وكان في أربعاء في آخر الشهر ﴿ تَنزِعُ الناس ﴾ تقلعهم عن أماكنهم وكانوا يصطفون آخذاً بعضهم بأيدي بعض ويتداخلون في الشعاب ويحفرون الحفر فيندسون فيها فتنزعهم وتكبهم وتدق رقابهم ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ حال ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ أصول نخل منقلع عن مغارسه ، وشبهوا بأعجاز النخل لأن الريح كانت تقطع رؤوسهم فتبقى أجساداً بلا رءوس فيتساقطون على الأرض أمواتاً وهم جثث طوال كأنهم أعجاز نخل ، وهي أصولها بلا فروع ، وذكر صفة نخل على اللفظ ولو حملها على المعنى لأنث كما قال ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 7] ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنذر فَقَالُواْ أَبَشَراً مِّنَّا واحدا ﴾ انتصب ﴿ بَشَرًا ﴾ بفعل يفسره ﴿ نَّتَّبِعُهُ ﴾ تقديره أنتبع بشراً منا واحداً ﴿ إِنَّا إِذاً لَّفِى ضلال وَسُعُرٍ ﴾ كأن يقول إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق .

وسعر ونيران جمع سعير فعكسوا عليه فقالوا : إن اتبعناك كنا إذا كما تقول .

وقيل : الضلال الخطأ والبعد عن الصواب ، والسعر الجنون ، وقولهم ﴿ أَبَشَراً ﴾ إنكار لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية وطلبوا أن يكون من الملائكة وقالوا منا ، لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى ، وقالوا ﴿ واحدا ﴾ إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلاً واحداً ، أو أرادوا واحداً من أفنائهم ليس من أشرفهم وأفضلهم ، ويدل عليه قوله ﴿ أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾ أي أأنزل عليه الوحي من بيننا وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوة ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ بطر متكبر حمله بطره وطلبه التعظم علينا على ادعاء ذلك ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً ﴾ عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة ﴿ مَّنِ الكذاب الأشر ﴾ أصالح أم من كذبه .

﴿ ستعلمون ﴾ : شامي وحمزة على حكاية ما قال لهم صالح مجيباً لهم أو هو كلام الله على سبيل الالتفات ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ الناقة ﴾ باعثوها ومخرجوها من الهضبة كما سألوا ﴿ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ امتحاناً لهم وابتلاء وهو مفعول له أو حال ﴿ فارتقبهم ﴾ فانتظرهم وتبصر ما هم صانعون ﴿ واصطبر ﴾ على أذاهم ولا تعجل حتى يأتيك أمري ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الماء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ مقسوم بينهم لها شرب يوم ولهم شرب يوم وقال ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ تغليباً للعقلاء ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ محضور يحضر القوم الشرب يوماً وتحضر الناقة

يوماً ﴿ فَنَادَوْاْ صاحبهم ﴾ قدار بن سالف أحيمر ثمود ﴿ فتعاطى ﴾ فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم غير مكترث له ﴿ فَعَقَرَ ﴾ الناقة أو فتعاطى الناقة فعقرها أو فتعاطى السيف.

(251/737)

وإنما قال ﴿ فَعَقَرُواْ الناقة ﴾ [الأعراف: 77] في آية أخرى لرضاهم به أو لأنه عقر بمعونتهم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ في اليوم الرابع من عقرها ﴿ صَيْحَةً واحدة ﴾ صاح بهم جبريل عليه السلام ﴿ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ المحتظر ﴾ والهشيم الشجر اليابس المتهشم المتكسر، والمحتظر الذي يعمل الحظيرة وما يحتظر به ييبس بطول الزمان وتتوطؤه البهائم فيتحطم ويتهشم، وقرأ الحسن بفتح الظاء وهو موضع الاحتظار أي الحظيرة ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءانِ للذكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بالنذر إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ يعني على قوم لوط ﴿ حاصبا ﴾ ريحاً تحصبهم بالحجارة أي ترميهم ﴿ إِلا ءالَ لُوطٍ ﴾ ابنتيه ومن آمن معه ﴿ نجيناهم بِسَحَرٍ ﴾ من الأسحار ولذا صرفه ويقال: لقيته بسحر إذا لقيته في سحر يومه.

وقيل: هما سحران: فالسحر الأعلى قبل انصداع الفجر، والآخر عند انصداعه ﴿

نِعْمَةً ﴾ مفعول له أي إنعاماً ﴿ مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾ نعمة الله بإيمانه وطاعته ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ ﴾ لوط عليه السلام ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ أخذتنا بالعذاب ﴿ فَتَمَارَوْاْ بالنذر ﴾ فكذبوا بالنذر متشاكين ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ﴾ طلبوا الفاحشة من أضيافه ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ أعميناهم.

وقيل: مسحناها وجلناها كسائر الوجه لا يرى لها شق.

رُوي أنهم لما عالجوا باب لوط عليه السلام ليدخلوا قالت الملائكة: خلهم يدخلوا إنا رسل ربك لن يصلوا إليك، فصفقهم جبريل عليه السلام بجناحه صفقة فتركهم يترددون ولا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط ﴿ فَذُوقُواْ ﴾ فقلت لهم ذوقوا على ألسنة الملائكة ﴿ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً ﴾ أول النهار ﴿ عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ ثابت قد استقر عليهم إلى أن يفضي بهم إلى عذاب الآخرة.

(252/737)

وفائدة تكرير ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءان لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكاراً واتعاظاً، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه، وهذا حكم التكرير في قوله ﴿

فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 13] عند كل نعمة عدها ، وقوله ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : 25] عند كل آية أوردها ، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب مصورة للأذهان مذكورة غير منسية في كل أوان .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النذر ﴾ موسى وهرون وغيرهما من الأنبياء أو هو جمع نذير وهو الإنذار ﴿ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كُلِّهَا ﴾ بالآيات التسع ﴿ فأخذناهم أَخْذَ عَزِيزٍ ﴾ لا يغالب ﴿ مُّقْتَدِرٍ ﴾ لا يعجزه شيء ﴿ أكفاركم ﴾ يا أهل مكة ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ ﴾ الكفار المعدودين قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون أي أهم خير قوة وآلة ومكانة في الدنيا أو أقل كفراً وعناداً يعني أن كفاركم مثل أولئك بل شر منهم ﴿ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِى الزبر ﴾ أم أنزلت عليكم يا أهل مكة براءة في الكتب المتقدمة أن من كفر منكم وكذب الرسل كان آمناً من عذاب الله فأمنتم بتلك البراءة ؟ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ ﴾ جماعة أمرنا مجتمع ﴿ مُّنتَصِرٌ ﴾ ممتنع لا نرام ولا نضام ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ﴾ جمع أهل مكة ﴿ وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ أي الأدبار كما قال :

كلوا في بعض بطنكم تعفّوا . . .

أي ينصرفون منهزمين يعني يوم بدر وهذه من علامات النبوة .

﴿ بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ ﴾ موعد عذابهم بعد بدر ﴿ والساعة أدهى ﴾ أشد من

موقف بدر والداهية الأمر المنكر الذي لا يهتدى لدوائه ﴿ وَأَمَرُّ ﴾ مذاقاً من عذاب الدنيا أو أشد من المرة.

(253/737)

﴿ إِنَّ المجرمين فِى ضلال ﴾ عن الحق في الدنيا ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ ونيران في الآخرة أو في هلاك ونيران ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النار ﴾ يجرون فيها ﴿ على وُجُوهِهِمْ ﴾ ويقال لهم ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ كقولك "وجد مس الحمى وذاق طعم الضرب" لأن النار إذا أصابتهم بحرها فكأنها تمسهم مساً بذلك.

و﴿ سَقَرَ ﴾ غير منصرف للتأنيث والتعريف لأنها علم لجهنم من سقرته النار إذا لوحته ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ كل منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر، وقرىء بالرفع شاذاً والنصب أولى لأنه لو رفع لأمكن أن يكون ﴿ خلقناه ﴾ في موضع الجبر وصفاً ل ﴿ شَىْءٍ ﴾ ويكون الخبر ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ وتقديره: إنا كل شيء مخلوق لنا كائن بقدر، ويحتمل أن يكون ﴿ خلقناه ﴾ هو الخبر وتقديره: إنا كل شيء مخلوق لنا بقدر، فلما تردد الأمر في الرفع عدل إلى النصب وتقديره.

إنا خلقنا كل شيء بقدر فيكون الخلق عاماً لكل شيء وهو المراد بالآية.

ولا يجوز في النصب أن يكون ﴿ خلقناه ﴾ صفة ل ﴿ شَىْء ﴾ لأنه تفسير الناصب والصفة لا تعمل في الموصوف .

والقدْر والقدَر التقدير أي بتقدير سابق أو خلقنا كل شيء مقدراً محكماً مرتباً على حسب ما اقتضته الحكمة ، أو مقدراً مكتوباً في اللوح معلوماً قبل كونه قد علمنا حاله وزمانه .

قال أبو هريرة : جاء مشركو قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخاصمونه في القدر فنزلت الآية ، وكان عمر يحلف أنها نزلت في القدرية ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ واحدة ﴾ إلا كلمة واحدة أي وما أمرنا لشيء نريد تكوينه إلا أن نقول له كن فيكون ﴿ كَلَمْحٍ بالبصر ﴾ على قدر ما يلمح أحدكم ببصره .

وقيل : المراد بأمرنا القيامة كقوله ﴿ وَمَا أَمْرُ الساعة إِلاَّ كَلَمْحِ البصر ﴾ [النحل : 77] .

(254/737)

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أشياعكم ﴾ أشباهكم في الكفر من الأمم ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ متعظ ﴿ وَكُلُّ شَىْء فَعَلُوهُ ﴾ أي أولئك الكفار أي وكل شيء مفعول لهم ثابت ﴿ فِى الزبر ﴾

في دواوين الحفظة ف ﴿ فَعَلُوهُ ﴾ في موضع جر نعت ل ﴿ شَىْءٍ ﴾ و ﴿ فِى الزبر ﴾ خبر ل ﴿ كُلُّ ﴾ ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ من الأعمال ومن كل ما هو كائن ﴿ مُّسْتَطَرٌ ﴾ مسطور في اللوح ﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَنَهَرٍ ﴾ وأنهار اكتفى باسم الجنس وقيل : هو السعة والضياء ومنه النهار ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ في مكان مرضي ﴿ عِندَ مَلِيكٍ ﴾ عندية منزلة وكرامة لا مسافة ومماسة ﴿ مُّقْتَدِرٍ ﴾ قادر .

وفائدة التنكير فيهما أن يعلم أن لا شيء إلا هو تحت ملكه وقدرته وهو على كل شيء قدير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 201 . 207 ﴾

(255/737)

وقال ابن جزى :

سورة القمر

﴿ اقتربت الساعة ﴾

أي قربت القيامة ، ومعنى قربها أنها بقي لها من الزمان [شيء] قليل بالنسبة إلى ما مضى ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى " ﴿ وانشق القمر ﴾ هذا إخبار بما جرى في زمان رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، وذلك " أن قريشاً سألته آية فأراهم انشاق القمر . فقال صلى الله عليه وسلم : اشهدوا " ، وقال ابن مسعود : انشق القمر فرأيته فرقتين فرقة وراء الجبل وأخرى دونه ، وقيل : معنى انشق المقر أنه ينشق يوم القيامة ، وهذا قول باطل تردّه الأحاديث الصحيحة الواردة بانشقاق القمر ، وقد اتفقت الأمة على وقوع ذلك على تفسير الآية بذلك إلا من لا يعتبر قوله : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ آيَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ هذه الضمائر لقريش والآية المشار إليها انشقاق القمر وعند ذلك قالت قريش : سحر محمد القمر ومعنى مستمر : دائم وقيل : معناه ذاهب يزول عن قريب وقيل : شديد وهو على هذا المعنى من المرة وهي القوة : ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ أي كل شيء لا بد له من غاية ، فالحق يحق والباطل يبطل .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ الأَنبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ الأنباء هنا ، يراد بها ما ورد في القرآن من القصص والبراهين والمواعظ ، ومزدجر اسم مصدر بمعنى الازدجار أو اسم موضع بمعنى أنه مظنة أن يزدجر به .

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ بدل من ما فيه أو خبر ابتداء مضمر ﴿ فَمَا تُغْنِ النذر ﴾ يحتمل أن تكون ما نافية أو استفهامية لمعنى الاستبعاد والإنكار .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عنهم لعلمك أن الإنذار لا ينفعهم .

﴿ يَوْمَ يَدْعُ الداعِ إلى شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ العامل في يوم مضمر تقديره : اذكر أو قوله : ﴿ يَخْرُجُونَ ﴾ بعد ذلك ، وليس العامل فيه ﴿ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فيوقف عليه وقيل : المعنى ﴿ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي يوم يدع الداع والأول أظهر وأشهر . والداعي جبريل أو إسرافيل إذ ينفخ في الصور ، والشيء النكر الشديد الفظيع . وأصله من الإنكار . أي : هو منكور لأنه لم ير قط مثله ، والمراد به يوم القيامة ﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ ﴾ كناية عن الذلة وانتصب خشعاً على الحال من الضمير في ﴿ يَخْرُجُونَ ﴾ ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث ﴾ أي من القبور ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ شبَّههم بالجراد في خروجهم من الأرض ، فكأنه استدلال على البعث كالاستدلال بخروج النبات . وقيل : إنما شبههم بالجراد في كثرتهم ، وأن بعضهم يموج في بعض .

﴿ مُّهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين وقيل : ناظرين إلى الداع .

﴿ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ﴾ يعني نوحاً عليه السلام ، ووصفه هنا بالعبودية تشريفاً له واختصاصاً ﴿ وازدجر ﴾ أي زجروه بالشتم والتخويف وقالوا له : ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يا نوح لَتَكُونَنَّ مِنَ المرجومين ﴾ [الشعراء : 116] .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فانتصر ﴾ أي قد غلبني الكفار فانتصر لي أو انتصر لنفسك ، ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السمآء بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ عبارة عن كثرة المطر ، فكأنه يخرج من أبواب ، وقيل : فتحت في السماء أبواب يومئذ حقيقة ، والمنهمر الكثير ﴿ فَالْتَقَى المآء ﴾ ماء السماء وماء الأرض ﴿ على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي قد قضى في الأزل ، ويحتمل أن يكون المعنى أنه قدر بمقدار معلوم ، ورُوي في ذلك أنه علا فوق الأرض أربعين ذراعاً ﴿ وَحَمَلْنَاهُ على ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ يعني السفينة والدسر هي المسامير واحدها دسار ، وقيل : هي مقادم السفينة ، وقيل : أضلاعها والأول أشهر ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ عبارة عن حفظ الله ورعيه لها ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ أي جاء لنوح : وقيل : جزاء لله تعالى والأول أظهر ، وانتصب جزاء على أنه مفعول من أجله ، والعامل فيه ما تقدم من فتح أبواب السماء وما بعده من الأفعال ؛ أي جعلنا ذلك كله جزاء لنوح ، ويحتمل أن يكون قوله : كفر من الكفر بالدين والتقدير لمن كفِر به فحذف الضمير ، أو يكون من الكفر بالنعمة ؛ لأن نوحاً عليه السلام نعمة من الله كفرها قومه ، فلا يحتاج إلى هذا إلى الضمير المحذوف .

﴿ وَلَقَدْ تَّرَكْنَاهَا آيَةً ﴾ الضمير للقصة المذكورة أو الفعلة أو السفينة وروي في هذا المعنى أنها بقيت على الجودي حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ تحضيض على الإدّكار فيه ملاطفة جميلة من الله لعباده ، ووزن مذكر مفتعل وأصل مدتكر ثم أبدل

من التاء دالاً وأدغمت فيها الدال .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ توقيف فيه تهديد لقريش والنذر جمع نذير .

(258/737)

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآنَ للذِّكْرِ ﴾ أي يسرناه للحفظ ، وهذا معلوم بالمشاهدة ، فإنه يحفظه الأطفال الأصاغر وغيرهم حفظاً بالغاً بخلاف غيره من الكتب ، وقد رُوي أنه لم يحفظ شيء من كتب الله عن ظهر قلب إلا القرآن . وقيل : معنى الآية سهلناه للفهم والاتعاظ به لما تضمن من البراهين والحكم البليغة ، وإنما كرر هذه الآية البليغة وقوله : ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر : 37 ، 39] لينبه السامع عند كل قصة ، فيعتبر بها إذ كل قصة من القصص التي ذكرت عبرة وموعظة ، فختم كل واحدة بما يوقظ السامع من الوعيد في قوله : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ، ومن الملاطفة في قوله : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

﴿ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ أي مصوته فهو من الصرير يعني الصوت وقيل : معناه باردة فهو من الصر ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ رُوي أنه كان يوم أربعاء ، حتى رأى بعضهم أن كل يوم أربعا نحس ورووا : آخر أربعاء من الشهر يوم نحس مستمر .

﴿ تَنزِعُ الناس ﴾ أي تقلعهم من مواضعهم ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ هلكوا بذلك لأنهم طوال عظام الأجساد كالنخل ، وقيل : كانت الريح تقطع رؤوسهم فتبقى أجساداً بلا رؤوس ، فشبههم بأعجاز النخل لأنها دون أغصان : وقيل : كانوا حفروا حفراً يمتنعون بها من الريح . فهلكوا فيها فشبههم بأعجاز النخل إذا كانت في حفرها .

﴿ أَبَشَراً ﴾ هو صالح عليه السلام ، وانتصب بفعل مضمر والمعنى أنهم أنكروا أن يتبعوا بشرا وطلبوا أن يكون الرسول من الملائكة ، ثم زادوا أن أنكروا أن يتبعوا واحداً وهم جماعة كثيرون ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ أي عناد ، وقيل : معناه جنون ، وقيل : معناه هم وغم وأصله من السعير بمعنى النار . وكأنه احتراق النفس بالهم .

(259/737)

﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾ أنكروا أن يخصه الله بالنبوة دونهم ، وذلك جهل منهم ، فإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ﴿ أَشِرٌ ﴾ بطر متكبر .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الماء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ أي لهم يوم وللناقة يوم من غير أن يتعدوا على الناقة ، فالضمير في ﴿ نَبِّئْهُمْ ﴾ يعود على ثمود . وعلى الناقة تغليباً للعقلاء ، وقيل : إن الضمير لثمود ، والمعنى لا يتعدى بعضهم على بعض ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ أي مشهود .

﴿ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ ﴾ يعني : عاقر الناقة واسمه قدار وهو أحيمر ثمود وأشقاها ﴿ فتعاطى ﴾ أي اجترأ على أمر عظيم ، وهو عقر الناقة وقيل : تعاطى السيف .

﴿ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ صاح بها جبريل صيحة فماتوا منها ﴿ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ المحتظر ﴾ الهشيم هو ما تكسر وتفتت من الشجر وغيرها ، والمحتظر الذي يعمل الحظيرة وهي حائط من الأغصان أو القصب ونحو ذلك ، أو يكون تحليقاً للمواشي أو السكنى فشبه الله ثمود لما هلكوا بما يتفتت من الحظيرة من الأوراق وغيرها ، وقيل : المحتظر المحترق .

﴿ حَاصِباً ﴾ ذكر في [العنكبوت : 40] .

﴿ فَتَمَارَوْاْ بالنذر ﴾ تشككوا ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾ الضيف هنا : هم الملائكة الذين أرسلهم الله إلى لوط ، ليهلكوا قومه . وكان قومه قد ظنوا أنهم من بني آدم ، وأرادوا منهم الفاحشة فطمس الله على أعينهم ، فاستوت مع وجوههم ، وقيل : إن الطمس عبارة عن عدم رؤيتهم لهم ، وأنهم دخلوا منزل لوط فلم يروا فيه أحداً .

(260/737)

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ ﴾ هذا خطاب لقريش على وجه التهديد ، والهمزة للإنكار ومعناه : هل الكفار منكم خير عند الله من الكفار المتقدمين المذكورين ، بحيث أهلكناهم

لما كذبوا الرسل وتنجون أنتم وقد كذبتم رسلكم ؟ بل الذي أهلكهم يهلككم ﴿ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي الزبر ﴾ معناه أم لكم في كتاب الله براءة من العذاب ؟

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ أي نحن نجتمع وننتصر لأنفسنا بالقتال .

﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ هذا وعد من الله لرسوله بأنه سيهزم جمع قريش ، وقد ظهر ذلك يوم بدر وفتح مكة .

﴿ إِنَّ المجرمين فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ المراد بالمجرمين هنا الكفار وضلالهم في الدنيا ، والسعر لهم في الآخرة وهو الاحتراق ، وقيل : أراد بالمجرمين القدرية لقوله في الرد عليهم : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ والأول أظهر ﴿ يُسْحَبُونَ فِي النار ﴾ أي يجرون فيها ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ المعنى أن الله خلق كل شيء بقدر ، أي بقضاء معلوم سابق في الأزل ، ويحتمل أن يكون معنى ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ بمقدار في هيئته وصفته وغير ذلك ، والأول أرجح وفيه حجة لأهل السنة على القدرية . وانتصب كل شيء بفعل مضمر يفسره خلقناه .

﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بالبصر ﴾ عبارة عن سرعة التكوين ونفوذ أمر الله ، والواحدة يراد بها الكلمة وهي قوله كن : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ ﴾ يعني أشياعكم من الكفار ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزبر ﴾ أي كل ما فعلوه مكتوب في صحائف الأعمال ﴿ مُّسْتَطَرٌ ﴾ أي مكتوب وهو من السطر . تقول سطرت واستطرت بمعنى واحد ،

والمراد الصغير والكبير من أعمالهم وقيل : جميع الأشياء ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ يعني أنهار الماء والخمر واللبن والعس واكتفى باسم الجنس ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ أي في مكان مرضي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 79.83 ﴾

(261/737)

وقال البيضاوى :

سورة القمر

مكية وآيها خمس وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾

روي أن الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر . وقيل معناه سينشق يوم القيامة ويؤيد الأول أنه قرىء "وقد انشق القمر" أي اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها انشقاق القمر ، وقوله :

﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ ﴾ عن تأملها والإيمان بها . ﴿ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ مطرد وهو يدل على أنهم رأوا قبله آيات أخر مترادفة ومعجزات متتابعة حتى قالوا ذلك ، أو

محكم من المرة يقال أمررته فاستمر إذا أحكمته فاستحكم ، أو مستبشع من استمر الشيء إذا اشتدت مرارته أو مار ذاهب لا يبقى .

﴿ وَكَذَّبُواْ واتبعوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ وهو ما زين لهم الشيطان من رد الحق بعد ظهوره ، وذكرهما بلفظ الماضي للإِشعار بأنهما من عادتهم القديمة . ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ منته إلى غاية من خذلان أو نصر في الدنيا وشقاؤه ، أو سعادة في الآخرة فإن الشيء إذا انتهى إلى غايته ثبت واستقر ، وقرىء بالفتح أي ذو مستقر بمعنى استقرار وبالكسر والجر على أنه صفة أمر ، وكل معطوف على الساعة .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ ﴾ في القرآن ﴿ مّنَ الأنباء ﴾ أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة . ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ ازدجار من تعذيب أو وعيد ، وتاء الافتعال تقلب دالاً مع الذال والدال والزاي للتناسب ، وقرىء "مزجر" بقلبها زايا وإدغامها .

﴿ حِكْمَةٌ بالغة ﴾ غايتها لا خلل فيها وهي بدل من ما أو خبر لمحذوف ، وقرىء بالنصب حالاً من ما فإنها موصولة أو مخصوصة بالصفة نصب الحال عنها . ﴿ فَمَا تُغْنِى النذر ﴾ نفي أو استفهام إنكار ، أي فأي غناء تغني النذر وهو جمع نذير بمعنى المنذر ، أو المنذر منه أو مصدر بمعنى الإِنذار .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ لعلمك بأن الإنذار لا يغني فيهم . ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الداع ﴾ إسرافيل ، ويجوز أن يكون الدعاء فيه كالأمر في قوله : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وإسقاط الياء اكتفاء بالكسرة للتخفيف وانتصاب ﴿ يَوْمٍ ﴾ ب ﴿ يُخْرِجُونَ ﴾ أو بإضمار اذكر . ﴿ إلى شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾ فظيع تنكره النفوس لأنها لم تعهد مثله وهو هول يوم القيامة ، وقرأ ابن كثير بالتخفيف ، وقرىء "نكراً" بمعنى أنكر .

﴿ خُشَّعاً أبصارهم يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث ﴾ أي يخرجون من قبورهم خاشعاً ذليلاً أبصارهم من الهول ، وإفراده وتذكيره لأن فاعله ظاهر غير حقيقي التأنيث ، وقرىء "خاشعة" على الأصل ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم ﴿ خُشَّعاً ﴾ ، وإنما حسن ذلك ولم يحسن مررت برجال قائمين غلمانهم لأنه ليس على صيغة تشبه الفعل ، وقرىء "خشع أبصارهم" على الابتداء والخبر فتكون الجملة حالاً . ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ في الكثرة والتموج والانتشار في الأمكنة .

﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع ﴾ مسرعين مادي أعناقهم إليه ، أو ناظرين إليه . ﴿ يَقُولُ الكافرون هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ صعب .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ قبل قومك . ﴿ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ﴾ نوحاً عليه السلام وهو تفصيل بعد إجمال ، وقيل معناه كذبوه تكذيباً على عقب تكذيب كلما خلا منهم قرن

مكذب تبعه قرن مكذب ، أو كذبوه بعد ما كذبوا الرسل . ﴿ وَقَالُواْ مَجْنُونٌ ﴾ هو مجنون . ﴿ وازدجر ﴾ وزجر عن التبليغ بأنواع الأذية ، وقيل إنه من جملة قيلهم أي هو مجنون وقد ازدجرته الجن وتخبطته .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى ﴾ بأني وقرىء بالكسر على إرادة القول . ﴿ مَغْلُوبٌ ﴾ غَلبني قومي . ﴿ فانتصر ﴾ فانتقم لي منهم وذلك بعد يأسه منهم . فقد روي أن الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشياً عليه فيفيق ويقول : " اللَّهُم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " .

(263/737)

﴿ فَفَتَحْنَا أبواب السماء بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ منصب ، وهو مبالغة وتمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصابها ، وقرأ ابن عامر ويعقوب ففتحنا بالتشديد لكثرة الأبواب .

﴿ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً ﴾ وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة ، وأصله وفجرنا عيون الأرض فغير للمبالغة . ﴿ فَالْتَقَى الماء ﴾ ماء السماء وماء الأرض ، وقرىء "الماءان" لاختلاف النوعين "الماوان" بقلب الهمزة واواً . ﴿ على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ على حال قدرها الله تعالى في الأزل من غير تفاوت ، أو على حال قدرت وسويت وهو أن قدر

ما أنزل على قدر ما أخرج ، أو على أمر قدره الله تعالى وهو هلاك قوم نوح بالطوفان .

﴿ وَحَمَلْنَاهُ على ذَاتِ أَلواح ﴾ ذات أخشاب عريضة . ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ ومسامير جمع دسار من الدسر ، وهو الدفع الشديد وهي صفة للسفينة أقيمت مقامها من حيث أنها كالشرح لها تؤدي مؤداها .

﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى منا أي محفوظة بحفظنا . ﴿ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ أي فعلنا ذلك جزاء لنوح لأنه نعمة كفروها ، فإن كل نبي نعمة من الله تعالى ورحمة على أمته ، ويجوز أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل إلى الضمير ، وقرىء "لِمَنْ كُفِرَ" أي للكافرين .

﴿ وَلَقَدْ تركناها ﴾ أي السفينة أو الفعلة . ﴿ ءايَةً ﴾ يعتبر بها إذ شاع خبرها واشتهر . ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ معتبر ، وقرىء "مذتكر" على الأصل ، و"مذكر" بقلب التاء ذالاً والإدغام فيها .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ استفهام تعظيم ووعيد ، والنذر يحتمل المصدر والجمع .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءان ﴾ سهلناه أو هيأناه من يسر ناقته للسفر إذا رحلها . ﴿ لِلذِّكْرِ ﴾ للادكار والاتعاظ بأن صرفنا فيه أنواع المواعظ والعبر ، أو للحفظ بالاختصار وعذوبة اللفظ . ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ متعظ .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ وإنذاري أتى لهم بالعذاب قبل نزوله ، أو لمن بعدهم في تعذيبهم .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ بارداً أو شديد الصوت . ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ شؤم . ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ أي استمر شؤمه ، أو استمر عليهم حتى أهلكهم ، أو على جميعهم كبيرهم وصغيرهم فلم يبق منهم أحداً ، أو اشتد مرارته وكان يوم الاربعاء آخر الشهر .

﴿ تَنزِعُ الناس ﴾ تقلعهم ، روي أنهم دخلوا في الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح منها وصرعتهم موتى . ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ أصول نخل منقلع عن مغارسه ساقط على الأرض . وقيل شبهوا بالاعجاز لأن الريح طيرت رؤوسهم وطرحت أجسادهم ، وتذكير ﴿ مُّنقَعِرٍ ﴾ للحمل على اللفظ ، والتأنيث في قوله ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ للمعنى .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ كرره للتهويل . وقيل الأول لما حاق بهم في الدنيا ، والثاني لما يحيق بهم في الآخرة كما قال أيضاً في قصتهم ﴿ لنذيقنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى ﴾ ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءان لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنذر ﴾ بالإنذارات والمواعظ ، أو الرسل .

﴿ فَقَالُواْ أَبَشَراً مِّنَّا ﴾ من جنسنا أو من حملنا لا فضل له علينا ، وانتصابه بفعل يفسره

وما بعده وقرىء بالرفع على الابتداء والأول أوجه للاستفهام . ﴿ واحدا ﴾ منفرداً لا تبع له أو من آحادهم دون أشرافهم . ﴿ نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ جمع سعير كأنه عكسوا عليه فرتبوا على اتباعهم إياه ما رتبه على ترك اتباعهم له ، وقيل السعر الجنون ومنه ناقة مسعورة .

﴿ ءَأُلْقِىَ الذكر ﴾ الكتاب أو الوحي . ﴿ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾ وفينا من هو أحق منه بذلك . ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ حمله بطره على الترفع علينا بادعائه إياه .

(265/737)

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً ﴾ عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة . ﴿ مَّنِ الكذاب الأشر ﴾ الذي حمله أشره على الاستكبار عن الحق وطلب الباطل أصالح عليه السلام أم من كذبه ؟ وقرأ ابن عامر وحمزة ورويس ستعلمون على الالتفات أو حكاية ما أجابهم به صالح ، وقرىء "الأشر" كقولهم حذر في حذر و"الأشر" أي الأبلغ في الشرارة وهو أصل مرفوض كالأخير .

﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ الناقة ﴾ مخرجوها وباعثوها . ﴿ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ امتحاناً لهم . ﴿ فارتقبهم ﴾ فانتظرهم وتبصر ما يصنعون . ﴿ واصطبر ﴾ على أذاهم .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الماء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ مقسوم لها يوم ولهم يوم ، و ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ لتغليب العقلاء . ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ يحضره صاحبه في نوبته أو يحضره عنه غيره . ﴿ فَنَادَوْا صاحبهم ﴾ قدار بن سالف أحيمر ثمود ﴿ فتعاطى فَعَقَرَ ﴾ فاجترأ على تعاطي قتلها فقتلها أو فتعاطى السيف فقتلها والتعاطي تناول الشيء بتكلف .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحدة ﴾ صيحة جبريل عليه السلام . ﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ المحتظر ﴾ كالشجر اليابس المتكسر الذي يتخذه من يعمل الحظيرة لأجلها أو كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء ، وقرىء بفتح الظاء أي كهشيم الحظيرة أو الشجر المتخذ لها .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءان لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُذَّكِرٍ ﴾ . ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بالنذر ﴾ . ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حاصبا ﴾ ريحاً تحصبهم بالحجارة أي ترميهم . ﴿ إِلاَّ آلَ لُوطٍ نجيناهم بِسَحَرٍ ﴾ في سحر وهو آخر الليل أو مسحرين .

﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ إنعاماً منا وهو علة لنجينا . ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة .

﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ ﴾ لوط . ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ أخذتنا بالعذاب . ﴿ فَتَمَارَوْا بالنذر ﴾ فكذبوا بالنذر متشاكين .

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ﴾ قصدوا الفجور بهم. ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ فمسحناها وسويناها بسائر الوجه. روي أنهم لما دخلوا داره عنوة صفقهم جبريل عليه السلام صفقة فأعماهم. ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ فقلنا لهم ذوقوا على ألسنة الملائكة أو ظاهر الحال.

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً ﴾ وقرىء "بُكْرَةً" غير مصروفة على أن المراد بها أول نهار معين. ﴿ عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ يستقر بهم حتى يسلمهم إلى النار.

﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ كرر ذلك في كل قصة إشعاراً بأن تكذيب كل رسول مقتض لنزول العذاب واستماع كل قصة مستدع للادكار والاتعاظ، واستئنافاً للتنبيه والاتعاظ لئلا يغلبهم السهو والغفلة، وهكذا تكرير قوله: ﴿ فَبِأَىِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ونحوهما.

﴿ وَلَقَدْ جَاء ءالَ فِرْعَوْنَ النذر ﴾ اكتفى بذكرهم عن ذكره للعلم بأنه أولى بذلك منهم.

﴿ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كُلِّهَا ﴾ يعني الآيات التسع. ﴿ فأخذناهم أَخْذَ عَزِيزٍ ﴾ لا يغالب. ﴿ مُّقْتَدِرٍ ﴾ لا يعجزه شيء.

﴿ أكفاركم ﴾ يا معشر العرب. ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ ﴾ الكفار المعدودين قوة وعدة أو مكانة وديناً عند الله تعالى. ﴿ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِى الزبر ﴾ أم نزل لكم في الكتب السماوية

أن من كفر منكم فهو في أمان من العذاب .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ ﴾ جماعة أمرنا . ﴿ مُّنتَصِرٌ ﴾ ممتنع لا نرام أو منتصر من الأعداء لا نغلب ، أو متناصر ينصر بعضنا بعضاً والتوحيد على لفظ الجميع .

(267/737)

﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ أي الأدبار وإفراده لإرادة الجنس ، أو لأن كل واحد يولي دبره وقد وقع ذلك يوم بدر وهو من دلائل النبوة . وعن عمر رضي الله تعالى عنه " أنه لما نزلت قال : لم أعلم ما هو فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع ويقول : سيهزم الجمع ، فعلمته " " .

﴿ بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ ﴾ موعد عذابهم الأصلي وما يحيق بهم في الدنيا فمن طلائعه .

﴿ والساعة أدهى ﴾ أشد ، والداهية أمر فظيع لا يهتدي لدوائه . ﴿ وَأَمَرُّ ﴾ مذاقاً من عذاب الدنيا .

﴿ إِنَّ المجرمين فِى ضلال ﴾ عن الحق في الدنيا . ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ ونيران في الآخرة .

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النار على وُجُوهِهِمْ ﴾ يجرون عليها . ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ أي يقال لهم ذوقوا حر النار وألمها فإن مسها سبب التألم بها ، وسقر علم لجهنم ولذلك لم

يصرف من سقرته النار وصقرته إذا لوحته .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ أي إنا خلقنا كل شيء مقدراً مرتباً على مقتضى الحكمة ، أو مقدراً مكتوباً في اللوح المحفوظ قبل وقوعه ، وكل شيء منصوب بفعل يفسره ما بعده ، وقرىء بالرفع على الابتداء وعلى هذا فالأولى أن يجعل خلقناه خبراً لا نعتاً ليطابق المشهورة في الدلالة على أن كل شيء مخلوق بقدر ، ولعل اختيار النصب ها هنا مع الإضمار لما فيه من النصوصية على المقصود .

﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ واحدة ﴾ إلا فعلة واحدة وهو الإيجاد بلا معالجة ومعاناة ، أو ﴿ إِلا ﴾ كلمة واحدة وهو قوله كن . ﴿ كَلَمْحٍ بالبصر ﴾ في اليسر والسرعة ، وقيل معناه معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ الساعة إِلاَّ كَلَمْحِ البصر ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أشياعكم ﴾ أشباهكم في الكفر ممن قبلكم . ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ متعظ .

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزبر ﴾ مكتوب في كتب الحفظة .

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ من الأعمال . ﴿ مُّسْتَطَرٌ ﴾ مسطور في اللوح .

﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَنَهَرٍ ﴾ أنهار واكتفى باسم الجنس ، أو سعة أو ضياء من النهار . وقرىء ﴿ نهر ﴾ وبضم الهاء جمع نهر كأسد وأسد .

﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ في مكان مرضي ، وقرىء "مقاعد صدق" . ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ مقربين عند من تعالى أمره في الملك ، والاقتدار بحيث أبهمه ذوو الأفهام .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة القمر في كل غب بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر " . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 263 .

﴿ 271 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) ﴾

التفسير : أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة ﴿ أزفت الآزفة ﴾ [النجم : 57] إلا أنه ذكر ههنا دليلاً على الاقتراب وهو قوله ﴿ وانشق القمر ﴾ في الصحيحين عن أنس أن الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر مرتين . وعن ابن عباس : انفاق فلقتين فلقة ذهبت وفلقة بقيت . وقال ابن مسعود : رأيت حراء بين فلقتي القمر . وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال : ألا إن الساعة قد اقتربت وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم صلى الله عليه وسلم هذا قول أكثر الفسرين . وعن بعضهم أن المراد سينشق القمر وصيغة الماضي على عادة إخبار الله ، وذلك أن انشقاق القمر أمر عظيم الوقع في النفوس فكان ينبغي أن يبلغ وقوعه حد التواتر وليس كذلك . وأجيب بأن الناقلين لعلهم اكتفوا بإعجاز القرآن عن تشهير سائر المعجزات بحيث يبلغ التواتر . وأيضاً إنه سبحانه جعل انشاق القمر آية من الآيات لرسوله ولو كانت مجرد علامة القيامة لم يكن معجزة له كما لم يكن خروج دابة الأرض وطلوع الشمس من المغرب وغيرهما معجزات له ، نعم كلها مشتركة في نوع آخر من الإعجاز وهو الإخبار عن الغيوب . وزعم بعض أهل التنجيم أن ذلك كان حالة شبه الخسوف ذهب بعض جرم القمر عن البصر وظهر في الجو شيء مثل نصف جرم القمر نحن نقول : إخبار الصادق بأن يتمسك به أولى من قول الفلسفي . هذا مع أن استدلالهم على امتناع الخرق في السماويات لا يتم كما بينا في الحكمة . وكيف يدل انشقاق القمر على اقتراب الساعة نقول : من جهة إن ذلك يدل على

جواز انخراق السماويات وخرابها خلاف ما زعمه منكرو الحشر من الفلاسفة وغيرهم .

ومن ههنا ظن بعضهم وإليه ميل الإمام فخر الدين الرازي أن المراد باقتراب الساعة ليس هو القرب الزماني وإنما المراد قربها في العقول في الأذهان كأنه لم يبق بعد ظهور هذه الآية للمكر مجال . واستعمال لفظ الاقتراب ههنا مع أنه مقطوع به كاستعمال " لعل " في قوله ﴿ لعل الساعة تكون قريباً

(271/737)

﴿ [الأحزاب : 63] والأمر عند الله معلوم . قال : وإنما ذهبنا إلى هذا التأويل لئلا يبقى للكافر مجال الجدال فإنه قد مضى قرب سبعمائة سنة ولم تقم الساعة ولا يصح إطلاق لفظ القرب على مثل هذا الزمان . والجواب أن كل ما هو آتٍ قريب وزمان العالم زمان مديد والباقي بالنسبة على الماضي شيء يسير قال أهل اللغة : في " افتعل " مزيد تشجم ومبالغة فمعنى اقترب دنا دنواً قريباً ، وكذلك اقتدر أبلغ من قدر . ثم بين أن ظهور آيات الله لا يؤثر فيهم بل يزيد في عنادهم وتمردهم حتى سموها سحراً مستمراً أي دائماً مطرداً كأنهم قابلوا ترادف الآيات وتتابع المعجزات باستمرار السحر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي كل أوان بمعجزة قولية أو فعلية سماوية أو أرضية .

وقيل : هو من قولهم " حبل مرير الفتل " من المرة وهي الشدة أي سحر قوي محكم . وقيل : من المرارة يقال : استمر الشيء إذا اشتد مراراته أي سحر مستبشع مر في مذاقنا . وقيل : مستمر أي مار ذاهب زائل عما قريب . عللوا أنفسهم بالأماني الفارغة فخيب الله آمالهم بإعلاء الدين وتكامل قوته كل يوم . والظاهر أن قوله ﴿ وأن يروا ﴾ إلى آخر الآية . جملة معترضة بياناً لما اعتادوه عند رؤية الآيات . وقوله ﴿ وكذبوا ﴾ عطف على قوله ﴿ اقترب ﴾ كأنهم قابلوا الاقتراب والانشقاق بالتكذيب واتباع الأهواء . والمعنى وكذبوا بالأخبار عن اقتراب الساعة ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ في أن محمد صلى الله عليه وسلم ساحر أو كاهن أو كذبوا بانشقاق القمر واتبعوا آراءهم الفاسدة في أنه خسوف عرض للقمر وكذلك كل آية ﴿ وكل أمر مستقر ﴾ صائر إلى غاية وأن أمر محمد صلى الله عليه وسلم سيصير إلى حد يعرف منه حقيقته وكذلك أمرهم مستقر على حالة البطلان والخذلان . ومن قرأ بالجر فلعطف ﴿ كل ﴾ على الساعة أي اقتربت الساعة واقترب كل أمر مستقر وبين حاله . ثم أشار بقوله ﴿ ولقد جاءهم ﴾ إلى أن كل ما هو لطف بالعباد قد وجد فأخبرهم الرسول باقتراب القيامة وأقام الدليل على صدقه ووعظهم بأحوال

القرون الخالية وأهوال الدار الآخرة . وفي كل ذلك ﴿ مزدجر ﴾ لهم أي ازدجار أو موضع ازدجار ومظنة ادكار وهو افتعال من الزجر قلبت التاء دالاً . وقوله ﴿ حكمة ﴾ يحتمل أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هذا الترتيب في إرسال الرسول وإيضاح الدليل والإنذار بمن مضى من القرون حكمة بالغة كاملة قد بلغت منتهى البيان ﴿ فما تغنى ﴾ نفي أو استفهام إنكار معناه أنك أتيت بما عليك من دعوى النبوة مقرونة بالآية الباهرة وأنذرتهم بأحوال الأقدمين فلم يفدهم فأي غناء تغنى النذر أي الإنذارات بعد هذا ﴿ فتول عنهم ﴾ لعلمك أن الإنذار لا يفيد فيهم ولا يظهر الحق لهم إلى يوم البعص والنشور . والداعي إسرافيل أو جبريل ينادي إلى شيء منكر

(273/737)

فظيع تنكره النفوس لأنها لم تعهد بمثله وهو هول يوم القيامة . وتخصيص المدعوين بالكافرين من حيث إنهم هم الذين يكرهون ذلك اليوم من ضيق العطن قوله ﴿ خاشعاً ﴾ حال من الخارجين والفعل للأبصار . وليس قراءة من قرأ ﴿ خشعاً ﴾ على الجمع من باب " أكلوني البراغيث " كما ظن في الكشاف ، ولكنه أحسن من ذلك ولهذا تواترت قراءته لعدم مشابهة الفعل صورة . تقول في السعة " قام رجل قعود غلمانه " وضعف " قاعدون "

وضعف منه " يقعدون " لأن زيادة الحرف ليست في قوة زيادة الاسم .

وجوز أن يكون في ﴿ خشعاً ﴾ ضميرهم ويقع أبصارهم بدلاً عنه . وخشوع الأبصار سكونها على هيئة لا تلتفت يمنة ويسرة كقوله ﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ [إبراهيم : 43] والأجداث القبور شبههم بالجراد المنتشر للكثرة والتموج والذهاب في كل مكان . وقيل : المنتشر مطاوع أنشره إذا أحياه فكأنهم جراد يتحرك من الأرض ويدب فيكون إشارة إلى كيفية خروجهم من الأجداث وضعف حالهم . ومعنى مهطعين مسرعين وقد مر في إبراهيم عليه السلام .

(274/737)

ثم إنه سبحانه أعاد بعض الأنباء وقدم قصة نوح على عاد وفائدة ، قوله ﴿ فكذبوا عبدنا ﴾ بعد قوله ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ هي فائدة التخصيص بعد التعميم أي كذبت الرسل أجمعين فلذلك كذبوا نوحاً . ويجوز أن يكون المراد التكرير أي تكذيباً عقيب تكذيب ، كلما مضى منهم قرن تبعه قرن آخر مكذب . وقوله ﴿ عبدنا ﴾ تشريف وتنبيه على أنه هو الذي حقق المقصود من الخلق وقتئذ ولم يكن على وجه الأرض حينئذ عابد لله سواه فكذبوه ﴿ وقالوا ﴾ هو ﴿ مجنون ﴾ وازدجروه أي استقبلوه بالضرب

والشتم وغير ذلك من الزواجر عن تبليغ ام أمر به . وجوز أن يكون من جملة قولهم أي قالوا ازدجرته الجن ومسته وذهبت بلبه ﴿ فدعى ربه أني مغلوب ﴾ غلبني قومي بالإيذاء والتكذيب . وقيل : غلبتني نفسي بالدعاء عليهم حين أيست من إجابتهم لي ﴿ فانتصر ﴾ منهم فانتقم منهم لي أو لدينك روي أن الواحد من قومه كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشياً عليه فيفيق وهو يقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون . وأبواب السماء وفتحها حقيقة عند من يجوز لها أبواباً وفيها مياهاً . وعند أهل البحث والتدقيق هو مجاز عن كثرة انصباب الماء من ذلك الصوب كما يقال في المطر الوابل " جرت ميازيب السماء وفتحت أفواه القرب " والباء للآية نحو : فتحت الباب بالمفتاح . ونظيره قول القائل " يفتح الله لك بخير " . وفيه لطيفة هي جعل المقصود مقدماً في الوجود والتقدير يفيض الله لك خيراً يأتي ويفتح لك الباب . ويجوز أن يراد فتحنا أبواب السماء مقرونة ﴿ بماء منهمر ﴾ منصب في كثرة وتتابع أربعين يوماً . قال علماء البيان : قوله ﴿ فجرنا الأرض عيوناً ﴾ أبلغ من أن لو قال " وفجرنا عيون الأرض " أي جعلنا الأرض كلها كأنها عيون منفجرة نظيره ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ [مريم : 4] وقد مر ﴿ فالتقى الماء ﴾ أي جنسه يعني مياه السماء والأرض يؤيده قراءة من قرأ ﴿ فالتقى الماآن ﴾ ﴿ على أمر قد قدر ﴾ أي على حال قدرها الله عز وجل كيف شاء ، أو

على حال جاءت مقدرة متساوية أي قدر ماء السماء كقدر ماء الأرض ، ولعله إشارة إلى أن ماء الأرض ينبع من العيون حتى إذا ارتفع وعلا لقيه ماء السماء . ويحتمل أن يقال : اجتمع الماء على أمر هلاكهم وهو مقدر في اللوح ﴿ وذات ألواح ودسر ﴾ هي السفينة وهي من الصفات التي تؤدي مؤدى الموصوف فتنوب منابه .

وهذا الإيجاز من فصيح الكلام وبديعه . والدسر المسامير جمع دسار من دسره إذا دفعه لأنه يدسر به منفذه . فعلنا كل ما ذكرنا من فتح أبواب السماء وغيره ﴿ جزاء ﴾ أو جزيناهم جزاء ﴿ لمن كان كفر ﴾ وهو نوح عليه السلام لأن وجود النبي صلى الله عليه وسلم نعمة من الله وتكذيبه كفرانها . يحكى أن رجلاً قال للرشيد : الحمد لله عليك . فسئل عن معناه قال : أنت نعمة حمدت الله عليها . والضمير في ﴿ تركناها ﴾ للسفينة أو للفعلة كما مر في " العنكبوت " ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾ [الآية : 15] والمدكر المعتبر وأصله " مذتكر " افتعال من الذكر والاستفهام فيه وفي قوله ﴿ كيف كان عذابي ونذر ﴾ أي إنذاراتي للتوبيخ والتخويف ﴿ ولقد يسرنا القرآن ﴾ سهلناه للادّكار والاتعاظ بسبب المواعظ الشافية والبيانات الوافية . وقيل : للحفظ والأول أنسب بالمقام . وإن روي أنه لم يكن شيء من كتب الله محفوظاً على ظهر القلب سوى القرآن .

سؤال : ما الحكمة في تكرير ما كرر في هذه السورة من الآي ؟ والجواب أن فائدته تجديد التنبيه على الادكار والاتعاظ والتوقيف على تعذيب الأمم السالفة ليعتبروا بحالهم ، وطالما قرعت العصا لذوي الحلوم وأصحاب النهي وهكذا حكم التكرير في سورة الرحمن عند عد كل نعمة ، وفي سورة المرسلات عند عد كل آية لتكون مصورة للأذهان محفوظة في كل أوان . ونفس هذه القصص كم كررت في القرآن بعبارات مختلفة أوجز وأطنب لأن التكرير يوجب التقرير والتذكير ينبه الغافل على أن كل موضع مختص بمزيد فائدة لمن يعرف من غيره ، وإنما كرر قوله ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ مرتين في قصة عاد لأن الاستفهام الأول أورده للبيان كما يقول المعلم لمن لا يعرف كيف المسألة الفلانية ليصير المسؤول سائلاً فيقول : كيف هي ؟ فيقول المعلم : إنها كذا وكذا . والاستفهام الثاني للتوبيخ والتخويف . فأما في قصة ثمود فاقتصر على الأول للاختصار وفي قصة نوح اقتصر على الثاني لذلك . ولعله ذكر الاستفهامين معاً في قصة عاد لفرط عتوهم وقولهم ﴿ من أشد منا قوة ﴾ [فصلت : 15] وقد مر في حم السجدة تفسير الصرصر والأيام النحسات . وإنما وحد ههنا لأنه أراد مبدأ الأيام ووصفه بالمستمر أغنى عن جمعه أي استمر عليهم ودام حتى

أهلكهم . قيل : استمر عليهم جميعاً على كبيرهم وصغيرهم حتى لم يبق منهم نسمة . وقيل : المستمر الشديد المرارة . ﴿ تنزع الناس ﴾ تقلعهم عن أماكنهم فتكبهم وتدق رقابهم ﴿ كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ منقلع عن مغارسه . وفي هذا التشبيه إشارة إلى جثثهم الطوال العظام ، ويجوز أن الريح كانت تقطع رؤوسهم فتبقى أجساداً بلا رؤس كأعجاز النخل أصولاً بلا فروع . قال النحويون : اسم الجنس الذي تميز واحده بالتاء جاز في وصفه التذكير كما في الآية ، والتأنيث كما في قوله

(277/737)

﴿ أعجاز نخل خاوية ﴾ [الحاقة : 7] هذا مع أن كلاً من السورتين وردت على مقتضى الفواصل . قوله ﴿ أبشراً ﴾ من باب ما أضمر عامله على شريطة التفسير وإنما أولى حرف الاستفهام ليعلم أن الإنكار لم يقع على مجرد الاتباع ولكنه وقع على اتباع البشر الموصوف وأنه من جهات إحداها كونه بشراً وذلك لزعمهم أن الرسول لا يكون بشراً . الثاني كونه منهم وفيه بيان قوة المماثلة ، وفيه بيان مزيد استكبار أن يكون الواحد منهم مختصاً بالنبوة مع أنهم أعرف بحاله . الثالثة كونه واحداً ، أي كيف تتبع الأمة رجلاً أو أرادوا أنه واحد من الآحاد دون الأشراف . والسعر النيران جمع سعير للمبالغة ، أو لأن

جهنم دركات ، أو لدوام العذاب كأن يقول : إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق وفي سعر فعكسوا عليه قائلين : إن اتبعانك كنا إذاً كما تقول . وقيل : الضلال البعد عن الصواب ، والسعر الجنون ومنه " ناقة مسعورة " وفي قوله ﴿ أءلقي الذكر عليه من بيننا ﴾ تصريح بما ذكرنا من أن واحداً منهم كيف اختص بالنبوة . وفي الإلقاء أيضاً تعجب آخر منهم وذلك أن الإلقاء إنزال بسرعة كأنهم قالوا : الملك جسم والسماء بعيدة فكيف نزل في لحظة واحدة ؟ أنكروا أصل الإلقاء ثم الإلقاء عليه من بينهم . والأشر البطر المتكبر أي حمله بطره وشطارته على ادعاء ما ليس له . ثم قال سبحانه تهديداً لهم ولأمثالهم ﴿ سيعلمون غداً ﴾ أي فيما يستقبل من الزمان هو وقت نزول العذاب أو يوم القيامة ﴿ من الكذاب الأشر ﴾ بالتشديد أي الأبلغ في الشرارة . وحكى ابن الأنباري أن العرب تقول : هو أخير وأشر . وذلك أصل مرفوض . ومن قرأ ﴿ ستعلمون ﴾ على الخطاب فإما حكاية جواب صالح أو هو على طريقة الالتفات . ثم إنه تعالى خاطب صالحاً بقوله ﴿ إنا مرسلو الناقة ﴾ أي مخرجوها من الصخرة كما سألوا فتنة وامتحاناً لهم . ﴿ فارتقبهم ﴾ وتبصر ما هم فاعلون بها ﴿ واصطبر ﴾ على إيذائهم ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة ﴾ أي مقسوم ﴿ بينهم ﴾ خص

العقلاء بالذكر تغليباً ﴿ كل شرب محتضر ﴾ فيه يوم لها ويوم لهم كما قال عز من قائل ﴿ لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ [الشعراء : 155] وقد مر في " الشعراء " وقال في الكشاف : محضور لهم وللناقة وفيه إيهام . وقيل : يحضرون الماء في نوبتهم واللبن في شربها ﴿ فنادوا صاحبهم ﴾ وهو قدار نداء المستغيث وكان أشجع وأهجم على الأمور أو كان رئيسهم . ﴿ فتعاطى ﴾ فاجترأ على الأمر العظيم فتناول العقر وأحدثه بها أو تعاطى الناقة أو السيف او الأجر . والهشيم الشجر اليابس المتهشم أي المتكسر والمحتظر الذي يعمل الحظيرة ، ووجه التشبيه أن ما يحتظر به ييبس بطول الزمان وتتوطؤه البهائم فيتكسر وأنهم صاروا موتى جاثمين ملقى بعضهم فوق بعض كالحطب الذي يكسر في الطرق والشوارع . ويحتمل أن يكون ذلك لبيان كونهم وقوداً للجحيم كقوله ﴿ فكانوا لجهنم حطباً ﴾ والحاصب الريح التي ترميهم بالحجارة وقد مرّ في " العنكبوت " .

ولعل التذكير بتأويل العذاب . والسحر القطعة من الليل وهو السدس الآخر كما مر في " هود " و " والحجر " . وصرف لأنه نكرة وإذا أردت سحر يومك لم تصرفه . والظاهر أن الاستثناء من الضمير في ﴿ عليهم ﴾ لأنه أقرب ولأنه المقصود . وجوز أن يكون استثناء من فاعل كذبت وهو بعيد ﴿ نعمة ﴾ مفعول له أي إنعاماً . وقوله ﴿ كذلك نجزي من شكر ﴾ أكثر المفسرين على أنه إشارة إلى أنه تعالى يصون من عذاب الدنيا كل من شكر

نعمة الله بالطاعة والإيمان . وقيل : إنه وعد بثواب الآخرة أي كما نجيناهم من عذاب الدنيا ننعم عليهم يوم الحساب بالثواب .

(279/737)

وحين أجمل قصتهم فصلها بعض التفصيل قائلاً ﴿ ولقد أنذرهم ﴾ أي لوط ﴿ بطشتنا ﴾ شدة أخذنا بالعذاب ﴿ فتماروا بالنذر ﴾ فتشاكوا بالإنذارات ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه ﴾ معناها قريب من المطالبة كما مر في "يوسف" . والضمير للقوم باعتبار البعض لأن بعضهم راودوه وكان غيرهم راضين بذلك فكانوا جميعاً على مذهب واحد . ﴿ فطمسنا أعينهم ﴾ مسخناها وجعلناها مع الوجه صفحة ملساء لا يرى لها شق . وإنما قال في "يس" ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ﴾ [الآية : 66] بزيادة حرف الجر لأنه أراد به إطباق الجفنين على العين وهو أمر كثير الوقوع قريب الإمكان بخلاف ما وقع للمراودين من قوم لوط فإنه أنذر وأبعد والكل بالإضافة إلى قدرة الله تعالى واحد ، إلا أنه حين علق الطمس بالمشيئة ذكر ما هو أقرب إلى الوقوع كيلا يكون للمنكر مجال كثير . ونقل عن ابن عباس أن المراد بالطمس المنع عن الإدراك فما جعل على بصرهم شيئاً غير أنهم دخلوا ولم يروا هناك شيئاً . ولعل في هذا النقل خللاً لأنه لا يناسب قوله عقيب ذكر

الطمس ﴿ فذوقوا عذابي ونذر ﴾ أي فقلت لهم على ألسنة الملائكة ذوقوا ألم عذابي وتبعة إنذاراتي . ثم حكى العذاب الذي عم الكل بقوله ﴿ ولقد صبحهم ﴾ ولقائل أن يسأل : مع الفائدة في قوله ﴿ بكرة ﴾ مع قوله ﴿ صبحهم ﴾ والجواب أن ﴿ صبحهم ﴾ يشمل من أول الصبح إلى آخر الإسفار وأنه تعالى وعدهم أول الصبح كما قال ﴿ إن موعدهم الصبح ﴾ [هود : 81] فأراد بقوله ﴿ بكرة ﴾ تحقيق ذلك الوعد . ويمكن أن يقال : قد يذكر الوقت المبهم لبيان أن تعيين الوقت غير مقصود كما تقول : خرجنا في بعض الأوقات ولا فائدة فيه إلا قطع المسافة . فإنه ربما يقول السامع متى خرجتم فيحتاج إلى أن تقول في وقت كذا أو في وقت من الأوقات . فإذا قال من أول الأمر في وقت من الأوقات أشار إلى أن غرضه بيان الخروج لا تعيين وقته وبمثله أجيب عن قوله

﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾ [الإسراء : 1] ويحتمل أن يقال : ﴿ صبحهم ﴾ معناه قال لهم بكرة عموا صباحاً وهو بطريق التهكم كقوله ﴿ فبشرهم بعذاب ﴾ [آل عمران : 21] ويجوز أن يكون التصبيح بمعنى الإغاثة من قولهم " يا صباحاه " والعذاب المستقر الثابت الذي لا مدفع له أو الذي استقر عليهم ودام إلى الاستئصال الكلي

أو إلى القيامة وما بعدها . قوله ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ﴾ يعني موسى وهارون وغيرهما وأنهما عرضا عليه ما أنذر به المرسلون وهو بمعنى الإنذارات ﴿ بآياتنا كلها ﴾ هي الآيات التسع أو جميع معجزات الأنبياء عليهم السلام لأن تكذيب البعض تكذيب الكل العزيز المقتدر الغالب الذي لا يعجزه شيء . ثم خاطب كفار أهل مكة بقوله ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ﴾ المكذبين وهو استفهام إنكار لأن الأقدمين كانوا أكثر عدداً وقوة وبطشاً ﴿ أم لكم براءة في الزبر ﴾ الكتب المتقدمة أن من كفر منكم كان آمناً من سخط الله فأمنتم بتلك البراة كما أن البيداء وهو من في يده قانون أصل الخراج إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة ﴿ أم يقولون نحن جميع ﴾ جمع مجتمع أمرنا ﴿ منتصر ﴾ منتقم عن أبي جهل أنه ضرب فرسه يوم بدر فتقدم في الصف فقال : نحن ننصر اليوم من محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فنزلت ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ أي الأدبار . عن عكرمة : لما نزلت هذه الآية قال عمر : أي جمع يهزم ؟ فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يثبت في الدرع ويقول ﴿ سيهزم الجمع ﴾ عرف تأويلها ﴿ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى ﴾ من أنواع عذاب الدنيا أو أدهى الدواهي . والداهية اسم فاعل من دهاه أمر كذا إذا أصابه ويختص بأمر صعب كالحادثة والنازلة . ﴿ وأمر ﴾ من المرارة . وقيل : من المرور أي أدوم وأكثر مروراً . وقيل : من المرة الشدة . قوله ﴿

إن المجرمين ﴾ الآية . روى الواحدي في تفسيره بإسناده عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم

(281/737)

في القدر فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى قوله ﴿ خلقناه بقدر ﴾ وعن عائشة أن النبي صلى الله عيله وسلم قال " مجوس هذه الأمة القدرية " وهو المجرمون الذين سماهم الله في قوله ﴿ إن المجرمين في ضلال ﴾ عن الحق في الدنيا ﴿ وسعر ﴾ وهو نيران في الآخرة أو في ضلال وجنون في الدنيا لا يهتدون ولا يعقلون . أو في ضلال وسعر في الآخرة ، لأنهم لا يجدون إلى مقصودهم وإلى الجنة سبيلاً . والنيران ظاهر أنها في الآخرة ، وسقر علم لجهنم من سقرته النار وصقرته إذا لوحته ، والمشهور بناء على الحديث المذكور أن قوله ﴿ إنا كل شيء ﴾ متعلق بما قبله كأنه قال : إن مس النار جزاء من أنكر هذا المعنى وهو منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر . قال النحويون : النصب في مثل هذا الصور لازم لئلا يلتبس المفسر بالصفة ، وذلك أن النصب نص في المعنى المقصود وأما الرفع فيحتمل معنيين : أحدهما كل شيء فإنه مخلوق بقدر هو يؤدي مؤدى النصب ، والآخر كل شيء مخلوق لنا فإنه بقدر وهذا غير مقصود بل فاسد إذ يفهم منه أن شيئاً من الأشياء غير مخلوق لله ليس بقدر والقدر التقدير

أي كل شيء خلقناه مرتباً على وفق الحكمة أو مقدراً مكتوباً في اللوح ثابتاً في سابق العلم الأزلي .

(282/737)

واعلم أنه قد مر في هذا الكتاب أن الجبري يقول القدرية التي ذمها النبي صلى الله عليه وسلم هو المعتزلي الذي ينفي كون الطاعة والمعصية بتقدير الله . والمعتزلة تقول : الجبري الذي يدعي أن الزنا والسرقة وغيرهما من القبائح كلها بتقدير الله تعالى . وكذا حال السني لأنه وإن كان يثبت للعبد كسباً إلا أنه يسند الخير والشر إلى القضاء والقدر وقال بعض العلماء : إن كل واحد من الفريقين لا يدخل في اسم القدرية إلا إذا كان النافي نافياً لقدرة الله لا أن يقول : هو قادر على أن يلجىء العبد إلى الطاعة ولكن حكمته اقتضت بناء التكليف على الاختيار وإلا كان المثبت منكراً للتكليف وهم أهل الإباحة القائلين بأن الكل إذا كان بتقدير الله فلا فائدة في التكليف . ولعل وجه تشبيههم بالمجوس أنهم في أمة محمد صلى الله عليه وسلم كالمجوس يام بين الكفار المتقدمين فكما أن المجوس نوع من الكفرة أضعف شبهة وأشد مخالفة للعقل فكذلك القدرية في هذه الأمة وبهذا التأويل لا يلزم الجزم بأنهم من أهل النار ، وأيضاً لعل اسم القدرية لأهل الإثبات أولى منه لأهل النفي كما تقول :

دهري لأنه يقول بالدهر والثنوية لإثباتهم إليهن اثنين أو نوراً وظلمة . وقال بعضهم : هذا الاسم بأهل النفي أولى لأن الآية نزلت في منكري القدرة وهم المشركون القائلون بأن الحوادث كلها مستندة إلى اتصالات الكواكب وانصرافاتها فلا قدرة لله على شيء من ذلك . قوله ﴿ وما أمرنا إلا واحدة ﴾ أي إلا كلمة واحدة وهي "كن" تأكيد إثبات القدرة له وقد مر مثله في "النحل" . وقوله ﴿ كلمح بالبصر ﴾ تأكيد على تأكيد وهذا تمثيل وإلا فتكوينه وإيجاده عين مشيئته وأرادته . ومعنى الخلق والأمر أيضاً تقدم مشتبعاً في "الأعراف" ثم هددهم مرة أخرى بقوله ﴿ ولقد أهلكنا أشياعكم ﴾ أي أشباهكم في الكفر من الأمم . ثم ذكر نوعاً آخر من التهديد مع بيان كمال القدرة والعلم فقال ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾ أي في صحف الحفظة .

(283/737)

قال النحويون : هذا مما التزم فيه الرفع لأن النصب يكون نصاً في معنى غير مقصود بل فاسد إذ يلزم منه أن يكون ﴿ كل شيء ﴾ مفعولاً ﴿ في الزبر ﴾ وهذا معنى غير مستقيم كما ترى .

وأما الرفع فيحتمل معنيين . أحدهما صحيح مقصود وهو أن يقدر قوله ﴿ فعلوهن ﴾

صفة ل ﴿ شيء ﴾ والظرف خبر أي كل شيء مفعول للناس فإنه في الزبر . والآخر أن تقدر الجملة خبر أو يبقى الظرف لغواً فيؤدي الكلام حينئذ مؤدي النصب ، ولا ريب أن الوجه الذي يصح المعنى فيه على أحد الاحتمالين أولى من الذي يكون نصاً في المعنى الفاسد . ثم أكد المعنى المذكور بقوله ﴿ وكل صغير وكبير ﴾ من الأعمال بل مما وجد ويوجد ﴿ مستطر ﴾ أي مسطور في اللوح. ثم ختم السورة بوعد المتقين . والنهر جنس أريد به الأنهار اكتفى به للفاصلة . ولما سلف مثله مراراً كقوله ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ﴾ [الذاريات : 15] وقيل : معناه السعة والضياء من النهار ﴿ في مقعد صدق ﴾ وفي مكان مرضيّ من الجنة مقربين ﴿ عند مليك مقتدر ﴾ لا يكتنه كنه عظمته واقتداره نظيره قول القائل " فلان في بلدة كذا في دار كذا مقرب عند الملك " . ويحتمل أن يكون الظرف صفة ﴿ مقعد صدق ﴾ كما يقال " قليل عند أمين خير من كثير عند خائن " . قال أهل اللغة : القعود يدل على المكث بخلاف الجلوس ولهذا يقال للمؤمن " مقعد دون مجلس " ومنه قواعد البيت ، وكذا في سائر تقاليبه من نحو وقع أي لزق بالأرض وعقد . والإضافة في ﴿ مقعد صدق ﴾ كهي في قولك " رجل صدق " أي رجل صادق في الرجولية كامل فيها . ويجوز أن يكون سبب الإضافة أن الصادق قد أخبر عنه وهو الله ورسوله ، أو الصادق اعتقد فه وهو المكلف ، أو يراد مقعد لا يوجد فيه كذب فإن من

وصل إلى الله استحال عليه إلا الصدق وهو تبارك وتعالى أعلم وأجل وأكرم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 216.224 ﴾

(284/737)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة القمر

وتسمى اقتربت

مكية إلا ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ الآيا توهي خمس وخمسون آية وثلاثمائة واثنتان وأربعونكلمة وألف وأربعمائة وثلاثة وعشرون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ أي الذي أحاط علمه فتمت قدرته ﴿ الرحمن ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء فعمت الشقي والسعيد نعمته ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص بإتمام نعمته من اصطفاه فأسعدتهم رحمته .

﴿ اقتربت الساعة ﴾ دنت القيامة وفي أول هذه السورة مناسبة لآخر ما قبلها ، وهو قوله تعالى : ﴿ أزفت الأزفة ﴾ (النجم :)

فكأنه أعاد ذلك مستدلاً عليه بقوله تعالى : ﴿ أزفت الأزفة ﴾ فهو حق إذ القمر انشق .

وقوله تعالى : ﴿ وانشق القمر ﴾ ماض على حقيقته وهو قول عامّة المسلمين إلا من لا يلتفت إلى قوله وقد صح في الأخبار أنّ القمر انشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّتين ، وعن ابن مسعود قال : "انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا" وروى أنس بن مالك أنّ أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراً بينهما . وقال سنان عن قتادة : فأراهم انشقاق القمر مرتين . وقال أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله : لم ينشق بمكة . وقال مقاتل : انشق القمر ثم التأم بعد ذلك وقيل انشق بمعنى سينشق يوم القيامة ، وأوقع الماضي موقع المستقبل وهو خلاف الإجماع وقيل انشق بمعنى انفلق عنه الظلام عند طلوعه كما يسمى الصبح فلقاً وأنشد النابغة:

*فلما أدبروا ولهم دوي ** دعانا عند شق الصبح داع*

وإنما ذكرت ذلك تنبيهاً على ضعفه . وروى أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت قريش : سحركم ابن أبي كبشة فسلوا السفار فسألوهم فقالوا نعم قد رأيناه فأنزل الله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ .

﴿ وإن يروا ﴾ أي : كفار قريش ﴿ آية ﴾ أي : معجزة له صلى الله عليه وسلم كانشقاق القمر ﴿ يعرضوا ﴾ عنها ﴿ ويقولوا ﴾ هذا ﴿ سحر مستمرّ ﴾ أي : ذاهب سوف يذهب ويبطل من قولهم مرّ الشيء واستمرّ إذا ذهب مثل قولهم : قر واستقر قاله مجاهد وقتادة ، وقال أبو العالية والضحاك : مستمرّ أي : قوي شديد ، من قولهم : مر الحبل إذا صلب واشتد ، وأمررته : إذا أحكمت فتله ، واستمر الشيء إذا قوي واستحكم ، وقيل : مستمرّ أي دائم ، فإنّ محمداً صلى الله عليه وسلم كان يأتي كل زمان بمعجز فقالوا : هذا سحر مستمرّ دائم لا يختلف بالنسبة إلى شيء بخلاف سحر السحرة ، فإنّ بعضهم يقدر على أمر وأمرين وثلاثة ويعجز عن غيرها وهو قادر على الكلّ قاله الزمخشري ومنه قول الشاعر :

*ألا إنما الدنيا ليال وأعصر ** وليس على شيء قديم بمستمرّ*

وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال ألا إنّ الساعة قد اقتربت وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم مستمرّ دائم مطرد ، وكل شيء قد انقادت طريقه ودامت حاله قيل فيه قد استمّر وقال أبو حيان : سبب نزولها أنّ مشركي قريش قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين ووعدوا بالإيمان إن فعل ذلك وقال ليلة بدر أي ليلة أربعة عشر في الشهر فسأل ربه فانشق القمر فقالوا سحر مستمرّ ولم يؤمنوا .

﴿ وكذبوا ﴾ بكون انشقاقه دالاً على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وجزموا بالتكذيب عناداً ﴿ واتبعوا ﴾ أي : بمعالجة فطرتهم الأولى المستقيمة في دعائها إلى التصديق ﴿ أهواءهم ﴾ في أنه صلى الله عليه وسلم سحر القمر وأنه خسوف في القمر وظهور شيء في جانب آخر من الجوّ يشبه نصف القمر وأنه سحر أعيننا وأنّ القمر لم يصبه شيء فهذه أهواؤهم .

قال القشيري : إذا حصل اتباع الهوى فمن شؤمه يحصل التكذيب لأنّ الله تعالى يلبس على قلب صاحبه حتى لا يستبصروا الرشد واتباع الرضا مقرون بالتصديق لأنّ الله تعالى ببركات الاتباع للحق يفتح عين البصيرة فيأتي بالتصديق .

(286/737)

﴿ وكل أمر ﴾ أي : من أموركم من الخير أو الشرّ ﴿ مستقرّ ﴾ أي : بأهله في الجنة أو النار وقال قتادة وكل أمر مستقرّ فالخير مستقر بأهل الخير والشرّ مستقرّ بأهل الشرّ وقيل مستقرّ قول المصدّقين والمكذبين حتى يعرفوا حقيقته بالثواب والعذاب ، وقيل : كل أمر مستقرّ في علم الله تعالى لا يخفى عليه شيء فهم كذبوا واتبعوا أهواءهم والأنبياء صدقوا وبلغوا كقوله تعالى : ﴿ لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ (غافر :)

﴿ ولقد جاءهم ﴾ أي أهل مكة في القرآن قبل الانشقاق ﴿ من الأنباء ﴾ أي : أخبار إهلاك الأمم الماضية المكذبة رسلهم لأنّ الأنباء الأخبار العظام التي لها وقع كقول الهدهد ﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾ (النمل :)

لأنه كان خبراً عظيماً له وقع وخطر وقال تعالى : ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ ﴾ (الحجرات :)

أي بأمر عظيم له خطر وإنما يجب التثبت فيما يتعلق به حكم ويترتب عليه أمر ذو بال ﴿ ما فيه ﴾ خاصة ﴿ مزدجر ﴾ أي : عمّا هم فيه من الباطل ، ولكن لم يزدجر منهم إلا من أراد الله تعالى .

تنبيه : المزدجر اسم مصدر أي ازدجار أو اسم مكان أي موضع ازدجار والدال بدل من تاء الافتعال وازدجرته وزجرته نهيته بغلظة وما موصولة أو موصوفة .

وقوله تعالى : ﴿ حكمة ﴾ خبر مبتدأ محذوف أو بدل من ما أو من مزدجر ﴿ بالغة ﴾ أي : لها أعظم البلوغ إلى أنهى غايات الحكمة لصحتها ووضوحها ففيها مع الزجر ترجئة ومواعظ وأحكام ودقائق ﴿ فما تغن ﴾ أي : تنفع ﴿ النذر ﴾ أي : الإنذارات والمنذرون والأمور المنذر بها ومنها إنما المغني بذلك هو الله تعالى فما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن .

قال البقاعي : ولعل الإشارة بإسقاط ياء تغني بإجماع المصاحف من غير موجب في اللفظ

إلى أنه كما سقطت غاية أحرف الكلمة سقطت ثمرة الإنذار وهو القبول .

تنبيه : يجوز في ما أن تكون استفهامية وتكون في محل نصب مفعولاً مقدّماً أي أي شيء تغني النذر وأن تكون نافية أي لم تغن النذر شيئاً والنذر جمع نذير والمراد به المصدر أو اسم الفاعل .

(287/737)

ولما كان صلى الله عليه وسلم شديد التعلق بطلب نجاتهم فهو لذلك ربما اشتهى إجابتهم إلى مقترحاتهم تسبب عن ذلك قوله تعالى : ﴿ فتولّ عنهم ﴾ أي : كلف نفسك الإعراض عن تمني ذلك فما عليك إلا البلاغ وأمّا الهداية فإلى الله تعالى وحده .

تنبيه : قال أكثر المفسرين نسختها آية السيف وقال الرازي إنّ قول المفسرين في قوله تعالى : ﴿ فتولّ ﴾ منسوخ ليس كذلك بل المراد منه لا تناظرهم بالكلام وقوله تعالى : ﴿ يوم ﴾ منصوب باذكر ، أي : واذكر يوم ﴿ يدع الداع ﴾ . وقيل : منصوب بيخرجون بعده والداعي معرف كالمنادي في قوله تعالى : ﴿ يوم ينادي المنادي ﴾ (ق :)

لأنه معلوم قد أخبر عنه فقيل إنّ منادياً ينادي وداعياً يدعو ، فقيل : الداعي إسرافيل عليه السلام ينفخ قائماً على صخرة بيت المقدس قاله مقاتل ، وقيل : جبريل عليه السلام وقيل :

ملك موكل بذلك والتعريف حينئذ لا يقطع حدّ العلمية ويكون كقولنا جاء رجل فقال الرجل قاله الرازي . وقرأ نافع وأبو عمرو بحذف الياء بعد العين وقفاً وإثباتها وصلاً وابن كثير بإثباتها وقفا ووصلا والباقون بحذفها وقفا ووصلا ﴿ إلى شيء نكر ﴾ أي : منكر فظيع لم ير مثله فينكرونه استعظاماً .

فإن قيل ما ذلك الشيء المنكر أجيب بأنه الحساب أو الجمع له أو النشر للجمع فإن قيل النشر لا يكون منكراً فإنه أحياء ولأنّ الكافر من أين يعرف وقت النشر ما يُجزى عليه لينكره أجيب بأنه يعلم ذلك لقوله تعالى عنهم : ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ (يس :) وقرأ ابن كثير بسكون الكاف والباقون بالرفع .

ولما بين تعالى دعاءه بما هال أمره بين حال المدعوّين زيادة في الهول فقال تعالى : ﴿ خشعاً أبصارهم ﴾ أي : ينظرون نظر الخاضع الذليل السافل المنزلة المستوحش الذي هو شرّ حال ، ونسب الخشوع إلى الأبصار لأنّ الذل والعز يتبين في النظر والذل أن يرمي به صاحبه إلى الأرض مثلاً مع هيبة يعرف منها ذلك كما قال تعالى : ﴿ خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي ﴾ (الشورى :)

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بفتح الخاء وألف بعدها وكسر الشين والباقون بضم الخاء ولا ألف بعدها وفتح الشين مشدّدة أمّا القراءة الأولى فهي جارية على اللغة الفصحى من حيث إنّ الفعل وما جرى مجراه إذا قدّم على الفاعل وحد تقول : تخشع أبصارهم ، ولا تقول : تخشعن أبصارهم وأمّا القراءة الثانية فجاءت على لغة طيىء يقولون : أكلوني البراغيث قال الزمخشري : ويجوز أن يكون في خشعاً ضمير هم ويقع أبصارهم بدلاً عنه ا . هـ . وتقدّم نظير ذلك في قوله تعالى في الأنبياء : ﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ (الأنبياء :)

وجملة ﴿ خُشَّعاً أبصارهم ﴾ حال من فاعل ﴿ يخرجون ﴾ أي : الناس ﴿ من الأجداث ﴾ أي : القبور ﴿ كأنهم جراد ﴾ أي : في كثرتهم وتراكم بعضهم على بعض وصغارهم وضعفهم وتموّجهم يقال في الجيش الكثير المائج بعضه فوق بعض جاؤوا كالجراد وكالذباب ﴿ منتشر ﴾ أي : منبث متفرّق في كل مكان لكثرتهم لا يدرون أين يذهبون . ﴿ مهطعين ﴾ أي : مسرعين مادّي أعناقهم ﴿ إلى الداعي ﴾ مصوبي رؤوسهم إليه لا يلتفتون إلى سواه كما يفعل من ينظر في ذل وخضوع وصمت واستكانة هذا حال الكل ، وأمّا الكافر فنبه عليه بقوله تعالى : ﴿ يقول ﴾ أي : على سبيل التكرار ﴿ الكافرون ﴾ أي الذين كانوا في الدنيا عريقين في ستر الأدلة وإظهار الأباطيل المضلة : ﴿ هذا ﴾ أي الوقت الذي نحن فيه لما نرى فيه من الأهوال ﴿ يوم عسر ﴾ أي : في غاية العسر والصعوبة

والشدّة وذلك بحسب حالهم فيه كما قال تعالى في سورة المدّثر : ﴿ يوم عسير على الكافرين ﴾ (المدثر : ـ)

ولما فرغ من حكاية كلام الكافرين ومن ذكر علامات الساعة أعاد ذكر بعض الأنبياء فقال تعالى:

﴿ كذبت ﴾ أي : أوقعت التكذيب العظيم الذي عموا به جميع الرسالات وجميع الرسل ﴿ قبلهم ﴾ أي : أهل مكة ﴿ قوم نوح ﴾ مع ما كان بهم من القوّة ولهم من الانتشار في جميع الأقطار ، وأنث فعلهم تحقيراً لهم ، وتهويناً لأمرهم في جنب قدرته تعالى .

(289/737)

فإن قيل : إلحاق الضمير المؤنث بالفعل قبل ذكر الفاعل جائز وحسن بالاتفاق وإلحاق ضمير الجمع بالفعل قبيح عند أكثرهم فلا يجوزون كذبوا قوم نوح ويجوّزون كذبت فما الفرق ؟ أجاب الرازي بأنّ التأنيث إنما جاز قبل الجمع لأن الأنوثة والذكورة للفاعل أمر لا يتبدل ولم تحصل الأنوثة للفاعل بسبب فعله بخلاف الجمع لأنّ الجمع للفاعلين بسبب فعلهم ﴿ فكذبوا عبدنا ﴾ نوحاً عليه السلام على ماله من العظمة بنسبته إلينا مع تشريفنا إياه بالرسالة ﴿ وقالوا ﴾ زيادة على التكذيب ﴿ مجنون ﴾ أي : فهذا الذي يصدر منه من

الخوارق أمر من الجنّ .

﴿ وازدجر ﴾ وهل هذا من مقولهم أي قالوا : إنه ازدجر أي ازدجرته الجنّ وذهبت بلبه قاله مجاهد ، أو هو من كلام الله تعالى أخبر الله تعالى عنه بأنه انتهر وازدجر بالسب وأنواع الأذى ، وقالوا : ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ (الشعراء :)

.

قال الرازي : وهذا أصح لأنّ المقصود تقوية قلب النبيّ صلى الله عليه وسلم بذكر من تقدّمه وأيضاً يترتب عليه قوله تعالى : ﴿ فدعا ربه ﴾ وهذا الترتيب في غاية الحسن ، لأنّهم لمّا زجروه وانزجر هو عن دعائهم دعا ربه الذي رباه بالإحسان إليه وبرسالته ﴿ أني ﴾ أي : بأني ﴿ مغلوب ﴾ أي : من قومي كلهم بالقوّة والمنعة لا بالحجة وأكده ابلاغاً في الشكاية وإظهار الذل العبودية ؛ لأنّ الله تعالى عالمٌ بسر العبد وجهره فما شرع الدعاء في أصله إلا لإظهار التذلل وكذا الإبلاغ فيه ، وقال ابن عطية : غلبتني نفسي وحملتني على الدعاء عليهم . قال ابن عادل : وهو ضعيف . ﴿ فانتصر ﴾ أي : أوقع نصرتي عليهم أنت وحدك على أبلغ وجه فانتقم لي منهم .

(290/737)

﴿ ففتحنا ﴾ أي : بسبب دعائه فتحاً يليق بعظمتنا ﴿ أبواب السماء ﴾ أي : كلها في جميع الأقطار ، وعَبَّرَ بجمع القلة عن جمع الكثرة والمراد من الفتح والأبواب والسماء حقائقها فإنّ للسماء أبواباً تفتح وتغلق وقيل : هذا على سبيل الاستعارة فإنّ الظاهر أنّ الماء كان من السحاب فهو كقول القائل في المطر الوابل جرت ميازيب السماء وفي قوله تعالى : ﴿ ففتحنا ﴾ بيان بأنّ الله تعالى انتصر منهم وانتقم بماء لا بجند أنزله ومن العجب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين فأهلكهم الله تعالى بمطلوبهم وقرأ ابن عامر بتشديد التاء بعد الفاء والباقون بالتخفيف .

وفي الباء في قوله تعالى : ﴿ بماء ﴾ وجهان : أظهرهما : أنّها للتعدية وذلك على المبالغة في أنه جعل الماء كالآلة للفتح به كما تقول فتحت بالمفتاح والثاني أنها للحال أي فتحناها ملتبسة بماء ﴿ منهمر ﴾ أي : منصب بأبلغ ما يكون من السيلان والصب كثرة وعظماً ولذلك لم يقل بمطر لأنّه خارجٌ عن تلك العادة واستمرّ ذلك أربعين يوماً .

﴿ وفَجّرْنا ﴾ أي : صدّعنا بما لنا من العظمة وشققنا وبعثنا وأسلنا ﴿ الأرض عيونا ﴾ أي : جميع عيون الأرض ولكنّه عدل عنه للتهويل بالإبهام ثمَّ البيان وإفادة أنّ وجه الأرض صار كله عيوناً وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين والباقون بضمها .

﴿ فالتقى الماء ﴾ أي : المعهود وهو ماء السماء وماء الأرض بسبب فعلنا هذا ، وزاد في

تعظيمه بأداة الاستعلاء فقال تعالى : ﴿ على أمرٍ ﴾ أي : حالٍ ﴿ قد قدرِ ﴾ أي : قضى أي في الأزل وهو هلاكهم غرقاً بماء مقدّر لا يزيد قطرة ولا يهلك غير من أمرناه بإهلاكهم .

(291/737)

﴿ وحملناه ﴾ أي : نوحاً عليه السلام تتميماً لانتصاره ﴿ على ذات ﴾ أي : سفينة صاحبةِ ﴿ ألواح ﴾ أي : أخشاب نجرت حتى صارت عريضة ﴿ ودسر ﴾ جمع دسار ككتاب وهو ما تشدّ به السفينة من مسمار وحديد أو خشب أو من خيوط الليف ونحوها قال البقاعي : ولعله عبّر عن السفينة بما شرحها تنبيهاً على قدرته على ما يريد .

﴿ تجري ﴾ أي : السفينة ﴿ بأعيننا ﴾ أي : محفوظة من أنْ تدخل بحر الظلمات ، أو يأتي عليها غير ذلك من الآفات بحفظنا على مالنا من العظمة حفظ من ينظر الشيء بأعين كثيرة ولا يغيب عنه أصلاً ، وجوّزوا أنْ يكون جمع تكسير لعين الماء . وقوله تعالى :

﴿ جزاء ﴾ منصوب بفعل مقدّر أي أغرقوا انتصاراً ﴿ لمن كان كفر ﴾ وهو نوح عليه الصلاة والسلام أو الباري تعالى:

﴿ ولقد تركناها ﴾ أي : أبقينا هذه الفعلة العظيمة من جري السفينة على هذا الوجه وإبقاء نوعها دالة على ما لنا من العظمة وقيل تلك السفينة بعينها بقيت على الجودي حتى

أدرك بقاياها أول هذه الأمّة ﴿آية﴾ أي: علامة عظيمة على مالنا من العلم المحيط والقدرة التامّة ﴿فهل من مدّكر﴾ أي: معتبر ومتعظ بها وأصله مذتكر أبدلت التاء دالاً مهملة وكذا المعجمة وأدغمت فيها.

وقوله تعالى: ﴿فكيف كان﴾ أي وجد وتحقق ﴿عذابي﴾ أي: لمن كفر وكذب رسلي ﴿ونذر﴾ أي: إنذاري، استفهام تقرير فكيف خبر كان وهي للسؤال عن الحال والمعنى حمل المخاطبين على الإقرار بوقوع عذابه تعالى بالمكذبين لنوح موقعه وقرأ ورش بإثبات الياء بعد الراء وصلا لا وقفاً جميع ما في هذه السورة، والباقون بغير ياء وقفاً ووصلاً.

(292/737)

قال البقاعي: ولما كان هذا المفصل مما أنزل أول القرآن تيسيراً على الأمّة نبه على ذلك بقوله تعالى: ﴿ولقد يسرنا﴾ أي: على مالنا من العظمة ﴿القرآن﴾ أي: على ماله من الجمع والفرق والعظمة المناسبة لكونه وصفاً لنا ﴿للذكر﴾ أي: الاتعاظ والتذكر والتدبر والفهم والتشريف والحفظ لمن يراعيه. قال ابن برجان: أنزلناه باللسان العربي ونزلناه للإفهام تنزيلاً، وضربنا لهم الأمثال، وأطلنا لهم في هذه الأعمار ليتذكروا الميثاقَ المأخوذَ

عليهم ، وقال القشيري : يسرّ قراءته على ألسنة قوم وعلمه على قلوب قوم وفهمه على قلوب قوم وحفظه على قلوب قوم وكلهم أهل القرآن وخاصته وليس يُحفظ من كتب الله تعالى عن ظهر قلب غيره . قاله المحلى . ﴿ فهل من مدكر ﴾ أي : معتبر ومتعظ بها وتقدم أصله .

ولما انقضت قصة نوح عليه السلام على هذا الهول العظيم ذكر قصة عاد لأنها أعظم قصة جرت بعد قوم نوح فيما تعرفه العرب بقوله تعالى:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

﴿ كذبت عاد ﴾ أي : أوقعت التكذيب العام المطلق الذي أوجب تكذيبهم برسولهم هود عليه الصلاة والسلام في دعائه لهم إليّ وإنذاره عذابي ﴿ فكيف ﴾ أي : فعلى أي الأحوال لأجل تكذيبهم ﴿ كان عذابي ﴾ لهم ﴿ ونذر ﴾ أي : وإنذاري إياهم بلسان رسولي قبل نزوله ، أي وقع موقعه .

فإن قيل : لِمَ لم يقل : فكذبوا هودا كما قال تعالى في قصة نوح : ﴿ فكذبوا عبدنا ﴾ أجيب : بأنّ تكذيب قوم نوح أبلغ لطول مقامه فيهم وكثرة عنادهم وإمّا لأن قصة عاد ذكرت مختصرة .

ثم بين عذابهم بقوله تعالى : ﴿ إنا أرسلنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة . ﴿ عليهم ريحاً ﴾ وعبر بحرف الاستعلاء إعلاماً بالنقمة ، ثم وصف الريح بقوله تعالى : ﴿ صرصراً ﴾ أي : شديدة الصوت من صرصر الباب أو القلم إذا صوت ، وقيل : الشديدة البرد من الصر ، وهو البرد ، وقال مكي : أصله صرّر من صرَّ الشيء إذا صوت لكن أبدلوا من الراء المشدّة صاداً وهذا قول الكوفيين وقال الرازي : الصرصر : الدائمة الهبوب ، من أصر على الشيء إذا دام وثبت .

وأكد شؤمها بذم زمانها فقال تعالى : ﴿ في يوم نحس ﴾ أي : شديد القباحة قيل : كان ذلك يوم الأربعاء في آخر الشهر وهو شوال لثمان بقين منه ، واستمر إلى غروب شمس الأربعاء آخره ، فإنه قال تعالى في سورة الحاقة : ﴿ سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ وقال تعالى في حم السجدة : ﴿ في أيام نحسات ﴾ (فصلت :)

فالمراد باليوم هنا الوقت والزمان ، وقوله تعالى : ﴿ مستمر ﴾ أي : دائم الشؤم إلى وقت نفاذ المراد منه يفيد ما تفيده الأيام ، لأنّ الاستمرار ينبىء عن امتداد الزمان كما تنبىء عنه الأيام ، والحكاية مذكورة هنا على سبيل الاختصار ، فذكر الزمان ولم يذكر مقداره على

سبيل الإيجاز فاستمر عليهم بنحوسه ولم يبق منهم أحد إلا أهلكه ، هذا وصفها في ذاتها .

وأمّا وصفها بفعلها فيهم فذكره بقوله تعالى : ﴿ تنزع ﴾ أي : تأخذ ﴿ الناس ﴾ أي : الذين هم صور لاثبات لهم بأرواح التقوى من الأرض : بعضهم من وجهها ، وبعضهم من حُفَرٍ حفروها ليمتنعوا بها من العذاب فتطيرهم بين السماء والأرض كأنهم الهباء المنثور فتقلع رؤوسهم من جثثهم .

وقوله تعالى : ﴿ كأنهم ﴾ أي : حين ينزعون فيلقون لا أرواح فيهم ﴿ أعجاز نخل ﴾ أي : أصول نخل قطعت رؤوسها حال من الناس مقدرة . وقوله : ﴿ منقعر ﴾ صفة لنخل باعتبار الجنس وأنث في الحاقة فقال : ﴿ نخل خاوية ﴾ (الحاقة :)

(294/737)

باعتبار معنى الجماعة . قال ابن عادل : وإنما ذكَّر هنا وأنث هناك مراعاة للفواصل في الموضعين . وقال الرازي : ذكر الله تعالى لفظ النخل في مواضع ثلاثة ووصفها على الأوجه الثلاثة فقال تعالى : ﴿ والنخل باسقات ﴾ (ق :)

وذلك حال عنها وهي كالوصف ، وقال تعالى : ﴿ نخل خاوية ﴾ (الحاقة :)

و ﴿ نخل منقعر ﴾ فحيث قال : منقعر كان المختار ذلك لأنّ المنقعر في حقيقة الأمر

كالمفعول لأنه ورد عليه القعر فهو مقعور ، والخاوي والباسق فاعل ، وإخلاء المفعول من علامة التأنيث أولى : تقول : امرأة قتيل ، وأمّا الباسقات فهي فاعلات حقيقة لأنّ البسوق أمر قائم بها ، وأمّا الخاوية فهي من باب حسن الوجه لأنّ الخاوي موضعها فكأنه قال نخل خاوية المواضع ، وهذا غاية الإعجاز حيث أتى بلفظ مناسب للألفاظ السابقة واللاحقة من حيث اللفظ .

تنبيه : الأعجاز جمع عجْز وهو مؤخر الشيء ، ومنه العجْز لأنه يؤدي إلى تأخير الأمور ، والمنقعر المنقلع من أصله : يقال : قعرت النخلة : قلعتها من أصلها فانقعرت ، وقعرت البئر وصلت إلى قعرها ، وقعرت الإناء شربت ما فيه حتى وصلت إلى قعره .

وكرّر قوله تعالى : ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ للتهويل . وقيل : الأوّل : لما حاق بهم في الدنيا ، والثاني : لما يحيق بهم في الآخرة ، كما قال أيضاً في قصتهم : ﴿ لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى ﴾ (فصلت :)

وتقدّم تفسير قوله تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ﴾ وكرّره إيذاناً بأنّ تفسير القرآن مع إعجازه لا يكون إلا بعظمة تفوت قوى البشر ، وتعجز عنها منهم القدر .

ولما انقضت قصة عاد ذكر تعالى قصة ثمود لأنها تلي قصة عاد في الفظاعة ، فقال تعالى : ﴿ كذبت ثمود ﴾ أي قوم صالح عليه السلام وقوله تعالى : ﴿ بالنذر ﴾ جمع نذير بمعنى منذر أي بالإنذارات التي أنذرهم بها نبيهم صالح عليه السلام إن لم يؤمنوا به .

ثم علل ذلك وعقبه بقوله تعالى : ﴿ فقالوا ﴾ منكرين لما جاءهم من الله تعالى غاية الإنكار ﴿ أبشراً ﴾ إنكار الرسالة ، هذا النوع ليكون إنكار النبوة نبيهم على أبلغ الوجوه وهو منصوب بفعل يفسره ﴿ نتبعه ﴾ الآتي ، وقولهم : ﴿ منا ﴾ نعت له أي فلا فضل له علينا فما وجه اختصاصه بذلك من بيننا ، وقولهم : ﴿ واحداً ﴾ نعت له أيضاً ، ثم عظموا الإنكار بقولهم ﴿ نتبعه ﴾ أي : نجاهد أنفسنا في خلع مألوفنا وما كان عليه آباؤنا ، والاستفهام بمعنى النفي والمعنى : كيف نتبعه ونحن أشد الناس قوّة وكثرة وهو واحد منّا . ثمَّ استنتجوا من هذا الإنكار الشديد قولهم مؤكدين : ﴿ إنَّا إذاً ﴾ أي : إن أتبعناه ﴿ لفي ضلال ﴾ أي : ذهاب عن الصواب محيط بنا ﴿ وسعر ﴾ أي : ونيران جمع سعير فعكسوا عليه وقالوا : إن اتبعناك كنا إذاً كما تقول ، وقيل : السعر الجنون يقال ناقة مسعورة قال الشاعر :

*كأنّ بها سعر إذا العيس هزها ** ذميل وإرخاء من السير متعب*

ثم استدلوا بأمر آخر ساقوه مساق الإنكار فقالوا : ﴿ أألقي ﴾ أي : أنزل ﴿ الذكر ﴾ أي : الوحي الذي يكون به الشرف الأعظم بغتة في سرعة ﴿ عليه ﴾ لأنه لم يكن عندهم في

مضمار هذا الشأن ، ولا توسموا فيه قبل إشارته به شيئاً منه بل أتاهم به بغتة في غاية الإسراع ودلوا على وجه التعجب والإنكار بالاختصاص بقولهم : ﴿ من بيننا ﴾ أي : وفينا من هو أولى بذلك منه سنا وشرفاً ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : بتحقيق الهمزة الأولى المفتوحة وتسهيل الثانية المضمومة كالواو ، وأدخل قالون وأبو عمرو بينهما ألفا بخلاف عن أبي عمرو ولم يدخل ورش وابن كثير ألفا ، وأمّا هشام فله تسهيل الثانية وتحقيقها وإدخال الألف بينهما مع التحقيق ، والباقون بتحقيقهما مع عدم الإدخال ، وإذا وقف حمزة فله في الثانية التسهيل وإبدالها واواً والتحقيق .

(296/737)

ثم أضربوا عن ذلك الاستفهام لأنه بمعنى النفي بقولهم : ﴿ بل هو كذاب ﴾ أي : بليغ في الكذب في قوله إنه أوحى إليه ما ذكر ﴿ أشر ﴾ أي : متكبر بطر غلبت عليه البطالة حتى أعجبته نفسه فتجبر فهو يريد الترفع ، قال الله تعالى : ﴿ سيعلمون ﴾ أي : بوعد لا خلف فيه ﴿ غداً ﴾ أي : في الزمن الآتي القريب وهو يوم القيامة ، لأنّ كل ما حقق إتيانه قريب عند نزول العذاب في الدنيا ويوم القيامة .

(297/737)

وقرأ ابن عامر وحمزة بعد السين بتاء الخطاب وفيه وجهان : أحدهما أنه حكاية عن قول صالح عليه السلام لقومه . والثاني : أنه خطاب من الله تعالى على جهة الالتفات ، والباقون بياء الغيبة جرياً على الغيب قبله في قوله تعالى : ﴿ فقالوا أبشراً ﴾ واختار هذه القراءة مكي ، لأنّ عليها الأكثر . ﴿ من الكذاب الأشر ﴾ أي : وهو هم بأن يعذبوا على تكذيبهم لنبيه صالح صلى الله عليه وسلم وروي أنهم تعنتوا عليه فسألوه أن يخرج لهم من صخرة ناقة حمراء عشراء فقال تعالى : ﴿ إنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ مرسلوا الناقة ﴾ أي موجدوها لهم ومخرجوها كما اقترحوا من حجر أهلناه لذلك وخصصناه من بين الأحجار دلالة على إرسالنا صالحاً عليه السلام : مخصصين له من بين قومه وذلك أنهم قالوا لصالح عليه السلام نريد أن نعرف المحق ، منا بأن ندعوا آلهتنا وتدعو إلهاك فمن أجابه إلهه علم أنه المحق فدعوا أوثانهم فلم تجبهم ، فقالوا : ادع أنت فقال : فما تريدون ؟ قالوا : تخرج لنا من هذه الصخرة ناقة عشراء وبراء ، فأجابهم إلى ذلك بشرط الإيمان ، فوعدوه بذلك وأكدوا فكذبوا بعد ما كذبوا في أنّ آلهتهم تجيبهم ، وصدق هو عليه السلام في كل ما قال فأخبره ربه سبحانه أنه يجيبهم إلى إخراجها ﴿ فتنة لهم ﴾ أي : امتحاناً يخالطهم به فيميلهم عن حالتهم التي وعدوا بها وتخليهم عنها ، لأنّ المعجزة فتنة لأنّ بها يتميز المثاب من المعذب ، فالمعجزة تصديق وحينئذ يفترق المصدّق من المكذب ، أو يقال : إخراج الناقة من الصخرة

معجزة ودورانها بينهم وقسمة الماء كان فتنة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إنا مرسلوا الناقة ﴾ ولم يقل : ﴿ مخرجوا ﴾ .

(298/737)

﴿ فارتقبهم ﴾ أي : كلف نفسك انتظارهم فيما يكون لهم جزاء على أعمالهم انتظار من يحرسهم ﴿ واصطبر ﴾ أي : عالج نفسك واجتهد في الصبر عليهم ، وأصل الطاء في اصطبر تاء فتحولت طاء لتكون موافقة للصاد في الإطباق ﴿ ونبئهم ﴾ أي : أخبرهم إخباراً عظيماً بأمر عظيم وهو ﴿ أن الماء ﴾ أي : الذي يشربونه وهو ماء بئرهم ﴿ قسمة بينهم ﴾ أي : بين قوم صالح عليه السلام والناقة فغلَّب العاقل عليها ، والمعنى أنا إذا بعثناها كان لهم يوم لا تشاركهم فيه ، ولها يوم لا تدع في البئر قطرة يأخذها أحد منهم وتوسع الكل بدل الماء لبنا .

﴿ كل شرب ﴾ أي : نصيب من الماء ﴿ محتضر ﴾ أي : فالناقة تحضر الماء يوم وردها وتغيب عنهم يوم ورودهم قاله : مقاتل ، وقال مجاهد : إن ثمود يحضرون الماء يوم غيبها فيشربون ، ويحضرون اللبن يوم وردها فيحتلبون .

تنبيه : الحكمة في قسمة الماء إمّا لأنّ الناقة عظيمة الخلق فتنفر منها حيواناتهم فكان يوم

للناقة ويوم لهم ، وإمّا لقلة الماء فلا يحملهم ، وإمّا لأنّ الماء كان مقسوماً بينهم لكل فريق يوم ، فيوم ورد الناقة على هؤلاء يرجعون على الآخرين وكذلك الآخرون فيكون النقصان على الكل ، ولا تختص الناقة بجميع الماء ، روي أنهم كانوا يكتفون في يوم وردها بلبنها ، وليس في الآية إلا القسمة دون كيفيتها وظاهر قوله تعالى : ﴿ كل شرب محتضر ﴾ يعضد الوجه الثالث ، وحضر واحتضر بمعنى واحد .

وقوله تعالى : ﴿ فنادوا صاحبهم ﴾ فيه حذف قبله ، أي : فتمادوا على ذلك ثم ملّوه فعزموا على عقرها فنادوا صاحبهم وهو قدّار بن سالف الذي انتدبوه بطراً وأشراً لقتل الناقة وكذباً في وعدهم الإيمان وإكرامها بالإحسان وكان أشجعهم ، وقيل كان رئيسهم .

(299/737)

﴿ فتعاطى ﴾ أي : فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم غير مكترث به ﴿ فعقر ﴾ أي : فتسبب عن ذلك عقرها ، وقيل : فتعاطى الناقة فعقرها ، أو فتعاطى السيف فقتلها ، والتعاطي تفاعل الشيء بتكليف . قال محمد بن إسحق كمن لها في أصل شجرة على طريقها فرماها فانتظم به عضلة ساقها ثم شدّ عليها بالسيف فكشف عرقوبها فخرت ورغت رغاءة واحدة ثم نحرها . وقال ابن عباس : كان الذي عقرها احمر أزرق أشقر

أكشف أقعى يقال له قدار بن سالف ، والعرب تسمي الجزار قدار تشبيهاً بقدار بن سالف مشؤوم آل ثمود .

﴿ فكيف كان عذابي ﴾ أي : كان على حال ووجه هو أهل لأن يجتهد في الإقبال على تعرفه والسؤال عنه ﴿ ونذر ﴾ أي : إنذاري لهم بالعذاب قبل نزوله ، أي وقع موقعه .

وبينه بقوله تعالى : ﴿ إنا ﴾ أي : بمالنا من العظمة ﴿ أرسلنا ﴾ أي : إرسالاً عظيماً ﴿ عليهم صيحة ﴾ وحقر شأنهم بالنسبة إلى عظمة عذابه بقوله تعالى : ﴿ واحدة ﴾ صاحها عليهم جبريل عليه السلام فلم يكن لهم بصيحته هذه التي هي واحدة طاقة ، كما قال تعالى ﴿ فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ (القمر :)

وهو الذي يجعل لغنمه حظيرة من يابس الشجر والشوك يحفظهنّ فيها من الذئاب والسباع ، وما يسقط من ذلك فما داسته هو الهشيم والهشيم المهشوم المكسور ، ومنه سمي هاشم لهشمه الثريد في الجفان غير أنّ الهشيم يستعمل كثيراً في الحطب المتكسر اليابس قال المفسرون كانوا كالخشب المتكسر الذي يخرج من الحظائر ، بدليل قوله تعالى : ﴿ هشيماً تذروه الرياح ﴾ (الكهف :)

(300/737)

وهو من باب إقامة الصفة مقام الموصوف ، وتشبيههم بالهشيم : إمّا لكونهم يابسين كالموتى الذين ماتوا من زمان ، أو لانضمام بعضهم إلى بعض فاجتمعوا بعضهم فوق بعض كما يجمع الحاطب الحطب يضعه شيئاً فوق شيء منتظراً حضور من يشتري منه . قال ابن عادل : ويحتمل أن يكون ذلك لبيان كونهم في الجحيم ، أي كانوا كالحطب اليابس الذي للوقيد ، كقوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ (الأنبياء :) ، وقوله تعالى : ﴿ فكانوا لجهنم حطبا ﴾ (الجن :)

تنبيهات

أحدها : أنه تعالى ذكر ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ في ثلاثة مواضع ؛ ذكرها في حكاية نوح عليه السلام بعد بيان العذاب ؛ وذكرها ههنا قبل بيان العذاب ؛ وذكرها في حكاية عاد قبل بيانه ، وبعد بيانه فحيث ذكر قبل بيان العذاب فللبيان ، كقول العارف حكاية لغير العارف : هل تعلم كيف كان أمر فلان ؟ وغرضه أن يقول : أخبرني عنه وحيث ذكرها بعد بيان العذاب ذكرها للتعظيم ؛ كقول فلان : أي ضرب وأيما ضرب ، ويقول : ضربته وكيف ضربته ؟ أي قوياً وفي حكاية عاد ذكرها مرتين : للبيان والاستفهام .

ثانيها : أنه تعالى ذكر في حكاية نوح عليه السلام الذي للتعظيم وفي حكاية ثمود ذكر الذي للبيان ؛ لأنّ عذاب قوم نوح كان بأمر عظيم عام وهو الطوفان الذي عمّ العالم ولا كذلك عذاب قوم هود فإنه كان مختصاً بهم .

ثالثها : أنه تعالى ذكر في هذه السورة خمس قصص ، وجعل القصة المتوسطة مذكورة على أتم وجه ، لأنّ حال صالح عليه السلام كان أتمّ مشابهة بحال محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أتى بأمر عجيب أرضى ، وكان أعجب مما جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لأنّ عيسى عليه السلام أحيى الميت ، لكن الميت كان محلا للحياة ، فقامت الحياة بإذن الله تعالى في محل كان قابلاً لها ، وموسى عليه السلام انقلبت عصاه ثعباناً ، فأثبت الله تعالى له في الخشب الحياة بإذنه سبحانه ، لكن الخشبة نبات كان له قوة في النمو ، فأشبه الحيوان في النمّو ، وصالح عليه السلام كان الظاهر في بدء خروج الناقة من الحجر ، والحجر جماد ليس محلاً للحياة ، ولا محلاً للنمو ، ونبينا صلى الله عليه وسلم أتى بأعجب من الكل ، وهو المتصرّف في الجرم السماوي الذي يقول المشرك لا وصول لأحد إلى السماء ، وأمّا الأرضيات فقالوا : إنها أجسام مشتركة المواد تقبل كل واحدة منها صورة الأخرى ، والسماويات لا تقبل ذلك فلما أتى بما اعترفوا بأنه لا يقدر على مثله آدمي كان أتمّ وأبلغ من معجزة صالح عليه السلام التي هي أتم من معجزة سائر الأنبياء غير محمد صلى الله عليه وسلم

﴿ ولقد يسرنا ﴾ أي : على مالنا من العظمة ﴿ القرآن ﴾ أي : الكتاب الجامع لكل خير الفارق بين كل ملبس ، ﴿ للذكر ﴾ أي : الحفظ ، والتذكر ، والتدبر وحصول الشرف في الدارين ؛ ﴿ فهل من مدّكر ﴾ أي : من ناظر بعين الإنصاف ، والتجرّد عن الهوى ليرى كل ما أخبرنا به فيعينه عليه .

ولما انقضت قصة ثمود بما تعرفه العرب بالأخبار ، ورؤية الآثار ، فقال تعالى:

﴿ كذبت قوم لوط ﴾ أي : وهم في قوة عظيمة على ما يحاولونه ، وإن كانوا في تكذيبهم هذا أضعف من عقول النساء عن التجرد عن الهوى بما دلّ عليه تأنيث الفعل بالتاء ، وكذا ما قبلها من القصص ﴿ بالنذر ﴾ أي : بالأمور المنذرة لهم على لسان نبيهم لوط عليه السلام .

(302/737)

ودلّ على تناهي القباحة في مرتكبهم بتقديم الأخبار عن عذابهم ، فقال تعالى مؤكداً توعداً لمن استمرّ على التكذيب ﴿ إنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ أرسلنا عليهم حاصباً ﴾ أي : ريحاً شديدة ترميهم بالحصباء ، وهي صغار الحجارة الواحد دون ملء الكف فهلكوا ﴿ إلا آل لوط ﴾ وهم من آمن به ، فكان إذا رأيته فكأنك رأيت لوطاً عليه

السلام لما يلوح عليه من أفعاله ، والمشي على منواله في أقواله وأفعاله ﴿ نجيناهم ﴾ أي : تنجية عظيمة ﴿ بسحر ﴾ أي : بآخر ليلة من الليالي ، وهي الليلة التي عذب فيها قومه ، "وانصرف" لأنه نكرة لأنا لا نعرف تلك الليلة بعينها ، ولو قصد به وقت بعينه لمنع الصرف للتعريف ، والعدل عن أل هذا هو المشهور ، وزعم صدر الأفاضل : أنه مبني على الفتح كأمس مبنياً على الكسر .

تنبيه : قال الجلال المحلي : وهل أرسل الحاصب على آل لوط أو لا : قولان ؛ وعبر عن الاستثناء على الأوّل بأنه متصل ، وعلى الثاني بأنه منقطع ، وإن كان من الجنس تسمحاً . وقوله تعالى : ﴿ نعمة ﴾ أما مفعول له ؛ وإمّا مصدر بفعل من لفظها أو من معنى نجيناهم لأن تنجيتهم ، إنعام فالتأويل : إمّا في العامل ، وإمّا في المصدر . وقوله تعالى : ﴿ من عندنا ﴾ متعلق بنعمة ، أو بمحذوف صفة لها . ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل هذا الإنجاء العظيم الذي جعلناه جزاء لهم ﴿ نجزي من شكر ﴾ أي : من آمن بالله تعالى ، وأطاعه قال بعض المفسرين : وهو وعد لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بأنه يصونهم عن الهلاك العام ؛ وقال الرازي : ويمكن أن يقال : هو وعد لهؤلاء بالثواب يوم القيامة كما أنجاهم في الدنيا من العذاب ، لقوله تعالى : ﴿ ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين ﴾ (آل عمران :)

وقال مقاتل : من وحد الله تعالى لم يعذبه مع المشركين .

﴿ ولقد أنذرهم ﴾ أي : رسولنا لوط عليه السلام ﴿ بطشتنا ﴾ أي : أخذتنا المقرونة من الشدّة بما لنا من العظمة ، وهي العذاب الذي نزل بهم ، وقيل : هي عذاب الآخرة لقوله تعالى : ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى ﴾ (الدخان :)

﴿ فتماروا ﴾ أي تجادلوا وكذبوا ﴿ بالنذر ﴾ أي بإنذاره فكان سبباً للأخذ .

﴿ ولقد راودوه عن ضيفه ﴾ أي أرادوا أن يخلي بينهم وبين القوم الذين أتوه في صورة الأضياف ، ليخبثوا بهم ، وكانوا ملائكة في صورة شباب مرد ؛ وأفرد لأنّ المراد الجنس

﴿ فطمسنا ﴾ أي : فتسبب عن مراودتهم أن طمسنا بعظمتنا ﴿ أعينهم ﴾ أي : أعميناها ، وجعلناها بلاشق كباقي الوجه بأن صفقها جبريل عليه السلام بجناحه ؛ وقال الضحاك : بل أعماهم الله تعالى فلم يروا الرسل وقالوا : لقد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا فرجعوا فلم يروهم ؛ وهذا قول ابن عباس وروي أنهم صارت أعينهم مع وجوههم كالصفيحة الواحدة ؛ وقال القشيري : مسح بجناحه على وجوههم فعموا ، ولم يهتدوا للخروج .

قال ابن جرير : والعرب تقول : طمست الريح الأعلام إذا دفنتها بما تسفي عليها ، فانطلقوا

هاربين مسرعين إلى الباب لا يهتدون إليه ولا يقعون عليه ، بل يصادمون الجدران خوفاً مما هو أعظم من ذلك ، وهم يقولون عند ذلك لوط سحر الناس ، وما أدّتهم عقولهم إلى أن يؤمنوا فينجوا أنفسهم .

قال القشيري : وكذلك أجرى الله تعالى سنته في أوليائه بأن يطمس على قلوب أعدائهم حتى يلتبس عليهم كيف يؤذون أولياءه ويخلصهم من كيدهم . وقوله تعالى : ﴿ فذوقوا عذابي ونذر ﴾ أي : إنذاري وتخويفي ، خطاب لهم أي : قلنا لهم على لسان الملائكة فذوقوا ، فهو خطاب مع كل مكذب أي : إن كنتم تكذبون فذوقوا . قال القرطبي : والمراد من هذا الأمر الخبر أي : فأذقتهم عذابي الذي أنذرهم به لوط عليه السلام .

فإن قيل : النذر كيف تذاق ؟

أجيب بأنّ المراد ثمرته وفائدته .

(304/737)

فإن قيل : إذا كان المراد بقوله تعالى : ﴿ عذابي ﴾ هو العذاب العاجل وبقوله تعالى : ﴿ ونذر ﴾ هو العذاب الآجل : فهما لم يكونا في زمان واحد ، فكيف قال تعالى : ﴿ فذوقوا ﴾ ؟

أجيب : بأنّ العذاب الآجل أوّله متصل بآخر العذاب العاجل فهما كالواقع في زمان واحد ، وهو قوله تعالى : ﴿ أغرقوا فأدخلوا ناراً ﴾ (نوح :)

﴿ ولقد صبحهم ﴾ أي : أتاهم وقت الصباح ؛ وقرأ نافع ، وابن كثير ، وابن ذكوان وعاصم بإظهار الدال عند الصاد ؛ والباقون : بلا إظهار ؛ وحقق المعنى بقوله تعالى : ﴿ بكرة ﴾ أي في أوّل نهار العذاب ؛ وانصرف بكرة لأنه نكرة ؛ ولو قصد به وقت بعينه امتنع الصرف للتأنيث والتعريف ؛ ﴿ عذاب ﴾ أي : فقلع بلادهم ورفعها ؛ ثم قلبها وحصبها بحجارة النار وخسفها وغمرها بالماء المنتن الذي لا يعيش به حيوان ؛

﴿ مستقر ﴾ أي ثابت عليهم غير زائل ليس بخيال ولا سحر كما قالوا عند الطمس ، فإنه أهلكهم فاتصل بعذاب البرزخ المتصل بعذاب القيامة المتصل بالعذاب الأكبر في الطبقة التي تناسب أعمالهم من عذاب النار .

فقال لهم لسان الحال إن لم ينطق لسان المقال : ﴿ فذوقوا ﴾ أي : بسبب أفعالكم الخبيثة ﴿ عذابي ونذر ﴾ .

تنبيه : قد علم من تكرير هذا أن سبب العذاب التكذيب بالإنذار لأي رسول كان ، وكان استئناف كل قصة منبهاً على أنها أهل على حدتها لأن يتعظ بها .

﴿ ولقد يسرنا ﴾ أي : على مالنا من العظمة ﴿ القرآن ﴾ أي : الجامع الفارق بين الحق والباطل ؛ ولو شئنا لأعليناه بما لنا من القدرة إلى حد تعجز القوى عن فهمه ، كما أعليناه

إلى رتبة وقفت القوى عن معارضته ﴿ للذكر فهل من مدكر ﴾ أي : فيخلص نفسه من مثل هذا الذي أوقع فيه هؤلاء أنفسهم ظناً منهم أن الأمر لا يصل إلى ما وصل إليه جهلاً منهم ، وعدم اكتراث بالعواقب .

ولما انقضت قصة لوط عليه السلام أتبعها قصة موسى عليه السلام لأنها بعد قوم لوط ؛ بقوله تعالى:

(305/737)

﴿ ولقد جاء آل فرعون ﴾ أي : فرعون ملك القبط بمصر ؛ وقومه الذين إذا رآهم أحد كان كأنه فيهم لشدّة قربهم منه ، وتخلقهم بأخلاقه ﴿ النذر ﴾ أي الإنذار على لسان موسى وهرون عليهما السلام ؛ فلم يؤمنوا بل ﴿ كذبوا ﴾ أي : تكذيباً عظيماً مستهزئين ﴿ بآياتنا ﴾ التي أتاهم بها موسى عليه السلام ﴿ كلها ﴾ أي : التسع التي أوتيها وهي : العصا ، واليد ، والسنين ، والطمس ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

فإن قيل كيف قال : ﴿ ولقد جاء ﴾ ولم يقل في غيره جاء ؟

أجيب : بأنّ موسى عليه السلام لما جاء كان غائباً عن القوم ، فقدم عليهم كما قال تعالى : ﴿ فلما جاء آل لوط المرسلون ﴾ (الحجر :)

وقال تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ لأنه جاءهم من عند الله من السموات بعد المعراج ، كما جاء موسى قومه من الطور ؛ والنذر : الرسل ولقد جاءهم يوسف وبنوه إلى أن جاءهم موسى عليه السلام ، وقيل : النذر : الإنذارات

تنبيه : ههنا همزتان مفتوحتان من كلمتين فقرأ أبو عمرو وقالون : بإسقاط الهمزة الأولى مع المدّ والقصر ؛ وسهل ورش وقنبل الهمزة الثانية ؛ ولهما أيضاً إبدالها ألفاً وورش على أصله في الهمزة المسهلة ؛ ومدّ بعد الجيم حمزة وابن ذكوان ، والباقون بالفتح ؛ وإذا وقف حمزة وهشام أبدلا الهمزة ألفاً مع المدّ والتوسط والقصر ؛ ﴿ فأخذناهم ﴾ أي : بما لنا من العظمة بنحو ما أخذنا به قوم نوح من الإغراق ﴿ أخذ عزيز ﴾ أي : لا يغلبه شيء وهو يغلب كل شيء ﴿ مقتدر ﴾ أي : لا يعجل بالأخذ لأنه لا يخاف الفوت ولا يخشى معقباً لحكمه بالغ القدرة إلى حد لا يدرك الوصف كنهه .

(306/737)

ثم خوّف كفار مكة فقال تعالى : ﴿ أكفاركم ﴾ أي : الراسخون منكم يا أهل مكة في الكفر الثابتون عليه ، يا أيها المكذبون ، لهذا النبيّ الكريم الساترون لشموس دينه ﴿ خير ﴾ في الدنيا بالقوة والكثرة ، أو في الدين عند الله أو عند الناس ﴿ من أولئكم ﴾

أي : المذكورين من قوم نوح إلى فرعون الذين وعظناكم بهم في هذه السورة ؟ وهذا استفهام بمعنى الإنكار أي ليسوا بأقوى منهم فمعناه نفي أي ليس كفاركم خيراً من كفار من تقدم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ خير ﴾ مع أنّه لا خير فيهم إما أن يكون كقول حسان :

فشر كما لخير كما الفداء

أو هو بحسب زعمهم واعتقادهم ؛ أو المراد بالخير شدّة القوّة ؛ أو لأنّ كل ممكن فلا بدّ وأن يكون له صفات محمودة ، فالمراد تلك الصفات ﴿ أم لكم ﴾ أي : يا أهل مكة ﴿ براءة في الزبر ﴾ أي : أنزل إليكم من الكتب السماوية أنّ من كفر منكم فهو في أمان من عذاب الله تعالى والاستفهام هنا أيضاً بمعنى النفي أي ليس الأمر كذلك .

﴿ أم يقولون ﴾ أي : كفار قريش ﴿ نحن جميع ﴾ أي جمع واحد مبالغ في اجتماعه فهو في الغاية من الضم فلا افتراق له ﴿ منتصر ﴾ أي على كل من يعاديه ، لأنهم على قلب رجل واحد ولم يقل منتصرون لموافقة رؤوس الآي .

ولما قال أبو جهل يوم بدر : إنا جميع منتصر نزل ﴿ سيهزم الجمع ﴾ بأيسر أمر بوعد لا خلف فيه . وقال مقاتل : ضرب أبو جهل يوم بدر فرسه فتقدم من الصف وقال : نحن ننتصر اليوم على محمد وأصحابه فأنزل الله تعالى : ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾ وقال سعيد بن المسيب : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : لما نزلت ﴿ سيهزم الجمع ويولون

الدبر ﴾ ، كنت لا أدري أي جمع يهزم فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثب في درعه ويقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ فهزموا ببدر ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل الأدبار لموافقة رؤوس الآي .

(307/737)

﴿ بل الساعة ﴾ أي : القيامة التي يكون فيها الجمع الأكبر والهول الأعظم ﴿ موعدهم ﴾ أي : للعذاب ﴿ والساعة أدهى ﴾ أي من كل ما يفرض وقوعه في الدنيا وأدهى أفعل تفضيل من الداهية ، وهي أمر هائل لا يهتدي لدوائه فهي أمر عظيم ؛ يقال : دهاه أمر كذا أي أصابه دهواً ودهياً ؛ وقال ابن السكيت دهته داهية دهواء ودهياء وهي توكيد لها وقرأ حمزة والكسائي بالإمالة محضة ، وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح ﴿ وأمر ﴾ لأنّ عذابها للكفار غير مفارق ولا مزايل فهي أعظم نائبة وأشد مرارة من الأسر والقتل يوم بدر وفي رواية : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يثب في درعه ويقول : اللهمّ إن قريشاً جادلتك وتجاهر رسولك بفخرها بخيلها فأخنهم الغداة . يقال : أخنى عليه الدهر أي غلبه وأهلكه ومنه قول النابغة:

أخني عليها الذي أخنى على لبد

وأخنيت عليه أفسدت ثم قال : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ قال عمر : فعرفت تأويلها وهذا من معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنّه أخبر عن غيب فكان كما أخبر ؛ قال ابن عباس : كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين . فالآية على هذا مكية وفي البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : "لقد أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمكة وإني لجارية ألعب" ﴿ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾ وعن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال : "وهو في قبة له يوم بدر أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدا ، فأخذ أبو بكر بيده وقال : حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك وهو في الدرع فخرج وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم ﴾ يريد يوم القيامة ﴿ والساعة أدهى وأمر ﴾ مما لحقهم يوم بدر" .

(308/737)

﴿ إن المجرمين ﴾ أي : المشركين القاطعين لما أمر الله تعالى أن يوصل ﴿ في ضلال ﴾ أي : هلاك بالقتل في الدنيا ﴿ وسعر ﴾ أي : نار مسعرة أي مهيجة في الآخرة وقيل : ﴿ في ضلال ﴾ أي : عمى عن القصد بالبعث وسعر . قال الضحاك أي : نار تسعر عليهم وقيل ضلال ذهاب عن طريق الجنة في الآخرة ، وسعر جمع سعير نار مسعرة وقال الحسين بن

الفضل : إن المجرمين في ضلال في الدنيا ونار في الآخرة . وقال قتادة : في عناء وعذاب .

ثم بين عذابهم في الآخرة بقوله تعالى : ﴿ يوم يسحبون ﴾ أي : في القيامة إهانة لهم من أي ساحب كان ﴿ في النار ﴾ أي الكاملة النارية ﴿ على وجوههم ﴾ لأنهم في غاية الذل والهوان جزاء بما كانوا يذلون أولياء الله تعالى مقولاً لهم من أي قائل اتفق ﴿ ذوقوا ﴾ لأنه لا منعة لهم ولا حمية بوجه ﴿ مَسَّ سقر ﴾ أي : حرّ النار وألمها فإن مسها سبب للتألم بها ، وسقر علم لجهنم مشتقة من سقرته الشمس أو النار أي لوحته ويقال : صقرته بالصاد وهي مبدلة من السين قال ذو الرمة:

*إذا ذابت الشمس اتقى صقراتها ** يا فنان مربوع الصريمة معبل*

وعدم صرفها للتعريف والتأنيث . وقال بعض المفسرين : إنّ هذه الآية نزلت في القدرية لما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "مجوس هذه الأمة القدرية" وهم المجرمون الذين سماهم الله تعالى في قوله سبحانه ﴿ إنّ المجرمين في ضلال وسعر ﴾ وفي مسلم عن أبي هريرة قال : "جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فنزلت هذه الآية إلى آخرها" قال الرازي : والقدري هو الذي ينكر القدر وينسب الحوادث لاتصالات الكواكب لما مرّ أنّ قريشاً خاصموا النبيّ صلى الله عليه وسلم في القدر ، ومذهبهم أن الله تعالى مكن العبد من الطاعة والمعصية وهو قادر على خلق ذلك في العبد

وقادر على أن يطعم الفقير ولهذا قالوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه منكرين لقدرته تعالى على الإطعام .

(309/737)

وقوله صلى الله عليه وسلم "القدرية مجوس هذه الأمة" إن أريد بالأمة المرسل إليهم مطلقاً كالقوم فالقدرية في زمانه صلى الله عليه وسلم هم المشركون المنكرون قدرته على الحوادث فلا يدخل فيهم المعتزلة ؛ وإن كان المراد بالأمة من آمن به صلى الله عليه وسلم فمعناه أن نسبة القدرية إليهم كنسبة المجوس إلى الأمة المتقدمة ؛ فإنّ المجوس أضعف الكفرة المتقدّمين شبهة وأشدّ مخالفة للعقل وكذا القدرية في هذه الأمة ؛ وكونهم كذلك لا يقتضي الجزم بكونهم في النار فالحق أنّ القدري : هو الذي ينكر قدرة الله تعالى وقد ردّ عليهم بالكتاب والسنة .

أما من الكتاب فقوله تعالى:

﴿ إنا ﴾ أي : بمالنا من العظمة ﴿ كل شيء ﴾ من الأشياء المخلوقة صغيرها وكبيرها ﴿ خلقناه بقدر ﴾ أي : قضاء وحكم وقياس مضبوط وقسمة محدودة وقوّة بالغة وتدبير محكم في وقت معلوم ومكان محدود مكتوب ذلك في اللوح قبل وقوعه .

وأمّا من السنة : فما روى عبد الله بن عمرو بن العاص : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كتب الله مقادير الخلائق كلها قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام قال وعرشه على الماء . وعن طاووس اليماني قال : أدركت ما شاء الله تعالى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون كل شيء بقدر الله تعالى ؛ قال : وسمعت من عبد الله بن عمرو يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز" وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يؤمن بالله عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله : بعثني بالحق ، ويؤمن بالموت ، والبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر ؛ وزاد عبد الله خيره وشره" .

(310/737)

تنبيه : ﴿ كل شيء ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر ، ولما بين سبحانه وتعالى أنّ كل شيء بفعله بيّن يسر ذلك وسهولته عليه بقوله تعالى : ﴿ وما أمرنا ﴾ في كل شيء أردناه وإن عظم أمره ﴿ إلا واحدة ﴾ أي : فعلة يسيرة لا معالجة فيها وليس هناك أحداث قول لأنه قديم بل تعلق القدرة بالمقدور على وفق الإرادة الأزلية ؛ وقيل إلا كلمة واحدة

وهي قوله تعالى ﴿كن﴾ كما قال تعالى : ﴿إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ (النحل :)

ثم مثل لنا ذلك بأسرع ما نعقله وأخفه بقوله تعالى : ﴿كلمح بالبصر﴾ واللمح النظر بالعجلة وفي الصحاح لمحة وألمحه إذا أبصره بنظر خفيف أي فكما أن لمح أحدكم بصره لا كلفة عليه فيه فكذلك الأفعال كلها عندنا بل أيسر ؛ وعن ابن عباس معناه : وما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلا كطرف البصر .

﴿ولقد أهلكنا﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿أشياعكم﴾ أي : أشباهكم ونظراءكم في الكفر من الأمم السابقة والقدرة عليكم كالقدرة عليهم فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم ولذلك سبب عنه قوله تعالى : ﴿فهل من مدكر﴾ أي بما وقع لهم أنه مثل من مضى بل أضعف وأنّ قدرته تعالى عليه كقدرته تعالى عليهم ليرجع عن غيه خوفاً من سطوته والاستفهام بمعنى الأمر أي ادكروا واتعظوا .

﴿وكل شيء فعلوه﴾ قال الجلال المحلي : أي : العباد . وقال أكثر المفسرين : أي : الأشياع لأنه هو المتقدم ذكره ﴿في الزبر﴾ أي مكتوب في دواوين الحفظة . وقيل : في اللوح المحفوظ . وقيل : في أم الكتاب فلتحذروا من أفعالهم فإنها غير منسية هذا ما أطبق عليه القراء بما أدى إلى هذا المعنى من رفع كل لأنه لو نصب لأوهم تعلق الجار بالفعل فيوهم أنهم فعلوا في الزبر كل شيء من الأشياء وهو فاسد .

﴿ وكل صغير وكبير ﴾ أي : من الخلق وأعمالهم وآجالهم ﴿ مستطر ﴾ أي : مكتوب في اللوح المحفوظ .

(311/737)

ولما وصف الكفار وصف المؤمنين مؤكداً رداً على المنكر فقال عز من قائل : ﴿ إنّ المتقين ﴾ أي : العريقين في وصف الخوف من الله الذي وفقهم لطاعته ﴿ في جنات ﴾ أي : خلال بساتين ذات أشجار تستر داخلها وقوله تعالى : ﴿ ونهر ﴾ أريد به الجنس : لأن فيها أنهاراً من ماء وعسل ولبن وخمر ؛ أفرده لموافقة رؤوس الآي ولشدة اتصال بعضها ببعض فكأنها شيء واحد . والمعنى : أنهم يشربون من أنهارها وقيل : هو السعة والصفاء من النهار .

وكما جعل للمتقين في تلك الدار ذلك جعل لهم في هذه الدار أيضاً جنات العلوم وأنهار المعارف ولهذا كانوا ﴿ في مقعد صدق ﴾ أي حق لا لغو فيه ولا تأثيم ، ولم يقل في مجلس صدق ، لأنّ القعود جلوس فيه مكث ومنه قواعد البيت والقواعد من النساء ولذا قال : ﴿ عند مليك ﴾ أي : ملك تام الملك ﴿ مقتدر ﴾ أي : قادر لا يعجزه شيء وهو الله تعالى . وعند إشارة للرتبة والكرامة والمنزلة من فضله تعالى ، جعلنا الله تعالى ومحبينا

منهم .

وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة القمر في كل غبّ . أي يقرأ يوماً ويترك يوماً . بعثه الله تعالى يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر" . حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 7 صـ 216 . 237 ﴾

(312/737)

وقال القاسمي :

سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾

أي : دنَت الساعة التي تقوم فيها القيامة . كما قال :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : 1] ، وقال :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : 1] ,

قال ابن جرير : وهذا من الله تعالى إنذاره لعباده بدنوّ القيامة ، وقرب فناء الدنيا ، وأمر لهم بالاستعداد لأهوال القيامة قبل هجومها عليهم ، وهم عنها في غفلة ساهون .

﴿ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾

﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [2]

﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ قال ابن جرير : كان ذلك - فيما ذكر - على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة قبل هجرته إلى المدينة ؛ وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية ، فأراهم صلى الله عليه وسلم انشقاق القمر حجَّةً على صدق قوله وحقيقةِ نبوته ، فلما أراهم أعرضوا وكذبوا ، وقالوا : هذا سحر مستمر ، سحَرنا محمد . ثم روى ذلك عن أنس وابن مسعود وابن عباس ، وغير واحد من التابعين .

وقال القاضي عياض في " الشفا " : أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي ، وإعراض الكفرة عن آياته ، وأجمع المفسرون وأهل السنَّة على وقوعه ، ثم سرد الآثار في ذلك .

وزعم ابن كثير أن أحاديثه متواترة عامة ، إلا أن الشهاب نقل عن الإمام الخطابيّ أن معجزاته صلى الله عليه وسلم ، غير القرآن ، لم تتواتر . والحكمة فيه أنها لو تواترت كانت عامة ، والمعجزة إذا عمَّت أهلَك اللهُ مَن كذبها ، كما جرت به العادة الإلهية . والنبي صلى الله عليه وسلم بعث رحمة ، وأمَّن الله أمَّته من عذاب الاستئصال .

(313/737)

ثم قال : وسبب تعرضهم للتواتر طعن بعضِ الملاحدة بأن القمر يشاهده كل أحد ، فلو انقسم قطعتين تواتر وشاع في جميع الناس ، ولم يخف على أحد ، والطبائع حريصة على إشاعة ما لم يعهد مثله ، ولا أغرب من هذا . مع أن الملازمة غير لازمة ، لأنه في الليل ، وزمان الغفلة ، ولا يلزم امتداده ، ولا يرى إذ ذاك في جميع الآفاق ، لاختلاف المطالع . انتهى .

وقد ذكر ابن قتيبة في " تأويل مختلف الحديث " أن الذي طعن في تلك الآثار المروية عن ابن مسعود هو النظّام ، إلا أنه لم ينقل تأويله للآية على رأيه ، ولعله هو القول الثاني الذي حكاه الزمخشريّ والبيضاويُّ ، ورواه أبو السعود عن عثمان بن عطاء عن أبيه أن المعنى : وسينشق القمر ، يعني يوم القيامة وإذا انكدرت النجوم وانتثرت . والمراد بالآية إما القرآن أو ما يقترحونه لو أجيبوا إلى طلبه .

ومعنى ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ دائم مطرد ، أو محكم قويّ ، من : مررت الحبل ، إذا أحكمتَ فتله . أو مارّ ذاهب لا يبقى ، تعليلاً لأنفسهم بالأماني الفارغة . أو منفور عنه لشدة مرارته مجازاً .

وجملة ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ﴾ مستأنفة أو حالية .

قال الشهاب : ولو كانت هذه الجملة حالية – والمعنى : أن الساعة اقتربت ، وانشق القمر

فيها دنا زمانه ، وظهرت آثاره ، والحال أنهم مصرون على العناد – كان منتظماً أتمَّ انتظام ، ولا ضير فيه سوى مخالفته للمنقول عن السلف في تفسيرها ، فتأمل . انتهى .

(314/737)

أقول : ولي هاهنا كلمة لا بدَّ من التنبيه عليها ، وهي : أن الرمي بالإلحاد لمنكرِ حديث غير مجمع على تواتره ، جنايةٌ كبرى وزلة عظمى ؛ فإن باب التكفير والتضليل ليس بالأمر القليل ، ولأجله صنف حجة الإسلام الغزالي كتابه " فيصل التفرقة " ودمَغ بحُججه أولئك المتعصبين الذين سهل عليهم الرمي لمن خالفهم بالزندقة ، ولعمرُ الحقِّ إن هذا مما فرّق الكلمة ، ونفَّر حملة العلم عن تعرف المشارب والآراء ، حتى أصبح باب التوسع في العلم مرتجاً ، ومحيطه بعد مدَّه منحسراً ؛ إذ هجرت كتب الفِرَق الأخرى بل أحرقت ، وأهين من يتأثلها ، ورمي بالابتداع أو التزندق ، كما يمرُّ كثير من مثل هذا بمطالع كتب التاريخ وطبقات الرجال ، فلا جرم نسيت الأقوال الباقية ، وعدت من الشاذ غير المقبول . وإذا ألصق اسم الإلحاد بقائلها فماذا يكون حالها ؟ وهذا ، كما لا يخفاك ، حيف على قواعد العلم وغلٌّ للأفكار ، نعم ! تفلَّت منهم علم الأصول ، فلم تزل الأقوال الغريبة تتراءى على صفحاته ، وإن كان مما يغمز كثير منها ، إلا أنها سارت تلجُّ آذانهم ، ويحتج بها عليهم ، وقد تنبه كثير

من المحققين لما ذكرنا ، وأشاروا له في مواضع ، فقرروا في كتب العقائد أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة .

وقال العلامة الفناريّ في " فصول البدائع " : ولا يضلَّل جاحدُ الآحاد .

وقال الإمام ابن تيمية : الصواب أن من رد الخبر الصحيح ، كما كانت الصحابة ترده ، لاعتقاده غلط الناقل أو كذبه ، لاعتقاد الراد أن الدليل قد دل على أن الرسول لا يقول هذا ، فإن هذا لا يكفر ولا يفسق ، وإن لم يكن اعتقاده مطابقاً ؛ فقد ردَّ غير واحد من الصحابة غير واحد من الأخبار التي هي صحيحة عند أهل الحديث . انتهى .

(315/737)

وذكر الغزاليّ في " الإحياء " في كتاب آداب تلاوة القرآن في الباب الثالث في أعمال الباطن في التلاوة ، أن من أركانها التخلي عن موانع الفهم . قال : فإن أكثر الناس مُنِعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم ، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن ، وحجُب الفهم أربعةٌ . إلى أن قال :

وثانيها : أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد ، وجمد عليه ، وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة ، فهذا شخص قيَّده معتقده

عن أن يجاوزه ، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده ، فصار نظره موقوفاً على مسموعه ، حمل عليه شيطان التقليد حملة ، وقال : كيف يخطر هذا ببالِك ، وهو خلاف معتقد آبائك ؟ فيرى أن ذلك غرور الشيطان فيتباعد منه ، ويحترز عن مثله . ثم قال : رابعها : أن يكون قرأ تفسيراً ظاهر ، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي ، وأن من فسَّر القرآن برأيه فقد تبوَّأ مقعده من النار ، فهذا أيضاً من الحجب العظيمة . ثم قال :

وسنبين معنى التفسير بالرأي ، وأن ذلك لا يناقض قول عليّ رضي الله عنه : إلا أن يؤتي اللهُ عبداً فهماً في القرآن . وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول ، لما اختلف الناس فيه .

ثم ذكر بعدُ – عليه الرحمة – أن النهي عن التفسير بالرأي ينزل على أحد الوجهين :

أحدهما : أن يكون له في الشيء رأي ، وإليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ، ليحتج على تصحيح غرضه ، كالمحتج على تصحيح بدعة بتأويل يخترعه تلبيساً على خصمه ، وكالجاهل المقتحم يتأول ما شاء هواه .

وثانيهما : أن يتسارع إلى تأويل بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب التنزيل . انتهى .

ويأتي مثل البحث في كثير من المواضع التي فسرها بعض السلف بشيء ، أو روى فيها ما أنكره غيره لما قام لديه ، ولا ملام في معترك الأفهام ، وبالله التوفيق .

﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [3]

﴿ وَكَذَّبُوا ﴾ أي : بآيات الله بعد ما أتتهم حقيقتها ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي : ما زيّن لهم من دفع الحق مما وجدوا عليه آبائهم ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ أي : كل أمر لابد أن يصير إلى غاية يستقرُّ عليها . تعريض بأن الرسول لا بد أن يستقر إلى غاية ، هي الظهور والنصرة ، وأمر مكذبيه إلى الخذلان والشقاوة .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ [4 – 5]

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ ﴾ أي : عن القرون الخالية ، والحقائق الكونية ، مما يستحيل أن يأتي به أميٌّ غيره صلوات الله عليه ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أي : مرتدع عما هم مقيمون عليه من التكذيب والغفلة واللهو .

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ أي : بلغت غايتها من الإحكام والتنزه عن الخلل ، ومن الاشتمال على البراهين القاطعة والحجج الساطعة ، وهو بدل من : ما ، أو خبر محذوف ، أي : هو حكمة بالغة ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ جمع نذير . وما نافية ، أو استفهامية ، أي : أي : غناء تغنى عن قوم آثروا الضلالة على الهدى ، فأعرضوا عنه ، وكذبوا به . وجوز أن تكون ﴿

حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ جملة مستأنفة للتعجب من حالهم ، مع ما جاءهم مما يقود إلى الإيمان بادئ بدء . وهو ما يفهم من تأويل ابن كثير ، وعبارته :

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ أي : في هدايته تعالى لمن هداه ، وإضلالِه لمن أضله ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ يعني أي : شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة وختم على قلبه ، فمن ذا الذي يهديه من بعد الله ؟ و هذه الآية كقوله تعالى :

(317/737)

﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النحل : 9] ، وكذا قوله تعالى :

﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : 101] .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [6 - 8]

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فتول عنهم ﴾ أي : اصفح عن أذاهم ، وانتظر ما يأتيهم من الوعيد الشديد ، كما قال :

﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾ أي : داعي الله إلى موقف القيامة ، وهو ملَك . أو الدعاء تمثيل للإعادة كالأمر في قوله ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : 117] تمثيل للإبداء ، والداعي هو

الله تعالى :

﴿ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ أي : فظيع تنكره النفوس ، وهو موقف الحساب والجزاء والبلاء .

﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ ﴾ أي : من الذل والصغار ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ أي : قبورهم ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ أي : في الكثرة والتموج والانتشار . الجراد مثل في الكثرة

﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ أي : مسرعين مادّي أعناقهم إليه ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ أي : لشدة أهواله و ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ﴾ ظرف لـ ﴿ يَقُولُ ﴾ وقيل : بمضمر ، وقيل : بـ ﴿ يَخْرُجُونَ ﴾ والأول أظهر .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ [9]

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ أي : زجر عن الإنذار والتبليغ بشدة وقساوة ، كما يدل عليه صيغة : افتعل .

(318/737)

قال الناصر : وليس قوله ﴿ فَكَذَّبُوا ﴾ الثاني تكراراً ، لأن الأول مطلق ، والثاني مقيد . وهو كقوله في السورة ﴿ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ [القمر : 29] ، فإن تعاطيه هو نفس عقره ،

ولكن ذكره من جهة عمومه ، ثم من ناحية خصوصه إسهاباً ، وهو بمثابة ذكره مرتين .

وجواب آخر هنا وهو أن المكذب أولاً محذوف دلَّ عليه ذكر نوح ، فكأنه قال : كذبت قوم نوح نوحاً ، ثم جاء بتكذيبهم ثانياً مضافاً إلى قوله ﴿ عَبْدِنَا ﴾ فوصف نوحاً بخصوص العبودية ، وأضافه إليه إضافة تشريف ؛ فالتكذيب المخبر عنه ثانياً أبشع عليهم من المذكور أولاً ، لتلك اللمحة . انتهى .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ [10]

(فدعا ربه أني مغلوب فانتصر) أي : غلبني قومي تمرداً وعتواً فلم يسمعوا مني واستحكم اليأس منهم ، فانتقِم منهم بعذاب ترسله عليهم .

ثم أشار إلى استجابته تعالى دعاءه : بالطوفان الذي هلكوا فيه بقوله سبحانه :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ * وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [11 - 16]

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ أي : مندفق . وفيه استعارة تمثيلية ، بتشبيه تدفع المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت لها أبواب السماء ، وشق لها أديم الخضراء .

﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً ﴾ أي : وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ

﴿ أي : ماء السماء وماء الأرض ﴿ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي : على حال قدره الله وقضاه ، وهو هلاك قوم نوح .

(319/737)

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ يعني السفينة . أقيمت صفاتها مقامها ، لتأديتها مؤداها ، وهو من بديع الكلام ، كما بسطه في " الكشاف " .

﴿ وَدُسُرٍ ﴾ جمع دِسار بكسر الدال ، أو دَسْر كسقف وسقف وهي أضلاعها ، أو حبالها التي تشد فيها أو مساميرها .

﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي : بمرأى منا . كناية عن حفظها بحفظه تعالى وعنايته . ﴿ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ أي : كفر به ، وهو الله تعالى ، أو نوح وما جاء به ، فهو من الكفر ضد الإيمان . أو هو نوح عليه السلام لأنه نعمة كفروها ، فهو معتد بنفسه ، استعير لنوح النعمة بطريق الكناية ، ونسب الكفران تخييلاً أو حقيقة .

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا ﴾ أي : قصة نوح ﴿ آيَةً ﴾ أي : جعلناها عبرة يُعتبر بها ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ؟ أي : معتبر ومتعظ . وأصله : مذتكر .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أي : عذابي لهؤلاء الكفرة ، قوم نوح ، وإنذاراتي بما

أحللت بهم ، ليحذر أمثالهم وينتهوا عما يقترفونه .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [17]

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ أي : سهَّلناه للادكار والاتعاظ ، لكثرة ما ضرب فيه من الأمثال الكافية الشافية ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي : فيعتبر بما فيه ، ويثوب إلى رشده .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [18 - 22]

(320/737)

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ أي : نبيَّهم هوداً عليه السلام ، بمثل ما كذبت به قوم نوح ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ أي : شديد الهبوب ، لها صرير ، أو باردة ، ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ أي : شرٍّ وشؤم عليهم ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ أي : استمر عليهم ودام حتى أهلكهم ، أو شديد المرارة لعظم بلائه, ﴿ تَنزِعُ النَّاسَ ﴾ أي : تقلعهم عن أماكنهم .

﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ أي : أصول نخل منقلع من مغارسه . وأصل ﴿ مُّنقَعِرٍ

﴿ ما أخرج من القعر ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ كرره للتهويل وللتنبيه على فرط عتوهم ، أي : فكيف كان عذابي لقومه وإنذاري لهم على لسانه ؟ ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ؟

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ * إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [23 - 32]

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ أي : بما أنذرهم به نبيُّهم صالح عليه السلام,

(321/737)

﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ أي : جنون ، أو عناء . فهو اسم مفرد . وقيل : جمع سعير ، كأنهم عكسوا عليه ، فرتبوا على اتباعهم إياه ما رتبه على اتباعهم له .

قال الزمخشريّ قالوا : ﴿ أَبَشَراً ﴾ إنكاراً لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية ، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر ، وهم الملائكة . وقالوا ﴿ مِّنَّا ﴾ لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى . وقالوا ﴿ وَاحِداً ﴾ إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلاً واحداً ، أو أرادوا واحداً من أفنائهم ليس بأشرفهم وأفضلهم ، ويدل عليه قولهم ﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾ يعنون : الوحي والنبوة ، أي : وفينا من هو أحق بها على زعمهم ، لكونه أعزّ مالاً ونفراً ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ أي : متكبر ، حمله كبره على استتباعنا له .

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً ﴾ أي : عند نزول العذاب بهم ، أو يوم القيامة ﴿ مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴾ أي : المتكبر عن الحق ، البطر له .

﴿ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ أي : آية وحجّة لصالح على قومه امتحاناً لهم وابتلاء ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ ﴾ أي : انتظرهم وتبصر ما هم صانعوه بها ﴿ وَاصْطَبِرْ ﴾ أي : على دعوتهم .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاء ﴾ أي : الذي يردونه لشرب مواشيهم ﴿ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : مقسوم بينهم ، لها شرب يوم ، ولهم شرب يوم ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ أي : يحضره صاحبه في نوبته . والشرب النصيب من الماء .

ثم أشار تعالى إلى عتوهم عن أمر ربهم بقوله : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى ﴾ فتناول الناقة بيده ﴿ فَعَقَرَ ﴾ أي : فعقرها وقتلها .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ أي : كالشجر اليابس المتكسر الذي يتخذه من يعمل الحظيرة للغنم ونحوها ، أو كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء . وقرئ بفتح الظاء ، اسم مكان ، أي : كهشيم الحظيرة ، أو الشجر المتخذ لها . وهو تشبيه لإهلاكهم وإفنائهم ، وأنهم بادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية ، وخمدوا وهمدوا كما يهمد ويبس الزرع والنبات بعد خضرة ورقه وحسن نباته .

قال ابن زيد : كانت العرب يجعلون حظاراً على الإبل والمواشي من يبس الشوك .

وعن سفيان : الهشيم ، إذا ضربت الحظيرة بالعصا ، تهشم ذاك الورق فيسقط, والعرب تسمي كل شيء كان رطباً فيبس هشيماً ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [33 – 40]

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً ﴾ أي : ملكاً يرميهم بالحصباء والحجارة ، أو ريحاً تحصبهم بالحجارة ، أي : ترميهم ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ أي : في سحر . أو الباء للملابسة ، أو المصاحبة وذلك أنه تعالى أوحى إليهم أن يخرجوا من آخر الليل ، فنجوا مما أصاب قومهم . ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ، ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، وقد أصابها ما أصابهم ، وخرج نبي الله لوط عليه السلام وبنات له ، من بين أظهرهم سالمين لم يمسسهم سوء .

﴿ نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ أي : إنعاماً منها ، وهو علة لـ ﴿ نَجَّيْنَا ﴾ ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴾ أي : فأطاع ربه ، وانتهى إلى أمره ونهيه . والشكر : صرف العبد جميع ما أنعم عليه ، إلى ما خلق لأجله .

﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم ﴾ أي : لوط ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ أي : أخذتنا بالعذاب ﴿ فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ أي : بإنذاراته ، تكذيباً له .

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ﴾ أي : طالبوه بإتيان الفاحشة معهم ، وهم الملائكة الذين وردوا عليه في صورة شباب مُرد حِسان ، محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ،

وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها تعلمهم بأضيافه عليه السلام ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فتلقاهم يناشدهم الله ألا يخزوه في ضيفه ، فأبوا عليه ، وجاؤوا ليدخلوا عليه ، فأعمى الله أبصارهم ، فلم يروهم ، كما قال : ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ أي : يدوم بهم إلى النار .

(324/737)

﴿ ذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ قال الزمخشريّ : فإن قلت : ما فائدة تكرير قوله ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ﴾ إلخ ؟ قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادّكاراً واتعاظاً ، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظا ، إذا سمعوا الحث على ذلك ، والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات ، ويقعقع لهم الشن تارات ، لئلا يغلبهم السهو ، ولا تستولي عليهم الغفلة . وهكذا حكم التكرير كقوله ﴿ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 13] ، عند كل نعمة عدها في سورة الرَّحْمَنِ . وقوله ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : 15] عند كل آية أوردها في سورة المرسلات . وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسه ، لتكون العبر حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية في كل أوان . انتهى .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [41 - 42]

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾ يعني موسى وهارون ، وجمعها للتعظيم ، أو هو جمع نذير بمعنى الإنذار .

﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا ﴾ يعني الآيات التسع ، أو الأدلة والحجج التي أتتهم ناطقة بوحدانيته تعالى .

﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ ﴾ أي : عاقبناهم عقوبة شديدٍ لا يغالب ﴿ مُقْتَدِرٍ ﴾ أي : عظيم القدرة لا يعجزه شيء .

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ [43 - 44]

(325/737)

﴿ أَكُفَّارُكُمْ ﴾ يا معشر قريش ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ ﴾ أي : الكفار المعدودين الذين حلت النقمة حتى يأمنوا جانبها ﴿ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ أي : براءة من عقابه تعالى ، وأمان منه ، مع أنكم على شاكلة من مضى نبؤهم ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ أي :

ممتنع لا يُرام ، أو منتصر ممن أراد حربنا وتفريق كلمتنا ، أو متناصر ، ينصر بعضنا بعضاً . فالافتعال بمعنى التفاعل ، كالاختصام بمعنى التخاصم . وإفراد ﴿ مُنتَصِرٌ ﴾ مراعاة للفظ ﴿ جَمِيع ﴾ لخفة الإفراد ، ولرعاية الفاصلة .

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ [45 - 46]

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ يعني جمع كفار قريش ﴿ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ أي : يولون أدبارهم المؤمنين بالله عند انهزامهم . وإفراد ﴿ الدُّبُرَ ﴾ لإرادة الجنس ، أو رعاية الفواصل ، ومشاكلة قرائنه . وقد وقع ذلك يوم بدر ، وهو من دلائل النبوة ؛ لأن الآية مكية ، ففيها إخبار عن الغيب ، وهو من معجزات القرآن .

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ قال ابن جرير : ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من أنهم لا يبعثون بعد مماتهم ، بل الساعة موعدهم للبعث والعقاب .

﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ أي : أعظم داهية ، وهي الأمر المنكر الذي لا يهتدى لدوائه . وأمرّ مذاقاً ، أو أشد عليهم من الهزيمة التي سيهزمونها ، إذا التقوا مع المؤمنين للقتال .

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ [47 - 48]

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ ﴾ أي : عن الحق في الدنيا ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ أي : نيران في الآخرة .

(326/737)

وقال القاشانيّ : أي : في ضلال عن طريق الحق ، لعمى قلوبهم بظلمة صفات نفوسهم . و ﴿ سُعُرٍ ﴾ أي : جنون ووله ، لاحتجاب عقولهم عن نور الحق بشوائب الوهم ، وحيرتها في الباطل .

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ أي : يجرّون عليها .

﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ أي : حرّها وألمها . والاستعارة في المس تحقيقية . أو في ﴿ سَقَرَ ﴾ مكنية ، وفي المسّ تخييلية . أو المس مجاز مرسل بعلاقة السببيّة للألم . واستعارة الذوق مشهورة ، واستعمال الذوق في المصائب بمنزلة الحقيقة . و ﴿ سَقَرَ ﴾ من أسماء جهنم ، أعاذنا الله منها .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [49]

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ أي : بمقدار استوفى فيه مقتضى الحكمة ، وترتب الأسباب على مسبباتها ، ومنه خلق دار العذاب ، لما كسبت الأيدي ، وإذاقة ألمها جزاء

الزيغ عن الهدى . وهذه الآية كآية ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : 2] ، وآية ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الأعلى : 1 - 3] ، أي : قدر قدراً ، وهدى الخلائق إليه . ولا مانع أن تكون هذه الآية وما بعدها إلفاتاً لعظمته تعالى ، وكبير قدرته ، وأن من كانت له تلك النعوت المثلى لجدير أن يعبد وحده ، ويرهب بأسه ، ويتقى بطشه ، لا سيما وقد صدعَ الداعي بإنذاره ، ومن أنذر فقد أعذر .

﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [50]

﴿ وَمَا أَمْرُنَا ﴾ أي : الذي به الإيجاد ﴿ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ أي : كلمة واحدة يكون بها كل شيء ، بمقتضى استعداده ، كلمح بالبصر في السرعة . قال القاشانيّ :

(327/737)

﴿ إِلَّا وَاحِدَةٌ ﴾ أي : تعلق المشيئة الأزلية الموجبة لوجود كل شيء في زمان معيّن ، على وجه معلوم ، ثابت في لوح القدرة ، المسمّى في الشرع بـ : كن ، فيجب وجوده في ذلك الزمان ، على ذلك الوجه دفعة . انتهى .

وقيل : معنى الآية ، معنى قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ ﴾ [النحل : 77] .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [51]

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أي : أشباهكم في الكفر من الأمم السالفة .

قال الشهاب : أصل معنى الأشياع جمع شيعة ، وهم من يتقوى بهم المرء من الأتباع . ولما كانوا في الغالب من جنس واحد ، أريد به ما ذكر ، إما باستعماله في لازمه ، أو بطريق الاستعارة .

﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي : متعظ بذلك ينزجر به .

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ [52]

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ أي : الكتب التي أحصتها الحَفَظة عليهم .

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ [53]

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ أي : من الأعمال ﴿ مُسْتَطَرٌ ﴾ أي : مسطور لا يمحى ولا ينسى ، كما قال تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [الكهف : 49] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً *اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 13 - 14] .

وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : < يا عائشة ! إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً > .

(328/737)

قال ابن كثير : ورواه النسائيّ وابن ماجه من طريق سعيد بن مسلم بن ماهك المدنيّ ، وثّقه أحمد وابن معين وأبو حاتم وغيرهم . وقد رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة سعيد بن مسلم هذا ، من وجه آخر . ثم قال سعيد : فحدّثت بهذا الحديث عامر بن هشام فقال لي : ويحك يا سعيد ! لقد حدّثني سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنباً فاستصغره ، فأتاه آت في منامه ، فقال له : يا سليمان !

~لا تحقِرَنَّ من الذُّنوبِ صَغيرا إنَّ الصغير غَداً يعودُ كبيرا

~إنّ الصغيرَ ولَو تَقادَمَ عَهْدُهُ عند الإله مُسَطّرٌ تسطيرا

~فازجُرْ هواكَ عَنِ الْبطالَة لا تكن صعبَ القياد وشَمّرَنْ تَشْميرا

~إنّ المُحِبّ إذا أحبَّ إلَهَهُ طارَ الفؤادُ وأُلْهِمَ التفكيرا

~فاسأل هِدايتك الإله فَتَتَّئِدْ فكَفى بربّك هَاديا ونَصيراً

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [54 – 55]

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي : الذين اتقوا عقاب الله بطاعته وأداءِ فرائضه ، واجتناب نواهيه ، ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ أي : أنهار . واكتفى باسم الجنس المفرد لرعاية الفواصل . وقرئ بسكون الهاء ، وضم النون ، وقرئ بضمهما .

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ قال ابن جرير : أي : في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم . وقال الزمخشريّ : في مكان مرضي . قال شراحه : فالصدق مجاز مرسل في لازمه ، أو استعارة . وقيل المراد صدق المبشّر به ، وهو الله ورسوله . أو المراد أنه ناله مَن ناله بصدقه وتصديقه للرسل ، فالإضافة لأدنى ملابسة .

﴿ عِندَ مَلِيكٍ ﴾ بمعنى مالك . قال الشهاب : وليس إشباعاً ، بل هي صيغة مبالغة كالمقتدر ﴿ مُّقْتَدِرٍ ﴾ قال القاشانيّ : أي : يقدر على تصريف جميع ما في ملكه على حكم مشيئته ، وتسخيره على مقتضى إرادته لا يمتنع عليه شيء .

(329/737)

قال الشهاب : في تنكير الاسمين الكريمين إشارة إلى أن ملكه وقدرته لا تدري الأفهام كنههما ، وأن قربهم منه بمنزلة من السعادة والكرامة ، بحيث لا عين رأت ولا أذن سمعت ، مما يجل

عن البيان وتكل دونه الأذهان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 15 صـ 543 . 555 ﴾

(330/737)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) ﴾

مطلع باهر مثير ، على حادث كوني كبير ، وإرهاص بحادث أكبر . لا يقاس إليه ذلك الحدث الكوني الكبير :

﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ . .

فيا له من إرهاص ! ويا له من خبر . ولقد رأوا الحدث الأول فلم يبق إلا أن ينتظروا الحدث الأكبر .

والروايات عن انشقاق القمر ورؤية العرب له في حالة انشقاقه أخبار متواترة . تتفق كلها في إثبات وقوع الحادث ، وتختلف في رواية هيئته تفصيلاً وإجمالاً :

من رواية أنس بن مالك – رضي الله عنه – . . قال الإمام أحمد : حدثنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك قال : سأل أهل مكة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ آية .

فانشق القمر بمكة مرتين فقال : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ . . وقال البخاري : حدثني عبد الله بن عبد الوهاب . حدثنا بشر بن المفضل ، حدثنا سعيد بن أبي عروة ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك . أن أهل مكة سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يريهم آية . فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما . وأخرجه الشيخان من طرق أخرى عن قتادة عن أنس . .

ومن رواية جبير بن مطعم – رضي الله عنه – . . قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن كثير ، حدثنا سليمان ابن كثير ، عن حصين بن عبد الرحمن ، عن محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه قال : انشق القمر على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصار فلقتين . فلقة على هذا الجبل وفلقة على هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا محمد ، فقالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم . . تفرد به أحمد من هذا الوجه . . وأسنده البيهقي في الدلائل من طريق محمد بن كثير عن أخيه سليمان بن كثير ، عن حصين بن عبد الرحمن . . ورواه ابن جرير والبيهقي من طرق أخرى عن جبير بن مطعم كذلك . .

ومن رواية عبد الله بن عباس – رضي الله عنه – . قال البخاري : حدثنا يحيى بن كثير ، حدثنا بكر ، عن جعفر ، عن عراك بن مالك ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس ، قال : انشق القمر في زمان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . . ورواه البخاري أيضاً ومسلم من طريق آخر عن عراك بسنده السابق إلى ابن عباس . . وروى ابن جرير من طريق أخرى إلى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : قد مضى ذلك ، كان قبل الهجرة ، انشق القمر حتى رأوا شقيه . . وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا . . وقال الطبراني بسند آخر عن عكرمة عن ابن عباس قال : كسف القمر على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : سحر القمر ، فنزلت : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ – إلى قوله : ﴿ مستمر ﴾ .

ومن رواية عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – : قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضي ، قالا : حدثنا أبو العباس الأصم ، حدثنا العباس بن محمد الدوري ، حدثنا وهب بن جرير ، عن شعبة ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ قال : وقد كان ذلك في عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انشق فلقتين فلقة من دون الجبل وفلقة خلف الجبل . فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

" اللهم اشهد " . وهكذا رواه مسلم والترمذي من طرق عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد . .

(332/737)

ومن رواية عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – : قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، عن أبي معمر ، عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شقتين حتى نظروا إليه ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " اشهدوا " وهكذا رواه البخاري ومسلم من حديث سفيان بن عيينة . وأخرجاه كذلك من حديث الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عبد الله بن سخبرة ، عن ابن مسعود . وقال البخاري : قال أبو داود الطيالسي : حدثنا أبو عوانة ، عن المغيرة ، عن أبي الضحى ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : انشق القمر على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة . قال : فقالوا : انظروا ما يأتيكم من السفار ، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم قال : فجاء السفار فقالوا ذلك . . وروى البيهقي من طريق أخرى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود ، بما يقرب من هذا .

فهذه روايات متواترة من طرق شتى عن وقوع هذا الحادث ، وتحديد مكانه في مكة – باستثناء رواية لم نذكرها عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، أنه كان في منى – وتحديد زمانه في عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل الهجرة . وتحديد هيئته – في معظم الروايات أنه انشق فلقتين ، وفي رواية واحدة أنه كسف (أي خسف) . . فالحادث ثابت من هذه الروايات المتواترة المحددة للمكان والزمان والهيئة .

وهو حادث واجه به القرآن المشركين في حينه ؛ ولم يرو عنهم تكذيب لوقوعه ؛ فلا بد أن يكون قد وقع فعلاً بصورة يتعذر معها التكذيب ، ولو على سبيل المراء الذي كانوا يمارونه في الآيات ، لو وجدوا منفذاً للتكذيب . وكل ما روي عنهم أنهم قالوا : سحرنا ! ولكنهم هم أنفسهم اختبروا الأمر ، فعرفوا أنه ليس بسحر ؛ فلئن كان قد سحرهم فإنه لا يسحر المسافرين خارج مكة الذين رأوا الحادث وشهدوا به حين سئلوا عنه .

(333/737)

بقيت لنا كلمة في الرواية التي تقول : إن المشركين سألوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ آية . فانشق القمر . فإن هذه الرواية تصطدم مع مفهوم نص قرآني مدلوله أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يرسل بخوارق من نوع الخوارق التي جاءت مع الرسل قبله ، لسبب معين : ﴿

وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ فمفهوم هذه الآية أن حكمة الله اقتضت منع الآيات – أي الخوارق – لما كان من تكذيب الأولين بها .

وفي كل مناسبة طلب المشركون آية من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان الرد يفيد أن هذا الأمر خارج عن حدود وظيفته ، وأنه ليس إلا بشراً رسولاً . وكان يردهم إلى القرآن يتحداهم به بوصفه معجزة هذا الدين الوحيدة : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس إلا كفوراً . وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء – كما زعمت – علينا كسفاً ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه . قل : سبحان ربي ! هل كنت إلا بشراً رسولاً ؟ ﴾ فالقول بأن انشقاق القمر كان استجابة لطلب المشركين آية – أي خارقة – يبدو بعيداً عن مفهوم النصوص القرآنية ؛ وعن اتجاه هذه الرسالة الأخيرة إلى مخاطبة القلب البشري بالقرآن وحده ، وما فيه من إعجاز ظاهر ؛ ثم توجيه هذا القلب – عن طريق القرآن – إلى آيات الله القائمة في الأنفس والآفاق ، وفي أحداث التاريخ سواء . . فأما ما وقع فعلاً للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خوارق شهدت بها روايات صحيحة فكان إكراماً من الله لعبده ، لا دليلاً لإثبات رسالته . .

ومن ثم نثبت الحادث – حادث انشقاق القمر – بالنص القرآني وبالروايات المتواترة التي تحدد مكان الحادث وزمانه وهيئته . ونتوقف في تعليله الذي ذكرته بعض الروايات . ونكتفي بإشارة القرآن إليه مع الإشارة إلى اقتراب الساعة . باعتبار هذه الإشارة لمسة للقلب البشري ليستيقظ ويستجيب . .

وانشقاق القمر إذن كان آية كونية يوجه القرآن القلوب والأنظار إليها ، كما يوجهها دائماً إلى الآيات الكونية الأخرى ؛ ويعجب من أمرهم وموقفهم إزاءها ، كما يعجب من مواقفهم تجاه آيات الله الكونية الأخرى .

إن الخوارق الحسية قد تدهش القلب البشري في طفولته ، قبل أن يتهيأ لإدراك الآيات الكونية القائمة الدائمة ، والتأثر بإيقاعها الثابت الهادئ . وكل الخوارق التي ظهرت على أيدي الرسل – صلوات الله عليهم – قبل أن تبلغ البشرية الرشد والنضوج يوجد في الكون ما هو أكبر منها وأضخم ، وإن كان لا يستثير الحس البدائي كما تستثيره تلك الخوارق ! ولنفرض أن انشقاق القمر جاء آية خارقة . . فإن القمر في ذاته آية أكبر ! هذا الكوكب بحجمه ، ووضعه ، وشكله ، وطبيعته ، ومنازله ، ودورته ، وآثاره في حياة الأرض ،

وقيامه هكذا في الفضاء بغير عمد . هذه هي الآية الكبرى القائمة الدائمة حيال الأبصار وحيال القلوب ، توقع إيقاعها وتلقي ظلالها ، وتقوم أمام الحس شاهداً على القدرة المبدعة التي يصعب إنكارها إلا عناداً أو مراء !

وقد جاء القرآن ليقف بالقلب البشري في مواجهة الكون كله ؛ وما فيه من آيات الله القائمة الثابتة ؛ ويصله بهذا الكون وآيات الله فيه في كل لحظة ؛ لا مرة عارضة في زمان محدود ، يشهدها جيل من الناس في مكان محدود .

(335/737)

إن الكون كله هو مجال النظر والتأمل في آيات الله التي لا تنفد ، ولا تذهب ، ولا تغيب . وهو بجملته آية . وكل صغيرة فيه وكبيرة آية . والقلب البشري مدعو في كل لحظة لمشاهدة الخوارق القائمة الدائمة ، والاستماع إلى شهادتها الفاصلة الحاسمة ؛ والاستمتاع كذلك بعجائب الإبداع الممتعة ، التي يلتقي فيها الجمال بالكمال ، والتي تستجيش انفعال الدهش والحيرة مع وجدان الإيمان والاقتناع الهادئ العميق .

وفي مطلع هذه السورة تجيء تلك الإشارة إلى اقتراب الساعة وانشقاق القمر إيقاعاً يهز القلب البشري هزاً . وهو يتوقع الساعة التي اقتربت ، ويتأمل الآية التي وقعت ، ويتصور

أحداث الساعة في ظل هذا الحدث الكوني الذي رآه المخاطبون بهذا الإيقاع المثير .

وفي موضوع اقتراب الساعة روى الإمام أحمد . قال : حدثنا حسين ، حدثنا محمد بن مطوف ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – يقول : " بعثت أنا والساعة هكذا " وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى .

ومع اقتراب الموعد المرهوب ، ووقع الحادث الكوني المثير ، وقيام الآيات التي يرونها في صور شتى . . فإن تلك القلوب كانت تلج في العناد ، وتصر على الضلال ، ولا تتأثر بالوعيد كما لا تتأثر بإيقاع الآيات الكثيرة الكافية للعظة والكف عن التكذيب :

﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا : سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغني النذر ﴾ .

(336/737)

ولقد أعرضوا وقالوا : سحرنا ، وهم يرون آية الله في انشقاق القمر . وكان هذا رأيهم مع آية القرآن . فقالوا : سحر يؤثر . فهذا قولهم كلما رأوا آية . ولما كانت الآيات متوالية متواصلة ، فقد قالوا : إنه سحر مستمر لا ينقطع ، معرضين عن تدبر طبيعة الآيات وحقيقتها ،

معرضين كذلك عن دلالتها وشهادتها . وكذبوا بالآيات وبشهادتها . كذبوا اتباعاً لأهوائهم لا استناداً إلى حجة ، ولا ارتكاناً إلى دليل ، ولا تدبراً للحق الثابت المستقر في كل ما حولهم في هذا الوجود . .

﴿ وكل أمر مستقر ﴾ . . فكل شيء في موضعه في هذا الوجود الكبير . وكل أمر في مكانه الثابت الذي لا يتزعزع ولا يضطرب . فأمر هذا الكون يقوم على الثبات والاستقرار ، لا على الهوى المتقلب ، والمزاج المتغير ؛ أو المصادفة العابرة والارتجال العارض . . كل شيء في موضعه وفي زمانه ، وكل أمر في مكانه وفي إبانه . والاستقرار يحكم كل شيء من حولهم ، ويتجلى في كل شيء : في دورة الأفلاك ، وفي سنن الحياة . وفي أطوار النبات والحيوان . وفي الظواهر الثابتة للأشياء والمواد .

لا بل في انتظام وظائف أجسامهم وأعضائهم التي لا سلطان لهم عليها . والتي لا تخضع للأهواء ! وبينما هذا الاستقرار يحيط بهم ويسيطر على كل شيء من حولهم ، ويتجلى في كل أمر من بين أيديهم ومن خلفهم . . إذ هم وحدهم مضطربون تتجاذبهم الأهواء ! ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ﴾ . . أنباء الآيات الكونية التي صرّفها الله لهم في هذا القرآن ؛ وأنباء المكذبين قبلهم ومصارعهم ، وأنباء الآخرة التي صورها القرآن لهم . . وكان في هذا كله زاجر ورادع لمن يزدجر ويرتدع . وكان فيه من حكمة الله ما يبلغ القلوب ويوجهها إلى تدبيره الحكيم . ولكن القلوب المطموسة لا تتفتح لرؤية الآيات ، والانتفاع

بالأنباء ، واليقظة على صوت النذير بعد النذير : ﴿ حكمة بالغة فما تغني النذر ﴾ . إنما هو الإيمان هبة الله للقلب المتهيئ للإيمان ، المستحق لهذا الإنعام !

(337/737)

وعند هذا الحد من تصوير إعراضهم وإصرارهم ، وعدم انتفاعهم بالأنباء ، وقلة جدوى النذر مع هؤلاء . يتوجه الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم – للإعراض عنهم وتركهم يلاقون اليوم الذي لا يحفلون النذير باقترابه ، وهم يرون انشقاق القمر بين يدي مجيئه :

﴿ فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شيء نكر . خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع يقول الكافرون : هذا يوم عسر ﴾ . .

وهو مشهد من مشاهد ذلك اليوم ، يناسب هوله وشدته ظلال السورة كلها ، ويتناسق مع الإرهاص باقتراب الساعة ، ومع الإنباء بانشقاق القمر ، ومع الإيقاع الموسيقي في السورة كذلك !

" وهو متقارب سريع . وهو مع سرعته شاخص متحرك ، مكتمل السمات والحركات : هذه جموع خارجة من الأجداث في لحظة واحدة كأنهم جراد منتشر (ومشهد الجراد

المعهود يساعد على تصور المنظر المعروض) وهذه الجموع خاشعة أبصارها من الذل والهول ، وهي تسرع في سيرها نحو الداعي ، الذي يدعوها لأمر غريب نكير شديد لا تعرفه ولا تطمئن إليه . . وفي أثناء هذا التجمع والخشوع والإسراع يقول الكافرون : ﴿ هذا يوم عسر ﴾ . . وهي قولة المكروب المجهود ، الذي يخرج ليواجه الأمر الصعيب الرعيب ! "

فهذا هو اليوم الذي اقترب ، وهم عنه معرضون ، وبه يكذبون . فتول عنهم يوم يجيء ، ودعهم لمصيرهم فيه وهو هذا المصير الرعيب المخيف !

وبعد هذا الإيقاع العنيف في مطلع السورة ؛ والمشهد المكروب الذي يشمل المكذبين في يوم القيامة . . يأخذ في عرض مشاهد التنكيل والتعذيب الذي أصاب بالفعل أجيال المكذبين قبلهم ، وعرض مصارع الأمم التي سلكت من قبل مسلكهم ، بادئاً بقوم نوح :

(338/737)

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ، فكذبوا عبدنا وقالوا : مجنون وازدجر . . فدعا ربه أَني مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً ، فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد

تركناها آية فهل من مدكر ؟ فكيف كان عذابي ونذر ؟ ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟ ﴾ .

.

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ . . بالرسالة وبالآيات ﴿ فكذبوا عبدنا ﴾ . . نوحاً ﴿ وقالوا : مجنون ﴾ . . كما قالت : قريش ظالمة عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهددوه بالرجم ، وآذوه بالسخرية ، وطالبوه أن يكف عنهم ونهروه بعنف : ﴿ وازدجر ﴾ . . بدلاً من أن ينزجروا هم ويرعووا !

عندئذ عاد نوح إلى ربه الذي أرسله وكلفه مهمة التبليغ . عاد لينهي إليه ما انتهى إليه أمره مع قومه ، وما انتهى إليه جهده وعمله ، وما انتهت إليه طاقته ووسعه . ويدع له الأمر بعد أن لم تعد لديه طاقة لم يبذلها ، وبعد أن لم تبق له حيلة ولا حول :

﴿ فدعا ربه : أني مغلوب . فانتصر ﴾ . .

انتهت طاقتي . انتهى جهدي . انتهت قوتي . وغلبت على أمري . ﴿ أني مغلوب فانتصر ﴾ . . انتصر أنت يا ربي . انتصر لدعوتك . انتصر لحقك . انتصر لمنهجك . انتصر أنت فالأمر أمرك ، والدعوة دعوتك . وقد انتهى دوري !

وما تكاد هذه الكلمة تقال ؛ وما يكاد الرسول يسلم الأمر لصاحبه الجليل القهار ، حتى تشير اليد القادرة القاهرة إلى عجلة الكون الهائلة الساحقة . . فتدور دورتها المدوية

المجلجلة :

﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴾ . .

(339/737)

وهي حركة كونية ضخمة غامرة تصورها ألفاظ وعبارات مختارة . تبدأ بإسناد الفعل إلى الله مباشرة : ﴿ ففتحنا ﴾ فيحس القارئ يد الجبار تفتح ﴿ أبواب السماء ﴾ . . بهذا اللفظ وهذا الجمع . ﴿ بماء منهمر ﴾ . . غزير متوال . وبالقوة ذاتها وبالحركة نفسها : ﴿ وفجرنا الأرض عيوناً ﴾ . . وهو تعبير يرسم مشهد التفجر وكأنه ينبثق من الأرض كلها ، وكأنما الأرض كلها قد استحالت عيوناً .

والتقى الماء المنهمر من السماء بالماء المتفجر من الأرض . . ﴿ على أمر قد قدر ﴾ . . التقيا على أمر مقدر ، فهما على اتفاق لتنفيذ هذا الأمر المقدر . طائعان للأمر ، محققان للقدر .

حتى إذا صار طوفاناً يطم ويعم ، ويغمر وجه الأرض ، ويطوي الدنس الذي يغشى هذا الوجه . وقد يئس الرسول من تطهيره ، وغلب على أمره في علاجه . امتدت اليد القوية

الرحيمة إلى الرسول الذي دعا دعوته ، فتحرك لها الكون كله . امتدت له هذه اليد بالنجاة وبالتكريم :

﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر ﴾ . .

وظاهر من العبارة تفخيم السفينة وتعظيم أمرها . فهي ذات ألواح ودسر . توصف ولا تذكر لفخامتها وقيمتها . وهي تجري في رعاية الله بملاحظة أعينه . ﴿ جزاء لمن كان كفر ﴾ . وجحد وازدجر . وهو جزاء يمسح بالرعاية على الجفاء ، وبالتكريم على الاستهزاء . ويصور مدى القوة التي يملك رصيدها من يُغلب في سبيل الله . ومن يبذل طاقته ، ثم يعود إليه يسلم له أمره وأمر الدعوة ويدع له أن ينتصر ! . . إن قوى الكون الهائلة كلها في خدمته وفي نصرته . والله من ورائها بجبروته وقدرته .

وعلى مشهد الانتصار الهائل الكامل ؛ والمحق الحاسم الشامل ، يتوجه إلى القلوب التي شهدت المشهد كأنها تراه .

يتوجه إليها بلمسة التعقيب ، لعلها تتأثر وتستجيب :

﴿ ولقد تركناها آية فهل من مدكر ؟ ﴾ . .

هذه الواقعة بملابساتها المعروفة . تركناها آية للأجيال ﴿ فهل من مدكر ؟ ﴾ يتذكر ويعتبر ؟

ثم سؤال لإيقاظ القلوب إلى هول العذاب وصدق النذير :

﴿ فكيف كان عذابي ونذر ؟ ﴾ . .

ولقد كان كما صوره القرآن . كان عذاباً مدمراً جباراً . وكان نذيراً صادقاً بهذا العذاب . وهذا هو القرآن حاضراً ، سهل التناول ، ميسر الإدراك ، فيه جاذبية ليقرأ ويتدبر . فيه جاذبية الصدق والبساطة ، وموافقة الفطرة ، واستجاشة الطبع ، لا تنفد عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد . وكلما تدبره القلب عاد منه بزاد جديد . وكلما صحبته النفس زادت له ألفة وبه أنساً :

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فها من مدكر ؟ ﴾ . .

وهذا هو التعقيب الذي يتكرر ، بعد كل مشهد يصور . . ويقف السياق عنده بالقلب البشري يدعوه دعوة هادئة إلى التذكر والتدبر ، بعد أن يعرض عليه حلقة من العذاب الأليم الذي حل بالمكذبين .

﴿ كذبت عاد ، فكيف كان عذابي ونذر ؟ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابي ونذر ؟ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ ﴾ . .

وهذه هي الحلقة الثانية ، أو المشهد الثاني من مشاهد التعذيب العنيف ؛ والمصرع الذي يقف عليه بعد وقفته على مصرع قوم نوح . أول المهلكين .

يبدؤه بالإخبار عن تكذيب عاد . وقبل أن يكمل الآية يسأل سؤال التعجيب والتهويل : ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ؟ ﴾ . . كيف كان بعد تكذيب عاد ؟ ثم يجيب . .

كان كما يصفه ذلك الوصف الخاطف الرعيب :

﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ . . والريح الصرصر : الباردة العنيفة . وجرس اللفظ يصور نوع الريح . والنحس : الشؤم . وأي نحس يصيب قوماً أشد مما أصاب عاد . والريح تنزعهم وتجذبهم وتحطمهم . فتدعهم كأنهم أعجاز نخل مهشمة مقلوعة من قعورها ؟ !

(341/737)

والمشهد مفزع مخيف ، وعاصف عنيف . والريح التي أرسلت على عاد " هي من جند الله " وهي قوة من قوى هذا الكون ، من خلق الله ، تسير وفق الناموس الكوني الذي اختاره ؛ وهو يسلطها على من يشاء ، بينما هي ماضية في طريقها مع ذلك الناموس ، بلا تعارض بين خط سيرها الكوني ، وأدائها لما تؤمر به وفق مشيئة الله . صاحب الأمر

وصاحب الناموس :

﴿ فكيف كان عذابي ونذر ؟ ﴾ . .

يكررها بعد عرض المشهد . والمشهد هو الجواب !

ثم يختم الحلقة بالتعقيب المكرر في السورة وفق نسقها الخاص :

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ ﴾ . .

ثم يمضي إلى المشهد التالي في السياق وفي التاريخ :

﴿ كذبت ثمود بالنذر . فقالوا : أبشرا منا واحداً نتبعه ؟ إنا إذاً لفي ضلال وسعر . أألقي الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر . سيعلمون غدا من الكذاب الأشر . إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر .

ونبئهم أن الماء قسمة بينهم ، كل شرب محتضر . فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر . فكيف كان عذابي ونذر ؟ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر . . ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟ ﴾ . .

وثمود كانت القبيلة التي خلفت عاداً في القوة والتمكين في جزيرة العرب . . كانت عاد في الجنوب كانت ثمود في الشمال . وكذبت ثمود بالنذر كما كذبت عاد ، غير معتبرة بمصرعها المشهور المعلوم في أنحاء الجزيرة .

﴿ فقالوا : أبشراً منا واحداً نتبعه ؟ إنا إذاً لفي ضلال وسعر . أألقي الذكر عليه من

بيننا ؟ بل هو كذاب أشر ﴾ . .

وهي الشبهة المكرورة التي تحيك في صدور المكذبين جيلاً بعد جيل : ﴿ أألقي الذكر عليه من بيننا ﴾ ؟ كما أنها هي الكبرياء الجوفاء التي لا تنظر إلى حقيقة الدعوة ، إنما تنظر إلى شخص الداعية : ﴿ أبشراً منا واحداً نتبعه ؟ ﴾ !

(342/737)

وماذا في أن يختار الله واحداً من عباده . . والله أعلم حيث يجعل رسالته . . فيلقي عليه الذكر – أي الوحي وما يحمله من توجيهات للتذكر والتدبر – ماذا في هذا الاختيار لعبد من عباده يعلم منه تهيؤه واستعداده . وهو خالق الخلق . وهو منزل الذكر ؟ إنها شبهة واهية لا تقوم إلا في النفوس المنحرفة . النفوس التي لا تريد أن تنظر في الدعوى لترى مقدار ما فيها من الحق والصدق ؛ ولكن إلى الداعية فتستكبر عن اتباع فرد من البشر ، مخافة أن يكون في اتباعها له إيثار وله تعظيم . وهي تستكبر عن الإذعان والتسليم .

ومن ثم يقولون لأنفسهم : ﴿ أبشراً منا واحداً نتبعه ؟ إنا إذاً لفي ضلال وسعر ﴾ . . أي لو وقع منا هذا الأمر المستنكر ! وأعجب شيء أن يصفوا أنفسهم بالضلال لو اتبعوا الهدى ! وأن يحسبوا أنفسهم في سعر – لا في سعير واحد – إذا هم فاءوا إلى ظلال

الإيمان !

ومن ثم يتهمون رسولهم الذي اختاره الله ليقودهم في طريق الحق والقصد . يتهمونه بالكذب الطمع : ﴿ بل هو كذاب أشر ﴾ . . كذاب لم يلق عليه الذكر . أشر : شديد الطمع في اختصاص نفسه بالمكانة ! وهو الاتهام الذي يواجه بكل داعية . اتهامه بأنه يتخذ الدعوة ستاراً لتحقيق مآرب ومصالح . وهي دعوى المطموسين الذين لا يدركون دوافع النفوس ومحركات القلوب .

وبينما يجري السياق على أسلوب الحكاية لقصة غبرت في التاريخ . . يلتفت فجأة وكأنما الأمر حاضر . والأحداث جارية . فيتحدث عما سيكون . ويهدد بهذا الذي سيكون :

﴿ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ !

وهذه إحدى طرق العرض القرآنية للقصص . وهي طريقة تنفخ روح الحياة الواقعية في القصة ، وتحيلها من حكاية تحكى ، إلى واقعة تعرض على الأنظار ، يترقب النظارة أحداثها الآن ، ويرتقبونها في مقبل الزمان !

﴿ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ . . وسيكشف لهم الغد عن الحقيقة . ولن يكونوا بمنجاة من وقع هذه الحقيقة . فستكشف عن البلاء المدمر للكذاب الأشر !

﴿ إنا مرسلو الناقة فتنة لهم .

فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم . كل شرب محتضر ﴾ . .

ويقف القارئ يترقب ما سيقع ، عندما يرسل الله الناقة فتنة لهم ، وامتحاناً مميزاً لحقيقتهم .

ويقف الرسول – رسولهم عليه السلام – مرتقباً ما سيقع ، مؤتمراً بأمر ربه في الاصطبار عليهم حتى تقع الفتنة ويتم الامتحان . ومعه التعليمات . . أنا الماء في القبيلة قسمة بينهم وبين الناقة – ولا بد أنها كانت ناقة خاصة ذات خصائص معينة تجعلها آية وعلامة – فيوم لها ويوم لهم – تحضر يومها ويحضرون يومهم . وتنال شربها وينالون شربهم .

ثم يعود السياق إلى أسلوب الحكاية . فيقص ما كان بعد ذلك منهم :

﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ . .

وصاحبهم هو أحد الرهط المفسدين في المدينة ، الذين قال عنهم في سورة النمل : ﴿ وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ وهو الذي قال عنه في سورة الشمس : ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ وقيل : إنه تعاطى الخمر فسكر ليصير جريئاً على الفعلة التي هو مقدم عليها . وهي عقر الناقة التي أرسلها الله آية لهم ؛ وحذرهم رسولهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم . . ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ وتمت الفتنة ووقع البلاء .

﴿ فكيف كان عذابي ونذر ؟ ﴾ . .

وهو سؤال التعجيب والتهويل . قبل ذكر ما حل من العذاب بعد النذير :

﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ . . .

ولا يفصل القرآن هذه الصيحة . وإن كانت في موضع آخر في سورة " فصلت " توصف بأنها صاعقة : ﴿ فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ وقد تكون كلمة صاعقة وصفاً للصيحة . فهي صيحة صاعقة . وقد تكون تعبيراً عن حقيقتها . فتكون الصيحة والصاعقة شيئاً واحداً . وقد تكون الصيحة هي صوت الصاعقة . أو تكون الصاعقة أثراً من آثار الصيحة التي لا ندري من صاحبها .

(344/737)

وعلى أية حال فقد أرسلت على القوم صيحة واحدة ، ففعلت بهم ما فعلت ، مما جعلهم ﴿ كهشيم المحتظر ﴾ . . والمحتظر صانع الحظيرة . وهو يصنعها من أعواد جافة . فهم صاروا كالأعواد الجافة حين تيبس وتتحطم وتصبح هشيماً . أو أن المحتظر يجمع لماشيته هشيماً تأكله من الأعواد الجافة والعشب الناشف . وقد صار القوم كهذا الهشيم بعد الصيحة الواحدة !

وهو مشهد مفجع مفزع . يعرض رداً على التعالي والتكبر . فإذا المتعالون المتكبرون

هشيم . وهشيم مهين كهشيم المحتظر !

وأمام هذا المشهد العنيف المخيف ، يرد قلوبهم إلى القرآن ليتذكروا ويتدبروا . وهو ميسر للتذكر والتدبر :

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر . فهل من مدكر ؟ ﴾ . .

ويسدل الستار على الهشيم المهين . وفي العين منه مشهد . وفي القلب منه أثر . والقرآن يدعو من يذكر ويتفكر . .

ثم يرفع الستار عن حلقة جديدة تالية – بعد ذلك – في التاريخ ، في محيط الجزيرة العربية كذلك :

﴿ كذبت قوم لوط بالنذر . إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا .

كذلك نجزي من شكر . ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر . ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر . فذوقوا عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ ﴾ . .

وقصة قوم لوط وردت مفصلة في مواضع أخرى . والمقصود بعرضها هنا ليس هو تفصيلاتها ، إنما هي العبرة من عاقبة التكذيب ، والأخذ الأليم الشديد . من ثم تبدأ بذكر ما وقع منهم من تكذيب بالنذر : ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر ﴾ . . وعلى إثر هذه الإشارة

يصف ما نزل بهم من النكال :

﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر . . ﴾

(345/737)

والحاصب : الريح تحمل الحجارة . وفي مواضع أخرى ورد أنه أرسل إليهم حجارة من طين ولفظة الحاصب ذات جرس كأنه وقع الحجارة ، وفيه شدة وعنف تناسب جو المشهد .

ولم ينج إلا آل لوط – إلا امرأته – نعمة من عند الله جزاء إيمانهم وشكرهم . . ﴿ كذلك نجزي من شكر ﴾ . فننجيه وننعم عليه في وسط المهالك والمخاوف .

والآن وقد عرض القصة من طرفيها : طرف التكذيب وطرف الأخذ الشديد . فإنه يعود لشيء من التفصيل فيما وقع بين الطرفين . . وهذه إحدى طرق العرض القرآنية للقصة حين يراد إبراز إيحاءات معينة من إيرادها في هذا النسق . هذه التفصيلات هي :

﴿ ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ، فذوقوا عذابي ونذر . ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾ . .

وطالما أنذر لوط قومه عاقبة المنكر الشاذ الذي كانوا يأتونه ، فتماروا بالنذر ، وشكوا فيها

وارتابوا ، وتبادلوا الشك والارتياب فيما بينهم وتداولوه ، وجادلوا نبيهم فيه . وبلغ منهم الفجور والاستهتار أن يراودوه هو نفسه عن ضيفه – من الملائكة – وقد حسبوهم غلماناً صباحاً فهاج سعارهم الشاذ الملوث القذر ! وساوروا لوطاً يريدون الاعتداء المنكر على ضيوفه ، غير محتشمين ولا مستحيين ، ولا متحرجين من انتهاك حرمة نبيهم الذي حذرهم عاقبة هذا الشذوذ القذر المريض .

عندئذ تدخلت يد القدرة ، وتحرك الملائكة لأداء ما كلفوه وجاءوا من أجله : ﴿ فطمسنا أعينهم ﴾ فلم يعودوا يرون شيئاً ولا أحداً ؛ ولم يعودوا يقدرون على مساورة لوط ولا الإمساك بضيفه ! والإشارة إلى طمس أعينهم لا ترد إلا في هذا الموضع بهذا الوضوح . ففي موضع آخر ورد : ﴿ قالوا : يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ فزاد هنا ذكر الحالة التي صارت تمنعهم من أن يصلوا إليه . وهي انطماس العيون !

(346/737)

وبينما السياق يجري مجرى الحكاية ، إذا به حاضر مشهود ، وإذا الخطاب يوجه إلى المعذبين : ﴿ فذوقوا عذابي ونذر ﴾ . . فهذا هو العذاب الذي حذرتم منه ، وهذه هي النذر التي تماريتم فيها !

وكان طمس العيون في المساء . . في انتظار الصباح الذي قدره الله لأخذهم جميعاً :

﴿ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾ . .

وهو ذلك العذاب الذي عجل بذكره في السياق .

وهو الحاصب الذي طهر الأرض من تلك اللوثة ومن ذلك الفساد .

ومرة أخرى تتغير طريقة العرض ، ويستحضر المشهد كأنه اللحظة واقع . وينادى المعذبون وهم يعانون العذاب :

﴿ فذوقوا عذابي ونذر ﴾ ! ! !

ثم يجيء التعقيب المألوف ، عقب المشهد العنيف :

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ ؟

وتختم هذه الحلقات بحلقة خارج الجزيرة ، ومصرع من المصارع المشهورة المذكورة . في إشارة سريعة خاطفة :

﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر . كذبوا بآياتنا كلها ، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ . .

وهكذا تختصر قصة فرعون وملئه في طرفيها : مجيء النذر لآل فرعون وتكذيبهم بالآيات التي جاءهم بها رسولهم . وأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر . والإشارة إلى العزة والاقتدار تلقي ظلال الشدة في الأخذ ؛ وفيها تعريض بعزة فرعون واقتداره على البغي والظلم . فقد ضاعت العزة الباطلة ، وسقط الاقتدار الموهوم . وأخذه الله – هو وآله –

أخذ عزيز حقاً مقتدر صدقاً . أخذهم أخذاً شديداً يناسب ما كانوا عليه من ظلم وغشم وبطش وجبروت .

وعلى هذه الحلقة الأخيرة على مصرع فرعون الجبار . يسدل الستار . .

والآن . وقد أسدل الستار على آخر مشهد من مشاهد العذاب والنكال . والمكذبون يشهدون ؛ ويتلقى حسهم إيقاع هذه المشاهد . . الآن والمصارع المتتالية حاضرة في خيالهم ، ضاغطة على حسهم . . والآن يتوجه إليهم بالخطاب ؛ يحذرهم مصرعاً كهذه المصارع . وينذرهم ما هو أدهى وأفظع :

﴿ أكفاركم خير من أولئكم ؟ أم لكم براءة في الزبر ؟ أم يقولون : نحن جميع منتصر ؟ سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر . إن المجرمين في ضلال وسعر . يوم يسحبون في النار على وجوههم : ذوقوا مس سقر . إنا كل شيء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر . ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر . وكل شيء فعلوه في الزبر . وكل صغير وكبير مستطر ﴾

إنه الإنذار بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ؛ وإسقاط كل شبهة وكل شك في صدق هذا

الإنذار وسد كل ثغرة وكل طمع في الهرب والفكاك ؛ أو المغالطة في الحساب والفرار من الجزاء !

تلك كانت مصارع المكذبين . فما يمنعكم أنتم من مثل ذلك المصير ؟ ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ؟ ﴾ . . وما ميزة كفاركم على أولئكم ؟ ﴿ أم لكم براءة في الزبر ﴾ . . تشهد بها الصحائف المنزلة ، فتعفوا إذن من جرائر الكفر والتكذيب ؟ لا هذه ولا تلك . فلستم خيراً من أولئكم ، وليست لكم براءة في الصحائف المنزلة ، وليس هنالك إلا لقاء المصير الذي لقيه الكفار من قبلكم في الصورة التي يقدرها الله لكم .

ثم يلتفت عن خطابهم إلى خطاب عام ، يعجب فيه من أمرهم :

﴿ أم يقولون : نحن جميع منتصر ﴾ .

وذلك حين يرون جمعهم فتعجبهم قوتهم ، ويغترون بتجمعهم ، فيقولون : إنا منتصرون لا هازم لنا ولا غالب ؟

هنا يعلنها عليهم مدوية قاضية حاسمة :

﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ . .

فلا يعصمهم تجمعهم ، ولا تنصرهم قوتهم . والذي يعلنها عليهم هو القهار الجبار .

. ولقد كان ذلك . كما لا بد أن يكون !

قال البخاري بإسناده إلى ابن عباس – : إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال وهو في قبة له

يوم بدر : " أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبداً . فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده ، وقال : حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ! فخرج وهو يثب في الدرع ، وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر . . . ﴾ " .

(348/737)

وفي رواية لابن أبي حاتم بإسناده إلى عكرمة ، قال : " لما نزلت ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ قال عمر : أي جمع يهزم ؟ أي أي جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يثب في الدرع ، وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ . فعرفت تأويلها يومئذ ! "

وكانت هذه هزيمة الدنيا . ولكنها ليست هي الأخيرة . وليست هي الأشد والأدهى ؛ فهو يضرب عن ذكرها ليذكر الأخرى :

﴿ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمرُّ ﴾ . .

أدهى وأمر من كل عذاب رأوه أو يرونه في هذه الأرض . وأدهى وأمر من كل مشهد رأوه مرسوماً فيما مر . من الطوفان ، إلى الصرصر . إلى الصاعقة . إلى الحاصب . إلى أخذ فرعون وآله أخذ عزيز مقتدر !

ثم يفصّل كيف هي أدهى وأمر . يفصل هذا في مشهد عنيف من مشاهد القيامة :

﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر . يوم يسحبون في النار على وجوههم : ذوقوا مسَّ سقر ﴾ . .

في ضلال يعذب العقول والنفوس ، وفي سعر تكوي الجلود والأبدان . . في مقابل ما كانوا يقولون هم وأمثالهم من قبل : ﴿ أبشراً منا واحداً نتبعه ؟ إنا إذن لفي ضلال وسعر ﴾ . ليعرفوا أين يكون الضلال وأين تكون السعر !

وهم يسحبون في النار على وجوههم في عنف وتحقير ، في مقابل الاعتزاز بالقوة والاستكبار . وهم يزادون عذاباً بالإيلام النفسي ، الذي كأنما يشهد اللحظة حاضراً معروضاً على الأسماع والأنظار : ﴿ ذوقوا مس سقر ﴾ !

وفي ظل هذا المشهد المروع المزلزل يتجه بالبيان إلى الناس كافة ، وإلى القوم خاصة . ليقر في قلوبهم حقيقة قدر الله وحكمته وتدبيره . .

إن ذلك الأخذ في الدنيا ، وهذا العذاب في الآخرة . وما كان قبلهما من رسالات ونذر ، ومن قرآن وزبر . وما حول ذلك كله من خلق ووجود وتصريف لهذا الوجود . .

إن ذلك كله ، وكل صغيرة وكبيرة مخلوقة بقدر ، مصرفة بقصد ، مدبرة بحكمة . لا شيء جزاف . لا شيء عبث . لا شيء مصادفة . لا شيء ارتجال :

﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ .

كل شيء . . كل صغير وكل كبير . كل ناطق وكل صامت . كل متحرك وكل ساكن . كل ماض وكل حاضر . كل معلوم وكل مجهول . كل شيء . . خلقناه بقدر . .

قدر يحدد حقيقته . ويحدد صفته . ويحدد مقداره . ويحدد زمانه . ويحدد مكانه .

ويحدد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء .

وتأثيره في كيان هذا الوجود .

وإن هذا النص القرآني القصير اليسير ليشير إلى حقيقة ضخمة هائلة شاملة ، مصداقها هذا الوجود كله . حقيقة يدركها القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود ، ويتجاوب معه ، ويتلقى عنه ، ويحس أنه خليقة متناسقة تناسقاً دقيقاً . كل شيء فيه بقدر يحقق هذا التناسق المطلق ، الذي ينطبع ظله في القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود .

ثم يبلغ البحث والرؤية والتجربة من إدراك هذه الحقيقة القدر الذي تهيئه هذه الوسائل ، ويطيقه العقل البشري ، ويملك معرفته عن هذا الطريق . ووراء هذا القدر يبقى دائماً ما هو أعظم وأكمل ، تدركه الفطرة وينطبع فيها بتأثير الإيقاع الكوني المتناسق فيها ، وهي ذاتها بعض هذا الكون المتناسق كل شيء فيه بقدر .

ولقد وصل العلم الحديث إلى أطراف من هذه الحقيقة ، فيما يملك أن يدركه منها بوسائله المهيأة له . . وصل في إدراك التناسق بين أبعاد النجوم والكواكب وأحجامها وكتلها وجاذبيتها بعضها لبعض إلى حد أن يحدد العلماء مواقع كواكب لم يروها بعد ؛ لأن التناسق يقتضي وجودها في المواضع التي حددوها . فوجودها في هذه المواقع هو الذي يفسر ظواهر معينة في حركة الكواكب التي رصدوها . . ثم يتحقق هذا الذي فرضوه . ويدل تحقيقه على الدقة المتناهية في توزيع هذه الأجرام ، في هذا الفضاء الهائل ، بهذه النسب المقدرة ، التي لا يتناولها خلل أو اضطراب !

(350/737)

ووصل في إدراك التناسق في وضع هذه الأرض التي نعيش عليها ، لتكون صالحة لنوع الحياة التي قدر الله أن تكون فيها إلى حد أن افتراض أي اختلال في أية نسبة من نسبها يؤدي بهذه الحياة كلها ، أو لا يسمح أصلاً بقيامها . فحجم هذه الأرض ، وكتلتها ، وبعدها عن الشمس . وكتلة هذه الشمس ، ودرجة حرارتها . وميل الأرض على محورها بهذا القدر ، وسرعتها في دورتها حول نفسها وحول الشمس . وبعد القمر عن الأرض . وحجمه وكتلته . وتوزيع الماء واليابس في هذه الأرض . . إلى آلاف من هذه النسب المقدرة تقديراً ،

لو وقع الاختلال في أي منها لتبدل كل شيء ، ولكانت هي النهاية المقدرة لعمر هذه الحياة على هذه الأرض !

ووصل في إدراك التناسق بين عدد كبير من الضوابط التي تضبط الحياة ؛ وتنسق بين الأحياء والظروف المحيطة بها ؛ وبين بعضها وبعض . . إلى حد يعطي فكرة عن تلك الحقيقة العميقة الكبيرة التي تشير إليها الآية . فالنسبة بين عوامل الحياة والبقاء وعوامل الموت والفناء في البيئة وفي طبيعة الأحياء محفوظة دائماً بالقدر الذي يسمح بنشأة الحياة وبقائها وامتدادها . وفي الوقت ذاته يحد من انتشارها إلى الحد الذي لا تكفي الظروف المهيأة للأحياء ، في وقت ما ، لإعالتهم وإعاشتهم !

ولعله من المفيد أن نشير إشارة سريعة إلى أي شيء من هذا التوازن في علاقات بعض الأحياء ببعض . إذ كنا قد أشرنا بشيء من التفصيل في سور أخرى إلى التناسق في بناء الكون ، وفي ظروف الأرض .

.

" إن الجوارح التي تتغذى بصغار الطيور قليلة العدد ، لأنها قليلة البيض ، قليلة التفريخ ، فضلاً على أنها لا تعيش إلا في مواطن خاصة محدودة . وهي في مقابل هذا طويلة الأعمار . ولو كانت مع عمرها الطويل ، كثيرة الفراخ مستطيعة الحياة في كل موطن ، لقضت على صغار الطيور وأفنتها على كثرتها وكثرة تفريخها . أو قللت من أعدادها الكبيرة اللازمة بدورها لطعام هذه الجوارح وسواها من بني الإنسان ، وللقيام بأدوارها الأخرى ، ووظائفها الكثيرة في هذه الأرض !

بغاث الطير أكثرها فراخا . . . وأم الصقر مِقلاتٌ نَزور

وذلك للحكمة التي قدرها الله كما رأينا ، كي تتعادل عوامل البقاء وعوامل الفناء بين الجوارح والبغاث !

والذبابة تبيض ملايين البويضات . ولكنها لا تعيش إلا أسبوعين . ولو كانت تعيش بضعة أعوام ، تبيض فيها بهذه النسبة لغطى الذباب وجه الأرض بنتاجه ؛ ولغدت حياة كثير من الأجناس – وأولها الإنسان – مستحيلة على وجه هذه الأرض . ولكن عجلة التوازن التي لا تختل ، في يد القدرة التي تدبر هذا الكون ، وازنت بين كثرة النسل وقصر العمر فكان هذا الذي نراه !

والميكروبات – وهي أكثر الأحياء عدداً ، وأسرعها تكاثراً ، وأشدها فتكاً – هي كذلك أضعف الأحياء مقاومة وأقصرها عمراً . تموت بملايين الملايين من البرد ، ومن الحر ،

ومن الضوء ، ومن أحماض المعدات ، ومن أمصال الدم ، ومن عوامل أخرى كثيرة . ولا تتغلب إلا على عدد محدود من الحيوان والإنسان . ولو كانت قوية المقاومة أو طويلة العمر لدمرت الحياة والأحياء !

وكل حي من الأحياء مزود بسلاح يتقي به هجمات أعدائه ويغالب به خطر الفناء .

وتختلف هذه الأسلحة وتتنوع . فكثرة العدد سلاح . وقوة البطش سلاح . وبينهما ألوان وأنواع . .

الحيات الصغيرة مزودة بالسم أو بالسرعة للهرب من أعدائها . والثعابين الكبيرة مزودة بقوة العضل ، ومن ثم ينذر فيها السام !

(352/737)

والخنفساء – وهي قليلة الحيلة – مزودة بمادة كاوية ذات رائحة كريهة ، تصبها على كل من يلمسها ، وقاية من الأعداء !

والظباء مزودة بسرعة الجري والقفز ، والأسود مزودة بقوة ألباس والافتراس !

وهكذا كل حي من الأحياء الصغار والكبار على السواء .

وكل حي مزود كذلك بالخصائص والوسائل التي يحصل بها على طعامه ، والتي ينتفع معها

بهذا اللون من الطعام . . الإنسان والحيوان والطير وأدنأ أنواع الأحياء سواء . .

البويضة بعد تلقيحها بالحيوان المنوي تلصق بالرحم . وهي مزودة بخاصية أكالة ، تمزق جدار الرحم حولها وتحوله إلى بركة من الدم المناسب لامتصاصها ونموها ! والحبل السري الذي يربط الجنين بأمه ليتغذى منها حتى يتم وضعه ، روعي في تكوينه ما يحقق الغرض الذي تكون من أجله ، دون إطالة قد تسبب تخمر الغذاء فيه ، أو قصر قد يؤدي إلى اندفاع الغذاء اليه بما قد يؤذيه .

والثدي يفرز في نهاية الحمل وبدء الوضع السائل الأبيض مائلاً إلى الإصفرار .

ومن عجيب صنع الله أن هذا السائل عبارة عن مواد كيماوية ذائبة تقي الطفل من عدوى الأمراض . وفي اليوم التالي للميلاد يبدأ اللبن في التكوين . ومن تدبير المدبر الأعظم أن يزداد مقدار اللبن الذي يفرزه الثدي يوماً بعد يوم ، حتى يصل إلى حوالي ليتر ونصف في اليوم بعد سنة ، بينما لا تزيد كميته في الأيام الأولى على بضع أوقيات . ولا يقف الإعجاز عند كمية اللبن التي تزيد على حسب زيادة الطفل ؛ بل إن تركيب اللبن كذلك تتغير مكوّناته ، وتتركز مواده ، فهو يكاد يكون ماء به القليل من النشويات والسكريات في أول الأمر ، ثم تتركز مكوناته فتزيد نسبته النشوية والسكرية والدهنية فترة بعد أخرى ، بل يوماً بعد يوم بما يوافق أنسجة وأجهزة الطفل المستمر النمو " .

وتتبع الأجهزة المختلفة في تكوين الإنسان ، ووظائفها ، وطريقة عملها ، ودور كل منها في المحافظة على حياته وصحته . . يكشف عن العجب العجاب في دقة التقدير وكمال التدبير . ويرينا يد الله وهي تدبر أمر كل فرد . بل كل عضو . بل كل خلية من خلاياه . وعين الله عليه تكلؤه وترعاه . ولن نستطيع هنا أن نفصل هذه العجائب فنكتفي بإشارة سريعة إلى التقدير الدقيق في جهاز واحد من هذه الأجهزة . جهاز الغدد الصم " تلك المعامل الكيماوية الصغيرة التي تمد الجسم بالتركيبات الكيماوية الضرورية ، والتي يبلغ من قوتها أن جزءاً من ألف بليون جزء منها تحدث آثاراً خطيرة في جسم الإنسان . وهي مرتبة بحيث أن إفراز كل غدة يكمل إفراز الغدة الأخرى . وكل ما كان يعرف عن هذه الإفرازات أنها معقدة التركيب تعقيداً مدهشاً ، وأن أي اختلال في إفرازها يسبب تلفاً عاماً في الجسم ، يبلغ حد الخطورة . إذا دام هذا الاختلال وقتاً قصيراً " .

أما الحيوان فتختلف أجهزته باختلاف أنواعه وبيئاته وملابسات حياته . .

" زودت أفواه الآساد والنمور والذئاب والضباع ، وكل الحيوانات الكاسرة التي تعيش في الفلاة ، ولا غذاء لها إلا ما تفترسه من كائنات لا بد من مهاجمتها ، والتغلب عليها ، بأنياب قاطعة ، وأسنان حادة ، وأضراس صلبة . ولما كانت في هجومها لا بد أن تستعمل عضلاتها ، فلأرجلها عضلات قوية ، سلحت بأظافر ومخالب حادة ، وحوت معدتها

الأحماض والأنزيمات الهاضمة للحوم والعظام " .

فأما الحيوانات المجترة المستأنسة التي تعيش على المراعي ، فهي تختلف فيما زودت به . .

(354/737)

" وقد صممت أجهزتها الهاضمة بما يتناسب مع البيئة ، فأفواهها واسعة نسبياً ؛ وقد تجردت من الأنياب القوية والأضراس الصلبة . وبدلاً منها توجد الأسنان التي تتميز بأنها قاصمة قاطعة ؛ فهي تأكل الحشائش والنباتات بسرعة ، وتبتلعها كذلك دفعة واحدة ، حتى يمكنها أن تؤدي للإنسان ما خلقت لأجله من خدمات . وقد أوجدت العناية الخالقة لهذا الصنف أعجب أجهزة الهضم ، فالطعام الذي تأكله ينزل إلى الكرش ، وهو مخزن له ، فإذا ما انتهى عمل الحيوان اليومي وجلس للراحة ، يذهب الطعام إلى تجويف يسمى " القلنسوة " .

ثم يرجع إلى الفم ، فيمضغ ثانية مضغاً جيداً ، حيث يذهب إلى تجويف ثالث يسمى " أم التلافيف " ، ثم إلى رابع يسمى " الإنفحة " وكل هذه العملية الطويلة أعدت لحماية الحيوان ، إذ كثيراً ما يكون هدفاً لهجوم حيوانات كاسرة في المراعي ، فوجب عليه أن يحصل على غذائه بسرعة ويختفي . ويقول العلم إن عملية الاجترار ضرورية بل وحيوية ، إذ أن

العشب من النباتات العسرة الهضم ، لما يحتويه من السليلوز الذي يغلف جميع الخلايا النباتية ، ولهضمه يحتاج الحيوان إلى وقت طويل جداً ، فلو لم يكن مجتراً ، وبمعدته مخزن خاص ، لضاع وقت طويل في الرعي ، يكاد يكون يوماً بأكمله ، دون أن يحصل الحيوان على كفايته من الغذاء ، ولأجهد العضلات في عمليات التناول والمضغ . إنما سرعة الأكل ، ثم تخزينه وإعادته بعد أن يصيب شيئاً من التخمر ، ليبدأ المضغ والطحن والبلع ، تحقق كافة أغراض الحيوان من عمل وغذاء وحسن هضم . فسبحان المدبر " .

" والطيور الجارحة كالبوم والحدأة ذات منقار مقوس حاد على شكل خطاف لتمزيق اللحوم . بينما للإوز والبط مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة ، توائم البحث عن الغذاء في الطين والماء . وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش .

(355/737)

" أما الدجاج والحمام وباقي الطيور التي تلتقط الحب من الأرض فمناقيرها قصيرة مدببة لتؤدي هذا الغرض . بينما منقار البجعة مثلاً طويل طولاً ملحوظاً ، ويمتد من أسفله كيس يشبه الجراب ليكون كشبكة الصياد . إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسي .

" ومنقار الهدهد وأبو قردان طويل مدبب ، أعد بإتقان للبحث عن الحشرات والديدان ، التي غالباً ما تكون تحت سطح الأرض . ويقول العلم : إنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء أي طير من النظرة العابرة إلى منقاره .

" أما باقي الجهاز الهضمي للطير فهو غريب عجيب . فلما لم يعط أسناناً فقد خلقت له حوصلة وقانصة تهضم الطعام . ويلتقط الطير مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام " .

ويطول بنا الاستعراض ، ونخرج على منهج هذه الظلال ، لو رحنا نتتبع الأنواع والأجناس الحية على هذا النحو ، فنسرع الخطى إلى " الإميبا " وهي ذات الخلية الواحدة ، لنرى يد الله معها ، وعينه عليها ، وهو يقدر لها أمرها تقديراً .

" والإميبا كائن حي دقيق الحجم . يعيش في البرك والمستنقعات ، أو على الأحجار الراسبة في القاع . ولا يرى بالعين إطلاقاً . وهو يرى بالمجاهر ، كتلة هلامية ، يتغير شكلها بتغير الظروف والحاجات . فعندما تتحرك تدفع بأجزاء من جسمها تكون به زوائد ، تستعملها كالأقدام ، للسير بها إلى المكان المرغوب .

ولذا تسمى هذه الزوائد بالأقدام الكاذبة . وإذا وجدت غذاء لها أمسكت به بزائدة أو زائدتين ، وتفرز عليه عصارة هاضمة ، فتتغذى بالمفيد منها ، أما الباقي فتطرده من جسمها ! وهي تتنفس من كل جسمها بأخذ الأكسوجين من الماء . . فتصور هذا الكائن

الذي لا يرى إطلاقاً بالعين ، يعيش ويتحرك ، ويتغذى ويتنفس ، ويخرج فضلاته ! فإذا ما تم نموه انقسم إلى قسمين ، ليكون كل قسم حيواناً جديداً " . .

(356/737)

" وعجائب الحياة في النبات لا تقل في إثارة العجب والدهشة عن عجائبها في الإنسان والحيوان والطير والتقدير فيها لا يقل ظهوراً وبروزاً عنه في تلك الأحياء . ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ على أن الأمر أعظم من هذا كله وأشمل في التقدير والتدبير . إن حركة هذا الكون كله بأحداثها ووقائعها وتياراتها مقدرة مدبرة صغيرها وكبيرها . كل حركة في التاريخ ككل انفعال في نفس فرد ، ككل نفس يخرج من صدر ! إن هذا النفس مقدر في وقته ، مقدر في مكانه ، مقدر في ظروفه كلها ، مرتبط بنظام الوجود وحركة الكون ، محسوب حسابه في التناسق الكوني ، كالأحداث العظام الضخام !

وهذا العود البري النابت وحده هناك في الصحراء . . إنه هو الآخر قائم هناك بقدر . وهو يؤدي وظيفة ترتبط بالوجود كله منذ كان ! وهذه النملة السارية وهذه الهباءة الطائرة . وهذه الخلية السابحة في الماء . كالأفلاك والأجرام الهائلة سواء !

تقدير في الزمان ، تقدير في المكان ، تقدير في المقدار ، وتقدير في الصورة . وتناسق مطلق بين جميع الملابسات والأحوال .

(357/737)

من ذا الذي يذكر مثلاً أن زواج يعقوب من امرأة أخرى هي أم يوسف وبنيامين أخيه ، لم يكن حادثاً شخصياً فردياً . . إنما كان قدراً مقدوراً ليحقد إخوة يوسف من غير أمه عليه ، فيأخذوه فيلقوه في الجب – ولا يقتلوه – لتلتقطه السيارة . لتبيعه . في مصر . لينشأ في قصر العزيز . لتراوده امرأة العزيز عن نفسه . ليستعلي على الإغراء . ليلقى في السجن . . لماذا ؟ ليتلاقى في السجن مع خادمي الملك . ليفسر لهما الرؤيا . . لماذا ؟ إلى تلك اللحظة لا يوجد جواب ! ويقف ناس من الناس يسألون : لماذا ؟ لماذا يا رب يتعذب يوسف ؟ لماذا يا رب يتعذب يعقوب ؟ لماذا يفقد هذا النبي بصره من الحزن ؟ ولماذا يسام يوسف الطيب الزكي كل هذا الألم ، المنوع الأشكال ؟ لماذا ؟ ولأول مرة تجيء أول إجابة بعد أكثر من ربع قرن في العذاب ، لأن القدر يعده ليتولى أمر مصر وشعبها والشعوب المجاورة في سني القحط السبعة ! ثم ماذا ؟ ثم ليستقدم أبويه وإخوته . ليكون من نسلهم شعب بني إسرائيل . ليضطهدهم فرعون . لينشأ من بينهم موسى – وما صاحب حياته من تقدير وتدبير –

لتنشأ من وراء ذلك كله قضايا وأحداث وتيارات يعيش العالم فيها اليوم بكليته ! وتؤثر في مجرى حياة العالم جميعه !

ومن ذا الذي يذكر مثلاً أن زواج إبراهيم جد يعقوب من هاجر المصرية لم يكن حادثاً شخصياً فردياً .

إنما كان وما سبقه في حياة إبراهيم من أحداث أدت إلى مغادرته موطنه في العراق ومروره بمصر ، ليأخذ منها هاجر ، لتلد له إسماعيل . ليسكن إسماعيل وأمه عند البيت المحرم . لينشأ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نسل إبراهيم – عليه السلام – في هذه الجزيرة . أصلح مكان على وجه الأرض لرسالة الإسلام . . ليكون من ذلك كله ذلك الحدث الأكبر في تاريخ البشرية العام !

إنه قدر الله وراء طرف الخيط البعيد . لكل حادث . ولكل نشأة . ولكل مصير . ووراء كل نقطة ، وكل خطوة ، وكل تبديل أو تغيير .

إنه قدر الله النافذ ، الشامل ، الدقيق ، العميق .

وأحياناً يرى البشر طرف الخيط القريب ولا يرون طرفه البعيد . وأحياناً يتطاول الزمن بين المبدأ والمصير في عمرهم القصير ، فتخفى عليهم حكمة التدبير . فيستعجلون ويقترحون . وقد يسخطون . أو يتطاولون !

والله يعلمهم في هذا القرآن أن كل شيء بقدر ليسلموا الأمر لصاحب الأمر ، وتطمئن قلوبهم وتستريح ويسيروا مع قدر الله في توافق وفي تناسق ، وفي أنس بصحبة القدر في خطوه المطمئن الثابت الوثيق . .

ومع التقدير والتدبير ، القدرة على تفعل أعظم الأحداث بأيسر الإشارات :

﴿ وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر ﴾ . .

فهي إشارة واحدة . أو كلمة واحدة يتم بها كل أمر : الجليل والصغير سواء . وليس هنالك جليل ولا صغير . إنما ذلك تقدير البشر اللأشياء . وليس هنالك زمن ولا ما يعادل لمح البصر . إنما هو تشبيه لتقريب الأمر إلى حس البشر . فالزمن إن هو إلا تصور بشري ناشئ من دورة أرضهم الصغيرة ، ولا وجود له في حساب الله المطلق من هذه التصورات المحدودة !

واحدة تنشئ هذا الوجود الهائل . وواحدة تبدل فيه وتغير . وواحدة تذهب به كما يشاء الله . وواحدة تحيي كل حي . وواحدة تذهب به هنا وهناك . وواحدة ترده إلى الموت . وواحدة تبعثه في صورة من الصور . وواحدة تبعث الخلائق جميعاً . وواحدة

تجمعهم ليوم الحشر والحساب .

واحدة لا تحتاج إلى جهد ، ولا تحتاج إلى زمن . واحدة فيها القدرة ومعها التقدير . وكل أمر معها مقدر ميسور .

وبواحدة كان هلاك المكذبين على مدار القرون . وفي هذه يذكرهم بمصير أمثالهم من المكذبين :

﴿ ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر ؟ وكل شيء فعلوه في الزبر ، وكل صغير وكبير مستطر ﴾ .

فهذه مصارع المكذبين ، معروضة في الحلقات التي تضمنتها السورة من قبل . ﴿ فهل من مدكر ؟ ﴾ . . يتذكر ويعتبر ؟

(359/737)

ولم ينته حسابهم بمصارعهم الأليمة ، فوراءهم حساب لا يفلت منه شيء : ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾ . . مسطر في الصحائف ليوم الحساب : ﴿ وكل صغير وكبير مستطر ﴾ . . لا ينسى منه شيء وهو مسطور في كتاب !

وعند هذا الحد من العرض والتعقيب ، يلتفت السياق إلى صفحة أخرى غير صفحة المكذبين .

(360/737)

ويعرض صورة أخرى في ظل وادع أمين . صورة المتقين:

(إن المتقين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر) . .

ذلك بينما المجرمون في ضلال وسعر . يسحبون في النار على وجوههم في مهانة . ويلذعون بالتأنيب كما يلذعون بالسعير: (ذوقوا مس سقر) . .

وهي صورة للنعيم بطرفيه: (في جنات ونهر) . (في مقعد صدق عند مليك مقتدر) .

نعيم الحس والجوارح في تعبير جامع شامل: (في جنات ونهر) يلقي ظلال النعماء واليسر حتى في لفظه الناعم المنساب . . وليس لمجرد إيقاع القافية تجيء كلمة (نهر) بفتح الهاء . بل كذلك لإلقاء ظل اليسر والنعومة في جرس اللفظ وإيقاع التعبير !

ونعيم القلب والروح . نعيم القرب والتكريم: (في مقعد صدق عند مليك مقتدر) . . فهو مقعد ثابت مطمئن , قريب كريم , مأنوس بالقرب , مطمئن بالتمكين . ذلك أنهم المتقون . الخائفون . المترقبون . والله لا يجمع على نفس خوفين: خوفها منه في الدنيا , وخوفها يوم

القيامة . فمن اتقاه في العاجلة أمنه في الآجلة . ومع الأمان في أفزع موطن , يغمره بالأنس والتكريم .

وعند هذا الإيقاع الهادئ , في هذا الظل الآمن , تنتهي السورة التي حفلت حلقاتها بالفزع والكرب والأخذ والتدمير . فإذا للظل الآمن والإيقاع الهادئ طعم وروح أعمق وأروح .

. وهذه هي التربية الكاملة . تربية العليم الحكيم بمسارب النفوس ومداخل القلوب .

وهذا هو التقدير الدقيق لخالق كل شيء بقدر , وهو اللطيف الخبير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 3425 . 3442 ﴾

(361/737)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة النحل في الكلام لى قوله تعالى ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ [النحل : 1] وفي غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا

عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام: 7] الآية.

خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (7) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (8)

قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يس في الكلام على قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الأجداث إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس: 51] وفي سورة ق في الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأرض عَنْهُمْ سِرَاعاً ﴾ [ق: 44].

قوله تعالى: ﴿ يَقُولُ الكافرون هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ [الفرقان: 24] وفي سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: 47].

فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10)

قرأ هذا الحرف ابن عامر ﴿ فَفَتَحْنَآ ﴾ بتشديد التاء للتكثير، وباقي السبعة بتخفيفها.

وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن نبيه نوحاً دعاه قائلا: إن قومه غلبوه سائلاً ربه أن ينتصر له منهم، وأن الله انتصر له منهم، فأهلكهم بالغرق، لأنه تعالى فتح أبواب السماء بماء منهمر أي متدفق منصب بكثرة وأنه تعالى فجر الأرض عيوناً.

وقوله : ﴿ عُيُوناً ﴾ ، تمييز محول عن المفعول ، والأصل فجرنا عيون الأرض . والتفجير : إخراج الماء منها بكثرة ، وألن في قوله : ﴿ فَالْتَقَى الْمَآءُ ﴾ للجنس ، ومعناه التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قدر ، أي قدره الله وقضاه .

وقيل : إن معناه أن الماء النازل من السماء والمتفجر من الأرض جعلهما لله بمقدار ليس أحدهما أكثر من الآخر ، والأول أظهر .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من دعاء نوح ربه جل وعلا ، أن ينتصر له ، من قومه فينتقم منهم ، وأن الله اجابه فانتصر له منهم فأهلكهم جميعاً بالغرق في هذا الماء المتلقى من السماء والأرض ، موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأنبياء : ﴿ وَنُوحاً إِذْ نادى مِن قَبْلُ فاستجبنا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم وَنَصَرْنَاهُ مِنَ القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء : 76 - 77] .

وقوله تعالى في الصافات ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ المجيبون وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ﴾ [الصافات : 75] - إلى قوله - ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخرين ﴾ [الصافات : 82] .

وقد بين جل وعلا أن دعاء نوح فيه سؤاله الله أن يهلكهم إهلاكاً مستأصلاً ، وتلك الآيات

فيها بيان لقوله هنا : فانتصر وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُواْ إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح : 26 - 27] وما دعا نوح على قومه إلا بعد ان أوحى الله إليه انه لا يؤمن منهم أحد غير القليل الذي آمن ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ﴾ [هود : 36 ﴾ . وقد قال تعالى ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [هود : 4] .

(363/737)

وقوله تعالى ﴿ عُيُوناً ﴾ قرأه ابن كثير وابن عامر في رواية ابن ذكوان وعاصم ، في رواية شعبة وحمزة والكسائي : ﴿ عُيُوناً ﴾ بكسر العين لمجانسة الياء .

وقرأه نافع وأبو عمرو وابن عامر في رواية هشام وعاصم في رواية حفص عيوناً بضم العين على الأصل .

وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13)

لم يبين هنا ذات الألواح والدسر ، ولكنه بين في مواضع أخر أن المراد وحملناه على سفينة ذات ألواح ، أي من الخشب ودسر : أي مسامير تربط بعض الخشب ببعض ، وواحد الدسر دسار ككتاب وكتب ، وعلى هذا القول أكثر المفسرين .

وقال بعض العلماء وبعض أهل اللغة : الدسور الخيوط التي تشد بها ألواح السفينة .

وقال بعض العلماء : الدستور جؤجؤ السفينة أي صدرها ومقدمها الذي تدسر به الماء أي تدفعه وتمخره ، به ، قالوا : هو من الدسر وهو الدفع .

فمن الآيات الدالة على أن ذات الألواح والدسر السفينة . قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَآءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة : 11] أي السفينة كما أوضحناه في سورة الشورى في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴾ [الشورى : 32] .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ [العنكبوت : 15 وقوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ [يس : 41] إلى غير ذلك من الآيات .

وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (15)

الضمير في قوله تعالى : ﴿ تَرَكْنَاهَا ﴾ ، قال بعض العلماء إنه عائد إلى هذه الفعلة العظيمة التي فعل بقوم نوح .

(364/737)

والمعنى ، ولقد تركنا فعلتنا بقوم نوح وإهلاكنا لهم آية لمن بعدهم ، لينزجروا ويكفوا عن تكذيب الرسل ، لئلا نفعل بهم مثل ما فعلنا بقوم نوح . وكو هذه الفعلة آية نص عليه تعالى

بقوله : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرسل أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ وقوله تعالى ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الفلك المشحون ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الباقين إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 119 - 121] .

وقال بعض العلماء : الضمير في تركناها عائد إلى السفينة ، وكون سفينة نوح آية بينه الله تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السفينة وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت : 15] وقوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفلك المشحون وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس : 41 - 42] .

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (17)

قد قدمنا إيضاحه في سورة القتال في كلامنا الطويل على قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد : 24] .

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19)

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، وكلام أهل العلم في يوم النحس المستمر ، في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت : 16] .

فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (24)

قوله تعالى : ﴿ فقالوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُه ﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾ الآية .

(365/737)

قد قدمنا الآيات الموضحة لهما في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وعجبوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا بْل هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ﴾ [ص : 8] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُو الناقة فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ .

قوله : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُو الناقة ﴾ : أي مخرجوها من الهضبة ، ﴿ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ أي ابتلاء واختباراً ، وهو مفعول من أجله ، لأنهم اقترحوا على صالح إخراج ناقة من صخرة ، وأنها إن خرجت لهم منها آمنوا به واتبعوه ، فأخرج الله الناقة من تلك الصخرة معجزة لصالح ، وفتنة لهم أي ابتلاء واختباراً ، وذلك أن تلك الناقة معجزة عاينوها ، وأن الله حذرهم على لسان نبيه صالح من أن يمسوها بسوء وأنهم إن تعرضوا لها بأذى أخذهم الله بعذابه .

والمفسرون يقولون : إنهم قالوا له : إن أخرجت لنا من هذه الصخرة ناقة وبراء عشراء اتبعناك .

ومادلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الله أرسل لهم هذه الناقة امتحاناً واختباراً ، وأنهم إن تعرضوا لآية الله هذه ، التي هي الناقة بسوء أهلكهم ، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : في سورة الأعراف : ﴿ قَدْ جَآءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هذه نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بسواء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : 73] ، وقوله تعالى في سورة هود عن صالح ﴿ وياقوم هذه نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بسواء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذلك وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : 64 – 65] ، وقوله تعالى في الشعراء : ﴿ قَالَ هذه نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ وَلاَ تَمَسُّوهَا بسواء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : 155 – 156] .

وقد بين تعالى : أنهم عقروا الناقة فجاءهم العذاب المستأصل في آيات من كتابه كقوله تعالى في الأعراف : ﴿ فَعَقَرُواْ الناقة وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف : 78] ، وقوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَادِمِينَ فَأَخَذَهُمُ العذاب ﴾ [الشعراء : 157 – 158] ، وقوله ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ

عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ ﴾ [الشمس : 14] الآية .

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ العذاب الهون بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت : 17] .

(367/737)

قوله تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ المآء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ . أي أخبر يا صالح ثمود أن الماء – وهو ماء البئر التي كانت تشرب منها الناقة – قسمة بينهم ، فيوم للناقة – ويوم لثموند ، فقوله : ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ : أي بين الناقة وثمود وغلب العقلاء على الناقة ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ أي يحضره صاحبه ، فتحضر الناقة شرب يومها وتحضر ثمود شرب يومها .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في ىية أخرى وهي قوله تعالى في الشعراء : ﴿ قَالَ هذه نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء : 155] وشرب الناقة هو الذي حذرهم منه صالح لئلا يتعرضوا له في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله نَاقَةَ الله وَسُقْيَاهَا ﴾ [الشمس : 13] .

فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (29)

قوله : ﴿ فتعاطى ﴾ ، قال أبو حيان في البحر : فتعاطى هو مطاوع عاطا ، وكأن هذه

الفعلة تدافعها الناس وعاطاها بعضهم بعضاً ، فتعاطاها قدار وتناول العقر بيده . انتهى محل الغرض منه .

والعرب تقول : تعاطى كذا إذا فعله أو تناوله ، وعاطاه إذا تناوله ، ومنه قول حسان رضي الله عنه :

كلتاهما حلب العصير فعاطني . . . بزجاجة أرخاهما للمفصل

وقوله : ﴿ فَعَقَرَ ﴾ أي تعاطى عقر الناقة فعقرها ، فمفعولا الفعلين محذوفان تقديرهما كما ذكرنا ، وعبر عن عاقر الناقة هنا بأنه صاحبهم ، وعبر عنه في الشمس بأنه أشقاهم وذلك في قوله : ﴿ إِذِ انبعث أَشْقَاهَا ﴾ [الشمس : 12] .

(368/737)

وهذه الآية الكريمة تشير إلى إزالة إشكال معروف في الآية ، وإيضاح ذلك أن الله تعالى فيها نسب العقر لواحد لا لجماعة ، لأنه نال : فتعاطى فعقر ، بالإفراد مع أنه أسند عقر الناقة في آيات أخر إلى ثمود كلهم كقوله في سورة الأعراف : ﴿ فَعَقَرُواْ الناقة وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ [الاعراف : 77] الآية ، وقوله تعالى في هود ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ﴾ [هود : 65] وقوله في الشعراء : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَادِمِينَ ﴾ [الشعراء :

157] وقوله في الشمس : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [الشمس : 14] .

ووجه إشارة الآية إلى إزالة هذا الإشكال هو أن قوله تعالى : ﴿ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فتعاطى فَعَقَرَ ﴾ [القمر : 29] يدل على أن ثمود اتفقوا كلهم على عقر الناقة ، فنادوا واحداً منهم لينفذ ما اتفقوا عليه ، أصالة عن نفسه وتبلية عن غيره . ومعلوم أن المتمالئين على العقر كلهم عاقرون ، وصحت نسة العقر إلى المنفذ المباشر للعقر ، وصحت نسبته أيضاً إلى جميع ، لأنهم متمالئون كما دل عليه ترتيب تعاطي العقر بالفاء في قوله : فتاعاطا فعقر على ندائهم صاحبهم لينوب عنهم في مباشرة العقر في قوله تعالى : ﴿ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ ﴾ أي نادوه ليعقرها .

وجمع بعض العلماء بين هذه الآيات بوجه آخر ، وهو أن إطلاق المجموع مراداً به بعضه أسلوب عربي مشهور ، وهو كثير في القرآن في كلام العرب .

وقد قدمنا في سورة الحجرات أن منه قراءة حمزة في قوله تعالى : ﴿ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فاقتلوهم ﴾ [البقرة : 191] بصيغة المجرد في الفعلين لأن من قتل ومات لا يمكن أن يؤمر بقتل قاتله ، بل المراد في إن قتلوا بعضكم فليقتلهم بعضكم الآخر ، ونظيره قول ابن مطيع :

فإن تقتلونا عند حرة واقسم . . . فإنا على الإسلام أول من قتل

أي فإن تقتلوا بعضنا ، وأن منه أيضاً : ﴿ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ﴾ [الحجرات : 14] لأن هذا في بعضهم دون بعض . بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة : 99] - إلى قوله - ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ الله فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 99] .

وقد قدمنا في الحجرات وغيرها ، أن من أصرح الشواهد العربية في ذلك قول الشاعر :

فسيف بني عبس وقد ضربوا به . . . نبيا بيدي ورقاء عن رأس خالد

وقوله تعالى : ﴿ فَعَقَرَ ﴾ : أي قتلها . والعرب تطلق العقر على القتل والنحر والجرح ومنه قول امرئ القيس :

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً . . . بني ضوطرا لولا الكمي المقنعا

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة فصلت ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ العذاب الهون بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت : 17] .

قوله : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً ﴾ : قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى القرية التي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السوء ﴾ [الفرقان :

40] ، وقوله : ﴿ إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة له إيضاحاً شافياً بكثرة .

وقد تضمنت إيضاح قصة لوط وقومه في سورة هود وسورة الحجر في الكلام على القسة لامذكورة في السورتين .

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42)

تضمنت هاتان الآيتان ثلاثة أمور :

الأول : أن آل فرعون جاءتهم النذر .

الثاني : أنهم كذبوا بآيات الله .

الثالث : أن الله أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

(370/737)

وهذه الأمور الثلاثة المذكورة هنا جاءت موضحة في آيات أخر من كتاب الله ، أما الأول منها وهو أن آل فرعون وقومه جاءهم النذر ، فقد أوضحه تعالى في آيات كثيرة من كتابه .

اعلم أولاً أن قوله ﴿ جَآءَ آلَ فِرْعَوْنَ النذر ﴾ [القمر : 41] ، قيل : هو جمع نذير وهو الرسول : وقيل هو مصدر بمعنى الإنذار فعلى أنه مصدر .

فقد بينت اللآيات القرآنية بكثرة أن الذي جاءهم بذلك الإنذار هو موسى وهارون ، وعلى أنه جميع نذير أي منذر ، فالمراد به موسى وهارون ، وقد جاء في آيات كثيرة إرسال موسى وهارون لفرعون كقوله تعالى في طه : ﴿ فَأْتِيَاهُ فقولا إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [طه : 47] .

ثم بين تعالى إنذارهما له في قوله ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العذاب على مَن كَذَّبَ وتولى ﴾ [طه : 48] ونحوها من الآيات ، وفي هذه الآية سؤال معروف ، وهو أن الله تبارك وتعالى أرسل لفرعون نبيين هما موسى وهارون ، كما قال تعالى : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 16] وهنا جمع النذر في قوله ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ آلَ فِرْعَوْنَ النذر ﴾ ، وللعلماء عن هذا أجوبة . أحدها أن أقل الجمع اثنان كما هو المقرر في أصول مالك بن أنس رحمه الله ، وعقده صاحب مراقي السعود بقوله :

أقل معنى الجمع في المشتهر . . . للاثنان في رأي الإمام الحمير

(371/737)

قالوا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم : 4] ولهما قلبان فقط وقوله : ﴿ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السدس ﴾ [النساء : 11] والمراد بالإخوة اثنان

فصاعداً كما عليه الصحابة فمن بعدهم خلافاً لابن عباس ، وقوله ﴿ ﴾ [ ] وله طرفان . ومنها ما ذكره الزمخشري وغيره من أن المراد بالنذر موسى وهارون وغيرهما من الأنبياء ، لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون . ومنها أن النذر مصدر بمعنى الإنذار .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : التحقيق في الجواب ، أن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع المرسلين ، ومن كذب نذيراً واحداً فقد كذب جميع النذر ، لأن أصل دعوة جميع الرسل واحدة ، وهي مضمون لا إله إلا الله كما أوضحه تعالى بقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ [النحل : 36] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون ﴾ [الأنبياء : 25] . وقوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : 45] .

وأوضح تعالى أن من كذب بعضهم فقد كذب جميعهم في قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذلك سَبِيلاً أولئك هُمُ الكافرون حَقّاً ﴾ [النساء : 150 - 151] الآية ، وأشار إلى ذلك في قوله : ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة : 285] . وقوله ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : 136] وقوله تعالى : ﴿ والذين آمَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أولئك سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ [النساء : 152] الآية .

وقد أوضح تعالى في سورة الشعراء أن تكذيب سول واحد تكذيب لجميع الرسل ، وذلك في قوله ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرسلين ﴾ [الشعراء : 105] ثم بين أن تكذيبهم للمرسلين إنما وقع بتكذيبهم نوحاً وحده ، حيث فرد ذلك بقوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : 106] - إلى قوله - ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ [الشعراء : 117] وقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ المرسلين ﴾ [الشعراء : 123] ، ثم بين أن ذلك بتكذيب هود وحده ، حيث فرده بقوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : 124] ونحو ذلك في قوله تعالى في قصة صالح وقومه ، ولوط وقومه ، وشعيب وأصحاب الأيكة ، كما هو معلوم ، وهو واضح لا خفاء فيه ، ويزيده إيضاحاً قوله صلى الله عليه وسلم " إنا معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد " يعني أنهم كلهم متفقون في الأصول وإن اختلفت شرائعهم في بعض الفروع .

وأما الأمر الثاني : وهو كون فرعون وقومه كذبوا بآيات الله ، فقد جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 132] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ [طه :

56] . وقوله تعالى : ﴿ فَأَرَاهُ الآية الكبرى فَكَذَّبَ وعصى ﴾ [النازعات : 20 - 21] . وقوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين ﴾ [النمل : 12 - 14] .

(373/737)

وأما الأمر الثالث وهو قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عِزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : 42] ، فقد جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ وَفِي موسى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الذاريات : 38] - إلى قوله - ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليم وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الذاريات : 40] وقوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : 78] وقوله تعالى : ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة : 50] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عِزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ يوضحه قوله تعالى : ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : 102] .

وقد روى الشيخان في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم تلى قوله تعالى ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى ﴾ الآية " ، والعزيز الغالب ، والمقتدر : شديد القدرة عظيمها .

قوله تعالى : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ ﴾ .

قد قدمنا الأيت الموضحة له في سورة الزخرف ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ﴾ [الزخرف : 8] ، وفي صدر سورة الروم ، وغير ذلك من المواضع .

يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (48)

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الطور في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور : 13] .

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (49)

(374/737)

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الزخرف في بعض المناقشات التي ذكرناها في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ [الزخرف : 81] .

وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (53)

الصحيح في معنى الآية أن كل شيء فعله الناس مكتوب عليهم في الزبر ، التي هي صحف الأعمال ، ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ ، أي مكتوب عليهم لا يترك منه شيء .

وهذا المعنى جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً ﴾ [الكهف : 49] وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سوء تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾ [آل عمران : 30] .

والزبر : جمع زبور ، وهو الكتاب . والمستطر معناه المسطور ، أي المكتوب ، والآيات بمثل هذا كثير معلومة .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54)

أي في جنات وأنهار كما أوضح تعالى ذلك في قوله ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [البقرة : 25] ، وقوله تعالى : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد : 15] .

وقد ذكرنا كثيراً من أمثلة إطلاق المفردن وإرادة الجمع كما هنا في القرآن العظيم ، مع تنكير المفرد وتعريفه ، وإضافته ، وأكثرنا أيضاً من الشواهد العربية على ذلك في سورة الحج في

الكلام على قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ [الحج : 5] ، وفي غير ذلك من المواضع . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(375/737)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الْقَمَرِ

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾

دَالَّةٌ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَقْلِبُ الْعَادَاتِ بِمِثْلِهِ إلَّا لِيَجْعَلَهُ دَالَّةً عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَوَى انْشِقَاقَ الْقَمَرِ عَشَرَةٌ مِنْ الصَّحَابَةِ ، مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَابْنُ عُمَرَ وَأَنَسٌ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَحُذَيْفَةُ وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ فِي آخَرِينَ كَرِهْت ذِكْرَ أَسَانِيدِهَا لِلْإِطَالَةِ فَإِنْ قِيلَ : مَعْنَاهُ سَيَنْشَقُّ فِي الْمُسْتَقْبَلِ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ قَدْ انْشَقَّ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَا خَفِيَ عَلَى أَهْلِ الْآفَاقِ قِيلَ لَهُ : هَذَا فَاسِدٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ خِلَافُ ظَاهِرِ اللَّفْظِ وَحَقِيقَتِهِ ، وَالْآخَرُ : أَنَّهُ قَدْ تَوَاتَرَ الْخَبَرُ بِهِ عَنْ

الصَّحَابَةِ وَلَمْ يَدْفَعْهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَأَمَّا قَوْلُهُ : " إنَّهُ لَوْ كَانَ ذَلِكَ قَدْ وَقَعَ لَمَا خَفِيَ عَلَى أَهْلِ الْآفَاقِ " فَإِنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَسْتُرَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ بِغَيْمٍ أَوْ يَشْغَلَهُمْ عَنْ رُؤْيَتِهِ بِبَعْضِ الْأُمُورِ لِضَرْبٍ مِنْ التَّدْبِيرِ وَلِئَلَّا يَدَّعِيَهُ بَعْضُ الْمُتَنَبِّئِينَ فِي الْآفَاقِ لِنَفْسِهِ ، فَأَظْهَرَهُ لِلْحَاضِرِينَ عِنْدَ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إيَّاهُمْ وَاحْتِجَاجِهِ عَلَيْهِمْ .

(376/737)

وَقَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ الْآيَةَ ، يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ الْمُهَايَأَةِ عَلَى الْمَاءِ ؛ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا شِرْبَ الْمَاءِ يَوْمًا لِلنَّاقَةِ وَيَوْمًا لَهُمْ وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ الْمُهَايَأَةَ قِسْمَةُ الْمَنَافِعِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَدْ سَمَّى ذَلِكَ قِسْمَةً وَإِنَّمَا هِيَ مُهَايَأَةٌ عَلَى الْمَاءِ لَا قِسْمَةُ الْأَصْلِ .

وَاحْتَجَّ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بِذَلِكَ فِي جَوَازِ الْمُهَايَأَةِ عَلَى الْمَاءِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ، وَهَذَا يَدُلُّ مِنْ قَوْلِهِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَرَى شَرَائِعَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ثَابِتَةً مَا لَمْ يَثْبُتْ نَسْخُهَا .

آخِرُ سُورَةِ الْقَمَرِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(377/737)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة القمر

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1)

قوله : ﴿ وانشق القمر ﴾ : هذا ماضٍ على حقيقتِه وهو قولُ عامَّةِ المسلمين ، إلاَّ مَنْ لا يُلْتَفَتُ إلى قولِه ، وقد صَحَّ في الأخبار أنه انشقَّ على عهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مرَّتين . وقيل : انشَقَّ بمعنى : سينشَقُّ يومَ القيامةِ ، فأوقع الماضيَ موضع المستقبلِ لتحقُّقِه ، وهو خلافُ الإجماع . وقيل : انشَقَّ بمعنى انْفَلَقَ عنه الظلامُ عند طلوعِه ، كما يُسَمَّى الصبحُ فَلَقاً . وأنشد للنابغة :

4145 فلمَّا أَدْبَرُوا ولهُم دَوِيٌّ . . . دعانا عند شَقِّ الصُّبْحِ داعي

وإنما ذَكَرْتُ لك تنبيهاً على ضَعْفِه وفسادِه .

وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2)

قوله : ﴿ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ فيه أقوالٌ ، أحدها : أنَّ معناه : دائمٌ مُطَّرِدٌ . وكلُّ شيءٍ قد انقادَتْ طريقتُه ودامَتْ حالُه قيل فيه : استمرَّ . قاله الزمخشري . ومِنْه قولُه :

4146 ألا إنما الدنيا ليالٍ وأَعْصُرٌ . . . وليسَ على شيءٍ قويمٍ بمُسْتَمِرّ

أي : بدائم باقٍ . الثاني : أنَّ معناه : مُوَثَّقٌ مُحْكَمٌ مِنْ قولِهم : أَمَرَّ الحبلَ ، أي : أَحْكَمَ فَتْلَه .

قال :

4147 حتى اسْتَمَرَّتْ على شَزْرٍ مَريرتُه . . . صِدْقُ العزيمةِ لا رِثّاً ولا ضَرَعا

(378/737)

الثالث : أنَّ معناه مارٌّ ذاهب مَنَّوْا أنفسَهم بذلك . الرابع : أنَّ معناه شديدُ المرارة . قال الزمشخري : " أي : مُسْتَبْشَعٌ عندنا ، مُرٌّ على لَهَواتنا ، ولا نَقْدِرُ أَنْ نَسِيْغَه كما لا نَسيغُ المُرَّ المَقِرَ " انتهى . يقال : مَرَّ الشيءُ بنفسِه ومَرَّه غيرُه ، فيكون متعدياً ولازماً ويقال : أَمَرَّه أيضاً . الخامس : أنَّ معناه/ مُشْبِهٌ بعضُه بعضاً ، أي : استمرَّتْ أفعالُه على هذا الحالِ . قاله الشيخ ، وهو راجعٌ إلى المعنى الأول ، أعني الدوامَ والاطِّرادَ ، وكان هو قد حكاه قبل ذلك . وأتى بهذه الجملةِ الشرطيةِ تنبيهاً على أَنَّ حالَهم في المستقبلِ كحالِهم في الماضي .

وقُرِىء "يُرَوْا " مبنياً للمفعول مِنْ أَرى .

وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3)

قوله : ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ : العامَّة على كسرِ القافِ ورفعِ الراءِ اسمَ فاعلٍ ورفعِه خبراً ل "كل " الواقعِ مبتدأً . وقرأ شَيْبَةُ بفتح القافِ ، وتُروَى عن نافعٍ . قال أبو حاتم : " لا وجهَ

لها " وقد وَجَّهها غيرُه على حَذْفِ مضافٍ ، أي : وكلُّ أمرٍ ذو استقرار ، أو زمانَ استقرارٍ أو مكانَ استقرارٍ ، فجاز أن يكونَ مصدراً ، وأن يكون ظرفاً زمانياً أو مكانياً ، قال معناه الزمخشري .

(379/737)

وقرأ أبو جعفر وزيد بن علي بكسر القاف وجرّ الراء وفيها أوجهٌ ، أحدُها : ولم يَذْكُرْ الزمخشريُّ غيرَه أَنْ يكونَ صفةً لأمر . ويرتفعُ "كلُّ" حينئذٍ بالعطفِ على "الساعة" ، فيكونُ فاعلاً ، أي : اقتربَتِ الساعةُ وكلُّ أمرٍ مستقرٍ . قال الشيخ : " وهذا بعيدٌ لوجودِ الفصلِ بجملٍ ثلاثٍ ، وبعيدٌ أَنْ يوجدَ مثلُ هذا التركيبِ في كلام العرب نحو : أكلتُ خبزاً ، وضربْتُ خالداً ، وإن يَجِيءْ زيدٌ أُكْرِمْه ، ورَحَل إلى بني فلان ، ولحماً ، فيكونُ " ولحماً " معطوفاً على " خبزاً " بل لا يوجَدُ مثلُه في كلام العربِ . انتهى " . قلت : وإذا دلَّ دليلٌ على المعنى فلا نبالي بالفواصلِ . وأين فصاحةُ القرآن من هذا التركيبِ الذي ركَّبه هو حتى يَقيسَه عليه في المنع ؟

الثاني : أَنْ يكونَ " مُسْتقرٍ " خبراً ل "كلُّ أمرٍ" وهو مرفوعٌ ، إلاَّ أنه خُفِضَ على الجِوار ، قاله أبو الفضل الرازي . وهذا لا يجوزُ ؛ لأن الجِوارَ إنما جاء في النعتِ أو العطفِ ، على خلافٍ

في إثباته ، كما قدَّمْتُ لك الكلامَ فيه مستوفى في سورةِ المائدة . فكيف يُقال في خبر المبتدأ : هذا ما لا يجوزُ ؟ الثالث : أنَّ خبرَ المبتدأ قولُه " حكمةٌ بالغةٌ " أخبر عن كلِّ أمرٍ مستقرٍ بأنَّه حكمةٌ بالغةٌ ، ويكون قولُه : " ولقد جاءهم من الأنباءِ ما فيه مُزْدَجَرٌ " جملةَ اعتراضٍ بين المبتدأ وخبرِه . الرابع : أنَّ الخبرَ مقدرٌ ، فقدَّره أبو البقاء : معمولٌ به ، أو أتى . وقدَّره غيرُه : بالغوه لأنَّ قبلَه ﴿ وَكَذَّبُواْ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ ﴾ ، أي : وكلُّ أمرٍ مستقرٍّ لهم في القَدَر مِن خيرٍ أو شرٍّ بالغوه .

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4)

(380/737)

قوله : ﴿ مُزْدَجَرٌ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ فاعِلاً ب " فيه " ؛ لأنَّ " فيه " وقع صلةً ، وأَنْ يكونَ مبتدأ ، و " فيه " الخبرُ . والدال بدلٌ مِنْ تاءِ الافتعال . وقد تقدَّم أنَّ تاءَ الافتعال تُقْلَبُ دالاً بعد الزاي والدال والذال ؛ لأنَّ الزايَ حرفٌ مجهورٌ ، والتاءَ حرفٌ مهموسٌ ، فأبدلوها إلى حرفٍ مجهورٍ قريبٍ من التاءِ ، وهو الدالُ . ومُزْدَجَر هنا اسمُ مصدرٍ ، أي : ازْدِجار ، أو اسمُ مكانٍ ، أي : موضعَ ازْدِجار . وقُرِىء " مُزَّجَر " بقَلْبِ تاءِ الافتعال زاياً ثم أُدْغِمَ . وزيد بن علي " مُزْجِر " اسمَ فاعلٍ من أَزْجر ، أي : صار ذا زَجْر كأَعْشَبَ ، أي : صار ذا

عُشْب .

حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (5)

قوله : ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّه بدلٌ من " ما فيه مُزْدَجر " كأنه قيل : ولقد جاءَهُمْ حكمةٌ بالغةٌ من الأنباء ، وحينئذٍ يكونُ بدلَ كلٍ مِنْ كلٍ ، أو بدلَ اشتمال .

الثاني : أَنْ يكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ ، أي : هو حكمةٌ ، أي : ذلك الذي جاءهم . وقد تقدَّم أنه يجوزُ على قراءةِ أبي جعفرٍ وزيدٍ أَنْ يكونَ خبراً ل " كلُّ أمرٍ مستقرٍ " . وقُرِىء " حكمةً " بالنصب حالاً مِنْ " ما " قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : إن كانَتْ " ما " موصولةً ساغ لك أَنْ تَنْصِبَ " حكمةً " حالاً ، فكيف تعمل إنْ كانت موصوفةً وهو الظاهرُ ؟ قلت : تَخَصُّصُها بالصفةِ فيَحْسُنُ نَصْبُ الحالِ عنها " انتهى . وهو سؤال واضحٌ جداً .

قولَه : ﴿ فَمَا تُغْنِ النذر ﴾ يجوزُ في " ما " أَنْ تكونَ استفهاميةً ، وتكون في محلِّ نصبٍ مفعولاً مقدماً ، أي : أيَّ شيءٍ تُغْني النذرُ ؟ وأن تكون نافيةً ، أي : لم تُغْنِ النذرُ شيئاً .

والنُّذُرُ : جمعُ نذيرٍ المرادِ به المصدرُ أو اسمُ الفاعل ، كما تقدَّم في آخر النجم .

وكُتِب " تُغْنِ " إتباعاً لِلَفْظِ الوصلِ فإنَّها ساقطةٌ لالتقاء الساكنين : قال بعضُ النحويين : وإنما حُذِفَتْ الياءُ مِنْ " تُغْني " حَمْلاً لـ " ما " على " لم " فجَزَمَتْ كما تَجْزِمُ " لم " . قال مكي : " وهذا خطأٌ ؛ لأنَّ " لم " تَنْفي الماضيَ وتَرُدُّ المستقبلَ ماضياً ، و " ما " تنفي الحالَ ، فلا يجوز أَنْ تقعَ إحداهما موقع الأخرى لاختلافِ معنَيَيْهما " .

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (6)

قوله : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الداع ﴾ : منصوبٌ : إمَّا بـ " اذْكُرْ " مضمرةً وهو أقربُها ، وإليه ذهب الرُّمَّاني والزمخشري ، وإمَّا بـ " يَخْرُجون " بعده وإليه ذهب الزمخشريُّ أيضاً ، وإمَّا بقولِه " فما تُغْني " ، ويكون قولُه " فَتَوَلَّ عنهم " اعتراضاً ، وإمَّا منصوباً بقولِه ﴿ يَقُولُ الكافرون ﴾ [القمر : 8] وفيه بُعْدٌ لبُعْدِه منه ، وإمَّا بقولِه " فَتَوَلَّ " وهو ضعيفٌ جداً ؛ لأنَّ المعنى ليس أَمْرَه/ بالتوليةِ عنهم في يومِ النفخ في الصُّورِ ، وإمَّا بحذفِ الخافض ، أي فَتَوَلَّ عنهم إلى يوم ؛ قاله الحسن . وضُعِّف من حيث اللفظُ ، ومن حيث المعنى . أمَّا اللفظُ : فلأنَّ إسقاطَ الخافضِ غيرُ مُنْقاس . وأمَّا المعنى : فليس تَوَلِّيه عنهم مُغيًّا بذلك الزمان ، وإمَّا بـ انتظرْ مضمراً . فهذه سبعةُ أوجهٍ في ناصب " يومَ " . وحُذِفَتْ الواوُ مِنْ " يَدْعُ " خَطًّا اتِّباعاً لِلَّفْظِ ، كما تقدَّم في ﴿ يُغْنِ ﴾ ﴿ وَيَمْحُ اللهُ الباطل ﴾ [الشورى : 24] وشبهِه ، والياءُ من " الداعِ " ، مبالغةً في التخفيف إجراءً لأل مُجْرى ما عاقبها وهو التنوينُ فكما تُحْذَفُ الياءُ مع التنوينِ كذلك مع ما عاقَبها .

قوله : ﴿ نُّكُرٍ ﴾ العامَّةُ على ضمِّ الكاف وهو صفةٌ على فُعُل ، وفُعُل في الصفات عزيزٌ ، منه : أمرٌ نُكُرٌ ، ورجلٌ شُلُل ، وناقةٌ أُجُد ، وروضةٌ أُنُفٌ ، ومِشْيَةٌ سُجُحٌ . وابن كثير بسكونِ الكافِ فيُحتمل أَنْ يكونَ أصلاً ، وأَنْ يكونَ مخفَّفاً مِنْ قراءةِ الجماعةِ . وقد تقدَّم لك هذا محرَّراً في اليُسْر والعُسْر في المائدة . وسُمِّي الشيءُ الشديدُ نُكُراً لأن النفوس تُنْكِره قال مالك بن عوف :

4148 اقْدُمْ مَحاجِ إنه يومٌ نُكُرْ . . . مِثْلي على مِثْلِك يَحْمي ويَكُرّْ

وقرأ زيدُ بنُ علي والجحدري وأبو قلابة " نُكِرَ " فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول ؛ لأنَّ " نَكِرَ " يتعدى قال : ﴿ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ ﴾ [هود : 70] .

خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (7) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (8)

قوله : ﴿ خُشَّعاً ﴾ : قرأ أبو عمرو والأخَوان " خاشِعاً " وباقي السبعة " خُشَّعاً " . فالقراءةُ الأولى جاريةٌ على اللغةِ الفُصْحى مِنْ حيث إن الفعلَ وما جرى مَجْراه إذا قُدِّمَ على الفاعلِ وُحِّد . تقول : تَخْشَع أبصارُهم ولا تقولُ : تَخْشَعْن أبصارُهم ، وأنشد قولَ

الشاعر :

4149 وشَبابٍ حَسَنٍ أَوْجُهُهُمْ . . . مِنْ إيادِ بنِ نزارِ بنِ مَعَدّْ

وقال آخر :

4150 يَرْمي الفِجاجَ بها الرُّكبانُ معْتَرِضاً . . . أعناقَ بُزَّلِها مُرْخى لها الجُدُلُ

وأمَّا الثانيةُ فجاءَتْ على لغة طَيِّىء يقولون : أكلوني البراغيث . وقد تقدَّم القولُ في هذا مشبعاً في المائدة والأنبياء . ومثلُه قولُ الآخر :

4151 بمُطَّرِدٍ لَدْنٍ صِحاحٍ كُعُوبُه . . . وذي رَوْنَقٍ عَضْبٍ يَقُدُّ القَوانِسا

(383/737)

وقيل : وجمعُ التكسير في اللغة في مثل هذا أكثرُ من الإفراد . وقرأ أُبَيٌّ وعبد الله " خاشعةً " على تَخْشَعُ هي . وقال الزمخشري : " وخُشَّعاً على : تخشَعْن أبصارهم ، وهي لغةُ مَنْ يقول : أكلوني البراغيث وهم طيىء " ، قال الشيخ : " ولا يَجْري جمعُ التكسيرِ مَجْرى جمعِ السلامةِ ، فيكون على تلك اللغةِ النادرِ القليلةِ . وقد نَصَّ سيبويه على أنَّ جمعَ التكسيرِ في كلام العربِ أكثرُ ، فكيف يكونُ أكثرَ ، ويكون على تلك اللغةِ النادرةِ القليلة ؟ وكذا قال الفراء حين ذكر الإفراد مذكراً ومؤنثاً وجمعَ التكسيرِ ، قال : " لأنَّ الصفةَ متى تَقَدَّمَتْ على

الجماعة جاز فيها جميعُ ذلك ، والجمعُ موافِقٌ للَفْظِها فكان أشبهَ " قال الشيخ : " وإنما يُخرَّجُ على تلك اللغةِ إذا كان الجمعُ جَمْعَ سلامةٍ نحو : " مَرَرْتُ بقومٍ كريمين آباؤُهم " والزمخشريُّ قاسَ جَمْعَ التكسيرِ على جَمْعِ السلامةِ وهو قياسٌ فاسدٌ يَرُدُّه النَّقْلُ عن العربِ : أنَّ جَمْعَ التكسيرِ أجودُ من الإفرادِ ، كما ذكره سيبويهِ ، ودَلَّ عليه كلامُ الفراء " . قلت : قد خَرَّجَ الناسُ قولَ امرىء القيس :

4152 وُقوفاً بها صَحْبي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ . . . يقولون : لا تَهْلِكْ أسىً وتَجَمَّلِ

على أنَّ " صحبي " فاعل ب " وقوفاً " وهو جمعُ واقِف في أحدِ القولين في " وقوفاً " . وفي انتصابِ خاشعاً وخُشَّعاً وخاشعةً أوجهٌ ، أحدُها : أنه مفعولٌ به وناصبُه " يَدْعُ الداعِ " وهو في الحقيقةِ لموصوفٍ محذوفٍ تقديرُه : فريقاً خاشعاً ، أو فوجاً خاشعاً . والثاني : أنه حالٌ مِنْ فاعل " يَخْرُجون " المتأخرِ عنه . ولَمَّا كان العاملُ متصرِّفاً جاز تقدُّمُ الحالِ عليه ، وهو رَدٌّ على الجرميِّ حيث زعم أنه لا يجوزُ . ورُدَّ عليه أيضاً بقول العرب : " شَتَّى تَؤُوب الحَلَبَة " ، ف " شتى " حالٌ من " الحلَبَة " وقال الشاعر :

4153 سَريعاً يهون الصَّعْبُ عند أُولي النُّهى . . . إذا برجاءٍ صادقٍ قابلوا البأسا

الثالث : أنه حالٌ من الضمير في " عنهم " ولم يذكر / مكيٌّ غيره .

الرابع : أنه حالٌ مِنْ مفعولَ "يَدْعُو" المحذوفِ تقديره : يومَ يَدْعوهم الداعي خُشَّعاً ، فالعامل فيها "يَدْعو" ، قاله أبو البقاء . وهو تكلُّفُ ما لا حاجةَ إليه .

وارتفع " أبصارهم " على وجهين : إمَّا الفاعلية بالصفةِ قبلَه وهو الظاهرُ ، وإمَّا على البدلِ من الضمير المستتر في " خُشَّعاً " لأنَّ التقديرَ : خُشَّعاً هم . وهذا إنما يتأَّتى على قراءةِ " خُشَّعاً " فقط .

وقرِىء " خُشَّعٌ أبصارهم " على أنَّ خشعاً خبرٌ مقدمٌ و " أبصارُهُمْ " مبتدأ . والجملةُ في محلِّ نصبٍ على الحالِ وفيه الخلافُ المذكورُ مِنْ قبل كقوله :

4154 . . . . . .

وَجَدْتُه حاضِراه الجودُ والكرمُ

قوله : ﴿ يَخْرُجُونَ ﴾ يجوز أنْ يكونَ حالاً من الضمير في " أبصارُهم " ، وأنْ يكونَ مستأنفاً . والأَجْداث : القبورُ . وقد تقدَّم ذكرُه في سورةِ يس .

قوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ ﴾ هذه الجملةُ يجوز أَنْ تكونَ حالاً مِنْ فاعلِ "يَخْرُجون" أو مستأنفةً . و " مُهْطِعين " حالٌ أيضاً مِنْ اسم كان أو مِنْ فاعلِ "يَخْرُجون" عند مَنْ يرى تعدُّدَ الحال . قال أبو البقاء : " ومُهْطِعين حالٌ من الضميرِ في " مُنْتَشِرٌ " عند قوم . وهو

بعيدٌ ؛ لأنَّ الضميرَ في " مُنتشِر " للجراد ، وإنما هو حالٌ مِنْ فاعل "يَخْرُجون " أو من الضمير المحذوف " انتهى . وهو اعتراضٌ حسنٌ على هذا القول .

والإِهْطاعُ : الإِسراعُ وأُنْشِد :

4155 بدِجلَةَ دارُهُمْ ولقد أَرَاهُمْ . . . بدِجْلَةَ مُهْطِعين إلى السَّماع

وقيل : الإِسراعُ مع مَدِّ العُنُق . وقيل : النظر . وأنشد :

(385/737)

4156 تَعَبَّدَني نِمْرُ بنُ سَعْدٍ وقد أُرَى . . . ونِمْرُ بنُ سَعْدٍ لي مُطيعٌ ومُهْطِعُ

وقد تقدَّم الكلامُ على هذه المادةِ في سورة إبراهيم . قوله : ﴿ يَقُولُ الكافرون ﴾ قال أبو البقاء : " حالٌ من الضمير في " مُهْطعين " . وفيه نظرٌ من حيث خلوُّ الجملةِ مِنْ رابطٍ يَرْبُطُها بذي الحال . وقد يُجابُ عنه : بأنَّ " الكافرون " هم الضميرُ في المعنى ، فيكونُ من باب الربطِ بالاسمِ الظاهر عند مَنْ يرى ذلك ، كأنه قيل : يقولون هذا . وإنما أَبْرزهم تشنيعاً عليهم بهذه الصفةِ القبيحةِ .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9)

قوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ : مفعولُه محذوفٌ ، أي : كَذَّبَتِ الرسلَ ؛ لأنهم لَمَّا كذَّبوا نوحاً

عليه السلام فقد كَذَّبوا جميعَ الرسل . ولا يجوزُ أَنْ تكونَ المسألةُ من باب التنازع ؛ إذ لو كان منه لكان التقدير : كَذَّبَتْ قبلَهم قومُ نوحٍ عبدَنا فكذَّبوه ، ولو لُفِظ بهذا لكان تأكيداً ، إذ لم يُفِدْ غيرَ الأولِ . وشرطُ التنازعِ أَنْ لا يكونَ الثاني تأكيداً ، لذلك منعوا أَنْ يكونَ قولُه :

4175 . . . . . .

أتاكِ أتاكِ اللاحقون احْبِسِ احبسِ

(386/737)

من ذلك . وفي كلامِ الزمخشريِّ ما يُجَوِّزُه فإنه أخرجه عن التأكيدِ فقال : " فإنْ قلتَ ما معنى قولِه " فكذَّبوا " بعد قولِه "كَذَّبَتْ" ؟ قلت : معناه كذَّبوا فكذَّبوا عبدَنا أي : كذَّبوه تكذيباً عَقِبَ تكذيبٍ كلما مضى منهم قَرْنٌ مُكَذِّبٌ تَبِعه قرنٌ مكذبٌ " فهذا معنى حسن يسوغُ معه التنازعُ . و " مجنون " خبرُ ابتداءٍ مضمر أي : هو مجنون . والدالُ في " ازْدُجِر " بدلٌ مِنْ تاء كما تَقَدَّم . وهل هو مِنْ مَقولِهم ، أي : قالوا : إنه ازْدُجِرَ ، أي : ازْدَجَرَتْهُ الجنُّ ، وذهبَتْ بلُبِّه ، قاله مجاهد ، أو هو مِنْ كلام الله تعالى ، أخبر عنه : بأنه انْتُهِر وزُجِرَ بالسبِّ وأنواعِ الأذى .

فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10)

قوله : ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ ﴾ : العامَّةُ على فتح الهمزة ، أي : دعاه بأني مغلوبٌ وجاء هذا على حكاية المعنى ولو جاء على حكاية اللفظِ لقال : إنه مغلوبٌ ، وهما جائزان . وقرأ ابنُ أبي إسحاق والأعمشُ ورُويت عن عاصمٍ بالكسر : إمَّا على إضمارِ القولِ ، أي : فقال ، فَسَّر به الدعاءَ ، وهو مذهبُ البصريين ، وإمَّا إجراءً للدعاءِ مُجْرى القولِ وهو مذهبُ الكوفيين . وقد تقدَّم الخلاف في " فَتَحْنا " في الأنعام ولله الحمد .

فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11)

قوله : ﴿ مُّنْهَمِرٍ ﴾ : المنهمر : الغزيرُ النازلُ بقوة . وأُنشد :

4158 راحَ تَمْرِيْه الصَّبا ثم انتحى . . . فيه شُؤْبُوْبُ جَنوبٍ مُنْهَمِرْ

/ واسْتُعير ذلك في قولهم : هَمَر الرجلُ في كلامِه ، وفلانٌ يُهامِر الشيءَ ، أي : يَجْرُفُهُ ، وهَمَرَه مِنْ ماله : أعطاه بكثرةٍ .

(387/737)

وفي الباء في " بماء " وجهان ، أظهرهما : أنها للتعدية ويكونُ ذلك على المبالغة في أنه جَعَلَ الماءَ كالآلةِ المُفْتَحِ بها كما تقول : فَتَحْتُ بالمفتاح . والثاني : أنها للحال ، أي : فَتَحْناها ملتبسةً بهذا الماء . وقرأ عبد الله وأبو حيوة وعاصم في رواية " وفَجَرْنا " مخففاً ، والباقون

مثقلاً .

وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12)

قوله : ﴿ عُيُوناً ﴾ : فيه أوجهٌ ، أشهرها : أنه تمييزٌ ، أي : فَجَّرْنا عيونَ الأرض فنَقله من المفعوليةِ إلى التمييز ، كما يُنقل من الفاعلية .

ومنعه بعضُهم ، وتأوّل هذه الآية على ما سيأتي : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً ﴾ أبلغُ مِنْ " فَجَّرْنا عيونَ الأرض " لِما ذُكِر في نظيرِه غيرَه مرةٍ . الثاني : أنه منصوبٌ على البدلِ من " الأرض " . ويُضْعِفُ هذا خُلُوُّه من الضميرِ فإنه بدلُ بعضٍ مِنْ كل . ويُجاب عنه : بأنَّه محذوفٌ ، أي : عيوناً منها كقوله ﴿ الأخدود النار ﴾ [البروج : 4-5] فالنار بدلُ اشتمالٍ . ولا ضميرَ فهو مقدرٌ . الثالث : أنه مفعولٌ ثانٍ لأنه ضُمِّن " فَجَّرنا " معنى صَيَّرْناها بالتفجير عيوناً . الرابع : أنها حالٌ . وفيه تَجَوُّزان : حَذْفُ مضافٍ ، أي : ذات عيون ، وكونُها حالاً مقدرة لا مقارنةً .

قوله : ﴿ فَالْتَقَى المآء ﴾ لَمَّا كان المرادُ بالماءِ الجنسَ صَحَّ أَنْ يُقالَ : فالتقى الماء ، كأنه : فالتقى ماءُ السماء وماءُ الأرض . وهذه قراءة العامَّة . وقرأ الحسن والجحدري ومحمد بن كعب ، وتُرْوَى عن أمير المؤمنين أيضاً " الماءان " بتثنيةٍ ، والهمزةُ سالمةٌ . وقرأ الحسن أيضاً " الماوان " بقَلْبها واواً . قال الزمخشري : " كقولهم : عِلْباوان يعني : أنه شَبَّه الهمزةَ

المقلبةَ عن هاء بهمزةِ الإلحاق . ورُوِي عنه أيضاً " المايان " بقَلْبها ياءً وهي أشدُّ مِمَّا قبلَها

.

(388/737)

وقوله : ﴿ قَدْ قُدِرَ ﴾ العامَّةُ على التخفيفِ . وقرأ ابنُ مقسم وأبو حيوةَ بالتشديد ، وهما لغتان قُرِىء بهما : قولُه ﴿ قَدَّرَ فهدى ﴾ [الأعلى : 3] ، ﴿ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الطلاق : 7] كما سيأتي .

وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13)

قوله : ﴿ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ : ، أي : سفينةٌ ذاتُ ألواحٍ قال الزمخشري : وهي من الصفات التي تقوم مَقام الموصوفات فتنوب مَنابها وتؤدي مُؤَدَّاها ، بحيث لا يُفْصَلُ بينها وبينها . ونحوه :

4159 . . . . . ولكنْ . . .

نَ قميصي مَسْرودةٌ مِنْ حديدِ

أراد : ولكنَّ قميصي دِرْع . وكذلك :

4160 . . . . . ولو في عيونِ

النازياتِ بأَكْرُعِ

أراد : ولو في عين الجَراد . ألا ترى أنَّك لو جَمَعْتَ بين السفينة وبين هذه الصفاتِ أو بين عيونِ الجراد والدِّرْع وهاتَيْن الصفتَيْن لم يَصِحَّ ، وهذا من فصيحِ الكلام وبديعِه " . والدُّسُرُ : فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه المساميرُ جمع دِسار نحو : كُتُب في جمع كِتاب . وقال الزمخشري : " جمعُ دِسار وهو المِسمارُ فِعال ، مِنْ دَسَره إذا دَفَعه ؛ لأنه يُدْسَرُ به مَنْفَذُه " وقال الراغب : " الواحدُ دَسْر يعني فيكونُ مثلَ : سَقْف وسُقُف وأصل الدِّسْرِ الدَّفْعُ الشديدُ بقَهْر ، دَسَرَه بالرُّمْح ، ومِدْسَرٌ مثل مِطْعَنْ ورُوِي : " ليس في العَنْبَر زكاةٌ إنما هو شيءٌ دَسَرَه البحرُ " ، أي : دفعه . الثاني : أنها الخيوطُ التي تُشَدُّ بها السفنُ . الثالث : أنها عَوارِضُ السفينة . الرابع : أنها أضلاعُها .

تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (14)

(389/737)

قوله : ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ : أي : مُلْتبسةً بحِفْظِنا وهو في المعنى كقولِه تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عيني ﴾ [طه : 39] . وقرأ زيد بن علي وأبو السَّمَّال " بأَعْيُنَّا " بالإدغام .

قوله : ﴿ جَزَآءً ﴾ منصوبٌ على المفعولِ له ناصبُه " فَفَتَحْنا " وما بعده . وقيل :

منصوب على المصدرِ : إمَّا بفعلٍ مقدرٍ ، ي : جازَيْناهم جزاءً ، وإمَّا على التجوُّزِ : / بأنَّ معنى الأفعالِ المتقدّمة : جازَيْناهم بها جزاءً .

قوله : ﴿ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ العامَّةُ على "كُفِرَ" مبنياً للمفعول والمرادُ ب مَنْ كُفِر نوحٌ عليه السلام ، أو الباري تعالى . وقرأ مسلمة به محارب "كُفْر" بإسكان الفاء كقوله :

4161 لو عُصْرَ منه المِسْكُ والبانُ انعصَرْ . . . وقرأ يزيد بن رومان وعيسى وقتادة "كَفَر" مبنياً للفاعل . والمرادُ ب "مَنْ" حينئذٍ قومُ نوحٍ . و "كُفِرَ" خبرُ كان . وفيه دليلُ على وقوع خبر كان ماضياً مِنْ غير "قد" وبعضُهم يقولُ : لا بُدَّ من "قَدْ" ظاهرةً أو مضمرةً . ويجوز أَنْ تكونَ "كان" مزيدةً . وضميرُ "تَرَكْناها" إمَّا للقصة . أو الفَعْلة ، أو السفينة ، وهو الظاهرُ .

وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (15)

قوله : ﴿ مُّدَّكِرٍ ﴾ : أصلُه مُذْتَكِر ، فأُبْدِلت التاءُ دالاً مهملة ، ثم أُبْدِلت المعجمة مهملةً لمقاربتها وقد تَقَدَّم هذا في قوله : ﴿ وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : 45] . وقد قُرِىء "مُذْتكِر" بهذا الأصلِ وقرأ قتادة فيما نَقَل عنه أبو الفضل "مُذَكِّر" بفتح الذالِ مخففةً وتشديد القاف مِنْ ذَكَّر بالتشديد ، أي : ذكر نفسه أو غيره بما مضى مِنْ قَصَص الأولين . ونَقَلَ عنه ابنُ عطية كالجماعة ، إلاَّ أَنَّه بالذال المعجمة وهو شاذٌّ ، لأنَّ الأولَ يُقْلَبُ للثاني ،

لا الثاني للأول .

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (16)

(390/737)

قوله : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي ﴾ : "كان" الظاهرُ فيها أنها ناقصةٌ ف "كيف" خبرٌ مقدمٌ . وقيل : يجوز أَنْ تكون تامة فتكون "كيف" في محلِّ نصبٍ : إمَّا على الظرف ، وإمَّا على الحال ، كما تقدَّم تحقيقُه في البقرة .

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (17)

ومعنى يَسَّرْنا القرآن : هَيَّأْناه للذِّكْرِ مِنْ قولِهم : يَسَّر فَرَسَه ، أي : هَيَّأه للركوب بإلْجامِه . قال الشاعر :

4162 فَقُمتُ إليه باللِّجام مُيَسَّراً . . . هنالك يَجْزِيني الذي كنتُ أصنع

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19)

قوله : ﴿ صَرْصَراً ﴾ : أي الشديدةُ الصوتِ مِنْ صَرْصَرَ البابُ أو القلمُ إذا صوَّت ، أو الشديدة البرد مِنْ الصِّرِّ وهو البرد . وهو كله أصولٌ عند الجمهور . وقال مكي : أصلُه صَرَّر مِنْ صرَّ البابُ إذا صوَّتَ لكنْ أبدلوا من الراء المشددة صاداً " . قلت : وهذا قول

الكوفيين . ومثلُه : كَبْكَبَ وكَفْكَفَ ، وتقدَّم هذا في فُصِّلَتْ وغيرها .

قولُه : ﴿ يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ العامّةُ على إضافة " يوم " إلى " نَحْس " بسكونِ الحاءِ . وفيه وجهان ، أحدهما : أنَّه من إضافة الموصوف إلى صفتِه . والثاني : وهو قولُ البصريين أنه صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ ، أي : يوم عذابِ نحس ، وقرأ الحسن بتنوينه ووَصْفِه ب نَحْس ، ولم يُقَيِّدْه الزمخشريُّ بكسر الحاء . وقَيَّده الشيخ . وقد قُرِىء قولُه تعالى ﴿ فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت : 16] بسكونِ الحاءِ وكسرِها . وتنوين " أيام " عند الجميع كما تقدَّم تقريره " ومُسْتمر " صفةٌ ل " يوم " أو " نَحْسٍ " ومعناه كما تَقدَّم ، أي : دامَ عليهم حتى أهلكهم أو مِنْ المرارة .

تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20)

(391/737)

و " تَنْزِعُ " في موضع نصبٍ إمَّا نعتاً ل " ريحاً " ، وإمَّا حالاً منها لتخصُّصِها بالصفةِ ويجوز أن تكون مستأنفةً . وقال " الناس " لتَضمُّ ذَكَرهم وأُنثاهم ، فأوقع الظاهر موقعَ المضمرِ لذلك ، وإلاَّ فالأصلُ : تَنْزِعُهم .

قوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ ﴾ حالٌ من الناسِ مقدرةً . و " مُنْقَعِر " صفةً ل " نَخْلٍ " باعتبار

الجنس ، ولو أَنَّثَ لاعتبر معنى الجماعة ، كقوله ﴿ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 7] وقد تقدَّم تحقيق اللغتين فيه ، وإنما ذَكَّر هنا وأَنَّثَ في الحاقةِ مراعاةً للفواصل في الموضعَيْن . وقرأ أبو نهيك " أَعْجُزُ " على وزن أَفْعُل نحو : ضَبُع وأَضْبُع ، وقيل : الكاف في موضع نصبٍ بفعل مقدرٍ تقديرُه : فتركهم كأنهم أعجازٌ ، قاله مكي ، ولو جُعِلَ مفعولاً ثانياً على التضمين ، أي : يُصَيِّرهم بالنَّزْع كأنهم ، لكان أقربَ .

والأَعْجاز : جمعُ عَجُزٍ وهو مُؤَخَّرُ الشيءِ ومنه " العَجْزُ " لأنه يُؤَدِّي إلى تأخُّرِ الأمورِ .

والمُنْقَعِرُ : المُنْقَلِعُ مِنْ أصله ، قَعَرْتُ النخلةَ : قَلَعْتُها مِنْ أصلها فانقَعَرَتْ . وقَعَرْتُ البئر : وصَلْتُ إلى قعرها . وقَعَرْتُ الإناء : شَرِبْتُ ما فيه حتى وَصَلْتُ إلى قَعْرِه ، وأَقْعَرْتُ البئر : ، أي : جعلتُ لها قَعْراً ، وقَعَرْتُها : وَصَلْتُ إلى قَعْرها .

فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (24)

(392/737)

قوله : ﴿ أَبَشَراً ﴾ : منصوبٌ على الاشتغالِ ، وهو الراجحُ ، لتقدُّمِ أداةٍ هي بالفعل أَوْلَى ، " ومِنَّا " نعتٌ له . و " واحداً " فيه وجهان ، أظهرهما : أنه نعتٌ لـ " بَشَراً " إلاَّ أنه يُشْكِلُ عليه تقديمُ الصفةِ المؤولة على الصريحة . ويُجاب : بأنَّ " مِنَّا " حينئذ ليس وَصْفاً بل حالٌ

من " واحداً " قُدِّمَ عليه . والثاني : أنه نصبٌ على الحالِ من هاء " نَتَّبِعُه " وهو تخلُّصٌ من الإعرابِ المتقدّمِ . إلاَّ أنَّ المُرجِّحَ لكونه صفةً قراءتهما مرفوعَيْنِ : أَبَشرٌ مِنا واحد نَتَّبِعُهُ على ما سيأتي فهذا يُرَجِّحُ كونَ/ " واحداً " نعتاً ل " بشراً " لا حالاً . وقرأ أبو السَّمَّال فيما نقل الهذلِيُّ والدانيُّ برفعِهما على الابتداء ، و " واحدٌ " صفتُه " ونَتَّبعهُ " خبرُه . وقرأ أبو السَّمَّال أيضاً ، فيما نَقَل ابن خالويه وأبو الفضل وابن عطية برفع " بَشَرٌ " ونصب " واحداً " وفيه أوجهٌ ، أحدُها : أن يكونَ " أَبَشَرٌ " مبتدأً ، وخبرُه مضمر ، تقديره : أَبَشَرٌ منا ، يُبْعَثُ إلينا أو يُرْسَلُ . وأمَّا انتصابُ " واحداً " ففيه وجهان ، أحدهما : أنَّه حالٌ من هاء بالابتداءِ أيضاً ، والخبر " نَتَّبِعُه " و " واحداً " حالٌ على الوجهَيْن المذكورَين آنفاً . الثالث : أنه مرفوعٌ بفعلٍ مضمر مبني للمفعول تقديره : أَيُنَبَّأُ بَشَرٌ و " مِنَّا " نعتٌ و " واحداً " حالٌ أيضاً على الوجهَيْن المذكورَيْن آنفاً . وإليه ذهبَ ابنُ عطية .

قوله : ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ يجوز أن يكون مفرداً ، أي : جنون . يقال : ناقةٌ مَسْعُورة ، أي : كالمجنونة في سَيْرها . قال الشاعر :

4163 كأنَّ بها سُعْراً إذا العِيْسُ هَزَّها . . . ذَمِيْلٌ وإرْخاءٌ من السير متعبُ

وأَنْ يكونَ جمعَ سَعير ، وهو النار ، والاحتمالان منقولان .

أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25)

قوله : ﴿ مِن بَيْنِنَا ﴾ : حالٌ من هاء " عليه " ، أي : أُلْقى عليه منفرداً مِنْ بيننا .

قوله : ﴿ أَشِرٌ ﴾ الأَشِرُ : البَطِرُ . يقال : أَشِرَ يأْشَرُ أَشَراً فهو أَشِرٌ كفَرِح ، وآشِر كضارب ، وأَشْران كسَكران ، وأُشارى كسُكارى . وقرأ أبو قُلابةِ وجعلهما أَفْعَلَ تفضيلٍ تقول : زيدٌ خيرٌ مِنْ عمروٍ وشرٌّ مِنْ بكر . ولا تقول : أَخْبَرُ ولا أَشَرُّ إلاَّ في نُدورٍ كهذه القراءة وكقول رُؤْبة :

4164 بلالُ خيرُ الناسِ وابنُ الأَخْيَرِ . . . وَثَبَتَتْ فيهما في التعجب نحو : ما أَخْيره وما أَشَرَّه . ولا تُحْذَفُ إلاَّ في نُدورٍ عكسَ أفعل التفضيل . قالوا : " ما خيرَ اللبنِ للصحيح وما شَرَّه للمبطون " وهذا مِنْ محاسِن الصناعة . وقرأ أبو قيس الأَوْدِيُّ ، ومجاهد الحرفَ الثاني " الأُشُرُ " ثلاث ضماتٍ . وتخريجها : على أنَّ فيه لغةَ " أَشُر " بضم الشين كحَذُر وحذِر ، ثم ضُمَّت الهمزة على أصلِ تيْكَ اللغةِ كحَذُر .

إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27)

قوله : ﴿ فِتْنَةً ﴾ : مفعولٌ له أو مصدرٌ من معنى الأول ، أو في موضع الحال .

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (28)

وقرأ العامة " قِسْمَةٌ " بكسر القاف . ورُوي عن أبي عمروٍ فتحُها وهو قياس المَرَّة .

والضمير في " بَيْنَهم " لقوم صالحٍ والناقة ، فغلَّب العاقلَ .

فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (29)

قوله : ﴿ فَنَادَوْا ﴾ : قبله محذوفٌ ، أي : فتمادَوْا على ذلك ثم مَلُّوْهُ فعزمُوا على عَقْرِها فنادَوْا صاحبَهم/ وتَعاطَى : مطاوعُ عاطَى ، كأنهم كانوا يتدافَعُونْ ذلك حتى تَوَلاَّه أَشْقاها .

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31)

(394/737)

قوله : ﴿ كَهَشِيمِ المحتظر ﴾ : العامَّةُ على كسر الظاء اسمَ فَاعلٍ وهو الذي يَتَّخِذُ حَظيرةً مِنْ حَطَب وغيرِه . وقرأ أبو السَّمَّال وأبو حيوة وأبو رجاء وعمرو بن عبيد بفتحها . فقيل : هو مصدرٌ ، أي : كَهَشِيم الاحتظار وقيل : هو مكانٍ . وقيل هم اسمُ مفعولٍ وهو الهَشيمُ نفسهُ ، ويكون من بابِ إضافةِ الموصوفِ لصفتِه كمسجدِ الجامع . والحَظْرُ : المَنْعُ ، وقد تقدَّم تحريرُه في سبحان .

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (34)

قوله : ﴿ إِلاَّ آلَ لُوطٍ ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنه مُتصلٌ ويكون المعنى : أنه أرسل الحاصِبَ على الجميع إلاَّ أهلَه فإنه لم يرسِلْ عليهم . والثاني : أنه منقطعٌ ، ولا أدري ما

وجهُه ؟ فإنَّ الانقطاعَ وعدمَه عبارةٌ عن عدم دخولِ المستثنى في المستثنى منه ، وهذا داخلٌ ليس إلا . وقال أبو البقاء : " هو استثناءٌ منقطعٌ . وقيل : متصلٌ ، لأنَّ الجميع أُرْسِلَ عليهم الحاصبُ فهَلَكوا إلاَّ آلَ لوطٍ . وعلى الوجهِ الأولِ يكون الحاصِبُ لم يُرْسَلْ على آلِ لوطٍ " انتهى . وهو كلامٌ مُشْكِلٌ .

وقوله : ﴿ نَّجَّيْنَاهُم ﴾ تفسيرٌ وجوابٌ لقائلٍ يقولُ : فما كان مِنْ شأنِ آلِ لوطٍ ؟ كقولِه " أبى " بعد قولِه ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ [البقرة : 34] وقد تقدَّم في البقرة .

" وبسَحَرٍ " الباءُ حاليةٌ أو ظرفيةٌ . وانصرف " سَحَر " لأنه نكرةٌ ، ولو قُصِدَ به وقتٌ بعينِه لُمنعَ للتعريفِ والعَدْلِ عن أل ، هذا هو المشهورُ وزعم صدرُ الأفاضل أنه مبنيٌّ على الفتح كأمسِ مبنياً على الكسر .

نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35)

(395/737)

قوله : ﴿ نِّعْمَةً ﴾ : إمَّا مفعولٌ به ، وإمَّا مصدرٌ بفعلٍ مِنْ لفظِها ، أو مِنْ معنى " نَجَّيْناهم " لأنَّ تَنْجِيَتَهم إنعامٌ ، فالتأويلُ : إمَّا في العامل ، وإمَّا في المصدر " ومِنْ عندِنا " : إمَّا متعلقٌ بنعمة ، وإمَّا بمحذوفٍ صفةً لها . والكاف في " كذلك " نعتُ مصدرٍ محذوفٍ ، أي : مثلَ

ذلك الجزاء نَجْزِي . وقرأ العامَّةُ " فَطَمَسْنا " مخففاً . وابن مقسم مُشَدَّداً على التكثيرِ لأجلِ المتعلَّق أو لشِدَّة الفعلِ في نفسِه .

وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (38)

قوله : ﴿ بُكْرَةً ﴾ : انصرفَ لأنه نكرةٌ ، ولو قُصِد به وقتٌ بعينه امتنع للتعريف والتأنيثِ . وهذا كما تقدَّم في " غُدْوة " ومَنَعَها زيد بن علي الصرفَ ، ذَهَب بها إلى وقتٍ بعينه .

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42)

قوله : ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ ﴾ : مصدرٌ مضافٌ لفاعِله .

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44)

و: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ : العامَّةُ على الغَيْبة التفاتاً . وأبو حيوة وأبو البرهسم وموسى الأسواري بالخطاب جَرْياً على ما تقدَّم مِنْ قوله " أكُفَّاركم " إلى آخره .

سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45)

والعامَّةُ على " سَيُهْزَمُ " مبنياً للمفعول . " والجَمْعُ " مرفوعٌ به . وقُرِىء " ستَهْزِمُ " بفتح التاء خطاباً للرسول عليه السلام ، " الجمعَ " مفعولٌ به ، وأبو حيوة في روايةٍ ويعقوب " سَنَهْزِمُ " بنونِ المعظِّمِ نفسَه ، و " الجمعَ " منصوبٌ أيضاً ، ورُوِيَ عن أبي حيوة أيضاً وابن أبي عبلة " سَيَهْزِمُ " بياء الغَيْبة مبنياً للفاعل ، " الجمعَ " منصوبٌ ، أي : سَيَهْزِمُ اللهُ الجمعَ . " ويُوَلُّوْن "

العامَّة على الغَيْبة . وأبو حيوة وأبو عمرٍو في روايةٍ " وتُوَلُّون " بتاء الخطاب ، وهي واضحةٌ .

(396/737)

والدُّبُر هنا : اسمُ جنسٍ . وحَسُنَ هنا لوقوعِه فاصلةً بخلافِ ﴿ لَيُوَلُّنَّ الأدبار ﴾ [الحشر : 12] . وقال الزمشخري : " أي : الأدبار ، كما قال :

4166 كُلُوا في بَعْضِ بَطْنِكُمُ تَعِفُّوا . . . . . .

وقُرِىء " الإِدْبار " . قال الشيخ : " وليس مثل / " بعضِ بَطْنكم " لأن الإِفراد هنا له مُحَسِّنٌ ولا مُحَسِّنٌ لإِفرادِ " بَطْنكم " .

يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (48)

قوله : ﴿ ذُوقُوا ﴾ : على إرادةِ القول ، وقرأ أبو عمرو وفي روايةِ محبوبٍ عنه " مَسَّقَر " وخَطَّأه ابن مجاهد . وهو معذورٌ لأنَّ السينَ الأخيرةَ مِنْ " مَسَّ " مُدْغَم فيها فلا تُدْغَمُ في غيرها لأنها متى أُدْغِم فيها لَزِم تحريكُها ، ومتى أُدْغمت هي لَزِم سكونُها فتنافس الجَمْعُ بينهما . قال الشيخ : " والظَّنُّ بأبي عمرٍو أنه لم يُدْغِمْ حتى حَذَفَ أحد الحرفين ، لاجتماع

الأمثال ثم أَدْغم " قلت : كلامُ ابن مجاهد إنما هو فيما قالوه إنه أدغم ، أمَّا إذا حَذَفَ وأَدْغَمَ فلا إشكالَ .

" وسَقَر " عَلَمٌ لجهنم أعاذَنا اللَّهُ منها مشتقةٌ مِنْ سَقَرَتْه الشمسُ والنارُ ، أي : لَوَّحَتْه ويُقال : صَقَرَتْه بالصاد ، وهي مبدلةٌ من السين لأجل القاف . قال ذو الرمة :

4167 إذا ذابتِ الشمسُ اتَّقى صَقَراتِها . . . بأَفْنانِ مَرْبوعِ الصَّريمةِ مُعْبِلِ

" وسَقَر " متحتمُ المنعِ ؛ لأن حركةَ الوسطِ تَنَزَّلَتْ مَنْزِلةَ الحرفِ الرابع كعَقْرب وزينب .

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (49)

(397/737)

قوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ ﴾ : العامَّةُ على نصب " كل " على الاشتغال وأبو السَّمَّال بالرفع . وقد رَجَّحَ الناسُ ، بل بعضُهم أوجبَ النصبَ قال : لأن الرفعَ يُوْهِمُ ما لا يجوزُ على قواعد أهل السُّنَّة . وذلك أنه إذا رُفع " كل شيء " كان مبتدأً " وخَلَقْناه " صفةٌ لـ " كل " أو لشيء . و " بقَدَر " خبرُه . وحينئذٍ يكون له مفهومٌ لا يَخْفَى على متأمِّله ، فيلزَمُ أن يكون الشيءُ الذي ليس مخلوقاً لله تعالى لا بَقَدَر ، كذا قَدَّره بعضُهم . وقال أبو البقاء : " وإنما كان النصبُ أَوْلى لدلالتِه على عموم الخَلْقِ ، والرفعُ لا يدلُّ على عمومِه ، بل يُفيد أنَّ كل

شيءٍ مخلوقٌ فهو بقدر " . وقال مكي بن أبي طالب : "كان الاختيارُ على أصول البَصْريين رفع "كل "كما أن الاختيارَ عندهم في قولك " زيدٌ ضربْتُه " الرفعُ ، والاختيارُ عند الكوفيين النصبُ فيه بخلاف قولِنا " زيد أكرمتُه " لأنه قد تقدَّم في الآية شيءٌ عَمِل فيما بعده وهو " إنَّ " والاختيارُ عندهم النصبُ فيه . وقد أجمع القرّاءُ على النصبِ ف "كل " على الاختيار فيه عند الكوفيين ليَدُلَّ ذلك على عموم الأشياء المخلوقاتِ أنها لله تعالى بخلافِ ما قاله أهلُ الزَّيْغِ مِنْ أنَّ ثمَّ مخلوقاتٍ لغير الله تعالى ، وإنما دلَّ النصبُ في "كلَّ " على العموم ؛ لأن التقديرَ : إنَّا خَلَقْنا كلَّ شيء خَلَقْناه بقَدَر ، فَخَلَقْناه تأكيدٌ وتفسيرٌ ل " خَلَقْنا " المضمر الناصبِ ل "كلَّ " . وإذا حَذَفْتَه وأَظْهَرْتَ الأولَ صار التقديرُ : إنَّا خَلَقْناه كلَّ شيءٍ بَقدَر ، فهذا لفظٌ عامٌّ يَعُمُّ جميع المخلوقاتِ . ولا يجوز أَنْ يكون " خَلَقْناه " صفةً ل " شيءٍ " لأنَّ الصفةَ والصلةَ لا يعملان فيما قبل الموصوفِ ولا الموصولِ ، ولا يكونان تفسيراً لما يعملُ فيما قبلهما ، فإذا لم يَبْقَ " خَلَقْناه " صفةً لم يَبْقَ إلاَّ أنه تأكيدٌ وتفسيرٌ للمضمر

(398/737)

النصب ، وذلك يَدُلُّ على العموم . وأيضاً فإن النصبَ هو الاختيارُ لأنَّ " إنَّا " عندهم يَطلبُ الفعلَ فهو أَوْلى به ، فالنصبُ عندهم في "كل " هو الاختيارُ ، فإذا انضاف إليه معنى

العموم والخروج عن الشُبَهِ كان النصبُ أَوْلى من الرفع " .

وقال ابن عطية : / " وقومٌ من أهلِ السُّنَّة بالرفع " . وقال أبو الفتح : " هو الوجهُ في العربية ، وقراءتُنا بالنصب مع الجماعة " . وقال الزمخشري : "كلَّ شيء " منصوبٌ بفعلٍ مضمرٍ يُفَسِّره الظاهرُ . وقُرِىء "كلُّ شيءٍ " بالرفع . والقَدْر والقَدَر : التقديرُ ، وقُرِىء بهما ، أي : خَلَقْنا كلَّ شيء مُقَدَّراً مُحْكَماً مُرَتَّباً على حَسَبِ ما اقْتَضَتْه الحكمةُ أو مُقَدَّراً مكتوباً في اللوح ، معلوماً قبل كونِه قد عَلِمْنا حاله وزمانَه " انتهى .

وهو هنا لم يَتَعَصَّبْ للمعتزلةِ لضعفِ وجهِ الرفع .

وقال قومٌ : إذا كان الفعل يُتَوَهَّمُ فيه الوصفُ وأنَّ ما بعدَه يَصْلُحُ للخبر ، وكان المعنى على أن يكون الفعلُ هو الخبرَ اختير النصبُ في الاسمِ الأولِ حتى يتضحَ أنَّ الفعل ليس بوصفٍ ، ومنه هذا الموضعُ ؛ لأنَّ قراءة الرفع تُخَيِّل أنَّ الفعلَ وصفٌ ، وأن الخبرَ " بقدَر " . وقد تنازع أهلُ السنة والقَدَرِيَّة الاستدلال بهذه الآية : فأهلُ السُّنَّة يقولون : كلُّ شيء مخلوقٌ لله تعالى بقَدَرٍ ، ودليلُهم قراءة النصبِ لأنه لا يُفَسَّر في هذا التركيب إلاَّ ما يَصِحُّ أن يكون خبراً لو رُفِع الأولُ على الابتداء . وقال القَدَرية : القَراءةُ برفع "كل " و " خَلَقْناه " في موضع الصفة ل "كل " ، أي : إنَّ أمْرَنا أو شأنَنا : كلُّ شيء خَلَقْناه فهو بقَدَر أو بمقدار ، وعلى حَدِّ ما في هيئتِه وزمنِه .

وقال بعضُ العلماء : في القَدَر هنا وجوهٌ ، أحدها : أنه المقدارُ في ذاتِه وفي صفاته .

والثاني : التقديرُ كقولِهِ ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القادرون ﴾ [المرسلات : 23] . وقال الشاعر :

4168 . . . . . وقَد قَدَّر الرحمنُ ما هو قادِرُ

أي : ما هو مُقَدَّر . والثالث : القَدَرُ الذي يُقال مع القضاء كقولِكَ : كان بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه فقوله " بقَدَرٍ " على قراءة النصب متعلّقٌ بالفعل الناصب وفي قراءةِ الرفع في محلِّ رفع ، لأنه خبرٌ ل "كل " و "كل " وخبرُها في محل رفع خبراً ل إنَّ .

وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52)

وسيأتي قريباً آيةٌ عكسَ هذه أعني في اختيار الرفع وهي قولُه ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزبر ﴾ فإنَّه لم يختلف في رفعِه قالوا لأنَّ نصبَه يُؤدّي إلى فسادِ المعنى لأنَّ الواقعَ خلافُه ، وذلك أنَّك لو نَصَبْتَه لكان التقديرُ : فعلوا كلَّ شيءٍ في الزبُر ، وهو خلافُ الواقع ؛ إذ في الزُّبُر أشياءُ كثيرةٌ جداً لم يفعلوها . وأمَّا قراءةُ الرفعِ فتؤدّي أنَّ كلَّ شيءٍ فعلوه هم ، ثابتٌ في الزُّبُر وهو المقصود فلذلك اتُّفِقَ على رفعِه ، وهذان الموضعان مِنْ نُكَتِ المسائلِ العربيةِ التي اتَّفق مجيئُها في سورةٍ واحدةٍ في مكانَيْن متقاربين ومما يَدُلُّ على جلالةِ علمِ الإعراب وإفهامِه

المعانيَ الغامضةَ . والجاهلون لأهل العلم أعداءٌ .

وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (53)

(400/737)

وقرأ العامَّةُ " مُسْتَطَرٌ " بتخفيف التاءِ من السَّطر وهو الكَتْبُ ، أي : مُكْتَتب . وقرأ الأعمش وعمران بن حدير وتُرْوَى عن عاصم بتشديدها . وفيه وجهان . أحدهما : أنه مشتقٌ مِنْ طَرَّ الشاربُ والنبات ، أي : ظهر ونَبَتَ ، بمعنى : أنّ كلَّ شيءٍ قلَّ أو كثُر ظاهرٌ في اللوح غيرُ خفي ، فوزنُه مُسْتَفْعَل كمُسْتَخْرج . والثاني : أنَّه من الاستطار ، كالقراءة العامة وإنما شُدِّدَت الراءُ من أجل الوقفِ كقولهم : " هذا جَعْفَرّ وفَرَجّ " ثم أُجري الوصلُ مُجرى الوقف فوزنه مُفْتَعَل كقراءة الجمهور .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54)

قوله : ﴿ نَهَرٍ ﴾ : العامةُ بالإفرادِ وهو اسمُ جنسٍ بدليل مقارنته للجمع ، والهاء مفتوحةٌ كما هو الفصيح ، وسَكَّنها مجاهد والأعرج وأبو السَّمَّال والفياض وهي لُغَيَّةٌ . وقد تقدَّم الكلامُ عليها أولَ البقرة . وقيل ليس المرادُ هنا نهرَ الماءِ ، وإنما المرادُ به سَعَةُ الأرزاقِ لأنَّ المادةَ تَدُلُّ على ذلك كقول قيس بن الخطيم : /

4169 مَلَكْتُ بها كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتْقَها . . . يَرى قائمٌ مِنْ دونِها ما وراءَها

أي : وسَّعْتُ . وقرأ أبو نهيك وأبو مجلز والأعمش وزهير الفرقبي " ونُهُر " بضم النونِ والهاءِ ، وهي تحتمل وجهين ، أحدهما : أَنْ يكونَ جمعَ نَهَر بالتحريك وهو الأَوْلى نحو : أُسُد في أَسَد . والثاني : أن يكون جمعَ الساكنِ نحو : سُقُف في سَقْف ورُهُن في رَهْن ، والجمع مناسِبٌ للجمع قبلَه في " جنات " وقراءةُ العامة بإفرادِه أَبْلَغُ وقد تقدَّم كلامُ ابن عباس في قوله تعالى آخر البقرة ﴿ وملائكته وكُتُبِهِ ﴾ [البقرة : 285] بالإِفرادِ ، وأنه أكثرُ مِنْ " الكتب " . وتقدَّم أيضاً تقديرُ الزمخشري لذلك ، فعليك . . .

(401/737)

قوله تعالى ﴿ فِي مَقْعَدِ ﴾ يجوز أَنْ يكونَ خبراً ثانياً ، وهو الظاهرُ وأَنْ يكون حالاً من الضمير في الجارّ لوقوعِه خبراً . وجَوَّز أبو البقاء أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ قولِه " في جنات " وحينئذٍ يجوز أَنْ يكونَ بدلَ بعضٍ ، لأن المقعدَ بعضُها ، وأَنْ يكون اشتمالاً أنها مشتمِلَةٌ ، والأول أظهرُ ، والعامَّةُ على إفراد " مَقْعَد " مُراداً به الجنس كما تقدَّم في " نَهَر " . وقرأ عثمان البتّي " مقاعِدِ " وهو مناسبٌ للجمع قبلَه . ومَقْعَدُ صِدْقٍ من بابِ رجلُ صدقٍ : في أنه يجوز أَنْ يكون من إضافةِ الموصوف لصفتِه . والصدق يجوز أَنْ يُرادَ بِهِ ضدُّ الكذبِ ،

أي : صُدِّقوا في الإخبار به ، وأَنْ يرادَ به الجَوْدَةُ والخيريَّةُ .

و" مليك " مثلُ مبالغةٍ وهو مناسِبٌ هنا ، ولا يُتَوهَّمُ أنَّ أصلَه مَلِك لأنه هو الواردُ في غيرِ موضعٍ ، وأنَّ الكسرةَ أُشْبِعَتْ فتولَّد منها ياءٌ ؛ لأنَّ الإشباعَ لم يَرِدْ إلاَّ ضرورةً أو قليلاً ، وإنْ كان قد وقع في قراءةِ هشام " أَفْئِيدَةً " في آخر إبراهيم ، وهناك يطالعَ ما ذَكَرْتُه فيه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 119 . 151 ﴾

(402/737)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة القمر

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة بها نور القلوب والأبصار ، وبعرفانها يحصل سرور الأرواح والأسرار .

كلمة تدل على جلاله .

الذي هو استحقاقه لأوصافه .

كلمة تدل على نعته الذي هو غاية أفضاله وألطافه .

قوله جل ذكره : (اقتربت الساعة وانشق القمر)

أجمع أهلُ التفسير على أنَّ القمرَ قد انشقَّ على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

قال ابن مسعود : " رأيت حراء بين فلقتي القمر " ولم يوجد لابن مسعود مخالف في ذلك ؛ فقد روي أيضاً عن أنس وابن عمر وحذيفة وابن عباس وجبير بن مطعم . . كلهم رووا هذا الخبر .

وفيه إعجازٌ من وجهين : أحدهما رؤية مَنْ رأى ذلك ، والثاني خفاء مثل ذلك على مَنْ لم يَرَه ؛ لأنه لا ينكتم مثله في العادة فإذا خفي كان نقض العادة .

وأهل مكة رأوا ذلك ، وقالوا : إنَّ محمداً قد سحر القمر .

ومعنى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ : أي ما بقي من الزمانِ إلى القيامةِ إلا قليلٌ بالإضافةِ إلى ما مضى .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ .

يعني أن أهل مكة إذا رأوا آية من الآيات أعرضوا عن النظر فيها ، ولو نظروا لحصل لهم العلمُ واجباً .

﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ : أي دائمٌ قويٌّ شديد . . . ويقال إنهم قالوا : هذا ذاهب لا تبقى مدته فاستمر : أي ذهب .

﴿ وَكَذَّبُواْ وَاتَّبَعُواْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ : التكذيب واتباع الهوى قريبان ؛ فإذا حَصَل اتباعُ الهوى فمِنْ شُؤْمِه يحصل التكذيب ؛ لأنَّ اللَّهَ يُلَبِّس على قلب صاحبه حتى لا يستبصر الرشد . أما اتباع الرضا فمقرونٌ بالتصديق ؛ لأنَّ اللَّهَ ببركاتِ اتباع الحقِّ يفتح عينَ البصيرة فيحصل التصديقِ .

(403/737)

وكلُّ امرىءٍ جرَتْ له القِسْمةُ والتقدير فلا محالةَ . يستقر له حصولُ ما قُسِمَ وقدّر له .

﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ : يستقر عملُ المؤمنِ فتُوجَبُ له الجنة ، ويستقر عملُ الكافرِ فَيُجَازَى .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ الأَنبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ .

جاءهم من أخبارِ الأنبياءِ والأممِ الذين مِنْ قَبْلِهم والأزمنةِ الماضية ما يجب أَنْ يحصلَ به الارتداعُ ، ولكنَّ الحقَّ – سبحانه – أَسْبَلَ على بصائرهم سُجُوف الجهلِ فَعَموا عن مواضع الرشد .

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ . . . ﴾ : بدل من (ما) فيما سبق : (ما فيه مزدجر) .

والحكمة البالغة هي الصحيحة الظاهرة الواضحة لمن تفكّر فيها .

﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ : وأي شيء يغني إنذارُ النذيرِ وقد سَبَقَ التقديرُ لهم بالشقاء ؟

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ ﴾ .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ : ها هنا تمام الكلام – أي فأعرِضْ عنهم ، وهذا قبل الأمر بالقتال . ثم استأنف الكلامَ : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ . . . ﴾ والجواب : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ ﴾ – أراد به يوم القيامة .

ومعنى ﴿ نُّكُرٍ ﴾ : أي شيءٌ ينكرونه (بِهَوْله وفظاعته) وهو يوم البعث والحشر .

وقوله : ﴿ خُشَّعًا ﴾ منصوب على الحال ، أي يخرجون من الأجداث – وهي القبور – خاشعي الأبصار .

﴿ . . . كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ .

كأنهم كالجراد لكثرتهم وتفرقهم ، ﴿ مُّهْطِعِينَ ﴾ : أي مُديمي النظر إلى الداعي – وهو إسْرافيل .

﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ : لتوالي الشدائد التي فيه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ .

كذب قوم نوح نبيَّهم ، وقالوا : إنه مجنون ، وزجروه وشتموه .

وقيل : ﴿ وَازْدُجِرَ ﴾ : أي استطار عَقْلُهُ ، أي قومُ نوحٍ قالوا له ذلك .

فدعا ربَّه فقال : إني مغلوب ؛ أي بتسلُّطِ قومي عليَّ ؛ فلم يكن مغلوباً بالحُجَّة لأنَّ الحُجَّةَ كانت عليهم ، فقال نوح لله : اللهمَّ فانتَصِرْ منهم أي انْتَقِمْ .

ففتحنا أبواب السماء بماءٍ مُنْصَبٍّ ، وشَقَقْنَا عيوناً بالماء ، فالتقي ماء السماءِ وماءُ الأرضِ على أمرٍ قد قُدِّرَ في اللوح المحفوظ ، وَقُدِرَ عليه بإهلاكهم !

وفي التفاسير : أن الماء الذي نَبَعَ من الأرضِ نَضَبَ . والماء الذي نزل من السماء هو البخارُ اليومَ .

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ .

وحملنا نوحاً على ﴿ ذَاتِ أَلْوَاحٍ ﴾ أي سفينة ، و ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ يعني المسامير وهي جمع دسار أي مسمار .

﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ .

﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بمرأًى مِنَّا . وقيل : تجري بأوليائنا .

ويقال : بإعين ملائكتنا الذين وكلناهم لحفظِهم .

ويقال : بأعين الماء الذي أنبعتاه من أوجه الأرض .

﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ : أي الذين كفروا بنوح .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّذَّكِرٍ ﴾ .

جعلنا أَمْرَ السفينةِ علامةً بَيِّنَةً لِمَنْ يعتبر بها .

﴿ فَهَلْ مِن مُّذَّكِرٍ ﴾ : فهل منكم من يعتبر ؟ . أمَرَهم بالاعتبار بها .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ .

قالها على جهة التعظيم لأمرِه .

وقد ذَكَرَ قصة نوحٍ هنا عل أفصحِ بيانٍ وأقصرِ كلام وَأَتَمِّ معنًى .

وكان نوحٌ – عليه السلام – أطول الأنبياء عمراً ، وَأَشَدَّهم للبلاءِ مقاساةً .

(405/737)

ثم إن اللَّهَ – سبحانه – لما نَجَّى نوحاً متَّعه بعد هلاك قومه ومتع أولادَه ، فكلُّ مَنْ على وجه الأرض من أولاد نوح عليه السلام .

وفي هذا قوةٌ لرجاء أهل الدين ، وإذا لقوا في دين الله محنةً ؛ فإنَّ الله يُهلِكُ – عن قريب – عَدوَّهم ، ويُمكِّنُهم من ديارهم وبلادهم ، ويورثهم ما كان إليهم .

وكذلك كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه ، وسنةُ اللَّهِ في جميع أهل الضلال أن يُعِزَّ أولياءَه بعد أن يزهق أعداءَه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

يَسَّرنا قراءَتَه على ألسنةِ الناس ، ويسَّرنا عِلْمه على قلوب قوم ، ويسَّرنا فَهْمَه على قلوب قوم ، ويَسَّرْنا حِفْظَه على قلوبِ قومٍ ، وكلُّهم أهلُ القرآن ، وكلُّهم أهلُ القرآن ، وكلُّهم أهل الله وخاصته .

ويقال : كاشَفَ الأرواحَ من قوم – بالقرآن – قبل إدخالها في الأجساد .

﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ لهذا العهد الذي جرى لنا معه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ .

كَذَّبوا هوداً ، فأرسلنا عليهم ﴿ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ أي : باردةً شديدة الهُبوب ، يُسْمَعُ لها صوت .

﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ أي : في يوم شؤم استمرَّ فيه العذابُ بهم ، ودام ذلك فيهم ثمانيةَ أيام وسَبْعَ ليالٍ ، وقيل : دائم الشؤم تنزع رياحُه الناسَ عن حُفَرِهم التي حفروها . حتى صاروا كأنهم أسافلُ نخلٍ مُنْقَطِع . وقيل : كانت الريح تقتلع رؤوسهم عن مناكبهم ثم تُلْقي بهم كأنهم أصول نخلٍ قطت رؤوسُها .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

هَوَّنَا قراءَتَه وحِفْظَه ؛ فليس كتابٌ من كُتُبِ الله تعالى يُقْرَأُ ظهراً إلاَّ القرآن .

(406/737)

قوله جلّ ذكره : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ .

هم قوم صالح . وقد مضى القولُ فيه ، وما كان من عقرهم للناقة . . إلى أن أرسل الله عليهم صيحةً واحدةً أوجبت هذا الهلاك ، فَصيَّرَهم كالهشيم ، وهو اليابس من النبات ، ﴿ الْمُحْتَظِرِ ﴾ : أي : المجعول في الحظيرة ، أو الحاصل في الحظيرة .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (34) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35)

فأرسلنا عليهم ﴿ حَاصِباً ﴾ : أي : حجارةً رُمُوا بها .

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾ : أي : جعلنا إنجاءَهم في إهلاك أعدائهم .

وهكذا نجزي من شكر ؛ فمثل هذا نعامِلُ به مَن شَكَرَ نعمتنا .

والشُّكْرُ على نِعَم الدفع أتمُّ من الشكر على نِعَم النفع – ولا يَعْرِفُ ذلك إلا كلُّ مُوَفَّق كَيِّس .

وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (37)

جاء جبريلُ ومَسَحَ بجناحه عَلى وجوههم فَعمُوا ، ولم يهتدوا للخروج – وكذلك أجرى سُنَّتَه في أوليائه أنْ يَطْمِسَ على قلوبِ أعدائهم حتى يلبس عليهم كيف يؤذون أولياءَه ثم يُخَلِّصُهم من كيدهم .

سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45)

أخبر أنه يفعل هذا بأعداء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحقّق ذلك يوم بَدر ، فصار ذلك معجزاته صلوات الله عليه وسلامه .

يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (48)

سَحْبُهم على الوجوهِ أمارةٌ لإذْلالهم ، ولو كان ذلك مرةً واحدةً لكانت عظيمة – فيكيف وهو التأبيد والتخليد ؟ !

(407/737)

وكما أنَّ أمارةَ الذُلِّ تظهر على وجوههم فعلامةُ إعزازِ المؤمنين وإكرامهم تظهر على وجوههم ، قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22] . وقال : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [المطففين : 24] .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

أي بِقَدَرٍ مكتوب في اللوح المحفوظ .

ويقال : خلقناه بقدر ما عَلِمْنا وأردْنا وأخبرْنا .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ .

أي إذا أردنا خَلْقَ شيءٍ لا يتعسَّرُ ولا يتعَذَّرُ علينا ، نقول له : كُنْ – فيكون بقدرتنا . ولا يقتضي هذا استئناف قولٍ في ذلك الوقت ولكن استحقاق أن يقال لقوله القدم أن يكون أمراً لذلك المكون إنما يَحصل في ذلك الوقت .

﴿ كَلَمْحٍ بِالْصَبَرِ ﴾ : أي كما ان هذا القَدْرَ عندكم أي قَدْرَ ما يلمح أحدكم ببصره لا تلحقكم به مشقةٌ – كذلك عندنا : إذا أردنا نخلق شيئاً – قلّ أو كَثُرَ ، صَغُرَ أو كَبُرَ لا تلحقنا فيه مشقة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

أي أهلكنا القرونَ التي كانت قبلكم فكلُّهم أمثالكم من بني آدم . . .

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ ﴾ .

في اللوح المحفوظ مكتوبٌ قبل أن يعمله . وفي صحيفة الملائكة مكتوب . لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها . .

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ .

كلُّ صغيرٍ من الخَلْق ، وكلُّ كبيرٍ من الخَلْقِ - تخترمه المنيَّةُ .

ويقال : كلُّ صغيرٍ من الأعمال وكبيرٍ مكتوبٌ في اللوح المحفوظ ، وفي ديوان الملائكة .

وتعريف الناس عما يكتبه الملائكة هو على جهة التخويف ؛ لئلا يتجاسر العبدُ على الزَّلَّةِ إذا عرف المحاسبة عليها والمطالبة بها .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ الْمُتَقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾

(408/737)

لهم بساتين وأنهار ، والجمعُ إذا قوبل بالجمع فالآحادُ تُقابَلُ بالآحاد .

فظاهرُ هذا الخطاب يقتضي أن يكون لكل واحدٍ من المتقين جنةٌ ونَهْرٌ .

﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ : أي في مجلس صِدْقٍ .

﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ : أراد به عِنْدِيَّةَ القُرْبة والزلفة .

ويقال : مقعد الصدق أي مكان الصدق ، والصادق في عبادته مَنْ لا يتعبَّدُ على ملاحظة الأطماع ومطالعة الأعواض .

ويقال : مَنْ طلب الأعواض هَتَكَتْه الأطماع ، ومَنْ صَدَقَ في العبوديَّة تحرَّرَ عن المقاصد الدِّنيَّة .

ويقال : مَنْ اشتغل بالدنيا حَجَبَتْه الدنيا عن الآخرة ، ومَنْ أَسَرَه نعيمُ الجنة حُجِبَ عن القيامة بالحقيقة ، ومَنْ قام بالحقيقة شُغِلَ عن الكوْن بجملته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 493. 501 ﴾

(409/737)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3) وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ (5)

الإعراب :

جملة : " اقتربت الساعة . . . " لا محلّ لها ابتدائية .

وجملة : " انشقّ القمر . . . " لا محلّ لها معطوفة على الابتدائيّة 2 - (الواو) عاطفة في الموضعين (يقولوا) مضارع مجزوم معطوف على جواب الشرط يعرضوا (سحر) خبر لمبتدأ

محذوف تقديره هو وجملة : " يروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الابتدائيّة وجملة : " يعرضوا . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء وجملة : " يقولوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يعرضوا

وجملة : " (هو) سحر . . . " في محلّ نصب مقول القول 3 – (الواو) عاطفة في الموضعين واستئنافيّة في الثالث وجملة : "كذّبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يعرضوا " 1 " وجملة : " اتبعوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يعرضوا " 2 " وجملة : "كلّ أمر مستقرّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة 4 – (الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (من الأنباء) متعلّق بحال من (ما) فاعل (جاءهم) ، (فيه) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (مزدجر) .

وجملة : " جاءهم . . . ما فيه مزدجر " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " فيه مزدجر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) 5 – (حكمة) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو يعود على ما " 3 " ، (الفاء) عاطفة (ما) نافية " 4 " ، (تغن) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء وقد حذفت لمناسبة قراءة الوصل .

وجملة : " (هي) حكمة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " ما تغني النذر " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة الأخيرة

الصرف :

(مزدجر) ، مصدر الخماسي ازدجر ، وفيه إبدال تاء الافتعال دالا بدءا من الفعل

---

(1) أو استئنافيّة

(2) أو في محلّ نصب حال من فاعل كذّبوا . . .

(3) يجوز أن يكون بدلا من ما . . . أو من مزدجر

(4) أو اسم استفهام في محلّ نصب مفعول به وهو للإنكار

(410/737)

(تغن) ، حذفت الياء من رسم المصحف اتّباعا للقراءة فهي محذوفة لالتقاء للساكنين

الفوائد :

- معجزة انشقاق القمر .

عن أبي عمر رضي عنهما قال : انشق القمر على عهد رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) فلقتين : فستر الجبل فلقة ، وكانت فلقة فوق الجبل ، فقال رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) اللهم اشهدوا . وعن جبير بن مطعم قال : انشق القمر على عهد رسول اللَّه (صلّى

اللَّه عليه وسلّم) فصار فرقتين ، فقالت قريش : سحر محمد أعيننا ، فقال بعضهم : لئن كان سحرنا ، فما يستطيع أن يسحر الناس كلهم . أخرجه الترمذي .

(411/737)

وزاد غيره : فكانوا يتلقون الركبان فيخبرهم الركبان بأنهم قد رأوا انشقاق القمر ، فيكذبونهم . قال مقاتل : انشق القمر ، ثم التأم بعد ذلك ، وروى مسروق عن عبد اللَّه بن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول اللَّه (صلّى اللَّه عليه وسلّم) فقالت قريش : سحركم ابن أبي كبشة ، فسألوا السفار فقالوا : نعم قد رأيناه ، فأنزل اللَّه تعالى : اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وهكذا يتضافر الحديث الصحيح مع القرآن الكريم على إثبات هذه المعجزة لسيدنا محمد صلّى اللَّه عليه وسلّم ، وهذا من أقوى الأدلة على نبوته .

[سورة القمر (54) : الآيات 6 إلى 8]

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ (6) خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ (7) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ (8)

الإعراب :

(الفاء) لربط السبب بالمسبّب عاطفة (عنهم) متعلّق بـ (تولّ) ، (يوم) ظرف منصوب

متعلّق بـ (يخرجون) ، (يدع) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الواو المحذوفة لمناسبة قراءة الوصل (الداع) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة للتخفيف (إلى شيء) متعلّق بـ (يدعو) .

جملة : " تولّ عنهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي تنبّه إلى هذا فتولّ

وجملة : " يدعو الداعي . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه 7 - (خشّعا) حال منصوبة من فاعل يخرجون (أبصارهم) فاعل الصفة المشبّهة (خشّعا) ، (من الأجداث) متعلّق بـ (يخرجون) .

(412/737)

وجملة : " يخرجون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " كأنّهم جراد . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يخرجون 8 - (مهطعين) حال من فاعل يخرجون (إلى الداع) متعلّق بـ (مهطعين) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الياء المحذوفة للتخفيف (عسر) نعت للخبر (يوم) مرفوع وجملة : " يقول الكافرون . . . " لا محل لها استئناف بيانيّ وجملة : " هذا يوم . . . " في محلّ نصب مقول القول

الصرف :

(6) : يدع ، رسم في المصحف بغير واو اتّباعا لقراءة الوصل بسبب التقاء الساكنين

(الداع) : رسم في المصحف بغير ياء للتخفيف (نكر) : صفة مشبّهة بمعنى المنكر أو الأمر الشديد ، وزنه فعل بضمتين .

(7) منتشر : اسم فاعل من الخماسيّ انتشر ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وكسر العين .

(خشّعا) : جمع خاشع ، اسم فاعل من الثلاثي خشع وزنه فاعل والجمع فعّل بضم التاء وفتح العين المشددة .

(8) عسر : صفة مشبهة من الثلاثي عسر باب فرح وباب كرم ، وزنه فعل بفتح فكسر

البلاغة

1 – الكناية : في قوله تعالى خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ .

فخشوع الأبصار كناية عن الذلة والانخذال لأن ذلة الذليل ، وعزة العزيز ، تظهران في عيونهما .

2 – التشبيه المرسل المفصل : في قوله تعالى يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ .

حيث شبههم بالجراد المنتشر ، في الكثرة والتموج والانتشار في الأقطار ، وقد جاء تشبيههم بالجراد منتشر ، في الكثرة والتموج والانتشار في الأقطار ، وقد جاء تشبيههم بالفراش المبثوث . وقد قيل : يكونون أولا كالفراش حين يموجون فزعين ، لا يهتدون أين يتوجهون ، لأن الفراش لا جهة لها تقصدها ، ثم كالجراد المنتشر إذا توجهوا إلى المحشر ،

فهما تشبيهان باعتبار وقتين .

الفوائد :

- ما افترق فيه الحال والتمييز وما اجتمعا فيه :

1 - يجتمع الحال والتمييز في خمسة أمور ، هي : كونهما اسمان ، نكرتان ، فضلتان ، منصوبتان ، دافعتان للإبهام .

(413/737)

---

2 - يفترقان في سبعة أمور هي :

1 - يكون الحال جملة (كجاء زيد يضحك) ، وظرفا نحو (رأيت الهلال بين السحاب) ، وجارا ومجرورا نحو (أعجبني السمك في الماء) . والتمييز لا يكون إلا اسما .

2 - الحال قد يتوقف معنى الكلام عليها ، كقوله تعالى : وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً لا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارى بخلاف التمييز .

3 - الحال مبنية للهيئات ، والتمييز مبين للذوات .

4 - الحال تتعدد ، بخلاف التمييز .

5 - الحال تتقدم على عاملها ، إذا كان فعلا متصرفا ، أو وصفا يشبهه ، كقوله تعالى :

خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ . ولا يجوز ذلك في التمييز ، أما ما ورد في الشعر (أنفسا تطيب) فضرورة .

6 - حق الحال الاشتقاق ، وحق التمييز الجمود . وقد يتعاكسان ، فيأتي الحال جامدا (هذا مالك ذهبا) ، ويأتي التمييز مشتقا (للّه درّه فارسا) .

7 - الحال تكون مؤكدة لعاملها ، نحو قوله تعالى : وَلَّى مُدْبِراً فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . ولا يقع التمييز كذلك .

[سورة القمر (54) : الآيات 9 إلى 17]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَقالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10) فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ (13)

تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ (14) وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (15) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (16) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (17)

الإعراب :

(قبلهم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (كذّبت) ، وضمير الغائب يعود على قريش (الفاء) عاطفة تفصيليّة (مجنون) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ، ونائب الفاعل للمجهول (ازدجر) ضمير يعود على نوح.

جملة : "كذّبت قبلهم قوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "كذّبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " (هو) مجنون . . . " في محلّ نصب مقول القول

وجملة : " ازدجر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا " 1 " 10 - 11 - (الفاء) عاطفة والثانية للربط والثالثة عاطفة (بماء) متعلّق بحال من أبواب السماء ، و(الباء) للتعدية أي سائلة بماء . . .

وجملة : " دعا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّبوا . . .

والمصدر المؤوّل (أني مغلوب . . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف هو الباء متعلّق بـ (دعا) وجملة : " انتصر . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي تكرّم فانتصر " 2 " وجملة : " فتحنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة دعا 12 - (الواو) عاطفة (عيونا) تمييز محوّل عن مفعول به (الفاء) عاطفة (على أمر) متعلّق بـ (التقى) ، ونائب الفاعل ضمير يعود على أمر وجملة : " فجّرنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة فتحنا وجملة : " التقى الماء . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة فجّرنا وجملة : " قد قدر . . .

" في محلّ جرّ نعت لأمر 13 - (الواو) عاطفة في الموضعين (على ذات) متعلّق بـ (حملناه) بحذف المنعوت أي : سفينة ذات ألواح وجملة : " حملناه . " لا محلّ لها معطوفة على جملة التقى الماء 14 - (بأعيننا) حال بمعنى محفوظة (جزاء) مفعول لأجله والعامل محذوف " 3 " ،

---

(1) يجوز أن تكون في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول ، أي الجملة من كلامهم هم بمعنى تخبّطته الجنّ

(2) والاستئناف من تمام الدعاء أو هو اعتراضيّ

(3) أو مفعول مطلق لفعل محذوف

(لمن) متعلّق بـ (جزاء) ، ونائب الفاعل للمجهول (كفر) ضمير مستتر يعود على نوح بوساطة الموصول (من) وجملة : " تجري . . . " في محلّ جرّ نعت لذات ألواح " 1 " وجملة : " كان كفر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) وجملة : " كفر . . . " في محلّ نصب خبر كان 15 - (الواو) استئنافيّة (لقد تركناها) مثل لقد جاءهم " 2 " ، (آية) حال من

ضمير الغائب في (تركناها) " 3 " (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (هل) حرف استفهام (مدّكر) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ ، خبره محذوف تقديره موجود وجملة : " تركناها . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " هل من مدّكر . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إذا كانت قصّة السفينة آية فهل من مدّكر منكم 16 - (الفاء) استئنافيّة (كيف) اسم استفهام في محلّ نصب خبر كان الآتي (نذر) معطوف على عذابي بالواو مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم المحذوفة لمناسبة الفاصلة وجملة : "كان عذابي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة 17 - (الواو) استئنافيّة (لقد يسّرنا) مثل لقد جاءهم " 4 " ، (للذكر) متعلّق بـ (يسرنا) ، (فهل من مدّكر) مثل الأولى " 5 "

---

(1) أو في محلّ نصب حال من ذات ألواح لأنّ النكرة هنا مخصّصة

(2 ، 4) في الآية (4) من هذه السورة

(3) أو مفعول به ثان إذا قدّر الفعل بمعنى جعلناها ، والضمير يعود على السفينة أو على إغراق الكافرين

(5) في الآية (15) من هذه السورة .

وجملة : " يسرّنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . وجملة القسم المقدّرة استئنافيّة

وجملة : " هل من مدّكر . . . " جواب شرط مقدّر أي : إذا كان القرآن ميسّرا فهل من مدّكر . والاستفهام فيه معنى الأمر أي فاحفظوه واتّعظوا به .

الصرف :

---

(9) ازدجر : فيه إبدال التاء التي هي تاء الافتعال إلى دال لمجيئها بعد الزاي ، أصله ازتجر . . وهذا الإبدال يتمّ في كلّ اشتقاقات الكلمة كما هو المصدر الميميّ - أو اسم المكان - الوارد في الآية (4) من هذه السورة :

مزدجر وزنه مفتعل بضمّ وفتح العين . ووزن ازدجر افتعل (10) مغلوب : اسم مفعول من الثلاثيّ غلب ، وزنه مفعول (11) منهمر : اسم فاعل من الخماسيّ انهمر ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وكسر العين (13) دسر : جمع دسار ككتاب أو دسر كسقف ، وهو الرباط الحديديّ أو الليفيّ الذي يربط أجزاء السفينة إلى بعضها . ووزن دسر فعل بضمّتين (15) مدّكر : اسم فاعل من الخماسيّ ادّكر . . انظر الآية (45) من سورة يوسف .

(16) نذر : مصدر سماعيّ للرباعي أنذر وزنه فعل بضمتين . . واللفظ يأتي أيضا جمعا لنذير

البلاغة

الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ .

فقد شبه تدفق المطر من السحاب ، بانصباب أنهار ، انفتحت بها أبواب السماء وانشق أديم الخضراء .

إنابة الصفات مناب الموصوفات : في قوله تعالى وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ .

كناية عن موصوف وهو السفينة ، وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات على سبيل الكناية ، كقولهم : حي مستوي القامة عريض الأظفار ، في الكناية عن الإنسان ، وهو من فصيح الكلام وبديعه ، ونظير الآية قول الشاعر :

فعرشي صهوة الحصان ولكن (قميصي) مسرودة من حديد

فإنه أراد بـ قميصي درعي .

معنى الاستفهام : في قوله تعالى فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ .

استفهام تعظيم وتعجيب ، أي كانا على كيفية هائلة ، لا يحيط بها الوصف . والمعنى حمل المخاطبين على الإقرار بوقوع عذابه تعالى للمكذبين .

[سورة القمر (54) : الآيات 18 إلى 22]

كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (21) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (22)

الإعراب:

(فكيف كان عذابي ونذر) مرّ إعرابها " 1 " ، (عليهم) متعلّق بـ (أرسلنا) ، (في يوم) متعلّق بـ (أرسلنا) جملة: "كذّبت عاد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: "كان عذابي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مقدّرة معطوفة أي كذّبت عاد فعذّبت فكيف كان عذابي " 2 " وجملة: "إنّا أرسلنا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة: "أرسلنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ

---

(1) في الآية (16) من هذه السورة

(2) الاستفهام في الجملة للتهويل فصحّ عطفها على الخبر أي كان عذابي عظيما

20 - 22 - (الفاء) استئنافيّة (كيف . . . ونذر) مرّ إعرابها ، (ولقد يسّرنا . . مدّكر) مرّ إعرابها " 1 " وجملة : " تنزع . . . " في محلّ نصب نعت لـ (ريحا) " 2 " وجملة : "كأنّهم أعجاز . . . " في محلّ نصب حال من الناس وجملة : "كان عذابي . . . " لا محلّ لها استئناف لتأكيد التهويل وجملة : " يسرنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " هل من مدّكر . . . " جواب شرط مقدّر " 3 "

الصرف :

(1 ، 3) في الآية (17) من السورة [. . . . .]

(2) أو حال من (ريحا) لأنه تخصّص بالوصف

(أعجاز) ، جمع عجز اسم لمؤخّر كلّ شيء ، وعجز النخل أصوله ، وزنه فعل بفتح فسكون أو بفتحتين أو بفتح فكسر أو بضمّ فسكون أو بكسر فسكون مستمرّ : اسم فاعل

من السداسيّ استمرّ وهو بمعنى الدائم أو بمعنى القويّ أو بمعنى الذاهب الذي لا يبقى أو بمعنى الشديد المرارة . . . وزنه مستفعل بضمّ الميم وكسر العين ، وعين الفعل ولامه من حرف واحد (20) منقعر : اسم فاعل من الخماسيّ انقعر ، وزنه منفعل بضمّ الميم وكسر العين

البلاغة

التشبيه المرسل التمثيلي : في قوله تعالى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ .

شبهوا بأعجاز النخل ، وهي أصولها بلا فروع ، لأن الريح كانت تقلع رؤوسهم فتبقي أجسادا وجثثا بلا رؤوس ، ويزيد هذا التشبيه حسنا ، أنهم كانوا ذوي جثث عظام طوال . وهذا من تشبيه المحسوس بالمحسوس ، فالمشبه هنا (عاد) قوم هود ، والمشبه به أعجاز النخل ، وهما حسيان .

[سورة القمر (54) : الآيات 23 إلى 25]

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقالُوا أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (24) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25)

الإعراب :

(بالنذر) متعلّق بـ (كذّبت) ، (الفاء) عاطفة (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (بشرا) مفعول به لفعل محذوف على الاشتغال يفسّره ما بعده (منّا) متعلّق بنعت لـ (بشرا) " 1 " ،

(واحدا) نعت لـ (بشرا) ثان (إذا) لا محلّ لها أداة جواب (اللام) المزحلقة للتوكيد (في ضلال) متعلّق بخبر إنّ . . .

---

(1) أو متعلق بحال من (واحدا)

جملة : "كذّبت ثمود . . . "لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " قالوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " (أنتّبع) بشرا . . . "في محلّ نصب مقول القول وجملة : "نتّبعه . . . "لا محلّ لها تفسيريّة وجملة : "إنّا . . . لفي ضلال "لا محلّ لها استئناف في حيّز القول (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (عليه) متعلّق بـ (ألقي) ، (من بيننا) متعلّق بحال من الضمير في (عليه) ، (بل) للإضراب الانتقاليّ (أشر) خبر ثان للمبتدأ (هو) مرفوع . . وجملة : "ألقي الذكر . . . "لا محلّ لها استئناف في حيّز القول وجملة : "هو كذّاب . . . "لا محلّ لها استئناف في حيّز القول

الصرف :

(24) سعر : اسم بمعنى جنون وهو مفرد أو جمع سعير بمعنى النار وزنه فعل بضمّتين

(25) أشر : صفة مشبّهة من الثلاثيّ أشر باب فرح وزنه فعل بفتح فكسر ، والأشر

المتكبّر البطر

[سورة القمر (54) : الآيات 26 إلى 32]

سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (26) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (28) فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (30)

إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (32)

الإعراب :

(غدا) ظرف منصوب متعلّق بـ (يعلمون) ، (من) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ خبره (الكذاب) . .

(422/737)

جملة : " سيعلمون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " من الكذّاب . . . " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي يعلمون المعلّق بالاستفهام (من) 27 - (فتنة) مفعول لأجله ، والعامل مرسلو ، منصوب " 1 " ، (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب . .

(1) أو هو مصدر في موضع الحال أي فاتنين

وجملة : " إنّا مرسلو . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " ارتقبهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي تيقّظ فارتقب وجملة : " اصطبر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ارتقبهم 28 - (الواو) عاطفة (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف نعت لقسمة . .

وجملة : " نبّئهم " لا محلّ لها معطوفة على جملة ارتقبهم والمصدر المؤوّل (أنّ الماء قسمة) في محلّ نصب سدّ مسدّ المفعولين الثاني والثالث لفعل نبّئهم وجملة : " كلّ شرب محتضر " لا محلّ لها استئناف بيانيّ 29 - (الفاء) عاطفة في المواضع الثلاثة (نادوا) ماض مبنيّ علي الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين وجملة : " نادوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي فتمادوا في ذلك . . . فنادوا وجملة : " تعاطى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نادوا وجملة : " عقر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تعاطى 30 - (فكيف . . ونذر) مرّ إعرابها " 1 " مفردات وجملا . . .

31 - (عليهم) متعلّق بـ (أرسلنا) ، (الفاء) عاطفة (كهشيم) متعلّق بخبر كانوا . .

وجملة : " إنّا أرسلنا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " أرسلنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ

---

(1) في الآية (16) من هذه السورة

وجملة : " كانوا كهشيم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّا أرسلنا 32 - (ولقد يسّرنا . . من مدّكر) مرّ إعرابها مفردات وجملا " 1 "

الصرف :

(28) محتضر : اسم مفعول من الخماسيّ احتضر أي محضّر ومهيّأ ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وفتح العين (29) تعاطى : فيه إعلال بالقلب ، أصله تعاطي - بالياء - تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(31) المحتظر : اسم فاعل من الخماسيّ احتظر أي جعل للغنم حظيرة من يابس الشجر وغيره ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وكسر العين

البلاغة

1 - فن الإبهام : في قوله تعالى سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ .

المراد سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون . لكن أورد ذلك مورد الإبهام إيماء إلى أنه مما لا يكاد يخفي . ونحوه قول الشاعر :

فلئن لقيتك خاليين لتعلمن (أيي وأيك) فارس الأحزاب

2 - التشبيه المرسل : في قوله تعالى فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ .

حيث شبههم بالشجر اليابس ، الذي يتخذه من يعمل الحظيرة لأجلها ، أو كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء .

[سورة القمر (54) : الآيات 33 إلى 40]

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ (34) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ (36) وَلَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ (37) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ (38) فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ (39) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (40)

---

(1) في الآية (17) من هذه السورة

الإعراب :

(بالنذر) متعلّق بـ (كذّبت) ، (عليهم) متعلّق بـ (أرسلنا) ، (إلّا) للاستثناء (آل) منصوب على الاستثناء المتصل (بسحر) متعلّق بـ (نجّيناهم) . . .

جملة : "كذّبت قوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "إنّا أرسلنا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : "أرسلنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ وجملة : "نجّيناهم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ 35 - (نعمة) مفعول مطلق لفعل محذوف " 1 " ، (من عندنا) متعلّق بنعت لـ (نعمة) (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نجزي وجملة : "نجزي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "شكر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) 36 - (الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق ، وفاعل (أنذرهم) ضمير يعود على لوط (الفاء) عاطفة (تماروا) ماض مبني على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين (بالنذر) متعلّق بـ (تماروا)

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو ملاقيه في المعنى ، فالإنجاء إنعام . . . ويجوز أن يكون مفعولا لأجله مبيّن سبب الفعل

وجملة : " أنذرهم . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . . وجملة القسم المقدّرة استئنافيّة

وجملة : " تماروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنذرهم 37 – (ولقد راودوه) مثل

ولقد أنذرهم " 1 " (عن ضيفه) متعلّق بـ (راودوه) ، (الفاء) عاطفة والثانية رابطة لجواب

شرط مقدّر وجملة : " راودوه . . . " لا محلّ لها جواب القسم وجملة : " طمسنا . . . "

لا محلّ لها معطوفة على جملة راودوه وجملة : " ذوقوا . . . " جواب الشرط المقدّر أي :

إن أصررتم على الكفر والعناد فذوقوا . . . وجملة الشرط المقدّرة مقول القول لقول

محذوف معطوف على جملة طمسنا 38 – (ولقد صبّحهم . . .) مثل ولقد أنذرهم " 2

" (بكرة) ظرف منصوب متعلّق بـ (صبّحهم) ، (فذوقوا . . .) مثل الأولى في الآية

السابقة .

وجملة : " صبّحهم . . . عذاب " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر وجملة : " ذوقوا . . . "

جواب الشرط المقدّر ، مثل الأول 39 – (ولقد يسّرنا . . . من مدّكر) مرّ إعرابها " 3 "

مفردات وجملا . . .

الصرف :

(36) تماروا : فيه إعلال بالحذف ، حذفت الألف لام الكلمة لالتقائها ساكنة مع الواو

الجماعة وبقي ما قبل الواو مفتوحا دلالة على الألف المحذوفة ، وزنه تفاعوا .

الفوائد :

الباء المفردة . .

هي حرف جر وترد في أربعة عشر معنى . .

(1 ، 2) في الآية (37) من هذه السورة .

(3) في الآية (17) من هذه السورة .

---

1 – الإلصاق ، قيل : وهو معنى لا يفارقها ، فلهذا اقتصر عليه سيبويه ، والإلصاق : حقيقي ، مثل : (أمسكت بيد العاجز) ، ومجازي مثل : (مررت بزيد) أي الصقت مروري بمكان يقرب من زيد .

2 – التعدية : وتسمى باء النقل أيضا ، وهي المعاقبة للهمزة في تصيير الفاعل مفعولا ، وأكثر ما تعدي الفعل القاصر ، تقول في (ذهب زيد) ذهبت بزيد ومنه قوله تعالى : ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وقرئ أذهب الله نورهم .

3 – الاستعانة : وهي الداخلة على آلة الفعل ، نحو : كتبت بالقلم ، ومنه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ 4 – السببيّة : كقوله تعالى : إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ .

5 – المصاحبة : كقوله تعالى : اهْبِطْ بِسَلامٍ أي معه وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ .

6 – الظرفية : كقوله تعالى وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وقوله تعالى في الآية التي نحن بصددها نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ .

7 – البدل : كقول الحماسي :

فليت لي بهم قوما إذا ركبوا شنّوا الإغارة فرسانا وركبانا

أي ليت لي (بدلا عنهم) .

8 – المقابلة ، وهي الداخلة على الأعواض ، نحو (اشتريته بألف) و(كافأت إحسانه بضعف) .

---

9 – المجاوزة كعن ، فقيل : تختص بالسؤال ، كقوله تعالى : فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً .

10 – الاستعلاء : كقوله تعالى : مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ

بدليل (هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ) .

11 – التبعيض ، كقوله تعالى : عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ .

12 – القسم وهو (أي حرف الباء) أصل أحرفه ، ولذلك خصت بجواز ذكر الفعل معها ،

نحو : " أقسم باللّه لتفعلنّ " ، ودخولها على الضمير نحو " بك لأفعلنّ " .

13 - الغاية ، كقوله تعالى : وَقَدْ أَحْسَنَ بِي أي إلي .

14 - التوكيد ، وهي الزائدة كقوله تعالى : وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً وقد تكلمنا عن الباء الزائدة بالتفصيل ، في غير هذا الموضع ، مما يغني عن الإعادة ، فارجع إليه .

[سورة القمر (54) : الآيات 41 إلى 42]

وَلَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42)

الإعراب :

(ولقد جاء . . . النذر) مثل ولقد يسرنا . . . " 1 " مفردات وجملا (بآياتنا) متعلّق بـ (كذبوا) ، (كلّها) توكيد لآيات مجرور (الفاء) عاطفة (أخذ) مفعول مطلق منصوب (مقتدر) نعت لعزيز مجرور .

جملة : "كذّبوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " أخذناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّبوا

[سورة القمر (54) : الآيات 43 إلى 46]

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهى وَأَمَرُّ (46)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاري (من أولئكم) متعلّق بـ (خير) (أم) بمعنى بل والهمزة في الموضعين (لكم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (براءة) ،

---

(1) في الآية (17) من هذه السورة

(في الزبر) متعلّق بنعت لـ (براءة) ، (جميع) خبر المبتدأ (نحن) ، مرفوع (منتصر) نعت لجميع مرفوع جملة : "كفّركم خير . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "لكم براءة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "يقولون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "نحن جميع . . . " في محلّ نصب مقول القول .

45 - 46 - (الدبر) مفعول به منصوب ، وقد أفرد لمناسبة فاصلة الآية (بل) للإضراب الانتقاليّ (الواو) حاليّة وجملة : "سيهزم الجمع " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "يولّون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سيهزم الجمع وجملة : "الساعة موعدهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "الساعة أدهى . . . " في محلّ نصب حال " 1 "

الصرف :

(أدهى) ، اسم تفضيل من الثلاثي دهى ، وزنه أفعل ، وفيه إعلال بالقلب - شأن الفعل -

أصله أدهي ، تحركت الياء بعد فتح قلبت ألفا (أمرّ) ، اسم تفضيل من الثلاثي مرّ ، وزنه أفعل ، جاءت عينه ولامه من حرف واحد

[سورة القمر (54) : الآيات 47 إلى 48]

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (47) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (48)

الإعراب :

(في ضلال) متعلّق بخبر إنّ (يوم) ظرف زمان منصوب

---

(1) أو لا محلّ لها استئناف بيانيّ

متعلّق بفعل محذوف تقديره تقول لهم خزنة جهنّم ، و(الواو) في (يسحبون) نائب الفاعل (في النار) متعلّق بـ (يسحبون) ، (على وجوههم) متعلّق بحال من نائب الفاعل أي : منكبّين على وجوههم (سقر) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة لامتناعه من الصرف للعلمية والتأنيث .

جملة : " إنّ المجرمين في ضلال " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يسحبون . . . " في محلّ جرّ

مضاف إليه وجملة : " ذوقوا . . . " في محلّ نصب مقول القول للقول المقدّر

الصرف :

(مسّ) ، مصدر سماعيّ لفعل (مسّ) الثلاثيّ ، وزنه فعل بفتح فسكون (سقر) ، اسم علم لجهنّم ، مشتقّ من سقرته الشمس أو النار أي لوّحته ، وقد تبدل السين صادا ، وزنه فعل بفتحتين . . .

[سورة القمر (54) : الآيات 49 إلى 50]

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ (49) وَما أَمْرُنا إِلاَّ واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50)

الإعراب :

(كلّ) مفعول به لفعل محذوف على الاشتغال يفسّره الفعل المذكور (بقدر) حال من كلّ " 1 " أي مقدّرا (الواو) عاطفة (ما) نافية (إلّا) للحصر (واحدة) خبر المبتدأ (أمرنا) مرفوع ، وهو نعت لمنعوت محذوف أي أمرة واحدة (كلمح) متعلّق بنعت لـ (واحدة) " 2 " ، (بالبصر) متعلّق بنعت لـ (لمح)

---

(1) أو من الهاء في (خلقناه)

(2) أو نعت ثان للمنعوت المحذوف

جملة : " إنّا (خلقنا) كلّ شيء " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " خلقنا . . . " لا محلّ لها تفسيريّة " 1 " وجملة : " ما أمرنا إلّا واحدة . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة

الفوائد :

- الإيمان بالقدر . .

أفادت هذه الآية ، أن اللّه عز وجل ، قد قدّر كل شيء خلقه ، لذلك يجب الإيمان بالقدر ، عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) يقول : كتب اللّه مقادير الخلائق كلها ، قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة . قال وعرشه على الماء .

(432/737)

عن أبي هريرة قال : جاءت مشركو قريش إلى النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) يخاصمونه في القدر ، فنزلت هذه الآية إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ إلى قوله إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ . قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه اللّه : اعلم أنّ مذهب أهل الحق إثبات القدر . ومعناه أن اللّه تعالى قدر الأشياء في القدم ، وعلم سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات

معلومة عنده سبحانه وتعالى ، وعلى صفات مخصوصة ، فهي تقع على حسب ما قدرها اللّه تعالى . وأنكرت القدريّة وزعمت أنه سبحانه وتعالى لم يقدرها ، ولم يتقدم علمه بها ، وأنها مستأنفة العلم ، أي إنما يعلمها بعد وقوعها . وكذبوا على اللّه سبحانه وتعالى عن أقوالهم الباطلة علوّا كبيرا .

وسميت هذه الفرقة " قدرية " لإنكارهم القدر ، وقال أصحاب المقالات من المتكلمين : وقد انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل ، وصارت القدرية في الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر ، ولكن تقول الخير من اللّه والشرّ من غيره ، تعالى اللّه عن قولهم علوا كبيرا ، فاللّه سبحانه وتعالى خالق كل شيء ، الخير والشر ، لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته ، فهما مضافان إليه سبحانه وتعالى ، خلقا وإيجادا ، وإلى الفاعلين لهما من عباده ، فعلا واكتسابا . قال الخطابي : وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار اللّه تعالى العبد وقهره على ما قدره وقضاه ،

---

(1) جعلها أبو البقاء نعتا لـ (كلّ شيء) . . وهو صحيح إذا قدّر عامل (كلّ) فعلا آخر غير مادة الخلق

وكما يتوهمونه . وإنما معناه عن علم اللّه تعالى يكون من إكساب العباد ، وصدورها عن منه وخلق لها ، خيرها وشرها ، وقد حصل إجماع أهل العلم من الصحابة والتابعين ، وممن يعوّل عليهم ، على إثبات القدر ، وقد تضافر الكتاب والسنة على ترسيخ هذا المفهوم ، واللّه أعلم .

[سورة القمر (54) : الآيات 51 إلى 53]

وَلَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (51) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (53)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (هل من مدّكر) مر إعرابها " 1 " ، (الواو) عاطفة (كلّ) مبتدأ " 2 " مرفوع (في الزبر) متعلّق بخبر المبتدأ (كلّ) ، (الواو) عاطفة جملة : " أهلكنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة استئنافيّة وجملة : " هل من مدّكر . . . " جواب شرط مقدّر " 3 " وجملة : " كلّ شيء . . . في الزبر " لا محلّ لها معطوفة على الاستئناف المقدّر

(1 ، 3) انظر الآية (16) من هذه السورة [. . . . .]

(2) رفع (كلّ) هنا واجب لأنّ النصب يؤدّي إلى فساد المعنى إذ الواقع خلافه ، فلو نصب

لكان المعنى : فعلوا كلّ شي ء في الزبر ، وهو خلاف الواقع ، ففي الزبر أشياء كثيرة جدا لم يفعلوها . . ومن جهة الصناعة فإنّ جملة فعلوه صفة ، والصفة لا تعمل في الموصوف إن جعلنا (كلّ) معمولا لمفسر الفعل - بفتح السين - . أمّا (كلّ) في الآية المتقدّمة (إنّا كلّ شي ء . . .) فهي واجبة النصب لأنّ الرفع يوهم ما لا يجوز في حقّ اللّه إذ يلزم من هذا أنّ ثمّة شيئا للّه ليس مخلوقا بقدر ، فالنصب دالّ على عموم الخلق

(434/737)

وجملة : " فعلوه . . . " في محلّ رفع نعت لكلّ " 1 " وجملة : "كلّ صغير . . . مستطر " لا محلّ لها معطوفة على جملة كلّ شيء . . .

الصرف :

(53) مستطر : اسم مفعول من السداسيّ استطر زنة افتعل بمعنى مكتوب ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وفتح العين

[سورة القمر (54) : الآيات 54 إلى 55]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55)

الإعراب :

(في جنّات) متعلّق بخبر إنّ (في مقعد) خبر ثان " 2 " ، (عند) ظرف منصوب متعلّق بخبر ثالث (مقتدر) نعت لمليك مجرور جملة : " إنّ المتّقين في جنّات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة

الصرف :

(مليك) ، صيغة مبالغة اسم الفاعل من الثلاثي ملك وزنه فعيل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 27 صـ 63.86 ﴾

---

(1) أو في محلّ جرّ نعت لشيء . . . ويجوز أن تكون اعتراضيّة لا محلّ لها

(2) أو بدل من جنّات بإعادة الجارّ

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(54) سورة القمر

مكيّة وآياتها خمس وخمسون

[سورة القمر (54) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا

وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3) وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4)
حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ (5) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ (6) خُشَّعاً
أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ (7) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ
هذا يَوْمٌ عَسِرٌ (8)

اللغة :

(مُزْدَجَرٌ) مصدر ميمي من الزجر إلا أن التاء أبدلت دالا ليوافق الزاي بالجهر ، ولك أن تعتبره اسم مكان أي مكان اتعاظ .

(نُكُرٍ) منكر فظيع تنكره النفوس لهوله وهو يوم القيامة .

(مُهْطِعِينَ) الإهطاع هو الإسراع مع مدّ الأعناق والتشوّف بالأنظار بصورة دائمة لا تقلع عن التحديق وهي صورة حيّة مجسّدة للفزع المرتاع الذي يتطلع إلى ما يرتقبه من أهوال .

الإعراب :

(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) اقتربت الساعة فعل ماض وفاعل وانشق القمر عطف على الجملة المتقدمة (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) الواو عاطفة وإن شرطية ويروا فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل ويعرضوا جواب الشرط ويقولوا عطف على يعرضوا وسحر خبر لمبتدأ محذوف أي هذا ومستمر صفة لسحر

وفي مستمر أربعة أقوال أحدها وهو الظاهر أنه دائم مطّرد وقيل : مستمر قوي محكم من قولهم استمر مريره ، قال البحتري في وصف الذئب :

طواه الطوى حتى استمر مريره فما فيه إلا الروح والعظم والجلد

(436/737)

و قيل هو من استمر الشيء إذا اشتدت مرارته فلا ينساغ وقيل مستمر مار ذاهب لا يبقى وجميع هذه الاحتمالات سائغة (وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ) الواو عاطفة وكذبوا فعل وفاعل واتبعوا فعل وفاعل وأهواءهم مفعول به ، وسيأتي سر العدول عن المضارع إلى الماضي في باب البلاغة ، والواو للاستئناف وكل أمر مبتدأ ومستقر خبره والجملة استئناف مسوق لإدخال اليأس إلى قلوبهم مما عللوا به أمانيهم الكذوب ، وفي مستقر قراءات منها مستقر بفتح القاف على أنه اسم مكان أو زمان أو مصدر ميمي أي ذو موضع استقرار أو زمان استقرار أو استقرار وقرئ بالجر صفة لأمر فيكون كل مبتدأ والخبر محذوف أي معمول به أو معطوفا على الساعة واستبعده أبو حيان لطول الفصل بجمل ثلاث (وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وجاءهم فعل ماض ومفعول به ومن

الأنباء حال من ما وما موصولة أو موصوفة وعلى الحالين هي فاعل جاءهم وفيه خبر مقدّم ومزدجر مبتدأ مؤخر والجملة صلة ما (حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ) حكمة خبر لمبتدأ محذوف أو بدل من ما وبالغة صفة لحكمة ومفعول بالغة محذوف والتقدير بالغة غايتها أي لا يتطرق إليها خلل والفاء عاطفة وما نافية أو استفهامية للإنكار وهي في محل نصب مفعول مطلق أي فأي غناء تغن النذر ويجوز أن تجعلها مفعولا به مقدّما أي فأي شيء من الأشياء تغن النذر وتغن فعل مضارع مرفوع والنذر فاعل تغن (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ) الفاء الفصيحة وتولّ فعل أمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله مستتر تقديره أنت أي لا تناظرهم بالكلام وعنهم متعلقان بتولّ ويوم ظرف متعلق باذكر مضمرا أو بيخرجون وجملة يدع في محل جر بإضافة الظرف إليها وحذفت الياء من يدعو خطا والداعي فاعل يدعو وقرئ بإسقاط الياء اكتفاء بالكسرة وإلى شيء متعلقان بيدعو ونكر صفة لشيء (خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ) خشعا حال وقرئ خاشعة وخاشعا وأبصارهم فاعل خشعا قال الزجّاج: ولك في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد فتقول خاشعا أبصارهم ولك التوحيد

والتأنيث نحو خاشعة أبصارهم ولك الجمع نحو خشعا أبصارهم وتقول مررت بشباب حسن أوجههم وحسنة أوجههم وحسان وجوههم قال :

وشباب حسن أوجههم من إياد بن نزار بن معبد

وقال الزمخشري : " ويجوز أن يكون في خشعا ضميرهم وتقع أبصارهم بدلا منه وجملة يخرجون مستأنفة ومن الأجداث متعلقان بيخرجون " وكأن واسمها وجراد خبرها ومنتشر صفة وجملة كأنهم جراد حال (مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ) مهطعين

(438/737)

منصوب على الحال أيضا من فاعل يخرجون وإلى الداع متعلقان بمهطعين وجملة يقول الكافرون استئنافية كأنها قد وقعت جوابا لسؤال عمّا نشأ من وصف اليوم بالأهوال وأهله بسوء الحال كأنه قيل فما يكون حينئذ فقيل يقول الكافرون وجوّز بعضهم أن تكون الجملة حالية من فاعل يخرجون فالأحوال من الواو إذن أربعة واحد مقدّم وثلاثة مؤخرة وجملة هذا يوم عسر مقول القول .

البلاغة :

1- المبالغة : في قوله : " اقتربت الساعة " زيادة مبالغة على قرب ، كما أن في اقتدر زيادة مبالغة على قدر لأن أصل افتعل إعداد المعنى بالمبالغة نحو اشتوى إذا اتخذ شواء بالمبالغة في إعداده .

2- العدول عن المضارع إلى الماضي : وفي قوله تعالى : " وكذبوا واتبعوا أهواءهم " عدول عن المضارع كما يقتضيه ظاهر السياق لكون كذبوا واتبعوا معطوفين على يعرضوا ، والسر في هذا العدول الإشعار بأنهما من عاداتهم القديمة .

3- التشبيه المرسل المفصل : وفي قوله " يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر " تشبيه مرسل مفصّل لأن الأركان الأربعة موجودة فيه فقد شبّههم بالجراد في الكثرة والتموج وعبارة القرطبي "كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع" وقال في موضع آخر : " يوم يكون الناس كالفراش المبثوث فهما صفتان في وقتين مختلفين أحدهما عند الخروج من القبور يخرجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون فيدخل بعضهم في بعض فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضه في بعض لا جهة له يقصدها فإذا سمعوا المنادي قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر لأن الجراد له وجه يقصده " وهذا تعقيب جميل . وقد أفاد هذا التشبيه تجسيد الصورة

و تشخيصها فهذه الجموع الخارجة من الأجداث في مثل رجع الطرف تشبه الجراد الذي اشتهر بانتشاره واحتشاده دون أن يكون له هدف من هذا الانتشار والاحتشاد وكذلك هذه الجمع قد ألجمها الخوف وعقد الهول أفهامها وضرب عليها رواكد من الحيرة وغشيها بأمواج من الضلالة والرين فهي تسير تلبية لدعوة الداع دون أن تعرف لم يدعوها ، ولكنها تعرف بصورة مبهمة أنه يدعوها إلى شيء نكر لا تكتنه حقيقته ولا تعرف فحواه .

[سورة القمر (54) : الآيات 9 إلى 17]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَقالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10) فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ (14) وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (15) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (16) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (17)

اللغة :

(مُنْهَمِرٍ) المنهمر : المنصب بشدة وغزارة وفي المختار : " همر الدمع والماء صبّه وبابه نصر وانهمر الماء : سال " قال امرؤ القيس :

راح تمريه الصبا ثم انتحى فيه شؤبوب جنوب منهمر

(وَفَجَّرْنَا) التفجير : تشقيق الأرض عن الماء وللفاء مع الجيم فاء وعينا خاصة غريبة فهما تدلّان على الشق والتصديع ، ففجأ وفجئ فجئًا وفجأة وفجاءة وفاجأ مفاجأة الرجل : هجم عليه أو طرقه بغتة من غير أن يشعر به ، والفجر ضوء الصباح وفيه تصديع لظلمة الليل ، وشقّ لحنادسه ، ومشى فلان مفاجّا بين رجليه أي مفرجا بينهما وفي أحاجيهم :

(440/737)

ما شيء يفاجّ ولا يبول : هو المنضدة شيء كالسرير له أربع قوائم يضعون عليه نضدهم وافتج الرجل : سلك الفجاج والفج يجمع على فجاج وفجاج وهو الطريق الواسع الواضح بين جبلين وركب فلان فجرة عظيمة وهو من أهل الفجر لا من أهل الفجور وهو الكرم وتبطح السيل في مفاجر الوادي ومرافضه وهي المواضع التي ترفض إليها السبل ، وفجعه ما أصابه وفجّعه ويقولون : الدهر فاجئ بالشر فاجع واهب في هبته راجع ، والفجوة المتّسع .

(عُيُوناً) جمع عين الماء وهي ما يفور من الأرض مستديرا كاستدارة عين الحيوان فالعين مشتركة بين عين الحيوان وعين الماء وعين الذهب وعين السحاب وعين الركية ويقال للعين ينبوع والجمع ينابيع والمنبع بفتح الميم والباء مخرج الماء والجمع منابع .

(وَدُسُرٍ) الدسر : المسامير التي تشدّ بها السفينة واحدها دسار ودسير ودسرت السفينة أدسرها دسرا إذا شددتها وقيل إن أصل الباب الدفع يقال دسره بالرمح إذا دفعه بشدة والدسر صدر السفينة لأنه يدسر به الماء أي يدفع ومنه الحديث في العنبر : " هو شيء دسره البحر " وفي المختار " الدسر : الدفع وبابه نصر " ويمكن التوفيق بين القولين لأن المسمار يدفع في منفذه ، وسيأتي المزيد من هذا المعنى في باب البلاغة .

(مُدَّكِرٍ) أصله مذتكر فقلبت التاء دالا لتواخي الذال في الجهر ثم أدغمت الدال فيها .

الإعراب :

)

(441/737)

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ) كذبت فعل ماض والتاء للتأنيث وقبلهم ظرف زمان منصوب لإضافته متعلق بكذبت وقوم نوح فاعل كذبت ، فكذبوا الفاء عاطفة وكذبوا فعل وفاعل وعبدنا مفعول به وقالوا عطف على كذبوا ومجنون خبر لمبتدأ محذوف أي هو مجنون ، وازدجر يجوز عطفه على قالوا أي لم يكتفوا بهذا القول بل ضمّوا إليه زجره ونهره وقيل هو معطوف على هو مجنون فهو في حيز مقولهم

أي قالوا هو مجنون وقد ازدجرته الجن وتخبطته وذهبت بلبّه ، وازدجر فعل ماض مبني للمجهول (فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ) الفاء عاطفة ودعا ربه فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به وأن وما في حيزها في محل نصب بنزع الخافض أي بأني مغلوب على حكاية المعنى ولو جاء على حكاية اللفظ يقال أنه مغلوب ، وأن واسمها وخبرها والفاء عاطفة وانتصر فعل أمر أي انتقم لي منهم فمتعلق انتصر محذوف كما رأيت (فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ) الفاء عاطفة على محذوف مقدّر أي فاستجبنا لنوح دعاءه ففتحنا ، وفتحنا فعل وفاعل وأبواب السماء مفعول به وبماء متعلقان بفتحنا والباء للتعدية على المبالغة حيث جعل الماء كالآلة التي يفتح بها كما تقول فتحت بالمفتاح ويجوز أن تكون الباء للملابسة أي ملتبسة بماء منهمر فتكون في موضع نصب على الحال ، ومنهمر صفة لماء (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) وفجرنا عطف على فتحنا والأرض مفعول به وعيونا تمييز فإن نسبة فجرنا إلى الأرض مبهمة وعيونا مبين لذلك

(442/737)

الإبهام والأصل وفجرنا عيون الأرض فحول المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وجيء بالمضاف تمييزا ، فالتقى عطف على فجرنا والماء فاعل التقى وعلى أمر متعلقان بالتقى

وأفادت على معنى التعليل والمعنى اجتمع لأجل إغراقهم المقضي أزلا ، وقيل في موضع نصب على الحال ، وجملة قد قدر صفة لأمر (وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ) الواو عاطفة وحملناه فعل وفاعل ومفعول به وعلى ذات متعلقان بحملناه وألواح مضاف إليه ودسر عطف على ألواح (تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ) الجملة صفة لذات دسر وذات ألواح في الأصل صفة لسفينة فهي صفة ثانية وتجري فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدّرة على الياء وبأعيننا جار ومجرور في موضع نصب على الحال من الضمير في تجري أي مكلوءة ومحفوظة بأعيننا وجزاء مفعول لأجله أي فعلنا ذلك جزاء أو بتقدير جازيناهم جزاء ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال ولمن متعلقان بجزاء وجملة كان صلة من (وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) الواو عاطفة واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وتركناها فعل ماض وفاعل ومفعول به والضمير يعود على الفعلة وهي إغراقهم على الشكل المذكور وأجاز الزمخشري أن يعود على السفينة ، وآية حال أو مفعول به ثان إذا كان تركنا بمعنى جعلناها والفاء عاطفة وهل حرف استفهام ومن حرف جر زائد ومدكر مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره موجود (فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ) الفاء الأولى أن تكون هي الفاء الفصيحة كأنه قال إن علمتم ما حلّ بهم جميعا جزاء وفاقا لعملهم فكيف كان عذابي وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر كان المقدم وكان عذابي كان واسمها ونذري عطف على عذابي ولم تثبت الياء في الرسم لأنها

من ياءات الزوائد وكذا يقال في المواضع الآتية كلها على أنه قرئ بإثباتها وسيأتي معنى الاستفهام في البلاغة (وَ

(443/737)

لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) عطف على ما تقدم

وللذكر متعلقان بيسّرنا والمعنى ولقد هيأناه للذكر من يسر ناقته للسفر ويسر فرسه للغزو إذا أسرجه وألجمه قال :

وقمت إليه باللجام ميسرا هنالك يجزيني الذي كنت أصنع

ومعنى البيت : وقمت إليه مهيئا ومعدّا له اللجام أو مسهلا له به دلالة على أنه كان صعبا لو لا اللجام وهنالك إشارة إلى مكان الحرب وإلى زمانها ويجزيني أي يعطيني جزاء صنعي معه وشبهه لمن تصح منه المجازاة على طريق الاستعارة المكنية .

البلاغة :

1 - إنابة الصفات مناب الموصوفات : في وقله " وحملناه على ذات ألواح ودسر " كناية عن موصوف وهو السفينة فقد نابت الصفات مناب الموصوفات وأدّت مؤداها بحيث لا يفصل بينها وبينها ، ونحوه قول أبي الطيب :

مفرشي صهوة الحصان ولكن قميصي مسرودة من حديد

أراد ولكن قميصي درع ، وفي الآية لو جمعت بين السفينة وبين هذه الصفة أو بين الدرع

وهذه الصفة لم يصحّ وهذا من فصيح الكلام وبديعه .

2- التكرير : وفي قوله " فهل من مدّكر " تكرار وقد مرّ تعريفه ، ونقول هنا أن فائدة التكرار

أن يجددوا عند سماع كل نبأ اتعاظا ، وسيأتي من أحكام التكرير العجب العجاب .

3- معنى الاستفهام : وفي قوله " فكيف كان عذابي ونذر " الاستفهام هنا للسؤال عن

الحال أي كان على كيفية هائلة لا يحيطها

الوصف ، والمعنى حمل المخاطبين على الإقرار بوقوع عذابه تعالى للمكذبين .

[سورة القمر (54) : الآيات 18 إلى 22]

كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (21) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (22)

اللغة :

(صَرْصَراً) الصرصر : الريح الشديدة الهبوب حتى يسمع صوتها ، وهو مضاعف صر ، وتكرير الأحرف إشعار بتكرير العمل وقد تقدم بحثه ومثله كبّ وكبكب ونه ونهنه .

(أَعْجازُ نَخْلٍ) الأعجاز : جمع عجز وعجز كل شيء مؤخره ومنه العجز لأنه يؤدي إلى تأخر الأمور والنخل يذكّر ويؤنّث .

(مُنْقَعِرٍ) : منقلع من أصله لأن قعر الشيء قراره ومنه تقعر فلان في كلامه إذا تعمق فيه .

الإعراب :

(كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ) كذبت عاد فعل ماض وفاعل وكيف كان عذابي ونذر تقدم إعرابها (إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ)

إن واسمها وجملة أرسلنا عليهم خبرها والجملة مستأنفة مسوقة لبيان ما أجمل وريحا مفعول أرسلنا وصرصرا نعت ريحا ومستمر نعت للنحس أو لليوم ، وسيأتي الحديث عن يوم النحس في باب الفوائد (تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ) الجملة صفة لريحا وكأن واسمها وأعجاز نخل خبرها ومنعقر صفة لنخل والجملة حالية وهي حال مقدّرة وسيأتي المزيد عن هذا التشبيه في باب البلاغة (فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ) تقدم إعرابها (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) تقدم إعرابها قريبا فجدد به عهدا .

البلاغة :

1- في قوله " تنزع الناس " وضح الظاهر موضع المضمر وذلك لإفادة العموم أي إن النزع يعمّ الذكور والإناث جميعا وإلا فالأصل تنزعهم ، قال مجاهد " تلقى الرجل على رأسه فتفتت رأسه وعنقه وما يلي ذلك من بدنه " وقيل كانوا يصطفون آخذي بعضهم بأيدي بعض ويدخلون في الشعاب ويحفرون الحفر فيندسون فيها فتنزعهم وتدق رقابهم .

(445/737)

2- التشبيه : وفي قوله : "كأنهم أعجاز نخل منقعر " تشبيه مرسل تمثيلي ، شبّههم بأعجاز النخل المنقعر إذ تساقطوا على الأرض أمواتا وهم جثث غطام طوال ، وقيل كانت الريح تقطع رءوسهم فتبقى أجسادا بلا رءوس فأشبهت أعجاز النخل التي انقلعت من مغارسها .

الفوائد :

يوم النحس : قال الزجّاج : " قيل أنه كان في يوم الأربعاء في آخر الشهر لا تدور " ومن ثم شاع النحس عن يوم الأربعاء التي لا تدور ، قال

الشهاب في حاشيته على البيضاوي " فإن الناس يتشاءمون بآخر أربعاء في كل شهر ويقولون له أربعاء لا يدور وتشاؤمهم به لا يستلزم شؤمه في نفسه " وسيأتي المزيد من هذا

البحث في سورة الحاقة .

[سورة القمر (54) : الآيات 23 إلى 32]

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقالُوا أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (24) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25) سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (26) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (28) فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (30) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (32)

اللغة :

)

سُعُرٍ) يجوز أن يكون مفرد أي جنون يقال ناقة مسعورة أي كالمجنونة في سيرها قال :

كأنّ بها سعرا إذا العيس هزّها ذميل وإرخاء من السير متعب

يقول : كأن بناقتي جنونا لقوة سيرها فالعيس جمع عيساء وهي النوق البيض حركها ذميل وإرخاء وهما ضربان من السير متعب كل منهما ، وإسناد الهز إليهما مجاز عقلي من باب الإسناد للسبب وإن أريد

بالهز التسيير فيكون من الإسناد للمصدر كجد جده ويجوز أن يكون جمع سعير وهو النار .

(الْأَشِرُ) الشديد البطر والتكبّر فهي صيغة مبالغة وقيل انه صفة مشبهة كحذر ويقظ ووطف وعجز وفي المختار " أشر وبطر من باب طرب أو فرح " .

(مُحْتَضَرٌ) اسم مفعول من احتضر بمعنى حضر لأن الماء كان مقسوما بينهم لكل فريق يوم أي كل نصيب من الماء يحضره لا يحضر آخر معه ففي يوم الناقة تحضره الناقة وفي يومهم يحضرونه هم ، وحضر واحتضر بمعنى واحد وإنما قال قسمة بينهم تغليبا لمن يعقل والمعنى يوم لهم ويوم لها .

(فَتَعاطى) فتناول السيف وعقرها ، وقد مرّ مدتها .

(الْمُحْتَظِرِ) بكسر الظاء اسم فاعل وهو الذي يتخذ حظيرة من الحطب وغيره والحظيرة الزريبة وفي المختار " الحظيرة تعمل للإبل من شجر لتقيها البرد والريح والمحتظر بكسر الظاء الذي يعملها " والمعنى صاروا كيبس الشجر المفتت إذا تحطم والهشيم المتكسر المتفتت .

الإعراب :

(

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ) فعل ماض وفاعل وبالنذر متعلقان بكذبت وقد تقدم أن النذر إما أن

يكون مصدرا فيكون بمعنى الإنذار وإما أن يكون جمع نذير أي منذر (فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ) الفاء عاطفة وقالوا فعل ماض وفاعل ، وأبشرا الهمزة للاستفهام وبشرا منصوب على الاشتغال أي بفعل مضمر يفسره ما بعده أي أنتبع بشرا ومنّا صفة لبشرا وواحدا فيه وجهان أظهرهما أنه نعت لبشرا

(447/737)

إلا أنه يشكل عليه تقديم الصفة المؤولة على الصفة الصريحة ويجاب بأن منّا حينئذ ليس وصفا بل حال من واحدا قدم عليه والوجه الثاني أنه نصب على الحال من الهاء في نتبعه ، والبشر يقع على الواحد والجمع ونتبعه فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وإن واسمها وإذن حرف جواب وجزاء مهملة ولفي اللام المزحلقة وفي ضلال متعلقان بمحذوف خبر إن وسعر معطوف على ضلال (أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ) الهمزة للاستفهام الإنكاري وألقي فعل ماض مبني للمجهول والذكر نائب فاعل وعليه متعلقان بألقي ومن بيننا حال من الهاء في عليه أي منفردا وبل حرف إضراب وعطف وهو مبتدأ وكذاب خبر وأشر نعت (سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ) الجمل مقول قول محذوف تقديره قال تعالى والسين للاستقبال ويعلمون فعل وفاعل وغدا ظرف متعلق بيعلمون ومن

اسم استفهام في محل رفع مبتدأ والكذاب خبره والأشر صفة والجملة المعلقة لتصدّر الاستفهام بها سدّت مسدّ مفعولي يعلمون (إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ) إن واسمها ومرسلو الناقة خبرها والجملة مستأنفة لبيان الموعود به وفتنة مفعول لأجله أي اختبارا لهم والفاء الفصيحة وارتقبهم فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به واصطبر عطف على ارتقبهم ، ومتعلق واصطبر محذوف أي واصطبر على أذاهم (وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ) ونبئهم الواو عاطفة ونبئهم فعل أمر وفاعل مستتر تقديره أنت والهاء مفعول أول وأن وما في حيزها في موضع المفعول الثاني والثالث لأن نبّأ تنصب ثلاثة مفاعيل وأن واسمها وقسمة خبرها وبينهم ظرف متعلق بمحذوف صفة مقسمة أو بقسمة لأنها بمعنى مقسومة وكل مبتدأ وشرب مضاف إليه ومحتضر خبر كل أي محضور لهم أو للناقة (فَنادَوْا صاحِبَهُمْ

(448/737)

فَتَعاطى فَعَقَرَ) الفاء عاطفة ونادوا فعل ماض وفاعل والمعطوف عليه محذوف أي فتمادوا على ذلك ، والأحسن أن تكون الفصيحة أي فبقوا على ذلك مدة ثم

ملّوا من نضوب الماء وجدب المراعي فأجمعوا على قتلها واتفقوا على الكمون لها حيث تمر

وتطوع لهذا الأمر قدار بن سالف ، وقد تقدمت قصته ، فنادوه فتعاطى وصاحبهم مفعول به فتعاطى عطف على فنادوا أي فاجترأ على تعاطي هذا الأمر غير آبه له فعقر عطف على تعاطي (فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ) تقدم إعرابها قريبا (إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ) إن واسمها وجملة أرسلنا خبرها وعليهم متعلقان بأرسلنا وصيحة مفعول به وواحدة صفة ، فكانوا عطف على أرسلنا والواو اسم كان والهشيم المحتظر خبرها وقرئ بالفتح على أنه اسم مكان وهو موضع الاحتظار أي الحظيرة (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) تقدم إعرابها قريبا .

البلاغة :

1 – في قوله " سيعلمون غدا من الكذاب الأشر " فن الإبهام ليكون الوعيد أحفل بالانتقام والتهديد أشدّ أثرا في النفوس ، وأورده مورد الإبهام وإن كانوا هم المعنيين لأنه أراد وقت الموت ولم يرد غدا بعينه وهو شائع في الشعر العربي ، قال أبي الطماح :

ألا عللاني قبل نوح النوائح وقبل اضطراب النفس بين الجوانح

وقبل غد يا لهف نفسي في غد إذا راح أصحابي ولست برائح

أراد وقت الموت ولم يرد غدا بعينه . ومنه قول الحطيئة :

للموت فيها سهام غير مخطئة من لم يكن ميتا في اليوم مات غدا

2- التشبيه : وفي قوله " فكانوا كهشيم المحتظر " تشبيه مرسل لإهلاكهم وإفنائهم .

[سورة القمر (54) : الآيات 33 إلى 42]

(449/737)

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ (34)
نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ (36)
وَلَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ (37)
وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ (38) فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ (39) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (40) وَلَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فَأَخَذْناهُمْ
أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42)

اللغة :

(حاصِباً) ريحا حصبتهم أي رمتهم بالحجارة والحصباء ، قال الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور

وفي المختار : " الحصباء بالمدّ الحصى ومنه المحصّب وهو موضع بالحجاز والحاصب الريح الشديدة تثير الحصى والحصب بفتحتين ما تحصب به النار أي ترمى وكل ما ألقيته في النار

فقد حصبتها به وبابه ضرب " وسيأتي المزيد من معناه في باب الإعراب .

(بِسَحَرٍ) سحر إذا كان نكرة يراد به سحر من الأسحار يقال رأيت زيدا سحرا من الأسحار ولو أريد من يوم معين لمنع من الصرف لأنه

معرفة معدول عن السحر لأن حقه أن يستعمل في المعرفة بأل ، وعبارة الزمخشري : " بسحر بقطع من الليل وهو السدس الأخير منه وقيل : هما سحران فالسحر الأعلى قبل انصداع الفجر والآخر عند انصداعه وأنشد :

يا سائلي إن كنت عنها تسأل مرّت بأعلى السحرين تذأل

(450/737)

و صرف لأنه نكرة " هذا وقد اختلف في تعريف الممنوع فقيل إنه ممنوع من الصرف للتعريف والعدل أما التعريف ففيه خلاف فقيل هو معرفة بالعلمية لأنه جعل علما لهذا الوقت وقيل يشبه العلمية لأنه تعريف بغير أداة ظاهرة كالعلم وأما العدل فإن صيغته معدولة عن السحر المقرون بأل لأنه لما أريد به معين كان الأصل فيه أن يذكر معرّفا بأل فعدل عن اللفظ بأل وقصد به التعريف فمنع من الصرف ، وقال السهيلي والشلوبين الصغير معرف معروف واختلف في منع تنوينه فقال السهيلي : هو على نية الإضافة وقال الشلوبين على نيّة أل .

الإعراب :

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ) فعل ماض وفاعل وبالنذر متعلقان بكذبت (إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ) إن واسمها وجملة أرسلنا خبرها وعليهم متعلقان بأرسلنا وحاصبا مفعول به وإلا أداة استثناء وآل لوط مستثنى بإلا وفي هذا الاستثناء وجهان أحدهما أنه متصل ويكون المعنى أنه أرسل الحاصب على الجميع إلا أهله فإنه لم يرسل عليهم والثاني أنه منقطع ويكون المعنى أنه لم يرسل على آل لوط والوجه هو الأول ، ونجيناهم فعل وفاعل وبسحر متعلقان بنجيناهم (نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ) نعمة مفعول مطلق ملاق لعامله في المعنى وهو نجيناهم إذ الإنجاء نعمة ، أو مفعول لأجله تعليل

(451/737)

لأنجيناهم وإليه جنح الزمخشري واقتصر عليه ومن عندنا صفة لنعمة وكذلك متعلق بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف أي مثل ذلك الإنجاء ونجزي فعل مضارع مرفوع ومن موصول مفعول به وجملة شكر صلة الموصول (وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ) الواو حرف عطف واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وأنذرهم فعل وفاعل

مستتر ومفعول به أول وبطشتنا مفعول به ثان أو هو منصوب بنزع الخافض قولان ، والفاء حرف عطف وتماروا فعل ماض والواو فاعل أي تدافعوا بالإنذار على وجه الجدال وبالنذر متعلقان بتماروا (وَلَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ) الجملة عطف على الجملة السابقة وعن ضيفه متعلقان براودوه ، فطمسنا عطف على راودوه وأعينهم مفعول به والفاء عاطفة ومعطوفها محذوف أي فقلنا لهم وجملة ذوقوا مقول القول المحذوف وعذابي مفعول ذوقوا ونذر عطف على عذابي وحذفت ياء المتكلم كما تقدم (وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ) عطف أيضا وبكرة ظرف متعلق بصحبهم أي من غير يوم معين وعذاب فاعل ومستقر نعت لعذاب أي لا يزول عنهم (فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) تقدم إعرابها (وَلَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ) تقدم إعراب نظيرها (كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ) كلام مستأنف مسوق للردّ على سؤال نشأ من حكاية مجيء النذر كأنه قيل فماذا فعلوا حينئذ فقيل كذبوا ، وبآياتنا متعلقان بكذبوا وكلها تأكيد لآياتنا ، فأخذناهم الفاء عاطفة وأخذناهم فعل وفاعل ومفعول به وأخذ عزيز مفعول مطلق ومقتدر صفة لعزيز والإضافة من إضافة المصدر لفاعله .

البلاغة :

التكرير : في الآيات المتقدمة تكرير ملحوظ مقصود والغاية منه التذكير والانتباه من سنة الغفلة التي قد تطرأ على الأذهان فتحجبها عن

(452/737)

التأمل والتدبّر ، وترين عليها سجوف الجهالات حتى ما تكاد تبصر شيئا وسيأتي المزيد من هذا الفن في سورة الرحمن .

[سورة القمر (54) : الآيات 43 إلى 55]

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (47)

يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (48) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (49) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (51) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52)

وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (53) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55)

الإعراب :

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ) أكفّاركم : الهمزة للاستفهام الإنكاري الذي هو بمعنى النفي وكفّاركم مبتدأ وخير خبر ومن أولئكم متعلقان بخير وأم منقطعة بمعنى بل فهي للإضراب والانتقال إلى وجه آخر من التبكيت ولكم خبر مقدم وبراءة مبتدأ مؤخر وفي الزبر نعت لبراءة (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ) أم تقدم القول فيها

ويقولون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل ونحن مبتدأ وجميع خبر ومنتصر نعت لجميع لأنه بمعنى جمع والجملة مقول القول ، وإنما وحّد منتصر للفظ بجميع فإنه واحد في اللفظ وإن كان اسما للجماعة كالرهط والجيش وقيل لم يقل منتصرون لموافقة رؤوس الآي وهو جيد (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) السين حرف استقبال ويهزم فعل مضارع مبني للمجهول والجمع نائب فاعل ويولون عطف على سيهزم والدبر مفعول به ، ولم يقل الأدبار لموافقة رؤوس الآي أيضا ولأنه اسم جنس لأن كل واحد يولي دبره (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ) بل حرف إضراب وعطف والساعة مبتدأ وموعدهم خبر والواو حرف عطف والساعة مبتدأ وأدهى خبر وأمرّ عطف على الساعة ولك أن تجعل الواو للحال (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي

ضَلالٍ وَسُعُرٍ) إن واسمها في ضلال خبرها (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ) يوم الظرف متعلق بقول محذوف أي يقال لهم يوم يسحبون وجملة يسحبون في محل جر بإضافة الظرف إليها وفي النار متعلقان بيسحبون وعلى وجوههم متعلقان بمحذوف حال وذوقوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة مقول القول المقدّر ومسّ مفعول به وسقر مضاف إليه وهي علم لجهنم ولذلك منعت من الصرف لأنها علم مؤنث (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ) إن واسمها وكل شيء نصب على الاشتغال بفعل محذوف يفسره ما بعده أي إنّا خلقنا كل شيء خلقناه وجملة الفعل المحذوف في محل رفع خبر إنّا وجملة خلقناه مفسّرة لا محل لها ، وقد نشب خلاف طويل حول هذه الآية لخصناه لك في باب الفوائد ، وبقدر متعلقان بمحذوف حال من كل أي مقدّرا محكما مرتبا (وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) الواو عاطفة وما نافية وأمرنا مبتدأ وإلا أداة حصر وواحدة خبر أمرنا وكلمح متعلقان بمحذوف حال

(454/737)

من متعلق الأمر وهو الشيء المأمور بالوجود أي حال كونه يوجد سريعا وبالبصر متعلقان بلمح (وَلَقَدْ أَهْلَكْنا

أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

تقدم إعراب نظيرها قريبا (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ) الواو عاطفة وكل مبتدأ وشيء مضاف إليه وجملة فعلوه صفة وفي الزبر خبر أي الكتب جمع زبور (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ) مبتدأ وخبر أي مسطور في اللوح المحفوظ (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ) إن واسمها وفي جنات خبرها ونهر عطفت على جنات (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ) الجار والمجرور بدل بعض من كل من قوله في جنات لأن المقعد بعض الجنات ولك أن تعلقه بمحذوف على أنه خبر ثان لإن وعند مليك ظرف متعلق بمحذوف صفة لجنات أو لمقعد وقيل هو خبر ثان أو ثالث لإن ومليك صيغة مبالغة .

الفوائد :

1 - شجر خلاف بين أهل السنّة والمعتزلة حول قوله تعالى " إنّا كل شيء خلقناه بقدر " وكان قياس ما مهّد النحاة رفع "كل " لكن لم يقرأ بها واحد من السبعة لأن الكلام مع الرفع جملة واحدة ومع النصب جملتان فالرفع أخصر مع أنه لا مقتضى للنصب ها هنا من أحد الأصناف الستة وهي الأمر والنهي والاستفهام والتمنّي والترجّي والتحضيض ، ولا نجد هنا مناسب عطف ولا غيره مما يعدّونه من محال اختيارهم للنصب ، فإذا تبين ذلك علم أنه إنما عدل عن الرفع إجمالا لسر لطيف يعين اختيار النصب وهو أنه لو رفع لوقعت الجملة التي هي خلقناه صفة لشيء ورفع قوله بقدر خبرا عن كل شيء المقيد بالصفة ويحصل

الكلام على تقدير إنّا كل شيء مخلوق لنا بقدر فأفهم ذلك أن مخلوقا ما يضاف إلى غير اللّه تعالى ليس بقدر ، وعلى النصب يصير الكلام إنّا خلقنا كل شيء بقدر فيفيد عموم نسبة كل مخلوق إلى اللّه تعالى ، فلما كانت هذه الفائدة لا توازيها الفائدة اللفظية على قراءة الرفع مع ما في

(455/737)

الرفع من نقصان المعنى ومع ما في هذه القراءة المستفيضة من مجيء المعنى تاما كفلق الصبح لا جرم أجمعوا على العدول عن الرفع إلى النصب .

على أن الزمخشري وهو من رؤوس المعتزلة وأعلامهم حاول خرق الإجماع ونقل قراءة بالرفع وخلقناه في موضع الصفة وبقدر هو الخبر أو جملة خلقناه هي الخبر وبقدر حال وعبارته "كل شيء منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر وقرئ كل شيء بالرفع " وقد انفرد بها أبو السمال وهي شاذة .

2- خلاصة وافية لبحث الاشتغال : وهذه خلاصة وافية لبحث الاشتغال :

أما حدّه فهو أن يتقدم اسم ويتأخر عنه فعل متصرف أو اسم يشبهه ناصب لضميره أو لملابس ضميره بواسطة أو غيرها ، ويكون ذلك العامل بحيث لو فرغ من ذلك المعمول

وسلط على الاسم المتقدم لنصبه ، ويجب النصب إذا وقع الاسم المتقدم بعد ما يختص بالفعل كأدوات التحضيض نحو هلّا زيدا أكرمته ، وأدوات الاستفهام غير الهمزة نحو هل زيدا رأيته ، وأدوات الشرط نحو حيثما زيدا لقيته فأكرمه ، ويترجح النصب في ست مسائل :

1- أن يكون الفعل المشتغل طلبا وهو الأمر والدعاء بخير أو شر .

2- أن يكون الفعل المشتغل مقرونا باللام أو بلا الطلبيتين نحو عمرا ليضربه بكر ، وخالدا لا تهنه .

3- أن يكون الاسم المشتغل عنه واقعا بعد شيء الغالب عليه أن يليه فعل ولذلك أمثلة منها همزة الاستفهام نحو : " أبشرا منّا واحدا نتبعه " .

4- أن يقع الاسم المشتغل عنه بعد عاطف غير مفصول بأما المفتوحة الهمزة المشددة الميم ، مسبوق بفعل غير مبني على اسم قبله نحو قام زيد وعمرا أكرمته ، وقوله تعالى " والأنعام خلقها لكم " بخلاف نحو : ضربت زيدا وأما عمرو فأهنته فالمختار فيه الرفع .

(456/737)

5- أن يتوهم في الرفع أن الفعل المشتغل بالضمير صفة لما قبله نحو " إنّا كل شيء خلقناه بقدر " لأنه إذا رفع كل احتمل خلقناه أن يكون خبرا له فيكون المعنى على عموم خلق الكائنات الموجودة بقدر خيرا كانت أو شرا كما هو مذهب السنّة ، واحتمل أن يكون خلقناه صفة لشيء وبقدر خبر لكل والتخصيص بالصفة يوهم أن ما لا يكون موصوفا بها لا يكون بقدر والصفة هي المخلوقية المنسوبة له فالمخلوقية التي لا تكون منسوبة له لا تكون بقدر فيوهم أن ثمة مخلوقا لغيره تعالى وهو مذهب المعتزلة وإنما لم يتوهم ذلك مع النصب لكل على أنه مفعول بفعل محذوف يفسره خلقنا ، ويمتنع جعله صفة لكل شيء لأن الصفة لا تعمل في الموصوف وما لا يعمل لا يفسر عاملا ، ومن ثم وجب الرفع لكل إن كان الفعل المتصل بالضمير صفة لكل شيء نحو " وكل شيء فعلوه في الزبر " أي الكتب ولا يصحّ نصب كل لأن تقدير تسليط الفعل عليها إنما يكون على حسب المعنى المراد وليس المعنى هنا أنهم فعلوا كل شيء في الزبر حتى يصحّ تسليط فعلوا على كل شيء وإنما المعنى وكل شيء مفعول لهم ثابت في الزبر وهو مخالف لذلك المعنى فرفع كل واجب على الابتدائية والفعل المتأخر صفة له أو لشيء وفي الزبر خبر كل .

هذا ولم يعتبر سيبويه إيهام الصفة مرجحا للنصب كما فعل ابن مالك بل جعل سيبويه النصب مرجوحا في الآية المذكورة قال : " فأما قوله تعالى : " إنّا كل شيء خلقناه بقدر فإنما جاء على حدّ قوله زيدا

ضربته وهو عربي كثير " وقال ابن الشجري : " أجمع البصريون في هذه الآية على أن الرفع أرجح لعدم تقدم ما يقتضي النصب ، وقال الكوفيون : النصب فيها أجود لأنه قد تقدم على كل عامل ينصب وهو إن فاقتضى ذلك إضمار خلقنا " .

(457/737)

6- المسألة السادسة مما يترجح نصبه أن يكون الاسم المشتغل عنه جوابا لاستفهام منصوب بما يليه كزيدا ضربته جوابا لمن قال : أيهم ضربت أو من ضربت فزيد يترجح نصبه لكونه جوابا للاستفهام ليطابق الجواب السؤال في الجملة الفعلية .

هذا وفي قوله " وكل شيء فعلوه في الزبر " يجب رفع كل ويمتنع نصبها لأن تقدير تسليط الفعل عليها إنما يكون على حسب المعنى المراد وليس المعنى هنا أنهم فعلوا كل شيء في الزبر حتى يصحّ تسليط فعلوا على كل شيء والفعل المتأخر صفة له أو لشيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 9 صـ 371.394﴾

(458/737)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والثلاثون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن والثلاثون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الرحمن جل جلاله)

(4/738)

(سورة الرحمن جل جلاله)

(5/738)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الرحمن

وتسمى عروس القرآن .

مقصودها الدلالة على كا ختمت به سورة من عظيم الملك وتمام الاقتدار بعموم رحمته

وسبقها لغضبه ، المدلول عليه بكمال علمه ، اللازم عنه شمول قدرته ، المدلول عليه

بتفصيل عجائب مخلوقاته وبدائع مصنوعاته في اسلوب التذكير لا بنعماته ، والامتنان بجزيل آلائه ، على وجه منتج للعلم بإحاطته بجميع أوصاف الكمال ، فمقصودها بالذات إثبات الاتصاف بعموم الرحمة ترغيبا في إنعامه وإحسانه ، وترهيبا من انتقامه بقطع مزيد امتنانه ، وعلى ذلك دل اسمها الرحمن لأنه العام الامتنان واسمها عروس القرآن واضح البيان في ذلك ، لأنها الحاوية لما فيه من حلى وحلل ، وجواهر وكلل ، والعروس بجميع النعم والجمال ، والبهجة من نوعها والكمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 371 ﴾

(6/738)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . الرحمن)

السّورة مكّيّة بالاتّفاق .

آياتها ثمانٍ وسبعون فى عدّ الكوفة والشام ، وسبع فى الحجاز ، وست فى البصرة .

وكلماتها ثلاثمائة وإحدى وخمسون .

وحروفها أَلف وثلاثمائة وستّ وثلاثون .

المختلف فيها خمس آيات : الرّحمن ، ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴾ ، الأوّل ﴿ لِلأَنَامِ ﴾ ﴿ الْمُجْرِمُوْنَ ﴾ ﴿ شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ﴾ .

مجموع فواصل آياتها (مرن) وقيل هذه الحروف الأَلف إلا ﴿ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ و ﴿ الْمُجْرِمُوْنَ ﴾ .

معظم مقصود السّورة : المِنَّة على الخَلْق بتعليم القرآن ، وتلقين البيان ، وأَمر الخلائق بالعدل فى الميزان ، والمنَّة عليهم بالعَصْف والرّيحان ، وبيان عجائب القدرة فى طِينة الإِنسان ، وبدائع البحر ، وعجائبها : من استخراج اللؤلؤ والمَرْجان ، وإِجرَاءِ الفُلْك على وجه الماءِ أَبدع جريان ، وفناءِ الخَلْق وبقاءِ الرّحمن ، وقضاءِ حاجات المحتاجين ، وأَن لا نجاة للعبد من الله إِلاَّ بحجّة وبرهان ، وقهره الخلائق فى القيامة بلهيب النَّار والدُّخَان ، وسؤال أَهل الطاعة والعصيان ، وطَوْف الكفار فى الجحيم ، ودلال المؤمنين (فى نعيم الجنان .

ومكافأة أَهل الإِحسان بالإِحسان ، ونشاط المؤمنين) بأَزواجهم من الحور الحِسان ، وتقلبهم ورَودهم فى رياض الرضوان ، على بساط الشاذَرْوان ، وخطبة جلال الحقّ على لسان أَهل التوحيد والإِيمان بقوله : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ﴾ .

السّورة محكمة خالية عن النَّاسخ والمنسوخ.

المتشابهات :

قوله : ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ أَعاده ثلاث مرّات فصرّح ولم يُضمر ؛ ليكون كلّ مواحد قائما

بنفسه غير محتاج إلى الأَوّل .

وقيل : لأَنّ كلّ واحد غير الآخر : الأَوّل ميزان الدّنيا ، والثانى ميزان الآخرة ، والثالث ميزان العقل .

وقيل : نزلت متفرّقة ، فاقتضى الإِظهار .

(7/738)

قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ كرّر الآية إحدى وثلاثين مرة ، ثمانية منها ذُكِرت عقيب آيات فيها تعداد عجائب خَلْق الله وبدائع صنعه ، ومبدأ الخَلْق ومَعَادهم ، ثمّ سبعة منها عَقِيب آيات فيها ذكر النّار وشدائدها على عَدَد أَبواب جهنّم ، وحَسُن ذكر الآلاءِ عقيبها ؛ لأَن فى صرفها ودفعها نِعما توازى النعم المذكورة ، أَوْ لأَنَّها حَلَّت بالاعداءِ ، وذلك يُعد من أَكثر النّعماءِ ، وبعد هذه السّبعة ثمانية فى وصف الجنان وأَهلها على عدد أَبواب الجنة ، وثمانية أُخرى [بعدها] للجنّتين اللّتين دونها فمن اعتقد الثمانية الأُولى ، وعمل بموجَبها استحقّ كلتا الثمانيتين من الله ، ووفّاه السبعة السابقة ، والله أَعلم .

السّورة محكمة .

فضل السّورة

فيه أَحاديث منكرة ، منها حديث أُبيّ : لكلّ شيءٍ عَرُوس ، وعروس القرآن سورة الرحمن جلّ ذكره .

وقال : مَنْ قرأَ سورة الرّحمن رحم الله ضعْفَهُ ، وأَدَّى شكر ما أَنعم اللهُ عليه .

وقال : يا على ، مَنْ قرأَها فكأَنَّما أَعتق بكلّ آية فى القرآن رَقبة ، وله بكلّ آية قرأَها مثلُ ثواب امرأَة تموت فى نفاسها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 447 . 449 ﴾

(8/738)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الرحمن

421 - مسألة :

قوله تعالى : (الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3)

قدم التعليم على الخلق وقال تعالى في سورة (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2)) الآيات ، فقدم الخلق على التعليم ؟ .

جوابه :

أن سورة " اقرأ " أول ما نزل من القرآن ولم

يكن القرآن معهودا للنبي – صلى الله عليه وسلم – ولا لغيره ، ولذلك قال

النبي – صلى الله عليه وسلم – لجبريل لما نزل بها : لست بقارئ .

وسورة الرحمن : نزلت بعد معرفة القرآن ، وشهرته عندهم ،

فكان الابتداء بما يعرفه من تقديم الخلق في سورة "اقرأ"

أنسب من القرآن الذي لم يعهده وكان الابتداء بتعليم

القرآن الذي نعرفه ، والمنة به في سورة الرحمن أنسب لسياق

ما وردت به السورة من عظيم المنة على العباد .

422 – مسألة :

قوله تعالى : (وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) .

كرر لفظ "الميزان " في ختم الآيات الثلاث ؟ .

جوابه :

أن ذلك توكيد في إيفاء الحقوق وعدم التطفيف لفرط الحاجة إليه في المعاملات الجارية بين

الناس .

423 - مسألة :

قوله تعالى : (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) . كرر ذلك إحدى وثلاثين مرة في هذه السورة ؟ .

جوابه :

أن المقصود بذلك التكرير التنبيه على شكر نعمة الله

تعالى ، والتوكيد له .

- مسألة :

قوله تعالى : (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (39) .

جوابه :

تقدم في سورة الحجر . وقيل : لايسأل عن ذنبه ، لأن

المجرمين يعرفون بسيماهم ، وتعرفهم الملائكة بذلك ، فلا تحتاج إلى سؤاله عن ذنبه ، ولذلك

تلاه بقوله تعالى : (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ

348.346﴾

(9/738)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الرحمن

وردت تسميتها بسورة الرحمن بأحاديث منها ما رواه الترمذي عن جابر بن عبد الله قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقرأ سورة الرحمن الحديث .

وفي تفسير القرطبي أن قيس بن عاصم المنقري قال للنبي صلى الله عليه وسلم اتل علي ما أنزل عليك ، فقرأ عليه سورة الرحمن ، فقال : أعدها ، فأعادها ثلاثا ، فقال : إن له لحلاوة الخ .

وكذلك سميت في كتب السنة وفي المصاحف .

وذكر في الإتقان : أنها تسمى عروس القرآن لما رواه البيهقي في شعب الإيمان عن علي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لكل شيء عروس وعروس القرآن سورة الرحمن " .

وهذا لا يعدوا أن يكون ثناء على هذه السورة وليس هو من التسمية في شيء كما روي أن سورة البقرة فسطاطا القرآن1 .

ووجه تسميه هذه السورة بسورة الرحمن أنها ابتدئت باسمه تعالى ﴿ الرحمن ﴾ [الرحمن : 1] .

—

1 الظاهر أن معنى : لكل شيء عروس ، أي لكل جنس أو نوع واحد من جنسه يزيد تقول العرب : عرائس الإبل لكرائمها فإن العروس تكون مكرمة مزينة مرعية من جمع الأهل بالخدمة والكرامة .

ووصف سورة الرحمن بالعروس تشبيه ما تحتوي عليه من ذكر الحبرة والنعيم في الجنة بالعروس في المسرة والبذخ ، تشبه معقول بمحسوس ومن أمثال العرب : لا عطر بعد عروس على أحد تفسيرين للمثل أو تشبيه ما كثر فيها من تكرير ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ بما يكثر على العروس من الحلي في كل ما تلبسه .

(10/738)

وقد قيل : إن سبب نزولها قول المشركين المحكي في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ [الفرقان : 60] في سورة الفرقان ، فتكون تسميتها باعتبار إضافة سورة إلى الرحمن على معنى إثبات وصف الرحمن .

وهي مكية في قول جمهور الصحابة والتابعين ، وروى جماعة عن ابن عباس أنها مدنية نزلت في صلح القضية عندما أبى سهيل بن عمرو أن يكتب في رسم الصلح ﴿ بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

ونسب إلى ابن مسعود أيضا أنها مدنية .

وعن ابن عباس : أنها مكية سوى آية منها هي قوله : ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : 29] والأصح أنها مكية كلها وهي في مصحف ابن مسعود أول المفصل .

وإذا صح أن سبب نزولها قول المشركين ﴿ وما الرحمن ﴾ تكون نزلت بعد سورة الفرقان .

وقيل سبب نزولها قول المشركين ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ المحكي في سورة النحل [103] .

فرد الله عليهم بأن الرحمن هو الذي علم النبي صلى الله عليه وسلم القرآن .

وهي من أول السور نزولا فقد أخرج أحمد في مسنده بسند جيد عن أسماء بنت أبي بكر قالت : سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون يقرأ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وهذا يقتضي أنها نزلت قبل سورة الحجر .

وللاختلاف فيها لم تحقق رتبتها في عداد نزول سور القرآن .

وعدها الجعبري ثامنة وتسعين بناء على قول بأنها مدنية وجعلها بعد سورة الرعد وقبل سورة الإنسان .

وإذ كان الأصح إنها مكية وأنها نزلت قبل سورة الحج وقبل سورة النحل وبعد سورة الفرقان ، فالوجه أن تعد ثالثة وأربعين بعد سورة الفرقان وقبل سورة فاطر .

وعد أهل المدينة ومكة آيها سبعا وسبعين ، وأهل الشام والكوفة ثمانا وسبعين لأنهم عدوا الرحمن آية ، وأهل البصرة ستا وسبعين .

أغراض هذه السورة

(11/738)

ابتدئت بالتنويه بالقرآن قال في الكشاف : أراد الله أن يقدم في عدد آلائه أول شيء ما هو أسبق قدما من ضروب آلائه وأصناف نعمائه وهي نعمة الدين فقدم من نعمة الدين ما هو أعلى مراتبها وأقصى مراقبها وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه ، وأخر ذكر

(12/738)

خلق الإنسان عن ذكره ثم أتبعه إياه ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان اه .

وتبع ذلك من التنويه بالنبي صلى الله عليه وسلم بأن الله هو الذي علمه القرآن ردا على

مزاعم المشركين الذين ويقولون : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل : 103] ، وردا على مزاعمهم أن القرآن أساطير الأولين أو أنه سحر أو كلام كاهن أو شعر .

ثم التذكير بدلائل قدرة الله تعالى في ما أتقن صنعه مدمجا في ذلك التذكير بما في ذلك كله من نعم الله على الناس .

وخلق الجن وإثبات جزائهم .

والموعظة بالفناء وتخلص من ذلك إلى التذكير بيوم الحشر والجزاء .

وختمت بتعظيم الله والثناء عليه .

وتخلل ذلك إدماج التنويه بشأن العدل ، والأمر بتوفية أصحاب الحقوق حقوقهم ، وحاجة الناس إلى رحمة الله فيما خلق لهم ، ومن أهمها نعمة العلم ونعمة البيان ، وما أعد من الجزاء للمجرمين ومن الثواب والكرامة للمتقين ووصف نعيم المتقين .

ومن بديع أسلوبها افتتاحها الباهر باسمه ﴿ الرحمن ﴾ وهي السورة الوحيدة المفتتحة باسم من أسماء الله لم يتقدمه غيره .

ومنه التعداد في مقام الامتنان والتعظيم بقوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إذ تكرر فيها إحدى وثلاثين مرة وذلك أسلوب عربي جليل كما سنبينه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ 214.216 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

التعريف بسورة الرحمن

هذه السورة المكية ذات نسق خاص ملحوظ . إنها إعلان عام في ساحة الوجود الكبير , وأعلام بآلاء الله الباهرة الظاهرة , في جميل صنعه , وإبداع خلقه ; وفي فيض نعمائه ; وفي تدبيره للوجود وما فيه ; وتوجه الخلائق كلها إلى وجهه الكريم . . وهي إشهاد عام للوجود كله على الثقلين: الإنس والجن المخاطبين بالسورة على السواء , في ساحة الوجود , على مشهد من كل موجود , مع تحديهما إن كانا يملكان التكذيب بآلاء الله , تحديا يتكرر عقب بيان كل نعمة من نعمه التي يعددها ويفصلها , ويجعل الكون كله معرضا لها , وساحة الآخرة كذلك .

ورنة الإعلان تتجلى في بناء السورة كله , وفي إيقاع فواصلها . . تتجلى في إطلاق الصوت إلى أعلى , وامتداد التصويت إلى بعيد ; كما تتجلى في المطلع الموقظ الذي يستثير الترقب والإنتظار لما يأتي بعد المطلع من أخبار . . الرحمن . . كلمة واحدة . مبتدأ مفردا . . الرحمن كلمة واحدة في معناها الرحمة , وفي رنتها الإعلان , والسورة بعد ذلك بيان للمسات الرحمة ومعرض لآلاء الرحمن .

ويبدأ معرض الآلاء بتعليم القرآن بوصفه المنة الكبرى على الإنسان . تسبق في الذكر خلق

الإنسان ذاته وتعليمه البيان .

ثم يذكر خلق الإنسان , ومنحه الصفة الإنسانية الكبرى . . البيان . .

ومن ثم يفتح صحائف الوجود الناطقة بآلاء الله . . الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء المرفوعة . والميزان الموضوع . والأرض وما فيها من فاكهة ونخل وحب وريحان . والجن والإنس . والمشرقان والمغربان . والبحران بينهما برزخ لا يبغيان , وما يخرج منهما وما يجري فيهما .

(14/738)

فإذا تم عرض هذه الصحائف الكبار . عرض مشهد فنائها جميعا . مشهد الفناء المطلق للخلائق , في ظل الوجود المطلق لوجه الله الكريم الباقي . الذي إليه تتوجه الخلائق جميعا , ليتصرف في أمرها بما يشاء .

وفي ظل الفناء المطلق والبقاء المطلق يجيء التهديد المروع والتحدي الكوني للجن والإنس: (سنفرغ لكم أيها الثقلان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا . لا تنفذون إلا بسلطان . فبأي آلاء ربكما تكذبان , يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران . فبأي آلاء

ربكما تكذبان ؟) . .

ومن ثم يعرض مشهد النهاية . مشهد القيامة . يعرض في صورة كونية . يرتسم فيها مشهد السماء حمراء سائلة , ومشهد العذاب للمجرمين , والثواب للمتقين في تطويل وتفصيل .

ثم يجيء الختام المناسب لمعرض الآلاء : (تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) . .

إن السورة كلها إعلان عام في ساحة الوجود الكبير . إعلان ينطلق من الملأ الأعلى , فتتجاوب به أرجاء الوجود . ويشهده كل من في الوجود وكل ما في الوجود . . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3445 ﴾

(15/738)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الرحمن عز وجل

مدنية وآياتها ثمان وسبعون آية

بين يدي السورة

* سورة الرحمن من السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية ، وهي كالعروس بين سائر السور الكريمة ، ولهذا ورد في الحديث الشريف : (لكل شيء عروس ، وعروس

القرآن سورة الرحمن) .

* ابتدأت السورة بتعديد ألاء الله الباهرة ، ونعمه الكثيرة الظاهرة على العباد ، التي لا يحصيها عد ، وفي مقدمتها نعمة (تعليم القرآن) بوصفه المنة الكبرى على الإنسان ، تسبق في الذكر خلق الإنسان ذاته وتعليمه البيان [آلرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان] .

* ثم فتحت السورة صحائف الوجود ، الناطقة بآلاء الله الجليلة ، وآثاره العظيمة التي لا تخص : الشمس والقمر ، والنجم والشجر ، والسماء المرفوعة بلا عمد ، وما فيها من عجائب القدرة ، وغرائب الصنعة ، والأرض التي بث فيها من أنواع الفواكه ، والزروع ، والثمار ، رزقا للبشر [الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان . .] الآيات .

* وتحدثت السورة عن دلائل القدرة الباهرة في تسيير الأفلاك ، وتسخير السفن الكبيرة تمخر عباب البحار ، وكأنها الجبال الشاهقة عظمة وضخامة ، وهى تجري فوق سطح الماء ، بقدرة خالق السماء [وله الجوار المنشات في البحر كالأعلام . .] الآيات .

* ثم بعد ذلك الاستعراض السريع لصفحة الكون المنظور ، تطوى صفحات الوجود ، وتتلاشى الخلائق بأسرها ، فيلفها شبح الموت الرهيب ، ويطويها الفناء ، ولا يبقى إلا الحي القيوم ، متفردا بالبقاء [كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام] .

* وتناولت السورة أهوال القيامة ، فتحدثت عن حال الأشقياء المجرمين ، وما يلاقونه من

الفزع والشدائد ، في ذلك اليوم العصيب [يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام] الآيات .

(16/738)

---

* وبعد الحديث عن مشهد العذاب للمجرمين ، تناولت السورة مشهد النعيم للمتقين ، في شيء من الإسهاب والتفصيل ، حيث يكونون في الجنان مع الحور والولدان [ولمن خاف مقام ربه جنتان] الآيات .

* وختمت السورة بتمجيد الله جل وعلا والثناء عليه ، على ما أنعم على عباده من فنون النعم والإكرام ، وهو أنسب ختام لسورة الرحمن [تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام] وهكذا يتناسق البدء مع الختام فى أروع صور البيان ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 292 . 293 ﴾

(17/738)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الرحمن جل وعلا

الرحمن : اسم من أسماء اللّه الحسنى ، والإنسان هو هذا النوع ، البيان : تعبير الإنسان عما فى ضميره وإفهامه لغيره ، بحسبان : أي بحساب دقيق منظم ، والنجم : ما لا ساق له من النبات كالحنطة والفول ، والشجر : ما له ساق كالنخل والبرتقال ، يسجدان : أي ينقادان للّه طبعا كما ينقاد المكلفون اختيارا ، رفعها : أي خلقها مرفوعة المحل والمرتبة ، والميزان : العدل والنظام ، وأقيموا الوزن بالقسط : أي قوّموا وزنكم بالعدل ، ولا تخسروا الميزان : أي لا تنقصوه ، للأنام : أي للخلق ، والأكمام : واحدها كمّ (بالكسر) وعاء الثمر ، والعصف : ورق النبات الذي على السنبلة ، والريحان : كل مشموم طيب الرائحة من النبات ، والآلاء : النعم واحدها إلى (بفتح الهمزة وكسرها) وإلى وإلو .

الصلصال : الطين اليابس الذي له صلصلة وصوت إذا نقر ، والفخار : الخزف وهو الطين المطبوخ ، والجان : نوع من الجن ، والمارج : اللهب الخالص الذي لا دخان فيه ، رب المشرقين : أي مشرقى الشمس صيفا وشتاء ، ورب المغربين : أي مغربيهما كذلك ، مرج البحرين : أي أرسلهما وأجراهما من قولك مرجت الدابة فى المرعى :

أي أرسلتها فيه ، يلتقيان : أي يتجاوران وتتماس سطوحهما لا فصل بينهما فى رأى العين ،

برزخ : أي حاجز ، لا يبغيان : أي لا يبغى أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال خاصته ، واللؤلؤ : الدر المخلوق فى الأصداف ، والمرجان : الخرز الأحمر ، الجواري : السفن الكبار ، المنشئات : أي المصنوعات ، والأعلام : الجبال واحدها علم وهو الجبل العالي .

فان : أي هالك ، وجه ربك : أي ذاته ، ذو الجلال والإكرام : أي ذو العظمة والكبرياء ، يسأله من فى السموات والأرض : أي يطلبون منه ما يحتاجون إليه فى ذواتهم حدوثا وبقاء وفى سائر أحوالهم بلسان المقال أو بلسان الحال ، هو فى شأن :

(18/738)

أي فى أمر من الأمور ، فيحدث أشخاصا ويجدد أحوالا .

سنفرغ لكم : أي سنتجرد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة ، والمراد التوفر على الجزاء والانتقام منهما .

قال الزجاج : الفراغ فى اللغة على ضربين : أحدهما الفراغ من الشغل ، والآخر القصد للشيء والإقبال عليه كما هنا اه .

والثقلان : الجن والإنس كما علمت ، أن تنفذوا : أي تخرجوا ، والأقطار : الجوانب واحدها قطر ، والسلطان : القوة والقهر ، والشواظ : اللهب الخالص ، والنحاس

:

الدخان الذي لا لهب فيه ، قال النابغة الذبياني :

تضيء كضوء السراج السليط لم يجعل اللّه فيه نحاسا فلا تنتصران : أي فلا تمتنعان من اللّه ولا يكون لكما منه ناصر .

انشقت : تصدعت ، وردة : أي كالوردة فى الحمرة ، والدهان : ما يدهن به : أي كانت مذابة كالدهان ، والسيما : العلامة ، والنواصي : واحدها ناصية وهى مقدم الرأس ، والأقدام : واحدها قدم ، وهى قدم الرجل المعروفة ، والحميم : الماء الحارّ ، وآن : أي متناه فى الحرارة لا يستطاع شربه من شدة حرارته .

الخوف فى الأصل : توقع المكروه عند ظهور أمارة مظنونة أو محققة ، وضده الأمن ويراد به هنا الكفّ عن المعاصي مع فعل الطاعات ، ومقام ربه : أي قيامه عليه واطلاعه على أعماله ، جنتان : أي جنة روحية لقلبه ، وجنة جسمانية على شاكلة ما عمل فى الدنيا ، وقيل إنهما منزلان ينتقل بينهما لتتوافر دواعى لذته ، وتظهر آثار كرامته ، ذواتا : مثنى ذات بمعنى صاحبة ، والأفنان : الأنواع واحدها فنّ : أي ذواتا أنواع من الأشجار والثمار ، زوجان : أي صنفان رطب ويابس ولا يقصر يابسه عن رطبه فى الفضل والطيب ، والفرش : واحدها فراش ، والبطائن : واحدها بطانة ، والإستبرق : الديباج أي الحرير

الثخين ، والجنى : الثمر ، دان : أي قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع ، قاصرات الطرف : أي نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن

(19/738)

لا ينظرن إلى غيرهم ، لم يطمثهن : أي لم يمسسهن ، وأصل الطمث : خروج الدم ، ويراد به قربان النساء ، كأنهن الياقوت : أي في الصفاء ، والمرجان : أي صغار اللؤلؤ في البياض .

ومن دونهما : أي من ورائهما وأقل منهما ، مدهامتان : أي خضراوان بسواد لأن الخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد من كثرة الري بالماء ونحوه ، نضاختان :

أي فوارتان بالماء ، والنضخ : فوران الماء ، حور واحدتهن حوراء : أي بيضاء .

قال ابن الأثير : الحوراء هي الشديدة بياض العين والشديدة سوادها ، خيرات : أي

خيّرات بالتشديد فخفف كما

جاء في الحديث " هينون لينون "

، مقصورات في الخيام :

أي مخدّرات ، يقال امرأة قصيرة ومقصورة : أي مخدرة ملازمة بيتها لا تطوف في الطرق .

قال قيس بن الأسلت :

وتكسل عن جاراتها فيزرنها وتعلّ من إتيانهن فتعذر

والخيام : واحدها خيمة وهى أربعة أعواد تنصب وتسقف بشىء من نبات الأرض ، وما يتخذ من شعر أو وبر فهو خباء ، والرفرف واحده رفرفة : وهى الوسادة (المخدّة) أو ما تدلّى من الأسرّة من غالى الثياب ، والعبقرىّ : منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه بلد يسكنه الجن ويسندون إليه كل شىء عجيب ، والمراد العجيب النادر الموشى من البسط ، تبارك اسم ربك : أي تقدس وتنزه ربنا الذي أفاض على عباده نعمه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المراغى حـ 27 صـ 105 . 128 ﴾ . باختصار .

(20/738)

وقال الفراء :

سُورَةُ الرَّحْمَن جلّ وَعلا

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ بِحُسْبَانٍ . . . ﴾ . حساب ومنازل [/ب] للشمس والقمر لا يعدوانها .

﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾

وقوله: ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ . . . ﴾ . النجم: ما نجم مثل: العشب ، وَالبقل وشبهه . والشجر: ما قام على ساق . ثم قال: يسجدان ، وسجودهما : أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت ، ثم يميلان معها حتى ينكسر الفيء ، والعرب إذا جمعت الجمعين من غير الناس مثل: السدر ، والنخل جعلوا فعلهما واحداً ، فيقولون: الشاء والنعم قد أقبل ، وَالنخل والسدر قد ارتوى ، فهذا أكثر كلامهم ، وتثنيته جائزة .

قال الكسائي: سمعت العرب تقول: مرت بنا غنمان سودان وَسود .

قال الفراء: وسود أجود من سودان ؛ لأنه نعت تأتى على الاثنين ، فإذا كان أحد الاثنين مؤنثاً مثل: الشاء والإبل قالوا: الشاء والإبل مقبلة ؛ لأن الشاء ذكر ، والإبل أنثى ، ولو قلت: مقبلان لجاز ، ولو قلت: مقبلتان تذهب إلى تأنيث الشاء مع تأنيث الإبل كان صواباً ، إلا أن التوحيد أكثر وأجود .

فإذا قلت: هؤلاء قومك وإبلهم قد أقبلوا ذهب بالفعل إلى الناس خاصة ؛ لأن الفعل لهم ، وهم الذين يقبلون بالإبل ، ولو أردت إقبال هؤلاء وهؤلاء لجاز ـ قد أقبلوا ؛ لأن الناس إذا خالطهم شيء من البهائم ، صار فعلهم كفعل الناس كما قال:

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ فصارت الناقة بمنزلة الناس .

ومنه قول الله عز وجل: ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ﴾ ، و "مَنْ" إنما تكون للناس ، فلما فسَّرهم وقد كانوا اجتمعوا في قوله: ﴿ وَاللَّهُ خَالِقُ كُلِّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾ فسرهم بتفسير

الناس .

﴿ وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾

وقوله: ﴿ وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا . . . ﴾ فوق الأرض ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . . . ﴾ . فى الأرض وهو العدل .

(21/738)

وفى قراءة عبد الله: وخَفْض الميزان ، والخفض والوضع متقاربان فى المعنى .

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾

وقوله: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا . . . ﴾ .

وفى قراءة عبد الله: لا تطغوا بغير أن فى الوزن وأقيموا اللسان .

وقوله: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا ﴾ إن شئت جعلتها مجزومة بنية النهى ، وإن شئت جعلتها منصوبة بأن ، كما قال الله: ﴿ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ ﴾ وأن تكون . (تطغوا) فى موضع جزم أحبُّ إلىّ ؛ لأن بعدها أمراً .

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾

وقوله: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ . . . ﴾ .

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ . . . ﴾ . لجميع الخلق .

﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾

وقوله: ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ . . . ﴾ . خفضها الأعمش ، ورفعها الناس . فمن خفض أراد : ذو العصف وذو الريحان ، ومن رفع الريحان جعله تابعاً لذو ، والعصف ، فيما ذكروا : بقل الزرع ؛ لأن العرب تقول: خرجنا نعصف الزرع إذا قطعوا منه شيئًا قبل أن يدرك فذلك العصف ، والريحان هو رزقه ، والحب هو الذى يؤكل منه . والريحان فى كلام العرب: الرزق ، ويقولون: خرجنا نطلب ريحان الله . الرزق عندهم ، وقال بعضهم: ذو العصف المأكول من الحب ، والريحان: الصحيح الذى لم يؤكل .

ولو قرأ قارىء : "والحبّ ذا العصف والريحانَ" لكان جائزاً ، أى: خَلَقَ ذا وذا ، وهى فى مصاحف أهل الشام: والحبّ ذا العصف ، ولَم نسمع بها قارئا ، كما أن فى بعض مصاحف أهل الكوفة:

﴿ والجار ذا القربى ﴾ [/1] ولم يقرأ به أحد ، وربما كتب الحرف على جهة واحدة ، وهو فى ذلك يقرأ بالوجوه .

وبلغنى: أن كتاب على بن أبى طالب رحمه الله كان مكتوبا : هذا كتاب من على بن أبو طالب كتابها : أبو . فى كل الجهات ، وهى تعرّب فى الكلام إذا قرئت .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

وقوله: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . . . ﴾ . وإنما ذكر فى أول الكلام: الإنسان ففى ذلك وجهان:

أحدهما: أن العرب تخاطب بفعل الاثنين، فيقال: ارحلاها، ازجراها يا غلام.

والوجه الآخر: أن الذِّكر أريد فى الإنسان والجان، فجرى لهما من أول السورة إلى آخرها.

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾

وقوله: ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . . . ﴾ .

وهو طين خُلط برمل، فصلصل كما يصلصل الفخار، ويقال: من صلصال منتن يريدون به: صلّ، فيقال: صلصال كما يقال: صرّ الباب عند الإغلاق، وصرصر، والعرب تردد اللام فى التضعيف فيقال: كركرت الرجل يريدون: كررْته وكبكبته، يريدون: كببته.

وسمعت بعض العرب يقول: أتيت فلانا فبشبش بى من البشاشة، وإنما فعلوا ذلك كراهية اجتماع ثلاثة أحرف من جنس واحد.

﴿ وَخَلَقَ الْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾

وقوله: ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ . . . ﴾ .

والمارج: نار دون الحجاب. فيما ذكر الكلبى. منها هذه الصواعق ، ويُرى جلد السماء منها .

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾

وقوله: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ . . . ﴾ .

اجتمع القراء على رفعه ، ولو خفض يعنى فى الإعراب على قوله: فبأى آلاء ربكما ، ربّ المشرقين كان صوابا .

والمشرقان: مشرق الشتاء ، ومشرق الصيف ، وكذلك المغربان .

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾

وقوله: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ . . . ﴾ . يقول: أرسلهما ثم يلتقيان بعد .

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾

وقوله: ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ . . . ﴾ .

حاجز لا يبغيان: لا يبغى العذب على الملح فيكونا عذبا ، ولا يبغى الملح على العذب فيكونا ملحا

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾

وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ . . . ﴾ .

وإنما يخرج من الملح دون العذب . واللؤلؤ: العظام ، والمرجان: ما صغر من اللؤلؤ .

(23/738)

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَئَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَئَاتُ . . . ﴾ .

قرأ عاصم ويحيى بن وَثّاب: (المنشِئات) بكسر الشين ، يجعلن اللاتى يُقبلن ويَدبرن فى قراءة عبد الله بن مسعود (المنشآت) ، وكذلك قرأها الحسن وأهل الحجاز يفتح الشين يجعلونهن مفعولاً بهن أُقْبِل بهن وأُدْبر .

وقوله: ﴿ كَالأَعْلاَمِ . . . ﴾ .

كالجبال شبه السفينة بالجبل ، وكل جبل إذا طال فهو عَلَم .

﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ ﴾

وقوله: ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ . . . ﴾ .

هذه ، والتى فى آخرها ذى ـ كلتاهما فى قراءة عبد الله ـ ذى ـ تخفضان فى الإعراب ؛ لأنهما من صفة ربك تبارك وتعالى ، وهى فى قراءتنا : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ

وَالإِكْرَامِ ﴾

[ذو] تكون من صفة وجه ربنا ـ تبارك وتعالى .

﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾

وقوله: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ . . . ﴾ غير مهموز .

قال: وسألت الفراء [/ب] عن (شان) فقال: أَهمِزه فى كل القرآن إلاّ فى سورة الرحمن ، لأنه مع آيات غير مهموزات ، وشانه فى كل يوم أن يميت ميتاً ، ويولد مولوداً ، ويغنى ذا ، ويفقر ذا فيما لا يحصى من الفعل .

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلاَنِ ﴾

وقوله: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلاَنِ . . . ﴾ .

[حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد بن الجهم قال] حدثنا الفراء قال: حدثنى أبو إسرائيل قال: سمعت طلحة بن مصرّف يقرأ: "سَيَفْرُغُ لكم" ويحيى بن وثاب كذلك والقراء بعد: "سَنَفْرُغُ لكم" وبعضهم يقرأ "سيُفرغ لكم" .

وهذا من الله وعيد لأنه عز وجل لا يشغله شىء عن شىء ، وأنت قائل للرجل الذى لا شغل له: قد فرغت لى ، قد فرغت لشتمى . أى: قد أخذت فيه ، وأقبلت عليه .

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾

وقوله: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا . . . ﴾ .

ولم يقل: إن استطعتما ، ولو كان لكان صوابا ، كما قال: (يُرسل عليكما) ، ولم يقل: عليكم شُواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ، فثنّى فى: عليكما ، وفى: تنتصرانِ للَّفظ ، والجمعُ على المعنى ، والنحاس: يرفع ، ولو خفض كان صوابا يراد: من نار ومن نحاس .

والشواظ: النار المحضة . والنحاس: الدخان: أنشدنى بعضهم:

يضىء كضوء سراج السلي * طـ لم يجعل الله منه نحاسا

قال الفراء: قال لى أعرابى من بنى سليم: السليط: دهن السنام ، وليس له دخان إذا استصبح به . وسمعت أنه الخَلّ وهو دهن السمسم . وسمعت أنه الزيت . والزيت أصوب فيما أرى .

وقرأ الحسن: (شِواظ) بكسر الشين كما يقال للصوار من البقر صِوار وصُوَار .

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾

وقوله: ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ . . . ﴾ .

أراد بالوردة الفَرس ، الوردةَ تكون فى الربيع وردة إلى الصفرة ، فإذا اشتد البرد كانت وردة

حمراء ، فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغُبْرة ، فشبه تلوّن السماء بتلون الوردة من الخيل ، وشبهت الوردة فى اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه .

ويقال: إن الدهان الأديم الأحمر .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ﴾

وقوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ . . . ﴾ .

والمعنى: لا يسأل إنس عن ذنبه ، ولا جان عن ذنبه ؛ لأنهم يعرفون بسيماهم كما وصف الله: فالكافر يعرف بسواد وجهه ، ورزقة عينه ، والمؤمن أغر محجل من أثر وضوئه .

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾

(25/738)

وقوله: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . . . ﴾ .

وهى فى قراءة عبد الله: هذه جهنم التى كنتما بها تكذبان ، تَصليانها لا تموتان فيها ولا تحييان تطوفان .

﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾

وقوله: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا . . . ﴾ .

ين عذاب جهنم وبين الحميم إذا عطشوا ، والآنى: الذى قد انتهت شدّة حره .

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾

وقوله: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ . . . ﴾ .

ذكر المفسرون: أنهما بستانان من بساتين الجنة ، وقد يكون فى العربية: جنة تثنيها العرب فى أشعارها ؛ أنشدنى بعضهم:

ومَهْمَين قَذَفَين مَرْتَين * قطعته [بالأَمِّ] لا بالسَّمْتين

يريد : مهمها وسمتا واحدا ، وأنشدنى آخر:

يسعى بكيداء ولهذمين * قد جعل الأرطاة جنتين

وذلك أن الشعر له قواف يقيمها الزيادة والنقصان ، فيحتمل ما لا يحتمله الكلام .

قال الفراء : الكيداء : القوس ، ويقال: لهذِم ولهذَم لغتان ، وهو السهم .

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾

وقوله: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ . . . ﴾

الإستبرق: ما غلظ من الديباج ، وقد تكون البطانة: ظهارة ، والظهارة بطانة فى كلام العرب ، وذلك أن كل واحد منهما [/١] قد يكون وجها ، وقد تقول العرب: هذا ظهر السماء ، وهذا بطن السماء لظاهرها الذى تراه .

قال: وأخبرنى بعض فصحاء المحدثين عن ابن الزبير يعيب قتلة عثمان رحمه الله فقال:

خرجوا عليه كاللصوص من وراء القرية ، فقتلهم الله كلّ قتلة ، ونجا من نجا منهم تحت بطون الكواكب . يريد : هربوا ليلا ، فجعل ظهور الكواكب بطونا ، وذلك جائز على ما أخبرتك به .

﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ﴾

وقوله: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ [إِنسٌ] . . . ﴾ .

(26/738)

قرأت القراء كلهم بكسر الميم فى يطمثهن . حدثنا الفراء قال: وحدثنى رجل عن أبى اسحق قال: كنت أصلى خلف أصحاب على ، وأصحاب عبد الله فاسمعهم يقرءون (لم يطمُثهن) برفع الميم . وكان الكسائى يقرأ: واحدة برفع الميم ، والأخرى بكسر الميم لئلا يخرج من هذين الأثرين وهما : لم يطمِثهن ، لم يفتضضهن (قال وطمثها أى: نكحها ، وذلك لحال الدم)

﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾

وقوله: ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ . . . ﴾ يقول: خضراوان إلى السواد من الرى .

﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾

وقوله: ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ . . . ﴾ .

يقول بعض المفسرين: ليس الرمان ولا النخل بفاكهة، وقد ذهبوا مذهباً، ولكن العرب تجعل ذلك فاكهة.

فإن قلت: فكيف أعيد النخل والرمان إن كانا من الفاكهة؟

قلت: ذلك كقوله: ﴿ حَافِظُوا على الصَّلَواتِ والصلاةِ الوُسْطَى ﴾ . وقد أمرهم بالمحافظة على كل الصلوات، ثم أعاد العصر تشديداً لها، كذلك أعيد النخل والرمان ترغيباً لأهل الجنة، ومثله قوله فى الحج: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ ﴾ ثم قال: ﴿ وكَثِيرٌ مِّن الناسِ، وكَثِيرٌ حَقَّ عليه الْعَذابُ ﴾ . وقد ذكرهم فى أول الكلمة فى قوله: ﴿ مَنْ فِى السّماواتِ ومَن فِى الأرضِ ﴾ ، وقد قال بعض المفسرين: إنما أراد بقوله: ﴿ مَنْ فِى السماواتِ ومن فى الأرضِ ﴾ الملائكة، ثم ذكر الناس بعدهم.

﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾

وقوله: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ . . . ﴾ .

رجع إلى الجنان الأربع: جنتان، وجنتان، فقال: فيهن، والعرب تقول: أعطنى الخَيْرَة منهن، والخِيرة منهن، والخيّرة منهن، ولو قرأ قارىء، الخَيراتُ، أو الخيرات كانتا صوابا.

﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾

وقوله: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ . . . ﴾ .

قُصرن عن أزواجهن ، أى حُبِسَ ، فلا يُرِدْنَ غيرهم ، ولا يطمحن إلى سواهم ، والعرب تسمى الحَجَلة المقصورة ، والقصورة ، ويسمون المقصورة من النساء : قصورة:

(27/738)

وقال الشاعر:

لعمرى لقد حببت كلَّ قَصورة * إلىّ وما تدرى بذاك القصائر

عَنَيْتُ قصوراتِ الحجال ولم أرِد * قصارَ الخُطا ، شرُّ النساء البحاتر

والبهاتر: وهما جميعاً القصيرتان ، والرجل يقال له: بحتر ، وبحترى ، وبحترة ، وبحترية .

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾

وقوله: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ . . . ﴾ .

ذكروا أنها رياض الجنة ، وقال بعضهم: هى المخاد ، ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ . . . ﴾ الطنافس الثخان .

[حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء قال: وحدثنى معاذ بن مسلم بن أبى سادة قال:

كان [/ب] جارك زهير القُرقُبى يقرأ: متكئين على رفارف خضر وعباقرى حسان .

قال: الرفارف ـ قد يكون صوابا ، وأما العباقرى فلا ؛ لأن ألف الجماع لا يكون بعدها أربعة أحرف ، ولا ثلاثة صحاح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 112 . 120 ﴾

(28/738)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الرحمن

(الشمس والقمر بحسبان) [5] أي: يجريان بحساب . (والنجم والشجر/يسجدان) [6] [والنجم]: النبات الذي نجم في الأرض وانبسط فيها ، ليس له ساق . والشجر: ما قام على ساق . وسجودهما : ما فيهما من آثار الصنعة الخاضعة لمن أخرجها . وقيل: إمكانهما من الجني والريع ، وتذليل الله إياهما للانتفاع بهما . وقيل: سجودهما دوران ظلهما مع الشمس [كيفما دارت] .

كما قال الحطيئة: 1197 - بمستأسد القريان حو [تلاعه فنواره] ميل إلى الشمس زاهره . (والسماء رفعها ووضعها الميزان) [7] أي: العدل . (ألا تطغوا في الميزان) [8] في هذا الميزان يتزن به الناس . (ولا تخسروا الميزان) [9] [ميزان] الأعمال يوم القيامة .

[فتلك] ثلاثة موازين ، فلا تحسبه ميزاناً واحداً .

ويندفع على هذا التأويل قول الطاعن: ما معنى الجمع بين آلة الوزن والسماء ؟ وأين الميزان من السماء ؟ وإنما يوصل الشيء بحسبه وشبهه . فالعدل الذي أولنا به الميزان شبه السماء في اللفظ ، به قامت السموات والأرض ، وعلى أن هذا القائل إنما أتي من قبل نظره في شخص الميزان وصغره ، ولو نظر إلى مبلغ الحاجة إليه ، لاستعظم من أمره من استصغر ، مع ما في النفوس من الظلم ما يبعد عن العدل في التعامل لولا الميزان ، ألا ترى إلى قوله تعالى: (أنزل الكتاب بالحق والميزان) ، [إذ] كان الكتاب يتضمن حفظ العدل ، والميزان: يظهر العدل ، فقرن آلة العمل إلى آلة العلم ، ومن اعتبر حال الميزان بحجمه دون منافعه ، كان كمن اعتبر القلم بشخصه إذ رآه قطعة قصب ، وقد عظمه الله في قوله: (ن والقلم) ، وقوله: (الذي علم بالقلم) . وأيضاً فإن للميزان مشاركة مع معرفة السماء في خاصية/ ، فإن [دوران] السيارات يعرف بنسبة أبعادها من الثوابت كما في كتب الهيئة ،

(29/738)

والميزان الذي يقال له: القرسطون ، وهو القبان ، سوي على النسبة أيضاً ، فإن أحد رأسي عمود القرسطون طويل بعيد من المعلاق ، والآخر ، قصير قريب ، فإذا علق على

رأسه الطويل ثقل قليل ، وعلى رأسه القصير ثقل كثير ، تساويا أبداً ، متى كانت نسبة الثقل القليل إلى الثقيل الكثير ، كنسبة بعد رأس القصير إلى بعد رأس الطويل من المعلاق .

(والنخل ذات الأكمام) [11] أي: الطلع المتكمم ، قبل أن ينفتق بالتمر ، وخصه بالذكر للانتفاع به وحده . (والحب ذو العصف والريحان) [12] [والريحان] هنا الحب المأكول ، والعصف: ورقه الذي [ينفى] عنه ، ويذرى في الريح كالتبن .

وعن الحسن: أنه الريحان المشموم . وإذا رفعت (الريحان) ظهر هذا القول . ورفع هذا جميعه على الابتداء ، والخبر مقدم عليها ، وهو (فيها) عند البصريين . وعند الكوفيين: رفعها بالظرف ، أي: في الأرض كل ذلك . (تكذبان) [13] خطاب الجن والإنس . وقيل: خاطب الإنسان بلفظة التثنية على عادة العرب ، وقد مضى . وكذلك تكرر هذه الكلمة في عدة مواضع من السورة على عادة العرب ، كما قالت الأخيلية:

1198- [و]لنعم الفتى يا توب كنت إذا التقت صدور الأعالي واستشال الأسافل

1199- ونعم الفتى يا توب جاراً وصاحباً ونعم الفتى يا توب حين تطاول 1200- ونعم الفتى يا توب كنت لخائفٍ [أتاك] لكي يحمى ونعم المحامل/1201- لعمري لأنت المرء أبكي لفقده ولو لام فيه ناقص الرأي جاهل 1202- لعمري لأنت المرء أبكي لفقده إذا ذكرت بالملحمين البلابل 1203- أبى لك ذم الناس يا توب كلما ذكرت أمور محكمات كوامل 1204- أبى لك ذم الناس يا توب كلما ذكرت سماح حين تأوي الأرامل 1205-

فلا يبعدنك الله يا توب إنما لقيت حمام الموت والموت عاجل 1206- ولا يبعدنك الله يا توب إنها كذاك المنايا عاجلات وآجل

(30/738)

1207- ولا يبعدنك الله يا توب والتقت عليك الغوادي المدجنات الهواطل . وقال[ت] أخرى أيضاً ترثي أخاها : 1208- وحدثني أصحابه أن مالكاً أقام ونادى صحبه برحيل 1209- وحدثني أصحابه أن مالكاً ضروب بنصل السيف غير نكول 1210- وحدثني أصحابه أن مالكاً جواد بما في الرحل غير بخيل 1211- وحدثني أصحابه أن مالكاً صروم كماضي الشفرتين صقيل .

(رب المشرقين) [17] مشرق الشتاء ، ومشرق الصيف . وقيل: مطلع الفجر ومطلع الشمس ، والمغربين: مغرب الشمس ومغرب الشفق . (المرجان) [22] الجوهر المختلط صغاره بكباره . من مرجت الشيء خلطته . والمارج من هذا ، وهو ذؤابة لهب النار الموقدة الذي يعلوها فيرى أخضر وأصفر [مختلطاً] ، وقد ذكرناه .

(المنشآت) [24] المرسلات في البحر ، المرفوعات الشرع . (كل يوم هو في شأن) [29] أراد يومي الدنيا والآخرة ، فإن الدهر يومان: دنيا وآخرة ، وشأنه عز وجل في يوم الدنيا :

الابتلاء والاختبار ، وفي يوم الآخرة الجزاء والحساب/ . وفي الخبر: "(كل يوم هو في شأن): يجيب داعياً ، ويفك عانياً ويتوب على قوم ويغفر لقوم" . (سنفرغ لكم) [31] قال مقاتل: هذا تهديد بمعنى سأقصدكم وأعمد إليكم ، كما قال جرير في الموضعين ، أحدهما:

1212- الآن وقد فرغت إلى نمير فهذا حين كنت لكم عذاباً . والآخر: 1213- ولما اتقى [القين] العراقي باسته فرغت إلى [القين] المقيد في الحجل . (شواظ من نار) [35] لهيب منها . وقيل: قطعة تأجج لا دخان فيها . (ونحاس) [35]

قيل: إنه دخان [النار] . وقيل: الصفر المذاب . وقيل: إنه المهل . وأيها كان فالمراد تضعيف العذاب ، أي: بهذا مرة وبذاك أخرى ، أو بهما نعوذ بالله . (فإذا انشقت السماء فكانت وردة) [37]

(31/738)

أي: حمراء مشرقة . وقال عبد بني الحسحاس: 1215- يرجلن لمات ويتركن جمتي وذاك هوان ظاهر قد بداليا 1216- فلو كنت ورداً [لونه] لعشقتني ولكن ربي شانني بسواديا . وقيل: [متغيرة] مختلفة الألوان ، كما تختلف [ألوان] الفرس الورد ، يصفر في الربيع ، ويحمر في الشتاء ، أو يحمر عند الانتفاش ، ويغبر إذا دحا شعره وسكن ، كما وصفه

المرار بن منقذ :

1217- قارح قد فر عنه جانب ورباع جانب لم يثغر 1218- فهو ورد اللون في [ازبئراره] وكميت اللون ما لم يزبئر . وإنما يختلف لون السماء بسبب التظاء نار جهنم من الأرض إلى السماء ، ولون النار إذا قابل اللون الأزرق يختلف في الحمرة [اللون] الأزرق ، بحسب قرب النار وبعدها . كما يجد [برق] السحاب/مختلفاً في الحمرة ، والسحابة نفسها مختلفة الألوان في الصفرة والحمرة ، على اختلاف الخصائص والأعراض . (كالدهان) [37]

أي: صافية كالدهن . أو مختلفة الألوان ، كالدهن على كونه حديثاً أو عتيقاً أو متوسطاً . وقيل: تمور كما [يمرج] الدهن في الزجاج . وقيل: إن الدهان الأديم الأحمر ، وإن لون السماء أبداً أحمر ، إلا أن الزرقة العارضة [بـ]سبب اعتراض الهواء بينهما ، كما ترى [الدم في] العروق أزرق ، وفي القيامة يشتعل الهواء ناراً فترى السماء على [لونها] . (فيومئذ لا يسئل عن ذنبه) [39] أي: لا يسألون سؤال استعلام ، ولكن يسألون سؤال تبكيت وإلزام . (ءان) [44]

بلغ إناه وغايته في حرارته . وقيل: حاضر . ومنه سمي الحال "الآن" ، لأنه الحاضر الموجود . فإن الماضي لا تدارك [له] ، والمستقبل على أمل ، وليس لنا إلا الآن ، ولا ثبات للآن طرفة عين . فيا بعداً لمتثبت منا على غير ثابت . وإنما امتن بالآلاء في ضمن ذكره

العذاب ، لأنها تحذير وتبصير . قال الحسن: "من خوفك حتى تبلغ الأمن ، أرحم بك وأنعم عليك ممن أمنك حتى تقع [في] الخوف" ، في معناه:

(32/738)

1218- فقسا ليزد جروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم . (جنتان) [46] جنة في قصر[ه] ، وجنة خارج قصره ، كما يكون [لملك] الدنيا . وقيل: إنه على الجنس ، فجنة للجن ، وجنة للإنس . (فيهما عينان) [50] إحداهما التسنيم ، والأخرى السلسبيل .

(بطائنها من استبرق) [54] ذلك ليستدل بالبطانة على شرف الظهارة من طريق الأولى . وهذا الاستبرق الذي وصف الله أنهم يلبسونه ، -وإن كان الجنس واحداً- ، [يختلف] كما يختلف أصناف الديباج/والسقلاطون في جنس واحد . (وجنى الجنتين دان) [54] يناله النائم كما يناله القائم . (لم يطمثهن) [56] لم يجامع الإنسية إنسي ، ولا الجنية جني . (ومن دونهما جنتان) [62] أي: أقرب ، فجعل عز وجل لمن خاف مقام ربه ، [وهو الرجل] يهم بالمعصية ، ثم يدعها من خوف الله أربع جنان ، ليتضاعف سروره بالتنقل . (مدهامتان) [64] [مرتويتان] سوداوان ، وهي كما قال قايل مسعود في قيل كسرى

النعمان: 1219- إن يك قد أصابك الدهر يوماً بعد ملك مؤيد بذنوب 1220-
فقديماً أصاب بالغدر مخلوقاً فكان الرضاح رب الشروب
من النضرة والخضرة ارتواء يضرب به لونهما إلى السواد ، كما وصفه ذو الرمة [في] شعره ،
منها قوله: 1221- حتى إذا [وجفت] بهمى لوى لبن وابيض بعد سواد الخضرة العود
1222- وغادر الفرخ في المثوى تريكته وحان من حاضر الدحلين تصعيد . وقال:
1223- حواء [قرحاء أشراطية] وكفت فيها [الذهاب] وحفتها البراعيم
وقال أيضاً: 1224- كسا الأكم بهمى غضة حبشية توّاماً و[نقعان] الظهور [الأقارع] .
وقيل: وصف الخضرة بالسواد ، كما وصف الشماخ سواد الليل بالخضرة ، وقال:
1225- فراحت رواحاً من زرود فنازعت [زبالة] جلباباً من الليل أخضرا 1226-
وأضحت على ماء العذيب [وعينها كوقب] الصفا جلسيها قد تغورا

(33/738)

(نضاختان) [66] فوارتان ، والنضخ دون الجري فلذلك كانتا دون الأوليين . (فيهن
خيرات حسان) [70] أي: خيرات الأخلاق ، حسان/الوجوه ، وكانت "خيرة"
فخففت . (رفرف) [76] مجلس مفروش [يرف] بالبسط والوسائد أي: يبرق .

والعبقري: الطنافس المخملة. وقيل: إنها منسوبة إلى "عبقر" بلد، وهي أرفع ثياب الدنيا فنسب إليها للتقريب والتفهيم. والعبقري في شعر الطرفة: الرقم الفاخر الأحمر. قال:

1227- عالين رقماً فاخراً لونه من عبقري [كنجيع] الذبيح.

[تمت سورة الرحمن]. انتهى انتهى. اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 1424.1445 ﴾

(34/738)

وقال الأخفش:

سورة (الرحمن)

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾

قال ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ أي: بِحساب. وأضمر الخبر. اظن - والله أعلم - انه اراد يَجْرِيان بِحِساب.

﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴾

وقال ﴿ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴾ وواحدها "الكِمُّ".

﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾

وقال ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ وواحدها: "الفَنَنُ".

﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾

وقال ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ كما تقول "اِزْوَرَّ" و"اِزْوارَّ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 530 ﴾

(35/738)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الرحمن

مكية كلها

4 - عَلَّمَهُ الْبَيانَ أي الكلام .

5 - الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ أي بحساب ومنازل لا يعدونها « 1» .

6 - وَالنَّجْمُ : العشب والبقل ، وَالشَّجَرُ : ما قام على ساق ، يَسْجُدانِ .

قال الفراء : «سجودهما : أنهما يستقبلان الشمس إذا أشرقت ، ثم يميلان معها حتى نكسر الفيء» .

وقد بينت السجود في كتاب «تأويل المشكل» ، وأنه الاستسلام من جميع الموات ، والانقياد لما سخر له .

7 - وَوَضَعَ الْمِيزانَ أي العدل في الأرض .

8 - أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ : أي ألا تجوروا .

9 - وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ أي بالعدل ، وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ ، أي لا تنقصوا الوزن .

---

(1) قال مجاهد : بحسبان كحسبان الرحى .

(36/738)

---

10 - وِلْلْأَنامِ : الخلق .

11 - وذاتُ الْأَكْمامِ أي ذات الكفرّى قبل ان ينفتق . وغلاف كل شيء : كمّه .

[و] «الكفرّى» : هو الجفّ ، وهو الكم ، وهو الكافور ، وهو الذي ينشق عن الطّلع .

12 - والْعَصْفِ : ورق الزرع ، ثم يصير ، إذا جفّ ودرس - تبنا .

والرَّيْحانُ : الرزق ، يقال : خرجت اطلب ريحان اللّه . قال النّمر ابن تولب :

سلام الإله وريحانه ورحمته وسماء درر»

13 - و(الآلاء) النعم . واحدها «ألي» إلى مثل قفا ، و» إلي» مثل معي .

14 - صَلْصالٍ : طين يابس يصلصل ، أي يصوت من يبسه كما يصوت الفخار ، وهو : ما طبخ .

ويقال : «الصلصال» : المنتن ، مأخوذ من «صلّ الشيء» : إذا أنتن مكانه فكأنه أراد : «صلّالا» ، ثم قلب إحدى الامين .

وقد قرىء : أئذا صللنا في الأرض [سورة السجدة آية : 10] ، أي أنتنا .

---

(1) العصف : بقل الزرع إذا قطع منه شيء قبل أن يدرك فذلك العضد والريحان رزقه .

وقال الضحاك : العصف : التبن . وقال مجاهد : العصف : ورق الحنطة والريحان الرزق .

(37/738)

---

15 - و(المارج) هاهنا : لهب النار ، من قولك : مرج الشيء ، إذا اضطرب ولم يستقر «1» .

قال أبو عبيدة : مِنْ مارِجٍ : من خلط من النار .

19 - مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ : خلّاهما . تقول : مرجت دابتي ، إذا خلّيتها ومرج السلطان الناس : [إذا اهملهم] . وأمرجت الدابة : رعيتها .

20 - بَيْنَهُما بَرْزَخٌ أي حاجز «2» : لئلا يحمل أحدهما على الآخر ، فيختلطان .

22 - واللُّؤْلُؤُ : كبار الحب . والْمَرْجانُ : صغاره .

24 - (الجواري) : السفن . والْمُنْشَآتُ : اللواتي أنشئن ، أي ابتدئ بهن فِي الْبَحْرِ .

ومن قرأ : المنشئات : جعلهن : اللواتي ابتدأن . يقال أنشأت السحابة تمطر ، أي ابتدأت .

وأنشأ الشاعر يقول .

و(الأعلام) : الجبال . واحدها : «علم» .

33 - أَقْطارِ السَّماواتِ وأقتارها : جوانبها .

لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ أي إلا بملك وقهر .

35 - و(النحاس) : الدخان . قال الجعدي :

تضيء كضوء سراج السّليط لم يجعل اللّه فيه نحاسا

37 - فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ أي حمراء في لون الفرس الوردة . و«الدّهان» : جمع «دهن» .

---

(1) المارج : اللهب الأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أوقدت .

(2) وهو قول ابن عباس .

ويقال : «الدهان» : الأديم الأحمر .

41 - يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ أي بعلامات فيهم ، يقال : سواد الوجوه ، وزرقة العيون

، ونحو ذلك .

44 – وقوله : حَمِيمٍ آنٍ و«الحميم» : الماء المغلي . و«الآني» :

الذي قد انتهت شدة حرة .

46 – وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ : بستانان في الجنة .

قال الفراء : «وقد تكون في العربية جنة واحدة . (قال) : انشدني بعضهم :

ومهمهين قذفين مرتين قطعته بالسّمت لا بالسمتين

يريد : مهمها واحدا ، وسمتا واحدا .

(قال) وانشدني آخر :

يسعى بكبداء وفرسين قد جعل الأرطاة جنّتين

(قال) : وذلك للقوافي ، والقوافي تحتمل – من الزيادة والنقصان – ما لا يحتمله الكلام» .

وهذا من اعجب ما حمل عليه كتاب اللّه . ونحن نعوذ باللّه من أن نتعسف هذا التعسف ،

ونجيز على اللّه – جل ثناؤه – الزيادة والنقص في الكلام ، لرأس آية .

وإنما يجوز في رؤوس الآي : أن يزيد هاء للسكت ، كقوله : وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ [سورة

القارعة آية : 10] ، وألفا كقوله : وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا [سورة الأحزاب آية : 10] . او

يحذف همزة من الحرف ، كقوله :

أَثاثاً وَرِءْياً [سورة مريم آية : 74] او ياء كقوله : وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ [سورة الفجر آية : 4] لتستوي رؤوس الآي ، على مذاهب العرب في

(39/738)

الكلام : إذا تم ، فآذنت بانقطاعه وابتداء غيره . لأن هذا لا يزيل معنى عن جبهته ، ولا يزيد ولا ينقص . فأما ان يكون اللّه عز وجل وعد جنتين ، فيجعلها جنة واحدة من أجل رؤوس الآي - : فمعاذ اللّه ! .

وكيف يكون هذا : وهو - تبارك اسمه - يصفهما بصفات الاثنين ، فقال :

ذَواتا أَفْنانٍ ، ثم قال : فِيهِما . . . ، فِيهِما . . . ؟ ! .

ولو ان قائلا قال في خزنة النار : إنهم عشرون ، وإنما جعلهم تسعة عشر لرأس الآية - كما قال الشاعر :

نحن بنو أم البنين الأربعة وإنما هم خمسة ، فجعلهم للقافية اربعة - : ما كان في هذا القول إلا كالفراء .

54 - بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ .

قال الفراء : «قد تكون البطانة ظهارة ، والظهارة بطانة . وذلك : ان كل واحد منهما [قد]

يكون وجها ، تقول العرب : هذا ظهر السماء ، وهذا بطن السماء – ل [ظاهرها] الذي تراه . (قال) : وقال ابن الزّبير – وذكر قتلة عثمان رضي اللّه عنه – : : «فقتلهم اللّه كل قتلة ، ونجا من نجا منهم تحت بطون السماء والكواكب» ، يعني : هربوا ليلا» .

وهذا أيضا من عجب التفسير . كيف تكون البطانة ظهارة ، والظهارة بطالة – والبطانة :

ما بطن من الثوب وكان من شأن الناس إخفاؤه ، والظهارة :

ما ظهر منه وكان من سأن الناس إبداؤه ؟ ! .

وهل يجوز لأحد ان يقول لوجه مصلي : هذا بطانته ، ولما ولي الأرض منه : هذا ظهارته ؟ ! .

وإنما أراد اللّه جل وعز ان يعرفنا – من حيث نفهم – فضل هذه الفرش

(40/738)

وأن ما ولي الأرض منها إستبرق ، وهو : الغليظ من الديباج . وإذا كانت البطانة كذلك : فالظّهارة أعلى وأشرف .

وكذلك

قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «لمناديل سعد بن معاذ «1» – في الجنة – احسن من

هذه الحلّة «2»» .

فذكر المناديل دون غيرها : لأنها أخشن من الثياب . وكذلك البطائن : أخشن من الظواهر .

وأما قولهم : ظهر السماء وبطن السماء ، – لما ولينا – : فإن هذا قد يجوز في ذي الوجهين المتساويين ، إذا ولي كلّ واحد منهما قوما . تقول في حائط بينك وبين قوم – لما وليك منه – : هذا ظهر الحائط ، ويقول الآخرون لما وليهم : هذا طهر الحائط . فكلّ واحد – من الوجهين – : ظهر وبطن . ومثل هذا كثير .

كذلك السماء : ما ولينا منها ظهر ، وهو لمن فوقها – من الملائكة – بطن .

56 – ،

74 – لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ قال ابو عبيدة : لم يمسسهن .

ويقال : ناقة صعبة لم يطمثها محل قط ، أي لم يمسسها .

وقال الفراء : «لم يطمثهن» : لم يفتضّهن . و«الطمث» : النكاح بالتدمية . ومنه قيل للحائض : طامث .

64 – مُدْهامَّتانِ : سوداوان من شدة الخضرة والرّيّ . «3» قال ذو الرّمة – وذكر غيثا – :

كسا الأكم بهمي غضة حبشية توّاما ونقعان الظهور الأقارع

جعلها حبشية من شدة الخضرة .

---

(1) هو سيد الأوس ، توفي في السنة الخامسة للهجرة .

(2) أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي وأحمد .

(3) قال الزجاج : يعني أنهما خضراوان تضرب خضرتهما إلى السواد .

(41/738)

---

66 - نَضَّاخَتَانِ

: تفوران بالماء «1» . و«النّضخ» أكثر من «النّضح» . ولا يقال منه : فعلت .

66 - خَيْراتٌ حِسانٌ : نساء خيرات «2» ، فخفف . ما يقال :

هين ولين .

72 - حُورٌ : شديدات البياض ، وشديدات سواد المقل واحدها :

حوراء» ومنه قيل : حواري .

مَقْصُوراتٌ أي محبوسات مخدرات . والعرب تسمى الحجلة :

«المقصورة» قال كثير : لعمري ! لقد حببت كل قصيرة إليّ ، وما تدري بذاك القصائر

عنيت قصيرات الحجال ، ولم أراد قصار الخطي ، شرّ النساء البحائر

و«البحاتر» : القصار .

76 - مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ يقال : رياض الجنة .

وقال ابو عبيدة : «هي الفرش والبسط أيضا ، وجمعه : رفارف» .

ويقال : هي المحابس .

و(العبقري) : الطنافس الثّخان «3» .

قال ابو عبيدة : «يقال لكل شيء من البسط : عبقريّ . ويذكر أن عبقر» : أرض كان يعمل فيها الوشي ، فنسب إليها كلّ شيء جيد» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 383.377 ﴾

---

(1) قاله الطبري .

(2) قاله الطبري : في هذه الجنان الأربع نساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه .

(3) قاله الطبري .

وقال الغزنوى :

سورة الرحمن

1 الرَّحْمنُ : أي اللّه الرّحمن ولذلك عدّ آية .

3 خَلَقَ الْإِنْسانَ : خلقه غير عالم فجعله عالما . وقيل «1» : الإنسان آدم .

وقيل «2» : النبي عليه السّلام ، و«البيان» : القرآن «3» .

---

(1) أخرجه الطبريّ في تفسيره : 27/ 114 عن قتادة ، ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 145 عن الحسن ، وقتادة .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 691 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن قتادة .

(2) نقله ابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 106 عن ابن كيسان ، وكذا القرطبي في تفسيره :

17/ 152 ، وأبو حيان في البحر المحيط : 8/ 188 .

(3) هذا قول الزجاج في معانيه : 5/ 95 .

(43/738)

---

5 الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ : يجريان بحساب «1» ، أو يدلان على عدد الشّهور والسّنين «2» .

6 وَالنَّجْمُ : النّبات الذي نجم في الأرض وانبسط ليس له ساق ، والشّجر ما قام على ساق «3» . وسجودهما دوران الظّل معهما «4» ، أو ما فيهما من آثار الصّنعة الخاضعة لصانعهما ، أو إمكانهما من الجني والرّيع وتذليل [94/ أ] اللّه إياهما للانتفاع/ بهما .

7 وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ أي : العدل ، والمعادلة : موازنة الأشياء «5» .

---

(1) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 112 ، وأبو عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 242 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 436 .

وأخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره : 27/ 115 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، وكذا الحاكم في المستدرك : 2/ 474 ، كتاب التفسير ، «سورة الرحمن» ، وقال : «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 691 ، وزاد نسبته إلى الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس .

(2) ذكره الزجاج في معانيه : 5/ 95 .

(3) ورد هذا المعنى في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 27/ 116 ، والحاكم في المستدرك :

2/ 474 ، كتاب التفسير ، عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

قال الحاكم : «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 692 ، وزاد نسبته إلى ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ في «العظمة» عن ابن عباس أيضا .

وهو قول الفراء في معانيه : 3/ 112 ، وأبي عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 242 ، والزجاج في معانيه : 5/ 69 .

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 107 ، وقال : «وهو مذهب ابن عباس ، والسدي ، ومقاتل ، واللغويين» .

(4) هذا قول الزجاج في معاني القرآن : 5/ 96 ، وذكره الماوردي في تفسيره : 4/ 146 عن الزجاج ، وكذا القرطبي في تفسيره : 17/ 154 .

(5) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 5/ 96 .

وانظر هذا المعنى في معاني القرآن للفراء : 3/ 113 ، وتفسير الطبري : 27/ 118 ، وتفسير الماوردي : 4/ 147 ، وزاد المسير : 8/ 107 .

(44/738)

---

8 أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ : في هذا الميزان الذي يتزن بها الأشياء .

9 وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ : ميزان الأعمال يوم القيامة «1» ، فتلك ثلاثة موازين .

و«الأنام» : «2» الثّقلان «3» ، وقيل : «4» كلّ شيء فيه روح ، وأصله «ونام» ك «وناة» من ونم الذباب : صوت «5» .

11 ذاتُ الْأَكْمامِ : الطّلع متكمّم قبل أن ينفتق بالتمر «6» .

12 وَالرَّيْحانُ : الحبّ المأكول هنا «7» ، والعصف : ورقه [الذي] «8» ينفي عنه ويذرّى في الريح كالتبن لأن الرّيح تعصفه ، ويقال لما يسقط منه : العصافة «9» .

---

(1) تفسير القرطبي : 17/ 155 .

(2) في قوله تعالى : وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنامِ آية : 10 .

(3) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 27/ 119 عن الحسن .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 693 ، وزاد نسبته إلى ابن المنذر عن الحسن رحمه اللّه تعالى .

(4) أخرجه الطبري في تفسيره : 27/ 119 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما عن طريق محمد بن سعد عن أبيه . . . . وهو إسناد مسلسل بالضعفاء ، تقدم بيان ذلك ص 135 .

ونقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 147 عن مجاهد ، والسدي .

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : (8/ 107 ، 108) ، وقال : «رواه العوفي عن ابن

عباس ، وبه قال مجاهد ، والشعبي ، وقتادة ، والسدي ، والفراء» .

(5) اللسان : 12/ 643 (ونم) .

(6) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 27/ 120 عن ابن زيد .

وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 436 ، ومعاني الزجاج : 5/ 97 ، والمفردات للراغب : 441 ، وتفسير القرطبي : 17/ 156 . [. . . . .]

(7) معاني القرآن للفراء : 3/ 113 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 243 ، وتفسير الطبري :

27/ 122 ، والمفردات للراغب : 336 .

(8) ما بين معقوفين ساقط من الأصل ، والمثبت عن «ك» .

(9) اللسان : 9/ 247 (عصف) .

(45/738)

---

13 تُكَذِّبانِ : خطاب الجن والإنس «1» . أو خطاب الإنسان بلفظ التثنية على عادتهم «2» .

17 رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ : مشرق الشتاء والصّيف «3» . أو مطلع الفجر والشّمس «4» .

وَالْمَغْرِبَيْنِ : مغرب الشّمس والشّفق ، والنعمة فيهما تدبيرهما على نفع العباد ضياء وظلمة على حاجاتهم إلى الحركة والسكون .

19 مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ : بحر فارس والرّوم «5» .

20 لا يَبْغِيانِ : لا يبغي الملح على العذب . أو لا يبغيان : لا يفيضان على الأرض فيغرقانها «6» .

22 يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ إنّما قيل : مِنْهُمَا لأنّه جمعهما وذكرهما فإذا

---

(1) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 114 ، وأبو عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 243 ، والقرطبي في تفسيره : 17/ 158 ، وقال : «وهذا قول الجمهور» .

(2) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 114 ، وتفسير البغوي : 4/ 268 ، وتفسير القرطبي :

17/ 158 .

(3) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 115 ، وأبو عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 243 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 27/ 127 عن ابن أبزى ، ومجاهد ، وقتادة .

ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 150 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

(4) تفسير الماوردي : 4/ 150 ، والبحر المحيط : 8/ 191 .

(5) أخرج عبد الرزاق هذا القول في تفسيره : 2/ 263 عن الحسن وقتادة وأخرجه

الطبري في تفسيره : 27/ 128 عن قتادة .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 696 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن الحسن رحمه اللّه تعالى .

(6) ينظر هذا القول في تفسير القرطبي : 17/ 162 ، والبحر المحيط : 8/ 191 .

وقال الطبري - رحمه اللّه - في تفسيره : 27/ 130 : «و أولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن اللّه وصف «البحرين» اللذين ذكرهما في هذه الآية أنهما لا يبغيان ، ولم يخصص وصفهما في شيء دون شيء ، بل عم الخبر عنهما بذلك ، فالصواب أن يعمّ كما عمّ جل ثناؤه ، فيقال : إنهما لا يبغيان على شيء ، ولا يبغى أحدهما على صاحبه ، ولا يتجاوزان حدّ اللّه الذي حدّه لهما» .

(46/738)

خرج من أحدهما فقد خرج منهما «1» ، كقوله «2» سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً والقمر في السّماء الدنيا .

وقيل «3» : الملح والعذب يلتقيان فيكون العذب كاللقاح للملح .

وَالْمَرْجانُ : اللؤلؤ المختلط صغاره بكباره «4» . مرجت الشيء :

خلطته ، والمارج : ذؤابة لهب النّار التي تعلوها فيرى أخضر وأصفر مختلطا «5» .

24 الْمُنْشَآتُ : المرسلات في البحر المرفوعات الشرع «6» ، و«المنشئات» «7» : الحاملات الرافعات الشرع .

كَالْأَعْلامِ : كالجبال «8» .

27 وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ : يبقى ربّك الظاهر أدلته ظهور الإنسان بوجهه .

---

(1) عن معاني القرآن للزجاج : 5/ 100 ، وانظر تفسير البغوي : 4/ 269 ، وزاد المسير :

8/ 113 ، وتفسير القرطبي : 17/ 163 ، والبحر المحيط : 8/ 192 .

(2) سورة نوح : الآيتان : 15 ، 16 .

(3) نص هذا القول في تفسير الماورودي : 4/ 152 ، وتتمته : «فنسب إليهما كما نسب الولد إلى الذكر والأنثى ، وإن ولدته الأنثى ، ولذلك قيل إنه لا يخرج اللؤلؤ إلا من موضع يلتقي فيه العذب والمالح» .

وانظر هذا القول في تفسير القرطبي : 17/ 153 ، والبحر المحيط : 8/ 191 .

(4) عن تفسير الماوردي : 4/ 151 .

(5) المفردات للراغب : 465 ، واللسان : 2/ 365 (مرج) . [. . . . .]

(6) تفسير الطبري : 27/ 133 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 100 ، والكشف

لمكي :

2/ 301 .

(7) بكسر الشين قراءة حمزة كما في السّبعة لابن مجاهد : 620 ، والتبصرة لمكي :

341 ، والتيسير للداني : 206 .

وانظر توجيه هذه القراءة في معاني القرآن للزجاج : 5/ 100 ، والكشف لمكي : 2/

301 ، والبحر المحيط : 8/ 192 .

(8) معاني القرآن للفراء : 3/ 115 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 244 ،

والمفردات للراغب :

344 .

(47/738)

---

29 كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ في الحديث «1» : «يجيب داعيا ، ويفك عانيا ، ويتوب على قوم ويغفر لقوم» .

وقال سويد «2» بن جبلة - وكان من التابعين - : يعتق رقابا ، ويفحم [94/ ب] عقابا/ ويعطي رغابا «3» .

31 سَنَفْرُغُ لَكُمْ : نقصدكم ونعمد إليكم «4» ، وهذا اللّفظ من أبلغ التهديد والوعيد نعمة من اللّه للانزجار عن المعاصي ، وفي إقامة الجزاء أعظم النعمة «5» ، ولو ترك لفسدت الدنيا والآخرة ، ووصف الجن والإنس ب «الثقلين» لعظم شأنهما ، كأن ما عداهما لا وزن له بالإضافة إليهما .

33 لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ أي : حيث ما كنتم شاهدتم حجّة للّه وسلطانا يدل على أنّه واحد «6» .

---

(1) أخرجه الطبري في تفسيره : 27/ 135 عن مجاهد ، وعبيد بن عمير باختلاف في بعض ألفاظه .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : (7/ 699 ، 700) ، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، والبيهقي عن عبيد بن عمير .

(2) هو سويد بن جبلة الفزاري .

يروى عن العرباض بن سارية وعمرو بن عنبسة ، روى عنه لقمان بن عامر الوصابي وأبو المصبح ، المقرئ ترجمته في التاريخ الكبير للبخاري : 4/ 146 ، والجرح والتعديل : 4/ 236 ، والثقات لابن حبان : 4/ 325 .

(3) نقل الماوردي هذا الأثر في تفسيره : 4/ 153 عن سويد بن جبلة .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 700 ، وعزا إخراجه إلى عبد بن حميد عن

سويد .

(4) ذكره الزجاج في معانيه : 5/ 99 وقال : «و الفراغ في اللّغة على ضربين ، أحدهما : الفراغ من شغل ، والآخر : القصد للشيء ، تقول : قد فرغت مما كنت فيه ، أي : قد زال شغلي به ، ويقال : سأتفرغ لفلان ، أي : سأجعل قصدي له» .

وانظر تفسير الماوردي : 4/ 154 ، وتفسير البغوي : 4/ 270 ، وتفسير القرطبي : 17/ 168 .

(5) في «ك» : النعم .

(6) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 5/ 99 ، وانظر تفسير البغوي : 4/ 271 ، وتفسير القرطبي : 17/ 170 .

(48/738)

---

35 شُواظٌ : لهب ، ونُحاسٌ : دخان النّار «1» .

37 فَكانَتْ وَرْدَةً : حمراء مشرقة «2» ، وقيل «3» : متغيرة مختلفة الألوان كما تختلف ألوان الفرس الورد في فصول السّنة .

كَالدِّهانِ : صافية كالدهن «4» ، وقيل «5» : الدهان والدهين : الأديم الأحمر وأنّ لون

السّماء أبدا أحمر ، إلّا أنّ الزرقة بسبب اعتراض الهواء بينهما كما يرى الدم في العروق أزرق ، وفي القيامة يشتعل الهواء نارا فيرى السّماء على لونها «6» .

39 لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ : لا يسأل أحد عن ذنب أحد «7» . أو لا يسألون سؤال استعلام «8» .

41 فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي : تضمّ الأقدام إلى النّواصي وتلقى في النّار «9» .

44 آنٍ : بالغ أناه وغايته في حرارته «10» .

---

(1) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 117 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 244 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 438 ، والمفردات للراغب : (270 ، 485) .

(2) تفسير الطبري (27/ 141 ، 142) ، وتفسير المشكل لمكي : 334 ، وتفسير القرطبي :
17/ 173 .

(3) هذا قول الفراء في معانيه : 3/ 117 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 156 عن الكلبي ، والفراء .

(4) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 156 عن الأخفش .

(5) ينظر هذا القول في تفسير الطبري : 27/ 142 ، وتفسير الماوردي : 4/ 156 ، وزاد المسير :

118/8. [.....]

(6) ذكره الماوردي في تفسيره: 4/ 156، والقرطبي في تفسيره: 17/ 173 عن الماوردي.

(7) تفسير الطبري: 27/ 142، وتفسير القرطبي: 17/ 174.

(8) أورد نحوه الماوردي في تفسيره: 4/ 156، والبغوي في تفسيره: 4/ 272، والقرطبي في تفسيره: 17/ 174.

وذكر قائلو هذا القول إنهم يسألون سؤال توبيخ.

(9) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج: 5/ 102.

(10) معاني القرآن للزجاج: 5/ 102، وتفسير الماوردي: 4/ 157، والمفردات للراغب: 29.

(49/738)

وقيل «1». حاضر، ومنه سمّي الحال ب «الآن» لأنه الحاضر الموجود فإنّ الماضي لا تدارك له، والمستقبل أمل، وليس لنا إلّا الآن، ثم ليس للآن ثبات طرفة عين.

46 مَقامَ رَبِّهِ: الموقف الذي يقف «2» فيه للمسألة «3».

جَنَّتَانِ : جنّة في قصره ، وجنة خارج قصره على طبع العباد في شهوة ذلك .

أو هو جنّة للجنّ وجنّة للإنس «4» .

50 فِيهِما عَيْنانِ : التسنيم والسلسبيل «5» .

52 زَوْجانِ : ضربان متشاكلان تشاكل الذكر والأنثى .

54 بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ : ليستدل بالبطانة على شرف الظهارة .

56 لَمْ يَطْمِثْهُنَّ : لم يجامع الإنسية إنس ولا الجنيّة جنيّ «6» .

62 وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ : أقرب منهما فجعل لمن خاف مقام ربّه - وهو الرّجل يهمّ بالمعصية ثم يدعها من خوف اللّه - أربع جنان ليتضاعف سروره بالتنقل .

64 مُدْهامَّتانِ : مرتويتان من النضرة والخضرة ارتواء يضرب إلى

---

(1) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 4/ 157 عن محمد بن كعب القرظي ، وكذا القرطبي في تفسيره : 17/ 176 .

(2) في «ج» : يقوم .

(3) ينظر تفسير الطبري : 27/ 145 ، وتفسير الماوردي : 4/ 157 ، وزاد المسير : 8/ 119 ، وتفسير الفخر الرازي : 29/ 123 .

(4) ذكره الماوردي في تفسيره : 4/ 157 دون عزو ، وكذا الفخر الرازي في تفسيره : 29/ 124 .

(5) نقل البغوي هذا القول في تفسيره : 4/ 274 عن الحسن ، ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 120 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

(6) تفسير الطبري : 27/ 150 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 103 ، وتفسير البغوي : 4/ 181 .

(50/738)

السّواد «1»/ .

66 نَضَّاخَتَانِ

: فوّارتان «2» .

68 وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ : فصلا بالواو لفضلهما ، كقوله «3» : مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ .

70 خَيْراتٌ : خيرات الأخلاق حسان الوجوه «4» ، وكانت [خيّرات] «5» فخففت .

72 مَقْصُوراتٌ : مخدرات قصرن على أزواجهن «6» . أو محبوسات صيانة عن التبذل .

فِي الْخِيامِ : وهي من درر جوف «7» .

---

(1) معاني القرآن للفراء : 3/ 119 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 246 ، والمفردات للراغب : 173 .

(2) مجاز القرآن : 2/ 246 ، وتفسير غريب القرآن : 443 ، وتفسير الطبري : 27/ 156 ، واللسان : 3/ 62 (نضخ) .

(3) سورة البقرة : آية : 98 ، وانظر هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 5/ 103 ، وتفسير القرطبي : (17/ 185 ، 186) ، والبحر المحيط : 8/ 198 . [. . . . .]

(4) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 27/ 158 عن قتادة .

(5) في الأصل : «خيّرة» ، والمثبت في النص من «ك» ، وهي قراءة تنسب إلى قتادة ، وأبي رجاء العطاردي ، وبكر بن حبيب ينظر تفسير القرطبي : 17/ 187 ، والبحر المحيط : 8/ 198 .

(6) أورد الطبري – رحمه اللّه – هذا القول والذي بعده ، وعقّب عليهما بقوله : «و الصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن اللّه تبارك وتعالى وصفهن بأنهن مقصورات في الخيام ، والقصر : هو الحبس ولم يخصص وصفهن بأنهن محبوسات على معنى من المعنيين اللذين ذكرنا دون الآخر ، بل عم وصفهن بذلك . والصواب أن يعمّ الخبر عنهن بأنهن

مقصورات في الخيام على أزواجهن ، فلا يرون غيرهم ، كما عم ذلك» .

(7) أخرج الإمام البخاري عن عبد اللّه بن قيس الأشعري أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «الخيمة درة مجوّفة طولها في السماء ثلاثون ميلا في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون» .

صحيح البخاري : 6/ 88 ، كتاب بدء الخلق ، باب «ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة» .

(51/738)

---

76 رَفْرَفٍ : مجلس مفروش يرفّ بالبسط «1» . وقيل «2» : «الرفرف» : رياض الجنة ، و«العبقريّ» : الطّنافس المخملة «3» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 783.792 ﴾

---

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 246 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 444 ، والمفردات للراغب : 199 .

(2) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 120 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 443 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 27/ 163 عن سعيد بن جبير .

ونقله القرطبي في تفسيره : 17/ 190 عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير .

(3) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 4/ 162 عن الحسن رحمه اللّه تعالى .

والطنافس : البسط التي لها خمل رقيق .

ينظر النهاية لابن الأثير : 3/ 140 ، واللسان : 6/ 127 (طنفس) .

(52/738)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الرّحمن

عدد 11 - 97و55

نزلت بالمدينة بعد سورة الرّعد ، وهي ثمان وسبعون آية ، وثلاثمائة وواحد وخمسون كلمة ، وألف وستمئة وستة وثلاثون حرفا ، لا يوجد في القرآن سورة مبدوءة بما بدئت به ، ولا بما ختمت به ، ولا مثلها في عدد الآي ، ولا ناسخ ولا منسوخ فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى بصدد تعداد بعض نعمه على عباده مبتدئا بأول شيء وأقدمه من حروف آلائه وصنوف نعمائه "الرَّحْمنُ" (1) الذي وسعت رحمته كلّ شيء هو الذي "عَلَّمَ الْقُرْآنَ"

(2) لسيدنا محمد عبده ورسوله وبيّنه له حتى ووعاه عن ظهر غيب ، وهو أمي لا يعرف القراءة ولم يتعلمها من أحد ولا اختلقه من نفسه كما زعم أعداؤه ، على أنه وجميع الخلق عاجزون عن الإتيان بمثله أو بشيء منه .

وقد جعل تعالى هذه النّعمة العظمى بطليعة النّعم الآتية لأنها أكبر النّعم وسنام مراتب الدّين ، وأقصى مراقبه ، وأعظم كتب اللّه رتبة ، وأعلاها منزلة ، وأحسنها أثرا ، وأثبتها حكما ، ومصداقا ومعنى ، وأجلها قدرا ، وأدومها بقاء "خَلَقَ الْإِنْسانَ" (3) الذي أنزل عليه وهو الإنسان الكامل محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب .

وقال بعض المفسرين إن المراد بالإنسان آدم عليه السّلام ، وليس بشيء لأن آدم سيأتي ذكره بعد صراحة ، وإذا أطلق المفرد العلم يراد به أكمل أنواعه ، والإنسان الكامل من كلّ وجه هو سيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم المخاطب به الذي "عَلَّمَهُ الْبَيانَ" (4) فصاحة النّطق وبلاغة الكلام الذي امتاز به على سائر الخلق قال الأبوصيري :

خفضت كلّ مقام بالإضافة إذ نوديت بالرفع مثل المفرد العلم

قال تعالى "الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ (5)" معلوم وتقدير سوي يجريان بلا فتور في بروجهما ومنازلهما وفي منافع الخلق فيصرّف بهما الأيام والشّهور والسّنين

المترتب عليها أعمال النّاس في المواسم وآجال الدّيون والإجارات والرّهون وأوقات الحج وغيرها مما يتعلق بالحيض والنّفاس والرّضاع والعدة والايمان وغيرها "وَالنَّجْمُ" هو مالا ساق له من النّباتات .

ومما يدل على أن المراد به هذا قوله "وَالشَّجَرُ" حيث عطفه عليه ، لأن الشّجر من النّبات الذي له ساق حقيقة في اللّغة ، فظهر أن ليس المراد به النّجم المعروف "يَسْجُدانِ" (6) خضوعا وخشوعا له تعالى لأنهما خلقا لذلك "وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ" (7) العدل ليقوم النّاس بالقسط في أرضه بين عباده كما هو في سمائه بين ملائكته .

ثم حذر النّاس جل وعلا عن الانحراف عن طريق الرّشد فقال ما رفعت السّماء ووضعت الأرض إلّا لأجل "أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ" (8) فتجنحوا عن الحق إلى الباطل ، وتميلوا من العدل إلى العوج .

ثم أمرهم بإقامته تأكيدا وتأييدا فقال "وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ" هو لسان الميزان الحسّي المادي الذي هو آلة الوزن "بالقسط" للطرفين والأحسن للبايع الترجيح خوفا من أن يخسر المشتري فيدخل البايع في قوله تعالى (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ) لذلك قال عز قوله "وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ" (9) بأن تطففوه فتكونوا خاسرين ، والأحسن أن يراد بهذا الميزان الذي جعله اللّه تعالى بمقابل السّماء العدل المحض في كلّ شيء ، لا العدل في الوزن فقط ، لأن هذا مهما بلغ لا يقابل

السماء ذات الكواكب العظيمة والبناء الشّامخ "وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ" (10) لجميع مخلوقاته لا يختص بها عالم دون آخر ،

(54/738)

ثم بين بعض نعمه فيها لبعض خلقه فقال "فِيهَا فَاكِهَةٌ" عظيمة متنوعة "وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ" (11) الأوعية التي يكون فيها التمر وهي الطّلع وقد خصه دون سائر الأشجار لأنه أعظمها نفعا وبركة ، والنّخل كله نفع فثمره غذاء وفاكهة ويدخر حولا فأكثر ، وشجرة يبرم من ليفه الحبال ، ومن خوصه الحصر والسّلال ، ومن سعفه المقاعد والتخوت ، وجذوعه لا تؤثر فيها الأرضة ، وتعمر كثيرا ، ولذلك يجعلونها في السّقوف بخلاف بقية الأشجار ، إذ لا يوجد فيها ما يوجد في النّخل من المنافع "وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ" التبن ويدخل فيه كافة الحبوب "وَالرَّيْحَانُ" (12) ذو الرّائحة الطّيبة وكلّ ذي ريح طيب من النّبات والأزهار يطلق عليه ريحان وهو نبات مخصوص معروف في

كافة البلاد الشّرقية بهذا الاسم وفي لغة حمير يقال له الرّزق فهذا وما تفرع عنه يخرج من الأرض المخلوقة بما فيها لكم أيها الثقلان "فَبِأَيِّ آلَاءِ" نعم وأفضال "رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" (13) أيها الإنس والجن ، وقد كرر اللّه تعالى هذه الآية في هذه السّورة إحدى وثلاثين مرة ولم تذكر

في غير هذه السّورة أبدا في جميع القرآن ، وإنما وقع هذا التكرار تقريرا لنعم اللّه وأفضاله على خلقه ، وتأكيدا على التذكير بها ، وتنبيها على لزوم شكرها ، وليتفكر الثقلان فيها فيفهم قدرها ويعظم أمرها ويحمد التفضل بها .

أخرج الترمذي عن جابر قال خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرّحمن فسكتوا ، فقال لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن منكم ردّا ، كنت كلما أتيت على قوله تعالى (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) قالوا ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد .

(55/738)

وليس المراد بقوله صلّى اللّه عليه وسلم (ليلة الجن) اجتماعه بهم أول مرة كما ذكرنا أول سورة الجن في ج 1 ، ولا ما ذكرناه في الآية 29 من سورة الأحقاف في ج 2 بل هو اجتماع آخر إذ ثبت اجتماعه بهم ستّ مرات فيما أظهر لأصحابه رضوان اللّه عليهم ، أما اجتماعه بهم فيما لم يطلع عليه أصحابه فلا يعلم مداه ، وهذا الاجتماع بالمدينة ، وذلك في مكة .

مطلب كيفية خلق آدم عليه السّلام وخلق الجان ومعجزات القرآن في المشرقين والمغربين

وكيفية التقاء البحرين ومعنى كلّ يوم هو في شان :

"خَلَقَ الْإِنْسانَ" آدم عليه السّلام "مِنْ صَلْصالٍ" طين يابس إذا ضربته بعضه يصلصل أي بصوت فكان من شدة جفائه "كَالْفَخَّارِ" (14) الطّين المصنوع لبنا المطبوخ بالنار ، وقد ذكرنا في الآية 8 من سورة النّساء المارة إذ لا خلاف في آي القرآن بمثل هذه الألفاظ ، لأن المعنى بينها متقارب بعضه من بعض ، ولا منافاة بين هذه وبين آية خلقه من تراب أو من طين أو من حما مسنون الواردة في السّور الأخرى ، لأن التراب جعل طينا ولما اختلط بالماء وعجن صار لازبا ، ولما اختمر صار حمأ ، فلما زادت خمرته صار مسنونا أي طينا أسود منتنا ، فلما يبس صار صلصالا ، ثم خلق زوجته حواء من أقصر أضلاعه اليسرى ، وجميع

(56/738)

الخلق من بعدها سلائل ذريتها إلى يوم القيامة "وَخَلَقَ الْجَانَّ" أي أصله أيضا وهو إبليس عليه اللّعنة أبو الجان فما بعده أيضا ، وجاء ذكره بمقابلة ذكر آدم عليه السّلام أبي البشر كما مر مثل هذا في الآيتين 27 و28 من سورة الحجر في ج 2 "مِنْ مارِجٍ" لهب صاف من الدّخان "مِنْ نارٍ" (15) وهو لهيبها الأحمر فالأخضر فالأصفر فالأزرق الصّافي من

الدّخان الذي يكون بين جمرها بعد استوائه "فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" (16) لا بشيء من نعمك ربنا نكذب بل نصدق بها ونثني عليك بالحمد والشّكر ما حيينا "رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ" (17) لم تأت هاتان اللّفظتان في الكتب السّماوية كلها غير القرآن.

واعلم أنه قبل اكتشاف أمريكا لم يكن أحد يعلم أن الأرض مشرقين ومغربين، فاعتبروا أيها النّاس، واعلموا أن القرآن جمع فأوعى، وفيه علوم الأولين والآخرين منها ما كشف ومنها ما لم، فمشرق الصّيف غاية ارتفاع الشّمس وانحيازها لجهة الشّمال ومشرق الشّتاء نهاية انحطاطها وجنوحها لجهة القبلة أي الجنوب ويقابلها المغربان وانحيازهما على العكس من جنوح المشرقين نحو القبلة والشّمال، وهذا بالنسبة لما نرى نحن أهل القطر، ولكل قطر ما يراه أهله من هذا "فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ 18 مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ" (19) الملح والعذب في مصب واحد كالأنهر الحلوة حينما تنصب في الأبحر، أي أنه تعالى أجراهما وأرسلهما في المرج حتى جعلهما يجتمعان "بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ" (20) بعضهما على بعض فيختلطان ويكونان كالشيء الواحد، فتنعدم من الحلو المنفعة.

وقيل إن المراد بحر الرّوم وبحر الهند والحاجز بينهما نحن.

وقيل بحر فارس والرّوم والبرزخ الذي بينهما هو الجزائر، وإنهما يلتقيان في المحيط إلّا أنهما خليجان يتشعبان فيكونان شيئا واحدا وقبله كانا متباينين

"فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ" (22) أي من كلّ منهما لا من المالح فقط كما هو ظاهر الآية ، خلافا لما قاله بعض المفسرين باختصاص المالح فقط ، لأن العذب يخرج منه الصّدف ، وقد يوجد فيه اللّؤلؤ أيضا "فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (23) وَلَهُ الْجَوَارِ" السفن الكبار الجاريات فيهما أيضا "الْمُنْشَآتُ" المحدثات بإحداث البشر وأصلها

سفينة نوح عليه السّلام والفضل للبادي ، وهذه المراكب الفخمة وليدتها وفرع عنها حيث تدرج البشر في صنعها حتى بلغ منها الغاية القصوى مما يحمل بعضها ما لا يتصوره العقل من الأثقال ، فصارت الواحدة منها كالجبال مصداقا لقوله تعالى فتراها "فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ" (24) الجبال الشّامخات فكل ما بالغوا في عظم صنعها لا تبلغ قدر بعض الجبال ، ويطلق لفظ الأعلام على الأشياخ ، قال ابن الفارض :

نصبت في موكب العشاق أعلامي وكان قبلي بلي بالعشق اعلامي

(58/738)

أي أشياخي ، وهو أيضا جمع علم بمعنى الرّاية التي توضع على دور الحكومة ، وتحمل في الحروب ، كما أن أصل هذه القطارات والسّيارات والدّبابات هو العجلة ، وقد تدرجوا في صنعها أيضا وتحسينها وتكبيرها وتسريع حركاتها أيضا حتى بلغت ما ترى إذ طاروا بالسماء بسرعة خارقة ، فكل هذه فرع عنها ، وكلها من خلق اللّه القائل (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ) الآية 96 من الصّافات ، والآية 8 من النّحل في ج 2 نظيرتها في المعنى ، راجع الآية 25 من سورة الحديد المارة "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (25) كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ" (26) إنسانا كان أو حيوانا نباتا أو بناء فكل ما على الأرض مصيره الفناء "وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ" ذاته وحده "ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ (27) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ" (28) أخرج الترمذي عن أنس بن مالك قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم (الزموا وتمسّكوا) بيا ذا الجلال والإكرام أي أكثروا من ذكر هذه الجملة العظيمة من صفاته عزت وعلت والالتجاء إليه والاستغاثة به فإنه تعالى يغيثكم بكرمه وفضله .

قال تعالى وهو ابتداء كلام آخر ، لأن الأوّل ختم بفناء الكون وبقاء الكون جل جلاله "يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" سؤال استعطاء من إنس وجن وملك يطلبون رحماه بلسان المقال ، وبقية خلقه من نبات وجماد بلسان الحال يرجون لطفه ، ولا غنى لشيء ما عن عطفه ، وقد أسهبنا البحث فيما يتعلق في هذا في الآية 14 من سورة الإسراء ج 1 فراجعها .

وهو جل شأنه "كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ" (29) ولا يشغله شأن عن شأن ، وهذه الآية فيها رد على اليهود القائلين إن اللّه تعالى لا يقضي بشيء يوم السّبت ، وهو يقول عزّ قوله كل

(59/738)

يوم ، فلم يستثن جمعة ولا سبتا ولا أحدا ، وهي شؤون عظيمة يبديها ولا يبتديها كما هي في أزله من إحياء وإماتة ، وعز وذل وفقر وغنى ، وصحة ومرض ، وبسط وقبض ، وسرور وحزن ، وقيد وإفراج ، وخير وشر ، ونفع وضر ، وما لا يحصى ، لأن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة .

قال جاء الخضر عليه السلام بصورة رجل إلى عالم يحدث في المسجد وقد تطرق إلى تفسير هذه الآية ، فسأله ما شأن ربك اليوم ؟ فلم يقدر أن يعطيه جوابا فبقي مهموما نهاره وليله وهو يقدح فكرته لنسج جواب صالح فلم يوفق ، فنام على حالته هذه فرأى المصطفى صلّى اللّه عليه وسلم فأخبره به ، فنهض فرحا مسرورا ، وبكر إلى الجامع وطفق يحدث ، فجاءه السائل وسأله ثانيا ، فقال له ما تلقاه وهو (يرفع أناسا ويخفض آخرين) فقال له صلّ على من علمك .

وما يقرب من هذه الحادثة هو أن عالما قال في جملة حديثه الحيا من الإيمان وأسنده لحضرة

الرّسول ، وفي نومه رأى حضرة الرّسول فقال له ما قلت هذا فأفاق مرعوبا ، وراجع مالديه من الصّحاح فوجد الحديث ، وسأل من لديه من العلماء ، فأجابوه به ، ثم نام فرأى حضرة الرّسول فقال ما قلت ، ثم ذهب إلى مصر فأجابه علماؤها بصحة الحديث ، ثم نام فرأى حضرة الرّسول فقال ما قلت ، ثم ذهب إلى المدينة المنورة وقص قصته على علمائها ففطن له بعضهم فقال الحيا هو المطر ، ولم يكن من الإيمان ، وإنما الحياء بالمد والهمزة هو من الإيمان وقد صدق المصدق باخبارك لأنك لم تتيقظ لهذه النّكتة فتنبه لغلطه ، ونام فرأى حضرة الرّسول فقال له نعم قلت هذا الحديث كما تفطن له من سألته وعفا اللّه عنك اه شرح البردة للخربوطلي

"فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (30) سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ" (31) فيها وعيد شديد وتهديد عظيم كقولك لمن تريد الإيقاع به سأفرغ لك .

وليس فراغ اللّه بفراغ عن شغل ، لأن هذا من شأن الخلق به سأفرغ لك .

(60/738)

وليس فراغ اللّه بفراغ عن شغل ، لأن هذه من شأن الخلق وهو منزه عن ذلك ، وإنما هو إنظار الخلق لأجل قدره عليهم من إنجاء وإهلاك وغيرهما .

وسمي الانس والجن ثقلين لإثقالهما الأرض أحياء وأمواتا "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (32) يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" جوانبها وأطرافها هربا من قضائي

(61/738)

عليكما "فَانْفُذُوا" إن كنتم قادر بن ولكنكم "لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ" (33) عظيم وقوة قاهرة وليس لكم ذلك وأنى لكم هذه الغلبة على النّفوذ ، بل أنتم عاجزون عنه وقدم الجن هنا على الإنس لأنهم أقدر على النّفوذ وأقوى من الإنس لا لفضلهم إذ لم يقل أحد به ولهذا قدم الإنس في الآية 88 من سورة الإسراء ج 1 لأنه فيها أقدر من الجن ولو أنه لا قدرة له عليه ، فعلى الّذين يريدون الصّعود إلى القمر أو المريخ كما يزعمون إن الصّعود إليهما بإمكانهم وهما في أقطار السّماء ، والّذين يريدون اختراق القطب المتجمد الذي هو في أقطار الأرض أن يستحضروا ما لديهم من قوة قاهرة للتوصل إلى ذلك ، لأن اللّه تعالى يقول إن هذا النفوذ من الممكنات لا تقدرون عليه إلّا بسلطان ، ومن أين لكم هذا السّلطان الذي ذكره اللّه ، بما يدل على وصفه بالعظمة ، لأن العظيم لا يقوم إليه إلّا شيء عظيم ، وقد صار لهؤلاء المتنطعين مئات السنين وهم يتغنون بالصعود للقمر والمريخ وغيره ويحتجون بأنهم لم

يستكملوا بعد هذه القوة الكافية الدّافعة للوصول إليهما ، ولهذا فيجدر أن يقال لهم إنكم عاجزون عن ذلك ، لأن هذا وإن كان العقل يجوزه بالنسبة لما حدث في هذا القرآن من العجائب والغرائب إلّا أنه متوقف على قوة عظيمة لم يتسن للبشر إدراكها ، وما على البشر بعد بذل جهده ووسعه في ذلك وعدم تمكنه منه إلا أن يظهر عجزه عن ذلك ، وعن القول بأن كلا من هذه الكواكب كرة أرضية مسكونة رجما بالغيب ، لأن أحدا لم يرها ولم يخبر عنها من يؤخذ بقوله من الأنبياء الّذين أطلعهم اللّه على بعض غيبه وأخبروا به قبل وقوعه ، فضلا عن أن كلّ ما لا يرى عيانا يكون من الأمور الحدسية الغالب عليها الكذب ، وما كان كذلك فلا ينبغي للعاقل أن يقطع بصحته "فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ 34 يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ" لهب خالص لا دخان فيه "مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ" دخان محض لا لهب

(62/738)

فيه ، هذا فإن قيل من أين عرف هذا الأوربيون حتى اخترعوا الغيوم من الدّخان وغيره بحيث يمتنعون عن الرّؤية في البر والبحر والسّماء ؟

فالجواب أنهم عرفوه لأنه من لوازم الحياة الدّنيا ، وكلّ ما هو من هذا القبيل قد يطلعهم اللّه عليه .

قال تعالى (يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) الآية 8 من

سورة الرّوم في ج 2 وعند ما يفعل اللّه ذلك بكم أيها الثقلان "فَلا تَنْتَصِرانِ" (35) منه إذ لا يقدر على دفعه عنكم إلّا الذي أرسله عليكم "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (36) فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ" (37) حمراء مذابة كدر ، رديء الزّيت قال تعالى (يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ) الآية 9 من سورة المعارج في ج 2 والمهل هو النّحاس المذاب "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ 38 فَيَوْمَئِذٍ" حين يضيق عليكم في ذلك اليوم العظيم ، فلا تقدرون على الهرب ، ويرسل عليكم لهب النّار ودخلنها وتنهار السّماء "لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ" (39) لأن في هذا الموطن تخرس الألسن وتنطق الجوارح بما فعلت وتنشر الصّحف بما كان من الخلائق ، وقد علم اللّه كلّ ذلك وأعلمه لخلقه ويشتد اهول لما يرى النّاس من قبائح أعمالهم وما يرون من أهوال العذاب الكائن للمجرمين ، وهذا لاينافي قوله تعالى (لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) الآية 92 من سورة الحجر في ج 2 لأن أحوال القيامة مختلفة ، فمرة يسأل فيها النّاس عن أعمالهم ، وأخرى يتخاصمون بينهم ، وتارة يمنعون من الكلام ، وأخرى يسكتون ، وطورا تسأل أعضاؤهم وتارة تنطق بنفسها ، فهو يوم شديد يشيب منه الوليد وترتعد لهوله الفرائض

"فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (40) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ" زرقة عيونهم واسوداد وجوههم ، حمانا اللّه من ذلك "فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي" منهم تارة "وَالْأَقْدامِ" (41) أخرى ويزجون في النّار "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ" (42) ثم يقال لهم من قبل ملائكة العذاب "هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ" (43) أمثالكم تبكيتا وتقريعا لهم "يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ" (44) ماء بالغ أقصى حرارته لأنهم إذا استغاثوا من عذاب النار أغيثوا بالحميم وبالعكس "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ" (45) .

مطلب أن الآيات نقم على أناس ، نعم على آخرين ومزية الخوف من اللّه تعالى :

واعلم أن هذه الآيات من قوله تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ) إلى هنا كما أنها نقم على العصاة هي مواعظ أيضا وزواجر يخوف اللّه بها عباده كي يتباعدوا عن الأسباب المؤدية إليها ، فإذا اتعظوا كانت عليهم نعما ، ولذلك ختمت بالآية المكررة

الواقعة موقع الاستفهام عن نعمه تعالى على عباده .

وبعد أن ذكر جل ذكره ما أوعد به الكافرين أعقبه ببيان ما وعد به المؤمنين فقال "وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ" (46) واحدة لقاء عمله في الدّنيا من طاعة وصدقة وبرّ وتركه المعاصي خوفا من اللّه وعمله الطّاعات طمعا بفضل اللّه ، وأخرى تفضلا منه تعالى إيفاء

بوعده المبين بقوله جل قوله (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ) الآية 27 من سورة يونس في ج 2 ، لأنه لا يخافه حق خوفه إلّا العارف العالم .

(64/738)

قال تعالى (إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ) الآية 28 من سورة فاطر ، والآية 57 من سورة الإسراء في ج 1 الدّالتين على أن الأقرب من اللّه أشد خوفا منه من غيره أخرج الترمذي عن أبي هريرة قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول من خاف أدلج (الإدلاج بالتخفيف السّير أول اللّيل وبالتشديد آخره) ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا ان سلعة اللّه غالية ، ألا إن سلعة اللّه الجنّة .

وروى البغوي بسنده عن أبي ذر أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقص على المنبر وهو يقول (وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ) أي موقفه يوم الحساب بين يدي ربه ، فمن حسب حسابه واتقى ربه في الدّنيا يكون له في الآخرة جنتان ، فقلت وإن زنى وإن سرق يا رسول اللّه ؟ فقال وإن زنى وإن سرق ، ثم قال (لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ) فقلت الثانية وإن زنى وإن سرق ؟ فقال وإن زنى وإن سرق ، ثم قال (وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ) فقلت الثالثة وإن زنى وإن سرق يا لرسول اللّه ؟ قال وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر .

"فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (47) ذَواتا أَفْنانٍ" (48) أغصان مستطيلة كثيرة ، والفنّ الغصن من الشّجرة المستقيمة طولا قال :

ومن كلّ أفنان اللّذاذة والصّبا لهوت به والعيش أخضر ناضر

وفي كلّ غصن من أغصان تلك الجنان فنون من الفواكه ، مما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، ومن هنا أخذ تطعيم الأشجار المتقاربة في الثمر الذي عرفه خبراء الزراعة حديثا وطبقوه ؟ فأمكن لهم أن يطعموا شجرة واحدة بأنواع مما يشابهها فتأكل من الشّجرة الواحدة أصنافا من الفاكهة "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (49) فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ" (50) على أرضهما بلا أخدود الأولى التسنيم المذكورة

في الآية 27 من المطففين المارة في ج 2 ، والثانية السّلسبيل المبين في الآية 19 من سورة الإنسان الآتية

"فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (51) فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ" (52) رطب ويابس كما يوجد الآن في البرتقال فإنه قد يجتمع فيه ثمر السّنة الماضية والحالية وفي الآخرة كلّ أشجارها كذلك فترى فيها العتيق والجديد بآن واحد ، فلا يضر الثمر قدمه ولا يغير لونه

وطعمه بخلاف ما في الدّنيا "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (53) مُتَّكِئِينَ" فيهما "عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ" ديباج ثخين من الحرير وقد أخبرنا اللّه عن البطائن التي تلى الإنسان بأنها من ذلك النّوع فما بالك بالظهائر التي تبرز للعيان ، اللهم أرناها ومتعنا والمؤمنين فيها برضاك المؤدي إليها برحمتك يا أرحم الرّاحمين .

"وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ" (54) قريبا من يد المتناول القاعد والقائم والمضطجع سواسية في تناوله ، لأن الأثمار التي فيها القديم والحديث هي التي تدنو من طالبها حتى تصير أمامه "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (55) فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ" على أزواجهن لا ينظرن غيرهم وجمع الضّمير مع أنه يعود إلى الجنتين ، لأن كلا منهما فيها قصور ومجالس متعددة أو أنه من قبيل إطلاق الجمع على ما فوق الواحد كما مرّ في الآية 78 من سورة الأنبياء في ج 2 وفيما ترشدك إليه "لَمْ يَطْمِثْهُنَّ" يمسسهن وينلهن أو يقربهن "إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ" (56) قال الفرزدق :

خرجن إلي لم يطمثن قبل وهن أصح من بيض النّعام

تشير هذه الآية إلى أن الجن كالإنس في مقاربة النّساء وأن لهم نساء من جنسهم ، وهو كذلك ، لأنهم يتوالدون في الدّنيا .

وقيل إن منهم من يتزوج بإنسي ، كما أن من الإنس من يتزوج بجنية ، ولهذا قالوا إن بلقيس أمها من الجن ، راجع الآية 45 من سورة النّمل في ج 1 "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (57) كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ" (58) صفاء وبياضا وحمرة ، أخرج الترمذي عن ابن مسعود أن النّبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : إن المرأة من نساء أهل الجنّة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة يرى مخها ، وذلك أنك إذا أدخلت سلكا في الياقوت رأيته من ورائه وكذلك سوق النّساء من أهل الجنّة ، وروى البخاري

ومسلم عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أول زمرة تلج الجنّة صورهم على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الّذين يلونهم على أشد كوكب في السّماء إضاءة ، لا يبصقون ولا يمخطون ولا يتغوطون ، آنيتهم من الذهب والفضة وأمشاطهم الذهب ، ومجامرهم الألوة (أي مباخرهم وبخورهم فيها العود ولكن ليس كعود الدّنيا) رشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللّحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلب رجل واحد ، يسبحون اللّه بكرة وعشية ، وزاد البخاري ولا يسقمون .

قال سعيد بن جبير هذا من جملة ما قال تعالى (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) الآية 17 من سورة السّجدة في ج 2 "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ 59 هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ

إِلَّا الْإِحْسانُ" (60) روى البغوي بإسناد الثعلبي عن أنس بن مالك قال قرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان الآية ، ثم قال هل تدرون ما قال ربكم ؟ قالوا اللّه ورسوله أعلم ، قال يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنّة ؟ وذلك لأن من أتى بالحسن يقابل بمثله وأحسن عند أهل الدّنيا للمنصفين فكيف عند رب العالمين

(67/738)

"فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ" (61) وقال بعض المفسرين أن الجنتين المتقدمتين واحدة للإنس وواحدة للجن ، ولكن ما جرينا عليه أولى لما تقدم في الآية 27 من سورة الأعراف ج 1 بأن الجن يكونون بفناء الجنّة .

ثم ذكر اللّه تعالى جنتين أخريين بقوله "وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ" (62) أي أمامها وقبلها أفضل منهما ، لأن الجنتين الأوليين لأصحاب اليمين وهاتين للمقربين اللهم أهلنا لأيهما شئت "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ" (63) روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري أن النّبي صلّى اللّه عليه وسلم قال جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم أن ينظروا إلى ربهم إلّا رداء الكبرياء على وجهه في عدن .

ثم بدأ يصفهما كما وصف أولاهما آنفا فقال "مُدْهامَّتانِ" (64) لشدة خضرتهما صارا يقربان إلى السّواد "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (65) فِيهِما عَيْنانِ نَضّاخَتانِ" (66) فوارتان تدفعان الماء إلى العلو مثل المضخات الموجودة الآن ، ولكن هذه بآلة وتعب وتكاليف ومعرضة

للخراب ولمسافة معلومه وتلك بقدرة القادر أبدية طبيعية مسافتها كما يشتهي طالبها والنّاظر إليها إن أراد أن ترتفع مدى النّظر ارتفعت وإن أراد أن تنحط انحطت حسبما يستحسنه الرّائي ويتمناه المتمني ولا تحتاج إلى شيء "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (67) فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ" (68) ومن أنواعهما ألوان ، وإنما خصهما لأن التمر فاكهة وغداء والرّمان فاكهة ودواء وفائدة عطفهما على الفاكهة مع دخولهما فيها لما ذكرنا ولفصلها على جميع الفواكه كما يشير إليه تنوين التنكير فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (69) فِيهِنَّ خَيْراتٌ" بالأخلاق والآداب حِسانٌ" (70) بالوجوه وتناسب الأعضاء ويظهرن لأزواجهن حسبما يرغبون

(68/738)

و هذا من بعض نعم ربك عليك أيها الإنسان "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ" (71) وهؤلاء الموصوفات "حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ" (72) المنسوجة من الذهب والفضة الموشاة باللؤلؤ والدّرر والزبرجد والمرجان وغيرها ، لا يخرجن منها لكرامتهن وشرفهن يبقين في خدورهن ، وهذه الخيام ليست كخيام الدّنيا لأنها واسعة مدى النظر ، وفيها الجنان والمياه ومحال التنزه غير السّكن .

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : إن للمؤمن في الجنّة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السّماء ، وفي رواية عرضها ستون ميلا للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم ، فلا يرى بعضهم بعضا "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ" (73) وهؤلاء الحسان أيضا كالأول من حيث "لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ" (74) أي قبل زواجهن أي أنهن أبكار ولا يعدهن أيضا لأنهم لا يتركونهن ولا يطلقونهن وحذف من الثاني بدلالة الأوّل كما يحذف من الأوّل بدلالة الثاني ، راجع الآية 35 من سورة الرّعد المارة "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (75) مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ" وسائد "خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ" (76) أي زرابي وطنافس جميلة جدا وكلّ نفيس جميل تسمية العرب عبقري نسبة إلى عبقر ، قيل هي أرض تسكنها الجن ، فصارت مثلا لكل منسوب إلى شيء رفيع فاخر عجيب ، وذلك أن العرب تعتقد في الجن كلّ صنعة غريبة ، وينسبون كلّ شيء عجيب إليهم لاعتقادهم بأنهم يأتون بكل عجيب لما بلغهم عن أعمالهم لسيدنا سليمان

عليه السّلام المشار إليها في الآية 39 من سورة النّمل ج 1 والآية 12 من سورة سبأ ج 2 وغيرهما من المواضع ، حتى إنهم ينسبون الرّجل الطّيب لها فيقولون فلان عبقري ، والقرآن نزل بلغتهم ، وحتى الآن يضرب المثل بهذه الكلمة لكل ما يستحسن "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (77) تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ" (78) ختم جل جلاله نعم الآخرة بهذه الآية الجليلة إشارة إلى تمجيده وتحميده ، كما ختم نعم الدّنيا المتقدمة بمثلها إعلاما بأنه الباقي وإنها فانية ولا يخفى أن وصف الجنتين الأخيرتين أبلغ وأعظم من الأوليين وما فيهما ، كذلك لأنهما للمقربين وهم أقوم وأقدس من أصحاب اليمين كما علمت ، روى مسلم عن ثوبان قال كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر اللّه ثلاثا وقال اللهم أنت السّلام ومنك السّلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام .

وأخرج أبو داود والنّسائي مثله بزيادة لم يقعد بعد السّلام إلّا مقدار ما يقول اللّهم أنت السّلام إلى آخره .

ولذلك ذهب أبو حنيفة إلى سنة قراءة الأوراد الواردة بعد الصّلوات بعد أداء السّنة إذ لم يثبت لديه أنه صلّى اللّه عليه وسلم قعد بين الفريضة والسّنة بأكثر من ذلك وذهب الإمام

الشّافعي إلى قرائتها بين الفريضة والسّنة لأنه صلّى اللّه عليه وسلم فصل بينهما بتلك الكلمات ، ولكل وجهة .

واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلّا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين إلى يوم الدّين .

والحمد للّه رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 6 صـ 55 . 67 ﴾

(70/738)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سُورَةُ الرَّحْمَن جلّ وَعلا

مكية وقيل إلا قوله يسأله من في السموات والأرض فمدني

علم القرآن كاف البيان تام بحسبان كاف يسجدان حسن حسن وكذا في الميزان والميزان وقال أبو عمرو في الأول كاف وفي الثاني تام للانام صالح والريحان كاف تكذبان وقال أبو عمرو وكذا ما في السورة من ذلك وخالف الأصل في ذلك كما ستراه كالفخار كاف وكذا من نار تكذبان تام المغربين كاف تكذبان تام يلتقيان كاف وكذا إلا يبغيان وتكذبان

والمرجان تكذبان تام وكذا كالأعلام وتكذبان وقيل والإكرام كاف وعليه جرى الأصل من في السموات والأرض حسن في شأن كاف تكذبان تام وكذا فأنفذوا بسلطان كاف وكذا تكذبان فلا تنتصران تام وكذا تكذبان كالدهان كاف وكذا تكذبان ولا جان تكذبان تام والإقدام كاف تكذبان تام حميم آن كاف تكذبان جنتان كاف وكذا تكذبان لكن الاحسن أن تصله بما بعده لأن قوله ذواتا أفنان من صفة الجنتين أفنان كاف وكذا تكذبان وتحريان وتكذبان ومن استرق ودان وتكذبان والاحسن أن تصله بما بعده لأن قوله كأنهن الياقوت من صفة قاصرات الطرف المرجان كاف تكذبان تام الإحسان كاف تكذبان تام جنتان كاف وكذا تكذبان والأحسن أن نصله بما بعده لأن قوله مدهامتان من صفة الجنتين تكذبان كاف وكذا نضاختان وتكذبان وحسان وتكذبان ولاجان وتكذبان آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(71/738)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سُورَةُ الرَّحْمَن جلّ وَعلا

مكية قيل إلاَّ قوله يسأله من في السموات والأرض فمدني وكلمها ثلاثمائة وإحدى وخمسون

كلمة وحروفها ألف وستمائة وأحد وثلاثون حرفاً وآيها ست أو سبع أو ثمان وسبعون آية

علم القرآن (كاف) لأنَّ الرحمن مبتدأ أو علم القرآن خبره

البيان (تام)

بحسبان (كاف)

يسجدان (تام)

رفعها (جائز) كذا قيل . ووضع الميزان ليس بوقف لمن جعل معنى أن معنى أي وجعل لا ناهية كأنَّه قال أي لا تطغوا في الميزان وزعم بعض أنَّ من جعل لا ناهية لا يقف على الميزان قال لأنَّ الأمر يعطف به على النهي وهذا القول غير جائز لأنَّ فعل النهي مجزوم وفعل الأمر مبني إذا لم يكن معه لام الأمر قاله العبادي

ألاَّ تطغوا في الميزان (كاف)

ولا تخسروا الميزان (تام)

للأنام (كاف) على استئناف ما بعده وجائز إن جعل حالاً من الأرض أي كائنة فيها أي مفكهة بما فيها للأنام

الأكمام (كاف) والأكمام جمع كم بالكسر والكم وعاء الثمرة وهو كاف لمن قرأ والحب والعصف والريحان بالنصب وهي قراءة ابن عامر وأهل الشام لأنَّ والحب ينتصب بفعل مقدر كأنَّه قال وخلق فيها الحب ذا العصف والريحان والعصف التبن وليس الأكمام بوقف

لمن قرأ والحب ذو العصف والريحان بالرفع وكان وقفه على والريحان وهو تام سواء قرئ بالرفع أو بالنصب أو بالجر

تكذِّبان (تام) ومثله في جميع ما يأتي وكذا يقال فيما قبله إلاَّ ما استثني يأتي التنبيه عليه كالفخار (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن عطف على ما قبله إلاَّ أن يجعل من عطف الجمل فيكفي الوقف على ما قبله وكذا من نار

تكذبان (تام) إن رفع رب على الابتداء وكاف إن رفع بإضمار مبتدأ وليس بوقف إن رفع بدلاً من الضمير في خلق ومثله في عدم الوقف إن جرَّ بدلاً أو بياناً من ربكما وبها قرأ ابن أبي عبلة فلا يفصل بين البدل والمبدل منه بالوقف لأنَّهما كالشيء الواحد

المغربين (كاف)

تكذبان (تام)

(72/738)

يلتقيان (كاف) ومثله لا يبغيان وكذا تكذبان والمرجان

تكذبان (تام)

كالأعلام (كاف) ومثله تكذبان وفان الأولى وصله حكي عن الشعبي أنَّه قال إذا قرأت كل

من عليها فان فلا تقف حتى تقول ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام قاله عيسى بن عمز لأنَّ تمام الكلام في الإخبار عن بقاء الحق سبحانه وتعالى بعد فناء خلقه فإن قيل أي نعمة في قوله كل يوم هو في شأن قيل الانتقال من دار الهموم إلى دار السرور

من في السموات والأرض (تام) عند أبي حاتم ثم يبتدئ كل يوم هو في شان وقال الأخفش التَّام على شأن وقال يعقوب التَّام كل يوم ثم يبتدئ هو في شان قال أبو جعفر أما قول يعقوب فهو مخالف لقول الذين شاهدوا التنزيل لأنَّ ابن عباس قال خلق الله لوحاً محفوظاً ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة فهذا يدل على أنَّ التامّ كل يوم هو في شأن غير أنَّ قول يعقوب قد روى نحوه عن أبي نهيك قال يسأله من في السموات والأرض كل يوم وربنا في شأن وأما قول الأخفش إنَّ التامّ على شأن فصحيح على قراءة من قرأ سنفرغ بالنون والراء مضمومة وبها قرأ الأخوان أو على ما قرئ شاذاً سيفرغ بضم الياء وفتح الراء وأما من قرأ سيفرغ بفتح الياء وضم الراء وهي قراءة الباقين والراء مضمومة في القراءتين فالوقف على الثقلان ونصب كل على الظرفية والعامل فيها العامل في شأن أو هو مستقرّ المحذوف وفي الحديث من شأنه أن يغفر ذنباً ويكشف كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين

ورسموا أيه بغير ألف بعد الهاء كما ترى

تكذبان (تام) ومثله فانفذوا

بسلطان (كاف) ومثله تكذبان

من نار ليس بوقف على القراءتين قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونحاس بالجر عطفاً على نار

والباقون بالرفع عطفاً على شواظ

فلا تنتصران (تام) ومثله تكذبان

كالدهان (كاف) وقيل لا يوقف عليه ولا على تكذبان بعده لأنَّ قوله فيومئذ ر يسئل عن

ذنبه جواب قوله فإذا انشقت فلا يفصل بين الشرط وجوابه بالوقف

تكذبان (كاف) ومثله ولا جان

تكذبان (تام)

(73/738)

والإقدام (كاف)

تكذبان (تام)

آن (كاف)

تكذبان (تام)

جنتان لا يوقف عليه ولا على تكذبان لأنَّ قوله ذواتا أفنان من صفة جنتان فلا يفصل بين

الصفة والموصوف وكاف إن جعلتا خبر مبتدأ محذوف أي هما ذواتا ورسموا ذواتا بألف

بعد التاء كما ترى لأنَّ المثنى المرفوع يكتب بالألف

تكذبان (كاف) ومثله تجريان وتكذبان وزوجان ولا يوقف على تكذبان إن جعل متكئين حالاً من قوله ولمن خاف مقام ربه جنتان فكأنَّه قال ولمن خاف مقام ربه جنتان ثم وصفهما في حال اتكائهما وإن نصب متكئين بفعل مقدر أي أعني أو أذكر كان كافياً وقول من قال كل ما في هذه السورة من قوله فبأي آلاء ربكما تكذبان تام وكذا ما قبله فليس بشيء والتحقيق خلافه والحكمة في تكرارها في أحد آلاء ربكما تكذبان تام وكذا ما قبله فليس بشيء والتحقيق خلافه والحكمة في تكرارها في أحد وثلاثين موضعاً أنَّ الله عدد في هذه السورة نعماءه وذكر خلقه آلاءه ثم اتبع كل خلة وصفها ونعمة ذكرها بذكر آلائه وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النهم ويقررهم بها فهي باعتبار بمعنى آخر غير الأوّل وهو أوجه وقال الحسن التكرار للتأكيد وطرد الغفلة اهـ نكزاوي

من إستبرق (جائز) عند بعضهم وجنى الجنتين دان مبتدأ وخبر و قرئ وجِنى بكسر الجيم دان (كاف) ومثله تكذبان ولا وقف من قوله فيهن قاصرات إلى والمرجان فلا يوقف على قوله ولا جان ولا على تكذبان لأنَّ قوله كأنَّهن الياقوت من صفة قاصرات الطرف

المرجان (كاف)

تكذبان (تام) للاستفهام بعده

إلاَّ الإحسان (كاف)

تكذبان (تام)

جنَّتان (كاف) تكذبان الأولى وصله بما بعده لأنَّ قوله مدهامَّتان من صفة الجنتين

تكذبان (تام)

نضاختان (كاف)

تكذبان (تام)

ورمان (كاف)

تكذبان (تام)

حسان ليس بوقف ومثله تكذبان لأنَّ قوله حورٌ نعت خيرات أو بدل

في الخيام (كاف) وقيل لا يوقف عليه حتى يصله بقوله لم يطمثهنَّ

ولا جان (كاف)

(74/738)

تكذبان (تام) إن نصب متكئين على الاختصاص وليس بوقف إن نصب حالاً أو نعتاً لمتكئين الأول وعليه فلا يوقف على شيء من متكئين الأوَّل إلى هذا الموضع لاتصال الكلام بعضه ببعض

وعبقريّ حِسان (تام) ومثله تكذبان

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(75/738)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الرحمن جل وعز :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ أبو السمال : "وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا 1" ، رفع .

قال أبو الفتح : الرفع هنا أظهر قراءة الجماعة ؛ وذلك أنه صرف إلى الابتداء ؛ لأنه عطفه على الجملة الكبيرة التي هي قوله "تعالى" : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ 2 ﴾ ، فكما أن هذه الجملة مركبة من مبتدأ وخبر ، فكذلك قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ جملة من مبتدأ وخبر ، معطوفة على قوله : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ .

وأما قراءة العامة بالنصب : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ فإنها معطوفة على "يسجدان" وحدها ، وهي جملة من فعل وفاعل ، والعطف يقتضي التماثل في تركيب الجمل ، فيصير

تقديره : يسجدان ، ورفع السماء . فلما أضمر "رفع" فسره بقوله : "رفعها" ، كقولك : قام زيد ، وعمرا ضربته ، أي : وضربت عمرا ؛ لتعطف جملة من فعل وفاعل على أخرى مثلها .

وفي نصب "السماء" على قراءة العامة رد على أبي الحسن في امتناعه أن يقول : زيد ضربته وعمر كلمته ، على أن يكون تقديره : وكلمت عمرا ، عطفا على ضربته ، قال : لأن قولك : "ضربته" جملة ذات موضع من الإعراب ؛ لكونها خبر مبتدأ ، وقولك : وكلمت عمرا لا موضع لها من الإعراب ؛ لأنها ليست خبرا عن زيد ؛ لخلوها من ضميره ، قال : فلا يعطف جملة غير ذات موضع على جملة ذات موضع ؛ إذ العطف نظير التثنية ، فينبغي أن يتناسب المعطوف والمعطوف عليه .

وهذا ساقط عند 3 سيبويه ؛ وذلك أن ذلك الموضع من الإعراب لما لم يخرج إلى اللفظ سقط حكمه ، وجرت الجملة ذات الموضع كغيرها من الجملة غير ذات الموضع ، كما أن الضمير

---

1 سورة الرحمن : 7 .

2 سورة الرحمن : 6 .

3 فلي نسختي الأصل : عن ، وهو تحريف .

في اسم الفاعل لما لم يظهر إلى اللفظ جرى مجرى [155و] ما لا ضمير فيه ، فقيل : في تثنيته : قائمان ، كما قيل : فرسان ورجلان ، بل إذا كان اسم الفاعل قد يظهر ضميره إذا جرى على غير من هو له ، ثم أجرى مع ذلك مجرى ما لا ضمير فيه لما لم يظهر في بعض المواضع – كان ما لا يظهر فيه الإعراب أصلا أحرى بأن يسقط الاعتداد به ، والكلام هنا فيه طول ، وهذا كتاب شرطنا فيه اختصاره ؛ ليقرب على القرأة فهمه ، فمنع ذلك من تقصيه وإغراق مدى القول فيه .

ومن ذلك قراءة بلال بن أبي بردة1 : "وَلا تُخْسِرُوا2" ، بفتح التاء والسين .

وقرأ بلال أيضا : "وَلا تُخْسِرُوا" ، من خسر يخسر ، بخلاف .

قال أبو الفتح : أما تخسروا – بفتح التاء والسين – فينبغي أن يكون على حذف حرف الجر ، أي : تخسروا في الميزان ، فلما حذف الجر أفضى إليه الفعل قبله ، فنصبه ؛ كقوله "تعالى" : ﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ3 ﴾ ، أي : في كل مرصد ، وعلى كل مرصد ، وكقوله :

بأسرع الشد مني يوم لانية لما لقيتهم واهتزت اللمم4

أراد بأسرع في الشد ، فحذف الحرف وأوصل "أسرع" ، أو فعلا دل عليه أسرع هذه5 .

وأما "تخسروا" ، بفتح التاء ، وكسر السين فعلى خسرت الميزان ، وإنما المشهور أخسرته . خسر الميزان ، أي : نقص ، وأخسرته . ويشبه أن يكون لغة في أخسرته ، كما يشترك فيه فعلت وأفعلت من المعنى الواحد ، نحو أجبرت الرجل وجبرته ، أهلكت الشيء هلكته .

---

1 هو بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ، من الطبقة الخامسة من التابعين ، ولي قضاء البصرة إلى سنة 120 ، فعزله يوسف بن عمر . ويروى أنه أول من أظهر الجور من القضاة في الحكم . ومات سنة نيف وعشرين ومائة في سجن يوسف بن عمر فيما يروى . وانظر الخزانة : 1 : 451 .

2 سورة الرحمن : 9 .

3 سورة التوبة : 5 .

4 لمالك بن خالد الخناعي . وأنشد : العدو . والنية : الفترة والتعب ، مصدر وفي اللسان "شد" .

5 في اللسان "شد" أيضا : يريد بأسرع شدا مني ، فزاد اللام كزيادتها في بنات الأوبر .

ومن ذلك قراءة عيسى الثقفي : "سَنَفْرُغُ1 لَكُمْ" ، بكسر النون ، وفتح الراء .

وقرأ : "سَنَفْرُغُ لَكُمْ" ، بفتح النون والراء – قتادة ويحيى بن عمارة الزارع والأعمش – بخلاف – وابن إدريس .

وقرأ : "سَنَفْرُغُ لَكُمْ" ، بنصب الياء والراء أبو عمرو والأعرج.

أبو حاتم عن الأعمش : "سَنَفْرُغُ لَكُمْ" .

قال أبو الفتح : يقال : فرغ يفرغ كدفع يدفع ، وفرغ يفرغ كذبغ يدبغ ، وفرغ يفرغ كلثغ يلثغ .

وأما "سَيَفْرُغُ" ، بالياء فالفاعل فيه اسم الله تعالى .

و"سَيَفْرُغُ" واضح .

ومن ذلك قراءة ابن أبي بكرة : "وَنَحُسٌّ2" ، بفتح النون ، وضم الحاء ، وتشديد السين ، رفع .

قال أبو الفتح : "نَحُسٌّ" ، أي : نقتل بالعذاب . يقال : حس القوم يحسهم حسا : إذا استأصلهم . قال الله "تعالى" : ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُم3 ﴾ ، أي : تقتلونهم قتلا ذريعا .

ومن ذلك قراءة ابن محيصن : "مِنْ إِسْتَبْرَق4" ، بالوصل .

قال أبو الفتح : هذه صورة الفعل البتة ، بمنزلة استخرج ، وكأنه سمى بالفعل وفيه ضمير الفاعل ، فحكى كأنه جملة ، وهذا باب إنما طريقه في الأعلام ، كتأبط شرا ، وذري حبا ، وشاب قرناها . وليس الإستبراق علما يسمى بالجملة ، وإنما هو قولك : بزيون5 . وعلى

أنه إنما استبرق : إذا بلغ فدعا البصر إلى البرق وقال :

تستبرق الأفق الأقصى إذا ابتسمت لاح السيوف سوى أغمادها القضب6

---

1 سورة الرحمن : 31 .

2 سورة الرحمن : 35 ، ولآية في قراءة الجماعة : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ .

3 سورة آل عمران : 152 .

4 سورة الرحمن : 54 .

5 البزيون : السندس .

6 رواه اللسان "برق" ولم ينسبه ، وفيه "يستبرق" بالياء ، وقال في تفسيرها : استبرق المكان : إذا لمع بالبرق ، وضبط "الأفق" بالضم . وفيه "لمع" مكان "لاح" ، وجر السيوف بالإضافة . وقد اثبت في هامش نسختي الأصل "لمع السيوف" والقضب : جمع القضيب ، وهو السيف القاطع .

[هذا إن شئت قلت : معناه تستبرق أبصار أهل الأفق وإن شئت قلت : تبرقه ، أي : تأتي بالبرق منه1] .

وأما البزيون فبعيد عن هذا ، اللهم إلا أن نقول : إنه لمائه2 وصنعته تستبرق ، أي : تبرق فيكون [155ظ] كفر واستقر . ولست أدفع أن تكون قراءة ابن محيصن بهذا ، لأنه توهم فعلا ، وإذ كان على وزنه ، فتركه مفتوحا على حاله ، كما توهم الآخر أن ملك الموت من معنى الملك حتى قال :

فمالك موت بالقضاء دهاني

فبني منه صورة فاعل من الملك ، وهذا أسبق ما فيه إلي .

ومن ذلك قراءة الحسن وعمرو بن عبيد : "وَلا جَأن3" ، بالهمز .

قال أبو الفتح : قد تقدم القول على هذا . لما حرك الألف لالتقاء الساكنين همزها ، كقراءة أيوب السختياني : "وَلا الضَّالِّين4" .

ومن ذلك قراءة النبي "صلى الله عليه وسلم" وعثمان ونصر بن علي والجحدري وأبي الجلد ومالك بن دينار وأبي طعمة وابن محيصن وزهير الفرقبي : "رَفْارَفٍ خُضْرٍ وَعَبْاقَرِيٍّ حِسَانٍ5" .

وقرأ : "خُضُرا" ، مثقلا – الأعرج.

قال أبو الفتح : كذلك رويته عن قطرب : "عَبَاقِرِيّ" ، بكسر القاف غير مصروف .

وروينا ه عن أبي حاتم : "عَبْاقَرِيٍّ" ، بفتح القاف غير مصروف أيضا .

قال أبو حاتم : ويشبه أن يكون عباقر بكسر القاف على ما يتكلم به العرب ، قال : ولو قالوا : عباقري6 ، فكسروا القاف ، وصرفوا لكان أشبه بكلام العرب ، كالنسب إلى مدائن

---

1 ما بين المعقوفين ساقط في ك .

2 لمائه : لرونقه .

3 سورة الرحمن : 56 .

4 انظر الصفحة 46 وما بعدها من الجزء الأول .

5 سورة الرحمن : 76 .

6 في ك : عباقر ، وهو تحريف .

مدائني ، قال : وقال سعيد بن جبير : رفارف : رياض الجنة1 ، قال : وعبقر : موضع

قال امرؤ القيس :

كأن صليل المرحين تشذه صليل زيوف ينتقدن بعبقرا2

وقال زهير :

بخيل عليها جنة عبقرية جديرون يوما أن ينالوا فيستعلوا3

وأما ترك صرف "عباقري" فشاذ في4 القياس ، ولا يستنكر شذوذه في القياس ما استمراره في الاستعمال ، كما جاء عن الجماعة : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ5 ﴾ ، وهو شاذ في القياس ما استمراره في الاستعمال . نعم ، إذا كان قد جاء عنهم عنكبوت وعناكيب ، وتخربوت6 وتخاربيت – كان عباقري أسهل منه ؛ من حيث كان فيه حرف مشدد ، يكاد يجري مجرى الحرف الواحد ومع ذلك أنه في آخر الكلمة ، كياءي بخاتي7 وزرابي8 .

وليس لنا أن نتلقى قراءة رسول الله "صلى الله عليه وسلم" إلا بقبولها ، والاعتراف لها .

وأما "خضر" بضمخ الضاد فقليل ، وهذا من مواضع الشعر كما قال طرفة :

ورادا وشقر9

بضم القاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 301. 305 ﴾

---

1 ذكره في البحر "8 : 199" ، وزاد : من رف البيت : تنعم ، وحسن .

2 روى "نظيره" مكان "تشذه" ، وتشذه تفرقه : والصليل : الصوت . والمرو : حجارة بيض براقة تورى النار ، أو أصلب الحجارة . والزيوف : الدراهم الرديئة . وضمير "تطير" للناقة ، يريد أنها في سرعتها تنثر الحجارة بأخفافها ، فيقع بعضها على بعض ، فإذا لها صوت كصليل الدراهم الزيوف إذا انتقدها الصيرف . وخص الزيوف لأن صوتها أشد

بكثرة ما فيها من النحاس . وانظر الديوان : 64 .

4 يروى "ويستعلوا" مكان "فيستعلوا" ، والبيت من قصيدة للشاعر في مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف . وجنة : جمع جن . وعبقرية : منسوبة إلى عبقر : أرض ، أو قرية يسكنها الجن فيما يزعمون . ويستعلوا : يظفروا ، ويعلوا . انظر الديوان : 103 .

4 ساقطة في ك .

5 سورة المجادلة : 19 .

6 التخربوت : الخيار الفارغة من النوق .

7 البخاتي : الإبل الخراسانية ، الواحدة بختية .

8 الزرابي : النمارق والبسط ، أو كل ما بسط واتكئ عليه ، الواحد زربى ، بالكسر ، ويضم .

9 انظر الصفحة 161 من الجزء الأول .

(80/738)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الرحمن عز وجل

مكية في قول الجمهور مدنية وآيها سبعون وست بصري وسبع حجازي وثمان كوفي وشامي خلافها خمس الرحمن كوفي وشامي خلق الإنسان الأول تركها مدني للأنام تركها مكي شواظ من نار حجازي بها المجرمون تركها بصري مشبه الفاصلة اثنان خلق الإنسان الثاني رب المشرقين وعكسه خلق الإنسان الأول القراآت نقل (القران) ابن كثير

واختلف في ( ) والحب ذو العصف والريحان ( ) الآية 12 فابن عامر بالنصب في الثلاثة على إضمار فعل أي أخص أو خلق أو عطفا على الأرض وذا صفة الحب وقرأ حمزة والكسائي وخلف برفع الأولين أعني الحب وذو وجر الريحان عطفا على العصف وافقهم الأعمش والباقون بالرفع في الثلاثة عطفا على المرفوع قبله أي فيها فاكهة وفيها الحب وذو صفته وأبدل الأصبهاني همز (فبأي) ياء مفتوحة جميع ما في هذه السورة وسبق الخلاف عن الأزرق في تغليظ لام (صلصال) وإن كانت ساكنة لوقوعها بين صادين ورجح الترقيق في الطيبة قال في النشر وهو الأصح رواية وقياسا حملا على سائر اللامات السواكن وأمال (كالفخار) أبو عمرو وابن ذكوان بخلفه والدوري عن الكسائي وقلله الأزرق وعن الحسن (الجان) كل ما في هذه السورة بحذف الألف وبالهمزة بعد الجيم ومر بالحجر

واختلف في (يخرج) الآية 22 فنافع وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بضم الياء وفتح الراء مبنيا للمفعول وافقهم اليزيدي والباقون بفتح الياء وضم الراء مبنيا للفاعل على المجاز وأبدل همزة اللؤلؤ الأولى واوا ساكنة أبو عمرو بخلف وأبو بكر وأبو جعفر ويوقف عليه

لحمزة بإبدال الأولى كأبي عمرو وأما الثانية فكذلك على القياس أو واوا مضمومة كما مر ثم تسكن للوقف فيتحدان لفظا ويجوز الروم والإشمام على ما تقدم والرابع بين بين على ما تقدير روم حركة الهمزة وكذا هشام بخلفه في الثانية

(81/738)

وأما الجوار) الدوري عن الكسائي ووقف يعقوب عليها بالياء وعن الحسن رفع رائه والجمهور على كسرها لأنه منقوص على فواعل والياء محذوفة لالتقاء الساكنين وقراءة الرفع لتناسي المحذوف

واختلف في (المنشآت) الآية 24 فحمزة وأبو بكر بخلف عنه بكسر الشين اسم فاعل من أنشأ أوجد أي منشىء الموج أو السير على الاتساع أو من أنشأ شرع في الفعل أي المبتدآت أو الرافعات الشرع وافقهم الأعمش والباقون بالفتح اسم مفعول أي أنشأ الله أو الناس وبه قرأ أبو بكر من طريق العلمي وقطع له بالأول جمهور العراقيين من طريقيه وبالوجهين جميعا جمهور المغاربة والمصريين وهما في الشاطبية كأصلها والطيبة وعن ابن محيصن فان بالياء بعد النون وقفا وأمال ويبقى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وأمال الإكرام معا ابن ذكوان من طريق هبة الله عن الأخفش وأبدل همز شأن الأصبهاني وأبو عمرو بخلفه

وأبو جعفر كوقف حمزة

واختلف في ( ) سنفرغ لكم ( ) الآية 31 فحمزة والكسائي وخلف بالياء على أنه مسند إلى ضمير اسم الله تعالى المتقدم وافقهم الأعمش والباقون بالنون على أنه مسند للمتكلم العظيم

وقرأ ﴿ أية الثقلان ﴾ الآية 31 بضم الهاء وصلا ابن عامر ووقف عليها بالألف على الأصل أبو عمرو والكسائي ويعقوب والباقون بحذف الألف مع سكون الهاء للرسم

واختلف في (شواظ) الآية 35 فابن كثير بكسر الشين وافقه ابن محيصن والأعمش والباقون بضمها لغتان

(82/738)

واختلف في (ونحاس) الآية 365 فابن كثير وابو عمرو وروح بخفض السين عطفا على نار وافقهم ابن محيصن واليزيدي والحسن وعن الحسن ونحس بفتح النون وسكون الحاء بلا ألف والباقون كقراءة ابن كثير لكن برفع السين عطفا على شواظ وعن الشنبوذي (يطوفون) الآية 44 بفتح الطاء والواو المشددتين وأمال خاف حمزة وحذف أبو جعفر همز متكين كوقف حمزة والقياس بين بين وأما الإبدال فضعيف وضم يعقوب الهاء من فيهما في المواضع

الأربعة وقرأ رويس بالنقل) من إستبرق ( ) موافقه لورش أي بنقل كسر الهمزة إلى النون قبلها فيلفظ بها مكسورة وأمال وجنى الجنتين وقفا حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

واختلف في ( ) لم يطمثهن ( ) الآية 56 في الموضعين فالكسائي بضم الميم في الأول فقط فيما رواه كثير من الأئمة عنه من روايتيه وخصه آخرون بالدوري وروى آخرون

(83/738)

كسر الأول وضم الثاني عن أبي الحارث وروى بعضهم عن أبي الحارث الكسر فيهما معا وروى بعضهم عنه ضمهما وروى ابن مجاهد الضم والكسر فيهما لا يبالي كيف يقرؤهما وروى الأكثرون التخيير في إحداهما عن الكسائي من روايتيه بمعنى أنه إذا ضم الأول كسر الثاني وإذا كسر الأول ضم الثاني والوجهان من التخيير وغيره ثابتان عن الكسائي نصا وأداء كما في النشر قال الجعبري وحاصله أنه نقل عن الكسائي ثلاثة مذاهب ضم الأول وكسر الثاني من الروايتين والتخيير بينهما وكسر الأول وضم الثاني من رواية الليث وإذا أردت جمعها في التلاوة فاقرأ الأول بالضم ثم بالكسر والثاني بالكسر ثم بالضم والباقون بكسرها فيهما وهما لغتان في مضارع طمث كلمز وأصل الطمث الجماع المؤدي إلى خروج

دم البكر ثم أطلق على كل جماع وقيل الطمث دم الحيض والمعنى أن الإنسيات لا يمسها إنس ولا الجنات لا يمسها جن لأن الجن لهم قاصرات الطرف من نوعهم في الجنة نفي الافتضاض عن الإنسيات والجنيات وضم الهاء من فيهن معا يعقوب ويقف عليها بهاء السكت لكن بخلف عنه ومر التنبيه على ضمة هاء فيهما وعن ابن محيصن على رفارف بفتح الفاء وألف بعدها وكسر الراء الثانية وفتح الفاء من غير تنوين غير منصرف بصيغة منتهى الجموع عباقري بألف بعد الباء وكسر القاف وفتح الباء بلا تنوين ممنوعا من الصرف وكأنه لمجاورة رفارف وإلا فلا مانع من تنوين ياء النسب كما نبه عليه السمين

واختلف في ( ) ذي الجلال (لآية 78 آخر السورة فابن عامر ﴿ ذو ﴾ بالواو صفة للاسم والباقون بالياء صفة للرب فإنه هو الموصوف بذلك وخرج الأول المتفق على قراءته لأنه نعت للوجه واتفقت عليه المصاحف ومر قريبا التنبيه على إمالة الإكرام لابن ذكوان بخلفه

(84/738)

المرسوم الجحدري كل لؤلؤ في القرآن بألف في الإمام سوى البقية وكتب في الشامي ذا العصف بألف وكتب فيه أيضا ذو الجلال آخر السورة بالواو واختلف في إثبات ألف تكذبان كل ما في الرحمن وكتبوا في العراقية المنشيت بياء بغير ألف بين الشين والتاء وفي

غيرها بلا ياء ولا ألف وكتبوا بالتواصي بالياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(85/738)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

سُورَةُ الرَّحْمَن جلّ وَعلا

" القرآن " تخسروا اللؤلؤ ، والإكرام معا ، شأن ، تنتصران ، ولمن خاف ، فيهما كله

فيهن قاصرات ، خيرات ، متكئين ، رفرف خضر ، جلي .

" والحب ذو العصف والريحان " قرأ ابن عامر بنصب الباء الموحدة والذال وألف بعدها

تحذف وصلا وتثبت وقفا وبنصب النون والأخوان وخلف برفع الباء والذال وواو بعدها

تحذف وصلا وتثبت وقفا وخفض النون والباقون برفع الثلاثة .

" صلصال " لا تغليظ في اللام لورش لسكونها .

" يخرج " قرأ المدنيان والبصريان بضم الياء وفتح الراء وغيرهم بفتح الياء وضم الراء .

" وله الجوار " إذا وقف عليه فيعقوب بالياء وغيره بحذفها .

" المنشآت " قرأ حمزة وشعبة بخلف عنه بكسر الشين وغيرهما بفتحها وهو الوجه الثاني

لشعبة ويقف عليه حمزة بوجه واحد وهو إبدال الهمزة ياء خالصة .

" سنفرغ " قرأ الأخوان وخلف بالياء المثناة التحتية والباقون بالنون .

" أيه الثقلان " قرأ ابن عامر بضم الهاء وصلا وغيره بفتحها كذلك فإن وقف عليه فالبصريان والكسائي وغيرهم على الهاء مسكنة .

" شواظ " كسر الشين المكي وضمها غيره .

" ونحاس " قرأ ابن كثير وأبو عمرو وروح بخفض السين والباقون برفعها .

" من إستبرق " وافق رويس ورشا على نقل حركة الهمزة إلى النون وحذف الهمزة .

(86/738)

" لم يطمثهن معا " يؤخذ من الشاطبية أن للكسائي من روايتيه ثلاثة مذاهب ، المذهب الأول: ضم اللفظ الأول وكسر الثاني من رواية الدوري وكسر الأول وضم الثاني من رواية أبي الحارث ، ويؤخذ هذا المذهب من قوله . وكسر ميم يطمث إلخ وقوله: وقال به الليث في الثاني إلخ . وقد قرأ الداني بهذا المذهب على شيخه طاهر بن غلبون . المذهب الثاني: ضم الأول وكسر الثاني لكل من الدوري وأبي الحارث ويؤخذ هذا المذهب من قوله: وكسر ميم يطمث: وقوله: ونص الليث إلخ . والحاصل أنه لما أمر بضم الأول ، أي مع

كسر الثاني للدوري ثم أخبر بأن شيوخا ذهبوا إلى ضم الثاني وحده . أي مع كسر الأول لأبي الحارث ثم أخبر بأن النص عن أبي الحارث ورد بضم الأول تحصل منه المذهبان المذكوران فكأنه قال: اقرأ للدوري بضم الأول وكسر الثاني واقرأ الثاني واقرأ لأبي الحارث بأحد وجهين ، ضم الثاني مع كسر الأول فيكون مخالفا للدوري في الموضعين ، وهذا هو المذهب الأول . أو ضم الأول وكسر الثاني فيكون موافقا له فيهما وهذا هو المذهب الثاني وقد قرأ الداني بهذا المذهب على شيخه أبي الفتح فارس . المذهب الثالث التخيير لكل من الراويين في ضم أحدهما بمعنى أنه إذا ضم الأول كسر الثاني وإذا كسر الأول ضم الثاني ويؤخذ هذا المذهب من قوله: وقول الكسائي ضم أيهما تشاء وجيه إلخ ويؤخذ من مجموع المذاهب الثلاثة أنه لا يجوز للدوري ولا لأبي الحارث ضمهما معا ولا كسرهما معا بل لابد من التخالف بينهما في الضم والكسر فاذا ضم الأول تعين كسر الثاني وبالعكس . قال علماء القراءات وإذا أردت قراءتهما للكسائي وجمعهما في التلاوة فاقرأ الأول بالضم ثم الكسر والثاني بالكسر ثم الضم وقرأ الباقون بالكسر فيهما قولا واحدا .

" ذي الجلال " قرأ ابن عامر بضم الذال وواو بعدها وغيره بكسر الذال وياء بعدها وظاهر أن الواو والياء يحذفان وصلا ويثبتان وقفا .

" والإكرام " فيه ترقيق الراء لورش وهو آخر السورة وآخر الربع .

الممال

(87/738)

كالفخار – ونار معا وأقطار – بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، الجوار لدوري الكسائي بالإمالة ولا تقليل فيه لورش . ويبقى وجنى عند الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل بخلف عنه . الإكرام معا لابن ذكوان بخلف عنه . بسيما هم بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه خاف لحمزة .

المدغم

" الكبير " يكذب بها ، عينان نضاختان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البدور الزاهرة صـ 317 . 318﴾

(88/738)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الرحمن

قوله تعالى ﴿ والحب ذو العصف ﴾ اجماع القراء على الواو الا ابن عامر فانه قرأه بالف والنصب فالحجة لمن قرأه بالواو انه رده على قوله ﴿ فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ﴾ ﴿ والحب ذو العصف ﴾ والحجة لمن قرأه بالالف والنصب انه رده على قوله ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾ وانبت الحب ذا العصف

قوله تعالى ﴿ والريحان ﴾ يقرأ بالرفع والخفض فوجه الرفع بالرد على قوله والحب والريحان ووجه الخفض بالرد على قوله ذو العصف والريحان لان العصف التبن والريحان ما فيه من الرزق وهو الحب

قوله تعالى ﴿ يخرج منهما ﴾ يقرأ بفتح الياء وضم الراء وبضم الياء وفتح الراء فالحجة لمن فتح الياء انه جعل الفعل للؤلؤ والمرجان والحجة لمن ضم الياء انه دل بذلك وبفتح الراء على بناء الفعل لما لم يسم فاعله

قوله تعالى ﴿ سنفرغ لكم ﴾ يقرأ بالنون مفتوحة وضم الراء وبالياء مضمومة وفتح الراء وقد تقدم القول في امثاله ما يدل عليه

فأما ضم الراء وفتحها مع النون فلغتان فصيحتان فأما الضم فعلى الاصل واما الفتح فلاجل الحرف الحلقي والفرغ ها هنا القصد قال جرير

الان وقد فرغت الى نمير

فهذا حين كنت لها عذابا

اما الفراغ من الشغل فوجهه غير هذا الذي ذكرناه

قوله تعالى ﴿ المنشآت ﴾ يقرأ بفتح الشين وكسرها فالحجة لمن فتح انه اراد اسم المفعول الذي لم يسم فاعله والحجة لمن كسر انه اراد بذلك اسم الفاعل كما تقول اكرمن فهن مكرمات وهن السفن والاعلام ها هنا الجبال واحدها علم

قوله تعالى ﴿ شواظ ﴾ يقرأ بضم الشين وكسرها وهما لغتان والمراد بهما اللهب الذي لا دخان فيه

قوله تعالى ﴿ ونحاس ﴾ يقرأ بالرفع والخفض فالحجة لمن رفع انه رده على

قوله ﴿ شواظ ﴾ ﴿ ونحاس ﴾ والحجة لمن خفض انه رده على قوله من نار ونحاس والنحاس ها هنا الدخان

(89/738)

قوله تعالى ﴿ لم يطمثهن ﴾ يقرأ بضم الميم وكسرها وهما لغتان معناهما الافتضاض للإبكار وهذا دليل على أن الجن تنكح

قوله تعالى ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال ﴾ اجماع القراء ها هنا على الياء الا ما تفرد به ابن عامر فيه من الواو لانه جعله وصفا للاسم وجعله الباقون وصفا لقوله ربك والوصف

تابع للموصوف كالبدل والتوكيد وعطف البيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 338.340 ﴾

(90/738)

وقال ابن زنجلة :

55 - سورة الرحمن عز وجل

والحب ذو العصف والريحان 12

قرأ ابن عامر والحب ذا العصف والريحان بالنصب حمله على قوله والأرض وضعها للأنام

10 لأن وضعها بمعنى خلقها وخلق الحب ذا العصف وخلق الريحان هذا نعت للحب

وحجتهما قوله فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى

وقرأ الباقون والحب ذو العصف عطفا على قوله فيها فاكهة 11 وفيها الحب ذو العصف

فيكون ابتداء

قرأ حمزة والكسائي والريحان خفض وقرأ الباقون والريحان بالرفع

فمن قرأ والريحان فإنه عطف على العصف أراد والحب ذو العصف وذو الريحان

والعصف ورق الزرع وهو التبن كذا قال الضحاك والريحان الرزق والعرب تقول ذهبنا

نطلب ريحان

الله أي رزق الله فقوله ذو العصف والريحان أي ذو الورق قال السدي الحب الحنطة

والشعير والعصف الورق والريحان الرزق ومن قرأ والريحان بالرفع فإنه عطف على الحب

ويكون المعنى فيها فاكهة وفيها الحب ذو العصف وفيها الريحان فيكون الريحان ها هنا هو

الريحان الذي يشم ويكون أيضا ها هنا هو الرزق

يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان 22

قرأ نافع وأبو عمرو يخرج منهما بضم الياء وقرأ الباقون بالنصب من قال يخرج بالضم كان

قوله بينا لأن ذلك إنما يخرج ولا يخرج بنفسه فهما يستخرجان وحجته قوله وتستخرجون

حلية فهي مفعولة لا فاعلة ومن قرأ يخرج جعل الفعل للؤلؤ والمرجان وهو اتساع لأنه إذا

أخرج ذلك خرج

وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلم 24

قرأ حمزة وأبو بكر وله الجوار المنشئات بكسر الشين أي المبتدئات في السير قال الفراء

المنشئات اللاتي أقبلن

وأدبرن وقال بعض أهل النحو المعنى المنشئات السير فحذف المفعول للعمل به ونسب

الفعل إليها على الاتساع كما يقال مات زيد ومرض عمرو ونحو ذلك مما يضاف الفعل إليه إذا

وجد فيه وهو في الحقيقة بهبوب الريح ودفع الرجال

وقرأ الباقون المنشآت بفتح الشين قال أبو عبيدة المنشآت الجريات المرفوعات الشرع وهي مفعولة لأنها أنشئت وأجريت ولم تفعل ذلك أنفسها أي فعل بها الإنشاء فهذا بين لا إشكال فيه

سنفرغ لكم أيه الثقلان 31

قرأ حمزة والكسائي سيفرغ لكم بالياء أي سيفرغ الله لكم وحجتهما أنه أتى عقيب ذكر الله بلفظ التوحيد وهو قوله تعالى يسئله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن 29 فأجريا الفعل بعده على لفظ ما تقدمه إذ كان في سياقه ليأتلف الكلام على نظم واحد

وقرأ الباقون سنفرغ بالنون الله يخبر عن نفسه وحجتهم أن ما جرى في القرآن من إسناد الأفعال إلى الله بلفظ الجمع وشبيه به قوله وقدمنا إلى ما عملوا قالوا لأن معنى سنفرغ سنقصد بحسابكم ومعنى وقدمنا وعمدنا وقصدنا متقاربان

يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران 35

قرأ ابن كثير شواظ بكسر الشين وقرأ الباقون بالرفع وهما لغتان معناهما واحد

قرأ ابن كثير وأبو عمرو من نار ونحاس بالخفض عطفا على قوله من نار كأنه أراد من نار ومن

نحاس قال يونس النحوي كان أبو عمرو يقول لا يكون الشواظ إلا من النار والنحاس جميعا والنحاس الدخان فعلى ما فسره أبو عمرو يكون النحاس معطوفا على قوله من نار فيكون معناه يرسل عليكما شواظ وذلك الشواظ من نار ونحاس

وقرأ الباقون شواظ من نار ونحاس بالرفع عطفا على الشواظ قال أبو عبيدة شواظ من نار لهب من نار لا دخان فيه وعن ابن عباس قال الشواظ لا دخان فيه فكلهم يريدون الذي لا دخان له أي يرسل عليكما نار محضة لا يشوبها دخان ويرسل عليكما دخان بعد ذلك فيكون واصفا شيئين من العذاب من نوع واحد كل واحد منهما عذاب على حدته

واعلم أنه إذا كان الشواظ اللهب الذي لا دخان فيه ضعفت قراءة من قرأ من نار ونحاس ولا يكون على تفسير أبي عبيدة إلا الرفع في نحاس عطفا على قوله يرسل عليكما شواظ ويرسل نحاس أي يرسل هذا مرة وهذا أخرى

فيهن قصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان 56

(92/738)

قرأ الكسائي لم يطمثهن بضم الميم وقرأ الباقون بالكسر وهما لغتان طمث يطمث ويطمث مثل عكف يعكف ويعكف والمعنى لم يمسسهن ولم يفتضهن

تبرك اسم ربك ذي الجلل والإكرام 78

قرأ ابن عامر تبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام بالواو جعله نعتا للاسم

وقرأ الباقون ذي الجلال بالياء نعتا للرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 690 .

694 ﴾

(93/738)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة الرحمن عز وجل 55

مكية هذا قول ابن عباس ومجاهد وعطاء وقال قتادة مدنية وقد ذكر نظيرتها في غير

البصري والشامي ولا نظير لها فيهما

وكلمها ثلاث مئة وإحدى وخمسون كلمة

وحروفها ألف وست مئة وستة وثلاثون حرفا

وهي سبعون وست بصري وسبع مدنيان ومكي وثمان كوفي وشامي

اختلافها خمس آيات (﴿ الرحمن ﴾) عدها الكوفي والشامي ولم يعدها الباقون (﴿

خلق الإنسان ﴾) الأول لم يعدها المدنيان وعدها الباقون (﴿ وضعها للأنام ﴾) لم يعدها المكي وعدها الباقون (﴿ شواظ من نار ﴾) عدها المدنيان والمكي ولم يعدها الباقون (﴿ يكذب بها المجرمون ﴾) لم يعدها البصري وعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل موضعان (﴿ خلق الإنسان ﴾) الثاني (﴿ رب المشرقين ﴾

(94/738)

ورؤوس الآي

القرآن

2 البيان

4 بحسبان

5 يسجدان

6 الميزان

7 الميزان

8 الميزان

9 للأنام

10 والأكمام

11 والريحان

12 تكذبان

13 كالفخار

14 من نار

15 تكذبان

16 المغربين

17 تكذبان

18 يلتقيان

19 لا يبغيان

20 تكذبان

21 والمرجان

22 تكذبان

23 كالأعلام

24 تكذبان

25 فان

26 والإكرام

27 تكذبان

28 شأن

29 تكذبان

30 الثقلان

31 تكذبان

32 بسلطان

33 تكذبان

35 من نار

* تنتصران

35 تكذبان

36 كالدهان

37 تكذبان

38 ولا جان

39 تكذبان

40 والأقدام

41 تكذبان

42 المجرمون

43 آن

44 تكذبان

45 جنتان

46 تكذبان

47 أفنان

48 تكذبان

49 تجريان

50 تكذبان

51 زوجان

52 تكذبان

53 دان

54 تكذبان

55 ولاجان

56 تكذبان

57 والمرجان

58 تكذبان

59 الإحسان

60 تكذبان

61 جنتان

62 تكذبان

63 مدهامتان

64 تكذبان

65 نضاختان

66 تكذبان

67 ورمان

68 تكذبان

69 حسان

70 تكذبان

71 الخيام

72 تكذبان

73 ولا جان

74 تكذبان

75 حسان

76 تكذبان

77 والإكرام. انتهى انتهى. اهـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 237.238﴾

(95/738)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى:

سورة الرحمن عز وجل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(الرحمن) ذهب قوم إلى أنها آية، فعلى هذا يكون التقدير الله الرحمن ليكون لكلام تاما، وعلى قول الآخرين يكون الرحمن مبتدأ وما بعده الخبر، و (خلق الإنسان) مستأنف وكذلك (علمه) ويجوز أن يكون حالا من الإنسان مقدرة، وقد معها مرادة.

قوله تعالى (بحسبان) أي يجريان بحسبان (والسماء) بالنصب بفعل محذوف يفسره

المذكور ، وهذا أولى من الرفع لأنه معطوف على اسم قد عمل فيه الفعل ، وهو الضمير في يسجدان ، أو هو معطوف على الإنسان .

قوله تعالى (أن لا تطغوا) أي لئلا تطغوا ، وقيل " لا " للنهى ، وإن بمعنى أي ، والقول مقدر و (تخسروا) بضم التاء : أي ولا تنقصوا الموزون ، وقيل التقدير : في الميزان ، ويقرأ بفتح السين والتاء ، وماضيه خسر ، والأول أصح .

قوله تعالى (للأنام) تتعلق اللام بوضعها ، وقيل تتعلق بما بعدها أى للأنام (فيها فاكهة) فتكون إما خبر المبتدأ وتبيينا .

قوله تعالى (والحب) يقرأ بالرفع عطفا على النخل (والريحان) كذلك ، ويقرأ بالنصب: أي وخلق الحب ذا العصف وخلق الريحان ، ويقرأ الريحان بالجر عطفا على العصف .

قوله تعالى (كالفخار) هو نعت لصلصال و (من نار) نعت لمارج .

قوله تعالى (رب المشرقين) أي هو رب ، وقيل هو مبتدأ والخبر (مرج) و (يلتقيان) حال ، و (بينهما برزخ) حال من الضمير في يلتقيان ، و (لا يبغيان) حال أيضا .

قوله تعالى (يخرج منهما) قالوا التقدير من أحدهما .

قوله تعالى (المنشآت) بفتح الشين وهو الوجه ، و (في البحر) متعلق به ، ويقرأ بكسرها : أي تنشئ المسير ، وهو مجاز و (كالأعلام) حال من الضمير في المنشآت ، والهاء في (عليها) للأرض ، وقد تقدم ذكره .

قوله تعالى (ذو الجلال) بالرفع هو نعت للوجه ، وبالجر نعتا للمجرور .

قوله تعالى (كل يوم) هو ظرف لما دل عليه (هو في شأن) أي يقلب الأمور كل يوم .

قول تعالى (سنفرغ) الجمهور على ضم الراء .

(96/738)

وقرئ بفتحها من أجل حرف الحلق وماضيه فرغ بفتح الراء ، وقد سمع فيه فرغ بكسر الراء فتفتح في المستقبل مثل نصب ينصب .

قوله تعالى (لا تنفذون) لا نافية بمعنى ما ، و (شواظ) بالضم والكسر لغتان قد قرئ بهما ، و (من نار) صفة أو متعلق بالفعل (ونحاس) بالرفع عطفا على شواظ ، وبالجر عطفا على نار ، والرفع أقوى في المعنى ، لأن النحاس الدخان وهو والشواظ من النار ، و (الدهان) جمع دهن ، وقيل هو مفرد وهو النطع ، و (جان) فاعل ، ويقرأ بالهمز لأن الألف حركت فانقلبت همزة ، وقد ذكر ذلك في الفاتحة .

قوله تعالى (يطوفون) هو حال من المجرمين ، ويجوز أن يكون مستأنفا ، و (آن) فاعل مثل قاض .

قوله تعالى (ذواتا) الألف قبل التاء بدل من ياء ، وقيل من واو وهو صفة لجنتان أو خبر

مبتدأ محذوف .

والأفنان جمع فنن وهو الغصن .

قوله تعالى (متكئين) هو حال من خاف والعامل فيه الظرف .

قوله تعالى (من إستبرق) أصل الكلمة فعل على استفعل فلما سمى به قطعت همزته ، وقيل هو أعجمى ، وقرئ بحذف الهمزة وكسر النون وهو سهو ، لأن ذلك لا يكون في الأسماء بل في المصادر والأفعال .

قوله تعالى (فيهن) يجوز أن يكون الضمير لمنازل الجنتين ، وأن يكون للفرش أي عليهن ، وأفرد الظرف لأنه مصدر ، و (لم يطمثهن) وصف لقاصرات ، لأن الإضافة غير محضة ، وكذلك (كأنهن الياقوت) ، و (الإحسان) خبر جزاء دخلت إلا على المعنى .

قوله تعالى (خيرات) هو جمع خيرة ، يقال امرأة خيرة: وقرئ بتشديد الياء و (حور) بدل من خيرات ، وقيل الخبر محذوف: أي فيهن حور ، و (متكئين) حال ، وصاحب الحال محذوف دل عليه الضمير في قبلهم ، و (رفرف) في معنى الجمع ، فلذلك وصف ب (خضر) وقرئ رفراف ، وكذلك (عبقري) و (ذى الجلال) نعت لربك ، وهو أقوى من الرفع لأن الإسم لا يوصف ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الرحمن

[سورة الرحمن (55) : الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيانَ (4)

"الرَّحْمنُ" مبتدأ "عَلَّمَ الْقُرْآنَ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر المبتدأ "خَلَقَ الْإِنْسانَ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر ثان "عَلَّمَهُ الْبَيانَ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والبيان مفعوله الثاني والجملة خبر ثالث .

[سورة الرحمن (55) : آية 5]

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ (5)

"الشَّمْسُ" مبتدأ "وَالْقَمَرُ" معطوف عليه "بِحُسْبانٍ" خبر المبتدأ والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الرحمن (55) : آية 6]

وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ (6)

"وَالنَّجْمُ" مبتدأ "وَالشَّجَرُ" معطوف عليه "يَسْجُدانِ" مضارع مرفوع والألف فاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة الرحمن (55) : آية 7]

وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ (7)

"وَالسَّماءَ" حرف عطف ومفعول به لفعل محذوف يفسره المذكور "رَفَعَها" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة الفعلية تفسيرية لا محل لها والجملة المقدرة معطوفة على ما قبلها "وَوَضَعَ الْمِيزانَ" معطوف على ما قبله .

[سورة الرحمن (55) : آية 8]

أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ (8)

"أَلَّا" أن حرف مصدري ونصب ولا نافية ، "تَطْغَوْا" مضارع منصوب بأن والواو فاعله "فِي الْمِيزانِ" متعلقان بالفعل وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر مقدر والجار والمجرور متعلقان بوضع .

[سورة الرحمن (55) : آية 9]

وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ (9)

"وَأَقِيمُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله "الْوَزْنَ" مفعول به "بِالْقِسْطِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَلا تُخْسِرُوا" الواو حرف عطف ومضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعله "الْمِيزانَ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الرحمن (55) : آية 10]

وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ (10)

"وَالْأَرْضَ" مفعول به لفعل محذوف يفسره المذكور والجملة المقدرة معطوفة على ما قبلها "وَضَعَها" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "لِلْأَنامِ" متعلقان بالفعل والجملة تفسيرية لا محل لها .

[سورة الرحمن (55) : آية 11]

فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ (11)

"فِيها" خبر مقدم "فاكِهَةٌ" مبتدأ مؤخر والجملة استئنافية لا محل لها "وَالنَّخْلُ" معطوف على فاكهة "ذاتُ" صفة "الْأَكْمامِ" مضاف إليه .

[سورة الرحمن (55) : آية 12]

وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ (12)

"وَالْحَبُّ" معطوف على فاكهة "ذُو" صفة "الْعَصْفِ" مضاف إليه "وَالرَّيْحانُ" معطوف

على ما قبله .

[سورة الرحمن (55) : آية 13]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (13)

"فَبِأَيِّ" الفاء الفصيحة وبأي متعلقان بتكذبان "آلاءِ" مضاف إليه "رَبِّكُما" مضاف إليه "تُكَذِّبانِ" مضارع مرفوع والألف فاعله والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها .

[سورة الرحمن (55) : آية 14]

خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ (14)

"خَلَقَ الْإِنْسانَ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة استئنافية لا محل لها "مِنْ صَلْصالٍ" متعلقان بالفعل "كَالْفَخَّارِ" متعلقان بمحذوف صفة صلصال .

[سورة الرحمن (55) : آية 15]

وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ (15)

"وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ" إعرابها كسابقتها "مِنْ نارٍ" صفة مارج والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الرحمن (55) : آية 16]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (16)

انظر الآية - 13 - .

[سورة الرحمن (55) : آية 17]

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17)

"رَبُّ" خبر لمبتدأ محذوف مضاف إلى المشرقين "الْمَشْرِقَيْنِ" مضاف إليه "وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ" معطوف على ما قبله والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الرحمن (55) : آية 18]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (18)

انظر الآية - 13 - .

[سورة الرحمن (55) : آية 19]

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ (19)

"مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة استئنافية "يَلْتَقِيانِ" مضارع مرفوع والألف فاعله والجملة حال .

[سورة الرحمن (55) : آية 20]

بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ (20)

"بَيْنَهُما بَرْزَخٌ" خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والجملة استئنافية لا محل لها "لا" نافية و"يَبْغِيانِ" مضارع مرفوع والألف فاعله والجملة حال .

[سورة الرحمن (55) : آية 21]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (21)

انظر الآية - 13 - .

[سورة الرحمن (55) : آية 22]

يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ (22)

"يَخْرُجُ" مضارع مرفوع "مِنْهُمَا" متعلقان بالفعل "اللُّؤْلُؤُ" فاعل مرفوع "وَالْمَرْجانُ" معطوف على اللؤلؤ والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الرحمن (55) : آية 23]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (23)

انظر الآية - 13 - .

[سورة الرحمن (55) : آية 24]

وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (24)

"وَلَهُ" خبر مقدم "الْجَوارِ" مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة المقدرة على الياء المحذوفة والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "الْمُنْشَآتُ" صفة الجوار "فِي الْبَحْرِ" متعلقان بالمنشآت

"كَالْأَعْلامِ" متعلقان بمحذوف حال .

[سورة الرحمن (55) : آية 25]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (25)

انظر الآية - 13 - .

(100/738)

[سورة الرحمن (55) : آية 26]

كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ (26)

"كُلُّ مَنْ" مبتدأ مضاف إلى اسم الموصول واسم الموصول مضاف إليه و"عَلَيْها" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "فانٍ" خبر المبتدأ مرفوع بالضمة على الياء المحذوفة وهو اسم منقوص والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الرحمن (55) : آية 27]

وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ (27)

"وَيَبْقى وَجْهُ" مضارع وفاعله "رَبِّكَ" مضاف إليه "ذُو" صفة وجه مضاف "الْجَلالِ" مضاف إليه "وَالْإِكْرامِ" معطوف على الجلال والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الرحمن (55) : آية 28]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (28)

انظر الآية - 13 - .

[سورة الرحمن (55) : آية 29]

يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29)

"يَسْئَلُهُ" مضارع ومفعوله "مَنْ" فاعله "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات والجملة استئنافية لا محل لها . "كُلَّ" ظرف مضاف "يَوْمٍ" مضاف إليه "هُوَ" مبتدأ "فِي شَأْنٍ" خبر .

[سورة الرحمن (55) : آية 30]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (30)

انظر الآية - 13 - .

[سورة الرحمن (55) : آية 31]

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ (31)

"سَنَفْرُغُ" السين للاستقبال ومضارع فاعله مستتر والجملة استئنافية لا محل لها "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "أَيُّهَ" منادى نكرة مقصودة "الثَّقَلانِ" بدل وجملة النداء استئنافية لا محل لها .

[سورة الرحمن (55) : آية 32]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (32)

انظر الآية - 13 - .

[سورة الرحمن (55) : آية 33]

يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ (33)

(101/738)

"يا مَعْشَرَ" منادى مضاف "الْجِنِّ" مضاف إليه "وَالْإِنْسِ" معطوف عليه والجملة استئنافية لا محل لها "إِنِ اسْتَطَعْتُمْ" إن حرف شرط وماض في محل جزم فعل الشرط والتاء فاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "أَنْ تَنْفُذُوا" مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعله والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل نصب مفعول به لاستطعتم "مِنْ أَقْطارِ" متعلقان بالفعل "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "فَانْفُذُوا" الفاء واقعة في جواب الشرط وأمر وفاعله والجملة في محل جزم جواب الشرط "لا" نافية "تَنْفُذُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة استئنافية لا محل لها "إِلَّا" حرف

حصر "بِسُلْطانٍ" متعلقان بالفعل .

[سورة الرحمن (55) : آية 34]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (34)

سبق إعرابها .

[سورة الرحمن (55) : آية 35]

يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَنُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ (35)

"يُرْسَلُ" مضارع مبني للمجهول "عَلَيْكُما" متعلقان بالفعل "شُواظٌ" نائب فاعل والجملة استئنافية لا محل لها "مِنْ نارٍ" صفة شواظ "وَنُحاسٌ" معطوف على شواظ "فَلا" الفاء حرف عطف ولا نافية "تَنْتَصِرانِ" مضارع مرفوع والألف فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الرحمن (55) : آية 36]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (36)

سبق إعرابها .

[سورة الرحمن (55) : آية 37]

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ (37)

"فَإِذَا" الفاء حرف استئناف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "انْشَقَّتِ السَّماءُ" ماض

وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "فَكانَتْ" الفاء حرف عطف وماض ناقص اسمه مستتر "وَرْدَةً" خبره والجملة معطوفة على ما قبلها "كَالدِّهانِ" صفة وردة.

[سورة الرحمن (55) : آية 38]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (38)

سبق إعرابها.

[سورة الرحمن (55) : آية 39]

(102/738)

فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ (39)

"فَيَوْمَئِذٍ" الفاء واقعة في جواب الشرط ويومئذ ظرف زمان مضاف إلى إذ "لا" نافية "يُسْئَلُ" مضارع مبني للمجهول "عَنْ ذَنْبِهِ" متعلقان بالفعل "إِنْسٌ" نائب فاعل والجملة الفعلية جواب الشرط "وَلا جَانٌّ" معطوف على إنس.

[سورة الرحمن (55) : آية 40]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (40)

سبق إعرابها.

[سورة الرحمن (55) : آية 41]

يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ (41)

"يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ" مضارع مبني للمجهول ونائب فاعل مرفوع بالواو والجملة استئنافية لا محل لها "بِسِيماهُمْ" متعلقان بالفعل. "فَيُؤْخَذُ" مضارع مبني للمجهول "بِالنَّواصِي" جار ومجرور بمنزلة نائب الفاعل "وَالْأَقْدامِ" معطوف على النواصي والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة الرحمن (55) : آية 42]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (42)

سبق إعرابها.

[سورة الرحمن (55) : آية 43]

هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43)

"هذِهِ جَهَنَّمُ" مبتدأ وخبره والجملة مقول القول لقول محذوف "الَّتِي" صفة جهنم "يُكَذِّبُ" مضارع "بِهَا" متعلقان بالفعل "الْمُجْرِمُونَ" فاعل مرفوع بالواو والجملة صلة.

[سورة الرحمن (55) : آية 44]

يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (44)

"يَطُوفُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة حال "بَيْنَها" ظرف مكان "وَبَيْنَ" معطوف

على بينها "حَمِيمٍ" مضاف إليه "آنٍ" صفة حميم مجرور بالكسرة المقدرة على الياء المحذوفة.

[سورة الرحمن (55) : آية 45]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (45)

سبق إعرابها.

[سورة الرحمن (55) : آية 46]

وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ (46)

(103/738)

"وَلِمَنْ" الواو استئنافية وخبر مقدم "خافَ" ماض فاعله مستتر "مَقامَ" مفعول به "رَبِّهِ" مضاف إليه "جَنَّتانِ" مبتدأ مؤخر والجملة الفعلية صلة من والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها.

[سورة الرحمن (55) : آية 47]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (47)

سبق إعرابها.

[سورة الرحمن (55) : آية 48]

ذَواتا أَفْنانٍ (48)

"ذَواتا" صفة جنتان "أَفْنانٍ" مضاف إليه .

[سورة الرحمن (55) : آية 49]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (49)

سبق إعرابها .

[سورة الرحمن (55) : آية 50]

فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ (50)

"فِيهِما" خبر مقدم "عَيْنانِ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية لا محل لها "تَجْرِيانِ" مضارع مرفوع والألف فاعله والجملة صفة عينان .

[سورة الرحمن (55) : آية 51]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (51)

"فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ" سبق إعرابها .

[سورة الرحمن (55) : آية 52]

فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ (52)

"فِيهِما" خبر مقدم "مِنْ كُلِّ" متعلقان بمحذوف حال "فاكِهَةٍ" مضاف إليه "زَوْجانِ" مبتدأ

مؤخر والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

[سورة الرحمن (55) : آية 53]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (53)

سبق إعرابها .

[سورة الرحمن (55) : آية 54]

مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ (54)

"مُتَّكِئِينَ" حال منصوبة بالياء "عَلى فُرُشٍ" متعلقان بما قبلهما "بَطائِنُها" مبتدأ "مِنْ إِسْتَبْرَقٍ" خبر والجملة صفة فرش "وَجَنَى" الواو حالية ومبتدأ مضاف "الْجَنَّتَيْنِ" مضاف إليه "دانٍ" خبر والجملة حالية .

[سورة الرحمن (55) : آية 55]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (55)

سبق إعرابها .

[سورة الرحمن (55) : آية 56]

فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (56)

"فِيهِنَّ" خبر مقدم "قاصِراتُ" مبتدأ مؤخر مضاف "الطَّرْفِ" مضاف إليه "لَمْ يَطْمِثْهُنَّ" مضارع مجزوم بلم والهاء مفعوله "إِنْسٌ" فاعله والجملة الفعلية حال "قَبْلَهُمْ" ظرف زمان "وَلا جَانٌّ" معطوف على إنس.

[سورة الرحمن (55) : آية 57]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (57)

سبق إعرابها.

[سورة الرحمن (55) : آية 58]

كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ (58)

"كَأَنَّهُنَّ" كأن واسمها "الْياقُوتُ" خبرها "وَالْمَرْجانُ" معطوف على الياقوت والجملة حال.

[سورة الرحمن (55) : آية 59]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (59)

سبق إعرابها.

[سورة الرحمن (55) : آية 60]

هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ (60)

"هَلْ" حرف استفهام "جَزاءُ الْإِحْسانِ" مبتدأ مضاف إلى الإحسان "إِلَّا" حرف حصر

"الْإِحْسانِ" خبر والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الرحمن (55) : آية 61]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (61)

سبق إعرابها .

[سورة الرحمن (55) : آية 62]

وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ (62)

"وَمِنْ دُونِهِما" خبر مقدم "جَنَّتانِ" مبتدأ مؤخر والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الرحمن (55) : آية 63]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (63)

سبق إعرابها .

[سورة الرحمن (55) : آية 64]

مُدْهامَّتانِ (64)

صفة جنتان .

[سورة الرحمن (55) : آية 65]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (65)

سبق إعرابها .

[سورة الرحمن (55) : آية 66]

فِيهِما عَيْنانِ نَضّاخَتانِ (66)

"يهما"

خبر مقدم "عينان"

مبتدأ مؤخر "نضاختان"

صفة عينان والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الرحمن (55) : آية 67]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (67)

سبق إعرابها .

[سورة الرحمن (55) : آية 68]

فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمّانٌ (68)

"فِيهِما" خبر مقدم "فاكِهَةٌ" مبتدأ مؤخر "وَنَخْلٌ وَرُمّانٌ" معطوفان على ما قبلهما والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الرحمن (55) : آية 69]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (69)

سبق إعرابها .

[سورة الرحمن (55) : آية 70]

فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ (70)

"فِيهِنَّ" خبر مقدم "خَيْراتٌ" مبتدأ مؤخر "حِسانٌ" صفة خيرات والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الرحمن (55) : آية 71]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (71)

سبق إعرابها .

[سورة الرحمن (55) : آية 72]

حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ (72)

"حُورٌ" بدل من خيرات "مَقْصُوراتٌ" صفة حور "فِي الْخِيامِ" متعلقان بمقصورات والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الرحمن (55) : آية 73]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (73)

تقدم إعرابها .

[سورة الرحمن (55) : آية 74]

لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (74)

انظر الآية - 56 - .

[سورة الرحمن (55) : آية 75]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (75)

سبق إعرابها .

[سورة الرحمن (55) : آية 76]

مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ (76)

"مُتَّكِئِينَ" حال "عَلى رَفْرَفٍ" متعلقان بما قبلهما "خُضْرٍ" صفة رفرف "وَعَبْقَرِيٍّ" معطوف على رفرف "حِسانٍ" صفة عبقري.

[سورة الرحمن (55) : آية 77]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (77)

سبق إعرابها .

[سورة الرحمن (55) : آية 78]

تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ (78)

"تَبارَكَ اسْمُ" ماض وفاعله "رَبِّكَ" مضاف إليه "ذِي" صفة ربك مضاف "الْجَلالِ" مضاف إليه "وَالْإِكْرامِ" معطوف على الجلال والجملة استئنافية لا محل لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 290. 297﴾

(106/738)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الرَّحْمَن جلّ وَعلا

ذكر فِيهَا خَمْسَة أَحَادِيث

1280 - الحَدِيث الأول

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (أَلظُّوا بِيَاذَا الْجلَال وَالْإِكْرَام)

قلت رُوِيَ من حَدِيث أنس وَمن حَدِيث أبي هُرَيْرَة من حَدِيث ربيعَة ابْن عَامر

أما حَدِيث أنس فَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي الدَّعْوَات من طَرِيقين

أَحدهمَا عَن يزِيد الرقاشِي عَن أنس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (أَلظُّوا بِيَاذَا الْجلَال وَالْإِكْرَام) انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث غَرِيب وَقد رُوِيَ عَن أنس من غير هَذَا الْوَجْه ثمَّ

أخرجه من حَدِيث المؤمل بن إِسْمَاعِيل ثَنَا حَمَّاد ابْن سَلمَة وَعَن حميد عَن أنس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره ثمَّ قَالَ حَدِيث غَرِيب غير مَحْفُوظ وَإِنَّمَا يرْوَى عَن حَمَّاد بن سَلمَة عَن حميد عَن الْحسن الْبَصْرِيّ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ أصح انْتَهَى

وَالْأول رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَابْن أبي شيبَة فِي مسنديهما

وَبِالسَّنَدِ الثَّانِي رَوَاهُ أَبُو يعلي الْموصِلِي وَالْبَزَّار فِي مسنديهما

قَالَ أَبُو يعلي الْموصِلِي غلط فِيهِ المؤمل وَالصَّحِيح مَا رَوَاهُ أَبُو سَلمَة ثَنَا حَمَّاد عَن ثَابت وَحميد عَن الْحسن عَن النَّبِي مُرْسلا

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث روح بن عبَادَة ثَنَا حَمَّاد بن سَلمَة عَن ثَابت وَحميد عَن أنس بن مَالك عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره

وَقَالَ ابْن طَاهِر وَقد تَابع المؤمل فِيهِ روح بن عبَادَة وروح حَافظ ثِقَة انْتَهَى

(107/738)

وَأما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الدُّعَاء من حَدِيث رشدين بن سعد ثَنَا مُوسَى بن حبيب عَن سُهَيْل بن أبي صَالح عَن أَبِيه عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا . . .

فَذكره وَسكت عَنهُ وَلم يتعقبه الذَّهَبِيّ

وَأما حَدِيث ربيعَة فَرَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي سننه الْكُبْرَى فِي الْبعُوث وَفِي التَّفْسِير من حَدِيث عبد الله بن الْمُبَارك عَن يَحْيَى بن حسان عَن ربيعَة بن عَامر بن بجاد مَرْفُوعا . . . فَذكره

وَرَوَاهُ الْحَاكِم أَيْضا فِي الْمُسْتَدْرك وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه قَالَ ابن طَاهِر إِسْنَاده لَا بَأْس بِهِ

وَأما حَدِيث ابْن عمر فَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث الْمعَافى بن عمرَان ثَنَا ابْن عَيَّاش ثَنَا عمر بن مُحَمَّد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الْخطاب عَن أَبِيه عَن عبد الله بن عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (أَلظُّوا بِيَا ذَا الْجلَال وَالْإِكْرَام) انْتَهَى

1281 - الْحَدِيث الثَّانِي

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه سمع رجلا يُصَلِّي وَهُوَ يَقُول يَا ذَا الْجلَال وَالْإِكْرَام فَقَالَ (لقد اسْتُجِيبَ لَك)

(108/738)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي الدَّعْوَات أَيْضا من حَدِيث سعيد الْجريرِي عَن أبي الْورْد عَن اللَّجْلَاج عَن معَاذ بن معَاذ بن جبل قَالَ سمع النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم رجلا يَدْعُو يَقُول

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلك تَمام النِّعْمَة فَقَالَ (أَي شَيْء تَمام النِّعْمَة) قَالَ دَعْوَة دَعَوْت بهَا أَرْجُو الْخَيْر قَالَ (فَإِن تَمام النِّعْمَة دُخُول الْجنَّة) وَسمع رجلا وَهُوَ يَقُول يَا ذَا الْجلَال وَالْإِكْرَام فَقَالَ (قد اسْتُجِيبَ لَك) وَسمع رجلا وَهُوَ يَقُول اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلك الصَّبْر قَالَ (سَأَلت الله الْبلَاء فَاسْأَلُهُ الْعَافِيَة) انْتَهَى

قَالَ حَدِيث حسن انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي كِتَابه الْمُنْفَرد فِي الْأَدَب وَأحمد وَالْبَزَّار فِي مسنديهما قَالَ الْبَزَّار وَلَا نعلم رَوَى عَن اللَّجْلَاج إِلَّا أَبُو الْورْد انْتَهَى

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَمن طَرِيق الطَّبَرَانِيّ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي الْأَسْمَاء وَالصِّفَات قَالَ ابْن أبي حَاتِم فِي علله قَالَ أَبُو زرْعَة وَأَبُو الْورْد لَا يُسمى انْتَهَى

1282 - الْحَدِيث الثَّالِث

وَعَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه تَلا قَوْله تَعَالَى كل يَوْم هُوَ فِي شَأْن فَقيل لَهُ مَا هَذَا الشَّأْن قَالَ (من شَأْنه أَن يغْفر ذَنبا ويفرج كربا وَيرْفَع قوما وَيَضَع آخَرين)

قلت رُوِيَ من حَدِيث أبي الدَّرْدَاء وَمن حَدِيث ابْن عَمْرو وَمن حَدِيث عبد وَالله بن منيب

فَحَدِيث أبي الدَّرْدَاء رَوَاهُ ابْن ماجة فِي سننه فِي كتاب السّنة من حَدِيث يُونُس بن ميسرَة بن حَلبس عَن أم الدَّرْدَاء عَن أبي الدَّرْدَاء عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي

قَوْله كل يَوْم هُوَ فِي شَأْن قَالَ (من شَأْنه أَن يغْفر ذَنبا ويفرج كربا وَيرْفَع قوما وَيَضَع آخَرين) انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع السَّادِس وَالْبَيْهَقِيّ فِي الْأَسْمَاء وَالصِّفَات

قَالَ الْبَزَّار وَقد رُوِيَ هَذَا الحَدِيث عَن أبي الدَّرْدَاء من غير وَجه وَهَذَا من أحسن إِسْنَاد يرْوَى بِهِ انْتَهَى

وَأما حَدِيث ابْن عمر فَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده حَدثنَا مُحَمَّد بن الْمثنى ثَنَا مُحَمَّد بن الْحَارِث ثَنَا مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن السَّلمَانِي عَن أَبِيه عَن ابْن عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لم يقل فِيهِ وَيرْفَع قوما . . . إِلَى آخِره

وَأما حَدِيث عبد الله بن منيب فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث عَمْرو ابْن بكر السكْسكِي ثَنَا الْحَارِث بن عُبَيْدَة بن رَبَاح الغساني عَن أَبِيه عُبَيْدَة عَن منيب بن عبد الله بن منيب الْأَزْدِيّ عَن أَبِيه عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِلَفْظ ابْن ماجة سَوَاء

وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده والطبري والثعلبي وَابْن أبي حَاتِم فِي تفاسيرهم

قَالَ الْبَزَّار وَلَا نعلم أسْند عبد الله بن منيب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَّا هَذَا

الحَدِيث انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره

1283 - الحَدِيث الرَّابِع

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الْمُؤْمِنُونَ هَينُونَ لَينُونَ)

قلت تقدم فِي الْفرْقَان

1284 - الحَدِيث الْخَامِس

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (من قَرَأَ سُورَة الرَّحْمَن أَدَّى شكر مَا أنعم الله عَلَيْهِ)

(110/738)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث سَلام بن سليم الْمَدَائِنِي ثَنَا هَارُون ابْن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة الْبَاهِلِيّ عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قَرَأَ سُورَة الرَّحْمَن رحم الله ضعفه وَأَدَّى شكر مَا أنعم الله عَلَيْهِ)

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ الثَّانِي فِي آل عمرَان وَمتْن الثَّعْلَبِيّ

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس وَمتْن الثَّعْلَبِيّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 395. 399 ﴾

(111/738)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الرحمن

قوله تعالى : (فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) ، الآية/ 68 .

يحتج به من يخرج الرمان والنخل من مطلق اسم الفاكهة ، لأن الشيء لا يعطف على نفسه ، وإنما يعطف على غيره ، هذا ظاهر الكلام .

والشافعي يقول : هو كقوله تعالى : (مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ) «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 397 ﴾

---

(1) سورة البقرة آية 98 .

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الرّحمن» (55)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ» (5) جميع حساب مثل شهبان وشهاب «1» . .

«وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ» (6) الشجر ما كان على ساق والنجم ما نجم من الأرض ولم يكن على ساق ومجازها على الأشجار وثنّى فعلهما على لفظهما . .

«أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ» (8) أن لا تظلموا وتنقصوا . .

«وَلا تُخْسِرُوا» (9) أي لا تظلموا وتنقصوا ، بالقسط والعدل . .

«وَضَعَها لِلْأَنامِ» (10) للخلق . .

«وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ» (11) واحدها كمّ . .

«وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ» (12) تخرج له عصيفة وهى أذنته أعلاه وهو الهبوذ «2» وأذنة الثّمام زيادته وكثرته وورقه الذي يعتصف فيؤكل قال علقمة ابن عبدة :

تسقى مذانب قد مالت عصيفتها حدورها من أنّي الماء مطموم

«3» [886]

---

(1) . - 3 «حساب . . . وشهاب» : رواه الطبري عن الأخفش (17/ 153) .

(2) . - 11 «الهبوذ» : هكذا فى الأصل ولم أعثر عليه وعلى معناه فى المعاجم وربما كان مصحفا من جميع الهبد وهو الحنظل .

(3) . - 886 : ديوانه من الستة ص 111 والطبري 27/ 65 واللسان (عصف) والقرطبي 17/ 157 . [. . . . .]

(113/738)

طمّها ملأها لم يبق فيها شىء وطمّ إناءه ملأه . والريحان الحبّ منه الذي يؤكل ، يقال : سبحانك وريحانك أي رزقك «1» قال النّمر بن تولب :

سماء الإله وريحانه وجنّته وسماء درر

«2» [887] .

«فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» (13) أي فبأى نعمه ، واحدها ألى ، تقديرها قفى وقال بعضهم : تقديرها معى «و تكذّبان» مجازها مخاطبة الجن والإنس وهما الثّقلان . .

«مِنْ صَلْصالٍ» (14) أي طين يابس لم يطبخ له صوت إذا نقر، فهو من يبسه : .

«كَالْفَخَّارِ» (14) الفخار ما طبخ بالنار . .

«مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ» (15) من خلط من النار «3» . .

«رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ» (17) أي مشرق الشتاء ومشرق الصيف، فإذا قال المشارق والمغارب فمشرق كل يوم ومغرب كل يوم . .

«مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ» (19) مجازها مجاز قولك مرجت دابتك، خليت عنها وتركتها . .

«بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ» (20) ما بين كل شيئين برزخ وما بين الدنيا والآخرة برزخ.

---

(1) . - 1 «سبحانك . . . رزقك» : وفى اللسان (روح) : العرب تقول : سبحان اللّه وريحانه وقال أهل اللغة معناه واسترزاقه . . . ومعنى قوله وريحانه ورزقه قال الأزهرى قال أبو عبيدة وغيره.

(2) . - 887 : فى الطبري 27/ 65 والقرطبي 17/ 157 واللسان (روخ) .

(3) . - 9 «خلط من نار» : رواه ابن قتيبة (القرطين 2/ 148) والقرطبي (17/ 164) عن أبى عبيدة.

«يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ «1»» (23) المرجان صغار اللؤلؤ واحدتها مرجانة وإنما يخرج اللؤلؤ من أحدهما فخرج مخرج: أكلت خبزا ولبنا . .

«الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ» (24) المجريات «2» المرفوعات . .

«كَالْأَعْلامِ» (24) كالجبال قال جرير يصف الإبل:

إذا قطعن علما بدا علم

«3» [888].

«سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ» (31) سنحاسبكم، لم يشغله شيء «4» تبارك وتعالى.

«إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا» (32) أن تفوتوا:

«مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ» (33) جوانبها مجازها مجاز الفوت، والأقطار والأقتار واحد . .

«شُواظٌ» (35) وشواظ واحد وهو النار التي تؤجج لا دخان فيها، قال رؤبة:

إنّ لهم من وقعنا أقياظا ونار حرب تسعر الشّواظا

«5» [889].

«وَنُحاسٌ» (35) ونحاس والنحاس الدخان، قال نابغة بني جعدة:

(1) . - 1 «اللؤلؤ والمرجان» : قال الطبري (27/ 69) وقد زعم بعض أهل العربية أن اللؤلؤ والمرجان يخرج من أحد البحرين ولكن قيل يخرج منهما كما يقال أكلت خبزا ولبنا .

(2) . - 3 «المجريات» : رواه القرطبي عن الأخفش (17/ 164 :

(3) . - 888 : مشارق الاقاويز ص 178 والطبري 27/ 70 والقرطبي 17/ 164 .

(4) . - 6 «سنحاسبكم . . . شيء» : أخذه البخاري وأشار إليه ابن حجر فى فتح الباري (8/ 439) بقوله : هو كلام أبى عبيدة .

(5) . - 889 : ولم أجده فى ديوان رؤبة وهو فى الطبري 27/ 23 واللسان (شوظ) والقرطبي 17/ 171 .

(115/738)

يضيء كضوء سراج السّلي ط لم يجعل اللّه فيه نحاسا

«1» [890] .

«فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ» (37) من لونها ، جمع دهن ، تمور كالدهن صافية ، وردة لونها كلون الورد وهو الجلّ . .

«يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ» (41) علاماتهم فى الأصل أعلامهم . .

«هذِهِ جَهَنَّمُ» (43) مجازها : [يقال] «2» هذه جهنم . .

«وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ» (44) بلغ إناه فى شدة الحر وكل مدرك آن وفى آية أخرى .

«غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ» (33/ 53) أي إدراكه ، قال نابغة بنى ذبيان :

وتخضب لحية غدرت وخانت بأحمر من نجيع الجوف آن

«3» [891] أي مدرك . .

«ذَواتا أَفْنانٍ» (48) أي أغصان . .

«مِنْ إِسْتَبْرَقٍ» (54) يسمّى المتاع الصيني الذي ليس له صفاقة الديباج ولا خفّة الفرند

إستبرقا «4» . .

«وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ» (54) ما يجتنى قريبا لا يعنّى الجاني . .

«قاصِراتُ الطَّرْفِ» (56) لا تطمح أبصارهن . .

«لَمْ يَطْمِثْهُنَّ «5»» (56) لم يمسسهن ، يقال : ما طمث هذا البعير حبل قط أي

---

(1) . - 890 : ديوانه ص 75 والطبري 27/ 73 والقرطبي 2/ 149 والاقتضاب ص 407 واللسان (نحس) والقرطبي 17/ 172 وشواهد الكشاف 157 .

(2) . - 5 «يقال» : فى الطبري 28/ 75 .

(3) . - 891 : ديوانه من الستة ص 31 والطبري 27/ 75 والقرطبي 17/ 175 .

(4) . - 11 - 12 «يسمى . . . إستبرقا» : رواه الطبري 27/ 78 .

(5) . - 15 «لم يطمثهن» : روى ابن قتيبة تفسير أبى عبيدة لهذه الآية (القرطبى 2/ 151) .

(116/738)

ما مسّه حبل . .

«مُدْهامَّتانِ» (64) من خضرتهما قد اسودّتا . .

«يْنانِ نَضَّاخَتانِ»

(66) فوّارتان . .

«فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ» (70) امرأة خيرة ورجل خير والجميع خيرات ورجل أخيار وخيار قال :

ولقد طعنت مجامع الرّبلات ربلات هند خيرة الملكات

(298) .

«حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ» (72) الحوراء : الشديدة بياض بياض العين والشديدة سواد سواد العين ، مقصورات : أي خدّرن فى الخيام والخيام البيوت والهوادج أيضا خيام

قال لبيد :

شاقتك ظعن الحيّ يوم تحمّلت فتكنّست قطنا تصرّ خيامها

«1» [892] وقال جرير :

متى كان الخيام بذي طلوح سقيت الغيث أيتها الخيام

«2» [893] .

«رَفْرَفٍ خُضْرٍ» (76) فرش والبسط أيضا رفارف وتقول العرب لكل شيء من البسط

. .

«عَبْقَرِيٍّ» (76) ويرون أنها أرض يوشّى فيها «3» قال زهير بن أبى سلمى :

بخيل عليها جنّة عبقريّة جديرون يوما أن ينالوا فيستعلوا

«4» [894] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 242. 246 ﴾

---

(1) . - 892 : البيت من معلقته فى شرح العشر ص 70 . [. . . . .]

(2) . - 893 : ديوانه ص 512 ومعجم البلدان 3/ 544 .

(3) . - 13 - 15 «رفرف . . . يوشى بها» : رواه ابن قتيبة عن أبى عبيدة (القرطبين 2/ 151 - 152)

(4) . - 894 : ديوانه ص 103 واللسان (عبقر) والقرطبي 17/ 192 .

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الرحمن» سبحانه

[سورة الرحمن (55) : الآيات 6 الى 7]

وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ (6) وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ (7)

قوله تعالى : وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ [6] وهذه استعارة : والنجم هاهنا ما نجم من النبات . أي طلع وظهر . والمراد بسجود النبات والشجر - والله أعلم - ما يظهر عليها من آثار صنعة الصانع الحكيم ، والمقدّر العليم ، بالتنقل من حال الإطلاع ، إلى حال الإيناع ، ومن حال الإيراق إلى حال الإثمار ، غير ممتنعة على المصرّف ، ولا آبية على المدبّر .

وقوله سبحانه : وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ [7] ولفظ الميزان هاهنا مستعار ، على أحد التأويلين . وهو أن يكون معناه العدل الذي تستقيم «1» به الأمور ، ويعتدل عليه الجمهور . وشاهد ذلك قوله تعالى : وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ «2» أي بالعدل فى الأمور .

وروى عن مجاهد «3» أنه قال: القسطاس: العدل بالرومية. ويقال: قسطاس، وقسطاس. بالضم والكسر، كقرطاس وقرطاس.

[سورة الرحمن (55): الآيات 19 الى 20]

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ (19) بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ (20)

وقوله تعالى: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ، بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ [19]، [20] وهذه استعارة. والمراد بها أنه سبحانه أرسل البحرين طامبين، وأمارهما مائعين،

---

(1) فى الأصل «يستقيم» وهو تحريف.

(2) سورة الإسراء. الآية رقم 35.

(3) هو من المفسرين الأولين للقرآن الكريم، والمشهور أنه أول من دون فى التفسير، وتفسيره غير موجود، ولعل الموجود هو تفسير ابن عباس رواه مجاهد. وذكر ابن عطية فى «مقدمته» أن صدر المفسرين والمؤيد فيهم هو على بن أبى طالب رضى اللّه عنه، ويتلوه عبد اللّه بن عباس، ويتلوه مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما ويذكر ابن عطية أن مجاهدا قرأ على ابن عباس قراءة تفهم ووقوف عند كل آية. وذكر جورجى زيدان أن مجاهدا توفى سنة 104 ه. انظر «تاريخ آداب اللغة العربية» ج 1 ص 205، و«مقدمتان فى علوم القرآن» بتحقيق المستشرق أرثر جفرى، ونشر مكتبة الخانجى.

وهما يلتقيان بالمقاربة، لا بالممازجة، فبينهما حاجز يمنعهما من الانخراق «1» ويصدّهما عن الاختلاط.

ومعنى قوله تعالى: لا يَبْغِيانِ أي لا يغلب أحدهما على الآخر، فيقلبه إلى صفته، إمّا الملح على العذب، أو العذب على الملح. وكنى تعالى بلفظ البغي عن غلبة أحدهما على صاحبه. لأن الباغي فى الشاهد اسم لمن تغلّب من طريق الظلم بالقوة والبسطة، والتطاول والسطوة.

وقد مضى الكلام على مثل هذه الاستعارة فيما تقدم. إلّا أن فيها هاهنا زيادة أوجبت إعادة ذكرها.

[سورة الرحمن (55): آية 27]

وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ (27)

وقوله سبحانه: وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ [22] وهذه استعارة. وقد تقدم الكلام على نظيرها. والمراد: وتبقى ذات ربّك وحقيقته.

ولو كان الكلام محمولا على ظاهره لكان فاسدا مستحيلا على قولنا وقول المخالفين.

لأنه لا أحد يقول من المشبّهة والمجسّمة ، الذين يثبتون للّه سبحانه أبعاضا مؤلفة «2» ، وأعضاء مصرّفة إنّ وجه اللّه سبحانه يبقى ، وسائره يبطل ويفنى . تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا .

ومن الدليل على أن المراد بوجه اللّه ها هنا ذات اللّه قوله سبحانه : ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ ألا ترى أنه سبحانه لما قال فى خاتمة هذه السورة : تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ قال : ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ [78] ولم يقل (ذو) لأن اسم اللّه غير اللّه ، ووجه

---

(1) هكذا بالأصل ولعلها الانجراف أو الإغراق .

(2) فى الأصل «و مؤلفة» بواو قبل الصفة . وهى زائدة من الناسخ .

اللّه هو اللّه ، وهذا واضح البيان ، وقد مضى الكلام على هذا المعنى فيما تقدم .

[سورة الرحمن (55) : آية 31]

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ (31)

وقوله سبحانه : سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ [31] وهذه استعارة . وقد كان والدي الطاهر الأوحد ، ذو المناقب ، أبو أحمد الحسين «1» ، بن موسى الموسوي ، رضى اللّه عنه

وأرضاه ، سألنى عن هذه الآية فى عرض كلام جرّ ذكرها ، فأجبته فى الحال بأعرف الأجوبة المقولة فيها . وهو أن يكون المراد بذلك : سنعمد لعقابكم ونأخذ فى جزائكم على مساوئ أعمالكم ، وأنشدته بيت جرير كاشفا عن حقيقة هذا المعنى .

وهو قوله :

ألان وقد فرغت إلى نمير فهذا حين صرت لها عذابا

فقال : فرغت إلى نمير ، كما يقول : عمدت إليها . فأعلمنا أن معنى فرغت هاهنا معنى عمدت وقصدت . ولو كان يريد الفراغ من الشغل لقال : فرغت لها ، ولم يقل فرغت إليها . وقال بعضهم : إنما قال سبحانه : سَنَفْرُغُ لَكُمْ ولم يقل : سنعمد . لأنه أراد أي سنفعل فعل من يتفرغ للعمل من غير تمجيع «2» فيه ، ولا اشتغال بغيره عنه ، ولأنه لما كان الذي يعمد إلى الشيء ربما قصّر فيه لشغله معه بغيره ، وكان الفارغ له – فى الغالب – هو المتوفّر عليه دون غيره ، دللنا بذلك على المبالغة فى الوعيد من الجهة التي هى أعرف عندنا ، ليقع الزجر بأبلغ الألفاظ ، وأدلّ الكلام على معنى الإبعاد .

وقال بعضهم : أصل الاستعارة موضوع على مستعار منه ومستعار له ، فالمستعار منه

---

(1) كان نقيب العلويين فى بغداد . وهو والد الشريفين : الرضى ، والمرتضى . وقد تعرض للقبض عليه من قبل عضد الدولة بن بويه سنة 369 ه ثم أطلقه ابنه شرف الدولة بن بويه ، وعزل عن النقابة سنة 384 ه ثم أعيد إليها سنة 394 ه وأضيف إليه الحج والمظالم ، فلم

يزل على ذلك إلى أن توفى ضريرا سنة 400 ه فرثاه ولداه كما رثاه أبو العلاء المعرى ، ومهيار الديلمي ، وجماعة من الشعراء . [. . . . .]

(2) التمجيع : الممازحة والمماجنة فى العمل وعدم أخذه مأخذ الجد .

(120/738)

أصل ، وهو أقوى . والمستعار له فرع ، وهو أضعف . وهذا مطّرد فى سائر الاستعارات ، فإذا تقرر ذلك كان قوله تعالى : سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ من هذا القبيل .

فالمستعار منه هاهنا ما يجوز فيه الشغل ، وهو أفعال العباد ، والمستعار له ما لا يجوز فيه الشغل ، وهو أفعال اللّه تعالى . والمعنى الجامع لهما الوعيد ، إلا أن الوعيد بقول «1» القائل :

سأتفرغ لعقوبتك ، أقوى من الوعيد بقوله : سأعاقبك . من قبل أنه كأنما قال : سأتجرد لمعاقبتك ، كأنه يريد استفراغ قوّته فى العقوبة له .

ثم جاء القرآن على مطرح كلام العرب ، لأن معناه أسبق إلى النفس ، وأظهر للعقل ، والمراد به تغليظ الوعيد ، والمبالغة فى التحذير . ومثل ذلك قوله تعالى فى المدّثر ، عليه الصلاة والسلام : ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً «2» فالمستعار منه هاهنا ما يجوز فيه المنع ، وهو

أفعال العباد ، والمستعار له ما لا يجوز فيه المنع ، وهو أفعال القديم سبحانه كما قلنا أولا .

والمعنى الجامع لهما التخويف والتهديد .

والتهديد بقول القائل : ذرني وفلانا - إذا أراد المبالغة في وعيده - أقوى من قوله :

خوّف فلانا من عقوبتي ، وحذّره من سطوتي . وهذا بيّن بحمد اللّه تعالى .

وقد يجوز أن يكون لذلك وجه آخر ، وهو أن يكون معنى قوله تعالى : سَنَفْرُغُ لَكُمْ أي

سنفرّغ لكم ملائكتنا الموكّلين بالعذاب ، والمعدين لعقاب أهل النار .

ونظير ذلك قوله تعالى : وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا «3» أي جاء ملائكة ربّك .

ويكون تقدير الكلام : وجاء ملائكة ربّك وهم صفّا صفّا . كما تقول : أقبل القوم وهم

---

(1) في الأصل «يقول» على أنها فعل مضارع . وهو تحريف من الناسخ .

(2) سورة المدثر . الآية رقم 11 .

(3) سورة الفجر . الآية رقم 22 .

زحفا زحفا . والملك هاهنا لفظ الجنس ، وإنما أعيد ذكر الملك ليدل على المحذوف الذي

هو اسم الملائكة ، لأنه ما كان يسوغ أن يقول : وجاء ربك وهم صفّا صفّا ، ويريد الملائكة

على التقدير الذي قدرناه ، لأن الكلام كان يكون ملبسا ، والنظام مختلا مضطربا .

وقد يجوز أيضا أن يكون المعنى : وجاء أمر ربك ، والملك صفّا صفّا . كلا القولين جائز .

وقرأنا «1» حمزة والكسائي : سيفرغ لكم ، بالياء وفتحها ، وقرأنا «2» : سنفرغ لكم بالنون كقراءة السبعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 320. 324 ﴾

---

(1) هكذا في الأصل ، ولعلها «و قرأ حمزة والكسائي» كما فى القرطبي ج 17 ص 169 .

(2) ليس قوله «و قرأنا» واضحا لأن هذه قراءة ابن شهاب والأعرج ، كما فى «الجامع لأحكام القرآن» .

(122/738)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الرحمن

" الرحمن " من أسماء الله الحسنى ، ويكثر أن يقترن باسم الذات " قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن . . . " . ومن آلاء الله العظمى أنه لم يترك البشر دون هداية تقود خطاهم وترسم

هدفهم ، فكان هذا القرآن الكريم جامعا لما أودع فى صحف الأنبياء الأولين ومتضمنا أسباب الرشد للناس حتى قيام الساعة ، فهو فى سورة الآلاء النعمة الأولى على صاحب الرسالة الخاتمة " وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم" . وهو نعمة عظمى على كل من درسه وفقه الناس فيه " خيركم من تعلم القرآن وعلمه " لأنه يخلف الأنبياء فى تبليغ الرسالة ومحو الجاهلية " الرحمن * علم القرآن " . ومن خصائص الجنس البشرى نعمة البيان ونقل المعنى إلى الآخرين بألسنة شتى . ثم بين جل شأنه أن الكون محكوم بسنن ضابطة ، وأن الكواكب لا تتجول فى الفضاء كما يحلو لها ، إن لها مسارا مرسوما وسرعة محددة ، وعليها إشراف دقيق ! وكذلك ما ينمو على الأرض من زرع له ساق مرتفعة أوله ساق تمتد على الثرى ، كلاهما خاضع لنظام محكم " وأنبتنا فيها من كل شيء موزون" . إن جنبات الكون تشبه آلات الساعة التى تحصى الزمن " الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا في الميزان " . وقد يظهر الفساد فى البر والبحر بسبب فوضى الناس ! وقد يقع ثقب فى طبقة "الأوزون " بسبب الإسراف والطغيان ، بيد أن قياد الكون لن يضطرب فى يد خالقه ! ولن يختل التوازن العام فى قوانين المادة ، إلى أن يأذن الله بفناء العالم وإعادة الخلق بعد بدئه وإفنائه . .

ونحن مكلفون خلال هذه المدة بإقامة العدل سواء فى تبادل السلع أو فى إعطاء كل ذى حق حقه من الناحية الإدارية والاجتماعية " وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان " . ومن نعم الله على خلقه ثمرات الزروع والنخيل ، فمع الفواكه الحلوة حبوب فى أغلفتها التى تطير مع الريح كالقمح والأرز ، ويعتمد أغلب البشر عليها فى غذائهم ، كما أن تبنها تأكله الدواب . . ثم هناك الورد والريحان متعة لمن شاء . . ! وقد تكررت آية " فبأي آلاء ربكما تكذبان " إحدى وثلاثين مرة خلال هذه السورة ، والخطاب فيها للإنس والجن المكلفين بعبادة الله فى هذه الدنيا . . . ويمكن تقسيم السورة كلها إلى أربعة فصول: الأول تكلم عن الخلق والإبداع . والثانى عن الفناء والبعث وجزاء المجرمين . والثالث عن أهل السبق من الطائعين . والرابع عن الذين يلونهم من المحسنين . . ومعروف أن آدم خلق من تراب ، ثم من طين ، ثم من صلصال من حمأ مسنون ـ منتن ـ ثم من صلصال كالفخار . . وخلقت ذريته من نطفة ثم علقة ثم مضغة إلخ . . هذه هى النشأة الأولى . . وسيملأ الناس أرجاء الأرض ثم يغلبهم جميعا الموت "كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام " . ثم يستيقظون لمواجهة الحساب ، ولن يفلت منهم أحد فأما الصالحون فإلى نعيم مقيم ، وأما الفاسدون فيقادون إلى عقبى ما قدموا . " يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام" . وهؤلاء المجرمون يمرون بمراحل شتى ، فقد يناقشون الحساب حينا

ويسألون عما فعلوا ـ كما يقع فى دنيانا ـ لكن بعد البت فى شئونهم لا يبقى إلا التنفيذ ، فيساقون إلى جهنم . . وفى توبيخ المقصرين ، وكشف مخازيهم تتكرر هذه الجملة المثيرة " فبأي آلاء ربكما تكذبان " . على نحو أخاذ ، فقد تفصل بين الشرط والجزاء وتكشف عقودتى المفرطين فى جنب الله قبل أن يذكر ما يفعل بهم مثل قوله جل شأنه " فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان " ص

424_

(124/738)

هذه الجملة الأخيرة جواب إذا ، وقبل أن يكتمل الجواب تكررت الآية " فبأي آلاء ربكما تكذبان " . ثم يجىء الوصف المتمم لعقاب الخونة " يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام " . وهذه التكرار ناضح بشدة الغضب الإلهى على من جحدوا النعم وعاشوا يمرحون فيها دون أن يقدروا صاحبها ! كما يقول الأب الغاضب لابنه العاق: أنا – أيها الخائن – أهان ؟ ! أنا ينسى أمرى ويهدر حقى أيها العاق الخئون . . . ؟ ! وتختم سورة الرحمن بوصف رقيق جميل للجنان التى أعدت للمتقين: هناك جنتان لأصحاب

الدرجات العلا " ولمن خاف مقام ربه جنتان " . ويتكرر الفصل بين الصفة والموصوف كما ذكرنا آنفا فى مثل قوله تعالى يصف الحور العين " فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * كأنهن الياقوت والمرجان " . إن حقوق النعمة كبيرة ، وحرام على من استمتع بها ألا يقدرها قدرها . . ! وألا يدفع لها ثمنها . وهناك جنتان أخريان لجماهير المؤمنين " ومن دونهما جنتان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * مدهامتان " . مع انتشار الخضرة وشيوع الظلال صح هذا الوصف . وقد وصف وادى الفرات ووادى النيل بأرض السواد ، لغلبة الخضرة على الأرض ، وهذه الجنان كلها قرة عين لأصحابها ، جعلنا الله منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 424.422 ﴾

(125/738)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والثلاثون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/739)

الجزء التاسع والثلاثون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من (سورة الرحمن جل جلاله)

وحتى الآية ﴿ 32 ﴾ من السورة

(4/739)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الرحمن جل جلاله

أقول: لما قال سبحانه وتعالى في آخر القمر: (بل الساعةِ موعدهم والساعة أَدهى وأَمر) ثم وصف حال المجرمين في سقر ، وحال المتقين في جنات ونهر ، فصل هذا الإجمال في هذه السورة أتم تفصيل ، على الترتيب الوارد في الإجمال فبدأ بوصف مرارة الساعة ، والإشارة إلى إدهائها ، ثم وصف النار وأهلها ، والجنة وأهلها ، ولذا قال فيهم (ولِمن خافَ مقام ربهِ جنتان) وذلك هو عين التقوى ولم يقل: لمن آمن وأطاع ، أو نحوه ، لتتوافق الألفاظ في التفصيل والمفصل وعرف بذلك أن هذه السورة بأسرها شرح لآخر السورة التي قبلها فلله الحمد على ما ألهم وفهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 134 ﴾

قوله تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي ظهرت إحاطة كماله بما ظهر من عجائب مخلوقاته (الرحمن) الذي ظهر عموم رحمته بما بهر من بدائع مصنوعاته واشتهر من عظيم آياته وبيناته (الرحيم) الذي ظهر اختصصه لأهل طاعته بما تحققوا به من الذل المفيد للعز بلزوم عباداته .

(7/739)

ولما ختم سبحانه القمر بعظيم الملك وبليغ القدرة ، وكان الملك القادر لا يكمل ملكه إلا بالرحمة ، وكانت رحمته لا تتم إلا بعمومها ، قصر هذه السورة على تعداد نعمه على خلقه في الدارين ، وذلك من آثار الملك ، وفصل فيها ما أجمل في آخر القمر من مقر الأولياء والأعداء في الآخرة ، وصدرها بالاسم الدال على عموم الرحمة براعة للاستهلال ، وموازنة لما حصل بالملك والاقتدار من غاية التبرك والظهور والهيبة والرعب باسم هو مع أنه في غاية الغيب دال على أعظم الرجاء مفتتحاً لها بأعظم النعم وهو تعليم الذكر الذي

هز ذوي الهمم العالية في القمر إلى الإقبال عليه بقوله ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ لأنه لما كان للعظمة الدالة عليها نون ﴿ يسرنا ﴾ التي هي عماد الملك نظران : نظر الكبرياء والجبروت يقتضي أن يتكلم بما يعجز خلقه من كل جهة في الفهم والحفظ والإتيان بمثله وكل معنى من معانيه ، ونظر الإكرام والرحمة ، وكانت رحمته سابقة لغضبه نظر بها لخلقه لا سيما هذه الأمة المرحومة فيسر لها الذكر تحقيقاً للرحمة بعد أن أبقى من آثار الجبروت الإعجاز عن النظر ، ومن الإعجاز من الفهم الحروف المقطعة أوائل السور ، ومنع المتعنت من أن يقول : إنه لا معاني لها بأن فهم بعض الأصفياء بعض أسرارها ، فقال جواباً لمن كأنه قال : من هذا المليك المقتدر ، فقيل : ﴿ الرحمان ﴾ أي العام الرحمة ، قال ابن برجان : وهو ظاهر اسمه الله ، وباطن اسمه الرب ، جعل هذه الأسماء الثلاثة في ظهورها مقام الذات يخبر بها عنه وحجاباً بينه وبين خلقه ، يوصل بها الخطاب منه إليهم ، ثم أسماؤه الظاهرة مبينة لهذه الأسماء الثلاثة – انتهى .

ومن مقتضى اسمه ﴿ الرحمن ﴾ انبثت جميع النعم ، ولذا ذكر في هذه السورة أمهات النعم في الدارين .

(8/739)

ولما كان لا شيء من الرحمة أبلغ ولا أدل على القدرة من إيصال بعض صفات الخالق إلى المخلوق نوع إيصال ليتخلقوا به بحسب ما يمكنهم منه فيحصلوا على الحياة الأبدية والسعادة السرمدية قال : ﴿ علم القرآن ﴾ أي المرئي المشهود بالكتابة والمتلو المسموع الجامع لكل خير ، الفارق بين كل لبس ، وكان القياس يقتضي أن لا يعلم المسموع أحد لأنه صفة من صفاته ، وصفاته في العظم كذاته ، وذاته غيب محض ، لأن الخلق أحقر من أن يحيطوا به علماً ، " وأين الثريا من يد المتناول " فدل تعليمه القرآن على أنه يقدر أن يعلم ما أراد من أراد ﴿ وعلم آدم الاسماء كلها ﴾ [البقرة : 31] ولا يخفى ما في تقديمه على جميع النعم من المناسبة لأن أجل النعم نعمة الدين التي تتبعها نعمة الدنيا والآخرة ، وهو أعلى مراتب ، فهو سنام الكتب السماوية وعمادها ومصداقها والعبار عليها ، وفائدتها الإيصال إلى مقعد الصدق المتقدم لأنه بين ما يرضي الله ليعمل به وما يسخطه ليجتنب .

(9/739)

وقال الإمام جعفر بن الزبير : من المعلوم أن الكتاب العزيز وإن كانت آية كلها معجزة باهرة وسورة في جليل النظم وبديع التأليف قاطعة بالخصوم قاهرة ، فبعضها أوضح من بعض في تبين إعجازها ، وتظاهر بلاغتها وإيجازها : ألا ترى إلى تسارع الأفهام إلى الحصول على

بلاغة آيات وسور من أول وهلة دون كبير تأمل كقوله تعالى ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ﴾ [هود : 44] وقوله ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ [الحجر : 94] ، الآيات ، لا يتوقف في باهر إعجازها إلا من طبع الله على قلبه أو سد دونه باب الفهم بأنى له بر لوجه وقوعه ، وسورة القمر من هذا النمط ، ألا ترى اختصار القصص فيه مع حصول أطرافها وتوفية أغراضها ، وما جرى مع كل قصة من الزجر والوعظ والتنبيه والإعذار ، ولولا أني لم أقصد التعليق ما بنيته عليه من ترتيب السور لأوضحت ما أشرت إليه مما لم أسبق إليه ، ولعل الله سبحانه ييسر ذلك فيما باليد من التفسير نفع الله به ويسر فيه ، فلما انطوت هذه السورة على ما ذكرنا وبان فيها عظيم الرحمة في تكرر القصص وشفع العظات ، وظهرت حجة الله على الخلق ، وكان ذلك من أعظم ألطافه تعالى لمن يسره لتدبر القرآن ووفقه لفهمه واعتباره ، أردف ذلك سبحانه بالتنبيه على هذه النعمة فقال تبارك وتعالى ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ﴾ وخص من أسمائه الحسنى هذا الاسم إشعاراً برحمته بالكتاب وعظيم إحسانه به ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ [إبراهيم : 34] ثم قد تمهد أن سورة القمر إعذار ومن أين للعباد بجميل هذا اللطف وعظيم هذا الحلم حتى يرادوا إلى بسط الدلالات وإيضاح البينات إن تعذر إليهم زيادة في البلاغ ، فأنبأ تعالى أن هذا رحمة فقال ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ ثم إذا تأملت سورة القمر وجدت خطابها وإعذارها خاصاً ببني آدم بل بمشركي العرب منهم

فقط ، فاتبعت سورة القمر بسورة الرحمن تنبيهاً للثقلين وإعذاراً إليهم وتقريراً للجنسين على

(10/739)

ما أودع سبحانه في العالم من العجائب والبراهين الساطعة فتكرر فيها التقرير والتنبيه بقوله تعالى : ﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان ﴾ خطاباً للجنسين وإعذاراً للثقلين فبان اتصالها بسورة القمر أشد البيان – انتهى .

ولما كان كأنه قيل : كيف علمه وهو صفة من صفاته ولمن علمه ، قال مستأنفاً أو معللاً : ﴿ خلق الإنسان ﴾ أي قدره وأوجده على هذا الشكل المعروف والتركيب الموصوف منفصلاً عن جميع الجمادات وأصله منها ثم عن سائر الناميات ثم عن غيره من الحيوانات ، وجعله أصنافاً ، وفصل بين كل قوم بلسانهم عمن عداهم وخلقه لهم دليل على خلقه لكل شيء موجود

﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ [القمر : 49] والإنسان وإن كان اسم جنس لكن أحقهم بالإرادة بهذا أولهم وهو آدم عليه السلام ، وإرادته – كما قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ – لا تمنع إرادة الجنس من حيث هو .

ولما كان كأنه قيل : فكان ماذا بخلقه ، قال : ﴿ علمه البيان ﴾ وهو القوة الناطقة ، وهي الإدراك للأمور الكلية والجزئية والحكم الحاضر والغائب بقياسه على الحاضرة تارة بالتوسم وأخرى بالحساب ومرة بالعيافة والزجر وطوراً بالنظر في الآفاق وغير ذلك من الأمور مع التمييز بين الحسن والقبيح وغير ذلك ما أدعه سبحانه وتعالى له مع تعبيره عما أدركه بما هو غائب في ضميره وإفهامه للغير تارة بالقول وتارة بالفعل نطقاً وكتابة وإشارة وغيرها ، فصار بذلك ذا قدرة على الكمال في نفسه والتكميل لغيره ، فهذا تعليم البيان الذي مكن من تعليم القرآن ، وهذا وإن كان سبحانه جبلنا عليه وخلقناه به قد صار عندنا مألوفاً ومشهوراً معروفاً ، فهو عند غيرنا على غير ذلك مما أوضحه لنا سبحانه نعمة علينا بمحاجته لملائكته الكرام عن نبينا آدم عليه الصلاة والسلام وما أبدى لهم من علمه وبهرهم من رسم كل شيء بمعناه واسمه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 374.371 ﴾

(11/739)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ والحب ذا العصف والريحان ﴾ بالنصب فيهما : ابن عامر ﴿ والحب ذو العصف ﴾ بالرفع فيهما ﴿ والريحان ﴾ بالجر : حمزة وعلي وخلف . الباقون : برفع الريحان ﴿ يخرج ﴾ مجهولاً من الإخراج : أبو جعفر وناعف وأبو عمرو وسهل ويعقوب ﴿ اللؤلؤ ﴾ كنظائره ﴿ والجوار ﴾ ممالة : قتيبة ونصير وأبو عمرو وخلف طريق ابن عبدوس . ﴿ المنشآت ﴾ بكسر الشين . حمزة ويحيى طريق الصريعيني ﴿ سيفرغ ﴾ بالياء : حمزة وعلي وخلف . الباقون : بالنون على طريق الالتفات ﴿ أيه الثقلان ﴾ بضم الهاء مثل ﴿ أيه المؤمنون ﴾ [النور : 31] ﴿ يا أيها الساحر ﴾ [الزخرف : 49] ﴿ شواظ ﴾ بكسر الشين : ابن كثير ونحاس . بالجر : ابن كثير وأبو عمرو وسهل ﴿ لم يطمثهن ﴾ بضم الميم في إحداهما تخيراً : علي . وروى أبو الحرث عنه في الأولى بالضم ﴿ من استبرق ﴾ بنقل حركة الهمزة إلى النون : رويس وورش والشموني وحمزة في الوقف ﴿ ذو الجلال ﴾ بالرفع : ابن عامر .

(12/739)

الوقوف : ﴿ الرحمن ﴾ ه لا ﴿ القرآن ﴾ ه ط ﴿ الإنسان ﴾ ه ﴿ البيان ﴾ ه ﴿ بحسبان ﴾ ه ص لعطف الجملتين المتفقتين ﴿ يسجدان ﴾ ه ﴿ الميزان ﴾ ه لا لتعلق أن

﴿ الميزان ﴾ ه ﴿ للأنام ﴾ ه لا لأن الجملة بعدها حال ﴿ فاكهة ﴾ ص ﴿ الأكمام ﴾ ه ص ﴿ والريحان ﴾ ه ج لابتداء الاستفهام مع دخول فاء التعقيب ، والوقف أجوز لأن الابتداء بالاستفهام مبالغة في التنبيه وكذلك في جميع السورة ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ كالفخار ﴾ ه لا ﴿ نار ﴾ ه ج ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ المغربين ﴾ ه ج ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ يلتقيان ﴾ ه لا لأن ما بعده حال من الضمير في ﴿ يلتقيان ﴾ ﴿ ولا يبغيان ﴾ ه حال بعد حال ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ والمرجان ﴾ ه ج ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ كالأعلام ﴾ ه ج ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ فإن ﴾ ه ج لعطف الجملتين المختلفتين والأولى الوصل لأن الكلام الأول يتم بالثاني. ﴿ والإكرام ﴾ ه ج ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ شأن ﴾ ه ج ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ الثقلان ﴾ ه ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ فانفذوا ﴾ ه ط ﴿ بسلطان ﴾ ه ج ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ فلا تنتصران ﴾ ه ج ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ كالدهان ﴾ ه ج ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ ولاجان ﴾ ه ج ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ والأقدام ﴾ ه ج ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ المجرمون ﴾ ه م لأنه لو وصل صار ما بعده حالاً من المجرمين وليس كذلك ﴿ آن ﴾ ج ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ جنتان ﴾ ه ج ﴿ تكذبان ﴾ ه لا لأن قوله ﴿ ذواتا ﴾ صفة ﴿ أفنان ﴾ ه ج ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ تجريان ﴾ ه ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ زوجان ﴾ ه ﴿ تكذبان ﴾ ه ج لأن ﴿ متكئين ﴾ حال إلا أن الكلام قد تطاول ﴿ من إستبرق ﴾ ط ﴿ دان ﴾ ه ج ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ الطرف ﴾ لا لأن ﴿ لم يطمثهن ﴾ حال عنهن ﴿

جان ﴾ ه‍ج ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ والمرجان ﴾ ه‍ج ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ إلا الإحسان ﴾ ج ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ جنتان ﴾ ه ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ مدهامتان ﴾ ه ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ نضاختان ﴾ ه ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ ورمان ﴾ ه‍ج ﴿ تكذبان ﴾ ه‍ج ﴿ حسان ﴾ ه ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ في الخيام ﴾ ه‍ج ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ جان ﴾ ه‍ج ﴿ تكذبان ﴾ ه‍ج ﴿ حسان ﴾ ه‍ج ﴿ تكذبان ﴾ ه ﴿ والإكرام ﴾ ه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 226. 227 ﴾

(13/739)

فصل

قال الفخر:

﴿ الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) ﴾

اعلم أولاً أن مناسبة هذه السورة لما قبلها بوجهين أحدهما: أن الله تعالى افتتح السورة المتقدمة بذكر معجزة تدل على العزة والجبروت والهيبة وهو انشقاق القمر، فإن من يقدر على شق القمر يقدر على هد الجبال وقد الرجال، وافتتح هذه السورة بذكر معجزة تدل على الرحمة والرحموت وهو القرآن الكريم، فإن شفاء القلوب بالصفاء عن الذنوب ثانيهما

: أنه تعالى ذكر في السورة المتقدمة : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر : 16] غير مرة ، وذكر في السورة : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 13] مرة بعد مرة لما بينا أن تلك السورة سورة إظهار الهيبة ، وهذه السورة سورة إظهار الرحمة ، ثم إن أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها حيث قال في آخر تلك السورة : ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : 55] ، والاقتدار إشارة إلى الهيبة والعظمة وقال ههنا : ﴿ الرحمن ﴾ أي عزيز شديد منتقم مقتدر بالنسبة إلى الكفار والفجار ، رحمن منعم غافر للأبرار .

ثم في التفسير مسائل :

المسألة الأولى :

في لفظ ﴿ الرحمن ﴾ أبحاث ، ولا يتبين بعضها إلا بعد البحث في كلمة الله فنقول :

(14/739)

المبحث الأول : من الناس من يقول : إن الله مع الألف واللام اسم علم لموجد الممكنات وعلى هذا فمنهم من قال : ﴿ الرحمن ﴾ أيضاً اسم علم له وتمسك بقوله تعالى : ﴿ قُلِ ادعوا اللهَ أَوِ ادعوا الرحمن أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأسماء الحسنى ﴾ [الإسراء : 110] أي أياً ما منهما ، وجوز بعضهم قول القائل : يا الرحمن كما يجوز يا الله وتمسك بالآية وكل هذا

ضعيف وبعضها أضعف من بعض ، أما قوله : الله مع الألف واللام اسم علم ففيه بعض الضعف وذلك لأنه لو كان كذلك لكانت الهمزة فيه أصلية ، فلا يجوز أن تجعل وصلية ، وكان يجب أن يقال : خلق الله كما يقال : علم أحمد وفهم إسماعيل ، بل الحق فيه أحد القولين : إما أن نقول : إله أو لاه اسم لموجد الممكنات اسم علم ، ثم استعمل مع الألف واللام كما في الفضل والعباس والحسن والخليل ، وعلى هذا فمن سمى غيره إلهاً فهو كمن يستعمل في مولود له فيقول لابنه محمد وأحمد وإن كان علمين لغيره قبله في أنه جائز لأن من سمى ابنه أحمد لم يكن له من الأمر المطاع ما يمنع الغير عن التسمية به ولم يكن له الاحتجار وأخذ الاسم لنفسه أو لولده بخلاف الملك المطاع إذا استأثر لنفسه اسماً لا يستجرىء أحد ممن تحت ولايته ما دام له الملك أن يسمى ولده أو نفسه بذلك الاسم خصوصاً من يكون مملوكاً لا يمكنه أن يسمي نفسه باسم الملك ولا أن يسمي ولده به ، والله تعالى ملك مطاع وكل من عداه تحت أمره فإذا استأثر لنفسه اسماً لا يجوز للعبيد أن يتسموا بذلك الاسم ، فمن يسمى فقد تعدى فالمشركون في التسمية متعدون ، وفي المعنى ضالون وإما أن نقول : إله أو لاه اسم لمن يعبد والألف واللام للتعريف ، ولما امتنع المعنى عن غير الله امتنع الاسم ، فإن قيل : فلو سمى أحد ابنه به كان ينبغي أن يجوز ؟ قلنا : لا يجوز لأنه يوهم أنه اسم موضوع لذلك الابن لمعنى لا لكونه علماً ، فإن قيل : تسمية الواحد بالكريم والودود جائزة قلنا : كل ما يكون حمله

على العلم وعلى اسم لمعنى ملحوظ في اللفظ الذكرى لا يفضي إلى خلل يجوز ذلك فيه فيجوز تسمية الواحد بالكريم والودود ولا يجوز تسميته بالخالق ، والقديم لأن على تقدير حمله على أنه علم غير ملحوظ فيه المعنى يجوز ، وعلى تقدير حمله على أنه اسم لمعنى هو قائم به كالقدرة التي بها بقاء الخلق أو العدم ، فلا يجوز لكن اسم المعبود من هذا القبيل فلا يجوز التسمية به ، فأحد هذين القولين حق وقولهم مع الألف واللام علم ليس بحق ، إذا عرفت البحث في الله فما يترتب عليه ، وهو أن الرحمن اسم على أضعف منه ، وتجويز يا الرحمن أضعف من الكل .

البحث الثاني : الله والرحمن في حق الله تعالى كالاسم الأول والوصف الغالب الذي يصير كالاسم بعد الاسم الأول كما في قولنا : عمر الفاروق ، وعلى المرتضى وموسى الرضا ، وغير ذلك مما نجده في أسماء الخلفاء وأوصافهم المعرفة لهم التي كانت لهم وصفاً وخرجت بكثرة الاستعمال عن الوصفية ، حتى إن الشخص وإن لم يتصف به أو فارقه الوصف يقال له ذلك كالعلم فإذن للرحمن اختصاص بالله تعالى ، كما أن لتلك الأوصاف اختصاصاً بأولئك غير أن في تلك الأسماء والأوصاف جاز الوضع لما بينا حيث استوى الناس في

الاقتدار والعظمة ، ولا يجوز في حق الله تعالى ، فإن قيل : إن من الناس من أطلق لفظ الرحمن على اليمامي ، نقول : هو كما أن من الناس من أطلق لفظ الإله على غير الله تعدياً وكفراً ، نظراً إلى جوازه لغة وهو اعتقاد باطل .

(16/739)

البحث الثالث : لله تعالى رحمتان سابقة ولاحقة فالسابقة هي التي بها خلق الخلق واللاحقة هي التي أعطى بها الخلق بعد إيجاده إياهم من الرزق والفطنة وغير ذلك فهو تعالى بالنظر إلى الرحمة السابقة رحمن ، وبالنظر إلى اللاحقة رحيم ، ولهذا يقال : يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، فهو رحمن ، لأنه خلق الخلق أولاً برحمته ، فلما لم يوجد في غيره هذه الرحمة ولم يخلق أحد حداً لم يجز أن يقال لغيره : رحمن ، ولما تخلق الصالحون من عباده ببعض أخلاقه على قدر الطاقة البشرية ، وأطعم الجائع وكسا العاري ، وجد شيء من الرحمة اللاحقة التي بها الرزق والإعانة فجاز أن يقال له رحيم ، وقد ذكرنا هذا كله في تفسير سورة الفاتحة غير أنا أردنا أن يصير ما ذكرنا مضموماً إلى ما ذكرناه هناك ، فأعدناه ههنا لأن هذا كله كالتفصيل لما ذكرناه في الفاتحة .

المسألة الثانية :

﴿ الرحمن ﴾ مبتدأ خبره الجملة الفعلية التي هي قوله : ﴿ عَلَّمَ القرءان ﴾ وقيل ﴿ الرحمن ﴾ (خبر) مبتدأ تقديره هو الرحمن ، ثم أتى بجملة بعد جملة فقال : ﴿ عَلَّمَ القرءان ﴾ والأول أصح ، وعلى القول الضعيف الرحمن آية .

المسألة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَ القرءان ﴾ لا بد له من مفعول ثان فما ذلك ؟ نقول : الجواب عنه من وجهين أحدهما : قيل : علم بمعنى جعله علامة أي هو علامة النبوة ومعجزة وهذا يناسب قوله تعالى : ﴿ وانشق القمر ﴾ [القمر : 1] على ما بينا أنه ذكر في أول تلك السورة معجزة من باب الهيئة وهو أنه شق مالا يشقه أحد غيره ، وذكر في هذه السورة معجزة من باب الرحمة ، وهو أنه نشر من العلوم مالا ينشره غيره ، وهو ما في القرآن ، وعلى هذا الوجه من الجواب ففيه احتمال آخر ، وهو أنه جعله بحيث يعلم فهو كقوله : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءان لِلذّكْرِ ﴾ [القمر : 17] والتعليم على هذا الوجه مجاز .

(17/739)

يقال : إن أنفق على متعلم وأعطى أجرة على تعليمة علمه وثانيهما : أن المفعول الثاني لا بد منه وهو جبريل وغيره من الملائكة علمهم القرآن ثم أنزله على عبده كما قال تعالى : ﴿ نَزَلَ

بِهِ الروح الأمين * على قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : 193 ، 194] ويحتمل أن يقال : المفعول الثاني هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وفيه إشارة إلى أن القرآن كلام الله تعالى لا كلام محمد ، وفيه وجه ثالث : وهو أنه تعالى علم القرآن الإنسان ، وهذا أقرب ليكون الإنعام أتم والسورة مفتتحة لبيان الأعم من النعم الشاملة .

المسألة الرابعة :

لم ترك المفعول الثاني ؟ نقول : إشارة إلى أن النعمة في تعميم التعليم لا في تعليم شخص دون شخص ، يقال : فلان يطعم الطعام إشارة إلى كرمه ، ولا يبين من يطعمه .

المسألة الخامسة :

ما معنى التعليم ؟ نقوله على قولنا له مفعول ثان إفادة العلم به ، فإن قيل : كيف يفهم قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَ القرءان ﴾ مع قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله ﴾ ؟ [آل عمران : 7] نقول : من لا يقف عند قوله : ﴿ إِلاَّ الله ﴾ ويعطف : ﴿ الراسخون ﴾ على الله عطف المفرد على المفرد لا يرد عليه هذا ، ومن يقف ويعطف قوله تعالى : ﴿ والراسخون فِي العلم ﴾ على قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ ﴾ عطف جملة على جملة يقول : إنه تعالى علم القرآن ، لأن من علم كتاباً عظيماً ووقع على ما فيه ، وفيه مواضع مشكلة فعلم ما في تلك المواضع بقدر الإمكان ، يقال : فلان يعلم الكتاب الفلاني ويتقنه بقدر وسعه ، وإن كان لم يعلم مراد صاحب الكتاب بيقين ، وكذلك القول في تعليم القرآن ، أو تقول : لا يعلم تأويله إلا الله وأما

غيره فلا يعلم من تلقاء نفسه ما لم يعلم ، فيكون إشارة إلى أن كتاب الله تعالى ليس كغيره من الكتب التي يستخرج ما فيها بقوة الذكاء والعلوم .

ثم قال تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ البيان ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(18/739)

في وجه الترتيب وهو على وجهين أحدهما : ما ذكرنا أن المراد من علم علم الملائكة وتعليمه الملائكة قبل خلق الإنسان ، فعلم تعالى ملائكته المقربين القرآن حقيقة يدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءانٌ كَرِيمٌ * فِي كتاب مَّكْنُونٍ * لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ [الواقعة : 77 79] ثم قال تعالى : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ [الواقعة : 80] إشارة إلى تنزيله بعد تعليمه ، وعلى هذا ففي النظم حسن زائد وذلك من حيث إنه تعالى ذكر أموراً علوية وأموراً سفلية ، وكل علوي قابله بسفلي ، وقدم العلويات على السفليات إلى آخر الآيات ، فقال : ﴿ عَلَّمَ القرءان ﴾ إشارة إلى تعليم العلويين ، وقال : ﴿ عَلَّمَهُ البيان ﴾ إشارة إلى تعليم السفليين ، وقال : ﴿ الشمس والقمر ﴾ [الرحمن : 5] في العلويات وقال في مقابلتهما من السفليات : ﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن : 6] .

ثم قال تعالى : ﴿ والسماء رَفَعَهَا ﴾ [الرحمن : 7] وفي مقابلتها : ﴿ والأرض وَضَعَهَا ﴾ [الرحمن : 10] ، وثانيهما : أن تقديم تعليم القرآن إشارة إلى كونه أتم نعمة وأعظم إنعاماً ، ثم بين كيفية تعليم القرآن ، فقال : ﴿ خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ البيان ﴾ وهو كقول القائل : علمت فلاناً الأدب حملته عليه ، وأنفقت عليه مالي ، فقوله : حملته وأنفقت بيان لما تقدم ، وإنما قدم ذلك لأنه الإنعام العظيم .

المسألة الثانية :

ما الفرق بين هذه السورة وسورة العلق ، حيث قال هناك : ﴿ اقرأ باسم ربّكَ الذي خَلَقَ ﴾ [العلق : 1] ثم قال : ﴿ وَرَبُّكَ الأكرم الذي عَلَّمَ بالقلم ﴾ [العلق : 3 ، 4] فقدم الخلق على التعليم ؟ نقول : في تلك السورة لم يصرح بتعليم القرآن فهو كالتعليم الذي ذكره في هذه السورة بقوله : ﴿ عَلَّمَهُ البيان ﴾ بعد قوله : ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ .

المسألة الثالثة :

ما المراد من الإنسان ؟ نقول : هو الجنس ، وقيل : المراد محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : المراد آدم والأول أصح نظراً إلى اللفظ في ﴿ خُلِقَ ﴾ ويدخل فيه محمد وآدم

وغيرهما من الأنبياء .

المسألة الرابعة :

ما البيان وكيف تعليمه ؟ نقول : من المفسرين من قال : البيان المنطق فعلمه ما ينطق به ويفهم غيره ما عنده ، فإن به يمتاز الإنسان عن غيره عن الحيوانات ، وقوله : ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ إشارة إلى تقدير خلق جسمه الخاص ، و ﴿ عَلَّمَهُ البيان ﴾ إشارة إلى تميزه بالعلم عن غيره .

وقد خرج ما ذكرنا أولاً أن البيان هو القرآن وأعاده ليفصل ما ذكره إجمالاً بقوله تعالى : ﴿ عَلَّمَ القرءان ﴾ كما قلنا في المثال حيث يقول القائل : علمت فلاناً الأدب حملته عليه ، وعلى هذا فالبيان مصدر أريد به ما فيه المصدر ، وإطلاق البيان بمعنى القرآن على القرآن في القرآن كثير ، قال تعالى :

﴿ هذا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 138] وقد سمى الله تعالى القرآن فرقاناً وبياناً والبيان فرقان بين الحق والباطل ، فصح إطلاق البيان ، وإرادة القرآن .

المسألة الخامسة :

كيف صرح بذكر المفعولين في علمه البيان ولم يصرح بهما في علم القرآن نقول : أما إن قلنا : إن المراد من قوله علم القرآن هو أنه علم الإنسان القرآن ، فنقول حذفه لعظم نعمة التعليم وقدم ذكره على من علمه وعلى بيان خلقه ، ثم فصل بيان كيفية تعليم القرآن ، فقال : ﴿ خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ ﴾ وقد بين ذلك ، وأما إن قلنا : المراد ﴿ عَلَّمَ القرءان ﴾ الملائكة فلأن المقصود تعديد النعم على الإنسان ومطالبته بالشكر ومنعه من التكذيب به ، وتعليمه للملائكة لا يظهر للإنسان أنه فائدة راجعة إلى الإنسان (1) وأما تعليم الإنسان فهي نعمة ظاهرة ، فقال : ﴿ عَلَّمَهُ البيان ﴾ أي علم الإنسان تعديداً للنعم عليه ومثل هذا قال في : ﴿ اقرأ ﴾ قال مرة : ﴿ عَلَّمَ بالقلم ﴾ من غير بيان المعلم ، ثم قال مرة أخرى : ﴿ عَلَّمَ الإنسان ما لَمْ يَعْلَمْ ﴾ وهو البيان ، ويحتمل أن يتمسك بهذه الآية على أن اللغات توقيفية حصل العلم بها بتعليم الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 73 . 76 ﴾

---

(1) أقول : إن كان اطراد علم الملائكة فيه نعمة أعظم على الإنسان وإشارة إلى نوع المنة التي أنعم بها عليه بالقرآن وإلى شرف القرآن بأنه مما تعلمه الملائكة ولا ريب أن الملائكة وقد نزلوا بالقرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وحملوه إليه فإن علمهم به ولا شك ألزم وإنزال ملائكة موصوفين بالعلم على الرسول فيه تبجيل للرسول ولأمته وللقرآن نفسه ، وبهذا تظهر

الفائدة في إرادة هذا المعنى ربما تعين هذا المراد مراعاة للترتيب الذي في الآية ، ووقوع خلق الإنسان بعد خلقه الملائكة . [. . . . .]

(21/739)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ الرحمن عَلَّمَ القرآن ﴾

قال سعيد بن جبير وعامر الشَّعْبي : ﴿ الرحمن ﴾ فاتحة ثلاث سور إذا جُمعن كن اسما من أسماء الله تعالى "الار" و "حام" و "نا" فيكون مجموع هذه ﴿ الرحمن .

عَلَّمَ القرآن ﴾ أي علّمه نبيّه صلى الله عليه وسلم حتى أدّاه إلى جميع الناس .

وأنزلت حين قالوا : وَمَا الرحمن ؟ وقيل : نزلت جواباً لأهل مكة حين قالوا : إنما يعلّمه بشر وهو رحمن اليمامة ؛ يعنون مسيلِمة الكذّاب ، فأنزل الله تعالى : ﴿ الرحمن ﴾ ﴿ عَلَّمَ القرآن ﴾ وقال الزجاج : معنى "عَلَّمَ الْقُرْآنَ" أي سهّله لأن يُذكر ويُقرأ كما قال : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآنِ للذِّكْرِ ﴾ [القمر : 17] وقيل : جعله علامة لما تعبد الناس به .

﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ قال ابن عباس وقتادة والحسن يعني آدم عليه السلام .

﴿ عَلَّمَهُ البيان ﴾ أسماء كل شيء .

وقيل : علمه اللغات كلها .

وعن ابن عباس أيضاً وابن كيسان : الإنسان هاهنا يراد به محمد صلى الله عليه وسلم

والبيان بيان الحلال من الحرام ، والهدى من الضلال .

وقيل : ما كان وما يكون ؛ لأنه بَيّن عن الأوّلين والآخرين ويوم الدِّين .

وقال الضحاك : "البيان" الخير والشر .

وقال الربيع بن أنس : هو ما ينفعه وما يضره ؛ وقاله قتادة .

وقيل : "الإِنْسَانَ" يراد به جميع الناس فهو اسم للجنس و "الْبَيَانَ" على هذا الكلامُ والفهم ،

وهو مما فُضّل به الإنسان على سائر الحيوان .

وقال السديّ : علّم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به .

وقال يمان : الكتابة والخط بالقلم .

نظيره : ﴿ عَلَّمَ بالقلم . عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : 4-5] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(22/739)

وقال الآلوسى :

﴿ الرحمن عَلَّمَ القرءان ﴾

لأنه أعظم النعم شأناً وأرفعها مكاناً كيف لا وهو مدار للسعادة الدينية والدنيوية وعيار على الكتب السماوية ما من مرصد ترنو إليه أحداق الأمم إلا وهو منشؤه ومناطه ، ولا مقصد تمتد نحوه أعناق الهمم إلا وهو منهجه وصراطه ، ونصبه على أنه مفعول ثان لعلم ومفعوله الأول محذوف لدلالة المعنى عليه أي علم الإنسان القرآن وهذا المفعول هو الذي كان فاعلاً قبل نقل فعل الثلاثي إلى فعل المضعف ، وسها الإمام فحسب أن المحذوف المفعول الثاني حيث قال : علم لا بد له من مفعول ثان وترك للإشارة إلى أن النعمة في التعليم لا في تعليم شخص دون شخص ، ويمكن أن يقال : أراد أنه لا بد له من مفعول آخر مع هذا المفعول فلا جزم بسهوه ، وقيل : المقدر جبريل عليه السلام أو الملائكة المقربين عليهم السلام ، وقيل : محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى القولين يتضمن ذلك الإشارة إلى القرآن كلام الله عز وجل ، والقول الأول أظهر وأنسب بالمقام ، ولي في تعليم غير جبريل عليه السلام من الملائكة الكرام تردد مّا بناءاً على ما في الإتقان نقلاً عن ابن الصلاح من أن قراءة القرآن كرامة أكرم الله تعالى بها البشر فقد ورد أن الملائكة لم يعطوا ذلك وأنهم حريصون لذلك على استماعه من الإنس ، وإنما لم أعتبر عمومه للنصوص الدالة على أن جبريل عليه السلام كان يقرأ القرآن وكأني بك لا تسلم صحة ما ذكر وإن استثنى منه جبريل عليه السلام ،

وقيل : ﴿ عِلْمٍ ﴾ من العلامة ولا تقدير أي جعل القرآن علامة وآية لمن اعتبر ، أو علامة للنبوة ومعجزة ، وهذا على ما قيل : يناسب ما ذكر في مفتتح السورة السابقة من قوله تعالى : ﴿ وانشق القمر ﴾ [القمر : 1] وتتناسب السورتان في المفتتح حيث افتتحت الأولى بمعجزة من باب الهيبة وهذه بمعجزة من باب الرحمة .

(23/739)

وقد أبعد القائل ولو أبدى ألف مناسبة ، فالذي ينبغي أن يعلم أنه من التعليم ، والمراد بتعليم القرآن قيل : إفادة العلم به لا بمعنى إفادة العلم بألفاظه فقط بل بمعنى إفادة ذلك والعلم بمعانيه على وجه يعتدّ به وهو متفاوت وقد يصل إلى العلم بالحوادث الكونية من إشاراته ورموزه إلى غير ذلك فإن الله تعالى لم يغفل شيئاً فيه .

أخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة عن أبي هريرة مرفوعاً " إن الله لو أغفل شيئاً لأغفل الذرة والخردلة والبعوضة " .

وأخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنزل في هذا القرآن علم كل شيء وبين لنا فيه كل شيء ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن ، وقال ابن عباس : لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب

الله تعالى ؛ وقال المرسي : جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم به ، ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم خلا ما استأثر به سبحانه ، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم كالخلفاء الأربعة ، ثم ورث عنهم التابعون لهم بإحسان ، ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن جمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه ، وفسر بعضهم التعليم بتنبيه النفس لتصور المعاني ، وجوز الإمام أن يراد به هنا جعل الشخص بحيث يعلم القرآن فالآية كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءانَ لِلذِّكْرِ ﴾ [القمر : 17] وهو بهذا المعنى مجاز كما لا يخفى ، و﴿ الرحمن ﴾ مبتدأ ، والجملة بعده خبره كما هو الظاهر ، وإسناد تعليمه إلى اسم ﴿ الرحمن ﴾ للإيذان بأنه من آثار الرحمة الواسعة وأحكامها ، وتقديم المسند إليه إما للتأكيد أو للحصر ، وفيه من تعظيم شأن القرآن ما فيه ، وقيل : ﴿ الرحمن ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ خبره محذوف أي الله الرحمن ، أو الرحمن ربنا وما بعد مستأنف لتعديد نعمه عز وجل وهو خلاف الظاهر ، ثم أتبع سبحانه نعمة تعليم القرآن بخلق الإنسان فقال تعالى :

(24/739)

﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ لأن أصل النعم عليه ، وإنما قدم ما قدم منها لأنه أعظمها ، وقيل : لأنه مشير إلى الغاية من خلق الإنسان وهو كماله في قوة العلم والغاية متقدمة على ذي الغاية ذهناً وإن كان الأمر بالعكس خارجاً ، والمراد بالإنسان الجنس وبخلقه إنشاؤه على ما هو عليه من القوى الظاهرة والباطنة ، ثم أتبع عز وجل ذلك بنعمة تعليم ﴿ البيان ﴾ فقال سبحانه :

﴿ عَلَّمَهُ البيان ﴾ لأن البيان هو الذي به يتمكن عادة من تعلم القرآن وتعليمه ، والمراد به المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير .

والمراد بتعليمه نحو ما مر ، وفي "الإرشاد" أن قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ [الرحمن : 3] تعيين للمتعلم ، وقوله سبحانه : ﴿ عَلَّمَهُ البيان ﴾ تبيين لكيفية التعليم ، والمراد بتعليم البيان تمكين الإنسان من بيان نفسه ، ومن فهم بيان غيره إذ هو الذي يدور عليه تعليم القرآن .

وقيل : بناءاً على تقدير المفعول المحذوف الملائكة المقربين إن تقديم تعليم القرآن لتقدمه وقوعاً فهم قد علموه قبل خلق الإنسان وربما يرمز إليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءانٌ كَرِيمٌ فِى كتاب مَّكْنُونٍ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ [الواقعة : 77 79] وفي "النظم الجليل" عليه حسن زائد حيث إنه تعالى ذكر أموراً علوية وأموراً سفلية وكل علوي قابله بسفلي ويأتي هذا على تقدير المفعول جبريل عليه السلام أيضاً ؛ وقال الضحاك : ﴿ البيان ﴾ الخير

والشر ، وقال ابن جريج : سبيل الهدى وسبيل الضلالة ، وقال يمان : الكتابة والكل كما ترى ، وجوز أن يراد به القرآن وقد سماه الله تعالى بياناً في قوله سبحانه : ﴿ هذا بَيَانٌ ﴾ [آل عمران : 138] وأعيد ليكون الكلام تفصيلاً لإجمال ﴿ علم القرآن ﴾ [الرحمن : 2] وهذا في غاية البعد .

وقال قتادة : ﴿ الإنسان ﴾ آدم .

و ﴿ البيان ﴾ علم الدنيا والآخرة ، وقيل : ﴿ البيان ﴾ أسماء الأشياء كلها .

(25/739)

وقيل : التكلم بلغات كثيرة ، وقيل : الاسم الأعظم الذي علم به كل شيء ، ونسب هذا إلى جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه .

وقال ابن كيسان : ﴿ الإنسان ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم .

وعليه قيل : المراد بالبيان بيان المنزل .

والكشف عن المراد به كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : 44] أو الكلام الذي يشرح به المجمل والمبهم في القرآن أو القرآن نفسه على ما سمعت آنفاً ، أو نحو ذلك مما يناسبه عليه الصلاة والسلام ويليق به من المعاني السابقة ،

ولعل ابن كيسان يقدر مفعول علم الإنسان مراداً به النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً ، وهذه أقوال بين يديك ، والمتبادر من الآيات الكريمة لا يخفى عليك ولا أظنك في مرية من تبادر ما ذكرناه فيها أولاً .

ثم إن كلاً من الجملتين الأخيرتين خبر عن المبتدأ كجملة ﴿ عَلَّمَ القرءان ﴾ [الرحمن : 2] وكذا قوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(26/739)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

55 ـ سورة الرحمن

عروس القرآن نزولها : مدينة عدد آياتها : ثمان وسبعون آية

مناسبتها لما قبلها

بين سورة « الرحمن » هذه ، والسورة التي قبلها « القمر » ـ أكثر من مناسبة :

فأولا : ختمت سورة « القمر » بهذه الآية : « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ، فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ » .

. ومن صفات المليك المقتدر ، الرحمة ، لا الجبروت ، شأن المالكين المقتدرين ، وبهذه الرحمة التي وسعت كل شيء أرسل الرسل يدعون عباده إليه ، ويطبّون للآفات والعلل التي أوردتهم موارد الضلال . . فاستجاب كثير منهم ، ووجد السلامة والعافية فى هذه الرحمة المرسلة من اللّه سبحانه على يد رسله . . فكان بدء سورة « الرحمن » بهذا الاسم الكريم موصولا بختام سورة « القمر » ، جاعلا منهما سورة واحدة . .

وثانيا : النظم الذي جاءت عليه سورة « القمر » ، يشابه النظم الذي جاءت عليه سورة « الرحمن » ، من حيث تكرار بعض المقاطع مرات متعددة . .

فقد كرو فى سورة « القمر » قوله تعالى : « فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ » أربع مرات ، وكذلك قوله تعالى : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » .

. كرر أربع مرات أيضا . .

وفى سورة « الرحمن » كرر قوله تعالى « فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » إحدى وثلاثين مرة !

(27/739)

ففى هذه المتتاليات : « فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ » ثم « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » ثم « فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » . فى هذه المتتاليات ، تدرّج من الإنذار

والتخويف من عذاب اللّه ، إلى عرض وسيلة النجاة من عذاب اللّه وتيسير الاتصال بها والوصول إليها ، وهى القرآن الكريم . إلى مساءلة هؤلاء المدعوّين إلى كتاب اللّه ، كيف يكذبون بآلاء اللّه ونعمه التي من أعظمها وأجلّها هذا الكتاب الذي يدعون إليه ؟

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الآيات : (1 . 13) [سورة الرحمن (55) : الآيات 1 إلى 13]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيانَ (4)

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ (6) وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ (10) فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ (12) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (13)

التفسير :

قوله تعالى : « الرحمن . . . . . »

[سورة الرحمن . . ونظمها]

فى سورة الرحمن ظاهرة ملفتة للأنظار ، داعية إلى التساؤل عنها والبحث عما وراءها من أسرار . . تلك هى التكرار الملتزم فى قوله تعالى :

«فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» فقد تكررت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة، خلال آيات السورة البالغ عددها ثمانيا وسبعين آية . .

وقد كان هذا التكرار مدخلا من مداخل الطعن على القرآن، عند كثيرين من مرضى العقول والقلوب، من المستشرقين والمتتلمذين عليهم . . إذ عدوّا هذا التكرار مخلّا ببلاغة الكلام، جائرا على فصاحته، ثم يجاوزون هذا إلى القول بأن هذا التكرار الذي جاء خارجا على الأسلوب العام للقرآن، إنما يمثل حالا من أحوال الصّرع الذي كان يعرض للنبىّ! «كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً» . .

ولا نعرض لدحض هذه المفتريات، إذ كانت تحمل فى كيانها أكثر من شاهد يشهد عليها بالكذب والافتراء . . وحسبنا أن نقف بين يدى هذا الإعجاز المبين من آيات اللّه . .

فهذا المقطع الذي بدأت به السورة الكريمة، هو مقدمة موسيقية علوّية اللحن، قدسية النغم، لا تكاد تتحرك بها الشفاه، وتتصل بها الآذان، حتى يتفتق من أكمامها هذا الجلال المهيب، الذي يملأ القلوب مهابة وخشية، وحتى يشيع فى النفوس روحا وانتشاء . .

سواء فى ذلك من وقف عند تناغم الألفاظ، وتجاوب جرسها، أم من جمع إلى هذا ما

يفتح اللّه له من علم يرى فى أضوائه جلال المعنى ، وصدقه المصفّى من شوائب الباطل والضلال . .

فالنظم الذي جاءت عليه هذه الآيات ، مستغن بنفسه عن أن يحمل كلماته ما تحمل اللغة من دلالات ومفاهيم ، متعارفة بين أهلها ، وحسبه أن يفعل بنغمه الموسيقى ، ما لا تفعل أروع ألحان الموسيقى من روح وانتشاء ! فكيف إذا حمل هذا النغم مع ذلك أدق وأصدق وأحكم ما تحمل الكلمات من معنى ؟ . .

انظر كيف يطلع هذا المطلع على تلك الصورة الرائعة الفريدة من النظم . .

(29/739)

فأنت بين يدى خمس آيات تلاحمت ، وتماسكت دون أن يقوم بينها حرف عطف :

«الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ» . .

إن ما بينها من تجاوب وتآلف ، يجعلها فى غنى عن أن يقوم بينها عاطف يعطف بعضها على بعض ، ويجمع بعضها إلى بعض . . !

ثم انظر كيف كانت كلمة « الرحمن » التي بدئت بها السورة ، هى الميزان الذي تجرى أحكامه على آيات السورة كلها ، وتنضبط عليه أنغامها ، وتتألف منه وحدة اللحن كله

. . فيكون أشبه « بالرتم » الذي يمسك باللحن الموسيقى من مطلعه إلى نهايته ! . .

« الرحمن » .

. إنه الذي يمسك بأجزاء السورة كلها ، لفظا ومعنى . .

فالرحمن ، تتدفق من رحمته هذه النّعم ، التي تعرضها السورة فى كل آية من آياتها ، وقد تصدر القرآن - ومعناه القراءة الواعية فى صحف الوجود وفى كتب العلم وأجلها القرآن الكريم - تصدّر كلّ هذه النعم . .

فإنه بغير هذه القراءة لا يهتدى الإنسان إلى اللّه سبحانه ، ولا يتعرف على خالقه ، ولا تقوم قدماه على طريق الحق والخير . . ثم يجىء الإنسان على رأس المخلوقات جميعها ، إذ هو وحده الذي حمل الأمانة ، أي العقل والتكليف ، من بينها جميعا ، فيكون هو التلقي لمجتمع كلمات اللّه ، القارئ المستبصر ، الذي يكشف بقراءته دلائل القدرة الإلهية . . فيؤمن باللّه ، ويقوم على خلافته فى الأرض ، ويقيم موازين العدل فيها . .

ثم انظر مرة أخرى إلى هذا التدبير الحكيم الذي تطلع به عليك هذه

المقدمة من الفواصل المتتابعة ، المتماثلة ، مع فاصلة الآية المكررة . .

الرحمن . . القرآن . . الإنسان . . البيان . . بحسبان . . يسجدان . .

الميزان . . الميزان . . الميزان . . للأنام . . الأكمام . . الريحان . .

فهذه اثنتا عشرة فاصلة ، سبقت المقطع الذي سيتكرر فى السورة فى قوله تعالى : « فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » فيكون أشبه بمقدمة لهذا التكرار ، إذ يكون من شأنه أن يقيم الأذن على هذا النغم ، ويربطها به ، فإذا تكررت هذه الآية بعد ذلك ، لم تجد الطريق إلى الأذن مسدودا عليها ، أو مستوحشا منها ، بل إن الأذن لتتفتح لها ، وتدعوها إليها ، وتجذبها نحوها . .

وانظر مرة ثالثة . .

فلقد سبق هذا التكرار المنتظر ، تكرار آخر ، يمهد له ، ويهيىء السمع واللسان لاستقباله . .

وذلك بأن تكررت كلمة « الميزان » ثلاث مرات فى ثلاث فواصل متتابعة ، دون أن يفصل بينها فاصل آخر . . ولا شك أن هذا تمهيد بليغ للتكرار الذي سيبدأ بعد هذه الفواصل مباشرة بقوله « فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » والذي سيتكرر إحدى وثلاثين مرة . .

ثم انظر مرة رابعة فى هذا المطلع . . تجد السورة قد بدئت بآية ، هى كلمة واحدة ، ثم بثلاث آيات ، كل آية فيها من كلمتين . .

الرحمن . .

علم القرآن . .

خلق الإنسان . .

علّمه البيان . .

(31/739)

ثم تجىء بعد هذا آيتان من ثلاث كلمات :

الشمس والقمر بحسبان . .

والنجم والشجر يسجدان . .

ثم تتلوها آيتان من أربع كلمات :

والسماء رفعها ووضع الميزان . .

أَلّا تطغوا فى الميزان . .

تعقبها آية من ست كلمات :

وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . .

ثم تتلوها آية من ثلاث كلمات :

والأرض وضعها للأنام . .

تجيء بعدها آية من خمس كلمات :

فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . .

ثم آية من أربع :

والحبّ ذو العصف والريحان . .

ثم تجيء بعد هذا الآية :

فبأى آلاء ربكما تكذبان . .

فتكون هى القرار الذي ينتهى إليه النغم ، والذي يتردد بعد كل آية أو آيتين من السورة . .

إن لعلماء الموسيقى مجالا فسيحا للدراسة والإفادة من هذا النظم ، الذي تمثل كلّ آية منه جملة موسيقية ، تختلف طولا وقصرا ، وتأتلف مطلعا ـ قرارا . .

(32/739)

أما عند الموسيقىّ ، فإنه يجد نفسه ، وهو يتلو هذه الآيات إنما يتلقى درسا علويا من ينابيع الموسيقى السماوية ، فيستفتح اللحن بكلمة « الرحمن » فيعطيها كل ما يمتلىء به صدره من أنفاس الحياة . . ثم يعود فيوزع أنفاسه بين كلمتين ، كلمتين ، ثم بين ثلاث ثلاث ، ثم بين

أربع أربع ، ثم بين ست كلمات ، هى آخر ما يمكن أن يمتد إليه النفس غالبا . ثم يعود ليلتقط أنفاسه ، فيوزّعها بين ثلاث كلمات . . ثم يأخذ نفسه مرة أخرى ليوزعه على خمس كلمات . .

وهنا يكون النفس قد توازن ، وانضبط على حدود معينة ، بين ثلاث كلمات ، وخمس كلمات ، فتلقاه الآية التي ستكرر على امتداد السورة ، « فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » .

. وهى من أربع كلمات ، هى وسط بين الثلاث ، والخمس ! ! هذا قليل من كثير لا نهاية له ، مما يجده الناظر فى نظم هذا المقطع ، الذي بدئت به السورة ، والذي جاءت عليه السورة كلها . .

أما المعنى الذي وراء هذا النظم ، فهو أروع وأعجب . . إنه جامعة معارف ، وبحار لآلئ ودرر ، لا تزال أبد الدهر تغرى الطالبين لها ، الغواصين فى بحارها ، ليملئوا أيديهم منها ، ويزينوا جيد الزمن بما ينظمون من جواهرها . . وها نحن أولاء نمدّ أيدينا إلى ما يفضل به اللّه تعالى علينا من فيض كرمه وإحسانه . .

قوله تعالى : « الرَّحْمنُ » هو اللّه سبحانه وتعالى ، المتجلّى بتلك الصفة من صفاته الكريمة ،

وهى الرحمة ، التي هى اللطف الساري فى هذا الوجود ، والنور الهادي لكل موجود . .

وقد سميت السورة سورة « الرحمن » .

. فهى بهذا محلّى من مجالى رحمة اللّه ، وكل آية من آياتها رحمة راحمة ، ونعمة سابغة ، حتى تلك الآيات التي تحمل العذاب إلى الكافرين والضالين . . فإنهم ـ مع هذا العذاب الذي هم فيه ـ واقعون تحت رحمة اللّه ، ولولا هذه الرحمة لتضاعف لهم هذا العذاب أضعافا كثيرة ، لا تنتهى . .

وإن هذا العذاب الذي هم فيه ، هو رحمة واسعة بالإضافة إلى ما فى قدرة اللّه من عذاب ، يتعذب به هذا العذاب نفسه ! ! وقوله تعالى : « عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ » . .

هو أول تجليات رحمة الرحمن ، وأعظمها شأنا ، فيما يتصل بالإنسان . .

ولهذا قدّم تعليم القرآن ، أي القراءة ، على خلق الإنسان ذاته ، الذي هو موضع هذه الرحمة ، ومتلّقى غيوثها . .

فالقرآن ـ كما أشرنا من قبل ـ معناه هنا القراءة والدرس ، والتعلم . . ومن أجل هذه القراءة ، وهذا الدرس والتعلم خلق الإنسان ، ليعرف اللّه ، ويتعبد له ، كما يقول سبحانه : « وَما

خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

. (56 : الذاريات)

(34/739)

فبهذه القراءة الواعية ، يكون لقراءة القرآن ثمراتها ، التي يحصل بها الخير كله ، الذي ملاكه معرفة اللّه ، والإيمان به ، والولاء له . .

وقد كان سياق المعنى ، يقضى - فى ظاهر الأمر - بأن يقدم خلق الإنسان على تعلمه القراءة ، مطلقا ، أو قراءة القرآن بصفة خاصة . . ولكن النظم القرآنى لا يوزن بميزان نظم البشر لكلامهم . . فهذا كلام اللّه . .

وكلامه صفة من صفاته ، والفرق بين كلام اللّه وكلام البشر كالفرق بين صفات اللّه ، وصفات عباد اللّه . . ولا تصح المقايسة بحال أبدا بين الخالق ، والمخلوق . .

نقول - كان سياق النظم يقضى - فى ظاهر الأمر - بأن يقدّم خلق الإنسان على تعلم القرآن ، فيقال : الرحمن ، خلق الإنسان ، علم القرآن . .

فماذا إذن وراء هذا النظم الذي جاء عليه القرآن ؟

والجواب ، أن وراء هذا النظم كثيرا من الأسرار ، لا يحصيها العدّ ، ولا يحيط بها العقل . .

وإنما هى أسرار تتكشف حالا بعد حال ، على مسرح العقول ، وعلى امتداد الأزمان والآباد . .

والذي يبدو لنا من هذا النظم - والله أعلم - أن القراءة ، وهى - كما قلنا - قراءة عامة فى صحف الوجود ، وفى الكتب - هى التي تكشف للإنسان الطريق إلى الله ، وتدله على الله سبحانه من كمال وجلال ، ومن تفرد بالخلق والأمر . .

(35/739)

والتعرف على الله ، هو الغاية من خلق الإنسان على تلك الصورة الفريدة ، التي امتاز بها عن عالم المخلوقات كلها ، والتي استقل بها وحده بحمل الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، والتي بها أيضا استحق أن يكون أولى من الملائكة بخلافة الله على هذه الأرض . .

فلمعرفة الله تلك المعرفة القائمة على وعى ، وإدراك ، وعلى حساب وتقدير - كان خلق الإنسان . .

فمعرفة الله ، هى العلة ، وخلق الإنسان ليقوم بوظيفة هذه المعرفة هو معلول لهذه العلة ، والعلة مقدمة على معلولها . . ولهذا قدم قوله تعالى : « عَلَّمَ الْقُرْآنَ » على قوله تعالى : «

خَلَقَ الْإِنْسانَ» وقد «عَلَّمَهُ الْبَيانَ» . .

أي خلقه ذا عقل وإدراك . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : «وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» (56 : الذاريات) أي ليعرفونى ، ويعبدونى . . وما يشير إليه قوله سبحانه :

«وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها . . ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» (31 . 33 : البقرة) . . فالله سبحانه وتعالى ، قد علم آدم : «خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ» أي خلقه قادرا على البيان والإفصاح عن حقائق الأشياء ، والتمييز بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والهدى والضلال . .

ولم يعلّم سبحانه وتعالى الملائكة هذا العلم ، ولم يخلقهم على طبيعة

(36/739)

ترى هذا التزاوج فى الموجودات ، وإنما هم على طبيعة هى من عالم الحق ، والخير ، والنور ، فلا ترى من الأشياء إلا ما هو حق ، وخير ، ونور . .

وهنا يبدو لنا بعض السر فى هذا الجمع بين الجن والإنس فى قوله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

. فالجن فى هذا المقام كالإنس ، فى أن كلا منهما على طبيعة يرى بها الأشياء فى هذا الازدواج :

الخير والشر ، والحق والباطل . . وكما جمعت هذه الطبيعة بين الجن والإنس فى رؤية الأشياء على الازدواج ـ جمعت بينهما فى الخطيئة ، وفى عصيان أمر اللّه . . فعصى إبليس أمر ربه بالسجود لآدم ، وعصى آدم ربه فى الأكل من الشجرة التي نهاه اللّه عن الأكل منها . . فالشيطان عصى فى أمر ، وآدم عصى فى نهى . . وعصيان الأمر ـ فى ميزان التحدّى والمخالفة ـ أثقل وأشنع منه ، فى حال النهى . . إذ كان الأمر إيجابا ، والنهى سلبا . .

فالأمر فعل ، والنهى ترك . . وإتيان المأمورات ، مقدم على ترك المنهيات ، ولهذا التزم القرآن تقديم الأمر على النهى فى كل مقام اجتمعا فيه ، فقال تعالى : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » (110 : آل عمران) وقال سبحانه : « يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ » (17 : لقمان) .

وذلك أن فعل الأمر ، يحمل فى طياته الانتهاء عن منكر يقع فيه من لا يمتثل الأمر . . ومخالفة الأمر يحمل مع تضييع الأمر ، الوقوع فى محذور النهى . .

وليس الشأن كذلك فى النهى ، الذي يقف بصاحبه عند محذور النهى ، إذا هو فعل المنهي عنه . .

(37/739)

ومن هنا كان إتيان المأمورات مثابا عليه ، بخلاف اجتناب المنهيّات ، فإنه بحسب المرء باجتنابها أن يسلم من شرها ، ويخرج معافى لا عليه ، ولا له . .

ومع هذا ، فإن الشيطان خالف أمر ربه بامتناعه عن السجود لآدم . .

وآدم عصى ربه كذلك بإتيان ما نهاه عنه ، فأكل من الشجرة . ولهذا كان لكل منهما حسابه وعقابه . . وقد أظهر آدم الندم ، وأقبل على ربه تائبا مستغفرا ، فتقبّل اللّه سبحانه وتعالى توبته وغفر له . . وأما الشيطان فقد أحاطت به خطيئته ، وأعمته عن طريق الرجوع إلى اللّه سبحانه ، فمضى فى غيّه وضلاله ، تصحبه لعنة اللّه إلى يوم الدين . .

وقد تحدّى إبليس - لعنه اللّه - ربه ، ورأى فى نفسه فى انه خير من آدم ، وأنه قادر على إفساده ، وجعله وليّا له ، محاربا للّه الذي كرمه وأمر الملائكة بالسجود له ! ! وكان من حلم اللّه ، على هذا اللعين ، أن أفسح له فى مجال التحدي ، وأن يجلب بخيله ورجله على بنى

آدم ، وسيرى أنه مقهور مخذول ، فإنه لن ينال من عباد اللّه مالا ، وإنما هو دعوة يستجيب لها من أبناء آدم من سبقت عليه كلمة اللّه ، فكان من أهل النار ، كما يقول سبحانه : « إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ » .

. وكما يقول سبحانه : « إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ » (6 : فاطر) . .

(38/739)

ماذا هناك ؟ ؟

ونحن بين يدى سورة « الرحمن » وفى أنس وروح من رحمة الرحمن ، تهب علينا ، وعلى غير انتظار ، ريح سموم من رياح هذه الدنيا ، تلفح وجوهنا ، وتكوى مشاعرنا ، وتثير بلبلة واضطرابا فى خواطرنا . . حتى ليكاد ذلك يفسد علينا هذا الجو المعطر بأنفاس الرحمة ، ويقطع عنا ـ فى غفلة من إيماننا باللّه ، وثقتنا فى رحمته ـ هذا الأنس برحمة الرحمن . .

ثم . . ثم ماذا ؟ ؟

ثم نجد رحمة الرحمن الرحيم تحفّ بنا ، وتعيدنا مرة أخرى إلى رحاب هذه السورة الكريمة ـ بعد أن انقطعنا عنها أياما ، جريا وراء لقمة عيش نحصّلها من حديث فى صحيفة ، أو إذاعة ـ وإذا بنا نجد أنفسنا وقد أظلّتها السكينة ، وعاد إليها الأمن والسلام . .

أما هذه الريح السموم ، فإننا ندعها لرحمة الرحمن ، لتحيل نارها بردا وسلاما . . فذلك هو إيماننا بالله ، وثقتنا فى رحمته . .

(39/739)

ونعود إلى نظم الآيات مرة أخرى . .

«الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» . .

فماذا نرى فى هذا النظم ، من حيث المعنى ، بعد أن كانت نظرتنا مقصورة على حدود النغم والجرس ؟

هنا نجد ـ وهذا فى حدود نظرنا المحدود القاصر ـ أن الآيات الكريمات يأخذ بعضها بأعناق بعض ، فى تعاطف ، وتآلف ، من غير أن يدخل بينها عاطف صناعى يشى بهذا السر الذي بينها ، ويتسمع إلى هذه المناجاة الودود ، بين الأحباء والأصفياء . .

هذه واحدة ! ! ثم ماذا ؟

« الرَّحْمنُ » ما شأنه ؟ وما مظاهر رحمته ؟ . . ذاك سؤال ! « عَلَّمَ الْقُرْآنَ » . .

وهذا جواب . . يقوم من ورائه سؤال :

كيف علم القرآن ؟

« خَلَقَ الْإِنْسانَ » . .

(40/739)

وهذا جواب . . يثير سؤالا :

وماذا بين خلق الإنسان ، وتعليم القرآن ؟

« عَلَّمَهُ الْبَيانَ » وهذا هو الجواب . . فبالبيان الذي علمه اللّه الإنسان ، تعلم القرآن . .

ومن وراء هذا الجواب سؤال ؟

وأي شيء يقرؤه هذا الإنسان الذي خلقه اللّه مستعدا للقراءة والبيان لما يقرأ ؟ . .

« الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ » . .

« وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ » . .

« وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ » . .

هذا هو جواب السؤال . . فتلك هى الصحف المنشورة ، التي يقرأ فيها هذا الإنسان المهيأ

للقراءة ، المجهز بأدوات البيان والكشف ، بما أودع فيه الخالق من عقل ، وقلب ، وسمع ، وبصر ، ولسان يصور به ما رأى ببصره ، وما سمع بأذنه ، وما وقر فى قلبه ، وما تشكل فى عقله ـ يصور ذلك كله بكلمات واضحة مبينة ، يهتدى بهديها ، ويمشى فى حياته على ضوئها . . ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 14 صـ 664.650 ﴾

(41/739)

وقال ابن عاشور :

﴿ الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) ﴾

هذه آية واحدة عند جمهور العادِّين .

ووقع في المصاحف التي برواية حفص عن عاصم علامة آية عقب كلمة ﴿ الرحمن ﴾ ، إذ عدّها قراء الكوفة آية فلذلك عد أهل الكوفة آي هذه السورة ثمانياً وسبعين .

فإذا جعل اسم ﴿ الرحمن ﴾ آية تعين أن يكون اسم "الرحمن" : إما خبراً لمبتدأ محذوف تقديره : هو الرحمن ، أو مبتدأ خبره محذوف يقدر بما يناسب المقام .

ويجوز أن يكون واقعاً موقع الكلمات التي يراد لفظها للتنبيه على غلط المشركين إذ أنكروا هذا الاسم قال تعالى : ﴿ قالوا وما الرحمن ﴾ كما تقدم في سورة الفرقان (60) ،

فيكون موقعه شبيهاً بموقع الحروف المقطَّعة التي يُتَهجّى بها في أوائل بعض السور على أظهر الوجوه في تأويلها وهو التعريض بالمخاطبين بأنهم أخطأوا في إنكارهم الحقائق .

وافتتح ﴿ باسم الرحمن ﴾ فكان فيه تشويق جميع السامعين إلى الخبر الذي يخبر به عنه إذ كان المشركون لا يألفون هذا الاسم قال تعالى : ﴿ قالوا وما الرحمن ﴾ [الفرقان : 60] ، فهم إذا سمعوا هذه الفاتحة ترقبوا ما سيرد من الخبر عنه ، والمؤمنون إذا طرق أسماعهم هذا الاسم استشرفوا لما سيرد من الخبر المناسب لوصفه هذا مما هم متشوقون إليه من آثار رحمته .

على أنه قد قيل : إن هذه السورة نزلت بسبب قول المشركين في النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ [النحل : 103] ، أي يعلمه القرآن فكان الاهتمام بذكر الذي يعلم النبي صلى الله عليه وسلم القرآن أقوى من الاهتمام بالتعليم .

وأوثر استحضار الجلالة باسم ﴿ الرحمن ﴾ دون غيره من الأسماء لأن المشركين يأبون ذكره فجمع في هذه الجملة بين ردَّين عليهم مع ما للجملة الاسمية من الدلالة على ثبات الخبر ، ولأن معظم هذه السورة تعداد للنعم والآلاء فافتتاحها باسم ﴿ الرحمن ﴾ براعة استهلال .

وقد أُخبر عن هذا الاسم بأربعة أخبار متتالية غير متعاطفة رابعها هو جملة ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ [الرحمن : 5] كما سيأتي لأنها جيء بها على نمط التعديد في مقام الامتنان والتوقيف على الحقائق والتبكيت للخصم في إنكارهم صريح بعضها ، وإعراضهم عن لوازم بعضها كما سيأتي ، ففصل جملتي ﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾ [الرحمن : 3 ، 4] عن جملة ﴿ علم القرآن ﴾ خلاف مقتضى الظاهر لنكتة التعديد للتبكيت .

وعطف عليها أربعة أُخر بحرف العطف من قوله : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ إلى قوله : ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ [الرحمن : 10 6] وكلها دالة على تصرفات الله ليعلمهم أن الاسم الذي استنكروه هو اسم الله وأن المسمى واحد .

وجيء بالمسند فعلاً مؤخراً عن المسند إليه لإفادة التخصيص ، أي هو علَّم القرآن لا بشرٌ علمه وحذف المفعول الأول لفعل ﴿ علم القرآن ﴾ لظهوره ، والتقدير : علّم محمداً صلى الله عليه وسلم لأنهم ادعوا أنه معلَّم وإنما أنكروا أن يكون معلِّمه القرآن هو الله تعالى وهذا تبكيت أول .

وانتصب ﴿ القرآن ﴾ على أنه مفعول ثان لفعل ﴿ علم ﴾ ، وهذا الفعل هنا معدَى إلى مفعولين فقط لأنه ورد على أصل ما يفيده التضعيف من زيادة مفعول آخر مع فاعل فعِله

المجرد ، وهذا المفعول هنا يصلح أن يتعلق به التعليم إذ هو اسم لشيء متعلق به التعليم وهو القرآن ، فهو كقول معن بن أوس:

أعلِّمه الرماية كلَّ يوم

وقوله تعالى : ﴿ وإذ علمتك الكتاب ﴾ في سورة العقود (110) وقوله : ﴿ وما علمناه الشعر ﴾ في سورة يس (69) ، ولا يقال : علّمته زيداً صديقاً ، وإنما يقال : أعلمته زيداً صديقاً ، ففعل عَلِم إذا ضُعّف كان بمعنى تحصيل التعليم بخلافه إذ عُدّي بالهمزة فإنه يكون لتحصيل الإخبار والإنباء .

(43/739)

وقد عدد الله في هذه السورة نعماً عظيمة على الناس كلهم في الدنيا ، وعلى المؤمنين خاصة في الآخرة وقدم أعظمها وهو نعمة الدين لأن به صلاح الناس في الدنيا ، وباتباعهم إياه يحصل لهم الفوز في الآخرة .

ولما كان دين الإسلام أفضل الأديان ، وكان هو المنزّل للناس في هذا الإبَان ، وكان متلقى من أفضل الوحي والكتب الإلهية وهو القرآن ، قدمه في الإعلام وجعله مؤذناً بما يتضمنه من الدين ومشيراً إلى النعم الحاصلة بما بين يديه من الأديان كما قال : ﴿ هذا كتاب أنزلناه

مبارك مصدق الذي بين يديه ﴾ [الأنعام : 92] .

ومناسبة اسم ﴿ الرحمن ﴾ لهذه الاعتبارات منتزعة من قوله : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] .

و﴿ القرآن ﴾ : اسم غلب على الوحي اللفظي الذي أوحي به إلى محمد صلى الله عليه وسلم للإعجاز بسورة منه وتعبُّد ألفاظه .

خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3)

خبر ثان ، والمراد بالإِنسان جنس الإِنسان وهذا تمهيد للخبر الآتي وهو ﴿ علمه البيان ﴾ [الرحمن : 4] .

وهذه قضية لا ينازعون فيها ولكنهم لما أعرضوا عن موجَبها وهو إفرادُ الله تعالى بالعبادة ، سيق لهم الخبر بها على أسلوب التعديد بدون عطف كالذي يَعُد للمخاطب مواقع أخطائه وغفلته ، وهذا تبكيت ثانٍ .

ففي خلق الإِنسان دلالتان : أولاهما : الدلالة على تفرد الله تعالى بالإِلهية ، وثانيتهما : الدلالة على نعمة الله على الإِنسان .

والخلق : نعمة عظيمة لأن فيها تشريفاً للمخلوق بإخراجه من غياهب العدم إلى مَبْرَز الوجود في الأعيان ، وقُدّم خلق الإِنسان على خلق السماوات والأرض لما علمت آنفاً من مناسبة إردافه بتعليم القرآن .

ومجيء المسند فعلاً بعد المسند إليه يفيد تقوّي الحكم .

ولك أن تجعله للتخصيص بتنزيلهم منزلة من ينكر أن الله خلق الإنسان لأنهم عبدوا غيره .

عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4)

(44/739)

خبر ثالث تضمن الاعتبار بنعمة الإِبانة عن المراد والامتنان بها بعد الامتنان بنعمة الإِيجاد ، أي علّم جنس الإِنسان أن يُبين عما في نفسه ليفيده غيره ويستفيد هو .

والبيان : الإِعراب عما في الضمير من المقاصد والأغراض وهو النطق وبه تميز الإِنسان عن بقية أنواع الحيوان فهو من أعظم النعم .

وأما البيان بغير النطق من إشارة وإيماء ولمح النظر فهو أيضاً من مميزات الإنسان وإن كان دون بيان النطق .

ومعنى تعليم الله الإِنسان البيانَ : أنه خلق فيه الاستعداد لعلم ذلك وألهمه وضع اللغة للتعارف ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ في سورة البقرة (31) .

وفيه الإِشارة إلى أن نعمة البيان أجل النعم على الإنسان ، فعدّ نعمة التكاليف الدينية وفيه

تنويه بالعلوم الزائدة في بيان الإنسان وهي خصائص اللغة وآدابها .

ومجيء المسند فعلاً بعد المسند إليه لإفادة تقوّي الحكم .

وفيه من التبكيت ما علمته آنفاً ، ووجهه أنهم لم يشكروه على نعمة البيان إذ صرفوا جزءاً كبيراً من بيانهم فيما يلهيهم عن إفراد الله بالعبادة وفيما ينازعون به من يدعوهم إلى الهدى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(45/739)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الإنسان)

وهو اسم على وزن فِعلان .

وجمعه من حيث اللفظ أَناسِين ؛ كسِرحان وسراحين ، غير أَنَّ الجمع الأَصلىّ غير مستعمل .

وجمعه المعروف ناس وأُناس وأَنَس وآنُس .

والإِنس جمع جنس .

وفى الأَناسىّ خلاف : فقيل : جمع إِنسِىّ ؛ ككُرسىّ وكراسىّ .

وقيل : الإِنْس جمع إِنسىّ ؛ كروم ورومىّ وزنْج وزنْجىّ .

وقيل : الأَناسِىّ جمع إِنسان ، وأَصله أَناسين ، حذفوا نونه ، وعَوّضوا عنه ياءً ؛ اجتمع ياءَان فأَدغموا ، فصار ، أَناسىّ .

والناس تخفيف الأُناس ، حذفوا الهمزة طلبا للخفَّة .

والأَنيس أَيضا بمعنى الإِنسان .

سمّى به ؛ لأَنَّه يأَنس ويؤنس به .

وقيل : للإِنسان أُنْسانِ : أُنس بالحقِّ وأُنس بالخَلق .

فرحة تأَنس بالحق ، وجسمه يأنس بالخَلْق .

وقيل : لأَنَّ أُنْساً بالعقبى ، وأُنْساً بالدّنيا .

وإِلى هذا المعنى أَشار القائل :

*ولقد جعلتك فى الفؤاد محدّثى * وأَبحتُ منى ظاهرى لجليسى*

*فالجسم منى للجليس مؤانِس * وحبيب قلبى فى الفؤاد أَنيسى*

ويقال : إِنَّ اشتقاق الإِنسان من الإِيناس .

وهو الإِبصار والعلم والإِحساس لوقوفه على الأَشياءِ بطريق العلم ، ووصوله إِليها بواسطة الرُّؤية ، وإِدراكه لها بوسيلة الحواسّ .

وقيل : اشتقاقه من النَوْس بمعنى التَّحرك ؛ سمّى لتحرّكه فى الأُمور العظام ، وتصرُّفه فى الأَحوال المختلفة ، وأَنواع المصالح وقيل : أَصل النَّاس النَّاسى .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ بالرّفع وبالجرّ .

والجرّ إشارة إلى أَصله : إشارة إلى عَهد آدم ، حيث قال : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ ، وقال الشاعر :

وسمّيت إنساناً لأَنَّك ناسى

وقال الآخر :

فاغفر فأَوّل ناس أَوّل النَّاسى

وفى المثل : الإِنسان عُرْضة النسيان ، وجلسة النّسوان .

وقيل : عجباً للإِنسان ، كيف يُفلح بين النسيان والنِسوان .

(46/739)

وقد ورد لفظ الإِنسان فى نصّ القرآن على عشرين وجْهاً :

الأَوّل بمعنى آدم عليه السلام : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ ﴾ يعنى آدم .

وكذا ﴿ خَلَقْنَا الإِنسَانَ ﴾ ، ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾ وله نظائر .

الثانى بمعنى بنى آدم : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ .

الثالث بمعنى وليد بن المغيرة ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا ﴾ .

الرّابع بمعنى قُرْط بن عبد الله : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ .

الخامس أَبو جهل : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ﴾ .

السّادس النَّضْر بن الحارث : ﴿ وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾ .

السّابع بَرْصِيصاء العابد : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ ﴾ .

الثامن بُدَيل بن وَرْقاءَ : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ .

التَّاسع الأَخنس بن شَرِيق : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ﴾ .

العاشر أُبىّ بن خَلَف الجمحىّ : ﴿ يا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ ﴾ .

الحادى عشر كَلَدة بن أَسِيد : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ .

الثانى عشر عُقْبَة بن أَبى مُعَيْط : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾ .

الثالث عشر أَبو طالب : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ .

الرّابع عشر عَدىّ بن ربيعة : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ .

الخامس عشر عُتْبَة بن أَبى لهب : ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ .

﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ .

السّادس عشر سَعْد بن أَبى وَقَّاص : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ .

السّابع عشر عبد الرّحمن بن أَبى بكر الصّديق فى سورة الأَحقاف : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾ .

(47/739)

الثامن عشر عيّاش بن أَبى ربيعة : ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ ﴾ .

التاسع عشر أُمَيّة بن خَلَف : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ .

﴿ أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ ﴾ ، ﴿ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ ﴾ .

العشرون : النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم : ﴿ يا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾ .

أَى فى دعوة الخَلْق إلى الحقّ ﴿ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ﴾ يروى عن النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم أَنَّه قال : أَنا أَوّل من يُشَقّ عنه الأَرض ، وأَنا أَوّل مَنْ يَركب البراق ، فإِذا قوائم البراق لا تستقرّ يوم القيامة من شدّة زلزاها ، فأَقول : يا جبريل ما لأَرض ربّى تَزَلزلُ ! فيقول : هذا يوم القيامة وإِنَّ زلزلة الساعة شئٌ عظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 35.31 ﴾

قوله تعالى ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (12) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (13) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين سبحانه النعمة في تعليم القرآن الذي هو حياة الأرواح ، وبين الطريق فيها ، دل على البيان بذكر البينات التي يجمعها أمر ويفرقها آخر ، ولها مدخل في حياة الأشباح ، وعددها على سبيل الامتنان بياناً لأنها من أكبر النعم فقال في جواب من قال : ما بيانه ؟ بادئاً بالكوكب الأعظم الذي هو أعظم نوراً وأكبر جرماً وأعم نفعاً ليكون خضوعه لقبول الآثار أدل على خضوع غيره بياناً لحكمته في تدبيره وقوته في تقديره : ﴿ الشمس ﴾ وهي آية النهار ﴿ والقمر ﴾ وهو آية الليل اللذان كان بهما البيان الإبراهيمي ، ولعله بدأ لهذه الأمة بغاية بيانه عليه الصلاة والسلام تشريفاً لها بالإشارة إلى علو أفهامها ﴿ بحسبان ﴾ أي

جريهما ، يجري كل منهما – مع اشتراكهما في أنهما كوكبان سماويان – بحساب عظيم جداً لا تكاد توصف جلالته في دقته وكثرة سعته وعظم ما يتفرع عليه من المنافع الدينية ولدنيوية ، ومن عظم هذا الحساب الذي أفادته صيغة الفعلان أنه على نهج واحد لا يتعداه ، تعلم به الأعوام والشهور والأيام والساعات والدقائق والفصول في منازل معلومة ، ويعرف موضع كل منهما في الآفاق العلوية وما يحدث له وما يتأثر عنه في الكوائن السفلية بحيث أن به انتظام غالب الأمور السفلية إلى غير ذلك من الأمور التي خلقهما الله عليها ولها ، وبين الإنسان وبين كل منهما من المسافات ما لا يعلمه على التحرير إلا العليم الخبير ، وهذا على تطاول الأيام والدهور لا يختل ذرة دلالة على أن صانعه قيوم لا يغفل ، ثم بعد هذا الحساب المستجد والحساب الأعظم الذي قدر لتكوير الشمس وانكدار القمر دلالة على أنه فاعل بالاختيار مع ما أفاد ذلك من تعاقب الملوين تارة بالاعتدال وتارة بالزيادة وأخرى بالنقص ، وغير ذلك من الأمور في لطائف المقدور .

(49/739)

ولما كان سيرهما على هذا المنهاج مع ما لهما فيه من الدؤب فيه بالتغير والتنقل طاعة منهما لمدبرهما ومبدعهما ومسيرهما ، وكان خضوعهما – وهما النيران الأعظمان – دالاً على

خضوع ما دونهما من الكواكب بطريق الأولى ، كان ذكرهما مغنياً عن ذكر ما عداهما بخصوصه ، فأتبعهما حضور ما هو للأرض كالكواكب للسماء في الزينة والنفع والضر والصغر والكبر والكثرة والقلة من النبات مقدماً صغاره لعموم نفعه وعظيم وقعه بأن من أكثر الأقوات لجميع الحيوان والملابس من القطن والكتان وغير ذلك من عجيب الشأن ، معبراً بما يصلح لبقية الكواكب فقال : ﴿ والنجم ﴾ أي وجميع الكواكب السماوية وكل نبت ارتفع من الأرض ولا ساق له من النبات الأرضية التي هي أصل قوام الإنسان وسائر الحيوان ﴿ والشجر ﴾ وكل ما له ساق ويتفكه به أو يقتات ﴿ يسجدان ﴾ أي يخضعان وينقادان لما يراد منهما ويذلان للانتفاع بهما انقياد الساجد من العقلاء لما أمر به بجريهما لما سخرا له وطاعتهما لما قدرا فيه غير إباء على تجدد الأوقات من نمو في النبات ووقوف واخضرار ويبس وإثمار وعطل ، لا يقدر النجم أن يعلو إلى رتبة الشجرة ولا الشجرة أن يسفل إلى وهدة النجم إلى غير ذلك مما صرفنا فيه من سجود الظلال ودوران الجبال والمثال مما يدل على وحدانية الصانع وفعله بالاختيار ، ونفي الطبائع ، ومن تسيير في الكواكب وتدبير في المنافع في الحر والبرد اللذين جعل سبحانه بهما الاعتدال في النبات من الفواكهة والأقوات ، وغير ذلك من وجود الانتفاعات .

ولما كان تغير ما تقدم من الشمس والقمر والنجم والشجر يدل دلالة واضحة على أنه سبحانه هو المؤثر فيه ، وكانت السماء والأرض ثابتتين على حالة واحدة ، فكان ربما أشكل أمرهما كما ضل فيهما خلق من أهل الوحدة أهل الجمود والاغترار والوقوف مع الشاهد وغيرهم ، وكان إذا ثبت أنه تعالى المؤثر فيهما ، فلذلك قال مسنداً التأثير فيهما إليه بعد أن أعرى ما قبلهما من مثله لما أغنى عنه من الدلالة بالتغير والسير والتنقل عطفاً على ما تقديره : وهو الذي دبر ذلك : ﴿ والسماء رفعها ﴾ أي حساً بعد أن كانت ملتصقة بالأرض ففتقها منها وأعلاها عنها بما يشهد لذلك من العقل عند كل من له تأمل في أن كل جسم ثقيل ما رفعه عما تحته إلا رافع ، ولا رافع لهذه إلا الله فإنه لا يقدر على التأثير غيره ، ولعظمها قدمها على الفعل تنبيهاً على التفكر فيما فيها من جلالة الصنائع وأنواع البدائع ، ومعنى بأنه جعلها منشأ أحكامه ومصدر قضاياه ومتنزل أوامره ونواهيه ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه .

ولما كانت السماء مع علوها الدال على عزة موجدها ومدبرها دالة على عدله باعتدال جميع أحوالها من الحر والبرد والمطر والثلج والندى والطل وغير ذلك في أن كل فصل منها معادل لضده وأنها لا ينزلها سبحانه إلا بقدر معلوم ، وإلا لفسدت الأرض كلها ، ودلنا على أنه شرع لنا مثل ذلك العدل لتقوم أحوالنا وتصلح أقوالنا وأفعالنا بما قامت به السماوات

والأرض فقال : ﴿ ووضع الميزان ﴾ أي العدل الذي بدر به الخافقين من الموازنة وهي المعادلة لتنتظم أمورنا .

(51/739)

ولما ذكر أولاً القرآن الذي هو ميزان المعلومات ، ودل على رحمانيته بأنواع من البيان ، الذي رقي به الإنسان فصار أهلاً للفهم ، وذكره نعمة الميزان للمحسوسات ، أقبل بالخطاب عليه لافتاً له عن أسلوب الغيبة تنشيطاً له إلى ارتقاء مراتب الكمال بحسن الامتثال معللاً فقال : ﴿ أن ﴾ أي لأن ﴿ لا تطغوا ﴾ أي لا تتجاوزا الحدود ﴿ في الميزان ﴾ أي الأشياء الموزونة من الموزونات المعروفة والعلم والعمل المقدر أحدهما بالآخر ، وفي مساواة الظاهر والباطن والقول والفعل ، فالميزان الثاني عام لميزان المعلومات وميزان المحسوسات .

ولما كان التقدير : فاقتدوا بأفعالي وتخلقوا بكل ما آمر به من أقوالي ، عطف عليه قوله : ﴿ وأقيموا الوزن ﴾ أي جميع الأفعال التي يقاس لها الأشياء ﴿ بالقسط ﴾ .

ولما كان المراد العدل العظيم ، بينه بالتأكيد بعد الأمر بالنهي عن الضد فقال : ﴿ ولا تخسروا الميزان ﴾ أي توقعوا في شيء من آلة العدل التي يقدر بها الأشياء من الذرع والوزن والعدل والكيل ونحو – نوعاً من أنواع الخسر – بما دل عليه تجريد الفعل فتخسروا ميزان

أعمالكم وجزائكم يوم القيامة ، وقد علم بتكرير الميزان ما أريد من التأكيد في الأمر به لما له من الضخامة سواء كان بمعنى واحد أو بمعان مختلفة .

ولما ذكر إنعامه الدال على اقتداره برفع السماء ، ذكر على ذلك الوجه مقابلها بعد أن وسط بينهما ما قامتا به من العدل تنبيهاً على شدة العناية والاهتمام به فقال :

﴿ والأرض ﴾ أي ووضع الأرض : ثم فسر ناصبها ليكون كالمذكور مرتين إشارة إلى عظيم تدبيره لشدة ما فيه من الحكم فقال : ﴿ وضعها ﴾ أي دحاها وبسطها على الماء ﴿ للأنام ﴾ أي كل من فيه قابلية النوم أو قابلية الونيم وهو الصوت بعد أن وضع لهم الميزان الذي لا تقوم الأرض إلا به .

(52/739)

ولما كان في سياق بيان الرحمة بمزيد الإنعام ، وكان إقامة البينة أعظم نعمة ، وكانت الفواكه ألذ ما يكون ، وكانت برقتها وشدة لطافتها منافية للأرض في يبسها وكثافتها ، فكان كونها فيها عجباً دالاً على عظيم قدرته ، وكان ذكرها يدل على ما تقدمها من النعم من جميع الأقوات ، بدأ بها ليصير ما يتقدمها كالمذكور مرتين ، فقال مستأنفاً وصفها بما هو أعم :

﴿ فيها فاكهة ﴾ أي ضروب منها عظيمة جداً يدرك الإنسان بما له من البيان تباينها في

الصور والألوان ، والطعوم والمنافع – وغير ذلك من بديع الشأن .

ولما كان المراد بتنكيرها تعظيمها ، نبه عليه بتعريف بنوع منها ، ونوه به لأن فيه مع التفكه التقوت ، وهو أكثر ثمار العرب المقصودين بهذا الذكر بالقصد الأول فقال : ﴿ والنخل ﴾ ودل على تمام القدرة بقوله : ﴿ ذات ﴾ أي صاحبة ﴿ الأكمام ﴾ أي أوعية ثمرها ، وهو الطلع قبل أن ينفتق بالثمر ، وكل نبت يخرج ما هو مكمم فهو ذو كمام ، ولكنه مشهور في النخل لشرفه وشهرته عندهم ، قال البغوي : وكل ما ستر شيئاً فهو كم وكمة ، ومنه كم القميص ، وفيه تذكير بثمر الجنة الذي ينفتق عن نباهم ، وذكر أصل النخل دون ثمره للتنبيه عن كثرة منافعه من الليف والسعف والجريد والجذوع وغيرها من المنافع التي الثمر منها .

ولما ذكر ما يقتات من الفواكه وهو في غاية الطول ، أتبعه الأصل في الاقتيات للناس والبهائم وهو بمكان من القصر ، فقال ذاكراً ثمرته لأنها المقصودة بالذات : ﴿ والحب ﴾ أي من الحنطة وغيرها ، ونبه على تمام القدرة بعد تنبيه بتمايز هذه المذكورات مع أن أصل الكل الماء بقوله : ﴿ ذو العصف ﴾ أي الورق والبقل الذي إذا زال عنه ثقل الحب كان مما تعصفه الرياح التي تطيره ، وهو التبن الذي هو من قوت البهائم .

(53/739)

ولما كان الريحان يطلق على كل نبت طيب الرائحة خصوصاً ، وعلى كل نبت عموماً ، أتبعه به ليعم ويخص جميع ما ذكر من سائر النبات وغيره على وجه مذكر بنعمه بغذاء الأرواح بعد ما ذكر غذاء الأشباح فقال : ﴿ والريحان ﴾ ولما كان من كفر به سبحانه بإنكاره أو إنكار شيء من صفاته ، أو كذب بأحد من رسله قد أنكر نعمه أو نعمة منها فلزمه بانكاره لتلك النعمة إنكار جميع النعم ، لأن الرسل داعية إلى الله بالتذكير بنعمه ، وكان ما مضى من هذه السورة إلى هنا اثنتي عشرة آية على عدد الكوفي والشامي ، عدد فيها أصول نعمه سبحانه على وجه دل بغاية البيان على أن له كل كمال ، وكان هذا العدد أول عدد زائد إشارة إلى تزايد النعم لأن كسوره النصف والثلث الربع والسدس تزيد على أصله ، وكان قد مضى ذكر الثقلين الجن والإنس في قوله ﴿ الأنام ﴾ قال تعالى إشارة إلى أنهم المقصودون بالوعظ ، منكراً موبخاً مبكتاً لمن أنكر شيئاً من نعمه أو قال قولاً أو فعل فعلاً يلزم منه إنكار شيء منها مسبباً عما مضى من تعداد هذه النعم المتزايدة التي لا يسوغ إنكارها ولا إنكار شيئ منها فيجب شكرها : ﴿ فبأي آلاء ﴾ أي نعم عطايا ﴿ ربكما ﴾ أي المحسن إليكما بما أسدى من المزايا التي أسداها إليكم على وجه الكبرياء والعظمة وهي دائمة لا تنقطع من غير حاجة إلى مكافأة أحد ولا غيرها – أيها الثقلان – المدبر لكما الذي لا مدبر ولا سيد لكما غيره ، من آياته وصنائعه وحكمه وحكمته وعزته في خلقه واستسلام الكل له وخضوعهما إليه ، فإن كل هذه النعم الكبار

آيات دالة عليه وصنائع محكمة وأحكام وحكم ظهرت بها عزته وبانت بها قدرته ﴿ تكذبان ﴾ فمخاطبته بهذا الثقلين دليل على أن هذه الأشياء تعم على الجن كما أنها تعم على الإنس ، وأن لهم من ذلك ما لهم ، وذكره لهذه الآية بعد ذكر هذا العدد من الآيات إشارة إلى أن زيادة النعم إلى حد لا يحصى بحيث أن استيفاء عددها لا تحيط به عقول المكلفين لئلا يظنوا أنه لا

(54/739)

نعمة غير ما ذكر في هذه السورة ، والتعبير عنها بلفظ الآلاء من أجل أنها النعم المخصوصة بالملوك لما لها من اللمعان والصف المميز لها من غيرها ولما لرؤيتها من الخير والدعاء ، وهي وإن كانت من الوا فيمكن أخذها من اللؤواء إلى أن الأصل الهمزة واللام ، فإذا انضم إليهما لام أخرى أو ألف ازداد المعنى الذي كان ظهوراً لأن الألف غيب الهمزة وباطنها ، واللام هي عين ما كان فلم يحصل خروج عن ذلك المعنى ، فإذا نظرت إلى الآل كان المعنى أن تلك النعم الكبار الملوكية تظهر للعباد معرفته سبحانه وأنه يؤل إليه كل شيء أولاً من غير نزاع كما أنه كان بكل شيء ، وتكل عن نظرها الأبصار النوافذ كما تكل عن رؤية الأشخاص التي يرفعها الآل لأنها تدل عليه سبحانه .

نعم عظيمة وإن كانت نقماً لأنه لا نعمة تدل مثل ما دل عليه سبحانه ، وكرر هذه الآية في هذه السورة من هنا بعد كل آية إلى آخرها لما تقدم في القمر من أن المنكر إذا تكرر إنكاره جداً بحيث أحرق الأكباد في المجاهرة بالعناد حسن سرد ما أنكره عليه ، وكلما ذكر بفرد منه قيل له : لم تنكره ؟ سواء أقر به حال التقرير أو استمر على العناد ، فالتكرار حينئذ يفيد التعريف بأن إنكاره تجاوز الحد ، ولتغاير النعم وتعددها واختلافها حسن تكرير التوقيف عليها واحدة واحدة تنبيهاً على جلالتها ، فإن كانت نعمة فالأمر فيها واضح ، وإن كانت نقمة فالنعمة دفعها أو تأخير الإيقاع بها ، ولما تقدم من أن كل تذكير بما أفاده الله تعالى من النعم بالحواس الخمس مضروبة في الجهات الستّ على أنك إذا اعتبرت نفس الآية وجدتها مشيرة إلى ذلك ، فإن كل كلمة منها – إلا الأخيرة في رسم من أثبت ألفها من كتبة المصاحف – خمسة أحرف أن اعتبرت هجاء الأولين والثالثة خمسة في الرسم ستة في الهجاء والنطق ، فهي للحواس وللجهات لأن الكل من الرب ، والكلمة الأخيرة ستة أحرف إن اعتبرت رسمها في المصاحف التي أسقطت ألفها ، فإن في إثباتها وحذفها اختلافاً بين أئمة المصاحف ، وهي إشارة إلى الجهات التي يملك الإنسان التصرف فيها ، أما الحواس فلا

اختيار له فيها ، وإن اعتبرت هجاءها بحسب النطق كانت سبعة أحرف إشارة إلى أن النعم أكثر من أن تحصى لما تقدم من أسرار عدد السبعة وإلى أن تكذيب المكلفين متكاثر جداً ، فلذلك كان في غاية المناسبة أن تبسط هذه النعم على عدد ضرب الحواس الخمس في الجهات الست ، وذلك في الحقيقة فائدة ، فإنه من المألوف المعروف والجميل الموصوف أن التكرير عند التكذيب يوجب التكرير عند التقرير ، ويبلغ به النهاية في حسن التأثير ، وزاد العدد على مسطح الخمس في الست واحد إشارة إلى أن نعم الواحدة لا انقطاع لها ، ولذلك فصلت إلى ثمان ذكرت أولاً عقب النعم ، فكانت على

(56/739)

عدد السبع الذي هو أول عدد تام لأنه جمع الفرد والزوج وزوج الفرد وزوج الزوج ، وزاد بواحد إشارة إلى أنه كلما انقضى دور من عدد تام جدير لنعم أخرى فهي لا تتناهى لأن موليها له القدرة الشاملة والعلم التام ورحمته سبقت غضبه ، وفي كونها ثمانية إشارة إلى أنها سبب إلى الجنة ذات الأبواب الثمانية إن شكرت ، وفي تعقيبها بسبع نارية إشارة إلى أنها سببيتها للنار أقرب لكونها حفت بالشهوات ، وفي ذلك إشارة إلى أن من اتقى ما توعد عليه بشكر هذه النعم وقي أبواب النار السبعة ، ثم عقبها بثمانية ذكر فيها جنة المقربين

إشارة إلى أن من عمل لما وعده كما أمره به الله نال أبواب الجنة الثمانية ، وثمانية أخرى عقب الجنة أصحاب اليمين إشارة إلى مثل ذلك والله أعلم ، وكان ترتيبها في غاية الحسن ، ذكرت النعم أولاً استعطافاً وترغيباً في الشكر ثم الأهوال ترهيباً ودرأ للمفسدة بالعصيان والكفر ثم النعم الباقية لجلب المصالح ، وبدأ بأشرفها فذكر الجنة العليا لأن القلب إثر التخويف يكون أنشط والهمم تكون أعلى والعزم يكون أشد ، فحينئذ هذه الآية الأولى من الإحدى والثلاثين مشيرة إلى أن نعمة البصر من جهة الأمام ، فكأنه قيل : أبنعمة البصر مما يواجهكم أو غيرها تكذبان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 374 . 379 ﴾

(57/739)

فصل

قال الفخر :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6) ﴾

(58/739)

وفي الترتيب وجوه أحدها : هو أن الله تعالى لما ثبت كونه رحمن وأشار إلى ما هو شفاء ورحمة وهو القرآن ذكر نعمه وبدأ بخلق الإنسان فإنه نعمة جميع النعم به تتم ، ولولا وجوده لما انتفع بشيء ، ثم بين نعمة الإدراك بقوله : ﴿ عَلَّمَهُ البيان ﴾ [الرحمن : 4] وهو كالوجود إذ لولاه لما حصل النفع والانتفاع ، ثم ذكر من المعلومات نعمتين ظاهرتين هما أظهر أنواع النعم السماوية وهما الشمس والقمر ولولا الشمس لما زالت الظلمة ، ولولا القمر لفات كثير من النعم الظاهرة بخلاف غيرهما من الكواكب فإن نعمها لا تظهر لكل أحد مثل ما تظهر نعمتهما ، ثم بين كمال نفعهما في حركتهما بحساب لا يتغير ولو كانت الشمس ثابتة في موضع لما انتفع بها أحد ، ولو كان سيرها غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها وبناء الأمر على الفصول ، ثم بين في مقابلتهما نعمتين ظاهرتين من الأرض وهما النبات الذي لا ساق له والذي له ساق ، فإن الرزق أصله منه ، ولولا النبات لما كان للآدمي رزق إلا ما شاء الله ، وأصل النعم على الرزق الدار ، وإنما قلنا : النبات هو أصل الرزق لأن الرزق إما نباتي وإما حيواني كاللحم واللبن وغيرهما من أجزاء الحيوان ، ولولا النبات لما عاش الحيوان والنبات وهو الأصل وهو قسمان قائم على ساق كالحنطة والشعير والأشجار الكبار وأصول الثمار وغير قائم كالبقول المنبسطة على الأرض والحشيش والعشب الذي هو غذاء الحيوان ثانيها : هو أنه تعالى لما ذكر القرآن وكان هو كافياً لا يحتاج معه إلى دليل آخر قال بعده : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ * والنجم والشجر ﴾ وغيرها من الآيات

إشارة إلى أن بعض الناس إن تكن له النفس الزكية التي يغنيها الله بالدلائل التي في القرآن ، فله في الآفاق آيات منها الشمس والقمر ، وإنما اختارهما للذكر لأن حركتهما بحسبان تدل على فاعل مختار سخرهما على وجه مخصوص ، ولو اجتمع من في العالم من الطبيعيين والفلاسفة وغيرهم وتواطئوا

(59/739)

أن يثبتوا حركتهما على الممر المعين على الصواب المعين والمقدار المعلوم في البطء والسرعة لما بلغ أحد مراده إلى أن يرجع إلى الحق ويقول : حركهما الله تعالى كما أراد ، وذكر الأرض والسماء وغيرهما إشارة إلى ما ذكرنا من الدلائل العقلية المؤكدة لما في القرآن من الدلائل السمعية ثالثها : هو أنا ذكرنا أن هذه السورة مفتتحة بمعجزة دالة عليها من باب الهيئة فذكر معجزة القرآن بما يكون جواباً لمنكري النبوة على الوجه الذي نبهنا عليه ، وذلك هو أنه تعالى أنزل على نبيه الكتاب وأرسله إلى الناس بأشرف خطاب ، فقال : بعض المنكرين كيف يمكن نزول الجرم من السماء إلى الأرض وكيف يصعد ما حصل في الأرض إلى السماء ؟ فقال تعالى : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ إشارة إلى (أن) حركتهما بمحرك مختار ليس بطبيعي وهم وافقونا فيه وقالوا : إن الحركة الدورية لا يمكن أن تكون طبيعية اختيارية

فنقول : من حرك الشمس والقمر على الإستدارة أنزل الملائكة على الاستقامة ثم النجم والشجر يتحركان إلى فوق على الاستقامة مع أن الثقيل على مذهبكم لا يصعد إلى جهة فوق فذلك بقدرة الله تعالى وإرادته ، فكذلك حركة الملك جائزة مثل الفلك ، وأما قوله : ﴿ بِحُسْبَانٍ ﴾ ففيه إشارة إلى الجواب عن قولهم :

﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا بْل ﴾ [ص : 8] وذلك لأنه تعالى كما اختار لحركتهما ممراً معيناً وصوباً معلوماً ومقداراً مخصوصاً كذلك اختار للملك وقتاً معلوماً وممراً معيناً بفضله وفي التفسير مباحث :

(60/739)

الأول : ما الحكمة في تعريفه عما يرجع إلى الله تعالى حيث قال هما : ﴿ بِحُسْبَانٍ ﴾ ولم يقل : حركهما الله بحسبان أو سخرهما أو أجراهما كما قال : ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ [الرحمن : 3] وقال : ﴿ عَلَّمَهُ البيان ﴾ [الرحمن : 4] نقول : فيه حكم منها أن يكون إشارة إلى أن خلق الإنسان وتعليمه البيان أتم وأعظم من خلق المنافع له من الرزق وغيره ، حيث صرح هناك بأنه فاعله وصانعه ولم يصرح هنا ، ومنها أن قوله : ﴿ الشمس والقمر ﴾ ههنا بمثل هذا في العظم يقول القائل : إني أعطيتك الألوف والمئات مراراً وحصل لك الآحاد

والعشرات كثيراً وما شكرت ، ويكون معناه حصل لك مني ومن عطائي لكنه يخصص التصريح بالعطاء عند الكثير ، ومنها أنه لما بينا أن قوله : ﴿ الشمس والقمر ﴾ إشارة إلى دليل عقلي مؤكد السمعي ولم يقل : فعلت صريحاً إشارة إلى أنه معقول إذا نظرت إليه عرفت أنه مني واعترفت به ، وأما السمعي فصرح بما يرجع إليه من الفعل الثاني : على أي وجه تعلق الباء من ﴿ بِحُسْبَانٍ ﴾ ، نقول : هو بين من تفسيره والتفسير أيضاً مر بيانه وخرج من وجه آخر ، فنقول : في الحسبان وجهان الأول : المشهور أن المراد الحساب يقال : حسب حساباً وحسباناً ، وعلى هذا فالباء للمصالحة تقول : قدمت بخير أي مع خير ومقروناً بخير فكذلك الشمس والقمر يجريان ومعهما حسابهما ومثله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] ، ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : 8] ويحتمل أن تكون للاستعانة كما في قولك : بعون الله غلبت ، وبتوفيق الله حجت ، فكذلك يجريان بحسبان من الله والوجه الثاني : أن الحسبان هو الفلك تشبيهاً له بحسبان الرحا وهو ما يدور فيدير الحجر ، وعلى هذا فهو للاستعانة كما يقال : في الآلات كتبت بالقلم فهما يدوران بالفلك وهو كقوله تعالى : ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [ياس : 40] ، الثالث : على الوجه المشهور هل كل واحد يجري بحسبان أو كلاهما

بحسبان واحد ما المراد ؟ نقول : كلاهما محتمل فإن نظرنا إليهما فلكل واحد منهما حساب على حدة فهو كقوله تعالى :

﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ ﴾ [الأنبياء : 33] لا بمعنى أن الكل مجموع في فلك واحد وكقوله : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : 8] وإن نظرنا إلى الله تعالى فللكل حساب واحد قدر الكل بتقدير حسبانهما بحساب ، مثاله من يقسم ميراث نفسه لكل واحد من الورثة نصيباً معلوماً بحساب واحد ، ثم يختلف الأمر عندهم فيأخذ البعض السدس والبعض كذا والبعض كذا ، فكذلك الحساب الواحد .

وأما قوله : ﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ ففيه أيضاً مباحث :

(62/739)

الأول : ما الحكمة في ذكر الجمل السابقة من غير واو عاطفة ، ومن هنا ذكرها بالواو العاطفة ؟ نقول ليتنوع الكلام نوعين ، وذلك لأن من بعد النعم على غيره تارة يذكر نسقاً من غير حرف ، فيقول : فلان أنعم عليك كثيراً ، أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، قواك بعد ضعف ، وأخرى يذكرها بحرف عاطف وذلك العاطف قد يكون واواً وقد يكون فاء

وقد يكون ثم ، فيقول : فلان أكرمك وأنعم عليك وأحسن إليك ، ويقول : رباك فعلمك فأغناك ، ويقول : أعطاك ثم أغناك ثم أحوج الناس إليك ، فكذلك هنا ذكر التعديد بالنوعين جميعاً ، فإن قيل : زده بياناً وبين الفرق بين النوعين في المعنى ، قلنا : الذي يقول بغير حرف كأنه يقصد به بيان النعم الكثيرة فيترك الحرف ليستوعب الكل من غير تطويل كلام ، ولهذا يكون ذلك النوع في أغلب الأمر عند مجاوزة النعم ثلاثاً أو عندما تكون أكثر من نعمتين فإن ذكر ذلك عند نعمتين فيقول : فلان أعطاك المال وزوجك البنت ، فيكون في كلامه إشارة إلى نعم كثيرة وإنما اقتصر على النعمتين للأنموذج ، والذي يقول بحرف فكأنه يريد التنبيه على استقلال كل نعمة بنفسها ، وإذهاب توهم البدل والتفسير ، فإن قول القائل : أنعم عليك أعطاك المال هو تفسير للأول فليس في كلامه ذكر نعمتين معاً بخلاف ما إذا ذكر بحرف ، فإن قيل : إن كان الأمر على ما ذكرت فلو ذكر النعم الأول بالواو ثم عند تطويل الكلام في الآخر سردها سرداً ، هل كان أقرب إلى البلاغة ؟ وورود كلامه تعالى عليه كفاه دليلاً على أن ما ذكره الله تعالى أبلغ ، وله دليل تفصيلي ظاهر يبين ببحث وهو أن الكلام قد يشرع فيه المتكلم أولاً على قصد الاختصار فيقتضي الحال التطويل ، إما لسائل يكثر السؤال ، وإما لطالب يطلب الزيادة للطف كلام المتكلم ، وإما لغيرهما من الأسباب وقد يشرع على قصد الإطناب والتفصيل ، فيعرض ما يقتضي الاقتصار على المقصود من شغل السامع أو المتكلم وغير ذلك مما جاء في كلام الآدميين ،

نقول : كلام الله تعالى فوائده لعباده لا له ففي هذه السورة ابتدأ الأمر بالإشارة إلى بيان أتم النعم إذ هو المقصود ، فأتى بما يختص بالكثرة ، ثم إن الإنسان ليس بكامل العلم يعلم مراد المتكلم إذا كان الكلام من أبناء جنسه ، فكيف إذا كان الكلام كلام الله تعالى ، فبدأ الله به على الفائدة الأخرى وإذهاب توهم البدل والتفسير والنعي على أن كل واحد منها نعمة كاملة ، فإن قيل : إذا كان كذلك فما الحكمة في تخصيص العطف بهذا الكلام والابتداء به لا بما قبله ولا بما بعده ؟ قلنا : ليكون النوعان على السواء فذكر الثمانية من النعم كتعليم القرآن وخلق الإنسان وغير ذلك أربعاً منها بغير واو وأربعاً بواو ، وأما قوله تعالى : ﴿ فِيهَا فاكهة والنخل ﴾ [الرحمن : 11] وقوله : ﴿ والحب ذُو العصف ﴾ [الرحمن : 12] فلبيان نعمة الأرض على التفصيل ثم في اختيار الثمانية لطيفة ، وهي أن السبعة عدد كامل والثمانية هي السبعة مع الزيادة فيكون فيه إشارة إلى أن نعم الله خارجة عن حد التعديد لما أن الزائد على الكمال لا يكون معيناً مبيناً ، فذكر الثمانية منها إشارة إلى بيان الزيادة على حد العدد لا لبيان الانحصار فيه .

المسألة الثانية :

النجم ماذا ؟ نقول : فيه وجهان أحدهما : النبات الذي لا ساق له والثاني : نجم السماء والأول أظهر لأنه ذكره مع الشجر في مقابلة الشمس والقمر ذكر أرضين في مقابلة سماوين ، ولأن قوله : ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ يدل على أن المراد ليس نجم السماء لأن من فسر به قال : يسجد بالغروب ، وعلى هذا فالشمس والقمر أيضاً كذلك يغربان ، فلا يبقى للاختصاص فائدة ، وأما إذا قلنا : هما أرضان فنقول : ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ بمعنى ظلالهما تسجد فيختص السجود بهما دون الشمس والقمر ، وفي سجودهما وجوه أحدها : ما ذكرنا من سجود الظلال ثانيها : خضوعهما لله تعالى وخروجهما من الأرض ودوامهما وثباتهما عليها بإذن الله تعالى ، فسخر الشمس والقمر بحركة مستديرة والنجم بحركة مستقيمة إلى فوق ، فشبه النبات في مكانها بالسجود لأن الساجد يثبت .

ثالثها : حقيقة السجود توجد منهما وإن لم تكن مرئية كما يسمع كل منهما وإن لم يفقه كما قال تعالى : ﴿ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] ، رابعها : السجود وضع الجبهة أو مقاديم الرأس على الأرض والنجم والشجر في الحقيقة رؤوسهما على الأرض وأرجلهما في الهواء ، لأن الرأس من الحيوان ما به شربه واغذاؤه ، وللنجم والشجر

اغتذاؤهما وشربهما بأجذالهما ولأن الرأس لا تبقى بدونه الحياة والشجر والنجم لا يبقى شيء منهما ثابتاً غضاً عند وقوع الخلل في أصولهما ، ويبقى عند قطع فروعهما وأعاليهما ، وإنما يقال : للفروع رؤوس الأشجار ، لأن الرأس في الإنسان هو ما يلي جهة فوق فقيل لأعالي الشجر رؤوس ، إذا علمت هذا فالنجم والشجر رؤوسهما على الأرض دائماً ، فهو سجودهما بالشبه لا بطريق الحقيقة .

المسألة الثالثة :

(65/739)

في تقديم النجم على الشجر موازنة لفظية للشمس والقمر وأمر معنوي ، وهو أن النجم في معنى السجود أدخل لما أنه ينبسط على الأرض كالساجد حقيقة ، كما أن الشمس في الحسبان أدخل ، لأن حساب سيرها أيسر عند المقومين من حساب سير القمر ، إذ ليس عند المقومين أصعب من تقويم القمر في حساب الزيج .

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7)

ورفع السماء معلوم معنى ، ونصبها معلوم لفظاً فإنها منصوبة بفعل يفسره قوله :

﴿ رَفَعَهَا ﴾ كأنه تعالى قال : رفع السماء ، وقرىء ﴿ والسماء ﴾ بالرفع على الابتداء

والعطف على الجملة الابتدائية التي هي قوله : ﴿ الشمس والقمر ﴾ [الرحمن : 5] وأما وضع الميزان فإشارة إلى العدل وفيه لطيفة وهي أنه تعالى بدأ أولاً بالعلم ثم ذكر ما فيه أشرف أنواع العلوم وهو القرآن ، ثم ذكر العدل وذكر أخص الأمور له وهو الميزان ، وهو كقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان ﴾ [الحديد : 25] ليعمل الناس بالكتاب ويفعلوا بالميزان ما يأمرهم به الكتاب فقوله : ﴿ عَلَّمَ القرءان ﴾ [الرحمن : 2] ﴿ وَوَضَعَ الميزان ﴾ مثل : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان ﴾ فإن قيل : العلم لا شك في كونه نعمة عظيمة ، وأما الميزان فما الذي فيه من النعم العظيمة التي بسببها يعد في الآلاء ؟ نقول : النفوس تأبى الغبن ولا يرضى أحد بأن يغلبه الآخر ولو في الشيء اليسير ، ويرى أن ذلك استهانة به فلا يتركه لخصمه لغلبة ، فلا أحد يذهب إلى أن خصمه يغلبه فلولا التبيين ثم التساوي لأوقع الشيطان بين الناس البغضاء كما وقع عند الجهل وزوال العقل والسكر ، فكما أن العقل والعلم صارا سبباً لبقاء عمارة العالم ، فكذلك العدل في الحكمة سبب ، وأخص الأسباب الميزان فهو نعمة كاملة ولا ينظر إلى عدم ظهور نعمته لكثرته وسهولة الوصول إليه كالهواء والماء اللذين لا يتبين فضلهما إلا عند فقدهما .

أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8)

وعلى هذا قيل : المراد من الميزان الأول العدل ووضعه شرعه كأنه قال : شرع الله العدل لئلا تطغوا في الميزان الذي هو آلة العدل ، هذا هو المنقول ، والأولى أن يعكس الأمر ، ويقال : الميزان الأول هو الآلة ، والثاني هو بمعنى المصدر ومعناه وضع الميزان لئلا تطغوا في الوزن أو بمعنى العدل وهو إعطاء كل مستحق حقه ، فكأنه قال : وضع الآلة لئلا تطغوا في إعطاء المستحقين حقوقهم .

ويجوز إرادة المصدر من الميزان كإرادة الوثوق من الميثاق والوعد من الميعاد ، فإذن المراد من الميزان آلة الوزن .

والوجه الثاني : (أنّ) (أن) مفسرة والتقدير شرع العدل ، أي لا تطغوا ، فيكون وضع الميزان بمعنى شرع العدل ، وإطلاق الوضع للشرع والميزان للعدل جائز ، ويحتمل أن يقال : وضع الميزان أي الوزن .

وقوله : ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ على هذا الوجه ، المراد منه الوزن ، فكأنه نهى عن الطغيان في الوزن ، والاتزان وإعادة الميزان بلفظه يدل على أن المراد منهما واحد ، فكأنه قال : ألا تطغوا فيه ، فإن قيل : لو كان المراد الوزن ، لقال : ألا تطغوا في الوزن ، نقول : لو قال في الوزن لظن أن النهي مختص بالوزن للغير لا بالاتزان للنفس ، فذكر بلفظ الآلة التي تشتمل

على الأخذ والإعطاء ، وذلك لأن المعطي لو وزن ورجح رجحاناً ظاهراً يكون قد أربى ، ولا سيما في الصرف وبيع المثل .

(67/739)

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط ﴾ يدل على أن المراد من قوله : ﴿ أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِى الميزان ﴾ هو بمعنى لا تطغوا في الوزن ، لأن قوله : ﴿ وَأَقِيمُواْ الوزن ﴾ كالبيان لقوله : ﴿ أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الميزان ﴾ وهو الخروج عن إقامته بالعدل ، وقوله : ﴿ وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أقيموا بمعنى قوموا به كما في قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ [البقرة : 43] أي قوموا بها دواماً ، لأن الفعل تارة يعدى بحرف الجر ، وتارة بزيادة الهمزة ، تقول : أذهبه وذهب به ثانيها : أن يكون أقيموا بمعنى قوموا ، يقال : في العود أقمته وقومته ، والقسط العدل ، فإن قيل : كيف جاء قسط بمعنى جار لا بمعنى عدل ؟ نقول : القسط اسم ليس بمصدر ، والأسماء التي لا تكون مصادر إذا أتى بها آت أو وجدها موجد ، يقال فيها : أفعل بمعنى أثبت ، كما قال : فلان أطرف وأتحف وأعرف بمعنى جاء بطرفة وتحفة وعرف ، وتقول : أقبض السيف بمعنى أثبت له قبضة ، واعلم الثوب بمعنى جعل له علماً ، واعلم بمعنى أثبت العلامة ، وكذا ألجم الفرس وأسرج ، فإذا

أمر بالقسط أو أثبته فقد أقسط ، وهو بمعنى عدل ، وأما قسط فهو فعل من اسم ليس بمصدر ، والاسم إذا لم يكن مصدراً في الأصل ، ويورد عليه فعل فربما يغيره عما هو عليه في أصله ، مثاله الكتف إذا قلت كتفته كتافاً فكأنك قلت : أخرجته عما كان عليه من الانتفاع وغيرته ، فإن معنى كتفته شددت كتفيه بعضهما إلى بعض فهو مكتوف ، فالكتف كالقسط صارا مصدرين عن اسم وصار الفعل معناه تغير عن الوجه الذي ينبغي أن يكون ، وعلى هذا لا يحتاج إلى أن يقال : القاسط والمقسط ليس أصلهما واحداً وكيف كان يمكن أن يقال : أقسط بمعنى أزال القسط ، كما يقال : أشكى بمعنى أزال الشكوى أو أعجم بمعنى أزال العجمة ، وهذا البحث فيه فائدة فإن قول القائل : فلان أقسط من فلان وقال الله تعالى : ﴿ ذلكم أَقْسَطُ عِندَ الله ﴾ [البقرة : 282]

(68/739)

والأصل في أفعل التفضيل أن يكون من الثلاثي المجرد تقول : أظلم وأعدل من ظالم وعادل ، فكذلك أقسط كان ينبغي أن يكون من قاسط ، ولم يكن كذلك ، لأنه على ما بينا الأصل القسط ، وقسط فعل فيه لا على الوجه ، والإقساط إزالة ذلك ، ورد القسط إلى أصله ، فصار أقسط موافقاً للأصل ، وأفعل التفضيل يؤخذ مما هو أصل لا من الذي فرع عليه ،

فيقال : أظلم من ظالم لا من متظلم واعلم من عالم لا من معلم ، والحاصل أن الأقسط وإن كان نظراً إلى اللفظ ، كان ينبغي أن يكون من القاسط ، لكنه نظراً إلى المعنى ، يجب أن يكون من المقسط ، لأن المقسط أقرب من الأصل المشتق وهو القسط ، ولا كذلك الظالم والمظلم ، فإن الأظلم صار مشتقاً من الظالم ، لأنه أقرب إلى الأصل لفظاً ومعنى ، وكذلك العالم والمعلم والخبر والمخبر .

ثم قال : ﴿ وَلَا تُخْسِرُواْ الميزان ﴾ أي لا تنقصوا الموزون .

(69/739)

والميزان ذكره الله تعالى ثلاث مرات كل مرة بمعنى آخر ، فالأول هو الآلة ﴿ وَوَضَعَ الميزان ﴾ [الرحمن : 7] ، والثاني بمعنى المصدر ﴿ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي الميزان ﴾ [الرحمن : 8] أي الوزن ، والثالث للمفعول : ﴿ وَلَا تُخْسِرُواْ الميزان ﴾ أي الموزون ، وذكر الكل بلفظ الميزان لما بينا أن الميزان أشمل للفائدة وهو كالقرآن ذكره الله تعالى بمعنى المصدر في قوله تعالى : ﴿ فاتبع قُرْءَانَهُ ﴾ [القيامة : 18] وبمعنى المقروء في قوله : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءانَهُ ﴾ [القيامة : 17] وبمعنى الكتاب الذي فيه المقروء في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ [الرعد : 31] فكأنه آلة ومحل له ، وفي قوله تعالى :

﴿ ءاتيناك سَبْعًا مّنَ المثاني والقرءان العظيم ﴾ [الحجر : 87] وفي كثير من المواضع ذكر القرآن لهذا الكتاب الكريم ، وبين القرآن والميزان مناسبة ، فإن القرآن فيه من العلم مالا يوجد في غيره من الكتب ، والميزان فيه من العدل مالا يوجد في غيره من الآلات ، فإن قيل : ما الفائدة في تقديم السماء على الفعل حيث قال : ﴿ والسماء رَفَعَهَا ﴾ وتقديم الفعل على الميزان حيث قال : ﴿ وَوَضَعَ الميزان ﴾ [الرحمن : 7] نقول : قد ذكرنا مراراً أن في كل كلمة من كلمات الله فوائد لا يحيط بها علم البشر إلا ما ظهر والظاهر ههنا أنه تعالى لما عد النعم الثمانية كما بينا وكان بعضها أشد اختصاصاً بالإنسان من بعض فما كان شديد الاختصاص بالإنسان قدم فيه الفعل ، كما بينا أن الإنسان يقول : أعطيتك الألوف وحصلت لك العشرات ، فلا يصرح في القليل بإسناد الفعل إلى نفسه ، وكذلك يقول : في النعم المختصة ، أعطيتك كذا ، وفي التشريك وصل إليك مما اقتسمتم بينكم كذا ، فيصرح بالإعطاء عند الاختصاص ، ولا يسند الفعل إلى نفسه عند التشريك ، فكذلك ههنا ذكر أموراً أربعة بتقديم الفعل ، قال تعالى : ﴿ عَلَّمَ القرءان * خَلَقَ الإنسان *

(70/739)

عَلَّمَهُ البيان ﴾ [الرحمن : 2- 4] ﴿ وَوَضَعَ الميزان ﴾ [الرحمن : 7] وأموراً أربعة بتقديم الاسم ، قال تعالى : ﴿ والشمس والقمر . . .

والنجم والشجر . . .

والسماء رَفَعَهَا . . .

والأرض وَضَعَهَا ﴾ [الرحمن : 5 10] لما أن تعليم القرآن نفعه إلى الإنسان أعود ، وخلق الإنسان مختص به ، وتعليمه البيان كذلك ووضع الميزان ، كذلك لأنهم هم المنتفعون به الملائكة ، ولا غير الإنسان من الحيوانات ، وأما الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء والأرض فينتفع به كل حيوان على وجه الأرض وتحت السماء .

وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10)

في مباحث :

الأول : هو أنه قد مر أن تقديم الاسم على الفعل كان في مواضع عدم الاختصاص وقوله تعالى : ﴿ لِلأَنَامِ ﴾ يدل على الاختصاص ، فإن اللام لعود النفع نقول : الجواب عنه من وجهين أحدهما : ما قيل : إن الأنام يجمع الإنسان وغيره من الحيوان ، فقوله ﴿ لِلأَنَامِ ﴾ لا يوجب الاختصاص بالإنسان ثانيهما : أن الأرض موضوعة لكل ما عليها ، وإنما خص الإنسان بالذكر لأن انتفاعه بها أكثر فإنه ينتفع بها وبما فيها وبما عليها ، فقال ﴿ لِلأَنَامِ ﴾ لكثرة انتفاع الأنام بها ، إذا قلنا إن الأنام هو الإنسان ، وإن قلنا إنه الخلق فالخلق يذكر ويراد

به الإنسان في كثير من المواضع .

فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11)

(71/739)

إشارة إلى الأشجار ، وقوله : ﴿ والحب ذُو العصف ﴾ [الرحمن : 12] إشارة إلى النبات الذي ليس بشجر والفاكهة ما تطيب به النفس ، وهي فاعلة إما على طريقة : ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 21] أي ذات رضى يرضى بها كل أحد ، وإما على تسمية الآلة بالفاعل يقال : راوية للقربة التي يروى بها العطشان ، وفيه معنى المبالغة كالراحلة لما يرحل عليه ، ثم صار اسماً لبعض الثمار وضعت أولاً من غير اشتقاق ، والتنكير للتكثير ، أي كثيرة كما يقال لفلان مال أي عظيم ، وقد ذكرنا وجه دلالة التنكير على التعظيم وهو أن القائل : كأنه يشير إلى أنه عظيم لا يحيط به معرفة كل أحد فتنكيره إشارة إلى أنه خارج عن أن يعرف كنهه .

وقوله تعالى : ﴿ والنخل ذَاتُ الأكمام ﴾ إشارة إلى النوع الآخر من الأشجار ، لأن الأشجار المثمرة أفضل الأشجار وهي منقسمة إلى أشجار ثمار هي فواكه لا يقتات بها وإلى أشجار ثمار هي قوت وقد يتفكه بها ، كما أن الفاكهة قد يقتات بها ، فإن الجائع إذا لم

يجد غير الفواكه يتقوت بها ويأكل غير متفكه بها ، وفيه مباحث :

الأول : ما الحكمة في تقديم الفاكهة على القوت ؟ نقول : هو باب الابتداء بالأدنى والارتقاء إلى الأعلى ، والفاكهة في النفع دون النخل الذي منه القوت ، والتفكه وهو دون الحب الذي عليه المدار في سائر المواضع ، وبه يتغذى الأنام في جميع البلاد ، فبدأ بالفاكهة ثم ذكر النخل ثم ذكر الحب الذي هو أتم نعمة لموافقته مزاج الإنسان ، ولهذا خلقه الله في سائر البلاد وخصص النخل بالبلاد الحارة .

(72/739)

البحث الثاني : ما الحكمة في تنكير الفاكهة وتعريف النخل ؟ وجوابه من وجوه أحدها : أن القوت محتاج إليه في كل زمان متداول في كل حين وأوان فهو أعرف والفاكهة تكون في بعض الأزمان وعند بعض الأشخاص وثانيها : هو أن الفاكهة على ما بينا ما يتفكه به وتطيب به النفس وذلك عند كل أحد بحسب كل وقت شيء ، فمن غلب عليه حرارة وعطش ، يريد التفكه بالحامض وأمثاله ، ومن الناس من يريد التفكه بالحلو وأمثاله ، فالفاكهة غير متعينة فنكرها والنخل والحب معتادان معلومان فعرفهما وثالثها : النخل وحدها نعمة عظيمة تعلقت بها منافع كثيرة ، وأما الفاكهة فنوع منها كالخوخ والإجاص

مثلاً ليس فيه عظيم النعمة كما في النخل ، فقال : ﴿ فاكهة ﴾ بالتنكير ليدل على الكثرة وقد صرح بالكثرة في مواضع أخر فقال : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بفاكهة كَثِيرَةٍ ﴾ [ص : 51] وقال : ﴿ وفاكهة كَثِيرَةٍ * لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : 32 ، 33] ، فالفاكهة ذكرها الله تعالى ووصفها بالكثرة صريحاً وذكرها منكرة ، لتحمل على أنها موصوفة بالكثرة اللائقة بالنعمة في النوع الواحد منها بخلاف النخل .

البحث الثالث : ما الحكمة في ذكر الفاكهة باسمها لا باسم أشجارها ، وذكر النخل باسمها لا باسم ثمرها ؟ نقول : قد تقدم بيانه في سورة : ياس حيث قال تعالى :

﴿ مّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ [ياس : 34] وهو أن شجرة العنب ، وهي الكرم بالنسبة إلى ثمرتها وهي العنب حقيرة ، وشجرة النخل بالنسبة إلى ثمرتها عظيمة ، وفيها من الفوائد الكثيرة على ما عرف من اتخاذ الظروف منها والانتفاع بجمارها وبالطلع والبسر والرطب وغير ذلك ، فثمرتها في أوقات مختلفة كأنها ثمرات مختلفة ، فهي أتم نعمة بالنسبة إلى الغير من الأشجار ، فذكر النخل باسمه وذكر الفاكهة دون أشجارها ، فإن فوائد أشجارها في عين ثمارها .

البحث الرابع : ما معنى : ﴿ ذَاتُ الأَكمام ﴾ ؟ نقول : فيه وجهان أحدهما : الأكمام كل ما يغطي جمع كم بضم الكاف ، ويدخل فيه لحاؤها وليفها ونواها والكل منتفع به ، كما أن النخل منتفع بها وأغصانها وقلبها الذي هو الجمار ثانيهما : الأكمام جمع كم بكسر الكاف وهو وعاء الطلع فإنه يكون أولاً في وعاء فينشق ويخرج منه الطلع ، فإن قيل على الوجه الأول : ﴿ ذَاتُ الأَكمام ﴾ في ذكرها فائدة لأنها إشارة إلى أنواع النعم ، وأما على الوجه الثاني فما فائدة ذكرها ؟ نقول : الإشارة إلى سهولة جمعها والانتفاع بها فإن النخلة شجرة عظيمة لا يمكن هزها لتسقط منها الثمرة فلا بد من قطف الشجرة فلو كان مثل الجميز الذي يقال : إنه يخرج من الشجرة متفرقاً واحدة واحدة لصعب قطافها فقال : ﴿ ذَاتُ الأَكمام ﴾ أي يكون في كم شيء كثير إذا أخذ عنقود واحد منه كفى رجلا واثنين كعناقيد العنب ، فانظر إليها فلو كان العنب حباتها في الأشجار متفرقة كالجميز والزعرور لم يمكن جمعه بالهز متى أريد جمعه ، فخلقه الله تعالى عناقيد مجتمعة ، كذلك الرطب فكونها ﴿ ذَاتُ الأَكمام ﴾ من جملة إتمام الإنعام .

وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (12)

اقتصر من الأشجار على النخل لأنها أعظمها ودخل في الحب القمح والشعير وكل حب يقتات به خبزاً أو يؤدم به بينا أنه أخره في الذكر على سبيل الارتقاء درجة فدرجة فالحبوب أنفع من النخل وأعم وجوداً في الأماكن .

وقوله تعالى : ﴿ ذُو العصف ﴾ فيه وجوه أحدها : التبن الذي تنتفع به دوابنا التي خلقت لنا ثانيها : أوراق النبات الذي له ساق الخارجة من جوانب الساق كأوراق السنبلة من أعلاها إلى أسفلها ثالثها : العصف هو ورق ما يؤكل فحسب والريحان فيه وجوه ، قيل : ما يشم وقيل : الورق ، وقيل : هو الريحان المعروف عندنا وبزره ينفع في الأدوية ، والأظهر أن رأسها كالزهر وهو أصل وجود المقصود ، فإن ذلك الزهر يتكون بذلك الحب وينعقد إلى أن يدرك فالعصف إشارة إلى ذلك الورق والريحان إلى ذلك الزهر ، وإنما ذكرهما لأنهما يؤولان إلى المقصود من أحدهما علف الدواب ، ومن الآخر دواء الإنسان ، وقرىء الريحان بالجر معطوفاً على العصف ، وبالرفع عطفاً على الحب وهذا يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون المراد من الريحان المشموم فيكون أمراً مغايراً للحب فيعطف عليه والثاني : أن يكون التقدير ذو الريحان بحذف المضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه كما في : ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف : 82] وهذا مناسب للمعنى الذي ذكرنا ، ليكون الريحان الذي ختم به أنواع النعم الأرضية أعز وأشرف ، ولو كان المراد من الريحان هو المعروف أو المشمومات لما حصل ذلك الترتيب ، وقرىء : ﴿ والريحان ﴾ ولا يقرأ : ﴿ والحب ذُو

العصف ﴾ ويعود الوجهان فيه .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (13)

وفيه مباحث :

(75/739)

الأول : الخطاب مع من ؟ نقول : فيه وجوه الأول : الإنس والجن وفيه ثلاثة أوجه أحدها : يقال : الأنام اسم للجن والإنس وقد سبق ذكره ، فعاد الضمير إلى ما في الأنام من الجنس ثانيها : الأنام اسم الإنسان و الجان لما كان منوياً وظهر من بعد بقوله : ﴿ وَخَلَقَ الجان ﴾ [الرحمن : 15] جاز عود الضمير إليه ، وكيف لا وقد جاز عود الضمير إلى المنوي ، وإن لم يذكر منه شيء ، تقول : لا أدري أيهما خير من زيد وعمرو ثالثها : أن يكون المخاطب في النية لا في اللفظ كأنه قال فبأي آلاء ربكما تكذبان أيها الثقلان الثاني : الذكر والأنثى .

(76/739)

فعاد الضمير إليهما والخطاب معهما الثالث : فبأي آلاء ربك تكذب ، فبأي آلاء ربك تكذب ، بلفظ واحد والمراد التكرار للتأكيد الرابع : المراد العموم ، لكن العام يدخل فيه قسمان بهما ينحصر الكل ولا يبقى شيء من العام خارجاً عنه فإنك إذا قلت : إنه تعالى خلق من يعقل ومن لا يعقل ، أو قلت : الله يعلم ما ظهر وما لم يظهر إلى غير ذلك من التقاسيم الحاصرة يلزم التعميم ، فكأنه قال : يا أيها القسمان : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ واعلم أن التقسيم الحاصر لا يخرج عن أمرين أصلاً ولا يحصل الحصر إلا بهما ، فإن زاد فهناك قسمان قد طوى أحدهما في الآخر ، مثاله إذا قلت : اللون إما سواد وإما بياض ، وإما حمرة وإما صفرة وإما غيرها فكأنك قلت : اللون إما أسود وإما ليس بسواد أو إما بياض وإما ليس ببياض ، ثم الذي ليس ببياض إما حمرة وإما ليس بحمرة وكذلك إلى جملة التقسيمات ، فأشار إلى القسمين الحاصرين على أن ليس لأحد ولا لشيء أن ينكر نعم الله الخامس : التكذيب قد يكون بالقلب دون اللسان ، كما في المنافقين ، وقد يكون باللسان دون القلب كما في المعاندين وقد يكون بهما جميعاً ، فالكذب لا يخرج عن أن يكون باللسان أو بالقلب فكأنه تعالى قال : يا أيها القلب واللسان فبأي آلاء ربكما تكذبان فإن النعم بلغت حداً لا يمكن المعاند أن يستمر على تكذيبها ، السادس : المكذب مكذب بالرسول والدلائل السمعية التي بالقرآن ومكذب بالعقل والبراهين والتي في الآفاق والأنفس فكأنه تعالى قال : يا أيها المكذبان بأي آلاء ربكما تكذبان ، وقد ظهرت آيات الرسالة فإن الرحمن

علم القرآن ، وآيات الوحدانية فإنه تعالى خلق الإنسان وعلمه البيان ، ورفع السماء ووضع الأرض السابع : المكذب قد يكون مكذباً بالفعل وقد يكون التكذيب منه غير واقع بعد لكنه متوقع فالله تعالى قال : يا أيها المكذب تكذب وتتلبس بالكذب ، ويختلج في صدرك أنك تكذب ، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاء

(77/739)

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ، وهذه الوجوه قريبة بعضها من بعض والظاهر منها الثقلان ، لذكرهما في الآيات من هذه السورة بقوله :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثقلان ﴾ [الرحمن : 31] ، وبقوله : ﴿ يامعشر الجن والإنس ﴾ [الرحمن : 33] وبقوله : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن صلصال كالفخار * وَخَلَقَ الجان ﴾ [الرحمن : 14 ، 15] إلى غير ذلك ، (والزوجان) لوروده في القرآن كثير والتعميم بإرادة نوعين حاصرين للجميع ، ويمكن أن يقال : التعميم أولى لأن المراد لو كان الإنس والجن اللذان خاطبهما بقوله : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ما كان يقول بعد خلق الإنسان ، بل كان يخاطب ويقول : خلقناك يا أيها الإنسان من صلصال وخلقناك يا أيها الجان أو يقول : خلقك يا أيها الإنسان لأن الكلام صار خطاباً معهما ، ولما قال الإنسان ، دل على أن المخاطب

غيره وهو العموم فيصير كأنه قال : يا أيها الخلق والسامعون إنا خلقنا الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلقنا الجان من مارج من نار .

(78/739)

وسيأتي باقي البيان في مواضع من تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى الثاني : ما الحكمة في الخطاب ولم يسبق ذكر مخاطب ، نقول : هو من باب الالتفات إذ مبنى افتتاح السورة على الخطاب مع كل من يسمع ، فكأنه لما قال : ﴿ الرحمن * عَلَّمَ القرءان ﴾ [الرحمن : 1 ، 2] قال : اسمعوا أيها السامعون ، والخطاب للتقريع والزجر كأنه تعالى نبه الغافل المكذب على أنه يفرض نفسه كالواقف بين يدي ربه يقول له ربه : أنعمت عليك بكذا وكذا ، ثم يقول : فبأي آلائي تكذب ولا شك أنه عند هذا يستحي استحياء لا يكون عنده فرض الغيبة الثالث : ما الفائدة في اختيار لفظة الرب وإذا خاطب أراد خطاب الواحد فلم قال : ﴿ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وهو الحاضر المتكلم فكيف يجعل التكذيب المسند إلى المخاطب وارداً على الغائب ولو قال : بأي آلائي تكذبان كان أليق في الخطاب ؟ نقول : في السورة المتقدمة قال : ﴿ وكَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنذر ﴾ [القمر : 23] ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بالنذر ﴾ [القمر : 33] وقال : ﴿ كَذَّبُواْ بِأَيَاتنا ﴾ [القمر : 42] وقال : ﴿ فأخذناهم ﴾ [القمر

: 42] وقال : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر : 21] كلها بالاستناد إلى ضمير المتكلم حيث كان ذلك للتخويف فالله تعالى أعظم من أن يخشى فلو قال : أخذهم القادر أو المهلك لما كان في التعظيم مثل قوله : ﴿ فأخذناهم ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : 28] وهذا كما أن المشهور بالقوة يقول أنا الذي تعرفني فيكون في إثبات الوعيد فوق قوله أنا المعذب فلما كان الإسناد إلى النفس مستعملاً في تلك السورة عند الإهلاك والتعذيب ذكر في هذه السورة عند بيان الرحمة لفظ يزيل الهيبة وهو لفظ الرب فكأنه تعالى قال فبأي آلاء ربكما تكذبان وهو رباكما الرابع : ما الحكمة في تكرير هذه الآية وكونه إحدى وثلاثين مرة ؟ نقول : الجواب عنه من وجوه الأول : إن فائدة التكرير التقرير وأما هذا

(79/739)

العدد الخاص فالأعداد توقيفية لا تطلع على تقدير المقدرات أذهان الناس والأولى أن لا يبالغ الإنسان في استخراج الأمور البعيدة في كلام الله تعالى تمسكاً بقول عمر رضي الله تعالى عنه حيث قال مع نفسه عند قراءته سورة عبس : كل هذا قد عرفناه فما الأب ثم رفع عصا كانت بيده وقال هذا لعمر الله التكليف وما عليك يا عمر أن لا تدري ما الأب ثم قال

: اتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه وسيأتي فائدة كلامه تعالى في تفسير السورة إن شاء الله تعالى الجواب الثاني : ما قلناه : إنه تعالى ذكر في السورة المتقدمة : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أربع مرات لبيان ما في ذلك من المعنى وثلاث مرات للتقرير والتكرير وللثلاث والسبع من بين الأعداد فوائد ذكرناها في قوله تعالى :

(80/739)

﴿ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ [لقمان : 27] فلما ذكرنا العذاب ثلاث مرات ذكر الآلاء إحدى وثلاثين مرة لبيان ما فيه من المعنى وثلاثين مرة للتقرير الآلاء مذكورة عشر مرات أضعاف مرات ذكر العذاب إشارة إلى معنى قوله تعالى : ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بالسيئة فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام : 160] ، الثالث : إن الثلاثين مرة تكرير بعد البيان في المرة الأولى لأن الخطاب مع الجن والإنس ، والنعم منحصرة في دفع المكروه وتحصيل المقصود ، لكن أعظم المكروهات عذاب جهنم ولها سبعة أبواب وأتم المقاصد نعيم الجنة ولها ثمانية أبواب فإغلاق الأبواب السبعة وفتح الأبواب الثمانية جميعه نعمة وإكرام ، فإذا اعتبرت تلك النعم بالنسبة إلى جنسي الجن والإنس تبلغ ثلاثين مرة وهي مرات التكرير للتقرير ، والمرة الأولى لبيان فائدة الكلام ، وهذا منقول وهو ضعيف ،

لأن الله تعالى ذكر نعم الدنيا والآخرة ، وما ذكره اقتصار على بيان نعم الآخرة الرابع : هو أن أبواب النار سبعة والله تعالى ذكر سبع آيات تتعلق بالتخويف من النار ، من قوله تعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثقلان ﴾ ، إلى قوله تعالى : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ [الرحمن : 31 44] ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك جنتين حيث قال : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] ولكل جنة ثمانية أبواب تفتح كلها للمتقين ، وذكر من أول السورة إلى ما ذكرنا من آيات التخويف ثماني مرات : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ سبع مرات للتقرير بالتكرير استيفاء للعدد الكثير الذي هو سبعة ، وقد بينا سبب اختصاصه في قوله تعالى : ﴿ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ [لقمان : 27] وسنعيد منه طرفاً إن شاء الله تعالى ، فصار المجموع ثلاثين مرة المرة الواحدة التي هي عقيب النعم الكثيرة لبيان المعنى وهو الأصل والتكثير تكرار فصار إحدى وثلاثين مرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 86.77 ﴾

(81/739)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ الرحمن ﴾ بناء مبالغة من الرحمة ، وهو اسم اختص الله تعالى بالاتصاف به ، وحكى

ابن فورك عن قوم أنهم يجعلون ﴿ الرحمن ﴾ آية تامة ، كأن التقدير : ﴿ الرحمن ﴾ ربنا ، قاله الرماني أو أن التقدير : الله ﴿ الرحمن ﴾ . وقال الجمهور إنما الآية : ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ فهو جزء آية .

وقوله : ﴿ علم القرآن ﴾ تعديد نعمة أي هو من به وعلمه الناس ، وخص حفاظه وفهمته بالفضل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه " . ومن الدليل على أن القرآن غير مخلوق : أن الله تعالى ذكر ﴿ القرآن ﴾ في كتابه في أربعة وخمسين موضعاً ما فيها موضع صرح فيه بلفظ الخلق ولا أشار إليه ، وذكر ﴿ الإنسان ﴾ على الثلث من ذلك في ثمانية عشر موضعاً ، كلها نصت على خلقه ، وقد اقترن ذكرهما في هذه السورة على هذا النحو ، و: ﴿ الإنسان ﴾ اسم الجنس ، حكاه الزهراوي وغيره . و: ﴿ البيان ﴾ النطق والفهم والإبانة عن ذلك بقول قاله ابن زيد والجمهور ، وذلك هو الذي فضل الإنسان من سائر الحيوان ، وقال قتادة : هو بيان الحلال والحرام والشرائع ، وهذا جزء من ﴿ البيان ﴾ العام ، وقال قتادة : ﴿ الإنسان ﴾ آدم . وقال ابن كيسان : ﴿ الإنسان ﴾ : محمد صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا التخصيص لا دليل عليه ، وكل المعلومات داخلة في البيان الذي علمه الإنسان ، فكأنه قال من ذلك البيان وفيه معتبر كون ﴿ الشمس والقمر

بحسبان ﴾ فحذف هذا كله ، ورفع ﴿ الشمسُ ﴾ بالابتداء ، وهذا ابتداء تعديد نعم .

(82/739)

واختلف الناس في قوله : ﴿ بحسبان ﴾ فقال مكي والزهراوي عن قتادة : هو مصدر كالحساب في المعنى وكالغفران والطغيان في الوزن . وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى والضحاك : هو جمع حساب ، كشهاب وشهبان ، والمعنى أن هذين لهما في طلوعهما وغروبهما وقطعهما البروج وغير ذلك حسابات شتى ، وهذا مذهب ابن عباس وأبي مالك وقتادة . وقال ابن زيد لولا الليل والنهار لم يدر أحد كيف يحسب شيئاً ، يريد من مقادير الزمان . وقال مجاهد : " الحسبان " الفلك المستدير ، شبه بحسبان الرحى ، وهو العود المستدير الذي باستدارته تدور المطحنة .

وقوله : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ قال ابن عباس والسدي وسفيان : ﴿ النجم ﴾ . النبات الذي لا ساق له ، وسمي نجماً لأنه نجم ، أي ظهر وطلع ، وهو مناسب للشجر نسبة بينة . وقال مجاهد وقتادة والحسن : ﴿ النجم ﴾ اسم الجنس من نجوم السماء ، والنسبة التي لها من السماء هي التي للشجر من الأرض ، لأنها في ظاهرهما . وسمي ﴿

الشجر ﴾ من اشتجار غصونه وهو تداخلها .

واختلف الناس في هذا السجود ، فقال مجاهد : ذلك في النجم بالغروب ونحوه ، وفي الشجر بالظل واستدارته ، وكذلك في النجم على القول الآخر . وقال مجاهد أيضاً ما معناه : أن السجود في هذا كله تجوز ، وهو عبارة عن الخضوع والتذلل ، ونحوه قول الشاعر [زيد الخيل] : [الطويل]

ترى الأكم فيها سجداً للحوافر . . . وقال : ﴿ يسجدان ﴾ وهما جمعان ، لأنه راعى اللفظ ، إذ هو مفرد اسم للنوع وهذا كقول الشاعر [عمير بن شييم القطامي] : [الوافر]

ألم يحزنك أن حبال قومي . . . وقومك قد تباينتا انقطاعا

وقرأ الجمهور : " والسماءَ رفعها " بالنصب عطفاً على الجملة الصغيرة وهي ﴿ يسجدان ﴾ لأن هذه الجملة من فعل وفاعل وهذه كذلك . وقرأ أبو السمال : " والسماءُ " بالرفع عطفاً على الجملة الكبيرة وهي قوله : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ لأن هذه الجملة من ابتداء وخبر ، والأخرى كذلك .

وفي مصحف ابن مسعود : " وخفض الميزان " . ومعنى : ﴿ وضع ﴾ أقر وأثبت ، و ﴿ الميزان ﴾ : العدل فيما قال الطبري ومجاهد وأكثر الناس . وقال ابن عباس والحسن وقتادة : إنه الميزان المعروف .

قال القاضي أبو محمد : والميزان المعروف جزء من ﴿ الميزان ﴾ الذي يعبر به عن العدل . ويظهر عندي أن قوله : ﴿ وضع الميزان ﴾ يريد به العدل .

وقوله : ﴿ ألا تطغوا في الميزان ﴾ وقوله : ﴿ وأقيموا الوزن ﴾ وقوله : ﴿ ولا تخسروا الميزان ﴾ يريد به الميزان المعروف ، وكل ما قيل محتمل سائغ .

وقوله : ﴿ ألا تطغوا ﴾ نهي عن التعمد الذي هو طغيان بالميزان . وأما ما لا يقدر البشر عليه من التحرير بالميزان فذلك موضوع عن الناس . " وأن لا " هو بتقدير لئلا ، أو مفعول من أجله . و: ﴿ تطغوا ﴾ نصب ، ويحتمل أن تكون " أن " مفسرة ، فيكون ﴿ تطغوا ﴾ جزماً بالنهي ، وفي مصحف ابن مسعود : " لا تطغوا في الميزان " بغير أن .

وقرأ جمهور الناس : " ولا تُخسروا " من أخسر ، أي نقص وأفسد ، وقال بلال بن أبي بردة " تَخسِروا " بفتح التاء وكسر السين من خسر ، ويقال خسر وأخسر بمعنى : نقص وأفسد ، كجبر وأجبر . وقرأ بلال أيضاً فيما حكى ابن جني : " تَخسَروا " ، بفتح التاء والسين من خسِر : بكسر السين .

واختلف الناس في : " الأنام " فقال ابن عباس فيما روي عنه هم بنو آدم فقط . وقال الحسن

بن أبي الحسن : هم الثقلان : الجن والإنس . وقال ابن عباس أيضاً وقتادة وابن زيد والشعبي : هم الحيوان كله . و﴿ الأكمام ﴾ في ﴿ النخل ﴾ موجودة في الموضعين ، فجملة فروع النخلة في أكمام من ليفها ، وطلع النخل كمائم الزهر وبه شبه كم الثوب . ﴿ والحب ذو العصف ﴾ هو البر والشعير وما جرى مجراه من الحب الذي له سنبل وأوراق متشعبة على ساقه وهي العصيفة إذا يبست ، ومنه قول علقمة بن عبدة : [البسيط]

تسقى مذانب قد مالت عصيفتها . . . حدورها من أتيّ الماء مطموم

(84/739)

قال ابن عباس ﴿ العصف ﴾ التبن ، وتقول العرب : خرجنا نتعصف ، أي يستعجلون عصيفة الزرع .

وقرأ ابن عامر وأبو البرهسم : " والحبَّ " بالنصب عطفاً على ﴿ الأرض ﴾ " ذا العصف والريحانِ " إلا أن البرهسم خفض النون .

واختلفوا في ﴿ الريحان ﴾ ، فقال ابن عباس ومجاهد والضحاك معناه : الرزق ، ومنه قول الشاعر وهو النمر بن تولب : [المتقارب]

سلام الإله وريحانه . . . وجنته وسماء درر

وقال الحسن : هو ريحانكم هذا . وقال ابن جبير : هو كل ما قام على ساق ، وقال ابن زيد وقتادة : ﴿ الريحان ﴾ هو كل مشموم طيب الريح من النبات . وفي هذا النوع نعمة عظيمة . ففيه الأزهار والمندل والعقاقير وغير ذلك . وقال الفراء : ﴿ العصف ﴾ فيما يؤكل ، و﴿ الريحان ﴾ كل ما لا يؤكل .

وقرأ جمهور الناس : " والحبُّ " بالرفع " ذو العصف والريحان " وهذه قراءة في المعنى كالأولى في الإعراب حسنة الاتساق عطفاً على ﴿ فاكهة ﴾ . وقرأ حمزة والكسائي وابن محيصن : " والحبَّ " بالرفع " ذو العصف والريحانِ " بخفض " الريحانِ " عطفاً على ﴿ العصف ﴾ ، كأن الحب هما له على أن ﴿ العصف ﴾ منه الورق . وكل ما يعصف باليد وبالريح فهو رزق البهائم ، ﴿ والريحان ﴾ منه الحب فهو رزق الناس ، " والريحان " على هذه القراءة : الرزق : لا يدخل فيه المشموم بتكلف .

﴿ والريحان ﴾ هو من ذوات الواو . قال أبو علي : إما أن يكون ريحان اسماً ووضع موضع المصدر ، وإما أن يكون مصدراً على وزن فعلان ، كالليان وما جرى مجراه أصله : روحان ، أبدلت الواو ياء كما بدلوا الواو ياء في أشاوى وإما أن يكون مصدراً شاذاً في المعتل كما شذ كينونة وبينونة ، فأصله ريوحان ، قلبت الواو ياء ، وأدغمت الياء في الياء ، فجاء ريحان ، فخفف كما قالوا ميت وميت وهين وهين .

والآلاء : النعم ، واحدها إلى مثل معى وألى مثل قفا ، حكى هذين أبو عبيدة ، وألي مثل أمر وإلي مثل حصن ، حكى هذين الزهراوي . والضمير في قوله : ﴿ ربكما ﴾ للجن والإنس ، وساغ ذلك ولم يصرح لهما بذكر على أحد وجهين إما أنهما قد ذكرا في قوله : ﴿ للأنام ﴾ على ما تقدم من أن المراد به الثقلان ، وإما على أن أمرهما مفسر في قوله : ﴿ خلق الإنسان ﴾ [الرحمن : 14] ﴿ وخلق الجان ﴾ [الرحمن : 15] فساغ تقديمهما في الضمير اتساعاً . وقال الطبري : يحتمل أن يقال هذا من باب ألقيا في جهنم ويا غلام اضربا عنقه . وقال منذر بن سعيد خوطب من يعقل لأن المخاطبة بالقرآن كله هي للإنس والجن ، ويروى أن هذه الآية لما قرأها النبي صلى الله عليه وسلم سكت أصحابه فقال : " إن جواب الجن خير من سكوتكم ، أي لما قرأتها على الجن قالوا : لا ، بأيها نكذب يا ربنا ".

﴿ الرحمن ﴾ بناء مبالغة من الرحمة ، وهو اس

ترى الأكم فيها سجداً للحوافر . . . وقال : ﴿ يسجدان ﴾ وهما جمعان ، لأنه راعى اللفظ ، إذ هو مفرد اسم للنوع وهذا كقول الشاعر [عمير بن شييم القطامي] : [الوافر]

ألم يحزنك أن حبال قومي . . . وقومك قد تباينتا انقطاعا

وقرأ الجمهور : " والسماءَ رفعها " بالنصب عطفاً على الجملة الصغيرة وهي ﴿ يسجدان

﴿ لأن هذه الجملة من فعل وفاعل وهذه كذلك . وقرأ أبو السمال : " والسماءُ " بالرفع عطفاً على الجملة الكبيرة وهي قوله : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ لأن هذه الجملة من ابتداء وخبر ، والأخرى كذلك .

وفي مصحف ابن مسعود : " وخفض الميزان " . ومعنى : ﴿ وضع ﴾ أقر وأثبت ، و ﴿ الميزان ﴾ : العدل فيما قال الطبري ومجاهد وأكثر الناس . وقال ابن عباس والحسن وقتادة : إنه الميزان المعروف .

قال القاضي أبو محمد : والميزان المعروف جزء من ﴿ الميزان ﴾ الذي يعبر به عن العدل . ويظهر عندي أن قوله : ﴿ وضع الميزان ﴾ يريد به العدل .

(86/739)

وقوله : ﴿ ألا تطغوا في الميزان ﴾ وقوله : ﴿ وأقيموا الوزن ﴾ وقوله : ﴿ ولا تخسروا الميزان ﴾ يريد به الميزان المعروف ، وكل ما قيل محتمل سائغ .

وقوله : ﴿ ألا تطغوا ﴾ نهي عن التعمد الذي هو طغيان بالميزان . وأما ما لا يقدر البشر عليه من التحرير بالميزان فذلك موضوع عن الناس . " وأن لا " هو بتقدير لئلا ، أو مفعول من أجله . و : ﴿ تطغوا ﴾ نصب ، ويحتمل أن تكون " أن " مفسرة ، فيكون ﴿ تطغوا

﴿ جزماً بالنهي ، وفي مصحف ابن مسعود : " لا تطغوا في الميزان " بغير أن .

وقرأ جمهور الناس : " ولا تُخسروا " من أخسر ، أي نقص وأفسد ، وقال بلال بن أبي بردة " تَخسِروا " بفتح التاء وكسر السين من خسر ، ويقال خسر وأخسر بمعنى : نقص وأفسد ، كجبر وأجبر . وقرأ بلال أيضاً فيما حكى ابن جني : " تَخسَروا " ، بفتح التاء والسين من خسِر : بكسر السين .

واختلف الناس في : " الأنام " فقال ابن عباس فيما روي عنه هم بنو آدم فقط . وقال الحسن بن أبي الحسن : هم الثقلان : الجن والإنس . وقال ابن عباس أيضاً وقتادة وابن زيد والشعبي : هم الحيوان كله . و ﴿ الأكمام ﴾ في ﴿ النخل ﴾ موجودة في الموضعين ، فجملة فروع النخلة في أكمام من ليفها ، وطلع النخل كمائم الزهر وبه شبه كم الثوب . ﴿ والحب ذو العصف ﴾ هو البر والشعير وما جرى مجراه من الحب الذي له سنبل وأوراق متشعبة على ساقه وهي العصيفة إذا يبست ، ومنه قول علقمة بن عبدة : [البسيط]

تسقى مذانب قد مالت عصيفتها . . . حدورها من أتيّ الماء مطموم

قال ابن عباس ﴿ العصف ﴾ التبن ، وتقول العرب : خرجنا نتعصف ، أي يستعجلون عصيفة الزرع .

وقرأ ابن عامر وأبو البرهسم : " والحبَّ " بالنصب عطفاً على ﴿ الأرض ﴾ " ذا العصف والريحانِ " إلا أن البرهسم خفض النون .

واختلفوا في ﴿ الريحان ﴾ ، فقال ابن عباس ومجاهد والضحاك معناه : الرزق ، ومنه قول الشاعر وهو النمر بن تولب : [المتقارب]

سلام الإله وريحانه . . . وجنته وسماء درر

(87/739)

وقال الحسن : هو ريحانكم هذا . وقال ابن جبير : هو كل ما قام على ساق ، وقال ابن زيد وقتادة : ﴿ الريحان ﴾ هو كل مشموم طيب الريح من النبات . وفي هذا النوع نعمة عظيمة . ففيه الأزهار والمندل والعقاقير وغير ذلك . وقال الفراء : ﴿ العصف ﴾ فيما يؤكل ، و﴿ الريحان ﴾ كل ما لا يؤكل .

وقرأ جمهور الناس : " والحبُّ " بالرفع " ذو العصف والريحان " وهذه قراءة في المعنى كالأولى في الإعراب حسنة الاتساق عطفاً على ﴿ فاكهة ﴾ . وقرأ حمزة والكسائي وابن محيصن : " والحبَّ " بالرفع " ذو العصف والريحانِ " بخفض " الريحانِ " عطفاً على ﴿ العصف ﴾ ، كأن الحب هما له على أن ﴿ العصف ﴾ منه الورق . وكل ما يعصف باليد وبالريح فهو رزق البهائم ، ﴿ والريحان ﴾ منه الحب فهو رزق الناس ، " والريحان " على هذه القراءة : الرزق : لا يدخل فيه المشموم بتكلف .

﴿ والريحان ﴾ هو من ذوات الواو . قال أبو علي : إما أن يكون ريحان اسماً ووضع موضع المصدر ، وإما أن يكون مصدراً على وزن فعلان ، كالليان وما جرى مجراه أصله : روحان ، أبدلت الواو ياء كما بدلوا الواو ياء في أشاوى وإما أن يكون مصدراً شاذاً في المعتل كما شذ كينونة وبينونة ، فأصله ريوحان ، قلبت الواو ياء ، وأدغمت الياء في الياء ، فجاء ريحان ، فخفف كما قالوا ميت وميت وهين وهين .

(88/739)

والآلاء : النعم ، واحدها إلى مثل معى وألى مثل قفا ، حكى هذين أبو عبيدة ، وألي مثل أمر وإلي مثل حصن ، حكى هذين الزهراوي . والضمير في قوله : ﴿ ربكما ﴾ للجن والإنس ، وساغ ذلك ولم يصرح لهما بذكر على أحد وجهين إما أنهما قد ذكرا في قوله : ﴿ للأنام ﴾ على ما تقدم من أن المراد به الثقلان ، وإما على أن أمرهما مفسر في قوله : ﴿ خلق الإنسان ﴾ [الرحمن : 14] ﴿ وخلق الجان ﴾ [الرحمن : 15] فساغ تقديمهما في الضمير اتساعاً . وقال الطبري : يحتمل أن يقال هذا من باب ألقيا في جهنم ويا غلام اضربا عنقه . وقال منذر بن سعيد خوطب من يعقل لأن المخاطبة بالقرآن كله هي للإنس والجن ، ويروى أن هذه الآية لما قرأها النبي صلى الله عليه وسلم سكت أصحابه فقال : "

إن جواب الجن خير من سكوتكم ، أي لما قرأتها على الجن قالوا : لا ، بأيها نكذب يا ربنا ".

﴿ الرحمن ﴾ بناء مبالغة من الرحمة ، وهو اسم اختص الله تعالى بالاتصاف به ، وحكى ابن فورك عن قوم أنهم يجعلون ﴿ الرحمن ﴾ آية تامة ، كأن التقدير : ﴿ الرحمن ﴾ ربنا ، قاله الرماني أو أن التقدير : الله ﴿ الرحمن ﴾ . وقال الجمهور إنما الآية : ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ فهو جزء آية .

(89/739)

وقوله : ﴿ علم القرآن ﴾ تعديد نعمة أي هو من به وعلمه الناس ، وخص حفاظه وفهمته بالفضل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه " . ومن الدليل على أن القرآن غير مخلوق : أن الله تعالى ذكر ﴿ القرآن ﴾ في كتابه في أربعة وخمسين موضعاً ما فيها موضع صرح فيه بلفظ الخلق ولا أشار إليه ، وذكر ﴿ الإنسان ﴾ على الثلث من ذلك في ثمانية عشر موضعاً ، كلها نصت على خلقه ، وقد اقترن ذكرهما في هذه السورة على هذا النحو ، و: ﴿ الإنسان ﴾ اسم الجنس ، حكاه الزهراوي وغيره . و: ﴿ البيان ﴾ النطق والفهم والإبانة عن ذلك بقول قاله ابن زيد

والجمهور ، وذلك هو الذي فضل الإنسان من سائر الحيوان ، وقال قتادة : هو بيان الحلال والحرام والشرائع ، وهذا جزء من ﴿ البيان ﴾ العام ، وقال قتادة : ﴿ الإنسان ﴾ آدم .

وقال ابن كيسان : ﴿ الإنسان ﴾ : محمد صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا التخصيص لا دليل عليه ، وكل المعلومات داخلة في البيان الذي علمه الإنسان ، فكأنه قال من ذلك البيان وفيه معتبر كون ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ فحذف هذا كله ، ورفع ﴿ الشمسُ ﴾ بالابتداء ، وهذا ابتداء تعديد نعم .

واختلف الناس في قوله : ﴿ بحسبان ﴾ فقال مكي والزهراوي عن قتادة : هو مصدر كالحساب في المعنى وكالغفران والطغيان في الوزن . وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى والضحاك : هو جمع حساب ، كشهاب وشهبان ، والمعنى أن هذين لهما في طلوعهما وغروبهما وقطعهما البروج وغير ذلك حسابات شتى ، وهذا مذهب ابن عباس وأبي مالك وقتادة . وقال ابن زيد لولا الليل والنهار لم يدر أحد كيف يحسب شيئاً ، يريد من مقادير الزمان . وقال مجاهد : " الحسبان " الفلك المستدير ، شبه بحسبان الرحى ، وهو العود المستدير الذي باستدارته تدور المطحنة .

وقوله : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ قال ابن عباس والسدي وسفيان : ﴿ النجم ﴾ . النبات الذي لا ساق له ، وسمي نجماً لأنه نجم ، أي ظهر وطلع ، وهو مناسب للشجر نسبة بينة . وقال مجاهد وقتادة والحسن : ﴿ النجم ﴾ اسم الجنس من نجوم السماء ، والنسبة التي لها من السماء هي التي للشجر من الأرض ، لأنها في ظاهرهما . وسمي ﴿ الشجر ﴾ من اشتجار غصونه وهو تداخلها .

واختلف الناس في هذا السجود ، فقال مجاهد : ذلك في النجم بالغروب ونحوه ، وفي الشجر بالظل واستدارته ، وكذلك في النجم على القول الآخر . وقال مجاهد أيضاً ما معناه : أن السجود في هذا كله تجوز ، وهو عبارة عن الخضوع والتذلل ، ونحوه قول الشاعر [زيد الخيل] : [الطويل]

ترى الأكم فيها سجداً للحوافر . . . وقال : ﴿ يسجدان ﴾ وهما جمعان ، لأنه راعى اللفظ ، إذ هو مفرد اسم للنوع وهذا كقول الشاعر [عمير بن شييم القطامي] : [الوافر]

ألم يحزنك أن حبال قومي . . . وقومك قد تباينتا انقطاعا

وقرأ الجمهور : " والسماءَ رفعها " بالنصب عطفاً على الجملة الصغيرة وهي ﴿ يسجدان ﴾ لأن هذه الجملة من فعل وفاعل وهذه كذلك . وقرأ أبو السمال : " والسماءُ " بالرفع عطفاً على الجملة الكبيرة وهي قوله : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ لأن هذه الجملة

من ابتداء وخبر ، والأخرى كذلك .

وفي مصحف ابن مسعود : " وخفض الميزان " . ومعنى : ﴿ وضع ﴾ أقر وأثبت ، و ﴿ الميزان ﴾ : العدل فيما قال الطبري ومجاهد وأكثر الناس . وقال ابن عباس والحسن وقتادة : إنه الميزان المعروف .

قال القاضي أبو محمد : والميزان المعروف جزء من ﴿ الميزان ﴾ الذي يعبر به عن العدل . ويظهر عندي أن قوله : ﴿ وضع الميزان ﴾ يريد به العدل .

وقوله : ﴿ ألا تطغوا في الميزان ﴾ وقوله : ﴿ وأقيموا الوزن ﴾ وقوله : ﴿ ولا تخسروا الميزان ﴾ يريد به الميزان المعروف ، وكل ما قيل محتمل سائغ .

(91/739)

وقوله : ﴿ ألا تطغوا ﴾ نهي عن التعمد الذي هو طغيان بالميزان . وأما ما لا يقدر البشر عليه من التحرير بالميزان فذلك موضوع عن الناس . " وأن لا " هو بتقدير لئلا ، أو مفعول من أجله . و: ﴿ تطغوا ﴾ نصب ، ويحتمل أن تكون " أن " مفسرة ، فيكون ﴿ تطغوا ﴾ جزماً بالنهي ، وفي مصحف ابن مسعود : " لا تطغوا في الميزان " بغير أن .

وقرأ جمهور الناس : " ولا تُخسروا " من أخسر ، أي نقص وأفسد ، وقال بلال بن أبي بردة

" تَخسِروا " بفتح التاء وكسر السين من خسر ، ويقال خسر وأخسر بمعنى : نقص وأفسد ، كجبر وأجبر . وقرأ بلال أيضاً فيما حكى ابن جني : " تَخسَروا " ، بفتح التاء والسين من خسِر : بكسر السين .

واختلف الناس في : " الأنام " فقال ابن عباس فيما روي عنه هم بنو آدم فقط . وقال الحسن بن أبي الحسن : هم الثقلان : الجن والإنس . وقال ابن عباس أيضاً وقتادة وابن زيد والشعبي : هم الحيوان كله . و ﴿ الأكمام ﴾ في ﴿ النخل ﴾ موجودة في الموضعين ، فجملة فروع النخلة في أكمام من ليفها ، وطلع النخل كمائم الزهر وبه شبه كم الثوب . ﴿ والحب ذو العصف ﴾ هو البر والشعير وما جرى مجراه من الحب الذي له سنبل وأوراق متشعبة على ساقه وهي العصيفة إذا يبست ، ومنه قول علقمة بن عبدة : [البسيط]

تسقى مذانب قد مالت عصيفتها . . . حدورها من أتيّ الماء مطموم

قال ابن عباس ﴿ العصف ﴾ التبن ، وتقول العرب : خرجنا نتعصف ، أي يستعجلون عصيفة الزرع .

وقرأ ابن عامر وأبو البرهسم : " والحبَّ " بالنصب عطفاً على ﴿ الأرض ﴾ " ذا العصف والريحانِ " إلا أن البرهسم خفض النون .

واختلفوا في ﴿ الريحان ﴾ ، فقال اب

﴿ الرحمن ﴾ بناء مبالغة من الرحمة ، وهو اس

ترى الأكم فيها سجداً للحوافر . . . وقال : ﴿ يسجدان ﴾ وهما جمعان ، لأنه راعى اللفظ ، إذ هو مفرد اسم للنوع وهذا كقول الشاعر [عمير بن شييم القطامي] : [الوافر]

ألم يحزنك أن حبال قومي . . . وقومك قد تباينتا انقطاعا

(92/739)

وقرأ الجمهور : " والسماءَ رفعها " بالنصب عطفاً على الجملة الصغيرة وهي ﴿ يسجدان ﴾ لأن هذه الجملة من فعل وفاعل وهذه كذلك . وقرأ أبو السمال : " والسماءُ " بالرفع عطفاً على الجملة الكبيرة وهي قوله : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ لأن هذه الجملة من ابتداء وخبر ، والأخرى كذلك .

وفي مصحف ابن مسعود : " وخفض الميزان " . ومعنى : ﴿ وضع ﴾ أقر وأثبت ، و ﴿ الميزان ﴾ : العدل فيما قال الطبري ومجاهد وأكثر الناس . وقال ابن عباس والحسن وقتادة : إنه الميزان المعروف .

قال القاضي أبو محمد : والميزان المعروف جزء من ﴿ الميزان ﴾ الذي يعبر به عن العدل . ويظهر عندي أن قوله : ﴿ وضع الميزان ﴾ يريد به العدل .

وقوله : ﴿ ألا تطغوا في الميزان ﴾ وقوله : ﴿ وأقيموا الوزن ﴾ وقوله : ﴿ ولا تخسروا

الميزان ﴾ يريد به الميزان المعروف ، وكل ما قيل محتمل سائغ .

وقوله : ﴿ ألا تطغوا ﴾ نهي عن التعمد الذي هو طغيان بالميزان . وأما ما لا يقدر البشر عليه من التحرير بالميزان فذلك موضوع عن الناس . " وأن لا " هو بتقدير لئلا ، أو مفعول من أجله . و : ﴿ تطغوا ﴾ نصب ، ويحتمل أن تكون " أن " مفسرة ، فيكون ﴿ تطغوا ﴾ جزماً بالنهي ، وفي مصحف ابن مسعود : " لا تطغوا في الميزان " بغير أن .

وقرأ جمهور الناس : " ولا تُخسروا " من أخسر ، أي نقص وأفسد ، وقال بلال بن أبي بردة " تَخسِروا " بفتح التاء وكسر السين من خسر ، ويقال خسر وأخسر بمعنى : نقص وأفسد ، كجبر وأجبر . وقرأ بلال أيضاً فيما حكى ابن جني : " تَخسَروا " ، بفتح التاء والسين من خسِر : بكسر السين .

(93/739)

واختلف الناس في : " الأنام " فقال ابن عباس فيما روي عنه هم بنو آدم فقط . وقال الحسن بن أبي الحسن : هم الثقلان : الجن والإنس . وقال ابن عباس أيضاً وقتادة وابن زيد والشعبي : هم الحيوان كله . و ﴿ الأكمام ﴾ في ﴿ النخل ﴾ موجودة في الموضعين ، فجملة فروع النخلة في أكمام من ليفها ، وطلع النخل كمائم الزهر وبه شبه كم الثوب . ﴿

والحب ذو العصف ﴾ هو البر والشعير وما جرى مجراه من الحب الذي له سنبل وأوراق متشعبة على ساقه وهي العصيفة إذا يبست ، ومنه قول علقمة بن عبدة : [البسيط]

تسقى مذانب قد مالت عصيفتها . . . حدورها من أتيّ الماء مطموم

قال ابن عباس ﴿ العصف ﴾ التبن ، وتقول العرب : خرجنا نتعصف ، أي يستعجلون عصيفة الزرع .

وقرأ ابن عامر وأبو البرهسم : " والحبَّ " بالنصب عطفاً على ﴿ الأرض ﴾ " ذا العصف والريحانِ " إلا أن البرهسم خفض النون .

واختلفوا في ﴿ الريحان ﴾ ، فقال ابن عباس ومجاهد والضحاك معناه : الرزق ، ومنه قول الشاعر وهو النمر بن تولب : [المتقارب]

سلام الإله وريحانه . . . وجنته وسماء درر

وقال الحسن : هو ريحانكم هذا . وقال ابن جبير : هو كل ما قام على ساق ، وقال ابن زيد وقتادة : ﴿ الريحان ﴾ هو كل مشموم طيب الريح من النبات . وفي هذا النوع نعمة عظيمة . ففيه الأزهار والمندل والعقاقير وغير ذلك . وقال الفراء : ﴿ العصف ﴾ فيما يؤكل ، و﴿ الريحان ﴾ كل ما لا يؤكل .

وقرأ جمهور الناس : " والحبُّ " بالرفع " ذو العصف والريحان " وهذه قراءة في المعنى كالأولى في الإعراب حسنة الاتساق عطفاً على ﴿ فاكهة ﴾ . وقرأ حمزة والكسائي وابن

محيصن : " والحبَّ " بالرفع " ذو العصف والريحانِ " بخفض " الريحانِ " عطفاً على ﴿ العصف ﴾ ، كأن الحب هما له على أن ﴿ العصف ﴾ منه الورق . وكل ما يعصف باليد وبالريح فهو رزق البهائم ، ﴿ والريحان ﴾ منه الحب فهو رزق الناس ، " والريحان " على هذه القراءة : الرزق : لا يدخل فيه المشموم بتكلف .

(94/739)

﴿ والريحان ﴾ هو من ذوات الواو . قال أبو علي : إما أن يكون ريحان اسماً ووضع موضع المصدر ، وإما أن يكون مصدراً على وزن فعلان ، كالليان وما جرى مجراه أصله : روحان ، أبدلت الواو ياء كما بدلوا الواو ياء في أشاوى وإما أن يكون مصدراً شاذاً في المعتل كما شذ كينونة وبينونة ، فأصله ريوحان ، قلبت الواو ياء ، وأدغمت الياء في الياء ، فجاء ريحان ، فخفف كما قالوا ميت وميت وهين وهين .

والآلاء : النعم ، واحدها إلى مثل معى وألى مثل قفا ، حكى هذين أبو عبيدة ، وألي مثل أمر وإلي مثل حصن ، حكى هذين الزهراوي . والضمير في قوله : ﴿ ربكما ﴾ للجن والإنس ، وساغ ذلك ولم يصرح لهما بذكر على أحد وجهين إما أنهما قد ذكرا في قوله : ﴿ للأنام ﴾ على ما تقدم من أن المراد به الثقلان ، وإما على أن أمرهما مفسر في قوله : ﴿

خلق الإنسان ﴾ [الرحمن : 14] ﴿ وخلق الجان ﴾ [الرحمن : 15] فساغ تقديمهما في الضمير اتساعاً . وقال الطبري : يحتمل أن يقال هذا من باب ألقيا في جهنم ويا غلام اضربا عنقه . وقال منذر بن سعيد خوطب من يعقل لأن المخاطبة بالقرآن كله هي للإنس والجن ، ويروى أن هذه الآية لما قرأها النبي صلى الله عليه وسلم سكت أصحابه فقال : " إن جواب الجن خير من سكوتكم ، أي لما قرأتها على الجن قالوا : لا ، بأيها نكذب يا ربنا " .

﴿ الرحمن ﴾ بناء مبالغة من الرحمة ، وهو اسم اختص الله تعالى بالاتصاف به ، وحكى ابن فورك عن قوم أنهم يجعلون ﴿ الرحمن ﴾ آية تامة ، كأن التقدير : ﴿ الرحمن ﴾ ربنا ، قاله الرماني أو أن التقدير : الله ﴿ الرحمن ﴾ . وقال الجمهور إنما الآية : ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ فهو جزء آية .

(95/739)

وقوله : ﴿ علم القرآن ﴾ تعديد نعمة أي هو من به وعلمه الناس ، وخص حفاظه وفهمته بالفضل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه " . ومن الدليل على أن القرآن غير مخلوق : أن الله تعالى ذكر ﴿ القرآن ﴾ في كتابه في أربعة

وخمسين موضعاً ما فيها موضع صرح فيه بلفظ الخلق ولا أشار إليه ، وذكر ﴿ الإنسان ﴾ على الثلث من ذلك في ثمانية عشر موضعاً ، كلها نصت على خلقه ، وقد اقترن ذكرهما في هذه السورة على هذا النحو ، و: ﴿ الإنسان ﴾ اسم الجنس ، حكاه الزهراوي وغيره . و: ﴿ البيان ﴾ النطق والفهم والإبانة عن ذلك بقول قاله ابن زيد والجمهور ، وذلك هو الذي فضل الإنسان من سائر الحيوان ، وقال قتادة : هو بيان الحلال والحرام والشرائع ، وهذا جزء من ﴿ البيان ﴾ العام ، وقال قتادة : ﴿ الإنسان ﴾ آدم . وقال ابن كيسان : ﴿ الإنسان ﴾ : محمد صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا التخصيص لا دليل عليه ، وكل المعلومات داخلة في البيان الذي علمه الإنسان ، فكأنه قال من ذلك البيان وفيه معتبر كون ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ فحذف هذا كله ، ورفع ﴿ الشمسُ ﴾ بالابتداء ، وهذا ابتداء تعديد نعم .

واختلف الناس في قوله : ﴿ بحسبان ﴾ فقال مكي والزهراوي عن قتادة : هو مصدر كالحساب في المعنى وكالغفران والطغيان في الوزن . وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى والضحاك : هو جمع حساب ، كشهاب وشهبان ، والمعنى أن هذين لهما في طلوعهما وغروبهما وقطعهما البروج وغير ذلك حسابات شتى ، وهذا مذهب ابن عباس وأبي مالك وقتادة . وقال ابن زيد لولا الليل والنهار لم يدر أحد كيف يحسب شيئاً ، يريد من

مقادير الزمان . وقال مجاهد : " الحسبان " الفلك المستدير ، شبه بحسبان الرحى ، وهو العود المستدير الذي باستدارته تدور المطحنة .

(96/739)

وقوله : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ قال ابن عباس والسدي وسفيان : ﴿ النجم ﴾ . النبات الذي لا ساق له ، وسمي نجماً لأنه نجم ، أي ظهر وطلع ، وهو مناسب للشجر نسبة بينة . وقال مجاهد وقتادة والحسن : ﴿ النجم ﴾ اسم الجنس من نجوم السماء ، والنسبة التي لها من السماء هي التي للشجر من الأرض ، لأنها في ظاهرهما . وسمي ﴿ الشجر ﴾ من اشتجار غصونه وهو تداخلها .

واختلف الناس في هذا السجود ، فقال مجاهد : ذلك في النجم بالغروب ونحوه ، وفي الشجر بالظل واستدارته ، وكذلك في النجم على القول الآخر . وقال مجاهد أيضاً ما معناه : أن السجود في هذا كله تجوز ، وهو عبارة عن الخضوع والتذلل ، ونحوه قول الشاعر [زيد الخيل] : [الطويل]

ترى الأكم فيها سجداً للحوافر . . . وقال : ﴿ يسجدان ﴾ وهما جمعان ، لأنه راعى اللفظ ، إذ هو مفرد اسم للنوع وهذا كقول الشاعر [عمير بن شييم القطامي] : [الوافر]

ألم يحزنك أن حبال قومي . . . وقومك قد تباينتا انقطاعا

وقرأ الجمهور : " والسماءَ رفعها " بالنصب عطفاً على الجملة الصغيرة وهي ﴿ يسجدان ﴾ لأن هذه الجملة من فعل وفاعل وهذه كذلك . وقرأ أبو السمال : " والسماءُ " بالرفع عطفاً على الجملة الكبيرة وهي قوله : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ لأن هذه الجملة من ابتداء وخبر ، والأخرى كذلك .

وفي مصحف ابن مسعود : " وخفض الميزان " . ومعنى : ﴿ وضع ﴾ أقر وأثبت ، و ﴿ الميزان ﴾ : العدل فيما قال الطبري ومجاهد وأكثر الناس . وقال ابن عباس والحسن وقتادة : إنه الميزان المعروف .

قال القاضي أبو محمد : والميزان المعروف جزء من ﴿ الميزان ﴾ الذي يعبر به عن العدل . ويظهر عندي أن قوله : ﴿ وضع الميزان ﴾ يريد به العدل .

وقوله : ﴿ ألا تطغوا في الميزان ﴾ وقوله : ﴿ وأقيموا الوزن ﴾ وقوله : ﴿ ولا تخسروا الميزان ﴾ يريد به الميزان المعروف ، وكل ما قيل محتمل سائغ .

(97/739)

وقوله : ﴿ ألا تطغوا ﴾ نهي عن التعمد الذي هو طغيان بالميزان . وأما ما لا يقدر البشر عليه من التحرير بالميزان فذلك موضوع عن الناس . " وأن لا " هو بتقدير لئلا ، أو مفعول من أجله . و: ﴿ تطغوا ﴾ نصب ، ويحتمل أن تكون " أن " مفسرة ، فيكون ﴿ تطغوا ﴾ جزماً بالنهي ، وفي مصحف ابن مسعود : " لا تطغوا في الميزان " بغير أن .

وقرأ جمهور الناس : " ولا تُخسروا " من أخسر ، أي نقص وأفسد ، وقال بلال بن أبي بردة " تَخسِروا " بفتح التاء وكسر السين من خسر ، ويقال خسر وأخسر بمعنى : نقص وأفسد ، كجبر وأجبر . وقرأ بلال أيضاً فيما حكى ابن جني : " تَخسَروا " ، بفتح التاء والسين من خسِر : بكسر السين .

واختلف الناس في : " الأنام " فقال ابن عباس فيما روي عنه هم بنو آدم فقط . وقال الحسن بن أبي الحسن : هم الثقلان : الجن والإنس . وقال ابن عباس أيضاً وقتادة وابن زيد والشعبي : هم الحيوان كله . و﴿ الأكمام ﴾ في ﴿ النخل ﴾ موجودة في الموضعين ، فجملة فروع النخلة في أكمام من ليفها ، وطلع النخل كمائم الزهر وبه شبه كم الثوب . ﴿ والحب ذو العصف ﴾ هو البر والشعير وما جرى مجراه من الحب الذي له سنبل وأوراق متشعبة على ساقه وهي العصيفة إذا يبست ، ومنه قول علقمة بن عبدة : [البسيط]

تسقى مذانب قد مالت عصيفتها . . . حدورها من أتيّ الماء مطموم

قال ابن عباس ﴿ العصف ﴾ التبن ، وتقول العرب : خرجنا نتعصف ، أي يستعجلون

عصيفة الزرع.

وقرأ ابن عامر وأبو البرهسم: "والحبَّ" بالنصب عطفاً على ﴿ الأرض ﴾ "ذا العصف والريحانِ" إلا أن البرهسم خفض النون.

واختلفوا في ﴿ الريحان ﴾، فقال ابن عباس ومجاهد والضحاك معناه: الرزق، ومنه قول الشاعر وهو النمر بن تولب: [المتقارب]

سلام الإله وريحانه . . . وجنته وسماء درر

(98/739)

وقال الحسن: هو ريحانكم هذا. وقال ابن جبير: هو كل ما قام على ساق، وقال ابن زيد وقتادة: ﴿ الريحان ﴾ هو كل مشموم طيب الريح من النبات. وفي هذا النوع نعمة عظيمة. ففيه الأزهار والمندل والعقاقير وغير ذلك. وقال الفراء: ﴿ العصف ﴾ فيما يؤكل، و﴿ الريحان ﴾ كل ما لا يؤكل.

وقرأ جمهور الناس: "والحبُّ" بالرفع "ذو العصف والريحان" وهذه قراءة في المعنى كالأولى في الإعراب حسنة الاتساق عطفاً على ﴿ فاكهة ﴾. وقرأ حمزة والكسائي وابن محيصن: "والحبَّ" بالرفع "ذو العصف والريحانِ" بخفض "الريحانِ" عطفاً على ﴿

العصف ﴾ ، كأن الحب هما له على أن ﴿ العصف ﴾ منه الورق . وكل ما يعصف باليد وبالريح فهو رزق البهائم ، ﴿ والريحان ﴾ منه الحب فهو رزق الناس ، " والريحان " على هذه القراءة : الرزق : لا يدخل فيه المشموم بتكلف .

﴿ والريحان ﴾ هو من ذوات الواو . قال أبو علي : إما أن يكون ريحان اسماً ووضع موضع المصدر ، وإما أن يكون مصدراً على وزن فعلان ، كالليان وما جرى مجراه أصله : روحان ، أبدلت الواو ياء كما بدلوا الواو ياء في أشاوى وإما أن يكون مصدراً شاذاً في المعتل كما شذ كينونة وبينونة ، فأصله ريوحان ، قلبت الواو ياء ، وأدغمت الياء في الياء ، فجاء ريحان ، فخفف كما قالوا ميت وميت وهين وهين .

(99/739)

والآلاء : النعم ، واحدها إلى مثل معى وألى مثل قفا ، حكى هذين أبو عبيدة ، وألي مثل أمر وإلي مثل حصن ، حكى هذين الزهراوي . والضمير في قوله : ﴿ ربكما ﴾ للجن والإنس ، وساغ ذلك ولم يصرح لهما بذكر على أحد وجهين إما أنهما قد ذكرا في قوله : ﴿ للأنام ﴾ على ما تقدم من أن المراد به الثقلان ، وإما على أن أمرهما مفسر في قوله : ﴿ خلق الإنسان ﴾ [الرحمن : 14] ﴿ وخلق الجان ﴾ [الرحمن : 15] فساغ تقديمهما

في الضمير اتساعاً . وقال الطبري : يحتمل أن يقال هذا من باب ألقيا في جهنم ويا غلام اضربا عنقه . وقال منذر بن سعيد خوطب من يعقل لأن المخاطبة بالقرآن كله هي للإنس والجن ، ويروى أن هذه الآية لما قرأها النبي صلى الله عليه وسلم سكت أصحابه فقال : " إن جواب الجن خير من سكوتكم ، أي لما قرأتها على الجن قالوا : لا ، بأيها نكذب يا ربنا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(100/739)

وقال القرطبى :

﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾

أي يجريان بحساب معلوم فأضمر الخبر .

قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك : أي يجريان بحساب في منازل لا يعدوانها ولا يحيدان عنها .

وقال ابن زيد وابن كيسان : يعني أن بهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار ، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يَحسب شيئاً لو كان الدهر كلّه ليلاً أو نهاراً .

وقال السديّ : "بِحُسْبَانٍ" تقدير آجالهما أي تجري بآجال كآجال الناس ، فإذا جاء

أجلهما هلكا ؛ نظيره : ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر : 5] وقال الضحاك : بقدر .

مجاهد : "بِحُسْبَانٍ" كحسبان الرَّحَى يعني قطبها يدوران في مثل القطب .

والحُسْبان قد يكون مصدر حَسَبته أحْسُبُه بالضم حَسْباً وحُسْباناً ، مثل الغُفْران والكُفْران والرُّجْحان ، وِحسابة أيضاً أي عددته .

وقال الأخفش : ويكون جماعة الحساب مثل شِهاب وشُهبان .

والحُسْبان أيضاً بالضم العذاب والسهام القصار ، وقد مضى في "الكهف" الواحدة حُسْبانة ، والحُسْبانة أيضاً الوسادة الصغيرة ؛ تقول منه : حَسَّبْتُه إذا وسَّدْته ؛ قال :

. . .

لَثَوَيْتَ غير مُحَسَّب . . .

أي غير موسَّد يعني غير مكرَّم ولا مكفَّن ﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ قال ابن عباس وغيره : النجم ما لا ساق له والشجر ما له ساق ، وأنشد ابن عباس قول صفوان بن أسد التميمي :

لَقَد أَنْجَمَ القَاعُ الكَبيرُ عِضَاهَه . . .

وتَمَّ به حيّاً تَميم ووَائلِ

وقال زهير بن أبي سُلْمى :

مُكَلَّلٌ بأُصولِ النَّجْم تَنْسِجُه . . .

ريحُ الجَنوبِ لِضاحِي مائه حُبُكُ

واشتقاق النجم من نَجَم الشيءُ ينجُم بالضم نجوماً ظهر وطلع ، وسجودهما بسجود ظلالهما ؛ قاله الضحاك .

وقال الفرّاء : سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت ثم يميلان معها حتى ينكسر الفيء .

وقال الزجاج : سجودهما دوران الظل معهما ، كما قال تعالى : ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ ﴾ [النحل : 48] .

(101/739)

وقال الحسن ومجاهد : النجم نجم السماء ، وسجوده في قول مجاهد دوران ظله ، وهو اختيار الطبري ، حكاه المهدوي .

وقيل : سجود النجم أفوله ، وسجود الشجر إمكان الاجتناء لثمرها ، حكاه الماوردي .

وقيل : إن جميع ذلك مسخر لله ، فلا تعبدوا النجم كما عبد قوم من الصابئين النجوم ، وعبد كثير من العجم الشجر .

والسجود الخضوع ، والمعنىّ به آثار الحدوث ، حكاه القشيري .

النحاس : أصل السجود في اللغة الاستسلام والانقياد لله عز وجل ، فهو من الموات كلها استسلامها لأمر الله عز وجل وانقيادها له ، ومن الحيوان كذلك ويكون من سجود الصلاة ، وأنشد محمد بن يزيد في النجم بمعنى النجوم قال :

فباتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ في مَسْتَحيرة . . .

سَرِيعٍ بأَيدي الآكِلينَ جُمُودُهَا

﴿ والسمآء رَفَعَهَا ﴾ وقرأ أبو السمَّال "والسَّمَاءُ" بالرفع على الابتداء واختار ذلك لما عطف على الجملة التي هي : ﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ فجعل المعطوف مركباً من مبتدإ وخبر كالمعطوف عليه .

الباقون بالنصب على إضمار فعل يدل عليه ما بعده .

﴿ وَوَضَعَ الميزان ﴾ أي العدل ؛ عن مجاهد وقتادة والسدي ، أي وضع في الأرض العدل الذي أمر به ، يقال : وضع الله الشريعة .

ووضع فلان كذا أي ألقاه ؛ وقيل : على هذا الميزان القرآن ، لأن فيه بيان ما يحتاج إليه وهو قول الحسين بن الفضل .

وقال الحسن وقتادة أيضاً والضحاك : هو الميزان ذو اللسان الذي يوزن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض ، وهو خبر بمعنى الأمر بالعدل ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ

الوزن بالقسط ﴾ والقسط العدل .

وقيل : هو الحكم .

وقيل : أراد وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال .

وأصل مِيزان مِوزان وقد مضى في "الأعراف" القول فيه .

(102/739)

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الميزان ﴾ موضع "أَنْ" يجوز أن يكون نصباً على تقدير حذف حرف الجرّ كأنه قال : لئلا تطغوا ؛ كقوله تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ﴾ [النساء : 176] ويجوز ألا يكون ل "أن" موضع من الإعراب فتكون بمعنى أي و "تَطْغَوْا" على هذا التقدير مجزوماً ؛ كقوله تعالى : ﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ أَنِ امشوا ﴾ (أي امشوا) .

والطغيان مجاوزة الحدّ .

فمن قال : الميزان العدل قال طغيانه الجور .

ومن قال : إنه الميزان الذي يوزن به قال طغيانه البخس .

قال ابن عباس : أي لا تخونوا من وزنتم له .

وعنه أنه قال : يا معشر الموالي ! وليتم أمرين بهما هلك الناس : المكيال والميزان .

ومن قال إنه الحُكْم قال : طغيانه التحريف .

وقيل : فيه إضمار ؛ أي وضع الميزان وأمركم ألا تَطْغَوْا فيه .

﴿ وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط ﴾ أي افعلوه مستقيماً بالعدل .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : أقيموا لسان الميزان بالقسط والعدل .

وقال ابن عيينة : الإقامة باليد والقسط بالقلب .

وقال مجاهد : القسط العدل بالرومية .

وقيل : هو كقولك أقام الصلاة أي أتى بها في وقتها ، وأقام الناس أسواقهم أي أتوها لوقتها .

أي لا تدعوا التعامل بالوزن بالعدل .

﴿ وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان ﴾ ولا تنقصوا الميزان ولا تبخسوا الكيل والوزن ، وهذا كقوله : ﴿ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان ﴾ [هود : 84] وقال قتادة في هذه الآية : اعدل يا بن آدم كما تحبّ أن يُعدَل لك ، وأوف كما تحبّ أن يُوفّى لك ؛ فإن العدل صلاح الناس .

وقيل : المعنى ولا تخسروا ميزان حسناتكم يوم القيامة فيكون ذلك حسرة عليكم .

وكرر الميزان لحال رؤوس الآي .

وقيل : التكرير للأمر بإيفاء الوزن ورعاية العدل فيه .

وقراءة العامة "تُخْسِرُوا" بضم التاء وكسر السين .

وقرأ بلال بن أبي بُرْدة وأبان عن عثمان "تَخْسَرُوا" بفتح التاء والسين وهما لغتان ، يقال : أخسرت الميزان وخسرته كأجبرته وجبرته .

(103/739)

وقيل : "تَخْسَرُوا" بفتح التاء والسين محمول على تقدير حذف حرف الجرّ ؛ والمعنى ولا تخسروا في الميزان .

﴿ والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ الأنام الناس ؛ عن ابن عباس .

الحسن : الجنّ والإنس .

الضحاك : كل ما دبّ على وجه الأرض ، وهذا عام .

﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أي كل ما يتفكه به الإنسان من ألوان الثمار .

﴿ والنخل ذَاتُ الأكمام ﴾ الأكمام جمع كِمٍّ بالكسر .

قال الجوهري : والكِمّة بالكسر والكِمَامة وعاء الطلع وغِطاء النَّوْر والجمع كِمَام وأَكِمَّة وأَكْمَام والأكاميم أيضاً .

وكُمَّ الفصيلُ إذا أُشفق عليه فَسُتِر حتى يَقْوَى ؛ قال العجاج :

بَلْ لَوْ شَهِدْتَ الناسَ إذْ تُكُمُّوا . . .

بغُمَّةٍ لَوْ لَمْ تُفَرَّجْ غُمُّوا

وتُكُمُّوا أي أغمي عليهم وغُطُّوا .

وأَكَمَّت النَّخلةُ وكَمَّمت أي أخرجت أكمامها .

والكِمَام بالكسر والكِمَامة أيضاً ما يُكَمّ به فم البعير لئلا يَعضّ ؛ تقول منه : بعير مكموم أي مَحْجوم .

وكَمَّمت الشيء غطّيته .

والكَمُّ ما ستر شيئاً وغطّاه ؛ ومنه كُمُّ القميص بالضم والجمع أَكْمَام وكممة ، مثل حُبّ وحِبَبَة .

والكُمَّة القَلَنْسوة المدوَّرة ؛ لأنها تغطِّي الرأس .

قال :

فقلتُ لهمْ كِيلو بكُمَّةِ بعضِكُمْ . . .

دَرَاهمَكُمْ إنِّي كذلك أَكْيَلُ

قال الحسن : ﴿ ذَاتُ الأكمام ﴾ أي ذات الليف فإن النخلة قد تُكَمّم بالليف ، وكِمَامها ليفها الذي في أعناقها .

ابن زيد : ذات الطلع قبل أن يتفتق .

وقال عكرمة : ذات الأحمال .

﴿ والحب ذُو العصف والريحان ﴾ الحبّ الحِنطة والشعير ونحوهما ؛ والعصف التِّبْن ؛ عن الحسن وغيره .

مجاهد : ورق الشجر والزرع .

ابن عباس : تِبْن الزرع وورقه الذي تَعصِفه الرياح .

سعيد بن جبير : بَقْل الزرع أي أوّل ما ينبت منه ؛ وقاله الفرّاء .

والعرب تقول : خرجنا نَعصِف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يُدرِك .

وكذا في الصحاح : وعَصَفتُ الزَّرعَ أي جززته قبل أن يُدرِك .

(104/739)

وعن ابن عباس أيضاً : العصف ورق الزرع الأخضر إذا قطع رؤوسه ويبس ؛ نظيره : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل : 6] الجوهري : وقد أَعصفَ الزرعُ ، ومكان مُعْصِف أي كثير الزرع .

قال أبو قيس بن الأَسْلت الأنصاريّ :

إذا جُمَادَى مَنَعَتْ قَطْرَهَا . . .

زَانَ جَنَابِي عَطَنٌ مُعْصِفُ

والعَصْف أيضاً الكَسْب ؛ ومنه قول الراجز :

بغيرِ ما عَصْفٍ ولا اصطراف . . .

وكذلك الاعتصاف .

والعَصِيفة الورق المجتمع الذي يكون فيه السُّنْبل .

وقال الهرويّ : والعصف والعَصِيفة ورق السُّنْبل .

وحكى الثعلبي : وقال ابن السِّكِّيت تقول العرب لورق الزرع العصف والعَصِيفة والجِلُّ بكسر الجيم .

قال عَلْقَمة بن عَبَدة :

تَسْقِي مَذَانِبَ قد مَالتْ عَصِيفَتُهَا . . .

حَدُورُها من أَتِيِّ الماءِ مَطْمُومُ

وفي الصحاح : والجِلُّ بالكسر قصب الزرع إذا حُصِد .

والريحان الرزق ؛ عن ابن عباس ومجاهد .

الضحاك : هي لغة حِمْير .

وعن ابن عباس أيضاً والضحاك وقتادة : أنه الريحان الذي يشمّ ، وقاله ابن زيد .

وعن ابن عباس أيضاً : أنه خضرة الزرع .

وقال سعيد بن جبير : هو ما قام على ساق .

وقال الفراء : العصف المأكول من الزرع ، والريحان ما لا يؤكل .

وقال الكلبي : إن العصف الورق الذي لا يؤكل ، والريحان هو الحبّ المأكول .

وقيل : الريحان كل بقلة طيبة الريح سميت رَيْحاناً ؛ لأن الإنسان يَراحُ لها رائحةً طيبة .

أي يشمّ فهو فَعْلان رَوْحان من الرائحة ؛ وأصل الياء في الكلمة واو قلب ياء للفرق بينه وبين الرُّوحانيّ وهو كل شيء له رُوح .

قال ابن الأعرابي : يقال شيء رُوحاني ورُيحاني أي له روح .

ويجوز أن يكون على وزن فَيْعَلان فأصله رَيْوَحان فأبدل من الواو ياء وأدغم كهَيِّن ولَيِّن ، ثم ألزم التخفيف لطوله ولحاق الزائدتين الألفِ والنونِ ، والأصل فيما يتركب من الراء والواو والحاء الاهتزاز والحركة .

(105/739)

وفي الصحاح : والرَّيحان نبت معروف ؛ والريحان الرزق ؛ تقول : خرجت أبتغي رَيْحَان اللَّهِ ؛ قال النَّمِرُ بن تَوْلَب :

سلامُ الإله ورَيْحَانُهُ . . .

ورَحْمَتُهُ وسَمَاءٌ دِرَرْ

وفي الحديث : " الولد من ريحان الله " وقولهم : سبحانَ الله وريحانه ، نصبوهما على المصدر يريدون تنزيهاً له واسترزاقا .

وأما قوله : ﴿ والحب ذُو العصف والريحان ﴾ فالعصف ساق الزرع ، والريحان ورقه ؛ عن الفرّاء .

وقراءة العامة ﴿ والحب ذُو العصف والريحان ﴾ بالرفع فيها كلها على العطف على الفاكهة .

ونصبها كلها ابن عامر وأبو حيوة والمغيرة عطفاً على الأرض .

وقيل : بإضمار فعل ، أي وخلق الحبّ ذا العصف والريحان ؛ فمن هذا الوجه يحسن الوقف على "ذَاتُ الأَكْمَامِ" .

وجرّ حمزة والكسائي "الريحان" عطفاً على العصف ؛ أي فيها الحب ذو العصفِ والريحانِ ، ولا يمتنع ذلك على قول من جعل الريحان الرزق ، فيكون كأنه قال : والحب ذو الرزق . والرزق من حيث كان العصف رزقاً ؛ لأن العصف رزق للبهائم ، والريحان رزق للناس ، ولا شبهة فيه في قول من قال إنه الريحان المشموم .

قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ خطاب للإنس والجنّ ؛ لأن الأنام واقع عليهما .

وهذا قول الجمهور ، يدل عليه حديث جابر المذكور أول السورة ، وخرجه الترمذي وفيه

"لَلْجِنُّ أحسنُ منكم ردًّا" .

وقيل : لما قال : ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ و ﴿ وَخَلَقَ الجآن ﴾ دل ذلك على أن ما تقدّم وما تأخر لهما .

وأيضاً قال : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثقلان ﴾ وهو خطاب للإنس والجنّ وقد قال في هذه السورة : ﴿ يَامَعْشَرَ الجن والإنس ﴾ .

وقال الجرجاني : خاطب الجنّ مع الإنس وإن لم يتقدّم للجنّ ذكر ؛ كقوله تعالى : ﴿ حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ [ص : 32] وقد سبق ذكر الجنّ فيما سبق نزوله من القرآن ، والقرآن كالسورة الواحدة ؛ فإذا ثبت أنهم مكلّفون كالإنس خوطب الجنسان بهذه الآيات .

(106/739)

وقيل : الخطاب للإنس على عادة العرب في الخطاب للواحد بلفظ التثنية ؛ حسب ما تقدّم من القول في ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ [ق : 24] وكذلك قوله :

قِفَا نَبْكِ . . . . . .

وخَلِيلَيَّ مُرَّابِي . . . . . .

فأما ما بَعْدَ ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ و ﴿ وَخَلَقَ الجآن ﴾ فإنه خطاب للإنس والجنّ ، والصحيح قول الجمهور لقوله تعالى : ﴿ والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ والآلاء النعم ، وهو قول جميع المفسرين ، واحدها إِلىً وألىً مثل مِعًى وعصاً ، وإِلْيٌ وأَلْيٌ أربع لغات حكاها النحاس قال : وفي واحد ﴿ آنَآءِ الليل ﴾ ثلاث تسقط منها المفتوحة الألف المسكنة اللام ، وقد مضى في "الأعراف" و "النجم" .

(107/739)

وقال ابن زيد : إنها القدرة ؛ وتقدير الكلام فبأيّ قدرة ربكما تكذّبان ؛ وقاله الكلبي واختاره الترمذيّ محمد بن علي ، وقال : هذه السورة من بين السور عَلَم القرآن ، والعَلَم إمام الجند والجند تتبعه ، وإنما صارت عَلَماً لأنها سورة صفة الملك والقدرة ؛ فقال : ﴿ الرحمن ﴾ ﴿ عَلَّمَ القرآن ﴾ فافتتح السورة باسم الرحمن من بين الأسماء ليعلم العباد أن جميع ما يصفه بعد هذا من أفعاله ومن ملكه وقدرته خرج إليهم من الرحمة العظمى من رحمانيته فقال : ﴿ الرحمن ﴾ ﴿ عَلَّمَ القرآن ﴾ ثم ذكر الإنسان فقال : "خَلَقَ الإِنْسَانَ" ثم ذكر ما صنع به وما منّ عليه به ، ثم ذكر حسبان الشمس والقمر وسجود الأشياء مما نَجَم وشَجَر ، وذكر رفع السماء ووضع الميزان وهو العدل ، ووضع الأرض للأنام ؛

فخاطب هذين الثقلين الجنّ والإنس حين رأوا ما خرج من القدرة والملك برحمانيته التي رحمهم بها من غير منفعة ولا حاجة إلى ذلك ، فأشركوا به الأوثان وكل معبود اتخذوه من دونه ، وجحدوا الرحمة التي خرجت هذه الأشياء بها إليهم ، فقال سائلاً لهم : ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي بأيّ قدرة ربكما تكذبان ، فإنما كان تكذيبهم أنهم جعلوا له في هذه الأشياء التي خرجت من ملكه وقدرته شريكاً يملك معه ويقدر معه ، فذلك تكذيبهم .

ثم ذكر خلق الإنسان من صلصال ، وذكر خلق الجانّ من مارج من نار ، ثم سألهم فقال : ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي بأيّ قدرة ربّكما تكذبان ؛ فإن له في كل خلق بعد خلق قدرة بعد قدرة ؛ فالتكرير في هذه الآيات للتأكيد والمبالغة في التقرير ، واتخاذ الحجة عليهم بما وقفهم على خلقٍ خلقٍ .

(108/739)

وقال القُتَبيّ : إن الله تعالى عدّد في هذه السورة نعماءه ، وذكّر خلقه آلاءه ، ثم أتبع كل خَلَّة وصفها ونعمة وضعها بهذه ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقررهم بها ؛ كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره : ألم تكن فقيراً فأغنيتك أفتنكر

هذا ؟ ! ألم تكن خاملاً فعززتك أفتنكر هذا ؟ ! ألم تكن صَرُورة فحججت بك أفتنكر هذا ؟ ! ألم تكن راجلاً فحملتك أفتنكر هذا ؟ ! والتكرير حَسن في مثل هذا .

قال :

كَمْ نِعْمَةٍ كانتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وكَمْ . . .

وقال :

لا تَقْتُلِي مُسْلِماً إنْ كنتِ مُسْلِمَةً . . .

إيّاكِ مِنْ دَمِهِ إيَّاكِ إيَّاكِ

وقال آخر :

لا تَقطعنَّ الصديقَ ما طَرَفتْ . . .

عيناكَ من قول كاشح أشِرِ

ولا تَمَلَّنَّ من زيارته زُرْهُ . . .

وزُرْهُ وزُرْ وزُرْ وزُرِ

وقال الحسين بن الفضل : التكرير طرداً للغفلة ، وتأكيداً للحجة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(109/739)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) ﴾

لَمَّا عدَّدَ في السورةِ السابقةِ ما نزلَ بالأممِ السالفةِ من ضروبِ نقمِ الله عزَّ وجلَّ وبيّن عَقيبَ كلِّ ضربٍ منها أنَّ القرآنَ قدْ يُسِّرَ لحملِ النَّاسِ عَلى التذكرِ والاتعاظِ ونَعَى عليهم إعراضَهُم عن ذلكَ عدَّدَ في هذه السورةِ الكريمةِ ما أفاضَ على كافَّةِ الأنامِ من فنونِ نعَمِه الدينيةِ والدنيويةِ الأنفسيةِ والآفاقيةِ ، وأنكرَ عليهم إثْرَ كلِّ فنٍ منها إخلالَهُم بمواجبِ شُكرِها ، وبُدِىءَ بتعليمِ القُرآنِ فقيلَ : ﴿ الرحمن * عَلَّمَ القرءان ﴾ لأنَّ أعظمُ النعمِ شأناً وأرفعُها مكاناً كيفَ لا وهُو مدارٌ للسعادةِ الدينيةِ والدنيويةِ عيارٌ على سائرِ الكتبِ السماويةِ ، ما منْ مرصدٍ يرنُو إليه أحداقُ الأممِ إلا وهُو منشؤُه ومناطُه ، ولا مقصدٍ يمتدُّ إليه أعناقُ الهممِ إلا وهُو منهجُه وصراطُه ، وإسنادُ تعليمِه إلى اسمِ الرَّحمنِ للإيذانِ بأنَّه من آثارِ الرحمةِ الواسعةِ وأحكامِها ، وقد اقتُصرَ على ذكرِه تنبيهاً على أصالتِه وجلالةِ قدرِه ، ثمَّ قيلَ : ﴿ خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ البيان ﴾ تعييناً للمعلَّمِ وتبييناً لكيفيةِ التعليمِ ، والمرادُ بخلقِ الإنسانِ إنشاؤُه على ما هُو عليه منَ القُوى الظاهرةِ والباطنةِ ، والبيانُ هو التعبيرُ عمَّا في الضميرِ وليسَ المرادُ بتعليمِه مجردَ تمكينِ الإنسانِ من بيانِ نفسِه بل منْهُ ومنْ فهمِ بيانِ غيرِه أيضاً إذْ هُو الذي يدورُ عليه تعليمُ القُرآنِ . والجملُ الثلاثُ أخبارٌ مترادفةٌ للرَّحمنُ ، وإخلاءُ

الأخيرتينِ عن العاطفِ لورودِها على منهاجِ التعديدِ . ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ أي يجريانِ بحسابٍ مقدرٍ في بروجِهما ومنازِلِهما بحيثُ ينتظمُ بذلكَ أمورُ الكائناتِ السفلية وتختلفُ الفصولُ والأوقاتُ وتُعلمُ السنونَ والحسابُ .

(110/739)

﴿ والنجم ﴾ أي النباتُ الذي ينجُم أي يطلُع من الأرضِ ولا ساقَ لهُ ﴿ والشجر ﴾ أي الذي له ساقٌ ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ أي ينقادانِ له تعالَى فيمَا يريدُ بهما طبعاً انقيادَ الساجدينَ من المكلفينَ طوعاً . والجملتانِ خبرانِ آخرانِ للرَّحمنُ جُردتاً عن الرابطِ اللفظيِّ تعويلاً على كمالِ قوةِ الارتباطِ والمعنويِّ إذ لا يتوهمُ ذهابُ الوهمِ إلى كونِ حالِ الشمسِ والقمرِ بتسخيرِ غيرِه تعالى ولا إلى كونِ سجودِ النجمِ والشجرِ لما سواهُ تعالى كأنَّه قيلَ : الشمسُ والقمرُ بحسبانِه والنجمُ والشجرُ يسجدانِ لهُ ، وإخلاءُ الجملةِ الأُولى عن العاطفِ لما ذُكِرَ من قبلُ وتوسيطُ العاطفِ بينَها وبينَ الثانيةِ لتناسبِهما من حيثُ التقابلُ لما أنَّ الشمسَ والقمرَ علويانِ والنجمَ والشجرَ سفليانِ ومن حيثُ إنَّ كلاًّ من حالِ العلويينِ وحالِ السفليينِ من بابِ الانقيادِ لأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

(111/739)

﴿ والسماء رَفَعَهَا ﴾ أي خلقَها مرفوعةً محلاً ورتبةً حيثُ جعلَها منشأً أحكامِه وقضاياهُ ومتنزَّلَ أوامرِه ومَحَلَّ ملائكتِه ، وفيهِ من التنبيهِ على كبرياءِ شأنِه وعظمِ ملكِه وسلطانِه ما لا يَخْفى . وقُرِئَ بالرفعِ على الابتداءِ . ﴿ وَوَضَعَ الميزان ﴾ أيْ شرعَ العدلَ وأمرَ بِهِ بأنْ وفَّرَ كلَّ مستحقَ ما استحقَّهُ ووفَّى كلَّ ذِي حقَ حقَّهُ حتى انتظمَ به أمرُ العالمِ واستقامَ ، كَما قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : " بالعدلِ قامتِ السمواتُ والأرضُ " قيلَ : فَعلى هذا الميزانُ : القرآنُ ، وهو قُولُ الحسينِ بنِ الفضلِ ، كما في قولِه تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان ﴾ وقيلَ : هو ما يُعرفُ به مقاديرُ الأشياءِ من ميزانٍ ومكيالٍ ونحوِهما ، وهو قولُ الحسنِ وقتادةَ والضَّحاكِ فالمَعْنى خلقَه موضوعاً مخفوضاً على الأرضِ حيثُ علقَ به أحكامَ عبادِه وقضايَاهُم ومَا تعّبدهُم بِهِ من التسويةِ والتعديلِ في أخذِهم وإعطائِهم . ﴿ أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِى الميزان ﴾ أيْ لئلا تطغَوا فيهِ على أنَّ "أنْ" ناصبةٌ ولا نافيةٌ ولامَ العلةِ مقدرةٌ متعلقةٌ بقولِه تعالى ووضعَ الميزانَ أو أن لا تطغَوا على أنَّها مفسرةٌ لما في الشرعِ من مَعْنى القولِ ولا ناهيةٌ أي لا تعتدُوا ولا تتجاوزُوا الإنصافَ . وقُرِئَ لا تطغَوا على إرادةِ القولِ . ﴿ وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط ﴾ قوّموا وزنَكُم بالعدلِ وقيلَ : أقيمُوا لسانَ الميزانِ بالقسطِ والعدلِ ، وقيلَ : الإقامةُ باليدِ والقسطُ بالقلبِ ، ﴿ وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان ﴾ أي لا تُنقصُوه ، أمرَ أولاً بالتسويةِ ثمَّ نهَى عن الطغيانِ الذي هو اعتداءٌ وزيادةٌ ثمَّ عن

الخسران الذي هو تطفيفٌ ونقصانٌ وكرر لفظَ الميزانِ تشديداً للتوصية به وتأكيداً للأمرِ باستعمالِه والحثِ عليهِ . وقُرِىءَ ولا تَخسُروا بفتحِ التاء وضم السين وكسرها يقال : خسر الميزان يخسره وبفتح السينِ أيضاً

(112/739)

على أنَّ الأصلَ ولا تخسَروا في الميزانِ فَحُذِفَ الجارُّ وأوصلَ الفعلُ .

(113/739)

﴿ والأرض وَضَعَهَا ﴾ أي خفضَها مدحوَّةً على الماءِ ﴿ لِلأَنَامِ ﴾ أي الخلقِ ، قيلَ : المرادُ به كلُّ ذِي رُوحٍ وقيلَ : كلُّ ما على ظهرِ الأرضِ من دابَّةٍ وقيلَ : الثقلان . وقوله تعالى : ﴿ فِيهَا فاكهة ﴾ الخ . استئناف مسوق لتقرير ما أفاده الجملة السابقةُ من كونِ الأرضِ موضوعةً لمنافعِ الأنامِ وتفصيلِ المنافعِ العائدةِ إلى البشرِ ، وقيلَ : حالٌ مقدرةٌ من الأرضِ ، فالأحسنُ حينئذٍ أنْ يكونَ الحالُ هو الجارَّ والمجرورَ ، وفاكهةٌ رفعَ على الفاعليةِ أي فيها ضروبٌ كثيرةٌ مما يُتفكَّه بهِ . ﴿ والنخل ذَاتُ الأكمام ﴾ هي أوعيةُ الثمرِ جمعُ كِمَ أو كلُّ ما

يُكَمّ أي يُغطَّى من ليفٍ وسعفٍ وكُفُرَّى فإنَّه ما ينتفعُ به كالمكمومِ من ثمرِه وجُمَّارِه وجذوعِه. ﴿ والحب ﴾ هو ما يُتغذَّى بِهِ كالحنطةِ والشعيرِ. ﴿ ذُو العصف ﴾ هو ورقُ الزرعِ، وقيل: التبنُ ﴿ والريحان ﴾ قيلَ: هو الرزقُ أُريدَ به اللبُّ أي فيها ما يتلذذ به من الفواكه والجامع بين التلذذ والتغذي وهو ثمر النخل وما يُتغذَّى بِهِ وهو الحبُّ الذي له عصفٌ هو علفُ الأنعامِ وريحانٌ هو مطعَم الناسِ. وقُرِئَ والحبَّ ذا العصفِ والريحانَ أي خلقَ الحبَّ والريحانَ أو أَخصُّ، ويجوز أنْ يرادَ وذَا الريحانِ فحُذفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليهِ مُقامَهُ. والريحانُ إمَّا فيعلانٌ من رَوَح فقلبتْ واوُه ياءً وأُدغمَ ثمَّ خففَ، أو فعلانٌ قلبتْ واوُه ياءً للتخفيفِ أو للفرقِ بينَهُ وبين الرَّوحانِ وهو ما لَه روحٌ قاله القرطبيُّ ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الخطابُ للثقلينِ المدلولِ عليهما بقولِه تعالى للأنامِ، وسينطقُ به قولُه تعالى أيُّها الثقلانِ والفاءُ لترتيبِ الإنكارِ والتوبيخِ على ما فُصِّلَ من فنونِ النعماءِ وصنوفِ الآلاءِ الموجبةِ للإيمانِ والشكرِ حتماً، والتعرضُ لعنوانِ الربوبيةِ المنبئةِ عن المالكيةِ الكلِّيةِ والتربيةِ مع

(114/739)

الإضافةِ إلى ضميرِهم لتأكيدِ النكيرِ وتشديدِ التوبيخِ ومعنى تكذيبِهم بآلائِه تعالى كفرُهم إما بإنكارِ كونِه نعمةً في نفسِه كتعليمِ القرآنِ يستندُ إليهِ من النعمِ الدينيةِ وإما بإنكارِ كونِه من الله تعالى مع الاعترافِ بكونِه نعمةً في نفسِه كالنعمِ الدنيويةِ الواصلةِ إليهم بإسنادِه إلى غيرِه تعالَى استقلالاً أو اشتراكاً صريحاً أو دلالةً فإنَّ إشراكَهُم لآلهتِهم به تعالَى في العبادةِ من دواعِي إشراكِهم لها به تعالى فيما يُوجبها ، والتعبيرُ عن كفرِهم المذكورِ بالتكذيبِ لما أنَّ دلالةَ الآلاءِ المذكورةِ على وجوبِ الإيمانِ والشكرِ شهادةٌ منها بذلك فكفرُهم بها تكذيبٌ بَها لا محالةَ أي فإذا كان الأمرُ كما فُصِّلَ فبأيِّ فردٍ من أفرادِ آلاءِ مالِكِكُما ومربِّيكُما بتلكَ الآلاءِ تكذبانِ مع أنَّ كلاً منها ناطقٌ بالحقِّ شاهدٌ بالصدقِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(115/739)

وقال الآلوسى :

﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾

والجار والمجرور فيه خبر بتقدير مضاف أي جري ﴿ الشمس والقمر ﴾ كائن أو مستقر ﴿ بِحُسْبَانٍ ﴾ أو الخبر محذوف والجار متعلق به أي يجريان بحسبان وهو مصدر

كالغفران بمعنى الحساب كما قال قتادة .

وغيره أي هما يجريان ﴿ بِحُسْبَانٍ ﴾ مقدر في بروجهما ومنازلهما بحيث ينتظم بذلك أمور الكائنات السفلية وتختلف الفصول والأوقات ويعلم السنون والحساب ، وقال الضحاك .

وأبو عبيدة : هو جمع حساب كشهاب وشهبان أي هما يجريان بحسابات شتى في بروجهما ومنازلهما ، وقال مجاهد : الحسبان الفلك المستدير من حسبان الرحا وهو ما أحاط بها من أطرافها المستديرة ، وعليه فالباء للظرفية ، والجار والمجرور في موضع الخبر من غير احتياج إلى ما تقدم ، والمراد كل من ﴿ الشمس والقمر ﴾ في فلك ، والجمهور على الأول وجريان الشمس والقمر مما لا ينبغي أن يشك فيه .

وفلاسفة العصر كانوا يزعمون أن الشمس لا تجري أصلاً ، وأن القمر يجري على الأرض ، والأرض تجري على الشمس ، وقد سمعنا أنهم عدلوا منذ أعوام عن ذلك ، فزعموا أن للشمس حركة على كوكب آخر وهذا يدل على أنهم لم يكن عندهم برهان على دعواهم الأولى كما كان يقوله من كان ينتصر لهم ، والظاهر أن حالهم اليوم بل وغداً مثل حالهم بالأمس ، ونحن مع الظواهر حتى يقوم الدليل القطعي على خلافها وحينئذٍ نميل إلى التأويل وبابه واسع ، ومثل هذه الجملة قوله تعالى :

﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ فإن المعطوف على الخبر خبر ، والمراد بالنجم النبات

الذي ينجم أي يظهر ويطلع من الأرض ولا ساق له ، وبالشجر النبات الذي له ساق ، وهو المروى عن ابن عباس .

وابن جبير .

وأبي رزين ؛ والمراد بسجودهما انقيادهما له تعالى فيما يريد بهما طبعاً ، شبه جريهما على مقتضى طبيعتيهما بانقياد الساجد لخالقه وتعظيمه له .

ثم استعمل اسم المشبه به في المشبه فهناك استعارة مصرحة تبعية ، وقال مجاهد .

(116/739)

والحسن ، وفي رواية أخرى عن مجاهد أن سجودهما عبارة عن انقيادهما لما يريد سبحانه بهما طبعاً ، والجمهور على تفسير النجم بما سمعت أولاً قبل لأن اقترانه بالشجر يدل عليه ، وإن كان تقدم ﴿ الشمس والقمر ﴾ يتوهم منه أنه بمعناه المعروف ففيه تورية ظاهرة ، وإخلاء الجمل الثانية .

والثالثة .

والرابعة عن العاطف لورودها على نهج التعديد مع الإشارة إلى أن كلاًّ مما تضمنته نعمة مستقلة تقتضي الشكر ، وقد قصروا في أدائه ولو عطفت مع شدة اتصالها وتناسبها ربما

توهم أن الكل نعمة واحدة .

وتوسيط العاطف بين الرابعة والخامسة رعاية لتناسبهما من حيث التقابل لما أن ﴿ الشمس والقمر ﴾ علويان ﴿ والنجم والشجر ﴾ سفليان ، ومن حيث إن كلاً من حال العلويين وحال السفليين من باب الانقياد لأمر الله عز وجل وخلوهما عن الرابط اللفظي مع كونهما خبرين للتعويل على كمال قوة الارتباط المعنوي إذ لا يتوهم ذهاب الوهم إلى كون حال ﴿ الشمس والقمر ﴾ بتسخير غيره تعالى ، ولا إلى كون سجود النجم والشجر لسواه سبحانه فكأنه قيل : الشمس والقمر بحسبانه ﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ له كذا قالوه ، وفي "الكشف" : تبيينا لما ذكره صاحب الكشاف في هذا المقام أخلى الجمل أي التي قبل ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ [الرحمن : 5] عن العاطف لأن الغرض تعديد النعم وتبكيت المنكر كما يقال : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد فما تنكر من إحسانه كأنه لما عد نعمة حرك منه حتى يتأمل هل شكرها حق شكرها أم لا ، ثم يأخذ في أخرى ولو جيء بالعاطف صارت كواحدة ولم يكن من التحريك في شيء ، ولما قضى الوطر من التعديد المحرك والتبكيت بذكر ما هو أصل النعم على نمط رد الكلام على منهاجه الأصلي من تعداد النعم واحدة بعد أخرى على التناسب والتقارب بحرف النسق ، وفيه تنبيه على أن النعم لا تحصى فليكتف بتعديد أجلها رتبة للغرض المذكور .

وجملة ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : 5] ليست من أخبار المبتدأ ، والزمخشري إنما سأل عن وجه الربط ، وأجاب بأن الربط حاصل بالوصل المعنوي كأنه بعد ما بكت ونبه أخذ يعد عليه أصول النعم ليثبت على ما طلب منه من الشكر ، وهذا كما تقول في المثال السابق بعد قولك : فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد دانت له أقرانك وأطاعته إخوانك وبسط نواله فيمن تحت ملكته ولم يخرج أحد من حياطة عدله ونصفته ، فلا يشك ذو أرب أنها جمل منقطعة عن الأولى إعراباً متصلة بها اتصالاً معنوياً أورثها قطعها لأنها سيقت لغرض وهذه لآخر ، وقريب من هذا الاتصال اتصال قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ سَوَاء عَلَيْهِمْ ﴾ [البقرة : 6] الآية بقوله تعالى : ﴿ الذين يُؤْمِنُونَ بالغيب ﴾ [البقرة : 3] الآية انتهى .

وقد أبعد المغزى فيما أرى إلا أن ظاهر كلام الكشاف يقتضي كون قوله تعالى : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : 5] من الأخبار فتأمل .

﴿ والسماء رَفَعَهَا ﴾ أي خلقها مرفوعة ابتداءاً لا أنها كانت مخفوضة ورفعها ، والظاهر

أن المراد برفعها الرفع الصوري الحسي ، ويجوز أن يكون المراد به ما يشمل الصوري والمعنوي بطريق عموم المجاز أو الجمع بين الحقيقة والمجاز عند من يرى جوازه .

(118/739)

ورفعها المعنوي الرتبي لأنها منشأ أحكامه تعالى وقضاياه ومنزل أوامره سبحانه ومحل ملائكته عز وجل ، وقرأ أبو السمال ﴿ والسماء ﴾ بالرفع على الابتداء ، ولا إشكال فيه لأن الجملة عليه اسمية معطوفة على مثلها ، وإنما الإشكال في النصب لأنه بفعل مضمر على شريطة التفسير أي ورفع السماء فتكون الجملة فعلية فإن عطفت على جملة ﴿ النجم والشجر يسجدان ﴾ [الرحمن : 6] الكبرى لزم تخالف الجملتين المعطوفة والمعطوف عليها بالاسمية والفعلية وهو خلاف الأولى ، وإن عطفت على جملة ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ الصغرى لزم أن تكون خبراً للنجم والشجر مثلها ، وذلك لا يصح إذ لا عائد فيها إليهما ، وكذا يقال في العطف على كبرى وصغرى ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : 5] وأجاب أبو علي باختيار الثاني ، وقال : لا يلزم في المعطوف على الشيء أن يعتبر فيه حال ذلك الشيء ، وتلا باب قولهم متقلداً سيفاً ورمحاً ، وبعضهم باختيار الأول ويحسن التخالف إذا تضمن نكتة ، قال الطيبي : الظاهر أن يعطف على جملة ﴿ الشمس والقمر

بِحُسْبَانٍ ﴾ ليؤذن بأن الأصل أجرى الشمس والقمر ، وأسجد النجم والشجر ، فعدل إلى معنى دوام التسخير والانقياد في الجملتين الأوليين ، ومعنى التوكيد في الأخيرة والكلام فيما يتعلق بالرفع والنصب فيما إذا ولي العاطف جملة ذات وجهين مفصل في كتب النحو ﴿ وَوَضَعَ الميزان ﴾ أي شرع العدل وأمر به بأن وفر على كل مستعد مستحقه ، ووفى كل ذي حق حقه حتى انتظم أمر العالم واستقام كما قال عليه الصلاة والسلام : " بالعدل قامت السموات والأرض " أي بقيتا على أبلغ نظام وأتقن إحكام ، وقال بعضهم : المراد بقاء من فيهما من الثقلين إذ لولا العدل أهلك أهل الأرض بعضهم بعضاً ، وأما الملأ الأعلى فلا يقع بينهم ما يحتاج للحكم والعدل ، فذكرهم للمبالغة ، والذي أختاره أن المراد بالسموات والأرض العالم جميعه ولا شك أنه لولا العدل لم يكن العالم منتظماً .

(119/739)

ومنشأ ما ذكره القائل ظن أن المراد بالعدل في الحديث العدل في الحكم لفصل الخصومات ونحوه وليس كما ظن بل المراد به عدل الله عز وجل وإعطاؤه سبحانه كل شيء خلقه .

وتفسير الميزان بما ذكر هو المروى عن مجاهد .

والطبري .

والأكثرين ، وهو مستعار للعدل استعارة تصريحية ؛ وعن ابن عباس .

والحسن .

وقتادة .

والضحاك أن المراد به ما يعرف به مقادير الأشياء من الآلة المعروفة والمكيال المعروف ونحوهما ، فالمعنى خلقه موضوعاً مخفوضاً على الأرض حيث علق به أحكام عباده وقضاياهم المنزلة من السماء وما تعبدهم به من التسوية والتعديل في أخذهم وأعطائهم ، والمشهور أنه بهذا المعنى مجاز أيضاً من استعمال المقيد في المطلق ، وقيل : هو حقيقة ، فالواضع لم يضعه إلا لما يعرف به المقادير على أي هيئة ومن أي جنس كان ، والناس لما ألفوا المعروف لا يكاد يتبادر إلى أذهانهم من لفظ ﴿ الميزان ﴾ سواه ، وقيل : المراد به المعروف واللفظ فيه حقيقة ولا يسلم الوضع للعام .

ورجح القولان الأخيران بأن ما بعد أشدّ ملاءمة لهما وبين الوضع والرفع عليهما تقابل ، وقد قرأ عبد الله وخفض الميزان والأول بأنه أتم فائدة فزن ذلك بميزان ذهنك .

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِى الميزان ﴾ أي لئلا تطغوا فيه أي حقه وشأنه بأن تعتدوا وتتجاوزوا ما ينبغي فيه على أن ﴿ إن ﴾ ناصبة و ﴿ لا ﴾ نافية ولام العلة مقدرة متعلقة بقوله تعالى : ﴿ وَضَعَ الميزان ﴾ [الرحمن : 7] وجوز ابن عطية .

والزمخشري كون ﴿ إن ﴾ تفسيرية ، و ﴿ لا ﴾ ناهية .

واعترضه أبو حيان بأنه لم يتقدم جملة فيها معنى القول وهو شرط في صحة جعل ﴿ إن ﴾ مفسرة ، وأجيب بأن وضع الميزان فيه ذلك لأنه بالوحي وإعلام الرسل عليهم السلام ، وزعم بعضهم أن التفسير متعين لأنه لا معنى لوضع الميزان لئلا تطغوا في الميزان إذ المناسب الموزون ونحوه ، وفيه ما لا يخفى ، وفي "البحر" قرأ إبراهيم ﴿ وَوَضَعَ الميزان ﴾ بإسكان الضاد ، وخفض الميزان على أن ﴿ وُضِعَ ﴾ مصدر مضاف إلى ما بعده ولم يبين هل ﴿ وُضِعَ ﴾ مرفوع أو منصوب ، فإن كان مرفوعاً فالظاهر أنه مبتدأ ﴿ وَأَن لاَّ تَطْغَوْاْ ﴾ بتقدير الجار في موضع الخبر .

وإن كان منصوباً فالظاهر أن عامله مقدر أي وفعل ﴿ وُضِعَ الميزان ﴾ أو ووضع وضع الميزان ﴿ أَن لا تَطْغَوْاْ ﴾ الخ ، وقرأ عبد الله لا تطغوا بغير ﴿ إن ﴾ على إرادة القول أي قائلاً ، أو نحوه لأقل كما قيل و ﴿ لا ﴾ ناهية بدليل الجزم .

﴿ وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط ﴾ قوموا وزنكم بالعدل ، وقال الراغب : هذا إشارة إلى مراعاة المعدلة في جميع ما يتحراه الإنسان من الأفعال والأقوال ، وعن مجاهد أن المعنى أقيموا لسان الميزان بالعدل إذا أردتم الأخذ والإعطاء ، وقال سفيان بن عيينة : الإقامة

باليد ، والقسط بالقلب ، والظاهر أن الجملة عطف على الجملة المنفية قبلها ولا يضر في ذلك كونها إنشائية ، وتلك خبرية لأنها لتأويلها بالمفرد تجردت عن معنى الطلب ، وجعل بعضهم ﴿ لا ﴾ في الأولى مطلقاً ناهية حرصاً على التوافق ﴿ وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان ﴾ أي لا تنقصوه فإن من حقه أن يسوى لأنه المقصود من وضعه وكرر لفظ ﴿ الميزان ﴾ بدون إضماره كما هو مقتضى الظاهر تشديداً للتوصية وتأكيداً للأمر باستعماله والحث عليه ، بل في الجمل الثلاث تكرار مّا معنى لذلك ، وقرىء ﴿ وَلاَ تَخْسِرُواْ ﴾ بفتح التاء وضم السين ، وقرأ زيد بن علي .

وبلال بن أبي بردة بفتح التاء وكسر السين .

وحكى ابن جني .

(121/739)

وصاحب اللوامح عن بلال أنه قرأ بفتحهما ، وخرّج ذلك الزمخشري على أن الأصل ولا تخسروا في الميزان فحذف الجار ، وأوصل الفعل بناءاً على أنه لم يجىء إلا لازماً ، وتعقبه أبو حيان بأن خسر قد جاء متعدياً كقوله تعالى : ﴿ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم ﴾ [الأنعام : 12] ﴿ وَخَسِرَ الدنيا والاخرة ﴾ [الحج : 11] فلا حاجة إلى دعوى الحذف والإيصال ،

وأجيب بأنه على تقدير أن يكون متعدياً هنا لا بد من القول بالحذف والإيصال لأن المعنى على حذف المفعول به أي لا تخسروا أنفسكم في الميزان أي لا تكونوا خاسريها يوم القيامة بسبب الميزان بأن لا تراعوا ما ينبغي فيه ، والراغب جوز حمل الآية على القراءة المشهورة على نحو هذا فقال : إن قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان ﴾ يجوز أن يكون إشارة إلى تحري العدالة في الوزن وترك الحيف فيما يعاطاه فيه ، ويجوز أن يكون إشارة إلى تعاطي ما لا يكون به في القيامة خاسراً فيكون ممن قال سبحانه فيه : ﴿ مَنْ خَفَّتْ موازينه ﴾ [القارعة : 8] وكلا المعنيين متلازمان ، وقيل : المعنى على التعدي بتقدير مضاف أي موزون الميزان ، أو جعل الميزان مجازاً عن الموزون فيه فتأمل ولا تغفل .

﴿ والأرض وَضَعَهَا ﴾ خلقها موضوعة مخفوضة عن السماء حسبما يشاهد ، وقال الراغب : الوضع هنا الإيجاد والخلق وكأن مراده ما ذكر ، وقيل : أي خفضها مدحوّة على الماء ، والظاهر على تقدير اعتبار الدحو أنه لا حاجة إلى اعتبار أنه سبحانه خلقها كذلك بل لا يصح لأنها لم تخلق مدحوّة وإنما دحيت بعد على ما روي عن ابن عباس ، ثم إن كونها على الماء مبني على ما اشتهر أنه عز وجل خلق الماء قبلها وخلقها سبحانه من زبده ﴿ لِلأَنَامِ ﴾ قال ابن عباس .

وقتادة .

وابن زيد .

والشعبي .

ومجاهد على ما في مجمع البحرين : الحيوان كله ، وقال الحسن : الإنس والجن .

(122/739)

وفي رواية أخرى عن ابن عباس هم بنو آدم فقط ولم أر هذا التخصيص لغيره رضي الله تعالى عنه ، ففي "القاموس" الأنام الخلق أو الجن والإنس ، أو جميع ما على وجه الأرض ، ويحتمل أنه أراد أن المراد به هنا ذلك بناءاً على أن اللام للانتفاع وأنه محمول على الانتفاع التام وهو للإنس أتم منه لغيرهم ، والأولى عندي ما حكى عنه أولاً ، وقرأ أبو السمال ﴿ والأرض ﴾ بالرفع ، وقوله تعالى :

﴿ فِيهَا فاكهة ﴾ الخ استئناف مسوق لتقرير ما أفادته الجملة السابقة من كون الأرض موضوعة لنفع الأنام ، وقيل : حال مقدرة من ﴿ الأرض ﴾ [الرحمن : 10] ، أو من ضميرها ، فالأحسن حينئذٍ أن يكون الحال هو الجار والمجرور ، و ﴿ فاكهة ﴾ رفع على الفاعلية والتنوين بمعونة المقام للتكثير أي فيها ضروب كثيرة مما يتفكه به ﴿ والنخل ذَاتُ الاكمام ﴾ هي أوعية التمر أعني الطلع على ما روي عن ابن عباس جمع كم بكسر الكاف وقد تضم ، وهذا في كم الثمر ، وأما كم القميص فهو بالضم لا غير ، أو كل ما يكم ويغطى

من ليف وسعف وطلع فإنه مما ينتفع به كالمكموم من الثمر والجمار مثلاً ، واختاره من اختاره ، ومما ذكر يعلم فائدة التوصيف .

﴿ والحب ﴾ هو ما يتغذى به كالحنطة والشعير ﴿ ذُو العصف ﴾ قيل : هو ورق الزرع ، وقيده بعضهم باليابس ، وأخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه التبن ، وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر عن الضحاك أنه القشر الذي يكون على الحب ؛ وعن السدي .

(123/739)

والفراء أنه بقل الزرع وهو أول ما ينبت ، وأخرجه غير واحد عن الحبر أيضاً ، واختار جمع ما روي عنه أولاً ، وفي توصيف الحب بما ذكر تنبيه على أنه سبحانه كما أنعم عليهم بما يقوتهم من الحب أنعم عليهم بما يقوت بهائمهم من العصف ﴿ والريحان ﴾ هو كل مشموم طيبَ الريح من النبات على ما أخرجه ابن جرير عن ابن زيد ، وأخرج عن الحسن أنه قال : هو ريحانكم هذا أي الريحان المعروف ؛ وأخرج عن مجاهد أنه الرزق بل قال ابن عباس : كما أخرج هو أيضاً عنه كل ريحان في القرآن فهو رزق ، وزعم الطبرسي أنه قول الأكثر ، وعليه قول بعض الأعراب ، وقد قيل له : إلى أين أطلب من ريحان الله فإنه أراد من رزقه عز

وجل ، ووجه إطلاقه عليه أنه يرتاح له ، وظاهر كلام الكشاف أنه أطلق وأريد منه اللب ليطابق العصف ويوافق المراد منه في قراءة .

حمزة .

والكسائي .

(124/739)

والأصمعي عن أبي عمرو ﴿ والريحان ﴾ بالجر عطفاً على ﴿ العصف ﴾ إذ يبعد عليها حمله على المشموم والقريب حمله على اللب فكأنه قيل : والحب ذو العصف الذي هو رزق دوابكم ، وذو اللب الذي هو رزق لكم ، وجوز أن يكون الريحان في هذه القراءة عطفاً على ﴿ فاكهة ﴾ [الرحمن : 11] كما في قراءة الرفع ، والجر للمجاورة وهو كما ترى ، والزمخشري بعد أن فسر ﴿ الأكمام ﴾ [الرحمن : 11] بما ذكرناه ثانياً فيها ﴿ والريحان ﴾ باللب قال : أراد سبحانه فيها ما يتلذذ به من الفواكه ، والجامع بين التغذي والتلذذ وهو ثمر النخل وما يتغذى به وهو الحب وهو على ما في "الكشف" بيان لإظهار وجه الامتنان وأنه مستوعب لأقسام ما يتناول في حال الرفاهية لأنه إما للتلذذ الخالص وهو الفاكهة ؛ أوله وللتغذي أيضاً وهو ثمر النخل ، أو للتغذي وحده وهو الحب ، ولما كان

الأخيران أدخل في الامتنان شفع كلاً بعلاوة فيها منة أيضاً ، وأنت تعلم أنه إذا كان المقصود من النخل ثمره المعروف فالعطف على أسلوب ﴿ ملائكته وجبريل ﴾ [البقرة : 98] كما قيل به في قوله تعالى : ﴿ فِيهَا فاكهة وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن : 68] وإذا كان ما يعمه وسائر ما ينتفع به منه كالجمار والكفرى ، فالعطف ليس على ذلك ، وجعل صاحب الكشف قول الزمخشري بعد تفسير ﴿ الأكمام ﴾ بالمعنى الأعم وكله منتفع به كالمكموم إشارة إلى هذا ، ثم قال : ولا ينافي جعله منه في قوله تعالى :

﴿ فِيهَا فاكهة ﴾ [الرحمن : 11] الخ نظراً إلى أن الجنة دار تخلص للتلذذ فالنظر هنالك إلى المقصود وهو الثمر فقط فتأمل .

وقرأ ابن عامر .

وأبو حيوة .

وابن أبي عبلة والحب ذا العصف والريحان بنصب الجميع ، وخرج على أنه بتقدير وخلق الحب الخ ، وقيل : يجوز تقدير أخص ، وفيه دغدغة ، وجوزوا أن يكون الريحان بمعنى اللب حالة الرفع وحالة النصب على حذف مضاف .

والأصل وذو أو وذا الريحان فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه و﴿ الريحان ﴾ فيعلان من الروح.

فأصله ريوحان قبلت الواو ياءً لاجتماعها مع ياء ساكنة قبلها وأدغمت في الياء فصار ريحان بالتشديد ثم حذفت الياء الثانية التي هي عين الكلمة فقيل: ريحان كما قيل: ميت وهين بسكون الياء.

وعن أبي علي الفارسي أنه فعلان وأصله روحان بفتح الراء وسكون الواو قلبت واوه ياءً للتخفيف وللفرق بينه وبين الروحان بمعنى ماله روح.

(126/739)

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الخطاب للثقلين لأنهما داخلان في ﴿ الأنام ﴾ [الرحمن: 10] على ما اخترناه، أو لأن الأنام عبارة عنهما على ما روي عن الحسن، وسينطق بهما في قوله تعالى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثقلان ﴾ [الرحمن: 31] وفي الأخبار كما ستعلمه إن شاء الله تعالى قريباً ما يؤيده، وقد أبعد من ذهب إلى أنه خطاب للذكر والأنثى من بني آدم، وأبعد أكثر منه من قال: إنه خطاب على حد ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ ﴾ [ق: 24] ويا شرطي أضربا عنقه، يعني أنه خطاب للواحد بصورة الاثنين والفاء لترتيب

الإنكار ، والتوبيخ على ما فصل من فنون النعماء وصنوف الآلاء الموجبة للإيمان والشكر حتماً ، والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية الكلية والتربية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ ومعنى تكذيبهم بشيء من آلائه تعالى كفرهم به إما بإنكار كونه منه عز وجل مع عدم الاعتراف بكونه نعمة في نفسه كتعليم القرآن وما يستند إليه من النعم الدينية ، وإما بإنكار كونه منه تعالى مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره سبحانه استقلالاً ، أو اشتراكاً صريحاً ، أو دلالة فإنه إشراكهم لآلهتهم به تعالى في العبادة من دواعي إشراكهم لها به تعالى فيما يوجبها ، والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان والشكر شهادة منها بذلك فكفرهم بها تكذيب لا محالة أي فإذا كان الأمر كما فصل ﴿ فَبِأَيِّ ﴾ فرد من أفراد نعم مالككما ومربيكما بتلك النعم ﴿ تُكَذِّبَانِ ﴾ مع أن كلاً منها ناطق بالحق شاهد بالصدق ويندب أن يقول سامع هذه الآية : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد ، فقد أخرج البزار .

وابن جرير .

وابن المنذر .

والدارقطني في الإفراد .

وابن مردويه .

(127/739)

والخطيب في تاريخه بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سورة ﴿ الرحمن ﴾ على أصحابه فسكتوا فقال : مالي أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم ما أتيت على قول الله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إلا قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد " .

وأخرج الترمذي وجماعة وصححه الحاكم عن جابر بن عبد الله نحوه ، وقرىء ﴿ فَبِأَيِّ ﴾ بالتنوين في جميع السورة كأنه حذف منه المضاف إليه وأبدل منه ﴿ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ بدل معرفة من نكرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(128/739)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) ﴾

فالشمس والقمر . . يجريان بحساب مقدور . . كل فى فلكه . .

« لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ . . وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » . (40 : يس) وهذا كتاب يضم من العلوم والمعارف ما لا يقع تحت حصر ، ولا ينتهى

(129/739)

عند حد ، إذ كان موضوعه العالم العلوي وما فيه من أفلاك ، وما يدور فى هذه الأفلاك من نجوم وكواكب . .

والشمس والقمر ، هما أظهر ما فى العالم العلوي المنظور لنا من نجوم وكواكب . . بحيث يقعان فى نظر كل إنسان ، ويدنوان من مفهوم كل ذى نظر ، فلا يكاد يوجد إنسان على ظهر هذا الكوكب الأرضى إلا وعنده علم عن الشمس والقمر ، على اختلاف فى درجة هذا العلم ، وعلى تفاوت بعيد بين القدر الذي يقع لكل إنسان منه ، إذ بينما يكون هذا العلم عند بعض الناس مجرد نظر جامد بارد ، ولا يحرك شعورا ، ولا يثير إحساسا ، إذ هو عند آخرين مثار خيال ، ومبعث وجدان ، ومنطلق إدراك ، وجامعة علم وفن وفلسفة . . !

فإذا نظر الإنسان إلى الشمس والقمر ، نظرا قائما على الدرس والحساب ، أسلمه هذا النظر إلى ما وراء الشمس والقمر ، مما حواه العالم العلوي من أجرام ظاهرة يراها رأى العين ، أو خفية يلتمس لها الوسائل التي يراها من خلالها . .

وبهذا النظر المستند إلى الحسبان أو الحساب ، عرف الإنسان كثيرا من أسرار هذا العالم ، ورأى أن الشمس والقمر الذين يبدوان وكأنهما سيّدا الأجرام السماوية ، ليسا إلا إشارتين باهتتين تطلّان من هذا العالم على الأرض ، وأنهما بالنسبة لهذا العالم أشبه بحصاتين فى سفح جبل الهملايا بالهند مثلا . . !

فإذا بلغ الإنسان اليوم من العلم بحيث يضع قدميه على القمر ، فليس ذلك إلا خطوة قصيرة من مسيرة طويلة العلم ، فى مسابح هذا العالم الذي لا حدود له . .

وإذا قصر نظر الإنسان عن أن يرى ما وراء الشمس والقمر فى العالم العلوي ،

(130/739)

فليقم نظره على ما بين يديه من العالم الأرضى . . حيث يجد وجه الأرض وقد نجمت فيه نجوم أشبه بنجوم السماء وكواكبها . .

« وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ » . .

ففى الأرض نجم ، وشجر . .

والنجم ، هو النبات الذي لا ساق له ، مما يظهر على وجه الأرض ، كالحشائش ، ونحوها . .

والشجر هو ما قام على سوق وما اتصل بهذه السوق من فروع ، وأغصان وأوراق ، وأزهار ، وثمار . .

والنجم من نبات الأرض ، يمثّل الكواكب والنجوم المنثورة فى السماء ، والتي تبدو فى مرأى العين صغيرة باهتة . .

والشجر ، يمثل الشمس والقمر فى ظهورهما ، وكبر حجمهما . .

وإذا كان جريان الشمس والقمر بحسبان ، فإن قيام النجم والشجر من النبات ، بحسبان أيضا ، إذ أن كلّا منهما فى يد القدرة الإلهية ، قائم فى محراب الولاء ، والخضوع ، والسجود ، للّه رب العالمين . . وأنه كما فى العالم العلوي مجال فسيح النظر والكشف عن علوم لا حدود لها ، فكذلك فى عالم النبات ، نجمه ، وشجره ـ علم لا ينتهى أبدا . . « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . . »

ثم ، إنه إذا كان فى الناس من لا يرى هذا التفصيل فى العالم العلوي أو الأرضى ، فإنه لن يكون فى الناس أبدا من لا يرى السماء جملة ، أو الأرض جملة . .

«وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ

وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ »

. .

فالسماء مرفوعة كالمظلة فوق الناس ، بلا عمد تقوم عليها ، وإنما يد القدرة هى التي تمسك بها ، وتقيمها على ميزان دقيق لا ينحرف قيد أنملة : « وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ » . . أي أقامها ، ووضع لها حسابا دقيقا ، وميزانا مضبوطا تجرى عليه أمورها . .

وقوله تعالى : « أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ . . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ . . » هو دعوة إلى أن يقيم الناس أمرهم فى التعامل مع هذه العوالم على العدل والإحسان ، فلا ينحرف بهم النظر عن مواقع الحق منها ، فذلك ضلال وخسران للميزان الذي وضعه اللّه سبحانه وتعالى فى أيديهم ، وهو عقولهم التي من شأنها أن تضبط مسيرتهم فى الحياة ، كما تضبط السماء دعائمها بهذا الميزان الذي وضعه اللّه سبحانه وتعالى لها . .

وفى قوله تعالى : « وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ » . إشارة إلى أن هذه الأرض ، هى فى خلافة الأنام ، وهم الناس ، وأن معهم الميزان الذي يضبطون به أمور الأرض ، أشبه بذلك الميزان الذي وضعه اللّه سبحانه لضبط السماء وعوالمها . .

وفى هذا تكريم للإنسان ، ورفع لقدره ، وإعطاؤه حكم هذه الأرض بالميزان الذي معه ، وهو العقل . . وهو بهذا الميزان استحق أن يكون خليفة اللّه فى الأرض . . فإذا لم يقم

أمرها على ميزان الحق والعدل والإحسان ، اضطرب أمره ، وفسد حاله ، وساء مصيره

. .

« فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ » أي أن هذه الأرض التي وضعها اللّه

(132/739)

للأنام ، وأقامها على هذا الوضع ـ قد هيأها اللّه سبحانه لتكون مأوى صالحا لحياة الإنسان

، فأخرج منها فاكهة ونخلا ذات أكمام . .

والأكمام : جمع كمّ ، وهو الجراب الذي يضمّ طلع النخل ، الذي يتكون منه الثمر . .

« وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ » . .

معطوف على قوله تعالى : « فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ » ـ أي وفيها الحبّ ذو العصف

والريحان . .

« وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ » هو الحبّ الذي يؤكل كالحنطة وغيرها . .

والعصف ، هو أوعية هذا الحب التي تنفصل عنه عند نضجه ، فتكون حطاما وهشيما ،

كما فى قوله تعالى : « فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ » . .

أما الريحان ، فهو ذلك النبت الطيب الريح . . وهو إشارة إلى كل نبت طيب ريحه . .

وفى هذا إشارة إلى أن الإنسان ليس مجرد حيوان يطلب حاجة الجسد من طعام وشراب وحسب ، وإنما هو كائن أسمى من عالم الحيوان ، لا يقف عند مطالب الجسد ، بل إن لروحه مطالب لا تقل عن مطالب الجسد ، وحاجته إلى ما يقيم وجوده . .

فالريح الطيب ينعش النفوس ، ويغذّى الأرواح . .

وفى التعبير القرآنى بكلمة : « والريحان » عن النبت الطيب الريح ، إشارة إلى أن اتجاه هذا النبت إنما هو إلى الروح . . فالريحان والروح من مادة واحدة لفظا ، ومعنى ! ! وبعد هذا العرض الكاشف لرحمة الرحمن ، وقدرته ، وقيومته على هذا الوجود ، علوه ، وسفله ، وخلقه الإنسان ، وقد علمه البيان ، ووضع بين يديه

(133/739)

الميزان الذي يزن به الأمور ، ويفرق به بين خيرها وشرها ـ بعد هذا يجىء قوله تعالى مخاطبا الكائنين اللذين لهما وجود ظاهر على هذه الأرض ، ولهما مجال فسيح فيها ، وصراع محتدم بينهما على الخير والشر اللّذين فى كيانهما . . فيقول سبحانه :

« فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » . .

فالخطاب هنا من الحق سبحانه وتعالى ، إلى عالمى الجن والإنس ، إذ هما ـ كما قلنا ـ

الكائنان المكلّفان ، بما لهما من عقل وإدراك . وهما اللذان يحاسبان ، ويثابان ، أو يعاقبان .

والآلاء : جمع إلى ، على وزن معى ، وألى على وزن على وهى النعم . .

والاستفهام هنا تقريرى ، إذ كانت نعم اللّه ظاهرة ، تلبس كل ذرة فى هذا الوجود . .

حيث أن الوجود نفسه ، هو نعمة بالنسبة العدم . .

عن ابن عمر ، أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا ، فقال : « ما لى أراكم سكوتا ؟ للجنّ أحسن جوابا لربها منكم » . .

قالوا : وما ذاك يا رسول اللّه ؟ قال : « ما أتيت على قوله تعالى : « فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » إلا قالت الجن : ولا بشىء من نعم ربنا نكذب » . .

وعن جابر بن عبد اللّه ، قال خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على أصحابه ، فقرأ سورة الرحمن من أولها إلى آخرها ، فسكتوا ، فقال : « لقد قرأتها على الجن ، ليلة الجن ، فكانوا أحسن ردودا منكم . . كنت

كما أتيت على قوله تعالى : « فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » قالوا : ولا بشيء من نعمك ربّنا نكذب . . فلك الحمد » . .

وقد استدل بهذا الحديث على أن السورة مكية ، لأن ليلة الجن التي يشير إليها النبي صلى اللّه عليه وسلم كانت قبل الهجرة ، وذلك كان بوادي نخلة حيث بات النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وهو فى طريق عودته من الطائف إلى مكة ، بعد أن عرض دعوته على ثقيف بالطائف ، فردوه ، ولم يقبلوا منه . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 14 صـ 670.664 ﴾

(135/739)

وقال ابن عاشور :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) ﴾

جملة هي خبر رابع عن الرحمن وإلاّ كان ذِكره هنا بدون مناسبة فينقلب اعتراضاً .

ورابط الجملة بالمبتدأ تقديره : بحسبانه ، أي حسبان الرحمن وضبطه .

وهذا استدلال على التفرد بخلق كوكب الشمس وكرة القمر وامتنان بما أودع فيهما من منافع للناس ، ونظام سيرهما الذي به تدقيق نظام معاملات الناس واستعدادهم لما

يحتاجون إليه عند تغيرات أجْوَائهم وأرزاقهم .

ويتضمن الامتنان بما في ذلك من منافعهم .

وفي كون هذا الخبر جارياً على أسلوب التعديد ما قد علمت آنفاً من التبكيت ، ووجهه أنهم غفلوا عما في نظام الشمس والقمر من الحكمة وما يَدل عليه ذلك النظام من تفرد الله بتقديره ، فاشتغل بعضهم بعبادة الشمس وبعضهم بعبادة القمر كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ [فصلت : 37] .

وجيء بهذه الجملة اسمية للتهويل بالابتداء باسم الشمس والقمر ، وللدلالة على أن حسبانهما ثابت لا يتغير منذ بدء الخلق مؤذن بحكمة الخالق .

واستغني بجعل اسم الشمس والقمر مسنداً إليهما عن تفكيك المسند إلى مسندين : أحدهما : يدل على الاستدلال ، والآخر يدل على الامتنان ، كما وقع في قوله : ﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾ [الرحمن : 3 ، 4] .

والحُسبان : مصدر حسَب بمعنى عد مثل الغفران .

والباء للملابسة وهي ظرف مستقر هو خبر عن الشمس والقمر ، والتقدير : كائنان بحسبان ، أي بملابسة حسبان ، أي لحساب الناس مواقع سيرهما .

وإسناد هذه الملابسة إلى الشمس والقمر مجازي عقلي لأن الشمس والقمر سبب لتلبس

الناس بحسابهما كما تقول : أنتَ بعنايةٍ مني ، جعلت عنايتك ملابسة للمخاطب ملابسةً اعتبارية ، وقوله تعالى : ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ [الطور : 48] ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ والشمس والقمر حسباناً ﴾ في سورة الأنعام (96) .

(136/739)

والحُسبان كناية عن انتظام سيرهما انتظاماً مطرداً لا يختل حساب الناس له والتوقيت به .

واقتصر على ذكر الشمس والقمر دون بقية الكواكب وإن كان فيها حسبان الأنواء ، والحَرّ والبرد ، مثلِ الجوزاء ، والشِعرى ، ومنزلة الأسد ، والثريا ، لأن هذين الكوكبين هما البادیان لجميع الناس لا يحتاج تعقل أحوالهما إلى تعليم توقيت مثل الكواكب الأخرى .

ولأن السورة هذه بنيت على ذكر الأمور المزدوجة والشمس والقمر مزدوجان في معارف عموم الناس فالشمس : كوكب سماوي لأنه أعلى من الأرض والأرض تدور حوله وداخلة في النظام الشمسي .

والقمر : كوكب أرضي لأنه دون الأرض وتابع لها كبقية أقمار الكواكب فذكر الشمس والقمر كذكر السماء ، والأرض ، والمشرق ، والمغرب ، والبحرين .

وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6)

عطف على جملة ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ [الرحمن : 5] عطف الخبر على الخبر للوجه الذي تقدم لأن سجود الشمس والقَمر لله تعالى وهو انتقال من الامتنان بما في السماء من المنافع إلى الامتنان بما في الأرض ، وجعل لفظ ﴿ النجم ﴾ واسطة الانتقال لصلاحيته لأنه يراد منه نجوم السماء وما يسمى نجماً من نبات الأرض كما يأتي .

وعطفت جملة ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ ولم تفصل فخرجت من أسلوب تعداد الأخبار إلى أسلوب عطف بعض الأخبار على بعض لأن الأخبار الواردة بعد حروف العطف لم يقصد بها التعداد إذ ليس فيها تعريض بتوبيخ المشركين ، فالإِخبار بسجود النجم والشجر أريد به الإِيقاظ إلى ما في هذا من الدلالة على عظيم القدرة دلالة رمزية ، ولأنه لما اقتضى المقام جمع النظائر من المزاوجات بَعد ذكر الشمس والقمر ، كان ذلك مقتضياً سلوك طريقة الوصل بالعطف بجامع التضاد .

وجُعلت الجملة مفتَتَحة بالمسند إليه لتكون على صورة فاتحة الجملة التي عطفت هي عليها .

(137/739)

وأتي بالمسند فعلاً مضارعاً للدلالة على تجدد هذا السجود وتكرره على معنى قوله تعالى : ﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدوّ والآصال ﴾ [الرعد : 15] .

و﴿ النجم ﴾ يطلق : اسمَ جمع على نجوم السماء قال تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ [النجم : 1] ، ويطلق مفرداً فيُجمع على نجوم ، قال تعالى : ﴿ وإدبار النجوم ﴾ [الطور : 49] .

وعن مجاهد تفسيره هنا بنجوم السماء .

ويطلق النجم على النبات والحشيش الذي لا سُوق له فهو متصل بالتراب .

وعن ابن عباس تفسير النجم في هذه الآية بالنبات الذي لا ساق له .

والشجر : النبات الذي له ساق وارتفاعٌ عن وجه الأرض .

وهذان ينتفع بهما الإِنسان والحيوان .

فحصل من قوله : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ بعد قوله : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ [الرحمن : 5] قرينتان متوازيتان في الحركة والسكون وهذا من المحسنات البديعية الكاملة .

والسجود : يطلق على وضع الوجه على الأرض بقصد التعظيم ، ويطلق على الوقوع على الأرض مجازاً مرسلاً بعلاقة الإِطلاق ، أو استعارة ومنه قولهم : "نخلة ساجدة" إذا أمالها

حِمْلُها ، فسجود نجوم السماء نزولها إلى جهات غروبها ، وسجود نجم الأرض التصاقه بالتراب كالساجد ، وسجود الشجر تطأطؤه بهبوب الرياح ودنوّ أغصانه للجانين لثماره والخابطين لورقه ، ففعل ﴿ يسجدان ﴾ مستعمل في معنيين مجازيين وهما الدنو للمتناول والدلالة على عظمة الله تعالى بأن شبه ارتسام ظِلالهما على الأرض بالسجود كما قال تعالى : ﴿ ولله يسجد من في السماوات والأرض طَوعاً وكرهاً وظِلالهم بالغدوّ والآصال ﴾ في سورة الرعد (15) ، وكما قال امرؤ القيس:

يَكُبُّ على الأذ . . .

قان وْحَ الكَنَهْبَلِ

(138/739)

فقال : على الأذقان ، ليكون الانكباب مشبهاً بسقوط الإنسان على الأرض بوجهه ففيه استعارة مكنية ، وذكر الأذقان تخييل ، وعليه يكون فعل يسجدان ﴾ هنا مستعملاً في مجازه ، وذلك يفيد أن الله خلق في الموجودات دلالات عِدّةً على أن الله مُوجدها ومُسخرها ، ففي جميعها دلالات عقلية ، وفي بعضها أو معظمها دلالات أخرى رمزية وخيالية لتفيد منها العقول المتفاوتة في الاستدلال .

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7)

اطّرد في هذه الآية أسلوب المقابلة بين ما يُشبه الضدين بعد مقابلةِ ذِكر الشمس والقمرِ بذِكر النجمِ والشجر ، فجيء بِذكر خلق السماء وخلق الأرض .

وعاد الكلام إلى طريقة الإِخبار عن المسند إليه بالمسند الفعلي كما في قوله : ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ [الرحمن : 1 ، 2] ، وهذا معطوف على الخبر فهو في معناه .

ورفع السماء يقتضي خلقَها .

وذُكر رفعها لأنه محل العبرة بالخلق العجيب .

ومعنى رفعها : خلقُها مرفوعة إذ كانت مرفوعة بغير أعمدة كما يقال للخياط : وسّع جيب القميص ، أي خِطْه واسعاً على أن في مجرد الرفع إيذاناً بسموّ المنزلة وشرفها لأن فيها منشأَ أحكام الله ومصدرَ قضائه ، ولأنها مكان الملائكة ، وهذا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه .

وتقديم السماء على الفعل الناصب له زيادةٌ في الاهتمام بالاعتبار بخلقها .

و﴿ الميزان ﴾ : أصله اسمُ آلة الوزن ، والوزن تقديرُ تعادُلِ الأشياء وضبط مقادير ثقلها وهو مِفعال من الوزن ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ والوزن يومئذٍ الحق فمن ثقلت موازينه ﴾ في سورة الأعراف (8) ، وشاع إطلاق الميزان على العدل باستعارة لفظ الميزان للعدل على وجه تشبيه المعقول بالمحسوس .

والميزان هنا مراد به العدل ، مثل الذي في قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ﴾ [الحديد : 25] لأنه الذي وضعه الله ، أي عيّنه لإِقامة نظام الخلق ، فالوضع هنا مستعار للجعل فهو كالإِنزال في قوله : ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ﴾ .

ومنه قول أبي طلحة الأنصاري "وإنّ أحبَّ أموالي إليّ بئرحاءٍ وأنها صدقة لله فضَعْهَا يا رسول الله حيثُ أراكَ الله" أي اجعلها وعينها لما يدُلُّك الله عليه فإطلاق الوضع في الآية بعد ذكر رفع السماء مشاكلة ضِدية وإيهامُ طباق مع قوله : ﴿ رفعها ﴾ ففيه محسّنِان بديعيان .

وقرن ذلك مع رفع السماء تنويهاً بشأن العدل بأن نسب إلى العالم العلوي وهو عالم الحق والفضائل ، وأنه نزل إلى الأرض من السماء أي هو مما أمر الله به ، ولذلك تكرر ذلك العدل مع ذكر خلق السماء كما في قوله تعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ في سورة يونس (5) ، وقوله : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ في سورة الحجر (85) ، وقوله : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا

بالحق ﴾ في سورة الدخان (38 ، 39) .

وهذا يصدّق القول المأثور : بالعدل قامت السماوات والأرض .

وإذ قد كان الأمر بإقامة العدل من أهم ما أوصى الله به إلى رسوله قُرن ذكر جعله بذكر خلق السماء فكأنه قيل ووضع فيها الميزان .

و(أنْ) في قوله : ألا تطغوا ﴾ يجوز أن تكون تفسيرية لأن فعل وضع الميزان فيه معنى أمر الناس بالعدل .

وفي الأمر معنى القول دون حروفه فهو حقيق بأن يأتي تفسيرُه بحرف (أنْ) التفسيرية .

فكان النهي عن إضاعة العدل في أكثر المعاملات تفسيراً لذلك .

فتكون (لا) ناهية .

ويجوز أن تكون (أنْ) مصدرية بتقدير لاَم الجر محذوفة قبلَها .

(140/739)

والتقدير : لئلا تَطْغَوْا في الميزان ، وعلى كلا الاحتمالين يراد بالميزان ما يشمل العدل ويشمل ما به تقدير الأشياء الموزونة ونحوها في البيع والشراء ، أي من فوائد تنزيل الأمر بالعدل أن تجتنبوا الطغيان في إقامة الوزن في المعاملة .

وتكون (لا) نافية ، وفعْل ﴿ تطغوا ﴾ منصوباً بـ (أن) المصدرية .

ولفظ ﴿ الميزان ﴾ يسمح بإرادة المعنيين على طريقة استعمال المشترك في معنييه .

وفي لفظ الميزان وما قارنه من فعل ﴿ وضع ﴾ وفعلي ﴿ لا تَطْغَوْا ﴾ و ﴿ أقيموا ﴾ وحرف الباء في قوله : ﴿ بالقسط ﴾ وحرف ﴿ في ﴾ من قوله : ﴿ في الميزان ﴾ ولفظ ﴿ القسط ﴾ ، كل هذه تظاهرت على إفادة هذه المعاني وهذا من إعجاز القرآن .

والطغيان : دحض الحق عمداً واحتقاراً لأصحابه ، فمعنى الطغيان في العدل الاستخفاف بإضاعته وضعف الوازع عن الظلم .

ومعنى الطغيان في وزن المقدرات تطفيفه .

و ﴿ في ﴾ من قوله : ﴿ في الميزان ﴾ ظرفية مجازية تفيد النهي عن أقل طغيان على الميزان ، أي ليس النهي عن إضاعة الميزان كله بل النهي عن كل طغيان يتعلق به على نحو الظرفية في قوله تعالى : ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم ﴾ [النساء : 5] ، أي ارزقوهم من بعضها وقول سَبرة بنِ عَمْرو الفقعسي:

سَبرةَ بنِ عَمْرو الفقعسي . . .

ونَشرب في أثمانها ونُقامر

إذْ أراد أنهم يشربون الخمر ببعض أثمان إبلهم ويقامرون ، أي أن لهم فيها منافع أخرى وهي

العطاء والأكل منها لقوله في صدر البيت:

نُحابي بها أكفاءنا ونُهينُها . . .

وقوله تعالى : ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ﴾ عطف على جملة ﴿ ألا تطغوا في الميزان ﴾ على احتمال كون المعطوف عليها تفسيرية .

وعلى جملة ﴿ ووضع الميزان ﴾ على احتمال كون المعطوف عليها تعليلاً .

والإِقامة : جعل الشيء قائماً ، وهو تمثيل للإِتيان به على أكمل ما يراد له وقد تقدم عند قوله : ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ في سورة البقرة (3) .

(141/739)

والوزن حقيقته : تحقيق تعادل الأجسام في الثقل ، وهو هنا مراد به ما يشمل تقدير الكميات وهو الكيل والمقياس .

والقسط : العدل وهو معرب من الرومية وأصله قسطاس ثم اختصر في العربية فقالوا مرة : قسطاس ، ومرة : قسط ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ في سورة الأنبياء (47) .

والباء للمصاحبة .

والمعنى : اجعلوا العدل ملازماً لما تقوّمونه من أموركم كما قال تعالى : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ [الأنعام : 152] وكما قال : ﴿ ولا يجرمنكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا ﴾ [المائدة : 8] ، فيكون قوله : ﴿ بالقسط ﴾ ظرفاً مستقراً في موضع الحال ، أو الباء للسببية ، أي راعوا في إقامة التمحيص ما يقتضيه العدل ، فيكون قوله : ﴿ بالقسط ﴾ ظرفاً لغواً متعلقاً ، وقد كان المشركون يعهدون إلى التطفيف في الوزن كما جاء في قوله تعالى : ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ [المطففين : 31] .

فلما كان التطفيف سنة من سنن المشركين تصدت للآية للتنبيه عليه ، ويجيء على الاعتبارين تفسير قوله : ﴿ ولا تخسروا الميزان ﴾ فإن حُمل الميزان فيه على معنى العدل كان المعنى النهي عن التهاون بالعدل لغفلة أو تسامح بعد أن نهى عن الطغيان فيه ، ويكون إظهار لفظ الميزان في مقام ضميره تنبيهاً على شدة عناية الله بالعدل ، وإنْ حُمل فيه على آلة الوزن كان المعنى النهي عن غبن الناس في الوزن لهم كما قال تعالى في سورة المطففين (3) ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ والإِخسار : جعل الغير خاسرا والخسارة النقص .

فعلى حمل الميزان على معنى العدل يكون الإِخسار جعل صاحب الحق خاسراً مغبوناً ؛ ويكون الميزان ﴾ منصوباً على نزع الخافض ، وعلى حمل الميزان على معنى آلة الوزن يكون الإِخسار بمعنى النقص ، أي لا تجعلوا الميزان ناقصاً كما قال تعالى : ﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴾ [هود : 84] ، وقد علمت هذا النظم البديع في الآية الصالح لهذه المحامل .

وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10)

عطف على ﴿ والسماء رفعها ﴾ [الرحمن : 7] وهو مقابلُهُ في المزاوجة والوضع يقابل الرفع ، فحصل محسّن الطباق مرتين ، ومعنى ﴿ وضعها ﴾ خفضها لهم ، أي جعلها تحت أقدامهم وجُنوبهم لتمكينهم من الانتفاع بها بجميع ما لهم فيها من منافع ومعالجات .

واللام في ﴿ للأنام ﴾ للأجْل .

والأنام : اختلفت أقوال أهلِ اللغة والتفسير فيه ، فلم يذكره الجوهري ولا الراغب في "مفردات القرآن" ولا ابن الأثير في "النهاية" ولا أبو البقاء الكفوي في "الكليات" .

وفسره الزمخشري بقوله : "الخلق وهو كل ما ظهر على وجه الأرض من دابة فيها روح" .

وهذا مروي عن ابن عباس وجمعٍ من التابعين .

وعن ابن عباس أيضاً : أنه الإِنسان فقط .

وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه .

وسياق الآية يرجح أن المراد به الإنسان ، لأنه في مقام الامتنان والاعتناء بالبشر كقوله : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ [البقرة : 29] .

والظاهر أنه اسم غير مشتق وفيه لغات : أنام كسحاب ، وآنام كساباط ، وأنيم كأمير .

وجملة ﴿ فيها فاكهة ﴾ إلى آخرها مبينة لجملة ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ وتقديم ﴿ فيها ﴾ على المبتدأ للاهتمام بما تحتوي عليه الأرض .

ولما كان قوله : ﴿ وضعها للأنام ﴾ يتضمن وضعاً وعِلة لذلك الوضْع كانت الجملة المبينة له مشتملة على ما فيه العبرة والامتنان .

(143/739)

والفاكهة : اسم لما يؤكل تفكهاً لا قوتاً مشتقة من فَكِه كفرح ، إذا طابت نفسه بالحديث والضحك ، قال تعالى : ﴿ فظلتم تفكَّهون ﴾ [الواقعة : 65] لأن أكل ما يلذ للأكل وليس بضروري له إنما يكون في حال الانبساط .

والفاكهة : مثل الثمار والنُقول من لَوز وجوز وفستق .

وعطف على الفاكهة النخل وهو شجر التمر ، وهو أهم شجر الفاكهة عند العرب الذين نزل القرآن فيهم ، وهو يثمر أصنافاً من الفاكهة من رُطب وبُسر ومن تمر وهو فاكهة وقوتٌ .

ووصف النخل بـ ﴿ ذات الأكمام ﴾ وصف للتحسين فهو اعتبار بأطوار ثمر النخل ، وامتنان بجماله وحسنه كقوله تعالى : ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ [النحل : 6] فامتنّ بمنافعها وبحسن منظرها .

و ﴿ الأكمام ﴾ : جمع كِمّ بكسر الكاف وهو وعاء ثمر النخلة ويقال له : الكُفُرَّى ، فليست الأكمام مما ينتفع به فتعينّ أن ذكرها مع النخل للتحسين .

و ﴿ والحب ذو العصف ﴾ : هو الحب الذي لنباته سنابل ولها ورق وقصب فيصير تبناً ، وذلك الورق والقصب هو العصف ، أي الذي تعصفه الرياح وهذا وصف لحبّ الشعير والحنطة وبهما قوام حياة معظم الناس وكذلك ما أشبههما من نحو السلت والأرُز .

وسمي العصف عصفاً لأن الرياح تعصفه ، أي تحركه ووصفُ الحب بأنه ﴿ ذو العصف ﴾ للتحسين وللتذكير بمنة جمال الزرع حين ظهوره في سنبله في حقوله نظير وصف النخل بذات الأكمام ولأن في الموصوف ووصفه أقوات البشر وحيوانهم .

وقرأ الجمهور ﴿ والحب ذو العصف والريحان ﴾ برفع ﴿ الحبُّ ﴾ ورفع ﴿ الريحان ﴾ ورفع ﴿ ذو ﴾ ، وقرأه حمزة والكسائي وخلف برفع ﴿ الحب ﴾ و ﴿ ذو ﴾ وبجر ﴿ الريحان ﴾ عطفاً على ﴿ العصف ﴾ .

وقرأه ابن عامر بنصب الأسماء الثلاثة وعلامة نصب ﴿ ذا العصف ﴾ الألف .

وكذلك كتب في مصحف الشام عطفاً على ﴿ الأرض ﴾ أو هو على الاختصاص .

و﴿ الريحانُ ﴾ : ما له رائحة ذكية من الأزهار والحشائش وهو فَعْلان من الرائحة ، وإنما سمي به ما له رائحة طيبة .

(144/739)

وهذا اعتبار وامتنان بالنبات المودعة فيه الأطياب مثل الورد والياسمين وما يسمى بالريحان الأخضر .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (13)

الفاء للتفريع على ما تقدم من المنن المدمجة مع دلائل صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وحقّية وَحي القرآن ، ودلائل عظمة الله تعالى وحكمته باستفهام عن تعيين نعمة من نعم الله يتأتى لهم إنكارها ، وهو تذييل لما قبله .

و(أيِّ) استفهام عن تعيين واحد من الجنس الذي تضاف إليه وهي هنا مستعملة في التقرير بذكر ضِدّ ما يقربه مثل قوله : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [الشرح : 1] .

وقد بينته عند قوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ في سورة الأنعام (130) ، أي لا يستطيع أحد منكم أن يجحد نعم الله .

والآلاء : النعم جمع : إلْي بكسر الهمزة وسكون اللام ، وأُلي بفتح الهمزة وسكون اللام وياء

في آخره ويقال أُلُو بواو عوض الياء وهو النعمة .

وضمير المثنى في ربكما تكذبان ﴾ خطاب لفريقين من المخاطبين بالقرآن .

والوجه عندي أنه خطاب للمؤمنين والكافرين الذين ينقسم إليهما جنس الإِنسان المذكور في قوله : ﴿ خلق الإنسان ﴾ [الرحمن : 3] وهم المخاطبون بقوله : ﴿ ألا تطغوا في الميزان ﴾ [الرحمن : 8] الآية والمنقسم إليهما الأنام المتقدم ذكره ، أي أن نعم الله على الناس لا يجحدها كافر بَلْهَ المؤمن ، وكل فريق يتوجه إليه الاستفهام بالمعنى الذي يناسب حاله .

والمقصود الأصلي : التعريض بالمشركين وتوبيخهم على أن أشركوا في العبادة مع المنعِم غيرَ المنعِم ، والشهادةُ عليهم بتوحيد المؤمنين ، والتكذيب مستعمل في الجحود والإِنكار .

وقيل التثنية جرت على طريقة في الكلام العربي أن يخاطبوا الواحد بصيغة المثنى كقوله تعالى : ﴿ ألقيا في جهنم كل كفار عنيد ﴾ [ق : 24] ذكر ذلك الطبري والنسفي .

(145/739)

ويجوز أن تكون التثنية قائمة مقام تكرير اللفظ لتأكيد المعنى مثل : لَبيك وسعديك ، ومعنى هذا أن الخطاب لواحد وهو الإنسان .

وقال جمهور المفسرين : هو خطاب للإنس والجن ، وهذا بعيد لأن القرآن نزل لخطاب الناس ووعظهم ولم يأت لخطاب الجن ، فلا يتعرض القرآن لخطابهم ، وما ورد في القرآن من وقوع اهتداء نفر من الجن بالقرآن في سورة الأحقاف وفي سورة الجن يحمل على أن الله كلّف الجن باتباع ما يتبين لهم في إدراكهم ، وقد يُكلف الله أصنافاً بما هم أهل له دون غيرهم ، كما كلّف أهل العلم بالنظر في العقائد وكما كلّفهم بالاجتهاد في الفروع ولم يكلف العامة بذلك ، فما جاء في القرآن من ذكر الجن فهو في سياق الحكاية عن تصرفات الله فيهم وليس لتوجيه العمل بالشريعة .

وأما ما رواه الترمذي عن جابر بن عبد الله الأنصاري "أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن وهم ساكتون فقال لهم " لقد قرأتُها على الجن ليلةَ الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله : ﴿ فبأي ألاء ربكما تكذبان ﴾ قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد " .

قال الترمذي : هو حديث غريب وفي سنده زهير بن محمد وقد ضعفه البخاري وأحمد بن حنبل .

وهذا الحديث لو صح فليس تفسيراً لضمير التثنية لأن الجن سمعوا ذلك بعد نزوله فلا يقتضي أنهم المخاطبون به وإنما كانوا مقتدين بالذين خاطبهم الله ، وقيل الخطاب للذكور والإِناث وهو بعيد .

والتكذيب مستعمل في معنى الجحد والإنكار مجازاً لتشنيع هذا الجحد .

وتكذيب الآلاء كناية عن الإشراك بالله في الإلهية .

والمعنى : فبأي نعمة من نعم الله عليكم تنكرون أنها نعمة عليكم فأشركتم فيها غيره بَلْه إنكار جميع نعمه إذ تعبدون غيره دواماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(146/739)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى وضع)

الوَضْعُ أَعمّ من الحَطِ ، وهو ضدّ الرّفع ، ومنه المَوْضِعُ ، قال الله تعالى : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ ، [و] يقال ذلك فى الحَمْلِ والحِمْل ، وَضَعْتُ الحمل فهو موضوعٌ ، وقال تعالى : ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ هذا الوضعُ عِبارة عن الإيجاد والخَلْق .

ووَضَعَت المرأَةُ الحَمْل ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ

أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ .

[و] وَضْعُ البَيْتِ : بناؤُه ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ هو إبراز أَعمالِ العباد ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ﴾ .

ووَضَعَت الدّابَّةُ وَضْعاً : أَسْرَعَت ، ودابَّة حَسَنَةُ المَوْضُوع .

وأَوْضَعْتُها أَنا ، قال الله تعالى : ﴿ ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ ﴾ قال طَرَفَة بن العَبْد :

*مَرْفُوعها زَوْلٌ ومَوضُوعُها * كَمَرّ غَيْث لَجِب وَسْط رِيحْ*

ووَضَعْت الشيءَ من يَدِي وَضْعاً ومَوْضَعاً بفتح الضَّاد ومَوْضُوعاً .

وقوله صلَّى الله عليه وسلَّم : "اللَّهُمَّ ارْفَعْنَا ولا تَضَعْنا" .

ارْفَع دَرَجَتنا ولا تضعها ، وقوله صلَّى الله عليه وسلم : "مَنْ رَفَع السِلاح ثمَّ وَضَعَه فَدَمُه هَدَرٌ" أَي قاتَل فى الفِتْنة ، وليس معنى قوله ثمَّ وَضَعه أَنَّه وَضَعَه مِنْ يَدِه ، قال سُدَيْف :

*فضَعِ السَّوْطَ وارْفَعِ السّيفَ حَتَّى * لا تَرَى فَوْقَ ظَهْرِها أُمَوِيَا*

معناه ضَعِ السَوْطَ على بَدَن من تَبْسطه عليه ، وارفع السّيف له لِيُقْتَل به .

ووَضَعَ منْه : حَطَّ مِنْ قَدْرِه .

ووَضَع عن غَرِيمه : نَقَص مِمّا له عليه ومنه الحديث : "مَنْ أَنْظَر مُعْسِراً أَو وَضَع له أَظَلَّه اللهُ تحت ظِلِّ عَرْشه" .

ووضع يَدَه فى الطَّعام : إذا أَخَذَ فى الأَكْل .

ووَضَع يَدَه عن فلان : كَفَّ عنه ، ومنه الحديث : "واضِعٌ يَدَه لِمُسِيءِ اللَّيْلِ لِيَتُوبَ بالنَّهارِ" أَى لا يُعاجل المُسيءَ بالعقوبة بل يُمْهِلُه لِيَتُوبَ .

وامرأَةٌ واضِعٌ : لا خِمارَ عليها .

ووَضَعت المرأَةُ حَمْلَها وَضْعاً بالضَّمِّ وتُضْعاً بالضمّ ، وتُضُعاً بضمَّتين ، أَى حَمَلت فى آخِرِ طهرها فى مُقْتَبَلِ الحَيْضِة فهى واضِعٌ .

ووُضِعَ فى تجارته كَعُنِىَ : خَسِرَ .

قال ابنُ دُرَيْد : وَضِعَ يَوْضَعُ كوَجِلَ يَوْجَل لغةٌ فيه .

وفى حَسَبِهِ ضَعَةٌ وضِعَةٌ بالكسر أَى انْحطاطٌ ، والهاء عوض عن الواو .

وقد وَضُعَ الرَّجُل ككَرُمَ يَوْضُعُ ضَعَةً وضِعَةً .

قال الفرّاءُ : يُقال : له فى قَلْبى مَوْضِعَةٌ ومَوْقِعَةٌ ، أَى مَحَبَّةٌ .

ووضَعْتُ عنده وَضِيعاً ، أَى استَوْدَعتُه وَدِيعَةً .

وقوله تعالى : ﴿ ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ ﴾ أَى حَمَلُوا ركابَهم على العَدْوِ السّريع .

ومنه الحديث : "أَنَّه أَفاضَ من عَرَفَةَ وعليه السَّكِينَة وأَوْضَعَ فى وادِى مُحَسِّر" .

وقال صلَّى الله عليه وسلَّم : "أَيُّها الناس عليكم بالسَّكِينَة فإِنَّ البِرَّ ليس بالإِيضاع" .

ورَجُلٌ مُوَضَّع كمعظَّم : فيه تَخَنُّثٌ .

وتَواضَعَ : تَذَلَّلَ ؛ وما بيننا : بَعُدَ .

وإِنَّ بَلَدَكم لمُتواضِعٌ عنَّا : مُتَباعِدٌ ، قال ذو الرّمَة : *فَدعْ ذا ولَكن رُبَّ وَجْناءَ عِرْمِس * دَواءٌ لِغَوْلِ النازِحِ المُتواضِع* . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 231. 233 ﴾

(148/739)

فصل

قال الإمام ابن قتيبة :

باب تكرار الكلام والزّيادة فيه

وأما تكرار الأنباء والقصص ، فإنّ اللّه تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوما في ثلاث وعشرين سنة ، بفرض بعد فرض : تيسيرا منه على العباد ، وتدريجا لهم إلى كمال دينه ، ووعظ بعد وعظ : تنبيها لهم من سنة الغفلة ، وشحذا لقلوبهم بمتجدّد الموعظة ، وناسخ بعد

منسوخ : استعبادا له واختبارا لبصائرهم . يقول اللّه عز وجل : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا (32) [الفرقان : 32] .

الخطاب للنبي ، صلّى اللّه عليه وسلم ، والمراد بالتثبيت هو والمؤمنون .

وكان رسول اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلم ، يتخوّل أصحابه بالموعظة مخافة السآمة عليهم "1" ، أي يتعهّدهم بها عند الغفلة ودثور القلوب .

ولو أتاهم القرآن نجما واحدا لسبق حدوث الأسباب التي أنزله اللّه بها ، ولثقلت جملة الفرائض على المسلمين ، وعلى من أراد الدخول في الدين ، ولبطل معنى التنبيه ، وفسد معنى النسخ ، لأن المنسوخ يعمل به مدة ثم يعمل بناسخه بعده .

وكيف يجوز أن ينزل القرآن في وقت واحد : افعلوا كذا ولا تفعلوه ؟ .

ولم يفرض اللّه على عباده أن يحفظوا القرآن كلّه ، ولا أن يختموه في التعلم ، وإنما أنزله ليعملوا بمحكمه ، ويؤمنوا بمتشابهه ، ويأتمروا بأمره . وينتهوا بزجره : ويحفظوا للصلاة مقدار الطاقة ، ويقرؤوا فيها الميسور .

قال الحسن : نزل القرآن ليعمل به ، فاتخذ الناس تلاوته عملا .

وكان أصحاب رسول اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلم ، ورضي عنهم - وهم مصابيح الأرض وقادة الأنام ومنتهى العلم - إنما يقرأ الرّجل منهم السورتين ، والثلاث ، والأربع ، والبعض والشّطر

---

(1) لفظ الحديث : عن عبد اللّه بن مسعود ، قال : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يتخوّلنا بالموعظة مخافة السآمة علينا . أخرجه البخاري في العلم باب 11 ، 12 ، ومسلم في المنافقين حديث 82 ، 83 ، والترمذي في الأدب باب 72 ، وأحمد في المسند 1/ 377 ، 378 ، 425 ، 427 ، 440 ، 443 ، 462 ، 465 ، 466 .

[. . . . .]

(149/739)

من القرآن ، إلا نفرا منهم وفقهم اللّه لجمعه ، وسهّل عليهم حفظه .

قال أنس بن مالك : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا . أي جلّ في عيوننا ، وعظم في صدورنا .

قال الشّعبي : توفى أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، رحمهم اللّه ، ولم يجمعوا القرآن .

وقال : لم يختمه أحد من الخلفاء غير عثمان .

وروي عن شريك ، عن إسماعيل بن أبي خالد أنه قال :

سمعت الشّعبي يحلف باللّه ، عز وجل ، لقد دخل عليّ حفرته وما حفظ القرآن .

وكانت وفود العرب ترد على رسول اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلم للإسلام ، فيقرئهم

المسلمون شيئًا من القرآن ، فيكون ذلك كافيا لهم .

وكان يبعث إلى القبائل المتفرّقة بالسّور المختلفة ، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثّناة ومكرّرة لوقعت قصّة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى قوم ، وقصة نوح إلى قوم ، وقصة لوط إلى قوم .

فأراد اللّه ، بلطفه ورحمته ، أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ويلقيها في كل سمع ، ويثبتها في كل قلب ، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير .

(150/739)

وليست القصص كالفروض ، لأنّ كتب رسول اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلم كانت تنفذ إلى كل قوم بما فرضه اللّه عليهم من الصلاة ، وعددها وأوقاتها ، والزّكاة وسنتها ، وصوم شهر رمضان ، وحجّ البيت . وهذا ما لا تعرف كيفيته من الكتاب ، ولم تكن تنفذ بقصة موسى وعيسى ونوح وغيرهم من الأنبياء . وكان هذا في صدر الإسلام قبل إكمال اللّه الدين ، فلما نشره اللّه عز وجل في كل قطر ، وبثّه في آفاق الأرض ، وعلم الأكابر الأصاغر ، وجمع القرآن بين الدّفّتين – : زال هذا المعنى ، واجتمعت الأنباء في كل مصر وعند كل قوم .

وأما تكرار الكلام من جنس واحد وبعضه يجزىء عن بعض ، كتكراره في : قُلْ يا أَيُّهَا

الْكافِرُونَ (1) [الكافرون : 1] وفي سورة الرحمن بقوله : فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (13) [الرحمن : 13] فقد أعلمتك أنّ القرآن نزل بلسان القوم ، وعلى مذاهبهم . ومن مذاهبهم التكرار : إرادة التوكيد والإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار : إرادة التخفيف والإيجاز ، لأن افتنان المتكلم والخطيب في الفنون ، وخروجه عن شيء إلى شيء - أحسن من اقتصاره في المقام على فنّ واحد .

وقد يقول القائل في كلامه : والله لا أفعله ، ثم والله لا أفعله . إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع من أن يفعله . كما يقول : والله أفعله ، بإضمار (لا) إذا أراد الاختصار .

قال الله عز وجل : كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) [التكاثر : 3 ، 4] .

وقال : فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (6) [الشرح : 5 ، 6] .

وقال : أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (34) ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (35) [القيامة : 34 ، 35] .

وقال : وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (17) ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (18) [الانفطار : 17 ، 18] كلّ هذا يراد به التأكيد للمعنى الذي كرّر به اللفظ .

(151/739)

وقد يقول القائل للرجل : اعجل اعجل ، وللرامي : ارم ارم .

وقال الشاعر "1" :

كم نعمة كانت لكم كم كم وكم وقال الآخر "2" :

هلّا سألت جموع كن دة يوم ولّوا أين أينا

وقال عوف بن الخرع "3" :

وكادت فزارة تصلي بنا فأولى فزارة أولى فزارا

وربما جاءت الصفة فأرادوا توكيدها ، واستوحشوا من إعادتها ثانية لأنها كلمة واحد ، فغيّروا منها حرفا ، ثم أتبعوها الأولى .

كقولهم : (عطشان نطشان) كرهوا أن يقولوا : عطشان عطشان ، فأبدلو من العين نونا .

وكذلك قولهم : (حسن بسن) كرهوا أن يقولوا : حسن حسن ، فأبدلوا من الحاء باء .

و(شيطن ليطان) في أشباه له كثيرة .

---

(1) الرجز بلا نسبة في أمالي المرتضى 1/ 84 ، وكتاب الصناعتين ص 193 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 177 .

(2) تقدم البيت مع تخريجه ، وهو لعبيد بن الأبرص .

(3) البيت من المتقارب ، وهو في المفضليات ص 416 ، ومعجم البلدان 3/ 305 ، والكتاب 1/ 331 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 194 ، وإعجاز القرآن ص 94 .

ولا موضع أولى بالتكرار للتوكيد من السبب الذي أنزلت فيه : قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ (1) [الكافرون : 1] لأنهم أرادوه على أن يعبد ما يعبدون ، ليعبدوا ما يعبد ، وأبدؤوا في ذلك وأعادوا ، فأراد اللّه ، عزّ وجلّ ، حسم أطماعهم وإكذاب ظنونهم ، فأبدأ وأعاد في الجواب . وهو معنى قوله : وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9) [القلم : 9] أي تلين لهم في دينك فيلينون في أديانهم .

وفيه وجه آخر ، وهو : أن القرآن كان ينزل شيئا بعد شيء وآية بعد آية ، حتى لربما نزل الحرفان والثلاثة .

قال زيد بن ثابت : كنت أكتب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل اللّه . فجاء عبد اللّه ابن أمّ مكتوم فقال : يا رسول اللّه إني أحب الجهاد في سبيل اللّه ، ولكن بي من الضرر ما ترى . قال زيد : فثقلت فخذ رسول اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلم ، على فخذي حتى خشيت أن ترضّها ، ثم قال : اكتب : لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ [النساء : 95] .

وروى عبد الرّزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، عن الحسن أنه قال في قول اللّه عز وجل : وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا [الفرقان : 32] قال : كان ينزل آية وآيتين وآيات ، جوابا لهم عما يسألون وردّا على النبي . وكذلك معنى قوله سبحانه : وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا [الإسراء : 106] شيئا بعد شيء .

فكأن المشركين قالوا له : أسلم ببعض آلهتنا حتى نؤمن بإلهك ، فأنزل اللّه : لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ (2) وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (3) [الكافرون : 2 ، 3] . يريد إن لم تؤمنوا حتى أفعل ذلك . ثم غبروا مدّة من المدد وقالوا : تعبد آلهتنا يوما أو شهرا أو حولا ، ونعبد إلهك يوما أو شهرا أو حولا ، فأنزل اللّه تعالى : وَلا أَنَا عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ (4) وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (5) [الكافرون : 4 ، 5] . على شريطة أن تؤمنوا به في وقت وتشركوا به في وقت .

قال أبو محمد : وهذا تمثيل أردت أن أريك به موضع الإمكان .

وأما تكرار فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (13) [الرحمن : 13] فإنه عدّد في هذه السورة نعماءه ، وأذكر عباده آلاءه ، ونبههم على قدرته ولطفه بخلقه ، ثم أتبع ذكر كل خلّة وصفها بهذه الآية ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ، ليفهّمهم النّعم ويقرّرهم بها ، وهذا كقولك للرجل أجل أحسنت إليه دهرك وتابعت عنده الأيادي ، وهو في ذلك

ينكرك ويكفرك : ألم أبوّئك منزلا وأنت طريد ؟ أفتنكر هذا ؟ و : ألم أحملك وأنت راجل ؟ ألم أحج بك وأنت صرورة ؟ أفتنكر هذا ؟ .

ومثل ذلك تكرار فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ [القمر : 15 ، 17 ، 22 ، 32 ، 40 ، 51] في سورة (اقتربت الساعة) أي : هل من معتبر ومتّعظ ؟ .

وأما تكرار المعنى بلفظين مختلفين ، فلإشباع المعنى والاتساع في الألفاظ .

وذلك كقول القائل : آمرك بالوفاء ، وأنهاك عن الغدر . والأمر بالوفاء هو النّهي عن الغدر .

و : آمركم بالتّواصل ، وأنهاكم عن التّقاطع . والأمر بالتواصل هو النهي عن التّقاطع .

وكقوله سبحانه : فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (68) [الرحمن : 68] . والنخل والرّمان من الفاكهة ، فأفردهما عن الجملة التي أدخلهما فيها ، لفضلهما وحسن موقعهما .

وقوله سبحانه : حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطى [البقرة : 238] وهي منها ، فأفردها بالذّكر ترغيبا فيها ، وتشديدا لأمرها ، كما تقول : إيتني كل يوم ، ويوم الجمعة خاصّة .

وقال سبحانه : أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ [الزخرف : 80] والنّجوى هو السر . وقد يجوز أن يكون أراد بالسرّ : ما أسرّوه في أنفسهم ، وبالنّجوى : ما تسارّوا به .

وقال ذو الرّمة "1" :

لمياء في شفتيها حوّة لعس وفي اللّثات وفي أنيابها شنب

واللّعس هو : حوّة ، فكرّر لما اختلف اللفظان .

ويمكن أن يكون لما ذكر الحوّة ، خشي أن يتوهّم السامع سوادا قبيحا ، فبيّن أنه لعس ، واللعس يستحسن في الشّفاه .

وأمّا الزيادة في التوكيد فكقوله سبحانه : يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ [آل عمران : 167] لأن الرجل قد يقول بالمجاز : كلمت فلانا ، وإنما كان ذلك كتابا أو إشارة على لسان غيره ، فأعلمنا أنهم يقولون بألسنتهم .

)

1) البيت من البسيط ، وهو لذي الرمة في ديوانه ص 32 ، والخصائص 3/ 291 ، والدرر 6/ 56 ، ولسان العرب (شنب) ، (لعس) ، (حوا) ، والمقاصد النحوية 4/ 203 ، وهمع الهوامع 2/ 126 ، وبلا نسبة في شرح الأشموني 2/ 438 .

وكذلك قوله : يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ [البقرة : 79] لأن الرجل قد يكتب بالمجاز ، وغيره الكاتب عنه .

ويقول الأمّي : كتبت إليك ، وهذا كتابي إليك . وكلّ فعل أمرت به فأنت الفاعل له ، وإن وليه غيرك . قال اللّه عز وجل : في التابوت : تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ [البقرة : 248] .

قال ابن عباس رضي اللّه عنه في رواية أبي صالح عنه : هذا كما تقول : حملت إلى بلد كذا وكذا برّا وقمحا ، وإنما تريد أمرت بحمله .

فأعلمنا أنهم يكتبونه بأيديهم ويقولون : هو من عند اللّه . وقد علموا يقينا – إذ كتبوه بأيديهم – أنه ليس من عند اللّه .

وقال تعالى : فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (93) [الصافات : 93] لأن في اليمين القوة وشدّة البطش ، فأخبرنا عن شدة ضربه بها .

وقال الشّمّاخ "1" :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقّاها عرابة باليمين

أي أخذها بقوة ونشاط .

وقوله سبحانه : وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ [الأنعام : 38] . كما تقول رأي عيني وسمع أذني نفسي التي بين جنبيّ .

وقوله : وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [الحج : 46] . كما تقول : نفسي التي بين جنبيّ .

وقال : فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ [البقرة : 196] .

أراد توكيد ما أوجبه عليه من الصيام بجمع العددين وذكره مجملا ، كما قال الشاعر "2" :

)

1) البيت من الوافر ، وهو للشماخ في ديوانه ص 336 ، ولسان العرب (عرب) ، (يمن) ، وتهذيب اللغة 8/ 221 ، 15/ 523 ، وجمهرة اللغة ص 319 ، 994 ، وتاج العروس (عرب) ، ومقاييس اللغة 6/ 158 ، والإصابة 4/ 234 ، والشعر والشعراء 1/ 278 ، وخزانة الأدب 1/ 453 ، 2/ 223 ، وتفسير البحر المحيط 1/ 160 ، والعمدة 2/ 131 ، وأمالي القالي 1/ 274 ، ونقد الشعر ص 25 ، والبيت بلا نسبة في تفسير الطبري 23/ 32 .

(2) البيت من الوافر ، وهو للفرزدق في ديوانه ص 835 ، والموشح ص 114 ، وتفسير البحر المحيط 2/ 79 ، ومجمع البيان 1/ 291 ، ولسان العرب (سهم) ، وطبقات الشعراء ص 38 .

ثلاث واثنتان فهنّ خمس وسادسة تميل إلى شمام

وقد تزاد (لا) في الكلام والمعنى : طرحها لإباء في الكلام أو جحد .

كقول اللّه عز وجل : ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ [الأعراف : 12] . أي ما منعك أن تسجد . فزاد في الكلام (لا) لأنه لم يسجد .

وقوله سبحانه : وَما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ [الأنعام : 109] يريد وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون ، فزاد (لا) لأنهم لا يؤمنون إذا جاءت .

ومن قرأها بكسر إنّ ، فإنه يجعل الكلام تاما عند قوله : وَما يُشْعِرُكُمْ ثم يبتدىء فيقول : أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ .

وقوله سبحانه : وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (95) [الأنبياء : 95] .

يريد أنهم يرجعون ، فزاد (لا) : لأنهم لا يرجعون .

وقوله سبحانه : لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ [الحديد : 29] . يريد ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون ، فزاد (لا) في أول الكلام ، لأن في آخر الكلام جحدا .

وكذلك قوله أبي النجم "1" :

فما ألوم البيض ألا تسخرا أي أن تسخرا ، فزاد (لا) في آخر الكلام ، للجعد في أوله .

وقول العجّاج "2" :

---

(1) يليه : لما رأين الشمط القنفدرا والرجز لأبي النجم في تاج العروس (قفدر) ، والخصائص 2/ 283 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 138 ، ومجاز القرآن 1/ 26 ،

وتفسير الطبري 1/ 62 ، وبلا نسبة في لسان العرب (قفندر) ، وجمهرة اللغة ص 1147 ، 1185 ، والمخصص 2/ 175 ، والأزهية ص 154 ، والجنى الداني ص 303 ، والمحتسب 1/ 181 ، والمقتضب 1/ 47 .

(2) يليه : يإفكه حتى رأى الصبح جشره والرجز للعجاج في ديوانه ص 20 ، 22 ، والأزهية ص 154 ، والأشباه والنظائر 2/ 164 ، وخزانة الأدب 4/ 51 ، 52 ، 53 ، وشرح المفصل 8/ 136 ، وتاج العروس (حور) ، (لا) ، وتهذيب اللغة 5/ 228 ، 15/ 418 ، والصاحبي في فقه اللغة ص 138 ، والجمهرة 2/ 146 ، 3/ 370 ، ومجاز القرآن 1/ 25 . والأضداد لابن الأنباري ص 186 ، وبلا نسبة في لسان العرب (حدر) ، (غير) ، (لا) ، وخزانة الأدب 11/ 224 ، والخصائص 2/ 477 ، وجمهرة اللغة ص 525 ، ومجمل اللغة 2/ 120 .

(156/739)

في بئر لا حور سرى وما شعر فزاده (لا) في أول الكلام ، لأن في آخره جحدا .

وأما زيادة (لا) في قوله : لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ (1) وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) [القيامة : 1 ، 2] .

وقوله : فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) [الانشقاق : 16] . و : لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ (1) [البلد : 1] - : فإنها زيدت في الكلام على نية الرّد على المكذبين ، كما تقول في الكلام :

لا واللّه ما ذاك كما تقول . لو قلت : واللّه ما ذاك كما تقول ، لكان جائزا ، غير أن إدخالك (لا) في الكلام أوّلا ، أبلغ في الرّدّ .

وكان بعض النحويين يجعلها صلة . ولو جاز هذا لم يكن بين خبر فيه الجحد ، وخبر فيه الإقرار - فرق .

و(ألا) تزاد في الكلام للتنبيه .

كقوله : أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثيابهم [هود : 5] و : أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ [هود : 8] .

وقال الشاعر "1" :

ألا أيهذا الزّاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللّذّات : هل أنت مخلدي

أراد أيها الزاجري أن أحضر الوغى فزاد (ألا) وحذف (أن) .

والباء تزاد في الكلام ، والمعنى إلقاؤها .

كقوله سبحانه : تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ [المؤمنون : 20] .

وقوله : اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ [العلق : 1] أي اسم ربك .

---

(1) البيت من الطويل ، وهو لطرفة بن العبد في ديوانه ص 32 ، والإنصاف 2/ 560 ،

وخزانة الأدب 1/ 119 ، 8/ 579 ، والدرر 1/ 74 ، وسرّ صناعة الإعراب 1/ 285 ، وشرح شواهد المغني 2/ 800 ، والكتاب 3/ 99 ، 100 ، ولسان العرب (أنن) ، (دنا) ، والمقاصد النحوية 4/ 402 ، والمقتضب 2/ 85 ، ومجمع البيان 1/ 149 ، وبلا نسبة في خزانة الأدب 1/ 463 ، 8/ 507 ، 580 ، 585 ، والدرر 3/ 33 ، 9/ 94 ، ورصف المباني ص 113 ، وشرح شذور الذهب ص 198 ، وشرح ابن عقيل ص 597 ، وشرح المفصل 2/ 7 ، 4/ 28 ، 7/ 52 ، ومجالس ثعلب ص 383 ، ومغني اللبيب 2/ 383 ، 641 ، وهمع الهوامع 2/ 17 ، وصدر البيت بلا نسبة في الصاحبي في فقه اللغة ص 104 ، 197 .

(157/739)

وعَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ [الإنسان : 6] أي يشربها .

وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ [مريم : 25] أي هزّي جذع .

وقال فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (6) [القلم : 5 ، 6] أي أيكم المفتون .

وقال الأعشى "1" :

ضمنت برزق عيالنا أرماحنا وقال الآخر "2" :

نضرب بالسّيف ونرجو بالفرج وقال امرؤ القيس "3" :

هصرت بغصن ذي شماريخ ميّال أي : غصنا .

---

(1) يروى البيت بتمامه :

ضمنت لنا أعجازه أرماحنا ملء المراجل والصريح الأجردا

والبيت من الكامل ، وهو للأعشى في ديوانه ص 34 ، ولسان العرب (جرد) ، وتهذيب اللغة 10/ 640 ، وتاج العروس (جرد) .

(2) قبله :

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج والرجز للنابغة الجعدي في ملحق ديوانه ص 216 ، والخزانة 4/ 59 ، ومعجم البلدان 6/ 392 ، وبلا نسبة في لسان العرب (الباء) ، والمخصص 14/ 70 ، وأدب الكاتب ص 522 ، والإنصاف 1/ 284 ، وخزانة الأدب 9/ 520 ، 521 ، ورصف المباني ص 143 ، وشرح شواهد المغني 1/ 332 ، ومعجم ما استعجم ص 1029 ، ومغني اللبيب 1/ 108 ، وتاج العروس (فلج) ، (الباء) ، والاقتضاب ص 458 ، والجواليقي ص 381 ، ومجاز القرآن 1/ 194 ، 2/ 56 ، 264 ، وتفسير الطبري 18/ 12 .

(3) صدر البيت :

ولما تنازعنا الحديث وأسمحت والبيت من الطويل ، وهو لامرىء القيس في ديوانه ص 32

، ولسان العرب (هصر) ، والتنبيه والإيضاح 2/ 28 ، وتاج العروس (هصر) ، وكتاب العين 3/ 411 ، والاقتضاب ص 457 - 458 ، وبلا نسبة في مقاييس اللغة 6/ 54 ، والمخصص 14/ 70 ، 179 ، وتهذيب اللغة 4/ 346 ، 6/ 107 .

(158/739)

وقال أمية بن أبي الصّلت "1" :

إذ يسفّون بالدقيق وكانوا قبل لا يأكلون شيئًا فطيرا

وقال : تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ [الممتحنة : 1] .

وقوله : وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ [الحج : 25] .

و(من) قد تزاد في الكلام أيضا ، كقوله : ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ [الذاريات : 57] أي : ما أريد منهم رزقا .

وتقول : ما أتاني من أحد ، أي أحد .

و(اللام) قد تزاد ، كقوله سبحانه : لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ [الأعراف : 154] .

و(الكاف) قد تزاد ، كقوله : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى : 11] .

و(على) قد تزاد . قال حميد بن ثور "2" :

أبى اللّه إلا أنّ سرحة مالك على كلّ أفنان العضاه تروق

أراد : تروق كلّ أفنان .

و(عن) تزاد قال تعالى : يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ [النور : 63] .

و(إنّ الثقيلة) تزاد كقوله سبحانه : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) [الكهف : 30] .

وكذلك قوله : قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ [الجمعة : 8] .

وقال الشاعر "3" :

إنّ الخليفة إنّ اللّه سربله سربال ملك به ترجى الخواتيم

و(إن الخفيفة) تزاد ، كقول الشاعر "4" :

---

(1) البيت من الخفيف ، وهو في الاقتضاب ص 456 .

(2) البيت من الطويل ، وهو لحميد بن ثور في ديوانه ص 41 ، وأدب الكاتب ص 523 ، وأساس البلاغة (روق) ، والجنى الداني ص 479 ، والدرر 4/ 137 ، وشرح التصريح 2/ 15 ، وشرح شواهد المغني 1/ 420 ، ولسان العرب (سرح) ، ومغني اللبيب 1/ 144 ، وبلا نسبة في جواهر الأدب ص 377 ، وخزانة الأدب 2/ 194 ، 10/ 144 ، 145 ، وشرح الأشموني 2/ 294 . [. . . . .]

(3) البيت من البسيط ، وهو لجرير في ديوانه ص 672 ، وخزانة الأدب 10/ 364 –

368 ، وبلا نسبة في أمالي الزجاجي ص 62 ، وتذكرة النحاة ص 130 ، ولسان العرب (ختم) .

(4) البيت من الكامل ، وهو لدريد بن الصمة في ديوانه ص 34 ، والأغاني 10/ 22 ، وإصلاح المنطق ص 127 ، وشرح شواهد الإيضاح ص 578 ، وشرح شواهد المغني ص 955 ، وشرح المفصل 8/ 128 ، وبلا نسبة في الأشباه والنظائر 2/ 188 ، وجمهرة اللغة ص 374 ، ومغني اللبيب ص 679 .

(159/739)

ما إن رأيت ولا سمعت به كاليوم هانىء أينق جرب

وقال عز وجل : وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ [الأحقاف : 26] .

وقال بعضهم : أراد فيما مكّناكم فيه ، و(إن) زائدة .

وقال بعضهم : هي بمعنى مكّناهم فيما لم نمكنكم فيه .

و(إذ) قد تزاد ، كقوله : وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ [البقرة : 30] .

وَإِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ [لقمان : 13] . أي : وقال .

وقال ابن ميّادة "1" :

إذ لا يزال قائل : أبن أبن و(ما) قد تزاد ، كقوله : قالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ (40) [المؤمنون : 40] وأَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى [الإسراء : 110] .

و(واو النّسق) قد تزاد حتى يكون الكلام كأنه لا جواب له ، كقوله : حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها [الزمر : 73] . والمعنى : قال لهم خزنتها .

وقوله : فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ [يوسف : 15] .

وقوله سبحانه : فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنادَيْناهُ [الصافات : 103 ، 104] .

وكقوله : حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ [الأنبياء : 96 ، 97] .

وقوله : اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ [العنكبوت : 12] أي : لنحمل خطاياكم عنكم .

قال امرؤ القيس "2" :

---

(1) يروى الرجز بتمامه :

إمّا يزال قائل ابن أبن هوذلة المشآة عن ضرس اللّبن

والرجز لابن هرمة في ديوانه ص 216 ، ولسان العرب (هذل) ، وتاج العروس (هذل) ، ولسالم بن دارة أو لابن ميادة في لسان العرب (لبن) ، ولابن ميادة في ملحق ديوانه ص 260 ، ولسان العرب (ضرس) ، والتنبيه والإيضاح 2/ 285 ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص 379 ، 702 ، 1174 ، وكتاب الجيم 1/ 84 .

(2) يروى عجز البيت بلفظ :

فلما أجزنا ساحة الحيّ وانتحى بنا بطن خبت ذي قفاف عقنقل

أراد انتحى .

وقال آخر "1" :

حتّى إذا قملت بطونكم ورأيتم أبناءكم شبّوا

وقلبتم ظهر المجنّ لنا إن اللّئيم العاجز الخبّ

أراد : قلبتم .

بنا بطن حقف ذي حقاف عقنقل والبيت من الطويل ، وهو لامرىء القيس في ديوانه ص 15 ، وأدب الكاتب ص 353 ، والأزهية ص 234 ، وخزانة الأدب 11/ 43 ، 44 ، 45 ، 47 ، ولسان العرب (جوز) ، وتاج العروس (عقل) ، والمنصف 3/ 41 ، وبلا نسبة في رصف المباني ص 425 .

ومما يزاد في الكلام : (الوجه) ، يقول اللّه عز وجل : وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ [الأنعام : 52] . أي : يريدونه بالدعاء .

وكُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ [القصص : 88] أي : إلا هو .

وفَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ [البقرة : 115] أي : فثمّ اللّه .

وإِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ [الإنسان : 9] . أي : للّه .

و(الاسم) يزاد ، قال : أبو عبيدة : بِسْمِ اللَّهِ إنما هو باللّه ، وأنشد للبيد "2" :

إلى الحول ثمّ السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

أي : السلام عليكما .

وتَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ [الرّحمن : 78] ، أي : تبارك ربّك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 148. 159 ﴾

---

(1) البيتان من الكامل ، وهما للأسود بن يعفر في ديوانه ص 19 ، وبلا نسبة في الأزهية ص 236 ، والإنصاف ص 458 ، وتذكرة النحاة ص 45 ، والجنى الداني ص 165 ، وخزانة الأدب 11/ 44 ، 45 ، ورصف المباني ص 425 ، وسرّ صناعة الإعراب ص 646 ، 647 ، وشرح عمدة الحافظ ص 649 ، وشرح المفصل 8/ 94 ، ولسان

العرب (قمل) ، (وا) ، ومجالس ثعلب ص 47 ، والمعاني الكبير ص 533 ، والمقتضب 2/ 81 .

(2) البيت من الطويل ، وهو للبيد بن ربيعة في ديوانه ص 214 ، والأشباه والنظائر 7/ 96 ، والأغاني 13/ 40 ، وبغية الوعاة 1/ 429 ، وخزانة الأدب 4/ 337 ، 340 ، 342 ، والخصائص 3/ 29 ، والدرر 5/ 15 ، وشرح المفصل 3/ 14 ، والعقد الفريد 2/ 78 ، 3/ 57 ، ولسان العرب (عذر) ، والمقاصد النحوية 3/ 375 ، والمنصف 3/ 135 ، وبلا نسبة في أمالي الزجاجي ص 63 ، وشرح الأشموني 2/ 307 ، وشرح عمدة الحافظ ص 507 ، والمقرب 1/ 213 ، وهمع الهوامع 2/ 49 ، 158 .

(162/739)

قوله تعالى ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (16) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (18) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (22) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

﴿ (23)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان قد تقدم في إشارة الخطاب الامتنان بخلق الإنسان ، ثم ذكر أصول النعم عليه على وجه بديع الشأن ، إلى أن ذكر غذاء روحه : الريحان ، أتبع ذلك تفصيلاً لما أجمل فقال : ﴿ خلق الإنسان ﴾ أي أصل هذا النوع الذي هو من جملة الأنام الذي خلقنا الريحان لهم والغالب عليه الأنس بنفسه وبما ألفه .

ولما كان أغلب عناصره التراب وإن كان من العناصر الأربعة ، عبر عن إشارة به إلى مطابقة اسمه – بما فيه مما يقتضي الأنس الذي حاصله الثبات على حالة واحدة – لمسماه الذي أغلبه التراب لنقله وثباته ما لم يحركه محرك ، وعبر عن ذلك بما هو في غاية البعد عن قابلية البيان فقال : ﴿ من صلصال ﴾ أي طين يابس له صوت إذا نقر عليه ﴿ كالفخار ﴾ أي كالخزف المصنوع المشوي بالنار لأنه أخذه من التراب ثم خلطه بالماء حتى صار طيناً ثم تركه حتى صار حماء مسنوناً مبيناً ، ثم صوره كما يصور الإبريق وغيره من الأواني ثم أيبسه حتى صار في غاية الصلابة فصار كالخزف الذي إذا نقر عليه صوت صوتاً يعلم منه هل فيه عيب أم لا ، كما أن الآدمي بكلامه يعرف حاله وغاية أمره ومآله ، فالمذكور هنا غاية تخليقه وهو أنسب بالرحمانية ، وفي غيرها تارة مبدؤه وتارة إنشاؤه ، فالأرض أمه

والماء أبوه ممزوجين بالهواء الحامل للجزء الذي هو من فيح جهنم ، فمن التراب جسده ونفسه ، ومن الماء روحه وعقله ، ومن النار غوايته وحدته ، ومن الهواء حركته وتقلبه في محامده ومذامه .

ولما كان الجان الذي شمله أيضاً اسم الأنام مخلوقاً من العناصر الأربعة ، وأغلبها في جبلته النار ، قال تعالى : ﴿ وخلق الجانّ ﴾ أي هذا النوع المستتر عن العيون بخلق أبيهم ، وهو اسم جمع للجن .

(163/739)

ولما كان الجن يطلق على الملائكة لاستتارهم ، بين أنهم لم يرادوا به هنا فقال : ﴿ من مارج ﴾ أي شيء صاف خالص مضطرب شديد الاضطراب جداً والاختلاط ، قال البغوي : وهو الصافي من لهب النار الذي لا دخان فيه ، وقال القشيري ، هو اللهب المختلط بسواد النار – انتهى .

ومرجت نارهم – أي اختلطت – ببرد الزمهرير .

ولما كان المارج عاماً في النار وغيرها ، بينه بقوله : ﴿ من نار ﴾ هي أغلب من عناصر ، فتعين المراد بذكر النار لأن الملائكة عليهم السلام من نور لا من نار ، وليس عندهم مروج

ولا اضطراب ، بل هم في غاية الثبات على الطاعة فيما أمروا به ، وقد عرف بهذا كل مضطرب قدره لئلا يتعدى طوره .

ولما كان خلق هذين القبيلين على هذين الوجهين اللذين هما في غاية التنافي مستوراً أحدهما عن الآخر مع منع كل من التسلط على الآخر إلا نادراً ، إظهاراً لعظيم قدرته وباهر حكمته من أعظم النعم ، قال مسبباً عنه : ﴿ فبأيِّ آلاء ربكما ﴾ أي النعم الملوكية الناشئة عن مبدعكما ومربيكما وسيدكما ﴿ تكذبان ﴾ أي بنعمة البصر من جهة الوراء وغيرها من خلقكم على هذا النمط الغريب ، وإيداعكم ما أودعكم من القوى ، وجعلكم خلاصة مخلوقاته ، ومن منع أحد قبيليكم عن الآخر ، وتيسيره لكم الأرزاق والمنافع ، وحملكم على الحنيفية السمحة ، وقدرته على إعادتكم كما قدر على ابتدائكم .

(164/739)

ولما ذكر سبحانه هذين الجنسين اللذين أحدهما ظاهر والآخر مستتر ، إرشاداً إلى التأمل فيما فيهما من الدلالة على كمال قدرته ، فكانا محتاجين إلى ما هما فيه من المحل ، وكان صلاحه مما دبر سبحانه فيه من منازل الشروق الذي هو سبب الأنوار والظهور ، والغروب الذي هو منشأ الظلمة والخفاء ، أتبعه قوله منبهاً على النظر في بديع صنعه الدال على

توحيده : ﴿ رب ﴾ أي هو خالق ومدير ﴿ المشرقين ﴾ ومدبرهما على كيفية لا يقدر على شيء منها غيره ﴿ ورب المغربين ﴾ كذلك ، وهذه المشارق والمغارب هي ما للشتاء من البروج ، السافلة الجنوبية التي هي سبب الأمطار والثلوج ، التي هي سبب الحياة والظهور ، حال كون الشمس منحدرة في آفاق السماء ، وما للصيف من البروج العالية في جهة الشمال التي هي سبب التهشم والأفول والشمس مصعدة في جو السماء ، وما بينهما من الربيع الذي هو للنمو ، والخريف الذي هو للذبول ، فهي آية الإيجاد والإعدام ، فأول المشارق الصيف وقت استواء الليل والنهار عند حلول الشمس بأول البروج الشمالية صاعدة وهو الكبش ، يعتدل الزمان حينئذ بقطعها الجنوبية واستقبالها الشمالية ، ثم آخر مشارقه إذا كانت الشمس في آخر الشمالية وأول الجنوبية عند حلولها برأس الميزان يعتدل الزمان ثانياً لاستقبالها البروج الجنوبية ، ثم بحلولها بآخر القوس ورأس الجدي يكون الانتهاء في قصر الأيام وطول الليالي لتوسطها البروج الجنوبية ، ثم بحلولها كذلك عند خروجها من برج التوأمين إلى السرطان من بروج الشمال ، وهي آخر درجات الشمس ، يكون طول الأيام وقصر الليالي ، فيختلف على هذين الفصلين الحر والبرد ، وكون الشمس في أول برج الحمل هو بمثابة طلوعها من المشرق في أول كل نهار ، وكونها في الاعتدال الثاني عند استقبالها البروج الجنوبية إذا حلت برأس الميزان هو بمثابة غروبها ، ثم بكونها في الانتهائين في طول الأيام حين حلولها برج السرطان هو بمنزلة استوائها في الصيف في كبد

السماء كما أن حلولها برأس الجدي عند الانتهاء في الشتاء في قصر الأيام وطول الليالي هو بمثابة استوائها فيما يقابل استواءها في الشتاء في كبد السماء في النهار – ذكر ذلك ابن برجان وقال بعد ذلك : سخر سبحانه لعباده جهنم – أي بواسطة الشمس – وهي أعدى عدو لهم ، فأخرج لهما بواسطتها الزرع والزيتون والرمان والنخيل والأعناب والجنان المعروشات وغير المعروشات ومن كل الثمرات .

ولما كان في هذا من النعم ما لا يحصى ، قال مسبباً : ﴿ فبأيّ آلاء ربكما ﴾ الذي دبر لكم هذا التدبير العظيم ﴿ تكذبان ﴾ أي بنعمة البصر من جهة اليمين أو غيرها من تسخير الشمس والقمر دائبين دائرين لإدارة الزمان وتجديد الأيام ، وعدد الشهور والأعوام ، واعتدال الهواء واختلاف الأحوال على الوجه الملائم لمصالح الدنيا ومعايشها على منهاج محفوظ وقانون لا يزيغ .

ولما كانت باحة البحر لجري المراكب كساحة السماء لسير الكواكب مع ما اقتضى ذكره من تضمن ذكر المشارق والمغارب للشتاء الحاصل فيه من الأمطار ما لو جرى على القياس لأفاض البحار ، فأغرقت البراري والقفار ، وعلت على الأمصار وجميع الأقطار ، فقال :

﴿ مرج ﴾ أي أرسل الرحمن ﴿ البحرين ﴾ أي الملح والعذب فجعلهما مضطربين ، من طبعهما الاضطراب ، حال كونهما ﴿ يلتقيان ﴾ أي يتماسان على ظهر الأرض بلا فصل بينهما في رؤية العين وفي باطنها ، فجعل الحلو آية دالة على مياه الجنة ، والملح آية دالة على بعض شراب أهل النار لا يروي شاربه ولا يغنيه ، بل يحرق بطنه ويعييه ، أو بحري فارس والروم هما ملتقيان في البحر المحيط لكونهما خليجين منه .

(166/739)

ولما كان التقاء المايعين ولا سيما مع الاضطراب الدائم الاختلاط فيحيل ما لأحدهما أو لكل منهما من الصفات إلى الصفات الأخرى ، فتشوفت النفس إلى المانع من مثل ذلك في البحرين ، قال مستأنفاً : ﴿ بينهما برزخ ﴾ أي حاجز عظيم من القدرة المجردة على الأول وتسيب الأرض على الثاني يمنعهما مع الالتقاء من الاختلاط ، وقال ابن برجان : البرزخ ما ليس هو بصريح هذا ولا بصريح هذا ، فكذلك السهل والجبل بينهما برزخ يسمى الخيف ، كذلك الليل والنهار بينهما برزخ يسمى غبشاً ، كذلك بين الدنيا والآخرة برزخ ليس من هذا ولا من هذا ولا هو خارج عنهما ، وكذلك الربيعان هما برزخان بين الشتاء والصيف بمنزلة غبش أول النهار وغبش آخره ، جعل بين كل صنفين من الموجودات برزخاً ليس من هذا

ولا من هذا وهو منهما كالجماد والنبات والحيوان .

ولما كانت نتيجة ذلك كذلك قال : ﴿ لا يبغيان ﴾ أي لا يطغيان في هلاك الناس كما طغيا فأهلكا من على الأرض أيام نوح عليه الصلاة والسلام ، ولا يبغي واحد منهما على الآخر بالممارجة ، ولا يتجاوزان ما حده لهما خالقهما ومدبرهما لا في الظاهر ولا في الباطن ، فمتى حفرت على جنب المالح وجدت الماء العذب ، وإن قربت الحفرة منه بل كلما قربت كان أحلى ، فخلطهما الله سبحانه في رأى العين وحجز بينهما في رأى عين القدرة ، هذا وهما جمادان لا نطق لهما ولا إدراك ، فكيف يبغي بعضكم على بعض أيها المدركون العقلاء .

ولما كان هذا أمراً باهراً دالاً دلالة ظاهرة على تمام قدرته لا سيما على الآخرة ، قال مسبباً عنه : ﴿ فبأيّ آلاء ربكما ﴾ أي الموجد لكما والمربي ﴿ تكذبان ﴾ أي بنعمة الإبصار من جهة اليسار أو غيره ، فهلا اعتبرتم بهذه الأصول من أنواع الموجودات فصدقتم بالآخرة لعلمكم بهذه البرازخ أن موتتكم هذه برزخ وفصل بين الدنيا والآخرة كالعشاء بين الليل والنهار ، ولو استقرأتم ذلك في آيات السماوات والأرض وجدتموه شائعاً في جميع الأكوان .

(167/739)

ولما ذكر المنة بالبحر ذكر النعمة بما ينبت فيه كما فعل بالبر ، فقال معبراً بالمبني للمفعول لأن كلاً من وجوده فيه والتسليط على إخراجه منه خارق من غير نظر إلى مخرج معين ، والنعمة نفس الخروج ، ولذلك قرأ غير نافع والبصريين بالبناء للفاعل من الخروج : ﴿ يخرج منهما ﴾ أي بمخالطة العذب الملح من غير واسطة أو بواسطة السحاب ، فصار ذلك كالذكر والأنثى ، قال الرازي : فيكون العذب العذب كاللقاح للملح ، وقال أبو حيان : قال الجمهور : إنما يخرج من الأجاج في المواضع التي يقع فيها الأنهار والمياه العذبة فناسب إسناد ذلك إليهما ، وهذا مشهور عند الغواصين ، وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وعكرمة مولاه ـ رضى الله عنه ـ : تكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر لأن الصدف وغيرها تفتح أفواهها للمطر – انتهى .

فتكون الأصداف كالأرحام للنطف وماء البحر كالجسد الغاذي ، والدليل على أنه من ماء المطر كما قال الأستاذ حمزة الكرماني : إن من المشهور أن السنة إذا أجدبت هزلت الحيتان ، وقلت الأصداف والجواهر – انتهى .

ثم لا شك في أنهما وإن كانا بحرين فقد جمعها وصف واحد بكونهما ماء ، فيسوغ إسناد الخروج إليهما كما يسند خروج الإنسان إلى جميع البلد ، وإنما خرج من دار منها كما نسب الرسل إلى الجن والإنس بجمعهما في خطاب واحد فقال : ﴿ رسل منكم ﴾ [الأنعام : 130] وكذا ﴿ وجعل القمر فيهن نوراً ﴾ [نوح : 16] ومثله كثير ﴿ اللؤلؤ ﴾ وهو

الدر الذي هو في غاية البياض والإشراق والصفاء ﴿ والمرجان ﴾ أي القضبان الحمر التي هي في غاية الحمرة ، فسبحان من غاير بينهما في اللون والمنافع والكون – نقل هذا القول ابن عطية عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ ، وقال : وهذا هو المشهور الاستعمال – انتهى ، وقال جمع كثير : إن اللؤلؤ كبار الدر والمرجان صغاره .

(168/739)

ولما كان ذلك من جليل النعم ، سبب عنه قوله : ﴿ فبأيِّ آلاء ربكما ﴾ أي المالك لكما الذي هو الملك الأعظم ﴿ تكذبان ﴾ مع هذه الصنائع العظمى ، أبنعمة البصر من جهة الفوق أو غير ذلك من خلق المنافع في البحار وتسليطكم عليها وإخراج الحلي الغريبة وغيرها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 379 . 383 ﴾

(169/739)

فصل

قال الفخر :

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) ﴾

وفي الصلصال وجهان أحدهما : هو بمعنى المسنون من صل اللحم إذا أنتن ، ويكون الصلصال حينئذ من الصلول وثانيهما : من الصليل يقال : صل الحديد صليلاً إذا حدث منه صوت ، وعلى هذا فهو الطين اليابس الذي يقع بعضه على بعض فيحدث فيما بينهما صوت ، إذ هو الطين اللازب الحر الذي إذا التزق بالشيء ثم انفصل عنه دفعة سمع منه عند الانفصال صوت ، فإن قيل : الإنسان إذا خلق من صلصال كيف ورد في القرآن أنه خلق من التراب وورد أنه خلق من الطين ومن حمأ ومن ماء مهين إلى غير ذلك نقول : أما قوله ﴿ مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج : 5] تارة ، و ﴿ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ [المرسلات : 20] أخرى ، فذلك باعتبار شخصين آدم خلق من الصلصال ومن حمأ وأولاده خلقوا من ماء مهين ، ولولا خلق آدم لما خلق أولاده ، ويجوز أن يقال : زيد خلق من حمأ بمعنى أن أصله الذي هو جده خلق منه ، وأما قوله : ﴿ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ [الصافات : 11] ﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾ [الحجر : 26] وغير ذلك فهو إشارة إلى أن آدم عليه السلام خلق أولاً من التراب ، ثم صار طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم لازباً ، فكأنه خلق من هذا ومن ذاك ، ومن ذلك ، والفخار الطين المطبوخ بالنار وهو الخزف مستعمل على أصل الاشتقاق ، وهو مبالغة الفاخر كالعلام في العالم ، وذلك أن التراب الذي من شأنه التفتت إذا صار بحيث يجعل ظرف الماء والمائعات ولا يتفتت ولا ينقع فكأنه يفخر على أفراد جنسه .

وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15)

وفي الجان وجهان أحدهما : هو أبو الجن كما أن الإنسان المذكور هنا هو أبو الإنس وهو آدم ثانيهما : هو الجن بنفسه فالجان والجن وصفان من باب واحد ، كما يقال : ملح ومالح ، أو نقول الجن اسم الجنس كالملح والجان مثل الصفة كالمالح .

(170/739)

وفيه بحث : وهو أن العرب تقول : جن الرجل ولا يعلم له فاعل يبني الفعل معه على المذكور ، وأصل ذلك جنه الجان فهو مجنون ، فلا يذكر الفاعل لعدم العلم به ، ويقتصر على قولهم : جن فهو مجنون ، وينبغي أن يعلم أن القائل الأول لا يقول : الجان اسم علم لأن الجان للجن كآدم لنا ، وإنما يقول بأن المراد من الجان أبوهم ، كما أن المراد من الإنسان أبونا آدم ، فالأول منا خلق من صلصال ، ومن بعده خلق من صلبه ، كذلك الجن الأول خلق من نار ، ومن بعده من ذريته خلق من مارج ، والمارج المختلط ثم فيه وجهان أحدهما : أن المارج هو النار المشوبة بدخان والثاني : النار الصافية والثاني أصح من حيث اللفظ والمعنى أما اللفظ : فلأنه تعالى قال : ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ أي نار مارجة ، وهذا كقول القائل : هو مصوغ من ذهب فإن قوله من ذهب فيه بيان تناسب الأخلاط فيكون المعنى الكل من

ذهب غير أنه يكون أنواعاً مختلفة مختلطة بخلاف ما إذا قلت : هذا قمح مختلط فلك أن تقول : مختلط بماذا فيقول : من كذا وكذا فلو اقتصر على قوله : من قمح وكان منه ومن وغيره أيضاً لكان اقتصاره عليه مختلط بما طلب من البيان وأما المعنى : فلأنه تعالى كما قال : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن صلصال ﴾ [الرحمن : 14] أي من طين حر كذلك بين أن خلق الجان من نار خالصة فإن قيل : فكيف يصح قوله : ﴿ مَّارِجٍ ﴾ بمعنى مختلط مع أنه خالص ؟ نقول : النار إذا قويت التهبت ، ودخل بعضها في بعض كالشيء الممتزج امتزاجاً جيداً لا تميز فيه بين الأجزاء المختلطة وكأنه من حقيقة واحدة كما في الطين المختمر ، وذلك يظهر في التنور المسجور ، إن قرب منه الحطب تحرقه فكذلك مارج بعضها ببعض لا يعقل بين أجزائها دخان وأجزاء أرضية ، وسنبين هذا في قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ البحرين ﴾ [الرحمن : 19] فإن قيل : المقصود تعديد النعم على الإنسان ، فما وجه بيان خلق الجان ؟ نقول : الجواب عندي من وجوه أحدها : ما بينا أن قوله :

(171/739)

﴿ رَبِّكُمَا ﴾ خطاب مع الإنس والجن يعدد عليهما النعم بل على الإنسان وحده ثانيها : أنه بيان فضل الله تعالى على الإنسان ، حيث بين أنه خلق من أصل كثيف كدر ، وخلق الجان

من أصل لطيف ، وجعل الإنسان أفضل من الجان فإنه إذا نظر إلى أصله ، علم أنه ما نال الشرف إلا بفضل الله تعالى فكيف يكذب بآلاء الله ثالثها : أن الآية مذكورة لبيان القدرة لا لبيان النعمة ، وكأنه تعالى لما بين النعم الثمانية التي ذكرها في أول السورة ، فكأنه ذكر الثمانية لبيان خروجها عن العدد الكثير الذي هو سبعة ودخولها في الزيادة التي يدل عليها الثمانية كما بينا وقلنا إن العرب عند الثامن تذكر الواو إشارة إلى أن الثامن من جنس آخر ، فبعد تمام السبعة الأول شرع في بيان قدرته الكاملة ، وقال : هو الذي خلق الإنسان من تراب والجان من نار : (فبأي آلاء) الكثيرة المذكورة التي سبقت من السبعة ، والتي دلت عليها الثامنة : (تكذبان) وإذا نظرت إلى ما دلت عليه الثمانية وإلى قوله : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ * فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 29 ، 30] ، يظهر لك صحة ما ذكر أنه بين قدرته وعظمته ثم يقول : فبأي تلك الآلاء التي عددتها أولاً تكذبان ، وسنذكر تمامه عند تلك الآيات .

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (18)

وفيه وجوه أولها مشرق الشمس والقمر ومغربهما ، والبيان حينئذ في حكم إعادة ما سبق مع زيادة ، لأنه تعالى لما قال : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : 5] دل على أن لهما مشرقين ومغربين ، ولما ذكر : ﴿ خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ البيان ﴾ [الرحمن : 3 ، 4] دل على أنه مخلوق من شيء فبين أنه الصلصال الثاني : مشرق الشتاء ومشرق الصيف فإن قيل : ما الحكمة في اختصاصهما مع أن كل يوم من ستة أشهر للشمس مشرق ومغرب يخالف بعضها البعض ؟ نقول : غاية انحطاط الشمس في الشتاء وغاية ارتفاعها في الصيف والإشارة إلى الطرفين تتناول ما بينهما فهو كما يقول القائل في وصف ملك عظيم له المشرق والمغرب ويفهم أن له ما بينهما أيضاً الثالث : التثنية إشارة إلى النوعين الحاصرين كما بينا أن كل شيء فإنه ينحصر في قسمين فكأنه قال : رب مشرق الشمس ومشرق غيرها فهما مشرقان فتناول الكل ، أو يقال : مشرق الشمس والقمر وما يغرض إليهما العاقل من مشرق غيرهما فهو تثنية في معنى الجمع .

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في تعلق الآية بما قبلها فنقول : لما ذكر تعالى المشرق والمغرب وهما حركتان في الفلك ناسب ذلك ذكر البحرين لأن الشمس والقمر يجريان في الفلك كما يجري الإنسان في البحر قال

تعالى : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : 33] فذكر البحرين عقيب المشرقين والمغربين ولأن المشرقين والمغربين فيهما إشارة إلى البحر لانحصار البر والبحر بين المشرق والمغرب ، لكن البر كان مذكوراً بقوله تعالى : ﴿ والأرض وَضَعَهَا ﴾ [الرحمن : 10] فذكر ههنا ما لم يكن مذكوراً .

المسألة الثانية :

(173/739)

﴿ مَرَجَ ﴾ ، إذا كان متعدياً كان بمعنى خلط أو ما يقرب منه فكيف قال تعالى : ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الرحمن : 15] ولم يقل : من ممروج ؟ نقول : مرج متعد ومرج بكسر الراء لازم فالمارج والمريج من مرج يمرج كفرح يفرح ، والأصل في فعل أن يكون غريزياً والأصل في الغريزي أن يكون لازماً ، ويثبت له حكم الغريزي ، وكذلك فعل في كثير من المواضع .

المسألة الثالثة :

(174/739)

في البحرين وجوه أحدها : بحر السماء وبحر الأرض ثانيها : البحر الحلو والبحر المالح كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى البحران هذا عَذبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ [فاطر : 12] وهو أصح وأظهر من الأول ثالثها : ما ذكر في المشرقين وفي قوله : ﴿ تُكَذِّبَانِ ﴾ إنه إشارة إلى النوعين الحاصرين فدخل فيه بحر السماء وبحر الأرض والبحر العذب والبحر المالح ، رابعها : أنه تعالى خلق في الأرض بحاراً تحيط بها الأرض وببعض جزائرها يحيط الماء وخلق بحراً محيطاً بالأرض وعليه الأرض وأحاط به الهواء كما قال به أصحاب علم الهيئة وورد به أخبار مشهورة ، وهذه البحار التي في الأرض لها اتصال بالبحر المحيط ، ثم إنهما لا يبغيان على الأرض ولا يغطيانها بفضل الله تعالى لتكون الأرض بارزة يتخذها الإنسان مكاناً وعند النظر إلى أمر الأرض يحار الطبيعي ويتلجلج في الكلام ، فإن عندهم موضع الأرض بطبعه أن يكون في المركز ويكون الماء محيطاً بجميع جوانبه ، فإذا قيل لهم : فكيف ظهرت الأرض من الماء ولم ترسب يقولون لانجذاب البحار إلى بعض جوانبها ، فإن قيل : لماذا انجذب ؟ فالذي يكون عنده قليل من العقل يرجع إلى الحق ويجعله بإرادة الله تعالى ومشيئته ، والذي يكون عديم العقل يجعل سببه من الكواكب وأوضاعها واختلاف مقابلاتها ، وينقطع في كل مقام مرة بعد أخرى ، وفي آخر الأمر إذا قيل له : أوضاع الكواكب لم اختلفت على الوجه الذي أوجب البرد في بعض الأرض دون بعض آخر صار كما قال تعالى : ﴿ فَبُهِتَ الذى كَفَرَ ﴾ [البقرة : 258] ويرجع إلى الحق

إن هداه الله تعالى .

المسألة الرابعة :

(175/739)

إذا كان المرج بمعنى الخلط فما الفائدة في قوله تعالى : ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ ؟ نقول قوله تعالى : ﴿مَرَجَ البحرين﴾ أي أرسل بعضهما في بعض وهما عند الإرسال بحيث يلتقيان أو من شأنهما الاختلاط والالتقاء ولكن الله تعالى منعهما عما في طبعهما ، وعلى هذا يلتقيان حال من البحرين ، ويحتمل أن يقال : من محذوف تقديره تركهما فهما يلتقيان إلى الآن ولا يمتزجان وعلى الأول : فالفائدة إظهار القدرة في النفع فإنه إذا أرسل الماءين بعضهما على بعض وفي طبعهما بخلق الله وعادته السيلان والالتقاء ويمنعهما البرزخ الذي هو قدرة الله أو بقدرة الله ، يكون أدل على القدرة مما إذا لم يكونا على حال يلتقيان ، وفيه إشارة إلى مسألة حكمية وهي : أن الحكماء اتفقوا على أن الماء له حيز واحد بعضه ينجذب إلى بعض كأجزاء الزئبق غير أن عند الحكماء المحققين ذلك بإجراء الله تعالى ذلك عليه وعند من يدعي الحكمة ولم يوفقه الله من الطبيعيين يقول : ذلك له بطبعه ، فقوله : ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي من شأنهما أن يكون مكانهما واحداً ، ثم إنهما بقيا في مكان متميزين فذلك برهان القدرة

والاختيار وعلى الوجه الثاني : الفائدة في بيان القدرة أيضاً على المنع من الاختلاط ، فإن الماءين إذا تلاقيا لا يمتزجان في الحال بل يبقيان زماناً يسيراً كالماء المسخن إذا غمس إناء مملوء منه في ماء بارد إن لم يمكث فيه زماناً لا يمتزج بالبارد ، لكن إذا دام مجاورتهما فلا بد من الامتزاج فقال تعالى : ﴿ مَرَجَ البحرين ﴾ خلاهما ذهاباً إلى أن يلتقيان ولا يمتزجان فذلك بقدرة الله تعالى .

(176/739)

ثم قال تعالى : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا من منعه إياهما من الجريان على عادتهما ، والبرزخ الحاجز وهو قدرة الله تعالى في البعض وبقدرة الله في الباقي ، فإن البحرين قد يكون بينهما حاجز أرضي محسوس وقد لا يكون ، وقوله : ﴿ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ فيه وجهان أحدهما : من البغي أي لا يظلم أحدهما على الآخر بخلاف قول الطبيعي حيث يقول : الماءآن كلاهما جزء واحد ، فقال : هما لا ﴿ يَبْغِيَانِ ﴾ ذلك وثانيهما : أن يقال : لا يبغيان من البغي بمعنى الطلب أي لا يطلبان شيئاً ، وعلى هذا ففيه وجه آخر ، وهو أن يقال : إن يبغيان لا مفعول له معين ، بل هو بيان أنهما لا يبغيان في ذاتهما ولا يطلبان شيئاً أصلاً ، بخلاف ما يقول الطبيعي : أنه يطلب الحركة والسكون في موضع عن موضع .

يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (22) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (23)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في القراءات التي فيها قرىء يخرج من خرج ويخرج بفتح الراء من أخرج وعلى الوجهين فاللؤلؤ والمرجان مرفوعان ويخرج بكسر الراء بمعنى يخرج الله ونخرج بالنون المضمومة والراء المكسورة ، وعلى القراءتين ينصب اللؤلؤ والمرجان ، اللؤلؤ كبار الدر والمرجان صغاره وقيل : المرجان هو الحجر الأحمر .

المسألة الثانية :

(177/739)

اللؤلؤ لا يخرج إلا من المالح فكيف قال : ﴿ مِنْهُمَا ﴾ ؟ نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما : أن ظاهر كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من كلام بعض الناس الذي لا يوثق بقوله ، ومن علم أن اللؤلؤ لا يخرج من الماء العذب وهب أن الغواصين ما أخرجوه إلا من المالح وما وجدوه إلا فيه ، لكن لا يلزم من هذا أن لا يوجد في الغير سلمنا لم قلتم : أن الصدف يخرج بأمر الله من الماء العذب إلى الماء المالح وكيف يمكن الجزم والأمور الأرضية الظاهرة خفيت

عن التجار الذين قطعوا المفاوز وداروا البلاد فكيف لا يخفى أمر ما في قعر البحر عليهم ثانيهما : أن نقول : إن صح قولهم في اللؤلؤ إنه لا يخرج إلا من البحر المالح فنقول : فيه وجوه أحدها : أن الصدف لا يتولد فيه اللؤلؤ إلا من المطر وهو بحر السماء ثانيها : أنه يتولد في ملتقاهما ثم يدخل الصدف في المالح عند انعقاد الدر فيه طالباً للملوحة كالمتوحمة التي تشتهي الملوحة أوائل الحمل فيثقل هناك فلا يمكنه الدخول في العذب ثالثها : أن ما ذكرتم إنما كان يرد أن لو قال : يخرج من كل واحد منهما فأما على قوله : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ﴾ لا يرد إذ الخارج من أحدهما مع أن أحدهما مبهم خارج منهما كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ﴾ [نوح : 16] يقال : فلان خرج من بلاد كذا ودخل في بلاد كذا ولم يخرج إلا من موضع من بيت من محلة في بلدة رابعها : أن (من) ليست لابتداء شيء كما يقال : خرجت الكوفة بل لابتداء عقلي كما يقال : خلق آدم من تراب ووجدت الروح من أمر الله فكذلك اللؤلؤ يخرج من الماء أي منه يتولد .

المسألة الثالثة :

أي نعمة عظيمة في اللؤلؤ والمرجان حتى يذكرهما الله مع نعمة تعلم القرآن وخلق الإنسان ؟

وفي الجواب قولان : الأول : أن نقول : النعم منها خلق الضروريات كالأرض التي هي مكاننا ولولا الأرض لما أمكن وجود التمكين وكذلك الرزق الذي به البقاء ومنها خلق المحتاج إليه وإن لم يكن ضرورياً كأنواع الحبوب وإجراء الشمس والقمر ، ومنها النافع وإن لم يكن محتاجاً إليه كأنواع الفواكه وخلق البحار من ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ والفلك التى تَجْرِى فِي البحر بِمَا يَنفَعُ الناس ﴾ [البقرة : 164] ومنها الزينة وإن لم يكن نافعاً كاللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى :

﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [فاطر : 12] فالله تعالى ذكر أنواع النعم الأربعة التي تتعلق بالقوى الجسمانية وصدرها بالقوة العظيمة التي هي الروح وهي العلم بقوله : ﴿ عَلَّمَ القرءان ﴾ [الرحمن : 2] والثاني : أن نقول : هذه بيان عجائب الله تعالى لا بيان النعم ، والنعم قد تقدم ذكرها هنا ، وذلك لأن خلق الإنسان من صلصال ، وخلق الجان من نار ، من باب العجائب لا من باب النعم ، ولو خلق الله الإنسان من أي شيء خلقه لكان إنعاماً ، إذا عرفت هذا فنقول : الأركان أربعة ، التراب والماء والهواء والنار فالله تعالى بين بقوله : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن صلصال ﴾ [الرحمن : 14] أن الإنسان خلقه من تراب وطين وبين بقوله : ﴿ خَلَقَ الجان مِن مَّارِجٍ مّن نَّارٍ ﴾ [الرحمن : 15] أن النار أيضاً أصل لمخلوق عجيب ، وبين بقوله : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ أن الماء أصل لمخلوق آخر ،

كالحيوان عجيب ، بقي الهواء لكنه غير محسوس ، فلم يذكر أنه أصل مخلوق بل بين كونه منشأ للجواري في البحر كالأعلام .

فقال : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (24) ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 86. 91 ﴾

(179/739)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾

لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير من السماء والأرض ، وما فيهما من الدلالات على وحدانيته وقدرته ذكر خلق العالم الصغير فقال : ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ باتفاق من أهل التأويل يعني آدم .

﴿ مِن صَلْصَالٍ كالفخار ﴾ الصلصال الطين اليابس الذي يسمع له صلصلة ، شبهه بالفَخَّار الذي طبخ .

وقيل : هو طين خلط برمل .

وقيل : هو الطين المنتن من صَلَّ اللحمُ وأَصلَّ إذا أنتن ؛ وقد مضى في "الحجر" .

وقال هنا : ﴿ مِن صَلْصَالٍ كالفخار ﴾ وقال هناك : ﴿ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : 26] .

وقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴾ [الصافات : 11] وقال : ﴿ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : 59] وذلك متفق المعنى ؛ وذلك أنه أخذ من تراب الأرض فعجنه فصار طيناً ، ثم انتقل فصار كالحمإ المسنون ، ثم انتقل فصار صلصالاً كالفخَّار .

﴿ وَخَلَقَ الجآنَ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ قال الحسن : الجانّ إبليس وهو أبو الجنّ .

وقيل : الجانّ واحد الجنّ ، والمارج اللهب ؛ عن ابن عباس ، وقال : خلق الله الجانَّ من خالص النار .

وعنه أيضاً من لسانها الذي يكون في طرفها إذا التهبت .

وقال الليث : المارج الشُّعْلة الساطعة ذات اللهب الشديد .

وعن ابن عباس أنه اللهب الذي يعلو النار فيختلط بعضه ببعض أحمر وأصفر وأخضر ؛ ونحوه عن مجاهد ؛ وكله متقارب المعنى .

وقيل : المارج كل أمر مرسل غير ممنوع ، ونحوه قول المبرد ؛ قال المبرد : المارج النار المرسلة التي لا تمنع .

وقال أبو عبيدة والحسن : المارج خلط النار ، وأصله من مرج إذا اضطرب واختلط ؛

ويروى أن الله تعالى خلق نارين فمرج إحداهما بالأخرى ، فأكلت إحداهما الأخرى وهي نار السموم فخلق منها إبليس .

(180/739)

قال القُشَيريّ : والمارج في اللغة المرسل أو المختلط وهو فاعل بمعنى مفعول ؛ كقوله : ﴿ مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق : 6] و ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 21] والمعنى ذو مرج ؛ قال الجوهري في الصحاح : و ﴿ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ نار لا دخان لها خلق منها الجان .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ أي هو رب المشرقين .

وفي الصافات ﴿ وَرَبُّ المشارق ﴾ [الصافات : 5] وقد مضى الكلام في ذلك هنالك .

قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾

﴿ مَرَجَ ﴾ أي خَلَّى وأرسل وأهمل ؛ يقال : مرج السلطان الناس إذا أهملهم .

وأصل المَرْج الإهمال كما تُمْرَج الدابّة في المرعى .

ويقال : مَرَجَ خَلَطَ .

وقال الأخفش : ويقول قوم أَمْرَج البحرين مثل مَرَج ، فَعَل وأَفْعَل بمعنًى .

﴿ البحرين ﴾ قال ابن عباس : بحر السماء وبحر الأرض ؛ وقاله مجاهد وسعيد بن جبير .

﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ في كل عام .

وقيل : يلتقي طرفاهما .

وقال الحسن وقتادة : بحر فارس والروم .

وقال ابن جريج : إنه البحر المالِح والأنهار العذبة .

وقيل : بحر المشرق والمغرب يلتقي طرفاهما .

وقيل : بحر اللؤلؤ والمرجان .

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ أي حاجز فعلى القول الأوّل ما بين السماء والأرض ؛ قاله الضحاك .

وعلى القول الثاني الأرض التي بينهما وهي الحجاز ؛ قاله الحسن وقتادة .

وعلى غيرهما من الأقوال القدرة الإلهية على ما تقدّم في "الفرقان" .

وفي الخبر عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أن الله تعالى كلّم الناحية الغربية فقال : إني جاعل فيك عباداً لي يُسبِّحوني ويُكبِّروني ويهلِّلوني ويُمجّدوني فكيف أنت لهم ؟ فقالت : أُغرقهم يا ربّ .

قال : إني أحملهم على يدي ، وأجعل بأسك في نواحيك .

ثم كَلّمَ الناحية الشرقية فقال : إني جاعل فيك عباداً لي يُسبّحوني ويكَبّروني ويهلّلُوني ويمجّدوني فكيف أنت لهم ؟ قالت : أسبّحكَ معهم إذا سَبَّحوكَ ، وأكبّرك معهم إذا كبروك ، وأُهَلّلكَ معهم إذا هَلَّلُوكَ ، وأُمَجّدُك معهم إذا مجَّدوك ؛ فأثابها الله الْحِلية وجعل بينهما برزخاً ، وتحوّل أحدهما مِلحاً أُجَاجاً ، وبقي الآخر على حالته عذباً فُرَاتاً " ذكر هذا الخبر الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله قال : حدّثنا صالح بن محمد ، حدّثنا القاسم العمريّ عن سهل عن أبيه عن أبي هريرة : ﴿ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ قال قتادة : لا يبغيان على الناس فيغرقانهم ؛ جعل بينهما وبين الناس يَبَساً .

وعنه أيضاً ومجاهد : لا يبغي أحدهما على صاحبه فيغلبه .

ابن زيد : المعنى ﴿ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ أن يلتقيا ، وتقدير الكلام : مرج البحرين يلتقيان ، لولا البرزخ الذي بينهما لا يبغيان أن يلتقيا .

وقيل : البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ؛ أي بينهما مدّة قدرها الله وهي مدّة الدنيا فهما لا يبغيان ؛ فإذا أذن الله في انقضاء الدنيا صار البحران شيئاً واحداً ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا البحار فُجِّرَتْ ﴾ [الانفطار : 3] وقال سهل بن عبد الله : البحران طريق الخير والشر ، والبرزخ الذي بينهما التوفيق والعصمة .

قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ أي يخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان ،

كما يخرج من التراب الحبّ والعصف والريحان .

وقرأ نافع وأبو عمرو "يُخْرَجُ" بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول .

الباقون "يَخْرُجُ" بفتح الياء وضم الراء على أن اللؤلؤ هو الفاعل .

وقال : "مِنْهُمَا" وإنما يخرج من الملح لا العذب لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما ؛ كقوله تعالى :

﴿ يَامَعْشَرَ الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ ﴾ [الأنعام : 130] وإنما الرسل من الإنس دون الجن ؛ قاله الكلبي وغيره .

(182/739)

قال الزجاج : قد ذكرهما الله فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ الله سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ [نوح : 15] والقمر في سماء الدنيا ولكن أجمل ذكر السبع فكأن ما في إحداهنّ فيهنّ .

وقال أبو عليّ الفارسيّ : هذا من باب حذف المضاف ؛ أي من أحدهما ؛ كقوله : ﴿ على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] أي من إحدى القريتين .

وقال الأخفش سعيد : زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب .

وقيل : هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ ومن الآخر المرجان .

ابن عباس : هما بحرا السماء والأرض .

فإذا وقع ماء السماء في صدف البحر انعقد لؤلؤاً فصار خارجاً منهما ؛ وقاله الطبري .

قال الثعلبي : ولقد ذُكر لي أن نواة كانت في جوف صدفة ، فأصابت القطرةُ بعض النواة ولم تُصب البعضَ ، فكان حيث أصاب القطرة من النواة لؤلؤة وسائرها نواة .

وقيل : إن العذب والملح قد يلتقيان ، فيكون العذب كاللقاح للملح ، فنسب إليهما كما ينسب الولد إلى الذكر والأنثى وإن ولدته الأنثى ؛ لذلك قيل : إنه لا يخرج اللؤلؤ إلا من موضع يلتقي فيه العذب والملح .

وقيل : المرجان عظام اللؤلؤ وكباره ؛ قاله عليّ وابن عباس رضي الله عنهما .

واللؤلؤ صغاره .

وعنهما أيضاً بالعكس : إن اللؤلؤ كبار اللؤلؤ والمرجان صغاره ؛ وقاله الضحاك وقتادة .

وقال ابن مسعود وأبو مالك : المرجان الخرز الأحمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(183/739)

وقال الآلوسى :

﴿ خَلَقَ الإنسان مِن صلصال كالفخار ﴾

تمهيد للتوبيخ على إخلالهم بمواجب شكر النعمة المتعلقة بذاتي كل واحد من الثقلين ، والمراد بالإنسان آدم عند الجمهور .

وقيل : الجنس وساغ ذلك لأن أباهم مخلوق مما ذكر ، والصلصال الطين اليابس الذي له صلصلة ، وأصله كما قال الراغب تردد الصوت من الشيء اليابس .

ومنه قيل : صل المسمار ، وقيل : هو المنتن من الطين من قولهم : صل اللحم ، وكأنه أصله صلال فقلبت إحدى اللامين صاداً ويبعد ذلك قوله سبحانه : ﴿ كالفخار ﴾ وهو الخذف أعني ما أحرق من الطين حتى تحجر وسمي بذلك لصوته إذا نقر كأنه تصور بصورة من يكثر التفاخر ، وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب جعله طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم صلصالاً فلا تنافي بين الآية الناطقة بأحدها وبين ما نطق بأحد الآخرين ﴿ وَخَلَقَ الجان ﴾ هو أبو الجن وهو إبليس قاله الحسن ، وقال مجاهد : هو أبو الجن وليس بإبليس ، وقيل : هو اسم جنس شامل للجن كلهم .

﴿ مِن مَّارِجٍ ﴾ من لهب خالص لا دخان فيه كما هو رواية عن ابن عباس وقيل : هو اللهب المختلط بسواد النار ، أو بخضرة وصفرة وحمرة كما روى عن مجاهد من مرج الشيء إذا اضطرب واختلط ، و﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية ، وقوله تعالى : ﴿ مّن نَّارٍ ﴾

بيان لمارج والتنكير للمطابقة ولأن التعريف لكنه عليه فكأنه قيل : خلق من نار خالصة ، أو مختلطة على التفسيرين ، وجوز جعل ﴿ مِنْ ﴾ فيه ابتدائية فالتنكير لأنه أريد نار مخصوصة متميزة من بين النيران لا هذه المعروفة ، وأياً ما كان فالمارج بالنسبة إلى الجان كالتراب بالنسبة إلى الإنسان ، وفي الآية رد على من يزعم أن الجن نفوس مجردة .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مما أفاض عليكم في تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم .

(184/739)

﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو رب الخ ، أو الذي فعل ما ذكر من الأفاعيل البديعة رب مشرقي الشمس صيفاً وشتاءاً ومغربيها كذلك على ما أخرجه جماعة عن ابن عباس ، وروى عن مجاهد .

وقتادة .

وعكرمة أن ﴿ المشرقين ﴾ مشرقاً الشتاء ومشرق الصيف ، و ﴿ المغربين ﴾ مغرب الشتاء ومغرب الصيف بدون ذكر الشمس ، وقيل : المشرقان مشرقا الشمس والقمر ، والمغربان مغرباهما .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن ﴿ المشرقين ﴾ مشرق الفجر ومشرق الشفق ، و ﴿ المغربين ﴾ مغرب الشمس ومغرب الشفق ، وحكى أبو حيان في المغربين نحو هذا ، وفي المشرقين أنهما مطلع الفجر ومطلع الشمس والمعول ما عليه الأكثرون من مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما ، ومن قضية ذلك أن يكون سبحانه رب ما بينهما من الموجودات ، وقيل : ﴿ رَبّ ﴾ مبتدأ والخبر قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ ﴾ [الرحمن : 19] الخ ، وليس بذاك .

وقرأ أبو حيوة .

وابن أبي عبلة ﴿ رَبّ ﴾ بالجر على أنه بدل من [الرحمن : 16] .

﴿ فَبِأَيّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ مما في ذلك من فوائد لا تحصى كاعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل في وقته .

﴿ مَرَجَ البحرين ﴾ أي أرسلهما وأجراهما من مرجت الدابة في المرعى أرسلتها فيه ، والمعنى أرسل البحر الملح والبحر العذب ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ أي يتجاوران وتتماس سطوحهما لا فصل بينهما في مرأى العين ، وقيل : أرسل بحري فارس والروم يتلقيان في المحيط لأنهما خليجان ينشعبان منه ، وروى هذا عن قتادة لكنه أورد عليه أنه لا يوافق قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ البحرين هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ [الفرقان : 53]

والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، وعليه قيل : جملة ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ حال مقدرة إن كان المراد إرسالهما إلى المحيط ، أو المعنى اتحاد أصليهما إن كان المراد إرسالهما إليه .

(185/739)

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ أي حاجز من قدرة الله تعالى ، أو من أجرام الأرض كما قال قتادة ﴿ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ أي لا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال الخاصية بالكلية بناءاً على الوجه الأول فيما سبق ، أو لا يتجاوزان حديهما بإغراق ما بينهما بناءاً على الوجه الثاني ، وروى هذا عن قتادة أيضاً ، وفي معناه ما أخرجه عبد الرزاق .

وابن المنذر عن الحسن ﴿ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ عليكم فيغرقانكم ، وقيل : المعنى لا يطلبان حالاً غير الحال التي خلقا عليها وسخرا لها .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مما لكما في ذلك من المنافع .

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ ﴾ صغار الدر ﴿ وَالْمَرْجَانُ ﴾ كباره كما أخرج ذلك عبد بن حميد .

وابن جرير عن علي كرم الله تعالى وجهه .

ومجاهد ، وأخرجه عبد عن الربيع .

وجماعة منهم المذكوران .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس ، وأخرج ابن جرير عنه أنه قال : ﴿ اللؤلؤ ﴾ ما عظم منه ﴿ وَالمَرْجَانُ ﴾ اللؤلؤ الصغار .

وأخرج هو .

وعبد الرزاق .

وعبد بن حميد عن قتادة نحوه ، وكذا أخرج ابن الأنباري في الوقف والابتداء عن مجاهد ، وأظن أنه إن اعتبر في اللؤلؤ معنى التلألؤ واللمعان وفي المرجان معنى المرج والاختلاط فالأوفق لذلك ما قيل : ثانياً فيهما ، وأخرج عبد الرزاق .

والفريابي .

وعبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن المنذر .

والطبري عن ابن مسعود أنه قال : المرجان الخرز الأحمر أعني البسذ وهو المشهور المتعارف ، و﴿ اللؤلؤ ﴾ عليه شامل للكبار والصغار ، ثم إن اللؤلؤ بناء غريب قيل : لا يحفظ منه في كلام العرب أكثر من خمسة هو ، والجؤجؤ الصدر وقرية بالبحرين ، والدؤدؤ

آخر الشهر أو ليلة خمس وست وسبع وعشرين .

أو ثمان وتسع وعشرين .

أو ثلاث ليال من آخره ، والبؤبؤ بالباء الموحدة الأصل .

والسيد الظريف .

ورأس المكحلة .

وإنسان العين .

(186/739)

ووسط الشيء ، واليؤيؤ بالياء آخر الحروف طائر كالباشق ، ورأيت في كتب اللغة على هذا البناء غيرها وهو الضؤضؤ الأضل للطائر .

والنؤنؤ بالنون المكثر تقليب الحدقة .

والعاجز الجبان ، ومن ذلك شؤشؤ دعاء الحمار إلى الماء وزجر الغنم والحمار للمضي .

أو هو دعاء للغنم لتأكل ، أو تشرب .

وأما المرجان فقد ذكره "صاحب القاموس" في مادة مرج ولم يذكر ما يفهم منه أنه معرب ، وقال أبو حيان في "البحر" : هو اسم أعجمي معرب .

وقال ابن دريد : لم أسمع فيه بفعل متصرف .

وقرأ طلحة اللؤلؤ بكسر اللام الأخيرة .

وقرء اللؤلى بقلب الهمزة المتطرفة ياءاً ساكنة بعد كسر ما قبلها وكل من ذلك لغة .

وقرأ نافع .

وأبو عمرو ﴿ يَخْرُجُ ﴾ مبنياً للمفعول من الإخراج ، وقرىء ﴿ يَخْرُجُ ﴾ مبنياً للفاعل منه ونصب ﴿ اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ أي يخرج الله تعالى .

واستشكلت الآية على تفسير البحرين بالعذب والملح دون بحري فارس والروم بأن المشاهد خروج ﴿ اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ من أحدهما وهو الملح .

فكيف قال سبحانه : ﴿ مِنْهُمَا ﴾ ؟ وأجيب بأنهما لما التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز أن يقال : يخرجان منهما كما يقال يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميعه ولكن من بعضه ، وكما تقول خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محاله بل من دار واحدة من دوره ، وقد ينسب إلى الإثنين ما هو لأحدهما كما يسند إلى الجماعة ما صدر من واد منهم .

ومثله على ما في الانتصاف ﴿ على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] وعلى ما نقل عن الزجاج ﴿ سَبْعَ سموات طِبَاقاً وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ [نوح : 15 ، 16]

، وقيل : إنهما لا يخرجان إلا من ملتقى العذب والملح ويرده المشاهدة وكأن من ذكره مع ما تقدم لم يذكره لكونه قولاً آخر بل ذكره لتقوية الاتحاد فحينئذ تكون علاقة التجوز أقوى .

(187/739)

وقال أبو علي الفارسي : هذا من باب حذف المضاف والتقدير يخرج من أحدهما وجعل ﴿ مِّنَ القريتين ﴾ من ذلك .

وهو عندي تقدير معنى لا تقدير إعراب .

وقال الرماني : العذب منهما كاللقاح للملح فهو كما يقال الولد يخرج من الذكر والإنثى أي بواسطتهما ، وقال ابن عباس ، وعكرمة : تكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر لأن الأصداف في شهر نيسان تتلقى ماء المطر بأفواهها فتتكون منه ، ولذا تقل في الجدب ، وجعل عليه ضمير ﴿ مِنْهُمَا ﴾ للبحرين باعتبار الجنس ولا يحتاج إليه بناءاً على ما أخرجه ابن جرير عنه أن المراد بالبحرين بحر السماء وبحر الأرض .

وأخرج هو .

وابن المنذر عن ابن جبير نحوه إلا أن في تكون المرجان بناءاً على تفسيره بالبسذ من ماء المطر كاللؤلؤ تردداً وإن قالوا : إنه يتكون في نيسان ، وقال بعض الأئمة : ظاهر كلام الله تعالى

أولى بالاعتبار من كلام الناس ، ومن علم أن اللؤلؤ لا يخرج من الماء العذب وهب أن الغواصين ما أخرجوه إلا من الملح ، ولكن لم قلتم أن الصدف لا يخرج بأمر الله تعالى من الماء العذب إلى الماء الملح فإن خروجه محتمل تلذذاً بالملوحة كما تلتذ المتوحمة بها في أوائل حملها حتى إذا خرج لم يمكنه العود ، وكيف يمكن الجزم بما قلتم وكثير من الأمور الأرضية الظاهرة خفيت عن التجار الذين قطعوا المفاوز وداروا البلاد فكيف لا يخفى أمر ما في قعر البحر عليهم ، والله تعالى أعلم .

ومن غريب التفسير : ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال : ﴿ مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ ﴾ [الرحمن : 19] علي .

وفاطمة رضي الله تعالى عنهما ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما .

وأخرج عن إياس بن مالك نحوه لكن لم يذكر فيه البرزخ ، وذكر الطبرسي من الأمامية في تفسيره "مجمع البيان" الأول بعينه عن سلمان الفارسي .

وسعيد بن جبير .

وسفيان الثوري ، والذي أراه أن هذا إن صح ليس من التفسير في شيء بل هو تأويل كتأويل المتصوفة لكثير من الآيات ، وكل من عليّ .

وفاطمة رضي الله تعالى عنهما عندي أعظم من البحر المحيط علماً وفضلاً ، وكذا كل من الحسنين رضي الله تعالى عنهما أبهى وأبهج من اللؤلؤ والمرجان بمراتب جاوزت حدّ الحسبان .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مما في ذلك من الزينة والمنافع الجليلة فقد ذكر الأطباء أن ﴿ اللؤلؤ ﴾ يمنع الخفقان .

والبحر .

وضعف الكبد .

والكلى .

والحصى .

وحرقة البول .

والسدد .

واليرقان .

وأمراض القلب .

والسموم .

والوسواس .

والجنون .

والتوحش .

والربو شرباً .

والجذام .

والبرص .

والبهق .

والآثار مطلقاً بالطلي إلى غير ذلك ، وأن المرجان أعني البسذ يفرح ويزيل فساد الشهوة ولو تعليقاً .

ونفث الدم .

والطحال شرباً .

والدمعة .

والبياض .

والسلاق .

والجرب كحلاً إلى غير ذلك مما هو مذكور في كتبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) ﴾

هذا انتقال إلى الاعتبار بخلق الله الإنسان وخلقه الجن .

والقول في مجيء المسند فعلاً كالقول في قوله : ﴿ علم القرآن ﴾ [الرحمن : 2] .

والمراد بالإنسان آدم وهو أصل الجنس وقوله : ﴿ من صلصال ﴾ تقدم نظيره في سورة الحجر (2) .

والصلصال : الطين اليابس .

والفخار : الطين المطبوخ بالنار ويُسمى الخزَف .

وظاهر كلام المفسرين أن قوله : ﴿ كالفخار ﴾ صفة ل ﴿ صلصال ﴾ .

وصرح بذلك الكواشي في "تلخيص التبصرة" ولم يعرجوا على فائدة هذا الوصف .

والذي يظهر لي أن يكون كالفخار حالاً من ﴿ الإنسان ﴾ ، أي خلقه من صلصال فصار الإنسان كالفخار في صورة خاصة وصلابة .

والمعنى أنه صلصال يابس يشبه يبس الطين المطبوخ والمشبه غير المشبه به ، وقد عبر عنه

بالحمأ المسنون ، والطين اللازب ، والتراب .

و﴿ الجانُّ ﴾ : الجن والمراد به إبليس وما خرج عنه من الشياطين ، وقد حكى الله عنه قوله : ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ [ص : 76] .

والمارج : هو المختلط وهو اسم فاعل بمعنى اسم المفعول مثل دافق ، وعيشة راضية ، أي خلق الجان من خليط من النار ، أي مختلط بعناصر أخرى إلا أن الناس أغلَب عليه كما كان التراب أغلب على تكوين الإنسان مع ما فيه من عنصر النار وهو الحرارة الغريزية والمقصود هنا هو خلق الإنسان بقرينة تذييله بقوله : ﴿ فبأي ألاء ربكما تكذبان ﴾ [الرحمن : 16] وإنما قُرن بخلق الجان إظهاراً لكمال النعمة في خلق الإنسان من مادة لَينة قابلاً للتهذيب والكمال وصدور الرفق بالموجودات التي معه على وجه الأرض .

وهو أيضاً تذكير وموعظة بمظهر من مظاهر قدرة الله وحكمته في خلق نوع الإِنسان وجنس الجان .

(190/739)

وفيه إيماء إلى ما سبق في القرآن النازِل قبل هذه السورة من تفضيل الإنسان على الجان إذ أمر الله الجانّ بالسجود للإِنسان ، وما ينطوي في ذلك من وفرة مصالح الإِنسان على مصالح

الجان ، ومِن تأهله لعمران العالم لكونه مخلوقاً من طينته إذ الفضيلة تحصل من مجموع أوصاف لا من خصوصيات مفردة .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (16)

هذا توبيخ على عدم الاعتراف بنعم الله تعالى ، جيء فيه بمثل ما جيء به في نظيره الذي سبقه ليكون التوبيخ بكلام مثلِ سابقه ، وذلك تكريرٌ من أسلوب التوبيخ ونحوه أن يكون بمثل الكلام السابق ، فحق هذا أن يسمى بالتعداد لا بالتكرار ، لأنه ليس تكريراً لمجرد التأكيد ، فالفاء من قوله : ﴿ فبأي ألاء ربكما ﴾ هنا تفريع على قوله : ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ [الرحمن : 17] لأن ربوبيته تقتضي الاعتراف له بنعمة الإيجاد والإمداد وتحصل من تماثل الجمل المكررة فائدة التأكيد والتقرير أيضاً فيكون للتكرير غرضان كما قدمناه في الكلام على أول السورة .

وفائدة التكرير توكيد التقرير بما لله تعالى من نعم على المخاطبين وتعريض بتوبيخهم على إشراكهم بالله أصناماً لا نعمة لها على أحد ، وكلها دلائل على تفرد الإلهية .

وعن ابن قتيبة "أن الله عدّد في هذه السورة نعماء ، وذكر خلقه آلاءه ثم أتبع كل خلة وَصَفها ، ونعمة وضعها بهذه ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقررهم بها" أ هـ .

وقال الحسين بن الفضل : التكرير طرد للغفلة وتأكيد للحجة .

وقال الشريف المرتضى في مجالسه وأماله المسمّى "الدرر والغرر" : وهذا كثير في كلام العرب وأشعارهم ، قال مهلهل بن ربيعة يرثي أخاه كليباً :

على أن ليس عدلاً من كليب . . .

إذا طرد اليتيم عن الجزور

وذكر المصراع الأول ثماني مرات في أوائل أبيات متتابعة .

وقال الحارث بن عباد :

قَرِّبَا مربط النعامة مني . . .

لقحت حرب وائل عن حبال

(191/739)

ثم كرر قوله : قرِّبا مربط النعامة مني ، في أبيات كثيرة من القصيد .

وهكذا القول في نظائر قوله : ﴿ فبأي ألاء ربكما تكذبان ﴾ المذكور هنا إلى ما في آخر السورة .

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17)

استئناف ابتدائي فيه بيان لجملة ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ [الرحمن : 5] وعطف

﴿ ورب المغربين ﴾ لأجل ما ذكرته آنفاً من مراعاة المزاوجة .

وحذف المسند إليه على الطريقة التي سماها السكاكي باتباع الاستعمال الوارد على تركه أو ترك نظائره وتقدم غير مرة .

والمشرق : جهة شروق الشمس ، والمغرب : جهة غروبها .

وتثنية المشرقين والمغربين باعتبار أن الشمس تطلع في فصلي الشتاء والربيع من سمت وفي فصلي الصيف والخريف من سمت آخر وبمراعاة وقت الطول ووقت القصر وكذلك غروبها وهي فيما بين هذين المشرقين والمغربين ينتقل طلوعها وغروبها في درجات متقاربة فقد يعتبر ذلك فيقال : المشارق والمغارب كما في قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنّا لقادرون ﴾ في سورة المعارج (40) .

ومن زعم أن تثنية المشرقين لمراعاة مشرق الشمس والقمر وكذلك تثنية المغربين لم يغص على معنى كبير .

وعلى ما فسّر به الجمهور المشرقين ﴾ و ﴿ المغربين ﴾ بمشرقي الشمس ومغربيها فالمراد بـ ﴿ المشرقين ﴾ النصف الشرقي من الأرض ، وب ﴿ المغربين ﴾ النصف الغربي منها .

وربوبية الله تعالى للمشرقين والمغربين بمعنى الخلق والتصرف .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (18)

تكرير كما علمت آنفاً .

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20)

خبر آخر عن ﴿ الرحمن ﴾ [الرحمن : 1] قصد منه العبرة بخلق البحار والأنهار ، وذلك خلق عجيب دال على عظمة قدرة الله وعلمه وحكمته .

(192/739)

ومناسبة ذكره عقب ما قبله أنه لما ذُكر أنه سبحانه رب المشرقين ورب المغربين وكانت الأبحر والأنهار في جهات الأرض ناسب الانتقال إلى الاعتبار بخلقهما والامتنان بما أودعهما من منافع الناس .

والمرج : له معان كثيرة ، وأولاها في هذا الكلام إنه الإِرسال من قولهم : "مرج الدابة" إذا أرسلها ترعى في المَرج ، وهو الأرض الواسعة ذات الكلأ الذي لا مالك له ، أي : تركها تذهب حيث تشاء .

والمعنى : أرسل البحرين لا يحبس ماءهما عن الجري حاجز .

وهذا تهيئة لقوله بعد ﴿ يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ .

والمراد : أنه خَلَقهما ومرَجَهما ، لأنه ما مَرَجَهما إلا عقب أن خلقهما .

ويلتقيان : يتصلان بحيث يصب أحدهما في الآخر .

والبحر : الماء الغامر جزءاً عظيماً من الأرض يطلق على المالح والعذب .

والمراد تثنية نوعي البحر وهما البحر الملح والبحر العذب .

كما في قوله تعالى : ﴿ وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ﴾ [فاطر : 12] والتعريف تعريف العهد الجنسي .

فالمقصود ما يعرفه العرب من هذين النوعين وهما نهر الفرات وبحر العجم المسمّى اليوم بالخليج الفارسي .

والتقاؤهما انصباب ماء الفُرات في الخليج الفارسي .

في شاطىء البَصرة ، والبلادُ التي على الشاطىء العربي من الخليج الفارسي تعرف عند العرب ببلاد البَحْرَيْن لذلك .

والمراد بالبرزخ الذي بينهما : الفاصل بين الماءين الحلو والملح بحيث لا يغير أحد البحرين طعم الآخر بجواره .

وذلك بما في كل ماء منهما من خصائص تدفع عنه اختلاط الآخر به .

وهذا من مسائل الثقل النوعي .

وذكر البرزخ تشبيه بليغ ، أي بينهما مثل البرزخ وهو معنى ﴿ لا يبغيان ﴾ ، أي لا يبغي أحدهما على الآخر ، أي لا يغلب عليه فيُفسدَ طعمه فاستعير لهذه الغلبة لفظ البغي الذي

حقيقته الاعتداء والتظلم .

ويجوز أن تكون التثنية تثنية بحرَيْن ملحين معينين ، والتعريف حينئذٍ تعريف العهد الحضوري ، فالمراد : بحران معروفان للعرب .

(193/739)

فالأظهر أن المراد : البحر الأحمر الذي عليه شطوط تهامة مثل : جُدّة ويُنبع النخل ، وبحر عُمان وهو بحر العرب الذي عليه حَضْرموت وعَدَن من بلاد اليمن .

والبرزخ : الحاجز الفاصل ، والبرزخ الذي بين هذين البحرين هو مضيق باب المَنْدبَ حيث يقع مرسى عَدَن ومرسى زَيلع .

ولما كان في خلق البحرين نعم على الناس عظيمة منها معروفة عند جميعهم فإنهم يسيرون فيهما كما قال تعالى : ﴿ وترى الفلك مواخر فيه ﴾ [النحل : 14] وقال : ﴿ هو الذي يسيّركم في البر والبحر ﴾ [يونس : 22] واستخراج سمكه والتطهر بمائه .

ومنها معروفة عند العلماء وهي مَا لأَمْلاَحِ البحر من تأثير في تنقية هواء الأرض واستجلاب الأمطار وتلقي الأجرام التي تنزل من الشهب وغير ذلك .

وجملة ﴿ يلتقيان ﴾ وجملة ﴿ بينهما برزخ ﴾ حالان من ﴿ البحرين ﴾ .

وجملة ﴿ لا يبغيان ﴾ مبينة لجملة ﴿ بينهما برزخ ﴾ .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21)

تكرير كما علمته مما تقدم ، ووقع هنا اعتراضاً بين أحوال البحرين .

يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (22) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (23)

حال ثالثة .

ثم إن كان المراد بالبحرين : بحرين معروفين من البحار الملحة تكون (من) في قوله : ﴿ منهما ﴾ ابتدائية لأن اللؤلؤ والمرجان يكونان في البحر الملح .

وإن كان المراد بالبحرين : البحر الملح ، والبحر العذب كانت (من) في قوله : ﴿ منهما ﴾ للسببية كما في قوله تعالى : ﴿ فمن نفسك ﴾ في سورة النساء (79) ، أي يخرج اللؤلؤ والمرجان بسببهما ، أي بسبب مجموعهما .

أما اللؤلؤ فأجْودُهُ ما كان في مصبّ الفرات على خليج فارس ، قال الرماني : لما كان الماء العذب كاللقاح للماء الملح في إخراج اللؤلؤ ، قيل : يخرج منهما كما يقال : يتخلق الولد من الذكر والأنثى ، وقد تقدم بيان تكون اللؤلؤ في البحار في سورة الحج .

وقال الزجّاج : قد ذكرهما الله فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما وهو كقوله تعالى : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً ﴾ [نوح : 15 ، 16] ، والقمر في السماء الدنيا .

وقال أبو علي الفارسي : هو من باب حذف المضاف ، أي من أحدهما كقوله تعالى : ﴿ على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] أي من إحداهما .

و﴿ المرجان ﴾ : حيوان بحري ذو أصابع دقيقة ينشأ ليّناً ثُمَّ يتحجّر ويتلوّن بلون الحمرة ويتصلب كلما طال مكثه في البحر فيستخرج منه كالعروق تتخذ منه حلية ويسمى بالفارسية (بسَذ) .

وقد تتفاوت البحار في الجيّد من مرجانها .

ويوجد ببحر طَبرقَة على البحر المتوسط في شمال البلاد التونسية .

و﴿ المرجان ﴾ : لا يخرج من ملتقى البحرين الملح والعذب بل من البحر الملح .

وقيل : المرجان اسم لصغار الدرّ ، واللؤلؤ كباره فلا إشكال في قوله منهما .

وقرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب ﴿ يخرج ﴾ بضم الياء وفتح الراء على البناء للمجهول .

وقرأ الباقون ﴿ يخرج بفتح الياء وضم الراء لأنهما إذا أخرجهما الغوّاصون فقد خرجا .

وبين قوله : ﴿ مرج ﴾ [الرحمن : 19] وقوله : ﴿ والمرجان ﴾ الجناس المذيّل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(195/739)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) ﴾

أخرج النحاس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت سورة الرحمن بمكة .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال : أنزل بمكة سورة الرحمن .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : نزلت سورة الرحمن بمكة .

وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت سورة الرحمن بالمدينة .

وأخرج أحمد وابن مردويه بسند حسن عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وأخرج الترمذي وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها ، فسكتوا ، فقال : ما لي أراكم سكوتاً لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله ﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان ﴾ قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد " .

وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر والدارقطني في الأفراد وابن مردويه والخطيب في تاريخه بسند صحيح عن ابن عمر " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سورة الرحمن على أصحابه ، فسكتوا فقال : ما لي أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم ؟ ما أتيت على قول الله ﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان ﴾ الا قالوا : " لا شيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد " " .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان عن عليّ : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " لكل شيء عروس وعروس القرآن الرحمن " .

وأخرج البيهقي عن فاطمة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قارىء الحديد و ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ والرحمن يدعى في ملكوت السموات والأرض ساكن الفردوس " .

وأخرج أحمد عن ابن زيد رضي الله عنه قال : كان أول مفصل ابن مسعود الرحمن .

وأخرج أبو داود والبيهقي في سننه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً قال له : إني قد قرأت المفصل في ركعة ، فقال : أهذا كهذا الشعر ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ النظائر سورتين في ركعة ، الرحمن والنجم في ركعة ، واقتربت والحاقة في ركعة ، والطور والذاريات في ركعة ، وإذا وقعت وإن في ركعة ، وعم والمرسلات في ركعة ، والدخان وإذا الشمس كورت في ركعة ، وسأل سائل والنازعات في ركعة ، وويل للمطففين وعبس في ركعة .

وأخرج الحاكم في التاريخ والبيهقي عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتر بتسع ركعات ، فلما أسنّ وثقل أوتر بسبع فصلى ركعتين وهو جالس فقرأ فيهما الرحمن والواقعة .

وأخرج ابن حبان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن فخرجت إلى المسجد عشية ، فجلس إليّ رهط ، فقلت لرجل : اقرأ عليّ ، فإذا هو يقرأ حروفاً لا أقرؤها ، فقلت : من أقرأك ؟ قال : اقرأني رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، فانطلقنا حتى وقفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : اختلفنا في قراءتنا فإذا وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه تغيير ووجد في نفسه حين ذكر الاختلاف ، فقال : إنما هلك من قبلكم بالاختلاف " . فأمر علياً فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن يقرأ كل رجل منكم كما علم ، فإنما هلك من قبلكم بالاختلاف ، قال : فانطلقنا وكل رجل منا يقرأ حرفاً لا يقرؤه صاحبه .

قوله تعالى : ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ الآيات .

(197/739)

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ خلق الإِنسان علمه البيان ﴾ قال : آدم ﴿ علمه البيان ﴾ قال : بين له سبيل الهدى وسبيل الضلالة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ قال : نعمة الله عظيمة ﴿ خلق الإِنسان ﴾ قال : آدم ﴿ علمه البيان ﴾ قال : علمه الله بيان الدنيا والآخرة ، بين حلاله وحرامه ليحتج بذلك عليه ، ولله الحجة على عباده وفي قوله ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ إلى أجل بحساب .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه

عن ابن عباس في قوله ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ قال : بحساب ومنازل يرسلان .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي مالك رضي الله عنه ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ قال : عليهما حساب وأجل كأجل الناس ، فإذا جاء أجلهما هلكا .

وأخرج عبد بن حميد عن الربيع بن أنس رضي الله عنه ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ قال : يجريان بحساب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ قال : بقدر يجريان .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ الشمس والقمر ﴾ قال : يدوران في مثل قطب الرحى .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن أبي رزين والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ قال : النجم ما انبسط على الأرض والشجر ما كان على ساق .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير رضي الله عنه مثله .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن أبي رزين في قوله ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ قال : النجم ما ذهب فرشاً على الأرض ليس له ساق ، والشجر ما كان له ساق ﴿ يسجدان ﴾ قال : ظلهما سجودهما .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف والابتداء عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ ما النجم ؟ قال : ما أنجمت الأرض مما لا يقوم على ساق فإذا قام على ساق ، فهي شجرة . قال صفوان بن أسد التميمي :

لقد أنجم القاع الكبير عضاته . . . وتم به حيّا تميم ووائل

وقال زهير بن أبي سلمى :

مكلل بأصول النجم تنسجه . . . ريح الجنوب كضاحي ما به حبك

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ قال : النجم نجم السماء ، والشجر الشجرة يسجد بكرة وعشية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ووضع الميزان ﴾ قال : العدل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ألا تطغوا في الميزان ﴾ قال : اعدل يا ابن آدم كما تحب أن يعدل عليك وَأَوْفِ كما تحب أن يُوفَى لك ، فإن العدل يصلح الناس .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رأى رجلاً يزن قد أرجح ، فقال : أقم اللسان كما قال الله ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ﴾ قال : اللسان .

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ قال : للناس .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ قال : للخلق .

وأخرج الطستي والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ وضعها للأنام ﴾ قال : الأنام الخلق ، وهم ألف أمة ستمائة في البحر وأربعمائة في البر . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت لبيداً وهو يقول :

فإن تسألينا ممن نحن فإننا . . . عصافير من هذا الأنام المسخر

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وضعها للأنام ﴾ قال : كل شيء فيه روح .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ قال : كل شيء يدب على الأرض .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ قال : للخلق الجن والإِنس .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ والنخل ذات الأكمام ﴾ قال : أوعية الطلع .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ والحب ذو العصف ﴾ قال : ورق الحنطة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك في الآية قال : الحب الحنطة والشعير ، والعصف القشر الذي يكون على الحب .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ والحب ذو العصف ﴾ قال : التبن ﴿ والريحان ﴾ قال : خضرة الزرع .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : العصف ورق الزرع إذا يبس ، والريحان ما أنبتت الأرض من الريحان الذي يشم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : العصف الزرع أول

ما يخرج بقلاً ، والريحان حين يستوي على سوقه ولم يسنبل .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كل ريحان في القرآن فهو الرزق .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن أبي صالح في قوله ﴿ والحب ذو العصف ﴾ قال : العصف أول ما ينبت .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد ﴿ والريحان ﴾ قال : الرزق .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله ﴿ والريحان ﴾ قال : الرزق والطعام .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله ﴿ والريحان ﴾ قال : الرياحين التي يوجد ريحها .

وأخرج ابن جرير عن الحسن ﴿ والريحان ﴾ قال : ريحانكم هذا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان ﴾ قال : بأيّ نعمة الله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان ﴾ يعني الجن والإنس ، والله أعلم .

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ وخلق الجان من مارج من نار ﴾ قال : من لهب النار .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ من مارج من نار ﴾ قال : من لهبها من وسطها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ من مارج ﴾ قال : خالص النار .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ من مارج ﴾ قال : من شهب النار .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ من مارج ﴾ قال : اللهب الأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أوقدت .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ من مارج ﴾ قال : الخضرة التي تقطع من النار السواد الذي يكون بين النار وبين الدخان .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد ومسلم وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجن من مارج من نار ، وخلق آدم كما وصف لكم " .

قوله تعالى : ﴿ رب المشرقين ﴾ الآية .

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ قال : للشمس مطلع في الشتاء ومغرب في الشتاء ، ومطلع في الصيف ومغرب في الصيف ، غير مطلعها في الشتاء وغير مغربها في الشتاء .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ قال : مشرق الشتاء ومغربه ، ومشرق الصيف ومغربه .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة وعكرمة مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ رب المشرقين ﴾ قال : مشرق النجم ومشرق الشفق ﴿ ورب المغربين ﴾ قال : مغرب الشمس ومغرب الشفق .

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20)

(201/739)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ مرج البحرين ﴾ قال : أرسل البحرين ﴿ بينهما برزخ ﴾ قال : حاجز ﴿ لا يبغيان ﴾ قال : لا يختلطان .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ مرج البحرين يلتقيان ﴾ قال :

مرجهما استواؤهما ﴿ بينهما برزخ ﴾ قال: حاجز من الله ﴿ لا يبغيان ﴾ قال: لا يختلطان، وفي لفظ لا يبغي أحدهما على الآخر لا العذب على المالح ولا المالح على العذب.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة ﴿ مرج البحرين يلتقيان ﴾ قال: حسنهما ﴿ بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ قال: البرزخ عزمة من الله لا يبغي أحدهما على الآخر.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن ﴿ مرج البحرين ﴾ قال: بحر فارس وبحر الروم.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ مرج البحرين يلتقيان ﴾ قال: بحر فارس وبحر الروم وبحر المشرق وبحر المغرب.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ مرج البحرين ﴾ قال: بحر السماء وبحر الأرض ﴿ يلتقيان ﴾ كل عام.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير ﴿ مرج البحرين يلتقيان ﴾ قال: بحر السماء وبحر الأرض.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ قال: بينهما من البعد ما لا يبغي كل واحد منهما على صاحبه.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن ﴿ بينهما برزخ ﴾ قال: أنتم البرزخ ﴿ لا

يبغيان ﴾ عليكم فيغرقانكم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ قال : برزخ الجزيرة واليبس ﴿ لا يبغيان ﴾ على اليبس ، ولا يبغي أحدهما على صاحبه وما أخذ أحدهما من صاحبه فهو بغي يحجز أحدهما عن صاحبه بلطفه وقدرته وجلاله .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الحسن وقتادة ﴿ لا يبغيان ﴾ قال : لا يطغيان على الناس .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن أبزى ﴿ بينهما برزخ ﴾ قال : البعد .

(202/739)

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ بينهما برزخ ﴾ قال : بئر ههنا عذب ، وبئر ههنا مالح .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب المطر وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ ﴾ قال : إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواهها ، فما وقع فيها من قطر السماء فهو اللؤلؤ .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : إذا قطر القطر من السماء فتحت له الأصداف

فكان اللؤلؤ .

وأخرج الفريابي وهناد بن السري وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس قال : المرجان عظام اللؤلؤ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عليّ بن أبي طالب قال : المرجان عظام اللؤلؤ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : المرجان ما عظم من اللؤلؤ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مرة قال : المرجان جيد اللؤلؤ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : اللؤلؤ ما عظم منه ، والمرجان اللؤلؤ الصغار .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : اللؤلؤ عظام اللؤلؤ ، والمرجان صغار اللؤلؤ .

وأخرج ابن أبي الدنيا في الوقف والابتداء عن مجاهد في قوله ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ قال : اللؤلؤ عظام اللؤلؤ ، والمرجان اللؤلؤ الصغار .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن والضحاك قال : اللؤلؤ العظام والمرجان الصغار .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني عن ابن مسعود قال : المرجان الخرز الأحمر .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ مرج البحرين يلتقيان ﴾ قال عليَّ وفاطمة

﴿ بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ قال : النبي صلى الله عليه وسلم " ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ قال : الحسن والحسين " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك في قوله ﴿ مرج البحرين يلتقيان ﴾ قال : عليَّ وفاطمة ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ قال : الحسن والحسين . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ 689.697 ﴾

---

(1) كلام فى غاية البعد .

(203/739)

قوله تعالى ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (24) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (25) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (28) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (30) سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان قد ذكر الخارج منه بماء السماء ، ذكر السائر عليه بالهواء ، وأشار بتقديم الجار إلى أن السائر في الفلك لا تصريف له ، وإن ظهر له تصريف فهو لضعفه كلا تصريف ، فقال : ﴿ وله ﴾ أي لا لغيره ، فلا تغتروا بالأسباب الظاهرة فتقوا معها فتسندوا شيئاً من ذلك إليها كما وقف أهل الاغترار بالشاهد ، الذين أجمد أهل الأرض أذهاناً وأحقرهم شأناً فقالوا بالاتحاد والوحدة ﴿ الجوار ﴾ أي السفن الكبار والصغار الفارغة والمشحونة .

(204/739)

ولما كانت حياة كل شيء كونه على صفة كماله ، وكانت السفن تبنى من خشب مجمع وتوصل حتى تصير على هيئة تقبل المنافع الجمة ، وكانت تربى بذلك الجمع كما تربى النبات والحيوان ، وكانت ترتفع على البحر ويرفع شراعها وتحدث في البحر بعد أن كانت مستترة بجبال الأمواج قال تعالى : ﴿ المنشآت ﴾ من نشأ - إذا وربا ، والسحابة : ارتفعت ، وأصل الناشئ كل ما حدث بالليل وبدأ ، ومعنى قراءة حمزة وأبي بكر بكسر الشين أنها رافعة شراعها بسبب استمساكها عن الرسوب ومنشئة للسير ، ومعنى قراءة الباقين أنه أنشأها الصانع وأرسلها ورفع شراعها .

ولما كانت مع كونها عالية على الماء منغمسة فيه مع أنه ليس لها من نفسها إلا الرسوب

والغوص قال : ﴿ في البحر ﴾ ولما كانت ترى على البعد كالجبال على وجه الماء قال : ﴿ كالأعلام ﴾ أي كالجبال الطوال .

(205/739)

ولما كان ما فيها من المنافع بالتكسب من البحر بالصيد وغيره والتوصل إلى البلاد الشاسعة للفوائد الهائلة ، وكانت أعمالهم في البحر الإخلاص الذي يلزم منها الإخلاص في البر ، لأنهما بالنسبة إلى إبداعه لهما وقدرته على التصرف فيهما بكل ما يريده على حد سواء ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ فبأيِّ آلاء ربكما ﴾ أي النعمة العظمى ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة البصر من تحتكم أو غيرها من الأسفار ، في محل الأخطار ، والإنجاء عند الاضطراب والريح في محل الخسار ، والإرشاد إلى ذلك بعد خلق مواد السفن وتعليم صنعتها وتسخيرها والفلك لعد صي لوهما (؟) بمثابة جميع الكون ، فخدامها كالملائكة في إقامة الملكوت وتحسين تماسكه بإذن ربهم ، والمسافرون بها الذين أنشئت لأجلهم وزان المأمورين المكلفين المتهيئين الذين من أجلهم خلقت السماوات والأرض وما بينهما فعبر بهم من غربتهم إلى قرارهم ، ومن غيبتهم إلى حضورهم ومشاهدهم ، ومدبرها أمرها في أعلاها يأمرهم بأمره فيعدونه ويسمعون له ، ثم قد يصرف الاعتبار إلى أن تكون آية على

قطع المؤمن أيام الدنيا فالدنيا هي البحر ، والسفينة جسمه ، وباطن العبد هو المحمول فيها ، العقل صاحب سياستها ، والقوى خدمتها ، وأمر الله وتدبيره محيط بها ، والإيمان أمنتها ، والتوفيق ريحها ، والذكر شراعها ، والرسول سائقها بما جاء به من عند ربه ، والعمل الطيب يصلح شأنها - ذكر ذلك ابن برجان .

(206/739)

ولما أخبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من المنافع من الأعيان والمعاني ، واستوفى الأرض بقسميها براً وبحراً ، مضمناً ذلك العناصر الأربعة التي أسس عليها المركبات ، وكان أعجب ما للمخلوق من الصنائع ما في البحر ، وكان راكبه في حكم العدم ، دل على أنه المتفرد بجميع ذلك بهلاك الخلق ، فقال مستأنفاً معبراً بالاسمية الدالة على الثبات وب ﴿ من ﴾ للدلالة على التصريح تهويلاً بفناء العاقل على فناء غير العاقل بطريق الأولى : ﴿ كل من عليها ﴾ أي الأرض بقسميها والسماء أيضاً ﴿ فان ﴾ أي هالك ومعدوم بالفعل بعد أن كان هو وغيره من سائر ما سوى إليه ، وليس لذل كله من ذاته إلا العدم ، فهو فان بهذا الاعتبار ، وإن كان موجوداً فوجوده بين عدمين أولهما أنه لم يكن ، وثانيهما أنه يزول ثم هو فيما بين ذلك يتعاوره الإيجاد والإفناء في حين من أحواله وأعراضه

وقواه ، وأسباب الهلاك محيطة به حساً ومعنى وهو لا يراها كما أنها محيطة بمن هو في السفينة من فوقه ومن تحته ومن جميع جهاته .

ولما كان الوجه أشرف ما في الوجود ، وكان يعبر به عما أريد به صاحب الوجه مع أنه لا يتصور بقاء الوجه صاحبه ، فكان التعبير به عن حقيقة ذلك الشيء أعظم وأدل على الكمال ، وكان من المقرر عند أهل الشرع أنه سبحانه ليس كمثله شيء فلا يتوهم أحد منهم من التعبير به نقصاً قال : ﴿ ويبقى ﴾ أي بعد فناء الكل ، بقاء مستمراً إلى ما لا نهاية له ﴿ وجه ربك ﴾ أي المربي لك بالرسالة والترقية بهذا الوحي إلى ما لا يحد من المعارف ، وكل عمل أريد به وجهه سبحانه وتعالى خالصاً .

(207/739)

ولما ذكر مباينته للمخلوقات ، وصفه بالإحاطة الكاملة بالنزاهة والحمد ، وقال واصفاً الوجه لأن المراد به الذات الذي هو أشرفها معبراً به ولأنها أبلغ من " صاحب " وبما ينبه على التنزيه عما ربما توهمه من ذكر الوجه بليد جامد مع المحسوسات يقيس الغائب – الذي لا يعتريه حاجة ولا يلم بجنابه الأقدس نقص – بالشاهد الذي كله نقص وحاجة ﴿ ذو الجلال ﴾ أي العظمة التي لا ترام وهو صفة ذاته التي تقتضي إجلاله عن كل ما لا يليق

به ﴿ والإكرام ﴾ أي الإحسان العام وهو صفة فعله .

ولما كان الموت نفسه فيه نعم لا تنكر ، وكان موت ناس نعمة على ناس ، مع ما ختم به الآية من وصفه بالإنعام قال : ﴿ فبأيّ آلاء ربكما ﴾ أي المربي لكما على هذا الوجه الذي مآله إلى العدم إلى أجل مسمى ﴿ تكذبان ﴾ أي أيها الثقلان الإنس والجان ، أبنعمة السمع من جهة الأمام أو غيرها من إيجاد الخلق ثم إعدامهم وتخليف بعضهم في أثر بعض وإيراث البعض ما في يد البعض – ونحو ذلك من أمور لا يدركها على جهتها إلا الله تعالى .

(208/739)

ولما كان أدل دليل على العدم الحاجة ، وعلى دوام الوجود الغنى ، قال دليلاً على ما قبله : ﴿ يسئله ﴾ أي على سبيل التجدد والاستمرار ﴿ من في السماوات ﴾ أي كلهم ﴿ والأرض ﴾ أي كلهم من ناطق أو صامت بلسان الحال أو القال أو بهما ، ولما كان كأنه قيل : فماذا يفعل عند السؤال ، وكان أقل الأوقات المحدودة المحسوسة ﴿ اليوم ﴾ عبر به عن أقل الزمان كما عبر به عن أخف الموزونات بالذرة فقال مجيباً لذلك : ﴿ كل يوم ﴾ أي وقت من الأوقات من يوم السبت وعلى اليهود لعنة الله وغضبه حيث قالوا في السبت ما هو مناف لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام

وما مسنا من لغوب ﴾ [ق : 38] ﴿ ولا يؤده حفظهما هو العلي العظيم ﴾ [البقرة : 255] ﴿ هو في شأن ﴾ أي من إحداث أعيان وتجديد معان أو إعدام ذلك ، قال القشيري : في فنون أقسام المخلوقات وما يجريه عليها من اختلفا الصفات – انتهى .

(209/739)

وهو شؤون يبديها لا شؤون يبتدئها تتعلق قدرته على وفق إرادته على ما تعلق به العلم في الأزل أنه يكون أو يعدم في أوقاته ، فكل شيء قانت له خاضع لديه ساجد لعظمته شاهد لقدرته دالّ عليه ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ وذلك التعبير – مع أنه من أجل النعم – أدل دليل على صفات الكمال له وصفات النقص للمتغيرات وأنها عدم في نفسها ولأنها نعم قال : ﴿ فبأيّ آلاء ربكما ﴾ أي المربي لكما بهذا التدبير العظيم لكل ما يصلحكما ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة السمع من جهة الخلف أو غيرها من تصريفه إياكم فيما خلقكم له هو أعلم به منكم من معايشكم وجميع تقلباتكم ، وقد تكررت في هذه الآية المقررة على النعم من أولها إلى هنا ثماني مرات عقب النعم إشارة – والله أعلم – إلى أن نعمة الله سبحانه وتعالى لا تحصى لأنها تزيد على السبعة التي هي العدد التام الواحد هو مبدأ لدور جديد من العدد إشارة إلى أنه كلما انقضى منها دور ابتدأ دور آخر ، ووجه آخر وهو أن الأخيرة

صرح فيها ب ﴿ من في السماوات والأرض ﴾ والسبع التي قبلها يختص بأهل الأرض إشارة إلى أن أمهات النعم سبع كالسماوات والأرض والكواكب السيارة ونحو ذلك .

(210/739)

ولما انقضى عد النعم العظام على وجه هو في غاية الإمكان من البيان ، وكان تغير سائر الممكنات من النبات والجماد والملائكة والسماوات والأرض وما حوتا مما عدا الثقلين على نظام واحد لا تفاوت فيه ، وأما الثقلان فأحوالهما لأجل تنازع العقل والشهوات لا تكاد تنضبط ، بل تغير حال الواحد منهم في اللحظة الواحد إلى ألوان كثيرة متضادة لما فيهم من المكر وأحوال المغالبة والبغي والاستئثار باللهو بالأمر والنهي ، وكان أكثرهم يموت بناره من غير أخذ ثأره ، واقتضت الحكمة ولا بد أنه لا بد لهم من يوم يجتمعون فيه يكون بينهما فيه الفصل على ميزان العدل ، خصهما بالذكر فقال آتياً في النهاية بالوعيد لأنه ليس للعصاة بعد الإنعام والبيان إلا التهديد الشديد للرجوع إلى طاعة الملك الديان ، والالتفات في قراءة الجماعة بالنون إلى التكلم أشد تهديداً من قراءة حمزة والكسائي بالتحتية على نسق ما مضى : ﴿ سنفرغ ﴾ أي بوعد قريب لا خلف فيه من جميع الشؤون التي ذكرت ﴿ لكم ﴾ أي نعمل علم من يفرغ للشيء فلا يكون له شغل سواه بفراغ جنودنا من الملائكة

وغيرهم مما أمرناهم به مما سبقت به كلمتنا ومضت به حكمتنا من الآجال والأرزاق وغير ذلك فينتهي كله ولا يكون لهم حينئذ عمل إلا جمعكم ليقضي بينكم : ﴿ أيه الثقلان ﴾ بالنصفة ، والثقل هو ما يكون به قوام صاحبه ، فكأنهما سميا بذلك تمثيلاً لهما بذلك إشارة إلى أنهما المقصودان بالذات من الخلائق ، وقال الرازي في اللوامع : وصفاً بذلك يعظم ذلك شأنهما ، كأن ما عداهما لا وزن له بالإضافة إليهما – انتهى .

وهذا كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ " إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي " وقال جعفر الصادق : سميا بذلك لأنهما مثقلان بالذنوب .

(211/739)

ولما كان هذا من أجلّ النعم التي يدور عليها العباد ، ويصلح بها البلاد ، وتقوم بها السماوات والأرض ، لأن مطلق التهديد يحصل به انزجار النفس عما لها من الانتشار فيما يضر ولا ينفع ، فكيف بالتهديد بيوم الفصل قال : ﴿ فبأيّ آلاء ربكما ﴾ أي المحسن إليكما بهذا الصنع المحكم ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة السمع عن اليمين أو بغيرها من إثابة أمل طاعته وعقوبة أمل معصيته ، وسمى ابن برجان هذا الإخبار الذي لا نون جمع فيه خطاب القبض يخبر فيه عن موجوداته وما هو خالقه ، قال : وذلك إخبار منه عن محض الوحدانية ، وما

قبله من ﴿ سنفرغ ﴾ ونحوه وما فيه نون الجمع إخبار عن وصف ملكوته وجنوده وهو خطاب البسط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 384 . 387 ﴾

(212/739)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (24) ﴾ .

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما الفائدة في جعل الجواري خاصة له وله السموات وما فيها والأرض وما عليها ؟ نقول : هذا الكلام مع العوام ، فذكر ما لا يغفل عنه من له أدنى عقل فضلاً عن الفاضل الذكي ، فقال : لا شك أن الفلك في البحر لا يملكه في الحقيقة أحد إذ لا تصرف لأحد في هذا الفلك وإنما كلهم منتظرون رحمة الله تعالى معترفون بأن أموالهم وأرواحهم في قبضة قدرة الله تعالى وهم في ذلك يقولون لك : الفلك ولك الملك وينسبون البحر والفلك إليه ، ثم إذا خرجوا ونظروا إلى بيوتهم المبنية بالحجارة والكلس وخفي عليهم وجوه الهلاك ، يدعون مالك

الفلك ، وينسبون ما كانوا ينسبون البحر والفلك إليه ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك ﴾ [العنكبوت : 65] الآية .

المسألة الثانية :

(213/739)

(الجواري) جمع جارية ، وهي اسم للسفينة أو صفة ، فإن كانت اسماً لزم الاشتراك والأصل عدمه ، وإن كانت صفة الأصل أن تكون الصفة جارية على الموصوف ، ولم يذكر الموصوف هنا ، فنقول : الظاهر أن تكون صفة للتي تجري ونقل عن الميداني أن الجارية السفينة التي تجري لما أنها موضوعة للجري ، وسميت المملوكة جارية لأن الحرة تراد للسكن والازدواج ، والمملوكة لتجري في الحوائج ، لكنها غلبت السفينة ، لأنها في أكثر أحوالها تجري ، ودل العقل على ما ذكرنا من أن السفينة هي التي تجري غير أنها غلبت بسبب الاشتقاق على السفينة الجارية ، ثم صار يطلق عليها ذلك وإن لم تجر ، حتى يقال : للسفينة الساكنة أو المشدودة على ساحل البحر جارية ، لما أنها تجري ، وللملوكة الجالسة جارية للغلبة ، ترك الموصوف ، وأقيمت الصفة مقامه فقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الجوار ﴾ أي السفن الجاريات ، على أن السفينة أيضاً فعيلة من السفن وهو النحت ، وهي فعيلة بمعنى

فاعلة عند ابن دريد أي تسفن الماء ، أو فعيلة بمعنى مفعولة عند غيره بمعنى منحوتة فالجارية والسفينة جاريتان على الفلك وفيه لطيفة لفظية : وهي أن الله تعالى لما أمر نوحاً عليه السلام باتخاذ السفينة ، قال : ﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا ﴾ [هود : 37] ففي أول الأمر قال لها : الفلك لأنها بعد لم تكن جرت ، ثم سماها بعد ما عملها سفينة كما قال تعالى : ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾ [العنكبوت : 15] وسماها جارية كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الماء حملناكم فِي الجارية ﴾ [الحاقة : 11] وقد عرفنا أمر الفلك وجريها وصارت كالمسماة بها ، فالفلك قبل الكل ، ثم السفينة ثم الجارية .

المسألة الثالثة :

ما معنى المنشآت ؟ نقول : فيه وجهان أحدهما : المرفوعات من نشأت السحابة إذا ارتفعت ، وأنشأ الله إذا رفعه وحينئذ إما هي بأنفسها مرتفعة في البحر ، وإما مرفوعات الشراع وثانيهما : المحدثات الموجودات من أنشأ الله المخلوق أي خلقه فإن قيل : الوجه الثاني بعيد لأن قوله : ﴿ فِي البحر كالأعلام ﴾ متعلق بالمنشآت فكأنه قال : وله الجواري التي خلقت في البحر كالأعلام ، وهذا غير مناسب ، وأما على الأول فيكون كأنه قال :

الجواري التي رفعت في البحر كالأعلام ، وذلك جيد والدليل على صحة ما ذكرنا أنك تقول : الرجل الجريء في الحرب كالأسد فيكون حسناً ، ولو قلت : الرجل العالم بدل الجريء في الحرب كالأسد لا يكون كذلك ، نقول : إذا تأملت فيما ذكرنا من كون الجارية صفة أقيمت مقام الموصوف ، كان الإنشاء بمعنى الخلق لا ينافي قوله : ﴿ فِي البحر كالأعلام ﴾ لأن التقدير حينئذ له السفن الجارية في البحر كالأعلام ، فيكون أكثر بياناً للقدرة كأنه قال : له السفن التي تجري في البحر كالأعلام ، أي كأنها الجبال والجبال لا تجري إلا بقدرة الله تعالى ، فالأعلام جمع العلم الذي هو الجبل وأما الشراع المرفوع كالعلم الذي هو معروف ، فلا عجب فيه ، وليس العجب فيه كالعجب في جري الجبل في الماء وتكون المنشآت معروفة ، كما أنك تقول : الرجل الحسن الجالس كالقمر فيكون متعلق قولك كالقمر الحسن لا الجالس فيكون منشأ للقدرة ، إذ السفن كالجبال والجبال لا تجري إلا بقدرة الله تعالى .

المسألة الرابعة :

(215/739)

قرىء ﴿ المنشآت ﴾ بكسر الشين ، ويحتمل حينئذ أن يكون قوله : ﴿ البحر كالأعلام ﴾ ، يقوم مقام الجملة ، والجواري معرفة ولا توصف المعارف بالجمل ، فلا نقول : الرجل

كالأسد جاءني ولا الرجل هو أسد جاءني ، وتقول : رجل كالأسد جاءني ، ورجل هو أسد جاءني ، فلا تحمل قراءة الفتح إلا على أن يكون حالاً وهو على وجهين أحدهما : أن تجعل الكاف اسماً فيكون كأنه قال : الجواري المنشآت شبه الأعلام ثانيهما : يقدر حالاً هذا شبهه كأنه يقول : كالأعلام ويدل عليه قوله : ﴿ فِي مَوْجٍ كالجبال ﴾ [هود : 42] .

المسألة الخامسة :

في جمع الجواري وتوحيد البحر وجمع الأعلام فائدة عظيمة ، وهي أن ذلك إشارة إلى عظمة البحر ، ولو قال : في البحار لكانت كل جارية في بحر ، فيكون البحر دون بحر يكون فيه الجواري التي هي كالجبال ، وأما إذا كان البحر واحداً وفيه الجواري التي هي كالجبال يكون ذلك بحراً عظيماً وساحله بعيداً فيكون الإنجاء بقدرة كاملة .

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26)

(216/739)

وفيه وجهان أحدهما : وهو الصحيح أن الضمير عائد إلى الأرض ، وهي معلومة وإن لم تكن مذكورة قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِمَا كَسَبُواْ ﴾ [فاطر : 45] الآية وعلى هذا فله ترتيب في غاية الحسن ، وذلك لأنه تعالى لما قال : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ المنشآت ﴾ [

الرحمن : 24] إشارة إلى أن كل أحد يعرف ويجزم بأنه إذا كان في البحر فروحه وجسمه وماله في قبضة الله تعالى فإذا خرج إلى البر ونظر إلى الثبات الذي للأرض والتمكن الذي له فيها ينسى أمره فذكره وقال : لا فرق بين الحالتين بالنسبة إلى قدرة الله تعالى وكل من على وجه الأرض فإنه كمن على وجه الماء ، ولو أمعن العاقل النظر لكان رسوب الأرض الثقيلة في الماء الذي هي عليه أقرب إلى العقل من رسوب الفلك الخفيفة فيه الثاني : أن الضمير عائد إلى الجارية إلا أنه بضرورة ما قبلها كأنه تعالى قال : الجواري ولا شك في أن كل من فيها إلى الفناء أقرب ، فكيف يمكنه إنكار كونه في ملك الله تعالى وهو لا يملك لنفسه في تلك الحالة نفعاً ولا ضراً ، وقوله تعالى : ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : 27] يدل على أن الصحيح الأول وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ مِنْ ﴾ للعقلاء وكل ما على وجه الأرض مع الأرض فإن ، فما فائدة الاختصاص بالعقلاء ؟ نقول : المنتفع بالتخويف هو العاقل فخصه تعالى بالذكر .

المسألة الثانية :

الفاني هو الذي فنى وكل من عليها سيفنى فهو باق بعد ليس بفان ، نقول كقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾ [الزمر : 30] وكما يقال للقريب إنه واصل ، وجواب آخر : وهو أن وجود الإنسان عرض وهو غير باق وما ليس بباق فهو فإن ، فأمر الدنيا بين شيئين حدوث وعدم ، أما البقاء فلا بقاء له لأن البقاء استمرار ، ولا يقال هذا تثبيت بالمذهب الباطل الذي هو القول بأن الجسم لا يبقى زمانين كما قيل في العرض ، لأنا نقول قوله ﴿ مِنْ ﴾ بدل قوله (ما) ينفي ذلك التوهم لأني قلت : (من عليها فإن) لا بقاء له ، وما قلت : ما عليها فإن ، ومن مع كونه على الأرض يتناول جسماً قام به أعراض بعضها الحياة والأعراض غير باقية ، فالمجموع لم يبق كما كان وإنما الباقي أحد جزأيه وهو الجسم وليس يطلق عليه بطريق الحقيقة لفظة (من) ، فالفاني ليس ما عليها وما عليها ليس بباق .

المسألة الثالثة :

ما الفائدة في بيان أنه تعالى قال : ﴿ فَانٍ ﴾ ؟ نقول : فيه فوائد منها : الحث على العبادة وصرف الزمان اليسير إلى الطاعة ، ومنها : المنع من الوثوق بما يكون للمرء فلا يقول : إذا كان في نعمة إنها لن تذهب فيترك الرجوع إلى الله معتمداً على ماله وملكه ، ومنها : الأمر بالصبر إن كان في ضر فلا يكفر بالله معتمداً على أن الأمر ذاهب والضر زائل ، ومنها : ترك اتخاذ الغير معبوداً والزجر على الاغترار بالقرب من الملوك وترك التقرب إلى الله تعالى فإن أمرهم إلى الزوال قريب فيبقى القريب منهم عن قريب في ندم عظيم لأنه إن مات قبلهم يلقى

الله كالعبد الآبق ، وإن مات الملك قبله فيبقى بين الخلق وكل أحد ينتقم منه ويتشفى فيه ، ويستحي ممن كان يتكبر عليه وإن ماتا جميعاً فلقاء الله عليه بعد التوفي في غاية الصعوبة ، ومنها : حسن التوحيد وترك الشرك الظاهر والخفي جميعاً لأن الفاني لا يصلح لأن يعبد .

(218/739)

وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (28)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الوجه يطلق على الذات والمجسم يحمل الوجه على العضو وهو خلاف العقل والنقل أعني القرآن لأن قوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص : 88] يدل على أن لا يبقى إلا وجه الله تعالى ، فعلى القول الحق لا إشكال فيه لأن المعنى لا يبقى غير حقيقة الله أو غير ذات الله شيء وهو كذلك ، وعلى قول المجسم يلزم أن لا تبقى يده التي أثبتها ورجله التي قال بها ، لا يقال : فعلى قولكم أيضاً يلزم أن لا يبقى علم الله ولا قدرة الله ، لأن الوجه جعلتموه ذاتاً ، والذات غير الصفات فإذا قلت : كل شيء هالك إلا حقيقة الله خرجت الصفات عنها فيكون قولكم نفياً للصفات ، نقول : الجواب عنه بالعقل والنقل ، أما النقل

فذلك أمر يذكر في غير هذا الموضع ، وأما العقل فهو أن قول القائل : لم يبق لفلان إلا ثوب يتناول الثوب وما قام به من اللون والطول والعرض ، وإذا قال : لم يبق إلا كمه لا يدل على بقاء جيبه وذيله ، فكذلك قولنا : يبقى ذات الله تعالى يتناول صفاته وإذا قلتم : لا يبقى غير وجهه بمعنى العضو يلزمه أن لا تبقى يده .

المسألة الثانية :

(219/739)

فما السبب في حسن إطلاق لفظ الوجه على الذات ؟ نقول : إنه مأخوذ من عرف الناس ، فإن الوجه يستعمل في العرف لحقيقة الإنسان ، ألا ترى أن الإنسان إذا رأى وجه غيره يقول : رأيته ، وإذا رأى غير الوجه من اليد والرجل مثلاً لا يقول : رأيته ، وذلك لأن اطلاع الإنسان على حقائق الأشياء في أكثر الأمر يحصل بالحس ، فإن الإنسان إذا رأى شيئاً علم منه ما لم يكن يعلم حال غيبته ، لأن الحس لا يتعلق بجميع المرئي وإنما يتعلق ببعضه ، ثم إن الحس يدرك والحدس يحكم فإذا رأى شيئاً بحسه يحكم عليه بأمر بحدسه ، لكن الإنسان اجتمع في وجهه أعضاء كثيرة كل واحد يدل على أمر ، فإذا رأى الإنسان وجه الإنسان حكم عليه بأحكام ما كان يحكم بها لولا رؤيته وجهه ، فكان أدل على حقيقة الإنسان وأحكامه

من غيره ، فاستعمل الوجه في الحقيقة في الإنسان ثم نقل إلى غيره من الأجسام ، ثم نقل لي ما ليس بجسم ، يقال في الكلام هذا وجه حسن وهذا وجه ضعيف ، وقول من قال : إن الوجه من المواجهة كما هو المسطور في البعض من الكتب الفقهية فليس بشيء إذ الأمر على العكس ، لأن الفعل من المصدر والمصدر من الاسم الأصلي وإن كان بالنقل ، فالوجه أول ما وضع للعضو ثم استعمل واشتق منه غيره ، ويعرف ذلك العارف بالتصريف البارع في الأدب .

المسألة الثالثة :

لو قال : ويبقى ربك أو الله أو غيره فحصلت الفائدة من غير وقوع في توهم ما هو ابتدع ، نقول : ما كان يقوم مقام الوجه لفظ آخر ولا وجه فيه إلا ما قاله الله تعالى ، وذلك لأن سائر الأسماء المعروفة لله تعالى أسماء الفاعل كالرب والخالق والله عند البعض بمعنى المعبود ، فلو قال : ويبقى ربك ربك ، وقولنا : ربك معنيان عند الاستعمال أحدهما أن يقال : شيء من كل ربك ، ثانيهما أن يقال : يبقى ربك مع أنه حالة البقاء ربك فيكون المربوب في ذلك الوقت ، وكذلك لو قال : يبقى الخالق والرازق وغيرهما .

المسألة الرابعة :

ما الحكمة في لفظ الرب وإضافة الوجه إليه ، وقال في موضع آخر : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ [البقرة : 115] وقال : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ﴾ [الروم : 38] نقول : المراد في الموضعين المذكورين هو العبادة .

أما قوله : ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ فظاهر لأن المذكور هناك الصلاة ، وأما قوله : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ﴾ فالمذكور هو الزكاة قال تعالى من قبل : ﴿ فَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ والمسكين وابن السبيل ﴾ [الروم : 38] ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ﴾ [الروم : 38] ولفظ الله يدل على العبادة ، لأن الله هو المعبود ، والمذكور في هذا الموضع النعم التي بها تربية الإنسان فقال : ﴿ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ .

المسألة الخامسة :

(221/739)

الخطاب بقوله : ﴿ رَبِّكَ ﴾ مع من ؟ نقول : الظاهر أنه مع كل أحد كأنه يقول : ويبقى وجه ربك أيها السامع ، ويحتمل أن يكون الخطاب مع محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن قيل : فيكف قال : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ خطاباً مع الإثنين ، وقال : ﴿ وَجْهُ

رَبِّكَ﴾ خطاباً مع الواحد ؟ نقول : عند قوله : ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ وقعت الإشارة إلى فناء كل أحد ، وبقاء الله فقال وجه ربك أي يا أيها السامع فلا تلتفت إلى أحد غير الله تعالى ، فإن كل من عداه فإن ، والمخاطب كثيراً ما يخرج عن الإرادة في الكلام ، فإنك إذا قلت : لمن يشكو إليك من أهل موضع سأعاقب لأجلك كل من في ذلك الموضع يخرج المخاطب عن الوعيد ، وإن كان من أهل الموضع فقال : ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ ليعلم كل أحد أن غيره فإن ، ولو قال : وجه ربكما لكان كل واحد يخرج نفسه ورفيقه المخاطب من الفناء ، فإن قلت : لو قال ويبقى وجه الرب من غير خطاب كان أدل على فناء الكل ؟ نقول : كأن الخطاب في الرب إشارة إلى اللطف والإبقاء إشارة إلى القهر ، والموضع موضع بيان اللطف وتعديد النعم ، فلو قال : بلفظ الرب لم يدل عليه الخطاب ، وفي لفظ الرب عادة جارية وهي أنه لا يترك استعماله مع الإضافة .

فالعبد يقول : ربنا اغفر لنا ، ورب اغفر لي ، والله تعالى يقول : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ ﴾ [الدخان : 8] و ﴿ رَبِّ العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] وحيث ترك الإضافة ذكره مع صفة أخرى من أوصاف اللفظ ، حيث قال تعالى : ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾

[سبأ : 15] وقال تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [ياس : 58] ولفظ الرب يحتمل أن يكون مصدراً بمعنى التربية ، يقال : ربه يربه رباً مثل رباه يربيه ، ويحتمل أن يكون وصفاً من الرب الذي هو مصدر بمعنى الراب كالطب للطبيب ، والسمع للحاسة ، والبخل للبخيل ، وأمثال ذلك لكن من باب فعل ، وعلى هذا فيكون كأنه فعل من باب فعل يفعل أي فعل الذي للغريزي كما يقال فيما إذا قلنا : فلان أعلم وأحكم ، فكان وصفاً له من باب فعل اللازم ليخرج عن التعدي .

المسألة السادسة :

(223/739)

﴿ الجلال ﴾ إشارة إلى كل صفة من باب النفي ، كقولنا : الله ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ، ولهذا يقال : جل أن يكون محتاجاً ، وجل أن يكون عاجزاً ، والتحقيق فيه أن الجلال هو بمعنى العظمة غير أن العظمة أصلها في القوة ، والجلال في الفعل ، فهو عظيم لا يسعه عقل ضعيف فجل أن يسعه كل فرض معقول : ﴿ والإكرام ﴾ إشارة إلى كل صفة هي من باب الإثبات ، كقولنا : حي قادر عالم ، وأما السميع والبصير فإنهما من باب الإثبات كذلك عند أهل السنة ، وعند المعتزلة من باب النفي ، وصفات باب النفي قبل

صفات باب الإثبات عندنا ، لأنا أولاً نجد الدليل وهو العالم فنقول : العالم محتاج إلى شيء وذلك الشيء ليس مثل العالم فليس بمحدث ولا محتاج ، ولا ممكن ، ثم نثبت له القدرة والعلم وغيرهما ، ومن هنا قال تعالى لعباده : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ﴾ [الصافات : 35] وقال صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله " ونفي الإلهية عن غير الله ، نفي صفات غير الله عن الله ، فإنك إذا قلت : الجسم ليس بإله لزم منه قولك : الله ليس بجسم و (الجلال والإكرام) وصفان مرتبان على أمرين سابقين ، فالجلال مرتب على فناء الغير والإكرام على بقائه تعالى ، فيبقى الفرد وقد عز أن يحد أمره بفناء من عداه وما عداه ، ويبقى وهو مكرم قادر عالم فيوجد بعد فنائهم من يريد ، وقرىء : ﴿ ذُو الجلال ﴾ ، و ﴿ ذِى الجلال ﴾ .

وسنذكر ما يتعلق به في تفسير آخر السورة إن شاء الله تعالى .

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29)

(224/739)

وفيه وجهان أحدهما : أنه حال تقديره : يبقى وجه ربك مسئولاً وهذا منقول معقول ، وفيه إشكال وهو أنه يفضي إلى التناقض لأنه لما قال : ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن :

27] كان إشارة إلى بقائه بعد فناء من على الأرض ، فكيف يكون في ذلك الوقت مسئولاً لمن في الأرض ؟ فأما إذا قلنا : الضمير عائد إلى (الأمور) الجارية (في يومنا) فلا إشكال في هذا الوجه ، وأما على الصحيح فنقول عنه أجوبة أحدها : لما بينا أنه فإن نظراً إليه ولا يبقى إلا بإبقاء الله ، فيصح أن يكون الله مسئولاً ثانيها : أن يكون مسئولاً معنى لا حقيقة ، لأن الكل إذا فنوا ولم يكن وجود إلا بالله ، فكأن القوم فرضوا سائلين بلسان الحال ثالثها : أن قوله : ﴿ ويبقى ﴾ للاستمرار فيبقى ويعيد من كان في الأرض ويكون مسئولاً والثاني : أنه ابتداء كلام وهو أظهر وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ماذا يسأله السائلون ؟ فنقول : يحتمل وجوهاً أحدها : أنه سؤال استعطاء فيسأله كل أحد الرحمة وما يحتاج إليه في دينه ودنياه ثانيها : أنه سؤال استعلام أي عنده علم الغيب لا يعلمه إلا هو ، فكل أحد يسأله عن عاقبة أمره وعما فيه صلاحه وفساده .

فإن قيل : ليس كل أحد يعترف بجهله وعلم الله نقول : هذا كلام في حقيقة الأمر من جاهل ، فإن كان من جاهل معاند فهو في الوجه الأول أيضاً وارد ، فإن من المعاندين من لا يعترف بقدرة الله فلا يسأله شيئاً بلسانه وإن كان يسأله بلسان حاله لإمكانه ، والوجه الأول إشارة إلى كمال القدرة أي كل أحد عاجز عن تحصيل ما يحتاج إليه .

والوجه الثاني إشارة إلى كمال العلم أي كل أحد جاهل بما عند الله من المعلومات ثالثها : أن ذلك سؤال استخراج ، أمر .

(225/739)

وقوله : ﴿ مَن فِي السموات والأرض ﴾ أي من الملائكة يسألونه كل يوم ويقولون : إلهنا ماذا نفعل وبماذا تأمرنا ، وهذا يصلح جوابا آخر عن الإشكال على قول من قال : يسأله حال لأنه يقول : قال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن : 26] ومن عليها تكون الأرض مكانه ومعتمده ولولاها لا يعيش وأما من فيها من الملائكة الأرضية فهم فيها وليسوا عليها ولا تضرهم زلزلتها ، فعندما يفنى من عليها ويبقى الله تعالى لا يفنى هؤلاء في تلك الحال فيسألونه ويقولون : ماذا نفعل فيأمرهم بما يأمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ثم يقول لهم : عندما يشاء موتوا فيموتوا هذا على قول من قال : ﴿ يَسْأَلُهُ ﴾ حال وعلى الوجه الآخر لا إشكال .

المسألة الثانية :

هو عائد إلى من ؟ نقول : الظاهر المشهور أنه عائد إلى الله تعالى وعليه اتفاق المفسرين ، ويدل عليه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن ذلك الشأن فقال :

" يغفر ذنباً ويفرج كرباً ، ويرفع من يشاء ويضع من يشاء " ويحتمل أن يقال : هو عائد إلى يوم و ﴿ كُلَّ يَوْمٍ ﴾ ظرف سؤالهم أي يقع سؤالهم في كل يوم وهو في شأن يكون جملة وصف بها يوم وهو نكرة كما يقال : يسألني فلان كل يوم هو يوم راحتي أي يسألني أيام الراحة ، وقوله : ﴿ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ يكون صفة مميزة للأيام التي فيها شأن عن اليوم الذي قال تعالى فيه : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] فإنه تعالى في ذلك اليوم يكون هو السائل وهو المجيب ، ولا يسأل في ذلك اليوم لأنه ليس يوماً هو في شأن يتعلق بالسائلين من الناس والملائكة وغيرهم ، وإنما يسألونه في يوم هو في شأن يتعلق بهم فيطلبون ما يحتاجون إليه أو يستخرجون أمره بما يفعلون فيه ، فإن قيل : فهذا ينافي ما ورد في الخبر ، نقول : لا منافاة لقوله عليه السلام في جواب من قال : ما هذا الشأن ؟ فقال : " يغفر ذنباً (ويفرج كرباً) " أي فالله تعالى جعل بعض الأيام موسومة بوسم يتعلق بالخلق من مغفرة الذنوب والتفريج عن المكروب فقال تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السموات والأرض ﴾ في تلك الأيام التي في ذلك الشأن وجعل بعضها موسومة بأن لا داعي فيها ولا سائل ، وكيف لا نقول بهذا ، ولو تركنا كل يوم على عمومه لكان كل يوم فيه فعل وأمر وشأن فيفضي ذلك إلى القول

بالقدم والدوام ، اللهم إلا أن يقال : عام دخله التخصيص كقوله تعالى : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 23] و ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأحقاف : 25] .

المسألة الثالثة :

(227/739)

فعلى المشهور يكون الله تعالى في كل يوم ووقت في شأن ، وقد جف القلم بما هو كائن ، نقول : فيه أجوبة منقولة في غاية الحسن فلا نبخل بها وأجوبة معقولة نذكرها بعدها : أما المنقولة فقال بعضهم : المراد سوق المقادير إلى المواقيت ، ومعناه أن القلم جف بما يكون في كل (يوم و) وقت ، فإذا جاء ذلك الوقت تعلقت إرادته بالفعل فيه فيوجد ، وهذا وجه حسن لفظاً ومعنى وقال بعضهم : شؤون يبديها لا شؤون يبتديها ، وهو مثل الأول معنى ، أي لا يتغير حكمه بأنه سيكون ولكن يأتي وقت قدر الله فيه فعله فيبدو فيه ما قدره الله ، وهذان القولان ينسبان إلى الحسن بن الفضل أجاب بهما عبد الله بن طاهر وقال بعضهم : يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويشفي سقيماً ويمرض سليماً ، ويعز ذليلاً ويذل عزيزاً ، إلى غير ذلك وهو مأخوذ من قوله عليه السلام : " يغفر ذنباً ويفرج كرباً " وهو أحسن وأبلغ حيث بين أمرين أحدهما يتعلق بالآخرة

والآخر بالدنيا ، وقدم الأخروي على الدنيوي وأما المعقولة : فهي أن نقول هذا بالنسبة إلى الخلق ، ومن يسأله من أهل السموات والأرض لأنه تعالى حكم بما أراد وقضى وأبرم فيه حكمه وأمضى ، غير أن ما حكمه يظهر كل يوم ، فنقول : أبرم الله اليوم رزق فلان ولم يرزقه أمس ، ولا يمكن أن يحيط علم خلقه بما أحاط به علمه ، فتسأله الملائكة كل يوم إنك يا إلهنا في هذا اليوم في أي شأن في نظرنا وعلمنا الثاني : هو أن الفعل يتحقق بأمرين من جانب الفاعل بأمر خاص ، ومن جانب المفعول في بعض الأمور ، ولا يمكن غيره وعلى وجه يختاره الفاعل من وجوه متعددة مثال الأول : تحريك الساكن لا يمكن إلا بإزالة السكون عنه والإتيان بالحركة عقيبه من غير فصل ومثال الثاني : تسكين الساكن فإنه يمكن مع إبقاء السكون فيه ومع إزالته عقيبه من غير فصل أو مع فصل ، إذ يمكن أن يزيل عنه السكون ولا يحركه مع بقاء الجسم ، إذا

(228/739)

عرفت هذا فالله تعالى خلق الأجسام الكثيرة في زمان واحد وخلق فيها صفات مختلفة في غير ذلك الزمان ، فإيجادها فيه لا في زمان آخر بعد ذلك الزمان فمن خلقه فقيراً في زمان لم يمكن خلقه غنياً في عين ذلك الزمان مع خلقه فقيراً فيه وهذا ظاهر ، والذي يظن أن ذلك

يلزم منه العجز أو يتوهم فليس كذلك بل العجز في خلاف ذلك لأنه لو خلقه فقيراً في زمان يريد كونه غنياً لما وقع الغنى فيه مع أنه أراده ، فيلزم العجز من خلاف ما قلنا : لا فيما قلنا ، فإذن كل زمان هو غير الزمان الآخر فهو معنى قوله : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وهو المراد من قول المفسرين : أغنى فقيراً وأفقر غنياً ، وأعز ذليلاً وأذل عزيزاً ، إلى غير ذلك من الأضداد .

(229/739)

ثم اعلم أن الضدين ليسا منحصرين في مختلفين بل المثلان في حكمهما فإنهما لا يجتمعان ، فمن وجد فيه حركة إلى مكان في زمان لا يمكن أن توجد فيه في ذلك الزمان حركة أخرى أيضاً إلى ذلك المكان ، وليس شأن الله مقتصراً على إفقار غني أو إغناء فقير في يومنا دون إفقاره أو إغنائه أمس ، ولا يمكن أن يجمع في زيد إغناء هو أمسي مع إغناء هو يومي ، فالغنى المستمر للغني في نظرنا في الأمر متبدل الحال ، فهو أيضاً من شأن الله تعالى ، واعلم أن الله تعالى يوصف بكونه : لا يشغله شأن عن شأن ، ومعناه أن الشأن الواحد لا يصير مانعاً له تعالى عن شأن آخر كما أنه يكون مانعاً لنا ، مثاله : واحد منا إذا أراد تسويد جسم بصبغة يسخنه بالنار أو تبييض جسم يبرده بالماء والماء والنار متضادان إذا طلب منه

أحدهما وشرع فيه يصير ذلك مانعاً له من فعل الآخر ، وليس ذلك الفعل مانعاً من الفعل لأن تسويد جسم وتبييض آخر لا تنافي بينهما ، وكذلك تسخينه وتسويده بصبغة لا تنافي فيه ، فالفعل صار مانعاً للفاعل من فعله ولم يصر مانعاً من الفعل ، وفي حق الله مالا يمنع الفعل لا يمنع الفاعل ، فيوجد تعالى من الأفعال المختلفة مالا يحصر ولا يحصى في آن واحد ، أما ما يمنع من الفعل كالذي يسود جسماً في آن لم يمكنه أن يبيضه في ذلك الآن ، فهو قد يمنع الفاعل أيضاً وقد لا يمنع ولكن لا بد من منعه للفاعل ، فالتسويد لا يمكن معه التبييض ، والله تعالى لا يشغله شأن عن شأن أصلاً لكن أسبابه تمنع أسباباً آخر لا تمنع الفاعل .

إذا علمت هذا البحث فقد أفادك .

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32)

(230/739)

ولنذكر أولاً ما قيل فيه تبركاً بأقوال المشايخ ثم نحققه بالبيان الشافي فنقول : اختلف المفسرون فيه وأكثرهم على أن المراد سنقصدكم بالفعل ، وقال بعضهم : خرج ذلك مخرج التهديد على ما هي عادة استعمال الناس فإن السيد يقول لعبده عند الغضب : سأفرغ لك ، وقد يكون السيد فارغاً جالساً لا يمنعه شغل ، وأما التحقيق فيه ، فنقول : عدم الفراغ

عبارة عن أن يكون الفاعل في فعل لا يمكنه معه إيجاد فعل آخر فإن من يخيط يقول : ما أنا بفارغ للكتابة ، لكن عدم الفراغ قد يكون لكون أحد الفعلين مانعاً للفاعل من الفعل الآخر ، يقال : هو مشغول بكذا عن كذا كما في قول القائل : أنا مشغول بالخياطة عن الكتابة ، وقد يكون عدم الفراغ لكون الفعل مانعاً من الفعل لا لكونه مانعاً من الفاعل كالذي يحرك جسماً في زمان لا يمكن تسكينه في ذلك الزمان فهو ليس بفارغ للتسكين ، ولكن لا يقال في مثل هذا الوقت أنا مشغول بالتحريك عن التسكين ، فإن في مثل هذا الموضع لو كان غير مشغول به بل كان في نفس المحل حركة لا بفعل ذلك الفاعل لا يمكنه التسكين فليس امتناعه منه إلا لاستحالته بالتحريك ، وفي الصورة الأولى لولا اشتغاله بالخياطة لتمكن من الكتابة ، إذا عرفت هذا صار عدم الفراغ قسمين أحدهما : بشغل والآخر ليس بشغل ، فنقول : إذا كان الله تعالى باختياره أوجد الإنسان وأبقاه مدة أرادها بمحض القدرة والإرادة لا يمكن مع هذا إعدامه ، فهو في فعل لا يمنع الفاعل لكن يمنع الفعل ومثل هذا بينا أنه ليس بفراغ ، وإن كان له شغل ، فإذا أوجد ما أراد أولاً ثم بعد ذلك أمكن الإعدام والزيادة في آنه فيتحقق الفراغ لكن لما كان للإنسان مشاهدة مقتصرة على أفعال نفسه وأفعال أبناء جنسه وعدم الفراغ منهم بسبب الشغل يظن أن الله تعالى فارغ فحمل الخلق عليه أنه ليس بفارغ ، فيلزم منه الفعل وهو لا يشغله شأن عن شأن يلزمه حمل اللفظ على غير معناه ، واعلم أن هذا ليس قولاً آخر غير قول

المشايخ ، بل هو بيان لقولهم : سنقصدكم ، غير أن هذا مبين ، والحمد لله على أن هدانا للبيان من غير خروج عن قول أرباب اللسان .

واعلم أن أصل الفراغ بمعنى الخلو ، لكن ذلك إن كان في المكان فيتسع ليتمكن آخر ، وإن كان في الزمان فيتسع للفعل ، فالأصل أن زمان الفاعل فارغ عن فعله وغير فارغ لكن المكان مرئي بالخلو فيه ، فيطلق الفراغ على خلو المكان في الظرف الفلاني والزمان غير مرئي ، فلا يرى خلوه .

ويقال : فلان في زمان كذا فارغ لأن فلاناً هو المرئي لا الزمان والأصل أن هذا الزمان من أزمنة فلان فارغ فيمكنه وصفه للفعل فيه ، وقوله تعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ استعمال على ملاحظة الأصل ، لأن المكان إذا خلا يقال : لكذا ولا يقال : إلى كذا فكذلك الزمان لكن لما نقل إلى الفاعل وقيل : الفاعل على فراغ وهو عند الفراغ يقصد إلى شيء آخر قيل في الفاعل : فرغ من كذا إلى كذا ، وفي الظرف يقال : فرغ من كذا لكذا فقال لكم على ملاحظة الأصل ، وهو يقوي ما ذكرنا أن المانع ليس بالنسبة إلى الفعل بل بالنسبة إلى الفعل .

وأما ﴿ أَيُّهَ ﴾ فنقول : الحكمة في نداء المبهم والإتيان بالوصف بعده هي أن المنادي يريد صون كلامه عن الضياع ، فيقول أولاً : يا أي نداء لمبهم ليقبل عليه كل من يسمع ويتنبه لكلامه من يقصده ، ثم عند إقبال السامعين يخصص المقصود فيقول : الرجل والتزم فيه أمران أحدهما : الوصف بالمعرف باللام أو باسم الإشارة ، فتقول : يا أيها الرجل أو يا أيهذا لا الأعرف منه وهو العلم ، لأن بين المبهم الواقع على كل جنس والعلم المميز عن كل شخص تباعداً وثانيهما : توسط (هاء) التنبيه بينه وبين الوصف لأن الأصل في أي الإضافة لما أنه في غاية الإبهام فيحتاج إلى التمييز ، وأصل التمييز على ما بينا الإضافة ، فوسط بينهما لتعويضه عن الإضافة ، والتزم أيضاً حذف لام التعريف عند زوال أي فلا تقول : يا الرجل لأن في ذلك تطويلاً من غير فائدة ، فإنك لا تفيد باللام التنبيه الذي ذكرنا ، فقولك : يا رجل مفيد فلا حاجة إلى اللام فهو يوجب إسقاط اللام عند الإضافة المعنوية ، فإنها لما أفادت التعريف كان إثبات اللام تطويلاً من غير فائدة لكونه جمعاً بين المعرفين ، وقوله تعالى :

﴿ الثقلان ﴾ المشهور أن المراد الجن والإنس وفيه وجوه أحدها : أنهما سميا بذلك لكونهما مثقلين بالذنوب ثانيهما : سميا بذلك لكونهما ثقيلين على وجه الأرض فإن التراب وإن لطف في الخلق ليتم خلق آدم لكنه لم يخرج عن كونه ثقيلاً ، وأما النار فلما ولد فيها خلق الجن كثفت يسيراً ، فكما أن التراب لطف يسيراً فكذلك النار صارت ثقيلة ، فهما ثقلان

فسميا بذلك ثالثها : الثقيل أحدهما : لا غير وسمي الآخر به للمجاورة والاصطحاب كما يقال : العمران والقمران وأحدهما عمر وقمر ، أو يحتمل أن يكون المراد العموم بالنوعين الحاصرين ، تقول : يا أيها الثقل الذي هو كذا ، والثقل الذي ليس كذا ، والثقل الأمر العظيم .

قال عليه السلام : " إني تارك فيكم الثقلين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 99.91 ﴾

(233/739)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) ﴾

قال كثير من المفسرين : ﴿ الإنسان ﴾ آدم . وقال آخرون : أراد اسم الجنس ، وساغ ذلك من حيث أبوهم مخلوق من الصلصال .

واختلف الناس في اشتقاق الصلصال ، فقال مكي فيما حكى النقاش : هو من صلّ اللحم وغيره إذا نتن ، فهي إشارة إلى الحمأة . وقال الطبري وجمهور المفسرين : هو من صلّ إذا صوت ، وذلك في الطين لكرمه وجودته ، فهي إشارة إلى ما كان من تربة آدم من الطين الحر ،

وذلك أن الله تعالى خلقه من طيب وخبيث ومختلف اللون ، فمرة ذكر في خلقه هذا ، ومرة هذا ، وكل ما في القرآن في ذلك صفات ترددت على التراب الذي خلق منه . و" الفخار " : الطين الطيب إذا مسه الماء فخر أي ربا وعظم .

و: ﴿ الجان ﴾ اسم جنس ، كالجنة . و: " المارج " اللهب المضطرب من النار . قال ابن عباس : وهو أحسن النار المختلط من ألوان شتى . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر : " كيف بك إذا كنت في حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم " .

وكرر قوله : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ تأكيداً أو تنبيهاً لنفوس وتحريكاً لها ، وهذه طريقة من الفصاحة معروفة ، وهي من كتاب الله في مواضع ، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي كلام العرب وذهب قوم منهم ابن قتيبة وغيره إلى أن هذا التكرار إنما هو لما اختلفت النعم المذكورة كرر التوقيف مع كل واحدة منها ، وهذا حسن . قال الحسين بن الفضي : التكرار لطرد الغفلة ولا تأكيد .

(234/739)

وخص ذكر ﴿ المشرقين والمغربين ﴾ بالتشريف في إضافة الرب إليهما لعظمهما في المخلوقات وأنهما طرفا آية عظيمة وعبرة وهي الشمس وجريها . وحكى النقاش أن ﴿

المشرقين ﴾ مشرقا الشمس والقمر ، ﴿ والمغربين ﴾ كذلك على ما في ذلك من العبر ، وكل متجه ، ومتى وقع ذكر المشرق والمغرب فهي إشارة إلى الناحيتين بجملتهما ، ومتى وقع ذكر المشارق والمغارب فهي إشارة إلى تفصيل مشرق كل يوم ومغربه ، ومتى ذكر المشرقان والمغربان ، فهي إشارة إلى نهايتي المشارق والمغارب ، لأن ذكر نهايتي الشيء ذكر لجميعه .

قال مجاهد : هو مشرق الصيف ومغربه ، ومشرق الشتاء ومغربه .

﴿ مرج البحرين ﴾ معناه : أرسلهما إرسالاً غير منحاز بعضهما من بعض ، ومنه مرجت الدابة ، ومنه الأمر المريج ، أي المختلط الذي لم يتحصل منه شيء ، ومنه من ﴿ مارج من نار ﴾ [الرحمن : 15] .

واختلف الناس في ﴿ البحرين ﴾ فقال الحسن وقتادة : بحر فارس وبحر الروم . وقال الحسن أيضاً : بحر القلزم واليمن وبحر الشام . وقال ابن عباس وابن جبير : هو بحر في السماء وبحر في الأرض . وقال ابن عباس أيضاً هو مطر السماء سماه بحراً وبحر الأرض .

والظاهر عندي أن قوله تعالى : ﴿ البحرين ﴾ يريد بهما نوعي الماء العذب . والأجاج : أي خلطهما في الأرض وأرسلهما متداخلين في وضعهما في الأرض قريب بعضهما من بعض ولا بغي ، والعبرة في هذا التأويل منيرة ، وأنشد منذر بن سعيد : [الطويل]

وممزوجة الأمواه لا العذب غالب . . . على الملح طيباً لا ولا الملح يعذب

أما قوله : ﴿ يلتقيان ﴾ فعلى التأولين الأولين معناه : هما معدان للالتقاء ، وحقهما أن يلتقيا لولا البرزخ ، وعلى القول الثالث روي أنهما يلتقيان كل سنة مرة ، فمن ذهب إلى أنه بحر يجتمع في السماء فهو قول ضعيف وإنما يتوجه الالتقاء فيه . وفي القول الرابع بنزول المطر ، وفي القول الخامس بالأنهار في البحر وبالعيون قرب البحر . والبرزخ : الحاجز في كل شيء ، فهو في بعض هذه الأقوال أجرام الأرض ، قاله قتادة . وفي بعضها القدرة والبرزخ أيضاً : المدة التي بين الدنيا والآخرة للموتى ، فهي حاجز ، وقد قال بعض الناس : إن ماء الأنهار لا يختلط بالماء الملح ، بل هو بذاته باق فيه ، وهذا يحتاج إلى دليل أو حديث صحيح ، وإلا فالعيان لا يقتضيه . وذكر الثعلبي في : ﴿ مرج البحرين ﴾ ألغازاً وأقوالاً باطنة لا يجب أن يلتفت إلى شيء منها .

واختلف الناس في قوله : ﴿ لا يبغيان ﴾ فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة معناه : لا يبغي واحد منهما على الآخر . وقال قتادة أيضاً والحسن : ﴿ لا يبغيان ﴾ على الناس والعمران . وهذان القولان على أن اللفظة من البغي . وقال بعض المتأولين هي من قولك : بغى إذا طلب ، فمعناه : ﴿ لا يبغيان ﴾ حالاً غير حالهما التي خلقا وسخرا لها . وقال ابن عباس وقتادة والضحاك : ﴿ اللؤلؤ ﴾ : كبار الجوهر ﴿ والمرجان ﴾ : صغاره . وقال ابن عباس أيضاً ومرة الهمداني عكس هذا ، والوصف بالصغر وهو الصواب في ﴿

اللؤلؤ ﴾ . وقال ابن مسعود وغيره ﴿ المرجان ﴾ : حجر أحمر ، وهذا هو الصواب في ﴿ المرجان ﴾ . و ﴿ اللؤلؤ ﴾ : بناء غريب لا يحفظ منه في كلام العرب أكثر من خمسة : اللؤلؤ والجؤجؤ والدؤدؤ واليؤيؤ وهو طائر ، والبؤبؤ وهو الأصل .

واختلف الناس في قوله : ﴿ منهما ﴾ فقال أبو الحسن الأخفش في كتابه الحجة ، وزعم قوم أنه قد ينفرج ﴿ اللؤلؤ والمرجان ﴾ من الملح ومن العذب .

(236/739)

قال القاضي أبو محمد : ورد الناس على هذا القول ، لأن الحس يخالفه ولا يخرج ذلك إلا من الملح وقد رد الناس على الشاعر في قوله : [الطويل]

فجاء بها ما شيت من لطمية . . . على وجهها ماء الفرات يموج

وقال جمهور من المتأولين : إنما يخرج ذلك من الأجاج في المواضع التي تقع فيها الأنهار والمياه العذبة ، فلذلك قال : ﴿ منهما ﴾ وهذا مشهور عند الغواصين . وقال ابن عباس وعكرمة : إنما تتكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر ، لأن الصدف وغيرها تفتح أجوافها للمطر ، فلذلك قال : ﴿ منهما ﴾ وقال أبو عبيدة ما معناه : إن خروج هذه الأشياء إنما هي من الملح ، لكنه قال : ﴿ منهما ﴾ تجوزاً كما قال الشاعر [عبد الله بن

الزبعرى] : [مجزوء الكامل مرفّل]

متقلداً سيفاً ورمحا . . . وكما قال الآخر :

علفتها تبناً وماءً بارداً . . . . فمن حيث هما نوع واحد ، فخروج هذه الأشياء إنما هي منهما وإن كانت تختص عند التفصيل المبالغ بأحدهما ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ سبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن ﴾ [نوح : 15-16] ، وإنما هو في إحداهن وهي الدنيا إلى الأرض . قال الرماني : العذب فيهما كاللقاح للملح فهو كما يقال : الولد يخرج من الذكر والأنثى .

وقرأ نافع وأبو عمرو وأهل المدينة : "يُخرَج" بضم الياء وفتح الراء . "اللؤلؤُ" رفعاً . وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي : "يَخرُج" بضم الياء وفتح الراء على بناء الفعل للفاعل ، وهي قراءة الحسن وأبي جعفر . وقرأ أبو عمرو في رواية حسين الجعفي عنه : "يُخرِج" بضم الياء وكسر الراء على إسناده إلى الله تعالى ، أي بتمكينه وقدرته ، "اللؤلؤَ" نصباً ، ورواها أيضاً عنه بالنون مضمومة وكسر الراء .

و: ﴿ الجواري ﴾ جمع جارية ، وهي السفن . وقرأ الحسن والنخعي بإثبات الياء . وقرأ الجمهور وأبو جعفر وشيبة بحذفها .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والكسائي : " المنشآت " بفتح الشين أي أنشأها الله والناس . وقرأ حمزة وأبو بكر بخلاف : " المنشِئات " بكسر الشين ، أي تنشئ هي السير إقبالاً وإدباراً ، و" الأعلام " الجبال وما جرى مجراها من الظراب والآكام . وقال مجاهد : ما له شراع فهو من ﴿ المنشآت ﴾ ، وما لم يرفع له شراع فليس من ﴿ المنشآت ﴾

وقوله : ﴿ كالأعلام ﴾ هو الذي يقتضي هذا الفرق ، وأما لفظة ﴿ المنشئات ﴾ فيعم الكبير والصغير ، والضمير في قوله ﴿ كل من عليها ﴾ للأرض ، وكنى عنها ، ولم يتقدم لها ذكر لوضوح المعنى كما قال تعالى : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ [ص : 32] إلى غير ذلك من الشواهد ، والإشارة بالفناء إلى جميع الموجودات على الأرض من حيوان وغيره ، فغلب عبارة من يعقل ، فلذلك قال : ﴿ من ﴾ . والوجه عبارة عن الذات . لأن الجارحة منفية في حق الله تعالى : وهذا كما تقول : هذا وجه القول والأمر ، أي حقيقته وذاته .

وقرأ جمهور الناس : " ذو الجلال " على صفة لفظة الوجه . وقرأ عبد الله بن مسعود وأبيّ : " ذي الجلال " على صفات الرب .

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29)

قوله : ﴿ يسأله ﴾ يحتمل أن يكون في موضع الحال من الوجه ، والعامل فيه ﴿ يبقى ﴾ [

الرحمن : 27] أي هو دائم في هذه الحال ، ويحتمل أن يكون فعلاً مستأنفاً إخراباً مجرداً .

والمعنى أن كل مخلوق من الأشياء فهو في قوامه وتماسكه ورزقه إن كان مما يرزق بحال حاجة إلى الله تعالى ، فمن كان يسأل بنطق فالأمر فيه بين ، ومن كان من غير ذلك فحاله تقتضي السؤال ، فأسند فعل السؤال إليه .

(238/739)

وقوله : ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ أي يظهر شأن من قدرته التي قد سبقت في الأزل في ميقاته من الزمن من إحياء وإماتة ورفعة وخفض ، وغير ذلك من الأمور التي لا يعلم نهايتها إلا هو تعالى . والشأن : اسم جنس للأمور . قال الحسين بن الفضل : معنى الآية ، سوق المقادير إلى المواقيت . وورد في بعض الأحاديث ، " إن الله تعالى له كل يوم في اللوح المحفوظ ثلاثمائة وستون نظرة ، يعز فيها ويذل ، ويحيي ويميت ، ويغني ويعدم إلى غير ذلك من الأشياء ، لا إله إلا هو " . وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فقيل له ما هذا الشأن يا رسول الله ؟ قال : يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع ويضع .

وذكر النقاش أن سبب هذه الآية قول اليهود : إن الله استراح يوم السبت ، فلا ينفذ فيه شيئاً .

وقوله تعالى : ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ عبارة عن إتيان الوقت الذي قدر فيه وقضى أن ينظر في أمور عباده وذلك يوم القيامة ، وليس المعنى : أن ثم شغلاً يتفرغ منه ، وإنما هي إشارة وعيد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لأزب العقبة لأفرغن لك يا خبيث " والتفرغ من كل آدمي حقيقة .

وفي قوله تعالى : ﴿ سنفرغ لكم ﴾ جرى على استعمال العرب ، ويحتمل أن يكون التوعد بعذاب في الدنيا والأول أبين .

(239/739)

وقرأ نافع وابن كثير وعاصم وأبو عمرو وابن عامر : " سنفرُغ " بضم الراء وبالنون . وقرأ الأعرج وقتادة : ذلك بفتح الراء والنون ، ورويت عن عاصم ، ويقال فرغ بفتح الراء وفرغ بكسرها . ويصح منهما جميعاً أن يقال يفرغ بفتح الراء وقرأ عيسى بفتح النون وكسر الراء . وقال أبو حاتم : هي لغة سفلى مضر ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي : بالياء المفتوحة ، قرأ حمزة والكسائي : بضم الراء . وقرأ أبو عمرو : بفتحها . وقرأ الأعمش بخلاف ، وأبو حيوة : " سيُفرَغ " بضم الياء وفتح الراء وبناء الفعل للمفعول . وقرأ عيسى بن عمر أيضاً : " سنَفرِغ " ، بفتح النون وكسر الراء . وفي مصحف عبد الله بن مسعود : "

سنفرغ لكم أيها " .

و﴿ الثقلان ﴾ الإنس والجن ، ويقال لكل ما يعظم أمره ثقل ، ومنه :

﴿ أخرجت الأرض أثقالها ﴾ [الزلزلة : 2] . وقال النبي عليه السلام : " إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي " . ويقال لبيض النعام ثقل . وقال لبيد : [الكامل]

فتذكرا ثقلاً رئيداً بعدما . . . ألقت ذكاء يمينها في كافر

وقال جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه : سمي الإنس والجن ثقلين ، لأنهما ثقلا بالذنوب وهذا بارع ينظر إلى خلقهما من طين ونار .

وقرأ ابن عامر : " أيُّهُ الثقلان " بضم الهاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(240/739)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الجوار ﴾

يعني السفن .

﴿ المنشئات ﴾ قراءة العامة ﴿ المنشآت ﴾ بفتح الشين ؛ قال قتادة : أي المخلوقات

للجري مأخوذ من الإنشاء .

وقال مجاهد : هي السفن التي رُفِعَ قِلْعها ؛ قال : وإذا لم يُرفع قِلْعها فليست بمنشَئات .

وقال الأخفش : إنها المَجريات .

وفي الحديث : أن عليًّا رضي الله عنه رأى سفناً مُقْلَعة ، فقال : وربّ هذه الجوارِي المنشآت ما قتلت عثمان ولا مالأت في قتله .

وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم باختلاف عنه "الْمُنْشِئَآتُ" بكسر الشين أي المنشِئات السير ؛ أضيف الفعل إليها على التجوز والاتساع .

وقيل : الرافعات الشُّرُع أي القُلُع .

ومن فتح الشين قال : المرفوعات الشُّرَع .

﴿ كالأعلام ﴾ أي كالجبال ، والعَلَم الجبل الطويل ، قال :

إذا قَطَعْنَ عَلَماً بَدَا عَلَمْ . . .

فالسفن في البحر كالجبال في البر ، وقد مضى في "الشورى" بيانه .

وقرأ يعقوب "الْجَوَارِي" بياء في الوقف ؛ وحذف الباقون .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ الضمير في ﴿ عَلَيْهَا ﴾ للأرض ، وقد جرى ذكرها في أول السورة في قوله تعالى : ﴿ والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ وقد يقال : هو أكرم مَنْ عليها ، يعنون الأرض وإن لم يجر لها ذكر .

وقال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلك أهل الأرض فنزلت : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] فأيقنت الملائكة بالهلاك ؛ وقاله مقاتل .

ووجه النعمة في فناء الخلق التسوية بينهم في الموت ، ومع الموت تستوي الأقدام .

وقيل : وجه النعمة أن الموت سبب النقل إلى دار الجزاء والثواب .

﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ أي ويبقى الله ؛ فالوجه عبارة عن وجوده وذاته سبحانه ؛ قال الشاعر :

قَضَى على خَلْقه المنايا . . .

فكلُّ شيء سواه فانِي

وهذا الذي ارتضاه المحققون من علمائنا : ابن فورك وأبو المعالي وغيرهم .

(241/739)

وقال ابن عباس : الوجه عبارة عنه كما قال : ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام ﴾

وقال أبو المعالي : وأما الوجه فالمراد به عند معظم أئمتنا وجود الباري تعالى ، وهو الذي ارتضاه شيخنا .

ومن الدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ والموصف بالبقاء عند تعرض

الخلق للفناء وجود الباري تعالى .

وقد مضى في "البقرة" القول في هذا عند قوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ وقد ذكرناه في الكتاب الأسنى مستوفى .

قال القشيري : قال قوم هو صفة زائدة على الذات لا تُكَيف ، يحصل بها الإقبال على من أراد الربّ تخصيصه بالإكرام .

والصحيح أن يقال : وجهه وجوده وذاته ، يقال : هذا وجه الأمر ووجه الصواب وعين الصواب .

وقيل : أي يبقى الظاهر بأدلته كظهور الإنسان بوجهه .

وقيل : وتبقى الجهة التي يتقرب بها إلى الله .

﴿ ذُو الجلال ﴾ الجلال عظمة الله وكبرياؤه واستحقاقه صفات المدح ؛ يقال : جَلَّ الشيءُ أي عَظُم وأجللته أي عظّمته ، والجلال اسم من جلّ .

﴿ والإكرام ﴾ أي هو أهل لأن يكرم عما لا يليق به من الشرك ؛ كما تقول : أنا أكرمك عن هذا ؛ ومنه إكرام الأنبياء والأولياء .

وقد أتينا على هذين الاسمين لغةً ومعنًى في الكتاب الأسنى مستوفًى .

وروى أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أَلِظُّوا بيا ذا الجلالِ والإكرام" وروي أنه من قول ابن مسعود ؛ ومعناه : الزموا ذلك في الدعاء .

قال أبو عبيد : الإلظاظ لزوم الشيء والمثابرة عليه .

ويقال : الإلظاظ الإلحاح .

وعن سعيد المقبري : أن رجلاً أَلَحَّ فجعل يقول : اللّهم يا ذا الجلال والإكرام ! اللّهم يا ذا الجلال والإكرام ! فنودي : إني قد سمعت فما حاجتك ؟

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السماوات والأرض ﴾ قيل : المعنى يسأله من في السموات الرحمة ، ومن في الأرض الرزق .

(242/739)

وقال ابن عباس وأبو صالح : أهل السموات يسألونه المغفرة ولا يسألونه الرزق ؛ وأهل الأرض يسألونهما جميعاً .

وقال ابن جريج : وتسأل الملائكة الرزق لأهل الأرض ؛ فكانت المسألتان جميعاً من أهل السماء وأهل الأرض لأهل الأرض .

وفي الحديث : " إن من الملائكة مَلَكاً له أربعة أوجه وجه كوجه الإنسان وهو يسأل الله الرزق لبني آدم ووجه كوجه الأسد وهو يسأل الله الرزق للسباع ووجه كوجه الثور وهو يسأل الله الرزق للبهائم ووجه كوجه النّسر وهو يسأل الله الرزق للطير " وقال ابن عطاء :

إنهم سألوه القوّة على العبادة .

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ هذا كلام مبتدأ .

وانتصب "كُلَّ يَوْمٍ" ظرفاً ، لقوله : "فِي شَأْنٍ" أو ظرفاً للسؤال ؛ ثم يبتدىء ﴿ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ .

وروى أبو الدرداء رضي الله عنه " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ قال : "من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرّج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين" " وعن ابن عمر " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ قال : "يغفر ذنباً ويكشف كرباً ويجيب داعياً" " وقيل : من شأنه أن يحيي ويميت ، ويُعزّ ويذل ، ويرزق ويمنع .

وقيل : أراد شأنه في يومي الدنيا والآخرة .

قال ابن بحر : الدهر كله يومان ، أحدهما مدة أيام الدنيا ، والآخر يوم القيامة ، فشأنه سبحانه وتعالى في أيام الدنيا الابتلاء والاختبار بالأمر والنهي والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع ، وشأنه يوم القيامة الجزاء والحساب ، والثواب والعقاب .

وقيل : المراد بذلك الإخبار عن شأنه في كل يوم من أيام الدنيا وهو الظاهر .

والشأن في اللغة الخطب العظيم والجمع الشؤون والمراد بالشأن ها هنا الجمع كقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ [غافر : 67] وقال الكلبي : شأنه سوق المقادير إلى المواقيت .

(243/739)

وقال عمرو بن ميمون في قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ من شأنه أن يميت حَيًّا ، ويُقِرَّ في الأرحام ما شاء ، ويُعزّ ذليلاً ، ويُذلّ عزيزاً .

وسأل بعض الأمراء وزيره عن قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ فلم يعرف معناها ، واستمهله إلى الغد فانصرف كئيباً إلى منزله فقال له غلام له أسود : ما شأنك ؟ فأخبره . فقال له : عد إلى الأمير فإني أفسرها له ، فدعاه فقال : أيها الأمير ! شأنه أن يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحيّ من الميّت ، ويخرج الميّت من الحيّ ، ويَشفي سقيماً ، ويُسقم سليماً ، ويَبتلي معافًى ، ويعافي مبتلًى ، ويُعزّ ذليلاً ، ويذل عزيزاً ، ويُفقر غنيًّا ، ويغني فقيراً ؛ فقال له : فَرَّجت عني فَرَّجَ الله عنك ، ثم أمر بخلع ثياب الوزير وكساها الغلام ؛ فقال : يا مولاي ، هذا من شأن الله تعالى .

وعن عبد الله بن طاهر : أنه دعا الحسين بن الفضل وقال له : أشكلت عليّ ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لي : قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النادمين ﴾ [المائدة : 31] وقد صح

أن الندم توبة .

وقوله : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ وقد صح أن القلم جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة .

وقوله : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [النجم : 39] فما بال الأضعاف ؟ فقال الحسين : يجوز ألا يكون الندم توبة في تلك الأمة ، ويكون توبة في هذه الأمة ؛ لأن الله تعالى خص هذه الأمة بخصائص لم تشاركهم فيها الأمم .

وقيل : إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ولكن على حمله .

وأما قوله : "كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ" فإنها شؤون يبديها لا شؤون يبتديها .

وأما قوله : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [النجم : 39] فمعناه : ليس له إلا ما سعى عدلاً ولي أن أجزيه بواحدة ألفاً فضلاً .

فقام عبد الله وقبل رأسه وسوغ خراجه .

قوله تعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثقلان ﴾

(244/739)

يقال : فَرَغت من الشغل أفرغ فُروغاً وفَرَاغاً وتفرّغت لكذا واستفرغت مجهودي في كذا أي بذلته .

والله تعالى ليس له شغل يفرغ منه ، إنما المعنى سنقصد لمجازاتكم أو محاسبتكم ، وهذا وعيد وتهديد لهم كما يقول القائل لمن يريد تهديده : إذاً أتفرغ لك أي أقصدك .

وفرغ بمعنى قصد ؛ وأنشد ابن الأنباري في مثل هذا لجرير :

ألاَن وقَدْ فَرَغْتُ إلى نُمَيْرٍ . . .

فهذا حينَ كُنْتُ لها عَذابَا

يريد وقد قصدت .

وقال أيضاً وأنشده النحاس :

* فَرَغْتُ إلى العَبْدِ المقَيَّدِ في الحِجْلِ . . .

وفي الحديث : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما بايع الأنصار ليلة العقبة ، صاح الشيطان : يا أهل الجُبَاجب ! هذا مُذَمَّم يبايع بني قَيْلة على حربكم ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "هذا إِزْبُ العَقَبة أَمَا والله يا عدوّ الله لأتفرغن لك" " أي أقصد إلى إبطال أمرك .

وهذا اختيار القتبي والكسائي وغيرهما .

وقيل : إن الله تعالى وعد على التقوى وأوعد على الفجور ، ثم قال : "سَنَفْرُغُ لَكُمْ" مما وعدناكم ونوصل كُلاًّ إلى ما وعدناه ؛ أي أقسم ذلك وأتفرغ منه .

قاله الحسن ومقاتل وابن زيد .

وقرأ عبد الله وأبيّ "سَنَفْرُغُ إِلَيْكُمْ" وقرأ الأعمش وإبراهيم "سَيُفْرَغُ لَكُمْ" بضم الياء وفتح

الراء على ما لم يسم فاعله .

وقرأ ابن شهاب والأعرج "سَنَفْرَغُ لَكُمْ" بفتح النون والراء ؛ قال الكسائي : هي لغة تميم يقولون فَرِغَ يَفرَغ ، وحكي أيضاً فَرَغَ يَفرَغ ورواهما هُبيرة عن حفص عن عاصم .

وروى الجُعْفي عن أبي عمرو "سَيَفْرَغُ" بفتح الياء والراء ، ورويت عن ابن هُرْمز .

وروي عن عيسى الثّقفي "سَنِفْرَغُ لَكُمْ" بكسر النون وفتح الراء ، وقرأ حمزة والكسائي "سَيَفْرُغُ لَكُمْ" بالياء .

الباقون بالنون وهي لغة تهامة .

والثَّقلان الجنّ والإنس ؛ سُمّيا بذلك لعظم شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما بسبب التكليف .

(245/739)

وقيل : سمّوا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياءً وأمواتاً ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة : 2] ومنه قولهم : أعطه ثقله أي وزنه .

وقال بعض أهل المعاني : كل شيء له قدر ووزن يُنافَسُ فيه فهو ثقل .

ومنه قيل لبيض النعام ثقل ؛ لأن واجده وصائده يفرح به إذا ظفر به .

وقال جعفر الصادق : سمّيا ثقلين ؛ لأنهما مثقلان بالذنوب .

وقال : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ فجمع ، ثم قال : ﴿ أَيُّهَا الثقلان ﴾ لأنهما فريقان وكل فريق جمع ، وكذا قوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس إِنِ استطعتم ﴾ ولم يقل إن استطعتما ؛ لأنهما فريقان في حال الجمع ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [النمل : 45] و ﴿ هذان خَصْمَانِ اختصموا فِي رَبِّهِمْ ﴾ [الحج : 19] ولو قال : سنفرغ لكما ، وقال إن استطعتما لجاز .

وقرأ أهل الشام "أَيُّهُ الثَّقَلانِ" بضم الهاء .

الباقون بفتحها وقد تقدّم .

مسألة : هذه السورة و"الأَحْقَاف" و ﴿ قُلْ أُوحِيَ ﴾ دليل على أنّ الجنّ مخاطبون مكلَّفون مأمورون منهيون مثابون معاقبون كالإنس سواء ، مؤمنُهم كمؤمنهم ، وكافرُهم ككافرهم ، لا فرق بيننا وبينهم في شيء من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(246/739)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) ﴾

﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ ، فذكر ما نشأ عن صفة الرحمة ، وهو تعليم القرآن الذي هو شفاء للقلوب .

والظاهر أن ﴿ الرحمن ﴾ مرفوع على الابتداء ، ﴿ وعلم القرآن ﴾ خبره .

وقيل : ﴿ الرحمن ﴾ آية بمضمر ، أي الله الرحمن ، أو الرحمن ربنا ، وذلك آية ؛ و ﴿ علم القرآن ﴾ استئناف إخبار .

ولما عدّد نعمه تعالى ، بدأ من نعمه بما هو أعلى رتبها ، وهو تعليم القرآن ، إذ هو عماد الدين ونجاة من استمسك به .

ولما ذكر تعليم القرآن ولم يذكر المعلم ، ذكره بعد في قوله : ﴿ خلق الإنسان ﴾ ، ليعلم أنه المقصود بالتعليم .

ولما كان خلقه من أجل الدين وتعليمه القرآن ، كان كالسبب في خلقه تقدّم على خلقه .

ثم ذكر تعالى الوصف الذي يتميز به الإنسان من المنطق المفصح عن الضمير ، والذي به يمكن قبول التعليم ، وهو البيان .

ألا ترى أن الأخرس لا يمكن أن يتعلم شيئاً مما يدرك بالنطق ؟ وعلم متعدّية إلى اثنين ، حذف أولهما لدلالة المعنى عليه ، وهو جبريل ، أو محمد عليهما الصلاة والسلام ، أو

الإنسان ، أقوال .

وتوهم أبو عبد الله الرازي أن المحذوف هو المفعول الثاني ، قال : فإن قيل : لم ترك المفعول الثاني ؟ وأجاب بأن النعمة في التعليم ، لا في تعليم شخص دون شخص ، كما يقال : فلان يطعم الطعام ، إشارة إلى كرمه ، ولا يبين من يطعمه . انتهى .

والمفعول الأول هو الذي كان فاعلاً قبل النقل بالتضعيف أو الهمزة في علم وأطعم .

وأبعد من ذهب إلى أن معنى ﴿ علم القرآن ﴾ : جعله علامة وآية يعتبر بها ، وهذه جمل مترادفة ، أخبار كلها عن الرحمن ، جعلت مستقلة لم تعطف ، إذ هي تعداد لنعمه تعالى .

كما تقول : زيد أحسن إليك ، خوّلك : أشار بذكرك ، والإنسان اسم جنس .

وقال قتادة الإنسان : آدم عليه السلام .

وقال ابن كيسان : محمد (صلى الله عليه وسلم) .

(247/739)

وقال ابن زيد والجمهور : ﴿ البيان ﴾ : المنطق ، والفهم : الإبانة ، وهو الذي فضل به الإنسان على سائر الحيوان .

وقال قتادة : هو بيان الحلال والشرائع ، وهذا جزء من البيان العام .

وقال محمد بن كعب : ما يقول وما يقال له .

وقال الضحاك : الخير والشر .

وقال ابن جريج : الهدى .

وقال يمان : الكتابة .

ومن قال : الإنسان آدم ، فالبيان أسماء كل شيء ، أو التكلم بلغات كثيرة أفضلها العربية ، أو الكلام بعد أن خلقه ، أو علم الدنيا والآخرة ، أو الاسم الأعظم الذي علم به كل شيء ، أقوال ، آخرها منسوب لجعفر الصادق .

ولما ذكر تعالى ما أنعم به على الإنسان من تعليمه البيان ، ذكر ما امتن به من وجود الشمس والقمر ، وما فيهما من المنافع العظيمة للإنسان ، إذ هما يجريان على حساب معلوم وتقدير سوي في بروجهما ومنازلهما .

والحسبان مصدر كالغفران ، وهو بمعنى الحساب ، قاله قتادة .

وقال الضحاك وأبو عبيدة : جمع حساب ، كشهاب وشهبان .

قال ابن عباس وأبو مالك وقتادة : لهما في طلوعهما وغروبهما وقطعهما البروج ، وغير ذلك حسبانات شتى .

وقال ابن زيد : لولا الليل والنهار لم يدر أحد كيف يحسب شيئاً يريد من مقادير الزمان .

وقال مجاهد : الحسبان : الفلك المستدير ، شبهه بحسبان الرحى ، وهو العود المستدير

الذي باستدارته تستدير المطحنة .

وارتفع الشمس على الابتداء وخبره بحسبان ، فأما على حذف ، أي جري الشمس والقمر كائن بحسبان .

وقيل : الخبر محذوف ، أي يجريان بحسبان ، وبحسبان متعلق بيجريان ، وعلى قول مجاهد : تكون الباء في بحسبان ظرفية ، لأن الحسبان عنده الفلك .

ولما ذكر تعالى ما أنعم به من منفعة الشمس والقمر ، وكان ذلك من الآيات العلوية ، ذكر في مقابلتهما من الآثار السفلية النجم والشجر ، إذ كانا رزقاً للإنسان ، وأخبر أنهما جاريان على ما أراد الله بهما ، من تسخيرهما وكينونتهما على ما اقتضته حكمته تعالى .

(248/739)

ولما ذكر ما به حياة الأرواح من تعليم القرآن ، ذكر ما به حياة الأشباح من النبات الذي له ساق ، وكان تقديم النجم ، وهو ما لا ساق له ، لأنه أصل القوت ، والذي له ساق ثمره يتفكه به غالباً .

والظاهر أن النجم هو الذي شرحناه ، ويدل عليه اقترانه بالشجر .

وقال مجاهد وقتادة والحسن : النجم : اسم الجنس من نجوم السماء .

وسجودهما ، قال مجاهد والحسن : ذلك في النجم بالغروب ونحوه ، وفي الشجر بالظل واستدارته .

وقال مجاهد أيضاً : والسجود تجوز ، وهو عبارة عن الخضوع والتذلل .

والجمل الأول فيها ضمير يربطها بالمبتدأ ، وأما في هاتين الجملتين فاكتفى بالوصل المعنوي عن الوصل اللفظي ، إذ معلوم أن الحسبان هو حسبانه ، وأن السجود له لا لغيره ، فكأنه قيل : بحسبانه ويسجدان له .

ولما أوردت هذه الجمل مورد تعديد النعم ، رد الكلام إلى العطف في وصل ما يناسب وصله ، والتناسب الذي بين هاتين الجملتين ظاهر ، لأن الشمس والقمر علويان ، والنجم والشجر سفليان .

﴿ والسماء رفعها ﴾ : أي خلقها مرفوعة ، حيث جعلها مصدر قضاياه ومسكن ملائكته الذين ينزلون بالوحي على أنبيائه ، ونبه بذلك على عظم شأنه وملكه .

وقرأ الجمهور : ﴿ والسماء ﴾ ، بالنصب على الاشتغال ، روعي مشاكلة الجملة التي تليه وهي ﴿ يسجدان ﴾ .

وقرأ أبو السمال : والسماء بالرفع ، راعى مشاكلة الجملة الابتدائية .

وقرأ الجمهور : ﴿ ووضع الميزان ﴾ ، فعلاً ماضياً ناصباً الميزان ، أي أقره وأثبته .

وقرأ إبراهيم : ووضع الميزان ، بالخفض وإسكان الضاد .

والظاهر أنه كل ما يوزن به الأشياء وتعرف مقاديرها ، وإن اختلفت الآلات ، قال معناه ابن عباس والحسن وقتادة ، جعله تعالى حاكماً بالسوية في الأخذ والإعطاء .

وقال مجاهد والطبري والأكثرون : الميزان : العدل ، وتكون الآلات من بعض ما يندرج في العدل .

(249/739)

بدأ أولاً بالعلم ، فذكر ما فيه أشرف أنواع العلوم وهو القرآن ؛ ثم ذكر ما به التعديل في الأمور ، وهو الميزان ، كقوله : ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ﴾ ، ليعلموا الكتاب ويفعلوا ما يأمرهم به الكتاب .

﴿ أن لا تطغوا في الميزان ﴾ : أي لأن لا تطغوا ، فتطغوا منصوب بأن .

وقال الزمخشري : أو هي أن المفسرة .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن تكون أن مفسرة ، فيكون تطغوا جزماً بالنهي .

انتهى ، ولا يجوز ما قالاه من أن أن مفسرة ، لأنه فات أحد شرطيها ، وهو أن يكون ما قبلها جملة فيها معنى القول .

﴿ ووضع الميزان ﴾ جملة ليس فيها معنى القول .

والطغيان في الميزان هو أن يكون بالتعمد ، وأما مالا يقدر عليه من التحرير بالميزان فمعفو عنه .

ولما كانت التسوية مطلوبة جداً ، أمر الله تعالى فقال : ﴿ وأقيموا الوزن ﴾ .

وقرأ الجمهور : ﴿ ولا تخسروا ﴾ ، من أخسر : أي أفسد ونقص ، كقوله : ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ أي ينقصون .

وبلال بن أبي بردة وزيد بن علي : تخسر بفتح التاء ، يقال : خسر يخسر ، وأخسر يخسر بمعنى واحد ، كجبر وأجبر .

وحكى ابن جني وصاحب اللوامح ، عن بلال : فتح التاء والسين مضارع خسر بكسر السين ، وخرجها الزمخشري على أن يكون التقدير : في الميزان ، فحذف الجار ونصب ، ولا يحتاج إلى هذا التخريج .

ألا ترى أن خسر جاء متعدياً كقوله تعالى : ﴿ خسروا أنفسهم ﴾ و ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ ؟ وقرىء أيضاً : تخسروا ، بفتح التاء وضم السين .

لما منع من الزيادة ، وهي الطغيان ، نهى عن الخسران الذي هو نقصان ، وكرر لفظ الميزان ، تشديداً للتوصية به وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه .

ولما ذكر السماء ، ذكر مقابلتها فقال : ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ : أي خفضها مدحوة على الماء لينتفع بها .

وقرأ الجمهور : والأرض بالنصب ؛ وأبو السمال : بالرفع .

والأنام ، قال ابن عباس : بنو آدم فقط .

وقال أيضاً هو وقتادة وابن زيد والشعبي : الحيوان كله .

(250/739)

وقال الحسن : الثقلان ، الجن والإنس .

﴿ فيها فاكهة ﴾ : ضروب مما يتفكه به .

وبدأ بقوله : ﴿ فاكهة ﴾ ، إذ هو من باب الابتداء بالأدنى والترقي إلى الأعلى ، ونكر لفظها ، لأن الانتفاع بها دون الانتفاع بما يذكر بعدها .

ثم ثنى بالنخل ، فذكر الأصل ولم يذكر ثمرتها ، وهو الثمر لكثرة الانتفاع بها من ليف وسعف وجريد وجذوع وجمار وثمر .

ثم أتى ثالثاً بالحب الذي هو قوام عيش الإنسان في أكثر الأقاليم ، وهو البر والشعير وكل ما له سنبل وأوراق متشعبة على ساقه ، ووصفه بقوله : ﴿ ذو العصف ﴾ تنبيهاً على إنعامه عليهم بما يقوتهم من الحب ، ويقوت بهائمهم من ورقه الذي هو التبن .

وبدأ بالفاكهة وختم بالمشموم ، وبينهما النخل والحب ، ليحصل ما به يتفكه ، وما به يتقوت

، وما به تقع اللذاذة من الرائحة الطيبة .

وذكر النخل باسمها ، والفاكهة دون شجرها ، لعظم المنفعة بالنخل من جهات متعددة ، وشجرة الفاكهة بالنسبة إلى ثمرتها حقيرة ، فنص على ما يعظم به الانتفاع من شجرة النخل ومن الفاكهة دون شجرتها .

وقرأ الجمهور : ﴿ والحب ذو العصف والريحان ﴾ ، برفع الثلاثة عطفاً على المرفوع قبله ؛ وابن عامر وأبو حيوة وابن أبي عبلة : بنصب الثلاثة ، أي وخلق الحب .

وجوزوا أن يكون ﴿ والريحان ﴾ حالة الرفع وحالة النصب على حذف مضاف ، أي وذو الريحان حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ؛ وحمزة والكسائي والأصمعي ، عن أبي عمرو : والريحان بالجر ، والمعنى : والحب ذو العصف الذي هو علف البهائم ، والريحان الذي هو مطعم الناس ، ويبعد دخول المشموم في قراءة الجر ، وريحان من ذوات الواو .

وأجاز أبو علي أن يكون اسماً ، ووضع موضع المصدر ، وأن يكون مصدراً على وزن فعلان كاللبان .

وأبدلت الواو ياء ، كما أبدلوا الياء واواً في أشاوى ، أو مصدراً شاذاً في المعتل ، كما شذ كبنونة وبينونة ، فأصله ريوحان ، قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء فصار ريحان ، ثم حذفت عين الكلمة ، كما قالوا : ميت وهين .

ولما عدد تعالى نعمه ، خاطب الثقلين بقوله : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ، أي أن نعمه كثيرة لا تحصى ، فبأيها تكذبان ؟ أي من هذه نعمه لا يمكن أن يكذب بها .

وكان هذا الخطاب للثقلين ، لأنهما داخلان في الأنام على أصح الأقوال .

ولقوله : ﴿ خلق الإنسان ﴾ ، و ﴿ خلق الجان ﴾ ؛ ولقوله : ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ ، وقد أبعد من جعله خطاباً للذكر والأنثى من بني آدم .

وأبعد من هذا قول من قال : إنه خطاب على حد قوله : ﴿ ألقيا في جهنم ﴾ ويا حرسيّ اضربا عنقه ، يعني أنه خطاب للواحد بصورة الاثنين ، فبأي منوناً في جميع السورة ، كأنه حذف منه المضاف إليه وأبدل منه ﴿ آلاء ربكما ﴾ بدل معرفة من نكرة ، وآلاء تقدم في الأعراف أنها النعم ، واحدها إلى وألا وإلى وألى .

﴿ خلق الإنسان ﴾ : لما ذكر العالم الأكبر من السماء والأرض وما أوجد فيها من النعم ، ذكر مبدأ من خلقت له هذه النعم ، والإنسان هو آدم ، وهو قول الجمهور .

وقيل : للجنس ، وساغ ذلك لأن أباهم مخلوق من الصلصال .

وإذا أريد بالإنسان آدم ، فقد جاءت غايات له مختلفة ، وذلك بتنقل أصله ؛ فكان أولاً تراباً

، ثم طيناً ، ثم حمأ مسنوناً ، ثم صلصالاً ، فناسب أن ينسب خلقه لكل واحد منها .

والجان هو أبو الجن ، وهو إبليس ، قاله الحسن .

وقال مجاهد : هو أبو الجن ، وليس بإبليس .

وقيل : الجان اسم جنس ، والمارج : ما اختلط من أصفر وأحمر وأخضر ، أو اللهب ، أو الخالص ، أو الحمرة في طرف النار ، أو المختلط بسواد ، أو المضطرب بلا دخان ، أقوال ، ومن الأولى لابتداء الغاية ، والثانية في ﴿ من نار ﴾ للتبعيض .

(252/739)

وقيل للبيان والتكرار في هذه الفواصل : للتأكيد والتنبيه والتحريك ، وهي موجودة في مواضع من القرآن .

وذهب قوم منهم ابن قتيبة إلى أن هذا التكرار إنما هو لاختلاف النعم ، فكرر التوقيف في كل واحد منها .

وقرأ الجمهور : ﴿ رب ﴾ ، و ﴿ رب ﴾ بالرفع ، أي هو رب ؛ وأبو حيوة وابن أبي عبلة : بالخفض بدلاً من ربكما ، وثنى المضاف إليه لأنهما مشرقا الصيف والشتاء ومغرباهما ، قاله مجاهد .

وقيل : مشرقا الشمس والقمر ومغرباهما .

وعن ابن عباس : للشمس مشرق في الصيف مصعد ، ومشرق في الشتاء منحدر ، تنتقل فيهما مصعدة ومنحدرة . انتهى .

فالمشرقان والمغربان للشمس .

وقيل : المشرقان : مطلع الفجر ومطلع الشمس ، والمغربان مغرب الشفق ومغرب الشمس .

ولسهل التستري كلام في المشرقين والمغربين شبيه بكلام الباطنية المحرفين مدلول كلام الله ، ضربنا عن ذكره صفحاً .

وكذلك ما وقفنا عليه من كلام الغلاة الذين ينسبون للصوفية ، لأنا لا نستحل نقل شيء منه .

وقد أولغ صاحب كتاب التحرير والتحبير بحسب ما قاله هؤلاء الغلاة في كل آية آية ، ويسمي ذلك الحقائق ، وأرباب القلوب وما ادعوا فهمه في القرآن فأغلوا فيه ، لم يفهمه عربي قط ، ولا أراده الله تعالى بتلك الألفاظ ، نعوذ بالله من ذلك .

﴿ مرج البحرين ﴾ : تقدم الكلام على ذلك في الفرقان .

قال ابن عطية : وذكر الثعلبي في مرج البحرين ألغازاً وأقوالاً باطنة لا يلتفت إلى شيء منها . انتهى ، والظاهر التقاؤهما ، أي يتجاوزان ، فلا فصل بين الماءين في رؤية العين .

وقيل : يلتقيان في كل سنة مرة .

وقيل : معدان للالتقاء ، فحقهما أن يلتقيا لولا البرزخ بينهما .

﴿ برزخ ﴾ : أي حاجز من قدرة الله تعالى ، ﴿ لا يبغيان ﴾ : لا يتجاوزان حدهما ، ولا يبغي أحدهما على الآخر بالممارجة .

وقيل : البرزخ : أجرام الأرض ، قاله قتادة ؛ وقيل : لا يبغيان : أي على الناس والعمران ، وعلى هذا والذي قبله يكون من البغي .

(253/739)

وقيل : هو من بغى ، أي طلب ، فالمعنى : لا يبغيان حالاً غير الحال التي خلقا عليها وسخرا لها .

وقيل : ماء الأنهار لا يختلط بالماء الملح ، بل هو بذاته باق فيه .

وقال ابن عطية : والعيان لا يقتضيه .

انتهى ، يعني أنه يشاهد الماء العذب يختلط بالملح فيبقي كله ملحاً ، وقد يقال : إنه بالاختلاط تتغير أجرام العذب حتى لا تظهر ، فإذا ذاق الإنسان من الملح المنبث فيه تلك الأجزاء الدقيقة لم يحس إلا الملوحة ، والمعقول يشهد بذلك ، لأن تداخل الأجسام غير

ممكن ، لكن التفرق والالتقاء ممكن .

وأنشد القاضي منذر بن سعيد البلوطي ، رحمه الله تعالى :

وممزوجة الأمواه لا العذب غالب . . .

على الملح طيباً لا ولا الملح يعذب

وقرأ الجمهور : ﴿ يخرج ﴾ مبنياً للفاعل ؛ ونافع وأبو عمرو وأهل المدينة : مبنياً للمفعول ؛ والجعفي ، عن أبي عمرو : بالياء مضمومة وكسر الراء ، أي يخرج الله ؛ وعنه وعن أبي عمرو ، وعن ابن مقسم : بالنون .

واللؤلؤ والمرجان نصب في هاتين القراءتين .

والظاهر في ﴿ منهما ﴾ أن ذلك يخرج من الملح والعذب .

وقال بذلك قوم ، حكاه الأخفش .

ورد الناس هذا القول ، قالوا : والحس يخالفه ، إذ لا يخرج إلا من الملح ، وعابوا قول الشاعر :

فجاء بها ما شئت من لطيمة . . .

على وجهها ماء الفرات يموج

وقال الجمهور : إنما يخرج من الأجاج في المواضع التي تقع فيها الأنهار والمياه العذبة ، فناسب إسناد ذلك إليهما ، وهذا مشهور عند الغواصين .

وقال ابن عباس وعكرمة : تكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر ، لأن الصدف وغيرها تفتح أفواهها للمطر ، فلذلك قال ﴿ منهما ﴾ .

وقال أبو عبيدة : إنما يخرج من الملح ، لكنه قال ﴿ منهما ﴾ تجوزاً .

وقال الرماني : العذب فيها كاللقاح للملح ، فهو كما يقال ؛ الولد يخرج من الذكر والأنثى .

(254/739)

وقال ابن عطية ، وتبع الزجاج من حيث هما نوع واحد ، فخروج هذه الأشياء إنما هي منهما ، وإن كانت تختص عند التفصيل المبالغ بأحدهما ، كما قال : ﴿ سبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً ﴾ وإنما هو في إحداهن ، وهي الدنيا إلى الأرض .

وقال الزمخشري نحواً من قول ابن عطية ، قال : فإن قلت : لم قال ﴿ منهما ﴾ ، وإنما يخرجان من الملح قلت : لما التقيا وصارا كالشيء الواحد ، جاز أن يقال : يخرجان منهما ، كما يقال : يخرجان من البحر ، ولا يخرجان من جميع البحر ، ولكن من بعضه .

وتقول : خرجت من البلد ، وإنما خرجت من محلة من محالة ، بل من دار واحدة من دوره .

وقيل : لا يخرجان إلا من ملتقى الملح والعذب . انتهى .

وقال أبو علي الفارسي : هذا من باب حذف المضاف ، والتقدير : يخرج من أحدهما ،

كقوله تعالى : ﴿ على رجل من القريتين عظيم ﴾ أي من إحدى القريتين .

وقيل : هما بحران ، يخرج من أحدهما اللؤلؤ ومن الآخر المرجان .

وقال أبو عبد الله الرازي : كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من كلام بعض الناس ، ومن أعلم أن اللؤلؤ لا يخرج من الماء العذب ، وهب أن الغواصين ما أخرجوه إلا من المالح .

ولكن لم قلتم إن الصدف لا يخرج بأمر الله من الماء العذب إلى الماء الملح وكيف يمكن الجزم به والأمور الأرضية الظاهرة خفيت عن التجار الذين قطعوا المفاوز وداروا البلاد ، فكيف لا يخفى أمر ما في قعر البحر عليهم ؟ واللؤلؤ ، قال ابن عباس والضحاك وقتادة : كبار الجوهر ؛ والمرجان صغاره .

وعن ابن عباس أيضاً ، وعلي ومرة الهمداني عكس هذا .

وقال أبو عبد الله وأبو مالك : المرجان : الحجر الأحمر .

وقال الزجاج : حجر شديد البياض .

وحكي القاضي أبو يعلى أنه ضرب من اللؤلؤ ، كالقضبان ، والمرجان : اسم أعجميّ معرب .

قال ابن دريد : لم أسمع فيه نقل متصرف ، وقال الأعشى :

من كل مرجانة في البحر أحرزها . . .

تيارها ووقاها طينها الصدف

قيل : أراد اللؤلؤة الكبيرة .

(255/739)

وقرأ طلحة : اللؤلؤء بكسر اللام الثالثة ، وهي لغة .

وعبد اللولي : تقلب الهمزة المتطرفة ياء ساكنة بعد كسرة ما قبلها ، وهي لغة ، قاله أبو الفضل الرازي .

﴿ وله الجوار ﴾ : خص تعالى الجواري بأنها له ، وهو تعالى له ملك السموات والأرض وما فيهن ، لأنهم لما كانوا هم منشئيها ، أسندها تعالى إليه ، إذ كان تمام منفعتها إنما هو منه تعالى ، فهو في الحقيقة مالكها .

والجواري : السفن .

وقرأ عبد الله والحسن وعبد الوارث ، عن أبي عمرو : بضم الراء ، كما قالوا في شاك شاك .

وقرأ الجمهور ؛ ﴿ المنشآت ﴾ بفتح الشين ، اسم مفعول : أي أنشأها الله ، أو الناس ، أو المرفوعات الشراع .

وقال مجاهد : ما له شراع من المنشآت ، وما لم يرفع له شراع ، فليس من المنشآت .

والشراع : القلع .

والأعمش وحمزة وزيد بن علي وطلحة وأبو بكر : بخلاف عنه ، بكسر الشين : أي الرافعات الشراع ، أو اللاتي ينشئن الأمواج بجريهن ، أو التي تنشىء السفر إقبالاً وإدباراً .

وشدد الشين ابن أبي عبلة والحسن المنشأة ، وحد الصفة ، ودل على الجمع الموصوف ، كقوله : ﴿ أزواج مطهرة ﴾ وقلب الهمزة ألفاً على حد قوله :

إن السباع لتهدى في مرابضها . . .

يريد : لتهدأ ، التاء لتأنيث الصفة ، كتبت تاء على لفظها في الوصل .

﴿ كالأعلام ﴾ : أي كالجبال والآكام ، وهذا يدل على كبر السفن حيث شبهها بالجبال ، وإن كانت المنشآت تنطلق على السفينة الكبيرة والصغيرة .

وعبر بمن في قوله : ﴿ كل من عليها ﴾ تغليباً لمن يعقل ، والضمير في ﴿ عليها ﴾ قليل عائد على الأرض في قوله : ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ ، فعاد الضمير عليها ، وإن كان بعد لفظها .

والفناء عبارة عن إعدام جميع الموجودات من حيوان وغيره ، والوجه يعبر به عن حقيقة الشيء ، والجارحة منتفية عن الله تعالى ، ونحو كل شيء هالك إلا وجهه .

وتقول صعاليك مكة : أين وجه عربي كريم يجود عليّ ؟ وقرأ الجمهور : ذو بالواو ، وصفة للوجه ؛ وأبي وعبد الله : ذي بالياء ، صفة للرب .

والظاهر أن الخطاب في قوله : ﴿ وجه ربك ﴾ للرسول ، وفيه تشريف عظيم له (صلى الله عليه وسلم) .

وقيل : الخطاب لكل سامع .

ومعنى ﴿ ذو الجلالِ ﴾ : الذي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه وعن أفعالهم ، أو الذي يتعجب من جلاله ، أو الذي عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده .

﴿ يسأله من في السماوات والأرض ﴾ : أي حوائجهم ، وهو ما يتعلق بمن في السموات من أمر الدين وما استعبدوا به ، ومن في الأرض من أمر دينهم ودنياهم .

وقال أبو صالح : من في السموات : الرحمة ، وسن في الأرض : المغفرة والرزق .

وقال ابن جريج : الملائكة الرزق لأهل الأرض ، والمغفرة وأهل الأرض يسألونهما جميعاً .

والظاهر أن قوله : يسأله استئناف إخبار .

وقيل : حال من الوجه ، والعامل فيه يبقى ، أي هو دائم في هذه الحال .

انتهى ، وفيه بعد .

ومن لا يسأل ، فحاله تقتضي السؤال ، فيصح إسناد السؤال إلى الجميع باعتبار القدر

المشترك ، وهو الافتقار إليه تعالى .

﴿ كل يوم ﴾ : أي كل ساعة ولحظة ، وذكر اليوم لأن الساعات واللحظات في ضمنه .

﴿ هو في شأن ﴾ ، قال ابن عباس : في شأن يمضيه من الخلق والرزق والإحياء والإماتة .

وقال عبيد بن عمير : يجيب داعياً ، ويفك عانياً ، ويتوب على قوم ، ويغفر لقوم .

وقال سويد بن غفلة : يعتق رقاباً ، ويعطي رغاماً ويقحم عقاباً .

وقال ابن عيينة : الدهر عند الله يومان ، أحدهما اليوم الذي هو مدة الدنيا ، فشأنه فيه الأمر والنهي والإماتة والإحياء ؛ والثاني الذي هو يوم القيامة ، فشأنه فيه الجزاء والحساب .

وعن مقاتل : نزلت في اليهود ، فقالوا : إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً .

(257/739)

وقال الحسين بن الفضل ، وقد سأله عبد الله بن طاهر عن قوله : ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ : وقد صح أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة فقال : شؤون يبديها ، لا شؤون يبتديها .

وقال ابن بحر : هو في يوم الدنيا في الابتلاء ، وفي يوم القيامة في الجزاء .

وانتصب ﴿ كل يوم ﴾ على الظرف ، والعامل فيه العامل في قوله : ﴿ في شأن ﴾ ، وهو مستقر المحذوف ، نحو : يوم الجمعة زيد قائم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(258/739)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَهُ الجوار ﴾

السفن جمع جارية وخصها سبحانه بأنها له وهو تعالى له ملك السموات والأرض وما فيهن للإشارة إلى أن كونهم هم منشئيها لا يخرجها من ملكه عز وجل حيث كان تمام منفعتها إنما هو منه عز وجل ، وقرأ عبد الله .

والحسن .

وعبد الوارث عن أبي عمرو الجوار بإظهار الرفع على الراء لأن المحذوف لما تناسوه أعطوا ما قبل الآخر حكمه كما في قوله

: لها ثنايا أربع حسان . . .

وأربع فكلها (ثمان)

﴿ المنشئات ﴾ أي المرفوعات الشرع كما قال مجاهد من أنشأه بمعنى رفعه ، وقيل : المرفوعات على الماء وليس بذاك ، وكذا ما قيل المصنوعات ، وقرأ الأعمش .

وحمزة .

وزيد بن علي .

وطلحة .

وأبو بكر بخلاف عنه ﴿ المنشآت ﴾ بكسر الشين أي الرافعات الشرع ، أو اللاتي ينشئن الأمواج بجريهن ، أو اللاتي ينشئن السير إقبالاً وإدبار ، وفي الكل مجاز ، وشدد الشين ابن أبي عبلة ، وقرأ الحسن ﴿ المنشآت ﴾ وحد الصفة ودل على الجمع الموصوف كقوله تعالى : ﴿ فِيهَا أزواج مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [البقرة : 25] وقلب الهمزة ألفاً على حد قوله : إن السباع (لتهدا) في مرابضها . . .

يريد لتهدأ والتاء لتأنيث الصفة كتبت تاءاً على لفظها في الأصل ﴿ فِى البحر كالاعلام ﴾ كالجبال الشاهقة جمع علم وهو الجبل الطويل .

﴿ فَبِأَىّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ من خلق مواد السفن والإرشاد إلى أخذها وكيفية تركيبها وإجرائها في البحر بأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها وترتيبها غيره سبحانه وتعالى :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا ﴾ أي على الأرض التي وضعت للأنام من الحيوانات والمركبات و ﴿ مِنْ ﴾ للتغليب ؛ أو للثقلين ﴿ فَانٍ ﴾ هالك .

(259/739)

﴿ ويبقى وَجْهُ رَبّكَ ﴾ أي ذاته عز وجل ، والمراد هو سبحانه وتعالى ، فالإضافة بيانية وحقيقة الوجه في الشاهد الجارحة واستعماله في الذات مجاز مرسل كاستعمال الأيدي في الأنفس ، وهو مجاز شائع ، وقيل : أصله الجهة واستعماله في الذات من باب الكناية وتفسيره بالذات هنا مبني على مذهب الخلف القائلين بالتأويل ، وتعيين المراد في مثل ذلك دون مذهب السلف ، وقد قررناه لك غير مرة فتذكره وعض عليه بالنواجذ .

(260/739)

والظاهر أن الخطاب في ربك للرسول صلى الله عليه وسلم وفيه تشريف عظيم له عليه الصلاة والسلام ، وقيل : هو للصالح له لعظم الأمر وفخامته ، وفي الآية عند المؤولين كلام كثير منه ما سمعت ، ومنه ما قيل : الوجه بمعنى القصد ويراد به المقصود ، أي ويبقى ما

يقصد به ربك عز وجل من الأعمال ، وحمل كلام من فسره بالعمل الصالح على ذلك وفيه ما فيه ، وأقرب منه ما قيل : وجهه تعالى الجهة التي أمرنا عز وجل بالتوجه إليها والتقرب بها إليه سبحانه ، ومرجع ذلك العمل الصالح أيضاً والله جل شأنه يبقيه للعبد إلى أن يجازيه عليه ولذا وصف بالبقاء ؛ أو لأنه بالقبول صار غير قابل للفناء لما أن الجزاء عليه قام مقامه وهو باق ، ولا يخفى أن كلا القولين غير مناسب للتعليم في ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فان ﴾ [الرحمن : 26] وقيل : وجهه سبحانه الجهة التي يليها الحق أي يتولاها بفضله ويفيضها على الشيء من عنده أي إن ذلك باق دون الشيء في حدّ ذاته فإنه فان في كل وقت ، وقيل : المراد بوجهه سبحانه وجهه الممكن وهي جهة حيثية ارتباطه وانتسابه إليه تعاطى ، والإضافة لأدنى ملابسة فالممكن في حدّ ذاته أي إذا اعتبر مستقلاً غير مرتبط بعلته أعني الوجود الحق كان معدوماً لأن ظهوره إنما نشأ من العلة ولولاها لم يك شيئاً مذكوراً ، وقول العلامة البيضاوي : لو استقريت جهات الموجودات وتفحصت وجوهها وجدتها بأسرها فانية في حد ذاتها إلا وجه الله تعالى أي الوجه الذي يلي جهته سبحانه محمول على ذلك عند بعض المحققين وإن كان قد فسر الوجه قبل بالذات ، وللعلماء في تقرير كلامه اختلاف ، فمنهم من يجعل قوله : لو استقريت الخ تتمة لتفسيره الأول ، ومنهم من يجعله وجهاً آخر ، وهو على الأول أخذ بالحاصل ، وعلى الثاني قيل : يحتمل التطبيق على كل من مذاهب

في الممكنات الموجودة ، وذلك أنها إما موجودة حقيقة بمعنى أنها متصفة بالوجود اتصافاً حقيقياً بأن يكون الوجود زائداً عليها قائماً

(261/739)

بها ، وهو مذهب جمهور الحكماء .

والمتكلمين ، وإما موجودة مجازاً وليس لها اتصاف حقيقي بالوجود بأن يكون الوجود قائماً بها بل إطلاق الموجود عليها كإطلاق الشمس على الماء ، وإليه ذهب المتألهون من الحكماء .

والمحققون من الصوفية إلا أن ذوق المتألهين أن علاقة المجاز أن لها نسبة مخصوصة إلى حضرة الوجود الواجبي على وجوه مختلفة وأنحاء شتى ، والطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق ، فالوجود عندهم جزئي حقيقي قائم بذاته لا يتصور عروضه لشيء ولا قيامه به ومعنى كون الممكن موجوداً أنه مظهر له ومجلى ينجلي فيه نوره فالله نور السموات والأرض والممكنات بمنزلة المرايا المختلفة التي تنعكس إليها أشعة الشمس وينصبغ كل منها بصبغ يناسبه ، ومذاق المحققين من الصوفية أن علاقة المجاز أنها بمنزلة صفات قائمة بذات الواجب سبحانه إذ ليس في الوجود على مذاقهم ذوات متعددة بعضها واجب وبعضها

ممكن بل ذات واحدة لها صفات متكثرة وشؤونات متعددة وتجليات متجددة ﴿ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ [الأنعام : 91] والمشهور أنه لا فرق بين المذاقين .

ووجه التطبيق على الأول أن يقال : المراد من الوجه الذي يلي جهته تعالى هو الوجوه بالغير إذ الممكن وإن كان موجوداً حقيقة عند الجمهور لكن وجوده مستفاد من الواجب بالذات ، وجهة الاستفادة ليست هي الذات ولا شيئاً آخر من الجهات والوجوه كالإمكان .

والمعلولية .

والجوهرية .

والعرضية .

والبساطة .

والتركيب وسائر الأمور العامة لأن كلاً منها جهته الخسة ، ومقتضى الفطرة الإمكانية البعيدة بمراحل عن لوجوب الذاتي المنافية له ، وإنما جهة الشرف القريبة المناسبة للوجوب الذاتي جهة الوجوب بالغير فهو وجه يلي جهة الواجب ويناسبه في كونه وجوباً وإن كان بالغير ، ولذا يعقبه فيضان الوجود ، ولذا تسمعهم يقولون : الممكن ما لم يجب لم يوجد .

ووجه التطبيق على الثاني أن يقال : الوجه الذي يلي جهته تعالى هو تلك النسبة المخصوصة المصححة لإطلاق لفظ الموجود عليها ولو مجازاً ، فالمعنى ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ معدوم لا يصح أن يطلق لفظ الموجود عليه ولو مجازاً إلا باعتبار الوجه الذي يلي جهته تعالى أي النسبة المخصوصة إلى حضرته تعالى وهي كونه مظهراً له سبحانه ، ووجه التطبيق على الثالث أن يقال : المراد بالوجه الذي يلي جهته تعالى كونها شؤونات واعتبارات له تعالى .

فالمعنى ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا ﴾ معدوم من جميع الوجوه والاعتبارات إلا من الوجه الذي يلي جهته سبحانه والاعتبار الذي يحصل مقيساً إليه عز وجل ، وهو كونه شأناً من شؤونه واعتباراً من اعتباراته جل شأنه فتأمل مستعيناً بالله عز وجل .

﴿ ذُو الجلال والإكرام ﴾ أي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه ويثبتون له ما يليق بشأنه تعالى شأنه فهذا راجع إلى ماله سحبانه من التعظيم في قلوب من عرفه عز وجل أو الذي يقال في شأنه : ما أجلك وما أكرمك أي هو سبحانه من يستحق أن يقال في شأنه ذلك قيل أو لم يقل فهو راجع إلى ما له تعالى من الكمال في نفسه باعتبار قصور الإدراك عن شأوه ، أو من عنده الجلال والإكرام للموحدين فهو راجع إلى الفعل أي يجل الموحدين ويكرمهم ، وفسر بعض المحققين ﴿ الجلال ﴾ بالاستغناء المطلق ﴿ والإكرام ﴾ بالفضل التام وهذا ظاهر ، ووجه الأول بأن الجلال العظمة وهي تقتضي ترفعه تعالى عن الموجودات ويستلزم أنه

سبحانه غني عنها ، ثم ألحق بالحقيقة ، ولذا قال الجوهري : عظمة الشيء الاستغناء عن غيره وكل محتاج حقير ، وقال الكرماني : إنه تعالى له صفات عدمية مثل ﴿ لاَ شَرِيكَ لَهُ ﴾ [الأنعام : 163] وتسمى صفات الجلال لما أنها تؤدي بجَلّ عن كذا جل عن كذا وصفات وجودية كالحياة .

والعلم وتسمى صفات الإكرام ، وفيه تأمل .

(263/739)

والظاهر أن ﴿ ذُو ﴾ صفة للوجه ، ويتضمن الوصف بما ذكر على ما ذكره البعض الإشارة إلى أن فناء ﴿ مَنْ عَلَيْهَا ﴾ لا يخل بشأنه عز وجل لأنه الغني المطلق ، والإشارة إلى أنه تعالى بعد فنائهم يفيض على الثقلين من آثار كرمه ما يفيض وذلك يوم القيامة ، ووصف الوجه بما وصف يبعد كونه عبارة عن العمل الصالح أو الجهة على ما سمعت آنفاً وكأن من يقول بذلك يقول : ﴿ ذُو ﴾ خبر مبتدأ محذوف هو ضمير راجع إلى الرب وهو في الأصل صفة له ، ثم قطعت عن التبعية ، ويؤَده قراءة أبيّ .

وعبد الله ذي الجلال بالياء على أنه صفة تابعة للرب ، وذكر الراغب أن هذا الوصف قد خص به عز وجل ولم يستعمل في غيره ، فهو من أجلّ أوصافه سبحانه ، ويشهد له ما رواه

الترمذي عن أنس .

والإمام أحمد عن ربيعة بن عامر مرفوعاً " ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام " أي الزموه وأثبتوا عليه وأكثروا من قوله والتلفظ به في دعائكم ، وروى الترمذي .

وأبو داود .

والنسائي عن أنس " أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل يصلي ثم دعا فقال : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام يا حي يا قيوم ، فقال صلى الله عليه وسلم : لأصحابه أتدرون بما دعا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : والذي نفسي بيده لقد دعا الله باسمه الأعظم إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى " .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مما يتضمنه ما ذكر فإن الفناء باب للبقاء ، والحياة الأبدية ، والإثابة بالنعمة السرمدية ، وقال الطيبي : المراد من الآية السابقة ملزوم معناها لأنها كناية عن مجيء وقت الجزاء وهو من أجلّ النعم ، ولذلك خص ﴿ الجلال والإكرام ﴾ بالذكر لأنهما يدلان على الإثابة والعقاب المراد منها تخويف العباد وتحذيرهم من ارتكاب ما يترتب عليه العقاب ، والتحذير من مثل نعمة ، فلذا رتبت عليها بالفاء قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ الاء ﴾ الخ ، وليس بذاك .

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29)

قاطبة ما يحتاجون إليه في ذواتهم حدوثاً وبقاءاً وفي سائر أحوالهم سؤالاً مستمراً بلسان المقال أو بلسان الحال فإنهم كافة من حيث حقائقهم الممكنة بمعزل من استحقاق الوجود وما يتفرع عليه من الكمالات بالمرة بحيث لو انقطع ما بينهم وبين العناية الإلهية من العلاقة لم يشموا رائحة الوجود أصلاً فهم في كل آن سائلون .

وأخرج عبد بن حميد .

وابن المنذر عن أبي صالح ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِى السموات ﴾ الرحمة ، ومن في "الأرض" المغفرة والرزق ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ يَسْأَلُهُ ﴾ الملائكة عليهم السلام الرزق لأهل الأرض والمغفرة .

وأهل الأرض يسألونهما جميعاً وما تقدم أولى .

ولا دليل على التخصيص .

والظاهر أن الجملة استئناف .

وقيل : هي حال من الوجه والعامل فيها ﴿ يبقى ﴾ [الرحمن : 27] أي هو سبحانه دائم في هذه الحال ، ولا يخفى حاله على ذي تمييز ﴿ والأرض كُلَّ يَوْمٍ ﴾ كل وقت من الأوقات ولحظة من اللحظات .

﴿ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ من الشؤون التي من جملتها إعطاء ما سألوا فإنه تعالى لا يزال ينشىء أشخاصاً ، ويفنى آخرين ويأتي بأحوال ويذهب بأحوال حسبما تقتضيه مشيئته عز وجل المبنية على الحكم البالغة ، وأخرج البخاري في "تاريخه" .

وابن ماجه .

وابن حبان .

وجماعة عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في هذه الآية : " من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين " زاد البزار " ويجيب داعياً " وقيل : إن لله تعالى في كل يوم ثلاث عساكر .

عسكر من الاصلاب إلى الأرحام .

وعسكر من الأرحام إلى الدنيا .

وعسكر من الدنيا إلى القبور ، والظاهر أن المراد بيان كثرة شؤونه تعالى في الدنيا فكل يوم على معنى كل وقت من أوقات الدنيا .

وقال ابن عيينة : الدهر عند الله تعالى يومان ، أحدهما : اليوم الذي هو مدة الدنيا فشأنه فيه الأمر والنهي والإماتة والإحياء .

وثانيهما : اليوم الذي هو يوم القيامة فشأنه سبحانه فيه الجزاء والحساب ، وعن مقاتل إن الآية نزلت في اليهود قالوا : إن الله تعالى لا يقضي يوم السبت شيئاً فرد عز وجل عليهم بذلك ، وسأل عبد الله بن طاهر الحسين بن الفضل عن الجمع بين هذه الآية وما صح من أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة فقال : شؤون يبديها لا شؤون يبتديها ، وانتصب ﴿ السماوات والأرض كُلَّ يَوْمٍ ﴾ على الظرف ، والعامل فيه هو العامل في قوله تعلى : ﴿ فِى شَأْنٍ ﴾ ، و ﴿ هُوَ ﴾ ثابت المحذوف : فكأنه قيل هو ثابت في شأن كل يوم .

﴿ فَبِأَىِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مما يسعف به سؤالكما وما يخرج لكما بيديه من مكمن العدم حيناً فحيناً .

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ الفراغ في اللعنة يقتضي سابقة شغل .

والفراغ للشيء يقتضي لاحقيته أيضاً ، والله سبحانه لا يشغله شأن عنشأن فجعل انتهاء الشؤون المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : 29] يوم القيامة إلى واحد هو جزاء المكلفين فراغاً لهم على سبيل التمثيل لأن من ترك أشغاله إلى شغل واحد يقال : فرغ له وإليه فشبه حال هؤلاء وأخذه تعالى في جزائهم فحسب بحال من فرغ له ، وجازت الاستعارة التصريحية التبعية في ﴿ سَنَفْرُغُ ﴾ بأن يكون المراد سنأخذ في

جزائكم فقط الاشتراك الأخذ في الجزاء فقط ، والفراغ عن جميع المهام إلى واحد في أن المعنى به ذلك الواحد ، وقيل : المراد التوفر في الانتقام والنكاية ، وذلك أن الفراغ للشيء يستعمل في التهديد كثيراً كأنه فرغ عن كل شيء لأجله فلم يبق له شغل غيره فيدل على التوفر المذكور ، وهو كناية فيمن يصح عليه ، ومجاز في غير كالذي نحن فيه ، ولعل مراد ابن عباس .

(266/739)

والضحاك بقولهما كما أخرج ابن جرير عنهما هذا وعيد من الله تعالى لعباده ما ذكر ، والخطاب عليه قيل : للمجرمين ، وتعقب بأن النداء الآتي يأباه ، نعم المقصود بالتهديد هم ، وقيل : لا مانع من تهديد الجميع ، ثم إن هذا التهديد إنما هو بما يكون يوم القيامة ، وقول ابن عطية : يحتمل أن يكون ذلك توعداً بعذاب الدنيا مما لا يكاد يلتفت إليه ، وقيل : إن فرغ يكون بمعنى قصد ، واستدل عليه بما أنشده ابن الأنباري لجرير

: ألان وقد (فرغت) إلى نمير . . .

فهذا حين كنت لهم عذاباً

أي قصدت ، وأنشد النحاس

: فرغت إلى العبد المقيد في الحجل . . .

وفي الحديث " لأتفرغن لك يا خبيث " قال صلى الله عليه وسلم مخاطباً به أزب العقبة يوم بيعتها أي لأقصدن إبطال أمرك ، ونقل هذا عن الخليل .

والكسائي .

والفراء ، والظاهر أنهم حملوا ما في الآية على ذلك ، فالمراد حينئذ تعلق الإرادة تعلقاً تنجيزياً بجزائهم ، وقرأ حمزة .

والكسائي .

وأبو حيوة .

وزيد بن علي سيفرغ بياء الغيبة ، وقرأ قتادة .

والأعرج ﴿ سَنَفْرُغُ ﴾ بنون العظمة .

وفتح الراء مضارع فرغ بكسرها وهو لغة تميم كما أن ﴿ سَنَفْرُغُ ﴾ في قراءة الجمهور مضارع فرغ بفتحها لغة الحجاز ، وقرأ أبو السمال .

وعيسى ﴿ سَنَفْرُغُ ﴾ بكسر النون وفتح الراء وهي على ما قال أبو حاتم لغة سفلى مضر ، وقرأ الأعمش .

وأبو حيوة بخلاف عنهما .

وابن أبي عبلة .

والزعفراني سيفرغ بضم الياء وفتح الراء مبنياً للمفعول ؛ وقرأ عيسى أيضاً ﴿ سَنَفْرُغُ ﴾ بفتح النون وكسر الراء ، والأعرج أيضاً سيفرغ بفتح الياء والراء وهي لغة ، وقرىء سأفرغ بهمزة المتكلم وحده ، وقرأ أبيّ ﴿ سَنَفْرُغُ ﴾ إليكم عداه بإلى فقيل : للحمل على القصد ، أو لتضمينه معناه أي ﴿ سَنَفْرُغُ ﴾ قاصدين إليكم .

(267/739)

﴿ أَيُّهَ الثقلان ﴾ هما الإنس والجن من ثقل الدابة وهو ما يحمل عليها جعلت الأرض كالحمولة والإنس والجن ثقلاها ، وما سواهما على هذا كالعلاوة ، وقال غير واحد : سميا بذلك لثقلهما على الأرض ، أو لرزانة رأيهما وقدرهما وعظم شأنهما .

ويقال لكل عظيم القدر مما يتنافس فيه : ثقل ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي " وقيل : سميا بذلك لأنهما مثقلان بالتكليف ، وعن الحسن لثقلهما بالذنوب .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ التي من جملتها التنبيه على ما ستلقونه يوم القيامة للتحذير عما يؤدي إلى سوء الحساب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(268/739)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ الرحمن * عَلَّمَ القرءان ﴾

ارتفاع الرحمن على أنه مبتدأ ، وما بعده من الأفعال أخبار له ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أي : الله الرحمن .

قال الزجاج : معنى : ﴿ عَلَّمَ القرءان ﴾ يسّره .

قال الكلبي : علم القرآن محمداً ، وعلمه محمد أمته ، وقيل : جعله علامة لما يعبد الناس به ، قيل : نزلت هذه الآية جواباً لأهل مكة حين قالوا : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ [النحل : 103] ، وقيل : جواباً لقولهم : وما الرحمن ؟ ولما كانت هذه السورة لتعداد نعمه التي أنعم بها على عباده قدم النعمة التي هي أجلها قدراً ، وأكثرها نفعاً ، وأتمها فائدة ، وأعظمها عائدة ، وهي نعمة تعليم القرآن ، فإنها مدار سعادة الدارين ، وقطب رحى الخيرين ، وعماد الأمرين .

ثم امتنّ بعد هذه النعمة بنعمة الخلق التي هي مناط كل الأمور ، ومرجع جميع الأشياء ، فقال : ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ ثم امتنّ ثالثاً بتعليمه البيان الذي يكون به التفاهم ، ويدور عليه التخاطب ، وتتوقف عليه مصالح المعاش والمعاد ؛ لأنه لا يمكن إبراز ما في الضمائر ، ولا إظهار ما يدور في الخلد إلاّ به قال قتادة ، والحسن : المراد بالإنسان آدم ، والمراد بالبيان

: أسماء كلّ شيء ، وقيل : المراد به : اللغات .

وقال ابن كيسان : المراد بالإنسان ها هنا : محمد صلى الله عليه وسلم ، وبالبيان : بيان الحلال من الحرام ، والهدى من الضلال ، وهو بعيد .

وقال الضحاك : البيان : الخير والشرّ .

وقال الربيع بن أنس : هو ما ينفعه مما يضرّه ، وقيل : البيان : الكتابة بالقلم .

والأولى حمل الإنسان على الجنس ، وحمل البيان على تعليم كلّ قوم لسانهم الذي يتكلمون به .

﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ أي : يجريان بحساب ، ومنازل لا يعدوانها ، ويدلان بذلك على عدد الشهور والسنين .

قال قتادة ، وأبو مالك : يجريان بحسبان في منازل لا يعدوانها ، ولا يحيدان عنها .

(269/739)

وقال ابن زيد ، وابن كيسان : يعني : أن بهما تحسب الأوقات ، والآجال والأعمار ، ولولا الليل والنهار ، والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب ؛ لأن الدهر يكون كله ليلاً أو نهاراً .

وقال الضحاك : معنى ﴿ بحسبان ﴾ : بقدر .

وقال مجاهد : بحسبان كحسبان الرحى ، يعني قطبهما الذي يدوران عليه .

قال الأخفش : الحسبان جماعة الحساب ، مثل شهب وشهبان .

وأما الحسبان بالضمّ فهو العذاب ، كما مضى في سورة الكهف .

﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ النجم : ما لا ساق له من النبات ، والشجر ما له ساق .

قال الشاعر :

لقد أنجم القاع الكثير عضاهه . . . وتمّ به حيا تميم ووائل

وقال زهير :

مكلل بأصول النجم تنسجه . . . ريح الجنوب لضاحي ما به حبك

والمراد : بسجودهما : انقيادهما لله تعالى انقياد الساجدين من المكلفين .

وقال الفراء : سجودهما : أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت ، ثم يميلان معها حين ينكسر الفيء .

وقال الزجاج : سجودهما دوران الظل معهما ، كما في قوله :

﴿ يَتَفَيَّأُ ظلاله ﴾ [النحل : 48] وقال الحسن ، ومجاهد : المراد بالنجم : نجم السماء ، وسجوده : طلوعه ، ورجّح هذا ابن جرير .

وقيل : سجوده : أفوله ، وسجود الشجر : تمكينها من الاجتناء لثمارها .

قال النحاس : أصل السجود الاستسلام والانقياد لله ، وهذه الجملة والتي قبلها خبران آخران للرحمن ، وترك الرابط فيهما لظهوره كأنه قيل : الشمس والقمر بحسبانه ، والنجم والشجر يسجدان له ﴿ والسماء رَفَعَهَا ﴾ قرأ الجمهور بنصب السماء على الاشتغال . وقرأ أبو السماك بالرفع على الابتداء ، والمعنى : أنه جعل السماء مرفوعة فوق الأرض ﴿ وَوَضَعَ الميزان ﴾ المراد بالميزان : العدل ، أي : وضع في الأرض العدل الذي أمر به ، كذا قال مجاهد ، وقتادة ، والسديّ ، وغيرهم .

قال الزجاج : المعنى : أنه أمرنا بالعدل ، ويدل عليه قوله : ﴿ أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِى الميزان ﴾ أي : لا تجاوزوا العدل .

(270/739)

وقال الحسن ، والضحاك : المراد به : آلة الوزن ليتوصل بها إلى الإنصاف والانتصاف .

وقيل : الميزان : القرآن لأن فيه بيان ما يحتاج إليه ، وبه قال الحسين بن الفضل ، والأوّل أولى .

ثم أمر سبحانه بإقامة العدل بعد إخباره للعباد بأنه وضعه لهم ، فقال : ﴿ وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط ﴾ أي : قوّموا وزنكم بالعدل .

وقيل المعنى : أقيموا لسان الميزان بالعدل ، وقيل المعنى : أنه وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال ، و "أن" في قوله : ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا ﴾ مصدرية ، أي : لئلا تطغوا ، و "لا" نافية ، أي : وضع الميزان لئلا تطغوا ، وقيل : هي مفسرة ؛ لأن في الوضع معنى القول ، والطغيان مجاوزة الحد ، فمن قال : الميزان : العدل ، قال : طغيانه الجور ، ومن قال : الميزان : الآلة التي يوزن بها ، قال : طغيانه : البخس ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ أي : لا تنقصوه ، أمر سبحانه أوّلاً بالتسوية ، ثم نهى عن الطغيان الذي هو المجاوزة للحد بالزيادة ، ثم نهى عن الخسران الذي هو النقص والبخس .

قرأ الجمهور : ﴿ تخسروا ﴾ بضم التاء ، وكسر السين من أخسر ، وقرأ بلال بن أبي برزة ، وأبان بن عثمان ، وزيد بن علي بفتح التاء ، والسين من خسر ، وهما لغتان ، يقال : أخسرت الميزان وخسرته .

ثم لما ذكر سبحانه أنه رفع السماء ذكر أنه وضع الأرض ، فقال : ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ أي : بسطها على الماء لجميع الخلق مما له روح وحياة ، ولا وجه لتخصيص الأنام بالإنس والجنّ .

قرأ الجمهور بنصب ﴿ الأرض ﴾ على الاشتغال ، وقرأ أبو السماك بالرفع على الابتداء وجملة ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ : في محل نصب على أنها حال من الأرض مقدّرة ، وقيل : مستأنفة لتقرير مضمون الجملة التي قبلها ، والمراد بها : كل ما يتفكه به من أنواع الثمار .

ثم أفرد سبحانه النخل بالذكر لشرفه ، ومزيد فائدته على سائر الفواكه فقال : ﴿ والنخل ذَاتُ الأكمام ﴾ الأكمام جمع كم بالكسر ، وهو وعاء التمر .

(271/739)

قال الجوهري : والكم بالكسر ، والكمامة : وعاء الطلع ، وغطاء التنور ، والجمع كمام وأكمة وأكمام .

قال الحسن : ﴿ ذات الأكمام ﴾ أي : ذات الليف ، فإن النخلة تكم بالليف ، وكمامها ليفها ، وقال ابن زيد : ذات الطلع قبل أن يتفتق .

وقال عكرمة : ذات الأحمال ﴿ والحب ذُو العصف والريحان ﴾ الحبّ : هو جميع ما يقتات من الحبوب والعصف .

قال السديّ ، والفراء : هو بقل الزرع ، وهو أوّل ما ينبت به .

قال ابن كيسان : يبدو أولاً ورقاً ، وهو العصف ، ثم يبدو له ساق ، ثم يحدث الله فيه أكماماً ، ثم يحدث في الأكمام الحبّ .

قال الفراء : والعرب تقول : خرجنا نعصف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يدرك ، وكذا قال الصحاح .

وقال الحسن : العَصْفُ : التبن ، وقال مجاهد : هو ورق الشجر والزرع .

وقيل : هو ورق الزرع الأخضر إذا قطع رأسه ويبس ، ومنه قوله : ﴿ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل : 5] ، وقيل : هو الزرع الكثير ، يقال : قد أعصف الزرع ، ومكان معصف ، أي : كثير الزرع ، ومنه قول أبي قيس بن الأسلت :

إذا جمادى منعت قطرها . . . إن جناني عطن معصف

والريحان : الورق في قول الأكثر .

وقال الحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد : إنه الريحان الذي يشم .

وقال سعيد بن جبير : هو ما قام على ساق .

وقال الكلبي : إن العصف : هو الورق الذي لا يؤكل ، والريحان : هو الحب المأكول .

وقال الفراء أيضاً : العصف : المأكول من الزرع ، والريحان : ما لا يؤكل ، وقيل : الريحان : كل بقلة طيبة الريح .

قال ابن الأعرابي : يقال : شيء ريحاني وروحاني ، أي : له روح .

وقال في الصحاح : الريحان : نبت معروف ، والريحان : الرزق ، تقول : خرجت أبتغي ريحان الله .

قال النمر بن تولب :

سلام الإله وريحانه . . . ورحمته وسماء درر

وقيل : العصف : رزق البهائم ، والريحان : رزق الناس .

قرأ الجمهور ﴿ والحبّ ذو العصف والريحان ﴾ برفع الثلاثة عطفاً على فاكهة .

(272/739)

وقرأ ابن عامر ، وأبو حيوة ، والمغيرة بنصبهما عطفاً على الأرض ، أو على فعل ، أي : وخلق الحبّ ذا العصف والريحان .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، والريحان بالجرّ عطفاً على العصف : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الخطاب للجنّ والإنس ؛ لأن لفظ الأنام يعمهما وغيرهما ، ثم خصّص بهذا الخطاب من يعقل .

وبهذا قال : الجمهور من المفسرين ، ويدلّ عليه قوله فيما سيأتي : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثقلان ﴾ ويدلّ على هذا ما قدّمنا في فاتحة هذه السورة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها على الجنّ والإنس ، وقيل : الخطاب للإنس ، وثناه على قاعدة العرب في خطاب الواحد بلفظ التثنية ، كما قدّمنا في قوله : ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ ﴾ [ق : 24] والآلاء : النعم .

قال القرطبي : وهو قول جميع المفسرين ، واحدها : " إلى " مثل معى وعصى .

وقال ابن زيد : إنها القدرة ، أي : فبأي قدرة ربكما تكذبان ، وبه قال الكلبي .

وكرّر سبحانه هذه الآية في هذه السورة تقريراً للنعمة ، وتأكيداً للتذكير بها على عادة العرب في الاتساع .

قال القتيبي : إن الله عدّد في هذه السورة نعماءه ، وذكر خلقه آلاءه ، ثم أتبع كل خلة وضعها بهذه الآية ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ، لينبّههم على النعم ويقرّرهم بها ، كما تقول لمن تتابع له إحسانك ، وهو يكفره : ألم تكن فقيراً فأغنيتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملاً فعززتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن راجلاً فحملتك ؟ أفتنكر هذا ؟ والتكرير حسن في مثل هذا ، ومنه قول الشاعر :

لا تقتلي رجلاً إن كنت مسلمة . . . إياك من دمه إياك إياك

قال الحسين بن الفضل : التكرير طرد للغفلة وتأكيد للحجة ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن صلصال كالفخار ﴾ لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير ، وهو السماء والأرض وما فيهما ، ذكر خلق العالم الصغير ، والمراد بالإنسان هنا : آدم .

قال القرطبي : باتفاق من أهل التأويل ، ولا يبعد أن يراد الجنس ؛ لأن بني آدم مخلوقون في ضمن خلق أبيهم آدم ، والصلصال : الطين اليابس الذي يسمع له صلصلة ، وقيل : هو طين خلط برمل ، وقيل : هو الطين المنتن ، يقال : صلّ اللحم وأصلّ : إذا أنتن ، وقد تقدّم بيانه في سورة الحجر ، والفخار : الخزف الذي طبخ بالنار ، والمعنى : أنه خلق الإنسان من طين يشبه في يبسه الخزف .

﴿ وَخَلَقَ الجانَ مِن مَّارِجٍ مّن نَّارٍ ﴾ يعني : خلق أبا الجنّ ، أو جنس الجنّ من مارج من نار ، والمارج : اللهب الصافي من النار ، وقيل : الخالص منها ، وقيل : لسانها الذي يكون في طرفها إذا التهبت ، وقال الليث : المارج الشعلة الصادعة ذات اللهب الشديد .

قال المبرد : المارج : النار المرسلة التي لا تمنع ، وقال أبو عبيدة : المارج : خلط النار ، من مرج إذا اختلط واضطرب .

قال الجوهري : مارج من نار : نار لا دخان لها خلق منها الجانّ ﴿ فَبِأَيّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ فإنه أنعم عليكما في تضاعيف خلقكما من ذلك بنعم لا تحصى ﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ قرأ الجمهور ﴿ ربّ ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أيّ : هو ربّ المشرقين والمغربين ، وقيل : مبتدأ ، وخبره : ﴿ مَرَجَ البحرين ﴾ وما بينهما اعتراض ، والأوّل أولى ، والمراد بالمشرقين : مشرقا الشتاء والصيف ، وبالمغربين :

مغرباهما ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإن في ذلك من النعم ما لا يحصى ، ولا يتيسر لمن أنصف من نفسه تكذيب فرد من أفراده .

(274/739)

﴿ مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ ﴾ المرج : التخلية والإرسال ، يقال : مرجت الدابة : إذا أرسلتها ، وأصله الإهمال ، كما تمرج الدابة في المرعى ، والمعنى : أنه أرسل كل واحد منهما ، يلتقيان أي : يتجاوران لا فصل بينهما في مرأى العين ، ومع ذلك فلم يختلطا ، ولهذا قال : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ أي حاجز يحجز بينهما ﴿ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ أي : لا يبغي أحدهما على الآخر بأن يدخل فيه ويختلط به .

قال الحسن ، وقتادة : هما بحر فارس والروم .

وقال ابن جريج : هما البحر المالح والأنهار العذبة ، وقيل : بحر المشرق والمغرب ، وقيل : بحر اللؤلؤ والمرجان ، وقيل : بحر السماء وبحر الأرض .

قال سعيد بن جبير : يلتقيان في كل عام ، وقيل : يلتقي طرفاهما .

وقوله : ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ في محلّ نصب على الحال من البحرين ، وجملة : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ يجوز أن تكون مستأنفة ، وأن تكون حالاً ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإن هذه الآية

وأمثالها لا يتيسر تكذيبها بحال ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ .

قرأ الجمهور ﴿ يخرج ﴾ بفتح الياء ، وضم الراء مبنياً للفاعل ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو بضم الياء ، وفتح الراء مبنياً للمفعول ، واللؤلؤ : الدرّ ، والمرجان : الخرز الأحمر المعروف .

وقال الفرّاء : اللؤلؤ : العظام ، والمرجان : ما صغر .

قال الواحدي وهو : قول جميع أهل اللغة .

وقال مقاتل ، والسديّ ، ومجاهد : اللؤلؤ : صغاره ، والمرجان : كباره ، وقال : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ﴾ وإنما يخرج ذلك من المالح لا من العذب ؛ لأنه إذا خرج من أحدهما ، فقد خرج منهما ، كذا قال الزجاج ، وغيره .

(275/739)

وقال أبو علي الفارسي : هو من باب حذف المضاف ، أي : من أحدهما كقوله : ﴿ على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] وقال الأخفش : زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب ، وقيل : هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ ، ومن الآخر المرجان ، وقيل : هما بحر السماء وبحر الأرض ، فإذا وقع ماء السماء في صدف البحر انعقد لؤلؤاً ، فصار خارجاً منهما : ﴿ فَبِأَيّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ فإن في ذلك من الآيات ما لا يستطيع أحد

تكذيبه ، ولا يقدر على إنكاره ﴿ وَلَهُ الجوار المنشآت فِى البحر كالأعلام ﴾ المراد بالجوار : السفن الجارية في البحر ، والمنشآت : المرفوعات التي رفع بعض خشبها على بعض وركب حتى ارتفعت ، وطالت حتى صارت في البحر كالأعلام وهي الجبال ، والعلم : الجبل الطويل .

وقال قتادة : المنشآت المخلوقات للجري .

وقال الأخفش : المنشآت : المجريات ، وقد مضى بيان الكلام في هذا في سورة الشورى .

قرأ الجمهور ﴿ الجوار ﴾ بكسر الراء وحذف الياء لالتقاء الساكنين ، وقرأ ابن مسعود ، والحسن ، وأبو عمرو في رواية عنه برفع الراء تناسياً للحذف ، وقرأ يعقوب بإثبات الياء ، وقرأ الجمهور ﴿ المنشآت ﴾ بفتح الشين ، وقرأ حمزة ، وأبو بكر في رواية عنه بكسر الشين ﴿ فَبِأَىّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ فإن ذلك من الوضوح والظهور بحيث لا يمكن تكذيبه ، ولا إنكاره .

وقد أخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ قال : بحساب ومنازل يرسلان .

وأخرج الفريابي ، وابن أبي حاتم عنه ﴿ والأرض وَضَعَهَا لِلأنَامِ ﴾ قال : للناس .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : للخلق .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: كل شيء فيه روح.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ والنخل ذَاتُ الأكمام ﴾ قال: أوعية الطلع.

(276/739)

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله: ﴿ والحب ذُو العصف ﴾ قال: التبن ﴿ والريحان ﴾ قال: خضرة الزرع.

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: ﴿ العصف ﴾ ورق الزرع إذا يبس ﴿ والريحان ﴾ ما أنبتت الأرض من الريحان الذي يشمّ.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: ﴿ العصف ﴾ الزرع أوّل ما يخرج بقلاً ﴿ والريحان ﴾ حين يستوي على سوقه، ولم يسنبل.

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال: كلّ ريحان في القرآن فهو رزق.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قال: يعني: بأيّ نعمة الله.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال: يعني الجنّ والإنس.

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً ﴿ مِن مَّارِجٍ مّن نَّارٍ ﴾ قال : من لهب النار .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال : خالص النار .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ قال : للشمس مطلع في الشتاء ومغرب في الشتاء ، ومطلع في الصيف ومغرب في الصيف ، غير مطلعها في الشتاء وغير مغربها في الشتاء .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال : مشرق الفجر ومشرق الشفق ، ومغرب الشمس ومغرب الشفق .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ ﴾ قال : أرسل البحرين ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ قال : حاجز ﴿ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ لا يختلطان .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : بحر السماء وبحر الأرض .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ قال : بينهما من البعد ما لا يبغي كل واحد منهما على صاحبه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ قال : إذا مطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواهها ، فما وقع فيها من قطر السماء فهو اللؤلؤ .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير عن عليّ بن أبي طالب قال : المرجان : عظام اللؤلؤ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : اللؤلؤ : ما عظم منه ، والمرجان : اللؤلؤ الصغار .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني عن ابن مسعود قال : المرجان : الخرز الأحمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 135.130 ﴾

(278/739)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (24) ﴾

الجملة عطف على جملة ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ [الرحمن : 22] لأن هذا من أحوال البحرين وقد أغنت إعادة لفظ البحر عن ذكر ضمير البحرين الرابط لجملة الحال

بصاحبها .

واللام للملك وهو مِلك تسخير السير فيها ، قال تعالى : ﴿ ومن آياته الجوارِ في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الرياح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ [الشورى : 32 34] .

فالمعنى : أن الجواري في البحر في تصرفه تعالى ، قال تعالى : ﴿ والفلك تجري في البحر بأمره ﴾ [الحج : 65] .

والإِخبار عن الجواري بأنها له للتنبيه على أن إنشاء البحر للسفن لا يخرجها عن ملك الله .

والجوارِ صفة لموصوف محذوف دل عليه متعلقه وهو قوله : ﴿ في البحر ﴾ .

والتقدير : السفن الجواري إذ لا يجري في البحر غير السفن .

وكتب في المصحف الإِمام ﴿ الجوار ﴾ براء في آخره دون ياء وقياس رسمه أن يكون بياء في آخره ، فكتب بدون ياء اعتداداً بحالة النطق به في الوصل إذ لا يقف القارىء عليه ولذلك قرأه جميع العشرة بدون ياء في حالة الوصل والوقف لأن الوقف عليه نادر في حال قراءة القارئين .

وقرأ الجمهور ﴿ المنشآت ﴾ بفتح الشين ، فهو اسم مفعول ، إذا أُوجد وصُنع ، أي التي أنشأها الناس بإلهام من الله فحصل من الكلام مِنَّتان مِنة تسخير السفن للسير في البحر ومنّة إلهام الناس لإِنشائها .

وقرأه حمزة وأبو بكر عن عاصم بكسر الشين فهو اسم فاعل .

فيجوز أن يكون المنشئات مشتقاً من أنشأ السير إذا أسرع ، أي التي يسير بها الناس سيراً سريعاً .

قال مجاهد : المنشئات التي رفعت قلوعها .

والآية تحتمل المعنيين على القراءتين باستعمال الاشتقاق في معنيي المشتق منه ويكون في ذلك تذكيراً بنعمة إلهام الناس إلى اختراع الشراع لإِسراع سير السفن وهي مما اخترع بعد صنع سفينة نوح .

(279/739)

ووصفت الجَوَارِي بأنها كالأعلام ، أي الجبال وصفاً يفيد تعظيم شأنها في صنعها المقتضي بداعة إلهام عقول البشر لصنعها ، والمقتضى عظم المِنّة بها لأن السفن العظيمة أمكن لحمل العدد الكثير من الناس والمتاع .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (25)

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

تكرير لنظيره المتقدم أولاً .

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27)

لما كان قوله : ﴿ وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام ﴾ [الرحمن : 24] مؤذناً بنعمة إيجاد أسباب النجاة من الهلاك وأسباب السعي لتحصيل ما به إقامة العيش إذ يَسَّر للناس السفن عوناً للناس على الأسفار وقضاء الأوطار مع السلامة من طغيان ماء البحار ، وكان وصف السفن بأنها كالأعلام توسعة في هذه النعمة أتبعه بالموعظة بأن هذا لا يحول بين الناس وبين ما قدره الله لهم من الفناء ، على عادة القرآن في الفُرص للموعظة والتذكير كقوله : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ [النساء : 78] .

وفائدة هذا أن لا ينسوا الاستعداد للحياة الباقية بفعل الصالحات ، وأن يتفكروا في عظيم قدرة الله تعالى ويقبلوا على توحيده وطلب مرضاته .

ووقوع هذه الجملة عقب ما عدد من النعم فيه إيماء إلى أن مصير نعم الدنيا إلى الفناء .

والجملة استئناف ابتدائي .

وضمير ﴿ عليها ﴾ مراد به الأرض بقرينة المقام مثل ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ [ص : 32] ، أي الشمس ومثله في القرآن وكثير وفي كلام البلغاء .

ومعنى ﴿ فانٍ ﴾ : أنه صائر إلى الفناء ، فهذا من استعمال اسم الفاعل لزمان الاستقبال بالقرينة مثل ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [الزمر : 30] .

والمراد بـ ﴿ من عليها ﴾ : الناس لأنهم المقصود بهذه العبر ، ولذلك جيء بـ (من) الموصولة الخاصة بالعقلاء .

(280/739)

والمعنى : أن مصير جميع من على الأرض إلى الفناء ، وهذا تذكير بالموت وما بعده من الجزاء .

و ﴿ وجه ربك ﴾ : ذاته ، فذكر الوجه هنا جار على عرف كلام العرب .

قال في "الكشاف" : والوجه يعبر به عن الجملة والذات ا ه .

وقد أضيف إلى اسمه تعالى لفظ الوجه بمعان مختلفة منها ما هنا ومنها قوله : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ [البقرة : 115] وقوله : ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ [الإنسان : 9] .

وقد علم السامعون أن الله تعالى يستحيل أن يكون له وجه بالمعنى الحقيقي وهو الجزء الذي في الرأس .

واصطلح علماء العقائد على تسمية مثل هذا بالمتشابه وكان السلف يحجمون عن الخوض في ذلك مع اليقين باستحالة ظاهره على الله تعالى ، ثم تناوله علماء التابعين ومن

بعدهم بالتأويل تدريجاً إلى أن اتضح وجه التأويل بالجرْي على قواعد علم المعاني فزال الخفاء ، واندفع الجفاء ، وكلا الفريقين خيرة الحنفاء .

وضمير المخاطب في قوله : ﴿ وجه ربك ﴾ خطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم وفيه تعظيم لقدر النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم غير مرة .

والمقصود تبليغه إلى الذين يتلى عليهم القرآن ليذكَّروا ويعتبروا .

ويجوز أن يكون خطاباً لغير معينّ ليعمّ كل مخاطب .

ولما كان الوجه هنا بمعنى الذات وصف بـ ﴿ ذو الجلال ﴾ ، أي العظمة و ﴿ الإكرام ﴾ ، أي المنعم على عباده وإلا فإن الوجه الحقيقي لا يضاف للإِكرام في عرف اللغة ، وإنما يضاف للإِكرام اليد ، أي فهو لا يفقد عبيده جلاله وإكرامه ، وقد دخل في الجلال جميع الصفات الراجعة إلى التنزيه عن النقص وفي الإِكرام جميع صفات الكمال الوجودية وصفات الجمال كالإِحسان .

وتفريع ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ إنما هو تفريع على جملة ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ كما علمت من أنه يتضمن معاملة خلقه معاملة العظيم الذي لا تصدر عنه السفاسف ، الكريم الذي لا يقطع إنعامه ، وذلك من الآلاء العظيمة .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (28)

تكرير كما تقدم وهذا الموقع ينادي على أن ليست هذه الجملة تذييلاً لجملة ﴿ كل من عليها فان ﴾ [الرحمن : 26] ، ولا أن جملة ﴿ كل من عليها فان ﴾ تتضمن نعمة إذ ليس في الفناء نعمة .

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29)

﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِى السماوات والأرْض ﴾ .

استئناف ، والمعنى أن الناس تنقرض منهم أجيال وتبقى أجيال وكل باق محتاج إلى أسباب بقائه وصلاح أحواله فهم في حاجة إلى الذي لا يفنى وهو غير محتاج إليهم .

ولما أفضى الإخبار إلى حاجة الناس إليه تعالى أتبع بأن الاحتياج عام أهل الأرض وأهل السماء .

فالجميع يسألونه ، فسؤال أهل السماوات وهم الملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ويسألون رضى الله تعالى ، ومَنْ في الأرض وهم البشر يسألونه نعم الحياة والنجاة في الآخرة ورفع الدرجات في الآخرة .

وحذف مفعول ﴿ يسئله ﴾ لإفادة التعميم ، أي يسألونه حوائجهم ومهامهم من طلوع الشمس إلى غروبها .

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ .

يجوز أن تكون الجملة حالاً من ضمير النصب في ﴿ يسئله ﴾ أو تذييلاً لجملة ﴿ يسئله من في السموات والأرض ﴾ ، أي كلّ يوم هو في شأن من الشؤون للسائلين وغيرهم فهو تعالى يُبرم شؤوناً مختلفة من أحوال الموجودات دواماً ، ويكون ﴿ كل يوم ﴾ ظرفاً متعلقاً بالاستقرار في قوله : ﴿ هو في شأن ﴾ ، وقدم على ما فيه متعلّقهُ للاهتمام بإفادة تكرر ذلك ودوامه .

والمعنى : في شأن من شؤون من في السماوات والأرض من استجابة سُؤلٍ ، ومن زيادة ، ومن حرمان ، ومن تأخير الاستجابة ، ومن تعويض عن المسؤول بثواب ، كما ورد في أحاديث الدعاء أن استجابته تكون مختلفة ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ [غافر : 60] .

(282/739)

ومعنى ﴿ في ﴾ على هذا التفسير تقويَة ثبوت الشؤون لله تعالى وهي شؤون تصرّفه ومظاهر قدرته ، كما قال الحسين بن الفضل النيسابوري : "شؤون يبديها لا شؤون يبتديها" .

و﴿ يوم ﴾ مستعمل مجازاً في الوقت بعلاقة الإِطلاق ، إذ المعنى : كل وقت من الأوقات ولو لحظة ، وليس المراد باليوم الوقت الخاص الذي يمتد من الفجر إلى الغروب .

وإطلاق اليوم ونحوه على مطلق الزمان كثير في كلام العرب كقولهم : الدهر يومان يوم نُعم ويوم بُؤس ، وقال عمرو بن كلثوم:

وإنّ غَداً وإن اليومَ رهن . . .

وبَعد غَدٍ لمَا لا تعلمين

أراد الزمان المستقبل والحاضر والمستقبل البعيد وإلا فأي فرق بين غد وبعد غد .

والشأن : الشيء العظيم والحدث المهم من مخلوقات وأعمال من السماوات والأرض ، وفي الحديث " أنه تعالى كل يوم يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع أقواماً ويضع آخرين " وهو تعالى يأمر وينهي ويحيي ويميت ويعطي ويمنع ونحو ذلك وإذا كان في تصرفه كل شأن فما هو أقل من الشأن أولى بكونه من تصرفه .

والظرفية المستعملة فيها حرف ﴿ في ﴾ ظرفية مجازية مستعارة لشدة التلبس والتعلق بتصرفات الله تعالى بمنزلة إحاطة الظرف بالمظروف أو بأسئلة المخلوقات الذين في السماء والأرض .

والمعنى : أنه تعالى كل يوم تتعلق قدرته بأمور يبرزها ويتعلق أمره التكويني بأمور من إيجاد وإعدامٍ .

ومن أحاسن الكلم في تفسير هذه الآية قول الحسين بن الفضل لما سأله عبد الله بن طاهر قائلاً : قد أشكل عليّ قوله هذا : وقد صح أن القلم جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة . فقال : "إنها شؤون يبديها لا شؤون يبتديها" وقد أجمل الحُسين بن الفضل الجواب بما يقنع أمثال عبد الله بن طاهر ، وإن كان الإِشكال غير وارد إذ ليس في الآية أن الشؤون تخالف ما سطره قلم العلم الإِلهي ، على أن هذا الجواب لا يجري إلا على أحد الوجوه في تفسير قوله : ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ كما علمت آنفاً .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (30)

(283/739)

تكرير لنظائره .

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (31)

هذا تخلّص من الاعتبار بأحوال الحياة العاجلة إلى التذكير بأحوال الآخرة والجزاء فيها انتُقل إليه بمناسبة اشتمال ما سَبق من دلائل سعة قدرة الله تعالى ، على تعريض بأن فاعل ذلك أهل للتوحيد بالإِلهية ، ومستحق الإِفراد بالعبادة ، وإذ قد كان المخاطبون بذلك مشركين مع الله في العبادة انتُقل إلى تهديدهم بأنهم وأولياءَهم من الجن المسوِّلين لهم عبادة الأصنام

سيعرضون على حكم الله فيهم .

وحرف التنفيس مستعمل في مطلق التقريب المكنّى به عن التحقيق ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي ﴾ في سورة يوسف (98) .

والفراغ للشيء : الخلوُ عما يشغل عنه ، وهو تمثيل للاعتناء بالشيء ، شبّه حال المقبل على عمل دون عملٍ آخر بحال الوعاء الذي أُفْرِغَ مما فيه ليُملأ بشيء آخر .

وهذا التمثيل صالح للاستعمال في الاعتناء كما في قول أبي بكر الصديق لابنه عبد الرحمان افْرُغْ إلى أضيافك (أي تخل عن كل شغل لتشتغل بأضيافك وتتوفر على قِراهم) وصالح للاستعمال في الوعيد ، كقول جرير :

أَلاَنَ وقد فرغت إلى نَمير . . .

فهذا حين كنتُ لها عذاباً

والمناسب لسياق الآية باعتبار السابق واللاحق ، أن تحمل على معنى الإقبال على أمور الثقلين في الآخرة ، لأن بعده ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ [الرحمن : 41] ، وهذا لكفار الثقلين وهم الأكثر في حين نزول هذه الآية .

و ﴿ الثقلان ﴾ : تثنية ثَقَل ، وهذا المثنى اسم مفرد لمجموع الإِنس والجن .

وأحسب أن الثّقَل هو الإِنسان لأنه محمول على الأرض ، فهو كالثقل على الدابة ، وأن إطلاق هذا المثنى على الإنس والجن من باب التغليب ، وقيل غير هذا مما لا يرتضيه

المتأمل .

وقد عد هذا اللفظ بهذا المعنى مما يستعمل إلا بصيغة التثنية فلا يطلق على نوع الإنسان بانفراده اسم الثقل ولذلك فهو مثنى اللفظ مفرد الإطلاق .

(284/739)

وأظن أن هذا اللفظ لم يطلق على مجموع النوعين قبل القرآن فهو من أعلام الأجناس بالغلبة ، ثم استعمله أهل الإسلام ، قال ذو الرمة:

ومَيَّة أحسن الثقلين وَجها . . .

وسَالِفَةً وأحسنُهُ قَذالاً

أراد وأحسن الثقلين ، وجعل الضمير له مفرداً .

وقد أخطأ في استعماله إذ لا علاقة للجن في شيء من غرضه .

وقرأ الجمهور ﴿ سنفرغ ﴾ بالنون .

وقرأه حمزة والكسائي بالياء المفتوحة على أن الضمير عائد إلى الله تعالى على طريقة الالتفات .

وكُتب ﴿ أيه ﴾ في المصحف بهاء ليس بعدها ألف وهو رسم مراعى فيه حال النطق

بالكلمة في الوصل إذ لا يوقف على مثله ، فقرأها الجمهور بفتحة على الهاء دون ألف في حالتي الوصل والوقف .

وقرأها أبو عمرو والكسائي بألف بعد الهاء في الوقف .

وقرأه ابن عامر بضم الهاء تبعاً لضم الياء التي قبلها وهذا من الإِتباع .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32)

تكرير لنظائره وليس هو خطاباً للثقلين ولا تذييلاً للجملة التي قبله إذ ليس في الجملة التي قبله ذكر نعمة على الثقلين بل هي تهديد لهما . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

---

(1) قد يؤدى التهديد إلى الإقلاع عن المعاصى ، والإقبال على الله ، وحينئذ يكون نعمة من أجل النعم . والله أعلم .

(285/739)

كلام نفيس للإمام ابن القيم فى باب الفناء

قال عليه الرحمة :

فصل قال صاحب المنازل باب الفناء

قال الله تعالى كل من عليها . فان ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْأِكْرَامِ ﴾ الفناء المذكور في الآية ليس هو الفناء الذي تشير إليه الطائفة فإن الفناء في الآية الهلاك والعدم أخبر سبحانه أن كل من على الأرض يعدم ويموت ويبقى وجهه سبحانه وهذا مثل قوله ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ومثل قوله ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ قال الكلبي ومقاتل لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلك أهل الأرض فلما قال تعالى ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ أيقنت الملائكة بالهلاك قال الشعبي إذا قرأت ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ ﴾ وهذا من فقهه في القرآن وكمال علمه إذ المقصود الإخبار بفناء من عليها مع بقاء وجهه سبحانه فإن الآية سيقت لتمدحه بالبقاء وحده ومجرد فناء الخليقة ليس فيه مدحه إنما المدح في بقائه بعد فناء خلقه فهي نظير قوله ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَه ﴾ وأما الفناء الذي تترجم عنه الطائفة فأمر غير هذا ولكن وجد .

(286/739)

الإشارة بالآية أن الفناء المشار إليه هو ذهاب القلب وخروجه من هذا العالم وتعلقه بالعلي الكبير الذي له البقاء فلا يدركه الفناء ومن فني في محبته وطاعته وإرادة وجهه أوصله هذا الفناء إلى منزل البقاء فالآية تشير إلى أن العبد حقيق أن لا يتعلق بمن هو فان ويذر من له

البقاء وهو ذو الجلال والإكرام فكأنها تقول إذا تعلقت بمن هو فان انقطع ذلك التعلق عند فنائه أحوج ما تكون إليه وإذا تعلقت بمن هو باق لا يفنى لم ينقطع تعلقك ودام بدوامه والفناء الذي يترجم عليه هو غاية التعلق ونهايته فإنه انقطاع عما سوى الرب تعالى من كل وجه ولذلك قال الفناء في هذا الباب اضمحلال ما دون الحق علما ثم جحدا ثم حقا قلت الفناء ضد البقاء والباقي إما باق بنفسه من غير حاجة إلى من يبقيه بل بقاؤه من لوازم نفسه وهو الله تعالى وحده وما سواه فبقاؤه ببقاء الرب وليس له من نفسه بقاء كما أنه ليس له من نفسه وجود فإيجاده وإبقاؤه من ربه وخالقه وإلا فهو ليس له من نفسه إلا العدم قبل إيجاده والفناء بعد إيجاده وليس المعنى أن نفسه وذاته اقتضت عدمه وفناءه وإنما الفناء أنك إذا نظرت إلى ذاته بقطع النظر عن إيجاد موجده له كان معدوما وإذا نظرت إليه بعد وجوده مع قطع النظر عن إبقاء موجده له استحال بقاؤه فإنه إنما يبقى بابقائه كما أنه إنما يوجد بإيجاده فهذا معنى قولنا إنه بنفسه معدوم وفان فافهمه وقد اختلف الناس هل إفناء الموجود وإعدامه بخلق عرض فيه يسمى .

(287/739)

الفناء والإعدام أم بإمساك خلق البقاء له إذ هو في كل وقت محتاج إلى أن يخلق له بقاء يبقيه وهي مسألة الإعدام المشهورة والتحقيق فيها أن ذاته لا تقتضي الوجود وهو معدوم بنفسه فإذا قدر الرب تعالى لوجوده أجلا ووقتا انتهى وجوده عند حضور أجله فرجع إلى أصله وهو العدم نعم قد يقدر له وقتا ثم يمحو سبحانه ذلك الوقت ويريد إعدامه قبل وقته كما أنه سبحانه يمحو ما يشاء ويريد استمرار وجوده بعد الوقت المقدر إلى أمد آخر فإنه يمحو ما يشاء ويثبت قال الله تعالى حاكيا عن نبيه نوح عليه السلام ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ فإذا أراد الله سبحانه إبقاء الشيء أبقاه إلى حين يشاء وإذا أراد إفناءه أعدمه بمشيئته كما يوجده بمشيئته فإن قيل متعلق المشيئة لا بد أن يكون أمرا وجوديا فكيف يكون العدم متعلق المشيئة قيل متعلق المشيئة أمران إيجاد وإعدام وكلاهما ممكن فقول القائل لا بد أن يكون متعلق المشيئة أمرا وجوديا دعوى باطلة نعم العدم المحض لا تتعلق به المشيئة وأما الإعدام فهو أخص من العدم ولولا أنا في أمر أخص من هذا لبسطنا الكلام في هذه المسألة وذكرنا أوهام الناس وأغلاطهم فيها وقوله الفناء اسم لاضمحلال ما دون الحق علما يعني يضمحل عن القلب والشهود علما وإن لم تكن ذاته فانية في الحال مضمحلة فتغيب صور الموجودات في شهود العبد بحيث تكون كأنها دخلت في العدم كما كانت قبل أن توجد

ويبقى الحق تعالى ذو الجلال والإكرام وحده في قلب الشاهد كما كان وحده قبل إيجاد العوالم.

(288/739)

قوله علما ثم جحدا ثم حقا هذه الثلاثة هي مراتب الاضمحلال إذا ورد على العبد على الترتيب فإذا جاء وهلة واحدة لم يشهد شيئًا من ذلك وإن كان قد يعرف ذلك إذا عاد إلى علمه وشهوده فإن الرب سبحانه إذا رقى عبده بالتدريج نور باطنه وعقله بالعلم فرأى أنه لا خالق سواه ولا رب غيره ولا يملك الضر والنفع والعطاء والمنع غيره وأنه لا يستحق أن يعبد بنهاية الخضوع والحب سواه وكل معبود سوى وجهه الكريم فباطل فهذا توحيد العلم ثم إذا رقاه الحق سبحانه درجة أخرى فوق هذه أشهد عود المفعولات إلى أفعاله سبحانه وعود أفعاله إلى أسمائه وصفاته وقيام صفاته بذاته فيضمحل شهود غيره من قلبه وجحد أن يكون لسواه من نفسه شيء ألبتة ولم يجحد السوي كما يجحده الملاحدة فإن هذا الجحود عين الإلحاد ثم إذا رقاه درجة أخرى أشهده قيام العوالم كلها جواهرها وأعراضها ذواتها وصفاتها به وحده أي بإقامته لها وإمساكه لها فإنه سبحانه يمسك السماوات والأرض أن تزولا ويمسك البحار أن تغيض أو تفيض على العالم ويمسك السماء أن تقع على الأرض

ويمسك الطير في الهواء صافات ويقبضن ويمسك القلوب الموقنة أن تزيغ عن الإيمان ويمسك حياة الحيوان أن تفارقه إلى الأجل المحدود ويمسك على الموجودات وجودها ولولا ذلك لاضمحلت وتلاشت والكل قائم بأفعاله وصفاته التي هي من لوازم ذاته فليس الوجود الحقيقي إلا له أعني الوجود الذي هو مستغن فيه عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير إليه بالذات لا قيام له بنفسه طرفة عين ولما كان للفناء مبدأ وتوسط وغاية أشار إلى مراتبه الثلاثة فالمرتبة الأولى فناء أهل العلم المتحققين به والثانية فناء أهل السلوك والإرادة والثالثة فناء أهل المعرفة المستغرقين في شهود الحق سبحانه فأول الأمر أن تفنى قوة علمه وشعوره بالمخلوقين في جنب علمه ومعرفته بالله .

(289/739)

وحقوقه ثم يقوي ذلك حتى يعدهم كالأموات وكالعدم ثم يقوي ذلك حتى يغيب عنهم بحيث يكلم ولا يسمع ويمر به ولا يرى وذلك أبلغ من حال السكر ولكن لا تدوم له هذه الحال ولا يمكن أن يعيش عليها .

فصل قال وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى فناء المعرفة في المعروف .

وهو الفناء علما وفناء العيان في المعاين وهو الفناء جحدا وفناء الطلب في الوجود وهو

الفناء حقا هذا تفصيل ما أجمله أولا ونبين ما أرادوا بالعلم والجحد والحق ففناء المعرفة في المعروف هو غيبة العارف بمعروفه عن شعوره بمعرفته ومعانيها فيفنى به سبحانه عن وصفه هنا وما قام به فإن المعرفة فعله ووصفه فإذا استغرق في شهود المعروف فني عن صفة نفسه وفعلها ولما كانت المعرفة فوق العلم وأخص منه كان فناء المعرفة في المعروف مستلزما لفناء العلم في المعرفة فيفنى أولا في المعرفة ثم تفنى المعرفة في المعروف وأما فناء العيان في المعاين فالعيان فوق المعرفة فإن المعرفة مرتبة فوق العلم ودون العيان فإذا انتقل من المعرفة إلى العيان فني عيانه في معاينه كما فنيت معرفته في معروفه وأما فناء الطلب في الوجود فهو أن لا يبقى لصاحب هذا الفناء طلب لأنه ظفر بالمطلوب المشاهد وصار واجدا بعد أن كان طالبا فكان إدراكه أولا علما ثم قوي فصار معرفة ثم قوي فصار عيانا ثم تمكن فصار معرفة ثم تمكن فصار وجودا ولعلك أن تستنكر أو تستبعد هذه الألفاظ ومعانيها فاسمع ضرب مثل يهون عليك ذلك ويقربه منك مثل ملك عظيم السلطان شديد السطوة تام الهيبة قوي البأس استدعى رجلا من رعيته قد اشتد جرمه وعصيانه له .

(290/739)

فحضر بين يديه وغلب على ظنه إتلافه فأحواله في حال حضوره مختلفة بالنسبة إلى ما يشاهده فتارة يتذكر جرمه وسطوة السلطان وقدرته عليه فيفكر فيما سيلقاه وتارة تقهره الحال التي هو فيها فلا يذكر ما كان منه ولا ما أحضر من أجله لغلبة الخوف على قلبه ويأسه من الخلاص ولكن عقله وذهنه معه وتارة يغيب قلبه وذهنه بالكلية فلا يشعر أين هو ولا من إلى جانبه ولا بما يراد به وربما جرى على لسانه في هذه الحال مالا يريده فهذا فناء الخوف

ومثال ثان في فناء الحب محب استغرقت محبته شخصا في غاية الجمال والبهاء وأكبر أمنيته الوصول إليه ومحادثته ورؤيته فبينا هو على حاله قد ملأ الحب قلبه وقد استغرق فكره في محبوبه وإذا به قد دخل عليه محبوبه بغتة على أحسن هيئة فقابله قريبا منه وليس دونه سواه أفليس هذا حقيقا أن يفنى عن رؤية غيره بمشاهدته وأن يفنى عن شهوده بمشهوده بل وعن حبه بمحبوبه فيملك عليه المحبوب سمعه وبصره وإرادته وإحساسه ويغيب به عن ذاته وصفاته وانظر إلى النسوة كيف قطعن أيديهن لما طلع عليهن يوسف وشاهدن ذلك الجمال ولم يتقدم لهن من عشقه ومحبته ما تقدم لامرأة العزيز فأفناهن شهود جماله عن حالهن حتى قطعن أيديهن وأما امرأة العزيز فإنها وإن كانت صاحبة المحبة فإنها كانت قد ألفت رؤيته ومشاهدته فلما خرج لم يتغير عليها حالها كما تغير على العواذل فكان مقامها البقاء ومقامهن الفناء وحصل لهن الفناء من وجهين .

أحدهما ذهولهن عن الشعور بقطع ما في أيديهن حتى تخطاه القطع إلى الأيدي الثاني فناؤهن عن الإحساس بألم القطع وهكذا الفناء بالمخوف والفرح بالمحبوب يفنى صاحبه عن شعوره وعن إحساسه بالكيفيات النفسانية هذا في مشاهدة مخلوق محدث له أشباه أمثال وله من يقاربه ويدانيه في الجمال وإنما فاق بني جنسه في الحسن والجمال ببعض الصفات وامتاز ببعض المعاني المخلوقة المصنوعة فما الظن بمن له الجمال كله والكمال كله والإحسان والإجمال ونسبة كل جمال في الوجود إلى جماله وجلاله أقل من نسبة سراج ضعيف إلى عين الشمس ولما علم سبحانه أن قوى البشر لا تحتمل في هذه الدار رؤيته احتجب عن عباده إلى يوم القيامة فينشئهم نشأة يتمكنون بها من مشاهدة جمال ورؤية وجهه وأنت ترى بعض آياته ومخلوقاته ومبدعاته كيف يفنى فيها مشاهدها عن غيرها ولكن هذا كله في المشاهدات العيانية والواردات الوجدانية وأما المعارف الإلهية فإن حالة البقاء فيها أكمل من حالة الفناء وهي حالة نبينا صلوات الله وسلامه عليه وحال الكمل من أتباعه ولهذا رأى ما رأى ليلة الإسراء وهو ثابت القلب رابط الجأش حاضر الإدراك تام التمييز ولو رأى غيره بعض ذلك لما تمالك فإن قلت ربما أفهم معنى فناء المعرفة في المعروف وفناء العيان في المعاين فما معنى فناء الطلب في الوجود حتى يكون هو الفناء حقا قلت متى فهمت الأمرين اللذين قبله فهمت معناه فإن الواجد لما ظفر بموجوده فني

طلبه له واضمحل وهذا مشهود في الشاهد فإنك ترى طالب أمر مهم فإذا ظفرت يداه به وأدركه كيف يبرد طلبه ويفنى في وجوده لكن هذا محال في حق العارف فإن طلبه لا يفارقه بل إذا وجد اشتد طلبه فلا .

(292/739)

يزال طالبا فكلما كان أوجد كان أطلب نعم الذي يفنى طلب حظه في طلب محبوبه وطلب مراضيه وليس بعد هذا غاية ولكن الذي يشير إليه القوم أن العبد يصل في منزلة المحبة والمعرفة والاستغراق في المشاهدة إلى حالة تستولي فيها عليه أنواع القرب وآثار الصفات بحيث يذهل لبه عن شعوره بطلبه وإرادته ومحبته وأيضاح ذلك أن العبد إذا أقبل على ربه وتفقد أحواله وتمكن من شهود قيام ربه عليه فإنه يكون في أول أمره مكابدا وصابرا ومرابطا فإذا صبر وصابر ورابط صبر في نفسه وصابر عدوه ورابط على ثغر قلبه أن يدخل فيه خاطر لا يحبه وليه الحق ظهر حينئذ في قلبه نور من إقباله على ربه فإذا قوي ذلك النور غيبه عن وجوده الذهني وسري به في مطاوي الغيب فحينئذ يصفو له إقباله على ربه فإذا صفا له ذلك غاب عن وجوده العيني والذهني فغاب بنور إقباله على ربه بوصول خالص الذكر وصافيه إلى قلبه حيث خلا من كل شاغل من الوجود العيني

والذهني وصار واحدا لواحد فيستولي نور المراقبة على أجزاء باطنه فيمتلئ قلبه من نور التوجه بحيث يغمر قلبه ويستره عما سواه ثم يسري ذلك النور من باطنه فيعم أجزاء ظاهره فيتشابه الظاهر والباطن فيه وحينئذ يفنى العبد عما سواه ويبقى بالمشهد الروحي الذاتي الموجب للمحبة الخاصة الملهبة للروح فمنهم من يضعف لقلة الوارد فلا يمكنه أن يتسع لغير ما باشر سره وقلبه من آثار الحب الخاص ومنهم من يقوى ويتسع نظره فيجد آثار الجلال والجمال المقدس في قلبه وروحه ويجد العبودية والمحبة والدعاء والافتقار والتوكل والخوف والرجاء وسائر الأعمال القلبية قائمة بقلبه لا تشغله عن مشهد الروح ولا تستغرق مشهد الروح عنه ويجد ملاحظته للأوامر والنواهي حاضرا في جذر قلبه حيث نزلت الأمانة فلا يشغله مشهد الروح المستغرق ولا مشهد القلب عن ملاحظة مراضي الرب تعالى ومحابه وحقه على عبده ويجد ترك التدبير والاختيار .

(293/739)

وصحة التفويض موجودا في محل نفسه فيعامل الله سبحانه بذلك بحيث لا تشغله مشاهدة الأولى عنه ويقوم بملاحظة عقله لأسرار حكمة الله في خلقه وأمره ولا يحجبه ذلك كله عن ملاحظة عبوديته فيبقى مغمور الروح بملاحظة الفردانية وجلالها وكمالها وجمالها قد

استغرقته محبته والشوق إليه معمور القلب بعبادات القلوب معمور القلب بملاحظة الحكمة ومعاني الخطاب طاهر القلب عن سفساف الأخلاق مع الله تعالى ومع الخلق قد صار عبدا محضا لربه بروحه وقلبه وعقله ونفسه وبدنه وجوارحه قد قام كل بما عليه من العبودية بحيث لا تحجبه عبودية بعضه عن عبودية البعض الآخر قد فنى عن نفسه وبقي بربه كما قال أبو بكر الكتاني جرت مسألة بمكة أيام الموسم في المحبة فتكلم الشيوخ فيها وكان الجنيد أصغرهم سنا فقالوا له هات ما عندك يا عراقي فأطرق ساعة ودمعت عيناه ثم قال عبد ذاهب عن نفسه ومتصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه أحرق قلبه أنوار هيبته وصفا شربه من كأس وده وانكشف له الجبار من أستار غيبه فإن تكلم فبالله وإن نطق فعن الله وإن عمل فبأمر الله وإن سكن فمع الله فهو لله وبالله ومع الله فبكى الشيوخ وقالوا ما على هذا مزيد جبرك الله يا تاج العارفين .

فصل قال الشيخ الدرجة الثانية فناء شهود الطلب لإسقاطه وفناء شهود .

العلم لإسقاطه وفناء شهود العيان لإسقاطه إنما كانت هذه الدرجة من الفناء أعلى عنده مما قبلها لأنها أبلغ في الفناء من جهة فناء أربابها عن فنائهم فقد سقط عن قلوبهم ذكر أحوالهم ومقاماتهم لما هم فيه من الشغل بربهم وقوله لإسقاطه أي لإسقاط الشهود لا إسقاط المشهود فالطلب والعلم والعيان قائم وقد سقط الشهود لاستغراق صاحبه في

المطلوب المعاين .

فصل قال الدرجة الثالثة الفناء عن شهود الفناء وهو الفناء حقا .

(294/739)

شائما برق العين راكبا بحر الجمع سالكا سبيل البقاء الفرق بين الفناء في هذه الدرجة والتي قبلها أنه في التي قبلها قد فني عن شهود طلبه وعلمه وعيانه مع شعوره بفنائه عن ذلك وفي هذه الدرجة قد فني عن ذلك كله وفني عن شهود فنائه كما يقال آخر من يموت ملك الموت وإنما كان هذا الفناء عنده هو الفناء حقا لأنه قد فني فيه كل ما سوى الحق سبحانه لأن صاحبه يشهد الفناء قد فني فلم يبق سوى الواحد القهار وقوله شائما برق العين الشائم الناظر من بعد وبرق العين نور الحقيقة وقد تقدم التنبيه على استحالة تعلق هذا بالنور الخارجي وإنما هو أنوار القرب والمراقبة والحضور مع الله وقوله راكبا بحر الجمع الجمع الذي يشيرون إليه عبارة عن شخوص البصيرة إلى مجرد مصدر المتفرقات كلها كما سيأتي بيانه في بابه إن شاء الله تعالى وركوب لجة هذا الجمع هو فناؤه فيه قوله سالكا سبيل البقاء يعني أن من فنى فقد تأهل للبقاء بالحق وهذا البقاء هو بعد الفناء فإنه إذا تحقق بالفناء رفع له علم الحقيقة فشمر إليه سالكا في طريق البقاء وهي القيام بالأوراد وحفظ الواردات

فحينئذ يرجى له الوصول .

فصل لم يرد في الكتاب ولا في السنة ولا في كلام الصحابة والتابعين .

مدح لفظ الفناء ولا ذمه ولا استعملوا لفظه في هذا المعنى المشار إليه البتة ولا ذكره .

(295/739)

مشايخ الطريق المتقدمون ولا جعلوه غاية ولا مقاما وقد كان القوم أحق بكل كمال وأسبق إلى كل غاية محمودة ونحن لا ننكر هذا اللفظ مطلقا ولا نقبله مطلقا ولا بد فيه من التفصيل وبيان صحيحه من معلوله ووسيلته من غايته فنقول وبالله التوفيق وهو الفتاح العليم حقيقة الفناء المشار إليه هو استهلاك الشيء في الوجود العلمي الذهني وههنا تقسمه أهل الاستقامة وأهل الزيغ والإلحاد فزعم أهل الاتحاد القائلون بوحدة الوجود أن الفناء هو غاية الفناء عن وجود السوى فلا يثبت للسوى وجود ألبتة لا في الشهود ولا في العيان بل يتحقق بشهود وحدة الوجود فيعلم حينئذ أن وجود جميع الموجودات هو عين وجود الحق فما ثم وجودان بل الموجود واحد وحقيقة الفناء عندهم أن يفنى عما لا حقيقة له بل هو وهم وخيال فيفنى عما هو فان في نفسه لا وجود له فيشهد فناء وجود كل ما سواه في وجوده وهذا تعبير محض وإلا ففي الحقيقة ليس عند القوم سوى ولا غير وإنما السوي والغير في

الوهم والخيال فحول هذا الفناء يدندنون وعليه يحومون وأما أهل التوحيد والاستقامة فيشيرون بالفناء إلى أمرين أحدهما أرفع من الآخر الأمر الأول الفناء في شهود الربوبية والقيومية فيشهد تفرد الرب تعالى بالقيومية والتدبير والخلق والرزق والعطاء والمنع والضر والنفع وأن جميع الموجودات منفعلة لا فاعلة وماله منها فعل فهو منفعل في فعله محل محض .

(296/739)

لجريان أحكام الربوبية عليه لا يملك شيئا منها لنفسه ولا لغيره فلا يملك ضرا ولا نفعا فإذا تحقق العبد بهذا المشهد خمدت منه الخواطر والإرادات نظرا إلى القيوم الذي بيده تدبير الأمور وشخوصا منه إلى مشيئته وحكمته فهو ناظر منه به إليه فإن بشهوده عن شهود ما سواه ومع هذا فهو ساع في طلب الوصول إليه قائما بالواجبات والنوافل الأمر الثاني الفناء في مشهد الإلهية وحقيقته الفناء عن إرادة ما سوى الله ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه وخوفه ورجائه فيفنى بحبه عن حب ما سواه وبخوفه ورجائه عن خوف ما سواه ورجائه وحقيقة هذا الفناء إفراد الرب سبحانه بالمحبة والخوف والرجاء والتعظيم والإجلال ونحن نشير إلى مبادئ ذلك توسطه وغايته فنقول اعلم أن القلب إذا خلى من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال أو رياسة أو صورة وتعلق بالآخرة والاهتمام بها من تحصيل العدة

والتأهب للقدوم على الله عز وجل فذلك أول فتوحه وتباشير فجره فعند ذلك يتحرك قلبه لمعرفة ما يرضى به ربه منه فيفعله ويتقرب به إليه وما يسخطه منه فيجتنبه وهذا عنوان صدق إرادته فإن كل من أيقن بلقاء الله وأنه سائله عن كلمتين يسأل عنهما الأولون والآخرون ماذا كنتم تعبدون وماذا أجبتم المرسلين لا بد أن يتنبه لطلب معرفة معبوده والطريق الموصلة إليه فإذا تمكن في ذلك فتح له باب الأنس بالخلوة والوحدة والأماكن الخالية التي تهدأ فيها الأصوات والحركات فلا شيء أشوق إليه من ذلك فإنها تجمع عليه قوى قلبه وإرادته وتسد عليه الأبواب التي تفرق همه وتشت قلبه فيأنس بها ويستوحش من الخلق ثم يفتح له باب حلاوة العبادة بحيث لا يكاد يشبع منها ويجد فيها من اللذة والراحة أضعاف ما كان يجده في لذة اللهو واللعب ونيل الشهوات بحيث إنه إذا دخل في الصلاة ود أن لا يخرج منها ثم يفتح له باب حلاوة استماع كلام الله .

(297/739)

فلا يشبع منه وإذا سمعه هدأ قلبه به كما يهدأ الصبي إذا أعطي ما هو شديد المحبة له ثم يفتح له باب شهود عظمة الله المتكلم به وجلاله وكمال نعوته وصفاته وحكمته ومعاني خطابه بحيث يستغرق قلبه في ذلك حتى يغيب فيه ويحس بقلبه وقد دخل في عالم آخر غير

ما الناس فيه ثم يفتح له باب الحياء من الله وهو أول شواهد المعرفة وهو نور يقع في القلب يريه ذلك النور أنه واقف بين يدي ربه عز وجل فيستحي منه في خلواته وجلواته ويرزق عند ذلك دوام المراقبة للرقيب ودوام التطلع إلى حضرة العلي الأعلى حتى كأنه يراه ويشاهده فوق سمواته مستويا على عرشه ناظرا إلى خلقه سامعا لأصواتهم مشاهدا لبواطنهم فإذا استولى عليه هذا الشاهد غطى عليه كثيرا من الهموم بالدنيا وما فيها فهو في وجود والناس في وجود آخر هو في وجود بين يدي ربه ووليه ناظرا إليه بقلبه والناس في حجاب عالم الشهادة في الدنيا فهو يراهم وهم لا يرونه ولا يرون منه إلا ما يناسب عالمهم ووجودهم ثم يفتح له باب الشعور بمشهد القيومية فيرى سائر التقلبات الكونية وتصاريف الوجود بيده سبحانه وحده فيشهده مالك الضر والنفع والخلق والرزق والإحياء والإماتة فيتخذه وحده وكيلا ويرضى به ربا ومدبرا وكافيا وعند ذلك إذا وقع نظره على شيء من المخلوقات دله على خالقه وبارئه وصفات كماله ونعوت جلاله فلا يحجبه خلقه عنه سبحانه بل يناديه كل من المخلوقات بلسان حاله اسمع شهادتي لمن أحسن كل شيء خلقه فأنا صنع الله الذي أتقن كل شيء فإذا استمر له ذلك فتح عليه باب القبض والبسط فيقبض عليه حتى يجد ألم القبض لقوة وارده ثم يقبض وعاءه بأنوار الوجود فيفنى عن وجوده وينمحي كما يمحو نور الشمس نور الكواكب ويطوي الكون عن قلبه بحيث لا يبقى .

فيه إلا الله الواحد القهار وتفيض أنوار المعرفة والمعاملة والصدق والإخلاص والمحبة من قلبه كما يفيض نور الشمس عن جرمها فيغرق حينئذ في الأنوار كما يغرق راكب البحر في البحر وذلك إنما يكون في الرياضة والمجاهدة وزوال أحكام الطبيعة وطول الوقوف في الباب وهذا هو من علم اليقين لا من عين اليقين ولا من حق اليقين إذ لا سبيل إليهما في الدار فإن عين اليقين مشاهدة وحق اليقين مباشرة نعم قد يكون حق اليقين في هذه الدنيا بالنسبة إلى الوجود الذهني وما يقوم بالقلوب فقط ليس إلا كما تقدم تقريره مرارا ونحن لا تأخذنا في ذلك لومة لائم وهم لا تأخذهم في كون ذلك في العيان لومة لائم وهم عندنا صادقون ملبوس عليهم ونحن عندهم محجوبون عن ذلك غير واصلين إليه فإن استمر على حاله واقفا بباب مولاه لا يلتفت عنه يمينا ولا شمالا ولا يجيب غير من يدعوه إليه ويعلم أن الأمر وراء ذلك وأنه لم يصل بعد ومتى توهم أنه قد وصل انقطع عنه المزيد رجى أن يفتح له فتح آخر هو فوق ما كان فيه مستغرقا قلبه في أنوار مشاهدة الجلال بعد ظهور أنوار الوجود الحق ومحو وجوده هو ولا يتوهم أن وجود صفاته وذاته تبطل بل الذي يبطل هو وجوده النفساني الطبعي ويبقى له وجود قلبي روحاني ملكي فيبقى قلبه سابحا في بحر من أنوار آثار الجلال

فتنبع الأنوار من باطنه كما ينبع الماء من العين حتى يجد الملكوت الأعلى كأنه في باطنه وقلبه ويجد قلبه عاليا على ذلك كله صاعدا إلى من ليس فوقه شيء ثم يرقيه الله سبحانه فيشهده أنوار الإكرام بعد ما شهد أنوار الجلال فيستغرق في نور من أنوار أشعة الجمال وفي هذا المشهد يذوق المحبة الخاصة الملهبة للأرواح والقلوب فيبقى القلب مأسورا في يد حبيبه ووليه ممتحنا بحبه وإن شئت أن تفهم ذلك تقريبا فانظر إليك وإلى غيرك وقد امتحنت بصورة بديعة الجمال ظاهرا وباطنا فملكت عليك .

(299/739)

قلبك وفكرك وليلك ونهارك فيحصل لك نار من المحبة فتضرم في أحشائك يعز معها الاصطبار وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فياله من قلب ممتحن مغمور مستغرق بما ظهر له من اشعة أنوار الجمال الأحدى والناس مفتونون ممتحنون بما يفنى من المال والصور والرياسة معذبون بذلك قبل حصوله وحال حصوله وبعد حصوله وأعلاهم مرتبة من يكون مفتونا بالحور العين أو عاملا على تمتعه في الجنة بالأكل والشرب واللباس والنكاح وهذا المحب قد ترقى في درجات المحبة على أهل المقامات ينظرون إليه في الجنة كما ينظرون إلى الكوكب الدري الغابر في الأفق لعلو درجته وقرب منزلته من حبيبه ومعيته معه فإن المرء مع من

أحب ولكل عمل جزاء وجزاء المحبة المحبة والوصول والاصطناع والقرب فهذا هو الذي يصلح وكفى بذلك شرفا وفخرا في عاجل الدنيا فما ظنك بمقاماتهم العالية عند مليك مقتدر فكيف إذا رأيتهم في موقف القيامة وقد أسمعهم المنادي لينطلق كل قوم مع ما كانوا يعبدون فيبقون في مكانهم ينتظرون معبودهم وحبيبهم الذي هو أحب شيء إليهم حتى يأتيهم فينظرون إليه ويتجلى لهم ضاحكا والمقصود أن هذا العبد لا يزال الله يرقيه طبقا بعد طبق ومنزلا بعد منزل إلى أن يوصله إليه ويمكن له بين يديه أو يموت في الطريق فيقع أجره على الله فالسعيد كل السعيد والموفق كل الموفق من لم يلتفت عن ربه تبارك وتعالى يمينا ولا شمالا ولا اتخذ سواه ربا ولا وكيلا ولا حبيبا ولا مدبرا ولا حكما ولا ناصرا ولا رازقا وجميع ما تقدم من مراتب الوصول إنما هي شواهد وامثلة إذا تجلت له الحقائق في الغيب بحسب استعداده ولطفه ورقته من حيث لا يراها ظهر من تجليها شاهد في قلبه وذلك الشاهد دال عليها ليس هو عينها فإن نور الجلال في القلب ليس هو نور ذي الجلال في الخارج فإن ذلك لا تقوم له السماوات .

(300/739)

والأرض ولو ظهر للوجود لتدكدك لكنه شاهد دال على ذلك كما أن المثل الأعلى شاهد دال على الذات والحق وراء ذلك كله منزه عن حلول واتحاد ومما زجة لخلقه وإنما تلك رقائق وشواهد تقوم بقلب العارف تدل على قرب الالطاف منه في عالم الغيب حيث يراها وإذا فني فانما يفنى بحال نفسه لا بالله ولا فيه وإذا بقي فإنما يبقى بحاله هو ووصفه لا ببقاء ربه وصفاته ولا يبقى بالله إلا الله ومع ذلك فالوصول حق يجد الواصل آثار تجلي الصفات في قلبه وآثار تجلي الحق في قلبه ويوقف القلب فوق الأكوان كلها بين يدي الرب تعالى وهو على عرشه ومن هناك يكاشف بآثار الجلال والإكرام فيجد العرش والكرسي تحت مشهد قلبه حكما وليس الذي يجده تحت قلبه حقيقة العرش والكرسي بل شاهد ومثال علمي يدل على قرب قلبه من ربه وقرب ربه من قلبه وبين الذوقين تفاوت فإذا قرب الرب تعالى من قلب عبده بقيت الأكوان كلها تحت مشهد قلبه وحينئذ يطلع في أفقه شمس التوحيد فينقشع بها ضباب وجوده ويضمحل ويتلاشى وذاته وحقيقته موجودة بائنة عن ربه وربه بائن عنه فحينئذ يغيب العبد عن نفسه ويفنى وفي الحقيقة هو باق غير فان ولكنه ليس في سره غير الله قد فنى فيه عن كل ما سواه نعم قد يتفق له في هذه الحالة أن لا يجد شيئًا غير الله فذلك لاستغراق قلبه في مشهوده وموجوده ولو كان ذلك في نفس الأمر لكان العبد في هذه الحال خالقا بارئا مصورا أزليا أبديا فعليك بهذا الفرقان واحذر فريقين هما أعدى عدو لهذا الشأن فريق الجهمية المعطلة التي ليس عندها فوق العرش إلا العدم المحض فشم

رائحة هذا المقام من أبعد الأمكنة حرام عليها وفريق أهل الاتحاد القائلين بوحدة الوجود وأن العبد ينتهي في هذا السفر إلى أن يشهد وجوده هو عين وجود الحق جل جلاله وعيشك بجهلك خير من معرفة هاتين الطائفتين وانقطاعك مع الشهوات خيرك معهما والله المستعان وعليه التكلان. انتهى انتهى. اهـ ﴿مدارج السالكين حـ 3 صـ 368. 383﴾

(301/739)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الأربعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/740)

الجزء الأربعون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 33 ﴾ من (سورة الرحمن جل جلاله)

وحتى الآية ﴿ 61 ﴾ من السورة

(4/740)

قوله تعالى ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (34) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (35) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (36) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التهديد بالفراغ ربما أوهم أنهم الآن معجوز عنهم أو عن بعض أمرهم ، بين بخطاب القبض المظهر لمحض الواحدانية أنهم في القبضة ، لا فعل لأحد منهم بدليل أنهم لا يصلون إلى جميع مرادهم مما هو في مقدورهم ، ولكنه ستر ذلك بالأسباب التي يوجد التقيد بها إسناد الأمور إلى مباشرتها فقال بياناً للمراد بالثقلين : ﴿ يا معشر ﴾ أي يا جماعة فيهم الأهلية والعشرة والتصادق ﴿ الجن ﴾ قدمهم لمزيد قوتهم ونفوذهم في المسام وقدرتهم على الخفاء والتشكل في الصور بما ظن أنهم لا يعجزهم شيء ﴿ والإنس ﴾ أي الخواص والمستأنسين والمؤانسين المبني أمرهم على الإقامة والاجتماع .

ولما بان بهذه التسمية المراد بالتثنية ، جمع دلالة على كثرتهم فقال : ﴿ إن استطعتم ﴾ أي إن وجدت لكم طاعة الكون في ﴿ أن تنفذوا ﴾ أي تسلكوا بأجسامكم وتمضوا من غير مانع يمنعكم ﴿ من أقطار ﴾ أي نواحي ﴿ السماوات والأرض ﴾ التي يتخللها القطر لسهولة انفتاحها لشي تريدونه من هرب من الله من إيقاع الجزاء بينكم ، أو عصيان عليه في قبول أحكامه وجري مراداته وأقضيته عليكم من الموت وغيره أو غير ذلك ﴿ فانفذوا ﴾ وهذا يدل على أن كل واحدة منها محيطة بالأخرى لأن النفوذ لا يكون حقيقة إلا مع الخرق .

ولما كان نفوذهم في حد ذاته ممكناً ولكنه منعهم من ذلك بأنه لم يخلق في أحد منهم قوته ولا

سيما وقد منعهم منه يوم القيامة بأمور منها إحداق أهل السماوات السبع بهم صفاً بعد صف وسرادق النار قد أحاط بالكافرين ولا منفذ لأحد إلا على الصراط ولا يجوزه إلا كل ضامر يخف ، أشار إليه بقوله مستأنفاً : ﴿ لا تنفذون ﴾ أي من شيء من ذلك ﴿ إلا بسلطان ﴾ إلا بتسليط عظيم منه سبحانه بأمر قاهر وقدرة بالغة وأنى لكم بالقدرة على ذلك ، قال البغوي : وفي الخبر : يحاط على الخلق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون : يا معشر الجن الآية .

انتهى ، وهذا حكاية ما يكون من ذلك يوم القيامة لا أنه خاص بهم .

(5/740)

ولما كان هذا نظرهم فيما بينهم وبين بقية الحيوانات بما أعطاهم من القوى الحسية والمعنوية وما نصب لهم ، المصاعد العقلية والمعارض النقلية التي ينفذون بها إلى غاية الكائنات ويتخللون بما يؤديهم إليه علمها إلى أعلى المخلوقات ، ثم نظرهم فيما بين الحيوانات وبين النباتات ثم بينها وبين الجمادات دالاً دلالة واضحة على أنه سبحانه وتعالى يعطي من يشاء من يشاء ، فلو أراد قواهم على النفوذ منها ، ولو قواهم على ذلك لكان من أجل النعم ، وأنه سبحانه قادر على ما يريد منهم ، فلو شاء أهلكهم ولكنه يؤخرهم إلى آجالهم حلماً منه

وعفواً منه عنهم ، سبب عن ذلك قوله : ﴿ فبأيّ آلاء ربكما ﴾ أي المحسن إليكما المربي لكما بما تعرفون به قدرته على كل ما يريد ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة السمع من جهة اليسار أو غيرها من جعلكم سواء في أنكم لا تقدرون على مخالفة مراده سواء ابتدأ بخلقكم أو اليوم المشهود وقد أشهدكم قبل على أنفسكم وعهد إليكم أو بتكشيط السماوات وقد شاهدتم تكشيط السحاب بعد بسطه أو بالجزاء وقد رأيتم الجزاء العاجل وشاهدتم ما أصاب الأمم الماضية .

ولما سلب عنهم القدرة على النفوذ المذكور تنبيهاً على سلب جميع القدرة عنهم وعلى أن ما يقدرون عليه إنما هو بتقديره لهم نعمة منه عليهم ، ولما كان منهم من بلغ الغاية في قسوة القلب وجمود الفكر فهو يحيل العجز عن بعض الأمور إلى أنه لم يجر بذلك عادة ، لا إلى أنه سبحانه المانع من ذلك ، فعمهم شيء من ذلك سطوته فقال ﴿ يرسل عليكما ﴾ أي أيها المعاندون ، قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : حين تخرجون من القبور بسوقكم إلى المحشر ﴿ شواظ ﴾ أي لهب عظيم منتشر مع التضايق محيط بكم من كل جانب له صوت شديد كهيئته ذي الخلق الضيق الشديد النفس .

(6/740)

ولما كان الشواظ يطلق على اللهب الذي لا دخان فيه وعلى دخان النار وحرها وعلى غير ذلك ، بينه بقوله : ﴿ من نار ونحاس ﴾ أي دخان هو في غاية الفظاعة فيه شرر متطاير وقطر مذاب ، قال ابن جرير : والعرب تسمي الدخان نحاساً بضم النون وكسرها ، وأجمع القراء على ضمها – انتهى .

وجرها أبو عمرو وابن كثير عطفاً على ﴿ نار ﴾ ورفعه الباقون عطفاً على ﴿ شواظ ﴾ .

ولما كان ذلك ممكناً عقلاً وعادة ، وكانوا عارفين بأنهم لو وقعوا في مثل ذلك لم يتخلصوا منه بوجه ، سبب عنه قوله : ﴿ فلا تنتصران ﴾ قال ابن برجان : هذا مصداق قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- " يخرج عنق من نار فيقول بكل جبار عنيد فيلتقطهم من بين الجمع لقط الحمام حب السمسم ، ويغشي المجرمين دخان جهنم من بين المؤمنين ولا يضرهم ، وآية الشواظ وعنق النار هنالك صواعق ما هنا وبروقه والنار المعهودة " .

ولما كان التهديد بهذا لطفاً بهم فهو نعمة عليهم والعفو عن المعالجة بإرسالة لذلك ، سبب عنه قوله : ﴿ فبأيِّ آلاء ربكما ﴾ أي المربي لكما بدفع البلايا وجلب المنافع ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة السمع من فوق أو غيرها ، ألم يكن لكم فيما شهدتموه في الدنيا من دلائل ذلك وآياته ما يوجب لكم الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 387 . 390 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في وجه الترتيب وحسنه ، وذلك لأنه تعالى لما قال : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثقلان ﴾ [الرحمن : 31] وبينا أنه لم يكن له شغل فكأن قائلاً قال : فلم كان التأخير إذا لم يكن شغل هناك مانع ؟ فقال : المستعجل يستعجل .

إما لخوف فوات الأمر بالتأخير وإما لحاجة في الحال ، وإما لمجرد الاختيار والإرادة على وجه التأخير ، وبين عدم الحاجة من قبل بقوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن : 26 ، 27] لأن ما يبقى بعد فناء الكل لا يحتاج إلى شيء ، فبين عدم الخوف من الفوات ، وقال : لا يفوتون ولا يقدرون على الخروج من السموات والأرض ، ولو

أمكن خروجهم عنهما لما خرجوا عن ملك الله تعالى فهو آخذهم أين كانوا وكيف كانوا .

المسألة الثانية :

المعشر الجماعة العظيمة ، وتحقيقه هو أن المعشر العدد الكامل الكثير الذي لا عدد بعده إلا بابتداء فيه حيث يعيد الآحاد ويقول : أحد عشر وإثنا عشر وعشرون وثلاثون ، أي ثلاث عشرات فالمعشر كأنه محل العشر الذي هو الكثرة الكاملة .

المسألة الثالثة :

هذا الخطاب في الدنيا أو في الآخرة ؟ نقول : الظاهر فيه أنه في الآخرة ، فإن الجن والإنس يريدون الفرار من العذاب فيجدون سبعة صفوف من الملائكة محيطين بأقطار السموات والأرض ، والأولى ما ذكرنا أنه عام بمعنى لا مهرب ولا مخرج لكم عن ملك الله تعالى ، وأينما توليتم فثم ملك الله ، وأينما تكونوا أتاكم حكم الله .

المسألة الرابعة :

(8/740)

ما الحكمة في تقديم الجن على الإنس ههنا وتقديم الإنس على الجن في قوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرءان لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ [الإسراء : 88]

نقول : النفوذ من أقطار السموات والأرض بالجن أليق إن أمكن ، والإتيان بمثل القرآن بالإنس أليق إن أمكن ، فقدم في كل موضع من يظن به القدرة على ذلك .

المسألة الخامسة :

ما معنى : ﴿ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ ؟ نقول : ذلك يحتمل وجوهاً أحدها : أن يكون بياناً بخلاف ما تقدم أي ما تنفذون ولا تنفذون إلا بقوة وليس لكم قوة على ذلك .

ثانيها : أن يكون على تقدير وقوع الأمر الأول ، وبيان أن ذلك لا ينفعكم ، وتقديره ما تنفذوا وإن نفذتم ما تنفذون إلا ومعكم سلطان الله ، كما يقول : خرج القوم بأهلهم أي معهم ثالثها : أن المراد من النفوذ ما هو المقصود منه ؟ وذلك لأن نفوذهم إشارة إلى طلب خلاصهم فقال : لا تنفذون من أقطار السموات لا تتخلصون من العذاب ولا تجدون ما تطلبون من النفود وهو الخلاص من العذاب إلا بسلطان من الله يجيركم وإلا فلا مجير لكم ، كما تقول : لا ينفعك البكاء إلا إذا صدقت وتريد به أن الصدق وحده ينفعك ، لا أنك إن صدقت فينفعك البكاء رابعها : أن هذا إشارة إلى تقرير التوحيد ، ووجهه هو كأنه تعالى قال : يا أيها الغافل لا يمكنك أن تخرج بذهنك عن أقطار السموات والأرض فإذا أنت أبداً تشاهد دليلاً من دلائل الوحدانية ، ثم هب أنك تنفذ من أقطار السموات والأرض ، فاعلم أنك لا تنفذ إلا بسلطان تجده خارج السموات والأرض قاطع دال على وحدانيته تعالى والسلطان هو القوة الكاملة .

يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (35)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(9/740)

ما وجه تعلق الآية بما قبلها ؟ نقول : إن قلنا يا معشر الجن والإنس نداء ينادي به يوم القيامة ، فكأنه تعالى قال : يوم يرسل عليكما شواظ من نار فلا يبقى لكما انتصار إن استطعتما النفوذ فانفذا ، وإن قلنا : إن النداء في الدنيا ، فنقول قوله : ﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ ﴾ إشارة إلى أنه لا مهرب لكم من الله فيمكنكم الفرار قبل الوقوع في العذاب ولا ناصر لكم فيخلصكم من النار بعد وقوعكم فيها وإرسالها عليكم ، فكأنه قال : إن استطعتم الفرار لئلا تقعوا في العذاب ففروا ثم إذا تبين لكم أن لا فرار لكم ولا بد من الوقوع فيه فإذا وقعتم فيه وأرسل عليكم فاعلموا أنكم لا تنصرون فلا خلاص لكم إذن ، لأن الخلاص إما بالدفع قبل الوقوع وإما بالرفع بعده ، ولا سبيل إليهما .

المسألة الثانية :

(10/740)

كيف ثنى الضمير في قوله : ﴿ عَلَيْكُمَا ﴾ مع أنه جمع قبله بقوله : ﴿ إِنِ استطعتم ﴾ [الرحمن : 33] والخطاب مع الطائفتين وقال : ﴿ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ﴾ وقال من قبل : ﴿ لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بسلطان ﴾ [الرحمن : 33] نقول : فيه لطيفة ، وهي أن قوله : ﴿ إِنِ استطعتم ﴾ لبيان عجزهم وعظمة ملك الله تعالى ، فقال : إن استطعتم أن تنفذوا باجتماعكم وقوتكم فانفذوا ، ولا تستطيعون لعجزكم فقد بان عند اجتماعكم واعتضادكم بعضكم ببعض فهو عند افتراقكم أظهر ، فهو خطاب عام مع كل أحد عند الانضمام إلى جميع من عداه من الأعوان والإخوان ، وأما قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾ فهو لبيان الإرسال على النوعين لا على كل واحد منهما لأن جميع الإنس والجن لا يرسل عليهم العذاب والنار ، فهو يرسل على النوعين ويتخلص منه بعض منهما بفضل الله ولا يخرج أحد من الأقطار أصلاً ، وهذا يتأيد بما ذكرنا أنه قال : لا فرار لكم قبل الوقوع ، ولا خلاص لكم عند الوقوع لكن عدم الفرار عام وعدم الخلاص ليس بعام والجواب الثاني : من حيث اللفظ ، هو أن الخطاب مع المعشر فقوله : ﴿ إِنِ استطعتم ﴾ أيها المعشر وقوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾ ليس خطاباً مع النداء بل هو خطاب مع الحاضرين وهما نوعان وليس الكلام مذكوراً بحرف واو العطف حتى يكون النوعان مناديين في الأول وعند عدم التصريح بالنداء فالتثنية أولى كقوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا ﴾ وهذا يتأيد بقوله تعالى

: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثقلان ﴾ [الرحمن : 31] وحيث صرح بالنداء جمع الضمير ، وقال بعد ذلك : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا ﴾ حيث لم يصرح بالنداء .

المسألة الثالثة :

(11/740)

ما الشواظ وما النحاس ؟ نقول : الشواظ لهب النار وهو لسانه ، وقيل ذلك لا يقال إلا للمختلط بالدخان الذي من الحطب ، والظاهر أن هذا مأخوذ من قول الحكماء إن النار إذا صارت خالصة لا ترى كالتي تكون في الكير الذي يكون في غاية الاتقاد ، وكما في التنور المسجور فإنه يرى فيه نور وهو نار ، وأما النحاس ففيه وجهان ، أحدهما الدخان ، والثاني القطر وهو النحاس المشهور عندنا ، ثم إن ذكر الأمرين بعد خطاب النوعين يحتمل أن يكون لاختصاص كل واحد بواحد .

وحينئذ فالنار الخفيف للإنس لأنه يخالف جوهره ، والنحاس الثقيل للجن لأنه يخالف جوهره أيضاً .

فإن الإنس ثقيل والنار خفيفة ، والجن خفاف والنحاس ثقيل ، وكذلك إن قلنا : المراد من

النحاس الدخان ، ويحتمل أن يكون ورودهما على حد واحد منهما وهو الظاهر الأصح .

المسألة الرابعة :

(12/740)

من قرأ ﴿ نحاس ﴾ بالجر كيف يعربه ولو زعم أنه عطف على النار يكون شواظ من نحاس والشواظ لا يكون من نحاس ؟ نقول : الجواب عنه من وجهين أحدهما : تقديره شيء من نحاس كقولهم : تقلدت سيفاً ورمحاً وثانيهما : وهو الأظهر أن يقول : الشواظ لم يكن إلا عندما يكون في النار أجزاء هوائية وأرضية ، وهو الدخان ، فالشواظ مركب من نار ومن نحاس وهو الدخان ، وعلى هذا فالمرسل شيء واحد لا شيئان غير أنه مركب ، فإن قيل : على هذا لا فائدة لتخصيص الشواظ بالإرسال إلا بيان كون تلك النار بعد غير قوية قوة تذهب عنه الدخان ، نقول : العذاب بالنار التي لا ترى دون العذاب بالنار التي ترى ، لتقدم الخوف على الوقوع فيه وامتداد العذاب والنار الصرفة لا ترى أو ترى كالنور ، فلا يكون لها لهيب وهيبة ، وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ﴾ نفي لجميع أنواع الانتصار ، فلا ينتصر أحدهما بالآخر ، ولا هما بغيرهما ، وإن كان الكفار يقولون في الدنيا : ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ [القمر : 44] والانتصار التلبس بالنصرة ، يقال لمن أخذ الثأر انتصر منه كأنه

انتزع النصرة منه لنفسه وتلبس بها ، ومن هذا الباب الانتقام والادخار والادهان ، والذي يقال فيه : إن الانتصار بمعنى الامتناع : ﴿ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ﴾ بمعنى لا تمتنعان ، وهو في الحقيقة راجع إلى ما ذكرنا لأنه يكون متلبساً بالنصرة فهو ممتنع لذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 99. 101 ﴾

(13/740)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾ الآية .

ذكر ابن المبارك : وأخبرنا جويبر عن الضحاك قال : إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها ، فتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الربّ ، فينزلون إلى الأرض فيحيطون بالأرض ومن فيها ، ثم يأمر الله السماء التي تليها كذلك فينزلون فيكونون صفًّا من خلف ذلك الصف ، ثم السماء الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة ؛ فينزل الملَك الأعلى في بهائه وملكه ومجنّبته اليسرى جهنم ، فيسمعون زفيرها وشهيقها ، فلا يأتون قُطْراً من أقطارها إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة ، فذلك قوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السماوات والأرض فانفذوا لاَ

تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ والسلطان العذر .

وقال الضحاك أيضاً : بينما الناس في أسواقهم انفتحت السماء ، ونزلت الملائكة ، فتهرب الجنّ والإنس ، فتحدق بهم الملائكة ، فذلك قوله تعالى : ﴿ لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ ذكره النحاس .

قلت : فعلى هذا يكون في الدنيا ، وعلى ما ذكر ابن المبارك يكون في الآخرة .

وعن الضحاك أيضاً : إن استطعتم أن تهربوا من الموت فاهربوا .

وقال ابن عباس : إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات وما في الأرض فاعلموه ، ولن تعلموه إلا بسلطان أي ببينة من الله تعالى .

وعنه أيضاً أن معنى : ﴿ لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ لا تخرجون من سلطاني وقدرتي عليكم .

قتادة : لا تنفذون إلا بملك وليس لكم ملك .

وقيل : لا تنفذون إلا إلى سلطان ، الباء بمعنى إلى ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي ﴾ [يوسف : 100] أي إليّ .

قال الشاعر :

أَسِيئي بِنا أو أحسِنِي لا ملولةٌ . . .

لدَيْنا ولا مَقْلِيَّةٌ إِن تَقَلَّتِ

وقوله : "فانفذوا" أمر تعجيز .

(14/740)

قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ أي لو خرجتم أرسل عليكم شواظ من نار ، وأخذكم العذاب المانع من النفوذ .

وقيل : ليس هذا متعلقاً بالنفوذ بل أخبر أنه يعاقب العصاة عذاباً بالنار .

وقيل : أي بآلاءِ ربكما تكذبان يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس عقوبة على ذلك التكذيب .

وقيل : يحاط على الخلائق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون ﴿ يامعشر الجن والإنس ﴾ ، فتلك النار قوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ﴾ والشواظ في قول ابن عباس وغيره اللهب الذي لا دخان له .

والنُّحاس : الدخان الذي لا لهب فيه ؛ ومنه قول أمية بن أبي الصَّلْت يهجو حسان بن ثابت رضي الله عنه ، كذا وقع في تفسير الثعلبيّ والماورديّ بن أبي الصَّلْت ، وفي "الصحاح" و"الوقف والابتداء" لابن الأنباري : أمية بن خلف قال :

أَلاَ مَنْ مُبْلِغٌ حَسَّانَ عنّي . . .

مُغَلْغَلَةً تَدُبُّ إلى عُكَاظِ

أَلَيْسَ أبوكَ فينا كان قَيْناً . . .

لَدَى الْقَيْنَاتِ فَسْلاً في الحِفَاظَ

يَمَانِيًّا يَظَلُّ يَشُدُّ كِيراً . . .

وينْفُخُ دَائباً لَهَبَ الشُّوَاظِ

فأجابه حسان رضي الله عنه فقال :

هَجَوْتُكَ فاختضعت لها بِذُلٍّ . . .

بِقافِيةٍ تَأَجَّجُ كالشُّوَاظِ

وقال رُؤبة :

إنّ لهم من وَقْعِنَا أَقْيَاظاً . . .

ونارَ حربٍ تُسْعِرُ الشُّوَاظَا

وقال مجاهد : الشّواظ اللهب الأخضر المنقطع من النار .

الضحاك : هو الدخان الذي يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب .

وقاله سعيد بن جبير .

وقد قيل : إن الشواظ النار والدخان جميعاً ؛ قاله أبو عمرو وحكاه الأخفش عن بعض

العرب .

وقرأ ابن كَثير "شِواظ" بكسر الشين .

الباقون بالضم وهما لغتان ؛ مثل صُوَار وصِوار لقطيع البقر .

﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ قراءة العامة "وَنُحَاسٌ" بالرفع عطف على "شُوَاظ" .

وقرأ ابن كثير وابن محيصن ومجاهد وأبو عمرو "ونُحَاسٍ" بالخفض عطفاً على النار .

(15/740)

قال المهدوي : من قال إن الشّواظ النارُ والدخان جميعاً فالجر في "نُحَاس" على هذا بيّن .

فأما الجر على قول من جعل الشواظ اللهب الذي لا دخان فيه فبعيد لا يسوغ إلا على تقدير حذف موصوف كأنه قال : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ﴾ وشيء من نحاس ؛

فشيء معطوف على شواظ ، ومن نحاس جملة هي صفة لشيء ، وحذف شيء ،

وحذفت مِن لتقدم ذكرها في "مِنْ نَارٍ" كما حذفت على من قولهم : على من تنزل أنزل أي عليه .

فيكون "نُحَاس" على هذا مجروراً بمن المحذوفة .

وعن مجاهد وحُميد وعكرمة وأبي العالية "ونِحاسٍ" بكسر النون لغتان كالشِّواظ

والشُّواظ.

والنِّحاس بالكسر أيضاً الطبيعة والأصل؛ يقال: فلان كريم النِّحاس والنُّحاس أيضاً بالضم أي كريم النِّجار.

وعن مسلم بن جُنْدَب "ونَحْسٌ" بالرفع.

وعن حنظلة بن مرّة بن النعمان الأنصاري "ونَحْسٍ" بالجر عطف على نار.

ويجوز أن يكون "ونِحاسٍ" بالكسر جمع نَحْسٍ كصَعْب وصِعاب "ونَحْسٌ" بالرفع عطف على "شواظ" وعن الحسن "ونُحُسٍ" بالضم فيها جمع نَحْس.

ويجوز أن يكون أصله ونُحُوس فقصر بحذف واوه حسب ما تقدّم عند قوله: ﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: 16].

وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة "ونَحُسُّ" بفتح النون وضم الحاء وتشديد السين من حَسَّ يَحُسّ حَسًّا إذا استأصل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ [آل عمران: 152] والمعنى ونقتل بالعذاب.

وعلى القراءة الأولى "ونُحَاسٌ" فهو الصُّفْر المذاب يُصَبُّ على رؤوسهم؛ قاله مجاهد وقتادة، وروي عن ابن عباس.

وعن ابن عباس أيضاً وسعيد بن جُبير أن النحاس الدخان الذي لا لهب فيه؛ وهو معنى قول الخليل؛ وهو معروف في كلام العرب بهذا المعنى؛ قال نابغة بني جَعْدة:

يُضِيءُ كَضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِي . . .

طِ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فيه نُحَاسَا

قال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول السَّليط دهن السّمسم بالشام ولا دخان فيه .

(16/740)

وقال مقاتل : هي خمسة أنهار من صُفْر مُذَاب ، تجري من تحت العرش على رؤوس أهل النار ؛ ثلاثة أنهار على مقدار الليل ونهران على مقدار النهار .

وقال ابن مسعود : النُّحَاس المُهْل .

وقال الضحاك : هو دُرْديّ الزَّيت المغليّ .

وقال الكسائي : هو النار التي لها ريح شديدة .

﴿ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ﴾ أي لا ينصر بعضكم بعضاً يعني الجن والإنس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(17/740)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ خَلَقَ الإنسان مِن صلصال كالفخار ﴾

تمهيدٌ للتوبيخِ على إخلالِهم بمواجبِ شكرِ النعمةِ المتعلقةِ بذواتِ كلِّ واحدٍ من الثقلين . والصلصالُ الطينُ اليابسُ الذي له صلصلةٌ ، والفخَّارُ الخزفُ . وقد خلقَ الله تعالى آدمَ عليهِ السلامُ من ترابٍ جعلَهُ طيناً ثم حمأً مسنوناً ثم صلصالاً فلا تنافيَ بين الآيةِ الناطقةِ بأحدِها وبينَ ما نطقَ بأحدِ الآخرينِ . ﴿ وَخَلَقَ الجان ﴾ أي الجنَّ أو أبا الجنِّ . ﴿ مِن مَّارِجٍ ﴾ من لهبٍ صافٍ ﴿ مّن نَّارٍ ﴾ بيانٌ لمارجٍ فإنَّه في الأصلِ للمضطربِ ، منْ مَرَجَ إذا اضطربَ . ﴿ فَبِأَىّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ مما أفاضَ عليكُما في تضاعيفِ خلقِكما من سوابغِ النعمِ ﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ بالرفعِ على خبريَّة مبتدأٍ محذوفٍ أي الذي فعلَ ما ذُكِرَ من الأفاعيلِ البديعةِ ربُّ مشرقي الصيفِ والشتاءِ ومغربيهما ، ومن قضيتِه أن يكونَ ربَّ ما بينهُمَا منَ الموجوداتِ قاطبةً ، وقيلَ على الابتداءِ والخبرُ قولُه تعالى مرجَ الخ . وقُرِىءَ بالجرِّ على أنَّه بدلٌ من ربِّكُما . ﴿ فَبِأَىّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ ممَّا في ذلكَ من فوائدَ لا تُحصى من اعتدالِ الهواءِ واختلافِ الفصولِ وحدوثِ ما يناسبُ كلَّ فصلٍ في وقتِه إلى غيرِ ذلكَ . ﴿ مَرَجَ البحرين ﴾ أي أرسلَهُما منْ مرجتُ الدابَّةَ إذا أرسلتُها والمَعْنى أرسلَ البحرَ المِلْحَ والبحرَ العذبَ ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ أي يتجاورانِ ويتماسُّ سطوحُهما لا فصلَ بينَهما في مرأى العينِ وقيلَ : أرسلَ بحريْ فارسَ والرومِ يلتقيانِ في المحيطِ لأنهما

خليجانِ يتشعبانِ منه ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ أي حاجزٌ من قُدرةِ الله عزَّ وجَلَّ أو منَ الأرضِ ﴿ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ أي لا يبغِي أحدُهما على الآخرِ بالممازجةِ وإبطالِ الخاصّيةِ أو لا يتجاوزانِ حدَّيهُما بإغراقِ ما بينهُما ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وليسَ منهُما شيءٌ يقبلُ التكذيبَ ﴿ يَخْرُجُ

(18/740)

مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ ﴾ الدرُّ ﴿ وَالمَرْجَانُ ﴾ الخرزُ الأحمرُ المشهورُ وقيلَ : اللؤلؤُ كبارُ الدرِّ والمرجانُ صغارُه فنسبةُ خروجِهما حينئذٍ إلى البحرينِ معَ أنَّهما إنما يخرجانِ من المِلْحِ على ما قالُوا ، لما قيلَ : أنَّهما لا يخرجانِ إلا من مُلتقى المِلْحِ والعذبِ ، أو لأنَّهما لما التقيا وصارا كالشيءِ الواحد ساغ أن يقال يخرجان منهما كما يقال يخرجان من البحرِ مع أنهما لا يخرجانِ من جميعِ البحرِ ، ولكنْ من بعضِه وهو الأظهرُ . وقُرِىءَ يُخرَجُ مبنياً للمفعولِ من الإخراجِ ومبنياً للفاعلِ بنصبِ اللؤلؤُ والمرجانُ وبنونِ العظمةِ .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ الجوار ﴾ أي السفنُ جمعُ جاريةٍ ، وقرِىءَ برفعِ الراءِ وبحذفِ الياءِ كقولِ منْ قال :

لَهَا ثَنَايَا أَرْبعٌ حسان . . . وَأَرْبعٌ فكُلُّها ثَمَانُ

﴿ المنشآت ﴾ المرفوعاتُ الشُّرُعِ، أو المصنوعاتُ، وقُرِىءَ بكسرِ الشينِ. أيْ الرافعاتُ الشرُعَ، أو اللاتِي ينشئنَ الأمواجَ بجريهنَّ ﴿ فِى البحر كالأعلام ﴾ كالجبالِ الشاهقةِ جمعُ عَلَمٍ وهو الجبلُ الطويلُ. ﴿ فَبِأَىِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من خلقِ موادِّ السفنِ والإرشادِ إلى أخذِها وكيفيةِ تركيبِها وإجرائِها في البحرِ بأسبابٍ لا يقدرُ على خلقِها وجمعِها وترتيبِها غيرُه سبحانَهُ ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا ﴾ أي على الأرضِ من الحيواناتِ أو المركباتِ ومَنْ للتغليبِ أو من الثقلينِ ﴿ فَانٍ ﴾ هالكٌ لا محالةَ ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ أي ذاتُه عزَّ وجلَّ ﴿ ذُو الجلال والإكرام ﴾ أي ذُو الاستغناءِ المطبقِ والفضلِ التامِ وقيلَ: الذي عندَهُ الجلالُ والإكرامُ للمخلصينَ من عبادِه وهذه من عظائمِ صفاتِه تعالى، ولقدْ قالَ صلى الله عليه وسلم: "أَلِظُّوا بياذَا الجلالِ والإكرامِ" وعنْهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: "أَنَّه مرَّ برجلٍ وهُو يُصلِّي ويقولُ يا ذا الجلالِ والإكرامِ، فقالَ قد استُجيبَ لكَ". وقُرِىءَ ذِي الجلالِ والإكرام على أنه صفةُ ربِّك، وأياً ما كانَ ففي وصفِهِ تعالَى بذلكَ بعدَ ذكرِ فناءِ الخلقِ وبقائِه تعالى يفيضُ عليهم بعد فنائِهم أيضاً آثارَ لطفِه وكرمِه حسبَما ينبيءُ عنه قولُه تعالَى: ﴿ فَبِأَىِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإنَّ أحياءَهُم بالحياةِ الأبديةِ وإثابتَهم بالنعيمِ المقيمِ أجلُّ النعماءِ

وأعظمُ الآلاءِ ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِى السموات والأرض ﴾ قاطبةً ما يحتاجونَ إليه في ذواتِهم ووجوداتِهم حدوثاً وبقاءً وسائرِ أحوالِهم سؤالاً مستمراً بلسانِ المقالِ أو بلسانِ الحالِ فإنَّهم كافةً من حيثُ حقائقُهم الممكنةُ بمعزلٍ من استحقاقِ الوجودِ وما يتفرعُ عليه من الكمالاتِ بالمرةِ بحيثُ لو انقطعَ ما بينَهم وبين العنايةِ الإلهية من العلاقةِ لم يشَمُّوا رائحةَ الوجودِ أصلاً

(20/740)

فهم في كلِّ آنٍ مستمرونَ على الاستدعاءِ والسؤالِ وقد مرَّ في تفسيرِ قولِه تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَا ﴾ من سورةِ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ ﴿ كُلَّ يَوْمٍ ﴾ أي كلَّ وقتٍ من الأوقاتِ . ﴿ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ من الشؤونِ التي من جُمْلتِها إعطاءُ ما سألُوا فإنَّه تعالى لا يزالُ ينشىءُ أشخاصاً ويُفني آخرينَ ويأتي بأحوالٍ ويذهبُ بأحوالٍ حسبَما تقتضيهِ مشيئتُه المبنيةُ على الحِكمِ البالغةِ ، وفي الحديثِ : " من شأنِه أنْ يغفرَ ذنباً ويفرّجَ كرباً ويرفعَ قوماً ويضعَ آخرينَ " قيل : وفيه ردٌّ على اليهودِ حيثُ يقولونَ إنَّ الله لا يقضِي يومَ السبتِ شيئاً .

﴿ فَبِأَىِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مع مشاهدتِكم لما ذُكِرَ من إحسانِه .

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ أي سنتجردُ لحسابِكم وجزائِكم وذلكَ يومَ القيامةِ عندَ انتهاءِ شؤونِ

الخلقِ المشارِ إليَها بقولِه تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ فلا يَبْقى حينئذٍ إلا شأنٌ واحدٌ هو الجزاءُ فعبرَ عنْهُ بالفراغِ لهم بطريقِ التمثيلِ وقيلَ : هو مستعارٌ من قولِ المتهدّدِ لصاحبِهِ ؛ سأفرُغُ لكَ أي سأتجردُ للإيقاعِ بكَ من كلِّ ما يشغلِني عنْهُ والمرادُ التوفرُ على النّكايةِ فيهِ والانتقامِ منْهُ . وقُرِىءَ سَيفرُغُ مبنياً للفاعلِ وللمفعولِ . وقُرِىءَ سَنفرُغُ إليكُم أي سنقصدُ إليكُم . ﴿ أَيُّهَا الثقلان ﴾ هما الإنسُ والجنُّ سُمّيا بذلكَ لثقلِهما على الأرضِ أو لرزانةِ آرائِهما أو لأنَّهما مثقلانِ بالتكليفِ ﴿ فَبِأَىِّ ءالاء رَبِّكُمَا ﴾ التي من جُمْلتِها التنبيهُ على ما سيلقَونَهُ يومَ القيامةِ للتحذيرِ عمَّا يُؤدّي إلى سوءِ الحسابِ ﴿ تُكَذِّبَانِ ﴾ بأقوالِكما وأعمالِكما .

(21/740)

﴿ يامعشر الجن والإنس ﴾ هما الثقلانِ خوطِبا باسمِ جنسِهما لزيادةِ التقريرِ ولأنَّ الجنَّ مشهورونَ بالقدرةِ على الأفاعيلِ الشاقةِ فخُوطبوا بما ينبىءُ عن ذلكَ لبيانِ أن قدرتَهُم لا تَفِي بما كُلِّفُوه . ﴿ إِنِ استطعتم ﴾ إنْ قدرتُم عَلى ﴿ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أقطار * السموات والأرض ﴾ أي أن تهرُبوا من قضائِي وتخرجُوا من ملكوتِي ومن أقطارِ سمواتِي وأرضِي ﴿ فانفذوا ﴾ منها وخلِّصُوا أنفسَكُم من عقابِي ﴿ لاَ تَنفُذُونَ ﴾ لا تقدرونَ عل النفوذِ

﴿ إِلاَّ بسلطان ﴾ أي بقوةٍ وقهرٍ ، وأنتُم من ذلكَ بمعزلٍ بعيدٍ . رُويَ أن الملائكةَ تنزلُ فتحيطُ بجميعِ الخلائقِ فإذا رآهُم الجنُّ والإنسُ هربُوا فلا يأتونَ وجهاً إلا وجدُوا الملائكةَ أحاطتْ بهِ .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي من التنبيهِ والتحذيرِ والمساهلةِ والعفوِ مع كمالِ القدرةِ على العقوبةِ ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ ﴾ قيلَ : هو اللهبُ الخالصُ وقيلَ : المختلطُ بالدخانِ وقيل : اللهبُ الأخضرُ المنقطعُ من النارِ وقيل : هو الدخانُ الخارجُ من اللهبِ وقيلَ : هو النارُ والدخانُ جميعاً . وقُرِىءَ شِواظٌ بكسرِ الشينِ ﴿ مِّن نَّارٍ ﴾ متعلقٌ بيرسلُ أو بمضمرٍ هو صفةٌ لشواظٌ أي كائنٌ من نارٍ ، والتنوينُ للتفخيمِ ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ أي دُخانٌ وقيلَ : صُفرٌ مذابٌ يصبُّ على رؤوسِهم ، وقُرِىءَ بكسرِ النُّونِ ، وقُرِىءَ بالجرِّ عطفاً على نارٍ ، وقُرِىءَ نُرسل بنونِ العظمةِ ، ونصب شُواظاً ونحاساً ، وقُرِىءَ نُحُس جمعُ نِحاسٍ مثلُ لِحافٍ ولُحُفٍ ، وقُرِىءَ ونَحُسُّ أي نقتلُ بالعذابِ . ﴿ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ﴾ أي لا تمتنعانِ ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإنَّ بيانَ عاقبةِ ما هُم عليهِ من الكفرِ والمَعَاصِي لطفٌ وأيُّ لُطفٍ ونعمةٌ وأيُّ نعمةٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(22/740)

وقال الآلوسى :

﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾

هما الثقلان خوطبا باسم جنسيهما لزيادة التقرير ولأن الجن مشهورون بالقدرة على الأفاعيل الشاقة بما ينبىء عن ذلك لبيان أن قدرتهم لا تفي بما كلفوه وكأنه لما ذكر سبحانه أنه مجاز للعباد لا محالة عقب عز وجل ذلك ببيان أنهم لا يقدرون على الخلاص من جزائه وعقابه إذا أراده فقال سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس ﴾ ﴿ إِنِ استطعتم ﴾ إن قدرتم ، وأصل الاستطاعة طلب طواعية الفعل وتأتيه .

﴿ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أقطار السموات والأرض ﴾ أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من الله تعالى فارين من قضائه سبحانه : ﴿ فانفذوا ﴾ فاخرجوا منها وخلصوا أنفسكم من عقابه عز وجل ، والأمر للتعجيز ﴿ لاَ تَنفُذُونَ ﴾ لا تقدرون على النفوذ ﴿ إِلاَّ بسلطان ﴾ أي بقوة وقهر وأنتم عن ذلك بمعزل وألف ألف منزل ، روى أن الملائكة عليهم السلام ينزلون يوم القيامة فيحيطون بجميع الخلائق فإذا رآهم الجن والإنس هربوا فلا يأتون وجهاً إلا وجدوا الملائكة أحاطت به ، وقيل : هذا أمر يكون في الدنيا ، قال الضحاك : بينما الناس في أسواقهم انفتحت السماء ونزلت الملائكة فتهرب الجن والإنس فتحدق بهم الملائكة وذلك قبيل قيام الساعة ، وقيل : المراد إن استطعتم الفرار من الموت ففروا ، وقيل : المعنى إن قدرتم أن تنفذوا لتعلموا بما في السموات والأرض فانفذوا لتعلموا

لكن ﴿ لاَ تَنفُذُونَ ﴾ ولا تعلمون إلا ببينة وحجة نصبها الله تعالى فتعرجون عليها بأفكاركم ، وروى ما يقاربه عن ابن عباس والأنسب بالمقام لا يخفى .

وقرأ زيد بن علي إن استطعتما رعاية للنوعين وإن كان تحت كل أفراد كثيرة والجمع لرعاية تلك الكثرة وقد جاء كل في الفصيح نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات : 9] .

(23/740)

﴿ فَبِأَىّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ أي من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة على العقوبة ، وقيل : على الوجه الأخير فيما تقدم أي مما نصب سبحانه من المصاعد العقلية والمعارج النقلية فتنفذون بها إلى ما فوق السموات العلا ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾ استئناف في جواب سؤال مقدر عن الداعي للفرار أو عما يصيبهم أي يصب عليكما .

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾ استئناف في جواب سؤال مقدر عن الداعي للفرار أو عما يصيبهم أي يصب عليكما ﴿ شُوَاظٌ ﴾ هو اللهب الخالص كما روى عن ابن عباس ، وأنشد عليه أبو حيان قول حسان

: هجوتك فاختضعت لنا بذل . . .

بقافية تأجج (كالشواظ)

وقيل : اللهب المختلط بالدخان ، وقال مجاهد : اللهب الأحمر المنقطع ، وقيل : اللهب الأخضر ، وقال الضحاك : الدخان الذي يخرج من اللهب ، وقيل : هو النار والدخان جميعاً ، وقرأ عيسى .

وابن كثير .

وشبل ﴿ شُوَاظٌ ﴾ بكسر الشين ﴿ مّن نَّارٍ ﴾ متعلق بيرسل أو بمضمر هو صفة لشواظ و﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية أي كائن من نار والتنوين للتفخيم ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ هو الدخان الذي لا لهب فيه كما قاله ابن عباس لنافع بن الأزرق وأنشد له قول الأعشى ، أو النابغة الجعدي

: تضيء كضوء السراج السلي . . .

ط لم يجعل الله فيه (نحاسا)

وروي عنه أيضاً ، وعن مجاهد أنه الصفر المعروف أي يصب على رؤوسكما صفر مذاب ، والراغب فسره باللهب بلا دخان ثم قال : وذلك لشبهه في اللون بالنحاس ، وقرأ ابن أبي إسحق .

والنخعي .

وابن كثير .

وأبو عمرو ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ بالجر على أنه عطف على نار ، وقيل : على ﴿ شُوَاظٌ ﴾ وجر للجوار فلا تغفل .

وقرأ الكلبي .

وطلحة .

ومجاهد بالجر أيضاً لكنهم كسروا النون وهو لغة فيه ، وقرأ ابن جبير ونحس كما تقول يوم نحس ، وقرأ عبد الرحمن بن أبي بكرة .

وابن أبي إسحاق أيضاً ونحس مضارعاً ، وماضيه حسه أي قتله أي ونقتل بالعذاب ، وعن ابن أبي إسحاق أيضاً ونحس بالحركات الثلاث في الحاء على التخيير .

(24/740)

وحنظلة بن عثمان ونحس بفتح النون وكسر السين ، والحسن .

وإسمعيل ونحس بضمتين والكسر ، وهو جمع نحاس كلحاف ولحف ، وقرأ زيد بن علي نرسل بالنون شواظاً بالنصب ونحاساً كذلك عطفاً على شواظاً ﴿ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ﴾ فلا تمتنعان وهذا عند الضحاك في الدنيا أيضاً .

أخرج ابن أبي شيبة عنه أنه قال في الآية : تخرج نار من قبل المغرب تحشر الناس حتى إنها لتحشر القدرة والخنازير تبيت معهم حيث باتوا وتقيل حيث قالوا ، وقال في البحر : المراد تعجيز الجن والإنس أي أنتما بحال من يرسل عليه هذا فلا يقدر على الامتناع مما يرسل عليه .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإن التهديد لطف والتمييز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار من عداد الآلاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(25/740)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ﴾

هذا مقول قول محذوف يدل عليه سياق الكلام السابقِ واللاحق ، وليس خطاباً للإِنس والجنّ في الحياة الدنيا .

والتقدير : فنقول لكم كما في قوله تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ﴾ [الأنعام : 128] الآية ، أي فنقول : يا معشر الجن قد استكثرتم

من الإِنس ، وتقدم في سورة الأنعام .

والمعشر : اسم للجمع الكثير الذي يُعد عشرةً عشرةً دون آحاد .

وهذا إعلان لهم بأنهم في قبضة الله تعالى لا يجدون منجىً منها ، وهو ترويع للضالين والمضلّين من الجن والإِنس بما يترقبهم من الجزاء السيّء لأن مثل هذا لا يقال لجمع مختلط إلا والمقصود أهل الجناية منهم فقوله : ﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾ عام مراد به الخصوص بقرينة قوله بعده ﴿ يرسل عليكما شواظ ﴾ [الرحمن : 35] الخ .

والنفوذ والنفاذ : جواز شيء عن شيء وخروجُه منه .

والشرط مستعمل في التعجيز ، وكذلك الأمر الذي هو جواب هذا الشرط من قوله : ﴿ فانفذوا ﴾ ، أي وأنتم لا تستطيعون الهروب .

والمعنى : إن قَدَرْتُم على الانفلات من هذا الموقف فافلتوا .

وهذا مؤذن بالتعريض بالتخويف مما سيظهر في ذلك الموقف من العقاب لأهل التضليل .

والأقطار : جمع قُطر بضم القاف وسكون الطاء وهو الناحية الواسعة من المكان الأوسع ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ﴾ في سورة الأحزاب (14) .

وذكر السماوات والأرض لتحقيق إحاطة الجهات كلها تحقيقاً للتعجيز ، أي فهذه السماوات والأرض أمامكم فإن استطعتم فاخرجوا من جهة منها فراراً من موقفكم هذا ، وذلك أن تعدد الأمكنة يسهل الهروب من إحدى جهاتها .

والأرض المذكورة هنا إما أن تكون الأرض التي في الدنيا وذلك حين البعث ، وإما أن تكون أرض الحشر وهي التي سماها القرآن الساهرة في سورة النازعات (14) ، وقال تعالى : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ [إبراهيم : 48] ، وإما أن يكون ذلك جارياً مجرى المثل المستعمل للمبالغة في إحاطة الجهات كقول أبي بكر الصديق : "أيُّ أرض تقلني ، وأيُّ سماء تُظلني" .

وهذه المعاني لا تتنافى ، وهي من حدّ إعجاز القرآن .

وجملة ﴿ لا تنفذون إلاَّ بسلطان ﴾ بيان للتعجيز الذي في الجملة قبله فإن السلطان : القدرة ، أي لا تنفذون من هذا المأزق إلا بقدرة عظيمة تفوق قدرة الله الذي حشركم لهذا الموقف ، وأنَّى لكم هاته القوة .

وهذا على طريق قوله : ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون ﴾ [الشعراء : 210 ، 211] ، أي ما صعدوا إلى السماء فيتنزَّلوا به .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (34)

القول فيه كالقول في نظيره المذكور قبله .

يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (35)

استئناف بياني عن جملة ﴿ إن استطعتم أن تنفذوا ﴾ [الرحمن : 33] الخ لأن ذلك الإِشعار بالتهديد يثير في نفوسهم تساؤلاً عمّا وَراءه .

وضمير ﴿ عليكما ﴾ راجع إلى الجنّ والإِنس فهو عام مراد به الخصوص بالقرينة ، وهي قوله بعده : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [الرحمن : 46] الآيات .

وهذا تصريح بأنهم معاقبون بعد أن عُرض لهم بذلك تعريضاً بقوله : ﴿ إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ﴾ [الرحمن : 33] .

ومعنى ﴿ يرسل عليكما ﴾ أن ذلك يعترضهم قبل أن يَلجوا في جهنم ، أي تقذفون بشُواظ من نار تعجيلاً للسوء .

والمضارع للحال ، أي ويرسل عليكما الآن شواظ .

والشواظ بضم الشين وكسرها : اللهب الذي لا يخالطه دخان لأنه قد كمل اشتعاله وذلك أشد إحراقاً .

وقرأه الجمهور بضم الشين .

وقرأه ابن كثير بكسرها .

والنّحاس : يطلق على الدخان الذي لا لهب معه .

وبه فسر ابن عباس وسعيد بن جبير وتبعهما الخليل .

والمعنى عليه : أن الدخان الذي لم تلحقهم مضرته والاختناق به بسبب شدة لهب الشواظ يضاف إلى ذلك الشواظ على حياله فلا يفلتون من الأمرينِ .

ويطلق النحاس على الصُّفْر وهو القِطر .

وبه فسر مجاهد وقتادة ، وروي عن ابن عباس أيضاً .

فالمعنى : أنه يصبّ عليهم الصُّفْر المُذاب .

وقرأ الجمهور ﴿ ونحاس ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿ شواظ ﴾ .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وروْح عن يعقوب مجروراً عطفاً على ﴿ نار ﴾ فيكون الشواظ منه أيضاً ، أي شواظ لهب من نار ، ولهب من نحاس ملتهب .

وهذه نار خارقة للعادة مثل قوله تعالى : ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ [البقرة : 24] .

ومعنى ﴿ فلا تنتصران ﴾ : فلا تجدان مخلصاً من ذلك ولا تجدان ناصراً .

والناصر : هنا مراد منه حقيقته ومجازه ، أي لا تجدان من يدفع عنكما ذلك ولا ملجأ تتّقيان به .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (36)

تكرير كالقول في الذي وقع قبله قريباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(28/740)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ .

لا يخفى ما يسبق إلى الذهن من أن إرسال شواظ النار الذي هو لهبها والنحاس الذي هو دخانها أو النحاس المذاب وعدم الانتصار ليس في شيء منه إنعام على الثقلين .

وقوله لهم فبأي آلاء الله أي نعمه على الجن والإنس .

والجواب من وجهين: الأول ـ أن تكرير ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ للتوكيد ولم يكرر متواليا لأن تكريره بعد كل آية أحسن من تكريره متواليا وإذا كان للتوكيد فلا إشكال لأن المذكور منه بعد ما ليس من الآلاء مؤكد للمذكور بعد ما هو من الآلاء .

الوجه الثاني ـ أن ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لم تذكر إلا بعد ذكر نعمة أو موعظة أو إنذار وتخويف وكلها من آلاء الله التي لا يكذب بها إلا كافر جاحد .

أما في ذكر النعمة فواضح .

وأما في الموعظة فلأن الوعظ تلين له القلوب فتخشع وتنيب فالسبب الموصل إلى ذلك من أعظم النعم فظهر أن الوعظ من أكبر الآلاء .

(29/740)

وأما في الإنذار والتخويف كهذه الآية ففيه أيضا أعظم نعمة على العبد لأن إنذاره في دار الدنيا من أهوال يوم القيامة من أعظم نعم الله عليه ألا ترى أنه لو كان أمام إنسان مسافر مهلكة كبرى وهو مشرف على الوقوع فيها من غير أن يعلم بها فجاءه إنسان فأخبره بها وحذره عن الوقوع فيها أن هذا يكون يدا له عنده وإحسانا يجازيه عليه جزاء أكبر الأنعام وهذا الوجه الأخير هو مقتضى الأصول لأنه قد تقرر في علم الأصول أن النص إذا احتمل التوكيد والتأسيس فالأصل حمله على التأسيس لا على التوكيد لأن في التأسيس زيادة معنى ليست في التوكيد وعلى هذا القول فتكرير ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إنما هو باعتبار أنواع النعم المذكورة قبلها من إنعام أو موعظة أو إنذار وقد عرفت أن كلها من آلاء الله فالمذكورة بعد نعمة كالمذكورة بعد قوله: ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ ﴾ الآية وبعد قوله: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ الآية لأن السفن واللؤلؤ والمرجان من آلاء الله كما هو

ضروري والمذكورة بعد موعظة كالمذكورة بعد قوله: ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾ الآية.

والمذكورة بعد إنذار أو تخويف كالمذكورة بعد قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ﴾ .

الآية . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 281.

283 ﴾

(30/740)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(35) ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض

فانفذوا , لا تنفذون إلا بسلطان * ﴾

بقلم الدكتور : زغلول النجار

هذه الآية الكريمة جاءت قرب نهاية النصف الأول من سورة الرحمن , التي سميت بتوقيف

من الله (تعالي) بهذا الاسم الكريم لاستهلالها باسم الله الرحمن , ولما تضمنته من لمسات رحمته , وعظيم آلائه التي اولها تعليم القرآن , ثم خلق الإنسان وتعليمه البيان .

وقد استعرضت السورة عددا من آيات الله الكونية المبهرة للاستدلال علي عظيم آلائه , وعميم فضله علي عباده ومنها : جريان كل من الشمس والقمر بحساب دقيق (كرمز لدقة حركة كل أجرام السماء بذاتها , وفي مجموعاتها , وبجزيئاتها , وذراتها , ولبناتها الأولية) , وسجود كل مخلوق لله , حتي النجم والشجر , ورفع السماء بغير عمد مرئية , ووضع ميزان العدل بين الخلائق , ومطالبة العباد بألا يطغوا في الميزان , وأن يقيموا عدل الله في الأرض , ولا يفسدوا هذا الميزان , وخلق الأرض وتهيئتها لاستقبال الحياة , وفيها من النباتات وثمارها , ومحاصيلها ما يشهد علي ذلك , وخلق الإنسان من صلصال كالفخار , وخلق الجان من مارج من نار , وتكوير الأرض وإدارتها حول محورها , والتعبير عن ذلك بوصف الحق (تبارك وتعالي) بأنه رب المشرقين ورب المغربين , ومرج كل نوعين من انواع ماء البحار دون اختلاط تام بينهما , وإخراج كل من اللؤلؤ والمرجان منهما , وجري السفن العملاقة في البحر , وهي تمخر عباب الماء وكأنها الجبال الشامخات , وحتمية الفناء علي كل المخلوقات , مع الوجود المطلق للخالق (سبحانه وتعالي) , صاحب الجلال والإكرام , الحي القيوم , الأزلي بلا

بداية , والأبدي بلا نهاية , والإشارة إلي مركزية الأرض من الكون , وضخامة حجمها التي لا تمثل شيئا في سعة السماوات وتعاظم ابعادها , وذلك بتحدي كل من الجن والانس أن ينفذوا من أقطارهما , وتأكيد أنهم لن يستطيعوا ذلك أبدا , إلا بسلطان من الله , وأن مجرد محاولة ذلك بغير هذا التفويض الإلهي سوف يعرض المحاول لشواظ من نار ونحاس فلا ينتصر في محاولته أبدا . . . . ! ! !

ثم يأتي الحديث عن الآخرة وأحوالها , ومنها انشقاق السماء علي هيئة الوردة المدهنة , كالمهل الأحمر ومنها معرفة المجرمين بعلامات في وجوههم (من الزرقة والسواد) , وما سوف يلاقونه من صور الإذلال والمهانة , وهم يطوفون بين جهنم وبين حميم آن (أي ماء في شدة الغليان) ; وعلي النقيض من ذلك تشير السورة الكريمة إلي أحوال المتقين , ومقامهم في جنات الخلد , وجزاء إحسانهم في الدنيا , وتصف جانبا مما في هذه الجنات من نعيم .

وبين كل آية من آيات الله في هذه السورة التي سماها رسول الله (صلي الله عليه وسلم) باسم عروس القرآن لما لخواتيم آياتها من جرس رائع , نجد آية : فبأي آلاء ربكما تكذبان التي ترددت في سورة الرحمن إحدي وثلاثين مرة من مجموع آيات السورة الثماني والسبعين (أي بنسبة 40

تقريبا) في تقريع شديد , وتبكيت واضح للمكذبين من الجن والإنس بآلاء الله وافضاله

وعلي رأسها دينه الخاتم الذي بعث به النبي الخاتم والرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) , والذي لا يرتضي ربنا (تبارك وتعالي) من عباده دينا سواه بعد ان حفظه للناس كافة في القرآن الكريم , وفي سنة الرسول الخاتم بنفس لغة الوحي علي مدي اربعة عشر قرنا وإلي أن يرث الله الأرض ومن عليها , وتختتم السورة بقول الحق (سبحانه) : تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام .

والإشارات الكونية في سورة الرحمن , والتي يفوق عددها السبع عشرة آية صريحة نحتاج في شرح كل آية منها إلي مقال

(32/740)

مستقل , ولذلك سأقف هنا عند قول الحق (تبارك وتعالي) :

يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران . .

(الرحمن :33 ـ 35)

وقبل ذلك لابد من استعراض الدلالات اللغوية لألفاظ تلك الآيات الكريمات وأقوال

المفسرين السابقين فيها .

الدلالة اللغوية

(1)(نفذ) : يقال في العربية :(نفذ) السهم في الرمية (نفوذا) و (نفاذا) , والمثقب في الخشب إذا خرق إلي الجهة الأخري , و (نفذ) فلان في الامر (ينفذ)(نفاذا) , و (أنفذه)(نفاذا) , و (نفذه)(تنفيذا) , وفي الحديث الشريف : نفذوا جيش اسامة ; والأمر (النافذ) أي المطاع , و (المنفذ) هو الممر (النافذ) , قال (تعالي) : إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان * بمعني أن تخرقوا السماوات والأرض من جهة أقطارها إلي الجهة الأخري .

(2)(أقطار) : قطر كل شكل وكل جسم الخط الواصل من أحد أطرافه إلي الطرف المقابل مرورا بمركزه .

قال (تعالي) : إن استطعتم ان تنفذوا من أقطار السماوات والأرض وقال (عز من قائل) : ولو دخلت عليهم من أقطارها . . (الاحزاب :14) ; ويقال في اللغة :(قطرته) بمعني ألقيته علي (قطره) , و (تقطر) أي وقع علي (قطره) , ومنه (قطر) المطر اي سقط في خطوط مستقيمة باتجاه مركز الأرض , ويسمي لذلك (قطرا) , وهو كذلك جمع (قطرة) , و (قطر) و (تقطير) الشئ تبخيره ثم تكثيفه قطرة قطرة من أجل تنقية الماء وغيره من السوائل تساقطه (قطرة)(قطرة) وجمعه (قطر) بضمتين و (قطرات) بضمتين أيضا , و

(قطره) غيره يتعدي ويلزم , و (تقاطر) القوم جاءوا أرسالا (كالقطر) , ومنه (قطار الإبل) و (القطر) بالضم الناحية

(33/740)

والجانب وجمعه (أقطار) ; و (قطران) الماء (تقاطره) قطرة قطرة و (القطران) ما يتقطر من الهناء (= القار) ; و (قطر) البعير طلاه (بالقطران) فهو (مقطور) أو (مقطرن) .

قال (تعالي) : سرابيلهم من قطران . . . (إبراهيم :50) أي من القار , وقرئ (من قطر آن) أي من نحاس منصهر قد أني (أي عظم) حره (أي زادت درجة حرارته) لأن (القطر) هو النحاس .

وقال ربنا (تبارك وتعالي) : . . . إتوني أفرغ عليه قطرا * (الكهف :96) أي نحاسا منصهرا .

(3) شواظ : (الشواظ) في العربية (بضم الشين وكسرها) اللهب الذي لادخان له .

(4) نحاس : الاصل في اللغة العربية أن النحاس هو اللهب بلادخان , والنحاس أيضا عنصر فلزي لونه يميل إلي الحمرة (بين القرمزي والبرتقالي) قابل للطرق والسحب , موصل

جيد لكل من الكهرباء والحرارة , ومقاوم للتآكل , وقد سمي بهذا الاسم لتشابه لونه مع لون النار بلا دخان .

قال (تعالي) : يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس . . *(الرحمن :35) .

و(النحس) ضد السعد , وقرئ في قوله تعالي :

. . . في يوم نحس مستمر *(القمر 19) .

علي الصفة , والإضافة أكثر وأجود . . . في يوم نحس مستمر * ويقال :(نحس) الشئ فهو (نحس) وفيه جاء قول ربنا (تبارك وتعالي) : فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات . . . . *(فصلت :16) وقرئ (نحسات) بالفتح أي مشؤومات , أو شديدات البرد وأصل النحس أن يحمر الافق فيصير كالنحاس أو كاللهب بلا دخان , فصار ذلك مثلا للشؤم .

أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالي) :

يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران * .

(الرحمن :33ـ35)

ذكر ابن كثير (يرحمه الله) : أي لا تستطيعون هربا من أمر الله

(34/740)

وقدره , بل هو محيط بكم لا تقدرون علي التخلص من حكمه , أينما ذهبتم أحيط بكم . . . . (إلا بسلطان) أي إلا بأمر الله . . . . ولهذا قال تعالي :(يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) قال ابن عباس : الشواظ هو لهب النار , وعنه : الشواظ الدخان , وقال مجاهد : هو اللهب الاخضر المنقطع , وقال الضحاك :(شواظ من نار) سيل من نار , وقوله تعالي :(ونحاس) قال ابن عباس : دخان النار , وقال ابن جرير : والعرب تسمي الدخان نحاسا , روي الطبراني عن الضحاك أن نافع ابن الازرق سأل ابن عباس عن الشواظ فقال : هو اللهب الذي لا دخان معه . . . قال : صدقت , فما النحاس ؟ قال : هو الدخان الذي لا لهب له وقال مجاهد : النحاس الصفر . . . .

وجاء في تفسير الجلالين ما نصه :(يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا) تخرجوا (من اقطار) نواحي (السماوات والأرض)[هاربين من الحشر والحساب والجزاء](فانفذوا) أمر تعجيز [أي : فلن تستطيعوا ذلك](لا تنفذون إلا بسلطان) بقوة , ولا قوة

لكم علي ذلك . . . (يرسل عليكما شواظ من نار) هو لهبها الخالص من الدخان أو : معه (ونحاس) أي : دخان لا لهب فيه [أو هو النحاس المذاب . . . .] .

وجاء في الظلال ما نصه : يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من اقطار السماوات والأرض فانفذوا . . . وكيف ؟ وأين ؟ لا تنفذون إلا بسلطان , ولا يملك السلطان الا صاحب السلطان . .

ومرة أخري يواجههما بالسؤال : فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ وهل بقي في كيانهما شئ يكذب أو يهم بمجرد النطق والبيان ؟

ولكن الحملة الساحقة تستمر إلي نهايتها , والتهديد الرعيب يلاحقهما , والمصير المردي يتمثل لهما : يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران . .

وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ما نصه : . . . . . (لا تنفذون إلا بسلطان) أي لا تقدرون علي الخروج من أمري وقضائي إلا بقوة قهر وانتم

(35/740)

بمعزل عن ذلك , (يرسل عليكما) يصب عليكما (شواظ من نار) لهب خالص من الدخان (ونحاس) أصفر مذاب , وقيل النحاس : الدخان الذي لا لهب فيه . اي انه

يرسل عليهما هذا مرة وهذا مرة .

وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم ما نصه : يا معشر الجن والإنس ان استطعتم ان تخرجوا من جوانب السماوات والأرض هاربين فاخرجوا , لا تستطيعون الخروج الا بقوة وقهر , ولن يكون لكم ذلك , فبأي نعمة من نعم ربكما تجحدان ؟ ! يصب عليكما لهب من نار ونحاس مذاب , فلا تقدران علي رفع هذا العذاب .

وجاء في تعليق هامشي ما يلي : ثبت حتي الآن ضخامة المجهودات والطاقات المطلوبة للنفاذ من نطاق جاذبية الارض , وحيث اقتضي النجاح الجزئي في ريادة الفضاء ـ لمدة محددة جدا بالنسبة لعظم الكون ـ بذل الكثير من الجهود العلمية الضخمة في شتي الميادين . . . فضلا عن التكاليف المادية الخيالية التي انفقت في ذلك ومازالت تنفق , ويدل ذلك دلالة قاطعة علي ان النفاذ المطلق من اقطار السماوات والأرض التي تبلغ ملايين السنين الضوئية لإنس أو جن مستحيل .

والنحاس هو فلز يعتبر من أول العناصر الفلزية التي عرفها الإنسان . . ويتميز بأن درجة انصهاره مرتفعة جدا نحو 1083 درجة مئوية) فإذا ما صب هذا السائل الملتهب علي جسد , مثل ذلك صنفا من اقسي انواع العذاب ألما وأشدها أثرا .

الدلالة العلمية لقول الحق (تبارك وتعالي) :

يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا

تنفذون إلا بسلطان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران *(الرحمن :33ـ35)

هذه الآيات الثلاث التي تحدي القرآن الكريم فيها كلا من الجن والإنسن تحديا صريحا بعجزهم عن النفاذ من أقطار السماوات والأرض , وهو تحد يظهر ضآلة قدراتهما مجتمعين أمام طلاقة القدرة الالهية في إبداع الكون , لضخامة أبعاده , ولقصر عمر

المخلوقات , وحتمية فنائها , والآيات بالإضافة إلي ذلك تحوي عددا من الحقائق الكونية المبهرة التي لم يستطع الإنسان إدراكها إلا في العقود القليلة المتأخرة من القرن العشرين , والتي يمكن إيجازها في النقاط التالية :

أولا : بالنسبة للنفاذ من أقطار الأرض :

إذا كان المقصود من هذه الآيات الكريمة إشعار كل من الجن والإنس بعجزهما عن النفاذ من اقطار كل من الأرض علي حدة , والسماوات علي حدة , فإن المعارف الحديثة تؤكد ذلك , لأن اقطار الأرض تتراوح بين (12756) كيلو مترا بالنسبة إلي متوسط قطرها الاستوائي ,(12713) كيلو مترا بالنسبة إلي متوسط قطرها القطبي , وذلك لأن الارض

ليست تامة الاستدارة لانبعاجها قليلا عند خط الاستواء , وتفلطحها قليلا عند القطبين

.

ويستحيل علي الإنسان اختراق الارض من أقطارها لارتفاع كل من الضغط والحرارة باستمرار في اتجاه المركز مما لا تطيقه القدرة البشرية , ولا التقنيات المتقدمة التي حققها إنسان هذا العصر , فعلي الرغم من التطور المذهل في تقنيات حفر الآبار العميقة التي طورها الإنسان بحثا عن النفط والغاز الطبيعي فإن هذه الاجهزة العملاقة لم تستطع حتي اليوم تجاوز عمق 14 كيلو مترا من الغلاف الصخري للارض , وهذا يمثل 0,2 تقريبا من طول نصف قطر الأرض الاستوائي , وعند هذا العمق تعجز ادوات الحفر عن الاستمرار في عملها لتزايد الضغط وللارتفاع الكبير في درجات الحرارة إلي درجة قد تؤدي إلي صهر تلك الادوات , فمن الثابت علميا ان درجة الحرارة تزداد باستمرار من سطح الارض في اتجاه مركزها حتي تصل إلي ما يقرب من درجة حرارة سطح الشمس المقدرة بستة آلاف درجة مئوية حسب بعض التقديرات , ومن هنا كان عجز الإنسان عن الوصول إلي تلك المناطق الفائقة الحرارة والضغط , وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالي) مخاطبا الإنسان : ولا تمش في الارض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا * .

(الإسراء :37)

ولو أن الجن عالم غيبي بالنسبة لنا , إلا أن ما ينطبق علي الإنس من عجز تام عن النفاذ من اقطار السماوات والأرض ينطبق عليهم .

والآيات الكريمة قد جاءت في مقام التشبيه بأن كلا من الجن والإنس لا يستطيع الهروب من قدر الله أو الفرار من قضائه , بالهروب إلي خارج الكون عبر اقطار السماوات والارض حيث لا يدري أحد ماذا بعد ذلك , الا ان العلوم المكتسبة قد اثبتت بالفعل عجز الإنسان عجزا كاملا عن ذلك , والقرآن الكريم يؤكد لنا اعتراف الجن بعجزهم الكامل عن ذلك أيضا , كما جاء في قول الحق (تبارك وتعالي) علي لسان الجن :

وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الارض ولن نعجزه هربا *(الجن :12) وذلك بعد أن قالوا :

وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا * . (الجن :8)

ثانيا : بالنسبة للنفاذ من أقطار السماوات :

تبلغ أبعاد الجزء المدرك من السماء الدنيا من الضخامة ما لا يمكن أن تطويها قدرات كل من الإنس والجن , مما يشعر كلا منهما بضآلته أمام أبعاد الكون , وبعجزه التام عن مجرد التفكير في الهروب منه . . . أو النفاذ إلي المجهول من بعده . . . ! ! !

فمجرتنا (سكة التبانة) يقدر قطرها الأكبر بمائة ألف سنة ضوئية (100.000*9.5 مليون مليون كيلو متر تقريبا) , ويقدر قطرها الأصغر بعشرة آلاف سنة ضوئية (10.000*9.5 مليون مليون كيلو متر تقريبا) , ومعني ذلك أن الإنسان لكي يتمكن من الخروج من مجرتنا عبر قطرها الأصغر يحتاج إلي وسيلة تحركه بسرعة الضوء (وهذا مستحيل) ليستخدمها في حركة مستمرة لمدة تصل إلي عشرة آلاف سنة من سنيننا , وبطاقة انفلات خيالية لتخرجه من نطاق جاذبية الأجرام التي يمر بها من مكونات تلك المجرة , وهذه كلها من المستحيلات بالنسبة للإنسان الذي لا يتجاوز عمره في المتوسط خمسين سنة , ولم تتجاوز حركته في السماء ثانية ضوئية واحدة وربع الثانية فقط , وهي المسافة بين

(38/740)

الأرض والقمر , علي الرغم من التقدم التقني المذهل الذي حققه في ريادة السماء .

ومجموعتنا الشمسية تقع من مجرتنا علي بعد ثلاثين ألفا من السنين الضوئية من مركزها , وعشرين ألفا من السنين الضوئية من أقرب أطرافها , فإذا حاول الإنسان الخروج من أقرب الأقطار إلي الأرض فإنه يحتاج إلي عشرين ألف سنة وهو يتحرك بسرعة الضوء لكي يخرج

من أقطار مجرتنا وهل يطيق الإنسان ذلك ؟ أو هل يمكن أن يحيا إنسان لمثل تلك المدد المتطاولة ؟ وهل يستطيع الإنسان أن يتحرك بسرعة الضوء ؟ كل هذه حواجز تحول دون إمكان ذلك بالنسبة للإنسان , وما ينطبق عليه ينطبق علي عالم الجان . . . ! ! !

ومجرتنا جزء من مجموعة من المجرات تعرف باسم المجموعة المحلية يقدر قطرها بنحو ثلاثة ملايين وربع المليون من السنين الضوئية (3.261.500) سنة ضوئية , وهذه بدورها تشكل جزءا من حشد مجري يقدر قطره بأكثر من ستة ملايين ونصف المليون من السنين الضوئية (6.523.000) سنة ضوئية , وهذا الحشد المجري يكون جزءا من الحشد المجري الأعظم ويقدر قطره الأكبر بمائة مليون من السنين الضوئية وسمكه بعشرة ملايين من السنين الضوئية .

وتبدو الحشود المجرية العظمي علي هيئة كروية تدرس في شرائح مقطعية تقدر أبعادها في حدود 150*100*15 سنة ضوئية , وأكبر تلك الشرائح ويسميها الفلكيون مجازا باسم الحائط العظيم يزيد طولها علي مائتين وخمسين مليونا من السنين الضوئية .

وقد تم أخيرا اكتشاف نحو مائة من الحشود المجرية العظمي تكون تجمعا أعظم علي هيئة قرص يبلغ قطره الأكبر بليونين من السنين الضوئية .

والجزء المدرك من الكون وهو يمثل جزءا يسيرا من السماء الدنيا التي زينها ربنا (تبارك وتعالي) بالنجوم وقال (عز من قائل) : ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما

للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير

(الملك :5) .

هذا الجزء المدرك من السماء الدنيا يزيد قطره علي العشرين بليون سنة

(39/740)

ضوئية , وهي حقائق تجعل الإنسان بكل إنجازاته العلمية يتضاءل تضاؤلا شديدا أمام أبعاد الكون المذهلة , وكذلك الجان , وكلاهما أقل من مجرد التفكير في إمكان الهروب من ملك الله الذي لا ملجأ ولا منجي منه إلا إليه . . . ! ! !

ثالثا : بالنسبة للنفاذ من أقطار السماوات والأرض معا :

تشير الآيات الكريمة إلي أن التحدي الذي تجابه به الجن والإنس هو النفاذ من أقطار السماوات والأرض معا إن استطاعوا , وثبت عجزهما عن النفاذ من أقطار أي منهما , وعجزهما أشد إذا كانت المطالبة بالنفاذ من أقطارهما معا , إذا كان هذا هو مقصود الآيات الكريمة , فإنه يمكن أن يشير إلي معني في غاية الأهمية ألا وهو توسط الأرض للكون ; وهو معني لا تستطيع علوم الفلك إثباته لعجز الإنسان عن الإحاطة بأبعاد الكون , ولكن يدعم هذا الاستنتاج ما رواه كل من قتادة والسدي أن رسول الله (صلي الله عليه وسلم)

قال يوما لأصحابه : هل تدرون ما البيت المعمور ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال (صلي الله عليه وسلم) : فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة لو خر لخر عليها , يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم .

وتوسط الأرض للكون معني حارت فيه عقول العلماء والمفكرين عبر التاريخ . وعجزت العلوم المكتسبة والتقنيات الفائقة عن إثباته , ولكن ما جاء في هذه الآيات الكريمة , وفي هذا الحديث النبوي الشريف يشير إليه , ويجعل المنطق السوي يقبله .

رابعا : بالنسبة إلي إرسال شواظ من نار ونحاس علي كل من يحاول النفاذ من أقطار السماوات والأرض بغير سلطان من الله تعالي :

في الآية رقم 35 من سورة الرحمن يخاطب ربنا (تبارك وتعالي) كلا من الجن والإنس بقوله عز من قائل :

يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران وقد أجمع قدامي المفسرين ومحدثوهم علي أن لفظة شواظ هنا تعني اللهب الذي لا دخان له . وكلمة نحاس تعني الدخان الذي

لا لهب فيه أو تعني فلز النحاس الذي نعرفه جميعا وهو فلز معروف بدرجة انصهاره العالية (1083 م) ودرجة غليانه الأعلي (2567 م) .

ومن الثابت علميا أن العناصر المعروفة لنا تتخلق في داخل النجوم بعملية الاندماج النووي لنوي ذرات الهيدروجين فينتج عن ذلك نوي ذرات العناصر الأثقل بالتدريج حتي يتحول لب النجم إلي حديد .

والتفاعل النووي قبل تكون ذرات الحديد هو تفاعل منتج للحرارة التي تصل إلي بلايين الدرجات المئوية , ولكن عملية الاندماج النووي المنتجة للحديد عملية مستهلكة للحرارة وبالتالي لطاقة النجم حتي تضطره إلي الانفجار مما يؤدي إلي تناثر العناصر التي تكونت بداخله بما فيها الحديد في صفحة السماء لتدخل هذه العناصر في مجال جاذبية أجرام تحتاج إليها بتقدير من الله تعالي . أما العناصر ذات النوي الأثقل من ذرة الحديد فتتخلق بإضافة اللبنات الأولية للمادة إلي نوي ذرات الحديد السابحة في صفحة السماء حتي تتكون بقية المائة وخمسة من العناصر المعروفة لنا , وهذه أيضا تنزل إلي جميع أجرام السماء بقدر معلوم . ولما كان عنصر النحاس أعلي من الحديد في كل من وزنه وعدده الذري (الوزن الذري لنظائر الحديد 57,56,54 والوزن الذري للنحاس 63.546 والعدد الذري للحديد 26 بينما العدد الذري للنحاس 29) , وبناء علي ذلك فإن عنصر النحاس يتخلق في صفحة السماء الدنيا باندماج نوي ذرات الحديد مع بعض

اللبنات الأولية للمادة , وهذا يجعل صفحة السماء الدنيا زاخرة بذرات العناصر الثقيلة ومنها النحاس .

هذه الملاحظة تشير إلي أن لفظة نحاس في الآية الكريمة تعني فلز النحاس , لأن التأويل هنا لا داعي له علي الإطلاق , فالنحاس وهو منصهر وتغلي قطراته في صفحة السماء يعد عقابا رادعا لكل محاولة إنسية أو جنية لاختراق أقطار السماوات والأرض .

وقد اتصل بي أخ كريم هو الدكتور عبد الله الشهابي وأخبرني بأنه زار معرض الفضاء والطيران في مدينة

(41/740)

واشنجطن دي سي الذي يعرض نماذج الطائرات من بداياتها الأولي إلي أحدثها , كما يعرض نماذج لمركبات الفضاء , وفي المعرض شاهد قطاعا عرضيا في كبسولة أبو اللو وأذهله أن يري علي سطحها خطوطا طولية عديدة غائرة في جسم الكبسولة ومليئة بكربونات النحاس (جنزار النحاس) , وقد لفتت هذه الملاحظة نظره فذهب إلي المسئول العلمي عن تلك الصالة وسأله : هل السبيكة التي صنعت منها الكبسولة يدخلفيها عنصر النحاس ؟ فنفي ذلك نفيا قاطعا , فأشار إلي جنزار النحاس علي جسم الكبسولة وسأله

: من أين جاء هذا ؟ فقال له : من نوي ذرات النحاس المنتشرة في صفحة السماء التي تضرب جسم الكبسولة طوال حركتها صعودا وهبوطا من السماء , وحينما تعود إلي الأرض وتمر بطبقات بها الرطوبة وثاني أكسيد الكربون فإن هذه الذرات النحاسية التي لصقت بجسم الكبسولة تتحول بالتدريج إلي جنزار النحاس . ويقول الدكتور الشهابي إنه علي الفور تراءت أمام أنظاره الآية القرآنية الكريمة التي يقول فيها ربنا تبارك وتعالي : يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلاتنتصران .

هذه الملاحظة أكدت لي ما ناديتبه طويلا بأن لفظة نحاس في الآية تعني فلز النحاس ولاتحتاج إلي أدني تأويل . فسبحان الذي أنزل هذه الآيات الكريمة من قبل 1400 من السنين وحفظها لنا في كتابه الكريم علي مدي 14 قرنا أو يزيد لتظهر في زماننا زمان رحلات الفضاء برهانا ماديا ملموسا علي أن هذا القرآن الكريم هو كلام الله الخالق وأن النبي الخاتم الذي تلقاه (صلي الله عليه وسلم) كان موصولا بالوحي ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (39) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (40) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (41) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (42) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (44) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (45) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا مما لم تجر عادة بعمومه وإن استطردت بجريانه منه في أشياء منه في أماكن متفرقة كأشخاص كثيرة ، بين لهم وقته بقوله : ﴿ فإذا ﴾ أي فيتسبب عن هذا الإرسال إنه إذا ﴿ انشقت السماء ﴾ من هوله وعظمته فكانت أبواباً لنزول الملائكة وغيرهم ، وغير ذلك من آيات الله ﴿ فكانت ﴾ لما يصيبها من الحر ﴿ وردة ﴾ أي حمراء مشرقة من شدة لهيبه ، وقال البغوي : كلون الفرس الورد وهو الأبيض الذي يضرب إلى حمرة وصفرة . ﴿ كالدهان ﴾ أي ذائبة صافية كالشيء الذي يدهن به أو كالأديم الأحمر والمكان الزلق ، وآية ذلك في الدنيا الشفقان عند الطلوع وعند الغروب ، وجواب ﴿ إذا ﴾ محذوف تقديره : علمتم ذلك علماً شهودياً أو فما أعظم الهول حينئذ ونحو ذا أن يكون الجواب شيئاً

دلت عليه الآيات الآتية نحو : فلا يسأل أحد إذ ذاك عن ذنبه ، وحذفه أفخم ليذهب الوهم فيه كل مذهب .

ولما كان حفظ السماء عن مثل ذلك بتأخير إرسال هذا وغيره من الأسباب وجعلها محل الروح والحياة والرزق من أعظم الفواضل قال مسبباً عنه : ﴿ فبأيِّ آلاء ربكما ﴾ أي المربي لكما هذا التدبير المتقن ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة السمع من تحت أو غيرها وليس شيء بما أخبرتكم به من أحوال الآخرة إلا قد أقمت لكم في الدنيا ما تهتدون به إلى العلم بكونه .

(43/740)

ولما كان يوم القيامة ذا ألوان كثيرة ومواقف مهولة طويلة شهيرة تكون في كل منها شؤون عظيمة وأمور كبيرة ، ذكر بعض ما سببه هذا الوقت من التعريف بالعاصي والطائع بآيات جعلها الله سبباً في علمها فقال : ﴿ فيومئذ ﴾ أي فسبب عن يوم انشقت السماء لأنه ﴿ لا يسئل ﴾ سؤال تعرف واستعلام بل سؤال تقريع وتوبيخ وكلام ، وذلك أنه لا يقال له : هل فعلت كذا ؟ بل يقال له : لم فعلت كذا ، على أنه ذلك اليوم طويل ، وهو ذو ألوان تارة يسأل فيه وتارة لا يسأل ، والأمر في غاية الشدة ، وكل لون من تلك الألوان يسمى يوماً ، فقد

مضى في الفاتحة أن اليوم عبارة عن وقت يمتد إلى انقضاء أمر مقدر فيه ظاهر من ليل أو نهار أو غيرهما لقوله تعالى ﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ [القيامة : 30] أي يوم إذا بلغت الروح التراقي وهو لا يختص بليل ولا نهار ، وبناه للمفعول تعظيماً للأمر بالإشارة إلى أن شأن المعترف بالذنب لا يكون خاصاً بعهد دون عهد بل يعرفه كل من أراد علمه ، وأضمر قبل الذكر لما هو مقدم في الرتبة ليفهم الاختصاص فوجد الضمير لأجل اللفظ فقال : ﴿ عن ذنبه ﴾ أي خاصة وقد سئل المحسن عن حسنته سؤال تشريف له وتنديم لمن دونه .

ولما كان الإنس أعظم مقصود بهذا ، ولهذا كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهم ، وكان التعريف بالشاهد المألوف أعظم في التعريف ، وكان علم أحوال الشيء الظاهر أسهل ، قدمهم فقال : ﴿ إنس ﴾ ولما كان لا يلزم من علم أحوال الظاهر علم أحوال الخفي ، بين أن الكل عليه سبحانه هين فقال : ﴿ ولا جان ﴾ ولما كان هذا التمييز من أجل النعم لئلا يؤدي الالتباس إلى ترويع بعض المطيعين عاملاً أو نكاية بالسؤال عنه قال : ﴿ فبأيِّ آلاء ربكما ﴾ أي الذي ربى كلاًّ منكم بما لا مطمع في إنكاره ولا خفاء فيه ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة الشم من الأمام أم من غيرها .

(44/740)

ولما كان الكلام عاماً عرف انه خاص بتعرف المجرم من غيره دون التعزير بالذنب أو غيره من الأحوال فقال معللاً لعدم السؤال : ﴿ يعرف ﴾ أي لكل أحد ﴿ المجرمون ﴾ أي العريقون في هذا الوصف ﴿ بسيماهم ﴾ أي العلامات التي صور الله ذنوبهم فيها فجعلها ظاهرة بعد أن كانت باطنة ، وظاهرة الدلالة عليهم كما يعرف أن الليل إذا جاء لا يخفى على أحد أصلاً وكذلك النهار ونحوهما لغير الأعمى ، وتلك السيما – والله أعلم – زرقة العيون وسواد الوجوه والعمى والصمم والمشي على الوجوه ونحو ذلك ، وكما يعرف المحسنون بسيماهم من بياض الوجوه وإشراقها وتبسمها ، والغرة والتحجيل ونحو ذلك ، وسبب عن هذه المعرفة قوله مشيراً بالبناء للمفعول إلى سهولة الأخذ من أي آخذ كان ﴿ فيؤخذ بالنواصي ﴾ أي منهم وهي مقدمات الرؤوس ﴿ والأقدام ﴾ بعد أن يجمع بينهما كما أنهم كانوا هم يجمعون ما أمر الله به أن يفرق ، ويفرقون ما أمر الله به أن يجمع ، فيسحبون بها سحباً من كل ساحب أقامه الله لذلك لا يقدرون على الامتناع بوجه فيلقون في النار .

ولما كان ذلك نعمة لا يقام بشكرها لكل من يسمعها لأن كل أحد ينتفي من الإجرام ويود للمجرمين عظيم الانتقام ، سبب عنه قوله : ﴿ فبأيِّ آلاء ربكما ﴾ أي النعم الكبار من الذي دبر مصالحكم بعد أن أوجدكم ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة الشم من الوراء أم بغيرها مما يجب أن يفعل من الجزاء في الآخرة لكل شخص بما كان يعمل في الدنيا أو غير ذلك من الفضل .

ولما كان أخذهم على هذا الوجه مؤذناً بأنه يصير إلى خزي عظيم ، صرح به في قوله ، بانياً على ما هدى إليه السياق من نحو : أخذاً مقولاً فيه عند وصولهم إلى محل النكال على الحال التي ذكرت من الأخذ بنواصيهم وأقدامهم ، ﴿ هذه ﴾ أي الحفرة العظيمة الكريهة المنظر " القريبة منكم " الملازمة للقرب لكم ﴿ جهنم التي يكذب ﴾ أي ماضياً وحالاً ومآلاً استهانة ﴿ ولو ردوا ﴾ [الأنعام : 28] - إلى الدنيا - بعد إدخالهم إياها - ﴿ لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : 28] ﴿ بها المجرمون ﴾ أي العريقون في الإجرام ، وهو قطع ما من حقه أن يوصل وهو ما أمر الله به ، وخص هذا الاسم إشارة إلى أنها تلقاهم بالتجهم والعبوسة والكلاحة والفظاظة كما كانوا يفعلون مع الصالحين عند الإجرام المذكور ، قال ابن برجان : وقرأ عبد الله " هذه جهنم التي كنتم بها تكذبان فتصليانها لا تموتان فيها ولا تحييان " ثم استأنف ما يفعل بهم فيها فقال : ﴿ يطوفون بينها ﴾ أي بين دركة النار التي تتجهمهم ﴿ وبين حميم ﴾ أي ماء حار هو من شدة حرارته ذو دخان .

ولما كان هذا الاسم يطلق على البارد ، بين أمره فقال : ﴿ آن ﴾ أي بالغ حره إلى غاية ليس وراءها غاية ، قال الرازي في اللوامع : وقيل : حاضر ، وبه سمي الحال بالآن لأنه الحاضر

الموجود ، فإن الماضي لا تدارك له والمستقبل أمل وليس لنا إلا الآن ، ثم " الآن " ليس بثابت طرفة عين ، لأن الآن هو الجزء المشترك بين زمانين ، فهم دائماً يترددون بين عذابي النار المذيبة للظاهر والماء المقطع بحره للباطن لا يزال حاضراً لهم تردد الطائف الذي لا أول لتردده ولا آخر .

(46/740)

ولما كانت عذاب المجرم – القاطع لما من شأنه أن يكون متصلاً – من أكبر النعم وأسرها لكل أحد حتى لمن سواه من المجرمين ، سبب قوله : ﴿ فبأي آلاء ربكما ﴾ أي المحسن إليكما أيها الثقلان بإهلاك المجرم في الدارين وإنجاء المسلم مما أهلك به المجرم لطفاً بالمهددين ليرتدعوا وينزجروا عما يكون سبب إهلاكهم هم ومن والاهم ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة الشم من اليمين أمن من غيرها مما أراكم من آياته ، وظاهر عليكم من بيناته ، في السماوات والأرض ، وما أراكم من مطالع الدنيا من الشمس التي هي آية النهار والقمر الذي هو آية الزمهرير ، وغير ذلك من آياته المحكمة المرئية المسموعة ، وقد كررت هذه الآية عقب ذكر النار وأهوالها سبع مرات تنبيهاً على استدفاع أبوابها السبعة كما مضى – والله المستعان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 390.392 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) ﴾

إشارة إلى ما هو أعظم من إرسال الشواظ على الإنس والجن ، فكأنه تعالى ذكر أولاً ما يخاف منه الإنسان ، ثم ذكر ما يخاف منه كل واحد ممن له إدراك من الجن والإنس والملك حيث تخلوا أماكنهم بالشق ومساكن الجن والإنس بالخراب ، ويحتمل أن يقال : إنه تعالى لما قال : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن : 26] إشارة إلى سكان الأرض ، قال بعد ذلك : ﴿ فَإِذَا انشقت السماء ﴾ بياناً لحال سكان السماء ، وفيه مسائل .

المسألة الأولى :

الفاء في الأصل للتعقيب على وجوه ثلاثة منها : التعقيب الزماني للشيئين اللذين لا يتعلق أحدهما بالآخر عقلاً كقوله قعد زيد فقام عمرو ، لمن سألك عن قعود زيد وقيام عمر ، وإنهما كانا معاً أو متعاقبين ومنها : التعقيب الذهني للذين يتعلق أحدهما بالآخر كقولك : جاء زيد فقام عمرو إكراماً له إذ يكون في مثل هذا قيام عمرو مع مجيء زيد زماناً ومنها : التعقيب في القول كقولك : لا أخاف الأمير فالملك فالسلطان ، كأنك تقول : أقول لا أخاف الأمير ، وأقول لا أخاف الملك ، وأقول لا أخاف السلطان ، إذا عرفت هذا فالفاء هنا تحتمل الأوجه جميعاً ، أما الأول : فلأن إرسال الشواظ عليهم يكون قبل انشقاق السموات ، ويكون ذلك الإرسال إشارة إلى عذاب القبر ، وإلى ما يكون عند سوق المجرمين إلى المحشر ، إذ ورد في التفسير أن الشواظ يسوقهم إلى المحشر ، فيهربون منها إلى أن يجتمعوا في موضع واحد ، وعلى هذا معناه يرسل عليكما شواظ ، فإذا انشقت السماء يكون العذاب الأليم ، والحساب الشديد على ما سنبين إن شاء الله وأما الثاني : فوجهه أن يقال : يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فيكون ذلك سبباً لكون السماء تكون حمراء ، إشارة إلى أن لهيبها يصل إلى السماء ويجعلها كالحديد المذاب الأحمر ، وأما الثالث : فوجهه أن يقال : لما قال : ﴿ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ﴾ [الرحمن : 35] أي في وقت إرسال الشواظ عليكما قال : فإذا انشقت السماء وصارت كالمهل ، وهو كالطين الذائب ، كيف تنتصران ؟ إشارة إلى أن الشواظ المرسل لهب واحد ، أو فإذا انشقت السماء وذابت ،

وصارت الأرض والجو والسماء كلها ناراً فكيف تنتصران ؟ .

المسألة الثانية :

(49/740)

كلمة (إذا) قد تستعمل لمجرد الظرف وقد تستعمل للشرط وقد تستعمل للمفاجأة وإن كانت في أوجهها ظرفاً لكن بينها فرق فالأول : مثل قوله تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى ﴾ [الليل : 1 ، 2] والثاني : مثل قوله : إذا أكرمتني أكرمك ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ [آل عمران : 159] وفي الأول لا بد وأن يكون الفعل في الوقت المذكور متصلاً به وفي الثاني لا يلزم ذلك ، فإنك إذا قلت : إذا علمتني تثاب يكون الثواب بعده زماناً لكن استحقاقه يثبت في ذلك الوقت متصلاً به والثالث : مثال ما يقول : خرجت فإذا قد أقبل الركب أما لو قال : خرجت إذا أقبل الركب فهو في جواب من يقول متى خرجت إذا عرفت هذا فنقول : على أي وجه استعمل (إذا) ههنا ؟ نقول : يحتمل وجهين أحدهما : الظرفية المجردة على أن الفاء للتعقيب الزماني ، فإن قوله : ﴿ فإذا انشقت السماء ﴾ بيان لوقت العذاب ، كأنه قال : إذا انشقت السماء يكون العذاب أي بعد إرسال الشواظ ، وعند انشقاق السماء يكون وثانيهما : الشرطية

وذلك على الوجه الثالث وهو قولنا : ﴿ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ﴾ عند إرسال الشواظ فكيف تنتصران إذا انشقت السماء ، كأنه قال : إذا انشقت السماء فلا تتوقعوا الانتصار أصلاً ، وأما الحمل على المفاجأة على أن يقال : يرسل عليكما شواظ فإذا السماء قد انشقت ، فبعيد ولا يحمل ذلك إلا على الوجه الثاني من أن الفاء للتعقيب الذهني .

المسألة الثالثة :

(50/740)

ما المختار من الأوجه ؟ نقول : الشرطية وحينئذ له وجهان أحدهما : أن يكون الجزاء محذوفاً رأساً ليفرض السامع بعده كل هائل ، كما يقول القائل : إذا غضب السلطان على فلان لا يدري أحد ماذا يفعله ، ثم ربما يسكت عند قوله إذا غضب السلطان متعجباً آتياً بقرينة دالة على تهويل الأمر ، ليذهب السامع مع كل مذهب ، ويقول : كأنه إذا غضب السلطان يقتل ويقول الآخر : إذا غضب السلطان ينهب ويقول الآخر غير ذلك وثانيهما : ما بينا من بيان عدم الانتصار ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام ﴾ إلى أن قال تعالى : ﴿ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكافرين عَسِيراً ﴾ [الفرقان : 25 ، 26] فكأنه تعالى قال : إذا أرسل عليهم شواظ من نار ونحاس فلا ينتصران ، فإذا انشقت السماء كيف

ينتصران ؟ فيكون الأمر عسيراً ، فيكون كأنه قال : فإذا انشقت السماء يكون الأمر عسيراً في غاية العسر ، ويحتمل أن يقال : فإذا انشقت السماء يلقى المرء فعله ويحاسب حسابه كما قال تعالى : ﴿ إذَا السماء انشقت ﴾ [الانشقاق : 1] إلى أن قال : ﴿ يا أَيُّهَا الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً فملاقيه ﴾ [الانشقاق : 6] الآية .

المسألة الرابعة :

ما المعنى من الانشقاق ؟ نقول : حقيقته ذوبانها وخرابها كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السماء ﴾ [الانبياء : 104] إشارة إلى خرابها ويحتمل أن يقال : انشقت بالغمام كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام ﴾ [الفرقان : 25] وفيه وجوه منها أن قوله : ﴿ بالغمام ﴾ أي مع الغمام فيكون مثل ما ذكرنا ههنا من الانفطار والخراب .

المسألة الخامسة :

ما معنى قوله تعالى : ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كالدهان ﴾ ؟ نقول : المشهور أنها في الحال تكون حمراء يقال : فرس ورد إذا أثبت للفرس الحمرة ، وحجرة وردة أي حمراء اللون .

(51/740)

وقد ذكرنا أن لهيب النار يرتفع في السماء فتذوب فتكون كالصفر الذائب حمراء ، ويحتمل وجهاً آخر وهو أن يقال : وردة للمرة من الورود كالركعة والسجدة والجلسة والقعدة من الركوع والسجود والجلوس والقعود ، وحينئذ الضمير في كانت كما في قوله :

﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ [ياس : 53] أي الكائنة أو الداهية وأنث الضمير لتأنيث الظاهر وإن كان شيئاً مذكراً ، فكذا ههنا قال : ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ واحدة أي الحركة التي بها الانشقاق كانت وردة واحدة ، وتزلزل الكل وخرب دفعة ، والحركة معلومة بالانشقاق لأن المنشق يتحرك ، ويتزلزل ، وقوله تعالى : ﴿ كالدهان ﴾ فيه وجهان أحدهما : جمع دهن وثانيهما : أن الدهان هو الأديم الأحمر ، فإن قيل : الأديم الأحمر مناسب للوردة فيكون معناه كانت السماء كالأديم الأحمر ، ولكن ما المناسبة بين الوردة وبين الدهان ؟ نقول : الجواب عنه من وجوه الأول : المراد من الدهان ما هو المراد من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السماء كالمهل ﴾ [المعارج : 8] وهو عكر الزيت وبينهما مناسبة ، فإن الورد يطلق على الأسد فيقال : أسد ورد ، فليس الورد هو الأحمر القاني والثاني : أن التشبيه بالدهن ليس في اللون بل في الذوبان والثالث : هو أن الدهن المذاب ينصب انصبابة واحدة ويذوب دفعة والحديد والرصاص لا يذوب غاية الذوبان ، فتكون حركة الدهن بعد الذوبان أسرع من حركة غيره فكأنه قال حركتها تكون وردة واحدة كالدهان المصبوبة صباً لا كالرصاص الذي يذوب منه ألطفه وينتفع به ويبقي الباقي ، وكذلك

الحديد والنحاس ، وجمع الدهان لعظمة السماء وكثرة ما يحصل من ذوبانها لاختلاف أجزائها ، فإن الكواكب تخالف غيرها .

فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (39) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (40)

(52/740)

وفيه وجهان أحدهما : لا يسأله أحد عن ذنبه ، فلا يقال : له أنت المذنب أو غيرك ، ولا يقال : من المذنب منكم بل يعرفونه بسواد وجوههم وغيره ، وعلى هذا فالضمير في ذنبه عائد إلى مضمر مفسر بما بعده ، وتقديره لا يسأل إنس عن ذنبه ولا جان يسأل ، أي عن ذنبه وثانيهما : معناه قريب من المعنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام : 164] كأنه يقول : لا يسأل عن ذنبه مذنب إنس ولا جان وفيه إشكال لفظي ، لأن الضمير في ذنبه إن عاد إلى أمر قبله يلزم استحالة ما ذكرت من المعنى بل يلزم فساد المعنى رأساً لأنك إذا قلت : لا يسأل مسؤول واحد أو إنسي مثلاً عن ذنبه فقولك بعد إنس ولا جان ، يقتضي تعلق فعل بفاعلين وأنه محال ، والجواب عنه من وجهين أحدهما : أن لا يفرض عائداً وإنما يجعل بمعنى المظهر لا غير ويجعل عن ذنبه كأنه قال : عن ذنب مذنب ثانيهما : وهو أدق وبالقبول أحق أن يجعل ما يعود إليه الضمير قبل الفعل فيقال : تقديره

فالمذنب يومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ، وفيه مسائل لفظية ومعنوية :

المسألة الأولى :

اللفظية الفاء للتعذيب وأنه يحتمل أن يكون زمانياً كأنه يقول : فإذا انشقت السماء يقع العذاب ، فيوم وقوعه لا يسأل ، وبين الأحوال فاصل زماني غير متراخ ، ويحتمل أن يكون عقلياً كأنه يقول : يقع العذاب فلا يتأخر تعلقه بهم مقدار ما يسألون عن ذنبهم ، ويحتمل أن يكون أراد الترتيب الكلامي كأنه يقول : تهربون بالخروج من أقطار السموات ، وأقول لا تمتنعون عند انشقاق السماء ، فأقول : لا تمهلون مقدار ما تسألون .

المسألة الثانية :

(53/740)

ما المراد من السؤال ؟ نقول : المشهور ما ذكرنا أنهم لا يقال لهم : من المذنب منكم ، وهو على هذا سؤال استعلام ، وعلى الوجه الثاني سؤال توبيخ أي لا يقال له : لم أذنب المذنب ، ويحتمل أن يكون سؤال موهبة وشفاعة كما يقول القائل : أسألك ذنب فلان ، أي أطلب منك عفوه ، فإن قيل : هذا فاسد من وجوه أحدها : أن السؤال إذا عدى بعن لا يكون إلا بمعنى الاستعلام أو التوبيخ وإذا كان بمعنى لاستعطاء يعدى بنفسه إلى مفعولين فيقال :

نسألك العفو والعافية ثانيها : الكلام لا يحتمل تقديراً ولا يمكن تقديره بحيث يطابق الكلام ، لأن المعنى يصير كأنه يقول : لا يسأل واحد ذنب أحد بل أحد لا يسأل ذنب نفسه ثالثها : قوله : ﴿يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم﴾ [الرحمن : 41] لا يناسب ذلك نقول : أما الجواب عن الأول فهو أن السؤال ربما يتعدى إلى مفعولين غير أنه عند الاستعلام يحذف الثاني ويؤتى بما يتعلق به يقال : سألته عن كذا أي سألته الإخبار عن كذا فيحذف الإخبار ويكتفي بما يدل عليه ، وهو الجار والمجرور فيكون المعنى طلبت منه أن يخبرني عن كذا وعن الثاني : أن التقدير لا يسأل إنس ذنبه ولا جان ، والضمير يكون عائداً إلى المضمر لفظاً لا معنى ، كما نقول : قتلوا أنفسهم ، فالضمير في أنفسهم عائد إلى ما في قولك : قتلوا لفظاً لا معنى لأن ما في قتلوا ضمير الفاعل ، وفي أنفسهم ضمير المفعول ، إذ الواحد لا يقتل نفسه وإنما المراد كل واحد قتل واحداً غيره ، فكذلك (كل) إنس لا يسأل (عن) ذنبه أي ذنب إنس غيره ، ومعنى الكلام لا يقال : لأحد اعف عن فلان ، لبيان أن لا مسئول في ذلك الوقت من الإنس والجن ، وإنما كلهم سائلون الله والله تعالى حينئذ هو المسئول .

(54/740)

وأما المعنوية فالأولى : كيف الجمع بين هذا وبين قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 92] وبينه وبين قوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات : 24] نقول : على الوجه المشهور جوابان أحدهما : أن للآخرة مواطن . فلا يسأل في موطن ، ويسأل في موطن وثانيهما : وهو أحسن لا يسأل عن فعله أحد منكم ، ولكن يسأل بقوله : لم فعل الفاعل فلا يسأل سؤال استعلام ، بل يسأل سؤال توبيخ ، وأما على الوجه الثاني فلا يرد السؤال ، فلا حاجة إلى بيان الجمع .

والثانية : ما الفائدة في بيان عدم السؤال ؟ نقول : على الوجه المشهور فائدته التوبيخ لهم كقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس : 40 ، 41] وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ ﴾ [آل عمران : 106] وعلى الثاني بيان أن لا يؤخذ منهم فدية ، فيكون ترتيب الآيات أحسن ، لأن فيها حينئذ بيان أن لا مفر لهم بقوله : ﴿ إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ ﴾ [الرحمن : 33] ثم بيان أن لا مانع عنهم بقوله : ﴿ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ﴾ [الرحمن : 35] ثم بيان أن لا فداء لهم عنهم بقوله : لا يسأل ، وعلى الوجه الأخير ، بيان أن لا شفيع لهم ولا راحم وفائدة أخرى : وهو أنه تعالى لما بين أن العذاب في الدنيا مؤخر بقوله : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ [الرحمن : 31] بين أنه في الآخرة لا يؤخر بقدر ما يسأل وفائدة أخرى : وهو أنه تعالى لما بين أن لا مفر لهم بقوله : ﴿ لاَ تَنفُذُونَ ﴾ [الرحمن : 33] ولا ناصر لهم يخلصهم بقوله : ﴿ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ﴾ بين أمرا آخر ، وهو أن يقول

المذنب : ربما أنجو في ظل خمول واشتباه حال ، فقال : ولا يخفى أحد من المذنبين بخلاف أمر الدنيا ، فإن الشرذمة القليلة ربما تنجو من العذاب العام بسبب خمولهم .

(55/740)

يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (41) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (42)

اتصال الآيات بما قبلها على الوجه المشهور ، ظاهر لا خفاء فيه ، إذ قوله : ﴿يُعْرَفُ المجرمون﴾ كالتفسير وعلى الوجه الثاني من أن المعنى لا يسأل عن ذنبه غيره كيف قال : يعرف ويؤخذ وعلى قولنا : لا يسأل سؤال حط وعفو أيضاً كذلك ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

السيما كالضيزى وأصله سومى من السومة وهو يحتمل وجوهاً أحدها : كي على جباههم ، قال تعالى : ﴿يَوْمَ يحمى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فتكوى بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ [التوبة : 35] ثانيها : سواد كما قال تعالى : ﴿فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران : 106] وقال تعالى : ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر : 60] ثالثها : غبرة وقترة .

المسألة الثانية :

ما وجه إفراد (يؤخذ) مع أن (المجرمين) جمع ، وهم المأخوذون ؟ نقول فيه وجهان

أحدهما : أن يؤخذ متعلق بقوله تعالى : ﴿ بالنواصي ﴾ كما يقول القائل ذهب بزيد

وثانيهما : أن يتعلق بما يدل عليه يؤخذ ، فكأنه تعالى قال ، فيؤخذون بالنواصي ، فإن قيل

كيف عدى الأخذ بالباء وهو يتعدى بنفسه قال تعالى : ﴿ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ [

الحديد : 15] وقال : ﴿ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ ﴾ [طه : 21] نقول : الأخذ يتعدى بنفسه

كما بينت ، وبالباء أيضاً كقوله تعالى : ﴿ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي ﴾ [طه : 94]

لكن في الاستعمال تدقيق ، وهو أن المأخوذ إن كان مقصوداً بالأخذ توجه الفعل نحوه

فيتعدى إليه من غير حرف ، وإن كان المقصود بالأخذ غير الشيء المأخوذ حساً تعدى

إليه بحرف ، لأنه لما لم يكن مقصوداً فكأنه ليس هو المأخوذ ، وكأن الفعل لم يتعد إليه بنفسه ،

فذكر الحرف ، ويدل على ما ذكرنا استعمال القرآن ، فإن الله تعالى قال : ﴿ خُذْهَا وَلاَ

تَخَفْ ﴾ في العصا وقال تعالى : ﴿ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ [النساء : 102] ﴿ أَخَذَ

الأَلْوَاحَ ﴾ [الأعراف : 154] إلى غير ذلك ، فلما كان ما ذكر هو المقصود بالأخذ عدى

الفعل إليه من غير حرف ، وقال تعالى : ﴿ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي ﴾ وقال تعالى :

﴿ فَيُؤْخَذُ بالنواصي والأقدام ﴾ ويقال : خذ بيدي وأخذ الله بيدك إلى غير ذلك مما يكون المقصود بالأخذ غير ما ذكرنا ، فإن قيل : ما الفائدة في توجيه الفعل إلى غير ما توجه إليه الفعل الأول ، ولم قال : ﴿ يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم فَيُؤْخَذُ بالنواصي ﴾ ؟ نقول فيه بيان نكالهم وسوء حالهم ونبين هذا بتقديم مثال وهو أن القائل إذا قال ضرب زيد فقتل عمرو فإن المفعول في باب ما لم يسم فاعله قائم مقام الفاعل ومشبه به ولهذا أعرب إعرابه فلو لم يوجه يؤخذ إلى غير ما وجه إليه يعرف لكان الأخذ فعل من عرف فيكون كأنه قال : يعرف المجرمين عارف

(57/740)

فيأخذهم ذلك العارف ، لكن المجرم يعرفه بسيماه كل أحد ، ولا يأخذه كل من عرفه بسيماه ، بل يمكن أن يقال قوله : ﴿ يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم ﴾ المراد يعرفهم الناس والملائكة الذين يحتاجون في معرفتهم إلى علامة ، أما كتبة الأعمال والملائكة الغلاظ الشداد فيعرفونهم كما يعرفون أنفسهم من غير احتياج إلى علامة ، وبالجملة فقوله : يعرف معناه يكونون معروفين عند كل أحد فلو قال : يؤخذون يكون كأنه قال : فيكونون مأخوذين لكل أحد ، كذلك إذا تأملت في قول القائل : شغلت فضرب زيد علمت عند توجه التعليق

إلى مفعولين دليل تغاير الشاغل والضارب لأنه يفهم منه أني شغلني شاغل فضرب زيداً ضارب ، فالضارب غير ذلك الشاغل ، وإذا قلت : شغل زيد فضرب لا يدل على ذلك حيث توجه إلى مفعول واحد ، وإن كان يدل فلا يظهر مثل ما يظهر عند توجهه إلى مفعولين ، أما بيان النكال فلأنه لما قال : ﴿ فَيُؤْخَذُ بالنواصي ﴾ بين كيفية الأخذ وجعلها مقصود الكلام ، ولو قال : فيؤخذون لكان الكلام يتم عنده ويكون قوله : ﴿ بالنواصي ﴾ فائدة جاءت بعد تمام الكلام فلا يكون هو المقصود ، وأما إذا قال : فيؤخذ ، فلا بد له من أمر يتعلق به فينتظر السامع وجود ذلك ، فإذا قال : ﴿ بالنواصي ﴾ يكون هذا هو المقصود ، وفي كيفية الأخذ ظهور نكالهم لأن في نفس الأخذ بالناصية إذلالاً وإهانة ، وكذلك الأخذ بالقدم ، لا يقال قد ذكرت أن التعدية بالباء إنما تكون حيث لا يكون المأخوذ مقصوداً والآن ذكرت أن الأخذ بالنواصي هو المقصود لأنا نقول : لا تنافي بينهما فإن الأخذ بالنواصي مقصود الكلام والناصية ما أخذت لنفس كونها ناصية وإنما أخذت ليصير صاحبها مأخوذاً ، وفرق بين مقصود الكلام وبين الأخذ ، وقوله تعالى : ﴿ فَيُؤْخَذُ بالنواصي والأقدام ﴾ فيه وجهان أحدهما : يجمع بين ناصيتهم وقدمهم ، وعلى هذا ففيه قولان : أحدهما : أن ذلك قد يكون من جانب ظهورهم فيربط بنواصيهم أقدامهم من جانب الظهر فتخرج صدورهم

نتأ والثاني : أن ذلك من جانب وجوههم فتكون رءوسهم على ركبهم ونواصيهم في أصابع أرجلهم مربوطة الوجه الثاني : أنهم يسحبون سحباً فبعضهم يؤخذ بناصيته وبعضهم يجر برجله ، والأول أصح وأوضح .

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43)

والمشهور أن ههنا إضماراً تقديره يقال لهم : هذه جهنم ، وقد تقدم مثله في مواضع .

ويحتمل أن يقال : معناه هذه صفة جهنم فأقيم المضاف إليه مقام المضاف ويكون ما تقدم هو المشار إليه ، والأقوى أن يقال : الكلام عند النواصي والأقدام قد تم ، وقوله : ﴿ هذه جَهَنَّمُ ﴾ لقربها كما يقال هذا زيد قد وصل إذا قرب مكانه ، فكأنه قال جهنم التي يكذب بها المجرمون هذه قريبة غير بعيدة عنهم ، ويلائمه قوله : ﴿ يُكَذِّبُ ﴾ لأن الكلام لو كان بإضمار يقال ، لقال تعالى لهم : هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون لأن في هذا الوقت لا يبقى مكذب ، وعلى هذا التقدير يضمر فيه : كان يكذب .

يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (44)

هو كقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَاء كَالْمُهْلِ ﴾ [الكهف : 29] وكقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [السجدة : 20] لأنهم يخرجون فيستغيثون فيظهر لهم من بعد شيء مائع هو صديدهم المغلي فيظنونه ماء ، فيردون عليه

كما يرد العطشان فيقعون ويشربون منه شرب الهيم ، فيجدونه أشد حراً فيقطع أمعاءهم ، كما أن العطشان إذا وصل إلى ماء مالح لا يبحث عنه ولا يذوقه ، وإنما يشربه عباً فيحرق فؤاده ولا يسكن عطشه .

وقوله : ﴿ حَمِيمٍ ﴾ إشارة إلى ما فعل فيه من الإغلاء ، وقوله تعالى : ﴿ ءَانٍ ﴾ إشارة إلى ما قبله ، وهو كما يقال : قطعته فانقطع فكأنه حمته النار فصار في غاية السخونة وآن الماء إذا انتهى في الحر نهاية .

(59/740)

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (45)

وفيه بحث وهو أن هذه الأمور ليست من الآلاء فكيف قال : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ ﴾ ؟ نقول : الجواب من وجهين أحدهما : ما ذكرناه وثانيهما : أن المراد : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا ﴾ مما أشرنا إليه في أول السورة .

﴿ تُكَذِّبَانِ ﴾ فتستحقان هذه الأشياء المذكورة من العذاب ، وكذلك نقول : في قوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] هي الجنان ثم إن تلك الآلاء لا ترى ، وهذا ظاهر لأن الجنان غير مرئية ، وإنما حصل الإيمان بها بالغيب ، فلا يحسن الاستفهام

بمعنى الإنكار مثل ما يحسن الاستفهام عن هيئة السماء والأرض والنجم والشجر والشمس والقمر وغيرها مما يدرك ويشاهد ، لكن النار والجنة ذكرتا للترهيب والترغيب كما بينا أن المراد فبأيهما تكذبان فتستحقان العذاب وتحرمان الثواب . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 101.107 ﴾

(60/740)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾

واختلف الناس في معنى قوله : ﴿ إن استطعتم أن تنفذوا ﴾ الآية ، فقال الطبري ، قال قوم : في الكلام محذوف وتقديره : يقال لكم ﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾ ، قالوا وهذه حكاية عن حال يوم القيامة في ﴿ يوم التنادّ ﴾ [غافر : 32] على قراءة من شدد الدال . قال الضحاك : وذلك أنه يفر الناس في أقطار الأرض ، والجن كذلك ، لما يرون من هول يوم القيامة ، فيجدون سبعة صفوف من الملائكة قد أحاطت بالأرض ، فيرجعون من حيث جاؤوا ، فحينئذ يقال لهم : ﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾ . وقال بعض المفسرين : بل هي مخاطبة في الدنيا . والمعنى : ﴿ إن استطعتم ﴾ الفرار من الموت ب ﴿ أن تنفذوا

من أقطار السماوات والأرض ﴾ . وقال ابن عباس المعنى : إن استطعتم بأذهانكم وفكركم أن تنفذوا فتعلموا علم أقطار السماوات والأرض . والأقطار : الجهات .

وقوله : ﴿ فانفذوا ﴾ صيغة الأمر ومعناه التعجيز ، والسلطان هنا القوة على غرض الإنسان ، ولا يستعمل إلا في الأعظم من الأمر والحجج أبداً من القوي في الأمور ، ولذلك يعبر كثير من المفسرين عن السلطان بأنه الحجة . وقال قتادة : السلطان هنا الملك ، وليس لهم ملك ، والشواظ : لهب النار . قاله ابن عباس وغيره . وقال أبو عمرو بن العلاء : لا يكون الشواظ إلا من النار وشيء معها ، وكذلك النار كلها لا تحس إلا وشيء معها . وقال مجاهد : الشواظ ، هو اللهب الأخضر المتقطع ، ويؤيد هذا القول . قول حسان بن ثابت يهجو أمية بن أبي الصلت :

هجوتك فاختضعت حليفا ذل . . . بقاقية تؤجج كالشواظ

وقال الضحاك : هو الدخان الذي يخرج من اللهب وليس بدخان الحطب .

وقرأ الجمهور : " شُواظ " بضم الشين . وقرأ ابن كثير وحده وشبل وعيسى : " شِواظ " بكسر الشين وهما لغتان .

وقال ابن عباس وابن جبير : النحاس الدخان ، ومنه قول الأعشى : [المتقارب]

تضيء كضوء سراج السليط . . . لم يجعل الله فيه نحاسا

السليط دهن السراج. في النسخ التي بأيدينا دهن الشيرج.

وقرأ جمهور القراء: "ونحاسٌ" بالرفع عطفاً على ﴿ شواظ ﴾، فمن قال إن النحاس: هو المعروف، وهو قول مجاهد وابن عباس أيضاً قال يرسل عليهما نحاس: أي يذاب ويرسل عليهما. ومن قال هو الدخان، قال ويعذبون بدخان يرسل عليهما. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والنخعي وابن أبي إسحاق: "ونحاسٍ" بالخفض عطفاً على ﴿ نار ﴾، وهذا مستقيم على ما حكيناه عن أبي عمرو بن العلاء. ومن رأى الشواظ يختص بالنار قدر هنا: وشيء من نحاس. وحكى أبو حاتم عن مجاهد أنه قرأ: "ونِحاسٍ" بكسر النون والجر. وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة أنه قرأ: "ونَحُسّ" بفتح النون وضم الحاء والسين المشددة، كأنه يقول: ونقتل بالعذاب. وعن أبي جندب أنه قرأ: "ونحس"، كما تقول: يوم نحس، وحكى أبو عمرو مثل قراءة مجاهد عن طلحة بن مصرف، وذلك لغة في نحاس، وقيل هو جمع نحس.

ومعنى الآية: مستمر في تعجيز الجن والإنس، أي أنتما بحال من يرسل عليه هذا فلا ينتصر.

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37)

جواب "إذا" محذوف مقصود به الإبهام، كأنه يقول: ﴿ فإذا انشقت السماء ﴾ فما

أعظم الهول ، وانشقاق السماء انفطارها عند القيامة . وقال قتادة : السماء اليوم خضراء وهي يوم القيامة حمراء ، فمعنى قوله : ﴿ وردة ﴾ أي محمرة كالوردة وهي النوار المعروف . وهذا قول الزجاج والرماني . وقال ابن عباس وأبو صالح والضحاك : هي من لون الفرس الورد ، فأنث لكون ﴿ السماء ﴾ مؤنثة .

واختلف الناس في قوله : ﴿ كالدهان ﴾ فقال مجاهد والضحاك : هو جمع دهن ، قالوا وذلك أن السماء يعتريها يوم القيامة ذوب وتميع من شدة الهول . وقال بعضهم : شبه لمعانها بلمعان الدهن . وقال جماعة من المتأولين الدهان : الجلد الأحمر ، وبه شبهها ، وأنشد منذر بن سعيد : [الطويل]

يبعن الدهان الحمر كل عشية . . . بموسم بدر أو بسوق عكاظ

(62/740)

وقوله تعالى : ﴿ لا يسأل عن ذنبه ﴾ نفي للسؤال . وفي القرآن آيات تقتضي أن في القيامة سؤالاً ، وآيات تقتضي نفيه كهذه وغيرها ، فقال بعض الناس ذلك في مواطن دون مواطن ، وهو قول قتادة وعكرمة وقال ابن عباس وهو الأظهر في ذلك أن السؤال متى أثبت فهو بمعنى التوبيخ والتقرير ، ومتى نفي فهو بمعنى الاستخبار المحض والاستعلام ، لأن الله تعالى

عليم بكل شيء . وقال الحسن ومجاهد : لا يسأل الملائكة عنهم ، لأنهم يعرفونهم بالسيما ، والسيما التي يعرف بها ﴿ المجرمون ﴾ هي سواد الوجوه وزرق العيون في الكفرة ، قاله الحسن . ويحتمل أن يكون غير هذا من التشويهات .

واختلف المتأولون في قوله تعالى : ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ . فقال ابن عباس : يؤخذ كل كافر بناصيته وقدميه فيطوى يجمع كالحطب ويلقى كذلك في النار . وقال النقاش : روي أن هذا الطي على ناحية الصلب قعساً وقاله الضحاك . وقال آخرون : بل على ناحية الوجه ، قالوا فهذا معنى : ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ . وقال قوم في كتاب الثعلبي : إنما يسحب الكفرة سحباً ، فبعضهم يجر بقدميه ، وبعضهم بناصيته ، فأخبر في هذه الآية أن الأخذ يكون ﴿ بالنواصي ﴾ ويكون ب ﴿ الأقدام ﴾ .

وقوله : ﴿ هذه جهنم ﴾ قبله محذوف تقديره : يقال لهم على جهة التقريع والتوبيخ وفي مصحف ابن مسعود : " هذه جهنم التي كنتما بها تكذبان تصليانها لا تموتان فيها ولا تحييان " .

وقرأ جمهور الناس : "يَطُوفون " بفتح الياء وضم الطاء وسكون الواو . وقرأ طلحة بن مصرف : "يُطَوّفون " بضم الياء وفتح الطاء وشد الواو . وقرأ أبو عبد الرحمن : " يطافون " ، وهي قراءة علي بن أبي طالب . والمعنى في هذا كله أنهم يترددون بين نار جهنم وجمرها ﴿ وبين حميم ﴾ وهو ما غلي في جهنم من مائع عذابها . والحميم : الماء السخن . وقال قتادة : إن العذاب الذي هو الحميم يغلي منذ خلق الله جهنم . وأنى الشيء : حضر ، وأنى اللحم أو ما يطبخ أو يغلى : نضج وتناهى حره والمراد منه . ويحتمل قوله : ﴿ آن ﴾ أن يكون من هذا ومن هذا . وكونه من الثاني أبين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وغير ناظرين إناه ﴾ [الأحزاب : 53] ومن المعنى الآخر قول الشاعر [عمرو بن حسان الشيباني] : [الوافر]

أنى ولكل حاملة تمام . . . ويشبه أن يكون الأمر في المعنيين قريباً بعضه من بعض ، والأول أعم من الثاني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(64/740)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انشقت السمآء ﴾

أي انصدعت يوم القيامة ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كالدهان ﴾ الدِّهَانُ الدهن ؛ عن مجاهد والضحاك وغيرهما .

والمعنى أنها صارت في صفاء الدهن ؛ والدهان على هذا جمع دُهْن .

وقال سعيد بن جُبير وقتادة : المعنى فكانت حمراء .

وقيل : المعنى تصير في حمرة الورد وجريان الدهن ؛ أي تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم ، وتصير مثل الدُّهن لرقتها وذوبانها .

وقيل : الدّهان الجلد الأحمر الصّرف ؛ ذكره أبو عبيد والفراء .

أي تصير السماء حمراء كالأديم لشدة حَرِّ النار .

ابن عباس : المعنى فكانت كالفرس الْوَرْد ؛ يقال للكُمَيت : وَرْدٌ إذا كان يتلوّن بألوان مختلفة .

قال ابن عباس : الفرس الوَرْد ؛ في الربيع كميت أصفر ، وفي أوّل الشتاء كُمَيت أحمر ، فإذا اشتد الشتاء كان كُمَيتاً أغبر .

وقال الفراء : أراد الفرس الوَرْدِيّة ، تكون في الربيع وَرْدَةً إلى الصفرة ، فإذا اشتد البرد كانت وَرْدَةً حمراء ، فإذا كان بعد ذلك كانت وَرْدَةً إلى الغُبرة ، فشبه تلوّن السماء بتلون الْوَرْد من الخيل .

وقال الحسن : ﴿ كالدهان ﴾ أي كصبّ الدُّهْن فإنك إذا صببته ترى فيه ألواناً .

وقال زيد بن أسلم : المعنى أنها تصير كعَكَر الزيت ، وقيل : المعنى أنها تمرّ وتجيء .

قال الزجاج : أصل الواو والراء والدال للمجيء والإتيان .

وهذا قريب مما قدمناه من أن الفرس الوَرْدة تتغير ألوانها .

وقال قتادة : إنها اليوم خضراء وسيكون لها لون أحمر ؛ حكاه الثعلبي .

وقال الماورديّ : وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة ، وأنها لكثرة الحوائل وبُعد المسافة تُرى بهذا اللون الأزرق ، وشبهوا ذلك بعروق البدن ، وهي حمراء كحمرة الدم وتُرى بالحائل زرقاء ؛ فإن كان هذا صحيحاً فإن السماء لقربها من النواظر يوم القيامة وارتفاع الحواجز ترى حمراء ، لأنه أصل لونها .

والله أعلم .

(65/740)

قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ هذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ [القصص : 78] وأن القيامة مواطن لطول ذلك اليوم ؛ فيسأل في بعض ولا يسأل في بعض ، وهذا قول عكرمة .

وقيل : المعنى لا يسألون إذا استقروا في النار .

وقال الحسن وقتادة : لا يسألون عن ذنوبهم ؛ لأن الله حفظها عليهم ، وكتبتها عليهم الملائكة .

رواه العوفي عن ابن عباس .

وعن الحسن ومجاهد أيضاً : المعنى لا تسأل الملائكة عنهم ؛ لأنهم يعرفونهم بسيماهم ؛ دليله ما بعده .

وقاله مجاهد عن ابن عباس .

وعنه أيضاً في قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 92] وقوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ وقال : لا يسألهم ليعرف ذلك منهم ؛ لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكنه يسألهم لم عملتموها سؤال توبيخ .

وقال أبو العالية : لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم .

وقال قتادة : كانت المسألة قبل ؛ ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت الجوارح شاهدة عليهم .

وفي حديث أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وفيه قال : " فَيَلْقَى العبدَ فيقول أي فُلْ ألم أُكْرِمك وأُسوِّدْك وأُزَوِّجْك وأُسَخِّرْ لك الخيلَ والإبلَ وأَذرْك تَرْأَسُ وتَرْبَعُ فيقول بلى فيقول أفظننتَ أنك مُلاَقيّ فيقول لا فيقول إني أنساك كما نسيتني ثم يلقى الثاني فيقول له مثل ذلك بعينه ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصلّيت وصمت وتصدّقت ويثني بخير ما استطاع فيقول ها هنا إذاً ثُمَّ يقال له الآن نبعث

شاهدنا عليك فيفتكر في نفسه مَن هذا الذي يشهد عليّ فيُختَم على فِيهِ ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله وذلك ليعذِر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه " وقد مضى هذا الحديث في "حم السجدة" وغيرها .

(66/740)

قوله تعالى : ﴿ يُعْرَفُ المجرمون بِسِيمَاهُمْ ﴾

قال الحسن : سواد الوجه وزرقة الأعين ، قال الله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُ المجرمين يَوْمِئِذٍ زُرْقاً ﴾ [طه : 102] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : 106] ﴿ فَيُؤْخَذُ بالنواصي والأقدام ﴾ أي تأخذ الملائكة بنواصيهم ؛ أي بشعور مقدم رؤوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في النار .

والنواصي جمع ناصية .

وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره .

وعنه : يؤخذ برجلي الرجل فيجمع بينهما وبين ناصيته حتى يندق ظهره ثم يلقى في النار .

وقيل : يفعل ذلك به ليكون أشدّ لعذابه وأكثر لتشويهه .

وقيل : تسحبهم الملائكة إلى النار ؛ تارةً تأخذ بناصيته وتجره على وجهه ، وتارةً تأخذ بقدميه وتسحبه على رأسه .

قوله تعالى : ﴿ هذه جَهَنَّمُ التي يُكَذِّبُ بِهَا المجرمون ﴾ أي يقال لهم هذه النار التي أخبرتم بها فكذبتم .

﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ قال قتادة : يطوفون مرةً بين الحميم ومرةً بين الجحيم ، والجحيم النار ، والحميم الشراب .

وفي قوله تعالى : "آنٍ" ثلاثة أوجه ، أحدها أنه الذي انتهى حَرُّه وحميمه .

قاله ابن عباس وسعيد بن جُبير والسّدي ؛ ومنه قول النابغة الذُّبْياني :

وتُخْضَبُ لْحِيَةٌ غَدَرَتْ وخَانت . . .

بأحمَر من نجيعِ الجوفِ آنِ

قال قتادة : ﴿ آنٍ ﴾ طبخ منذ خلق الله السموات والأرض ؛ يقول : إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم ذلك .

وقال كعب : "آن" واد من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فيغمسون بأغلالهم فيه حتى تنخلع أوصالهم ، ثم يخرجون منها وقد أحدث الله لهم خلقاً جديداً فيلقون في النار ، فذلك قوله تعالى : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ .

وعن كعب أيضاً : أنه الحاضر .

وقال مجاهد : إنه الذي قد آن شربه وبلغ غايته .

(67/740)

والنعمة فيما وصف من هول القيامة وعقاب المجرمين ما في ذلك من الزجر عن المعاصي والترغيب في الطاعات .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أنه أتى على شاب في الليل يقرأ ﴿ فَإِذَا انشقت السمآء فَكَانَتْ وَرْدَةً كالدهان ﴾ فوقف الشاب وخنقته العَبْرة وجعل يقول : وَيْحِي من يوم تنشقُّ فيه السماء وَيْحِي ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "وَيْحَك يا فتى مثلها فوالذي نفسي بيده لقد بكت ملائكة السماء من بكائك" " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(68/740)

وقال أبو السعود :

﴿ فَإِذَا انشقت السماء ﴾

أي انصدعتْ يومَ القيامةِ ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ كوردةٍ حمراءَ وقُرِئَ وردةٌ بالرفعِ على أنَّ كانَ تامةٌ أيَّ حصلتْ سماءٌ وردةٌ فيكونُ من بابِ التجريدِ كقولِ منْ قالَ :

وَلَئِنْ بَقِيْتُ لأَرْحَلَنَّ بغزوة . . . تَحوِي الغنائمَ أَوْ يموتَ كريمُ

﴿ كالدهان ﴾ خبرٌ ثانٍ لكانَتْ ، أو نعتٌ لوردةً أو حالٌ من اسمِ كانتْ ، أي كدُهنِ الزيتِ ، وهو إمَّا جمعُ دُهنٍ ، أو اسمٌ لما يُدهنُ بهِ كالحِزامِ والأدامِ ، وقيلَ : هو الأديمُ الأحمرُ .

وجوابُ إذا محذوفٌ أي يكونُ من الأحوالِ والأهوالِ ما لا يحيطُ بهِ دائرةُ المقالِ . ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء ربِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مع عظمِ شأنِها ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي يومَ إذْ تنشقُ السماءُ حسبَما ذُكِرَ . ﴿ لاَّ يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴾ لأنَّهم يُعرفونَ بسيماهُم وذلكَ أولَ ما يخرجونَ من القبورِ ويحشرونَ إلى الموقفِ ذَوْداً ذَوداً على اختلافِ مراتبِهم ، وأما قولُه تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ونحُوه ففي موقفِ المناقشةِ والحسابِ ، وضميرُ ذنبه للإنسِ لتقدمِه رتبةً ، وإفرادُه لما أنَّ المرادَ فردٌ من الإنسِ كأنَّه قيلَ : لا يُسألُ عن ذنبِهِ إنسيٌّ ولا جنيٌّ . ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء ربِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مع كثرةِ منافعِها ، فإنَّ الإخبارَ بما ذُكِرَ ممَّا يزجرُكم عن الشرِّ المؤدِّي إليهِ ، وأما ما قيلَ : ممَّا أنعمَ اللهُ على عبادِه المؤمنينَ في هذا اليومِ فلا تعلقَ لهُ

بالمقامِ.

وقولُه تعالَى:

(69/740)

﴿ يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم ﴾ استئنافٌ يَجْرِي مَجْرى التعليلِ لعدمِ السؤالِ، قيلَ: يُعرفونَ بسوادِ الوجوهِ وزرقةِ العُيونِ، وقيلَ: بما يعلُوهم من الكآبةِ والحُزنِ ﴿ فَيُؤْخَذُ بالنواصى والأقدام ﴾ الجارُّ والمجرورُ هُو القائمُ مقامَ الفاعلِ، يُقَالُ أُخذَهُ إذا كانَ المأخوذُ مقصوداً بالأخذِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ ونحُوه. وأخذَ بِهِ إذا كانَ المأخوذُ شيئاً من ملابساتِ المقصودِ بالأخذِ منه قولُه تعالى: ﴿ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلاَ بِرَأْسِى ﴾ وقولُ المستغيثِ خُذْ بيدِي أخذَ اللهُ بيدِك. أيْ يُجمعُ بين نواصِيهم وأقدامِهم في سلسلةٍ من وراءِ ظُهورِهم، وقيلَ: تسحبُهم الملائكةُ، تارةً تأخذُ بالنَّواصِي وتارةً تأخذُ بالأقدامِ. ﴿ فَبِأَىِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾. وقولُه تعالَى:

﴿ هذه جَهَنَّمُ التى يُكَذِّبُ بِهَا المجرمون ﴾ على إرادةِ القولِ، أيْ يقالُ لهُم ذلكَ بطريقِ التوبيخِ على أنَّ الجملةَ إمَّا استئنافٌ وقعَ جواباً عن سؤالٍ ناشىءٍ من حكايةِ الأخذِ بالنَّواصِي والأقدامِ، كأنَّه قيلَ: فماذا يفعلُ بِهِم عندَ ذلكَ فقيلَ يقالُ إلخ. أو حالٌ من

أصحابِ النواصِي والأقدامِ ، لأنَّ الألفَ واللامَ عوضٌ عن المضافِ إليهِ وما بينَهما اعتراضٌ . ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا ﴾ أي بينَ النَّارِ يُحرقُون بَها ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ أن ﴾ ماءٍ بالغٍ من الحرارةِ أقصَاها يُصبُّ عليهم أو يُسقون منْهُ ، وقيلَ : إذَا استغاثُوا من النارِ أغيثُوا بالحميمِ . ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقد أُشيرَ إلى سرِّ كونِ بيانِ أمثالِ هذه الأمورِ من قبيلِ الآلاءِ مِرَاراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(70/740)

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِذَا انشقت السماء ﴾

أي انصدعت يوم القيامة ، وحديث امتناع الخرق حديث خرافة ، ومثله ما يقوله أهل الهيئة اليوم في السماء على أن الانشقاق فيها على زعمهم أيضاً متصور ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ أي كالوردة في الحمرة ، والمراد بها النور المعروف قاله الزجاج .

وقتادة ، وقال ابن عباس .

وأبو صالح : كانت مثل لون الفرس الورد ، والظاهر أن مرادهما كانت حمراء .

وقال الفراء : أريد لون الفرس الورد يكون في الربيع إلى الصفرة ، وفي الشتاء إلى الحمرة ، وفي

اشتداد البرد إلى الحمرة فشبه تلون السماء بتلون الورد من الخيل ، وروي هذا عن الكلبي أيضاً ، وقال أبو الجوزاء : ﴿ وَرْدَةً ﴾ صفراء والمعول عليه إرادة الحمرة ، ونصب ﴿ وَرْدَةً ﴾ على أنه خبر كان ، وفي الكلام تشبيه بليغ ، وقرأ عبيد بن عمير ﴿ وَرْدَةٌ ﴾ بالرفع على أن كان تامة أي فحصلت سماء وردة فيكون من باب التجريد لأنه بمعنى كانت منها ، أو فيها سماء وردة مع أن المقصود أنها نفسها كذلك فهو كقول قتادة بن مسلمة

: فلئن بقيت لأرحلن بغزوة . . .

نحو المغانم أو يموت كريم

حيث عني بالكريم نفسه ، وقوله تعالى : ﴿ كالدهان ﴾ خبر ثان لكانت أو نعت لوردة أو حال من اسم كانت على رأي من أجازه أي كدهن الزيت كما قال تعالى : ﴿ كالمهل ﴾ [الكهف : 29] وهو دردي الزيت ، وهو إما جمع دهن كقرط وقراط ، أو اسم لما يدهن به كالحزام والادام ، وعليه قوله في وصف عينين كثيرتي التذارف

: كأنهما مزادتا متعجل . . .

فريان لما تدهنا (بدهان)

وهو الدهن أيضاً إلا أنه أخص لأنه الدهن باعتبار إشرابه الشيء ، ووجه الشبه الذوبان وهو في السماء على ما قيل من حرارة جهنم وكذا الحمرة ، وقيل : اللمعان ، وقال الحسن : أي كالدهان المختلفة لأنه تتلون ألوانا ؛ وقال ابن عباس : الدهان الأديم الأحمر ؛ ومنه قول

الأعشى

: وأجرد من كرام الخيل طرف . . .

كأن على شواكله (دهانا)

(71/740)

وهو مفرد ، أو جمع ، واستدل للثاني بقوله

: تبعن (الدهان) الحمر كل عشية . . .

بموسم بدر أو بسوق عكاظ

وإذا شرطية جوابها مقدر أي كان ما كان مما لا تطيقه قوة البيان ، أو وجدت أمراً هائلاً ، أو رأيت ما يذهل الناظرين وهو الناصب لإذا ، ولهذا كان مفرعاً ومسبباً عما قبله لأن في إرسال الشواظ ما هو سبب لحدوث أمر هائل ، أو رؤيته في ذلك الوقت .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإن الأخبار بنحو ما ذكر مما يزجر عن الشر فهو لطف أيّ لطف ونعمة أيّ نعمة .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ تنشق السماء حسبما ما ذكر ﴿ لاَّ يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم وهذا في موقف ، وما دل على السؤال من نحو قوله تعالى : ﴾

فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 92] في موقف آخر قاله عكرمة .

وقتادة وموقف السؤال على ما قيل : عند الحساب ، وترك السؤال عند الخروج من القبور ، وقال ابن عباس : حيث ذكر السؤال فهو سؤال توبيخ وتقرير ، وحيث نفي استخبار محض عن الذنب ، وقيل : المنفي هو السؤال عن الذنب نفسه والمثبت هو السؤال عن الباعث عليه ، وأنت تعلم أن في الآيات ما يدل على السؤال عن نفس الذنب .

وحكى الطبرسي عن الرضا رضي الله تعالى عنه أن من اعتقد الحق ثم أذنب ولم يتب عذب في البرزخ ويخرج يوم القيامة وليس له ذنب يسأل عنه ، ولعمري إن الرضا لم يقل ذلك ، وحمل الآية عليه مما لا يلتفت إليه بعين الرضا كما لا يخفى ، وضمير ذنبه للإنس وهو متقدم رتبة لأنه نائب عن الفاعل ، وإفراده باعتبار اللفظ ، وقيل : لما أن المراد فرد من الإنس كأنه قيل : لا يسأل عن ذنبه إنسي ولا جنى ، وقرأ الحسن .

وعمرو بن عبيد ولا جأن بالهمزة فراراً من التقاء الساكنين وإن كان على حدّه

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يقال فيه نحو ما سمعت في سابقه .

﴿ يُعْرَفُ المجرمون ﴾ استئناف يجري مجرى التعليل لانتفاء السؤال ، و ﴿ كَرِهَ المجرمون ﴾ قيل : من وضع الظاهر موضع الضمير للإشارة إلى أن المراد بعض من الإنس وبعض من الجن وهو المجرمون فيكون ذلك كقوله تعالى : ﴿ لاَّ يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ [القصص : 78] ، وسيماهم على ما روي عن الحسن سواد الوجوه وزرقة العيون ، وقيل : ما يعلوهم من الكآبة والحزن ، وجوز أن تكون أموراً أخر كالعمى .

والبكم .

والصمم .

وقرأ حماد بن سليمان بسيمائهم .

﴿ فَيُؤْخَذُ بالنواصى ﴾ جمع ناصية وهي مقدم الرأس ﴿ والاقدام ﴾ جمع قدم وهي قدم الرجل المعروفة والباء للآلة مثلها في أخذت بخطام الدابة ، والجار والمجرور نائب الفاعل ، وقال أبو حيان : إن الباء للتعدية والفعل مضمن معنى ما يعدي بها أي فيسحب بالنواصي الخ ، وفيه بحث .

وظاهر كلام غير واحد أن أل عوض عن المضاف إليه الضمير أي بنواصيهم وأقدامهم ، ونص عليه أبو حيان فقال : أل فيهما عوض عن الضمير على مذهب الكوفيين ، والضمير محذوف على مذهب البصريين أي بالنواصي والأقدام منهم ، وأنت تعلم أن الخلاف بين أهل البلدين فيما إذا احتيج إلى الضمير للربط ولا احتياج إليه هنا ، نعم المعنى على الضمير

وكيفية هذا الأخذ على ما روي عن الضحاك أن يجمع الملك بين ناصية أحدهم وقدميه في سلسلة من وراء ظهره ثم بكسر ظهره ويلقيه في النار ، وقيل : تأخذ الملائكة عليهم السلام بعضهم سحباً بالناصية وبعضهم سحباً بالقدم ، وقيل : تسحبهم الملائكة عليهم السلام تارة بأخذ النواصي وتارة بأخذ الأقدام ، قالوا بمعنى أو التي للتقسيم وهو خلاف الظاهر ، وإبهام الفاعل لأنه كالمتعين ، وقيل : للرمز إلى عظمته فقد أخرج ابن مردويه .

(73/740)

والضياء المقدسي في صفة النار عن أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " والذي نفسي بيده لقد خلقت ملائكة جهنم قبل أن تخلق جهنم بألف عام فهم كل يوم يزدادون قوة إلى قوتهم حتى يقبضوا على من قبضوا بالنواصي والإقدام "

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يقال فيه نحو ما تقدم ، وقوله تعالى :

﴿ هذه جَهَنَّمُ التى يُكَذِّبُ بِهَا المجرمون ﴾ مقول قول مقدر معطوف على قوله تعالى : ﴿ يُؤْخَذْ ﴾ [الرحمن : 41] الخ أي ويقال هذه الخ .

أو مستأنف في جواب ماذا يقال لهم لأنه مظنة للتوبيخ والتقريع ، أو حال من أصحاب النواصي بناءاً على أن التقدير نواصيهم أو النواصي منهم ، وما في البين اعتراض على الأول

والأخير وكان أصل ﴿ التى يُكَذّبُ بِهَا المجرمون ﴾ التي كذبتم بها فعدل عنه لما ذكر للدلالة على استمرار ذلك وبيان لوجه توبيخهم وعلته .

﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا ﴾ أي يترددون بين نارها ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ ﴾ ماء حار ﴿ آن ﴾ متناه إناه وطبخه بالغ في الحرارة أقصاها ، قال قتادة : الحميم يغلي منذ خلق الله تعالى جهنم والمجرم ويعاقب بين تصلية النار وشرب الحميم ، وقيل : يحرقون في النار ويصب على رؤوسهم الحميم ، وقيل : إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم ، وقيل : يغمسون في واد في جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فتنخلع أوصالهم ثم يخرجون منه وقد أحدث الله تعالى لهم لخقاً جديداً ، وعن الحسن أنه قال : ﴿ آن ﴾ النحاس انتهى حره ، وقيل : ﴿ آن ﴾ حاضر .

وقرأ السلمي يطافون ، والأعمش .

وطلحة .

وابن مقسم ﴿ يَطُوفُونَ ﴾ بضم الياء وفتح الطاء وكسر الواو مشددة ، وقرىء ﴿ يَطُوفُونَ ﴾ أي يتطوفون .

﴿ فَبِأَىّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ هو أيضاً كما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾

أي : كل من على الأرض من الحيوانات هالك ، وغلب العقلاء على غيرهم ، فعبر عن الجميع بلفظ من ، وقيل : أراد من عليها من الجنّ والإنس ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام ﴾ الوجه عبارة عن ذاته سبحانه ووجوده ، وقد تقدّم في سورة البقرة بيان معنى هذا ، وقيل : معنى ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ تبقى حجته التي يتقرّب بها إليه ، والجلال : العظمة والكبرياء ، واستحقاق صفات المدح ، يقال : جلّ الشيء ، أي : عظم ، وأجللته ، أي : أعظمته ، وهو اسم من جلّ .

ومعنى ذو الإكرام : أنه يكرم عن كل شيء لا يليق به ، وقيل : إنه ذو الإكرام لأوليائه ، والخطاب في قوله : ﴿ ربك ﴾ للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح له ، قرأ الجمهور : ﴿ ذو الجلال ﴾ على أنه صفة لوجه ، وقرأ أبيّ ، وابن مسعود : (ذي الجلال) على أنه صفة لربّ .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وجه النعمة في فناء الخلق أن الموت سبب النقلة إلى دار الجزاء والثواب .

وقال مقاتل : وجه النعمة في فناء الخلق التسوية بينهم في الموت ، ومع الموت تستوي الأقدام .

﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السموات والأرض ﴾ أي : يسألونه جميعاً ؛ لأنهم محتاجون إليه لا يستغني عنه أحد منهم .

قال أبو صالح : يسأله أهل السموات المغفرة ، ولا يسألونه الرزق ، وأهل الأرض يسألونه الأمرين جميعاً .

وقال مقاتل : يسأله أهل الأرض الرزق والمغفرة ، وتسأل لهم الملائكة أيضاً الرزق والمغفرة ، وكذا قال ابن جريج .

وقيل : يسألونه الرحمة .

قال قتادة : لا يستغني عنه أهل السماء ، ولا أهل الأرض .

(75/740)

والحاصل أنه يسأله كل مخلوق من مخلوقاته بلسان المقال ، أو لسان الحال ما يطلبونه من خيري الدارين ، أو من خيري إحداهما ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ انتصاب كل بالاستقرار الذي تضمنه الخبر ، والتقدير : استقر سبحانه في شأن كل وقت من الأوقات ، واليوم عبارة عن الوقت ، والشأن هو الأمر ، ومن جملة شؤونه سبحانه إعطاء أهل السموات والأرض ما يطلبونه منه على اختلاف حاجاتهم ، وتباين أغراضهم .

قال المفسرون : من شأنه أنه يحيي ويميت .

ويرزق ويفقر .

ويعزّ ويذلّ ، ويمرض ويشفي ، ويعطي ويمنع .

ويغفر ويعاقب ، إلى غير ذلك مما لا يحصى .

وقيل : المراد باليوم المذكور : هو يوم الدنيا ويوم الآخرة ، قال ابن بحر : الدّهر كله يومان : أحدهما مدّة أيام الدنيا ، والآخر يوم القيامة ، وقيل : المراد : كل يوم من أيام الدنيا ﴿ فَبِأَيّ ءالاء ربّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ فإن اختلاف شؤونه سبحانه في تدبير عباده نعمة لا يمكن جحدها ، ولا يتيسر لمكذّب تكذيبها ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثقلان ﴾ هذا وعيد شديد من الله سبحانه للجنّ والإنس .

قال الزجاج ، والكسائي ، وابن الأعرابي ، وأبو علي الفارسي : إن الفراغ ها هنا ليس هو الفراغ من شغل ، ولكن تأويله القصد ، أي : سنقصد لحسابكم .

قال الواحدي حاكياً عن المفسرين : إن هذا تهديد منه سبحانه لعباده ، ومن هذا قول القائل لمن يريد تهديده : إذن أتفرغ لك ، أي : أقصد قصدك ، وفرغ يجيء بمعنى قصد ، وأنشد ابن الأنباري قول الشاعر :

الآن وَقَدْ فَرَغْتُ إلى نُمَيرٍ . . . فهذا حينَ كُنْتُ له عَذَاباً

يريد : وقد قصدت ، وأنشد النحاس قول الشاعر :

فرغت إلى العبد المقيد في الحجل . . . أي : قصدت ، وقيل : إن الله سبحانه وعد على التقوى ، وأوعد على المعصية ، ثم قال : سنفرغ لكم مما وعدناكم ، ونوصل كلاًّ إلى ما وعدناه ، وبه قال الحسن ، ومقاتل ، وابن زيد ، ويكون الكلام على طريق التمثيل .

(76/740)

قرأ الجمهور : ﴿ سنفرغ ﴾ بالنون وضمّ الراء ، وقرأ حمزة والكسائي بالتحتية مفتوحة مع ضم الرّاء ، أي : سيفرغ الله ، وقرأ الأعرج بالنون مع فتح الراء .

قال الكسائي : هي لغة تميم ، وقرأ عيسى الثقفي بكسر النون وفتح الراء ، وقرأ الأعمش وإبراهيم بضمّ الياء وفتح الراء على البناء للمفعول ، وسمي الجنّ والإنس ثقلين لعظم شأنهما بالنسبة إلى غيرهما من حيوانات الأرض ، وقيل : سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياءً ، وأمواتاً كما في قوله : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة : 2] وقال جعفر الصادق : سميا ثقلين لأنهما مثقلان بالذنوب ، وجمع في قوله : ﴿ لَكُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ أَيُّهَ الثقلان ﴾ ؛ لأنهما فريقان ، وكل فريق جمع .

قرأ الجمهور : ﴿ أيه الثقلان ﴾ بفتح الهاء ، وقرأ أهل الشام بضمها .

﴿ فَبِأَيّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ فإن من جملتها ما في هذا التهديد من النعم ، فمن ذلك

أنه ينزجر به المسيء عن إساءته ، ويزداد به المحسن إحساناً ، فيكون ذلك سبباً للفوز بنعيم الدار الآخرة الذي هو النعيم في الحقيقة ﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾ قدّم الجنّ هنا لكون خلق أبيهم متقدّماً على خلق آدم ، ولوجود جنسهم قبل جنس الإنس ﴿ إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أقطار السموات والأرض ﴾ أي : إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض ، ونواحيهما هرباً من قضاء الله وقدره ﴿ فانفذوا ﴾ منها ، وخلصوا أنفسكم ، يقال : نفذ الشيء من الشيء : إذا خلص منه ، كما يخلص السهم ﴿ لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بسلطان ﴾ أي : لا تقدرون على النفوذ إلاّ بقوّة وقهر ، ولا قوّة لكم على ذلك ولا قدرة ، والسلطان : القوّة التي يتسلط بها صاحبها على الأمر ، والأمر بالنفوذ : أمر تعجيز .

قال الضحاك : بينما الناس في أسواقهم إذ انفتحت السماء ، ونزلت الملائكة فهرب الجنّ ، والإنس ، فتحدق بهم الملائكة ، فذلك قوله : ﴿ لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بسلطان ﴾ .

(77/740)

قال ابن المبارك : إن ذلك يكون في الآخرة .

وقال الضحاك أيضاً : معنى الآية : إن استطعتم أن تهربوا من الموت ، فاهربوا .

وقيل : إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض ، فاعلموه ولن تعلموه إلاّ بسلطان ،

أي : ببينة من الله .

وقال قتادة : معناها لا تنفذوا إلاّ بملك ، وليس لكم ملك .

وقيل : " الباء " بمعنى " إلى " أي : لا تنفذون إلاّ إلى سلطان ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ومن جملتها هذه النعمة الحاصلة بالتحذير والتهديد ، فإنها تزيد المحسن إحساناً ، وتكفّ المسيء عن إساءته ، مع أن من حذّركم وأنذركم قادر على الإيقاع بكم من دون مهلة .

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ يرسل ﴾ بالتحتية مبنياً للمفعول ، وقرأ زيد بن عليّ بالنون ونصب (شواظ) والشواظ : اللهب الذي لا دخان معه .

وقال مجاهد : الشواظ اللهب الأخضر المتقطع من النار .

وقال الضحاك : هو الدخان الذي يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب .

وقال الأخفش ، وأبو عمرو : هو النار ، والدخان جميعاً .

قرأ الجمهور : ﴿ شواظ ﴾ بضم الشين ، وقرأ ابن كثير بكسرها وهما لغتان ، وقرأ الجمهور : ﴿ ونحاس ﴾ بالرفع عطفاً على شواظ ، وقرأ ابن كثير ، وابن محيصن ، ومجاهد ، وأبو عمرو بخفضه عطفاً على نار ، وقرأ الجمهور ﴿ نحاس ﴾ بضمّ النون ، وقرأ مجاهد ، وعكرمة ، وحميد ، وأبو العالية بكسرها .

وقرأ مسلم بن جندب ، والحسن : (ونحس) ، والنحاس : الصفر المذاب يصبّ على

رؤوسهم ، قاله مجاهد ، وقتادة ، وغيرهما .

وقال سعيد بن جبير : هو الدخان الذي لا لهب له ، وبه قال الخليل .

وقال الضحاك : هو دردي الزيت المغلي .

وقال الكسائي هو النار التي لها ريح شديدة ، وقيل : هو المهل ﴿ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ﴾ أي : لا تقدران على الامتناع من عذاب الله ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإن من جملتها هذا الوعيد الذي يكون به الانزجار عن الشرّ ، والرغوب في الخير .

(78/740)

﴿ فَإِذَا انشقت السماء ﴾ أي : انصدعت بنزول الملائكة يوم القيامة ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كالدهان ﴾ أي : كوردة حمراء .

قال : سعيد بن جبير ، وقتادة : المعنى فكانت حمراء ، وقيل : فكانت كلون الفرس الورد ، وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة أو الصفرة .

قال الفراء ، وأبو عبيدة : تصير السماء كالأديم لشدّة حرّ النار .

وقال الفراء أيضاً : شبه تلوّن السماء بتلوّن الورد من الخيل ، وشبّه الورد في ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه ، والدهان جمع دهن ، وقيل : المعنى : تصير السماء في حمرة الورد ،

وجريان الدهن ، أي : تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم ، وتصير مثل الدهن لذوبانها ، وقيل : الدهان الجلد الأحمر .

وقال الحسن ﴿ كالدهان ﴾ ، أي : كصبيب الدهن ، فإنك إذا صببته ترى فيه ألواناً .

وقال زيد بن أسلم : إنها تصير كعصير الزيت .

قال الزجاج : إنها اليوم خضراء ، وسيكون لها لون أحمر .

قال الماوردي : وزعم المتقدّمون أن أصل لون السماء الحمرة ، وأنها لكثرة الحوائل وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ، فإن من جملتها ما في هذا التهديد ، والتخويف من حسن العاقبة بالإقبال على الخير والإعراض عن الشرّ .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴾ أي : يوم تنشقّ السماء لا يسأل أحد من الإنس ولا من الجنّ عن ذنبه ؛ لأنهم يعرفون بسيماهم عند خروجهم من قبورهم ، والجمع بين هذه الآية ، وبين مثل قوله :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 92] أن ما هنا يكون في موقف ، والسؤال في موقف آخر من مواقف القيامة ، وقيل : إنهم لا يسألون هنا سؤال استفهام عن ذنوبهم ؛ لأن الله سبحانه قد أحصى الأعمال ، وحفظها على العباد ، ولكن يسألون سؤال توبيخ وتقريع ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص : 78] قال أبو العالية : المعنى : لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم .

وقيل : إن عدم السؤال هو عند البعث ، والسؤال هو في موقف الحساب ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإن من جملتها هذا الوعيد الشديد ؛ لكثرة ما يترتب عليه من الفوائد .

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ هذه الجملة جارية مجرى التعليل لعدم السؤال .

السيما : العلامة .

قال الحسن : سيماهم سواد الوجوه وزرقة الأعين ، كما في قوله : ﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه : 102] وقال : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : 106] وقيل : سيماهم ما يعلوهم من الحزن والكآبة ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ الجار والمجرور في محل رفع على أنه النائب ، والنواصي : شعور مقدم الرؤوس ، والمعنى : أنها تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي ، وتلقيهم الملائكة في النار .

قال الضحاك : يجمع بين ناصيته ، وقدمه في سلسلة من وراء ظهره ، وقيل : تسحبهم الملائكة إلى النار ، تارة تأخذ بنواصيهم وتجرّهم على وجوههم ، وتارة تأخذ بأقدامهم ،

وتجرّهم على رؤوسهم ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإن من جملتها هذا الترهيب الشديد ، والوعيد البالغ الذي ترجف له القلوب ، وتضطرب لهوله الأحشاء .

(80/740)

﴿ هذه جَهَنَّمُ التى يُكَذِّبُ بِهَا المجرمون ﴾ أي : يقال لهم عند ذلك : هذه جهنم التي تشاهدونها ، وتنظرون إليها مع أنكم كنتم تكذبون بها وتقولون إنها لا تكون ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا يقال لهم عند الأخذ بالنواصي والأقدام ؟ فقيل : يقال لهم : هذه جهنم تقريعاً لهم وتوبيخاً .

﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا ﴾ أي : بين جهنم فتحرقهم ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ فتصبّ على وجوههم ، والحميم : الماء الحارّ ، والآن : الذي قد انتهى حرّه وبلغ غايته ، كذا قال الفراء ، قال الزجاج : أَنَى يأَنَى أَنًى ، فهو آنٍ : إذا انتهى في النضج والحرارة ، ومنه قول النابغة الذبياني :

وتخضب لحية غدرت وخانت . . . بأحمر من نجيع الجوف آن

وقيل : هو واد من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار ، فيغمسون فيه .

قال قتادة : يطوفون مرّة في الحميم ، ومرّة بين الجحيم ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإن

من جملتها النعمة الحاصلة بهذا التخويف ، وما يحصل به من الترغيب في الخير والترهيب عن الشرّ .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ ذُو الجلال والإكرام ﴾ قال : ذو الكبرياء والعظمة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِى السموات ﴾ قال : مسألة عباده إياه الرزق والموت والحياة كل يوم هو في ذلك .

(81/740)

وأخرج الحسن بن سفيان في مسنده ، والبزار ، وابن جرير ، والطبراني ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن منده ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، وابن عساكر عن عبد الله بن منيب قال : تلا علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ فقلنا : يا رسول الله ، وما ذلك الشأن ؟ قال : " أن يغفر ذنباً ، ويفرّج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين " وأخرج البخاري في تاريخه ، وابن ماجه ، وابن أبي عاصم ، والبزار ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والطبراني ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن

مردويه ، وابن عساكر ، والبيهقي في الشعب عن أبي الدرداء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في الآية قال : " من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين " ، زاد البزار : "ويجيب داعياً" وقد رواه البخاري تعليقاً ، وجعله من كلام أبي الدرداء .

وأخرج البزار عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في الآية قال : " يغفر ذنبا ويفرج كربا " .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثقلان ﴾ قال : هذا وعيد من الله لعباده ، وليس بالله شغل ، وفي قوله : ﴿ لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بسلطان ﴾ يقول : لا تخرجون من سلطاني .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ﴾ قال : لهب النار ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ قال : دخان النار .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً ، ونحاس : قال الصفر يعذبون به .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ يقول : حمراء ﴿ كالدهان ﴾ قال : هو الأديم الأحمر .

وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كالدهان ﴾ قال : مثل لون الفرس الورد .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴾ قال : لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا ؟ لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول لهم : لم عملتم كذا وكذا ؟ وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث والنشور عنه أيضاً في قوله : ﴿ فَيُؤْخَذُ بالنواصى والأقدام ﴾ قال : تأخذ الزبانية بناصيته وقدميه ، ويجمع فيكسر ، كما يكسر الحطب في التنور .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءانٍ ﴾ قال : هو الذي انتهى حرّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 136. 139 ﴾

(83/740)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) ﴾

تفريع إخبار على إخبار فرع على بعض الخبر المجمل في قوله : ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ [الرحمن : 31] إلى آخره ، تفصيل لذلك الإجمال بتعيين وقته وشيء من أهوال ما يقع فيه للمجرمين وبشائر ما يعطاه المتّقون من النعيم والحبور .

وقوله : ﴿ فكانت وردة ﴾ تشبيه بليغ ، أي كانت كوَرْدة .

والوَرْدَة : واحدة الورد ، وهو زهر أحمر من شجرة دقيقة ذات أغصان شائكة تظهر في فصل الربيع وهو مشهور .

ووجه الشبه قيل هو شدة الحمرة ، أي يتغير لون السماء المعروف أنه أزرق إلى البياض ، فيصير لونها أحمر قال تعالى : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ [إبراهيم : 48] .

ويجوز عندي : أن يكون وجه الشبه كثرة الشقوق كأوراق الوردة .

والدهان ، بكسر الدال : دردي الزيت .

وهذا تشبيه ثان للسماء في التموج والاضطراب .

وجملة ﴿ فبأي ألاء ربكما تكذبان ﴾ معترضة بين جملة الشرط وجملة الجواب وقد مثّل بها في "مغني اللبيب" للاعتراض بين الشرط وجوابه ، وعينّ كونها معترضة لا حالية ، وهذه الجملة معترضة تكرير للتقرير والتوبيخ كما هو بيّن ، وانشقاق السماء من أحوال الحشر ، أي فإذا قامت القيامة وانشقت السماء .

كما قال تعالى : ﴿ فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء ﴾ [الحاقة : 15 ، 16] أن قوله : ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ [الحاقة : 18] .

وهذا هو الانشقاق المذكور في قوله : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً

الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾ في سورة الفرقان (25 ، 26) .

وجملة ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه ﴾ الخ جواب شرط (إذا) .

واقترن بالفاء لأنها صُدرت باسم زمان وهو ﴿ يومئذٍ ﴾ وذلك لا يصلح لدخول (إذا) عليه .

(84/740)

ومعنى ﴿ لا يسئل عن ذنبه ﴾ : نفي السؤال الذي يريد به السائل معرفة حصول الأمر المتردّد فيه ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ [القصص : 78] .

وليس هو الذي في قوله تعالى : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عمّا كانوا يعملون ﴾ [الحجر : 92 ، 93] وقوله : ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ [الصافات : 24] ، فإن ذلك للتقرير والتوبيخ فإن يوم القيامة متسع الزمان ، ففيه مواطن لا يسأل أهل الذنوب عن ذنوبهم ، وفيه مواطن يسألون فيها سؤالاً تقرير وتوبيخ .

وجملة ﴿ فبأي ألاء ربكما تكذبان ﴾ تكرير للتقرير والتوبيخ .

يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (41)

هذا استئناف بياني ناشىء عن قوله : ﴿ فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ [الرحمن : 39] ، أي يستغنى عن سؤالهم بظهور علاماتهم للملائكة ويعرفونهم بسيماهم فيؤخذون أخذ عقاب ويساقون إلى الجزاء .

والسيما : العلامة .

وتقدمت في قوله تعالى : ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾ في آخر سورة البقرة (273) .

و(آل) في ﴿ بالنواصي والأقدام ﴾ عوض عن المضاف إليه ، أي بنواصيهم وأقدامهم وهو استعمال كثير في القرآن .

6

والنواصي : جمع ناصية وهي الشعَر الذي في مقدّم الرأس ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ في سورة هود (56) .

والأخذ بالناصية أخذ تمكّن لا يفلت منه ، كما قال تعالى : ﴿ لئن لم ينته لنسفعن بالناصية ﴾ [العلق : 15] .

والأقدام : جَمع قَدَم ، وهو ظاهر السَّاق من حيث تمسك اليد رجل الهارب فلا يستطيع انفلاتاً وفيه أيضاً يوضع القيد ، قال النابغة:

أوْحرة كمهاة الرمل قد كُبِلت . . .

فوقَ المعاصم منها والعراقيب

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (42)

تكرير كما تقدم في نظيرها الذي قبلها .

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (44)

(85/740)

هذا مما يقال يوم القيامة على رؤوس الملأ .

ووصف ﴿ جهنم ﴾ بـ ﴿ التي يكذب بها المجرمون ﴾ تسفيه للمجرمين وفضح لهم .

وجملة ﴿ يطوفون ﴾ حال من ﴿ المجرمون ﴾ ، أي قد تبين سفه تكذيبهم بجهنم اتضاحاً بيناً بظهورها للناس وبأنهم يترددون خلالها كما ترددوا في إثباتها حين أنذروا بها في الدنيا .

والطواف : ترداد المشي والإِكثار منه ، يقال : طاف به ، وطاف عليه ، ومنه الطواف بالكعبة ، والطواف بالصفا والمروة ، قال تعالى : ﴿ فلا جناح عليه أن يطَّوف بهما ﴾ وتقدم في سورة البقرة (158) .

والحميمُ : الماء المغلَّى الشديد الحرارة .

والمعنى : يمشون بين مكان النار وبين الحميم فإذا أصابهم حرّ النار طلبوا التبرد فلاح لهم

الماء فذهبوا إليه فأصابهم حرُّه فانصرفوا إلى النار دَوَالَيْك وهذا كقوله : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل ﴾ [الكهف : 29] .

وآنٍ : اسم فاعل من أَنَى ، إذا اشتدت حرارته .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (45)

مثل موقع الذي قبله في التكرير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(86/740)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (24) ﴾

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ وله الجوار المنشآت ﴾ قال : المنشآت ما رفع قلعة من السفن ، فأما ما لم يرفع قلعة فليس بمنشآت .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن ﴿ وله الجوار المنشآت ﴾ قال : السفن و ﴿ المنشآت ﴾ قال : بالشراع ﴿ كالأعلام ﴾ قال : كالجبال .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ وله الجوار المنشآت ﴾ يعني السفن ﴿

كالأعلام ﴾ قال : كالجبال .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ وله الجوار المنشآت ﴾ قال : هي السفائن .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والمحاملي في أماليه عن عمير بن سعد قال : كنا مع عليّ على شط الفرات فمرت به سفينة فقرأ هذه الآية ﴿ وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم النخعي والضحاك أنهما كانا يقرآن ﴿ وله الجوار المنشآت في البحر ﴾ قال : أي الفاعلات .

وأخرج عبد بن حميد عن الأعمش أنه كان يقرأها ﴿ وله الجوار المنشآت ﴾ يعني الباديات .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه كان يقرأها على الوجهين بكسر الشين وفتحها .

قوله تعالى : ﴿ كل من عليها فان ﴾ الآية .

أخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : إذا قرأت ﴿ كل من عليها فان ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإِكرام ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله ﴿ ذو الجلال والإِكرام ﴾ قال : الكبرياء والعظمة .

وأخرج ابن المنذر والبيهقي عن حميد بن هلال قال : قال رجل : يرحم الله رجلاً أتى على هذه الآية ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإِكرام ﴾ فسأل الله تعالى بذلك الوجه الكافي الكريم ولفظ البيهقي بذلك الوجه الباقي الجميل .

قوله تعالى : ﴿ يسأله من في السماوات والأرض ﴾ الآية .

(87/740)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ يسأله من في السماوات والأرض ﴾ يعني يسأل عباده إياه الرزق والموت والحياة كل يوم هو في ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي صالح ﴿ يسأله من في السماوات والأرض ﴾ قال ﴿ يسأله من في السماوات ﴾ الرحمة ويسأله من في الأرض المغفرة والرزق .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في الآية قال : الملائكة يسألونه الرزق لأهل الأرض والأرض يسأله أهلها الرزق لهم .

وأخرج الحسن بن سفيان في مسنده والبزار وابن جرير والطبراني وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان وابن عساكر عن أبي الدرداء " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ قال : من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع

قوماً ويضع آخرين "

، زاد البزار : وهو يجيب داعياً .

وأخرج البزار عن ابن عمر " عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ قال : يغفر ذنباً ويفرج كرباً " .

وأخرج البيهقي عن أبي الدرداء في قوله ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ قال : يكشف كرباً ويجيب داعياً ويرفع قوماً ويضع آخرين .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ قال : إن مما خلق الله لوحاً محفوظاً من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور عرضه ما بين السماء والأرض ، ينظر فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة يخلق في كل نظرة ، ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويذل ويغل ويفك ، ويفعل ما يشاء ، فذلك قوله تعالى ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن عبيد بن عمير ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ قال : من شأنه أن يجيب داعياً ويعطي سائلاً ، ويفك عانياً ، ويشفي سقيماً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ قال : لا يستغني عنه أهل السماء والأرض ، يحيى حياً ، ويميت ميتاً ، ويربي صغيراً ، ويفك أسيراً ، ويغني فقيراً ، وهو مرد حاجات الصالحين ، ومنتهى شكرهم وصريخ الأخيار .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبي ميسرة ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ قال : يحيى ويميت ، ويصور في الأرحام ما يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من شاء ، ويفك الأسير .

وأخرج عبد بن حميد عن الربيع رضي الله عنه ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ قال : يخلق خلقاً ويميت آخرين ويرزقهم ويكلؤهم .

وأخرج عبد بن حميد عن سويد بن جبلة الفزاري ، وكان من التابعين ، قال : إن ربكم ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ يعتق رقاباً ويفحم عتاباً ويعطي رغاباً .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي الجوزاء رضي الله عنه ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ قال : لا يشغله شأن عن شأن .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ قال : من أيام الدنيا كل يوم يجيب داعياً ويكشف كرباً ويجيب مضطراً ويغفر ذنباً .

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (31)

أخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ سنفرغ لكم أيها

الثقلان ﴾ قال : قددنا من الله فراغ لخلقه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ قال : وعيد .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ قال : هذا وعيد من الله لعباده وليس بالله شغل ، وفي قوله : ﴿ لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ يقول : لا تخرجوا من سلطاني .

وأخرج البزار والبيهقي عن طلحة بن منصور ويحيى بن وثاب رضي الله عنه أنهما قرآ " سيفرغ لكم " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ قال : إلا بملكة من الله .

(89/740)

وأخرج ابن أبي الدنيا في هواتف الجان عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : كان سبب إسلام الحجاج بن علاط أنه خرج في ركب من قومه إلى مكة ، فلما جن عليه الليل

استوحش فقام يحرس أصحابه ويقول : أعيذ نفسي وأعيذ أصحابي من كل جني بهذا النقب حتى أن أعود سالماً وركبي ، فسمع قائلاً يقول ﴿ يا معشر الجن والإِنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ فلما قدم مكة أخبر بذلك قريشاً فقالوا له : إن هذا فيما يزعم محمد أنه أنزل عليه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ﴾ قال : لهب النار ﴿ ونحاس ﴾ قال : دخان النار .

وأخرج ابن الأنباري في كتاب الوقف والابتداء والطستي والطبراني عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ﴾ قال : الشواظ اللهب الذي لا دخان له . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت أمية بن أبي الصلت الثقفي وهو يقول :

يظل يشب كيراً بعد كير . . . وينفخ دائماً لهب الشواظ

قال : فأخبرني عن قوله ﴿ ونحاس ﴾ قال : هو الدخان الذي لا لهب فيه . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت الشاعر وهو يقول :

يضيء كضوء سراج السليط . . . لم يجعل الله فيه نحاساً

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ﴾ قال : لهب من نار .

وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ﴾ قال : هو اللهب الأحمر المنقطع منها ، وفي لفظ قال : قطعة من نار حمرة ﴿ ونحاس ﴾ قال : يذاب الصفر فيصب على رؤوسهم .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس ﴾ قال : واديان فالشواظ واد من نتن والنحاس واد من صفر والنتن نار .

(90/740)

وأخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ﴾ قال : نار تخرج من قبل المغرب تحشر الناس حتى أنها لتحشر القردة والخنازير ، تبيت حيث باتوا ، وتقيل حيث قالوا .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ونحاس ﴾ قال : هو الصفر يعذبون به .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ فلا تنتصران ﴾ يعني الجن والإِنس .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت

وردة ﴾ يقول : حمراء ﴿ كالدهان ﴾ قال : هو الأديم الأحمر .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فكانت وردة كالدهان ﴾ قال : مثل لون الفرس .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ فكانت وردة كالدهان ﴾ قال : حمراء كالدابة الوردة .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي الجوزاء رضي الله عنه ﴿ فكانت وردة كالدهان ﴾ قال : وردة الجل ﴿ كالدهان ﴾ قال : كصفاء الدهن ، ألم تر العربي يقول : الجل الورد .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن عطاء ﴿ فكانت وردة كالدهان ﴾ قال : لون السماء كلون دهن الورد في الصفرة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ قال : هي اليوم خضراء كما ترون ، وإن لها يوم القيامة لونا آخر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ فكانت وردة كالدهان ﴾ قال : كالدهن .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ فكانت وردة كالدهان ﴾ قال : صافية كصفاء الدهن .

وأخرج محمد بن نصر عن لقمان بن عامر الحنفي " أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بشاب يقرأ ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ فوقف فاقشعرّ وخنقته العبرة يبكي ويقول : ويلي من يوم تنشق فيه السماء ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا فتى فوالذي نفسي بيده لقد بكيت الملائكة من بكائك " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ قال : لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا لأنه أعلم بذلك منهم ولكن يقول : لم عملتم كذا وكذا ؟

وأخرج ابن جرير وابن مردوية عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ يقول : لا أسألهم عن أعمالهم ، ولا أسأل بعضهم عن بعض ، وهو مثل قوله

﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ [القصص : 78] ومثل قوله ﴿ ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ [البقرة : 119] .

وأخرج ابن مردوية عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "

لا يحاسب أحد يوم القيامة فيغفر له ، ويرى المسلم عمله في قبره يقول الله ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ " .

وأخرج آدم وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الشعب عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ قال : لا تسأل الملائكة عن المجرم يعرفونهم بسيماهم .

وأخرج هناد وعبد بن حميد عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ قال : بسواد وجوههم وزرقة عيونهم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ قال : بسواد الوجوه وزرقة العيون .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ قال : تأخذ الزبانية بناصيته وقدميه ، ويجمع فيكسر كما يكسر الحطب في التنور .

(92/740)

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ قال : يأخذ الملك بناصية أحدهم فيقرنها إلى قدميه ، ثم يكسر ظهره ، ثم يلقيه في النار .

وأخرج هناد في الزهد عن الضحاك رضي الله عنه في الآية قال : يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن رجل من كندة قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنه يأتي عليه ساعة لا يملك لأحد شفاعة ؟ قالت : نعم لقد سألته ، فقال : نعم حين يوضع الصراط وحين تبيض وجوه وتسود وجوه ، وعند الجسر حتى يشحذ حتى يكون مثل شفرة السيف ، ويسجر حتى يكون مثل الجمرة ، فأما المؤمن فيجيزه ولا يضره ، وأما المنافق فينطلق حتى إذا كان في وسطه خز في قدميه يهوى بيديه إلى قدميه ، فهل رأيت من رجل يسعى حافياً فيؤخذ بشوكة حتى تكاد تنفذ قدميه ، فإنه كذلك يهوى بيديه إلى قدميه فيضربه الزباني بخطاف في ناصيته فيطرح في جهنم يهوي فيها خمسين عاماً ، فقلت : أيثقل ؟ قال : يثقل خمس خلفات ، فيومئذ ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه والضياء المقدسي في صفة النار عن أنس رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " والذي نفسي بيده لقد خلقت زبانية جهنم قبل أن تخلق جهنم بألف عام فهم كل يوم يزدادون قوة إلى قوتهم حتى يقبضوا من قبضوا عليه بالنواصي

والأقدام" .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وبين حميم آن ﴾ قال : الذي انتهى حره .

وأخرج الطستي والطبراني عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ حميم آن ﴾ قال : الآني الذي انتهى طبخه وحره ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت نابغة بني ذبيان ، وهو يقول :

ويخضب لحية غدرت وخانت . . . بأحمى من نجيع الجوف آني

(93/740)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وبين حميم آن ﴾ قال : قد آنى طبخه منذ خلق الله السموات والأرض .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وبين حميم آن ﴾ قال : قد بلغ إناه .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ وبين حميم آن ﴾ قال : نار قد اشتد حرها .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير ﴿ وبين حميم آن ﴾ قال : النحاس انتهى حره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ 698.705 ﴾

(94/740)

فصل

قال الإمام ابن قتيبة :

باب التناقض والاختلاف

قال أبو محمد : عبد اللّه بن مسلم بن قتيبة :

فأما ما نخيلوه من التناقض في مثل قوله تعالى : فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ (39) [الرحمن : 39] . وهو يقول في موضع آخر : فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (93) [الحجر : 92 ، 93] .

فالجواب في ذلك : أن يوم القيامة يكون كما قال اللّه تعالى : مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ [المعارج : 4] ، ففي مثل هذا اليوم يسألون وفيه لا يسألون ، لأنهم حين يعرضون يوقفون على الذنوب ويحاسبون ، فإذا انتهت المسألة ووجبت الحجة : انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ [الرحمن : 37] وانقطع الكلام ، وذهب الخصام ، واسودّت وجوه قوم ،

وابيضت وجوه آخرين ، وعرف الفريقان بسيماهم ، وتطايرت الصحف من الأيدي :

فآخذ ذات اليمين إلى الجنة ، وآخذ ذات الشمال إلى النار .

وكذلك قال ابن عباس رضي اللّه عنه في قوله : فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ (39) [الرحمن : 39] قال : هو موطن لا يسألون فيه .

ومثله : وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ [القصص : 78] .

وقوله : لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ [ق : 28] وقوله : هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ (35) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36) [المرسلات : 35 ، 36] ، وهو يقول في موضع آخر : ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31) [الزمر : 31] ويقول : هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ [البقرة : 111 ، والنمل : 64] .

والجواب عن هذا كله نحو جوابنا الأول ، لأنهم يختصمون ويدعي المظلومون على الظالمين ، ففي تلك الحال يختصمون ، فإذا وقع القصاص وثبت الحكم قيل لهم :

(95/740)

لا تختصموا ولا تنطقوا ، ولا تعتذروا ، فليس ذلك بمغن عنكم ولا نافع لكم ، فيخسؤون .

روى عبد الرزّاق "1" عن معمر "2" ، عن قتادة "3" : أن رجلا جاء إلى عكرمة "4"

فقال : أرأيت قول اللّه تعالى : هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ ، وقوله : ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ فقال : إنها مواقف ، فأما موقف منها : فتكلموا واختصموا ، ثم ختم اللّه على أفواههم فتكلّمت أيديهم وأرجلهم ، فحينئذ لا يتكلمون .

وقوله : وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (25) [الطور : 25] ، وهو يقول في موضع آخر : فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ [المؤمنون : 101] ، فإنه إذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، تقطّعت الأرحام ، وبطلت الأنساب ، وشغلوا بأنفسهم عن التّسآل وفَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ [الزمر : 68] . فإذا نفخ فيه أخرى : قاموا ينظرون وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (27) [الصافات : 27] وقالوا : مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ [يس : 52] . وهو معنى قول ابن عباس .

وقوله : قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَبارَكَ فِيها وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (11) [فصلت : 9 ، 11] فدلّت هذه الآيات على أنه خلق الأرض قبل السماء .

وقال في موضع آخر : أَمِ السَّماءُ بَناها (27) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَها

وَأَخْرَجَ ضُحاها (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذِلكَ دَحاها [النازعات: 27، 30].

فدلّت هذه الآية على أنه خلق السماء قبل الأرض.

وليس على كتاب اللّه تحريف الجاهلين، وغلط المتأوّلين. وإنما كان يجد الطاعن

---

(1) عبد الرزاق: هو أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري، مولاهم الصغاني، المحدث اليمني، من رواة البخاري، ولد سنة 120 ه، وتوفي سنة 211 ه، من تصانيفه: "تزكية الأرواح عن مواقع الفلاح"، "تفسير القرآن"، "الجامع الكبير في الحديث"، "كتاب السنن في الفقه"، "كتاب المغازي". (كشف الظنون 5/ 566).

(2) معمر: هو معمر بن المثنى، أبو عبيدة، تقدمت ترجمته.

(3) قتادة: هو قتادة بن دعامة بن عزيز (بفتح العين وتشديد الراء) بن عمرو بن ربيعة السدوسي، أبو الخطاب البصري التابعي، ولد سنة 60 ه، وتوفي سنة 117 ه. صنّف "تفسير القرآن". (كشف الظنون 5/ 834).

(4) عكرمة: هو الحافظ أبو عبد اللّه، عكرمة بن عبد اللّه، بربري الأصل، مولى ابن عباس، من كبار التابعين توفي سنة 105 ه، له "تفسير القرآن". (كشف الظنون 5/ 666).

متعلّقا ومقالا لو قال : والأرض بعد ذلك خلقها أو ابتدأها أو أنشأها ، وإنما قال : دَحاها فابتدأ الخلق للأرض على ما في الآي الأول في يومين ، ثم خلق السموات وكانت دخانا في يومين ، ثم دحا بعد ذلك الأرض ، أي بسطها ومدّها ، وكانت ربوة مجتمعة ، وأرساها بالجبال ، وأنبت فيها النبات في يومين ، فتلك ستة أيام سواء للسائلين ، وهو معنى قول ابن عباس .

وقال مجاهد "1" : بعد ذلك في هذا الموضع ، بمعنى (مع ذلك) ، و(مع) و(بعد) في كلام العرب سواء .

وقوله : لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6) [الغاشية : 6] ، وهو يقول في موضع آخر : فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ (35) وَلا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36) [الحاقة : 35 ، 36] ، فإن النار دركات ، والجنة درجات ، وعلى قدر الذنوب والحسنات تقع العقوبات والمثوبات ، فمن أهل النار من طعامه الزّقّوم ، ومنهم من طعامه غسلين ، ومنهم من شرابه الحميم ، ومنهم من شرابه الصّديد .

والضّريع : نبت يكون بالحجاز ، يقال لرطبه : الشّبرق ، لا يسمن ولا يشبع ، قال امرؤ القيس "2" :

فأتبعتهم طرفي وقد حال دونهم غوارب رمل ذي ألاء وشبرق

والعرب تصفه بذلك .

وغسلين : فعلين من غسلت ، كأنه الغسالة ، قال بعض المفسرين : هو ما يسيل من أجساد المعذّبين .

وهذا نحو قوله : سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ [إبراهيم : 50] وسرابيلهم من قطر آن قراءة عكرمة ومن تابعه .

والقطر : النّحاس . والآن : الذي قد بلغ منتهى حرّه . كأن قوما يسربلون هذا ،

---

(1) مجاهد : هو مجاهد بن جبير المخزومي ، أبو الحجاج المقري المكي ، مولى عبد اللّه بن السائب ، وقيل : مولى السائب بن أبي السائب ، فقيه محدّث تابعي ثقة . توفي بمكة سنة 102 ه ، وقيل :

103 ه ، وقيل : 104 ه . صنّف "تفسير القرآن" . (أسماء التابعين 1/ 363 ، كشف الظنون 6/ 4) .

(2) البيت من الطويل ، وهو في ديوان امرئ القيس ص 169 ، ولسان العرب (شبرق) ، والبيت بلا نسبة في رصف المباني ص 51 . [. . . . .]

وقوما يسربلون هذا ، ويلبسون هذا تارة ، وهذا تارة .

وأما قولهم : (كيف يكون في النار نبت وشجر ، والنار تأكلهما ؟) فإنه لم يرد فيما يرى أهل النظر – والله أعلم – أن الضريع بعينه ينبت في النار ، ولا أنهم يأكلونه .

والضريع من أقوات الأنعام لا من أقوات الناس ، وإذا وقعت فيه الإبل لم تشبع وهلكت هزلا .

قال الهذليّ يذكر إبلا وسوء مرعاها "1" :

(98/740)

وحبسن في هزم الضريع فكلّها حدباء دامية اليدين حرود

فأراد أن هؤلاء قوم يقتاتون ما لا يشبعهم ، وضرب الضريع لهم مثلا . أو يعذّبون بالجوع كما يعذب من قوته الضريع .

وكان ما أراد الله بهذا معلوما عندهم مفهوما ، ولو لم يكن كذلك لأنكروه كما أنكروا قوله : إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (65) [الصافات : 64 ، 65] وقالوا : كيف تكون في النار شجرة والنار تأكل الشجر ؟

فأنزل الله : وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ

[الإسراء : 60] ، يعني بالرؤيا : ما رآه ليلة أسري به وأخبر عنه ، فارتد لذلك قوم ، وزاد اللّه في بصائر قوم . وأراد بالشجرة الملعونة : شجرة الزّقّوم . فهذا وجه .

وقد يكون الضريع وشجرة الزّقّوم : نبتين من النار ، أو من جوهر لا تأكله النار .

وكذلك سلاسل النار وأغلالها ، وأنكالها وعقاربها وحيّاتها - لو كانت على ما نعلم ، لم تبق على النار ، وإنما دلّنا اللّه سبحانه على الغائب عنده بالحاضر عندنا ، فالأسماء متفقة للدلالة ، والمعاني مختلفة .

وما في الجنة من شجرها وثمرها وفرشها ، وجميع آلاتها - على مثل ذلك .

قال ابن عباس : نخل الجنة ، جذوعها من زمرّد أخضر ، وكربها من ذهب أحمر ، وسعفها كسوة لأهل الجنة ، منها مقطّعاتهم وحللهم وثمرها أمثال القلال والدّلاء ، أشدّ

---

(1) يروى عجز البيت بلفظ :

حدباء بادية الضلوع حرود والبيت من الكامل ، وهو لقيس بن عيزارة الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص 598 ، ولسان العرب (ضرع) ، (هزم) وأساس البلاغة (حرد) ، وتاج العروس (ضرع) ، (هزم) ، وبلا نسبة في مقاييس اللغة 3/ 396 ، وديوان الأدب 1/ 414 ، والمخصص 10/ 201 .

بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، وألين من الزبد ، ليس له عجم .

وقوله : وَما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ، [الأنفال : 33] ثم قال على إثر ذلك : وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ [الأنفال : 34] فإن النّضر بن الحارث قال : اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ [الأنفال : 32] يريد أهلكنا ومحمدا ومن معه عامة . فأنزل اللّه تعالى : وَما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ، [الأنفال : 33] أي وفيهم قوم يستغفرون ، يعني المسلمين .

يدلّك على ذلك قول اللّه تبارك وتعالى : وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33) [الأنفال : 33] ، ثم قال : وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ خاصة وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ [الأنفال : 34] يعني المسلمين ، فعذّبهم اللّه بالسيف بعد خروج النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم عنهم ، وفي ذلك نزلت : سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ (1) ، [المعارج : 1] أي دعا داع بعذاب واقع ، يعني النضر بن الحارث لِلْكافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ (2) [المعارج : 2] يقول : هو للكافرين خاصة دون المؤمنين ، وهو معنى قول ابن عباس .

وقال (مجاهد) في قوله : وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ : علم أن في أصلابهم من سيستغفر .

وأما قولهم : أين قوله : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى من قوله : فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ [النساء : 3] ، فهل شيء أشبه بشيء أليق به من أحد الكلامين بالآخر ؟ ! .

(100/740)

و المعنى : أن اللّه تعالى قصر الرجال على أربع نسوة وحرّم عليهم أن ينكحوا أكثر منهن ، لأنه لو أباح لهم أن ينكحوا من الحرائر ما أباح من ملك اليمن لم يستطيعوا العدل عليهن بالتّسوية بينهن ، فقال لنا : فكما تخافون ألا تعدلوا بين اليتامى إذا كفلتموهم ، فخافوا أيضا ألا تعدلوا بين النساء إذا نكحتموهن ، فانكحوا اثنتين وثلاثا وأربعا ، ولا تتجاوزوا ذلك فتعجزوا عن العدل .

ثم قال : فإن خفتم أيضا ألا تعدلوا بين الثلاث والأربع ، فانكحوا واحدة ، أو اقتصروا على ما ملكت أيمانكم من الإماء ، ذلك أدنى ألا تعولوا ، أي لا تجوروا وتميلوا .

وقال ابن عباس : قصر الرجال على أربع من أجل اليتامى .

يقول : لما كان النساء مكفولات بمنزلة اليتامى ، وكان العدل على اليتامى شديدا على كافلهم - قصر الرجال على ما بين الواحدة إلى الأربع من النساء ، ولم يطلق لهم ما فوق ذلك ، لئلا يميلوا .

وقولهم : أين قوله : جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ من قوله : ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [المائدة : 97] ؟ .

وتأويل هذا : أن أهل الجاهلية كانوا يتغاورون ويسفكون الدماء بغير حقها ، ويأخذون الأموال بغير حلّها ، ويخيفون السّبل ، ويطلب الرجل منهم الثأر فيقتل غير قاتله ، ويصيب غير الجاني عليه ، ولا يبالي من كان بعد أن يراه كفأ لوليّه ويسمّيه : الثأر المنيم ، وربما قتل أحدهم حميمه بحميمه .

قال ابن مضرّس وقتل خاله بأخيه "1" :

بكت جزعا أمّي رميلة أن رأت دما من أخيها بالمهنّد باقيا

فقلت لها : لا تجزعي إنّ طارقا خليلي الذي كان الخليل المصافيا

وما كنت لو أعطيت ألفي نجيبة وأولادها لغوا وستين راعيا

لأقبلها من طارق دون أن أرى دما من بني حصن على السيف جاريا

وما كان في عوف قتيل علمته ليوفيني من طارق غير خاليا

وربما أسرف في القتل فقتل بالواحد ثلاثة وأربعة وأكثر .

وقال الشاعر "2" :

هم قتلوا منكم بظنّة واحد ثمانية ثم استمرّوا فأرتعوا

يقول : إنهم اتهموكم بقتل رجل منهم ، فقتلوا منكم ثمانية به .

فجعل اللّه الكعبة البيت الحرام وما حولها من الحرم ، والشهر الحرام ، والهدي ، والقلائد - قواما للناس . أي أمنا لهم ، فكان الرجل إذا خاف على نفسه لجأ إلى الحرم فأمن . يقول اللّه جل وعز : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَما آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ [العنكبوت : 67] .

---

(1) الأبيات من الطويل ، وهي لتوبة بن المضرس العبسي في كتاب الوحشيات ص 82 .

(2) البيت من الطويل ، وهو بلا نسبة في المعاني الكبير لابن قتيبة ص 1021 .

(101/740)

وإذا دخل الشهر الحرام تقسّمتهم الرّحل ، وتوزّعتهم النّخع ، وانبسطوا في متاجرهم ، وأمنوا على أموالهم وأنفسهم .

وإذا أهدى الرجل منهم هديا ، أو قلّد بعيره من لحاء شجر الحرم - أمن كيف تصرّف وحيث سلك .

ولو ترك الناس على جاهليتهم وتغاورهم في كل موضع وكل شهر - لفسدت الأرض ، وفني الناس ، وتقطّعت السّبل ، وبطلت المتاجر . ففعل اللّه ذلك لعلمه بما فيه من صلاح شؤونهم ، وليعلموا كما علم ما فيه من الخير لهم - أنه يعلم أيضا ما في السّموات وما في

الأرض من مصالح العباد ومرافقهم ، وأنه بكل شيء عليم .

وقولهم : وأين قوله : أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ من قوله : إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ [لقمان : 31] .

(102/740)

و لم يرد اللّه في هذا الموضع معنى الصبر والشكر خاصة ، وإنما أراد : إن في ذلك لآيات لكل مؤمن . والصبر والشكر أفضل ما في المؤمن من خلال الخير ، فذكره اللّه عز وجل في هذا الموضع بأفضل صفاته . وقال في موضع آخر : إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (77) [الحجر : 77] . وفي موضع آخر : لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [النحل : 69] وَلِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [النحل : 67] وَإِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ [الرعد : 19] يعني المؤمنين .

ومثله قوله تعالى في قصة سبإ : وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ [سبأ : 19] . وهذا كما تقول : أن في ذلك لآية لكل موحّد مصلّ ، ولكلّ فاصل تقيّ . وإنما تريد المسلمين .

وقوله : كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ [الحديد : 20] فإنما يريد بالكفار هاهنا : الزّرّاع ، واحدهم كافر . وإنما سمّي كافرا لأنه إذا ألقى البذر في الأرض كفره ، أي غطّاه ،

وكل شيء ، غطّيته فقد كفرته ، ومنه قيل : تكفّر فلان في السّلاح : إذا تغطّى .

ومنه قيل للّيل كافر ، لأنه يستر بظلمته كل شيء .

ومنه قول الشاعر "1" :

يعلو طريقة متنها متواترا في ليلة كفر النّجوم غمامها

---

(1) يروى صدر البيت بلفظ :

يعلو طريقة متنها متواتر والبيت من الكامل ، وهو للبيد في ديوانه ص 309 ، وجمهرة اللغة ص 787 ، وكتاب الجيم 3/ 168 ، وبلا نسبة في المخصص 12/ 238 .

(103/740)

أي غطاها . وهذا مثل قوله تعالى : يُعْجِبُ الزُّرّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفّارَ [الفتح : 29] .

وأما قوله : خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلّا ما شاءَ رَبُّكَ [هود : 107] ، فإن للعرب في معنى (الأبد) ألفاظا يستعملونها في كلامهم ، يقولون : لا أفعل ذلك ما اختلف الليل والنهار ، وما طمى البحر ، أي ارتفع ، وما أقام الجبل ، وما دامت السموات والأرض ، في أشباه لهذا كثيرة ، يريدون لا أفعله أبدا ، لأن هذه المعاني عندهم لا تتغير عن أحوالها أبدا ، فخاطبهم اللّه بما يستعملونه فقال : خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أي

مقدار دوامهما ، وذلك مدة العالم. وللسماء وللأرض وقت يتغيّران فيه عن هيئتهما ، يقول اللّه تعالى : يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ [إبراهيم : 48] ، ويقول : يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ [الأنبياء : 104] .

أراد أنهم خالدون فيها مدة العالم ، سوى ما شاء اللّه أن يزيدهم من الخلود على مدة العالم.

ثم قال : عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ [هود : 108] أي غير مقطوع.

و(إلّا) في هذا الموضع بمعنى (سوى) ومثله من الكلام : لأسكننّ في هذه الدار حولا إلا ما شئت. تريد سوى ما شئت أن أزيد على الحول.

هذا وجه. وفيه (قول آخر) ، وهو : أن يجعل دوام السماء والأرض بمعنى الأبد ، على ما تعرف العرب وتستعمل ، وإن كانتا قد تتغيّران ، وتستثنى المشيئة من دوامهما ، لأن أهل الجنة وأهل النار قد كانوا في وقت من أوقات دوام السماء والأرض في الدنيا لا في الجنة ، فكأنه قال : خالدين في الجنة وخالدين في النار دوام السماء والأرض ، إلا ما شاء ربك من تعميرهم في الدنيا قبل ذلك.

وفيه (وجه ثالث) : وهو أن يكون الاستثناء من الخلود مكث أهل الذنوب من المسلمين في النار حتى تلحقهم رحمة اللّه ، وشفاعة رسوله ، فيخرجوا منها إلى الجنة.

فكأنه قال سبحانه : خالدين في النار ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من إخراج المذنبين من المسلمين إلى الجنة ، وخالدين في الجنة ما دامت السموات والأرض ، إلا ما شاء ربك من إدخال المذنبين النار مدة من المدد ، ثم يصيرون إلى الجنة .

وأما قوله : لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى [الدخان : 56] ، فإن (إلّا) في هذا الموضع أيضا بمعنى (سوى) . ومثله : وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ [النساء : 22] يريد سوى ما سلف في الجاهلية قبل النهي .

وإنما استثنى الموتة الأولى وهي في الدنيا ، لأن السّعداء حين يموتون يصيرون بما شاء اللّه من لطفه وقدرته ، إلى أسباب من أسباب الجنة ، ويتفاضلون أيضا في تلك الأسباب على قدر منازلهم عند اللّه : فمنهم من يلقّى بالرّوح والرّيحان ، ومنهم من يفتح له باب إلى الجنة ، ومنهم الشهداء أرواحهم في حواصل طير خضر تعلق في الجنة . أي تأكل ، قال الشاعر "1" :

إن تدن من فنن الألاءة تعلق وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين يطير مع الملائكة في الجنة .

واللّه يقول : وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) [آل عمران : 169] .

أفما ترى أنهم عندنا موتى وهم في الجنة متّصلون بأسبابها ؟ فكيف لا يجوز أن يستثنى من

مكثهم فيها الموتة الأولى ؟ .

وأما قوله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا (96) [مريم : 96] ، فإنه ليس على تأوّلهم ، وإنما أراد أنه يجعل لهم في قلوب العباد محبّة .

فأنت ترى المخلص المجتهد محبّبا إلى البرّ والفاجر ، مهيبا مذكورا بالجميل . ونحوه قول اللّه سبحانه في قصة موسى صلّى اللّه عليه وسلّم : وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي [طه : 39] ، ولم يرد في هذا الموضع أني أحببتك ، وإن كان يحبه ، وإنما أراد أنه حبّبه إلى القلوب ، وقرّبه من النفوس ، فكان ذلك سببا لنجاته من فرعون ، حتى استحياه في السّنة التي كان يقتل فيها الولدان .

وأما قوله : وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً (9) [النبأ : 9] ، فليس السّبات هاهنا : النوم ، فيكون معناه : وجعلنا نومكم نوما . ولكن السّبات الراحة : أي جعلنا النوم راحة لأبدانكم . ومنه قيل : يوم السبت ، لأن الخلق اجتمع في يوم الجمعة ، وكان الفراغ منه يوم السبت ، فقيل لبني إسرائيل : استريحوا في هذا اليوم ، ولا تعملوا شيئا ، فسمّي يوم السبت ، أي يوم الراحة . وأصل السبت : التّمدّد ، ومن تمدّد استراح . ومنه قيل : رجل مسبوت ، ويقال : سبتت المرأة شعرها : إذا نقضته من العقص وأرسلته . قال أبو وجزة السّعدي "2" :

---

(1) صدر البيت : أو فوق طاوية الحشى رمليّة والبيت من الكامل ، وهو للكميت في تاج العروس (علق) ، وليس في ديوانه .

(2) البيت من الطويل ، وهو بلا نسبة في أمالي المرتضى 2/ 15 ، وتفسير البحر المحيط 8/ 409 .

(105/740)

وإن سبّتته مال جثلا كأنّه سدى وأثلاث من نواسج خثعما

ثم قد يسمى النوم سباتا ، لأنه بالتمدّد يكون . ومثل هذا كثير ، وستراه في (باب المجاز) إن شاء اللّه .

وأما قوله : وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا (15) قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ [الإنسان :

(106/740)

---

15 ، 16] ، فقد أعلمتك أن كل ما في الجنة من آنيتها وسررها وفرشها وأكوابها - مخالف لما في الدنيا من صنعة العباد ، وإنما دلّنا اللّه بما أراناه من هذا الحاضر على ما عنده من الغائب . وقال ابن عباس : ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء . والأكواب :

كيزان لا عرى لها ، وهي في الدنيا قد تكون من فضة ، وتكون من قوارير .

فأعلمنا أن هناك أكوابا لها بياض الفضّة وصفاء القوارير ، وهذا على التشبيه ، أراد قوارير كأنها من فضة ، كما تقول : أتانا بشراب من نور ، أي كأنه نور .

وقال قتادة في قول اللّه عز وجل : كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58) [الرحمن : 58] أي لهنّ صفاء الياقوت وبياض المرجان .

وأما قوله : حِجَارَةً مِنْ طِينٍ [الذاريات : 33] ، فإن ابن عباس ، رضي اللّه عنه ، ذكر أنها آجرّ . والآجرّ : حجارة الطين ، لأنه في صلابة الحجارة .

وقرأت في التّوراة بعد ذكر أنساب ولد نوح صلّى اللّه عليه وسلّم : أنهم تفرّقوا في كل أرض ، وكانت الأرض لسانا واحدا ، فلما ارتحلوا من المشرق وجدوا بقعة في الأرض اسمها (سعير) فحلّوا بها ، ثم جعل الرجل منهم يقول لصاحبه : هلمّ فلنلبّن لبنا فنحرّقه بالنار فيكون اللّبن حجارة ، ونبني مجدلا "1" رأسه في السماء .

وذكر بعض من رأى هذه الحجارة أنها حمر مختّمة . وقال آخرون : مخطّطة ، وذلك تسويمها ، ولهذا ذهب قوم في تفسير (سجّيل) إلى سنك وكل . أي حجر وطين .

وأما قوله : فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ [يونس : 94] ، فإن المخاطبة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، والمراد غيره من الشّكاك ، لأن القرآن نزل عليه بمذاهب العرب كلّها ، وهم قد يخاطبون الرجل بالشيء ويريدون غيره .

والجواب عن هذا مستقصى في (باب الكناية والتعريض) فكرهت إعادته في هذا الموضع .

)

1) المجدل : القصر المشرق ، لوثاقة بنائه ، وجمعه : مجادل .

وأما قوله : وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا [مريم : 62] ، فإن الناس يختلفون في مطاعمهم : فمنهم من يأكل الوجبة ، ومنهم من عادته الغداء والعشاء ، ومنهم من يزيد عليهما ، ومنهم من يأكل متى وجد لغير وقت ولا عدد . فأعدل هذه الأحوال للطّاعم وأنفعها ، وأبعدها من البشم "1" والطّوى "2" على العموم - الغداء والعشاء . والعرب تكره الوجبة ، وتستحبّ العشاء ، وتقول : ترك العشاء مهرمة ، وترك العشاء يذهب بلحم الكاذة "3" . وقد بيّنت معناهم في هذا القول في كتاب (غريب الحديث) .

ونحن لا نعرف دهرا لا يختلف له وقت ، ولا يرى فيه ظلام ولا شمس ، فأراد اللّه جل وعز أن يعرّفنا من حيث نفهم ونعلم ، أحوال أهل الجنة في مأكلهم ، واعتدال أوقات مطاعمهم ، فضرب لنا البكرة والعشيّ مثلا ، إذ كانا يدلّان على العشاء والغداء .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، أنه قال : كانت العرب إذا أصاب أحدهم الغداء والعشاء أعجبه ذلك . فأخبرهم اللّه تبارك وتعالى أن لهم في الجنة هذه الحال التي تعجبهم في الدنيا .

وأما قوله : النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا [غافر : 46] ، فإنه لم يرد أن ذلك يكون في الآخرة ، وإنما أراد أنهم يعرضون عليها بعد مماتهم في القبور .

وهذا شاهد من كتاب اللّه لعذاب القبر ، يدلّك على ذلك قوله : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ، [غافر : 46] فهم في البرزخ يعرضون على النار غدوّا وعشيّا ، وفي القيامة يدخلون أشد العذاب .

وأما قوله : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ [الرعد : 35] ، ولم يأت بالشيء الذي جعل له الجنة مثلا – فإن أصل المثل ما ذهبوا إليه من معنى المثل ، تقول : هذا مثل الشيء ومثله ، كما تقول : هذا شبه الشيء وشبهه .

ثم قد يصير المثل بمعنى الشيء وصفته ، وكذلك المثال والتّمثال ، يقال للمرأة الرّائقة : كأنها مثال ، وكأنها تمثال ، أي صورة ، كما يقال : كأنها دمية ، أي صورة ، وإنما هي مثل ، وقد مثّلت لك كذا ، أي صوّرته ووصفته .

فأراد اللّه بقوله : مَثَلُ الْجَنَّةِ ، أي صورتها وصفتها .

---

(1) البشم : التخمة .

(2) الطوى : الجوع .

(3) الكاذة : لحم مؤخر الفخذين .

(108/740)

وروي أن عليّا رحمه اللّه كان يقرأ : مثال الجنة أو أمثال الجنة

، وهو بمنزلة مثل ، إلا أنه أوضح وأقرب في أفهام الناس إلى المعنى الذي تأوّلناه في مثل .

ونحوه قوله : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ثم قال : ذِلكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ [الفتح : 29] أي ذلك وصفهم ، لأنه لم يضرب لهم مثلا في أوّل الكلام ، فيقول : ذِلكَ مَثَلُهُمْ وإنما وصفهم وحلّاهم ، ثم قال : ذِلكَ مَثَلُهُمْ أي وصفهم .

وقوله : يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، ثم قال : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ [الحج : 73] ، ولم يأت بالمثل ، لأن في الكلام معناه ، كأنه قال : يا أيها الناس ، مثلكم مثل من عبد آلهة اجتمعت لأن تخلق ذبابا لم تقدر عليه ، وسلبها

الذباب شيئًا فلم تستنقذه منه .

ومثل هذا في القرآن وكلام العرب أشياء قد اقتصصناها في (أبواب المجاز) .

(109/740)

وأما قوله : وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ (40) [الرعد : 40] . فإنه لم يرد أن عليك البلاغ بعد الوفاة كما ظنّوا ، وإنما أراد : إن أريناك بعض الذي نعدهم في حياتك ، أو توفيناك قبل أن نريك ذلك – فليس عليك إلا أن تبلّغ ، وعلينا أن نجازي .

ومثل هذا : رجل بعثته واليا وقلت له : سر إلى بلد كذا فادعهم ، فإن استجابوا لك فأحسن فيهم السيرة ، وابسط المعدلة ، وإن عصوك فعظهم وحذّرهم عقاب المعصية ، فإن أقاموا على الغواية أعلمتني ليأتيهم النّكير . فصار إليهم فمانعوه ، ووعظهم فخالفوه ، وأقام حينا مستبطئًا ما أوعدتهم به ، فقلت : إن أريناك ما وعدناهم من العقوبة أو عزلناك قبل أن نريك ذلك – فليس لك أن تستبطئنا ، إنما عليك التّبليغ والعظة ، وعلينا الجزاء والمكافأة .

وأما قوله : فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ [النحل : 112] .

وقوله : وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ [الأحزاب : 10] .

وقوله : كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ [الأنفال : 5] .

وقوله : سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16) [القلم : 16] .

فقد ذكرنا الجواب عن ذلك في (باب المجاز) ، وكرهنا إعادته في هذا الموضع وستراه هناك كافيا ، إن شاء اللّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 46 . 57 ﴾

(110/740)

قوله تعالى ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (47) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (48) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (50) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (51) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (52) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (53) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (55) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان قد عرف ما للمجرم المجترئ على العظائم ، وقدمه لما اقتضاه مقام التكبر من

الترهيب وجعله سبعاً إشارة إلى أبواب النار السبعة ، عطف عليه ما للخائف الذي أداه خوفه إلى الطاعة وجعله ثمانية على عدد أبواب الجنة الثمانية فقال : ﴿ ولمن ﴾ أي ولكل من ، ووحد الضمير مراعاة للفظ ﴿ من ﴾ إشارة إلى قلة الخائفين ﴿ خاف ﴾ أي من الثقلين .

ولما كان ذكر الخوف من الزمان المضروب للحساب والتدبير والمكان المعد لهما أبلغ من ذكر الخوف من الملك المحاسب المدبر ، والخوف مع ذكر وصف الإكرام أبلغ من ذكر الخوف عند ذكر أوصاف الجلال ، قال دالاًّ بذلك على أن المذكور رأس الخائفين : ﴿ مقام ربه ﴾ أي مكان قيامه الذي يقيمه وغيره فيه المحسن إليه للحكم وزمانه الذي ضربه له وقيامه عليه وعلى غيره بالتدبير ، فهو رقيب عليه وعليهم ، فكيف إذا ذكر مقام المنتقم الجبار المتكبر فترك لهذا ما يغضبه وفعل ما يرضيه ﴿ جنَّتان ﴾ عن يمين وشمال ، واحدة للعلم والعقل وأخرى للعمل ، ويمكن أن يراد بالتثنية المبالغة إفهاماً لأنها جنان متكررة ومتكثرة مثل ﴿ ألقيا في جهنم كل كفَّارٍ عنيد ﴾ [ق : 24] ونحو ذلك .

ولما كانت هذه نعمة جامعة ، سبب عنها قوله : ﴿ فبأيِّ آلاء ربكما ﴾ أي نعم المربي لكما والمحسن إليكم بإحسانه الكبار التي لا يقدر غيره على شيء منها ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة الشم من اليسار المنبعثة من القلب أو غيرها من تربة جنان الدنيا بنفس جهنم من حر الشمس وحرورها ، فجعل من ذلك جميع الفواكه والزروع إلى غير ذلك من المرافق التي

طبخها بها ﴿ وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ [يوسف : 105] وغير ذلك من نعمه التي لا تحصى .

ولما كانت البساتين لا يكمل مدحها إلا بكثرة الأنواع والألوان والفروع المشتبكة والأغصان ، قال واصفاً لهما : ﴿ ذواتا ﴾ أي صاحبتا برد عين الكلمة فإن أصلها " ذوو " ﴿ أفنان ﴾ أي جميع فن يتنوع فيه الثمار ، وفنن وهو الغصن المستقيم طولاً الذي تكون به الزينة بالورق والثمر وكمال الانتفاع ، قال عطاء : في كل غصن فنون من الفاكهة ؛ ولهذا سبب عنه قوله : ﴿ فبأيّ آلاء ربكما ﴾ أي المربي لكما والمحسن إليكما ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة الشم من جهة الفوق أو غيرها مما ذكره لكم من وصف الجنة الذي جعل لكم من أمثاله ما تعتبرون به .

(111/740)

ولما كانت الجنان لا تقوم إلا بالأنهار قال : ﴿ فيهما عينان ﴾ أي في كل واحدة عين ﴿ تجريان ﴾ أي في كل مكان شاء صاحبهما وإن علا مكانه كما تصعد المياه في الأشجار في كل غصن منها ، وإن زاد علوها جرى على عيني دموعه الجاريتين من خشية الله وذلك على مثال جنان الدنيا ، والشمس صاعدة في البروج الشمالية من تكامل المياه وتفجرها

عيوناً في أيام الربيع والصيف لقرب العهد بالأمطار ﴿ فبأي آلاء ربكما ﴾ أي المالك لكما والمحسن إليكما ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة الشم من جهة التحت أو غيرها مما ذكره وجعل له في الدنيا أمثالاً كثيراً .

ولما كان بالمياه حياة النبات وزكاؤه ، قال ذاكراً أفضل النبات : ﴿ فيهما ﴾ أي هاتين الجنتين العاليتين ، ودل على جميع كل ما يعلم وزيادة بقوله : ﴿ من كل فاكهة ﴾ أي تعلمونها أو لا تعلمونها ﴿ زوجان ﴾ أي صنفان يكمل أحدهما بالآخر كما لا يدرك كنه أحد الزوجين بسبب العمل بما يرضى والآخر بالانتهاء عما يسخط ﴿ فبأيِّ آلاء ربكما ﴾ أي النعم الكبار التي رباها الموجد لكما المحسن إليكما ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة اللمس من الأمام أو غيرها من أنه أوجد لكما جنان الدنيا بواسطة حر النار التي هي أعدى عدوكما إشارة إلى أنه قادر على أنه يوجد برضوانه ومحبته من موضع غضبه وانتقامه إكراماً ، فقد جعل ما في الدنيا مثالاً لما ذكر في الآخرة ، فبأي شيء من ذلك تكذبان ، لا يكمل الإيمان حتى يصدق المؤمن أنه تعالى قادر على أن يجعل من جهنم جنة بأن يجعل من موضع سخطه رحمة ويشاء ذلك ويعتبر ذلك بما أرانا من نموذجه .

(112/740)

ولما كان التفكه لا يكمل حسنه إلا مع التنعم من طيب الفرش وغيره ، قال مخبراً عن الذين يخافون مقام ربهم من قبيلي الإنس والجن مراعياً معنى ﴿ من ﴾ بعد مراعاة لفظها تحقيقاً للواقع : ﴿ متكئين ﴾ أي لهم ما ذكر في حال الاتكاء وهو التمكين بهيئة المتربع أو غيره من الكون على جنب ، قال في القاموس : توكأ عليه : تحمل ، واعتمد كأوكأ ، والتكأة كهمزة : العصا ، وما يتوكأ عليه ، وضربه فأتكأه : ألقاه على هيئة المتكئ أو على جانبه الأيسر ، وقال ابن القطاع : وضربته حتى أتكأته أي سقط على جانبه ، وهو يدل على تمام التنعم بصحة الجسم وفراغ البال ﴿ على فرش ﴾ وعظمها بقوله مخاطباً للمكلفين بما تحتمل عقولهم وإلا فليس في الجنة ما يشبهه على الحقيقة شيء من الدنيا ﴿ بطائنها ﴾ أي فما ظنك بظواهرها ووجوهها ﴿ من إستبرق ﴾ وهو ثخين الديباج يوجد فيه من حسنه بريق كأنه من شدة لمعانه يطلب إيجاده حتى كأنه نور مجرد .

ولما كان المتكئ قد يشق عليه القيام لتناول ما يريد قال : ﴿ وجنى الجنتين ﴾ أي مجنيهما اسم بمعنى المفعول – كأنه عبر به ليفهم سهولة نفس المصدر الذي هو الاجتناء ﴿ دان ﴾ أي قريب من كل من يريده من متكئ وغيره لا يخرج إلى صعود شجرة ، وموجود من كل حين يراد غير مقطوع ولا ممنوع .

ولما كان ربما وجد مثل من ذلك شاهد له من أغصان تنعطف بجملتها فتقرب وأخرى تكون قريبة من ساق الشجرة فيسهل تناولها قال : ﴿ فبأيِّ آلاء ربكما ﴾ أي النعم الكبار

الملوكية التي أوجدها لكما هذا المربي لكما الذي يقدر على كل ما يريد ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة اللمس من جهة الوراء أم غيرها من قدرته على عطف الأغصان وتقريب الثمار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 392. 395 ﴾

(113/740)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (47) ﴾

(114/740)

وفيه لطائف : الأولى : التعريف في عذاب جهنم قال : ﴿ هذه جَهَنَّمُ ﴾ [الرحمن : 43] والتنكير في الثواب بالجنة إشارة إلى أن كثرة المراتب التي لا تحد ونعمه التي لا تعد ، وليعلم أن آخر العذاب جهنم وأول مراتب الثواب الجنة ثم بعدها مراتب وزيادات الثانية : قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ بالقرءان مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : 45] أن الخوف

خشية سببها ذل الخاشي ، والخشية خوف سببه عظمة المخشى ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [فاطر : 28] لأنهم عرفوا عظمة الله فخافوه لا لذل منهم ، بل لعظمة جانب الله ، وكذلك قوله : ﴿ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴾ [المؤمنون : 57] وقال تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرءان على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خاشعا مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [الحشر : 21] أي لو كان المنزل عليه العالم بالمنزل كالجبل العظيم في القوة والارتفاع لتصدع من خشية الله لعظمته ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَتَخْشَى الناس والله أَحَقُّ أَن تخشاه ﴾ [الأحزاب : 37] وإنما قلنا : إن الخشية تدل على ما ذكرنا لأن الشيخ للسيد والرجل الكبير يدل على حصول معنى العظمة في خ ش ي ، وقال تعالى في الخوف : ﴿ وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا ﴾ [طه : 21] لما كان الخوف يضعف في موسى ، وقال : ﴿ لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ ﴾ [العنكبوت : 33] وقال : ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء : 14] وقال إني : ﴿ خِفْتُ الموالى مِن وَرَائِى ﴾ [مريم : 5] ويدل عليه تقاليب خ و ف فإن قولك خفي قريب منه ، والخافي فيه ضعف والأخيف يدل عليه أيضاً ، وإذا علم هذا فالله تعالى مخوف ومخشي ، والعبد من الله خائف وخاش ، لأنه إذا نظر إلى نفسه رآها في غاية الضعف فهو خائف ، وإذا نظر إلى حضرة الله رآها في غاية العظمة فهو خاش ، لكن درجة الخاشي فوق درجة الخائف ، فلهذا قال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ

العلماء ﴾ جعله منحصراً فيهم لأنهم وإن فرضوا أنفسهم على غير ما هم عليه ، وقدروا أن الله رفع عنهم جميع ما هم فيه من الحوائج لا يتركون خشيته ، بل تزداد خشيتهم ، وإما الذي يخافه من حيث إنه يفقره أو يسلب جاهه ، فربما يقل خوفه إذا أمن ذلك ، فلذلك قال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ وإذا كان هذا للخائف فما ظنك بالخاشي ؟

الثالثة : لما ذكر الخوف ذكر المقام ، وعند الخشية ذكر اسمه الكريم فقال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى الله ﴾ وقال : ﴿ لَّرَأَيْتَهُ خاشعا مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ وقال عليه السلام : " خشية الله رأس كل حكمة " لأنه يعرف ربه بالعظمة فيخشاه .

وفي مقام ربه قولان : أحدهما : مقام ربه أي المقام الذي يقوم هو فيه بين يدي ربه ، وهو مقام عبادته كما يقال : هذا معبد الله وهذا معبد الباري أي المقام الذي يعبد الله العبد فيه والثاني : مقام ربه الموضع الذي فيه الله قائم على عباده من قوله تعالى :

(116/740)

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : 33] أي حافظ ومطلع أخذاً من القائم على الشيء حقيقة الحافظ له فلا يغيب عنه ، وقيل : مقام مقحم يقال : فلان يخاف

جانب فلان أي يخاف فلاناً وعلى هذا الوجه يظهر الفرق غاية الظهور بين الخائف والخاشي ، لأن الخائف خاف مقام ربه بين يدي الله فالخاشي لو قيل له : افعل ما تريد فإنك لا تحاسب ولا تسأل عما تفعل لما كان يمكنه أن يأتي بغير التعظيم والخائف ربما كان يقدم على ملاذ نفسه لو رفع عنه القلم وكيف لا ، ويقال : خاصة الله من خشية الله في شغل شاغل عن الأكل والشرب واقفون بين يدي الله سابحون في مطالعة جماله غائصون في بحار جلاله ، وعلى الوجه الثاني قرب الخائف من الخاشي وبينهما فرق الرابعة : في قوله : ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ وهذه اللطيفة نبينها بعدما نذكر ما قيل في التثنية ، قال بعضهم : المراد جنة واحدة كما قيل في قوله : ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ ﴾ [ق : 24] وتمسك بقول القائل :

ومهمهين سرت مرتين . . قطعته بالسهم لا السهمين

فقال : أراد مهمهاً واحداً بدليل توحيد الضمير في قطعته وهو باطل ، لأن قوله بالسهم يدل على أن المراد مهمهان ، وذلك لأنه لو كان مهمهاً واحداً لما كانوا في قطعته يقصدون جدلاً ، بل يقصدون التعجب وهو إرادته قطع مهمهين بأهبة واحدة وسهم واحد وهو من العزم القوي ، وأما الضمير فهو عائد إلى مفهوم تقديره قطعت كليهما وهو لفظ مقصور معناه التثنية ولفظه للواحد ، يقال : كلاهما معلوم ومجهول ، قال تعالى : ﴿ كِلْتَا الجنتين اتَتْ أُكُلَهَا ﴾ [الكهف : 33] فوحد اللفظ ولا حاجة ههنا إلى التعسف ، ولا مانع من أن

يعطي الله جنتين وجناناً عديدة ، وكيف وقد قال بعد : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ [الرحمن : 48] وقال : فيهما .

(117/740)

والثاني وهو الصحيح أنهما جنتان وفيه وجوه أحدها : أنهما جنة للجن وجنة للإنس لأن المراد هذان النوعان وثانيهما : جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المعاصي لأن التكليف بهذين النوعين وثالثها : جنة هي جزاء وجنة أخرى زيادة على الجزاء ، ويحتمل أن يقال : جنتان جنة جسمية والأخرى روحية فالجسمية في نعيم والروحية في روح فكان كما قال تعالى : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة : 89] وذلك لأن الخائف من المقربين والمقرب في روح وريحان وجنة نعيم وأما اللطيفة : فنقول : لما قال تعالى في حق المجرم إنه يطوف بين نار وبين حميم آن ، وهما نوعان ذكر لغيره وهو الخائف جنتين في مقابلة ما ذكر في حق المجرم ، لكنه ذكر هناك أنهم يطوفون فيفارقون عذاباً ويقعون في الآخر ، ولم يقل : ههنا يطوفون بين الجنتين بل جعلهم الله تعالى ملوكاً وهم فيها يطاف عليهم ولا يطاف بهم احتراماً لهم وإكراماً في حقهم ، وقد ذكرنا في قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون ﴾ [الرعد : 35] وقوله : ﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات ﴾ [الذاريات : 15] أنه تعالى ذكر الجنة

والجنات ، فهي لاتصال أشجارها ومساكنها وعدم وقوع الفاصل بينهما كمهامه وقفار صارت كجنة واحدة ، ولسعتها وتنوع أشجارها وكثرة مساكنها كأنها جنات ، ولاشتمالها على ما تلتذ به الروح والجسم كأنها جنتان ، فالكل عائد إلى صفة مدح.

ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (48) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49)

هي جمع فنن أي ذواتا أغصان أو جمع فن أي فيهما فنون من الأشجار وأنواع من الثمار .

(118/740)

فإن قيل : أي الوجهين أقوى ؟ نقول : الأول لوجهين أحدهما : أن الأفنان في جمع فنن هو المشهور والفنون في جمع الفن كذلك ، ولا يظن أن الأفنان والفنون جمع فن بل كل واحد منهما جمع معرف بحرف التعريف والأفعال في فعل كثير والفعول في فعل أكثر ثانيهما : قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ [الرحمن : 52] مستقل بما ذكر من الفائدة ، ولأن ذلك فيما يكون ثابتاً لا تفاوت فيه ذهناً ووجوداً أكثر ، فإن قيل : كيف تمدح بالأفنان والجنات في الدنيا ذوات أفنان كذلك ؟ نقول : فيه وجهان أحدهما : أن الجنات في الأصل ذوات أشجار ، والأشجار ذوات أغصان ، والأغصان ذوات أزهار وأثمار ، وهي لتنزه الناظر إلا أن جنة الدنيا لضرورة الحاجة وجنة الآخرة ليست كالدنيا فلا يكون فيها إلا ما فيه اللذة

وأما الحاجة فلا ، وأصول الأشجار وسوقها أمور محتاج إليها مانعة للإنسان عن التردد في البستان كيفما شاء ، فالجنة فيها أفنان عليها أوراق عجيبة ، وثمار طيبة من غير سوق غلاظ ، ويدل عليه أنه تعالى لم يصف الجنة إلا بما فيه اللذة بقوله : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ أي الجنة هي ذات فنن غير كائن على أصل وعرق بل هي واقفة في الجو وأهلها من تحتها

والثاني : من الوجهين هو أن التنكير للأفنان للتكثير أو للتعجب .

فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (50) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (51) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (52) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (53)

أي في كل واحدة منهما عين جارية ، كما قال تعالى : ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ وفي كل واحدة منهما من الفواكه نوعان ، وفيها مسائل بعضها يذكر عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن : 66 – 68] وبعضها يذكر ههنا .

المسألة الأولى :

هي أن قوله : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ [الرحمن : 48] و ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ و ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ كلها أوصاف للجنتين المذكورتين فهو كالكلام الواحد تقديره : جنتان ذواتا أفنان ، ثابت فيهما عينان ، كائن فيهما من كل فاكهة زوجان ، فإن قيل : ما الفائدة في فصل بعضها عن بعض بقوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ثلاث مرات مع أنه في ذكر العذاب ما فصل بين كلامين بها حيث قال : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ﴾ [الرحمن : 35] مع أن إرسال نحاس غير إرسال شواظ ، وقال : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ [الرحمن : 44] مع أن الحميم غير الجحيم ، وكذا قال تعالى : ﴿ هذه جَهَنَّمُ التي يُكَذِّبُ بِهَا المجرمون ﴾ [الرحمن : 43] وهو كلام تام ، وقوله تعالى : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ [الرحمن : 44] كلام آخر ولم يفصل بينهما بالآية المذكورة ؟ نقول : فيه تغليب جانب الرحمة ، فإن آيات العذاب سردها سرداً وذكرها جملة ليقصر ذكرها ، والثواب ذكره شيئاً فشيئاً ، لأن ذكره يطيب للسامع فقال بالفصل وتكرار عود الضمير إلى الجنس بقوله : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ ﴾ ، ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ ﴾ لأن إعادة ذكر المحبوب محبوب ، والتطويل بذكر اللذات مستحسن .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ أي في كل واحدة عين واحدة كما مر ، وقوله : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ معناه كل واحدة منهما زوج ، أو معناه في كل واحدة منهما من الفواكه زوجان ، ويحتمل أن يكون المراد مثل ذلك أي في كل واحدة من الجنتين زوج من كل فاكهة ففيهما جميعاً زوجان من كل فاكهة ، وهذا إذا جعلنا الكنايتين فيهما للزوجين ، أو نقول : من كل فاكهة لبيان حال الزوجين ، ومثاله إذا دخلت من على ما لا يمكن أن يكون كائناً في شيء كقولك : في الدار من الشرق رجل ، أي فيها رجل من الشرق ، ويحتمل أن يكون المراد في كل واحدة منها زوجان ، وعلى هذا يكون كالصفة بما يدل عليه من كل فاكهة كأنه قال : فيهما من كل فاكهة ، أي كائن فيهما شيء من كل فاكهة ، وذلك الكائن زوجان ، وهذا بين فيما تكون من داخله على ما لا يمكن أن يكون هناك كائن في الشيء غيره ، كقولك : في الدار من كل ساكن ، فإذا قلنا : فيهما من كل فاكهة زوجان الثالث : عند ذكر الأفنان لو قال : فيهما من كل فاكهة زوجان كان متناسباً لأن الأغصان عليها الفواكه ، فما الفائدة في ذكر العينين بين الأمرين المتصل أحدهما بالآخر ؟ نقول : جرى ذكر الجنة على عادة المتنعمين ، فإنهم إذا دخلوا البستان لا يبادرون إلى أكل الثمار بل يقدمون التفرج على الأكل ، مع أن الإنسان في بستان الدنيا لا يأكل حتى يجوع ويشتهي شهوة مؤلمة فكيف في الجنة فذكر ما يتم به النزهة وهو خضرة الأشجار ، وجريان الأنهار ، ثم

ذكر ما يكون بعد النزهة وهو أكل الثمار ، فسبحان من يأتي بالآي بأحسن المعاني في أبين المباني .

مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (55)

وفيه مسائل نحوية ولغوية ومعنوية .

(121/740)

المسألة الأولى من النحوية : هو أن المشهور أن (متكئين) حال وذو الحال من في قوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ [الرحمن : 46] والعامل ما يدل عليه اللام الجارة تقديره لهم في حال الاتكاء جنتان وقال صاحب "الكشاف" : يحتمل أن يكون نصباً على المدح ، وإنما حمله على هذا إشكال في قول من قال : إنه حال وذلك لأن الجنة ليست لهم حال الإتكاء بل هي لهم في كل حال فهي قبل الدخول لهم ، ويحتمل أن يقال : هو حال وذو الحال ما تدل عليه الفاكهة .

لأن قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ [الرحمن : 52] يدل على متفكهين بها كأنه قال : يتفكه المتفكهون بها ، متكئين ، وهذا فيه معنى لطيف ، وذلك لأن الأكل إن كان

ذليلاً كالخول والخدم والعبيد والغلمان ، فإنه يأكل قائماً ، وإن كان عزيزاً فإن كان يأكل لدفع الجوع يأكل قاعداً ولا يأكل متكئاً إلا عزيز متفكه ليس عنده جوع يقعده للأكل ، ولا هنالك من يحسمه ، فالتفكه مناسب للإتكاء .

المسألة الثانية من المسائل النحوية : ﴿ عَلَى فُرُشٍ ﴾ متعلق بأي فعل هو ؟ إن كان متعلقاً بما في ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ ، حتى يكون كأنه يقول : يتكئون على فرش كما كان يقال : فلان اتكأ على عصاه أو على فخذيه فهو بعيد لأن الفراش لا يتكأ عليه ، وإن كان متعلقاً بغيره فماذا هو ؟ نقول : متعلق بغيره تقديره يتفكه الكائنون على فرش متكئين من غير بيان ما يتكئون عليه ، ويحتمل أن يكون اتكاؤهم على الفرش غير أن الأظهر ما ذكرنا ليكون ذلك بياناً لما تحتهم وهم بجميع بدنهم عليه وهو أنعم وأكرم لهم .

المسألة الثالثة :

الظاهر أن لكل واحد فرشاً كثيرة لا أن لكل واحد فراشاً فلكلهم فرش عليها كائنون .

(122/740)

المسألة الرابعة لغوية : الاستبرق هو الديباج الثخين وكما أن الديباج معرب بسبب أن العرب لم يكن عندهم ذلك إلا من العجم ، استعمل الاسم المعجم فيه غير أنهم تصرفوا فيه تصرفاً

وهو أن اسمه بالفارسية ستبرك بمعنى ثخين تصغير "ستبر" فزادوا فيه همزة متقدمة عليه ، وبدلوا الكاف بالقاف ، أما الهمزة ، فلأن حركات أوائل الكلمة في لسان العجم غير مبنية في كثير من المواضع فصارت كالسكون ، فأثبتوا فيه همزة كما أثبتوا همزة الوصل عند سكون أول الكلمة ، ثم إن البعض جعلوها همزة وصل وقالوا : ﴿ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ والأكثرون جعلوها همزة قطع لأن أول الكلمة في الأصل متحرك لكن بحركة فاسدة فأتوا بهمزة تسقط عنهم الحركة الفاسدة وتمكنهم من تسكين الأول وعند تساوي الحركة ، فالعود إلى السكون أقرب ، وأواخر الكلمات عند الوقف تسكن ولا تبدل حركة بحركة ، وأما القاف فلأنهم لو تركوا الكاف لاشتبه ستبرك بمسجدك ودارك ، فأسقطوا منه الكاف التي هي على لسان العرب في آخر الكلم للخطاب وأبدلوها قافاً ثم عليه سؤال مشهور ، وهو أن القرآن أنزل بلسان عربي مبين ، وهذا ليس بعربي ، والجواب الحق أن اللفظة في أصلها لم تكن بين العرب بلغة ، وليس المراد أنه أنزل بلغة هي في أصل وضعها على لسان العرب ، بل المراد أنه منزل بلسان لا يخفى معناه على أحد من العرب ولم يستعمل فيه لغة لم تتكلم العرب بها ، فيصعب عليهم مثله لعدم مطاوعة لسانهم التكلم بها فعجزهم عن مثله ليس إلا لمعجز .

المسألة الخامسة :

معنوية الإتكاء من الهيئات الدالة على صحة الجسم وفراغ القلب ، فالمتكىء تكون أمور

جسمه على ما ينبغي وأحوال قلبه على ما ينبغي ، لأن العليل يضطجع ولا يستلقي أو يستند إلى شيء على حسب ما يقدر عليه للاستراحة ، وأما الإتكاء بحيث يضع كفه تحت رأسه ومرفقه على الأرض ويجافي جنبيه عن الأرض فذاك أمر لا يقدر عليه ، وأما مشغول القلب في طلب شيء فتحركه تحرك مستوفز .

(123/740)

المسألة السادسة :

قال أهل التفسير قوله : ﴿ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ يدل على نهاية شرفها فإن ما تكون بطائنها من الإستبرق تكون ظهائرها خيراً منها ، وكأن شيء لا يدركه البصر من سندس وهو الديباج الرقيق الناعم ، وفيه وجه آخر معنوي وهو أن أهل الدنيا يظهرون الزينة ولا يتمكنون من أن يجعلوا البطائن كالظهائر ، لأن غرضهم إظهار الزينة والبطائن لا تظهر ، وإذا انتفى السبب انتفى المسبب ، فلما لم يحصل في جعل البطائن من الديباج مقصودهم وهو الإظهار تركوه ، وفي الآخرة الأمر مبني على الإكرام والتنعيم فتكون البطائن كالظهائر فذكر البطائن .

المسألة السابعة :

قوله تعالى : ﴿ وَجَنَى الجنتين دَانٍ ﴾ فيه إشارة إلى مخالفتها لجنة دار الدنيا من ثلاثة أوجه : أحدها : أن الثمرة في الدنيا على رءوس الشجرة والإنسان عند الاتكاء يبعد عن رءوسها وفي الآخرة هو متكىء والثمرة تنزل إليه ثانيها : في الدنيا من قرب من ثمرة شجرة بعد عن الأخرى وفي الآخرة كلها دان في وقت واحد ومكان واحد ، وفي الآخرة المستقر في جنة عنده جنة أخرى ثالثها : أن العجائب كلها من خواص الجنة فكان أشجارها دائرة عليهم ساترة إليهم وهم ساكنون على خلاف ما كان في الدنيا وجناتها وفي الدنيا الإنسان متحرك ومطلوبه ساكن ، وفيه الحقيقة وهي أن من لم يكسل ولم يتقاعد عن عبادة الله تعالى ، وسعى في الدنيا في الخيرات انتهى أمره إلى سكون لا يحوجه شيء إلى حركة ، فأهل الجنة إن تحركوا تحركوا لا لحاجة وطلب ، وإن سكنوا سكنوا لا لاستراحة بعد التعب ، ثم إن الولي قد تصير له الدنيا أنموذجاً من الجنة ، فإنه يكون ساكناً في بيته ويأتيه الرزق متحركاً إليه دائراً حواليه ، يدلك عليه قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ [آل عمران : 37] .

المسألة الثامنة :

الجنتان إن كانتا جسميتين فهو أبداً يكون بينهما وهما عن يمينه وشماله هو يتناول ثمارهما وإن كانت إحداهما روحية والأخرى جسمية فلكل واحد منهما فواكه وفرش تليق بها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 107.112 ﴾

(125/740)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : لما ذكر أحوال أهل النار ذكر ما أعدّ للأبرار .

والمعنى خاف مقامه بين يدي ربه للحساب فترك المعصية .

ف "مَقَامَ" مصدر بمعنى القيام .

وقيل : خاف قيام ربه عليه أي إشرافه واطلاعه عليه ؛ بيانه قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : 33] وقال مجاهد وإبراهيم النخعي : هو الرجل يَهُمّ بالمعصية فيذكر الله فيدعها من خوفه .

الثانية : هذه الآية دليل على أن من قال لزوجه : إن لم أكن من أهل الجنة فأنت طالق أنه لا

يحنث إن كان هَمَّ بالمعصية وتركها خوفاً من الله وحياءً منه .

وقال به سفيان الثوريّ وأفتى به .

وقال محمد بن عليّ الترمذيّ : جنةٌ لخوفه من ربه ، وجنةٌ لتركه شهوته .

وقال ابن عباس : من خاف مقام ربه بعد أداء الفرائض .

وقيل : المقام الموضع ؛ أي خاف مقامه بين يدي ربه للحساب كما تقدّم .

ويجوز أن يكون المقام للعبد ثم يضاف إلى الله ، وهو كالأجل في قوله : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ﴾ [الأعراف : 34] وقوله في موضع آخر : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَآءَ لاَ يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح : 4] .

﴿ جَنَّتَانِ ﴾ أي لمن خاف جنتان على حدة ؛ فلكل خائف جنتان .

وقيل : جنتان لجميع الخائفين ؛ والأوّل أظهر .

وروي عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الجنتان بستانان في عرض الجنة كل بستان مسيرة مائة عام في وسط كل بستان دار من نور وليس منها شيء إلا يهتز نغمة وخضرة ، قرارها ثابت وشجرها ثابت " ذكره المهدوي والثعلبي أيضاً من حديث أبي هريرة .

وقيل : إن الجنتين جنته التي خلقت له وجنة ورثها .

وقيل : إحدى الجنتين منزله والأخرى منزل أزواجه كما يفعله رؤساء الدنيا .

وقيل : إن إحدى الجنتين مسكنه والأخرى بستانه .

وقيل : إن إحدى الجنتين أسافل القصور والأخرى أعاليها .

(126/740)

وقال مقاتل : هما جنة عدن وجنة النعيم .

وقال الفراء : إنما هي جنة واحدة ؛ فثنى لرؤوس الآي .

وأنكر القتبي هذا وقال : لا يجوز أن يقال خزنة النار عشرون وإنما قال تسعة عشر لمراعاة رؤوس الآي .

وأيضاً قال : ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ .

وقال أبو جعفر النحاس : قال الفراء قد تكون جنة فَتُثَنَّى في الشعر ؛ وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله عز وجل ، يقول الله عز وجل : "جَنَّتَانِ" ويصفهما بقوله : "فِيهِمَا" فيدع الظاهر ويقول : يجوز أن تكون جنة ويحتج بالشعر ! وقيل : إنما كانتا اثنتين ليضاعف له السرور بالتنقل من جهة إلى جهة .

وقيل : نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه خَاصةً حين ذكر ذات يوم الجنة حين أُزْلِفَت والنار حين بُرِّزَت ؛ قاله عطاء وابن شَوْذَب .

وقال الضحاك : بل شرب ذات يوم لبناً على ظمإ فأعجبه ، فسأل عنه فأخبر أنه من غير حِلّ فاستقاءه ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ؛ فقال : " رحمك الله لقد أنزلت فيك آية " وتلا عليه هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ قال ابن عباس وغيره : أي ذواتا ألوان من الفاكهة الواحد فنّ .

وقال مجاهد : الأفنان الأغصان واحدها فنن ؛ قال النابغة :

بكاء حمامةٍ تَدْعو هَدِيلاً . . .

مُفَجَّعَةٍ على فَنَنٍ تغنّي

وقال آخر يصف طائرين :

باتا على غُصْنِ بَانٍ في ذُرَى فَنَنٍ . . .

يُرَدِّدانِ لُحوناً ذاتَ أَلْوَانِ

أراد باللحون اللغات .

وقال آخر :

ما هاجَ شَوْقَك مِن هَدِيلِ حمامةٍ . . .

تَدْعو على فَنَنِ الغُصونِ حَمامَا

تدعو أبا فَرْخَيْن صادف ضارِياً . . .

ذا مِخْلَبَيْنِ مِن الصُّقورِ قَطَامَا

والفنن جمعه أفنان ثم الأفانين ؛ وقال يصف رَحىً :

لها زِمامٌ مِن أفانِينِ الشَّجَرْ . . .

وشجرة فَنَّاء أي ذات أفنان وفنواء أيضاً على غير قياس .

(127/740)

وفي الحديث : " أن أهل الجنة مُرْدٌ مكحَّلون أولو أفانين " يريد أولو فَنَن وهو جمع أفنان ، وأفنان جمع فننٍ وهو الخُصْلة من الشعر شبّه بالغصن .

ذكره الهروي .

وقيل : ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ أي ذواتا سعة وفضل على ما سواهما ؛ قاله قتادة .

وعن مجاهد أيضاً وعكرمة : إن الأفنان ظل الأغصان على الحيطان .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ أي في كل واحدة منهما عين جارية .

قال ابن عباس : تجريان ماءً بالزيادة والكرامة من الله تعالى على أهل الجنة .

وعن ابن عباس أيضاً والحسن : تجريان بالماء الزّلال ؛ إحدى العينين التسنيم والأخرى السلسبيل .

وعنه أيضاً : عينان مثل الدنيا أضعافاً مضاعفةً ، حصباؤها الياقوت الأحمر والزَّبَرْجَد الأخضر ، وترابهما الكافور ، وحمأتهما المسك الأذفر ، وحافتاهما الزعفران .

وقال عطية : إحداهما من ماء غير آسن ، والأخرى من خمر لذة للشاربين .

وقيل : تجريان من جبل من مسك .

وقال أبو بكر الوّراق : فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه في الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ أي صنفان وكلاهما حلوٌ يستلذ به .

قال ابن عباس : ما في الدنيا شجرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو .

وقيل : ضربان رطب ويابس لا يقصر هذا عن ذلك في الفضل والطِّيب .

وقيل : أراد تفضيل هاتين الجنتين على الجنتين اللتين دونهما ، فإنه ذكرها هنا عينين جاريتين ، وذكر ثَمَّ عينين تَنْضخان بالماء والنّضخ دون الجري ؛ فكأنه قال : في تَيْنك الجنتين من كل فاكهة نوع ، وفي هذه الجنة من كل فاكهة نوعان .

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ ﴾ هو نصب على الحال .

والفُرُش جمع فراش .

وقرأ أبو حَيْوة "فُرْشٍ" بإسكان الراء .

﴿ بَطَآئِنُهَا ﴾ جمع بطانة وهي التي تحت الظهارة .

(128/740)

والإستبرق ما غلظ من الديباج وخشن ؛ أي إذا كانت البطانة التي تلي الأرض هكذا فما ظنك بالظهارة ؛ قاله ابن مسعود وأبو هريرة .

وقيل لسعيد بن جُبير : البطائن من إستبرق فما الظواهر ؟ قال : هذا مما قال الله : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : 17] وقال ابن عباس : إنما وصف لكم بطائنها لتهتدي إليه قلوبكم ، فأما الظواهر فلا يعلمها إلا الله .

وفي الخبر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ظواهرها نور يتلألأ " وعن الحسن : بطائنها من إستبرق ، وظواهرها من نور جامد .

وعن الحسن أيضاً : البطائن هي الظواهر ؛ وهو قول الفراء ، وروي عن قتادة .

والعرب تقول للظهر بطناً ، فيقولون : هذا ظهر السماء ، وهذا بطن السماء ؛ لظاهرها الذي نراه .

وأنكر ابن قتيبة وغيره هذا ، وقالوا : لا يكون هذا إلا في الوجهين المتساويين إذا وَلِى كلٌّ

واحد منهما قوماً ، كالحائط بينك وبين قوم ؛ وعلى ذلك أمر السماء .

﴿ وَجَنَى الجنتين دَانٍ ﴾ الجَنَى ما يُجتنَى من الشجر ؛ يقال : أتانا بجَنَاةٍ طيبة لكل ما يجتنى .

وثمر جنِيّ على فَعِيل حين جُنِي ؛ وقال :

هذا جَنَايَ وخِيَاره فِيهْ . . .

إِذْ كلُّ جانٍ يَدُهُ إلى فِيهْ

وقرىء "جِنَى" بكسر الجيم .

"دانٍ" قريب .

قال ابن عباس : تدنو الشجرة حتى يجتنيها وليُّ اللَّهِ إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً وإن شاء مضطجعاً ؛ لا يرد يدَه بُعدٌ ولا شوك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(129/740)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ الخ

شروع في تعديد الآلاء التي تفاض في الآخرة ، و﴿ مَّقَامِ ﴾ مصدر ميمي بمعنى القيام مضاف إلى الفاعل أي ﴿ وَلِمَنْ خَافَ ﴾ قيام ربه وكونه مهيمناً عليه مراقباً له حافظاً لأحواله ، فالقيام هنا مثله في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : 33] وهذا مروى عن مجاهد .

وقتادة ، أو هو اسم مكان ، والمراد به مكان وقوف الخلق في يوم القيامة للحساب ، والإضافة إليه تعالى لامية اختصاصية لأن الملك له عز وجل وحده فيه بحسب نفس الأمر ، والظاهر والخلق قائمون له كما قال سبحانه : ﴿ يَقُومُ الناسِ لِرَبِّ العالمين ﴾ [المطففين : 6] منتظرون ما يحل عليهم من قبله جل شأنه ، وزعم بعضهم أن الإضافة على هذا الوجه لأدنى ملابسة وليس بشيء ، وقيل : المعنى ﴿ وَلِمَنْ خَافَ ﴾ مقامه عند ربه على أن المقام مصدر أو اسم مكان وهو للخائف نفسه ، وإضافته للرب لأنه عنده تعالى فهي مثلها في قولهم : شاة رقود الحلب ، وهي بمعنى عند عند الكوفيين أي رقود عند الحلب ، وبمعنى اللام عند الجمهور كما صرح به شراح التسهيل وليست لأدنى ملابسة كما زعم أيضاً ، ثم إن المراد بالعندية هنا مما لا يخفى ، وجوّز أن يكون مقحماً على سبيل الكناية ، فالمراد ولمن خاف ربه لكن بطريق برهاني بليغ ، ومثله قول الشماخ

: ذعرت به القطا ونفيت عنه . . .

(مقام الذئب) كالرجل اللعين

وهو الأظهر على ما ذكره صاحب الكشف ، والظاهر أن المراد ولكل فرد فرد من الخائفين :

﴿ جَنَّتَانِ ﴾ فقيل : إحداهما منزله ومحل زيارة أحبابه له ، والأخرى منزل أزواجه وخدمه ، وإليه ذهب الجبائي ، وقيل : بستانان بستان داخل قصره وبستان خارجه ، وقيل : منزلان ينتقل من أحدهما إلى الآخر لتتوفر دواعي لذته وتظهر ثمار كرامته ، وأين هذا ممن يطوف بين النار ، وبين حميم آن ؟ ؟ .

(130/740)

وجوز أن يقال : جنة لعقيدته وجنة لعمله ، أو جنة لفعل الطاعات وجنة لترك المعاصي ، أو جنة يثاب بها وأخرى يتفضل بها عليه ، أو إحداهما روحانية والأخرى جسمانية ، ولا يخفى أن الصفات الآتية ظاهرة في الجسمانية .

وقال مقاتل : جنة عدن وجنة نعيم ، وقيل : المراد لكل خائفين منكما جنتان جنة للخائف الإنسي وجنة للخائف الجني ، فإن الخطاب للفريقين ، وهذا عندي خلاف الظاهر ، وفي الآثار ما يبعده ، فقد أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن أنه كان شاب على عهد رضي الله تعالى عنه ملازم للمسجد والعبادة فعشقته جارية فأتته في

خلوة فكلمته فحدثته نفسه بذلك فشهق شهقة فغشى عليه فجاء عم له فحمله إلى بيته فلما أفاق قال : يا عم انطلق إلى عمر فاقرئه مني السلام وقل له ما جزاء من خاف مقام ربه ؟ فانطلق فأخبر عمر وقد شهق الفتى شهقة أخرى فمات فوقف عليه عمر رضي الله تعالى عنه فقال : لك جنتان لك جنتان .

والخوف في الأصل توقع مكروه عند أمارة مظنونة أو معلومة ويضاده الأمن قال الراغب : والخوف من الله تعالى لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب كاستشعار الخوف من الأسد بل إنما يراد به الكف عن المعاصي وتحري الطاعات ، ولذلك قيل : لا يعد خائفاً من لم يكن للذنوب تاركاً ، ويؤيد هذا تفسير ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الخائف هنا كما أخرج ابن جرير عنه بمن ركب طاعة الله تعالى وترك معصيته .

وقول مجاهد : هو الرجل يريد الذنب فيذكر الله تعالى فيدع الذنب ، والذي يظهر أن ذلك تفسير باللازم ، وقد يقال : إن ارتكاب الذنب قد يجامع الخوف من الله تعالى وذلك كما إذا غلبته نفسه ففعله خائفاً من عقابه تعالى عليه ، وأيد ذلك بما أخرجه أحمد .

والنسائي .

والطبراني .

والحكيم الترمذي في نوادر الأصول .

وابن أبي شيبة .

وجماعة عن أبي الدرداء " أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام : الثانية ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ فقلت : وإن زني وإن سرق ؟ فقال الثالثة : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : نعم وإنْ رغم أنف أبي الدرداء " وأخرج الطبراني .

وابن مردويه من طريق الجريري عن أخيه قال : سمعت محمد بن سعد يقرأ ولمن خاف مقام ربه جنتان وإن زنى وإن سرق فقلت : ليس فيه وإن زنى وإن سرق فقال : سمعت أبا الدرداء رضي الله تعالى عنه يقرؤها كذلك فأنا أقرؤها كذلك حتى أموت ، وصرح بعضهم أن المراد بالخوف في الآية أشده فتأمل .

وجاء من شأن هاتين الجنتين من حديث عياض بن غنم مرفوعاً " إن عرض كل واحدة منهما مسيرة مائة عام " والآية على ما روي عن ابن الزبير .

وابن شوذب نزلت في أبي بكر .

وأخرج ابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ في العظمة عن عطاء أن أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ذكر ذات يوم وفكر في القيامة .

والموازين .

والجنة .

والنار .

وصفوف الملائكة .

وطي السموات .

ونسف الجبال وتكوير الشمس .

وانتثار الكواكب فقال : وددت أني كنت خضراً من هذه الخضر تأتي على بهيمة فتأكلني وأني لم أخلق فنزلت : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ .

(132/740)

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ صفة لجنتان وما بينهما اعتراض وسط بينهما تنبيهاً على أن تكذيب كل من الموصوف والصفة موجب للإنكار والتوبيخ ، وجوز أن يكون خبر مبتدأ مقدر أي هما ذواتا ، وأياً مّا كان فهو تثنية ذات بمعنى صاحبة فإنه إذا

ثنى فيه لغتان ذاتاً على لفظه وهو الأقيس كما يثنى مذكره ذوا ، والأخرى ﴿ ذَوَاتَا ﴾ برده إلى أصله فإن التثنية ترد الأشياء إل أصولها ، وقد قالوا : أصل ذات ذوات لكن حذفت الواو تخفيفاً ؛ وفرقا بين الواحد والجمع ودلت التثنية ورجوع الواو فيها على أصل الواحد وليس هو تثنية الجمع كما يتوهم وتفصيله في باب التثنية من شرح التسهيل ، والأفنان إما جمع فن بمعنى النوع ولذا استعمل في العرف بمعنى العلم أي ذواتاً أنواع من الأشجار والثمار ، وروي ذلك عن ابن عباس .

وابن جبير .

والضحاك ، وعليه قول الشاعر

: ومن كل (أفنان) اللذاذة والصبا . . .

لهوت به والعيش أخضر ناضر

وإما جمع فنن وهو ما دق ولأن من الأغصان كما قال ابن الجوزي ، وقد يفسر بالغصن ، وحمل على التسامح وتخصيصها بالذكر مع أنها ذواتاً قصب وأوراق وثمار أيضاً لأنها هي التي تورق وتثمر .

فمنها تمتد الظلال .

ومنها تجني الثمار ففي الوصف تذكير لهما فكأنه قيل : ﴿ ذَوَاتَا ﴾ ثمار وظلال لكن على سبيل الكناية وهي أخصر وأبلغ ، وتفسيره بالأغصان على أنه جمع غنن مروى عن ابن

عباس أيضاً ، وأخرجه ابن جرير عن مجاهد قال أبو حيان : وهو أولى لأن أفعالاً في فعل أكثر منه في فعل بسكوت العين كفن ، ويجمع هو على فنون .

(133/740)

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ صفة أخرى لجنتان أو خبر ثان للمبتدأ المقدر أي في كل منهما عين تجري بالماء الزلال تسمى إحدى العينين بالتسليم ، والأخرى بالسلسبيل ، وروي هذا عن الحسن ، وقال عطية العوفي : ﴿ عَيْنَانِ ﴾ إحداهما من ماء غير آسن ، والأخرى من خمر لذة للشاربين ، وقيل : ﴿ عَيْنَانِ ﴾ من الماء ﴿ تَجْرِيَانِ ﴾ حيث شاء صاحبهما من الأعالي والأسافل من جبل من مسك ، وعن ابن عباس ﴿ عَيْنَانِ ﴾ مثل الدنيا أصعافاً مضاعفة ﴿ تَجْرِيَانِ ﴾ بالزيادة والكرامة على أهل الجنة .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ صنفان معروف وغريب لم يعرفوه في الدنيا ، أو رطب ويابس ولا يقصر يابسه عن رطبه في الفضل والطيب ، وأخرج عبد بن حميد .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : قال ابن عباس في هذه الآية : ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل ، ونقل هذا في البحر عن ابن عباس أيضاً بزيادة إلا أنه حلو ، والجملة كالجملة التي قبلها .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَّكِئِينَ ﴾ حال من قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف ﴾ [الرحمن : 46] وجمع رعاية للمعنى بعد الافراد رعاية للفظ ، وقيل : العامل محذوف أي يتنعمون متكئين ، وقيل : مفعول به بتقدير أعني ، والاتكاء من صفات المتنعم الدالة على صحة الجسم وفراغ القلب ، والمعنى متكئين في منازلهم ﴿ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ من ديباج ثخين قال ابن مسعود كما رواه عنه جمع .

وصححه الحاكم أخبرتم بالبطائن فكيف بالظهائر ، وقيل : ظهائرها من سندس ، وعن ابن جبير من نور جامد ، وفي حديث من نور يتلألأ وهو إن صح وقف عنده .

وأخرج ابن جرير .

(134/740)

وغيره عن ابن عباس أنه قيل له : ﴿ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ فماذا الظواهر ؟ قال : ذلك مما قال الله تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : 17] وقال

الحسن : البطائن هي الظهائر وروي عن قتادة وقال الفراء : قد تكون البطانة الظاهرة والظاهرة البطانة لأن كلاً منهما يكون وجهاً والعرب تقول : هذا ظهر السماء وهذا بطن السماء ، والحق أن البطائن هنا مقابل الظهائر على الوجه المعروف ، وقرأ أبو حيوة ﴿ فُرُش ﴾ بسكون الراء ، وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال : قرأ عبد الله على ﴿ سُرُرٍ وَفُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ ﴿ وَجَنَى الجنتين ﴾ أي ما يجني ويؤخذ من أشجارهما من الثمار ، فجنى اسم أو صفة مسبهة بمعنى المجنى ﴿ دَانٍ ﴾ قريب يناله القائم .

والقاعد .

والمضطجع ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولي الله تعالى إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً وإن شاء مضطجعاً ، وعن مجاهد ثمار الجنتين دانية إلى أفواه أربابها فيتناولونها متكئين فإذا اضطجعوا نزلت بإزاء أفواههم فيتناولونها مضطجعين لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك ، وقرأ عيسى ﴿ وَجَنَى ﴾ بفتح الجيم وكسر النون كأنه أمال النون وإن كانت الألف قد حذفت في اللفظ كما أمال أبو عمرو ﴿ حتى نَرَى الله جَهْرَةً ﴾ [البقرة : 55] وقرىء دوجنى ﴾ بكسر الجيم وهو لغة فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » . .

وهذا من ثمرة الخوف من اللّه ، ومن الوقوف بين يديه يوم القيامة ، ذلك الخوف الذي يدخل على الإنسان من هذه النار التي أعدّت لأهل الشرك والضلال . . فمن عرف أن هناك حسابا وجزاء يوم القيامة ، وأن هناك نارا أعدّت للكافرين وللضالين ، وخاف حساب اللّه وعقابه ـ نجا من هذا البلاء ، بإيمانه باللّه ، وتجنبه ما يغضبه ، واستقامته على سبيله المستقيم ، وكان له الجزاء الحسن عند ربه ، فأوسع له من فضله وإحسانه ، وأدخله الجنة يتبوأ منها حيث يشاء . . فهى جنة فسيحة لا حدود لها ، عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . .

والتعبير عن الجنة بالجنتين ، إشارة إلى اتساعها ، وقد جاء فى القرآن الكريم لفظ الجنة ، والجنتين ، والجنات ، كما يقول سبحانه : « ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » (32 : النحل) وكما يقول سبحانه : « وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ » (23 : إبراهيم) . .

فالجنة ، جنات فى اتساعها وامتدادها . . والجنات ، جنة فى طيب ثمارها ، ووفرة النعيم فيها . .

ويجوز أن تكون الجنتان ، جنة للإنس ، وجنة للجن . . أي ولمن خاف مقام ربه من عالم الإنس وعالم الجن ثواب حسن ، ثم بين هذا الجزاء بأنه جنتان ، ينزل كل محسن من الفريقين فى جنته منهما . .

وقوله تعالى : « فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » إلفات إلى هذه النعم التي

(136/740)

يجدها من يدخل هذه الجنة ، على أية صورة تكون عليها . . فكيف ، وهى على هذه الصفات التي وصفها اللّه سبحانه وتعالى بها ؟ إن كل وصف لهذه الجنة الرحيبة الفسيحة ، هو نعم مجددة ، تضاف إليها ، وتستدعى واجب الحمد والشكر للّه رب العالمين . .

قوله تعالى : « ذَواتا أَفْنانٍ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » .

فهاتان الجنتان ذواتا أفنان ، والأفنان ، جمع فنن ، وهو الغصن المورق .

فالجنتان ذواتا أغصان مورقة ، وهذا يعنى أن لأشجارها ظلّا ممدودا . .

فالظل نعيم من نعيم الجنة ، حيث يطيب الهواء ، ويعتدل الجو . .

كما يقول سبحانه :

« وَأَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ »

(30.27 : الواقعة) . .

قوله تعالى : « فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » .

ومن صفات هاتين الجنتين أن فيهما عينان تجريان ، بالماء العذب الرقراق . .

وهذا الماء السلسبيل المتدفق من العيون الجارية ، هو نفسه نعمة ، إلى جانب نعمة الجنة ، وإلى ظلها الممدود . . فمن يكذب بهذه النعم المتظاهرة ، ويجحد فضل اللّه وإحسانه بها ؟ .

(137/740)

قوله تعالى : « فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » . .

ومما فى هاتين الجنتين كذلك ، هذا الثمر الطيب الجنىّ ، . وهو ثمر متزاوج ، أي مؤتلف ، يشبه بعضه بعضا فى حسنه ، وطيبه ، وإن اختلفت طعومه ، وتعددت مذاقاته ، وهذا ما يشير إليه قوله سبحانه :

« كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً » (25 : البقرة) . . وقيل إن معنى : « مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ » . .

أي كل صنف من أصناف الفاكهة يرد على أهل الجنة ، يجيئهم فى صورتين ، صورة لما

كانوا يعرفونه فى الدنيا ، وصورة لما هو من حقيقة ثمار الجنة ، وبهذا يظهر لهم ما بين الفاكهتين من بون شاسع ، وفرق بعيد ، وهذا مما يحدّث عن فضل اللّه عليهم ، وإحسانه إليهم ، فى هذا المنزل الكريم الذي أحلهم اللّه سبحانه وتعالى فيه . .

قوله تعالى : « مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » . .

وفى هاتين الجنتين ، وتحت أفنانهما المورقة ، وظلالهما الممتدة ، وفاكهتهما التي تجمع بين فاكهة الدنيا وفاكهة الآخرة ـ فرش بطائنها أي حشوها من إستبرق ، أي حرير ، مهيأة ليتكىء عليها أهل الجنة ، اتكاء استرواح ، واسترخاء ، واطمئنان . .

والإستبرق : الديباج . .

(138/740)

وفى قوله تعالى : « وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ » ـ

استدراك لما قد يقع فى الوهم من أنّ اتكاءهم على هذه الفرش ، مما يباعد بينهم وبين ثمر هذه الجنة التي يتكئون تحت ظلالها ، فإذا أراد أحدهم أن ينال من هذا الثمر شيئا ، اضطر إلى أن يتحول عن هذا الوضع المريح له ، وجلس ، أو وقف ، لينال الثمر الذي يريده

. . وكلّا ، فإن الثمر دان بحيث لا يتكلف له المتكئ شيئا ، بل هو حاضر بين يديه ، بتخير منه ما يشاء ، متكئا ، أو مضطجعا ، أو نائما . . !

والجنى : الثمر الناضج ، وهو ما يجنى من شجره ، ومنه الجنين ، وهو ثمرة الحيوان ، ويسمى بيض الطير جنّى لهذا المعنى . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 14 صـ 690.695 ﴾

(139/740)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46) ﴾

انتقال من وصف جزاء المجرمين إلى ثواب المتقين .

والجملة عطف على جملة ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ [الرحمن : 41] إلى آخرها ، وهو أظهر لأن قوله في آخرها ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آنٍ يفيد معنى أنهم فيها .

واللام في لمن خاف ﴾ لام الملك ، أي يعطي من خاف ربه ويملك جنتين ، ولا شبهة في أن من خاف مقام ربه جنس الخائفين لا خائف معيّن فهو من صيغ العموم البدلي بمنزلة قولك : وللخائف مقام ربه .

وعليه فيجيء النظر في تأويل تثنية ﴿ جنتان ﴾ فيجوز أن يكون المراد : جنسين من الجنات .

وقد ذكرت الجنات في القرآن بصيغة الجمع غير مرة وسيجيء بعد هذا قوله : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ [الرحمن : 62] فالمراد جنسان من الجنات .

ويجوز أن تكون التثنية مستعملة كناية عن التعدد ، وهو استعمال موجود في الكلام الفصيح وفي القرآن قال الله تعالى : ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسِئاً وهو حسير ﴾ [الملك : 4] ومنه قولهم : لبَّيْك وسعَديك ودواليك ، كقول القوّال الطائي من شعر الحماسة:

فقولا لهذا المرء ذُو جاء ساعياً . . .

هَلمّ فإن المشرفيَّ الفرائض

أي فقولوا : يا قومِ ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ في سورة التوبة (101) .

وإيثار صيغة التثنية هنا لمراعاة الفواصل السابقة واللاحقة فقد بنيت قرائن السورة عليها والقرينة ظاهرة وإليه يميل كلام الفراء ، وعلى هذا فجميع ما أجري بصيغة التثنية في شأن الجنتين فمراد به الجمع .

وقيل : أريد جنتان لكل متقّ تحفان بقصره في الجنة كما قال تعالى في صفة جنات الدنيا ﴿

جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ﴾ [الكهف : 32] الآية ، وقال : ﴿ لقد كان لسبإ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ﴾ [سبأ : 15] فهما جنتان باعتبار يمنة القصر ويسرته والقصر فاصل بينهما .

(140/740)

والمقام : أصله محل القيام ومصدر ميمي للقيام وعلى الوجهين يستعمل مجازاً في الحالة والتلبس كقولك لمن تستجيره : هذا مقام العائذ بك ، ويطلق على الشأن والعظمة ، فإضافة ﴿ مقام ﴾ إلى ﴿ ربه ﴾ هنا إن كانت على اعتبار المقام للخائف فهو بمعنى الحال ، وإضافته إلى ﴿ ربه ﴾ تُشبِه إضافة المصدر إلى المفعول ، أي مقامه من ربه ، أي بين يديه .

وإن كانت على اعتبار المقام لله تعالى فهو بمعنى الشأن والعظمة .

وإضافتُه كالإضافة إلى الفاعل ، ويحتمل الوجهين قوله تعالى : ﴿ ذلك لمن خاف مقامي ﴾ في سورة إبراهيم (14) وقولُه : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ﴾ في سورة النازعات (40) .

وجملة ﴿ فبأي ألاء ربكما تكذبان ﴾ معترضة بين الموصوف والصفة وهي تكرير

لنظائرها .

وَذَواتا : تثنية ذات ، والواو أصلية لأن أصل ذات : ذَوة ، والألف التي بعد الواو إشباع للفتحة لازم للكلمة .

وقيل : الألف أصلية وأن أصل (ذات) : ذوات فخففت في الإِفراد وردّتها التثنية إلى أصلها وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط ﴾ في سورة سبأ (16) .

وأما الألف التي بعد التاء المثناة الفوقية فهي علامة رفع نائبة عن الضمة .

والأفنان : جمع فَنَن بفتحتين ، وهو الغصن .

والمقصود هنا : أفنان عظيمة كثيرة الإِيراق والإِثمار بقرينة أنّ الأفنان لا تخلو عنها الجنات فلا يحتاج إلى ذكر الأفنان لولا قصد ما في التنكير من التعظيم .

وتثنية عينان ﴾ جار على نحو ما تقدم في تثنية ﴿ جنتان ﴾ ، وكذلك تثنية ضميري ﴿ فيهما ﴾ وضمير ﴿ تجريان ﴾ تبع لتثنية مَعَادهما في اللفظ .

فإن كان الجنتان اثنتين لكل من خَاف مقام ربه فلكل جنة منهما عين فهما عينان لكل من خاف مقام ربه ، وإن كان الجنتان جنسين فالتثنية مستعملة في إرادة الجمع ، أي عيون على عدد الجنات ، وكذلك إذا كان المراد من تثنية ﴿ جنتان ﴾ الكثرة كما تثنيه ﴿ عينان ﴾ للكثرة .

وفصل بين الأفنان وبين ذكر الفاكهة بذكر العينين مع أن الفاكهة بالأفنان أنسب ، لأنه لما جرى ذكر الأفنان ، وهي من جمال منظر الجنة أعقب بما هو من محاسن الجنات وهو عيون الماء جمعاً للنظيرين ، ثم أعقب ذلك بما هو من جمال المنظر ، أعني : الفواكه في أفنانها ومن ملذات الذوق .

وأما تثنية زوجان فإن الزوج هنا النوع ، وأنواع فواكه الجنة كثيرة وليس لكل فاكهة نوعان : فإمّا أن نجعل التثنية بمعنى الجمع ونجعل إيثار صيغة التثنية لمراعاة الفاصلة ولأجل المزاوجة مع نظائرها من قوله : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ إلى هنا .

وإما أن نجعل تثنية ﴿ زوجان ﴾ لكون الفواكه بعضها يؤكل رطباً وبعضها يؤكل يابساً مثل الرطب والتمر والعنب والزبيب ، وأخص الجوز واللوز وجافهما .

و﴿ من كل فاكهة ﴾ بيان ل ﴿ زوجان ﴾ مقدّم على المبيّن لرعي الفاصلة .

وتخلل هذه الآيات الثلاث بآيات ﴿ فبأي ألاء ربكما تكذبان ﴾ جار على وجه الاعتراض وعلى أنه مجرد تكرير كما تقدم أولاها .

مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54)

حال من ﴿ لمن خاف مقام ربه ﴾ وجيء بالحال صيغةَ جمع باعتبار معنى صاحب الحال وصلاحية لفظه للواحد والمتعدد ، لا باعتبار وقوع صلته بصيغة الإِفراد فإن ذلك اعتبار بكون (مَن) مفردة اللفظ .

والمعنى : أُعطوا الجنان واستقرُّوا بها واتكأوا على فرش .

والاتكاء : افتعال من الوَكْءِ مهموز اللام وهو الاعتماد ، فصار الاتكاء اسماً لاعتمادِ الجالس ومرفقه إلى الأرض وجنبه إلى الأرض وهي هيئة بين الاضطجاع على الجنب والقعودِ ، وتقدم في قوله : ﴿ وأعتدت لهن متكئاً ﴾ في سورة يوسف (31) ، وتقدم أيضاً في سورة الصافات .

وفُرش : جمع فراش ككتاب وكُتب .

والفِراش أصله ما يفرش ، أي يبسط على الأرض للنوم والاضطجاع .

(142/740)

ثم أطلق الفراش على السرير المرتفع على الأرض بسُوقٍ لأنه يوضع عليه ما شأنه أن يفرش على الأرض تسمية باسم ما جعل فيه ، ولذلك ورد ذكره في سورة الواقعة (15 ، 16) في قوله : ﴿ على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ﴾ وفي سورة الصافات (44)

على سرر متقابلين .

والمعبر عنه في هذه الآيات واحد يدلّ على أن المراد بالفرش في هذه الآية السرر التي عليها الفرش .

والاتكاء : جِلسة أهل الترف المخدومين لأنها جلسة راحة وعدم احتياج إلى النهوض للتناول نحوه وتقدم في سورة الكهف .

والبطائن : جمع بِطانة بكسر الباء وهي مشتقة من البطن ضد الظهر من كل شيء ، وهو هنا مجاز عن الأسفل .

يقال للجهة السفلى : بطن ، وللجهة العليا ظهر ، فيقال : بَطَّنْت ثوبي بآخر إذا جعل تحت ثوبه آخرَ ، فبطانة الثوب داخله وما لا يَبدو منه ، وضد البطانة الظِّهارة بكسر الظاء ، ومن كلامهم : أفرشني ظهر أمره وبطنه ، أي علانيته وسِرّه ، شبهت العلانية بظهر الفراش والسِرّ ببطن الفراش وهما الظِهارة والبطانة ، ولذلك أتبع هذا التشبيه باستعارة فعل : أفرشني .

فالبطانة : هي الثوب الذي يجعل على الفراش والظهارة : الثوب الذي يجعل فوق البطانة ليظهر لرؤية الداخل للبيت فتكون الظهارة أحسن من البطانة في الفراش الواحد .

والعرب كانوا يجعلون الفراش حَشية ، أي شيئاً محشواً بصوف أو قطن أو ليف ليكون أوثر للجنب ، قال عنترة يصف تنعم عَبلة:

تُمسي وتُصبح فوق ظهر حشِيّةٍ . . .

وأَبيتُ فوقَ سَراة أدهم مُلجم

فإذا وضعوا على الحشية ثوباً أو خاطوها بثوب فهو البطانة ، وإذا غطوا ذلك بثوب أحسن منه فهو الظِهارة .

فالمعنى هنا : أن بطائن فرش الجنة من استبرق فلا تَسأل عن ظهائرها فإنها أجود من ذلك ، ولا ثوب في الثياب المعروفة عند الناس في الدنيا أنفس من الاستبرق البطائن بالذكر كناية عن نفاسة وصف ظهائر الفرش .

والاستبرق : صنف رفيع من الديباج الغليظ .

(143/740)

والديباجُ : نسيج غليظ من حرير والاستبرق ينسج بخيوط الذهب .

قال الفخر : وهو معرب عن الفارسية عن كلمة (سْتبرك) بكاف في آخره علامة تصغير (ستبر) بمعنى ثخين ، وقد تقدم في سورة الكهف (31) ، فأبدلوا الكاف قافاً خشية اشتباه الكاف بكاف الخطاب ، والذي في القاموس ﴿ : الإِستبرق : الديباج الغليظ معرب (اسْتَرْوَه) ، وقد تبين أن الإِستبرق : صنف من الديباج ، والديباج : ثوب منسوج من الحرير منقوش وهو أجود أنواع الثياب .

ومن ﴿ جنى الجنتين ﴾ : ما يجنى من ثمارهما ، وهو بفتح الجيم ما يقطف من الثمر .

والمعنى : أن ثمر الجنة دانٍ منهم وهم على فرشهم فمتى شاءوا اقتطفوا منه .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (55)

هو مثل نظائره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(144/740)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ﴾

وقال تعالى وفرش مرفوعة فوصف الفرش بكونها مبطنة بالإستبرق وهذا يدل على أمرين أحدهما أن ظهائرها أعلى وأحسن من بطائنها لأن بطائنها للارض وظهائرها للجمال والزينة والمباشرة قال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن ابي هبيرة ابن مريم عن عبد الله في قوله بطائنها من إستبرق قال هذه البطائن قد خبرتم بها فكيف بالظهائر الثاني يدل على أنها فرش عالية لها سمك وحشو بين البطانة والظهارة وقد روى في سمكها وإرتفاعها آثار إن كانت محفوظة فالمرد ارتفاع محلها كما رواه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن

النبي في قوله وفرش مرفوعة قال ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام قال الترمذي حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد قيل ومعناه إن ارتفاع المذكور للدرجات والفرش عليها قلت رشدين بن سعد عنده مناكير قال الدارقطني ليس بالقوي وقال أحمد لا يبالي عمن روى وليس به باس في الرقاق وقال أرجو أنه صالح الحديث وقال يحيى بن معين ليس بشيء وقال زرعة ضعيف وقال الجوزجاني عنده مناكير ولا ريب أنه كان سيء الحفظ فلا يعتمد على ما ينفرد به وقد قال أبن وهب حدثنا عمرو بن الحارث عن دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله في قوله وفرش مرفوعة قال ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ فالله أعلم وقال الطبراني حدثنا المقدام بن داود حدثنا أسد بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن مطرف عن عبد الله بن الشخير عن كعب في قوله عز وجل وفرش مرفوعة قال مسيرة أربعين سنة قال الطبراني حدثنا إبراهيم بن نائلة حدثنا إسماعيل بن عمرو والبجلي حدثنا إسرائيل عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة قال سئل رسول الله عن الفرش المرفوعة قال لو طرح فراش من أعلاها إلى قرارها مائة خريف وفي رفع هذا الحديث نظر فقد قال أبن أبي الدنيا

حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا معاذ ابن هشام قال وجدت في كتاب أبي القاسم عن ابي أمامة في قوله عز وجل وفرش مرفوعة قال لو أن أعلاها سقط ما بلغ أسفلها أربعين خريفا فصل

وأما البسط والزرابي فقد قال تعالى متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان وقال تعالى فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حادى الأرواح صـ 205.206 ﴾

(146/740)

قوله تعالى ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (57) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (59) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (60) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (61) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ما ذكر لا تتم نعمته إلا بالنسوان الحسان ، قال دالاًّ على الكثرة بعد سياق الامتنان

بالجمع الذي هو أولى من التثنية بالدلالة على أن في كل بستان جماعة من النسوان ، لما بهن من عظيم اللذة وفرط الأنس : ﴿ فيهن ﴾ أي الجنان التي علم مما مضى أن لكل فرد من الخائفين منها جنتين .

ولما كان سياق الامتنان معرفاً بأن جمع القلة أريد به الكثرة مع ما ذكر من محسناته في سورة " ص " قال معبراً به : ﴿ قاصرات الطرف ﴾ أي نساء مخدرات هن في وجوب الستر بحيث يظن من ذكرهن بغير الوصف من غير تصريح ، قد قصرن طرفهن وهممهن على أزواجهن ولهن من الجمال ما قصرن به أزواجهن عن الالتفات إلى غيرهن لفتور الطرف وسحره وشدة أخذه للقلوب جزاء لهم على قصر هممهم في الدنيا على ربهم .

(147/740)

ولما كان الاختصاص بالشيء لا سيما المرأة من أعظم الملذذات قال : ﴿ لم يطمثهن ﴾ أي يجامعهن ويتسلط عليهن في هذا الخلق الذي أنشئن فيه نوع من أنواع السلطة سواء من إنسيات أو جنيات أو غير ذلك ، يقال : طمثت المرأة كضرب وفرح : حاضت ، وطمثها الرجل : افتضها وأيضاً جامعها ، والبعير عقلته ، فكأنه قيل : هن أبكار لم يخالط موضع الطمث منهن ﴿ إنس ﴾ ولما كان المراد تعميم الزمان أسقط الجارّ فقال : ﴿ قبلهم ﴾ أي

المتكئين ﴿ ولا جان ﴾ وقد جمع هذا كل من يمكن منه جماع من ظاهر وباطن ، وفيه دليل على أن الجني يغشى الإنسي كما نقل عن الزجاج ﴿ فبأيِّ آلاء ربكما ﴾ أي النعم الجسام من المربي الكامل العلم الشامل القدرة القيوم ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة اللمس من جهة اليمنى أم غيرها مما جعله الله لكم مثالاً لهذا من الأبكار الحسان ، أو غير ذلك من أنواع الإحسان .

ولما دل ما تقدم من وصف المستمتع بهن بالعزة والنفاسة ، زاده على وجه أفاد أنه يكون بهن غاية ما يكون من سكون النفس وقوة القلب وشدة البدن واعتدال الدم وغير ذلك من خواص ما شبههن به فقال : ﴿ كأنهن الياقوت ﴾ الذي هو في صفاته بحيث يشف عن سلكه وهو جوهر معروف ، قال في القاموس : أجوده الأحمر الرماني نافع للوسواس والخفقان وضعف القلب شرباً ولجمود الدم تعليقاً : ﴿ والمرجان ﴾ في بياضه ، وصغار الدر أنصع بياضاً ، قال أبو عبد الله القزاز : والمرجان صغار اللؤلؤ ، وهذا الذي يخرج من نبات البحر أحمر معروف - انتهى .

(148/740)

وقد يستفاد من ذلك أن ألوانهن البياض والحمرة على نوع من الإشراب هو في غاية الإعجاب من الشفوف والصفاء ، وهو مع ذلك ثابت لا يعتريه تغير ليطابق الحديث الذي فيه " يرى مخ ساقها من وراء سبعين حلة " وقال أبو حيان : شبههن بهما فيما يحسن التشبيه به فالياقوت في املاسه وشفوفه والمرجان في املاسه وجمال منظره ﴿ فبأيِّ آلاء ربكما ﴾ أي النعم الغريبة البالغة في الحسن من المالك الملك المربي ببدائع التربية ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة اللمس من جهة اليسرى أم غيرها مما جعله مثالاً لما ذكر من وصفهن من تشبيه شيء بشيئين لبلوغ الأمر في الحسن إلى حد لا يساويه فيه شيء واحد ليشبه به ، فهو كما قيل : بيضاء في دعج صفراء في نعج كأنها فضة قد شابها ذهب ، وقد جعل سبحانه الأشياء الشفافة مثلاً لذلك وأنت ترى بعض الأجسام يكاد يرى فيه الوجه بل في سواد العين أعظم غرة حيث يرى فيه الوجه فإن السواد منشأ الظلام .

(149/740)

ولما كان ألذ ما أفاده الإنسان من النعم ما كان تسبب منه ، قال سارا لهم بذلك مع ما فيه من لذة المدح لا سيما والمادح الملك الأعلى ، معظماً له بسياق الاستفهام المفيد للإثبات بعد النفي المفيد للاختصاص على وجه الإنكار الشديد على من يتوهم غير ذلك : ﴿ هل

جزاء الإحسان ﴾ أي في العمل الكائن من الإنس أو الجن أو غيرهم ﴿ إلا الإحسان ﴾ أي في الثواب ، فهذا من المواضع التي أعيدت فيها المعرفة والمعنى مختلف ، روى البغوي بسنده عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " هل تدرون ما قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : يقول : هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة " وذلك جزاء إحسان العبد في العمل في مقابلة إحسان ربه إليه بالتربية ﴿ فبأيِّ آلاء ربكما ﴾ أي النعم العظيمة الحسن من السيد الكريم العظيم الرحيم الجامع لأوصاف الكمال ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة اللمس من جهة الفوق أم غيرها مما جعله الله سبحانه مثالاً في أن من أحسن قوبل بمثل إحسانه ، وهذه الآية ختام ثمان آيات حاثة على العمل الموصل إلى الثمانية الأبواب الكائنة لجنة المقربين – والله الهادي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 395.396 ﴾

(150/740)

فصل

قال الفخر :

﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56) ﴾

وفيه مباحث :

الأول : في الترتيب وأنه في غاية الحسن لأنه في أول الأمر بين المسكن وهو الجنة ، ثم بين ما يتنزه به فإن من يدخل بستاناً يتفرج أولاً فقال : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فِيهِمَا عَيْنَانِ ﴾ [الرحمن : 48 - 50] ثم ذكر ما يتناول من المأكول فقال : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ ﴾ [الرحمن : 52] ثم ذكر موضع الراحة بعد التناول وهو الفراش ، ثم ذكر ما يكون في الفراش معه .

(151/740)

الثاني : ﴿ فِيهِنَّ ﴾ الضمير عائد إلى ماذا ؟ نقول : فيه ثلاثة أوجه أحدها : إلى الآلاء والنعم أي قاصرات الطرف ثانيها : إلى الفراش أي في الفرش قاصرات وهما ضعيفان ، أما الأول فلأن اختصاص القاصرات بكونهن في الآلاء مع أن الجنتين في الآلاء والعينين فيهما والفواكه كذلك لا يبقى له فائدة ، وأما الثاني فلأن الفرش جعلها ظرفهم حيث قال : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ ﴾ [الرحمن : 54] وأعاد الضمير إليها بقوله : ﴿ بَطَائِنُهَا ﴾ [الرحمن : 54] ولم يقل : بطائنهن ، فقوله ﴿ فِيهِنَّ ﴾ يكون تفسيراً للضمير فيحتاج إلى بيان فائدة لأنه تعالى قال بعد هذا مرة أخرى : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ ﴾ [الرحمن : 70] ولم يكن هناك ذكر الفرش فالأصح إذن هو الوجه الثالث : وهو أن الضمير عائد إلى الجنتين ، وجمع

الضمير ههنا وثنى في قوله : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ ﴾ [الرحمن : 50] و : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ ﴾ [الرحمن : 52] وذلك لأنا بينا أن الجنة لها اعتبارات ثلاثة أحدها : اتصال أشجارها وعدم وقوع الفيافي والمهامة فيها والأراضي الغامرة ، ومن هذا الوجه كأنها جنة واحدة لا يفصلها فاصل وثانيها : اشتمالها على النوعين الحاصرين للخيرات ، فإن فيها ما في الدنيا ، وما ليس في الدنيا وفيها ما يعرف ، ومالا يعرف ، وفيها ما يقدر على وصفه ، وفيها مالا يقدر ، وفيها لذات جسمانية ولذات غير جسمانية فلاشتمالها على النوعين كأنها جنتان وثالثها : لسعتها وكثرة أشجارها وأماكنها وأنهارها ومساكنها كأنها جنات ، فهي من وجه جنة واحدة ومن وجه جنتان ومن وجه جنات .

(152/740)

إذا ثبت هذا فنقول : اجتماع النسوان للمعاشرة مع الأزواج والمباشرة في الفراش في موضع واحد في الدنيا لا يمكن ، وذلك لضيق المكان ، أو عدم الإمكان أو دليل ذلة النسوان ، فإن الرجل الواحد لا يجمع بين النساء في بيت إلا إذا كن جواري غير ملتفت إليهن ، فأما إذا كانت كل واحدة كبيرة النفس كثيرة المال فلا يجمع بينهن ، واعلم أن الشهوة في الدنيا كما تزداد بالحسن الذي في الأزواج تزداد بسبب العظمة وأحوال الناس في أكثر الأمر تدل عليه

، إذا ثبت هذا فنقول : الحظايا في الجنة يجتمع فيهن حسن الصورة والجمال والعز والشرف والكمال ، فتكون الواحدة لها كذا وكذا من الجواري والغلمان فتزداد اللذة بسبب كمالها ، فإذن ينبغي أن يكون لكل واحدة ما يليق بها من المكان الواسع فتصير الجنة التي هي واحدة من حيث الاتصال كثيرة من حيث تفرق المساكن فيها فقال : ﴿ فِيهِنَّ ﴾ وأما الدنيا فليس فيها تفرق المساكن دليلاً للعظمة واللذة فقال

﴿ فِيهِمَا ﴾ [الرحمن : 50] وهذا من اللطائف الثالث : قاصرات الطرف صفة لموصوف حذف ، وأقيمت الصفة مكانه ، والموصوف النساء أو الأزواج كأنه قال فيهن نساء قاصرات الطرف وفيه لطيفة : فإنه تعالى لم يذكر النساء إلا بأوصافهن ولم يذكر اسم الجنس فيهن ، فقال تارة : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ [الواقعة : 22] وتارة : ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ [الواقعة : 37] وتارة : ﴿ قاصرات الطرف ﴾ [الرحمن : 56] ولم يذكر نساء كذا وكذا لوجهين أحدهما : الإشارة إلى تخدرهن وتسترهن ، فلم يذكرهن باسم الجنس لأن اسم الجنس يكشف من الحقيقة ما لا يكشفه الوصف فإنك إذا قلت المتحرك المريد الآكل الشارب لا تكون بينته بالأوصاف الكثيرة أكثر مما بينته بقولك : حيوان وإنسان وثانيهما : إعظاماً لهن ليزداد حسنهن في أعين الموعودين بالجنة فإن بنات الملوك لا يذكرن إلا بالأوصاف .

المسألة الرابعة :

﴿ قاصرات الطرف ﴾ من القصر وهو المنع أي المانعات أعينهن من النظر إلى الغير ، أو من القصور ، وهو كون أعينهن قاصرة لا طماح فيها للغير ، أقول والظاهر أنه من القصر إذ القصر مدح والقصور ليس كذلك ، ويحتمل أن يقال : هو من القصر بمعنى أنهن قصرن أبصارهن ، فأبصارهن مقصورة وهن قاصرات فيكون من إضافة الفاعل إلى المفعول والدليل عليه هو أن القصر مدح والقصور ليس كذلك ، وعلى هذا ففيه لطيفة وهي أنه تعالى قال من بعد هذه : ﴿ حُورٌ مقصورات ﴾ [الرحمن : 72] فهن مقصورات وهن قاصرات ، وفيه وجهان أحدهما : أن يقال : هن قاصرات أبصارهن كما يكون شغل العفائف ، وهن قاصرات أنفسهن في الخيام كما هو عادة المخدرات لأنفسهن في الخيام ولأبصارهن عن الطماح وثانيهما : أن يكون ذلك بياناً لعظمتهن وعفافهن وذلك لأن المرأة التي لا يكون لها رادع من نفسها ولا يكون لها أولياء يكون فيها نوع هوان ، وإذا كان لها أولياء أعزة امتنعت عن الخروج والبروز ، وذلك يدل على عظمتهن ، وإذا كن في أنفسهن عند الخروج لا ينظرن يمنة ويسرة فهن في أنفسهن عفائف ، فجمع بين الإشارة إلى عظمتهن بقوله تعالى : ﴿ مقصورات ﴾ منعهن أولياؤهن وههنا وليهن الله تعالى ، وبين الإشارة إلى

عفتهن بقوله تعالى : ﴿ قاصرات الطرف ﴾ ثم تمام اللطف أنه تعالى قدم ذكر ما يدل على العفة على ما يدل على العظمة وذكر في أعلى الجنتين قاصرات وفي أدناهما مقصورات ، والذي يدل على أن المقصورات يدل على العظمة أنهن يوصفن بالمخدرات لا بالمتخدرات ، إشارة إلى أنهن خدرهن خادر لهن غيرهن كالذي يضرب الخيام ويدلي الستر ، بخلاف من تتخذه لنفسها وتغلق بابها بيدها ، وسنذكر بيانه في تفسير الآية بعد .

المسألة الخامسة :

﴿ قاصرات الطرف ﴾ فيها دلالة عفتهن ، وعلى حسن المؤمنين في أعينهن ، فيجبن أزواجهن حباً بشغلهن عن النظر إلى غيرهم ، ويدل أيضاً على الحياء لأن الطرف حركة الجفن ، والحورية لا تحرك جفنها ولا ترفع رأسها .

(154/740)

المسألة السادسة :

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ فيه وجوه أحدها : لم يفرعهن ثانيها : لم يجامعهن ثالثها : لم يمسسهن ، وهو أقرب إلى حالهن وأليق بوصف كمالهن ، لكن لفظ الطمث غير ظاهر فيه ولو كان المراد منه المس لذكر اللفظ الذي يستحسن ، وكيف وقد قال تعالى : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ

أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [البقرة : 237] وقال : ﴿ فاعتزلوا ﴾ [البقرة : 222] ولم يصرح بلفظ موضوع للوطء ، فإن قيل : فما ذكرتم من الإشكال باق وهو أنه تعالى كنى عن الوطء في الدنيا باللمس كما في قوله تعالى : ﴿ أَوْ لامستم النساء ﴾ [النساء : 43] على الصحيح في تفسير الآية وسنذكره ، وإن كان على خلاف قول إمامنا الشافعي رضي الله عنه وبالمس في قوله : ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [البقرة : 237] ولم يذكر المس في الآخرة بطريق الكناية ، نقول : إنما ذكر الجماع في الدنيا بالكناية لما أنه في الدنيا قضاء للشهوة وأنه يضعف البدن ويمنع من العبادة ، وهو في بعض الأوقات قبحه كقبح شرب الخمر ، وفي بعض الأوقات هو كالأكل الكثير وفي الآخرة مجرد عن وجوه القبح ، وكيف لا والخمر في الجنة معدودة من اللذات وأكلها وشربها دائم إلى غير ذلك ، فالله تعالى ذكره في الدنيا بلفظ مجازي مستور في غاية الخفاء بالكناية إشارة إلى قبحه وفي الآخرة ذكره بأقرب الألفاظ إلى التصريح أو بلفظ صريح ، لأن الطمث أدل من الجماع والوقاع لأنهما من الجمع والوقوع إشارة إلى خلوه عن وجوه القبح .

المسألة السابعة :

ما الفائدة في كلمة ﴿ قَبْلَهُمْ ﴾ ؟ قلنا لو قال : لم يطمثهن إنس ولا جان يكون نفياً لطمث المؤمن إياهن وليس كذلك .

المسألة الثامنة :

(155/740)

ما الفائدة في ذكر الجان مع أن الجان لا يجامع ؟ نقول : ليس كذلك بل الجن لهم أولاد وذريات وإنما الخلاف في أنهم هل يواقعون الإنس أم لا ؟ والمشهور أنهم يواقعون وإلا لما كان في الجنة أحساب ولا أنساب ، فكأن مواقعة الإنس إياهن كمواقعة الجن من حيث الإشارة إلى نفيها .

كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (59)

(156/740)

وهذا التشبيه فيه وجهان أحدهما : تشبيه بصفائهما وثانيهما : بحسن بياض اللؤلؤ وحمرة الياقوت ، والمرجان صغار اللؤلؤ وهي أشد بياضاً وضياء من الكبار بكثير ، فإن قلنا : إن التشبيه لبيان صفائهن ، فنقول : فيه لطيفة هي أن قوله تعالى : ﴿ قاصرات الطرف ﴾ إشارة إلى خلوصهن عن القبائح ، وقوله : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان ﴾ إشارة إلى صفائهن في الجنة ، فأول ما بدأ بالعقليات وختم بالحسيات ، كما قلنا : إن التشبيه لبيان

مشابهة جسمهن بالياقوت والمرجان في الحمرة والبياض ، فكذلك القول فيه حيث قدم بيان العفة على بيان الحسن ولا يبعد أن يقال : هو مؤكد لما مضى لأنهن لما كن قاصرات الطرف ممتنعات عن الاجتماع بالإنس والجن لم يطمثهن فهن كالياقوت الذي يكون في معدنه والمرجان المصون في صدفه لا يكون قد مسه يد لامس ، وقد بينا مرة أخرى في قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ أن (كأن) الداخلة على المشبه به لا تفيد من التأكيد ما تفيده الداخلة على المشبه ، فإذا قلت : زيد كالأسد ، كان معناه زيد يشبه الأسد ، وإذا قلت كأن زيداً الأسد فمعناه يشبه أن زيداً هو الأسد حقيقة ، لكن قولنا : زيد يشبه الأسد ليس فيه مبالغة عظيمة ، فإنه يشبهه في أنهما حيوانان وجسمان وغير ذلك ، وقولنا : زيد يشبه لا يمكن حمله على الحقيقة ، أما من حيث اللفظ فنقول : إذا دخلت الكاف على المشبه به ، وقيل : إن زيداً كالأسد عملت الكاف في الأسد عملاً لفظياً والعمل اللفظي مع العمل المعنوي ، فكأن الأسد عمل به عمل حتى صار زيداً ، وإذا قلت : كأن زيداً الأسد تركت الأسد على إعرابه فإذن هو متروك على حاله وحقيقته وزيد يشبه به في تلك الحال ولا شك في أن زيداً إذا شبه بأسد هو على حاله باق يكون أقوى مما إذا شبه بأسد لم يبق على حاله ، وكأن من قال : زيد كالأسد نزل الأسد عن درجته فساواه زيد ، ومن قال : كأن زيداً الأسد رفع زيداً عن درجته حتى ساوى الأسد ، وهذا

تدقيق لطيف .

هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (60) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (61)

وفيه وجوه كثيرة حتى قيل : إن في القرآن ثلاث آيات في كل آية منها مائة قول الأولى : قوله تعالى : ﴿ فاذكرونى أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : 152] ، الثانية : قوله تعالى : ﴿ إن عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ [الإسراء : 8] ، الثالثة : قوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاء الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ ولنذكر الأشهر منها والأقرب .

(158/740)

أما الأشهر فوجوه أحدها : هل جزاء التوحيد غير الجنة ، أي جزاء من قال : لا إله إلا الله إدخال الجنة ثانيها : هل جزاء الإحسان في الدنيا إلا الإحسان في الآخرة ثالثها : هل جزاء من أحسن إليكم في الدنيا بالنعم وفي العقبى بالنعيم إلا أن تحسنوا إليه بالعبادة والتقوى ، وأما الأقرب فإنه عام فجزاء كل من أحسن إلى غيره أن يحسن هو إليه أيضاً ، ولنذكر تحقيق القول فيه وترجع الوجوه كلها إلى ذلك ، فنقول : الإحسان يستعمل في ثلاث معان أحدها : إثبات الحسن وإيجاده قال تعالى : ﴿ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر : 64] وقال تعالى :

﴿ الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْء خَلَقَهُ ﴾ [السجدة : 7] ثانيها : الإتيان بالحسن كالإظراف والإغراب للإتيان بالظريف والغريب قال تعالى : ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : 160] ثالثها : يقال : فلان لا يحسن الكتابة ولا يحسن الفاتحة أي لا يعلمهما ، والظاهر أن الأصل في الإحسان الوجهان الأولان والثالث مأخوذ منهما ، وهذا لا يفهم إلا بقرينة الاستعمال مما يغلب على الظن إرادة العلم ، إذا علمت هذا فنقول : يمكن حمل الإحسان في الموضعين على معنى متحد من المعنيين ويمكن حمله فيهما على معنيين مختلفين أما الأول : فنقول : ﴿ هَلْ جَزَاء الإحسان ﴾ أي هل جزاء من أتى بالفعل الحسن إلا أن يؤتى في مقابلته بفعل حسن ، لكن الفعل الحسن من العبد ليس كل ما يستحسنه هو ، بل الحسن هو ما استحسنه الله منه ، فإن الفاسق ربما يكون الفسق في نظره حسناً وليس بحسن بل الحسن ما طلبه الله منه ، كذلك الحسن من الله هو كل ما يأتي به مما يطلبه العبد كما أتى العبد بما يطلبه الله تعالى منه ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس وَتَلَذُّ الأعين ﴾ [الزخرف : 71] وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِيمَا اشتهت أَنفُسُهُمْ خالدون ﴾ [الأنبياء : 102] وقال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى ﴾ [يونس

: 26] أي ما هو حسن عندهم وأما الثاني فنقول : هل جزاء من أثبت الحسن في عمله في الدنيا إلا أن يثبت الله الحسن فيه وفي أحواله في الدارين وبالعكس هل جزاء من أثبت الحسن فينا وفي صورنا وأحوالنا إلا أن نثبت الحسن فيه أيضاً ، لكن إثبات الحسن في الله تعالى محال ، فإثبات الحسن أيضاً في أنفسنا وأفعالنا فنحسن أنفسنا بعبادة حضرة الله تعالى ، وأفعالنا بالتوجه إليه وأحوال باطننا بمعرفته تعالى ، وإلى هذا رجعت الإشارة ، وورد في الأخبار من حسن وجوه المؤمنين وقبح وجوه الكافرين وأما الوجه الثالث : وهو الحمل على المعنيين فهو أن تقول : على جزاء من أتى بالفعل الحسن إلا أن يثبت الله فيه الحسن ، وفي جميع أحواله فيجعل وجهه حسناً وحاله حسناً ، ثم فيه لطائف :

(160/740)

اللطيفة الأولى : هذه إشارة إلى رفع التكليف عن العوام في الآخرة ، وتوجيه التكليف على الخواص فيها أما الأول : فلأنه تعالى لما قال : ﴿ هَلْ جَزَاء الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ والمؤمن لا شك في أنه يثاب بالجنة فيكون له من الله الإحسان جزاء له ومن جازى عبداً على عمله لا يأمره بشكره ، ولأن التكليف لو بقي في الآخرة فلو ترك العبد القيام بالتكليف لاستحق العقاب ، والعقاب ترك الإحسان لأن العبد لما عبد الله في الدنيا ما دام وبقي يليق

بكرمه تعالى أن يحسن إليه في الآخرة ما دام وبقي ، فلا عقاب على تركه بلا تكليف وأما الثاني فنقول : خاصة الله تعالى عبدنا الله تعالى في الدنيا لنعم قد سبقت له علينا ، فهذا الذي أعطانا الله تعالى ابتداء نعمة وإحسان جديد فله علينا شكره ، فيقولون الحمد لله ، ويذكرون الله ويثنون عليه فيكون نفس الإحسان من الله تعالى في حقهم سبباً لقيامهم بشكره ، فيعرضون هم على أنفسهم عبادته تعالى فيكون لهم بأدنى عبادة شغل شاغل عن الحور والقصور والأكل والشرب فلا يأكلون ولا يشربون ولا يتنابذون ولا يلعبون فيكون حالهم كحال الملائكة في يومنا هذا لا يتناكحون ولا يلعبون ، فلا يكون ذلك تكليفاً مثل هذه التكاليف الشاقة ، وإنما يكون ذلك لذة زائدة على كل لذة في غيرها .

(161/740)

اللطيفة الثانية : هذه الآية تدل على أن العبد محكم في الآخرة كما قال تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ ﴾ [يس : 57] وذلك لأنا بينا أن الإحسان هو الإتيان بما هو حسن عند من أتى بالإحسان ، لكن الله لما طلب منا العبادة طلب كما أراد ، فأتى به المؤمن كما طلب منه ، فصار محسناً فهذا يقتضي أن يحسن الله إلى عبده ويأتي بما هو حسن عنده ، وهو ما يطلبه كما يريد فكأنه قال : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإحسان ﴾ أي هل جزاء من أتى بما

طلبته منه على حسب إرادتي إلا أن يؤتى بما طلبه مني على حسب إرادته ، لكن الإرادة متعلقة بالرؤية ، فيجب بحكم الوعد أن تكون هذه آية دالة على الرؤية البلكفية .

اللطيفة الثالثة : هذه الآية تدل على أن كل ما يفرضه الإنسان من أنواع الإحسان من الله تعالى فهو دون الإحسان الذي وعد الله تعالى به لأن الكريم إذا قال للفقير : افعل كذا ولك كذا ديناراً ، وقال لغيره افعل كذا على أن أحسن إليك يكون رجاء من لم يعين له أجراً أكثر من رجاء من عين له ، هذا إذا كان الكريم في غاية الكرم ونهاية الغنى ، إذا ثبت هذا فالله تعالى قال : جزاء من أحسن إلى أن أحسن إليه بما يغبط به ، وأوصل إليه فوق ما يشتهيه فالذي يعطي الله فوق ما يرجوه وذلك على وفق كرمه وإفضاله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 112.116 ﴾

(162/740)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46) ﴾

" من " في قوله تعالى : ﴿ ولمن ﴾ يحتمل أن تقع على جميع المتصفين بالخوف الزاجر عن معاصي الله تعالى ، ويحتمل أن تقع لواحد منهم وبحسب هذا قال بعض الناس في هذه الآية

: إن كل خائف له ﴿ جنتان ﴾ . وقال بعضهم : جميع الخائفين لهم ﴿ جنتان ﴾ .

والمقام هو وقوف العبد بين يدي ربه يفسره : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ [المطففين : 6] وأضاف المقام إلى الله من حيث هو بين يديه . قال الثعلبي وقيل : ﴿ مقام ربه ﴾ قيامه على العبد ، بيانه : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ [الرعد : 33] وحكى الزهراوي هذا المعنى عن مجاهد . وفي هذه الإضافة تنبيه على صعوبة الموقف وتحريض على الخوف الذي هو أسرع المطايا إلى الله عز وجل . وقال قوم : أراد جنة واحدة ، وثنى على نحو قوله : ﴿ ألقيا في جهنم ﴾ [ق : 24] وقول الحجاج : يا غلام اضربا عنقه .

وقال أبو محمد : هذا ضعيف ، لأن معنى التثنية متوجه فلا وجه للفرار إلى هذه الشاذة ، ويؤيد التثنية قوله ﴿ ذواتا أفنان ﴾ وهي تثنية ذات على الأصل . لأن أصل ذات : ذوات .

والأفنان يحتمل أن يكون جمع فنن ، وهو فنن الغصن ، وهذا قول مجاهد ، فكأنه مدحها بظلالها وتكاثف أغصانها ويحتمل أن يكون جمع فن ، وهو قول ابن عباس ، فكأنه مدحها بكثرة أنواع فواكهها ونعيمها .

و: ﴿ زوجان ﴾ معناه : نوعان . و: ﴿ متكئين ﴾ حال إما من محذوف تقديره يتنعمون ﴿ متكئين ﴾ . وإما من قوله : ﴿ ولمن خاف ﴾ . والاتكاء جلسة المتنعم المتمتع .

وقرأ جمهور الناس : " فرُش " بضم الراء . وقرأ أبو حيوة : " فرْش " بسكون الراء ، وروي في الحديث أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه البطائن ﴿ من استبرق ﴾ فكيف الظواهر ؟ قال : " هي من نور يتلألأ " .

(163/740)

والاستبرق ما خشن وحسن من الديباج . والسندس : ما رق منه . وقد تقدم القول في لفظة الاستبرق . وقرأ ابن محيصن " من استبرق " على أنه فعل والألف وصل .

والضمير في قوله : ﴿ فيهن ﴾ للفرش ، وقيل للجنات ، إذ الجنتان جنات في المعنى .

والجنى ما يجتنى من الثمار ، ووصفه بالدنو ، لأنه فيما روي في الحديث يتناوله المرء على أي حالة كان من قيام أو جلوس أو اضطجاع لأنه يدنو إلى مشتهيه . و: ﴿ قاصرات الطرف ﴾ هي الحور العين ، قصرن ألحاظهن على أزواجهن .

وقرأ أبو عمرو عن الكسائي وحده وطلحة وعيسى وأصحاب علي وابن مسعود : " يطمُثهن " بضم الميم . وقرأ جمهور القراء : " يطمِثهن " بكسر الميم . والمعنى : لم يفتضهن لأن الطمث دم الفرج ، فيقال لدم الحيض طمث ، ولدم الافتضاض طمث ، فإذا نفي الافتضاض ، فقد نفي القرب منهن بجهة الوطء . قال الفراء : لا يقال طمث إلا إذا افتض .

قال غيره : طمث ، معناه : جامع بكراً أو غيرها .

واختلف الناس في قوله : ﴿ ولا جان ﴾ فقال مجاهد : الجن قد تجامع نساء البشر مع أزواجهن ، إذا لم يذكر الزوج الله تعالى ، فتنفي هذه الآية جميع المجامعات . وقال ضمرة بن حبيب : الجن لهم ﴿ قاصرات الطرف ﴾ من الجن نوعهم ، فنفى في هذه الآية الافتضاض عن البشريات والجنيات .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل اللفظ أن يكون مبالغة وتأكيداً ، كأنه قال : ﴿ لم يطمثهن ﴾ شيء ، أراد العموم التام ، لكنه صرح من ذلك بالذي يعقل منه أن يطمث . وقال أبو عبيدة والطبري : إن من العرب من يقول : ما طمث هذا البعير حبل قط ، أي ما مسه .

قال القاضي أبو محمد : فإن كان هذا المعنى ما أدماه حبل ، فهو يقرب من الأول . وإلا فهو معنى آخر غير الذي قدمناه . وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد : " ولا جأن " بالهمز .

كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58)

(164/740)

﴿ الياقوت والمرجان ﴾ : هي من الأشياء التي قد برع حسنها واستشعرت النفوس جلالتها ، فوقع التشبيه بها لا في جميع الأوصاف لكن فيما يشبه ويحسن بهذه المشبهات ،

ف ﴿ الياقوت ﴾ في إملاسه وشفوفه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في صفة المرأة من نساء أهل الجنة : " يرى مخ ساقها من وراء العظم " ﴿ والمرجان ﴾ في إملاسه وجمال منظره ، وبهذا النحو من النظر سمت العرب النساء بهذه الأشياء كدرة بنت أبي لهب . ومرجانة أم سعيد وغير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ آية ، وعد وبسط لنفوس جميع المؤمنين لأنها عامة . قال ابن المنكدر وابن زيد وجماعة من أهل العلم : هي للبر والفاجر . والمعنى أن جزاء من أحسن بالطاعة أن يحسن إليه بالتنعيم . وحكى النقاش أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر هذه الآية : " هل جزاء التوحيد إلا الجنة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(165/740)

وقال القرطبى :

﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطرف ﴾ قيل : في الجنتين المذكورتين .

قال الزجاج: وإنما قال: ﴿ فِيهِنَّ ﴾ ولم يقل فيهما؛ لأنه عنى الجنتين وما أعدّ لصاحبهما من النعيم.

وقيل: "فِيهِنَّ" يعود على الفُرُش التي بطائنها من إستبرق؛ أي في هذه الفرش ﴿ قَاصِرَاتُ الطرف ﴾ أي نساء قاصرات الطرف، قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم.

وقد مضى في "والصافات" ووحّد الطرف مع الإضافة إلى الجمع لأنه في معنى المصدر؛ من طَرَفت عينه تطرِف طَرْفاً، ثم سميت العين بذلك فأدّى عن الواحد والجمع؛ كقولهم: قوم عَدْل وصَوْم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ أي لم يصبهنّ بالجماع قبل أزواجهن هؤلاء أحد.

الفراء: والطمث الافتضاض وهو النكاح بالتَّدْمِيَة؛ طَمَثَها يطمِثُها ويَطمُثها طَمْثاً إذا افتضها.

ومنه قيل: امرأة طامِث أي حائض.

وغير الفراء يخالفه في هذا ويقول: طمثها بمعنى وطئها على أي الوجوه كان.

إلا أن قول الفراء أعرف وأشهر.

وقرأ الكسائي "لَمْ يَطْمُثْهُنَّ" بضم الميم؛ يقال: طَمَثت المرأة تطمُث بالضم حاضت.

وطَمِثت بالكسر لغة فهي طامث؛ وقال الفرزدق:

وقَعْنَ إليَّ لم يُطْمَثْن قَبْلِي . . .

وهنّ أَصَحُّ مِنْ بَيْضِ النَّعَامِ

وقيل : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ لم يمسسهن ؛ قال أبو عمرو : والطمث المسّ وذلك في كل شيء يمسّ .

ويقال للمَرْتع : ما طمَث ذلك المرتعَ قبلنا أحدٌ ، وما طمَث هذه الناقَة حَبْل : أي ما مسَّها عِقال .

وقال المبرِّد : أي لم يذلِّلهن إنس قبلهم ولا جان ؛ والطمث التذليل .

وقرأ الحسن "جَأن" بالهمز .

الثالثة : في هذه الآية دليل على أن الجن تغشى كالإنس ، وتدخل الجنة ويكون لهم فيها جنّيات .

(166/740)

قال ضمرة : للمؤمنين منهم أزواج من الحور العين ؛ فالإنسيات للإنس ، والجنيات للجن .

وقيل : أي لم يطمث ما وهب الله للمؤمنين من الجن في الجنة من الحور العين من الجنيات جنّ ، ولم يطمث ما وهب الله للمؤمنين من الإنس في الجنة من الحور العين من الإنسيات إنس ؛ وذلك لأن الجن لا تطأ بنات آدم في الدنيا .

ذكره القشيري .

قلت : قد مضى في "النمل" القول في هذا وفي "سبحان" أيضاً ، وأنه جائز أن تطأ بنات آدم .

وقد قال مجاهد : إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه فذلك قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ وذلك بأن الله تبارك وتعالى وصف الحور العين بأنه لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان .

يعلمك أن نساء الآدميات قد يطمثهن الجان ، وأن الحور العين قد برئن من هذا العيب ونزّهن ، والطمث الجماع .

ذكره بكماله الترمذي الحكيم ، وذكره المهدوي أيضاً والثعلبي وغيرهما والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان ﴾

روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقيها من وراء سبعين حُلّة حتى يرى مخها " وذلك بأن الله تعالى يقول : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان ﴾ فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سِلكاً ثم استصفيته لأريته من ورائه ويروى موقوفاً .

وقال عمرو بن ميمون : إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حُلّة فيرى مخ ساقها من وراء

ذلك ، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء .

وقال الحسن : هنّ في صفاء الياقوت ، وبياض المرجان .

(167/740)

قوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ "هَلْ" في الكلام على أربعة أوجه : تكون بمعنى قد كقوله تعالى : ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدهر ﴾ [الإنسان : 1] ، وبمعنى الاستفهام كقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً ﴾ [الأعراف : 44] ، وبمعنى الأمر كقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : 91] ، وبمعنى ما في الجحد كقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرسل إِلاَّ البلاغ ﴾ [النحل : 35] ، و ﴿ هَلْ جَزَآءُ الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ .

قال عكرمة : أي هل جزاء من قال لا إله إلا الله إلا الجنة .

ابن عباس : ما جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إلا الجنة .

وقيل : هل جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة ؛ قاله ابن زيد .

وروى أنس " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ هَلْ جَزَآءُ الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾

ثم قال : "هل تدرون ماذا قال ربكم" قالوا الله ورسوله أعلم ؛ قال : "يقول ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة" " وروى ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فقال : " يقول الله هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدي إلا أن أسكنه جنتي وحظِيرة قُدْسي برحمتي " وقال الصادق : هل جزاء من أحسنت عليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه في الأبد .

وقال محمد بن الحنفية والحسن : هي مُسْجَلة للبَرّ والفاجر ؛ أي مرسلة على الفاجر في الدنيا والبر في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(168/740)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (31) ﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به من تعليم العلم وخلق الإنسان والسماء والأرض وما أودع فيهما وفناء ما على الأرض ، ذكر ما يتعلق بأحوال الآخرة الجزاء وقال : ﴿ سنفرغ لكم ﴾ : أي ننظر في أموركم يوم القيامة ، لا أنه تعالى كان له شغل فيفرغ منه .

وجرى على هذا كلام العرب في أن المعنى : سيقصد لحسابكم ، فهو استعارة من قول

الرجل لمن يتهدده : سأفرغ لك ، أي سأتجرد للإيقاع بك من كل ما شغلني عنه حتى لا يكون لي شغل سواه ، والمراد التوفر على الانتقام منه .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون التوعد بعذاب في الدنيا ، والأول أبين .

انتهى ، يعني : أن يكون ذلك يوم القيامة .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد ستنتهي الدنيا ويبلغ آخرها ، وتنتهي عند ذلك شؤون الخلق التي أرادها بقوله : ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ ، فلا يبقى إلا شأن واحد وهو جزاؤكم ، فجعل ذلك فراغاً لهم على طريق المثل . انتهى .

والذي عليه أئمة اللغة أن فرغ تستعمل عند انقضاء الشغل الذي كان الإنسان مشتغلاً به ، فلذلك احتاج قوله إلى التأويل على أنه قد قد قيل : إن فرغ يكون بمعنى قصد واهتم ، واستدل على ذلك بما أنشده ابن الأنباري لجرير :

الآن وقد فرغت إلى نمير . . .

فهذا حين كنت لهم عذابا

أي : قصدت .

وأنشد النحاس :

فرغت إلى العبد المقيد في الحجل . . .

وفي الحديث : " فرغ ربك من أربع " ، وفيه : " لأتفرغن إليك يا خبيث " ، يخاطب به

رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إرب العقبة يوم بيعتها : أي لأقصدن إبطال أمرك ، نقل هذا عن الخليل والكسائي والفراء .

وقرأ الجمهور : سنفرغ بنون العظمة وضم الراء ، من فرغ بفتح الراء ، وهي لغة الحجاز ؛ وحمزة والكسائي وأبو حيوة وزيد بن علي : بياء الغيبة ؛ وقتادة والأعرج : بالنون وفتح الراء ، مضارع فرغ بكسرها ، وهي تميمية ؛ وأبو السمال وعيسى : بكسر النون وفتح الراء .

(169/740)

قال أبو حاتم : هي لغة سفلى مضر ؛ والأعمش وأبو حيوة بخلاف عنهما ؛ وابن أبي عبلة والزعفراني : بضم الياء وفتح الراء ، مبنياً للمفعول ؛ وعيسى أيضاً : بفتح النون وكسر الراء ؛ والأعراج أيضاً : بفتح الياء والراء ، وهي رواية يونس والجعفي وعبد الوارث عن أبي عمرو .

والثقلان : الإنس والجن ، سميا بذلك لكونهما ثقيلين على وجه الأرض ، أو لكونهما مثقلين بالذنوب ، أو لثقل الإنس .

وسمي الجن ثقلاً لمجاورة الإنس ، والثقل : الأمر العظيم .

وفي الحديث : " إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي " ، سميا بذلك لعظمهما وشرفهما .

والظاهر أن قوله : ﴿ يا معشر ﴾ الآية من خطاب الله إياهم يوم القيامة ، ﴿ يوم التناد ﴾ وقيل : يقال لهم ذلك .

قال الضحاك : يفرون في أقطار الأرض لما يرون من الهول ، فيجدون الملائكة قد أحاطت بالأرض ، فيرجعون من حيث جاءوا ، فحينئذ يقال لهم ذلك .

وقيل : هو خطاب في الدنيا ، والمعنى : إن استطعتم الفرار من الموت .

وقال ابن عباس : ﴿ إن استطعتم ﴾ بأذهانكم وفكركم ، ﴿ أن تنفذوا ﴾ ، فتعلمون علم ﴿ أقطار ﴾ : أي جهات ﴿ السماوات والأرض ﴾ .

قال الزمخشري : ﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾ ، كالترجمة لقوله : ﴿ أيها الثقلان ﴾ ، ﴿ إن استطعتم ﴾ أن تهربوا من قضائي ، وتخرجوا من ملكوتي ومن سمائي وأرضي فافعلوا ؛ ثم قال : لا تقدرون على النفوذ ﴿ إلا بسلطان ﴾ ، يعني : بقوة وقهر وغلبة ، وأنى لكم ذلك ، ونحوه : ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ﴾ انتهى .

﴿ فانفذوا ﴾ : أمر تعجيز .

وقال قتادة : السلطان هنا الملك ، وليس لهم ملك .

وقال الضحاك أيضاً : بينما الناس في أسواقهم ، انفتحت السماء ونزلت الملائكة ، فتهرب الجن والإنس ، فتحدق بهم الملائكة .

(170/740)

وقرأ زيد بن علي : إن استطعتما ، على خطاب تثنية الثقلين ومراعاة الجن والإنس ؛

والجمهور : على خطاب الجماعة إن استطعتم ، لأن كلاً منهما تحته أفراد كثيرة ، كقوله : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ ﴿ يرسل عليكم شواظ ﴾ ، قال ابن عباس : إذا خرجوا من قبورهم ، ساقهم شواظ إلى المحشر .

والشواظ : لهب النار .

وقال مجاهد : اللهب الأحمر المنقطع .

وقال الضحاك : الدخان الذي يخرج من اللهب .

وقرأ الجمهور : شواظ ، بضم الشين ؛ وعيسى وابن كثير وشبل : بكسرها .

والجمهور ؛ ﴿ ونحاس ﴾ : بالرفع ؛ وابن أبي إسحاق والنخعي وابن كثير وأبو عمرو : بالجر ؛ والكلبي وطلحة ومجاهد : بكسر نون نحاس والسين .

وقرأ ابن جبير : ونحس ، كما تقول : يوم نحس .

وقرأ عبد الرحمن بن أبي بكرة وابن أبي إسحاق أيضاً : ونحس مضارعاً ، وماضيه حسه ، أي قتله ، أي ويحس بالعذاب .

وعن ابن أبي إسحاق أيضاً : ونحس بالحركات الثلاث في الحاء على التخيير ؛ وحنظلة بن نعمان : ونحس بفتح النون وكسر السين ؛ والحسن وإسماعيل : ونحس بضمتين والكسر .

وقرأ زيد بن علي : نرسل بالنون ، عليكما شواظاً بالنصب ، من نار ونحاساً بالنصب عطفاً على شواظاً .

قال ابن عباس وابن جبير والنحاس : الدخان ؛ وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد : هو الصفر المعروف ، والمعنى : يعجز الجن والإنس ، أي أنتما بحال من يرسل عليه هذا ، فلا يقدر على الامتناع مما يرسل عليه .

﴿ فإذا انشقت السماء ﴾ : جواب إذا محذوف ، أي فما أعظم الهول ، وانشقاقها : انفطارها يوم القيامة .

﴿ فكانت وردة ﴾ : أي محمرة كالورد .

قال ابن عباس وأبو صالح : هي من لون الفرس الورد ، فأنث لكون السماء مؤنثة .

وقال قتادة : هي اليوم زرقاء ، ويومئذ تغلب عليها الحمرة كلون الورد ، وهي النوار المعروف ، قاله الزجاج ، ويريد كلون الورد ، وقال الشاعر :

فلو كانت ورداً لونه لعشقتني . . .

ولكن ربي شانني بسواديا

وقال أبو الجوزاء : وردة صفراء .

(171/740)

وقال : أما سمعت العرب تسمي الخيل الورد ؟ قال الفراء : أراد لون الفرس الورد ، يكون في الربيع إلى الصفرة ، وفي الشتاء إلى الحمرة ، وفي اشتداد البرد إلى الغبرة ، فشبه تلون السماء بتلون الوردة من الخيل ، وهذا قول الكلبي .

﴿ كالدهان ﴾ ، قال ابن عباس : الأديم الأحمر ، ومنه قول الأعشى :

وأجرد من كرام الخير طرف . . .

كأن على شواكله دهاناً

وقال الشاعر : كالدهان المختلفة ، لأنها تتلون ألواناً .

وقال الضحاك : كالدهان خالصة ، جمع دهن ، كقرط وقراط .

وقيل : تصير حمراء من حرارة جهنم ، ومثل الدهن لذوبها ودورانها .

وقيل : شبهت بالدهان في لمعانها .

وقال الزمخشري : ﴿ كالدهان ﴾ : كدهن الزيت ، كما قال : ﴿ كالمهل ﴾ وهو دردي

الزيت ، وهو جمع دهن ، أو اسم ما يدهن به ، كالحرام والأدام ، قال الشاعر :

كأنهما مزادتا متعجل . . .

فريان لما سلعا بدهان

وقرأ عبيد بن عمير : وردة بالرفع بمعنى : فحصلت سماء وردة ، وهو من الكلام الذي يسمى التجريد ، كقوله :

فلئن بقيت لأرحلن بغزوة . . .

نحو المغانم أو يموت كريم

انتهى .

﴿ فيومئذ ﴾ : التنوين فيه للعوض من الجملة المحذوفة ، والتقدير : فيوم إذ انشقت السماء ، والناصب ليومئذ ﴿ لا يسأل ﴾ ، ودل هذا على انتفاء السؤال ، و: ﴿ وقفوهم أنهم مسئولون ﴾ وغيره من الآيات على وقوع السؤال .

فقال عكرمة وقتادة : هي مواطن يسأل في بعضها .

وقال ابن عباس : حيث ذكر السؤال فهو سؤال توبيخ وتقرير ، وحيث نفي فهي استخبار محض عن الذنب ، والله تعالى أعلم بكل شيء .

وقال قتادة أيضاً : كانت مسألة ، ثم ختم على الأفواه وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يعملون .

وقال أبو العالية وقتادة : لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم .

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد : ولا جأن بالهمز ، فراراً من التقاء الساكنين ، وإن كان التقاؤهما على حده .

(172/740)

وقرأ حماد بن أبي سليمان : بسيمائهم ؛ والجمهور : ﴿ بسيماهم ﴾ ، وسيما المجرمين : سواد الوجوه وزرقة العيون ، قاله الحسن ، ويجوز أن يكون غير هذا من التشويهات ، كالعمى والبكم والصمم .

﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ ، قال ابن عباس : يؤخذ بناصيته وقدميه فيوطأ ، ويجمع كالحطب ، ويلقى كذلك في النار .

وقال الضحاك : يجمع بينهما في سلسلة من وراء ظهره .

وقيل : تسحبهم الملائكة ، تارة تأخذ بالنواصي ، وتارة بالأقدام .

وقيل : بعضهم سحباً ، بالناصية ، وبعضهم سحباً بالقدم ؛ ويؤخذ متعد إلى مفعول بنفسه ، وحذف هذا الفاعل والمفعول ، وأقيم الجار والمجرور مقام الفاعل مضمناً معنى ما يعدى بالباء ، أي فيسحب بالنواصي والأقدام ، وأل فيهما على مذهب الكوفيين عوض من

الضمير ، أي بنواصيهم وأقدامهم ، وعلى مذهب البصريين الضمير محذوف ، أي بالنواصي والأقدام منهم .

﴿ هذه جهنم ﴾ : أي يقال لهم ذلك على طريق التوبيخ والتقريع .

﴿ يطوفون بينها ﴾ : أي يتردّدون بين نارها وبين ما غلى فيها من مائع عذابها .

وقال قتادة : الحميم يغلي منذ خلق الله جهنم ، وآن : أي منتهى الحر والنضج ، فيعاقب بينهم وبين تصلية النار ، وبين شرب الحميم .

وقيل : إذا استغاثوا من النار ، جعل غياثهم الحميم .

وقيل : يغمسون في واد في جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فتنخلع أوصالهم ، ثم يخرجون منه ، وقد أحدث الله لهم خلقاً جديداً .

وقرأ علي والسلمي : يطافون ؛ والأعمش وطلحة وابن مقسم : يطوفون بضم الياء وفتح الطاء وكسر الواو مشددة .

وقرىء : يطوفون ، أي يتطوفون ؛ والجمهور : يطوفون مضارع طاف .

قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ ، قال ابن الزبير : نزلت في أبي بكر .

﴿ مقام ربه ﴾ مصدر ، فاحتمل أن يكون مضافاً إلى الفاعل ، أي قيام ربه عليه ، وهو مروي عن مجاهد ، قال : من قوله : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ أي حافظ مهيمن ، فالعبد يراقب ذلك ، فلا يجسر على المعصية .

وقيل : الإضافة تكون بأدنى ملابسة ، فالمعنى أنه يخاف مقامه الذي يقف فيه العباد للحساب ، من قوله : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ وفي هذه الإضافة تنبيه على صعوبة الموقف .

وقيل : مقام مقحم ، والمعنى : ولمن خاف ربه ، كما تقول : أخاف جانب فلان يعني فلاناً .

والظاهر أن لكل فرد فرد من الخائفين ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ ، قيل : إحداهما منزله ، والأخرى لأزواجه وخدمه .

وقال مقاتل : جنة عدن ، وجنة نعيم .

وقيل : منزلان ينتقل من أحدهما إلى الآخر لتتوفر دواعي لذته وتظهر ثمار كرامته .

وقيل : هما للخائفين ؛ والخطاب للثقلين ، فجنة للخائف الجني ، وجنة للخائف الإنسي .

وقال أبو موسى الأشعري : جنة من ذهب للسابقين ، وجنة من فضة للتابعين .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يقال : جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المعاصي ، لأن التكليف دائر عليهما .

وأن يقال : جنة يبات بها ، وأخرى تضم إليها على وجه التفضل لقوله وزيادة ؛ وخص

الأفنان بالذكر جمع فنن ، وهي الغصون التي تتشعب عن فروع الشجر ، لأنها التي تورق وتثمر ، ومنها تمتد الظلال ، ومنها تجنى الثمار .

وقيل : الأفنان جمع فن ، وهي ألوان النعم وأنواعها ، وهي قول ابن عباس ، والأول قال قريباً منه مجاهد وعكرمة ، وهو أولى ، لأن أفعالاً في فعل أكثر منه في فعل بسكون العين ، وفن يجمع على فنون .

﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ ، قال ابن عباس : هما عينان مثل الدنيا أضعافاً مضاعفة .

وقال : تجريان بالزيادة والكرامة على أهل الجنة .

وقال الحسن : تجريان بالماء الزلال ، إحداهما التسنيم ، والأخرى السلسبيل .

وقال ابن عطية : إحداهما من ماء ، والأخرى من خمر .

وقيل : تجريان في الأعالي والأسافل من جبل من مسك .

﴿ زوجان ﴾ ، قال ابن عباس : ما في الدنيا من شجرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة ، حتى شجر الحنظل ، إلا أنه حلواً . انتهى .

ومعنى زوجان : رطب ويابس ، لا يقصر هذا عن ذاك في الطيب واللذة .

وقيل : صنفان ، صنف معروف ، وصنف غريب .

وجاء الفصل بين قوله : ﴿ ذواتا أفنان ﴾ وبين قوله : ﴿ فيهما من كل فاكهة ﴾ بقوله : ﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ .

والأفنان عليها الفواكه ، لأن الداخل إلى البستان لا يقدم إلا للتفرج بلذة ما فيه بالنظر إلى خضرة الشجر وجري الأنهار ، ثم بعد يأخذ في اجتناء الثمار للأكل .

وانتصب ﴿ متكئين ﴾ على الحال من قوله : ﴿ ولمن خاف ﴾ ، وحمل جمعاً على معنى من .

وقيل : العامل محذوف ، أي يتنعمون متكئين .

وقال الزمخشري : أي نصب على المدح ، والاتكاء من صفات المتنعم الدالة على صحة الجسم وفراغ القلب ، والمعنى : ﴿ متكئين ﴾ في منازلهم ﴿ على فرش ﴾ .

وقرأ الجمهور : وفرش بضمتين ؛ وأبو حيوة : بسكون الراء .

وفي الحديث : " قيل لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذه البطائن من استبرق ، كيف الظهائر ؟ قال : هي من نور يتلألأ " ، ولو صح هذا لم يجز أن يفسر بغيره .

وقيل : من سندس .

قال الحسن والفراء : البطائن هي الظهائر .

وروي عن قتادة ، وقال الفراء : قد تكون البطانة الظهارة ، والظهارة البطانة ، لأن كلاً

منهما يكون وجهاً ، والعرب تقول : هذا وجه السماء ، وهذا بطن السماء .

قال ابن عباس : تجتنيه قائماً وقاعداً ومضطجعاً ، لا يرد يده بعد ولا شوك وقرأ عيسى : بفتح الجيم وكسر النون ، كأنه أمال النون ، وإن كانت الألف قد حذفت في اللفظ ، كما أمال أبو عمرو ﴿ حتى نرى الله ﴾ وقرىء : وجنى بكسر الجيم .

والضمير في ﴿ فيهن ﴾ عائد على الجنان الدال عليهن جنتان ، إذ كل فرد فرد له جنتان ، فصح أنها جنان كثيرة ، وإن كان الجنتان أريد بهما حقيقة التثنية ، وأن لكل جنس من الجن والإنس جنة واحدة ، فالضمير يعود على ما اشتملت عليه الجنة من المجالس والقصور والمنازل .

وقيل : يعود على الفرش ، أي فيهن معدات للاستماع ، وهو قول حسن قريب المأخذ .

وقال الزمخشري : فيهن في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والجنى .

(175/740)

انتهى ، وفيه بعد .

وقال الفراء : كل موضع من الجنة جنة ، فلذلك قال : ﴿ فيهن ﴾ ، والطرف أصله مصدر ، فلذلك وحد .

والظاهر أنهن اللواتي يقصرون أعينهن على أزواجهن ، فلا ينظرن إلى غيرهم .

قال ابن زيد : تقول لزوجها : وعزة ربي ما أرى في الجنة أحسن منك .

وقيل : الطرف طرف غيرهن ، أي قصرن عيني من ينظر إليهن عن النظر إلى غيرهن .

﴿ لم يطمثهن ﴾ ، قال ابن عباس : لم يفتضهن قبل أزواجهن .

وقيل : لم يطأهن على أي وجه .

كان الوطء من افتضاض أو غيره ، وهو قول عكرمة .

والضمير في ﴿ قبلهم ﴾ عائد على من عاد عليه الضمير في ﴿ متكئين ﴾ .

وقرأ الجمهور : بكسر ميم يطمثهن في الموضعين ؛ وطلحة وعيسى وأصحاب عبد الله وعليّ : بالضم .

وقرأ ناس : بضم الأول وكسر الثاني ، وناس بالعكس ، وناس بالتخيير ، والجحدري : بفتح الميم فيهما ، ونفي وطئهن عن الإنس ظاهر وأما عن الجن ، فقال مجاهد والحسن : قد تجامع نساء البشر مع أزواجهن ، إذ لم يذكر الزوج الله تعالى ، فنفى هنا جميع المجامعين .

وقال ضمرة بن حبيب : الجن في الجنة لهم قاصرات الطرف من الجن نوعهم ، فنفي الافتضاض عن البشريات والجنيات .

قال قتادة : ﴿ كأنهن ﴾ على صفاء الياقوت وحمرة المرجان ، لو أدخلت في الياقوت سلكاً ، ثم نظرت إليه ، لرأيته من ورائه . انتهى .

وفي الترمذي : أن المرأة من نساء الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة مخها .

وقال ابن عطية : الياقوت والمرجان من الأشياء التى يرتاح بحسنها ، فشبه بهما فيما يحسن التشبيه به ، فالياقوت في إملاسه وشفوفه ، والمرجان في إملاسه وجمال منظره ، وبهذا النحو من النظر سمت العرب النساء بذلك ، كدرة بنت أبي لهب ، ومرجانة أم سعيد . انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(176/740)

وقال الآلوسى :

﴿ فِيهِنَّ ﴾ أي الجنان المدلول عليها بقوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] فإنه يلزم من أنه لكل خائف جنتان تعدد الجنان ، وكذا على تقدير أن يكون المراد لكل خائفين من الثقلين جنتان لا سيما وقد تقدم اعتبار الجمعية في قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ [الرحمن : 54] وقال الفراء : الضمير لجنتان ، والعرب توقع ضمير الجمع على المثنى ولا حاجة إليه بعد ما سمعت ، وقيل : الضمير للبيوت والقصور المفهومة من الجنتين أو للجنتين باعتبار ما فيهما مما ذكر ، وقيل : يعود على الفرش ، قال أبو حيان : وهذا قول حسن قريب المأخذ ، وتعقب بأن المناسب للفرش على ، وأجيب بأنه شبه تمكن على

الفرش بتمكن المظروف في الظرف وإيثاره للاشعاء بأن أكثر حالهن الاستقرار عليها ،

ويجوز أن يقال : الظرفية للاشارة إلى أن الفرش إذا جلس عليها ينزل مكان الجالس منها

ويرتفع ما أحاط به حتى يكاد يغيب فيها كما يشاهد في فرش الملوك المترفهين التي حشوها

ريش النعام ونحوه ، وقيل : الضمير للآلاء المعدودة من الجنتين .

والعينين .

والفاكهة والفرش .

والجنى والمراد معهن ﴿ قاصرات الطرف ﴾ أي نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن

لا ينظرن إلى غيرهم ، أو يقصرن طرف الناظر إليهن عن التجاوز إلى غيرهن ، قال ابن

رشيق في قول امرىء القيس

: من (القاصرات الطرف) لو (دب محول . . .

من الذر فوق الأنف منها لأثرا)

أراد بالقاصرات الطرف أنها منكسرة الجفن خافضة النظر غير متطلعة لما بعد ولا ناظرة

لغير زوجها ، ويجوز أن يكون معناه أن طرف الناظر لا يتجاوزها كقول المتنبي

: وخصر تثبت الأبصار فيه . . .

كأن عليه من حدق نطاقاً

انتهى فلا تغفل ، والأكثرون على أول المعنيين اللذين ذكرناهما بل في بعض الأخبار ما يدل على أنه تفسير نبوي .

(177/740)

أخرج ابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في ذلك " لا ينظرن إلا إلى أزواجهن " ومتى صح هذا ينبغي قصر الطرف عليه ، وفي بعض الآثار تقول الواحدة منهن لزوجها : وعزة ربي ما أرى في الجنة أحسن منك فالحمد لله الذي جعلني زوجك وجعلك زوجي ، و ﴿ الطرف ﴾ في الأصل مصدر فلذلك وحد ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾ قال ابن عباس : لم يفتضهن قبل أزواجهن إنس ولا جان ، وفيه إشارة إلى أن ضمير قبلهن للأزواج ، ويدل عليه ﴿ قاصرات الطرف ﴾ وفي البحر هو عائد على من عاد عليه الضمير في ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ [الرحمن : 54] ، وأصل الطمث خروج الدم ولذلك يقال للحيض طمث ، ثم أطلق على جماع الأبكار لما فيه من خروج الدم ، وقيل : ثم عمم لكل جماع ، وهو المروى هنا عن عكرمة ، وإلى الأول ذهب الكثير ، وقيل : إن التعبير به للاشارة إلى أنهن يوجدن أبكاراً كلما جومعن ، ونفي طمثهن عن الأنس ظاهر ، وأما عن الجن فقال مجاهد .

والحسن : قد تجامع الجن نساء البشر مع أزواجهن إذا لم يذكر الزوج اسم الله تعالى فنفي هنا جميع المجامعين وقيل : لا حاجة إلى ذلك إذ يكفي في نفي الطمث عن الجن إمكانه منهم ، ولا شك في إمكان جماع الجنى إنسية بدون أن يكون مع زوجها الغير الذاكر اسم الله تعالى ، ويدل على ذلك ما رواه أبو عثمان سعيد بن دواد الزبيدي قال : كتب قوم من أهل اليمن إلى مالك يسألونه عن نكاح الجن وقالوا : إن ههنا رجلاً من الجن يزعم أنه يريد الحلال فقال ما أرى بذلك بأساً في الدين ولكن أكره إذا وجدت امرأة حامل قيل : من زوجك ؟ قالت : من الجن فيكثر الفساد في الإسلام ، ثم إن دعوى أن الجن تجامع نساء البشر جماعاً حقيقياً مع أزواجهن إذا لم يذكروا اسم الله تعالى غير مسلمة عند جميع العلماء ، وقوله تعالى : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى الاموال والاولاد ﴾ [الإسراء : 64] غير نص في المراد كما لا يخفى ، وقال ضمرة بن حبيب : الجن في الجنة لهم قاصرات الطرف من الجن نوعهم ، فالمعنى لم يطمث الانسيات أحد من الإنس ، ولا الجنيات أحد من الجن قبل أزواجهن ، وقد أخرج نحو هذا عنه ابن أبي حاتم ، وظاهره أن ما للجن لسن من الحور .

ونقل الطبرسي عنه أنهن من الحور وكذا الانسيات ، ولا مانع من أن يخلق الله تعالى في الجنة

حوراً للإنس يشاكلنهم يقال لهن لذلك إنسيات ، وحوراً للجن يشاكلنهم يقال لهن لذلك جنيات ، ويجوز أن تكون الحور كلهن نوعاً واحداً ويعطي الجنى منهن لكنه في تلك النشأة غيره في هذه النشأة ، ويقال : ما يعطاه الانسى منهن لم يطمثها إنسي قبله ، وما يعطاه الجنى لم يطمثها جنى قبله وبهذا فسر البلخي الآية ، وقال الشعبي .

والكلبي : تلك القاصرات الطرف من نساء الدنيا لم يمسسهن منذ أنشئن النشأة الآخرة خلق قبل ، والذي يعطاه الإنسي زوجته المؤمنة التي كانت له في الدنيا ويعطي غيرها من نسائها المؤمنات أيضاً .

(179/740)

وكذا الجنى يعطي زوجته المؤمنة التي كانت له في الدنيا من الجن ويعطي غيرها من نساء الجن المؤمنات أيضاً ، ويبعد أن يعطي الجنى من نساء الدنيا الإنسانيات في الآخرة .

والذي يغلب على الظن أن الانسى يعطي من الانسيات والحور والجنى يعطي من الجنيات والحور ولا يعطي إنسى جنية ، ولا جنى إنسية وما يعطاه المؤمن إنسياً كان أو جنياً من الحور شيء يليق به وشتهيه نفسه ، وحقيقة تلك النشأة وراء ما يخطر بالبال ، واستدل بالآية على أن الجن يدخلون الجن ويجامعون فيها كالإنس فهم باقون فيها منعمين كبقاء

المعذبين منهم في النار ، وهو مقتضى ظاهر ما ذهب إليه أبو يوسف .

ومحمد .

وابن أبي ليلى .

والأوزاعي .

وعليه الأكثر كما ذكره العيني في "شرح البخاري" من أنهم يثابون على الطاعة ويعاقبون على المعصية ، ويدخلون الجنة فإن ظاهره أنهم كالإنس يوم القيامة ، وعن الإمام أبي حنيفة ثلاث روايات الأولى أنهم لا ثواب لهم إلا النجاة من النار ثم يقال لهم كونوا تراباً كسائر الحيوانات ، والثانية أنهم من أهل الجنة ولا ثواب لهم أي زائد على دخولها ، الثالثة التوقف قال الكردري : وهو في أكثر الروايات ، وفي فتاوي أبي إسحاق بن الصفار أن الإمام يقول : لا يكونون في الجنة ولا في النار ولكن في معلوم الله تعالى .

(180/740)

ونقل عن مالك وطائفة أنهم يكونون في ربض الجنة ، وقيل : هم أصحاب الأعراف ، وعن الضحاك أنهم يلهمون التسبيح والذكر فيصيبون من لذته ما يصيبه بنو آدم من نعيم الجنة وعلى القول بدخولهم الجنة قيل : نراهم ولا يرونا عكس ما كانوا عليه في الدنيا ، وإليه

ذهب الحرث المحاسبي ، وفي اليواقيت الخواص منهم يرونا كما أن الخواص منا يرونهم في الدنيا ، وعلى القول بأنهم يتنعمون في الجنة قيل : إن تنعمهم بغير رؤيته عز وجل فإنهم لا يرونه ، وكذا الملائكة عليهم السلام ما عدا جبريل عليه السلام فإنه يراه سبحانه مرة ولا يرى بعدها على ما حكاه أبو إسحاق إبراهيم بن الصفار في فتاويه عن أبيه ، والأصح ما عليه الأكثر مما قدمناه وأنهم لا فرق بينهم وبين البشر في الرؤية وتمامه في محله ، وقرأ طلحة . وعيسى .

وأصحاب عبد الله ﴿ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ بضم الميم هنا وفيما بعد ، وقرأ أناس بضمه في الأول وكسره في الثانية .

وناس بالعكس .

وناس بالتخيير ، والجحدري بفتح الميم فيهما ، والجملة صفة لقاصرات الطرف لأن إضافتها لفظية أو حال منها لتخصيصها بالإضافة .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقوله تعالى :

﴿ كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان ﴾ إما صفة لقاصرات الطرف ، أو حال منها كالتي قبل أي مشبهات بالياقوت والمرجان ، وقول النحاس : إن الكاف في موضع رفع على الابتداء ليس بشيء كما لا يخفى ، أخرج عبد الرزاق .

وعبد بن حميد .

وابن جرير عن قتادة أنه قال في الآية في صفاء اليافوت وبياض اللؤلؤ ، وعن الحسن نحوه ، وفي البحر عن قتادة في صفاء الياقوت .

(181/740)

وحمرة المرجان فحمل المرجان على ما هو المعروف ، وقيل : مشبهات بالياقوت في حمرة الوجه وبالمرجان أي صغار الدر في بياض البشرة وصفائها وتخصيص الصغار على ما في الكشاف لأنه أنصع بياضاً من الكبار ، وقيل : يحسن هنا إرادة الكبار كما قيل في معناه لأنه أوفق بقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصافات : 49] فلا تغفل ﴾ .

وأخرج أحمد .

وابن حبان .

والحاكم وصححه .

والبيهقي في البعث والنشور عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ VVV ﴾ .

وأخرج أحمد .

وابن حبان .

والحاكم وصححه .

والبيهقي في البعث والنشور عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ﴾ الخ قال : ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب وأنه يكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتى يوضح سوقها من وراء ذلك .

وأخرج عبد بن حميد .

والطبراني .

والبيهقي في البعث عن ابن مسعود قال : إن المرأة من الحور العين يرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم من تحت سبعين حلة كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقوله تعالى :

﴿ هَلْ جَزَاء ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله أي ما جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الثواب ، وقيل : المراد ما جزاء التوحيد إلا الجنة وأيد بظواهر كثير من الآثار ، أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول .

والبغوي في تفسيره ، والديلمي في مسند الفروس .

وابن النجار في تاريخه عن أنس قال : " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هَلْ جَزَاء الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ فقال : وهل تدرون ما قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : يقول : "هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة "

وأخرج ابن النجار في تاريخه عن علي كرم الله تعالى وجهه مرفوعاً بلفظ : " قال الله عز وجل هل جزاء من أنعمت عليه " الخ ووراء ذلك أقوال تقرب من مائة قول ، واختير العموم ويدخل التوحيد دخولاً أولياً ، والصوفية أوردوا الآية في باب الإحسان وفسروه بما في الحديث " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " قالوا : فهو اسم يجمع أبواب الحقائق ، وقرأ ابن أبي إسحاق إلا الحسان يعني بالحسان قاصرات الطرف اللاتي تقدم ذكرهن .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(183/740)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبانِ » . .

وفى هاتين الجنتين كذلك ، حور قاصرات الطرف ، أي قصرن أعينهن عن النظر إلى غير ما أحل اللّه لهن ، تقىّ وحياء وعفّة . . « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ » أي لم يقربهن ، ولم يغش حماهنّ أحد من الإنس أو الجنّ ، قبل أزواجهن الذين زففن إليهم فى الجنة ، كما يقول سبحانه : « إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً عُرُباً أَتْراباً لِأَصْحابِ الْيَمِينِ » (35 - 38 : الواقعة) .

وفى إعادة الضمير جمعا على الجنتين فى قوله تعالى . « فِيهِنَّ » بدلا من « فيهما » إشارة إلى أن هاتين الجنتين ، جنات فى سعتهما ، وامتدادهما . .

فهما - كما قلنا من قبل - جنة ، وجنتان ، وجنات . .

والطمث : دم الحيض ، والطامث : الحائض ، ويسمى افتضاض البكر طمثًا . .

قوله تعالى : « كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » . .

هو وصف لهؤلاء الحور ، بالنقاء والصفاء ، بعد وصفهن بالعفة والحياء . .

والياقوت والمرجان ، حجران كريمان ، صافيان صفاء البلور ، ولكنهما مع هذا الصفاء مشربان بحمرة ، ليست فى البلور ، ولهذا كان تشبيه الحور بهن أبلغ وأصدق ، لما يجرى فى بشرتهن من دم الشباب ، الذي يشرق منه هذا الشعاع الشفقى على وجوههن ! هذا ويلاحظ أن الجنتين اللتين وعدهما اللّه الذين يخافون مقام ربهم ، قد عرضتا فى هذا

العرض المفصل ، الذي يحدّث فى كل مقطع من مقاطعه عن نعم اللّه وآلائه ، التي يحملها هذا المقطع ، والتي تدعو الثقلين - الإنس والجن - إلى الوقوف بين يديها ، وإنعام النظر فيها ، ثم تحديد موقفهم منها . . وهل يشكرون أم يكفرون ؟ . .

(184/740)

وفى هذا التفصيل ، إشارة إلى أن أىّ نعمة من نعم اللّه ، وإن بدت فى العين صغيرة ، لا يكاد يلتفت إليها الناس ، ولا يقدرونها قدرها - هى فى حقيقتها نعمة جليلة ، تضم فى كيانها نعما جليلة أيضا . . وهذا هو بعض السرّ فى هذا التعقيب عقب كلّ نعمة بقوله تعالى : « فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » . .

قوله تعالى : « هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » . .

أي أن هذا النعيم الذي يفاض من اللّه سبحانه وتعالى على المؤمنين فى الجنة - هو جزاء إحسانهم فى الدنيا ، وخوفهم مقام ربهم ، كما يقول سبحانه عنهم :

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » (15 - 19 : الذاريات) . .

وإذا كان هؤلاء المحسنون قد أحسنوا العمل ، فإن هذا النعيم الذي هم فيه لا يعدله إحسان المحسنين ، مهما بالغوا فى الإحسان ، وإنما هو فضل من اللّه عليهم ، ومضاعفة للجزاء الحسن ، الذي كانت أعمالهم الحسنة مدخلا إليه ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ» (26 : يونس) . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 14 صـ 693. 695 ﴾

(185/740)

وقال ابن عاشور :

﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56) ﴾

ضمير ﴿ فيهن ﴾ عائد إلى فرش وهو سبب تأخير نعم أهل الجنة بلذة التأنّس بالنساء عن ما في الجنات من الأفنان والعيون والفواكه والفرش ، ليكون ذكر الفرش مناسباً للانتقال إلى الأوانس في تلك الفرش وليجيء هذا الضمير مفيداً معنى كثيراً من لفظ قليل ، وذلك من خصائص الترتيب في هذا التركيب .

ف ﴿ قاصرات الطرف ﴾ كائنة في الجنة وكائنة على الفُرش مع أزواجهن قال تعالى : ﴿ وفرش مرفوعة إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً ﴾ [الواقعة : 34 36] الآية .

و﴿ قاصرات الطرف ﴾ : صفة لموصوف محذوف تقديره نساء ، وشاع المدح بهذا الوصف في الكلام حتى نُزّل منزلة الاسم ف ﴿ قاصرات الطرف ﴾ نساء في نظرهن مثل القصور والغضِّ خِلقة فيهن ، وهذا نظير ما يقول الشعراء من المولّدين مراض العيون ، أي : مثل المراض خِلقة .

والقصور : مثل الغضِّ من صفات عيون المها والظباء ، قال كعب بن زهير:

وما سعاد غداةَ البين إذْ رحلُوا . . .

إلاّ أَغَنُّ غَضِيضُ الطرف مكحول

أي : كغضيض الطرف وهو الظبي .

والطمْث بفتح الطاء وسكون الميم مسيس الأنثى البِكر ، أي من أبكار .

وعُبِّر عن البكارة بـ ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ إطناباً في التحسين ، وقد جاء في الآية الأخرى ﴿ فجعلناهن أبكاراً ﴾ [الواقعة : 36] .

وهؤلاء هن نساء الجنة لا أزواج المؤمنين اللآئي كُنَّ لهم في الدنيا لأنهن قد يكنّ طمثهم أزواج فإن الزوجة في الجنة تكون لآخر من تزوجها في الدنيا .

وقرأ الجمهور ﴿ يطمثهن ﴾ هنا ، وفي نظيره الآتي بكسر الميم .

وقرأه الدُوري عن الكسائي بضم الميم وهما لغتان في مضارع طمث .

ونقل عن الكسائي : التخييرُ بين الضم والكسر .

وقوله : ﴿ إنس قبلهم ﴾ أي لم يطمثهن أحد قبل ، وقوله : ﴿ ولا جان ﴾ تتميم واحتراس وهو إطناب دعا إليه أن الجنة دار ثواب لصالحي الإِنس والجن فلما ذكر ﴿ إنس ﴾ نشأ توهم أن يَمسهن جن فدفع ذلك التوهم بهذا الاحتراس .

وجملة ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ نعت أو حال من ﴿ قاصرات الطرف ﴾ .

ووجه الشبه بالياقوت والمرجان في لون الحمرة المحمودة ، أي حمرة الخدود كما يشبه الخد بالورد ، ويطلق الأحمر على الأبيض فمنه حديث " بعثتُ إلى الأحمر والأسود " وقال عبد بني الحساس:

فلو كنت وردًا لونُه لعشقتني . . .

ولكن ربي شَانني بسواديا

ويجوز أن يكون التشبيه بهما في الصفاء واللمعان .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (59)

كرر ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فيما علمت سابقاً .

هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (60)

تذييل للجمل المبدوءة بقوله : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [الرحمن : 46] ، أي لأنهم أحسنوا فجازاهم ربهم بالإِحسان .

والإِحسان الأول : الفعل الحَسن ، والإِحسان الثاني : إعطاء الحَسن ، وهو الخَير ، فالأول من قولهم : أَحسن في كذا ، والثاني من قولهم : أحسن إلى فلان .

والاستفهام مستعمل في النفي ، ولذلك عقب بالاستثناء فأفاد حصر مجازاة الإِحسان في أنها إحسان ، وهذا الحصر إخبار عن كونه الجزاء الحقّ ومقتضى الحكمة والعدل ، وإلا فقد يتخلف ذلك لدى الظالمين ، قال تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ [الواقعة : 82] وقال : ﴿ فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما ﴾ [الأعراف : 190] .

وعلم منه أن جزاء الإِساءة السوء قال تعالى : ﴿ جزاءً وفاقاً ﴾ [النبأ : 26] .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (61)

القول فيه مثل القول في نظائره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(187/740)

فائدة

قال ابن القيم :

قال تعالى ﴿ فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان فبأي آلاء ربكما تكذبان كأنهن الياقوت والمرجان ﴾

وصفهن سبحانه بقصر الطرف في ثلاثة مواضع أحدها هذا والثاني قوله تعالى في الصافات وعندهم قاصرات الطرف عين والثالث قوله تعالى في ص وعندهم قاصرات الطرف أتراب والمفسرون كلهم على أن المعنى قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يطمحن إلى غيرهم وقيل قصرن طرف أزواجهن كلهن فلا يدعهم حسنهن وجمالهن أن ينظروا إلى غيرهن وهذا صحيح من جهة المعنى واما من جهة اللفظ فقاصرات صفة مضافة إلى الفاعل لحسان الوجوه واصله قاصر طرفهن أي لبس بطامح متعد قال آدم حدثنا ورقاء عن أبي نجيح عن مجاهد في قوله قاصرات الطرف قال يقول قاصرات الطرف على أزواجهن فلا يبغين غير أزواجهن قال آدم وحدثنا المبارك بن فضلة عن الحسن قال قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم والله ما هن متبرجات ولا متطلعات وقال منصور عن مجاهد قصرن أبصارهن وقلوبهن و أنفسهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم وفي تفسير سعيد عن قتادة قال وقصرن أطرافهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم و أما الأتراب فجمع ترب وهو لذة الإنسان قال أبو عبيدة و أبو إسحاق أقران أسنانهن واحدة قال ابن عباس

وسائر المفسرين مستويات على سن واحد وميلاد واحد وبنات ثلاث وثلاثين سنة وقال مجاهد أتراب أمثال قال إسحاق هن في غاية الشباب والحسن وسمي سن الإنسان وقرنه تربه لانه مس تراب الأرض معه في وقت واحد والمعنى من الأخبار باستواء أسنانهن أنهن ليس فيهن عجائز قد فات حسنهن ولا ولائد لا يقطن

(188/740)

الوطء بخلاف الذكور فان فيهم الولدان وهم الخدم وقد اختلف في مفسر الضمير في قوله فيهن فقالت طائفة مفسره الجنتان وما حوتاه من القصور والغرف والخيام وقالت طائفة مفسره الفرش المذكورة في قوله متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وفي بمعنى على وقوله تعالى لم يطمثهن انس قبلهن ولا جان قال أبو عبيدة لم يمسهن يقال ما طمث هذا البعير حبل قط أي ما مسه وقال يونس تقول العرب هذا جمل ما طمثه حبل قط أي ما مسه وقال الفراء الطمث الافتضاض وهو النكاح بالتدمية والطمث هو الدم وفيه لغتان طمث يطمث ويطمث قال الليث طمثت الجارية إذا افترعتها والطامث في لغتهم هي الحائض قال أبو الهيثم يقال للمرأة طمثت تطمث إذا أدميت بالافتضاض وطمثت على فعلت تطمث إذا

حاضت أول ما تحيض فهي طامث وقال في قول الفرزدق

خرجن إلى لم يطمثن قبلي . . . وهن اصح من بيض النعام

(189/740)

أي لم يمسسن قال المفسرون لم يطأهنولم يغشهن يجاملهم ولم يغشين ولم يجامعن هذه ألفاظهم وهم مختلفون في هؤلاء فبعضهم يقول هن اللواتي أنشئن في الجنة من حورها وبعضهم يقول يعني نساء الدنيا أنشئن خلقا آخر ابكارا كما وصفن قال الشعبي نساء من نساء الدنيا لم يمسسن منذ انشئن خلقا وقال مقاتل لأنهن خلقن في الجنة وقال عطاء عن ابن عباس هن الآدميات اللاتي متن أبكارا وقال الكلبي لم يجامعهن في هذا الخلق الذي أنشئن فيه انس ولا جان قلت ظاهر القران أن هؤلاء النسوة لسن من نساء الدنيا وانما هن من الحور حور العين و أما نساء الدنيا فقد طمثهن الإنس ونساء الجن قد طمثهن الجن والاية تدل على ذلك قال أبو إسحاق وفي الآية دليل على أن الجن يغشي كما أن الأنس يغشى ويدل على أنهن الحور اللاتي خلقن في الجنة انه سبحانه جعلهن مما أعده الله في الجنة لأهلها من الفاكهة والثمار و الأنهار والملابس وغيرها ويدل عليه أيضا الآية التي بعدها وهي قوله تعالى حور مقصورات في الخيام ثم قال لم يطمثن انس قبلهم ولا جان قال الإمام احمد والحور العين لا يمتن عند

النفخة للصور لأنهن خلقن للبقاء وفي الآية دليل لما ذهب إليه الجمهور أن مؤمن الجن في الجنة كما أن كافرهم في النار وبوب عليه البخاري في صحيحه فقال باب ثواب الجن وعقابهم ونص عليه غير واحد من السلف قال ضمرة بن حبيب وقد سئل هل للجن ثواب فقال نعم وقرا هذه الآية ثم قال الإنسيات للإنس والجنيات للجن وقال مجاهد في هذه الآية إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على احليله فجامع معه والضمير في قوله قبلهم للمعنيين بقوله متكئين وهم أزواج هؤلاء النسوة وقوله كأنهم الياقوت والمرجان قال الحسن وعامة المفسرين أراد صفاء الياقوت في بياض المرجان شبههن في صفاء اللون وبياضه وبالياقوت والمرجان ويدل عليه ما قاله عبد الله ان المرأة من النساء أهل الجنة لتلبس عليها سبعين حلة من حرير فيرى بياض ساقيها من ورائهن

(190/740)

ذلك بان الله يقول كأنهن الياقوت والمرجان إلا وان الياقوت حجر لو جعلت فيه سلكا ثم استصفيته نظرت إلى السلك من وراء الحجر فصل

وقال تعالى في وصفهن حور مقصورات في الخيام المقصورات المحبوسات

قال أبو عبيدة خدرن في الخيام وكذلك قال مقاتل وفيه معنى آخر وهو ان يكون المراد أنهن

محبوسات على أزواجهن لا يرون غيرهم وهم في الخيام وهذا معنى قول من قال قصرن على أزواجهن فلا يردن غيرهم ولا يطمحن إلى من سواهم وذكره الفراء قلت وهذا معنى قاصرات الطرف ولكن أولئك قاصرات بأنفسهن وهؤلاء مقصورات وقوله في الخيام على هذا القول صفة لحور أي هن في الخيام وليس معمولا لمقصورات وكأن ارباب هذا القول فسروا بان يكن محبوسات في الخيام وليس لا تفارقنها إلى الغرف والبساتين و أصحاب القول الأول يجيبون عن هذا بان الله سبحانه وصفهن بصفات النساء المخدرات المصونات وذلك اجمل في الوصف ولا يلزم من ذلك أنهن لا يفارقن الخيام إلى الغرف والبساتين كما أن النساء الملوك ودونهم من النساء المخدرات المصونات لا يمنعن ان يخرجن في سفر و غيره إلى منتزه وبستان ونحوه فوصفهن اللازم لهن القصر في البيت ويعرض لهن مع الخدم الخروج إلى البساتين ونحوها و أما مجاهد فقال مقصورات قلوبهن على أزواجهن في خيام اللؤلؤ وقد تقدم وصف النسوة الأول بكونهن قاصرات الطرف وهؤلاء بكونهن مقصورات والوصفان لكلا النوعين فانهما صفتا كمال فتلك الصفة قصر الطرف عن طموحه إلى غير الأزواج وهذه الصفة قصر الرجل على التبرج والبروز والظهور للرجال فصل

وقال تعالى فيهن خيرات حسان فالخيرات جمع خيرة وهي مخففة من خيره كسيدة ولينة وحسان جمع حسنة فهن خيرات الصفات والاخلاق والشيم وحسان الوجوه قال وكيع حدثنا سفيان عن جابر عن القاسم عن ابي بزة عن ابي عبيدة عن مسروق عن عبد الله قال لكل مسلم خيرة ولكل خيرة خيمة ولكل خيمة اربعة ابواب يدخل عليها في كل يوم من كل باب تحفة وهدية وكرامة لم تكن قبل ذلك لا ترحات ولا ذفرات ولا بخرات ولا صماحات فصل

وقال تعالى انا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربا وأترابا لاصحاب اليمين أعاد الضمير إلى النساء ولم يجر لهن ذكر لان الفرش دلت عليهن اذ هي محلهن

(192/740)

---

155 - وقيل الفرش في قوله وفرش مرفوعة كناية عن النساء كما يكنى عنهن بالقوارير و الأزر وغيرها ولكن قوله مرفوعة يأبى هذا إلا أن يقال المراد رفعة القدر وقد تقدم تفسير النبي للفرش وارتفاعها فالصواب أنها الفرش نفسها ودلت على النساء لأنها محلهن غالبا قال قتادة وسعيد بن جبير خلقناهن خلقا جديدا وقال ابن عباس يريد نساء الآدميات وقال الكلبي ومقاتل يعني نساء أهل الدنيا العجز الشمط يقول تعالى خلقناهن بعد الكبر

والهرم وبعد الخلق الأول في الدنيا ويؤيد هذا التفسير حديث انس المرفوع هن عجائزكم العمش الرمض رواه الثوري عن موسى بن عبيدة عن يزيد الرقاشي عنه ويؤيده ما رواه يحيى الحماني حدثنا ابن إدريس عن ليث عن مجاهد عن عائشة أن رسول دخل عليها وعندها عجوز فقال من هذه فقالت إحدى خالاتي قال إما انه لا يدخل الجنة العجوز فدخل على العجوز من ذلك ما شاء الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم انا أنشأناهن إنشاء خلقا آخر يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلا واول من يكسى ابراهيم خليل الله ثم قرا النبي صلى الله عليه وسلم انا انشاناهن انشاء قال ادم بن ابي اياس حدثنا شيبان عن الزهري عن جابر الجعفي عن يزيد بن مرة عن سلمة بن يزيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في قوله انا أنشأناهن إنشاء قال يعني الثيب والأبكار اللاتي كن في الدنيا قال ادم وحدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة العجز فبكت عجوز فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اخبروها انها يومئذ ليست بعجوز انها يومئذ شابة ان الله عز وجل يقول انا أنشأناهن إنشاء وقال ابن ابي شيبة حدثنا احمد بن طارق حدثنا مسعدة بن اليسع حدثنا سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن سعيد ابن المسيب عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم أتته عجوز من الأنصار فقالت يا رسول الله ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم إن الجنة

لا يدخلها عجوز فذهب نبي الله صلى الله عليه وسلم فصلى ثم رجع إلى عائشة فقالت عائشة لقد لقيت من كلمتك مشقة وشدة فقال صلى الله عليه وسلم أن ذلك كذلك إن الله تعالى إذا أدخلهن الجنة حولهن أبكارا وذكر مقاتل قولا آخر وهو اختيار الزجاج إنهن الحور العين التي ذكرهن قيل انشأهن الله عز

156 - وجل لأوليائهم لهم يقع عليهن ولادة والظاهر أن المراد أنشأهن الله تعالى في الجنة إنشاء ويدل عليه وجوه أحدها انه قد قال في حق السابقين يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب إلى قوله كأمثال اللؤلؤ المكنون فذكر سردهم و آنيتهم وشرابهم وفاكهتهم وطعامهم و أزواجهم والحور العين ثم ذكر أصحاب الميمنة وطعامهم وشرابهم وفراشهم ونساءهم والظاهر انهن مثل نساء من قبلهم خلقن في الجنة الثاني أنه سبحانه قال أنشأناهن إنشاء وهذا ظاهر انه إنشاء أول لا ثان لانه سبحانه حيث يريد الإنشاء الثاني يقيده بذلك كقوله وان عليه النشأة الأخرى وقوله ولقد علمتم النشأة الأولى الثالث إن الخطاب بقوله وكنتم أزواجا إلى آخر للذكور و الإناث و النشأة الثانية أيضا عامة للنوعين وقوله انا أنشأناهن إنشاء ظاهره اختصاصهن بهذا الإنشاء و تأمل تأكيده بالمصدر والحديث لا يدل على

اختصاص العجائز المذكورات بهذا الوصف بل يدل على مشاركتهن للحور العين في هذه الصفات المذكورة فلا يتوهم انفراد الحور العين عنهن بما ذكر من الصفات بل هي احق به منهن فالانشاء واقع على الصنفين والله اعلم وقوله عربا جمع عروب وهن المتحببات إلى ازواجهن قال ابن الاعرابي العروب من النساء المطيعة لزوجها المتحببة اليه وقال ابو عبيدة العروب الحسنة التبعل قلت يريد حسن مواقعها وملاطفتها لزوجها عند الجماع وقال المبرد هي العاشقة لزوجها وانشد للبيد

وفي الحدوج عروب غير فاحشة . . . ريا الروادف يعشي دونها البصر

(194/740)

وذكر لمفسرون في تفسير العرب انهن العواشق المتحببات الغنجات الشكلات المتعشقات الغلمات المغنوجات كل ذلك من الفاظهم وقال البخاري في صحيحه عربا مثقلة واحدها عروب مثل صبور وصبر وتسميها أهل مكة العربة وأهل المدينة الغنجة وأهل العراق الشكلة والعرب والمتحببات إلى ازواجهن هكذا ذكره في كتاب بدء الخلق وقال في كتاب التفسير في سورة الواقعة عربا مثقلة واحدها عروب مثل صبور وصبر تسميها أهل مكة العربة و أهل المدينة الغنجة وأهل العراق الشكلة قلت فجمع سبحانه بين حسن صورتها

وحسن عشرتها وهذا غاية ما يطلب من النساء وبه تكمل لذة الرجل بهن وفي قوله لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان إعلام بكمال اللذة بهن فان لذة الرجل بالمرأة التي لم يطاها سواه 157 - لها فضل على لذته بغيرها وكذلك هي أيضا فصل

قال تعالى إن للمتقين مفازا حدائق و اعنابا وكواعب اترابا فالكواعب جمع كاعب وهي الناهد قال قتادة ومجاهد والمفسرون قال الكلبي هن الفلكات اللواتي تكعب ثديهن و تفلكت واصل اللفظة من الاستدارة والمراد أن ثديهن نواهد كالرمان ليست متدلية إلى اسفل ويسمين نواهد وكواعب فصل

(195/740)

روى البخاري في صحيحه عن انس بن مالك ان الرسول الله صلى الله عليه وسلم قال لغدوة في سبيل الله او روحة خير من الدنيا و ما فيها و لقاب قوس احدكم او موضع قيده يعني سوطه من الجنة خير من الدنيا و ما فيها و لو اطلعت امراة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحا و لأضاءت ما بينهما و لنصيفها على راسها خير من الدنيا و ما فيها و في الصحيحين من حديث ابي هريرة عن النبي إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر و التي تليها على اضوا كوكب دري في السماء و لكل امرء منهم

زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم و ما في الجنة أعزب و قال الإمام احمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة حدثنا يونس عن محمد بن شيرين عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي للرجل من أهل الجنة زوجتان من الجور العين لكل واحدة سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء الثياب و قال الطبراني حدثنا بكر بن سهل الدمياطي حدثنا عمرو بن هشام البيروني حدثنا سليمان بن ابي كريمة عن هشام بن حسان عن الحسن عن ابيه عن ام سلمة قالت قلت يا رسول الله اخبرني عن قوله عز وجل حور عين قال حور بيض عين ضخام العيون شقر الحوراء بمنزلة جناح النسر قلت اخبرني عن قوله عز وجل كأنهم لؤلؤ مكنون قال صفاؤهن صفاء الدر الذي في الاصداف الذي لم تمسه الأيدي قلت يا رسول الله اخبرني عن قوله عز و جل فيهن خيرات حسان قال خيرات الاخلاق حسان الوجوه قلت يا رسول الله اخبرني عن قوله عز و جل كانهن بيض مكنون قال رقتهن كرقة الجلد الذي رايته في داخل البيضة مما يلي القشر وهو الغرقىء قلت يا رسول الله اخبرني عن قوله عز وجل عربا اترابا قال هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز رمضا شمطا خلقهن الله بعد الكبر فجعلهن عذارى عربا متعشقات

(196/740)

متحببات أترابا على ميلاد واحد قلت يا رسول الله نساء الدنيا افضل ام الحور العين قال بل نساء الدنيا افضل من الحور كفضل الظهارة على البطانة قلت يا رسول الله وبم ذلك قال بصلاتهن و صيامهن و عبادتهن الله تعالى البس الله وجوههن النور و أجسادهن الحرير بيض الأولان خضر الثياب صفر الحلي مجامرهن الدر و أمشاطهن الذهب يقلن نحن الخالدات فلا نموت و نحن الناعمات فلا نيأس أبدا و نحن المقيمات فلا نظعن أبدا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدا طوبى لمن كنا له و كان لنا قلت يا رسول الله و المرأة منا تتزوج زوجين أو ثلاث أو أربع ثم تموت فتدخل الجنة و يدخلون معها من يكون زوجها قال يا ام سلمة أنها تخير فتختار أحسنهم خلقا فتقول أي رب ان هذا كان أحسنهم معي خلقا في دار الدنيا فزوجنيه يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا و الآخرة تفرد به سليمان بن أبي كريمة ضعفه أبو حاتم و قال ابن عدي عمت أحاديثه مناكير و لم أر للمتقدمين فيه كلاما ثم ساق هذا الحديث من طريقه و قال لا يعرف الا بهذا السند و قال أبو يعلى الموصلي حدثنا عمر بن الضحاك بن مخلد حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد حدثنا ابو رافع إسماعيل بن رافع عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي عن رجل من الأنصار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله و هو في طائفة من أصحابه فذكر حديث الصور و فيه فاقول يا رب وعدتني الشفاعة فشفعني في أهل الجنة يدخلون الجنة فيقول الله قد شفعتك و أذنت لهم في دخول الجنة وكان رسول الله يقول و الذي بعثني بالحق ما أنتم في

الدنيا باعرف بازواجكم و مساكنكم من أهل الجنة بازواجهم و مساكنهم فيدخل رجل منهم على اثنتين و سبعين زوجة مما ينشئ الله واثنتين من ولد آدم لهما فضل على من انشا الله لعبادتهما الله عز و جل في الدنيا يدخل على الأولى منها في غرفة من ياقوت على سرير من ذهب مكلل باللؤلؤ عليه سبعون زوجا من سندس و استبرق و انه ليضع يده بين كتفيها ثم

(197/740)

ينظر إلى يده من صدرها و من وراء ثيابها وجلدها ولحمها لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك في قصبة الياقوت كبده لها مرآة و كبدها له مرآة فبينما هو عندها لا يملها و لا تمله و لا يأتيها من مرة الا وجدها عذراء ما يفتر ذكره و لا يشتكي قلبها فبينما هو كذلك اذ نودي انا قد عرفنا أنك لا تمل و لا تمل الا انه لا منى و لا منية الا ان تكون له ازواج غيرها فتخرج

فتأتيهن واحدة واحدة كلما جاء واحدة قالت و الله ما في الجنة شيء احسن منك و ما في الجنة شيء احب الي منك هذا قطعة من حديث الصور و الذي تفرد به اسماعيل بن رافع وقد روي له الترمذي وابن ماجة وضعفه احمد و يحيى و جماعة و قال الدار قطني و

غيره متروك الحديث و قال ابن عدي عامة احاديثه فيها نظر و قال الترمذي ضعفه بعض أهل العلم و سمعت محمدا يعني البخاري يقول هو ثقة مقارب الحديث و قال لي شيخنا ابو الحجاج الحافظ هذا الحديث مجموع من عدة احاديث ساقه اسماعيل او غيره هذه السياقة و شرحه الوليد بن مسلم في كتاب مفرد و ما تضمنه معروف في الاحاديث و الله اعلم و قال عبد الله بن وهب حدثنا عمرو ان دراجا حدثه عن ابي الهيثم عن ابي سعيد عن رسول الله قال ان ادنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون الف خادم و اثنتان و سبعون زوجة و ينصب له قبة من لؤلؤ و زبرجد وياقوت كما بين الجابية و صنعاء رواه الترمذي و لكن دراج ابو السمح بالطريق قال احمد احاديث مناكير وقال النسائي منكر الحديث ضعيف و قال أيضا ليس بالقوة وساق له ابن عدي احاديث وقال عامتها لا يتابع عليها و قال الدار قطني ضعيف و قال مرة متروك و اما يحيى بن معين فقد وثقه و اخرج عنه ابو حاتم بن حبان في صحيحه و قال عثمان بن سعيد الدارمي عن علي بن مدني هو ثقة و قال ابن وهب اخبرني عمرو بن الحارث عن ابي السمح عن ابي الهيثم عن ابو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي في قوله تعالى كأنهن الياقوت و المرجان قال ينظر إلى وجهه

في خدها اصفى من المرآة وإن ادنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق و المغرب و انه ليكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك و قال الفريابي انبأنا ابو ايوب سليمان بن عبد الرحمن حدثنا خالد بن يزيد بن ابي مالك عن ابيه عن خالد بن معدان عن ابي امامة عن رسول الله قال ما من عبد يدخل الجنة الا و يزوج اثنتين وسبعون زوجة ثنتان من الحور العين و سبعون من أهل ميراثه من أهل الدنيا ليس منهن امراة الا و لها قبل شهي و له ذكر لا ينثني قلت خالد هذا هو ابن يزيد بن عبد الرحمن الدمشقي و هاه ابن معين و قال احمد ليس بشيء و قال النسائي غير ثقة و قال الدار قطني ضعيف و ذكر ابن عدي له هذا الحديث مما انكره عليه وقال ابو نعيم حدثنا ابراهيم بن عبد الله حدثنا محمد بن حموية

(199/740)

حدثنا احمد بن حفص حدثني ابي حدثني ابراهيم بن طهمان عن الحجاج عن قتادة عن انس قال قال رسول الله للمؤمن في الجنة ثلاث و سبعون زوجة قلنا يا رسول الله او له قوة على ذلك قال انه ليعطى قوة مائة رجل قال احمد بن حفص هذا هو السعدى و له مناكير و الحجاج هو ابن ارطاة وقال الطبراني حدثنا احمد بن علي الابار حدثنا ابو همام الوليد بن

شجاع وانبانا محمد بن احمد بن هشام بن حسان السنجري ببغداد حدثنا عبد الله بن عمرو بن ابان قالا حدثنا حسين بن علي الجعفي عن زائدة عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قيل يا رسول الله هل نصل إلى نسائنا في الجنة فقال ان الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء قال الطبراني لم يروه عن هشام إلا زائدة تفرد به الجعفي قال محمد بن عبد الواحد المقدسي و رجال هذا الحديث عندي على شرط الصحيح و قال ابو الشيخ حدثنا ابو يحيى بن مسلم الرازي حدثنا هناد بن السرى حدثنا ابو اسامة عن هشام بن حسان عن يزيد بن ابي الحواري و هو زيد العمى عن ابن عباس قال قيل يا رسول الله انفضي إلى نسائنا في الجنة كما نفضي اليهن في الدنيا قال و الذي نفس محمد بيده ان الرجل ليفضي في الغداة الواحدة إلى مائة عذراء و زيد هذا قال فيه ابن معين صالح و قال مرة لا شيء و قال مرة ضعيف يكتب حديثه و كذلك قال ابو حاتنم و قال الدارقطني صالح و ضعفه النسائي قال السعدي متماسك قلت وحسبه رواية شعبة عنه فصل

و الاحاديث الصحيحة انما فيها ان لكل منهم زوجتين و ليس في الصحيح زيادة على ذلك فإن كانت هذه الاحاديث محفوظة فإما ان يراد بها ما لكل واحد من السراري زيادة على الزوجتين و يكونون في ذلك على حسب منازلهم في القلة والكثرة كالخدم و الولدان و اما ان يراد انه يعطي قوة من يجامع هذا العدد و يكون هذا هو المحفوظ فرواه بعض هؤلاء بالمعنى فقال له كذا وكذا زوجة وقد روى الترمذي في جامعه من حديث قتادة عن انس عن النبي قال يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا و كذا من الجماع قيل يا رسول الله او يطيق ذلك قال يعطى قوة مائة هذا حديث صحيح فلعل من رواه يفضي إلى مائة عذراء رواه بالمعنى او يكون تفاوتهم في عدد النساء بحسب تفاوتهم في الدرجات و الله اعلم و لا ريب ان للمؤمن في الجنة اكثر من اثنتين لما في

الصحيحين من حديث ابي عمران الجوني عن ابي بكر عن عبد الله بن قيس عن ابيه قال قال رسول الله ان للعبد المؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤ مجوفة طولها ستون ميلا للعبد المؤمن فيها أهلون فيطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضا

الباب الرابع و الخمسون

في ذكر المادة التي خلق منها الحور العين و ما ذكر فيها من الاثار و ذكر صفاتهم و معرفتهن اليوم بازواجهن

فاما المادة التي خلق منها الحور العين فقد روى البيهقي من حديث الحارث بن خليفة حدثنا شعبة حدثنا اسماعيل بن علية عن عبد العزيز بن صهيب عن انس بن مالك عن النبي انه قال الحور العين خلقن من الزعفران قال البيهقي و هذا منكر بهذا الاسناد لا يصح عن ابن علية قلت و لكنه حديث فيه شعبة و قال الطبراني حدثنا احمد بن رشدين حدثنا عن ابن الحسن بن هارون الانصاري حدثني الليث بن ابنة الليث عن ابي سليم قال حدثتني عائشة بنت يونس امراة الليث بن ابي سليم عن ليث بن ابي سليم عن مجاهد عن ابي امامة عن النبي قال خلق الحور العين من الزعفران قال الطبراني لا يروى الا بهذا الاسناد تفرد به علي بن الحسن بن هارون قلت و قد رواه اسحق بن راهويه عن عائشة بنت يونس قالت سمعت زوجي ليث بن سليم يحدث عن مجاهد فذكره مرفوعا اليه و هو اشبه بالصواب ورواه عقبة بن مكرم عن عبد الله بن زياد عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس قوله و لا يصح رفع الحديث و حسبه ان يصل إلى ابن عباس و قال ابو سلمى عن ابن عبد الرحمن ان لولي الله في الجنة عروسا لم يلدها ادم و لا حواء و لكن خلقت من زعفران وهذا مروي عن صاحبين و هما ابن عباس و انس و عن تابعيين و هما ابو سلمى ومجاهد وبكل حال فهي من المنشات في الجنة ليست مولودات بين الاباء والامهات والله اعلم وقد رواه الطبراني من حديث عبد الله بن زخر عن علي بن زيد عن الهيثم عن ابي امامة عن النبي و هذا

الاسناد لا يحتج به و رواه أبو نعيم حدثنا علي بن محمد الطوسي حدثنا علي بن سعيد حدثنا محمد بن اسماعيل الحساني حدثنا منصور بن المهاجر حدثنا ابو منصور الابار عن انس يرفعه لو ان حوراء بصقت في سبعة ابحر لعذبت البحار من عذوبة فمها و خلق الحور العين من الزعفران واذا كانت هذه الخلقة الادمية التي هي من احسن الصور وأجملها مادتها من تراب وجاءت الصور من احسن الصور فما الظن بصورة مخلوقة من مادة الزعفران الذي هناك فالله المستعان

(202/740)

وقد روى ابو نعيم من حديث عيسى بن يوسف بن الطباع حدثنا حلس بن محمد الكلابي حدثنا سفيان الثوري حدثنا مغيرة حدثنا إبراهيم النخعي عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله يسطع نور في الجنة فرفعوا رؤوسهم فاذا هو من ثغر حوراء ضحكت في وجه زوجها روى نعمة بن الوليد حدثنا مجبر بن سعيد عن خالد بن معدان عن كثير بن مرة قال ان من المزيد من تمر السحابة بأهل الجنة فتقول ماذا تريدون ان انطركم فلا يتمنون شيئا الا انطروا قال يقول كثير لئن أشهدني الله ذلك لأقولن انطرينا جواري مزينات و قد روى في مادة خلقهن صفة اخرى قال ابن ابي الدنيا حدثنا خالد بن سعيد

عن خداش حدثنا عبد الله بن وهب حدثنا سعيد بن ايوب عن عقيل بن خالد عن الزهري ان ابن عباس قال ان في الجنة نهرا يقال له البيدخ عليه قباب من ياقوت تحته حور ناشئات يقول أهل الجنة انطلقوا بنا إلى البيدخ فيجيئون فيتصفحون تلك الحواري فاذا اعجب رجل منهم جارية مس معصمها فتتبعه و قال الليث بن سعد عن يزيد بن ابي حبيب عن الوليد بن عبدة قال قال رسول الله لجبريل يا جبريل قف بي على الحور العين فاوقفه عليهن فقال من انتن فقلنا نحن حواري قوم كرام حلوا فلم يظعنوا شبوا فلم يهرموا ونقوا فلم يدرنوا وقال ابن المبارك انبأنا يحيى عن ايوب عن عبد الله بن زخر عن خالد بن عمران عن ابن عباس قال كنا جلوسا مع كعب يوما فقال لو ان يدا من الحور دليت من السماء لاضاءت لنا الأرض كما تضيء الشمس لأهل الدنيا ثم قال انما قلت يدها فكيف بالوجه و بياضه و حسنه و جماله و في مسند الامام احمد من حديث كثير بن مرة عن معاذ بن جبل عن النبي قال لا تؤذي امراة زوجها في الدنيا الا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك ان يفارقك الينا وفيه مراسيل عكرمة عن النبي قال ان الحور العين لأكثر عددا من كن يدعون لازواجهن يقلن اللهم اعنه على دينك واقبل بقلبه على طاعتك و بلغه

بعزتك يا ارحم الراحمين ذكره ابن ابي الدنيا عن حديث اسامة بن زيد عن عطاء عنه

وذكر الاوزاعي عن حسان بن عطية عن ابن مسعود قال ان في الجنة حوراء يقال لها اللعبة

كل حور الجنان يعجبن بها يضربن بايديهن على كتفها و يقلن طوبى لك يا لعبة لو يعلم

الطالبون لك لجدوا بين عينيها مكتوب من كان يبتغي ان يكون له مثلي فليعمل برضاء ربي

وقال عطاء السلمي لمالك بن دينار يا ابا يحيى شوقنا قال عطاء ان في الجنة حوراء يتباهى

أهل الجنة بحسنها لولا ان الله تعالى كتب لها على أهل الجنة ان لا يموتوا لماتوا من حسنها فلم

يزل عطاء كمدا من قول مالك و قال احمد بن ابي الحواري حدثني جعفر بن محمد قال لقي

حكيم حكيما فقال اتشتاق إلى الحور العين فقال لا فقال فاشتق اليهن فان نور وجههن من

نور الله عز و جل فغشي عليه فحمل إلى منزله نعوده شهرا و قال ربيعة بن كلثوم نظر الينا

الحسن و نحن حوله شباب فقال يا معشر الشباب اما تشتاقون إلى الحور العين و قال لي ابن

ابي الحوارى حدثني الحضرمي قال نمت انا و ابو حمزة على سطح فجعلت انظر اليه يتقلب

على فرشه إلى الصباح فقلت يا ابا حمزة ما رقدت الليلة فقال اني لما اضطجعت تمثلت لي

حوراء حتى لكانني احسست بجلدها و قد مس جلدي فحدثت به ابا سليمان فقال

هذا رجل كان مشتاقا و قال ابن ابي الحوارى سمعت ابا سليمان يقول ينشا خلق الحور

العين انشاء فاذا تكامل خلقهن ضرب عليهن الملائكة الخيام و ذكر ابن ابي الدنيا عن صالح

المري عن زيد الرقاشي قال بلغني ان نورا سطع في الجنة موضع من الجنة الا دخل من ذلك النور فيه فقيل ما هذا قال حوراء ضحكت في وجه زوجها قال صالح فشهق رجل من ناحية المجلس فلم يزل يشهق حتى مات و قال ابن ابي الدنيا حدثنا بشر بن الوليد حدثنا سعيد بن رزبي عن عبد الملك الجوني عن سعيد بن جبير قال سمعت ابن عباس يقول لو ان حوراء اخرجت كفها بين السماء والأرض لافتتن الخلائق بحسنها و لو اخرجت نصيفها لكانت

(204/740)

الشمس عند حسنها مثل الفتيله في الشمس لا ضوء لها ولو اخرجت وجهها لأضاء حسنها ما بين السماء و الأرض و قال ابن ابي الدنيا حدثني الحسين ابن يحيى و كثير العنبري و حدثنا خزيمة ابو محمد عن سفيان الثوري قال سطع نور في الجنة لم يبق موضع من الجنة الا دخل فيه من ذلك النور فنظروا فوجدوا ذلك من حوراء ضحكت في وجه زوجها و رواه الخطيب في تاريخه من حديث عبد الله بن محمد الكرخي قال حدثني عيسى بن يوسف الطباع

حدثني حلس بن محمد عن سفيان الثوري عن مغيرة عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله

عن النبي قال سطع نور في الجنة فرفعوا ابصارهم فاذا هو ثغر حوراء ضحكت في وجه زوجها و قال الاوزاعي عن يحيى بن ابي كثير اذا سبحت المراة من الحور العين لم يبق شجرة في الجنة الا وردت وقال ابن المبارك حدثنا الأوزاعي عن يحيى بن ابي كثير ان الحور العين يتلقين ازواجهن عند ابواب الجنة فيقلن طال ما انتظرناكم فنحن الراضيات فلا نسخط و المقيمات فلا نظعن و الخالدات فلا نموت باحسن اصوات سمعت و تقول انت حبي و انا حبك ليس دونك تقصير ولا وراءك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حادى الأرواح صـ 220 . 237 ﴾

(205/740)

فصل فى منزلة الإحسان

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الإحسان

وهي لب الإيمان وروحه وكماله وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل فجميعها منطوية فيها وكل ما قيل من أول الكتاب إلى ههنا فهو من الإحسان

قال صاحب المنازل رحمه الله وقد استشهد على هذه المنزلة بقوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ

الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: 60]: فالإحسان جامع لجميع أبواب الحقائق وهو أن تعبد الله كأنك تراه أما الآية: فقال ابن عباس رضي الله عنه والمفسرون: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد إلا الجنة وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: 60] ثم قال: هل تدورن ماذا قال ربكم قالوا: الله ورسوله أعلم قال: يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة وأما الحديث: فإشارة إلى كمال الحضور مع الله عز وجل ومراقبته الجامعة لخشيته ومحبته ومعرفته والإنابة إليه والإخلاص له ولجميع مقامات الإيمان قال: وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى: الإحسان في القصد بتهذيبه علما وإبرامه عزما وتصفيته حالا يعني إحسان القصد يكون بثلاثة أشياء أحدها: تهذيبه علما بأن يجعله تابعا للعلم على مقتضاه مهذبا به منقى من شوائب الحظوظ فلا يقصد إلا ما يجوز في العلم و العلم هو اتباع الأمر والشرع والثاني: إبرامه عزما و الإبرام الإحكام والقوة أي يقارنه عزم يمضيه ولا يصحبه فتور وتوان يضعفه ويوهنه الثالث: تصفيته حالا أي يكون حال صاحبه صافيا من الأكدار والشوائب التي تدل على كدر قصده فإن الحال مظهر القصد وثمرته وهو أيضا مادته وباعثه فكل منهما ينفعل عن الآخر فصفاؤه وتخليصه من تمام صفاء الآخر وتخليصه

فصل قال: الدرجة الثانية: الإحسان في الأحوال وهو أن تراعيها غيرة وتسترها تظرفا وتصححها تحقيقا

يريد بمراعاتها : حفظها وصونها غيرة عليها أن تحول فإنها تمر مر السحاب فإن لم يرع حقوقها حالت ومراعاتها : بدوام الوفاء وتجنب الجفاء ويراعيها أيضا بإكرام نزلها فإنها ضيف والضيف إن لم تكرم نزله ارتحل

ويراعيها أيضا بضبطها ملكة وشد يده عليها وأن لا يسمح بها لقاطع طريق ولا ناهب ويراعيها أيضا : بالانقياد إلى حكمها والإذعان لسلطانها إذا وافق الأمر ويراعيها أيضا : بسترها تظرفا وهو أن يسترها عن الناس ما أمكنه لئلا يعلموا بها ولا يظهرها إلا لحجة أو حاجة أو مصلحة راجحة فإن في إظهارها بدون ذلك آفات عديدة مع تعريضها للصوص والسراق والمغيرين وإظهار الحال للناس عند الصادقين: حمق وعجز وهو من حظوظ النفس والشيطان وأهل الصدق والعزم لها أستر وأكتم من أرباب الكنوز من الأموال لأموالهم حتى إن منهم من يظهر أضدادها نفيا وجحدا وهم أصحاب الملامتيه ولهم طريقة معروفة وكان شيخ هذه الطائفة عبد الله بن منازل واتفقت الطائفة على أن من أطلع الناس على حاله مع الله: فقد دنس طريقته إلا لحجة أو حاجة أو ضرورة وقوله:

وتصحيحها تحقيقا أي يجتهد في تحقيق أحواله وتصحيحها وتخليصها فإن الحال قد يمتزج

بحق وباطل ولا يميزه إلا أولو البصائر والعلم وأهل هذه الطريق يقولون: إن الوارد الذي يبتدىء العبد من جانبه الأيمن والهواتف والخطاب: يكون في الغالب حقا والذي يبتدىء من الجانب الأيسر: يكون في الغالب باطلا وكذبا فإن أهل اليمين: هم أهل الحق وبأيمانهم يأخذون كتبهم ونورهم الظاهر على الصراط يكون بأيمانهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم

(207/740)

يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره وشأنه كله والله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف وأخبر أن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله وحظه من ابن آدم جهة الشمال ولهذا تكون اليد الشمال للاستجمار وإزالة النجاسة والأذى ويبدأ بالرجل الشمال عند دخول الخلاء ومن الفرقان أيضا: أن كل وارد يبقي الإنسان بعد انفصاله نشيطا مسرورا نشوانا: فإنه وارد ملكي وكل وارد يبقي الإنسان بعد انفصالة خبيث النفس كسلان ثقيل الأعضاء والروح يجنح إلى فتور: فهو وارد شيطاني ومن الفرقان أيضا: أن كل وارد أعقب في القلب: معرفة بالله ومحبة له وأنسا به وطمأنينة بذكره وسكونا إليه: فهو ملكي إلهي وخلافه بخلافه

ومن الفرقان أيضا : أن كل وارد أعقب صاحبه تقدما إلى الله تعالى والدار الآخرة وحضورا فيها حتى كأنه يشاهد الجنة قد أزلفت والجحيم قد سعرت: فهو إلهي ملكي وخلافه شيطاني نفساني ومن الفرقان أيضا : أن كل وارد كان سببه النصيحة في امتثال الأمر والإخلاص والصدق فيه: فهو إلهي ملكي وإلا فهو شيطاني ومن الفرقان أيضا : أن كل وارد استنار به القلب وانشرح له الصدر وقوي به القلب: إلهي ملكي وإلا فهو شيطاني ومن الفرقان أيضا : أن كل وارد جمعك على الله فهو منه وكل وارد فرقك عنه وأخذك عنه: فمن الشيطان ومن الفرقان أيضا : أن الوارد الإلهي لا يصرف إلا في قربة وطاعة ولا يكون سببه إلا قربة وطاعة فمستخرجه الأمر ومصرفه الأمر والشيطاني بخلافه ومن الفرقان أيضا : أن الوارد الرحماني لا يتناقض ولا يتفاوت ولا يختلف بل يصدق بعضه بعضا والشيطاني بخلافه يكذب بعضه بعضا والله سبحانه أعلم

فصل قال: الدرجة الثالثة: الإحسان في الوقت وهو أن لا تزايل

(208/740)

المشاهدة أبدا ولا تخلط بهمتك أحدا وتجعل هجرتك إلى الحق سرمدا أي لا تفارق حال الشهود وهذا إنما يقدر عليه أهل التمكن الذين ظفروا بنفوسهم وقطعوا المسافات التي بين

النفس وبين القلب والمسافات التي بين القلب وبين الله بمجاهدة القطاع التي على تلك المسافات وقوله: ولا تخلط بهمتك أحدا

يعني: أن تعلق همتك بالحق وحده ولا تعلق همتك بأحد غيره فإن ذلك شرك في طريق الصادقين قوله: وأن تجعل هجرتك إلى الحق سرمدا يعني: أن كل متوجه إلى الله بالصدق والإخلاص فإنه من المهاجرين إليه فلا ينبغي أن يتخلف عن هذه الهجرة بل ينبغي أن يصحبها سرمدا حتى يلحق بالله عز وجل

فما هي إلا ساعة ثم تنقضي . . . ويحمد غب السير من هو سائر

ولله على كل قلب هجرتان وهما فرض لازم له على الأنفاس: هجرة إلى الله سبحانه بالتوحيد والإخلاص والإنابة والحب والخوف والرجاء والعبودية وهجرة إلى رسوله: بالتحكيم له والتسليم والتفويض والانقياد لحكمه وتلقي أحكام الظاهر والباطن من مشكاته فيكون تعبده به أعظم من تعبد الركب بالدليل الماهر في ظلم الليل ومتاهات الطريق فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليحث على رأسه الرماد وليراجع الإيمان من أصله فيرجع وراءه ليقتبس نورا قبل أن يحال بينه وبينه ويقال له ذلك على الصراط من وراء السور والله المستعان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 459 . 463 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والأربعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الحادي والأربعون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 62 ﴾ من (سورة الرحمن جل جلاله)

وحتى الآية ﴿ 78 ﴾ آخر السورة

(4/741)

قوله تعالى ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (62) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (63) مُدْهَامَّتَانِ (64) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (65) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (66) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (67) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (68) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (69) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (70) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (71) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (72) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (73) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (74) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (75) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (76) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (77) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (78) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان قد علم مما ذكر أول هذا الكلام من الخوف مع ذكر وصف الإكرام ، وآخره من ذكر

الإحسان أن هذا الفريق محسنون ، وكان من المعلوم أن العاملين طبقات ، وأن كل طبقة أجرها على مقدار أعمالها ، اقتضى الحال بيان ما أعد لمن دونهم : ﴿ ومن دونهما ﴾ أي من أدنى مكان ، رتبة مما تحت جنتي هؤلاء المحسنين المقربين ﴿ جنتان ﴾ أي لكل واحد لمن دون هؤلاء المحسنين من الخائفين وهم أصحاب اليمين ، قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : دونهما في الدرج ، وجعل ابن برجان الأربع موزعة بين الكل ، وأن تخصيص هذه العدة إشارة إلى أنها تكون جامعة لما في فصول الدنيا الأربعة : الشتاء والربيع والصيف والخريف ، وفسر بذلك قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ " جنتان من ذهب أوتيتهما وما فيهما وجنتان من فضة أوتيتهما وما فيهما " ثم جوز أن يكون المراد بالدون الأدنى إلى الإنسان ، وهو البرزخ ، فتكون هاتان لأهل البرزخ كما كان ﴿ وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ﴾ من عذاب القبر ﴿ فبأيِّ آلاء ربكما ﴾ أي المحسن بنعمه السابغة إلى الأعلى ومن دونه ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة اللمس من جهة التحت أم غيرها مما جعله الله في الدنيا مثالاً لهذا من أن بعض البساتين أفضل من بعض إلى غير ذلك من أنواع التفضيل .

ولما كان ما في هاتين من الماء دون ما في الباقيتين ، فكان ربما ظن أن ماءهما لا يقوم بأعلى كفايتهما قال : ﴿ مدهامتان ﴾ أي خضراوان خضرة تضرب من شدة الري إلى السواد ، من الدهمة ، قال الأصبهاني : الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض وفي الأوليين الأشجار والفواكه ﴿ فبأيِّ آلاء ربكما ﴾ أي نعم المحسن إلى

العالي منكما ومن دونه بسعة رحمته ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة الذوق من جهة الأمام أم غيرها مما جعله مثالاً لذلك من جنان الدنيا الكثيرة الري وغيره .

(5/741)

ولما كان ذكر ما يدل على ريهما ، حققه بقوله : ﴿ فيهما ﴾ أي في كل جنة لكل شخص منهم ﴿ عينان نضاختان ﴾ أي تفوران بشدة توجب لهما رشاش الماء بحيث لا ينقطع ذلك ، ولم يذكر جريهما فكأنهما بحيث يرويان جنتهما ولا يبلغان الجري ، والنضخ دون الجري وفوق النضخ ، قال الأصبهاني : وأصل النضخ بالمعجمة – انتهى .

وكأنهما لمن تغرغر عيناه بالدمع فتمتلئان من غير جري ، وقال ابن برجان ما معناه إن حر (؟) عدم جريهما لكونهما على مثال جنة خريف ما ههنا وشتاء به لبعد عهدهما بنزول الماء وسكنا في أعماق الأرض لينعكس بالنبع والفوران صاعداً مع أن الجنة لا مطر فيها ﴿ فبأيِّ آلاء ربكما ﴾ أي نعم المربي البليغ الحكمة في التربية ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة الذوق من جهة ما وراء اللسان أم غيرها مما جعله مثالاً لذلك من الأعين التي تفور ولا تجري والأنابيب المصنوعة للفوران لأنها بحيث تروق ناظرها لصعودها بقوة نبعها وترشيشها من النعم الكبار .

ولما ذكر الري والسبب فيه ، ذكر ما ينشأ عنه فقال : ﴿ فيهما فاكهة ﴾ أي من كل الفاكهة ، وخص أشرفها وأكثرها وجداناً في الخريف والشتاء كما في جنان الدنيا التي جعلت مثالاً لهاتين الجنتين فقال : ﴿ ونخل ورمان ﴾ فإن كلاًّ منهما فاكهة وإدام ، فلذا خص تشريفاً وتنبيهاً على ما فيهما من التفكه وأولاهما أعم نفعاً وأعجب خلقاً فلذا قدم ﴿ فبأيِّ آلاء ربكما ﴾ أي نعم المحسن إليكما أيها الثقلان بجليل التربية ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة الذوق من اليمين أم من غيرها مما جعل مثالاً لهذا من جنان الدنيا وغير ذلك .

(6/741)

ولما كان ما ذكر لا تكمل لذته إلا بالأنيس ، وكان قد ورد أنه يكون في بعض ثمار الجنة وحمل أشجارها نساء وولدان كما أن أمثال ذلك في بطن مياه الدنيا ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ [الأنبياء : 30] قال جامعاً على نحو ما مضى من الإشارة إلى أن الجنتين لكل واحد من أفراد هذا الصنف : ﴿ فيهن ﴾ أي الجنان الأربع أو الجنان التي خصت للنساء ، وجوز ابن برجان أن يكون الضمير للفاكهة والنخل والرمان فإنه يتكون منها نساء وولدان في داخل قشر الرمان ونحوه ﴿ خيرات ﴾ أي نساء بليغ ما فيهن من الخير ، أصله خير مثقلاً لأن " خير " الذي للتفضيل لا يجمع جمع سلامة ، ولعله خفف لاتصافهن بالخفة

في وجودهن وجميع شأنهن ، ولكون هاتين الجنتين دون ما قبلهما ﴿ حسان ﴾ أي في غاية الجمال خلقاً وخلقاً ﴿ فبأيِّ آلاء ربكما ﴾ أي نعم الكامل الإحسان إليكما

﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة الذوق من جهة اليسار أمن من غيرها ممن جعله مثالاً لتكوين النساء والولدان والملابس والحلي من ثمار الأشجار والزروع التي من المياه التي بها العيش ، ففيها التوليد وغير ذلك مما تظهره الفكرة لأهل العبرة لأن كل ما في الجنة ينشأ عن الكلمة من الرزق كما ينشأ عنه سبحانه في هذه الدار على تسبيب .

والحكمة ، ثم بينهن بقوله : ﴿ حور ﴾ أي ذوات أعين شديدة سواد السواد وشديدة بياض البياض ، وقال ابن جرير : بيض جمع ﴿ مقصورات ﴾ أي على أزواجهن ومحبوسات ، صيانة عن التبذل ، فهو كناية عن عظمتهن ﴿ في الخيام ﴾ التي هي من الدر المجوف الشفاف جزاء لمن قصر نفسه عن .

الله فكف جوارحه عن الزلات ، وصان قلبه عن الغفلات ﴿ فبأيِّ آلاء ربكما ﴾ أي الجليل الإحسان إليكما ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة الذوق من جهة الفوق أم بغيرها مما جعله مثالاً لهذا في الدنيا ، فإنه كما خلقنا من تراب ثم طورنا في أطوار الخلقة بحسب حكمة الأسباب كذلك خلق أولئك من أرض الجنة ورياضها وفواكهها عن كلمة السكان من غير أسباب .

ولما كانت أنفس الأخيار ذوي الهمم العالية الكبار في الالتفات إلى الأبكار قال : ﴿ لم يطمثهن ﴾ أي يتسلط عليهن نوع سلطة ﴿ إنس ﴾ وعم الزمان بحذف الجار فقال : ﴿ قبلهم ﴾ أي انتفى الطمث المذكور في جميع الزمان الكائن قبل طمث أصحاب هذه الجنان لهن ، فلو وجد في لحظة من لحظات القبل لما صدق النفي ﴿ ولا جان ﴾ فهن في غاية الاختصاص كل بما عنده ﴿ فبأيِّ ﴾ أي فتسبب عن هذا التعدد لمثل هذه النعم العظيمة أنا نقول تعجيباً ممن يكذب توبيخاً له وتنبيهاً على ما له تعالى من النعم التي تفوت الحصر : بأيِّ ﴿ آلاء ربكما ﴾ أي النعم الجليلة من المدبر لكما بما له من القدرة التامة والعظمة الباهرة العامة ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة الذوق من تحت أم بغيرها مما جعله مثالاً لهذا من الأبكار المخدرات ، وجميع ما ذكر من النعم العامة الظاهرة في كل حالة في الدنيا والآخرة ، وختم بالتقرير أربع وعشرون ثمان منها أول السورة من النعم الدنياوية ، وست عشرة جنان ، وجعلها على هذا العدد ، إشارة إلى تعظيمها بتكثيرها فإنه عدد تام لأنه جامع لأكثر الكسور ، ولذا قسم الدرهم وغيره أربعة وعشرون قيراطاً .

(8/741)

ولما تم التقرير بالنعم المحيطة بالجهات الست والحواس الخمس على الوجه الأكمل من درء المفاسد وجلب المصالح كما تقدمت الإشارة إليه بمدكر ، بقوله : ﴿ فهل من مدكر ﴾ [القمر : 17] في القمر ، بالحسن فيها إلى الحواس الخمس وبتكرارها ، وتكرار ﴿ كيف كان عذابي ونذر ﴾ [القمر : 18] ستاً إلى الجهات الست من جهة الوراء والخلف ، أوترها بنعمة أخرى واحدة إشارة إلى أن السبب في هذا اعتقاد وحدانية الواحد تعالى اعتقاداً أدى الخضوع لأمر مرسل كلما جاء من عنده تعالى فلذلك كانت نعمة لا تنقطع أصلاً ، بل كلما تم دور منها ابتدأ دور آخر جديد ، وهكذا على وجه لا انقطاع له أبداً كما أن الواحد الذي هو أصل العدد لا انتهاء له أصلاً ، وهذه النعمة الدالة على الراحة الدائمة التي هي المقصودة بالذات على وجه لا يرى أغرب منه ولا أشرف ، فقال تعالى مبيناً حال المحسنين ومن دونهم مشركاً لهم في الراحة على ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر : ﴿ متكئين ﴾ أي لهم ذلك في حال الاتكاء ديدناً لأنهم لا شغل لهم بوجه إلا التمتع ﴿ على رفرف ﴾ أي ثياب ناعمة وفرش رقيقة النسج من الديباج لينة ووسائد عظيمة ورياض باهرة وبسط لها أطراف فاضلة ، ورفرف السحاب هدبه أي ذيله المتدلي .

ولما كان الأخضر أحسن الألوان وأبهجها قال : ﴿ خضر وعبقري ﴾ أي متاع كامل من البسط وغيرها هو في كماله وغرابته كأنه من عمل الجن لنسبته إلى بلدهم ، قال في القاموس : عبقر موضع كثير الجن ، وقرية بناؤها في غاية الحسن ، والعبقري الكامل من كل شيء ، والسيد والذي ليس فوقه شيء ، وقال الرازي : هو الطنافس المخملة ، قال ابن جرير : الطنافس الثخان ، وقال القشيري : العبقري عند العرب كل ثوب موشى ، وقال الخليل : كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم ، ومنه قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في عمر ـ رضى الله عنه ـ : " فلم أر عبقرياً من الناس يفري فريه " وقال قطرب : ليس هو من المنسوب بل هو بمزلة كرسي وبختي .

ولما كان المراد به الجنس ، دل على كثرته بالجمع مع التعبير بالمفرد إشارة إلى وحدة تكامله بالحسن فقال : ﴿ حسان ﴾ أي هي في غاية من كمال الصنعة وحسن المنظر لا توصف ﴿ فبأيِّ آلاء ربكما ﴾ أي النعم العظيمة من المحسن الواحد الذي لا محسن غيره ولا إحسان إلا منه ولا تعد نعمه ولا تحصي ثناء عليه ﴿ تكذبان ﴾ وبهذه الآية تمت النعم الثمان المختصة بجنة أصحاب اليمين إشارة إلى العمل لأبوابها الثمانية . والله الموفق .

ولما دل ما ذكر في هذه السورة من النعم على إحاطة مبدعها بأوصاف الكمال ، ودل بالإشارة بالنعمة الأخيرة على أن نعمه لا نهاية لها لأنه مع أن له الكمال كله متعال عن شائبة

نقص ، فكانت ترجمة ذلك قوله في ختام نعم الآخرة مناظرة لما تقدم من ختام نعم الدنيا معبراً هناك بالبقاء لما ذكر قبله ، من الفناء ، وهذا بما من البركة إشارة إلى أن نعمه لا انقضاء لها : ﴿ تبارك ﴾ قال ابن برجان : تفاعل من البركة ، ولا يكاد يذكره جل ذكره إلا عند أمر معجب - انتهى ، ومعناه ثبت ثباتاً لا يسع العقول جمع وصفه لكونه على صيغه المفاعلة المفيدة لبذل الجهد إذا كانت ممن تمكن منازعته ، وذلك مع اليمن والبركة والإحسان .

(10/741)

ولما كان تعظيم الاسم أقعد وأبلغ في تعظيم المسمى قال : ﴿ اسم ربك ﴾ أي المحسن إليك بإنزال هذا القرآن الذي جبلك على متابعته فصرت مظهراً له وصار خلقاً لك فصار إحسانه إليك فوق الوصف ، ولذلك قال واصفاً للرب في قراءة الجمهور : ﴿ ذي الجلال ﴾ أي العظمة الباهرة فهو المنتقم من الأعداء ﴿ والإكرام ﴾ أي الإحسان الذي لا يمكن الإحاطة به فهو المتصف بالجمال الأقدس المقتضي لفيض الرحمة على جميع الأولياء ، وقراءة ابن عامر ﴿ ذو ﴾ صفة للاسم ، وكذا هو في مصاحف أهل الشام ، والوصفان الأخيران من شبه الاحتباك حذف من الأول متعلق الصفة وهو النقمة للأعداء ، ومن

الثاني أثر الإكرام وهو الرحمة للأولياء ، فإثبات الصفة أولاً يدل على حذف ضدها ثانياً ، وإثبات الفعل ثانياً يدل على حذف ضده أولاً ، وقال الرازي في اللوامع : كأنه يريد بالاسم الذي افتتح به السورة وقد انعطف آخر السورة على أولها على وجه أعم ، فيشمل الإكرام بتعليم القرآن وغيره والانتقام بإدخال النيران وغيرها - الله سبحانه وتعالى هو الموفق للصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 396 . 401 ﴾

(11/741)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (62) ﴾

لما ذكر الجزاء ذكر بعده مثله وهو جنتان أخريان ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] وفي قوله تعالى : ﴿ دُونِهِمَا ﴾ وجهان أحدهما : دونهما في الشرف ، وهو ما اختاره صاحب "الكشاف" وقال قوله : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ مع قوله في الأوليين : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ [الرحمن : 48] وقوله في هذه : ﴿ عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ مع قوله في الأوليين : ﴿ عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ [الرحمن : 50] لأن النضخ دون

الجري ، وقوله في الأولين : ﴿ مِن كُلِّ فاكهة زَوْجَانِ ﴾ [الرحمن : 52] مع قوله في هاتين : ﴿ فاكهة وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [لرحمن : 68] وقوله في الأوليين : ﴿ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا اَ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ حيث ترك ذكر الظهائر لعلوها ورفعتها وعدم إدراك العقول إياها مع قوله في هاتين : ﴿ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ [الرحمن : 76] دليل عليه ، ولقائل أن يقول : هذا ضعيف لأن عطايا الله في الآخرة متتابعة لا يعطي شيئاً بعد شيء إلا ويظن الظان أنه ذلك أو خير منه .

ويمكن أن يجاب عنه تقريراً لما اختاره الزمخشري أن الجنتين اللتين دون الأولين لذريتهم اللذين ألحقهم الله بهم ولأتباعهم ، ولكنه إنما جعلهما لهم إنعاماً عليهم ، أي هاتان الأخريان لكم أسكنوا فيهما من تريدون الثاني : أن المراد دونهما في المكان كأنهم في جنتين ويطلعوا من فوق على جنتين أخريين دونهما ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مّن فَوْقِهَا غُرَفٌ ﴾ [الزمر : 20] الآية .

والغرف العالية عندها أفنان ، والغرف التي دونها أرضها مخضرة ، وعلى هذا ففي الآيات لطائف :

الأولى : قال في الأوليين : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ وقال في هاتين : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ أي مخضرتان في غاية الخضرة ، وإدهام الشيء أي اسواد لكن لا يستعمل في بعض الأشياء والأرض إذا اخضرت غاية الخضرة تضرب إلى أسود ، ويحتمل أن يقال : الأرض الخالية عن الزرع يقال لها : بياض أرض وإذا كانت معمورة يقال لها : سواد أرض كما يقال : سواد البلد ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " عليكم بالسواد الأعظم ومن كثر سواد قوم فهو منهم "

والتحقيق فيه أن ابتداء الألوان هو البياض وانتهاءها هو السواد ، فإن الأبيض يقبل كل لون والأسود لا يقبل شيئاً من الألوان ، ولهذا يطلق الكافر على الأسود ولا يطلق على لون آخر ، ولما كانت الخالية عن الزرع متصفة بالبياض واللاخالية بالسواد فهذا يدل على أنهما تحت الأوليين مكاناً ، فهم إذا نظروا إلى ما فوقهم ، يرون الأفنان تظلهم ، وإذا نظروا إلى ما تحتهم يرون الأرض مخضرة ، وقوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أي فائرتان ماؤهما متحرك إلى جهة فوق ، وأما العينان المتقدمتان فتجريان إلى صوب المؤمنين فكلاهما حركتهما إلى جهة مكان أهل الإيمان ، وأما قول صاحب "الكشاف" : النضخ دون الجري فغير لازم لجواز أن يكون الجري يسيراً والنضخ قوياً كثيراً ، بل المراد أن النضخ فيه الحركة إلى جهة العلو ، والعينان في مكان المؤمنين ، فحركة الماء تكون إلى جهتهم ، فالعينان الأوليان في مكانهم فتكون حركة مائهما إلى صوب المؤمنين جرياً .

فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (68) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (69)

فهو كقوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ [الرحمن : 52] وذلك لأن الفاكهة أرضية نحوه البطيخ وغيره من الأرضيات المزروعات وشجرية نحو النخل وغيره من الشجريات فقال : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 64] بأنواع الخضر التي منها الفواكه الأرضية وفيهما أيضاً الفواكه الشجرية وذكر منها نوعين وهما الرمان والرطب لأنهما متقابلان فأحدهما حلو والآخر غير حلو وكذلك أحدهما حار والآخر بارد وأحدهما فاكهة وغذاء ، والآخر فاكهة ، وأحدهما من فواكه البلاد الحارة والآخر من فواكه البلاد الباردة ، وأحدهما أشجاره في غاية الطول والآخر أشجاره بالضد وأحدهما ما يؤكل منه بارز ومالا يؤكل كامن ، والآخر بالعكس فهما كالضدين والإشارة إلى الطرفين تتناول الإشارة إلى ما بينهما ، كما قال : ﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ [الرحمن : 17] وقدمنا ذلك .

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (70) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (71)

أي في باطنهن الخير وفي ظاهرهن الحسن والخيرات جمع خيرة وقد بينا أن في قوله تعالى : ﴿ قاصرات الطرف ﴾ [الرحمن : 56] إلى أن قال : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ﴾ [الرحمن : 58]

إشارة إلى كونهن حساناً .

حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (72)

(14/741)

إشارة إلى عظمتهن فإنهن ما قصرن حجراً عليهن ، وإنما ذلك إشارة إلى ضرب الخيام لهن وإدلاء الستر عليهن ، والخيمة مبيت الرجل كالبيت من الخشب ، حتى إن العرب تسمي البيت من الشعر خيمة لأنه معد للإقامة ، إذا ثبت هذا فنقول : قوله : ﴿ مقصورات فِى الخيام ﴾ إشارة إلى معنى في غاية اللطف ، وهو أن المؤمن في الجنة لا يحتاج إلى التحرك لشيء وإنما الأشياء تتحرك إليه فالمأكول والمشروب يصل إليه من غير حركة منه ، ويطاف عليهم بما يشتهونه فالحور يكن في بيوت ، وعند الانتقال إلى المؤمنين في وقت إرادتهم تسير بهن للارتحال إلى المؤمنين خيام وللمؤمنين قصور تنزل الحور من الخيام إلى القصور ، وقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴾ قد سبق تفسيره .

مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (76) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (77)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما الحكمة في تأخير ذكر اتكائهم عن ذكر نسائهم في هذا الموضع مع أنه تعالى قدم ذكر اتكائهم على ذكر نسائهم في الجنتين المتقدمتين حيث قال : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ ﴾ [الرحمن : 54] ثم قال : ﴿ قاصرات الطرف ﴾ [الرحمن : 56] وقال ههنا : ﴿ فِيهِنَّ خيرات حِسَانٌ ﴾ [الرحمن : 70] ثم قال : ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ ؟ والجواب عنه من وجهين أحدهما : أن أهل الجنة ليس عليهم تعب وحركة فهم منعمون دائماً لكن الناس في الدنيا على أقسام منهم من يجتمع مع أهله اجتماع مستفيض وعند قضاء وطره يستعمل الاغتسال والانتشار في الأرض للكسب ، ومنهم من يكون متردداً في طلب الكسب وعند تحصيله يرجع إلى أهله ويريح قلبه من التعب قبل قضاء الوطر فيكون التعب لازماً قبل قضاء الوطر أو بعده فالله تعالى قال في بيان أهل الجنة : متكئين قبل الاجتماع بأهلهم وبعد الاجتماع كذلك ، ليعلم أنهم دائم على السكون فلا تعب لهم لا قبل الاجتماع ولا بعد الاجتماع وثانيهما : هو أنا بينا في الوجهين المتقدمين أن الجنتين المتقدمتين لأهل الجنة الذين جاهدوا والمتأخرين لذرياتهم الذين ألحقوا بهم ، فهم فيهما وأهلهم في الخيام منتظرات قدوم أزواجهن ، فإذا دخل المؤمن جنته التي هي سكناه يتكىء على الفرش وتنتقل إليه أزواجه

الحسان ، فكونهن في الجنتين المتقدمتين بعد اتكائهم على الفرش ، وأما كونهم في الجنتين المتأخرتين فذلك حاصل في يومنا ، واتكاء المؤمن غير حاصل في يومنا ، فقدم ذكر كونهن فيهن هنا وأخره هناك .

و﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ حال والعامل فيه ما دل عليه قوله : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ ﴾ [الرحمن : 74] وذلك في قوة الاستثناء كأنه قال : لم يطمثهن إلا المؤمنون فإنهم يطمثوهن متكئين وما ذكرنا من قبل في قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ ﴾ [الرحمن : 54] يقال هنا .

المسألة الثانية :

(16/741)

الرفرف إما أن يكون أصله من رف الزرع إذا بلغ من نضارته فيكون مناسباً لقوله تعالى : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 64] ويكون التقدير أنهم متكئون على الرياض والثياب العبقرية ، وإما أن يكون من رفرفة الطائر ، وهي حومة في الهواء حول ما يريد النزول عليه فيكون المعنى أنهم على بسط مرفوعة كما قال تعالى : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : 34] وهذا يدل على أن قوله تعالى : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 62] أنهما دونهما في المكان حيث رفعت فرشهم ، وقوله تعالى : ﴿ خُضْرٍ ﴾ صيغة جمع فالرفرف

يكون جمعاً لكونه اسم جنس ويكون واحده رفرفة كحنظلة وحنظل والجمع في متكئين يدل عليه فإنه لما قال : ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ دل على أنهم على رفارف .

المسألة الثالثة :

ما الفرق بين الفرش والرفرف حيث لم يقل : رفارف اكتفاء بما يدل عليه قوله : ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ وقال : ﴿ فُرُشٍ ﴾ ولم يكتف بما يدل عليه ذلك ؟ نقول : جمع الربا عي أثقل من جمع الثلاثي ، ولهذا لم يجيء للجمع في الربا عي إلا مثال واحد وأمثلة الجمع في الثلاثي كثيرة وقد قرىء : (على رفارف خضر) ، و (رفارف خضار وعباقر) .

المسألة الرابعة :

(17/741)

إذ قلنا : إن الرفرف هي البسط فما الفائدة في الخضر حيث وصف تعالى ثياب الجنة بكونها خضراً قال تعالى : ﴿ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ ﴾ [الإنسان : 21] نقول : ميل الناس إلى اللون الأخضر في الدنيا أكثر ، وسبب الميل إليه هو أن الألوان التي يظن أنها أصول الألوان سبعة وهي الشفاف وهو الذي لا يمنع نفوذ البصر فيه ولا يحجب ما وراءه كالزجاج والماء الصافي وغيرهما ثم الأبيض بعده ثم الأصفر ثم الأحمر ثم الأخضر ثم الأزرق ثم الأسود

والأظهر أن الألوان الأصلية ثلاثة الأبيض والأسود وبينهما غاية الخلاف والأحمر متوسط بين الأبيض والأسود فإن الدم خلق على اللون المتوسط ، فإن لم تكن الصحة على ما ينبغي فإن كان لفرط البرودة فيه كان أبيض وإن كان لفرط الحرارة فيه كان أسود لكن هذه الثلاثة يحصل منها الألوان الآخر فالأبيض إذا امتزج بالأحمر حصل الأصفر يدل عليه مزج اللبن الأبيض بالدم وغيره من الأشياء الحمر وإذا امتزج الأبيض بالأسود حصل اللون الأزرق يدل عليه خلط الجص المدقوق بالفحم وإذا امتزج الأحمر بالأسود حصل الأزرق أيضاً لكنه إلى السواد أميل ، وإذا امتزج الأصفر بالأزرق حصل الأخضر من الأصفر والأزرق وقد علم أن الأصفر من الأبيض والأحمر والأزرق من الأبيض والأسود والأحمر والأسود فالأخضر حصل فيه الألوان الثلاثة الأصلية فيكون ميل الإنسان إليه لكونه مشتملاً على الألوان الأصلية وهذا بعيد جداً والأقرب أن الأبيض يفرق البصر ولهذا لا يقدر الإنسان على إدامة النظر في الأرض عند كونها مستورة بالثلج وإنه يورث الجهر والنظر إلى الأشياء السود يجمع البصر ولهذا كره الإنسان النظر إليه وإلى الأشياء الحمر كالدم والأخضر لما اجتمع فيه الأمور الثلاثة دفع بعضها أذى بعض وحصل اللون الممتزج من الأشياء التي في بدن الإنسان وهي الأحمر والأبيض والأصفر والأسود ولما كان ميل النفس في الدنيا إلى الأخضر ذكر الله تعالى في الآخرة ما هو على مقتضى طبعه في

الدنيا .

المسألة الخامسة :

العبقري منسوب إلى عبقر وهو عند العرب موضع من مواضع الجن فالثياب المعمولة عملاً جيداً يسمونها عبقريات مبالغة في حسنها كأنها ليست من عمل الإنس ، ويستعمل في غير الثياب أيضاً حتى يقال للرجل الذي يعمل عملاً عجيباً : هو عبقري أي من ذلك البلد قال صلى الله عليه وسلم في المنام الذي رآه : " فلم أر عبقرياً من الناس يفري فريه " واكتفى بذكر اسم الجنس عن الجمع ووصفه بما توصف به الجموع فقال حسان : وذلك لما بينا أن جمع الربا عي يستثقل بعض الاستثقال ، وأما من قرأ : ﴿ عباقري ﴾ فقد جعل اسم ذلك الموضع عباقر فإن زعم أنه جمعه فقد وهم ، وإن جمع العبقري ثم نسب فقد التزم تكلفاً خلاف ما كلف الأدباء التزامه فإنهم في الجمع إذا نسبوا ردوه إلى الواحد وهذا القارىء تكلف في الواحد ورده إلى الجمع ثم نسبه لأن عند العرب ليس في الوجود بلاد كلها عبقر حتى تجمع ويقال : عباقر ، فهذا تكلف الجمع فيما لا جمع له ثم نسب إلى ذلك الجمع والأدباء تكره الجمع فيما ينسب لئلا يجمعوا بين الجمع والنسبة .

تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (78)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(19/741)

في الترتيب وفيه وجوه أحدها : أنه تعالى لما ختم نعم الدنيا بقوله تعالى : ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : 27] ختم نعم الآخرة بقوله : ﴿ تبارك اسم رَبِّكَ ذِى الجلال والإكرام ﴾ إشارة إلى أن الباقي والدائم لذاته هو الله تعالى لا غير والدنيا فانية ، والآخرة وإن كانت باقية لكن بقاؤها بإبقاء الله تعالى ثانيها : هو أنه تعالى في أواخر هذه السور كلها ذكر اسم الله فقال في السورة التي قبل هذه : ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : 55] وكون العبد عند الله من أتم النعم كذلك ههنا بعد ذكر الجنات وما فيها من النعم قال : ﴿ تبارك اسم رَبِّكَ ذِى الجلال والإكرام ﴾ إشارة إلى أن أتم النعم عند الله تعالى ، وأكمل اللذات ذكر الله تعالى ، وقال في السورة التي بعد هذه : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة : 89] ثم قال تعالى في آخر السورة : ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ [الواقعة : 96] ثالثها : أنه تعالى ذكر جميع الذات في الجنات ، ولم يذكر لذة السماع وهي من أتم أنواعها ، فقال : ﴿ مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ يسمعون ذكر الله تعالى .

المسألة الثانية :

أصل التبارك من البركة وهي الدوام والثبات ، ومنها بروك البعير وبركة الماء ، فإن الماء يكون فيها دائماً وفيه وجوه أحدها : دام اسمه وثبت وثانيها : دام الخير عنده لأن البركة وإن كانت من الثبات لكنها تستعمل في الخير وثالثها : تبارك بمعنى علا وارتفع شأناً لا مكاناً .

المسألة الثالثة :

(20/741)

قال بعد ذكر نعم الدنيا : ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن : 27] وقال بعد ذكر نعم الآخرة : ﴿ تبارك اسم رَبِّكَ ﴾ لأن الإشارة بعد عد نعم الدنيا وقعت إلى عدم كل شيء من الممكنات وفنائها في ذواتها ، واسم الله تعالى ينفع الذاكرين ولا ذاكر هناك يوحد الله غاية التوحيد فقال : ويبقى وجه الله تعالى والإشارة هنا ، وقعت إلى أن بقاء أهل الجنة بإبقاء الله ذاكرين اسم الله متلذذين به فقال : ﴿ تبارك اسم رَبِّكَ ﴾ أي في ذلك اليوم لا يبقى اسم أحد إلا اسم الله تعالى به تدور الألسن ولا يكون لأحد عند أحد حاجة بذكره ولا من أحد خوف ، فإن تذاكروا تذاكروا باسم الله .

المسألة الرابعة :

الاسم مقحم أو هو أصل مذكور له التبارك ، نقول : فيه وجهان أحدهما : وهو المشهور أنه مقحم كالوجه في قوله تعالى : ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ يدل عليه قوله : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنين : 14] و : ﴿ تَبَارَكَ الذى بِيَدِهِ الملك ﴾ [الملك : 1] وغيره من صور استعمال لفظ تبارك وثانيهما : هو أن الاسم تبارك ، وفيه إشارة إلى معنى بليغ ، أما إذا قلنا : تبارك بمعنى علا فمن علا اسمه كيف يكون مسماه وذلك لأن الملك إذا عظم شأنه لا يذكر اسمه إلا بنوع تعظيم ثم إذا انتهى الذاكر إليه يكون تعظيمه له أكثر ، فإن غاية التعظيم للاسم أن السامع إذا سمعه قام كما جرت عادة الملوك أنهم إذا سمعوا في الرسائل اسم سلطان عظيم يقومون عند سماع اسمه ، ثم إن أتاهم السلطان بنفسه بدلاً عن كتابه الذي فيه اسمه يستقبلونه ويضعون الجباه على الأرض بين يديه ، وهذا من الدلائل الظاهرة على أن علو الاسم يدل على علو زائد في المسمى ، أما إن قلنا : بمعنى دام الخير عنده فهو إشارة إلى أن ذكر اسم الله تعالى يزيل الشر ويهرب الشيطان ويزيد الخير ويقرب السعادات ، وأما إن قلنا : بمعنى دام اسم الله ، فهو إشارة إلى دوام الذاكرين في الجنة على ما قلنا من قبل .

المسألة الخامسة :

القراءة المشهورة ههنا : ﴿ ذِي الجلال ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال ﴾ لأن الجلال للرب ، والاسم غير المسمى ، وأما وجه الرب فهو الرب فوصف هناك الوجه ووصف ههنا الرب ، دون الاسم ولو قال : ويبقى الرب لتوهم أن الرب إذا بقي رباً فله في ذلك الزمان مربوب ، فإذا قال وجه أنسى المربوب فحصل القطع بالبقاء للحق فوصف الوجه يفيد هذه الفائدة ، والله أعلم .

والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 116 . 121 ﴾

(22/741)

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾

اختلف الناس في معنى : ﴿ من دونهما ﴾ ، فقال ابن زيد وغيره معناه : أن هذين دون تينك في المنزلة والقدرة ، والأوليان جنتا السابقين ، والأخريان جنتا أصحاب اليمين . قال الرماني قال ابن عباس : الجنات الأربع للخائف ﴿ مقام ربه ﴾ [الرحمن : 46] . وقال

الحسن الأوليان للسابقين والأخريان للتابعين . وقال ابن عباس ، المعنى : هما دونهما في القرب إلى المنعمين وهاتان المؤخرتان في الذكر أفضل من الأوليين ، يدل على ذلك أنه وصف عيني هذه بالنضخ والأخريين بالجري فقط ، وجعل هاتين مدهامتين من شدة النعمة ، والأوليين ذواتي أفنان ، وكل جنة ذات أفنان وإن لم تكن مدهامة .

قال القاضي أبو محمد : وأكثر الناس على التأويل الأول ، وهذه استدلالات ليست بقواطع . وروي عن أبي موسى الأشعري أنه قال : جنتان للمقربين من ذهب ، وجنتان لأهل اليمين من فضة مما دون الأولين .

و: ﴿ مدهامتان ﴾ معناه قد علا لونهما دهمة وسواد في النضرة والخضرة ، كذا فسره ابن الزبير على المنبر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ الذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ﴾ [الأعلى : 5] ، والنضاخة الفوارة التي يهيج ماؤها . وقال ابن جبير المعنى : ﴿ نضاختان ﴾ بأنواع الفواكه ، وهذا ضعيف . وكرر النخل والرمان لأنهما ليسا من الفواكه . وقال يونس بن حبيب وغيره : كررهما وهما من أفضل الفاكهة تشريفاً لهما وإشادة بهما كما قال تعالى : ﴿ وجبريل وميكال ﴾ [البقرة : 98] .

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (70)

﴿ خيرات ﴾ جمع خيرة ، وهي أفضل النساء ، ومنه قول الشاعر [أنشده الطبري] : [الكامل]

ربلات هند خيرة الملكات . . . وقالت أم سلمة : قلت يا رسول الله : أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ خيرات حسان ﴾ قال : " ﴿ خيرات ﴾ الأخلاق ﴿ حسان ﴾ الوجوه ".

وقرأ أبو بكر بن حبيب السهمي : " خيِّرات حسان " بشد الياء المكسورة . وقرأ أبو عمرو بفتح الياء .

(23/741)

وقوله : ﴿ مقصورات ﴾ أي محجوبات . وكانت العرب تمدح النساء بملازمة البيوت ، ومنه قول الشاعر [أبو قيس بن الأسلت] : [الطويل]

وتعتل في إتيانهن فتعذر . . . يصف أن جارتها يزرنها ولا تزورهن . ويروى أن بيت الأعشى قد ذم وهو قوله : [البسيط]

كأن مشيتها من بين جارتها . . . مر السحابة لا ريث ولا عجل

فقيل في ذمه : هذه جوالة خراجة ولاجة ، ومن مدح القصر قول كثير : [الطويل]

وأنت التي حببت كل قصيرة . . . إليّ ولم تشعر بذاك القصائر

أريد قصيرات الحجال ولم أرد . . . قصار الخطى شر النساء البحاتر

قال الحسن : ﴿ مقصورات في الخيام ﴾ ليس بطوافات في الطرق ، و ﴿ الخيام ﴾ : البيوت من الخشب والثمام وسائر الحشيش ، وهي بيوت المرتحلين من العرب ، وخيام الجنة بيوت اللؤلؤ . وقال عمر بن الخطاب : هي در مجوف . ورواه ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان بيت المسكين عند العرب من شعر فهو بيت ، ولا يقال له خيمة ، ومن هذا قول جرير : [الوافر]

متى كان الخيام بذي طلوح . . . سقيت الغيث أيتها الخيام

ومنه قول امرئ القيس : [المتقارب]

أمرخ خيامهم أم عشر . . . يستفهم هل هم منجدون أم غائرون لأن العشر مما لا ينبت إلا في تهامة ، والمرخ مما لا ينبت إلا في نجد .

والرفرف : ما تدلى من الأسرة من غالي الثياب والبسط : وكذلك قال ابن عباس وغيره : إنها فضول المحابيس والبسط ، وقال ابن جبير ، الرفرف : رياض الجنة .

قال القاضي أبو محمد : والأول أصوب وأبين ، ووجه قول ابن جبير : إنه من رف البيت ، إذا تنعم وحسن ، وما تدلى حول الخباء من الخرقة الهفافة يسمى رفرفاً ، وكذلك يسميه الناس اليوم . وقال الحسن ابن أبي الحسن ، الرفرف : المرافق ، والعبقري : بسط حسان فيها صور وغير ذلك ، تصنع بعبقر ، وهو موضع يعمل فيه الوشي والديباج ونحوه قال ابن

عباس : العبقري : الزرابي . وقال ابن زيد : هي الطنافس . وقال مجاهد : هي الديباج الغليظ .

(24/741)

وقرأ زهير الفرقبي : " رفارفَ " بالجمع وترك الصرف . وقرأ أبو طعمة المدني : وعاصم في بعض ما روي عنه " رفارفٍ " بالصرف ، وكذلك قرأ عثمان بن عفان : " رفارفٍ وعباقرٍ " بالجمع والصرف ، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم وغلط الزجاج والرماني هذه القراءة . وقرأ أيضاً عثمان في بعض ما روي عنه : " عبَاقَر " : بفتح القاف والباء ، وهذا على أن اسم الموضع " عبَاقَر " بفتح القاف ، والصحيح في اسم الموضع : " عبقر " ، قال الشاعر [امرؤ القيس] : [الطويل]

كأن صليل المروحين تشذه . . . صليل الزيوف بنتقدن بعبقرا

قال الخليل والأصمعي : إذا استحسنت شيئاً واستجادته قالت ﴿ عبقرى ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " فلم أر عبقرياً من الناس يفري فريه " وقال عبد الله بن عمر : العبقري سيد القوم وعينهم . وقال زهير : [الطويل]

بخيل عليها جنة عبقرية . . . جديرون يوماً أن ينالوا فيستعلوا

ويقال عبقر : مسكن للجن . وقال ذو الرمة : [البسيط]

حتى كأن رياض القف ألبسها . . . من وشي عبقر تجليل وتنجيد

وقرأ الأعرج : " خضُر " بضم الضاد . وقرأ جمهور الناس : " ذي الجلال " على اتباع الرب .

وقرأ ابن عامر وأهل الشام . " ذو " على اتباع الاسم ، وكذلك في الأول ، وفي حرف أبيّ

وابن مسعود ، " ذي الجلال " في الموضعين ، وهذا الموضع مما أريد فيه بالاسم مسماه .

والدعاء بهاتين الكلمتين حسن مرجو الإجابة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "

ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام " .

نجز تفسير سورة الرحمن : وصلى الله على مولانا محمد سيد ولد عدنان . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(25/741)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾

أي وله من دون الجنتين الأوليين جنتان أخريان .

قال ابن عباس : ومن دونهما في الدَّرَج .

ابن زيد : ومن دونهما في الفضل .

ابن عباس : والجنات لمن خاف مقام ربه ؛ فيكون في الأولين النخل والشجر ، وفي الأخريين الزرع والنبات وما انبسط .

الماورديّ : ويحتمل أن يكون ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ لأتباعه لقصور منزلتهم عن منزلته ، إحداهما للحور العين ، والأخرى للولدان المخلّدين ؛ ليتميّز بهما الذكور عن الإناث .

وقال ابن جريج : هي أربع : جنتان منها للسابقين المقرَّبين ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ و ﴿ عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ ، وجنتان لأصحاب اليمين ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ و ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ .

وقال ابن زيد : إن الأُوليين من ذهب للمقرّبين ، والأُخريين من ورقٍ لأصحاب اليمين .

قلت : إلى هذا ذهب الحَليميّ أبو عبد الله الحسن بن الحسين في كتاب (منهاج الدين له) ؛ واحتج بما رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ إلى قوله : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ قال : تانك للمقرَّبين ، وهاتان لأصحاب اليمين .

وعن أبي موسى الأشعري نحوه .

ولما وصف الله الجنتين أشار إلى الفرق بينهما فقال في الأُوليين : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ ، وفي الأُخريين : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أي فوّارتان ولكنهما ليستا كالجاريتين

لأن النضخ ذون الجري .

وقال في الأوليين : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ فعمّ ولم يخصّ .

(26/741)

وفي الأخريين : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ ولم يقل من كل فاكهة ، وقال في الأوليين : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ وهو الديباج ، وفي الأخريين ﴿ مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ والعبقريّ الوَشْي ، ولا شك أن الديباج أعلى من الوشي ، والرفرف كِسَر الخِباء ، ولا شك أن الفرش المعدّة للاتكاء عليها أفضل من فضل الخِباء .

وقال في الأوليين في صفة الحور : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان ﴾ ، وفي الأخريين ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان .

وقال في الأوليين : ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ وفي الأخريين ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ أي خضراوان كأنهما من شدّة خضرتهما سوداوان ، ووصف الأوليين بكثرة الأغصان ، والأخريين بالخضرة وحدها ، وفي هذا كله تحقيق للمعنى الذي قصدنا بقوله : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ ولعل ما لم يذكر من تفاوت ما بينهما أكثر مما ذكر .

فإن قيل : كيف لم يذكر أهل هاتين الجنتين كما ذكر أهل الجنتين الأوليين ؟ قيل : الجنان الأربع

لمن خاف مقام ربه إلا أن الخائفين لهم مراتب ، فالجنتان الأوليان لأعلى العباد رتبة في الخوف من الله تعالى ، والجنتان الأخريان لمن قصرت حاله في الخوف من الله تعالى .

ومذهب الضحاك أن الجنتين الأوليين من ذهب وفضّة ، والأخريين من ياقوت وزمرد وهما أفضل من الأوليين ، وقوله : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ أي ومن أمامهما ومن قِبلهما وإلى هذا القول ذهب أبو عبد الله الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) فقال : ومعنى "وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ" أي دون هذا إلى العرش ؛ أي أقرب وأدنى إلى العرش ، وأخذ يفضلهما على الأوليين بما سنذكره عنه .

وقال مقاتل : الجنتان الأوليان جنة عدن وجنة النعيم ، والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى .

(27/741)

قوله تعالى : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ أي خضراوان من الريّ ؛ قاله ابن عباس وغيره .

وقال مجاهد : مسودتان .

والدُّهْمة في اللغة السواد ؛ يقال : فرس أدهم وبعير أدهم وناقة دهماء أي اشتدت زرقته حتى ذهب البياض الذي فيه ؛ فإن زاد على ذلك حتى اشتد السواد فهو جَوْن .

وادْهَمَّ الفرس ادهماما أي صار أدهم .

وادهام الشيءُ ادهيماما أي اسواد ؛ قال الله تعالى : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ أي سوداوان من شدة الخضرة من الرِّيّ ؛ والعرب تقول لكل أخضر أسود .

وقال لَبيد يرثي قتلى هَوازِن :

وجاؤوا به في هَوْدَجٍ ووَراءهُ . . .

كَتَائِبُ خُضْرٌ في نَسِيجِ السَّنَوَّرِ

السَّنَوَّر لَبُوسٌ من قِدٍّ كالدِّرْع .

وسميت قُرَى العراق سواداً لكثرة خضرتها .

ويقال لليل المظلم : أخضر .

ويقال : أباد الله خضراءهم أي سوادهم .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أي فوارتان بالماء ؛ عن ابن عباس .

والنضخ بالخاء أكثر من النضح بالحاء .

وعنه أن المعنى نضَّاختان بالخير والبركة ؛ وقاله الحسن ومجاهد .

ابن مسعود وابن عباس أيضاً وأنس : تَنضَخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور أهل الجنة كما ينضَخ رش المطر .

وقال سعيد بن جُبير : بأنواع الفواكه والماء .

الترمذي : قالوا بأنواع الفواكه والنِعم والجَوارِي المزيّنات والدواب المسرَجات والثياب الملوّنات .

قال الترمذيّ : وهذا يدل على أن النضخ أكثر من الجري .

وقيل : تنبعان ثم تجريان .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ فيه مسألتان .

الأولى : قال بعض العلماء : ليس الرمان والنخل من الفاكهة ؛ لأن الشيء لا يعطف على نفسه إنما يعطف على غيره .

وهذا ظاهر الكلام .

(28/741)

وقال الجمهور : هما من الفاكهة وإنما أعاد ذكر النخل والرمان لفضلهما وحسن موقعهما على الفاكهة ؛ كقوله تعالى : ﴿ حَافِظُواْ عَلَى الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ [البقرة : 238] وقوله : ﴿ مَن كَانَ عَدُوّاً للَّهِ وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ [البقرة : 98] وقد تقدّم .

وقيل : إنما كررهما لأن النخل والرمان كانا عندهم في ذلك الوقت بمنزلة البُرّ عندنا ؛ لأن

النخل عامّةً قوتهم ، والرمان كالثمرات ، فكان يكثر غرسهما عندهم لحاجتهم إليهما ، وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التي يعجبون بها ؛ فإنما ذكر الفاكهة ثم ذكر النخل والرمان لعمومهما وكثرتهما عندهم من المدينة إلى مكة إلى ما والاها من أرض اليمن ؛ فأخرجهما في الذكر من الفواكه وأفرد الفواكه على حدتها .

وقيل : أُفِردا بالذكر لأن النخل ثمره فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء ، فلم يخلصا للتفكُّه ؛ ومنه قال أبو حنيفة رحمه الله ، وهي المسألة :

الثانية : إذا حلف أن لا يأكل فاكهة فأكل رمّاناً أو رُطَباً لم يحنث .

وخالفه صاحباه والناس .

قال ابن عباس : الرمانة في الجنة مثل البعير المُقَتَّب .

وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر ، وكرانيفها ذهب أحمر ، وسعفها كسوة لأهل الجنة ، منها مُقطَّعاتهم وحُلَلهم ، وثمرها أمثال القِلال والدلاء ؛ أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وألين من الزُّبْد ؛ ليس فيه عَجَمَ .

قال : وحدّثنا المسعوديّ عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة ، قال : نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها ، وثمرها أمثال القلال كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى ، وإنّ ماءها ليجري في غير أخدود ، والعنقود اثنا عشر ذراعاً .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ يعني النساء الواحدة خَيْرة على معنى ذوات خير .

(29/741)

وقيل : "خَيِّرات" بمعنى خيرات فخفِّف ؛ كهيِّن وليِّن .

ابن المبارك : حدثنا الأوزاعيّ عن حسان بن عطية عن سعيد بن عامر قال : لو أن خَيْرة من ﴿ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ اطلعت من السماء لأضاءت لها ، ولقهر ضوء وجهها الشمس والقمر ، ولَنصيفُها تُكساه خيرة خير من الدنيا وما فيها .

"حِسان" أي حسَان الخلق ، وإذا قال الله تعالى : "حِسَانٌ" فمن ذا الذي يقدر أن يصف حسنهنا وقال الزهريّ وقتادة : "خَيْرَاتٌ" الأخلاق "حِسان" الوجوه .

وروي ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من حديث أمّ سلمة .

وقال أبو صالح : لأنهنّ عَذَارى أبكار .

وقرأ قتادة وابن السَّمَيْقَع وأبو رجاء العُطارديّ وبكر بن حبيب السهميّ "خَيِّرَاتٌ"

بالتشديد على الأصل .

وقد قيل : إنّ خَيْرات جمع خَيْر والمعنى ذوات خَير .

وقيل : مختارات .

قال الترمذيّ : فالخيرات ما اختارهن الله فأبدع خلقهن باختياره ، فاختيار الله لا يشبه اختيار الآدميين .

ثم قال : "حِسانٌ" فوصفهن بالحسن فإذا وصف خالق الحسن شيئاً بالحسن فانظر ما هناك .

وفي الأوليين ذكر بأنهن ﴿ قَاصِرَاتُ الطرف ﴾ و ﴿ كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان ﴾ فانظركم بين الخيرة وهي مختارة الله ، وبين قاصرات الطرف .

وفي الحديث : " إن الحور العين يأخذ بعضهنّ بأيدي بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبداً ونحن المقيمات فلا نَظعن أبداً ونحن الخالدات فلا نموت أبداً ونحن الناعمات فلا نَيْؤُس أبداً ونحن خَيْرَات حسان حبيبات لأزواج كرامٍ " خرجه الترمذي بمعناه من حديث عليّ رضي الله عنه .

وقالت عائشة رضي الله عنها : إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهنّ المؤمنات من نساء أهل الدنيا : نحن المصلِّيات وما صَلَّيتنّ ؛ ونحن الصائمات وما صُمتن ، ونحن

المتوضئات وما توضأتنّ ، ونحن المتصدّقات وما تصدّقتنّ .

فقالت عائشة رضي الله عنها : فغلبنهنّ واللَّهِ .

(30/741)

الثانية : واختلف أيهما أكثر حسناً وأبهر جمالاً الحور أو الآدميات ؟ فقيل : الحور لما ذكر من وصفهنّ في القرآن والسنّة ؛ " ولقوله عليه الصلاة والسلام في دعائه على الميت في الجنازة : "وأبدلْه زوجاً خيراً من زوجه" " وقيل : الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف ؛ وروي مرفوعاً .

وذكر ابن المبارك : وأخبرنا رشْدين عن ابن أَنْعُم عن حبان بن أبي جبلة ، قال : إن نساء الدنيا من دخل منهنّ الجنة فُضِّلن على الحور العين بما عملن في الدنيا .

وقد قيل : إن الحور العين المذكورات في القرآن هن المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين يُخْلَقن في الآخرة على أحسن صورة ؛ قاله الحسن البصري .

والمشهور أن الحور العين لَسْنَ من نساء أهل الدنيا وإنما هنّ مخلوقات في الجنة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات ، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ أَقَلَّ ساكِني الجنةِ النّساء " فلا يصيب كل واحد منهم امرأة

، ووعد الحور العين لجماعتهم ، فثبت أنهن من غير نساء الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الخيام ﴾

"حُورٌ" جمع حوراء ، وهي الشديدة بياض العين الشديدة سوادها وقد تقدم .

"مَقْصُورَاتٌ" محبوسات مستورات "فِي الْخِيَامِ" في الحجال لسن بالطوّافات في الطرق ؛ قاله ابن عباس .

وقال عمر رضي الله عنه : الخيمة دُرة مجوّفة .

وقاله ابن عباس .

وقال : هي فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب .

(31/741)

وقال الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله في قوله تعالى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الخيام ﴾ : بلغنا في الرواية أن سحابة أمطرت من العرش فخلقت الحور من قَطَرات الرحمة ، ثم ضرب على كل واحدة منهنّ خيمة على شاطىء الأنهار سعتها أربعون ميلا وليس لها باب ، حتى إذا دخل وليّ الله الجنة انصدعت الخيمة عن باب ليعلم وليّ الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم تأخذها ، فهي مقصورة قد قصر بها عن أبصار المخلوقين .

والله أعلم .

وقال في الأولين : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطرف ﴾ قصرن طرفهنّ على الأزواج ولم يذكر أنهنّ مقصورات ، فدل على أن المقصورات أعلى وأفضل .

وقال مجاهد : "مَقْصُورَاتٌ" قد قُصِرن على أزواجهنّ فلا يُرِدن بدلاً منهم .

وفي الصحاح : وقصرت الشيء أقصره قصراً حبسته ؛ ومنه مقصورة الجامع ، وقصرت الشيء على كذا إذا لم تجاوز به إلى غيره ، وامرأة قَصِيرة وقَصُورة أي مقصورة في البيت لا تترك أن تخرج ؛ قال كُثَيِّر :

وأنتِ التي حَبَّبْتِ كلَّ قَصِيرَةٍ . . .

إليّ وما تَدْرِي بذاكَ الْقَصَائرُ

عَنَيْتُ قَصِيرَاتِ الحجالِ ولم أُرِدْ . . .

قِصارَ الخُطَا شَرُّ النّساءِ البَحاتِرُ

وأنشده الفراء قَصُورة ؛ ذكره ابن السِّكّيت .

وروى أنس قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " "مررت ليلة أُسري بي في الجنة بنهر حافتاه قِبَاب المرجان فنوديت منه السلام عليك يا رسول الله فقلت يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء جوارٍ من الحور العِين استأذن ربهنّ في أن يُسلِّمن عليك فأذن لهنّ فقلن نحن الخالدات فلا نموت أبداً ونحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبداً ونحن الراضيات فلا نسخَط أبداً أزواج رجال

كرام" ثم قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الخيام ﴾ "أي محبوسات حبس صيانةٍ وتكرمة.

(32/741)

وروي "عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنها أتت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله! إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعدُ بيوتكم وحوامل أُولادكم، فهل نشارككم في الأجر؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "نعم إذا أحسنتن تَبَعُّلَ أزواجكنّ وطلبتن مرضاتهم"".

قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ أي لم يمسسهن على ما تقدم قبل.

وقراءة العامة ﴿ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ بكسر الميم.

وقرأ أبو حيوة الشامي وطلحة بن مُصرِّف والأعرج والشيرازي عن الكسائي بضم الميم في الحرفين.

وكان الكسائي يكسر إحداهما ويضم الأخرى ويُخَيِّر في ذلك، فإذا رفع الأولى كسر الثانية وإذا كسر الأولى رفع الثانية.

وهي قراءة أبي إسحاق السّبيعي.

قال أبو إسحق : كنت أصلّي خلف أصحاب عليّ فيرفعون الميم ، وكنت أَصَلِّي خلف أصحاب عبد الله فيكسرونها ، فاستعمل الكسائي الأثرين .

وهما لغتان طَمُث وطَمِث مثل يَعرُشُون ويَعْكِفُون ؛ فمن ضم فللجمع بين اللغتين ، ومن كسر فلأنها اللغة السائرة .

وإنما أعاد قوله : "لَمْ يَطْمِثْهُنَّ" ؛ ليبين أن صفة الحور المقصورات في الخيام كصفة الحور القاصرات الطرف .

يقول : إذا قصرن كانت لهنّ الخيام في تلك الحال .

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾

الرفرف المحابس .

وقال ابن عباس : الرفرف فضول الفرش والبسط .

وعنه أيضاً : الرفرف المحابس يتكئون على فضولها ؛ وقاله قتادة .

وقال الحسن والقرظي : هي البسط .

وقال ابن عيينة : هي الزرابي .

وقال ابن كيسان : هي المرافق ؛ وقاله الحسن أيضاً .

وقال أبو عبيدة : هي حاشية الثوب .

وقال الليث : ضرب من الثياب الخضر تبسط .

وقيل : الفُرُش المرتفعة .

وقيل : كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرف .

قال ابن مقبل :

وإنّا لنَزَّالونَ تَغْشَى نِعَالُنَا . . .

سَوَاقِطَ من أصناف رَيْطٍ ورفرفِ

وهذه أقوال متقاربة .

وفي الصحاح : والرفرف ثياب خضر تتخذ منها المحابس ، الواحدة رَفْرَفة .

(33/741)

وقال سعيد بن جبير وابن عباس أيضاً : الرفرف رياض الجنة ؛ واشتقاق الرفرف من رَفَّ يَرف إذا ارتفع ؛ ومنه رَفْرَفة الطائر لتحريكه جناحيه في الهواء .

وربما سموا الظَّلِيم رَفْرافاً بذلك ؛ لأنه يرفرف بجناحيه ثم يعدو .

ورفرف الطائر أيضاً إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه .

والرفرف أيضاً كِسَر الخباء وجوانب الدِّرْع وما تدلى منها ؛ الواحدة رَفْرَفة .

وفي الخبر في وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم : فرفَع الرفرفَ فرأينا وجهه كأنه وَرَقةً

تُخَشْخِش أي رفع طرف الفسطاط .

وقيل : أصل الرفرف من رَفَّ النبتُ يَرِفّ إذا صار غضًّا نضيراً ؛ حكاه الثعلبي .

وقال القتبي : يقال للشيء إذا كثر ماؤه من النَّعمة والغَضَاضة حتى كاد يهتز : رَفّ يرِفّ رفيفاً ؛ حكاه الهروي .

وقد قيل : إن الرفرف شيء إذا استوى عليه صاحبه رفرف به وأهوى به كالمِرْجاح يميناً وشمالاً ورفعاً وخفضاً يتلذذ به مع أنيسته ؛ قاله الترمذيّ الحكيم في (نوادر الأصول) وقد ذكرناه في "التذكرة" .

(34/741)

قال الترمذي : فالرفرف أعظم خطراً من الفرش فذكره في الأوليين ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ وقال هنا : ﴿ مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ فالرفرف هو شيء إذا استوى عليه الوليّ رفرف به ؛ أي طار به هكذا وهكذا حيث ما يريد كالْمِرجاح ؛ وأصله من رفرف بين يدي الله عز وجل ، روي لنا في حديث المعراج " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ سِدْرة المنتهى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به إلى مَسْنَد العرش ، فذكر أنه قال : "طار بي يخفضني ويرفعني حتى وقف بي بين يدي ربّي" ثم لما حان

الانصراف تناوله فطار به خفضاً ورفعاً يهوي به حتى أداه إلى جبريل صلوات الله وسلامه عليه وجبريل يبكي ويرفع صوته بالتحميد " ؛ فالرفرف خادم من الخدم بين يدي الله تعالى له خواص الأمور في محل الدنو والقرب ، كما أن البُرَاق دابة يركبها الأنبياء مخصوصة بذلك في أرضه ، فهذا الرفرف الذي سخره الله لأهل الجنتين الدانيتين هو متكأهما وفرشهما ، يرفرف بالولي على حافات تلك الأنهار وشطوطها حيث شاء إلى خيام أزواجه الخيرات الحسان .

ثم قال : ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ فالعبقري ثياب منقوشة تبسط ، فإذا قال خالق النقوش إنها حسان فما ظنك بتلك العباقر ! .

وقرأ عثمان رضي الله عنه والجحدري والحسن وغيرهم "مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ" بالجمع غير مصروف كذلك "وَعَبَاقِرِيٍّ حِسَانٍ" جمع رَفْرَف وعَبْقريّ .

و "رَفْرَف" اسم للجمع و "عَبْقَرِيّ" واحد يدل على الجمع المنسوب إلى عَبْقَر .

وقد قيل : إن واحد رَفْرف وعَبْقريّ رَفْرَفة وعَبْقرّية ، والرفارف والعَبَاقِر جمع الجمع .

والعبقريّ الطَّنَافس الثخان منها ؛ قاله الفراء .

وقيل : الزَّرَابي ؛ عن ابن عباس وغيره .

الحسن : هي البُسُط .

مجاهد : الدِّيباج .

القتبيّ : كل ثوب وشي عند العرب عبقريّ .

قال أبو عبيد : هو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشي فينسب إليها كل وَشْي حُبِك .

(35/741)

قال ذو الرُّمَّة :

حتى كأنّ رِياضَ القُفِّ أُلْبِسَها . . .

مِن وَشْيِ عَبْقَرَ تَجْلِيلٌ وتَنْجِيدُ

ويقال : عَبْقر قرية بناحية اليمن تنسج فيها بُسُط منقوشة .

وقال ابن الأنباري : إن الأصل فيه أن عَبْقر قرية يسكنها الجنّ ينسب إليها كل فائق جليل .

وقال الخليل : كل جليل نافس فاضل وفاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقريّ .

ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم في عمر رضي الله عنه : " فلم أر عبقرياً من الناس يَفْرِي فَرِيَّه " وقال أبو عمرو بن العلاء وقد سئل عن قوله صلى الله عليه وسلم " فلم أر عَبْقريًّا يَفْرِي فَرِيَّه " فقال : رئيس قوم وجليلهم .

وقال زُهَير :

بِخَيْلٍ عليها جِنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ . . .

جَدِيرون يوماً أَنْ يَنَالُوا فَيَسْتَعلُوا

وقال الجوهري : العبقريّ موضع تزعم العرب أنه من أرض الجنّ .

قال لبيد :

كُهُولٌ وشُبَّان كجِنَّةِ عَبْقَرِ . . .

ثم نسبوا إليه كل شيء يعجبون من حذقه وجودة صنعته وقوّته فقالوا : عَبْقريّ وهو واحد وجمع .

وفي الحديث : " إنه كان يسجد على عبقريّ " وهو هذه البسط التي فيها الأصباغ والنقوش حتى قالوا : ظُلْم عبقريّ وهذا عبقريُّ قومٍ للرجل القويّ .

وفي الحديث : " فلم أر عبقريًّا يَفْرِي فَرِيَّه " ثم خاطبهم الله بما تعارفوه فقال : ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ وقرأه بعضهم "عَبَاقِرِيٌّ" وهو خطأ لأن المنسوب لا يجمع على نسبته .

وقال قُطْرُب : ليس بمنسوب وهو مثل كُرْسيّ وكَراسِيّ وبُخْتيّ وبَخَاتيّ .

وروى أبو بكر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ "مُتَّكِئِينَ على رَفَارِفَ خُضرٍ وَعَبَاقِرَ حِسَانٍ" ذكره الثعلبي .

وضمّ الضاد من "خضر" قليل .

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ اسم رَبِّكَ ذِي الجلال والإكرام ﴾ ﴿ تَبَارَكَ ﴾ تفاعل من البركة

وقد تقدّم.

﴿ ذِي الجلال ﴾ أي العظمة.

وقد تقدّم ﴿ والإكرام ﴾ .

(36/741)

وقرأ عامر "ذُو الْجَلاَلِ" بالواو وجعله وصفاً للاسم، وذلك تقوية لكون الاسم هو المسمى.

الباقون ﴿ ذِي الجلال ﴾ جعلوا "ذِي" صفة ل ﴿ رَبِّكَ ﴾ .

وكأنه يريد به الاسم الذي افتتح به السورة؛ فقال: "الرَّحْمَنُ" فافتتح بهذا الاسم، فوصف خلق الإنسان والجنّ، وخلق السموات والأرض وصنعه، وأنه "كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ" ووصف تدبيره فيهم، ثم وصف يوم القيامة وأهوالها، وصفة النار ثم ختمها بصفة الجنان.

ثم قال في آخر السورة: ﴿ تَبَارَكَ اسم رَبِّكَ ذِي الجلال والإكرام ﴾ أي هذا الاسم الذي افتتح به هذه السورة؛ كأنه يعلمهم أن هذا كله خرج لكم من رحمتي، فمن رحمتي خلقتكم وخلقت لكم السماء والأرض والخلق والخليقة والجنة والنار؛ فهذا كله لكم من اسم

الرحمن فمدح اسمه ثم قال : ﴿ ذِي الجلال والإكرام ﴾ جليل في ذاته ، كريم في أفعاله .

ولم يختلف القراء في إجراء النعت على الوجه بالرفع في أوّل السورة ، وهو يدل على أن المراد به وجه الله الذي يلقى المؤمنون عندما ينظرون إليه ، فيستبشرون بحسن الجزاء ، وجميل اللقاء ، وحسن العطاء .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(37/741)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (60) ﴾

﴿ هل جزاء الإحسان ﴾ في العمل ، ﴿ إلا الإحسان ﴾ في الثواب ؟ وقيل : هل جزاء التوحيد إلا الجنة ؟ وقرأ ابن أبي إسحاق : إلا الحسان يعني : بالحسان الحور العين .

﴿ ومن دونهما ﴾ : أي من دون تينك الجنتين في المنزلة والقدر ، ﴿ جنتان ﴾ لأصحاب اليمين ، والأوليان هما للسابقين ، قاله ابن زيد والأكثرون .

وقال الحسن : الأوليان للسابقين ، والأخريان للتابعين .

وقال ابن عباس : ﴿ ومن دونهما ﴾ في القرب للمنعمين ، والمؤخرتا الذكر أفضل من

الأوليين .

يدل على ذلك أنه وصف عيني هاتين بالنضخ ، وتينك بالجري فقط ؛ وهاتين بالدهمة من شدة النعمة ، وتينك بالأفنان ، وكل جنة ذات أفنان .

ورجح الزمخشري هذا القول فقال : للمقربين جنتان من دونهم من أصحاب اليمين ادهامتا من شدة الخضرة ، ورجح غيره القول الأول بذكر جري العينين والنضخ دون الجري ، وبقوله فيهما : ﴿ من كل فاكهة ﴾ ، وفي المتأخرتين : ﴿ فيهما فاكهة ﴾ ، وبالاتكاء على ما بطائنه من ديباج وهو الفرش ، وفي المتأخرتين الاتكاء على الرفرف ، وهو كسر الخباء ، والفرش المعدة للاتكاء أفضل ، والعبقري : الوشي ، والديباج أعلى منه ، والمشبه بالياقوت والمرجان أفضل في الوصف من خيرات حسان ، والظاهر النضخ بالماء ، وقال ابن جبير : بالمسك والعنبر والكافور في دور أهل الجنة ، كما ينضخ رش المطر .

وعنه أيضاً بأنواع الفواكه والماء .

﴿ ونخل ورمان ﴾ عطف فاكهة ، فاقتضى العطف أن لا يندرجا في الفاكهة ، قاله بعضهم .

وقال يونس بن حبيب وغيره : كررهما وهما من أفضل الفاكهة تشريفاً لهما وإشارة بهما ، كما قال تعالى : ﴿ وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ وقيل : لأن النخل ثمره فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء ، فلم يخلصا للتفكه .

﴿ فيهن خيرات ﴾ ، جمع خيرة : وصف بني على فعلة من الخير ، كما بنوا من الشر فقالوا : شرة .

(38/741)

وقيل : مخفف من خيرة ، وبه قرأ بكر بن حبيب وأبو عثمان النهدي وابن مقسم ، أي بشدّ الياء .

وروي عن أبي عمرو بفتح الياء ، كإنه جمع خايرة ، جمع على فعلة ، وفسر الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأم سلمة ذلك فقال : " خيرات الأخلاق حسان الوجوه " ﴿ حور مقصورات ﴾ : أي قصرن في أماكنهن ، والنساء تمدح بذلك ، إذ ملازمتهن البيوت تدل على صيانتهن ، كما قال قيس بن الأسلت :

وتكسل عن جاراتها فيزرنها . . .

وتغفل عن أبياتهن فتعذر

قال الحسن : لسن بطوافات في الطرق ، وخيام الجنة : بيوت اللؤلؤ .

وقال عمر بن الخطاب : هي در مجوف ، ورواه عبد الله عن النبي (صلى الله عليه وسلم) .

﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ﴾ : أي قبل أصحاب الجنتين ، ودل عليهم ذكر الجنتين .

﴿ متكئين ﴾ ، قال الزمخشري : نصب على الاختصاص .

﴿ على رفرف ﴾ ، قال ابن عباس وغيره : فضول المجلس والبسط .

وقال ابن جبير : رياض الجنة من رف البيت تنعم وحسن .

وقال ابن عيينة : الزرابي .

وقال الحسن وابن كيسان : المرافق .

وقرأ الفراء وابن قتيبة : المجالس .

وعبقري ، قال الحسن : بسط حسان فيها صور وغير ذلك يصنع بعبقر .

وقال ابن عباس : الزرابي .

وقال مجاهد : الديباج الغليظ .

وقال ابن زيد : الطنافس .

قال الفراء : الثخان منها .

وقرأ الجمهور : ﴿ على رفرف ﴾ ، ووصف بالجمع لأنه اسم جنس ، الواحد منها رفرفة ، واسم الجنس يجوز فيه أن يفرد نعته وأن يجمع لقوله : ﴿ والنخل باسقات ﴾ وحسن جمعه هنا مقابلته لحسان الذي هو فاصلة .

وقال صاحب اللوامح ، وقرأ عثمان بن عفان ، ونصر بن عاصم ، والجحدري ، ومالك بن

دينار ، وابن محيصن ، وزهير العرقبي وغيره : رفارف جمع لا ينصرف ، خضر بسكون الضاد ، وعباقري بكسر القاف وفتح الياء مشددة ؛ وعنهم أيضاً : ضم الضاد ؛ وعنهم أيضاً : فتح القاف .

(39/741)

قال : فأما منع الصرف من عباقري ، وهي الثياب المنسوبة إلى عبقر ، وهو موضع تجلب منه الثياب على قديم الأزمان ، فإن لم يكن بمجاورتها ، وإلا فلا يكون يمنع التصرف من ياءي النسب وجه إلا في ضرورة الشعر . انتهى .

وقال ابن خالويه : على رفارف خضر ، وعباقري النبي (صلى الله عليه وسلم) والجحدري وابن محيصن .

وقد روي عمن ذكرنا على رفارف خضر وعباقري بالصرف ، وكذلك روي عن مالك بن دينار .

وقرأ أبو محمد المروزي ، وكان نحوياً : على رفارف خضار ، يعني : على وزن فعال .

وقال صاحب الكامل : رفارف جمع ، عن ابن مصرف وابن مقسم وابن محيصن ، واختاره شبل وأبو حيوة والجحدري والزعفراني ، وهو الاختيار لقوله : ﴿ خضر ﴾ ، وعباقري

بالجمع وبكسر القاف من غير تنوين ، ابن مقسم وابن محيصن ، وروي عنهما التنوين .

وقال ابن عطية ، وقرأ زهير العرقبي : رفارف بالجمع والصرف ، وعنه : عباقري بفتح القاف والياء ، على أن اسم الموضع عباقر بفتح القاف ، والصحيح في اسم الموضع عبقر . انتهى .

وقال الزمخشري ، وروى أبو حاتم : عباقري بفتح القاف ومنع الصرف ، وهذا لا وجه لصحته . انتهى .

وقد يقال : لما منع الصرف رفارف ، شاكله في عباقري ، كما قد ينون ما لا ينصرف للمشاكلة ، يمنع من الصرف للمشاكلة .

وقرأ ابن هرمز : خضر بضم الضاد .

قال صاحب اللوامح : وهي لغة قليلة .

انتهى ، ومنه قول طرفة :

أيها الفتيان في مجلسنا . . .

جردوا منها وراداً وشقر

وقال آخر :

وما انتميت إلى خور ولا كسف . . .

ولا لئام غداة الروع أوزاع

فشقر جمع أشقر ، وكسف جمع أكسف .

وقرأ الجمهور : ﴿ ذي الجلال ﴾ : صفة لربك ؛ وابن عامر وأهل الشام : ذو صفة للاسم ، وفي حرف .

أبي عبد الله وأبيّ : ذي الجلال ، كقراءتهما في الموضع الأول ، والمراد هنا بالاسم المسمى .

(40/741)

وقيل : اسم مقحم ، كالوجه في ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ ، ويدل عليه إسناد ﴿ تبارك ﴾ لغير الاسم في مواضع ، كقوله : ﴿ تبارك الله أَحسن الخالقين ﴾ ﴿ تبارك الذي إن شاء ﴾ ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ .

وقد صح الإسناد إلى الاسم لأنه بمعنى العلو ، فإذا علا الاسم ، فما ظنك بالمسمى ؟

ولما ختم تعالى نعم الدنيا بقوله : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ ، ختم نعم الآخرة بقوله : ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ وناسب هنالك ذكر البقاء والديمومة له تعالى ، إذ ذكر فناء العالم ؛ وناسب هنا ذكر ما اشتق من البركة ، وهي النمو والزيادة ، إذ جاء ذلك عقب ما امتن به على المؤمنين ، وما آتاهم في دار كرامته من الخير

وزيادته وديمومته ، ويا ذا الجلال والإكرام من الصفات التي جاء في الحديث أن يدعى الله بها ، قال (صلى الله عليه وسلم) : " ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(41/741)

وقال الثعالبى :

وقوله سبحانه : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾

قال ابْنُ زَيْدٍ وغيره : معناه أَنَّ هاتين دون تَيْنِكَ في المنزلة والقُرْبِ ، فالأُولَيَانِ للمقرَّبين ، وهاتان لأَصْحَابِ اليَمِينِ ، وعن ابن عباس : أَنَّ المعنى : أَنَّهُمَا دونهما في القرب إلى المُنَعَّمِينَ ، وأَنَّهُما أفضلُ من الأُولَيَيْنِ ، قال *ع* : وأكثر الناس على التأويل الأول .

* ت * : واختار الترمذيُّ الحكيمُ التأويلَ الثاني ، وأطنب في الاحتجاج له في «نوادر الأصول» له ، وخَرَّجَ البخاريُّ هنا عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : " جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا . . . " الحديث ، وفيه : " إِنَّ فِي الجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ ، عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلاً ، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الآخَرِينَ ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ " انتهى ، و ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ معناه : قد علا لَوْنَهُمَا دُهْمَةٌ وَسَوَادٌ في

النَّظْرَةِ والخُضْرَة ، قال البخاريُّ : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ : سودَاوَانِ من الرِّيِّ ، انتهى ، والنَّضَّاخَةُ : الفوَّارَةُ التي يَهِيجُ ماؤُها ، وكَرَّرَ النخلَ والرُّمَّانَ ، وهما من أفضل الفاكهة ؛ تشريفاً لهما ، وقالت أُمُّ سَلَمَةَ : «قلتُ : يا رسول اللَّه ، أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ خيرات حِسَانٌ ﴾ قالَ : خَيْرَاتُ الأَخْلاَقِ ، حِسَانُ الْوُجُوهِ» وقُرِىءَ شاذّاً : «خَيِّرَاتٌ» بِشَدِّ الياء المكسورة .

(42/741)

---

* ت * : وفي «صحيح البخاريِّ» من حديث أنس عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : " لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ غَدْوَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ أَوْ مَوْضِعُ قَيْدِ سَوْطِهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَوْ أَنَّ امرأة مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اطلعت إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلأَتْهُ رِيحاً ، وَلَنَصِيفُهَا على رَأْسِهَا يعني الخِمَارَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا " وقوله سبحانه ﴿ مقصورات ﴾ أي : محجوبَاتٌ مَصُونَاتٌ فِي الخيام ، وخيامُ الجَنَّةِ بُيُوتُ اللؤلؤ ، قال عمر بن الخَطَّاب رضي اللَّهُ عنه : هي دُرٌّ مُجَوَّفٌ ، ورواه ابن مَسْعَودٍ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم . قال الداوديُّ : وعن ابن عباس : والخيمة لؤلؤة مجوَّفة فَرْسَخٌ فِي فَرْسَخٍ ، لها أربعة آلاف مِصْرَاعٍ ، انتهى .

و«الرَّفْرَفُ» : ما تدلى من الأَسِرَّةِ من عالي الثياب والبُسُطِ ، وقاله ابن عَبَّاس وغيره ، وما يتدلى حول الخِبَاءِ مِنَ الْخِرْقَةِ الهَفَّافَةِ يُسَمَّى رَفْرَفاً ، وكذلك يُسَمِّيه الناسُ اليومَ ، وقيل غَيْرُ هذا ، وما ذكرناه أَصْوَبُ ، والعَبْقَرِيُّ : بُسُطٌ حِسَانٌ ، فيها صُوَرٌ وغَيْرُ ذلك ، تُصْنَعُ بعَبْقَر ، وهو موضعٌ يُعْمَلُ فيه الوشْيُ والدِّيبَاجُ ونحوه ، قال ابن عباس : العَبْقَرِيُّ : الزَّرَابِيُّ ، وقال ابن زيد : هي الطَّنَافِس ، قال الخليل والأصمعيُّ : العَرَبُ إذا استحسنَتْ شيئاً واستجادَتْهُ قالَتْ : عَبْقَرِيٌّ ، قال *ع* : ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في عُمَرَ : " فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ " . وقوله سبحانه : ﴿ تبارك اسم ربِّكَ ذِي الجلال والإكرام ﴾ : هذا الموضعُ مِمَّا أُرِيدَ فيه بالاسم مُسَمَّاهُ ، والدعاءُ بهاتَيْنِ الكلمتَيْنِ حَسَنٌ مَرْجُوُّ الإجابةِ ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " أَلِظُّوا ب«يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ» " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾

شروعٌ في تعدادِ الآلاءِ الفائضةِ عليهم في الآخرةِ بعدَ تعدادِ ما وصلَ إليهم في الدُّنيا من الآلاءِ الدينيةِ والدنيويةِ واعلمْ أنَّ ما عُدِّدَ فيمَا بينَ هذه الأيةِ وبين خاتمةِ السورةِ والكريمةِ من فنونِ الكراماتِ كَما أنَّ أنفسَها آلاءٌ جليلةٌ واصلةٌ إليهمْ في الآخرةِ ، كذلكَ حكاياتُها الواصلةُ إليهم في الدُّنيا آلاءٌ عظيمةٌ لكونِها داعيةً لهم إلى السَّعيِ في تحصيلِ ما يُؤدّي إلى نيلِها منَ الإيمانِ والطَّاعةِ وأنَّ ما فُصِّلَ من فاتحةِ السُّورةِ الكريمةِ إلى قولِه تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ من النعمِ الدينيةِ والدنيويةِ والأنفسيةِ والآفاقيةِ آلاءٌ جليلةٌ واصلةٌ إليهم في الدُّنيا وكذلكَ حكاياتُها منْ حيثُ إيجابُها للشكرِ والمثابرةِ على ما يُؤدّي إلى استدامتِها ، وأمَّا مَا عُدِّدَ فيمَا بينَ قولِه تعالى سنفرغُ لكُم وبين هذهِ الآيةِ من الأحوالِ الهائلةِ التي ستقعُ في الآخرةِ فليستْ هيَ من قبيلِ الآلاءِ وإنَّما الآلاءُ حكاياتُها الموجبةُ للانزجارِ عمَّا يُؤدّي إلى الإبتلاءِ بَها من الكفرِ والمعاصِي كَما أُشيرَ إليهِ في تضاعيفِ تعدادِها . ومقامُه تعالَى موقفُه الذي يقفُ فيه العبادُ للحسابِ يومَ يقومُ النَّاسُ لربِّ العالمينَ ، أو قيامُه تعالَى على أحوالِه من قامَ عليهِ إذا راقبَهُ ، أو مقامُ الخائفِ عندَ ربِّه للحسابِ بأحدِ المعنيينَ . وإضافتُه إلى الربِّ للتفخيمِ والتهويلِ أو هو مقحمٌ للتعظيمِ .

﴿ جَنَّتَانِ ﴾ جنةٌ للخائفِ الإنسيِّ وجنةٌ للخائفِ الجنيِّ فإنَّ الخطابَ للفريقينِ فالمَعْنى

لكلِّ خائفينِ منكُما أو لكُلِّ واحدٍ جنةٌ لعقيدتِه وأُخرى لعملِه ، أو جنةٌ لفعلِ الطاعاتِ وأُخرى لتركِ المعاصِي ، أو جنةٌ يثابُ بَها وأُخرى يتفضلُ بها عليهِ أو روحانيةٌ وجسمانيةٌ وكذا ما جَاء مَثْنى بعدُ .

(45/741)

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقولُه تعالَى :

﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ صفةٌ لجنَّتانِ وما بينهُمَا اعتراضٌ وُسِّطَ بينهُمَا تنبيهاً على أنَّ تكذيبَ كلَ من الموصوفِ والصفةِ موجبٌ للإنكارِ والتوبيخِ والأفنانُ إمَّا جمعُ فَنَ أيْ ذَوَاتا أنواعٍ من الأشجارِ والثمارِ ، أو جمعُ فَنَنٍ أي ذَوَاتا أغصانٍ متشعّبةٍ من فروعِ الشجرِ وتخصيصُها بالذكرِ لأنها التي تورقُ وتثمرُ وتمد الظلَّ ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وليسَ فيها شيءٌ يقبلُ التكذيبَ .

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ صفةٌ أُخرى لجنتانِ أي في كلِّ واحدةٍ منهما عينٌ تجري كيفَ يشاءُ صاحبُها في الأعالي والأسافلِ ، وقيلَ : تجريانِ من جبلٍ من مسكٍ ، وعن ابنِ عبَّاسٍ والحسنِ : تجريانِ بالماءِ الزلالِ إحداهُما التسنيمُ والأُخرى السلسبيلُ ، وقيلَ : إحداهُما من ماءٍ غيرِ آسنٍ والأُخرى من خمرٍ لذةٍ للشاربينَ قالَ أبو بكرِ الورَّاقُ : فيهما عينانِ تجريانِ

لمن كانتْ عيناهُ في الدُّنيا تجريانِ من مخافةِ الله عزَّ وجلَّ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . وقولُه تعالَى ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ أي صنفانِ : معروفٌ وغريبٌ أو رطبٌ ويابسٌ ، صفةٌ أُخرى لجنّتانِ . وتوسيطُ الاعتراضِ بينَ الصفاتِ لمَا مرَّ آنفاً ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

(46/741)

وقولُه تعالَى : ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ حالٌ من الخائفينَ لأنَّ منْ خافَ في مَعْنى الجمعِ ، أو نصبٌ على المدحِ ﴿ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ من ديباجٍ ثخينٍ ، وحيثُ كانتْ بطائنُها كذلكَ فما ظنُّكَ بظهائرِها ، وقيل : ظهائرُها من سندسٍ وقيل : من نورٍ ﴿ وَجَنَى الجنتين دَانٍ ﴾ أيْ مَا يُجتنَى من أشجارِها من الثمارِ قريبٌ يناله القائمُ والقاعدُ والمضطجعُ . قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهمَا : تدنُو الشجرةُ حتى يجتنيَها وليُّ الله إنْ شاءَ قائماً وإنْ شاءَ قاعداً وإن شاءَ مُضطجعاً . وقُرِئَ جِنَى بكسرِ الجيمِ . ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . وقوله تعالى :

﴿ فِيهِنَّ ﴾ أيْ في الجنانِ المَدلُولِ عليها بقولِه تعالَى : ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ لِما عرفتَ أنَّهما لكلِّ خائفينِ منَ الثقلينِ أوْ لكلِّ خائفٍ حسبَ تعددِ عملِه ، وقد اعتُبرَ الجمعيةُ في قولِه تعالَى

متكئينَ وقيلَ فيما فيهما من الأماكنِ والقصورِ وقيلَ في هذِه الآلاءِ المعدودةِ من الجنتينِ والعينينِ والفاكهةِ والفرشِ . ﴿ قاصرات الطرف ﴾ نساءٌ يقصُرنَ أبصارَهُنَّ على أزواجِهنَّ لا ينظرنَ إلى غيرِهم ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾ أي لم يَمسَّ الإنسياتِ أحدٌ من الإنسِ ولا الجنياتِ أحدٌ من الجنِّ قبلَ أزواجِهنَّ المدلولَ عليهُم بقاصراتُ الطرفِ ، وقيلَ : بقولِه تعالى متكئينَ ، وفيه دليلٌ على أنَّ الجنَّ يطمثُونَ . وقُرِىءَ يَطْمُثْهنَّ بضمِّ الميمِ . والجملةُ صفةٌ لقاصراتُ الطرفِ ، لأنَّ إضافتَها لفظيةٌ ، أو حالٌ منَها لتخصصِها بالإضافةِ . ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . وقولُه تعالى :

(47/741)

﴿ كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان ﴾ إمَّا صفةٌ لقاصراتُ الطرفِ ، أو حالٌ منَها كالتي قبلَها أي مشبهاتٌ بالياقوتِ في حُمرةِ الوجنةِ ، والمرجانِ أي صغارِ الدرِّ في بياضِ البشرةِ وصفائِها ، ، فإنَّ صغارَ الدرِّ أنصعُ بياضاً من كبارِه قيل : إنَّ الحوراءَ تلبَسُ سبعينَ حُلَّة فيُرى مخُّ ساقِها منْ ورائِها كما يُرى الشرابُ الأحمرُ في الزجاجةِ البيضاءِ ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . وقولُه تعالَى : ﴿ هَلْ جَزَاء الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ استئنافٌ مقررٌ لمضمونِ ما فُصِّلَ قبلَهُ أي ما جزاءُ الإحسانِ في العملِ إلا الإحسانُ في الثوابِ .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقولُه تعالَى : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ مبتدأٌ وَخبرٌ ، أيْ ومنْ دونِ تينكَ الجنّتينِ الموعودتينِ للخائفينِ المقربينِ جنتانِ أخريانِ لمن دُونَهُم من أصحابِ اليمينِ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . وقولُه تعالَى ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ صِفةٌ لجنّتانِ وسِّط بينهُمَا الاعتراضُ لما ذُكِرَ من التنبيهِ على أنَّ تكذيبَ كلَ من الموصوفِ والصفةِ حقيقٌ بالإنكارِ والتوبيخِ أيْ خضراوانِ تضربانِ إلى السوادِ من شدةِ الخُضرةِ ، وفيه إشعارٌ بأنَّ الغالبَ على هاتينِ الجنتينِ النباتُ والرياحينُ المنبسطةُ على وجهِ الأرضِ وعلى الأُولينِ الأشجارُ والفواكهُ . ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أيْ فوّارتانِ بالماءِ . والنضخُ أكثرُ من النضح بالحاءِ المهملةِ ، وهُو الرَّشُّ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ عُطفَ الأخيرانِ على الفاكهةِ عطفَ جبريلَ وميكالَ على الملائكةِ بياناً لفضلِهما فإنَّ ثمرةَ النخلِ فاكهةٌ وغذاءٌ والرمانُ فاكهةٌ ودواءٌ وعنْ هَذا قالَ أبُو حنيفةَ رحمَهُ الله : منْ حلفَ لا يأكلُ فاكهةً فأكلَ رمّاناً أو رُطباً لم يحنثْ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقولُه تعالَى : ﴿ فِيهِنَّ خيرات ﴾ صفةٌ أُخرى لجنتانِ كالجُملةِ التي قبلَها . والكلامُ في جميعِ الضميرِ كالَّذي مرَّ فيمَا مرَّ . وخيراتٌ مخففةٌ من

خَيّراتٍ لأنَّ خَيْراً الذي بَمعْنى أخيرَ لا يجمعُ . وقد قُرِىءَ على الأصلِ ﴿ حِسَانٌ ﴾ أي حسانُ الخَلْقِ والخُلُقِ .

﴿ فَبِأَيّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ . وقولُه تعالَى :

(49/741)

﴿ حُورٌ ﴾ بدلٌ من خيراتٌ ﴿ مقصورات فِى الخيام ﴾ قُصرنَ في خُدورِهنَّ ، يقالُ امرأةٌ قصيرةٌ وقَصورةٌ ، أيْ مُخدَّرةٌ أو مَقْصُوراتُ الطرفِ عَلَى أَزْواجهنَّ ، وقيلَ إنَّ الخيمةَ من خيامِهنَّ درَّةٌ مجوَّفةٌ . ﴿ فَبِأَيّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ . وقولُه تعالَى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾ كالذي مرَّ في نظيرِه من جميعِ الوجوهِ . ﴿ فَبِأَيّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ * مُتَّكِئِينَ ﴾ نُصبَ على الاختصاصِ ﴿ على رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ الرفوفُ إمَّا اسمُ جنسٍ أو اسمُ جمعٍ وَاحِدُهُ رفرفةٌ قيلَ هُو ما تدلَّى من الأسرّةِ من أَعَالِي الثيابِ وقيلَ هو ضربٌ منَ البُسطِ ، أو البُسطُ ، وقيلَ الوسائدُ وقيل : النمارقُ وقيل : كلُّ ثوبٍ عريضٍ رفرفٌ ويقالُ لأطرافِ البسطِ وفضولِ الفُسطاطِ رفارفُ ورفرفُ السحابِ هيدبُهُ ﴿ وَعَبْقَرِيّ حِسَانٍ ﴾ العبقريُّ منسوبٌ إلى عبقرٍ ، تزعمُ العربُ أنَّه اسمُ بلدِ الجنِّ فينسبونَ إليهِ كلَّ شيءٍ عجيبٍ ، والمرادُ به الجنسُ ، ولذلكَ وصفَ بالجمعِ حَمْلاً على المَعْنى كَما في

رفرفٍ على أحدِ الوجهينِ ، وقُرِىءَ عَلَى رَفَارِفَ خُضُر بضمَّتَينِ وعَبَاقريَ كمدائِني نسبة إلى عباقرَ في اسمِ البلدِ ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . وقولُه تعالى : ﴿ تبارك اسم ربِّكَ ﴾ تنزيهٌ وتقديسٌ له تعالَى فيه تقريرٌ لما ذُكِرَ في السورةِ الكريمةِ من آلائِه الفائضةِ على الأنامِ أي تعالَى اسُمه الجليلُ الذي من جُمْلتِه ما صُدِّرتْ به السورةُ من اسم الرحمن المنبىءِ عن إفاضتِه الآلاءَ المُفصَّلةَ وارتفعَ عمَّا لا يليقُ بشأنِه من الأمور التي منْ جُمْلتها جحودُ نعمائِه وتكذيبُها ، وإذا كانَ حالُ اسمِه بملابسةِ دلالتِه عليهِ فما ظنُّك بذاتِه الأقدسِ الأَعْلى ، وقيل : الاسمُ بمَعْنى الصفةِ وقيلَ مقحمٌ كما في قولِ منْ قالَ :

(50/741)

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسمُ السَّلامِ عَلَيْكُمَا . . . ﴿ ذِى الجلال والإكرام ﴾ وصفَ به الربُّ تكميلاً لما ذُكِرَ من التنزيهِ والتقريرِ . وقُرِىءَ ذُو الجلال على أنَّه نعتٌ للاسمِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(51/741)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾

مبتدأ وخبر أي ومن دون تينك الجنتين في المنزلة والقدر جنتان أخريان ، قال ابن زيد والأكثرون الأوليان للسابقين وهاتان لأصحاب اليمين ، وقد أخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] وقوله سبحانه : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ قال : جنتان من ذهب للمقربين وجنتان من ورق لأصحاب اليمين" وقال الحسن : الأوليان للسابقين والأخريان للتابعين ، وروي موقوفاً وصححه الحاكم عن أبي موسى ، وزعم بعضهم أن الأوليين للخائفين والأخريين لذرياتهم الذين ألحقوا بهم ولم أجد له مستنداً من الآثار ، وحكي في "البحر" عن ابن عباس أنه قال : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا ﴾ في القرب للمنعمين والمؤخرتا الذكر أفضل من الأوليين ، وادعى أن الصفات الآتية أمدح من الصفات السابقة ووافقه من وافقه ، وسيأتي تمام الكلام في ذلك إن شاء الله تعالى .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ صفة لجنتان وسط بينها الاعتراض لما تقدم من التنبيه على أن تكذيب كل من الموصوف والصفة حقيق بالإنكار والتوبيخ أو خبر مبتدأ محذوف

أي هما مدهامتان من الدهمة وهي في الأصل على ما قال الراغب سواد الليل ويعبر عن سواد الفرس وقد يعبر بها عن الخضرة الكاملة اللون كما يعبر عنها بالخضرة إذا لم تكن كاملة وذلك لتقاربهما في اللون ، ويقال : إدهام ادهيماماً فهو مدهام على وزن مفعال إذا اسود أو اشتدت خضرته ، وفسرها هنا ابن عباس .

ومجاهد .

وابن جبير .

وعكرمة .

وعطاء بن أبي رباح .

وجماعة بخضراوان ، بل أخرج الطبراني .

(52/741)

وابن مردويه عن أبي أيوب رضي الله تعالى عنه قال : " سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام : خضراوان " والمراد أنهما شديدتا الخضرة والخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد وذلك من الري من الماء كما روي عن ابن عباس .

وابن الزبير .

وأبي صالح قيل : إن في وصف هاتين الجنتين بما ذكر إشعاراً بأن الغالب عليهما النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض كما أن في وصف السابقتين بذواتا أفنان إشعاراً بأن الغالب عليهما الأشجار فإن الأشجار توصف بأنها ذوات أفنان والنبات يوصف بالخضرة الشديدة فالاقتصار في كل منهما على أحد الأمرين مشعر بما ذكر وبني على هذا كون هاتين الجنتين دون الأوليين في المنزلة والقدر كيف لا والجنة الكثيرة الظلال والثمار أعلى وأغلى من الجنة القليلة الظلال والثمار ، ومن ذهب إلى تفضيل هاتين الجنتين مع اختصاص الوصف بالخضرة بالنبات وكذا كونه أغلب من وصف الأشجار به فكثيراً ما تسمع الناس يقولون إذا مدحوا بستاناً أشجاره خضر يانعة وهو أظهر في مدحه بأنه ذو ثمار من ذي أفنان ، وهو يشعر أيضاً بكثرة مائه والاعتناء بشأنه وبعده عن التصوح والهلاك .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ فوارتان بالماء على ما هو الظاهر ، وفي "البحر" النضخ فوران الماء ، وفي "الكشاف" .

وغيره النضخ أكثر من النضخ بالحاء المهملة لأنه مثل الرش وهو عند من فضل الجنتين الأوليين دون الجري ، فالمدح به دون المدح به ، وعليه قول البراء بن عازب فيما أخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم العينان اللتان تجريان خير من النضاحتين ، ومن ذهب إلى تفضيل هاتين يقول

في الفوران جري مع زيادة حسن فإن الماء إذا فار وارتفع وقع متناثر القطرات كحبات اللؤلؤ المتناثرة كما يشاهد في الفوارات المعروفة ، أو يقول بما أخرجه ابن أبي شيبة .

(53/741)

وابن أبي حاتم عن أنس ﴿ نَضَّاخَتَانِ ﴾ بالمسك والعنبر تنضخان على دور الجنة كما ينضخ المطر على دور أهل الدنيا ، أو بما أخرجه ابن أبي شيبة .

وعبد بن حميد عن مجاهد ﴿ نَضَّاخَتَانِ ﴾ بالخير ، ولفظ ابن أبي شيبة بكل خير .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ عطف الأخيرين على الفاكهة عطف جبريل وميكال عليهما السلام على الملائكة بياناً لفضلهما ، وقيل : إنهما في الدنيا لما لم يخلصا للتفكه فإن النخل ثمرة فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء عداً جنساً آخر فعطفا على الفاكهة وإن كان كل ما في الجنة للتفكه لأنه تلذذ خالص ، ومنه قال الإمام أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه : إذا حلف لا يأكل فاكهة فأكل رماناً أو رطباً لم يحنث ، وخالفه صاحباه ثم إن نخل الجنة ورمانها وراء ما نعرفه .

أخرج ابن المبارك .

وابن أبي شيبة .

وهناد .

وابن أبي الدنيا .

وابن المنذر .

والحاكم وصححه .

وآخرون عن ابن عباس نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر وكرانيفها ذهب أحمر وسعفها كسوة أهل الجنة منها مقطعاتهم وحللهم وثمرها أمثال القلال أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد وليس له عجم وحكمه حكم المرفوع .

وفي حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً أصوله فضة وجذوعه فضة وسعفه حلل وحمله الرطب الخ .

وأخرج ابن أبي حاتم .

(54/741)

وابن عساكر عن أبي سعيد مرفوعاً قال عليه الصلاة والسلام : "نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كمثل البعير المقتب" وهذا المدح بحسب الظاهر دون المدح في قوله تعالى في الجنتين السابقتين : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ [الرحمن : 52] ومن ذهب إلى

تفضيلهما يقول إن التنوين في فاكهة للتعميم بقرينة المقام نظير ما قيل في قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير : 14] فيكون في قوة فيها كل ﴿ فاكهة ﴾ ويزيد ما في "النظم الجليل" على ما ذكر بتضمنه الإشارة إلى مدح بعض أنواعها ، وقال الإمام الرازي : إن ﴿ مَا ﴾ هنا كقوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فاكهة زَوْجَانِ ﴾ وذلك لأن الفاكهة أنواع أرضية وشجرية كالبطيخ وغيره من الأرضيات المزروعات والنخل وغيرها من الشجريات فقال تعالى : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 64] لأنواع الخضر التي فيها الفواكه الأرضية ، وفيها أيضاً الفواكه الشجرية وذكر سبحانه منها نوعين الرطب والرمان لأنهما متقابلان أحدهما حلو والآخر فيه حامض ، وأحدهما حار والآخر بارد ، وأحدهما فاكهة وغذاء والآخر فاكهة ، واحدهما من فواكه البلاد الحارة والآخر من فواكه البلاد الباردة ، وأحدهما أشجاره تكون في غاية الطول والآخر ليس كذلك ، وأحدهما ما يؤكل منه بارز وما لا يؤكل كامن والآخر بالعكس فهما كالضدين ، والإشارة إلى الطرفين تتناول الإشارة إلى ما بينهما كما في قوله تعالى : ﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ [الرحمن : 17] انتهى ، ولعل الأول أولى .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقوله تعالى :

﴿ فِيهِنَّ خيرات ﴾ صفة أخرى لجنتان ، أو خبر بعد خبر للمبتدأ المحذوف كالجملة التي قبلها ، ويجوز أن تكون مستأنفة الكلام في ضمير الجمع هنا كالكلام فيه في قوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ قاصرات الطرف ﴾ [الرحمن : 56] و﴿ خيرات ﴾ قال أبو حيان : جمع خيرة وصف بني على فعلة من الخير كما بنوا من الشر فقالوا شرة ، وقال الزمخشري : أصله ﴿ خيرات ﴾ بالتشديد فخفف كقوله عليه الصلاة والسلام : "هينون لينون" وليس جمع خير بمعنى أخير فإنه لا يقال فيه خيرون ولا خيرات ، ولعله لأن أصل اسم التفضيل أن لا يجمع خصوصاً إذا نكر ، وقرأ بكر بن حبيب .

وأبو عثمان النهدي .

وابن مقسم ﴿ خيرات ﴾ بتشديد الياء وهو يؤيد أن أصله كذلك ، وروي عن أبي عمرو ﴿ خيرات ﴾ بفتح الياء كأنه جمع خائرة جمع على فعلة ﴿ حِسَانٌ ﴾ قيل : أي حسان الخَلق والخلق .

وأخرج عبد الرزاق .

وعبد بن حميد .

وابن جرير عن قتادة أنه قال في الآية : ﴿ خيرات ﴾ الأخلاق ﴿ حِسَانٌ ﴾ الوجوه ، وأخرج ذلك ابن جرير .

والطبراني .

وابن مردويه عن أم سلمة مرفوعاً .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقوله تعالى :

﴿ حُورٌ ﴾ بدل من ﴿ خيرات ﴾ [الرحمن : 70] وهو جمع حوراء وكذا جمع أحور ، والمراد بيض كما أخرجه ابن المنذر .

وغيره عن ابن عباس وروته أم سلمة أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن الأثير : الحوراء هي الشديدة بياض العين الشديدة سوادها ، وفي "القاموس" الحور بالتحريك أن يشتد بياض العين وسواد سوادها وتستدير حدقتها وترق جفونها ويبيض ما حواليها .

أو شدة بياضها وسوادها في بياض الجسد ، أو اسوداد العين كلها مثل الظباء ولا يكون في بني آدم بل يستعار لها ، وإذا صح حديث أم سلمة لم يعدل في القرآن عن تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ مقصورات فِى الخيام ﴾ أي مخدرات يقال : امرأة قصيرة ومقصورة أي مخدرة ملازمة لبيتها لا تطوف في الطرق ، قال كثير عزة :

وأنت التي حبّبت كل قصيرة . . .

إليّ ولم تشعر بذاك القصائر

عنيت (قصيرات الحجال) ولم أرد . . .

قصار الخطا شر النساء البحاتر

والنساء يمدحن بملازمتهن البيوت لدلالتها على صيانتهن كما قال قيس بن الأسلت :

وتكسل عن جاراتها فيزرنها . . .

وتغفل عن أبياتهن "فتعذر"

وهذا التفسير مأثور عن ابن عباس .

والحسن .

والضحاك وهو رواية عن مجاهد ، وأخرج ابن أبي شيبة .

وهناد بن السري .

وابن جرير عنه أنه قال : ﴿ مقصورات ﴾ قلوبهن وأبصارهن ونفوسهن على أزواجهن ، والأول أظهر ، و ﴿ فِى الخيام ﴾ عليه متعلق بمقصورات ، وعلى الثاني يحتمل ذلك ، ويحتمل كونه صفة ثانية لحور فلا تغفل ، والخيام جمع خيمة وهي على ما في "البحر" بيت من خشب وثمام وسائر الحشيش ، وإذا كان من شعر فهو بيت ولا يقال له خيمة .

وقال غير واحد : هي كل بيت مستدير أو ثلاثة أعواد أو أربعة يلقى عليها الثمام ويستظل بها في الحر أو كل بيت يبنى من عيدان الشجر وتجمع أيضاً على خيمات وخيم بفتح فسكون وخيم بالفتح وكعنب والخيام هنا بيوت من لؤلؤ أخرج ابن أبي شيبة وجماعة عن ابن عباس أنه قال : الخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة أربعة فراسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب ، وأخرج جماعة عن أبي الدرداء أنه قال : الخيمة لؤلؤة واحدة لها سبعون باباً من در ، وأخرج البخاري .

ومسلم .

والترمذي .

(57/741)

وغيرهم عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن ، إلى ذلك من الأخبار ، وقوله سبحانه : ﴿ فِيهِنَّ ﴾ [الرحمن : 70] الخ دون ما تقدم في الجنتين السابقتين أعني قوله عز وجل : ﴿ فِيهِنَّ قاصرات الطرف ﴾ [الرحمن : 56] إلى قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان ﴾ [الرحمن : 58] في المدح

عند من فضلهما على الأخيرتين قيل لما في ﴿ مقصورات ﴾ على التفسير الثاني من الإشعار بالقسر في القصر ، وأما على تفسيره الأول فكونه دونه ظاهر وإن لم يلاحظ كونها مخدرة فيما تقدم ، أو يجعل قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان ﴾ كناية عنه لأنهما مما يصان كما قيل :

جوهرة أحقاقها الخدور . . .

ومن ذهب إلى تفضيل الأخيرتين يقول : هذا أمدح لعموم ﴿ خيرات حِسَانٌ ﴾ [الرحمن : 70] الصفات الحسنة خَلقاً وخُلُقاً ويدخل في ذلك قصر الطرف وغيره مما يدل عليه التشبيه بالياقوت والمرجان ، والمراد بالقاصر على التفسير الثاني لمقصورات القاصر الطبيعي بقرينة المقام فيكون فيه إشارة إلى تعذر ترك القصر منهن ، و ﴿ قاصرات الطرف ﴾ ربما يوهم أن القصر باختيارهن فمتى شئن قصرن ومتى لم يشأن لم يقصرن .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقوله تعالى :

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾ الكلام فيه كالكلام في نظيره .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وقوله سبحانه :

﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ قيل : بتقدير يتنعمون متكئين أو أعني متكئين ، والضمير لأهل الجنتين المدلول عليهم بذكرهما ﴿ على رَفْرَفٍ ﴾ اسم جنس أو اسم جمع واحده رفرفة ، وعلى الوجهين يصح وصفه بقوله تعالى : ﴿ خُضْرٍ ﴾ وجعله بعضهم جمعاً لهذا الوصف ولا

يخفى أن أمر الوصفية لا يتوقف على ذلك الجعل ، وفسره في الآية عليّ كرم الله تعالى وجهه .

(58/741)

وابن عباس .

والضحاك بفضول المحابس وهي ما يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه ، وقال الجوهري : الرفرف ثياب خضر تتخذ منها المحابس واشتقاقه من رف إذا ارتفع ، وقال الحسن فيما أخرجه ابن المنذر وغيره عنه هي البسط .

وأخرج عن عاصم الجحدري أنها الوسائد ، وروي ذلك عن الحسن أيضاً .

وابن كيسان وقال الجبائي : الفرش المرتفعة ، وقيل : ما تدلى من الأسرة من غالي الثياب ، وقال الراغب : ضرب من الثياب مشبهة بالرياض ، وأخرج ابن جرير .

وجماعة عن سعيد بن جبير أنه قال : الرفرق رياض الجنة ، وأخرج عبد بن حميد نحوه عن ابن عباس وهو عليه كما في "البحر" من رف النبت نعم وحسن ، ويقال الرفرف لكل ثوب عريض وللرقيق من ثياب الديباج ولأطراف الفسطاط والخباء الواقعة على الأرض دون الأطناب والأوتاد ، وظاهر كلام بعضهم أنه قيل بهذا المعنى هنا وفيه شيء ﴿ وَعَبْقَرِيّ

﴿ هو منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه اسم بلد الجن فينسبون إليه كل عجيب غريب من الفرش وغيرها فمعناه الشيء العجيب النادر ، ومنه ما جاء في عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه فلم أرى عبقرياً يفري فريه ، ولتناسي تلك النسبة قيل : إنه ليس بمنسوب بل هو مثل كرسي وبختي كما نقل عن قطرب ، والمراد الجنس ولذلك وصف بالجمع وهو قوله تعالى : ﴿ حِسَانٌ ﴾ حملاً على المعنى ، وقيل : هو اسم جمع أو جمع واحده عبقرية ، وفسره الأكثرون بعتاق الزرابي ، وعن أبي عبيدة هو ما كله وشي من البسط .

وروى غير واحد عن مجاهد أنه الديباج الغليظ ، وعن الحسن أنها بسط فيها صور وقد سمعت ما نقل عنه في الرفرف فلا تغفل عما يقتضيه العطف .

وقرأ عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه .

ونصر بن عاصم الجحدري .

ومالك بن دينار .

وابن محيصن .

وزهير الفرقبي .

(59/741)

وغيرهم رفارف جمع لا ينصرف ﴿ حَضَرَ ﴾ بسكون الضاد ، وعباقري بكسر القاف وفتح الياء مشددة ، وعنهم أيضاً ضم الضاد ، وعنهم أيضاً فتح القاف قاله صاحب اللوامح ، ثم قال أما منع الصرف من عباقري .

فلمجاورته لرفارف يعني للمشاكلة وإلا فلا وجه لمنع الصرف مع ياءي النسب إلا في ضرورة الشعر انتهى .

وقال ابن خالويه : قرأ على رفارف خضر وعباقري النبي صلى الله عليه وسلم ، والجحدري .

وابن محيصن ، وقد روي عمن ذكرنا على رفارف خضر وعباقري بالصرف ، وكذلك روي عن مالك بن دينار ، وقرأ أبو محمد .

المروزي وكان نحوياً على رفارف خضار بوزن فعال ، وقال صاحب الكامل : قرأ رفارف بالجمع ابن مصرف .

وابن مقسم .

وابن محيصن ، واختاره شبل .

وأبو حيوة .

والجحدري .

والزعفراني وهو الاختيار لقوله تعالى : ﴿ خُضْرٍ ﴾ ، وعباقري بالجمع وبكسر القاف من

غير تنوين ابن مقسم .

وابن محيصن ، وروي عنهما التنوين .

وقال ابن عطية : قرأ زهير القرقبي رفارف بالجمع وترك الصرف ، وأبو طعمة المدني .

وعاصم فيما روي عنه رفارف بالصرف .

وعثمان رضي الله تعالى عنه كذلك ، وعباقري بالجمع والصرف ، وعنه وعباقري بفتح القاف والياء على أن اسم الموضع عباقر بفتح القاف ، والصحيح فيه عبقر ، وقال الزمخشري : قرىء عباقري كمدايني .

وروى أبو حاتم عباقري بفتح القاف ومنع الصرف وهذا لا وجه لصحته ، وقال الزجاج : هذه القراءة لا مخرج لها لأن ما جاوز الثلاثة لا يجمع بياء النسب فلو جمعت عبقري قلت : عباقرة نحو مهلبى ومهالبة ولا تقول مهالبي .

(60/741)

وقال ابن جني : أما ترك صرف عباقري فشاذ في القياس ولا يستنكر شذوذه مع استعماله ، وقال ابن هشام : كونه من النسبة إلى الجمع كمدايني باطل فإن من قرأ بذلك قرأ رفارف خضر بقصد المجانسة ولو كان كما ذكر كان مفرداً ولا يصح منع صرفه كمدايني وقد

صحت الرواية بمنعه الصرف عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو من باب كرسي وكراسي وهو من صيغة منتهى الجموع لكنها خالفت القياس في زيادة ما بعد الألف على المعروف كما ذكره السهيلي ، وقال صاحب الكشف : فتح القاف لا وجه له بوجه والمذكور في المنتقى عن النبي صلى الله عليه وسلم الكسر .

وأما منع الصرف فليس بمتعين ليرد بل وجهه أنه نصب على محل رفرف على حد يذهبن في نجد وغوراً .

وإضافته إلى ﴿ حِسَانٌ ﴾ مثل إضافة حور إلى ﴿ عين ﴾ [الواقعة : 22] في قراءة عكرمة كأنه قيل : عباقري مفارش ، أو نمارق حسان فهو من باب أخلاق ثياب لأن أحد الوصفين قائم مقام الموصوف ، ولعل عبقر وعباقر مثل عرفة وعرفات انتهى ، فأحط بجوانب الكلام ولا تغفل ، وقرأ ابن هرمز ﴿ خُضْرٍ ﴾ بضم الضاد وهي لغة قليلة ومن ذلك قول طرفة

: أيها القينات في مجلسنا . . .

جرّد ، وا منها ورادا "وشقر"

وقول الآخر

: وما انتميت إلى خود ولا "كشف" . . .

ولا لئام غداة الروع أو زاع

فشقر جمع أشقر ، وكشف جمع أكشف وهو من ينهزم في الحرب ، هذا والوصف بقوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ ﴾ الخ دون الوصف بقوله سبحانه : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الرحمن : 76] عند القائل بتفضيل الجنتين السابقتين لما في هذا الوصف من الإشارة إلى أن الظهائر مما يعجز عنها الوصف .

(61/741)

ومن ذهب إلى تفضيل الأخيرتين يقول : الرفرف ما يطرح على ظهر الفراش وليست الفرش التي يطرح عليها الرفرف مذكورة فيجوز أن يكون ترك ذكرها للإشارة إلى عدم إحاطة الوصف بها ظهارة وبطانة وهو أبلغ من الأول ، ولا يسلم أن تلك الفرش هي العبقري ، أو يقول الرفرف الفرش المرتفعة وترك التعرض لسوى لونها وهو الخضرة التي ميل الطباع إليها أشد وهي جامعة لأصول الألوان الثلاثة على ما بينه الإمام يشير إلى أنها مما لا تكاد تحيط بحقيقتها العبارات ، وقد يقال غير ذلك فتأمل ، وينبغي على القول بتفضيل الأخيرتين وكونهما لطائفة غير الطائفة المشار إليهم بمن خاف أن لا يفسر من خاف بمن له شدة الخوف بحيث يختص بأفضل المؤمنين وأجلهم ، أو يقال إنهما مع الأوليين لمن خاف مقام ربه ويكون المعنى ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ أيضاً ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ صفتهما كيت وكيت من دون

تينك الجنتين ، وعليه قيل : ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 62] عطف على ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] قبله ﴿ وَمِن دُونِهِمَا ﴾ في موضع الحال ، وذهب بعضهم إلى أن هاتين الجنتين سواء كانتا أفضل من الأوليين أم لا لمن خاف مقام ربه عز وجل فله يوم القيامة أربع جنان .

قال الطبرسي : والأخيرتان دون الأوليين أي أقرب إلى قصره ومجالسه ليتضاعف له السرور بالتنقل من جنة إلى جنة على ما هو معروف من طبع البشر من شهوة مثل ذلك وهو أبعد عن الملل الذي طبع عليه البشر ، وأنت تعلم أن الآية تحتمل ذلك احتمالاً ظاهراً لكن ما تقدم من حديث أبي موسى رضي الله تعالى عنه يأباه فإذا صح ولو موقوفاً إذ حكم مثله حكم المرفوع لم يكن لنا العدول عما يقتضيه ، وقد روي عنه أيضاً حديث مرفوع ذكره الجلال السيوطي في "الدر المنثور" يشعر بأن الجنان الأربع هي جنان الفردوس .

وأخرج عنه أحمد .

والبخاري .

ومسلم .

والترمذي .

والنسائي .

وابن ماجه .

وغيرهم أنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " جنان الفردوس أربع .

(62/741)

جنتان من ذهب حليتهما وآنيتهما وما فيهما .

وجنتان من فضة حليتهما وآنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن " والظاهر على هذا أنه يشترك الألوف في الجنة الواحدة من هذه الجنان ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ ﴾ [الرحمن : 46] الخ عليه مما لا يخفى ، ثم إن قاصرات الطرف إن كنّ من الإنس فهنّ أجل قدراً وأحسن منظراً من الحور المقصورات في الخيام بناءاً على أنهن النساء المخلوقات في الجنة .

فقد جاء من حديث أم سلمة " قلت يا رسول الله : أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ قال : نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة ، قلت : يا رسول الله وبم ذاك ؟ قال : بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير بيض الوجوه خضر الثياب صفر الحلي مجامرهن الدر وأمشاطهن الذهب يقلن ألا نحن الخالدات فلا نموت أبداً ألا ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً طوبى لمن كنا له وكان لنا "

إلى غيره من الأخبار ويكون هذا مؤيداً للقول بتفضيل الجنتين الأوليين على الأخيرتين ولعله إنما قدم سبحانه ذكر الاتكاء أولاً على ذكر النساء لأنه عز وجل ذكر في صدر الآية الخوف حيث قال سبحانه : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] فناسب التعجيل بذكر ما يشعر بزواله إشعاراً ظاهراً وهو الاتكاء فإنه من شأن الآمنين ، وأخر سبحانه ذكره ثانياً عن ذكرهن لعدم ما يستدعي التقديم وكونه مما يكون للرجل عادة بعد فراغ ذهنه عما يحتاجه المنزل من طعام وشراب وقينة تكون فيه ، وإذا قلنا : إن الحور كالجواري في المنزل كان أمر التقديم والتأخير أوقع ، وقال الإمام في ذلك : إن أهل الجنة ليس عليهم تعب وحركة فهم متنعمون دائماً لكن الناس في الدنيا على أقسام منهم من يجتمع مع أهله اجتماع مستوفز وعند قضاء وطره يغتسل وينتشر في الأرض للكسب ، ومنهم من يكون متردداً في طلب الكسب وعند تحصيله يرجع إلى أهله ويستريح عما لحقه من تعب قبل قضاء الوطر أو بعده فالله عز وجل قال في أهل الجنة : ﴿ مُتَّكِئُونَ ﴾ قبل اجتماعهم بأهاليهم متكئون بعد الاجتماع ليعلم أنهم دائمون على السكون ، ولا يخفى أن هذا على ما فيه لا يحسم السؤال إذ لقائل أن يقول لم لم يعكس أمر التقديم والتأخير في الموضعين مع أنه

يتضمن الإشارة إلى ذلك أيضاً ، ثم ذكر في ذلك وجهاً ثانياً وهو على ما فيه مبني على ما لا مستند له فيه من الآثار فتدبر .

﴿ فَبِأَيّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ وقوله عز وجل :

(64/741)

﴿ تبارك اسم رَبّكَ ﴾ تنزيه وتقديس له تعالى فيه تقرير لما ذكر في هذه السورة الكريمة من آلائه جل شأنه الفائضة على الأنام ، فتبارك بمعنى تعالى لأنه يكون بمعناه وهو أنسب بالوصف الآتي ، وقد ورد في الأحاديث " تعالى اسمه " أي تعالى اسمه الجليل الذي من جملته ما صدرت به السورة من اسم ﴿ الرحمن ﴾ المنبىء عن إفاضة الآلاء المفصلة ، وارتفع مما لا يليق بشأنه من الأمور التي من جملتها جحود نعمائه وتكذيبها ، وإذا كان حال اسمه تعالى بملابسة دلالته عليه سبحانه كذلك فما ظنك بذاته الأقدس الأعلى ؟ ؟ .

وقيل : الاسم بمعنى الصفة لأنها علامة على موصوفها ، وقيل : هو مقحم كما في قول من قال :

ثم اسم السلام عليكما . . .

، وقيل : هو بمعنى المسمى ، وزعم بعضهم إن الأنسب بما قصد من هذه السورة الكريمة

وهو تعدد الآلاء والنعم تفسير ﴿ تبارك ﴾ بكثرت خيراته ثم إنه لا بعد في إسناده بهذا المعنى لاسمه تعالى إذ به يستمطر فيغاث ويستنصر فيعان ، وقوله سبحانه : ﴿ ذِى الجلال ﴾ صفة للرب ووصف جل وعلا بذلك تكميلاً لما ذكر من التنزيه والتقرير ، وقرأ ابن عامر .

وأهل الشام ذو بالرفع على أنه وصف للاسم ووصفه بالجلال والإكرام بمعنى التكريم واضح .

(65/741)

هذا ومن باب الإشارة : في بعض الآيات ﴿ مُّقْتَدِرِ الرحمن عَلَّمَ القرءان ﴾ [الرحمن : 1 ، 2] إشارة إلى ما أودعه سبحانه في الأرواح الطيبة القدسية من العلوم الحقانية الإجمالية عند استوائه عز وجل على عرض الرحمانية ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ [الرحمن : 3] الكامل الجامع ﴿ عَلَّمَهُ البيان ﴾ وهو تفصيل تلك العلوم الإجمالية ﴿ فَإِذَا قرأناه فاتبع قُرْءانَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة : 18 ، 19] ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن : 5] يشير إلى شمس النبوة وقمر الولاية الدائرتين في فلك وجود الإنسان بحساب التجليات ومراتب الاستعدادات ، و﴿ النجم ﴾ القوى السفلية ﴿ والشجر ﴾ الاستعدادات

العلوية ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن : 6] يتذللان بين يديه تعالى عند الرجوع إليه سبحانه ﴿ والسماء ﴾ سماء القوى الإلهية القدسية ﴿ رَفَعَهَا ﴾ فوق أرض البشرية ﴿ وَوَضَعَ الميزان ﴾ القوة المميزة ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الميزان ﴾ [الرحمن : 8] لا تتجاوزوا عند أخذ الحظوظ السفلية وإعطاء الحقوق العلوية .

وجوز أن يكون ﴿ الميزان ﴾ الشريعة المطهرة فإنها ميزان يعرف به الكامل من الناقص ﴿ والأرض ﴾ أرض البشرية ﴿ وَضَعَهَا ﴾ بسطها وفرشها ﴿ لِلْأَنَامِ ﴾ [الرحمن : 10] للقوى الإنسانية ﴿ فِيهَا فاكهة ﴾ من فواكه معرفة الصفات الفعلية ﴿ والنخل ذَاتُ الأكمام ﴾ [الرحمن : 11] وهي الشجرة الإنسانية التي هي المظهر الأعظم وذات أطوار كل طور مستور بطور آخر ﴿ والحب ﴾ هو حب الحب المبذور في مزارع القلوب السليمة من الدغل ﴿ ذُو العصف ﴾ أوراق المكاشفات ﴿ والريحان ﴾ [الرحمن : 12] ريحان المشاهدة ﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾

(66/741)

[الرحمن : 17] رب مشرق شمس النبوة ومشرق قمر الولاية في العالم الجسماني ورب مغربهما في العالم الروحاني ﴿ مَرَجَ البحرين ﴾ بحر سماء القوى العلوية وبحر أرض القوى

السفلية ﴿ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ [الرحمن : 19 ، 20] حاجز القلب ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 22] أنواع أنوار الأسرار ونيران الأشواق ﴿ وَلَهُ الجوار ﴾ سفن الخواطر المسخرة في بحر الإنسان ﴿ تُكَذِّبَانِ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن : 26] ما شم رائحة الوجود ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ الجهة التي تليه سبحانه وهي شؤوناته عز وجل ﴿ ذُو الجلال ﴾ أي الاستغناء التام عن جميع المظاهر ﴿ والإكرام ﴾ [الرحمن : 27] الفيض العام يفيض على القوابل حسبما استعدت له وسألته بلسان حالها ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِى السموات والأرض ﴾ الخ ، واستدل الشيخ الأكبر محيي الدين قدس سره بقوله سبحانه : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : 29] على شرف التلون ، وكذا استدل به على عدم بقاء الجوهر آنين ، وعلى هذا الطرز ما قيل في الآيات بعد ، وذكر بعض أهل العلم أن قوله تعالى : ﴿ فَبِأَىِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 13] قد ذكر إحدى وثلاثين مرة ، ثمانية منها عقيب تعداد عجائب خلقه تعالى .

وذكر المبدأ والمعاد ، وسبعة عقيب ذكر ما يشعر بالنار وأهوالها على عدد أبواب جهنم ، وثمانية في وصف الجنتين الأوليين ومثلها في وصف الجنتين اللتين دونهما على عدد أبواب الجنة فكأنه أشير بذلك إلى أن من اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق كلتا الجنتين من الله تعالى ووقاه جهنم ذات الأبواب السبعة ؛ والله تعالى أعلم بإشارات كتابه وحقائق

خطابه ودقائق كلامه التي لا تحيط بها الأفهام وتبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(67/741)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46) ﴾

لما فرغ سبحانه من تعداد النعم الدنيوية على الثقلين ذكر نعمه الأخروية التي أنعم بها عليهم ، فقال : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ مقامه سبحانه هو الموقف الذي يقف فيه العباد للحساب ، كما في قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المطففين : 6] فالمقام مصدر بمعنى القيام ، وقيل : المعنى خاف قيام ربه عليه ، وهو إشرافه على أحواله ، واطلاعه على أفعاله وأقواله ، كما في قوله : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : 33] قال مجاهد ، والنخعي : هو الرجل يهمّ بالمعصية فيذكر الله ، فيدعها من خوفه .

واختلف في الجنتين ، فقال مقاتل : يعني : جنة عدن ، وجنة النعيم ، وقيل : إحداهما التي خلقت له والأخرى ورثها .

وقيل : إحداهما منزله والأخرى منزل أزواجه .

وقيل : إحداهما أسافل القصور والأخرى أعاليها .

وقيل : جنة للخائف الإنسي وجنة للخائف الجنيّ ، وقيل : جنة لفعل الطاعة وأخرى لترك المعصية ، وقيل : جنة للعقيدة التي يعتقدها وأخرى للعمل الذي يعمله ، وقيل : جنة بالعمل وجنة بالتفضل ، وقيل : جنة روحانية وجنة جسمانية ، وقيل : جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته ، وقال الفرّاء : إنما هي جنة واحدة ، والتثنية لأجل موافقة الآي .

قال النحاس : وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله ، فإن الله يقول : ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ ويصفهما بقوله : ﴿ فيهما ﴾ إلخ .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإن من جملتها من هذه النعم العظيمة ، وهي إعطاء الخائف من مقام ربه جنتين متصفتين بالصفات الجليلة العظيمة ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ هذه صفة للجنتين ، وما بينهما اعتراض ، والأفنان : الأغصان ، واحدها : فنن ، وهو الغصن المستقيم طولاً ، وبهذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وعطية ، وغيرهم .

وقال الزجاج: الأفنان: الألوان واحدها فنّ، وهو الضرب من كل شيء، وبه قال عطاء، وسعيد بن جبير، وجمع عطاء بين القولين، فقال: في كلّ غصن فنون من الفاكهة، ومن إطلاق الفنن على الغصن قول النابغة:

دعاء حمامةٍ تَدعْو هَدِيلا . . . مُفَجعَّةٍ على فَنَنٍ تُغَني

وقول الآخر:

ما هاجَ شُوْقُك من هَديل حَمامةٍ . . . تَدْعو على فَنَنِ الغُصون حَمامَا

وقيل: معنى ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾: ذواتا فضل وسعة على ما سواهما، قاله قتادة، وقيل: الأفنان: ظلّ الأغصان على الحيطان، روي هذا عن مجاهد، وعكرمة.

﴿ فَبِأَيّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ فإن كل واحد منها ليس بمحل للتكذيب، ولا بموضع للإنكار.

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ هذا أيضاً صفة أخرى لجنتان، أي: في كل واحدة منهما عين جارية.

قال الحسن: إحداهما السلسبيل والأخرى التسنيم.

وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن والأخرى من خمر لذة للشاربين، قيل: كلّ واحدة منهما مثل الدنيا أضعافاً مضاعفة.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإن من جملتها هذه النعمة الكائنة في الجنة لأهل السعادة.

(69/741)

﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ هذا صفة ثالثة لجنتان، والزوجان: الصنفان والنوعان، والمعنى: أن في الجنتين من كلّ نوع يتفكه به ضربين يستلذ بكلّ نوع من أنواعه، قيل: أحد الصنفين رطب، والآخر يابس لا يقصر أحدهما عن الآخر في الفضل والطيب ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإن في مجرّد تعداد هذه النعم، ووصفها في هذا الكتاب العزيز من الترغيب إلى فعل الخير، والترهيب عن فعل الشرّ ما لا يخفى على من يفهم، وذلك نعمة عظمى، ومنّة كبرى، فكيف بالتنعم به عند الوصول إليه؟! ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ انتصاب ﴿ متكئين ﴾ على الحال من فاعل قوله: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ ﴾ وإنما جمع، حملاً على معنى من، وقيل: عاملها محذوف، والتقدير: يتنعمون متكئين، وقيل: منصوب على المدح، والفرش جمع فرش، والبطائن: هي التي تحت الظهائر، وهي جمع بطانة.

قال الزجاج: هي ما يلي الأرض، والإستبرق: ما غلظ من الديباج، وإذا كانت البطائن

من استبرق ، فكيف تكون الظهائر ؟ قيل لسعيد بن جبير : البطائن من استبرق فما الظواهر ؟ قال : هذا بما قال الله فيه : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : 17] قيل : إنما اقتصر على ذكر البطائن لأنه لم يكن أحد في الأرض يعرف ما في الظهائر .

وقال الحسن : بطائنها من استبرق ، وظهائرها من نور جامد .

وقال الحسن : البطائن هي الظهائر ، وبه قال الفراء : وقال : قد تكون البطانة الظهارة ، والظهارة البطانة لأن كلّ واحد منهما يكون وجهاً ، والعرب تقول : هذا ظهر السماء ، وهذا بطن السماء لظاهرها الذي نراه ، وأنكر ابن قتيبة هذا ، وقال : لا يكون هذا إلاّ في الوجهين المتساويين ﴿ وَجَنَى الجنتين دَانٍ ﴾ مبتدأ وخبر ، والجنى : ما يجتنى من الثمار ، قيل : إن الشجرة تدنو حتى يجنيها من يريد جناها ، ومنه قول الشاعر :

(70/741)

هذا جَناي وخِيَاره فيه . . . إذْ كلُّ جانٍ يَدُهُ إلى فيه

قرأ الجمهور ﴿ فرش ﴾ بضمتين ، وقرأ أبو حيوة بضمة وسكون ، وقرأ الجمهور ﴿ جنى ﴾ بفتح الجيم ، وقرأ عيسى بن عمر بكسرها ، وقرأ عيسى أيضاً بكسر النون على

الإمالة .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإنها كلها بموضع لا يتيسر لمكذب أن يكذب بشيء منها لما تشتمل عليه من الفوائد العاجلة والآجلة .

﴿ فِيهِنَّ قاصرات الطرف ﴾ أي : في الجنتين المذكورتين .

قال الزجاج : وإنما قال : ﴿ فيهنّ ﴾ لأنه عنى الجنتين ، وما أعدّ لصاحبهما فيهما من النعيم ، وقيل : فيهنّ أي : في الفرش التي بطائنها من استبرق ، ومعنى ﴿ قاصرات الطرف ﴾ : أنهنّ يقصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ لا ينظرن إلى غيرهم ، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة الصافات .

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾ قال الفراء : الطمث : الافتضاض وهو النكاح بالتدمية ، يقال : طمث الجارية : إذا افترعها .

قال الواحدي : قال المفسرون : لم يطأهن ولم يغشهنّ ولم يجامعهنّ قبلهم أحد .

قال مقاتل : لأنهن خلقن في الجنة ، والضمير في ﴿ قبلهم ﴾ يعود إلى الأزواج المدلول عليه بقاصرات الطرف ، وقيل : يعود إلى متكئين ، والجملة في محل رفع صفة لقاصرات ، لأن إضافتها لفظية ، وقيل : الطمث : المسّ ، أي : لم يمسسهنّ ، قاله أبو عمرو .

وقال المبرد : أي : لم يذللهنّ ، والطمث : التذليل ، ومن استعمال الطمث فيما ذكره الفراء قول الفرزدق :

دفعن إليَّ لم يُطْمَثْن قَبْلِي . . . وهنّ أصَحّ مِنْ بيض النَّعام

وقرأ الجمهور : ﴿ يطمثهنّ ﴾ بكسر الميم ، وقرأ الكسائي بضمها ، وقرأ الجحدري ، وطلحة بن مصرف بفتحها ، وفي هذه الآية بل في كثير من آيات هذه السورة دليل أن الجنّ يدخلون الجنة إذا آمنوا بالله سبحانه ، وعملوا بفرائضه ، وانتهوا عن مناهيه .

(71/741)

﴿ فَبِأَيّ ءالاء ربّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ فإن في مجرّد هذا الترغيب في هذه النعم نعمة جليلة ، ومنة عظيمة ، لأن به يحصل الحرص على الأعمال الصالحة ، والفرار من الأعمال الطالحة ، فكيف بالوصول إلى هذه النعم ، والتنعم بها في جنات النعيم بلا انقطاع ، ولا زوال .

﴿ كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان ﴾ هذا صفة لقاصرات ، أو حال منهنّ ، شبههنّ سبحانه في صفاء اللون مع حمرته بالياقوت والمرجان ، والياقوت : هو الحجر المعروف ، والمرجان قد قدّمنا الكلام فيه في هذه السورة على الخلاف في كونه صغار الدرّ ، أو الأحمر المعروف .

قال الحسن : هنّ في صفاء الياقوت ، وبياض المرجان ، وإنما خصّ المرجان على القول بأنه صغار الدرّ ؛ لأن صفاءها أشدّ من صفاء كبار الدرّ ﴿ فَبِأَيّ الاء ربّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ فإن نعمه كلها لا يتيسر تكذيب شيء منها كائنة ما كانت ، فكيف بهذه النعم الجليلة والمنن

الجزيلة ؟ ﴿ هَلْ جَزَاء الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها ، والمعنى : ما جزاء من أحسن العمل في الدنيا إلاّ الإحسان إليه في الآخرة ، كذا قال ابن زيد ، وغيره .

قال عكرمة : هل جزاء من قال : لا إله إلاّ الله إلاّ الجنة ؟ وقال الصادق : هل جزاء من أحسنت إليه في الأزل إلاّ حفظ الإحسان عليه في الأبد ؟ قال الرازي : في هذه الآية وجوه كثيرة حتى قيل : إن في القرآن ثلاث آيات في كل واحدة منها مائة قول : إحداها قوله تعالى : ﴿ فاذكرونى أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : 152] وثانيها : ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ [الإسراء : 8] وثالثها : ﴿ هَلْ جَزَاء الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ .

قال محمد بن الحنفية : هي للبرّ والفاجر : البرّ في الآخرة ، والفاجر في الدنيا .

﴿ فَبِأَيّ ءالاء ربّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ فإن من جملتها الإحسان إليكم في الدنيا ، والآخرة بالخلق والرزق والإرشاد إلى العمل الصالح ، والزجر عن العمل الذي لا يرضاه .

(72/741)

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ أي : ومن دون تينك الجنتين الموصوفتين بالصفات المتقدّمة جنتان أخريان ، لمن دون أصحاب الجنتين السابقتين من أهل الجنة ، ومعنى ﴿ من دونهما

﴿ أي : من أمامهما ، ومن قبلهما ، أي : هما أقرب منهما ، وأدنى إلى العرش ، وقيل : الجنتان الأوليان جنة عدن وجنة النعيم ، والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى .

قال ابن جريج : هي أربع جنات : جنتان : منهما للسابقين المقرّبين ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ و ﴿ عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ ، وجنتان لأصحاب اليمين ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ و ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ قال ابن زيد : إن الأوليين من ذهب للمقرّبين ، والأخريين من ورق لأصحاب اليمين .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإنها كلها حقّ ، ونعم لا يمكن جحدها ، ثم وصف سبحانه هاتين الجنتين الأخريين ، فقال : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ وما بينهما اعتراض .

قال أبو عبيدة والزجاج : من خضرتهما قد اسودّتا من الري ، وكل ما علاه السواد رياً فهو مدهم .

قال مجاهد : مسودّتان ، والدهمة في اللغة : السواد ، يقال : فرس أدهم ، وبعير أدهم : إذا اشتدّت ورقته حتى ذهب البياض الذي فيه .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإن جميعها نعم ظاهرة واضحة لا تجحد ولا تنكر .

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ النضخ : فوران الماء من العين ، والمعنى : أن في الجنتين المذكورتين عينين فوّارتين .

قال أهل اللغة : والنضخ بالخاء المعجمة أكثر من النضح بالحاء المهملة .

قال الحسن ، ومجاهد : تنضخ على أولياء الله بالمسك ، والعنبر ، والكافور في دور أهل الجنة ، كما ينضخ رشّ المطر .

وقال سعيد بن جبير : إنها تنضخ بأنواع الفواكه ، والماء .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإنها ليست بموضع للتكذيب ، ولا بمكان للجحد .

(73/741)

﴿ فِيهِمَا فاكهة وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ هذا من صفات الجنتين المذكورتين قريباً ، والنخل والرمان وإن كانا من الفاكهة لكنهما خصصا بالذكر لمزيد حسنهما ، وكثرة نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه ، كما حكاه الزجاج ، والأزهري ، وغيرهما .

وقيل : إنما خصهما لكثرتهما في أرض العرب ، وقيل : خصهما لأن النخل فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء .

وقد ذهب إلى أنهما من جملة الفاكهة جمهور أهل العلم ، ولم يخالف في ذلك إلاّ أبو حنيفة ، وقد خالفه صاحباه أبو يوسف ، ومحمد .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإن من جملتها هذه النعم التي في جنات النعيم ، ومجرّد الحكاية لها تأثر في نفوس السامعين ، وتجذبهم إلى طاعة ربّ العالمين ﴿ فِيهِنَّ خيرات

حِسَانٌ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ خيرات ﴾ بالتخفيف ، وقرأ قتادة ، وابن السميفع ، وأبو رجاء العطاردي ، وبكر بن حبيب السهمي ، وابن مقسم ، والنهدي بالتشديد ، فعلى القراءة الأولى هي جمع خيرة بزنة فعلة بسكون العين ، يقال : امرأة خيرة وأخرى شرّة ، أو جمع خيرة مخفف خيرة ، وعلى القراءة الثانية جمع خيرة بالتشديد .

قال الواحدي : قال المفسرون : الخيرات : النساء خيرات الأخلاق حسان الوجوه .

قيل : وهذه الصفة عائدة إلى الجنان الأربع ، ولا وجه لهذا ، فإنه قد وصف نساء الجنتين الأوليين بأنهنّ قاصرات الطرف .

﴿ كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان ﴾ وبين الصفتين بون بعيد .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإن شيئاً منها كائناً ما كان لا يقبل التكذيب .

﴿ حُورٌ مقصورات فِى الخيام ﴾ أي : محبوسات ، ومنه القصر لأنه يحبس من فيه ، والحور : جمع حوراء وهي شديدة بياض العين شديدة سوادها ، وقد تقدّم بيان معنى الحوراء ، والخلاف فيه .

وقيل : معنى ﴿ مقصورات ﴾ : أنهنّ قصرن على أزواجهنّ ، فلا يردن غيرهم ، وحكاه الواحدي عن المفسرين .

والأوّل أولى ، وبه قال أبو عبيدة ، ومقاتل ، وغيرهما .

قال في الصحاح : قصرت الشيء أقصره قصراً : حبسته ، والمعنى : أنهنّ خدّرن في الخيام ، والخيام : جمع خيمة ، وقيل : جمع خيم ، والخيم جمع خيمة ، وهي أعواد تنصب وتظلّل بالثياب ، فتكون أبرد من الأخبية ، قيل : الخيمة من خيام الجنة درّة مجوّفة ، فرسخ في فرسخ ، وارتفاع ﴿ حور ﴾ على البدلية من خيرات ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾ قد تقدّم تفسيره في صفة الجنتين الأوليين ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإنها كلها نعم لا تكفر ، ومنن لا تجحد .

﴿ مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ انتصاب ﴿ متكئين ﴾ على الحال ، أو المدح كما سبق ، قال أبو عبيدة : الرّفارف : البسط ، وبه قال الحسن ، ومقاتل ، والضحاك ، وغيرهم .

وقال ابن عيينة : هي الزرابي .

وقال ابن كيسان : هي المرافق .

وروي عن أبي عبيدة أنه قال : هي حاشية الثوب .

وقال الليث : ضرب من الثياب الخضر ، وقيل : الفرش المرتفعة ، وقيل : كل ثوب عريض .

قال في الصحاح : والرّفرف : ثياب خضر يتخذ منها المحابس ، الواحدة رفرفة .

وقال الزجاج : قالوا الرّفرف هنا : رياض الجنة ، وقالوا : الرّفرف : الوسائد ، وقالوا : الرّفرف : المحابس اهـ .

ومن القائلين بأنها رياض الجنة سعيد بن جبير ، واشتقاق الرّفرف من رفّ يرفّ : إذا ارتفع ، ومنه رفرفة الطائر ، وهي تحريك جناحيه في الهواء .

قرأ الجمهور ﴿ رفرف ﴾ على الإفراد .

وقرأ عثمان بن عفان ، والحسن ، والجحدري : (رفارف) على الجمع ﴿ وَعَبْقَرِيّ حِسَانٍ ﴾ العبقريّ : الزرابي ، والطنافس الموشية .

قال أبو عبيدة : كل وشي من البسط عبقريّ ، وهو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشي .

قال الفراء : العبقريّ .

الطنافس الثمان ، وقيل : الزرابي ، وقيل : البسط ، وقيل : الديباج .

قال ابن الأنباري : الأصل فيه أن عبقر قرية تسكنها الجنّ ينسب إليها كل فائق .

(75/741)

قال الخليل : العبقريّ عند العرب : كل جليل فاضل فاخر من الرجال والنساء ، ومنه قول زهير :

بَخَيْل عليها جِنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ . . . جَديرون يوماً أَنْ يَنَالُوا فَيَسْتَعلُوا

قال الجوهريّ : العبقر موضع تزعم العرب أنه من أرض الجنّ .

قال لبيد :

كهول وشبان كجنة عبقر . . . ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من حذقه وجودة صنعته وقوّته ، فقالوا : عبقريّ ، وهو واحد وجمع .

قرأ الجمهور : ﴿ عبقريّ ﴾ وقرأ عثمان بن عفان ، والحسن ، والجحدري (عباقريّ) وقرىء : (عباقر) وهما نسبة إلى عباقر اسم بلد .

وقال قطرب : ليس بمنسوب ، وهو مثل كرسيّ وكراسي ، وبختي وبخاتي .

قرأ الجمهور : ﴿ خضر ﴾ بضم الخاء وسكون الضاد ، وقرىء بضمهما ، وهي لغة قليلة .

﴿ فَبِأَيّ ءالاء ربّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ فإن كل واحد منها أجلّ من أن يتطرّق إليه التكذيب ، وأعظم من أن يجحده جاحد ، أو ينكره منكر ، وقد قدّمنا في أوّل هذه السورة وجه تكرير هذه الآية فلا نعيده .

﴿ تبارك اسم ربّكَ ذِى الجلال والإكرام ﴾ تبارك .

تفاعل من البركة .

قال الرّازي : وأصل التبارك من التبرّك ، وهو الدوام والثبات ، ومنه برك البعير ، وبركه الماء فإن الماء يكون دائماً ، والمعنى : دام اسمه وثبت أو دام الخير عنده ؛ لأن البركة وإن كانت من الثبات لكنها تستعمل في الخير ، أو يكون معناه علا وارتفع شأنه .

وقيل معناه : تنزيه الله سبحانه وتقديسه ، وإذا كان هذا التبارك منسوباً إلى اسمه عزّ وجلّ ، فما ظنك بذاته سبحانه ؟ وقيل : الاسم بمعنى الصفة ، وقيل : هو مقحم كما في قول الشاعر :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما . . . ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

وقد تقدّم تفسير ﴿ ذي الجلال والإكرام ﴾ في هذه السورة .

قرأ الجمهور : ﴿ ذي الجلال ﴾ على أنه صفة للربّ سبحانه .

وقرأ ابن عامر (ذو الجلال) على أنه صفة لاسم .

(76/741)

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ قال : وعد الله المؤمنين الذين خافوا مقامه ، فأدّوا فرائضه الجنة .

وأخرج ابن جرير عنه في الآية يقول : خاف ثم اتقى ، والخائف : من ركب طاعة الله وترك معصيته .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة عن عطاء أنها نزلت في أبي بكر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود في الآية قال : لمن خافه في الدنيا .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وابن منيع ، والحاكم ، والترمذي ، والنسائي ، والبزار ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه عن أبي الدّرداء " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ فقلت : وإن زنى ، وإن سرق يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . الثانية : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ فقلت : وإن زنى ، وإن سرق ؟ فقال الثالثة : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ فقلت : وإن زنى ، وإن سرق ؟ قال : نعم ، وإن رغم أنف أبي الدّرداء " وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ فقال أبو الدّرداء : وإن زنى ، وإن سرق يا رسول الله ؟ قال : " وإن زنى وإن سرق ، وإن رغم أنف أبي الدّرداء " وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن يسار مولى لآل معاوية عن أبي الدّرداء في قوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ قال : قيل : لأبي الدّرداء : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : من خاف مقام ربه لم يزن ، ولم يسرق .

(77/741)

وأخرج ابن مردويه عن ابن شهاب قال : كنت عند هشام بن عبد الملك ، فقال : قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ قال أبو هريرة : وإن زنى ، وإن سرق ؟ فقلت : إنما كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض ، فلما نزلت الفرائض ذهب هذا .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " جنان الفردوس أربع جنات : جنتان من ذهب حليتهما وأبنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة حليتهما وأبنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلاّ رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن " وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ وفي قوله : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ قال : " جنتان من ذهب للمقرّبين ، وجنتان من وَرِق لأصحاب اليمين " وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن أبي موسى في قوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ قال : جنتان من ذهب للسابقين ، وجنتان من فضة للتابعين .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ قال : ذواتا ألوان .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه قال : فن غصونها يمسّ بعضها بعضاً .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عنه أيضاً قال : الفنّ : الغصن .

وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن ابن مسعود في قوله : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ قال : أخبرتم بالبطائن ، فكيف بالظهائر .

(78/741)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس أنه قيل : له بطائنها من استبرق ، فما الظواهر ؟ قال : ذلك مما قال الله ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : 17] .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقيّ في البعث عنه في قوله : ﴿ وَجَنَى الجنتين دَانٍ ﴾ قال : جناها ثمرها ، والداني : القريب منك يناله القائم والقاعد .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقيّ في البعث عنه أيضاً في قوله : ﴿ فِيهِنَّ قاصرات الطرف ﴾ يقول : عن غير أزواجهنّ ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ يقول : لم يدن منهنّ ، أو لم يدمهنّ .

وأخرج أحمد ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدريّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان ﴾ قال : " تنظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة ، وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب ، وإنه يكون عليها سبعون ثوباً ، وينفذها بصره حتى يرى مخّ ساقها من وراء ذلك "

وأخرج ابن أبي شيبة ، وهناد بن السريّ ، والترمذيّ ، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه عن ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها ، وذلك أن الله يقول : ﴿ كأنهنّ الياقوت والمرجان ﴾ ، فأما الياقوت ، فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه " ، وقد رواه الترمذي موقوفاً وقال : هو أصحّ .

(79/741)

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقيّ في الشعب وضعفه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : في قوله : ﴿ هَلْ جَزَاء الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ قال :

" ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلاّ الجنة " وأخرج الحكيم الترمذيّ في نوادر الأصول ، والبغويّ في تفسيره ، والديلمي في مسند الفردوس ، وابن النجار في تاريخه عن أنس مرفوعاً مثله .

وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعاً في الآية قال : " هل جزاء من أنعمنا عليه بالإسلام إلاّ أن أدخله الجنة " وأخرج ابن النجار في تاريخه عن عليّ بن أبي طالب مرفوعاً مثل حديث ابن عمر .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ هَلْ جَزَاء الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ قال : هل جزاء من قال لا إله إلاّ الله في الدنيا إلاّ الجنة في الآخرة .

وأخرج ابن عديّ ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والديلمي ، والبيهقيّ في الشعب ، وضعفه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنزل الله عليّ هذه الآية في سورة الرحمن للكافر والمسلم : ﴿ هَلْ جَزَاء الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ " وأخرجه ابن مردويه موقوفاً على ابن عباس .

وأخرج هناد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ قال : هما خضروان .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال : قد اسودّتا من الخضرة من الرّيّ من الماء .

وأخرج الفريابي ، وابن أبي شيبة ، وهناد ، وعبد بن حميد ، وابن جرير عن ابن عبد الله بن الزبير نحوه .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال : سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قوله : " ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ قال : " خضراوان " .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ نَضَّاخَتَانِ ﴾ قال : فائضتان .

وأخرج عبد بن حميد عنه قال : ينضخان بالماء .

(80/741)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ خيرات حِسَانٌ ﴾ قال : لكل مسلم خيرة ، ولكل خيرة خيمة ، ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها من الله كل يوم تحفة وكرامة وهدية لم تكن قبل ذلك ، لا مراحات ولا طماحات ، ولا بخرات ولا دفرات ، حور عين كأنهن بيض مكنون .

وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعاً .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ حُورٌ ﴾ قال : بيض ﴿ مقصورات ﴾ قال : محبوسات ﴿ فِى الخيام ﴾ قال : في بيوت اللؤلؤ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم قال : الحور سود الحدق .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " الخيام درّ مجوّف " وأخرج البخاريّ ، ومسلم ، وغيرهما عن أبي موسى الأشعري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " الخيمة درّة مجوّفة طولها في السماء ستون ميلاً ، في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون يطوف عليهم المؤمن " وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ ﴾ قال : فضول المحابس والفرش والبسط .

وأخرج عبد بن حميد عن عليّ بن أبي طالب قال : هي فضول المحابس .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن المنذر ، والبيهقي في البعث من طرق عن ابن عباس ﴿ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ قال : المحابس ﴿ وَعَبْقَرِىّ حِسَانٍ ﴾ قال : الزرابي .

وأخرج عبد بن حميد عنه في الآية قال : الرّفرف : الرّياض ، والعبقريّ : الزرابي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 140.146 ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » . .

أي ومن دون هاتين الجنتين اللتين ذكرهما الله سبحانه وتعالى فى قوله جلّ شأنه : « وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ » . أي ومن دون هاتين الجنتين جنتان أخريان ، أنزل منهما درجة ، وأدنى منزلة ، وإن كان ما فيهما من النعيم ممّا لا يحيط به وصف ، وإن القطرة منه لتوازى ما عرف الناس جميعا من نعيم الدنيا . .

وهذا يعنى أن أهل الجنة ليسوا على درجة واحدة . . وهذا طبيعى ، إذ لم يكن المحسنون على درجة سواء فى الإحسان . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ » (163 : آل عمران) وقد جاء بيان ذلك فى سورة « الواقعة » التالية لهذه السورة ، وفيها يقول سبحانه : « وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ » (7 - 11 : الواقعة) . . فالناس فى الآخرة ، على ثلاثة أحوال : أصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، والسابقون من أصحاب اليمين وكل حال من تلك الأحوال الثلاثة درجات كثيرة ، يختلف بعضها عن بعض ، صعودا ونزولا . .

وقوله تعالى : « فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » . إشارة إلى أن هاتين الجنتين ، مجردتين من أي

وصف ، هما نعم جليلة من نعم اللّه ، لمن ظفر بدخولهما . . « فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ » (185 : آل عمران) . . وأي فوز أعظم من النجاة من النار ، ولو كان فى الحياة بالعراء ؟ فكيف بالنجاة من

(82/741)

النار ، ثم دخول الجنة ، والفوز بنعيمها ؟

قوله تعالى : « مُدْهامَّتانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » . .

هذا وصف لما فى هاتين الجنتين من أشجار ، وهى أشجار متشابكة الأفنان ، وإن لم يكن فى ظلها هذا الصفاء البلورى . وإنما فى ظلها شىء من الكثافة التي تجعل الظل ذا لون أدهم ، كلون الشفق عند الغروب . . وهذا الظل هو نعمة ، بل نعم تضاف إلى هاتين الجنتين ، وتستوجب الحمد والشكر ان للّه رب العالمين . .

قوله تعالى : « فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » . .

النضخ ، والنضح ، بمعنى ، إلا أن النضخ أكثر إعطاء للماء من النضح . .

كما يشعر بذلك ثقل الخاء ، وخفة الحاء ، فعلى مقدار وزن كل منهما يكون قدر كلّ من النضخ والنضح من الماء . .

أي أن فى هاتين الجنتين عينى ماء تضخان الماء ضخا ، فى دفعات متتالية ، ولا ترسلانه متدفقا كهاتين العينين اللتين فى الجنتين السابقتين ، كما يقول سبحانه :

« فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ » . .

وليس هذا عن ضنّ من اللّه سبحانه وتعالى ، تعالى اللّه عن ذلك علوّا كبيرا ، وإنما هو عطاء يفرّق فيه بين أهل الإحسان ، حيث ينزل كل منهما منزله الذي هو أهل له ، وذلك هو عدل اللّه ، الذي يجرى مع إحسانه ، ويضبط موازينه . .

(83/741)

قوله تعالى : « فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » . .

وهذا فرق آخر بين الجنتين العاليتين ، وبين الجنتين اللتين دونهما ، وذلك فى ثمار الجنتين ، هنا وهناك . . فالجنتان العاليتان « فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ » . .

فهما يحويان كل فاكهة معروفة وغير معروفة ، مما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بشر « مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ » .

. وهاتان الجنتان الأخريان « فِيهِما فاكِهَةٌ . . وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » إن فيهما فاكهة ، ولكن لا على سبيل الشمول ، كما فى وصف الجنتين العاليتين فى قوله تعالى : « فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ

» .

. ومن فاكهتهما النخل والرمان . . ومع أن ثمر النخل والرمان ليس أكرم الثمر ولا أطيبه ، ولكنه إذا كان من ثمر الجنة ، فهو من الطّيب والكرم ، بحيث تعدل الثمرة منه فواكه الدنيا وثمرها جميعا . .

قوله تعالى : « فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » . .

أي فى هاتين الجنتين خيرات ، ومع أن الخيرات مستغنية عن الوصف بذاتها ، لأنها خيرات لا يجىء منها إلا كل ما هو خير ، فقد وصفت بأنها حسان ، تحقيقا لكمال الخيرية فيها ، ومحضها للخير الخالص ، وعزلها عن الخير الذي يشوبه شىء مما يكدّر صفوه ، إذ كثيرا ما يشوب الخير ما ليس منه . . ولهذا كانت هذه الخيرات الحسان التي تطلع على أصحاب هاتين الجنتين - آلاء تحمد وتشكر ، على أية صورة كانت عليها ، وعلى أي وجه تجىء به ، وحسبها أنها خيرات ، وخيرات حسان ! ! يكرم اللّه سبحانه بها ، المكرمين من عباده . .

(84/741)

قوله تعالى : « حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » . .

فإذا انكشف وجه هذه الخيرات الحسان ، كنّ حورا مقصورات فى الخيام . . يقابلن هؤلاء الحور اللائي فى الجنتين العاليتين واللاتي ذكرهن اللّه سبحانه وتعالى فى قوله : « فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ » .

. وإنه لفرق بين هؤلاء وأولئك ، وإن كن جميعا على صورة من الحسن والجمال لم تقع العين على مثلها . .

ففى قوله تعالى : فى حور الجنتين العاليتين « قاصِراتُ الطَّرْفِ » إشارة إلى ما فى هؤلاء الحوريات من خفر ، وحياء ، وعفة ، وأن ذلك فى أصل خلقهن . . وفى قوله تعالى : فى حور الجنتين الأخريين : « حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ » . إشارة إلى أن هؤلاء الحوريات قد قصرتهن الخيام وحجبتهن عن العيون ، وحجبت العيون عنهن . . وهذا لا يمنع من أن يكون لهن ما لأخواتهن من الخفر والحياء . .

ولكن شتان بين خفر وحياء مطلقين ، وخفر وحياء مقصورين ، مقيدين . . ذاك قد امتحن وجرب ، فظل ثابتا ، لم تنل منه التجربة والامتحان ، وهذا لم يمتحن ولم يجرب بعد ! .

وقوله تعالى : « حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ » هو بدل مبيّن لقوله تعالى : « خَيْراتٌ حِسانٌ

» فالخيرات الحسان ، هن أولئك الحور المقصورات فى الخيام . .

والحور : جمع حوراء ، وهى ما طاف بمقلتيها طائف من السواد

(85/741)

الطبيعي ، أشبه بالكحل ، يزيد العيون حسنا ، ويلقى عليها فتنة وسحرا . .

يقول جرير :

إن العيون التي فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق اللّه إنسانا !

قوله تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » .

مضى تفسير هذه الآية فيما سبق . .

قوله تعالى : « مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » . .

هو مقابل لقوله تعالى فى وصف حال أهل الجنتين العاليتين : « مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ » . .

الرفرف : المسند ، ووصف بلفظ الجمع « خضر » . إشارة إلى أن لكل من أهل الجنة مسندا خاصا يتكىء عليه . . والمساند جميعها ذات لون واحد . . فهى مفردة فى

صفوفها ، جمع فى لونها . .

والعبقرىّ : الجيد من البسط : الخارق للعادة فى دقة صنعه . .

والعبقري : نسبة إلى « عبقر » . وهو واد كانت العرب تعتقد فى جاهليتها أنه موطن الجن ، وإلى الجن تنسب الأعمال الخارقة التي تتجاوز حدود الطاقة البشرية ، ومنه سمى « العبقري » وهو الذي يجىء فى أفعاله بالخارق والمعجز لغيره .

وهنا فرق آخر يظهر فى متّكأ أصحاب كلّ من الجنتين العاليتين ، والجنتين الواقعتين تحتهما . .

(86/741)

فعلى حين يتكىء أصحاب الجنتين الأوليين على فرش بطائنها من ديباج ، وحشوها من حرير ، وعلى حين أن هذا الاتكاء لا يباعد بينهم وبين ثمر الجنة الذي يكون بين أيديهم فى أي وضع يكونون عليه ، كما يقول سبحانه : « مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ » . يكون متكأ أصحاب الجنتين الأخريين على رفارف أي مساند خضر ، لم تعرف المادة المشكلة منها . . أهى حرير أم غير حرير ، وإن عرف أن هذه المساند مبثوثة على بسط حسان ، كما لم يعرف إن كان هذا الاتكاء يباعد بين المتكئين

وبين ثمر الجنة ، فلا تناله أيديهم إلا إذا غيروا من وضعهم ، واعتدلوا فى جلستهم . . أم أنهم ينالونه من قريب ؟ .

ونعود مرة أخرى فنقول ، إن هذه التفرقة بين حال أصحاب الجنة ، هى أمر لازم ، يقضى به عدل اللّه ، فكما فرق هذا العدل بين المحسنين والمسيئين ، فأنزل هؤلاء الجنة ، وأنزل أولئك النار ـ كذلك فرق هذا العدل بين المحسنين أنفسهم ، فأخذ كلّ منهم منزلته حسب إحسانه . . وبهذا يعمل المحسنون على أن يزدادوا إحسانا . حتى لا يقصّر بهم سعيهم ، ويسبقهم السابقون إلى الدرجات العلا . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا » (132 : الأنعام) .

قوله تعالى : « تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » .

وبهذه الآية الكريمة ، تختم السورة الكريمة ، حيث يلتقى ختامها مع بدئها هذا اللقاء المبارك الميمون الذي يزاوج بين رحمة الرحمن ، وكرم الكريم . . فلقد بدئت السورة بالاسم الجليل « الرحمن » .

. وختمت بالتبريك لهذا الاسم العظيم ، الذي يتجلى على عباده بجلاله ، وعظمته وكرمه ! .

فالاسم المشار إليه فى قوله تعالى : « تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ » هو هذا الاسم الكريم « الرحمن » الذي بدئت به السورة ، والذي عرضت فيه آياتها آلاء اللّه ونعمه التي أفاضها على عباده ، وكان من حق كل نعمة منها أن يلقاها الثقلان بالحمد والشكر ، وإن كان حمدهما وشكرهما لا يقوم بحق نعمة منها . .

ولهذا كان اللّه سبحانه وتعالى هو الذي بارك نفسه ، وحمد ذاته ، ليجبر تقصير العباد ، وليؤدى عنهم هذا الدّين الذي عجزوا عن أدائه ، حتى لا يقطع عنهم أمداد هذه النعم ، ولا يأخذهم بعجزهم وتقصيرهم عن أداء حق شكرها وحمدها . . فسبحانه ، سبحانه ، من رب رحمن ، رحيم ، كريم . . يوالى النعم على عباده ، ثم يقوم عنهم بأداء الشكر عليها ، والحمد لها . .

يقول الإمام النسفي : كررت هذه الآية - أي « فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ » إحدى وثلاثين مرة ، ذكر ثمانية منها عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق اللّه وبدائع صنعه ، ومبدأ الخلق ومعادهم ، ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها ، على عدد أبواب جهنم ، وبعد هذه السبعة ، ثمانية فى وصف الجنتين وأهلهما على عدد أبواب الجنة ، وثمانية أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما ، فمن اعتقد الثمانية الأولى (أي المذكورات فى أول

السورة) وعمل بموجبها فتحت له أبواب الجنة ، وأغلقت عنه أبواب جهنم ، نعوذ بالله منها . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 14 صـ 696.702 ﴾

(88/741)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (62) ﴾

عطف على قوله : ﴿ جنتان ﴾ [الرحمن : 46] ، أي ومن دون تينك الجنتين جنتان ، أي لمن خاف مقام ربه .

ومعنى ﴿ من دونهما ﴾ يحتمل أن (دون) بمعنى (غير) ، أي ولمن خاف مقام ربه جنتان وجنتان أخريان غيرهما ، كقوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ [يونس : 26] .

ووُصف ما في هاتين الجنتين بما يقارب ما وصف به ما في الجنتين الأوليين وصفاً سُلك فيه مسلك الإِطناب أيضاً لبيان حسنهما ترغيباً في السعي لنيلهما بتقوى الله تعالى فذلك موجب تكرير بعض الأوصاف أو ما يقرب من التكرير بالمترادفات .

ويكون لكل الجنات الأربع حُور مقصورات لا ينتقلن من قصورهن ، ويجوز أن تكون (دون

) بمعنى أقل ، أي لنزول المرتبة ، أي ولمن خاف مقام ربه جنتان أقلّ من الأولين فيقتضي ذلك أن هاتين الجنتين لطائفة أخرى ممن خافوا مقام ربهم هم أقل من الأولين في درجة مخافة الله تعالى .

ولعل هاتين الجنتين لأصحاب اليمين الذين ورد ذكرهم في سورة الواقعة والجنتين المذكورتين قبلهما في قوله : ﴿ جنتان . . .

ذواتا أفنان ﴾ [الرحمن : 46 ، 48] إلى آخر الوصف جنتا السابقين الوارد ذكرهم قوله في سورة الواقعة (10) ﴿ والسابقون السابقون ﴾ الآيات .

ومدهامتان ﴾ وصف مشتق من الدُّهمة بضم الدال وهي لون السواد .

ووصف الجنتين بالسواد مبالغة في شدة خضرة أشجارهما حتى تكونا بالتفاف أشجارها وقوة خضرتها كالسوداوين لأن الشجر إذا كان ريّان اشتدت خضرة أوراقه حتى تقرب من السواد ، وقد أخذ هذا المعنى أبو تمام وركَّب عليه فقال:

يا صاحبيَّ تقصَّيَا نَظَريكُما . . .

تَريا وجوهَ الأرض كيف تَصوَّر

تريا نهاراً مشمِساً قد شابَهُ . . .

زَهْرُ الرُّبى فكأنما هو مقمر

و﴿ نضاختان ﴾ : فوّارتان بالماء ، والنضخ بخاء معجمة في آخره أقوى من النضح بالحاء المهملة الذي هو الرَّش .

(89/741)

وقد وصف العينان هنا بغير ما وصف به العينان في الجنتين المذكورتين ، فقِيل : هما صنفان مختلفان في أوصاف الحسن يُشير اختلافهما إلى أن هاتين الجنتين دون الأولَيْن في المحاسن ولذلك جاء هنا ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ ، وجاء فيما تقدم ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ [الرحمن : 52] .

وقيل : الوصفان سواء ، وعليه فالمخالفة بين الصنفين من الأوصاف تفنّن .

وعطف ﴿ ونخل ورمان ﴾ على ﴿ فاكهة ﴾ من باب عطف الجزئي على الكلّي تنويهاً ببعض أفراد الجنتين كما قال تعالى : ﴿ وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ في سورة البقرة (98) .

وجاءت جمل فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ معترضات بين ﴿ جنتان ﴾ وصفاتها اعتراضاً للازدياد من تكرير التقرير والتوبيخ لمن حرموا من تلك الجنات .

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (70) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (71)

ضمير ﴿ فيهن ﴾ عائد إلى الجنات الأربع الجنتين الأوليين والجنتين اللتين من دونهما فيجوز أن يكون لصاحب الجنتين الأُولَيْن جنتان أخريان فصارت له أربع جنات .

ويجوز أن يكون توزيعاً على من خافوا ربهم كما تقدم .

و ﴿ وخيرات ﴾ صفة لمحذوف يناسب صيغة الوصف ، أي نساء خَيْرات ، وخيرات مخفف من خيرات بتشديد الياء مؤنث خيّر وهو المختص بأن صفته الخير ضد الشر .

وخفف في الآية طلباً لخفة اللفظ مع السلامة من اللبس بما أتبع به من وصف ﴿ حسان ﴾ الذي هو جمع حسناء كما خفف هين ولين في قول الشاعر :

هَيْنُون لَيْنُون . . .

ومعنى ﴿ خيرات ﴾ أنهن فاضلات النفس كرائم الأخلاق .

ومعنى حِسان : أنهم حسان الخَلْق ، أي صفات الذوات .

و ﴿ حور ﴾ بدل من ﴿ خيرات ﴾ .

والحُور : جمع حَوراء وهي ذات الحَوَر بفتح الواو ، وهو وصف مركب من مجموع شدة بياض أبيض العين وشدة سواد أسودها وهو من محاسن النساء ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ في سورة الدخان (54) .

ووصف نساء الجنتين الأوليين بقاصرات الطرف ﴾ .

ووصف نساء الجنات الأربع بأنهن ﴿ حور مقصورات ﴾ في الخيام ، فعلم أن الصفات الثابتة لنساء الجنتين واحدة .

والمقصورات : اللاَّءِ قُصِرت على أزواجهن لا يعدون الأنس مع أزواجهن ، وهو من صفات الترف في نساء الدنيا فهنّ اللاء لا يحتجن إلى مغادرة بيوتهن لخدمة أو وِرد أو اقتطاف ثمار ، أي هن مخدومات مكرمات كما قال أبو قيس بن الأسلت:

ويكرمها جاراتها فيزرْنَها . . .

وتَعْتَلَّ عن إتيانهن فتُعذر

والخيام : جمع خَيمة وهي البيت ، وأكثر ما تقال على البيت من أدم أو شعر تقام على العَمَد وقد تطلق على بيت البناء .

واعترض بجملة ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ بين البدل والمبدل منه وبين الصفتين لقصد التكرير في كل مكان يقتضيه .

وتقدم القول في ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ آنفاً (56) .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (75)

تكرير في آخر الأوصاف لزيادة التقرير والتوبيخ .

مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (76)

و﴿ متكئين ﴾ : حال من ﴿ ولمن خاف مقام ربه ﴾ كررت بدون عطف لأنها في مقام تعداد النعم وهو مقام يقتضي التكرير استئنافاً .

والرفرف : ضرب من البسط ، وهو اسم جمع رَفرفة ، وهي ما يبسط على الفراش ليُنام عليه ، وهي تنسج على شبه الرياض ويغلب عليها اللون الأخضر ، ولذلك شبه ذو الرمة الرياض بالبسط العبقرية في قوله:

حتّى كأنَّ رياض القُف ألبسَها . . .

مِن وَشْي عَبقَرَ تجْليل وتنجيد

فوصفها في الآية بأنها ﴿ خضر ﴾ وصف كاشف لاستحضار اللون الأخضر لأنه يسرّ الناظر .

وكانت الثياب الخضر عزيزة وهي لباس الملوك والكبراء ، قال النابغة:

يصونون أجساداً قديماً نعيمُها . . .

بخالصة الأرْدَان خُضْرِ المناكب

وكانت الثياب المصبوغة بالألوان الثابتة التي لا يزيلها الغسل نادرة لقلة الأصباغ الثابتة ولا تكاد تعدو الأخضر والأحمر ويسمّى الأرجواني .

وأما المتداول من إصباغ الثياب عند العرب فهو ما صُبغ بالورس والزعفران فيكون أصفر ، وما عدا ذلك فإنما لونه لون ما ينسج منه من صوف الغنم أبيض أو أسود أو من وبر أو من كتان أبيض أو كان من شَعَر المعز الأسود .

و﴿ حسان ﴾ : جمع حسناء وهو صفة ل ﴿ رفرف ﴾ إذ هو اسم جمع .

وعبقري : وصف لما كان فائقاً في صنفه عزيز الوجود وهو نسبة إلى عبقر بفتح فسكون ففتح اسم بلاد الجنّ في معتقد العرب فَنَسَبوا إليه كل ما تجاوز العادة في الإِتقان والحسن ، حتى كأنه ليس من الأصناف المعروفة في أرض البشر ، قال زهير:

بِخَيْل عليها جِنة عبقرية . . .

جديرون يوماً أَن ينَالوا ويسْتَعْلُوا

فشاع ذلك فصار العبقري وصفاً للفائق في صنفه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما حكاه من رؤيا القليب الذي استسقَى منه " ثم أخذها (أي الذَنوبَ) عُمر فاستحالت غَرباً فلم أَرَ عَبقَرِيًّا يَفري فَرِيَّة " .

وإلى هذا أشار المعري بقوله:

وقد كان أرباب الفصاحة كلما . . .

رَأوا حَسَناً عَدُّوه من صنعَة الجن

فضربه القرآن مثلاً لما هو مألوف عند العرب في إطلاقه .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (77)

هذه الجملة آخر الجمل المكررة وبها انتهى الكلام المسوق للاستدلال على تفرد الله بالإنعام والتصرف .

تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (78)

إيذان بانتهاء الكلام وفذلكة لما بنيت عليه السورة من التذكير بعظمة الله تعالى ونعمائه في الدنيا والآخرة .

والكلام : إنشاء ثناء على الله تعالى مبالغ فيه بصيغة التفعل التي إذا كان فعلها غير صادر من اثنين فالمقصود منها المبالغة .

والمعنى : وصفه تعالى بكمال البركة ، والبركة : الخير العظيم والنفع ، وقد تطلق البركة على علو الشأن ، وقد تقدم ذلك في أول سورة الفرقان .

(92/741)

والاسم ما دل على ذات سواء كان علَماً مثل لفظ "الله" أو كان صفة مثل الصفات العُلى وهي الأسماء الحسنى ، فأيّ اسم قدرت من أسماء الله فهو دال على ذات الله تعالى .

وأسند ﴿ تبارك ﴾ إلى ﴿ اسم ﴾ وهو ما يُعرف به المسمى دون أن يقول : تبارك ربك ، كما قال : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان ﴾ [الفرقان : 1] وكما قال : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] لقصد المبالغة في وصفه تعالى بصفة البركة على طريقة الكناية لأنها أبلغ من التصريح كما هو مقرر في علم المعاني ، وأطبق عليه البلغاء لأنه إذا كان اسمه قد تبارك فإن ذاته تباركت لا محالة لأن الاسم دال على المسمى ، وهذا على طريقة قوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] فإنه إذا كان التنزيه متعلقاً باسمه فتعلق التنزيه بذاته أَولى ومنه قوله تعالى : ﴿ وثيابك فطهر ﴾ [المدثر : 4] على التأويل الشَّامل ، وقول عنترة:

فشككت بالرمح الأصمّ ثيابه . . .

ليسَ الكريم على القنا بمحرم

أراد : فشككْتُهُ بالرمح .

وأما قوله : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ [الواقعة : 96] فهو يحتمل أن يكون من قبيل ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ [النصر : 3] على أن المراد أن يقول كلاماً فيه تنزيه الله فيكون من قبيل قوله : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ [الفاتحة : 1] ويحتمل زيادة الباء فيكون مساوياً لقوله : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] .

وهذه الكناية من دقائق الكلام كقولهم : لا يتعلق الشك بأطرافه وقول . . . :

يبيت بنجاةٍ من اللؤم بيتُها . . .

إذا ما بيوت بالملامة حُلّت

ونظير هذا في التنزيه أن القرآن يَقْرأ ألفاظه من ليس بمتوضىء ولا يمسك المصحف إلا المتوضىءُ عند جمهور الفقهاء .

(93/741)

فذكر ﴿ اسم ﴾ في قوله : ﴿ تبارك اسم ربك ﴾ مراعىً فيه أن ما عُدّد من شؤون الله تعالى ونعمه وإفضاله لا تحيط به العبارة ، فعبّر عنه بهذه المبالغة إذ هي أقصى ما تسمح به اللغة في التعبير ، ليعلم الناس أنهم محقوقون لله تعالى بشكرٍ يوازي عظم نعمه عليهم .

وفي استحضار الجلالة بعنوان (رب) مضافاً إلى ضمير المخاطب وهو النبي صلى الله عليه وسلم إشارة إلى ما في معنى الرب من السيادة المشوبة بالرأفة والتنمية ، وإلى ما في الإضافة من التنويه بشأن المضاف إليه وإلى كون النبي صلى الله عليه وسلم هو الواسطة في حصول تلك الخيرات للذين خافوا مقام ربهم بما بلغهم النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى .

وقرأ الجمهور ﴿ ذي الجلال ﴾ بالياء مجروراً صفة ل ﴿ ربك ﴾ وهو كذلك مرسوم في

غير المصحف الشامي .

وقرأه ابن عامر ﴿ ذو الجلال ﴾ صفة ل ﴿ اسم ﴾ كما في قوله : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : 27] .

وكذلك هو مرسوم في غير مصحف أهل الشام .

والمعنى واحد على الاعتبارين .

ولكن إجماع القراء على رفع ﴿ ذو الجلال ﴾ الواقع موقع ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ واختلاف الرواية في جرّ ﴿ ذي الجلال ﴾ هنا يشعر بأن لفظ ﴿ وجه ﴾ أقوى دلالة على الذات من لفظ ﴿ اسم ﴾ لما علمت من جواز أن يكون المعنى جريان البركة على التلفظ بأسماء الله بخلاف قوله : ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ فذلك من حكمة إنزال القرآن على سبعة أحرف .

والجلال : العظمة ، وهو جامع لصفات الكمال اللائقة به تعالى .

والإكرام : إسداء النعمة والخير ، فهو إذن حقيق بالثناء والشكر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(94/741)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ﴾

وقال تعالى فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة وذكر هشام عن أبي بشر عن سعد بن جبير قال الرفرف رياض الجنة والعبقري عتاق الزرابي وذكر إسماعيل بن علية عن أبي رجاء عن الحسن في قوله تعالى متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان قال هي البسط قال وأهل المدينة يقولون هي البسط وأما النمارق فقال الواحدي هي الوسائد في قول الجميع وأحدها بضم النون وحكى الفراء نمرقة بكسرها وأنشد أبو عبيدة

إذا ما بساط الله ومد وقربت . . . للذاته أنماطه ونمارقه

قال الكلبي وسائد مصفوفة بعضها إلي بعض وقال مقاتل هي الوسائد مصفوفة على الطنافس وزرابي بمعنى البسط والطنافس وأحدها زربية في قول جميع أهل اللغة والتعبير ومبثوثة مبسوطة منشورة فصل

وأما الرفرف فقال الليث ضرب من الثياب خضر تبسط الواحد رفرفة وقال أبو عبيدة الرفارف البسط وأنشد لابن مقبل

وأنا لنازلون تغشى نعالنا . . . سواقط من أصناف ريط ورفرف

وقال أبو إسحاق قالوا الرفرف ههنا رياض الجنة وقالوا الرفرف الوسائد وقالوا الرفرف المحابس وقالوا فضول المحابس للفرش وقال المبرد هو فضول الثياب التي تتخذ الملوك في الفرش وغيره وقال الواحدي وكان الأقرب هذا لأن الغرب تسمى كسر الخباء والخرقة التي تخاط في أسفل الخباء رفرفا ومنه الحديث في وفاة النبي فرفع الرفرف فرأينا وجهه كأنه ورقة قال إبن الأعرابي الرفرف ههنا طرف البساط فشبه ما فضل من المحابس عما تحته بطرف الفسطاط فسمى رفرف قلت أصل هذه الكلمة من الطرف أو الجانب فمنه الرفرف في الحائط ومنه الرفرف وهو كسر الخباء وجوانب الدرع وما تدلى منها الواحدة رفرفة ومنه رفرف الطير إذا حرك جناحه حول الشيء يريد أن يقع عليه والرفرف ثياب خضر يتخذ منها المحابس الواحدة رفرفة وكل ما فضل من شيء فثنى وعطف فهو رفرف وفي حديث ابن مسعود في قوله عز وجل لقد رأى من آيات ربه الكبرى قال رأى رفرفا أخضر سد الأفق وهو في الصحيحين فصل

وأما العبقري فقال أبو عبيدة كل شيء من البسط عبقري قال ويرون أنها أرض توشى فيها وقال الليث عبقر موضع بالبادية كثير الجن يقال كأنهم جن عبقر قال أبو عبيدة في حديث

النبي ذكر عمر فلم أر

عبقريا يفري فرية وأنما أصل هذا فيما يقال إنه نسب إلى عبقر وهي أرض يسكنها الجن

فصار مثلا منسوبا إلى شيء رفيع وأنشد لزهير

نخال عليها جبة عبقرية . . . جديرون يوما أن ينالوا فيستعلوا

وقال ابو الحسن الواحدي وهذا القول هو الصحيح في العبقري وذلك أن العرب إذا بالغت

في وصف شيء نسبته إلى الجن أو شبهته بهم ومنه قول لبيد جن الندا رواسيا أقدامها

وقال آخر يصف امرأة

جنية ولها جن يعلمها . . . رمي القلوب بقوس ما لها وتر

(96/741)

وذلك أنهم يعتقدون في الجن كل صفة عجيبة وأنهم يأتون بكل أمر عجيب ولما كان عبقر

معروفا بسكناهم نسبوا كل شيء يبالغ فيه إليها يريدون بذلك أنه من عملهم وصنعهم هذا

هو الأصل ثم صار العبقري اسما ونعتا لكل ما بولغ في صفته ويشهد لما ذكرنا بيت زهير

فإنه نسب الجن إلى عبقر ثم راينا أشياء كثيرة نسبت إلى عبقر غير البسط والثياب كقوله في

صفة عمر عبقريا وروى سلمة عن الفراء قال العبقري السيد من الرجال وهو الفاخر من

الحيوان والجوهر فلو كانت عبقر مخصوصة بالوشى لما نسب إليها غير الموشى وإنما ينسب إليها البسط الموشية العجيبة الصنعة كما ذكرنا كما نسب إليها كل ما بولغ في وصفة قال ابن عباس وعبقري يريد البسط الطنافس وقال الكلبي هي الطنافس المجملة وقال قتادة هي عتاق الزرابي وقال مجاهد الديبا 4ج الغليظ وعبقري جمع واحده عبقرية ولهذا وصف بالجمع فتأمل كيف وصف الله سبحانه وتعالى الفرش بأنها مرفوعة والزرابي بأنها مبثوثة والنمارق بأنها مصفوفة فرفع الفرش دال على سمكها ولينها وبث الزرابي دال على كثرتها وأنها في كل موضع لا يختص بها صدر المجلس دون مؤخره وجوانبه وصف المساند يدل على أنها مهيأة للاستناد إليها دائما ليست مخبأة تصف في وقت دون وقت والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حادى الأرواح صـ 207 . 209 ﴾

(97/741)

فائدة في أسماء الجنة ومعانيها واشتقاقها ولها عدة

أسماء باعتبار صفاتها ومسماها واحد باعتبار الذات فهي مترادفة من هذا الوجه وتختلف باعتبار الصفات فهي متباينة من هذا الوجه وهكذا أسماء الرب سبحانه وتعالى وأسماء كتابه وأسماء رسله وأسماء اليوم الآخر وأسماء النار

الاسم الأول الجنة وهو الاسم العام المتناول لتلك الدار وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور وقرة الأعين واصل اشتقاق هذه اللفظة من الستر والتغطية ومنه الجنين لاستتاره في البطن والجان لاستتاره عن العيون والمجن لستره ووقايته الوجه والمجنون لاستتار عقله وتواريه عنه والجان وهي الحية الصغيرة الرقيقة ومنه قول الشاعر

فذقت وجلت وأبكرت . . . وأكملت فلو جن إنسان من الحسن جنت

أي لو غطى وستر عن العيون لفعل بها ذلك ومنه سمى البستان جنة لأنه يستر داخله بالأشجار ويغطيه ولا يستحق هذا الاسم إلا موضع كثير الأشجار مختلف الأنواع والجنة بالضم ما يستجن به من ترس أو غيره ومنه قوله تعالى أتخذوا أيمانهم جنة أي يستترون بها من إنكار المؤمنين عليهم ومنه الجنة بالكسر كما قال تعالى من الجنة والناس وذهبت طائفة من المفسرين إلى أن الملائكة يسمون جنة واحتجوا بقوله تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا قالوا وهذا النسب قولهم الملائكة بنات الله ورجحوا هذا القول بوجهين

أحدهما إن النسب الذي جعلوه إنما زعموا أنه بين الملائكة وبينه ولا بين الجن وبينه

الثاني قوله تعالى ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون أي قد علمت الملائكة أن الذين قالوا هذا القول محضرون للعذاب والصحيح خلاف ما ذهب إليه هؤلاء وإن الجنة هم الجن نفسهم كما قال تعالى من الجنة والناس وعلى هذا ففي الآية قولان أحدهما قول مجاهد قال قالت كفار قريش الملائكة بنات الله فقال لهم ابو بكر فمن أمهاتهم قالوا سروات الجن وقال الكلبي قالوا تزوج من الجن فخرج من بينهما الملائكة وقال قتادة قالوا صاهر الجن فخرج من بينهما الملائكة وقال قتادة قالوا صاهر الجن والقول الثاني هو قول الحسن قال أشركوا الشياطين في عبادة الله فهو النسب الذي جعلوه والصحيح قول مجاهد وغيره وما احتج به أصحاب القول الأول ليس بمستلزم لصحة قولهم فإنهم لما قالوا الملائكة بنات الله وهم من الجن عقدوا بينه وبين الجن نسبا بهذا الإيلاد وجعلوا هذا النسب متوالد بينه وبين الجن وأما قوله ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون فالضمير يرجع إلى الجنة أي قد علمت الجنة أنهم لمحضرون الحساب قاله مجاهد أي لو كان بينه وبينهم نسب لم يحضروا للحساب كما قال تعالى وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم فجعل سبحانه عقوبتهم بذنوبهم وإحضارهم للعذاب مبطلا لدعواهم الكاذبة وهذا التقدير في الاية أبلغ في إبطال قولهم من التقدير الأول فتأمله والمقصود ذكر أسماء الجنة فصل

الاسم الثاني دار السلام وقد سماها الله بهذا الاسم في قوله لهم دار السلام عند ربهم وقوله والله يدعوا إلى دار السلام وهي احق بهذا الاسم فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه وهي دار الله واسمه سبحانه وتعالى السلام الذي سلمها وسلم اهلها وتحيتهم فيها سلام والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم والرب تعالى يسلم عليكم من فوقهم كما قال تعالى لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولا من رب رحيم وسيأتي حديث جابر في سلام الرب تبارك وتعالى عليهم في الجنة وكلامهم كلهم فيها سلام أي لا لغو فيها ولا فحش ولا باطل كما قال تعالى لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما واما قوله تعالى واما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من اصحاب اليمين فأكثر المفسرون حاموا حول المعنى وما وردوه وقالوا أقوالا لا يخفى بعدها عن المقصود وإنما معنى الآية والله أعلم فسلام لك ايها الراحل عن الدنيا حال كونك من أصحاب اليمين

أي فسلامه لك كائنا من أصحاب اليمين الذين سلموا من الدنيا وإنكارها ومن النار وعذابها فبشر بالسلامة عند ارتحاله من الدنيا وقدومه على الله كما يبشر الملك روحه عند أخذها بقوله ابشري بروح وريحان ورب غير غضبان وهذا أول البشرى التي للؤمن في الآخرة فصل

الاسم الثالث دار الخلد وسميت بذلك لأن أهلها لا يظعنون عنها أبدا كما قال تعالى عطاء غير مجذوذ وقال إن هذا لرزقنا ما له من نفاذ وقال أكلها دائم وظلها وقال وما هم منها بمخرجين وسيأتي إبطال قول من قال من الجهمية والمعتزلة بفنائها أو فناء حركات أهلها أن شاء الله تعالى فصل الاسم الرابع دار المقامة قال تعالى حكاية عن أهلها وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن أن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب قال مقاتل أنزلنا دار الخلود أقاموا فيها ابدا لا يموتون ولا يتحولون منها أبدا قال الفراء والزجاج المقامة مثل الإقامة يقال أقمت بالمكان إقامة ومقامة ومقاما فصل

الاسم الخامس جنة المأوى قال تعالى عندها جنة المأوى والمأوى مفعل من أوى يأوي إذا انضم إلى المكان وصار إليه واستقر به وقال عطاء عن ابن عباس هي الجنة التي يأوي إليها جبريل والملائكة وقال مقاتل والكلبي هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء وقال كعب جنة المأوى جنة فيها طير خضر ترتع فيها أرواح الشهداء وقالت عائشة رضي الله عنها وزر بن حبيش هي جنة من الجنان والصحيح أنه اسم من أسماء الجنة كما قال تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى وقال في النار فإن الجحيم هي

المأوى وقال ومأواكم النار

فصل

(101/741)

الاسم السادس جنات عدن فقيل هي اسم لجنة من الجنان والصحيح أنه اسم لجنة الجنان وكلها جنات عدن قال تعالى جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب وقال تعالى جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير وقال تعالى ومساكن طيبة في جنات عدن والاشتقاق يدل على أن جميعها جنات عدن فإنه من الإقامة والدوام يقال عدن بالمكان إذا أقام به وعدنت البلد توطنته وعدنت الإبل بمكان كذا لزمته فلم تبرح منه قال الجوهري ومنه جنات عدن أي إقامة ومنه سمى المعدن بكسر الدال لأن الناس يقيمون فيه الصيف والشتاء ومركزه كل شيء معدنه والعادن الناقة المقيمة في المرعى فصل

(102/741)

الاسم السابع دار الحيوان قال تعالى وإن الدار الآخرة لهي الحيوان والمراد الجنة عند أهل التفسير قالوا وأن الآخرة يعني الجنة لهي الحيوان لهي دار الحياة التي لا موت فيها فقال الكلبي هي حياة لا موت فيها قال وقال الزجاج هي دار الحياة الدائمة وأهل اللغة على أن الحيوان بمعنى الحياة قال أبو عبيدة وأبن قتيبة الحياة الحيوان قال أبو عبيدة الحياة والحيوان والحي بكسر الحاء واحد قال أبو علي يعني أنها مصادر فالحياة فعلة كالجلبة والحيوان كالنزوان والغليان والحي كالعي قال العجاج كنا بها إذا الحياة حي . . . أي إذا الحياة حياة وأما أبو زيد فخالفهم وقال الحيوان ما فيه روح والموتان والموات ما لا روح فيه والصواب أن الحيوان يقع على ضربين أحدهما مصدر كما حكاه أبو عبيدة والثاني وصف كما حكاه أبو زيد وعلى قول أبي زيد الحيوان مثل الحي خلاف الميت ورجح القول الأول بأن الفعلان بابه المصادر كالنزوان والغليان بخلاف الصفات فإن بابها فعلان كسكران وغضبان واجاب من رجح القول الثاني بإن فعلان قد جاء في الصفات أيضا قالوا رجل ضميان للسريع الخفيف وزفيان قال في الصحاح ناقة رفيان سريعة وقوس زفيان سريعة الارسال للسهم فيحتمل قوله تعالى وإن الدار الآخرة لهي الحيوان معنيين احدهما أن الحياة الآخرة هي الحياة لآنها لا تنغيص فيها ولا نفاد لها

أي لا يشوبها ما يشوب الحياة في هذه الدار فيكون الحيوان مصدرا على هذا الثاني أن

يكون المعنى أنها الدار التي تفنى ولا تنقطع ولا تبيد كما يفنى الأحياء في هذه الدنيا فهي أحق بهذا الاسم من الحيوان الذي يفنى ويموت فصل

(103/741)

الاسم الثامن الفردوس قال تعالى أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون وقال تعالى أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها والفردوس اسم يقال على جميع الجنة ويقال على أفضلها وأعلاها كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات وأصل الفردوس البستان والفراديس البساتين قال كعب هو البستان الذي فيه الاعناب وقال الليث الفردوس جنة ذات كروم يقال كرم مفردس أي معرش وقال الضحاك هي الجنة الملتفة بالأشجار وهو اختيار المبرد وقال الفردوس فيما سمعت من كلام العرب الشجر الملتف والأغلب عليه العنب وجمعه الفراديس قال ولهذا سمى باب الفراديس بالشام وانشد لجرير

فقلت للركب إذ جد المسير بنا . . . يا بعد من باب الفراديس

وقال مجاهد هذا البستان بالرومية واختاره الزجاج فقال هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية قال وحقيقتة أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين قال حسان وأن ثواب

الله كل مخلد . . . جنان من الفردوس فيها يخلد فصل

الاسم التاسع جنات النعيم قال تعالى إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم

وهذا ايضا آسم جامع لجميع الجنات لما تضمنته من الأنواع التي يتنعم بها من المأكول

والمشروب والملبوس والصور والرائحة الطيبة والمنظر البهيج والمساكن الواسعة وغير ذلك

من النعيم الظاهر والباطن فصل

الاسم العاشر المقام الأمين قال تعالى أن المتقين في مقام أمين والمقام الأمين موضع الإقامة

والأمين الآمن من كل سوء وآفة ومكروه وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلها

(104/741)

فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص واهله آمنون فيه من الخروج والنغص والنكد

والبلد الأمين الذي قد أمن من أهله فيه مما يخالف منه سواهم وتأمل كيف ذكر سبحانه

الأمن في قوله تعالى أن المتقين في مقام أمين وفي قوله تعالى يدعون فيها بكل فاكهة آمنين فجمع

لهم بين أمن المكان وأمن الطعام فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها وأمن

الخروج منها فلا يخافون ذلك وأمن من الموت فلا يخافون فيها موتا فصل

(105/741)

الاسم الحادي عشر والثاني عشر مقعد الصدق وقدم الصدق قال تعالى إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق فسمى جنته مقعد صدق لحصول كل ما يراد من المقعد الحسن فيها كما يقال مودة صادقة إذا كانت ثابتة تامة وحلاوة صادقة وحملة صادقة ومنه الكلام الصدق لحصول مقصوده منه وموضع هذه اللفظة في كلامهم الصحة والكمال ومنه الصدق في الحديث والصدق في العمل والصديق الذي يصدق قوله بالعمل والصدق بالفتح الصلب من الرماح ويقال للرجل الشجاع أنه لذو مصدق أي صادق الحملة وهذا مصداق هذا اي ما يصدقه ومنه الصداقة لصفاء المودة والمخالة ومنه صدقني القتال وصدقني المودة ومنه قدم صدق ولسان صدق ومدخل صدق ومخرج صدق وذلك كله للحق الثابت المقصود الذي يرغب فيه بخلاف الكذب الباطل الذي لا شيء تحته وهو لا يتضمن أمرا ثابتا قط وفسر قوم صدق بالجنة وفسر بالأعمال التي تنال بها الجنة وفسر بالسابقة التي سبقت لهم من الله وفسر بالرسول الذي على يده وهدايته نالوا ذلك والتحقيق أن الجميع حق فأنهم سبقت لهم من الله الحسنى بتلك السابقة أي بالأسباب التي قدرها لهم على يد رسوله وأدخر لهم جزاءها يوم القيامة ولسان الصدق وهو لسان الثناء الصادق بمحاسن الأفعال وجميل الطرائق وفي كونه لسان صدق اشارة إلى مطابقته للواقع وأنه أثناء بحق لا بباطل ومدخل الصدق ومخرج الصدق هو المدخل والمخرج الذي يكون صاحبه

فيه ضامنا على الله وهو دخوله وخروجه بالله ولله وهذه الدعوة من أنفع الدعاء للعبد فإنه لا يزال داخلا في أمر وخارجا من أمر فمتى كان دخوله لله وبالله وخروجه كذلك كان قد أدخل مدخل صدق وأخرج مخرج صدق والله المستعان . انتهى انتهى . اهـ ﴾ حادى الأرواح صـ 94. 101 ﴾

(106/741)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب في قوله ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ قال : نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن عطاء أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه ذكر ذات يوم وفكر في القيامة والموازين والجنة والنار وصفوف الملائكة وطيّ السموات ونسف الجبال وتكوير الشمس وانتثار الكواكب ، فقال : وددت أني كنت خضراء من هذا الخضر تأتي عليّ بهيمة فتأكلني وأني لم أخلق ، فنزلت هذه الآية ﴿ ولمن خاف ربه

جنتان ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ ولمن خاف ربه جنتان ﴾ قال : وعد الله المؤمنين الذين خافوا مقامه فأدوا فرائضه الجنة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ ولمن خاف ربه جنتان ﴾ يقول : خاف ثم اتقى ، والخائف من ركب طاعة الله وترك معصيته .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وهناد وابن أبي الدنيا في التوبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ قال : هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه فينزع عنها .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ولمن خاف ربه جنتان ﴾ قال : من خاف مقام الله عليه .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإِيمان عن مجاهد رضي الله عنه في الآية قال : الرجل يريد الذنب فيذكر الله فيدع الذنب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ولمن خاف ربه جنتان ﴾ قال : إن المؤمنين خافوا ذلك المقام فعملوا لله ودأبوا ونصبوا له بالليل والنهار .

وأخرج ابن جرير عن إبراهيم ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ قال : إذا أراد أن يذنب

أمسك مخافة الله .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ قال : لمن خافه في الدنيا .

(107/741)

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية بن قيس في قوله ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ قال : نزلت في الذي قال : أحرقوني بالنار لعلي أضلّ الله ، قال لنا بيوم وليلة بعد أن تكلم بهذا فقبل الله منه ذلك ، وأدخله الجنة .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن منيع والحكيم في نوادر الأصول والنسائي والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن أبي الدرداء " أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم الثانية ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ فقال الثالثة ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : " نعم وإن رغم أنف أبي الدرداء " " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولمن

خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقال أبو الدرداء : وإن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟ قال : " وإن زنى وإن سرق ، وإن رغم أنف أبي الدرداء " فكان أبو الدرداء يقص ويقول : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ وإن رغم أنف أبي الدرداء .

وأخرج الطبراني وابن مردويه من طريق الحريري عن أخيه قال : سمعت محمداً بن سعد يقرأ هذه الآية [ولمن خاف مقام ربه جنتان وإن زنى وإن سرق] فقلت : ليس فيه وإن زنى وإن سرق ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها كذلك فأنا أقرأها كذلك حتى أموت .

وأخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله دخل الجنة ، ثم قرأ ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ " .

(108/741)

وأخرج ابن مردويه عن ابن شهاب قال : كنت عند هشام بن عبد الملك ، فقال : قال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقال أبو هريرة رضي الله عنه : وإن زنى وإن سرق ؟ فقلت : إنما كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض ، فلما نزلت الفرائض ذهب هذا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن يسار مولى لآل معاوية عن أبي الدرداء رضي الله عنه في قوله ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ قال : قيل : يا أبا الدرداء وإن زنى وإن سرق ؟ قال : من خاف مقام ربه لم يزن ولم يسرق .

وأخرج الطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " جنان الفردوس أربع : جنتان من ذهب حليتهما وآنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة حليتهما وآنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : " ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ وقوله ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ قال : جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في قوله ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ قال : جنتان من ذهب للسابقين ، وجنتان من فضة للتابعين .

وأخرج ابن مردويه عن عياض بن تميم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ قال : بستانان عرض كل واحد منهما مسيرة مائة عام فيهما أشجار ، وفرعهما ثابت ، وشجرهما ثابت ، وعرصتهما عظيمة ، ونعيمهما عظيم وخيرهما دائم ، ولذتهما قائمة وأنهارهما جارية وريحهما طيب ، وبركتهما كثيرة ، وحياتهما طويلة ، وفاكهتهما كثيرة .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان عن الحسن قال : كان شاب على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ملازم المسجد والعبادة فعشقته جارية فأتته في خلوة فكلمته فحدث نفسه بذلك فشهق شهقة فغشي عليه ، فجاء عم له إلى بيته ، فلما أفاق قال يا عم انطلق إلى عمر فأقرئه مني السلام وقل له : ما جزاء من خاف مقام ربه ؟ فانطلق عمه فأخبر عمر ، وقد شهق الفتى شهقة أخرى فمات منها ، فوقف عليه عمر فقال : لك جنتان لك جنتان .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ذواتا أفنان ﴾ قال : ذواتا ألوان .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير مثله .

وأخرج هناد عن الضحاك مثله .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله ﴿ ذواتا أفنان ﴾ يقول : ألوان من الفواكه .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ ذواتا أفنان ﴾ قال : ذواتا أغصان .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ ذواتا أفنان ﴾ قال : غصونهما يمس بعضها بعضاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ ذواتا أفنان ﴾ قال : الفتن الغصن .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وأبو بكر بن حبان في الفنون وابن الأنباري في الوقف والابتداء عن عكرمة أنه سئل عن قول الله ﴿ ذواتا أفنان ﴾ قال : ظل الأغصان على الحيطان ، أما سمعت قول الشاعر ؟

ما هاج شوقك من هدير حمامة . . . تدعو على فتن الغصون حماما

تدعو باشرخين صادف طاويا . . . ذا مخلبين من الصقور قطاما

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ ذواتا أفنان ﴾ قال : ذواتا فضل على ما سواهما .

(110/741)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ فيهما كل فاكهة زوجان ﴾ قال : فيهما من كل الثمرات ، قال : قال ابن عباس : فما في الدنيا ثمرة حلوة ولا

مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمرو قال : العنقود أبعد من صنعاء .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن مسعود في قوله ﴿ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ﴾ قال : أخبرتم بالبطائن فكيف بالظهائر .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال : في قراءة عبد الله [متكئين على سرر وفرش بطائنها من رفرف من استبرق] والاستبرق لغة فارس يسمون الديباج الغليظ الاستبرق .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أنه قيل له ﴿ بطائنها من إستبرق ﴾ فما الظواهر ؟ قال : ذاك مما قال الله ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ [السجدة : 17] .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ بطائنها من إستبرق ﴾ قال : ظواهرها من نور جامد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وجنى الجنتين دان ﴾ قال : جناها ثمرها ، والداني القريب منك يناله القائم والقاعد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ وجنى الجنتين دان ﴾ قال : ثمارها دانية لا

يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك . قال : وذكر لنا أنا نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " والذي نفس محمد بيده لا يقطف رجل ثمرة من الجنة فتصل إلى فيه حتى يبدل الله مكانها خيراً منها " .

فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56)

(111/741)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله ﴿ فيهن قاصرات الطرف ﴾ قال : قاصرات الطرف على أزواجهن لا يرين غيرهم والله ما هن متبرجات ولا متطلعات .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ فيهن قاصرات الطرف ﴾ قال : قصرن طرفهن عن الرجال فلا ينظرن إلاّ إلى أزواجهن .

وأخرج ابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ قاصرات الطرف ﴾ قال : " لا ينظرن إلا إلى أزواجهن " " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ لم يطمثهن ﴾ قال : لم يمسسهن .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن سعيد بن جبير ﴿ لم يطمثهن ﴾ قال : لم يطأهن .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عكرمة ﴿ لم يطمثهن ﴾ قال : لم يجامعهن .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال : لا تقل للمرأة طمثت فإنما الطمث الجماع .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله ﴿ لم يطمثهن ﴾ قال : كذلك نساء الجنة لم يدن منهن غير أزواجهن قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت الشاعر وهو يقول :

مشين إليّ لم يطمثن قبلي . . . وهن أصبح من بيض النعام

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة عن أرطاة بن المنذر قال : تذاكرنا عند ضمرة بن حبيب : أيدخل الجن الجنة ؟ قال : نعم ، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ للجن الجنيات وللإِنس الإِنسيات .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن الشعبي في قوله ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ قال : هن من نساء أهل الدنيا خلقهن الله في الخلق الآخر كما قال ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً ﴾ [الواقعة : 35] لم يطمثهن حين عدن في الخلق الآخر ﴿ إنس قبلهم ولا جان ﴾ .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير عن مجاهد قال : إذا جامع الرجل أهله ولم يسمّ انطوى الجان على إحليله فجامع معه ، فذلك قوله ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن عياض بن تميم " أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ قال : لم يصبهن شمس ولا دخان ، لم يعذبن في البلايا ، ولم يكلمن في الرزايا ، ولم تغيرهن الأحزان ناعمات لا يبأسن ، وخالدات فلا يمتن ، ومقيمات فلا يظعنّ ، لهن أخيار يعجز عن نعتهن الأوهام ، والجنة أخضرها كالأصفر ، وأصفرهما كالأخضر ليس فيها حجر ولا مدر ولا كدر ولا عود يابس أكلها دائم وظلها قائم " .

أخرج أحمد وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في البعث والنشور عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ قال : ينظر إلى وجهها في خدها أصفى من المرآة ، وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب ، وإنه يكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ قال : في صفاء الياقوت وبياض اللؤلؤ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ قال : صفاء الياقوت في بياض المرجان .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وابن المنذر عن الضحاك ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ قال : ألوانهن كالياقوت واللؤلؤ في صفائه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن الحارث ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ قال : كأنهن اللؤلؤ في الخيط .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ قال : يرى مخ سوقهن من وراء الثياب كما يرى الخيط في الياقوتة .

(113/741)

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد بن السري والترمذي وابن أبي الدنيا في وصف الجنة وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها ، وذلك أن الله يقول ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه " .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد بن السري وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن مسعود ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ قال : على كل واحدة سبعون حلة من حرير يرى مخ ساقها من وراء الثياب ، قال : أرأيت لو أن أحدكم أخذ سلكاً فأدخله في ياقوتة ألم يكن يرى السلك من وراء الياقوتة ؟ قالوا : بلى ، قال : فذلك هنّ ، وكان إذا حدّث حديثاً نزع له آية من الكتاب .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن الحارث القيسي قال : إنه يكون على زوجة الرجل من أهل الجنة سبعون حلة حمراء يرى مخ ساقها من خلفهن .

وأخرج عبد بن حميد عن كعب قال : إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حلة لهي أرق من شفّكم هذا الذي تسمونه شفا ، وإن مخ ساقها ليرى من وراء اللحم .

وأخرج عبد بن حميد عن أنس بن مالك قال : إن المرأة من أزواج المقربين لتكسى مائة حلة من استبرق وسقالة النور ، وإن مخ ساقها ليرى من وراء ذلك كله ، وإن المرأة من أزواج أصحاب اليمين لتكسى سبعين حلة من استبرق وسقالة النور ، وإن مخ ذلك ليرى من وراء ذلك كله .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نساء أهل الجنة يرى مخ سوقهن من وراء اللحم " .

وأخرج عبد بن حميد والطبراني والبيهقي في البعث عن ابن مسعود قال : إن المرأة من الحور

العين ليرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم من تحت سبعين حلة ، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء .

وأخرج هناد وابن جرير عن عمرو بن ميمون مثله .

(114/741)

قوله تعالى : ﴿ هل جزاء الإِحسان إلا الإِحسان ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان وضعفه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : في قوله ﴿ هل جزاء الإِحسان إلا الإِحسان ﴾ قال : " ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة " .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية ﴿ هل جزاء الإِحسان إلا الإِحسان ﴾ قال : " هل جزاء من أنعمت عليه بالإِسلام إلا أن أدخله الجنة " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والبغوي في تفسيره والديلمي في مسند الفروس وابن النجار في تاريخه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ هل جزاء الإِحسان إلا الإِحسان ﴾ وقال : هل تدرون ما قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله

أعلم ، قال : يقول : هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة " .

وأخرج ابن النجار في تاريخه عن علي بن أبي طالب في قوله تعالى ﴿ هل جزاء الإِحسان إلا الإِحسان ﴾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله عز وجل : هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ هل جزاء الإِحسان إلا الإِحسان ﴾ قال رسول الله : " هل جزاء من أنعمت عليه ممن قال : لا إله إلا الله في الدنيا إلا الجنة في الآخرة " .

أخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ هل جزاء الإِحسان إلا الإِحسان ﴾ قال : هل جزاء من قال : لا إله إلا الله إلا الجنة ؟ .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله .

وأخرج ابن عدي وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان وضعفه والديلمي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنزل الله عليّ هذه الآية مسجّلة في سورة الرحمن للكافر والمسلم ﴿ هل جزاء الإِحسان إلا الإِحسان ﴾ " .

(115/741)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في المسلم والكافر ﴿ هل جزاء الإِحسان إلا الإِحسان ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخاري في الأدب وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإِيمان عن محمد بن الحنفية في قوله ﴿ هل جزاء الإِحسان إلا الإِحسان ﴾ قال : هي مسجلة للبر والفاجر ، قال البيهقي : يعني مرسلة .

وأخرج الخطيب في تاريخه عن ابن عباس في قوله ﴿ هل جزاء الإِحسان إلا الإِحسان ﴾ قال : إن لله عموداً أحمر رأسه ملويّ على قائمة من قوائم العرش ، وأسفله تحت الأرض السابعة ، على ظهر الحوت ، فإذا قال العبد : لا إله إلا الله تحرك الحوت تحرك العمود تحت العرش ، فيقول الله للعرش : اسكن ، فيقول : لا وعزتك لا أسكن حتى تغفر لقائلها ما أصاب قبلها من ذنب فيغفر الله له .

وأخرج ابن جرير عن قتادة ﴿ هل جزاء الإِحسان إلا الإِحسان ﴾ قال : عملوا خيراً فجزوا خيراً .

قوله تعالى : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ الآيات .

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن في قوله ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ قال : هما دون تجريان .

وأخرج هناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿

مدهامتان ﴾ قال : خضروان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ مدهامتان ﴾ قال : قد اسودتا من الخضرة التي من الريّ من الماء .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن جرير عن عبد الله بن الزبير في قوله ﴿ مدهامتان ﴾ قال : خضراوان من الريّ .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أيوب قال : " سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله ﴿ مدهامتان ﴾ قال : " خضراوان " " .

وأخرج هناد وعبد بن حميد عن أبي أيوب الأنصاري في قوله ﴿ مدهامتان ﴾ قال : هما جنتان خضراوان .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد عن عطاء بن أبي رباح في قوله ﴿ مدهامتان ﴾ قال : هما جنتان خضراوان .

(116/741)

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله ﴿ مدهامتان ﴾ قال : خضراوان .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ مدهامتان ﴾ قال :

خضراوان .

وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق عن عكرمة في قوله ﴿ مدهامتان ﴾ قال : خضراوان .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي صالح ﴿ مدهامتان ﴾ قال : خضراوان من الريّ ناعمتان إذا اشتدت الخضرة ضربت إلى السواد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ مدهامتان ﴾ قال : مسودتان .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد وعكرمة ﴿ مدهامتان ﴾ قالا : سوداوان من الريّ .

وأخرج هناد عن الضحاك ﴿ مدهامتان ﴾ قال : سوداوان من الريّ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن جابر بن زيد أنه قرأ ﴿ مدهامتان ﴾ ثم ركع .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن البراء بن عازب قال : العينان اللتان تجريان خير من النضاختين ، ولفظ عبد قال : ما النضاختان بأفضل من اللتين تجريان .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ نضاختان ﴾ قال : فائضتان .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ نضاختان ﴾ قال : تنضخان بالماء من شدة الريّ .

وأخرج هناد وابن جرير عن عكرمة في قوله ﴿ نضاختان ﴾ قال : تنضخان بالماء .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن أنس في قوله ﴿ عينان نضاختان ﴾ قال : بالمسك والعنبر تنفخان على دور الجنة كما ينضخ المطر على دور أهل الدنيا .

وأخرج ابن المبارك في الزهد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم في الحلية عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ نضاختان ﴾ قال : تنضخان بألوان الفاكهة .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن مجاهد في قوله ﴿ نضاختان ﴾ قال : بالخير ولفظ ابن أبي شيبة بكل خير .

قوله تعالى : ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ .

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ قال : هي ثمر ﴿ من كل فاكهة زوجان ﴾ .

(117/741)

وأخرج عبد بن حميد والحارث بن أبي أسامة وابن مردويه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : " جاء ناس من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد : أفي الجنة فاكهة ؟ قال : نعم فيها فاكهة ونخل ورمان ، قالوا : أفيأكلون كما يأكلون في الدنيا ؟ قال : نعم وأضعافه ، قالوا : أفيقضون الحوائج ؟ قال : لا ولكنهم يعرقون ويرشحون فيذهب

الله ما في بطونهم من أذى " .

وأخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة وهناد بن السري وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه والبيهقي في البعث والنشور عن ابن عباس قال : نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر ، وكرانيفها ذهب أحمر ، وسعفها كسوة لأهل الجنة منها مقطعاتهم وحللهم ، وثمرها أمثال القلال أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد وليس لها عجم .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد بن السري والبيهقي عن سلمان أنه أخذ عوداً صغيراً ثم قال : لو طلبت في الجنة مثل هذا العود لم تبصره ، قيل : فأين النخل والشجر ؟ قال : أصولها اللؤلؤ والذهب ، وأعلاه الثمر .

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نخل الجنة فقال : " أصوله فضة وجذوعها ذهب وسعفه حلل وحمله الرطب أشد بياضاً من اللبن وألين من الزبد وأحلى من الشهد " " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كمثل البعير المقتب " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة عن ابن عباس قال : إن الثمرة من ثمر الجنة طولها اثنا عشر ذراعاً ليس لها عجم .

وأخرج الطبراني والبيهقي في شعب الإِيمان عن ابن عباس أنه كان يأخذ الحبَّة من الرمان فيأكلها ، فقيل له : لم تفعل هذا ؟ قال : بلغني أنه ليس في الأرض رمانة تلقح إلا بحبة من الجنة فلعلها هذه .

(118/741)

وأخرج ابن السني في الطب النبوي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من رمانة من رمانكم هذه إلا وهي تلقح بحبة من رمان الجنة "

والله أعلم .

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (70) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (71)

أخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله تعالى ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ قال : النساء .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد بن السري وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ قال : مقصورات قلوبهن وأبصارهن وأنفسهن على أزواجهن في خيام اللؤلؤ لا يرون غيرهن .

وأخرج هناد عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ قال : محبوسات في خيام اللؤلؤ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي الأحوص قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أتدرون ما ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ در مجوف .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الخيام در مجوف .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ قال : خيام اللؤلؤ ، والخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة أربعة فراسخ ، لها أربعة آلاف مصراع من ذهب .

وأخرج عبد الرزاق وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : الخيمة لؤلؤة واحدة لها سبعون باباً من در .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي مجلز " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : في قول الله ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ قال : در مجوف " .

وأخرج مسدد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله : ﴿ مقصورات في الخيام ﴾ قال : الدر المجوف .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً ، في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون ، يطوف عليهم المؤمن " .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد عن عبيد بن عمير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أدنى أهل الجنة منزلة لرجل له دار من لؤلؤة واحدة منها غرفها وأبوابها " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن أبي صالح ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ قال : عذارى الجنة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ قال : خيرات الأخلاق حسان الوجوه .

وأخرج ابن المبارك في الزهد عن الأوزاعي ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ قال : لسن بذيئات اللسان ولا يغرن ولا يؤذين .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : لكل مسلم خيرة ، ولكل خيرة خيمة ، ولكل خيمة أربعة أبواب ،

يدخل عليها كل يوم من الله تحفة وكرامة وهدية لم تكن قبل ذلك ، لا مراحات ، ولا طماحات ، ولا بخرات ، ولا ذفرات ، حور عين كأنهن بيض مكنون ، وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الحور العين يتغنين في الجنة يقلن نحن الخيرات الحسان جئنا لأزواج كرام " .

(120/741)

وأخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه " عن أم مسلمة قالت : " قلت : يا رسول الله أخبرني عن قول الله ﴿ حور عين ﴾ قال : حور بيض عين ضخام العيون شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر وفي لفظ لابن مردويه شفر الجفون بمنزلة جناح النسر ، قلت : يا رسول الله أخبرني عن قول الله ﴿ كأنهن لؤلؤ مكنون ﴾ قال : صفاؤهم كصفاء الدر الذي في الأصداف الذي لم تمسه الأيدي ، قلت : فأخبرني : عن قول الله ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ قال : رقتهن كرقة الجلدة التي في داخل البيضة مما يلي القشر . قلت : فأخبرني عن قول الله ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ قال : صفاؤهن كصفاء الدر الذي في الأصداف الذي لم تمسه الأيدي . قلت : فأخبرني عن قول الله ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ قال :

خيرات الأخلاق حسان الوجوه . قلت : فأخبرني عن قول الله ﴿ عرباً أتراباً ﴾ [الواقعة : 37] قال : هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز رمصاً شمطاً خلقهن الله بعد الكبر فجعلهن عذارى عرباً متعشقات متحببات أتراباً قال على ميلاد واحد ، قلت يا رسول الله : أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ قال : نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة ، قلت يا رسول الله : ولم ذاك ؟ قال : بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن لله ألبس الله وجوههن من النور وأجسادهن ، الحرير ، بيض الألوان ، خضر الثياب ، صفة الحلي مجامرهن الدر ، وأمشاطهن الذهب ، يقلن : ألا نحن الخالدات فلا نموت أبداً ألا ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً ، ألا ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له ، قلت يا رسول الله : المرأة تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة في الدنيا ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها ، من يكون زوجها منهم ؟ قال : إنها تخير فتختار أحسنهم خلقاً فتقول يا رب إن هذا كان أحسنهم معي خلقاً في دار الدنيا فزوّجنيه ، يا أم سلمة : ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة " " .

(121/741)

قوله تعالى : ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ .

أخرج ابن مردويه والبيهقي في البعث عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" لما أسري بي دخلت الجنة فأتيت على نهر يسمى البيذخ عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر ، فنوديت : السلام عليك يا رسول الله ، فقلت يا جبريل : ما هذا النداء ؟ قال : هؤلاء المقصورات في الخيام استأذنّ ربهنّ في السلام عليك فأذن لهن ، فطفقن يقلن : نحن الراضيات فلا نسخط أبداً ، ونحن المقيمات ، وفي لفظ الخالدات فلا نظعن أبداً ، وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ حور مقصورات ﴾ حور بيض ﴿ مقصورات ﴾ محبوسات ﴿ في الخيام ﴾ قال : في بيوت اللؤلؤ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الحور سود الحدق .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ قال : لا يخرجن من بيوتهن .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن رضي الله عنه ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ قال : محبوسات لسن بطوافات في الطرق والخيام والدر المجوف .

(122/741)

وأخرج هناد بن السري عن ثابت البناني قال : كنت عند أنس بن مالك فقدم عليه ابن له من غزاة يقال له أبو بكر ، فسأله ثم قال : ألا أخبرك عن صاحبنا فلان ؟ بينما نحن في غزاتنا إذ ثار ، وهو يقول : واأهلاه واأهلاه ، فنزلنا إليه وظننا أن عارضاً عرض له ، فقلنا له : فقال : إني كنت أحدث نفسي أن لا أتزوج حتى أستشهد فيزوّجني الله من الحور العين ، فلما طالت عليّ الشهادة حدثت نفسي في سرّي إنْ أنا رجعت تزوّجت فأتاني آت في منامي ، فقال : أنت القائل إن أنا رجعت تزوّجت ؟ قم فإن الله قد زوّجك العيناء ، فانطلق بي إلى روضة خضراء معشبة فيها عشر جوار في يد كل واحدة صنعة تصنعها لم أر مثلهن في الحسن والجمال ، قلت : فيكن العيناء ؟ قلن : لا ، نحن من خدمها وهي أمامك ، فانطلقت فإذا بروضة أعشب من الأولى وأحسن ، فيها عشرون جارية في يد كل واحدة صنعة تصنعها ليس العشر إليهن في شيء من الحسن والجمال ، قلت : فيكن العيناء ؟ قلن : لا ، نحن من خدمها ، وهي أمامك ، فمضيت ، فإذا أنا بروضة أخرى

أعشب من الأولى والثانية وأحسن ، فيها أربعون جارية في يد كل واحدة صنعة تصنعها ليس العشر والعشرون إليهن بشيء من الحسن والجمال ، قلت : فيكن العيناء ؟ قلن : لا ، نحن من خدمها ، وهي أمامك ، فانطلقت فإذا أنا ؟ بياقوتة مجوّفة فيها سرير عليه امرأة قد فضل جنبها عن السرير ، فقلت : أنت العيناء ؟ قالت : نعم مرحبا وذهبت لأضع يدي عليها ، قالت : مه إن فيك شيئاً من الروح بعد ، ولكن فطرك عندنا الليلة ، فما فرغ الرجل من حديثه حتى نادى منادياً خيل الله اركبي ، فجعلت أنظر إلى الرجل ، وأنظر إلى الشمس ونحن نصافو العدوّ ، واذكر حديثه ، فما أدري أيهما بدر رأسه أو الشمس سقطت أولاً ، فقال أنس رحمه الله : سكوت مفاجيء .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وابن جرير عن عكرمة ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ قال : در مجوف .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن الضحاك مثله .

(123/741)

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وابن جرير عن مجاهد قال : الخيمة درة مجوّفة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال : دار المؤمن في الجنة من لؤلؤة فيها أربعون بيتاً ، في

وسطها شجرة تنبت الحلل فيأتيها فيأخذ بأصبعه سبعين حلة ممنطقة باللؤلؤ والمرجان .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن محمد بن كعب القرظي في قوله ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ قال : في الحجال .

وأخرج هناد عن الشعبي ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ قال : منذ أنشئن .

وأخرج هناد عن حيان بن أبي جبلة قال : إن نساء أهل الدنيا إذا دخلن الجنة فضلن على الحور العين بأعمالهن في الدنيا .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ﴾ قال : فضول المحابس والفرش والبسط .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وابن جرير عن الضحاك قال : الرفرف فضول المحابس والعبقري الزرابي وهي البسط .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ على رفرف خضر ﴾ قال : فضول الفرش ﴿ وعبقري حسان ﴾ قال : الديباج الغليظ .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن في قوله ﴿ على رفرف خضر ﴾ قال : البسط ﴿ وعبقري حسان ﴾ قال : الطنافس .

وأخرج عبد بن حميد عن علي بن أبي طالب ﴿ متكئين على رفرف خضر ﴾ قال :

فضول المحابس .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث والنشور من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ رفرف خضر ﴾ قال : المحابس ﴿ وعبقري حسان ﴾ قال : الزرابي .

وأخرج ابن المنذر عن عاصم الجحدري ﴿ متكئين على رفرف ﴾ قال : وسائد .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في الآية قال : الرفرف الرياض ، والعبقري الزرابي .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي بكر بن عياش قال : كان زهير القرشي وكان نحوياً بصرياً يقرأ [رفارف خضر وعباقري حسان] .

(124/741)

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه عن أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ [متكئين على رفارف خضر وعباقري حسان] .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فذكر فضل ما بينهما ثم ذكر ﴿ ومن دونهما جنتان مدهامتان ﴾ قال : خضراوان ﴿ فيهما عينان نضاختان ﴾ وفي تلك تجريان ﴿ وفيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ وفي تلك من كل فاكهة

زوجان ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ وفي تلك ﴿ قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ﴾ وفي تلك ﴿ متكئين على فرش بطائنها من استبرق ﴾ قال : الديباج والعبقري الزرابي .

قوله تعالى : ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإِكرام ﴾ .

أخرج البخاري في الأدب والترمذي وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن معاذ بن جبل قال : " سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول : يا ذا الجلال والإِكرام ، قال : قد استجيب لك فسل " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والنسائي والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس بن مالك قال : "كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في الحلقة ورجل قائم يصلي فلما ركع وسجد تشهد ودعا ، فقال في دعائه : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت وحدك ، لا شريك لك ، المنان ، بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإِكرام يا حيّ يا قيوم إني أسألك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى " " .

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والبيهقي عن ثوبان قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثاً ثم قال : " اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإِكرام " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألظوا بياذا الجلال والإِكرام فإنهما اسمان من أسماء الله العظام " .

(125/741)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ألظوا بياذا الجلال والإِكرام " .

وأخرج أحمد والنسائي وابن مردويه عن ربيعة بن عامر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ألظوا بياذا الجلال والإِكرام " .

وأخرج الترمذي وابن مردويه عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ألظوا بياذا الجلال والإِكرام " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 7 صـ 705 . 724﴾

(126/741)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ الرحمن عَلَّمَ القرءان ﴾

وذلك أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ اسجدوا للرحمن ﴾ قال كفار مكة : وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ وقالوا : ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة الكذاب .

فأنزل الله تعالى : ﴿ الرحمن ﴾ فأخبر عن نفسه ، وذكر صفة توحيده ، فقال : ﴿ الرحمن ﴾ يعني : الرحمن الذي أنكروه ﴿ عَلَّمَ القرءان ﴾ يعني : أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ليقرأ عليه جبريل عليه السلام ، ويعلمه ، ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ يعني : الذي خلق آدم من أديم الأرض .

ويقال : خلق محمداً .

ويقال : ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ أراد به جنس الإنسان .

يعني : جعله مخبراً ، مميزاً ، حتى يميز الإنسان من جميع الحيوان ﴿ عَلَّمَهُ البيان ﴾ يعني : الكلام .

ويقال : يعني : الفصاحة .

ويقال : الفهم .

ثم قال : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ يعني : بحساب ، ومنازل ، ولا يتعدانها .

ويقال : ﴿ بِحُسْبَانٍ ﴾ يعني : يدلان على عدد الشهور ، والأوقات ، ويعرف منها الحساب ﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ ﴿ والنجم ﴾ كل نبات ينبسط على وجه

الأرض ليس له ساق ، مثل الكرم ، والقرع ، ونحو ذلك ، ﴿ أَوْ الشجر ﴾ كل نبات له ساق ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ يعني : ظلهما يسجدان لله تعالى في أول النهار ، وآخره ويقال : ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ يعني : يسبحان الله تعالى كما قال : ﴿ وَإِن مّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ويقال : خلقهما على خلقه ، فيها دليل لربوبيته ، ويدل الخلق على سجوده .

وروى ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قوله : ﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ قال : نجوم السماء ، وأشجار الأرض ، يسجدان بكرة وعشياً .

(127/741)

ثم قال عز وجل : ﴿ والسماء رَفَعَهَا ﴾ يعني : من الأرض مسيرة خمسمائة عام ﴿ وَوَضَعَ الميزان ﴾ يعني : أنزل الميزان للخلق ، يوزن به ، وإنما أنزل في زمان نوح عليه السلام ، ولم يكن قبل ذلك ميزان ﴿ أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِى الميزان ﴾ يعني : لكي لا تظلموا في الميزان .

ويقال : ووضع الميزان .

يعني : أنزل العدل في الأرض ألا تطغوا في الميزان .

يعني : لكي لا تميلوا عن العدل ﴿ وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط ﴾ يعني : اعدلوا في الوزن ﴿ وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان ﴾ يعني : لا تنقصوا حقوق الناس في الوزن .

ويقال : ﴿ وَأَقِيمُواْ الوزن ﴾ يعني : أقيموا اللسان بالقول ، ﴿ وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان ﴾ يعني : لا تقولوا بغير حق .

﴿ والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ يعني : بسط الأرض للخلق ﴿ فِيهَا فاكهة ﴾ يعني : وخلق من الأرض ، من ألوان الفاكهة ، ﴿ والنخل ذَاتُ الأكمام ﴾ يعني : ذات النخيل الطويل ، الموقرة بالطلع ، ذات الخلق ، وإنما العجائب في خلقه ، وما يتولد منه لأنه يتولد من النخيل ، من المنافع ما لا يحصى .

وقال القتبي : ﴿ ذَاتُ الأكمام ﴾ يعني : ذات الكوى قبل أن تتفتق ، وغلاف كل شيء أكمه ﴿ ذَاتُ الأكمام ﴾ يعني : ذات الغلاف .

ثم قال : ﴿ والحب ذُو العصف ﴾ يعني : ذو الورق ﴿ والريحان ﴾ يعني : ثمره .

وقال مجاهد : ﴿ العصف ﴾ يعني : ورق الحنطة ﴿ والريحان ﴾ الرزق .

وقال الضحاك : الحب ، الحنطة ، والشعير ، ﴿ والعصف ﴾ : التبن وروى سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : ﴿ ذُو العصف ﴾ الزرع ﴿ والريحان ﴾ الورق بلسان حمير .

ويقال : ﴿ العصف ﴾ السنبل ﴿ والريحان ﴾ ثمرته ، وما ينتفع به .

ويقال : ﴿ الريحان ﴾ يعني : الرياحين ، جمع الريحان وهو نبت لا ساق له .

قرأ ابن عامر : ﴿ الأكمام والحب ذُو العصف ﴾ بنصب الباء ، وإنما نصبه لأنه عطف

على قوله : ﴿ الأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ ﴿ والحب ﴾ يعني : وخلق الحب ذا العصف ﴿ والريحان ﴾ .

(128/741)

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم : ﴿ والحب ذُو العصف والريحان ﴾ بضم النون والباء ، لأنه عطف على قوله : ﴿ فِيهَا فاكهة ﴾ وقرأ حمزة ، والكسائي ، هكذا إلا أَنَّهما كسرا النون في قوله : ﴿ والريحان ﴾ عطفاً على ﴿ العصف ﴾ على وجه المجاورة .

وقد ذكر الله تعالى من أول السورة نعماءه ، ثم خاطب الإنس والجن فقال : ﴿ فَبِأَيّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ وإن لم يسبق ذكرهما ، لأن في الكلام دليلاً ، وقد ذكرهما من بعده ، وهو قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس ﴾ وقال : ﴿ فَبِأَيّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ يعني : فبأي نعمة من نعماء ربكما أيها الجن والإنس ﴿ تُكَذّبَانِ ﴾ يعني : تتجاحدان بأنها ليست من الله تعالى .

قال بعضهم : ﴿ الله لَعَلَّكُمْ ﴾ ونعماء الله واحد .

إلا أن الآلاء أعم ، والنعماء أخص .

ويقال : الآلاء النعمة الظاهرة وهو التوحيد ، والنعماء : النعمة الباطنة وهو المعرفة بالقلب ، كقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهرة وَبَاطِنَةً وَمِنَ الناس مَن يجادل فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كتاب مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان : 20] وقال بعضهم : ﴿ الآلاء ﴾ إيصال النعم ، والنعماء رفع البلايا .

مثاله أن رجلاً لو كانت له يد شلاء فله الآلاء وليست النعماء .

وكذلك لسان الأخرس ، ورجل مقعد ، فله الآلاء ، وليست له النعماء .

وأكثر المفسرين لم يفصلوا بينهما ، وقد ذكر في هذه السورة دفع البلية ، وإيصال النعمة .

فكل ذلك سماه الآلاء .

(129/741)

وروى محمد بن المنذر ، عن جابر ، بن عبد الله ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على أصحابه سورة الرحمن ، فسكت القوم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " الجنُّ كَانُوا أَحْسَنَ رَدّاً مِنْكُمْ ، مَا قَرَأْتَ عَلَيْهِمْ ﴿ والريحان فَبِأَيّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ إلاَّ قَالُوا : ولا بِوَاحِدَةٍ مِنْهَا فَلَكَ الحَمْدُ " .

وفي رواية أخرى : أنه قال : " مَا قَرَأْتُ عَلَيْهِمْ إلاَّ قَالُوا وَلا بِوَاحِدَةٍ مِنْهَا فَلَكَ الْحَمْدُ " .

ثم قال : ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ يعني : آدم ﴿ مِن صلصال ﴾ يعني : الطين اليابس الذي يتصلصل أي : يصوت ، كما يصوت الفخار .

ويقال : الصلصال الطين الجيد الذي ذهب عنه الماء ، وتشقق .

﴿ كالفخار ﴾ يعني : الطين الذي يصنع به الفخار .

وقال في موضع آخر : ﴿ يا أيها الناس إن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خلقناكم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الارحام مَا نَشَآءُ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لتبلغوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : 5] وقال في موضع آخر : ﴿ الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ﴾ [السجدة : 7] وقال في موضع آخر : ﴿ مِن صلصال ﴾ فهذا كله قد كان حالاً بعد حال .

﴿ وَخَلَقَ الجان ﴾ يعني : أبا الجن .

ثم قال هو إبليس : ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ يعني : من لهب من نار ، وليس لها دخان .

وقال بعضهم : خلق من نار جهنم .

وقال بعضهم : من النار التي بين الكلة الرقيقة بين السماء ، ومنها يكون البرق ، ولا يرى السماء إلا من وراء تلك الكلة .

ثم قال : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : فبأي نعمة أنتم .

يعني : خلقكم أيها الإنس من نفس واحدة ، وخلقكم أيها الجن من نفس واحدة .

فكيف تنكرون هذه النعمة أنها ليست من الله تعالى ؟ .

ثم قال : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ يعني : هو ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ مشرق الشمس ، ومشرق القمر .

وقيل : مشرق الشتاء ، ومشرق الصيف ﴿ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ يعني : مغرب الشتاء ، والصيف .

ثم قال : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : نعمة أنتم من نعمائه أيها الجن والإنس تتجاحدان ؟ ومعناه : أنتم حيث ما كنتم من مشارق الأرض ومغاربها في ملك الله تعالى ، وتأكلون رزقه ، وهو عالم حيث ما كنتم ، وهو حافظكم ، وناصركم ، فكيف تنكرون هذه النعم .

قوله عز وجل : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ يعني : أرسل البحرين .

ويقال : خلَّى البحرين .

ويقال : خلق البحرين ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ يعني : مالح ، وعذب ، ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ يعني : حاجز ﴿ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ يعني : لا يختلطان فيغير طعمه .

وأصل البغي : التطاول ، والجَوْرُ ، والظلم .

وقال بعضهم : بينهما حاجز لطيف لا يراه الخلق ، وإنما العبرة في ذلك أنه لا يرى .

ويقال : بعضهم ليس هناك شيء ، وإنما تمنعهما من الاختلاط قدرة الله تعالى .

ويقال : ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ أي : يتقابلان أحدهما بحر الروم ، والآخر بحر فارس .

وقيل : بحر الهند ﴿ وَبَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ أي : لا يختلطان ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ . بلطف الله تعالى أي : باللطف تمنع عن الامتزاج ، وهما بحر واحد ، لن يمس أحدهما بالآخر .

وقال الزجاج : البرزخ الحاجز ، فهما من دموع العين مختلطان ، وفي قدرة الله منفصلان .

وقيل : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ أي : جزيرة العرب .

(131/741)

وقيل : بحر السماء ، والأرض ، كقوله تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السَّمَآءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَآءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر : 11 ، 12] وبينهما برزخ الهواء

، والأرض ، وسكان الأرض .

ثم قال : ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : خلق البحرين لمنفعة الخلق ، وبين لكم العبرة ، وقدرته ، ولطفه ، لتعتبروا به ، وتوحدوه ، فكيف تنكرون هذه النعمة بأنها ليست من الله تعالى ؟ .

ثم قال : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ ﴾ يعني : من بحر مالح اللؤلؤ ﴿ وَالمَرْجَانُ ﴾ ما صغر منه .

ويقال : اللؤلؤ يعني : الصغار ﴿ وَالمَرْجَانُ ﴾ يعني : العظام .

وقرأ نافع وأبو عمرو ﴿ يَخْرُجُ ﴾ بضم الياء ونصب الراء على فعل ما لم يسم فاعله .

وقرأ الباقون : بنصب الياء ، وضم الراء .

وقرأ بعضهم : بكسر الراء .

يعني : يخرج الله تعالى ، ونصب اللؤلؤ ، والمرجان لأنه مفعول به .

ثم قال : ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : خلق في البحر اللؤلؤ لمنفعة الخلق ، ولصلاحهم ، ولكي تعتبروا به ، فكيف تنكرون هذه النعمة .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَهُ الجوار لِتَجْرِىَ فِى البحر ﴾ يعني : السفن التي تجري في الماء ﴿ كالاعلام ﴾ يعني : كالجبال فشبّه السفن في البحر بالجبال في البر .

وقرأ حمزة ﴿ المنشآت ﴾ بكسر الشين .

والباقون : بالنصب .

فمن قرأ : بالكسر يعني : المبتدئات في السير .

ثم قال : ﴿ والريحان فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أنه جعل السفن في البحر لمنفعة الخلق ، فكيف تنكرون هذه النعمة بأنها ليست من الله تعالى .

(132/741)

ثم قال عز وجل : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ يعني : كل شيء على وجه الأرض يفنى ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ يعني : ذو الملك ، والعظمة ، والإكرام ، ﴿ ذُو الجلال والإكرام ﴾ يعني : ذو الملك ، والعظمة ، والإكرام ، يعني : ذو الكرم ، والتجاوز ، فلما نزلت هذه الآية ، قالت الملائكة : هلكت بنو آدم ، فلما نزل ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموت ﴾ أيقنوا بهلاك أنفسهم ، وهذا من النعم ، لأنه يحذرهم ، ويبين لهم ليتهيؤوا لذلك .

ثم قال : ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ومعناه إن الله تعالى يعينكم ، فتوكلوا عليه ، ولا تعتمدوا على الناس ، لأنهم لا يقدرون على دفع الهلاك عن أنفسهم ، والله هو الباقي بعد فناء الخلق ، وهو الذي يتجاوز عنكم ، ويعينكم ، فكيف تنكرون ربكم الذي خلقكم ، وأحسن إليكم ؟ .

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِى السموات والأرض ﴾ يعني : الملائكة يسألون لأهل الأرض

المغفرة ، ويسأل أهل الأرض جميع حوائجهم من الله تعالى .

ثم قال : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ يعني : في كل يوم يُعز ، ويذل ، ويحيي ، ويميت ، ويعطي ، ويمنع .

وذلك أن اليهود قالوا : إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً فنزل ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ فأخبر الله تعالى أنه يقضي في جميع الأيام ، وكان هذا من النعم .

وذكر أن الحجاج بن يوسف الثقفي أرسل إلى محمد بن الحنفية يتوعده قال : لأفعلن بك كذا وكذا .

فأرسل إليه محمد بن الحنفية وقال : إن الله تعالى ينظر في كل يوم ثلاث مائة وستين نظرة إلى اللوح المحفوظ ، وكل يوم يعز ، ويذل ، ويعطي ، ويمنع ، فأرجو أن يرزقني الله تعالى ببعض نظراته ، أن لا يجعل لك علي سلطان .

(133/741)

فكتب بها الحجاج إلى عبد الملك بن مروان ، فكتب عبد الملك بهذه الكلمات التي قالها محمد بن الحنفية ، ووضعها في خزانته ، فكتب إليه ملك الروم يتوعده في شيء ، فكتب إليه عبد الملك بتلك الكلمات التي قالها محمد بن الحنفية ، فكتب إليه صاحب الروم :

والله ما هذا من كنزك ، ولا من كنز أهل بيتك ، ولكنها من كنز أهل بيت النبوة .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : تجحدون نعمته ، وأنتم تسألون حوائجكم منه .

قوله عز وجل : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثقلان ﴾ أي : سنحفظ عليكم أعمالكم أيها الجن والإنس .

فنجازيكم بذلك .

وروى جبير عن الضحاك في قوله : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثقلان ﴾ قال : هذا وعيد من غير شغل .

إن الله تعالى لا يشغل بشيء .

وقال الزجاج : الفارغ في اللغة على ضربين .

أحدهما : الفراغ من الشغل ، والآخر القصد للشيء ، كما تقول سأفرغ لفلان أي : سأجعل قصدي له .

قرأ حمزة ، والكسائي ، ﴿ الله لَكُمْ ﴾ بالياء .

والباقون : بالنون .

وكلاهما يرجع إلى معنى واحد .

يعني : سيحفظ الله عليكم أعمالكم ، ويحاسبكم بما تعملون .

ثم قال : ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : ما عملتم فإنه لا ينسى ، ولا يمنح ثوابه ، وينصفكم من ظلمكم ، فكيف تنكرون هذه النعم بأنها ليست من الله تعالى ؟ واعلموا أن هذه النعم كلها من الله ، فاشكروه .

فكيف تنكرون من هو يجازيكم بأعمالكم ، ولا يمنع ثواب حسناتكم ، وينصركم على أعدائكم ؟ فهذه النعم كلها من الله ، فاشكروه ، ووحدوه .

ثم قال : ﴿ يامعشر الجن والإنس إِنِ استطعتم ﴾ يعني : إن قدرتم ﴿ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أقطار السموات والأرض ﴾ يعني : أن تخرجوا من أطراف السَّمَوَاتِ ، والأرض ، ونواحيها ، ﴿ فانفذوا ﴾ يعني : فاخرجوا إن استطعتم .

قال مقاتل : هذا الخطاب للجن ، والإنس في الدنيا .

(134/741)

يعني : إن استطعتم أن تخرجوا من أقطار السماوات والأرض هروباً من الموت ، فانفذوا ﴿ لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بسلطان ﴾ يعني : أينما أدرككم الموت .

وروي عن ابن عباس أنه قال : هذا الخطاب في يوم القيامة ، وذلك أن السماء تتشقق بالغمام ، وتنزل ملائكة السموات ، ويقومون حول الدنيا محيطين بها ، وجاء الروح وهو ملك

يقوم صفّاً وهو أكبر من جميع الخلق ، فحينئذٍ يقال لهم : ﴿ إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أقطار السموات والأرض فانفذوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بسلطان ﴾ يعني : لا تنجون إلا بحجة ، وبرهان .

ثم قال : ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : فبأي نعمة من نعمائه تجحدون حيث بيّن لكم أحوال يوم القيامة حتى تتوبوا ، وترجعوا .

ويقال : معناه ذلك اليوم لا يفوته أحد ولا يعينكم أحد غيره ، فكيف تجحدون هذه النعم .

ثم قال : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ﴾ يعني : يرسل على كفار الجن ، وكفار الإنس ، لهب من النار ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ يعني : الصُّفْر المذاب يعذبون بهما .

ويقال : دخان لهب فيه .

ويقال : النحاس هو لباس أهل النار ﴿ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ﴾ يعني : لا تُمْنعان من ذلك .

قرأ ابن كثير : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ ﴾ بكسر الشين .

والباقون : بالضم .

فهما لغتان ، ومعناهما واحد .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ بكسر السين .

والباقون : بالضم .

فمن قرأ بالكسر عطف على قوله من نار ، ومن قرأ بالضم عطف على قوله شواظ .

ثم قال : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : لا يعينكم أحد غير الله ، ولا يحفظكم حين يرسل عليكم العذاب إلا الله فكيف تنكرون قدرته وتوحيده ؟ .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَإِذَا انشقت السماء ﴾ يعني : انفرجت السماء لنزول الملائكة ، كقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السمآء بالغمام وَنُزِّلَ الملئكة تَنزِيلاً ﴾ [الفرقان : 25] .

(135/741)

ثم قال : ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كالدهان ﴾ يعني : صارت كدهن الورد الصافي ، وهذا قول مقاتل .

وقال القتبي : صارت حمراء في لون الفرس .

يعني : بمنزلة الدابة الجُلْجُون الذي تغير لونه في كل وقت ، يرى لونه على خلاف اللون الأول ، ويقال له : المورد ويقال : الدهن الأديم الأحمر بلغة الفارسي .

يعني : الفرس الذي يكون لونه لون الورد الأحمر ، يعنون أخضر يضرب إلى سواد ، يتغير لونه بياض .

ويقال : من هيبة ذلك زاغ فيرى أنه كالدهن .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : إذا كان يوم القيامة ، تغيرت

السموات من هيبته ، ويأمر الخلق بالحساب ، فهو الذي ينجيكم من هول ذلك اليوم ، فكيف تنكرون هذه النعمة .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ ﴾ يعني : عن علمه ﴿ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴾ يعني : إنسياً ، ولا جنياً لأن الله تعالى قد أحصى عليه : ويقال : لا يسأل سؤال استفهام ، ولكن يسأل سؤال التوبيخ والزجر كقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 92] ويقال لا يسأل الكافر لأنه عرف بعلامته .

ثم قال : ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : إذا كان يوم القيامة ، أعطاكم الثواب ، وأدخلكم في جنته ، فكيف تنكرون وحدانيته ؟ ويقال : معناه إن الله قد بين لكم أنه يعلم أعمالكم ، ونهاكم عن الذنوب ، وتجاوز عنكم ، فكيف تنكرون ، وحدانيته .

قوله عز وجل : ﴿ يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم ﴾ يعني : يُعرف الكافر بسواد الوجوه ، وزرقة الأعين ، ﴿ فَيُؤْخَذُ بالنواصى والاقدام ﴾ وذلك أن خزنة جهنم بعد الحساب ، يغلون أيديهم إلى أعناقهم ، ويجمعون بين نواصيهم إلى أقدامهم ، ثم يدفعونهم على وجوههم ، فيطرحونهم في النار .

ثم قال : ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : هو الذي يدفع عنكم ذلك العذاب إن آمنتم به ، وأطعتموه ووحدتموه ، فكيف تنكرون هذه النعمة ؟ .

ثم قال عز وجل : ﴿ هذه جَهَنَّمُ ﴾ وذلك أن الكفار إذا دنوا من النار ، تقول لهم الخزنة : هذه جهنم ﴿ التى يُكَذِّبُ بِهَا المجرمون ﴾ يعني : جهنم التي كنتم بها تكذبون في الدنيا .

ثم أخبر عن حالهم فيها فقال : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءانٍ ﴾ يعني : الشراب الحار الذي قد انتهى حره ، وذلك أنه يسلط عليهم الجوع ، فيؤتى بهم إلى الزقوم الذي طلعه كرؤوس الشياطين ، فأكلوا منه ، فأخذ في حلقهم ، فاستغاثوا بالماء ، فأتوا من الحميم . فإذا قربوا إلى وجوههم ، تناثر لحم وجوههم ، فيشربون ، فيغلي في أجوافهم ، ويخرج جميع ما فيها ، ثم يلقى عليهم الجوع ، فمرة يذهب بهم إلى الحميم ، ومرة إلى الزقوم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءانٍ ﴾ .

ثم قال : ﴿ فَبِأَىِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : هو الذي ينجيكم من عذاب الآخرة ، إن أطعتم أمره ، وآمنتم برسله ، فكيف تنكرون وحدانية الله تعالى ؟ ويقال : معناه إن إخباري إياكم بهذه العقوبة نعمة لكم ، لكي تنتهوا عن الكفر والمعاصي ، فلا تنكروا نعمتي عليكم .

فقد ذكر الله في هذه الآيات دفع البلاء ، ثم ذكر إيصال النعم لمن اتقاه وأطاع أمره ، فقال : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ يعني : من خاف عند المعصية مقام يوم القيامة بين يدي ربه ، فانتهى عن المعصية ، فله في الآخرة ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ يعني : بستانان .

وقال مجاهد : هو الرجل يهم بالمعصية ، فيذكر الله عندها ، فيدعها ، فله أجران .

وذكر عن الفراء أنه قال : ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ أراد به جنة واحدة ، وإنما ذكر ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ للقوافي ، والقوافي تحتمل الزيادة والنقصان ما لا يحتمل الكلام .

وقال القتبي : هذا لا يجوز ، لأن الله قد وعد ببستانين ، فلا يجوز أن يريد بهما واحداً ، فلو جاز هذا لجاز أن يقال في قوله : تسعة عشر إنما هم عشرون ، ولكن ذكر للقوافي .

(137/741)

ثم قال : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : بأي نعمة من نعماء الله تعالى تتجاحدان ؟ إذ جعل الجنة ثواب أعمالكم ، فكيف تنكرون وحدانية الله تعالى ونعمته ؟

قوله تعالى : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ يعني : ذواتا ألوان .

يعني : البساتين فيها ألوان من الثمرات .

ويقال : ﴿ ذَوَاتَا ﴾ أغصان .

وقال الزجاج : الأفنان ألوان ، وهي الأغصان أيضاً واحدها فَنَنٌ .

ثم قال : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : قد وُعِدْتُمُ الجنة ، والراحة ، فكيف تنكرون وحدانيته ونعمته ؟ .

ثم قال عز وجل : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ يعني : في البساتين نهران من ماء غير آسن أي : غير متغير .

ثم قال : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : جعل الأنهار نزاهة لكم زيادة في النعمة ، فكيف تنكرون قدرة الله تعالى ونعمته ؟ .

ثم قال : ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ يعني : في هذين البساتين ، من كل لون من الفاكهة صنفان ، الحلو ، والحامض .

ويقال : لونان ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : جعل فيهما من الراحة والنزاهة من كل نوع من الفاكهة ؟ فكيف تنكرون نعمته وقدرته .

قوله عز وجل : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ ﴾ يعني : ناعمين على فرش ﴿ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ هو الديباج الغليظ الأخضر بلغة فارس .

وقال مقاتل : ﴿ بَطَائِنُهَا ﴾ يعني : ظواهرها .

وذكر عن الفراء أنه قال : ﴿ بَطَائِنُهَا ﴾ يعني : الظهارة ، وقد تكون الظهارة بطانة ، والبطانة ظهارة ، لأن كل واحد منهما يكون وجهاً واحداً .

وقال القتبي : هذا لا يصح ، ولكن ذكر البطانة تعليماً ، أن البطانة إذا كانت من استبرق ، فالظهارة تكون أجود .

وروي عن ابن عباس أنه سئل : أن بطائنها من استبرق فما الظواهر ؟ قال هو مما قال الله تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ .

(138/741)

ثم قال : ﴿ وَجَنَى الجنتين دَانٍ ﴾ يعني : اجتناؤهما قريب إن شاء تناولهما قائماً ، وإن شاء تناولهما قاعداً ، وإن شاء متكئاً .

ثم قال : ﴿ فَبِأَىِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : جعل لكم مجالس الملوك مع الفراش المرتفعة ، فكيف تنكرون وحدانية الله ونعمته ؟ .

ثم قال عز وجل : ﴿ فِيهِنَّ قَاصرات الطرف ﴾ يعني : في الجنان من الزوجات غاضات البصر ، قانعات بأزواجهن ، لا يشتهين غيرهم ، ولا ينظرون إلى غيرهم .

قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ ﴾ يعني : لم يمسسهن إنس ، ﴿ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾ يعني : لا إنساً ، ولا جنياً ﴿ فَبِأَىِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : جعل لكم أزواجاً موافقة لطبعكم ، وهن لا يرون غيركم ، فكيف تنكرون الله تعالى ؟ .

ثم وصف الزوجات فقال : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان ﴾ يعني : في الصفاء كالياقوت ، وفي البياض كالمرجان ، ﴿ فَبِأَىِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : جعلهن بحال تتلذذ

أعينكم بالنظر إليهن ، فكيف تنكرون وحدانية الله تعالى ونعمته ؟ .

ثم قال عز وجل : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحسانِ إِلاَّ الإِحسان ﴾ يعني : هل جزاء التوحيد وهو قول لا إله إلا الله إلا الجنة .

ويقال : هل جزاء من خاف مقام ربه إلا هاتان الجنتان التي ذكرناها في الآية .

ثم قال : ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : فكيف تنكرون نعمة ربكم ، حيث جعل ثواب إحسانكم الجنة ، وبين لكم لكي تحسنوا ، وتنالوا ثواب الله ، وإحسانه .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ يعني : من دون الجنتين اللتين ذكرهما ، جنتان أخروان .

فالأوليان جنة النعيم وجنة عدن ، والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : قد ذكر للمتقين جنتين ، وجنتان أخريان ، زيادة على الكرامة . فكيف تنكرون فضل ربكم .

وكرامته .

ثم وصف الجنتين الأخريين فقال : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ يعني : خضراوان .

(139/741)

ويقال : التي تضرب خضرها إلى السواد ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني جعل لكم الجنان المخضرة ، لأن النظر في الخضرة يُجلي البصر ، فكيف تنكرون وحدانيته .

ثم قال : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ يعني : ممتلئتان فوارتان .

وقال القتبي : يعني : تفوران بالماء ، والنضخ أكثر من النضح .

وقال مجاهد : ﴿ نَضَّاخَتَانِ ﴾ يعني : مملوءتان من الخير لا ينقطعان ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني : كيف تنكرون من جعل لكم فيهما عينان تفوران على الدوام ، ولا انقطاع لهما .

ثم قال عز وجل : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ يعني : في الجنتين الأخريين من ألوان الفاكهة .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ معناه : في الجنتين الأخريين من ألوان الفاكهة ، كمثل ما في الأوليين ، فأنتم تجدون فيها ألواناً من الثمار ، والفواكه .

فكيف تنكرون هذه النعمة .

ثم قال عز وجل : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ يعني : في الجنان كلها زوجات حسان .

وقال الزجاج : أصله في اللغة خيرات .

وقد قرىء بالتشديد ، وقراءة العامة بالتخفيف .

وقال مقاتل : خَيِّرات الأخلاق ، حسان الوجوه ، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يعني :

في هذه الجنان الأربعة ، في كل واحدة منها تجدون خيرة زوجة هي أحسن بما في الأخرى ، فكيف تنكرون عزة ربكم ولا تشكرونه .

ثم وصف الخيرات فقال : ﴿ حُورٌ مقصورات ﴾ يعني : محبوسات ﴿ فِى الخيام ﴾ على أزواجهن .

وقال ابن عباس : الخيمة الواحدة من لؤلؤة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب ﴿ فَبِأَىّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ يعني : فكيف تنكرون هذه النعمة حين حَبَسَ الأزواج الطيبات لكم إن أطعتم الله ؟ .

ثم قال عز وجل : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾ يعني : لم يمسسهن إنس قبلهم ، ولا جان .

قرأ الكسائي : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ بضم الميم .

والباقون : بالكسر .

(140/741)

وهما لغتان ، ومعناهما واحد .

﴿ فَبِأَىّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ .

ثم قال : ﴿ مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ ﴾ يعني : نائمين على المجالس الخضر ، على السرر الحسان .

ويقال : على رياض ﴿ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيّ حِسَانٍ ﴾ يعني : الزرابيّ الكثيرة الألوان ، وهي الطنافس الحسان .

وقال مجاهد : ﴿ وَعَبْقَرِيّ حِسَانٍ ﴾ يعني : الديباج .

وقال الزجاج : وإنما قال : ﴿ خيرات حِسَانٌ ﴾ ولم يقل حسن ، لأن العبقري جماعة .

يقال : للواحدة عبقرية ، كما تقول : ثمرة وثمر لوزة ، ولوز ، وأيضاً يكون العبقري اسم جنس ، والعبقري كل شيء بولغ في وصفه ، والعبقري البُسُط .

ويقال : الطنافس المبسوطة .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَبِأَيّ ءالاء ربّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ يعني : فبأي نعمة من نعماء ربكما أيها الجن والإنس تتجاحدان مع هذه الكرامات التي بين الله تعالى لكم ؟ لتعلموا ، فتناولوا تلك الكرامات ما شاء الله .

ثم قال عز وجل : ﴿ تبارك اسم ربّكَ ذِى الجلال ﴾ يعني : ذي الارتفاع .

يعني : ارتفاع المنزلة ، والقدرة ﴿ والإكرام ﴾ يعني : الكريم ، المتجاوز عن المذنبين .

ويقال : الاسم زيادة في الكلام ، ومعناه : تبارك ربك .

قرأ ابن عامر : ﴿ ذُو الجلال ﴾ بالواو .

والباقون : ﴿ ذِى الجلال ﴾ بالياء .

فمن قرأ : ﴿ ذُو ﴾ جعله نعتاً للاسم ، والاسم رفع .

ومن قرأ : بالكسر ، جعله نعتاً للرب عز وجل والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 358.368 ﴾

(141/741)

وقال الثعلبى :

﴿ الرحمن * عَلَّمَ القرآن ﴾

نزلت حين قالوا : وما الرَّحْمن ؟ ، وقيل : هو جواب لأهل مكة حين قالوا : إنّما يعلّمه بشر .

﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ قال ابن عباس وقتادة : يعني آدم عليه السلام .

﴿ عَلَّمَهُ البيان ﴾ أسماء كل شيء ، وقيل : علّمه اللغات كلّها ، وكان آدم عليه السلام يتكلم بسبعمائة ألف لغة أفضلها العربية ، وقال آخرون : أراد جميع الناس ؛ لأن الانسان اسم الجنس ثم اختلفوا في معنى البيان ، فروي عن قتادة أنّه قال : علّمه بيان الحلال والحرام ، وبيّن له الخير والشر ، وما يأتي وما يذر ؛ ليحتج بذلك عليه .

وقال أبو العالية ومرّة الهمذاني وابن زيد : يعني الكلام . الحسن : النطق والتمييز . محمد ابن كعب : ما يقول وما يقال له . السدي : علّم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به . يمان : الكتابة والخط بالقلم . نظيره ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ . ابن كيسان : خلق الانسان يعني محمداً صلى الله عليه وسلم علمه البيان يعني بيان ما كان وما يكون ؛ لأنه كان يبيّن عن الأولين والآخرين وعن يوم الدين .

﴿ عَلَّمَ بالقلم ﴾ [العلق : 4] أي بحساب ومنازل لا تعدّونها ، قاله ابن عباس وقتادة وأبو ملك .

قال ابن زيد وابن كيسان : يعني بهما بحسب الأوقات والأعمار والآجال ، لولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف نحسب شيئاً ، لو كان الدهر كلّه ليلاً كيف نحسب ؟ أو كلّه نهاراً كيف نحسب ؟ وقال الضحاك : يجريان بعدد . مجاهد : كحسبان الرحى يدوران في مثل قطب الرحا . السدي : بأجل كآجال الناس ، فإذا جاء أجلهما هلكا . نظيره ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الرعد : 2] . يمان : يجريان بأهل الدنيا وقضائها وفنائها .

والحسبان قد يكون مصدر حسبت حساباً وحسباناً مثل الغفران والكفران والرجحان والنقصان ، وقد تكون جمع الحساب كالشهبان والرهبان والقضبان والركبان .

وارتفاع الشمس والقمر باضمار فعل مجازه الشمس والقمر يجريان بحسبان ، وقيل : مبتدأ وخبره فيما بعده .

ونظم الآية الرَّحْمن علم القرآن وقدر الشمس والقمر ، وقيل : هو مردود على البيان ، أي علّمه البيان ، إن الشمس والقمر بحسبان .

ويقال : سعة الشمس ستة آلاف فرسخ وأربعمائة فرسخ في مثلها ، وسعة القمر ألف فرسخ في ألف فرسخ .

مكتوب في وجه الشمس : لا إله إلاّ الله ، محمد رسول الله ، خلق الشمس بقدرته ، وأجراها بأمره ، وفي بطنها مكتوب : لا إله إلاّ الله ، رضاه كلام ، وغضبه كلام ، ورحمته كلام ، وعذابه كلام ، وفي وجه القمر مكتوب : لا إله إلاّ الله ، محمد رسول الله ، خلق الله القمر ، وخلق الظلمات والنور ، وفي بطنه مكتوب : لا إله إلاّ الله خلق الخير والشر بقدرته ، يبتلي بهما من يشاء من خلقه ، فطوبى لمن أجرى الله الخير على يديه ، والويل لمن أجرى الله الشر على يديه .

﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ . قيل : هو ما ليس له ساق من الأشجار ، وينبسط على وجه الأرض ، وقال السدّي : هو جمع النبات سمّي نجماً لطلوعه من الأرض ، وسجودها سجود ظلها ، وقال مجاهد وقتادة : هو الكوكب ، وسجوده طلوعه .

﴿ والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان ﴾ قال مجاهد : العدل ، وقال الحسن والضحاك وقتادة : هو الذي يوزن به ليوصل به الإنصاف والانتصاف ، وقال الحسين بن الفضل : هو القرآن ، وأصل الوزن التقدير .

﴿ أَلاَّ تَطْغَوْاْ ﴾ يعني لئلاّ تميلوا وتظلموا وتجاوزوا الحق ﴿ فِي الميزان * وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط ﴾ بالعدل ، وقال أبو الدرداء : أقيموا لسان الميزان بالقسط ، وقال ابن عيينة : الإقامة باليد والقسط بالقلب ﴿ وَلاَ تُخْسِرُواْ ﴾ ولا تنقصوا ﴿ الميزان ﴾ ولا تطففوا في الكيل والوزن .

قال قتادة في هذه الآية : اعدل يا بن آدم كما تحب أنْ يعدل عليك ، وأوفِ كما تحب أن يوفى لك ، فإن العدل صلاح الناس .

(143/741)

وقراءة العامة ﴿ تُخْسِرُواْ ﴾ بضم التاء وكسر السين ، وقرأ بلال بن أبي بردة بفتح التاء وكسر السين وهما لغتان .

﴿ والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ للخلق ، وقال الحسن : للجن والإنس ، وقال ابن عباس والشعبي : لكل ذي روح .

﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ يعني [ألوان] الفواكه ، وقال ابن كيسان : يعني ما يفكههم به من النعم التي لا تحصى ، وكل النعم يُتفكه بها ﴿ والنخل ذَاتُ الأكمام ﴾ أوعية التمر ، واحدها : كم ، وكل ما يسترنا فهو كم وكمة ، ومنه كمّ القميص ، ويقال : للقلنسوة : كمّة ، قال الشاعر :

فقلت لهم كيلوا بكمّة بعضكم . . . دراهمكم إني كذاك أكيل

قال الضحاك : ذات الأكمام أي ذات الغلف . الحسن : أكمامها : ليفها . قتادة : رقابها . ابن زيد : الطلع قبل أن يتفتق .

﴿ والحب ذُو العصف ﴾ قال مجاهد : هو ورق الزرع ، قال ابن السكّيت : يقول العرب لورق الزرع : العصف والعصيفة والجِل بكسر الجيم ، قال علمقة بن عبدة :

تسقي مذانب قد مالت عصيفتها . . . حدورها من أتيّ الماء مطموم

العصف : ورق الزرع الأخضر إذا قطع رؤوسه ويبس . نظيره ﴿ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل : 5] .

﴿ والريحان ﴾ قال مجاهد : هو الرزق ، وهي رواية عكرمة عن ابن عباس قال : كل ريحان في القرآن فهو رزق .

قال مقاتل بن حيان : الريحان : الرزق بلغة حمْيَر . قال الشاعر :

سلام الإله وريحانه . . . ورحمته وسماء درر

سعيد بن جبير عن ابن عباس : الريحان : الريع . الضحّاك : هو الطعام . قال : فالعصف هو التبن والريحان ثمرته . الحسن وابن زيد : هو ريحانكم هذا الذي يشم . الوالبي عن ابن عباس : هو خضرة الزرع . سعيد بن جبير : هو ما قام على ساق .

وقراءة العامة (والحبُ ذو العصف والريحان) كلّها مرفوعاً بالرد على الفاكهة ، ونَصبها كلّها ابن عامر على معنى خلق هذا الانسان وخلق هذه الاشياء ، وقرأ أهل الكوفة إلاّ عاصم (والريحان) بالجر عطفاً على العصف .

(144/741)

﴿ فَبِأَيِّ آلاء ﴾ نِعَم ﴿ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أيها الثقلان .

يدل عليه ما أخبرنا الحسين بن محمد قال : حدّثنا أحمد بن جعفر بن مسلم الحنبلي قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن عبد الخالق قال : حدّثنا عبد الوهاب الوراق قال : حدّثنا أبو إبراهيم الترجماني قال : حدّثنا هشام بن عمار الدمشقي ، قال : حدّثنا الوليد بن مسلم قال : حدّثنا وهب ابن محمد عن ابن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرَّحْمن حتى ختمها .

ثم قال : " ما لي أراكم سكوتاً ؟ للجن أحسن منكم ردّاً ، ما قرأت عليهم هذه الآية مرة ﴿

فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إلاّ قالوا : ولا بشيء من نعمك ربّنا نكذب " .

وقيل : خاطب بلفظ التثنية على عادة العرب ، وقد مضت هذه المسألة في قوله سبحانه : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ [ق : 24] .

وأما الحكمة من تكرارها فقال القتيبي : إن الله سبحانه وتعالى عدّد في هذه السورة نعماه ، وذكّر خلقه آلاءه . ثم أتبع ذكر كلّ كلمة وضعها ، ونعمة ذكرها بهذه الآية ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقرّرهم بها ، وهو كقولك لرجل : أحسنت إليه وتابعت بالأيادي ، وهو في كل ذلك ينكرك ويكفرك : ألم تكن فقيراً فأغنيتك ؟ أفتنكر ؟ ألم تكن عرياناً فكسوتك ؟ ، أفتنكر هذا ؟ ألم أحملك وأنت راحل ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملاً فعززتك ؟ ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن صرورة فحججت بك ؟ أفتنكر هذا ؟ والتكرار سايغ في كلام العرب ، حسن في مثل هذا الموضع . قال الشاعر :

المم سلومه المم المم . . . وقال الآخر :

كم نعمة كانت لكم . . . كم كم وكم

وقال آخر :

فكادت فرارة تصلى بنا . . . فاولى فرارة أولى فراراً

وقال آخر :

لا تقطعن الصديق ما طرفت . . . عيناك من قول كاشح أشر

ولا تملّنّ من زيارته . . . زره وزره وزر وزر وزر

وقال الحسين بن الفضل : التكرار لطرد الغفلة وتأكيد الحجة .

(145/741)

﴿ خَلَقَ الإنسان مِن صَلْصَالٍ كالفخار * وَخَلَقَ الجآن ﴾ وهو أب الجن ، وقال الضحاك : هو إبليس ، وقال أبو عبيدة : الجان واحد الجن ﴿ مِن مَّارِجٍ ﴾ لهب صاف وخالص لا دخان فيه . قال ابن عباس : هو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا لهبت . عكرمة : هو أحسنها . مجاهد : هو ما اختلط بعضه ببعض من اللهب الاحمر والاصفر والاخضر الذي يعلو النار إذا أُوقدت ، وهو من قولهم : مرج القوم إذا اختلطوا ، ومرجت عهودهم وأماناتهم . ﴿ مّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * رَبُّ المشرقين ﴾ مشرق الصيف والشتاء ﴿ وَرَبُّ المغربين ﴾ مغرب الصيف والشتاء .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿ مَرَجَ ﴾ أرسل ﴿ البحرين ﴾ العذب والملح وخلاّهما وخلقهما ﴿ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ حاجز وحائل من قدرة الله وحكمته ﴿ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ لا يختلطان ولا يتغيران ولا يبغي أحدهما على صاحبه ، وقال قتادة : لا يبغيان على الناس بالغرق ، وقال الحسن : (مرج البحرين) يعني بحر الروم وبحر الهند واسم

الحاجز بينهما ، وعن قتادة أيضاً : يعني بحر فارس والروم ، (بينهما برزخ) وهو الجزائر ، وقال مجاهد والضحاك : يعني بحر السماء وبحر الأرض يلتقيان كل عام .

﴿ يَخْرُجُ ﴾ قرأ أهل المدينة وأبو عمرو ويعقوب بضم الياء وفتح الراء على غير تسمية الفاعل ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . الباقون على الضدّ .

(146/741)

﴿ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ ﴾ أي من البحرين ، قال أهل المعاني : إنّما يخرج من أحدهما وهو الملح دون العذب ، ولكن هذا جائز في كلام العرب ان يذكر شيئاً ثم يخصّ أحدهما بفعل دون الآخر ، كقول الله سبحانه : ﴿ يَامَعْشَرَ الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ ﴾ [الأنعام : 130] والرسل من الإنس دون الجن ، قاله الكلبي . قال : وجعل القمر فيهن نوراً وإنما هو في واحدة منهما ، وقال بعضهم يخرج من ماء السماء وماء البحر اللؤلؤ وهو أعظم من الدر ، واحدتها لؤلؤة . ﴿ وَالمَرْجَانُ ﴾ وهو صغارها ، وقال مرّة : المرجان جيّد اللؤلؤ ، وروى السدّي عن أبي مالك أن المرجان الخرز الأحمر ، وقال عطاء الخراساني هو البسذ ، يدل عليه قول ابن مسعود : المرجان حجر ، والذي حكينا من أن المراد بالبحرين القطر والبحر ، وأن الكناية في قوله : (منهما) راجعة إليهما [وهو] قول الضحاك ، ورواية

عطية عن ابن عباس وليث عن مجاهد .

وتصديقهم ما أخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا علي بن محمد بن لؤلؤ قال : أخبرنا الهيثم بن خلف قال : حدّثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي قال : حدّثنا حجاج بن محمد عن ابن جريج قرأ ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ قال : إذا مطرت السماء فتحت الأصداف أفواهها ، فحيث وقعت قطرة كانت لؤلؤة .

ولقد ذكر لي أن نواة كانت في جوف صدف ، فأصابت بعض النواة ولم يصب بعضها فكانت حيث القطرة من النواة لؤلؤة وسائرها نواة .

(147/741)

وأخبرنا الحسين قال : حدّثنا موسى بن محمد بن علي بن عبد الله قال : قرأ أبي على أبي محمد بن الحسن بن علويه القطان من كتابه وأنا اسمع ، قال : حدّثنا بعض أصحابنا قال : حدّثني رجل من أهل مصر يقال له : طسم قال : حدّثنا أبو حذيفة عن أبيه عن سفيان الثوري في قول الله سبحانه : ﴿ مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ قال : فاطمة وعلي ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ قال : الحسن والحسين .

وروي هذا القول أيضاً عن سعيد بن جبير ، وقال : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ محمد صلى الله

عليه وسلم والله أعلم .

وقال أهل الإشارة ﴿ مَرَجَ البحرين ﴾ أحدهما معرفة القلب والثاني معصية النفس ، بينهما برزخ الرحمة والعصمة .

﴿ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ لا تؤثر معصية النفس في معرفة القلب ، وقال ابن عطاء : بين العبد وبين الرب بحران : أحدهما بحر النجاة ، وهو القرآن من تعلق به نجا ، والثاني بحر الهلاك وهو الدنيا من تمسك بها وركن إليها هلك ، وقيل : بحرا الدنيا والعقبى ، بينهما برزخ وهو القبر قال الله سبحانه : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : 100] .

﴿ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ لا يحل أحدهما بالآخر ، وقيل : بحرا العقل والهوى ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ لطف الله تعالى . ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ التوفيق والعصمة ، وقيل : بحر الحياة وبحر الوفاة ، بينهما برزخ وهو الأجل ، وقيل : بحر الحجة والشبهة ، بينهما برزخ وهو النظر والاستدلال ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ الحق والصواب .

(148/741)

﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ الجوار ﴾ السفن الكبار ﴿ المنشئات ﴾ كسر حمزة سينها ، وهي رواية المفضل عن عاصم تعني المقبلات المبتديات اللاتي أنشأن بحريهن

وسيرهن ، وقرأ الآخرون بفتحه أي المخلوقات المرفوعات المسخّرات ﴿ فِي البحر كالأعلام * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ كقول الناس : (ما عليها أكرم من فلان) يعنون الأرض ، وما بين لابتيها أفضل منه يريدون جُزَئي المدينة ﴿ فَانٍ ﴾ هالك ، قال ابن عباس : لمّا أُنزلت هذه الآية قالت الملائكة : هلك أهل الأرض فأنزل الله تعالى ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] فأيقنت الملائكة بالهلاك .

﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال ﴾ قراءة العامة بالواو ، وقرأ عبد الله ذي الجلال بالياء نعت الربّ .

أخبرني الحسين احمد بن جعفر بن حمدان بن عبد الله قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد بن منصور الكناني قال : حدّثنا الحرث بن عبد الله قال : أخبرنا عبد الرَّحْمن بن عثمان الوقاصي ، قال : حدّثنا محمد بن كعب القرظي قال : قال عبد الله بن سلام : بعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن سلام إنّ الله عز وجل يقول : ﴿ ذُو الجلال والإكرام ﴾ فأمّا الإكرام فقد عرفت فما الجلال ؟ فقال : بأبي أنت إنّا نجد في الكتب أنّها الجنة المحيطة بالعرش .

قال : فكم بينهما وبين الجنات التي يسكن الله عباده ؟ قال : مدى سبعمائة سنة ، قال : فنزل جبرئيل بتصديقه .

وأخبرني الحسين قال : حدّثنا ابن حمدان قال : حدّثنا بن ماهان قال : حدّثنا موسى بن

إسماعيل قال : حدّثنا حماد بن سلمة قال : حدّثنا سعيد الجزيري عمّن سمع اللجلاج يقول : سمعت معاذ بن جبل وكان له أخاً وصديقاً قال : سمعته يقول : " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ برجل يصلّي وهو يقول : يا ذا الجلال والإكرام . فقال صلى الله عليه وسلم " قد استجيب لك " " .

(149/741)

وأخبرني الحسين قال : حدّثنا محمد بن الحسن بن بشر قال : حدّثنا أبو بكر بن أبي الخصيب المصيصي قال : حدّثنا هلال بن العلاء قال : حدّثنا أبو الجرار قال : حدّثنا عمار بن زريق عن الأعمش عن يزيد الرقاشي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أَلِظوا ب (يا ذا الجلال والإكرام) " .

واخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن صقلاب قال : حدّثنا ابن أبي الخصيب . قال : حدّثنا محمد بن يونس عن بسر بن عمر قال : حدّثنا وهيب بن خالد عن ابن عجلان عن سعيد المنقري قال : الحح رجل فقعد ينادي : يا ذا الجلال والإكرام . فنودي : إني قد سمعت فما حاجتك ؟ ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَسْأَلُهُ مَن فِي السماوات والأرض ﴾ من ملك وإنس وجنّ وغيرهم لا غنى لأحد منهم منه قال ابن عباس : وأهل السماوات

يسألونه المغفرة ، ولا يسألونه الرزق ، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرة .

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ قال مقاتل : أُنزلت في اليهود حين قالوا : إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ .

أخبرني أبو القاسم عبد الرَّحْمن بن محمد إبراهيم الحوضي قال : أخبرنا أبو أحمد عبد الله ابن عدي الحافظ قال : حدّثنا عبد الله بن محمد بن طويط أبو القاسم البزاز قال : حدّثنا إبراهيم ابن محمد بن يوسف الفريابي قال : حدّثنا عمر بن بكر قال : حدّثنا حارث بن عبيدة بن رياح الغسّاني عن أبيه عن عبدة بن أبي رياح عن مثبت بن عبد الله الأزدي عن أبيه عن عبد الله بن منيب قال : " تلا علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ فقلنا : يا رسول الله وما ذاك الشأن ؟ قال : " يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين " " .

(150/741)

وحدّثنا أبو بكر محمد بن احمد بن عبدوس إملاءً قال : أخبرنا أبو حامد أحمد بن محمد ابن يحيى البزاز ، قال : حدّثنا يحيى بن الربيع المكي قال : حدّثنا سفيان بن عيينة قال : حدّثنا أبو حمزة الثمالي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : إن ممّا خلق الله سبحانه

وتعالى لوحاً من درّة بيضاء ، دفتاه ياقوتة حمراء ، قلمه نور وكتابه نور ، ينظر الله سبحانه فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء ، فذلك قوله سبحانه ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ .

وقال مجاهد وعبيدة بن عمير : من شأنه أن يجيب داعياً ويعطي سائلا ويفكّ غائباً ويشفي سقيماً ويغفر ذنباً ويتوب على قوم ، وقال سفيان بن عيينة : الدهر كله عند الله سبحانه يومان : أحدهما مدة أيام الدنيا والآخر يوم القيامة ، والشأن الذي هو فيه اليوم الذي هو مدة الدنيا ، الاختبار بالأمر والنهي والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع ، وشأن يوم القيامة الجزاء والحساب والثواب والعقاب ، وقال الحسين بن الفضل هو سوق المقادير إلى المواقيت .

ويقال : شأنه سبحانه أنّهُ يخرج في كل يوم وليلة ثلاثة عساكر : عسكراً من أصلاب الآباء إلى الأرحام ، وعسكراً من الأرحام إلى الدنيا ، وعسكراً من الدنيا إلى القبور ، ثم يرحلون جميعاً إلى الله سبحانه ، وقال الربيع بن أنس : يخلق خلقاً ويميت آخرين ويرزقهم ويكلؤهم . سويد بن جبلة الفراري : يعتق رقاباً ويقحم عقاباً ويعطي رغاباً ، وقال بعضهم : هو الجمع والتفريق . أبو سليمان الداراني : هو إيصاله المنافع إليك ، ودفعه المضار عنك . فلم نغفل عن طاعة من لا يغفل عنا ؟ وقال أيضاً : في هذه الآية كل يوم له إلى العبيد برّ جديد .

ويحكى أن بعض الأمراء سأل وزيره عن معنى هذه الآية فلم يعرفه واستمهله إلى الغد ، فرجع الوزير إلى داره كئيباً ، فقال له غلام أسود من غلمانه : يا مولاي ما أصابك ؟ فزجره . فقال : يا مولاي ، أخبرني ، فلعلّ الله سبحانه يسهّل لك الفرج على يديّ ، فأخبره بذلك فقال له : عد إلى الأمير وقل له : إن لي غلاماً أسود إن أذنت له فسّر لك هذه الآية ، ففعل ذلك ودعا الأمير الغلام وسأله عن ذلك فقال : أيها الأمير شأن الله هو انه يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، ويخرج الميت من الحي يخرج الحي من الميت ، ويشفي سقيماً ، ويسقم سليماً ، ويبتلي معافىً ، ويعافي مبتلىً ، ويعز ذليلا ، ويذل عزيزاً ، ويفقر غنياً ويغني فقيراً . فقال الأمير : أحسنت يا غلام ، قد فرّجت عني . ثم أمر الوزير بخلع ثياب الوزارة وكساها الغلام ، فقال : يا مولاي ، هذا شأن الله عز وجل .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ قرأ عبد الله وأبي (سنفرغ اليكم) ، وقرأ الاعمش بضم الياء وفتح الراء على غير تسمية ، وقرأ الأعرج بفتح النون والراء . قال الكسائي : هي لغة تميم ، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الياء وفتح الراء ، واختاره أبو عبيد اعتباراً بقوله : ﴿

يَسْأَلُهُ مَن فِي السماوات والأرض ﴾ فاتبع الخبر الخبر ، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الراء ، واختاره أبو حاتم .

فإن قيل : إن الفراغ لا يكون إلاّ عن شغل والله تعالى لا يشغله شأن عن شأن . قلنا : اختلف العلماء في معنى هذه الآية فقال قوم : هذا وعيد وتهديد من الله سبحانه وتعالى لهم كقول القائل : لأتفرغنّ لك وما به شغل ، وهذا قول ابن عباس والضحاك ، وقال آخرون : معناه سنقصدكم بعد الترك والإمهال ونأخذ في أمركم ، وقد يقول القائل للذي لا شغل له : قد فرغت لي وفرغت لشتمي ، أي أخذت فيه وأقبلت عليه . قال جرير بن الخطفي :

(152/741)

ولما التقى القين العراقي بأسته . . . فرغت إلى القين المقيّد بالحجل

أي قصدته بما يسوؤه ، وهذا القول اختيار الفندي والكسائي .

وقال بعضهم : إن الله سبحانه وعد على التقوى وأوعد على الفجور ، ثم قال : سنفرغ لكم مما أوعدناكم وأخبرناكم فنحاسبكم ونجازيكم ، وننجز لكم ما وعدناكم ، ونوصل كلا إلى ما عدناه ، فيتمّ ذلك ويفرغ منه ، وإلى هذا ذهب الحسن ومقاتل وابن زيد ، وقال

ابن كيسان : الفراغ للفعل هو التوفر عليه دون غيره . ﴿ أَيُّهَ الثقلان ﴾ أي الجن والإنس ، دليله قوله في عقبه ﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾ سمّيا ثقلين ؛ لأنهما ثقل أحياءً وأمواتاً ، قال الله سبحانه : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة : 2] وقال بعض أهل المعاني : كل شيء له قدر ينافس فيه فهو ثقل ، ومنه قيل لبيض النعام : ثقل ؛ لأن واجده وصائده يفرح إذا ظفر به قال الشاعر :

فتذكّرا ثقلاً رثيداً بعدما . . . ألقت ذكاءُ يمينها في كافر

وقال النبي صلى الله عليه وسلم " إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي " فجعلهما ثقلين إعظاماً لقدرهما ، وقال جعفر الصادق : سمي الجن والانس ثقلين ؛ لأنهما مثقلان بالذنوب .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يا معشر الجن والإنس إِنِ استطعتم ﴾ ولم يقل : استطعتما ؛ لأنهما فريقان في حال جمع كقوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [النمل : 45] وقوله سبحانه : ﴿ هذان خَصْمَانِ اختصموا فِي رَبِّهِمْ ﴾ [الحج : 19] .

(153/741)

﴿ أَن تَنفُذُواْ ﴾ تجوزوا ﴿ مِنْ أَقْطَارِ السماوات والأرض ﴾ أي أطرافها ﴿ فانفذوا ﴾ ومعنى الآية إن استطعتم ان تجوزوا اطراف السماوات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فجوزوا ، وانما يقال لهم هذا يوم القيامة ، وقال الضحاك : يعني هاربين من الموت ، فأخبر أنه لا يجيرهم من الموت ولا محيص لهم منه ، ولو نفذوا من أقطار السماوات والأرض كانوا في سلطان الله عز وجل وملكه ، وقال ابن عباس : يعني : إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات والأرض فاعلموا ، ولن تعلموه إلاّ بسلطان يعني البيّنة من الله سبحانه .

﴿ لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ أي حجة .

قال ابن عباس وعطاء : لا تخرجون من سلطان ، وقيل معناه إلاّ إلى سلطاني كقوله ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بي ﴾ [يوسف : 100] أي أحسن أليّ ، وقال الشاعر :

أسيء بنا أفأحسني لا ملومة . . . لدينا ولا مقليّة إن تقلّت

وفي الخبر " يحاط على الخلق الملائكة وبلسان من نار ثم ينادون : يا معشر الجن والإنس إن استطعتم . . . فذلك قوله تعالى . . . " .

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ﴾ قرأ ابن كثير وابن أبي إسحاق بكسر الشين ، غيرهما بضمّه ، وهما لغتان مثل صُوار من البقر ، وصَوار وهو اللهب ، قال حسان بن ثابت يهجو أُمية بن أبي الصلت :

هجوتك فاختضعتَ لها بذلٍّ . . . بقافية تأجج كالشواظ

وقال رؤبة :

إن لهم من وقعنا أقياظا . . . ونار حرب تسعر الشواظا

وقال الضحاك : هو الدخان الذي يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر السين عطفاً على النار ، واختاره أبو حاتم ، وقرأ الباقون بالرفع عطفاً على الشواظ ، واختاره أبو عبيد .

قال سعيد بن جبير : النحاس : الدخان ، وهي رواية أبي صالح وابن أبي طلحة ، عن ابن عباس ، قال النابغة :

يضيء كضوء سراج السليط . . . لم يجعل الله فيه نحاسا

(154/741)

قال الاصمعي : سمعت أعرابياً يقول : السليط : دهن السنام ولا دخان له ، وقال مجاهد وقتادة : هو الصفر المذاب يصب على رؤوسهم ، وهي رواية العوفي عن ابن عباس . قال مقاتل : هي خمسة أنهار من صفر ذائب تجري من تحت العرش على رؤوس أهل النار ، ثلاثة أنهار على مقدار الليل ونهران على مقدار النهار ، وقال عبد الله بن مسعود :

النحاس : المهل . ربيع : القطر . الضحّاك : دُرديّ الزيت . الكسائي : هو الذي له ريح شديدة ﴿ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ﴾ فلا تنتقمان وتمتنعان .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَإِذَا انشقت ﴾ انفرجت ﴿ السمآء ﴾ فصارت أبواباً لنزول الملائكة ، بيانه قوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السمآء بالغمام وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ [الفرقان : 25] ﴿ فَكَانَتْ ﴾ صارت ﴿ وَرْدَةً ﴾ مشرقة ، وقيل : متغيّرة ، وقيل : بلون الورد .

قال قتادة : إنها اليوم خضراء وسيكون لها يومئذ لون آخر ﴿ كالدهان ﴾ اختلفوا فيه . قال ابن عباس والضحاك وقتادة والربيع : يعني كلون غرس الورد ، يكون في الربيع كميتاً أصفر ، فإذا ضربه أول الشتاء يكون كميتاً أحمر ، فإذا اشتدّ الشتاء يكون كميتاً أغبر ، فشبه السماء في تلوّنها عند انشقاقها بهذا الغرس في تلوّنه ، وقال مجاهد وأبو العالية : كالدّهن ، وهي رواية شيبان عن قتادة ، قال : الدهان جمع الدهن ، وللدهن ألوان ، شبّه السماء بألوانه . (وقال :) عطاء بن أبي رباح : كعصير الزيت يتلوّن في الساعة ألواناً . (وقال :) الحسين بن الفضل : كصبيب الدهن يتلوّن . (وقال :) ابن جريج : تذوب السماء كالدهن الذائب وذلك حين يصيبها حر جهنم ، (وقال :) مقاتل : كدهن الورد الصافي . (وقال) مؤرخ : كالوردة الحمراء ، (وقال :) الكلبي : كالأديم الأحمر ، وجمعه أدهنة .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن ماجة ، قال : حدّثنا ابن أيوب قال : حدّثنا لقمان الحنفي قال " أتى النبي صلى الله عليه وسلم على شاب في جوف الليل وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ فَإِذَا انشقت السمآء فَكَانَتْ وَرْدَةً كالدهان ﴾ فوقف الشاب وخنقته العبرة وجعل يقول : ويحي من يوم تنشق فيه السماء ، ويحي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " يا فتى مثلها أو مثّلها ، فوالذي نفسي بيده لقد بكت الملائكة يا فتى من بكائك " .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ قال الحسين وقتادة : لا يسألون عن ذنوبهم ، لأن الله سبحانه علمها منهم وحفظها [عليهم] ، وكتبت الملائكة عليهم ، وهي رواية العوفي عن ابن عباس ، وعنه أيضاً لا يسأل الملائكة [المجرمين] ؛ لأنهم يعرفونهم بسيماهم ، دليله ما بعده ، وإلى هذا القول ذهب مجاهد ، وعن ابن عباس أيضاً في قوله سبحانه : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 92] وقوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ قال : لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا ؟ لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يسألهم لم عملتم كذا وكذا ؟ ، وقال عكرمة أيضاً : مواطن يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها ،

وعن ابن عباس أيضاً : لا يسألون سؤال شفاء وراحة ، وانما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ ، وقال أبو العالية : لا يسأل غير المذنب عن ذنب المجرم .

(156/741)

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ المجرمون بِسِيمَاهُمْ ﴾ وهو سواد الوجه وزرقة العيون ﴿ فَيُؤْخَذُ بالنواصي والأقدام ﴾ فيسحبون إلى النار ويقذفون فيها ثم يقال لهم : ﴿ هذه جَهَنَّمُ التي يُكَذِّبُ بِهَا المجرمون ﴾ المشركون . ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ قد انتهى خبره ، وقال قتادة : آني طبخه منذ خلق الله السماوات الأرض ، ومعنى الآية أنهم يسعون بين الجحيم وبين الحميم .

قال كعب الأحبار : "آن" (وادي) من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم وهم في الأغلال فيغمسون في ذلك الوادي حتى تخلع أوصالهم ، ثم يخرجون منها وقد أحدث الله سبحانه لهم خلقاً جديداً ، فيلقون في النار فذلك قوله سبحانه : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ أي مقامه بين يدي ربّه ، وقيل : قيامه لربه ، بيانه قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الناس لِرَبِّ العالمين ﴾ [المطففين : 6] ، وقيل : قيام

ربّه عليه ، بيانه قوله : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : 33] قال إبراهيم ومجاهد : هو الرجل يهمّ بالمعصية فيذكر الله تعالى فيدعها من مخافة الله . قال ذو النون : علامة خوف الله أن يؤمنك خوفه من كل خوف ، وقال السدّي : شيئان مفقودان الخوف المزعج والشوق المقلق .

﴿ جَنَّتَانِ ﴾ بستانان من الياقوت الأحمر ، والزبرجد الأخضر ، ترابهما الكافور والعنبر وحمأتهما المسك الأذفر ، كل بستان منهما مسيرة مائة سنة ، في وسط كلّ بستان دار من نور .

قال محمد بن علي الترمذي : جنة بخوفه ربّه ، وجنّة بتركه شهوته . قال مقاتل : هما جنّة عدن وجنّة النعيم ، وقال أبو موسى الأشعري : جنّتان من ذهب للسابقين ، وجنتان من فضة للتابعين .

(157/741)

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : " هل تدرون ما هاتان الجنتان ؟ ، هما بستانان في بساتين ، قرارهما ثابت ، وفرعهما ثابت ، وشجرهما ثابت " .

وأخبرني عقيل إجازة قال : أخبرنا المعافى قراءة قال : أخبرنا محمد بن جرير الطبري قال :

حدّثني محمد بن موسى الجرشي قال : حدّثنا عبد الله بن الحرث القرشي قال : حدّثنا شعبة بن الحجاج قال : حدّثنا سعيد الحريري عن محمد بن سعد عن أبي الدرداء قال : " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ ، قال : " وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي الدرداء " .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ قال ابن عباس : ألوان ، وواحدها فن وهو من قولهم : افتنّ فلان في حديثه إذا أخذ في فنون منه وضروب ، قال الضحاك : ألوان الفواكه . مجاهد : أغصان وواحدها فنن . عكرمة : ظل الأغصان على الحيطان . الحسن : ذواتا ظلال ، وهو كقوله : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة : 30] . [قال] الضحاك أيضاً : ذواتا أغصان وفصول . قال : وغصونها كالمعروشات تمسّ بعضها بعضاً ، وهي رواية العوفي عن ابن عباس . [قال] قتادة : ذواتا فضل وسعة على ما سواهما . [قال] ابن كيسان : ذواتا أصول .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ قال ابن عباس : بالكرامة والزيادة على أهل الجنة ، وقال الحسن : تجريان بالماء الزلال ، إحداهما التسنيم والأُخرى السلسبيل .

عطية : إحداهما من ماء غير آسن والأخرى من خمر لذة للشاربين ، وقيل : إنهما تجريان من جبل من مسك ، وقال أبو بكر محمد بن عمر الورّاق : فيهما عينان تجريان لمن كانت له

في الدنيا عينان تجريان بالبكاء .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ صنفان .

(158/741)

قال ابن عباس : ما في الدنيا ثمرة حلوة أو مرّة إلاّ وهي في الجنة حتى الحنظل إلاّ أنه حلو .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ ﴾ حال ﴿ عَلَى فُرُشٍ ﴾ جمع فراش ﴿ بَطَآئِنُهَا ﴾ جمع بطانة ﴿ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ وهو ما غلظ من الديباج وحسن ، وقيل : هو أَستبر معرب .

قال ابن مسعود وأبو هريرة : هذه البطائن فما ظنّكم بالظهائر ؟ ، وقيل لسعيد بن جبير : البطائن من استبرق فما الظواهر ؟ قال : هذا مما قال الله سبحانه : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : 17] .

وعنه أيضاً قال : بطائنها من إستبرق وظواهرها من نور جامد ، وقال الفرّاء : أراد بالبطائن الظواهر .

قال المؤرخ : هو بلغة القبط ، وقد تكون البطانة ظهارة والظهارة بطانة ؛ لأن كل واحد منهما يكون وجهاً ، تقول العرب : هذا ظهر السماء ، وهذا بطن السماء للذي يراه ، وقال

عبد الله ابن الزبير في قتلة عثمان : قتلهم الله شرّ قتلة ، ونجا من نجا منهم تحت بطون الكواكب ، يعني هربوا ليلا ، فجعل ظهور الكواكب بطوناً .

قال القتيبي : هذا من عجيب التفسير ، وكيف تكون البطانة ظهارة ، والظهارة بطانة ؟ والبطانة من بطن من الثوب ، وكان من شأن الناس إخفاؤه ، والظهارة ما ظهر منه ، ومن شأن الناس إبداؤه ، وهل يجوز لأحد ان يقول لوجه المصلي : هذا بطانته ، ولما ولي الأرض : هذا ظهارته ، لا والله لا يجوز هذا ، وانما أراد الله سبحانه وتعالى ان يعرّفنا لطفه من حيث يعلم فضل هذه الفرش ، وأن ما ولي الأرض منها إستبرق ، وإذا كانت البطانة كذلك فالظهارة أعلى وأشرف ، وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم

" لَمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذه الحلّة " فذكر المناديل دون غيرها ؛ لأنها أحسن ويصدّق قول القتيبي ما حكيناه عن ابن مسعود وأبي هريرة ، والله أعلم .

(159/741)

﴿ وَجَنَى الجنتين ﴾ ثمرهما ﴿ دَانٍ ﴾ قريب يناله القائم والقاعد والنائم ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطرف ﴾ غاضات الأعين ، قد قصر طرفهن على أزواجهن فلا ينظرن الى غيرهم ولا يردن غيرهم ، قال ابن زيد : تقول لزوجها : وعزّة ربي

ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك ، فالحمد لله الذي جعلك زوجي وجعلني زوجك .

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ لم يجامعهنّ ولم يفترعهنّ ، وأصله من الدم ، ومنه قيل للحائض : طامث ، كأنه قال لم يُدمِهن بالجماع . ﴿ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ . قال مجاهد : إذا جامع الرجل ولم يسمِّ انطوى الجانّ على إحليله فجامع معه فذلك قوله سبحانه : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ أي لم يجامعهن ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " إذا امرأة ماتت بجمع لم تطمث دخلت الجنة " وقال الشاعر :

دفعن اليّ لم يُطمثن قبلي . . . وهن أصح من بيض النعام

قال سهل : من أمسك طرفه في الدنيا عن اللذات عُوّض في الآخرة القاصرات ، وقال ارطأة بن المنذر سألت ضمرة بن حبيب : هل للجن من ثواب ؟ قال : نعم ، وقرأ هذه الآية ، قال : فالإنسيّات للإنس والجنيّات للجنّ .

﴿ كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان ﴾ قال قتادة : صفاء الياقوت في بياض المرجان .

أخبرنا الحسن بن محمد قال : حدّثنا هارون بن محمد بن هارون قال : حدّثنا حازم بن يحيى الحلواني قال : حدّثنا سهل بن عثمان العسكري قال : حدّثنا عبيدة بن حميد عن عطاء بن السائب عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن المرأة من أهل الجنّة ليُرى بياض ساقها من سبعين حلّة حتى يرى مخّها ، إن الله

سبحانه وتعالى يقول : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان ﴾ فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه " .

(160/741)

وروى سفيان عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون قال : إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حلّة فيرى مخّ ساقها من ورائها كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَآءُ الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ ، (هل) في كلام العرب على أربعة أوجه :

الأول : بمعنى (قد) كقوله : ﴿ هَلْ أتى ﴾ [الدهر : 1] و ﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ [الغاشية : 1] .

والثاني : بمعنى الاستفهام ، كقوله سبحانه : ﴿ فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً ﴾ [الأعراف : 44] .

والثالث : بمعنى الأمر ، كقوله سبحانه :

﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : 91] .

والرابع : بمعنى (ما) الجحد ، كقوله سبحانه : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرسل إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ [

النحل : 35] ، و ﴿ هَلْ جَزَآءُ الإحسانِ إلاَّ الإحسان ﴾ .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شيبة وابن حمدان والفضل بن الفضل والحسن بن علي ابن الفضل قالوا : حدّثنا إسحاق بن إبراهيم بن بهرام قال : حدّثنا الحجاج بن يوسف المكتب قال : حدّثنا بشر بن الحسين عن الزبير بن عدي عن أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ هَلْ جَزَآءُ الإحسانِ إلاَّ الإحسان ﴾ قال : " هل تدرون ما قال ربكم عزّوجل ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلاّ الجنّة " .

(161/741)

وحدّثنا أبو العباس بن سهل بن محمد بن سعيد المروزي لفظاً بها قال : حدّثنا جدي أبو الحسن محمد بن محمود بن عبيد اللّه ، قال : أخبرنا عبد اللّه بن محمود ، قال : حدّثنا محّمد بن مبشر ، قال : حدثنا إسحاق بن زياد الأبلي قال : حدّثنا بشر بن عبد اللّه الدارمي ، عن بشر بن عبادة عن جعفر بن برقان ، عن ميمون بن مهران قال : سمعت ابن عمر وابن عباس يقولان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ﴿ هَلْ جَزَآءُ الإحسانِ إلاَّ الإحسان ﴾ يقول الله سبحانه : هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدي إلاّ أن

أُسكنه جنّتي وحظيرة قدسي برحمتي " .

وأخبرني الحسين قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا عبد الملك بن محمد بن عدي قال : حدّثنا صالح بن شعيب الخواص ببيت المقدس قال : حدّثنا عبيدة بن بكار قال : حدّثنا محمد بن جابر اليمامي عن ابن المكندر ﴿ هَلْ جَزَآءُ الإحسانِ إلاَّ الإحسان ﴾ قال : هل جزاء من أنعمت عليه بالاسلام إلاّ الجنّة ، وقال ابن عباس : هل جزاء من عمل في الدنيا حسناً ، وقال : لا إله إلاّ الله ، إلاّ الجنّة في الآخرة ، هل جزاء الذين أطاعوني في الدنيا إلاّ الكرامة في الآخرة ، وقال الصادق : " هل جزاء من أحسنت إليه في الأزل إلاّ حفظ الإحسان عليه إلى الأبد " ، وقال محمد ابن الحنفية والحسن : هي مسجلة للبر والفاجر [للفاجر] في دنياه وللبرّ في آخرته .

(162/741)

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِن دُونِهِمَا ﴾ يعني : ومن دون الجنتين الأُولتين ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ أُخريان ، واختلف العلماء في معنى قوله ﴿ وَمِن دُونِهِمَا ﴾ ، فقال ابن عباس : ومن دونهما في الدرج ، وقال ابن زيد : ومن دونهما في الفضل ، قال ابن زيد : هي أربع : جنتان للمقرّبين السابقين فيهما من كلّ فاكهة زوجان ، وجنّتان لأصحاب اليمين والتابعين ،

فيهما فاكهة ونخل ورمان ، وقال أبو معاذ الفضل بن يحيى : أراد غيرهما ؛ لأنهما دون الأُوليين ، وقال الكسائي : يعني أمامهما وقبلهما ، كقول الشاعر :

رب خرق من دونها يخرس السفر . . . وميل يفضي إلى أميال

أي قبل الفلاة الأُولى ، ودليل هذا التأويل قول الضحاك : الجنتان الأُوليان من ذهب وفضة ، والأُخريان من ياقوت وزمرد ، وهما أفضل من الأُوليين .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ ناعمتان سوداوان من ريّهما وشدّة خضرتهما ؛ لأن الخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد ، قال ذو الرمّة :

كسا الأكم بهمي غضة حبشية . . . تواماً ونقعان الظهور الأقارع

فجعلها حبشية لما اشتدّت خضرتها ، وقيل ملتقيان .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ ممتلئتان قبّاضتان فوّارتان بالماء لا ينقطعان ، وقال الحسن بن أبي مسلمد ينبعان ثم يجريان ، وقال ابن عباس : تنضحان بالخير والبركة على أهل الجنة ، (وقال) ابن مسعود : تنضخان على أولياء الله بالمسك والكافور . سعيد ابن جبير : نضاختان بالماء وألوان الفواكه . أنس بن مالك : تنضخ المسك والعنبر في دور أهل الجنة كما ينضخ طش المطر ، وأصل النضخ الرش ، وهو أكثر من النضخ .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ كأنما أعاد ذكر النخل والرمان وهما من حملة الفاكهة للتخصيص والتفضيل، كقوله: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ [البقرة: 98] وقوله: ﴿ حَافِظُواْ عَلَى الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ [البقرة: 238] وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض ﴾ [الحج: 18] ثم قال: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس ﴾ [الحج: 18] وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ [الأحزاب: 7].

أخبرني ابن فنجويه قال: حدّثنا ابن شيبة، قال: حدّثنا الفريابي قال: حدّثنا سحاب بن الحرث قال: أخبرنا علي بن مسير عن مسيعر عن عمرو بن مرّة عن أبي عبيدة قال: إن نخل الجنّة نضدها ما بين أصله إلى فرعه، وثمره كأمثال القلال، كلّما نُزعتْ عادت مكانها أُخرى، العنقود منها اثنا عشر ذراعاً، وأنهارها تجري في غير أُخدود.

قال: قلت: من حدّثك؟ قال: أما إنّي لم اخترعه، حدّثني مسروق.

وأخبرني ابن فنجويه قال: حدّثنا ابن حمدان قال: حدّثنا ابن ماهان قال: حدّثنا موسى بن إسماعيل قال: حدّثنا حماد بن سلمة عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كجلد البعير المقتب ، وإذا طيرها كالبخت ، وإذا فيها جارية ، قلت : يا جارية ، لمن أنت ؟ قالت : لزيد بن حارثة ، وإذا في الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر " .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قال الكسائي : ذكر الله سبحانه وتعالى الجنتين والجنتين ثم جمعهن فقال : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ قرأ العامة بالتخفيف ، وقرأ أبو رجاء العطاردي (خيّرات) بتشديد الياء .

(164/741)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن خنيس قال : حدّثنا ابن مجاهد قال : حدّثنا الصاغاني قال : حدّثنا عبد الله بن أبي بكر عن أبيه أنه قرأ (فيهن خيّرات) بالتشديد ، وهما لغتان مثل (هين وهيّن ، ولين وليّن) .

وأخبرني عقيل أن أبا الفرج أخبرهم عن محمد بن جرير قال : حدّثنا أحمد بن عبد الرَّحْمن ابن وهب قال : حدّثنا محمد بن الفرج الصدفي عن عمرو بن هاشم عن ابن أبي كريمة عن هشام ابن حسان عن الحسن عن أُمه " عن أُم سلمة قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه

وسلم أخبرني عن قوله سبحانه : ﴿ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ قال صلى الله عليه وسلم " خيرات الأخلاق حسان الوجوه " " .

وقال الحسن : خيرات فاضلات . إسماعيل بن أبي خالد : عذارى . جرير بن عبد الله : مختارات .

وقال المفسّرون : خيرات لسنَ بذربات ولا ذفرات ولا نجرات ولا متطلّعات ولا متشوّقات ولا متسلطات ولا طمّاحات ولا طوّافات في الطرق ، ولا يغرن ولا يؤذين .

وأخبرنا الحسين قال : حدّثنا محمد بن علي بن الحسن الصوفي قال : حدّثنا حامد بن شعيب البخلي قال : حدّثنا سريح بن يونس قال : حدّثنا مسلم بن قتيبة عن سلام بن مسكر عن قتادة عن عقبة بن عبد الغفّار قال : نساء أهل الجنة يأخذ بعضهن بأيدي بعض ويتغنين بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها : نحن الراضيات فلا نسخط ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً ، ونحن خيرات حسان حُبينا لأزواج كرام .

وروى الأسود عن عائشة رضي الله عنها : أن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابتهنّ المؤمنات من نساء الدنيا : نحن المصلّيات وما صلّيتن ، ونحن الصائمات وما صمتنّ ، ونحن المتوضّئات وما توضأتنّ ، ونحن المتصدّقات وما تصدقتنّ . قالت عائشة : فغلبتهنّ والله .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الخيام ﴾ محبوسات مستورات في

الحجال . يُقال للمرأة : قصيرة وقصورة ومقصورة إذا كانت مخدّرة مستورة لا تخرج .

قال الشاعر :

(165/741)

وأنت التي حببتِ كل قصيرة . . . إليّ وما تدري بذاك القصائر

عنيت قصيرات الحجال ولم أرد . . . قصار الخطى شر النساء البحاتر

[الراجز]

وقيل : قُصر بهنَّ على أزواجهن فلا يبغين بهم بدلا .

أخبرني ابن فنجويه ، حدّثنا ابن شاذان ، حدّثنا القطان ، حدّثنا ابن حسان حدّثني نصر العطار ، أخبرنا عمر بن سعد عن أبان بن أبي عياش عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لو أن حوراء بزقت في بحر [لجي] لعذب ذلك البحر من عذوبة ريقها " .

﴿ فِي الخيام ﴾ جمع الخيم ، قال ابن مسعود : لكل زوجة خيمة طولها ستون ميلا ، وتصديق هذا التفسير ، ما أخبرنا ابن فنجويه ، حدّثنا ابن شنبة ، حدّثنا الفراتي ، حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدّثنا يزيد بن هارون ، حدّثنا همام بن يحيى عن أبي عمران الجوني

عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري ، عبد أبيه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الخيمة درة واحدة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها أهل للمؤمن لا يراهم الآخرون " .

وأخبرني عقيل أن أبا الفرج أخبرهم عن يحيى بن طلحة اليربوعي ، حدّثنا فضل بن (عياض) ، عن هشام عن محمد عن ابن عباس في قوله : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الخيام ﴾ قال : الخيمة لؤلؤة واحدة أربعة فراسخ في أربعة فراسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب .

أخبرني الحسين ، حدّثنا عبد الله بن [. . . .] حدّثنا [. . . .] أبو شعيب عبد الله بن الحسن الحراني ، محمد بن موسى القرشي ، حدّثنا حماد بن هلال السكرّي ، حدّثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مررت ليلة أسري بي بنهر حافتاه قباب المرجان فنوديت منه : السلام عليك يا رسول الله .

(166/741)

فقلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء جوار من الحور العين استأذنَّ ربهنَّ في أن يسلّمن عليك فأذن لهن ، فقلن : نحن الخالدات فلا نموت ، ونحن الناعمات فلا نيئس [أبداً ونحن

الراضيات فلا نسخط أبداً] أزواجُ رجال كرام ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الخيام ﴾ .

قال : " محبوسات " .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ يمسسهن ﴿ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ قرأه العامة بكسر الميم وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم .

وقرأ أبو يحيى الشامي وطلحة بن مصرف : بالضم فيهما ، وكان الكسائي يكسر إحداهما ويضم الأخرى مخيّراً في ذلك ، والعلة فيه ما أخبرني أبو محمد شيبة بن محمد المقري ، أخبرني أبو عمرو محمد بن محمد بن عبدوس حدّثني ابن شنبوذ أخبرني عياش بن محمد الجوهري ، حدّثنا أبو عمر الدوري عن الكسائي قال : إذا رفع الأول كسر الآخر ، وإذا رفع الآخر كسر الأول . قال : وهي قراءة أبي إسحاق السبيعي . قال : قال أبو إسحاق : كنت أصلي خلف أصحاب علي بن أبي طالب فأسمعهم يقرؤون (يطمثهن) بكسر الميم ، وكان الكسائي يقرأ واحدة برفع الميم والأخرى بكسر الميم ؛ لئلا يخرج من هذين الأثرين ، وهما لغتان .

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ ﴾ قال سعيد بن جبير : هي رياض الجنة خضر مخضّبة . وروي ذلك عن ابن عباس . واحدتها رفرفة والرفارف جمع الجمع . وروى العوفي عن ابن عباس قال : الرفرف : فضول المجالس البسط . عيره عنه : فضول

الفرش والمجالس . قتادة والضحّاك : محابس خضر فوق الفرش .

الحسن والقرظي : البسط . ابن عيينة : الزرابي . ابن كيسان : المرافق وهي رواية .

قتادة عن الحسن وأبو عبيدة : حاشية الثوب وغبره : واكل ثوب عريض عند العرب فهو رفرف .

قال ابن مقبل :

وإنا لنزّالون نغشى نعالنا . . . سواقط من أصناف رَيط ورفرف

(167/741)

﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ وهي الزرابي والطنافس الثخان وهي جمع ، واحدتها عبقرية .

وقد ذكر عن العرب أنها تسمى كل شيء من البسط عبقرياً .

قال قتادة : العبقري عتاق الزرابي ، وقال مجاهد : هو الديباج .

أبو العالية : الطنافس المخملّة إلى الرقة [مَا هِي] .

الحسن : الدرانيك يعني [الثخان] ، القتيبيّ : كل ثوب موشى عند العرب عبقري .

قال أبو عبيد : هو منسوب إلى أرض يعمل بها الوشي .

قال ذو الرمّة :

حتى كأن رياض القف ألبسها . . . من وشي عبقر تجليل وتنجيد

قال : ويقال : إن عبقر أرض يسكنها الجن .

قال الشاعر [زهير] :

بخيل عليها جنة عبقرية . . . جديرون يوماً أن ينالوا فيستعلوا

وقال قطرب : ليس هذا بمنسوب . وكل جليل فاضل فاخر من الرجال [وغيرهم] عند العرب عبقري ، ومنه الحديث في عمر : فلم أرّ عبقرياً يفري فرّيه .

حدّثنا أبو محمد الحسن بن علي بن المؤمل بقراءتي عليه ، أخبرنا أبو العباس الأصم ، حدّثنا أبو بكر محمد بن إسحاق الصغاني ، حدّثنا الحسين بن محمد ، ح .

وأخبرني الحسين ، حدّثنا الفضل بن الفضل الكندي ، حدّثنا محمد بن إبراهيم بن ناصح ، حدّثنا أحمد بن زهير بن حرب ، حدّثنا أبو أحمد الحسين بن محمد الزوزني الأرطباني وهو ابن عم عبد الله بن عون عن عاصم الجحدري عن أبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ (متكئين على رفرف خضر وعباقري حسان فبأي آلاء ربكما تكذبان تبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام) بالواو ، شامي وكذلك هو في مصاحفهم .

الباقون : (ذي الجلال والإكرام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 176 .

﴿ 198

وقال الزمخشري :

سورة الرحمن

مدنية وآياتها 78 [نزلت بعد الرعد] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الرحمن (55) : الآيات 1 إلى 13]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيانَ (4)

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ (6) وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ

الْمِيزانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ (9)

وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ (10) فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ

وَالرَّيْحانُ (12) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (13)

(169/741)

عدّد اللّه عز وعلا آلاءه ، فأراد أن يقدّم أوّل شيء ما هو أسبق قد ما من ضروب آلائه

«1» وأصناف نعمائه ، وهي نعمة الدين ، فقدّم من نعمة الدين ما هو في أعلى مراتبها

وأقصى مراقيها :

وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه ، لأنه أعظم وحى اللّه رتبة ، وأعلاه منزلة ، وأحسنه في أبواب الدين أثرا ، وهو سنام الكتب السماوية ومصداقها والعيار عليها ، وأخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره ، ثم أتبعه إياه : ليعلم أنه إنما خلقه الدين ، وليحيط علما بوحيه وكتبه وما خلق الإنسان من أجله ، وكأن الغرض في إنشائه كان مقدّما عليه وسابقا له ، ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان ، وهو المنطق الفصيح «2» المعرب عما في الضمير والرَّحْمنُ مبتدأ ، وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة ، وإخلاؤها من العاطف لمجيئها على نمط التعديد ، كما تقول : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد ، فما تنكر من إحسانه ؟ بِحُسْبانٍ بحساب معلوم وتقدير سوىّ تَجْرِيانِ في بروجهما ومنازلهما . وفي ذلك منافع للناس عظيمة : منها علم السنين والحساب وَالنَّجْمُ والنبات الذي ينجم من الأرض لا ساق له كالبقول وَالشَّجَرُ الذي له ساق . وسجودهما : انقيادهما للّه فيما خلقا له ، وأنهما لا يمتنعان ، تشبيها بالساجد من المكلفين في انقياده .

فإن قلت : كيف اتصلت هاتان الجملتان بالرحمن ؟ قلت : استغنى فيهما عن الوصل اللفظي بالوصل المعنوي ، لما علم أن الحسبان حسبانه ، والسجود له لا لغيره ، كأنه قيل : الشمس والقمر بحسبانه ، والنجم والشجر يسجدان له . فإن قلت : كيف أخل بالعاطف في الجمل الأول ، ثم جيء به بعد ؟ قلت :

بكت بتلك الجمل الأول واردة على سنن التهديد ، ليكون كل واحدة من الجمل مستقلة في تقريع الذين أنكروا الرحمن وآلاءه ، كما يبكت منكر أيادى المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه في المثال الذي قدّمته ، ثم ردّ الكلام إلى منهاجه بعد التبكيت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب _____

(1) . قال محمود : «عدد اللّه عز وجل آلاءه فأراد أن يقدم أول شيء ما هو أسبق قد ما في ضروب آلائه . . . الخ» قال أحمد : نغير من هذا الكلام قوله : أن خلق الإنسان كان الغرض فيه . أى المراد منه : أن يحيط علما بالكتب والوحى ، ويعوض بأن المراد بخلقه : أن يدعى إلى ذلك ، لا أن يقع ذلك منه ، فهذا هو المراد العام ، ثم منهم من أراد اللّه منه أن يحيط علما بالدين فيسر له ذلك ، ومنهم من أراد ضلالته وجهالته فبعد عنه ولم يوفق ، واللّه الموفق الصواب .

(2) . قال محمود : «ثم ذكر ما تميز به عن سائر الحيوان من البيان ، وهو المنطق الفصيح المعرب . . . الخ» قال أحمد : وإنما خص الجمل الأول بذكرها تبكيتا للإنسان لأجل التصاق معانيها به ، ألا ترى أنه مذكور فيها نطقا وإضمارا وحذفا مدلولا عليه في الكلام ، فهو منطوق به مظهرا في قوله خَلَقَ الْإِنْسانَ ومضمرا في قوله عَلَّمَهُ الْبَيانَ ومدلولا على حذفه في قوله عَلَّمَ الْقُرْآنَ فانه المفعول الثاني ، أما قوله الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ

يَسْجُدانِ فليس للإنسان فيهما ذكر البتة ، وجل المقصود من سياقهما التنبيه على عظمة اللّه تعالى .

(170/741)

بالعاطف . فإن قلت : أى تناسب بين هاتين الجملتين حتى وسط بينهما العاطف ؟ قلت : إنّ الشمس والقمر سماويان ، والنجم والشجر أرضيان ، فبين القبيلين تناسب من حيث التقابل ، وأنّ السماء والأرض لا تزالان تذكران قرينتين ، وأن جرى الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لأمر اللّه ، فهو مناسب لسجود النجم والشجر وقيل : عَلَّمَ الْقُرْآنَ جعله علامة وآية .

وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : الإنسان آدم . وعنه أيضا : محمد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

وعن مجاهد النجم : نجوم السماء وَالسَّماءَ رَفَعَها خلقها مرفوعة مسموكة ، حيث جعلها منشأ أحكامه ، ومصدر قضاياه ، ومتنزل أوامره ونواهيه ، ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه ، ونبه بذلك على كبرياء شأنه وملكه وسلطانه وَوَضَعَ الْمِيزانَ وفي قراءة عبد اللّه : وخفض الميزان ، وأراد به كل ما توزن به الأشياء وتعرف مقاديرها من

ميزان وقرسطون ومكيال ومقياس ، أى خلقه موضوعا مخفوضا على الأرض : حيث علق به أحكام عباده وقضاياهم وما تعبدهم به من التسوية والتعديل في أخذهم وإعطائهم أَلَّا تَطْغَوْا لئلا تطغوا . أو هي أن المفسرة . وقرأ عبد اللّه : لا تطغوا بغير أن ، على إرادة القول وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وقوّموا وزنكم بالعدل وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ ولا تنقصوه : أمر بالتسوية ونهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة ، وعن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان .

وكرّر لفظ الميزان : تشديدا للتوصية به ، وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه . وقرئ . والسماء . بالرفع . ولا تخسروا بفتح التاء وضم السين وكسرها وفتحها . يقال : خسر الميزان يخسره ويخسره ، وأمّا الفتح فعلى أن الأصل : ولا تخسروا في الميزان ، فحذف الجار وأوصل الفعل . ووَضَعَها خفضها مدحوّة على الماءِ لِلْأَنامِ للخلق ، وهو كل ما على ظهر الأرض من دابة . وعن الحسن : الإنس والجنّ ، فهي كالمهاد لهم يتصرفون فوقها فاكِهَةٌ ضروب مما يتفكه به ، والْأَكْمامِ كل ما يكم أى يغطى من ليفة وسعفة وكفرّاة « 1 » وكله منتفع به كما ينتفع بالمكموم من ثمره وجماره وجذوعه . وقيل الأكمام أوعية التمر : الواحد كم . بكسر الكاف . والْعَصْفِ ورق الزرع ، وقيل التبن وَالرَّيْحانُ الرزق وهو اللب : أراد فيها ما يتلذذ به من الفواكه والجامع بين التلذذ والتغرى وهو ثمر النخل ، وما يتغذى به وهو الحب .

وقرئ: والريحان، بالكسر. ومعناه: والحب ذو العصف الذي هو علف الأنعام، والريحان الذي هو مطعم الناس. وبالضم على: وذو الريحان. فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

---

(1). قوله «و سعقة وكفراة» الذي في الصحاح «الكفرى بلا تاء، وأنها وعاء الطلع اه، فلعل عبارة المفسر من ليفه وسعفه وكفراه باضافة كل إلى ضمير النخل، كما سيأتي في ثمره وجماره وجذوعه، والناسخ توهم أنها هاء التأنيث فتقطها فوق. (ع) [. . . . .]

(171/741)

وقيل: معناه وفيها الريحان الذي يشم، وفي مصاحف أهل الشأم: والحب ذو العصف والريحان، أى: وخلق الحب والريحان: أو وأخص الحب والريحان. ويجوز أن يراد: وذا الريحان، فيحذف المضاف ويقام المضاف إليه مقامه، والخطاب في رَبِّكُما تُكَذِّبانِ للثقلين بدلالة الأنام عليهما. وقوله سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ.

[سورة الرحمن (55): الآيات 14 إلى 16]

خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ (15) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (16)

الصلصال : الطين اليابس له صلصلة . والفخار : الطين المطبوخ بالنار وهو الخزف . فإن قلت : قد اختلف التنزيل في هذا ، وذلك قوله عزّ وجل مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ، مِنْ طِينٍ لازِبٍ ، «من تراب» . قلت : هو متفق في المعنى ، ومفيد أنه خلقه من تراب : جعله طينا ، ثم حمأ مسنونا ، ثم صلصالا . والْجَانَّ أبو الجن . وقيل : هو إبليس . والمارج : اللهب الصافي الذي لا دخان فيه . وقيل : المختلط بسواد النار ، من مرج الشيء إذا اضطرب واختلط .

فإن قلت : فما معنى قوله مِنْ نارٍ ؟ قلت : هو بيان لمارج ، كأنه قيل : من صاف من نار . أو مختلط من نار أو أراد من نار مخصوصة ، كقوله تعالى فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 17 إلى 18]

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (18)

قرئ : رب المشرقين ورب المغربين ، بالجر بدلا من رَبِّكُما وأراد : مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 19 إلى 23]

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ (19) بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ (20) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (21) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ (22) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (23)

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقيين ، لا فصل بين الماءين في مرأى العين بَيْنَهُما بَرْزَخٌ حاجز من قدرة اللّه تعالى لا يَبْغِيانِ لا يتجاوزان حدّيهما ولا يبغى

أحدهما على الآخر بالممازجة. قرئ يخرج ويخرج من أخرج. وخرج. ويخرج:

أى اللّه عز وجل اللؤلؤ والمرجان بالنصب. ونخرج، بالنون. واللؤلؤ: الدرّ. والمرجان:

هذا الخرز الأحمر وهو البسذ. وقيل: اللؤلؤ كبار الدرّ. والمرجان: صغاره. فإن قلت:

لم قال

(172/741)

مِنْهُمَا وإنما يخرجان من الملح «1»؟ قلت: لما التقيا وصارا كالشىء الواحد: جاز أن

يقال:

يخرجان منهما، كما يقال يخرجان من البحر، ولا يخرجان من جميع البحر ولكن من

بعضه.

وتقول: خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محاله، بل من دار واحدة من دوره.

وقيل: لا يخرجان إلا من ملتقى الملح والعذب.

[سورة الرحمن (55): الآيات 24 إلى 25]

وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (24) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (25)

الْجَوارِ السفن. وقرئ: الجوار بحذف الياء ورفع الراء، ونحوه:

لها ثنايا أربع حسان وأربع فكلها ثمان «2»

والْمُنْشَآتُ المرفوعات الشرع «3» . وقرئ بكسر الشين : وهي الرافعات الشرع أو اللاتي ينشئن الأمواج بجريهنّ . والأعلام : جمع علم ، وهو الجبل الطويل .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 26 إلى 28]

كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ (26) وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ (27) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (28)

عَلَيْها على الأرض وَجْهُ رَبِّكَ ذاته ، والوجه يعبر به عن الجملة والذات «4» ، ومساكين مكة يقولون : أين وجه عربى كريم ينقذني من الهوان . وذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ صفة الوجه . وقرأ عبد اللّه : ذى ، على : صفة ربك . ومعناه : الذي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه وعن أفعالهم «5» .

---

(1) . قال محمود : «إن قلت لم قال منهما وإنما يخرجان من الملح . . . الخ» قال أحمد : هذا القول الثاني مردود بالمشاهدة ، والصواب هو الأول ، ومثله لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ وإنما أريد إحدى القريتين ، هذا هو الصحيح الظاهر ، وكما تقول : فلان من أهل ديار مصر ، وإنما بلده محلة واحدة منها .

(2) . الثنايا : مقدم الأسنان ، وظاهر البيت أنها أربع من فوق وأربع من تحت ، فكل ثناياها ثمان .

وروى : فثغرها ثمان ، وهذه الرواية تناسب ما اشتهر من أن الثنايا اثنان من فوق واثنان من تحت فهي أربع ، ويليها مثلها رباعيات ، ويليها مثلها أنياب ، ويليها مثلها ضواحك ، وما بقي أضراس . ثم نواجذ . وعامل المنقوص معاملة الصحيح ، فرفع ثمان خبرا للمبتدإ ، وصارت الياء المحذوفة نسيا منسيا .

(3) . قوله «و المنشآت المرفوعات الشرع» في الصحاح «الشراع» : شراع السفينة اه ، فالشرع جمعه ، ككتاب وكتب . (ع)

(4) . قال محمود : «الوجه يعبر به عن الذات ومساكين مكة يقولون . . . الخ» قال أحمد : المعتزلة ينكرون الصفات الالهية التي دل عليها العقل ، فكيف بالصفات السمعية ، على أن من الأشعرية من حمل الوجه واليدين والعينين على نحو ما ذكر ، ولم ير بيانها صفات سمعية .

(5) . قوله «عن التشبيه بخلقه وعن أفعالهم» إجلاله عن أفعال الخلق مبنى على مذهب المعتزلة : أنه لا يخلق أفعال العباد . ومذهب أهل السنة : أنه هو الخالق لها . (ع)

(173/741)

أو الذي يقال له : ما أجلك وأكرمك . أو من عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده ، وهذه الصفة من عظيم صفات اللّه ، ولقد قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «ألظوا «1» بياذا الجلال والإكرام» «2» وعنه عليه الصلاة والسلام : أنه مر برجل وهو يصلى ويقول : يا ذا الجلال والإكرام ، فقال : «قد استجيب «3» لك» . فإن قلت : ما النعمة في ذلك ؟ قلت : أعظم النعمة وهو مجيء وقت الجزاء عقيب ذلك .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 29 إلى 30]

يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (30)

كل من أهل السماوات والأرض مفتقرون إليه ، فيسأله أهل السماوات ما يتعلق بدينهم ، وأهل الأرض ما يتعلق بدينهم ودنياهم كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ أى كل وقت وحين يحدث أمورا ويجدد أحوالا ، كما روى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه تلاها فقيل له : وما ذلك الشأن ؟ فقال : «من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ، ويرفع قوما ويضع آخرين» «4» وعن ابن عيينة : الدهر عند اللّه تعالى يومان ، أحدهما : اليوم الذي هو مدّة عمر الدنيا فشأنه فيه الأمر والنهى والإماتة والإحياء والإعطاء والمنع . والآخر : يوم القيامة ، فشأنه فيه الجزاء والحساب . وقيل : نزلت في اليهود حين قالوا : إنّ اللّه لا يقضى يوم السبت شيئا . وسأل بعض الملوك وزيره عنها فاستمهله إلى الغد وذهب كئيبا يفكر فيها ، فقال غلام له

أسود :

يا مولاي ، أخبرني ما أصابك لعل اللّه يسهل لك على يدي ، فأخبره فقال له : أنا أفسرها للملك فأعلمه ، فقال : أيها الملك شأن اللّه أن يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحي

---

(1) . قوله «ألظوا بياذا الجلال» أى : الزموا ذلك . اه صحاح . (ع)

(2) . أخرجه الترمذي من رواية يزيد الرقاشي . عن أنس ويزيد ضعيف ، ومن رواية مؤمل عن حماد بن حميد عن أنس مرفوعا ، وقال غيره مخفوضا وإنما هو عن حماد عن حميد عن الحسن مرسلا وهو أصح ، وأخرجه من رواية مؤمل إسحاق وابن أبى شيبة ، وبالثاني أبو يعلى والبزار قال ابن أبى حاتم عن أبيه : أخطأ فيه مؤمل ، والصحيح ما رواه أبو سلمة عن حماد عن ثابت . وحميد عن الحسن مرسلا ورواه ابن مردويه من رواية روح بن عبادة عن حماد عن حميد عن أنس موصولا أيضا ، وهذه متابعة قوية لمؤمل ، وفي الباب عن ربيعة بن عامر بن نجاد أخرجه الحاكم ، وفيه رشيد بن سعد ، وهو ضعيف وعن ابن عمر أخرجه ابن مردويه وإسناده ضعيف

(3) . أخرجه الترمذي والبخاري في الأدب المفرد وأحمد والبزار والطبراني من طريق أبى الدرداء عن اللجلاج عن معاذ بن جبل فذكره .

(4) . أخرجه ابن ماجة وابن حبان والطبراني والبزار وأبو يعلى من حديث أبى الدرداء ،

وفي الباب عن ابن عمر أخرجه البزار بإسناد ضعيف . وعن عبد اللّه بن حبيب الأزدى . أخرجه البزار والطبراني وابن أبى حاتم قال البزار : لا أعلم أسند عبد اللّه بن حبيب إلا هذا الحديث .

(174/741)

من الميت ويخرج الميت من الحي ، ويشفى سقيما ويسقم سليما ، ويبتلى معافا ويعافى مبتلى ، ويعز ذليلا ويذل عزيزا ويفقر غنيا ويغنى فقيرا ، فقال الأمير : أحسنت وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة فقال : يا مولاي هذا من شأن اللّه . وعن عبد اللّه بن طاهر أنه دعا الحسين ابن الفضل وقال له : أشكلت على ثلاث آيات ، دعوتك لتكشفها لي : قوله تعالى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ وقد صحّ أنّ الندم توبة وقوله تعالى كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ وقد صح أنّ القلم قد جف بما هو كائن إلى يوم القيامة . وقوله تعالى وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى فما بال الأضعاف ؟

فقال الحسين : يجوز أن لا يكون الندم توبة في تلك الأمّة . ويكون توبة في هذه الأمّة ، لأنّ اللّه تعالى خص هذه الأمّة بخصائص لم يشاركهم فيها الأمم ، وقيل إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ، ولكن على حمله ، وأما قوله وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى فمعناه : ليس له إلا ما

سعى عدلا ، ولى أن أجزيه بواحدة ألفا فضلا ، وأما قوله كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ فإنها شئون يبديها لا شئون يبتدئها : فقام عبد اللّه وقبل رأسه وسوّغ خراجه ،

[سورة الرحمن (55) : الآيات 31 إلى 32]

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ (31) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (32)

سَنَفْرُغُ لَكُمْ مستعار من قول الرجل لمن يتهدده : سأفرغ لك ، يريد : سأتحرّد للإيقاع بك من كل ما يشغلني عنك ، حتى لا يكون لي شغل سواه ، والمراد : التوفر على النكاية فيه والانتقام منه ، ويجوز أن يراد : ستنتهى الدنيا وتبلغ آخرها ، وتنتهي عند ذلك شئون الخلق التي أرادها بقوله كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ فلا يبقى إلا شأن واحد وهو جزاؤكم ، فجعل ذلك فراغا لهم على طريق المثل ، وقرئ : سيفرغ لكم ، أى : اللّه تعالى ، وسأفرغ لكم ، وسنغفر بالنون مفتوحا ومكسورا وفتح الراء ، وسيفرغ بالياء مفتوحا ومضموما مع فتح الراء ، وفي قراءة أبىّ ، سنفرغ إليكم ، بمعنى : سنقصد إليكم ، والثقلان : الإنس والجن ، سميا بذلك لأنهما ثقلا الأرض ،

[سورة الرحمن (55) : الآيات 33 إلى 36]

يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ (33) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (34) يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَنُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ (35) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (36)

يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ كالترجمة لقوله : أيها الثقلان إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أن تهربوا من قضائي وتخرجوا من ملكوتي ومن سمائي وأرضى ، فافعلوا ، ثم قال : لا تقدرون على

(175/741)

النفوذ إِلَّا بِسُلْطانٍ يعنى بقوّة وقهر وغلبة ، وأنى لكم ذلك ، ونحوه وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وروى : أنّ الملائكة عليهم السلام تنزل فتحيط بجميع الخلائق ، فإذا رآهم الجن والإنس هربوا ، فلا يأتون وجها إلا وجدوا الملائكة أحاطت به . قرئ : شواظ ونحاس ، كلاهما بالضم والكسر ، والشواظ : اللهب الخالص .

والنحاس : الدخان ، وأنشد :

تضيء كضوء سراج السّليط لم يجعل الله فيه نحاسا «1»

وقيل : الصفر المذاب يصب على رءوسهم . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : إذا خرجوا من قبورهم ساقهم شواظ إلى المحشر . وقرئ : ونحاس ، مرفوعا عطفا على شواظ . ومجرورا عطفا على نار . وقرئ : ونحس : جمع نحاس ، وهو الدخان ، نحو لحاف ولحف . وقرئ : ونحس أى : ونقتل بالعذاب . وقرئ : نرسل عليكما شواظا من نار ونحاسا فَلا تَنْتَصِرانِ فلا تمتنعان .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 37 إلى 40]

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ (37) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (38)

فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ (39) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (40)

وَرْدَةً حمراء كَالدِّهانِ كدهن الزيت ، كما قال : كالمهل ، وهو دردىّ الزيت ، وهو جمع دهن . أو اسم ما يدهن به كالحزام والإدام . قال :

كأنّهما مزادتا متعجل فريّان لمّا تدهنا بدهان «2»

---

(1) . النابغة الجعدي . والسليط : الشيرج ، ولم يجعل : جملة حالية من السراج . والنحاس : الدخان . وشرط مجيء الحال من المضاف إليه موجود ، لأن الضوء مثل جزئه ، ولعله يصف وجه محبوبته التي قال فيها :

إذا ما الضجيع ثنى عطفها . . . البيت : شبهه بالسراج في الاضاءة ، بقيد أن لا يكون فيه دخان ، لأن ضوء وجهها كذلك .

فهو من التشهيه المقيد .

(2) . لامرئ القيس . والمزادة : قربة صغيرة يتزود فيها الماء للسفر . والفرى – وزن فعيل بمعنى مفعول ، من فريت الجلد إذا شققته . ولما : حرف جزم ونفى كلم ، إلا أنه يختص بتوقع منفية . ويروى : لما تلقا ، أى : تدهنا ، من سلقت الجلد إذا دهنته . والدهان : ما يدهن به ، كالإدام ما يؤتدم به : شبه عينيه من كثرة البكاء بقربتى رجل متعجل ، وهو من يأتى

أهله بالاعجالة : وهي ما يعجله الراعي إلى أهله من اللبن قبل وقت الحلب .

ويمكن أن المعنى أنه مستعجل لم يصبر حتى يدبغهما ويدهنهما ، فريان : مشقوقتان ، أى على حالة سلخهما لم يدهنا بدهن قط . وقيل : معنى التعجل أنه لم يحكم ربطهما . فهما يذرفان ماء من فميهما لا من ثقوبهما .

(176/741)

وقيل : الدهان الأديم الأحمر . وقرأ عمرو بن عبيد . وردة بالرفع ، بمعنى : فحصلت سماء وردة ، وهو من الكلام الذي يسمى التجريد ، كقوله :

فلئن بقيت لأرحلنّ بغزوة تحوى الغنائم أو يموت كريم «1»

إِنْسٌ بعض من الإنس وَلا جَانٌّ أريد به : ولا جن ، أى : ولا بعض من الجن ، فوضع الجان الذي هو أبو الجن موضع الجن ، كما يقال : هاشم ، ويراد ولده . وإنما وحد ضمير الإنس في قوله عَنْ ذَنْبِهِ لكونه في معنى البعض . والمعنى : لا يسألون لأنهم يعرفون بسيما المجرمين وهي سواد الوجوه وزرقة العيون . فإن قلت : هذا خلاف قوله تعالى فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ وقوله وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ . قلت : ذلك يوم طويل وفيه مواطن ، فيسألون في موطن ولا يسألون في آخر : قال قتادة : قد كانت مسألة ، ثم ختم على أفواه القوم ،

وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. وقيل لا يسأل عن ذنبه ليعلم من جهته، ولكن يسأل سؤال توبيخ. وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: ولا جأن، فرارا من التقاء الساكنين، وإن كان على حده.

[سورة الرحمن (55): الآيات 41 إلى 45]

يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ (41) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (42) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (44) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (45)

---

(1) ومعى أسود من حنيفة في الوغى للبيض فوق رؤسهم توسيم

قوم إذا لبسوا الحديد كأنهم في البيض والحلق الدلاص نجوم

فلئن بقيت لأرجعن بغزوة نحو الغنائم أو يموت كريم

لقتادة بن مسلم الحنفي. والدلاص: اللينة الملساء. واستعار الأسود الشجعان على طريق التصريح، ثم قال: إنهم موسومون في الحرب بالمغافر حال كونها فوق رؤسهم. والمراد بالحديد: الدروع والمغافر والحلق الدروع وكانت بيضاء. فشبههم فيها بالنجوم للمعانها. أو كانت سوداء، فشبه وجوههم فيها بالنجوم في السماء، فالجامع مركب حسى، والفاء في قوله «فلئن بقيت» تدل على أن ما بعدها مسبب عما قبلها من توفر رجاله وشجاعتهم ومنعتهم، أى: والله لئن طال عمرى لأرجعن إلى الأعداء بغزوة أخرى

تجمع الغنائم ونحوها ، فنحو بالنون : فعل مضارع مجزوم في جواب شرط مقدر ، أى : إن رجعنا إليهم بغزوة نجمع الغنائم منهم . وأما جواب إن المذكورة فمحذوف ، دل عليه جواب القسم . وروى : لأرحلن بغزوة ، أى : لأسافرن بغزوة ، تحوى بالتاء وزيادة الياء ، أى تجمع الغنائم وتحوزها . وإسناد العمل للغزوة ، لأنها سبب الجمع والحيازة . ويجوز أن معناها الكتيبة ، مبالغة في غزوها .

وروى نحوى بالنون مع الياء ، أى : نجمع نحن ونحوز في تلك الغزوة ، فالجملة صفة لغزوة . ويجوز أنه استئناف :

جواب لسؤال مصدر . وروى : نحو الغنائم بالنصب على الظرفية ، أى جهة الغنائم . وأو بمعنى إلا ، أى إلا أن يموت كريم يعنى نفسه ، فهو من باب التجريد ، كأنه انتزع من نفسه شخصا مثله في الشجاعة فأخبر عنه ، والكرم هنا الشجاعة ، لأنه في كل باب بحسبه ، فليس خاصا بمقابل البخل . ومعنى الاستثناء راجع إلى معنى الجمع والحيازة ، ولا يلزم من اشتراط البقاء في الذهاب اشتراط فيما يوجد عقبه فلا تكرار .

(177/741)

فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ عن الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره وقيل تسحبهم الملائكة : تارة تأخذ بالنواصي ، وتارة تأخذ بالأقدام حَمِيمٍ آنٍ ماء حار قد انتهى حرّه ونضجه ، أى : يعاقب عليهم بين التصلية بالنار وبين شرب الحميم . وقيل :

إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم . وقيل : إن واديا من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم في الأغلال ، فيغمسون فيه حتى تنخلع أوصالهم ، ثم يخرجون منه وقد أحدث اللّه لهم خلقا جديدا . وقرئ : يطوّفون من التطويف . ويطوّفون ، أى : يتطوّفون ويطافون . وفي قراءة عبد اللّه : هذه جهنم التي كنتما بها تكذبان تصليان لا تموتان فيها ولا تحييان يطوفون بينها . ونعمة اللّه فيما ذكره من هول العذاب : نجاة الناجي منه برحمته وفضله ، وما في الإنذار به من اللطف .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 46 إلى 55]

وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ (46) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (47) ذَواتا أَفْنانٍ (48) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (49) فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ (50)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (51) فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ (52) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (53) مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ (54) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (55)

مَقامَ رَبِّهِ موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب يوم القيامة يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ ونحوه لِمَنْ خافَ مَقامِي ويجوز أن يراد بمقام ربه : أن اللّه قائم عليه ، أى حافظ مهيمن من قوله تعالى أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ فهو يراقب ذلك فلا يجسر على معصيته . وقيل : هو مقحم كما تقول : أخاف جانب فلان ، وفعلت هذا لمكانك . وأنشد :

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرّجل اللّعين «1»

---

(1) . قوله «كالرجل اللعين» : هو شيء ينصب وسط الزرع لطرد الوحوش ، كذا في الصحاح . اه عليان .

قلت : وتقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة 205 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(178/741)

يريد : ونفيت عنه الذئب . فإن قلت : لم قال جَنَّتانِ ؟ قلت : الخطاب للثقلين ، فكأنه قيل : لكل خائفين منكما جنتان : جنة للخائف الإنسى ، وجنة للخائف الجنى . ويجوز أن يقال : جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المعاصي ، لأنّ التكليف دائر عليهما وأن يقال : جنة يثاب بها ، وأخرى تضم إليها على وجه التفضل ، كقوله تعالى لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى

وَزِيادَةٌ خص الأفنان بالذكر : وهي الغصنة «1» التي تتشعب من فروع الشجرة ، لأنها هي التي تورق وتثمر ، فمنها تمتد الظلال ، ومنها تجتنى الثمار . وقيل : الأفنان ألوان النعم ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين . قال :

ومن كل أفنان اللّذاذة والصّبا لهوت به والعيش أخضر ناضر «2»

عَيْنانِ تَجْرِيانِ حيث شاءوا في الأعالى والأسافل . وقيل : تجريان من جبل من مسك . وعن الحسن : تجريان بالماء الزلال : إحداهما التسنيم ، والأخرى : السلسبيل زَوْجانِ صنفان : قيل : صنف معروف وصنف غريب مُتَّكِئِينَ نصب على المدح الخائفين . أو حال منهم ، لأنّ من خاف في معنى الجمع بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ من ديباج ثخين ، وإذا كانت البطائن من الإستبرق ، فما ظنك بالظهائر ؟ وقيل : ظهائرها من سندس . وقيل : من نور دانٍ قريب يناله القائم والقاعد والنائم . وقرئ : وجنى ، بكسر الجيم .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 56 إلى 61]

فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (56) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (57) كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ (58) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (59) هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ (60)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (61)

---

(1) . قوله «وهي الغصنة» جمع غصن ، كقرطة جمع قرط . أفاده الصحاح . (ع)

[.....]

(2) . الأفنان : جمع فنن ، وهو الغصن كثير الورق ، فيكون شبه اللذات والصبا : بروضة أو شجرة ذات أفنان على طريق المكنية . وإثبات الأفنان : تخييل . ويجوز أنه جمع فن ، أى : نوع وصف على غير قياس ، كصحب وأصحاب . واللذاذات : جمع لذاذة ، وهي اللذة . ويروى : اللذاذة بالافراد . والصبا : الشباب أو هوى النفس .

ومن بمعنى بعض على طريقة الزمخشري ، أى : وبعض الأفنان لهوت ، أى : تمتعت به .

والجمهور يجعلون نحو هذا مما حذف فيه الموصوف ، كقولهم : منا ظعن ومنا أقام ، لتقدم مجرور يدل عليه ، فمن كل : خبر مقدم ، ولهوت :

صفة لمحذوف مبتدأ مؤخر ، أى : صنف لهوت به ، لكن المعنى على الاخبار باللهو ، فلا بد من المصير إلى رأى الزمخشري . أو جعل الجار والمجرور صفة للمبتدإ ، ولهوت خبرا وإن لم يتقدم المجرور على الصفة . ويجوز أن «من كل» معمول لمحذوف يفسره المذكور ، أى : تمنعت من كل الأفنان لهوت به ، والواو للحال ، أى : والحال أن العيش أخضر ، أى رطب لين ناضر حسن ، نشبه العش بروض يافع . والخضرة تخييل .

فِيهِنَّ في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى . أو في الجنتين ، لاشتمالهما على أماكن وقصور ومجالس قاصِراتُ الطَّرْفِ نساء قصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ : لا ينظرن إلى غيرهم . لم يطمث الإنسيات منهنّ أحد من الإنس ، ولا الجنيات أحد من الجن « 1 » وهذا دليل على أنّ الجن يطمثون كما يطمث الإنس ، وقرئ : لم يطمثهنّ ، بضم الميم . قيل : هنّ في صفاء الياقوت وبياض المرجان وصغار الدر : أنصع بياضا . قيل : إنّ الحوراء تلبس سبعين حلة ، فيرى مخ ساقها من ورائها كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ في العمل إِلَّا الْإِحْسانُ في الثواب . وعن محمد بن الحنفية : هي مسجلة للبر والفاجر . أى : مرسلة ، يعنى : أنّ كل من أحسن أحسن إليه ، وكل من أساء أسيء إليه .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 62 إلى 69]

وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ (62) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (63) مُدْهامَّتانِ (64) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (65) فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ (66)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (67) فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (68) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (69)

وَمِنْ دُونِهِما ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للمقربين جَنَّتانِ لمن دونهم من أصحاب اليمين مُدْهامَّتانِ قد ادهامّتا من شدّة الخضرة نَضَّاخَتانِ

فوّارتان بالماء ، والنضخ أكثر من النضح ، لأنّ النضح غير معجمة مثل الرش ، فإن قلت : لم عطف النخل والرمان على الفاكهة وهما منها ؟ قلت : اختصاصا لهما وبيانا لفضلهما ، كأنهما لما لهما من المزية جنسان آخران ، كقوله تعالى وَجِبْرِيلَ وَمِيكالَ أو لأن النخل ثمره فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء ، فلم يخلصا للتفكه . ومنه قال أبو حنيفة رحمه اللّه : إذا حلف لا يأكل فاكهة فأكل رمانا أو رطبا : لم يحنث ، وخالفه صاحباه .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 70 إلى 78]

فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ (70) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (71) حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ (72) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (73) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (74) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (75) مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ (76) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (77) تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ (78)

---

(1) . قال محمود : «لم يطمث الانسية إنسى ولا الجنية جنى . . . الخ» قال أحمد : بشير إلى الرد على من زعم أن الجن المؤمنين لا ثواب لهم وإنما جزاؤهم ترك العقوبة وجعلهم ترابا

خَيْراتٌ خيرات فخففت ، كقوله عليه السلام «هينون لينون» «1» وأما «خير» الذي هو بمعنى أخير ، فلا يقال فيه خيرون ولا خيرات . وقرئ : خيرات على الأصل . والمعنى : فاضلات الأخلاق حسان الخلق مَقْصُوراتٌ قصرن في خدورهنّ . يقال : امرأة قصيرة وقصورة ومقصورة مخدرة . وقيل : إنّ الخيمة من خيامهنّ درّة مجوّفة قَبْلَهُمْ قبل أصحاب الجنتين ، دل عليهم ذكر الجنتين مُتَّكِئِينَ نصب على الاختصاص . والرفرف : ضرب من البسط . وقيل البسط وقيل الوسائد ، وقيل كل ثوب عريض رفرف . ويقال لأطراف البسط وفضول الفسطاط :

رفارف . ورفرف السحاب : هيدبه «2» والعبقري : منسوب إلى عبقر ، تزعم العرب أنه بلد الجن ، فينسبون إليه كل شيء عجيب . وقرئ : رفارف خضر بضمتين . وعباقرى ، كمدائى : نسبة إلى عباقرى في اسم البلد : وروى ابو حاتم : عباقرى ، بفتح القاف ومنع الصرف ، وهذا لا وجه لصحته . فإن قلت : كيف تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأوليين حتى قيل : ومن دونهما ؟

قلت : مدهامّتان ، دون ذواتا أفنان . ونضاختان دون : تجريان . وفاكهة دون : كل فاكهة .

وكذلك صفة الحور والمتكأ . وقرئ : ذو الجلال صفة ، للاسم .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الرحمن أدّى شكر ما أنعم اللّه عليه

«3»» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 442. 454 ﴾

---

(1) . قوله «هينون لينون» لعله ورد في صفة المؤمنين ومثله قال الشاعر :

هينون لينون أيسار ذوو كرم (ع)

(2) . قوله «و رفرف السحاب هيديه» في الصحاح : هيدب السحاب : ما تهدب منه ، إذا أراد الورق أراد كأنه خيوط . (ع)

(3) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه باسنادهم إلى أبى بن كعب .

(181/741)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أنه اسم ممنوع لا يستطيع الناس أن ينتحلوه ، قاله الحسن ، وقطرب .

الثاني : أنه فاتحة ثلاث سور إذا جمعن كن اسماً من أسماء الله تعالى : ﴿ الر ﴾ و ﴿ حم ﴾ و ﴿ ن ﴾ فيكون مجموع هذه ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ ، قاله سعيد بن جبير ، وابن عباس .

﴿ عَلَّمَ الْقُرْءانَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : علمه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أداه إلى جميع الناس .

الثاني : سهل تعلمه على جميع الناس .

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يعني آدم ، قاله الحسن وقتادة .

الثاني : أنه أراد جميع الناس وإن كان بلفظ واحد ، وهو قول الأكثرين .

﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ لأنه بالبيان فُضِّل على جميع الحيوان ، وفيه ستة تأويلات :

أحدها : أن البيان الحلال والحرام ، قاله قتادة .

الثاني : الخير والشر ، قاله الضحاك ، والربيع بن أنس .

الثالث : المنطق والكلام ، قاله الحسن .

الرابع : الخط ، وهو مأثور .

الخامس : الهداية ، قاله ابن جريج .

السادس : العقل لأن بيان اللسان مترجم عنه .

ويحتمل سابعاً : أن يكون البيان ما اشتمل على أمرين : إبانة ما في نفسه ومعرفة ما بين له .

وقول ثامن لبعض أصحاب الخواطر : خلق الإنسان جاهلاً به ، فعلمه السبيل إليه .

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : يعني بحساب ، قاله ابن عباس ، والحسبان مصدر الحساب ، وقيل : جمعه .

الثاني : معنى الحسبان هذه آجالها ، فإذا انقضى الأجل كانت القيامة ، قاله السدي .

الثالث : أنه يقدر بهما الزمان لامتياز النهار بالشمس والليل بالقمر ولو استمر أحدهما فكان الزمان ليلاً كله أو نهاراً كله لما عرف قدر الزمان ، قاله ابن زيد .

الرابع : يدوران ، وقيل إنهما يدوران في مثل قطب الرحى ، قاله مجاهد .

الخامس : معناه يجريان بقدر .

﴿ وَالنَّجْمُ وَالْشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ في النجم قولان :

(182/741)

أحدهما : نجم السماء ، وهو موحد والمراد به جميع النجوم ، قاله مجاهد .

الثاني : أن النجم النبات الذي قد نجم في الأرض وانبسط فيها ، ليس له ساق ، والشجر ما كان على ساق ، قاله ابن عباس .

وفي سجودهما خمسة أقاويل :

أحدها : هو سجود ظلهما ، قاله الضحاك . الثاني : هو ما فيهما من الصنعة والقدرة التي توجب السجود والخضوع ، قاله ابن بحر .

الثالث : أن سجودهما دوران الظل معهما ، كما قال تعالى : ﴿ يتفيأ ظلاله ﴾ ، قاله

الزجاج.

الرابع : أن سجود النجم أفوله ، وسجود الشجر إمكان الإجتناء لثمارها .

الخامس : أن سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا أشرقت ثم يميلان معها إذا انكسر الفيء ، قاله الفراء .

﴿ وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا ﴾ يعني على الأرض .

﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه الميزان ذو اللسان ليتناصف به الناس في الحقوق ، قاله الضحاك .

الثاني : أن الميزان الحكم .

الثالث : قاله قتادة ، ومجاهد ، والسدي : أنه العدل ، ومنه قول حسان :

ويثرب تعلم أنا بها . . . إذا التبس الأمر ميزانها

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ وفي الميزان ما ذكرناه من الأقاويل :

أحدها : أنه العدل وطغيانه الجور ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه ميزان الأشياء الموزونات وطغيانه البخس ، قاله مقاتل ، وقال ابن عباس : يا معشر الموالي وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم : المكيال والميزان .

الثالث : أنه الحكم ، وطغيانه التحريف .

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل ، قال مجاهد : القسط : العدل .

﴿ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ أي لا تنقصوه بالبخس قيل : إنه المقدار : فالجور إن قيل : إنه العدل ، والتحريف إن قيل : الحكم .

وفي وجه رابع : أنه ميزان حسناتكم يوم القيامة .

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ أي بسطها ووطأها للأنام ليستقروا عليها ويقتاتوا منها .

وفي الأنام ثلاثة أقاويل :

(183/741)

أحدها : أنهم الناس ، قاله ابن عباس ، وفيه قول بعض الشعراء في رسول الله صلى الله عليه وسلم :

مبارك الوجه يستسقى الغمام به . . . ما في الأنام له عدل ولا خطر

الثاني : أن الأنام الإنس والجن ، قاله الحسن .

الثالث : أن الأنام جميع الخلق من كل ذي روح ، قاله مجاهد ، وقتادة والسدي ، سمي بذلك لأنه ينام ، قال الشاعر :

جاد الإله أبا الوليد ورهطه . . . رب الأنام وخصه بسلام

﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أن ذات الأكمام النخل ، وأكمامها ليفها الذي في أعناقها ، قاله الحسن .

الثاني : أنه رقبة النخل التي تكمم فيه طلعاً ، ومنه قول الشاعر :

وذات أثارة أكلت عليها . . . نباتاً في أكمتة قفار

الثالث : أنه الطلع المكمم الذي هو كمام الثمرة ، قاله ابن زيد .

الرابع : أن معنى ذات الأكمام أي ذوات فضول على كل شيء ، قاله ابن عباس .

﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ أما الحب فهو كل حب خرج من أكمامها كالبر والشعير .

وأما العصف ففيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : تبن الزرع وورقه الذي تعصفه الريح ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه الزرع إذا اصفر ويبس .

الثالث : أنه حب المأكول منه ، قاله الضحاك ، كما قال تعالى : ﴿ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ .

وأما الريحان ففيه خمسة أوجه :

أحدها : أنه الرزق ، قاله مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والسدي ، والعرب تقول : خرجنا نطلب ريحان الله أي رزقه ، ويقال سبحانك وريحانك أي رزقك ، وقال النمر بن تولب :

سلام الإله وريحانه . . . ورحمته وسماء درر

قاله الضحاك ، ورحمته هي لغة حِمْيَر .

الثاني : أن الريحان الزرع الأخضر الذي لم يسنبل ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه الريحان الذي يشم ، قاله الحسن ، والضحاك ، وابن زيد .

الرابع : أن العصف الورق الذي لا يؤكل والريحان هو الحب المأكول ، قاله الكلبي .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ في الآلاء قولان :

(184/741)

أحدهما : أنها النعم ، وتقديره فبأي نعم ربكما تكذبان ، قاله ابن عباس ، ومنه قول طرفة :

كامل يجمع الآلاء الفتى . . . بيديه سيد السادات خصم

الثاني : أنها القدرة ، وتقدير الكلام فبأي قدرة ربكما تكذبان ، قاله ابن زيد ، والكلبي .

وفي قوله ربكما إشارة إلى الثقلين الإنس والجن في قول الجميع .

وقد روى محمد بن المنكدر عن جابر قال : قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال : " مَا لِي أَرَاكُم سُكُوتاً ؟ ! الجِنُّ أَحْسَنُ مِنكُم رَداً ، كُنتُ كُلَّمَا قَرَأْتُ عَلَيهِم الأَيَةَ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قَالُوا : وَلاَ بِشَيءٍ مِن نِّعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ " .

وتكرارها في هذه السورة لتقرير النعم التي عددها ، فقررهم عند كل نعمة منها ، كما تقول للرجل أما أحسنت إليك حين وهبت إليك مالاً ؟ أما أحسنت إليك حين بنيت لك داراً ، ومنه قول مهلهل بن ربيعة يرثي أخاه كليباً :

على أن ليس عدلاً من كليب . . . إذا ما ضيم جيران المجير

على أن ليس عدلاً من كليب . . . إذا خرجت مخبأة الخدور

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أنه الطين المختلط برمل ، قاله ابن عباس .

الثاني : انه الطين الرطب الذي إذا عصرته بيدك خرج الماء من بين أصابعك ، وهذا مروي عن عكرمة .

الثالث : أنه الطين اليابس الذي تسمع له صلصلة ، قاله قتادة .

الرابع : انه الطين الأجوف الذي إذا ضرب بشيء صلّ وسُمِع له صوت .

الخامس : أنه الطين المنتن ، قاله الضحاك ، مأخوذ من قولهم صلَّ اللحم إذا أنتن .

والمخلوق من صلصال كالفخار هو آدم عليه السلام .

(185/741)

قال عبد الله بن سلام : خلق الله آدم من تراب من طين لازب ، فتركه كذلك أربعين سنة ، ثم صلصله كالفخار أربعين سنة ، ثم صوره فتركه جسداً لا روح فيه أربعين سنة ، فذلك مائة وعشرون سنة ، كل ذلك والملائكة تقول سبحان الذي خلقك ، لأمر ما خلقك .

﴿ وَخَلَقَ الْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أنه لهب النار ، قاله ابن عباس .

الثاني : خلط النار ، قاله أبو عبيدة .

الثالث : أنه [اللهب] الأخضر والأصفر [والأحمر] الذي يعلو النار إذا أوقدت ويكون بينها وبين الدخان ، قاله مجاهد .

الرابع : أنها النار المرسلة التي لا تمتنع ، قاله المبرد .

الخامس : أنها النار المضطربة التي تذهب وتجيء ، وسمي مارجاً لاضطرابه وسرعة حركته .

وفي الجان المخلوق من مارج من نار قولان :

أحدهما : أنه أبو الجن ، قاله أبو فروة يعقوب عن مجاهد .

الثاني : أنه إبليس ، وهو قول مأثور .

وفي النار التي خلق من مارجها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها من النار الظاهرة بين الخلق ، قاله الأكثرون .

الثاني : من نار تكون بين الجبال من دون السماء وهي كالكلة الرقيقة ، قاله الكلبي .

الثالث : من نار دون الحجاب ومنها هذه الصواعق وترى خلق السماء منها ، قاله الفراء .

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن المشرقين مشرق الشمس في الشتاء والصيف ، والمغربين مغرب الشمس في الشتاء والصيف ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن المشرقين مشرق الشمس والقمر ، والمغربين مغربهما .

الثالث : أن المشرقين الفجر والشمس ، والمغربين الشمس والغسق وأغمض سهل بن عبد الله بقول رابع : ان المشرقين مشرق القلب واللسان ، والمغربين مغرب القلب واللسان .

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ أما البحران ففيهما خمسة أوجه :

أحدهما : أنه بحر السماء وبحر الأرض ، قاله ابن عباس .

الثاني : بحر فارس والروم ، قاله الحسن ، وقتادة .

الثالث : أنه البحر المالح والأنهار العذبة ، قاله ابن جريج .

الرابع : أنه بحر المشرق وبحر المغرب يلتقي طرفاهما .

الخامس : انه بحر اللؤلؤ وبحر المرجان .

وأما ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ ففيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : تفريق البحرين ، قاله ابن صخر .

الثاني : إسالة البحرين ، قاله ابن عباس .

الثالث : استواء البحرين ، قاله مجاهد .

وأصل المرج ، الإهمال كما تمرج الدابة في المرج .

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ في البزخ الذي بينهما أربعة أقاويل :

أحدها : أنه حاجز ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه عرض الأرض ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه ما بين السماء والأرض ، قاله عطية ، والضحاك .

الرابع : أنه الجزيرة التي نحن عليها وهي جزيرة العرب ، قاله الحسن ، وقتادة .

وفي قوله : ﴿ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : لا يختلطان لا يسيل العذب على المالح ولا المالح على العذب ، قاله الضحاك .

الثاني : لا يبغي أحدهما على صاحبه فيغلبه ، قاله مجاهد ، وقتادة .

الثالث : لا يبغيان أن يلتقيا ، قاله ابن زيد ، وتقدير الكلام ، مرج البحرين يلتقيان لولا البرزخ الذي بينهما أن يلتقيا .

وقال سهل : البحران طريق الخير وطريق الشر ، والبرزخ الذي بينهما التوفيق والعصمة .

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤلُؤ وَالْمَرْجَانُ ﴾ وفي المرجان أربعة أقاويل :

أحدها : عظام اللؤلؤ وكباره ، وقاله علي وابن عباس ، ومنه قول الأعشى :

من كل مرجانة في البحر أخرجها . . . تيارها ووقاها طينة الصدف

الثاني : أنه صغار اللؤلؤ ، قاله الضحاك وأبو رزين .

الثالث : أنه الخرز الأحمر كالقضبان ، قاله ابن مسعود .

الرابع : أنه الجوهر المختلط ، مأخوذ من مرجت الشيء إذا خلطته وفي قوله : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ﴾ وجهان :

أحدهما : ان المراد أحدهما وإن عطف بالكلام عليهما .

(187/741)

الثاني : أنه خارج منهما على قول ابن عباس أنهما بحر السماء وبحر الأرض ، لأن ماء السماء إذا وقع على صدف البحر انعقد لؤلؤاً ، فصار خرجاً منهما .

وفيه وجه ثالث : أن العذب والمالح قد يلتقيان فيكون العذب كاللقاح للمالح فنسب إليهما كما نسب الولد إلى الذكر والأنثى وإن ولدته الأنثى ، ولذلك قيل إنه لا يخرج اللؤلؤ إلا من

موضع يلتقي فيه العذب والمالح .

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَئَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ ﴾ أما الجواري فهي السفن واحدتها جارية سميت بذلك لأنها تجري في الماء بإذن الله تعالى ، والجارية هي المرأة الشابة أيضاً سميت بذلك لأنه يجري فيها ماء الشباب .

وأما المنشآت ففيها خمسة أوجه :

أحدها : أنها المخلوقات ، قاله قتادة مأخوذ من الإنشاء .

الثاني : أنها المحملات ، قاله مجاهد .

الثالث : أنها المرسلات ، ذكره ابن كامل .

الرابع : المجريات ، قاله الأخفش .

الخامس : أنها ما رفع قلعه منها وهي الشرع فهي منشأة ، وما لم يرفع ليست بمنشأة ، قاله الكلبي .

وقرأ حمزة ﴿ الْمُنشَئَاتُ ﴾ بكسر الشين ، وفي معناه على هذه القراءة وجهان :

أحدهما : البادئات ، قاله ابن إسحاق والجارود بن أبي سبرة .

الثاني : أنها يكثر نشأً بجريها وسيرها في البحر كالأعلام ، قاله ابن بحر .

وفي قوله : ﴿ كَالأَعْلاَمِ ﴾ وجهان :

أحدهما : يعني الجبال سميت بذلك لارتفاعها كارتفاع الأعلام ، قاله السدي . قالت

الخنساء :

وإن صخراً لتأتم الهداة به . . . كأنه علم في رأسه نار

الثاني : أن الأعلام القصور ، قاله الضحاك .

﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يسألونه الرزق لأهل الأرض فكانت المسألتان جميعاً من أهل السماء وأهل الأرض ، لأهل الأرض ، قاله ابن جريج وروته عائشة مرفوعاً .

الثاني : أنهم يسألونه القوة على العبادة ، قاله ابن عطاء ، وقيل إنهم يسألونه لأنفسهم الرحمة ، قاله أبو صالح .

(188/741)

قال قتادة : لا استغنى عنه أهل السماء ولا أهل الأرض ، قال الكلبي : وأهل السماء يسألونه المغفرة خاصة لأنفسهم ولا يسألونه الرزق ، وأهل الأرض يسألونه المغفرة والرزق .

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه أراد شأنه في يومي الدنيا والآخرة ، قال ابن بحر : الدهر كله يومان : أحدهما : مدة أيام الدنيا ، والآخر يوم القيامة ، فشأنه سبحانه في أيام الدنيا الابتلاء والاختبار

بالأمر ، والنهي ، والإحياء ، والأمانة ، والإعطاء ، والمنع ، وشأنه يوم القيامة الجزاء ، والحساب ، والثواب ، والعقاب .

والقول الثاني : أن المراد بذلك الإخبار عن شأنه في كل يوم من أيام الدنيا .

وفي هذا الشأن الذي أراده في أيام الدنيا قولان :

أحدهما : من بعث من الأنبياء في كل زمان بما شرعه لأمته من شرائع الدين وكان الشأن في هذا الموضع هو الشريعة التي شرعها كل نبي في زمانه ويكون اليوم عبارة عن المدة .

القول الثاني : ما يحدثه الله في خلقه من تبدل الأحوال وإختلاف الأمور ، ويكون اليوم عبارة عن الوقت .

روى مجاهد عن عبيد بن عمير قال : كل يوم هو في شأن ، يجيب داعياً ، ويعطي سائلاً ، ويفك عانياً ، ويتوب على قوم ، ويغفر لقوم .

وقال سويد بن غفلة : كل يوم هو في شأن ، هو يعتق رقاباً ، ويعطي رغاباً ، ويحرم عقاباً .

وقد روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ مِن شَأْنِهِ أَن يَغْفِرَ ذَنباً ، وَيَفْرِجَ كَرْباً ، وَيَرْفَعَ قَوماً ، وَيَضَعَ آخَرِينَ "

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أي لنقومن عليكم على وجه التهديد .

الثاني : سنقصد إلى حسابكم ومجازاتكم على أعمالكم وهذا وعيد لأن الله تعالى لا

يشغله شأن عن شأن ، وقال جرير :

الآن وقد فرغت إلى نمير . . . فهذا حين كنت لها عذاباً

أي قصدت لهم ، والثقلان الإنس والجن سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض .

(189/741)

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُواْ لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض فاعلموا ، لن تعلموه إلا بسلطان ، قاله عطية العوفي .

الثاني : إن استطعتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هرباً من الموت فانفذوا ، قاله الضحاك .

﴿ لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني إلا بحجة ، قاله مجاهد ، قاله ابن بحر : والحجة الإيمان .

الثاني : لا تنفذون إلا بمُلْك وليس لكم مُلْك ، قاله قتادة .

الثالث : معناه لا تنفذون إلا في سلطانه وملكه ، لأنه مالك السموات والأرض وما بينهما ،

قاله ابن عباس .

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أن الشواظ لهب النار ، قاله ابن عباس ، ومنه قول أمية بن أبي الصلت يهجو حسان بن ثابت :

يمانياً يظل يشد كيراً . . . وينفخ دائباً لهب الشواظ

[فأجابه حسان فقال] :

همزتك فاختضعت بذل نفسٍ . . . بقافية تأجج كالشواظ

الثاني : أنه قطعة من النار فيها خضرة ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه الدخان ، رواه سعيد بن جبير ، قال رؤبة بن العجاج :

إن لهم من وقعنا أقياظا . . . ونار حرب تسعر الشواظا

الرابع : أنها طائفة من العذاب ، قاله الحسن .

وأما النحاس ففيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه الصفر المذاب على رؤوسهم ، قاله مجاهد ، وقتادة .

الثاني : أنه دخان النار ، قاله ابن عباس ، قال النابغة الجعدي :

كضوء سراج السلي . . . طلم يجعل الله فيه نحاساً

الثالث : أنه القتل ، قاله عبد الله بن أبي بكرة .

الرابع : أنه نحس لأعمالهم ، قاله الحسن .

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ ﴾ يعني يوم القيامة .

﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ فيه وجهان :

(190/741)

أحدهما : وردة البستان ، وهي حمراء ، وقد تختلف ألوانها لكن الأغلب من ألوانها الحمرة ، وبها يضرب المثل في لون الحمرة ، قال عبد بني الحسحاس :

فلو كنت ورداً لونه لعشقتني . . . ولكن ربي شانني بسواديا

كذلك تصير السماء يوم القيامة حمراء كالورد ، قاله ابن بحر .

الثاني : أنه أراد بالوردة الفرس الورد يكون في الربيع أصفر وفي الشتاء أغبر ، فشبه السماء يوم القيامة في اختلاف ألوانها بالفرس الورد ، لاختلاف ألوانه ، قاله الكلبي والفراء .

وفي قوله : ﴿ كَالدِّهَانِ ﴾ خمسة أوجه :

أحدها : يعني خالصة ، قاله الضحاك .

الثاني : صافية ، قاله الأخفش .

الثالث : ذات ألوان ، قاله الحسن .

الرابع : صفراء كلون الدهن ، وهذا قول عطاء الخراساني ، وأبي الجوزاء .

الخامس : الدهان أديم الأرض الأحمر ، قاله ابن عباس ، قال الأعشى :

وأجرد من فحول الخيل طرف . . . كأن على شواكله دهانا

وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة ، وأنها لكثرة الحوائل وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق ، وشبهوا ذلك بعروق البدن هي حمراء كحمرة الدم وترى بالحائل زرقاء ، فإن كان هذا صحيحاً فإن السماء لقربها من النواظر يوم القيامة وارتفاع الحواجز ترى حمراء لأنه أصل لونها .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : كانت المسألة قبل ، ثم ختم على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، قاله قتادة .

الثاني : أنه لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا ، قاله ابن عباس .

الثالث : لا يسأل الملائكة عنهم لأنهم قد رفعوا أعمالهم في الدنيا ، قاله مجاهد .

الرابع : أنه لا يسأل بعضهم بعضاً عن حاله لشغل كل واحد منهم بنفسه ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً .

الخامس : أنهم في يوم تبيض فيه وجوه وتسود فيه وجوه فهم معروفون بألوانهم فلم يسأل عنهم ، قاله الفراء .

﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ قال قتادة : يطوفون مرة بين الحميم ، ومرة بين الجحيم ، والجحيم النار ، والحميم الشراب .

وفي قوله تعالى : ﴿ ءَانٍ ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : هو الذي انتهى حره وحميمه ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي ، ومنه قول النابغة الذبياني :

وتخضب لحية غدرت وخانت . . . بأحمر من نجيع الجوف آن

أي حار .

الثاني : أنه الحاضر ، قاله محمد بن كعب .

الثالث : أنه الذي قد آن شربه وبلغ غايته ، قاله مجاهد .

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ وفي الخائف مقام ربه ثلاثة أقاويل :

أحدها : من خاف مقام ربه بعد أداء الفرائض ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه يهم بذنب فيذكر مقام ربه فيدعه ، قاله مجاهد .

الثالث : أن ذلك نزل في أبي بكر رضي الله عنه خاصة حين ذكر ذات يوم الجنة حين أزلفت

، والنار حين برزت ، قاله عطاء وابن شوذب .

قال الضحاك : بل شرب ذات يوم لبناً على ظمأ فأعجبه ، فسأل عنه فأُخْبِر أنه من غير حل ، فاستقاءه ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ، فقال : " رَحِمَكَ اللَّهُ لَقَدْ أُنزِلَتْ فِيكَ آيَةٌ " وتلا عليه هذه الآية .

وفي مقام ربه قولان :

أحدهما : هو مقام بين يدي العرض والحساب .

الثاني : هو قيام الله تعالى بإحصاء ما اكتسب من خير وشر .

وفي هاتين الجنتين أربعة أوجه :

أحدها : جنة الإنس وجنة الجان ، قاله مجاهد .

الثاني : جنة عدن ، وجنة النعيم ، قاله مقاتل .

الثالث : أنهما بستانان من بساتين الجنة ، وروي ذلك مرفوعاً لأن البستان يسمى جنة .

الرابع : أن إحدى الجنتين منزله ، والأخرى منزل أزواجه وخدامه كما يفعله رؤساء الدنيا .

ويحتمل خامساً : أن إحدى الجنتين مسكنه ، والأخرى بستانه .

ويحتمل سادساً : أن إحدى الجنتين أسافل القصور ، والأخرى أعاليها .

﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : ذواتا ألوان ، قاله ابن عباس .

(192/741)

الثاني : ذواتا أنواع من الفاكهة ، قاله الضحاك .

الثالث : ذواتا أتا وسَعَةٍ ، قاله الربيع بن أنس .

الرابع : ذواتا أغصان ، قاله الأخفش وابن بحر .

والأفنان جمع واحده فنن كما قال الشاعر :

ما هاج سوقك من هديل حمامة . . . تدعوا على فنن الغصون حماما

تدعو أبا فرخين صادف ضارياً . . . ذا مخلبين من الصقور قطاما

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن بطائنها يريد به ظواهرها ، قاله قتادة .

والعرب تجعل البطن ظهراً فيقولون هذا بطن السماء وظهر السماء .

الثاني : أنه أراد البطانة دون الظهارة ، لأن البطانة إذا كانت من إستبرق وهي أدون من الظاهرة دل على أن الظهارة فوق الإستبرق ، قاله الكلبي .

وسئل عباس فما الظواهر ؟ قال : إنما وصف لكم بطائنها لتهتدي إليه قلوبكم فأما الظواهر فلا يعلمها إلا الله .

﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ فأما الجنا فهو الثمر ، ومنه قول الشاعر :

هذا جناي وخياره فيه . . . إذ كل جان يده إلى فيه

وفي قوله : ﴿ دَانٍ ﴾ وجهان :

أحدهما : داني لا يبعد على قائم ولا على قاعد ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه لا يرد أيديهم عنها بُعد ولا شوك ، قاله قتادة .

﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ قال قتادة : قصر طرفهن على أزواجهن ، لا يسددن النظر إلى غيرهم ، ولا يبغين بهم بدلاً .

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لم يمسسهن ، قال أبو عمرو : الطمث المس ، وذلك في كل شيء يمس .

الثاني : لم يذللهن إنس قبلهم ولا جان ، والطمث : التذليل ، قاله المبرد .

الثالث : لم يُدْمِهُنَّ يعني إنس ولا جان ، وذلك قيل للحيض طمث ، قال الفرزدق :

دفعن إليَّ لم يطمثن قبلي . . . وهن أصح من بيض النعام

وفي الآية دليل على أن الجن تغشى كالإنس

. ﴿ هَلْ جَزَآءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : هل جزاء الطاعة إلا الثواب .

(193/741)

الثاني : هل جزاء الإحسان في الدنيا إلا الإحسان في الآخرة ، قاله ابن زيد .

الثالث : هل جزاء من شهد أن لا إله إلا الله إلا الجنة ، قاله ابن عباس .

الرابع : هل جزاء التوبة إلا المغفرة ، قاله جعفر بن محمد الصادق .

ويحتمل خامساً : هل جزاء إحسان الله عليكم إلا طاعتكم له .

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أي أقرب منهما جنتان .

الثاني : أي دون صفتهما جنتان .

وفيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الجنات الأربع لمن خاف مقام ربه ، قال ابن عباس : فيكون في الأوليين النخل والشجر ، وفي الأخريين الزرع والنبات وما انبسط .

الثاني : أن الأوليين من ذهب للمقربين ، والأخريين من وَرِقٍ لأصحاب اليمين ، قاله ابن

زيد .

الثالث : أن الأوليين للسابقين ، والأخريين للتابعين ، قاله الحسن .

قال مقاتل : الجنتان الأوليان جنة عدن وجنة النعيم والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى ، وفي الجنات الأربع جنان كثيرة .

ويحتمل رابعاً : أن يكون من دونهما جنتان لأتباعه ، لقصور منزلتهم عن منزلته ، إحدهما للحور العين ، والأخرى للولدان المخلدين ، لتميز بهما الذكور عن الإناث .

﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أي خضراوان ، قاله ابن عباس .

الثاني : مسودتان ، قاله مجاهد ، مأخوذ من الدهمة وهي السواد ، ومنه سمي سود الخيل دهماً .

الثالث : [خضروان من الرّي] ناعمتان ، قاله قتادة .

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدهما : ممتلئتان لا تنقطعان ، قاله الضحاك .

الثاني : جاريتان ، قاله الفراء .

الثالث : فوّارتان ، وذكر في الجنتين الأوليين عينين تجريان ، وذكر في الأخريين عينين نضاختين ، والجري أكثر من النضخ .

وبماذا هما نضاختان ؟ فيه أربعة أوجه :

أحدها : بالماء ، قاله ابن عباس .

الثاني : بالمسك والعنبر ، قاله أنس .

الثالث : بالخير والبركة ، قاله الحسن ، والكلبي .

الرابع : بأنواع الفاكهة ، قاله سعيد بن جبير .

(194/741)

﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ يعني الجنات الأربع ، وفي الخيرات قراءتان إحداهما بالتخفيف ، وفي المراد بها قولان :

أحدهما : الخير والنعم المستحسنة .

الثاني : خيرات الفواكه والثمار ، وحسان في المناظر والألوان .

والقرءة الثانية بالتشديد ، وفي المراد بها قولان :

أحدهما : مختارات .

الثاني : ذوات الخير وفيهن قولان :

أحدهما : أنهن الحور المنشآت في الآخرة .

الثاني : أنهن النساء المؤمنات الفاضلات من أهل الدنيا .

وفي تسميتهن خيرات أربعة أوجه :

أحدها : لأنهن خيرات الأخلاق حسان الوجوه ، قاله قتادة وروته أم سلمة مرفوعاً :

الثاني : لأنهن عذارى أبكاراً ، قاله أبو صالح .

الثالث : لأنهن مختارات .

الرابع : لأنهن خيرات صالحات ، قاله أبو عبيدة .

﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : مقصورات الطرف على أزواجهن فلا يبغين بهم بدلاً ، ولا يرفعن طرفاً إلى غيرهم من الرجال ، قاله مجاهد .

الثاني : المحبوسات في الحجال لَسْنَ بالطوافات في الطرق ، قاله ابن عباس .

الثالث : المخدرات المصونات ، ولا متعطلات ولا متشوِّفات ، قاله زيد بن الحارث ، وأبو عبيدة .

الرابع : أنهن المسكنات في القصور ، قاله الحسن .

ويحتمل خامساً : أن يريد بالمقصورات البيض ، مأخوذ من قصارة الثوب الأبيض ، لأن وقوع الفرق بين المقصورات والقاصرات يقتضي وقوع الفرق بينهما في التأويل :

وفي الخيام ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الخيام هي البيوت ، قاله ابن بحر .

الثاني : أنها خيام تضرب لأهل الجنة خارج الجنة كهيئة البداوة ، قاله سعيد بن جبير .

الثالث : أنها خيام في الجنة تضاف إلى القصور .

روى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الخِيَامُ الدُّرُّ المُجَوَّفُ " .

(195/741)

روي عن أسماء بنت يزيد الأشهلية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله إننا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم وحوامل أولادكم ، فهل نشارككم في الأجر ؟ فقال عليه السلام : " نَعَم إِذَا أَحْسَنْتُنَّ تَبَعُّلَ أَزْوَاجِكُنَّ وَطَلَبْتُنَّ مَرْضَاتَهُم " .

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : أن الرفرف المجلس المطيف ببسطه ، قاله ابن كامل .

الثاني : فضول الفرش والبسط ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنها الوسائد ، قاله الحسن وعاصم الجحدري .

الرابع : أنها الفرش المرتفعة ، مأخوذ من الرف .

الخامس : أنها المجالس يتكئون على فضولها .

السادس : رياض الجنة ، قاله ابن جبير .

﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنها الطنافس المخملية ، قاله الحسن .

الثاني : الديباج ، قاله مجاهد .

الثالث : أنها ثياب في الجنة لا يعرفها أحد ، قاله مجاهد [أيضاً] .

الرابع : أنها ثياب الدنيا تنسب إلى عبقر .

وفي عبقري قولان :

أحدهما : أنه سيد القوم ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في عمر رضي الله عنه : " فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِياً مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ " فنسبه إلى أرفع الثياب لاختصاصه

. الثاني : أرض عبقر .

وفي تسميتها بذلك قولان :

أحدهما : لكثرة الجن فيها .

الثاني : لكثرة رملها ويكون المراد بذلك أنها تكون مثل العبقري لأن ما ينسج بعبقر لا يكون في الجنة إذا قيل إن عبقر اسم أرض .

﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : معناه ثبت اسم ربك ودام .

الثاني : أن ذكر اسمه يمن وبركة ، ترغيباً في مداومة ذكره .

﴿ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ في ﴿ ذِي الْجَلَالِ ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه الجليل .

الثاني : أنه المستحق للإجلال والإعظام .

وفي ﴿ الْإِكْرَامِ ﴾ وجهان :

أحدهما : الكريم .

الثاني : ذو الإكرام لمن يطيعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ 422 .

444 ﴾

(196/741)

وقال ابن الجوزى :

سورة الرحمن عز وجل

قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمنُ علَّم القُرآنَ ﴾

قال مقاتل : لمّا نزل قوله : ﴿ اسْجُدوا للرَّحْمنِ ﴾ [الفرقان : 60] قال كُفّار مكَّةَ : وما

الرَّحْمنُ ؟ ! فأنكروه وقالوا : لا نَعرِفُ الرحْمنَ ، فقال تعالى : ﴿ الرَّحْمنُ ﴾ الذي أنكروه هو الذي "علَّم القُرآنَ" .

وفي قوله : ﴿ علَّم القُرآنَ ﴾ قولان .

أحدهما : علَّمه محمداً ، وعلَّم محمدٌ أُمَّته قاله ابن السائب .

والثاني : يسَّر القرآنَ ، قاله الزجّاج .

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإِنسانَ ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه اسم جنس ، فالمعنى : خلق الناسَ جميعاً ، قاله الأكثرون .

فعلى هذا ، في "البيان" ستة أقوال .

أحدها : النُّطق والتَّمييز ، قاله الحسن .

والثاني : الحلال والحرام ، قاله قتادة .

والثالث : ما يقول وما يُقال له ، قاله محمد بن كعب .

والرابع : الخير والشر ، قاله الضحاك .

والخامس : [طُرق] الهُدى ، قاله ابن جريج .

والسادس : الكتابة والخط ، قاله يمان .

والثاني : أنه آدم ، قاله ابن عباس ، وقتادة .

فعلى هذا في "البيان" ثلاثة أقوال .

أحدها : أسماء كل شيء .

والثاني : بيان كل شيء .

والثالث : اللّغات .

والقول الثالث : أنه محمد صلى الله عليه وسلم ، علَّمه بيانَ ما كان وما يكون ، قاله ابن كيسان .

قوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ والقمرُ بحُسْبانٍ ﴾ أي بحساب ومنازل ، لا يَعْدُوانها ؛ وقد كشَفْنا هذا المعنى في [الأنعام : 96] .

قال الأخفش : أضمر الخبر ، وأظُنُّه والله أعلَمُ أراد : يَجريان بحُسبان .

قوله تعالى : ﴿ والنَّجْمُ والشّجَرُ يَسْجُدانِ ﴾ في النَّجْم قولان .

أحدهما : أنه كُلُّ نَبْتٍ ليس له ساق ، وهو مذهب ابن عباس ، والسدي ، ومقاتل ، واللُّغويين .

والثاني : أنه نَجْم السَّماء ، والمُراد به : جميعُ النُّجوم ، قاله مجاهد .

فأمّا الشَّجَرَ : فكُلُّ ما له ساق .

قال الفراء : سُجودهما : أنَّهما يستقبِلان الشمسَ إذا أشرقت ، ثم يَميلان معها حتى ينكسر الفَيْءُ .

وقد أشرت في [النحل : 49] إلى معنى سُجود ما لا يَعْقِل .

قال أبو عبيدة : وإنّما ثني فعلهما على لفظهما .

قوله تعالى : ﴿ والسماءَ رفَعَها ﴾ وإنما فعل ذلك ليحيا الحيوان وتمتدَّ الأنفاس ، وأجرى الرِّيح بينها وبين الأرض ، كيما يتروحَ الخَلق .

ولولا ذلك لماتت الخلائق كَرْباً .

قوله تعالى : ﴿ ووَضَعَ الميزانَ ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه العَدْل ، قاله الأكثرون .

منهم مجاهد والسدي واللغويون .

قال الزجّاج : وهذا لأن المعادلة : مُوازَنة الأشياء .

والثاني : أنه الميزان المعروف ، ليتناصف الناس في الحقوق ، قاله الحسن ، وقتادة ، والضحاك .

والثالث : أنه القرآن ، قاله الحسين بن الفضل .

قوله تعالى : ﴿ ألاَّ تَطْغَوْا ﴾ ذكر الزجّاج في "أنْ" وجهين .

أحدهما : أنها بمعنى اللام ؛ والمعنى : لئلاّ تَطْغَوْا .

والثاني : أنها للتفسير ، فتكون "لا" للنهي ؛ والمعنى : أي : لاتَطْغَوْا ، أي لا تُجاوِزوا العَدْل .

قوله تعالى : ﴿ ولا تُخْسِروا الميزان ﴾ قال ابن قتيبة : أي لا تنقصوا الوزن .

فأمّا الأنام ، ففيهم ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم الناس ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : كل ذي رُوح ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، والشعبي ، وقتادة ، والسدي ، والفراء .

والثالث : الإنس والجن ، قاله الحسن ، والزجّاج .

قوله تعالى : ﴿ فيها فاكهةٌ ﴾ أي ، ما يُتفكَّه [به] من ألوان الثمار ﴿ والنَّخْلُ ذاتُ الأكمام ﴾ والأكمام : الأوعية والغُلُف ؛ وقد استوفينا شرح هذا في [حم السجدة : 47] .

قوله تعالى : ﴿ والحَبُّ ﴾ يريد : جميع الحبوب ، كالبُر والشعير وغير ذلك .

وقرأ ابن عامر : "والحَبَّ" بنصب الباء "ذا العصف" بالألف "والرَّيحانَ" بنصب النون .

وقرأ حمزة ، والكسائي إلاّ ابن أبي سُريج ، وخلف : "والحَبُّ ذو العَصْفِ والرَّيحانِ" بخفض النون ؛ وقرأ الباقون بضم النون .

وفي "العَصفْ" قولان :

أحدهما : أنه تِبن الزَّرع وورقه الذي تعصفه الرِّياح ، قاله ابن عباس .

وكذلك قال مجاهد : هو ورق الزَّرع .

قال ابن قتيبة : العَصْف : ورق الزَّرع ، ثم يصير إذا جفَّ ويبِس ودِيس تبناً .

والثاني : أن العَصْف : المأكول من الحبِّ ، حكاه الفراء .

وفي "الرَّيحان" أربعة أقوال .

أحدها : أنه الرِّزق ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والسدي .

قال الفراء : الرَّيحان في كلام العرب : الرِّزق ، تقول : خرجنا نطلُب رَيْحان الله ، وأنشد الزجاج للنَّمِر بن تَوْلب :

سلامُ الإلهِ ورَيْحانُه . . .

ورَحْمَتُه وسَماءٌ دِرَرْ

والثاني : أنه خُضرة الزَّرع ، رواه الوالبي عن ابن عباس .

قال أبو سليمان الدمشقي : فعلى هذا ، سُمِّي رَيْحاناً ، لاستراحة النَّفْس بالنظر إليه .

والثالث : أنه رَيحانكم هذا الذي يُشَمُّ ، روى العوفي عن ابن عباس قال : "الرَّيحان" ما أَنبتت الأرضُ من الرَّيحان ، وهذا مذهب الحسن ، والضحاك ، وابن زيد .

والرابع : أنه ما [لم] يؤكل من الحَبّ ، والعَصْف : المأكول منه ، حكاه الفراء .

قوله تعالى : ﴿ فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تُكذِّبانِ ﴾ فإن قيل : كيف خاطب اثنين ، وإنما ذكر الإنسان وحده ؟ فعنه جوابان ذكرهما الفراء .

أحدهما : أن العرب تخاطب الواحد بفعل الاثنين كما بيَّنّا في قوله : ﴿ أَلقِيا في جهنَّمَ ﴾ [ق : 24] .

والثاني : أن الذِّكر أريد به الإنسان والجانّ ، فجرى الخطاب لهما من أول السورة إلى آخرها .

(199/741)

قال الزجاج : لمّا ذكر اللهُ تعالى في هذه السورة ما يدُلُّ على وحدانيته من خَلْق الإنسان وتعليم البيان وخَلْق الشمس والقمر والسماء والأرض ، خاطب الجن والإنس ، قال : ﴿ فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تُكذِّبانِ ﴾ أي : فبأيِّ نِعَم ربِّكما تُكذِّبان من هذه الأشياء المذكورة ، لأنها كلَّها مُنْعَم بها عليكم في دلالتها إيّاكم على وحدانيَّته وفي رزقه إيّاكم ما به قِوامكم .

وقال ابن قتيبة : الآلاء : النِعم ، واحدها : أَلاً ، مثل : قفاً ، وإلاً ، مثل : مِعىً .

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسانَ ﴾ يعني آدم ﴿ مِنْ صَلْصالٍ ﴾ قد ذكرنا في [الحجر : 26 - 27] الصَلْصال والجانَّ .

فأمّا قوله : ﴿ كالفَخّار ﴾ فقال أبو عبيدة : خُلق من طينٍ يابس لم يُطْبَخ ، فله صوتٌ إذا نُقِر ، فهو من يُبْسِه كالفَخّار .

والفَخّار : ما طُبِخ بالنّار .

فأمّا المارِج ، فقال ابن عباس : هو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت .

وقال مجاهد : هو المختلِط بعضُه ببعض من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أُوقِدَتْ .

وقال مقاتل : هو لهب النار الصافي من غير دخان .

وقال أبو عبيدة : المارج : خَلْط من النار .

وقال ابن قتيبة : المارج : لهب النار ، من قولك : قد مَرِجَ الشيءُ : إذا اضطرب ولم يستقرّ .

وقال الزجاج : هو اللَّهب المختلط بسواد النار .

فإن قيل : قد أَخبر اللهُ تعالى عن خَلْق آدم عليه السلام بألفاظ مختلفة ، فتارة يقول : ﴿ خَلَقه مِن تراب ﴾ [آل عمران : 59] ، وتارة : "مِن صَلْصالٍ" وتارة : ﴿ مِنْ طِينٍ لازِبٍ ﴾ [الصافات : 11] وتارة ﴿ كالفَخّار ﴾ [الرحمن : 14] وتارة : ﴿ مِنْ حَمَأٍ

مسنونٍ ﴾ [الحجر : 29] ؛ فالجواب : أن الأصل التراب فجُعل طيناً ، ثم صار كالحمإِ المسنون ، ثم صار صَلصالاً كالفَخّار ، هذه أخبار عن حالات أصله .

(200/741)

فإن قيل : ما الفائدة في تكرار قوله : "فبأيِّ آلاء ربِّكما تُكذِّبانِ" الجواب أن ذلك التكرير لتقرير النِّعم وتأكيد التذكير بها .

قال ابن قتيبة : من مذاهب العرب التكرار للتوكيد والإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار للتخفيف والإيجاز ، لأن افتنان المتكلِّم والخطيب في الفنون أحسن من اقتصاره في المقام على فنٍّ واحدٍ ، يقول القائل منهم : واللهِ لا أفعله ، ثم واللهِ لا أفعله ، إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع مِنْ أنْ يفعله ، كما يقول : واللهِ أفعلُه ، بإضمار "لا" إذا أراد الاختصار ، ويقول القائل المستعجِل : اعْجَل اعْجَل ، وللرامي : ارمِ ارمِ ، قال الشاعر :

كَمْ نِعْمَةٍ كانَتْ له وكَمْ وكَمْ . . .

وقال الآخر :

هَلاَّ سَأَلْتَ جُمُوعَ كِنْ . . .

دَةَ يَوْمَ وَلَّوْا أَيْنَ أَيْنا

وربَّما جاءت الصّفة فأرادوا توكيدها ، واستوحشوا من إعادتها ثانيةً لأنها كلمة واحدةٌ ، فغيَّروا منها حرفاً ثم أتبعوها الأولى ، كقولهم : عَطْشَانُ نَطْشَان ، وشَيطان لَيْطان ، وحَسَنٌ بَسَنٌ .

قال ابن دريد : ومن الإتباع : جائع نائع ، ومليح قريح ، وقبيح شَقِيح ، وشَحيح نَحيح ، وخَبيث نَبيث ، وكَثير بَثير ، وسيّغ لَيّغ ، وسائغ لائغ ، وحَقير نَقير ، وضَئيل بَئيل ، وخضر مضر ، وعِفْريت نِفْريت ، وثِقَةٌ نِقَةٌ ، وكِنٌّ إنٌّ ، وواحدٌ فاحدٌ ، وحائرٌ بائرٌ ، وسَمْحٌ لَمْحٌ .

قال ابن قتيبة : فلمّا عَدَّد اللهُ تعالى في هذه السورة نعماءَه ، وأذكَرَ عِبادَه آلاءَه ، ونبَّههم على قُدرته ، جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين كل نعمتين ، ليُفَهِّمهم النِّعم ويُقَرِّرهم بها ، كقولك للرجل : أَلَم أُبَوِّئْكَ مَنْزِلاً وكنتَ طريداً ؟ أفتُنْكِرُ هذا ؟ ألم أحُجَّ بك وأنت صَرُورَةٌ ؟ أفَتُنْكِرُ هذا ؟ .

وروى الحاكم أبو عبد الله في "صحيحه" من حديث جابر بن عبد الله قال :

(201/741)

" قرأ علينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال : "مالي أراكم سكوتاً ؟ ! لَلْجِنُّ كانوا أحسنَ منكم ردّاً ، ما قرأتُ عليهم هذه الآية من مَرَّة" ﴿ فبأيِّ آلاء

رِبّكما تكذِّبان ﴾ إلاّ قالوا : ولا بشيء من نِعمك ربَّنا نكذِّب فلك الحمد " .

قوله تعالى : ﴿ ربُّ المشْرِقَيْنِ ﴾ قرأ أبو رجاء ، وابن أبي عبلة : "ربِّ المشْرِقَيْن وربِّ المَغْرِبَيْن" بالخفض ، وهما مَشْرِق الصَّيف ومَشْرِق الشتاء ومَغْرِب الصَّيف ومَغْرِب الشتاء للشمس والقمر جميعاً .

قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ البَحْرَين ﴾ أي : أرسل العذبَ والمِلْحَ وخلاهما وجعلهما ﴿ يلتقيان ﴾ ، ﴿ بينهما برزخٌ ﴾ أي : حاجز من قدرة الله تعالى ﴿ لا يبغيان ﴾ أي : لا يختلطان فيبغي أحدهما على الآخر .

وقال ابن عباس : بحر السماء وبحر الأرض يلتقيان كلَّ عام .

قال الحسن : "مَرَجَ البحرين" يعني بحر فارس والروم ، بينهما برزخ ، يعني الجزائر ؛ وقد سبق بيان هذا في [الفرقان : 53] .

قوله تعالى : ﴿ يخرُج منهما اللُّؤلؤ والمَرْجان ﴾ قال الزجاج : إنما يخرُج من البحر المِلْحِ ، وإنما جمعهما ، لأنه إذا خرج من أحدهما فقد أُخرج منهما ، ومِثْله ﴿ وجَعَلَ القمرَ فيهنَّ نُوراً ﴾ [نوح : 16] .

قال أبو علي الفارسي : أراد : يخرُج من أحدهما ، فحذف المضاف .

وقال ابن جرير : إنما قال "منهما" لأنه يخرج من أصداف البحر عن قطر السماء .

فأمّا اللُّؤلؤ والمرجان ، ففيهما قولان .

أحدهما : أن المرجان : ما صَغُر من اللُّؤلؤ ، واللُّؤلؤ : العظام ، قاله الأكثرون ، منهم ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، والفراء .

وقال الزجاج : اللُّؤلؤ : اسم جامع للحَبِّ الذي يخرج من البحر ، والمرجان : صِغاره .

والثاني : أن اللُّؤلؤ : الصِّغار ، والمرجان : الكبار ، قاله مجاهد ، والسدي ، ومقاتل .

(202/741)

قال ابن عباس : إذا أمطرت السماء ، فتحت الأصدافُ أفواهها ، فما وقع فيها من مطر فهو لؤلؤ ، قال ابن جرير : حيث وقعت قطرةٌ كانت لؤلؤة .

وقرأت على شيخنا أبي منصور اللُّغويّ قال : ذكر بعضُ أهل اللُّغة أن المَرجان أعجميّ معرَّب .

قال أبو بكر ، يعني ابن دريد : ولم أسمع فيه بفعل منصرف ، وأَحْرِ به أن يكون كذلك .

قال ابن مسعود : المرجان : الخرز الأحمر .

وقال الزجاج : المَرجان أبيض شديد البياض .

وحكى القاضي أبو يعلى أن المرجان : ضرب من اللُّؤلؤ كالقضبان .

قوله تعالى : ﴿ وله الجَوارِ ﴾ يعني السفن ﴿ المُنْشَآتُ ﴾ قال مجاهد : هو ما قد رُفع

قِلْعه من السفن دون ما لم يُرفع قِلْعه .

قال ابن قتيبة : هُنَّ اللواتي أُنشئن ، أي : ابتُدىء بهنَّ ﴿ في البحر ﴾ ، وقرأ حمزة : "المُنْشِئاتُ" ، فجعلهن اللواتي ابتدأن ، يقال : أنشأت السحابة تُمطر : إذا ابتدأتْ ، وأنشأ الشاعُر يقول ، والأعلام : الجبال ، وقد سبق هذا [الشورى : 32] .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عليها فانٍ ﴾ أي : على الأرض ، وهي كناية عن غير المذكور ، "فانٍ" أي ؛ هالكٌ .

﴿ ويَبقى وجهُ ربِّكَ ﴾ أي : ويبقى ربُّكَ ﴿ ذو الجلال والإكرام ﴾ قال أبو سليمان الخطابي : الجلال : مصدر الجليل ، يقال : جليل بَيِّن الجلالة والجلال .

والإكرام : مصدر أكرمَ يُكْرِم إكراماً ؛ والمعنى أن الله تعالى مستحِق أن يُجَلَّ ويُكْرَم ، ولا يُجحَد ولا يُكْفَر به ، وقد يحتمل أن يكون المعنى : أنه يُكرم أهلَ ولايته ويرفع درجاتهم ؛ وقد يحتمل أن يكون أحد الأمرين وهو الجلال مضافاً إلى الله تعالى بمعنى الصفة له ، والآخر مضافاً إلى العبد بمعنى الفعل منه ، كقوله تعالى : ﴿ هو أهلُ التَّقوى وأهلُ المَغْفِرة ﴾ [المدثر : 56] فانصرف أحد الأمرين إلى الله وهو المغفرة ، والآخر إلى العباد وهو التقوى .

(203/741)

قوله تعالى : ﴿ يسأَلُه من في السموات والأرضِ ﴾ المعنى أن الكل يحتاجون إليه فيسألونه وهو غنيٌّ عنهم ﴿ كُلَّ يومٍ هو في شأنٍ ﴾ مثل أن يُحيي ويُميت ، ويُعِزّ ويُذِلّ ، ويشفي مريضاً ، ويُعطي سائلاً ، إلى غير ذلك من أفعاله .

وقال الحسين بن الفضل : هو سَوق المقاديرِ إلى المواقيت .

قال مقاتل : وسبب نزول هذه الآية أن اليهود قالت : إن الله لا يقضي في يوم السبت شيئاً ، فنزلت : "كُلَّ يومٍ هو في شأنٍ" .

قوله تعالى : ﴿ سنَفْرُغُ لكم ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "سنَفْرُغُ" بنون مفتوحة .

وقرأ ابن مسعود ، وعكرمة ، والأعمش ، وحمزة ، والكسائي ، وعبد الوارث : ["سيَفْرُغُ"] بياءٍ مفتوحة .

وقرأ ابن السميفع ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة ، وعاصم الجحدري ، عن عبد الوارث : "سيُفْرَغُ" بضم الياء وفتح الراء .

قال الفراء : هذا وعيد من الله تعالى ، لأنه لا يشغَله شيء عن شيء ، تقول للرجل الذي لا شغل له : قد فرغتَ لي ، قد فرغت تشتمني ؟ ! أي : قد أخذتَ في هذا وأقبلتَ عليه ؟ !

قال الزجاج : الفراغ في اللغة على ضربين .

أحدهما : الفراغ من شغل .

والآخر : القصد للشيء ، تقول : قد فرغتُ مما كنتُ فيه ، أي : قد زال شغلي به ، وتقول : سأتفرَّغ لفلان ، أي : سأجعله قصدي ، ومعنى الآية : سنَقْصُد لحسابكم .

فأمّا "الثَّقَلان" فهما الجن والإنس ، سُمِّيا بذلك لأنهما ثقل الأرض .

قوله تعالى : ﴿ أن تَنْفُذوا ﴾ أي : تخرُجوا ؛ يقال : نفذ الشيء من الشيء : إذا خَلَص منه ، كالسهم ينفُذ من الرَّمِيَّة ، والأقطار : النواحي والجوانب .

وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : إن استطعتم أن تعلَموا ما في السموات والأرض فاعلَموا ، قاله ابن عباس .

والثاني : إن استطعتم أن تهرُبوا من الموت بالخروج من أقطار السموات والأرض فاهرُبوا واخرُجوا منها ؛ والمراد : أنكم حيثما كنتم أدرككم الموت ، هذا قول الضحاك ومقاتل في آخرين .

(204/741)

والثالث : إن استطعتم أن تَجُوزوا أطراف السموات والأرض فتُعجِزوا ربّكم حتى لا يقدر عليكم فجوزوا ؛ وإنما يقال لهم هذا يوم القيامة ، ذكره ابن جرير .

قوله تعالى : ﴿ لا تنفُذونَ إلاّ بسُلطانٍ ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : لا تنفذون إلا في سلطان الله ومُلكه ، لأنه مالك كل شيء ، قاله ابن عباس .

والثاني : لا تنفذون إلاّ بحُجَّة ، قاله مجاهد .

والثالث : لا تنفُذون إلا بمُلك ، وليس لكم مُلك ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عليكما ﴾ فثنَّى على اللفظ .

وقد جمع في قوله : ﴿ إن استطعتم ﴾ على المعنى .

فأمّا "الشُّواظ" ففيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه لهب النار ، قاله ابن عباس .

وقال مجاهد : هو اللهب الأخضر المنقطع من النار .

والثاني : الدُّخان ، قاله سعيد بن جبير .

والثالث : النار المحضة ، قاله الفراء .

وقال أبو عبيدة : هي النار التي تأجَّج لا دخان فيها ، ويقال : شُواظ وشِواظ .

وقرأ ابن كثير بكسر الشين ؛ وقرأ أيضاً هو وأهل البصرة : "ونُحاسٍ" بالخفض ، والباقون برفعهما .

وفي "النُّحاس" قولان .

أحدهما : أنه دخان النار ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، والفراء وأبو عبيدة ، وابن قتيبة ، والزجاج ، ومنه قول الجعديّ يذكر امرأة :

تُضيءُ كضَوْءِ سِراجِ السَّلِي . . .

طِ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ فيه نُحاسا

وذكر الفراء في السَّليط ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه دُهن السَّنام ، وليس له دخان إذا استُصبح به .

والثاني : أنه دُهن السِّمسِم .

والثالث : الزيت .

والثاني : أنه الصُّفْر المُذاب يُصَبُّ على رؤوسهم ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وقتادة .

(205/741)

قال مقاتل : والمراد بالآية : كفار الجن والإنس ، يرسل عليهما في الآخرة لهب النار والصُّفْر الذائب ، وهي خمسة أنهار تجري من تحت العرش على رؤوس أهل النار ، ثلاثة أنهار على مقدار الليل ، ونهران على مقدار نهار الدنيا ، ﴿ فلا تَنْتَصِرانِ ﴾ أي : فلا تمتنعان من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فإذا انْشَقَّت السَّماءُ ﴾ أي : انفرجتْ من المجرَّة لنُزول مَنْ فيها يومَ القيامة

﴿ فكانت وردةً ﴾ وفيها قولان .

أحدهما : كلَوْن الفرس الوردة ، قاله أبو صالح ، والضحاك .

وقال الفراء : الفرس الوردة ، تكون في الربيع وردة إلى الصُّفرة ، فإذا اشتد الحر كانت وردة حمراء ، فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغبرة ، فشبّه تلوّن السماء بتلوّن الوردة من الخيل ؛ وكذلك قال الزجاج : "فكانت وردة" أي : كلون فرس وردة ؛ والكُميت : الورد يتلوَّن ، فيكون لونه في الشتاء خلاف لونه في الصيف ، ولونه في الصيف خلاف لونه في الشتاء ، فالسماء تتلوَّن من الفزع الأكبر .

وقال ابن قتيبة : المعنى : فكانت حمراء في لون الفرس الورد .

والثاني : أنها وردة النبات ؛ وقد تختلف ألوانها ، إلا أن الأغلب عليها الحمرة ، ذكره الماوردي .

وفي الدِّهان قولان .

أحدهما : أنه واحد ، وهو الأديم الأحمر ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه جمع دُهن ، والدُّهن تختلف ألوانه بخُضرة وحُمرة وصُفرة ، حكاه اليزيدي ، وإلى نحوه ذهب مجاهد .

وقال الفراء : شبّه تلوُّن السماء بتلوُّن الوردة من الخيل ، وشبّه الوردة في اختلاف ألوانها بالدُّهن .

قوله تعالى : ﴿ فيومَئذ لا يُسألُ عن ذنْبه إنسٌ ولا جانٌّ ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لا يسألون ليُعلم حالهم ، لأن الله تعالى أعلم منهم بذلك .

والثاني : لا يسأل بعضهم بعضاً عن حاله لاشتغال كل واحد منهم بنفسه ، روي القولان عن ابن عباس .

(206/741)

والثالث : لا يُسألون عن ذنوبهم لأنهم يُعرفون بسيماهم ، فالكافر أسود الوجه ، والمؤمن أغر محجَّل من أثر وضوئه ، قاله الفراء .

قال الزجاج : لا يُسأل أحد عن ذنْبه ليُستفهم ، ولكنه يُسأل سؤال توبيخ .

قوله تعالى : ﴿ يُعْرَفُ المُجْرِمونَ بسِيماهم ﴾ قال الحسن : بسواد الوجوه ، وزرَق الأعيُن ﴿ فيؤخذ بالنَّواصي والأقدامِ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أن خزنة جهنم تجمع بين نواصيهم إلى أقدامهم من وراء ظُهورهم ، ثم يدفعونهم على وجوههم في النار ، قاله مقاتل .

والثاني : يؤخذ بالنَّواصي والأقدام ، فيُسحبون إلى النار ، ذكره الثعلبي .

وروى مردويه الصائغ ، قال : صلّى بنا الإمام صلاة الصبح فقرأ سورة "الرحمن" ومعنا علي

بن الفضيل بن عياض ، فلمّا قرأ "يُعْرَفُ المُجْرِمون بسِيماهم" خَرَّ عليٌّ مغشيّاً عليه حتى فرغنا من الصلاة ، فلمْا كان بعد ذلك قلنا له : أما سمعتَ الإمام يقرأ "حُورٌ مقصوراتٌ في الخيام" ؟ قال : شغلني عنها "يُعْرَفُ المُجْرِمون بسِيماهم فيؤخذ بالنَّواصي والأقدام" .

قوله تعالى : ﴿ هذه جهنَّمُ ﴾ أي : يقال لهم .

هذه جهنَّمُ ﴿ التي يكذّب بها المُجْرِمونَ ﴾ يعني المشركين ، ﴿ يَطُوفون بينها ﴾ وقرأ أبو العالية ، وأبو عمران الجوني : "يُطَوِّفون" بياءٍ مضمومة مع تشديد الواو ؛ وقرأ الأعمش مثله إلا أنه بالتاء .

قوله تعالى : ﴿ وبين حميمٍ آنٍ ﴾ قال ابن قتيبة : الحميم : الماء الحارّ ، والآني : الذي قد انتهت شِدَّة حَرِّه .

قال المفسرون : المعنى أنهم يسعَون بين عذاب الجحيم وبين الحميم ، إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم الشديد الحرارة .

قوله تعالى : ﴿ ولِمَن خاف مَقام ربِّه جنَّتانِ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : قيامه بين يدي ربه عز وجل يوم الجزاء .

والثاني : قيام الله على عبده بإحصاء ما اكتسب .

وجاء في التفسير ، أن العبد يهُمُّ بمعصية فيتركها خوفاً من الله عز وجل فله جنَّتان ، وهما بستانان .

﴿ ذواتا أفنانٍ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنها الأغصان ، وهي جمع فَنَن ، وهو الغُصن المستقيم طولاً ، وهذا قول مجاهد ، وعكرمة ، وعطية ، والفراء ، والزجاج .

والثاني : أنها الألوان والضروب من كل شيء ، وهي جمع فَنَن ، وهذا قول سعيد بن جبير .

وقال الضحاك : ذواتا ألوان من الفاكهة .

وجمع عطاء بين القولين ، فقال في كل غصن فُنون من الفاكهة .

قوله تعالى : ﴿ فيهما عينان تَجْرِيان ﴾ قال ابن عباس : تجريان بالماء الزلال ، إحداهما : السلسبيل ، والأخرى : التسنيم .

وقال عطية : إحداهما : من ماءٍ غير آسن ، والأخرى : من خمر .

وقال أبو بكر الورّاق : فيهما عينان تجريان لِمَن كانت له في الدنيا عينان تَجْرِيان من البكاء .

قوله تعالى : ﴿ فيهما من كُلِّ فاكهةٍ زوجان ﴾ أي : صنفان ونوعان .

قال المفسرون : فيهما من كل ما يُتفكَّه به نوعان ، رطب ويابس ، لا يقصر أحدهما عن

الآخر في فضله .

﴿ مُتَّكِئِين ﴾ هذا حال المذكورين ﴿ على فُرُشٍ ﴾ جمع فِراش ﴿ بطائنُها ﴾ جمع بِطانة ، وهي التي تحت الظِّهارة .

وقال أبو هريرة : هذه البطائن ، فما ظنُّكم بالظهائر ؟ ! وقال ابن عباس : إنما ترك وصف الظواهر ، لأنه ليس أحدٌ يعلم ما هي .

وقال قتادة : البطائن : هي الظواهر بلُغة قوم .

وكان الفراء يقول : قد تكون البطانة ظاهرة ، والظاهرة بطانة ، لأن كل واحد منهما قد يكون وجهاً ، والعرب تقول : هذا ظَهْرُ السماءِ ، وهذا بَطْنُ السَّماءِ ، لظاهرها ، وهو الذي نراه ، وقال ابن الزبير يَعيب قَتَلة عثمان : خرجوا عليه كاللصوص من وراء القرية ، فقتلهم الله كل قتلة ، ونجا منهم من نجا تحت بطون الكواكب .

يعني هربوا ليلاً ؛ فجعلوا ظهور الكواكب بطوناً ، وذلك جائز في العربيَّة .

وأنكر هذا القول ابن قتيبة جداً ، وقال : إنما أراد الله أن يعرِّفنا من حيث نَفهم فضلَ هذه الفُرش وأن ما وليَ الأرض منها إستَبْرَقٌ ، وإذا كانت البِطانة كذلك ، فالظِّهارةُ أعلى وأشرفُ .

وهل يجوز [لأحد] أن يقول لوجهِ مصَلٍّ : هذا بِطانتُه ، ولِما وَلِيَ الأرضَ منه : هذا ظِهارته ؟ ! وإنما يجوز هذا في ذي الوجهين المتساويين ، تقولِ لما وَلِيَك من الحائط : هذا ظَهْرُ الحائط ، ويقول جارك لِما وَلِيَه : هذا ظَهْرُ الحائط ، وكذلك السماء ما وَلِيَنا منها : ظَهْر ، وهي لِمَن فَوْقَها : بَطْن .

وقد ذكرنا الإستبرق في [سورة الكهف : 31] .

قوله تعالى : ﴿ وجنى الجَنَّتَين دانٍ ﴾ قال أبو عبيدة : أي : ما يُجتنى قريبٌ لا يُعَنّي الجانِيَ .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ قاصراتُ الطَّرْفِ ﴾ قد شرحناه في [الصافات : 48] .

وفي قوله : "فِيهِنَّ" قولان .

أحدهما : أنها تعود إلى الجَنَّتَين وغيرهما مما أُعدَّ لصاحب هذه القِصَّة ، قاله الزجاج .

والثاني : أنها تعود إلى الفُرُش ، ذكره علي بن أحمد النيسابوري .

قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ قرأ الكسائي بضم الميم ، والباقون بكسرها ، وهما لغتان : يَطْمِثُ ويَطْمُثُ ، مثل يَعْكِفُ ويَعْكُفُ .

وفي معناه قولان .

أحدهما : لم يَقْتَضِضْهُنَّ ؛ والطَّمْثُ : النِّكاح بالتَّدمية ، ومنه قيل للحائض : طامِثٌ ، قاله

الفراء .

والثاني : لَمْ يَمْسَسْهُنَّ ؛ يقال : ما طَمَثَ هذا البعيرَ حَبْلٌ قَطُّ ، أي : ما مسَّه ، قاله أبو عبيدة .

قال مقاتل : وذلك لأنهنَّ خُلِقْنَ من الجَنَّة ؛ فعلى قوله ، هذا صفة الحُور .

وقال الشعبي : هُنَّ من نساء الدنيا لَمْ يَمْسَسْهُنَّ مذ أُنْشِئْن خَلْقٌ .

وفي الآية دليل على أن الجِنِّيَّ يَغْشَى المرأة كالإنسيِّ .

قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الياقوتُ والمُرْجانُ ﴾ قال قتادة : هُنَّ في صفاء الياقوت وبياض المَرْجان .

وذكر الزجاج أن أهل التفسير وأهل اللغة قالوا : هُنَّ في صفاء الياقوت وبياض المَرْجان والمَرْجان : صِغار اللؤلؤ ، وهو أشدُّ بياضاً .

(209/741)

وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال : "الياقوت" فارسيٌّ معرَّب ، والجمع "اليواقيت" وقد تكلَّمت به العربُ ، قال مالكُ بن نُوَيْرَةَ اليَرْبُوعيّ :

لَنْ يُذْهِبَ اللُّؤْمَ تاجٌ قَدْ حُبِيتَ بِهِ . . .

مِنَ الزَّبَرْجَدِ والياقوتِ والذَّهَبِ

قوله تعالى : ﴿ هَلْ جزآءُ الإحسانِ إلاّ الإحسانُ ﴾ قال الزجاج ، أي : ما جزاءُ مَنْ أحسنَ في الدُّنيا إلاّ أن يُحسَنَ إليه في الآخرة .

وقال ابن عباس : هل جزاءُ من قال : "لا إله إلاّ اللهُ" وعَمِل بما جاء به محمدٌ صلى الله عليه وسلم إلاّ الجنة .

وروى أنس بن مالك قال : " قرأ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ، وقال : "هل تدرون ما قال ربُّكم" ؟ قالوا : اللهُ ورسُوله أعلمُ ، قال : "فإن ربّكم يقول : هل جزاءُ مَنْ أنْعَمْنا عليه بالتوحيد إلاّ الجنّة" "

قوله تعالى : ﴿ ومِنْ دُونِهما جَنَّتانِ ﴾ قال الزجاج : المعنى : ولِمَن خاف مقام ربِّه جنَّتان ، وله مِن دونهما جنَّتان .

وفي قوله : "ومِنْ دونِهما" قولان .

أحدهما : دونهما في الدَّرَج ، قاله ابن عباس .

والثاني : دونهما في الفضل كما روى أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " جنَّتان من ذهب وجنَّتان من فضة " ؛ وإلى نحو هذا ذهب ابن زيد ، ومقاتل .

قوله تعالى : ﴿ مُدْهامَّتانِ ﴾ قال ابن عباس [وابن الزبير] : خضراوان من الرِّيّ .

وقال أبو عبيدة : من خُضرتهما قد اسودَّتا .

قال الزجاج : يعني أنهما خضراوان تضرب خضرتُهما إلى السَّواد ، وكل نبت أخضر فتمام خُضرته وريِّه أن يَضرب إلى السَّواد .

قوله تعالى : ﴿ نضّاختان ﴾ قال أبو عبيدة : فوّارتان .

وقال ابن قتيبة : تفوران ، و"النَّضْخ" أكثر من "النَّضْح" .

وفيما يفوران به أربعة أقوال .

أحدها : بالمسك والكافور ، قاله ابن مسعود .

والثاني : بالماء ، قاله ابن عباس .

والثالث : بالخير والبركة ، قاله الحسن .

والرابع : بأنواع الفاكهة ، قاله سعيد بن جبير .

(210/741)

قوله تعالى : ﴿ ونَخْلٌ ورُمّانٌ ﴾ قال ابن عباس : نَخْلُ الجَنَّة : جذوعها زمرُّد أخضر ، وكَرَبُها : ذهبٌ أحمر ، وسَعَفها : كُسوة أهل الجنة ، منها مُقطَّعاتهم وحُللهم .

وقال سعيد بن جبير : نخل الجنة : جذوعها من ذهب ، وعروقها من ذهب ، وكرانيفها من زمرُّد ، ورُطَبها كالدِّلاء أشد بياضاً من اللَّبَن ، وألين من الزُّبد ، وأحلى من العسل ،

ليس له عَجَم .

قال أبو عبيدة : الكرانيف : أصول السَّعَف الغلاظ ، الواحدة : كرْنافَة .

وإنما أُعاد ذِكر النَّخْل والرُّمّان وقد دخلا في الفاكهة لبيان فضلهما كما ذكرنا في قوله : ﴿ وملائكتِه ورُسُله وجبريل ومِيكالَ ﴾ [البقرة : 98] ، هذا قول جمهور المفسرين واللُّغويّين .

وحكى الفراء والزجاج أن قوماً قالوا : ليسا من الفاكهة ؛ قال الفراء : وقد ذهبوا مذهباً ، ولكن العرب تجعلهما فاكهة .

قال الأزهري : ما علمتُ أحداً من العرب قال في النخيل والكروم وثمارها : إنها ليست من الفاكهة ، وإنما قال من قال ، لِقلَّة عِلْمه بكلام العرب ، فالعرب تذكرُ أشياء جملة ثم تخُصُّ شيئاً منها بالتسمية تنبيهاً على فضل فيه ، كقوله : ﴿ وجبريلَ ومِيكالَ ﴾ [البقرة : 98] ؛ فمن قال : ليسا من الملائكة كفر ، ومن قال : ثمر النخل والرمان ليسا من الفاكهة جهل .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ ﴾ يعني في الجِنان الأربع ﴿ خَيْراتٌ ﴾ يعني الحُور .

وقرأ معاذ القارىء ، وعاصم الجحدري ، وأبو نهيك : "خَيِّراتٌ" بتشديد الياء .

قال اللغويون : أصله "خَيِّراتٌ" بالتشديد ، فخُفِّف ، كما قيل : هَيْنٌ لَيْنٌ ، وهَيِّنٌ لَيِّنٌ .

وروت أُمُّ سَلَمة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خَيْراتُ الأخلاقِ حِسان الوُجوه " .

قوله تعالى : ﴿ حُورٌ مقصوراتٌ ﴾ قد بيَّنّا في سورة [الدخان : 54] معنى الحُور .

وفي المقصورات قولان .

(211/741)

أحدهما : المحبوسات في الحِجَال ، قاله ابن عباس ، وهو مذهب الحسن ، وأبي العالية ، والقرظي ، والضحاك ، وأبي صالح .

والثاني : المقصورات الطَّرف على أزواجهنّ ، فلا يرفعن طَرْفاً إلى غيرهم ، قاله الربيع .

وعن مجاهد كالقولين .

والأول أصح ، فإن العرب تقول : امرأة مَقْصُورة وقَصِيرة وقَصُورَة : إذا كانت ملازمة خدرها ، قال كُثَيِّر :

لَعَمْرِي لقد حبَّبْتِ كلَّ قصيرةٍ . . .

إليَّ وما تَدْرِي بذاكَ القَصَائِرُ

عَنَيْتُ قَصيرات الحِجَالِ ولَمْ أُرِدْ . . .

قِصارَ الخُطى ، شَرُّ النِّساءِ البَحاتِرُ

وبعضهم ينشده : قَصُورَة ، وقَصُورات ؛ والبحاتر : القِصار .

وفي "الخيام" قولان.

أحدهما: أنها البيوت.

والثاني: خيام تضاف إلى القصور.

وقد روى البخاري ومسلم في "الصحيحين" من حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن للمؤمن في الجنة لَخيمةً من لؤلؤةٍ واحدةٍ مجوَّفةٍ، طُولها في السماء سِتُّون مِيلاً، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضاً" وقال عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وابن عباس: الخيام: دُرٌّ مُجَوَّف.

وقال ابن عباس: الخيمة: لؤلؤة واحدة أربعة فراسخ في أربعة فراسخ، لها أربعة آلاف مصراع من ذهب.

قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِئِين على رَفْرَف ﴾ وقرأ عثمان بن عفان، وعاصم الجحدري، وابن محيصن: "على رَفَارفَ" جمع غير مصروف.

وقرأ الضحاك، وأبو العالية، وأبو عمران الجوني مثلهم، إلاّ أنهم صرفوا "رفارف" قال ثعلب: إنما لم يقل: أخضر، لأن الرَّفرف جمع، واحدته: رفرفة، كقوله: ﴿ الذي جَعَلَ لكم من الشجر الأخضر ناراً ﴾ [يس: 80] ولم يقل: الخُضْر، لأن الشجر جمع، تقول: هذا حصىً أبيض، وحصى أسود، قال الشاعر:

أَحَقّاً عِبادَ اللهِ أنْ لستُ ماشياً . . .

بِهِرْجَابَ ما دامَ الأَراكُ به خُضْرا

واختلف المفسرون في المراد بالرَّفرف على ثلاثة أقوال .

(212/741)

أحدها : أنها فضول المحابس [والبُسُط] ، رواه العوفي عن ابن عباس .

وقال أبو عبيدة : هي : الفُرُش والبُسط .

وحكى الفراء ، وابن قتيبة : أنها المحابس .

وقال النقاش : الرَّفرف : المحابس الخُضْر فوق الفُرُش .

والثاني : أنها رياض الجنة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير .

والثالث : أنها الوسائد ، قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ وعبقريٍّ حِسانٍ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنها الزَّرابيّ ، قاله ابن عباس ، وعطاء ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ،

وكذلك قال ابن قتيبة : العبقريّ : الطّنافِس الثِّخان .

قال أبو عبيدة : يقال لكل شيء من البُسُط : عبقريّ .

والثاني : أنه الدِّيباج الغليظ ، قاله مجاهد .

قال الزجاج : أصل العبقريّ في اللغة أنه صفة لكل ما بُولِغَ في وصفه ، وأصلُه أن عبقر : بلد كان يوشى فيه البُسط وغيرها ، فنُسب كل شيء جيّد إليه ، قال زهير :

بِخَيْلٍ عليها جِنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ . . .

جَدِيرونَ يَوْماً أَن يَنالوا فيَسْتَعْلُوا

وقرأ عثمان بن عفان ، وعاصم الجحدري ، وابن محيصن : "وعَبَاقِرِيَّ" بألف مكسورة القاف مفتوحة الياء من غير تنوين ؛ قال الزجاج : ولا وجه لهذه القراءة في العربية ، لأن الجمع الذي بعد ألفه حرفان ، نحو ؛ مساجد ومفاتح ، لا يجوز أن يكون فيه مثل عباقِري ، لأن ما جاوز الثلاثة لا يُجمع بياء النَّسب ، فلو جمعت "عبقريّ" كان جمعُه "عباقرة" ، كما أنك لو جمعت "مُهلبيّ" كان جمعه "مَهالبة" ، ولم تقل : "مَهالبيّ" قال : فإن قيل : "عبقريّ" واحد ، و"حِسَان" جمع ، فكيف جاز هذا ؟ فالأصل أن واحد هذا "عبقريّة" والجمع "عبقري" ، كما تقول : تَمْرة ، وتَمْر ، ولَوْزة ، ولَوْز ، ويكون أيضاً "عبقري" اسماً للجنس .

وقرأ الضحاك ، وأبو العالية ، وأبو عمران : "وعَبَاقِرِيٍّ" بألف مع التنوين .

قوله تعالى : ﴿ تبارك اسمُ ربّكَ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أن ذِكْر "الاسم" صِلَة ، والمعنى : تبارك ربُّك .

والثاني : أنه أصل .

قال ابن الأنباري : المعنى : تفاعل من البَرَكة ، أي : البَرَكة تُنال وتُكْتَسَب بذِكْر اسمه .

وقد بيَّنّا معنى "تبارك" في [الأعراف : 54] ، وذكرنا في هذه السورة معنى ﴿ ذي الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : 27] ، وكان ابن عامر يقرأ : "ذو الجلال" وكذلك هي في مصاحف أهل الشام ؛ والباقون : "ذي الجلال" وكذلك هي في مصاحف أهل الحجاز والعراق ، وهم متفقون على الموضع الأول أنه "ذو" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 105.129 ﴾

(214/741)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾

قيل لما نزلت اسجدوا للرحمن قال كفار مكة وما الرحمن فأنكروه وقالوا لا نعرف الرحمن فأنزل الله الرحمن يعني الذي أنكرتموه هو الذي علم القرآن ، وقيل هذا جواب لأهل مكة حين قالوا إنما يعلمه بشر فقال تعالى الرحمن علم القرآن يعني علَّم محمداً القرآن وقيل علَّم

القرآن يسره للذكر ليحفظ ويتلى وذلك أن الله عد نعمه على عباده فقدم أعظمها نعمة وأعلاها رتبة وهو القرآن العزيز لأنه أعظم وحي الله إلى أنبيائه وأشرفه منزلة عند أوليائه وأصفيائه وأكثره ذكراً وأحسنه في أبواب الدين أثراً وهو سنام الكتب السماوية المنزلة على أفضل البرية ﴿ خلق الإنسان ﴾ يعني آدم قاله ابن عباس ﴿ علمه البيان ﴾ يعني أسماء كل شيء وقيل علَّمه اللغات كلها فكان آدم يتكلم بسبعمائة لغة أفضلها العربية وقيل الإنسان اسم جنس وأراد به جميع الناس ، فعلى هذا يكون معنى علمه البيان أي النطق الذي يتميز به عن سائر الحيوانات ، وقيل علمه الكتابة والفهم والإفهام حتى عرف ما يقول وما يقال له وقيل علم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به وقيل أراد بالإنسان محمداً (صلى الله عليه وسلم) علَّمه البيان يعني بيان ما يكون وما كان لأنه (صلى الله عليه وسلم) ينبىء عن خبر الأولين والآخرين وعن يوم الدين ، وقيل علمه بيان الأحكام من الحلال والحرام والحدود والأحكام .

(215/741)

﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ قال ابن عباس يجريان بحساب ومنازل لا يتعديانها وقيل يعني بهما حساب الأوقات والآجال ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف

يحسب ما يريد ، وقيل الحساب هو الفلك تشبيهاً بحسبان الرحى وهو ما يدور الحجر بدورانه ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ قيل النجم ما ليس له ساق من النبات كالبقول والشجر ما له ساق يبقى في الشتاء وسجودها سجود ظلها وقيل النجم هو الكوكب ، وسجوده طلوعه والقول الأول أظهر لأنه ذكره مع الشجر في مقابلة الشمس والقمر ولأنهما أرضيان في مقابلة سماءين ﴿ والسماء رفعها ﴾ أي فوق الأرض ﴿ ووضع الميزان ﴾ قيل أراد بالميزان العدل لأنه آلة العدل والمعنى أنه أمر بالعدل يدل عليه قوله ﴿ ألا تطغوا في الميزان ﴾ أي لا تجاوزوا العدل وقيل أراد به الآلة التي يوزن بها للتوصل إلى الإنصاف والانتصاف وأصل الوزن التقدير أن لا تطغوا في الميزان أي لئلا تميلوا وتظلموا وتجاوزوا الحق في الميزان ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ﴾ يعني بالعدل وقيل أقيموا لسان الميزان بالعدل وقيل الإقامة باليد والقسط بالقلب ﴿ ولا تخسروا ﴾ أي لا تنقصوا ﴿ الميزان ﴾ أي لا تطففوا في الكيل والوزن أمر بالتسوية ونهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة وعن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان وكرر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه ﴿ والأرض وضعها ﴾ أي خفضها مدحوة على الماء ﴿ للأنام ﴾ يعني للخلق الذين بثهم فيها وهو كل ما ظهر عليها من دابة وقيل للإنس والجن فهي كالمهاد لهم يتصرفون فوقها ﴿ فيها ﴾ يعني في الأرض ﴿ فاكهة ﴾ يعني من أنواع الفاكهة وقيل ما يتفكهون به من النعم التي لا تحصى ﴿ والنخل ذات الأكمام ﴾ يعني الأوعية التي

يكون فيها الثمر لأن ثمر النخل يكون في غلاف وهو الطلع ما لم ينشق وكل شيء ستر شيئاً فهو كم وقيل أكمامها ليفها واقتصر على ذكر النخل من بين سائر الشجر لأنه أعظمها وأكثرها بركة.

(216/741)

﴿ والحب ﴾ يعني جميع الحبوب التي يقتات بها كالحنطة والشعير ونحوهما وإنما أخَّر ذكر الحب على سبيل الارتقاء إلى الأعلى لأن الحب أنفع من النخل وأعم وجوداً في الأماكن ﴿ ذو العصف ﴾ قال ابن عباس يعني التبن وعنه أنه ورق الزرع الأخضر إذ قطع رؤوسه ويبس وقيل هو ورق كل شيء يخرج منه الحب يبدو صلاحه ولا ورق وهو العصف ثم يكون سوقاً ثم يحدث الله فيه أكماماً ثم يحدث في الأكمام الحب ﴿ والريحان ﴾ يعني الرزق قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كل ريحان في القرآن فهو رزق وقيل هو الريحان الذي يشم ، وقيل : العصف التبن والريحان ثمرته فذكر قوت الناس والأنعام ثم خاطب الجن والإنس فقال تعالى : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ يعني أيها الثقلان يريد هذه الأشياء المذكورة وكرر هذه الآية في هذه الصورة في أحد وثلاثين موضعاً تقريراً للنعمة وتأكيداً في التذكير بها ، ثم عدد على الخلق آلاءه وفصل بين كل نعمتين بما ينبههم عليها ليفهمهم النعم

ويقررهم بها كقول الرجل لمن أحسن إليه وتابع إليه بالأيادي وهو ينكرها ويكفرها ألم تكن فقيراً فأغنيتك أفتنكر هذا ؟ الم تكن عرياناً فكسوتك أفتنكر هذا ؟ ألم تكن حاملاً فعززتك أفتنكر هذا ؟ ومثل هذا الكلام شائع في كلام العرب حسن تقريراً وذلك لأن الله تعالى ذكر في هذه السورة ما يدل على وحدانيته من خلق الإنسان وتعليمه البيان وخلق الشمس والقمر والسماء والأرض إلى غير ذلك مما أنعم به على خلقه وخاطب الجن والإنس فقال فبأي آلاء ربكما تكذبان من الأشياء المذكورة لأنها كلها منعم بها عليكم .

(217/741)

عن جابر رضي الله تعالى عنه قال " خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم كنت كلما أتيت على قوله فبأي آلاء ربكما تكذبان قالوا لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد " أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وفي رواية غيره " كانوا أحسن منكم رداً وفيه ولا بشيء " قوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من صلصال ﴾ يعني من طين يابس له صلصلة وهو الصوت منه إذا نقر ﴿ كالفخار ﴾ يعني الطين المطبوخ بالنار وهو الخزف .

فإن قلت قد اختلفت العبارات في صفة خلق الإنسان الذي هو آدم فقال تعالى من تراب وقال من حمإ مسنون وقال من طين لازب وقال من ماء مهين وقال هنا من صلصال كالفخار قلت ليس في هذه العبارات اختلاف بل المعنى متفق وذلك أن الله تعالى خلقه أولاً من تراب ثم جعله طيناً لازباً لما اختلط بالماء ثم حمأ مسنوناً وهو الطين الأسود المنتن فلما يبس صار صلصالاً كالفخار ﴿ وخلق الجان ﴾ وهو أبو الجن .

وقيل هو إبليس ﴿ من مارج من نار ﴾ يعني الصافي من لهب النار الذي لا دخان فيه ، وقيل هو ما اختلط بعضه ببعض من اللهب الأحمر والأصفر الذي يعلو النار إذا أوقدت .

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان رب المشرقين ﴾ يعني مشرق الصيف وهو غاية ارتفاع الشمس ومشرق الشتاء وهو غاية انحطاط الشمس .

(218/741)

﴿ ورب المغربين ﴾ يعني مغرب الصيف ومغرب الشتاء ، وقيل يعني مشرق الشمس ومشرق القمر ومغرب الشمس ومغرب القمر ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان مرج البحرين ﴾ يعني أرسل البحرين العذب والملح متجاورين متلاقين لا فصل بين الماءين لأن من شأنهما الاختلاط وهو قوله : ﴿ يلتقيان ﴾ لكن الله تعالى منعهما عما في طبعهما بالبرزخ وهو

قوله : ﴿ بينهما برزخ ﴾ أي حاجز من قدرة الله ﴿ لا يبغيان ﴾ أي لا يبغي أحدهما على صاحبه وقيل لا يختلطان ولا يتغيران وقيل لا يطغيان على الناس بالغرق وقيل مرج البحرين بحر الروم وبحر الهند وأنتم الحاجز بينهما وقيل بحر فارس والروم بينهما برزخ يعني الجزائر وقيل بحر السماء وبحر الأرض يلتقيان في كل عام ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان يخرج منهما ﴾ قيل إنما يخرج من البحر الملح دون العذب فهو كقوله ﴿ وجعل القمر فيهن نوراً ﴾ وقيل أراد يخرج من أحدهما فحذف المضاف وقيل لما التقى البحران فصارا كالشيء الواحد جاز أن يقال يخرج منهما كما يقال يخرج من البحر ولا يخرج من جميع البحر ولكن من بعضه وقيل يخرج من السماء وماء البحر قيل إذا أمطرت السماء تفتح الأصداف أفواهها فحيثما وقعت قطرة صارت لؤلؤة على قدر القطرة ، وقوله تعالى : ﴿ اللؤلؤ ﴾ قيل هو ما عظم من الدر ﴿ والمرجان ﴾ صغاره وقيل بعكس ذلك وقيل المرجان هو الخرز الأحمر ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان وله الجوار ﴾ يعني السفن الكبار ﴿ المنشآت ﴾ أي المرفوعات التي يرفع خشبها بعضه على بعض وقيل هي ما رفع قلعها من السفن أما ما لم يرفع قلعها فليست من المنشآت وقيل معنى المنشآت المحدثات المخلوقات المسخرات ﴿ في البحر كالأعلام ﴾ أي كالجبال جمع علم وهو الجبل الطويل شبه السفن في البحر بالجبل في البر ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

﴿ كل من عليها ﴾ أي على الأرض من حيوان وإنما ذكره بلفظة من تغليباً للعقلاء ﴿ فان ﴾ أي هالك لأن وجود الإنسان في الدنيا عرض فهو غير باق وما ليس بباق فهو فان ففيه الحث على العبادة وصرف الزمن اليسير إلى الطاعة ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ يعني ذاته والوجه يعبر به عن الجملة .

وفي المخاطب وجهان أحدهما أنه كل واحد والمعنى ويبقى وجه ربك أيها الإنسان السامع .

والوجه الثاني : أنه يحتمل أن الخطاب مع النبي (صلى الله عليه وسلم) ﴿ ذو الجلال ﴾ أي ذو العظمة والكبرياء ومعناه الذي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه ﴿ والإكرام ﴾ أي المكرم لأنبيائه وأوليائه وجميع خلقه بلطفه وإحسانه إليهم مع جلاله وعظمته ﴿ فبأي ألاء ربكما تكذبان ﴾ عن أنس بن مالك قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام " أخرجه الترمذي وقال الحاكم حديث صحيح الإسناد ومعنى ألظوا الزموا هذه الدعوة وأكثروا منها .

(220/741)

قوله تعالى : ﴿ يسأله من في السموات والأرض ﴾ يعني من ملك وإنس وجن فلا يستغني عن فضله أهل السموات والأرض قال ابن عباس فأهل السموات يسألونه المغفرة وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرة وقيل كل أحد يسأل الرحمة وما يحتاج إليه في دينه أو دنياه وفيه إشارة إلى كمال قدرة الله تعالى وأن كل مخلوق وإن جل وعظم فهو عاجز عن تحصيل ما يحتاج إليه مفتقر إلى الله تعالى : ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ قيل نزلت رداً على اليهود حيث قالوا إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً قال المفسرون من شأنه أنه يحيي ويميت ويرزق ويعز قوماً ويذل قوماً ويشفي مريضاً ويمرض صحيحاً ويفك عانياً ويفرج عن مكروب ويجيب داعياً ويعطي سائلاً ويغفر ذنباً إلا ما لا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه ما يشاء سبحانه وتعالى وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس قال " إن مما خلق الله لوحاً من درة بيضاء دفتاه من ياقوته حمراء قلمه نور وكتابه نور ينظر الله فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء فذلك قوله تعالى : ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ قال ابن عيينة الدهر كله عند الله يومان أحدهما مدة أيام الدنيا والآخر يوم القيامة والشأن الذي هو فيه اليوم الذي هو مدة أيام الدنيا الاختبار بالأمر والنهي والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع وشأن يوم القيامة الجزاء والحساب والثواب والعقاب ، وقال الحسين بن الفضل هو سوق المقادير إلى المواقيت ومعناه إن الله كتب ما يكون في كل يوم وقدر ما هو كائن فإذا جاء ذلك الوقت تعلقت إرادته بالفعل فيوجده في ذلك الوقت وقال

أبو سليمان الداراني في هذه الآية له في كل يوم إلى العبيد بر جديد وقيل شأنه تعالى أنه يخرج في كل يوم وليلة ثلاثة عساكر عسكراً من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات وعسكراً من الأرحام إلى الدنيا وعسكراً من الدنيا إلى القبور ثم يرتحلون جميعاً إلى الله تعالى : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان سنفرغ لكم

(221/741)

أيه الثقلان ﴾ قيل هو وعيد من الله تعالى للخلق بالمحاسبة وليس هو فراغ عن شغل لأن الله تعالى لا يشغله شأن عن شأن فهو كقول القائل لمن يريد تهديده لأتفرغن لك وما به شغل وهذا قول ابن عباس وإنما حسن ذكر هذا الفراغ لسبق ذكر الشأن وقيل معناه سنقصدكم بعد الترك والإمهال ونأخذ في أمركم فهو كقول للقائل الذي لا شغل له قد فرغت لك وقيل معناه أن الله وعد أهل التقوى وأوعد أهل الفجور فقال سنفرغ لكم مما وعدناكم وأخبرناكم فنحاسبكم ونجازيكم فننجز لكم ما وعدناكم فنتم ذلك ونفرغ منه فهو على طريق المثل وأراد بالثقلين الإنس والجن سميا ثقلين لأنهما ثقلا على الأرض أحياء وأمواتاً ، وقيل كل شيء له قدر ووزن ينافس فيه فهو ثقل ومنه قول النبي (صلى الله عليه وسلم)

(222/741)

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا ﴾ أي تخرجوا ﴿ من أقطار السموات والأرض ﴾ أي جوانبهما وأطرافهما ﴿ فانفذوا ﴾ أي فاخرجوا والمعنى إن استطعتم أن تهربوا من الموت بالخروج من أقطار السموات والأرض فاهربوا واخرجوا منها فحيثما كنتم يدرككم الموت وقيل يقال لهم هذا يوم القيامة والمعنى إن استطعتم أن تخرجوا من أقطار السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فاخرجوا وقيل معناه إن استطعتم أن تهربوا من قضائي وتخرجوا من ملكي ومن سمائي وأرضي فافعلوا وقدم الجن على الإنس في هذه الآية لأنهم أقدر على النفوذ والهرب من الإنس وأقوى على ذلك ثم قال تعالى : ﴿ لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ يعني لا تقدرون على النفوذ إلا بقوة وقهر وغلبة وأني لكم ذلك لأنكم حيثما توجهتم كنتم في ملكي وسلطاني وقال ابن عباس معناه إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض فاعلموا ولن تعلموه إلا بسلطان أي بينة من الله تعالى : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ وفي الخبر " يحاط على الخلق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادي " ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض ﴾ الآية فذلك قوله تعالى : ﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ﴾ قال أكثر المفسرين هو اللهب الذي لا دخان فيه وقيل هو اللهب الأخضر المنقطع من النار ﴿ ونحاس ﴾ وقيل هو الدخان وهو رواية عن ابن عباس وقيل هو الصفر المذاب

يصب على رؤوسهم وهو الرواية الثانية عن ابن عباس وقال ابن مسعود النحاس المهل وقيل يرسل عليهما هذا مرة وهذا مرة وقيل يجوز أن يرسلا معاً من غير أن يمتزج أحدهما بالآخر ﴿ فلا تنتصران ﴾ أي فلا تمتنعان من الله ولا يكون لكم ناصر منه .

(223/741)

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان فإذا انشقت السماء ﴾ أي انفرجت فصارت أبواباً لنزول الملائكة وقيل المراد منه خراب السماء وذلك لما قال كل من عليها فان إشارة إلى أهل الأرض ذكر في هذه الآية بيان حال سكان السماء وقيل فيه تهويل وتعظيم للأمر لأن فيه إشارة إلى ما هو أعظم من إرسال الشواظ على الإنس والجن وهو تشقق السماء وذوبانها وهو قوله تعالى : ﴿ فكانت وردة كالدهان ﴾ جمع دهن شبه تلون السماء عند انشقاقها بتلون الفرس الورد وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة وقيل إن السماء تتلون يومئذ ألواناً كألوان الفرس الورد يكون في الربيع أصفر وفي أول الشتاء أحمر فإذا اشتد البرد صار أغبر فشبه السماء في تلونها عند انشقاقها بهذا الفرس في تلونه وقيل كالدهان أي كعصير الزيت لأنه يتلون في الساعة ألواناً وقيل تصير السماء كالدهن الذائب وذلك حين يصلها حر جهنم وقيل كالدهان أي كالأديم الأحمر ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان فيومئذ لا يسأل عن ذنبه

إنس ولا جان ﴾ قيل لا يسألون عن ذنوبهم لتعلم من جهتهم لأن الله تعالى علمها منهم وكتبتها الحفظة عليهم وهذه رواية عن ابن بعاس وعنه لا تسأل الملائكة المجرمين لأنهم يعرفون بسيماهم دليله ما بعده وعن ابن عباس أيضاً في الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ قال لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا لأنه أعلم بذلك منهم ولكنه يسألهم لم عملتم كذا وكذا وقيل إنها مواطن فيسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها وعن ابن عباس أيضاً قال لا يسألون سؤال شفقة ورحمة إنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ وقيل لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ ، يعني بسواد وجوههم وزرقة عيونهم ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ قيل تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي من خلف ظهره وقيل تجعل رؤوسهم على ركبهم ونواصيهم في أصابع أرجلهم مربوطة وقيل يسحب بعضهم بالنواصي وبعضهم

(224/741)

بالأقدام ثم يلقون في النار .

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان هذه جهنم ﴾ أي يقال لهم هذه جهنم ثم يلقون فيها ﴿ التي يكذب بها المجرمون ﴾ يعني المشركين ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ يعني قد انتهى

حره ى أنهم يسعون بين الحميم وبين الجحيم فإذا استغاثوا من النار جعل عذابهم الحميم الأنى الذي قد صار كالمهل وقال كعب الأحبار آن واد من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم في الأغلال فيغمسون فيه حتى تنخلع أوصالهم ثم يخرجون منه وقد أحدث الله لهم خلقاً جديداً فيلقون في النار فذلك قوله تعالى : ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فإن قلت هذه الأمور المذكورة في هذه الآيات من قوله : ﴿ كل من عليها فان ﴾ إلى هنا ليست نعماً فكيف عقبها بقوله ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

قلت المذكور في هذه الآيات مواعظ وزواجر وتخويف وكل ذلك نعمة من الله تعالى لأنها تزجر العبد عن المعاصي فصارت نعماً فحسن ختم كل آية منها بقوله تعالى : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ثم ذكر ما أعده لمن اتقاه وخافه من عباده المؤمنين فقال تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه ﴾ يعني مقامه بين يدي ربه للحساب فترك الشهوة والمعصية وقيل قيام ربه عليه يعني اطلاعه عليه وهو الذي يهم بالمعصية فيذكر الله واطلاعه عليه فيدعها من مخافة الله وقيل لمن راقب الله في السر والعلانية بعمله فما عرض له من محرم تركه من خشيته وما عمل من خير أخلصه لله ولا يحب أن يطلع عليه أحد قيل إن المؤمنين خافوا ذلك المقام فعملوا لله مع الإخلاص ودأبوا الليل والنهار ﴿ جنتان ﴾ يعني جنة عدن وجنة نعيم وقيل جنة بخوفه ربه وجنة بتركه شهوته .

(225/741)

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة " أخرجه الترمذي قوله أدلج الإدلاج محففاً سير أول الليل ومثقلاً سير آخر الليل والمراد من الإدلاج التشمير والجد والاجتهاد في أول الأمر فإن من سار أول الليل كان جديراً ببلوغ المنزل وروى البغوي بسنده عن أبي ذر " أنه سمع النبي (صلى الله عليه وسلم) يقص على المنبر وهو يقول ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت وإن زنى وإن سرق ؟ فقال وإن زنى وإن سرق ثم قال ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت الثانية وإن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟ فقال وإن زنى وإن سرق ثم قال ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت الثالثة وإن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟ فقال وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر " .

(226/741)

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ثم وصف الجنتين فقال تعالى : ﴿ ذواتا أفنان ﴾ أي أغصان واحدها فنن وهو الغصن المستقيم طولاً وقيل ذواتا ظلال وهو ظل الأغصان على الحيطان ، وقال ابن عباس ذواتا ألوان يعني ألوان الفواكه وجمع عطاء بين القولين فقال في كل غصن فنون من الفاكهة وقيل ذواتا فضل وسعة على ما سواهما ، ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان فيهما عينان تجريان ﴾ قال ابن عباس بالكرامة والزيادة لأهل الجنة وقيل تجريان بالماء الزلال إحداهما التسليم والأخرى السلسبيل وقيل إحداهما من ماء غير آسن والأخرى من خمر لذة للشاربين ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ أي صنفان ونوعان وقيل معناه إن فيهما من كل ما يتفكه به ضربين رطباً ويابساً قال ابن عباس ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان متكئين على فرش ﴾ جمع فراش ﴿ بطائنها ﴾ جمع بطانة والتي تلي الأرض من تحت الظهارة ﴿ من استبرق ﴾ وهو ما غلظ من الديباج قال ابن مسعود وأبو هريرة هذه البطائن فما ظنكم بالظهائر وقيل لسعيد بن جبير البطائن من استبرق فما الظهائر ؟ قال هي مما قال الله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ وعنه أيضاً قال بطائنها من استبرق وظواهرها من نور جامد وقال ابن عباس وصف البطائن وترك الظواهر لأنه ليس في الأرض أحد يعرف ما الظواهر وقيل ظواهرها من سندس وهو الديباج الرقيق الناعم وهذا يدل على نهاية شرف هذه الفرش لأنه ذكر أن بطائنها من

الإستبرق ولا بد أن تكون الظهائر خيراً من البطائن فهو مما لا يعلمه البشر ، ﴿ وجنى الجنتين دان ﴾ يعني أن ثمرهما قريب يناله القائم والقاعد والنائم وهذا بخلاف ثمر الدنيا فإنها لا تنال إلا بكدٍّ وتعب قال ابن عباس تدنو الشجرة حتى يجنيها ولي الله إن شاء قائماً وإن شاء قاعداً وقيل لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك .

(227/741)

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان فيهن ﴾ فإن قلت الضمير إلى ماذا يعود ؟

قلت إلى الجنتين وإنما جمع بقوله فيهن لاشتمال الجنتين على مساكن وقصور ومجالس ﴿ قاصرات الطرف ﴾ أي غاضات الأعين قصرن أطرافهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم ولا يردن سواهم قيل تقول الزوجة لزوجها وعزة ربي ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك فالحمد لله الذي جعلك زوجي وجعلني زوجتك ﴿ لم يطمثهن ﴾ أي لم يجامعهن ولم يفرعهن والمعنى لم يدمهن بالجماع وقيل معناه لم يمسهن ومنه قول الفرزدق :

خرجن إلي لم يطمثن قبل . . .

وهن أصح من بيض النعام

أي لم يمسسني والمعنى لم يطأهن ولم يغشهن ﴿ إنس قبلهم ﴾ أي قبل أزواجهن من أهل

الجنة ، ﴿ ولا جان ﴾ قيل إنما نفي الجن لأن لهم أزواجاً في الجنة منهم وفي الآية دليل على أن الجني يغشى كما يغشى الإنسي وسئل ضمرة بن حبيب هل للجن ثواب ؟ فقال نعم وقرأ هذه الآية ثم قال الإنسيات للإنس والجنيات للجن وقال مجاهد في هذه الآية إذا جامع ولم يسم انطوى الجني على إحليله فجامع معه واختلف في هؤلاء اللواتي لم يطمثن فقيل هن الحور العين لأنهن خلقن في الجنة فلم يمسهن أحد قبل أزواجهن وقيل إنهن من نساء الدنيا أنشئن خلقاً آخر أبكاراً كما وصفهن .

(228/741)

لم يمسهن منذ أنشئن خلقاً آخر أحد وقيل هن الآدميات اللاتي متن أبكاراً ومعنى الآية المبالغة في نفي الطمث نهن لأن ذلك أقر لأعين أزواجهن إذا لم يغشهن أحد غيرهم ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ أراد صفاء الياقوت في بياض المرجان وهو صغار اللؤلؤ وأشده بياضاً وقيل شبه لونهن ببياض اللؤلؤ مع حمرة الياقوت لأن أحسن الألوان البياض المشوب بحمرة والأصح أنه شبههن بالياقوت لصفائه لأنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيت السلك من ظاهره لصفائه وقال عمرو بن ميمون إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من وراء الحلل كما يرى الشراب الأحمر في

الزجاجة البيضاء يدل على صحة ذلك ما روي عن ابن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها وذلك لأن الله تعالى يقول كأنهن الياقوت والمرجان فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه " أخرجه الترمذي قال وقد روي عن ابن مسعود بمعناه ولم يرفعه وهو أصح (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر " زاد في رواية " ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة لا يبصقون فيها ولا يتمخطون ولا يتغوطون آنيتهم الذهب والفضة وأمشاطهم الذهب ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة وعشياً " ، وللبخاري " قلوبهم على قلب رجل واحد " وزاد فيه " ولا يسقمون " قوله مجامرهم الألوة يعني بخورهم العود .

(229/741)

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة وقال ابن عباس هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) إلا الجنة .

(230/741)

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن أنس بن مالك قال قرأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ثم قال " هل تدرون ما قال ربكم " ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال " يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة " ، وروى الواحدي بغير سند عن ابن عمر وابن عباس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال في هذه الآية " يقول الله هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدي إلا أن أسكنه جنتي وحظيرة قدسي برحمتي " ، وقيل في معنى الآية هل جزاء من أتى بالفعل الحسن إلا أن يؤتى في مقابلته بفعل حسن وفي الآية إشارة إلى رفع التكليف في الآخرة لأن الله وعد المؤمنين بالإحسان وهو الجنة فلو بقي التكليف في الآخرة وتركه العبد لاستحق العقاب على ترك العمل والعقاب ترك الإحسان إليه فلا تكليف ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ومن دونهما جنتان ﴾ أي ومن دون الجنتين الأوليين جنتان أخريان وقال ابن عباس من دونهما في الدرج وقيل في الفضل

وقال أبو موسى الأشعري جنتان من ذهب للسابقين وجنتان من فضة للتابعين وقال ابن جريج هن أربع جنان : جنتان للمقربين السابقين فيهما من كل فاكهة زوجان وجنتان لأصحاب اليمين والتابعين فيهما فاكهة ونخل ورمان ، (ق) عن أبي موسى الأشعري أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن " وقال الكناني ومن دونهما جنتان يعني أمامهما وقبلهما يدل عليه قول الضحاك الجنتان الأوليان من ذهب وفضة والجنتان الأخريان من ياقوت وزبرجد وهما أفضل من الأوليين ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ثم وصف الجنتين فقال تعالى : ﴿ مدهامتان ﴾ أي سوداوان من ريهما وشدة خضرتهما لأن الخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد ، ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان فيهما عينان نضاختان ﴾ أي فوارتان بالماء لا ينقطعان وقال ابن عباس

(231/741)

والضحاك ينضخان بالخير والبركة على أهل الجنة وقال ابن مسعود ينضخان بالمسك والكافور على أولياء الله وقال أنس بن مالك ينضخان بالمسك والعنبر في دور أهل الجنة كطش المطر .

(232/741)

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ يعني فيهما من أنواع الفواكه كلها وإنما عطف النخل والرمان بالواو وإن كانا من جملة الفواكه تنبيهاً على فضلهما وشرفهما على سائر الفواكه وعلى هذا القول عامة المفسرين وأهل اللغة قالوا إنما فضلهما بالذكر للتخصيص والتفضيل فهو كقوله من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال خصهما بالذكر وإن كان من جملة الملائكة لشرفهما وفضلهما وقيل بعضهم ليس النخل والرمان من الفواكه لأن ثمرة النخل فاكهة وطعام وثمرة الرمان فاكهة ودواء فلم يخلصا للتفكه ولهذا قال أبو حنيفة إذا حلف لا يأكل الفاكهة فأكل رطباً أو رماناً لم يحنث وخالفه صاحباه وهذا القول خلاف قول أهل اللغة ولا حجة له في الآية وروى البغوي بسنده عن ابن عباس موقوفاً قال نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر وكرمها ذهب أحمر وسعفها كسوة لأهل الجنة منها حللهم وثمرها مثل القلال أو الدلاء أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل

وألين من الزبد ليس له عجم وروي أن الرمانة من رمان الجنة مثل البعير المقتب وقيل إن نخل أهل الجنة نضيد وثمرها كالقلال كلما نزعت منها واحدة عادت مكانها أخرى العنقود منها اثني عشر ذراعاً ، ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان فيهن ﴾ أي في الجنان الأربع ﴿ خيرات حسان ﴾ روي عن أم سلمة قالت قلت لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) أخبرني عن قوله خيرات حسان قال " خيرات الأخلاق حسان الوجوه " ، ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان حور مقصورات ﴾ أي مخدرات مستورات لا يخرجن لكرامتهن وشرفهن روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال " لو أن امرأة من نساء أهل الجنة أطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بين السماء والأرض ولملأت ما بينهما ريحاً ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها " وقيل قصرن أطرافهن وأنفسهن على أزواجهن فلا يبغين بهم بدلاً ﴿ في الخيام ﴾ قيل هي البيوت .

(233/741)

قال ابن الأعرابي الخيمة لا تكون إلا من أربعة أعواد ثم تسقف بالثمام ويقال خيم فلان خيمة إذا بناها من جريد النخل وخيم بها إذا قام بها وتظلل فيها وقيل كل خيامها من در ولؤلؤ وزبرجد مجوف تضاف إلى القصور في الجنة .

(ق) عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السماء وفي رواية عرضها ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً " ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ تقدم تفسيره ، ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان متكئين على رفرف خضر ﴾ قيل الرفرف رياض الجنة خضر مخصبة ويروى هذا عن ابن عباس وقيل إن الرفرف البسط ، وعن ابن عباس الرفرف فضول المجالس والبسط منه وقيل هي مجالس خضر فوق الفرش وقيل هي المرافق وقيل الزرابي وقيل كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرف ﴿ وعبقري حسان ﴾ قيل هي الزرابي والطنافس الثخان وقيل هي الطنافس الرقاق وقيل كل ثوب موشى عند العرب فهو عبقري وقال الخليل كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم فهو عبقري عند العرب ومنه قول النبي (صلى الله عليه وسلم) في عمر

(234/741)

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ قيل لما ختم نعم الدنيا بقوله ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ وفيه إشارة إلى أن الباقي هو الله تعالى وأن الدنيا فانية ختم نعمة الآخرة بهذه الآية وهو إشارة إلى تمجيده وتحميده (م) عن

ثوبان قال "كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام " وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت "كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا سلم من الصلاة لم يقعد إلا مقدار ما يقول : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام " أخرجه أبو داود والنسائي غير قولها لم يقعد إلا مقدار ما يقول والله أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 14.2 ﴾

(235/741)

وقال النسفى :

﴿ الرحمن عَلَّمَ القرءان خَلَقَ الإنسان ﴾

أي الجنس أو آدم أو محمداً عليهما السلام ﴿ عَلَّمَهُ البيان ﴾ عدّد الله عز وجل آلاءه فأراد أن يقدم أول شيء ما هو أسبق قدماً من ضروب آلائه وصنوف نعمائه وهي نعمة الدين ، فقدّم من نعمة الدين ما هو سنام في أعلى مراتبها وأقصى مراقيها وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه لأنه أعظم وحي الله رتبة وأعلاه منزلة وأحسنه في أبواب الدين أثراً ، وهو سنام الكتب السماوية ومصداقها والعيار عليها ، وأخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره ، ثم

أتبعه إياه ليعلم أنه إنما خلقه للدين وليحيط علماً بوحيه وكتبه ، وقدم ما خلق الإنسان من أجله عليه ، ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان وهو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير .

و﴿ الرحمن ﴾ مبتدأ وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة ، وإخلاؤها من العاطف لمجيئها على نمط التعديد كما تقول : زيد أغناك بعد فقر أعزك بعد ذل كثرك بعد قلة فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد فما تنكر من إحسانه ؟ .

﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ بحساب معلوم وتقدير سويٍ يجريان في بروجهما ومنازلهما وفي ذلك منافع للناس منها علم السنين والحساب ﴿ والنجم ﴾ النبات الذي ينجم من الأرض لا ساق له كالبقول ﴿ والشجر ﴾ الذي له ساق .

وقيل : النجم نجوم السماء ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ ينقادان لله تعالى فيما خلقا له تشبيهاً بالساجد من المكلفين في انقياده ، واتصلت هاتان الجملتان ب ﴿ الرحمن ﴾ بالوصل المعنوي لما علم أن الحسبان حسبانه والسجود له لا لغيره كأنه قيل : الشمس والقمر بحسبانه والنجم والشجر يسجدان له .

ولم يذكر العاطف في الجمل الأولى ثم جيء به بعد ، لأن الأولى وردت على سبيل التعديد تبكيتاً لمن أنكر آلاءه كما يبكت منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه في المثال

المذكور ، ثم رد الكلام إلى منهاجه بعد التبكيت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعطف .

(236/741)

وبيان التناسب أن الشمس والقمر سماويان والنجم والشجر أرضيان ، فبين القبيلين تناسب من حيث التقابل .

وإن السماء والأرض لا تزالان تذكران قرينتين وإن جري الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لأمر الله فهو مناسب لسجود النجم والشجر .

﴿ والسماء رَفَعَهَا ﴾ خلقها مرفوعة مسموكة حيث جعلها منشأ أحكامه ومصدر قضاياه ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه ، ونبه بذلك على كبرياء شأنه وملكه وسلطانه ﴿ وَوَضَعَ الميزان ﴾ أي كل ما توزن به الأشياء وتعرف مقاديرها من ميزان وقرسطون ومكيال ومقياس أي خلقه موضوعاً على الأرض حيث علق به أحكام عباده من التسوية والتعديل في أخذهم وإعطائهم ﴿ أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِى الميزان ﴾ لئلا تطغوا أو هي "أن" المفسرة ﴿ وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط ﴾ وقوموا وزنكم بالعدل ﴿ وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان ﴾ ولا تنقصوه أمر بالتسوية ونهى عن الطيغان الذي هو اعتداء وزيادة ، وعن

الخسران الذي هو تطفيف ونقصان ، وكرر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه ﴿ والأرض وَضَعَهَا ﴾ حفضها مدحوّة على الماء ﴿ لِلأَنَامِ ﴾ للخلق وهو كل ما على ظهر الأرض من دابة .

وعن الحسن : الإنس والجن فهي كالمهاد لهم يتصرفون فوقها ﴿ فِيهَا فاكهة ﴾ ضروب مما يتفكه به ﴿ والنخل ذَاتُ الأكمام ﴾ هي أوعية الثمر الواحد "كم" بكسر الكاف أو كل ما يكم أي يغطى من ليفه وسعفه وكفراه ، وكله منتفع به كما ينتفع بالمكموم من ثمره وجماره وجذوعه ﴿ والحب ذُو العصف ﴾ هو ورق الزرع أو التبن ﴿ والريحان ﴾ الرزق وهو اللب أراد فيها ما يتلذذ به من الفواكه ، والجامع بين التلذذ والتغذي هو ثمر النخل وما يتغذى به وهو الحب .

﴿ والريحان ﴾ بالجر : حمزة وعلي أي والحب ذو العصف الذي هو علف الأنعام والريحان الذي هو مطعم الأنام ، والرفع على و "ذو الريحان" فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

وقيل : معناه وفيها الريحان الذي يشم ﴿ والحب ذَا العصف والريحان ﴾ شامي أي وخلق الحب والريحان أو وأخص الحب والريحان ﴿ فَبِأَيّ الاء ﴾ أي النعم مما عدد من أول السورة جمع ألى وإلى ﴿ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ الخطاب للثقلين بدلالة الأنام عليهما .

﴿ خَلَقَ الإنسان مِن صلصال ﴾ طين يابس له صلصلة ﴿ كالفخار ﴾ أي الطين المطبوخ بالنار وهو الخذف .

ولا اختلاف في هذا وفي قوله ﴿ مّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : 26] ﴿ مّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴾ [الصافات : 11] ﴿ مّن تُرَابٍ ﴾ [غافر : 67] لاتفاقها معنى لأنه يفيد أنه خلقه من تراب ثم جعله طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم صلصالاً ﴿ وَخَلَقَ الجان ﴾ أبا الجن قيل : هو إبليس ﴿ مِن مَّارِجٍ ﴾ هو اللهب الصافي الذي لا دخان فيه .

وقيل : المختلط بسواد النار من مرج الشيء إذا اضطرب واختلط ﴿ مّن نَّارٍ ﴾ هو بيان لمارج كأنه قيل : من صاف من نار أو مختلط من نار ، أو أراد من نار مخصوصة كقوله ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تلظى ﴾ [الليل : 14] ﴿ فَبِأَيّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ أراد مشرقي الشمس في الصيف والشتاء ومغربيهما .

﴿ فَبِأَيّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ ﴾ أي أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقيين لا فصل بين الماءين في مرأى العين ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ حاجز من قدرة الله تعالى ﴿ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ لا يتجاوزان حديهما ولا يبغي أحدهما على الآخر

بالممازجة ﴿ فَبِأَيِّ الاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَخْرُجُ ﴾ ﴿ يَخْرُجُ ﴾ مدني وبصري ﴿ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ ﴾ بلا همز : أبو بكر ويزيد وهو كبار الدر ﴿ وَالمَرْجَانُ ﴾ صغاره .

(238/741)

وإنما قال ﴿ مِنْهُمَا ﴾ وهما يخرجان من الملح لأنهما لما التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز أن يقال يخرجان منهما كما يقال يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر ولكن من بعضه وتقول : خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محاله .

وقيل : لا يخرجان إلا من ملتقى الملح والعذب ﴿ فَبِأَيِّ الاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿ وَلَهُ ﴾ ولله ﴿ الجوار ﴾ السفن جمع جارية .

قال الزجاج : الوقف عليها بالياء والاختيار وصلها ، وإن وقف عليها واقف بغير ياء فذا جائز على بعد ولكن يروم الكسر في الراء ليدل على حذف الياء ﴿ المنشآت ﴾ المرفوعات الشرع ﴿ المنشآت ﴾ بكسر الشين ، حمزة ويحيى الرافعات الشرع أو اللاتي ينشئن الأمواج بجريهن ﴿ فِى البحر كالأعلام ﴾ جمع علم وهو الجبل الطويل ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا ﴾ على الأرض ﴿ فَانٍ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ ذاته ﴿ ذُو الجلال ﴾ ذو العظمة والسلطان وهو صفة الوجه ﴿ والإكرام ﴾ بالتجاوز

والإحسان ، وهذه الصفة من عظيم صفات الله وفي الحديث " ألظوا بياذا الجلال والإكرام " وروي أنه عليه السلام مر برجل وهو يصلي ويقول يا ذا الجلال والإكرام فقال : قد استجيب لك .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ والنعمة في الفناء باعتبار أن المؤمنين به يصلون إلى النعيم السرمد .

وقال يحيى بن معاذ : حبذا الموت فهو الذي يقرب الحبيب إلى الحبيب .

﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِى السماوات والأرض ﴾ وقف عليها نافع كل من أهل السماوات والأرض مفتقرون إليه فيسأله أهل السماوات ما يتعلق بدينهم وأهل الأرض ما يتعلق بدينهم ودنياهم ، وينتصب ﴿ كُلَّ يَوْمٍ ﴾ ظرفاً بما دل عليه ﴿ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ أي كل وقت وحين يحدث أموراً ويجدد أحوالاً كما روي أنه عليه السلام تلاها فقيل له : وما ذلك الشأن ؟ فقال : من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين .

(239/741)

وعن ابن عيينة : الدهر عند الله يومان : أحدهما اليوم الذي هو مدة الدنيا فشأنه فيه الأمر والنهي والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع ، والآخر يوم القيامة فشأنه فيه الجزاء

والحساب .

وقيل : نزلت في اليهود حين قالوا : إن الله لا يقضي يوم السبت شأناً .

وسأل بعض الملوك وزيره عن الآية فاستمهله إلى الغد وذهب كئيباً يفكر فيها فقال غلام له أسود : يا مولاي أخبرني ما أصابك لعل الله يسهل لك على يدي فأخبره فقال : أنا أفسرها للملك فأعلمه فقال : أيها الملك شأن الله أنه يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ويشفي سقيماً ويسقم سليماً ، ويبتلي معافى ويعافي مبتلي ، ويعز ذليلاً ويذل عزيزاً ، ويفقر غنياً ويغني فقيراً .

فقال الأمير : أحسنت وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة فقال : يا مولاي هذا من شأن الله .

وقيل : سوق المقادير إلى المواقيت .

وقيل : إن عبد الله بن طاهر دعا الحسين بن الفضل وقال له : أشكلت عليّ ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لي : قوله ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النادمين ﴾ وقد صح أن الندم توبة ، وقوله ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ وقد صح أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وقوله ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإنسان إِلاَّ مَا سعى ﴾ فما بال الأضعاف ؟ فقال الحسين : يجوز أن لا يكون الندم توبة في تلك الأمة ، وقيل : إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ولكن على حمله .

وكذا قيل : وأن ليس للإنسان إلا ما سعى مخصوص بقوم إبراهيم وموسى عليهما السلام .

وأما قوله ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ فإنها شؤون يبديها لا شؤون يبتديها .

فقام عبد الله وقبل رأسه وسوع خراجه ﴿ فَبِأَىِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ مستعار من قول الرجل لمن يتهدده "سأفرغ لك" يريد سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلني عنه ، والمراد التوفر على النكاية فيه والانتقام منه .

(240/741)

ويجوز أن يراد ستنتهي الدنيا وتبلغ آخرها وتنتهي عند ذلك شئون الخلق التي أرادها بقوله ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ فلا يبقى إلي شأن واحد وهو جزاؤكم فجعل ذلك فراغاً لهم على طريق المثل .

﴿ سيفرغ ﴾ حمزة وعلي أي الله تعالى ﴿ أَيُّه الثقلان ﴾ الإنس والجن سميا بذلك لأنهما ثقلا الأرض .

﴿ فَبِأَىِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿ يامعشر الجن والإنس ﴾ هو كالترجمة لقوله ﴿ أَيُّهَا الثقلان ﴾ ﴿ إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أقطار السماوات والأرض فانفذوا ﴾ أي إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السماوات والأرض هرباً من قضائي فاخرجوا ، ثم قال ﴿ لاَ تَنفُذُونَ ﴾ لا تقدرون على

النفوذ ﴿ إِلاَّ بسلطان ﴾ بقوة وقهر وغلبة وأنى لكم ذلك ؟ وقيل : دلهم على العجز عن قوتهم للحساب غداً بالعجز عن نفوذ الأقطار اليوم .

وقيل : يقال لهم هذا يوم القيامة حين تحدق بهم الملائكة فإذا رآهم الجن والإنس هربوا فلا يأتون وجهاً إلا وجدوا الملائكة احتاطت به ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ﴾ وبكسر الشين : مكي وكلاهما اللهب الخالص ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ أي دخان ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ مكي وأبو عمرو فالرفع عطف على شواظ ، والجر على نار ، والمعنى إذا خرجتم من قبوركم يرسل عليكما لهب خالص من النار ودخان يسوقكم إلى المحشر ﴿ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ﴾ فلا تمتنعان منهما ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فَإِذَا انشقت السماء ﴾ انفك بعضها من بعض لقيام الساعة ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ فصارت كلون الورد الأحمر .

وقيل : أصل لون السماء الحمرة ولكن من بعدها ترى زرقاء ﴿ كالدهان ﴾ كدهن الزيت كما قال ﴿ كالمهل ﴾ [المعارج : 8] وهو دردي الزيت وهو جمع دهن وقيل : الدهان الأديم الأحمر ﴿ فبأيّ ءالآ

ءربّكما تكذّبان فيومئذٍ ﴾ أي فيوم تنشق السماء ﴿ لاَّ يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴾ أي ولا جن فوضع الجان الذي هو أبو الجن موضع الجن كما يقال : هاشم ويراد ولده والتقدير : لا يسئل إنس ولا جان عن ذنبه .

والتوفيق بين هذه الآية وبين قوله ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 92] وقوله ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات : 24] أن ذلك يوم طويل وفيه مواطن فيسألون في موطن ولا يسألون في آخر .

وقال قتادة : قد كانت مسئلة ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون .

وقيل : لا يسئل عن ذنبه ليعلم من جهته ولكن يسئل للتوبيخ .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم ﴾ بسواد وجوههم وزرقة عيونهم ﴿ فَيُؤْخَذُ بالنواصى والاقدام ﴾ أي يؤخذ تارة بالنواصي وتارة بالأقدام .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

﴿ هذه جَهَنَّمُ التى يُكَذِّبُ بِهَا المجرمون يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءانٍ ﴾ ماء حار قد انتهى حره أي يعاقب عليهم بين التصلية بالنار وبين شرب الحميم ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ والنعمة في هذا نجاة الناجي منه بفضله ورحمته وما في الإنذار به من التنبيه ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب يوم القيامة فترك المعاصي أو

فأدى الفرائض .

وقيل : هو مقحم كقوله : ونفيت عنه مقام الذئب أي نفيت عنه الذئب ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ جنة الإنس وجنة الجن لأن الخطاب للثقلين وكأنه قيل : لكل خائفين منكما جنتان : جنة للخائف الإنسي وجنة للخائف الجني ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ أغصان جمع فنن وخص الأفنان لأنها هي التي تورق وتثمر ، فمنها تمتد الظلال ، ومنها تجتنى الثمار ، أو ألوان جمع فن أي له فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين قال :

ومن كل أفنان اللذاذة والصبا . . .

(242/741)

لهوت به والعيش أخضر ناضر

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا ﴾ في الجنتين ﴿ عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ حيث شاءوا في الأعالي والأسافل .

وعن الحسن : تجريان بالماء الزلال إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا مِن كُلِّ فاكهة زَوْجَانِ ﴾ صنفان : صنف معروف وصنف غريب ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَّكِئِينَ ﴾ نصب على المدح للخائفين أو حال منهم لأن من

خاف في معنى الجمع ﴿ عَلَى فُرُشٍ ﴾ جمع فراش ﴿ بَطَائِنُهَا ﴾ جمع بطانة ﴿ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ ديباج ثخين وهو معرب .

قيل : ظهائرها من سندس .

وقيل : لا يعلمها إلا الله ﴿ وَجَنَى الجنتين دَانٍ ﴾ وثمرها قريب يناله القائم والقاعد والمتكيء .

﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ ﴾ .

في الجنتين لاشتمالهما على أماكن وقصور ومجالس أو في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجني ﴿ قاصرات الطرف ﴾ نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ بكسر الميم : الدوري وعلي بضم الميم والطمث الجماع بالتدمية ﴿ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾ وهذا دليل على أن الجن يطمثون كما يطمث الإنس ﴿ فَبِأَيِّ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ كَأَنَّهُنَّ الياقوت ﴾ صفاء ﴿ وَالمَرْجَانُ ﴾ بياضاً فهو أبيض من اللؤلؤ ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هَلْ جَزَاء الإحسان ﴾ في العمل ﴿ إِلاَّ الإحسان ﴾ في الثواب وقيل : ما جزاء من قال لا إله إلا الله إلا الجنة .

وعن إبراهيم الخواص فيه : هل جزاء الإسلام إلا دار السلام .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ وَمِن دُونِهِمَا ﴾ ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للمقربين ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ لمن دونهم من أصحاب اليمين ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ سوداوان من شدة الخضرة قال الخليل الدهمة السواد ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ فوارتان بالماء لا تنقطعان ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ ﴾ ألوان الفواكه ﴿ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ والرمان والتمر ليسا من الفواكه عند أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه للعطف ، ولأن التمر فاكهة وغذاء والرمان فاكهة ودواء فلم يخلصا للتفكه ، وهما قالا : إنما عطفا على الفاكهة لفضلهما كأنهما جنسان آخران لما لهما من المزية كقوله

﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ [البقرة : 98] .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ أي خيرات فخففت وقرىء خيّرات على الأصل ، والمعنى فاضلات الأخلاق حسان الخلق ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ حُورٌ مقصورات فِى الخيام ﴾ أي مخدرات يقال : امرأة قصيرة ومقصورة أي مخدرة .

قيل : الخيام من الدر المجوف ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ ﴾ قبل أصحاب الجنتين ودل عليهم ذكر الجنتين ﴿ وَلاَ جَآنٌّ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَّكِئِينَ

﴿ نصب على الاختصاص ﴿ على رَفْرَفٍ ﴾ هو كل ثوب عريض وقيل الوسائد ﴿ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيّ حِسَانٍ ﴾ ديباج أو طنافس ﴿ فَبِأَيّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ وإنما تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأوليين حتى قيل ﴿ وَمِن دُونِهِمَا ﴾ لأن ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ دون ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ و ﴿ نَضَّاخَتَانِ ﴾ دون ﴿ تَجْرِيَانِ ﴾ و ﴿ فاكهة ﴾ دون كل فاكهة وكذلك صفة الحور والمتكأ ﴿ تبارك اسم رَبّكَ ذِى الجلال ﴾ ذي العظمة .

(244/741)

﴿ ذُو الجلال ﴾ شامي صفة للاسم ﴿ والإكرام ﴾ لأوليائه بالإنعام .

روى جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورة الرحمن فقال : " مالي أراكم سكوتاً ، الجن كانوا أحسن منكم رداً ما أتيت على قول الله ﴿ فَبِأَيّ ءالاء رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ إلا قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد ولك الشكر " وكررت هذه الآية في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة ، ذكر ثمانية منها عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم ، ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على عدد أبواب جهنم ، وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنتين وأهلهما على عدد

أبواب الجنة ، وثمانية أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما ، فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها فتحت له أبواب الجنة وأغلقت عنه أبواب جهنم نعوذ بالله منها .

والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 207.214 ﴾

(245/741)

وقال ابن جزى :

سورة الرحمن عز وجل

﴿ الرحمن * عَلَّمَ القرآن ﴾

هذا تعديد نعمة على من علمه الله القرآن ، وقيل : معنى علّم القرآن جعله علامة وآية لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . والأول أظهر وارتفع ﴿ الرحمن ﴾ بالابتداء ، والأفعال التي بعده أخبار متوالية ، ويدل على ذلك مجيئها بدون حرف عطف ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ قيل : جنس الناس وقيل يعني آدم وقيل : يعني سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا دليل على التخصيص . والأول أرجح ﴿ عَلَّمَهُ البيان ﴾ يعني النطق والكلام .

﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ أي يجريان في الفلك بحسبان معلوم وترتيب مقدر ، وفي

ذلك دليل على الصانع الحكيم المريد القدير .

﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ النجم عند ابن عباس النبات الذي لا ساق له كالبقول ، والشجر النبات الذي له ساق ، وقيل : النجم جنس نجوم السماء . والسجود عبارة عن التذلل والانقياد لله تعالى : وقيل : سجود الشمس : غروبها وسجود الشجر ظله .

﴿ وَوَضَعَ الميزان ﴾ يعني الميزان المعروف الذي يوزن به الطعام وغيره ، وكرر ذكره اهتماماً به وقيل : أراد العدل ﴿ وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان ﴾ أي لا تنقصوا إذا وزنتم .

﴿ لِلأَنَامِ ﴾ أي للناس وقيل : الإنس والجن وقيل : الحيوان كله . الأكمام : يحتمل أن يكون كم بالضم ، وهو ما يغطي ويلف النخل من الليف ، وبه شُبِّه كم القميص ، أو يكون جمع كِم بكسر الكاف وهو غلاف الثمرة .

﴿ العصف ﴾ ورق الزرع وقيل : التبن ﴿ والريحان ﴾ قيل هو الريحان المعروف ، وقيل : كل مشموم طيب الريح من النبات ، وقيل : هو الرزق .

(246/741)

﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الآلاء هي : النعم . واحدها إلى على وزن مِعْي . وقيل : ألى على وزن قضى . وقيل : أَلْيٌ على وزن أمد أو على وزن حصر ، والخطاب للقلين

الإنس والجن بدليل قوله : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثقلان ﴾ [الرحمن : 31] . روي أن هذه الآية لما قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت أصحابه فقال : جواب الجن خير من سكوتكم . إني لما قرأتها على الجن قالوا : لا نكذب بشيء من آلاء ربنا وكرر هذه الآية تأكيداً ومبالغة وقيل : إن كل موضع منها يرجع إلى معنى الآية التي قبله فليس بتأكيد ، لأن التأكيد لا يزيد على ثلاث مرات .

﴿ خَلَقَ الإنسان مِن صَلْصَالٍ كالفخار ﴾ الإنسان هو آدم ، والصلصال الطين اليابس ، فإذا طبخ فهو فخار ﴿ وَخَلَقَ الجآن مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ الجان الجن يعني إبليس والد الجن ، والمارج اللهيب المضطرب من النار .

﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ يريد مشرق الشمس والقمر ومغرب الشمس والقمر . وقيل : مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما .

﴿ مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ ﴾ ذكر في الفرقان ، أي يلتقي ماء هذا وماء هذا ، وذلك إذ نزل المطر في البحر على القول بأن البحر العذب هو المطر ، وأما على القول بأن البحر العذب هو الأنهار والعيون ، فالتقاؤهما بانصباب الأنهار في البحر ، وأما على قول من قال إن البحرين بحر فارس وبحر الروم ، أو بحر القلزم الأحمر واليمن فضعيف لقوله في [الفرقان : 53] ﴿ هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ وكل واحد من هذه أجاج ، والمراد بالبحرين في هذه السورة ما أراد في الفرقان ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ أي حاجز يعني جرم الأرض ، أو حاجز

من قدرة الله ﴿ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ أي لا يبغي أحدهما على الآخر بالاختلاط ، وقيل : لا يبغيان على الناس بالفيض .

(247/741)

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ اللؤلؤ كبار الجوهر والمرجان صغاره ، وقيل : بالعكس وقيل : إن المرجان أحجار حمر ، قال ابن عطية : وهذا هو الصواب وأما قوله منهما ولا يخرج إلا من أحدهما ، فقد تكلمنا عليه في فاطر .

﴿ وَلَهُ الجوار المنشئات فِي البحر كالأعلام ﴾ يعني السفن وسماها منشآت لأن الناس ينشؤونها ، وقرأ حمزة وأبو بكر المنشِئات بكسر الشين بمعنى أنها تنشىء السير او تنشئ الموج ، والأعلام الجبال شبه السفن بها .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ الضمير في عليها للأرض يدل على ذلك سياق الكلام وإن لم يتقدم لها ذكر ، ويعني بمن عليها من بني آدم وغيرهم من الحيوان ، ولكنه غلّب العقلاء ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام ﴾ الوجه هنا عبارة عن الذات ، وذو الجلال صفة للذات لأن من أسمائه تعالى الجليل ، ومعناه يقرب من معنى العظيم ، وأما وصفه بالإكرام فيحتمل أن يكون بمعنى أنه يكرم عباده كما قال في [الإسراء : 70] ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ ﴾

أو بمعنى أن عباده يكرمونه بتوحيده وتسبيحه وعبادته .

﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السماوات والأرض ﴾ المعنى أن كل من في السموات والأرض يسأل حاجته من الله ، فمنهم من يسأله بلسان المقال ، وهم المؤمنون ، ومنهم من يسأله بلسان الحال لافتقار الجميع إليه ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ المعنى أنه تعالى يتصرف في ملكوته تصرفاً يظهر في كل يوم من العطاء والمنع ، والإماتة والإحياء وغير ذلك وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها فقيل له وما ذلك الشأن ، قال من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين وسئل بعضهم . كيف قال : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ والقلم قد جف بما هو كائن إلى يوم القيامة ؟ فقال : هو في شأن يبديه لا في شأن يتديه .

(248/741)

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثقلان ﴾ معناه الوعيد كقولك لمن تهدده : سأفرغ لعقوبتك ، وليس المراد التفرغ من شغل ، ويحتمل أن يريد انتهاء مدة الدنيا ، وإنه حينئذ ينقضي شأنها ، فلا يبقى إلا شأن الآخرة فعبَّر عن ذلك بالتفرغ . قال الإمام جعفر بن محمد : سمى الإنس والجن ثقلين ، كأنهما ثقلا بالذنوب .

﴿ إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السماوات والأرض فانفذوا ﴾ هذا كلام يقال للجن

والإنس يوم القيامة أي : إن قدرتم على الهروب والخروج من أقطار السموات والأرض فافعلوا ، ورُوي أنهم يفرون يومئذ لما يرون من أهوال القيامة فيجدون سبعة صفوف من الملائكة ، قد أحاطت بالأرض فيرجعون ، وقيل : بل خوطبوا بذلك في الدنيا ؛ والمعنى : إن استطعتم الخروج عن قهر الله وقضائه عليكم فافعلوا ، وقوله : ﴿ فانفذوا ﴾ أمر يراد به التعجيز ﴿ لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ أي لا تقدرون على النفوذ إلا بقوة ، وليس لكم قوة .

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ الشواظ لهيب النار ، والنحاس الدخان وقيل : هو الصفر يذاب ويصب على رؤوسهم وقرئ شواظ بضم الشين وابن كثير بكسرها وهما لغتان وقرئ نحاس بالرفع على شواظ وبالخفض عطف على نار .

﴿ فَإِذَا انشقت السمآء ﴾ جواب ﴿ إِذَا ﴾ قوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ وقال ابن عطية : جوابها محذوف ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كالدهان ﴾ معنى وردة حمراء كالوردة ، وقيل : هو من الفرس الورد ، قال قتادة السماء اليوم خضراء ويوم القيامة حمراء ، والدهان جمع دهن كالزيت وشبهه شبه السماء يوم القيامة به لأنها تذاب من شدّة الهول ، وقيل : يشبه لمعانها بلمعان الدهن ، وقيل : إن الدهان هو الجلد الأحمر .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ السؤال المنفي هنا هو على وجه الاستخبار وطلب المغفرة إذ لا يحتاج إلى ذلك ، لأن المجرمين يعرفون بسيماهم ، ولأن أعمالهم معلومة عند الله مكتوبة في صفائحهم ، وأما السؤال الثابت في قوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 92] وغيره ، فهو سؤال على وجه الحساب والتوبيخ ، فلا تعارض بين المنفي والمثبت وقيل : إن ذلك باختلاف المواطن والأول أحسن .

﴿ يُعْرَفُ المجرمون بِسِيمَاهُمْ ﴾ يعني بعلامتهم وهي سواد الوجوه وغير ذلك والمجرمون هنا الكفار بدليل قوله : ﴿ هذه جَهَنَّمُ التي يُكَذِّبُ بِهَا المجرمون ﴾ ﴿ فَيُؤْخَذُ بالنواصي والأقدام ﴾ قيل : معناه : يؤخذ بعض الكفار بناصيته وبعضهم بقدميه ، وقيل : بل يؤخذ كل واحد بناصيته وقدميه فيطوى ويطرح في النار .

﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ الحميم الماء السخن ، والآن الشديد الحرارة ، وقيل : الحاضر من قولك آن الشيء إذا حضر ، والأول أظهر .

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ مقام ربه القيام بين يديه للحساب ، ومنه : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الناس لِرَبِّ العالمين ﴾ [المطففين : 6] ، وقيل : الله بأعماله ، ومنه : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : 33] ، وقيل : معناه لمن خاف ربه واقحم المقام ، كقولك : خفت جانب فلان ، واختلف هل الجنتان لكل خائف على انفراده ؟ أو للصنف

الخائف وذلك مبنى على قوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ هل يراد به واحد أو جماعة ؟ وقال الزمخشري : إنما قال جنتان ، لأنه خاطب الثقلين فكأنه قال جنة للإنس وجنة للجن ، ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ ثنى ذات هنا على الأصل لأن أصله ذوات ، قاله ابن عطية ، والأفنان جمع فنن وهو الغصن ، أو جمع فن وهو الصنف من الفواكة وغيرها .

(250/741)

﴿ مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ أي نوعان ﴿ وَجَنَى الجنتين دَانٍ ﴾ الجنا هو ما يجتنى من الثمار ، ودان قريب ، ورُوي أن الإنسان يجتنى الفاكهة في الجنة على أي حال كان ؛ من قيام أو قعود أو اضطجاع ؛ لأنها تتدلى له إذا أرادها وفي قوله ﴿ وَجَنَى الجنتين ﴾ ضرب من ضروب التجنس .

﴿ قَاصِرَاتُ الطرف ﴾ ذكر في [الصافات : 48] ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ المعنى أنه أبكار ، ولم يطمئن معناه لم يفتضهن ، وقيل : الطمث الجماع سواء كان لبكر أو غيرها ، ونفي أن يطمثهن إنس أو جان ، مبالغة وقصداً للعموم ، فكأنه قال لم يطمثهن شيء ، وقيل : أراد لم يطمث نساء الإنس إنس ولم يطمث نساء الجن جن ، وهذا القول يفيد بأن

الجن يدخلون الجنة ويتلذذون فيها بما يتلذذ البشر ﴿ كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان ﴾ شبه النساء بالياقوت والمرجان في الحمرة والجمال ، وقد ذكرنا المرجان في أول السورة .

(251/741)

﴿ هَلْ جَزَآءُ الإحسان إِلاَّ الإحسان ﴾ المعنى أن جزاء من أحسن بطاعة الله أن يحسن الله إليه بالجنة ، ويحتمل أن يكون الإحسان هنا هو الذي سأل عنه جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " ، وذلك هو مقام المراقبة والمشاهدة ، فجعل جزاء ذلك الإحسان بهاتين الجنتين ، ويقوي هذا أنه جعل هاتين الجنتين الموصوفتين هنا لأهل المقام العلي ، وجعل جنتين دونها لمن كان دون ذلك ، فالجنتان المذكورتان أولاً للسابقين ، والجنتان المذكورتين ثانياً بعد ذلك لأصحاب اليمين حسبما ورد في الواقعة ، وانظر كيف جعل أوصاف هاتين الجنتين ، أعلى من أوصاف الجنتين اللتين بعدهما فقال هنا : عينان تجريان وقال في الآخرتين : عينان نضَّاحتان ، والجري أشد من النضح وقال هنالك : من كل فاكهة زوجان ، وقال هنا فاكهة ونخل ورمان ، وكذلك صفة الحور هنا أبلغ من صفتها هنالك ، وكذلك صفة البسط ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " جنتان من ذهب آنيتهما وكل ما فيهما ، وجنتان من فضة

آنيتهما وكل ما فيهما " .

﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ أي تضربان إلى السواد من شدة الخضرة .

﴿ عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أي تفوران بالماء والنضخ بالخاء المعجمة أشد من النضح بالحاء المهملة .

﴿ فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ خص النخل والرمان بالذكر بعد دخولهما في الفاكهة تشريفاً لهما ، وبياناً لفضلهما على سائر الفواكه . وهذا هو التجريد .

﴿ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ خيرات جمع خيرة وقال الزمخشري وغيره : أصله خيرات بالتشديد ثم خفف كمَيْت وقرئ بالتشديد ، قالت أم سلمة يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى : خيرات حسان قال : خيرات الأخلاق حسان الوجوه .

(252/741)

﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الخيام ﴾ الحور جمع الحَوراء : والمقصورات المحجوبات ، لأن النساء يمدحن بملازمة البيوت ويذممن بكثرة الخروج ، والخيام هي البيوت التي من الخشب والحشيش ونحو ذلك ، وخيام الجنة من اللؤلؤ .

﴿ مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ الرفرف البسط ، وقيل الوسائد وقيل رياض الجنة ﴾

وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ العبقري الطنافس ، وقيل الزرابي وقيل الديباج الغليظ ، وهو منسوب إلى عبقري وتزعم العرب أنه بلد الجن فإذا أعجبتها شيء نسبته إليه .

﴿ تَبَارَكَ اسم رَبِّكَ ﴾ ذكر تبارك في الفرقان وغيرها ، والاسم هنا يراد به المسمى على الأظهر ، وقرأ الجمهور ذي الجلال بالياء صفة لربك ، وقرأ ابن عامر بالواو صفة للاسم ، وقد ذكر معنى ذي الجلال والإكرام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 83 .

﴿ 87

(253/741)

وقال البيضاوى :

سورة الرحمن عز وجل

مكية او مدنية أو متبعضة وآيها ثمان وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرحمن عَلَّمَ القرءان ﴾

لما كانت السورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والآخروية صدرها ب ﴿ الرحمن ﴾ ، وقدم ما هو أصل النعم الدينية وأجلها وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه ، فإنه أساس

الدين ومنشأ الشرع وأعظم الوعي وأعز الكتب ، إذ هو بإعجازه واشتماله على خلاصتها مصدق لنفسه ومصداق لها ، ثم اتبعه قوله :

﴿ خَلَقَ الإنسان عَلَّمَهُ البيان ﴾ إيماء بأن خلق البشر وما يميز به عن سائر الحيوان من البيان ، وهو التعبير عما في الضمير وإفهام الغير لما أدركه لتلقي الوحي وتعرف الحق وتعلم الشرع ، وإخلاء الجمل الثلاث التي هي أخبار مترادفة ل ﴿ الرحمن ﴾ عن العاطف لمجيئها على نهج التعديد .

﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ يجريان بحساب معلوم مقدر في بروجهما ومنازلهما ، وتتسق بذلك أمور الكائنات السفلية وتختلف الفصول والأوقات ، ويعلم السنون والحساب .

﴿ والنجم ﴾ والنبات الذي ينجم أي يطلع من الأرض ولا ساق له . ﴿ والشجر ﴾ الذي له ساق . ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ ينقادان لله تعالى فيما يريد بهما طبعاً انقياد الساجد من المكلفين طوعاً ، وكان حق النظم في الجملتين أن يقال : وجرى الشمس والقمر ، وأسجد النجم والشجر . أو ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ ، والنجم والشجر يسجدان له ، ليطابقا ما قبلهما وما بعدهما في اتصالهما ب ﴿ الرحمن ﴾ ، لكنهما جردتا عما يدل على الاتصال إشعاراً بأن وضوحه يغنيه عن البيان ، وإدخال العاطف بينهما لاشتراكهما في الدلالة على أن ما يحس به من تغيرات أحوال الأجرام العلوية والسفلية بتقديره وتدبيره .

﴿ والسماء رَفَعَهَا ﴾ خلقها مرفوعة محلاً ومرتبة ، فإنها منشأ أقضيته ومتنزل أحكامه ومحل ملائكته ، وقرىء بالرفع على الابتداء . ﴿ وَوَضَعَ الميزان ﴾ العدل بأن وفر على كل مستعد مستحقه ، ووفى كل ذي حق حقه حتى انتظم أمر العالم واستقام كما قال عليه السلام " بالعدل قامت السموات والأرض " أو ما يعرف به مقادير الأشياء من ميزان ومكيال ونحوهما ، كأنه لما وصف السماء بالرفعة من حيث إنها مصدر القضايا والإقرار أراد وصف الأرض بما فيها مما يظهر به التفاوت ويعرف به المقدار ويسوى به الحقوق والمواجب .

﴿ أَلاَّ تطغَوْاْ فِى الميزان ﴾ لئلا تطغوا فيه أي لا تعتدوا ولا تجاوزوا الانصاف ، وقرىء "لا تطغوا" على إرادة القول .

﴿ وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان ﴾ ولا تنقصوه فإن من حقه أن يسوى لأنه المقصود من وضعه ، وتكريره مبالغة في التوصية به وزيادة حث على استعماله ، وقرىء "وَلاَ تُخْسِرُواْ" بفتح التاء وضم السين وكسرها ، و" تُخْسِرُواْ" بفتحها على أن الأصل ﴿ وَلاَ تُخْسِرُواْ ﴾ في ﴿ الميزان ﴾ فحذف الجار وأوصل الفعل .

﴿ والأرض وَضَعَهَا ﴾ خفضها مدحوة. ﴿ لِلأَنَامِ ﴾ للخلق. وقيل الأنام كل ذي روح.

﴿ فِيهَا فاكهة ﴾ ضروب مما يتفكه به. ﴿ والنخل ذَاتُ الأكمام ﴾ أوعية التمر جمع كم ، أو كل ما يكم أي يغطى من ليف وسعف وكفري فإنه ينتفع به كالمكموم كالجذع والجمار والتمر.

﴿ والحب ذُو العصف ﴾ كالحنطة والشعير وسائر ما يتغذى به ، و﴿ العصف ﴾ ورق النبات اليابس كالتين. ﴿ والريحان ﴾ يعني المشموم ، أو الرزق من قولهم : خرجت أطلب ريحان الله ، وقرأ ابن عامر "والحب ذا العصف والريحان" أي وخلق الحب والريحان أو وأخص ، ويجوز أن يراد وذا الريحان فحذف المضاف ، وقرأ حمزة والكسائي "والريحان" بالخفض ما عدا ذلك بالرفع ، وهو فيعلان من الروح فقلبت الواو ياء وأدغم ثم خفف ، وقيل "روحان" فقلبت واوه ياء للتخفيف.

(255/741)

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله : ﴿ لِلأَنَامِ ﴾ وقوله : ﴿ أَيُّهَا الثقلان ﴾ .

﴿ خَلَقَ الإنسان مِن صلصال كالفخار ﴾ الصلصال الطين اليابس الذي له صلصلة ، والفخار الخزف وقد خلق الله آدم من تراب جعله طيناً ثم حمأ مسنوناً ، ثم صلصالاً فلا يخالف ذلك قوله خلقه من تراب ونحوه .

﴿ وَخَلَقَ الجان ﴾ الجن أو أبا الجن . ﴿ مِن مَّارِجٍ ﴾ من صاف من الدخان . ﴿ مّن نَّارٍ ﴾ بيان ل ﴿ مَّارِجٍ ﴾ فإنه في الأصل للمضطرب من مرج إذ اضطرب .

﴿ فَبِأَيّ ءَالاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ مما أفاض عليكما في أطوار خلقتكما حتى صيركما أفضل المركبات وخلاصة الكائنات .

﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ مشرقي الشتاء والصيف ومغربيهما .

﴿ فَبِأَيّ ءَالاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ مما في ذلك من الفوائد التي لا تحصى ، كاعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل فيه إلى غير ذلك .

﴿ مَرَجَ البحرين ﴾ أرسلهما من مرجت الدابة إذا أرسلتها ، والمعنى أرسل البحر الملح والبحر العذب . ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ يتجاوران ويتماس سطوحهما ، أو بحري فارس والروم يلتقيان في المحيط لأنهما خليجان يتشعبان منه .

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ حاجز من قدرة الله تعالى أو من الأرض . ﴿ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ لا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال الخاصية ، أو لا يتجاوزان حديهما بإغراق ما بينهما .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانِ ﴾ كبار الدر وصغاره ، وقيل المرجان الخرز الأحمر ، وإن صح أن الدر يخرج من الملح فعلى الأول إنما قال منهما لأنه مخرج من مجتمع الملح والعذب ، أو لأنهما لما اجتمعا صارا كالشيء الواحد فكأن المخرج من أحدهما كالمخرج منهما . وقرأ نافع وأبو عمرو ويعقوب ﴿ يَخْرُجُ ﴾ ، وقرىء "نُخْرِجُ" و"يَخْرُجُ" بنصب ﴿ اللُّؤْلُؤَ وَالمَرْجَانَ ﴾ .

(256/741)

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ وَلَهُ الجوار ﴾ أي السفن جمع جارية ، وقرىء بحذف الياء ورفع الراء كقوله :

لَهَا ثَنَايَا أَرْبَعٌ حِسَانٌ @ وَأَرْبَعٌ فَكُلُّهَا ثَمَانِ . . . . ﴿ المُنْشَآتُ ﴾ المرفوعات الشرع ، أو المصنوعات وقرأ حمزة وأبو بكر بكسر الشين أي الرافعات الشرع ، أو اللاتي ينشئن الأمواج أو السير . ﴿ فِى البحر كالأعلام ﴾ كالجبال جمع علم وهو الجبل الطويل .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من خلق مواد السفن والإِرشاد إلى أخذها وكيفية تركيبها وإجرائها في البحر بأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها غيره .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا ﴾ من على الأرض من الحيوانات أو المركبات و ﴿ مِنْ ﴾ للتغليب ، أو

من الثقلين . ﴿ فَانٍ ويبقى وَجْهُ رَبّكَ ﴾ ذاته ولو استقريت جهات الموجودات وتفحصت وجوهها وجدتها بأسرها فانية في حد ذاتها إلا وجه الله أي الوجه الذي يلي جهته . ﴿ ذُو الجلال والإكرام ﴾ ذو الاستغناء المطلق والفضل العام .

﴿ فَبِأَيّ ءَالاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ أي مما ذكرنا قبل من بقاء الرب وإبقاء ما لا يحصى مما هو على صدد الفناء رحمة وفضلاً ، أو مما يترتب على فناء الكل من الإعادة والحياة الدائمة والنعيم المقيم .

﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِى السموات والأرض ﴾ فإنهم مفتقرون إليه في ذواتهم وصفاتهم وسائر ما يهمهم ، ويعن لهم المراد بالسؤال ما يدل على الحاجة إلى تحصيل الشيء في ذواتهم وصفاتهم نطقاً كان أو غيره . ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ كل وقت يحدث أشخاصاً ويجدد أحوالاً على ما سبق به قضاؤه ، وفي الحديث " من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين " وهو رد لقول اليهود إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً .

﴿ فَبِأَيّ ءَالاءِ رَبّكُمَا تُكَذّبَانِ ﴾ أي مما يسعف به سؤالكما وما يخرج لكما من مكمن العدم حيناً فحيناً .

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثقلان ﴾ آي سنتجرد لحسابكم وجزائكم وذلك يوم القيامة ، فإنه تعالى لا يفعل فيه غيره وقيل تهديد مستعار من قولك لمن تهدده سأفرغ لك ، فإن المتجرد للشيء كان أقوى عليه وأجد فيه ، وقرأ حمزة والكسائي بالياء وقريء "سنفرغ إليكم" أي سنقصد إليكم . و﴿ الثقلان ﴾ الإنس والجن سميا بذلك لثقلهما على الأرض أو لرزانة رأيهما وقدرهما ، أو لأنهما مثقلان بالتكليف .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من الله فارين من قضائه . ﴿ فانفذوا ﴾ فاخرجوا . ﴿ لاَ تَنفُذُونَ ﴾ لا تقدرون على النفوذ . ﴿ إِلاَّ بسلطان ﴾ إلا بقوة وقهر وأنى لكم ذلك ، أو إن قدرتم أن تنفذوا لتعلموا ما في السموات والأرض ﴿ فانفذوا ﴾ لتعلموا لكن ﴿ لاَ تَنفُذُونَ ﴾ ولا تعلمون إلا ببينة نصبها الله تعالى فتعرجون عليها بأفكاركم .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة ، أو مما نصب من المصاعد العقلية والمعارج النقلية فتنفذون بها إلى ما فوق السموات العلا .

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ ﴾ لهب . ﴿ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ ودخان قال :

تُضِيءُ كَضَوْءِ السِرَاجِ السَّلِي . . . طِ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ فِيهِ نُحَاساً

أو صفر مذاب يصب على رؤوسهم ، وقرأ ابن كثير " شوَاظٌ " بالكسر وهو لغة " ونُحَاس " بالجر عطفاً على ﴿ نَّارٍ ﴾ ، ووافقه فيه أبو عمرو ويعقوب في رواية ، وقرىء " ونحس " وهو جمع كلحف . ﴿ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ﴾ فلا تمتنعان .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإن التهديد لطف والتمييز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار في عداد الآلاء .

(258/741)

﴿ فَإِذَا انشقت السماء فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ أي حمراء كوردة وقرئت بالرفع على كان التامة فيكون من باب التجريد كقوله :

وَلَئِنْ بَقِيتُ لأَرْحَلَنَّ بِغَزْوَةٍ . . . تَحْوِي الغَنَائِمَ أَوْ يَمُوتَ كَرِيمُ

﴿ كالدهان ﴾ وهو اسم لما يدهن به كالحزام ، أو جمع دهن وقيل هو الأديم الأحمر .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي مما يكون بعد ذلك .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي فيوم تنشق السماء . ﴿ لاَّ يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم وذلك حين ما يخرجون من قبورهم ويحشرون إلى الموقف ذوداً ذوداً على اختلاف مراتبهم ، وأما قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ ﴾ ونحوه فحين يحاسبون

في المجمع ، والهاء للإنس باعتبار اللفظ فإنه وإن تأخر لفظاً تقدم رتبة .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي مما أنعم الله على عباده المؤمنين في هذا اليوم .

﴿ يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم ﴾ وهو ما يعلوهم من الكآبة والحزن . ﴿ فَيُؤْخَذُ بالنواصى والأقدام ﴾ مجموعاً بينهما ، وقيل يؤخذون ﴿ بالنواصى ﴾ تارة وب ﴿ الأقدام ﴾ أخرى .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هذه جَهَنَّمُ التى يُكَذِّبُ بِهَا المجرمون يَطُوفُونَ بَيْنَهَا ﴾ بين النار يحرقون بها . ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ ﴾ ماء حار . ﴿ آنٍ ﴾ بلغ النهاية في الحرارة يصب عليهم ، أو يسقون منه ، وقيل إذا استغاثوا من النار أغيثوا بالحميم .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب ، أو قيامه على أحواله من قام عليه إذا راقبه ، أو مقام الخائف عند ربه للحساب بأحد المعنيين فأضيف إلى الرب تفخيماً وتهويلاً ، أو ربه و ﴿ مَّقَامِ ﴾ مفخم للمبالغة كقوله :

ذَعَرَتْ بِهِ القَطَا وَنَفَيْتُ عَنْهُ @ مَقَامَ الذِّئْبِ كَالرَّجُلِ اللَّعِينِ . . . ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ جنة للخائف الإنسي والأخرى للخائف الجني ، فإن الخطاب للفريقين والمعنى لكل خائفين منكما أو لكل واحد جنة لعقيدته وأخرى لعمله ، أو جنة لفعل الطاعات وأخرى لترك المعاصي ، أو جنة يثاب بها وأخرى يتفضل بها عليه ، أو روحانية وجسمانية وكذا ما جاء مثنى بعد .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ أنواع من الأشجار والثمار جمع فِنْ ، أو أغصان جمع فنن وهي الغصنة التي تتشعب من فرع الشجرة ، وتخصيصها بالذكر لأنها التي تورق وتثمر وتمد الظل .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ حيث شاؤوا في الأعالي والأسافل . قيل إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل . ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ صنفان غريب ومعروف ، أو رطب ويابس .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ من ديباج ثخين وإذا كانت البطائن كذلك فما ظنك بالظهائر ، و﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ مدح للخائفين أو حال منهم ، لأن من خاف في معنى الجمع . ﴿ وَجَنَى الجنتين دَانٍ ﴾ قريب يناله القاعد والمضطجع ، ﴿ وَجَنَى ﴾ اسم بمعنى مجني وقرىء بكسر الجيم .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ ﴾ في الجنان فإن جنتان تدل على جنان هي للخائفين أو فيما فيهما من الأماكن والقصور ، أو في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش . ﴿ قاصرات الطرف ﴾ نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن . ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾ لم يمس الإنسيات إنس ولا الجنيات جن ، وفيه دليل على أن الجن يطمثون . وقرأ الكسائي بضم الميم . ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

(260/741)

﴿ كَأَنَّهُنَّ الياقوت والمرجان ﴾ أي حمرة الوجنة وبياض البشرة وصفائهما .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هَلْ جَزَاء الإحسان ﴾ في العمل . ﴿ إِلاَّ الإحسان ﴾ في الثواب وهو الجنة .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للخائفين المقربين ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ لمن دونهم من أصحاب اليمين .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة ، وفيه إشعار بأن الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض ، وعلى الأوليين الأشجار والفواكه دلالة على ما بينهما من التفاوت ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ فوارتان بالماء هو أيضاً أقل مما وصف به الأوليين وكذا ما بعده .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا فاكهة وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ عطفهما على الفاكهة بياناً لفضلهما ، فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاء وثمرة الرمان فاكهة ودواء ، واحتج به أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه على أن من حلف لا يأكل فاكهة فأكل رطباً أو رماناً لم يحنث . ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿ فِيهِنَّ خيرات ﴾ أي خيرات فخففت لأن خيراً الذي بمعنى أخير لا يجمع ، وقد قرىء على الأصل . ﴿ حِسَانٌ ﴾ حسان الخَلْقِ وَالخُلُقِ .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ حُورٌ مقصورات فِى الخيام ﴾ قصرن في خدورهن ، يقال امرأة قصيرة وقصورة ومقصورة أي مخدرة ، أو مقصورات الطرف على أزواجهن .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾ كحور الأولين وهم أصحاب الجنتين فإنهما يدلان عليهم .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ ﴾ وسائد أو نمارق جمع رفرفة . وقيل الرفرف ضرب من البسط أو ذيل الخيمة وقد يقال لكل ثوب عريض . ﴿ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيّ حِسَانٍ ﴾ العبقري منسوب إلى عبقر ، تزعم العرب أنه اسم بلد للجن فينسبون إليه كل شيء عجيب ، والمراد به الجنس ولذلك جمع ﴿ حِسَانٌ ﴾ حملاً على المعنى .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ تبارك اسم رَبِّكَ ﴾ تعالى اسمه من حيث إنه مطلق على ذاته فما ظنك لذاته ، وقيل الإِسم بمعنى الصفة أو مقحم كما في قوله :

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلاَمِ عَلَيْكُمَا . . . ﴿ ذِي الجلال والإكرام ﴾ وقرأ ابن عامر بالرفع صفة للاسم .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الرحمن أدى شكر ما أنعم الله تعالى عليه " .

(1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 272.282 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) ﴾

التفسير : افتتح السورة المتقدمة بذكر معجزة تدل على الهيبة والعظمة وهي انشقاق القمر . وافتتح هذه السورة بذكر معجزة تدل على الرحمة والعناية وهي القرآن الكريم الذي فيه شفاء القلوب والطهارة عن الذنوب ، وهو أسبق الآلاء قدماً وأجل النعماء منصباً . وبين السورتين مناسبة أخرى من جهة أنه ذكر هناك ما يدل على الانتقام والغضب كقوله ﴿ فذوقوا عذابي ونذر ﴾ [القمر : 39] وقوله ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ [القمر : 21] وذكر في هذه السورة بعد تعداد كل نعمة ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ مرة بعد مرة وتذكير النعمة على نعمة لأنها مما توقظ الوسنان وتنبه أهل الغفلة والنسيان . قال جار الله ﴿ الرحمن ﴾ مبتدأ والأفعال بعده مع ضمائرها أخبار مترادفة ، وإخلاؤها عن العاطف إما لأن العائد قام مقام الصدر وإما لمجيئها على نمط التعديد كما تقول : زيد أغناك بعد فقر أعزك بعد ذل كثرك بعد بعد قلة فعل بك ما لم يفعله أحد بأحد فما تنكر من إحسانه . قلت : فعلى هذا لو لم يوقف على ﴿ القرآن ﴾ جاز . وقيل : الرحمن خبر مبتدأ أي هو الرحمن . ثم استأنف قائلاً ﴿ علم القرآن ﴾ وما مفعوله الأول ؟ قيل : هو متعدٍ إلى واحد والمعنى جعل القرآن علامة وآية للنبوة . وقيل : هو جبرائيل أي علم

جبرائيل القرآن حتى نزل به على محمد . وقيل : علم محمداً أو الإنسان القرآن كما يليق بفهمهم على حسب استعدادهم ولعله يلزم من الوجه الأخير شبه تكرار من قوله ﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾ فالأول إشارة إلى قواه البدنية والثاني إشارة إلى قواه النطقية ، ويلزم منه أيضاً أن يكون التعليم قبل الخلق ظاهراً إلا أن يكون تفصيلاً لما أجمله . وقد نقل عن ابن عباس أن الإنسان آدم علمه الأسماء كلها ، أو محمد صلى الله عليه وسلم . والبيان القرآن فيه بيان ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة . قوله ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ أي بحسبانه استغنى عن الوصل اللفظي بالربط المغنوي لرعاية الفاصلة يعني أنهما يجريان

في بروجهما ومنازلهما بحساب معلوم ﴿ والنجم ﴾ وهو النبات بغير ساق ﴿ والشجر يسجدان ﴾ بالانقياد له . وإنما وسط العاطف بين هاتين الجملتين لما بين العلوي والسفلي من تناسب التقابل ، ولما بين الحسبان والسجود من تناسب التجانس ، وذلك لأن سيرهما بحساب مقدّر مقرر وهو من جنس الانقياد لأمر الله ﴿ والسماء رفعها ﴾ قال في الكشاف : أي خلقها مرفوعة مسموكة حيث جعلها منشأ أحكامه ومصدر قضاياه ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه . قلت : إنه حمل الرفع على ارتفاع

المنزلة ولعل المراد به الرفع الحسي ليطابق قوله ﴿ والأرض وضعها ﴾ أي خفضها في مركز العالم مدحوة محاطة بالماء . نعم لو جعل وضع الأرض عبارة عن ذلها وتسخيرها كقوله ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً ﴾

(265/741)

[الملك : 15] صح تفسيره وإنما وسط قوله ﴿ ووضع الميزان ﴾ بين رفع السماء ووضع الأرض لأنه لا ينتفع بالميزان إلا إذا كان معلقاً في الهواء بين الأرض والسماء وهذا أمر حسي ، وأما العقلي فهو أنه بدأ أولاً من النعم بذكر القرآن الذي هو بيان الشرائع والتكاليف ، ثم أتبعه ذكر كيفية خلق الإنسان وقواه النفسانية وما يتم به معاشه من السماويات والأرضيات ، ثم ذكر أنه خلق لأجلهم آلة الوزن بهما يقيمون العدالة في ومعاملاتهم وأمور تمدنهم فصار كما مر في ﴿ حم عسق الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ [الشورى : 1] وكما يجيء في الحديد ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ﴾ [الآية : 25] وأن في قوله ﴿ ألا تطغوا ﴾ مفسرة أو ناصبة أي لأن لا تتجاوز حد الاعتدال في شأن هذه الآية أي في شأن الوزن . ثم أكد بقوله إثباتاً ونفياً ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ﴾ قوّموه أو قوموا لسان الميزان بالعدل ﴿ ولا تخسروا الميزان ﴾ أي لا تجعلوها سبباً للخسران

والتطفيف . وفي تكرير لفظ الميزان بل في ورود هذه الجمل المتقاربة الدلالة مكررة إشارة إلى الاهتمام بأمر العدل وندب إليه وتحريض عليه . وقيل : الأول ميزان الدنيا والثاني ميزان الآخرة والثالث ميزان العقل . وقيل : نزلت متفرقة فاقتضى الإظهار . قوله ﴿ للأنام ﴾ أي لكل ما على ظهر الأرض من دابة . وقيل : للإنسان . وخص بالذكر لشرفه ولأن الباقي خلق لأجله ﴿ فيها فاكهة ﴾ التنوين للتعظيم وهي كل ما يتفكه به . وقد أفرد النخل بالذكر للتفضيل ولأنه فاكهة غذائية . والأكمام جمع كم وهو وعاء الثمر . ثم ذكر أقوات البهائم والإنسان قائلاً ﴿ والحب ذو العصف ﴾ وهو ورق الزرع أو التبن . وقال الفراء والسدي : وهو أول ما ينبت من الزرع ﴿ والريحان ﴾ الورق . ومن رفع فعلى حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أي وذو الريحان . وقال الحسن وابن زيد . على هذه القراءة وهو ريحانكم الذي يشم .

(266/741)

ثم خاطب الجن والإنس بقوله ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ عن جابر بن عبد الله قال : قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال : مالي أراكم سكوتاً ؟ للجن كانوا أحسن منكم رداً ما قرأت عليهم هذه الآية مرة إلا قالوا : ولا بشيء

من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد . قال جار الله : الخطاب في ﴿ ربكم ﴾ للثقلين بدلالة الأنام عيلهما قلت : ربما يصرح به قوله ﴿ أيها الثقلان ﴾ سميا بذلك لأنهم ثقلا الأرض أو بما سيذكر عقيبه من قوله ﴿ خلق الإنسان ﴾ والجان خلقناه . وقيل : التكذيب إما باللسان والقلب معاً وإما بالقلب دون اللسان كالمنافقين فكأنه قال : في أيها المكذبان بأي آلاء ربكما تكذبان . وقيل : أراد في أيها المكذبان بالدلائل المعية والعقلية أو بدلائل الآفاق ودلائل الأنفس ، والاستفهام للتوبيخ والزجر . قوله ﴿ خلق الإنسان من صلصال ﴾ قد مر في سورة " الحجر " إلا أنه شبهه ههنا بالفخار وهو الخزف بياناً لغاية يبس طينته وكزازته ، والتركيب يدل عليه ومنه الفخور ولولا يبس دماغه لم يفخر ومنه الفرخ لأنه تنشق البيضة عنه .

(267/741)

وكل يابس عرضة للتشقق ومنه الخزف لغاية يبوسة مزاجه . والجان أبو الجن . وقيل : هو إبليس . والمارج اللهب الصافي الذي لا دخان فيه من مرج إذا اضطرب ولعلها المخلوطة بسواد النار من مرج الشيء اختلط . وقوله ﴿ من نار ﴾ بيان لمارج كأنه قيل : من صاف من نار . ويجوز أن يكون ناراً مخصوصة فيكون صفة ﴿ رب المشرقين ﴾ يعني مشرق

الصيف ومشرق الشتاء ، والأول مطلع أول السرطان ، والثاني مطلع أول الجدي . هذا في بلادنا الشمالية والحال في الجنوبية بالعكس . قوله ﴿ مرج البحرين ﴾ وقد مر في " الفرقان " معناه أرسلهما ملحاً وعذباً متلاقيين ﴿ بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ أي لا يبغى أحدهما على الآخر بالممازجة ﴿ يخرج منهما ﴾ أي من كل منهما . وقال في الكشاف : أعاد الضمير إلى البحرين لاتحادهما فالخارج من العذب كأنه خارج من الملح تقول : خرجت من البلد ولم تخرج إلا من محلة بل من دار . وقال أبو علي الفارسي : أراد من أحدهما فحذف المضاف . قلت : ونحن قد سمعنا أن الأصداف تخرج من البحر المالح ومن الأمكنة التي فيها عيون عذبة في مواضع من البحر الملح ويؤيده قوله سبحانه في " فاطر " ﴿ ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ [الآية : 12] فلا حاجة إلى هذه التكلفات . قال الفراء وغيره من أهل اللغة : اللؤلؤ الدر ، والمرجان ما صغر منه . وعن مقاتل : بالضد . ويشبه أن يكون اللؤلؤ هذا الجنس المعروف والمرجان البسذ . يقال : إنه ينبت في بحر الروم والإفرنج كالشجر وهو الفصل المشترك بين المعدن والنبات ، والجواري السفن الجارية حذف الموصول للعلم به . ومن قرأ ﴿ المنشآت ﴾ بفتح الشين فمعناها المرفوع الشرع والتي رفع خشبها بعضها على بعض وركب حتى ارتفعت . والقارىء بالكسر أراد الرافعات الشرع أو اللائي يبتدئن في السير أو ينشئن الأمواج بجريهن ، الأعلام

الجبال الطوال شبههن في البحر بالجبال في البر . والضمير في ﴿ عليها ﴾ للأرض بدلالة المقال أو الحال . والوجه

(268/741)

عبارة عن الذات كما مر في تفسر البسملة وفي قوله ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ [القصص : 88] وقوله ﴿ ذو ﴾ صفة للوجه وهو على القياس . وفيه دلالة على أن الوجه والرب ذات واحد بخلاف قوله في آخر السورة ﴿ تبارك اسم ربك ﴾ فإن الاسم غير المسمى في الأصح فلهذا قال ﴿ ذي الجلال والإكرام ﴾ ومعناه ذو النعمة والتعظيم كما سبق في البسملة . والنعمة في فناء ما على الأرض وهو مجيء وقت الجزاء ﴿ يسأله من في السموات ﴾ من الملائكة ﴿ و ﴾ من في ﴿ الأرض ﴾ من الثقلين الملائكة لمصالح الدارين والثقلان لمصالح الدارين . وعن مقاتل : يسأل أهل الأرض الرزق والمغفرة وتسأل الملائكة أيضاً الرزق والمغفرة للناس ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾

(269/741)

" سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك الشأن فقال : من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين " قلت : هذا التفسير يطابق ما مر في الحكمة . وما ذكرنا في الكتاب مراراً من أن القضاء هو الحكم الكلي الواقع في الأزل ، والقدر هو صدور تلك الأحكام في أزمنتها المقدرة . فبالاعتبار الأول قال " جف القلم بما هو كائن " وبالاعتبار الثاني قال : ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ وهذا بالنسبة إلى المقضيات ولا تغير في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله . وبالجملة إنها شؤون يبديها لا شؤون يبتديها . وروى الواحدي في البسيط عن ابن عباس : إن مما خلق الله عز وجل لوحاً من درة بيضاء ، دفتاه ياقوتة حمراء ، قلمه نور وكتابه نور ، ينظر الله فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء . وحين بين أن كل زمان مقدر لأجل شأن قال ﴿ سنفرغ لكم ﴾ قال أهل البيان : هو مستعار من قول الرجل لمن يتهدده " سأفرغ لك " . والمراد تجرد داعيته للإيقاع به من النكاية فيه . والمراد شؤونه ستنتهي إلى شأن الجزاء وقصد المحاسبة . ثم هدد الثقلين بأنهم لا يستطيعون الهرب من أحكامه وأقضيته فيهما . نفذ من الشيء إذا خلص منه كالسهم ينفذ من الرمية . وأقطار السموات والأرض نواحيهما . واحدها قطر . وهو في الهندسة عبارة عن الخط المنصف للدائرة . والسلطان القوة والغلبة ، أراد أنه لا مفر من حكمه إلا بتسلط تام ولا سلطان فلا مفر . قال الواحدي : أراد أنه لا خلاص من الموت . ويحتمل أن يخص هذا بيوم الجزاء المشار إليه بقوله ﴿ سنفرغ لكم

﴿ ويؤيده ما روي أن الملائكة تنزل فتحيط بجميع الخلائق فإذا رآهم الجن والإنس هربوا فلا يأتون وجهاً إلا وجدوا الملائكة أحاطت به ، ويعضده قوله عقيبه ﴿ يرسل عليكما ﴾ الآية .

(270/741)

جاء في الخبر : يحاط على الخلق بلسان من نار ثم ينادون يا مشعر الجن والإنس الآية . وذلك قوله ﴿ يرسل عليكما شواظ ﴾ وهو اللهب الذي لا دخان له معه . وقرأ ابن كثير بكسر الشين لغة أهل مكة يقولون صوار بالضم والكسر . والنحاس والدخان . ومن قرأ بالرفع فمعناه يرسل عليكما هذا مرة وهذا مرة وهذا مرة . ويجوز أن يرسلا معاً من غير أن يمزج أحدهما بالآخر . ومن قرأ بالجر فبتقدير وشيء من نحاس . وعن أبي عمرو أن الشواظ يكون من الدخان أيضاً . وقيل : هو الصفر المذاب يصب على رؤوسهم . وعن ابن عباس : إذا خرجوا من قبورهم ساقهم شواظ إلى المحشر ﴿ فلا تنتصران ﴾ فلا تمتنعان ﴿ فإذا انشقت السماء ﴾ لنزول الملائكة ﴿ فكانت وردة ﴾ أي حمراء ﴿ كالدهان ﴾ وهو جمع الدهن أو اسم ما يتدهن به كالحزام والإدام شبهها بدهن الزيت كقوله

﴿ كالمهل ﴾ [المعارج : 8] وهو دردي الزيت . وقيل : الدهان الأديم الأحمر . عن ابن عباس : نصير كلون الفرس الورد . وقيل : تحمر احمرار الورد ثم تذوب ذوبان الدهن . وقال قتادة : هي اليوم خضراء ولها يوم القيامة لون آخر يضرب إلى الحمرة . والفاء في قوله ﴿ فإذا ﴾ للتعقيب وفي ﴿ فكانت ﴾ للعطف ، والجواب محذوف كما سيجيء في قوله ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ [الأنشقاق : 1] والمراد أنهما لا ينتصران حين إرسال الشواظ عليهما فحين تنشق السماء وصارت الأرض والجو والهواء كلها ناراً وتذوب السماء كما يذوب النحاس الأحمر كيف تنتصران ؟ ويمكن أن يكون وجه تشبيه السماء يومئذ بالدهن هو الميعان والذوبان بسرعة وعدم رسوب الخبث كخبث الحديد ونحوه ، والغرض بيان بساطة السماء وأنه لا اختلاف للأجزاء فيها . ﴿ فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ وضع الجان الذي هو أبو الجن موضع الجن كما يقال هاشم ويراد ولده . والضمير في ﴿ ذنبه ﴾ عائد إلى الإنس لأن الفاعل رتبته التقديم وكأنه قيل : لا يسأل بعض الإنس عن ذنبه ولا بعض الجن . والجمع بين هذه الآية وبين قوله ﴿ فوربك لنسألنهم ﴾ [الحجر : 92] هو ما مرّ من أن المواطن مختلفة ، أو لا يسأل سؤال استعلام وإنما يسأل سؤال

توبيخ وتقريع . وعندي أن بيان عدم احتياج المذنب إلى السؤال عن حاله لأن كل ما هو اليوم فيه كامن فذلك في يوم القيامة يظهر ويبرز من ظلمة الطبيعة والعصيان ، أو من نور الطاعة والإيمان وإليه الإشارة بقوله ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ من سواد الوجه وزرقة العين ﴿ فيؤخذ ﴾ كل منهم أو جنس المجرم ﴿ بالنواصي ﴾ أي بسببها . ولعل المراد أن تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي من خلفها أو من قدام ويلقون في النار . روى الحسن عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " والذي نفسي بيده لقد خلقت ملائكة جهنم قبل أن تخلق جهنم بألف عام فهم كل يوم يزدادون قوة إلى قوتهم حتى يقبضوا من قبضوا عليه

(272/741)

بالنواصي والأقدام " ويجوز أن يكون الفعل مسنداً إلى قوله ﴿ بالنواصي ﴾ نحو ذهب بزيد . ثم ذكر أنهم يوبخون بقول الملائكة لهم ﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ﴾ والأصل الخطاب والالتفات للتبعيد والتسجيل عليهم بالإجرام . والآني الذي بلغ منتهى حره . قال الزجاج : أني يأني أنا إذا انتهى في النضج والحرارة . والمعنى أنهم لا يزالون طائفين بين عذاب الجحيم وبين الحميم وذلك حين ما يستغيثون كقوله ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء

كالمهل ﴾ [الكهف : 29] قال جار الله : نعمته فيما ذكره من الأهوال وأنواع المخاوف هي نجاة الناجي منه وما في الإنذار به من اللطف ، ويمكن أن يراد بأي الآلاء المعدودة في أول السورة تكذبان فتستحقان هذه الأشياء المذكورة من العذاب . ثم شرع في ثواب أهل الخشية والطاعة قائلاً ﴿ ولمن خاف مقام ربه ﴾ وقد مر نظيره في " إبراهيم " قوله

(273/741)

﴿ ذلك لمن خاف مقامي ﴾ [الآية : 14] قال المفسرون : الجنتان إحداهما للخائف الإنسي والثانية للخائف الجني ، أو إحداهما لفعل الطاعات والثانية لترك المنكرات ، أو إحداهما للجزاء والأخرى للزائد عليه تفضلاً ، أو هما جنة عدن وجنة النعيم . أو إحداهما جسمانية والأخرى روحانية . وقيل : التثنية للتأكيد كقوله ﴿ ألقيا ﴾ [ق : 24] وهو ضعيف . والأفنان جمع الفنن وهو الغصن المستقيم طولاً قاله مجاهد وعكرمة والكلبي وغيرهم ، وإنما خصها بالكر لأنها هي التي تورق وتثمر وتظل والساق لأجل ضرورة القيام ولا ضرورة في الجنة ولا كلفة . وعن سعيد بن جبير : هي جمع فن والمعنى أنهما صاحبتا فنون النعم وعلى هذا يكون قوله ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ أي صنفان كتفصيل بعد إجمال والصنفان رطب ويابس أو معروف وغريب ﴿ فيهما ﴾ أي

في كل منهما ﴿ عينان تجريان ﴾ من جبل من مسك إحداهما في الأعالي والأخرى في الأسافل . وقال الحسن : تجريان بالماء الزلازل إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل ﴿ متكئين ﴾ حال من الخائفين المذكورين في قوله ﴿ لمن خاف ﴾ وجوز أن يكون نصباً على المدح . قال المفسرون : إذا كان بطائن الفرش وهي التي تحت الظهارة مما يلي الأرض من استبرق فما ظنك بظهائرها ؟ ويجوز أن يكون ظائرها السندس . والتحقيق أنه لا يعلمها إلا الله كقوله ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم ﴾ [السجدة : 17] ﴿ وجنى الجنتين ﴾ أي ثمرها ﴿ دان ﴾ قريب يناله القائم والقاعد والنائم . قال جار الله : ﴿ فيهن ﴾ أي في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى . وقيل : في الفرش أي عليها . وقيل : في الجنان لأن ذكر الجنتين يدل عليه ولأنهما يشتملان على أماكن ومجالس ومتنزهات ، وهذا الوجه عندي أظهر وسيجيء بيانه بنوع آخر عن قريب . قال الفراء : الطمث الاقتضاض وهو النكاح بالتدمية و ﴿ قبلهم ﴾ أي قبل أصحاب الجنتين واللفظ يدل عليه . قال مقاتل : هن من حور الجنة . وقال الكلبي

والشعبي : هن من نساء الدنيا أنشئن خلقاً آخر لم يجامعهن في هذا الخلق الذي أنشئن فيه إنسي ولا جني . قال في الكشاف : لم يطمث الإنسيات منهمن أحد من الإنس والجنيات أحد من الجن قلت : هذا التفصيل لعله لا حاجة إليه يعرف بأدنى تأمل . قال الزجاج : فيه دليل على أن الجن تطمث كما تطمث الإنس .

ثم ذكر أنهن في صفاء الياقوت وبياض اللؤلؤ الصغار ﴿ هل جزاء الإحسان ﴾ في العمل ﴿ إلا الإحسان ﴾ في الجزاء . وخص ابن عباس فقال : هل جزاء من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا الجنة . وحين فرغ من نعت جنتي المقربين شرع في وصف جنتين لأصحاب اليمين فقال ﴿ ومن دونهما ﴾ أي ومن أسفل منهما في المكان أو في الفضل أو فيهما وهو الأظهر . روى أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم : " جنتان من فضة أبنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب أبنيتهما وما فيهما "

(275/741)

﴿ مدهامتان ﴾ هو من الأدهيمام إدهام يدهام فيهو مدهام نظير إسواد يسواد فهو مسواد في اللفظ وفي المعنى ، وذلك أن كل نبت أخضر فتمام خضرته من الري أن يضرب إلى السواد ﴿ نضاختان ﴾ فوارتان ، والنضخ بالخاء المعجمة أكثر من النضخ وهو الرش .

قال ابن عباس : تنضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور ، وإنما خص النخيل والرمان بالذكر بعد اندارجهما في الفاكهة لفضلهما وشرفهما ، فالنخل فاكهة وطعام والرمان فاكهة ودواء كامل ومنه قال أبو حنيفة رحمه الله : إذا حلف لا يأكل فاكهة فأكل رماناً أو رطباً لم يحنث . وخالفه صاحباه ووافقهما الشافعي . والخيرات مخفف خيرات لأن الخير الذي هو بمعنى التفضيل لا يجمع جمع السلامة والمعنى أنهم فاضلات الأخلاق حسان الصور . واعلم أنه سبحانه قال في الموضعين عند ذكر الحور ﴿ فيهن ﴾ وفي سائر المواضع ﴿ فيهما ﴾ والسر فيه أن تمام اللذة عند اجتماع النسوان للرجل الواحد هو أن يكون لكل منهن مسكن على حدة فتباعد من مسكن الأخرى ، واسع بحيث يسع ما يليق بحاله أو بحالها من الجواري والغلمان وسائر الأسباب ، فيحصل هناك منتزهات كثيرة كل منها جنة ، وكأن في ضمير الجمع إشارة إلى ذلك . وأما العيون والفواكه فلم يكن شيء منها بهذه المثابة من كمال اللذة فاكتفي فيها بعود الضمير إلى الجنتين فقط . والمقصورات اللواتي قصرن أي حبسن في خدورهن . امرأة مقصورة أي مخدرة . روى قتادة عن ابن عباس : الخيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ فيها أربعة آلاف مصراع من ذهب . وعن النبي صلى الله عليه وسلم " الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل للمؤمن لا يراهم الآخرون " وقال أهل المعاني : كنى عن الجماع في الدنيا بنحو قوله ﴿ من قبل أن تمسوهن ﴾ [البقرة : 237] وذكر الجماع في الآخرة بلفظ يقرب من الصريح وهو الطمث

فما الحكمة من ذلك ؟ والجواب أن المباشرة في الدنيا قبيحة لما فيها من قضاء الشهوة وإسقاط القوى وهي في

(276/741)

الآخرة بخلاف ذلك فإنها داعية روحانية ولذة حقيقية فلم يحتج إلى الكناية لأن الكنايات إنما تجري في الهنيئات . قال جار الله : ﴿ متكئين ﴾ نصب على الاختصاص . قلت : ويجوز أن يكون حالاً والعامل مضمير يدل عليه قوله ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ﴾ أي يطمثونهم في حال الإتكاء . قال أبو عبيدة والضحاك ومقاتل والحسن : الرفرف ضرب من البسط . وقيل : كل ثوب عريض فهو رفرف . ويقال لأطراف البسط وفضول الفسطاط رفارف . وقال الزجاج : الرفرف ههنا رياض الجنة . وقيل : الوسائد . قال جار الله ﴿ العبقري ﴾ منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه بلد الجن فينسبون إليه كل شيء غريب عجيب . وعن أبي عبيدة : كل شيء من البسط عبقري وهو جمع واحدة عبقرية . ومما يدل على أن صفات هاتين الجنتين تقاصرت عن الأوليين قوله ﴿ مدهامتان ﴾ فإنه دون قوله ﴿ ذواتا أفنان ﴾ وذلك أن كمال الخضرة لا يوجب كون البستان ذا فنن ونضاختان دون تجريان وفاكهة دون كل فاكهة وكذلك صفة الحور والمتكأ . قال أهل العلم

: كرر قوله ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ إحدى وثلاثين مرة : ثمانية منهما ذكرها عقيب تعداد عجائب خلقه وذكر المبدأ والمعاد ، ثم سبعة منها عقيب ذكر النار وأهوالها على عدد أبواب جهنم ، وبعد هذه السبعة أورد ثمانية في وصف الجنات وأهلها على عدد أبواب الجنة ، وثمانية بعدها عقيب وصف الجنات التي هي دونهما . فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق كلتا الثمانيتين من الله ووقاه السبعة السابقة . ثم نزه نفسه عما لا يليق بجلاله وختم السورة عليه . والاسم مقحم كما بينا وفائدة هذا التوسيط سلوك سبيل الكناية كما يقال " ساحة فلان بريئة عن المثالب " والله أعلم بحقائق كلامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 227. 235 ﴾

(277/741)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الرحمن عز وجل

وتسمى عروس القرآن

لأنها مجمع النعم والجمال والبهجة في نوعها والكمال مكية كلها في قول الحسن وعروة وابن الزبير وعطاء وجابر ؛ وقال ابن عباس : إلا آية منها وهي : قوله تعالى : ﴿ يسأله من في

السموات والأرض ﴾ (الرحمن :)

الآية وقال ابن مسعود ومقاتل : هي مدنية كلها قال ابن عادل : والأوّل أصح لما روى عروة بن الزبير قال : أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ابن مسعود ، وذلك أن الصحابة قالوا : ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط فمن رجل يسمعهموه ، فقال ابن مسعود : أنا فقالوا نخشى عليك وإنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه ، فأبى ثم قام عند المقام فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ ثم تمادى بها رافعاً صوته وقريش في أنديتها فتأملوا وقالوا : ما يقول ابن أم عبد ؟ قالوا : هو يقول الذي يزعم محمد أنه أنزل عليه ثم ضربوه حتى أثروا في وجهه ، وصح أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم "قام يصلي الصبح بنخلة فقرأ بسورة الرحمن ، ومرّ النفر من الجن فآمنوا به" وهي سبع وثمانون آية وثلاثمائة ، وإحدى وخمسون كلمة وألف وستمائة وستة وثلاثون حرفاً .

﴿ بسم الله ﴾ الذي ظهرت إحاطة كماله بما ظهر من عجائب مخلوقاته ؛ ﴿ الرحمن ﴾ الذي ظهر عموم رحمته بما بهر من بدائع مصنوعاته ؛ ﴿ الرحيم ﴾ الذي ظهر اختصاصه لأهل طاعته بما تحققوا من الذلّ المفيد للعز بلزوم عباداته .

ولما كانت هذه السورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والأخروية صدرها بقوله تعالى: ﴿ علم ﴾ أي : من شاء ﴿ القرآن ﴾ وقدم من نعمه الدينية ما هو أعلى مراتبها وأقصى مراقبها وهو إنعامه تعالى بالقرآن العظيم ، وتنزيله وتعليمه لأنه أعظم وحي الله تعالى رتبة ،

وأعلاها منزلة ، وأحسنه في أبواب الدين أثراً ؛ وهو سنام الكتب السماوية ، ومصداقها والعيار عليها .

(278/741)

تنبيه : أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها ؛ لأنّ آخر تلك مليك مقتدر ، وأوّل هذه أنه رحمن . قال سعيد بن جبير وعامر والشعبي : الرحمن : فاتحة ثلاث سور إذا جمعن كن اسماً من أسماء الله تعالى الر ، وحم ، ون ، فيكون مجموع هذه الرحمن . ا

ولله تبارك وتعالى رحمتان : رحمة سابقة بها خلق الخلق ؛ ورحمة لاحقة بها أعطاهم الرزق والمنافع ، فهو رحمن باعتبار السابقة ، رحيم باعتبار اللاحقة ، ولما اختص بالإيجاد لم يقل لغيره رحمن ولما خلق بعض خلقه الصالحين ببعض أخلاقه بحسب الطاقة البشرية فأطعم ونفع جاز أن يقال له : رحيم .

وفي إعراب الرحمن ثلاثة أوجه : أحدها : أنه خبر مبتدأ مضمر أي الله الرحمن الثاني : أنه مبتدأ وخبره مضمر أي الرحمن ربنا . الثالث : أنه مبتدأ خبره علم القرآن ؛ فإن قيل : كيف يجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ (آل عمران :)

أجيب بأنا أن قلنا بعطف الراسخين على الله فهو ظاهر ، وإن قلنا بالوقف على الله ويبتدأ

بقوله تعالى : ﴿ والراسخون ﴾ (آل عمران :)

فلأن من علم كتاباً عظيماً فيه مواضع مشكلة قليلة وتأمّلها بقدر الإمكان فإنه يقال فلان يعلم الكتاب الفلاني ، وإن كان لم يعلم مراد صاحب الكتاب بيقين في تلك المواضع القليلة ، وكذا القول في تعليم القرآن ، أو يقال المراد لا يعلمه من تلقاء نفسه بخلاف الكتب التي تستخرج بقوة الذكاء والفكر .

واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال أكثر المفسرين : نزلت حين قالوا : وما الرحمن ، وقيل : نزلت جواباً لأهل مكة حين قالوا : إنما يعلمه بشر وهو رحمان اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ أي : سهله ليذكر ويقرأ ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ (القمر :)

(279/741)

ولما كان كأنه قيل كيف يعلمه وهو صفة من صفاته ، ولمن علمه قال تعالى مستأنفاً أو معللاً ﴿ خلق الإنسان ﴾ أي : الجنس بأن قدره وأوجده على هذا الشكل المعروف والتركيب الموصوف منفصلاً عن جميع الجمادات ، وأصله منها ثم عن سائر الناميات ، ثم عن غيره من الحيوانات ، وخلقه له دليل على خلقه لكل شيء موجود ﴿ إنا كل شيء خلقناه

بقدر ﴾ (القمر :)

وقيل علم القرآن جعله علامة .

وآية ﴿ علمه البيان ﴾ أي القوّة الناطقة وهي الإدراك للأمور الكلية والجزئية ، والحكم على الحاضر والغائب بقياسه على الحاضر ، وغير ذلك مما أودعه له سبحانه مع تعبيره عما أدركه مما هو غائب في ضميره وإفهامه لغيره : تارة بالقول وتارة بالفعل ، نطقاً وكتابة وإشارة وغيرها ، فصار بذلك ذا قدرة في نفسه والتكميل لغيره فهذا تعليم البيان الذي مكن من تعليم القرآن ، وقال ابن عباس وقتادة والحسن : يعني آدم عليه السلام علم أسماء كل شيء ، وقيل : علمه اللغات كلها وكان آدم يتكلم بسبعمائة ألف لغة أفضلها العربية ، وعن ابن عباس أيضاً وابن كيسان : المراد بالإنسان ههنا محمد صلى الله عليه وسلم والمراد من البيان : الحلال والحرام والهدى من الضلال ، وقيل : ما كان وما يكون لأنه بين عن الأولين والآخرين ، وعن يوم الدين ، وقال الضحاك : البيان : الخير والشرّ ، وقال الربيع بن أنس : هو ما ينفعه وما يضره . وقال السدي : علم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به . وقيل : بيان الكتابة والخط بالقلم نظيره قوله تعالى : ﴿ علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

فإن قيل : لِمَ قدّم تعليم القرآن للإنسان على خلقه وهو متأخر عنه في الوجود ؟

أجيب : بأنّ التعليم هو السبب في إيجاده وخلقه .

فإن قيل : كيف صرح بذكر المفعولين في علمه البيان ولم يصرح بهما في علم القرآن ؟

أجيب : بأنّ في ذلك إشارة إلى أن النعمة في التعميم لا في تعليم شخص دون شخص ، وبأنّ المراد من قوله تعالى : ﴿ علمه البيان ﴾ : تعديد النعم على الإنسان واستدعاء الشكر منه ؛ ولم يذكر الملائكة لأنّ المقصود ذكر ما يرجع إلى الإنسان . وقيل : تقديره علم جبريل القرآن وقيل علم محمداً صلى الله عليه وسلم وقيل علم الإنسان وهذا أولى لعمومه .

تنبيه هذه الجمل من قوله تعالى : ﴿ علم القرآن ﴾ إلى هنا جيء بها من غير عاطف لأنها سيقت لتعديد نعمه ؛ كقولك : فلان أحسن إلى فلان أكرمه أشاد ذكره رفع قدره ؛ فلشدّة الوصل ترك العاطف ؛ وهي أخبار مترادفة للرّحمن .

ولما ذكر تعالى خلق الإنسان وإنعامه عليه بتعليمه البيان ذكر نعمتين عظيمتين بقوله تعالى : ﴿ الشمس ﴾ وهي آية النهار ﴿ والقمر ﴾ وهي آية الليل ﴿ بحسبان ﴾ فإنهما على قانون واحد وحساب لا يتغيران وبذلك تتم منفعتهما للزراعات وغيرها ولولا الشمس والقمر لفات كثير من المنافع الظاهرة بخلاف غيرهما من الكواكب فإنّ نعمها لا تظهر لكل أحد مثل ظهور نعمتهما ، وإنهما بحسبان لا يتغير أبدا ، ولو كان سيرهما غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها ومعرفة فصول السنة ، والمعنى يجريان بحسبان معلوم

فأضمر الخبر . قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك : يجريان بحسبان في منازل لا يعدوانها ولا يحيدان عنها . وقال أبو زيد وابن كيسان بهما تحسب الأوقات والأعمار ، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب شيئاً إن كان الدهر كله ليلاً أو نهاراً .

وقال السدي : بحسبان تقدير آجالهما أي : يجريان بآجال كآجال الناس ، فإذا جاء أجلهما هلكا نظيره ﴿ كل يجري إلى أجل مسمى ﴾ (لقمان :)

﴿ والنجم ﴾ أي : النبات الذي ينجم أي يطلع من الأرض ولا ساق له كالبقول

﴿ والشجر ﴾ أي : الذي له ساق كشجر الرمان وتقدم الجواب عن قوله تعالى : ﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ (الصافات :)

(281/741)

في سورة الصافات ﴿ يسجدان ﴾ أي : ينقادان لله تعالى فيما يريده طبعاً انقياد الساجد من المكلفين طوعاً وقال الضحاك سجودهما سجود ظلالهما . وقال الفراء سجودهما أنهما يستقبلان إذا طلعت الشمس ثم يميلان معها حتى ينكسر الفيء ، وقال الزجاج : سجودهما دوران الظل معهما كما قال تعالى : ﴿ يتفيؤوا ظلاله ﴾ (النحل :)

وقال الحسن ومجاهد : النجم نجم السماء وسجوده في قول مجاهد دوران ظله ؛ وقيل :

سجود النجم أفوله وسجود الشجر إمكان الاجتناء لثمارها حكاه الماوردي .

وقال النحاس : أصل السجود في اللغة الاستسلام والانقياد لله عز وجل فهو من الموات كلها استسلامها لأمر الله عز وجل وانقيادها له ، ومن الحيوان كذلك .

فإن قيل : كيف اتصلت هاتان الجملتان بالرحمن ؟

أجيب بأنه استغنى فيهما عن الوصل اللفظي بالوصل المعنوي لما علم أنّ الحسبان حسبانه والسجود له لا لغيره كأنه قيل الشمس والقمر بحسبانه والنجم والشجر يسجدان له .

فإن قيل : أي تناسب بين هاتين الجملتين حتى وسط بينهما العاطف ؟

أجيب : بأنّ الشمس والقمر سماويان والنجم والشجر أرضيان فبين القبيلين تناسب من حيث التقابل ، فإن السماء والأرض لا تزالان تذكران قرينتين ، وأنَّ جرى الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لأمر الله تعالى فهو مناسب لسجود النجم والشجر .

﴿ والسماء ﴾ أي : ورفع السماء ثم فسر ناصبها فيكون كالمذكور مرتين إشارة إلى عظيم تدبيره لشدّة ما فيها من الحكم فقال تعالى : ﴿ رفعها ﴾ أي حسا قال البقاعي : بعد ما كانت ملتصقة بالأرض ففتقها وأعلاها عنها ؛ وقال الزمخشري وتبعه البيضاوي : خلقها مرفوعة ؛ قال البيضاوي : محلاً ورتبه ، وقال الزمخشري : حيث جعلها منشأ أحكامه ومصدر قضاياه ومتنزل أوامره ونواهيه ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه ، ونبه بذلك على كبرياء شأنه وملكه وسلطانه .

﴿ ووضع الميزان ﴾ أي : العدل الذي دبر به الخافقين من الموازنة وهي المعادلة لتنتظم أمورنا كما قال صلى الله عليه وسلم "بالعدل قامت السموات والأرض" وقال السدي : وضع في الأرض العدل الذي أمر به يقال وضع الله الشريعة ووضع فلان كذا أي : ألفه .

وقيل على هذا الميزان القرآن لأنّ فيه بيان ما يحتاج إليه وهو قول الحسين بن الفضل ، وقال الحسن وقتادة والضحاك هو الميزان الذي يوزن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض وهو خبر بمعنى الأمر بالعدل يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ﴾ (الرحمن :) والقسط هو العدل ؛ وقيل هو الحكم ، وقيل المراد وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال .

﴿ أن ﴾ أي : لأجل أن ﴿ لا تطغوا ﴾ أي : تتجاوزوا الحدود ﴿ في الميزان ﴾ فمن قال : الميزان العدل قال : طغيانه الجور ؛ ومن قال : إنه الميزان الذي يوزن به قال : طغيانه البخس قال ابن عباس : لا تخونوا من وزنتم له . وعنه أنه قال : يا معشر الموالي وليتم أمرين بهما هلك الناس المكيال والميزان ومن قال : إنه الحكم قال : طغيانه التحريف . وقيل فيه إضمار أي : وضع الميزان وأمركم أن لا تطغوا فيه .

فإن قيل : إذا كان المراد به ما يوزن به فأيّ نعمة عظيمة فيه حتى يعدّ في الآلاء ؟

أجيب : بأنّ النفوس تأبى الغبن ولا يرضى أحد أن يغلبه غيره ولو في الشيء اليسير ، ويرى أنّ ذلك استهانة به فلا يترك خصمه يغلبه فوضع الله تعالى معياراً بيّن به التساوي ولا تقع به البغضاء بين الناس وهو الميزان ، وهو كل ما توزن به الأشياء بين الناس ، ويعرف مقاديرها به من ميزان ومكيال ومقياس ، فهو نعمة كاملة ولا ينظر إلى عدم ظهور نعمته وكثرته وسهولة الوصول إليه كالهواء والماء اللذين لا يتبين فضلهما إلا عند فقدهما .

(283/741)

﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ﴾ أي : افعلوه مستقيماً بالعدل . وقال أبو الدرداء : أقيموا لسان الميزان بالعدل . وقال ابن عيينة : الإقامة باليد والقسط بالقلب وقال مجاهد : القسط العدل بالرومية ﴿ ولا تخسروا الميزان ﴾ أي : لا تنقصوا الموزون ، أمر بالتسوية ونهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة ، وعن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان ؛ وكرّر لفظ الميزان تشديداً للتوصية وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه ؛ وقيل : كرّره لمحال رؤوس الآي ، وقيل كرّره ثلاث مرات : الأول : بمعنى الآلة وهو قوله تعالى : ﴿ ووضع الميزان ﴾ والثاني : بمعنى المصدر أي لا تطغوا في الوزن . والثالث : للمفعول أي لا تخسروا الموزون . قال ابن عادل : وبين القرآن والميزان مناسبة ، فإنّ القرآن فيه العلم الذي لا يوجد

في غيره من الكتب والميزان به يقام العدل الذي لا يقام بغيره من الآلات .

ولما ذكر إنعامه الدال على اقتداره برفع السماء ، ذكر على ذلك الوجه مقابلها بعد أن وسط بينهما ما قامتا به من العدل تنبيهاً على شدّة العناية والاهتمام به فقال تعالى : ﴿ والأرض ﴾ أي : ووضع الأرض ثم فسر ناصبها كما فعل في قوله تعالى : ﴿ والسماء رفعها ﴾ فقال تعالى : ﴿ وضعها ﴾ أي : دحاها وبسطها على الماء ﴿ للأنام ﴾ أي : كل من فيه قابلية النوم أو قابلية الونيم وهو الصوت . وقيل : هو الحيوان وقيل : بنو آدم خاصة . وهو مروي عن ابن عباس ونقل النووي في التهذيب عن الزبيدي الأنام الخلق قال : ويجوز الأنيم وقال : الواحدي قال الليث : الأنام ما على ظهر الأرض من جميع الخلق . وقال : الحسن هم الأنس والجن .

(284/741)

﴿ فيها ﴾ أي : الأرض ﴿ فاكهة ﴾ أي : ما يتفكه به الإنسان من ألوان الثمار ونكرها لأنّ الانتفاع بها دون الانتفاع بما ذكر بعدها فهو من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، إذ التنكير فيها للتعظيم والتكثير ، نبه عليه بتعريف فرع منها ونوه به لأنّ فيه مع التفكه التقوت وهو أكثر ثمار العرب المقصودين بهذا الذكر بالقصد الأوّل فقال تعالى : ﴿ والنخل ﴾ ودل

على تمام القدرة بقول تعالى : ﴿ ذات ﴾ أي : صاحبة ﴿ الأكمام ﴾ أي : أوعية ثمرها وهو الطلع قبل أن ينفتق بالثمر ، والأكمام جمع كم بالكسر قال الجوهري : والكم بالكسر والكمامة وعاء الطلع وغطاء النور والجمع كمام وأكمة وإكمام والكمامة ما يكم به فم البعير لئلا يعض ؛ وكم القميص بالضم والجمع أكمام وكممه والكمة القلنسوة المدوّرة لأنها تغطي الرأس .

(285/741)

﴿ والحب ﴾ أي : جميع الحبوب التي يقتات بها كالحنطة والشعير ﴿ ذو العصف ﴾ قال ابن عباس : تبن الزرع وورقه الذي يعصفه الريح ، وقال مجاهد : ورق الشجر والزرع ، وقال سعيد بن جبير : بقل الزرع الذي أوّل ما ينبت منه وهو قول الفراء . والعرب تقول : خرجنا نعصف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يدرك وقيل : العصف حطام النبات . ﴿ والريحان ﴾ وهو في الأصل مصدر ثم أطلق على الرزق قال ابن عباس ومجاهد والضحاك : هو الرزق بلغة حمير ، كقولهم : سبحان الله وريحانه نصبوهما على المصدر يريدون تنزيهاً له واسترزاقاً . وعن ابن عباس أيضاً والضحاك وقتادة : أنه الريحان الذي يشم ، وهو قول ابن زيد . وقال سعيد بن جبير : هو ما قام على ساق . وقال الفراء : العصف المأكول من الزرع

والريحان ما لا يؤكل وقال الكلبي : العصف الورق الذي يؤكل والريحان هو الحب المأكول .

وقيل : كل بقلة طيبة الريح سميت ريحاناً ، لأنّ الإنسان يراح لها رائحة طيبة أي يشم . وفي الصحاح : والريحان نبت معروف ، والريحان الرزق تقول : خرجت أبتغي ريحان الله ، وفي الحديث : "الولد من ريحان الله" . وقرأ ابن عامر : بنصب الحب وذا والريحان بخلق مضمر ، أي : وخلق الحب وذا العصف والريحان .

وقرأ حمزة والكسائي : برفع الحب وذو عطفا على فاكهة ، وجرّ الريحان عطفاً على العصف ، والباقون : برفع الثلاثة عطفاً على فاكهة أي وفيها أيضاً هذه الأشياء .

(286/741)

ولما دخل في قوله تعالى : ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ الجنّ والأنس خاطبهما بقوله تعالى : ﴿ فبأيّ آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ أي : المحسن إليكما المدبر لكما الذي لا مدبر ولا سيد لكما غيره ﴿ تكذبان ﴾ أبتلك النعم أم بغيرها ؟ وكرر هذه الآية في هذه السورة في أحد وثلاثين موضعاً تقريراً للنعمة ، وتأكيداً في التذكير ، وفصل بين كل نعمتين بما ينبههم عليها ليفهمهم النعم ، ويقرّرهم بها كما تقول لمن تتابع عليه إحسانك وهو يكفره وينكره : ألم تكن فقيراً فأغنيتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملاً فعززتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن

راجلاً فحملتك ؟ أفتنكر هذا ؟ والتكرير حسن في مثل هذا ، قال القائل:

كم نعمة كانت لكم كم كم وكم

وقال آخر:

*لا تقتلي مسلماً إن كنت مسلمة ** إياك من دمه إياك إياك*

وقال آخر:

*لا تقطعنّ الصديق ما طرفت ** عيناك من قول كاشح أشر*

*ولا تملنّ يوماً زيارته ** زره وزره وزر وزر وزر*

وقال الحسن بن الفضل : التكرير طرد للغفلة ، وتأكيد للحجة قال بعض العلماء : والتكرير ههنا كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ (القمر :)

وكقوله تعالى : فيما سيأتي ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ (المرسلات :)

وذهب جماعة منهم ابن قتيبة إلى أنّ التكرير لاختلاف النعم ، فلذلك كرّر التوقيف مع كل واحدة .

(287/741)

وقال الرازي : وذكره بلفظ الخطاب على سبيل الالتفات ، والمراد به التقرير والزجر وذكر لفظ الرب لأنه يشعر بالرحمة ؛ قال : وكرّرت هذه اللفظة في هذه السورة نيفاً وثلاثين مرة : إما للتأكيد ، ولا يعقل لخصوص العدد معنى . وقيل : الخطاب مع الأنس والجنّ والنعمة منحصرة في دفع المكروه ، وتحصيل المقصود ، وأعظم المكروهات : نار جهنم ولها سبعة أبواب ، وأعظم المقاصد نعيم الجنة ولها ثمانية أبواب ، فالمجموعة خمسة عشر وذلك بالنسبة للإنس والجنّ ثلاثون والزائد لبيان التأكيد . وروى جابر بن عبد الله قال : "قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن حتى ختمها ، ثم قال ما لي أراكم سكوتاً للجنّ كانوا أحسن منكم ردّاً ما قرأت عليهم هذه الآية من مرّة ﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذبان ﴾ إلا قالوا ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد " وقرأ ورش ﴿ فبأيّ آلاء ﴾ على أصله بالمدّ ، والتوسط ، والقصر جميع ما في هذه السورة .

ولما ذكر تعالى خلق العالم الكبير من السماء والأرض ، وما فيهما من الدلالات على وحدانيته وقدرته ذكر خلق العالم الصغير فقال تعالى : ﴿ خلق الإنسان ﴾ أي : آدم عليه السلام ﴿ من صلصال ﴾ أي : من طين يابس له صلصلة أي صوت إذا نقر ﴿ كالفخار ﴾ أي كالخزف المصنوع المشوي بالنار ، وقيل هو طين خلط برمل ؛ وقيل : هو الطين المنتن من صل اللحم وأصل إذا أنتن .

تنبيه : قال تعالى : هنا .

من ﴿ صلصال كالفخار ﴾ وقال تعالى في الحجر : ﴿ من حما مسنون ﴾ وقال تعالى في الصافات : ﴿ من طين لازب ﴾ (الصافات :)

وقال تعالى في آل عمران ﴿ كمثل آدم خلقه من تراب ﴾ (آل عمران :)

(288/741)

وكله متفق المعنى وذلك أنه أخذه من تراب الأرض ، فعجنه بالماء ، فصار طيناً ، ثم ترك حتى صار حمأ مسنوناً ثم منتناً ثم صوّره كما يصوّر الإبريق وغيره من الأواني ، ثم أيبسه حتى صار في غاية الصلابة فصار كالخزف الذي إذا نقر صوت صوتاً ، يعلم منه هل فيه عيب أو لا فالمذكور هنا آخر تخليقه وهو أنسب بالرحمانية وفي غيرها تارة مبدؤه وتارة أثناؤه فالأرض أمّه والماء أبوه ممزوجين بالهواء الحامل للجزء الذي هو من فيح جهنم ؛ فمن التراب جسده ونفسه ، ومن الماء روحه وعقله ، ومن النار غوايته وحدته ، ومن الهواء حركته وتقلبه في محامده ومذامه ، فالغالب في جبلته التراب ، فلهذا نسب إليه ، وإن خلق من العناصر الأربع ، كما أنّ الجانّ خلق من العناصر الأربع لكن الغالب في جبلته النار فنسب إليها ؛ كما قال تعالى : ﴿ وخلق الجانّ ﴾ أي : أبا الجنّ ، وهو إبليس وقيل : هو أبوهم وليس هو بإبليس ؛ وقيل : هو اسم جنس كالإنسان ﴿ من مارج من نار ﴾ وهو

لهبها الخالص من الدخان ؛ وقال القشيري : هو اللهب المختلط بسواد النار ، فالنار أغلب عناصره . وقال الليث : المارج الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد . وعن ابن عباس : أنه اللهب الذي يعلو النار فيختلط بعضه ببعض أحمر وأصفر وأخضر وهو مشاهد في النار ترى الألوان الثلاثة مختلط بعضها ببعض ؛ ونحوه عن مجاهد . وقال أبو عبيدة والحسن : المارج المختلط من النار وأصله من مرج إذا اضطرب واختلط قال القرطبي : يروى أنّ الله تعالى خلق نارين فمرج أحداهما بالأخرى فأكلت إحداهما الأخرى وهي نار السموم ، فخلق منها إبليس .

تنبيه : ﴿ من مارج من نار ﴾ مَنْ الأولى لابتداء الغاية ؛ وفي الثانية وجهان : أحدهما : أنها للبيان . والثاني : أنها للتبعيض .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ الناشئة عن مبدئكما ومربيكما وسيدكما ﴿ تكذبان ﴾ أي : مما أفاض عليكما في أطوار خلقتكما حتى صيركما أفضل المركبات وخلاصة الكائنات .

﴿ رب ﴾ أي : خالق ومدبر ﴿ المشرقين ﴾ أي : مشرق الشتاء ومشرق الصيف ﴿ ورب المغربين ﴾ كذلك .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ربكما أي الذي دبر لكما هذا التدبير العظيم ﴿ تكذبان ﴾ أي : بما في ذلك من الفوائد التي لا تحصى كاعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل فيه إلى غير ذلك .

﴿ مرج ﴾ أي : أرسل الرحمن ﴿ البحرين ﴾ أي : العذب والملح فجعلهما مضطربين من طبعهما الاضطراب حال كونهما ﴿ يلتقيان ﴾ أي : يتماسان على وجه الأرض بلا فصل بينهما في رؤية العين . وقال ابن عباس : بحر السماء وبحر الأرض . قال سعيد بن جبير : يلتقيان في كل عام . وقيل : يلتقي طرفاهما . وقال الحسن وقتادة : بحر فارس والروم . وقال ابن جريج : البحر المالح والأنهار العذبة . وقيل : بحر المشرق وبحر المغرب . وقيل : بحر اللؤلؤ وبحر المرجان .

﴿ بينهما برزخ ﴾ أي حاجز عظيم فعلى القول بأنهما بحر السماء وبحر الأرض فالحاجز الذي بينهما هو ما بين السماء والأرض ؛ قاله الضحاك وعلى الأقوال الباقية : قال الحسن وقتادة : هو الأرض . وقال بعضهم هو القدرة الإلهية وهذا أولى .

﴿ لا يبغيان ﴾ اختلف فيه . فقال قتادة : لا يبغيان على الناس فيغرقانهم كما طغيا فأهلكا من على الأرض في أيام نوح عليه السلام ، فجعل بينهما وبين الناس اليبس ، وقال

مجاهد وقتادة أيضاً : لا يبغي أحدهما على صاحبه فيغلبه . وقيل البرزخ ما بين الدنيا والآخرة أي : بينهما مدة قدّرها الله تعالى وهي مدّة الدنيا فهما لا يبغيان فإذا أذن الله تعالى في انقضاء الدنيا صار البحران شيئاً واحداً ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ (الإنفطار :)

(290/741)

وقال سهل بن عبد الله : البحران طريق الخير والشرّ ، والبرزخ الذي بينهما التوفيق والعصمة ، وقال الرازي : معنى الآية أنّ الله تعالى أرسل بعض البحرين إلى بعض ومن شأنهما الاختلاط ، فحجزهما يبرزخ من قدرته فهما لا يبغيان أي لا يتجاوز كل واحد منهما ما حدّه له خالقه لا في الظاهر ولا في الباطن فمتى حفرت على جنب الملح في بعض الأماكن وجدت الماء العذب وإن قربت الحفرة منه ؛ قال البقاعي : بل كلما قربت كان أحلى فخلطهما سبحانه في رأي العين وحجز بينهما في غيب القدرة هذا وهما جمادان لا نطق لهما ولا إدراك ، فكيف يبغي بعضكم على بعض أيها المدركون العقلاء ؟ .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي نعم ﴿ ربكما ﴾ أي الموجد لكما والمربي ﴿ تكذبان ﴾ أبتلك النعم أم بغيرها فهلا اعتبرتم بهذه الأصول من أنواع الموجودات فصدقتم بالآخرة لعلكم تنجون من

عذاب الله تعالى .

﴿ يخرج منهما اللؤلؤ ﴾ وهو كبار الجوهر ﴿ والمرجان ﴾ وهو صغار الجوهر ، قاله علي وابن عباس والضحاك : وقيل : بالعكس ؛ وقيل : المرجان حجر أحمر وقيل : حجر شديد البياض والمرجان أعجمي أي بمخالطة العذب المالح من غير واسطة أو بواسطة السحاب فصار ذلك كالذكر والأنثى ، وقال الرازي : فيكون العذب كاللقاح للملح ، وقال أبو حيان : قال الجمهور : إنما يخرج من الأجاج في المواضع التي تقع فيها الأنهار والمياه العذبة فأسند ذلك إليهما ، وهذا مشهور عند الغواصين . قال مكي : كما قال : ﴿ على رجل من القريتين عظيم ﴾ (الزخرف :)

أي : من إحدى القريتين وحذف المضاف كثير شائع ؛ وقيل : هو كقوله تعالى : ﴿ نسيا حوتهما ﴾ (الكهف :)

(291/741)

وإنما الناسي فتاه ، ويعزى لأبي عبيدة ؛ قال البغوي : وهذا جائز في كلام العرب أن يذكر شيئان ثم يخص أحدهما بفعل ، كقوله تعالى ﴿ يا معشر الجنّ والأنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ وكانت الرسل من الأنس ، وقيل : يخرج من أحدهما اللؤلؤ ، ومن الآخر المرجان ،

وقيل : بل يخرجان منهما جميعاً ، وقال ابن عباس : تكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر والصدف تفتح أفواهها للمطر وقد شاهده الناس فيكون تولده من بحر السماء وبحر الأرض ، وهذا قول الطبري .

وقال الزمخشري : فإن قلت لم قال منهما ، وإنما يخرجان من الملح ؟ قلت : لما التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز أن يقال يخرجان منهما كما يقال : يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر وإنما يخرجان من بعضه ؛ وتقول خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محاله بل من دار واحدة من دوره ، وقيل : لايخرجان إلا من ملتقى الملح والعذب ا . ه .

وقال بعضهم : كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من كلام بعض الناس ، فمن الجائز أنه يسوقهما من البحر العذب إلى الملح ، واتفق أنهم لم يخرجوهما إلا من الملح ، وإذا كان في البر أشياء تخفى على التجار المتردّدين القاطعين المفاوز فكيف بما في قعر البحر . قال ابن عادل : والجواب عن هذا أنّ الله تعالى لا يخاطب الناس ولا يمتن عليهم إلا بما يألفون ويشاهدون .

وقرأ نافع وأبو عمرو : يخرج بضم الياء وفتح الراء مبنياً للمفعول ، والباقون بفتح الياء وضم الراء مبنياً للفاعل على المجاز . وقرأ السوسي وشعبة : بإبدال الهمزة الساكنة واواً وصلاً ووقفاً ، وإذا وقف حمزة أبدل الأولى والثانية .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ أي : الملك الأعظم المالك لكما ﴿ تكذبان ﴾

أبكثرة النعم من خلق المنافع في البحار وتسليطكم عليها ، وإخراج الحلي العجيبة أم بغيرها .

(292/741)

﴿ وله ﴾ أي : لا لغيره ﴿ الجواري ﴾ أي : السفن الكبار والصغار الفارغة والمشحونة فلا تغترّوا بالأسباب الظاهرة فتقفوا معها فتسندوا شيئاً من ذلك إليها ، وقرأ : ﴿ والمنشآت ﴾ حمزة وأبو بكر بخلاف عنه بكسر الشين بمعنى أنها تنشئ الموج بجريها أو تنشئ السير إقبالاً وإدباراً ، أو التي رفعت شراعها أي قلوعها والشراع القلع وعن مجاهد كل ما رفعت قلعها فهي من المنشآت وإلا فليست منها ونسبة الرفع إليها مجاز كما يقال : أنشأت السحابة المطر وقرأ الباقون بفتح الشين وهو اسم مفعول أي أنشأها الله تعالى أو الناس أو رفعوا شراعها .

تنبيه : الجواري جمع جارية وهو اسم أو صفة للسفينة ، وخصها بالذكر لأنّ جريها في البحر لا صنع للبشر فيه ، وهم معترفون بذلك فيقولون لك الفلك ولك الملك ؛ وإذا خافوا الغرق دعوا الله وحده ، وسميت السفينة جارية لأنّ شأنها ذلك وإن كانت واقفة في الساحل كما سماها في موضع آخر بالجارية كما قال تعالى : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في

الجارية ﴾ (الحاقة :)

وسماها بالفلك قبل أن لم تكن كذلك فقال تعالى لنوح عليه السلام : ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ﴾ (هود :)

ثم بعد ما عملها سماها سفينة فقال تعالى : ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾ (العنكبوت :)

قال الرازي : فالفلك أولاً ثم السفينة ثم الجارية ا .ه . والمرأة المملوكة تسمى أيضاً جارية لأنّ شأنها الجري والسعي في حوائج سيدها بخلاف الزوجة فهي من الصفات الغالبة .

والسفينة فعليه بمعنى فاعله عند ابن دريد ؛ كأنها تسفن الماء وفعيلة بمعنى مفعولة عند غيره بمعنى مسفونة وقوله تعالى : ﴿ في البحر ﴾ متعلق بالمنشآت وقوله تعالى : ﴿ كالأعلام ﴾ حال إمّا من الضمير المستكن في المنشآت وإمّا من الجواري وكلاهما بمعنى واحد ؛ والأعلام الجبال والعلم الجبل الطويل علماً على الأرض قال القائل:

إذا قطعنا علماً بدا لنا علم

وقال آخر:

*ربما أوفيت في علم ** ترفعن ثوبي شمالات*

وقالت الخنساء في أخيها صخر:

*وإن صخراً لتأتمّ الهداة به** كأنه علم في رأسه نار*

أي : جبل فالسفن في البحر كالجبال في البرّ ؛ وجمع الجواري . ووحد البحر وجمع الأعلام إشارة إلى عظمة البحر .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ العظمى التي عمت خلقه ﴿ تكذبان ﴾ أبتلك النعم من خلق موادّ السفن والإرشاد إلى أخذها وكيفية تركيبها وإجرائها في البحر وأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها غيره أم غيرها ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ كل من عليها فان ﴾ أي : هالك غلب فيه من يعقل على غيره وجميعهم مراد ؛ والضمير في عليها للأرض قال بعضهم : وإن لم يجر لها ذكر كقوله تعالى : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ (ص :)

ورد هذا بأنه قد تقدّم ذكرها في قوله تعالى : ﴿ والأرض وضعها ﴾ (الرحمن :)

وقيل : الضمير عائد إلى الجواري .

قال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة : هلكت أهل الأرض فنزل : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ فأيقنت الملائكة بالهلاك .

فإن قيل : الكلام في تعدّد النعم فأين النعمة في فناء الخلق ؟

أجيب : بأنها التسوية بينهم في الموت والموت سبب للنقل إلى دار الجزاء والثواب .

﴿ ويبقى ﴾ أي : بعد فناء الكل بقاء مستمرّا إلى ما لا نهاية له ﴿ وجه ربك ﴾ أي : ذاته فالوجه عبارة عن وجود ذاته . قال ابن عباس : الوجه عبارة عنه .

فإن قيل كيف خاطب الاثنين بقوله : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ وخاطب ههنا الواحد فقال : ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ ولم يقل وجه ربكما ؟

أجيب : بأنّ الإشارة ههنا وقعت إلى كل أحد فقال : ويبقى وجه ربك أيها السامع ليعلم كل أحد أنّ غيره فان فلو قال : ويبقى وجه ربكما لكان كل أحد يخرج نفسه ورفيقه ؛ المخاطب عن الفناء ، فإن قيل : فلو قال : ويبقى وجه الرب من غير خطاب كان أدل على فناء الكل ؛ أجيب : بأن كاف الخطاب في الرب إشارة إلى اللطف ، والإبقاء إشارة إلى القهر والموضع موضع بيان اللطف وتعديد النعم ، فلهذا قال : بلفظ الرب وكاف الخطاب

(294/741)

ولما ذكر تعالى مباينته للمخلوقات وصف نفسه بالإحاطة الكاملة فقال تعالى : ﴿ ذو الجلال ﴾ أي : العظمة التي لا ترام وهو صفة ذاته التي تقتضي إجلاله عن كل ما لا يليق به ﴿ والإكرام ﴾ أي : الإحسان العام وهو صفة فعله مع جلاله وعظمته .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ أي : المربى لكما على هذا الوجه الذي مآله إلى

العدم إلى أجل مسمى ﴿ تكذبان ﴾ أبتلك النعم من بقاء الرب وفناء الكل والحياة الدائمة والنعيم المقيم أم بغيرها ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ كل من عليها فان ﴾ أي : هالك غلب فيه من يعقل على غيره وجميعهم مراد ؛ والضمير في عليها للأرض قال بعضهم : وإن لم يجر لها ذكر كقوله تعالى : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ (ص :)

ورد هذا بأنه قد تقدّم ذكرها في قوله تعالى : ﴿ والأرض وضعها ﴾ (الرحمن :)

وقيل : الضمير عائد إلى الجواري .

قال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة : هلكت أهل الأرض فنزل : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ فأيقنت الملائكة بالهلاك .

فإن قيل : الكلام في تعدّد النعم فأين النعمة في فناء الخلق ؟

أجيب : بأنها التسوية بينهم في الموت والموت سبب للنقل إلى دار الجزاء والثواب .

﴿ ويبقى ﴾ أي : بعد فناء الكل بقاء مستمرّا إلى ما لا نهاية له ﴿ وجه ربك ﴾ أي : ذاته فالوجه عبارة عن وجود ذاته . قال ابن عباس : الوجه عبارة عنه .

فإن قيل كيف خاطب الاثنين بقوله : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ وخاطب ههنا الواحد فقال : ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ ولم يقل وجه ربكما ؟

أجيب : بأنّ الإشارة ههنا وقعت إلى كل أحد فقال : ويبقى وجه ربك أيها السامع ليعلم كل

أحد أنّ غيره فان فلو قال : ويبقى وجه ربكما لكان كل أحد يخرج نفسه ورفيقه ؛ المخاطب عن الفناء ، فإن قيل : فلو قال : ويبقى وجه الرب من غير خطاب كان أدل على فناء الكل ؛ أجيب : بأن كاف الخطاب في الرب إشارة إلى اللطف ، والإبقاء إشارة إلى القهر والموضع موضع بيان اللطف وتعديد النعم ، فلهذا قال : بلفظ الرب وكاف الخطاب

(295/741)

ولما ذكر تعالى مباينته للمخلوقات وصف نفسه بالإحاطة الكاملة فقال تعالى : ﴿ ذو الجلال ﴾ أي : العظمة التي لا ترام وهو صفة ذاته التي تقتضي إجلاله عن كل ما لا يليق به ﴿ والإكرام ﴾ أي : الإحسان العام وهو صفة فعله مع جلاله وعظمته .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ أي : المربى لكما على هذا الوجه الذي مآله إلى العدم إلى أجل مسمى ﴿ تكذبان ﴾ أبتلك النعم من بقاء الرب وفناء الكل والحياة الدائمة والنعيم المقيم أم بغيرها ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ كل من عليها فان ﴾ أي : هالك غلب فيه من يعقل على غيره وجميعهم مراد ؛ والضمير في عليها للأرض قال بعضهم : وإن لم يجر لها ذكر كقوله تعالى : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ (ص :)

ورد هذا بأنه قد تقدّم ذكرها في قوله تعالى : ﴿ والأرض وضعها ﴾ (الرحمن :)

وقيل : الضمير عائد إلى الجواري .

قال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة : هلكت أهل الأرض فنزل : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ فأيقنت الملائكة بالهلاك .

فإن قيل : الكلام في تعدّد النعم فأين النعمة في فناء الخلق ؟

أجيب : بأنها التسوية بينهم في الموت والموت سبب للنقل إلى دار الجزاء والثواب .

﴿ ويبقى ﴾ أي : بعد فناء الكل بقاء مستمرّا إلى ما لا نهاية له ﴿ وجه ربك ﴾ أي : ذاته فالوجه عبارة عن وجود ذاته . قال ابن عباس : الوجه عبارة عنه .

فإن قيل كيف خاطب الاثنين بقوله : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ وخاطب ههنا الواحد فقال : ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ ولم يقل وجه ربكما ؟

أجيب : بأنّ الإشارة ههنا وقعت إلى كل أحد فقال : ويبقى وجه ربك أيها السامع ليعلم كل أحد أنّ غيره فان فلو قال : ويبقى وجه ربكما لكان كل أحد يخرج نفسه ورفيقه ؛ المخاطب عن الفناء ، فإن قيل : فلو قال : ويبقى وجه الرب من غير خطاب كان أدل على فناء الكل ؛ أجيب : بأن كاف الخطاب في الرب إشارة إلى اللطف ، والإبقاء إشارة إلى القهر والموضع موضع بيان اللطف وتعديد النعم ، فلهذا قال : بلفظ الرب وكاف الخطاب

ولما ذكر تعالى مباينته للمخلوقات وصف نفسه بالإحاطة الكاملة فقال تعالى : ﴿ ذو الجلال ﴾ أي : العظمة التي لا ترام وهو صفة ذاته التي تقتضي إجلاله عن كل ما لا يليق به ﴿ والإكرام ﴾ أي : الإحسان العام وهو صفة فعله مع جلاله وعظمته .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ أي : المربى لكما على هذا الوجه الذي مآله إلى العدم إلى أجل مسمى ﴿ تكذبان ﴾ أبتلك النعم من بقاء الرب وفناء الكل والحياة الدائمة والنعيم المقيم أم بغيرها ؟ .

(297/741)

وقوله تعالى : ﴿ يسأله من في السموات ﴾ أي : كلها كلهم ﴿ والأرض ﴾ كذلك مستأنف وقيل : حال من وجه والعامل فيه يبقى أي : يبقى مسؤولاً من أهل السموات والأرض بلسان الحال أو المقال أو بهما . قال ابن عباس وأبو صالح : أهل السموات يسألونه المغفرة ولا يسألونه الرزق ، وأهل الأرض يسألونهما جميعاً . وقال ابن جريج : يسأله الملائكة الرزق لأهل الأرض فكانت المسألتان جميعاً من أهل السماء وأهل الأرض لأهل الأرض كما في الحديث ، قال القرطبي : وفي الحديث : "إن من الملائكة ملكاً له أربعة أوجه وجه كوجه

الإنسان يسأل الله تعالى الرزق لبني آدم ، ووجه كوجه الأسد وهو يسأل الله تعالى الرزق للسباع ، ووجه كوجه الثور وهو يسأل الله تعالى الرزق للبهائم ، ووجه كوجه النسر وهو يسأل الله تعالى الرزق للطير" . وقال ابن عطاء : إنهم يسألوه القوّة على العبادة . وقوله تعالى : ﴿ كل يوم ﴾ منصوب بالاستقرار الذي تضمنه الخبر وهو قوله تعالى : ﴿ هو في شان ﴾ والشأن الأمر روى أبو الدرداء : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كل يوم هو في شان قال من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كربة ويرفع أقواماً ويضع آخرين" . وعن ابن عمر : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "يغفر ذنباً ويكشف كرباً ويجيب داعياً" . وقال أكثر المفسرين من شأنه أنه يحيي ويميت ويرزق ويعزّ قوماً ويذل قوماً ويشفي قوماً ويفرج مكروباً ويجيب داعياً ويعطي سائلاً ويغفر ذنباً إلى ما لا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه ما يشاء .

وروى البغوي : عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : "إنّ مما خلق الله عز وجل لوحاً من درّة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء قلمه نور وكلماته نور ينظر الله تعالى فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعزّ ويذلّ ويفعل ما يشاء" ، فذلك قوله تعالى : ﴿ كل يوم هو في شان ﴾ .

وقال سفيان بن عيينة : الدهر كله عند الله تعالى يومان أحدهما : اليوم الذي هو مدّة عمر الدنيا فشأنه فيه أي : في كل يوم من أيامها الأمر والنهي والإماتة والإحياء والاعطاء والمنع ، والثاني : يوم القيامة وشأنه فيه الجزاء والحساب والثواب والعقاب . وقال أبو سليمان الداراني : في هذه الآية له في كل يوم إلى العبيد برّ جديد .

وقال بعض المفسرين : شأنه تعالى أنه يخرج في كل يوم وليلة ثلاثة عساكر عسكراً من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمّهات ، وعسكراً من الأرحام إلى الدنيا ، وعسكراً من الدنيا إلى القبور ثم يرتحلون جميعاً إلى الله تعالى . وقيل : نزلت في اليهود حين قالوا إنّ الله لا يقضي يوم السبت شيئاً .

وسأل بعض الملوك وزيره عن هذه الآية فاستمهله إلى الغد وذهب كئيباً يتفكر فيها ، فقال له غلام أسود : يا مولاي أخبرني ما أصابك لعل الله تعالى يسهل لك على يدي ؛ فأخبره فقال : أنا أفسرها للملك فأعلمه فقال أيها الملك شأن الله تعالى أن يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ويخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحيّ ، ويشفي سقيما ، ويسقم صحيحا ، ويبتلي معافى ، ويعافي مبتلى ، ويعز ذليلا ، ويذل عزيزا ، ويفقر غنيا ، ويغني فقيرا ، فقال الأمير : أحسنت ، وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة ، فقال : يا مولاي هذا من شأن الله تعالى .

وعن عبد الله بن طاهر : أنه دعا الحسين بن الفضل وقال له أشكلت عليّ ثلاث آيات

دعوتك لتكشف لي قوله تعالى : ﴿ فأصبح من النادمين ﴾ (المائدة :)

وقد صح أنّ الندم توبة . وقوله تعالى : ﴿ كل يوم هو في شان ﴾ وصح أنّ القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة وقوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ (النجم :)

(299/741)

فمعناه ليس له إلا ما يسعى فما بال الأضعاف ؟ قال الحسين : يجوز أن لا يكون الندم توبة في تلك الأمة ، ويكون في هذه الأمة لأنّ الله تعالى خص هذه الأمة بخصائص لم تشاركهم فيها الأمم . وقيل : إنّ ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ولكن على حمله ، وأما قوله تعالى ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ فمعناه أنه ليس له إلا ما يسعى عدلاً ولي أن أجزيه بواحدة ألفاً فضلاً ، وأما قوله تعالى : ﴿ كل يوم هو شان ﴾ فإنها شؤون يبديها لاشؤون يبتديها ؛ فقام عبد الله : فقبل رأسه وسوغ خراجه .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ المدبر لكما هذا التدبر العظيم ﴿ تكذبان ﴾ أي : أبتلك النعم أم بغيرها ؟ .

﴿ سنفرغ لكم ﴾ أي سنقصد لحسابكم وجزائكم ؛ وقرأ حمزة والكسائي : بعد السين بالياء التحتية والباقون بالنون ﴿ أيه الثقلان ﴾ أي : الإنس والجنّ وذلك يوم القيامة فإنه

تعالى لا يفعل ذلك في غيره قال القرطبي : يقال فرغت من الشغل أفرغ فراغاً وفروغاً وتفرّغت لكذا واستفرغت مجهودي في كذا أي بذلت وليس بالله تعالى شغل يفرغ منه ؛ وإنما المعنى سنقصد لمجازاتكم ومحاسبتكم فهو وعيد لهم وتهديد قاله ابن عباس والضحاك ؛ كقول القائل لمن يريد تهديده : إذا أتفرّغ لك أي أقصدك وأنشد ابن الأنباري لجرير:

*الآن وقد فرغت إلى نمير ** فهذا حين كنت لهم عذابا*

يريد : وقد قصدت ، وأنشد الزجاج والنحاس:

فرغت إلى العبد المقيد في الحجل

(300/741)

وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم "أنه لما بايع الأنصار ليلة العقبة صاح الشيطان : يا أهل الجباجب هذا مذمم يبايع بني قيلة على حربكم ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم هذا أزبّ العقبة أما والله يا عدوّ الله لأتفرغنّ لك" أي : أقصد إلى إبطال أمرك . وهذا اختيار الكسائي وغيره . قال ابن الأثير الأزبّ في اللغة الكثير الشعر ؛ وهو ههنا شيطان اسمه أزبّ العقبة وهو الحية . وقيل : إنّ الله تعالى وعد على التقوى وأوعد على الفجور ثم

قال تعالى : ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ أي ما وعدناكم ونوصل كلاًّ إلى ما وعدناه أقسم ذلك وأتفرّغ منه قاله الحسن ومقاتل وابن زيد .

تنبيه : رسمْ ﴿ أيه ﴾ بغير ألف فإذا وقف عليها وقف أبو عمرو والكسائي أيها بالألف ووقف الباقون على الرسم أيه وفى الوصل قرأ ابن عامر أيه برفع الهاء والباقون بنصبها .

فائدة : سمى الإنس والجن بالثقلين لعظم شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما بسبب التكليف ؛ وقيل : سموا بذلك لأنهما ثقلا الأرض أحياء وأمواتا . قال الله تعالى : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ (الزلزلة :)

ومنه قولهم : أعطه ثقله أي وزنه ؛ وقال بعض أهل المعاني كل شيء له قدر ووزن ينافس فيه فهو ثقل ومنه قيل لبيض النعام : ثقل ؛ لأنّ واجده وصائده يفرح به إذا ظفر به ؛ وقال جعفر الصادق : سميا ثقلين لأنهما مثقلان بالذنوب ؛ وقيل : الثقل الإنس لشرفهم وسمي الجن بذلك مجازاً للمجاورة والتغلب كالقمرين والعمرين والثقل العظيم الشريف . قال صلى الله عليه وسلم "إني تارك فيكم ثقلين كتاب الله عز وجل وعترتي" .

﴿ فبأيّ آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ أي : المحسن إليكما بهذا الصنيع المحكم

﴿ تكذبان ﴾ أي : أبتلك النعم من إثابة أهل طاعته وعقوبة أهل معصيته أم بغيرها ؟ .

﴿ يا معشر الجنّ ﴾ أي : يا جماعة فيهم الأهلية والعشرة والتصادق ﴿ والإنس ﴾ أي : الخواص والمستأنسين والمأنوسين المبني أمرهم على الإقامة والاجتماع ﴿ إن استطعتم ﴾ أي : وجدت لكم إطاعة الكون في ﴿ أن تنفذوا ﴾ أي : تسلكوا بأجسامكم وتمضوا من غير مانع يمنعكم ﴿ من أقطار ﴾ أي : نواحي ﴿ السموات والأرض ﴾ هاربين من الله تعالى من أنواع الجزاء بينكم ، أو عصياناً عليه في قبول أحكامه وجري مراداته وأقضيته عليكم من الموت وغيره . وقوله تعالى : ﴿ فانفذوا ﴾ أمر تعجيز والمعنى : إن استطعتم أن تجوزوا نواحي السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فجوزوا ، يعني لا مهرب لكم ولا خروج لكم عن ملك الله تعالى أينما تولوا فثم ملك الله عز وجلّ .

فإن قيل : ما الحكمة في تقديم الجنّ على الإنس ههنا ، وتقديم الإنس على الجنّ في قوله تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ﴾ (الإسراء :)

أجيب بأنّ النفوذ من أقطار السموات والأرض بالجنّ أليق إن أمكن والإتيان بمثل القرآن بالإنس أليق إن أمكن فقدم في كل موضع ما يليق به .

فإن قيل : لم جمع في قوله تعالى : ﴿ سنفرغ لكم ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ إن استطعتم ﴾ وثنى في قوله ﴿ أيه الثقلان ﴾ أجيب : بأنهما فريقان في حال الجمع كقوله تعالى : ﴿ فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ (النمل :)

﴿ وهذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ .

﴿ لا تنفذون ﴾ أي : لا تقدرون على النفوذ ﴿ إلا بسلطان ﴾ أي : إلا بقوّة وقهر وأنى لكم ذلك ؟ وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال معناه إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض فاعلموا ولن تعلموا إلا بسلطان أي بينة من الله تعالى .

تنبيه : في هذه الآيات والتي في الأحقاف وفي قل أوحى دليل على أنّ الجنّ مكلفون مخاطبون مأمورون منهيون مثابون معاقبون كالإنس سواء مؤمنهم كمؤمنهم وكافرهم ككافرهم .

(302/741)

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ المحسن إليكما المربي لكما بما تعرفون به قدرته على ما يريد ﴿ تكذبان ﴾ أبتلك النعم أم بغيرهما ؟ .

وقال البغويّ : وفي الخبر يحاط على الخلق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون ﴿ يا معشر الجنّ والإنس إن استطعتم ﴾ الآية ، فذلك قوله تعالى : ﴿ يرسل عليكما ﴾ أي : أيها المعاندون ؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما : حين يخرجون من القبور لسوقهم إلى المحشر ﴿ شواظ من نار ﴾ قال مجاهد : هو اللهب الأخضر المنقطع من النار . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : هو اللهب الخالص الذي لا دخان له . وقال الضحاك هو الدخان

الذي يخرج من اللهب ليس كدخان الحطب وقال سعيد بن جبير : عن ابن عباس رضي الله عنهما : إذا خرجوا من قبورهم ساقهم شواظ إلى المحشر وقيل : هو اللهب الأحمر .

وقال عمرو : هو النار والدخان جميعاً وحكاه الأخفش عن بعض العرب قال حسان:

*هجوتك فاختضعت لها بذل ** بقافية تأجج كالشواظ*

وقرأ ابن كثير : بكسر الشين والباقون : بضمها ، وهما لغتان بمعنى واحد مثل صوار من البقر وصوار وهو القطيع من البقر .

واختلف في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ونحاس ﴾ فقيل : هو الصفر المعروف يذيبه الله تعالى ويعذبهم به . وقيل : هو الدخان الذي لا لهب معه قاله الخليل ، وهو معروف في كلام العرب ؛ وأنشد الأعشى:

*تضيء كضوء سراج السلي

** طـ لم يجعل الله فيه نحاسا *

وقال ابن برحان والعرب تسمى الدخان نحاساً بضم النون وكسرها ، وأجمع القراء على ضمها ا . ه وقال الضحاك : هو دردري الزيت المغلي . وقال الكسائي : التي لها ريح شديد . ﴿ فلا تنتصران ﴾ أي فلا تمتنعان ولا ينصر بعضكم بعضاً من ذلك بل يسوقكم إلى المحشر .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي نعم ﴿ ربكما ﴾ أي : المدبر لكما هذا التدبير المتقن ﴿ تكذبان ﴾

أبتلك النعم ـ فإن التهديد لطف والتمييز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار في عداد الآلاء ـ أم بغيرها ؟ .

(303/741)

﴿ فإذا انشقت السماء ﴾ أي : انفرجت ، فكانت أبواباً لنزول الملائكة ﴿ فكانت وردة ﴾ أي : محمرّة مثل الوردة ﴿ كالدهان ﴾ أي : كالأديم الأحمر على خلاف العهد بها لشدّة حرّ نار جهنم . وقال مجاهد والضحاك وغيرهما : الدهان الدهن والمعنى صارت في صفاء الدهن ؛ والدهان على هذا جمع دهن . وقال سعيد بن جبير وقتادة : المعنى تصير في حمرة الورد وجريان الدهن ، أي : تذوب مع جريان الدهن حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم ، وتصير مثل الدهن لرقتها وذوبانها ؛ وقال الحسن : كصب الدهن فإنك إذا صببته ترى فيه ألواناً ؛ وجواب إذا فما أعظم الهول .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ أي : الخالق والرازق لكما ﴿ تكذبان ﴾ أبتلك النعم أم بغيرها مما يكون بعد ذلك ؟ .

﴿ فيومئذ ﴾ أي : فتسبب عن يوم إذ انشقت السماء أنه ﴿ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جانّ ﴾ أي : سؤال تعرّف واستعلام ، بل سؤال تقريع وتوبيخ وملام ، وذلك أنه لا يقال له

هل فعلت كذا ؟ بل يقال له لم فعلت كذا ؟ على أنّ ذلك اليوم طويل وهو ذو ألوان تارة يسأل فيه ، وتارة لا يسأل والأمر في غاية الشدّة وكل لون من تلك الألوان يسمى يوماً فيسأل في بعض ولا يسأل في بعض وقيل : المعنى ألا يسألون إذا استقروا في النار . وقال الحسن وقتادة : لا يسألون عن ذنوبهم لأنّ الله تعالى حفظها عليهم وكتبتها الملائكة ؛ رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما . وعن الحسن ومجاهد : لا تسأل الملائكة عنهم لأنهم يعرفونهم بسيماهم ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ (الرحمن :)

.

ورواه مجاهد عنه أيضاً : في قوله تعالى : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ﴾ (الحجر :)

وقوله تعالى : ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ (الرحمن :)

قال لا يسألهم ليعرف ذلك منهم ولكنه يسألهم لم عملتموها سؤال توبيخ ؛ وقال أبو العالية : لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم ؛ وقال قتادة : يسألون قبل الختم على أفواههم ثم يختم على أفواههم وتتكلم جوارحهم شاهدة عليهم .

(304/741)

تنبيه : الجانّ هنا وفيما يأتي بمعنى الجني والإنس بمعنى الإنسي .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ أي : الذي ربى كلاً منكم بما لا مطمع في إنكاره ولا خفاء فيه ﴿ تكذبان ﴾ أبتلك النعم أم بغيرها مما أنعم الله تعالى على عبادة المؤمنين في هذا اليوم ؟ .

﴿ يعرف ﴾ أي : لكل أحد ﴿ المجرمون ﴾ أي : العريقون في هذا الوصف

﴿ بسيماهم ﴾ أي العلامات التي صور الله تعالى ذنوبهم فيها ، فجعلها ظاهرة بعد أن كانت باطنة وظاهرة الدلالة عليهم ، كما يعرف الآن الليل إذا جاء لا يخفى على أحد أصلاً وكذا النهار ونحوهما لغير الأعمى ؛ قال البقاعي : وتلك السيمى والله أعلم زرقه العيون ، وسواد الوجوه ، والعمى والصمم والمشي على الوجوه ، ونحو ذلك ، وكما يعرف المحسنون بسيماهم : من بياض الوجوه ، وإشراقها ، وتبسمها ، والغرّة والتحجيل ، ونحو ذلك .

وسبب عن هذه المعرفة قوله تعالى : مشيراً بالبناء للمفعول إلى سهولة الأخذ من أيّ آخذ كان ﴿ فيؤخذ بالنواصي ﴾ أي : منهم وهي مقدمات الرؤوس ﴿ والأقدام ﴾ بعد أن يجمع بينها فيسحبون بها سحباً من كل ساحب أقامه الله تعالى لذلك لا يقدرون على الامتناع بوجه فيلقون في النار ؛ وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره وعنه يؤخذ برجلي الرجل فيجمع بينهما وبين ناصيته حتى يندق ظهره ، ثم يلقى في النار ؛ وفعل بالكافر ذلك ليكون أشدّ لعذابه ؛ وقيل : تسحبه الملائكة إلى النار

تارة تأخذ بناصيته وتجره على وجهه وتارة تأخذ بقدميه وتسحبه على وجهه .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ أي : المنعم عليكما الذي دبر مصالحكم بعد أن أوجدكم ﴿ تكذبان ﴾ أبتلك النعم أم بغيرها مما وعد أن يفعل من الجزاء في الآخرة لكل شخص بما كان يعمل في الدنيا أو غير ذلك من الفضل ؟ .

﴿ هذه جهنم ﴾ أي : يقال لهم إذا ألقوا فيها هذه جهنم ﴿ التي يكذب ﴾ أي : ماضياً وحالاً ومآلاً استهانة ؛ ولو ردّوا إلى الدنيا بعد إدخالهم إياها لعادوا لما انهوا عنه .

(305/741)

﴿ بها المجرمون ﴾ أي : المشركون الحقيقون بالإجرام ، وهو قطع ما من حقه أن يوصل وهو ما أمر الله تعالى به وخص هذا الاسم إشارة إلى أنها تلقاهم بالتجهم والعبوسة والكلاحة والفظاعة كما كانوا يفعلون مع الصالحين عند الإجرام المذكور .

﴿ يطوفون بينها ﴾ أي بين درك النار ﴿ وبين حميم آن ﴾ أي : حار متناه في الحرارة وهو منقوص كقاض ؛ يقال : أنى يأني فهو آن ؛ كقضى يقضي فهو قاض ؛ والمعنى أنهم يسعون بين الحميم والجحيم ، فإذا استغاثوا من النار جعل عذابهم الحميم الآن الذي صار كالمهل ؛ وهو قوله تعالى : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل ﴾ (الكهف :)

وقال كعب الأحبار : وادٍ من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم في الأغلال فيغمسون فيه حتى تنخلع أوصالهم ، ثم يخرجون منه وقد أحدث الله تعالى لهم خلقاً جديداً ، فيلقون في النار ، فذلك قوله تعالى : ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ .

فإن قيل : هذه الأمور ليست نعمة ؟ فكيف قال عز وجل : ﴿ فبأيّ آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ أي : المحسن أيها الثقلان إليكما ﴿ تكذبان ﴾ أجيب : من وجهين:

أحدهما : أن ما وصف من هول يوم القيامة وعقاب المجرمين فيه زجر عن المعاصي وترغيب في الطاعات ، وهذا من أعظم النعم ؛ روي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أتى على شاب يقرأ في الليل ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ (الرحمن :) فوقف الشاب وخنقته العبرة وجعل يقول ويحي من يوم تنشق فيه السماء ويحي فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم "ويحك يا فتى منها فو الذي نفسي بيده لقد بكت ملائكة السماء من بكائك" .

الثاني : أنّ المعنى إن كذبتم بالنعمة المتقدّمة استحقيتم هذه العقوبات وهي دالة على الإيمان بالغيب ، وهو من أعظم النعم .

(306/741)

ولما عرف ما للمجرم المجترئ على العظائم وقدمه لما اقتضاه مقام التكذيب من الترهيب ، وجعله سابعاً إشارة إلى أبواب النار السبع ، عطف عليه ما للخائف الذي أداه خوفه إلى الطاعة ، وجعله ثامناً على عدد أبواب الجنة الثمانية فقال تعالى:

﴿ ولمن خاف ﴾ أي : من الثقلين ووحد الضمير مراعاة للفظ من إشارة إلى قلة الخائفين ﴿ مقام ربه ﴾ أي : قيامه بين يدي ربه للحساب بترك المعصية والشهوة ؛ قال القرطبي : ويجوز أن يكون المقام للعبد ثم يضاف إلى الله تعالى وهو كالأجل في قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء أجلهم ﴾ (الأعراف :)

وقوله تعالى في موضع آخر : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ﴾ (نزح :)

. وقال مجاهد : هو الذي يهم بالمعصية فيذكر الله تعالى فيدعها من مخافته عز وجل .

﴿ جنتان ﴾ أي : لكل خائف جنتان على حدة . قال مقاتل : جنة عدن وجنة النعيم وقال محمد بن علي الترمذي : جنة بخوف ربه وجنة بترك شهوته ؛ وقال ابن عباس : من خاف مقام ربه بعد أداء الفرائض ؛ وقيل : جنتان لجميع الخائفين ؛ وقيل : جنة لخائف الإنس وأخرى لخائف الجنّ فيكون من باب التوزيع ؛ وقيل : مقام هنا مقحم كما تقول أخاف جانب فلان ، وفعلت هذا لمكانك ، وأنشد :

* . . . . . ونفيت عنه ** مقام الذئب ؛ كالرجل اللعين*

يريد ونفيت عنه الذئب ؛ قال ابن عادل : وليس بجيد لأنّ زيادة الاسم ليست بالسهلة ؛

وقيل : إنّ الجنتين جنته التي خلقت له وجنة ، ورثها ؛ وقيل : إحدى الجنتين منزله والأخرى منزل أزواجه كما يفعل رؤساء الدنيا ؛ وقيل : إحدى الجنتين مسكنه والأخرى بستانه ؛ وقيل : إحدى الجنتين أسافل القصور والأخرى أعاليها ؛ وقال الفراء : إنها جنة واحدة وإنما ثنى مراعاة لرؤوس الآي ؛ وأنكر القتيبي هذا وقال : لا يجوز أن يقال خزنة النار عشرون وإنما قال : تسعة عشر مراعاة لرؤوس الآي ؛ وقيل : جنة واحدة وإنما ثنى تأكيداً كقوله تعالى : ﴿ ألقيا في جهنم ﴾ (ق :)

(307/741)

وعن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل إلا أن يبلغه الله تعالى إليه إلا أن يبلغه الله تعالى الجنة" أخرجه الترمذي . قوله أدلج الإدلاج مخففاً سير أول الليل ، ومثقلاً سير آخر الليل ؛ والمراد من الإدلاج التشمير والجد والاجتهاد في أوّل الأمر فإن من سار في أوّل الليل كان جديراً ببلوغ المنزل .

روى البغوي بسنده عن أبي الدرداء أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص على المنبر وهو يقول : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ قلت : وإن زنى وإن سرق يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت الثانية :

وإن زنى وإن سرق يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الثالثة : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ قلت الثالثة : وإن زنى وإن سرق يا رسول الله قال : "وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي الدرداء" .

فائدة : قال القرطبي : في هذه الآية دليل على أنّ من قال لزوجته إن لم أكن من أهل الجنة فأنت طالق إنه لا يحنث إن كان هم بالمعصية وتركها خوفا من الله تعالى وحياء منه ؛ وقاله سفيان الثوري وأفتى به . هذا ومذهب الشافعي أنه لا يحنث إذا كان مسلماً ومات على الإسلام .

وقال عطاء : نزلت هذه الآية في أبي بكر حين ذكر ذات يوم الجنة حين أزلفت والنار حين أبرزت ؛ وقال الضحاك : بل شرب ذات يوم لبناً على ظمأ فأعجبه فسأل عنه ، فأخبر عنه أنه من غير حل فاستقاءه ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه فقال : رحمك الله لقد أنزلت فيك آية وتلا عليه الآية .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ المربي لكما بإحسانه الكبار التي لا يقدر أحد على شيء منها ﴿ تكذبان ﴾ أبتلك النعمة أم بغيرها من نعمة التي لا تحصى ؟ .

(308/741)

ثم وصف الجنتين بقوله تعالى : ﴿ ذواتا ﴾ أي : صاحبتا أو خبر لمبتدأ محذوف أي : هما ذواتا ، وفي تثنية ذات لغتان الردّ إلى الأصل ، فإنّ أصلها ذوية فالعين واو واللام ياء لأنها مؤنثة ذوو الثانية التثنية على اللفظ فيقال ذاتا . وقوله تعالى ﴿ أفنان ﴾ فيه وجهان:

أحدهما : أنه جمع فنن كطلل وهو الغصن المستقيم طولاً تكون به الزينة بالورق والثمر وكمال الانتفاع ، قال النابغة الذبياني:

*بكاء حمامة تدعو هديلا

**مفجعة على فنن تغني

وفي الحديث : "أهل الجنة مرد مكحولون الوفانين" يريد الأفانين وهو جمع أفنان وأفنان جمع فنن من الشعر شبه بالغصن ذكره الهروي . وقال قتادة : ذواتا أفنان أي : ذواتا سعة وفضل على سواهما .

والوجه الثاني : أنه جمع فن وإليه أشار ابن عباس . والمعنى ذواتا أنواع وأشكال وقال الضحاك : ألوان من الفاكهة واحدها فنّ إلا أنّ الكثير في فنّ أن يجمع على فنون : وقال عطاء كل غصن فنون من الفاكهة ، ولذا سبب عنه قوله تعالى : ﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ أي : المحسن إليكما والمدبر لكما ﴿ تكذبان ﴾ أبتلك النعم من وصف الجنة الذي جعل لكم من أمثاله ما تعتبرون به ، أم بغيرها ؟ .

ولما كانت الجنان لا تقوم إلا بأنهار قال تعالى : ﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ أي : في كل واحدة

منهما عين جارية قال ابن عباس تجريان : ماء بالزيادة والكرامة من الله تعالى على أهل الجنة ؛ وعن ابن عباس أيضاً والحسن : تجريان بالماء الزلال إحدى العينين التسنيم والأخرى السلسبيل ؛ وقال عطية : أحدهما من ماء غير آسن ، والأخرى من خمر لذة للشاربين ؛ وقيل : تجريان من جبل من مسك قال أبو بكر الوراق : فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه في الدنيا تجريان من مخالفة الله عز وجل فتجريان في أي مكان شاء صاحبهما وإن علا مكانه كما تصعد المياه في الأشجار في كلّ غصن منها وإن زاد علوها .

(309/741)

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ أي : المالك لكما والمحسن إليكما ﴿ تكذبان ﴾ أبتلك النعم التي ذكرها وجعل لها في الدنيا أمثالاً كثيرة أم بغيرها ؟ .

﴿ فيهما ﴾ أي : الجنتين ﴿ من كل فاكهة ﴾ أي : تعلمونها أو لا تعلمونها ﴿ زوجان ﴾ أي : صنفان ونوعان قيل : معناه أنّ فيهما من كلّ ما يتفكه به ضربين رطباً ويابساً ؛ وقال ابن عباس : ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرّة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو .

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ ذواتا أفنان ﴾ و ﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ و ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ كلها أوصاف للجنتين فما الحكمة في فصل بعضها عن بعض بقوله تعالى

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ مع أنه تعالى لم يفصل حين ذكر العذاب بين الصفات ؛ بل قال تعالى : ﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ﴾ مع أنّ إرسال الشواظ غير إرسال النحاس ؟

أجيب : بأنه تعالى جمع العذاب جملة ، وفصل آيات الثواب ترجيحاً لجانب الرحمة على جانب العذاب ، وتطييباً للقلب وتهييجاً للسامع فإن إعادة ذكر المحبوب وتطويل الكلام في اللذات مستحسن .

فإن قيل : فما وجه توسط آية العينين بين ذكر الأفنان وآية الفاكهة والفاكهة إنما تكون على الأعصان ، والمناسبة ألا يفصل بين آية الأغصان والفاكهة ؟

أجيب : بأنّ ذلك على عادة المتنعمين إذا خرجوا متفرجين في البستان ؛ فأوّل قصدهم الفرجة بالخضرة والماء ثم يكون الأكل تبعاً .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ التي ادخرها الموجد لكما المحسن إليكما ﴿ تكذبان ﴾ أبتلك النعم أم بغيرها مما فوضه إليكم من سائر النعم التي لا تحصى .

(310/741)

ولما كان التفكه لا يكمل حسنه إلا مع التنعم من طيب الفرش وغيره ؛ قال تعالى مخبراً عن هؤلاء الذين يخافون مقام ربهم ﴿ متكئين ﴾ أي : لهم ما ذكر حال الاتكاء ، والعامل في الحال محذوف أي يتنعمون متكئين ﴿ على فرش ﴾ وعظمها بقول تعالى مخاطباً للمكلفين بما يحتمل عقولهم وإلا فليس في الجنة ما يشبهه على الحقيقة شيء من الدنيا ﴿ بطائنها من استبرق ﴾ وهو ما غلظ من الديباج ؛ قال ابن مسعود : وأبو هريرة : إذا كانت البطائن التي تلي الأرض هكذا ، فما ظنك بالظهارة ؟ .

وقيل لسعيد بن جبير : البطائن من استبرق فما الظاهر ؟ قال : هذا مما قال الله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين ﴾ (السجدة :)

وقال ابن عباس : إنما وصف لكم بطائنها لتهتدي إليه قلوبكم فأمّا الظواهر فلا يعلمها إلا الله تعالى ؛ ونظير ذلك في الجنة قوله تعالى : ﴿ عرضها السموات والأرض ﴾ (آل عمران :)

وأمّا الطول فلا يعلمه إلا الله عز وجلّ ، لكن قال القرطبي : وفي الخبر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ظواهرها نور يتلألأ" . وقيل : الظهائر من السندس . وعن الحس البطائن : هي الظواهر وهو قول الفراء . وروي عن قتادة : والعرب تقول للبطن ظهر فيقولون : هذا بطن السماء وظهر الأرض . وقال الفراء : قد تكون البطانة الظهارة والظهارة البطانة لأنّ كل واحد منهما يكون وجهاً ، والعرب تقول هذا ظهر السماء وهذا

بطن السماء لظاهرها الذي نراه وأنكر ابن قتيبة وغيره هذا ، وقالوا : لا يكون هذا إلا في الوجهين المتساويين إذا ولي كلّ واحد منهما قوم كالحائط بينك وبين قوم وعلى أديم السماء ؛ وقال ابن عباس : وصف البطائن وترك الظواهر لأنه ليس في الأرض أحد يعرف ماء الظواهر .

(311/741)

تنبيه : قال الرازي : الاستبرق معرب وهو الديباج الثخين ؛ أي : وهذا ومثله لا يخرج القرآن عن كونه عربياً لأن العربي ما نطقت به العرب وضعاً واستعمالاً من لغة غيرها ، وذلك كله سهل عليهم وبه يحصل الإعجاز بخلاف ما لم يستعملوه من كلام العجم لصعوبته عليهم ، وذكر الاتكاء لأنه حال الصحيح الفارغ القلب المتنعم البدن بخلاف المريض والمهموم .

﴿ وجنى الجنتين ﴾ أي : ثمرها ﴿ دان ﴾ أي : قريب ؛ قال ابن عباس : تدنو الشجرة حتى يجنيها وليّ الله تعالى إن شاء قائماً ، وإن شاء قاعداً وإن شاء مضطجعاً ، وقال قتادة : لا يردّ يده بُعْد ولا شوك .

قال الرازي : جنة الآخرة مخالفة لجنة الدنيا من ثلاثة أوجه : أحدها : أنّ الثمرة على رؤوس الشجر في الدنيا بعيدة على الإنسان المتكىء وفي الجنة هو متكىء والثمرة تتدلى

إليه ؛ وثانيها : أنّ الإنسان في الدنيا يسعى إلى الثمرة ويتحرك إليها وفي الآخرة هي تدنو إليهم وتدور عليهم ؛ وثالثها أنّ الإنسان في الدنيا إذا قرب من ثمرة شجرة بعد عن غيرها وثمار الجنة كلها تدنوا إليهم في وقت واحد ومكان واحد .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ أي : المربي لكما الذي يقدر على كلّ ما يريده ﴿ تكذبان ﴾ أمن قدرته على عطف الأغصان وتقريب الثمار أم من غيرها ؟ .

(312/741)

ولما كان ما ذكر لا تتم نعمته إلا بالنسوان الحسان قال تعالى : ﴿ فيهنّ ﴾ أي الجنان التي علم مما مضى أنّ لكلّ فرد من الخائفين منها جنتين ، فصح الجمع ؛ وقال الزمخشري فيهنّ في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى ، أو في الجنتين لاشتمالهما على أماكن وقصور ومجالس ا . ه . قال أبو حيان : وفيه أي : الأوّل بعد لأن الاستعمال أن يقال على الفراش كذا ، ولا يقال في الفراش كذا إلا بتكلف ولذلك جمع الزمخشري مع الفرش غيرها حتى صح له أن يقول ذلك ؛ وقيل يعود على الجنتين لأن أقل الجمع اثنان وقال الفراء كل موضع في الجنة جنة فلذلك صح أن يقال فيهنّ ﴿ قاصرات الطرف ﴾ أي : الأعين على أزواجهنّ المتكئين من الأنس والجنّ .

قال الرازي وقوله قاصرات الطرف أي نساء وأزواج فحذف الموصوف لنكتة وهي أنه تعالى لم يذكرهنّ باسم الجنس وهو النساء بل بالصفات ، فقال تعالى : ﴿ حور عين ﴾ (الواقعة :)

﴿ كواعب أترابا ﴾ (النبأ :)

﴿ قاصرات الطرف ﴾ ﴿ حور مقصورات ﴾ (الرحمن :)

ولم يقل : نساء عربا ولا نساء قاصرات لوجهين : أما على عادة العظماء كبنات الملوك إنما يذكرن بأوصافهنّ ؛ وإما لأنهنّ لما كملن كأنهنّ خرجن عن جنسهنّ .

وقوله تعالى : ﴿ قاصرات الطرف ﴾ يدلّ على عفتهنّ وعلى حسن المؤمنين في أعينهنّ فيحببن أزواجهنّ حباً شديد يشغلهنّ عن النظر إلى غيرهم . قال ابن زيد : تقول لزوجها : وعزة ربي ما أرى في الجنة أحسن منك فالحمد الله الذي جعلك زوجي وجعلني زوجك ، ويدلّ أيضاً على الحياء لأن الطرف حركة الجفن والحيية لا تحرّك جفنها ولا ترفع رأسها .

تنبيه : انظر إلى حسن هذا الترتيب فإنه تعالى بين أولاً : المسكن وهو الجنة ، ثم بين ما يتنزه به وهو البستان والأعين الجارية ، ثم ذكر المأكول فقال تعالى : ﴿ فيهما من كل فاكهة ﴾ ثم ذكر موضع الراحة بعد الأكل وهو الفراش ، ثم ذكر ما يكون في الفراش معه .

ولما كان الاختصاص بالشيء من أعظم الملذذات لا سيما المرأة قال تعالى ﴿ لم يطمثهنّ ﴾ أي : لم يجامعهنّ ويتسلط عليهنّ ؛ يقال طمثت المرأة كضرب وفرح حاضت ، وطمثها الرجل افتضها ، وأيضاً جامعها ﴿ إنس قبلهم ﴾ أي : المتكئين ﴿ ولا جان ﴾ فكأنه قال : هنّ أبكار لم يخالطهنّ أحد فإنّ هذا جمع كلّ من يمكن منه جماع ، وفي ذلك دليل على أنّ الجني يغشى كما يغشى الإنسي ويدخل الجنة ويكون لهم فيها جنتان ، قال ضمرة : للمؤمنين منهم أزواج من الحور فالإنسيات للإنس والجنيات للجنّ ، وقال مقاتل لأنهنّ خلقن في الجنة فعلى قوله يكونون من حور الجنة ؛ وقال الشعبي : من نساء الدنيا لم يمسسهن منذ أنشئن خلق وهو قول الكلبي . أي : لم يجامعهنّ في هذا الخلق الذي أنشئن فيه إنس ولا جان ؛ وأمّا في الدنيا فقال مجاهد : إذا جامع الرجل ولم يسمّ ينطوي الجني على إحليله فيجامع معه . وقال القرطبي : لم يطمثهن لم يصبهنّ بالجماع قبل أزواجهنّ أحد ، وهذا شامل لنساء الجنة ولنساء الدنيا بعد إنشائهنّ خلقاً جديداً ، وقرأ الكسائي : يطمثهنّ بضم الميم في الموضعين بخلاف عنه وتخييراً في أحدهما ، وهما لغتان : يقال طمثها يطمثها ويطمثها إذا جامعها .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ المدبر مصالحكما ﴿ تكذبان ﴾ أي : بأي نوع من أنواع هذا الإحسان أم غيره .

﴿كأنهنّ الياقوت﴾ أي : صفاء ﴿والمرجان﴾ أي : اللؤلؤ بياضاً ، والياقوت جوهر نفيس يقال إنّ النار لا تؤثر فيه ، والمرجان صغار اللؤلؤ وأشدّه بياضاً ؛ وقيل : شبه لونهنّ ببياض اللؤلؤ مع حمرة الياقوت لأنّ أحسن الألوان البياض المشرب بحمرة . قال ابن الخازن : والأصح أنه شبههن بالياقوت لصفائه فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استضأته لرأيت السلك من ظاهره لصفائه . قال عمرو بن ميمون : إنّ المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من وراء الحلل كما يرى الشراب الأحمر من الزجاجة البيضاء : يدل على صحة ذلك ما روي عن ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إنّ المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها" ، وذلك لأنّ الله تعالى يقول : ﴿كأنهنّ الياقوت والمرجان﴾ ، فأمّا الياقوت : فإنه حجر لو أدخلت فيها سلكاً ثم استضأته لرأيته من ورائه ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر" ؛ زاد في رواية "ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دريّ في السماء إضاءة لا يبصقون فيها ، ولا يمتخطون ، ولا يتغوّطون ؛ آنيتهم الذهب والفضة ، وأمشاطهم الذهب ، ومجامرهم الألوّة" أي : بخورهم

العود ورشحهم المسك ولكلّ واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء لحمها من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب رجل واحد " .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ أي : المالك الملك المربي ببدائع التربية ﴿ تكذبان ﴾ أبما جعله مثالاً لما ذكر من وصفهنّ أم بغيره ؟ .

(315/741)

﴿ هل جزاء الإحسان ﴾ أي : بالطاعة من الإنس والجن وغيرهما ﴿ إلا الإحسان ﴾ أي : بالثواب ؛ وقال ابن عباس : هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إلا الجنة ؛ وعن أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ ثم قال : "أتدرون ما قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : يقول : هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة" .

وروى الواحدي بغير سند عن ابن عمر وابن عباس : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : في هذه الآية يقول الله عز وجل هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدي إلا أن أسكنه جنتي وحظيرة قدسي برحمتي .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ الكريم الرحيم الجامع لأوصاف الكمال

﴿ تكذبان ﴾ أبشيء من هذه النعم الجزيلة أم بغيرها ؟ .

﴿ ومن دونهما ﴾ أي : من أدنى مكان ورتبة تحت جنتي هؤلاء المحسنين المقربين

﴿ جنتان ﴾ أي : لكل واحد ممن دون هؤلاء المحسنين من الخائفين ، وهم أصحاب اليمين ؛ وقال أبو موسى الأشعري : جنتان من ذهب للسابقين ، وجنتان من فضة للتابعين ؛ وقال ابن جريج هي أربع جنان جنتان للمقرّبين السابقين فيهما من كل فاكهة زوجان ؛ وجنتان : لأصحاب اليمين والتابعين فيهما فاكهة ونخل ورمان . وقال الكسائي ومن دونهما أي أمامهما وقبلهما يدلّ عليه قول الضحاك : الجنتان الأوليان من ذهب وفضة والأخريان من ياقوت ؛ وعلى هذا فهما أفضل من الأوليين ؛ وإلى هذا القول ذهب أبو عبد الله الترمذي الحكيم في نوادر الأصول . وقال : ومعنى ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ أي : دون هذا إلى العرش أي : أقرب وأدنى إلى العرش . وقال مقاتل : الجنتان الأوليان جنة عدن ، وجنة النعيم ، والأخريان الفردوس ، وجنة المأوى .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ أي : المحسن بنعمه لجميع خلقه ﴿ تكذبان ﴾ أبشيء مما تفضل به عليكم أم بغيره ؟ .

(316/741)

ثم وصف تلك الجنتين بقوله تعالى : ﴿ مدهامّتان ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : خضراوان . وقال مجاهد : سوداوان لأنّ الخضرة إذا اشتدت تضرب إلى السواد ، وهذا مشاهد بالنظر ولذلك قالوا : سواد العراق لكثرة شجره وزرعه ، والأرض إذا اخضرّت غاية الخضرة تضرب إلى سواد ؛ قال الرازي : والتحقيق فيه أنّ ابتداء الألوان هو البياض وانتهاءها هو السواد فإن الأبيض يقبل كل لون والأسود لا يقبل شيئاً من الألوان .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ أي : المحسن إليكما بالرزق وغيره ﴿ تكذبان ﴾ أبشيء من تلك النعم أم بغيرها .

ثم وصف تلك الجنتين أيضاً بقوله تعالى : ﴿ فيهما ﴾ أي : في جنتي كل شخص منهم ﴿ عينان نضاختان ﴾ قال ابن عباس : أي : فوّارتان بالماء ، والنضخ بالخاء المعجمة أكثر من النضح بالحاء المهملة لأنّ النضح بالمهملة الرشح والرش ، وبالمعجمة فورانُ الماء وقال مجاهد : المعنى نضاختان بالخير والبركة ، وعن ابن مسعود : تنضخ على أولياء الله تعالى بالمسك والكافور والعنبر في دور أهل الجنة كما ينضخ رش المطر ، وقال سعيد بن جبير بأنواع الفواكه والماء .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ المربي البليغ الحكمة في التربية ﴿ تكذبان ﴾ أبتلك النعمة أم بغيرها ؟ .

ثم وصف الجنتين أيضاً بقوله تعالى : ﴿ فيهما فاكهة ﴾ وخص أشرفها وأكثرها وجداناً في

الخريف والشتاء ، كما في جنان الدنيا التي جعلت مثالاً لهاتين بقوله تعالى : ﴿ ونخل ورمان ﴾ فإن كلاً منهما فاكهة وأدام ، فلهذا خصا تشريفاً وتنبيهاً على ما فيهما من التفكه ، وأولهما أعمّ نفعاً ، وأعجب خلقاً ، ولذا قدمه فعطفهما على الفاكهة من باب ذكر الخاص بعد العامّ تفضيلاً له ؛ كقوله تعالى : ﴿ وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ (البقرة :)

وقوله تعالى : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ (البقرة :)

(317/741)

وقال بعض العلماء : ليس ذلك من الفاكهة . ولهذا قال أبو حنيفة : إذا حلف لا يأكل الفاكهة فأكل رطباً أو رماناً لم يحنث ، وخالفه صاحباه . وقال القرطبي : وقيل : إنما كررها لأنّ النخل والرمان كانا عندهم في ذلك الوقت بمنزلة البر عندنا ، لأن النخل عامة قوتهم ، والرمان كالثمرات فكان يكثر غرسها عندهم لحاجتهم إليه ، وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التي يعجبون بها فإنما ذكر الفاكهة ثم ذكر النخل والرمان لعمومها وكثرتها عندهم من المدينة إلى مكة إلى ما والاها من أرض اليمن فأخرجهما من الذكر من الفواكه وأفرد الفواكه على حدتها .

وقيل : أفردا بالذكر لأنّ النخل ثمره فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء فلم يخلصا للتفكه

قال البغوي : وعن ابن عباس قال : نخل الجنة جذوعهما زمرّد أخضر وورقها ذهب أحمر ، وسعفها كسوة أهل الجنة منها مقطعاتهم وحللهم وثمرها أمثال القلال ، والدلاء أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، وألين من الزبد ليس له عجم .

وروي أنّ الرمانة من رمان الجنة ملء جلد البعير المقتب ؛ وقيل : إنّ نخل الجنة نضيد ، وثمرها كالقلال كلما نزعت عادت مكانها أخرى ؛ العنقود منها اثنا عشر ذراعاً .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي نعم ﴿ ربكما ﴾ المحسن إلى الثقلين بجليل التربية ﴿ تكذبان ﴾ أبتلك النعم أم بغيرها مما أحسن به إليكم ؟ .

﴿ فيهنّ ﴾ أي : الجنان الأربع ، أو الجنتين وقصورهما ﴿ خيرات حسان ﴾ أي : نساء الواحدة خيرة على معنى ذوات خير ، وقيل : خيرات بمعنى خيرات فخفف كهين ولين .

(318/741)

روى الحسن عن أمّه عن أم سلمة : قالت : "قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ خيرات حسان ﴾ ؛ قال : خيرات الأخلاق حسان الوجوه" . وقال أبو صالح : لأنهنّ عذارى أبكار ؛ قال الحكيم الترمذي : فالخيرة ما

اختارهنّ الله تعالى فأبدع خلقهنّ باختياره ، فاختيار الله تعالى لا يشبهه اختيار الآدميين ، فوصفهنّ بالحسن فإذا وصف الله تبارك وتعالى خالق الحسن شيئاً بالحسن فانظر ما هناك وقال الرازي : في باطنهنّ الخير وفي ظاهرهنّ الحسن .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ أي : الكامل الإحسان إليكما ﴿ تكذبان ﴾ أبنعمة ما جعل لكم من الفواكه أم غيرها ؟ .

ثم زاد في وصفهنّ بقوله تعالى : ﴿ حور ﴾ جمع حوراء وهي الشديدة سواد العين الشديدة بياضها ﴿ مقصورات ﴾ والمقصورات المحبوسات المستورات ﴿ في الخيام ﴾ وهي الحجال ، فلسن بالطوّافات في الطرق ؛ قاله ابن عباس ، والنساء تمدح بملازمتهنّ البيوت كما قال قيس بن الأسلت:

*وتكسل عن جيرانها فيزرنها ** وتعتل من إتيانهنّ فتعذر*

ويقال امرأة مقصورة وقصيرة وقصورة بمعنى واحد ، قال كثير عزة:

*وأنت التي حببت كلّ قصيرة ** إليّ ولم يعلم بذاك القصائر*

*عنيت قصيرات الحجال ولم أرد ** قصار الخطا شر النساء البحاتر*

(319/741)

والخيام : جمع خيمة ، وهي : أربعة أعواد تنصب وتسقف بشيء من نبات الأرض ، وجمعها خيم ، كتمرة وتمر ، وتجمع الخيم على خيام فهو جمع الجمع ؛ وأمّا ما يتخذ من شعر أو وبر أو نحوه فيقال له : خباء ، وقد يطلق عليه خيمة تجوّزاً . وقال عمر : الخيمة درة مجوّفة . وقاله ابن عباس قال : وهي فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب . وفي الحديث : "أنّ في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها : ستون ميلاً ؛ في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون" . وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذي : قال : بلغنا أن سحابة أمطرت من العرش فخلقن أي : الحور العين من قطرات الرحمة ، ثم ضرب على كل واحدة خيمة على شاطىء الأنهار سعتها أربعون ميلاً وليس لها باب ، حتى إذا دخل وليّ الله تعالى بالخيمة انصدعت الخيمة عن باب ليعلم وليّ الله أنّ أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم تأخذها ، فهي مقصورة قد قصرها الله عن أبصار المخلوقين . وقال مجاهد : معناه قصرن أطرافهنّ وأنفسهنّ على أزواجهنّ فلا يبغين بدلاً . وقال صلى الله عليه وسلم "لو أنّ امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت على أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ، ولملأت ما بينهما ريحاً ، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها" .

(320/741)

فائدة : اختلفوا أيما أكثر حسناً وأتم جمالاً ، الحور أم الآدميات ؛ فقيل : الحور لما ذكر في وصفهنّ في القرآن والسنة ، ولقوله صلى الله عليه وسلم في دعائه في صلاة الجنازة : "وأبدله زوجاً خيراً من زوجه" . وقيل : الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف روي ذلك مرفوعاً . وقيل : إن الحور العين المذكورات في القرآن هن المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين ، يخلقن في الآخرة على أحسن صورة ، قاله الحسن البصري ، قال ابن عادل : والمشهور أن الحور العين لسن من نساء أهل الدنيا ، إنما هنّ مخلوقات في الجنة لأنّ الله تعالى قال : ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جانّ ﴾ وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات ا . هـ . لكن مرّ أنه لم يطمثهن بعد إنشائهن خلقاً آخر وعلى هذا لا دليل في ذلك .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ الذي صوركم فأحسن صوركم ﴿ تكذبان ﴾ أبهذه النعم أم بغيرها ؟ .

﴿ لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جانّ ﴾ كحور الجنتين الأوليين وضميرهم في قبلهم لأصحاب الجنتين .

﴿ فبأي آلاء ﴾ أي نعم ﴿ ربكما ﴾ الذي جعل لكم في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ تكذبان ﴾ أبهذه النعم أم بغيرها .

﴿ متكئين ﴾ أي لهم ما ذكر حالة الاتكاء والعامل في الحال محذوف ، أي : ينعمون متكئين ﴿ على رفرف ﴾ أي : ثياب ناعمة وفرش رقيقة النسج من الديباج لينة ووسائد عظيمة ، ورياض باهرة ، وبسط لها أطراف فاضلة ، وهو جمع رفرفة ، لأن الله تعالى وصفه بالجمع بقوله : ﴿ خضر ﴾ ووصفه بذلك لأنّ الخضرة أحسن الألوان وأبهجها ، وقال الجوهري : هو ثياب خضر تتخذ منها المحابس الواحدة رفرفة واشتقاقه من رف الطائر أي : ارتفع في الهواء ورفرف بجناحيه إذا نشرهما للطيران ؛ وقيل : الرفرف طرف الفسطاط والخباء الواقع على الأرض دون الأطناب والأوتاد ؛ وفي الخبر في وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم "فرفع الرفرف ، فرأينا وجهه كأنه ورقة" ، أي : رفع طرف الفسطاط وقال الحكيم الترمذي في نوادر الأصول : الرفرف أعظم خطراً من الفرش فذكر في الأولين ﴿ متكئين على فرش بطائنها من استبرق ﴾ وقال هنا : ﴿ متكئين على رفرف خضر ﴾ فالرفرف هو مستقر الولي على شيء إذا استوى عليه الولي رفرف به أي طار به حيثما يريد كالمرجاح . وروي في حديث المعراج أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ سدرة المنتهى ، جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به إلى سند العرش فذكر أنه قال طار بي يخفضني ويرفعني حتى وقف بي على ربي . أي : في محل تنزلات رحمة ربي ثم لما جاء الانصراف تناوله فطار به خفضا ورفعاً يهوي به ، حتى أداه إلى جبريل عليه السلام ؛

فالرفرف خادم من الخدم بين يدي الله تعالى له خواص الأمور من الدنوّ والقرب ؛ كما أنّ البراق دابة تركبها الأنبياء عليهم السلام مخصوصة بذلك ، وهذا الرفرف الذي سخر لأهل الجنتين الدائبتين هو متكوهما وفرشهما يرفرف بالوليّ على حافات تلك الأنهار حيث يشاء إلى خيام أزواجه .

(322/741)

وقوله تعالى : ﴿ وعبقريّ ﴾ منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه اسم بلد الجنّ فينسبون إليه كل شيء عجب ؛ قال في القاموس : عبقر موضع كثير الجنّ وقرية ثيابها في غاية الحسن ، والعبقري الكامل من كل شيء ؛ وقال الخليل : هو كلّ جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم ؛ وقال قطرب ليس هو من المنسوب بل هو بمنزلة كرسي وبختي ا . ه . والمراد به : الجنس ، ولذلك قال تعالى : ﴿ حسان ﴾ حملاً على المعنى أي هي في غاية من كمال الصنعة وحسن المنظر لا توصف .

﴿ فبأيّ آلاء ﴾ أي : نعم ﴿ ربكما ﴾ المحسن الواحد الذي لا محسن غيره ولا إحسان إلا منه ﴿ تكذبان ﴾ أبشيء من هذه النعم أم بغيرها .

ولما دلّ ما ذكر في هذه السورة من النعم على إحاطة مبدعها بأوصاف الكمال وختم نعم

الدنيا بقوله تعالى : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ وفيه إشارة إلى أنّ الباقي هو الله تعالى وأنّ الدنيا فانية ختم نعيم الآخرة بقوله عز من قائل : ﴿ تبارك ﴾ قال ابن برّجان : تفاعل من البركة ولا يكاد يذكره جل ذكره إلا عند أمر معجب ا .ه . ومعناه ثبت ثباتاً لا تسع العقول وصفه .

ولما كان تعظيم الاسم أبلغ في تعظيم المسمى قال تعالى : ﴿ اسم ربك ﴾ أي : المحسن إليك بإنزال هذا القرآن الذي جبلك على متابعته فصرت مظهراً له وصار خلقاً لك فصار إحسانه إليك فوق الوصف ؛ وقيل : لفظ اسم زائد وجرى عليه الجلال المحلي والأوّل أولى .

﴿ ذي الجلال ﴾ أي : العظمة الباهرة ﴿ والإكرام ﴾ قال القرطبي : كأنه يريد به الاسم الذي افتتح به السورة ، فقال : ﴿ الرحمن ﴾ فافتتح بهذا الاسم فوصف خلق الإنسان والجنّ ، وخلق السموات والأرض وصنعه ؛ وأنه تعالى كل يوم هو في شان ، ووصف تدبيره فيهم ؛ ثم وصف يوم القيامة ، وأهوالها ، وصفة النار ، ثم ختمها بصفة الجنان .

(323/741)

ثم قال في آخر الصفة ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ أي : هذا لاسم الذي افتتح به هذه السورة ، كأنه يعلمهم أنّ هذا كله خرج لكم من رحمتي ، فمن رحمتي خلقتكم ، وخلقت لكم السماء والأرض والخليقة والجنة والنار فهذا كله لكم من اسم الرحمن فمدح اسمه فقال تعالى : ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ أي : جليل في ذاته كريم في أفعاله وقرأ ابن عامر : بالواو رفعاً صفة للاسم والباقون بالياء خفضاً صفة لرب ، فإنه هو الموصوف بذلك . روى الثعلبي عن علي أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لكل شيء عروس وعروس القرآن سورة الرحمن جلّ ذكره" . وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري : من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة الرحمن أدى شكر ما أنعم الله عليه" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 7 صـ 238 . 270 ﴾

(324/741)

وقال القاسمى :

سورة الرحمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ [1 - 2]

﴿ الرحمن علم القران ﴾ أي : بصّر به ما فيه رضاه ، وما فيه سخطه ، برحمته ليطاع باتباع ما يرضيه ، وعمل ما أمر به ، وباجتناب ما نهى عنه ، وأوعد عليه ، فينال جزيل ثوابه ، وينجى من أليم عقابه .

قال القاضي : لما كانت السورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والأخروية ، صدّرها بـ : ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ وقدم ما هو أصل النعم الدينية وأجلّها ، وهو إنعامه بالقرآن ، وتنزيله وتعليمه ، فإنه أساس الدين ، ومنشأ الشرع ، وأعظم الوحي ، وأعز الكتب ، إذ هو بإعجازه واشتماله على خلاصتها ، مصدق لنفسه ، ومصداق لها .

ثم أتبعه بقوله :

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [3 - 4]

﴿ خلق الْإِنْسَانَ علمه البيان ﴾ إيماء بأن خلق البشر ، وما تميز به عن سائر الحيوان من البيان - وهو التعبير عما في الضمير ، وإفهام الغير - لما أدركه لتلقي الوحي, وتعرف الحق ، وتعلم الشرع ، أي : فإذا كان خلقهم إنما هو في الحقيقة لذلك اقتضى اتصاله بالقرآن ، وتنزيله الذي هو منبعه ، وأساس بنيانه .

قال الزمخشريّ : وإخلاؤها من العاطف لمجيئها على نمط التعديد ، كما تقول : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد ، فما تنكر إحسانه

؟ وهذا – كما قال الشهاب – مصحح . والمرجح الإشارة إلى أن كلاً منها ربما مستقلة تقتضي الشكر ، ففيه إيماء إلى تقصيرهم في أدائه . ولو عطفت مع شدة اتصالها وتناسبه ، ربما توهم أنها كلها نعمة واحدة .

(325/741)

وقال الأصفهانيّ في " الذريعة " : لما كان النطق أشرف ما خص به الْإِنْسَانْ ، فإن صورته المعقولة التي بها باين سائر الحيوان ، قال عز وجل : ﴿ خلق الْإِنْسَانْ علمه البيان ﴾ ولم يقل : وعلمه ؛ إذ جعل قوله : ﴿ عَلَّمَهُ ﴾ تفسيراً لقوله : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانْ ﴾ تنبيهاً أن خلقه إياه هو تخصيصه بالبيان الذي لو توهم مرتفعاً لكانت الْإِنْسَانْية مرتفعة ، ولذلك قيل : ما الْإِنْسَانْ لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة . وقيل : المرء مخبوء تحت لسانه .

قال الشاعر :

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدّمِ

أي : إذا توهم ارتفاع النطق الذي هو باللسان ، والقوة الناطقة التي هي بالفؤاد ، لم يبق إلا صورة اللحم والدم . فإذا كان الْإِنْسَانْ هو اللسان فلا شك أن من كان أكثر منه حظاً كان أكثر منه إنسانية . والصمت من حيث ما هو صمت مذموم ، فذلك من صفات الجمادات

، فضلاً عن الحيوانات . وقد جعل الله تعالى بعض الحيوانات بلا صوت ، وجعل لبعضها صوتاً بلا تركيب ، ومن مدح الصمت فاعتباراً بمن يسيء في الكلام ، فيقع منه جنايات عظيمة في أمور الدين والدنيا ، فإذا ما اعتبرا بأنفسهما ، فمحال أن يقال في الصمت فضل ، فضلاً أن يخاير بينه وبين النطق . وسئل حكيم عن فضلهما فقال : الصمت أفضل حتى يحتاج إلى النطق . وسئل آخر عن فضلهما فقال : الصمت عن الخنا أفضل من الكلام بالخطأ . وعنه أخذ الشاعر :

~الصَّمتُ أَلْيقُ بالفَتى من منطقٍ في غَيْرِ حينِهْ

انتهى . وقد جوّز - كما حكاه الشهاب - أن يكون ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ خبر محذوف ، أي : الله الرحمن ، وما بعده مستأنف لتعديد نعمه . ثم قال : و ﴿ عَلَّمَ ﴾ من التعليم ، ومفعوله مقدر ، أي : علّم الْإِنْسَانْ ، لا جبريل أو محمداً عليهما الصلاة والسلام ، وليس من العلامة من غير تقدير ، كما قيل ، أي : جعله علامة وآية لمن اعتبر ، لبُعْدِهِ .

(326/741)

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [5 - 7]

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ أي : يجريان بحساب معلوم مقدّر في بروجهما ومنازلهما ، به تتسق أمور الكائنات السفلية ، وتختلف الفصول والأوقات ، ويعلم السنون والحساب .

﴿ وَالنَّجْمِ ﴾ أي : النبات الذي ينجم ، أي : يطلع من الأرض ولا ساق له .

﴿ وَالشَّجَرَ ﴾ أي : الذي له ساق ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ أي : ينقادان لله فيما يريد بهما طبعاً ، انقياد الساجد من المكلفين طوعاً . فهو استعارة مصرحة تبعيّة ، شبّه جريهما على مقتضى طبيعته ، بانقياد الساجد لخالقه والجملة – إن كانت خبراً عن الرحمن لعطفها على الخبر – فالرابط محذوف لوضوحه ، أي : بحسبانه ويسجدان له . أو مستأنفة ، فالقطع لأنها مسوقة لغرض آخر . وإدخال العاطف بينهما لما أن الشمس والقمر سماويّان ، والنجم والشجر أرضيّان ، فبينهما مناسبة بالتقابل ، وبانقياد الكل لإرادته .

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ أي : خلقها مرفوعة .

﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ أي : العدل بين خلقه في الأرض .

قال القاشانيّ : أي : خفض ميزان العدل إلى أرض النفس والبدن ، فإن العدالة هيئة نفسانية ، لولاها لما حصلت الفضيلة الْإِنْسَانِيَة . ومنه الاعتدال في البدن الذي لو لم يكن لما وجد ولم يبق . ولمّا استقام أمر الدين والدنيا بالعدل واستتبّ كمال النفس والبدن به ، بحيث لولاه لفسد أمر بمراعاته ومحافظته قبل تعديد الأصول بتمامها ، لشدّة العناية به ،

وفرط الاهتمام بأمره . وقوله تعالى :

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [8 - 9]

(327/741)

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ أي : بالإفراط عن حدّ الفضيلة والاعتدال ، فيلزم الجور الموجب للفساد . وأنْ مصدرية على تقدير الجارّ ، أي : لئلا تطغوا فيه ، أو مفسرة لما في وضع الميزان من معنى القول ، لأنه بالوحي وإعلام الرسل .

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ أي : الاستقامة في الطريقة ، وملازمة حدّ الفضيلة ، ونقطة الاعتدال في جميع الأمور ، وكل القوى .

﴿ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ قال القاشانيّ : أي : بالتفريط عن حدّ الفضيلة .

قال بعض الحكماء : العدل ميزان الله تعالى ، وضعه للخلق ، ونصبه للحق . انتهى .

وممن فسّر ﴿ الْمِيزَانَ ﴾ في الآية بالعدل مجاهد وتبعه ابن جرير وكذا ابن كثير ، ونظر لذلك بآية ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد : 25] ، وجوّز أن يراد بالميزان ما يعرف به مقادير الأشياء من ميزان ومكيال ونحوهما . ومنه قال السيوطيّ في " الإكليل " : فيه وجوب العدل في الوزن ،

وتحريم البخس فيه ، وعليه فوجه اتصال قوله : ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ بما قبله ، هو أنه لما وصف السماء بالرفعة التي هي مصدر القضايا والأقدار ، أراد وصف الأرض بما فيها ، مما يظهر به التفاوت ، ويعرف به المقدار ، ويسوّى به الحقوق والمواجب ، كذا ارتآه القاضي ، والله أعلم .

وفي الحقيقة ، الثاني من أفرد الأول ، وأخذ اللفظ عامّاً أولى وأفيد .

ومن اللطائف التي يتسع لها نظم الآية الكريمة قول الرازيّ :

﴿ الْمِيزَانَ ﴾ ذكر ثلاث مرات ، كل مرة بمعنى ، فالأول : هو الآلة ، والثاني : للمفعول بمعنى المصدر ، والثالث : للمفعول . قال : وهو كالقرآن ، ذكر بمعنى المناسبة ، قوله تعالى :

(328/741)

﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ [القيامة : 18] ، وبمعنى المقروء في قوله : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ [القيامة : 17] ، وبمعنى الكتاب الذي فيه المقروء في قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ [الرعد : 31] ، فكأنه آلة ومحل له ، وفي قوله تعالى :

﴿ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ [الحجر : 87] . ثم قال : وبين القرآن والميزان مناسبة ، فإن القرآن فيه من العلم ما لا يوجد في غيره من الكتب ، والميزان فيه من العدل ما لا يوجد في غيره من الآلات . انتهى .

﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [10 - 13]

﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ أي : مهّدها للخلق ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أي : صنوف مما يتفكّه به ﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ أي : أوعية الطلع ، وهو الذي يطلع فيه العنقود ، ثم ينشقّ عن العقود فيكون بُسراً ثم رطباً ، ثم ينضج ويتناهى نفعه واستواؤه ، وإنما مختلفة بالذكر ، لما فيها من الفوائد العظيمة ، على ما عرف من اتخاذ الظروف منها ، والانتفاع بجمّارها وبالطلع والبسر والرطب وغير ذلك ؛ فثمرتها في أوقات مختلفة كأنها ثمرات مختلفة ، فهي أتم نعمة بالنسبة إلى غيرها من الأشجار ، فلذا ذكر النخل باسمه ، وذكر الفاكهة دون أشجارها ، فإن فوائد أشجارها في عين ثمارها .

(329/741)

﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ﴾ أي : وفيها الحبّ ، وهو حَبّ البُرّ والشعير ونحوهما ﴿ ذُو الْعَصْفِ ﴾ أي : الورق اليابس كالتبن ﴿ وَالرَّيْحَانُ ﴾ أي : الورق الأخضر ، تذكير بالنعمة به وبورقه في حاليته . هذا على قراءة : ﴿ الريحان ﴾ بالجرّ . وقرئ بالرفع ، وهو الزرع الأخضر مطلقاً ، سمي به تشبيهاً له بما فيه الروح ؛ لأن حياته النباتية في نضرة خضرته .

قال ابن عباس : الريحان خضر الزرع .

وقال القرطبيّ : الريحان ، إما فيعلان ، من روح ، فقلبت الواو ياء ، وأدغم ثم خفف ، أو فعلان ، قلبت واوه ياء للتخفيف ، أو للفرق بينه وبين الروحان ، وهو ما له روح .

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قال أبو السعود : الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى :

﴿ لِلْأَنَامِ ﴾ [الرحمن : 10] ، وسينطلق به قوله تعالى :

(330/741)

﴿ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴾ [الرحمن : 31] . والفاء لترتيب الإنكار ، والتوبيخ على فصل من فنون النعماء ، وصنوف الآلاء الموجبة للإيمان والشكر حتماً . والتعرّض لعنوان الربوبية

المنبئة عن المالكية الكلية والتربية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير ، وتشديد التوبيخ . ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى كفرهم بها ، إما بإنكار كونه نعمة في نفسه ، كتعليم القرآن ، وما يستند إليه من النعم الدينية ، وإما بإنكار كونه من الله تعالى ، مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه ، كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره تعالى استقلالاً ، أو اشتراكاً صريحاً ، أو دلالة ، فإن إشراكهم لآلهتهم به تعالى في العبادة من دواعي إشراكهم لها به تعالى فيما يوجبها . والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب ، لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان والشكر ، شهادة منها بذلك ، فكفرهم تكذيب بها لا محالة ، أي : فإذا كان الأمر كما فصل ، فبأي فرد من أفراد آلاء مالِككما ومربيكما بتلك الآلاء تكذبان ، مع أن كلاً منهما ناطق بالحق ، شاهد بالصدق . انتهى .

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [14 - 16]

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ قال أبو السعود : تمهيد للتوبيخ على إخلالهم بمواجب شكر النعمة المتعلقة بذاتي كل واحد من الثقلين . و الصلصال الطين اليابس الذي له صلصلة ، و الفخار الخزف . وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب جعله طيناً . ثم حمأً مسنوناً ، ثم صلصالاً ، فلا تنافي بين الآية الناطقة بأحدها ، وبين ما نطق به بأحد

الآخرين .

﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ ﴾ أي : الجن ، أو أبا الجن ، ﴿ مِن مَّارِجٍ ﴾ أي : لهب صاف .

(331/741)

﴿ مِّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي : مما أفاض عليكما في تضاعيف خلقكما من سوابغ النِّعَم ، ومما أظهره لكما بالقرآن .

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [17 - 18]

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ أي : مشرقي الشتاء والصيف ومغربيهما ، أو مشرقي الشمس والقمر ومغربيهما .

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي : مما فيهما من النعم والفوائد التي لا تحصى ، كاختلاف الفصول ، وحدوث ما يناسب كل فصل فيه من الخيرات والبركات التي بها قوام العالم .

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [19 - 21]

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ أي : أرسلهما ، من مرج فلان دابته ، إذا خلاّها وتركها . والمعنى :

أرسل وأجرى البحر الملح ، والبحر العذب ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ أي : يتجاوران .

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ أي : حاجز من قدرة الله تعالى وبديع صنعه ﴿ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ أي : لا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة ، وإبطال الخاصية .

قال الشهاب : يعني أنهما إذا دخل أحدهما في الآخر قد يجرى فيه فراسخ ولا يتلاشى ويضمحل ، حتى يغير أحدهما طعم الآخر ولونه ، كما نشاهده .

وقيل : المراد بحرَي فارس والروم ، فإنهما يلتقيان في البحر المحيط ، وبينهما برزخ من الأرض ، لا يتجاوزان حديهما بإغراق ما بينهما ، وهو مروي عن قتادة والحسن ، قال الشهاب : لكنه أورد عليه أنه لا يوافق قوله تعالى :

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ [الفرقان : 53] الآية ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

(332/741)

واختار ابن جرير ما روي عن ابن عباس وغيره أنه عني به بحر السماء وبحر الأرض وذلك أن الله قال : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 22] ، واللؤلؤ والمرجان إنما يخرج من أصداف بحر الأرض عن قطر ماء السماء ، فمعلوم أن ذلك بحر الأرض وبحر

السماء . انتهى .

وفيه ما في الذي قبله من عدم موافقته لتلك الآية ، والأصل في الآي التشابه .

زاد ابن كثير : إن ما بين السماء والأرض لا يسمى برزخاً ، وحجراً محجوراً ؛ فالأولى هو الأول .

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي : مما في البحرين وخلقهما من الفوائد ، وقد أشار إلى بعضهما بقوله :

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [22 - 23]

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ أي : كبار الدر وصغاره . أو المرجان : الخرز الأحمر المعروف . وإنما قيل : ﴿ مِنْهُمَا ﴾ مع أنه يخرج من أحدهما ، وهو الملح ، لأنه لامتزاجهما يكون خارجاً منهما حقيقة ، أو أنه نسب لهما ما هو لأحدهما ، كما يسند إلى الجماعة ما صدر من واحد منهم . قال الناصر : وهذا هو الصواب ، ومثله : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] ، وإنما أريد إحدى القريتين ، وكما يقال : هو من أهل مصر ، وإنما هو من محلة منها . انتهى .

قال الشهاب : ولا يخفى أن هذا - وإن اشتهر - خلاف الظاهر ؛ فإما أن يكون ضمير ﴿ مِنْهُمَا ﴾ لبحري فارس والروم ، أو يقال : معنى خروجه منهما ليس أنه متكون فيهما ، بل أنهما يحصلان في جانب من البحار انصبّت إليها المياه العذبة . انتهى . والخطب سهل .

ولما كان خروج هذين الصنفين نعمة على الناس ، لتحلّيهم بهما ، كما تشير له آية : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [فاطر : 12] ، قال سبحانه :

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [24 - 25]

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ ﴾ يعني السفن ، جمع جارية ﴿ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ قرئ بكسر الشين ، بمعنى الظاهرات السير اللاتي تقبلن وتدبرن ، وبفتحها بمعنى المرفوعات القلاع اللاتي تقبل بهن وتدبر . والأعلام جمع علَم ، وهو الجبل الطويل . ولما كانت من أعظم الأسباب للمتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم مما فيه صلاح للناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع ، قال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي : نعمه التي أنعم بها في هذه الجواري . قال القاضيّ : أي : من خلق موادها ، والإرشاد إلى أخذها ، وكيفية تركيبها وإجرائها في البحر بأسباب لا يقدر خلقها وجمعها غيره .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [26 - 28]

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ أي : مَن على ظهر الأرض هالك .

﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ أي : ذاته الكريمة ﴿ ذُو الْجَلَالِ ﴾ أي : العظمة والعلوّ والكبرياء ﴿ وَالْإِكْرَامِ ﴾ أي : التفضل العام ، وهذه الآية كآية ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] .

(334/741)

ولما كان فناء الخلق سبباً لبعثهم للنشأة الأخرى التي يظهر بها المحق من المبطل ، وينقلب الأول بالثواب ، ويبوء الآخر بالعقاب ، وذلك من أعظم النعم التي يشمل فيها العدل الإلهي المكلفين ، قال سبحانه : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

وقد أشار الرازيّ إلى ما في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ من الفوائد ، بقوله : فيه فوائد :

منها : الحث على العبادة ، وصرف الزمان اليسير إلى الطاعة .

ومنها : المنع من الوثوق بما يكون للمرء ، فلا يقول – إذا كان في نعمة – : إنها لن تذهب

فيترك الرجوع إلى الله ، معتمداً على ماله وملكه .

ومنها : الأمر بالصبر إن كان في ضر ، فلا يكفر بالله معتمداً على أن الأمر ذاهب ، والضرر زائل .

ومنها : ترك اتخاذ الغير معبوداً ، والزجر عن الاغترار بالقرب من المملوك ، وترك التقرب إلى الله تعالى ؛ فإن أمرهم إلى الزوال قريب .

ومنها : حسن التوحيد ، وترك الشرك الظاهر والخفي جميعاً ، لأن الفاني لا يصلح لأن يعبد .

﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ *فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ [29 - 30]

﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : يدعونه ويرغبون إليه ، ويرجون رحمته لفقرهم الذاتي ، وغناه المطلق .

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ أي : كل وقت يحدث أموراً ، ويجدّد أحوالاً . قال مجاهد : يعطي سائلاً ، ويفك عانياً ، ويجيب داعياً ، ويشفي سقيماً .

وروى ابن جرير أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية . فقيل : يا رسول الله ! وما ذاك الشأن ؟ قال : < يغفر ذنباً ، ويفرّج كرباً ، ويرفع أقواماً ، ويضع آخرين > .

وقال القاشانيّ : المراد يسأله كلُّ شيء ، فغاب العقلاء ، وأتى بلفظ : ﴿ مَن ﴾ أي : كل شيء يسأله بلسان الاستعداد والافتقار دائماً ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ بإفاضة ما يستحقه ويستأهله باستعداده ، فمن استعدّ بالتصفية والتزكية للكمالات الخيرية والأنوار ، يفيضها عليه مع حصول الاستعداد ، ومن استعد بتكدير جوهر نفسه بالهيئات المظلمة والرذائل ، ولوث العقائد الفاسدة ، والخبائث ، للشرور والمكاره ، وأنواع الآلام والمصائب والعذاب والوبال : يفيضها عليه مع حصول الاستعداد . انتهى .

وقد أخذ الآية عامة من حيث السائلون خاصة بلسان الاستعداد وغيره – كابن كثير والقاضي – رآها خاصة بمن يعقل ، عامة بلسان الحال أو المقال . والأقرب هو ما يتبادر بادئ بدء إلى الفهم ، وهو ما ذكرناه أولاً ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي : مما يسعف به سؤالكما ، ويخرج لكما من مخبأ قدره وخلقه آناً فآناً .

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [31 – 32]

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾ قال القرطبيّ : يقال : فرغت من الشغل أفرغ فراغاً وفروغاً ، وتفرغت لكذا واستفرغت مجهودي في كذا أي : بذلته . والله تعالى ليس له شغل يفرغ منه ، وإنما المعنى : سنقصد لمجازاتكم أو محاسبتكم ، فهو وعيد لهم وتهديد ، كقول القائل لمن يريد تهديده : إذاً أتفرغ لك ، أي : أقصدك .

وقال الزجّاج : الفراغ في اللغة على ضربين : أحدهما الفراغ من الشغل ، والآخر القصد للشيء . والإقبال عليه ، كما هنا ، وهو تهديد ووعيد ، تقول : قد فرغت مما كنت فيه ، أي : قد زال شغلي به . وتقول : سأفرغ لفلان ، أي : سأجعله قصدي . فهو على سبيل التمثيل ، شبه تدبيره تعالى أمر الآخرة ، من الأخذ في الجزاء ، وإيصال الثواب والعقاب إلى المكلفين ، بعد تدبيره تعالى لأمر الدنيا بالأمر والنهي ، والإماتة والإحياء ، والمنع والإعطاء ، وأنه لا يشغله شأن ، بحال مَن إذا كان في شغل يشغله عن شغل آخر ، إذا فرغ من ذلك الشغل ، شرع في آخر . وجازت الاستعارة التصريحية أيضاً . وقد ألم به صاحب " المفتاح " حيث قال : الفراغ الخلاص عن المهام ؛ والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ، وقع مستعاراً للأخذ في الجزاء وحده .

لطيفة :

ترسم ﴿ أَيُّهَا ﴾ بغير ألف ، وأما في النطق فقرأ أبو عمرو الكسائي : ﴿ أَيُّهَا ﴾ بالألف في الوقف ، ووقف الباقون على الرسم ﴿ أَيُّهَا ﴾ بتسكين الهاء ، وفي الوصل قرأ ابن عامر ﴿ أيهُ ﴾ برفع الهاء ، والباقون بنصبها .

و﴿ الثَّقَلَانِ ﴾ تثنية ثَقَل بفتحتين ، فَعَل بمعنى مفعل ، لأنهما أثقلا الأرض ، أو بمعنى مفعول ، لأنهما أُثقلا بالتكاليف . وقال الحسن : لثقلهما بالذنوب .

والخطاب في ﴿ لَكُمْ ﴾ قيل للمجرمين ، لكن يأباه قوله :

﴿ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾ نعم ! المقصود بالتهديد هم ، ولا مانع من تهديد الجميع بقوله ، أفاده الشهاب ، ولا يفهم من هذا اللفظ الكريم وعيد بحت ، بل هو حامل للوعد أيضاً ، لأن المعنى : سنفرغ لحسابكم ، فنثيب أهل الطاعة ، ونعاقب العصاة ، وهو جليّ ؛ ولذا اعتد ذلك نعمة عليهم بقوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي : من ثوابه أهل الطاعة ، وعقابه أهل معصيته .

(337/741)

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [33 - 34]

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : تجوزوا أطراف السماوات والأرض فتعجزوا ربكم ، أي : بخروجكم عن قهره ومحل سلطانه ومملكته حتى لا يقدر عليكم ﴿ فَانفُذُوا ﴾ أي : فجوزوا واخرجوا ﴿ لَا

تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ أي : بقوة وقهر وغلبة ، وأنى لكم ذلك ونحوه : ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [العنكبوت : 22] ، ويقال : معنى الآية : إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات والأرض فاعلموه ، ولن تعلموه إلا بسلطان ، يعني البينة من الله تعالى . والأول أظهر ، لأنه لما ذكر في الآية الأولى أنه لا محالة مُجاز للعباد ، عقبه بقوله : ﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ ﴾ إلخ ، لبيان أنهم لا يقدرون على الخلاص من جزائه وعقابه ، إذا أراده .

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قال ابن جرير : أي : من التسوية بين جميعكم ، بأن جميعكم لا يقدرون على خلاف أمر أراده بكم .

وقال القاضي : أي : من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة .

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [35 - 36]

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ ﴾ أي : من لهب ﴿ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ أي : صُفر مذاب يصبّ على رؤوسهم ﴿ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ أي : تمتنعان وتنقذان منه . يعني : إذا أصررتما على الكفر والطغيان وعصيان الرسول ، فما أمامكم في الآخرة إلا هذا العذاب الأليم .

وقد ذهب ابن كثير إلى أن هذه الآية وما قبلها ، مما يخاطب به الكفرة في الآخرة ، وعبارته :

هذا في مقام الحشر ، والملائكة محدقة بالخلائق ، فلا يقدر أحد على الذهاب إلا بسلطان ، أي : بأمر الله ﴿ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة : 10 – 12] ، وقال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس : 27] ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ والمعنى لو ذهبتم هاربين يوم القيامة ، لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا . انتهى .

ثم رأيت قد سبقه إلى ذلك الإمامُ ابن القيم رحمه الله ، فقد قال رحمه الله في أواخر كتابه " طريق الهجرتين " في تفسير هذه الآية ، بعد أن ذكر نحو ما قدمنا من الوجهين في تأويل قوله تعالى ﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا ﴾ ما مثاله :

وفي الآية تقرير آخر ، وهو أن يكون هذا الخطاب في الآخرة ، إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض ، وأحاط سرادق النار بالآفاق ، فهرب الخلائق ، فلا يجدون مهرباً ولا منفذاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ [غافر : 32

- 33] ، قال مجاهد : فارّين غير معجزين . وقال الضحاك : إذا سمعوا زفير النار ندُّوا هرباً ، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً ، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه ، فذلك قوله : ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ [الحاقة : 17] ، وقوله :

(339/741)

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ [الرحمن : 33] الآية . وهذا القول أظهر - والله أعلم - فإذا بدت الخلائق ولّوا مدبرين ، يقال لهم :

﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السماوات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر على عذابكم ، فافعلوا . وكأن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على هذا القول ، فإن قبلها ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ الآية ، وهذا في الآخرة ، وبعدها ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء ﴾ [الرحمن : 37] الآية ، وهذا في الآخرة وأيضاً فإن هذا خطاب لجميع الإنس والجن فإنه أتى به بصيغة العموم ، وهي قوله : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ فلا بد أن يشترك الكل في سماع هذا الخطاب ومضمونه ، وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله في صعيد واحد ، يسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر . وقال تعالى : ﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ ﴾ ولم يقل : إن استطعتما ، لإرادة الجماعة ، كما في آية أخرى : ﴿ يَا

مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ [الأنعام : 13] ، وقال :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾ ، ولم يقل : يرسل عليكم ، لإرادة الصنفين ، أي : لا يختص به صنف عن صنف ، بل يرسل ذلك على الصنفين معاً . وهذا ، وإن كان مراداً بقوله :

﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [الرحمن : 33] ، فخطاب الجماعة في ذلك بلفظ الجمع أحسن ، أي : من استطاع منكم . وحسَّنَ الخطاب بالتثنية في قوله : ﴿ عَلَيْكُمَا ﴾ أمر آخر ، وهو موافقة رؤوس الآي ، فاتصلت التثنية بالتثنية . وفيه التسوية بين الصنفين في العذاب بالتنصيص عليهما ، فلا يحتمل اللفظ إرادة أحدهما – والله أعلم – انتهى كلام ابن القيم .

وأنت ترى أن لا قرينة تخصص الآية بالقيامة ، وما استشهد به من الآيات لا يؤيده ، لأنه ليس من نظائره . فالوجه ما ذكرناه .

(340/741)

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قال القاضي : فإن التهديد لطف ، والتمييز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار ، من عداد الآلاء .

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [37 – 38]

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء ﴾ أي : انفطرت فاختلّ نظامها العلوي ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ أي : كلون الورد الأحمر ﴿ كَالدِّهَانِ ﴾ أي : كالدهن الذي هو الزيت ، كما قال :

﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ ﴾ [المعارج : 8] ، وهو ردي الزيت ، يعني في لونه الكدر وذوبانه ، لصيرورتها إلى الفناء والزوال .

﴿ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي : مما يحلّه بكم بعد ذلك .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [39 – 40]

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ أي : لا يفتح له باب المعذرة ، كقوله ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 36] ، ففي السؤال مجاز عن نفي سماع الاعتذار ؛ فهو من باب نفي السبب لانتفاء المسبب . وأخذ كثير السؤال على حقيقته ، وحاولوا الجمع بينه وبين ما قد ينافيه .

قال القاشانيّ : وأما الوقف والسؤال المشار إليه في قوله : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات : 24] ، ونظائره ففي موطن آخر من اليوم الطويل الذي كان مقداره خمسين ألف سنة ، وقد يكون هذا الموطن قبل الموطن الأول في ذلك اليوم ، وقد يكون بعده .

وكذا قال ابن كثير : إن هذه الآية كقوله تعالى :

﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 35 - 36] ، فهذا حال ، وثَمّ حال يسأل الخلائق عن جميع أعمالهم ، قال تعالى :

(341/741)

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : 92 - 93] ، وفي الآية تأويل آخر ، قال مجاهد : لا يسأل الملائكة عن المجرم ، يعرفون بسيماهم .

وقال الإمام ابن القيم في " طريق الهجرتين " : اختلف في هذا السؤال المنفي ، فقيل : هو وقت البعث والمصير إلى الموقف ، لا يسألون حينئذ ، ويسألون بعد إطالة الوقوف ، واستشفاعهم إلى الله أن يحاسبهم ، ويريحهم من مقامهم ذلك . وقيل : المنفي سؤال الاستعلام والاستخبار ، لا سؤال المحاسبة والمجازاة ، أي : قد علم الله ذنوبهم ، فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها ، وإنما يحاسبهم عليها . انتهى .

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قال ابن جرير : أي : من عدله فيكم أنه لم يعاقب منكم إلا مجرماً .

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ﴾ [41 - 45]

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ أي : بما يعلوهم من الكآبة والحزن والذلة ، وقيل : بسواد الوجوه ، وزرقة العيون ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ أي : فتأخذهم الزبانية بنواصيهم وأقدامهم ، فتسحبهم إلى جهنم ، وتقذفهم فيها . والباء للآلة ، كأخذت بالخطام ، أو للتعدية . والناصية مقدم الرأس .

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قال ابن جرير : أي : من تعريفه ملائكته ، أهل الإجرام من أهل الطاعة منكم ، حتى خصوا بالإذلال والإهانة ، المجرمين دون غيرهم .

(342/741)

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ﴾ أي : ماء حار ﴿ آنٍ ﴾ أي : انتهى حره ، واشتد غليانه . وكل شيء قد أدرك وبلغ فقد أَنَى ، ومنه قوله : ﴿ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾ [الأحزاب : 53] ، يعني إدراكه وبلوغه ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي : من عقوبته أهل الكفر به ، وتكريمه أهل الإيمان به .

ثم تأثر ما عدد عليهم من الآلاء الدينية ، والدنيوية بتعداد ما أفاض عليهم في الآخرة ، بقوله :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [46 - 59]

(343/741)

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ أي : قيامه عند ربه للحساب ، فأطاعه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ؛ فإضافته للرب لأنه عنده ، فهو كقول العرب : ناقة رقود الحلب ، أي : رقود عند الحلب ، أو موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب ، فإضافته للرب لامية لاختصاص الملك يومئذ به تعالى . أو هو كناية عن خوف الربِّ وإثبات خوفه له بطريق برهاني بليغ ؛ لأن من حصل له الخوف من مكان أحد ، يهابه وإن لم يكن فيه ، فخوفه منه بالطريق الأولى ، وهذا كما يقول المترسلون : المقام العالي ، والمجلس السامي ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ أي : جنة لمن أطاع من الإنس ، وجنة لمن أطاع من الجن . أو هو كناية عن مضاعفة الثواب

، وإيثار التثنية للفاصلة, ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي : بإثابته المحسن ما وصف

.

﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ أي : أنواع من الأشجار والثمار ، جمع فن بمعنى النوع ، أو أغصان لينة ، جمع فنن وهو ما دقَّ ولان من الغصن .

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ وهو ما غلظ من الديباج ، نبه على شرف الظهارة ، بشرف البطانة ، وهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى .

قال ابن مسعود : هذه البطائن ، فكيف لو رأيتم الظواهر ؟ !

﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ أي : وثمرهما المجنيّ داني القطوف ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ أي : منكسرات الجفن ، خافضات النظر ، غير متطلعات لما بعد ، ولا ناظرات لغير زوجها . أو معناه : إن طرف النظر لا يتجاوزها ، كقول المتنبي :

~وخصرٍ تثبتُ الأبصارُ فيه كأنَّ عليه من حَدَقٍ نِطاقا

فالمراد : قاصرات طرف غيرهن عن التجاوز لغيرهن . أو المعنى : شديدات بياض الطرف ، كما يقال : أحور الطرف وحوراؤه ، من قولهم : ثوب مقصور وحوّاري .

وجليّ أن المعاني هاهنا لا تتزاحم لتحقق مصداقها كلها ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ أي : لم يمسهن . وأصله خروج الدم ، ولذلك يقال للحيض : طمث ، ثم أطلق على جِماع الأبكار ، لما فيه من خروج الدم ، ثم عمّ كل جماع . وقد يقال : إن التعبير به للإشارة إلى أنها توجد بكراً كلما جومعت . ويستدل بالآية على أن الجن يطمثن ويدخلن الجنة .

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ أي : في الحسن والبهجة ، أو في حمرة الوجنة والوجه ، أدباً وحياءً ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [60 – 78]

﴿ هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ ﴾ أي : في العمل ﴿ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ أي : في الثواب ، وهو الجنة ﴿ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِن دُونِهِمَا ﴾ أي : دون تينك الجنتين المنوّه بهما ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ أي : بستانان آخران ، إشارة إلى وفرة الجنان واتصالها وسعة امتداد الطرف في مناظرها .

﴿ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ ﴾ أي : خضراوان من الري ، تضربان إلى السواد من شدة الخضرة . أو من كثرة أشجارها الممتدة لا إلى نهاية .

﴿ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أي : فوّارتان بالماء .

﴿ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ وإنما أفردهما بالذكر بياناً لفضلهما ، كأنهما لما لهما من المزية جنسان آخران .

﴿ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ ﴾ جمع خيّرة بالتشديد ، إلا أنه خفف . وقد قرئ على الأصل ، أي : فاضلات الأخلاق . وإيثار ضمير المؤنث على التثنية مراعاة للفظ المسند إليه بعده ﴿ حِسَانٌ ﴾ أي : حسان الوجوه .

﴿ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ الحور : جمع حوراء ،

وهي البيضاء النقية ، ومعنى ﴿ مَّقْصُورَاتٌ ﴾ قصرن أنفسهنّ على منازلهنّ ، لا يهمهنّ إلا زينتهنّ ولهوهنّ . وفيه المعاني المتقدمة أيضاً . و ﴿ الْخِيَامِ ﴾ قال ابن جرير : يعني بها البيوت . وقد يسمّي العرب هوادج النساء خياماً ، ثم أنشد له .

﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ يعني بهنّ حور الجنتين اللتين من دون الأوليين . أو تكرير لما سبق للتنويه بهذا الوصف ، وكونه في مقدمة المشتهيات ، وطليعة الملذات :

(346/741)

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ ﴾ أي : سرر أو مساند أو وسائد ﴿ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ ﴾ أي : طنافس وبُسط ﴿ حِسَانٍ ﴾ أي : جياد . والصفة كاشفة ، ولذا قال ابن جبير : العبقريّ عتاق الزرابي ، أي : جيادها .

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي : من إكرامه أهل طاعته منكما هذا الإكرام ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ أي : ذي العظمة والكبرياء ، والتفضل بالآلاء ، والاسم هنا كناية عن الذات العليّة ، لأنه كثر اقتران الفعل المذكور معها ، كآية : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً ﴾ [الفرقان : 61] ، وآية ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ [

الملك : 1] ، ونحوهما . وسر إيثار الاسم للتنبيه على أنه لا يعرف منه تعالى إلا أسماؤه الحسنى ، لاستحالة اكتناه الذات المقدسة . فما عرف الله إلا الله . هذا هو التحقيق .

وقيل : لفظ اسم مقحم ، كقوله :

~إلى الحولِ ثم اسمُ السلام عليكما

وذهب ابن حزم إلى بقاء الاسم على حقيقته . وردّ من استدلّ بأن الاسم هو المسمى بما مثاله : لا حجة فيما احتجوا به . أما قول الله عز وجل : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ فحقّ . ومعنى ﴿ تَبَارَكَ ﴾ تفاعل من البركة ، والبركة واجبة لاسم الله عزّ وجلّ الذي هو كلمة مؤلفة من حروف الهجاء ، ونحن نتبرك بالذكر له وبتعظيمه ونجلّه ونكرمه ، فله التبارك وله الإجلال منا ومن الله تعالى ، وله الإكرام من الله تعالى ومنا ، حينما كان من قرطاس ، أو في شيء منقوش فيه ، أو مذكور بالألسنة . ومن لم يجلّ اسم الله عزّ وجلّ كذلك ولا أكرمه ، فهو كافر بلا شك ؛ فالآية على ظاهرها دون تأويل ، فبطل تعلقهم بها . انتهى كلامه رحمه الله .

فائدة :

فيما قاله الأئمة في سر تكرير : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قال السيوطيّ في " الإتقان " في بحث التكرير :

قد يكون التكرير غيرَ تأكيد صناعة ، وإن كان مفيداً للتأكيد معنى ، ومنه ما وقع فيه الفصل بين المكررين ، فإن التأكيد لا يفصل بينه وبين مؤكده .

ثم قال : وجعل منه قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإنهما ، وإن تكررت نيفاً وثلاثين مرة ، فكل واحدة تتعلق بما قبلها ، ولذلك زادت على ثلاثة ، ولو كان الجميع عائداً إلى شيء واحد لما زاد على ثلاثة ، لأن التأكيد لا يزيد عليها ، قاله ابن عبد السلام وغيره ، انتهى .

وفي " عروس الأفراح " : فإن قلت : إذا كان المراد بكل ما قبله فليس ذلك بإطناب بل هي ألفاظٌ كلٌ أُريد به غير ما أريد به الآخر ؟ .

قلت : إذا قلنا : العبرة بعموم اللفظ ، فكل واحد أريد به ما أريد بالآخر ، ولكن كرر ليكونَ نصاً فيما يليه ، ظاهراً في غيره .

فإن قلت : يلزم التأكيد ؟

قلت : والأمر كذلك ، ولا يرد عليه أن التأكيد لا يزاد به عن ثلاثة ؛ لأن ذاك في التأكيد الذي هو تابع . أما ذكر الشيء في مقامات متعددة أكثر من ثلاثة ، فلا يمتنع . انتهى .

وقال العز بن عبد السلام في آخر كتابه " الإشارة إلى الإيجاز " وأما قوله :

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فيجوز أن تكون مكررة على جميع أنعمه ، ويجوز أن يراد بكل واحدة منهن ما وقع بينها وبين التي قبلها من نعمة ، ويجوز أن يراد بالأولى ما تقدمها من النعم ، وبالثانية ما تقدمها ، وبالثالثة ما تقدم على الأولى ، والثانية والرابعة ما تقدم على الأولى والثانية والثالثة ، وهكذا إلى آخر السورة .

فإن قيل : كيف يكون قوله : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾ نعمة ، وقوله : ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ نعمة ، وكذلك قوله :

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ وقوله :

(348/741)

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ وقوله :

﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ ؟

قلنا : هذه كلها نعم جِسَام ؛ لأن الله هدد العباد بها استصلاحاً لهم ، ليخرجوا من حيز الكفر والطغيان والفسوق والعصيان إلى حيز الطاعة والإيمان والانقياد والإذعان ، فإن من حذّر من طريق الردى ، وبيّن ما فيها من الأذى ، وحث على طريق السلامة ، الموصلة إلى المثوبة والكرامة ، كان منعماً غاية الإنعام ، ومحسناً غاية الإحسان . ومثل ذلك قوله : ﴿

هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ ﴾ [يس : 52] ، وعلى هذا تصلح فيه مناسبة الربط ، بذكر صفة الرحمة في ذلك المقام . وأما قوله :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن : 26] ، فإنه تذكير بالموت والفناء ، للترغيب في الإقبال على العمل لدار البقاء ، وفي الإعراض عن دار الفناء . انتهى .

وقال البغويّ : كررت هذه الآية في أحد وثلاثين موضعاً تقريراً للنعمة ، وتأكيداً للتذكير بها ، ثم عدد على الخلق آلاءه ، وفصل بين كل نعمتين بما نبههم عليه ، ليفهمهم النعم ويقررهم بها ، كقول الرجل لمن أحسن إليه وتابع إليه بالأيادي ، وهو ينكرها ويكفرها : ألم تكن فقيراً فأغنيتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن عرياناً فكسوتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملاً فعززتك ، أفتنكر هذا ؟ ومثل هذا الكلام شائع في كلام العرب . انتهى .

وقال السيد مرتضى في " الدرر والغرر " : التكرار في سورة الرحمن ، إنما حسن للتقرير بالنعم المختلفة المعددة ، فكلما ذكر نعمة أنعم بها ، وبّخ على التكذيب ، كما يقول الرجل لغيره : ألم أحسن إليك بأن خولتك في الأموال ؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا ؟ فيحسن فيه التكرير ، لاختلاف ما يقرر به ، وهو كثير في كلام العرب وأشعارهم ، كقول مهلهل يرثي كليباً :

~على أن ليس عدلاً من كُلَيبٍ إذا ما ضِيمَ جيرانُ المُجيرِ

~على أن ليس عدلاً من كليبٍ إذا رجف العِضاهُ من الدَّبورِ

على أن ليس عدلاً من كليبٍ إذا خَرَجَتْ مُخَبَّأَةُ الخُدُورِ

على أن ليس عدلاً من كليبٍ إذا ما أُعْلِنَتْ نَجْوى الأُمُورِ

على أن ليس عدلاً من كليبٍ إذا خيفَ المَخُوفُ من الثُغُورِ

على أن ليس عدلاً من كليبٍ غداة تَلاتِلِ الأمرِ الكبيرِ

على أن ليس عدلاً من كليبٍ إذا ما خارَ جارُ المستجيرِ

ثم أنشد قصائد أخرى على هذا النمط ، هو من لطائف العرب ، فاعرفه .

وقال شيخ الإسلام في " متشابه القرآن " : ذكرت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة ، ثمانية منها ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله ، وبدائع صنعه ، ومبدأ الخلق ومعادهم ، ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها ، بعدد أبواب جهنم ، وحسن ذكر الآلاء عقبها ؛ لأن من جملة الآلاء : رفع البلاء ، وتأخير العقاب . وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنتين وأهلها ، بعدد أبواب الجنة ، وثمانية أخرى بعدها في الجنتين اللتين هما دون الجنتين اللتين هما دون الجنتين الأوليين ، أخذاً من قوله : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق هاتين الثمانيتين من الله ، ووقاه السبعة

السابقة . انتهى .

اللهم زدنا اطلاعاً على لطائف قرآنك الكريم ، وغوصاً على لآلئ فرقانك العظيم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 15 صـ 556.575 ﴾

(350/741)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) ﴾

هذا المطلع المقصود بلفظه ومعناه ، وإيقاعه وموسيقاه .

﴿ الرحمن ﴾ . . . . . .

بهذا الرنين الذي تتجاوب أصداؤه الطليقة المديدة في أرجاء هذا الكون ، وفي جنبات هذا الوجود .

﴿ الرحمن ﴾ . . . . . .

بهذا الإيقاع الصاعد الذاهب إلى بعيد ، يجلجل في طباق الوجود ، ويخاطب كل موجود ، ويتلفت على رنته كل كائن ، وهو يملأ فضاء السماوات والأرض ، ويبلغ إلى كل سمع وكل قلب . .

﴿ الرحمن ﴾ . . . . . .

ويسكت . وتنتهي الآية . ويصمت الوجود كله وينصت ، في ارتقاب الخبر العظيم . بعد المطلع العظيم .

ثم يجيء الخبر المترقب ، الذي يخفق له ضمير الوجود . .

﴿ علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسمآء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . والأرض وضعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ .

هذا هو المقطع الأول في بيان آلاء الرحمن . وهذا هو الخبر الأول بعد ذلك الإعلان . .

﴿ علم القرآن ﴾ . .

هذه النعمة الكبرى التي تتجلى فيها رحمة الرحمن بالإنسان . . القرآن . . الترجمة الصادقة الكاملة لنواميس هذا الوجود . ومنهج السماء للأرض . الذي يصل أهلها بناموس الوجود . ويقيم عقيدتهم وتصوراتهم وموازينهم وقيمهم ونظمهم وأحوالهم على الأساس الثابت الذي يقوم عليه الوجود . فيمنحهم اليسر والطمأنينة والتفاهم والتجاوب مع الناموس .

القرآن الذي يفتح حواسهم ومشاعرهم على هذا الكون الجميل ، كأنما يطالعهم أول مرة ،

فيجدد إحساسهم بوجودهم الذاتي ، كما يجدد إحساسهم بالكون من حولهم . ويزيد فيمنح كل شيء من حولهم حياة نابضة تتجاوب وتتعاطف مع البشر ؛ فإذا هم بين أصدقاء ، ورفاق أحباء ، حيثما ساروا أو أقاموا ، طوال رحلتهم على هذا الكوكب !

(351/741)

القرآن الذي يقرأ في أخلادهم أنهم خلفاء في الأرض ، أنهم كرام على الله ، وأنهم حملة الأمانة التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال . فيشعرهم بقيمتهم التي يستمدونها من تحقيق إنسانيتهم العليا ، بوسيلتها الوحيدة . . الإيمان . . الذي يحيي في أرواحهم نفخة الله . ويحقق نعمته الكبرى على الإنسان .

ومن ثم قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان . فبه يتحقق في هذا الكائن معنى الإنسان .

﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾ . .

وندع – مؤقتاً – خلق الإنسان ابتداء ، فسيأتي ذكره في مكانه من السورة بعد قليل . إذ المقصود من ذكره هنا هو ما تلاه من تعليمه البيان .

إننا نرى الإنسان ينطق ويعبر ويبين ، ويتفاهم ، ويتجاوب مع الآخرين . . فننسى بطول الألفة عظمة هذه الهبة ، وضخامة هذه الخارقة ، فيردنا القرآن إليها ، ويوقظنا لتدبرها ،

في مواضع شتى .

فما الإنسان ؟ ما أصله ؟ كيف يبدأ ؟ وكيف يُعلم البيان ؟

إنه هذه الخلية الواحدة التي تبدأ حياتها في الرحم . خلية ساذجة صغيرة ، ضئيلة ، مهينة . ترى بالمجهر ، ولا تكاد تَبين . وهي لا تُبين ! ! !

ولكن هذه الخلية ما تلبث أن تكون الجنين . الجنين المكون من ملايين الخلايا المنوعة . . عظمية . وغضروفية . وعضلية . وعصبية . وجلدية . . ومنها كذلك تتكون الجوارح والحواس ووظائفها المدهشة : السمع . البصر . الذوق . الشم . اللمس . ثم . . ثم الخارقة الكبرى والسر الأعظم : الإدراك والبيان ، والشعور والإلهام . . كله من تلك الخلية الواحدة الساذجة الصغيرة الضئيلة المهينة ، التي لا تكاد تَبين ، والتي لا تُبين !

كيف ؟ ومن أين ؟ من الرحمن ، وبصنع الرحمن .

(352/741)

فلننظر كيف يكون البيان ؟ : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ إن تكوين جهاز النطق وحده عجيبة لا ينقضي منها العجب . . اللسان والشفتان والفك والأسنان . والحنجرة والقصبة الهوائية والشعب

والرئتان . . إنها كلها تشترك في عملية التصويت الآلية وهي حلقة في سلسلة البيان . وهي على ضخامتها لا تمثل إلا الجانب الميكانيكي الآلي في هذه العملية المعقدة ، المتعلقة بعد ذلك بالسمع والمخ والأعصاب . ثم بالعقل الذي لا نعرف عنه إلا اسمه . ولا ندري شيئاً عن ماهيته وحقيقته . بل لا نكاد ندري شيئاً عن عمله وطريقته !

كيف ينطق الناطق باللفظ الواحد ؟

إنها عملية معقدة كثيرة المراحل والخطوات والأجهزة . مجهولة في بعض المراحل خافية حتى الآن .

إنها تبدأ شعوراً بالحاجة إلى النطق بهذا اللفظ لأداء غرض معين . هذا الشعور ينتقل – لا ندري كيف – من الإدراك أو العقل أو الروح إلى أداة العمل الحسية . . المخ . . ويقال : إن المخ يصدر أمره عن طريق الأعصاب بالنطق بهذا اللفظ المطلوب . واللفظ ذاته مما علمه الله للإنسان وعرفه معناه . وهنا تطرد الرئة قدراً من الهواء المختزن فيها ، ليمر من الشعب إلى القصبة الهوائية إلى الحنجرة وحبالها الصوتية العجيبة التي لا تقاس إليها أوتار أية آلة صوتيه صنعها الإنسان ، ولا جميع الآلات الصوتية المختلفة الأنغام ! فيصوت الهواء في الحنجرة صوتاً تشكله حسبما يريد العقل . . عالياً أو خافتاً . سريعاً أو بطيئاً . خشناً أو ناعماً . ضخماً أو رفيعاً . . إلى آخر أشكال الصوت وصفاته . ومع الحنجرة اللسان والشفتان والفك والأسنان ، يمر بها هذا الصوت فيتشكل بضغوط خاصة في مخارج

الحروف المختلفة . وفي اللسان خاصة يمر كل حرف بمنطقة منه ذات إيقاع معين ، يتم فيه الضغط المعين ، ليصوّت الحرف بجرس معين . .

(353/741)

وذلك كله لفظ واحد . . ووراءه العبارة . والموضوع . والفكرة . والمشاعر السابقة واللاحقة . وكل منها عالم عجيب غريب ، ينشأ في هذا الكيان الإنساني العجيب الغريب ، بصنعة الرحمن ، وفضل الرحمن .

ثم يستطرد في بيان آلاء الرحمن في المعرض الكوني العام :

﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ . .

حيث تتجلى دقة التقدير ، في تنسيق التكوين والحركة ، بما يملأ القلب روعة ودهشة ، شعوراً بضخامة هذه الإشارة ، وما في طياتها من حقائق بعيدة الآماد عميقة الأغوار .

إن الشمس ليست هي أكبر ما في السماء من أجرام . فهنالك في هذا الفضاء الذي لا يعرف البشر له حدوداً ، ملايين الملايين من النجوم ، منها الكثير أكبر من الشمس وأشد حرارة وضوءاً . فالشعرى اليمانية أثقل من الشمس بعشرين مرة ، ونورها يعادل خمسين ضعف نور الشمس . والسماك الرامح حجمه ثمانون ضعف حجم الشمس ونوره ثمانية آلاف

ضعف . وسهيل أقوى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة .

. وهكذا . .

ولكن الشمس هي أهم نجم بالنسبة لنا – نحن سكان الكوكب الأرضي الصغير ، الذي يعيش هو وسكانه جميعاً على ضوء الشمس وحرارتها وجاذبيتها .

وكذلك القمر هو تابع صغير للأرض . ولكنه ذو أثر قوي في حياتها . وهو العامل الأهم في حركة الجزر والمد في البحار .

وحجم الشمس ، ودرجة حرارتها ، وبعدها عنا ، وسيرها في فلكها . وكذلك حجم القمر وبعده ودورته . . كلها محسوبة حساباً كامل الدقة بالقياس إلى آثارهما في حياة الأرض . وبالقياس إلى وضعهما في الفضاء مع النجوم والكواكب الأخرى .

ونتاول طرفاً من الحساب الدقيق في علاقتهما بكوكبنا الأرضي وما عليه من حياة وأحياء . .

(354/741)

إن الشمس تبعد عن الأرض باثنين وتسعين ونصف مليون من الأميال . ولو كانت أقرب إلينا من هذا لاحترقت الأرض أو انصهرت أو استحالت بخاراً يتصاعد في الفضاء ! ولو

كانت أبعد منا لأصاب التجمد والموت ما على الأرض من حياة ! والذي يصل إلينا من حرارة الشمس لا يتجاوز جزءاً من مليوني جزء من حرارتها . وهذا القدر الضئيل هو الذي يلائم حياتنا . ولو كانت الشعرى بضخامتها وإشعاعها هي التي في مكان الشمس منا لتبخرت الكرة الأرضية ، وذهبت بدداً !

وكذلك القمر في حجمه وبعده عن الأرض . فلو كان أكبر من هذا لكان المد الذي يحدثه في بحار الأرض كافياً لغمرها بطوفان يعم كل ما عليها . وكذلك لو كان أقرب مما وضعه الله بحسابه الذي لا يخطئ مقدار شعرة !

وجاذبية الشمس وجاذبية القمر للأرض لهما حسابهما في توازن وضعها ، وضبط خطاها في هذا الفضاء الشاسع الرهيب ، الذي تجري فيه مجموعتنا الشمسية كلها بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة في اتجاه نحو برج الجبار . ومع هذا لا تلتقي بأي نجم في طريقها على ملايين السنين !

وفي هذا الفضاء الشاسع الرهيب لا يختل مدار نجم بمقدار شعرة ، ولا يختل حساب التوازن والتناسق في حجم ولا حركة .

صدق الله العظيم . . ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ .

﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ . .

وقد كانت الإشارة السابقة إلى الحساب والتقدير في بناء الكون الكبير . فأما هذه فهي

إشارة إلى اتجاه هذا الكون وارتباطه . وهي إشارة موحية إلى حقيقة هادية .

إن هذا الوجود مرتبط ارتباط العبودية والعبادة بمصدره الأول ، وخالقه المبدع . والنجم والشجر نموذجان منه ، يدلان على اتجاهه كله . وقد فسر بعضهم النجم بأنه النجم الذي في السماء . كما فسره بعضهم بأنه النبات الذي لا يستوي على سوقه كالشجر . وسواء كان هذا أم كان ذاك فإن مدى الإشارة في النص واحد . ينتهي إلى حقيقة اتجاه هذا الكون وارتباطه .

(355/741)

والكون خليقة حية ذات روح . روح يختلف مظهرها وشكلها ودرجتها من كائن إلى كائن . ولكنها في حقيقتها واحدة .

ولقد أدرك القلب البشري منذ عهود بعيدة حقيقة هذه الحياة السارية في الكون كله .

وحقيقة اتجاه روحه إلى خالقه . أدركها بالإلهام اللدني فيه . ولكنها كانت تغيم عليه ، وتتوارى عنه كلما حاول اقتناصها بعقله المقيد بتجارب الحواس !

ولقد استطاع أخيراً أن يصل إلى أطراف قريبة من حقيقة الوحدة في بناء الكون . ولكنه لا يزال بعيداً عن الوصول إلى حقيقة روحه الحية عن هذا الطريق !

والعلم يميل اليوم إلى افتراض أن الذرة هي وحدة بناء الكون ، وأنها في حقيقتها مجرد إشعاع . وأن الحركة هي قاعدة الكون ، والخاصية المشتركة بين جميع أفراده .

فإلى أين يتجه الكون بحركته التي هي قاعدته وخاصيته ؟

القرآن يقول : إنه يتجه إلى مبدعه بحركة روحه – وهي الحركة الأصيلة فحركة ظاهره لا تكون إلا تعبيراً عن حركة روحه – وهي الحركة التي تمثلها في القرآن آيات كثيرة منها هذه ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ . . ومنها : ﴿ تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ ومنها : ﴿ ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صآفات . كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ وتأمل هذه الحقيقة ، ومتابعة الكون في عبادته وتسبيحه ، مما يمنح القلب البشري متاعاً عجيباً ، وهو يشعر بكل ما حوله حياً يعاطفه ويتجه معه إلى خالقه وهو في وقفته بين أرواح الأشياء كلها ، وهي تدب فيها جميعاً ، وتحيلها إخواناً له ورفقاء !

إنها إشارة ذات أبعاد وآماد وأعماق . .

﴿ والسمآء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . ﴾

والإشارة إلى السماء – كباقي الإشارات القرآنية إلى مجالي هذا الكون – تقصد إلى تنبيه القلب الغافل ، وإنقاذه من بلادة الألفة ، وإيقاظه لعظمة هذا الكون وتناسقه وجماله ، وإلى قدرة اليد التي أبدعته وجلالها .

والإشارة إلى السماء – أياً كان مدلول السماء – توجه النظر إلى أعلى . إلى هذا الفضاء الهائل السامق الذي لا تبدو له حدود معروفة ؛ والذي تسبح فيه ملايين الملايين من الأجرام الضخمة ، فلا يلتقي منها اثنان ، ولا تصطدم مجموعة منها بمجموعة . ويبلغ عدد المجموعة أحياناً ألف مليون نجم ، كمجموعة المجرة التي ينتسب إليها عالمنا الشمسي ، وفيها ما هو أصغر من شمسنا وما هو أكبر آلاف المرات . شمسنا التي يبلغ قطرها مليونا وثلث مليون كيلو متر ! ! ! وكل هذه النجوم ، وكل هذه المجموعات تجري في الكون بسرعات مخيفة ، ولكنها في هذا الفضاء الهائل ذرات سابحة متباعدة ، لا تلتقي ، ولا تتصادم !

وإلى جوار هذه العظمة في رفع هذه السماء الهائلة الوسيعة ﴿ وضع الميزان ﴾ ميزان الحق . وضعه ثابتاً راسخاً مستقراً . وضعه لتقدير القيم . قيم الأشخاص والأحداث والأشياء . كي لا يختل تقويمها ، ولا يضطرب وزنها ، ولا تتبع الجهل والغرض والهوى .

وضعه في الفطرة ووضعه في هذا المنهج الإلهي الذي جاءت به الرسالات وتضمنه القرآن : وضع الميزان . . ﴿ ألا تطغوا في الميزان ﴾ .

. فتغالوا وتفرطوا . . ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ . . ومن ثم يستقر الوزن بالقسط ، بلا طغيان ولا خسران .

ومن ثم يرتبط الحق في الأرض وفي حياة البشر ، ببناء الكون ونظامه . يرتبط بالسماء في مدلولها المعنوي حيث يتنزل منها وحي الله ونهجه . ومدلولها المنظور حيث تمثل ضخامة الكون وثباته بأمر الله وقدرته . . ويلتقي هذان المدلولان في الحس بإيقاعهما وظلالهما الموحية .

﴿ والأرض وضعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان ﴾ .

(357/741)

ونحن لطول استقرارنا على هذه الأرض ، وألفتنا لأوضاعها وظواهرها ، ولوضعنا نحن كذلك عليها . نحن لهذا كله لا نكاد نحس يد القدرة التي " وضعت " هذه الأرض للأنام . وجعلت استقرارنا عليها ممكناً وميسوراً إلى الحد الذي لا نكاد نشعر به . ولا ننتبه إلى ضخامة معنى الاستقرار ، وعظمة نعمة الله علينا فيه إلا بين الحين والحين حين يثور بركان ، أو يمور زلزال ، فيؤرجح هذه الأرض المطمئنة من تحتنا ، فتضطرب وتمور . عندئذ نتذكر

معنى الاستقرار الذي نستمتع به على هذه الأرض بنعمة الله .

والبشر خليقون أن يتذكروا هذه الحقيقة في كل لحظة ، لو أنهم ألقوا بالهم إلى أن أرضهم هذه التي يركنون إليها ، إن هي إلا هباءة سابحة في فضاء الله الوسيع . هباءة تسبح في هذا الفضاء المطلق . تسبح حول نفسها بسرعة نحو ألف ميل في الساعة . وتسبح – مع هذا – حول الشمس بسرعة ستين ألف ميل في الساعة . بينما هي والشمس والمجموعة الشمسية كلها تبعد بجملتها في هذا الفضاء بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة متجهة في اتجاه واحد نحو برج الجبار في السماء !

أجل لو أنهم ألقوا بالهم إلى أنهم محمولون على هذه الهباءة السابحة التي تنهب الفضاء نهباً بهذه السرعة معلقة في أجوازه بغير شيء إلا قدرة الله . . لظلوا أبداً معلقي القلوب والأبصار ، واجفي الأرواح والأوصال ، لا يركنون إلا للواحد القهار الذي وضع الأرض للأنام ، وأقرهم عليها هذا الإقرار ! !

(358/741)

ولقد يسر لهم فيها الحياة ، وهي تدور بهم حول نفسها وحول الشمس ، وتركض مع الشمس وتوابعها بتلك السرعة المذهلة . وقدر فيها أقواتها التي يذكر منها هنا الفاكهة –

ويخص منها النخل ذات الأكمام – (والكم كيس الطلع الذي ينشأ منه الثمر) ليشير إلى جمال هيئتها بجانب فائدة ثمرتها . ويذكر منها الحب ذا الورق والسيقان التي تعصف وتصير طعاماً للماشية . ويذكر منها الريحان . النبات ذات الرائحة . . وهي ألوان من نبات الأرض شتى . منها ما هو طعام للإنسان ومنها ما هو طعام للدواب ، ومنها ما هو روْح للناس ومتاع .

وعند هذا المقطع من تعداد أنعم الله وآلائه : تعليم القرآن . وخلق الإنسان . وتعليمه البيان . وتنسيق الشمس والقمر بحسبان . ورفع السماء ووضع الميزان . ووضع الأرض للأنام . وما فيها من فاكهة ونخل وحب وريحان .

. عند هذا المقطع يهتف بالجن والإنسان ، في مواجهة الكون وأهل الكون : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ . . وهو سؤال للتسجيل والإشهاد . فما يملك إنس ولا جان أن يكذب بآلاء الرحمن في مثل هذا المقام .

ثم ينتقل من الامتنان عليهما بآلاء الله في الكون ، إلى الامتنان عليهما بآلائه في ذوات أنفسهما ، وفي خاصة وجودهما وإنشائهما :

﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار . . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ . .

ونعمة الإيجاد والإنشاء أصل النعمة . والمسافة بين الوجود وعدم الوجود ابتداء مسافة لا

تقاس أبعادها بأي مقياس مما يألفه البشر . فجميع المقاييس التي في أيدي البشر أو التي تدركها عقولهم ، هي مقاييس للفارق بين موجود وموجود . أما المسافة بين الموجود وغير الموجود فلا تدركها مدراك البشر بحال ! ونحسب الجن كذلك ، فإن هم إلا خلق مقاييس المخلوقات !

فحين يمتن الله على الجن والإنس بنعمة الإيجاد والإنشاء ؛ فإنما يمتن عليهما بالنعمة التي تفوق حد الإدراك .

(359/741)

ثم يقرر الحق سبحانه مادة خلق الإنس والجن ، وهي كذلك من خلق الله . والصلصال : الطين إذا يبس وصار له صوت وصلصلة عند الضرب عليه . وقد تكون هذه حلقة في سلسلة النشأة من الطين أو من التراب . كما أنها قد تكون تعبيراً عن حقيقة الوحدة بين مادة الإنسان ومادة الأرض في عناصر التكوين .

" وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوي من العناصر ما تحتويه الأرض . فهو يتكون من الكربون ، والأكسيجين ، والأيدروجين ، والفسفور ، والكبريت ، والآزوت ، والكالسيوم ، والبوتاسيوم ، والصوديوم ، والكلور ، والمغنسيوم ، والحديد ، والمنجنيز ،

والنحاس ، واليود ، والفلورين ، والكوبالت ، والزنك ، والسلكون ، والألمنيوم . وهذه نفسها هي العناصر المكونة للتراب . وإن اختلفت نسبها في إنسان عن الآخر ، وفي الإنسان عن التراب ، إلا أن أصنافها واحدة "

إلا أن هذا الذي أثبته العلم لا يجوز أن يؤخذ على أنه التفسير الحتمي للنص القرآني . فقد تكون الحقيقة القرآنية تعني هذا الذي أثبته العلم ، أو تعني شيئاً آخر سواه . وتقصد إلى صورة أخرى من الصور الكثيرة التي يتحقق بها معنى خلق الإنسان من تراب ، أو طين أو صلصال .

(360/741)

والذي ننبه إليه بشدة هو ضرورة عدم قصر النص القرآني على كشف علمي بشري ، قابل للخطأ والصواب ، وقابل للتعديل والتبديل ، كلما اتسعت معارف الإنسان وكثرت وتحسنت وسائله للمعرفة . فإن بعض المخلصين من الباحثين يسارعون إلى المطابقة بين مدلول النصوص القرآنية والكشوف العلمية – تجريبية أو افتراضية – بنية بيان ما في القرآن من إعجاز . فالقرآن معجز سواء طابقت الكشوف العلمية المتأرجحة نصوصه الثابتة أم لم تطابقها . ونصوصه أوسع مدلولاً من حصرها في نطاق تلك الكشوف القابلة دائماً للتبديل

والتعديل ، بل للخطأ والصواب من الأساس ! وكل ما يستفاد من الكشوف العلمية في تفسير نصوص القرآن ، وهو توسيع مدلولها في تصورنا كلما أطلعنا العلم على شيء مما تشير إليه إشارات مجملة من آيات الله في الأنفس والآفاق ، دون أن يحمل النص القرآني على أن مدلوله هو هذا الذي كشفه العلم .

إنما جواز أن يكون هذا بعض ما يشير إليه .

فأما خلق الجان من مارج من نار . فمسألة خارجة عن حدود العلوم البشرية . والمصدر الواحد فيها هو هذا القرآن . خبر الله الصادق . الذي خلق وهو أعلم بمن خلق . .

والمارج : المشتعل المتحرك كألسنة النار مع الرياح ! وللجان قدرة على الحياة في هذه الأرض مع الإنس . ولكنا لا ندري كيف يعيش الجان وقبيله . فأما الأمر المستيقن فهو أنهم مخاطبون بهذا القرآن كما سبق بيانه عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن . . ﴾ وكما هو الحال هنا في سورة الرحمن .

والخطاب هنا للجن والإنس ، لتذكيرهما بنعمة الوجود . كلٌّ من الأصل الذي أنشأه الله منه . وهي النعمة التي تقوم عليها سائر النعم . ومن ثم يعقب عليها بتعقيب التسجيل والإشهاد العام : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ . . ولا تكذيب في هذا المقام المشهود !

﴿ رب المشرقين ورب المغربين . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾

وهذه الإشارة التي تملأ القلب بفيض غامر من الشعور بوجود الله ، حيثما توجه ، وحيثما تلفت ، وحيثما امتد به النظر حوله في الآفاق . . فحيث الشروق وحيث الغروب هناك الله . . ربوبيته ومشيئته وسلطانه ، ونوره وتوجيهه وهدايته . .

والمشرقان والمغربان قد يكون المقصود بهما شروق الشمس وشروق القمر . وغروبهما كذلك ، بمناسبة ذكر الشمس والقمر فيما تقدم من آلاء الله . وقد يكون المقصود مشرقي الشمس المختلفي الموضع في الصيف والشتاء ومغربيها كذلك .

وعلى أية حال فإن ظلال هذه الإشارة هي الأولى بالالتفات . ظلال الاتجاه إلى المشرق والمغرب ، والشعور بالله هناك ، والإحساس بيده تحرك الكواكب والأفلاك ، ورؤية نوره وربوبيته في الآفاق هنا وهناك . والرصيد الذي يؤوب به القلب من هذا التأمل والتدبر والنظر في المشارق والمغارب ، والزاد الشعوري الذي تفيض به الجوانح وتذخره الأرواح . وربوبية الله للمشرقين والمغربين ، بعض آلائه في هذا الكون . ومن ثم يجيء التعقيب المعهود في السورة ، بعد هذه اللفتة القصيرة : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ والمشرقان والمغربان فوق أنهما من آيات الله هما من آلاء الله على الجن والإنس ، بما يتحقق فيهما من

الخير لسكان هذه الأرض جميعاً . بل من أسباب الحياة التي تنشأ مع الشروق ، وتحتاج كذلك إلى الغروب . ولو اختل أحدهما أو كلاهما لتعطلت أسباب الحياة . .

ومن هذه السبحة البعيدة الآفاق يعود إلى الأرض ، وما فيها من ماء ، جعله الله بقدر .

قدر في نوعه ، وقدر في تصريفه ، وقدر في الانتفاع به :

﴿ مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ وله الجوارِ المنشآت في البحر كالأعلام . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ .

.

(362/741)

والبحران المشار إليهما هما البحر المالح والبحر العذب ، ويشمل الأول البحار والمحيطات ، ويشمل الثاني الأنهار . ومرج البحرين أرسلهما وتركهما يلتقيان ، ولكنهما لا يبغيان ، ولا يتجاوز كل منهما حده المقدر ، ووظيفته المقسومة ، وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع الله .

وتقسيم الماء على هذا النحو في الكرة الأرضية لم يجيء مصادفة ولا جزافاً . فهو مقدر

تقديراً عجيباً . الماء الملح يغمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ويتصل بعضه ببعض ؛ ويشغل اليابس الربع . وهذا القدر الواسع من الماء المالح هو اللازم بدقة لتطهير جو الأرض وحفظه دائماً صالحاً للحياة .

" وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور – ومعظمها سام – فإن الهواء باق دون تلوث في الواقع – ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان . . وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء – أي المحيط – " .

ومن هذه الكتلة الضخمة الواسعة تنبعث الأبخرة تحت حرارة الشمس ؛ وهي التي تعود فتسقط أمطاراً يتكون منها الماء العذب في جميع أشكاله . وأعظمها الأنهار . والتوافق بين سعة المحيط وحرارة الشمس وبرودة طبقات الجو العليا ، والعوامل الفلكية الأخرى هو الذي ينشأ عنه المطر الذي تتكون منه كتلة الماء العذب .

وعلى هذا الماء العذب تقوم الحياة ، من نبات وحيوان وإنسان . .

وتصب جميع الأنهار – تقريباً – في البحار . هي التي تنقل إليها أملاح الأرض ، فلا تغير طبيعة البحار ولا تبغي عليها . ومستوى سطوح الأنهار أعلى في العادة من مستوى سطح البحر ، ومن ثم لا يبغي البحر على الأنهار التي تصب فيه ، ولا يغمر مجاريها بمائه الملح ، فيحولها عن وظيفتها ويبغي على طبيعتها ! وبينهما دائماً هذا البرزخ من صنع الله . فلا يبغيان .

فلا عجب يذكر البحرين ، وما بينهما من برزخ ، في مجال الآلاء ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ .

ثم يذكر من آلاء الله في البحرين بعض ما هو قريب منهم في حياتهم .

(363/741)

﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ . .

واللؤلؤ – في أصله – حيوان . و " لعل اللؤلؤ أعجب ما في البحار ، فهو يهبط إلى الأعماق ، وهو داخل صدفة من المواد الجيرية لتقيه من الأخطار ، ويختلف هذا الحيوان عن الكائنات الحية في تركيبه وطريقة معيشته ، فله شبكة دقيقة كشبكة الصياد ، عجيبة النسج ، تكون كمصفاة تسمح بدخول الماء والهواء والغذاء إلى جوفه ، وتحول بين الرمال والحصى وغيرها . وتحت الشبكة أفواه الحيوان ، ولكل فم أربع شفاه ، فإذا دخلت ذرة رمل ، أو قطعة حصى ، أو حيوان ضار عنوة إلى الصدفة ، سارع الحيوان إلى إفراز مادة لزجة يغطيها بها ، ثم تتجمد مكونة لؤلؤة ! وعلى حسب حجم الذرة التي وصلت يختلف حجم اللؤلؤة ! " . .

" والمرجان من عجائب مخلوقات الله ، يعيش في البحار على أعماق تتراوح بين خمسة

أمتار وثلاث مائة متر ، ويثبت نفسه بطرفه الأسفل بصخر أو عشب .

وفتحة فمه التي في أعلى جسمه ، محاطة بعدد من الزوائد يستعملها في غذائه . فإذا لمست فريسة هذه الزوائد ، وكثيراً ما تكون من الأحياء الدقيقة كبراغيث الماء ، أصيبت بالشلل في الحال ، والتصقت بها ، فتنكمش الزوائد وتنحني نحو الفم ، حيث تدخل الفريسة إلى الداخل بقناة ضيقة تشبه مريء الإنسان .

" ويتكاثر هذا الحيوان بخروج خلايا تناسلية منه ، يتم بها إخصاب البويضات ، حيث يتكون الجنين الذي يلجأ إلى صخرة أو عشب يلتصق به ، ويكون حياة منفردة ، شأنه في ذلك شأن الحيوان الأصلي .

(364/741)

" ومن دلائل قدرة الخالق ، أن حيوان المرجان يتكاثر بطريقة أخرى هي التزرر . وتبقى الأزرار الناتجة متحدة مع الأفراد التي تزررت منها ، وهكذا تتكون شجرة المرجان التي تكون ذات ساق سميكة . تأخذ في الدقة نحو الفروع التي تبلغ غاية الدقة في نهايتها . ويبلغ طول الشجرة المرجانية ثلاثين سنتيمتراً . والجزر المرجانية الحية ذات ألوان مختلفة ، نراها في البحار صفراء برتقالية ، أو حمراء قرنفلية ، أو زرقاء زمردية ، أو غبراء باهتة .

" والمرجان الأحمر هو المحور الصلب المتبقي بعد فناء الأجزاء الحية من الحيوان ، وتكون الهياكل الحجرية مستعمرات هائلة .

" ومن هذه المستعمرات سلسلة الصخور المرجانية المعروفة باسم الحاجز المرجاني الكبير ، الموجود بالشمال الشرقي لأستراليا . ويبلغ طول هذه السلسلة ، ألفا و 350 ميلاً وعرضها 50 ميلاً . وهي مكونة من هذه الكائنات الحية الدقيقة الحجم " .

ومن اللؤلؤ والمرجان تتخذ حلى غالية الثمن عالية القيمة ، ويمتن الله على عباده بهما ، فيعقب على ذكرهما في السورة ذلك التعقيب المشهود : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾

ثم ينتقل إلى الفلك التي تجري في البحار ، كأنها لضخامتها الجبال :

﴿ وله الجوارِ المنشآت في البحر كالأعلام ﴾ . .

ويجعل هذه الجواري المنشآت ﴿ له ﴾ سبحانه وتعالى . فهي تجري بقدرته . ولا يحفظها في خضم البحر وثبج الموج إلا حفظه ولا يقرها على سطحه المتماوج إلا كلاءته . فهي له سبحانه . وقد كانت – وما تزال – من أضخم النعم التي منّ الله بها على العباد ، فيسرت لهم من أسباب الحياة والانتقال والرفاهية والكسب ما هو جدير بأن يذكر ولا ينكر . فهو من الضخامة والوضوح بحيث يصعب التكذيب به والإنكار . . ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ .

والآن ينتهي هذا الاستعراض في صفحة الكون المنظور ، وتطوى صفحة الخلق الفاني ، وتتوارى أشباح الخلائق جميعاً ، ويفرغ المجال من كل حي ، ويتجلى وجه الكريم الباقي ، متفرداً بالبقاء ، متفرداً بالجلال ؛ وتستقر في الحس حقيقة البقاء ، وهو يشهد ظلال الفناء :

﴿ كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ . .

وفي ظل هذا النص القرآني تخفت الأنفاس ، وتخشع الأصوات ، وتسكن الجوارح . . وظل الفناء يشمل كل حي ، ويطوي كل حركة ، ويغمر آفاق السماوات والأرض .

. وجلال الوجه الكريم الباقي يظلل النفوس والجوارح ، والزمان والمكان ، ويغمر الوجود كله بالجلال والوقار . .

ولا يملك التعبير البشري أن يصور الموقف ؛ ولا يملك أن يزيد شيئاً على النص القرآني ، الذي يسكب في الجوانح السكون الخاشع ، والجلال الغامر ، والصمت الرهيب ، والذي يرسم مشهد الفناء الخاوي ، وسكون الموت المخيم بلا حركة ، ولا نأمة في هذا الكون

الذي كان حافلاً بالحركة والحياة . ويرسم في الوقت ذاته حقيقة البقاء الدائم ، ويطبعها في الحس البشري لا يعرف في تجاربه صورة للبقاء الدائم ؛ ولكنه يدركها بعمق في ذلك النص القرآني العجيب !

ويعقب على هذه اللمسة العميقة الأثر بنفس التعقيب . فيعد استقرار هذه الحقيقة . حقيقة الفناء لكل من عليها ، وبقاء الوجه الجليل الكريم وحده . يعد استقرار هذه الحقيقة نعمة يواجه بها الجن والإنس في معرض الآلاء : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ . .

(366/741)

وإنها لنعمة ، بل هي أساس النعم كلها جميعاً . فمن حقيقة الوجود الباقي ينبثق كل هذا الخلق ؛ وناموسه ونظامه وخصائصه . كما تستقر سننه وقيمه ومآله وجزاؤه . والحي الباقي هو الذي يخلق ويبدع ، وهو الذي يحفظ ويكلأ ، وهو الذي يحاسب ويجزي . وهو الذي يشرف من أفق البقاء على ساحة الفناء . . فمن حقيقة البقاء إذن تنبثق جميع الآلاء . وما يبزغ هذا العالم وما يستقيم أمره إلا ووراءه هذه الحقيقة . حقيقة البقاء وراء الفناء .

ومن حقيقة البقاء الدائم وراء الخلق الفاني ، تنبثق حقيقة أخرى . . فكل أبناء الفناء إنما

يتجهون في كل ما يقوم بوجودهم إلى الواحد الأحد الفرد الصمد الحي القيوم :

﴿ يسأله من في السماوات والأرض ، كل يوم هو في شأن . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾

يسأله من في السماوات والأرض ، فهو مناط السؤال ؛ وغيره لا يسأل لأنه فان لا يتعلق به سؤال . . يسألونه وهو وحده الذي يستجيب ، وقاصده وحده هو الذي لا يخيب . وما يتجه احد إلى سواه إلا حين يضل عن مناط السؤال ومعقد الرجاء ومظنه الجواب . وماذا يملك الفاني للفاني وماذا يملك المحتاج للمحتاج ؟

وهو سبحانه – كل يوم هو في شأن . وهذا الوجود الذي لا تعرف له حدود ، كله منوط بقدره ، متعلق بمشيئته ، وهو قائم بتدبيره . هذا التدبير الذي يتناول الوجود كله جملة ؛ ويتناول كل فرد فيه على حدة ، ويتناول كل عضو وكل خلية وكل ذرة . ويعطي كل شيء خلقه ، كما يعطيه وظيفته ، ثم يلحظه وهو يؤدي وظيفته .

هذا التدبير الذي يتبع ما ينبت وما يسقط من ورقة ، وما يكمن من حبة في ظلمات الأرض ، وكل رطب وكل يابس . يتبع الأسماك في بحارها ، والديدان في مساربها ، والحشرات في مخابئها . والوحوش في أوكارها ، والطيور في أعشاشها . وكل بيضة وكل فرخ . وكل جناح . وكل ريشة . وكل خلية في جسم حي .

وصاحب التدبير لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يند عن علمه ظاهر ولا خاف .

.

ومن هذا الشأن شأن العباد في الأرض من إنس وجن . ومن ثم فهو يواجههما بهذه النعمة مواجهة التسجيل والإشهاد : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ . .

وبتقرير حقيقة البقاء وراء الفناء ، وما ينبثق منها من حقيقة الاتجاه الكلي إلى الواحد الباقي ، وتعلق مشيئته – سبحانه – بشئون الخلائق وتقديرها وتدبيرها ، فضلاً منه ومنة على العباد . .

بتقرير هذه الحقيقة الكلية وما ينبثق عنها من حقائق ينتهي الاستعراض الكوني ، ومواجهة الجن والإنس به ؛ ويبدأ مقطع جديد . فيه تهديد وفيه وعيد . تهديد مرعب مفزع ، ووعيد مزلزل مضعضع . تمهيداً لهول القيامة الذي يطالع الثقلين في سياق السورة بعد ذاك :

﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا . لا تنفذون إلا بسلطان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾

﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ . .

يا للهول المرعب المزلزل ، الذي لا يثبت له إنس ولا جان . ولا تقف له الجبال الرواسي ولا النجوم والأفلاك !

الله . جل جلاله . الله القوي القادر ، القهار الجبار ، الكبير المتعال . الله – سبحانه – يفرغ لحساب هذين الخلقين الضعيفين الصغيرين : الجن والإنس ، في وعيد وانتقام !

إنه أمر . إنه هول . إنه فوق كل تصور واحتمال !

والله – سبحانه – ليس مشغولاً فيفرغ . وإنما هو تقريب الأمر للتصور البشري . وإيقاع الوعيد في صورة مذهلة مزلزلة ، تسحق الكيان بمجرد تصورها سحقاً . فهذا الوجود كله نشأ بكلمة . كلمة واحدة . كن فيكون . وتدميره أو سحقه لا يحتاج إلا واحدة كلمح بالبصر . . فكيف يكون حال الثقلين ، والله يفرغ لهما وحدهما ، ليتولاهما بالانتقام ؟ !

وفي ظل هذا الهول الرعيب يسأل الثقلين المسكينين : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ !

ثم يمضي في الإيقاع المرعب المزلزل ، يتحداهما أن ينفذا من أقطار السماوات والأرض :

﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا ﴾ . .

وكيف ؟ وأين ؟

﴿ لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ .

ولا يملك السلطان إلا صاحب السلطان . .

ومرة أخرى يواجههما بالسؤال : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ؟

وهل بقي في كيانهما شيء يكذب أو يهم بمجرد النطق والبيان ؟ !

ولكن الحملة الساحقة تستمر إلى نهايتها ، والتهديد الرعيب يلاحقهما ، والمصير المردي يتمثل لهما :

﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ﴾ . .

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ !

إنها صورة من الهول فوق مألوف البشر – وفوق مألوف كل خلق – وفق تصور البشر وتصور كل خلق . وهي صورة فريدة ، وردت لها نظائر قليلة في القرآن ، تشبهها ولا تماثلها . كما قال تعالى مرة : ﴿ وذرني والمكذبين أولي النعمة ﴾ وكما قال : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ وما يزال قوله تعالى : ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ . . أعنف وأقوى وأرعب وأدهى .

.

ومن هنا إلى نهاية السورة تبدأ مشاهد اليوم الآخر . مشهد الانقلاب الكوني يوم القيامة . وما يعقبه من مشاهد الحساب . ومشاهد العذاب والثواب .

ويبدأ استعراض هذه المشاهد بمشهد كوني يتناسب مع مطالع السورة ومجالها الكوني :

﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ .

(369/741)

وردة حمراء ، سائلة كالدهان . . ومجموع الآيات التي وردت في صفة الكون يوم القيامة تشير كلها إلى وقوع دمار كامل في هذه الأفلاك والكواكب ، بعد انفلاتها من النسق الذي يحكمها الآن ، وينسق بين مداراتها وحركاتها . منها هذه الآية . ومنها : ﴿ إذا رجت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا ، فكانت هباء منبثا ﴾ ومنها : ﴿ فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ﴾ ومنها ﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت . وإذا العشار عطلت . وإذا الوحوش حشرت . وإذا البحار سجرت ﴾ ومنها ﴿ إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت ﴾ ﴿ إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت ، وألقت ما

فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت ﴾ وهذه وغيرها تشير إلى ذلك الحادث الهائل الذي سيقع في الكون كله . ولا يعلم حقيقته إلا الله . .

﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ . . ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ ولا تكذيب عندئذ ولا نكران . .

﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ . . وذلك في موقف من مواقف ذلك اليوم المشهود . الذي ستكون فيه مواقف شتى . منها ما يسأل فيه العباد ، ومنها ما لا يسألون فيه عن شيء . ومنها ما تجادل كل نفس عن نفسها ، وما تلقي به التبعة على شركائها ، ومنها ما لا يسمح فيه بكلمة ولا جدال ولا خصام ! فهو يوم طويل مديد . وكل موقف من مواقفه هائل مشهود .

وهنا موقف : لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان . ذلك حين تعرف صفة كل فرد وعمله . وتبدو في الوجوه معالم الشقوة سواداً ، ومعالم النجوة بياضاً ، ويظهر هذا وذاك في سيما الوجوه . ففي هذا الموقف هل من تكذيب ونكران : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ !

﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ .

وهو مشهد عنيف ومع العنف الهوان . حيث تجمع الأقدام إلى الجباه ، ثم يقذف المجرمون على هذه الهيئة إلى النار . . فهل حينذلك من تكذيب أو نكران .

وبينما المشهد معروض ، والأخذ بالنواصي والأقدام والقذف في النار مستمر ، يلتفت السياق إلى شهود هذا الاستعراض ، وكأنهم حاضرون عند تلاوة السورة فيقول لهم :

﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ﴾ . . هذه هي حاضرة معروضة – كما ترون – ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ . . متناه في الحرارة كأنه الطعام الناضج على النار !

وهم يتراوحون بين جهنم وبين هذا السائل الآني . انظروا إنهم يطوفون الآن ! ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ !

هذه ضفة العذاب الأليم . والآن إلى ضفة النعيم والتكريم :

﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ . .

وللمرة الأولى – فيما مر بنا من سور القرآن – تذكر الجنتان .

والأظهر أنهما ضمن الجنة الكبيرة المعروفة ! ولكن اختصاصهما هنا بالذكر قد يكون لمرتبتهما . وسيأتي في سورة الواقعة أن أصحاب الجنة فريقان كبيران: هما السابقون المقربون . وأصحاب اليمين . ولكل منهما نعيم . فهنا كذلك نلمح أن هاتين الجنتين هما لفريق ذي مرتبة عالية . وقد يكون فريق السابقين المقربين المذكورين في سورة الواقعة . ثم نرى جنتين أخريين من دون هاتين . ونلمح أنهما لفريق يلي ذلك الفريق . وقد يكون هو فريق أصحاب اليمين .

على أية حال فلنشهد الجنتين الأوليين , ولنعش فيهما لحظات !

إنهما (ذواتا أفنان) . . والأفنان الأغصان الصغيرة الندية . فهما ريانتان نضرتان .

(فيهما عينان تجريان) . . فماؤهما غزير , وسهل يسير .

(فيهما من كل فاكهة زوجان) . . ففاكهتهما منوعة كثيرة وفيرة .

وأهل الجنتين ما حالهم ؟ إننا ننظرهم: (متكئين على فرش بطائنها من إستبرق) والإستبرق المخمل الحرير السميك . فكيف بظهائر هذه الفرش إذا كانت تلك بطائنها ؟

(372/741)

(وجنى الجنتين دان) . .

قريب التناول , لا يتعب في قطاف .

ولكن هذا لا يستقصي ما فيهما من رفاهة ومتاع . فهناك بقية بهيجة لهذا المتاع:

(فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) . . فهن عفيفات الشعور والنظر .

لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن , مصونات لم يمسسهن إنس ولا جن .

وهن – بعد هذا – ناضرات لامعات: (كأنهن الياقوت والمرجان) .

ذلك كله جزاء من خاف مقام ربه , وعبده كأنه يراه , شاعرا أن ربه يراه , فبلغ بذلك مرتبة الإحسان كما وصفها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنالوا جزاء الإحسان من عطاء الرحمن:

(هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ?)

(373/741)

وفي معرض الإنعام والإحسان , كان التعقيب يجيء في موضعه بعد كل فقرة: (فبأي آلاء ربكما تكذبان ?)

والآن إلى الفريق الآخر صاحب الجنتين الأخريين .

(ومن دونهما جنتان) . . وأوصافهما أدنى من الجنتين السابقتين . فهما :

(مدهامتان) . . أي مخضرتان خضرة تميل إلى السواد لما فيهما من أعشاب .

(فيهما عينان نضاختان) . . تنضان بالماء . وهذا دون الجريان !

(فيهما فاكهة ونخل ورمان) . . وهناك: (من كل فاكهة زوجان)

(فيهن خيرات حسان) . . بسكون ياء خيرات أو بتشديدها على الوصف . وتأويل الخيرات بالسكون أو الخيرات بالتشديد في الآية التالية:

(حور مقصورات في الخيام) . . وتلقي الخيام ظل البداوة . فهو نعيم بدوي أو يمثل مطالب أهل البداوة . .

والحور مقصورات . أما حور الجنتين السابقتين فهن قاصرات الطرف .

(لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) . . فهن يشتركن مع زميلاتهن هناك في الصون والعفاف .

أما أهل هاتين الجنتين فنحن ننظرهما :

(متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان) . . والرفرف الأبسطة وكأنها من صنع [عبقر] لتقريب وصفها إلى العرب , وقد كانوا ينسبون كل عجيب إلى وادي الجن: عبقر !

ولكن المتكآت هناك بطائنها من إستبرق .

وهناك جنى الجنتين دان فهما مرتبتان مختلفتان !

وهناك كذلك كان التعقيب بعد كل صفة للجنتين ونعيمهما : (فبأي آلاء ربكما تكذبان

?) .

وفي ختام السورة التي استعرضت آلاء الله في الكون , وآلاءه في الخلق , وآلاءه في الآخرة .

يجيء الإيقاع الأخير , تسبيحا باسم الجليل الكريم , الذي يفني كل حي , ويبقى وجهه الكريم .

(تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) . .

أنسب ختام لسورة الرحمن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 4445 . 3458 ﴾

(374/741)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) ﴾

اعلم أولاً أن خلق الإنسان وتعليمه البيان من أعظم آيات الله الباهرة ، كما أشار تعالى لذلك بقوله ، في أول النحل : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 4] ، وقوله : في آخر يس ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس : 77] .

فالإنسان بالأمس نطفة واليوم هو في غاية البيان وشدة الخصام يجادل في ربه وينكر قدرته

على البعث ، فالمنافاة العظيمة التي بين النطفة وبين الإبانة في الخصام ، مع أن الله خلقه من نطفة وجعله خصيماً مبيناً آية من آياته جل وعلا دالة على أنه المعبود وحده ، وأن البعث من القبور حق .

وقوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ لم يبين هنا أطوار خلقه للإنسان ، ولكنه بينها في آيات أخر كقوله تعالى في الفلاح ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 13 - 14] .

والآيات المبينة أطوار خلق الإنسان كثيرة معلومة .

وقد بينا ما يتعلق بالإنسان من الأحكام في جميع أطواره قبل ولادته في أول سورة الحج في الكلام على قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج : 5] الآية ، وبينا هناك معنى النطفة والعلقة والمضغة في اللغة .

وقوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ التحقيق فيه أن المراد بالبيان الإفصاح عما في الضمير .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أنه علم الإنسان البيان قد جاء موضحاً في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 4 ويس : 77] في سورة النحل ويس ، وقوله ﴿ مُّبِينٌ ﴾ على أنه أسم فاعل أبان المتعدية ، والمفعول محذوف للتعميم ، أي مبين كل ما يريد بيانه ، وإظهاره بلسانه مما في ضميره ، وذلك لأنه ربه علمه البيان ، وعلى أنه صفة مشبهة من أبان اللازمة ، وأن المعنى فإذا هو خصيم مبين أي بين الخصومة ظاهرها ، فكذلك أيضاً ، لأنه ما كان بين الخصومة إلا لأن الله علمه البيان .

وقد امتن الله جل وعلا على الإنسان بأنه جعل له آلة البيان التي هي اللسان والشفتان ، وذلك في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ﴾ [البلد : 8 – 9] .

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5)

الحسبان : مصدر زيدت فيه الألف والنون ، كما زيدت في الطغيان والرجحان والكفران ، فمعنى بحسبان أي بحساب وتقدير من العزيز العليم وذلك من آيات الله ونعمه أيضاً على بني آدم ، لأنهم يعرفون به الشهور والسنين والأيام ، ويعرفون شهر الصوم وأشهر الحج ويوم الجمعة وعدد النساء اللاتي تعتد بالشهور ، كاليائسة والصغيرة والمتوفى عنها .

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ

السنين والحساب مَا خَلَقَ اللهُ ذلك إِلاَّ بالحق يُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : 5] .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَمَحَوْنَآ آيَةَ الليل وَجَعَلْنَآ آيَةَ النهار مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ [الإسراء : 12] .

وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6)

(376/741)

اختلف العلماء في المراد بالنجم في هذه الآية ، فقال بعض العلماء : النجم هو ما لا ساق له من النبات كالبقول ، والشجر هو ما له ساق ، وقال بعض أهل العلم : المراد بالنجم نجوم السماء .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي صوابه أن المراد بالنجم هو نجوم السماء ، والدليل على ذلك أن الله جل وعلا في سورة الحج صرح بسجود نجوم السماء والشجر ، ولم يذكر في آية من كتابه سجود ما ليس له ساق من النبات بخصوصه . ونعني بآية الحج قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر ﴾ [الحج : 18] الآية .

فدلت هذه الآية أن الساجد من الشجر في آية الرحمن هو النجوم السماوية المذكورة مع الشمس والقمر في سورة الحج ، وخير ما يفسر به القرآن القرآن ، وعلى هذا الذي اخترناه ، فالمراد بالنجم النجوم ، وقد قدمنا الكلام عليه في أول سورة النجم وأول سورة الحج ، وذكرنا أن من الشواهد العربية لإطلاق النجم وإرادة النجم قول الراعي :

فباتت تعد النجم في مستحيرة . . . سريع بأيدي الآكلين جمودها

وقول عمرو بن أبي ربيعة المخزومي :

أبرزها مثل المهاة تهادى . . . بين خمس كواعب أتراب

ثم قالوا تحبها قلت بهرا . . . عدد النجم والحصا والتراب

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ قد قدمنا الكلام عليه مستوفى في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بالغدو والآصال ﴾ [الرعد : 15] .

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7)

قوله : والسماء رفعها قد بينا الآيات الموضحة له في سورة ق في الكلام على قوله : ﴿ أَفَلَمْ ينظروا إِلَى السمآء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ [ق : 6] الآية .

وقوله : ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ ، قد قدمنا الكلام عليه في سورة الشورى في الكلام على قوله تعالى : ﴿ الله الذي أَنزَلَ الكتاب بالحق والميزان ﴾ [الشورى : 17] الآية .

وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَوْفُواْ ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : 152] ، وذكرنا بعضه في سورة الشورى .

وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10)

ذكر جل وعلا في هذه الآية أنه وضع الأرض للأنام وهو الخلق ، لأن وضع الأرض لهم على هذا الشكل العظيم ، القابل لجميع أنواع الانتفاع من إجراء الأنهار وحفر الآبار وزرع الحبوب والثمار ، ودفن الأموات وغير ذلك من أنواع المنافع ، من أعظم الآيات وأكبر الآلاء التي هي النعم ، ولذا قال تعالى : بعده : ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 13] .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من امتنانه جل وعلا على خلقه بوضع الأرض لهم بما فيها من المنافع ، وجعلها آية لهم ، دالة على كمال قدرة ربهم واستحقاقه للعبادة وحده ، جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي مَدَّ الأرض وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثمرات جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ [الرعد : 3] الآية ، وقوله

تعالى : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً فامشوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ ﴾ [الملك 15] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا والجبال أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [النازعات : 30 - 33] وقوله تعالى ﴿ والأرض فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الماهدون ﴾ [الذاريات : 48] وقوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً ﴾ [البقرة : 22] الآية .

(378/741)

وقوله تعالى ﴿ والأرض مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وذكرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السمآء مَآءً مُّبَارَكاً ﴾ [ق : 7 - 9] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الأرض جَمِيعاً ﴾ [البقرة : 29] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أي فواكه كثيرة ، وقد قدمنا أن هذا أسلوب عربي معروف ، وأوضحنا ذلك بالآيات وكلام العرب .

وقوله : ﴿ والنخل ذَاتُ الأكمام ﴾ ذات أي صاحبة ، والأكمام جمع كم بكسر الكاف ،

وهو ما يظهر من النخلة في ابتداء إثمارها ، شبه اللسان ثم ينفخ عن النور ، وقيل : هو ليفها ، واختار ابن جرير شموله للأمرين .

وقوله : ﴿ والحب ﴾ كالقمح ونحوه .

وقوله : ﴿ والحب ذُو العصف ﴾ ، قال أكثر العلماء : العصف ورق الزرع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل : 5] وقيل العصف : التبن .

وقوله : ﴿ والريحان ﴾ : اختلف العلماء في معناه ، فقال بعض أهل العلم : هو كل ما طاب ريحه من النبت وصار يشم للتمتع بريحه . وقال بعض العلماء الريحان : الرزق ، ومنه قول النجم بن تولب العكلي :

فروح الإله وريحانه . . . ورحمته وسماء درر

غمام ينزل رزق العباد . . . فأحيا البلاد وطاب الشجر

ويتعين كون الريحان بمعنى الرزق على قراءة حمزة والكسائي ، وأما على قراءة غيرهما فهو محتمل للأمرين المذكورين .

وإيضاح ذلك أن هذه الآية قرأها نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم : ﴿ والحب ذُو العصف والريحان ﴾ بضم الياء والذال والنون من الكلمات الثلاث ، وهو عطف على فاكهة أي فيها فاكهة ، وفيها الحب إلخ ، وقأه ابن عامر :

﴿ والحب ذُو العصف والريحان ﴾ ، بفتح الباء والذال والنون من الكلمات الثلاث ، وفي رسم المصحف الشامي ذا العصف بألف بعد الذال ، مكان الواو ، والمعنى على قراءته : وخلق الحب ذا العصف والريحان ، وعلى هاتين القراءتين ، فالرحان محتمل لكلا المعنيين المذكورين .

وقراءة حمزة والكسائي بضم الباء في الحب وضم الذال في ذو العصف وكسر نون الريحان عطفاً على العصف ، وعلى هذا فالريحان لا يحتمل المشموم لأن الحب الذي هو القمح ونحوه صاحب عصف وهو الورق أو التبن وليس صاحب مشموم طيب ريح .

فيتعين على هذه القرءاة أن المراد بالعصف ما تأكله الأنعام من ورق وتبن ، والمراد بالريحان ما يأكله الناس من نفس الحب ، فالآية على هذا المعنى كقوله ﴿ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [النازعات : 33] وقوله تعالى : ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ﴾ [السجدة : 27] . وقوله تعالى ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى كُلُواْ وارعوا أَنْعَامَكُمْ ﴾ [طه : 53 - 54] وقوله تعالى : ﴿ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع والزيتون ﴾ [النحل : 10 - 11] الآية .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ ما ذكره تعالى فيه من الامتنان بالفاكهة التي هي أنواع ، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في سورة الفلاح ﴿ لَّكُمْ

فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [المؤمنون: 19] وقوله تعالى: ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: 31] إلى غير ذلك من الآيات.

(380/741)

وما ذكره هنا من الامتنان بالحب جاء موضحاً في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحصيد ﴾ [ق: 9]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَباً وَقَضْباً ﴾ [عبس: 27 - 28] وقوله تعالى: ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: 33]، وقوله تعالى: ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِباً ﴾ [الأنعام: 99] الآية. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحب والنوى ﴾ [الأنعام: 95] إلى غير ذلك من الآيات.

وما ذكره تعالى هنا من الامتنان بالنحل، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ والنخل بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقاً لِّلْعِبَادِ ﴾ [ق: 10 - 11]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ [المؤمنون: 19] الآية، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وما ذكره هنا من الامتنان بالريحان، على أنه الرزق كما في قراءة حمزة والكسائي، جاء موضحاً في آيات كثيرة أيضاً كقوله تعالى: ﴿ هُوَ الذي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السماء

رِزْقاً ﴾ [غافر : 13] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء والأرض ﴾ [يونس : 31] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هذا الذي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ [الملك : 21] وقوله تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطيبات ﴾ [غافر : 64] الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

مسألة

(381/741)

أخذ بعض علماء الأصول من هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات كقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الأرض جَمِيعاً ﴾ أن الأصل فيما على الأرض الإباحة ، حتى يرد دليل خاص بالمنع ، لأن الله امتن على الأنام بأنه وضع لهم الأرض ، وجعل لهم فيها أرزاقهم من القوت والتفكه في آية الرحمن هذه ، وامتن عليهم بأنه خلق لهم ما في الأرض جميعاً في قول ﴿ هُوَ الذي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الأرض جَمِيعاً ﴾ [البقرة : 29] .

ومعلوم أنه جل وعلا لا يمتن بحرام إذ لا منة في شيء محرم ، واستدلوا لذلك أيضاً بحصر المحرمات في أشياء معينة في آيات من كتبا الله ، كقوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ ﴾ [الانعام

: 145] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف : 33] الآية . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام : 151] الآية .

وفي هذه المسألة قولان آخران .

أحدهما : أن الأصل فيما على الأرض التحريم حتى يدل دليل على الإباحة ، واحتجوا لهذا بأن جميع الأشياء مملوكة لله جل وعلا ، والأصل في ملك الغير منع التصرف فيه إلا بإذنه ، وفي هذا مناقشات معروفة في الأصول ، ليس هذا محل بسطها .

القول الثاني : هو الوقف وعدم الحكم فيها بمنع ولا إباحة حتى يقوم الدليل ، فتحصل أن في المسألة ثلاثة مذاهب : المنع ، والإباحة ، والوقف .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر لي صوابه في هذه المسألة هو التفصيل ، لأن الأعيان التي خلقها الله في الأرض للناس بها ثلاث حالات :

الأول : أن يكون فيها نفع لا يشوبه ضرر كأنواع الفواكه وغيرها .

الثانية : أن يكون فيها ضرر لا يشوبه نفع كأكل الأعشاب السامة القاتلة .

الثالثة : أني كون فيها نفع من جهة وضرر من جهة أخرى ، فإن كان فيها نفع لا يشوبه ضررن فالتحقيق حملها على الإباحة حتى يقوم دليل على خلاف ذلك لعموم قوله : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الأرض جَمِيعاً ﴾ [البقرة : 29] . وقوله ﴿ والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ [الرحمن : 10] الآية .

وإن كان فيها ضرر لا يشوبه نفع فهي على التحريم لقوله صلى الله عليه وسلم : " لا ضرر ولا ضرار "

وإن كان فيها نفع من جهة وضرر من جهة أخرى فلها ثلاث حالات :

الأولى : أن يكون النفع أرجح من الضرر .

والثانية : عكس هذا .

والثالثة : أن يتساوى الأمران .

فإن كان الضرر أرجح من النفع أو مساوياً له فالمنع لحديث " لا ضرر ولا ضرار " ولأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، وإن كان النفع أرجح ، فالأظهر الجواز ، لأن المقرر في الأصول أن المصلحة الراجحة تقدم على المفسدة المرجوحة ، كما أشار في مراقي السعود بقوله :

وألغ إن يك الفساد أبعدا

أو رجح الإصلاح كالأسارا . . . تفدى بما ينفع للنصارا

وانظر تدلي دولي العنب . . . في كل مشرق وكل مغرب

ومراده : تقديم المصلحة الراجحة على المفسدة المرجوحة ، أو البعيدة ممثلاً له بمثالين :

الأول منها : أن تخليص أسارى المسلمين من أيدي العدو بالفداء مصلحة راجحة قدمت على المفسدة المرجوحة ، التي هي انتفاع العدو بالمال المدفوع لهم فداء للأسارى .

الثاني : أن انتفاع الناس بالعنب والزبيب ، مصلحة راجحة على مفسدة عصر الخمر من العنب ، فلم يقل أحد بإزالة العنب من الدنيا لدفع ضرر عصر الخمر منه ، لأن الانتفاع بالعنب والزبيب مصلحة راجحة على تلك المفسدة ، وهذا التفصيل الذي اخترنا ، قد أشار له صاحب مراقي السعود بقوله :

والحكم ما به يجيء الشرع . . . وأصل كل ما يضر المنع

تنبيه

(383/741)

اعلم أن علماء الأصول يقولون : إن الإنسان لا يحرم عليه فعل شيء إلا بدليل من الشرع ، ويقولون إن الدليل على ذلك عقلي ، وهو البراءة الأصلية المعروفة بالإباحة العقلية ، وهي استصحاب العدم الأصلي حتى يرد دليل ناقل عنه .

ونحن نقول : إنه قد دلت آيات من كتاب الله على أن استصحاب العدم الأصلي قبل ورود الدليل الناقل عنه حجة في الإباحة ، ومن ذلك أن الله لما أنزل تشديده في تحريم الربا في قوله تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ ﴾ [البقرة : 279] الآية ، وكانت وقت نزولها عندهم أموال مكتسبة من الربا ، اكتسبوها قبل نزول التحريم ، بين الله تعالى لهم أن ما فعلوه من الربا ، على البراءة الأصلية قبل نزول التحريم لا حرج عليهم فيه ، إذ لا تحريم إلا ببيان ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَمَن جَآءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فانتهى فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ [البقرة : 275] وقوله : ما سلف أي ما مضى قبل نزول التحريمن ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النسآء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء : 22] وقوله تعالى ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الاختين إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [النساء : 23] والأظهر أن الاستثناء فيهما في قوله : ﴿ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ . منقطع أي لكن ما سلف من ذلك قبل نزول التحريم ، فهو عفو ، لأنه على البراءة الأصلية .

(384/741)

ومن أصرح الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللّهِ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حتى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة : 115] لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما استغفر

لعمه أبي طالب بعد موته على الشرك ، واستغفر المسلمون لموتاهم المشركين عاتبهم الله في قوله ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانوا أُوْلِي قربى ﴾ [التوبة : 113] الآية . ندموا على الاستغفار لهم ، فبين الله لهم أن استغفارهم لهم لا مؤاخذة به ، لأنه وقع قبل بيان منعه ، وهذا صريح فيما ذكرنا .

وقد قدمنا أن الأخذ بالبراءة الأصلية يعذر به في الأصول أيضاً في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] وبينا هناك كلام أهل العلم في ذلك ، وأوضحنا ما جاء في ذلك من الآيات القرآنية . والعلم عند الله تعالى .

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15)

الصلصال : الطين اليابس الذي تسمع له صلصلة ، أي صوت إذا قرع بشيء ، وقيل الصلصال المنتن ، والفخار الطين المطبوخ ، وهذه الآية بين الله فيها طوراً من أطوار التراب الذي خلق منه آدم ، فبين في آيات أنه خلقه من تراب كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران : 59] وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج : 5] وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم : 20] وقوله تعالى ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [غافر : 67] وقوله تعالى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ [طه : 55] .

وقد بينا في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ وقوله ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ أن المراد بخلقهم منها هو خلق أبيهم آدم منها ، لأنه أصلهم وهم فروعه ، ثم إن الله تعالى عجن هذا التراب بالماء فصار طيناً ، ولذا قال ﴿ اسجدوا لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ [الإسراء : 61] وقال ﴿ أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون : 12] وقال تعالى : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسانِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة : 7] . وقال ﴿ أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴾ [الصافات : 11] وقال تعالى : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ ﴾ [ص : 71] ثم خمر هذا الطين فصار حمأً مسنوناً ، أي طيناً أسود متغير الريح ، كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : 26] الآية . قال تعالى : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : 28] وقال عن إبيس ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : 33] والمسنون قيل المتغير وقيل المصور وقيل الأملس ، ثم يبس هذا الطين فصار صلصالاً . كما قال هنا : ﴿ خَلَقَ الإِنسانَ مِن صَلْصَالٍ كالفخار ﴾ [الرحمن : 14] وقال ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ

حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : 26] .

فالآيات يصدق بعضها بعضاً ، ويتبين فيها أطوار ذلك التراب كما لا يخفى .

قوله ﴿ والجآن ﴾ أي وخلق الجان وهو أبو الجن ، وقيل هو إبليس . وقيل : هو الواحد من الجن .

وعليه فالألف واللام للجنس ، والمارج : اللهب الذي لا دخان فيه ، وقوله ﴿ مِّن نَّارٍ ﴾ بيان لمارج . أي من لهب صاف كائن من النار .

(386/741)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنه تعالى خلق الجان من النار ، جاء موضحاً في غير هذ الموضع كقوله تعالى في الحجر ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ والجآن خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السموم ﴾ [الحجر : 26 - 27] وقوله تعالى ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : 12] .

وقد أوضحنا الكلام على هذا في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى واستكبر وكَانَ مِنَ الكافرين ﴾ [البقرة : 34] .

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17)

قد أوضحنا الكلام عليه في أول الصافات في الكلام على قوله تعالى : ﴿ رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المشارق ﴾ [الصافات : 5] .

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (20)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي مَرَجَ البحرين هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ [الفرقان : 53] .

يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (22)

قرأ هذا الحرف نافع وأبو عمرو ، ﴿ يُخْرَجُ ﴾ بضم الياء وفتح الراء مبنياً للمفعول ، وعليه فاللؤلؤ نائب فاعل يخرج وقرأه باقي السبعة : ﴿ يَخْرُجُ ﴾ بفتح الياء وضم الراء مبنياً للفاعل ، وعليه فاللؤلؤ فاعل يخرج .

اعلم أن جماعة من أهل العلم قالوا : إن المراد بقوله في هذه الآية يخرج منهما أي من مجموعها الصادق بالبحر الملحن وأن الآية من إطلاق المجموع وإرادة بعضه ، وأن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان من البحر الملح وحده دون العذب .

وهذا القول الذي قالوه في هذه الآية مع كثرتهم وجلالتهم لا شك في بطلانه ، لأن الله صرح بنقيضه في سورة فاطر ، ولا شك أن كل ما ناقض القرآن فهو باطل ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي البحران هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [فاطر : 12] فا تنوين في قوله : ﴿ مِن كُلٍّ ﴾ تنوين عوض أي من كل واحد من العذب والملح تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها ، وهي اللؤلؤ والمرجان ، وهذا مما لا نزاع يه .

وقد أوضحنا هذا في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يَامَعْشَرَ الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ ﴾ [الأنعام : 130] الآية واللؤلؤ الدر ، والمرجان الخرز الأحمر . وقال بعضهم : المرجان صغار الدر واللؤلؤ كباره .

وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (24)

قد قدمنا الكلام عليه في سورة شورى في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الجوار فِي البحر كالأعلام ﴾ [الشورى : 32] .

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27)

ام تضمنته هذه الآية الكريمة من فناء كل من على الأرض وبقاء وجهه جل وعلا المتصف بالجلال والإكرام ، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ

وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] ، وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ ﴾ [الفرقان : 58] وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت ﴾ [آل عمران : 185] إلى غير ذلك من الآيات .

والوجه صفة من صفات الله العلي وصف بها نفسهن فعلينا أن نصدق ربنا ونؤمن بما وصف به نفسه مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق .

(388/741)

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح بالآيات القرآنية في سورة الأعراف ، وفي سورة القتال .

والعلم عند الله تعالى .

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33)

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [الحجر : 17] وتكلمنا أيضاً هناك على غيرها من الآيات التي يفسرها الجاهلون بكتاب الله بغير معانيها ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن السماء ستنشق يوم القيامة ، وأنها إذا اشنقت صارت وردة كالدهان ، وقوله : ﴿ وَرْدَةً ﴾ : أي حمراء كلون الورد ، وقوله ﴿ كالدهان ﴾ : فيه قولان معروفان للعلماء .

الأول منها : أن الدهان هو الجلد الأحمر ، وعليه فالمعنى أنها تصير وردة متصفة بلون الورد مشابهة للجلد الأحمر في لونه .

والثاني : أن الدهان هو ما يدهن به ، وعليه ، فالدهان ، قيل : هو جمع دهن ، وقيل : هو مفرد ، لأن العرب تسمى ما يدهن به دهاناً ، وهو مفرد ، ومنه قول امرئ القيس :

كأنهما مزادتا متعجل . . . فريان لما تدهني بدهان

وحقيقة الفرق بين القولين أنه على القول بأن الدهان هو الجلد الأحمر ، يكون الله وصف السماء عند انشقاقها يوم القيامة بوصف واحد وهو الحمرة فشبهها بحمرة الورد . وحمرة الأديم الأحمر .

قال بعض أهل العلم : إنها يصل إليها حر النار فتحمر من شدة الحرارة . وقال بعض أهل العلم : أصل السماء حمراء إلا أنها لشدة بعدها وما دونها من الحواجز لم تصل العيون إلى إدراك لونها الأحمر على حقيقته ، وأنها يوم القيامة ترى على حقيقة لونها .

وأما على القول بأن الدهان هوما يدهن به ، فإن الله وقد وصف السماء عند انشقاقها بوصفين أحدهما حمرة لونها ، والثاني أنها تذوب وتصير مائعة كالدهن .

أما على القول الأول ، فلم نعلم آية من كتاب الله تبين هذه الآية ، بأن السماء ستحمر يوم القيامة حتى تكون كلون الجلد الأحمر .

وأما على القول الثاني الذي هو أنها تذوب وتصير مائعة ، فقد أوضحه الله في غير هذا الموضع وذلك في قوله تعالى في المعارج ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً يَوْمَ تَكُونُ السمآء كالمهل ﴾ [المعارج : 6 – 8] والمهل شيء ذائب على كلالقولين سواء قلنا : إنه دردي الزيت وهو عكره ، أو قلنا إنه الذائب من حديد أو نحاس أو نحوهما .

وقد أوضح تعالى في الكهف أن المهل شيء ذائب يشبه الماء شديد الحرارة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه بِئْسَ الشراب وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ [الكهف : 29] .

والقول بأن الوردة تشبيه الفرس الكميت وهو الأحمر لأن حمرته تتلون باختلاف الفصول ، فتشتد حمرتها في فصل ، فتميل إلى الصفرة في فصل ، وإلى الغبرة في فصل .

وأن المراد بالتشبيه كون السماء عند انشقاقها تتلون بألوان مختلفة واضح البعد عن ظاهر الآية ، وقول من قال : إنها تذهب وتجيء معناه له شاهد في كتاب الله ، وذلك في قوله تعالى

: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السمآء مَوْراً ﴾ [الطور : 9] الآية ، ولكنه لا يخلو عندي من بعد .

وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة من انشقاق السماء يوم القيامة ، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ إِذَا السمآء انشقت ﴾ [الانشقاق : 1] وقوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الواقعة وانشقت السمآء ﴾ [الحاقة : 15 - 16] .

(390/741)

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السمآء بالغمام ﴾ [الفرقان : 25] الآية . وقوله : ﴿ إِذَا السمآء انفطرت ﴾ [الانفطار : 1] ، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة ق في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق : 6] .

فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (39)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أنه يوم القيامة لا يسأل إنساً ولا جاناً عن ذنبه ، وبين هذا المعنى في قوله تعالى في القصص : ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ [القصص : 78] .

وقد ذكر جل وعلا في آيات أخر أنه يسأل جميع الناس يوم القيامة الرسل والمرسل إليهم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين ﴾ [الأعراف : 6

] ، وقوله ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : 92 - 93] .

وقد جاءت آيات من كتاب الله مبينة لوجه الجمع بين هذه الآيات ، التي قد يظن غير العالم أن بينها اختلافاً ، اعلم أولاً أن للسؤال المنفي في قوله هنا ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ ، وقوله ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أخص من السؤال المثبت في قوله ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، لأن هذه فيها تعميم السؤال في كل عمل ، والآيتان قبلها ليس فيهما نفي السؤال إلا عن الذنوب خاصة وللجمع بين هذه الآيات أوجه معروفة عند العلماء .

الأول منها : وهو الذي دل عليه القرآن ، وهو محل الشاهد عندنا من بيان القرآن بالقرآن هنا ، هو أن السؤال نوعان : أحدهما سؤال التوبيخ والتقريع وهو من أنواع العذاب ، والثاني هو سؤال الاستخبار والاستعلام .

(391/741)

فالسؤال المنفي في بعض الآيات هو سؤال الاستخبار والاستعلام ، لأن الله أعلم بأفعالهم منهم أنفسهم كما قال تعالى : ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة : 6] .

وعليه فالمعنى لا يسأل عن ذبه إنس ولا جان ، سؤال استخبار واستعلام لأن الله أعلم

بذنبه منه .

والسؤال المثبت في الآيات الأخرى هو سؤال التوبيخ والتقريع ، سواء كان عن ذنب أو غير ذنب ، ومثال سؤالهم عن الذنوب سؤال توبيخ وتقريع قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا العذاب بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران : 106] ، ومثاله عن غير ذنب قوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ [الصافات : 24 – 26] وقوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هذه النار التي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هذا ﴾ [الطور : 13 – 15] الآية ، وقوله ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُم ﴾ [الأنعام : 130] .

أما سؤال الموءودة في قوله : ﴿ وَإِذَا الموءودة سُئِلَتْ ﴾ [التكوير : 8] فلا يعارض الآيات النافية السؤال عن الندب ، لأنها سئلت عن أي ذنب قتلت وهذا ليس من ذبها ، والمراد بسؤالها توبيخ قاتلها وتقريعه ، لأنها هي تقول لا ذنب لي ، فيرجع اللوم على من قتلها ظلماً .

وكذلك سؤال الرسل ، فإن المراد توبيخ من كذبهم وتقريعه ، مع إقامة الحجة عليه بأن الرسل قد بلغته ، وباقي أوجه الجمع بين الآيات لا يدل عليه قرآن ، وموضع هذا الكتاب بيان القرآن بالقرآن ، وقد بينا بقيتها في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في أول سورة الأعراف .

وقد قدمنا طرفاً في هذا الكتاب المبارك في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين ﴾ [الأعراف : 6] .

(392/741)

يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (41)

قوله : ﴿ بِسِيمَانُهُمْ ﴾ : أي بعلامتهم المميزة لها ، وقد دل القرآن على أنها هي سواد وجوههم وزرقة عيونهم ، كما قال تعالى ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ ﴾ [آل عمران : 106] الآية ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر : 60] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِّنَ الله مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ الليل مُظْلِماً أولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس : 27] ، وقال تعالى : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أولئك هُمُ الكفرة الفجرة ﴾ [عبس : 40 - 42] لأن معنى قوله ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أي يعلوها ويغشاها سواد كالدخان الأسود ، وقال تعالى في زرقة عيونهم : ﴿ وَنَحْشُرُ المجرمين يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ﴾ [طه : 102] ولا شيء أقبح وأشوه من سواد الوجوه وزرقة العيون ، ولذا لما أراد الشاعر أن يقبح علل البخيل بأسوإ الأوصاف وأقبحها ، فوصفها

بسواد الوجوه وزرقة العيون حيث قال :

وللبخيل على أمواله علل . . . زرق العيون عليها أوجه سود

ولا سيما إذا اجتمع مع سواد الوجه اغبراره ، كما في قوله : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ فإن ذلك يزيده قبحاً على قبح .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فَيُؤْخَذُ بالنواصي والأقدام ﴾ ، وقد قدمنا تفسيره والآيات الموضحة له في سورة الطور في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور : 13] .

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (44)

(393/741)

أما قوله : ﴿ هذه جَهَنَّمُ التي يُكَذِّبُ بِهَا المجرمون ﴾ فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الطور أيضاً في الكلام على قوله تعالى : ﴿ هذه النار التي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور : 14] .

وأما قوله تعالى : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج في الكلام على قوله : ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ

﴾ [الحج : 19 - 20] الآية .

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46)

وقد بينا في ترجمة هذا الكتاب المبارك ، أن الآية قد يكون فيها وجهان صحيحان كلاهما يشهد له قرآن ، فنذكر ذلك كله مبينين أنه كله حق ، وذكرنا لذلك أمثلة متعددة في هذا الكتاب المبارك ، ومن ذلك هذه الآية الكريمة .

وإيضاح ذلك أن هذه الآية الكريمة فيها وجهان معروفان عند العلماء ، كلاهما يشهد له قرآن :

أحدهما : أن المراد بقوله : ﴿ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ : أي قيامه بين يدي ربه ، فالمقام اسم مصدر بمعنى القيام ، وفاعله على هذا الوجه هو العبد الخائف ، وإنما أضيف إلى الرب لوقوعه بين يديه ، وهذا الوجه يشهد له قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى ﴾ [النازعات : 40 - 41] ، فإن قوله ﴿ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى ﴾ : قرينة دالة على أنه خاف عاقبة الذنب حين يقوم بين يدي ربه ، فنهى نفسه عن هواها .

(394/741)

والوجه الثاني : أن فاعل المصدر الميمي الذي هو المقام ، هو الله تعالى : أي خاف هذا العبد قيام العبد قيام الله عليه ومراقبته لأعماله وإحصائها عليه ، ويدل لهذا الوجه الآيات الدالة على قيام الله على جميع خلقه وإحصائه عليهم أعمالهم كقوله تعالى : ﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحي القيوم ﴾ [البقرة : 255] ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : 33] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس : 61] الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدمنا في سورة الأحقاف في الكلام على قوله تعالى في شأن الجن : ﴿ يا قومنا أَجِيبُواْ دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [الأحقاف : 31] الآية ، أن قوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ ، وتصريحه بالامتنان بذلك على الإنس والجن في قوله ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 13 و 16] ، نص قرآني على أن المؤمنين الخائفين مقام ربهم من الجن يدخلون الجنة .

مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54)

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ .

قد بينا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [النحل : 14] جميع الآيات القرآنية الدالة على تنعم أهل الجنة بالسندس والإستبرق ، والحلية بالذهب والفضة ، وبينا أن جميع ذلك يحرم على ذكور هذه الآمة في دار الدنيا .

فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56)

قوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطرف ﴾

(395/741)

قد قدمنا الكلام عليه مستوفى في سورة الصافات في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطرف عِينٌ ﴾ [الصافات : 48] .

حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (72)

قد قدمنا معنى القصر في الخيام ، وقصر الطرف على الأزواج في سورة الصافات في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطرف عِينٌ ﴾ [الصافات : 48] ، وقدمنا الآيات الدالة على صفات نساء أهل الجنة في مواضع كثيرة من هذا الكتاب في سورة البقرة والصافات . وغير ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(396/741)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الرَّحْمَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكِ أَنَّ الْعَصْفَ التِّبْنُ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ : " الرَّيْحَانُ الْوَرَقُ " ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا أَنَّ الرَّيْحَانَ الْحَبُّ وَقَالَ الْحَسَنُ : " هُوَ الرَّيْحَانُ الَّذِي يُشَمُّ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ ذَلِكَ مُرَادًا ؛ لِوُقُوعِ الِاسْمِ عَلَيْهِ ، وَالظَّاهِرُ مِنْ الرَّيْحَانِ أَنَّهُ الْمَشْمُومُ ، وَلَمَّا عَطَفَ الرَّيْحَانَ عَلَى الْحَبِّ ذِي الْعَصْفِ وَالْعَصْفُ هُوَ سَاقُهُ دَلَّ عَلَى أَنَّ الرَّيْحَانَ مَا يَخْرُجُ مِنْ الْأَرْضِ وَلَهُ رَائِحَةٌ مُسْتَلَذَّةٌ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ لَهُ سَاقٌ ، وَذَلِكَ نَحْوُ الضَّيْمَرَانِ وَالنَّمَّامِ وَالْآسِ الَّذِي يُخْرِجُ وَرَقُهُ رَيْحَانًا قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ ذَا سَاقٍ ؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ يَقْتَضِي ظَاهِرُهُ أَنَّ الْمَعْطُوفَ غَيْرُ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ .

وَقَوْله تَعَالَى - : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ مُرَادُهُ مِنْ أَحَدِهِمَا ؛ لِأَنَّهُ إنَّمَا يَخْرُجُ مِنْ الْمِلْحِ دُونَ الْعَذْبِ ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ ، وَإِنَّمَا أُرْسِلَ مِنْ الْإِنْسِ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ : " الْمَرْجَانُ صِغَارُ

اللُّؤْلُؤ " وَقِيلَ : " الْمَرْجَانُ الْمُخْتَلِطُ مِنْ الْجَوَاهِرِ ، مِنْ مَرَجْت أَيْ خَلَطْت " وَقِيلَ : " إنَّهُ ضَرْبٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ كَالْقُضْبَانِ يَخْرُجُ مِنْ الْبَحْرِ " .

(397/741)

وَقِيلَ : إنَّمَا قَالَ : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ﴾ لِأَنَّ الْعَذْبَ وَالْمِلْحَ يَلْتَقِيَانِ فَيَكُونُ الْعَذْبُ لِقَاحًا لِلْمِلْحِ ، كَمَا يُقَالُ يَخْرُجُ الْوَلَدُ مِنْ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى وَإِنَّمَا تَلِدُهُ الْأُنْثَى ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إذَا جَاءَ الْقَطْرُ مِنْ السَّمَاءِ تَفَتَّحَتْ الْأَصْدَافُ فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ اللُّؤْلُؤُ " .

وَقَوْله تَعَالَى - : ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ ، رُوِيَ أَنَّهَا تَحْمَرُّ وَتَذُوبُ كَالدُّهْنِ ، رُوِيَ أَنَّ سَمَاءَ الدُّنْيَا مِنْ حَدِيدٍ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صَارَتْ مِنْ الْخُضْرَةِ إلَى الِاحْمِرَارِ مِنْ حَرِّ نَارِ جَهَنَّمَ كَالْحَدِيدِ إذَا أُحْمِيَ بِالنَّارِ .

وَقَوْله تَعَالَى - : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ ؛ قِيلَ فِيهِ : لَا يُسْأَلُ سُؤَالَ اسْتِفْهَامٍ لَكِنْ سُؤَالَ تَقْرِيرٍ وَتَوْقِيفٍ وَقِيلَ فِيهِ : لَا يُسْأَلُ فِي أَوَّلِ أَحْوَالِ حُضُورِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَا يَلْحَقُهُمْ مِنْ الدَّهَشِ وَالذُّهُولِ ثُمَّ يُسْأَلُونَ فِي وَقْتٍ آخَرَ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ يُحْتَجُّ بِهِ لِأَبِي حَنِيفَةَ فِي أَنَّ الرُّطَبَ وَالرُّمَّانَ لَيْسَا مِنْ الْفَاكِهَةِ ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ لَا يُعْطَفُ عَلَى نَفْسِهِ إنَّمَا يُعْطَفُ عَلَى غَيْرِهِ هَذَا هُوَ ظَاهِرُ

الْكَلَامِ .

وَمَفْهُومُهُ إلَّا أَنْ تَقُومَ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهُ انْفَرَدَ بِالذِّكْرِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ جِنْسِهِ لِضَرْبٍ مِنْ التَّعْظِيمِ وَغَيْرِهِ ، كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ .

آخِرُ سُورَةِ الرَّحْمَنِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(398/741)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

[فِيهَا آيَةٌ وَاحِدَةٌ]

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ جِبْرِيلَ سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْإِحْسَانِ ، فَقَالَ : أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّك تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك ﴾ .

فَهَذَا إحْسَانُ الْعَبْدِ .

وَأَمَّا إحْسَانُ اللَّهِ فَهُوَ دُخُولُ الْحُسْنَى وَهِيَ الْجَنَّةُ ، وَلِلْحُسْنَى دَرَجَاتٌ بَيَّنَّاهَا فِي كُتُبِ

الْأُصُولِ ؛ وَهَذَا مِنْ أَجَلِّهَا قَدْرًا ، وَأَكْرَمِهَا أَمْرًا ، وَأَحْسَنِهَا ثَوَابًا ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ فَهَذَا تَفْسِيرُهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(399/741)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الرحمن

الرَّحْمَنُ (1)

قوله : ﴿ الرحمن ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أي : اللَّهُ الرحمنُ . الثاني : أنه مبتدأٌ ، وخبرُه مضمرٌ ، أي : الرحمنُ ربُّنا . وهذان الوجهان عند مَنْ يرى أنَّ " الرحمن " آيةٌ مع هذا المضمرِ معه ، فإنهم عَدُّوا " الرحمن " آيةً ولا يُتَصَوَّرُ ذلك إلاَّ بانضمامِ خبرٍ أو مُخْبَرٍ عنه إليه ، إذ الآيةُ لا بُدَّ أَنْ تكونَ مفيدةً ، وسيأتي ذلك في قولِه " مُدْهامَّتان " . الثالث أنه ليس بآيةٍ ، وأنه مع ما بعده كلامٌ واحدٌ ، وهو مبتدأٌ خبرُه " عَلَّم القرآنَ " .

عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2)

قوله : ﴿ عَلَّمَ القرآن ﴾ : فيه وجهان ، أظهرُهما : أنها عَلَّم المتعدية إلى اثنين أي : عَرَّف ، من التعليم ، فعلى هذا المفعولُ الأولُ محذوف فقيل : تقديره : عَلَّم جبريلَ القرآنَ . وقيل : علَّم محمداً . وقيل : عَلَّم الإنسانَ . وهذا أَوْلَى لعُمومِه ، ولأنَّ قوله " خَلَق الإنسانَ " دالٌّ عليه . والثاني : أنها من العلامةِ . فالمعنى : جَعَله علامةً وآيةً يُعْتنى بها .

وهذه الجملُ التي جيْءَ بها من غيرِ عاطفٍ لأنها سِيْقَتْ لتعديدِ نعمةٍ كقولك : فلانٌ أَحْسَنَ إلى فلانٍ : أكرمه ، أشاد ذِكْرَه ، رَفَعَ مِنْ قَدْرِه ، فلشِدَّةِ الوصلِ تَرَكَ العاطفَ . والظاهر أنها أخبارٌ . وقال أبو البقاء : و " خَلَق الإنسان " مستأنفٌ وكذلك " عَلَّمه " يجوز أَنْ يكونَ حالاً من الإنسان مقدرةً و " قد " معها مرادةٌ " . انتهى . وهذا ليس بظاهرٍ بل الظاهرُ ما قدَّمتُه ولم يذكُرْ الزمخشريُّ غيرَه . فإن قيل : لِمَ قَدَّم تعليمَ القرآنِ للإنسان على خَلْقِه وهو متأخرٌ عنه في الوجودِ ؟ قيل : لأنَّ التعليمَ هو السببُ في إيجادِه وخَلْقِه .

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5)

(400/741)

قوله : ﴿ بِحُسْبَانٍ ﴾ : فيه ثلاثة أوجه ، أحدُها : أن " الشمس " مبتدأ و " بحُسْبان " خبرُها على حَذْفِ مضافٍ تقديره : جَرْيُ الشمس والقمر بحُسْبانٍ ، أي : كائن أو مستقر

أو استقرَّ بحُسْبان . الثاني : أنَّ الخبرَ محذوفٌ يتعلَّق به هذا الجارُّ تقديره : يَجْريان بحسبان ، وعلى هذين القولَيْن فيجوز في الحُسْبان وجهان ، أحدهما : أنه مصدرٌ مفردٌ بمعنى الحُسْبان ، فيكونُ كالشُّكران والكُفْران . والثاني : أنه جمعُ حِساب كشِهاب وشُهْبان . / والثالث : أنَّ الحُسْبَانَ خبرُه ، والباءُ ظرفيةٌ بمعنى في ، أي : كائنان في حُسْبان ، وحُسْبان ، وحُسْبان على هذا اسمٌ مفرد ، اسمٌ للفَلَكِ المستدير ، شَبَّهه بحُسْبان الرَّحى الذي باستدارته تستدير الرحى ، قاله مجاهد .

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7)

قوله : ﴿ والسماءَ رَفَعَهَا ﴾ : العامَّةُ على النصب على الاشتغال مراعاً لعَجُزِ الجملةِ التي يُسَمِّيها النحاةُ ذاتَ وجهين . وفيها دليلٌ لسيبويه حيث يُجَوِّزُ النصبَ ، وإنْ لم يكنْ في جملةِ الاشتغالِ ضميرٌ عائدٌ على المبتدأ الذي تضمَّنَتْه الجملةُ ذاتُ الوجهين . والأخفشُ يقول : لا بُدَّ من ضميرٍ ، مثالُه : " هند قامَتْ وعمراً أكرمْتُه لأجلها " قال : " لأنك راعَيْتَ الخبرَ ، وعَطَفْتَ عليه ، والمعطوفُ على الخبرِ خبرٌ فيُشْترط فيه ما يُشْترط فيه ، ولم يَشْتَرِطِ الجمهورُ ذلك وهذا دليلُهم ، قال الفراء : " كلهم نَصَبُوا مع عدم الرابط إلاَّ مَنْ شذَّ منهم . وقد تقدَّمَ هذا محرراً في سورة يس عند قولِه تعالى : ﴿ والقمر قَدَّرْنَاهُ ﴾ [يس : 39] فهناك اختلف السبعةُ في نَصْبِه ورفعِه ولله الحمدُ .

قوله : ﴿ وَوَضَعَ الميزان ﴾ العامَّةُ على " وَضَعَ " فعلاً ماضياً . و " الميزانَ " نُصِبَ على المفعولِ به . وقرأ إبراهيم . " ووَضْعَ الميزانِ " بسكون الضاد وخفض " الميزانِ " .

وتخريجُها : على أنه معطوفٌ على مفعولِ " رَفَعَها " ، أي : ورَفَعَ وَضْعَ الميزان ، أي : جَعَلَ له مكانةً ورِفْعَةً لأَخْذِ الحقوق به ، وهو مِنْ بديعِ اللفظِ ، حيث يصير التقديرُ : ورَفَعَ وَضْعَ الميزان .

وقال الزمخشري : " فإن قلتَ : كيف أَخَلَّ بالعاطف في الجمل الأُوَل وجِيْءَ به بعدُ ؟ قلت : بَكَّتَ بالجملِ الأُوَلِ واردةً على سَنَنِ التعديد الذين أنكروا الرحمنَ وآلاءَه كما يُبَكَّتُ مُنْكِرُ أيادي المُنْعَمِ [عليه] من الناسِ بتعدُّدها عليه في المثالِ الذي قَدَّمْتُه ، ثم رَدَّ الكلامَ إلى منهاجِه بعد التبكيت في وَصْلِ ما يجب وَصْلُه للتناسُبِ والتقارُبِ بالعاطفِ . فإنْ قلت : أيُّ تناسُبٍ بين هاتَيْنِ الجملتَيْن حتى وَسَّط بينهما العاطفَ ؟ قلت : إن الشمسَ والقمرَ سماويان ، والنجمَ والشجرَ أَرْضيان فبينهما تناسُبٌ من حيث التقابلُ ، وأن السماءَ والأرضَ لا تزالان قرينتَيْن ، وأنَّ جَرْيَ الشمسِ والقمرِ بحُسْبان مِنْ جنسِ الانقيادِ لأمرِ اللهِ ، فهو مناسِبٌ لسُجودِ النجمِ والشجرِ " .

أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8)

قوله : ﴿ أَلاَّ تَطْغَوْاْ ﴾ : في "أنْ" هذه وجهان ، أحدُهما : أنَّها الناصبةُ ، و "لا" بعدها نافيةٌ ، و "تَطْغَوْا" منصوبٌ ب "أنْ" ، وأنَّ قبلَها لامَ العلةِ مقدرةً ، تتعلَّقُ بقولِه : "ووَضَعَ الميزانَ" التقدير : لئلا تَطْغَوا ، وهذا بَيِّنٌ . وأجاز الزمخشريُّ وابنُ عطية أَنْ تكونَ المفسِّرَةَ ، وعلى هذا تكونُ "لا" ناهيةً والفعلُ مجزومٌ بها . إلاَّ أنَّ الشيخَ رَدَّه : بأنَّ شَرْطَها تقدُّمُ جملةٍ متضمنةٍ لمعنى القول ، وليسَتْ موجودةً . قلت : وإلى كونِها مفسِّرةً ذهبَ مكي وأبو البقاء : إلاَّ أنَّ أبا البقاءِ كأنَّه تَنَبَّه للاعتراضِ فقال : "وأَنْ بمعنى أَيْ ، والقولُ مقدَّرٌ" ، فجعل الشيءَ المفسَّرَ ب "أَنْ" مقدَّراً لا ملفوظاً بها ، إلاَّ أنه قد يُقال : قولُه/ "والقولُ مقدَّرٌ" ليس بجيدٍ ، لأنها لا تُفَسِّرُ القولَ الصريحَ ، فكيف يُقَدِّر ما لا يَصِحُّ تفسيرُه ؟ فإِصْلاحُه أَنْ يقولَ : وما هو بمعنى القول مقدرٌ .

وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9)

قوله : ﴿ وَلاَ تُخْسِرُواْ ﴾ : العامَّةُ على ضَمِّ التاءِ وكسرِ السينِ مِنْ أَخْسَرَ ، أي : نَقَصَ كقولِه : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ وقرأ زيد بن علي وبلال بن أبي بردة بفتح التاءِ وكسرِ السين فيكون فَعَلَ وأَفْعَلَ بمعنىً . يقال : خَسِر الميزانَ وأخسَره ، بمعنىً واحدٍ نحو : جَبَر وأَجْبَر . ونقل أبو الفتح وأبو الفضل عن بلال فتحَ التاءِ والسينِ . وفيها وجهان ، أحدُهما : أنه على حَذْفِ حرفِ الجر تقديره : ولا تَخْسَروا في الميزان . ذكره الزمخشري وأبو البقاء : إلاَّ أنَّ الشيخَ قال : " لا حاجةَ إلى ذلك ؛ لأنَّ " خَسِرَ " جاء متعدياً . قال تعالى : ﴿ خسروا أَنْفُسَهُمْ ﴾ [الأنعام : 12] . و ﴿ خَسِرَ الدنيا والآخرة ﴾ [الحج : 11] . قلت : وهذا ليس مِنْ ذاك . ألا ترى أنّ ﴿ خَسِروا أنفسَهم ﴾ ﴿ وخَسِر الدنيا والآخرةَ ﴾ معناه : أنَّ الخُسْران واقعٌ بهما ، وأنَّهما معدومان . وهذا المعنى ليس مُراداً في الآيةِ قطعاً ، وإنما المرادُ : لا تُخْسِروا الموزونَ في الميزان . وقُرِىء " تَخْسُروا " بفتح التاء وضمِّ السينِ . قال الزمخشري : " وقُرِىء ولا تَخْسروا بفتح التاء وضم السين وكسرِها وفتحِها . يقال : خَسِر الميزانَ يَخْسِره ويَخْسُره . وأمَّا الفتحُ : فعلى أنَّ الأصلَ " في الميزان " فحذف الجارَّ ووصلَ الفعلَ إليه " وكَرَّر لفظ الميزان ، ولم يُضْمِرْه في الجملتَيْن بعده تقويةً لشأْنه وهذا كقولِه :

4170 لا أَرى الموتَ يَسْبِقُ الموتَ شيءٌ . . . نَغَّصَ الموتُ ذا الغِنى والفقيرا

وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10)

قوله : ﴿ والأرض وَضَعَهَا ﴾ : كقوله : ﴿ والسماء رَفَعَهَا ﴾ [الرحمن : 7] . وقرأ أبو السَّمَّال بالرفع مبتدأً . و " للأنام " علةٌ للوَضْع . والأَنام . قيل : الحيوان . وقيل : بنوا آدمَ خاصةً . وقيل : هم الإِنسُ والجنُّ ، ووزنُه فَعال كقَذال ، فيُجْمع في القلة على أَنْمَة بزنة : امرأةٌ آثِمة وفي الكثرة : على أُنُم ، كقَذال وأَقْذِلَة وقُذُل .

فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11)

قوله : ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ : يجوزُ أَنْ تكون هذه الجملةُ حالاً من الأرض ، إلاَّ أَنَّها حالٌ مقدَّرَةٌ . ويجوزُ وهو الأحْسَنُ أَنْ يكونَ الجارُّ والمجرورُ هو الحالَ ، و " فاكهةٌ " رَفْعٌ بالفاعليَّةِ ، ونُكِّرَتْ ؛ لأنَّ الانتفاعَ بها دونَ الانتفاعِ بما ذُكِرَ بعدها ، وهو من باب الترقِّي مِنْ الأَدْنى إلى الأعلَى ، والأَكْمام : جمعُ كِمّ بالكسر وهو وعاءُ الثمرة .

وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (12)

قوله : ﴿ والحب ذُو العصف والريحان ﴾ : قرأ ابنُ عامر بنصب الثلاثة . وفيه ثلاثةُ أوجهٍ : النصبُ على الاختصاص ، أي : وأخُصُّ الحبَّ ، قاله الزمخشري . وفيه نظرٌ ؛ لأنه لم يَدْخُلْ في مُسَمَّى الفاكهة والنخل حتى يَخُصَّه مِنْ بَيْنِها ، وإنما أراد إضمارَ فعلٍ وهو

أَخَصُّ ، فليس هو الاختصاصَ الصناعيَّ . الثاني : أَنَّه معطوفٌ على الأرض . قال مكي : " لأنَّ قولَه " والأرضَ وَضَعَها " ، أي : خلقها ، فعطف " الحَبَّ " على ذلك " . الثالث : أَنَّه منصوبٌ ب " خَلَق " مضمراً ، أي : وخلق الحَبَّ . قال مكي : " أو وخَلَقَ الحَبَّ " وقرأ به موافقةً لرَسْم مصاحِف بلده ، فإنَّ مصاحفَ الشامِ " ذا " بالألف . وجَوَّزوا في " الرَّيحان " أن يكونَ على حَذْفِ مضافٍ ، أي : وذا الريحان فحُذِفَ/ المضافُ ، وأُقيم المضافُ إليه مُقامَه كـ ﴿ وَسْئَلِ القرية ﴾ [يوسف : 82] .

(405/741)

وقرأ الأخَوان برفع الأَوَّلين وجَرِّ " الرَّيحان " عطفاً على " العَصْفِ " ، وهي تؤيِّدُ قولَ مَنْ حذفَ المضافَ في قراءةِ ابنِ عامرٍ . والباقون برفع الثلاثةِ عطفاً على فاكهة ، أي : وفيها أيضاً هذه الأشياءُ . ذكر أولاً ما يتلذَّذُون به من الفواكه ، وثانياً الشيءَ الجامعَ بين التلذُّذِ والتغذِّي وهو ثَمَرُ النَخْلِ ، وثالثاً ما يَتَغَذَّى به فقط ، وهو أعظمُها ، لأنه قُوْتُ غالبِ الناسِ . ويجوز في الرَّيحان على هذه القراءةِ أَنْ يكونَ معطوفاً على ما قبلَه ، أي : وفيها الرَّيحانُ أيضاً ، وأَنْ يكونَ مجروراً بالإضافةِ في الأصلِ ، أي : وذو الرَّيْحان ففُعِلَ به ما تقدَّم .

والعَصْفُ : وَرَقُ الزَّرْعِ . وقيل : التِّبْنُ . وأصلُه كما قال الراغب : مِن " العَصْفِ

والعَصِيْفة وهو ما يُعْصَفُ ، أي : يُقْطَعُ من الزَرْع " وقيل : هو حُطامُ النباتِ . والريحُ العاصف : التي تكسِرُ ما تمرُّ عليه وقد مَرَّ ذلك . والرَّيحان في الأصل : مصدرٌ ثم أُطْلِقَ على الرزق كقولهم : " سُبْحانَ الله ورَيْحَانَه " ، أي : استِرْزاقُه وقيل : الرَّيحان هنا هو المَشْمومُ .

وفي الرَّيحان قولان ، أحدُهما : أنه على فَعْلان كاللَّيَّان مِنْ ذواتِ الواوِ . والأصلُ : رَوْحان . قال أبو علي : " فأُبْدِلَتْ الواوُ ياءً ، كما أَبْدَلوا الياءَ واواً في " أَشاوى " . والثاني : أن يكون أصلُه رَيْوِحان ، على وزن فَيْعِلان ، فأُبْدِلَتِ الواوُ ياءً ، وأُدْغِمَتْ فيها الياءُ ، ثم خُفِّفَ بحَذْفِ عينِ الكلمةِ كما قالوا : كَيْنُوْنة وبَيْنُونة . والأصلُ تشديدُ الياءِ فخفِّفَتْ كما خُفِّف هَين ومَيْت . قال مكي : " ولَزِم تَخْفِيْفُه لطولِه بلَحاق الزيادتَيْنِ " . ثم رَدَّ قولَ الفارسيِّ بأنه لا مُوْجبَ لقَلْبِها ياءً ثم قال : " وقال بعضُ الناسِ " فذكَر ما قَدَّمْتُه عن أبي علي إلى آخره .

(406/741)

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (13)

قوله : ﴿ فَبِأَيِّ ﴾ : متعلقٌ ب " تُكذِّبان " والعامَّةُ على إضافة " أيّ " إلى الآلاء . وقُرِىء

في جميع السورة بتنوينِ "أيّ" وتخريجُها : على أنه قَطَع أيًّا عن الإضافةِ إلى شيء مقدر ، ثم أَبْدَل منه "آلاء ربِّكما" بدلَ معرفةٍ مِنْ نكرةٍ . وتقدَّم الكلامُ في "الآلاء" وما مفردُها في الأعراف ولله الحمد . والخطابُ في "ربِّكما" قيل : للثَّقَلَيْن من الإنس والجنّ ، لأنَّ الأنامَ يتضمَّنُهما على القول المشهور . وقيل : للذكر والأنثى . وقيل : هو مثنًّى مُرادٌ به الواحدُ ، كقولِه تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ [ق : 24] وقولِ الخبيث الثقفي : "يا حَرَسيَّ اضْربا عُنُقَه" وقد تقدَّم ما فيه . و "كالفَخَّار" نعتٌ لصَلْصال وتقدَّم تفسيرُه .

وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15)

والجانُّ قيل : هو اسم جنس كالإنسان . وقيل : هو أبو الجنِّ إبليسُ . وقيل : هو أبوهم وليس بإبليسَ .

قوله : ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ "مِنْ" الأولى لابتداء الغاية . وفي الثانيةِ وجهان ، أحدهما : أنها للبيانِ . والثاني : أنها للتبعيض . والمارِجُ قيل : ما اخْتَلَطَ مِنْ أحمرَ وأَصفرَ وأخضرَ ، وهذا مُشاهَدٌ في النار ، تُرى الألوانُ الثلاثةُ مختلِطاً بعضُها ببعض . وقيل : الخالِصُ . وقيل : الأحمرُ . وقيل : الحُمْرَةُ في طرفِ النار . وقيل : المختلطُ بسواد . وقيل : الخالصُ . وقيل : اللهبُ المضطربُ . و "مِنْ نار" نعتٌ ل "مارج" . وقوله : فبأيِّ" إلى آخره . توكيدٌ وتكريرٌ ، كما تقدَّم في قوله : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن ﴾ [القمر : 21] وكقولِه فيما

سيأتي : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : 15] . وذهبَ جماعةٌ منهم ابنُ قتيبة إلى أنَّ التكريرَ لاختلافِ النِّعَم ، فلذلك كَرَّر التوقيفَ مع واحدةٍ واحدةٍ .

(407/741)

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17)

قوله : ﴿ رَبُّ المشرقين ﴾ : العامَّةُ على رَفْعِه . وفيه وجهان ، أحدهما : أنه مبتدأٌ ، خبرُه " مَرَجَ البحرَيْن " وما بينهما / اعتراضٌ . والثاني : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : هو رَبُّ أي : ذلك الذي فَعَلَ هذه الأشياء . والثالث : أنه بدلٌ من الضمير في " خَلَق " . وابن أبي عبلة " ربِّ " بالجر بدلاً أو بياناً ل " ربِّكما " . قال مكي : " ويجوزُ في الكلام الخفضُ على البدلِ مِنْ " ربِّكما " كأنَّه لم يَطَّلِعْ على أنها قراءةٌ منقولةٌ والمَشْرِقان ، قيل : مَشرِقُ الشتاءِ والصيفِ ومَغْرِباهما . وقيل : مَشْرِقا الشمس والقمر ومَغْربهما . وقيل : مَشرقا الشمس فقط ومَغْرِباها . قال الشيخ : " وعن عباس : للشمس مَشْرِقٌ في الصيفِ مُصْعِدٌ ، ومَشْرِقٌ في الشتاءِ مُنْحَدِرٌ ، تنتقل فيهما مُصْعِدةً ومُنحَدرة " . وقال الشيخ : " فالمشرقان والمغربان للشمس " قلت : وهذا هو القولُ الذي يقول : مَشْرِقُ الصيفِ ومَشْرِقُ الشتاء فإنه إنَّما يعني بهما شُروق الشمسِ والقمرِ فيهما ، أو شروق الشمسِ وحدَها فيهما ، فهو

داخلٌ في أحدِ القولَيْن المذكورَيْن ضرورةً .

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20)

(408/741)

قوله : ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ : حالٌ من " البحرَيْنِ " وهي قريبةٌ من الحال المقدرةِ . ويجوز بتجوُّزِ أَنْ تكونَ مقارنَةً . و " بينهما بَرْزَخٌ " يجوز أن تكونَ جملةً مستأنفةً ، وأَنْ تكونَ حالاً ، وأَنْ يكونَ الظرفُ وحدَه هو الحالَ . والبَرْزَخ : فاعلٌ به وهو أحسنُ لقُرْبه من المفرد . وفي صاحبِ الحال وجهان ، أحدُهما : هو " البحرَيْن " ، والثاني : هو فاعلُ " يَلْتقيان " ولا " يَبْغِيان " حالٌ أُخرى كالتي قبلَها أي : مَرَجَهما غيرَ باغيَيْن ، أو يلتقيان غيرَ باغيين ، أو بينهما بَرْزَخٌ في حالِ عَدَمِ بَغْيهما . وهذه الحالُ في قوة التعليل ؛ إذ المعنى : لئلا يَبْغِيا . وقد تَمَحَّل بعضُهم وقال : أصلُ ذلك لئلا يَبْغِيا ، ثم حَذَفَ حرفَ العلة ، وهو مُطَّرِدٌ مع " أَنْ " و " أَنَّ " ، ثم حُذِفَتْ " أَنْ " أيضاً وهو حَذْفٌ مُطَّرِد كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ ﴾ [الروم : 24] فلمَّا حُذِفَتْ " أَنْ " ارتفع الفعلُ ، وهذا غيرُ ممنوعٍ ، إلاَّ أنه يتكرَّرُ فيه الحَذْفُ ، وله أَنْ يقولَ : قد جاء الحَذْفُ أكثرَ مِنْ ذلك فيما هو أَخْفَى من هذا ، كما تقدَّم في ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ [النجم : 9] ، وكما سيأتي في قوله : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ [الواقعة :

82] .

يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (22)

قوله : ﴿ يَخْرُجُ ﴾ : قرأ نافع وأبو عمرو "يُخْرَج" مبنياً للمفعول . والباقون مبنياً للفاعل على المجاز . قالوا : وثَمَّ مضافٌ محذوفٌ أي : مِنْ أحدِهما ؛ لأنَّ ذلك لم يُؤْخَذْ من البحرِ العَذْبِ ، حتى عابُوا قولَه :

4171 فجاءَ بها ما شِئْتَ مِنْ لَطَمِيَّةٍ . . . على وَجْهِها ماءُ الفُراتِ يموجُ

(409/741)

قال مكي : "كما قال تعالى : ﴿ على رَجُلٍ مِّنَ القريتين ﴾ [الزخرف : 31] أي : مِنْ إحدى القريَتَيْن ، وحَذْفُ المضافِ كثيرٌ شائعٌ " وقيل : هو كقوله : ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ [الكهف : 61] وإنما الناسِي فتاه ، ويُعْزَى هذا لأبي عبيدة . وقيل : يَخْرُجُ من أحدِهما اللؤلؤ ، ومن الآخر المَرْجانُ . وقيل : بل يَخْرجان منهما جميعاً ، ثم ذكروا تأويلَ منها : أنهما يَخْرُجان من المِلْح في الموضعِ الذي يقع فيه العَذْبُ ، وهذا مشاهَدٌ عند الغوَّاصين ، وهو قولُ الجمهورِ فناسَبَ ذلك إسنادَه إليهما . ومنها قولُ ابنِ عباس : تكون هذه الأشياءُ في البحرِ بنزول المطر ، والصَّدَفُ تفتح أفواهَها للمطر وقد شاهده الناسُ . ومنها : أنَّ العَذْبَ

في المِلْح كاللِّقاح كما يُقال : الولدُ يخرُجُ من الذَّكر والأنثى . ومنها أنه قيل " منهما " من حيث هما نوعٌ واحدٌ ، فخروجُ هذه الأشياءِ إنما هي مِنْهما ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ [نوح : 16] وإنما هو في واحدةٍ منهن .

(410/741)

وقد الزمخشري : " فإنْ قلتَ : لِمَ قال " منهما " وإنما يَخْرجان من المِلْح ؟ قلت : لَمَّا التَقَيا وصارا كالشيء الواحدِ جاز أَنْ يُقال : يَخْرجان منهما ، كما يقال : يَخْرجان من البحر ولا يَخْرجان من جميع البحر ، وإنما يخرجان مِنْ بعضِه . وتقول : خَرَجْتُ من البلد ، وإنما خَرَجْتُ مِنْ مَحَلَّةٍ مِنْ محالّه ، مِنْ دارٍ واحدة من دُوْره . وقيل : لا يخرجان إلاَّ مِنْ ملتقى المِلْح والعَذْب " انتهى . وقال بعضُهم : كلامُ الله أَوْلى بالاعتبارِ من كلامِ بعض الناس فمن الجائز أنه يَسُوقُها من البحرِ العَذْب إلى المِلْحِ ، واتفق أنهم لم يُخْرجوها إلاَّ من المِلْح ، وإذا كان في البرِّ أشياءُ تَخْفَى على التجار المتردّدين القاطِعين للمَفاوِز ، فكيف بما في قَعْر البحرِ ؟ والجوابُ عن هذا : أنَّ اللَّهَ تعالى لا يُخاطِبُ الناسَ ولا يَمْتَنُّ عليهم إلاَّ بما يَأْلَفُون ويشاهِدُون

.

واللؤلؤ قيل : / كبارُ الجوهر . والمَرْجانُ صغاره ، وقيل بالعكس ، وأنشدوا قولَ الأعشى :

4172 مِنْ كلِّ مَرْجانةٍ في البحرِ أَحْرَزها . . . تَيَّارُها ووقاها طِيْنَها الصَّدَفُ

أراد اللؤلؤةَ الكبيرةَ . وقيل : المَرْجان حجرٌ أحمرُ . وقيل : حجرٌ شديد البياض ، والمَرْجانُ أعجميٌّ . قال ابن دريد : " لم أسمَعْ فيه فعلاً متصرفاً . واللؤلؤ بناءٌ غريبٌ ، لم يَرِدْ على هذه الصيغة إلاَّ خمسةُ ألفاظٍ : اللُّؤلُؤ ، والجُؤْجُؤ وهو الصَّدْر ، والدُّؤْدُؤ ، واليُؤْيُؤ لطائر ، والبُؤْبُؤ بالموحَّدتين ، وهو الأصلُ . واللؤلؤُ بضمتين والهمز هو المشهورُ ، وإبدال الهمزةِ واواً شائعٌ فصيحٌ وقد تقدَّم ذلك .

(411/741)

وقرأ طلحة " اللُّؤْلِىءُ " بكسر اللام الثالثة ، وهي لغةٌ محفوظةٌ . ونَقَل عنه أبو الفضل " اللُّؤْلِيْ " بقَلْبِ الهمزة الأخيرة ياءً ساكنة كأنه لَمَّا كسَر ما قبل الهمزة قلبها ياءً استثقالاً . وقرأ أبو عمرو في رواية " يُخْرِجُ " أي الله تعالى . ورُوِي عنه أيضاً وعن ابن مقسم " نُخْرِجُ " بنون العظمة . واللؤلؤُ والمَرْجان في هاتين القراءتَيْن منصوبان .

وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (24)

قوله : ﴿ الجوار ﴾ : العامَّة على كسرِ الراء لأنه منقوصٌ على مَفاعِل ، والياءُ محذوفةٌ لفظاً لالتقاءِ الساكنين . وقرأ عبد الله والحسن وتُروَى عن أبي عمرٍو " الجَوارُ " برفع الراء

تناسياً للمحذوف ومنه :

4173 لها ثنايا أربعٌ حِسانُ . . . وأربعٌ فثَغْرُها ثَمانُ

وهذا كما قالوا : " هذا شاكٌ " وقد تقدَّم تقريرُ هذا في الأعراف عند قولِه : ﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف : 41] .

قوله : ﴿ المنشئات ﴾ قرأ حمزةُ وأبو بكر بخلافٍ عنه بكسرِ الشينِ بمعنى : أنها تُنْشِىءُ الموجَ بجَرْيِها ، أو تُنْشِىء السيرَ إقبالاً وإدباراً ، أو التي رَفَعَتْ شُرُعَها أي : قِلاعَها . والشِّراع : القِلْع . وعن مجاهد : كلما رَفَعتْ قِلْعَها فهي من المُنْشَآت ، وإلاَّ فليسَتْ منها . ونسبةُ الرَّفْع إليها مجازٌ كما يقال : أَنْشَأَتِ السحابةُ المطرَ . والباقون بالفتح وهو اسمُ مفعول أي : أنشأها اللَّهُ أو الناسُ ، أو رفعوا شُرُعَها . وقرأ ابن أبي عبلة " المُنَشَّآت " بتشديد الشين مبالغةً . والحسنُ " المُنْشات " بالإفراد ، وإبدالِ الهمزة ألفاً وتاءٍ مجذوبة خَطَّاً فأُفْرِدَ الصفةَ ثقةً بإفهام الموصوف الجمعيةَ ، كقولِه ﴿ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [البقرة : 25] وأمَّا إبدالُه الهمزةَ ألفاً ، وإن كان قياسُها بينَ بينَ فمبالَغَةٌ في التخفيف ، كقوله :

4174 إنَّ السِّباعَ لَتَهْدَا في مَرابِضِها . . . . . .

. . . . . .

أي : لتهدأ . وأمَّا كَتْبُها بالتاءِ المجذوبة فإتباعاً للفظها في الوصلِ . و " في البحر " متعلقٌ بالمُنْشِئات أو المنشآت . ورسمُه بالياء بعد الشين في مصاحفِ العراقِ يُقَوِّي قراءةَ الكسرِ ورَسْمُه بدونِها يُقَوِّي قراءةَ الفتح ، وحَذَفُوا الألفَ كما تُحْذَفُ في سائر جمع المؤنث السالم . و " كالأَعْلام " حالٌ : إمَّا من الضميرِ المستكنِّ في " المُنْشَآت " ، وإمَّا مِنْ " الجوار " وكلاهما بمعنىً واحد . والأَعلام : الجبالُ جمعُ عَلَم . قال :

4175 رُبَّما أَوْفَيْتُ في عَلَم . . . تَرْفَعَنْ ثوبي شَمالاتُ

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26)

وقوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ : غَلَّبَ مَنْ يَعْقِلُ على غيره ، وجميعُهم مُرادٌ . والضميرُ في " عليها " للأرضِ . قال بعضُهم . " وإنْ لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ كقولِه : ﴿ حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ [ص : 32] . وقد رُدَّ على هذا القائلِ وقالوا : بل تَقَدَّمَ ذِكْرُها في قولِه : ﴿ والأرض وَضَعَهَا ﴾ [الرحمن : 10] .

وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27)

قوله : ﴿ ذُو الجلال ﴾ : العامَّةُ على " ذو " بالواو صفةً للوجه . وأُبَيٌّ وعبدُ الله " ذي " بالياءِ صفةً لـ " ربِّك " وسيأتي خلافٌ بين السبعةِ في آخر السورة إنْ شاءَ الله تعالى .

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29)

قوله : ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السماوات ﴾ : فيه وجهان : أحدهما : هو مستأنفٌ . والثاني : أنه حالٌ مِنْ " وَجْه " والعاملُ فيه "يَبْقَى أي : يَبْقَى مَسْؤولاً مِنْ أهلِ السماواتِ والأرض .

قوله : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ ﴾ منصوبٌ بالاستقرارِ الذي تضمَّنه الخبرُ وهو قولُه " في شَأْنٍ " والشَّأْنُ : الأَمْرُ .

(413/741)

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (31)

قوله : ﴿ سَنَفْرُغُ ﴾ : قرأ سَيَفْرُغُ بالياءِ الأخَوان أي : سَيَفْرُغُ اللَّهُ تعالى . والباقون من السبعة بنون العظمة ، والراءُ مضمومةٌ في القراءتَيْن ، وهي اللغةُ الفُصْحى لغة الحجاز . وقرأها مفتوحة الراء مع النونِ الأعرجُ ، وتحتمل وجهَيْن ، أحدهما : أَنْ تكونَ مِنْ فَرَغَ بفتحِ الراء في الماضي ، وفُتِحت في المضارع لأَجْلِ حرفِ الحَلْقِ . والثاني : أنه سُمِعَ فيه فَرِغَ بكسرِ العينِ ، فيكون هذا مضارعه/ وهذه لغةُ تميمٍ . وعيسى بن عمر وأبو السَّمَّال " سَنِفْرَغُ " بكسر حرفِ المضارعةِ وفتحِ الراءِ . وتوجيهُها واضحٌ مِمَّا تقدَّم في الفاتحة قال أبو حاتم : " وهي لغةُ سُفْلى مُضَرَ . والأعمش وأبو حيوةَ وإبراهيمُ " سَنِفْرَغُ " بضم الياء

مِنْ تحتُ مبنياً للمفعولِ . وعيسى أيضاً بفتح نونِ العظمةِ وكسرِ الراء . والأعرجُ أيضاً بفتح الياء والراء . ورُوي عن أبي عمرو . وقد تقدَّم قراءةُ "أيها "في النور . والفَراغُ هنا استعارةٌ . وقيل : هو القَصْدُ . وأُنشِد لجرير :

4176 ألانَ وقد فَرَغْتُ إلى نُمَيْرٍ . . . فهذا حينَ كُنْتُ لهمُ عَذاباً

وأنشد الزجاج :

4177 . . . . . .

فَرَغْتُ إلى العبدِ المقيَّدِ في الحِجْلِ

ويَدُلُّ عليه قراءةُ أُبَيّ "سَنَفْرُغُ إليكم "أي : سَنَقْصِدُ إليكم . والثَّقَلان : الجن والإنس لأنهما ثَقَلا الأرضِ . وقيل : لِثِقَلِهم بالذنوب . وقيل : الثَّقَلُ : الإنسُ لشَرَفِهم . وسُمِّيَ الجنُّ بذلك مجازاً للمجاورة . والثَّقَل . العظيم الشريف . وفي الحديث : "إني تاركٌ فيكم ثَقَلَيْن كتابَ الله وعِتْرتي "

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33)

قوله : ﴿ فانفذوا ﴾ : أمرُ تعجيزٍ : والنُّفوذُ : الخروج بسرعة وقد تقدَّم في أول البقرة : أنَّ ما فاؤُه نونٌ وعينُه فاءٌ يَدُلُّ على الخروج كنَفَق ونَفَرَ . و " إلاَّ بسُلْطان " حالٌ أو متعلِّقٌ بالفعلِ قبلَه . وقرأ زيد بن علي " إنْ اسْتَطَعْتما " خطاباً للثَّقَلَيْن ، وحَقُّه أَنْ يمشيَ على سَنَنٍ واحدٍ فيَقْرأَ " أنْ تَنْفَذا ، لا تنفُذان " والعامَّةُ جعلوه كقولِه : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾ [الحجرات : 9] إذ تحت كلِّ واحدٍ أفرادٌ كثيرةٌ وقد رُوْعي لفظُ التثنية في قوله بعدُ : "يُرْسَلُ عليكما " فلا تبعدُ قراءةُ زيدٍ .

يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (35)

قوله : ﴿ شُوَاظٌ ﴾ : قرأ ابن كثير بكسر الشين . والباقون بضمِّها ، وهما لغتان بمعنىً واحدٍ . والشُواظُ : قيل : اللَّهَبُ معه دُخانٌ . وقيل : بل هو اللهبُ الخالِصُ . وقيل : اللَّهَبُ الأحمرُ . وقيل : هو الدخانُ الخارجُ مِن اللهَب . وقال رؤبة :

4178 ونارَ حَرْبٍ تُسْعِرُ الشُّواظا . . . وقال حسان :

4179 هَجَوتُكَ فاخْتَضَعْتَ لها بذُلٍّ . . . بقافِيَة تَأَجَّجُ كالشُّواظِ

و "يُرْسَلُ " مبنيٌّ للمفعولِ ؛ وهو قراءةُ العامَّةِ . وزيد بن علي " نُرْسِلُ " بالنونِ ، " شواظاً ونُحاساً " بالنصب . و " مِنْ نار " صفةٌ لشواظ أو متعلِّقٌ ب "يُرْسَلُ " .

قوله : " ونُحاس " قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو بجرِّه عطفاً على " نار " ، والباقون برفعِه عطفاً على " شُواظ " . والنحاس قيل : هو الصُّفْرُ المعروفُ ، يذيبه اللَّهُ تعالى ويُعَذِّبهم به . وقيل

: الدخان الذي لا لَهَبَ معه . قال الخليل : وهو معروفٌ في كلامِ العرب ، وأنشد للأعشى :

4180 يُضيءُ كضَوْءِ سراجِ السَّلِيْ . . . طِلِمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فيه نُحاسا

(415/741)

وتُضَمُّ نونُه وتُكْسَرُ ، وبالكسرِ قرأ مجاهد وطلحة والكلبي . وقرأ ابن جندب " ونَحْسٌ " كقولِه : ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ [القمر : 19] وابن أبي بكرة وابن أبي إسحاق " ونَحُسٌّ " بضم الحاء والسين مشددةً من قوله : ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ ﴾ [آل عمران : 152] أي : وتقتلُ بالعذاب . وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً " ونَحِسٍ " بضمِّ الحاء وفتحِها وكسرِها ، وجرِّ السين . والحسن والقاضي .

" ونُحُسٍ " بضمتين وجرِّ السين . وتقدَّمَتْ قراءةُ زيدٍ " ونُحاساً " بالنصبِ لِعَطْفِه على " شواظاً " في قراءته .

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37)

قوله : ﴿ فَإِذَا انشقت ﴾ : جوابُه مقدرٌ أي : رأيت هَوْلاً عظيماً ، أو كان ما كان .

قوله : ﴿ وَرْدَةً ﴾ أي : مثل وَرْدَةٍ فقيل : هي الزهرة المعروفة التي تُشَمُّ ، شَبَّهها بها في الحُمْرة ، وأنشد :

4181 فلو كُنْتُ وَرْداً لَوْنُه لعَشِقْتَني . . . ولكنَّ ربي شانَني بسَواديا

وقيل : هي من لَوْنِ الفَرَسِ الوَرْد ، وإنما أُنِّثَ لكونِ السماءِ مؤنثةً . وقال الفراء : " أراد لونَ الفرسِ الوَرْدِ ، يكون في الربيع إلى الصفرة ، وفي الشتاء إلى الحُمْرة ، وفي اشتدادِ البَرْدِ إلى الغُبْرة ، فشبَّه تلوُّنَ السماءِ بتلَوُّنِ الوَرْدَةِ من الخيل " . وقرأ عبيد بن عمير " وَرْدَةٌ " بالرفع . قال الزمخشري : " بمعنى : فَحَصَلَتْ سماءٌ وردةٌ ، وهو من الكلام الذي يُسَمَّى التجريدَ ، كقوله :

4182 فَلَئِنْ بَقِيْتُ لأَرْحَلَنَّ بغَزْوةٍ . . . تَحْوِي الغنائمَ أو يموتُ كَريمُ

قوله : ﴿ كالدهان ﴾ يجوز أن يكونَ خبراً ثانياً ، وأَنْ يكونَ نعتاً لوردة . وأَنْ يكونَ حالاً من اسم "كانت" . وفي "الدِّهان" قولان ، أحدُهما : أنه جمعُ دُهْن نحو : قُرْط وقِراط ، ورُمْح ورِماح ، وهو في معنى قوله : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السماءُ كالمهل ﴾ [المعارج: 8] .

(416/741)

وهو دُرْدِيُّ الزَّيْتِ . والثاني : أنه اسمٌ مفردٌ ، فقال الزمخشري : " اسمُ ما يُدْهَنُ به كالجِزام والإِدام وأنشد :

4183 كأَنَّهما مَزادَتا مُتَعَجِّلٍ . . . فَرِّيَانِ لَمَّا تُدْهَنا بدِهانِ

/ وقال غيرُه : هو الأديمُ الأحمرُ ، وأنشد للأعشى :

4184 وأَجْرَدَ مِنْ كِرامِ الخَيْلِ طِرْفٍ . . . كأنَّ على شَوَاكِله دِهانا

أي : أديماً أحمرَ ، وهذا يَحْتمل أنْ يكونَ جمعاً . ويؤيِّده ما أنشده منذرُ بنُ سعيد :

4185 يَبِعْنَ الدِّهانَ الحُمْرَ كلَّ عَشِيَّةٍ . . . بموسِمِ بَدْرٍ أو بسُوْقِ عُكاظِ

فقوله " الحُمْرَ " يؤيِّدُ كونَه جمعاً ، وقد يُقال : هو كقولِهم : " أهلك الناسَ الدينارُ الحُمْرُ والدرهمُ البِيْضُ " ، إلاَّ أنَّه خِلافُ الأصلِ . وقيل : شُبِّهَتْ بالدِّهانِ ، وهو الزَّيْتُ لذَوْبِها ودَوَرانِها ، وقيل : لبَرِيقِها .

فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (39)

قوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ : التنوينُ عِوَضٌ من الجملةِ ، أي : فيومَ إذ انشَقَّت السَّماءُ . والفاء في " فيومئذٍ " جوابُ الشرط . وقيل : هو محذوفٌ ، أي : فإذا انشَقَّتِ السماءُ رَأَيْتَ أَمْراً مَهُولاً ، ونحو ذلك . والهاءُ في " ذَنْبه " [تعودُ على أحد المذكورِيْن] . وضميرُ الآخرِ مقدرٌ ، أي : ولا يُسْأَل عن ذنبه جانٌّ أيضاً . وناصبُ الظرفِ " لا يُسأَلُ " و " لا " غيرُ مانعةٍ . وقد تقدَّم خلافُ الناسِ فيها في الفاتحة . وتَقَدَّمَتْ قراءة " جأَنّ " بالهمز فيها أيضاً .

يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (41)

وقرأ حماد بن أبي سليمان " بسِيْمائِهم " بالمدِّ . وتقدَّم الكلامُ على ذلك في آخر البقرة .

قوله : ﴿ فَيُؤْخَذُ بالنواصي ﴾ "يُؤْخَذُ" متعدٍّ ، ومع ذلك تَعَدَّى بالباء ؛ لأنه ضُمِّنَ معنى يُسْحَبُ ، قاله الشيخ . وسحب إنما يُعَدَّى ب "على" قال تعالى : ﴿ يُسْحَبُونَ فِي النار على وُجُوهِهِمْ ﴾ [القمر : 48] فكان يَنْبغي أَنْ يقولَ : ضُمِّنَ معنى يُدَعُّوْن ، أي : يُدْفَعون . وقال مكي : "إنما يُقال : أَخَذْتُ الناصِيةَ وأَخَذْتُ بالناصية . ولو قلت : أَخَذْتُ الدابَّةَ بالناصيةِ لم يَجُزْ . وحُكي عن العرب : أَخَذْتُ الخِطامَ ، وأَخَذْتُ بالخِطام بمعنى . وقد قيل : إنَّ تقديرَه : فيُؤْخَذُ كلُّ واحدٍ بالنَّواصي ، وليس بصواب ، لأنه لا يَتَعَدَّى إلى مفعولَيْنِ أحدُهما بالباء ، لِما ذكَرْنا . وقد يجوز أَنْ يتعدَّى إلى مفعولَيْنِ أحدُهما بحرفِ جرّ غيرِ الباء نحو : أَخَذْتُ ثوباً من زيد .

فهذا المعنى غيرُ الأول ، فلا يَحْسُن مع الباء مفعولٌ آخرُ ، إلاَّ أَنْ تجعلَها بمعنى : مِنْ أَجْل ، فيجوز أن تقولَ : أَخَذْتُ زيداً بعمرٍو ، أي : مِنْ أجلِه وبذنبه" انتهى . وفيما قاله نَظَرٌ ، لأنك تقولُ : أَخَذْتُ الثوبَ بدرهمٍ ، فقد تعدَّى بغير "مِنْ" أيضاً بغير المعنى الذي ذكره . وأل في النواصي والأقدام ليسَتْ عِوَضاً مِنْ ضمير عند البَصْريين فالتقدير : بالنواصي منهم ، وهي عند الكوفيين عِوَضٌ . والنَّاصِيَةُ : مُقَدَّمُ الرأسِ . وقد تقدَّم هذا مستوفى في هود

. وفي حديث عائشة رضي الله عنها : " ما لكم لا تَنْصُون مَيّتكم " ، أي : لا تَمُدُّون ناصِيته . والنَّصِيُّ مَرْعى طيب . وقولهم : " فلانٌ ناصيةُ القوم " يُحتمل أن يكونَ من هذا ، يَعْنون أنه طيب مُنْتَفَعٌ به ، أو مثلَ قولِهم : هو رأسُ القوم .

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (44)

(418/741)

قوله : ﴿ هذه جَهَنَّمُ ﴾ : أي : يُقال لهم و " آنٍ " بمعنى : حار متناهٍ في الحرارة ، وهو منقوصٌ كقاضٍ يُقال : أنى يَأْني فهو آنٍ كقَضى يَقْضي فهو قاضٍ . وقد تَقَدَّمَ في الأحزاب . والعامَّةُ يَطوفون مِنْ طاف . وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وأبو عبد الرحمن " يُطافُون " مبنياً للمفعول ، مِنْ أطافهم غيرُهم . والأعمش وطلحة وابن مقسم " يُطَوِّفُون " بضمِّ الياء وفتح الطاءِ وكسرِ الواوِ مشددةً ، أي : يُطَوِّفُون أنفسَهم . وقرأت فرقةٌ " يَطَّوَّون " بتشديد الطاء والواو . والأصلُ : يتطَوَّفون .

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46)

قوله : ﴿ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ مصدراً ، وأَنْ يكونَ مكاناً . فإنْ كان مصدراً ، فيُحْتمل أَنْ يكونَ مضافاً لفاعِله ، أي : قيامَ رَبِّه عليه وحِفْظَه لأعمالِه مِنْ قولِه : ﴿ أَفَمَنْ

هُوَ قَآئِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : 33] ويُرْوَى هذا المعنى عن مجاهد ، وأن يكونَ مضافاً لمفعولِه . والمعنى : القيام بحقوق الله فلا يُضَيِّعُها . وإنْ كان مكاناً فالإضافةُ بأَدْنى مُلابسة لَمَّا كان الناسُ يقومون بين يَدَيِ اللّهِ تعالى للحاسب في عَرَصات القيامة . قيل : فيه مَقامُ الله . والظاهرُ أن الجَنَّتَيْن لخائفٍ واحدٍ . وقيل : جنةٌ لخائفِ الناسِ ، وأُخرى لخائفِ الجنِّ ، فيكون من بابِ التوزيعِ . وقيل " مَقام " هنا مُقْحَمٌ والتقدير : ولِمَنْ خاف ربَّه وأنشد :

4186 . . . . . ونَفَيْتُ عنه . . . مَقامَ الذِّئْبِ كالرَّجُلِ اللعينِ

أي : نَفَيْتُ الذئبَ ، وليس بجيدٍ ؛ لأنَّ زيادةَ الاسمِ ليسَتْ بالسهلة .

ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (48)

(419/741)

قوله : ﴿ ذَوَاتَآ ﴾ : صفةٌ لجَنَّتان ، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ ، أي : هما ذواتا . وفي تثنية " ذات " لغتان : الردُّ إلى الأصلِ ، فإنَّ أصلَها " ذَوَيَة " فالعينُ واوٌ ، واللامُ ياءٌ ، لأنَّها مؤنثةُ ذو . والثانية : التثنيةُ على اللفظِ فيُقال : ذاتا .

والأَفْنان : فيه وجهان ، أحدُهما : أنه جمعُ فَنَن كطَلَل وهو الغُصْنُ . قال النابغة الذبياني :

4187 بكاءَ حمامةٍ تَدْعو هَدِيلاً . . . مُفَجَّعةٍ على فَنَنٍ تُغَنّي

وقال آخر :

4188 رُبَّ وَرْقاءَ هَتُوفٍ بالضُّحى . . . ذاتِ شَجْوٍ صَدَحَتْ في فَنَنِ

وقال آخر :

4189 . . . . . على

كلِّ أفنانِ العِضاهِ تَرُوْقُ

والثاني : أنه جمعُ فَنّ كدَنّ ، وإليه أشار ابنُ عباس . والمعنى : ذواتا أنواعٍ وأشكالٍ .

وأنشدوا :

4190 ومِنْ كلِّ أفنانِ اللَّذاذةِ والصِّبا . . . لَهَوْتُ به والعيشُ أخضرُ ناضِرُ

إلاَّ أنَّ الكثيرَ في " فَنّ " أَنْ يُجْمع على " فُنون " .

مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54)

قوله : ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ حالاً مِنْ " مَنَ " في قوله : " ولِمَنْ خافَ " ، وإنَّما جُمعَ حَمْلاً على معنى " مَنْ " بعد الإفراد حَمْلاً على لفظها . وقيل : حالٌ عامِلُها محذوفٌ أي : يَتَنَعَّمون مُتَّكئين . وقيل : منصوبٌ على الاختصاصِ . والعامَّةُ على " فُرُش " بضمَّتين . وأبو حيوة بضمةٍ وسكونٍ وهي تخفيفٌ منها . /

قوله : ﴿ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ هذه الجملةُ يجوزُ أَنْ تكونَ مستأنفةً . والظاهر أَنَّها صفةٌ ل " فُرُش " . و " مِنْ إستبرق " قد تَقَدَّم الكلام في الاستبرق وما قيل فيه في سورة الكهف . وقال أبو البقاء هنا : " أصلُ الكلمةِ فِعْلٌ على اسْتَفْعَلَ فلمَّا سُمِّي به قُطِعَتْ همزتُه . وقيل : هو أعجميٌّ . وقرِىء بحَذْفِ الهمزةِ وكسر النون ، وهو سَهْوٌ ؛ لأنَّ ذلك لا يكون في الأسماءِ بل في المصادرِ والأفعال " . انتهى . أمَّا قولُه " وهو سهوٌ لأن ذلك لا يكون " إلى آخره ، يَعْني أنَّ حَذْفِ الهمزةِ في الدَّرْجِ لا يكونُ إلاَّ في الأفْعال والمصادر ، وأمَّا الأسماءُ فلا تُحْذَفُ هَمَزاتُها لأَنَّها هَمَزات قَطْعٍ . وهذا الكلامُ أحقُّ بأن يكونَ سَهْواً ؛ لأَنَّا أولاً لا نُسَلِّمُ أنَّ هذه القراءةَ مِنْ حَذْفِ همزةِ القطعِ إجراءً لها مُجْرى همزةِ الوَصْلِ . وإنَّما ذلك مِنْ بابِ نَقْلِ حركةِ الهمزةِ إلى الساكن قبلَها ، وحركةُ الهمزةِ كانَتْ كسرةً فحركةُ النونِ حركةُ نَقْلٍ لا حركةُ التقاءِ ساكنين . ثم قولُه : " إلاَّ في الأفعال والمصادرِ " ليس هذا الحصرُ بصحيح اتفاقاً لوجودِ ذلك في أسماءٍ عشرةٍ ليسَتْ بمصادرَ ، ذكرْتُها في أولِ هذا الموضوع .

قوله : ﴿ وَجَنَى الجنتين دَانٍ ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ . ودانٍ أصلهُ دانِوٌ مثل غازٍ ، فأُعِلَّ كإعلالِه . وقرأ عيسى بن عمر " وجَنِيَ " بكسر النون . وتوجيهُها : أن يكونَ أمال الفتحة لأجل

الألف ، ثم حذف الألف لالتقاءِ السَّاكنين ، وأبقى إمالة النون فَظُنَّتْ كسرةً . وقُرِىء " وجِنَى " بكسر الجيم ، وهي لغة . والجَنى : ما يُقْطَفُ من الثمار . وهو فَعَل بمعنى مَفْعُول كالقَبَض والنَقَص .

فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56)

(421/741)

قوله : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ ﴾ : اختُلِفَ في هذا الضمير ، فقيل : يعود على الجنات ، فيقال : كيف تَقَدَّمَ تثنيةٌ ثم أُتِي بضمير جَمْع ؟

فالجوابُ : أنَّ أقلَّ الجمعِ اثنان على قولٍ ، وله شواهدُ قد تقدَّم أكثرُها . وإمَّا أن يقالَ : عائدٌ على الجنات المدلولِ عليها بالجنتَيْن ، وإمَّا أَنْ يقالَ : إنَّ كل فردٍ فردٍ له جنتان فصَحَّ أنها جناتٌ كثيرة ، وإمَّا أنَّ الجنةَ تشتمل على مجالسَ وقصورٍ ومنازلَ فأطلقَ على كلِّ واحدٍ منها جنة . وقيل : يعودُ على الفُرُش . وهذا قولٌ حَسَنٌ قليلُ الكُلْفَةِ .

وقال الزمشخري : " فيهِنَّ : في هذه الآلاءِ المعدودة من الجَنَّتَيْن والعينَيْن والفاكهةِ والفُرُشِ والجَنَى " . قال الشيخ : " وفيه بُعْدٌ " وكان قد اسْتَحْسَنَ الوجهَ الذي قبله . وفيه نظرٌ ؛ لأنَّ الاستعمالَ أَنْ يُقال : على الفِراش كذا ، ولا يقال : في الفِراش كذا إلاَّ بتكلُّف ؛ فلذلك

جَمَعَ الزمخشريُّ مع الفُرُش غيرَها حتى صَحَّ له أَنْ يقولَ : " فيهن " بحرف الظرفيَّة ، ولأن الحقيقةَ أنَّ الفُرُشَ يكون الإنسانُ عليها ؛ لأنه مُستَعْلٍ عليها . وأمَّا كونُه فيها فلا يقال إلاَّ بمجازٍ . وقال الفراء : "كلُّ موضع في الجنةِ جنةٌ ، فلذلك صَحَّ أَنْ يُقالَ : فيهنَّ ، والقاصِراتُ : الحابساتُ الطرفِ ، أي : أعينُهُنَّ عن غيرِ أَزْواجهن . ومعناه : قَصَرْنَ ألحاظَهُنَّ على أزواجِهنَّ . قال امرؤ القيس :

4191 مِن القاصِراتِ الطَّرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ . . . من الذَّرِّ فوق الإِتْبِ منها لأَثَّرا

وقاصراتُ الطرفِ : مِنْ إضافةِ اسم الفاعلِ لمنصوبِه تخفيفاً إذ يقال : قَصَرَ طَرْفَه على كذا . وحُذِف متعلَّقُ القَصْرِ للعلمِ به ، أي : على أزواجِهِنَّ ، كما تقدَّم تقريرُه . وقيل : المعنى : قاصراتٌ طَرْفَ غيرِهن عليهنَّ ، أي : إذا رآهن أحدٌ لم يتجاوَزْ طرفُه إلى غيرِهنَّ .

(422/741)

قوله : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴾ هذه الجملةُ يجوز أَنْ تكونَ نعتاً لقاصِرات ؛ لأن إضافتَها لفظيةٌ ، كقولِه ﴿ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف : 24] و [وقوله] :

4192 يا رُبَّ غابطِنا لو كان يَطْلُبُكمْ . . . . . .

. . . . . .

وأَنْ تكونَ حالاً لتخصُّصِ النكرةِ بالإضافة . واخْتُلِفَ في هذا الحرفِ والذي بعدَه عن الكسائيِّ : فنُقِل عنه أنَّه كان يُخيِّرُ في ضَمِّ أيِّهما شاءَ القارىءَ . ونَقَل عنه الدُّوريُّ ضمَّ الأولِ فقط ونَقَل عنه أبو الحارث ضمَّ الثاني فقط ، وهما لغتان . يُقال : طَمَثَها يَطْمِثُها ويَطْمُثُها إذا جامَعَها . وأصلُ الطَّمْثِ : الجماعُ المؤدِّي إلى خروجِ دمِ البِكْرِ ، ثم أُطْلِقَ على كلِّ جِماع : طَمْثٌ ، وإنْ لم يَكُنْ معه دمٌ . وقيل : الطَمْثُ دَمُ الحَيْضِ أو دمُ الجِماع . وقيل : الطَمْثُ المَسُّ الخاص . وقرأ الجحدري "يَطْمَثْهُنَّ" بفتح الميم في الحرفَيْن ، وهو شاذٌّ إذ ليسَتْ عينُه ولا لامُه حرفَ حَلْقٍ . والضميرُ في "قبلَهُمْ" عائدٌ على الأزواجِ الدالِّ عليهم قولُه "قاصراتُ الطَّرْفِ" أو الدالِّ عليه "مُتَّكِئين" .

كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58)

قوله : ﴿ كأنَّهنَّ الياقوت ﴾ : هذه الجملةُ يجوزُ أَنْ تكون نعتاً لقاصِرات ، وأن تكونَ حالاً منها . ولم يَذْكُرْ مكيٌّ غيرَه . والمَرْجان تقدَّم ما هو ؟ والياقوتُ : جوهرٌ نفيسٌ . يُقال : إن النارَ لم تُؤَثِّرْ فيه ، ولذلك قال الحريري :

4193 وطالما أُصْلِيَ اليقاوتُ جَمْرَ غَضَا . . . ثم انْطفا الجمرُ والياقوتُ ياقوتُ

أي : باقٍ على حالِه لم يتأَثَّرْ بها . ووجهُ التشبيهِ كما قال الحَسَنُ . في صفاءِ الياقوتِ/ وبياضِ المَرْجان . وهذا على القول بأنه أبيضُ وقد تقدَّم ، وقيل : الوجهُ في . . . ونفاسَتِهما ولذلك سَمَّوْا بمَرْجانة ودُرَّة وشبهِ ذلك .

هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (60)

وقرأ ابن أبي إسحاق "إلاَّ الحِسانُ"، أي: إلاَّ الحُوْرُ الحِسان.

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (62)

قوله: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا ﴾: أي: مِنْ دونِ تَيْنِكَ الجَنَّتَيْن المتقدّمتين: جَنَّتَان في المنزلةِ وحُسْنِ المنظرِ. وهذا على الظاهر مِنْ أنَّ الأُوْلَيَيْنِ أفضلُ من الأُخْرَيَيْنِ. وقيل بالعكس، ورَجَّحه الزمخشري.

فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (66)

والنَّضْخُ: فوق النَّضْحِ بالحاءِ، لأنَّ النَّضْحَ بالحاءِ: الرَّشُّ والرَّشْحُ، والنَّضْخُ بالخاء: فَوَرانُ الماء. والادْهِيْمامُ: السَّوادُ وشدةُ الخضرةِ، جُعِلا مُدْهامَّتَيْن لشدَّةِ رِيِّهما، وهذا مُشاهَدٌ بالنظر، ولذلك قالوا: "سوادُ العراق" لكثرةِ شَجَرِه وزروعِه.

فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (68)

قوله: ﴿ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾: استدلَّ بعضُهم بها على أنهما ليسا من الفاكهة لاقتضاءِ العطفِ المغايرة. فلو حَلَفَ: "لا يأكلُ فاكهةً" لم يَحْنَثْ بأَكْلِهما. وبعضُهم يقول: هو من

باب ذِكْر الخاص بعد العام تفصيلاً له كقوله : ﴿ وملائكته ﴾ [البقرة : 97] ثم قال : " وجبريلَ وميكَال " وهو تَجَوُّزٌ ؛ لأنَّ فاكهة ليس عامّاً ؛ لأنه نكرةٌ في سياقِ الإِثْبات ، وإنما هو مُطْلَقٌ ، ولكنْ لَمَّا كان صادقاً على النخل والرمَّان قيل فيه ذلك .

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (70)

(424/741)

قوله : ﴿ خَيْرَاتٌ ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّه جمعُ " خَيْرَة " . بزِنةِ فَعْلَة بسكونِ العين . يقال : امرأةٌ خَيْرَةٌ وأخرى شَرَّةٌ . والثاني : أنه جمعُ خَيْرة المخففة مِنْ خَيِّرة . ويَدُلُّ على ذلك قراءةُ ابن مقسم واليزيدي وبكر بن حبيب " خَيِّرات " تشديد الياء . وقرأ أبو عمرو " خَيَرات " بفتح الياء جمع " خَيْرَة " وهي شاذَّةٌ ، لأن العين معتلةٌ ؛ إلاَّ أن بني هُذَيلٍ تُعامِله معاملةَ الصحيح فيقولون ، جَوَزات وبَيَضات وأُنْشِد :

4194 أخو بَيَضاتٍ رائحٌ مُتَأَوِّبُ . . . رفيقٌ بمَسْحِ المَنْكِبَيْنِ سَبُوْحُ

حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (72)

ومَقْصورات ، أي : مَحْبوسات ، ومنه " القَصْر " لأنه يَحْبِسُ مَنْ فيه ، ومنه قولُ النحاة " المقصور " لأنه حُبِس عن المدّ أو حُبس عن الإِعراب ، أو حُبِس الإِعرابُ فيه ، والنساء

تُمْدَحُ بملازَمَتِهنَّ البيوتَ كما قال [أبو] قيس بن الأسلت :

4195 وتَكْسَلُ عن جيرانِها فيَزُرْنَها . . . وتَعْتَلُّ عن إتْيانِهنَّ فتُعْذَرُ

ويقال : امرأةٌ مَقْصورة وقَصيرة وقَصورة ، بمعنىً واحد . قال كثير عزة :

4196 وأنتِ التي حَبَّبْتِ كلَّ قصيرةٍ . . . إليَّ ولم تَعْلَمْ بذاك القَصائرُ

عَنَيْتُ قصيراتِ الحِجالِ ولم أُرِدْ . . . قِصارَ الخُطا شَرُّ النساءِ البَحاتِرُ

والخِيام : جمعُ خَيْمة وهي تكونُ مِنْ نَمَّام وسائرِ الحَشيش ، فإنْ كانَتْ مِنْ شَعْرٍ فلا يُقال لها : خَيْمةٌ بل بَيْتٌ . وقال جرير :

4197 متى كان الخيامُ بذي طُلوحٍ . . . سُقِيْتِ الغَيْثَ أيتها الخيامُ

مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (76)

(425/741)

قوله : ﴿ رَفْرَفٍ ﴾ : الرَّفْرَفُ جمع رَفْرَفَة فهو اسمُ جنسٍ . وقيل : بل هو اسمُ جمعٍ ، نقلهما معاً مكيٌّ ، وهي ما تَدَلَّى من الأَسِرَّةِ مِنْ عالي الثياب . وقال الجوهريُّ : " ثيابٌ خُضْرٌ يُتَّخَذُ منها المجالِسُ ، الواحدةُ رَفْرَفة " واشتقاقُه مِنْ رَفَّ الطائرُ : أي : ارتفع في الهواء . ورَفْرَفَ بجناحَيْه : إذا نَشَرَهما للطيران ورَفْرَفُ السَّحابِ هُبوبُه ، ويَدُلُّ على كونه

جمعاً وصفُه بالجمع . وقال الراغب : " رفيفُ الشجر : انتشارُ أغصانِه . ورَفَّ الطائرُ : نَشَرَ جناحَه يَرِفُّ بالكسرِ . ورَفَّ فَرْخَه يَرُفُّه بالضم تَفَقَّده ، ثم اسْتُعير للتَفَقُّدِ . ومنه " ماله حافٌّ ولا رافٌّ " ، أي : مالَه مَنْ يَحُفُّه ويتفقَّدُه . والرَّفْرَفُ : المنتشِرُ من الأوراقِ . وقولُه ﴿ على رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ : ضَرْبٌ من الثياب مُشَبَّه بالرياض . وقيل : الرَّفْرَفُ طرفُ الفُسْطاطِ والخِباءِ الواقعِ على الأرض دونَ الأَطْنابِ والأوتادِ . وذكر الحسن أنه المَخادُّ " انتهى . وقال ابن جُبير : " رياضُ الجنَّة ، مِنْ رَفَّ البيتُ إذا تَنَعَّمَ وحَسُن . وعن ابن عُيَيْنة هي الزَّرابِيُّ . ونُعِت هنا بخُضْر لأنَّ اسمَ الجنسِ يُنْعَتُ بالجمعِ كقولِه : ﴿ والنخل بَاسِقَاتٍ ﴾ [ق : 10] وبالمفرد . وحَسَّنَ جَمْعَه هنا جَمْعُ حِسان . وقرأ العامَّةُ " رَفْرَفٍ " وقرأ عثمان بن عفان ونصر ابن عاصم وعاصم والجحدري والفرقبي وغيرهم " رَفارِفَ خُضْرٍ " بالجمع وسكونِ الضاد . وعنهم أيضاً " خُضُرٍ " بضم الضاد وهو إتباعٌ للخاء . وقيل : هي لغةٌ في جمع أَفْعَلَ الصفةِ . وأُنْشد لطرفة :

4198 أيها الفتيانُ في مَجْلِسِنا . . . جَرِّدُوا منها وِراداً وشُقُرْ

وقال آخر :

4199 وما انْتَمَيْتُ إلى خُوْرٍ ولا كُسُفٍ . . . ولا لئامٍ غداةَ الرَّوْعِ أَوْزاعِ

وقرؤوا " عباقِرِيَّ " بكسر القاف وفتحِها وتشديدِ الياءِ متوحةً/ على مَنْعِ الصرفِ .

وهي مُشْكِلَةٌ ؛ إذ لا مانعَ من تنوينِ ياءَيْ النسَبِ ، وكأنَّ هذا القارىءَ تَوَهَّمَ كَوْنَها في مَفاعِل فمنعَها من الصرفِ . وقد رَوَى عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وجماعةٍ " وعباقِرِيٍّ " منوناً ابنُ خالويه ورُوِي عن عاصمٍ " رَفارِفٍ " بالصرف . وقد يُقال في مَنْ مَنَعَ " عباقِرِيَّ " إنَّه لما جاوزَ " رفارِفَ " الممتنعَ امتنع مُشاكلةً . وفي مَنْ صَرَفَ رفارِفَ : إنَّه لما جاوَزَ عباقِرِيَّاً المنصرفَ صَرَفَه للتناسُبِ ك ﴿ سَلاسلاً وأَغْلالاً ﴾ [الإنسان : 4] كما سيأتي .

وقرأ أبو محمد المروزي وكان نَحْوياً " خَضَّارٍ " كضَرَّاب بالتشديد . وأَفْعَلُ وفَعَّالٌ لا يُعْرَفُ .

والجمهورُ " وعَبْقِرِيٍّ " منسوب إلى عَبْقَر ، تَزْعُم العربُ أنه بلدُ الجن فكلُّ ما عَظَّموه وتعجَّبوا منه قالوا : هذا عَبْقريٌّ . وفي الحديث : " فلم أرَ عَبْقَرِيَّاً يَفْري فَرِيَّه " والمرادُ به هنا قيل : البُسُط التي فيها صُوَرٌ وتماثيلُ . وقيل : هي الزَّرابيُّ . وقيل : الطَّنافِسُ . وقيل : الدِّيباج . وعَبْقَريّ جمع عَبْقَرِيَّة ، يعني فيكونُ اسمَ جنسٍ ، كما تقدَّم في رَفْرَفَ . وقيل : هو واحدٌ دالٌّ على الجمع ، ولذلك وُصِف بحسان .

تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (78)

قوله : ﴿ ذِي الجلال ﴾ : قرأ ابن عامر " ذو الجَلال " بالواو ، وجَعَله تابعاً للاسم ،

وهكذا هي مرسومةٌ في مصحف الشاميين . والباقون بالياء صفةً للرَّبِّ ، فإنه هو الموصوفُ بذلك ، وأَجْمَعوا على الواوِ في الأول إلاَّ مَنْ ذَكَرْتُه فيما تقدَّم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 153.188 ﴾

(427/741)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الرحمن

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " : إخبار عن عزه وعظمته .

" الرحمن الرحيم " : إخبار عن فضله ورحمته .

فبشهود

عظمته يكمل سرور الأرواح ، وبوجود رحمته يحصل نعيم الأشباح ولولا عظمته لما عبد الرحمن ولولا رحمته لما أحب الرحمن واحد .

قوله جل ذكره : (الرحمن علم القرآن)

أي الرحمن الذي عَرَفَه الموحّدون وجَحَدَه الكافرون هو الذي علَّم القرآن . ويقال : الرحمن الذي رحمهم ، وعن الشّرك عَصَمَهم ، وبالإيمان أكرمهم ، وكلمةَ التقوى ألزمهم – هو الذي عرَّفهم بالقرآن وعلَّمهم .

ويقال : انفرد الحقُّ عرَّفهم بالقرآن لعِباده .

ويقال : أجرى اللَّهُ سُنَّتَه أنه إذا أعطى نبينا صلى الله عليه وسلم شيئاً أَشْرَكَ أُمَّتَه فيه على ما يليق بصفاتهم ؛ فلمَّا قال له (صلى الله عليه وسلم) : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء : 113] .

قال لأمته : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ ﴾ .

ويقال : علَّم الله آدمَ الأسماءَ كلَّها ثم أمره بعَرْضها على الملائكة وذكر آدمُ ذلك لهم – قال تعالى : ﴿ أنبئني بأسماء هؤلاء ﴾ [البقرة : 33] يا آدم ، وعلَّمَ (نبيُّنا صلى عليه وسلم) المسلمين القرآنَ فقال صلى الله عليه وسلم : " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ، والمُصَلّي مُناجٍ ربه " قال لآدم : أُذْكُرْ ما علَّمْتُكَ للملائكة . وقال لنا : ناجِني يا عبدي بما عَلَّمْتُك .

وقد يُلاطَفُ مع أولاد الخَدم بما لا يُلاطَفُ به آباؤهم .

ويقال : لمَّا علَّم آدمَ أسماء المخلوقاتِ قال له : أَخْبِرْ الملائكة بذلك ، وعلَّمَنَا كلامَه وأسماءَه فقال : اقْرأوا عليَّ وخاطِبوا به معي .

ويقال : علَّم الأرواحَ القرآن – قَبْلَ تركيبها في الأجساد بلا واسطة ، والصبيانُ إنما يُعَلَّمُونَ القرآن – في حالِ صِغَرِهم – قبل أَنْ عَرَفَتْ أرواحُنا أحداً ، أو سَمِعْنا من أحدٍ شيئاً . . علَّمَنَا أسماءَه .

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى . . . فصادَفَ قلبي فارغاً فَتَمَكَّنا

ويقال : سقياً لأيامٍ مضت – وهو يُعلِّمنا القرآن .

ويقال : برحمته علَّمَهم القرآن ؛ فبرحمته وصلوا إلى القرآن – لا بقراءة القرآن يَصِلُون إلى رحمته .

قوله جلّ ذكره : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾ .

﴿ الإِنْسَانَ ﴾ : ها هنا مجَنْسُ الناس ؛ عَلَّمَهم البيانَ حتى صاروا مُمَيَّزِين – فانفصلوا بالبيان عن جميع الحيوان . وعَلَّمَ كُلَّ قومٍ لسانَهم الذي يتكلمون ويتخاطبون به .

والبيانُ ما به تبينُ المعاني – وشَرْحُه في مسائل الأصول .

ويقال : لَمَّا قال أهلُ مكة إنما يُعلِّمه بَشَرٌ ردَّ الله – سبحانه – عليهم وقال : بل عَلَّمَه اللَّهُ ؛ فالإنسانُ على هذا القول هو محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل هو آدم عليه السلام .

ويقال : البيان الذي خُصَّ به الإنسان (عموماً) يعرفُ به كيفيةَ مخاطبةِ الأغيار من الامثال والأشكال . وأمَّا أهل الإيمان والمعرفة فبيانُهم هو عِلْمُهم كيفيةَ مخاطبةِ مولاهم – وبيانُ

العبيدِ مع الحقِّ مختلفٌ : فقومٌ يخاطِبونه بلسانهم ، وقومٌ بأنفاسهم ، وقوم بدموعهم :

دموعُ الفتى عمَّا يحسُّ تترجمُ . . . وأشواقه تبدين ما هو يكتم

وقومُ بأنينهم وحنينهم :

قُلْ لي بألسنة التنفُّس كيف أنت وكيف حالك ؟

قوله جلَّ ذكره : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ .

يعني يجري أمرهما على حدٍّ معلومٍ من الحساب في زيادة الليل والنهار ، وزيادة القمر ونقصانه ، وتُعْرَفُ بجريانهما الشهورُ والأيامُ والسنون والأعوام . وكذلك لهما حساب إذا انتهى ذلك الأَجَلُ . . فالشمسُ تُكَوَّرُ والقمرُ يَنْكَدِر .

(429/741)

وكذلك لشمسِ المعارفِ وأقمارِ العلوم – في طلوعها في أوج القلوبِ والأسرار – في حكمة الله حسابٌ معلومٌ ، يُجْرِيهَا على ما سَبَق به الحُكْمُ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ .

ويقال : النجم من الأشجار : ما ليس له ساق ، والشجر : ما له ساق .

ويقال : النجومُ الطالعةُ والأشجارُ الثابتةُ ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ سجودَ دلالة على إثبات الصانع

بنعت استحقاقه للجلال .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ .

سَمَكَ السماءَ وأعلاها ، وعلى وصفِ الإتقانِ والإحكام بناها ، والنجومَ فيها أجراها ، وبثَّ فيه كواكبَها ، وحفظ عن الاختلالِ مناكِبهَا ، وأثبت على ما شاءَ مشارقَها ومغاربَهَا . . . وَخَلَقَ الميزانَ بين الناس ليعتبروا الإنصافَ في المعاملات بينهم .

ويقال : الميزانُ العَدْلُ .

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ ﴾ .

احفظوا العَدْل في جميع الأمور ؛ في حقوق الآدميين وفي حقوق الله ، فيعتبرُ العدلُ ، وتَرْكُ الحَيْفِ ومجاوزةُ الحدِّ في كل شيءٍ ؛ ففي الأعمال يُعْتَبَرُ الإخلاصُ ، وفي الأحوال الصدقُ ، وفي الأنفاس الحقائقُ ومساواةُ الظاهرِ والباطنِ وتَرْكُ المداهنةِ والخداعِ والمكرِ ودقائق الشّرك وخفايا النفاق وغوامض الجنايات .

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ .

وأقيموا الوزن بالمكيال الذي تحبون أن تُكَالوا به ، وعلى الوصف الذي ترجون أن تنالوا به مطعمكم ومشربكم دون تطفيف .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ .

خلق الأرض وَجَعلَها مهاداً ومثوى للأنام .

ويقال : وضعها على الماء وبسط أقطارها ، وأنبت أشجاها وأزهارها ، وأجرى أنهارها وأغطش ليلها وأوضح نهارَها .

(430/741)

﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ . . . ﴾ يعني ألوانُ الفاكهة المختلفة في ألوانها وطعومها وروائحها ونفعها وضررها ، وحرارتها وبرودتها . . وغير ذلك من اختلافٍ في حَبِّها وشجرها ، وورقها ونَوْرَها .

﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴾ وأكمام النخل ليفها وما يُغطِّها من السَّعف .

﴿ وَالْحَبُّ ﴾ : حَبُّ الحنطة والشعير والعدس وغير ذلك من الحُبوب .

﴿ ذُو الْعَصْفِ ﴾ : والعصف ورق الزرع .

﴿ وَالرَّيْحَانُ ﴾ الذي يُشَمُّ . . ويقال : " الرزق لأن العرب تقول : خرجنا نطلب ريحانَ الله " .

ذكَّرهم عظِمَ مِنَّتِه عليهم بما خَلَقَ من هذه الأشياء التي ينتفعون بها من مأكولاتٍ ومشمومات وغير ذلك .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

فبأي آلاء ربكما تجحدان ؟ والآلاءُ النّعماء .

والتثنيةُ في الخطاب للمُكلَّفين من الجِنّ والإِنس .

ويقال : هي على عادة العرب في قولهم : خليليَّ ، وقِفَا ، وأرحلاها بأغلام ، وأرجراها بأغلام .

قوله جلّ ذكره : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ .

﴿ الإِنسَانَ ﴾ : يعني آدم ، والصلصالُ الطينُ اليابس الذي إذا حُرِّكَ صَوَّتَ كالفخار .

ويقال : طين مخلوط بالرمل .

ويقال : مُنَتَّتٌ ؛ من قولهم صَلَّ وأَصَلَّ إذا تَغيرَّ .

﴿ وَخَلَقَ الْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ .

المارج : هو اللهب المختلط بواد النار .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

يُذَكِّرُ الخَلْقَ من الجن والإنس كما سبق – وكرَّر اللَّهُ سبحانه هذه الآية في غير موضع على جهة التقرير بالنعمة على التفصيل ، أي نعمةً بعد نعمة .

ووجُه النعمة في خلق آدم من طين أنه رقاه إلى رتبته بعد أن خلقه من طين . ويقال ذَكَّرَ آدمَ

نِسبتَه وذكَّرنا نسبَتنا لئلا نُعجبَ بأحوالنا .

ويقال عرَّفَه قدرَه لئلا يتعدَّى طَوْرَه .

(431/741)

قوله جلّ ذكره : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ : مشرق الصيف ومشرق الشتاء وكذلك مغربيهما .

ووجه النعمة في ذلك جريانهما على ترتيب واحدٍ حتى يكمل انتفاع الخَلْقِ بهما .

ويقال : مشرق القلب ومغربه ، وشوارق القلب وغوار به إنما هي الأنوار والبصائر التي جرى ذِكْرُ بعضها فيما مضى .

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (20)

﴿ بَرْزَخٌ ﴾ أي حاجز بقدرته لئلا يغلب أحدهما الآخر ، أراد به البحر العذب والبحر الملح . ويقال : لا يبغيان على الناس ولا يغرقانهم .

يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (22)

اللؤلؤ : كبار الدُرِّ ، والمَرجان : صغار الدُّرِّ . ويقال : المرجان النَّسْلِ .

وفي الإشارة : خَلَقَ في القلوب بحرين : بحر الخوف وبحر الرجاء . ويقال القبض والبسط .

وقيل الهيبة والأُنس . يُخرج منها اللؤلؤ والجواهر وهي الأحوال الصافية واللطائف المتوالية .

ويقال : البحران : إشارة إلى النفس والقلب ، فالقلب هو البحر العَذْب والنفس هي البحر الملح . . فمن بحر القلب كلُّ جوهرٍ ثمين ، وكلُّ حالة لطيفة . . ومن النفس كل خلق ذميم . والدرُّ من أحد البحرين يخرج ، ومن الثاني لا يكون إلا التمساح مما لا قَدْرَ له من سواكن القلب . ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ : يصون الحقُّ هذا عن هذا ، فلا يَبْغي هذا على هذا .

وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (24)

﴿ الجواري ﴾ : واحدها جارية ، وهي السفينة .

﴿ كَالأَعْلاَمِ ﴾ : الجبال . له هذه السفن التي أنشئت وخلقت في البحر كأَنها الجبال العالية .

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26)

كل من على وجه الأرض في حكم الفناء من حيث الجواز . ومن حيث الخبر : " ستفنى الدنيا ومن عليها ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام " " والوجه " : صفة لله– سبحانه– لم يدلّ عليه العقل قطعاً ودلَّ عليه جَوازاً ، وورد الخبر بكونه قطعاً .

ويقال : في بقاءِ الوجه بقاءُ الذات ، لأن الصفة لا تقوم بنفسها ، ولا محالة شَرطها قيامها بنفسه وذاته . وفائدة تخصيص الوجه بالذكر أن ما عداه يُعْرَفُ بالعقل ، والوجه لا يُعْلَمُ بالعقل ، وإنما يُعْرَفُ بالنقل والأخبار . و " يبقى " : وفي بقائه . سبحانه خَلَفٌ عن كلِّ تلفٍ ، وتسليةٌ للمسلمين عمَّ يصيبهم من المصائب ، ويفوتهم من المواهب .

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29)

أهلُ السمواتِ يسألون أبداً المغفرة ، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرَة ، أي لا بُدَّ لأحدٍ منه (سبحانه) .

وفي السموات والأرض مَنْ لا يسأله : وهم مَنْ قيل فيهم : " مَنْ شَغَلَه ذِكْري عن مسألتي أعطيته أفضلَ ما أُعطي السائلين " .

ويقال : ليس كلُّ مَنْ في السمواتِ والأرض يسألونه مِمَّا في السموات والأرض ولكن :

بين المحبين سِرٌّ ليس يُغْشيه . . . قَوْلٌ ولا قَلَمٌ للخَلْق يحكيه

﴿ كُلَّ يَومٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ مِنْ إحياء وإماتة ، وقبض قوم وبَسْطِ قومٍ . . . وغير ذلك من فنون أقسام المخلوقات ، وما يُجْريه عليها من اختلاف الصفات .

وفي الآية ردٌّ على اليهود حيث قالوا : إنَّ اللَّهَ يستريح يومَ السبت لا يفعل شيئاً ، فأخبر أنه كل يوم هو في شأن ، ولو أُخْلِيَ العالَم لحظةً من حِفْظِه لتلاشى وبَطُلَ .

(ومن شأنه أن يغفرَ ذنباً ، ويَسْتُرَ عيباً ، ويُذْهِبَ كرباً) ، ويُطَيِّبُ قلباً ، ويُقْصِي عَبْداً ويُدْنِي عبداً . . . إلى غير ذلك من فنون الأفعال . وله مع عباده كلَّ ساعَةٍ برٌّ جديدٌ ، وسِرٌّ بينه وبين عبده – عن البقاء – بعيد .

(433/741)

ويقال : كل يوم هو في شأنِ سَوْقِ المقادير إلى أوقاتها .

ويقال : كل يوم هو في شأنِ إظهارِ مستورٍ وسَتْرِ ظاهرٍ ، وإحضارِ غائبٍ وتغييبِ حاضرٍ .

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (31)

أي للحساب يومَ القيامة – وليس به اشتغالٌ . . . تعالى اللَّهُ عن ذلك .

ومعنى الآية : سنقصد لحسابكم .

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33)

أقطارُ السمواتِ والأرضِ نواحيها . أي إنْ قدرتم أن تخرجوا من مُلْكِه فاخرجوا .

ثم قال : ﴿ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ . أي لا تَصِلون إلى موضع إلاَّ وهنا سلطاني ومُلْكي ولا تنفذون في قُطْرٍ إلا وهناك عليكم حجة .

يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (35)

أي فلا تنتقمان . والشواظُ : اللَّهَبُ من النار لا دخانَ معه . والنحاس : الصُّفْرُ المذاب .

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37)

ينفكُّ بعضها عن بعض وتصير في لون الورد الأحمر . ويقال : بها الفُرُش الموردة كالدهان وهو جمع دهن . أي كدهن الزيت وهو دردي الزيت .

ويقال : كما أن الوردة يتلوَّن لونُها ؛ إذ تكون في الربيع إلى الصُّفْرة ، فإذا اشتدت الوردة كانت حمراء ، وبعد ذلك إلى الغبرة فكذلك حالُ السماء تتلون من وصفٍ إلى وصفٍ في القيامة .

فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (39)

أراد في بعض أحوال القيامة لا يُسألون ، ويُسْأَلون في البعض . . . فيومُ القيامة طويلٌ .

ويقال : لمَّا كانت لهم يومئذٍ علامات : فللكفارِ سوادُ الوجه وزُرْقَةُ العين ، وللمسلمين بياض الوجه وغير ذلك من العلامات فالملائكة لا يحتاجون إلى سؤالهم : من أنتم ؟ لأنهم يعرفون

كُلاًّ بسيما هم .

ويقال : لا يُسْأَلون سؤالاً يكون لهم ويُسْأَلون سؤالاً يكون عليهم .

(434/741)

يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَا هُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (41)

المؤمنون غُرٌّ مُحَجَّلُون ، والكفَّارُ سود الوجوهِ زُرْقُ العيون ، فيعرف الملائكة هؤلاء فيأخذون بنواصيهم ويَجُرُّونهم مرة ومرةً بأقدامهم ثم يلقونُهم في النار ، ويطرحونهم في جهنم :

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (44)

يقال لهم : هذه جهنم التي كنتم بها تكذبون !

﴿ حَمِيمٍ ﴾ : ماءٌ حارٌّ . ﴿ ءَانٍ ﴾ تناهى في النضج .

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46)

يقال : لِمَنْ خاف قُرْبَ ربّه منه واطلاعه عليه .

ويقال : لمن خالف وقوفَه غداً بين يدي الله – جنتان ، ولفظة التثنية هنا على العادة في قولهم : خليليَّ ونحوه .

وقيل : بل جنتان على الحقيقة ، ومُعَجَّلة في الدنيا من حلاوة الطاعة وروح الوقت ، ومؤجَّلة في الآخرة وهي جنة الثواب . ثم هم مختلفون في جنات الدنيا على مقادير أحوالهم كما يختلفون في الآخرة على حسب درجاتهم .

ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (48) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (50)

دلَّ على أن الجنتين في الآخرة . والأفنانِ الأغصان . وهي جمع فنن .

ويقال : ذواتا ألوانٍ من كلِّ صنفٍ ولونٍ تشتهيه النَّفْسُ والعينُ – وتكون جمع فن . ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ إحداهما التنسيم ، والاخرى السلسبيل .

ويقال : عينان تجريان غداً لمن كان له – اليومَ – عينان تجريان بالدموع .

فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (52)

زوجان أي صِنْفان وضَرْبان ؛ كالرطب واليابس ، والعنب والزبيب .

ويقال : إنها في نهاية الحسن والجودة .

مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54)

بطائنها من استبرق فكيف بظهائرها ؟ " والبطائن " : ما يلي الأرض . " والاستبرق " : الديباج الغليظ . وإنما خاطَبَهم على قَدْرِ فَهْمِهم ؛ إذا يقال إنه ليس في الجنة شيء مما يُشْبِه ما في الدنيا ، وإنما الخطاب مع الناس على قَدْرِ أفهامهم .

﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ : أي ما يجتنى من ثَمَرها – إذا أرادوه – دنا إلى أفواههم فتناولوه من غير مَشَقَّةٍ تنالهم . وفي الخبر المسند : " مَنْ قال سبحان الله والحمد الله ولا إله إلا الله والله أكبر غَرَسَ الله له شجرةً في الجنة أصلها الذهب وفرعها الدر وطلعها كثدي الأبكار ألين من الزبد وأحلى من العسل ، كلما أخذ منها شيئاً عاد كما كان " – وذلك قوله : ﴿ ودنا الجنتين دان ﴾ .

ويقال : ينالها القائم والقاعد والنائم .

فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56)

أي في الجنان حورٌ قَصَرن عيونَهن عن غير أزواجهن .

وإذا كانت الزوجاتُ قاصراتِ الطَّرْفِ عن غير أزواجهن فأَوْلى بالعبد إذ رجا لقاءَه – سبحانه – أن يقصر طَرْفَه ويَغُضَّه عن غير مُبَاحٍ .

بل عن الكُلِّ . . . إلى أن يلقاه .

ويقال : من الأولياء مَنْ لا يَنْظُرُ إليهن – وإنْ أُبيح له ذلك لتحرُّره عن الشهوات ، ولعلوِّ همته عن المخلوقات – وأنشدوا :

جِنِنَّا بَلَيْلَى وهي جُنَّتْ بغيرنا . . . وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

ويقال : هُنَّ لمن قصرت يدُه عن الحرام والشبهة ، وطرفُه عن الرِّيَب .

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ : لم يصحبهن غيرُ الوليّ ولم يَحْزُنَ غيرَه ، وفي الخبر : " اشتاقت الجنة لثلاثة " .

كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58)

أي : في صفاء الياقوت ولون المرجان .

هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (60)

(436/741)

يقال : الإحسانُ الأول من الله والثاني من العبد ؛ أي : هل جزاء مَنْ أحسنَّا إليه بالنصرة إلاَّ أن يُحْسِن لنا بالخدمة ؟ وهل جزاء مَنْ أحسنَّا إليه بالولاء إلا أن يحسن لنا بالوفاء ؟

ويصح أن يكون الإحسانُ الأول من العبد والثاني من الله ؛ أي : هل جزاء من أحسن من حيث الطاعة إلا أن يُحْسَنَ إليه من حيث القبول والثواب ؟

وهل جزاء من احسن من حيث الخدمة إلا أن يُحْسَنَ إليه من حيث النعمة ؟

ويصح أن يكون الإحسانان من الحقِّ ؛ أي : هل جزاء مَنْ أحسنَّا إليه في الابتداء إلا أن

نُحْسِنَ إليه في الانتهاء ؟ وهل جزاء مَنْ فاتحناه باللُّطف إلا أن نُرْبِيَ له في الفضل والعطف ؟

ويصحُّ أن يكون كلاهما من العبد ؛ أي : هل جزاء من آمن بنا إلاَّ أَنْ يَثْبت في المستقبل على إيمانه ؛ وهل جزاء مَنْ عَقَد معنا عقد الوفاء إلا أَنْ يقوم بما يقتضيه بالتفصيل ؟

ويقال : هل جزاء مَنْ بَعُدَ عن نَفْسِه إلاَّ أَنْ نُقَرِّبَه مِنَّا ؟

وهل جزاء مَنْ فَنِيَ عَنْ نَفْسِه إلاَّ أَنْ يبقى بنا ؟

وهل جزاء مَنْ رَفَعَ لنا خطوة إلاَّ أَن نكافِئَه بكل خطوة ألف حظْوَة ، وهل جزاء من حفظ لنا طَرْفَه إلا أن نُكْرِمَه بلقائنا ؟ .

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (62)

هما جنتان غير هاتين اللتين ذُكِرَتا ؛ جنتان أُخْرَيان . وليس يريد دونهما في الفضل ، لكن يريد ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ سواهما .

مُدْهَامَّتَانِ (64)

أي : خضروان خُضْرةً تضرب إلى السواد . فالدهمة السواد والفعل منه ادهامَّ والاسم منه مُدْهامٌّ . وللمؤنث مدهامَّة . ولتثنية المؤنث مدهامتان .

فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (66)

والنَّضْخُ فَوَرانُ العينَ بالماء .

فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (68)

الأسماء متشابهة . . . والعيون فلا .

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (70)

أي : حورٌ خَيِّرات الأخلاق حِسانُ الوجوه . واحدها خَيِّرة والجمع خيِّرات وهذا هو الأصل ثم خُفِّف فصارت خيرات .

(437/741)

حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (72) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (73) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (74)

محبوسات على أزواجهن . وهُنَّ لِمَنْ هو مقصورٌ الجوارح عن الزَّلَّات ، مقصورُ القلب عن الغفلات ، مقصور السِّرِّ عن مساكنة الأشكال والأعلال والأشباه والأمثال .

وفي بعض التفاسير : أن الخيمة من دُرَّةٍ مجوفة فرسخ في فرسخ لها ألف باب .

ويقال : قصرت أنفسهن وقلوبهن وأبصارهن على أزواجهن . وفي الخبر : " أنهن يقلن : نحن الناعمات . فلا نبؤس ، الخالدات فلا نبيد ، الراضيات فلا نسخط " .

وفي خبر عن عائشة رضي الله عنها : " ونحن المتصدِّقاتُ وما تَصَدَّقْتُنَّ " قالت عائشة يغلبهن قولُه :

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ .

مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (76)

قيل : رياض الجنة ، وقيل : المجالس ، وقيل : الزرابيّ والوسائد – وهي خُضْرٌ ﴿ وعبقري حسان ﴾ : العبقري عند العرب كلُّ ثوبٍ مُوَشَّى .

تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (78)

مضى تفسيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 502.515 ﴾

(438/741)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الرحمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4)

الإعراب :

(القرآن) مفعول به ثان ، والمفعول الأول محذوف تقديره من شاء " 1 " . . .

جملة : " الرحمن علّم القرآن . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة وجملة : " علّم . . . " في محل رفع

خبر المبتدأ (الرحمن) وجملة: " خلق . . . " في محلّ رفع خبر ثان وجملة: " علّمه البيان . . . " في محلّ رفع خبر ثالث

[سورة الرحمن (55) : الآيات 5 إلى 6]

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ (6)

---

(1) أو جبريل، أو محمّدا عليه السلام، أو الإنسان لدلالة: " خلق الإنسان " عليه

الإعراب:

(بحسبان) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ أي: جاريان بحسبان " 1 " جملة: " الشمس . . . بحسبان " لا محلّ لها اعتراضيّة " 2 " وجملة: " النجم . . . يسجدان " لا محلّ لها معطوفة على الاعتراضيّة وجملة: " يسجدان " في محلّ رفع خبر المبتدأ (النجم . . .)

الصرف:

(النجم)، اسم للنبات الذي لا ساق له، وزنه فعل بفتح فسكون

البلاغة

1 - الاستعارة التصريحية التبعية: في قوله تعالى وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ.

المراد بسجودهما انقيادهما له تعالى فيما يريد بهما طبعا ، شبه جريهما على مقتضى طبيعتهما بانقياد الساجد لخالقه وتعظيمه له . ثم استعمل اسم المشبه به في المشبه . فهناك استعارة مصرحة تبعية .

2 - فن التوهيم : في قوله تعالى وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ .

---

(1) وهو كون خاص ، أو متعلّق بكون عام بحذف مضاف في المبتدأ أي : جريان الشمس والقمر . .

(2) لأنّ جملة (رفع) السماء المقدّرة معطوفة على جملة علّمه البيان

وهذا الفن هو عبارة عن إتيان المتكلم بكلمة ، يوهم باقي الكلام - قبلها أو بعدها - أن المتكلم أراد اشتراك لغتها بأخرى ، أو أراد تصحيفها أو تحريفها ، أو اختلاف إعرابها ، أو اختلاف معناها ، أو وجها من وجوه الاختلاف ، والأمر بضد ذلك فإن ذكر الشمس والقمر يوهم السامع أن النجم أحد نجوم السماء ، وإنما المراد النبت الذي لا ساق له .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 7 إلى 13]

وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا

تُخْسِرُوا الْمِيزانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ (10) فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ (11)

وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ (12) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (13)

الإعراب :

(الواو) عاطفة في الموضعين (السماء) مفعول به لفعل محذوف يفسّره المذكور بعده .

جملة : " (رفع) السماء . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة علّمه البيان " 1 " وجملة : " رفعها . . . " لا محلّ لها تفسيريّة وجملة : " وضع . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة (رفع المقدّرة) 8 - (أن) : حرف مصدري ونصب (لا) نافية " 2 " ، (في الميزان) متعلق بـ (تطغوا) والمصدر المؤوّل (أَلّا تطغوا . . .) في محلّ جرّ بلام محذوفة متعلّق بـ (وضع) أي لئلّا تطغوا . . .

وجملة : " تطغوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) 9 - (الواو) اعتراضيّة (بالقسط) متعلّق بحال من فاعل أقيموا (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة . . .

وجملة : " أقيموا . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة

---

(1) في الآية (4) من هذه السورة

(2) يجوز أن تكون (أن) مفسّرة و(لا) ناهية . . . لأنّ وضع الميزان يستدعي الأمر بالعدل وهو قول

وجملة : " لا تخسروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاعتراضيّة 10 - 13 - (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (الأرض) مفعول به لفعل محذوف يفسّره المذكور بعده (للأنام) متعلّق بـ (وضعها) ، (فيها) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (فاكهة) (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (بأي) متعلّق بـ (تكذّبان) " 1 " .

وجملة : " (وضع) الأرض . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة وضع الميزان " 2 " .

وجملة : " وضعها . . . " لا محلّ لها تفسيريّة وجملة : " فيها فاكهة . . . " في محلّ نصب حال من الأرض وجملة : " بأي . . . تكذبان " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إذا كان الأمر كما فصّل فبأي آلاء .

الصرف :

(الميزان) ، الأول بمعنى العدل ، والثاني بمعنى مقياس الوزن ، والثالث بمعنى الموزون . . . وانظر الآية (152) من سورة الأنعام .

(12) العصف : اسم جامد لورق كلّ نبات يخرج منه الحبّ ، وزنه فعل بفتح فسكون (الريحان) ، هو مصدر في الأصل ثمّ أطلق على نبت معروف ذي رائحة ، وهو الرزق أيضا

، وعند الفرّاء هو ورق الزرع ، ووزنه فعلان بفتح الفاء .

---

(1) ذكرت هذه الآية إحدى وثلاثين مرّة ، ثمان منها ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق اللّه وبدائع صنعه ، ثم سبعة عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها ، ثم ثماني آيات في وصف الجنّتين ، وثمان أخرى في وصف الجنّتين دون الأوليين . . . والتكرار جاء للتأكيد والتذكير

(2) في الآية (7) من السورة

(442/741)

البلاغة

التكرير : في قوله تعالى فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ .

فقد تكررت كثيرا في هذه السورة ، وهذا التكرار أحلى من السكر إذا تكرر . وإنما حسن للتقرير بالنعم المختلفة المعددة ، فكلما ذكر سبحانه نعمة أنعم بها وبّخ على التكذيب بها ، كما يقول الرجل لغيره : ألم أحسن إليك بأن خولتك في الأموال ؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا ؟ فيحسن فيه التكرير لاختلاف ما يقرر به ، وهو كثير في كلام العرب .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 14 إلى 16]

خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ (15) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (16)

الإعراب :

(من صلصال) متعلّق بـ (خلق) ، (كالفخّار) متعلّق بنعت لـ (صلصال) ، (من مارج) متعلّق بـ (خلق) الثاني (من نار) متعلّق بنعت لـ (مارج) " 1 " ، (فبأي . . . تكذّبان) مثل الأولى " 2 " مفردات وجملا جملة : " خلق الإنسان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " خلق الجانّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة

الصرف :

(الفخّار) ، اسم لما طبخ من الطين ، وزنه فعّال بفتح الفاء (مارج) ، اسم لما اختلط من أحمر وأخضر وأصفر ، وقيل بمعنى الخالص ، وقيل اللهب المضطرب ، وزنه فاعل بكسر العين

---

(1) من بيانيّة أو تبعيضيّة . . . وإذا كان المارج بمعنى النار فهو بدل بإعادة الجارّ

(2) في الآية (13) من هذه السورة

[سورة الرحمن (55) : الآيات 17 إلى 18]

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (18)

الإعراب :

(ربّ) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (فبأي . . .) مثل الأولى مفردات وجملا " 1 " جملة : " (هو) ربّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة

[سورة الرحمن (55) : الآيات 19 إلى 23]

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ (19) بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ (20) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (21) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ (22) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (23)

الإعراب :

فاعل (مرج) ضمير يعود على اللّه ، (بينهما) منصوب متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (برزخ) ، (لا) نافية . . . (فبأي . . .) مثل الأولى في الموضعين " 2 " مفردات وجملا (منهما) متعلّق بـ (يخرج) . . .

جملة : " مرج . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " يلتقيان . . . " في محلّ نصب حال من البحرين وجملة : " بينهما برزخ . . . " في محلّ نصب حال من البحرين أو من فاعل يلتقيان وجملة : " لا يبغيان . . . " في محلّ نصب حال من البحرين " 3 " وجملة : " يخرج منهما اللؤلؤ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة

(1 ، 2) في الآية (13) من هذه السورة.

(3) أو من فاعل يلتقيان أو من الضمير في (بينهما) . . وفيها معنى التعليل أي لئلّا يبغيا

[. . . . .]

(444/741)

الصرف:

(22) المرجان: اسم جمع لحجر من الأحجار الكريمة، وزنه فعلان بفتح الفاء واحدته مرجانة، وهو عروق حمر كأصابع الكفّ، وقيل هو صغار اللؤلؤ

البلاغة

فن الاتساع: في قوله تعالى يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ.

وقال: يخرج منهما ولم يقل: من أحدهما، لأنهما لما التقيا وصارا كالشيء الواحد: جاز أن يقال: يخرجان منهما، كما يقال يخرجان من البحر، ولا يخرجان من جميع البحر، ولكن من بعضه. وتقول: خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محاله، بل من دار واحدة من دوره.

[سورة الرحمن (55): الآيات 24 إلى 25]

وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (24) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (25)

الإعراب :

(445/741)

(الواو) استئنافيّة (له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (الجواري) ، وهو مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة لمناسبة قراءة الوصل (في البحر) متعلّق بـ (الجواري) (كالأعلام) متعلّق بحال من الضمير في المنشئات (فبأي . . .) مثل الأولى " 1 " مفردات وجملا . . .

جملة : " له الجواري . . . " لا محلّ لها استئنافيّة

الصرف :

(المنشآت) ، جمع المنشأة مؤنّث المنشأ ، اسم مفعول من (أنشأ) الرباعيّ ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين

البلاغة

التشبيه المرسل : في قوله تعالى وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ .

---

(1) في الآية (13) من السورة

حيث شبه سبحانه وتعالى السفن ، وهي تمخر عباب البحر ، رائحة جائية ، بالجبال الشاهقة .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 26 إلى 28]

كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ (26) وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ (27) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (28)

الإعراب :

(من) موصول في محلّ جرّ مضاف إليه (عليها) متعلّق بمحذوف صلة من (فان) خبر المبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة فهو اسم منقوص (ذو) نعت لوجه مرفوع وعلامة الرفع الواو (فبأي . . .) مثل الأولى مفردات وجملا " 1 " جملة : "كلّ من عليها فان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "يبقي وجه ربّك . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة

الصرف :

(26) فان : اسم فاعل من (فني) الثلاثيّ وزنه فاع ، فيه إعلال بالحذف بسبب التقاء

الساكنين سكون الياء والتنوين .

(27) الجلال : مصدر سماعيّ لفعل جلّ الثلاثيّ ، وزنه فعال بفتح الفاء (الإكرام) ، مصدر قياسيّ لفعل أكرم الرباعيّ ، وزنه إفعال . . .

البلاغة

1 - المجاز المرسل : في قوله تعالى وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ .

---

(1) في الآية (13) من هذه السورة .

أي ذاته عز وجل ، والمراد هو سبحانه وتعالى ، فالإضافة بيانية ، وحقيقة الوجه في الشاهد الجارحة ، واستعماله في الذات مجاز مرسل ، كاستعمال الأيدي في الأنفس .

2 - فن الافتنان : في قوله تعالى كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ .

وهذا الفن هو أن يفتن المتكلم ، فيأتي في كلامه بفنين ، إما متضادين ، أو مختلفين ، أو متفقين ، وقد جمع سبحانه بين التعزية والفخر ، إذ عزى جميع المخلوقات ، وتمدح بالانفراد بالبقاء بعد فناء الموجودات ، مع وصفه ذاته بعد انفراده بالبقاء بالجلال والإكرام .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 29 إلى 30]

يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (30)

الإعراب:

(في السموات) متعلّق بمحذوف صلة الموصول من (كلّ) اسم دالّ على الظرفيّة ناب عن الظرف يوم، منصوب متعلّق بالاستقرار خبر المبتدأ (هو)، (في شأن) متعلّق بخبر المبتدأ (هو)، (فبأي . . .) مثل الأولى مفردات وجملا " 1 " جملة: " يسأله من في السموات " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: " هو في شأن " لا محلّ لها استئنافيّة

[سورة الرحمن (55): الآيات 31 إلى 32]

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ (31) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (32)

الإعراب:

(لكم) متعلّق بـ (سنفرغ)، (أيها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ في محلّ نصب (فبأي . . .) مثل الأولى " 2 " جملة: " سنفرغ لكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة: " أيها الثقلان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة

(1، 2) في الآية (13) من هذه السورة.

الصرف :

(الثقلان) ، مثنّى ثقل بفتحتين وزنه فعل ، اسم جمع للإنس أو للجنّ إمّا بمعنى مثقل – بكسر القاف – أي أثقل الأرض أو بمعنى مثقول أي محمّل بالتكاليف ومتعب بها – بفتح العين –

الفوائد :

حرف الهاء . .

ورد في هذه الآية قوله تعالى : سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ فإن (إلها) حرف تنبيه وسنورد حالات هذا الحرف ، لنبين ما يتعلق به ، فهو يرد على خمسة أوجه : 1 – تأتي ضميرا للغائب ، وتكون في موضع الجر والنصب ، كقوله تعالى : قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ تعالى : قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ .

فهاء له وصاحبه في محل جر بالإضافة ، وهاء يحاوره في محل نصب مفعول به .

2 – تأتي حرفا للغيبة : وهي الهاء في (إيّاه) والتحقيق أنها حرف لمجرد معنى الغيبة ، وأن الضمير " إيّا " وحدها .

3 – هاء السكت : وهي اللاحقة لبيان حركة أو حرف ، نحو (ماهية) ، ونحو (هاهناه) و(وا زيداه) وقوله تعالى : ما أَغْنى عَنّي مالِيَهْ . هَلَكَ عَنّي سُلْطانِيَهْ .

4 – المبدلة من همزة الاستفهام كقوله :

وأتى صواحبها فقلن : هذا الذي منح المودة غيرنا وجفانا

والتحقيق ألا تعد هذه لأنها ليست بأصلية ، على أن بعضهم زعم أن الأصل " هذا " فحذفت الألف .

5 – هاء التأنيث ، نحو (رحمه) في الوقف . وهذا قول الكوفيين ، والتحقيق ألا تعد لأنها جزء كلمة لا كلمة .

أما (ها) فترد على ثلاثة أوجه :

1 – اسم فعل ، بمعنى (خذ) ، ويجوز مدّ ألفها ، ويستعملان بكاف الخطاب وبدونها ، ويجوز في الممدودة أن يستغنى عن الكاف بتصريف همزتها تصاريف الكاف فيقال : (هاء) للمذكر ، (هاء) للمؤنث بكسر الهمزة و(هاؤما) و(هاؤنّ) و(هاؤم) ومنه قوله تعالى : هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ .

(449/741)

---

2 – أن تكون ضميرا للمؤنث فتستعمل مجرورة الموضع ومنصوبة كقوله تعالى : فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها ففي الأولى في محل نصب ، وفي الأخريين في محل جر .

3 – أن تكون للتنبيه ، فتدخل على أربعة أشياء :

1 – الإشارة غير المختصة بالبعيد ، نحو : (هذا) أما (هنا) فالهاء أصلية وليست للتنبيه .

2 – ضمير الرفع المخبر عنه باسم إشارة ، كقوله تعالى ها أَنْتُمْ أُولاءِ .

3 – نعت (أي) في النداء ، نحو : (يا أيها الرجل) ويجوز في لغة بني أسد أن تحذف ألفها ، وأن تضم هاؤها اتباعا ، وعليه قراءة ابن عامر (أيّه المؤمنون) (أيّه الثقلان) .

4 – اسم اللّه تعالى في القسم عند حذف الحرف ، يقال : " ها اللّه " بقطع الهمزة ووصلها ، وكلاهما مع إثبات ألف (ها) وحذفها .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 33 إلى 34]

يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ (33) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (34)

الإعراب :

(استطعتم) ماض مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط (أن) حرف مصدري ونصب (من أقطار) متعلّق بـ (تنفذوا) (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) نافية (إلّا) للحصر (بسلطان) متعلّق بحال من فاعل تنفذون " 1 " ، (فبأي . . .) مثل الأولى " 2 "

(1) أو متعلّق بـ (تنفذون)

(2) في الآية (13) من السورة

والمصدر المؤوّل (أن تنفذوا . . .) في محلّ نصب مفعول به جملة النداء : " يا معشر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " إن استطعتم . . . " لا محلّ لها جواب النداء وجملة : " تنفذوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) وجملة : " انفذوا . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء وجملة : " لا تنفذون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 "

[سورة الرحمن (55) : الآيات 35 إلى 36]

يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَنُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ (35) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (36)

الإعراب :

(عليكما) متعلّق بـ (يرسل) ، (من نار) متعلّق بنعت لـ (شواظ) (الفاء) عاطفة (لا) نافية (فبأي . . .) مثل الأولى مفردات وجملا " 2 " جملة : " يرسل عليكما شواظ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " لا تنتصران . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يرسل

الصرف :

(شواظ) اسم اللهب الخالص أو الذي معه دخان ، وزنه فعال بضمّ الفاء .

(نحاس) اسم للمعدن المعروف ، أو بمعنى الدخان الذي لا لهب معه ، وزنه فعال بضمّ الفاء

[سورة الرحمن (55) : الآيات 37 إلى 42]

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ (37) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (38)
فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ (39) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (40) يُعْرَفُ
الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ (41)
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (42)

---

(1) أو لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إذا نفذتم لا تنفذون .

(2) في الآية (13) من هذه السورة .

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة والثانية عاطفة (إذا) ظرف للزمن المستقبل في محلّ نصب متعلّق

بمضمون الجواب المقدّر (كالدهان) متعلّق بنعت لـ (وردة) " 1 " ، (فبأي . . .) مثل الأولى مفردات وجملا (الفاء) عاطفة " 2 " ، (يومئذ) ظرف منصوب - أو مبنيّ على الفتح - متعلّق بـ (يسأل) المنفيّ (لا) نافية (عن ذنبه) متعلّق بـ (يسأل) ، (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (فبأي . . .) مثل الأولى " 3 " مفردات وجملا . . .

(452/741)

جملة : " انشقّت السماء . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : "كانت . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة انشقت . . . وجواب الشرط محذوف تقديره رأيت أمرا هائلا وجملة : " لا يسأل . . . إنس " لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط المقدّر " 4 " 41 - 42 - (بسيماهم) متعلّق بحال من (المجرمون) نائب الفاعل (الفاء)

---

(1) يجوز أن يكون خبرا ثانيا

(2) أو استئنافيّة ، أو رابطة لجواب الشرط المتقدّم وجملة بأي آلاء . . . اعتراض

(3) في الآية (13) من هذه السورة .

(4) أو لا محلّ لها جواب إذا وما بينهما اعتراض

عاطفة (بالنواصي) نائب الفاعل " 1 " ، (فبأي . . .) مثل الأولى مفردات وجملا وجملة : " يعرف المجرمون . . . " لا محلّ لها تعليل لما سبق وجملة : " يؤخذ بالنواصي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يعرف المجرمون

الصرف :

(الدهان) : اسم بمعنى الجلد الأحمر أو ما يدهن به وزنه فعال بكسر الفاء (وردة) : واحدة الورد وهو اسم جمع جنسيّ ، وزنه فعلة بفتح فسكون

البلاغة

التشبيه التمثيلي : في قوله تعالى : فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ .

حيث أراد بالوردة الغرس ، والوردة تكون في الربيع أميل إلى الصفرة ، فإذا اشتد البرد كانت وردة حمراء ، فإذا كان بعد ذلك كانت وردة أميل إلى الغبراء ، فشبه تلون السماء ، حال انشقاقها ، بالوردة وشبّهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه . والمشبه والمشبه به كلاهما حسي ، أي من قبيل تشبيه المحسوس بالمحسوس .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 43 إلى 45]

هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (44) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (45)

الإعراب :

---

(1) قال أبو حيّان : يؤخذ متعدّ ومع ذلك تعدّى بالباء لأنه ضمّن معنى يسحب وقال غيره :

أخذت الناصية وأخذت بالناصية . وحكي عن العرب : أخذت الخطام وأخذت بالخطام بمعنى .

(التي) موصول في محلّ رفع نعت لجهنّم (بها) متعلّق بـ (يكذّب) ، (بينها) ظرف منصوب متعلّق بـ (يطوفون) وكذلك الظرف المعطوف بين (آن) نعت لحميم مجرور مثله وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على

الياء المحذوفة فهو اسم منقوص (فبأي . . .) مثل الأولى مفردات وجملا " 1 " جملة : " هذه جهنّم . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر وجملة : " يكذّب بها المجرمون " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) وجملة : " يطوفون . . . " في محلّ نصب حال من جهنّم

والعامل فيها الإشارة.

الصرف:

(آن)، اسم فاعل من الثلاثي أني باب ضرب بمعني اشتدت حرارته، وزنه فاع فيه إعلال بسبب التقاء الساكنين

[سورة الرحمن (55): الآيات 46 إلى 61]

وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ (46) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (47) ذَواتا أَفْنانٍ (48) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (49) فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ (50)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (51) فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ (52) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (53) مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ (54) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (55)

فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جانٌّ (56) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (57) كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ (58) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (59) هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ (60)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (61)

---

(1) في الآية (13) من هذه السورة.

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لمن) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (جنّتان) (فبأي . . .) مثل الأولى مفردات وجملا " 1 " في الآيات الثماني التالية (ذواتا) نعت لـ (جنّتان) مرفوع " 2 " ، (فيهما) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (عينان) و(فيهما) الثاني خبر للمبتدأ (زوجان) ، (من كلّ) متعلّق بحال من (زوجان) . .

جملة : " لمن خاف . . . جنّتان " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " خاف . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) وجملة : " فيهما عينان . . . " في محلّ رفع نعت لـ (جنّتان) " 3 " وجملة : " تجريان . . . " في محلّ رفع نعت لـ (عينان) وجملة : " فيهما من كلّ . . . " في محلّ رفع نعت لـ (جنّتان) " 4 " 54 - 55 - (متكئين) حال منصوبة من ضمير الفاعل لفعل محذوف ، والضمير يعود على الخائفين في قوله : لمن خاف أي : يتنعّمون متّكئين (على فرش) متعلّق بـ (متّكئين) ، (من إستبرق) متعلّق بخبر المبتدأ (بطائنها) ، (الواو) حالية (جني) مبتدأ مرفوع خبره (دان) مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة فهو اسم منقوص .

وجملة : " (يتنعّمون) متّكئين " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " بطائنها من إستبرق . . . " في محلّ جرّ نعت لفرش وجملة : " جني الجنّتين دان " في محلّ نصب حال " 5 " 56 - 61 - (فيهنّ) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (قاصرات) ، (قبلهم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يطمثهنّ) ، (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي

---

(1) في الآية (13) من هذه السورة . [. . . . .]

(2) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هما ، والجملة نعت لـ (جنّتان) وما بينهما اعتراض

(3 ، 4) أو لا محلّ لها استئنافيّة

(5) أو معطوفة على جملة : فيهما من كلّ فاكهة زوجان

(جان) معطوف على أنس مرفوع (هل) حرف استفهام فيه معنى النفي (إلّا) للحصر . وجملة : " فيهنّ قاصرات . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " لم يطمثهنّ إنس . . . " في محلّ نصب حال من قاصرات الطرف والعامل فيها الاستقرار وجملة : " كأنّهنّ الياقوت . . . " في محلّ نصب حال من قاصرات الطرف وجملة : " هل جزاء . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ

الصرف :

(48) ذواتا : مثنى ذوات – وهو مفرد في الأصل من غير حذف الواو – ولام ذوات ياء ، وعينها واو ، وفاؤها ذال لأنّ الأصل ذوي – بياء في آخره – فيه إعلال لأن الياء تحرّكت وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا ، ذوا ، ثمّ زيدت في آخره التاء (أفنان) ، جمع فنن ، اسم للغصن . وزنه فعل بفتحتين ، وزن أفنان أفعال (54) جنى : اسم للثمر أو لما يجنى من العسل أو الذهب ، وزنه فعل بفتحتين ، وفيه إعلال بالقلب أصله جني ، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(58) الياقوت : اسم للجوهر النفيس ذي اللون الأحمر ، وزنه فاعول

البلاغة

التشبيه المرسل المجمل : في قوله تعالى كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ .

فقد شبههن بالياقوت ، في حمرة الوجه ، وبالمرجان أي صغار الدر ، في بياض البشرة وصفائها ، وتخصيص الصغار لأنه أنصع بياضا من الكبار .

وأخرج البيهقي في البعث عن ابن مسعود قال : إن المرأة من الحور العين يرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم ، من تحت سبعين حلة ، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 62 إلى 78]

وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ (62) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (63) مُدْهامَّتانِ (64) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (65) فِيهِما عَيْنانِ نَضّاخَتانِ (66)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (67) فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (68) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (69) فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ (70) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (71)

(457/741)

حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ (72) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (73) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جانٌّ (74) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (75) مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ (76)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (77) تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ (78)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من دونهما) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (جنّتان) ، (فبأي . . .) مثل الأولى مفردات وجملا " 1 " في المواضع الثمانية التالية (مدهامّتان) نعت لـ (جنّتان) مرفوع ، وما بين النعت والمنعوت اعتراض . . .

جملة : " من دونهما جنّتان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة 66 - 70 - (فيهما) متعلق

بخبر مقدّم للمبتدأ (عينان) و(فيهما) الثاني خبر لـ (فاكهة) و(فيهنّ) خبر لخيرات . . .

---

(1) في الآية (13) من السورة

وجملة : " فيهما عينان . . . " في محلّ رفع نعت لـ (جنّتان) وما بينهما اعتراض وجملة : " فيهما فاكهة . . . " في محلّ رفع نعت ثالث لـ (جنّتان) وما بينهما اعتراض وجملة : " فيهنّ خيرات . . . " في محلّ رفع نعت رابع لـ (جنّتان) وما بينهما اعتراض 72 - 78 -

(حور) بدل من خيرات مرفوع (مقصورات) نعت لحور مرفوع (في الخيام) متعلّق بـ (مقصورات) (لم يطمثهنّ . . . ولا جانّ) مرّ إعرابها " 1 " ، (متّكئين على رفرف) مثل متكئين على فرش " 2 " ، (ذي) نعت لربّك مجرور . . .

وجملة : " لم يطمثهنّ إنس . . . " في محلّ رفع نعت لحور وجملة : " (يتنعّمون) متّكئين " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " وجملة : " تبارك اسم " لا محلّ لها استئنافيّة

الصرف :

(64) مدهامّتان : مثنّى مدهامة مؤنّث مدهامّ . . . هو اسم فاعل من السداسيّ ادهامّ - أو اسم مفعول منه - وكلا المعنيين موافق في الآية الكريمة ، وزنه افعالّ .

(1) في الآية (56) من السورة

(2) في الآية (54) من السورة

(3) الضمير في الفعل يعود على الأزواج المفهوم من سياق الآيات

---

(66) نضّاختان : مثنّى نضّاخة مؤنّث نضّاخ مبالغة اسم الفاعل ، من الثلاثي نضخ ، وزنه فعّال بفتح الفاء (70) خيرات : جمع خيرة زنة فعلة بفتح فسكون ، أو جمع خيرة بفتح فكسر وهو مخفف من خيّرة بالتشديد وكلا اللفظين صفة مشبّهة من الثلاثيّ خار يخير ، وهما صفتان لموصوف محذوف قصد به نساء الجنّة الحور العين (حسان) ، جمع تكسير لحسناء ، وهو صفة مشبّهة من الثلاثي حسن باب كرم ، وزنه فعال بكسر الفاء (72) مقصورات : جمع مقصورة مؤنّث مقصور اسم مفعول من الثلاثيّ قصر بمعني ستر وزنه مفعول ، ويقال امرأة قصيرة وقصورة ومقصورة أي مخدّرة (الخيام) ، جمع خيم وهو جمع خيمة أي هو جمع الجمع ، ووزن خيمة فعلة بفتح فسكون ، ووزن خيم فعل بكسر ففتح ، ووزن خيام فعال بكسر الفاء (76) رفرف : اسم جمع واحدته رفرفة ، أو اسم جنس جمعيّ ، وهو ما تدلّى من الأسرة من غالي الثياب وزنة فعللة ، واسم الجمع فعلل

بفتح فسكون في كلّ منهما (عبقري) ، اسم جمع واحدته عبقريّة ، أو اسم جنس جمعيّ ، والعبقري الكامل من كلّ شيء . . . وقال الخليل بن أحمد : هو الجليل النفيس من الرجال ، وقيل : العبقري منسوب إلى عبقر وتزعم العرب أنّه اسم بلد الجنّ فينسبون إليه كلّ شيء عجيب . . . وقال قطرب : ليس منسوبا بل هو بمنزلة الكرسيّ ، فالياء المشدّدة ليست ياء النسب

البلاغة

الاختصاص : في قوله تعالى : فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ .

فقد عطف النخل والرمان على الفاكهة ، وهما منها ، وذلك اختصاصا لهما ، وبيانا لفضلهما ، كأنهما لما لهما من المزية جنسان آخران ، ومنه قول أبو حنيفة رحمه اللّه : إذا حلف لا يأكل فاكهة فأكل رمانا أو رطبا ، لم يحنث ، وخالفه صاحباه .

الفوائد :

- كتابة الهمزة . .

ورد في هذه الآية قوله تعالى : مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ فكلمة (متكئين) رسمت فيها الهمزة على نبرة ، وسنوضح فيما يلي أهم ما يتعلق بتلك القاعدة :

1 – تكتب الهمزة في أول الكلمة على ألف ، وتكون فوق الألف إن كانت مفتوحة أو مضمومة مثل (أمن) (أصول) ، وتكون تحت الألف إن كانت مكسورة مثل (إسلام) .

2 – الهمزة وسط الكلمة : نقارن بين حركتها وحركة الحرف الذي قبلها ونكتبها على حرف يناسب أقوى الحركتين . وأقوى الحركات الكسر ، يليه الضم ، يليه الفتح ، والكسر تناسبه (النبرة) ، والضم تناسبه الواو ، والفتح تناسبه الألف .

فكلمة (متكئين) الهمزة مكسورة وما قبلها مكسور فكتبت على نبرة . وكلمة (يناأون) الهمزة مفتوحة وما قبلها ساكن ، والفتح أقوى ويناسبه الألف . وهكذا . . .

– شواذ القاعدة في كتابة الهمزة وسط الكلمة .

1 – الهمزة المفتوحة المسبوقة بألف ساكنة تكتب على السطر : عباءة – إضاءة – إساءة .

2 – الهمزة المفتوحة أو المضمومة ، المسبوقة بواو ساكنة ، تكتب على السطر ، مثل سموءل – موءودة .

3 – الهمزة المفتوحة أو المضمومة أو المكسورة ، المسبوقة بياء ساكنة ، تكتب على نبرة مثل : ييئس – سرّني مجيئك – سررت بمجيئك .

3 - الهمزة آخر الكلمة : إن سبقت بمتحرك فتكتب على حرف يناسب حركة ما قبلها ، مثل : (ناشئ) تباطؤ - ملجأ ، وإن سبقت بساكن كتبت على السطر إن كانت مضمومة أو مكسورة مثل : عبء أو عبء ، بطء أو بطء ، أما إن كانت منونة بالفتح فتكتب على نبرة ، إن أمكن وصلها بالحرف الذي قبلها ، مثل :

عبئًا - بطئًا ، أما إذا لم يمكن وصلها كتبت على السطر ، ورسم التنوين بعدها على الألف ، مثل : جزءا - ردءا ، إلا إذا كانت مسبوقة بألف ساكنة فإن التنوين يرسم فوق الهمزة مثل : رداء - جزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الجدول حـ 27 صـ 87.107﴾

(461/741)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(55) سورة الرحمن

مدنيّة وآياتها ثمان وسبعون

[سورة الرحمن (55) : الآيات 1 إلى 13]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيانَ (4)

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ (6) وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ (10) فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ (12) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (13)

اللغة :

(الْبَيانَ) في اللغة : المنطق الفصيح المعرب عمّا في الضمير ، وفي الاصطلاح أحد فنون البلاغة الثلاثة وهو يبحث في التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية وقد تقدمت أمثلتها في هذا الكتاب .

(بِحُسْبانٍ) الحسبان : مصدر حسبته أحسبه حسابا وحسبانا وقيل هو جمع حساب كشهاب وشهبان ورغيف ورغفان .

(

النَّجْمُ) من النبات ما لم يقم على ساق نحو العشب والبقل والشجر ما قام على ساق وأصله الطلوع يقال : نجم القرن والنبات إذا طلعا وبه سمي نجم السماء وقيل نجم السماء وحده وأراد به جميع النجوم .

(القسط) العدل إنما فعلوه مستقيما بالعدل وقال أبو عبيدة :

الإقامة باليد والقسط بالقلب .

(الْأَكْمامِ) جمع كم وهو وعاء الزهرة وفي الصحاح : " والكم بالكسر والكمامة وعاء الطلع وغطاء النور والجمع كمام وأكمة وأكمام وأكاميم أيضا والكمام بالكسر والكمامة أيضا ما يكمّ به فم البعير لئلا يعضّ يقال منه بعير مكموم أي محجوم وتكممت الشيء غطيته والكم ما ستر شيئا وغطّاه ومنه كمّ القميص بالضم والجمع كمام وكممة والكمّة القلنسوة المدورة لأنها تغطّي الرأس " .

(462/741)

(الْعَصْفِ) الذي يعصف فيؤكل من الزرع وقيل : العصف ورق كل شيء يخرج منه الحب .

(الرَّيْحانُ) في المختار : " الريحان نبت معروف وهو الرزق أيضا ، والعصف ساق الزرع والريحان ورقه عند الفرّاء " وقيل العصف التبن وفي الأساس " وصاروا كعصف الزرع وهو حطام التبن ودقاقه " .

(آلاءِ) نعم واحدها إلى ، وألى مثل معى وحصى وإلى وألي أربع نعات .

الإعراب :

)

(463/741)

الرَّحْمنُ ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ) الرحمن مبتدأ وجملة علم القرآن خبر وقد تعددت الأخبار في الأفعال التي وردت خلوّا من العاطف على نمط التعديد وإقامة الحجة على الكافرين ، وهذا عند من لا يرى الرحمن آية ومن عدّها آية أعرف الرحمن خبر لمبتدأ محذوف أي اللّه الرحمن أو مبتدأ خبره محذوف أي الرحمن ربنا وعلّم يتعدى إلى مفعولين حذف أولهما لشموله أي علم من يتعلم وهذا أولى من تخصيص المفعول الأول المحذوف بواحد معين (خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ) فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به وعلّمه البيان فعل ماض وفاعل مستتر ومفعولاه والألف واللام في الإنسان للجنس (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ) الشمس مبتدأ والقمر عطف عليه وبحسبان خبر الشمس (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ) عطف على ما تقدم وجملة يسجدان خبر النجم (وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ) الواو عاطفة والسماء مفعول به بفعل محذوف يفسره المذكور وجملة رفعها مفسرة لا محل لها ووضع الميزان فعل وفاعل مستتر ومفعول به (أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ) أن مصدرية ولا نافية وتطغوا فعل مضارع منصوب بأن المصدرية وأن وما بعدها في محل نصب بلام العلّة مقدّرة والجار والمجرور في محل نصب مفعول لأجله ويجوز أن تكون أن مفسّرة ولا ناهية وتطغوا مجزوم بلا فإن قيل إن من شرط المفسّرة أن تكون مسبوقة بجملة فيها معنى القول دون حروفه قلنا : إن وضع الميزان يستدعي كلاما من الأمر بالعدل فيه (وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ

وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ) الواو حرف عطف وأقيموا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والوزن مفعول به وبالقسط حال أي افعلوه مستقيما بالعدل والواو حرف عطف ولا ناهية وتخسروا فعل مضارع مجزوم بلا والواو فاعل والميزان مفعول به (وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ)

(464/741)

الواو حرف عطف والأرض مفعول به لفعل محذوف يفسّره المذكور وجملة وضعها مفسّره لا محل له وللأنام متعلقان بوضعها أي وطأها وجعلها مدحوة للخلق (فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ) فيها خبر مقدم وفاكهة مبتدأ مؤخر والنخل عطف على فاكهة وذات الأكمام صفة للنخل والجملة في محل نصب على الحال من الأرض (وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ) عطف على ما تقدم فالثلاثة في قراءة العامة معطوفات على فاكهة وفي قراءة ابن عامر بنصب الثلاثة بفعل محذوف تقديره خلق (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) الفاء الفصيحة وبأي متعلقان بتكذبان وآلاء مضاف إليه وربكما مضاف لآلاء وتكذبان فعل مضارع مرفوع بثبوت النون وألف التثنية فاعل والخطاب للثقلين الإنس والجن وسيصرّح به . هذا وقد تكررت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة وسيأتي السر في تكريرها في باب البلاغة .

البلاغة :

1- التكرير : في قوله " فبأيّ آلاء ربكما تكذبان " تكرير عذب وقد تقدم القول فيه والسر في تكرير الآية عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق اللّه وبدائع صنعه وبعد آيات فيها ذكر النار وشدائدها لأن من جملة الآلاء رفع البلاء وتأخير العقاب والتقرير بالنعم المعدودة والتأكيد في التذكير بها كلها ولأن من علامات العاطفة المحتدمة هذا التكرير ، قالت ليلى الأخيلية ترثي توبة بن الحميّر :

لنعم الفتى يا توب كنت ولم تكن لتسبق يوما كنت فيه تحاول

ونعم الفتى يا توب كنت لخائف أتاك لكي تحمي ونعم المجامل

ونعم الفتى يا توب كنت إذا التقت صدور المعالي واستثال الأسافل

ونعم الفتى يا توب جارا وصاحبا ونعم الفتى يا توب حين تناضل

لعمري لأنت المرء أبكي لفقده ولو لام فيه ناقص الرأي

جاهل لعمري لأنت المرء أبكي لفقده إذا كثرت بالملجمين ال

تلاتل أبى لك ذم الناس يا توب كلما ذكرت أمورا محكمات

كوامل أبى لك ذم الناس يا توب كلما ذكرت سماح حين تأوي الأ

رامل فلا يبعدنك اللّه يا توب إنما كذاك المنايا عاجلات و

آجل فلا يبعدنك اللّه يا توب إنما لقيت حمام الموت والموت عاجل

فخرجت في هذه الأبيات من تكرار إلى تكرار لاختلاف المعاني التي عددتها وأمثال التكرير أكثر من أن تحصى والاستفهام فيها للتقرير .

2-

الحذف :

وفي قوله " علّم القرآن " الحذف فقد حذف المفعول الأول لدلالة المعنى عليه لأن النعمة في التعليم لا في تعليم شخص دون شخص كما يقال فلان يطعم الطعام إشارة إلى كرمه ولا يبيّن من أطعمه .

3- في قوله " والشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان " فن التوهيم وقد تقدمت الإشارة إليه وأنه عبارة عن إتيان المتكلم بكلمة يوهم باقي الكلام قبلها أو بعدها أن المتكلم أراد اشتراك لغتها بأخرى أو أراد تصحيفها أو تحريفها أو اختلاف إعرابها أو اختلاف معناها أو وجها من وجوه الاختلاف والأمر بضد ذلك ، فإن ذكر الشمس والقمر يوهم السامع أن النجم أحد نجوم السماء وإنما المراد النبت الذي لا ساق له ومنه قول أبي تمام :

من كل أبيض يجلو منه سائله خدا أسيلا به خد من الأسل

فإن ذكر الخد الأسيل أي الناعم المشرق يوهم أن المراد بخد من الأسل أي الرماح مثله مع أن المراد الجرح ومنه توهيم التصحيف ومثاله قول أبي الطيب :

وإن الفئام التي حوله لتحسد أرجلها الأرؤس

فإن لفظة الأرجل أوهمت السامع أن المتنبي أراد القيام ومراده الفئام بالفاء الموحدة وهي الجماعات لأن القيام يصدق على أقل الجمع فتفوت المبالغة منه .

(466/741)

4- في قوله " والأرض وضعها للأنام " إلى آخر الآيات التي عدد فيها سبحانه آلاءه دليل على أن التشدد وسلوك الطريق الأصعب الذي يشقّ على المكلف ليسا محمودين لأن الشرع لم يقصد إلى تعذيب النفس ، وقد روي عن الربيع بن زياد الحارثي أنه قال لعلي بن أبي طالب رضي اللّه عنه : أعدني على أخي عاصم قال : فما باله ؟ قال لبس العباءة يريد النسك فقال علي رضي اللّه عنه : عليّ به فأتي به مؤتزرا بعباءة مرتديا لأخرى شعث الرأس واللحية فعبس في وجهه وقال :

ويحك أما استحييت من أهلك ؟ أما رحمت ولدك ؟ أترى اللّه أباح لك الطيبات وهو يكره

أن تنال منها شيئا ؟ بل أنت أهون على اللّه من ذلك ، أما سمعت اللّه يقول في كتابه : " والأرض وضعها للأنام " إلى قوله " يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان " أفترى اللّه أباح هذه لعباده إلا ليبتذلوه ويحمدوا اللّه عليه فيثيبهم عليه وإن ابتذالك نعم اللّه بالفعل خير منه بالقول ، قال عاصم فما بالك في خشونة مأكلك وخشونة ملبسك ؟ قال ويحك إن اللّه فرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بصفة الناس .

هذا وقد كان النبي صلى اللّه عليه وسلم يأكل الطيب إذا وجده وكان يحبّ الحلواء والعسل ويعجبه لحم الذراع ويستعذب له الماء فأين التشديد من هذا وإذن فالاقتصار على البشع في المأكول من غير عذر تنطّع .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 14 إلى 30]

خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ (15) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (16) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (18)

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ (19) بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ (20) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (21) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ (22) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (23)

وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (24) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (25) كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ (26) وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ (27) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (28)

يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (30)

اللغة :

(صَلْصالٍ) الصلصال : الطين اليابس له صلصلة أي صوت إذا نقر .

(الفخار) الطين المطبوخ بالنار وهو الخزف .

(الْجَانَّ) أبو الجن وأل فيه للجنس .

(مارِجٍ) المارج : اللهب الصافي الذي لا دخان فيه وقيل هو المختلط بسواد النار من مرج الشيء إذا اضطرب واختلط .

(مَرَجَ) خلط ومعنى مرج البحرين خلط البحرين العذب والملح

في مرأى العين ومع ذلك لا يتجاوز أحدهما على الآخر ، وأصل المرج الإهمال كما تمرج الدابة في المرعى ، وفي المصباح : " المرج أرض ذات نبات ومرعى والجمع مروج مثل فلس وفلوس ومرجت الدابة تمرج مرجا من باب قتل رعت في المرج ومرجتها مرجا أرسلتها

ترعى في المرج يتعدى ولا يتعدى " .

(بَرْزَخٌ) البرزخ الحاجز بين الشيئين وجمعه برازخ.

(اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ) الدرّ والمرجان : هذا الخرز الأحمر ، وقال القاضي أبو يعلى : " أنه ضرب من اللؤلؤ كالقضبان والمرجان اسم أعجمي معرب " وقال ابن دريد : " لم أسمع فيه نقل متصرف " وقال الأعشى :

من كل مرجانة في البحر أحرزها تيارها ووقاها طينها الصدف

وقيل عروق حمر تطلع من البحر كأصابع الكف .

(الجواري) السفن وهي جمع جارية قال الترمذي " فالفلك أولا ثم السفينة ثم الجارية سمّيت بذلك لأنها تجري في الماء " .

(كَالْأَعْلامِ) الأعلام : جمع علم وهو الجبل قالت الخنساء :

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

الإعراب :

)

خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ) كلام مستأنف مسوق للتوبيخ على إخلالهم بواجب شكر المنعم على إنعامه ، وخلق فعل ماض وفاعله مستتر يعود على اللّه تعالى والإنسان مفعول به ومن صلصال متعلقان بخلق وكالفخار صفة لصلصال (وَخَلَقَ الْجانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ)

(469/741)

عطف على ما تقدم ومن مارج متعلقان بخلق ومن لابتداء الغاية ومن نار صفة لمارج ومن للبيان أو للتبعيض (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) رب المشرقين خبر لمبتدأ محذوف أي هو رب المشرقين ورب المغربين عطف عليه والمراد مشرق الصيف ومشرق الشتاء ومغرب الصيف ومغرب الشتاء وقيل المراد بالمشرقين مشرق الشمس والقمر وبالمغربين مغرب الشمس والقمر ، بيّن سبحانه قدرته على تصريف الشمس والقمر ومن قدر على ذلك قدر على كل شيء وقيل هو مبتدأ خبره جملة مرج البحرين والأول أولى (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ) مرج البحرين فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به وجملة يلتقيان في محل نصب على الحال وهي قريبة من الحال المقدّرة ويجوز أن تكون مقارنة (بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ) الظرف

متعلق بمحذوف خبر مقدم وبرزخ مبتدأ مؤخر ولا نافية ويبغيان فعل مضارع مرفوع والجملة صفة لبرزخ والجملة كلها مستأنفة أو حال من الضمير في يلتقيان ومعنى لا يبغيان لا يتجاوز كلّ منهما حدوده فالعذب منفرد بعذوبته والملح منفرد بملوحته (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ) الجملة مستأنفة أو حال ثانية من الضمير في يلتقيان ومنهما متعلقان بيخرج واللؤلؤ فاعل يخرج والمرجان عطف على اللؤلؤ (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها (وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ) الواو استئنافية وله خبر مقدم والجوار مبتدأ مؤخر وحذفت الياء في الرسم لأنها من ياءات الزوائد والمنشآت نعت للجوار وفي البحر متعلقان بالمنشئات وكالأعلام حال من الجوار أو من الضمير في المنشآت والمعنى واحد (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما

(470/741)

تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها (كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ) كل مبتدأ ومن اسم موصول في محل جر بالإضافة لكل وعليها متعلقان بمحذوف لا محل له لأنه صلة الموصول وفان خبر كل وحذفت الياء لالتقاء الساكنين (وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ) الواو عاطفة ويبقى فعل مضارع مرفوع ووجه ربك فاعله وذو الجلال صفة لوجه والإكرام عطف على الجلال

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) تقدم إعرابه (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) كلام مستأنف للشروع في تعدّد آلاء أخرى من آلائه سبحانه ولك أن تجعل الجملة حالا من وجه والعامل فيه يبقى أي يبقى حال كونه مسئولا من أهل السموات والأرض .

ويسأله فعل مضارع ومفعوله المقدّم السؤال محذوف فأهل السموات يسألونه المغفرة وأهل الأرض يسألونه المغفرة والرزق ، وكل يوم ظرف متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر هو وهو مبتدأ وفي شأن خبر (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) تقدم إعرابها .

البلاغة :

1- في قوله " يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان " فن الاتساع وقد تقدم القول فيه مفصلا ، فقد أسند الخروج إلى اللؤلؤ والمرجان لأنه إذا أخرج ذلك فقد خرج وقال يخرج منهما ولم يقل من أحدهما لأنهما لما التقيا وصارا كالشيء الواحد ساغ أن يقول منهما وقد تقدم القول في مثله وهو قوله " لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " وإنما أريد إحدى القريتين وكما تقول فلان من أهل ديار الشام وإنما بلده واحد منها .

2- وفي قوله " وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام " تشبيه مرسل فقد شبّه السفن وهي تمخر عباب البحر رائحة جائية بالجبال ، وقد استهوى هذا التشبيه الشعراء فاقتبسوه قال ابن الرومي :

أين فلك فيها وفلك إليها منشآت في البحر كالأعلام

3- وفي قوله "كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام" فن طريف وهو فن الافتنان ، وحدّه أن يفتن المتكلم فيأتي في كلامه بفنين إما متضادين أو مختلفين أو متفقين ، وقد جمع سبحانه بين التعزية والفخر إذ عزى جميع المخلوقات وتمدح بالانفراد بالبقاء بعد فناء الموجودات مع وصفه ذاته بعد انفراده بالبقاء بالجلال والإكرام ، ومن أمثلته في الشعر الجمع بين الغزل والحماسة ، والغزل لين ورقّة والحماسة شدّة وقوة ، كقول أبي دلف أو عبد اللّه بن طاهر على اختلاف بين المؤرخين :

أحبك يا ظلوم وأنت عندي مكان الروح من جسد الجبان

ولو أني أقول مكان روحي خشيت عليك بادرة الطعان

فقد جمع بين الغزل والحماسة بأرشق عبارة وأبلغ إشارة ، وقد بلغ عنترة فيه الذروة حين قال :

إن تغدفي دوني القناع فإنني طب بأخذ الفارس المستلئم

فقد وصف عبلة بستر وجهها دونه بالقناع حتى صار ما بين بصره ووجهها كالليل المغدف الذي يحول بين الأبصار والمبصرات ، ثم قال :

إنني طب بأخذ الفارس المستلئم ، أي إن تتبرقعي دوني فإني خبير لدريتي بالحرب بأخذ الفارس الذي سترته لأمته وحالت دوني ودون مقابلته ، فأبرز الجدّ في صورة الهزل وجاء في بيته مع الافتنان التندير الطريف ، والتعبير عن المعنى باللفظ الشريف .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 31 إلى 45]

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ (31) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (32) يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ (33) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (34) يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَنُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ (35)

(472/741)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (36) فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ (37) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (38) فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جانٌّ (39) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (40)

يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ (41) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (42) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (44)

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (45)

اللغة :

(سَنَفْرُغُ) قال الزجّاج : " إن الفراغ في اللغة على ضربين أحدهما الفراغ من الشغل والآخر القصد للشيء والإقبال عليه كما هنا وهو تهديد ووعيد ، تقول قد فرغت مما كنت فيه أي قد زال شغلي به وتقول سأفرغ لفلان أي سأجعله قصدي فهو على سبيل التمثيل ، شبّه تدبيره تعالى أمر الآخرة من الأخذ في الجزاء وإيصال الثواب والعقاب إلى المكلفين بعد تدبيره تعالى لأمر الدنيا بالأمر والنهي والإماتة والإحياء والمنع والإعطاء ، وأنه لا يشغله شأن عن شأن بحال من إذا كان في شغل يشغله عن شغل آخر إذا فرغ من ذلك الشغل شرع في آخر "

.

وقال الزمخشري : " مستعار من قول الرجل لمن يتهدده : سأفرغ لك يريد سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلني عنك حتى لا يكون لي شغل سواه والمراد التوفر على النكاية فيه والانتقام منه ، ويجوز أن يراد ستنتهي الدنيا وتبلغ آخرها وتنتهي عند ذلك شئون الخلق التي أرادها بقوله : كل يوم هو في شأن فلا يبقى إلا شأن واحد وهو جزاؤكم فجعل ذلك فراغا على طريق المثل " .

ويتلخص مما تقدم أن الفراغ من صفات الأجسام التي تحلّها الأعراض وتشغلها عن الأضداد

في تلك الحال ولذلك وجب أن يكون في صفة القديم تعالى مجازا .

)

(473/741)

الثَّقَلانِ) أصله من الثقل وكل شيء له وزن وقدر فهو ثقل ومنه قيل لبيض النعامة ثقل قال :

فتذكرا ثقلا رتيدا بعد ما ألقت ذكاء يمينها في كافر

وإنما سمّيت الإنس والجن ثقلين لعظم خطرهما وجلالة شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من الحيوانات ولثقل وزنهما بالعقل والتمييز ومنه قول النبي صلى اللّه عليه وسلم : " إني تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه وعترتي " سمّاهما ثقلين لعظم خطرهما وجلالة قدرهما ، وقيل إن الجن والإنس سمّيا ثقلين لثقلهما على الأرض إحياء ، ومنه قوله تعالى :

" وأخرجت الأرض أثقالها " أي أخرجت ما فيها من الموتى ، والعرب تجعل السيد الشجاع ثقلا على الأرض ، قالت الخنساء :

أبعد ابن عمرو من آل الشريد حلّت به الأرض أثقالها

والمعنى أنه لما مات حلّ عنها ثقل بموته لسؤدده ومجده ، وقيل إن المعنى : زينت موتاها من التحلية .

(أَقْطارِ) الأقطار جمع القطر وهو الناحية يقال طعنه فقطره إذا ألقاه على أحد قطريه وهما جانباه .

(بِسُلْطانٍ) بقوة وقهر وغلبة .

(شُواظٌ) الشواظ بضم الشين وكسرها ، قال أبو عبيدة : هو اللهب لا دخان فيه ، وقال رؤبة :

إنّ لهم من حربنا إيقاظا ونار حرب تسعر الشواظا

(وَنُحاسٌ) النحاس : الدخان وأنشد للنابغة الجعدي :

تضيء كضوء سراج السلي ط لم يجعل اللّه فيه نحاسا

وقيل الصفر المذاب يصبّ على رؤوسهم .

(كَالدِّهانِ) في الدهان قولان أحدهما أنه جمع دهن نحو قرط وقراط ورمح ورماح وهو في معنى قوله : يوم تكون السماء كالمهل وهو دردي الزيت والثاني أنه اسم مفرد ، وقال الزمخشري : " اسم لما يدهن به كالجزام والإدام " وقيل هو الأديم الأحمر .

(بِسِيماهُمْ) السيما مشتق من السوم وهو رفع الثمن عن مقداره والعلامة ترفع باظهارها لتقع المعرفة بها .

(بِالنَّواصِي) جمع ناصية وهي شعر مقدّم الرأس وأصله الاتصال فالناصية متصلة بالرأس .

(حَمِيمٍ) : ماء حار .

)

(474/741)

آنٍ) شديد الحرارة وفعله أنّى يأني أنيا .

الإعراب :

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ) كلام مستأنف مسوق للتهديد والوعيد ، والسين حرف استقبال ونفرغ فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره نحن ولكم متعلقان بنفرغ وأيه الثقلان منادى نكرة مقصودة حذف منه حرف النداء والثقلان بدل من أيه (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها (يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا) يا حرف نداء ومعشر الجن منادى مضاف والإنس عطف على الجن وإن شرطية واستطعتم فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وأن حرف مصدري ونصب وتنفذوا فعل مضارع منصوب بأن وأن وما في حيزها في موضع نصب مفعول استطعتم ومن أقطار السموات والأرض متعلقان بتنفذوا ، فانفذوا : الفاء رابطة لجواب الشرط لأن الجواب طلب وانفذوا فعل أمر والواو فاعل والمراد بالأمر هنا التعجيز (لا تَنْفُذُونَ إِلَّا

بِسُلْطانٍ) لا نافية وتنفذون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل وإلا أداة حصر وبسلطان متعلقان بتنفذون (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها (يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَنُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ) الجملة مستأنفة ويرسل فعل مضارع مبني للمجهول وعليكما متعلقان بيرسل وشواظ نائب فاعل ومن نار نعت لشواظ ونحاس عطف على شواظ وقرئ بالجر عطفا على نار وعبارة القرطبي : " وقرأ ابن كثير وابن محيصن ومجاهد وأبو عمرو : ونحاس بالخفض عطفا على النار ، قال المهدوي : من قال : إن الشواظ النار والدخان جميعا فالجر في نحاس هذا تبيين ، فأما الجر على قول من جعل الشواظ اللهب الذي لا دخان فيه فبعيد لا يسوغ إلا على تقدير حذف موصوف فكأنه قال يرسل عليكما شواظ من نار وشيء من نحاس فشيء معطوف على شواظ ومن نحاس جار ومجرور صفة

لشيء وحذفت من لتقدّم ذكرها في من نار

فيكون نحاس على هذا مجرورا بمن المحذوفة " والفاء عاطفة ولا نافية وتنتصران فعل مضارع مرفوع والألف فاعل أي فلا تمتنعان من ذلك ولا تجدان منجاة منه (فَبِأَيِّ آلاءِ

رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها (فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ) الفاء استئنافية وإذا انشقت السماء ظرف لما يستقبل من الزمن وفعل وفاعل والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها ، فكانت عطف على انشقّت واسم كانت مستتر يعود على السماء ووردة خبرها وكالدهان نعت لوردة أو خبر ثان لكانت أو حال من اسم كانت وسيأتي مزيد بحث عن هذا التشبيه في باب البلاغة (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها (فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ) الفاء رابطة لجواب إذا وقيل جواب إذا محذوف أي فإذا انشقّت السماء رأيت أمرا عظيما ، والفاء عاطفة عليه ولا داعي لهذا التكلّف ، ويومئذ ظرف متعلق بيسأل وإذ ظرف مضاف إلى مثله والتنوين فيه عوض عن جملة أي فيوم إذا انشقت السماء ولا نافية ويسأل فعل مضارع مبني للمجهول وعن ذنبه متعلقان بيسأل وإنس نائب فاعل ولا جان عطف على إنس ، والجان والإنس كلّ منهما اسم جنس يفرّق بينه وبين واحده بالياء كزنج وزنجي (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ) يعرف فعل مضارع مبني للمجهول والمجرمون نائب فاعل وبسيماهم متعلقان بيعرف والفاء عاطفة ويؤخذ فعل مضارع مبني للمجهول وبالنواصي هو نائب الفاعل ويؤخذ متعدّ ومع ذلك تعدّى بالباء لأن ضمن معنى يسحب كما قال أبو حيان ، ويسحب إنما يتعدى بعلى ، قال تعالى : يوم

يسحبون في النار على وجوههم ، فالأولى أن يقال ضمن معنى يدفع أي يدفعون والمعنى تأخذ

(476/741)

الملائكة بنواصيهم أي بشعورهم من مقدم رءوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في النار ، وقال الضحاك : " يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره " وعنه يؤخذ برجلي الرجل فيجمع بينهما وبين

ناصيته حتى يندقّ ظهره ثم يلقى في النار (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها (هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ) هذه مبتدأ وجهنم خبر والتي صفة وجملة يكذب بها المجرمون صلة لا محل لها (يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ) الجملة حال من المجرمين أو مستأنفة ويطوفون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل والظرف متعلق بيطوفون وبين عطف على الظرف الأول وآن نعت لحميم وهو منقوص فالكسرة مقدّرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم

إعرابها .

البلاغة :

في قوله " فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان " تشبيه تمثيلي ، أراد بالوردة الغرس ، والوردة تكون في الربيع أميل إلى الصفرة فإذا اشتد البرد كانت وردة حمراء فإذا كان بعد ذلك كانت وردة أميل إلى الغبراء فشبّه تلوّن السماء حال انشقاقها بالوردة وشبّهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه .

فالتشبيه تمثيلي كما ترى مركب من قسمين أو صورتين متعاقبتين صورة السماء منشقة وصورة الوردة ثم صورة الدهان والصورتان الأخيرتان لتوضيع وجه الشبه وهو أحوال تلونها فهي في الربيع صفراء وفي الشتاء حمراء ثم غبراء داكنة عند الذبول وهذا التلوّن التدريجي من اللون الناصع إلى اللون الداكن يشبه أيضا لون الدهن وقد عملت فيه النار فاشتعل بلون أصفر ثم بدت ألسنته محمرّة إذ آذن بالانطفاء ثم يتحوّل إلى رماد داكن .

وقال الملحدون : ما وجه الشبه في " فكانت وردة كالدّهان " وتكرير " فبأي آلاء ربكما تكذبان " بعد ذكر العذاب مثل يرسل عليكما

(477/741)

شواظ من نار ونحاس وإنما حقّ ذلك أن يذكر بعد تعديد النعم ، والجواب عن الأول أنه قيل : معناه أن السماء تتلوّن من الفزع الأكبر كما تتلوّن الدهان المختلفة وأن الدهان جمع دهن

فهو كقوله تعالى :

يوم تكون السماء كالمهل فيمن قال : المهل الزيت المغلي وقيل الدهان الجلد الأحمر ، وأما الجواب عن الثاني فإن من أنذرك وخوفك من عاقبة ما تصير إليه فقد أنعم عليك ، ألا تراه سبحانه قد قال : وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ، وقد علمنا أنه بعث بشيرا لمن آمن ونذيرا لمن كفر فجعل الإنذار رحمة كما جعل التبشير وكذا كل من عليها فان ، فإذا انشقّت السماء ، فيه إنعام على الخلق حيث أعلمهم بما كانوا يجهلونه وحذّرهم بما يصيرون إليه وقد جعل سبحانه التحذير رأفة بقوله :

ويحذركم اللّه نفسه واللّه رءوف بالعباد .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 46 إلى 61]

وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ (46) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (47) ذَواتا أَفْنانٍ (48) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (49) فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ (50)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (51) فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ (52) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (53) مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ (54) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (55)

فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جانٌّ (56) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (57) كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ (58) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (59) هَلْ جَزاءُ

الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ (60)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (61)

اللغة :

)

(478/741)

أَفْنانٍ) أغصان جمع فنن أو هي الأغصان الدقيقة التي تتفرع من فروع الشجر ، وخصّت بالذكر لأنها تورق وتثمر وتمدّ الظل .

(إِسْتَبْرَقٍ) ديباج غليظ والبطان جمع بطانة وهو باطن الظهارة وقيل إن الظهار من سندس وهو مارق من الديباج .

(جَنَى) الجنى : الثمرة التي قد أدركت على الشجرة .

(دانٍ) قريب يناله القائم والقاعد والنائم .

(قاصِراتُ الطَّرْفِ) المقصورة المحبوسة ويقال قصيرة وقصورة أي مخدّرة قال كثير :

وأنت التي حبّبت كل قصيرة إليّ ولم تشعر بذاك القصائر

عنيت قصيرات الحجال ولم أرد قصار الخطا شر النساء البحاتر

وقال امرؤ القيس :

من القاصرات الطرف لو دبّ محول من الذر فوق الأتب منها لأثرا

والطرف أصله مصدر فلذلك وحّد ، والظاهر أنهنّ اللواتي يقصرن أعينهنّ على أزواجهنّ فلا ينظرن إلى غيرهم وقيل الطرف طرف غيرهنّ أي قصرن عيني من ينظر إليهنّ عن النظر إلى غيرهنّ .

(لَمْ يَطْمِثْهُنَّ) لم يفتضهن وهنّ من الحور أو من نساء الدنيا

المنشآت وفي المصباح : " طمث الرجل امرأته طمثا من بابي ضرب وقتل افتضّها وافترعها ولا يكون الطمث نكاحا إلا بالتدمية وعليه قوله تعالى : لم يطمثهنّ " .

(الْيَاقُوتُ) جوهر نفيس أحمر اللون يقال أن النار لا تؤثر فيه قال :

ألقني في لظى فإن غيّرتني فتيقن أن لست بالياقوت

ومن خواصّه أنه يقطع جميع الحجارة إلا الماس فإنه يقطعه لصلابته وقلّة مائة وشدة الشعاع والثقل والصبر على النار ، قال بعضهم في مليح اسمه ياقوت :

ياقوت ياقوت قلب المستهام به من المروءة أن لا يمنع القوت

سكنت قلبي وما تخشى تلهبه وكيف يخشى لهيب النار ياقوت

والمرجان صغار اللؤلؤ وهو أشدّ بياضا ويطلق على الآخر أيضا وسيأتي المزيد من سرّ هذا التشبيه في باب البلاغة .

الإعراب :

)

(479/741)

وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ) الواو عاطفة ولمن خبر مقدم وجملة خاف صلة من ومقام ربه مفعول به وهو يحتمل أن يكون اسم مكان وأن يكون مصدرا ميميا وعندئذ يحتمل معنيين الأول أنه بمعنى قيام اللّه عزّ وجلّ على الخلائق والثاني أنه بمعنى قيام الخلائق بين يديه تعالى وجنتان مبتدأ مؤخر والمراد جنة واحدة وإنما ثنّى مراعاة للفواصل ، وعبارة الزمخشري " فإن قلت لم قال جنتان قلت : الخطاب للثقلين فكأنه قيل لكل خائفين منكما جنتان جنة للخائف الإنسي وجنة للخائف الجنّي ويجوز أن يقال جنة لفعل الطاعات وجنة لترك المعاصي " (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدّم إعرابها (ذَواتا أَفْنانٍ) ذواتا صفة لجنتان وأفنان

مضاف إليه وخصّ الأفنان بالذكر لأنها هي التي تمرع وتورق ومنها تمتد الظلال وتجنى الثمار وقيل الأفنان أنواع النعيم وألوانه مما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين قال :

ومن كل أفنان اللذاذة والصبا لهوت به والعيش أخضر ناضر

و ذات مؤنث ذو التي بمعنى صاحب ، ولا تكون إلا مضافة (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدّم إعرابها (فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ) فيهما خبر مقدّم وعينان مبتدأ مؤخر وجملة تجريان نعت عينان أي في الأعالي والأسافل ، والأقوال كثيرة في العينين ولعلّ ما أوردناه أقرب إلى المنطق (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها (فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ) فيهما خبر مقدّم ومن كل فاكهة حال لأنه كان في الأصل صفة لزوجان وتقدم وزوجان مبتدأ مؤخر أي صنفان وكلاهما مستلذ معذوذب (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها (مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ) متكئين منصوب على المدح بفعل محذوف أو حال من قوله ولمن خاف لأن من فيها معنى الجمع وقيل العامل محذوف أي يتنعمون متكئين وعلى فرش متعلقان بمتكئين وبطائنها مبتدأ ومن إستبرق خبر والجملة صفة لفرش والواو حالية أو عاطفة وجنى مبتدأ والجنتين مضاف إليه ودان خبر وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها (فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جانٌّ) فيهنّ خبر مقدّم والضمير يعود على الجنتين وما اشتملتا عليه من قصور ومقاصير أو على الجنات المدلول عليها بقوله "

ولمن خاف مقام ربه جنتان " وإذا كان لكل فرد من الخائفين جنتان فصحّ أنها جنات كثيرة ، وقاصرات الطرف مبتدأ مؤخر ولم حرف نفي وقلب وجزم ويطمثهنّ فعل مضارع مجزوم بلم والجملة صفة لقاصرات الطرف لأن الإضافة لفظية فلا تتعرف ويجوز أن تكون

(481/741)

حالية لأن النكرة قد تخصصت بالإضافة وإنس فاعل وقبلهم ظرف زمان متعلق بيطمثهنّ ، ولا جان عطف على إنس (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدّم إعرابها (كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ) الجملة نعت لقاصرات الطرف أو حال منها وكأن واسمها والياقوت خبرها والمرجان عطف على الياقوت (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها (هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ) هل حرف استفهام معناه الجحد والنفي وجزاء مبتدأ والإحسان مضاف إليه وإلا أداة حصر والإحسان خبر جزاء (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها .

البلاغة :

1- في قوله " فيهنّ قاصرات الطرف " فن الإرداف وقد تقدم أنه أن يريد المتكلم معنى فلا يعبّر عنه بلفظه الموضوع له بل بلفظ هو ردف المعنى الخاص وتابعه قريب من لفظ المعنى

الخاص قرب الرديف من الردف ، والمعنى في الآية- كما قلنا - فيهنّ عفيفات قد قصرت عفّتهنّ طرفهن على بعولتهنّ ، وعدل عن المعنى الخاص إلى لفظ الإرداف لأن كلّ من عفّ غضّ الطرف عن الطموح ، فقد يمتد نظر الإنسان إلى شيء وتشتهيه نفسه ويعفّ عنه مع القدرة عليه لأمر آخر ، وقصر طرف المرأة على بعلها أو قصر طرفها حياء وخفرا أو قصر عيني من ينظر إليهنّ عن النظر إلى غيرهنّ أمر زائد على العفّة لأن من لا يطمح طرفها لغير بعلها أو لا يطمح حياء وخفرا فإنها ضرورة تكون عفيفة ، فكل قاصرة الطرف عفيفة وليست كل عفيفة قاصرة الطرف فلذلك عدل عن اللفظ الخاص إلى لفظ الإرداف .

2- في قوله "كأنهنّ الياقوت والمرجان " تشبيه مرسل مجمل لوجود الأداة ، أما وجه الشبه فهو الصفاء ، وعن ابن مسعود رضي اللّه

(482/741)

عنه أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلّة حتى يرى مخها وذلك بأن اللّه عزّ وجلّ يقول : كأنهنّ الياقوت والمرجان فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لأريته من ورائه .

وعن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم في قوله : كأنهنّ

الياقوت والمرجان قال : ينظر إلى وجهه في خدّها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب وإنه ليكون عليها سبعون حلّة ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك . وسيأتي مزيد من وصف نساء الجنة في سورة الواقعة .

الفوائد :

(هَلْ) ترد في الكلام على أربعة أوجه :

1- تكون بمعنى " قد " كقوله : " هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا " .

2- وبمعنى الاستفهام كقوله : " فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا " .

3- وبمعنى الأمر كقوله : " فهل أنتم منتهون " .

4- وبمعنى الجحد كقوله : " هل جزاء الإحسان إلا الإحسان " .

[سورة الرحمن (55) : الآيات 62 إلى 78]

وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ (62) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (63) مُدْهامَّتانِ (64) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (65) فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ (66)
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (67) فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (68) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (69) فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ (70) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (71)
حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ (72) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (73) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ

وَلا جَانٌّ (74) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (75) مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ (76)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (77) تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ (78)

(483/741)

اللغة :

(مُدْهامَّتانِ) في المختار : " دهمهم الأمر غشيهم وبابه فهم وكذا دهمتهم الخيل ، ودهمهم بفتح الهاء لغة والدهمة السواد يقال فرس أدهم وبعير أدهم وناقة دهماء وإدهام ادهيما ما أي اسودّ قال اللّه تعالى :

مدهامتان أي سوداوان من شدّة الخضرة من الري والعرب تقول لكل شيء أخضر أسود وسمّيت قرى العراق سوادا لكثرة خضرتها ، والشاة الدهماء الحمراء الخالصة الحمرة ويقال للقيد أدهم " وفي القاموس :

" وحديقة دهماء ومدهامة خضراء تضرب إلى السواد نعمة وربا ومنه مدهامتان " .

ضَّاخَتانِ)

: فوارتان بالماء لا تنقطعان والنضخ أكثر من النضح لأن النضح بالحاء المهملة الرش وبالخاء

المعجمة كالبزل والنضاخة الفوارة التي ترمي بالماء صعدا .

(مَقْصُوراتٌ) قصرن في خدورهنّ ، يقال امرأة قصيرة وقصورة ومقصورة أي مخدّرة .

(الْخِيامِ) في القاموس : " الخيمة أكمة فوق أبانين ، وكل بيت مستدير أو ثلاثة أعواد أو أربعة يلقى عليها الثمام ويستظل بها في الحر أو كل بيت يبنى من عيدان الشجر والجمع خيمات وخيام وخيم وخيم بالفتح وكعنب ، وأخامها وأخيمها : بناها ، وخيّموا دخلوا فيها وبالمكان أقاموا والشيء غطاه بشيء كي يعبق وخام عنه يخيم خيما وخيمانا وخيوما وخيومة وخيمومة وخياما نكص وجبن ، وكاد كيدا فرجع عليه " وفي القرطبي " وقال عمر رضي اللّه عنه : الخيمة درّة مجوفة " .

(رَفْرَفٍ) جمع رفرفة أي بسط أو وسائد فهو اسم جمع أو اسم جنس جمعي وفي القاموس : " والرفرف ثياب خضر تتخذ منها المحابس وتبسط ، وكسر الخباء وجوانب الدرع وما تدلى منها وما تهدّل من أغصان الأيكة ، وفضول المحابس والفرش وكل ما فضل فثني ، والفراش ، وسمك بحري وشجر ينبت باليمن والروشن والوسادة والبظر والشجر الناعم المسترسل والرياض والبسط وخرقة تخاط في أسفل السرادق والفسطاط والرقيق من ثياب الديباج " .

(عَبْقَرِيٍّ) منسوب إلى عبقر وتزعم العرب أنه اسم لبلد الجن فينسبون إليه كل شيء عجيب ، قال في القاموس : " عبقر موضع كثير الجن وقرية بناؤها في غاية الحسن " والعبقري الكامل من كل شيء وقال الخليل : " النفيس من الرجال وغيرهم " وقال قطرب : " ليس هو من المنسوب بل هو بمنزلة كرسي وبختي " .

الإعراب :

(وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ) من دونهما خبر مقدم وجنتان مبتدأ مؤخر أي من دون تينك الجنتين المتقدمين جنتان في المنزلة وحسن المنظر وهذا على رأي من جعل الأولتين أفضل من الآخرتين وقيل بالعكس ورجحه

الزمخشري وقال الكسائي : " ومن دونهما أي أمامهما وقبلهما " فلا فاضل ثم ولا مفضول (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها (مُدْهامَّتانِ) نعت جنتان (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ)

الجملة نعت ثان لجنتان وفيهما خبر مقدّم وعينان مبتدأ مؤخر ونضاختان نعت عينان (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها (فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) فيها خبر مقدّم وفاكهة مبتدأ مؤخر ونخل عطف على فاكهة ورمان عطف على نخل ، وسيأتي معنى التخصيص في باب البلاغة (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها (فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ) فيهنّ خبر مقدم وخيرات مبتدأ مؤخر وحسان صفة (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها . (حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ) حور بدل من خيرات لأن خيرات فيه وجهان أحدهما أنه جمع خيرة بوزن فعلة بسكون العين يقال امرأة خيرة وأخرى شرّة والثاني أنه جمع خيرة المخفّف من خيرة بالتشديد ويدل على ذلك قراءة خيرات بتشديد الياء ويجوز لك أن تعرب حورا خبرا لمبتدأ مضمر أي هنّ حور أو مبتدأ حذف خبره أي فهنّ حور ومقصورات نعت لحور وفي الخيام متعلقان بمقصورات (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها من قبل (مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ) حال حذف عامله أي يتنعمون أو نصب على المدح واقتصر عليه الزمخشري ، وهو عائد على من خاف مقام ربه ، وعلى رفرف متعلقان بمتكئين وخضر نعت وعبقري عطف على رفرف وحسان نعت لرفرف خضر وعبقري (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) تقدم إعرابها (تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ) تبارك فعل ماض واسم ربك فاعله وذي صفة لرب والجلال مضاف إليه والإكرام عطف

على الجلال وقيل أن اسم صلة لمعنى تبارك ربك قال لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

البلاغة :

(486/741)

في قوله " فيهما فاكهة ونخل ورمان " فإنما فصلهما بالواو لتخصيصها بالمزايا والفضل ، وعبارة الزمخشري " فإن قلت : لم عطف النخل والرمان على الفاكهة وهما منها ؟ قلت اختصاصا لهما وبيانا لفضلهما فإنهما كأنهما من المزية جنسان آخران كقوله تعالى : وجبريل وميكائيل أو لأن النخل ثمرة فاكهة وطعام والرمان فاكهة ودواء فلم يخلصا للتفكه ومنه قال أبو حنيفة رحمة اللّه إذا حلف لا يأكل فاكهة فأكل رمانا أو رطبا لم يحنث وخالفه صاحباه " وحكى الزجّاج عن يونس النحوي وهو من قدماء النحويين أن النخل والرمان من أفضل الفواكه وإنما فصلا بالواو لفضلهما ، وقال الأزهري : ما علمت أن أحدا من العرب قال في النخل والرمان وثمارها أنها ليست من الفاكهة وإنما قال ذلك من قال لقلة علمه بكلام العرب وتأويل القرآن العربي المبين والعرب تذكر الأشياء جملة ثم تخصّ شيئا منها بالتسمية تنبيها على فضل فيه . وعبارة الكرخي : وهما من الفاكهة وبه قال الشافعي

رضي اللّه عنه وأكثر العلماء فيحنث بأكل أحدهما من حلف لا يأكل فاكهة وحينئذ فعطفهما عليها من عطف الخاص على العام تفصيلا وقيل إنهما ليسا من الفاكهة وعليه أبو حنيفة حيث قال : من حلف لا يأكل فاكهة لم يحنث بأكل النخل والرمان " وهل هو من عطف الخاص على العام أم هو عطف ما تضمنه الأول ، والظاهر أن الآية ليست من عطف الخاص على العام لأن النكرة في سياق الإثبات لا تعمّ عموما شموليا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 9 صـ 395. 421 ﴾

(487/741)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والأربعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/742)

الجزء الثانى والأربعون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الواقعة)

(4/742)

(سورة الواقعة)

(5/742)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الواقعة

مقصودها شرح أحوال الأقسام الثلاثة المذكورة في الرحمن للأولياء من السابقين واللاحقين والأعداء المشاققين من المصارحين والمنافقين من الثقلين للدلالة على تمام القدرة بالفعل بالاختيار الذي دل عليه آخر الرحمن بإثبات الكمال ودل عليه آخر هذه بالتنزيه بالنفي لكل شيء به نقص ثم الإثبات بوصف العظمة بجميع الكمال من الجمال والجلال ، ولو استوى الناس لم يكن ذلك من بليغ الحكمة ، فإن استواءهم يكون شبهة لأهل الطبيعة ، واسمها الواقعة دال على ذلك بتأمل آياته وما يتعلق الظرف به

أهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 402 ﴾

(6/742)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . إذا وقعت الواقعة)

السّورة مَكِّيّة بالاتِّفاق .

آياتها تسع وتسعون فى عدّ الحجاز والشام ، وسبع فى البصرة ، وستّ فى الكوفة .

وكلماتها ثلاثمائة وثمان وسبعون .

وحروفها أَلف وسبعمائة وثلاث .

المختلف فيها أَربع عشرة آية : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ ﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ إنشاءً ﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ ﴾ ﴿ وَأَبَارِيقَ ﴾ ﴿ مَّوْضُونَةٍ ﴾ ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ تأْثيما ﴿ وَالآخِرِينَ ﴾ ﴿ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ .

مجموع فواصل آياتها (لا بدّ منه) على الباءِ منها آية واحدة : ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ .

سمّيت بسورة الواقعة ؛ لمفتتحها .

معظم مقصود السورة : ظهور واقعة القيامة ، وأَصناف الخلق بالإِضافة إلى العذاب والعقوبة ، وبيان حال السّابقين بالطاعة ، وبيان حال قوم يكونون متوسّطين بين أَهل الطاعة وأَهل المعصية ، وذكر حال أَصحاب الشِمال ، والغَرْقَى فى بحار الهلاك ، وبرهان البعث من ابتداءِ الخِلْقة ، ودليل الحشر والنشر من الحَرْث والزّرع ، وحديث الماءِ والنّار ، وما فى ضمنهما : من النّعمة والمِنّة ، ومَسّ المصحف ، وقراءَته فى حال الطَّهارة ، وحال المتوفَّى

فى ساعة السّكرة ، وذكر قوم بالبشارة ، وقوم بالخسارة ، والخُطْبة على جلالالحقّ تعالى بالكبرياءِ والعظمة بقوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ .

والسّورة محكمة لا ناسخ فيها ولا منسوخ.

وعن مقاتل أَنَّ ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴾ فى أَوّل السّورة منسوخٌ بثُلَّة من الآخرين الَّذى بعده .

المتشابهات :

قوله : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ أَعاد ذكرها .

(7/742)

وكذلك ﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ ثمّ قال : ﴿ السَّابِقُونَ ﴾ لأَنَّ التقدير عند بعضهم : والسابقون ما السّابقون ، فحذف (ما) لدلالة ما قبله عليه وقيل : تقديره : أَزواجاً ثلاثة فأَصحاب الميمنة وأَصحاب المشأَمة

والسّابقون ثم ذكر عقيب كلّ واحد منهم تعظيماً أَو تهويلاً فقال : ما أَصحاب الميمنة ما أَصحاب المشأَمة ، والسّابقون أَى هم السّابقون .

والكلام فيه يطول .

قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ ﴾ ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ بدأَ بذكْ خَلْق الإِنسان ، ثمّ بما لا غنى له عنه ، وهو الحَبّ الَّذى منه قُوتُه (وقوّته) ثمَّ الماء الَّذى منه سَوْغه وعَجْنه ، ثمّ النَّار التى منها نُضْجه وصلاحه .

وذكر عقيب كلّ واحد ما يأْتى عليه ويفسده ، فقال فى الأُولى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ﴾ وفى الثَّانية ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً ﴾ وفى الثالثة ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً ﴾ ولم يقل فى الرّابعة ما يفسدها ، بل قال : نحن جعلناها تذكرة : يتَّعظون بها [ومتاعا] للمُقْوِين : أَى للمسافرين ينتفعون بها .

فضل السّورة

فيه حديث ابن مسعود : "من قرأَ سورة الواقعة فى كلّ ليلة لم تصبه فاقةٌ أَبداً" وحديث علىّ الضَّعيف : يا علىّ مَنْ قرأَها أَعطاه الله من الثواب مثل ثواب أَيّوب ، وله بكل آية قرأَها مثل ثواب امرأَة أَيّوب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 450 .

452 ﴾

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الواقعة

425 - مسألة :

قوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ) وختمه بقوله تعالى : (فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ) ثم قال (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ)

ثم قال تعالى : أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) وختم

ذلك بقوله تعالى (فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ) :

ثم قال تعالى : (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71)

ما وجه هذا الترتيب في هذه الآيات ؟ .

جوابه :

وجهه : أن الله تعالى أنعم على الإنسان أولا ، بإيجاده ، ثم أنعم

عليه بما يحتاج إليه من طعامه ، ثم مايحتاج إليه من شرابه ، ثم

مايحتاج إليه في إصلاح ذلك وهو النار .

فختم الأول بـ (فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ) أو لأن من تذكر كيف خلق ، ونظر في حكمة خلقه وترتيبه

دلَّه ذلك على قدرة الله تعالى على بعثه بعد موته كما نبه عليه تعالى بقوله تعالى : (عَلَى أَنْ

نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (61) .

وختم الثالثة بقوله تعالى : (فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ) لأن نعمه

تستوجب شكره .

426 - مسألة :

قوله تعالى : (لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا) . وقال تعالى في

الماء : (جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا) .

جوابه :

أن جعل الزرع حطاما إذهاب له بالكلية صورة ومنفعة . وجعل الماء أجاجا لم يذهب به

صورة ، وربما انتفع في غير الشرب . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ

350.348﴾

(9/742)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الواقعة

سميت هذه السورة الواقعة بتسمية النبي (صلى الله عليه وسلم)

روى الترمذي عن ابن عباس قال : قال أبو بكر : (يا رسول الله قد شبتَ ، قال : شيبْتني هودٌ ، والواقعة ، والمرسلات ، وعمَّ يتساءلون ، وإذا الشمس كورت) وقال الترمذي : حديث حسن غريب .

وروى ابن وهب والبيهقي عن عبد الله بن مسعود بسند ضعيف أنه سمع رسول الله يقول : (من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تُصبه فاقة أبداً) ، وكذلك سمّيت في عصر الصحابة .

روى أحمد عن جابر بن سَمرة قال : (كان رسول الله يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور) .

وهكذا سميت في المصاحف وكتب السنة فلا يعرف لها اسم غير هذا .

وهي مكية قال ابن عطية : (بإجماع من يعتدَ به من المفسرين . وقيل فيها آيات مدنية ، أي نزلت في السفر ، وهذا كله غير ثابت) اه . وقال القرطبي : عن قتادة وابن عباس استثناء قوله تعالى : (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ((الواقعة : 82) نزلت بالمدينة .

وقال الكلبي : إلا أربع آيات : اثنتان نزلتا في سفر النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى مكة وهما) أفبهذا الحديث أنتم مدهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ((الواقعة : 81 ، 82) ، واثنتان نزلتا في سفره إلى المدينة وهما) ثُلة من الأولين وثلة من الآخرين ((الواقعة : 39 ، 40) وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنها نزلت في غزوة تبوك .

(10/742)

وهي السورة السادسة والأربعون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد ، نزلت بعد سورة طه وقبل سورة الشعراء .

وقد عدّ أهل المدينة ومكة والشام آيها تسعاً وتسعين وعدها أهل البصرة سبعاً وتسعين وأهل الكوفة ستاً وتسعين .

وهذه السورة جامعة للتذكير قال مسروق : (من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين ونبأ أهل الجنة ونبأ أهل النار ونبأ أهل الدنيا ونبأ أهل الآخرة فليقرأ سورة الواقعة) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ 279.280 ﴾

(11/742)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف بسورة الواقعة

الواقعة . . اسم للسورة وبيان لموضوعها معا . فالقضية الأولى التي تعالجها هذه السورة

المكية هي قضية النشأة الآخرة , ردا على قولة الشاكين فيها , المشركين بالله , المكذبين بالقرآن: أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ . .

ومن ثم تبدأ السورة بوصف القيامة . وصفها بصفتها التي تنهي كل قول , وتقطع كل شك , وتشعر بالجزم في هذا الأمر . . الواقعة . . (إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة) . . وتذكر من أحداث هذا اليوم ما يميزه عن كل يوم , حيث تتبدل أقدار الناس , وأوضاع الأرض , في ظل الهول الذي يبدل الأرض غير الأرض , كما يبدل القيم غير القيم سواء: خافضة رافعة . . إذا رجت الأرض رجا , وبست الجبال بسا , فكانت هباء منبثا . وكنتم أزواجا ثلاثة . . . الخ.

ثم تفصل السورة مصائر هذه الأزواج الثلاثة: السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة . وتصف ما يلقون من نعيم وعذاب وصفا مفصلا أوفى تفصيل , يوقع في الحس أن هذا أمر كائن واقع , لا مجال للشك فيه , وهذه أدق تفصيلاته معروضة للعيان . حتى يرى المكذبون رأي العين مصيرهم ومصير المؤمنين . وحتى يقال عنهم هنالك بعد وصف العذاب الأليم الذي هم فيه: إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون: أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون . . وكأن العذاب هو الحاضر والدنيا هي الماضي الذي يذكر للترذيل والتقبيح . ترذيل حالهم في الدنيا وتقبيح ما كانوا عليه من تكذيب !

وبهذا ينتهي الشوط الأول من السورة . ويبدأ شوط جديد يعالج قضية العقيدة كلها , متوخيا توكيد قضية البعث التي هي موضوع السورة الأول ; بلمسات مؤثرة , يأخذ مادتها وموضوعها مما يقع تحت حس البشر , في حدود المشاهدات التي لا تخلو منها تجربة إنسان , أيا كانت بيئته , ودرجة معرفته وتجربته .

يعرض نشأتهم الأولى من مني يمنى . ويعرض موتهم ونشأة آخرين مثلهم من بعدهم في مجال التدليل على النشأة الأخرى , التي لا تخرج في طبيعتها ويسرها عن النشأة الأولى , التي يعرفونها جميعا .

ويعرض صورة الحرث والزرع , وهو إنشاء للحياة في صورة من صورها . إنشاؤها بيد الله وقدرته . ولو شاء الله لم تنشأ , ولو شاء لم تؤت ثمارها .

ويعرض صورة الماء العذب الذي تنشأ به الحياة كلها . وهو معلق بقدرة الله ينزله من السحائب . ولو شاء جعله ملحا أجاجا , لا ينبت حياة , ولا يصلح لحياة .

وصورة النار التي يوقدون , وأصلها الذي تنشأ منه . . الشجر . . وعند ذكر النار يلمس وجدانهم منذرا . ويذكرهم بنار الآخرة التي يشكون فيها .

وكلها صور من مألوفات حياتهم الواقعة , يلمس بها قلوبهم , ولا يكلفهم فيها إلا اليقظة ليد الله وهي تنشئها وتعمل فيها .

كذلك يتناول هذا الشوط قضية القرآن الذي يحدثهم عن "الواقعة" فيشكون في وعيده . فيلوح بالقسم بمواقع النجوم , ويعظم من أمر هذا القسم لتوكيد أن هذا الكتاب هو قرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون , وأنه تنزيل من رب العالمين .

ثم يواجههم في النهاية بمشهد الاحتضار . في لمسة عميقة مؤثرة . حين تبلغ الروح الحلقوم , ويقف صاحبها على حافة العالم الآخر ; ويقف الجميع مكتوفي الأيدي عاجزين , لا يملكون له شيئا , ولا يدرون ما يجري حوله , ولا ما يجري في كيانه . ويخلص أمره كله لله , قبل أن يفارق هذه الحياة . ويرى هو طريقه المقبل , حين لا يملك أن يقول شيئا عما يرى ولا أن يشير !

ثم تختم السورة بتوكيد الخبر الصادق , وتسبيح الله الخالق : (إن هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم) . . فيلتئم المطلع والختام أكمل التئام . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3461 . 3462 ﴾

(13/742)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الواقعة

مكية وآياتها ست وتسعون آية

بين يدي السورة

* تشتمل هذه السورة الكريمة على أحوال يوم القيامة ، وما يكون بين يدي الساعة من أهوال ، وانقسام الناس إلى ثلاث طوائف (أصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، والسابقون إلى منازل السعداء) .

* وقد تحدثت السورة عن مآل كل فريق ، وما أعده الله تعالى لهم من الجزاء العادل يوم الدين ، كما أقامت الدلائل على وجود الله ووحدانيته ، وكمال قدرته في بديع خلقه وصنعه ، في خلق الإنسان ، وإخراج النبات ، وإنزال الماء ، وما أودعه الله من القوة في النار . . ثم نوهت بذكر القرآن العظيم ، وأنه تنزيل رب العالمين ، وما يلقاه الإنسان عند الاحتضار من شدائد وأهوال .

* وختمت السورة بذكر الطوائف الثلاث وهم أهل السعادة ، وأهل الشقاوة ، والسابقون إلى الخيرات من أهل النعيم ، وبينت عاقبة كل منهم ، فكان ذلك كالتفصيل لما ورد في أول السورة من إجمال ، والإشادة بذكر مآثر المقربين في البدء والختام .

فضلها :

أ- عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : (من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا) .

ب - وأخرج الحافظ ابن عساكر في ترجمة (عبد الله بن مسعود) بسنده عن أبي ظبية قال : " مرض عبد الله بن مسعود مرضه الذي توفي فيه ، فعاده عثمان بن عفان فقال : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي ، قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي ، قال : ألا آمر لك بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني ، قال : ألا آمر لك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لي فيه ، قال : يكون لبناتك من بعدك ، قال : أتخشى على بناتي الفقر ؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، وإني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : " من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا " فكان أبو ظبية لا يدعها " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 304 ﴾

(14/742)

بحث بعنوان :

الوحدة الموضعية في القرآن الكريم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وسلام على النبيّ المصطفى

أما بعد . . . . . .

الدارس للقرآن الكريم يرى

أن السورة القرآنية تمثل وحدة متكاملة في مضمونها

بحيث تعالج الهدف الذي نزلت من أجله علاجا واضحا

وهي مع ذلك

ترتبط بالسورة التي قبلها في ترتيب المصحف ارتباط الجار الكريم بجاره الملاصق له

بحيث لو رفعنا الفاصل بين السورتين

وهو البسملة ---- بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ -----

لوجدنا وحدة بين السورتين كاملة

فضلا عن الارتباط الكبير الذي بين آيات الموضوع الواحد في كل القرآن

فبين آيات السورة انسجام

وبين السورة والسورة المجاورة لها ارتباط

وبين آيات الموضوع الواحد

--- كالجهاد ---والصلاة-----والمواعظ------ تكامل

وقد اخترت سورة الواقعة مثالا لذلك . . . . . .

فهي تأتي بعد سورة الرحمن لأنها تتحد معها في أغراض كثيرة

فسورة الرحمن تتحدث عن الكون . . . . من إنسان وشمس وقمر وأرض .

وسورة الواقعة تتحدث عن نهاية ---- الإنسان والشمس والقمر والأرض -----

وسورة الرحمن تتحدث عن ملامح النهاية والجنة والنار

وهو نفس الهدف الذي تهدف إليه سورة الواقعة

وسورة الرحمن تختم بقوله تعالى

﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ الرحمن 78

فلو رفعنا من القرآن ---- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ -----

لكان المعنى منسجما تمام الانسجام لان الجلال لله تعالى في الدنيا والآخرة

ولكنه أكمل ما يكون الجلال ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ الواقعة 1 لان سلطانه المطلق يومها لا ينكره أحد . .

قال تعالى :----

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ غافر 16

أما انسباك آيات السورة مع بعضها فنجد سورة الواقعة تعالج موضوع البعث والجزاء . . . .

وهي مقسّمة إلى الأقسام الآتية : ----

مقدمة . . . . . وفصول

ثلاثة . . . . . وخاتمة . . . . . .

أما المقدمة :---

فتتحدث عن نهاية العالم وعن التغيير الذي سيحدث للكون . . . .

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ إبراهيم48

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ . خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ . إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً . فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً ﴾

الواقعة 1 – 6

والمقدمة تنتهي عند الآية رقم –6 فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً

ثم يأتي الفصل الأول :-----

وهو يقسم الناس إلى أقسام ثلاثة وهم :---

أصحاب الميمنة

وأصحاب المشأمة

والســــــــابقون

ويذكر جزاء كل قسم وسبب استحقاقهم هذا الجزاء

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ . وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ . وَمَاء مَّسْكُوبٍ . وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ . وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ . إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا . لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ . ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾

الواقعة 27 – 40

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ . لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ . إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ .
وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ . قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ

وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ . ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ . فَمَالِؤُونَ مِنْهَا

الْبُطُونَ . فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ . فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ . هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾

الواقعة 41 – 56

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ . عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ .

مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ . يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ

. لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ .

وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ . وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ .

جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا

لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾

الواقعة 10 – 26

وينتهي هذا الفصل بقوله تعالى :– هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ

الفصل الثاني:––––

يناقش المنكرين للبعث . . .

ويسوق أدلة واضحة على البعث مستخدما عناصر الطبيعة المعلومة لدى الجميع وهي:–

1) الجنين

وكيف أن الله تعالى يكونه في بطن أم بدون تدخل من أحد .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ . أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ . أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ .

نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ .

عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ

﴾

الواقعة 57 – 62

2) الزرع

(17/742)

وكيف أن الله تعالى . . . . . يد القدر الأعلى . . . . . ترعاه فتغذيه وتحافظ عليه

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ . أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ . لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ . إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ

مَحْرُومُونَ ﴾

الواقعة 63 – 67

3)الماء

وكيف أن الله تعالى يسوقه إلى البلد الميت وينزله غيثا

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ . أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ . لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾

الواقعة 68 – 70

4)النار

ومظهر قدرة الله تعالى فيها كبير

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ . أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ . نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ ﴾

الواقعة 71 – 73

ونلاحظ أن رجل الشارع . . . . . .

الموضوع منقول من :: منتدى جواد عربى http://www.g-ara.com/vb/showthread.php?t=4694

يعرف عناصر المناقشة الأربعة

كما أن الدارس في أرقى البلاد . . . . . .

يدرك عظمة الصانع الحكيم فيها

وبسرعة يأمر القرآن العاقل أن

يســــــــبح

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾

الواقعة 74

سبحان ربّي العظيم وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته

الفصل الثالث:----

وهو يبدأ بالقسم بمواقع النجوم على كرم القرآن ونزوله من عند الله تعالى . . .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

الواقعة 75 – 80

وللقسم أثر عظيم في النفس

ومن الظريف أنني رأيت بعض المنكرين لوجود الله تعالى . . . يقسم في حديثه بالله العظيم

!!!!

ثم يتكلم القرآن عن الروح مظهرا ضعف الدنيا أمام سرها العجيب

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ . وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ . فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

الواقعة 83 – 87

وعجز الناس عن عودة الروح إلى الجسد كاف في أثبات البعث والجزاء

ثم تأتي الخاتمة وهي ترد العجز إلى الصدر

وتقسم الناس – مرة أخرى – إلى ثلاثة أقسام

والذي أرتاح له ويتفق مع فهمي للقرآن . . . .

إن نهاية السورة لا تكرر أولها

لان القرآن لا تكرار فيه (إلا لفائدة)

فكيف نفهم خاتمة السورة بعيدا عن التكرار ؟ ؟ ؟

نلاحظ أن أول السورة قسم الناس إلى (أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقين)

هذا التقسيم جاء بعد نهاية الدنيا . . . . فهو بيان لدرجات الناس في الآخرة . . . . .

أما آخر السورة وهو قوله تعالى :---

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ . وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ
. فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . وَأَمَّا
إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ . فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ . وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾

الواقعة 88 – 94

فيأتي بعد بيان نهاية الإنسان

ونهاية الإنسان تفهم من قوله تعالى :--

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ . وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا
تُبْصِرُونَ . فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا
إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

الواقعة 83 – 87

إذن آخر السورة تقسم الناس في القبر إلى الأقسام الثلاثة

أصحاب يمين

وأصحاب شمال

ومـــــــــقربين

فصدر السورة يتحدث عن الآخرة

وآخر السورة يتحدث عن جزاء القبر

وبذلك فلا تكرار . . . . . .

وبعد :--

(19/742)

إن القرآن وحدة متكاملة وآياته حبات عقد نوراني لذلك فهو حق اليقين

وأي يقين أوضح من القرآن ؟ ؟ ؟

أقول ذلك :----

حتى لا تخطيء فهم القرآن . أ هـ

من محاضرات الأستاذ الشيخ محمود غريب

(20/742)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الواقعة

وقعت : حدثت ، والواقعة القيامة ، لوقعتها : أي لوقوعها ، كاذبة : أي كذب ، ورجت : زلزلت وحركت تحريكا شديدا بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبال ، وبست : أي فتتت وصارت كالسويق الملتوت ، من قولهم بس فلان السويق : أي لتّه ، وهباء : أي غبارا ، منبثا : أي متفرقا ، أزواجا : أي أصنافا . قال الراغب : الزوج يكون لكل من القرينين الذكر والأنثى فى الحيوانات المتزاوجة ، ولكل قرينين منها ومن غيرها كالخف والنعل ، ولكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضادا اه والميمنة ناحية اليمين ، والمشأمة ناحية الشمال والعرب يتيمنون بالميامن ويتشاءمون بالشمائل ، والمراد أصحاب المرتبة السنية الرفيعة القدر ، والسابقون : هم الذين سبقوا إلى الخيرات فى الدنيا ، والمقربون : هم أرباب الحظوة والكرامة عند ربهم .

الثلة : الجماعة قلّت أو كثرت ، وقيل الجماعة الكثيرة من الناس كما قال :

وجاءت إليهم ثلّة خندفيّة بجيش كتيّار من السيل مزبد

موضونة من الوضن وهو : النسج ، والولدان : واحدهم ولد ، مخلدون : أي مبقون أبدا على هذه الصفة ، أكواب : أي آنية لا عرا لها ولا خراطيم ، أباريق : واحدها إبريق وهو إناء له خرطوم . قال عدىّ بن الرّقاع :

ودعوا بالصّبوح يوما فجاءت به قينة فى يمينها إبريق

كأس من معين : أي خمر جارية من العيون كما قال ابن عباس وقتادة ، والمراد أنها لم تعصر

كخمر الدنيا ، لا يصدّعون عنها ، أي لا يلحقهم صداع بسببها كما يحدث ذلك فى خمر الدنيا ، ولا ينزفون : أي ولا تذهب عقولهم بالسكر منها ، يقال نزف الشارب إذا ذهب عقله ، ويقال للسكران نزيف ومنزوف ، يتخيرون : أي يختارون ويرضون ، حور : واحدتهن حوراء : أي بيضاء ، عين : واحدتهن عيناء : أي واسعة العينين ، المكنون : المصون الذي لم تمسسه الأيدى وهو أصفى وأبعد من التغير قال :

(21/742)

قامت تراءى بين سجفى كلّة كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

أو درّة صدفيّة غوّاصها بهج متى يرها يهلّ ويسجد

لغوا : أي هزاء لا خير فيه ، ولا تأثيما : أي ما يقال حين سماعه وقعتم فى الإثم .

السدر : شجر النبق ، مخضود : أي خضد شوكه أي قطع ، والطلح : شجر الموز ، منضود : أي نضد حمله من أسفله إلى أعلاه فليست له سوق بارزة ، ممدود : أي منبسط ممتد لا يتقلص ولا يتفاوت ، مسكوب : أي مصبوب يسكب لهم كما يشاءون بلا نصب ولا تعب ، فرش : واحدها فراش كسرج وسراج ، مرفوعة : أي عالية منضدة ، عربا : واحدتهنّ عروب كصبر وصبور ، أترابا : أي متساويات فى السن واحدتهن ترب .

السموم : حر نار ينفذ فى المسامّ ، والحميم : الماء الشديد الحرارة ، واليحموم :

دخان أسود كما قال ابن عباس وابن زيد ، لا بارد ولا كريم : أي لا هو بارد كسائر الظلال ،

ولا دافع أذى الحر لمن يأوى إليه ، مترفين : أي منعمين مقبلين على لذات أنفسهم لا يلوون

على شىء مما جاء به الرسل ، يصرون : أي يقيمون ولا يقلعون ، والحنث العظيم : أي

الذنب العظيم وهو الشرك باللّه وجعل الأوثان والأنداد أربابا من دون اللّه ، والميقات : ما

وقت به الشيء والمراد به يوم القيامة ، وسمى به لأنه وقتت به الدنيا ، وشجر الزقوم : شجر

ينبت فى أصل الجحيم ، والهيم : واحدها أهيم وهو الجمل الذي يصيبه الهيام (بالضم)

وهو داء يشبه الاستسقاء يصيب الإبل فتشرب حتى تموت أو تسقم سقما شديدا ،

والنزل : ما يقدم للضيف إذا نزل تكرمة له ، ويوم الدين :

يوم الجزاء .

تمنون : أي تقذفونه فى الأرحام من النطف ، تخلقونه أي تقدرونه وتصوّرونه بشرا سويا تام

الخلق ، قدرنا : أي قسمنا ووقتنا موت كل أحد بوقت ، نبدل أمثالكم :

أي نميتكم دفعة واحدة ونخلق أشباهكم ، فيما لا تعلمون : أي من الخلق والأطوار التي لا تعهدونها ، فلولا تذكرون : أي فهلا تتذكرون ذلك ، تحرثون : أي تبذرون حبه ، وتعملون فى أرضه ، تزرعونه : أي تنبتونه وتجعلونه نباتا يرفّ ، حطاما : أي هشيما متكسرا متفتتا لشدة يبسه بعد ما أنبتناه ، تفكهون : أي تتعجبون من سوء حاله ، مغرمون : أي معذبون مهلكون من الغرام وهو الهلاك قال :

إن يعذّب يكن غراما وإن يقسط جزيلا فإنه لا يبالى

محرومون : أي غير مجدودين ، فليس لنا جدّ وحظ ، المزن : السحاب واحدته مزنة ، أجاجا : أي ملحا زعاقا لا يصلح لشرب ولا فى زرع ، لولا : بمعنى هلا ، وهى كلمة تفيد الحث على فعل ما بعدها ، تورون : أي تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ، تذكرة : تذكيرا بالبعث ، ومتاعا : أي منفعة ، للمقوين : أي للمسافرين الذين يسكنون القواء : أي القفر والمفاوز ، فسبح : أي تعجب من أمرهم ، وقل : سبحان اللّه العظيم .

لا أقسم : هذا قسم تستعمله العرب فى كلامها ، ولا مزيدة للتأكيد مثلها فى قوله : " لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ " ، ومواقع النجوم : مساقط كواكب السماء ومغاربها ، مكنون : أي مصون عن التغيير والتبديل ، المطهرون : أي المنزهون عن دنس الحظوظ النفسية ، مدهنون : أي متهاونون كمن يدهن فى الأمر : أي يلين جانبه ولا يتصلب فيه .

لولا : حرف يفيد الحث على حصول ما بعده على سبيل الاستحسان أو الوجوب ،

والحلقوم : مجرى الطعام ، ونحن أقرب إليه منكم : أي علما وقدرة ، مدينين : أي محاسبين مجزيين ، أو مملوكين مقهورين من قولهم دان السلطان الرعية إذا استذلهم واستعبدهم ، والروح : الاستراحة ، ريحان : أي رزق ، من المكذبين الضالين :

هم أصحاب الشمال ، فنزل : أي فجزاؤه نزل ، وتصلية جحيم : أي إدخال فى النار ، حق اليقين : أي حق الخبر اليقين الذي لا شك فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 27 صـ 131.153 ﴾ . باختصار .

(23/742)

وقال الفراء :

سورة (الواقعة)

﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ . . . ﴾ .

يقول: ليس لها مردودة ولا رد ، فالكاذبة ها هنا مصدر مثل: العاقبة ، والعافية . قال: وقال لى أبو ثروان فى كلامه: إن بنى نمير ليس لحدهم مكذوبة ، يريد : تكذيب ، ثم قال: ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ على الاستئناف: أى الواقعة يومئذ خافضة لقومٍ إلى النار ، ورافعة

لقوم إلى الجنة ، ولو قرأ قارىء : خافضةً رافعةً يريد إذا وقعت خافضة لقوم . رافعةً لآخرين ، ولكنه يقبح لأن العرب لا تقول: إذا أتيتى زائراً حتى يقولوا : إذا أتيتنى فأتنى زائراً أو ائتنى زائراً ، ولكنه حسن فى الواقعة ؛ لأنّ النصب قبله آية يحسن عليها السكوت ، فحسن الضمير فى المستأنف .

﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً ﴾

وقوله: ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً . . . ﴾ .

إذا زلزلت حتى ينهدم كل بناء على وجه الأرض .

﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً ﴾

وقوله: ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً . . . ﴾ .

صارت كالدقيق ، وذلك قوله: ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ ﴾ ، وسمعت العرب تنشد :

لا تَخْبِزا خَبْزا وبُسّا بَسّا * مَلْسا بذَوْدا لحَلَسِّ مَلْسا

والحُمّس أيضا والبسيسة عندهم الدقيق ، أو السويق يُلَت ، ويتخذ زاداً .

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً . . . ﴾ ثم فسرهم فقال: ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . . . ﴾ .

عجّب نبيّه منهم فقال: ما أصحاب الميمنة؟ أي شيء هم؟ وهم أصحاب اليمين، ﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ . . . ﴾، عجّبه أيضا منهم، وهم أصحاب الشمال، ثم قال: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . . . ﴾. فهذا الصنف الثالث، فإن شئت رفعت السابقين بالسابقين الثانية وهم المهاجرون، وكل من سبق إلى نبي من الأنبياء فهو من هؤلاء، فإذا رفعت أحدهما بالآخر، كقولك الأول السابق، وإن شئت جعلت الثانية تشديداً للأُولى، ورفعتْ بقوله: ﴿ أُوْلَائِكَ الْمُقَرَّبُونَ . . . ﴾.

﴿ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾

وقوله: ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ . . . ﴾.

موضونه: منسوجة، وإنما سمت العرب وضين الناقة وضيناً لأنه منسوج، وقد سمعت بعض العرب يقول: فإذا الآجر موضون بعضه على بعض يريد: مُشْرَج، [قال الفراء: الوضين الحِزام].

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ . . . ﴾.

يقال: إنهم على سن واحدة لا يتغيرون ، والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يَشمَط: إنهُ لمخلّد ، وإذا لم تذهب أسنانه عن الكبر قيل أيضاً: إنه لمخلد ، ويقال: مخلّدون مقرّطون ، ويقال: مسوَّرون .

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾

[/1] وقوله: ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ . . . ﴾ .

والكُوب: ما لا أذن له ولا عروة له . والأباريق: ذوات الآذان وَالعُرَا .

﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾

وقوله: ﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا . . . ﴾ عن الخمر ﴿ وَلاَ يُنزِفُونَ . . . ﴾ أي: لا تذهب عقولهم .

يقال للرجل إذا سكر ؛ قد نُزِف عقله ، وإذا ذهب دمه وغشى عليه أو مات قيل: منزوف .

ومن قرأ "يُنْزِفون": يقول: لا تفنى خمرهم ، والعرب تقول للقوم إذا فنى زادهم: قد أَنْزَفُوا وأقتروا ، وأنفضوا ، وأرمَلوا ، وَأملقوا .

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَحُورٍ عِينٍ . . . ﴾ .

خفضها أصحاب عبد الله وهو وجه العربية ، وإن كان أكثر القراء على الرفع ؛ لأنهم هابوا أن يجعلوا الحور العين يطاف بهن ، فرفعوا على قولك: ولهم حور عين ، أو عندهم حور عين . والخفض على أن تتبع آخر الكلام بأوله ، وإن لم يحسن فى أخره ما حسن فى أوله ، أنشدنى بعض العرب:

إذا ما الغانيات بَرَزْنَ يَوْماً * وزَجّجن الحواجب والعيونا

بالعَين لا تزجج إنما تكحَّل ، فردَّها على الحواجب ؛ لأن المعنى يعرف ، وأنشدنى آخر:

ولقيتُ زوجك فى الوغى * متقلداً سيفاً ورمحاً

والرمح لا يتقلد ، فردّه على السيف

وقال آخر:

تسمع للأحشاء منه لغطاً * ولليدين جُسْأَةً وبَدَدا

وأنشدنى بعض بنى دبير:

علفتها تِبناً وماءً بارداً * حتى شَتَتْ همالةً عيناها

والماء لا يعتلف ؛ إنما يُشرب ، فجعله تابعاً للتبن ، وقد كان ينبغى لمن قرأ: وحورٌ عين لأنهن -زعم- لا يطاف بهن أن يقول: "وفاكهةٌ ولَحْم طير" ؛ لأن الفاكهة واللحم لا يطاف بهما - ليس بطاف إلاَّ بالخمر وحدها ففى ذلك بيان ؛ لأن الخفض وجه الكلام . وفى قراءة أبى

بن كعب: وحورا عيناً أراد الفعل الذى تجده فى مثل هذا من الكلام كقول الشاعر:

جئنى بمثل بنى بَدْرٍ لقومهم * أو مثل أسرة منظور بن سيار

﴿ إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً ﴾

وقوله: ﴿ إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً . . . ﴾ .

إن شئت جعلت السلام تابعاً للقيل، وهو هو، وإن شئت أردت. إلاّ قيل سلامٍ سلامٍ، فإذا نونت نصبت، لأن الفعل واقع عليه، ولو كان مرفوعاً. قيلا سلامٌ سلامٌ لكان جائزاً.

وأنشدنى بعض العرب وهو العقيلى:

فقلنا السلام فاتقت من أميرها * فما كان إلا ومؤها بالحواجب

أراد حكاية المبتدى بالسلام، وسمع الكسائى العرب يقولون: التقينا فقلنا: سلام سلام، ثم تفرقنا أراد. قلنا: سلام عليكم فردوا علينا.

﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾

وقوله: ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ . . . ﴾ .

لا شوك فيه.

﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ . . . ﴾ .

ذكر الكلبى: أنه الموز، ويقال: هو الطلح الذى تعرفون.

﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ . . . ﴾.

لا شمس فيه كظل ما بين طلوع [/ب] الفجر إلى أن تطلع الشمس.

﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ . . . ﴾.

جارٍ غير منقطع.

﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . . . لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ . . . ﴾.

لا تجىء فى حين وتنقطع فى حين، هى أبداً دائمة ولا ممنوعة كما يمنع أهل الجنان فواكههم.

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ . . . ﴾.

بعضها فوق بعض.

﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً . . . ﴾.

يقول: أنشأنا الصَّبية والعجوز ، فجعلناهن أترابا أبناء ثلاث وثلاثين .

﴿ عُرُبا أَتْرَابا ﴾

وقوله: ﴿ عُرُباً . . . ﴾ .

واحدهن: عَروب ، وهى المتحببة إلى زوجها الغَنِجة .

حدثنا الفراء قال وحدثنى شيخ عن الأعمش قال: كنتُ أسمعهم يقرءون: "عُرْباً أترابا" بالتخفيف ، وهو مثل قولك: الرسْل والكتب فى لغة تميم وبكر بالتخفيف ولتثقيل وجه القراءة ، لأن كلّ فعول أو فعيل أو فِعال جمع على هذا المثال ، فهو مثقّل مذكراً كان أو مؤنثاً ، والقراء على ذلك .

﴿ لأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾

وقوله: ﴿ لأَصْحَابِ الْيَمِينِ . . . ﴾ .

أى: هذا لأصحاب اليمين .

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾

وقوله ها هنا : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ . . . وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ . . . ﴾ .

وقد قال فى أول السورة: ﴿ ثُلَّةٌ مِن الأَوَّلِين وقليلٌ مِن الآخِرِين ﴾ :

وذكروا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بكوا وشق عليهم .

قوله: ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ ، فأنزل الله جل وعز هذه ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ، وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ . ورفعها على الاستئناف ، وإن شئت جعلتها مرفوعة ، تقول: ولأصحاب اليمين ثلتان: ثلة من هؤلاء ، وثلة من هؤلاء ، والمعنى: هم فرقتان: فرقة من هؤلاء ، وفرقة من هؤلاء .

﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ . . . ﴾ .

واليحموم: الدخان الأسود .

﴿ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾

وقوله: ﴿ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ . . . ﴾ .

وجه الكلام أن يكون خفضاً متبعاً لما قبله ،

ومثله: ﴿ زَيْتُونَةٍ لا شرقيةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ . وكذلك: ﴿ وفاكهةٍ كثيرةٍ لا مقطُوعةٍ ولا ممنوعةٍ ﴾ ، ولو رفعت ما بعد لكان صوابا من كلام العرب ، أنشدني بعضهم:

وتُريكَ وجهاً كالصحيفةِ ، لا * ظمآنُ مختلجٌ ، ولا جَهْمُ

كعقيلةِ الدُّرِّ استضاءَ بها * محراب عرْش عزيزها العُجْمُ

وقال آخر:

ولقد أبيت من الفتاة بمنزلٍ * فأبيت لا زانٍ ولا محروم

يستأنفون بلا ، فإذا ألقوها لم يكن إلاّ أن تتبع أول الكلام بآخره ، والعرب تجعل الكريم تابعاً لكل شيء نفت عنه فعلا تنوى به الذم ، يقال: أسمينٌ هذا ؟ فتقول: ما هو بسمين ولا كريم ، وما هذه الدار بواسعة ولا كريمة .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ . . . ﴾ .

متنعمين فى الدنيا .

﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾

وقوله: ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ . . . ﴾ .

الشرك: هو الحنث العظيم .

﴿ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾

وقوله: ﴿ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ . . . ﴾ .

وهى فى قراءة عبد الله: الآكلون من شجرة من زقوم ، فمعنى شجر وشجرة واحد ، لأنك إذا قلت: أخذت من الشاء ، فإن نويت واحدة أو أكثر من ذلك فهو جائز .

﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾

ثم قال: ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا . . . ﴾ .

من الشجرة ، ولو قال: فمالئون منه إذ لم يذكر الشجرة كان صواباً يذهب إلى الشجر فى منه ، وتؤنث الشجر ، فيكون منها كناية عن الشجر ، والشجر تؤنث ويذكر مثل الثمر .

﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾

وقوله: ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ . . . ﴾ .

إن شئت كان على الشجر ، وإن شئت فعلى الأكل .

﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾

وقوله: ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ . . . ﴾ .

حدثنا الفراء قال: حدثنى الكسائى عن رجل من بنى أميه يقال له: يحيى بن سعيد الأموى قال: سمعت ابن جريج يقرأ: "فشاربونَ شَرْبَ الهيم" بالفتح ، قال: فذكرت ذلك لجعفر ابن محمد قال: فقال: أو ليست كذاك ؟ أما بلغك أن رسول الله صلى الله عليه بعث بُدَيل ابن ورقاء الخزاعى إلى أهل منى ، فقال: إنها أيامُ أَكْلٍ وَشَرْبٍ وبِعالٍ .

قال الفراء : البِعال: النكاح ، وَسائر القراء يرفعون الشين: "فشاربونَ شُرْبَ الهِيم"

"والهيم": الإبل التى يصيبها داء فلا تَروَى من الماء ، واحدها : أهيم ، والأنثى: هيماء .

ومن العرب من يقول: هائم ، وَالأنثى هائمة ، ثم يجمعونه على هيم ، كما قالوا: عائط وعيط ، وَحائل وحُول ، وهو فى المعنى: حائل حُوْلٍ إلا أن الضمة تركت فى هيم لئلا تصير الياء واوا . وَيقال: إن الهيم الرمل . يقول: يشرب أهل النار كما تشربُ السِّهْلة قال قال الفراء: الرملة بعينها السهلة ، وهى سهلة وَسهلة .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ ﴾

وقوله: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ . . . ﴾ .

يعنى: النُّطَف إذا قدفت فى أرحام النساء .

﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾

وقوله: ﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ . . . ﴾ .

تخلقون تلك النطف أم نحن الخالقون . وقد يقال للرجل: مَنى وأمنى ، ومَذى وأمذى ، فأمنى أكثى من منى ، ومذى أكثر من أمذى .

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾

وقوله: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ . . . . ﴾ .

أى: تنبتونه .

﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ . . . ﴾ .

تتعجبون مما نزل بكم فى زرعكم ، ويقال: معنى تفكهون: تندمون .

﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . . . ﴾ .

يقال: إنا لمعذَّبون ، ويقال: إنا لمُولَع بنا وهو من قبلهم .

﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً . . . ﴾ .

وهو الملح المر الشديد المرارة من الماء .

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ ﴾

وقوله: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ . . . ﴾ .

يعنى منفعة للمسافرين إذا نزلوا بالأرض القِىّ يعنى: القفر .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾

وقوله: ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . . . ﴾ .

حدثنا الفراء قال: وحدثنى أبو ليلى السجستانى عن أبى جرير قاضى سجستان قال:

قرأ عبد الله بن مسعود: "فلا أُقْسِمَ بموقعِ النُّجومِ" والقراء جميعاً على: مواقع.

حدثنا الفراء قال: حدثنى الفضيل بن عياض عن منصور عن المنهال بن عمرو رفعه إلى عبد الله فيما أعلم شك الفراء [/ب] قال: فلا أقسم بموقع النجوم، قال: بمحكم القرآن، وكان ينزل على النبى صلى الله عليه نجوما.

﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . . . ﴾ يدل على أنه القرآن.

ويقال: فلا أقسم بموقع النجوم، بمسقط النجوم إذا سقطن.

﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ . . . ﴾.

حدثنا الفراء قال: حدثنى حِبَّان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: لا يمسّ ذلك اللوحَ المحفوظ إلا المطهرون يقول: الملائكة الذين طهروا من الشرك. ويقال: لا يمسه: لا يجد طعمه ونفعه إلا المطهرون من آمن به.

﴿ أَفَبِهَاذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾

وقوله: ﴿ أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ . . . ﴾ مكذبون وكافرون ، كلّ قد سمعته .

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ . . . ﴾ .

جاء فى الأثر: تجعلون رزقكم: شكركم ، وهو فى العربية حسن أن تقول: جعلت زيارتى إياك أنك استخففت بى ، فيكون المعنى: جعلت ثواب الزيارة ـ الجفاء . كذلك جعلتم شكر الرزق ـ التكذيب .

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾

وقوله: ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ . . . ﴾ يعنى: النَّفْس عند الموت

﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ . . . ﴾ يعنى: أهل الميت عنده .

ينظرون إليه . والعرب تخاطب القوم بالفعل كأنهم أصحابه ، وإنما يراد به بعضهم: غائباً كان أو شاهداً ، فهذا من ذلك كقولك للقوم: أنت قتلتم فلاناً ، وإنما قتله الواحد الغائب . ألا ترى أنك قد تقول لأهل المسجد لو آذوا رجلا بالازدحام: اتقوا الله ، فإنكم تؤذون المسلمين ، فيكون صوابا . وإنما تعظ غير الفاعل فى كثير من الكلام ، ويقال: أين جواب (فلولا) الأولى ، وجواب التى بعدها ؟ والجواب فى ذلك: أنهما أجيبا بجواب واحد وهو ترجعونها ، وربما أعادتِ العرب الحرفين ومعناهما واحد . فهذا من ذلك ، ومنه: ﴿ فَإِمَّا

يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمن تَبِعَ هُداىَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِم ﴾ . أجيبا بجواب واحد وهما جزاءان ، ومن ذلك قوله: ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا وَّيُحِبُّون أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم ﴾ .

وقوله: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّم وكُنتُم تُرابًا وعِظَاما أَنَّكُمْ مُخْرَجُون ﴾ وقد فسّر فى غير هذا الموضوع.

﴿ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾

وقوله: ﴿ غَيْرَ مَدِينِينَ . . . ﴾ مملوكين ، وسمعت: مجزيين .

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾

(31/742)

وقوله: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . . . ﴾ من أهل جنة عدن .

﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾

﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ . . . ﴾ .

حدثنا الفراء قال: وحدثنى شيخ عن حماد بن سلمة عن عبد الله بن شقيق عن عائشة عن النبى صلى الله عليه أنه قال: "فَروح وريحان" وقراءة الحسن كذلك ، والأعمش

وعاصم والسُّلَمى وأهل المدينة وسائر القراء (فرَوحٌ) ، أى: فروح فى القبر ، ومن قرأ (فرُوحٌ) يقول: حياة لا موت فيها ، (وريحان): رزق .

﴿ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾

وقوله: ﴿ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . . . ﴾ .

أى: فذلك مسلّم لك أنك من أصحاب اليمين ، وألقيت أَن وهو معناها كما تقول: أنت مصدّق مسافر عن قليل إذا كان قد قال: إنى مسافر عن قليل .

وكذلك تجد معناه: أنت مصدق أنك مسافر ، ومعناه: فسلام لك أنت من أصحاب اليمين . وقد يكون كالدعاء له ، كقولك: فسقيا لك من الرجال ، وإن رفعت السلامَ فهو دعاء .

والله أعلم بصوابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 121 .

131 ﴾

(32/742)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الواقعة

(الواقعة) [1] القيامة. وقيل: الصيحة. (كاذبة) [2] تكذيب، ومثله (لاغية) أي: لغواً. (رجت) [4] زلزلت، فينهدم كل بناء عليها رجة واحدة. (وبست) [5] هدت. وقيل: دقت وفتتت، والبسبسة: السويق.

قال بعض اللصوص: 1228- لا تخبزا خبزاً وبسا بسا 1229- ولا تطيلا بمقام حبسا. (أزواجاً ثلاثة) [7] أصنافاً متشاكلة. وفسرها ابن عباس بما في سورة الملائكة من الظالم والمقتصد والسابق. وروى النعمان بن بشير: أن النبي عليه السلام قرأ: (وكنتم أزواجاً)

إلى قوله: (والسابقون السابقون) [فقال: "هم] الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان". وتكرير السابقين، لأن التقدير: السابقون إلى الطاعة، هم السابقون إلى الرحمة. فيكون الأول: مبتدأ، والثاني: خبره. و(أولئك المقربون) [11] من صفتهما. (ثلة) [13] جماعة. (وقليل من الأخرين) [14]

لأن الذين سبقوا إلى الإيمان بالنبي عليه السلام قليل من كثير ممن سبق إلى الإيمان بالأنبياء قبله. (موضونة) [15] مضفورة متداخلة. (مخلدون) [17] مسورون. وفي "تاج المعاني": إنهم روحانيون، لم يتجسموا، من قولهم: "وقع في خلدي" أي: نفسي وروحي. (إلا قيلاً سلاماً)/[26] نصب سلاماً على البدل من قيل، أي: لا يسمعون إلا سلاماً. ويجوز نصبه بالقيل بتقدير: إلا أن يقال يسلمك الله سلاماً. (في سدر مخضود) [28] لين لا

شوك عليه ، ولا عجم فيه ، كأنه خضد منه الشوك ، قال الشماخ: 1230- إن تمس في عرفط صلع جماجمه من الأساليق عاري الشوك مخضود 1231- تصبح وقد ضمنت ضراتها غرقاً من طيب الطعم حلو غير مجهود . (وطلح منضود) [29] أي: قنو الموز ، نضد بعضه على بعض ، أي: وضع وجمع . قال:

(33/742)

1232- إذا دعت غوثها ضراتها فزعت أطباق نيء على الأثباج منضود . (وظل ممدود) [30] أي: في الزمان والمكان ، فلأنه غير متناه إلى حد يفنى فيه ، لكنه ظل ظليل ، لا شمس تنسخه ، ولا حرور ينغصه ، ولا برد يفسده ، كما قال عز وجل: (لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا) . (وفرش) [34] العرب تكني بالفراش عن المرأة . (مرفوعة) [34] أي: على السرر . (أنشأناهن) [35]

أعدناهن صبايا أبكاراً . (عرباً) [37] العروب: الحسنة التبعل ، الفطنة بمراد الزوج ، كفطنة العرب . (أتراباً) [37] لدات ، فيكون أتم لحسنهن واستوائهن ، قال أبو زبيد الطائي: 1233- نراك أيامنا بالنعف من ظلم إذ لست باحسب ظل العيش [منجابا] 1234- لا أحسب الدهر إلا نشوة اندار مسمعاً [. . .] الله أترابا . (ثلة من الأولين*

وثلة من الأخرين) [39 ، 40]

لما نزل في السابقين: (وقليل من الأخرين) ، [عز] ذلك على الصحابة ، فنزلت هذه ، وفسرها رسول الله صلى الله عليه فقال: "من آدم إلينا ثلة ، ومنا إلى يوم القيامة ثلة" . (وأصحاب الشمال) [41] العرب تتشاءم بالشمال ، [وتعبر] به عن الشيء الأخس ، والحظ الأخيب الأنقص/ . كما قال: 1235- رأيت بني العلات لما تضافروا يحوزون [سهمي] دونهم في الشمائل

1236- فأنزلني ذات اليمين ولم أكن بمنزلة الملقى شمال الأراذل . قال الهذلي: 1237- أبالصرم من أسماء حدثك [الذي] جرى بيننا يوم استقل ركابها 1238- زجرت لها طير الشمال فإن يكن هواك الذي [تهوى] يصبك اجتنابها . (وظل من يحموم) [43] اليحموم: الدخان .

(34/742)

وقيل: نار سوداء . ولما كان فائدة [الظل] ، التروح من كرب الحر والسموم ، فإذا كان الظل من الدخان كان غير بارد ولا كريم . (شرب الهيم) [55] الهيم: الإبل العطاش . والهيام: داء تشرب معه الإبل فلا تروى . كما قال الأعرابي: 1239- وما وجد [ملواح] من الهيم

حلئت عن الماء حتى جوفها يتصلصل 1232- تحوم وتغشاها العصي وحولها أقاطيع أنعام تعل [وتنهل] 1233- بأكثر مني غلة وتعطفاً إلى الورد إلا أنني أتجمل .

(تمنون) [58] منى وأمنى واحد . والإمناء: الإراقة ، ومنه [منى] لإراقة الدماء بها ، فسمي لذلك الماء [الذي] منه الولد منياً . (حطاماً) [65] هشيماً . (تفكهون) [65] تندمون في لغة تميم . وقيل: تعجبون . وذكر أبو عمر الزاهد عن ثعلب أن التفكه [والتفكن: التندم] على النفقة . (تورون) [71]

الإيراء: استخراج النار من الزند . (تذكرة) [73] تذكركم النار الكبرى . (ومتاعاً) [73] للاستضاءة بها ، والاصطلاء والإنضاج ، [والتخليل] على مذهبنا ، وغير ذلك من إذابة الجوهر ، وتعقيدها وتكليسها [وكل ذلك لمنافع] العباد . والماعون الأكبر ، المتاع الأعم: هو الماء والنار ، ثم الكلأ والملح ، وليس للماء وغيره -وإن كان متاعاً للمقوين- ما للنار/من التذكرة بعذاب الله الزاجرة من معاصيه . وأقوى: من الأضداد ، أغنى وافتقر فلذلك اختلف تفسيره إلى المسافرين وإلى [المستمتعين] .

(بمواقع النجوم) [75] مطالعها ومساقطها . وقيل: انتشارها يوم القيامة . وقيل: إنها نجوم القرآن ، نجمه جبريل على النبي عليهما السلام . وقيل: إنها قبور الأخيار الأبرار .

وقوله: (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) [76]

اعتراض بين القسم وجوابه ، تضمن اعتراضاً بين الموصوف الذي هو "قسم" ، وبين صفته التي [هي] (عظيم) ، وهو قوله: (لو تعلمون) ، فذانكما اعتراضان ، أحدهما في الآخر .

(مدهنون) [81] منافقون أدهن وداهن إذ[ا] لاين ونافق . كما قال أبو [قيس] بن الأسلت الأنصاري: 1242 - بز امرئ مستبسل حاذر للدهر جلد غير مجزاع

1243 - الكيس والقوة خير من آل إدهان [والفكه] والهاع .

(وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) [82] أي: تجعلون جزاء رزقكم الكفر والتكذيب ، فيدخل فيه قول العرب: مطرنا بنوء كذا . ويدخل فيه ما كان يأخذه بعض العرب من مال أبي سفيان وأمثاله ، ليكذبوا رسول الله ولا يؤمنوا به . (فلولا إذا بلغت الحلقوم) [83] كناية عن النفس وإن لم تذكر . كما قال حاتم: 1244 - أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق له الصدر 1245 - أماوي إما مانع فمبين وإما عطاء لا ينهنهه الزجر .

(غير مدينين) [86] [الدين] في هذا الموضع الطاعة والعبادة ، لا الجزاء كما ذهب إليه كثير من الناس . أي: فهلا إن كنتم غير مملوكين مطيعين/مدبرين ، وكنتم كما زعمتم مالكين حلتم بيننا وبين قبض الأرواح ، ورجعتموها في الأبدان ، فهذا صحيح ، [وإلا] [فلا] معنى للعجز عن رد الروح في الإلزام [على] إنكار الجزاء والإعادة . (فروح) [89]

راحة . وفي قراءة النبي عليه السلام [من] رواية عائشة ، وقراءة ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، والأشهب ، ونوح القاري ، وبديل ، وشعيب ابن [الحربي] ، وسليمان التيمي ، والربيع بن خثيم ، وأبي عمران الجوني ، وأبي جعفر محمد بن علي ، و[الفياض]: (فروح) [بضم] الراء .

ومعناه: حياة لا موت بعدها . (وريحان) استراحة عن ابن عباس . ورحمة عن الضحاك .

[تمت سورة الواقعة] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 1446.1465 ﴾

(36/742)

وقال الأخفش :

سورة (الواقعة)

﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾

قال ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ ﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ فقوله ﴿ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ هو الخبر . وتقول العرب: "زيدٌ ومَا زيدٌ" تريد "زيد شَديدٌ" .

﴿ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾

وقال ﴿ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ على المدح نصبه على الحال يقول: "لَهُمْ هَذَا مُتَّكِئِينَ".

﴿ إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً ﴾

وقال ﴿ إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً ﴾ ان شئت نصبت السلام بالقيل وان شئت جعلت السلام [173 ب] عطفا على القيل كأنه تفسير له وان شئت جعلت الفعل يعمل في السلام تريد "لا تسمع إلاّ قيلاً الخير" تريد: إلاّ أَنَّهُم يقولون الخيرَ، والسلام هو الخير.

﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً ﴾

وقال ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً [35] فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً [36] عُرُباً أَتْرَاباً ﴾ فأضمرهن ولم يذكرهن قبل ذاك. واما "الأَترابُ" فواحدهن "التِرْبَ" وللمؤنّث: "التِربَة" هي "تِربى" وهي "تِرْبَتي" مثل "شِبْه" وأَشْباه" و"التِرْبُ" و"التِرْبَةُ" جائزة في المؤنث ويجمع: بـ"الأَتْراب" كما تقول "حَيَّةٌ" و"أَحْياء" اذا عنيت المرأة و"مَيْتَةٌ" و"أَمْواتٌ".

﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾

وقال ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ أي: من الشجرة ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ ﴾ لأَنَّ "الشَجَر" يؤَنَّث ويذكّر. وأَنَّثَ لأنه حمله على "الشَجَرة" لأن "الشجرةَ" قد تدل على الجميع تقول العرب: "نَبَتَت قِبَلَنا شَجَرَةٌ مُرَّةٌ وبَقْلَةٌ رذية" وهم يعنون الجميع.

﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾

[و] قال ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ ﴾ و ﴿ شُرْبَ ﴾ مثل "الضَّعْف" و "الضُّعْف" .

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾

وقال ﴿ مَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ اي للمسافرين في الأرض القِيِّ . تقول: "أَقْوَى الشيءُ" إذا ذَهب كلُّ ما فيه .

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾

وقال ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ ثم قال ﴿ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ [86] [174] أيْ: غيرَ مَجْزِيِّينَ مقهورين ترجعون تلك النفس وانتم ترون كيف تخرج عند ذلك ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [87] أنكم تمتنعون من الموت . ثم أخبرهم فقال ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [88] ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ [89] أي: فَلَهُ رَوْحٌ وريْحانٌ ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ [90] ﴿ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ [91] أي: فيقال له "سَلامٌ لَكَ" .

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾

وقال ﴿ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ فأضاف الى "اليَقِينِ" كما قال ﴿ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ اي: ذلك دينُ المِلَّةِ

القَيِّمَةِ ، وذلك حقُّ الأمْرِ اليَقينِ . وأما "هذا رَجُلُ السَوْءِ" فلا يكون فيه: هذا الرجلُ السَوْءُ . كما يكون في "الحقُّ اليَقِينُ" لأن "السَّوْءَ" ليس بـ"الرَّجُلِ" و"اليَقينُ هُوَ الحَقُّ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 531.534 ﴾

(38/742)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الواقعة

مكية كلها

1 - الْواقِعَةُ القيامة .

2 - لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ أي ليس لها مردود . يقال : حمل عليه فما كذب ، أي فما رجع .

قال الفراء : «قال لي أبو ثروان : إن بني نمير ليس لحدّهم مكذوبة ، أي تكذيب» .

3 - ثم قال : خافِضَةٌ رافِعَةٌ أي تخفض قوما الى النار ، وترفع آخرين إلى الجنة .

4 - إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا أي زلزلت «1» .

5 - وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا : فتّتت ، حتى صارت كالدقيق والسّويق المبسوس .

6 - فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا أي ترابا منتشرا . و«الهباء المنبث» : ما سطح من سنابك

الخيل .

7 - وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً أي أصنافا .

---

(1) وهو قول مجاهد .

---

8 - فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ؟ !

على التعجب . كأنه قال : أي شيء هم ؟ ! .

ويقال في الكلام : «زيد ما زيد !» أي أي رجل هو .

9 - وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ؟ ! أي أصحاب الشمال . والعرب تسمي اليد اليسري : الشّؤمي ، والجانب الأيسر : الجانب الأشأم . ومنه قيل : اليمن والشّؤم . فاليمن : كأنه ما جاء عن اليمين ، والشؤم : ما جاء عن الشمال . ومنه سميت «اليمن» و«الشّام» .

13 - ،

39 - ، 40 - ثُلَّةٌ : جماعة .

15 - عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ أي منسوجة «1» . كأن بعضها أدخل في بعض ، او نضّد

بعضها على بعض .

ومنه قيل للدّرع : موضونة . ومنه قيل : وضين الناقة . وهو بطان من سيور يرصع ويدخل بعضه في بعض .

قال الفراء : «سمعت بعضهم يقول : الآجرّ موضون بعضه الى بعض ، أي مشرج [صفيف]» .

17 - وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ يقال : على سن واحدة لا يتغيرون ، [ولا يموتون] . ومن خلد وخلق للبقاء : لم يتغير .

ويقال : مسورون ويقال : مقرطون وينشد فيه شعر :

ومخلدات باللجين كأنما أعجازهن اقاوز الكثبان

17 - و19 - بِأَكْوابٍ وَأَبارِيقَ لا عرى لها ولا خراطم .

---

(1) وهو قول مجاهد .

وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ، لا يُصَدَّعُونَ عَنْها .

كان بعضهم يذهب في قوله : لا يُصَدَّعُونَ ، [إلى أن معناه] أي لا يتفرقون عنها . من قولك :

صدعته فانصدع.

ولا أراه إلا من «الصّداع» الذي يعتري شراب الخمر في الدنيا ،

لقول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم – في وصف الجنة – : «وأنهار من كأس ما ان بها صداع ولا ندامة» .

وَلاَ يُنْزِفُونَ قد ذكرناه .

28 – فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ أي لا شوك فيه : كأنه خضد شوكه ، أي قطع .

ومنه

قول النبي – صلّى اللّه عليه وسلّم – في المدينة : «لا يخضد شوكها ، ولا يعضد شجرها» .

29 – وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ الطلح عند العرب : شجر من العضاه عظام ، والعضاه : كل شجر له شوك .

قال مجاهد : «أعجبهم طلح «وج» وحسنه ، فقيل لهم : وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ» .

وكان بعض السلف يقرأه : وطلع منضود ، واعتبره بقوله في ق :

لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ .

وقال المفسرون : «الطّلح» هاهنا : الموز «1» .

و«المنضود» : الذي نضد بالحمل من اوله إلى آخره ، او بالورق والحمل ، فليست له سوق

بارزة.

---

(1) وهو قول الطبري.

(41/742)

وقال مسروق: «أنهار الجنة تجري في غير أخدود، وشجرها نضيد [من أصلها إلى فرعها»، أي] من أسفلها إلى أعلاها.

30 - وَظِلٍّ مَمْدُودٍ: لا شمس فيه «1».

32 -، 33 - وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ، لا مَقْطُوعَةٍ أي لا تجيء في حين وتنقطع في حين، وَلا مَمْنُوعَةٍ: لا محظورة عليها كما يخطر على بساتين الدنيا.

34 -، 35 - وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ. ثم قال: إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً، ولم يذكر النساء قبل ذلك: لأن الفرش محل النساء، فاكتفى بذكر الفرش.

يقول: أنشأنا الصبيّة والعجوز إنشاء جديدا.

36 -، 37 - فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً، عُرُباً أَتْراباً: أي شيئا واحدا، وسنّا واحدا «2».

[و] «عربا»: جمع «عروب»، وهي: المتحبّبة إلى زوجها. ويقال: الغنجة.

42 - فِي سَمُومٍ أي في حر النار .

43 - وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ أي دخان اسود . و«اليحموم» :

الأسود .

46 - وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ : أي يقيمون على الحنث العظيم ، ولا يتوبون

عنه .

---

(1) قال الطبري : وهم في ظل دائم لا تسنخه الشمس فتذهب به . [. . . . .]

(2) سألت السيدة أم سلمة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم عن هذه الآية فقال : «هن

اللواتي قبضن في الدنيا عجائز رمصا شمطا ، خلقهن بعد الكبر فجعلهن عذارى»

ومعنى عربا : أي عاشقات لأزواجهن جمع عروب وهي المحبة العاشقة لزوجها .

و«الحنث» : الشّرك ، وهو : الكبير من الذنوب أيضا .

55 - والْهِيمِ : الإبل يصيبها داء فلا تروى من الماء . يقال : بغير أهيم ، وناقة هيماء .

56 - هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ أي : رزقهم وطعامهم .

58 - أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ ، [اي ما تصبّونه في أرحام النساء] : من المنيّ .

60 - ، 61 - وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ، عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ أي لسنا مغلوبين على ان نستبدل بكم أمثالكم من الخلق .

63 - أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ : أي تزرعون .

65 - فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ : تعجبون مما نزل بكم في زرعكم إذا صار حطاما .

[و] يقال : تَفَكَّهُونَ : تندمون ، مثل «تفكّنون» . وهي لغة لعكل .

66 - إِنَّا لَمُغْرَمُونَ : أي معذبون . من قوله عز وجل : إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً [سورة الفرقان آية : 65] أي هلكة .

69 - والْمُزْنِ : السحاب .

70 - و(الأجاج) : الشديد المرارة .

71 - الَّتِي تُورُونَ أي تستخرجون من الزّنود .

72 - أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها التي تتخذ منها الزنود ؟ أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ ؟ .

73 - نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً : أي تذكركم جهنم ، وَمَتاعاً :

أي منفعةِ لِلْمُقْوِينَ يعني : المسافرين . سموا بذلك : لنزولهم القواء ، وهو : القفر .

وقال ابو عبيدة : «المقوي : الذي لا زاد معه ، [يقال : أقوى الرجل ، إذا نفد زاده]» .

ولا ارى التفسير إلا الأول ، ولا ارى الذي لا زاد معه ، أولى بالنار ولا أحوج إليها من الذي معه الزاد . بل صاحب أولى بها ، وإليها أحوج .

75 – فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ أراد : نجوم القرآن إذا نزل .

وقال ابو عبيدة : «أراد مساقط النجوم في المغرب» .

81 – أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ : أي مداهنون . يقال : أدهن في دينه ، وداهن .

82 – وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أي شكركم ، أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ : أي جعلتم شكر الرزق التكذيب .

قال عطاء : «كانوا يمطرون ، فيقولون : مطرنا بنوء كذا» .

83 – فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ : أي فهلا إذا بلغت النفس الحلقوم .

86 – ، 87 – فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ : أي غير مملوكين أذلاء . من قولك : دنت له بالطاعة . وقال ابو عبيدة : مَدِينِينَ : مجزيين .

تَرْجِعُونَها : أي تردون النفس ! .

88 – فَرَوْحٌ في القبر ، أي طيب نسيم ، وَرَيْحانٌ : رزق .

ومن قرأ : فَرَوْحٌ ، أراد : فحياة وبقاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 389.384 ﴾

وقال الغزنوى :

سورة الواقعة

في الحديث «1» : «من أراد نبأ الأولين والآخرين ، ونبأ أهل الجنّة والنّار ، ونبأ الدنيا والآخرة فليقرأ سورة «الواقعة» ، والواقعة : القيامة .

وقيل «2» : الصيحة .

2 كاذِبَةٌ : تكذيب . أو نفس كاذبة «3» لإخبار اللّه بها ودلالة العقل عليها .

3 خافِضَةٌ : لأهل المعاصي ، رافِعَةٌ : لأهل الطاعات .

4 رُجَّتِ : زلزلت «4» ، وإِذا في موضع نصب ، أي : إذا وقعت في ذلك الوقت .

---

(1) هذا الأثر مقطوع ، وهو من قول مسروق كما في تفسير القرطبي : 7/ 194 ، ولم أقف عليه مسندا .

(2) أخرجه الطبري في تفسيره : 27/ 166 عن الضحاك ، ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 163 عن الضحاك أيضا .

(3) ذكره القرطبي في تفسيره : 17/ 195 .

(4) معاني القرآن للفراء : 3/ 121 ، ومعاني الزجاج : 5/ 108 ، والمفردات للراغب : 187 .

(45/742)

---

5 بُسَّتِ : هدّت أو دقّت ، والبسيسة : [بل] «1» السّويق .

7 أَزْواجاً ثَلاثَةً : أصنافا متشاكلة «2» ، وفسّر بما في سورة «الملائكة» من الظالم والمقتصد والسّابق «3» .

وروى النّعمان «4» بن بشير أنّ النّبيّ صلى اللّه عليه وسلم قرأ وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً إلى وَالسَّابِقُونَ ، فقال «5» : «هم السّابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان .

وروي «6» أيضا : «السّابقون يوم القيامة أربعة : فأنا سابق العرب ، وسلمان سابق فارس ، وبلال سابق الحبشة ، وصهيب سابق الروم» .

وفي حديث «7» آخر : «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة» .

---

(1) في الأصل و«ج» : «زاد» ، والمثبت في النص عن «ك» .

وانظر معاني القرآن للفراء : 3/ 122 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 247 ، وتفسير

الطبري : 27/ 167 ، والمفردات للراغب : 45 ، واللسان : 6/ 26 (بسس) .

(2) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 445 ، ومعاني الزجاج : 5/ 108 ، وتفسير القرطبي :

17/ 198 ، والبحر المحيط : 8/ 204 .

(3) يريد قوله تعالى : ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ آية : 32 .

وقد ورد هذا التفسير الذي أشار إليه المؤلف في أثر أخرجه ابن المنذر ، وابن مردويه ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما كما في الدر المنثور : 8/ 6 . [. . . . .]

(4) هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة بن جلاس الأنصاري الخزرجي . صحابي جليل .

ترجمته في الاستيعاب : 4/ 1496 ، وأسد الغابة : 5/ 326 ، والإصابة : 6/ 440 .

(5) لم أقف عليه بهذا اللفظ ، وأورد الحافظ ابن كثير في تفسيره : 7/ 490 رواية ابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «هم الضرباء» .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 7 ، وزاد نسبته إلى ابن مردويه عن النعمان ورفعه .

(6) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : 8/ 131 حديث رقم (7526) عن أبي أمامة مرفوعا ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد : 9/ 308 ، وحسّن إسناده .

(7) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : (1/ 211 ، 212) ، كتاب الجمعة ، باب «فرض الجمعة» ، والإمام مسلم في صحيحه : (2/ 585 ، 586) ، كتاب الجمعة ، باب «هداية هذه الأمة ليوم الجمعة» عن أبي هريرة رضي اللّه عنه مرفوعا .

(46/742)

---

8 ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ : أيّ شيء هم ؟ اللّفظ في العربية على التعجب ، وهو من اللّه تعظيم الشأن «1» .

وتكرير «السّابقين» «2» لأنّ التقدير : السّابقون إلى الطّاعة هم السّابقون إلى الرحمة «3» .

13 ثُلَّةٌ : جماعة «4» .

14 وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ : لأنّ الذين سبقوا إلى الإيمان بالنّبيّ صلى اللّه عليه وسلم قليل من كثير ممن سبق إلى الإيمان بالأنبياء قبله .

15 مَوْضُونَةٍ : مضفورة متداخلة .

17 وِلْدانٌ : وصفاؤهم أطفال الكفار «5» .

---

(1) هذا نص قول الزجاج في معانيه (5/ 108 ، 109) . وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة :

445 ، وتفسير الطبري : 27/ 170 ، وإعراب القرآن للنحاس : 4/ 324 ، وزاد المسير :

8/ 133 .

(2) في قوله تعالى : وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ آية : 10 .

(3) عن معاني القرآن للزجاج : 5/ 109 ، وانظر إعراب القرآن للنحاس : 4/ 324 ، وزاد المسير : 8/ 134 .

(4) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 248 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 446 ، وتفسير الطبري : 27/ 172 ، والمفردات للراغب : 81 .

(5) الوصيف : الخادم ، أو العبد كما في اللسان : 9/ 357 (وصف) .

وأورد الزمخشري في الكشاف : 4/ 53 حديث : «أولاد الكفار خدّام أهل الجنة» .

وذكر الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف : 162 أن البزار والطبراني في «الأوسط» أخرجاه من رواية عباد بن منصور عن أبي رجاء العطاردي عن سمرة بن جندب مرفوعا .

وقال أيضا : «رواه البزار من رواية علي بن زيد بن جدعان ، والطيالسي ، والطبراني ، وأبو يعلى من رواية يزيد الرقاشي كلاهما عن أنس بهذا وأتم منه» .

قال الحافظ : «قلت : قد يعارضه حديث سمرة في صحيح البخاري ، ففيه أنه رأى أولاد الناس تحت شجرة يكفلهم إبراهيم عليه السلام ، قال : فقلنا : وأولاد المشركين ؟ قال : وأولاد المشركين» أخرجه بهذا اللفظ ويمكن الجمع بينهما بأن لا منافاة بينهما لاحتمال أن يكونوا في البرزخ كذلك ، ثم بعد الاستقرار يستقرون في الجنة خدما لأهلها» اه .

(47/742)

مُخَلَّدُونَ : مسوّرون «1» . وفي تاج المعاني «2» : روحانيون لم يتجسموا ، من قولك : وقع في خلدي ، أي : نفسي وروحي .

26 إِلَّا قِيلًا سَلاماً : بدل من «قيل» ، أي : لا يسمعون إلّا سلاما ، أو نعت/ل «قيل» ، أي : قيلا يسلم من اللّغو «3» . [95/ب]

28 سِدْرٍ مَخْضُودٍ : ليّن لا شوك ولا عجم «4» .

29 وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ : قنو الموز : نضد بعضه على بعض «5» .

30 وَظِلٍّ مَمْدُودٍ : في الزمان والمكان في الزمان لأنّه غير متغيّر بضحّ يجيء بدله ، وفي

المكان لأنّه غير متناه إلى حد يفنى فيه «6» ، ولكنه ظل

---

(1) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 123 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 446 ، ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 136 عن الفراء ، وابن قتيبة .

وأورد الطبري في تفسيره : 27/ 174 هذا القول وغيره من الأقوال ، ثم عقّب عليها بقوله :

«والذي هو أولى بالصواب في ذلك قول من قال معناه أنهم لا يتغيرون ، ولا يموتون ، لأن ذلك أظهر معنييه ، والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط : إنه لمخلد . . .» .

(2) في كشف الظنون : 270 : «تاج المعاني في تفسير السبع المثاني للشيخ الإمام أبي نصر منصور بن سعيد بن أحمد بن الحسن . وهو كبير في مجلدات . . ألفه سنه ثلاث وخمسين وثلاثمائة» .

(3) ينظر تفسير الطبري : 27/ 178 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 112 ، وإعراب القرآن للنحاس : 4/ 303 ، والتبيان للعكبري : 2/ 1204 .

(4) العجم - بالتحريك - : نوى التمر والنبق ، الواحدة عجمة ، ولغة العوام إسكان الجيم .

اللسان : 12/ 291 (عجم) .

وانظر القول الذي ذكره المؤلف في معاني القرآن للفراء : 3/ 124 ، ومجاز القرآن لأبي

عبيدة: 2/ 250، وتفسير الطبري: 27/ 179، ومعاني الزجاج: 5/ 112.

(5) أي وضع وجمع. ذكره المؤلف - رحمه اللّه - في وضح البرهان: 2/ 374.

[.....]

(6) وفي هذه الآية قال النبي صلى اللّه عليه وسلم: «إنّ في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، واقرؤا إن شئتم (وظل ممدود) اه -.

أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: 6/ 57، كتاب التفسير، تفسير سورة الواقعة.

وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه: 4/ 2175، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها».

(48/742)

ظليل لا شمس تنسخه، ولا حرور ينغّصه، ولا برد يفسده.

ولفظ ابن الأنباري «1»: ظل الجنة الكينونة في ذراها. تقول: لا أزال اللّه عنا ظلك، أي: الكينونة في ناحيتك والاستذراء بك.

31 وَماءٍ مَسْكُوبٍ: جار في غير أخدود يجري في منازلهم «2».

34 وَفُرُشٍ: العرب تكني عن المرأة بالفراش «3».

مَرْفُوعَةٍ : أي : على السّرر . أو مرتفعات الأقدار أدبا وحسنا .

35 أَنْشَأْنَاهُنَّ : أي : نساء أهل الدّنيا أعددناهنّ صبايا «4» .

36 أَبْكاراً : أو الحور أنشأناهنّ من غير ولادة .

37 عُرُباً العروب : الحسنة التبعل ، الفطنة بمراد الزّوج كفطنة العرب «5» وفي الحديث «6» : «جهاد المرأة حسن التبعّل» .

---

(1) ابن الأنباري : (271 - 328 هـ -) .

هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري البغدادي ، أبو بكر الإمام المقرئ النحوي .

صنف كتاب الزاهر ، والوقف والابتداء . . . وغير ذلك .

أخباره في طبقات النحويين للزبيدي : 153 ، ووفيات الأعيان : 4/ 341 ، وبغية الوعاة : 1/ 212 .

ونص قول ابن الأنباري في الزاهر : 2/ 74 : «و الظل معناه في اللّغة : الستر ، يقال : لا أزال اللّه عنا ظلّ فلان ، أي : ستره لنا . ويقال : هذا ظل الشجرة ، أي : سترها وتغطيتها» اه .

(2) تفسير الطبري : 27/ 184 ، وتفسير الماوردي : 4/ 170 ، وتفسير البغوي : 4/ 282 ، وتفسير الفخر الرازي : 29/ 165 ، وتفسير القرطبي : 17/ 209 .

قال القرطبي : «و كانت العرب أصحاب بادية وبلاد حارة ، وكانت الأنهار في بلادهم عزيزة لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء فوعدوا في الجنة خلاف ذلك ، ووصف لهم

أسباب النزهة المعروفة في الدنيا ، وهي الأشجار وظلالها ، والمياه والأنهار واطرادها»

اه .

(3) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 449 ، وتفسير البغوي : 4/ 283 ، والكشاف :

4/ 54 ، وزاد المسير : 8/ 141 .

(4) ذكره البغوي في تفسيره : 4/ 283 ، والقرطبي في تفسيره : 17/ 210 .

(5) المفردات : 328 ، واللسان : 1/ 591 (عرب) .

(6) ذكره ابن الجوزي في غريب الحديث : 1/ 79 بلفظ : «جهادكن حسن التبعل» .

(49/742)

والأتراب : اللّواتي نشأن معا في حال الصّبا «1» ، أخذ من لعب الصّبيان بالتراب .

39 ، 40 ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ، وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ : لما نزلت في السّابقين ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ «2» عسر ذلك على الصّحابة فنزلت هذه «3» ، وفسّرها عليه السّلام فقال : «من آدم إلينا ثلّة ومنا إلى يوم القيامة ثلّة .

وقد تضمنت أنه ليس هذا لجميع الأولين ولجميع الآخرين بل لجماعة منهم ، فاجتهد أن

تكون من أولئك .

41 وَأَصْحابُ الشِّمالِ : تتشاءم العرب بالشمال وتعبّر به عن الشّيء الأخس والحظ الأنقص . وقيل «4» : هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال .

وقيل «5» : الذين يأخذون كتبهم بشمالهم .

43 مِنْ يَحْمُومٍ : الدخان الأسود «6» ، وسمّي فرس النّعمان بن المنذر «اليحموم» لسواده «7» . ولما كان فائدة الظل التروّح فمتى كان من الدخان كان غير بارد ولا كريم .

53 فَمالِؤُنَ مِنْهَا : من الشّجر على الجنس «8» .

---

(1) المفردات للراغب : 74 ، واللسان : 1/ 231 (ترب) .

(2) الآيتان : 13 ، 14 من سورة الواقعة .

(3) انظر أسباب النزول للواحدي : 466 ، وتفسير البغوي : 4/ 284 ، وتفسير ابن كثير :

8/ 14 ، والدر المنثور : 8/ 7 .

(4) ذكره الطبري في تفسيره : 27/ 191 ، والنحاس في إعراب القرآن : 4/ 333 .

(5) ذكره النحاس في إعراب القرآن : 4/ 333 ، والقرطبي في تفسيره : 17/ 213 .

(6) معاني القرآن للفراء : 3/ 126 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 449 ، وتفسير الطبري :

27/ 191 ، والمفردات للراغب : 130 ، واللسان : 12/ 157 (حمم) .

(7) ينظر كتاب أسماء خيل العرب للغندجاني : 270 ، والحلبة في أسماء الخيل المشهورة للصاحبي التاجي : 71 ، وكتاب الخيل لعبد اللّه بن جزي : 40 . [. . . . .]

(8) معاني الفراء : 3/ 127 ، وتفسير القرطبي : 17/ 214 ، والبحر المحيط : 8/ 210 .

(50/742)

---

55 شُرْبَ الْهِيمِ : الإبل العطاش «1» . والهيام : داء تشرب معه الإبل فلا تروى «2» .

[96/أ] 58 تُمْنُونَ منى و/ أمنى : أراق «3» ، و«منى» لإراقة الدّماء بها .

60 نَحْنُ قَدَّرْنا : كتبنا الموت على مقدار «4» .

61 وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ

: نخلقكم في أيّ خلق شئنا من ذكورة أو أنوثة أو حسن أو قبح .

65 حُطاماً : هشيما يابسا لا حبّ فيه «5» .

تَفَكَّهُونَ : تندّمون في لغة تميم «6» . وقيل «7» : تعجبون .

71 تُورُونَ : الإيراء استخراج النّار من الزّند «8» . وفي حديث علي «9» رضي اللّه

عنه على ذكر النّبيّ صلى اللّه عليه وسلم : «أورى قبسا لقابس» أي : أظهر نورا من الحق .

---

(1) ينظر تفسير الطبري : 27/ 195 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 113 ، وتفسير الماوردي :

4/ 173 ، والمفردات للراغب : 547 .

(2) معاني القرآن للفراء : 3/ 128 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 450 ، واللسان :

12/ 626 (هيم) .

(3) تفسير الماوردي : 4/ 174 ، واللسان : 12/ 293 (منى) .

(4) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 4/ 174 عن ابن عيسى .

(5) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 251 ، وتفسير الطبري : 27/ 198 ، والمفردات للراغب :

123 .

(6) التفكه : التندم ، وتميم تقول يتفكنون أي : يتندمون ، اللسان 13/ 524 (فكه) .

(7) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 128 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 450 ، والطبري في تفسيره : 27/ 198 ، والماوردي في تفسيره : 4/ 176 .

(8) الزّند : خشب يحك بعضه على بعض فيخرج منه النار .

معاني القرآن للزجاج : 5/ 115 ، واللسان : 3/ 195 (زند) .

وانظر القول الذي أورده المؤلف في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 451 ، وتفسير الطبري : 27/ 201 ، والمفردات للراغب : 521 .

(9) النهاية لابن الأثير : 4/ 4 .

(51/742)

---

73 تَذْكِرَةً : تذكركم النّار الكبرى «1» ، ومَتاعاً : في الاستضاءة ، والاصطلاء . والإنضاج ، والتحليل . . . وغيرها من الإذابة والتعقيد والتكليس «2» .

وأقوى «3» من الأضداد «4» أغنى وافتقر ولذلك اختلف في تفسيره بالمسافرين وبالمستمتعين «5» .

75 بِمَواقِعِ النُّجُومِ : مطالعها ومساقطها «6» . أو انتثارها يوم القيامة «7» .

أو هو نجوم القرآن «8» ، نجّمه جبريل على النّبيّ صلى اللّه عليه وسلم .

76 وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ : اعتراض ، ولَوْ تَعْلَمُونَ اعتراض آخر في هذا الاعتراض «9» .

81 مُدْهِنُونَ : منافقون ، أدهن وداهن ، ويقال : داهنت : داريت ،

---

(1) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 451 ، وتفسير الطبري : 27/ 201 ، وتفسير القرطبي :

17/ . 221

(2) في اللسان : 6/ 197 (كلس) : «التكليس : التمليس» .

(3) من قوله تعالى : وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ آية : . 73

(4) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 252 ، واللسان : 15/ 210 (قوا) .

[. . . . .]

(5) ينظر هذه الأقوال في تفسير الطبري : (27/ 201 ، 202) ، وعقّب عليها الطبري بقوله :

«و أولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال : عني بذلك للمسافر الذي لا زاد معه ، ولا شيء له ، وأصله من قولهم : أقوت الدار : إذا خلت من أهلها وسكانها . . .» .

(6) هذا قول أبي عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 252 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 27/ 204 عن مجاهد ، وقتادة .

ورجحه الطبري لأن «المواقع جمع «موقع» ، والموقع المفعل ، من وقع يقع موقعا ، فالأغلب من معانيه والأظهر من تأويله ما قلنا في ذلك ، ولذلك قلنا : هو أولى معانيه به» .

(7) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 27/ 204 عن الحسن رحمه اللّه تعالى .

ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 178 عن الحسن ، وكذا البغوي في تفسيره : 4/ 289 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 151 ، والقرطبي في تفسيره : 17/ 223 .

(8) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 451 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 27/ 203 عن ابن عباس ، وعكرمة .

(9) ينظر الكشاف : 4/ 58 ، والتبيان للعكبري : 2/ 1206 ، والبحر المحيط : 8/ 214 .

(52/742)

وأدهنت : غششت «1» .

82 وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ أي : تجعلون جزاء رزقكم التكذيب ، فيدخل فيه قول العرب : مطرنا بنوء كذا «2» .

وقيل «3» : تجعلون حظكم من القرآن الذي رزقتم التكذيب به .

83 فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ أي : هلا إذا بلغت هذه النّفس التي زعمتم أنها لا تبعث .

86 غَيْرَ مَدِينِينَ : الدّين هنا : الطاعة والعبادة لا الجزاء «4» ، أي : فهلّا أن كنتم غير

مملوكين مطيعين مدبّرين ، وكنتم كما قلتم مالكين حلتم بيننا وبين قبض الأرواح ورجعتموها في الأبدان ، وإلّا فلا معنى للعجز عن ردّ الرّوح في الإلزام على إنكار الجزاء .

و«ترجعون» «5» جواب ل «لولا» الأولى والثانية «6» لأنّ المعنى

---

(1) تفسير القرطبي : 17/ 228 ، واللسان : 13/ 162 (دهن) .

(2) يدل عليه الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : مطر الناس على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال النبي - صلى اللّه عليه وسلم - : «أصبح من الناس شاكر ، ومنهم كافر» قالوا : هذه رحمة اللّه .

وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا ، فنزلت هذه الآية : فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ حتى بلغ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ اه - .

صحيح مسلم : 1/ 84 ، كتاب الإيمان ، باب «بيان كفر من قال مطرنا بالنوء» .

وانظر تفسير الطبري : 27/ 208 ، وأسباب النزول للواحدي : 467 .

(3) ذكره الزجاج في معانيه : 5/ 116 ، والماوردي في تفسيره : 4/ 180 .

(4) هذا معنى قول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 452 ، ونقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 156 .

(5) من قوله تعالى : تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ آية : 87 .

(6) في قوله تعالى : فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ [آية : 83] ، وقوله : فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ

[آية: 86].

وانظر إعراب هذه الآية في معاني القرآن للفراء: 3/ 130، وتفسير الطبري: 27/ 211، وإعراب القرآن للنحاس: 4/ 345، والتبيان للعكبري: 2/ 1206.

(53/742)

متفق، ووجه الإلزام أنّ إنكار أن يكون القادر على النّشأة الأولى قادرا على الثانية كادعاء أنّ القادر على الثانية إنّما هو من لم يقدر على الأولى لأن إنكار الأولى يقتضي إيجاب الثاني كإنكار أن يكون زيد المتحرك، حرّك [96/ ب] نفسه في اقتضاء أنّ غيره حرّكه.

89 فَرَوْحٌ: راحة وبرد «1». وفي قراءة النّبيّ صلى اللّه عليه وسلم برواية عائشة «2»، وقراءة ابن العباس، والحسن، وقتادة، والضحاك، والأشهب»، ونوح القاري «4»، وبديل «5»، وشعيب بن الحربي «6»، وسليمان التيمي «7»،

---

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 2/ 253، وتفسير الطبري: 27/ 211، ومعاني القرآن للزجاج: 5/ 117.

(2) عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه كان يقرأ فَرَوْحٌ بضم الراء، وقد أخرج هذا الأثر

الإمام أحمد في مسنده : 6/ 64 من طريق هارون الأعور ، وكذا البخاري في التاريخ الكبير : 8/ 223 ، وأبو داود في سننه 4/ 290 حديث رقم (3991) كتاب الحروف والقراءات ، والترمذي في سننه : 5/ 190 رقم (2937) كتاب القراءات ، باب «ومن سورة الواقعة» ، وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث هارون الأعور ، وأخرجه - أيضا - النسائي في التفسير : 2/ 382 رقم (586) ، والحاكم في المستدرك : 2/ 236 ، كتاب التفسير ، وقال :

هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي .

(3) هو الأشهب العقيلي . [. . . . .]

(4) ترجم له ابن الجزري في غاية النهاية : 2/ 343 ، وقال : «ذكره الحافظ أبو عمرو ، وقال :

قال محمد بن الحسن النقاش : ثم كان بعد أبي عمرو بن العلاء - يعني من رواة الحروف المتصدرين - نوح القاري . وذكر جماعة» .

(5) هو بديل - بضم الباء الموحدة - بن ميسرة العقيلي ، روى عن أنس ، وعبد الله بن شفيق وشهر ، وروى عنه شعبة وهشام ، وحماد بن زيد . . . وغيرهم .

ترجمته في الجرح والتعديل : 2/ 428 ، والمؤتلف والمختلف للدارقطني : 1/ 165 .

(6) كذا في «ك» ، وفي المحتسب : 2/ 310 : «شعيب بن الحارث» ، وفي البحر المحيط

:

8/ 215 : «شعيب بن الحبحاب» .

ولعله شعيب بن حرب بن بسام بن يزيد المدائني البغدادي والمترجم في غاية النهاية :

1/ 327 .

(7) هو سليمان بن قتّة – بفتح القاف ومثناة من فوق مشددة – كذا ضبطه ابن الجزري في غاية النهاية : 1/ 314 ، وقال : وقته أمه – ثقة ، عرض على ابن عباس ثلاث عرضات ، وعرض عليه عاصم الجحدري» .

(54/742)

والربيع «1» بن خثيم ، وأبي عمران «2» الجوني وأبي جعفر محمد بن علي ، والفيّاض «3» فَرَوْحٌ بضم الراء «4» ، أي : حياة لا موت بعدها «5» .

وَرَيْحانٌ : استراحة «6» . أو رحمة . وقيل «7» : رزق .

وفي الحديث «8» : «إنّ المؤمن إذا نزل به الموت يلقّى

---

(1) هو الربيع بن خثيم بن عائذ بن عبد اللّه الثوري الكوفي ، أبو يزيد . الإمام التابعي الثقة . ترجمته في غاية النهاية : 1/ 283 ، وتقريب التهذيب : 206 .

(2) هو عبد الملك بن حبيب البصري ، أبو عمران الجوني .

قال الحافظ في التقريب : 362 : «مشهور بكنيته ، ثقة ، من كبار الرابعة ، مات سنة ثمان وعشرين ، وقيل بعدها» .

وانظر ترجمته في سير أعلام النبلاء : 5/ 255 ، وشذرات الذهب : 2/ 123 .

(3) هو فياض بن غزوان الضبي الكوفي .

قال ابن الجزري في غاية النهاية : 2/ 13 : «مقرئ موثق ، أخذ القراءة عرضا عن طلحة بن مصرف . . .» .

(4) ينظر هذه القراءة المنسوبة إلى هؤلاء في تفسير الطبري : 27/ 211 ، وإعراب القرآن للنحاس : 4/ 346 ، والكشاف : 4/ 60 ، والبحر المحيط : 8/ 215 ، والنشر : (3/ 325 ، 326) ، وإتحاف فضلاء البشر : 2/ 517 .

(5) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 5/ 117 ، وانظر هذا المعنى في معاني الفراء :

3/ 131 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 452 ، وزاد المسير : 8/ 157 .

(6) ورد هذا القول في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 27/ 212 عن الضحاك ، وذكره الماوردي في تفسيره : 4/ 181 ، والبغوي في تفسيره : 4/ 291 .

(7) ذكره الفراء في معانيه : 3/ 131 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 452 ،

وأخرجه الطبري في تفسيره : (27/ 211 ، 212) عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وذكره الراغب في المفردات : 206 .

وعقّب الطبري – رحمه اللّه – على الأقوال التي قيلت في «الروح» ، و«الريحان» بقوله : «و أولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال : عني بالروح : الفرح والرحمة والمغفرة ، وأصله من قولهم : وجدت روحا : إذا وجد نسيما يستروح إليه من كرب الحر وأما «الريحان» ، فإنه عندي الريحان الذي يتلقى به عند الموت . . . لأن ذلك الأغلب والأظهر من معانيه» اه – .

(8) أورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 38 ، وعزا إخراجه إلى عبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا في «ذكر الموت» وعبد اللّه بن أحمد في «زوائد الزهد» عن أبي عمران الجوني .

(55/742)

بضبائر «1» الرّيحان من الجنّة فيجعل روحه فيها» . انتهى انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 792. 803 ﴾

---

(1) الضبائر : الجماعات في تفرقة ، واحدتها ضبارة .

النهاية : 3/ 71 .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الواقعة

عدد 46 - 56

نزلت بمكة بعد سورة طه عدا الآيتين 81 و82 فإنهما نزلتا في المدينة ، وهي ست وتسعون آية ، وثلاثمائة وثمان وسبعون كلمة ، وألف وسبعمئة وثلاثة أحرف ، وقد أشرنا أول سورة التكوير عن السور المبدوءة ب (إذا) ، روى البغوي بسنده عن عبد اللّه بن مسعود قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا .

وكان أبو ضبّة لا يدعها أبدا ، أخرجه ابن الأثير في كتابه جامع الأصول .

وجاء في كتاب الأوراد للرفاعي رحمه اللّه أن قراءتها تكون بعد صلاة المغرب وأنها أمان من الفقر .

وسنأتي في آخرها على ما يتعلق في هذا البحث .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)

قال تعالى : "إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ" 1 قامت القيامة الكبرى ، ووصفت بالوقوع لأن قيامها يكون غفلة بسرعة ، كسقوط الشيء من العلو ، وجاءت بلفظ الماضي لأنها محققة الوقوع لا محالة ، ووقوع الأمر عبارة عن نزوله ، تقول وقع به ما كنت أتوقعه أي نزل ما كنت أترقبه ، وإذا منصوبة باذكر المقدّرة ، أي اذكر يا محمد لقومك كيفية قيام القيامة التي "لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ" 2 أي أنها حين تقع لا تجد نفسا إذ ذاك إلا وتصدق بوقوعها بخلاف أهل زمانك ، الآن الذين ينكرون وجودها ، "خافِضَةٌ" لأقوام كانوا رفيعين في الدنيا متعالين على الناس تخفضهم إلى دركات جهنم بحسب أعمالهم الخبيثة "رافِعَةٌ" 3 لأناس كانوا وضيعين في الدنيا أذلاء مخبتين ترفعهم إلى أعالي درجات الجنان جزاء أعمالهم الحسنة .

واعلم يا سيد الرسل أن امارة قيامها "إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا" 4 اضطربت اضطرابا هائلا قويا فهدم كل بناء عليها "وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا" 5 فتّت فتا دقيقا "فَكانَتْ" على عظمها وشموخها "هَباءً مُنْبَثًّا" 6 غبارا متفرقا كالذر الذي يرى في شعاع الشمس إذا دخل من الكوة إلى الأرض

"وَكُنْتُمْ" أيها الناس حينذاك "أَزْوَاجاً ثَلاثَةً" 7 صنفين في الجنة وواحدا في النار ، وكل ما كان بعضه من بعض أو يذكر بعضه مع بعض يسمى زوجا ، وإلا فأصناف وأنواع وأحزاب ، ثم بينها بقوله عزّ قوله "فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ" جانب اليمين الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم فيؤخذ بهم إلى ذات اليمين وهي الجنة ، وهذا الزوج الأول الذي يتعجب المتعجب من سعادتهم لكثرة ما يفيض اللّه عليهم من كرمه وإحسانه ، ينبئك عن ذلك قوله تعالى "ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ" 8 أي شيء عظيم هم عليه من السعادة الدائمة بما لا يتصوره المتصورون ، وهذا التعجب تعظيم لشأنهم وتفخيم لقدرهم لأنهم كانوا في الدنيا ميامين مباركين ، فجوزوا بالآخرة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، يتعجب مما أعطاهم ربهم المتعجبون ، ويتنافس فيما أفاض عليهم من كرمه المتنافسون "وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ" جانب الشمال الذين يأخذون كتبهم بشمالهم ويساقون لذات الشمال وهي النار أجارنا اللّه منها ، وهذا الزوج الثاني الذي يتعجب المتعجب من شقائهم لعظيم الغضب الذي يحل بهم من عقاب اللّه وانتقامه ويخبرك عن عظم هوله قوله جل قوله "ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ" 9 شيء فظيع هم عليه وخطب كبير ألمّ بهم ، بلغ منتهى الفظاعة ، وهذا التعجب بليغ من سوء حالهم في الشقاء الذي لم يتصوره العقل وتحقير وتوبيخ لهم ، لأنهم كانوا في الدنيا مشائيم أدنياء ، ثم نوه بالزوج الثالث الذي هو الأول في المرتبة وقد أخره في الذكر لأنه تعالى ذكر أوائل هذه السورة القيامة وأهوالها ترهيبا للمسيء

ليرجع عن إساءته وترغيبا للمحسن ليزداد في إحسانه ، فقدم أصحاب اليمين ليرغب السامعون ، وثنى بأصحاب الشمال ليرهبوا ، وثلث بهذا الصنف الذي تتطاول إليه الأعناق ، وتصيخ لما خصصوا به الأسماع ، ليتشوقوا إليه منوها بفضلهم بقوله "وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ" 10 الأول مبتدأ والثاني خبره ،

(58/742)

أي إلى الجنة ، لأنهم كانوا يتسابقون بأعمال الخير في الدنيا

"أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ" 11 لجوار اللّه وكرامته الكائنون غدا "فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ" 12 بلا حساب ولا عتاب

يدخلونها رأسا ، وهؤلاء هم الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ، ليجتهد (اللام هنا لام كي) أصحاب اليمين في التقرب لدرجتهم وليحزن أصحاب الشمال لبعدهم عنهم ، وهؤلاء السابقون منهم "ثُلَّةٌ" جماعة كثيرة لأن التنوين يدل على التكثير كقوله :

وجاءت إليهم ثلة خندفية بجيش كتيّار من السيل مزبد

"مِنَ الْأَوَّلِينَ" 13 من لدن آدم إلى زمن محمد صلوات اللّه وسلامه عليهما "وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ" 14 من بعثة محمد صلى اللّه عليه وسلم إلى يوم القيامة ، لأن أمته بالنسبة لمن

تقدمها من الأمم قليلون جدا ، روى البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه قال : كنا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في قبة نحوا من أربعين ، فقال :

أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة ؟ قلنا نعم .

قال أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ قلنا نعم .

قال : والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة .

(59/742)

وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة مسلمة ، وما أنتم من أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأبيض ، ثم طفق يبين ما أعده في تلك الجنان لهم فقال "عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ" 15 منسوجة بالذهب موشاة بالجواهر المنيرة "مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ" 16 على السرر مع أحبابهم ، ينظر بعضهم لوجوه بعض عند التخاطب والقعود ، وهذا من أحسن أوصاف حسني العشرة صافي الوداد ، مهذّبي الأخلاق ، والعكس بالعكس ، لأن من لا ينظر إليك عند ما تخاطبه لم يبال بك ، ومن لا تنظر إليه عند مخاطبته لم تحترمه ولا تعبا به ففيها سوء خلق وقلة أدب وعدم محبّة من الطرفين ، هذا ومما أعدّ لهم فيها أيضا خدم كثيرون بدليل قوله عز قوله "يَطُوفُ عَلَيْهِمْ

وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ" 17 في سن الشبوبة لا يهرمون ولا يموتون خلقهم اللّه في الجنة لخدمة أهلها لا يتجاوزون حد الوصافة.

مطلب معنى المخلدين ومصير أولاد المشركين وآداب الأكل :

(60/742)

واعلم أن لفظة (خلد) كما تدل على البقاء والدوام حقيقة تدل على التسوّر، أي لبس السوار باليد والقرط بالأذان، وعليه يكون المعنى مسورون مقرطون، ولو أراد اللّه تعالى معنى البقاء والدوام لقال خالدين كما قال في أهل الجنة ولا تجد في القرآن كله مخلّدين غير هذه، ولهذا أقول واللّه أعلم إن المراد بمخلدين المعنى الأخير، لأن الخادم إذا كان مزينا بالحلي يكون أنضر بعين المخدوم، ولهذا تجد أهل الدنيا يزينون عبيدهم بأحسن اللباس والسلاح المذهب، ولم يصف الحور العين بالتخليد لأن حسنهن أغناهن عنه، والغانية من اكتفت بحسنها عن التزين بالحلي، أي أنهم ليسوا كالحور العين من هذه الحيثية، وما قيل إن الولدان أطفال المؤمنين لا يتجه لأن اللّه تعالى قال: (أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) الآية 21 من سورة الطور الآتية في ج2، فذراري المؤمنين مع آبائهم في الجنة يخدمون، وهذا حكم اللّه فيهم ولا راد لحكمه، وما قيل إنهم أولاد الكفار الذين ماتوا قبل سن التكليف لا يصح أيضا، وقد

اختلفت أقوال العلماء فيهم ، فمنهم من قال إنهم في الجنة وهو الأقرب ، لأن اللّه تعالى لا يعذب قبل التكليف ، وإذ لم يعذبوا فهم ناجون ، والناجون من أهل الجنة ، لأن الأمر يدور بين الجنة والنار ، فمن زحزح عن النار فقد دخل الجنة ، راجع الآية 45 من سورة الأعراف المارة ، ولهذا البحث صلة في الآية 184 من آل عمران في ج 3 ، ما لم يكونوا من الذين سبق ذكرهم في تفسير الآية الأخيرة من سورة طه المارة ، ومنهم من قال إنهم من أهل النار تبعا لآبائهم وهو بعيد ، لأن اللّه أكبر من أن يعذب من لم يكلفه ، وهم لم يبلغوا حد التكليف كيف وقد قال : (وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى) الآية 27 من سورة والنجم المارة وقوله تعالى : (وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) الآية 15 من سورة الإسراء الآتية ، وإذا كان من لم تبلغه الدعوة والمجنون

الكبير يسقط عنهم التكليف فيدخلون الجنة على ما هم عليه ، فكيف بالطفل الذي لا يعقل شيئا ، ومنهم من توقف فيهم وفوض أمرهم إلى اللّه ونعم المفوض إليه ، فإنه أكرم من أن يعذبهم "بِأَكْوابٍ" متعلق بيطوف وهي الأواني التي لا عرى لها ولا خرطوم كالأقداح المستديرة "وَأَبارِيقَ" الأواني ذات العرى والخراطيم وهي معروفة ، وسميت أباريق لبريق

لونها وصفائها إذ يرى باطنها من ظاهرها "وَكَأْسٍ" هو الإناء المملوء شرابا وإلا فلا يسمى كأسا بل قدحا أو زجاجة "مِنْ مَعِينٍ" 18 نبع عين ظاهرة كثير ماؤها لا ينضب لأنها ليست من عمل البشر ، وهؤلاء الذين يشربون هذا الشراب "لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا" لا يصيبهم صداع في رأسهم بسبب شربها كخمرة الدنيا القبيحة "وَلاَ يُنْزِفُونَ" 19 ولا تذهب عقولهم بسببها ، ومعنى نزف الرجل ذهب عقله بالسكر ، وقرىء بكسر الزاي ، أي لا ينغذ ذلك الشراب مهما شربوا منه ، فيكون الفعل من انزف ينزف بمعنى فني ونفد وخلص ، وهذه التي يقول فيها ابن الفارض رحمه اللّه :

تهذب أخلاق الندامى فيهتدي بها لطريق العزم من لا له عزم

إلى أن قال فيها :

ولو نضحوا منها ثرى قبر ميت لعادت إليه الروح وانتعش الجسم

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم

بخلاف خمر الدنيا والعياذ باللّه فإنها مهلكة للجسم والعقل ، مدنسة للشريف والكيف "وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ" 20 من أحسن أنواعها وأفضله ، ومن هنا اقتبس جواز الانتقاء في أكل الفواكه سواء كانت مما يليه أو لا بخلاف الأكل فإنه لا يجوز إلا مما يليه ، فالتناول من أمام الغير ممنوع لقوله صلى اللّه عليه وسلم : وكل مما يليك .

ولهذا بسنّ في كل الأحوال أن يأكل الرجل مما يليه ، وإلا فقد أساء الأدب وصار شرها مخالفا لنهي الرسول صلى اللّه عليه وسلم وهذا هو الحكم الشرعي في الأكل

(62/742)

"وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ" 21 ويخطر في بالهم أكله ويتمنونه من جميع أصناف الطيور ، فإنه يحضر أمامهم حالا على الصّفة التي يريدونها من أنواع الطهي "وَحُورٌ عِينٌ" بيض واسعات الأعين وهي في الصفاء "كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ" 23 المخزون

في صدفه المصون من أن تلمسه يد لامس أو تقع عليه شمس أو هواء مما يكسف لونه مثل الدرّة حين تخرج من صدفتها ، وهذا كله يكون في تلك الجنات التي فيها النعيم الذي لا يقادر قدره إلا الذي خلقه للمقربين "جَزاءً" لهم في الآخرة "بِما كانُوا يَعْمَلُونَ" 24 في الدنيا من الطاعات والخيرات "لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً" من فضول الكلام "وَلا تَأْثِيماً" 25 من قول أو فعل فاحش يؤتثم به "إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً" 26 على بعضهم من بعضهم ومن الملائكة ، ثم شرع يصف ما لأصحاب اليمين عنده فقال "وَأَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ 27 فِي سِدْرٍ" هو شجر النبق له ثمر صغير يشبه التفاح في الطعم والرائحة إلا أن ورقه مدور ، وفيه شوك لم يوجد في التفاح ، وهو موجود في البوادي أكثر منه في المدن والقرى ، وورقه

يقوم مقام الأشنان كالخطمي بالنظافة .

هذا هو الذي في الدنيا ، أما الذي في الآخرة فهو "مَخْضُودٍ" 28 من الشوك وثمره عظيم وشجره كبير "وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ" 29 متراكم بعضه على بعض ويمتاز عن طلح الدنيا بالحجم والرائحة وعدم الغلاف ، إذ لا فضول في فواكه الآخرة ، كما أن أهلها لا فضول لهم ، فهي وأهلها مبرأون من كل دنس ورجس وقذر ، والمراد به الموز ، وهو والتين أشبه بفاكهة الآخرة إذ لا فضول فيهما ، "وَظِلٍّ مَمْدُودٍ" 30 منبسط دائما لا تنسخه شمس ، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة اقرأوا إن شئتم وظل ممدود

(63/742)

"وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ" 31 مصبوب في الأكواب مهيأ للشرب موضوع بين أيديهم لا يحتاجون إلى كلفة الغرف والصبّ كلما فرغت آنيته ملئت "وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ" 32 لأنها "لا مَقْطُوعَةٍ" كفاكهة الدنيا حتى تنفذ في موسمها "وَلا مَمْنُوعَةٍ" 33 من قبل أحد يحول دون قطفها ولا هي تابعة للبيع والشراء لأن أثمار الجنة أدي ثمنها في الدنيا وهي لا تحتاج للتناول بل غصنها نفسه يميل لطالبها ليقطف منها ما يريده ومتى ما قطف صار مكانه ، لهذا وصفت بأنها

غير مقطوعة وغير ممنوعة "وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ" 34 عالية ويكنى بها عن النساء الحسان المتعليات عليها بدليل قوله "إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ" خلقناهن وأبدعناهنّ "إِنْشَاءً" 35 جديدا بخلاف ما كن عليه في الدنيا ، وذلك أن العرب تسمي المرأة فراشا ولباسا على طريق الاستعارة ، والقرآن جاء بلغتهم ، وعلى هذا يكون المعنى مرفوعة بالفضل والجمال والأدب والصون على نساء الدنيا ، واللّه جل شأنه يشير بذلك إلى نساء المؤمنين ، المؤمنات أصحاب اليمين لأنهن لأزواجهن الأخيرين في الدنيا "فَجَعَلْنَاهُنَّ" بعد أن كنّ ثيبات صيّرناهن "أَبْكَاراً" 36 كنساء الجنة عذارى كأنهن لم يطمثن "عُرُباً" حسنات التبعل متحببات لأزواجهن "أَتْراباً" 37 مستويات في السن أمثالا في الخلق عمر الواحدة ثلاث وثلاثون سنة .

مطلب نساء أهل الجنة والذين يدخلونها بغير حساب :

جاء عن معاذ بن جبل عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : يدخل أهل الجنة الجنة جردا مردا مكحلين أبناء ثلاثين أو قال ثلاث وثلاثين .

وعليه فمن كانت عند موتها دون هذا السن أبلغت إليه ، ومن كانت فوقه ردت إليه ، لأنه سن الكمال في النساء ، كما أن الأربعين سن الكمال في الرجال ، ومما يدل على هذا ما رواه البغوي بسنده عن الحسن قال : أتت عجوز إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقالت : يا رسول اللّه أدع اللّه أن يدخلني الجنة ، فقال : يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز (وهذا من جملة مزحه صلى اللّه عليه وسلم إنه كان يمزح ولا يقول إلا حقا) قال فولت تبكي قال أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، إن اللّه تعالى قال (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً) وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن أنس بن مالك عن النبي صلى اللّه عليه وسلم في قوله تعالى (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ) إلخ قال عجائز تركن الدنيا عمشا رمضا فجعناهن أبكارا إلخ .

وهذا الخير الكثير المار ذكره كله "لِأَصْحابِ الْيَمِينِ" 38 وعشرة أمثاله نسأل اللّه أن يجعلنا منهم "ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ 39 وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ" 40 تقدم تفسير مثله ، وقد روى البغوي بإسناد الثعلبي عن عروة بن دويم قال :

لما أنزل اللّه عز وجل (ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ) بكى عمر رضي اللّه عنه فقال يا نبي اللّه آمنا برسول اللّه وصدقناه ، ومن ينجو منا قليل ؟ فأنزل اللّه (ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ) فدعا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عمر فقال قد أنزل تعالى فيما قلت ، فقال رضينا عن ديننا وتصديق نبينا ، فقال صلى اللّه عليه وسلم من آدم إلينا

ثلّة ، ومنا إلى يوم القيامة ثلة ، ولا يستتمها إلا سودان من رعاة الإبل ممن قال لا إله إلا اللّه .

وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

(65/742)

عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط تصغير رهط وهو دون العشرة وتستعمل للأربعين كما مر في الآية الأولى من سورة الجن المارة ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذ رفع إلي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي هذا موسى وقومه ، ولكن أنظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم ، فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، ثم نهض فدخل منزله فخاض القوم في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، قال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا رسول اللّه ، وقال بعضهم فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا باللّه ، وذكروا أشياء ، فخرج رسول اللّه عليهم فقال ما الذي تخوضون فيه ؟ فأخبروه فقال : هم الذين لا يرقون ولا يسترقون (أي لا يقرأون على الناس ولا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم من تعاويذ وغيرها لأنهم متوكلون على اللّه تاركون الأسباب لمسببها) ولا يتطيرون (يتشاءمون من شيء) وعلى ربهم يتوكلون في كل أمورهم .

فقام عكاشة بن محصن فقال يا رسول اللّه أدع اللّه أن يجعلني منهم ، فقال أنت منهم ، فقام رجل آخر فقال يا رسول اللّه أدع اللّه أن يجعلني منهم ، فقال سبقك بها عكاشة .

وليعلم أن الآية الأخيرة غير ناسخة للأولى ، لأن الأولى في السابقين الأولين ، وهم قليل بالنسبة للأمم قبلهم ، ولذلك قال تعالى وقليل من الآخرين ، والآية الثانية في أصحاب اليمين وهم كثير ، ولذلك قال وثلة من الآخرين ، وما جاء في بكاء عمر وحزنه في الحديث السابق المروي عن عروة والحديث الذي رواه أبو هريرة في معناه وزاد فيه فنسخت ، وقليل من الآخرين أي منهم ، فيكثرهم الفائزون

(66/742)

في الجنة من الأمم السوالف ، ولذلك حزن عمر رضي اللّه عنه وقال له صلى اللّه عليه وسلم ما قال مما أذهب حزنه ، لأن الحديث لا ينسخ القرآن كما نوهنا به في المقدمة في بحث الناسخ والمنسوخ ، على أنه ليس فيه نسخ كما زعم بعضهم ، وإذا صح ما جاء في حديث أبي هريرة من قوله فنسخت (وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ) فينبغي تأويله بأن يقال أراد به فأزالت حسبان عمر ، أي بذكر نحوه في الفائزين بالجنة من هذه الآية غير السالفين ، فتدبر .

(67/742)

ثم بدأ يشرح أحوال الأشقياء حفظنا اللّه منهم ومما هم صائرون إليه فقال عز قوله "وَأَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ" 41 فيه تهويل من عظيم ما هم صائرون إليه من شدة العذاب ، لأنهم يومئذ يكونون "فِي سَمُومٍ" أشد الرياح حرا يكاد حرها يدخل في مسام الأديم "وَحَمِيمٍ" 42 ماء متناه في الحرارة والغليان يعطونه إذا اشتد عطشهم فيزيد ببلائهم أجارنا اللّه من ذلك "وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ" 43 دخان بالغ من السواد أقصاه ، ثم وصفه بأنه "لا بارِدٍ" لأنه ناشىء عن دخان حار "وَلا كَرِيمٍ" 44 لأنه لا ينفع من يأوي إليه ليستظل به لأن كرم الظل الاسترواح به من وهج الحر ، وإنما صيّرهم اللّه إلى هذه الحالة السيئة بسبب "إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ" الوقوع في هذا العذاب في دنياهم "مُتْرَفِينَ" 45 بنعم اللّه وقد تقووا بها على معصيته فاستعملوها لغير ما خلقت لها "وَكانُوا" مع ذلك في دنياهم أيضا "يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ" 46 يداومون على الذنب الذي يتحنث منه ويتأثم به ، يقال بلغ الغلام الحنث أي زمن ما يكون مؤاخذا به على عمله السيء ويعد عليه إثما إذ قبل البلوغ لا يعتد به ولا يعاقب عليه ، وقد وصفه بالعظيم ليعلم أن المراد منه الشرك باللّه ، إذ لا أعظم منه ذنبا "وَكانُوا يَقُولُونَ" بعضهم لبعض فضلا عن ذلك "أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ" 47 استفهام إنكار وسخرية باللّه ورسله الذين أخبروهم بالبعث بعد الموت الذي ينكرونه وخوفوهم عاقبته ويقولون أيضا "أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ" 48 يبعثون

أيضا ، زيادة في الاستهزاء ، وقد جاء هنا العطف على المضمر من غير تأكيد في الضمير المنفصل كما في نحو (اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ) الآية 35 من البقرة في ج 3 ، ومثلها

(68/742)

في الآية 68 من الأعراف المارة في قوله (نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا) الآية 35 من سورة النحل في ج 2 ، وإنما جاز ذلك لوجود الفاصل وهو الاستفهام ، كما جاز الفصل بلا في الآية الأخيرة وفي الآية 147 من سورة الأنعام ، وهي (ما أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا) لتأكيد النظر بلا المذكورة .

مطلب صحة العطف على الضمير من غير تأكيد :

فلم يبق من حاجة لذكر نحن في الآيتين الأخيرتين ، لأن الضمير المنفصل إنما يجب الإتيان به لصحة العطف إذا لم يكن هناك استفهام ولا نفي مؤكد كما في آية النحل وهاتين الآيتين أي الآية المفسرة وآية الأنعام ، فيا أكرم الرسل "قُلْ" لقومك المقتفين آثار أولئك الكفرة والجاحدين المقلدين لهم بإنكار البعث "إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ" 49 من جميع الخلق طائعهم وعاصيهم وعزة الله وجلاله وعظمته ونواله "لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ" 50 عند الله وواقفون بين يديه للحساب والجزاء

"ثُمَّ" يقال لهم من قبل الملائكة الموكلين بتبليغهم وسؤالهم من قبل الله "إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ" عن

طرق الهدى "الْمُكَذِّبُونَ" 51 بهذا اليوم "لَآكِلُونَ" في جهنم زيادة على تعذيبكم فيها "مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ" 52 شديد المرارة وهو نبت فيها أشبه بالحنظل في أرض الدنيا ، "فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ" 53 رغما عنكم لأن ملائكة العذاب يقسرونهم على أكله والشرب من الحميم أيضا ، ليزيدوا في تعذيبهم كما تعلف الدواب المربوطة قسرا من قبل أهل الدنيا "فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ" عند شدة عطشكم "مِنَ الْحَمِيمِ 54 فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ" 55 الإبل المصابة في داء الهيام فإنها لفرط ظمئها لا تزال تشرب حتى تهلك ، لأنها لا تروى قال الشاعر :

فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد صداها ولا يقضي عليها هيامها

و من كان شربه والعياذ بالله الماء المغلي كيف يروى ؟ وهذا بعض عذاب أهل النار ، إذ يسلط عليهم الجوع فتضطرهم الملائكة لأكل الزقوم ، ويسلط عليهم العطش فتضطرهم أيضا لشرب الهيم "هذا" أيها السائل "نُزُلُهُمْ" ما يقدم إليهم في جهنم أول دخولهم فيها ويلجئونهم على تناوله تكرمة لهم على حد قوله (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) الآية 21 من آل عمران في ج 3 ، وقوله (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) الآية 49 من الفرقان في ج 2 ، على

طريق التقريع والاستهزاء (والنزل) هو أول ما يقدم للضيف عند قدومه ثم بعد استراحته يقدم له الطعام والشراب ، وأهل النار أول ما يقدم لهم ذلك ثم يأتيهم والعياذ بالله ما لم تتخيله أذهانهم من العذاب "يَوْمَ الدِّينِ" 56 الجزاء الذي ينالونه فيه على أعمالهم وفي قوله تعالى (نزلهم) تهكم فيهم وسخرية بهم لأنه إذا كان هذا أول عذابهم فما ظنك فيما بعده ؟

أجارنا الله وحمانا ، وقيل في المعنى :

وكنا إذا الجبار في الجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

(70/742)

بتخفيف الزاي بدل ضمه ، وهي قراءة أيضا ، وهذا وما يأتي وإن كان المخاطب به كفار قريش فهو عام في جميع الكفرة المنكرين للبعث المكذبين الرسل ، ثم بادر يخاطبهم على طريق الإلزام والتبكيت بقوله جل قوله "نَحْنُ خَلَقْناكُمْ" كما تعلمون من نطفة وخلقنا أباكم من تراب "فَلَوْلا" هلا "تُصَدِّقُونَ" 57 أن من يخلق ابتداء من غير شيء بطريق الإبداع ، ألا يقدر على إعادة ما خلقه ثانيا على نمط الأول ؟ بلى وهو أهون عليه ، وكل شيء عنده هين "أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ" 58 من النطف في أرحام النساء "أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ" أي لجنين المكون من تلك النطفة فتصيرونه بشرا سويا "أَمْ" نَحْنُ الْخالِقُونَ" 59 له منها بل هو هو ، فيا أيها

الناس تدبّروا هذا واعلموا أنا "نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ" أي أجله كما قدرنا الحياة في الرحم والدنيا والبقاء في البرزخ فمنكم من يموت في بطن أمه ومنكم من يموت طفلا وصبيا وشابا وكهلا وشيخا وهرما ، بمقتضى تقديرنا الأزلي لآجالكم "وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ" 60 عن شيء نريده بل الغالبون أبدا في كل شيء ، ولا يفوتنا شيء ، ولا يقع في الملك والملكوت شيء ما إلا بمقتضى تقديرنا ، واعلموا أيها الناس أنا نحن القادرون (الرفع بعد نحن على البدلية ، والنصب على الاختصاص) تأمل هذا واعلم أن من يعرف العربية فقد لا يغلط أحدا حيث يجد له طريقا وخاصة ما بعد أن وكان)

"عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ"

فنغير صفاتكم هذه التي أنتم عليها من الخلق والخلق ، أو نذهبكم وناتي بدلكم أشباهكم من الخلق الآخر "وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ"

(71/742)

---

61 من الصور خلقا جديدا لا يشبه خلقكم الذي أنتم عليه ، مما لم يكن في حسبانكم "وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ" أيها الناس "النَّشْأَةَ الْأُولى " وكيفيتها من العدم لا من شيء سابق ولا مثال متقدم "فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ" 62 بأني قادر على النشأة الثانية لأنها على مثال سابق ، ومن كان

قادرا على الإنشاء من لا شيء فهو أقدر على إعادة ما أنشأه بعد هلاكه ، والبون شاسع بين الوجود والعدم "أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ" 63 في الأرض وتبذرون فيها من أنواع البذور "أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ" فتنبتونه وتنشئونه وتصيرونه زرعا قائما على سوقه ، وتجعلون فيه الحب "أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ" 64 الفاعلون لذلك كله وانكم لم ولن تفعلوا شيئا غير أقدارنا لكم على طرح الحب في الأرض ، فإذا شئنا أنبتناه وإذا شئنا لم ننبته ، وأنا "لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً" هشيما مكسرا تبنا ناعما لا قمح فيه عفوا بلا سبب أو نسلط عليه شيئا من الآفات الأرضية كالسوس والجراد والسمائية كالحر والبرد ، أو نغرقه بالماء ، أو نحرقه بصاعقة فنتلفه بما نشاء "فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ" 65 تتعجبون فيما نزل فيه وتندمون على تعبكم عليه وانفاقكم المال لأجله ، وتتلاومون على زرعه أو التقصير في مراعاته .

(72/742)

وأصل التفكه التنقل بصنوف الفواكه ، ثم استعير للتنقل بالحديث ، وكني فيه هنا عن التعجب والندم والتلاوم ، أو عن اتلافه وحرمانكم منه ، هذا وإذا أريد المعنى الظاهر من تفكهون فيكون ويجعلكم تقتصرون على أكل الفواكه فقط وتعدمون لذة القمح الذي لا يغني عنه شيء بحيث لا تعافه النفس مهما أدمن عليه بخلاف غيره من الأطعمة ، وعند ما

يجعله اللّه كذلك تقولون "إِنَّا لَمُغْرَمُونَ" 66 ذهب مالنا بغير عوض وتعبنا بغير أجر وأملنا دون حظوة وتقولون "بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ" 67 من ربح زرعنا الذي كنا نأمله لا حظ لنا فيه "أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ" 68 منه أنتم وأنعامكم ودوابكم وتغتسلون منه وتغسلون ثيابكم وأوانيكم "أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ" السحب واحده مزنة قال الشاعر :

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقلت ابقالها

"أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ" 69 له بقدرتنا إذ ننزله لكم بقدر حاجتكم إليه على أنا "لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً" شديد الملوحة مرا لا يشرب ولا ينفع الزرع ، فتهلكون عطشا وتتلف زروعكم وأشجاركم ، لأنا قادرون على اتلافكم بأنواع شتى ، فلو سكنا عنكم الهواء ساعة لهلكتم جميعا "فَلَوْلا تَشْكُرُونَ" 70 نعم اللّه عليكم التي من جملتها تأمين ضرورياتكم وما تصلحون به مأكولكم

و ما تتقون به شدة الحر المنوه عنه بقوله "أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ" 71 تقدحون لها الزناد فتتقّد فتستضيؤن بها وتنضجون طعامكم عليها "أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها" التي توقد منها أو شجر المرخ والعفار المار ذكره في الآية 80 من سورة يس المارة "أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ" 72 لها

بل نحن أنشأنا شجرها لنفعكم و"نَحْنُ جَعَلْناها" أي تلك النار لكم في الدنيا "تَذْكِرَةً" لنار الآخرة الكبرى ليتعظ بها من له عقل كلما رآها ، فيذكر عذابها ويرتدع عما نهي عنه ، ولذلك عممنا الحاجة إليها "وَ" جعلناها "مَتاعاً لِلْمُقْوِينَ" 73 المسافرين والفقراء الذين ينزلون (القواء) الأرض القفرة وللأغنياء المقيمين أيضا ، إذ لا غنى لأحد عنها ، إلا أن المسافر أشد حاجة لها من غيره ، لأنه بوقدها للتدفئة ولهروب الهوام عنه لأنها لا تقربه ما دامت النار عنده خشية منها ، وإلا افترسته حالا وفيها منفعة أخرى وهي اهتداء الضال بها والاستضاءة بها ليلا وللطبخ والخبز ، وتسخين الماء ليلا ونهارا ، وكونها تذكرة لنار الآخرة لا يقتضى أن تكون مثلها وقد ذكرنا في الآية 135 من سورة طه المارة أن المشبه لا يكون كالمشبه به من كل وجه .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : ناركم هذه الذي توقدون جزء من ستين جزءا من نار جهنم ، قالوا واللّه إن كانت لكافية يا رسول اللّه ، قال فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلها مثل حرها .

أعاذنا اللّه منها ولو أن نارنا هذه مثل تلك لما انتفعنا بها أبدا ، لأن أجسامنا هذه لا تطيق مقابلتها ، ولأن ما يوضع عليها للنضج يحرق حالا ، لأنها تذيب الحديد وتفتت الحجارة حالا ، ولكانت نقمة علينا لا نعمة لنا .

ثم التفت جل شأنه إلى حبيبه صلى اللّه عليه وسلم وقال له "فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ"

(74/742)

---

74 نزه عما يقول هؤلاء الظالمون من اتخاذ الآلهة من دونه وانكار إعادة خلقه بعد الموت ومن سائر ما يصمونه به من الولد والشريك والصاحبة ، ثم أقسم قائلا "فَلا أُقْسِمُ" تقدم البحث فيه مفصلا أول سورة القيامة فراجعه ففيه بحث نفيس "بِمَواقِعِ النُّجُومِ" 75 مساقطها عند غروبها بالنسبة لما نرى قال ابن عباس النجوم نجوم القرآن ومواقعها أوقات نزولها على النبي صلى اللّه عليه وسلم وعليه مشى الشيخ الأكبر وقال يا لها من أوقات ! وقد أخرج النسائي وابن جرير والحاكم والبيهقي في الشعب أنه قال : أنزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة ، ثم فرق في السنين .

(75/742)

وفي لفظ ثم نزل من سماء الدنيا إلى الأرض نجوما ثم قرأ هذه الآية ، ويستحيل على هذا القول عرد الضمير في "وَإِنَّهُ" للقرآن بالنظر إلى ما يفهم من مواقع النجوم حتى يعد كأنه مذكور أي وأن هذا القسم الذي ذكره اللّه بعد أن فرغ من ذكر البراهين المسكة الآنفة الذكر التي

يخرس عندها كل بليغ ويحجم عنها كل فصيح "لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ" 76 لأن في سقوط النجوم بالنسبة لما نراه زوال أثرها ودلالة على وجود مؤثرها الدائم وقد استدل الخليل عليه السلام بأقوالها على صانعها جل جلاله ، كما سيأتي في الآية 76 فما بعدها من سورة الأنعام في ج 2 ، وفي هذه الآية دالة على جواز الفعل بين الصفة والموصوف بكلام آخر ، لأن عظيما هنا جاء صفة لقسم ، والله تعالى يقول هو عظيم جدا لو تعلمون ما يترتب عليه من المصالح فضلا عن أنه وقت قيام المجتهدين المبتهلين إلى الله ، وآن نزول رحمته ، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له ، وجواب القسم في قوله تعالى "إِنَّهُ" أي المنزل عليك يا سيد الرسل "لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ" 77 لما فيه من النور والهدى والبيان والعلم والحكم والحكمة ، لأن الفقيه يستدل به والحكيم يستمد به والأديب يقتبس منه والأريب يتقوى به ، والمتعلم يستفيد منه ، وكل عالم يطلب أصل علمه من فيضه ، ليس بسحر ولا كهانة كما يقولون ، بل هو مثبت عند الله "فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ" 78 محفوظ مصون "لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ" 79 الملائكة المقربون والسفرة الكرام البررة .

ولا هنا نافيه والضمير يعود للأقرب وهو الكتاب أي اللوح المحفوظ ، فلو أريد عوده للبعيد وهو

القرآن لقال المتطهرون أو المطهرون بتشديد الطاء والهاء ، وعلى قول من أعاد الضمير للقرآن وهو ضعيف جدا فيراد منه الإنسان أي لا يمسه منهم إلا المتطهرون ، والصواب الأول وعليه المعول ، وبه قال أكثر المفسرين والعارفين .

مطلب مس المصحف والحديث المرسل والموصول :

وأما المنع من مس المصحف لغير المتطهر فقد ثبت بالحديث الآتي لا بنص هذه الآية ، وعليه يشمل أهل الدنيا فلا يمسه منهم إلا المتطهرون المتوضئون بالطهارة الحيّة ، وعليه فتكون (لا) هنا بمعنى النهي (الحكم الشرعي) المنع من مسه أو مس حرف منه لغير المتوضئ ، ويحرم على المحدث أن يمسه بدون غلاف ، ولا بأس بمس غير المكتوب منه ، وقال الشافعي رحمه اللّه لا يجوز حمله لغير المتوضئ ولو كان بغلاف ولا يجوز مس شيء منه سواء كان فيه كتابة أم لا .

روى مالك في الموطأ عن عبد اللّه بن أبي بكر بن عمر بن حزم أن في الكتاب الذي كتبه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لعمرو بن حزم أن لا يمس القرآن إلا طاهرين أخرجه مالك مرسلا – المرسل أحد أقسام الحديث وهو ما سقط منه الصحابي بعد ذكر التابعي وهو

من قسم المقبول ، وقد احتج به مالك وأبو حنيفة ، وهو موصولا ، والموصول ما اتصل سنده بحضرة الرسول بغير انقطاع وهو صالح للاحتجاج به بلا خلاف - وعن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كتب إلى أهل اليمن بهذا والصحيح فيه الإرسال أيضا ، وروى الدار قطني بسنده عن سالم عن أبيه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لا يمس القرآن إلا طاهر .

والمراد بالقرآن المصحف سماه قرآنا على قرب الجوار والاتساع ، كما روى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو كما أشرنا إليه ، في المقدمة وأراد به المصحف ، اما المحفوظ بالصدر فلا لأن القصد حفظه عن الامتهان بسبب .

لمس غير

(77/742)

المتطهر ، أما ما هو محفوظ بالصدر فهو في أمن من ذاك ، وله أن يقرأه عن صدر الغيب ما لم يكن جنبا ، وهذا القرآن الموصوف بما تقدم "تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ" 80 منزل تنزيلا على اتساع اللغة إذ يقال للمقدور قدر وللمخلوق خلق فليس بمفترى من قبل محمد ، ولا تعلمه

من قبل الغير ولا هو من خرافات الأولين كما زعم كفرة قريش ، وهذه الآية كالرد ضمنا على هؤلاء المتقولين بذلك

(78/742)

"أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ" الحديث الشيء الجديد وإن نزوله بالنسبة للمنزل عليهم جديد ، لذلك سماه حديثا ، وإلا فهو كلام اللّه القديم القائم بذاته المقدسة مبرأ عن الحدوث كذاته المنزهة عنه "أَنْتُمْ" يا أهل مكة ويا كفار العرب أجمع "مُدْهِنُونَ" 81 متهاونون بهذا القرآن مكذبون به ، لأن من كذب بالشيء فقد تهاون فيه ، ومن قال أن معنى مدهنون منافقون لا يتجه لأن الآية مكية ولا نفاق فيها ، وإنما حدث النفاق في المدينة ولم يكن في مكة إلا المكايدة والمجاهرة بالعداوة والمكابرة في الحق وعلى الحق ، وكانوا متسلطين لا يحتاجون إلى النفاق ولا يعرفونه ، ولم تكن كلمة النفاق مستعملة عندهم ، أما من قال إن هذه الآية والتي تليها مدنيتان كما أشرنا إليه أول السورة ، فيتجه قوله بأن معنى مدهنون منافقون ، ويريد بذلك قولهم للمؤمنين آمنا به ، ولإخوانهم المنافقين إنا مستهزئون ، كما قصه اللّه في الآية 18 من سورة البقرة في ج 3 ، ومعنى الإدهان الجري في الظاهر على خلاف الباطن ، وقد حدث النفاق بالمدينة "وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ" أيها الكفرة على القول بأنها مكية ، وعلى أنها مدينة

تجعلون شكر رزقكم أيها المنافقون المتلونون أي حظكم ونصيبكم من هذا القرآن "أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ" 82 به ولا تصدقونه وتجحدونه ولا تشكرونه ، قال الحسن : خسر عبد لا يكون حظه من كتاب اللّه إلا التكذيب انتهت الآيتان المدينتان على قول ، وقال في الإتقان أن آية (وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ) مدينة وهو قول ضعيف لم بعضده ما يقويه لذلك لم نستثنها مع ها تين الآيتين ، قال تعالى "فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ" النفس أو الروح عند الموت "الْحُلْقُومَ" 83 مجرى الطعام والشراب "وَأَنْتُمْ" يا أهل المحتضر "حِينَئِذٍ" حين بلوغ الحلقوم

(79/742)

"تَنْظُرُونَ" 84 ذلك لما تشاهدون من حال المحتضر فقط ، وإلا لا يمكن أن تبصروا شيئا ماديّا ، لأن الروح من أمر اللّه لا تشاهد ولا يسعكم إلا البكاء ، لأنه لا يمكنكم دفع ما حل به ولا تأخيره ولا صرفه أبدا "وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ" ولو أنكم معه "وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ" 85 قربنا منه ولا تعلمون كيف نقبض روحه ولا ترون أملاكنا المحيطين به ، لأنكم لا تفقهون معنى الروح ولا تعقلونه ، لكونه من خصائص الإلهية ، وأنتم لا ترون إلا شخوص بصره نحو السماء عند خروج روحه هذا إذا كان الخطاب لمن حضر المحتضر ، وإذا كان الخطاب له يكون المعنى وانكم أيها المحتضرون ترون منزلتكم في الجنة أو النار حين خروج روحكم ،

ولذلك تشخص أبصاركم نحوها ونحن عندكم ومعكم ، ولكن لا تبصرون وجودنا "فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ" 86 مجزيين على تقصيركم ، يقال وإنه إذا ثبت عليه الجرم والأولى أن يكون معناه غير مربوبين ، وإن السلطان للرعية إذا ساسهم وتعبدهم ومنه قولهم للعبد مدين وللأمة مدينة قال الأخطل :

ربت وربا في حجرها ابن مدينة تراه على مسحاته يتركل

أي يضرب مسحاته برجله لتدخل في الأرض .

(80/742)

لعمدتم "تَرْجِعُونَهَا" إلى جسدها بعد خروجها منه "إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ" 87 في دعواكم أن الميت ميت بالطبع ولا بعث ولا حشر ولا نشر ولا جزاء ، ولكنكم لا تقدرون على ردّ أرواح الموتى بما تستمدونه من الرقى والطب مهما كان الراقي عارفا والطبيب حاذقا ، لا يقدرون على شيء من ذلك ، وإذا تحقق عجزكم عن هذا فاعلموا وتيقنوا أن الأمر منوط بالله وحده الذي خلقكم وأماتكم ، هو يحييكم ثانيا ، ويجعلكم أصنافا ثلاثة "فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ" 88 السابقين المار ذكرهم ووصفهم في الآية 10 فما بعدها "فَرَوْحٌ" له واستراحة "وَرَيْحانٌ" يحيط به وهو المعروف عندنا ، ولكن أين هذا من ذاك "وَجَنَّةُ نَعِيمٍ"

89 له يتنعم فيها ما زال في برزخه إلى أن ينقله اللّه منه إلى الجنة الدائم نعيمها ، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال لم يكن من المقرّبين يفارق الدنيا حتى يؤتى بغصنين من

ريحان الجنة فيشمها ثم يقبض .

وأخرج ابن جرير أيضا عن الحسن أنه قال :

تخرج روح المؤمن من جسده في ريحانة .

ثم قرأ هذه الآية "وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ" 90 السالف ذكرهم أيضا ونعتهم

(81/742)

"فَسَلامٌ لَكَ" يا صاحب اليمين "مِنْ" اخوانك الكرام "أَصْحابِ الْيَمِينِ" 91 وسلام لك يا أكرم الرسل بهم لا تخف عليهم فهم في أمن من العذاب فلا تهتم بشأنهم وستراهم على ما تحب من السلامة ، وانهم يسلمون عليك في دار فضلك "وَأَمَّا إِنْ كانَ" ذلك الميت والعياذ باللّه "مِنَ" أصحاب الشمال "الْمُكَذِّبِينَ" الجاحدين رسالتك وكتابك وربك "الضَّالِّينَ" 92 عن هداك المائلين عن رشدك يا سيد الرسل المنحرفين عن الصواب "فَنُزُلٌ" لهم مهيء في جهنم "مِنْ حَمِيمٍ 93 وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ" 94 يحرقون فيها ، مرّ تفسير مثله "إِنَّ هذا"

الذي ذكر مما قصه اللّه عمن حضره الموت وما قبله "لَهُوَ" وعزّتي وجلالي "حَقُّ الْيَقِينِ" 95 الثابت الذي لا شك فيه وهو العلم المتيقن عين اليقين ونفسه .

مطلب الفرق بين علم اليقين وحق اليقين وعين اليقين :

ولأهل المعرفة في عين اليقين وحق اليقين وعلم اليقين فقط عبارات شتى ، فاليقين عندهم رؤية العيان بقوة الإيمان لا بالحجة والبرهان ، وحق اليقين فناء العبد في الحق والبقاء بربه علما وشهودا وحالا لا علما فقط ، فإذا كان علما فقط فهو علم اليقين ، فعلم كل عاقل بالموت علم اليقين ، فإذا عاين الملائكة فهو علم اليقين ، وإذا ذاق الموت فهو حق اليقين ، والإيقان هو العلم الذي يستفاد بالاستدلال ، ولذا لا يقال اللّه موقن "فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ" 96 إن كنت موقنا عازما وتقدم تفسير مثله وكرر تأكيدا قال علي الجهني لما نزلت (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) قال صلى اللّه عليه وسلم اجعلوها في ركوعكم ، ولما نزلت (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) قال اجعلوها في سجودكم أخرجه أبو داود - وأخرج الترمذي عن حذيفة أن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان يقول في ركوعه سبحان ربي العظيم ، وفي سجوده سبحان ربي الأعلى ، وما أتى على آية رحمة إلّا وقف وسأل اللّه ، وما أتى على آية عذاب إلا وقف وتعوذ .

قال الترمذي حديث صحيح .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال :

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان اللّه وبحمده سبحان اللّه العظيم .

هذه أحاديث لا يقال فيها شيء إلا أن ما قاله الجهني وأخرجه أبو داود عن حذيفة ، ومثله الذي أخرجه عن عقبة بن عامر لا يصح ، لأن سورة الأعلى وهذه السورة نزلتا في مكة قولا واحدا قبل فرض الصلاة ، ويوشك أنه سمع هذا منه صلّى اللّه عليه وسلم بعد فرضها ، ففيه تجوز من حيث سبب النزول ، إذ كثير من الآيات يستشهد بها لمناسبة حادثة مع أنها نزلت قبلها بكثير ، ولا مانع من ذلك ، إلا انه لا ينبغي أن تجعل سببا للنزول ، تأمل هذا ، واعلم أن كثيرا من الشواهد تأتي بغير موضعها لعدم الدقة في معرفة ترتيب نزول السور وتواريخها والمشي على ظاهر ترتيب القرآن ، وجلّ من لا ينسى ، وعزّ من لا يخطىء ، على أنه يجوز أن حضرة الرسول قرأ هاتين الآيتين في المدينة فلما أتى على آخرهما قال ما قال ، لأنّ جميع ما نزل في مكة تلاه في المدينة بعد وصوله إليها ليعلمه أهلها ، وعليه فلا يقال إن ذلك نزل في المدينة والقول بالنزول مرتين ممنوع إذ لا قول فيه معول عليه كما بيناه أول سورة الفاتحة المارّة ، أما الحديث الثاني الذي أخرجه الترمذي فلا مقال فيه لأنه لم يذكر فيه ما

ذكر في الحديث الأول ، وهو قوله لما أنزلت إلخ ، ولم يعين تاريخا ، ولا شاهد فيه على النزول ، ولذلك قال في آخره حديث صحيح .

هذا ، وروي أن عثمان بن عفان رضي اللّه عنه دخل على ابن مسعود في مرض موته فقال ما تشتكي ؟ فقال ذنوبي .

(83/742)

فقال ما تشتهي ؟ قال رحمة ربي ، قال أفلا تدعو لك الطبيب ؟ قال الطبيب أمرضني ، قال أفلا نأمر بعطائك ؟ قال لا حاجة لي فيه ، قال ندفعه إلى بناتك ؟ قال لا حاجة لهن فيه قد أمرتهن أن يقرأن سورة الواقعة ، فإني سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا – راجع أول هذه السورة تجد ما يتعلق بهذا البحث ، هذا وقد ختمت سورة الحافة الآتية في ج 2 ، بمثل ما ختمت به هذه السورة فقط .

واللّه أعلم وأستغفر اللّه ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين ، والحمد للّه رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 2 صـ 237 . 255 ﴾

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الواقعة

مكية إلا قوله أفبهذا الحديث الآية وقوله ثلة من الاولين الآية فمدنيتان

كاذبة تام إن قرئ ما بعده بالرفع خبر مبتدأ محذوف ولم يعلق إذا رجت بوقعت بل بخافضة

وإلا فليس بوقف أزواجا بوقف أزواجا ثلاثة كاف وكذا ما حاب الميمنة وما أصحاب

المشأمة والسابقون السابقون الثاني منهما خبر للأول بمعنى السابقون إلى طاعة الله

سابقون إلى رحمته أو تأكيد له والخبر أولئك المقربون وهو كاف في جنات النعيم تام متقابلين

يشتهون حسن ثم يبتدئ وحور عين بالرفع بتقدير وعندهم ومن قرأه بالجر بتقدير في جنات

النعيم وفي حور عين لم يقف على يشتهون يعملون كاف سلاما سلاما تام ما أصحاب اليمين

كاف مرفوعة تام وكذا الأصحاب اليمين ومن الآخرين وما أصحاب الشمال كاف ولا كر

يم حسن مترفين كاف العظيم صالح الأولون تام لمجموعون ليس بوقف وان كاف رأس آية يوم

معلوم كاف شرب الهيم حسن يوم الدين تام وكذا تصدقون والخالقون لا تعلمون حسن

الاولى كاف تذكرون تام الزارعون حسن محرومون تام المنزلون حسن تشكرون تام وكذا المنشئون للمقوين كاف العظيم حسن لو تعلمون عظيم ليس بوقف لأن القسم وقع على ما بعده المطهرون كاف من رب العالمين حسن تكذبون كاف وكذا لا تبصرون صادقين حسن وجنة نعيم كاف وكذا من أصحاب اليمين وتصلية جحيم تام حق اليقين كاف آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(85/742)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الواقعة

مكية إلاَّ قوله أفبهذا الحديث الآية وقوله ثلة من الأولين الآية فمدنيتان كلمها ثلاثمائة وثمان وسبعون كلمة وحروفها ألف وسبعمائة وثلاثة أحرف وآيها ست أو سبع أو تسع وتسعون آية ولا وقف من أول السورة إلى كاذبة فلا يوقف على الواقعة لأنَّ جواب إذا لم يأت بعد وكاذبة مصدر كذب كقوله لا تسمع فيها لاغية أي لغواً والعامل في إذا الفعل بعدها والتقدير إذا وقعت لا يكذب وقعها

كاذبة (تام) لمن قرأ ما بعده بالرفع خبر مبتدأ محذوف ولم تعلق إذا رجَّت بوقعت وإلاَّ بأن

علق إذا رجَّت بوقعت كان المعنى وقت وقوع الواقعة خافضة رافعة هو وقت رجِّ الأرض فلا يوقف على كاذبة وكذا إذا أعربت إذا الثانية بدلاً من الأولى وليس بوقف أيضاً لمن قرأ خافضة رافعة بالنصب على الحال من الواقعة أي خافضة لقوم بأفعالهم السيئة إلى النار ورافعة لقوم بأفعالهم الحسنة إلى الجنة ومثله في عدم الوقف أيضاً إذا أعربت إذا الأولى مبتدأ وإذا الثانية خبرها في قراءة من نصب خافضة رافعة أي إذا وقعت الواقعة خافضة رافعة في هذه الحالة ليس لوقعتها كاذبة . وكاف لمن نصب خافضة رافعة على المدح بفعل مقدَّر كما تقول جاءني عبد الله العاقل وأنت تمدحه وكلمني زيد الفاسق تذمه ولا يوقف على رجا ولا على بسًّا ولا على منبثًّا لأنَّ العطف صيَّرها كالشيء الواحد

رافعة (جائز) على القراءتين أعني رفع خافضة رافعة ونصبهما وإذا الأولى شرطية وجوابها الجملة المصدرة بليس أو جوابها محذوف تقديره إذا وقعت الواقعة كان كيت وكيت

(86/742)

ثلاثة (حسن) وقيل كاف ثم فسَّر الثلاثة فقال فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة كأنَّه يعظم أمرهم في الخير وأجاز أبو حاتم تبعاً لأهل الكوفة أن تكون ما صلة فكأنَّه قال

فأصحاب الميمنة أصحاب الميمنة كما قال والسابقون السابقون وذلك غلط بيّن لأنَّه كلام لا فائدة فيه لأنَّه قد علم أنَّ أصحاب الميمنة هم أصحاب الميمنة وهم ضدَّ أصحاب المشأمة كذا قاله بعض أهل الكوفة وهو في العربية جائز صحيح إذ التقدير فأصحاب الميمنة في دار الدنيا بالأعمال الصالحة هم أصحاب اليمين في القيامة أو المراد بأصحاب الميمنة من يعطون كتبهم بأيمانهم أصحاب الميمنة أي هم المقدّمون المقرّبون وكذلك وأصحاب المشأمة الذين يعطون كتبهم بشمائلهم هم المؤخرون المبعدون هذا هو الصحيح عند أهل البصرة فأصحاب مبتدأ وما مبتدأ وما مبتدأ ثان وأصحاب الميمنة خبر عن ما وما ومَا بعدها خبر عن أصحاب والرابط إعادة المبتدأ بلفظه وأكثر ما يكون ذلك في موضع التهويل والتعظيم 0

ما أصحاب الميمنة (كاف) ومثله ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون الثاني منهما خبر عن الأوّل وهو جواب عن سؤال مقدَّر وهو كيف أجزتم السابقون السَّابقون ولم تجيزوا فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة فالجواب أنَّ الفرق بينهما بمعنى أنَّه لو قيل أصحاب اليمين أصحاب اليمين لم تكن فيه فائدة فالحسن أن يجعل الثاني منهما خبراً عن الأوَّل وليس بوقف إن جعل الثاني منهما نعتاً للأوَّل وأولئك المقربون خبراً وكان الوقف عند جنَّات النَّعيم هو الكافي وقليل من الآخرين ليس بوقف لأنَّ قوله على سررٍ موضونة ظرف لما قبله

وإن جعل على سرر متصلاً بمتكئين ونصب متكئين بفعل مضمر حسن الوقف على من الآخرين والأوّل هو المختار0

(87/742)

متقابلين (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل حالاً ولا وقف من قوله يطوف إلى يشتهون فلا يوقف على مخلدون لتعلق الباء ولا على أباريق ولا على من معين لأنَّ ما بعده صفة له ولا على ينزفون ولا على يتخيرون لعطف ما بعده على ما قبله0

مما يشتهون (حسن) لمن قرأ وحور عين بالرفع أي وعندهم حور أو ولهم حور عين وهي قراءة ابن كثير ونافع وعاصم وأبي عمرو وابن عامر لأنَّ الحور العين لا يطاف بهنَّ ومثله في الحسن الوقف على يشتهون على قراءة أبيّ بن كعب وحوراً عيناً بالنصب بمعنى ويزوّجون حوراً عيناً وليس يشتهون وقفاً لمن قرأ وحور بالجرّ عطفاً على بأكواب وأباريق وقد أنكر بعض أهل النحو هذا وقال كيف يطاف بالحور العين قلنا ذلك جائز عربية لأنَّ العرب تتبع اللفظ في الإعراب وإن كان الثاني مخالفاً للأول معنى كقوله تعالى وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم عند من قرأ بالجرّ لأنَّ الأرجل غير داخلة في المسح وهو مع ذلك معطوف على برؤوسكم في اللفظ كقول الشاعر:

إذا ما الغانيات برزن يوماً وزججن الحواجب والعيونا

فأتبع العيون للحواجب وهو في التقدير وكحّلن العيون وكذلك لا يقال يطاف بالحور غير أنَّه حسن عطفه على ما عمل فيه يطاف وإن كان مخالفاً في المعنى ولا يوقف على عين لأنَّ قوله كأمثال من نعت عين والكاف زائدة كأنَّه قال وحور عين أمثال اللؤلؤ المكنون

المكنون (جائز) لأنَّ جزاء يصلح مفعولاً له أي للجزاء ويصلح مصدراً أي جوزوا جزاء أو جزيناهم جزاء وليس بوقف إن نصب بما قبله

يعملون (كاف) في الوجوه كلها ولا يوقف على تأثيماً لحرف الاستثناء 0

سلاماً سلاما (كاف) ومثله أصحاب اليمين ولا وقف من قوله في سدر إلى مرفوعة فلا يوقف على مخضود ولا على منضود ولا على ممدود ولا على مسكوب ولا على ممنوعة لأنَّ العطف صيرها كالكلمة الواحدة

(88/742)

مرفوعة (تام) ولا وقف من قوله إنَّا أنشأناهن إلى قوله لأصحاب اليمين فلا يوقف على إنشاء لمكان الفاء ولا على أبكاراً ولا على أتراباً لأنَّها أوصاف الحور العين

لأصحاب اليمين (تام) ومثله وثلة من الآخرين 0

ما أصحاب الشمال (حسن) وقيل لا يوقف من قوله في سموم إلى قوله ولا كريم لأنَّ قوله في سموم ظرف لما قبله وخبر له فلا يوقف على ما قبله ولا يوقف على من يحموم لعطف ما بعده على ما قبله 0

ولا كريم (حسن)

مترفين (كاف) ومثله العظيم ولا يوقف على مبعوثون لأنَّ أو آباؤنا معطوف على الضمير في مبعوثون والذي جوّز العطف عليه الفصل بهمزة الاستفهام والمعنى أتبعث أيضاً آباؤنا على زيادة الاستبعاد يعنون أنَّ آباءهم أقدم فبعثهم أبعد وأبطل قاله الزمخشري قال أبو حيان وما قاله الزمخشري لا يجوز لأنَّ عطفه على الضمير لا يراه نحويّ لأنَّ همزة الاستفهام لا تدخل إلاَّ على الجمل لا على المفرد لأنَّه إذا عطف على المفرد كان الفعل عاملاً في المفرد بواسطة حرف العطف وهمزة الاستفهام لا يعمل ما قبلها فيما بعدها فقوله أو آباؤنا مبتدأ خبره محذوف تقديره مبعوثون 0

قرأ ابن عامر وقالون أو آباؤنا بواو ساكنة قبلها همزة مفتوحة والباقون بواو مفتوحة قبلها همزة جعلوها واو عطف دخلت عليها همزة الاستفهام إنكارٌ للبعث بعد الموت0

الأوَّلون (كاف)

لمجموعون ليس بوقف وإن كان رأس آية وقال يعقوب تام وغلطه أبو جعفر وهو أنَّ حرف الجرّ لابدّ وأن يتعلق بشيء وتعلقه هنا بما قبله ثم قال تعالى إلى ميقات أي يجمعهم لميقات يوم

معلوم 0

معلوم (كاف) ولا وقف من قوله ثم إنَّكم أيها الضالون إلى شرب الهيم فلا يوقف على المكذبون لأنَّ خبر أن لم يأت بعد ولا على زقوم لأن قوله فمالئون مرفوع بالعطف على لآكلون ولا على البطون ولا على من الحميم لمكان الفاء فيهما 0

شرب الهيم (كاف)

يوم الدين (تام)

نحن خلقناكم (جائز)

(89/742)

تصدّقون (تام) متعلق التصديق محذوف أي فلولا تصدقون بخلقنا

ما تمنون (جائز) لتناهي الاستفهام وللابتداء باستفهام آخر

الخالقون (كاف)

بينكم الموت (حسن)

وما نحن بمسبوقين ليس بوقف لتعلق الجار ورسموا في ما في كلمة وحدها وما كلمة وحدها 0

في مالا تعلمون (كاف) ومثله النشأة الأولى

تذكرون (تام)

ما تحرثون (حسن) للابتداء بالاستفهام

الزارعون (كاف) ولا يوقف على حطاماً لمكان الفاء

تفكَّهون (كاف) ومثله لمغرمون

محرومون (تام)

تشربون (جائز)

من المزن ليس بوقف للعطف

المنزلون (كاف)

أجاجاً (جائز)

تشكرون (تام)

تورون (جائز) وهو من أوريت الزند أي قدحته فاستخرجت ناره

شجرتها ليس بوقف للعطف

المنشؤن (تام)

للمقوين (كاف)

العظيم (تام)

النجوم ليس بوقف ومثله لو تعلمون عظيم لأنَّ جواب القسم لم يأت وهو قوله أنه لقرآن ومثله في عدم الوقف كريم لتعلق حرف الجر ومثله في عدم الوقف أيضاً مكنون لأنَّ الجملة بعده صفة لقرآن أو لكتاب0

المطهرون (كاف) إن رفع تنزيل على أنَّه خبر مبتدأ محذوف أي هو أو مبتدأ خبره الجار بعده وليس بوقف إن جعل نعتاً لكتاب 0

العالمين (تام)

مدهنون ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله 0

تكذبون (كاف) ولا وقف من قوله فلولا إذا بلغت الحلقوم إلى صادقين لأنَّ قوله ترجعونها جواب لولا الأولى والثانية توكيد للأولى فكأنَّه قال إذا بلغت الروح إلى هذا الموضع وأنتم مشاهدون لهذا الميت فردّوها إن كنتم صادقين في قيلكم إنَّا غير محاسبين ولا وقف على قوله من المقربين 0

نعيم (كاف) ورسموا جنت بالتاء المجرورة كما ترى ومثله في الكفاية من أصحاب اليمين الثاني ولا يوقف على الضالين ولا على حميم

وتصلية جحيم (كاف) ومثله حق اليقين 0

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الواقعة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ الحسن واليزيدي والثقفي وأبو حيوة : "خَافِضَةً رَافِعَةً1" ، بالنصب .

قال أبو الفتح : هذا منصوب على الحال ، وقوله : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ حينئذ2 حال أخرى قبلها ، أي : إذا وقعت الواقعة ، صادقة الواقعة ، خافضة ، رافعة . فهذه الثلاث أحوال ، أولاهن الجملة التي هي قوله : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ ، ومثله : مررت بزيد ، جالسا ، متكئا ، ضاحكا . وإن شئت أن تأتي بعشر أحوال إلى أضعاف ذلك لجاز3 وحسن ، كما لك أن تأتي للمبتدأ من الأخبار بما شئت ، كقولك : زيد عالم ، جميل ، جواد ، فارس ، بصري4 ، بزاز ، ونحو ذلك .

ألا ترى أن الحال زيادة في الخبر ، وضرب منه ؟ وعلى ذلك امتنع أبو الحسن أن يقول : لولا هند جالسة لقمت ونحو ذلك ، قال : لأن هذا موضع قد امتنعت العرب أن تستعمل فيه [156و] الخبر ، والحال ضرب من الخبر . فلا يجوز استعمالها في لذلك .

والعامل في "إذا" محذوف لدلالة المكان عليه ، كأنه قال : إذا وقعت الواقعة كذلك فاز

المؤمنون وخاب الكافرون ، ونحو ذلك ويجوز أن تكون "إذا" الثانية ، وهي قوله : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا 5 ﴾ خبرا عن "إذا" الأولى ، ونظيره : إذا تزورني إلا يقوم زيد ، أي : وقت زيارتك

---

1 سورة الواقعة : 3 .

2 ساقطة في ك .

3 قرن جواب أن باللام ، كأنه يحملها على لو ، ولا نعرف لهذا سندا وليس بالكلام إليه حاجة . وفي حاشية الأمير على المغني "1 : 84" : اقتران جواب "أن" باللام غير عربي ، وهو كثير في كلام المؤلفين ، حملا لأن على لو .

4 في ك : مصري .

5 سورة الواقعة : 4 .

إياي وقت قيام زيد . وجاز لـ"إذا" أن تفارق الظرفية وترتفع بالابتداء ، كما جاز لها أن تخرج بحرف جر عن الظرفية 1 كقوله :

حتى إذا ألقت يدا في كافر وأجن عورات الثغور ظلامها 2

وقال الله "سبحانه" : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ[3] ﴾ ، إذا مجرورة عند أبي الحسن بحتى ، وذلك يخرجها من الظرفية ، كما ترى .

ومن ذلك قراءة ابن أبي إسحاق : "وَلَا يُنْزِفُونَ[4]" ، بفتح الياء ، وكسر الزاي .

قال أبو الفتح : يقال : أنزف عبرته : إذا أفنى دمعه بالبكاء ، ونزف البئر – ينزفها نزفا : إذا استقى ماءها ، وأنزفت الشيء : إذا أفنيته ، قال :

لعمري لئن أنزفتم أو صحوتم لبئس الندامى كنتم آل أبجرا[5]

وقال العجاج :

وأنزف العبرة من لا في العبر[6]

وقال :

أيام لا أحسب شيئا منزفا[7]

أي : فانيا ، فكأنه "سبحانه" قال : "لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ عقولهم" كما ينزف ماء البئر . والنزيف : السكران ، وكله راجع إلى معنى واحد .

---

1 بحرف الجر : أي بدخوله عليها .

2 انظر الصفحة 233 من هذا الجزء .

3 سورة يونس : 22 .

4 سورة الواقعة : 19 .

5 البيت للأبيرد ، وأبجر : هو أبجر بن جابر العجلي . انظر الصحاح واللسان "نزف" .

6 من أرجوزة في مدح عمر بن عبيد الله بن معمر . وانظر الديوان : 16 ، والصحاح واللسان "نزف" .

7 للعجاج أيضا في مفرادت ديوانه : 82 ، ويروى "ازمان" مكان "أيام" . وقبله :

وقد أراني بالديار مترفا

وانظر الصحاح واللسان "نزف" .

(92/742)

ومن ذلك قراءة أبي بن كعب وابن مسعود : "وَحُورًا عِينًا 1" .

قال أبو الفتح : هذا على فعل مضمر ، أي : ويؤتون ، أو يزوجون حورا عينا ، كما قال : ﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ2 ﴾ ، وهو كثير في القرآن والشعر .

ومن ذلك قرأ : "إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا 3 إنا" ، على الخبر كلاهما بلا استفهام .

قال أبو الفتح : مخرج هذا منهم على الهزء ، وهذا كما تقول لمن تهزأ به ، إذا نظرت إلي مت منك فرقا ، وإذا سألتك جممت لي بحرا ، أي : الأمر بخلاف ذلك ، وإنما أقوله هازئا .

ويدل على هذا شاهد الحال حينئذ ، ولولا شهود الحال لكان حقيقة لا عبثا ، فكأنه قال :

إذا متنا وكنا ترابا بعثنا . ودل قوله : ﴿ إِنَّا لَمَبْعُوثُون ﴾ على بعثنا ولا يجوز أن يعمل فيه "مبعوثون" لأن ما بعد إن لا يعمل فيما قبلها .

ومن ذلك قراءة الحسن والثقفي : "فَلأَقْسِم" ، بغير ألف .

قال أبو الفتح : هذا فعل الحال ، وهناك مبتدأ محذوف ، أي : لأنا أقسم ، فدل على ذلك أن جميع ما في القرآن من الأقسام إنما هو على حاضر الحال ، لا وعد الأقسام ، كقوله "سبحانه" : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُون5 ﴾ ، و ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا6 ﴾ ، وكذلك حملت "لا" على الزيادة في قوله : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ ، ونحوه . نعم ، ولو أريد الفعل المستقبل للزمت فيه النون ، فقيل : لأقسمن ، وحذف هذه النون هنا ضعيف جدا .

---

1 سورة الواقعة : 22 .

2 من قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ . سورة الدخان : 54 .

3 سورة الواقعة : 47 .

3 سورة الواقعة : 75 .

4 سورة التين : 1 .

6 سورة الشمس : 1 .

ومن ذلك قراءة علي وابن عباس – ورويت عن النبي "صلى الله عليه وسلم" – :

"وَتَجْعَلُونَ شكركم أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ[1]" .

قال أبو الفتح : هو على حذف المضاف ، أي : تفعلون بدل شكركم [156ظ] ومكان شكركم التكذيب ومثله قول العجاج :

ربيته حتى إذا تمعددا كان جزائي بالعصا أن أجلدا[2]

أي : كان مكان جزائي الجلد بالعصا

ومن ذلك قراءة النبي "صلى الله عليه وسلم وابن عباس وقتادة والحسن والضحاك والأشهب ونوح[3] القارئ وبديل وشعيب بن الحارث وسليمان التيمي والربيع بن خثيم[4] وأبي عمران الجوني وأبي جعفر محمد بن على والضحاك وفياض : "فَرَوْح" ، بضم الراء .

قال أبو الفتح : هو راجع إلى معنى الروح ، فكأنه قال : فمسك روح ، وممسكها هو الروح ، كما تقول : هذا الهواء هو الحياة ، وهذا السماع هو العيش ، وهو الروح . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحتسب حـ 2 صـ 306 . 309 ﴾

---

1 سورة الواقعة : 82 .

2 يروى بين بيتي الشاهد :

وآض نهدا كالحصان أجردا

وتمعدد الغلام : شب وغلظ . وآض : صار وتهدا : جسيما جهيرا ، من قولهم : فرس نهد ، أي : جميل جسيم . والأجرد من الخيل : السباق . وانظر الديوان : 76 ، وشواهد الشافية : 285 ، واللسان "معد" .

3 قال ابن الجزري : ذكره الحافظ أبو عمرو ، وقال : قال محمد بن الحسن النقاش : ثم كان بعد أبي عمرو بن العلاء - يعني من رواة الحروف المتصدرين - نوح القارئ ، وذكر جماعة . طبقات القراء : 2 : 343 .

4 هو الربيع بن خثيم أبو يزيد الكوفي الثوري ، تابعي جليل . وردت عنه الرواية في حروف القرآن ، آخذ القراءة عن عبد الله بن مسعود ، وعرض عليه أبو زرعة بن عمرو بن جرير . قال له عبد اله بن مسعود : لو رآك محمد - صلى الله عليه وسلم - لأحبك . وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين . مات في ولاية عبيد الله بن زياد ، يعنى قبل سنة تسعين للهجرة . طبقات القراء لابن الجزري : 1 : 283 .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الواقعة

مكية وآيها تسعون وست كوفي وسبع بصري وتسع حجازي وشامي خلافها خمس عشرة فأصحاب الميمنة غير كوفي وحمصي وأصحاب المشئمة مدني أول موضونة حجازي وكوفي وأباريق مكي ومدني وأخير وحور عين مدني وأخير ولا تأثيما غير مكي والمدني الأول وأصحاب اليمين غير كوفي معه إنشاء تركها بصري وحميم غير كوفي كانوا يقولون له آباؤنا الأولون غير حمصي قل إن الأولين والأخرين تركها الشامي ومدني أخير وعد المجموعون وريحان دمشقي مشبه الفاصلة تسعة خافضة وأول السابقون واليمين والشمال في سموم أن الأولين والآخرين لمجموعون الضالون لآكلون المكذبين وعكسه ثلاثة الواقعة كاذبة ثلاثة القراآت عن اليزيدي ( ) خافضة رافعة ( ) الآية 3 بالنصب فيهما على الحالين من الضمير في كاذبة أو من فاعل وقعت والجمهور بالرفع فيهما خبر مضمر أي هي خافضة قوما إلى النار رافعة آخرين إلى الجنة فالمفعول محذوف أو هي ذوات خفض ورفع نحو محيي ومميت وأبدل همز كأس أبو عمرو بخلفه وأبو جعفر

وقرأ (ينزفون) الآية 19 بضم الياء وكسر الزاي عاصم وحمزة والكسائي وخلف ومر بالصافات

واختلف في ( ) وحور عين ( ) الآية 22 فحمزة والكسائي وأبو جعفر بالجر فيهما عطفا

على ( ) جنات النعيم ( ) كأنه قيل هم في جنات وفاكهة ولحم وحور أي مصاحبة حورا وعلى بأكواب إذ معنى يطوف إلخ ينعمون إلخ بأكواب إلخ وافقهم الحسن والأعمش والباقون برفعهما عطفا على ولدان أو مبتدأ محذوف الخبر أي فيهم أو لهم أو خبر المضمر أي نساؤهم حور عين وأبدل همزة كأمثال اللؤلؤ الأولى كأبي عمرو بخلفه ولا يبدله ورش من طريقيه وأبو بكر وأبو جعفر ويوقف عليه لحمزة بإبدال الأولى كأبي عمرو وكذا الثانية على القياس وبإبدال الثانية واوا مكسورة ثم تسكن للوقف فيتحدان ويجوز الروم والتسهيل كالياء على تقدير روم حركة الهمزة كما مر فهي ثلاثة

(95/742)

وقرأ (عربا) الآية 37 بسكون الراء أبو بكر وحمزة وخلف ومر بالبقرة

وقرأ أئذا و أئنا بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني نافع والكسائي وأبو جعفر ويعقوب والباقون بالاستفهام فيهما فالكل على الاستفهام في الأول هنا وكل مستفهم على أصله فقالون وأبو عمرو وأبو جعفر بالتسهيل مع المد وورش وابن كثير ورويس كذلك مع القصر والباقون بالتخفيف مع القصر غير أن هشاما من أكثر الطرق عنه على المد كما مر

وقرأ (متنا) الآية 47 بكسر الميم نافع وحفص وحمزة والكسائي وخلف

وقرأ ( ) أو آباؤنا ( ) الآية 48 بإسكان الواو وابن عامر وأبو جعفر وبه قرأ الأصبهاني لكن مع نقل حركة الهمزة فتحذف هي أي الهمزة ومر بالصافات

وقرأ (فمالؤن) الآية 53 أبو جعفر بحذف الهمز مع ضم اللام

واختلف في) شرب الهيم (الآية 55 فنافع وعاصم وحمزة وأبو جعفر بضم الشين وافقهم الحسن والأعمش والباقون بفتحها وهما مصدر شرب كالأكل وقيل المصدر والضم الاسم

وقرأ (أفرأيتم) الآية 58 بتسهيل الثانية نافع وأبو جعفر أيضا إبدالها ألفا مع المد للساكنين وحذفها الكسائي وسهل الثانية من أأنتم في الأربعة مع إدخال ألف قالون وابو عمرو وهشام بخلفه أبو جعفر بلا إدخال ورش وابن كثير ورويس وللأزرق أيضا إبدالها ألفا مع المد للساكنين وبالتخفيف مع المد هشام في وجهه الثاني والثالث له التحقيق مع القصر وبه قرأ الباقون

واختلف في (قدرنا) الآية 60 فابن كثير بتخفيف الدال وافقه ابن محيصن والباقون بالتشديد لغتان

وقرأ (النشأة) الآية 62 بألف بعد الشين والمد ابن كثير وأبو عمرو والباقون بسكون الشين بلا ألف ولا مد ومر بالعنكبوت

وقرأ (تذكرون) الآية 62 بتخفيف الذال حفص وحمزة والكسائي وخلف وعن المطوعي فظللتم على الأصل بلامين مكسورة فساكنة وأما تشديد التاء من ( ) فظلتم تفكهون (عن البزي بخلفه على ما في الشاطبية كالتيسير فهو وإن كان ثابتا لكنه ليس من طرق كتابنا كالنشر وانفرد بذلك الداني قال في النشر ولولا إثباتهما يعني كنتم تمنون بآل عمران وفظلتم تفكهون هنا في التيسير والشاطبية والتزامنا بذكر ولولا ما فيهما من الصحيح لما ذكرناهما لأن طريق الزينبي لم تكن في كتابنا وذكر الداني لهما اختيار والشاطبي تبعه إذا لم يكونا من طريق كتابهما وأشار لذلك بقوله في الطيبة

وبعد كنتم ظلمتم وصف

وقرأ ( ) إنا لمغرمون (الآية 66 بهمزتين على الاستفهام مع التحقيق بلا ألف أبو بكر والباقون بهمزة واحدة على الخبر

وقرأ ﴿ المنشون ﴾ الآية 72 بحذف الهمزة مع ضم الشين أبو جعفر وبخلف عن ابن وردان

واختلف في (بمواقع) الآية 75 فحمزة والكسائي وخلف بإسكان الواو بلا ألف مفرد بمعنى الجمع لأنه مصدر وافقهم الحسن والأعمش وابن محيصن بخلفه والباقون بفتح الواو وألف على الجمع ونقل ابن كثير القران واختلف في (فروح) الآية 89 هنا فرويس بضم

الراء فسرت بالرحمة أو الحياة وانفرد بذلك ابن مهران عن روح ورويت عن أبي عمرو وابن عباس عن النبي من حديث عائشة كما في سنن أبي داوود والباقون بالفتح فله استراحة وقيل الفرح وقيل المغفرة والرحمة وقيل غير ذلك وخرج ( ) ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله (المتفق على الفتح لأن المراد به الفرح والرحمة وليس المراد به الحياة الذاهبة ووقف على جنت نعيم بالهاء ابن كثير وابو عمرو والكسائي ويعقوب المرسوم في بعض المصاحف بمواقع بألف وفي بعضها بحذفها واتفقوا على كتابة أئذا متنا بياء واختلف في قطع في عن ما في قوله تعالى ( ) في ما لا تعلمون (الآية 61 وكتبوا ﴿ وجنت نعيم ﴾ بالتاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(97/742)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الواقعة "

" المشأمة " فيه لحمزة وقفا نقل حركة الهمزة إلى الشين مع حذف الهمزة فينطق بشين مفتوحة بعدها الميم المفتوحة .

" متكئين " عليهم . وكأس . اللؤلؤ كثيرة . أنشأهن . يصرون . تذكرة . أفرأيتم . كله ءأنتم .

جلي .

" ينزفون " قرأ الكوفيون بكسر الزاي وغيرهم بفتحها واتفق العشرة على ضم الياء فيه

" وحور عين " قرأ الأخوان وأبو جعفر بخفض الراء من حور والنون من عين ، والباقون برفعهما .

" قيلا " لا إشمام فيه لأحد .

" عربا " قرأ شعبة وحمزة وخلف بإسكان الراء والباقون بضمها .

" أئذا . أئنا " قرأ المدنيان والكسائي ويعقوب بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني والباقون بالاستفهام فيهما فلا خلاف بينهم في الاستفهام في الأول وكل على أصله من التسهيل وخلافه . وتذكر أن هشاما ليس له هنا إلا الإدخال .

" متنا " كسر الميم الأخوان وحفص وخلف ونافع وضمها غيرهم .

" أو آباؤنا " قرأ قالون وأبو جعفر وابن عامر بإسكان الواو والباقون بفتحها ولا يخفى ما فيه من البدل لورش .

" فما لئون " حكمه حكم مستهزءون . لجميع القراء وصلا ووقفا .

" شرب " قرأ المدنيان وعاصم وحمزة بضم الشين وغيرهم بفتحها .

" قدرنا " خفف الدال ابن كثير وشددها غيره .

" وننشئكم " لحمزة في الوقف عليه إبدال الهمزة ياء خالصة .

" النشأة " تقدم في سورة النجم حكمه لجميع القراء وصلا ووقفا .

" تذكرون " خفف الذال حفص والأخوان وخلف وشددها الباقون .

" تفكهون " المقروء به للبزي من طريق الحرز تخفيف التاء في الحالين فذكر الشاطبي لخلاف له خروج عن طريقه .

" إنا لمغرمون " قرأ شعبة بهمزتين محققتين: الأولى مفتوحة والثانية مكسورة وغيره بهمزه واحدة مكسورة محققة .

(98/742)

" المنشئون " قرأ أبو جعفر بخلف عن ابن وردان بحذف الهمزة مع ضم الشين كأحد الأوجه الثلاثة عن حمزة وقفا والثاني التسهيل بين بين والثالث الإبدال ياء والباقون بالهمزة المحققة مع كسر الشين وهو الوجه الثاني لابن وردان .

" العظيم " آخر الربع .

الممال

كاذبة وثلة والميمنة معا والمشأمة معا وموضونة وكثيرة بالإمالة للكسائي بلا خلاف عنه رافعة وممنوعة ومرفوعة بالإمالة له بخلف عنه ، الأولى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري

وورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " بل نحن للكسائي .

" الكبير " الدين نحن ، الخالقون نحن ، المنشئون نحن .

" بمواقع " قرأ الأخوان وخلف بإسكان الواو وغيرهم بفتحها وألف بعدها .

" لقرآن " إليه ، تبصرون ، غير ، لهو جلي .

" فروح " قرأ رويس بضم الراء وغيره بفتحها .

" وجنت " رسم بالتاء ولا يخفى من وقف عليه بالهاء وبالتاء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البدور الزاهرة صـ 318.320 ﴾

(99/742)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الواقعة

قوله تعالى ﴿ وحور عين ﴾ يقرأ بالرفع والخفض فالحجة لمن رفع انه قال الحور لا يطاف

بهن فقطعهن من اول الكلام واضمر لهن رافعا معناه ومع ذلك حور عين والحجة لمن حفض انه اشركهن في الباء الداخلة في قوله ﴿ يطوف عليهم ﴾ بكأس من معين وبحور عين فقطعهن بالواو ولم يفرق بين ان يطاف به وبين ان يطوف بنفسه

قوله تعالى ﴿ عربا ﴾ اجماع القراء على ضم الراء الا ما تفرد به حمزة وابو بكر عن عاصم من اسكانها فالحجة لمن ضم انه اتى بالكلمة على اصلها ووفاها ما أوجبه القياس لها لانها جمع عروب وهي الغنجة المحبة لزوجها والحجة لمن اسكن انه استثقل الجمع بين ضمتين متواليتين فخفف بإسكان احداهما

قوله تعالى ﴿ أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا ﴾ يقرأ بالاستفهام والاخبار وقد تقدم ذكره

قوله تعالى ﴿ بمواقع النجوم ﴾ يقرأ بالجمع والتوحيد وقد ذكرت علله فيما سلف والاختيار ها هنا الجمع لانه يراد به مواقع نجوم القرآن ونزوله نجوما من السماء الدنيا على محمد عليه السلام

قوله تعالى ﴿ شرب الهيم ﴾ يقرأ بفتح الشين وضمها فالحجة لمن فتح انه اراد به المصدر والحجة لمن ضم انه اراد الاسم وقيل هما لغتان معناهما واحد والهيم جمع اهيم وهيماء وهن العطاش

قوله تعالى ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ اجمع القراء على التشديد للدال الا ابن كثير فانه

خفف وقد ذكر الفرق بينهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الحجة فى القراءات السبعة صـ 341.340﴾

(100/742)

وقال ابن زنجلة :

56 - سورة الواقعة

لا يصدعون عنها ولا ينزفون 19

قرأ عاصم وحمزة والكسائي لا يصدعون عنها ولا ينزفون بكسر الزاي أي لا ينفد شرابهم كما ينفد شراب أهل الدنيا والعرب تقول للقوم إذا فني زادهم قد أنزفوا وقال مجاهد لا ينزفون لا يسكرون عن شربها

وقرأ الباقون ولا ينزفون بفتح الزاي يقول لا تذهب عقولهم بشربها يقال للرجل إذا سكر أنزف عقله وللسكران نزيف

يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وحور عين 17 و18 و22

قرأ حمزة والكسائي وحور عين بالخفض وقرأ الباقون بالرفع وحجتهم في ذلك أن الحور لا يطاف بهن وإنما يطاف بالخمر فرفعوه على الابتداء قال الفراء الرفع على قولك ولهم حور

عين وقال أبوعبيد وعندهم حور عين ووجه الجر تحمله على قوله أولئك المقربون في جنات النعيم 11 و12 التقدير أولئك المقربون في جنات النعيم وفي حور عين أي في مقارنة حور عين أو مباشرة حور عين فحذفت المضاف

وقال الفراء والخفض أن تتبع آخر الكلام أوله وإن لم يحسن في آخره ما حسن في أوله أنشدني بعض العرب . . . إذا ما الغانيات برزن يوما . . . وزججن الحواجب والعيونا . . .

فالعين لا تزجج وإنما تكحل فردها على الحواجب لأن المعنى يعرف وقال . . . علفتها تبنا وماء باردا . . .

والماء لا يعلف فجعله تابعا للتبن

عربا أترابا 37

قرأ نافع في رواية إسماعيل وحمزة وأبو بكر عربا أترابا ساكنة الراء وقرأ الباقون عربا أترابا بضم الراء على الأصل لأنه جمع عروب كما تقول صبور وصبر ورسول ورسل والتخفيف في ذلك سائغ كما تقول رسل

أوءاباؤنا الأولون 48

قرأ نافع وابن عامر أو آباؤنا الأولون بإسكان الواو وقرأ الباقون بالفتح وهي واو نسق دخلت عليها ألف الاستفهام ومن سكن فكأنه شك فهم يقولون أنحن نبعث أو آباؤنا

الأولون

فشاربون شرب الهيم 55

(101/742)

قرأ نافع وعاصم وحمزة فشاربون شرب الهيم بضم الشين وقرأ الباقون بالفتح وهما لغتان العرب تقول أريد شرب الماء وشرب الماء وقال آخرون الشرب المصدر والشرب بالضم الاسم واحتج من فتح بالخبر قال صلى الله عليه

لأنها أيام أكل وشرب وبعال

نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين 60

قرأ ابن كثير نحن قدرنا بينكم الموت بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد وهما لغتان قدرت وقدرت

إنا لمغرمون 66

قرأ أبو بكر أإنا لمغرمون بهمزتين على الاستفهام وقرأ الباقون إنا لمغرمون على لفظ الخبر واستئناف كلام يقول الجماعة إنا أصبنا بالغرم

فلا أقسم بمواقع النجوم 75

قرأ حمزة والكسائي فلا أقسم بموقع النجوم على واحد وقرأ الباقون بمواقع جماعة أي بمساقطها قالوا فالجمع أولى لأنه مضاف إلى جمع وروي عن الحسن أنه قال انتشارها يوم القيامة وعنه أيضا قال مغايبها وعن ابن عباس قال مواقع النجوم نزول القرآن كان ينزل نجوما شيئا بعد شيء

فهذا دليل على معنى الجمع لأن القرآن نزل في زمان طويل وحجة من قرأ بموقع النجوم أن الموقع في معنى المصدر وهو يصلح للقليل والكثير لأن معناه بوقوع ويجري مجرى قول الرجل عملت عمل الرجال وأخرى وهي ما روي عن عبد الله قال فلا أقسم بموقع النجوم أي بمحكم القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 694. 697 ﴾

(102/742)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة الواقعة 56

مكية وقد ذكر نظيرتها في غير الكوفي والبصري ولا نظير لها فيهما وكلمها ثلاث مئة وثمان وسبعون كلمة

وحروفها ألف وسبع مئة وثلاثة أحرف

وهي تسعون وست آيات كوفي وسبع بصري وتسع في عدد الباقيين

اختلافها أربع عشرة آية (﴿ فأصحاب الميمنة ﴾) وكذا (﴿ وأصحاب المشأمة ﴾) لم يعدهما الكوفي وعدهما الباقون (﴿ على سرر موضونة ﴾) لم يعدها البصري والشامي وعدها الباقون (﴿ وأباريق ﴾) عدها المدني الأخير والمكي ولم يعدها الباقون (﴿ وحور عين ﴾) عدها المدني الأول والكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ ولا تأثيما ﴾) لم يعدها المدني الأول والمكي وعدها الباقون (﴿ وأصحاب اليمين ﴾) لم يعدها المدني الأخير والكوفي وعدها الباقون (﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾) لم يعدها البصري وعدها الباقون (﴿ وأصحاب الشمال ﴾) لم يعدها الكوفي وعدها الباقون (﴿ في سموم وحميم ﴾) لم يعدها المكي وعدها الباقون (﴿ وكانوا يقولون ﴾) عدها المكي ولم يعدها الباقون (﴿ إن الأولين والآخرين ﴾) لم يعدها المدني الأخير والشامي وعدها الباقون (﴿ لمجموعون ﴾) عدها المدني الأخير والشامي ولم يعدها الباقون (﴿ فروح وريحان ﴾) عدها الشامي ولم يعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس بها ستة مواضع (﴿ خافضة ﴾ والسابقون) الأول و (﴿ في سموم ﴾ أيها الضالون) (﴿ لآكلون ﴾ من المكذبين)

ورؤوس الآي

الواقعة

1 كاذبة

2 رافعة

3 رجا

4 بسا

5 منبثا

6 ثلاثة

7 الميمنة

المشأمة

9 السابقون

10 المقربون

11 النعيم

12 الأولين

13 الآخرين

14 موضونة

15 متقابلين

16 مخلدون

17 وأباريق

الشمال

41 وحميم

42 يحموم

43 ولا كريم

44 مترفين

45 العظيم

46 لمبعوثون

47 الأولون

48 لمجموعون

* معلوم

50 المكذبون

51 زقوم

52 البطون

53 الحميم

54 الهيم

55 الدين

56 تصدقون

57 تمنون

58 الخالقون

59 بمسبوقين

60 لا تعلمون

61 تذكرون

62 تحرثون

63 الزارعون

64 تفكهون

65 لمغرمون

66 محرومون

67 تشربون

68 المنزلون

69 تشكرون

70 تورون

71 المنشئون

72 للمقوين

73 العظيم

74 النجوم

75 عظيم

76 كريم

77 مكنون

78 المطهرون

79 العالمين

80 مدهنون

81 تكذبون

82 الحلقوم

83 تنظرون

84 لا تبصرون

85 مدينين

86 صادقين

87 المقربين

88 نعيم

89 اليمين

90 اليمين

91 الضالين

92 حميم

93 جحيم

94 اليقين

95 العظيم

96 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 239 . 240﴾

(104/742)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

العامل في (إذا) على أوجه: أحدها هو مفعول اذكر .

والثانى هو ظرف لما دل عليه (ليس لوقعتها كاذبة) أي إذا وقعت لم تكذب .

والثالث هو ظرف لخافضة أو رافعة: أي إذا وقعت خفضت ورفعت .

والرابع هو ظرف لرجت ، وإذا الثانية على هذا تكرير للأولى أو بدل منها .

والخامس هو ظرف لما دل عليه ، فأصحاب الميمنة: أي إذا وقعت بانت أحوال الناس فيها وكاذبة بمعنى الكذب كالعاقبة والعافية ، وقيل التقدير: ليس لها حالة كاذبة: أي مكذوب فيها ، و (خافضة رافعة) خبر مبتدأ محذوف: أي هي خافضة قوما ورافعة آخرين ، وقرئ بالنصب على الحال من الضمير في كاذبة أو في وقعت (1) .

قوله تعالى (إذا رجت) إذا بدل من إذا الأولى ، وقيل هو ظرف لرافعة ، وقيل لما دل عليه كأصحاب الميمنة ، وقيل هو مفعول اذكر .

قوله تعالى (فأصحاب الميمنة) هو مبتدإ ، و (ما أصحاب) مبتدإ ، وخبر خبر الأول .

فإن قيل: أين العائد من الجملة إلى المبتدإ ؟ قيل لما كان أصحاب الثاني هو

الأول لم يحتج إلى ضمير .

وقيل ما أصحاب الميمنة إلا موضع له ، وكذلك ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون ، وخبر الأول أولئك المقربون ، وهذا بعيد لأن أصحاب المشأمة ليسوا من المقربين .

قوله تعالى (والسابقون) الأول مبتدأ .

والثانى خبره: أي السابقون بالخير السابقون إلى الجنة ، وقيل الثاني نعت للأول أو تكرير توكيدا ، والخبر (أولئك) .

قوله تعالى (في جنات) أي هم في جنات أو يكون حالا من الضمير في المقربون أو ظرفا ، وقيل هو خبر (ثلة) وعلى الأقوال الأول يكون الكلام تاما عند قوله تعالى " النعيم " ويكون في ثلة وجهان: أحدهما هو مبتدأ ، والخبر (على سرر) والثانى هو خبر: أي هم ثلة ، و (متكئين) حال من الضمير في على ، و (متقابلين)

---

(1) قوله: أو في وقعت .

كذا بالنسخ التى بأيدينا والصواب أن يقال: أو من الواقعة ويدل عليه عبارة السفاقسى اه .

(*)

حال من الضمير في متكئين ، و (يطوف عليهم) يجوز أن يكون مستأنفا ، وأن يكون حالا ، و (بأكواب) يتعلق بيطوف .

قوله تعالى (وحور عين) يقرأ بالرفع وفيه أوجه: أحدها هو معطوف على ولدان: أي يطفن عليهم للتنعم لا للخدمة .

والثانى تقديره: لهم حور ، أو عندهم أو وثم والثالث تقديره: ونساؤهم حور ، ويقرأ بالنصب على تقدير: يعطون أو يجازون ، وبالجر عطفا على أكواب في اللفظ دون المعنى لأن الحور لا يطاف بهن وقيل هو معطوف على جنات: أي في جنات ، وفي حور ، والحور جمع حوراء ، والعين جمع عيناء ، ولم يضم أوله لئلا تنقلب الياء واوا ، و (جزاء) مفعول له أو على تقدير: يجزون جزاء .

قوله تعالى (إلا قيلا) هو استثناء منقطع ، و (سلاما) بدل أو صفة ، وقيل هو مفعول قيل ، وقيل هو مصدر .

قوله تعالى (لا مقطوعة) قيل هو نعت لفاكهة ، وقيل هو معطوف عليها .

قوله تعالى (أنشأناهن) الضمير للفرش لأن المراد بها النساء .

والعرب جمع عروب ، والأتراب جمع ترب .

قوله تعالى (لأصحاب اليمين) اللام متعلقة بأنشأناهن أو بجعلناهن ، إذ هو نعت لأتراب ، و (ثلة) أي وهم ثلة ، وكذلك (في سموم) أي هم في سموم ، والياء في (يحموم) زائدة ، ووزنه

يفعول من الحمم أو الحميم .

قوله تعالى (من شجر) أي لآكلون شيئا من شجر ، وقيل من زائدة ، و (من زقوم) نعت لشجر ، أو لشئ المحذوف ، وقيل من الثانية زائدة: أي لآكلون زقوما من شجر ، والهاء في (منها) للشجر ، والهاء في (عليه) للمأكول و (شرب الهيم) بالضم والفتح والكسر ، فالفتح مصدر والآخران اسم له ، وقيل هي لغات في المصدر ، والتقدير: شربا مثل شرب الهيم ، والهيم جمع أهيم وهيماء .

قوله تعالى (لو تعلمون) هو معترض بين الموصوف والصفة ، و (في كتاب) صفة أخرى لقرآن ، أو حال من الضمير في كريم ، أو خبر مبتدأ محذوف .

(106/742)

قوله تعالى (لا يمسه) هو نفى ، وقيل هو نهى حرك بالضم و (تنزيل) أي هو تنزيل ، ويجوز أن يكون نعتا لقرآن (وتجعلون رزقكم) أي شكر رزقكم و (ترجعونها) جواب " لولا " وأغنى ذلك عن جواب الثانية ، وقيل عكس ذلك وقيل لولا الثانية تكرير .

قوله تعالى (فأما إن كان) جواب أما (فروح) وأما إن فاستغنى بجواب أما عن جوابها لان " إن " قد حذف جوابها في مواضع ، والتقدير: فله روح ، ويقرأ بفتح الراء وضمها ، فالفتح

مصدر ، والضم اسم له ، وقيل هو المتروح به ، والأصل

(في ريحان) وريوحان على فيعلان ، قلبت الواو ياء ، وأدغم ثم خفف مثل سيد وسيد ،

وقيل هو فعلان قلبت الواو ياء وإن سكنت وانفتح ما قبلها .

قوله تعالى (فنزل) أي فله نزل (وتصلية) بالرفع عطفا على نزل وبالجر عطفا على حميم ، و

(حق اليقين) أي حق الخبر اليقين ، وقيل المعنى حقيقة اليقين و (العظيم) صفة لربك ، وقيل

للاسم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(107/742)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الواقعة

[سورة الواقعة (56) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (1)

"إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "وَقَعَتِ الْواقِعَةُ" ماض وفاعله والجملة في محل جر

بالإضافة .

[سورة الواقعة (56) : آية 2]

لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ (2)

"لَيْسَ" ماض ناقص "لِوَقْعَتِها" خبر ليس المقدم "كاذِبَةٌ" اسمها المؤخر والجملة جواب الشرط لا محل لها .

[سورة الواقعة (56) : آية 3]

خافِضَةٌ رافِعَةٌ (3)

"خافِضَةٌ" خبر لمبتدأ محذوف "رافِعَةٌ" خبر ثان والجملة حالية .

[سورة الواقعة (56) : آية 4]

إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4)

"إِذا" بدل من سابقتها "رُجَّتِ" ماض مبني للمجهول "الْأَرْضُ" نائب فاعل "رَجًّا" مفعول مطلق والجملة في محل جر بالإضافة .

[سورة الواقعة (56) : آية 5]

وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا (5)

إعرابها مثل سابقتها وهي معطوفة عليها .

[سورة الواقعة (56) : آية 6]

فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا (6)

"فَكانَتْ" كان واسمها مستتر "هَباءً" خبرها "مُنْبَثًّا" صفة هباء والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 7]

وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً (7)

"وَكُنْتُمْ" كان واسمها "أَزْواجاً" خبرها "ثَلاثَةً" صفة أزواجا والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 8]

فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (8)

"فَأَصْحابُ" الفاء حرف استئناف وأصحاب مبتدأ مضاف إلى الميمنة "الْمَيْمَنَةِ" مضاف إليه "ما" استفهامية مبتدأ ثان وأصحاب خبر ما مضاف "الْمَيْمَنَةِ" مضاف إليه والجملة خبر أصحاب وجملة أصحاب . . استئنافية لا محل لها .

[سورة الواقعة (56) : آية 9]

وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ (9)

إعرابها مثل سابقتها وهي معطوفة عليها .

[سورة الواقعة (56) : آية 10]

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10)

مبتدأ وخبره والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 11]

أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11)

"أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ" مبتدأ وخبر والجملة خبر ثان للسابقون .

[سورة الواقعة (56) : آية 12]

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12)

"فِي جَنَّاتِ" خبر ثان لأولئك "النَّعِيمِ" مضاف إليه .

[سورة الواقعة (56) : آية 13]

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13)

"ثُلَّةٌ" خبر لمبتدأ محذوف "مِنَ الْأَوَّلِينَ" صفة ثلة .

[سورة الواقعة (56) : آية 14]

وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14)

"وَقَلِيلٌ" معطوف على ثلة "مِنَ الْآخِرِينَ" متعلقان بقليل .

[سورة الواقعة (56) : آية 15]

عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15)

"عَلى سُرُرٍ" صفة ثانية لثلة "مَوْضُونَةٍ" صفة سرر .

[سورة الواقعة (56) : آية 16]

مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ (16)

"مُتَّكِئِينَ" حال و"عَلَيْها" متعلقان بما قبلهما "مُتَقابِلِينَ" حال ثانية .

[سورة الواقعة (56) : آية 17]

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ (17)

"يَطُوفُ" مضارع "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "وِلْدانٌ" فاعل "مُخَلَّدُونَ" صفة والجملة حال .

[سورة الواقعة (56) : آية 18]

بِأَكْوابٍ وَأَبارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18)

"بِأَكْوابٍ" متعلقان بيطوف "وَأَبارِيقَ" معطوف على أكواب "وَكَأْسٍ" معطوف على ما قبله "مِنْ مَعِينٍ" صفة كأس .

[سورة الواقعة (56) : آية 19]

لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُونَ (19)

"لا" نافية "يُصَدَّعُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع والواو نائب فاعل "عَنْها" متعلقان

بالفعل والجملة حالية "وَلا" نافية "يُنْزِفُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 20]

وَفاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20)

"وَفاكِهَةٍ" معطوف على ما قبله "مِمَّا" صفة فاكهة "يَتَخَيَّرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة ما .

(109/742)

[سورة الواقعة (56) : آية 21]

وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21)

الآية معطوفة على ما قبلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 22]

وَحُورٌ عِينٌ (22)

"وَحُورٌ" معطوف على ولدان "عِينٌ" صفة حور .

[سورة الواقعة (56) : آية 23]

كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23)

"كَأَمْثالِ" صفة ثانية لحور "اللُّؤْلُؤِ" مضاف إليه "الْمَكْنُونِ" صفة اللؤلؤ .

[سورة الواقعة (56) : آية 24]

جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (24)

"جَزاءً" مفعول لأجله "بِما" متعلقان بجزاء "كانُوا" كان واسمها والجملة صلة ما "يَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا .

[سورة الواقعة (56) : آية 25]

لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً (25)

"لا" نافية "يَسْمَعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة حال "فِيها" متعلقان بالفعل "لَغْواً" مفعول به "وَلا" الواو حرف عطف ولا نافية "تَأْثِيماً" معطوف على لغوا .

[سورة الواقعة (56) : آية 26]

إِلَّا قِيلاً سَلاماً سَلاماً (26)

"إِلَّا" أداة استثناء "قِيلًا" مستثنى بإلا منصوب "سَلاماً" بدل من قيلا "سَلاماً" توكيد .

[سورة الواقعة (56) : آية 27]

وَأَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ (27)

مماثل لإعراب الآية رقم - 8 - .

[سورة الواقعة (56) : آية 28]

فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (28)

"فِي سِدْرٍ" خبر ثان لأصحاب "مَخْضُودٍ" صفة سدر .

[سورة الواقعة (56) : آية 29]

وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (29)

معطوف على ما قبله .

[سورة الواقعة (56) : آية 30]

وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (30)

معطوف على ما قبله .

[سورة الواقعة (56) : آية 31]

وَماءٍ مَسْكُوبٍ (31)

معطوف على ما قبله .

[سورة الواقعة (56) : آية 32]

وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32)

معطوف على ما قبله .

[سورة الواقعة (56) : آية 33]

لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (33)

(110/742)

"لا" نافية "مَقْطُوعَةٍ" صفة ثانية لفاكهة "وَلا" الواو حرف عطف ولا نافية "مَمْنُوعَةٍ" معطوف على مقطوعة.

[سورة الواقعة (56) : آية 34]

وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (34)

"فُرُشٍ" معطوف على ما قبله "مَرْفُوعَةٍ" صفة فرش.

[سورة الواقعة (56) : آية 35]

إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً (35)

"إِنَّا" إن واسمها "أَنْشَأْناهُنَّ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر إن "إِنْشاءً" مفعول مطلق والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها.

[سورة الواقعة (56) : آية 36]

فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً (36)

"فَجَعَلْناهُنَّ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "أَبْكاراً" مفعوله الثاني والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 37]

عُرُباً أَتْراباً (37)

صفتان لأبكارا .

[سورة الواقعة (56) : آية 38]

لِأَصْحابِ الْيَمِينِ (38)

"لِأَصْحابِ" جار ومجرور متعلقان بجعلناهن "الْيَمِينِ" مضاف إليه .

[سورة الواقعة (56) : آية 39]

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (39)

"ثُلَّةٌ" خبر لمبتدأ محذوف "مِنَ الْأَوَّلِينَ" صفة ثلة والجملة صفة أصحاب .

[سورة الواقعة (56) : آية 40]

وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (40)

معطوف على ما قبله .

[سورة الواقعة (56) : آية 41]

وَأَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ (41)

سبق إعراب نظيرها في الآية - 8 - .

[سورة الواقعة (56) : آية 42]

فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42)

"فِي سَمُومٍ" خبر ثان لأصحاب الشمال "وَحَمِيمٍ" معطوف على سموم.

[سورة الواقعة (56) : آية 43]

وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43)

معطوف على ما قبله.

[سورة الواقعة (56) : آية 44]

لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (44)

"لا" نافية "بارِدٍ" صفة ظل "وَلا كَرِيمٍ" معطوف على ما قبله.

[سورة الواقعة (56) : آية 45]

إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ (45)

"إِنَّهُمْ" إن واسمها "كانُوا" كان واسمها "قَبْلَ" ظرف زمان "ذِلكَ" مضاف إليه "مُتْرَفِينَ" خبر كانوا وجملة كانوا . . خبر إنهم والجملة الاسمية تعليل .

[سورة الواقعة (56) : آية 46]

وَكانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (46)

"وَكانُوا" كان واسمها "يُصِرُّونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا "عَلَى الْحِنْثِ" متعلقان بالفعل "الْعَظِيمِ" صفة الحنث وجملة كانوا . . معطوفة على ما قبلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 47]

وَكانُوا يَقُولُونَ أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُرابًا وَعِظاما أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47)

"وَكانُوا" كان واسمها "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا . .

معطوفة على ما قبلها "أَإِذا" الهمزة حرف استفهام وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "مِتْنا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "وَكُنَّا" كان واسمها "تُرابًا" خبرها والجملة معطوفة على ما قبلها "وَعِظاما" معطوف على ترابا "أَإِنَّا" الهمزة حرف استفهام وإن واسمها "لَمَبْعُوثُونَ" اللام المزحلقة ومبعوثون خبرها والجملة الاسمية مؤكدة لما قبلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 48]

أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (48)

"أَوَآباؤُنَا" الهمزة حرف استفهام والواو حرف عطف وآباؤنا معطوف على ضمير مستتر في لمبعوثون "الْأَوَّلُونَ" صفة.

[سورة الواقعة (56) : آية 49]

قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر "إِنَّ الْأَوَّلِينَ" إن واسمها "وَالْآخِرِينَ" معطوف على الأولين.

[سورة الواقعة (56) : آية 50]

لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50)

"لَمَجْمُوعُونَ" اللام المزحلقة ومجموعون خبر إن مرفوع بالواو والجملة الاسمية مقول القول وجملة قل . . استئنافية لا محل لها "إِلى مِيقاتِ" متعلقان بمجموعون "يَوْمٍ" مضاف إليه "مَعْلُومٍ" صفة يوم.

(112/742)

[سورة الواقعة (56) : آية 51]

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51)

"ثُمَّ" حرف عطف "إِنَّكُمْ" إن واسمها "أَيُّهَا" منادى نكرة مقصودة "الضَّالُّونَ" صفة أيّ

"الْمُكَذِّبُونَ" صفة ثانية للموصوف المحذوف وجملة النداء معترضة لا محل لها .

[سورة الواقعة (56) : آية 52]

لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52)

"لَآكِلُونَ" اللام المزحلقة وآكلون خبر إن "مِنْ شَجَرٍ" متعلقان بآكلون "مِنْ زَقُّومٍ" بدل مما قبله وجملة إنكم معطوفة على ما قبلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 53]

فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53)

"فَمالِؤُنَ" الفاء حرف عطف ومالئون معطوف على آكلون "مِنْهَا" متعلقان بمالئون "الْبُطُونَ" مفعول به لاسم الفاعل .

[سورة الواقعة (56) : آية 54]

فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54)

"فَشارِبُونَ" شاربون معطوف على آكلون "عَلَيْهِ" متعلقان بشاربون "مِنَ" الحميم متعلقان بشاربون .

[سورة الواقعة (56) : آية 55]

فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (55)

"فَشارِبُونَ" شاربون معطوف على ما قبله "شُرْبَ" مفعول مطلق "الْهِيمِ" مضاف إليه .

[سورة الواقعة (56) : آية 56]

هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (56)

"هذا نُزُلُهُمْ" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها ويوم ظرف زمان مضاف إلى الدين .

[سورة الواقعة (56) : آية 57]

نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ (57)

"نَحْنُ" مبتدأ "خَلَقْناكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "فَلَوْلا" الفاء حرف عطف ولولا حرف تحضيض "تُصَدِّقُونَ" مضارع وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 58]

أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ (58)

(113/742)

"أَفَرَأَيْتُمْ" الهمزة حرف استفهام والفاء حرف استئناف وماض وفاعله "ما" مفعول به أول "تُمْنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة وجملة أفرأيتم . . استئنافية لا محل لها .

[سورة الواقعة (56) : آية 59]

أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ (59)

"أَأَنْتُمْ" الهمزة حرف استفهام ومبتدأ "تَخْلُقُونَهُ" مضارع وفاعله والهاء مفعوله والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية مفعول به ثان لرأيتم "أَمْ" حرف عطف "نَحْنُ" مبتدأ "الْخالِقُونَ" خبر والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 60]

نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60)

"نَحْنُ" مبتدأ "قَدَّرْنا" ماض وفاعله والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "بَيْنَكُمُ" ظرف مكان "الْمَوْتَ" مفعول به "وَما" الواو حالية وما نافية عاملة عمل ليس "نَحْنُ" اسمها "بِمَسْبُوقِينَ" مجرور لفظا بالباء الزائدة منصوب محلا خبر ما والجملة حال .

[سورة الواقعة (56) : آية 61]

عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ (61)

"عَلى"

حرف جر "أَنْ نُبَدِّلَ"

مضارع منصوب بأن والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بحرف الجر والجار والمجرور متعلقان بمسبوقين "أَمْثالَكُمْ"

مفعول به "وَنُنْشِئَكُمْ"

مضارع معطوف على نبدل "فِي ما"

متعلقان بما قبلهما "لا"

نافية "تَعْلَمُونَ"

مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة .

[سورة الواقعة (56) : آية 62]

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (62)

(114/742)

"وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "عَلِمْتُمُ" ماض وفاعله "النَّشْأَةَ" مفعول به "الْأُولى" صفة والجملة جواب القسم لا محل لها "فَلَوْلا" الفاء حرف عطف ولولا حرف تحضيض "تَذَكَّرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 63]

أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ (63)

تقدم إعراب مثيلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 64]

أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64)

تقدم إعراب مثيلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 65]

لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65)

"لَوْ" شرطية غير جازمة "نَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة ابتدائية لا محل لها

"لَجَعَلْناهُ" اللام واقعة في جواب الشرط وماض وفاعله ومفعوله الأول "حُطاماً" مفعوله الثاني والجملة جواب الشرط

لا محل لها . "فَظَلْتُمْ" الفاء حرف عطف وماض ناقص والتاء اسمه "تَفَكَّهُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر ظلتم معطوفة على ما قبلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 66]

إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66)

"إِنَّا لَمُغْرَمُونَ" إن واسمها واللام المزحلقة ومغرمون خبرها والجملة مقول قول محذوف .

[سورة الواقعة (56) : آية 67]

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67)

"بَلْ" حرف إضراب وعطف "نَحْنُ مَحْرُومُونَ" مبتدأ وخبره والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 68]

أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68)

"أَفَرَأَيْتُمُ" الهمزة حرف استفهام وماض وفاعله "الْماءَ" مفعوله والجملة استئنافية لا محل لها "الَّذِي" صفة الماء "تَشْرَبُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة .

[سورة الواقعة (56) : آية 69]

أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69)

"أَأَنْتُمْ" الهمزة حرف استفهام ومبتدأ "أَنْزَلْتُمُوهُ" ماض وفاعله ومفعوله "مِنَ الْمُزْنِ" متعلقان بالفعل والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مفعول به ثان لأرأيتم "أَمْ" حرف عطف "نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ" مبتدأ وخبره والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 70]

لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (70)

"لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً" تقدم إعراب نظيرها "فَلَوْلا تَشْكُرُونَ" سبق إعرابها .

[سورة الواقعة (56) : آية 71]

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71)

تقدم إعراب مثيلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 72]

أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ (72)

تقدم إعراب مثيلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 73]

نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ (73)

"نَحْنُ" مبتدأ "جَعَلْناها" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر المبتدأ "تَذْكِرَةً" مفعول به ثان "وَمَتاعاً" معطوف على تذكرة "لِلْمُقْوِينَ" متعلقان بمتاعا والجملة الاسمية تعليل .

[سورة الواقعة (56) : آية 74]

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (74)

"فَسَبِّحْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "بِاسْمِ" متعلقان بالفعل "رَبِّكَ" مضاف إليه "الْعَظِيمِ" صفة ربك .

[سورة الواقعة (56) : آية 75]

فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ (75)

"فَلا أُقْسِمُ" الفاء حرف استئناف ولا نافية ومضارع فاعله مستتر "بِمَواقِعِ" متعلقان بالفعل "النُّجُومِ" مضاف إليه والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الواقعة (56) : آية 76]

وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76)

(116/742)

"وَإِنَّهُ" الواو اعتراضية وإن واسمها "لَقَسَمٌ" اللام المزحلقة وقسم خبرها والجملة اعتراضية لا محل لها "لَوْ" شرطية غير جازمة "تَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "عَظِيمٌ" صفة قسم .

[سورة الواقعة (56) : آية 77]

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77)

"إِنَّهُ لَقُرْآنٌ" إن واسمها واللام المزحلقة وقرآن خبرها "كَرِيمٌ" صفة والجملة جواب القسم لا محل لها .

[سورة الواقعة (56) : آية 78]

فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78)

"فِي كِتَابٍ" في كتاب صفة ثانية لقرآن "مَكْنُونٍ" صفة كتاب .

[سورة الواقعة (56) : آية 79]

لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79)

"لا" نافية "يَمَسُّهُ" مضارع ومفعوله "إِلَّا" حرف حصر "الْمُطَهَّرُونَ" فاعل والجملة صفة ثالثة لقرآن .

[سورة الواقعة (56) : آية 80]

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (80)

"تَنْزِيلٌ" صفة قرآن أيضا "مِنْ رَبِّ" صفة تنزيل "الْعالَمِينَ" مضاف إليه .

[سورة الواقعة (56) : آية 81]

أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (81)

"أَفَبِهذَا" الهمزة حرف استفهام إنكاري والفاء حرف استئناف "بهذا" متعلقان بمدهنون "الْحَدِيثِ" صفة لاسم الإشارة "أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

[سورة الواقعة (56) : آية 82]

وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (82)

"وَتَجْعَلُونَ" الواو حرف عطف ومضارع مرفوع والواو فاعله "رِزْقَكُمْ" مفعول به أول "أَنَّكُمْ" أن واسمها "تُكَذِّبُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر أنكم والمصدر المؤول من أن وما بعدها مفعول به ثان لتجعلون وجملة تجعلون معطوفة على ما قبلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 83]

فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83)

(117/742)

"فَلَوْلا" الفاء حرف استئناف ولولا حرف تحضيض وإذا ظرفية فقط "بَلَغَتِ" ماض فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "الْحُلْقُومَ" مفعول به .

[سورة الواقعة (56) : آية 84]

وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84)

"وَأَنْتُمْ" الواو حالية ومبتدأ "حِينَئِذٍ" ظرف مضاف إلى مثله "تَنْظُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية حالية .

[سورة الواقعة (56) : آية 85]

وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ (85)

"وَنَحْنُ أَقْرَبُ" الواو حالية ومبتدأ وخبره والجملة حال "إِلَيْهِ" متعلقان بأقرب "مِنْكُمْ" متعلقان بأقرب "وَلَكِنْ" الواو حرف عطف ولكن مخففة مهملة "لا" نافية "تُبْصِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 86]

فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86)

"فَلَوْلا" معطوفة على مثلها "إِنْ" شرطية جازمة "كُنْتُمْ" كان واسمها "غَيْرَ" خبرها "مَدِينِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء والجملة ابتدائية لا محل لها .

[سورة الواقعة (56) : آية 87]

تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (87)

"تَرْجِعُونَهَا" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة جواب الشرط لا محل لها "إِنْ" شرطية "كُنْتُمْ" كان واسمها "صادِقِينَ" خبرها وجملة كنتم ابتدائية لا محل لها وجواب الشرط محذوف .

[سورة الواقعة (56) : آية 88]

فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88)

"فَأَمَّا" الفاء حرف استئناف وأما حرف شرط وتفصيل "إِنْ" شرطية "كانَ" ماض ناقص

اسمه مستتر "مِنَ الْمُقَرَّبِينَ" متعلقان بمحذوف خبر كان والجملة الفعلية ابتدائية لا محل لها .

[سورة الواقعة (56) : آية 89]

فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (89)

(118/742)

"فَرَوْحٌ" الفاء واقعة في جواب أما وروح مبتدأ خبره محذوف والجملة الاسمية جواب أما "وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ" معطوفان على روح "نَعِيمٍ" مضاف إليه .

[سورة الواقعة (56) : آية 90]

وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (90)

معطوف على ما قبله والإعراب واحد .

[سورة الواقعة (56) : آية 91]

فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (91)

"فَسَلامٌ" الفاء واقعة في جواب أما وسلام مبتدأ "لَكَ" خبر المبتدأ والجملة جواب أما لا محل لها "مِنْ أَصْحابِ" حال "الْيَمِينِ" مضاف إليه .

[سورة الواقعة (56) : آية 92]

وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92)

تقدم إعراب مثيلها .

[سورة الواقعة (56) : آية 93]

فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93)

"فَنُزُلٌ" الفاء واقعة في جواب أما ونزل مبتدأ خبره محذوف والجملة جواب أما لا محل لها

"مِنْ حَمِيمٍ" صفة نزل .

[سورة الواقعة (56) : آية 94]

وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94)

"وَتَصْلِيَةُ" معطوفة على نزل وهو مضاف "جَحِيمٍ" مضاف إليه .

[سورة الواقعة (56) : آية 95]

إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95)

"إِنَّ هذا" إن واسمها "لَهُوَ" اللام المزحلقة وهو ضمير فصل "حَقُّ" خبر إن "الْيَقِينِ" مضاف إليه .

[سورة الواقعة (56) : آية 96]

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)

تقدم إعرابها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 298. 306﴾

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الْوَاقِعَة

ذكر فِيهَا أحد عشر حَدِيثا

1285 - الحَدِيث الأول

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (الثُّلثان من أمتِي)

قلت رُوِيَ من حَدِيث أبي بكر وَمن حَدِيث ابْن عَبَّاس

أما حَدِيث أبي بكر فَرَوَاهُ مُسَدّد فِي مُسْنده حَدثنَا خاقَان بن عبد الله بن الْأَهْتَم السَّعْدِيّ أَبُو الصَّباح حَدثنَا عَلّي بن زيد عَن عقبَة بن صهْبَان عَن أبي بكرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله تَعَالَى ثلة من الْأَوَّلين وثلة من الآخرين قَالَ (هما جَمِيعًا من أمتِي)

وَمن طَرِيق مُسَدّد رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره وَإِبْرَاهِيم الْحَرْبِيّ فِي غَرِيب الحَدِيث لَهُ وَقَالَ الثلة الْجَمَاعَة

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ أَيضا ثَنَا عَلّي بن عبد الْعَزِيز ثَنَا حجاج بن الْمنْهَال ثَنَا حَمَّاد بن سَلمَة عَن

عَلّي بن زيد بِهِ

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مسنديهما ثَنَا حَمَّاد بن زيد عَن عَلّي بن زيد عَن عقبَة بن صهْبَان عَن أبي بكرَة فِي قَوْله تَعَالَى ثلة من الْأَوَّلين وثلة من الآخرين قَالَ كلتاهما جَمِيعًا من هَذِه الْأمة قَالَ الطَّيَالِسِيّ وَقد رَوَاهُ الْحجَّاج بن أَرْطَاة عَن حَمَّاد بن سَلمَة فرفعه إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انْتَهَى

وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيّ فِي علله هَذَا حَدِيث لم يثبت وَكَانَ يَحْيَى الْقطَّان قد حدث بِهِ عَن حَمَّاد بن سَلمَة بِهِ مَرْفُوعا ثمَّ تركه

انْتَهَى

(120/742)

وَأما حَدِيث ابْن عَبَّاس فَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل والطبري وَابْن مرْدَوَيْه والواحدي والثعلبي وَمن طَرِيقَة الْبَغَوِيّ فِي تفاسيرهم كلهم عَن سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَن أبان بن أبي عَيَّاش عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس فِي هَذِه الْآيَة ثلة من الْأَوَّلين وثلة من الآخرين قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (هما جَمِيعًا من أمتِي)

انْتَهَى

وَضَعفه الطَّبَرِيّ فَإِنَّهُ قَالَ وَقد رُوِيَ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم خبر من وَجه غير صَحِيح أَنه قَالَ (الثُّلُثَانِ من أمتِي) ثمَّ سَاقه بالسند الْمَذْكُور وَضَعفه ابْن عدي بَابَانِ بن أبي عَبَّاس وَقَالَ هُوَ مولَى لأنس بن مَالك وَهُوَ مُنكر الحَدِيث وَأَرْجُو أَنه مِمَّن لَا يكذب وَلكنه يغلط

انْتَهَى

1286 - الْحَدث الثَّانِي فِي الحَدِيث أَوْلَاد الْكفَّار خدم أهل الْجنَّة

قلت رُوِيَ من حَدِيث سَمُرَة وَمن حَدِيث أنس

فَحَدِيث سَمُرَة رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْكَبِير وَالْوسط وَالْبُخَارِيّ فِي تَارِيخه الْوسط كلهم من حَدِيث عِيسَى بن شُعَيْب ثَنَا عباد بن مَنْصُور عَن أبي رَجَاء العطاردي عَن سَمُرَة بن جُنْدُب قَالَ سَأَلَنَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن أَوْلَاد الْمُشْركِين فَقَالَ (هم خدم أهل الْجنَّة)

انْتَهَى

قَالَ الْبَزَّار لَا نعلمهُ يرويهِ عَن النَّبِي إِلَّا سَمُرَة وَلَا رَوَاهُ عَنهُ إِلَّا أَبُو رَجَاء العطاردي

انْتَهَى

وَقَالَ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط وَلَا رَوَاهُ عَن أبي رَجَاء إِلَّا عباد بن مَنْصُور

انْتَهَى

وَقَالَ الْبُخَارِيّ عِيسَى بن شُعَيْب بَصرِي صَدُوق

انْتَهَى

(121/742)

وَأما حَدِيث أنس فَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده ثَنَا الْفضل بن سهل ثَنَا الْحجَّاج ابْن نصير ثَنَا مبارك بن فضَالة عَن عَلّي بن زيد بن جدعَان عَن أنس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَطْفَال الْمُشْركين خدم أهل الْجنَّة)

انْتَهَى

وَسكت عَنهُ وَهَذَا مُنَاقض لقَوْله لَا نعلمهُ يرويهِ عَن النَّبِي إِلَّا سَمُرَة

وَله طَرِيق آخر رَوَاهُ أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ فِي مُسْنده ثَنَا الرّبيع بن صبيح عَن يزِيد بن أبان الرقاشِي قَالَ قُلْنَا لأنس بن مَالك يَا أَبَا حَمْزَة مَا تَقول فِي أَطْفَال الْمُشْركين فَقَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لم يكن لَهُم سيئات فَيُعَذَّبُوا بهَا وَلم يكن لَهُم حَسَنَات فَيكُونُوا بهَا من أهل الْجنَّة هم خدم أهل الْجنَّة)

انْتَهَى

وَبِهَذَا السَّنَد رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة الرّبيع بن صبيح عَن الطَّبَرَانِيّ بِسَنَدِهِ إِلَى

الرّبيع وَرَوَاهُ أَبُو يعْلى الْموصِلِي فِي مُسْنده ثَنَا أَبُو بكر بن أبي شيبَة ثَنَا وَكِيع عَن الْأَعْمَش عَن يزِيد الرقاشِي عَن أنس بِهِ

1287 - الْحَدِيث الثَّالِث عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَن أم سَلمَة سَأَلته عَن قَوْله تَعَالَى إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاء فَقَالَ (يَا أم سَلمَة هن اللواتي قبضن فِي أَرض الدُّنْيَا عَجَائِز شُمْطًا رَمضًا جَعلهنَّ الله بعد الْكبر أترابًا عَلَى مِيلَاد وَاحِد فِي الاسْتِوَاء كَمَا أَتَاهُنَّ أَزوَاجهنَّ وَجَدُوهُنَّ أبْكَارًا) فَلَمَّا سَمِعت عَائِشَة ذَلِك من رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَت وَاوَجَعَاه فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ (لَيْسَ هُنَاكَ وجع)

(122/742)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه والطبري فِي تَفْسِيره بنَقص لم يذكرا فِيهِ كَلَام عَائِشَة كِلَاهُمَا من حَدِيث عَمْرو بن هَاشم الْبَيْرُوتِي ثَنَا سُلَيْمَان بن أبي كَرِيمَة عَن هِشَام ابْن حسان عَن الْحسن عَن أمه عَن أم سَلمَة قَالَت قلت يَا رَسُول الله أَخْبرنِي عَن قَوْله عربا أترابًا قَالَ هن اللواتي قبضن فِي دَار الدُّنْيَا عَجَائِز رَمْضَاءُ شَمْطَاء خَلقهنَّ الله بعد الْكبر فَجعلْن عذارى عربا مُتَعَشقَات مُتَحَببَات لأَزْوَاجهنَّ أترابًا عَلَى مِيلَاد وَاحِد)

وَبِهَذَا السَّنَد رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا مُحَمَّد بن أَحْمد بن إِبْرَاهِيم ثَنَا بكر بن سُهَيْل ثَنَا عَمْرو بن هَاشم بِهِ سندا ومتنا

(123/742)

وَرَوَاهُ بِلَفْظ الْمُصَنّف الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث عِيسَى بن عمر بن مَيْمُون ثَنَا الْمسيب بن إِسْحَاق ثَنَا عِيسَى بن مُوسَى غُنْجَار ثَنَا إِسْمَاعِيل بن أبي زِيَاد عَن يُونُس بن عبيد عَن الْحسن عَن أم سَلمَة زوج النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنَّهَا سَأَلت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن قَوْله تَعَالَى إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاء الْآيَة فَقَالَ (يَا أم سَلمَة هن اللواتي قبضن فِي دَار الدُّنْيَا عَجَائِز شُمْطًا رَمضًا جَعلهنَّ الله بعد الْكبر أترابًا عَلَى مِيلَاد وَاحِد فِي الاسْتِوَاء) ثمَّ قَالَ وَأَخْبرنَا ابْن فَنْجَوَيْهِ ثَنَا مُوسَى بن مُحَمَّد ثَنَا الْحسن بن علوِيَّة ثَنَا إِسْمَاعِيل بن عِيسَى ثَنَا الْمسيب بن شريك فِي قَوْله تَعَالَى إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاء الْآيَة قَالَ (هن عَجَائِز الدُّنْيَا أَنْشَأَهُنَّ الله خلقا جَدِيدا كلما أَتَاهُنَّ أَزوَاجهنَّ وَجَدُوهُنَّ أَبْكَارًا فَلَمَّا سَمِعت عَائِشَة ذَلِك قَالَت وَاوَجَعَاه فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لَيْسَ هُنَاكَ وجع)

انْتَهَى

وَفِي التِّرْمِذِيّ مِنْهُ قِطْعَة يسيرَة رَوَاهُ من حَدِيث مُوسَى بن عُبَيْدَة عَن يزِيد ابْن أبان الرقاشِي

عَن أنس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله (إِن أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاء) قَالَ إِن من الْمُنْشَآت الْآتِي كُنَّا فِي الدُّنْيَا عَجَائِز عمشًا رَمضًا)

انْتَهَى

وَقَالَ حَدِيث غَرِيب لَا نعرفه إِلَّا من حَدِيث مُوسَى بن عُبَيْدَة وَيزِيد الرقاشِي وهما يُضعفَانِ فِي الحَدِيث

انْتَهَى

(124/742)

1288 - الحَدِيث الرَّابِع رُوِيَ أَن عجوزا قَالَت لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ادْع الله أَن يدخلني الْجنَّة فَقَالَ (إِن الْجنَّة لَا يدخلهَا الْعَجَائِز) فَوَلَّتْ وَهِي تبْكي فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (أَخْبرُوهَا أَنَّهَا لَيست يَوْمئِذٍ بعَجُوز)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي الشَّمَائِل فِي بَاب مزاح النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من حَدِيث الْمُبَارك ابْن فضَالة عَن الْحسن قَالَ أَتَت عَجُوز للنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَت يَا رَسُول الله ادْع الله أَن يدخلني الْجنَّة فَقَالَ (يَا أم فلَان إِن الْجنَّة لَا يدخلهَا عَجُوز) قَالَ فَوَلَّتْ وَهِي تبْكي فَقَالَ (أَخْبرُوهَا أَنَّهَا لَا تدْخلهَا وَهِي عَجُوز إِن الله يَقُول (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاء)

الْآيَة

انْتَهَى

وَهُوَ مُرْسل ضَعِيف

وَبِهَذَا السَّنَد رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ

وَذكر أَن ابْن الْجَوْزِيّ رَوَاهُ فِي كتاب الْوَفَاء من حَدِيث خَارِجَة بن مُصعب عَن سعيد بن أبي عرُوبَة عَن قَتَادَة عَن أنس أَن عجوزا دخلت فَقَالَت الحَدِيث

وَرَوَى الْبَيْهَقِيّ فِي الْبَعْث والنشور من حَدِيث لَيْث بن أبي سليم عَن مُجَاهِد عَن عَائِشَة قَالَت دخل النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَى عَائِشَة وَعِنْدهَا عَجُوز فَقَالَ (من هَذِه) قَالَت إِحْدَى خَالَاتِي قَالَ (أَنا إِنه لَا يدْخل الْجنَّة الْعَجز) فَدخل الْعَجُوز من ذَلِك مَا شَاءَ الله فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ خلقا آخر)

انْتَهَى

(125/742)

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط حَدثنَا مُحَمَّد بن عُثْمَان بن أبي شيبَة ثَنَا أَحْمد بن طَارق الْوَالِبِي ثَنَا مسْعدَة بن اليسع ثَنَا سعيد بن أبي عرُوبَة عَن قَتَادَة عَن سعيد بن

الْمسيب عَن عَائِشَة قَالَت أَتَت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَجُوز من الْأَنْصَار فَقَالَت يَا رَسُول الله ادْع الله أَن يدخلني الْجنَّة فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (إِن الْجنَّة لَا يدخلهَا عَجُوز) فَلَقِيت مِمَّا قَالَ مشقة فَقَالَ (إِن الله إِذا أدْخلهُنَّ الْجنَّة حَوْلهنَّ أَبْكَارًا)

انْتَهَى

1289 - الْحَدِيث الْخَامِس عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (يدْخل أهل الْجنَّة الْجنَّة جَرَادًا مردا بيضًا جِعَادًا مُكَحَّلِينَ أَبنَاء ثَلَاث وَثَلَاثِينَ)

قلت رَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي صفة الْجنَّة وَأَبُو يعْلى الْموصِلِي فِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الصَّغِير وَفِي الْوسط فِي حرف الْمِيم وَالْبَيْهَقِيّ فِي الْبَعْث والنشور عَن يزِيد بن هَارُون وَعَفَّان أَنا حَمَّاد بن سَلمَة عَن عَلّي بن زيد عَن سعيد بن الْمسيب عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (يدْخل أهل الْجنَّة الْجنَّة جردا جردا بيضًا جِعَادًا مُكَحَّلِينَ أَبنَاء ثَلَاث وَثَلَاثِينَ عَلَى خلق آدم سِتُّونَ ذِرَاعا فِي عرض سَبْعَة أَذْرع)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ بِهَذَا الْإِسْنَاد وَمن طَرِيقه الْبَغَوِيّ

قَالَ ابْن حَاتِم فِي علله قَالَ أبي وَرَوَاهُ أَبُو سَلمَة عَن حَمَّاد بن سَلمَة عَن عَلّي بن زيد عَن

سعيد بن الْمسيب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ وَكِلَاهُمَا صَحِيحَانِ

انْتَهَى

(126/742)

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه مُخْتَصرا من حَدِيث عمرَان الْقطَّان عَن قَتَادَة عَن شهر بن حَوْشَب عَن عبد الرَّحْمَن بن غنم عَن معَاذ بن جبل أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (يدْخل أهل الْجنَّة الْجنَّة جردا مردا مُكَحَّلِينَ أَبنَاء ثَلَاثِينَ أَو ثَلَاث وَثَلَاثِينَ سنة)

انْتَهَى

وَقَالَ حَدِيث غَرِيب وَبَعض أَصْحَاب قَتَادَة رَوَوْهُ عَن قَتَادَة مُرْسلا لم يُسْنِدُوهُ

انْتَهَى

وَذكره فِي صفة الْجنَّة

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي كتَاب الْبَعْث والنشور ثمَّ أَخرجه الْبَيْهَقِيّ عَن شَيبَان عَن قَتَادَة بِهِ فَذكره مَوْقُوفا

وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي أول الطَّبَقَات أخبرنَا يَحْيَى بن السكن أَنا حَمَّاد بن سَلمَة أَنا عَلَى بن زيد بِهِ فَذكره مُرْسلا لَيْسَ فِيهِ أَبُو هُرَيْرَة

1290 - الْحَدِيث السَّادِس عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لَا يَقُولَن أحدكُم زرعت وَليقل حرثت)

قلت رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّالِث وَالْأَرْبَعِينَ من الْقسم الثَّانِي من حَدِيث مُسلم بن أبي مُسلم الْجرْمِي ثَنَا مخلد بن الْحُسَيْن عَن هِشَام ابْن حسان عَن مُحَمَّد بن سِيرِين عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لَا يقل أحدكُم زرعت وَليقل حرثت) ثمَّ قَرَأَ أَبُو هُرَيْرَة أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ إِلَى آخرهَا

انْتَهَى

(127/742)

وَرَوَاهُ كَذَلِك أَبُو يعلي الْموصِلِي وَالْبَزَّار فِي مسنديهما وَأَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة مخلد بن الْحُسَيْن والطبري وَابْن مرْدَوَيْه فِي تفسيريهما وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الرَّابِع وَالثَّلَاثِينَ وَذكره عبد الْحق فِي أَحْكَامه فِي بَاب إحْيَاء الْموَات من جِهَة الْبَزَّار وَسكت عَنهُ فَهُوَ صَحِيح عِنْده وَأقرهُ ابْن الْقطَّان عَلَى ذَلِك

1291 - الْحَدِيث السَّابِع فِي الْحَدِيث مثل الْعَالم كَمثل الْحمة يَأْتِيهَا الْبعدَاء وَيتْرك الْقُرَبَاء فَبَيْنَمَا هم إِذْ غَار مَاؤُهَا فَانْتَفع بهَا قوم وَبَقِي قوم تتفكنون) قَالَ الْمُصَنّف قرئ

يتفكنون وَمَعْنَاهُ تَنْدمُونَ وَاسْتَشْهدَ بِالْحَدِيثِ

1292 - الْحَدِيث الثَّامِن وَعَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (نَاركُمْ هَذِه الَّتِي يُوقد بَنو آدم جُزْء من سبعين جُزْءا من حر جَهَنَّم)

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم فِي صَحِيحَيْهِمَا فِي صفة النَّار من حَدِيث أبي الزِّنَاد عَن الْأَعْرَج عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (نَاركُمْ هَذِه الَّتِي يُوقد ابْن آدم جُزْء من سبعين جُزْءا من حر جَهَنَّم) قَالُوا وَالله إِن كَانَت لكَافِيَة يَا رَسُول الله قَالَ (فَإِنَّهَا قد فضلت عَلَيْهَا بِتِسْعَة وَسِتِّينَ جُزْءا كلهَا مثل حرهَا)

انْتَهَى

1293 - الْحَدِيث التَّاسِع وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (الْمُسلم أَخُو الْمُسلم لَا يَظْلمه وَلَا يُسلمهُ)

(128/742)

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي الْمَظَالِم وَفِي الْإِكْرَاه وَمُسلم فِي كتاب الْبر والصلة من حَدِيث عقيل عَن الزُّهْرِيّ عَن سَالم عَن أَبِيه ابْن عمر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (الْمُسلم أَخُو الْمُسلم لَا يَظْلمه وَلَا يُسلمهُ من كَانَ فِي حَاجَة أَخِيه كَانَ الله فِي حَاجته وَمن فرج عَن مُسلم كربَة فرج الله عَنهُ كربَة من كرب يَوْم الْقِيَامَة وَمن ستر مُسلما

ستره اللهُ يَوْم الْقِيَامَة)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي الْأَدَب

وَعَجِبت من الشَّيْخ زكي الدِّين يَقُول فِي مُخْتَصره وَأخرجه التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ ثمَّ قَالَ

وَأخرج مُسلم من حَدِيث أبي هُرَيْرَة بعضه بِمَعْنَاهُ

وَمُسلم وَالْبُخَارِيّ أَخْرجَاهُ بِعَيْنِه سندا ومتنا وَكَأَنَّهُ أَشَارَ إِلَى حَدِيث رَوَاهُ مُسلم فِي كتاب الْبر والصلة من حَدِيث أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا لَا تَحَاسَدُوا إِلَى أَن قَالَ الْمُسلم أَخُو الْمُسلم لَا يَظْلمه وَلَا يَخْذُلهُ

1294 - الْحَدِيث الْعَاشِر رَوَت عَائِشَة عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَرَوح بِالضَّمِّ

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي كتاب الْحُرُوف وَالتِّرْمِذِيّ فِي الْقرَاءَات النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير من حَدِيث هَارُون بن مُوسَى الْأَعْوَر عَن بديل بن ميسرَة عَن عبد الله بن شَقِيق عَن عَائِشَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ يقْرَأ فَروح وَرَيْحَان

انْتَهَى

قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن غَرِيب لَا نعرفه إِلَّا من حَدِيث هَارُون الْأَعْوَر

انْتَهَى

وَرَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده وَزَاد فِيهِ برَفْع الرَّاء

(129/742)

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ وَابْن مرْدَوَيْه وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك بِسَنَد السّنَن وَمَتْنهَا وَسكت عَنهُ وَأَعَادَهُ فِي كتاب الْقرَاءَات من حَدِيث حَمَّاد عَن بديل بن ميسرَة بِهِ وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

انْتَهَى

1295 - الْحَدِيث الْحَادِي عشر عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (من قَرَأَ سُورَة الْوَاقِعَة فِي كل ليله لم تصبه فاقة أبدا)

قلت رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب التَّاسِع عشر من حَدِيث الْحجَّاج ابْن منهال ثَنَا السّديّ بن يَحْيَى الشَّيْبَانِيّ أَبُو الْهَيْثَم عَن شُجَاع عَن أبي فَاطِمَة أَن عُثْمَان بن عَفَّان عَاد ابْن مَسْعُود فِي مَرضه فَقَالَ مَا تَشْتَكِي قَالَ ذنُوبِي قَالَ فَمَا تشْتَهي قَالَ وَجه رَبِّي قَالَ أَلَا نَدْعُو لَك طَبِيبا قَالَ الطَّبِيب أَمْرَضَنِي قَالَ أَلَا آمُر لَك بعطَائِك قَالَ منحتنيه قبل الْيَوْم فَلَا حَاجَة لِي فِيهِ قَالَ تَدعه لأهْلك وَعِيَالك قَالَ إِنِّي عَلَّمْتهمْ شَيْئًا إِذا قَالُوهُ لم يَفْتَقِرُوا سَمِعت

رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (من قَرَأَ الْوَاقِعَة كل لَيْلَة لم يفْتَقر)

انْتَهَى

قَالَ الْبَيْهَقِيّ تفرد بِهِ شُجَاع هَذَا هَكَذَا رَوَاهُ الْحجَّاج بن منهال فَقَالَ فِيهِ عَن أبي فَاطِمَة وَخَالفهُ ابْن وهب وعباس بن الْفضل الْبَصْرِيّ ويزيد بن أبي حَكِيم فَرَوَوْه عَن السّديّ بن يَحْيَى عَن شُجَاع عَن أبي ظَبْيَة عَن ابْن مَسْعُود هَكَذَا قَالُوهُ بنُقْطَة فَوق الطَّاء ثمَّ رَوَاهُ بأسانيدهم الثَّلَاثَة كَذَلِك أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من قَرَأَ سُورَة الْوَاقِعَة لم تصبه فاقة أبدا) وَكَانَ ابْن مَسْعُود بِأَمْر بَنَاته يقْرَأن بهَا فِي كل لَيْلَة

انْتَهَى

(130/742)

ثمَّ قَالَ وَذكر الْبُخَارِيّ فِي تَارِيخه شَجَّاهَا هَذَا وَقَالَ إِنَّه هُوَ أَبُو ظَبْيَة

وَرَوَاهُ أَبُو يعْلى الْموصِلِي فِي مُسْنده عَن إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم عَن مُحَمَّد بن منيب الْعَدنِي عَن السّري بن يَحْيَى عَن شُجَاع عَن أبي ظَبْيَة عَن ابْن مَسْعُود قَالَ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (من قَرَأَ سُورَة الْوَاقِعَة كل لَيْلَة لم تصبه فاقة أبدا)

فَكَانَ أَبُو ظَبْيَة لَا يَدعهَا

انْتَهَى

ثمَّ رَوَاهُ عَن إِسْحَاق بن أبي إِسْرَائِيل عَن مُحَمَّد بن الْمُنِيب الْعَدنِي عَن السّري ابْن يَحْيَى عَن أبي ظَبْيَة عَن ابْن مَسْعُود نَحوه وَزَاد وَقد أمرت بَنَاتِي أَن يَقْرَأْنَهَا كل لَيْلَة

لم يذكر فِيهِ شجاعا

وَعَن أبي يعْلى رَوَاهُ أَبُو بكر بن السّني فِي كتاب عمل الْيَوْم وَاللَّيْلَة بِهَذَا الْإِسْنَاد الثَّانِي وَمَتنه وَهُوَ سَنَد جيد

وَرَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الْعِلَل المتناهية من طَرِيق ابْن وهب حَدثنِي السّري ابْن يَحْيَى أَن شجاعا حَدثهُ عَن أبي ظَبْيَة عَن ابْن مَسْعُود قَالَ سَمِعت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (من قَرَأَ سُورَة الْوَاقِعَة فِي كل لَيْلَة لم تصبه فاقة)

انْتَهَى ثمَّ قَالَ قَالَ أَحْمد بن حَنْبَل هَذَا حَدِيث مُنكر وشجاع وَالسري لَا أَعْرفهُمَا

انْتَهَى

وَبِهَذَا السَّنَد رَوَاهُ الْبَغَوِيّ فِي تَفْسِيره

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث أبي بكر العطاردي ثَنَا السّري بن يَحْيَى عَن شُجَاع عَن أبي ظَبْيَة الْجِرْجَانِيّ قَالَ دخل عُثْمَان بن عَفَّان عَلَى ابْن مَسْعُود فَذكر بِاللَّفْظِ الْمُتَقَدّم سَوَاء

وَرَوَاهُ أَبُو عمر بن عبد الْبر فِي التَّمْهِيد من حَدِيث عَمْرو بن الرّبيع عَن السّري بن يَحْيَى عَن أبي شُجَاع عَن أبي ظَبْيَة عَن عبد الله بن مَسْعُود فَذكره بِاللَّفْظِ الأول أَيْضا

وَذكره عبد الْحق فِي آخر أَحْكَامه من جِهَة ابْن عبد الْبر وَسكت عَنهُ وَتعقبه ابْن الْقطَّان فِي كِتَابه الْوَهم وَالْإِيهَام وَقَالَ لَا ينْبَغِي أَن يظنّ بِهَذَا الحَدِيث صِحَة فَابْن عبد الْبر يرويهِ عَن عَمْرو بن الرّبيع فَذكر سَنَده قَالَ وَلَا يتحقّق كَون أبي ظَبْيَة هَذَا هُوَ الكلَاعِي وَلَا يعرف أَبُو ظَبْيَة غير الكلَاعِي وَالْكَلَاعِيُّ

إِنَّمَا تعرف رِوَايَته عَن معَاذ بن جبل والمقداد وَهُوَ ثِقَة وَلَا يتحقّق أَيْضا كَون أبي شُجَاع هَذَا هُوَ سعيد بن يزِيد الإِسْكَنْدراني وَهُوَ أَيْضا ثِقَة يروي عَنهُ اللَّيْث وَابْن الْمُبَارك وَنَحْوهمَا وَالسري بن يَحْيَى ثِقَة أَيْضا وَعَمْرو بن الرّبيع بن طَارق أَيْضا ثِقَة أَيْضا وَبَاقِي السَّنَد لَا يعرف لَهُم حَال قَالَ وَذكر أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام هَذَا الحَدِيث فِي كتاب فَضَائِل الْقُرْآن عَن شُجَاع عَن أبي ظبية عَن ابْن مَسْعُود وَذكره ابْن وهب فِي جَامعه فَقَالَ ثني السّري بن يَحْيَى أَن شجاعا حَدثهُ عَن أبي ظَبْيَة عَن عبد الله بن مَسْعُود هَكَذَا قَالَ إِن شجاعا فَإِن لم يكن وهما فَهُوَ مِمَّا يُؤَكد الْجَهْل بِهِ أَو يكون مُخْتَلفا فِيهِ فَيُقَال شُجَاع أَو أَبُو شُجَاع

انْتَهَى كَلَامه

وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيّ فِي كتاب المؤتلف والمختلف أَبُو طيبَة الْجرْجَانِيّ اسْمه عِيسَى ابْن سُلَيْمَان لَهُ حَدِيث مُرْسل يرويهِ السّري بن يَحْيَى أَبُو الْهَيْثَم عَن شُجَاع عَن أبي طيبَة عَن عبد الله بن مَسْعُود عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (من قَرَأَ سُورَة الْوَاقِعَة فِي كل لَيْلَة لم يفْتَقر أبدا ذكره فِيمَن اسْمه طيبَة بِالطَّاءِ الْمُهْملَة وَلم يذكر فيهم من اسْمه شُجَاع

وَكَذَلِكَ فعل الزَّمَخْشَرِيّ فِي مؤتلفه

وَقد اعْترض ابْن مَاكُولَا عَلَى الدَّارَقُطْنِيّ فَقَالَ لَيْسَ هُوَ بأبي طيبَة إِنَّمَا هُوَ أَبُو فَاطِمَة وَهَذَا اعْتِرَاض غير صَحِيح فَأَكْثر الرِّوَايَات عَلَى أبي طيبَة وَأَبُو فَاطِمَة وَقع فِي رِوَايَة للبيهقي فِي الشّعب كَمَا تقدم

وَفِي الْمِيزَان لشَيْخِنَا الذَّهَبِيّ أَن أَبَا طيبَة هُوَ عِيسَى وَقد ضعف ذكره ابْن الْجَوْزِيّ فِي ضُعَفَائِهِ غَيره وشجاع مَجْهُول الْعين دون الْحَال فقد تبين ضعف هَذَا الْحَدِيث من وُجُوه

أَحدهمَا الِانْقِطَاع كَمَا ذكره الدَّارَقُطْنِيّ وَابْن أبي حَاتِم فِي علله نقلا عَن أَبِيه

وَالثَّانِي نَكَارَة مَتنه كَمَا قَالَ أَحْمد

وَالثَّالِث ضعف رُوَاته كَمَا ذكره ابْن الْجَوْزِيّ

وَالرَّابِع الإضراب فَمنهمْ من يَقُول أَبُو طيبَة بِالطَّاءِ الْمُهْملَة بعْدهَا يَاء آخر الْحُرُوف كَمَا ذكره الدَّارَقُطْنِيّ وَمِنْهُم من يَقُول بِظَاء مُعْجَمه بعْدهَا بَاء موحده وَمِنْهُم من يَقُول أَبُو فَاطِمَة كَمَا ذكرهمَا الْبَيْهَقِيّ وَمِنْهُم من يَقُول أَبُو شُجَاع وَمِنْهُم من يَقُول عَن أبي شُجَاع وَقد اجْتمع عَلَى ضعفه الإِمَام أَحْمد وَأَبُو حَاتِم وَابْنه وَالدَّارَقُطْنِيّ وَالْبَيْهَقِيّ وَابْن الْجَوْزِيّ تَلْوِيحًا وَتَصْرِيحًا وَالله أعلم

(133/742)

وَذكره النَّسَائِيّ فِي كتاب الكنى فَقَالَ أَبُو ظَبْيَة شُجَاع عَن ابْن عمر رَوَى عَنهُ السّري بن يَحْيَى

انْتَهَى

لم يقل غَيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 403.414 ﴾

(134/742)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الواقعة

قوله تعالى : (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ، فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ ، لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) ، الآية/ 77 - 79 .

يدل على منع مس المصحف من غير وضوء «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 399 ﴾

---

(1) لأن هذه الآية الكريمة نص صريح في الموضوع ، لا تحتاج الى تأويل . وعليه فمن تهاون في ذلك فهو يعد بحق مخالف لكتاب اللّه تعالى .

(135/742)

وقال السايس :

من سورة الواقعة

قال اللّه تعالى : فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ

كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (80)

قبل أن نتكلّم عن تفسير الآيات نقول : قد ورد القسم على هذا النحو في القرآن الكريم كثيرا ، منه قوله تعالى : فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَاللَّيْلِ وَما وَسَقَ (17) [الانشقاق : 16 ، 17] وفَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوارِ الْكُنَّسِ (16) [التكوير : 15 ، 16] ولا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ (1) [القيامة : 1] وفَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ (38) [الحاقة : 38] وفَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ [المعارج : 40] ولا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ (1) [البلد : 1] .

وقد جاء على غير هذه الصورة ، أي من غير (لا) النافية ، ومن غير الفعل (أقسم) . وقد جاء القسم على أنواع : إمّا قسم اللّه بنفسه موصوفا بالربوبية فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ [الذاريات : 23] والقسم هنا على مضمون جملة خبرية فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (93) [الحجر : 92 ، 93] .

وإمّا قسم بالذّات معنونة بلفظ الجلالة : وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ [الأنبياء : 57] وتارة يكون القسم بأشياء من خلقه : (كالصافّات) (والطور) (والذاريات) (والنجم) و(مواقع النجوم) و(الشمس وضحاها) و(الفجر) و(البلد) و(القيامة) و(التين والزيتون) .

وتارة يكون القسم بالقرآن موسوما باسمه يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) [يس : 1 ، 2] ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) [ص : 1] ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) [ق : 1] أو موسوما باسم

الكتاب حم (1) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (2) [الزخرف : 1 ، 2 والدخان : 1 ، 2] .

ومهما يكن المقسم به فالمقسم عليه لا يعدو أن يكون من أصول الإيمان التي يجب على الخلق معرفتها ، فهو تارة يكون قسما على التوحيد ، كقوله تعالى : وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِراتِ زَجْراً (2) فَالتَّالِياتِ ذِكْراً (3) إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ (4) [الصافات : 1 - 4] .

وتارة يكون قسما على أنّ القرآن حقّ ، كقوله تعالى : فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) وقوله : حم (1)

(136/742)

وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ

[الدخان : 1 - 3] وقوله : حم (1) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا

[الزخرف : 1 - 3] على بعض الوجوه في جواب القسم .

وتارة يكون المقسم عليه أنّ محمدا رسول يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) [يس : 1 - 3] .

وتارة يكون المقسم عليه نفيا لصفة ذميمة عن الرسول الأكرم ن وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ (1) ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) [القلم : 1 ، 2] وو وَالنَّجْمِ إِذا هَوى (1) ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ

وَما غَوى (2) [النجم : 1 ، 2] ومن هذا قوله تعالى : فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ (38) وَما لا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ (41) [الحاقة : 38 – 41] .

وتارة يكون المقسم عليه الجزاء والوعد والوعيد مثل قوله تعالى : وَالذَّارِياتِ ذَرْواً (1) فَالْحامِلاتِ وِقْراً (2) فَالْجارِياتِ يُسْراً (3) فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً (4) إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ (5) [الذاريات : 1 – 5] ومنه قوله : فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23) [الذاريات : 23] ومنه :

إلى قوله : إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ (7) [المرسلات : 1 – 7] ومنه وَالطُّورِ (1) وَكِتابٍ مَسْطُورٍ (2) إلى قوله : إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ (7) ما لَهُ مِنْ دافِعٍ (8) [الطور : 1 – 8] .

هذا وقد أمر اللّه نبيّه أن يقسم على الجزاء والمعاد في ثلاثة مواضع ، قال : زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ [التغابن : 7] وقال تعالى : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ [سبأ : 3] وقال تعالى : وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ [يونس : 53] .

وقد جاء المقسم عليه أحوالا من أحوال الإنسان التي هو عليها : وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى (1) وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى (2) وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) [الليل : 1 – 4] .

ووقع القسم على صفة الإنسان : وَالْعادِياتِ ضَبْحاً (1) فَالْمُورِياتِ قَدْحاً (2) فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (4) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (5) إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) [العاديات : 1 - 6] .

وجاء القسم على عاقبة الإنسان : وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ (5) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ [التين : 1 - 6] وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ (3) [العصر : 1 - 3] .

قد أردنا بهذا الذي ذكرنا أن نريك فنون القسم في القرآن ، سواء في المقسم به والمقسم عليه ، ولولا الإطالة في غير الموضوع المقرّر لذكرنا لك شيئا من فنون القرآن

(137/742)

الكريم في جواب القسم ، وإنّه تارة يكون إنشاء ، وتارة يكون خبرا ، وتارة يكون مذكورا ، وتارة يكون محذوفا ، لكنّ ذلك يحتاج إلى الشرح والإيضاح ، فيطول ، ونريد أن نرجع إلى القول في الذي معنا .

فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) .

قد أطلعناك على أمثلة كثيرة من هذا النوع من القسم في القرآن الكريم ، ويمتاز ما معنا بأنه قيل فيه صراحة وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) فكان هذا دليلا على أنّ هنا قسما وحلفا مثبتا ، وأنّ الكلام إثبات قسم لا نفي قسم .

ولقد كانت الصورة الظاهرة صورة نفي القسم مجالا فسيحا للعلماء ، أجهدوا فيه قرائحهم ، وأبدوا آراءهم في بيان المراد ، والجمع بينه وبين قوله تعالى : وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) فذهب بعضهم إلى أنّ (لا) زائدة ، مثلها في قوله تعالى : لِئَلَّا يَعْلَمَ [الحديد : 29] معناه ليعلم ، والمعنى هنا : فأقسم بمواقع النجوم ، والقول بالزيادة يكاد لا يرتضيه أحد .

وذهب بعضهم إلى أن (لا) هي لام القسم بعينها ، أشبعت فتحتها ، فتولدت منها الألف ، نظير الألف في قول الشاعر :

أعوذ باللّه من العقراب

حيث أشبعت فتحة الراء ، فتولّدت منه الألف ، وحينئذ تتحد القراءتان ، قراءة مدّ اللام وعدم مدها في المعنى ، ويكون المد مدّ إشباع ، ويكفي في ضعف هذا القول اعتراف قائليه بقلّة هذا التوليد في لغة العرب . على أنّ هذا يوقعنا في شيء آخر ، لا يقرّه النحويون ، وهو خلوّ فعل القسم إذا كان مستقبلا من النون ، فإنّ النحاة يقولون : إذا وقع الفعل مستقبلا مقرونا باللام في حيّز القسم وجب اتصال الفعل بنون التوكيد ، وحذفها ضعيف جدا ، حتى لقد اضطروا إلى تخريج القراءة الأخرى لا قسم على أنّ اللام للابتداء ، وليست للقسم

، وقالوا : إنّها داخلة على مبتدأ محذوف ، والمعنى :

فلأنا أقسم ، وإن كان هذا التخريج لا يخلو من شيء .

وقيل : بل النفي على حاله ، و(لا) نفي لمحذوف ، هو ما كان يقوله الكفار في ذم القرآن ، من أنّه سحر وشعر وكهانة . ثم استؤنف الكلام بعد ذلك ، ويكون حاصل المعنى : فلا صحة لما يقولون ، أقسم بمواقع النجوم إلخ وفوق أن الحذف لا دليل عليه ، فهو لا يتفق مع ما يقول النحاة من أنّ اسم لا وخبرها لا يصحّ حذفهما ، إلا إذا كانا في جواب سؤال ، كما تقول : هل من رجل في الدار ؟ فنقول : لا .

على أنّ علماء المعاني يقولون في مثل هذا الموضع : إنّ العطف بالواو متعيّن ، كما يقال : هل شفي فلان من مرضه فيقال : لا ، وأطال اللّه بقاءك .

(138/742)

ويرى الفخر الرازي «1» أن كلمة (لا) هي نافية على معناها ، غير أن في الكلام مجازا تركيبيا ، وتقديره أن نقول : (لا) في النفي هنا مثلها في قول القائل : لا تسألني عما جرى عليّ ، يشير إلى أن ما جرى عليه أعظم من أن يشرح فلا ينبغي أن يسأله ، فإن غرضه من السؤال لا يحصل ، ولا يكون غرضه من ذلك النهي إلّا بيان عظمة الواقعة ، ويصير كأنه قال : جرى

عليّ أمر عظيم ، ويدل عليه أن السامع يقول له : ماذا جرى عليك ، ولو فهم من حقيقة كلامه النهي عن السؤال لما قال : ماذا جرى عليك ، فيصحّ منه أن يقول : أخطأت حيث منعتك عن السؤال ، ثم سألتني وكيف لا ، وكثيرا ما يقول ذلك القائل الذي قال : لا تسألني عند سكوت صاحبه عن السؤال ، أو لا تسألني ، وتقول : ماذا جرى عليك ؟ ولا يكون للسامع أن يقول : إنك منعتني عن السؤال : كل ذلك تقرّر في أفهامهم : أنّ المراد تعظيم الواقعة لا النهي .

إذا علم هذا فنقول في القسم : مثل هذا موجود من أحد وجهين :

إما أن لكون الواقعة في غاية الظهور ، فيقول : لا أقسم بأنه على هذا الأمر ، لأنه أظهر من أن يشهر ، وأكثر من أن ينكر ، فيقول : لا أقسم ، ولا يريد به القسم ونفيه ، وإنما يريد الإعلام بأن الواقعة ظاهرة ، وإما لكون المقسم به فوق ما يقسم به ، والمقسم صار يصدق نفسه فيقول : لا أقسم يمينا بل ألف يمين ، ولا أقسم برأس الأمير برأس السلطان ، ويقول : لا أقسم بكذا ، مريدا لكونه في غاية الجزم .

والثاني : يدل عليه أنّ هذه الصيغة لم ترد في القرآن ، والمقسم به هو اللّه تعالى أو صفة من صفاته ، وإنما جاءت أمور مخلوقة ، والأول لا يرد عليه إشكال إن قلنا :

إن المقسم به في جميع المواضع رب الأشياء ، كما في قوله : وَالصَّافَّاتِ المراد منه رب الصافات ، فإذا قوله : فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ (75) أي الأمر أظهر من أن يقسم عليه وأن

يتطرّق الشك إليه .

ولعلك بعد كلام الفخر تكون قد فهمت أن نفي القسم استعمل في القسم من طريق أوكد .

وقبل أن نتكلم على معنى القسم من اللّه بذاته ، أو بأشياء من خلقه ، نتكلم على تفسير الآية التي معنا ، لنفرغ إلى القول في هذه النواحي باستفاضة .

أُقْسِمُ أحلف بِمَواقِعِ النُّجُومِ المواقع جمع موقع ، وموقع الشيء ما يوجد فيه ، وما يسقط فيه إن كان من أشياء مرتفعة . وعليه ، فمواقع النجوم قيل : المشارق والمغارب جميعا ، لأنها موجودة فيها . وقيل : المغارب فقط ، لأنّ عندها تسقط النجوم . وقيل : بل مواقعها مواضعها من بروجها في السماء ومنازلها منها . وقيل : بل

---

(1) في تفسيره مفاتيح الغيب والمعروف أيضا بالتفسير الكبير (29/ 187) .

المراد مواقعها يوم القيامة إذا الكواكب انتثرت ، وسنتكلّم بعد على حكمة القسم بمواقع النجوم خاصة .

وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) عظيم خبر (إن) وقوله : لَوْ تَعْلَمُونَ اعتراض بين إنّ وخبرها . والضمير في قوله : (إنه) يرجع إلى القسم المفهوم من الكلام على ما تقدّم

توضيحه . ولَوْ تَعْلَمُونَ شرط ، جوابه : إمّا محذوف بالكلية ، لأنه لا يتعلق بذكره غرض ، إذ المقصود هو نفي ما دخلت عليه (لو) . وكأن المعنى : إنّه لقسم عظيم . لو تعلمون .

وذلك أنّ (لو) حرف يدلّ على امتناع شيء لامتناع غيره ، وعلى ذلك فهي تدلّ على نفي مدخولها لانتفاء شيء آخر ، فإذا قد أفاد دخول (لو) على (تعلمون) انتفاء علمهم ، وهذا هو الذي يعنينا ، أما الجواب فعلمه بعد ذلك كأنّه لا يعني .

ويقول الفخر الرازي «1» : إنّ فائدة مجيء النفي على هذه الصورة بدل قوله : (وإنه لقسم عظيم) ولا تعلمون أنّ النفي على الصورة التي معنا أوكد ، لأنّ إتيانه عليها ذكر للشيء بدليله . أما الصورة الأخرى فليس فيها إلا إثبات عظم القسم مقترنا بنفي علمهم من غير تعرّض للإشعار بسبب نفي العلم عنهم . أما هنا فكأنّه قيل : لو كان عندكم أثارة من علم لثبت عندكم عظم القسم ، فإن كان أحد يشكّ في ذلك ، فمنشأ الشك ليس لعدم العظم في نفس الأمر ، بل لأنّه لا يعلم ، وأين هذا من ذاك .

وإما أن يكون جواب (لو) مقدّرا مفهوما من خبر (إن) أي لو كان عندكم علم لعظّمتموه ، لكنكم لم تعظّموه فلا علم عندكم ، وترى أنّا لم نقدّر لتعلمون مفعولا ، بل جعلناه منزّلا منزلة اللازم ، ويصحّ أن يقدّر له مفعول يدلّ عليه خبر (إن) .

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (80) .

الضمير في (إنّه) يرجع إلى معلوم للمخاطبين ، وهو الكلام العربي الذي أنزله اللّه على محمد صلّى اللّه عليه وسلّم وكان الكفار يقولون فيه : إنه شعر ، إنه سحر إنّه كهانة وافتراء .

فقال اللّه في الرد عليهم : إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) ، وقال بعضهم : هو الكلام من أول سورة الواقعة إلى هنا مما جاء فيها من التوحيد ، والحشر ، والدلائل التي سيقت لإثباتها ، وذلك أنهم كانوا يقولون : هذا كلام من عند محمد لم ينزل عليه من عند اللّه ، فقال اللّه في الردّ عليهم : إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ (78) .

والقرآن مصدر أريد منه اسم المفعول ، فهو بمعنى المقروء ، على حد قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى [الرعد : 31] وهو

---

(1) في تفسيره مفاتيح الغيب والمعروف أيضا بالتفسير الكبير (29/ 189) .

من باب هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ [لقمان : 11] وقيل : بل هو اسم لما يقرأ من الكلام المنزّل إلخ كالقربان اسم لما يتقرّب به ، والمشركون وإن كانوا لا يجهلون أنّه مقروء إلا أنهم كانوا ينازعون في أنه قرآن كريم ، وأيضا كانوا يقولون : هو من عند محمد ، وكانوا ينكرون تنزيله وأنّ محمدا يتلو عليهم ما سمع من الوحي .

ومعنى كونه كريما : أنّه طاهر الأصل ، ظاهر الفضل ، يجد فيه كلّ الناس ما يريدون من خير

:

«إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا أبدا كتاب اللّه» «1»

وقد وصف اللّه القرآن بأوصاف كثيرة ، وصفه بكونه حكيما ، وبكونه عزيزا ، وبكونه كريما ، وبكونه مجيدا ، وهو كريم ، من أقبل عليه أخذ منه ما أراد ، وهو عزيز من أعرض عنه ذلّ ، وهو حكيم بما اشتمل عليه من كنوز الحكمة ، وهو مجيد بما اشتمل عليه من شريف المقاصد .

وقوله : إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ (78) أفاد شيئين : الأول : أنه مظروف في كتاب والثاني : أنّه مكنون . فأما ظرفيته في الكتاب فلنا أن نقول : إنّه على حد فلان كريم في نفسه ، حيث لا يراد إنّ المظروف شيء والمظروف فيه شيء آخر ، فإنّ الشيء لا يكون ظرفا لنفسه ، فالقرآن – وهو كتاب – كريم ، في كتاب أي نفسه ، أو كريم ثبت كرمه في كتاب ، هو اللوح المحفوظ ، أو يقال : إنّ المظروف هو جملة إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77)

والمظروف فيه هو كتاب ، ويكون المعنى : إنّ مضمون هذه الجملة ثابت في كتاب هو اللوح المحفوظ ، وقد قيل : الكتاب هو اللوح المحفوظ ، وقيل : هو المصحف ، وقيل : بل هو كتاب من الكتب المنزلة : كالتوراة ، والإنجيل . وأما كونه مكنونا : فالمكنون هو المستور ، فإن كان الكتاب اللوح المحفوظ فمعنى كونه مكنونا أنّه مستور عن الأعين ، لا يطّلع عليه إلا نفر

مخصوص من الملائكة ، ويصحّ أن نقول : إن المكنون أريد منه المحفوظ ، ويكون الكن كناية عن الحفظ ، لأنّ الشيء إذا كان شريفا عزيزا لا يكتفى في صونه وحفظه بطرق الحفظ المعتادة ، بل يستر عن العيون ، وكلّما ازدادت عزته ازداد ستره ، زيادة في الصون . فقد استعمل الكن والستر وأريد منه المبالغة في الحفظ والصيانة ، وقيل : إنّ معنى كونه في كتاب مكنون كونه محفوظا من التبديل والتغيير ، فهو على حد قوله تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (9) [الحجر : 9] .

وأما قوله تعالى : لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) فإما أن نجعله من صفة الكتاب بمعنى اللوح المحفوظ ، وإما أن يكون صفة أخرى للقرآن الكريم .

---

(1) رواه الترمذي في الجامع الصحيح (5/ 621) ، كتاب المناقب ، باب مناقب أهل بيت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم حديث رقم (3786) .

وعلى الأول : فالمطهرون الملائكة ، وطهارتهم نزاهتهم عمّا في طبيعة الإنسان من الشهوة التي هي من مقتضيات المادة ، ونفي مسه إلا من هؤلاء يراد منه أنّه لا يطّلع عليه إلا هؤلاء .

وعلى الثاني : فالمراد من المطهرين يحتمل أن يكون الخالين عن الحدثين الأصغر والأكبر ،

وتكون الطهارة مرادا منها الطهارة الشرعية. ويكون المعنى: لا يمس القرآن إلا من كان على طهارة من الحدثين. والنفي على معنى أنّه لا ينبغي، كمثله في قوله تعالى: الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً [النور: 3].

ويرى البعض فرارا من كون الجملة خبرية أنّ (لا) ناهية، والضمة التي في (يمسه) ضمة اتباع، لا ضمة إعراب، وقد صرّح الفخر الرازي «1» بضعف هذا القول وإن روي عن ابن عطية. ومع كون الجملة صفة للقرآن فيحتمل أن يكون المراد من المطهرين الملائكة، وهو مروي من عدّة طرق: فعن قتادة أنّه قال في الآية: ذاك عند ربّ العالمين، لا يمسه إلا المطهرون من الملائكة، فأما عندكم فيمسه المشرك والنجس والمنافق الرجس، وقد روي عن الإمام مالك رضي اللّه عنه: أحسن ما سمعت في الآية: الكتاب المنزل في السماء لا يمسه إلا المطهرون. أنّها بمنزلة الآية التي في عبس كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (12) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) كِرامٍ بَرَرَةٍ (16) [عبس: 11 - 16].

وقيل: الآية صفة القرآن حقا، والمراد من المطهرين الخالون من الشرك، والمراد من المس الطلب، مثله في قوله تعالى: وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ [الجن: 8] وقد عرفت أنّ المسّ بمعنى اللمس، والمعنى: أن القرآن لا يطلبه للعمل به إلا المطهّرون من دنس الشرك.

وأما قوله: تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (80) فهو وصف آخر للقرآن الكريم، والتنزيل بمعنى

منزل أو يقال : وصف به لأنّ القرآن ينزل نجوما على خلاف سائر الكتب .

وقد أنهينا القول في تفسير الآيات ، وهنا أشياء لا بدّ أن نتعرض لها ، لأن بعضها من الأحكام التي أراد الفقهاء أن يأخذوها من الآية . وبعضها الآخر وعدناك به ، وهو ما يتعلّق بالقسم . ولنشرع في البعض الأول ، وهو ما يتعلّق بالأحكام .

قد رأيت أثناء التفسير أنّ من المفسرين من يريد إرجاع الضمير في لا يَمَسُّهُ إلى القرآن الكريم ، وأنّ من الآراء في (المطهرين) رأيا يقول : هم المطهرون من الناس وأنّ طهارتهم هي الطهارة الشرعية من الحدثين . على هذين الاعتبارين يقوم الاستدلال بعض الفقهاء بالآية على عدم مس المحدثين للمصحف ، وعدم مس المحدث

---

(1) في تفسيره مفاتيح الغيب والمعروف أيضا بالتفسير الكبير (29/ 193) .

للمصحف أمر يكاد يجمع عليه ، ومن أجازه من الفقهاء أجازه لضرورة التعلم ، أو التعبد عند بعضهم ، وقد يكون الحكم مسلّما لا اعتراض عليه ، إنما الذي لا يسلّم هو أن يكون الحكم مأخوذا من هذه الآية ، فإنّك لمست ما فيها من احتمالات كثيرة ، بل ويرجّح بعض العلماء أن الكتاب هو اللوح المحفوظ ، وأنّ الضمير في (يمسه) راجع إليه ، وأنّه حتى على

فرض أن الكتاب القرآن ، فليس هو المصحف ، بل هو المصحف الذي بأيدي الملائكة ، ولئن كان هو المصحف فالمطهرون يحتمل أن يراد منهم المؤمنون ، ويراد من المس الإدراك ، ويكون المعنى لا تفهمه إلا القلوب الطاهرة ، وحرام على القلوب الملوثة أن تجد نور الإيمان .

قال البخاري في هذه الآية : لا يجد طعمه إلا من آمن به .

وقد رجّح العلماء أنّ المراد من الكتاب الكتاب الذي بأيدي الملائكة ، على نحو ما هو مذكور في قوله تعالى : فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (16) [عبس : 13 - 16] والكتاب بهذا المعنى هو الذي يصحّ وصفه بأنه لا يمسه إلا المطهرون ، إذ هو بأيديهم ، وأما غيرهم فهم لا يمسونه ، لأنه ليس في متناولهم ، وقد ذكروا في ترجيح ذلك وجوها كثيرة .

منها أن الآية سيقت تنزيها للقرآن عن أن تنزيل به الشياطين ، وأنّه في محل مضمون لا يصل إليه فيمسه إلّا المطهرون ، وأما الأخبثون من خلقه ، فلا يصلون إليه ، ويكون ذلك على حد قوله تعالى : وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (211) [الشعراء : 210 ، 211] أفرأيت كيف نفى اللّه ابتغاء مجيئهم به ، ونفى استطاعتهم أن ينزلوا به ، وكذلك آية عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) [عبس : 1] التي أسلفنا لك ذكرها .

ومن وجوه الترجيح : أنّ السورة مكية ، ومعلوم أنّ القرآن في مكة أكثر عنايته كان موجها إلى أصول الدين : من تقرير التوحيد ، والمعاد والنبوة . وأما الأحكام ، وبخاصّة ما يتعلق

منها بمس الأشياء في تفاصيل جزئية فمردّه إلى المدني من السور .

ومن وجوه الترجيح : أن القرآن في أول نزوله لم يكن جمع في مصحف ، بل لم يكن تمّ نزولا حتى يكون الناس في حاجة إلى بيان حكم مس المصحف ، نعم إنه يحتمل أن يكون خبرا عما يكون .

ومن الوجوه أيضا : أنّ اللّه تعالى قال في وصف الكتاب : مَكْنُونٍ وذلك كناية عن الصون والستر عن الأعين ، لا تناله أيدي البشر . اسمع قول الكلبي في تفسير الآية ، قال : هو مكنون من الشياطين . وقال مجاهد : مكنون لا يصيبه تراب ولا غبار ، هل ترى أنّ المصحف لا يمسه غبار ، أم ذاك خبر عن شيء في السماء ؟ قال أبو إسحاق : مصون في السماء .

(143/742)

على أنّ ذلك يتفق تماما مع قوله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22) ولو نظرت إلى أنّ الآية سيقت للرد على المكذبين لوجدت الذي نقول أبلغ في الرد عليه من وصفه بأنه لا يمسه المحدثون .

على أنّ الآية خبر ، وتأويلها على الوجه الذي ذكرنا يبقيها على خبريتها ، أمّا تأويلها على الوجه الآخر ، فيحتاج إلى إخراجها عن الخبرية إلا الإنشاء ، والأصل إبقاء الخبر على

خبريته حتى يوجد المقتضى ، ونحن نبحث عنه فلا نجده .

على أنّه لو كان المعنى ما ذهبوا إليه لقيل : لا يمسه إلا المتطهرون بدل إلا المطهرون ،

فالمطهرون من تكون طهارتهم من غيرهم ، أما المتطهرون فطهارتهم مسندة إليهم ، وحيث أراد اللّه هذا المعنى قال فيه : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ [البقرة : 222] .

وفي الحديث : «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين» «1» .

ومن وجوه الترجيح أنّه لو أريد به المصحف الذي بأيدينا لم يكن وصفه بكونه مكنونا ذا فائدة كبيرة ، إذ ما فائدة أن يقال : إنّ القرآن في مستور ، وكل الكتب كذلك .

إنما سيقت الآية الكريمة لمدحه وتشريفه ، وبيان الخصال التي اختص بها ، والتي تدلّ على أنّه منزل من عند اللّه ، وأنّه محفوظ مصون ، لا تصل إليه الشياطين ، ولا يمسه إلا السفرة الكرام البررة .

نعم إذا كان المفسرون تبعا للفقهاء يستدلّون بالآية من وجهها الذي استدل بها منه ابن تيمية على الحكم كان حسنا ، حيث قال : إنّ الآية تدلّ على الحكم من باب الإشارة والتنبيه ، لأنّه ما دامت صحف القرآن في السماء لا يمسها إلا المطهرون ، فالصحف التي بأيدينا كذلك ينبغي ألا يمسها إلا الطاهر .

على أنّهم لو ذهبوا إلى السنة لوجدوا بها الذين يطلبون ،

فقد روى أصحاب السنن «2» من حديث الزهري عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن

حزم عن أبيه عن جده أنّ في الكتاب الذي كتبه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إلى أهل اليمن في السنن والفرائض والديات :

«ألا يمسّ القرآن إلا طاهر»

وقد رجّح العلماء صحة ما رواه ابن حبان في «صحيحه» ومالك في «الموطأ» ثم الآثار بعد ذلك كثيرة .

ولعل هذا يغنيك عن الرجوع إلى ترجيح أحد الآراء على غيره في التفسير ، أما الحكم فنحن نسلم به من دليله إذا كان في غير الآية ، والآثار عليه كثيرة : منها ما ورد

---

(1) رواه الترمذي في الجامع الصحيح (1/ 78) ، كتاب الطهارة ، باب فيما يقال بعد الوضوء ، حديث رقم (55) .

(2) انظر صحيح ابن حبان (14/ 501 - 515) ، وموطأ مالك حديث رقم (199) .

في حديث إسلام عمر أنّه قال لأخته : أعطوني الكتاب الذي تقرءون ، فقالت : لا يمسه إلا المطهرون ، فقام ، واغتسل ، وأسلم ومسّ المصحف .

وعن كثير من الصحابة أنهم كانوا يأمرون أبناءهم بالوضوء لمس المصحف .

وعن الحسن والنخعي كراهة مس المصحف على غير وضوء . ثم اسمع رأي الجصاص بعد أن نقل الخلاف الذي عرفت آنفا ، قال أبو بكر «1» : إن حمل اللفظ على حقيقة الخبر فالأولى أن يكون المراد القرآن الذي عند اللّه ، والمطهرون الملائكة . وإن حمل على النهي وإن كان في صورة الخبر ، كان عموما فينا ، وهذا أولى ، لما

روي عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه كتب لعمرو بن حزم «ولا يمس القرآن إلا طاهر» فوجب أن يكون نهيه هذا بالآية إذ هي تحتمله .

ولننتقل بعد ذلك للكلام في القسم وفاء بالذي وعدناك ، وسيكون كلامنا في الموضوع من ناحيتين :

ناحية القسم من اللّه .

وناحية بمواقع النجوم خاصّة لأنه معنا ، ومن حقك أن تعرف وجه القسم بها ،

واختصاصها بالموضع الذي وردت فيه . فنقول :

قد رأيت أول ما كتبنا أنّا سقنا لك أنواعا من القسم الوارد في القرآن ، فعرفت أنّه أقسم بذاته ، وأنّه أقسم بأشياء غير الذات ، ومنها القرآن الكريم ، وأريناك أمثالا كثيرة فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ [الذاريات : 23] يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) [يس : 1 ، 2] وَالصَّافَّاتِ وَالطُّورِ (1) إلخ ، وقد كان العلماء فرقتين في قسمه بغير ذاته ، فمنهم من سلك

طريق التأويل ، وصرف العبارات عن ظاهرها ، فقالوا مثلا يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) : أي وربّ القرآن الحكيم ، وَالضُّحى (1) : ورب الضحى . وهلم جرا .

وزعموا أن الذي حملهم على هذا التأويل أنهم :

1 -

قد رأوا أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم نهى عن الحلف بغير اللّه ، وقال : «من كان حالفا فيحلف باللّه أو ليذر» «2»

، والنهي يقتضي قبح المنهي عنه ، فإذا ورد في الشرع ما ظاهره أنّه حلف بغير اللّه وجب تأويله ، وردّه إلى أن يكون حلفا باللّه .

2 - أنّ الحلف بالشيء يقتضي أن يكون المقسم به معظما ، والتعظيم لا يكون إلا للّه ، فوجب أن تحمل الأقسام على ذلك .

3 - أنه قد ورد مصرّحا به على هذا النحو في قوله تعالى :

---

(1) انظر أحكام القرآن للإمام أبي بكر العربي (3/416) . [. . . . .]

(2) رواه النسائي في السنن (7 - 8/7) ، كتاب الأيمان ، باب التشديد في الحلف حديث رقم (3773) .

وَالسَّماءِ وَما بَناها (5) وَالْأَرْضِ وَما طَحاها (6) وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها (7) [الشمس : 5 – 7] حيث جاء الحلف بالذات بعد الحلف بالسماء وبالأرض وبالنفس ، فلا بدّ أن يكون القسم في الجميع على هذا المعنى .

أما الفرقة الأخرى من العلماء فذهبت إلى أنّ القسم وقع بأعيان الأشياء المقسم بها ، وقد قالوا في الاحتجاج على صحة ما ذهبوا إليه :

1 – أن القسم هو بهذه الأشياء في الظاهر ، والعدول عنه عدول عن الظاهر ، ولا يكون إلا لدليل ، وما ذكرتم لا يصلح دليلا ، لأن ما منع من العباد لا يلزم أن يكون ممنوعا صدوره من اللّه . إذ المانع في حق العباد أن في القسم بغير اللّه تعظيما لذلك الغير ، والعباد يجب ألا يشركوا مع اللّه أحدا في التعظيم . وهذا المعنى غير مدرك في جانب اللّه تعالى ، فهو إذ يعظّم ، فإنما يعظّم أشياء دانت له بالربوبية ، ولا يمكن في العقل أن تتعاظم على من هي في قبضة يده وبسطة سلطانه .

وهو إذا يعرّف الناس بعظمتها ، فإنما يرشدهم إلى عظمة خالقها ، وأنه إذ يقسم بها فإنما يقسم لأنّ لها شأنا بديعا ، ومنفعة عند العبد يدركها ، وينتقل من إدراك إتقان صنعها إلى أنه لا بد أن تكون صادرة عن المدبر الحكيم ، اللطيف الخبير ، ثم هي فوق ذلك نعمة من نعمه على عباده ، والحلف بها تذكير بالنعمة لتقابل بالشكر .

2 – إنه قال تعالى : وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فأقسم بالسماء ، ثم عطف عليها ما بناها ، وذلك على طريقتكم قسم بالباني ، فلو كان القسم على تقدير مضاف لتكرر القسم في الموضع الواحد من غير موجب ، إذ يصير المعنى وباني السماء وبانيها ، وطاحي الأرض وطاحيها ، ومسوّي نفس ومسويها .

ومثل هذا ينزّه عنه القرآن الكريم .

ولو قلنا على طريقتنا إنّ هذا قسم بالسماء وبانيها ، أو ببنايتها لم يلزم هذا المحذور ، فتعيّن أن يكون القسم قسما بأعيان هذه الأشياء .

3 – أنّه لا يبعد أن يقسم بهذه الأشياء تنبيها إلى شرفها ، وما حوت من إبداع وإتقان ، ليكون ذلك دليلا على عظمة خالقها ، وأنّه إله واحد . ويكون ذلك من تضافر الحجج على المدعى الواحد ، فهو قسم واستدلال بما في المقسم به من وجوه الدلالة المختلفة ، ومن أجل ذلك نقول : لا داعي إلى التأويل ، والقسم قسم بأعيان الأشياء وحقيقتها .

وهنا سؤال يتردّد كثيرا ، حاصله أن يقال : ما فائدة القسم ؟ والمخاطب أحد رجلين : مؤمن بالقرآن ، ومكذب به ، وما كان المؤمن محتاجا وهو مؤمن إلى قسم ، فهو مصدّق من غير يمين . وإن كان من المكذبين الذين لم تغنهم الآيات والنذر ، فكيف يصدّق لمجرد القسم بعد أن لم يؤثّر فيه الدليل ؟

ويقول العلماء جوابا عن هذا : إنّ هذه الأيمان والأقسام لم تجئ لإثبات الدعاوى ، فالدعاوى لها ما يثبتها ، وقد اقترنت من دلائل الإثبات بما لا يدحض ، إنما جاءت هذه الأقسام لتوكيد ما ثبت من طريق الحجة والبرهان على منهاج العرب وأسلوبهم في توكيد الكلام بالحلف ، وقد كان القسم أحد أساليب التوكيد عندهم ، والقرآن بلغتهم نزل .

على أننا نحيلك إلى التبصر في كل الأقسام الواردة في القرآن ، وبالتأمل فيها تجدها أشياء في مواضعها أقسم بها ، وقد حوت من الدلائل ما يجعل القسم ليس قسما في الواقع ، وإنما هو تذكير بالدليل الذي يشتمل عليه المقسم به ، فهو يذكر في معرض القسم ، وهو مخلوق من المخلوقات ، فتتوجه النفس إلى سر القسم بهذا المخلوق متسائلة : ما القسم بهذا ؟ وما معناه ؟ وما مغزاه ؟ وما سره ؟ ثم تتوجه من ذلك إلى ما في القسم به ، باعتبار ما ينبعث منه من بواعث التعظيم ، ويكون حاصل المعنى ، وحق هذه الأشياء التي ينطق صنعها ووجودها بالعظمة أنّ المقسم عليه لحق .

وما دمنا قد وصلنا إلى هذا فلنتكلم على القسم بمواقع النجوم :

يقول اللّه تعالى : فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) والحديث قبل القسم من أول سورة الواقعة في شأن الواقعة والقيامة الكبرى ، وما يكون فيها من أشياء جسام إذا

وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ (2) خافِضَةٌ رافِعَةٌ (3) إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4) ثم ذكر اللّه أقسام الخلق يومئذ ، ثم ذكر الأدلة القاطعة على عموم قدرته ، وعلى المعاد . فذكر النشأة الأولى دليلا : أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ (59) نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ (61) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (62) .

ثم ذكر إخراج النبات من الأرض ، وإنزال الماء من السماء . وخلق النار ، وسأل الناس أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ (72) ثم ذكر أنّه جعل ذلك تذكرة ومتاعا ، وأمر نبيه أن يسبّح باسم ربه العظيم ، ثم أقسم بمواقع النجوم على إثبات القرآن ، وكرمه وصونه ، وحفظه ، وأنه تنزيل من رب العالمين .

وقد عرفت طرفا من أقوال العلماء في المراد بالمواقع ، وما دام الكلام سيكون في سر القسم بها نذكر شيئا مما قيل فيها غير ما سمعت :

فقد روي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه قال : النجوم آيات القرآن ، ومواقعها نزولها شيئا بعد شيء . وقد روي مثل هذا عن سعيد بن جبير ، ومقاتل ، وقتادة .

وقيل : النجوم الكواكب ، ومواقعها مساقطها عند الغروب ، وهو قول أبي عبيدة ، وقد تقدم قول كهذا .

وقيل : بل مواقعها انتثارها وانكدارها يوم القيامة ، وهو مروي عن الحسن .

ويقول الذي يقول المواقع المساقط عند الغروب : إنّ اللّه تعالى يقسم بالنجوم وطلوعها ، وجريانها وغروبها ، إذ فيها ، وفي أحوالها الثلاث آية وعبرة ودلالة .

والنجوم متى ذكرت في القرآن الكريم فالمراد منها الكواكب ، انظر إلى قوله تعالى : وَإِدْبارَ النُّجُومِ [الطور : 49] وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ [الأعراف : 54] ومن هنا يمكن أن يقال – بل هو قد قيل : إنّ المناسبة بين المقسم به وهو النجوم ومواقعها ، وبين المقسم عليه وهو القرآن ، أنّ النجوم جعلها اللّه يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغواية ، وتلك ظلمات حسية ، وهذه ظلمات معنوية ، تلك يؤمن جانبها بالنجوم ، وهذه تتوقى بهداية القرآن ، فالقسم هنا قد جمع فيه بين هدايتين .

هداية ومنافع ، ليدير الناس وجوههم إلى القرآن ، ويتبصّروا ما فيه جيدا ، فيعلموا أنّه هاديهم الذي لا يضلون معه . ولا تنس كذلك أنّ اللّه قد جعل النجوم رجوما للشياطين ، وفي آيات القرآن من رجوم الشياطين ما تجعل الشياطين يولّون عند سماعه ، وما نريد أن نترك هذا الموضع حتى نسمعك رأي الفخر الرازي « 1 » في هذا :

قال رحمه اللّه بعد سؤال حاصله : هل في القسم بمواقع النجوم خاصة فائدة ؟

قلنا : نعم ، فائدة جليلة ، وبيانها أنّا قد ذكرنا أنّ القسم بمواقعها ، وأن المواقع كما هي مقسم به ، هي من الدلائل ، وقد بيّناه في الذاريات ، وفي الطور ، وفي النجم ، وفي غيرها ، فنقول هي هنا كذلك .

وذلك من حيث أنّ اللّه تعالى لما ذكر خلق الآدمي من المني وموته ، بيّن بإشارته إلى إيجاد الضدين في الأنفس ، قدرته واختياره ، ولما كان هذا دليلا من دلائل الأنفس ذكر أيضا من دلائل الآفاق على قدرته واختياره فقال : أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ (63) أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ إلى غير ذلك ، وذكر قدرته على زرعه ، وجعله حطاما . وخلقه الماء عذبا فراتا ، وجعله أجاجا ، إشارة إلى أنّ القادر على الضدين مختار ، ولما لم يكن قد ذكر من الدلائل السماوية شيئا ، ذكر الدليل السماوي في معرض القسم ، وقال : بِمَواقِعِ النُّجُومِ فإنها أيضا دليل الاختيار ، لأنّ كون كلّ واحد في موضع من السماء دون غيره من المواضع مع استواء المواضع في الحقيقة دليل على أنّ الفاعل مختار . فقال :

---

(1) انظر كتابه مفاتيح الغيب والمعروف أيضا بالتفسير الكبير (29/ 188) .

بِمَواقِعِ النُّجُومِ ليشير إلى البراهين النفسية والآفاقية بالذكر ، كما قال تعالى :

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ [فصلت : 53] وهذا كقوله : وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (21) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) [الذاريات : 20 – 22] حيث جمع بين الأنواع الثلاثة كذلك هنا اه .

وهو جميل كما ترى ، غير أنّ للباحث أن يقول : ظاهر كلام الفخر أنّ القسم بمواقع النجوم لإثبات القدرة والاختيار لفاعل مختار ، لكن الآية تقول : إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) وظاهر ذلك أنّ المراد إثباته هو هذا الذي سيق مساق المقسم عليه ، فمن أين إثبات القدرة والفاعل المختار في القسم بمواقع النجوم ؟

وفي النفس من كلام الفخر روعة ، ومن آثارها أن نقول : إنّ هذا استدلال على القدرة والفعل من طريق القسم على القرآن وكرمه وصونه ، وأنّه تنزيل من رب العالمين بمواقع النجوم من طريق أبلغ ، وكأنّه بعد أن سيقت الدلائل السابقة ، والتي كان ختامها القسم بمواقع النجوم ، وذكرت في القرآن كأنه قيل : اذكروا هذه الدلائل ، وتعرّفوا نتائجها ، واذكروا معها مواقع النجوم ، وتعرّفوا نتيجة الاستدلال بها ، تعلموا أنّ القرآن – الذي جاء بهذا – كريم ، وأنّه مصون ، وأنّه تنزيل من رب العالمين .

وقبل أن نختم الموضوع نقول : إنّ قوله تعالى : تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (80) توكيد لما قبله ، وتقرير له . وكما أنّه لازم لكونه قرآنا كريما بهذا في كتاب مكنون ، فهو ملزوم له ، فهو دليل

وهو مدلول ، وكفى هذا خاتمة للموضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير آيات الأحكام / للسايس صـ 714. 727 ﴾

(149/742)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الواقعة» (56)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

و«إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ» (1) «أَزِفَتِ الْآزِفَةُ» (53/ 57) وهى القيامة والساعة . .

وَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ خافِضَةٌ»

(2 - 3) مجازها فى الكلام الأول ، ولو كانت فى الكلام [الثاني] لنصبت قوله إذا وقعت الواقعة خافضة رافعة والعرب إذا كرروا الأخبار وأعادوها أخرجوها من النصب إلى الرفع فرفعوا ، وفى آية أخرى .

«كَلَّا إِنَّها لَظى نَزَّاعَةً لِلشَّوى تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى» (70/ 15 - 17) رفعت وقطعت من النصب إلى الرفع كأنك تخبر عنها ، قال الراجز :

من يك ذا بتّ فهذا بتّى مقيّظ مصيّف مشتّى

«1» [895] من ثلّة من نعجات ستّ.

«إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا» (4) اضطربت والسهم يرتجّ فى الغرض «2» . .

«وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا» (5) مجازها كمجاز السّويق المبسوس أي المبلول

---

(1) . - 895 : الأشطار لرؤبة فى ملحق ديوانه ص 189 وفى العيني 4/ 561 ، الأولان فقط فى الشنتمرى 1/ 258 .

(2) . - 12 «والسهم . . . الغرض» : هذا الكلام فى الطبري 27/ 87 .

(150/742)

والعجين قال لصّ من غطفان وأراد أن يخبز فخاف أن يعجل عن الخبز فبلّ الدقيق فأكله عجينا «1» وقال :

لا تخبزا خبزا وبسّا بسّا

«2» [896] .

«فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا» (6) «3» الهباء الغبار الذي تراه فى الشمس من الكوّة منبثّا منثورا متفرقا والهبوة من الغبار والعجاج يرى فى الظل . .

«أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ» (9) أصحاب الميسرة ويقال لليد اليسرى : الشؤمي ويقال : أهو الجانب الأشمى الأيسر سمّيت اليمنى لأنها عن يمين الكعبة والشام أنها عن شمال الكعبة . .

«ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ» (13) تجيء جماعة وأمة وتجيء بقيّة . .

«عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ» (15) بعضها على بعض مداخلة كما توضن كحلق الدرع بعضها فى بعض مضاعفة وقال الأعشى :

ومن نسج داؤد موضونة تساق مع الحىّ عيرا فعيرا

«4» [897] والوضين البطلان من السيور إذا نسج نساجة بعضه على بعض مضاعفا كالحلق حلق الدرع فهو وضين وضع فى موضع موضون كما يقولون : قتيل فى موضع مقتول «5» ، قال :

---

(1) . - 1 «أي . . . ثريا» الذي ورد فى الفروق : رواه ابن دريد عن أبى عبيدة فى الجمهرة 1/ 30 .

(2) . - 896 : فى الطبري 27/ 87 والصحاح واللسان (بسس) والقرطبي 17/ 196 .

(3) . - 1 - 2 «لص . . . عجينا» : كما فى الطبري 27/ 87 . وهو فى الصحاح واللسان (بسس) والقرطبي «17/ 197» مروى عن أبى عبيدة .

(4) . - 897 : ديوانه ص 71 والطبري 27/ 89 واللسان (وضن) .

(5) . - 10 - 15 «موضونة . . . مقتول» : أخذ الطبري (27/ 89) هذا الكلام بتغيير يسير .

(151/742)

إليك تعدو قلقا وضينها معترضا فى بطنها جنينها

«1» [898] مخالفا دين النصارى دينها وهى ليس لها دين ، هو دينه وهو قول رجل فى الجاهلية ، وقال ابن عمر فى الإسلام . .

«وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ» (17) من الخلد أي لا يهرمون يبقون على حالهم لا يتغيرون ولا يكبرون . .

«بِأَكْوابٍ وَأَبارِيقَ» (18) واحدها كوب وهو الذي لا خرطوم له من الأباريق واسع الرأس . .

«وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ» (18) شراب من معين والمعين الماء الطاهر . .

«لا يُصَدَّعُونَ عَنْها» (19) من الصّداع فى الرأس . .

«وَلا يُنْزِفُونَ» (18) لا يسكرون قال الأبيرد :

لعمرى لئن أنزفتم أو صحوتم لبئس النّدامى كنتم آل أبجرا

وقوم يجعلون المنزف مثل المنزوف الذي قد نزف دمه . .

«وَلَحْمِ طَيْرٍ» (21) جماعة طائر وقد يجوز أن يكون واحدا . .

«لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً» (25) مجازه مجاز «أكلت خبزا ولبنا» واللبن لا يوكل فجاز إذا كان معها شيء يوكل، والتأثيم لا يسمع إنما يسمع اللغو «2».

---

(1) . - 898 : الأشطار فى اللسان (وضن) رواها ابن برى عن أبى عبيدة على أن الوضين الموضون وقال: أراد دينه لأن الناقة لا دين لها قال وهذه الأبيات يروى أن ابن عمر أنشدها لما اندفع من جمع: والشطر الأول فى الغريبين والفائق والنهاية (وضن) والقرطبي 17/ 202 وقال ابن الأثير: أنها قد هزلت ودقت للسير عليها هكذا أخرجه الهروي والزمخشري عن ابن عمر . . . إلخ.

(2) . - 15 - 16 «مجاز . . . اللغو»: رواه الطبري (27/ 92) عن بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة وهو أبو عبيدة.

«إِلَّا قِيلًا» (26) نصب «يَسْمَعُونَ» «سَلاماً سَلاماً» (26) نصبت على المصدر . .

«سِدْرٍ مَخْضُودٍ» (28) لا شوك فيه . .

«وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ «1»» (29) زعم المفسرون أنه الموز وأما العرب الطلح عندهم شجر عظيم كثير الشوك ، وقال الحادي :

بشّرها دليلها وقالا غدا ترين الطّلح والحبالا

«2» [899] .

«وَظِلٍّ مَمْدُودٍ «3»» (30) ولا تنسجه الشمس ، دائم يقال : للدهر الممدود والعيش إذا كان لا ينقطع قال لبيد :

غلب العزاء وكنت غير مغلّب دهر طويل دائم ممدود

«4» [900] .

«وَماءٍ مَسْكُوبٍ» (31) مصبوب سائل . .

«وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ» (32/ 33) جرها على الجر الأول و«لا» لا تعمل إنما هى لمعنى الموالاة تتبع الأول . .

«وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ» (34) مجازها طويلة ، يقال : بناء مرفوع ، أي طويل .

---

(1) . - 4 «طلح منضود» : قال الطبري (27/ 93) فى تفسير هذه الآية : فإن معمر بن المثنى كان يقول . . . والبيت وأما أهل التأويل من الصحابة والتابعين فإنهم يقولون إنه

هو الموز.

(2) . - 899 : فى الطبري (27/ 93) وهو منسوب فى القرطبي (17/ 208) للجعدى. [. . . . .]

(3) . - 7 «تقول . . . ممدود» الذي ورد فى الفروق : رواه القرطبي عن أبى عبيدة (87/ 159).

(4) . - 900 : ديوانه 1/ 27 والطبري 27/ 94، القرطبي 17/ 209.

(153/742)

«إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ «1» إِنْشاءً» (35) أعاد إلى النساء إلى حور العين . .

«عُرُباً» (37) واحدها عروب وهى الحسنة التبعّل قال لبيد :

وفى الحدوج عروب غير فاحشة ريّا الروادف يعشى دونها البصر

«2» [901].

«وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ» (43) من شدة سواده يقال : أسود يحموم «3» . .

«لا بارِدٍ» (44) جرّه على الأول . .

«مُتْرَفِينَ» (45) متكبّرين . .

«وَكَانُوا يُصِرُّونَ» (46) المصرّ المقيم على الإثم . .

«أَ وَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ» (48) الواو متحركة لأنها ليست بواو وإنما «و آباؤنا الأولون»

فدخلت عليها ألف الاستفهام فتركت مفتوحة .

و«الْهِيمِ» (55) واحدها أهيم وهو الذي لا يروى من رمل كان أو بعير . .

«فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ» (57) فهلا تصدقون . .

«أَ فَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ» (58) من المنى .

«أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ» (59) . .

«وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ»

(61) نبدّلكم عما تعلمون من أنفسكم «4» . .

«حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ» (65) الحطام الهشيم والرّفات والرّخام واحد ومتاع الدنيا

حطام . .

«إِنَّا لَمُغْرَمُونَ» (66) معذبون قال بشر بن أبى خازم :

---

(1) . - 1 «يعنى . . . قبل» الذي ورد فى الفروق : رواه الطبري عن أبى عبيدة

(95/27) .

(2) . - 901) : ديوانه 1/ 54 والطبري 27/ 96 والقرطبي 17/ 211 .

(3) . - 4 «و ظل من . . . يحموم» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/

.480

(4) . - 13 «نبدلكم . . . أنفسكم» : كما فى الطبري 27/ 102 .

(154/742)

ويوم النّسار ويوم الجفا ر كانا عذابا وكانا غراما

(626) .

«الْمُزْنِ» (69) السّحاب واحدها مزنة . .

«أُجاجاً» (70) أشدّ الملوحة . .

«النَّارَ الَّتِي تُورُونَ» (71) تستخرجون ، من أوريت وأكثر ما يقال :

وريت ، وأهل نجد يقولون ذلك . .

«مَتاعاً لِلْمُقْوِينَ» (73) المقوي الذي لا زاد معه ولا مال وكذلك الدار التي قد أقوت من

أهلها . وموضع آخر المقوي الكثير المال ، يقال : أكثر من مال فلان فإنه مقو «1» . .

«فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ» (75) فأقسم بمواقع النجوم ومواقعها مساقطها ومغايبها «2»

. .

«أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ» (81) واحدها مدهن وهو المداهن «3» . .

«غَيْرَ مَدِينِينَ» (86) غير مجزيّين ، دنته ، كما تدين تدان «4» ، والعبد مدين ، قال الأخطل :

---

(1) . - 6 - 8 «متاعا . . . مقو» : هذا الكلام برمته فى الأضداد للأصمعى ص 8 ، ولابن السكيت ص 167 . ونقل بعضه ابن قتيبة عن أبى عبيدة (القرطين 2/ 155) ولم يقبل تفسيره هذا ورجح رأى الذين يرون أن معنى المقوين المسافرون وكذلك هو أولى عند الطبري 27/ 104 .

(2) . - 9 «مواقع . . . تغيب» الذي ورد فى الفروق : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 481) . وهو فى القرطين مروى عنه أيضا (2/ 155) .

(3) . - 11 «مدهنون . . . المداهن» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 481) .

(4) . - 12 «كما . . . تدان» : هذا قطعة بيت ثم أصبح مثلا كما مر فى أول الكتاب فى تفسير سورة الفاتحة

ربت وربا فى كرمها ابن مدينة يظلّ على مسحاته يتركّل

«1» [902] ابن مدينة ابن أمة «2» . .

«فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ «3»» (89) فحياة وبقاء «4» ورزق وروح أي برد . .

«لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ» (95) مضافا إلى اليقين وقد يكون صفة له ، كقولك :

صلاة الأولى وصلاة العصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 247.

﴿ 253

---

(1) . - 902 : ديوانه ص 5 واللسان (دين ، مدن) .

(2) . - 2 «دين . . . أمة» : قال فى اللسان : قال أبو عبيدة أي دين أمة وقال الأعرابى معنى ابن مدينة عالم بها كقولهم هذا ابن بجدتها (دين) .

(3) . - 3 «فروح والريحان» : واختلف القراء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قراء الأمصار : فروح بفتح الراء بمعنى : فله برد وريحان (الطبري 27/ 109) .

(4) . - 3 «فحياة وبقاء» : رواه ابن قتيبة عن أبى عبيدة (القرطين 2/ 157) .

[. . . . .]

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة القنوجى :

سورة الواقعة

سبع أو ست وتسعون آية

وهي كلها مكية ، في قول جماعة من العلماء كالحسن وعكرمة وجابر وعطاء .

قال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها نزلت بالمدينة ، وهي قوله تعالى : وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (82) [الواقعة : 82] «1» .

[الآية الأولى]

لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) .

لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) : قال الواحدي : أكثر المفسرين على أن الضمير عائد إلى الكتاب المكنون .

والمطهرون : هم الملائكة . وقيل : هم الملائكة والرسل من بني آدم .

ومعنى لا يمسه : المسّ الحقيقي . وقيل : المعنى لا ينزل به إلا المطهرون . وقيل : المعنى لا يقرؤه . وعلى كون المراد بالكتاب المكنون هو القرآن ، فقيل : لا يمسه إلا المطهرون من الأحداث والأنجاس ، كذا قال قتادة وغيره «2» .

وقال الكلبي : المطهرون من الشرك .

وقال الربيع بن أنس : المطهرون من الذنوب والخطايا .

وقال محمد بن الفضل وغيره : معنى الآية لا يقرؤه إلا الموحدون .

وقال الحسين بن الفضل : لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهره اللّه من الشرك والنفاق «3» .

---

(1) انظر : الطبري (27/ 96) ، وزاد المسير (8/ 131) .

(2) انظر : الفراء (3/ 129) ، الطبري (27/ 118) والنكت والعيون (4/ 178) ، وزاد المسير (8/ 151) ، القرطبي (17/ 325) ، وابن كثير (4/ 298) .

(3) انظر : زاد المسير (8/ 151 ، 152) ، القرطبي (7/ 225) .

(157/742)

وقد ذهب الجمهور إلى منع المحدث من مس المصحف ، وبه قال علي وابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وابن زيد وعطاء والزهري والنخعي والحكم وحماد وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي .

وروي عن ابن عباس والشعبي وجماعة منهم أبو حنيفة : ويجوز للمحدث مسه «1» .

وقد أوضح الشوكاني ما هو الحق في «شرحه للمنتقى» فليرجع إليه «2» . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ نيل المرام صـ 428. 429 ﴾

---

(1) انظر : سبل السلام (1/ 70) ، جامع الأمهات (ص 59) كفاية الأخيار (ص 78) ، شرح العبادات لليعقوبي (ص 126) . [. . . . .]

(2) انظر : نيل الأوطار (1/ 260 ، 262 ، 283 ، 285) .

(158/742)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الواقعة»

[سورة الواقعة (56) : آية 2]

لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ (2)

قوله «1» تعالى : لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ [2] وهذه استعارة . والمراد أنها إذا وقعت لم ترجع عن وقوعها ، ولم تعدل عن طريقها ، كما يقولون : قد صدق فلان الحملة «2» ولم يكذب . أي ولم يرجع على عقبه ، ويقف عن وجهة عزمه جبنا وضعفا ، أو وجلا وخوفا .

وكاذبة هاهنا مصدر ، كقولك : عافاه اللّه عافية ، فيكون كذب كذبا وكاذبة . [و] «3»

تلخيص المعنى : ليس لوقعتها كذب ولا خلف . وقيل أيضا : ليس «4» لها قضية كاذبة ، لإخبار اللّه سبحانه بها ، وقيام الدلائل عليها ، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه

. .

وذلك فى كلامهم أظهر من أن يتعاطى بيانه .

وقيل أيضا : ليس لها نفس كاذبة فى الخبر «5» عنها ، والإعلام بوقوعها .

والمعنيان واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 325 ﴾

---

(1) فى الأصل «و قوله» بواو قبل الكلمة وهى زيادة من الناسخ .

(2) فى الأصل «الجملة» بالجيم المعجمة ، وهو تحريف من الناسخ .

(3) ليست هذه الواو بالأصل وهى ضرورية .

(4) مطموسة بالأصل وهى مفهومة من السياق .

(5) فى الأصل «الخير» بالياء المثناة التحتية . وهى تحريف .

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الواقعة

والواقعة من أسماء شتى ليوم القيامة ، مثل الحاقة والقارعة والساعة ، ومعالم هذه السورة واضحة ، فهى تبدأ بحديث وجيز عن انتهاء العالم وبدء الحساب ، ثم تذكر صنوف الناس بعد البعث . . وهم أصحاب السبق البعيد ، وأهل اليمين وأهل الشمال . وتسوق بعد ذلك خمسة أدلة على أن البعث حق ، وأن إنكاره خبال . وتختم بوصف لرحيل البشر عن هذه الدنيا بالموت ، وبوادر تصنيف الأقسام الثلاثة ، السابقين وأهل اليمين وأهل اليسار .

إن كثيرا من الناس تحت مشاغل العيش ووطأة الشهوات وممكرة الحاضر لا يحسون إلا وجودهم المادى الغريب . يقول أحدهم وهو ذاهل: ما أظن الساعة قائمة ! ويقول الآخر: إن هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر ! ! وقد يحلفون على هذا المجون ، ويؤكدون ألا حياة بعد الموت " وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت " وترى ميت الغد يشيع ميت اليوم ، وهو يحدث صاحبه فيما يراوده من أمل ، ويخامره من طمع غير مستفيد من موكب الموت عبرة ! وتمضى القرون وتطوى الجماهير ، والمنكرون يزيدون ولا ينقصون ، وللكفر صوت عال فى المشارق والمغارب . وبغتة تقوم الساعة ، ويخرس صوت الإلحاد ، ويتبدد صداه " إذا وقعت الواقعة * ليس لوقعتها كاذبة " . إن الإنسان بطبعه مجادل ، عنيد ولكن ما عساه يقول وقد وقع الهول ؟ لقد جفت حلوق الأفاكين ، فما يقدرون على لغو ! "خافضة رافعة " هناك رؤساء وملوك سيبعثون سوقة وصعاليك

لأنهم ما أعدوا لهذا اليوم عدة ! ! وهناك أخفياء مغمورون سيكونون يوم القيامة قمما ! " ورب كاسية فى الدنيا عارية يوم القيامة "إنه يوم تصحيح الأوضاع ، وفناء الزور وجلاء الحق ! ومن المفسرين من يرى الخفض والرفع فى سطح هذه الأرض ، كما جاء فى الحديث " يحشر

(160/742)

الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ، ليس فيها معلم لأحد " . الكل حفاة عراة قيام لرب العالمين "ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا * فيذرها قاعا صفصفا * لا ترى فيها عوجا ولا أمتا " . وكلا التفسيرين يكمل الآخر ، ليس بينهما تدافع ، فهناك زلزال اجتماعى يهدم ما شاء الناس من أباطيل ووضعوا من أنساب وألقاب . وهناك زلزال مادى بدأ وصفه فى قوله تعالى " إذا رجت الأرض رجا * وبست الجبال بسا * فكانت هباء منبثا " . مع قيام الساعة تهيج زلازل تهد كل شىء ، وتتحول بها الصخور الصلدة إلى ذر كتلك الكائنات الدقيقة التى نراها تسبح فى الشعاع ! " يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار " . ولسنا ندرى كم نبقى هنا قبل أن تتبدل الأرض ؟ عشرات ومئات من القرون ؟ إن تحديد الرقعة الزمانية غير مهم

، المهم هو إستتابة الحصاد الأخير لهذا التاريخ الطويل . وقد بين الله سبحانه أن أبناء آدم سيتوزعون على ثلاث زمر " وكنتم أزواجا ثلاثة * فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة * والسابقون السابقون * أولئك المقربون * في جنات النعيم" . ذكرت سورة الواقعة أدلة على أن البعث حق ، فذكرت خمسة أدلة متنوعة من آفاق الكون ، وتجارب الناس ! ! الأول " نحن خلقناكم فلولا تصدقون " . لماذا يتهم صاحب الخلق الأول بالعجز عن الخلق الثانى ؟ إننى عندما أنشى درسا أتعب فيه ، فإذا أعدته كان على سهلا ! "وتنزلا مع هذا الفكر يقول الله فى آية أخرى " وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه " . وليس عند الله سهل وصعب وهين وأهون ، ولذلك أتبع هذا التنزل بقوله " . . وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم " . وقد تكرر هذا الدليل فى سور كثيرة ، وهو بديهى لا يرده إلا مكابر بليد

(161/742)

" وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا * قل كونوا حجارة أو حديدا * أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة . . . " . والقرآن الكريم يلح فى طلب النظر . واستقصاء الفكر فى هذا الوجود لمعرفة البدء

والعودة ! إننا موجودون يقينا فكيف وجدنا ؟ والمتأمل فى النشأة الآخرة ، يرى استبعادها حماقة ! " أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير * قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير * يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون " . وقد لخصت هذه المعانى كلها فى آية قصيرة " نحن خلقناكم فلولا تصدقون " . الدليل الثانى : إن الذى خلق العالم لأول مرة لم يبذل فيه جهده ويستنفد قدرته ! إنه كل يوم ، بل كل ساعة ، بل فى كل طرفة عين يتجدد خلقه ! ويبدو ذلك فى تخلق البشر ، واستقبال ذريات جديدة باستمرار . . ويتقرر هذا الدليل فى قوله تعالى " أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون * نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين * على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون" . والمنى سائل عجيب ! فهذا الماء المهين - فى منطق القادر الأعلى - تحمل الدفقة الواحدة منه مائتى مليون حيوان منوى . هذا الحيوان الذى لا يرى لضآلته يحمل فى كيانه كل خصائص النوع الإنسانى المادية والمعنوية . ذلك معروف من قديم . ففى قصة الملاعنة التى وردت بسورة النور يقول الرسول الكريم فى المرأة الحامل المتهمة : " إن جاءت به أكحل العينين سابغ الإليتين خدلج الساقين ، فهو لشريك بن سعماء الذى رميت به . . ! " . انظر كيف انتقلت الصفات الجسدية من الأب للابن عن طريق الحيوانات المنوية ، وكما تنتقل هذه الصفات

العقلية والخلقية ! هل فى الخصيتين مصانع عالمية تديرها عصابة من العباقرة تصنع ذلك ؟ لا شىء هنالك . إن هذه الغدد تأخذ مادتها من الدم ، والدم يجىء من الغذاء ،

(162/742)

والغذاء يجىء من الطين ! والمشرف أولا وأخرا على هذه الأطوار هو الله

(163/742)

" الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين * ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون" . والمدهش أن الإنسان يتخلق من حيوان منوى واحد فقط ، والبقية الأخرى من المائتى مليون تذهب إلى دورات المياه ! كأن الله يقول للإنسان المتكبر إن إيجادك ، وإيجاد مليارات مثلك لا يكلف شيئا . قلت لامرئ أحمق يزعم أنه يشتغل بالفلسفة: من صنع الحيوان المنوى الذى اخترقها واستقر فيها ؟ إن كلا من أبويك لا يدرى شيئا وتجىء أنت تصنع الإلحاد " ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون" . الدليل الثالث: إن الأرض

التى تحيا فوقها حافلة بالروائع ، فأنت واجد بها جنات معروشات وغير معروشات وحقولا وغابات وأنواعا من الثمار لا حصر لها بين حبوب وفواكه وموالح وزيوت وأنسجه وألوانا من الأزهار المختلفة الريح والصبغة . . إلخ . من منشئ ذلك كله ؟ إن الفلاح يشق الأرض ويلقى البذر ولا يدرى شيئا بعد . إنه يشهد ما تصنع القدرة العليا ، ويستقبل هدايا الله وهو مستسلم ! أما يدفع شىء من هذا إلى معرفة المنشئ المبدع ؟ أما يبعث ذلك إلى إدراك قصة الحياة والموت ؟ ! فى سورة الواقعة إشارات إلى ما فى الزرع والحصاد من دلائل على البعث الأخير . " أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . . . " . إن إحياء الموات قصة تتكرر فى أرجاء الدنيا . " وآية لهم الأرض الميتة أحييناها . . " . وإخراج البشر من الأجداث لا يزيد عن إخراج النبات من ظلمات التراب حاملا صنوف المعادن والمواد المذهلة " والله أنبتكم من الأرض نباتا * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا " . وفى سور أخرى بيان أكثر " والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب " إن التوبة هنا يقظة عقل : كان غافيا

فصحا ، وكان ذاهلا فأنتبه . . . نعم الخروج للقاء الله ، ومواجهة الحساب مثل هذه الزروع التى خرجت من التربة العفنة السبخة تحمل السكر والدهن والنشا وتتورع عليها ألوان الطيف . . ثم يدعو إلى إنكار البعث وفى كل حين بعث . .

وقد يتصور الفلاح أن له عملا فيما يتم ، فبين الله أنه لو أراد دمر ما أنشأ وأسلمه إلى أسراب الجراد " لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون * إنا لمغرمون * بل نحن محرومون" . إن بعث الأجساد كاستنبات الأرض ، عمل تبرز فيه قدرة بديع السماوات والأرض ، ويجب أن يكون مثار إيمان بالبعث والجزاء . لنتدبر قصة الجزاء الأخروى والزعم بأنه روحانى ! من المعلوم أن الإنسان جسم وروح ، فهل صحيح أن التسامى المنشود للإنسان لايتم إلا بتدمير الجسد ، وتجاهل مطالبه ؟ إننى لم أر فى الكتاب والسنة أى إشارة إلى تعذيب الجسد وإشقائه ! نعم هناك صيام مشروع ، وتعرض للعطش والجوع ! ! وهناك صلاة قد يطول فيها السجود والقيام ، وقد تتورم فيها الأقدام ! وربما اكتسب الإنسان رزقه من حرفة ينصب فيها ويتصبب عرقه ! وربما انتهت حياته بالقتل فى سبيل الله فتزهق روحه ، ويراق دمه ، ويتحقق فيه قول ابن الرومى : فحب جسما على الأرض إذ هوى وحب بها روحا إلى الله تعرج ! لكن ذلك كله فحوى الامتحان الإلهى للإنسان روحا وجسدا ، وحظ الروح من هذا الامتحان قسيم لحظ البدن ، بل دور البدن هنا الوسيط ، فهو ينقل ما يصيبه إلى الوعى ومع الوعى يكون التحمل واتجاه الإرادة إلى مرضاة الله . ولو وقف الألم

مكانه بالبنج مثلا ولم يشعر المرء بشىء حتى الموت ، ما كان له من فضل ! إن الإنسان جنس يتميز بخصائصه ، وقد خلقه الله بيديه ، ولم يخلقه فى أحسن تقويم ، ليجىء رجل أو امرأة فيقول: إن الجسم حقير وينبغى أن يهان ويعذب ! وعندما خلق الله آدم قال له: " وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما . . " فأين تعذيب الجسد فى هذه الإباحة ؟ ! وخلق الله الرسل ، وجعلهم صفوة خلقه ، وقال

(165/742)

لهم " يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا . . . " . فأين آثار الحرمان فى هذا التكليف . . ؟ ويسر الله الأرزاق الطيبة للمؤمنين به ، ولم يطلب إلا الشكر على ما أنعم " يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون" . فهل فى هذا حرب على الجسد وتخطيط لإهانته ؟

وبين - جل شأنه - أن أبناء آدم بعد رحلتهم الطويلة فى أرجاء الدنيا وتوارثهم عمرانها حينا بعد حين سوف يعودون إلى الله كرة أخرى "كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين" فهل تتحقق هذه العودة بقيام الناس صورا لا أرواح فيها أو بقيامهم أرواحا لا أجساد لها ؟ هذا تصور أخرق . الناس هم الناس ، وسوف يحيون بجوارحهم

ومشاعرهم التى باشروا بها المعاصى أو الطاعات ! وعندما يحاول الذين مردوا على الجدل والمكابرة أن ينكروا ما فعلوا ، نطقت أركانهم بتكذيبهم " حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون" . إن الإنسان الذى أحس المعاناة والتضحية فى دنياه يكافأ بنعيم مقيم فى الآخرة . وروى ابن كثير عن الطبرانى أن النساء المؤمنات أفضل فى الجنان من الحور العين ! قالت أم سلمة: فبم ذاك ؟ قال بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن لله ! ! ثم جاء فى هذا الحديث أن النساء المؤمنات يقلن: "نحن الخالدات فلا نموت أبدا ، ونحن الناعمات فلا نيأس أبدا ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدا ، طوبى لمن كنا له وكان لنا . . " . إن الذين جاهدوا فى الدنيا هم المستريحون فى الأخرى . والقول بأن الأجسام تفنى فلا تعود ، وأن الآخرة مسرح الأرواح وحدها ، وأن ثوابها وعقابها معنوى يشبه تأنيب الضمير أو راحة الضمير ، قول باطل لا أساس له . . ويبدو أنه انتقل إلى النصرانية من بعض الديانات الأرضية المخرفه . وكم سطت الوثنيات على الأديان

فقوضت أركانها ومحت معالمها ! والغريب أن الذين يحملون فلسفة الرهبانية وقهر الأبدان هم عنصر الهزيمة والاستسلام فى الحضارة المعاصرة ، وهى حضارة أسفت على نفسها فى إرواء الغرائز ويسرت للرعاع من فنون الملذات ما لم تشهده مقاصير الملوك الأقدمين ، وهكذا تقود الأخطاء إلى الخطيئات ! ! وفى دنيانا ننظر إلى جائزة (نوبل) مثلا التى يصبو إليها العلماء الراسخون ! إن فى منحها تقديرا أدبيا تهش له النفس ! لكن التقدير الأدبى وحده لا يطعم من جوع ولا يؤمن من خوف ، ومن هنا كانت الجائزة المرصدة ثمينة وسخية .

(167/742)

ونمضى فى شرح قصة الجزاء الهادى لنقول: إن مطالب الجسد محدودة وإجابتها قليلة الكلفة عندما تختفى رذائل الترف والسرف ! فهل هى فوق الجزاء المعنوى ؟ نقول لا . . . وتفاوت المواهب والهمم والجهود يلقى أجزية شتى بعضها أعلى من بعض . . ! قد يكون لك خادم مخلص تعطيه طبق الطعام فينظر إليه قبل أن ينظر إليك ! وهو يشكرك بقوة لكن عينيه لا تعدوان الطبق وما فيه كما وكيفا . . وهناك آخر يعرفك ويقدرك ويعرف الناس بك وبقدرك . فإذا قدمت إليه الطبق كانت نظرته إليك أسبق وأعمق ، وعندما يتناول

الطبق منك يتمنى لو منحته كتابا من تأليفك يزيده بك علما ولك تقديرا ! هل يستويان ؟ إن من أهل الإيمان من تشغله أمجاد الألوهية ، فهو معها فى فرح دائم ! أو حضور غالب ، وهو فى سرائه وضرائه ناظر إلى ربه . . . وحسب . لكن اللذة والألم قوانين نفسية لا ينفك عنها بشر ، وعندما يعبر أهل الإيمان عن أحوالهم ، فلن يخترقوا أبدا آداب الشرع ويعتدوا حدود الله . إذا قال الله " فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز " ، فلا يجوز لأحد أن يقول: ما الجنة وما نعيمها ؟ إننا نريد وجه الله ! هذا كلام سقيم ! هل يريد أن يرى وجه الله وهو فى ظل شجرة الزقوم ؟ إن كان لها ظل ! ! إن الله يتجلى برضوانه على عباده المؤمنين وهم يرفلون فى حلل الجنة ويمشون فى ظلها الدائم . وفيما ذكرنا شرح لقوله تعالى " وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم " . إن الرضوان الإلهى أعلى من كل نعيم وأقر للعين من كل لذة ، ولكننا نرفض سوء الأدب مع عبارات الشارع الحكيم . وعلماؤنا مجمعون على أن ثواب الآخرة وعقابها ماديان وروحيان ، وهناك حشود من الآيات والأحاديث تؤكد ذلك . قد يخطئ بعض الرجال الطيبين فينظر إلى نفسه وأحواله ثم يصدر حكما عاما غامضا فى شئون الناس . وذاك لا ينبغى ! نحن نعلم أن عيسى ويحيى لم يتزوجا ، لكن كلا الرسولين لم

يشن حربا على الزواج ، ولم يسن مسالك الرهبانية المستوحشة ، لأنهما لم يبعثا لدمار الحياة ! وعدم زواجهما هو لظروف تخصهما وحدهما . .

وقد عاش ابن تيمية عزبا ، وكذلك عاش جمال الدين الأفغاني ، ولم يؤثر على أحدهما أنه دعا إلى عزوبة ! هناك نباتيون يكتفون فى غذائهم بما يخرج من الأرض . أعرف منهم العلامة محمد فريد وجدى ، لتكن هذه طبيعته ! فليس أكل اللحم فريضة دينية . . بيد أننا نعترض على هذه الطبيعة إذا حاول صاحبها جعلها دينا . وقد ارتكب أبو العلاء المعرى هذه السخافة عندما قال: غدوت مريض الدين والعقل فالقنى لتعرف أنباء الأمور الصحائح ! ومضى فى قصيدته يحرم لحوم الأنعام والطير ، بل لقد حرم عسل النحل ، فما جمعته كى يكون لغيرها ! ! الخ . ومن هذا القبيل ما يجرى على ألسنة بعض الأدباء اليوم من أن الجنة ليست "سوق خضار " يرمى بذلك إلى إنكار الجزاء المادى وتهوين شأنه ! ! وقد تأثر به ناس فى تاريخنا القريب والبعيد ، وعدوه تساميا ، وهو جهل كبير ! إن أنس بن النضر كان يرى ربه ، ويرى جزاءه الموعود ، عندما استنكر موقف المنهزمين فى أحد ، وأقبل وحده يقاتل المشركين ، ويتحمل بجلد عض السيوف فى جلده ، وهو يصيح: إنى أشم ريح الجنة من وراء أحد ! هل هذا المؤمن العظيم رجل واهم ؟ وهو الذى قال فيه رب العالمين: " من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من

ينتظر . . . " . وجعفر الطيار ، الذى احتضن علم الإسلام بيديه ، فما سقط إلا بعد أن انقطعت ذراعاه ، فسارع بطل آخر لحمل العلم الغالى . لقد كان يتشوف إلى الشهادة وهو يقول " يا حبذا الجنة أو اقترابها طيبة وباردا شرابها ! " . فهل تطلع الرجل المعنى إلى الراحة فى ظلال الجنة وهم ، أو ضعف فكر ؟ كما يزعم أصحاب الخلل فى فطرتهم ونظرتهم ! ! إن أنصاف المتعلمين والمتدينين الذين يتكلمون فى الإسلام وهم بمعزل عن كتاب الله وسنة رسوله ، خير لهم أن يصمتوا وأن يستحوا ! وقد قرأت لبعض القساوسة

(169/742)

المبشرين بالنصرانية تهكما بالجنة الذهبية وجهنم النارية ! وتنديدا بالأجزية المادية التى شرحها الإسلام ! إن هؤلاء الناس متأثرون بأفكار أرضية وفلسفات مقطوعة الصلة بالوحى . ولننظر : ماذا أسدوا للإنسانية من خير بهذا الكلام ؟ هل ارتقوا بالحضارة المعاصرة وخففوا من كثافتها ؟ هل حولوا العوام والخواص إلى روحانيين يكبتون الشهوات ويحلقون فى السموات ؟ إنهم أخطئوا فى علاج النفس البشرية ، ولم يعرفوا المفتاح الذى يدور فى أقفالها فتنفتح ! إن مقادير ضخمة من الترهات ، تسكن فى عقول القوم وأفئدتهم ، صرفت أولى الألباب عن الدخول فى الدين ، واحترام مواريثه . . إن الإنسان

الذى هو مادة وروح لا يصلح إلا بتعاليم تعترف بمادته وروحه معا . وهذه التعاليم حمل رايتها الأنبياء كلهم ومن بينهم موسى الذى قال معتذرا عن قومه "أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين * واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك " . وقبله إبراهيم الذى دعا ربه قائلا " رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين * واجعل لي لسان صدق في الآخرين * واجعلني من ورثة جنة النعيم * واغفر لأبي إنه كان من الضالين * ولا تخزني يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم * وأزلفت الجنة للمتقين * وبرزت الجحيم للغاوين" . ينقسم أهل النعيم فى هذه السورة قسمين . الأول: السابقون بالخيرات . والثانى: الفائزون بقدر راجح من الحسنات ! أما من بقى فهم أصحاب الشمال ! . . وأخطأ بعض المفسرين فحسب أن هذه الأصناف الثلاثة هى المذكورة فى قوله تعالى " . . فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله" . إن سورة الواقعة تحدثت عن الناس كلهم ، مؤمنهم وكافرهم ، أما الآية الموهمة ، فهى تتحدث عن المسلمين خاصة ! وصدر الآية يدل على ذلك " ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات" . ووصفت سورة الواقعة أهل السبق

بأنهم "ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين" . ويرى البعض أن الثلة من الأولين تعنى أصحاب الأنبياء الذين سبقوا محمدا برسالاتهم وأن القلة من الآخرين تعنى المسلمين ! ويظنون أن هذا طبيعى لكثرة من سبق من أنبياء وأمم ! والذى نراه أن الوصف هنا لأمة محمد وحدها ، وأن الثلة من الأولين هم سلفنا الصالح ،

الذين نشروا الدين فى أرجاء الأرض بعلمهم وعملهم ! وأن القلة من الآخرين ، هم الغرباء بتقواهم ، وسط قوى مناوئة ، وخصومات مؤذية . . أما الرسل السابقون ، فقد كانت رسالاتهم مؤقتة ومحدودة ، تمت فى أعصار قليلة ومدن معدودة . . ونحن نحترم أصحاب موسى المؤمنين بتوراته ، وأصحاب عيسى المؤمنين بإنجيله ، وأين هم من قرون طوال ؟ ! اختفوا واختفت هداياتهم ، وحل مكانهم من لا صلة له بالسماء . ونلحظ أن أولى أوصاف السابقين ، أو أولى الميزات التى يربحونها هى القرب من الله سبحانه ، أو هو الرضوان الأكبر ، ولذلك قيل " والسابقون السابقون * أولئك المقربون * في جنات النعيم" . فلنتأمل فى حال أولئك الذين سكنوا فى بلاد الأفراح . إن الإيمان بالغيب الذى عرفوه فى الدنيا أضحى إيمان شهود ! وعظمة الله التى صدقوا بها نظريا فى الأيام الخالية رأوها معاينة فى هذه الأيام ! ومن ثم فهم يلهجون بالثناء على الله وشكره وتحميده وتمجيده ! وهذا الذكر الموصول ! يتم دون معاناة أو كلل أو ملل ، بل ينبعث عنهم كما

ينبعث الزفير والشهيق من صدورنا فى هذه الحياة . ! وفى الآية " دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين" . إنهم يشركون الملائكة فى استدامة التسبيح دون أى شعور بكلفة " يسبحون الليل والنهار لا يفترون" . وإذا كان فى القوم من قام بالقرآن فى الدنيا وعاش له يحميه ويتلوه ويبلغه ، فإنه يقال له ما جاء فى الحديث الشريف " يقال لقارئ القرآن يوم القيامة اقرأ ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا " . نعم لقد أضحى مع السفرة الكرام البررة ، بهذه المهارة

(171/742)

وتلك الإمامة . إن أهل الجنة يحلو فى مذاقهم ترديد الباقيات الصالحات فهم يهتفون بها عن حب ورغبة ، ولعلها وسمت بالبقاء والصلاح لأنها تعلو على الفناء ، وكيف تفنى هذه الشعارات ، سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ؟ كانت فى الدنيا قواعد لسلوك المؤمن ، ثم أضحت فى الآخرة شارة أهل النعيم . ماذا فعل غيرهم ؟ استرخى فحجب . وقد قيل الأحجار فى طريق الكسالى عوائق وفى طريق الناشطين سلالم ، الأولون ينكصون ،

(172/742)

والآخرون يصعدون ! ومن ثم قيل فى وصف الجزاء المعد للمقربين " جزاء بما كانوا يعملون " . والكريم إذا وفد عليه ضيوف أكرم نزلهم ، وأجزل عطاءهم ، فأين كان أهل الجنة ينزلون بعد عودتهم إلى الله ؟ إن أقل ما يقدم لهم هو أعلى وأغلى ما كان ملوك الأرض يتمتعون به ! ونحن نعلم أن فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ونعلم أن الأسماء التى تطلق على ما فى الجنة هى عناوين تقريبية ، وأن ذكرها ضرب من التشويق للعاملين فى الدنيا ، والأمر فوق ما نتصور ! المهم أن أهل الجنتين - مع ما يتقلبون فيه من نعماء - ليسوا أهل بطالة وخمول ، إنهم يلهمون الذكر والشكر . ولا ريب أنهم سعداء بتكريم الله لهم ، ولكنهم أسعد بما أتيح لهم من تحية الله ليلا ونهار ، ومناجاته سرا وجهرا . ونشرح بعض الكلمات التى لا نألفها ، والتى وردت فى وصف الجنان : فالسرر الموضونة - هى المضفورة من المعادن النفيسة . " متكئين عليها متقابلين " ، أى لهم مجالس مؤنسة يواجه بعضهم بعضا فيها . " يطوف عليهم ولدان مخلدون " . تخدمهم فتية يبقون ما حيوا فى سن الشباب ! ومع كثرة الشراب فى الجنة من لبن وعسل وماء وخمر فإن الخمر المعنية خمرة أباحها الله لا تصيب بالصداع ولا الدوار " لا يصدعون عنها ولا ينزفون " . والنزف هو الهذيان واختلاط العقل وهو أمر معروف بين السكارى . من العلامات البارزة للجنة الحور العين . والحور العين هن بنات آدم بعد صوغهن فى قوالب أخرى تجعل العجائز

شواب والدميمة وسيمة ! أو هن خلق آخر يبدعه الله فى صور فتيات ساحرات العيون يستمتع بهن أهل الجنة . والظاهر أن الحور العين من الصنفين معا ، وأن تغييرات كبيرة سوف تقع فى أجسام الرجال والنساء وفى هيئاتهم ، وهو تغيير الأشرف والأكمل . . فلن تكون لأبناء آدم فضلات ، وسيلتئم شمل الأسرة المؤمنة على الحب والرضا ، مصداق قوله تعالى " جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب *

(173/742)

سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" . والواقع أن الجسم الإنسانى ، على روعة ، إبداعه له عوارض محرجة ومزعجة ، وما يتم النعيم إلا بتعديل أجهزته على نحو أسمى وأنظف وأقوى وأجمل . وربما كان خلقه على ما نحس بعض الامتحان الذى فرض علينا فى هذه الدنيا .

ولا توجد فى القرآن سورة تستوعب كل الأجزية الحسنة المعدة للمتقين ، وإنما تعرض مناظر ، أو تلتقط صور لجوانب من النعيم تناسب كل سورة ، وتشرح صدور القارئين بما تثير من أشواق وتفتح من آمال . وفى هذه السورة رأينا لونا من النعم المعد للسابقين

ولأصحاب اليمين ، وهم أكثر عددا من الصنف الأول " ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين " . ولبيان بعض الكلمات التى وردت فى ثوابهم ، تظهر صنوف النعيم . فالسدر شجر يثمر النبق ! وينبت مع كثرة الماء ، ولعل ذلك سر نفاسته فى الصحراء ، مع نكهته اللطيفة ، ويصحبه دائما شوك قد يخدش لكنه فى الجنة مخضود لا شوك فيه ! أما الطلح المنضود ، فهو الموز المنسق المركوم فى نظام ، وقيل ثمر يعرفه أهل الغرب وغيرهم ، والظل الممدود ، هو الذى لا يتقلص مع وقدة الشمس " أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا " . والماء المسكوب ما يجرى تحت القصور فى الجنة أو ما تدفعه النافورات إلى أعلى . ولما كانت الفواكه فى الأرض موسمية تظهر فى بعض الشهور وتختفى بقية العام ، وصفت فاكهة الجنة بأنها " لا مقطوعة ولا ممنوعة " . والعروب المرأة المتوددة إلى زوجها المقبلة عليه ! والجمع عرب . وسواء كن من نساء الدنيا بعد صياغتهن الجديدة أو من الحور المنشآت لأهل الجنة ، فهن متقاربات الأعمار ، وذاك معنى قوله تعالى " عربا أترابا * لأصحاب اليمين " . والكلام كله - فيما نرى - من البشريات لأمة محمد صلى الله عليه وسلم . فالسابقون قلة من المعاصرين ، ولكنهم ثلة من الأخلاف كبيرة . . ويجوز غير ذلك . " ثم ينتقل السياق إلى أصحاب المشأمة ، أو أصحاب الشمال ، وهم جمهور الملاحدة والفسقة والمكذبين ممن شاقوا الرسل ،

وعادوا الدين كله ، ورضوا بالحياة الدنيا ، واطمأنوا بها وسخروا مما وراءها ، ولم يعرفوا فى دنياهم إلا مآربهم . وقد استخدمت مصطلحات فى صفة العذاب " في سموم وحميم " تلك الريح اللافحة بحرارتها ، من السم لشدة أذاها وحميم ذلك الماء الساخن الذى يغلى . " وظل من يحموم " دخان كثيف أسود لا قيمة لظله ، ولذلك جاء فى موضع آخر "انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب * لا ظليل ولا يغني من اللهب " ، وهو من الحمم جمع حممة ، الفحم

(175/742)

وبم استحق أصحاب الشمال هذا العذاب ؟ لأنهم لم يتقوه فى الدنيا بعمل صالح ، بل هم لم يؤمنوا به أصلا ، وكانت معيشتهم على ظهر الأرض تشبعا من اللذات المتاحة أو جريا وراءها سواء وجدت أم لم توجد . وقد وصف الله سبحانه معيشة الكافر فى الدنيا ، وانحصاره فيها وحدها ، فقال "إنه كان في أهله مسرورا * إنه ظن أن لن يحور " ، يرجع إلى ربه " بلى إن ربه كان به بصيرا " . والكافرون يبنون حياتهم على ألا بعث ! وهذا الفكر يكاد يطوى الآن المشارق والمغارب ، وهو أساس الإيغال فى المعاصى والانكباب عليها

دون شعور بقبحها أو ندم على اقترافها . . وذلك هو الحنث العظيم ، أى المعصية الفادحة التى عناها النظم الكريم فى الآيات " إنهم كانوا قبل ذلك مترفين * وكانوا يصرون على الحنث العظيم * وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون * أوآباؤنا الأولون * قل إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم " . ويعود الكلام مرة أخرى إلى وصف ما يلاقيه الملاحدة من عذاب " ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لآكلون من شجر من زقوم " . والزقوم طعام مرير قبيح – أعاذنا الله منه – إذا أكله صاحبه احتاج إلى طلب الماء فلم يجد إلا ماء يغلى "وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم" . ومع أثره الفظيع فإن أكل الزقوم يتطلب المزيد من الشراب لما يحسه من عطش ! فهو كالبعير الأهيم المصاب فى أمعائه بحمى تحمله على طلب الماء بنهم لا ينقضى . وقد وصف أهل النار بأنهم يملئون بطونهم من الزقوم ثم يبحثون عن الماء بحث الإبل الهيم عما يرويها ، وهيهات "هذا نزلهم يوم الدين " . وصور الثواب والعقاب كلها سيقت للترغيب والترهيب ، ودعم تربية سليمة ، لاسيما فى هذا العصر الذى تضافر فيه العلم والفن والإعلام الهازل والجاد على تجهيل الناس بالآخرة ، وصرفهم عن العمل لها . وإيقاظ مشاعر الرغبة والرهبة لا يكفى ! بل لابد من إيقاظ العقل الإنسانى ليفكر ويصدق ويتصرف بروية . الدليل الرابع الذى ورد فى

سورة الواقعة على أن البعث حق ، نجده فى قوله "أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون" .

إن الماء أصل الحياة وأساس بقائها قال تعالى : " وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون " . ويكون الماء أربع أخماس الأرض ، وله دورة تستحق التأمل العميق ! فإن الريح تسوق السحب – مثلا – من المحيط الهندى لتسقط على أرضنا ودوابنا ، ثم يذهب الماء المستعمل إلى مصارفه ومجاريه ويأخذ سبلا لا ندريها ليعود إلى البحار والمحيطات مكملا دورة ومبتدئا دورة أخرى لا يزيد ولا ينقص ! قال تعالى: " وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون " . نعم الذى أوجده قادر على الذهاب به ! " لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون " . إن المشيئة العليا وحدها مرجع الإيجاد والإفناء . والماء – وهو الوسيط الطبيعى للحياة هنا وللحياة بعد الموت – عنصر طيع لهذه المشيئة المطلقة ، وقد جاء فى السنة أن "الله ينزل مطرا كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس" وكانوا فى قبورهم هلكى . . وعذوبة الماء تتم فى الجو ، بين تفاعلات كهربائية تحدث عنها علماء الطبيعة ، يشرف عليها الله وحده . الدليل الخامس: – " أفرأيتم النار التي تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون * نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين " . هذا دليل كما أرى – يكشف عنه العلم الحديث فنحن عندما نتنفس نأخذ

"الأوكسجين" ونطرد "ثان أوكسيد الكربون" . وعكس ذلك يفعل النبات ، فهو فى تنفسه يأخذ "الكربون" ويدع "الأوكسجين" . والكربون هو الفحم ! وعجيب أن تكون الخضرة مخزنا للوقود ، وأن يكون رفيف الحياة ستارا لأسباب الاحتراق والتلاشى . إن الشجر فى جذوعه وفروعه وأوراقه الخضراء لا يلبث أن يجف ويتحول إلى هشيم تتأجج به النار ! وهكذا نرى الموت فى تضاعيف الحياة . إن خواص المادة ، مفردة كانت أو مركبة ، لا تزال موضع الدراسة والاستفادة .

(177/742)

والمركب الكيماوى قد تظهر له صفات مضادة للمفردات التى تألف منها ، فالماء مثلا نشربه لنرتوى به ونذهب عطشنا ! على حين نرى عنصريه اللذين تكون منهما أقرب إلى الإحراق منهما إلى الإرواء !

نحن نبصر فى الحدائق والحقول آيات النضارة والنماء ، ولا نبصر ما يتم بعد قليل من مظاهر التلاشى والاحتراق ، وكذلك تتعاقب الأضداد ، وما أيسر ذلك على القدرة الإلهية "تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب" . والأخشاب والأحطاب التى تتحول إلى تراب ، يتحول ترابها مرة

أخرى إلى سماد لأنواع النبات ، كما يتحول النبات الذى نطعمه إلى خلايا حية فى أجسامنا ! والواقع أن الإنسانية كلها أمام موعدين : أحدهما قريب متعجل ، والآخر متراخ متمهل . إنها أمام الموت الذى لا يطول غيابه ، ولابد لكل امرئ أن يذوقه ، ثم هى أمام الساعة التى لابد منها وإن طالت الأيام "هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون" " ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد " . والتكرار المتعمد لذكر القيامة ليس تهديدا للحضارات أو وقفا للعمران البشرى . كما فهم القاصرون . وإنما هو لكسر الغرور ومنع التطلعات الطائشة . والبشر مازالوا بحاجة ملحة إلى تذكر يوم القيامة ، فإن هذا التذكر يهذب غرائزهم ويكفكف أطماعهم . والعقل العادى إذا علم أن هذا اليوم حق لم يؤثر قليلا على كثير ، ولا فانيا على باق ، ولم يزهد فى جزاء الآخرة كما هو مسلك الحضارة المعاصرة ! إن العلم الحديث ربما نجح فى استكشاف بعض أسرار المادة وقوى الكون ، فما دلالة ذلك وما جدواه ؟ إنه لا يلغى حكمة الوجود ولا رسالة الأحياء على ظهر الأرض ، تلك الرسالة التى لخصها القرآن الكريم فى هذه الكلمات "الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور" . بل إن ميدان الاختبار الإلهى يتسع ويعمق بقدر ما انفتح على

الإنسان من إمكانات مادية وأدبية . وقد ختمت سورة الواقعة بلون من التحدى تخسأ أمامه الخلائق : هل يستطيع أحد الإفلات من الجزاء الحتم ؟ هل يقدر البشر مهما سند بعضهم بعضا على أن يدفعوا الموت ، وينقذوا منه قريبا أو صديقا ؟ " فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين" .

لن ترجع نفس إلى الدنيا بعدما استوفت الأجل المكتوب لها ، بل سينقسم البشر زمرا وفصائل حسب ما قدموا لأخرتهم ويتوزعون على الدرجات التى اكتسبوها . " فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين" . إنها تحية الملائكة للناجين الناجحين فى معركة الحياة ، تستقبلهم لتكون بشرى سارة يوم عودتهم إلى الله . "وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم" . هؤلاء أصحاب الشمال والمصير الأسود . هكذا صدق آخر السورة أولها ، ولخص مجملها فهل يعى الناس ما يستقبلون من هذه المصاير ؟ سواء وعوا أم ذهلوا ، فلن يتغير الواقع " إن هذا لهو حق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 425 . 440 ﴾

(179/742)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والأربعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/743)

الجزء الثالث والأربعون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من (سورة الواقعة)

وحتى الآية ﴿ 48 ﴾ من السورة

(4/743)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/743)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الواقعة

أقول: هذه السورة متآخية مع سورة الرحمن في أن كلا منهما في وصف القيامة ، والجنة والنار وانظر إلى اتصال قوله هنا : (إِذا وقعت الواقعة) بقوله هناك: (فإِذا انشقت السماء) ولهذا اقتصر في الرحمن على ذكر انشقاق السماء ، وفي الواقعة على ذكر رج الأرض فكأن

السورتين لتلازمهما واتحادهما سورة واحدة ولهذا عكس في الترتيب فذكر في أول هذه السورة ما ذكره في آخر تلك ، وفي آخر هذه ما في أول تلك ، كما أشرت إليه في سورة آل عمران مع سورة البقرة فافتتح الرحمن بذكر القرآن ، ثم ذكر الشمس والقمر ، ثم ذكر النبات ، ثم خلق الإنسان ، والجان من مارج من نار ، ثم صفة القيامة ، ثم صفة النار ، ثم صفة الجنة وابتدأ هذه بذكر القيامة ثم صفة الجنة ، ثم صفة النار ، ثم خلق الإنسان ، ثم النبات ، ثم الماء ، ثم النار ، ثم النجوم ، ولم يذكرها في الرحمن ، كما لم يذكر هنا الشمس والقمر ، ثم ذكر القرآن فكانت هذه السورة كالمقابلة لتلك ، وكردّ العجز على الصدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 134. 135﴾

(6/743)

قوله تعالى ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (5) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (6) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي له الكمال كله ففاوت بين الناس في الأحوال (الرحمن) الذي عم بنعمة البيان وفاضل قبولها بين أهل الإدبار وأهل الإقبال (الرحيم) الذي أقبل بأهل حزبه إلى أهل قربه ففازوا بمحاسن الأقوال والأفعال .

لما صنف سبحانه الناس في تلك إلى ثلاث أصناف : مجرمين وسابقين ولاحقين ، وختم بعلة ذلك وهو أنه ذو الانتقام والإكرام ، شرح أحوالهم في هذه السورة وبين الوقت الذي يظهر فيه إكرامه وانتقامه بما ذكر في الرحمن غاية الظهور فقال بانياً على ما أرشده السياق إلى أن تقديره : يكون ذلك كله كوناً يشترك في علمه الخاص والعام : ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ أي التي لا بد من وقوعها ولا واقع يستحق أن يسمى الواقعة بلام الكمال وتاء المبالغة غيرها ، وهي النفخة الثانية التي يكون عنها البعث الأكبر الذي هو القيامة الجامعة لجميع الخلق للحكم بينهم على الانفراد الظاهر الذي لا مدعى للمشاركة فيه بوجه من الوجوه ، ويجوز أن يكون ﴿ إذا ﴾ منصوباً بالمحذوف لتذهب النفس فيه كل مذهب ، فيكون أهول أي إذا وقعت كانت أموراً يضيق عنها نطاق الحصر .

(7/743)

ولما كان هذا معناه الساعة التي أبرم القضاء بأنه لا بد من كونها ، عبر عنه بانياً على مبتدأ محذوف فقال : ﴿ ليس لوقعتها ﴾ أي تحقق وجودها ﴿ كاذبة ﴾ أي كذب فهي مصدر عبر عنه باسم الفاعل للمبالغة بأنه ليس في أحوالها شيء يمكن أن ينسب إليه كذب ولا يمشي فيها كذب أصلاً ولا يقر عليه ، بل كل ما أخبر بمجيئه جاء من غير أن يرده شيء ، وكل ما أخبر بنفيه انتفى فلا يأتي به شيء ، وقرر عظمتها وحقق بعث الأمور فيها بقوله مخبراً عن مبتدأ محذوف : ﴿ خافضة ﴾ أي هي لمن يشاء الله خفضه من عظماء أهل النار وغيرهم مما يشاؤه من الجبال وغيرها إلى أسفل سافلين ﴿ رافعة ﴾ أي لضعفاء أهل الجنة وغيرهم من منازلهم وغيرها مما يشاؤه إلى عليين ، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه .

ولما كان في هذا من الهول ما يقطع القلوب الواعية أكده بقوله وزاد ما يشاء منه أيضاً بقوله مبدلاً من الظرف الأول بعض ما يدخل في الرفع والخفض : ﴿ إذا رجت الأرض ﴾ أي كلها على سعتها وثقلها بأيسر أمر ﴿ رجاً ﴾ أي زلزلت زلزالاً شديداً بعنف فانخفضت وارتفعت ثم انتفضت بأهلها انتفاضاً شديداً ، قال البغوي : والرج في اللغة التحريك .

ولما ذكر حركتها المزعجة ، أتبعها غايتها فقال : ﴿ وبست الجبال ﴾ أي فتتت على صلابتها وعظمها بأدنى إشارة وخلط حجرها بترابها حتى صار شيئاً واحداً ، وصارت كالعهن المنفوش ، وسيرت وكانت تمر مرّ السحاب ﴿ بساً فكانت ﴾ أي بسبب ذلك ﴿ هباء ﴾ غباراً هو في غاية الانمحاق ، وإلى شدة لطافته أشار بصيغة الانفعال

فقال : ﴿ منبثاً ﴾ أي منتشراً متفرقاً بنفسه من غير حاجة إلى هواء يفرقه فهو كالذي يرى في شعاع الشمس إذا دخل في كوة .

(8/743)

ولما ذكر غاية مبادئها المرجفة المرهبة ، ذكر مبادئ غاياتها فقال : ﴿ وكنتم ﴾ أي قسمتم بما كان في جبلاتكم وطباعكم في الدنيا ﴿ أزواجاً ثلاثة ﴾ أي أصنافاً لا تكمل حكمة صنف منها إلا بكونها قسمين : أعلى ودونه ، ليكون ذلك أدل على تمام القدرة وهم أصحاب الميمنة المنقسمين إلى سابقين وهم المقربون ، وإلى لاحقين وهم الأبرار أو أصحاب اليمين ، وكأنهم من أولي القلب الذي هو العدل السواء من أصحاب المشأمة إلى آخر أصحاب الميمنة فأصحاب السواء هم المقربون ، وبقية أصحاب الميمنة أصحاب اليمين ، وأصحاب المشأمة هم أصحاب القسم الثالث ، وكل من الثلاثة ينقسم إلى أعلى ودونه ، وقد تبينت الأقسام الثلاثة آخر السورة ، قال البيضاوي : وكل صنف يكون أو يذكر مع صنف آخر زوج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 402 . 404 ﴾

(9/743)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ينزفون ﴾ من باب الأفعال : عاصم وحمزة وخلف . الباقون : بفتح الزاء ﴿ حور عين ﴾ بجرهما : يزيد وعلي وحمزة ﴿ عرباً ﴾ بالسكون : حمزة وخلف ويحيى وحماد وإسماعيل ﴿ أئذا أئنا ﴾ كما في " الرعد " إلا ابن عامر فإنه تابع عاصماً ، وإلا يزيد فإنه تابع قالون ﴿ شرب ﴾ بضم الشين : أبو جعفر نافع وعاصم وحمزة وسهل . الباقون : بالفتح وكلاهما مصدر ﴿ قدرنا ﴾ بالتخفيف : ابن كثير ﴿ أئنا لمغرمون ﴾ بهمزتين : أبو بكر وحماد . الآخرون : بهمزة واحدة مكسورة على الخبر . ﴿ بموقع ﴾ على الوحدة : حمزة وعلي وخلف . ﴿ تكذبون ﴾ بالتخفيف : المفضل ﴿ فروح ﴾ بضم الراء : قتيبة ويعقوب .

(10/743)

الوقوف : ﴿ الواقعة ﴾ ه لا بناء على أن العامل في الظرف هو ليس ولو كان منصوباً بإضمار " أذكر " أو كان الجواب محذوفاً أي إذا وقعت الواقعة كان كيت وكيت صح

الوقف ﴿ كاذبة ﴾ ه م لئلا يصير ما بعدها صفة ﴿ رافعة ﴾ ه لا لتعلق الظرف بخافضة أو لكونه بدلاً من الأول ﴿ رجاً ﴾ ه لا ﴿ بساً ﴾ ه ﴿ منبثاً ﴾ ه ﴿ ثلاثة ﴾ ه ط ﴿ ما أصحاب الميمنة ﴾ ه ط لتناهي استفهام التعجب ﴿ ما أصحاب المشأمة ﴾ ه ط ﴿ السابقون ﴾ ه لا بناء على أن ﴿ السابقون ﴾ تأكيد والجملة بعده خبر ﴿ المقربون ﴾ ه ج لاحتمال أن ما بعده خبر مبتدأ محذوف أي هم ﴿ جنات النعيم ﴾ ه ﴿ الأولين ﴾ ه لا ﴿ الآخرين ﴾ ه لا ﴿ موضونة ﴾ ه لا ﴿ متقابلين ﴾ ه ﴿ مخلدون ﴾ ه لا ﴿ معين ﴾ ه لا ﴿ ولا ينزفون ﴾ ه لا ﴿ يتخيرون ﴾ ه لا ﴿ يشتهون ﴾ ه ط لمن قرأ ﴿ وحور عين ﴾ بالرفع ﴿ المكنون ﴾ ه ج ﴿ يعملون ﴾ ه ﴿ تأثيماً ﴾ ه لا ﴿ سلاماً ﴾ ه ط ﴿ وما أصحاب اليمين ﴾ ه ط ﴿ مخضود ﴾ ه لا ﴿ منضود ﴾ ه لا ﴿ ممدود ﴾ ه لا ﴿ مسكوب ﴾ ه لا ﴿ كثيرة ﴾ ه لا ﴿ ممنوعة ﴾ ه لا ﴿ مرفوعة ﴾ ه ط ﴿ إنشاء ﴾ ه لا ﴿ أبكاراً ﴾ ه لا ﴿ أتراباً ﴾ ه لا ﴿ اليمين ﴾ ه ط ﴿ الأولين ﴾ ه ﴿ الآخرين ﴾ ه ط ﴿ ما أصحاب الشمال ﴾ ه ط ﴿ وحميم ﴾ ه لا ﴿ يحموم ﴾ ه لا ﴿ ولا كريم ﴾ ه ﴿ مترفين ﴾ ه ج ﴿ العظيم ﴾ ه ج ﴿ لمبعوثون ﴾ ه لا ﴿ الأولون ﴾ ه ﴿ والآخرين ﴾ ه لا ﴿ معلوم ﴾ ه ﴿ المكذبون ﴾ ه لا ﴿ زقوم ﴾ ه لا ﴿ البطون ﴾ ه ج والوقف أجوز ﴿ الحميم ﴾ ه ج ﴿ الهيم ﴾ ه ط ﴿ الدين ﴾ ه ﴿ تصدقون ﴾ ه ﴿ تمنون ﴾ ه ط ﴿ الخالقون ﴾ ه ﴿ بمسبوقين ﴾ ه لا ﴿ تعلمون ﴾ ه

﴿ تذكرون ﴾ ه ﴿ تحرثون ﴾ ه ط ﴿ الزارعون ﴾ ه ﴿ تفكهون ﴾ ه ﴿ لمغرمون ﴾ ه لا ﴿ محرومون ﴾ ه ﴿ تشربون ﴾ ه ﴿ المنزلون ﴾ ه ﴿ تشكرون ﴾ ه ﴿ تورون ﴾ ه ط ﴿ المنشؤن ﴾ ه ﴿ للمقوين ﴾ ه ج ﴿ العظيم ﴾ ه ﴿ النجوم ﴾ ه لا ﴿ عظيم ﴾ ه لا ﴿ كريم ﴾ ه لا ﴿ مكنون ﴾ ه ﴿ المطهرون ﴾ ه ط ﴿ العالمين ﴾ ه ﴿ مدهنون ﴾ ه

(11/743)

﴿ تكذبون ﴾ ه ﴿ الحلقوم ﴾ ه لا ﴿ تنظرون ﴾ ه لا ﴿ تبصرون ﴾ ه ﴿ مدينين ﴾ ه لا ﴿ صادقين ﴾ ه ﴿ المقربين ﴾ ه لا ﴿ نعيم ﴾ ه ﴿ اليمين ﴾ ه لا ﴿ اليمين ﴾ ه لا ﴿ الظالين ﴾ ه لا ﴿ حميم ﴾ ه لا ﴿ جحيم ﴾ ه ﴿ اليقين ﴾ ه ﴿ ألعظيم ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 237 . 238 ﴾

(12/743)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) ﴾

أما تعلق هذه السورة بما قبلها ، فذلك من وجوه أحدها : أن تلك السورة مشتملة على تعديد النعم على الإنسان ومطالبته بالشكر ومنعه عن التكذيب كما مر ، وهذه السورة مشتملة على ذكر الجزاء بالخير لمن شكر وبالشر لمن كذب وكفر ثانيها : أن تلك السورة متضمنة للتنبيهات بذكر الآلاء في حق العباد ، وهذه السورة كذلك لذكر الجزاء في حقهم يوم التناد ثالثها : أن تلك السورة سورة إظهار الرحمة وهذه السورة سورة إظهار الهيبة على عكس تلك السورة مع ما قبلها ، وأما تعلق الأول بالآخر ففي آخر تلك السورة إشارة إلى الصفات من باب النفي والإثبات ، وفي أول هذه السورة إلى القيامة وإلى ما فيها من المثوبات والعقوبات ، وكل واحد منهما يدل على علو اسمه وعظمة شأنه ، وكمال قدرته وعز سلطانه .

ثم في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

ففي تفسيرها جملة وجوه أحدها : المراد إذا وقعت القيامة الواقعة أو الزلزلة الواقعة يعترف بها كل أحد ، ولا يتمكن أحد من إنكارها ، ويبطل عناد المعاندين فتخفض الكافرين في دركات النار ، وترفع المؤمنين في درجات الجنة ، هؤلاء في الجحيم وهؤلاء في النعيم الثاني : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾ تزلزل الناس ، فتخفض المرتفع ، وترفع المنخفض ، وعلى هذا فهي كقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَا عاليها سَافِلَهَا ﴾ [الحجر : 74] في الإشارة إلى شدة الواقعة ، لأن العذاب الذي جعل العالي سافلاً بالهدم ، والسافل عالياً حتى صارت الأرض المنخفضة كالجبال الراسية ، والجبال الراسية كالأرض المنخفضة أشد وأبلغ ، فصارت البروج العالية مع الأرض متساوية ، والواقعة التي تقع ترفع المنخفضة فتجعل من الأرض أجزاء عالية ومن السماء أجزاء سافلة ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأرض رَجّاً * وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ [الواقعة : 4 ، 5] فإنه إشارة إلى أن الأرض تتحرك بحركة مزعجة ، والجبال تتفتت ، فتصير الأرض المنخفضة كالجبال الراسية ، والجبال الشامخة كالأرض السافلة ، كما يفعل هبوب الريح في الأرض المرملة الثالث : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾ يظهر وقوعها لكل أحد ، وكيفية وقوعها ، فلا يوجد لها كاذبة ولا متأول يظهر فقوله : ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ معطوف على ﴿ كَاذِبَةٌ ﴾ نسقاً ، فيكون كما يقول القائل :

ليس لي في الأمر شك ولا خطأ ، أي لا قدرة لأحد على رفع المنخفض ولا خفض المرتفع .

المسألة الثانية :

(14/743)

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾ يحتمل أن تكون الواقعة صفة لمحذوف وهي القيامة أو الزلزلة على ما بينا ، ويحتمل أن يكون المحذوف شيئاً غير معين ، وتكون تاء التأنيث مشيرة إلى شدة الأمر الواقع وهوله ، كما يقال : كانت الكائنة والمراد كان الأمر كائناً ما كان ، وقولنا : الأمر كائن لا يفيد إلا حدوث أمر ولو كان يسيراً بالنسبة إلى قوله : كانت الكائنة ، إذ في الكائنة وصف زائد على نفس كونه شيئاً ، ولنبين هذا ببيان كون الهاء للمبالغة في قولهم : فلان راوية ونسابة ، وهو أنهم إذا أرادوا أن يأتوا بالمبالغة في كونه راوياً كان لهم أن يأتوا بوصف بعد الخبر ويقولون : فلان راو جيد أو حسن أو فاضل ، فعدلوا عن التطويل إلى الإيجاز مع زيادة فائدة ، فقالوا : نأتي بحرف نيابة عن كلمة كما أتينا بهاء التأنيث حيث قلنا : ظالمة بدل قول القائل : ظالم أنثى ، ولهذا لزمهم بيان الأنثى عند ما لا يمكن بيانها بالهاء في قولهم شاة أنثى وكالكتابة في الجمع حيث قلنا : قالوا بدلاً عن قول القائل : قال وقال وقال ، وقالا بدلاً عن قوله : قال وقال فكذلك في المبالغة أرادوا أن يأتوا بحرف يغني عن كلمة والحرف

الدال على الزيادة ينبغي أن يكون في الآخر ، لأن الزيادة بعد أصل الشيء ، فوضعوا الهاء عند عدم كونها للتأنيث والتوحيد في اللفظ المفرد لا في الجمع للمبالغة إذا ثبت هذا فنقول : في كانت الكائنة ووقعت الواقعة حصل هذا معنى لا لفظاً ، أما معنى فلأنهم قصدوا بقولهم : كانت الكائنة أن الكائن زائد على أصل ما يكون ، وأما لفظاً فلأن الهاء لو كانت للمبالغة لما جاز إثبات ضمير المؤنث في الفعل ، بل كان ينبغي أن يقولوا : كان الكائنة ووقع الواقعة ، ولا يمكن ذلك لأنا نقول : المراد به المبالغة .

المسألة الثالثة :

(15/743)

العامل في ﴿ إِذَا ﴾ ماذا ؟ نقول : فيه ثلاث أوجه أحدها : فعل متقدم يجعل إذا مفعولاً به لا ظرفاً وهو اذكر ، كأنه قال : اذكر القيامة ثانيها : العامل فيها ليس لوقعتها كاذبة كما تقول : يوم الجمعة ليس لي شغل ثالثها : يخفض قوم ويرفع قوم ، وقد دل عليه ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ ، وقيل : العامل فيها قوله : ﴿ فأصحاب الميمنة مَا أصحاب الميمنة ﴾ [الواقعة : 8] أي في يوم وقوع الواقعة .

المسألة الرابعة :

﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا ﴾ إشارة إلى أنها تقع دفعة واحدة فالوقعة للمرة الواحدة ، وقوله : ﴿ كَاذِبَةٌ ﴾ يحتمل وجوهاً أحدها : كاذبة صفة لمحذوف أقيمت مقامه تقديره ليس لها نفس تكذب ثانيها : الهاء للمبالغة كما تقول في الواقعة وقد تقدم بيانه ثالثها : هي مصدر كالعاقبة فإن قلنا بالوجه الأول فاللام تحتمل وجهين أحدهما : أن تكون للتعليل أي لا تكذب نفس في ذلك اليوم لشدة وقعتها كما يقال : لا كاذب عند الملك لضبطه الأمور فيكون نفياً عاماً بمعنى أن كل أحد يصدقه فيما يقول وقال : وقبله نفوس كواذب في أمور كثيرة ولا كاذب فيقول : لا قيامة لشدة وقعتها وظهور الأمر وكما يقال : لا يحتمل الأمر الإنكار لظهوره لكل أحد فيكون نفياً خاصاً بمعنى لا يكذب أحد فيقول : لا قيامة وقبله نفوس قائلة به كاذبة فيه ثانيهما : أن تكون للتعدية وذلك كما يقال : ليس لزيد ضارب ، وحينئذ تقديره إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها امرؤ يوجد لها كاذب إن أخبر عنها فهي خافضة رافعة تخفض قوماً وترفع قوماً وعلى هذا لا تكون عاملاً في ﴿ إِذَا ﴾ وهو بمعنى ليس لها كاذب يقول : هي أمر سهل يطاق يقال لمن يقدم على أمر عظيم ظاناً أنه يطيقه سل نفسك أي سهلت الأمر عليك وليس بسهل ، وإن قلنا بالوجه الثاني وهو المبالغة ففيه وجهان

أحدهما : ليس لها كاذب عظيم بمعنى أن من يكذب ويقدم على الكذب العظيم لا يمكنه أن يكذب لهول ذلك اليوم وثانيهما : أن أحداً لو كذب وقال في ذلك اليوم لا قيامة ولا واقعة لكان كاذباً عظيماً ولا كاذب لهذه العظمة في ذلك اليوم والأول أدل على هول اليوم ، وعلى الوجه الثالث يعود ما ذكرنا إلى أنه لا كاذب في ذلك اليوم بل كل أحد يصدقه .

المسألة الخامسة :

(17/743)

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ تقديره هي خافضة رافعة وقد سبق ذكره في التفسير الجملي وفيه وجوه أخرى أحدها : خافضة رافعة صفتان للنفس الكاذبة أي ليس لوقعتها من يكذب ولا من يغير الكلام فتخفض أمراً وترفع آخر فهي خافضة أو يكون هو زيادة لبيان صدق الخلق في ذلك اليوم وعدم إمكان كذبهم والكاذب يغير الكلام ، ثم إذا أراد نفي الكذب عن نفسه يقول ما عرفت مما كان كلمة واحدة وربما يقول ما عرفت حرفاً واحداً ، وهذا لأن الكاذب قد يكذب في حقيقة الأمر وربما يكذب في صفة من صفاته والصفة قد يكون ملتفتاً إليها وقد لا يكون ملتفتاً إليها التفاتاً معتبراً وقد لا يكون ملتفتاً إليها أصلاً مثال الأول : قول القائل : ما جاء زيد ويكون قد جاء ومثال الثاني : ما جاء يوم الجمعة ومثال الثالث :

ما جاء بكرة يوم الجمعة ويكون قد جاء بكرة يوم الجمعة وما جاء أول بكرة يوم الجمعة والثاني دون الأول والرابع دون الكل ، فإذا قال القائل : ما أعرف كلمة كاذبة نفى عنه الكذب في الإخبار وفي صفته والذي يقول : ما عرفت حرفاً واحداً نفى أمراً وراءه ، والذي يقول : ما عرفت أعرافة واحدة يكون فوق ذلك فقوله : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ أي من يغير تغييراً ولو كان يسيراً .

إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (5) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (6)

(18/743)

أي كانت الأرض كثيباً مرتفعاً والجبال مهيلاً منبسطاً ، وقوله تعالى : ﴿ فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً ﴾ كقوله تعالى في وصف الجبال : ﴿ كالعهن المنفوش ﴾ [القارعة : 5] وقد تقدم بيان فائدة ذكر المصدر وهي أنه يفيد أن الفعل كان قولاً معتبراً ولم يكن شيئاً لا يلتفت إليه ، ويقال فيه : إنه ليس بشيء فإذا قال القائل : ضربته ضرباً معتبراً لا يقول القائل فيه : ليس بضرب محتقراً له كما يقال : هذا ليس بشيء ، والعامل في : ﴿ إِذَا رُجَّتِ ﴾ يحتمل وجوهاً أحدها : أن يكون إذا رجت بدلاً عن إذا وقعت فيكون العامل فيها ما ذكرنا من قبل ثانيها : أن يكون العامل في : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ﴾ [الواقعة : 1] هو قوله : ﴿ لَيْسَ

لِوَقْعَتِهَا ﴾ [الواقعة : 2] والعامل في : ﴿ إِذَا رُجَّتِ ﴾ هو قوله : ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ [الواقعة : 3] تقديره تخفض الواقعة وترفع وقت رج الأرض وبس الجبال والفاء للترتيب الزماني لأن الأرض مالم تتحرك والجبال مالم تنبس لا تكون هباء منبثاً ، والبس التقليب ، والهباء هو الهواء المختلط بأجزاء أرضية تظهر في خيال الشمس إذا وقع شعاعها في كوة ، وقال : الذين يقولون : إن بين الحروف والمعاني مناسبة إن الهواء إذا خالطه أجزاء ثقيلة أرضية ثقل من لفظه حرف فأبدلت الواو الخفيفة بالباء التي لا ينطق بها إلا بإطباق الشفتين بقوة ما لو في الباء ثقل ما .

وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (7)

أي في ذلك اليوم أنتم أزواج ثلاثة أصناف وفسرها بعدها بقوله : ﴿ فأصحاب الميمنة مَا أصحاب الميمنة ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 122 . 125 ﴾

(19/743)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾

أي قامت القيامة ، والمراد النفخة الأخيرة .

وسميت واقعة لأنها تقع عن قرب .

وقيل : لكثرة ما يقع فيها من الشدائد .

وفيه إضمار ، أي اذكروا إذا وقعت الواقعة .

وقال الجرجاني : "إِذا" صلة ؛ أي وقعت الواقعة ؛ كقوله : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ [القمر : 1] و ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ [النحل : 1] وهو كما يقال : قد جاء الصوم أي دنا واقترب .

وعلى الأوّل "إِذَا" للوقت ، والجواب قوله : ﴿ فأصحاب الميمنة مَآ أصحاب الميمنة ﴾ .

﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ الكاذبة مصدر بمعنى الكذب ، والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضع المصدر ؛ كقوله تعالى : ﴿ لاَّ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ [الغاشية : 11] أي لغو ، والمعنى لا يسمع لها كذب ؛ قاله الكسائي .

ومنه قول العامة : عائذاً بالله أي معاذ الله ، وقم قائماً أي قم قياماً .

ولبعض نساء العرب ترقّصُ ابنها :

قُمْ قائماً قُمْ قَائمَا . . .

أصبت عبداً نائمَا

وقيل : الكاذبة صفة والموصوف محذوف ، أي ليس لوقعتها حال كاذبة ؛ أو نفس كاذبة ؛ أي كل من يخبر عن وقعتها صادق .

وقال الزجاج : "لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ" أي لا يردها شيء .

ونحوه قول الحسن وقتادة .

وقال الثوريّ : ليس لوقعتها أحد يكذّب بها .

وقال الكسائيّ أيضاً : ليس لها تكذيب ؛ أي ينبغي ألا يكذّب بها أحد .

وقيل : إن قيامها جِدٌّ لا هزْلَ فيه .

قوله تعالى : ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ قال عِكرمة ومقاتل والسُّدّي : خفضت الصوت فأسمعتْ من دنا ورفعتْ من نأى ؛ يعني أسمعت القريب والبعيد .

وقال السُّدّي : خفضت المتكبّرين ورفعت المستضعفين .

وقال قتادة : خفضت أقواماً في عذاب الله ، ورفعت أقواماً إلى طاعة الله .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : خفضت أعداء الله في النار ، ورفعت أولياء الله في الجنة .

(20/743)

وقال محمد بن كعب : خفضت أقواماً كانوا في الدنيا مرفوعين ، ورفعت أقواماً كانوا في الدنيا مخفوضين .

وقال ابن عطاء : خفضت أقواماً بالعدل ، ورفعت آخرين بالفضل .

والخفض والرفع يستعملان عند العرب في المكان والمكانة ، والعز والمهانة .

ونسب سبحانه الخفض والرفع للقيامة توسُّعاً ومجازاً على عادة العرب في إضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما مما لم يكن منه الفعل ؛ يقولون : ليلٌ نائمٌ ونهار صائم .

وفي التنزيل : ﴿ بَلْ مَكْرُ الليل والنهار ﴾ [سبأ : 33] والخافض والرافع على الحقيقة إنما هو الله وحده ؛ فرفع أولياءه في أعلى الدرجات ، وخفض أعداءه في أسفل الدركات .

وقرأ الحسن وعيسى الثقفي ﴿ خَافِضَةً رَّافِعَةً ﴾ بالنصب .

الباقون بالرفع على إضمار مبتدإ ، ومن نصب فعلى الحال .

وهو عند الفراء على إضمار فعل ؛ والمعنى : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾ ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ وقعت : ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ .

والقيامة لا شك في وقوعها ، وأنها ترفع أقواماً وتضع آخرين على ما بيّناه .

قوله تعالى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأرض رَجّاً ﴾ أي زُلزلت وحُركت عن مجاهد وغيره ؛ يقال : رَجّه يَرُجّه رجًّا أي حركه وزلزله .

وناقة رجّاءُ أي عظيمة السَّنَام .

وفي الحديث : " مَنْ ركب البحرَ حين يَرْتَجُّ فلا ذِمَّةَ له " يعني إذا اضطربت أمواجه .

قال الكلبيّ : وذلك أن الله تعالى إذا أوحى إليها اضطربت فَرَقاً من الله تعالى .

قال المفسرون : تَرْتَجُّ كما يَرتج الصبيّ في المهد حتى ينهدم كل ما عليها ، وينكسر كل شيء

عليها من الجبال وغيرها .

وعن ابن عباس الرَّجَّة الحركة الشديدة يسمع لها صوت .

وموضع "إِذَا" نصب على البدل من ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ﴾ .

ويجوز أن ينتصب ب ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ أي تخفض وترفع وقت رجِّ الأرض وبسِّ الجبال ؛ لأن عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ، ويرتفع ما هو منخفض .

(21/743)

وقيل : أي وقعت الواقعة إذا رجّت الأرض ؛ قاله الزجاج والجرجاني .

وقيل : أي اذكر ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرض رَجّاً ﴾ مصدر وهو دليل على تكرار الزلزلة .

قوله تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ أي فتتت ؛ عن ابن عباس .

مجاهد : كما يُبَسُّ الدقيق أي يُلَتّ .

والبسيسة السَّوِيق أو الدقيق يُلَتُّ بالسَّمن أو بالزيت ثم يؤكل ولا يطبخ وقد يتخذ زاداً .

قال الراجز :

لا تَخْبِزَا خُبْزاً وبُسَّا بَسَّا . . .

ولا تُطِيلاَ بُمُنَاخٍ حَبْسَا

وذكر أبو عبيدة : أنه لصٌّ من غَطَفان أراد أن يخبز فخاف أن يُعجَل عن ذلك فأكله عجيناً .

والمعنى أنها خُلِطت فصارت كالدقيق الملتوت بشيء من الماء .

أي تصير الجبال تراباً فيختلط البعض بالبعض .

وقال الحسن : وبُسَّت قلعت من أصلها فذهبت ؛ نظيره : ﴿ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴾ وقال عطية : بُسطت كالرمل والتراب .

وقيل : البسُّ السّوق أي سيقت الجبال .

قال أبو زيد : البسّ السّوق ؛ وقد بسستُ الإبل أُبسُّها بالضم بسًّا .

وقال أبو عبيد : بسست الإبل وأبسست لغتان إذا زجرتها وقلت لها بَسْ بَسْ .

وفي الحديث : " يخرج قوم من المدينة إلى اليمن والشام والعراق يَبُسُّون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون " ومنه الحديث الآخر : " جاءكم أهل اليمن يَبُسُّون عِيالهم " والعرب تقول : جِيءْ به من حَسِّك وبَسِّك .

ورواهما أبو زيد بالكسر ؛ فمعنى من حَسّك من حيث أحسسته ، وبَسّك من حيث بلغه مسيرك .

وقال مجاهد : سالت سيلاً .

عكرمة : هُدَّت هدّاً .

محمد بن كعب : سُيِّرت سيراً ؛ ومنه قول الأغلب العجْليّ :

وقال الحسن : قطعت قطعاً .

والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثّاً ﴾ قال عليّ رضي الله عنه : الهباء المنبث الرّهج الذي يسطع من حوافر الدواب ثم يذهب ، فجعل الله أعمالهم كذلك .

وقال مجاهد : الهباء هو الشعاع الذي يكون في الكوّة كهيئة الغبار .

وروي نحوه عن ابن عباس .

(22/743)

وعنه أيضاً : هو ما تطاير من النار إذا اضطربت يطير منها شرر فإذا وقع لم يكن شيئاً .

وقاله عطية .

وقد مضى في "الفرقان" عند قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ وقراءة العامة "مُنْبَثًّا" بالثاء المثلثة أي متفرقاً من قوله تعالى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ أي فرّق ونشر .

وقرأ مسروق والنَّخَعيّ وأبو حَيْوة "مُنْبَتًّا" بالتاء المثناة أي منقطعاً من قولهم : بتّه الله أي قطعه ؛ ومنه البتات .

قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً ﴾

أي أصنافاً ثلاثة كل صنف يشاكل ما هو منه ، كما يشاكل الزوج الزوجة ، ثم بيّن من هم فقال : ﴿ فَأَصْحَابُ الميمنة ﴾ ﴿ وَأَصْحَابُ المشأمة ﴾ و ﴿ السابقون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(23/743)

وقال الآلوسى :

بسْم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾

أي إذا حدثت القيامة على أن ﴿ وَقَعَتِ ﴾ بمعنى حدثت و ﴿ الواقعة ﴾ علم بالغلبة أو منقول للقيامة ، وصرح ابن عباس بأنها من أسمائها وسميت بذلك للإيذان بتحقق وقوعها لا محالة كأنها واقعة في ونفسها مع قطع النظر عن الوقوع الواقع في حيز الشرط فليس الإسناد كما في جاءني جاء فإنه لغو لدلالة كل فعل على فاعل له غير معين ، وقال الضحاك : ﴿ الواقعة ﴾ الصيحة وهي النفخة في الصور ، وقيل : ﴿ الواقعة ﴾ صخرة بيت المقدس تقع يوم القيامة وليس بشيء ، و ﴿ إِذَا ﴾ ظرف متضمن معنى الشرط على ما

هو الظاهر ، والعامل فيها عند أبي حيان الفعل بعدها فهي عنده في موضع نصب بوقعت كسائر أسماء الشرط وليست مضافة إلى الجملة ، والجمهور على إضافتها فقيل : هي هنا قد سلبت الظرفية ووقعت مفعولاً به لا ذكر محذوفاً ، وقيل : لم تسلب ذلك وهي منصوبة بليس ، وصنيع الزمخشري يشعر باختياره .

(24/743)

وقيل : بمحذوف وهو الجواب أي ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾ كان كيت وكيت ، قال في "الكشف" هذا الوجه العربي الجزل فالنصب بإضمار اذكر إنما كثر في إذ ، وبليس إنما يصح إذا جعلت لمجرد الظرفية وإلا لوجب الفاء في ليس ، وأبو حيان تعقب النصب بليس بأنه لا يذهب إليه نحوي لأن ليس في النفي ك ﴿ مَا ﴾ وهي لا تعمل ، فكذا ليس فإنه مسلوبة الدلالة على الحدث والزمان ، والقول : بأنها فعل على سبيل المجاز ، والعامل في الظرف إنما هو ما يقع فيه من الحدث فحيث لا حدث فيها لا عمل لها فيه ، ثم ذكر نحو ما ذكر "صاحب الكشف" من وجوب الفاء في ليس إذا لم تجرد عن الشرطية ؛ واعترض دواه أن ﴿ مَا ﴾ لا تعمل بأنهم صرحوا بجواز تعلق الظرف بها لتأويلها بانتفى وأنه يكفي له رائحة الفعل ، ويقال عليها في ذلك ليس ، وكذا دعوى وجوب الفاء في ليس إذا لم تجرد

﴿ إِذَا ﴾ عن الشرطية بأن لزوم الفاء مع الأفعال الجامدة إنما هو في جواب إن الشرطية لعملها كما صرحوا به .

وأما ﴿ إِذَا ﴾ فدخول الفاء في جوابها على خلاف الأصل .

وسيأتي إن شاء الله تعالى فيها قولان آخران ، وبعد القيل والقال الأولى كون العامل محذوفاً وهو الجواب كما سمعت .

وفي إبهامه تهويل وتفخيم لأمر الواقعة .

وقوله تعالى :

﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ إما اعتراض يؤكد تحقيق الوقوع .

أو حال من الواقعة كما قال ابن عطية ، و ﴿ كَاذِبَةٌ ﴾ اسم فاعل وقع صفة لموصوف محذوف أي نفس ، وقيل : مقالة والأول أولى لأن وصف الشخص بالكذب أكثر من وصف الخبر به .

(25/743)

و ﴿ الواقعة ﴾ السقطة القوية وشاعت في وقوع الأمر العظيم وقد تخص بالحرب ولذا عبر بها هنا واللام للتوقيت مثلها في قولك : كتبته لخمس خلون أي لا يكون حين وقوعها نفس

كاذبة على معنى تكذب على الله تعالى وتكذب في تكذيبه سبحانه وتعالى في خبره بها ، وإيضاحه أن منكر الساعة الآن مكذب له تعالى في أنها تقع وهو كاذب في تكذيبه سبحانه لأنه خبر على خلاف الواقع وحين تقع لا يبقى كاذباً مكذباً ، بل صادقاً مصدقاً ، وقيل : على معنى ليس في وقت وقوعها نفس كاذبة في شيء من الأشياء ، ولا يخفى أن صحته مبنية على القول بأنه لا يصدر من أحد كذب يوم القيامة ؛ وأن قولهم : ﴿ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] مجاب عنه بما هو مذكور في محله أو اللام على حقيقتها ، و ﴿ كَاذِبَةٌ ﴾ صفة لذلك المحذوف أيضاً أي ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا ﴾ نفس كاذبة بمعنى لا ينكر وقوعها أحد ولا يقول للساعة لم تكوني لأن الكون قد تحقق كما يقول لها في الدنيا بلسان القول أو الفعل لأن من اغتر بزخارف الدنيا فقد كذب الساعة في وقعتها بلسان الحال لن تكوني ، وهذا كما تقول لمخاطبك ليس لنا ملك ولمعروفك كاذب أي لا يكذبك أحد فيقول : إنه غير واقع ، وفيه استعارة تمثيلية لأن الساعة لا تصلح مخاطباً إلا على ذلك إما على سبيل التخييل من باب لو قيل : للشحم أين تذهب ، وهو الأظهر وإما على التحقيق ، وجوز كون ﴿ كَاذِبَةٌ ﴾ من قولهم كذبت نفسه وكذبته إذا منته الأماني وقربت له الأمور البعيدة وشجعته على مباشرة الخطب العظيم ، واللام قيل : على حقيقتها أيضاً أي ليس لها إذا وقعت نفس تحدث صاحبها باطاقة شدتها واحتمالها وتغريه عليها .

وفي "الكشف" إن اللام على هذا الوجه للتوقيت كما على الوجه الأول ، وجوز أيضاً كون

﴿ كَاذِبَةٌ ﴾ مصدراً بمعنى التكذيب وهو التثبيط وأمر اللام ظاهر أي ليس لوقعتها ارتداد ورجعة كالحملة الصادقة من ذي سطوة قاهرة ؛ وروى نحوه عن الحسن .

(26/743)

وقتادة ، وذكر أن حقيقة التكذيب بهذا المعنى راجعة إلى تكذيب النفس إلى كذبها وإغرائها وتشجيعها وأنشد على ذلك لزهير

: ليث بعثر يصطاد الرجال إذا . . .

ما الليث (كذب عن أقرانه) صدقاً

ويجوز جعل الكاذبة بمعنى الكذب على معنى ليس للوقعة كذب بل هي وقعة صادقة لا تطاق على نحو حملة صادقة ، وحملة لها صادق أو على معنى ليس هي في وقت وقوعها كذب لأنه حق لا شبهة فيه ، ولعل ما ذكر أظهر مما تقدم وإن روى نحوه عمن سمعت .

نعم قيل : عليهما إن مجيء المصدر على زنة الفاعل نادر ، وقوله عز وجل :

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هي خافضة لأقوام رافعة لآخرين كما قال ابن عباس ، وأخرجه عنه جماعة ، والجملة تقرير لعظمتها وتهويل لأمرها فإن الوقائع العظام شأنها الخفض والرفع كما يشاهد في تبدل الدول وظهور الفتن من ذل الأعزة وعز الأذلة ،

وتقديم الخفض على الرفع لتشديد التهويل ، أو بيان لما يكون يومئذ من حط الأشقياء إلى الدركات ورفع السعداء إلى درجات الجنات ، وعلى هذا قول عمر رضي الله تعالى عنه : خفضت أعداء الله تعالى إلى النار ورفعت أولياءه إلى الجنة ، أو بيان لما يكون من ذلك ومن إزالة الأجرام عن مقارها ونثر الكواكب وتسيير الجبال في الجو كالسحاب ، والضحاك بعد أن فسر الواقعة بالصيحة قال : خافضة تخفض قوتها لتسمع الأدنى ﴿ رَّافِعَةٌ ﴾ ترفعها لتسمع الأقصى ، وروى ذلك أيضاً عن ابن عباس .

وعكرمة ، وقدر أبو علي المبتدأ مقروناً بالفاء أي فهي ﴿ خَافِضَةٌ ﴾ وجعل الجملة جواب إذا فكأنه قيل : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾ خفضت قوماً ورفعت آخرين ، وقرأ زيد بن علي .

والحسن .

وعيسى .

وأبو حيوة .

وابن أبي عبلة .

وابن مقسم .

والزعفراني .

واليزيدي في اختياره ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ بنصبهما ، ووجه أن يجعلا حالين عن الواقعة

على أن ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ [الواقعة : 2] اعتراض أو حالين عن وقعتها ، وقوله سبحانه :

(27/743)

﴿ إِذَا رُجَّتِ الأرض رَجّاً ﴾ أي زلزلت وحركت تحريكاً شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل متعلق بخافضة أو برافعة على أنه من باب الأعمال ، أو بدل من ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ﴾ [الواقعة : 1] كما قال به غير واحد ، وقال ابن جني .

وأبو الفضل الرازي : ﴿ إِذَا رُجَّتِ ﴾ في موضع رفع على أنه خبر للمبتدأ الذي هو ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ﴾ وليست واحدة منهما شرطية بل هي بمعنى وقت أي وقت وقوعها وقت رج الأرض ، وادعى ابن مالك أن ﴿ إِذَا ﴾ تكون مبتدأ ، واستدل بهذه الآية ، وقال أبو حيان : هو بدل من ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ﴾ وجواب الشرط عندي ملفوظ به وهو قوله تعالى : ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ [الواقعة : 8] والمعنى إذا كان كذا وكذا ، فأصحاب الميمنة ما أسعدهم وما أعظم ما يجازون به أي إن سعادتهم وعظم رتبهم عند الله عز وجل تظهر في ذلك الوقت الشديد الصعب على العالم ، وقيه بعد .

وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (5)

أي فتت كما قال ابن عباس .

ومجاهد حتى صارت كالسويق الملتوت من بس السويق إذا لتّه ، وقيل : سيقت وسيرت من أماكنها من بس الغنم إذا ساقها فهو كقوله تعالى : ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال ﴾ [النبأ : 20] .

وقرأ زيد بن علي ﴿ رُجَّتِ وبُسَّتِ ﴾ بالبناء للفاعل أي ارتجت وتفتتت ، وفي كلام هند بنت الخس تصف ناقة بما يستدل به على حملها عينها هاج وصلاها راج ، وهي تمشي وتفاج .

﴿ فَكَانَتْ ﴾ فصارت بسبب ذلك ﴿ هَبَاء ﴾ غباراً ﴿ مُّنبَثّاً ﴾ متفرقاً ، والمراد مطلق الغبار عند الأكثرين ، وقال ابن عباس : هو ما يثور مع شاع الشمس إذا دخلت من كوة ، وفي رواية أخرى عنه أنه الذي يطير من النار إذا اضطرمت .

وقرأ النخعي منبتاً بالتاء المنطوقة بنقطتين من فوق من البت بمعنى القطع ، والمراد به ما ذكر من البث بالمثلثة .

(28/743)

﴿ وَكُنتُمْ ﴾ خطاب للأمة الحاضرة والأمم السالفة تغليباً كما ذهب إليه الكثير ، وقال بعضهم : خطاب للأمة الحاضرة فقط ، والظاهر إن كان أيضاً بمعنى صار أي وصرتم ﴿ أزواجا ﴾ أي أصنافاً ﴿ ثلاثة ﴾ وكل صنف يكون مع صنف آخر في الوجود أو في الذكر فهو زوج ، قال الراغب : الزوج يكون لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة ولكل قرينين فيها ، وفي غيرها كالخف والنعل ، ولكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(29/743)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) ﴾

افتتاح السورة بالظرف المتضمنِ الشرط ، افتتاح بديع لأنه يسترعي الألباب لترقب ما بعد هذا الشرط الزماني مع ما في الاسم المسند إليه من التهويل بتوقع حدث عظيم يحدث .

و﴿ إذا ﴾ ظرف زمان وهو متعلق بالكون المقدر في قوله : ﴿ في جنات النعيم ﴾ [الواقعة : 12] الخ وقوله : ﴿ في سدر مخضود ﴾ [الواقعة : 28] الخ وقوله : ﴿ في سموم وحميم ﴾ [الواقعة : 42] الخ .

وضمّن ﴿ إذا ﴾ معنى الشرط.

وجملة ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ استئناف بياني ناشىء عن قوله : ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ إلخ وهو اعتراض بين جملى ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ وبين جملة ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ [الواقعة : 8] الخ.

والجواب قوله : ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة ﴾ [الواقعة : 8 ، 9] ، فيفد جواباً للشرط ويفيد تفصيل جملة ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ [الواقعة : 7] ، وتكون الفاء مستعملة في معنيين : ربطِ الجواب ، والتفريع ، وتكون جملة ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ وما بعده اعتراضاً .

والواقعة أصلها : الحادثة التي وقعت ، أي حصلت ، يقال : وقع أمر ، أي حصل كما يقال : صِدْق الخبرِ مطابقتُه للواقع ، أي كون المعنى المفهوم منه موافقاً لمسمى ذلك المعنى في الوجود الحاصل أو المتوقع على حسب ذلك المعنى ، ومن ذلك حادثة الحرب يقال : واقعة ذي قار ، وواقعة القادسية .

فراعوا في تأنيثها معنى الحادث أو الكائنة أو الساعة ، وهو تأنيث كثير في اللغة جار على ألسنة العرب لا يكونون راعوا فيه إلا معنى الحادثة أو الساعة أو نحو ذلك ، وقريب منه قولهم : دارت عليه الدائرة ، قال تعالى : ﴿ يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ﴾ [المائدة : 52] وقال : ﴿ عليهم دائرةُ السَّوْء ﴾ [التوبة : 98] .

والمراد بالواقعة هنا القيامة فجعل هذا الوصف علماً لها بالغلبة في اصطلاح القرآن قال تعالى : ﴿ فيومئذٍ وقعت الواقعة ﴾ [الحاقة : 15] كما سميت الصاخّة والطامّة والآزفة ، أي الساعة الواقعة .

وبهذا الاعتبار صار في قوله : ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ محسن التجنيس .

و ﴿ الواقعة ﴾ : الموصوفةُ بالوقوع ، وهو الحدوث .

و ﴿ كاذبة ﴾ يجوز أن يكون اسم فاعل من كذب المجرد ، جرى على التأنيث للدلالة على أنه وصف لمحذوف مؤنث اللفظ .

وتقديره هنا نفس ، أي تنتفي كل نفس كاذبة ، فيجوز أن يكون من كَذَب اللازم إذا قال خلاف ما في نفس الأمر وذلك أن منكري القيامة يقولون : لا تقع القيامة فيكذبون في ذلك فإذا وقعت آمنت النفوس كلها بوقوعها فلم تبق نفس تكذب ، أي في شأنها أو في الإِخبار عنها .

وذلك التقدير كله مما يدل عليه المقام .

ويجوز أن يكون من كذَب المتعدي مثل الذي في قولهم كذبتْ فلاناً نفسه ، أي حدثتْه نفسه

، أيْ رَأيه بحديث كذب وذلك أن اعتقاد المنكر للبعث اعتقاد سوّله له عقله القاصر فكأنَّ نفسه حدثته حديثاً كذَبته به ، ويقولون : كذبتْ فلاناً نفسه في الخطب العظيم ، إذا أقْدم عليه فأخفق كأنَّ نفسه لما شجعته على اقتحامه قد قالت له : إنك تطيقه فتعرَّضْ له ولا تبال به فإنك مُذلِّله فإذا تبين له عجزه فكأنَّ نفسه أخبرته بما لا يكون فقد كذبته ، كما يقال : كذبته عينه إذا تخيّل مرئياً ولم يكن .

والمعنى : إذا وقعت القيامة تحقق منكروها ذلك فأقلعوا عن اعتقادهم أنها لا تقع وعلموا أنهم ضلّوا في استدلالهم وهذا وعيد بتحذير المنكرين للقيامة من خزي الخيبة وسفاهة الرأي بين أهل الحشر .

وإطلاق وصف الكذب في جميع هذا استعارة بتشبيه السبب للفعل غير المثمر بالمخبر بحديث كذب أو تشبيه التسبب بالقول قال أبو علي الفارسي : الكذب ضرب من القول فكما جاز أن يتسع في القول في غير نطق نحو قول أبي النجم:

قد قالت الأنساع للبطن الحق . . .

(31/743)

جاز في الكذب أن يجعل في غير نطق نحو:

بأَنْ كذَبَ القراطف والقروف . . .

واللام في ﴿ لوقعتها ﴾ لام التوقيت نحو ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ [الإسراء : 78] وقوله تعالى : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ [الطلاق : 1] .

وقولهم : كتبتُه لكذا من شهر كذا ، وهي بمعنى (عند) وأصلها لام الاختصاص شاع استعمالها في اختصاص الموقَّت بوقته كقوله تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾ [الأعراف : 143] .

وهو توسع في معنى الاختصاص بحيث تنوسي أصل المعنى .

وفي الحديث سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم " أي الأعمال أفضل فقال : الصلاة لوقتها " .

وهذا الاستعمال غير الاستعمال الذي في قوله تعالى : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ [الغاشية : 6] .

خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3)

خبرانِ لمبتدأ محذوف ضمير ﴿ الواقعة ﴾ [الواقعة : 1] ، أي هي خافضة رافعة ، أي يحصل عندها خفض أقوامٍ كانوا مرتفعين ورَفْع أقوام كانوا منخفضين وذلك بخفض الجبابرة والمفسدين الذين كانوا في الدنيا في رفعة وسيادة ، وبرفع الصالحين الذين كانوا في

الدنيا لا يعبأون بأكثرهم ، وهي أيضاً خافضة جهات كانت مرتفعة كالجبال والصوامع ، رافعة ما كان منخفضاً بسبب الانقلاب بالرجّات الأرضية .

وإسناد الخفض والرفع إلى الواقعة مجاز عقلي إذ هي وقت ظهور ذلك .

وفي قوله : ﴿ خافضة رافعة ﴾ محسن الطباق مع الإِغراب بثبوت الضدّين لشيء واحد .

﴿ إذا رجت الأرض ﴾ بدل من جملة ﴿ إذ وقعت الواقعة ﴾ [الواقعة : 1] وهو بدل اشتمال .

والرّج : الاضطراب والتحرك الشديد ، فمعنى : ﴿ رجت ﴾ رَجّهَا رَاجٌّ ، وهو ما يطرأ فيها من الزلازل والخسف ونحو ذلك .

وتأكيده بالمصدر للدلالة على تحققه وليتأتى التنوين المشعر بالتعظيم والتهويل .

(32/743)

والبَسُّ يطلق بمعنى التفتت وهو تفرّق الأجزاء المجموعة ، ومنه البسيسة من أسماء السويق أي فتّتَتْ الجبال ونسفت فيكون كقوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرَها قاعاً صفصفاً ﴾ [طه : 105 ، 106] .

ويطلق البسّ أيضاً على السّوق للماشية ، يقال : بَسّ الغنم ، إذا ساقها .

وفي الحديث : " فيأتي قوم يَبِسُّون بأموالهم وأهليهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون " فهو في معنى قوله تعالى : ﴿ ويوم نسيّر الجبال ﴾ [الكهف : 47] ، وقوله : ﴿ وسيرت الجبال ﴾ [النبأ : 20] وتأكيده بقوله : ﴿ بساً ﴾ كالتأكيد في قوله : ﴿ رجاً ﴾ لإفادة التعظيم بالتنوين .

وتفريع ﴿ فكانت هباءً منبثاً ﴾ على ﴿ بُسّت الجبال ﴾ لائق بمعنيي البسّ لأن الجبال إذا سيّرت فإنما تُسيّر تسييراً يفتتها ويفرقها ، أي تسييرَ بَعْثَرَة وارتطام .

والهباء : ما يلوح في خيوط شعاع الشمس من دقيق الغبار ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فجعلناه هباء منثوراً ﴾ في سورة الفرقان (23) .

والمنْبَثُّ : اسم فاعل انبثَّ ، مطاوع بثَّه ، إذا فرّقه .

واختير هذا المطاوع لمناسبته مع قوله : وبست الجبال ﴾ في أن المبني للنائب معناه كالمطاوعة ، وقوله : ﴿ فكانت هباءً منبثاً ﴾ تشبيه بليغ ، أي فكانت كالهباء المنبث .

والخطاب في : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ للناس كلهم ، وهذا تخلص للمقصود من السورة وهو الموعظة .

والأزواج : الأصناف .

والزوج يطلق على الصنف والنوع كقوله تعالى : ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ [

الرحمن : 52] ووجه ذلك أن الصنف إذا ذكر يذكر معه نظيره غالباً فيكون زوجاً . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(33/743)

قوله تعالى ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (9) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قسمهم إلى ثلاثة أقسام وفرع تقسيمهم ، ذكر أحوالهم وابتدأ ذلك بالإعلام بأنه ليس الخبر كالخبر كما أنه ليس العين كالأثر فقال : ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ أي جهة اليمين وموضعها وأعمالها ، ثم فخم أمرهم بالتعجيب من حالهم بقوله منبهاً على أنهم أهل لأن يسأل عنهم فيما يفهمه اليمين من الخير والبركة فكيف إذا عبر عنها بصيغة مبالغة فقال : ﴿ ما ﴾ وهو مبتدأ ثان ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ أي جهة اليمين وموضعها وأعمالها ،

والجملة خبر عن الأولى ، والرابط تكرار المبتدأ بلفظه ، قال أبو حيان رحمه الله تعالى : وأكثر ما يكون ذلك في موضع التهويل والتعظيم .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تقدم الإعذار في السورتين المتقدمتين والتقرير على عظيم البراهين ، وأعلم في آخر سورة القمر أن كل واقع في العالم فبقضائه سبحانه وقدره ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ [القمر : 49] ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾ ﴿ القمر : 52] وأعلمهم سبحانه في الواقعة بانقسامهم الأخروي فافتتح ذكر الساعة ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ إلى قوله ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ فتجردت هذه السورة للتعريف بأحوالهم الأخروية ، وصدرت بذلك كما جرد في هذه السورة قبل التعريف بحالهم في هذه الدار ، وما انجر في السور الثلاث جارياً على غير هذا الأسلوب فبحكم استدعاء الترغيب والترهيب لطفاً بالعباد ورحمة ومطالعها مبنية على ما ذكرته تصريحاً لا تلويحاً ، وعلى الاستيفاء لا بالإشارة والإيماء ، ولهذا قال تعالى في آخر القصص الأخراوية في هذه السورة : ﴿ هذا نزلهم يوم الدين ﴾ فأخبر أن هذا حالهم يوم الجزاء وقد قدم حالهم الدنياوي في السورتين قبل وتأكيد التعريف المتقدم فيما بعد ، وذلك قوله ﴿ فأما إن كان من المقربين ﴾ إلى خاتمتها – انتهى .

ولما ذكر الناجين بقسميهم ، أتبعهم أضدادهم فقال : ﴿ وأصحاب المشأمة ﴾ أي جهة الشؤم وموضعها وأعمالها ، ثم عظم ذنبهم فقال : ﴿ ما أصحاب المشأمة ﴾ أي لأنهم

أهل لأن يسأل عما أصابهم من الشؤم والشر والسوء بعظيم قدرته التي ساقتهم إلى ما وصلوا إليه من الجزاء الذي لا يفعله بنفسه عاقل بل ولا بهيمة مع ما ركب فيهم من العقول الصحيحة والأفكار العظيمة وصان الأولين عن خذلان هؤلاء فأوصلهم إلى النعيم المقيم .

(34/743)

ولما ذكر القسمين ، وكان كل منهما قسمين ، ذكر أعلى أهل القسم الأول ترغيباً في أحسن حالهم ولم يقسم أهل المشأمة ترهيباً من سوء مآلهم فقال : ﴿ والسابقون ﴾ أي إلى أعمال الطاعة أصحاب الجنتين الأوليين في الرحمان وهم أصحاب القلب ﴿ السابقون ﴾ أي هم الذين يستحقون الوصف بالسبق لا غيرهم لأنه منزلة أعلى من منزلتهم فلذلك سبقوا إلى منزلتهم وهي جنتهم وهم قسمان كما يأتي عن الرازي ، وعن المهدوي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " السابقون الذين إذا أعطوا الحق قبلوه وإذا سألوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم " .

ولما بين علو شأنهم ونسب السبق إليهم ، ترجمه نازعاً للفعل منهم بقوله : ﴿ أولئك ﴾ أي العالو الرتبة جداً من الذين هم أصحاب الميمنة ﴿ المقربون ﴾ أي الذين اصطفاهم الله تعالى للسبق فأرادهم لقربه أو أنعم عليهم بقربه ولولا فعله في تقريبهم لم يكونوا سابقين ، قال

الرازي في اللوامع : المقربون تخلصوا من نفوسهم فأعمالهم كلها لله ديناً ودنيا من حق الله وحق الناس ، وكلاهما عندهم حق الله ، والدنيا عندهم آخرتهم لأنهم يراقبون ما يبدو لهم من ملكوته فيتلقونه بالرضا والانقياد ، وهم صنفان فصنف قلوبهم في جلاله وعظمته هائمة قد ملكتهم هيبتهم فالحق يستعملهم ، وصنف آخر قد أرخى من عنانه ، فالأمر عليه أسهل لأنه قد جاور بقلبه هذه الحطة ومحله أعلى فهو أمين الله في أرضه ، فيكون الأمر عليه أسهل لأنه قد جاوز - انتهى .

ثم بين تقريبه لهم بقوله : ﴿ في جنات النعيم ﴾ أي الذي لا نعيم غيره لأنه لا كدر فيه بوجه ولا منغص ، والصنف الآخر منهم المتقربون والمتشاقون من أصحاب المشأمة ، أولئك المغضوب عليهم المبعودون ، ومن دونهم الضالون البعيدون وهم أصحاب الشمال .

(35/743)

ولما ذكر السابقين فصلهم فقال : ﴿ ثلة ﴾ أي جماعة كثيرة حسنة ، وقال البغوي : والثلة جماعة غير محصورة العدد ، ﴿ من الأولين ﴾ وهم الأنبياء الماضون عليهم الصلاة والسلام ، ومن آمن بهم من غير واسطة - رضى الله عنه - م ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ وهم من آمن بمحمد - عليه الصلاة والسلام - كذلك بغير واسطة - رضى الله عنه - م ، فقد كان الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام مائة ألف ونيفاً وعشرين ألفاً ، وكان من خرج مع موسى عليه السلام من مصر وهم من آمن به من الرجال المقاتلين ممن هو فوق العشرين ودون الثمانين وهم ستمائة ألف فما ظنك بمن عداهم من الشيوخ ومن دون العشرين من التابعين والصبيان ومن النساء ، فكيف بمن عداه من سائر النبيين عليهم الصلاة والسلام .

المجددين من بني إسرائيل وغيرهم ، وقيل " الثلة والقليل كلاهما من هذه الأمة " ، رواه الطبراني وابن عدي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، وفيه أبان بن أبي عياش وهو متروك ورواه إسحاق بن راهويه مسدد بن مسرهد وأبو داود الطيالسي وإبراهيم الحربي والطبراني من رواية علي بن زيد وهو ضعيف عن عقبة بن صهبان عن أبي بكرة ـ رضى الله عنه ـ مرفوعاً وموقوفاً ، والموقوف أولى بالصواب ، وتطبيقه على هذه الأمة سواء كان مرفوعاً أو موقوفاً صحيح لا غبار عليه ، فتكون الصحابة ـ رضى الله عنه ـ م كلهم من هذه الثلة وكذا من تبعهم بإحسان إلى رأس القرن الثالث وهم لا يحصيهم إلا الله تعالى ، ومن المعلوم أنه تناقص الأمر بعد ذلك إلى أن صار السابق في الناس أقل من القليل لرجوع الإسلام إلى الحال الذي بدأ عليها من الغربة

" بدأ الإسلام غريباً وسيكون غريباً فطوبى للغرباء " ويجوز أن يقدر أيضاً : وثلة – أي جماعة كثيرة هلكى – من الأولين ، وهم المعاندون من الأمم الماضين ، وقليل من الآخرين – وهم المعاندون من هذه الأمة .

ولما ذكر السابقين في الخير بصنفيهم مشيراً إلى السابقين في الشر بصنفيهم ، ذكر جزاء أهل الخير ليعلم منه جزاء أولئك ، فقال مبيناً أنهم ملوك لكن ملكهم لا ينافس فيه ولا يحاسد ، بل هو كله يقابل بالوداد والصفاء ﴿ على سرر ﴾ وهو ما يسر الإنسان من المقاعد العالية المصنوعة للراحة والكرامة التي هي آية الملك وهو العرش ﴿ موضونة ﴾ أي منسوجة نسجاً مضاعفاً منضودة داخلاً بعضها في بعض مقارب النسج معجباً كالدرع لكن نسجها بالذهب مفصلاً بالجوهر من الدر والياقوت .

ولما ذكر السرر وبين عظمتها ، ذكر غايتها فقال : ﴿ متكئين ﴾ أي متكئين هيئة المتربع أو غيرها من الجنب أو غيرها ﴿ عليها ﴾ ولما كان الجمع إذا كثر كان ظهور بعض أهله إلى بعض ، أعلم أن جموع أهل الجنة على غير ذلك فقال : ﴿ متقابلين ﴾ فلا بعد ولا مدابرة لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض ولا يكره بعضهم بعضاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 404.406 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ فأصحاب الميمنة مَا أصحاب الميمنة ﴾ .

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الفاء تدل على التفسير ، وبيان ما ورد على التقسيم كأنه قال : (أزواجاً ثلاثة أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة) إلخ ، ثم بين حال كل قوم ، فقال : ﴿ مَا أصحاب الميمنة ﴾ فترك التقسيم أولاً واكتفى بما يدل عليه ، فإنه ذكر الأقسام الثلاثة مع أحوالها ، وسبق قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثلاثة ﴾ يغني عن تعديد الأقسام ، ثم أعاد كل واحدة لبيان حالها .

المسألة الثانية :

﴿ أصحابُ الميمنة ﴾ هم أصحاب الجنة ، وتسميتهم بأصحاب الميمنة إما لكونهم من جملة من كتبهم بأيمانهم ، وإما لكون أيمانهم تستنير بنور من الله تعالى ، كما قال تعالى :

﴿ يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانهم ﴾ [الحديد : 12] وإما لكون اليمين يراد به الدليل على الخير ، والعرب تتفاءل بالسانح ، و (هو) الذي يقصد جانب اليمين من الطيور والوحوش عند الزجر والأصل فيه أمر حكمي ، وهو أنه تعالى لما خلق الخلق كان له في كل شيء دليل على قدرته واختياره ، حتى إن في نفس الإنسان له دلائل لا تعد ولا تحصى ، ودلائل الاختيار إثبات مختلفين في محلين متشابهين ، أو إثبات متشابهين في محلين مختلفين ، إذ حال الإنسان من أشد الأشياء مشابهة فإنه مخلوق من متشابه ، ثم إنه تعالى أودع في الجانب الأيمن من الإنسان قوة ليست في الجانب الأيسر لو اجتمع أهل العلم على أن يذكروا له مرجحاً غير قدرة الله وإرادته لا يقدرون عليه ، فإن كان بعضهم يدعى كياسة وذكاء يقول : إن الكبد في الجانب الأيمن ، وبها قوة التغذية ، والطحال في الجانب الأيسر ، وليس فيه قوة ظاهرة النفع فصار الجانب الأيمن قوياً لمكان الكبد على اليمين ؟ فنقول : هذا دليل الاختيار لأن اليمين كالشمال ، وتخصيص الله اليمين بجعله مكان الكبد دليل الاختيار إذا ثبت أن الإنسان يمينه أقوى من شماله ، فضلوا اليمين على الشمال ، وجعلوا الجانب الأيمن للأكابر ، وقيل : لمن له مكانة هو من أصحاب اليمين ، ووضعوا له لفظاً على وزن العزيز ، فينبغي أن يكون الأمر على ذلك الوجه كالسميع والبصير ، وما لا يتغير كالطويل والقصير ، وقيل له : اليمين ، وهو يدل على القوة ، ووضعوا مقابلته اليسار على الوزن الذي اختص به الاسم المذموم عند النداء بذلك الوزن ، وهو الفعال ، فإن عند الشتم والنداء بالاسم

المذموم يؤتى بهذا الوزن مع البناء على الكسر ، فيقال : يا فجار يا فساق يا خباث ، وقيل : اليمين اليسار ، ثم

(39/743)

بعد ذلك استعمل في اليمين ، وأما الميمنة فهي مفعلة كأنه الموضع الذي فيه اليمين وكل ما وقع بيمين الإنسان في جانب من المكان ، فذلك موضع اليمين فهو ميمنة كقولنا : ملعبة .

المسألة الثالثة :

جعل الله تعالى الخلق على ثلاثة أقسام دليل غلبة الرحمة ، وذلك لأن جوانب الإنسان أربعة ، يمينه وشماله ، وخلفه وقدامه ، واليمين في مقابلة الشمال والخلف في مقابلة القدام ثم إنه تعالى أشار بأصحاب اليمين إلى الناجين الذين يعطون كتبهم بأيمانهم وهم من أصحاب الجانب الأشرف المكرمون ، وبأصحاب الشمال إلى الذين حالهم على خلاف أصحاب اليمين وهم الذين يعطون كتبهم بشمائلهم مهانون وذكر السابقين الذين لا حساب عليهم ويسبقون الخلق من غير حساب بيمين أو شمال ، أن الذين يكونون في المنزلة العليا من الجانب الأيمن ، وهم المقربون بين يدي الله يتكلمون في حق الغير ويشفعون للغير ويقضون أشغال الناس وهؤلاء أعلى منزلة من أصحاب اليمين ، ثم إنه تعالى لم يقل : في مقابلتهم قوماً يكونون

متخلفين مؤخرين عن أصحاب الشمال لا يلتفت إليهم لشدة الغضب عليهم وكانت القسمة في العادة رباعية فصارت بسبب الفضل ثلاثية وهو كقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ [فاطر : 32] لم يقل : منهم متخلف عن الكل .

المسألة الرابعة :

(40/743)

ما الحكمة في الابتداء بأصحاب اليمين والانتقال إلى أصحاب الشمال ثم إلى السابقين مع أنه في البيان بين حال السابقين ثم أصحاب الشمال على الترتيب والجواب : أن نقول : ذكر الواقعة وما يكون عند وقوعها من الأمور الهائلة إنما يكون لمن لا يكون عنده من محبة الله تعالى ما يكفه مانعاً عن المعصية ، وأما الذين سرهم مشغول بربهم فلا يحزنون بالعذاب ، فلما ذكر تعالى : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ [الواقعة : 1] وكان فيه من التخويف ما لا يخفى وكان التخويف بالذين يرغبون ويرهبون بالثواب والعقاب أولى ذكر ما ذكره لقطع العذر لا نفع الخبر ، وأما السابقون فهم غير محتاجين إلى ترغيب أو ترهيب فقدم سبحانه أصحاب اليمين الذين يسمعون ويرغبون ثم ذكر السابقين ليجتهد أصحاب اليمين ويقربوا من درجتهم وإن كان لا ينالها أحد إلا بجذب من الله فإن السابق يناله ما يناله بجذب ، وإليه الإشارة

بقوله : جذبة من جذبات الرحمن خير من عبادة سبعين سنة .

المسألة الخامسة :

ما معنى قوله : ﴿ مَا أَصحاب الميمنة ﴾ ؟ نقول : هو ضرب من البلاغة وتقريره هو أن يشرع المتكلم في بيان أمر ثم يسكت عن الكلام ويشير إلى أن السامع لا يقدر على سماعه كما يقول القائل لغيره : أخبرك بما جرى عليَّ ثم يقول هناك هو مجيباً لنفسه لا أخاف أن يحزنك وكما يقول القائل : من يعرف فلاناً فيكون أبلغ من أن يصفه ، لأن السامع إذا سمع وصفه يقول : هذا نهاية ما هو عليه ، فإذا قال : من يعرف فلاناً بفرض السامع من نفسه شيئاً ، ثم يقول : فلان عند هذا المخبر أعظم مما فرضته وأنبه مما علمت منه .

المسألة السادسة :

ما إعرابه ومنه يعرف معناه ؟ نقول : ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ مبتدأ أراد المتكلم أن يذكر خبره فرجع عن ذكره وتركه وقوله : ﴿ مَا أَصحاب الميمنة ﴾ جملة استفهامية على معنى التعجب كما تقول : لمدعي العلم ما معنى كذا مستفهماً ممتحناً زاعماً أنه لا يعرف الجواب حتى إنك تحب وتشتهي ألا يجيب عن سؤالك ولو أجاب لكرهته لأن كلامك مفهوم كأنك

تقول : إنك لا تعرف الجواب ، إذا عرفت هذا فكأن المتكلم في أول الأمر مخبراً ثم لم يخبر بشيء لأن في الأخبار تطويلاً ثم لم يسكت وقال ذلك ممتحناً زاعماً أنك لا تعرف كنهه ، وذلك لأن من يشرع في كلام ويذكر المبتدأ ثم يسكت عن الخبر قد يكون ذلك السكوت لحصول علمه بأن المخاطب قد علم الخبر من غير ذكر الخبر ، كما أن قائلاً : إذا أراد أن يخبر غيره بأن زيداً وصل ، وقال : إن زيداً ثم قبل قوله : جاء وقع بصره على زيد ورآه جالساً عنده يسكت ولا يقول جاء لخروج الكلام عن الفائدة وقد يسكت عن ذكر الخبر من أول الأمر لعلمه بأن المبتدأ وحده يكفي لمن قال : من جاء فإنه إن قال : زيد يكون جواباً وكثيراً ما نقول : زيد ولا نقول : جاء ، وقد يكون السكوت عن الخبر إشارة إلى طول القصة كقول القائل : الغضبان من زيد ويسكت ثم يقول : ماذا أقول عنه .

(42/743)

إذا علم هذا فنقول لما قال : ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ كان كأنه يريد أن يأتي بالخبر فسكت عنه ثم قال في نفسه : إن السكوت قد يوهم أنه لظهور حال الخبر كما يسكت على زيد في جواب من جاء فقال : ﴿ مَا أصحاب الميمنة ﴾ ممتحناً زاعماً أنه لا يفهم ليكون ذلك دليلاً على أن سكوته على المبتدأ لم يكن لظهور الأمر بل لخفائه وغرابته ، وهذا وجه بليغ ، وفيه

وجه ظاهر وهو أن يقال : معناه أنه جملة واحدة استفهامية كأنه قال : وأصحاب الميمنة ما هم ؟ على سبيل الاستفهام غير أنه أقام المظهر مقام المضمر وقال : ﴿ فأصحاب الميمنة مَا أصحاب الميمنة ﴾ والإتيان بالمظهر إشارة إلى تعظيم أمرهم حيث ذكرهم ظاهراً مرتين وكذلك القول في قوله تعالى : ﴿ وأصحاب المشئمة مَا أصحاب المشئمة ﴾ وكذلك في قوله : ﴿ الحاقة * مَا الحاقة ﴾ [الحاقة : 1 ، 2] وفي قوله : ﴿ القارعة * مَا القارعة ﴾ [القارعة : 1 ، 2] .

المسألة السابعة :

(43/743)

ما الحكمة في اختيار لفظ ﴿ المشئمة ﴾ في مقابلة ﴿ الميمنة ﴾ ، مع أنه قال في بيان أحوالهم : ﴿ وأصحاب الشمال مَا أصحاب الشمال ﴾ ؟ نقول : اليمين وضع للجانب المعروف أولاً ثم تفاءلوا به واستعملوا منه ألفاظاً في مواضع وقالوا : هذا ميمون وقالوا : أيمن به ووضعوا للجانب المقابل له اليسار من الشيء اليسير إشارة إلى ضعفه ، فصار في مقابلة اليمين كيفما يدور فيقال : في مقابلة اليمنى اليسرى ، وفي مقابلة الأيمن الأيسر ، وفي مقابلة الميمنة الميسرة ، ولا تستعمل الشمال كما تستعمل اليمين ، فلا يقال : الأشمل ولا المشملة ،

وتستعمل المشأمة كما تستعمل الميمنة ، فلا يقال : في مقابلة اليمين لفظ من باب الشؤم ، وأما الشآم فليس في مقابلة اليمين بل في مقابلة يمان ، إذا علم هذا فنقول : بعد ما قالوا باليمين لم يتركوه واقتصروا على استعمال لفظ اليمين في الجانب المعروف من الآدمي ، ولفظ الشمال في مقابلته وحدث لهم لفظان آخران فيه أحدهما : الشمال وذلك لأنهم نظروا إلى الكواكب من السماء وجعلوا ممرها وجه الإنسان وجعلوا السماء جانبين وجعلوا أحدهما أقوى كما رأوا في الإنسان ، فسموا الأقوى بالجنوب لقوة الجانب كما يقال : غضوب ورءوف ، ثم رأوا في مقابلة الجنوب جانباً آخر شمل ذلك الجانب عمارة العالم فسموه شمالاً واللفظ الآخر : المشأمة والأشأم في مقابلة الميمنة والأيمن ، وذلك لأنهم لما أخذوا من اليمين اليمن وغيره للتفاؤل وضعوا الشؤم في مقابلته لا في أعضائهم وجوانبهم تكرهاً لجعل جانب من جوانب نفسه شؤماً ، ولما وضعوا ذلك واستمر الأمر عليه نقلوا اليمين من الجانب إلى غيره ، فالله تعالى ذكر الكفار بلفظين مختلفين فقال : ﴿ وأصحاب المشئمة ﴾ ﴿ وأصحاب الشمال ﴾ [الواقعة : 41] وترك لفظ الميسرة واليسار الدال على هون الأمر ، فقال ههنا : ﴿ وأصحاب المشئمة ﴾ بأفظع الاسمين ، ولهذا قالوا في العساكر : الميمنة والميسرة اجتناباً من لفظ الشؤم .

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في إعرابه ثلاثة أوجه أحدها : ﴿ والسابقون ﴾ عطف على ﴿ وأصحاب الميمنة ﴾ [الواقعة : 8] وعنده تم الكلام ، وقوله : ﴿ والسابقون . . . أولئك المقربون ﴾ جملة واحدة والثاني : أن قوله : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ جملة واحدة ، كما يقول القائل : أنت أنت وكما قال الشاعر :

(45/743)

أنا أبو النجم وشعري شعري . . وفيه وجهان أحدهما : أن يكون لشهرة أمر المبتدأ بما هو عليه فلا حاجة إلى الخبر عنه وهو مراد الشاعر وهو المشهور عند النحاة والثاني : للإشارة إلى أن في المبتدأ ما لا يحيط العلم به ولا يخبر عنه ولا يعرف منه إلا نفس المبتدأ ، وهو كما يقول القائل لغيره أخبرني عن حال الملك فيقول : لا أعرف من الملك إلا أنه ملك فقوله : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ أي لا يمكن الإخبار عنهم إلا بنفسهم فإن حالهم وما

هم عليه فوق أن يحيط به علم البشر وههنا لطيفة : وهي أنه في أصحاب الميمنة قال : ﴿ مَا أصحاب الميمنة ﴾ [الواقعة : 8] بالاستفهام وإن كان للإعجاز لكن جعلهم مورد الاستفهام وههنا لم يقل : والسابقون ما السابقون ، لأن الاستفهام الذي للإعجاز يورد على مدعي العلم فيقال له : إن كنت تعلم فبين الكلام وأما إذا كان يعترف بالجهل فلا يقال له : كذبت ولا يقال : كيف كذا ، وما الجواب عن ذلك ، فكذلك في : ﴿ والسابقون ﴾ ما جعلهم بحيث يدعون ، فيورد عليهم الاستفهام فيبين عجزهم بل بنى الأمر على أنهم معترفون في الابتداء بالعجز ، وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ كقول العالم : لمن سأل عن مسألة معضلة وهو يعلم أنه لا يفهمها وإن كان أبانها غاية الإبانة أن الأمر فيها على ما هو عليه ولا يشتغل بالبيان وثالثها : هو أن السابقون ثانياً تأكيد لقوله : ﴿ والسابقون ﴾ والوجه الأوسط هو الأعدل الأصح ، وعلى الوجه الأوسط قول آخر : وهو أن المراد منه أن السابقين إلى الخيرات في الدنيا هم السابقون إلى الجنة في العقبى .

المسألة الثانية :

﴿ أولئك المقربون ﴾ يقتضي الحصر فينبغي أن لا يكون غيرهم مقرباً ، وقد قال في حق الملائكة إنهم مقربون ، نقول : ﴿ أُوْلَئِكَ المقربون ﴾ من الأزواج الثلاثة ، فإن قيل : ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ ليسوا من المقربين ، نقول : للتقريب درجات ﴿ والسابقون ﴾ في غاية القرب ، ولا حد هناك ، ويحتمل وجهاً آخر ، وهو أن يقال : المراد السابقون مقربون من الجنات حال كون أصحاب اليمين متوجهين إلى طريق الجنة لأنه بمقدار ما يحاسب المؤمن حساباً يسيراً ويؤتى كتابه بيمينه يكون السابقون قد قربوا من المنزل أو قربهم إلى الله في الجنة وأصحاب اليمين بعد متوجهون إلى ما وصل إليه المقربون ، ثم إن السير والارتفاع لا ينقطع فإن السير في الله لا انقطاع له ، والارتفاع لا نهاية له ، فكلما تقرب أصحاب اليمين من درجة السابق ، يكون قد انتقل هو إلى موضع أعلى منه ، فأولئك هم المقربون في جنات النعيم ، في أعلى عليين حال وصول أصحاب اليمين إلى الحور العين .

المسألة الثالثة :

بعد بيان أقسام الأزواج لم يعد إلى بيان حالهم على ترتيب ذكرهم ، بل بين حال السابقين مع أنه أخرهم ، وأخر ذكر أصحاب الشمال مع أنه قدمهم أولاً في الذكر على السابقين ، نقول : قد بينا أن عند ذكر الواقعة قدم من ينفعه ذكر الأهوال ، وأخر من لا يختلف حاله بالخوف والرجاء ، وأما عند البيان فذكر السابق لفضيلته وفضيلة حاله .

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(47/743)

عرف النعيم باللام ههنا وقال في آخر السورة : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة : 89] بدون اللام ، والمذكور في آخر السورة هو واحد من السابقين فله جنة من هذه الجنات وهذه معرفة بالإضافة إلى المعرفة ، وتلك غير معرفة فما الفرق بينهما ؟ فنقول : الفرق لفظي ومعنوي فاللفظي هو أن السابقين معرفون باللام المستغرقة لجنسهم ، فجعل موضع المعرفين معرفاً ، وأما هناك فهو غير معرف ، لأن قوله : ﴿ إِن كَانَ مِنَ المقربين ﴾ [الواقعة : 88] أي إن كان فرداً منهم فجعل موضعه غير معرف مع جواز أن يكون الشخص معرفاً وموضعه غير معرف ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جنات وَعُيُونٍ ﴾ [الذاريات : 15] و ﴿ إِنَّ المتقين فِي جنات وَنَهَرٍ ﴾ [القمر : 54] وبالعكس أيضاً ، وأما المعنوي : فنقول : عند ذكر الجمع جمع الجنات في سائر المواضع فقال تعالى : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جنات ﴾ وقال تعالى : ﴿ أولئك المقربون * فِي جنات ﴾ [الواقعة : 11 ، 12] لكن السابقون نوع من المتقين ، وفي المتقين غير السابقون أيضاً ، ثم إن السابقين لهم

منازل ليس فوقها منازل ، فهي صارت معروفة لكونها في غاية العلو أو لأنها لا أحد فوقها ، وأما باقي المتقين فلكل واحد مرتبة وفوقها مرتبة فهم في جنات متناسبة في المنزلة لا يجمعها صقع واحد لاختلاف منازلهم ، وجنات السابقين على حد واحد في على عليين يعرفها كل أحد ، وأما الواحد منهم فإن منزلته بين المنازل ، ولا يعرف كل أحد أنه لفلان السابق فلم يعرفها ، وأما منازلهم فيعرفها كل أحد ، ويعلم أنها للسابقين ، ولم يعرف الذي للمتقين على وجه كذا .

المسألة الثانية :

(48/743)

إضافة الجنة إلى النعيم من أي الأنواع ؟ نقول : إضافة المكان إلى ما يقع في المكان يقال : دار الضيافة ، ودار الدعوة ، ودار العدل ، فكذلك جنة النعيم ، وفائدتها أن الجنة في الدنيا قد تكون للنعيم ، وقد تكون للاشتغال والتعيش بأثمان ثمارها ، بخلاف الجنة في الآخرة فإنها للنعيم لا غير .

المسألة الثالثة :

في ﴿ جنات النعيم ﴾ ، يحتمل أن يكون خبراً بعد خبر ، ويحتمل أن يكون خبراً واحداً ،

أما الأول فتقديره : أولئك المقربون كائنون في جنات ، كقوله : ﴿ ذُو العرش المجيد * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج : 16] ، وأما الثاني فتقديرهم المقربون في الجنات من الله كما يقال : هو المختار عند الملك في هذه البلدة ، وعلى الوجه الأول فائدته بيان تنعيم جسمهم ، وكرامة نفسهم فهم مقربون عند الله فهم في غاية اللذة وفي جنات ، فجسمهم في غاية النعيم ، بخلاف المقربين عند الملوك ، فإنهم يلتذون بالقرب لكن لا يكون لجسمهم راحة ، بل يكونون في تعب من الوقوف وقضاء الأشغال ، ولهذا قال : ﴿ فِي جنات النعيم ﴾ ولم يقتصر على جنات ، وعلى الوجه الثاني فائدته التمييز عن الملائكة ، فإن المقربين في يومنا هذا في السموات هم الملائكة والسابقون المقربون في الجنة فيكون المقربون في غيرها هم الملائكة وفيه لطيفة : وهي أن قرب الملائكة قرب الخواص عند الملك الذين هم للأشغال ، فهم ليسوا في نعيم ، وإن كانوا في لذة عظيمة ولا يزالون مشفقين قائمين بباب الله يرد عليهم الأمر ولا يرتفع عنهم التكليف ، والسابقون لهم قرب عند الله ، كما يكون لجلساء الملوك ، فهم لا يكون بيدهم شغل ولا يرد عليهم أمر ، فيلتذون بالقرب ، ويتنعمون بالراحة .

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14)

وهذا خبر بعد خبر ، وفيه مسائل .

المسألة الأولى :

قد ذكرت أن قوله : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ [الواقعة : 10] جملة ، وإنما كان الخبر عين المبتدأ لظهور حالهم أو لخفاء أمرهم على غيرهم ، فكيف جاء خبر بعده ؟ نقول : ذلك المقصود قد أفاد ذكر خبر آخر لمقصود آخر ، كما أن واحداً يقول : زيد لا يخفى عليك حاله إشارة إلى كونه من المشهورين ثم يشرع في حال يخفى على السامع مع أنه قال : لا يخفى ، لأن ذلك كالبيان كونه ليس من الغرباء كذلك ههنا قال : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ لبيان عظمتهم ثم ذكر حال عددهم .

المسألة الثانية :

(50/743)

﴿ الأولين ﴾ من هم ؟ نقول : المشهور أنهم من كان قبل نبينا صلى الله عليه وسلم وإنما قال : ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ والثلة الجماعة العظيمة ، لأن من قبل نبينا من الرسل والأنبياء من كان من كبار أصحابهم إذا جمعوا يكونون أكثر بكثير من السابقين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا قيل : إن الصحابة لما نزلت هذه الآية صعب عليهم قلتهم ، فنزل بعده : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين ﴾ [الواقعة : 13] ، ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ [الواقعة : 40] هذا في

غاية الضعف من وجوه أحدها : أن عدد أمة محمد صلى الله عليه وسلم إذا كان في ذلك الزمان بل إلى آخر الزمان ، بالنسبة إلى من مضى في غاية القلة فماذا كان عليهم من إنعام الله على خلق كثير من الأولين وما هذا إلا خلف غير جائز وثانيها : أن هذا كالنسخ في الأخبار وأنه في غاية البعد ثالثها : ما ورد بعدها لا يرفع هذا لأن الثلة من الأولين هنا في السابقين من الأولين وهذا ظاهر لأن أمة محمد صلى الله عليه وسلم كثروا ورحمهم الله تعالى فعفا عنهم أموراً لم تعف عن غيرهم ، وجعل للنبي صلى الله عليه وسلم الشفاعة فكثر عدد الناجين وهم أصحاب اليمين ، وأما من لم يأثم ولم يرتكب الكبيرة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فهم في غاية القلة وهم السابقون ورابعها : هذا توهم وكان ينبغي أن يفرحوا بهذه الآية لأنه تعالى لما قال : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين ﴾ دخل فيهم الأول من الرسل والأنبياء ، ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، فإذا جعل قليلاً من أمته مع الرسل والأنبياء والأولياء الذين كانوا في درجة واحدة ، يكون ذلك إنعاماً في حقهم ولعله إشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام : " علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل " الوجه الثاني : المراد منه : ﴿ السابقون الأولون مِنَ المهاجرين والأنصار ﴾ [التوبة : 100] فإن أكثرهم لهم الدرجة العليا ، لقوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ ﴾ [الحديد : 10] الآية .

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، وعلى هذا فقوله :

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثلاثة ﴾ [الواقعة : 7] يكون خطاباً مع الموجودين وقت التنزيل ، ولا يكون فيه بيان الأولين الذين كانوا قبل نبينا عليه السلام ، وهذا ظاهر فإن الخطاب لا يتعلق إلا بالموجودين من حيث اللفظ ، ويدخل فيه غيرهم بالدليل الوجه الثالث : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين ﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنفسهم ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ واتبعتهم ذرياتهم ﴾ [الطور : 21] فالمؤمنون وذرياتهم إن كانوا من أصحاب اليمين فهم في الكثرة سواء ، لأن كل صبي مات وأحد أبويه مؤمن فهو من أصحاب اليمين ، وأما إن كانوا من المؤمنين السابقين ، فقلما يدرك ولدهم درجة السابقين وكثيراً ما يكون ولد المؤمن أحسن حالاً من الأب لتقصير في أبيه ومعصية لم توجد في الابن الصغير وعلى هذا فقوله : ﴿ الآخرين ﴾ المراد منه الآخرون التابعون من الصغار .

عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16)

والموضونة هي المنسوجة القوية اللحمة والسدى ، ومنه يقال للدرع المنسوجة : موضونة والوضين هو الحبل العريض الذي يكون منه الحزم لقوة سداه ولحمته ، والسرر التي تكون للملوك يكون لها قوائم من شيء صلب ويكون مجلسهم عليها معمولاً بحرير وغير ذلك لأنه أنعم من الخشب وما يشبهه في الصلابة وهذه السرر قوائمها من الجواهر النفيسة ، وأرضها من الذهب الممدود ، وقوله تعالى : ﴿ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا ﴾ للتأكيد ، والمعنى أنهم كائنون على سرر متكئين عليها متقابلين ، ففائدة التأكيد هو أن لا يظن أنهم كائنون على سرر متكئين على غيرها كما يكون حال من يكون على كرسي صغير لا يسعه للاتكاء فيوضع تحته شيء آخر للاتكاء عليه ، فلما قال : على سرر متكئين عليها دل هذا على أن استقرارهم واتكاءهم جميعاً على سرر ، وقوله تعالى : ﴿ متقابلين ﴾ فيه وجهان أحدهما : أن أحداً لا يستدبر أحداً وثانيهما : أن أحداً من السابقين لا يرى غيره فوقه ، وهذا أقرب لأن قوله : ﴿ متقابلين ﴾ على الوجه الأول يحتاج إلى أن يقال : متقابلين معناه أن كل أحد يقابل أحداً في زمان واحد ، ولا يفهم هذا إلا فيما لا يكون فيه اختلاف جهات ، وعلى هذا فيكون معنى الكلام أنهم أرواح ليس لهم أدبار وظهور ، فيكون المراد من السابقين هم الذين أجسامهم أرواح نورانية جميع جهاتهم وجه كالنور الذي يقابل كل شيء ولا يستدبر أحداً ، والوجه الأول أقرب إلى أوصاف المكانيات . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 125 . 131 ﴾

وقال القرطبى :

﴿ فَأَصْحَابُ الميمنة ﴾

فأصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، وأصحاب المشأمة هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ؛ قاله السُّديّ .

والمشأمة الميسرة وكذلك الشأمة .

يقال : قعد فلان شأمة .

ويقال : يا فلان شائم بأصحابك ؛ أي خذ بهم شأمة أي ذات الشمال .

والعرب تقول لليد الشمال الشؤمى ، وللجانب الشمال الأشأم .

وكذلك يقال لما جاء عن اليمين اليُمْن ، ولمَا جاء عن الشّمال الشؤم .

وقال ابن عباس والسُّديّ : أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذّرية من صُلْبه فقال الله لهم : هؤلاء في الجنة ولا أبالي .

وقال زيد بن أسلم : أصحاب الميمنة هم الذين أُخِذوا من شقّ آدم الأيمن يومئذ ، وأصحاب المشأمة الذين أُخِذوا من شق آدم الأيسر .

وقال عطاء ومحمد بن كعب : أصحاب الميمنة من أوتي كتابه بيمينه ، وأصحاب المشأمة من أوتي كتابه بشماله .

وقال ابن جريج : أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات ، وأصحاب المشأمة هم أهل السيئات .

وقال الحسن والربيع : أصحاب الميمنة الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة ، وأصحاب المشأمة المشائيم على أنفسهم بالأعمال السيئة القبيحة .

وفي صحيح مسلم من حديث الإسراء عن أبي ذرّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " فلما عَلَونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أَسْوِدة وعن يساره أَسْوِدة قال فإذا نظر قِبل يمينه ضحك وإذا نظر قِبل شماله بكى قال فقال مرحباً بالنبيّ الصالح والابن الصالح قال قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم عليه السلام وهذه الأسوِدة التي عن يمينه وعن شماله نَسَم بنيه فأهل اليمين أهل الجنة والأسوِدة التي عن شماله أهل النار " وذكر الحديث .

وقال المبرد : وأصحاب الميمنة أصحاب التقدّم ، وأصحاب المشأمة أصحاب التأخر .

والعرب تقول : اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك ؛ أي اجعلني من المتقدّمين ولا تجعلنا من المتأخرين .

والتكرير في ﴿ مَآ أَصْحَابُ الميمنة ﴾ .

و ﴿ مَآ أَصْحَابُ المشأمة ﴾ للتفخيم والتعجيب ؛ كقوله : ﴿ الحاقة * مَا الحآقة ﴾ [الحاقة : 1] و ﴿ القارعة * مَا القارعة ﴾ [القارعة : 1] كما يقال : زيد ما زيد ! وفي حديث أمّ زَرْع رضي الله عنها : مالِكٌ ومَا مَالِكٌ ! والمقصود تكثير ما لأصحاب الميمنة من الثواب ولأصحاب المشأمة من العقاب .

وقيل : "أَصْحَابُ" رفع بالابتداء والخبر ﴿ مَآ أَصْحَابُ الميمنة ﴾ كأنه قال : ﴿ فَأَصْحَابُ الميمنة ﴾ ما هم ؛ المعنى : أيُّ شيء هم .

وقيل : يجوز أن تكون "ما" تأكيداً ، والمعنى فالذين يعطون كتابهم بأيمانهم هم أصحاب التقدّم وعلوّ المنزلة .

قوله تعالى : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " السابقون الذين إذا أعطوا الحقّ قبلوه وإذا سئلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم " ذكره المهدوي .

وقال محمد بن كعب القُرَظيّ : إنهم الأنبياء .

الحسن وقتادة : السابقون إلى الإيمان من كل أمة .

ونحوه عن عكرمة .

محمد بن سيرين : هم الذين صَلُّوا إلى القبلتين ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين والأنصار ﴾ [التوبة : 100] .

وقال مجاهد وغيره : هم السابقون إلى الجهاد ، وأوّل الناس رواحاً إلى الصلاة .

وقال عليّ رضي الله عنه : هم السابقون إلى الصلوات الخمس .

الضحاك : إلى الجهاد .

سعيد بن جُبير : إلى التوبة وأعمال البر ؛ قال الله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران : 133] ثم أثنى عليهم فقال : ﴿ أولئك يُسَارِعُونَ فِي الخيرات وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون : 61] .

وقيل : إنهم أربعة ؛ منهم سابق أمة موسى وهو حزقيل مؤمن آل فرعون ، وسابق أمة عيسى وهو حبيب النجار صاحب أنطاكية ، وسابقان في أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ قاله ابن عباس ؛ حكاه الماوردي .

(55/743)

وقال شُمَيْط بن العجلان : الناس ثلاثة ؛ فرجل ابتكر للخير في حداثة سنه داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا هو السابق المقرّب ، ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم طول الغفلة ثم رجع

بتوبته حتى ختم له بها فهذا من أصحاب اليمين ، ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم لم يزل عليها حتى ختم له بها فهذا من أصحاب الشمال .

وقيل : هم كل من سبق إلى شيء من أشياء الصلاح .

ثم قيل : ﴿ السابقون ﴾ رفع بالابتداء والثاني توكيد له والخبر ﴿ أولئك المقربون ﴾ .

وقال الزجاج : ﴿ السابقون ﴾ رفع بالابتداء والثاني خبره ؛ والمعنى السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله ﴿ أولئك المقربون ﴾ من صفتهم .

وقيل : إذا خرج رجل من السابقين المقربين من منزله في الجنة كان له ضوء يعرفه به من دونه .

قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين ﴾ أي جماعة من الأمم الماضية .

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين ﴾ أي ممن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم .

قال الحسن : ثُلَّة ممن قد مضى قبل هذه الأمة ، وقليل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهم اجعلنا منهم بكرمك .

وسُمُّوا قليلاً بالإضافة إلى من كان قبلهم ؛ لأن الأنبياء المتقدّمين كثروا فكثر السابقون إلى الإيمان منهم ، فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا .

وقيل : لما نزل هذا شَقَّ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين ﴾ ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إني لأرجو أن

تكونوا ربع أهل الجنة بل ثلثَ أهل الجنة بل نصفَ أهل الجنة وتقاسمونهم في النصف الثاني "

رواه أبو هريرة ، ذكره الماوردي وغيره .

ومعناه ثابت في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود .

وكأنه أراد أنها منسوخة والأشبه أنها محكمة لأنها خبر ؛ ولأن ذلك في جماعتين مختلفتين .

(56/743)

قال الحسن : سابقو من مضى أكثر من سابقينا ؛ فلذلك قال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين ﴾

وقال في أصحاب اليمين وهم سوى السابقين : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين ﴾ ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين

﴾ ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إني لأرجو أن تكون أمتي شطر أهل الجنة "

ثم تلا قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين ﴾ ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ قال مجاهد : كلٌّ من هذه

الأمة .

وروى سفيان عن أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم :

" الثُّلَّتان جميعاً من أمتي " يعني ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين ﴾ ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ .

وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

قال أبو بكر رضي الله عنه : كِلاَ الثُّلَّتين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فمنهم من هو

في أوّل أمته ، ومنهم من هو في آخرها ؛ وهو مثل قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [فاطر : 32] .

وقيل : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴾ أي من أوّل هذه الأمة .

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ يسارع في الطاعات حتى يلحق درجة الأوّلين ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : " خيركم قَرْني " ثم سَوَّى في أصحاب اليمين بين الأوّلين والآخرين .

والثُّلَّة من ثَلَلت الشيء أي قطعته ، فمعنى ثلة كمعنى فرقة ؛ قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ على سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ [الطور : 20] أي السابقون في الجنة "عَلَى سُرُرٍ" ؛ أي مجالسهم على سرر جمع سرير .

﴿ مَّوْضُونَةٍ ﴾ قال ابن عباس : منسوجة بالذهب .

وقال عكرمة : مشبكة بالدُّرّ والياقوت .

وعن ابن عباس أيضاً : "مَوْضُونَةٍ" مصفوفة ؛ كما قال في موضع آخر : ﴿ على سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ .

وعنه أيضاً وعن مجاهد : مَرْمولة بالذهب .

وفي التفاسير : "مَوْضُونَةٍ" أي منسوجة بقضبان الذّهب مشبكة بالدّر والياقوت والزّبرجد .

والوضْن النسج المضاعف والنّضد ؛ يقال : وَضَن فلانٌ الحجَرَ والآجُرَّ بعضه فوق بعض فهو موضون ، ودرع موضونة أي محكمة في النّسج مثل مصفوفة ؛ قال الأعشى :

وَمِن نَسْجِ دَاوُدَ مَوضُونَة . . .

تُسَاقُ مع الحيِّ عِيراً فَعِيرَا

وقال أيضاً :

وبَيْضَاء كالنَّهْيِ مَوْضُونَة . . .

لها قَوْنَسٌ فوقَ جَيْبِ البَدَنْ

والسرير الموضون : الذي سطحه بمنزلة المنسوج ؛ ومنه الوَضِين : بِطانٌ من سُيور ينسج فيدخل بعضه في بعض ؛ ومنه قوله :

إليكَ تَعْدُو قَلِقاً وَضِينُها . . .

﴿ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا ﴾ أي على السرر ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ أي لا يرى بعضهم قفَا بعض ، بل تدور بهم الأسرة ، وهذا في المؤمن وزوجته وأهله ؛ أي يتكئون متقابلين .

قاله مجاهد وغيره .

وقال الكلبيّ : طول كل سرير ثلثمائة ذراع ، فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت فإذا جلس عليها ارتفعت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(58/743)

وقال الآلوسى :

﴿ فأصحاب الميمنة مَا أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة مَا أصحاب المشئمة ﴾

تفصيل للأزواج الثلاثة مع الإشارة الاجمالية إلى أحوالهم قبل تفصيلها ، والدائر على ألسنتهم أن أصحاب الميمنة مبتدأ ، وقوله تعالى : ﴿ مَا أصحاب الميمنة ﴾ ﴿ مَا ﴾ فيه استفهامية مبتدأ ثان .

(59/743)

و ﴿ أصحاب ﴾ خبره ، والجملة خبر المبتدأ الأول والرابط الظاهر القائم مقام الضمير ، وكذا يقال في قوله تعالى : ﴿ وأصحاب المشئمة ﴾ الخ ، والأصل في الموضعين ما هم ؟ أي أيّ شيء هم في حالهم وصفتهم فان ﴿ مَا ﴾ وإن شاعت في طلب مفهوم الاسم والحقيقة لكنها قد تطلب بها الصفة والحال كما تقول ما زيد ؟ فيقال : عالم ، أو طبيب فوضع الظاهر موضع الضمير لكونه أدخل في المقصود وهو التفخيم في الأول والتفظيع في

الثاني ، والمراد تعجيب السامع من شأن الفريقين في الفخامة والفظاعة كأنه قيل : ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ في غاية حسن الحال ﴿ وأصحاب المشئمة ﴾ في نهاية سوء الحال ، وقيل : جملة ﴿ مَا أصحاب ﴾ خبر بتقدير القول على ما عرف في الجملة الإنشائية إذا وقعت خبراً أي مقول في حقهم ﴿ مَا أصحاب ﴾ الخ فلا حاجة إلى جعله من إقامة الظاهر مقام الضمير وفيه نظر ، و ﴿ الميمنة ﴾ ناحية اليمين ، أو اليمن والبركة ، ﴿ والمشأمة ﴾ ناحية الشمال من اليد الشؤمى وهي الشمال ، أو هي من الشؤم مقابل اليمن ، ورجح إرادة الناحية فيهما بأنها أوفق بما يأتي في التفصيل ، واختلفوا في الفريقين فقيل : أصحاب الميمنة أصحاب المنزلة السنية ، وأصحاب المشأمة أصحاب المنزلة الدنية أخذاً من تيمنهم بالميامن وتشؤمهم بالشمائل كما تسمع في السانح والبارح ، وهو مجاز شائع ، وجوز أن يكون كناية ، وقيل : الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم والذين يؤتونها بشمائلهم ، وقيل : الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة والذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ، وقيل : أصحاب اليمن وأصحاب الشؤم ، فإن السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم والأشقياء مشائيم على أنفسهم بمعاصيهم ، وروى هذا عن الحسن .

والربيع

﴿ والسابقون السابقون ﴾ هو الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة ، ولعل تأخير ذكرهم مع كونهم أسبق الأصناف وأقدمهم في الفضل ليردف ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم على أن أيرادهم بعنوان السبق مطلقاً معرض عن إحرازهم قصب السبق من جميع الوجوه .

واختلف في تعيينهم فقيل : هم الذين سبقوا إلى الايمان والطاعة عند ظهور الحق من غير تلعثم وتوان ، وروى هذا عن عكرمة .

ومقاتل ، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت في حزقيل مؤمن آل فرعون .

وحبيب النجار الذي ذكر في يس .

وعليّ بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه وكل رجل منهم سابق أمته وعليّ أفضلهم ، وقيل : هم الذين سبقوا في حيازة الكمالات من العلوم اليقينية ومراتب التقوى الواقعة بعد الايمان ، وقيل : هم الأنبياء عليهم السلام لأنهم مقدموا أهل الأديان ، وقال ابن سيرين : هم الذين صلوا إلى القبلتين كما قال تعالى : ﴿ والسابقون الاولون مِنَ المهاجرين والانصار ﴾ [التوبة : 100] وعن ابن عباس هم السابقون إلى الهجرة ، وعن عليّ كرم الله تعالى وجهه هم السابقون إلى الصلوات الخمس ، وأخرج أبو نعيم .

والديلمي عن ابن عباس مرفوعاً أول من يهجر إلى المسجد وآخر من يخرج منه .

وأخرج عبد بن حميد : وابن المنذر عن عبادة بن أبي سودة مولى عبادة بن الصامت قال : بلغنا أنهم السابقون إلى المساجد والخروج في سبيل الله عز وجل ، وعن الضحاك هم السابقون إلى الجهاد ، وعن ابن جبير هم السابقون إلى التوبة وأعمال البر ، وقال كعب : هم أهل القرآن ، وفي "البحر" في الحديث " سئل عن السابقين فقال : هم الذين إذا أعطوا الحق قبلوه وإذا سئلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم " وقيل : الناس ثلاثة فرجل ابتكر الخير في حداثة سنه ثم دام عليه حتى خرج من الدنيا فهذا هو السابق ، ورجل ابتكر عمره بالذنب وطول الغفلة ثم تراجع بتوبته فهذا صاحب اليمين ، ورجل ابتكر الشر في حداثة سنه ثم لم يزل عليه حتى خرج من الدنيا فهذا صاحب الشمال ، وعن ابن كيسان أنهم المسارعون إلى كل ما دعا الله تعالى إليه ورجحه بعضهم بالعموم ، وجعل ما ذكر في أكثر الأقوال من باب التمثيل ، وأياً ما كان فالشائع أن الجملة مبتدأ وخبر والمعنى ﴿ والسابقون ﴾ هم الذين اشتهرت أحوالهم وعرفت فخامتهم كقوله

: أنا أبو النجم وشعري شعري . . .

وفيه من تفخيم شأنهم والإيذان بشيوع فضلهم ما لا يخفى ، وقيل : متعلق السبق مخالف

لمتعلق السبق الثاني أي السابقون إلى طاعة الله تعالى ﴿ السابقون ﴾ إلى رحمته سبحانه ، أو ﴿ السابقون ﴾ إلى الخير ﴿ السابقون ﴾ إلى الجنة ، والتقدير الأول محكي عن صاحب المرشد .

وأنت تعلم أن الحمل مفيد بدون ذلك كما سمعت بل هو أبلغ وأنسب بالمقام وأياً ما كان فقوله تعالى :

(62/743)

﴿ أُوْلَئِكَ المقربون ﴾ ، مبتدأ وخبر والجملة استئناف بياني ، وقيل : ﴿ السابقون ﴾ [الواقعة : 10] السابق مبتدأ ﴿ والسابقون ﴾ اللاحق تأكيد له وما بعد خبر وليس بذاك أيضاً لفوات مقابلة ما ذكر لقوله تعالى : ﴿ فأصحاب ﴾ [الواقعة : 8] الخ ولأن القسمة لا تكون مستوفاة حينئذ ، ولفوات المبالغة المفهومة من نحو هذا التركيب على ما سمعت مع أنهم أعني السابقين أحق بالمدح والتعجيب من حالهم من السابقين ولفوات ما في الاستئناف بأولئك المقربون من الفخامة وإنما لم يقل والسابقون ما السابقون على منوال الأولين لأنه جعل أمراً مفروغاً مسلماً مستقلاً في المدح والتعجيب ، والإشارة بأولئك إلى السابقين وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلتهم في الفضل ،

و﴿ المقربون ﴾ من القربة بمعنى الحضوة أي أولئك الموصوفون بذلك النعت الجليل الذين أنيلوا حظوة ومكانة عند الله تعالى ، وقال غير واحد : المراد الذين قربت إلى العرش العظيم درجاتهم .

هذا وفي الأرشاد الذي تقتضيه جزالة التنزيل أن قوله تعالى : ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ [الواقعة : 8] خبر مبتدأ محذوف وكذا قوله سبحانه : ﴿ وأصحاب المشئمة ﴾ وقوله جل شأنه : ﴿ والسابقون ﴾ فإن المترقب عند بيان انقسام الناس إلى الأقسام الثلاثة بيان أنفس الأقسام .

(63/743)

وأما أوصافها وأحوالها فحقها أن تبين بعد ذلك بإسنادها إليها ، والتقدير فأحدها أصحاب الميمنة والآخر أصحاب المشأمة ، والثالث السابقون خلا أنه لما أخر بيان أحوال القسمين الأولين عقب كلاً منهما بجملة معترضة بين القسمين منبئة عنت ترامي أحوالهما في الخير والشر إنباءاً إجمالياً مشعراً بأن لأحوال كل منهما تفصيلاً مترقباً لكن لا على أن ﴿ مَا ﴾ الاستفهامية مبتدأ وما بعدها خبر على ما رآه سيبويه في أمثال بل على أنها خبر لما بعدها فإن مناط الإفادة بيان أن أصحاب الميمنة أمر بديع كما يفيده كون ﴿ مَا ﴾ خبراً

لا بيان أن أمراً بديعاً أصحاب الميمنة كما يفيده كونها مبتدأ وكذا الحال في ﴿ مَا أصحاب المشئمة ﴾ [الواقعة : 9] وأما القسم الأخير فحيث قرن به بيان محاسن أحواله لم يحتج فيه إلى تقديم الأنموذج فقوله تعالى : ﴿ السابقون ﴾ مبتدأ والإظهار في مقام الإضمار للتفخيم و ﴿ أولئك ﴾ مبتدأ ثان ، أو بدل من الأول وما بعده خبر له ، أو للثاني ، والجملة خبر للأول انتهى ، وقيل عليه : أنه ليس في جعل جملتي الاستفهام وقوله سبحانه : ﴿ السابقون ﴾ إخباراً لما قبلها بيان لأوصاف الأقسام وأحوالها تفصيلاً حتى يقال : حقها أن تبين بعد أنفس الأقسام بل فيه بيان الأقسام مع إشارة إلى ترامي أحوالها في الخير والشر والتعجيب من ذلك .

(64/743)

وأيضاً مقتضى ما ذكره أن لا يذكر ﴿ مَا أصحاب اليمين ﴾ و ﴿ مَا أصحاب الشمال ﴾ [الواقعة : 14] في التفصيل ، وتعقب هذا بأن الذكر محتاج إلى بيان نكتة على الوجه الدائر على ألسنتهم كاحتياجه إليه على هذا الوجه ، ولعلها عليه أنه لما عقب الأولين بما يشعر بأن لأحوال كل تفاصيل مترقبة أعيد ذلك للاعلام بأن الأحوال العجيبة هي هذه فلتسمع ، والذي يتبادر للنظر الجليل ما في الإرشاد من كون أصحاب الميمنة وكذا كل من

الأخيرين خبر مبتدأ محذوف كما سمعت لأن المتبادر بعد بيان الانقسام ذكر نفس الأقسام على أن تكون هي المقصودة أولاً وبالذات دون الحكم عليها وبيان أحوالها مطلقاً وإن تضمن ذلك ذكرها لكن ما ذكروه أبعد مغزى ومع هذا لا يتعين على ما ذكر كون تينك الجملتين الاستفهاميتين معترضتين بل يجوز أن يكون كل منهما صفة لما قبلها بتقدير القول كأنه قيل : فأحدها أصحاب الميمنة المقول فيهم ﴿ مَا أصحاب الميمنة ﴾ وكذا يقال في ﴿ وأصحاب المشئمة ﴾ الخ ، ويجعل أيضاً ﴿ السابقون ﴾ صفة للسابقون قبله ، والتأويل في الوصفية كالتأويل في الخبرية ويكون الوصف بذلك قائماً مقام تينك الجملتين في المدح ، والجملة بعد مستأنفة استئنافاً بيانياً كما في الوجه الشائع ، وما يقال : إن في هذا الوجه حذف الموصول مع بعض أجزاء الصلة يجاب عنه بمنع كون أل في الوصف حيث لم يرد منه الحدوث موصولة فتأمل ولا تغفل ، وقوله تعالى :

(65/743)

﴿ فِي جنات النعيم ﴾ متعلق بالمقربون ، أو بمضمر هو حال من ضميره أي كائنين في جنات النعيم ، وعلى الوجهين فيه إشارة إلى أن قربهم محض لذة وراحة لا كقرب خواص الملك القائمين بأشغاله عنده بل كقرب جلسائه وندمائه الذين لا شغل لهم ولا يرد عليهم أمر

، أو نهي ولذا قيل : ﴿ فِي جنات النعيم ﴾ دون جنات الخلود ونحوه ، وقيل : خبر ثان لاسم الإشارة وتعقب بأن الاخبار بكونهم فيها بعد الإخبار بكونهم مقربين ليس فيه مزيد مزية ، وأجيب بأن الإخبار الأول للإشارة إلى اللذة الروحانية والإخبار الثاني للإشارة إلى اللذة الجسمانية .

وقرأ طلحة في جنة النعيم بالافراد ، وقوله تعالى :

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13)

خبر مبتدأ مقدر أي هم ثلة الخ ، وجوز كونه مبتدأ خبره محذوف أي منهم ، أو خبراً أولاً أو ثانياً لأولئك وجوز أبو البقاء كونه مبتدأ والخبر ﴿ على سُرُرٍ ﴾ [الواقعة : 15] ، والثلة في المشهور الجماعة كثرت أو قلّت ، وقال الزمخشري : الأمة من الناس الكثيرة وأنشد قوله :

وجاءت إليهم (ثلة) خندفية . . .

(بجيش كتيار من السيل مزبد

وقوله تعالى بعد : ﴿ وَقَلِيلٌ ﴾ [الواقعة : 14] الخ كفى به دليلاً على الكثرة انتهى ، والظاهر أنه أنشد البيت شاهداً لمعنى الكثرة في الثلة فإن كانت الباء تجريدية وهو الظاهر فنص وإلا فالاستدلال عليها من أن المقام مقام مبالغة ومدح ، وأما استدلاله بما بعد فذلك لأن التقابل مطلوب لأن الثلة لم توضع للقليل بالإجماع حتى يحمل ما بعد على التفنن بل هي إما للكثرة والاشتقاق عليها أدل لأن الثل بمعنى الصب وبمعنى الهدم بالكلية ، والثلة بالكسر الضأن الكثيرة وإما لمطلق الجماعة كالفرقة والقطعة من الثل بمعنى الكسر كأنها جماعة كسرت من الناس وقطعت منهم إلا أن الاستعمال غلب على الكثير فيها فالمعنى جماعة كثيرة من الأولين وهم الناس المتقدمون من لدن آدم إلى نبينا عليهما الصلاة والسلام وعلى من بينهما من الأنبياء العظام .

وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14)

وهم الناس من لدن نبينا صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة ولا يخالفه قوله عليه الصلاة والسلام : "إن أمتي يكثرون سائر الأمم" أي يغلبونهم في الكثرة لأن أكثرية سابقي المتقدمين من سابقي هذه الأمة لا تمنع أكثرية تابعي هؤلاء من تابعي أولئك .

وحاصل ذكل غلبة مجموع هذه الأمة كثرة على من سواها كقرية فيها عشرة من العلماء ومائة من العوام وأخرى فيها خمسة من العلماء وألف من العوام فخواص الأولى أكثر من خواص الثانية وعوام الثانية ومجموع أهلها أضعاف أولئك ، لا يقال يأبى أكثرية تابعي هؤلاء

قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الاولين وَثُلَّةٌ مِّنَ الاخرين ﴾ [الواقعة : 39-40] فإنه في حق أصحاب اليمين وهم التابعون ، وقد عبر كل بالثلة أي الجماعة الكثيرة لأنا نقول لأدلة في الآية على أكثر من وصف كل من الفريقين بالكثرة وذلك لا ينافي أكثرية أحدهما فتحصل أن سابقي الأمم السوالف أكثر من سابقي أمتنا .

(67/743)

وتابعي أمتنا أكثر من تابعي الأمم ، والمراد بالأمم ما يدخل فيه الأنبياء وحينئذ لا يبعد أن يقال : إن كثرة سابقي الأولين ليس إلا بأنبيائهم فما على سابقي هذه الأمة بأس إذ أكثرهم سابقو الأمم بضم الأنبياء عليهم السلام ، وأخرج الإمام أحمد .

وابن المنذ .

روابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن أبي هريرة قال : "لما نزلت ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الاولين وَقَلِيلٌ مِّنَ الاخرين ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الاولين وَثُلَّةٌ مِّنَ الاخرين ﴾ [الواقعة : 39-40] فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة بل أنتم نصف أهل الجنة أو شطر أهل الجنة وتقاسمونهم النصف

الثاني " وظاهره أنه شق عليهم قلة من وصف بها وأن الآية الثانية أزالت ذلك ورفعته وأبدلته بالكثرة ، ويدل على ذلك ما أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : لما نزلت ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الاولين وَقَلِيلٌ مِّنَ الاخرين ﴾ حزن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا إذاً لا يكون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا قليل فنزلت نصف النهار ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الاولين وَثُلَّةٌ مِّنَ الاخرين ﴾ فنسخت ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الاخرين ﴾ وأبى ذلك الزمخشري فقال : إن الرواية غير صحيحة لأمرين : أحدهما : أن الآية الأولى واردة في السابقين ، والثانية : في أصحاب اليمين ، والثاني أن النسخ في الأخبار غير جائز فإذا أخبر تعالى عنهم بالقلة لم يجز أن يخبر عنهم بالكثرة من ذلك الوجه وما ذكر من عدم جواز النسخ في الأخبار أي في مدلولها مطلقاً هو المختار .

وقيل : يجوز النسخ في المتغير إن كان عن مستقبل لجواز المحو لله تعالى فيما يقدره والاخبار يتبعه ، وعلى هذا البيضاوي ، وقيل : يجوز عن الماضي أيضاً وعليه الإمام الرازي .

(68/743)

والآمدي ، وأما نسخ مدلول الخبر إذا كان مما لا يتغير كوجود الصانع وحدوث العالم فلا يجوز اتفاقاً فإن كان ما نحن فيه مما يتغير فنسخه جائز عند البيضاوي ويوافقه ظاهر خبر أبي

هريرة الثاني ، ولا يجوز على المختار الذي عليه الشافعي وغيره فقول "صاحب الكشف" : لا خلاف في عدم جواز النسخ في مثل ما ذكر من الخبر إذ لا يتضمن حكماً شرعياً لا يخلو عن شيء .

وأقول : قد يتعقب ما ذكره الزمخشري بأن الحديث قد صح وورود الآية الأولى في السابقين والثانية في أصحاب اليمين لا يرد مقتضاه فإنه يجوز أن يقال : إن الصحابة رضي الله تعالى عنهم لما سمعوا الآية الأولى حسبوا أن الأمر في هذه الأمة يذهب على هذا النهج فيكون أصحاب اليمين ثلة من الأولين وقليلاً منهم فيكثرهم الفائزون بالجنة من الأمم السوالف فحزنوا لذلك فنزل قوله تعالى في أصحاب اليمين : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الاولين وَثُلَّةٌ مِّنَ الاخرين ﴾ وقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ما قال مما أذهب به حزنهم وليس في هذا نسخ للخبر كما لا يخفى .

وقول أبي هريرة فنسخت ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الاخرين ﴾ إن صح عنه ينبغي تأويله بأن يقال أراد به فأزالت حسبان أن يذكر نحوه في الفائزين بالجنة من هذه الأمة غير السابقين فتدبر ، وعن عائشة رضي الله تعالى عنها : الفرقتان أي في قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الاولين وَقَلِيلٌ مِّنَ الاخرين ﴾ في أمة كل نبي في صدرها ثلة وفي آخرها قليل ، وقيل : هما من الأنبياء عليهم السلام كانوا في صدر الدنيا كثيرين وفي آخرها قليلين .

وقال أبو حيان : جاء في الحديث " الفرقتان في أمتي فسابق أول الأمة ثلة وسابق سائرها

إلى يوم القيامة قليل " انتهى ، وجاء في فرقتي أصحاب اليمين نحو ذلك ، أخرج مسدد في مسنده .

وابن المنذر .

والطبراني .

(69/743)

وابن مردويه بسند حسن عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله سبحانه : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الاولين وَثُلَّةٌ مِّنَ الاخرين ﴾ قال : هما جميعاً من هذه الأمة ، وأخرج جماعة بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعاً ما لفظه هما جميعاً من أمتي ؛ وعلى هذا يكون الخطاب في قوله عز وجل : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثلاثة ﴾ [الواقعة : 7] لهذه الأمة فقط .

﴿ على سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ حال من المقربين أو من ضميرهم في قوله تعالى : ﴿ فِي جنات النعيم ﴾ [الواقعة : 12] بناءاً على أنه في موضع الحال كما تقدم ، وقيل : هو خبر آخر للضمير المحذوف المخبر عنه أولاً بثلة وفيه وجه آخر أشرنا إلينا فيما مر ، ﴿ وموضونة ﴾ من الوضن وهو نسج الدرع قال الأعشى

: ومن (نسج داود) موضونة . . .

تسير مع الحي عيراً فعيرا

واستعير لمطلق النسخ أو لنسج محكم مخصوص ، ومن ذلك وضين الناقة وهو حزامها لأنه موضون أي مفتول ؛ والمراد هنا على ما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس مرمولة أي منسوجة بالذهب ، وفي رواية عنه بقضبان الفضة ، وقال عكرمة : مشبكة بالدر والياقوت ، وقيل : ﴿ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ متصل بعضها ببعض كحلق الدرع ، والمراد متقاربة ، وقرأ زيد بن علي .

وأبو السمال ﴿ سُرُرٍ ﴾ بفتح الراء وهي لغة لبعض تميم ، وكلب يفتحون عين فعل جمع فعيل المضعف نحو سرير .

﴿ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا ﴾ حال من الضمير المستقر في الجار والمجرور أعني ﴿ على سرر ﴾ [الواقعة : 15] ، وقوله تعالى : ﴿ متقابلين ﴾ حال منهم أيضاً ولك أن تعتبر الحالين متداخلين .

والمراد كما قال مجاهد : لا ينظر أحدهم في قفا صاحبه وهو وصف لهم بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق ورعاية الآداب وصفاء البواطن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8) ﴾

قد علمت عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ [الواقعة : 1] الوجه في متعلق ﴿ إذا ﴾ وإذ قد وقع قوله : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ [الواقعة : 7] عطفاً على الجمل التي أضيف إليها (إذَا) من قوله : ﴿ إذا رجت الأرض رجا ﴾ [الواقعة : 4] كان هو محط القصد من التوقيت بـ (إذا) الثانية الواقعة بدلاً من (إذا) الأولى وكلتاهما مضمن معنى الشرط ، فكان هذا في معنى الجزاء ، فلك أن تجعل الفاء لربط الجزاء مع التفصيل للإجمال ، وتكون جملة ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ جواباً ل (إذا) الثانية آئلاً إلى كونه جواباً ل (إذا) الأولى لأن الثانية مبدلة منها ، ولذلك جاز أن يكون هذا هو جواب (إذا) الأولى فتكون الفاء مستعملة في معنييها كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ [الواقعة : 2] .

وقد أفاد التفصيل أن الأصناف ثلاثة:

صنفٌ منهم أصحاب الميمنة ، وهم الذين يجعلون في الجهة اليمنى في الجنة أو في المحشر .

واليمين جهة عناية وكرامة في العرف ، واشتقت من اليمْن ، أي البركة .

وصنف أصحاب المشأمة ، وهي اسم جهة مشتقة من الشؤم ، وهو ضد اليمن فهو الضر وعدم النفع وقد سميا في الآية الآتية ﴿ أصحابَ اليمين ﴾ [الواقعة : 27] و ﴿ أصحاب الشمال ﴾ [الواقعة : 41] ، فجعل الشمال ضدَّ اليمين كما جُعل المشأمة هنا ضد الميمنة إشعاراً بأن حالهم حال شؤم وسوء ، وكل ذلك مستعار لما عرف في كلام العرب من إطلاق هذين اللفظين على هذا المعنى الكنائي الذي شاع حتى ساوى الصريح ، وأصله جاءٍ من الزجر والعيافة إذ كانوا يتوقعون حصول خير من أغراضهم من مرور الطير أو الوحش من يمين الزاجر إلى يساره ويتوقعون الشر من مروره بعكس ذلك ، وقد تقدم تفصيله عند قوله تعالى : ﴿ قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ في سورة الصافات (28) ، وتقدم شيء منه عند قوله تعالى : ﴿ يَطَّيَّروا بموسى ومن معه ﴾ في سورة الأعراف (131) ، وعند قوله تعالى : ﴿ قالوا إنا تَطيرنا بكم ﴾ في سورة يس (18) .

ولذلك استغني هنا عن الإخبار عن كلا الفريقين بخبر فيه وصف بعض حاليهما بذكر ما هو إجمال لحاليهما مما يشعر به ما أضيف إليه أصحابه من لفظي الميمنة والمشأمة بطريقة

الاستفهام المستعمل في التعجيب من حال الفريقين في السعادة والشقاوة ، وهو تعجيب ترك على إبهامه هنا لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن من الخير والشر ، ف (ما) في الموضعين اسم استفهام .

و(أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة) خبرَانِ عن (مَا) في الموضعين كقوله تعالى : ﴿ الحاقة ما الحاقة ﴾ [الحاقة : 1 ، 2] وقوله : ﴿ القارعة ما القارعة ﴾ [القارعة : 1 ، 2] .

وإظهار لفظي ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ و ﴿ أصحاب المشئمة ﴾ بعد الاستفهامين دون الإتيان بضميريْهما .

لأن مقام التعجيب والتشهير يقتضي الإظهار بخلاف مقام قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما هية ﴾ [القارعة : 10] .

(72/743)

وقوله : ﴿ والسابقون ﴾ هذا الصنفُ الثالث في العدّ وهم الصنف الأفضل من الأصناف الثلاثة ، ووصفُهم بالسبق يقتضي أنهم سابقون أمثالهم من المحسنين الذين عبر عنهم بأصحاب الميمنة فهم سابقون إلى الخير ، فالناس لا يتسابقون إلا لنوال نفيس مرغوب

لكل الناس ، وأما الشر والضرّ فهم يتكعكون عنه .

وحقيقة السبق : وصول أحد مكاناً قبل وصول أحد آخر .

وهو هنا مستعمل على سبيل الاستعارة ، وقد جمع المعنيين قول النابغة:

سَبقتَ الرجال الباهشين إلى العُلا . . .

كسبق الجواد اصطاد قبل الظوارد

فيجوز أن يكون ﴿ السابقون ﴾ مستعملاً في المبادرة والإسراع إلى الخير في الدين كما في قوله تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﴾ في سورة براءة (100) .

ويجوز أن يكون مستعملاً في المغالبة في تحصيل الخير كقوله تعالى : ﴿ أولئك يسارعون في الخيران وهم لها سابقون ﴾ في سورة المؤمنين (61) .

وقوله : ﴿ السابقون ﴾ ثانياً يجوز جعله خبراً عن ﴿ السابقون ﴾ الأول كما أُخبر عن أصحاب الميمنة بأنهم ﴿ ما أصحاب الميمنة ﴾ لأنه يدل على وصفهم بشيء لا يكتنه كنهه بحيث لا يفي به التعبير بعبارة غير تلك الصفة إذ هي أقصى ما يسعه التعبير ، فإذا أراد السامع أن يتصور صفاتهم فعليه أن يتدبر حالهم ، وهذا على طريقه قوله : ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ [الأعراف : 157] .

ويجوز جعله تأكيداً للأول فمآل جملة ﴿ ما أصحاب الميمنة ﴾ ونظيرتها وجملة ﴿ والسابقون السابقون ﴾ هو التعجيب من حالهم وطريقُه هو الكناية ولكنّ بين الكنايتين

فرقاً بأن إحداهما كانت من طريق السؤال عن الوصف ، والأخرى من طريق تعذر التعبير بغير ذلك الوصف .

(73/743)

والمعنى : أن حالهم بلغت منتهى الفضل والرفعة بحيث لا يجد المتكلم خبراً يُخبر به عنهم أدلّ على مرتبتهم مِن اسم ﴿ السابقون ﴾ فهذا الخبر أبلغ في الدلالة على شرف قدرهم من الإخبار بـ ﴿ ما ﴾ الاستفهامية التعجيبية في قوله : ﴿ ما أصحاب الميمنة ﴾ ، وهذا مثل قول أبي الطمحان القفيني:

وإني من القوم الذين هُمُو هُمُو . . .

إذا مات منهم سيد قام صاحبه

مع ما في اشتقاق لقبهم من "السبق" من الدلالة على بلوغهم أقصى ما يطلبه الطالبون .

وحذف متعلق ﴿ السابقون ﴾ في الآية لقصد جعل وصف ﴿ السابقون ﴾ بمنزلة اللقب لهم ، وليفيد العموم ، أي أنهم سابقون في كل ميدان تتسابق إليه النفوس الزكية كقوله تعالى : ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ [المطففين : 26] ، فهؤلاء هم السابقون إلى الإيمان بالرسل وهم الذين صحبوا الرسل والأنبياء وتلقوا منهم شرائعهم ، وهذا

الصنف يوجد في جميع العصور من القدم ، ومستمر في الأمم إلى الأمة المحمدية وليس صنفاً قد انقضى وسبقَ الأمةَ المحمدية .

وأُخِّر ﴿ السابقون ﴾ في الذكر عن أصحاب اليمين لتشويق السامعين إلى معرفة صنفهم بعد أن ذكر الصنفان الآخران من الأصناف الثلاثة ترغيباً في الاقتداء .

وجملة ﴿ أولئك المقربون في جنات النعيم ﴾ ، مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنها جواب عما يثيره قوله : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ من تساؤل السامع عن أثر التنويه بهم .

وبذلك كان هذا ابتداء تفصيل لجزاء الأصناف الثلاثة على طريقة النشرِ بعد اللف ، نشراً مشوَّشاً تشويشاً اقتضته مناسبة اتصال المعاني بالنسبة إلى كل صنف أقربَ ذِكراً ، ثم مراعاةُ الأهمّ بالنسبة إلى الصنفين الباقيين فكان بعض الكلام آخذاً بحُجز بعض .

(74/743)

والمقرَّب : أبلغ من القريب لدلالة صيغته على الاصطفاء والاجتباء ، وذلك قُرب مجازي ، أي شُبه بالقرب في ملابسة القريب والاهتمام بشؤونه فإن المطيع بمجاهدته في الطاعة يكون كالمتقرب إلى الله ، أي طالب القرب منه فإذا بلغ مرتبة عالية من ذلك قرّبه الله ، أي عامله معاملة المقرّب المحبوب ، كما جاء : "ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحِبَّه فإذا

أحببته كنت سمعَه الذي يسمع به وبصَره الذي يُبصر به ويدَه التي يبطش بها ورجلَه الذي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه" وكل هذه الأوصاف مجازيه تقريباً لمعنى التقريب .

ولم يُذكَر متعلِّق ﴿ المقربون ﴾ لظهور أنه مقرب من الله ، أي من عنايته وتفضيله ، وكذلك لم يذكر زَمان التقريب ولا مكانُه لقصد تعميم الأزمان والبقاع الاعتبارية في الدنيا والآخرة .

وفي جعل المسند إليه اسم إشارة تنبيه على أنهم أحرياء بما يخبر عنه من أجل الوصف الوارد قبل اسم الإشارة وهو أنهم السابقون على نحو ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ في سورة البقرة (5) .

وقوله : ﴿ في جنات النعيم ﴾ خبر ثانٍ عن ﴿ أولئك المقربون ﴾ أو حال منه .

وإيقاعه بعد وصف ﴿ المقربون ﴾ مشير إلى أن مضمونه من آثار التقريب المذكور .

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14)

اعتراض بين جملة ﴿ في جنات النعيم ﴾ [الواقعة : 12] وجملة على ﴿ سرر موضونة ﴾ [الواقعة : 15] .

و﴿ ثلة ﴾ خبر عن مبتدأ محذوف ، تقديره : هم ثلة ، ومعاد الضمير المقدر "السابقون" ، أي السابقون ثلة من الأولين وقليل من الآخرين .

وهذا الاعتراض يقصد منه التنويه بصنف السابقين وتفضيلهم بطريق الكناية عن ذلك

بلفظي ﴿ ثلة ﴾ و ﴿ قليل ﴾ المشعرَيْن بأنهم قُلٌّ من كثر ، فيستلزم ذلك أنهم صنف عزيز نفيس لما عهد في العرف من قلة الأشياء النفيسة وكقول السموأل وقيل غيرِه:

تعيرنا أنّا قليل عديدنا . . .

(75/743)

فقلت لها : إن الكرام قليل

مع بشارة المسلمين بأن حظهم في هذا الصنف كحظ المؤمنين السالفين أصحاب الرسل لأن المسلمين كانوا قد سمعوا في القرآن وفي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تنويهاً بثبات المؤمنين السالفين مع الرسل ومجاهدتهم فربما خامر نفوسهم أن تلك صفة لا تُنال بعدهم فبشرهم الله بأن لهم حظاً منها مثل قوله تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ إلى قوله : ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربّيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضَعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾ [آل عمران : 144 146] وغيرها ، تلهيباً للمسلمين وإذكاء لهممهم في الأخذ بما يُلحقهم بأمثال السابقين من الأولين فيستكثروا من تلك الأعمال .

وفي الحديث : " لقَد كان من قبلكم يوضع المِئْشار على أحدهم فينشر إلى عظمه لا يصده

ذلك عن دينه " .

والثُّلَّة : بضم الثاء لا غير : اسم للجماعة من الناس مطلقاً قليلاً كانوا أو كثيراً ، وهذا هو قول الفراء وأهل اللغة والراغب وصاحب "لسان العرب" وصاحب "القاموس" والزمخشري في "الأساس" ، وقال الزمخشري في "الكشاف" إن الثلة : الأمة الكثيرة من الناس ومحمله على أنه أراد به تفسير معناها في هذه الآية لا تفسير الكلمة في اللغة .

ولما في هذا الاعتراض من الإِشعار بالعزة قدم على ذكر ما لهم من النعيم للإِشارة إلى عظيم كيفيته المناسبةِ لوصفهم بـ (السابقين) بخلاف ما يأتي في أصحاب اليمين .

ومعنى : ﴿ الأولين ﴾ قوم متقدمون على غيرهم في الزمان لأن الأول هو الذي تقدم في صفة مَّا كالوجود أو الأحوال على غير الذي هو الآخِر أو الثاني ، فالأوّلية أمر نسبي يبيّنه سياق الكلام حيثما وقع .

(76/743)

فالظاهر أن ﴿ الأولين ﴾ هنا مراد بهم الأمم السابقة قبل الإسلام بناء على ما تقدم من أن الخطاب في قوله : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ [الواقعة : 7] خطاب لجميع الناس بعنوان أنهم ناس لأن المنقرضين الذين يتقدمون من أمة أو قبيلة أو أهل نحلة يُدعون بالأوليين كما

قال الفرزدق:

ومهلهل الشعراء ذاك الأوّل . . .

وقال تعالى : ﴿ أو آباؤنا الأوّلون ﴾ [الواقعة : 48] الذين هم يخلفونهم ويكونون موجودين ، أو في تقدير الموجودين يُدعون الآخرين .

وقد وُصف أهل الإسلام بالآخرين في حديث فضل الجمعة " نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بَيد أنهم أُوتوا الكتاب مِن قبلنا " الحديث .

وإذ قد وُصف السابقون بما دل على أنهم أهل السبق إلى الخير ووصفت حالهم في القيامة عَقِبَ ذلك فقد عُلم أنهم أفضل الصالحين من أصحاب الأديان الإلهية ابتداء من عصر آدم إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وهم الذين جاء فيهم قوله تعالى : ﴿ مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾ [النساء : 69] .

فلا جرم أن المراد بـ ﴿ الأولين ﴾ الأممُ الأولى كلها ، وكان معظم تلك الأمم أهل عناد وكفر ولم يكن المؤمنون فيهم إلا قليلاً كما تنبىء به آيات كثيرة من القرآن .

ووصف المؤمنون من بعض الأمم عند أقوامهم بالمستضعفين ، وبالأرذلين ، وبالأقلين .

ولا جرم أن المراد بالآخرين الأمة الأخيرة وهم المسلمون .

فالسابقون طائفتان طائفة من الأمم الماضين ومجموع عددها في ماضي القرون كثير مثل أصحاب موسى عليه السلام الذين رافقوه في التيه ، ومثل أصحاب أنبياء بني إسرائيل ،

ومثل الحواريين ، وطائفة قليلة من الأمة الإسلامية وهم الذين أسرعوا للدخول في الإسلام وصحبوا النبي صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﴾ [التوبة : 100] ، وإذ قد كانت هذه الآية نزلت قبل الهجرة فهي لا يتحقق مفادها إلا في المسلمين الذين بمكة .

(77/743)

و ﴿ مِن ﴾ تبعيضية كما هو بيّن ، فاقتضى أن السابقين في الأزمنة الماضية وزمان الإسلام حاضِره ومستقبله بعض من كلٍّ ، والبعضية تقتضي القلة النسبية ولفظ ﴿ ثلة ﴾ مشعر بذلك ولفظ ﴿ قليل ﴾ صريح فيه .

وإنما قوبل لفظ ﴿ ثلة ﴾ بلفظ ﴿ قليل ﴾ للإِشارة إلى أن الثلة أكثر منه .

وعن الحسن أنه قال : سابقو من مضى أكثر من سابقينا .

وروي عن أبي هريرة " أنه لما نزلت : ﴿ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ شقّ ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وحزنوا وقالوا : إذن لا يكون من أمة محمد إلا قليل ، فنزلت نصف النهار ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ [الواقعة : 39 ، 40] فنسخت : ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ " .

وهذا الحديث مشكل ومجمل فإن هنا قسمين مشتبهين ، والآية التي فيها ﴿ وثلّة من الآخرين ﴾ [الواقعة : 40] ليست واردة في شأن السابقين فليس في الحديث دليل على أن عدد أهل مرتبة السابقين في الأمم الماضية مساوٍ لعدد أهل تلك المرتبة في المسلمين ، وأن قول أبي هريرة : "فنَسخت ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ " يريد نسخت هذه الكلمة . فمراده أنها أبطلت أن يكون التفوق مطرداً في عدد الصالحين فبقي التفوق في العدد خاصاً بالسابقين من الفريقين دون الصالحين الذين هم أصحاب اليمين ، والمتقدمون يطلقون النسخ على ما يشمل البيان فإنه مورد آية : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ [الواقعة : 39 ، 40] في شأن صنف أصحاب اليمين ومورد الآية التي فيها : ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ هو صنف السابقين فلا يتصور معنى النسخ بالمعنى الاصطلاحي مع تغاير مورد الناسخ والمنسوخ ولكنه أريد به البيان وهو بيان بالمعنى الأعم .

عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16)

الجار والمجرور خبر ثالث عن ﴿ أولئك المقربون ﴾ [الواقعة : 11] أو حال ثانية من اسم الإشارة .

وهذا تبشير ببعض ما لهم من النعيم مما تشتاق إليه النفوس في هذه الحياة الدنيا لتشويقهم إلى هذا المصير فيسعوا لنواله بصالح الأعمال ، وليس الاقتصار على المذكور هنا بمقتض حصر النعيم فيما ذكر فقد قال الله تعالى : ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين ﴾ [الزخرف : 71] .

والسُرر : جمع سرير ، وهو كرسي طويل متسع يجلس عليه المتكىء والمضطجع ، له سُوق أربع مرتفع على الأرض بنحو ذراع يُتخذ من مختلف الأعواد ويتخذه الملوك من ذهب ومن فضة ومن عاج ومن نفيس العود كالأبنوس ويتخذه العظماء المترفهون من الحديد الصرف ومن الحديد الملون أو المزين بالذهب .

والسرير مجلس العظماء والملوك .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ على سرر متقابلين ﴾ في سورة الصافات (44) .

والموضونة : المسبوك بعضها ببعض كما تسبك حلق الدروع وإنما توضن سطوحها وهي ما بين سوقها الأربع حيث تلقى عليها الطنافس أو الزرابي للجلوس والاضطجاعِ ليكون ذلك المَفْرَش وثيراً فلا يؤلم المضطجع ولا الجالس .

وفسر بعضهم موضونة ﴾ بمرمولة ، أي منسوجة بقضبان الذهب .

والاتكاء : اضطجاع مع تباعد أعلى الجنب ، والاعتمادِ على المرفق ، وتقدم في سورة الرحمن .

والتقابل : من تمام النعيم لما فيه من الأنس بمشاهدة الأصحاب والحديث معهم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(79/743)

قوله تعالى ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (19) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (25) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (26) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان المتكىء قد يصعب عليه القيام لحاجته قال : ﴿ يطوف عليهم ﴾ أي لكفاية كل ما يحتاجون إليه ﴿ ولدان ﴾ على أحسن صورة وزي وهيئة ﴿ مخلدون ﴾ قد حكم ببقائهم على ما هم عليه من الهيئة ، قال البغوي : تقول العرب لمن كبر ولمن شمط : إنه مخلد ، قال : قال الحسن : هم أولاد أهل الدنيا ، لم يكن لهم حسنات يثابون عليها ولا سيئات يعاقبون عليها لأن الجنة لا ولادة فيها ، فهم خدام أهل الجنة .

ولما كان مدحهم هذا في غاية الإبلاغ مع الإيجاز ، وكان فيه – إلى تبليغ ما لهم – تحريك إلى مثل أعمالهم ، وكان الأكل الذي هو من أعظم المآرب مشاراً إليه بالمدح العظيم الذي من جملته الاستراحة على الأسرة التي علم أن من عادة الملوك أنهم لا يتسنمونها إلا بعد قضاء الوطر منه فلم يبق بعده إلا ما تدعو الحاجة إليه من المشارب وما يتبعها قال تعالى :

﴿ بأكواب ﴾ أي كيزان مستديرة الأفواه بلا عرى ولا خراطيم لا يعوق الشارب منها عائق عن الشرب من أي موضع أراد منها فلا يحتاج أن يحول الإناء إلى الحالة التي تناوله عنها ليشرب ، ويمكن أن تكون البداءة بالشراب لما نالوا من المتاعب من العطش كما لمن يشرب من الحوض فيكون حينئذ قبل الأكل والله أعلم ﴿ وأباريق ﴾ أي أواني لها عرى وخراطيم فيها من أنواع المشارب ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿ وكأس ﴾ أي إناء معد للشرب فيه والشراب نفسه .

ولما كان الشراب عاماً بينه بقوله : ﴿ من معين ﴾ أي خمر جارية صافية صفاء الماء ليس يتكلف عصرها بل ينبع كما ينبع الماء .

ولما أثبت نفعها وما يشوق إليها ، نفى ما ينفر عنها فقال : ﴿ لا يصدعون ﴾ أي تصدعاً يوجب المجاوزة ﴿ عنها ﴾ أي بوجع في الرأس ولا تفرق لملالة ﴿ ولا ينزفون ﴾ أي يذهب بعقولهم بوجه من الوجوه أي يصرع شرابهم ، من نزفت البئر – إذا نزح ماؤها كله ، ونزف فلان : ذهب عقله أو سكر ، وبنى الفعلان للمجهول لأنه لم تدع حاجة إلى معرفة الفاعل ،

وقال الرازي في اللوامع : قال الصادق : لا تذهل عقولهم عن موارد الحقائق عليهم ولا يغيبون عن مجالس المشاهدة بحال .

(80/743)

ولما بدأ بالألذ الهاضم للأكل ، تلاه بما يليه مما يدعو إليه الهضم تصريحاً به بعد التلويح فقال : ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ﴾ أي هو فيها بحيث لو كان فيها جيد وغيره واختاروا وبالغوا في التنقية لكان مما يقع التخير عليه ، ولما ذكر ما جرت العادة بتناوله لمجرد اللذة ، أتبعه ما العادة أنه لإقامة البينة وإن كان هناك لمجرد اللذة أيضاً فقال : ﴿ ولحم طير ﴾ ولما كان في لحم الطير مما يرغب عنه ، احترز عنه بقوله : ﴿ مما يشتهون ﴾ أي غاية الشهوة بحيث يجدون لآخره من اللذة ما لأوله .

ولما كان لم يكن بعد الأكل والشرب أشهى من الجماع ، قال عاطفاً على ﴿ ولدان ﴾ : ﴿ وحور العين ﴾ أي يطفن عليهم ، وجره حمزة والكسائي عطفاً على ﴿ سرر ﴾ فإن النساء في معنى الاتكاء لأنهن يسمين فراشاً .

ولما كان المثل في الأصل الشيء نفسه كما مضى في الشورى قال : ﴿ كأمثال ﴾ أي مثل أشخاص ﴿ اللؤلؤ المكنون ﴾ أي المصون في الصدف عما قد يدنسه .

ولما أبلغ في وصف جزائهم بالحسن والصفاء ، دل على أن أعمالهم كانت كذلك لأن الجزاء من جنس العمل فقال تعالى : ﴿ جزاء ﴾ أي فعل لهم ذلك لأجل الجزاء ﴿ بما كانوا ﴾ جبلة وطبعاً ﴿ يعملون ﴾ أي يجددون عمله على جهة الاستمرار .

ولما أثبت لها الكمال وجعله لهم ، نفى عنها النقص فقال : ﴿ لا يسمعون ﴾ أي على حال من الأحوال ﴿ فيها لغواً ﴾ أي شيئاً مما لا ينفع فإن أنكاً .

.

.

بالسميع الحكيم ذلك ، واللغو : الساقط ﴿ ولا تأثيماً ﴾ أي ما يحصل به الإثم أو النسبة إلى الإثم ، بل حركاتهم وسكناتهم كلها رضى الله ، وما قطع قلوب السائرين إلى الله إلا هاتان الخصلتان بينا أحدهم يبني ما ينفعه مجتهداً في البناء إذ هو غلبه طبعه فهدم أكثر ما بنى ، وبينا هو يظن أنه قد قرب إذا هو تحقق بمثل ذلك أنه قد بعد ، نزحت داره وشط مزاره ، فالله المستعان .

(81/743)

ولما كان الاستثناء ، معيار العموم ، ساق بصورة الاستثناء قوله : ﴿ إلا قيلاً ﴾ أي هو في غاية اللطافة والرقة بما دل عليه المبني على ما قبلها محاسن مع ما تدل عليه مادة قوله .

ولما تشوف السامع إليه بالعبير بما ذكر ، بينه بقوله : ﴿ سلاماً ﴾ ودل على دوامه بتكريره فقال : ﴿ سلاماً ﴾ أي لا يخطر في النفس ولا يظهر في الحس منهم قول إلا دالاًّ على السلامة لأنه لا عطب فيها أصلاً ، وساقه مساق الاستثناء المتصل دلالة على أنه إن كان فيها لغو فهو ذلك حسب ، وهو ما يؤمنهم وينعمهم ويبشرهم مع أنه دال على حسن العشرة وجميل الصحبة وتهذيب الأخلاق وصفاء المودة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 406.408 ﴾

(82/743)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17) ﴾

والولدان جمع الوليد ، وهو في الأصل فعيل بمعنى مفعول وهو المولود لكن غلب على الصغار مع قطع النظر عن كونهم مولودين ، والدليل أنهم قالوا للجارية الصغيرة وليدة ، ولو نظروا إلى

الأصل لجردوها عن الهاء كالقتيل ، إذا ثبت هذا فنقول : في الولدان وجهان أحدهما : أنه على الأصل وهم صغار المؤمنين وهو ضعيف ، لأن صغار المؤمنين أخبر الله تعالى عنهم أنه يلحقهم بآبائهم ، ومن الناس المؤمنين الصالحين من لا ولد له فلا يجوز أن يخدم ولد المؤمن مؤمناً غيره ، فيلزم إما أن يكون لهم اختصاص ببعض الصالحين وأن لا يكون لمن لا يكون له ولد من يطوف عليه من الولدان ، وإما أن يكون ولد الآخر يخدم غير أبيه وفيه منقصة بالأب ، وعلى هذا الوجه قيل : هم صغار الكفار وهو أقرب من الأول إذ ليس فيه ما ذكرنا من المفسدة والثاني : أنه على الاستعمال الذي لم يلحظ فيه الأصل وهو إرادة الصغار مع قطع النظر عن كونهم مولودين وهو حينئذ كقوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ [الطور : 24] وفي قوله تعالى : ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ وجهان أحدهما : أنه من الخلود والدوام ، وعلى هذا الوجه يظهر وجهان آخران أحدهما : أنهم مخلدون ولا موت لهم ولا فناء وثانيهما : لا يتغيرون عن حالهم ويبقون صغاراً دائماً لا يكبرون ولا يلتحون والوجه الثاني : أنه من الخلدة وهو القرط بمعنى في آذانهم حلق ، والأول أظهر وأليق .

بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18)

أواني الخمر تكون في المجالس ، وفي الكوب وجهان أحدهما : أنه من جنس الأقداح وهو قدح كبير وثانيهما : من جنس الكيزان ولا عروة له ولا خرطوم والإبريق له عروة وخرطوم ،

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(83/743)

ما الفرق بين الأكواب والأباريق والكأس حيث ذكر الأكواب والأباريق بلفظ الجميع والكأس بلفظ الواحد ولم يقل : وكئوس ؟ نقول : هو على عادة العرب في الشرب يكون عندهم أوان كثيرة فيها الخمر معدة موضوعة عندهم ، وأما الكأس فهو القدح الذي يشرب به الخمر إذا كان فيه الخمر ولا يشرب واحد في زمان واحد إلا من كأس واحد ، وأما أواني الخمر المملوءة منها في زمان واحد فتوجد كثيراً ، فإن قيل : الطواف بالكأس على عادة أهل الدنيا وأما الطواف بالأكواب والأباريق فغير معتاد فما الفائدة فيه ؟ نقول : عدم الطواف بها في الدنيا لدفع المشقة عن الطائف لثقلها وإلا فهي محتاج إليها بدليل أنه عند الفراغ يرجع إلى الموضع الذي هو فيه ، وأما في الآخرة فالآنية تدور بنفسها والوليد معها إكراماً لا للحمل ، وفيه وجه آخر من حيث اللغة وهو أن الكأس إناء فيه شراب فيدخل في مفهومه المشروب ، والإبريق آنية لا يشترط في إطلاق اسم الإبريق عليها أن يكون فيها شراب ، وإذا ثبت هذا فنقول الإناء المملوء الاعتبار لما فيه لا للإناء ، وإذا كان كذلك

فاعتبار الكأس بما فيه لكن فيه مشروب من جنس واحد وهو المعتبر ، والجنس لا يجمع إلا عند تنوعه فلا يقال للأرغفة من جنس واحد : أخباز ، وإنما يقال : أخباز عندما يكون بعضها أسود وبعضها أبيض وكذلك اللحوم يقال عند تنوع الحيوانات التي منها اللحوم ولا يقال للقطعتين من اللحم لحمان ، وأما الأشياء المصنفة فتجمع ، فالأقداح وإن كانت كبيرة لكنها لما ملئت خمراً من جنس واحد لم يجز أن يقال لها : خمور فلم يقل : كئوس وإلا لكان ذلك ترجيحاً للظروف ، لأن الكأس من حيث إنها شراب من جنس واحد لا يجمع واحد فيترك الجمع ترجيحاً لجانب المظروف بخلاف الإبريق فإن المعتبر فيه الإناء فحسب ، وعلى هذا يتبين بلاغة القرآن حيث لم يرد فيه لفظ الكئوس إذ كان ما فيها نوع واحد من الخمر ، وهذا بحث عزيز في اللغة .

المسألة الثانية :

(84/743)

في تأخير الكأس ترتيب حسن ، فكذلك في تقديم الأكواب إذا كان الكوب منه يصب الشراب في الإبريق ومن الإبريق الكأس .

المسألة الثالثة :

﴿ مّن مَّعِينٍ ﴾ بيان ما في الكأس أو بيان ما في الأكواب والأباريق ، نقول : يحتمل أن يكون الكل من معين والأول أظهر بالوضع ، والثاني ليس كذلك ، فلما قال : ﴿ وَكَأْسٍ ﴾ فكأنه قال : ومشروب ، وكأن السامع محتاجاً إلى معرفة المشروب ، وأما الإبريق فدلالته على المشروب ليس بالوضع ، وأما المعنى فلأن كون الكل ملآناً هو الحق ، ولأن الطواف بالفارغ لا يليق فكان الظاهر بيان ما في الكل ، ومما يؤيد الأول هو أنه تعالى عند ذكر الأواني ذكر جنسها لا نوع ما فيها فقال تعالى :

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ [الإنسان : 15] الآية ، وعند ذكر الكأس بين ما فيها فقال : ﴿ وَكَأْسٍ مّن مَّعِينٍ ﴾ فيحتمل أن الطواف بالأباريق ، وإن كانت فارغة للزينة والتجمل وفي الآخرة تكون للإكرام والتنعم لا غير .

المسألة الرابعة :

ما معنى المعين ؟ قلنا : ذكرنا في سورة الصافات أنه فعيل أو مفعول ومضى فيه خلاف ، فإن قلنا : فعيل فهو من معن الماء إذا جرى وإن قلنا : مفعول فهو من عانه إذا شخصه بعينه وميزه ، والأول أصح وأظهر لأن المعيون يوهم بأنه معيوب لأن قول القائل : عانني فلان معناه ضرني إذا أصابتني عينه ، ولأن الوصف بالمفعول لا فائدة فيه ، وأما الجريان في المشروب فهو إن كان في الماء فهو صفة مدح وإن كان في غيره فهو أمر عجيب لا يوجد في الدنيا ، فيكون كقوله تعالى : ﴿ وأنهار مّنْ خَمْرٍ ﴾ [محمد : 15] .

لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (19)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(85/743)

﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ ﴾ فيه وجهان أحدهما : لا يصيبهم منها صداع يقال : صدعني فلان أي أورثني الصداع والثاني : لا ينزفون عنها ولا ينفدونها من الصدع ، والظاهر أن أصل الصداع منه ، وذلك لأن الألم الذي في الرأس يكون في أكثر الأمر بخلط وريح في أغشية الدماغ فيؤلمه فيكون الذي به صداع كأنه يتطرف في غشاء دماغه .

المسألة الثانية :

إن كان المراد نفي الصداع فكيف يحسن عنها مع أن المستعمل في السبب كلمة من ، فيقال : مرض من كذا وفي المفارقة يقال : عن ، فيقال : برىء عن المرض ؟ نقول : الجواب هو أن السبب الذي يثبت أمراً في شيء كأنه ينفصل عنه شيء ويثبت في مكانه فعله ، فهناك أمران ونظران إذا نظرت إلى المحل ورأيت فيه شيئاً تقول : هذا من ماذا ، أي ابتداء وجوده من أي شيء فيقع نظرك على السبب فتقول : هذا من هذا أي ابتداء وجوده منه ، وإذا

نظرت إلى جانب المسبب ترى الأمر الذي صدر عنه كأنه فارقه والتصق بالمحل ، ولهذا لا يمكن أن يوجد ذلك مرة أخرى ، والسبب كأنه كان فيه وانتقل عنه في أكثر الأمر فههنا يكون الأمران من الأجسام والأمور التي لها قرب وبعد ، إذا علم هذا فنقول : المراد ههنا بيان خمر الآخرة في نفسها وبيان ما عليها ، فالنظر وقع عليها لا على الشاربين ولو كان المقصود أنهم لا يصدعون عنها لوصف منهم لما كان مدحاً لها ، وأما إذا قال : هي لا تصدع لأمر فيها يكون مدحاً لها فلما وقع النظر عليها قال عنها ، وأما إذا كنت تصف رجلاً بكثرة الشرب وقوته عليه ، فإنك تقول : في حقه هو لا يصدع من كذا من الخمر ، فإذا وصفت الخمر تقول هذه لا يصدع عنها أحد .

المسألة الثالثة :

(86/743)

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ تقدم تفسيره في الصافات والذي يحسن ذكره هنا أن نقول : إن كان معنى ﴿ لاَ يُنزِفُونَ ﴾ لا يسكرون ، فنقول : إما أن نقول معنى : ﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ ﴾ أنهم لا يصيبهم الصداع ، وإما أنهم لا يفقدون ، فإن قلنا : بالقول الأول فالترتيب في غاية الحسن لأنه على طريقة الارتقاء ، فإن قوله تعالى : ﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ ﴾ معناه لا يصيبهم

الصداع لكن هذا لا ينفي السكر فقال : بعده ولا يورث السكر ، كقول القائل : ليس فيه مفسدة كثيرة ، ثم يقول : ولا قليلة ، تتميماً للبيان ، ولو عكست الترتيب لا يكون حسناً ، وإن قلنا : ﴿ لا يُنزِفُونَ ﴾ لا يفقدون فالترتيب أيضاً كذلك لأن قولنا : ﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ ﴾ أي لا يفقدونه ومع كثرته ودوام شربه لا يسكرون فإن عدم السكر لنفاد الشراب ليس بعجب ، لكن عدم سكرهم مع أنهم مستديمون للشراب عجيب وإن قلنا : ﴿ لا يُنزِفُونَ ﴾ بمعنى لا ينفد شرابهم كما بينا هناك .

فنقول : أيضاً إن كان لا يصدعون بمعنى لا يصيبهم صداع فالترتيب في غاية الحسن ، وذلك لأن قوله : ﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ ﴾ لا يكون بيان أمر عجيب إن كان شرابهم قليلاً فقال : ﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ مع أنهم لا يفقدون الشراب ولا ينزفون الشراب ، وإن كان بمعنى لا ينزفون عنها فالترتيب حسن لأن معناه لا ينزفون عنها بمعنى لا يخرجون عما هم فيه ولا يؤخذ منهم ما أعطوا من الشراب ، ثم إذا أفنوها بالشراب يعطون .

وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما وجه الجر ، والفاكهة لا يطوف بها الولدان والعطف يقتضي ذلك ؟ نقول : الجواب عنه من وجهين أحدهما : أن الفاكهة واللحم في الدنيا يطلبان في حالتين أحدهما : حالة الشرب والأخرى حال عدمه ، فالفاكهة من رءوس الأشجار تؤخذ ، كما قال تعالى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : 23] وقال : ﴿ وَجَنَى الجنتين دَانٍ ﴾ [الرحمن : 54] إلى غير ذلك ، وأما حالة الشراب فجاز أن يطوف بها الولدان ، فينا ولوهم الفواكه الغريبة واللحوم العجيبة لا للأكل بل للإكرام ، كما يضع المكرم للضيف أنواع الفواكه بيده عنده وإن كان كل واحد منهما مشاركاً للآخر في القرب منها والوجه الثاني : أن يكون عطفاً في المعنى على جنات النعيم ، أي هم المقربون في جنات وفاكهة ، ولحم وحور ، أي في هذه النعم يتقلبون ، والمشهور أنه عطف في اللفظ للمجاورة لا في المعنى ، وكيف لا يجوز هذا ، وقد جاز تقلد سيفاً ورمحاً .

المسألة الثانية :

هل في تخصيص التخيير بالفاكهة والاشتهاء باللحم بلاغة ؟ قلت : وكيف لا وفي كل حرف من حروف القرآن بلاغة وفصاحة ، وإن كان لا يحيط بها ذهني الكليل ، ولا يصل إليها علمي القليل ، والذي يظهر لي فيه أن اللحم والفاكهة إذا حضرا عند الجائع تميل نفسه إلى اللحم ، وإذا حضرا عند الشبعان تميل إلى الفاكهة ، والجائع مشته والشبعان غير مشته ، وإنما هو مختار إن أراد أكل ، وإن لم يرد لا يأكل ، ولا يقال في الجائع إن أراد أكل لأن أن لا تدخل إلا على المشكوك ، إذا علم هذا ثبت أن في الدنيا اللحم عند المشتهي مختار والفاكهة عند غير المشتهى مختارة وحكاية الجنة على ما يفهم في الدنيا فِخص اللحم بالاشتهاء والفاكهة بالاختيار ، والتحقيق فيه من حيث اللفظ أن الاختيار هو أخذ الخير من أمرين والأمران اللذان يقع فيهما الاختيار في الظاهر لا يكون للمختار أولا ميل إلى أحدهما ، ثم يتفكر ويتروى ، ويأخذ ما يغلبه نظره على الآخر فالتفكه هو ما يكون عند عدم الحاجة ، وأما إن اشتهى واحد فاكهة بعينها فاستحضرها وأكلها فهو ليس بمتفكه وإنما هو دافع حاجة ، وأما فواكه الجنة تكون أولاً عند أصحاب الجنة من غير سبق ميل منهم إليها ثم يتفكهون بها على حسب اختيارهم ، وأما اللحم فتميل أنفسهم إليه أدنى ميل فيحضر عندهم ، وميل النفس إلى المأكول شهوة ، ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : 23] وقوله : ﴿ وَجَنَى الجنتين دَانٍ ﴾ [الرحامن : 54] وقوله تعالى : ﴿ وفاكهة كَثِيرَةٍ * لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : 32 ، 33] فهو دليل على

أنها دائمة الحضور ، وأما اللحم فالمروي أن الطائر يطير فتميل نفس المؤمن إلى لحمه فينزل مشوياً ومقلياً على حسب ما يشتهيه ، فالحاصل أن الفاكهة تحضر عندهم فيتخير المؤمن بعد الحضور واللحم يطلبه المؤمن وتميل نفسه إليه أدنى ميل ، وذلك لأن الفاكهة تلذ الأعين بحضورها ، واللحم لا تلذ الأعين

(89/743)

بحضوره ، ثم إن في اللفظ لطيفة ، وهي أنه تعالى قال : ﴿ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ ولم يقل : مما يختارون مع قرب أحدهما إلى الآخر في المعنى ، وهو أن التخير من باب التكلف فكأنهم يأخذون ما يكون في نهاية الكمال ، وهذا لا يوجد إلا ممن لا يكون له حاجة ولا اضطرار .

المسألة الثالثة :

ما الحكمة في تقديم الفاكهة على اللحم ؟ نقول : الجواب عنه من وجوه أحدها : العادة في الدنيا التقديم للفواكه في الأكل والجنة وضعت بما علم في الدنيا من الأوصاف وعلى ما علم فيها ، ولا سيما عادة أهل الشرب وكأن المقصود بيان حال شرب أهل الجنة وثانيها : الحكمة في الدنيا تقتضي أكل الفاكهة أولاً لأنها ألطف وأسرع انحداراً وأقل حاجة إلى المكث الطويل في المعدة للهضم ، ولأن الفاكهة تحرك الشهوة للأكل واللحم يدفعها وثالثها :

يخرج مما ذكرنا جواباً خلا عن لفظ التخيير والاشتهاء هو أنه تعالى لما بين أن الفاكهة دائمة الحضور والوجود ، واللحم يشتهي ويحضر عند الاشتهاء دل هذا على عدم الجوع لأن الجائع حاجته إلى اللحم أكثر من اختياره اللحم فقال : ﴿ وفاكهة ﴾ لأن الحال في الجنة يشبه حال الشبعان في الدنيا فيميل إلى الفاكهة أكثر فقدمها ، وهذا الوجه أصح لأن من الفواكه ما لا يؤكل إلا بعد الطعام ، فلا يصح الأول جواباً في الكل .

وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23)

(90/743)

وفيها قراءات الأولى : الرفع وهو المشهور ، ويكون عطفاً على ولدان ، فإن قيل قال قبله : ﴿ حُورٌ مقصورات فِي الخيام ﴾ [الرحمن : 72] إشارة إلى كونها مخدرة ومستورة ، فكيف يصح قولك : إنه عطف على ولدان ؟ نقول : الجواب عنه من وجهين أحدهما : وهو المشهور أن نقول : هو عطف عليهم في اللفظ لا في المعنى ، أو في المعنى على التقدير والمفهوم لأن قوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ولدان ﴾ [الواقعة : 17] معناه لهم ولدان كما قال تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ [الطور : 24] فيكون : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ بمعنى ولهم حور عين وثانيهما : وهو أن يقال : ليست الحور منحصرات في جنس ، بل لأهل

الجنة : ﴿ حُورٌ مقصورات ﴾ في حظائر معظمات ولهن جواري وخوادم ، وحور تطوف مع الولدان السقاة فيكون كأنه قال : يطوف عليهم ولدان ونساء الثانية : الجر عطفاً على أكواب وأباريق ، فإن قيل : كيف يطاف بهن عليهم ؟ نقول : الجواب سبق عند قوله : ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ ﴾ [الواقعة : 21] أو عطفاً على : ﴿ جنات ﴾ [الواقعة : 12] أي : أولئك المقربون في جنات النعيم وحور وقرىء ﴿ حوراً عَيْناً ﴾ بالنصب ، ولعل الحاصل على هذه القراءة على غير العطف بمعنى العطف لكن هذا القارىء لا بد له من تقدير ناصب فيقول : يؤتون حوراً فيقال : قد رافعاً فقال : ولهم حور عين فلا يلزم الخروج عن موافقة العاطف وقوله تعالى : ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ فيه مباحث .

(91/743)

الأول : الكاف للتشبيه ، والمثل حقيقة فيه ، فلو قال : أمثال اللؤلؤ المكنون لم يكن إلى الكاف حاجة ، فما وجه الجمع بين كلمتي التشبيه ؟ نقول : الجواب المشهور أن كلمتي التشبيه يفيدان التأكيد والزيادة في التشبيه ، فإن قيل : ليس كذلك بل لا يفيدان ما يفيد أحدهما لأنك إن قلت مثلاً : هو كاللؤلؤة للمشبه ، دون المشبه به في الأمر الذي لأجله التشبيه ؟ نقول : التحقيق فيه ، هو أن الشيء إذا كان له مثل فهو مثله ، فإذا قلت هو مثل

القمر لا يكون في المبالغة مثل قولك هو قمر وكذلك قولنا : هو كالأسد ، وهو أسد ، فإذا قلت : كمثل اللؤلؤ كأنك قلت : مثل اللؤلؤ وقولك : هو اللؤلؤ أبلغ من قولك : هو كاللؤلؤ ، وهذا البحث يفيدنا ههنا ، ولا يفيدنا في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] لأن النفي في مقابلة الإثبات ، ولا يفهم معنى النفي من الكلام ما لم يفهم معنى الإثبات الذي يقابله ، فنقول قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ في مقابلة قول من يقول : كمثله شيء ، فنفى ما أثبته لكن معنى قوله : ﴿ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ إذا لم نقل بزيادة الكاف هو أن مثل مثله شيء ، وهذا كلام يدل على أن له مثلاً ، ثم إن لمثله مثلاً ، فإذا قلنا : ليس كذلك كان رداً عليه ، والرد عليه صحيح بقي أن يقال : إن الراد على من يثبت أموراً لا يكون نافياً لكل ما أثبته ، فإذا قال قائل : زيد عالم جيد ، ثم قيل رداً عليه : ليس زيد عالماً جيداً لا يلزم من هذا أن يكون نافياً لكونه عالماً ، فمن يقول : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ بمعنى ليس مثل مثله شيء لا يلزم أن يكون نافياً لمثله ، بل يحتمل أن يكون نافياً لمثل المثل ، فلا يكون الراد أيضاً موحداً فيخرج الكلام عن إفادة التوحيد ، فنقول : يكون مفيداً للتوحيد لأنا إذا قلنا : ليس مثل مثله شيء لزم أن لا يكون له مثل لأنه لو كان له مثل لكان هو مثل مثله ، وهو شيء بدليل قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شهادة قُلِ اللهُ ﴾ [الأنعام : 19] فإن حقيقة الشيء هو الموجود فيكون مثل مثله شيء وهو منفي بقولنا : ليس مثل مثله شيء ، فعلم أن الكلام لا يخرج عن إفادة التوحيد ، فعلم أن الحمل على الحقيقة يفيد في الكلام مبالغة في قوله تعالى :

﴿ كأمثال ﴾ وأما عدم الحمل عليها في قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ فهو أوجز فتجعل الكاف زائدة لئلا يلزم التعطيل ، وهو نفي الإله ، نقول : فيه فائدة ، وهو أن يكون ذلك نفياً مع الإشارة إلى وجه الدليل على النفي ، وذلك لأنه تعالى واجب الوجود ، وقد وافقنا من قال بالشريك ، ولا يخالفنا إلا المعطل ، وذلك إثباته ظاهراً ، وإذا كان هو واجب الوجود فلو كان له مثل لخرج عن كونه واجب الوجود ، لأنه مع مثله تعادلاً في الحقيقة ، وإلا لما كان ذلك مثله وقد تعدد فلا بد من انضمام مميز إليه به يتميز عن مثله ، فلو كان مركباً فلا يكون واجباً لأن كل مركب ممكن ، فلو كان له مثل لما كان هو هو فيلزم من إثبات المثل له نفيه ، فقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ إذا حملناه أنه ليس مثل مثله شيء ، ويكون في مقابلته قول الكافر : مثل مثله شيء فيكون مثبتاً لكونه مثل مثله ويكون مثله يخرج عن حقيقة نفسه ومنه لا يبقى واجب الوجود فذكر المثلين لفظاً يفيد التوحيد مع الإشارة إلى وجه الدليل على بطلان قول المشرك ولو قلنا : ليس مثله شيء يكون نفياً من غير إشارة إلى دليل ، والتحقيق فيه أنا نقول : في نفي المثل رداً على المشرك لا مثل لله ، ثم نستدل عليه ونقول : لو

كان له مثل لكان هو مثلاً لذلك المثل فيكون ممكناً محتاجاً فلا يكون إلهاً ولو كان له مثل لما كان الله إلهاً واجب الوجود ، لأن عند فرض مثل له يشاركه بشيء وينافيه بشيء ، فيلزم تركه فلو كان له مثل لخرج عن حقيقة كونه إلهاً فإثبات الشريك يفضي إلى نفي الإله فقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ توحيد بالدليل وليس مثله شيء توحيد من غير

(93/743)

دليل وشيء من هذا رأيته في كلام الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله (1) بعد ما فرغت من كتابة هذا مما وافق خاطري خاطره على أني معترف بأني أصبت منه فوائد لا أحصيها ، وأما قوله تعالى : ﴿ اللؤلؤ المكنون ﴾ إشارة إلى غاية صفائهن أي اللؤلؤ الذي لم يغير لونه الشمس والهواء .

جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24)

وفي نصبه وجهان أحدهما : أنه مفعول له وهو ظاهر تقديره فعل بهم هذا ليقع جزاء وليجزون بأعمالهم ، وعلى هذا فيه لطيفة : وهي أن نقول : المعنى أن هذا كله جزاء عملكم وأما الزيادة فلا يدركها أحد منكم وثانيهما : أنه مصدر لأن الدليل على أن كل ما يفعله الله فهو جزاء فكأنه قال : تجزون جزاء ، وقوله : ﴿ بِمَا كَانُوا ﴾ قد ذكرنا فائدته في

سورة الطور وهي أنه تعالى قال في حق المؤمنين : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الواقعة : 24] وفي حق الكافرين : ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التحريم : 7] إشارة إلى أن العذاب عين جزاء ما فعلوا فلا زيادة عليهم ، والثواب : ﴿ جَزَاء مِّمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : 17] فلا يعطيهم الله عين عملهم ، بل يعطيهم بسبب عملهم ما يعطيهم ، والكافر يعطيه عين ما فعل ، فيكون فيه معنى قوله تعالى : ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بالسيئة فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام : 160] وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أصولية ذكرها الإمام فخر الدين رحمه الله في مواضع كثيرة ، ونحن نذكر بعضها فالأولى : قالت المعتزلة : هذا يدل على أن يقال : الثواب على الله واجب ، لأن الجزاء لا يجوز المطالبة به ، وقد أجاب عنه الإمام فخر الدين رحمه الله بأجوبة كثيرة ، وأظن به أنه لم يذكر ما أقوله فيه وهو ما ذكروه .

---

(1) هذه العبارة تشعر وتؤكد أن الكتاب أو هذه السورة لمؤلف آخر غير فخر الدين الرازي وإنما هذا لأحد تلاميذه أكملها بعد وفاته أو نقص بالأصل وكمله أحد العلماء المتأخرين والله أعلم .

ولو صح لما كان في الوعد بهذه الأشياء فائدة ، وذلك لأن العقل إذا حكم بأن ترك الجزاء قبيح وعلم بالعقل أن القبيح من الله لا يوجد علم أن الله يعطي هذه الأشياء لأنها أجزية ، وإيصال الجزاء واجب ، وأما إذا قلنا : بمذهبنا تكون الآيات مفيدة مبشرة ، لأن البشارة لا تكون إلا بالخبر عن أمر غير معلوم ، لا يقال : الجزاء كان واجباً على الله وأما الخبر بهذه الأشياء فلا يذكرها مبشراً ، لأنا نقول : إذا وجب نفس الجزاء فما أعطانا الله تعالى من النعم في الدنيا جزاء فثواب الآخرة لا يكون إلا تفضلاً منه ، غاية ما في الباب أنه تعالى كمل النعمة بقوله : هذا جزاؤكم ، أي جعلته لكم جزاء ، ولم يكن متعيناً ولا واجباً ، كما أن الكريم إذا أعطى من جاء بشيء يسير شيئاً كثيراً ، فيظن أنه يودعه إيداعاً أو يأمره بحمله إلى موضع ، فيقول له : هذا لك فيفرح ، ثم إنه يقول : هذا إنعام عظيم يوجب على خدمة كثيرة ، فيقول له هذا جزاء ما أتيت به ، ولا أطلب منك على هذا خدمة ، فإن أتيت بخدمة فلها ثواب جديد ، فيكون هذا غاية الفضل ، وعند هذا نقول : هذا كله إذا كان الآتي غير العبد ، وأما إذا فعل العبد ما أوجب عليه سيده لا يستحق عليه أجراً ، ولا سيما إذا أتى بما أمر به على نوع اختلال ، فما ظنك بحالنا مع الله عز وجل ، مع أن السيد لا يملك من عبده إلا البنية ، والله تعالى يملك منا أنفسنا وأجسامنا ، ثم إنك إذا تفكرت في مذهب أهل السنة تجدهم قد حققوا معنى العبودية غاية التحقيق ، واعترفوا أنهم عبيد لا

يملكون شيئاً ولا يجب للعبد على السيد دين ، والمعتزلة لم يحققوا العبودية ، وجعلوا بينهم وبين الله معاملة توجب مطالبة ، ونرجوا أن يحقق الله تعالى معنا المالكية غاية التحقيق ، ويدفع حاجاتنا الأصلية ويطهر أعمالنا ، كما أن السيد يدفع حاجة عبده بإطعامه وكسوته ، ويطهر صومه بزكاة فطره ، وإذا جنى جناية لم يمكن المجنى عليه منه ، بل يختار فداءه ويخلص

(95/743)

رقبته من الجناية ، كذلك يدفع الله حاجاتنا في الآخرة ، وأهم الحاجات أن يرحمنا ويعفو عنا ، ويتغمدنا بالمغفرة والرضوان ، حيث منع غيره عن تملك رقابنا باختيار الفداء عنا ، وأرجو أن لا يفعل مع إخواننا المعتزلة ما يفعله المتعاملان في المحاسبة بالنقير والقطمير ، والمطالبة بما يفضل لأحدهما من القليل والكثير .

المسألة الثانية :

قالوا : لو كان في الآخرة رؤية لكانت جزاء ، وقد حصر الله الجزاء فيما ذكر والجواب عنه : أن نقول : لم قلتم : إنها لو كانت تكون جزاء ، بل تكون فضلاً منه فوق الجزاء ، وهب أنها تكون جزاء ، ولكن لم قلتم : إن ذكر الجزاء حصر وإنه ليس كذلك ، لأن من قال لغيره :

أعطيتك كذا جزاء على عمل لا ينافي قوله : وأعطيتك شيئاً آخر فوقه أيضاً جزاء عليه ، وهب أنه حصر ، لكن لم قلتم : إن القربة لا تدل على الرؤية ، فإن قيل : قال في حق الملائكة : ﴿ وَلاَ الملائكة المقربون ﴾ [النساء : 172] ، ولم يلزم من قربهم الرؤية ، نقول : أجبنا أن قربهم مثل قرب من يكون عند الملك لقضاء الأشغال ، فيكون عليه التكليف والوقوف بين يديه بالباب تخرج أوامره عليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : 6] وقرب المؤمن قرب المنعم من الملك ، وهو الذي لا يكون إلا للمكالمة والمجالسة في الدنيا ، لكن المقرب المكلف ليس كلما يروح إلى باب الملك يدخل عليه وأما المنعم لا يذهب إليه إلا ويدخل عليه فظهر الفرق .

(96/743)

والذي يدل على أن قوله : ﴿ أولئك المقربون ﴾ [الواقعة : 11] فيه إشارة إلى الرؤية هو أن الله تعالى في سورة المطففين ذكر الأبرار والفجار ، ثم إنه تعالى قال في حق الفجار : ﴿ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : 15] وقال في الأبرار : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا المقربون ﴾ [المطففين : 28] ولم يذكر في مقابلة المحجوبون ما يدل على مخالفة حال الأبرار حال الفجار في الحجاب والقرب ، لأن قوله : ﴿ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ [المطففين : 18] وإن كان

دليلاً على القرب وعلو المنزلة لكنه في مقابلة قوله : ﴿ لَفِي سِجّينٍ ﴾ [المطففين : 7] فقوله تعالى في حقهم : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا المقربون ﴾ مع قوله تعالى : ﴿ وسقاهم رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [الإنسان : 21] يدل على أن المراد منه القرب الذي يكون لجلساء الملك عند الملك ، وقوله في حق الملائكة في تلك السورة :

﴿ يَشْهَدُهُ المقربون ﴾ [المطففين : 21] يدل على أن المراد منه القرب الذي يكون للكتاب والحساب عند الملك لما أنه في الدنيا يحسد أحدهما الآخر ، فإن الكاتب إن كان قربه من الملك بسبب الخدمة لا يختار قرب الكتاب والحساب ، بل قرب النديم ، ثم إنه بين ذلك النوع من القرب وبين القرب الذي بسبب الكتابة ما يحمله على أن يختار غيره ، وفي سورة المطففين قوله : ﴿ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ يدل على أن المقربين غير محجوبين عن النظر إلى الله تعالى ، وينبغي أن لا ينظر إلى الله قولنا : جلساء الملك في ظاهر النظر الذي يقتضي في نظر القوم الجهة وإلى القرب الذي يفهم العامي منه المكان إلا بنظر العلماء الأخبار الحكماء الأخبار .

المسألة الثالثة :

قالوا قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ يدل على أن العمل عملهم وحاصل بفعلهم ، نقول : لا نزاع في أن العلم في الحقيقة اللغوية وضع للفعل والمجنون للذي لا عقل له والعاقل للذي بلغ الكمال فيه ، وذلك ليس إلا بوضع اللغة لما يدرك بالحس ، وكل أحد يرى الحركة من الجسمين فيقول : تحرك وسكن على سبيل الحقيقة ، كما يقول : تدور الرحا ويصعد الحجر ، وإنما الكلام في القدرة التي بها الفعل في المحل المرئي ، وذلك خارج عن وضع اللغة .

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (25) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (26)

وفيه مسائل :

(98/743)

المسألة الأولى : ما الحكمة في تأخير ذكره عن الجزاء مع أنه من النعم العظيمة ؟ نقول فيه لطائف الأولى : أن هذا من أتم النعم ، فجعلها من باب الزيادة التي منها الرؤية عند البعض ولا مقابل لها من الأعمال ، وإنما قلنا : إنها من أتم النعم ، لأنها نعمة سماع كلام الله تعالى على ما سنبين أن المراد من قوله : ﴿ سَلَامًا ﴾ هو ما قال في سورة يس : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : 58] فلم يذكرها فيما جعله جزاء ، وهذا على قولنا : ﴿ أولئك المقربون ﴾ [الواقعة : 11] ليس فيه دلالة على الرؤية الثانية : أنه تعالى بدأ بأتم النعم

وهي نعمة الرؤيا ، وهي الرؤية بالنظر كما مر وختم بمثلها ، وهي نعمة المخاطبة الثالثة : هي أنه تعالى لما ذكر النعم الفعلية وقابلها بأعمالهم حيث قال : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الواقعة : 24] ذكر النعم القولية في مقابلة أذكارهم الحسنة ولم يذكروا اللذات العقلية التي في مقابلة أعمال قلوبهم من إخلاصهم واعتقادهم ، لأن العمل القلبي لم ير ولم يسمع ، فما يعطيهم الله تعالى من النعمة تكون نعمة لم ترها عين ولا سمعتها أذن ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيها : " مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر " وقوله عليه السلام : " ولا خطر " إشارة إلى الزيادة ، والذي يدل على النعمة القولية في مقابلة قولهم الطيب قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ ﴾ إلى قوله : ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : 30 32] .

(99/743)

المسألة الثانية : قوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً ﴾ نفي للمكروه لما أن اللغو كلام غير معتبر ، لأنه عند المعتبرين من الرجال مكروه ، ونفي المكروه لا يعد من النعم العظيمة التي مر ذكرها ، كيف وقد ذكرت أن تأخير هذه النعمة لكونها أتم ، ولو قال : إن

فلاناً في بلدة كذا محترم مكرم لا يضرب ولا يشتم فهو غير مكرم وهو مذموم والواغل مذموم وهو الذي يدخل على قوم يشربون ويأكلون فيأكل ويشرب معهم من غير دعاء ولا إذن فكأنه بالنسبة إليهم في عدم الاعتبار كلام غير معتبر وهو اللغو ، وكذلك ما يتصرف منه مثل الولوغ لا يقال إلا إذا كان الوالغ كلباً أو ما يشبهه من السباع ، وأما التأثيم فهو النسبة إلى الإثم ومعناه لا يذكر إلا باطلاً ولا ينسبه أحد إلا إلى الباطل ، وأما التقديم فلأن اللغو أعم من التأثيم أي يجعله آثماً كما تقول : إنه فاسق أو سارق ونحو ذلك وبالجملة فالمتكلم ينقسم إلى أن يلغو وإلى أن لا يلغو والذي لا يلغو يقصد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيأخذ الناس بأقوالهم وهو لا يؤخذ عليه شيء ، فقال تعالى : لا يلغو أحد ولا يصدر منه لغو ولا ما يشبه اللغو فيقول له : الصادق لا يلغو ولا يأثم ولا شك في أن الباطل أقبح ما يشبهه فقال : لا يأثم أحد .

(100/743)

المسألة الثالثة : قال تعالى في سورة النبأ : ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَاباً ﴾ [النبأ : 35] فهل بينهما فرق ؟ قلنا : نعم الكذاب كثير التكذيب ومعناه هناك أنهم لا يسمعون كذباً ولا أحداً يقول لآخر : كذبت وفائدته أنهم لا يعرفون كذباً من معين من الناس ولا من واحد

منهم غير معين لتفاوت حالهم وحال الدنيا فإنا نعلم أن بعض الناس بأعيانهم كذابون فإن لم نعرف ذلك نقطع بأن في الناس كذاباً لأن أحدهم يقول لصاحبه : كذبت فإن صدق فصاحبه كذاب ، وإن لم يصدق فهو كاذب فيعلم أن في الدنيا كذاباً بعينه أو بغير عينه ولا كذلك في الآخرة فلا كذب فيها ، وقال ههنا : ﴿ وَلَا تَأْثِيماً ﴾ وهو أبلغ من التكذيب فإن من يقول في حق من لا يعرفه : إنه زان أو شارب الخمر مثلاً فإنه يأثم وقد يكون صادقاً ، فالذي ليس عن علم إثم فلا يقول أحد لأحد : قلت ما لا علم لك به فالكلام ههنا أبلغ لأنه قصر السورة على بيان أحوال الأقسام لأن المذكورين هنا هم السابقون وفي سورة النبأ هم المتقون ، وقد بينا أن السابق فوق المتقي .

(101/743)

المسألة الرابعة : ﴿ إِلَّا قِيلاً ﴾ استثناء متصل منقطع ، فنقول : فيه وجهان أحدهما : وهو الأظهر أنه منقطع لأن السلام ليس من جنس اللغو تقديره لكن يسمعون : قيلا سلاماً سلاماً ثانيهما : أنه متصل ووجهه أن نقول : المجاز قد يكون في المعنى ، ومن جملته أنك تقول : ما لي ذنب إلا أحبك ، فلهذا تؤذيني فتستثني محبته من الذنب ولا تريد المنقطع لأنك لا تريد بهذا القول بيان أنك تحبه إنما تريد في تبرئتك عن الذنوب ووجهه هو أن بينهما غاية الخلاف

وبينهما أمور متوسطة ، مثاله : الحار والبارد وبينهما الفاتر الذي هو أقرب إلى الحار من البارد وأقرب إلى البارد من الحار ، والمتوسط يطلق عليه اسم البارد عند النسبة إلى الحار فيقال : هذا بارد ويخبر عنه بالنسبة إلى البارد فيقال : إنه حار ، إذا ثبت هذا فنقول قول القائل : مالي ذنب إلا أني أحبك ، معناه لا تجد ما يقرب من الذنب إلا المحبة فإن عندي أموراً فوقها إذا نسبتها إلى الذنب تجد بينها غاية الخلاف فيكون ذلك كقوله : درجات الحب عندي طاعتك وفوقها إن أفضل جانب أقل أمر من أمورك على جانب الحفظ لروحي ، إشارة إلى المبالغة كما يقول القائل : ليس هذا بشيء مستحقراً بالنسبة إلى ما فوقه فقوله : ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾ أي يسمعون فيها كلاماً فائقاً عظيم الفائدة كامل اللذة أدناها وأقربها إلى اللغو قول بعضهم لبعض : سلام عليك فلا يسمعون ما يقرب من اللغو إلا سلاماً ، فما ظنك بالذين يبعد منه كما يبعد الماء البارد الصادق والماء الذي كسرت الشمس برودته وطلب منه ماء حار ليس عندي ماء حار إلا هذا أي ليس عندي ما يبعد من البارد الصادق البرودة ويقرب من الحار إلا هذا وفيه المبالغة الفائقة والبلاغة الرائقة وحينئذ يكون اللغو مجازاً ، والاستثناء متصلاً فإن قيل : إذا لم يكن بد من مجاز وحمل اللغو على ما يقرب منه بالنسبة إليه فليحمل إلا على لكن لأنهما مشتركان في إثبات خلاف ما تقدم ، نقول

: المجاز في الأسماء أولى من المجاز في الحروف لأنها تقبل التغير في الدلالة وتتغير في الأحوال ، ولا كذلك الحروف لأن الحروف لا تصير مجازاً إلا بالاقتران باسم والاسم يصير مجازاً من غير الاقتران بحرف فإنك تقول : رأيت أسداً يرمي ويكون مجازاً ولا اقتران له بحرف ، وكذلك إذا قلت لرجل : هذا أسد وتريد بأسد كامل الشجاعة ، ولأن عرض المتكلم في قوله مالي ذنب إلا أني أحبك ، لا يحصل بما ذكرت من المجاز ، ولأن العدول عن الأصل لا يكون له فائدة من المبالغة والبلاغة .

المسألة الخامسة :

(103/743)

في قوله تعالى : ﴿ قِيلاً ﴾ قولان : أحدهما : إنه مصدر كالقول فيكون قيلا مصدراً ، كما أن القول مصدر لكن لا يظهر له في باب فعل يفعل إلا حرف ثانيهما : إنه اسم والقول مصدر فهو كالسدل والستر بكسر السين اسم وبفتحها مصدر وهو الأظهر ، وعلى هذا نقول : الظاهر أنه اسم مأخوذ من فعل هو : قال وقيل ، لما لم يذكر فاعله ، وما قيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن القيل والقال ، يكون معناه نهى عن المشاجرة ، وحكاية أمور

جرت بين أقوام لا فائدة في ذكرها ، وليس فيها إلا مجرد الحكاية من غير وعظ ولا حكمة لقوله صلى الله عليه وسلم : " رحم الله عبداً قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم " وعلى هذا فالقيل اسم لقول لم يعلم قائله ، والقال اسم للقول مأخوذ من قيل لما لم يذكر فاعله ، تقول : قال فلان كذا ، ثم قيل له : كذا ، فقال : كذا ، فيكون حاصل كلامه قيل وقال ، وعلى هذا فالقيل اسم لقول لم يعلم قائله ، والقال مأخوذ من قيل هو قال ، ولقائل أن يقول : هذا باطل لقوله تعالى : ﴿ وَقِيلِهِ يا رب إِنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الزخرف : 88] فإن الضمير للرسول صلى الله عليه وسلم أي يعلم الله قيل محمد : يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، كما قال نوح عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ ﴾ [نوح : 27] ، وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ فاصفح عَنْهُمْ وَقُلْ سلام ﴾ [الزخرف : 89] إرشاد له لئلا يدعو على قومه عند يأسه منهم كما دعا عليهم نوح عنده ، وإذا كان القول مضافاً إلى محمد صلى الله عليه وسلم فلا يكون القيل اسماً لقول لم يعلم قائله ؟ فنقول : الجواب عنه من وجهين أحدهما : إن قولنا : إنه اسم مأخوذ من قيل الموضوع لقول لم يعلم قائله في الأصل لا ينافي جواز استعماله في قول من علم بغير الموضوع وثانيهما : وهو الجواب الدقيق أن نقول : الهاء في : ﴿ وَقِيلِهِ ﴾ ضمير كما في ربه وكالضمير المجهول عند الكوفيين وهو ضمير الشأن

، وعند البصريين قال :

(105/743)

﴿ فَإِنَّهَا لاَ تعمى الأبصار ﴾ [الحج : 46] والهاء غير عائد إلى مذكور ، غير أن الكوفيين جعلوه لغير معلوم والبصريين جعلوه ضمير القصة ، والظاهر في هذه المسألة قول الكوفيين ، وعلى هذا معنى عبارتهم بلغ غاية علم الله تعالى قيل القائل منهم : ﴿ يا رب إِنَّ هَؤُلآء ﴾ ، إشارة إلى أن الاختصاص بذلك القول في كل أحد إنهم لا يؤمنون لعلمه أنهم قائلون بهذا وأنهم عالمون ، وأهل السماء علموا بأن عند الله علم الساعة يعلمها فيعلم قول من يقول : ﴿ يارب إِنَّ هَؤُلاَء قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الزخرف : 88] من غير تعيين قول لاشتراك الكل فيه ، ويؤيد هذا أن الضمير لو كان عائداً إلى معلوم فإما أن يكون إلى مذكور قبله ، ولا شيء فيما قبله يصح عود الضمير إليه ، وإما إلى معلوم غير مذكور وهو محمد صلى الله عليه وسلم لكن الخطاب بقوله : ﴿ فاصفح ﴾ [الحجر : 85] كان يقتضي أن يقول ، وقيلك يا رب لأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو المخاطب أولاً بكلام الله ، وقد قال قبله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ [الزخرف : 87] وقال من قبل : ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ

العابدين ﴾ [الزخرف : 81] وكان هو المخاطب أولاً ، إذا تحقق هذا ؟ نقول : إذا تفكرت في استعمال لفظ القيل في القرآن ترى ما ذكرنا ملحوظاً مراعى ، فقال ههنا : ﴿ إِلاَّ قِيلاً سلاما سلاما ﴾ لعدم اختصاص هذا القول بقائل دون قائل فيسمع هذا القول دائماً من الملائكة والناس كما قال تعالى : ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سلام ﴾ [الرعد : 23 ، 24] وقال تعالى : ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : 58] حيث كان المسلم منفرداً ، وهو الله كأنه قال : سلام قولاً منا ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى الله وَعَمِلَ صالحا ﴾ [فصلت : 33] وقال : ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ [المزمل : 6] لأن الداعي معين وهم الرسل ومن

اتبعهم من الأمة وكل من قام ليلاً فإن قوله : قويم ، ونهجه مستقيم ، وقال تعالى : ﴿ وَقِيلِهِ يارب ﴾ [الزخرف : 88] لأن كل أحد يقول : إنهم لا يؤمنون .

أما هم فلاعترافهم ولإقرارهم وأما غيرهم فلكفرانهم بإسرافهم وإصرارهم ، ويؤيد ما ذكرنا أنه تعالى قال : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً ﴾ والاستثناء المتصل يقرب إلى المعنى بالنسبة إلى غيره وهو قول لا يعرف قائله ، فقال : ﴿ إِلاَّ قِيلاً ﴾ وهو سلام عليك ،

وأما قول من يعرف وهو الله فهو الأبعد عن اللغو غاية البعد وبينهما نهاية الخلاف فقال :

﴿ سَلَامٌ قَوْلاً ﴾ [يس : 58] .

المسألة السادسة :

﴿ سلام ﴾ ، فيه ثلاثة أوجه أحدها : أنه صفة وصف الله تعالى بها ﴿ قِيلاً ﴾ كما يوصف الشيء بالمصدر حيث يقال : رجل عدل ، وقوم صوم ، ومعناه إلا قيلا سالماً عن العيوب ، وثانيها : هو مصدر تقديره ، إلا أن يقولوا سلاماً وثالثها : هو بدل من ﴿ قِيلاً ﴾ ، تقديره : إلا سلاماً .

المسألة السابعة :

تكرير السلام هل فيه فائدة ؟ نقول : فيه إشارة إلى تمام النعمة ، وذلك لأن أثر السلام في الدنيا لا يتم إلا بالتسليم ورد السلام ، فكما أن أحد المتلاقيين في الدنيا يقول للآخر : السلام عليك ، فيقول الآخر : وعليك السلام ، فكذلك في الآخرة يقولون : ﴿ سلاما سلاما ﴾ ثم إنه تعالى لما قال : ﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : 58] لم يكن له رد لأن تسليم الله على عبده مؤمن له ، فأما الله تعالى فهو منزه عن أن يؤمنه أحد ، بل الرد إن كان فهو قول المؤمن : سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

المسألة الثامنة :

ما الفرق بين قوله تعالى : ﴿ سلاما سلاما ﴾ بنصبهما ، وبين قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ سلاما قَالَ سلام ﴾ [هود : 69] قلنا : قد ذكرنا هناك أن قوله : (سلام عليك) أتم وأبلغ من قولهم سلاماً عليك فإبراهيم عليه السلام أراد أن يتفضل عليهم بالذكر ويجيبهم بأحسن ما حيوا ، وأما هنا فلا يتفضل أحد من أهل الجنة على الآخر مثل التفضل في تلك الصورة إذ هم من جنس واحد ، وهم المؤمنون ولا ينسب أحد إلى أحد تقصيراً .

المسألة التاسعة :

إذا كان قول القائل : (سلام عليك) أتم وأبلغ فما بال القراءة المشهورة صارت بالنصب ، ومن قرأ (سلام) ليس مثل الذي قرأ بالنصب ، نقول ذلك من حيث اللفظ والمعنى ، أما اللفظ فلأنه يستثنى من المسموع وهو مفعول منصوب ، فالنصب بقوله : ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾ وأما المعنى فلأنا بينا أن الاستثناء متصل ، وقولهم : ﴿ سلام ﴾ أبعد من اللغو من قولهم : ﴿ سَلاَماً ﴾ فقال : ﴿ إِلاَّ قِيلاً سلاما ﴾ ليكون أقرب إلى اللغو من غيره ، وإن كان في نفسه بعيداً عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 131 .

141 ﴾

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) ﴾

﴿ الواقعة ﴾ : اسم من أسماء القيامة ك ﴿ الصاعقة ﴾ [البقرة : 55 ، النساء : 153] و ﴿ الأزفة ﴾ [غافر : 18 ، النجم : 57] و ﴿ الطامة ﴾ [النازعات : 34] قاله ابن عباس ، وهذه كلها أسماء تقتضي تعظيمها وتشنيع أمرها . وقال الضحاك : ﴿ الواقعة ﴾ : الصيحة وهي النفخة في الصور . وقال بعض المفسرين : ﴿ الواقعة ﴾ : صخرة بيت المقدس ، تقع عند القيامة ، فهذه كلها معان لأجل القيامة . و : ﴿ كاذبة ﴾ يحتمل أن يكون مصدراً كالعاقبة والعافية وخائنة الأعين . فالمعنى ليس لها تكذيب ولا رد مثنوية ، وهذا قول قتادة والحسن ويحتمل أن يكون صفة لمقدر ، كأنه قال : ﴿ ليس لوقعتها ﴾ حال ﴿ كاذبة ﴾ ، ويحتمل الكلام على هذا معنيين : أحدهما ﴿ كاذبة ﴾ ، أي مكذوب فيما أخبر به عنها فسماها ﴿ كاذبة ﴾ بهذا ، كما تقول هذه قصة كاذبة أي مكذوب فيها ، والثاني حالة كاذبة أي لا يمضي وقوعها ، كما تقول : فلان إذا حمل لم يكذب .

وقوله : ﴿ خافضة رافعة ﴾ رفع على خبر ابتداء ، أي هي ﴿ خافضة رافعة ﴾ .

وقرأ الحسن وعيسى الثقفي وأبو حيوة : " خافضةً رافعةً " بالنصب على الحال بعد الحال

التي هي ﴿ لوقعتها كاذبة ﴾ ولك أن تتابع الأحوال . كما لك أن تتابع أخبار المبتدأ ، والقراءة الأولى أشهر وأبرع معنى ، وذلك أن موقع الحال من الكلام موقع ما لم يذكر لاستغني عنه وموقع الجمل التي يجزم بها موقع ما يتهمم به .

(109/743)

واختلف الناس في معنى هذا الخفض والرفع في هذه الآية ، فقال قتادة وعثمان بن عبد الله بن سراقة : القيامة تخفض أقواماً إلى النار ، وترفع أقواماً إلى النار ، وترفع أقواماً إلى الجنة . وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك : الصيحة تخفض قوتها لتسمع الأدنى وترفعها لتسمع الأقصى . وقال جمهور من المتأولين : القيامة بتفطر السماء والأرض والجبال انهدام هذه البنية ، ترفع طائفة من الأجرام وتخفض أخرى ، فكأنها عبارة عن شدة الهول والاضطراب ، والعامل في قوله : ﴿ إذا رجت ﴾ ، ﴿ وقعت ﴾ ، لأن ﴿ إذا ﴾ هذه بدل من ﴿ إذا ﴾ الأولى ، وقد قالوا : إن ﴿ وقعت ﴾ هو العامل في الأولى ، وذلك لأن معنى الشرط فيها قوي ، فهي ك " من " و " ما " في الشرط ، يعمل فيها ما بعدها من الأفعال ، وقد قيل إن ﴿ إذا ﴾ مضافة إلى ﴿ وقعت ﴾ فلا يصح أن يعمل فيها ، وإنما العامل فيها فعل مقدر . ومعنى : ﴿ رجت ﴾ زلزلت وحركت بعنف ، قاله ابن عباس ، ومنه

ارتج السهم في الغرض إذا اضطرب بعد وقوعه ، والرجة في الناس الأمر المحرك .

واختلف اللغويون في معنى : ﴿ بست ﴾ فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة معناه : فتتت ، كما تبس البسيسة وهي السويق ، ويقال بسست الدقيق إذا ثريته بالماء وبقي مفتتاً ، وأنشد الطبري في هذا : [الرجز]

لا تخبزا خبزاً وبسّا بسّا . . . وقال هذا قول لص أعجله الخوف عن العجين ، فقال لصاحبه هذا .

وقال بعض اللغويين : ﴿ بست ﴾ معناه سيرت قالوا والخبز سير الشديد وضرب الأرض بالأيدي ، والبس : السير الرفيق ، وأنشد البيت : [الرجز]

لا تخبزا خبزاً وبسّا بسّا . . . وجنباها نهشلاً وعبسا

ولا تطيلا بمناخ حبسا . . . ذكر هذا أبو عثمان اللغوي في كتابه في الأفعال .

(110/743)

و " الهباء " : ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة ، ولا يكاد يرى إلا في الشمس إذا دخلت من كوة ، قاله ابن عباس ومجاهد . وقال قتادة : الهباء : ما تطاير من يبس النبات . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه الهباء : ما تطاير من حوافر الخيل والدواب . وقال

ابن عباس أيضاً ، الهباء : ما تطاير من شرر النار ، فإذا طفي لم يوجد شيئاً . والمنبث : بتالتاء المثلثة ، الشائع في جميع الهواء .

وقرأ النخعي : " منبتاً " بالتاء بنقطتين ، أي متقطعاً ، ذكر ذلك الثعلبي .

قال القاضي أبو محمد : والقول الأول في هباء أحسن الأقوال .

والخطاب في قوله : ﴿ وكنتم ﴾ لجميع العالم ، لأن الموصوفين من ﴿ أصحاب المشأمة ﴾ ليسوا في أمة محمد ، والأزواج : الأنواع والضروب . قال قتادة : هذه منازل الناس يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ ابتداء ، و: ﴿ ما ﴾ ابتداء ثان . و: ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ خبرها ، والجملة خبر الابتداء الأول ، وفي الكلام معنى التعظيم ، كما تقول زيد ما زيد ، ونظير هذا في القرآن كثير ، و﴿ الميمنة ﴾ : أظهر ما في اشتقاقها أنها من ناحية اليمين ، وقيل من اليمن ، وكذلك ﴿ المشأمة ﴾ إما أن تكون من اليد الشؤمى ، وإما أن تكون من الشؤم ، وقد فسرت هذه الآية بهذين المعنيين ، إذ ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ الميامين على أنفسهم ، قاله الحسن والربيع ، ويشبه أن اليمن والشؤم إنما اشتقا من اليمنى والشؤمى وذلك على طريقهم في السانح والبارح ، وكذلك اليمن والشؤم اشتقا من اليمنى والشؤمى .

وقوله : ﴿ والسابقون ﴾ ابتداء و: ﴿ السابقون ﴾ الثاني . قال بعض النحويين : هو

نعت للأول ، ومذهب سيبويه أنه خبر الابتداء ، وهذا كما تقول العرب : الناس الناس ، وأنت أنت ، وهذا على معنى تفخيم أمر وتعظيمه ، ومعنى الصفة هو أن تقول : ﴿ والسابقون ﴾ إلى الإيمان ﴿ السابقون ﴾ إلى الجنة والرحمة ﴿ أولئك ﴾ ، ويتجه هذا المعنى على الابتداء والخبر .

(111/743)

وقوله : ﴿ أولئك المقربون ﴾ ابتداء وخبر ، وهو في موضع الخبر على قول من قال : ﴿ السابقون ﴾ الثاني صفة ، و: ﴿ المقربون ﴾ معناه من الله في جنة عدن . قال جماعة من أهل العلم : وهذه الآية متضمنة أن العالم يوم القيامة على ثلاثة أصناف : مؤمنون ، هم على يمين العرش ، وهنالك هي الجنة ، وكافرون ، هم على شؤمى العرش ، وهنالك هي النار . والقول في يمين العرش وشماله نحو من الذي هو في سورة الكهف في اليمين والشمال . وقد قيل في ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ واليمين : إنهم من أخذ كتابه بيمينه ، وفي ﴿ أصحاب المشأمة ﴾ والشمال : إنهم من أخذه بشماله ، فعلى هذا ليست نسبة اليمين والشمال إلى العرش .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أصحاب اليمين أطفال المؤمنين ، وقيل المراد

ميمنة آدم ومشأمته المذكورتان في حديث الإسراء في الأسودة .

و: ﴿ السابقون ﴾ معنه : قد سبقت لهم السعادة ، وكانت أعمالهم في الدنيا سبقاً إلى أعمال البر وإلى ترك المعاصي ، فهذا عموم في جميع الناس . وخصص المفسرون في هذا أشياء ، فقال عثمان بن أبي سودة : هم ﴿ السابقون ﴾ إلى المساجد . وقال ابن سيرين : هم الذين صلوا القبلتين . وقال كعب : هم أهل القرآن ، وقيل غير هذا مما هو جزء من الأعمال الصالحة ، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم وسئل عن السابقين ، فقال : " هم الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سئلوا بذلوه ، وحكموا للناس بحكمهم لأنفسهم " .

وقرأ طلحة بن مصرف : " في جنة النعيم " على الإفراد . و: ﴿ المقربون ﴾ عبارة عن أعلى منازل البشر في الآخرة ، وقيل لعامر بن عبد قيس في يوم حلبة من سبق فقال ﴿ المقربون ﴾ .

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14)

الثلة : الجماعة والفرقة ، وهو يقع للقليل والكثير ، واللفظ في هذا الموضوع يعطي أن الجملة ﴿ من الأولين ﴾ أكثر من الجملة ﴿ من الآخرين ﴾ ، وهي التي عبر عنها بالقليل .

واختلف المتأولون في معنى ذلك ، فقال قوم حكى قولهم مكي : المراد بذلك الأنبياء ، لأنهم كانوا في صدر الدنيا أكثر عدداً ، وقال الحسن بن أبي الحسن وغيره : المراد السابقون من الأمم والسابقون من الأمة ، وذلك إما أن يقترن أصحاب الأنبياء بجموعهم إلى أصحاب محمد فأولئك أكثر لا محالة ، وإما أن يقترن أصحاب الأنبياء ومن سبق في أثناء الأمم إلى السابقين من جميع هذه الأمة فأولئك أكثر . وروي أن الصحابة حزنوا لقلة سابق هذه الأمة على هذا التأويل فنزلت : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ [الواقعة : 39-40] فرضوا . وروي عن عائشة أنها تأولت أن الفرقتين في أمة كل نبي وهي في الصدر ﴿ ثلة ﴾ وفي آخر الأمة ﴿ قليل ﴾ " . وقال النبي صلى الله عليه وسلم فيما روي عنه : " الفرقتان في أمتي فسابق أول الأمة ﴿ ثلة ﴾ وسابق سائرها إلى يوم القيامة ﴿ قليل ﴾ " .

وقرأ الجمهور : " سرُر " بضم الراء . وقرأ أبو السمال : " سرَر " بفتح الراء .

والموضونة : المنسوجة بتركيب بعض أجزائها على بعض كحلف الدرع ، فإن الدرع موضونة ، ومنه قول الأعشى : [المتقارب]

ومن نسج داود موضونة . . . تسير مع الحي عيراً فعيرا

وكذلك سفيفة الخوص ونحوه ﴿ موضونة ﴾ ، ومنه وضين الناقة وهو حزامها ، لأنه موضون ، فهو كقتيل وجريح ، ومنه قول الشاعر : [الرجز]

إليك تعدو قلقاً وضينها . . . معترضاً في بطنها جنينها

مخالفاً دين النصارى دينها . . . قال ابن عباس : هذه السرر الموضونة هي المرمولة بالذهب ، وقال عكرمة : هي مشبكة بالدر والياقوت . و: ﴿ متكئين ﴾ و: ﴿ متقابلين ﴾ حالان فيهما ضمير مرفوع ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : " متكئين عليها ناعمين " . والولدان : صغار الخدم ، عبارة عن أنهم صغار الأسنان ، ووصفهم بالخلد وإن كان جميع ما في الجنة كذلك إشارة إلى أنهم في حال الولدان ﴿ مخلدون ﴾ لا تكبر بهم سن . وقال مجاهد : لا يموتون . قال الفراء : ﴿ مخلدون ﴾ معناه مقرطون بالخلدات ، وهي ضرب من الأقراط ، والأول أصوب ، لأن العرب تقول للذي كبر ولم يشب : إنه لمخلد . والأكواب : ما كان من أواني الشرب لا أذن له ولا خرطوم ، قال ابن عباس : هي جرار من فضة . وقال أبو صالح : مستديرة أفواهها . وقال قتادة والضحاك . ليست لها عرى ، والإبريق ما له خرطوم ، وقال مجاهد وأذن ، وهو من أواني الخمر عند العرب ، ومنه قول عدي بن زيد : [الخفيف]

وتداعوا إلى الصبوح فقامت . . . قينة في يمينها إبريق

والكأس : الآنية المعدة للشرب بها بشريطة أن يكون فيها خمر أو نبيذ أو ما هو سبيل ذلك ،

ومتى كان فارغاً فينسب إلى جنسه زجاجاً كان أو غيره ، ولا يقال الآنية فيها ماء ولبن كأس .

وقوله : ﴿ من معين ﴾ قال ابن عباس معناه : من خمر سائلة جارية معينة . ولفظة ﴿ معين ﴾ يحتمل أن يكون من معن الماء إذا غزر ، فوزنها فعيل ويحتمل أن تكون من العين الجارية أو من الباصرة ، فوزنها مفعول أصلها معيون ، وهذا تأويل قتادة .

وقوله : ﴿ لا يصدعون عنها ﴾ ذهب أكثر المفسرين إلى أن المعنى : لا يلحق رؤوسهم الصداع الذي يلحق من خمر الدنيا ، وقال قوم معناه : لا يفرقون عنها ، بمعنى لا تقطع عنهم لذتهم بسبب من الأسباب كما يفرق أهل خمر الدنيا بأنواع من التفريق ، وهذا كما قال : " فتصدع السحاب عن المدينة " الحديث .

(114/743)

وقوله : ﴿ ولا ينزفون ﴾ قال مجاهد وقتادة وابن جبير والضحاك معناه : لا تذهب عقولهم سكراً ، والنزيف : السكران ، ومنه قول الشاعر : [الكامل]

شرب النزيف ببرد ماء الحشرج . . . وقرأ ابن أبي إسحاق : " ولا يَنزِفون " بكسر الزاي وفتح الياء ، من نزف البئر إذا استقى ماءها ، فهي بمعنى تم خمرهم ونفدت ، هكذا قال أبو

الفتح . وحكى أبو حاتم عن ابن أبي إسحاق والجحدري والأعمش وطلحة وابن مسعود وأبي عبد الرحمن وعيسى : بضم الياء وكسر الزاي . قال معناه : لا يفني شرابهم ، والعرب تقول : أنزف الرجل عبرته ، وتقول أيضاً ، أنزف : إذا سكر ، ومنه قول الأبيرد : [الطويل]

لعمري لئن أنزفتمُ أو صحوتمُ . . . لبيس الندامى أنتمُ آل أبجرا

وعطف الفاكهة على الكأس والأباريق .

وقوله : ﴿ مما يشتهون ﴾ روي فيه أن العبد يرى الطائر يطير فيشتهيه فينزل له كما اشتهاه ، وربما أكل منه ألواناً بحسب تصرف شهوته ، إلى كثير مما روي في هذا المعنى .

وقرأ حمزة والكسائي والمفضل عن عاصم : " وحورٍ عينٍ " بالخفض ، وهي قراءة الحسن وأبي عبد الرحمن والأعمش وأبي القعقاع وعمرو بن عبيد . وقرأ أبيّ بن كعب وابن مسعود : " وحوراً عيناً " بالنصب . وقرأ الباقون من السبعة : " وحورٌ عينٌ " بالرفع ، وكل هذه القراءات محمولة الإعراب على المعنى لا على اللفظ . كأن المعنى قبل ينعمون بهذا كله وب " حورٍ عينٍ " ، وهذا المعنى في قراءة النصب ويعطون هذا كله " وحوراً عيناً " ، وكان المعنى في الرفع : لهم هذا كله " وحورٌ عينٌ " ، ويجوز أن يعطف : ﴿ وحور ﴾ على الضمير في : ﴿ متكئين ﴾ . قال أبو علي : ولم يؤكد لكون الكلام بدلاً من التأكيد ، ويجوز أن يعطف على الولدان وإن كان طواف الحور يقلق ، ويجوز أن يعطف على الضمير المقدر

في قوله : ﴿ على سرر ﴾ وفي هذا كله نظر ، وقد تقدم معنى : ﴿ حور عين ﴾ .

وقرأ إبراهيم النخعي : " وحير عين " .

(115/743)

وخص ﴿ المكنون ﴾ من ﴿ اللؤلؤ ﴾ لأنه أصفى لوناً وأبعد عن الغير ، وسألت أم سلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا التشبيه فقال :

" صفاؤهن كصفاء الدر في الأصداف الذي لا تمسه الأيدي " . و: ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أي هذه الرتب والنعم هي لهم بحسب أعمالهم ، لأنه روي أن المنازل والقسم في الجنة ، هي مقتسمة على قدر الأعمال ، ونفس دخول الجنة هو برحمة الله وفضله لا بعمل عامل ، فأما هذا الفضل الأخير أن دخولها ليس بعمل عامل ، ففيه حديث صحيح ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يدخل أحد الجنة بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة " .

واللغو : سقط القول من فحش وغيره . والتأثيم : مصدر ، بمعنى : لا يؤثم أحد هناك غيره ولا نفسه بقول . فكان يسمع ويتألم بسماعه . و: ﴿ قليلاً ﴾ مستثنى ، والاستثناء متصل ، وقال قوم : هو منقطع . و: ﴿ سلاماً ﴾ نعت للقيل ، كأنه قال : إلا ﴿ قيلاً ﴾

سالماً من هذه العيوب وغيرها . وقال أبو إسحاق الزجاج أيضاً ﴿ سلاماً ﴾ مصدر ، وناصبه ﴿ قيلاً ﴾ كأنه يذكر أنهم يقول بعضهم لبعض ﴿ سلاماً سلاماً ﴾ . وقال بعض النحاة ﴿ سلاماً ﴾ منتصب بفعل مضمر تقديره : أسلموا سلاماً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(116/743)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾

أي غلمان لا يموتون ؛ قاله مجاهد .

الحسن والكلبيّ : لا يَهْرَمون ولا يتغيرون ؛ ومنه قول امرىء القيس :

وهَلْ يَنْعَمَنْ إلاّ سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ . . .

قَلِيلُ الْهُمُومِ ما يَبِيتُ بِأَوجَالِ

وقال سعيد بن جبير : مُخلَّدون مُقرَّطون ؛ يقال للقُرْط الخَلَدَة ولجماعة الحُلِيّ الْخِلْدَة .

وقيل : مسوّرون ونحوه عن الفراء ؛ قال الشاعر :

ومخلَّداتٌ بِاللُّجينِ كأَنَّمَا . . .

أَعْجَازُهُنَّ أَقَاوِزُ الْكُثْبَانِ

وقيل : مقرّطون يعني ممنطقون من المناطق .

وقال عكرمة : "مُخَلَّدُونَ" منعَّمون .

وقيل : على سنّ واحدة أنشأهم الله لأهل الجنة يطوفون عليهم كما شاء من غير ولادة .

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن البصري : الولدان ههنا ولدان المسلمين الذين يموتون صغاراً ولا حسنة لهم ولا سيئة .

وقال سلمان الفارسيّ : أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة .

قال الحسن : لم يكن لهم حسنات يجزون بها ، ولا سيئات يعاقبون عليها ، فوضعوا في هذا الموضع .

والمقصود : أن أهل الجنة على أتم السرور والنعمة ، والنعمة إنما تتم بآحتفاف الخدم والولدان بالإنسان .

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾ أكواب جمع كوب وقد مضى في "الزخرف" وهي الآنية التي لا عُرى لها ولا خراطيم ، والأباريق التي لها عُرى وخراطيم واحدها إبريق ؛ سُمِّيَ بذلك لأنه يبرق لونه من صفائه .

﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ مضى في "والصافات" القول فيه .

والمعين الجاري من ماء أو خمر ؛ غير أن المراد في هذا الموضع الخمر الجارية من العيون .

وقيل : الظاهرة للعيون فيكون "معين" مفعولاً من المعاينة .

وقيل : هو فعيل من المَعْن وهو الكثرة .

وبيّن أنها ليست كخمر الدنيا التي تستخرج بعصر وتكلّف ومعالجة .

قوله تعالى : ﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ أي لا تنصدع رؤوسهم من شربها ؛ أي إنها لذة بلا أذًى بخلاف شراب الدنيا .

(117/743)

﴿ وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ تقدم في "والصافات" أي لا يسكرون فتذهب عقولهم .

وقرأ مجاهد : ﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ ﴾ بمعنى لا يتصدّعون أي لا يتفرقون ؛ كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : 43] .

وقرأ أهل الكوفة "يَنْزِفُونَ" بكسر الزاي ؛ أي لا ينفد شرابهم ولا تفنى خمرهم ؛ ومنه قول الشاعر :

لَعَمْرِي لَئِنْ أَنْزَفتُم أو صَحَوْتُمُ . . .

لَبِئْسَ النَّدَامَى كُنتُمُ آلَ أَبْجَرَا

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : في الخمر أربع خصال : السُّكْر والصُّداع والقيء

والبول ، وقد ذكر الله تعالى خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال .

قوله تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ أي يتخيرون ما شاؤوا لكثرتها .

وقيل : وفاكهة متخيرة مرضية ، والتخير الاختيار .

﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ روى الترمذي عن أنس بن مالك قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الكوثر ؟ قال : "ذاك نهر أعطانيه الله تعالى يعني في الجنة أشدّ بياضاً من اللبن ، أحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجزُر" " قال عمر : إن هذه لناعِمةٌ ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" أَكَلَتُها أحسنُ منها " قال : حديث حسن .

وخرّجه الثعلبي من حديث أبي الدرداء أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " "إن في الجنة طيراً مثل أعناق البُخْت تصطفّ على يد وليّ الله فيقول أحدها يا وليّ اللَّهِ رَعيتُ في مُرُوج تحت العرش وشربت من عيون التَّسنيم فكُلْ منّي فلا يزلن يفتخرن بين يديه حتى يخطر على قلبه أكل أحدها فتخرّ بين يديه على ألوان مختلفة فيأكل منها ما أراد فإذا شبع تجمع عظام الطائر فطار يرعى في الجنة حيث شاء" فقال عمر : يا نبيّ الله إنها لناعِمة .

(118/743)

فقال : "آكلُها أَنْعمُ منها" " وروي عن أبي سعيد الخدري أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن في الجنة لطيراً في الطائر منها سبعون ألف ريشة فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنة ثم ينتفض فيخرج من كل ريشة لون طعام أبيض من الثلج وأبرد وألين من الزّبد وأعذب من الشهد ليس فيه لون يشبه صاحبه فيأكل منه ما أراد ثم يذهب فيطير "

قوله تعالى : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ قرىء بالرفع والنصب والجر ؛ فمن جر وهو حمزة والكسائي وغيرهما جاز أن يكون معطوفاً على ﴿ بِأَكْوَابٍ ﴾ وهو محمول على المعنى ؛ لأن المعنى يتنعمون بأكواب وفاكهة ولحم وحُور ؛ قاله الزجاج .

وجاز أن يكون معطوفاً على "جَنَّاتِ" أي هم في "جَنَّاتِ النَّعِيمِ" وفي حور على تقدير حذف المضاف ؛ كأنه قال : وفي معاشرة حور .

الفراء : الجر على الإتباع في اللفظ وإن اختلفا في المعنى ؛ لأن الحور لا يطاف بهن ؛ قال الشاعر :

إذا ما الغانِياتُ بَرَزْنَ يوماً . . .

وزَجَّجْنَ الحَواجِبَ والْعُيونَا

والعين لا تزجج وإنما تكحل .

وقال آخر :

ورأيتُ زَوْجَكِ في الوغَى . . .

مُتَقَلِّداً سَيْفاً ورُمْحَا

وقال قُطْرب : هو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى .

قال : ولا ينكر أن يطاف عليهم بالحور ويكون لهم في ذلك لذة .

ومن نصب وهو الأشهب العقيلي والنّخعي وعيسى بن عمر الثّقَفي وكذلك هو في مصحف أُبَيّ ، فهو على تقدير إضمار فعل ؛ كأنه قال : ويزوّجون حُوراً عِيناً .

والحمل في النصب على المعنى أيضاً حسن ؛ لأن معنى يطاف عليهم به يُعطَونه .

ومن رفع وهم الجمهور وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم فعلى معنى وعندهم حور عين ؛ لأنه لا يطاف عليهم بالحور .

وقال الكسائي : ومن قال : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ بالرفع وعلّل بأنه لا يطاف بهنّ يلزمه ذلك في فاكهة ولحم ؛ لأن ذلك لا يطاف به وليس يطاف إلا بالخمر وحدها .

(119/743)

وقال الأخفش : يجوز أن يكون محمولاً على المعنى ؛ لأن المعنى لهم أكواب ولهم حور عين .

وجاز أن يكون معطوفاً على ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ و ﴿ وَثُلَّةٌ ﴾ ابتداء وخبره ﴿ على سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ وكذلك "وَحُورٌ عِينٌ" وابتدأ بالنكرة لتخصيصها بالصفة .

﴿ كَأَمْثَالِ ﴾ أي مثل أمثال ﴿ اللؤلؤ المكنون ﴾ أي الذي لم تمسه الأيدي ولم يقع عليه الغبار فهو أشدّ ما يكون صفاء وتلألؤاً ؛ أي هنّ في تشاكل أجسادهن في الحسن من جميع جوانبهن كما قال الشاعر :

كأَنَّمَا خُلِقَتْ فِي قِشْرِ لُؤْلُؤَةٍ . . .

فَكُلُّ أَكْنَافِها وَجْهٌ لِمِرْصادِ

﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي ثواباً ونصْبُه على المفعول له .

ويجوز أن يكون على المصدر ؛ لأن معنى ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ يجازون .

وقد مضى الكلام في الحور العين في "والطور" وغيرها .

وقال أنس : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " خلق الله الحور العين من الزعفران " وقال خالد بن الوليد : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الرجل من أهل الجنة ليمسك التفاحة من تفاح الجنة فتنفلق في يده فتخرج منها حوراء لو نظرت للشمس لأخجلت الشمس من حسنها من غير أن ينقص من التفاحة " فقال له رجل : يا أبا سليمان إن هذا لعجبٌ ولا ينقص من التفاحة ؟ قال : نعم كالسِّراج الذي يوقد منه سِراج آخر وسُرج ولا ينقص ، والله على ما يشاء قدير .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : خلق الله الحور العين من أصابع رجليها إلى ركبتيها من الزعفران ، ومن ركبتيها إلى ثدييها من المسك الأذفر ، ومن ثدييها إلى عنقها من العنبر الأشهب ، ومن عنقها إلى رأسها من الكافور الأبيض ، عليها سبعون ألف حُلَّة مثل شقائق النعمان ، إذا أقبلت يتلألأ وجهها نوراً ساطعاً كما تتلألأ الشمس لأهل الدنيا ، وإذا أدبرت يرى كبدها من رقّة ثيابها وجلدها ، في رأسها سبعون ألف ذؤابة من المسك الأذفر ، لكل ذؤابة منها وصيفة ترفع ذيلها وهي تنادي : هذا ثواب الأولياء ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً ﴾ قال ابن عباس : باطلاً ولا كذباً .

واللغو ما يُلغى من الكلام ، والتأثيم مصدر أَثَّمْته أي قلت له أثمت .

محمد بن كعب : ﴿ وَلاَ تَأْثِيماً ﴾ أي لا يؤثّم بعضُهم بعضاً .

مجاهد : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً ﴾ شتماً ولا مأثماً .

﴿ إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً ﴾ "قِيلاً" منصوب ب "يَسْمَعُونَ" أو استثناء منقطع أي لكن يقولون قِيلاً أو يسمعون .

و ﴿ سَلاَماً سَلاَماً ﴾ منصوبان بالقول ؛ أي إلا أنهم يقولون الخير .

أو على المصدر أي إلا أن يقول بعضهم لبعض سلاماً .

أو يكون وصفاً ل "قيلا" ، والسلام الثاني بدل من الأول ، والمعنى إلا قيلاً يسلم فيه من اللغو .

ويجوز الرفع على تقدير سلام عليكم .

قال ابن عباس : أي يحيّي بعضهم بعضاً .

وقيل : تحييهم الملائكة أو يحييهم ربهم عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(121/743)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾

أيْ إذَا قامتِ القيامةُ ، وذلكَ عندَ النفخةِ الثانيةِ . والتعبيرُ عنها بالواقعةِ للإيذانِ بتحققِ وقوعِها لا محالةَ كأنَّها واقعةٌ في نفسِها معَ قطعِ النظرِ عن الوقوعِ الواقعِ في حيزِ الشرطِ كأنَّه قيلَ كانتِ الكائنةُ وحدثتِ الحادثةُ . وانتصابُ إذَا بمضمرٍ ينبىءُ عن الهولِ والفظاعةِ ، كأنَّه قيلَ إذَا وقعتِ الواقعةُ يكونُ من الأهوالِ ما لا يفي به المقالُ ، وقيلَ بالنَّفي المفهومِ من قولِه تعالى : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ أيْ لا يكونُ عندَ وقوعِها نفسٌ تكذبُ على اللهِ تعالَى أو

تكذبُ في نفيها كما تكذبُ اليومَ واللامُ كهيَ في قولِه تعالى : ﴿ ياليتنى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ وهذهِ الجملةُ على الوجهِ الأولِ اعتراضٌ مقررٌ لمضمونِ الشرطِ على أنَّ الكاذبةَ مصدرٌ كالعافيةِ أي ليسَ لأجلِ وقعتِها وفي حقِّها كذبٌ أصْلاً بلْ كلُّ ما رودَ في شأنِها من الأخبارِ حقٌّ صادقٌ لا ريبَ فيهِ . وقوله تعالى : ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ أيْ هيَ خافضةٌ لأقوامٍ رافعةٌ لآخرينَ وهو تقريرٌ لعظمتِها وتهويلٌ لأمرِها ، فإنَّ الوقائعَ العظامِ شأنُها كذلكَ ، أو بيانٌ لما يكونُ يومئذٍ من حطِّ الأشقياءِ إلى الدركاتِ ، ورفعِ السعداءِ إلى الدرجاتِ ، ومن زلزلةِ الأشياءِ وإزالةِ الأجرامِ عن مقارِّها بنثرِ الكواكبِ وإسقاطِ السماءِ كسفاً وتسييرِ الجبالِ في الجوِّ كالسحابِ . وتقديمُ الخفضِ على الرفعِ للتشديدِ في التهويلِ . وقُرِئَ خافضةً رافعةً بالنصبِ على الحالِ من الواقعةِ . وقولُه تعالَى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرض رَجّاً ﴾ أيْ زلزلتْ زلزالاً شديداً بحيثُ ينهدمُ ما فوقَها من بناءٍ وجبلٍ ، متعلقٌ بخافضةٌ رافعةٌ أي تخفضُ وترفعُ وقتَ رجِّ الأرضِ إذْ عندَ ذلكَ ينخفضُ ما هُو مرتفعٌ ويرتفعُ ما هو منخفضٌ ، أو بدلٌ منْ إذَا وقعتِ . ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ أيْ فُتِّتتْ حتَّى صارتْ مثلَ السويقِ الملتوتِ

من بسَّ السويقَ إذا لتَّه أو سِيقتْ وسيرتْ من أماكِنِها من بسَّ الغنَم إذا ساقَها كقولِه تعالَى وسُيرتِ الجبالُ . وقُرِىءَ رُجتْ وبُستْ أيْ ارتجتْ وذهبتْ .

﴿ فَكَانَتْ ﴾ أي فصارتْ بسببِ ذلك ﴿ هَبَاء ﴾ غباراً ﴿ مُّنبَثّاً ﴾ منتشراً ﴿ وَكُنتُمْ ﴾ إما خطابٌ للأمةِ الحاضرةِ والأممِ السالفةِ تغليباً أو للحاضرةِ فقط ﴿ أزواجا ﴾ أي أصنافاً ﴿ ثلاثة ﴾ فكلُّ صنفٍ يكونُ مع صنفٍ آخرَ في الوجودِ أو في الذكرِ فهو زوجٌ . وقولُه تعالى :

(123/743)

﴿ فأصحاب الميمنة مَا أصحاب الميمنة * وأصحاب المشئمة مَا أصحاب المشئمة ﴾ تقسيمٌ وتنويعٌ للأزواجِ الثلاثةِ معَ الإشارةِ الإجماليةِ إلى أحوالِهم قبلَ تفصيلِها . فقولُه تعالَى فأصحابُ الميمنةِ مبتدأٌ وقولُه ما أصحابُ الميمنةِ خبرُه على أنَّ ما الاستفهاميةَ مبتدأٌ ثانٍ ما بعده خبرُهُ والجملةُ خبرُ الأولِ ، والأصلُ ما هُم أيْ أيُّ شيءٍ هم في حالِهم وصفتِهم فإنَّ ما وإنْ شاعتْ في طلبِ مفهومِ الاسمِ والحقيقةِ لكنَّها قد يُطلبُ بها الصفةُ والحالُ ، وتقولُ ما زيدٌ فيقالُ عالمٌ أو طبيبٌ فوضعُ الظاهرِ موضعَ الضميرِ لكونِه أدخلَ في التفخيمِ ، وكذا الكلامُ في قولِه تعالى : ﴿ وأصحاب المشئمة مَا أصحاب المشئمة ﴾ والمرادُ تعجيبُ

السامعِ من شأنِ الفريقينِ في الفخامةِ والفظاعةِ كأنَّه قيلَ فأصحابُ الميمنةِ في غاية حسنِ الحالِ وأصحابُ المشأمةِ في نهاية سوءِ الحالِ . وتكلمُوا في الفريقينِ ، فقيلَ أصحابُ الميمنةِ أصحابُ المنزلةِ السنيةِ وأصحابُ المشأمةِ أصحابُ المنزلةِ الدنيةِ أخذاً من تيمُّنهم بالميامنِ وتشاؤمِهم بالشمائلِ ، وقيلَ الذينَ يُؤتَون صحائفهم بأيمانِهم والذينَ يُؤتونها بشمائلِهم ، وقيلَ الذينَ يُؤخذُ بهم ذاتَ اليمينِ إلى الجنَّةِ والذينَ يؤخذُ بهم ذاتَ الشمالِ إلى النارِ ، وقيلَ : أصحابُ اليُمنِ وأصحابُ الشؤمِ فإن السعداءَ ميامينَ على أنفسِهم بطاعاتِهم والأشقياءُ مشائيمُ عليها بمعاصِيهم . وقولُه تعالَى : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ هُو القِسمُ الثالثُ من الأزواجِ الثلاثةِ ولعلَّ تأخيرَ ذكرِهم مع كونِهم أسبقَ الاقسامِ وأقدمَهم في الفضلِ ليقترنَ ذكرُهم ببيانِ محاسنِ أحوالِهم ، على أنَّ إيرادَهُم بعنوانِ السبقِ مُطلقاً معربٌ عن إحرازِهم لقصبِ السبقِ من جميعِ الوجوهِ وتكلمُوا فيهم أيضاً فقيلَ هم الذينَ سبقُوا إلى الإيمانِ والطاعةِ عند ظهورِ الحقِّ من غير تلعثمٍ وتوانٍ ، وقيلَ : الذينَ سبقوا في

(124/743)

حيازةِ الفضائلِ والكمالاتِ ، وقيلَ هُم الذينَ صلَّوا إلى القبلتينِ كما قالَ تعالى : ﴿ والسابقون الاولون مِنَ المهاجرين والأنصار ﴾ وقيلَ هم السابقونَ إلى الصلواتِ الخمسِ ،

وقيل : المسارعونَ في الخيراتِ . وأيّاً ما كانَ فالجملةُ مبتدأٌ وخبرٌ . والمَعْنى والسابقونَ هم الذينَ اشتهرتْ أحوالُهم وعرفتْ محاسنُهم ، كقولِ أبي النَّجم :

أَنا أَبُو النَّجم وشِعْرِي شِعْرِي . . . وفيهِ من تفخيمِ شأنِهم والإيذانِ بشيوعِ فضلِهم واستغنائِهم عن الوصفِ بالجميلِ ما لا يَخْفى ، وقيلَ والسابقونَ إلى طاعةِ الله تعالى السابقونَ إلى رحمتِه أو السابقونَ إلى الخيرِ السابقونَ إلى الجنةِ .

(125/743)

وقولُه تعالى ﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى السابقينَ ، وما فيهِ من مَعْنى البُعدِ مع قُربِ العهدِ بالمشارِ إليهِ للإيذانِ ببُعدِ منزلتِهم في الفضل ومحلُّه الرفعُ على الابتداءِ ، خبرُهُ ما بعدَهُ أَيْ أولئكَ الموصوفونَ بذلكَ النعتِ الجليلِ ﴿ المقربون ﴾ أي الذينَ قُرِّبتْ إلى العرشِ العظيمِ درجاتُهم وأعليتْ مراتبهُم ورُقِّيتْ إلى حظائرِ القدسِ نفوسُهم الزكيةُ هذا أظهرُ ما ذُكِرَ في إعرابِ هذه الجملِ وأشهرُه والذي تقتضيه جزالةُ التنزيلِ أنَّ قولَه تعالَى : ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ ، وكذا قولُه تعالى : ﴿ وأصحاب المشئمة ﴾ وقولُه تعالَى : ﴿ والسابقون ﴾ فإن المترقَّبَ عند بيانِ انقسامِ الناسِ إلى الأقسامِ الثلاثةِ بيانُ أنفسِ الأقسامِ الثلاثةِ وأمّا أوصافُها وأحوالُها فحقُّها أنْ تبينَ بعد ذلكَ بإسنادِها إليها ، والتقديرُ

فأحدُها أصحابُ الميمنةِ والآخرُ أصحابُ المشأمةِ والثالثُ السابقونَ ، خَلاَ أنَّه لما أُخرَ بيانُ أحوالِ القسمينِ الأُوليينِ عُقّبَ كلٌّ منهُما بجملةٍ معترضةٍ بين القسمينِ منبئةٍ عن تَرَامي أحوالِهما في الخيرِ والشرّ إنباءً إجمالياً مشعراً بأنَّ لأحوالِ كلَ منهُمَا تفصيلاً مترقباً لكنْ لا على أنَّ مَا الاستفهاميةَ مبتدأٌ وما بعدها خبرٌ على ما رآهُ سيبويهِ في أمثالِه بلْ على أنَّها خبرٌ لما بعدَها فإنَّ مناطَ الإفادةِ بيانُ أنَّ أصحابَ الميمنةِ أمرٌ بديعٌ كما يفيدهُ كونُ ما خبراً لا بيانُ أنَّ أمراً بديعاً أصحابُ الميمنةِ كما يفيدُه كونُها مبتدأً وكذا الحالُ في ما أصحابُ المشأمة وأما القسمُ الأخيرُ فحيثُ قُرنَ بيانُ محاسنِ أحوالِه بذكرِه لم يُحتجْ فيهِ إلى تقديمِ الأنموذجِ فقولُه تعالى السابقونَ مبتدأٌ والإظهارُ في مقامِ الإضمارِ للتفخيمِ وأولئكَ مبتدأٌ ثانٍ أو بدلٌ من الأولِ وما بعدَهُ خبرٌ له أو للثانِي والجملةُ خبرٌ للأولِ . وقولُه تعالى : ﴿ فِي جنات

(126/743)

النعيم ﴾ متعلقٌ بالمقربونَ أو بمضمرٍ هو حالٌ من ضميرِه أي كائنين في جنّاتِ النعيمِ وقيلَ خبرٌ ثانٍ لاسمِ الإشارةِ وفيه أنَّ الإخبارَ بكونهم فيها بعد الإخبارِ بكونِهم مقربين ليس فيه مزيدُ مزيةٍ وقُرِىءَ في جنةِ النعيمِ .

وقولُه تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مّنَ الأولين ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ أيْ هُم أمةٌ جمةٌ من الأولينَ ، وهم

الأممُ السالفةُ من لدنِ آدم إلى نبيّنا عليهما الصّلاةُ والسّلامُ وعلى من بينهُمَا منَ الأنبياءِ العظامِ. ﴿ وَقَلِيلٌ مّنَ الأخرين ﴾ أي من هذه الأمةِ ولا يخالُفه قولُه عليه الصّلاةُ والسّلامُ: إنّ أمتي يكثرونَ سائرَ الأممِ فإنّ أكثريةَ سابقي الأممِ السالفةِ من سابقي هذه الأمة لا تمنعُ أكثريةَ تابعي هؤلاءِ من تابعي أولئكَ، ولا يردُّه قولُه تعالى: في أصحابِ اليمينِ ﴿ ثلةٌ من الأَولينَ وثلةٌ من الآخرينَ ﴾ لأنّ كثرةَ كلَ من الفريقينِ في أنفسِهما لا تُنافِي أكثريةَ أحدِهما من الآخرِ وسيأتِي أن الثلثينِ من هذهِ الأمةِ وقد رُويَ مرفوعاً أن الأولينَ والآخرينَ ههنا أيضاً متقدمُو هذه الأمةِ ومتأخرُوهم واشتقاقُ الثلةِ من الثّلِ وهو الكسرُ.

(127/743)

﴿ على سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ حالٌ أُخرى من المقربينَ أو من ضميرِهم في الحالِ الأُولى وقيلَ: خبرٌ آخرُ للضميرِ والموضونةُ المنسوجةُ بالذهبِ مشبكةٌ بالدرّ والياقوتِ أو المتواصلةُ من الوضنِ وهو النسجُ ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا متقابلين ﴾ حالانِ من الضميرِ المستكنّ فيما تعلقَ بهِ على سررٍ أي مستقرينَ على سررٍ متكئينَ عليها متقابلينَ لا ينظرُ بعضُهم من أقفاءِ بعضٍ وهو وصفٌ لهم بحسنِ العشرةِ وتهذيبِ الأخلاقِ والآداب. ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ حالٌ أُخرى أو استئنافٌ أي يدورُ حولَهم للخدمةِ ﴿ ولدان مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي مبقونَ أبداً على

شكلِ الولدانِ وطراوتِهم لا يتحولونَ عنها وقيلَ مقرطونَ والخُلد القِرطُ قيلَ : هم أولادُ أهلِ الدُّنيا لم يكُن لهم حسناتٌ فيثابُوا عليها ولا سيئاتٌ فيعاقبُوا عليها ، رُويَ ذلكَ عن عليَ رضيَ الله عنه وعنِ الحسنِ رحمَهُ الله ، وفي الحديثِ أولادُ الكفارِ خدامُ أهلِ الجنةِ ﴿ بِأَكْوَابٍ ﴾ بآنيةٍ لا عُرَى لها ولا خَراطيمُ . ﴿ وَأَبَارِيقَ ﴾ أي آنيةٌ ذاتُ عُرى وخَراطيمَ ﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ أي خمرٍ جاريةٍ من العُيونِ قيلَ : إنما أفردَ الكأسَ لأنها لا تسمَّى كأساً إلا إذا كانتْ مملوءةً ﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ أيْ بسببها . وحقيقتُه لا يصدرُ صداعُهم عنْهَا . وقُرِيءَ لا يصَدَّعُون أي لا يتصدَّعُون ولا يتفرقونَ ، كقولِه تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ وقرِيءَ لا يُصدعونَ أي لا يفرقُ بعضُهم بعضاً ﴿ وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ أي لا يسكرُون من أُنزِفَ الشاربُ إذا نفدَ عقلُه أو شرابُه ﴿ وفاكهة مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ أي يختارونه ويأخذون خيره وأفضله .

﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي يتمنونَ وقُرِيءَ ولحومِ طيرٍ .

(128/743)

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ بالرفعِ عطفٌ على والدانٌ أو مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ أيْ وفيهَا أو لَهُم حورٌ . وقرِيءَ بالجرِّ عطفاً على جنابِ النعيمِ ، كأنَّه قيلَ هم في جناتٍ وفاكهةٍ ولحمٍ

ومصاحبة حورٍ أو على أكوابٍ لأنَّ معنى يطوفُ عليهم ولدانٌ مخلدونَ بأكوابٍ يُنعَّمونَ بأكوابٍ وبالنصب أي ويُؤتونَ حُوراً . ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ صفة لحور أو حال . ﴿ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ مفعول له أي يفعل بهم ذلكَ كلُّه جزاءً بأعمالِهم ، أو مصدرٌ مؤكدٌ أي يُجزونَ جزاءً . ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾ أي باطلاً ﴿ وَلاَ تَأْثِيماً ﴾ أيْ ولا نسبةً إلى الإثمِ أيْ لا لغوَ فيهَا ولا تأثيمَ ولا سماعَ كقولِه :

ولاَ تَرَى الضبَّ بها ينجحِرُ . . . ﴿ إِلاَّ قِيلاً ﴾ أي قولاً ﴿ سلاما سلاما ﴾ بدلٌ من قيلاً كقوله تعالَى : ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سلاما ﴾ ، أو صفتُه أو مفعولُه بمَعْنى لا يسمعونَ فيها إلا أنْ يقولُوا سلاماً سلاماً والمَعْنى أنهم يُفشونَ السلامَ فيسلمونَ سلاماً بعدَ سلامٍ أو لا يسمعُ كلٌّ من المسلِّمِ والمسلَّمِ عليهِ إلا سلامَ الآخرِ بدءاً أو رداً . وقُرِىءَ سلامٌ سلامٌ على الحكايةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 8 صـ ﴾

(129/743)

وقال الآلوسى :

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾

حال أخرى أو استئناف أي يدور حولهم للخدمة ﴿ ولدان مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي مبقون أبداً

على شكل الولدان وحد الوصافة لا يتحولون عن ذلك ، وإلا فكل أهل الجنة مخلد لا يموت ، وقال الفراء .

وابن جبير : مقرطون بخلدة وهي ضرب من الأقراط قيل : هم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيآت فيعاقبوا عليها ، وروى هذا أمير المؤمنين على كرم الله تعالى وجهه ، وعن الحسن البصري واشتهر أنه عليه الصلاة والسلام قال : أولاد الكفار خدم أهل الجنة وذكر الطيبي أنه لم يصح بل صح ما يدفعه ؛ أخرج البخاري .

وأبو داود .

والنسائي عن عائشة قالت : توفي صبي فقلت : طوبى له عصفور من عصافير الجنة فقال صلى الله عليه وسلم : أو لا تدرين أن الله تعالى خلق الجنة وخلق النار فخلق لهذه أهلاً ولهذه أهلاً ، وفي رواية خلقهم لهما وهم في أصلاب آبائهم .

وأخرج أبو داود عنها أنها قالت : قلت : يا رسول الله ذراري المؤمنين فقال من آبائهم فقلت : يا رسول الله بلا عمل قال : الله أعلم بما كانوا عاملين قلت : يا رسول الله فذراري المشركين قال : من آبائهم فقلت : بلا عمل قال : الله أعلم بما كانوا عاملين ، وقيل : إنهم يمتحنون يوم القيامة فتخرج لهم نار ويؤمرون بالدخول فيها فمن دخلها وجدها برداً وسلاماً وأدخل الجنة ، ومن أبى أدخل النار مع سائر الكفار ويروون في ذلك أثراً .

ومن الغريب ما قيل : إنهم بعد الإعادة يكونون تراباً كالبهائم ، وفي "الكشف" الأحاديث

متعارضة في المسألة وكذلك المذاهب ، والمسألة ظنية والعلم عند الله تعالى وهو عز وجل أعلم انتهى ؛ والأكثر على دخولهم الجنة بفضل الله تعالى ومزيد رحمته تبارك وتعالى ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تمام الكلام في ذلك .

(130/743)

﴿ بِأَكْوَابٍ ﴾ بآنية لا عرا لها ولا خراطيم ، والظاهر أنها الأقداح وبذلك فسرها عكرمة وهي جمع كوب ﴿ وَأَبَارِيقَ ﴾ جمع إبريق وهو إناء له خرطوم قيل : وعروة ، وفي "البحر" أنه من أواني الخمر ، وأنشد قول عدي بن زيد :

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت . . .

في (قينة يمينها إبريق

وفيه أيضاً أنه إفعيل من البريق ، وذكر غير واحد أنه معرب آب ريزاي صاب الماء وهو أنسب مما في بعض نسخ القاموس أنه معرب آب ري بلا زاي ، وأياً ما كان فهو ليس مأخوذ من البريق ، نعم الإبريق بمعنى المرأة الحسنة البراقة والسيف البراق والقوس فيها تلاميع مأخوذ من ذلك ، ولعله يقول بأنه عربي لا معرب ، وأن البريق مما فيه من الخمر والشعراء يصفونها بذلك كقوله :

(مشعشعة) كأن الحص فيها . . .

إذا ما الماء خالطها سخيناً

أو لأنه غالباً يتخذ مماله نوع برق كالبلور والفضة ﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ أي خمر جارية من العيون كما قال ابن عباس .

وقتادة أي لم يعصر كخمر الدنيا ، وقيل : خمر ظاهرة للعيون مرئية بها لأنها كذلك أهنأ ، وأفرد الكأس على ما قيل لأنها لا تسمى كأساً إلا إذا كانت مملوءة .

﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ أي بسببها وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها ، والمراد أنهم لا يلحق رؤوسهم صداع لأجل خمار يحصل منها كما في خمور الدنيا ، وقيل : لا يفرقون عنها بمعنى لا تقطع عنهم لذتهم بسبب من الأسباب كما تفرق أهل خمر الدنيا بأنواع من التفريق .

وقرأ مجاهد (لا يصدعون) ، بفتح الياء وشد الصاد على أن أصله يتصدعون فأدغم التاء في الصاد أي لا يتفرقون كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : 43] ، وقرىء ﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ ﴾ بفتح الياء والتخفيف أي لا يصدع بعضهم بعضاً ولا يفرقونهم أي لا يجلس داخل منهم بين اثنين فيفرق بين المتقاربين فإنه سوء الأدب وليس من حسن العشرة ﴿ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ قال مجاهد .

وقتادة .

والضحاك : لا تذهب عقولهم بسكرها من نزف الشارب كعنى إذا ذهب عقله ، ويقال للسكران نزيف ومنزوف ، قيل : وهو من نزف الماء نزحه من البئر شيئاً فشيئاً فكان الكلام على تقدير مضاف .

وقرأ ابن أبي اسحق .

وعبد الله .

والسلمي .

والجحدري .

والأعمش وطلحة .

وعيسى .

وعاصم كما أخرج عنه عبد بن حميد ﴿ وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ بضم الياء وكسر الزاي من أنزف الشارب إذا ذهب عقله أو شرابه ، ومعناه صار ذا نزف ؛ ونظيره أقشع السراب وقشعته الريح وحقيقته دخل في القسع ، وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً ﴿ وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ بفتح الياء وكسر الزاي قال : في المجمع وهو محمول على أنه لا يفنى خمرهم ، والتناسب بين الجملتين على ما سمعت فيهما أولا على قراءة الجمهور أن الأولى لبيان نفي الضرر عن الأجسام ، والثانية لبيان نفي الضرر عن العقول وتأمل لتعرفه إن شاء الله تعالى على ما عدا ذلك .

﴿ وفاكهة مّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ أي يأخذون خيره وأفضله والمراد مما يرضونه . ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ مما تميل نفوسهم إليه وترغب فيه ، والظاهر أن فاكهة ولحم معطوفان على ﴿ أكواب ﴾ [الواقعة : 18] فتفيد الآية أن الولدان يطوفون بهما عليهم ، واستشكل بأنه قد جاء في الآثار أن فاكهة الجنة وثمارها ينالها القائم والقاعد والنائم ، وعن مجاهد أنها دانية من أربابها فيتناولونها متكئين فإذا اضطجعوا نزلت بإزاء أفواههم فيتناولونها مضطجعين ، وأن الرجل من أهل الجنة يشتهي الطير من طيور الجنة فيقع في يده مقلياً نضجاً ، وقد أخرج هذا ابن أبي الدنيا عن أبي أمامة .

(132/743)

وأخرج عن ميمونة مرفوعاً " أن الرجل ليشتهي الطير في الجنة فيجيء مثل البختي حتى يقع على خوانه لم يصبه دخان ولم تمسه نار فيأكل منه حتى يشبع ثم يطير " إلى غير ذلك ، وإذا كان الأمر كما ذكر استغنى عن طوافهم بالفاكهة واللحم ، وأجيب بأن ذلك والله تعالى أعلم حالة الاجتماع والشرب ، ويفعلون ذلك للإكرام ومزيد المحبة والتعظيم والاحترام ، وهذا كما يناول أحد الجلساء على خوان الآخر بعض ما عليه من الفواكه ونحوها وإن كان ذلك قريباً منه اعتناءاً بشأنه وإظهاراً لمحبته والاحتفال به ، وجوز أن يكون العطف على ﴿

جنات النعيم ﴾ [الواقعة : 12] وهو من باب متقلداً سيفاً ورمحاً أو من بابه المعروف ، وتقديم الفاكهة على اللحم للإشارة إلى أنهم ليسوا بحالة تقتضي تقديم اللحم كما في الجائع فإن حاجته إلى اللحم أشد من حاجته إلى الفاكهة بل هم بحالة تقتضي تقديم الفاكهة واختيارها كما في الشبعان فإنه إلى الفاكهة أميل منه إلى اللحم ، وجوز أن يكون ذلك لأن عادة أهل الدنيا لا سيما أهل الشرب منهم تقديم الفاكهة في الأكل وهو طباً مستحسن لأنها ألطف وأسرع انحداراً وأقل احتياجاً إلى المكث في المعدة للهضم ، وقد ذكروا أن أحد أسباب الهيضة إدخال اللطيف من الطعام على الكثيف منه ولأن الفاكهة تحرك الشهوة للأكل واللحم يدفعها غالباً .

ويعلم من الوجه الأول وجه تخصيص التخير بالفاكهة والاشتهاء باللحم ، وفيه إشارة إلى أن الفاكهة لم تزل حاضرة عندهم ويمرأى منهم دون اللحم ووجه ذلك أنها مما تلذه الأعين دونه ، وقيل : وجه التخصيص كثرة أنواع الفاكهة واختلاف طعومها وألوانها وأشكالها وعدم كون اللحم كذلك ، وفي التعبير بيتخيرون دون يختارون وإن تقاربا معنى إشارة لمكان صيغة التفعل إلى أنهم يأخذون ما يكون منها في نهاية الكمال وأنهم في غاية الغنى عنها ، والله تعالى أعلم بأسرار كلامه .

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ عطف على ﴿ ولدان ﴾ [الواقعة : 17] أو على الضمير المستكن في ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ [الواقعة : 16] أو على مبتدأ حذف هو وخبره أي لهم هذا كل ﴿ وَحُورٌ ﴾ أو مبتدأ حذف خبره أي لهم ، أو فيها حور ، وتعقب الوجه الأول بأن الطواف لا يناسب حالهن ، وأجيب بأنه لا يبعد أن يكون من الحور ما ليس بمقصورات في الخيام ولا مخدرات هن كالخدم لهن لا يبالي بطوافهن ولا ينكر ذلك عليهن ، وأن الطواف في الخيام أنفسها وهو لا ينافي كونهن مقصورات فيها ، أو أن العطف على معنى لهم ﴿ ولدان وَحُورٌ ﴾ والثاني بأنه خلاف الظاهر جداً ، والثالث بكثرة الحذف ، و﴿ عِينٌ ﴾ جمع عيناء وأصله عين على فعل كما تقول حمراء وحمر فكسرت العين لئلا تنقلب الياء واواً ، وليس في كلام العرب ياءاً ساكنة قبلها ضمة كما أنه ليس فيه واو ساكنة قبلها كسرة .

وقرأ السلمي .

والحسن .

وعمرو بن عبيد .

وأبو جعفر .

وشيبة .

والأعمش .

وطلحة والمفضل .

وأبان .

وعصمة عن عاصم .

وحمزة .

والكسائي ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ بالجر .

(134/743)

وقرأ النخعي كذلك إلا أنه قلب الواو ياءاً والضمة قبلها كسرة في ﴿ حُورٌ ﴾ فقال : وحير على الاتباع لعين وخرج على العطف على ﴿ جنات النعيم ﴾ [الواقعة : 12] وفيه مضاف محذوف كأنه قيل : هم في جنات وفاكهة ولحم ومصاحبة حور على تشبيه مصاحبة الحور بالظرف على نهج الاستعارة المكنية ، وقرينتها التخييلية إثبات معنى الظرفية بكلمة ﴿ فِى ﴾ فهي باقية على معناها الحقيقي ولا جمع بين الحقيقة والمجاز ، وذهب إلى العطف المذكور الزمخشري ، وتعقبه أبو حيان فقال : فيه بعد وتفكيك كلام مرتبط بعضه ببعض ، وهو فهم أعجمي وليس كما قال كما لا يخفي أو على ﴿ أكواب ﴾ [الواقعة : 18] ويجعل من باب متقلداً سفياً ورمحاً كما سمعت آنفا فكأنه قيل : ينعمون

بأكواب وبحور ، وجوز أن يبقى على ظاهره المعروف ، وأن الولدان يطوفون عليهم بالحور أيضاً لعرض أنواع اللذات عليهم من المأكول والمشروب والمنكوح كما تأتي الخدام بالسراري للملوك ويعرضوهن عليهم ، وإلى هذا ذهب أبو عمر .

وقطرب ، وأبى ذلك صاحب الكشف فقال : أما العطف على ﴿ الولدان ﴾ [الواقعة : 17] على الظاهر فلا لأن الولدان لا يطوفون بهن طوافهم بالأكواب ، والقلب إلى هذا أميل إلا أن يكون هناك أثر يدل على خلافه ، وكون الجر للجوار يأباه الفصل أو يضعفه .

وقرأ أبيّ .

وعبد الله وحوراً عيناً بالنصب ، وخرج على العطف على محل ﴿ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ ﴾ لأن المعنى يعطون أكواباً وحوراً على أنه مفعول به لمحذوف أي ويعطون حوراً أو على العطف على محذوف وقع مفعولاً به لمحذوف أيضاً أي يعطون هذا كله وحوراً ، وقرأ قتادة ﴿ وَحُورٌ ﴾ بالرفع مضافاً إلى ﴿ عِينٌ ﴾ ، وابن مقسم ﴿ وَحُورٌ ﴾ بالنصب مضافاً ، وعكرمة وحوراء عيناء على التوحيد اسم جنس وبفتح الهمزة فيهما فاحتمل الجر والنصب .

﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ أي في الصفاء ، وقيد بالمكنون أي المستور بما يحفظه لأنه أصفى وأبعد من التغير ، وفي الحديث صفاؤهن كصفاء الدر الذي لا تمسه الأيدي ، ووصف الحسنات بذلك شائع في العرب ، ومنه قوله :

قامت تراءى بين سجفي كلة . . .

كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

أو درة صدفية غواصها . . .

بهج متى يرها يهل ويسجد

والجار والمجرور في موضع الصفة لحور ، أو الحال ، والاتيان بالكاف للمبالغة في التشبيه ، ولعل الأمر عليه نحو زيد قمر .

﴿ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ مفعول له لفعل محذوف أي يفعل بهم ذلك كله جزاءاً بأعمالهم أو بالذي استمروا على عمله أو هو مصدر مؤكد أي يجزون جزاء .

﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾ ما لا يعتد به من الكلام وهو الذي يورد لا عن روية وفكر فيجري مجرى اللغا وهو صوت العصافير ونحوها من الطير وقد يسمى كل كلام قبيح لغواً

﴿ وَلاَ تَأْثِيماً ﴾ أي ولا نسبة إلى الإثم أي لا يقال لهم أثمتم ، وعن ابن عباس كما أخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم تفسيره بالكذب ، وأخرجه هناد عن الضحاك وهو من المجاز كما لا يخفى

والكلام من باب

.

ولا ترى الضب بها ينجحر . . .

(136/743)

﴿ إِلاَّ قِيلاً ﴾ أي قولا فهو مصدر مثله ﴿ سلاما سلاما ﴾ بدل من ﴿ قِيلاً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سلاما ﴾ [مريم : 62] وقال الزجاج : هو صفة له بتأويله بالمشتق أي سالماً من هذه العيوب أو مفعوله ، والمراد لفظه فلذا جاز وقوعه مفعولاً للقول مع إفراده ، والمعنى إلا أن يقول بعضهم لبعض ﴿ سَلاَماً ﴾ ، وقيل : هو مصدر لفعل مقدر من لفظه وهو مقول القول ومفعوله حينئذ أي نسلم سلاماً ، والتكرير للدلالة على فشو السلام وكثرته فيما بينهم لأن المراد سلاماً بعد سلام ، والاستثناء منقطع وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم محتمل لأن يكون من الضرب الأول منه ، وهو أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح له بتقدير دخولها فيها بأن يقدر السلام هنا داخلاً فيما قبل فيفيد التأكيد من وجهين ، وأن يكون من الضرب الثاني منه وهو أن يثبت لشيء صفة مدح ويعقب بأداة استثناء يليها صفة مدح أخرى بأن لا يقدر ذلك ، ويجعل الاستثناء من أصله

منقطعاً فيفيد التأكيد من وجه ، ولولا ذكر التئثيم على ما قاله السعد جاز جعل الاستثناء متصلا حقيقية لأن معنى السلام الدعاء بالسلامة وأهل الجنة أغنياء عن ذلك فكان ظاهره من قبيل اللغو وفضول الكلام لولا ما فيه من فائدة الإكرام ، وإنما منع التأثيم الذي هو النسبة إلى الإثم لأنه لا يمكن جعل السلام من قبيله وليس لك في الكلام أن تذكر متعددين ثم تأتي بالاستثناء المتصل من الأول مثل أن تقول : ما جاء من رجل ولا امرأة إلا زيداً ولو قصدت ذلك كان الواجب أن تؤخر ذكر الرجل ، وقرىء سلام سلام بالرفع على الحاكية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(137/743)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾

الواقعة اسم للقيامة كالآزفة وغيرها ، وسميت واقعة لأنها كائنة لا محالة ، أو لقرب وقوعها ، أو لكثرة ما يقع فيها من الشدائد ، وانتصاب إذا بمضمر ، أي : اذكر وقت وقوع الواقعة ، أو بالنفي المفهوم من قوله : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ أي : لا يكون عند وقوعها تكذيب ، والكاذبة مصدر كالعاقبة أي : ليس لمجيئها وظهورها كذب أصلاً ، وقيل : إذا شرطية ،

وجوابها مقدّر ، أي : إذا وقعت كان كيت وكيت ، والجواب هذا هو العامل فيها ، وقيل : إنها شرطية ، والعامل فيها الفعل الذي بعدها ، واختار هذا أبو حيان ، وقد سبقه إلى هذا مكيّ فقال : والعامل وقعت .

قال المفسرون : والواقعة هنا : هي النفخة الآخرة ، ومعنى الآية : أنها إذا وقعت النفخة الآخرة عند البعث لم يكن هناك تكذيب بها أصلاً ، أو لا يكون هناك نفس تكذب على الله ، وتكذب بما أخبر عنه من أمور الآخرة .

قال الزجاج : ليس لوقعتها كاذبة ، أي : لا يردّها شيء ، وبه قال الحسن ، وقتادة .

وقال الثوري : ليس لوقعتها أحد يكذب بها .

وقال الكسائي : ليس لها تكذيب ، أي : لا ينبغي أن يكذب بها أحد .

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ قرأ الجمهور برفعهما على إضمار مبتدأ ، أي : هي خافضة رافعة .

وقرأ الحسن وعيسى الثقفي بنصبهما على الحال .

قال عكرمة ، والسديّ ، ومقاتل : خفضت الصوت فأسمعت من دنا ، ورفعت الصوت فأسمعت من نأى ، أي : أسمعت القريب والبعيد .

وقال قتادة : خفضت أقواماً في عذاب الله ، ورفعت أقواماً إلى طاعة الله .

وقال : محمد بن كعب : خفضت أقواماً كانوا في الدنيا مرفوعين ، ورفعت أقواماً كانوا في الدنيا مخفوضين ، والعرب تستعمل الخفض والرفع في المكان والمكانة ، والعزّ والإهانة ،

ونسبة الخفض والرفع إليها على طريق المجاز ، والخافض والرّافع في الحقيقة ، هو الله سبحانه .

(138/743)

﴿ إِذَا رُجَّتِ الأرض رَجّاً ﴾ أي : إذا حرّكت حركة شديدة ، يقال رجّه يرجّه رجًّا إذا حرّكه ، والرّجة : الاضطراب ، وارتجّ البحر اضطرب .

قال المفسرون : ترتجّ ، كما يرتجّ الصبيّ في المهد حتى ينهدم كل ما عليها ، وينكسر كل شيء من الجبال وغيرها .

قال قتادة ، ومقاتل ، ومجاهد : معنى رجت : زلزلت ، والظرف متعلق بقوله : ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ أي : تخفض وترفع وقت رجّ الأرض وبس الجبال ؛ لأنه عند ذلك يرتفع ما هو منخفض ، وينخفض ما هو مرتفع .

وقيل : إنه بدل من الظرف الأوّل ذكره الزجاج ، فيكون معنى وقوع الواقعة هو رجّ الأرض ، وبس الجبال ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ البس : الفت ، يقال : بس الشيء إذا فته حتى يصير فتاتاً ، ويقال بس السويق : إذا لته بالسمن ، أو بالزيت .

قال مجاهد ، ومقاتل : المعنى أن الجبال فتت فتاً .

وقال السديّ : كسرت كسراً .

وقال الحسن : قلعت من أصلها .

وقال مجاهد أيضاً : بست كما يبس الدقيق بالسمن ، أو بالزيت ، والمعنى : أنها خلطت فصارت كالدقيق الملتوت .

وقال أبو زيد : البسّ : السوق ، والمعنى على هذا : سيقت الجبال سوقاً ، قال أبو عبيد : بسّ الإبل ، وأبسها لغتان : إذا زجرها .

وقال عكرمة : المعنى هدّت هدًّا ﴿ فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً ﴾ أي : غباراً متفرّقاً منتشراً .

قال مجاهد : الهباء : الشعاع الذي يكون في الكوّة كهيئة الغبار ، وقيل : هو الرّهج الذي يسطع من حوافر الدّواب ، ثم يذهب ، وقيل : ما تطاير من النار إذا اضطرمت على سورة الشرر ، فإذا وقع لم يكن شيئًا ، وقد تقدّم بيانه في الفرقان عند تفسير قوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] قرأ الجمهور ﴿ منبثًّا ﴾ بالمثلثة .

وقرأ مسروق ، والنخعي ، وأبو حيوة بالتاء المثناة من فوق أي : منقطعاً ، من قولهم بتّه الله ، أي : قطعه .

(139/743)

ثم ذكر سبحانه أحوال الناس واختلافهم فقال : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثلاثة ﴾ والخطاب لجميع الناس ، أو للأمة الحاضرة ، والأزواج : الأصناف ، والمعنى : وكنتم في ذلك اليوم أصنافاً ثلاثة .

ثم فسّر سبحانه هذه الأصناف فقال : ﴿ فأصحاب الميمنة مَا أصحاب الميمنة ﴾ أي : أصحاب اليمين ، وهم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ، أو الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ مبتدأ ، وخبره : ﴿ ما أصحاب الميمنة ﴾ أي : أي شيء هم في حالهم ، وصفتهم ، والاستفهام للتعظيم والتفخيم ، وتكرير المبتدأ هنا بلفظه مغن عن الضمير الرّابط ، كما في قوله : ﴿ الحاقة * مَا الحاقة ﴾ [الحاقة : 1 ، 2] و ﴿ القارعة * مَا القارعة ﴾ [القارعة : 1 ، 2] ولا يجوز مثل هذا إلاّ في مواضع التفخيم ، والتعظيم والكلام في ﴿ أصحاب المشئمة مَا أصحاب المشئمة ﴾ كالكلام في أصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، والمراد : الذي يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ، أو يأخذون صحائف أعمالهم بشمالهم ، والمراد : تعجيب السامع من حال الفريقين في الفخامة والفظاعة ؛ كأنه قيل : فأصحاب الميمنة في نهاية السعادة وحسن الحال ، وأصحاب المشأمة في نهاية الشقاوة وسوء الحال .

وقال السديّ : أصحاب الميمنة : هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه ، وأصحاب المشأمة : هم الذين كانوا عن شماله .

وقال زيد بن أسلم : أصحاب الميمنة : هم الذين أخذوا من شق آدم الأيمن ، وأصحاب المشأمة هم الذين أخذوا من شقه الأيسر .

وقال ابن جريج : أصحاب الميمنة : هم أهل الحسنات ، وأصحاب المشأمة : هم أهل السيئات .

وقال الحسن ، والربيع : أصحاب الميمنة هم الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة ، وأصحاب المشأمة هم المشائيم على أنفسهم بالأعمال القبيحة .

(140/743)

وقال المبرد : أصحاب الميمنة : أصحاب التقدّم ، وأصحاب المشأمة : أصحاب التأخر ، والعرب تقول : اجعلني في يمينك ، ولا تجعلني في شمالك ، أي : اجعلني من المتقدّمين ، ولا تجعلني من المتأخرين ، ومنه قول ابن الدمينة :

أبنيتي أفي يمنى يديك جعلتني . . . فأفرح أم صيرتني في شمالك

ثم ذكر سبحانه الصنف الثالث ، فقال : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ والتكرير فيه للتفخيم والتعظيم ، كما مرّ في القسمين الأوّلين ، كما تقول أنت أنت ، وزيد زيد ، والسابقون مبتدأ ، وخبره السابقون .

وفيه تأويلان أحدهما : أنه بمعنى السابقون هم الذين اشتهرت حالهم بذلك .

والثاني : أن متعلق السابقين مختلف ، والتقدير : والسابقون إلى الإيمان السابقون إلى الجنة .

والأوّل أولى لما فيه من الدلالة على التفخيم والتعظيم قال الحسن ، وقتادة : هم السابقون إلى الإيمان من كلامه .

وقال محمد بن كعب : إنهم الأنبياء .

وقال ابن سيرين : هم الذين صلوا إلى القبلتين .

وقال مجاهد : هم الذين سبقوا إلى الجهاد ، وبه قال الضحاك .

وقال سعيد بن جبير : هم السابقون إلى التوبة وأعمال البرّ .

وقال الزجاج : المعنى : والسابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله .

قيل : ووجه تأخير هذا الصنف الثالث مع كونه أشرف من الصنفين الأوّلين هو أن يقترن به ما بعده ، وهو قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ المقربون * فِي جنات النعيم ﴾ فالإشارة هي إليهم ، أي : المقرّبون إلى جزيل ثواب الله ، وعظيم كرامته ، أو الذين قربت درجاتهم ، وأعليت مراتبهم عند الله .

وقوله : ﴿ فِي جنات النعيم ﴾ متعلق بالمقربون ، أي : مقرّبون عند الله في جنات النعيم . ويجوز أن يكون خبراً ثانياً لأولئك ، وأن يكون حالاً من الضمير في ﴿ المقربون ﴾ أي كائنين فيها .

قرأ الجمهور : ﴿ في جنات ﴾ بالجمع ، وقرأ طلحة بن مصرف : (في جنة) بالإفراد ، وإضافة الجنات إلى النعيم من إضافة المكان إلى ما يكون فيه ، كما يقال : دار الضيافة ، ودار الدعوة ، ودار العدل وارتفاع ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : هم ثلة ، والثلة : الجماعة التي لا يحصر عددها .

قال الزجاج : معنى ثلة معنى فرقة ، ومن ثللت الشيء : إذا قطعته ، والمراد بالأوّلين : هم الأمم السابقة من لدن آدم إلى نبينا صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين ﴾ أي : من هذه الأمة ، وسموا قليلاً بالنسبة إلى من كان قبلهم ، وهم كثيرون لكثرة الأنبياء فيهم ، وكثرة من أجابهم .

قال الحسن : سابقو من مضى أكثر من سابقينا .

قال الزجاج : الذين عاينوا جميع الأنبياء وصدّقوا بهم أكثر ممن عاين النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولا يخالف هذا ما ثبت في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم : " إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثم قال : ثلث أهل الجنة ، ثم قال : نصف أهل الجنة " ، لأن قوله : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَقَلِيلٌ مِّنَ الاخرين ﴾ إنما هو تفصيل للسابقين فقط ، كما سيأتي في

ذكر أصحاب اليمين أنهم ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين ، فلا يمتنع أن يكون في أصحاب اليمين من هذه الأمة من هو أكثر من أصحاب اليمين من غيرهم ، فيجتمع من قليل سابقي هذه الأمة ، ومن ثلة أصحاب اليمين منها من يكون نصف أهل الجنة ، والمقابلة بين الثلتين في أصحاب اليمين لا تستلزم استواءهما لجواز أن يقال : هذه الثلة أكثر من هذه الثلة ، كما يقال : هذه الجماعة أكثر من هذه الجماعة ، وهذه الفرقة أكثر من هذه الفرقة ، وهذه القطعة أكثر من هذه القطعة .

وبهذا تعرف أنه لم يصب من قال : إن هذه الآية منسوخة بالحديث المذكور .

(142/743)

ثم ذكر سبحانه حالة أخرى للسابقين المقربين ، فقال : ﴿ على سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ سرر ﴾ بضم السين والراء الأولى ، وقرأ أبو السماك ، وزيد بن عليّ بفتح الراء ، وهي لغة كما تقدّم ، والموضونة : المنسوجة ، والوضن : النسج المضاعف .

قال الواحدي : قال المفسرون : منسوجة بقضبان الذهب ، وقيل : مشبكة بالدرّ ، والياقوت ، والزبرجد ، وقيل : إن الموضونة المصفوفة .

وقال مجاهد : الموضونة : المرمولة بالذهب ، وانتصاب ﴿ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا ﴾ على الحال ،

وكذا انتصاب ﴿ متقابلين ﴾ والمعنى : مستقرّين على سرر متكئين عليها متقابلين لا ينظر بعضهم قفا بعض ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ولدان مُّخَلَّدُونَ ﴾ الجملة في محل نصب على الحال من المقربين ، أو مستأنفة لبيان بعض ما أعدّ الله لهم من النعيم ، والمعنى : يدور حولهم للخدمة غلمان لا يهرمون ، ولا يتغيرون ، بل شكلهم شكل الولدان دائماً .

قال مجاهد : المعنى لا يموتون .

وقال الحسن ، والكلبي : لا يهرمون ، ولا يتغيرون .

قال الفراء : والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط : إنه لمخلد .

وقال سعيد بن جبير : مخلدون : مقرطون .

قال الفراء : ويقال : مخلدون : مقرطون ، يقال : خلد جاريته : إذا حلاها بالخلدة ، وهي القرطة .

وقال عكرمة : مخلدون : منعمون ، ومنه قول امرىء القيس :

وهل ينعمن إلاّ سعيد مخلد . . . قليل الهموم ما يبيت بأوجال

وقيل : مستورون بالحلية ، وروي نحوه عن الفراء ، ومنه قول الشاعر :

ومخلدات باللجين كأنما . . . أعجازهنّ أقاوز الكثبان

وقيل : مخلدون : ممنطقون ، قيل : وهم ولدان المسلمين الذين يموتون صغاراً ولا حسنة لهم ولا سيئة ، وقيل : هم أطفال المشركين ، ولا يبعد أن يكونوا مخلوقين في الجنة للقيام بهذه الخدمة ، والأكواب : هي الأقداح المستديرة الأفواه التي لا آذان لها ولا عرى ، وقد مضى بيان معناها في سورة الزخرف ، والأباريق : هي ذات العرى والخراطيم ، واحدها إبريق ، وهو الذي يبرق لونه من صفائه ، ﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ أي : من خمر جارية ، أو من ماء جار ، والمراد به ها هنا : الخمر الجارية من العيون ، وقد تقدّم بيان معنى الكأس في سورة الصافات ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ أي : لا تتصدّع رؤوسهم من شربها ، كما تتصدّع من شرب خمر الدنيا .

والصداع : هو الداء المعروف الذي يلحق الإنسان في رأسه ، وقيل : معنى لا يصدعون لا يتفرقون كما يتفرق الشرّاب ، ويقوّي هذا المعنى قراءة مجاهد : (يصدعون) بفتح الياء وتشديد الصاد ، والأصل يتصدعون ، أي : يتفرقون ، والجملة مستأنفة لبيان ما أعد الله لهم من النعيم ، أو في محل نصب على الحال ، وجملة : ﴿ وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها ، وقد تقدم اختلاف القراء في هذا الحرف في سورة الصافات ، وكذلك تقدّم تفسيره ، أي : لا يسكرون فتذهب عقولهم ، من أنزف الشارب : إذا نفد عقله ، أو شرابه ، ومنه قول الشاعر :

لَعْمري لئن أنزفتم أو صَحَوتُمُ . . . لبئس الندامى كنتم آل أبْجَرَا

﴿ وفاكهة مّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ أي : يختارونه ، يقال : تخيرت الشيء : إذا أخذت خيره .

قرأ الجمهور : ﴿ وفاكهة ﴾ بالجر كذا ﴿ لَحْم ﴾ عطفاً على ﴿ أكواب ﴾ أي : يطوفون عليهم بهذه الأشياء المأكول والمشروب والمتفكه به .

وقرأ زيد بن عليّ ، وأبو عبد الرحمن برفعهما على الابتداء ، والخبر مقدّر ، أي : ولهم فاكهة ولحم ، ومعنى : ﴿ مّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ : مما يتمنونه وتشتهيه أنفسهم .

(144/743)

﴿ وَحُورٌ عِينٌ * كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ قرأ الجمهور ﴿ حور عين ﴾ برفعهما عطفاً على ولدان أو على تقدير مبتدأ ، أي : نساؤهم حور عين ، أو على تقدير خبر ، أي : ولهم حور عين ، وقرأ حمزة ، والكسائي بجرّهما عطفاً على أكواب .

قال الزجاج : وجائز أن يكون معطوفاً على جنات ، أي : هم في جنات وفي حور ، على تقدير مضاف محذوف ، أي : وفي معاشرة حور .

قال الفراء : في توجيه العطف على أكواب إنه يجوز الجرّ على الاتباع في اللفظ ، وإن اختلفا في المعنى ؛ لأن الحور لا يطاف بهنّ ، كما في قول الشاعر :

إذا مَا الغانياتُ بَرزنَ يَوْماً . . . وَزَججَّن الحَواجبَ والعُيُونا

والعين لا تزجج ، وإنما تكحل ، ومن هذا قول الشاعر :

علفتها تبناً وماء بارداً . . . وقول الآخر :

متقلداً سيفاً ورمحاً . . . قال قطرب : هو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى .

قال : ولا ينكر أن يطاف عليهم بالحور : ويكون لهم في ذلك لذة .

وقرأ الأشهب العقيلي ، والنخعي ، وعيسى بن عمر بنصبهما على تقدير إضمار فعل ، كأنه قيل : ويزوّجون حوراً عيناً ، أو ويعطون ، ورجح أبو عبيد ، وأبو حاتم قراءة الجمهور .

ثم شبههنّ سبحانه باللؤلؤ المكنون ، وهو الذي لم تمسه الأيدي ، ولا وقع عليه الغبار ، فهو أشد ما يكون صفاء ، وانتصاب ﴿ جزاءً ﴾ في قوله : ﴿ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ على أنه مفعول له ، أي : يفعل بهم ذلك كله للجزاء بأعمالهم .

ويجوز أن يكون مصدراً مؤكداً لفعل محذوف أي : يجزون جزاءً ، وقد تقدّم تفسير الحور العين في سورة الطور وغيره : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً ﴾ اللغو : الباطل من الكلام ، والتأثيم : النسبة إلى الإثم .

قال محمد بن كعب : لا يؤثم بعضهم بعضاً ، وقال مجاهد : لا يسمعون شتماً ، ولا مأثماً ، والمعنى : أنه لا يقول بعضهم لبعضهم أثمت ؛ لأنهم لا يتكلمون بما فيه إثم .

(145/743)

﴿ إِلاَّ قِيلاً سلاما سلاما ﴾ القيل القول ، والاستثناء منقطع ، أي : لكن يقولون قيلاً ، أو يسمعون قيلاً ، وانتصاب ﴿ سلاماً سلاماً ﴾ على أنه بدل من ﴿ قيلاً ﴾ ، أو صفة له ، أو هو مفعول به ﴿ قيلاً ﴾ أي : إلاّ أن يقولوا : سلاماً سلاماً ، واختار هذا الزجاج ، أو على أنه منصوب بفعل هو محكي ب ﴿ قيلاً ﴾ أي : إلاّ قيلاً سلموا سلاماً سلاماً ، والمعنى في الآية : أنهم لا يسمعون إلاّ تحية بعضهم لبعض .

قال عطاء : يحيي بعضهم بعضاً بالسلام ، وقيل : إن الاستثناء متصل وهو بعيد ؛ لأن التحيّة ليست مما يندرج تحت اللغو والتأثيم ، قرىء (سلام سلام) بالرفع .

قال مكي : ويجوز الرفع على معنى سلام عليكم ، مبتدأ وخبر .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾ قال : يوم القيامة ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ قال : ليس لها مردّ يردّ ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ قال : تخفض ناساً وترفع آخرين .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عنه ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ قال : أسمعت القريب والبعيد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ قال : الساعة خفضت أعداء الله إلى النار ، ورفعت أولياء الله إلى الجنة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأرض رَجّاً ﴾ قال : زلزلت ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ قال : فتتت ﴿ فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً ﴾ قال : شعاع الشمس .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه ﴿ فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً ﴾ قال : الهباء الذي يطير من النار إذا أضرمت يطير منها الشرر ، فإذا وقع لم يكن شيئاً .

وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال : الهباء ما يثور مع شعاع الشمس ، وانبثاثه : تفرقه .

(146/743)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن عليّ بن أبي طالب قال : الهباء المنبث : رهج الدواب ، والهباء المنثور : غبار الشمس الذي تراه في شعاع الكوّة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ﴾ قال : أصنافاً .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثلاثة ﴾ قال : هي التي في سورة الملائكة : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظالم لّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات ﴾ [فاطر : 32] .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه أيضاً في قوله : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ قال : يوشع بن نون سبق إلى موسى ، ومؤمن آل ياسين سبق إلى عيسى ، وعليّ بن أبي طالب سبق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال : نزلت في حزقيل مؤمن آل فرعون ؛ وحبيب النجار الذي ذكر في يس ، وعليّ بن أبي طالب ، وكل رجل منهم سابق أمته ، وعليّ أفضلهم سبقاً .

وأخرج أحمد عن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية : ﴿ وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال ﴾ فقبض بيديه قبضتين ، فقال : " هذه في الجنة ولا أبالي ، وهذه في النار ولا أبالي " وأخرج أحمد أيضاً عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" أتدرون من السابقون إلى ظلّ الله يوم القيامة " ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : " الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سئلوا بذلوا ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم " وأخرج أحمد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي هريرة قال : لما نزلت : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين ﴾ شقّ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثلث الجنة ، بل أنتم نصف أهل الجنة ، أو شطر أهل الجنة ، وتقاسموهم النصف الثاني " وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي في البعث عن ابن عباس ﴿ على سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ قال : مصفوفة .

وأخرج سعيد بن منصور ، وهناد ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في البعث عنه .

قال : مرمولة بالذهب .

وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة ، والبزار ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن عبد الله بن مسعود قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنك لتنظر إلى الطير في الجنة ، فتشتهيه فيخرّ بين يديك مشوياً " وأخرج أحمد ، والترمذي ، والضياء عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى في شجر الجنة " فقال أبو بكر : يا رسول الله إن هذه الطير لناعمة ، قال : " آكلها أنعم منها ، وإني لأرجو أن

تكون ممن يأكل منها " وفي الباب أحاديث .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ قال : الذي في الصدف .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾ قال : باطلاً ﴿ وَلاَ تَأْثِيماً ﴾ قال : كذباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 146 . 151 ﴾

(148/743)

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾

بيان لجملة ﴿ في جنات النعيم ﴾ [الواقعة : 12] وتقدم قريب منه في سورة الصافات .

والطواف : المشي المكرر حول شيء وهو يقتضي الملازمة للشيء .

ووصف الولدان بالمخلدين ، أي دائمين على الطواف عليهم ومناولتهم لا ينقطعون عن ذلك .

وإذ قد ألفوا رؤيتهم فمن النعمة دوامهم معهم .

وقد فسر ﴿ مخلدون ﴾ بأنهم مخلدون في صفة الولدان ، أي بالشباب والغضاضة ، أي

ليسوا كولدان الدنيا يصيرون قريباً فتياناً فكهولاً فشيوخاً .

وفسره أبو عبيدة بأنهم مقرطون بالأقراط .

والقرط يسمى خُلْداً وخَلَدا وجمعه خِلَدَة كقِردة وهي لغة حميرية استعملها العرب كلهم وكانوا يحسّنون غلمانهم بالأقراط في الآذان .

والأكواب : جمع كوب ، وهو إناء الخمر لا عروة له وله خرطوم وفيه استدارة متسعٌ موضعُ الشرب منه فهو كالقَدَح .

والأباريق : جمع إبريق وهو إناء تحمل فيه الخمر للشاربين فتُصب في الأكواب ، والإِبريق له خرطوم وعروة .

والكأس : إناء للخمر كالكوب إلا أنه مستطيل ضيق المَشرب وتقدم في سورة الصافات .

والكأس جنس يصدق بالواحد والمتعدد فليس إفراده هنا للوحدة فإن المراد كؤوس كثيرة كما اقتضاه جمع أكواب وأباريق ، فإذا كانت آنية حمل الخمر كثيرة كانت كؤوس الشاربين أكثر ، وإنما أوثرت صيغة المفرد لأن في لفظ كؤوس ثقلاً بوجود همزة مضمومة في وسطه مع ثقل صيغة الجمع .

والمعين : الجاري ، والمراد به الخمر التي لكثرتها تجري في المجاري كما يجري الماء وليست قليلة عزيزة كما هي في الدنيا ، قال تعالى:

﴿ وأنهارٌ من خمر لذة للشاربين ﴾ [محمد : 15] .

وليس المراد بالمَعين الماء لأن الكأس ليست من آنية الماء وإنما آنيتهما الأقداح ، وقد تقدم في سورة الصافات (45 ، 47) ﴿ يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لا فيها غَول ولا هم عنها ينزفون ﴾ وتلك صفات الخمر .

(149/743)

والتصديع : الإِصابة بالصُداع ، وهو وجع الرأس من الخُمار الناشىء عن السكر ، أي لا تصيبهم الخمر بصُداع .

ومعنى (عنها) مجاوزين لها ، أي لا يقع لهم صداع ناشىء عنها ، أي فهي منزهة عن ذلك بخلاف خمور الدنيا فاستعملت (عن) في معنى السببية .

وعُطف ولا ينزفون ﴾ على ﴿ لا يصدعون عنها ﴾ فيقدر له متعلق دل عليه متعلق ﴿ لا يصدعون ﴾ فقد قال في سورة الصافات (47) ، ﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ أي لا يعتريهم نَزْف بسببها كما يحصل للشاربين في الدنيا .

والنزْف : اختلاط العقل ، وفعله مبني للمجهول يقال : نُزف عقله مثل : عُني فهو منزوف .

وقرأ الجمهور يُنزَفون ﴾ بفتح الزاي من أنزف الذي همزته للتعدية .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف بكسر الزاي من أنزف المهموز القاصر إذا سَكر وذهر

عقله .

والفاكهة : الثمار والنقول كاللوز والفستق ، وتقدم في سورة الرحمن .

وعطف ﴿ فاكهة ﴾ على ﴿ أكواب ﴾ ، أي ويطوفون عليهم بفاكهة وذلك أَدْخل في الدعة وألذّ من التناول بأيديهم ، على أنهم إن اشتهوا اقتطافها بالأيدي دنت لهم الأغصان فإن المرء قد يشتهي تناول الثمرة من أغصانها .

و ﴿ ما يتخيرون ﴾ : الجنس الذي يختارونه ويشتهونه ، أي يطوفون عليهم بفاكهة من الأنواع التي يختارونها ، ففعل ﴿ يتخيرون ﴾ يفيد قوة الاختيار .

و"لحم الطير" : هو أرفع اللحوم وأشْهاها وأعزها .

وعطف ﴿ ولحم طير ﴾ على ﴿ فاكهة ﴾ كعطف ﴿ فاكهة ﴾ على (أكواب) .

والاشتهاء : مصدر اشتهى ، وهو افتعال من الشهوة التي هي محبة نيل شيء مرغوب فيه من محسوسات ومعنويات ، يقال : شَهِي كَرضِي ، وشَهَا كدعا .

والأكثر أن يقال : اشتهى ، والافتعال فيه للمبالغة .

وتقديم ذكر الفاكهة على ذكر اللحم قد يكون لأن الفواكه أعزّ .

وبهذا يظهر وجه المخالفة بين الفاكهة ولحم طير فجُعل التخيُّر للأول .

والاشتهاءُ للثاني ولأن الاشتهاء أعلق بالطعام منه بالفواكه ، فلذة كَسْر الشاهية بالطعام لذة زائدة على لذة حسن طَعمه ، وكثرة التخيّر للفاكهة هي لذة تلوين الأصناف .

و﴿ حور عين ﴾ عطف على ﴿ ولدان مخلدون ﴾ ، أي ويطوف عليهم حور عين .

والحور العين : النساء ذوات الحَوَر ، وتقدم في سورة الرحمن .

وذوات العَين وهو سعة العين وتقدم في سورة الصافات .

وقرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر ﴿ وحورٍ عينٍ ﴾ بالكسر فيهما على أن ﴿ حور ﴾ عطف على ﴿ أكواب ﴾ عطفَ معنى من باب قوله:

وزجَّجن الحَواجب والعيونا . . .

بتقدير : وكَحَّلْن العيون ، أو يعطف على ﴿ جنات ﴾ ، أي وفي حور عين ، أي هم في حور عين أو محاطون بهن ومحدقون بهن .

والمراد : أزواج السابقين في الجنة وهن المقصورات في الخيام .

والأمثال : الأشباه .

ودخول كاف التشبيه على (أمثال) للتأكيد مثل قوله تعالى:

﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى : 11] .

والمعنى : هن أمثالُ اللؤلؤ المكنون .

و﴿ اللؤلؤ ﴾ : الدرّ ، وتقدم تبيينه عند قوله تعالى : ﴿ يُحَلَّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ﴾ في سورة الحج (23) .

والمكنون ﴾ : المخزون المخبأ لنفاسته ، وتقدم في سورة الصافات .

وانتصب ﴿ جزاء ﴾ على المفعول لأجله لفعل مقدر دل عليه قوله : ﴿ المقربون ﴾ [الواقعة : 11] ، أي أعطيناهم ذلك جزاء ، ويجوز أن يكون ﴿ جزاء ﴾ مصدراً جاء بدلاً عن فعله ، والتقدير : جازيناهم جزاءً .

والجملة على التقديرين اعتراض تفيد إظهار كرامتهم بحيث جعلت أصناف النعيم الذين حُظُوا به جزاء على عمل قدّموه وذلك إتمام لكونهم مقربين .

ثم أكمل وصف النعيم بقوله : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ﴾ ، وهي نعمة روحية فإن سلامة النفس من سماع ما لا يُحَب سماعه ومن سماع ما يكره سماعه من الأذى نعمة براحة البال وشغله بسماع المحبوب .

واللغو : الكلام الذي لا يعتدّ به كالهذيان ، والكلام الذي لا محصل له .

والتأثيم : اللَّوم والإِنكار ، وهو مصدر أَثَّم ، إذا نسب غيره إلى الإثم .

وضمير ﴿ فيها ﴾ عائد إلى ﴿ جنات النعيم ﴾ [الواقعة : 12] .

وأتبع ذكر هذه النعمة بذكر نعمة أخرى من الأنعام بالمسموع الذي يفيد الكرامة لأن الإِكرام لذة رُوحية يُكسب النفس عزة وإدلالاً بقوله : ﴿ إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ .

وهو استثناء من ﴿ لغواً و تأثيماً ﴾ بطريقة تأكيد الشيء بما يشبه ضده المشتهر في البديع باسم تأكيد المدح لما يشبه الذم ، وله موقع عظيم من البلاغة كقوله النابغة:

ولا عيب فيهم غيرَ أنّ سيوفهم . . .

بهن فلول من قراع الكتائب

فالاستثناء متصل إدعاءً وهو المعبر عنه بالاستثناء المنقطع بحسب حاصل المعنى ،

وعليه فإن انتصاب ﴿ قيلاً ﴾ على الاستثناء لا على البدلية من ﴿ لغواً ﴾ .

و ﴿ سلاماً ﴾ الأول مقول ﴿ قيلاً ﴾ أي هذا اللفظ الذي تقديره : سَلمنا سَلاماً ، فهو جملة محكية بالقول .

و ﴿ سلاماً ﴾ الثاني تكرير ل ﴿ سلاماً ﴾ الأول تكريراً ليس للتأكيد بل لإِفادة التعاقب ، أي سلاماً إثر سلام ، كقوله تعالى : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكّاً دكاً ﴾ [الفجر : 21]

وقولهم : قرأت النحو باباً باباً ، أو مشاراً به إلى كثرة المسلِّمين فهو مؤذن مع الكرامة بأنهم معظمون مبجلون ، والفرق بين الوجهين أن الأول يفيد التكرير بتكرير الأزمنة ، والثاني يفيد

التكرار بتكرار المسلِّمين .

وهذا القيل يتلقونه من الملائكة الموكلين بالجنة ، قال تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم ﴾ [الرعد : 23 ، 24] ويتلقاه بعضهم من بعض كما قال تعالى : ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ [يونس : 10] .

وإنما جيء بلفظ : ﴿ سلاماً ﴾ منصوباً دون الرفع مع كون الرفع أدل على المبالغة كما ذكروه في قوله : ﴿ قالوا سَلاماً قال سلام ﴾ في سورة هود (69) وسورة الذاريات (25) لأنه أريد جعله بدلاً من ﴿ قيلاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(152/743)

قوله تعالى ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (27) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (28) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (29) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (30) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (31) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (33) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (34) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (35) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (36) عُرُبًا أَتْرَابًا (37) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (38) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (39) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أتم سبحانه القسم الأول القلبي السوائي المولي من الثلاثة بقسميه ، وذكر في جزائه مما لأصحاب المدن ما لا يمكنهم الوصول إليه ، عطف عليه الثاني الذي هو دونه لذلك وهم والله أعلم الأبرار وهم أيضاً صنفان ، وذكر في جزائهم من جنس ما لأهل البوادي أنهى ما يتصورونه ويتمنونه فقال : ﴿ وأصحاب اليمين ﴾ ثم فخم أمرهم وأعلى مدحهم لتعظيم جزائهم ، والإشارة إلى أنهم أهل لأن يسأل عن حالهم فإنهم في غاية الإعجاب فقال : ﴿ ما أصحاب اليمين ﴾ ولما عبر عنهم بما أفهم أنهم أولو القوة والجد في الأعمال ، والبركة في جمع الأحوال ، ذكر عشيهم بادئاً بالفاكهة لأن عيش الجنة كله تفكه ، ذاكراً منها ما ينبت في بلاد العرب من غير كلفة بغرس ولا خدمة ، وأشار إلى كثرة ما يذكره بأن جعله ظرفهم ، فقال من غير ذكر لسرير الملك الذي حبا به المقربين من الملك ، ولم يزد على ذلك المأكول وما معه بما يتصور للبهائم : ﴿ في سدر ﴾ أي شجر نبق متدلي الأغصان من شدة حمله ، من سدر الشعر – إذا سدله ﴿ مخضود ﴾ أي هو مع أنه لا شوك له ولا عجم بحيث تنثني أغصانه من شدة الحمل ، من خضد الشوك : قطعه ، والغصن : ثناه وهو رطب ، وفي ذكر هذا تنبيه على أن كل ما لا نفع فيه أو فيه نوع أذى له في الجنة وجود كريم لأن الجنة إنما خلقت للنعيم .

ولما ذكر ما يطلع في الجبال والأماكن المعطشة والرمال ، أتبعه ما لا يطلع إلا على المياه دلالة على أن أماكنهم في غاية السهولة والري فقال : ﴿ وطلح ﴾ أي شجر موز أو نخل ، وقال الحسن : شجر له ظل بارد طيب الرائحة وقال الفراء وأبو عبيدة : شجر عظام لها شوك ، وقيل : هو أم غيلان ، وله نور كثير ، ويحكى عن أبي تراب النخشبي أنه كان سائراً مع قوم من الصوفية على قدم التوكل ، فجاعوا أياماً فقال : أتريدون أن تأكلوا ، قالوا : نعم ، فضرب بيده على شجرة غيلان فإذا عليها عراجين موز ، فأكلوا إلا شاباً منهم ، فقال : لا آكل ولا أصحبك بعدها ، لأني كنت أسير بلا معلوم ، وقد صرت أنت الآن معلومي ، كلما جعت التفتت نفسي إليك .

﴿ منضود ﴾ أي منظوم بالحمل من أعلاه إلى أسفله متراكم يتراكب بعضه على بعض على ترتيب هو في غاية الإعجاب ، قال في القاموس : الطلح : شجر عظيم ، والطلع : والموز ، والطلع من النخل : شيء يخرج كأنه نعلان مطبقان والحمل بينهما منضود ، والطرف محدد ، أو ما يبدو من ثمرته أول ظهورها .

ولما ذكر ما لا يكون إلا في البلاد الحارة قال : ﴿ وظل ممدود ﴾ أي مستوعب للزمان

والمكان فهو دائم الاستمداد كما بين الإسفار وطلوع الشمس لا فناء له ولا نهاية .

ولما كان ما ذكر من الري لا يستلزم الجري قال : ﴿ وماء مسكوب ﴾ أي جار في منازلهم من غير أخدود ولا يحتاجون فيه إلى جلب من الأماكن البعيدة ، ولا الإدلاء في بئر كما لأهل البوادي .

ولما ذكر ما تقدم ، عم بقوله : ﴿ وفاكهة كثيرة ﴾ أي أجناسها وأنواعها وأشخاصها .

(154/743)

ولما كانت لا تكون عندنا إلا في أوقات يسيرة ، بين أن أمر الجنة على غير ذلك فقال : ﴿ لا مقطوعة ﴾ ولما كانت في الدنيا قد يعز التوصل إليها مع وجودها لشيء من الأشياء أقله صعود الشجرة أو التحجز بجدار أو غيره قال : ﴿ ولا ممنوعة ﴾ ولما كان التفكه لا يكمل الالتذاذ به إلا مع الراحة قال : ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ أي هي رفيعة القدر وعالية بالفعل لكثرة الحشو ولتراكم بعضها على بعض ولأنها على السرر ، وروى البغوي من طريق النسائي عن أبي سعيد وأبي هريرة ـ رضى الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " ارتفاعها كما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام "

ولما كانت النساء يسمين فرشاً ، قال تعالى معيداً للضمير على غير ما يتبادر إليه الذهن من

الظاهر على طريق الاستخدام مؤكداً لأجل إنكار من ينكر البعث : ﴿ إنا ﴾ أي بما لنا من القدرة والعظمة التي لا يتعاظمها شيء ﴿ أنشأناهن ﴾ أي الفرش التي معناها النساء من أهل الدنيا بعد الموت ولو عن الهرم والعجز بالبعث ، وزاد في التأكيد فقال : ﴿ إنشاء ﴾ أي من غير ولادة ، بل جمعناهن من التراب كما فعلنا في سائر المكلفين ليكونوا كأبيهم آدم عليه الصلاة والسلام في خلقه من تراب ، فتكون الإعادة كالبداءة ، ولذلك يكون الكل عند دخول الجنة على شكله عليه الصلاة والسلام ، ويجوز أن يكون المراد بهن الحور العين فيكون إنشاء مبتدعاً لم يسبق له وجود .

ولما كان للنفس أتم التفات إلى الاختصاص ، وكان الأصل في الأنثى المنشأة أن تكون بكراً ، نبه على أن المراد بكارة لا تزول إلا حال الوطىء ثم تعود ، فكلما عاد إليها وجدها بكراً ، فقال : ﴿ فجعلناهن ﴾ أي الفرش الثيبات وغيرهن بعظمتنا المحيطة بكل شيء ﴿ أبكاراً ﴾ أي بكارة دائمة لأنه لا تغيير في الجنة ولا نقص .

(155/743)

ولما كان مما جرت به العادة أن البكر تتضرر من الزوج لما يلحقها من الوجع بإزالة البكارة ، دل على أنه لا نكد هناك أصلاً بوجع ولا غيره بقوله : ﴿ عرباً ﴾ جمع عروب ، وهي

الغنجة المتحببة إلى زوجها ، قال الرازي في اللوامع : الفطنة بمراد الزوج كفطنة العرب .

ولما كان الاتفاق في السن أدعى إلى المحبة ومزيد الألفة قال : ﴿ أترابا ﴾ أي على سن واحدة وقد واحد ، بنات ثلاث وثلاثين سنة وكذا أزواجهن .

قال الرازي في اللوامع : أخذ من لعب الصبيان بالتراب – انتهى ، " وروى البغوي من طريق عبد بن حميد عن الحسن : قال أتت عجوز النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : يا رسول الله ! ادع الله أن يدخلني الجنة ، فقال : " يا أم فلان ! إن الجنة لا تدخلها عجوز ، فولت تبكي ، قال : أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، إن الله تعالى يقول : إنا أنشأناهن ، الآية " رواه الترمذي عنه في الشمائل هكذا مرسلاً ، ورواه البيهقي في كتاب البعث عن عائشة ـ رضى الله عنه ـ ا والطبراني في الأوسط من وجه عنها ، ومن وجه آخر عن أنس ـ رضى الله عنه ـ ، قال شيخنا حافظ عصره ابن حجر : وكل طرقه ضعيفة ، وروى البغوي أيضاً من طريق الثعلبي عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هذه الآية قال : " عجائزكن في الدنيا عمشاً رمصاً فجعلهن أبكاراً " .

ولما كان هذا الوصف البديع مقتضياً لما يزدهي عنه النفس لأن يقال : لمن هؤلاء ؟ وإن كان قد علم قبل ذلك ، نبه عليه بقوله تعالى : ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ ويجوز أن يتعلق ب ﴿ أترابا ﴾ نصاً على أنهن في أسنان أزواجهن .

ولما أنهى وصف ما فيه أهل هذا الصنف على أنهى ما يكون لأهل البادية بعد أن وصف ما للسابقين بأعلى ما يمكن أن يكون لأهل الحاضرة ، وكان قد قدم المقايسة في السابقين بين الأولين والآخرين ، فعل هنا كذلك فقال : ﴿ ثلة من الأولين ﴾ أي من أصحاب اليمين ﴿ وثلة ﴾ أي منهم ﴿ من الآخرين ﴾ فلم يبين فيهم قلة ولا كثرة ، والظاهر أن الآخرين أكثر ، فإن وصف الأولين بالكثرة لا ينافي كون غيرهم أكثر ليتفق مع قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " إن هذه الأمة ثلثا أهل الجنة ، فإنهم عشرون ومائة صف ، هذه الأمة منهم ثمانون صفاً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 408 . 411 ﴾

(157/743)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (27) ﴾

لما بين حال السابقين شرع في شأن أصحاب الميمنة من الأزواج الثلاثة ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما الفائدة في ذكرهم بلفظ : ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ [الواقعة : 8] عند ذكر الأقسام ، وبلفظ : ﴿ أصحاب اليمين ﴾ عند ذكر الإنعام ؟ نقول : الميمنة مفعلة إما بمعنى موضع اليمين كالمحكمة لموضع الحكم ، أي الأرض التي فيها اليمين وإما بمعنى موضع اليمن كالمنارة موضع النار ، والمجمرة موضع الجمر ، فكيفما كان الميمنة فيها دلالة على الموضع ، لكن الأزواج الثلاثة في أول الأمر يتميز بعضهم عن بعض ، ويتفرقون لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم : 14] وقال : ﴿ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : 43] فيتفرقون بالمكان فأشار في الأول إليهم بلفظ يدل على المكان ، ثم عند الثواب وقع تفرقهم بأمر مبهم لا يتشاركون فيه كالمكان ، فقال : ﴿ وأصحاب اليمين ﴾ وفيه وجوه أحدها : أصحاب اليمين الذين يأخذون بأيمانهم كتبهم ثانيها : أصحاب القوة ثالثها : أصحاب النور ، وقد تقدم بيانه .

المسألة الثانية :

(158/743)

ما الحكمة في قوله تعالى : ﴿ فِى سِدْرٍ ﴾ وأية نعمة تكون في كونهم في سدر ، والسدر من أشجار البوادي ، لا بمر ولا بحلو ولا بطيب ؟ نقول : فيه حكمة بالغة غفلت عنها الأوائل

والأواخر ، واقتصروا في الجواب والتقريب أن الجنة تمثل بما كان عند العرب عزيزاً محموداً ، وهو صواب ولكنه غير فائق ، والفائق الرائق الذي هو بتفسير كلام الله لائق ، هو أن نقول : إنا قد بينا مراراً أن البليغ يذكر طرفي أمرين ، يتضمن ذكرهما الإشارة إلى جميع ما بينهما ، كما يقال : فلان ملك الشرق والغرب ، ويفهم منه أنه ملكهما وملك ما بينهما ، ويقال : فلان أرضى الصغير والكبير ، ويفهم منه أنه أرضى كل أحد إلى غير ذلك ، فنقول : لا خفاء في أن تزين المواضع التي يتفرج فيها بالأشجار ، وتلك الأشجار تارة يطلب منها نفس الورق والنظر إليه والاستظلال به ، وتارة يقصد إلى ثمارها ، وتارة يجمع بينهما ، لكن الأشجار أوراقها على أقسام كثيرة ، ويجمعها نوعان : أوراث صغار ، وأوراق كبار ، والسدر في غاية الصغر ، والطلح وهو شجر الموز في غاية الكبر ، فقوله تعالى : ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ إشارة إلى ما يكون ورقه في غاية الصغر من الأشجار ، وإلى ما يكون ورقه في غاية الكبر منها ، فوقعت الإشارة إلى الطرفين جامعة لجميع الأشجار نظراً إلى أوراقها ، والورق أحد مقاصد الشجر ونظيره في الذكر ذكر النخل والرمان عند القصد إلى ذكر الثمار ، لأن بينهما غاية الخلاف كما بيناه في موضعه ، فوقعت الإشارة إليهما جامعة لجميع الأشجار نظراً إلى ثمارها ، وكذلك قلنا في النخيل والأعناب ، فإن النخل من أعظم الأشجار المثمرة ، والكرم من أصغر الأشجار المثمرة ، وبينهما أشجار فوقعت الإشارة

إليهما جامعة لسائر الأشجار ، وهذا جواب فائق وفقنا الله تعالى له .

المسألة الثالثة :

(159/743)

ما معنى المخضود ؟ نقول فيه وجهان أحدهما : مأخوذ الشوك ، فإن شوك السدر يستقصف ورقها ، ولولاه لكان منتزه العرب ، ذلك لأنها تظل لكثرة أوراقها ودخول بعضها في بعض وثانيهما : مخضود أي متعطف إلى أسفل ، فإن رؤوس أغصان السدر في الدنيا تميل إلى فوق بخلاف أشجار الثمار ، فإن رؤوسها تتدلى ، وحينئذ معناه أنه يخالف سدر الدنيا ، فإن لها ثمراً كثيراً .

المسألة الرابعة :

ما الطلح ؟ نقول : الظاهر أنه شجر الموز ، وبه يتم ما ذكرنا من الفائدة روي أن علياً عليه السلام سمع من يقرأ : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ فقال : ما شأن الطلح ؟ إنما هو (وطلع) ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [ق : 10] فقالوا : في المصاحف كذلك ، فقال : لا تحول المصاحف ، فنقول : هذا دليل معجزة القرآن ، وغزارة علم علي رضي الله عنه .

أما المعجزة فلأن علياً كان من فصحاء العرب ولما سمع هذا حمله على الطلع واستمر عليه ، وما كان قد اتفق حرفه لمبادرة ذهنه إلى معنى ، ثم قال في نفسه : إن هذا الكلام في غاية الحسن ، لأنه تعالى ذكر الشجر المقصود منه الورق للاستظلال به ، والشجر المقصود منه الثمر للاستغلال به ، فذكر النوعين ، ثم إنه لما اطلع على حقيقة اللفظ علم أن الطلح في هذا الموضع أولى ، وهو أفصح من الكلام الذي ظنه في غاية الفصاحة فقال : المصحف بين لي أنه خير مما كان في ظني فالمصحف لا يحول .

والذي يؤيد هذا أنه لو كان طلع لكان قوله تعالى : ﴿ وفاكهة كَثِيرَةٍ ﴾ [الواقعة : 32] تكرار أحرف من غير فائدة ، وأما على الطلح فتظهر فائدة قوله تعالى : ﴿ وفاكهة ﴾ وسنبينها إن شاء الله تعالى .

المسألة الخامسة :

ما المنضود ؟ فنقول : إما الورق وإما الثمر ، والظاهر أن المراد الورق ، لأن شجر الموز من أوله إلى أعلاه يكون ورقاً بعد ورق ، وهو ينبت كشجر الحنطة ورقاً بعد ورق وساقه يغلظ وترتفع أوراقه ، ويبقى بعضها دون بعض ، كما في القصب ، فموز الدنيا إذا ثبت كان بين

القصب وبين بعضها فرجة ، وليس عليها ورق ، وموز الآخرة يكون ورقه متصلاً بعضه ببعض فهو أكثر أوراقاً ، وقيل : المنضود المثمر ، فإن قيل : إذا كان الطلح شجراً فهو لا يكون منضوداً وإنما يكون له ثمر منضود ، فكيف وصف به الطلح ؟ نقول : هو من باب حسن الوجه وصف بسبب اتصاف ما يتصل به ، يقال : زيد حسن الوجه ، وقد يترك الوجه ويقال : زيد حسن والمراد حسن الوجه ولا يترك إن أوهم فيصح أن يقال : زيد مضروب الغلام ، ولا يجوز ترك الغلام لأنه يوهم الخطأ ، وأما حسن الوجه فيجوز ترك الوجه .

وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (30)

وفيه وجوه الأول : ممدود زماناً ، أي لا زوال له فهو دائم ، كما قال تعالى : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وِظِلُّهَا ﴾ [الرعد : 35] أي كذلك الثاني : ممدود مكاناً ، أي يقع على شيء كبير ويستره من بقعة الجنة الثالث : المراد ممدود أي منبسط ، كما قال تعالى : ﴿ والأرض مددناها ﴾ [الحجر : 19] فإن قيل : كيف يكون الوجه الثاني ؟ نقول : الظل قد يكون مرتفعاً ، فإن الشمس إذا كانت تحت الأرض يقع ظلها في الجو فيتراكم الظل فيسود وجه الأرض وإذا كانت على أحد جانبيها قريبة من الأفق ينبسط على وجه الأرض فيضيء الجو ولا يسخن وجه الأرض ، فيكون في غاية الطيبة ، فقوله : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ أي عند قيامه عموداً على الأرض كالظل بالليل ، وعلى هذا فالظل ليس ظل الأشجار بل ظل يخلقه

الله تعالى .

وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (31)

(161/743)

فيه أيضاً وجوه الأول : مسكوب من فوق ، وذلك لأن العرب أكثر ما يكون عندهم الآبار والبرك فلا سكب للماء عندهم بخلاف المواضع التي فيها العيون النابعة من الجبال الحاكمة على الأرض تسكب عليها الثاني : جار في غير أخدود ، لأن الماء المسكوب يكون جارياً في الهواء ولا نهر هناك ، كذلك الماء في الجنة الثالث : كثير وذلك الماء عند العرب عزيز لا يسكب ، بل يحفظ ويشرب ، فإذا ذكروا النعم يعدون كثرة الماء ويعبرون عن كثرتها بإراقتها وسكبها ، والأول أصح .

وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (33)

لما ذكر الأشجار التي يطلب منها ورقها ذكر بعدها الأشجار التي يقصد ثمرها ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما الحكمة في تقديم الأشجار المورقة على غير المورقة ؟ نقول : هي ظاهرة ، وهو أنه قدم

الورق على الشجر على طريقة الارتقاء من نعمة إلى ذكر نعمة فوقها ، والفواكه أتم نعمة .

المسألة الثانية :

ما الحكمة في ذكر الأشجار المورقة بأنفسها ، وذكر أشجار الفواكه بثمارها ؟ نقول : هي أيضاً ظاهرة ، فإن الأوراق حسنها عند كونها على الشجر ، وأما الثمار فهي في أنفسها مطلوبة سواء كانت عليها أو مقطوعة ، ولهذا صارت الفواكه لها أسماء بها تعرف أشجارها ، فيقال : شجر التين وورقه .

المسألة الثالثة :

ما الحكمة في وصف الفاكهة بالكثرة ، لا بالطيب واللذة ؟ نقول : قد بينا في سورة الرحمن أن الفاكهة فاعلة كالراضية في قوله : ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة : 21] أي ذات فكهة ، وهي لا تكون بالطبيعة إلا بالطيب واللذة ، وأما الكثرة ، فبينا أن الله تعالى حيث ذكر الفاكهة ذكر ما يدل على الكثرة ، لأنها ليست لدفع الحاجة حتى تكون بقدر الحاجة ، بل هي للتنعم ، فوصفها بالكثرة والتنوع .

المسألة الرابعة :

﴿ لاَّ مَقْطُوعَةٍ ﴾ أي ليست كفواكه الدنيا ، فإنها تنقطع في أكثر الأوقات والأزمان ، وفي كثير من المواضع والأماكن ﴿ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ أي لا تمنع من الناس لطلب الأعواض والأثمان ، والممنوع من الناس لطلب الأعواض والأثمان ظاهر في الحس ، لأن الفاكهة في الدنيا تمنع عن البعض فهي ممنوعة ، وفي الآخرة ليست ممنوعة .

وأما القطع فيقال في الدنيا : إنها انقطعت فهي منقطعة لا مقطوعة ، فقوله تعالى : ﴿ لاَّ مَقْطُوعَةٍ ﴾ في غاية الحسن ، لأن فيه إشارة إلى دليل عدم القطع ، كما أن في : ﴿ لا مَمْنُوعَةٍ ﴾ دليلاً على عدم المنع ، وبيانه هو أن الفاكهة في الدنيا لا تمنع إلا لطلب العوض ، وحاجة صاحبها إلى ثمنها لدفع حاجة به ، وفي الآخرة مالكها الله تعالى ولا حاجة له ، فلزم أن لا تمنع الفاكهة من أحد كالذي له فاكهة كثيرة ، ولا يأكل ولا يبيع ، ولا يحتاج إليها بوجه من الوجوه لا شك في أن يفرقها ولا يمنعها من أحد .

(163/743)

وأما الانقطاع فنقول الذي يقال في الدنيا : الفاكهة انقطعت ، ولا يقال عند وجودها : امتنعت ، بل يقال : منعت ، وذلك لإن الإنسان لا يتكلم إلا بما يفهمه الصغير والكبير ، ولكن كل أحد إذا نظر إلى الفاكهة زمان وجودها يرى أحداً يحوزها ويحفظها ولا يراها

بنفسها تمتنع فيقول : إنها ممنوعة ، وأما عند انقطاعها وفقدها لا يرى أحداً قطعها حساً وأعدمها فيظنها منقطعة بنفسها لعدم إحساسه بالقاطع ووجود إحساسه بالمانع ، فقال تعالى : لو نظرتم في الدنيا حق النظر علمتم أن كل زمان نظراً إلى كونه ليلاً ونهاراً ممكن فيه الفاكهة فهي بنفسها لا تنقطع ، وإنما لا توجد عند المحقق لقطع الله إياها وتخصيصها بزمان دون زمان ، وعند غير المحقق لبرد الزمان وحره ، وكونه محتاجاً إلى الظهور والنمو والزهر ولذلك تجري العادة بأزمنة فهي يقطعها الزمان في نظر غير المحقق فإذا كانت الجنة ظلها ممدوداً لا شمس هناك ولا زمهرير استوت الأزمنة والله تعالى يقطعها فلا تكون مقطوعة بسبب حقيقي ولا ظاهر ، فالمقطوع يتفكر الإنسان فيه ويعلم أنه مقطوع لا منقطع من غير قاطع ، وفي الجنة لا قاطع فلا تصير مقطوعة .

المسألة الخامسة :

قدم نفي كونها مقطوعة لما أن القطع للموجود والمنع بعد الوجود لأنها توجد أولاً ثم تمنع فإن لم تكن موجودة لا تكون ممنوعة محفوظة فقال : لا تقطع فتوجد أبداً ثم إن ذلك الموجود لا يمنع من أحد وهو ظاهر غير أنا نحب أن لا نترك شيئاً مما يخطر بالبال ويكون صحيحاً .

وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (34)

وقد ذكرنا معنى الفرش ونذكر وجهاً آخر فيها إن شاء الله تعالى ، وأما المرفوعة ففيها ثلاثة أوجه أحدها : مرفوعة القدر يقال : ثوب رفيع أي عزيز مرتفع القدر والثمن ويدل عليه

قوله تعالى : ﴿ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا ﴾ [الرحمن : 54] وثانيها : مرفوعة بعضها فوق بعض

ثالثها : مرفوعة فوق السرير .

إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (35)

وفي الإنشاء مسائل :

(164/743)

المسألة الأولى :

(165/743)

الضمير في : ﴿ أنشأناهن ﴾ عائد إلى من ؟ فيه ثلاثة أوجه أحدها : إلى ﴿ حُورٌ عِينٌ ﴾ [الواقعة : 22] وهو بعيد لبعدهن ووقوعهن في قصة أخرى ثانيها : أن المراد من الفرش النساء والضمير عائد إليهن لقوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 187] ، ويقال للجارية صارت فراشاً وإذا صارت فراشاً رفع قدرها بالنسبة إلى جارية لم تصر فراشاً ، وهو أقرب من الأول لكن يبعد ظاهراً لأن وصفها بالمرفوعة ينبىء عن خلاف ذلك وثالثها

: أنه عائد إلى معلوم دل عليه فرش لأنه قد علم في الدنيا وفي مواضع من ذكر الآخرة ، أن في الفرش حظايا تقديره وفي فرش مرفوعة حظايا منشآت وهو مثل ما ذكر في قوله تعالى : ﴿ قاصرات الطرف ﴾ [الرحمن : 56] و ﴿ مقصورات ﴾ [الرحمن : 72] فهو تعالى أقام الصفة مقام الموصوف ولم يذكر نساء الآخرة بلفظ حقيقي أصلاً وإنما عرفهن بأوصافهن ولباسهن إشارة إلى صونهن وتخدرهن ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أنشأناهن ﴾ يحتمل أن يكون المراد الحور فيكون المراد الإنشاء الذي هو الابتداء ، ويحتمل أن يكون المراد بنات آدم فيكون الإنشاء بمعنى إحياء الإعادة ، وقوله تعالى : ﴿ أبكاراً ﴾ يدل على الثاني لأن الإنشاء لو كان بمعنى الابتداء لعلم من كونهن أبكاراً من غير حاجة إلى بيان ولما كان المراد إحياء بنات آدم قال : ﴿ أبكاراً ﴾ أي نجعلهن أبكاراً وإن متن ثيبات ، فإن قيل : فما الفائدة على الوجه الأول ؟ نقول : الجواب من وجهين الأول : أن الوصف بعدها لا يكون من غيرها إذا كن أزواجهم بين الفائدة لأن البكر في الدنيا لا تكون عارفة بلذة الزوج فلا ترضى بأن تتزوج من رجل لا تعرفه وتختار التزويج بأقرانها ومعارفها لكن أهل الجنة إذا لم يكن من جنس أبناء آدم وتكون الواحدة منهن بكراً لم تر زوجاً ثم تزوجت بغير جنسها فربما يتوهم منها سوء عشرة فقال : ﴿ أبكاراً ﴾ فلا يوجد فيهن ما يوجد في أبكار الدنيا الثاني : المراد أبكاراً بكارة تخالف بكارة الدنيا ، فإن

البكارة لا تعود إلا على بعد .

وقوله تعالى : ﴿ أَتْرَاباً ﴾ يحتمل وجوهاً أحدها : مستويات في السن فلا تفضل إحداهن على الأخرى بصغر ولا كبر كلهن خلقن في زمان واحد ، ولا يلحقهن عجز ولا زمانة ولا تغير لون ، وعلى هذا إن كن من بنات آدم فاللفظ فيهن حقيقة ، وإن كن من غيرهن فمعناه ما كبرن سمين به لأن كلاً منهن تمس وقت مس الأخرى لكن نسي الأصل ، وجعل عبارة عن ذلك كاللذة للمتساويين من العقلاء ، فأطلق على حور الجنة أتراباً ثانيها : أتراباً متماثلات في النظر إليهن كالأتراب سواء وجدن في زمان أو في أزمنة ، والظاهر أنه في أزمنة لأن المؤمن إذا عمل عملاً صالحاً خلق له منهن ما شاء الله ثالثها : أتراباً لأصحاب اليمين ، أي على سنهم ، وفيه إشارة إلى الاتفاق ، لأن أحد الزوجين إذا كان أكبر من الآخر فالشاب يعيره .

المسألة الثانية :

إن قيل ما الفائدة في قوله : ﴿ فجعلناهن ﴾ ؟ نقول : فائدته ظاهرة تتبين بالنظر إلى اللام في : ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ فنقول : إن كانت اللام متعلقة بأتراباً يكون معناه : ﴿ أنشأناهن ﴾ وهذا لا يجوز وإن كانت متعلقة بأنشأناهن يكون معناه أنشأناهن لأصحاب اليمين والإنشاء حال كونهن أبكاراً وأتراباً فلا يتعلق الإنشاء بالأبكار بحيث

يكون كونهن أبكاراً بالإنشاء لأن الفعل لا يؤثر في الحال تأثيراً واجباً فنقول : صرفه للإنشاء لا يدل على أن الإنشاء كان بفعل فيكون الإنعام عليهم بمجرد إنشائهن لأصحاب اليمين : ﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً ﴾ ليكون ترتيب المسبب على السبب فاقتضى ذلك كونهن أبكاراً ، وأما إن كان الإنشاء أولاً من غير مباشرة للأزواج ما كان يقتضي جعلهن أبكاراً فالفاء لترتيب المقتضى على المقتضى .

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (39) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (40)

(167/743)

وقد ذكرنا ما فيه لكن هنا لطيفة : وهي أنه تعالى قال في السابقين : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين ﴾ [الواقعة : 13] قبل ذكر السرر والفاكهة والحور وذكر في أصحاب اليمين : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين ﴾ بعد ذكر هذه النعم ، نقول : السابقون لا يلتفتون إلى الحور العين والمأكول والمشروب ونعم الجنة تتشرف بهم ، وأصحاب اليمين يلتفتون إليها فقدم ذكرها عليهم ثم قال : هذا لكم وأما السابقون فذكرهم أولاً ثم ذكر مكانهم ، فكأنه قال لأهل الجنة هؤلاء واردون عليكم .

والذي يتمم هذه اللطيفة أنه تعالى لم يقدم ثلة السابقين إلا لكونهم مقربين حساً فقال :

﴿ المقربون فِي جنات ﴾ [الواقعة : 11 ، 12] ثم قال : ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ ثم ذكر النعم لكونها فوق الدنيا إلا المودة في القربى من الله فإنها فوق كل شيء ، وإلى هذا أشار بقوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ [الشورى : 23] أي في المؤمنين ووعد المرسلين بالزلفى في قوله : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى ﴾ [ص : 25] وأما قوله : ﴿ فِي جنات النعيم ﴾ [الواقعة : 12] فقد ذكرنا أنه لتمييز مقربي المؤمنين من مقربي الملائكة ، فإنهم مقربون في الجنة وهم مقربون في أماكنهم لقضاء الأشغال التي للناس وغيرهم بقدرة الله وقد بان من هذا أن المراد من أصحاب اليمين هم الناجون الذين أذنبوا وأسرفوا وعفا الله عنهم بسبب أدنى حسنة لا الذين غلبت حسناتهم وكثرت وسنذكر الدليل عليه في قوله تعالى : ﴿ فسلام لَّكَ مِنْ أصحاب اليمين ﴾ [الواقعة : 91] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 142.146 ﴾

(168/743)

وقال ابن عطية :

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (27) ﴾

السدر : شجر معروف ، وهو الذي يقال له شجر أم غيلان ، وهو من العضاه ، له شوك ،

وفي الجنة شجر على خلقته ، له ثمر كقلال هجر ، طيب الطعم والريح ، وصفه تعالى بأنه ﴿ مخضود ﴾ ، أي مقطوع الشوك ، لا أذى فيه ، وقال أمية بن أبي الصلت :

إن الحدائق في الجنان ظليلة . . . فيها الكواعب سدرها مخضود

وعبر بعض المفسرين عن ﴿ مخضود ﴾ بأنه الموقر حملاً ، وقال بعضهم : هو قطع الشوك ، وهو الصواب ، أما إن وقره هو كرمه ، وروي عن الضحاك أن بعض الصحابة أعجبهم سدروج فقالوا : ليتنا في الآخرة في مثل هذا ، فنزلت الآية .

قال القاضي أبو محمد : ولأهل تحرير النظر هنا إشارة في أن هذا الخضد بإزاء أعمالهم التي سلموا منها ، إذ أهل اليمين توابون لهم سلام وليسوا بسابقين . والطلح كذلك من العضاة شجر عظام كثير الشوك وشبهه في الجنة على صفات مباينة لحال الدنيا . و: ﴿ منضود ﴾ معناه مركب ثمره بعضه على بعض من أرضه إلى أعلاه .

وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجعفر بن محمد وغيره : " طلع منضود " ، فقيل لعلي إنما هو : ﴿ طلح ﴾ . فقال : ما للطلح وللجنة ؟ فقيل له أنصلحها في المصحف فقال : إن المصحف اليوم لا يهاج ولا يغير . وقال علي بن أبي طالب وابن عباس : الطلح : الموز ، وقاله مجاهد وعطاء . وقال الحسن : ليس بالموز ، ولكنه شجر ظله بارد رطب . والظل الممدود ، معناه : الذي لا تنسخه شمس ، وتفسير ذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم : " إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر في ظلها مائة سنة لا يقطعها ،

واقرؤوا إن شئتم : ﴿ وظل ممدود ﴾ "إلى غير هذا من الأحاديث في هذا المعنى . وقال مجاهد : هذا الظل هو من طلحها وسدرها .

وقوله تعالى : ﴿ وماء مسكوب ﴾ أي جار في غير أخاديد ، قاله سفيان وغيره ، وقيل المعنى : يناسب . لا تعب فيه بسانية ولا رشاء .

(169/743)

وقوله تعالى : ﴿ لا مقطوعة ﴾ أي بزوال الإبان ، كحال فاكهة الدنيا ، ﴿ ولا ممنوعة ﴾ ببعد التناول ولا بشوك يؤذي في شجراتها ولا بوجه من الوجوه التي تمتنع بها فاكهة الدنيا .

وقرأ جمهور الناس : "وفرُش" بضم الراء . وقرأ أبو حيوة : "وفرْش" بسكونها ، والفرش : الأسرة ، وروي من طريف أبي سعيد الخدري : أن في ارتفاع السرير منها خمسمائة سنة . قال القاضي أبو محمد : وهذا والله أعلم لا يثبت ، وإن قدر فمتأولاً خارجاً عن ظاهره .

وقال أبو عبيدة وغيره : أراد بالفرش النساء .

و: ﴿ مرفوعة ﴾ معناه : في الأقدار والمنازل ، ومن هذا المعنى قول الشاعر [عمرو بن الأهتم التميمي] : [البسيط]

ظللت مفترش الهلباء تشتمني . . . عند الرسولِ فلم تصدقْ ولم تصب

ومنه قول الآخر في تعديد على صهره :

وأفرشتك كريمتي . . . وقوله تعالى : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ قال قتادة : الضمير عائد على الحور العين المذكورات قبل وهذا فيه بعد ، لأن تلك القصة قد انقضت جملة . وقال أبو عبيدة معمر : قد ذكرهن في قوله : ﴿ فرش ﴾ فلذلك رد الضمير وإن لم يتقدم ذكر لدلالة المعنى على المقصد ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ [ص : 32] ونحوه : و: ﴿ أنشأناهن ﴾ معناه : خلقناهن شيئاً بعد شيء . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسير هذه الآية : " عجائزكن في الدنيا عمشاً رمصاً " وقال لعجوز : " إن الجنة لا يدخلها العجز " ، فحزنت ، فقال : " إنك إذا دخلت الجنة أنشئت خلقاً آخر " .

وقوله تعالى : ﴿ فجعلناهن أبكاراً ﴾ قيل معناه : دائمات البكارة متى عاود الواطئ وجدها بكراً . والعرب جمع عروب ، وهي المتحببة إلى زوجها بإظهار محبته ، قاله ابن عباس والحسن ، وعبر عنهم ابن عباس أيضاً بالعواشق ، ومنه قول لبيد :

وفي الحدوج عروب غير فاحشة . . . ريا الروادف يعشى دونها البصر

وقال ابن زيد العروب : الحسنة الكلام ، وقد تجيء العروب صفة ذم على غير هذا المعنى وهي الفاسدة الأخلاق كأنها عربت ومنه قول الشاعر [ابن الأعرابي] : [الطويل]

وما بدل من أم عثمان سلفع . . . من السود ورهاء العنان عروب

وقرأ ابن كثير وابن عامر والكسائي : " عرُباً " بضم الراء . وقرأ حمزة والحسن والأعمش : " عرْباً " بسكونها وهي لغة بني تميم ، واختلف عن نافع وأبي عمرو وعاصم .

وقوله : ﴿ أترابا ﴾ معناه في الشكل والقد حتى يقول الرائي هم أتراب ، والترب هو الذي مس التراب مع تربه في وقت واحد . قال قتادة : ﴿ أترابا ﴾ يعني سناً واحدة ، ويروى أن أهل الجنة على قد ابن أربعة عشر عاماً في الشباب والنضرة ، وقيل على مثال أبناء ثلاث وثلاثين سنة مرداً بيضاً مكحلين .

واختلف الناس في قوله : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ فقال الحسن بن أبي الحسن وغيره ، الأولون : سالف الأمم ، منهم جماعة عظيمة أصحاب يمين ، والآخرون : هم هذه الأمة ، منهم جماعة عظيمة أهل يمين .

قال القاضي أبو محمد : بل جميعهم إلا من كان من السابقين . وقال قوم من المتأولين : هاتان الفرقتان في أمة محمد ، وروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الثلثان من أمتي " فعلى هذا التابعون بإحسان ومن جرى مجراهم ثلة أولى ، وسائر الأمة ثلة أخرى في آخر الزمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾

رجع إلى ذكر منازل أصحاب الميمنة وهم السابقون على ما تقدّم ، والتكرير لتعظيم شأن النعيم الذي هم فيه .

﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ أي في نبق قد خُضد شوكه أي قطع ؛ قاله ابن عباس وغيره .

وذكر ابن المبارك : حدثنا صفوان عن سليم بن عامر قال : "كان أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم يقولون : إنه لينفعنا الأعراب ومسائلهم ، قال : أقبل أعرابي يوماً ؛ فقال : يا رسول اللها لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذيةً ، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وما هي" قال : السّدر فإن له شوكاً مؤذياً ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : "أو ليس يقول ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ خَضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة فإنها تنبت ثمراً يفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام ما فيه لون يشبه الآخر" " وقال أبو العالية والضحاك : نظر المسلمون إلى وَجٍّ (وهو وادٍ بالطائف مخصب) فأعجبهم سِدره ، فقالوا : يا ليت لنا مثل هذا ؛ فنزلت .

قال أمية بن أبي الصَّلْت يصف الجنة :

إنّ الحدائقَ في الجِنانِ ظليلةٌ . . .

فيها الْكَواعِبُ سِدْرُها مَخْضودُ

وقال الضحاك ومجاهد ومقاتل بن حيان : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ وهو الموقر حملاً .

وهو قريب مما ذكرنا في الخبر .

سعيد بن جبير : ثمرها أعظم من القِلال .

وقد مضى هذا في سورة "النجم" عند قوله تعالى : ﴿ عِندَ سِدْرَةِ المنتهى ﴾ [النجم : 14] وأن ثمرها مثل قلال هَجَر من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ الطَّلْح شجر الموز واحده طلحة .

قاله أكثر المفسرين عليّ وابن عباس وغيرهم .

وقال الحسن : ليس هو موز ولكنه شجر له ظل بارد رطب .

وقال الفراء وأبو عبيدة : شجر عظام له شوك ؛ قال بعض الحداة وهو الجعدي :

بَشَّرَهَا دَليلُها وقَالاَ . . .

غداً تَرْيِنَ الطَّلْحَ والأَحْبَالاَ

فالطَّلْح كلّ شجر عظيم كثير الشوك .

الزجاج : يجوز أن يكون في الجنة وقد أزيل شوكه .

وقال الزجاج أيضاً : كشجر أم غيلان (له) نَوْر طيّب جداً فخوطبوا ووعدوا بما يحبون مثله ، إلا أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا .

وقال السدي : طلح الجنة يشبه طلح الدنيا لكن له ثمر أحلى من العسل .

وقرأ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : "وَطلْعٍ مَنْضُودٍ" بالعين وتلا هذه الآية ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ وهو خلاف المصحف .

في رواية أنه قرىء بين يديه ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ فقال : ما شأن الطلح ؟ إنما هو "وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ" ثم قال : "لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ" فقيل له : أفلا نحوّلها ؟ فقال : لا ينبغي أن يهاج القرآن ولا يحوّل .

فقد اختار هذه القراءة ولم ير إثباتها في المصحف لمخالفة ما رَسْمه مجمَع عليه .

قاله القشيري .

وأسنده أبو بكر الأنباري قال : حدثني أبي قال حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عيسى بن يونس عن مجالد عن الحسن بن سعد عن قيس بن عُبَاد قال : قرأت عند عليّ أو قُرِئت عند عليّ شَك مجالد ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ فقال عليّ رضي الله عنه : ما بال الطلح ؟ أما

تقرأ "وَطَلْع" ثم قال : ﴿ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ [ق : 10] فقال له : يا أمير المؤمنين أنحكّها من المصحف ؟ فقال : لا لا يهاج القرآن اليوم .

قال أبو بكر : ومعنى هذا أنه رجع إلى ما في المصحف وعلم أنه هو الصواب ، وأبطل الذي كان فرط من قوله .

والمنضود المتراكب الذي قد نُضدَ أوّله وآخره بالحمل ، ليست له سُوقٌ بارزة بل هو مرصوص ، والنَّضْد هو الرصّ والمنضَّد المرصوص ، قال النابغة :

خَلَّتْ سَبِيلَ أَتِيٍّ كانَ يَحْبِسُهُ . . .

ورَفَّعَتْهُ إلى السِّجْفَيْنِ فالنضَدِ

وقال مسروق : أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها نضيدة ثمر كلّه ، كلّما أكل ثمرة عاد مكانها أحسنُ منها .

(173/743)

قوله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ أي دائم باق لا يزول ولا تنسخه الشمس ؛ كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ﴾ [الفرقان : 45] وذلك بالغداة وهي ما بين الإسفار إلى طلوع الشمس حسب ما تقدّم بيانه هناك .

والجنة كلها ظلّ لا شمس معه .

قال الربيع بن أنس : يعني ظل العرش .

وقال عمرو بن ميمون : مسيرة سبعين ألف سنة .

وقال أبو عبيدة : تقول العرب للدهر الطويل والعمر الطويل والشيء الذي لا ينقطع ممدود ؛

وقال لبيد :

غَلَبَ الْعَزَاء وكنتُ غيرَ مُغَلَّبٍ . . .

دَهرٌ طويلٌ دائِمٌ مَمْدودُ

وفي صحيح الترمذيّ وغيره من حديث أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " وفي الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها واقرؤوا إن شئتم ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ " ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ أي جارٍ لا ينقطع وأصل السّكب الصبّ ؛ يقال : سكبه سَكْباً ، والسُّكُوب انصبابه ؛ يقال : سَكَب سُكُوباً ، وانسكب انسكابا ؛ أي وماء مصبوب يجري الليلَ والنهار في غير أُخدود لا ينقطع عنهم .

وكانت العرب أصحاب بادية وبلادٍ حارة ، وكانت الأنهار في بلادهم عزيزة لا يصلون إلى الماء إلا بالدّلو والرِّشاء فوعدوا في الجنة خلاف ذلك ، ووصف لهم أسباب النزهة المعروفة في الدنيا ، وهي الأشجار وظلالها ، والمياه والأنهار واطرادها .

قوله تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أي ليست بالقليلة العزيزة كما كانت في بلادهم ﴿ لاَّ

مَقْطُوعَةٍ ﴾ أي في وقت من الأوقات كانقطاع فواكه الصيف في الشتاء ﴿ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ أي لا يُحظَر عليها كثمار الدنيا .

وقيل : "وَلاَ مَمْنُوعَةٍ" أي لا يُمنع من أرادها بشوك ولا بُعد (ولا) حائط ، بل إذا اشتهاها العبد دنت منه حتى يأخذها ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ [الإنسان : 14] .

وقيل : ليست مقطوعة بالأزمان ، ولا ممنوعة بالأثمان .

(174/743)

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ روى الترمذيّ عن أبي سعيد " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ قال : "ارتفاعها لَكَمَا بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة" " قال : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رِشْدِين بن سعد .

وقال بعض أهل العلم في تفسير هذا الحديث : الفُرُش في الدرجات ، وما بين الدرجات كما بين السماء والأرض .

وقيل : إن الفُرُش هنا كناية عن النّساء اللواتي في الجنة ولم يتقدّم لهنّ ذكر ، ولكن قوله عز

وجل : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ دالٌّ ؛ لأنها محل النّساء ؛ فالمعنى ونساء مرتفعات الأقدار في حسنهنّ وكمالهنّ ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً ﴾ أي خلقناهنّ خلقاً وأبدعناهنّ إبداعاً .

والعرب تسمي المرأة فِراشاً ولِباساً وإزاراً ؛ وقد قال تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 187] .

ثم قيل : على هذا هنّ الحور العين ؛ أي خلقناهنّ من غير ولادة .

وقيل : المراد نساء بني آدم ؛ أي خلقناهنّ خلقاً جديداً وهو الإعادة ؛ أي أعدناهنّ إلى حال الشباب وكمال الجمال .

والمعنى أنشأنا العجوز والصَّبية إنشاءً واحداً ، وأضمرن ولم يتقدّم ذكرهنّ ؛ لأنهنّ قد دخلن في أصحاب اليمين ؛ ولأن الفُرُش كناية عن النساء كما تقدّم .

وروي " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً ﴾ قال : "منهنّ البِكْر والثَّيِّب" .

(175/743)

وقالت أم سلمة رضي الله تعالى عنها : سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً ﴾ فقال : "يا أمّ سلمة هنّ اللواتي قُبِضن في الدنيا عجائز شُمْطاً عُمْشاً رُمْصاً جعلهنّ الله بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد في الاستواء" "أسنده النحاس عن أنس قال : حدّثنا أحمد بن عمرو قال : حدّثنا عمرو بن عليّ قال : حدّثنا أبو عاصم عن موسى بن عبيدة ، عن يزيد الرقاشي ، " عن أنس بن مالك رفعه : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً ﴾ قال : "هنّ العجائز العُمْش الرُّمْص كُنّ في الدنيا عُمْشاً رُمْصاً" " وقال المسيّب بن شريك : " قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً ﴾ الآية قال : "هنّ عجائز الدنيا أنشأهنّ الله خلقاً جديداً كلما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكاراً" فلما سمعت عائشة ذلك قالت : واوجعاها فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ليس هناك وجع" " ﴿ عُرُباً ﴾ جمع عَرُوب .

قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : العُرُب العواشق لأزواجهنّ .

وعن ابن عباس أيضاً : إنها العروب الملقة .

عكرمة : الغَنجة .

ابن زيد : بلغة أهل المدينة .

ومنه قول لبيد :

وفي الخِبَاءِ عَرُوبٌ غيرُ فاحِشةٍ . . .

رَيَّا الروادِفِ يَعْشَى دُونَها البصرُ

وهي الشّكِلة بلغة أهل مكة .

وعن زيد بن أسلم أيضاً : الحسنة الكلام .

وعن عكرمة أيضاً وقتادة : العُرُب المتحببات إلى أزواجهنّ ، واشتقاقه من أعرب إذا بيّن ، فالعروب تبينّ محبتها لزوجها بشكل وغُنْج وحسن كلام .

وقيل : إنها الحسنة التَّبَعُّل لتكون ألذ استمتاعا .

وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ عُرُباً ﴾ قال : "كلامهنّ عربيّ" " وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم "عُرْباً" بإسكان الراء . وضم الباقون وهما جائزان في جمع فَعُول .

(176/743)

"أَتْرَاباً" على ميلاد واحد في الاستواء وسنّ واحدة ثلاثٍ وثلاثين سنة .

يقال في النساء أتراب وفي الرجال أقران .

وكانت العرب تميل إلى من جاوزت حد الصِّبَا من النساء وانحطت عن الكبر .

وقيل : ﴿ أَتْرَاباً ﴾ أمثالاً وأشكالاً ؛ قاله مجاهد .

السُّدّي : أتراب في الأخلاق لا تباغض بينهنّ ولا تحاسد .

﴿ لأَصْحَابِ اليمين ﴾ قيل : الحور العين للسابقين ، والأتراب العرب لأصحاب اليمين .

قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين .

وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ رجع الكلام إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ اليمين مَآ أَصْحَابُ اليمين ﴾ أي هم ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين ﴾ ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ وقد مضى الكلام في معناه .

وقال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رباح والضحاك : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين ﴾ يعني من سابقي هذه الأمة ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ من هذه الأمة من آخرها ؛ يدل عليه ما روي عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين ﴾ ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " هم جميعاً من أمتي " وقال الواحديّ : أصحاب الجنة نصفان نصف من الأمم الماضية ونصف من هذه الأمة .

وهذا يردّه ما رواه ابن ماجه في سننه والترمذيّ في جامعه عن بُريدة بن خَصيب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أهل الجنة عشرون ومائة صفٍّ ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم " قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

و"ثُلَّةٌ" رفع على الابتداء ، أو على حذف خبر حرف الصفة ، ومجازه : لأصحاب اليمين ثُلَّتَان : ثلة من هؤلاء وثلة من هؤلاء .

والأوّلون الأمم الماضية ، والآخرون هذه الأمة على القول الثاني . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(177/743)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) ﴾

وقال ابن عباس : الواقعة من أسماء القيامة ، كالصاخة والطامّة والآزفة ، وهذه الأسماء تقتضي عظم شأنها ، ومعنى ﴿ وقعت الواقعة ﴾ : أي وقعت التي لا بد من وقوعها ، كما تقول : حدثت الحادثة ، وكانت الكائنة ؛ ووقوع الأمر نزوله ، يقال : وقع ما كنت أتوقعه : أي نزل ما كنت أترقب نزوله .

وقال الضحاك : ﴿ الواقعة ﴾ : الصيحة ، وهي النفخة في الصور .

وقيل : ﴿ الواقعة ﴾ : صخرة بيت المقدس تقع يوم القيامة .

والعامل في إذا الفعل بعدها على ما قررناه في كتب النحو ، فهو في موضع خفض بإضافة إذا إليها احتاج إلى تقدير عامل ، إذ الظاهر أنه ليس ثم جواب ملفوظ به يعمل بها .

فقال الزمخشري : فإن قلت : بم انتصب إذا ؟ قلت : بليس ، كقولك : يوم الجمعة ليس لي

شغل ، أو بمحذوف يعني : إذا وقعت ، كان كيت وكيت ، أو بإضمار اذكر . انتهى .

أما نصبها بليس فلا يذهب نحوي ولا من شدا شيئاً من صناعة الإعراب إلى مثل هذا ، لأن ليس في النفي كما ، وما لا تعمل ، فكذلك ليس ، وذلك أن ليس مسلوبة الدلالة على الحدث والزمان .

والقول بأنها فعل هو على سبيل المجاز ، لأن حد الفعل لا ينطبق عليها .

والعامل في الظرف إنما هو ما يقع فيه من الحدث ، فإذا قلت : يوم الجمعة أقوم ، فالقيام واقع في يوم الجمعة ، وليس لا حدث لها ، فكيف يكون لها عمل في الظرف ؟ والمثال الذي شبه به ، وهو يوم القيامة ، ليس لي شغل ، لا يدل على أن يوم الجمعة منصوب بليس ، بل هو منصوب بالعامل في خبر ليس ، وهو الجار والمجرور ، فهو من تقديم معمول الخبر على ليس ، وتقديم ذلك مبني على جواز تقديم الخبر الذي لليس عليها ، وهو مختلف فيه ، ولم يسمع من لسان العرب : قائماً ليس زيد .

وليس إنما تدل على نفي الحكم الخبري عن المحكوم عليه فقط ، فهي كما ، ولكنه لما اتصلت بها ضمائر الرفع ، جعلها ناس فعلاً ، وهي في الحقيقة حرف نفي كما النافية .

(178/743)

ويظهر من تمثيل الزمخشري إذاً بقوله : يوم الجمعة ، أنه سلبها الدلالة على الشرط الذي هو غالب فيها ، ولو كانت شرطاً ، وكان الجواب الجملة المصدرة بليس ، لزمت الفاء ، إلا إن حذفت في شعر ، إذ ورد ذلك ، فنقول : إذا أحسن إليك زيد فلست تترك مكافأته .

ولا يجوز لست بغير فاء ، إلا إن اضطر إلى ذلك .

وأما تقديره : إذا وقعت كان كيت وكيت ، فيدل على أن إذا عنده شرطية ، ولذلك قدر لها جواباً عاملاً فيها .

وأما قوله : بإضمار اذكر ، فإنه سلبها الظرفية ، وجعلها مفعولاً بها منصوبة باذكر .

و﴿ كاذبة ﴾ : ظاهره أنه اسم فاعل من كذب ، وهو صفة لمحذوف ، فقدره الزمخشري : نفس كاذبة ، أي لا يكون حين تقع نفس تكذب على الله ، وتكذب في تكذيب الغيب ، لأن كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة ، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذبات ، لقوله تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ﴾ ﴿ لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ﴾ ﴿ ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة ﴾ واللام مثلها في قوله : ﴿ يقول ياليتني قدمت لحياتي ﴾ إذ ليس لها نفس تكذبها وتقول لها : لم تكذبي ، كما لها اليوم نفوس كثيرة يقلن لها : لم تكذبي ، أو هي من قولهم : كذبت فلاناً نفسه في الخطب العظيم ، إذا شجعته على مباشرته ، وقالت له : إنك تطيقه وما فوقه ، فتعرض له ولا تبال على معنى : أنها وقعة لا تطاق بشدة وفظاعة ، وأن لا نفس حينئذ تحدث صاحبها بما تحدثه

به عند عظائم الأمور ، وتزين له احتمالها وإطاقتها ، لأنهم يومئذ أضعف من ذلك وأذل .

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ كالفراش المبثوث ﴾ والفراش مثل في الضعف .

انتهى ، وهو تكثير وإسهاب .

وقدره ابن عطية حال كاذبة ، قال : ويحتمل الكلام على هذا معنيين : أحدهما كاذبة ، أي مكذوب فيما أخبر به عنها ، فسماها كاذبة لهذا ، كما تقول : هذه قصة كاذبة ، أي مكذوب فيها .

(179/743)

والثاني : حال كاذبة ، أي لا يمضي وقوعها ، كما تقول : فلان إذا حمل لم يكذب .

وقال قتادة والحسن المعنى : ليس لها تكذيب ولا رد ولا منثوية ، فكاذبة على هذا مصدر ، كالعاقبة والعافية وخائنة الأعين .

والجملة من قوله : ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ على ما قدّره الزمخشري من أن إذا معمولة لليس يكون ابتداء السورة ، إلا إن اعتقد أنها جواب لإذا ، أو منصوبة باذكر ، فلا يكون ابتداء كلام .

وقال ابن عطية : في موضع الحال ، والذي يظهر لي أنها جملة اعتراض بين الشرط وجوابه .

وقرأ الجمهور : ﴿ خافضة رافعة ﴾ برفعهما ، على تقدير هي ؛ وزيد بن علي والحسن وعيسى وأبو حيوة وابن أبي عبلة وابن مقسم والزعفراني واليزيدي في اختياره بنصبهما .

قال ابن خالوية : قال الكسائي : لولا أن اليزيدي سبقني إليه لقرأت به ، ونصبهما على الحال .

قال ابن عطية : بعد الحال التي هي ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ ، ولك أن تتابع الأحوال ، كما لك أن تتابع أخبار المبتدأ .

والقراءة الأولى أشهر وأبدع معنى ، وذلك أن موقع الحال من الكلام موقع ما لو لم يذكر لاستغنى عنه ، وموقع الجمل التي يجزم الخبر بها موقع ما يهتم به . انتهى .

وهذا الذي قاله سبقه إليه أبو الفضل الرازي .

قال في كتاب اللوامح : وذو الحال الواقعة والعامل وقعت ، ويجوز أن يكون ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ حال أخرى من الواقعة بتقدير : إذا وقعت صادقة الواقعة ، فهذه ثلاثة أحوال من ذي حال ، وجازت أحوال مختلفة عن واحد ، كما جازت عنه نعوت متضادة وأخبار كثيرة عن مبتدأ واحد .

وإذا جعلت هذه كلها أحوالاً ، كان العامل في ﴿ إذا وقعت ﴾ محذوفاً يدل عليه الفحوى بتقدير يحاسبون ونحوه .

انتهى .

وتعداد الأحوال والأخبار فيه خلاف وتفصيل ذكر في النحو ، فليس ذلك مما أجمع عليه النحاة .

قال الجمهور : القيامة تنفظر له السماء والأرض والجبال ، وتنهد له هذه البنية برفع طائفة من الأجرام وبخفض أخرى ، فكأنها عبارة عن شدة الهول والاضطراب .

(180/743)

وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك : الصيحة تخفض قوتها لتسمع الأدنى ، وترفعها لتسمع الأقصى .

وقال قتادة وعثمان بن عبد الله بن سراقة : القيامة تخفض أقواماً إلى النار ، وترفع أقواماً إلى الجنة ؛ وأخذ الزمخشري هذه الأقوال على عادته وكساها بعض ألفاظ رائعة ، فقال : ترفع أقواماً وتضع آخرين ، أما وصفاً لها بالشدة ، لأن الواقعات العظام كذلك يرتفع فيها ناس إلى مراتب ويتضع ناس ؛ وأما أن الأشقياء يحطون إلى الدركات ، والسعداء يحطون إلى الدرجات ؛ وأما أنها تزلزل الأشياء عن مقارها لتخفض بعضاً وترفع بعضاً ، حيث تسقط السماء كسفاً ، وتنتثر الكواكب وتنكدر ، وتسير الجبال فتمر في الجو مر السحاب . انتهى .

﴿ إذا رجت ﴾ ، قال ابن عباس : زلزلت وحركت بجذب .

وقال أيضاً هو وعكرمة ومجاهد : ﴿ بست ﴾ : فتتت ، وقيل : سيرت .

وقرأ زيد بن علي : ﴿ رجت ﴾ ، و﴿ بست ﴾ مبنياً للفاعل ، ﴿ وإذا رجت ﴾ بدل من ﴿ إذا وقعت ﴾ ، وجواب الشرط عندي ملفوظ به ، وهو قوله : ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ ، والمعنى إذا كان كذا وكذا ، فأصحاب الميمنة ما أسعدهم وما أعظم ما يجازون به ، أي إن سعادتهم وعظم رتبتهم عند الله تظهر في ذلك الوقت الشديد الصعب على العالم .

وقال الزمخشري : ويجوز أن ينتصب بخافضة رافعة ، أي تخفض وترفع وقت رج الأرض وبس الجبال ، لأنه عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ويرتفع ما هو منخفض . انتهى .

ولا يجوز أن ينتصب بهما معاً ، بل بأحدهما ، لأنه لا يجوز أن يجتمع مؤثران على أثر واحد .

وقال ابن جني وأبو الفضل الرازي : ﴿ إذ رجت ﴾ في موضع رفع على أنه خبر للمبتدأ الذي هو ﴿ إذا وقعت ﴾ ، وليست واحدة منهما شرطية ، بل جعلت بمعنى وقت ، وما بعد إذا أحوال ثلاثة ، والمعنى : وقت وقوع الواقعة صادقة الوقوع ، خافضة قوم ، رافعة آخرين وقت رج الأرض .

وهكذا ادعى ابن مالك أن إذا تكون مبتدأ ، واستدل بهذا .

وقد ذكرنا في شرح التسهيل ما تبقى به إذا على مدلولها من الشرط، وتقدم شرح الهباء في سورة الفرقان.

﴿ منبثاً ﴾ : منتشراً.

منبتاً بنقطتين بدل الثاء المثلثة، قراءة الجمهور، أي منقطعاً.

﴿ وكنتم ﴾ : خطاب للعالم، ﴿ أزواجاً ثلاثة ﴾ : أصنافاً ثلاثة، وهذه رتب للناس يوم القيامة.

﴿ فأصحاب الميمنة ﴾، قال الحسن والربيع : هم الميامين على أنفسهم.

وقيل : الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم.

وقيل : أصحاب المنزلة السنية، كما تقول : هو مني باليمين.

وقيل : المأخوذ بهم ذات اليمين، أو ميمنة آدم المذكورة في حديث الإسراء في الأسودة.

﴿ وأصحاب المشئمة ﴾ : هم من قابل أصحاب الميمنة في هذه الأقوال، فأصحاب مبتدأ، وما : مبتدأ ثان استفهام في معنى التعظيم، وأصحاب الميمنة خبر عن ما، وما بعدها خبر عن أصحاب، وربط الجملة بالمبتدأ تكرار المبتدأ بلفظه، وأكثر ما يكون ذلك في موضع التهويل والتعظيم، وما تعجب من حال الفريقين في السعادة والشقاوة، والمعنى : أي شيء هم.

﴿ والسابقون السابقون ﴾ : جوزوا أن يكون مبتدأ وخبراً ، نحو قولهم : أنت أنت ، وقوله : أنا أبو النجم ، وشعري شعري ، أي الذين انتهوا في السبق ، أي الطاعات ، وبرعوا فيها وعرفت حالهم .

وأن يكون السابقون تأكيداً لفظياً ، والخبر فيما بعد ذلك ؛ وأن يكون السابقون مبتدأ والخبر فيما بعده ، وتقف على قوله : ﴿ والسابقون ﴾ ، وأن يكون متعلق السبق الأول مخالفاً للسبق الثاني .

والسابقون إلى الإيمان السابقون إلى الجنة ، فعلى هذا جوزوا أن يكون السابقون خبراً لقوله : ﴿ والسابقون ﴾ ، وأن يكون صفة والخبر فيما بعده .

والوجه الأول ، قال ابن عطية : ومذهب سيبويه أنه يعني السابقون خبر الابتداء ، يعني خبر والسابقون ، وهذا كما تقول : الناس الناس ، وأنت أنت ، وهذا على تفخيم الأمر وتعظيمه . انتهى .

(182/743)

ويرجح هذا القول أنه ذكر أصحاب الميمنة متعجباً منهم في سعادتهم ، وأصحاب المشأمة متعجباً منهم في شقاوتهم ، فناسب أن يذكر السابقون مثبتاً حالهم معظماً ، وذلك

بالإخبار أنهم نهاية في العظمة والسعادة ، والسابقون عموم في السبق إلى أعمال الطاعات ، وإلى ترك المعاصي .

وقال عثمان بن أبي سودة : السابقون إلى المساجد .

وقال ابن سيرين : هم الذين صلوا إلى القبلتين .

وقال كعب : هم أهل القرآن .

وفي الحديث : " سئل عن السابقين فقال هم الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سئلوه بذلوه ، وحكموا للناس بحكمهم لأنفسهم " ﴿ أولئك ﴾ : إشارة إلى السابقين المقربين الذين علت منازلهم وقربت درجاتهم في الجنة من العرش .

وقرأ الجمهور : ﴿ في جنات ﴾ ، جمعاً ؛ وطلحة : في جنات مفرداً .

وقسم السابقين المقربين إلى ﴿ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ .

وقال الحسن : السابقون من الأمم ، والسابقون من هذه الأمة .

وقالت عائشة : الفرقتان في كل أمة نبي ، في صدرها ثلة ، وفي آخرها قليل .

وقيل : هما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، كانوا في صدر الدنيا ، وفي آخرها أقل .

وفي الحديث : " الفرقتان في أمتي ، فسابق في أول الأمة ثلة ، وسابق سائرها إلى يوم القيامة قليل " ، وارتفع ثلة على إضمارهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ على سرر ﴾ بضم الراء ؛ وزيد ابن علي وأبو السمال : بفتحها ، وهي

لغة لبعض بني تميم وكلب ، يفتحون عين فعل جمع فعيل المضعف ، نحو سرير ، وتقدم ذلك في والصافات .

﴿ موضونة ﴾ ، قال ابن عباس : مرمولة بالذهب .

وقال عكرمة : مشبكة بالدر والياقوت .

﴿ متكئين عليها ﴾ : أي على السرر ، ومتكئين : حال من الضمير المستكن في ﴿ على سرر ﴾ ، ﴿ متقابلين ﴾ : ينظر بعضهم إلى بعض ، وصفوا بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق وصفاء بطائنهم من غل إخواناً .

(183/743)

﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ : وصفوا بالخلد ، وإن كان من في الجنة مخلداً ، ليدل على أنهم يبقون دائماً في سن الولدان ، لا يكبرون ولا يتحولون عن شكل الوصافة .

وقال مجاهد : لا يموتون .

وقال الفراء : مقرطون بالخلدات ، وهي ضروب من الأقراط .

﴿ وكأس من معين ﴾ ، قال : من خمر سائلة جارية معينة .

﴿ لا يصدعون عنها ﴾ ، قال الأكثرون : لا يلحق رؤوسهم الصداع الذي يلحق من خمر

الدنيا .

وقرأت على أستاذنا العلامة أبي جعفر بن الزبير ، رحمه الله تعالى ، قول علقمة في صفة الخمر :

تشفي الصداع ولا يؤذيك صالبها . . .

ولا يخالطها في الرأس تدويم

فقال : هذه صفة أهل الجنة .

وقيل : لا يفرقون عنها بمعنى : لا تقطع عنهم لذتهم بسبب من الأسباب ، كما تفرق أهل خمر الدنيا بأنواع من التفريق ، كما جاء : فتصدع السحاب عن المدينة : أي فتفرق .

وقرأ مجاهد : لا يصدعون ، بفتح الياء وشد الصاد ، أصله يتصدعون ، أدغم التاء في الصاد : أي لا يتفرقون ، كقوله : ﴿ يومئذٍ يصدعون ﴾ والجمهور ؛ بضم الياء وخفة الصاد ؛ والجمهور : بجر ﴿ وفاكهة ﴾ ؛ ولحم وزيد بن علي : برفعهما ، أي ولهم ؛ والجمهور : ﴿ ولا ينزفون ﴾ مبنياً للمفعول .

قال مجاهد وقتادة وجبير والضحاك : لا تذهب عقولهم سكراً ؛ وابن أبي إسحاق : بفتح الياء وكسر الزاي ، نزف البئر : استفرغ ماءها ، فالمعنى : لا تفرغ خمرهم .

وابن أبي إسحاق أيضاً وعبد الله والسلمي والجحدري والأعمش وطلحة وعيسى : بضم الياء وكسر الزاي : أي لا يفنى لهم شراب ، ﴿ مما يتخيرون ﴾ : يأخذون خيره

وأفضله ، ﴿ مما يشتهون ﴾ : أي يتمنون .

وقرأ الجمهور : ﴿ وحور عين ﴾ برفعهما ؛ وخرج عليّ على أن يكون معطوفاً على ﴿ ولدان ﴾ ، أو على الضمير المستكن في ﴿ متكئين ﴾ ، أو على مبتدأ محذوف هو وخبره تقديره : لهم هذا كله ، ﴿ وحور عين ﴾ ، أو على حذف خبر فقط : أي ولهم حور ، أو فيهما حور .

(184/743)

وقرأ السلمي والحسن وعمرو بن عبيد وأبو جعفر وشيبة والأعمش وطلحة والمفضل وأبان وعصمة والكسائي : بجرهما ؛ والنخعي : وحير عين ، بقلب الواو ياء وجرهما ، والجر عطف على المجرور ، أي يطوف عليهم ولدان بكذا وكذا وحور عين .

وقيل : هو على معنى : وينعمون بهذا كله وبحور عين .

وقال الزمخشري : عطفاً على ﴿ جنات النعيم ﴾ ، كأنه قال : هم في جنات وفاكهة ولحم وحور .

انتهى ، وهذا فيه بعد وتفكيك كلام مرتبط بعضه ببعض ، وهو فهم أعجمي .

وقرأ أبي وعبد الله : وحوراً عيناً بنصبهما ، قالوا : على معنى ويعطون هذا كله وحوراً

عيناً .

وقرأ قتادة : وحور عين بالرفع مضافاً إلى عين ؛ وابن مقسم : بالنصب مضافاً إلى عين ؛ وعكرمة : وحوراء عيناء على التوحيد اسم جنس ، وبفتح الهمزة فيهما ؛ فاحتمل أن يكون مجروراً عطفاً على المجرور السابق ؛ واحتمل أن يكون منصوباً ؛ كقراءة أبي وعبد الله وحوراً عيناً .

ووصف اللؤلؤ بالمكنون ، لأنه أصفى وأبعد من التغير .

وفي الحديث : " صفاؤهنّ كصفاء الدر الذي لا تمسه الأيدي " وقال تعالى : ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾

وقال الشاعر ، يصف امرأة بالصون وعدم الابتذال ، فشبهها بالدرة المكنونة في صدفتها فقال :

قامت ترائى بين سجفي كلة . . .

كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

أو درّة صدفية غواصها . . .

بهج متى يرها يهل ويسجد

﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ : روي أن المنازل والقسم في الجنة على قدر الأعمال ، ونفس دخول الجنة برحمة الله تعالى وفضله لا بعمل عامل ، وفيه النص الصحيح الصريح : " لا

يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني بفضل منه ورحمة " ﴿ لغواً ﴾ : سقط القول وفحشه ، ﴿ ولا تأثيماً ﴾ : ما يؤثم أحداً والظاهر أن ﴿ إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ استثناء منقطع ، لأنه لم يندرج في اللغو ولا التأثيم ، ويبعد قول من قال استثناء متصل .

(185/743)

وسلاماً ، قال الزجاج : هو مصدر نصبه ﴿ قيلاً ﴾ ، أي يقول بعضهم لبعض ﴿ سلاماً سلاماً ﴾ .

وقيل : نصب بفعل محذوف ، وهو معمول قيلاً ، أي قيلاً أسلموا سلاماً .

وقيل : ﴿ سلاماً ﴾ بدل من ﴿ قيلاً ﴾ .

وقيل : نعت لقيلا بالمصدر ، كأنه قيل : إلا قيلاً سالماً من هذه العيوب .

﴿ في سدر ﴾ : في الجنة شجر على خلقه ، له ثمر كقلال هجر طيب الطعم والريح .

﴿ مخضود ﴾ : عار من الشوك .

وقال مجاهد : المخضود : الموقر الذي تثني أغصانه كثرة حمله ، من خضد الغصن إذا أثناه .

وقرأ الجمهور : ﴿ وطلحٍ ﴾ بالحاء ؛ وعليّ وجعفر بن محمد وعبد الله : بالعين ، قرأها على المنبر .

وقال عليّ وابن عباس وعطاء ومجاهد : الطلح : الموز .

وقال الحسن : ليس بالموز ، ولكنه شجر ظله بارد رطب .

وقيل : شجر أم غيلان ، وله نوّار كثير طيب الرائحة .

وقال السدّي : شجر يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل .

والمنضود : الذي نضد من أسفله إلى أعلاه ، فليست له ساق تظهر .

﴿ وظل ممدودٍ ﴾ : لا يتقلص .

بل منبسط لا ينسخه شيء .

قال مجاهد : هذا الظل من سدرها وطلحها .

﴿ وماء مسكوبٍ ﴾ ، قال سفيان وغيره : جار في أخاديد .

وقيل : منساب لا يتعب فيه بساقية ولا رشاء .

﴿ لا مقطوعة ﴾ : أي هي دائمة لا تنقطع في بعض الأوقات ، كفاكهة الدنيا ، ﴿ ولا ممنوعة ﴾ : أي لا يمنع من تناولها بوجه ، ولا يحظر عليها كالتي في الدنيا .

وقرىء : وفاكهة كثيرة برفعهما ، أي وهناك فاكهة ، وفرش : جمع فراش .

وقرأ الجمهور : بضم الراء ؛ وأبو حيوة : بسكونها مرفوعة ، نضدت حتى ارتفعت ، أو

رفعت على الأسرة .

والظاهر أن الفراش هو ما يفترش للجلوس عليه والنوم .

وقال أبو عبيدة وغيره : المراد بالفرش النساء ، لأن المرأة يكنى عنها بالفراش ، ورفعهن في الأقدار والمنازل .

(186/743)

والضمير في ﴿ أنشأناهن ﴾ عائد على الفرش في قول أبي عبيدة ، إذ هنّ النساء عنده ، وعلى ما دل عليه الفرش إذا كان المراد بالفرش ظاهر ما يدل عليه من الملابس التي تفرش ويضطجع عليها ، أي ابتدأنا خلقهن ابتداء جديداً من غير ولادة .

والظاهر أن الإنشاء هو الاختراع الذي لم يسبق بخلق ، ويكون ذلك مخصوصاً بالحور اللاتي لسن من نسل آدم ، ويحتمل أن يريد إنشاء الإعادة ، فيكون ذلك لبنات آدم .

﴿ فجعلناهن أبكاراً عرباً ﴾ : والعرب ، قال ابن عباس : العروب المتحببة إلى زوجها ، وقاله الحسن ، وعبر ابن عباس أيضاً عنهن بالعواشق ، ومنه قول لبيد :

وفي الخدور عروب غير فاحشة . . .

ريا الروادف يغشى دونها البصر

وقال ابن زيد : العروب : المحسنة للكلام .

وقرأ حمزة ، وناس منهم شجاع وعباس والأصمعي ، عن أبي عمرو ، وناس منهم خارجة وكردم وأبو حليد عن نافع ، وناس منهم أبو بكر وحماد وأبان عن عاصم : بسكون الراء ، وهي لغة تميم ؛ وباقي السبعة : بضمها .

﴿ أتراباً ﴾ في الشكل والقد ، وأبعد من ذهب إلى أن الضمير في ﴿ أنشأناهن ﴾ عائد على الحور العين المذكورة قبل ، لأن تلك قصة قد انقطعت ، وهي قصة السابقين ، وهذه قصة أصحاب اليمين .

واللام في ﴿ أصحاب ﴾ متعلقة بأنشأناهن .

﴿ ثلة من الأولين ﴾ : أي من الأمم الماضية ، ﴿ وثلة من الآخرين ﴾ : أي من أمّة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ولا تنافي بين قوله : ﴿ وثلة من الآخرين ﴾ وقوله قبل : ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ ، لأن قوله : ﴿ من الآخرين ﴾ هو في السابقين ، وقوله ﴿ وثلة من الآخرين ﴾ هو في أصحاب اليمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(187/743)

وقال الثعالبي :

* ت * : قال الثعلبيُّ : والسِّدْرُ : شجر النَّبْقِ و ﴿ مَّخْضُودٍ ﴾ أي : مقطوع الشوك ، قال * ع * : ولأهل تحرير النظر هنا إشارةٌ في أَنَّ هذا الخضد بإزاء أعمالهم التي سلموا منها ؛ إذ أهل اليمين تَوَّابُونَ لهم سلام ، وليسوا بسابقين ، قال الفخر : وقد بان لي بالدليل أَنَّ المراد بأصحاب اليمين : الناجون الذين أذنبوا وأسرفوا ، وعفا اللَّه تعالى عنهم بسبب أدنى حَسَنَةٍ ؛ لا الذين غلبت حسناتُهم وكَثُرَتْ ، انتهى .

والطلح (من العِضَاهِ) شَجَرٌ عظيم ، كثيرُ الشوك ، وصفه في الجنة على صفة مباينة لحال الدنيا ، و ﴿ مَّنْضُودٍ ﴾ معناه : مُرَكَّبٌ ثمره بعضُه على بعض من أرضه إلى أعلاه ، وقرأ علي رضي اللَّه عنه وغيره : «وَطَلْعٍ» فقيل لعليّ : إنَّما هو : «وطَلْحٍ» فقال : ما للطلح والجنة ؟ ! قيل له : أَنُصْلِحُهَا في المصحف ؟ فقال : إنَّ المصحفَ اليومَ لا يُهَاجُ ولا يُغَيَّرُ .

وقال عليٌّ أيضاً وابن عباس : الطلح الموز ، والظل الممدود : معناه : الذي لا تنسخه شمس ، وتفسير ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : " إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجْرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الجَوَاد المُضَمَّرَ في ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ لاَ يَقْطَعُها " ، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ ، إلى غير هذا من الأحاديث في هذا المعنى .

* ت * : وفي «صحيحي البخاريّ ومسلم» عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجْرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ لاَ يَقْطَعُهَا ، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ

مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَوْ تَغْرُبُ " انتهى .

﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ أي : جارٍ في غير أُخْدُودٍ .

(188/743)

﴿ لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ أي : لا مقطوعة بالأزمان كحال فاكهة الدنيا ، ولا ممنوعةٌ بوجه من الوجوه التي تمتنع بها فاكهةُ الدنيا ، والفُرُشُ : الأَسِرَّةُ ؛ وعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ : إِنَّ فِي ارْتِفَاعِ السَّرِيرِ مِنْهَا مَسِيرَةَ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ .

* ت * : وهذا إنْ ثبت فلا بُعْدَ فيه ، إذْ أحوال الآخرة كلها خَرْقُ عادة ، وقال أبو عبيدةَ وغيره : أراد بالفرش النساء ، و ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ معناه : في الأقدار والمنازل ، و ﴿ أنشأناهن ﴾ معناه : خلقناهن شيئاً بَعْدَ شيء ؛ وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم في تفسير هذه الآية : " هُنَّ عَجائِزُكُنَّ فِي الدُّنْيَا عُمْشاً رُمْصاً جَعَلَهُنَّ اللَّهُ بَعْدَ الْكِبَرِ أَتْرَاباً " ، وَقَالَ لِلْعَجُوزِ : " إِنَّ الْجَنَّةَ لاَ يَدْخُلُهَا الْعَجُوزُ ، فَحَزِنَتْ ، فَقَالَ : إِنَّكِ إِذَا [دَخَلْتِ الْجَنَّةَ أُنْشِئْتِ خَلْقاً آخَرَ " . وقوله سبحانه : ﴿ فجعلناهن أبكارا ﴾ قيل : معناه : دائمة البكارة ، متى عاود الوطء] وجدها بكراً ، والعُرُبُ : جمع عَرُوبٍ ، وهي المُتَحَبِّبَةُ إلى زوجها بإظهار محبته ؛ قاله ابن عباس ، وعبر عنهنَّ ابن عباس أيضاً بالعواشق ، وقال زيد

: العروب : الحسنة الكلام .

* ت * : قال البخاريُّ : والعروب يسميها أَهْلُ مَكَّةَ العَرِبَةَ ، وأهل المدينة : الغَنِجَة ، وأَهل العراق : الشَّكِلَة ، انتهى .

وقوله : ﴿ أَتْرَاباً ﴾ معناه : في الشكل والقَدِّ ، قال قتادة : ﴿ أَتْرَاباً ﴾ يعني : سِنًّا واحدة ، ويُرْوَى أَنَّ أَهل الجنة هم على قَدِّ ابن أربعة عَشَرَ عاماً في الشباب ، والنُّضْرَة ، وقيل : على مثال أبناء ثلاثٍ وثلاثين سنةً ، مُرْداً بيضاً ، مُكَحَّلِينَ ، زاد الثعلبيُّ : على خَلْقِ آدَم ، طولُه ستون ذراعاً في سبعة أذرع .

(189/743)

وقوله سبحانه : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَثُلَّةٌ مِّنَ الأخرين ﴾ قال الحسن بن أبي الحسن وغيره : الأولون سالف الأُمَمِ ، منهم جماعةٌ عظيمة أصحابُ يمين ، والآخِرُونَ : هذه الأُمَّةُ ، منهم جماعة عظيمة أهلُ يمين ، قال * ع * : بل جميعهم إلاَّ مَنْ كان مِنَ السابقين ، وقال قوم من المتأولين : هاتان الفرقتان في أُمَّةِ محمد ، ورَوَى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّه قال : " الثُّلَّتَانِ مِنْ أُمَّتِي " ، وروى ابن المبارك في «رقائقه» عن النَّبِيِّ صلى الله عليه

وسلم أَنَّهُ قال : " إِنَّ أُمَّتِي ثُلُثَا أَهْلِ الجَنَّةِ ، وَالنَّاسُ يَوْمَئِذٍ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ ، وَإِنَّ أُمَّتِي مِنْ ذَلِكَ ثَمَانُونَ صَفًّا " انتهى . انتهى . اهـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(190/743)

وقال أبو السعود :

وقولُه تعالَى : ﴿ وأصحاب اليمين ﴾

شروعٌ في تفصيل ما أُجمل عند التقسيمِ من شؤونِهم الفاضلةِ إثرَ تفصيلِ شؤونِ السابقينَ وهو مبتدأٌ وقولُه تعالى : ﴿ مَا أصحاب اليمين ﴾ جملةٌ استفهاميةٌ مسوقةٌ لتفخيمِهم والتعجيبِ من حالِهم وقد عرفتَ كيفيةَ سبكِها ، محلُّها إما الرفعُ على أنَّها خبرٌ للمبتدأِ أو معترضةٌ لا محلَّ لها . والخبرُ قولُه تعالى : ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ وهو على الأولِ خبرٌ ثانٍ للمبتدأِ أو خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ ، والجملةُ استئنافٌ لبيانِ ما أُبهمَ في قولِه تعالى : ﴿ مَا أصحاب اليمين ﴾ من علوِّ الشأنِ أي هم في سدرٍ غيرِ ذي شوكٍ لا كسِدْرِ الدُّنيا وهو شجرُ النبقِ كأنَّه خُضِّدَ شوكُه أي قطعَ وقيل : مخضودٌ أي مثنيٌّ أغصانُه لكثرةِ حملِه من خضَدَ الغصنُ إذا ثناهُ وهو رطبٌ ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ قد نُضِّد حملُه من أسفلِه إلى أعلاهُ ليستْ له ساقٌ بارزةٌ وهو شجرُ الموزِ أو أمُّ غيلانَ وله أنوارٌ كثيرةٌ منتظمةٌ طيبةُ الرائحةِ

وعن السُّدّيِّ : شجرٌ يُشبهُ طلحَ الدُّنيا ولكنْ له ثمرٌ أَحْلى من العسلِ . وعن عليَ رضيَ الله عنهُ أنه قرأَ وطلعٍ وما شأنُ الطلحِ وقرأَ قولَه تعالى : ﴿ لها طلعٌ نضيدٌ ﴾ فقيلَ أَوَ نُحوّلُها قال : آيْ القرآنِ لا تُهاجُ ولا تحولُ وعن ابنِ عباسٍ نحوُه .

(191/743)

﴿ وَظِلّ مَّمْدُودٍ ﴾ ممتدَ منبسطٍ لا يتقلصُ ولا يتفاوتُ كظلِّ ما بينَ طلوعِ الفجرِ وطلوعِ الشمسِ ﴿ وَمَاء مَّسْكُوبٍ ﴾ يُسكبُ لهُم أينما شاءُوا وكيفَما أرادُوا بلا تعبٍ أو مصبوبٍ سائلٍ يجري على الأرضِ في غيرِ أخدودٍ ، كأَنَّه مثّلِ حالَ السابقينَ بأقصى ما يتصورُ لأهلِ المدنِ وحالَ أصحابِ اليمينِ بأكملِ ما يتصورُ لأهلِ البوادِي إيذاناً بالتفاوتِ بينَ الحالينِ ﴿ وفاكهة كَثِيرَةٍ ﴾ بحسبِ الأنواعِ والأجناسِ ﴿ لاَّ مَقْطُوعَةٍ ﴾ في وقتٍ من الأوقاتِ كفواكهِ الدُّنيا ﴿ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ عن مُتناوِليها بوجهٍ من الوجوهِ لا يُحظر عليها كما يُحظر على بساتينِ الدُّنيا . وقُرِئَ فاكهةٌ كثيرةٌ بالرَّفعِ عَلى وهُناكَ فاكهةٌ الخ . كقولِه تعالى وحورٌ عينٌ . ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أي رفيعةِ القدرِ أو منضدةٍ مرتفعةٍ أو مرفوعةٍ على الأسرّة وقيل الفرشُ النساءُ حيثُ يُكْنَى بالفراشِ عن المرأةِ وارتفاعُها كونُهنَّ على الأرائكِ . قالَ تعالَى : ﴿ هُمْ وأزواجهم فِى ظلال عَلَى الأرائك مُتَّكِئُونَ ﴾ ويدلُّ عليهِ

قولُه تعالى : ﴿ إِنَّا أنشأناهن إنشَاء ﴾ وعلى التفسيرِ الأولِ أضمر لهنُ لدلالةِ ذكرِ الفُرشِ التي هي المضاجعُ عليهن دلالةً بينةً والمعنى ابتدأنَا خلقهنَّ ابتداءً جديداً أو أبدعناهنَّ من غيرِ ولادٍ إبداءً أو إعادةً وفي الحديثِ : هُنَّ اللواتِي قُبضن في دارِ الدنيا عجائزَ شُمطاً رُمْصاً جعلهنَّ الله تعالَى بعدَ الكبرِ أتراباً على ميلادٍ واحدٍ في الاستواءِ كلما أتاهنَّ أزواجُهنَّ وجدوهنَّ أبكاراً . وذلكَ قولُه تعالى : ﴿ فجعلناهن أبكارا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ عُرُباً ﴾ جمعُ عروبٍ وهي المتحببةُ إلى زوجِها الحسنةُ التبعلِ . وقُرِىءَ عُرْباً بسكونِ الراءِ ﴿ أَتْرَاباً ﴾ مستوياتٍ في السنِّ بناتِ ثلاثٍ وثلاثين سنةً وكذا أزواجُهنَّ واللامُ في قولِه تعالى : ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ متعلقةٌ بأنشأنَا أو جعلنَا أو

(192/743)

بأتراباً كقولِك هَذا تِربٌ لهَذا أي مساوٍ له في السنِّ وقيل : بمحذوفٍ هو صفةٌ لأبكاراً أي كائناتٍ لأصحابِ اليمينِ أو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ أي هُنَّ لأصحابِ اليمينِ وقيل : خبرٌ لقولِه تعالى :

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَثُلَّةٌ مِّنَ الأخرين ﴾ وهو بعيد بل هو خبر مبتدأ محذوف ختمت به قصة أصحاب اليمين أي هم أمة من الأولين وأمة من الآخرين وقد مرّ الكلام فيهما ، وعن

أبي العالية ومجاهد وعطاء والضحاك ثلةٌ من الأولينَ أي من سابِقي هذه الأمةِ وثلةٌ من الآخرينَ من هذه الأمةِ في آخرِ الزمانِ . وعن سعيدِ بن جُبيرٍ عن ابن عباسٍ رضيَ الله عنهُمَا في هذه الآيةِ قال : قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " هم جَميعاً منْ أمَّتِي " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(193/743)

وقال الآلوسى :

﴿ وأصحاب اليمين ﴾ الخ

شروع في بيان تفاصيل شؤونهم بعد بيان تفاصيل شؤون السابقين ﴿ وأصحاب ﴾ مبتدأ وقوله : ﴿ مَا أصحاب اليمين ﴾ جملة استفهامية مشعرة بتفخيمهم والتعجيب من حالهم وهي على ما قالوا : إما خبر للمبتدأ ، وقوله سبحانه :

﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ خبر ثان له ، أو خبر لمبتدأ محذوف أي هم في سدر ، والجملة استئناف لبيان ما أبهم في قوله عز وجل : ﴿ مَا أصحاب اليمين ﴾ من علو الشأن ، وإما معترضة والخبر هو قوله تعالى شأنه : ﴿ فِى سِدْرٍ ﴾ وجوز أن تكون تلك الجملة في موضع الصفة والخبر هو هذا الجار والمجرور ، والجملة عطف على قوله تبارك وتعالى في

شرح أحوال السابقين : ﴿ أُوْلَئِكَ المقربون فِي جنات النعيم ﴾ [الواقعة : 11 ، 12] أي ﴿ وأصحاب اليمين ﴾ المقول فيهم ﴿ مَا أصحاب اليمين ﴾ كائنون ﴿ فِى سِدْرٍ ﴾ الخ ، والظاهر أن التعبير بالميمنة فيما مر ، وباليمين هنا للتفنن وكذا يقال في المشأمة والشمال فيما بعد ، وقال الإمام : الحكم في ذلك أن في الميمنة وكذا المشأمة دلالة على الموضع والمكان والازواج الثلاثة في أول الأمر يتيمز بعضهم عن بعض ويتفرقون بالمكان فلذا جيء أولا بلفظ يدل على المكان وفيما بعد يكون التميز والتفرق بأمر فيهم فلذا لم يؤت بذلك اللفظ ثانياً ، والسدر شجر النبق ، والمخضود الذي خضد أي قطع شوكه ، أخرج الحاكم وصححه .

(194/743)

والبيهقي عن أبي أمامة قال : "كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون إن الله تعالى ينفعنا بالأعراب ومسائلهم أقبل أعرابي يوماً فقال : يا رسول الله لقد ذكر الله تعالى في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها قال : وما هي ؟ قال : السدر فإن له شوكا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أليس الله يقول : ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة وأن الثمرة من ثمره تفتق

عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر " .

وأخرج عبد بن حميد عن بن عباس .

وقتادة .

وعكرمة .

والضحاك أنه الموقر حملا على أنه من خضد الغصن إذا ثناه وهو رطب فمخضود مثنى الأغصان كني به عن كثير الحمل .

وقد أخرج ابن المنذر عن يزيد الرقاشي أن النبقة أعظم من القلال والظرفية مجازية للمبالغة في تمكنهم من التنعم والانتفاع بما ذكر .

﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ قد نضد حمله من أسفله إلى أعلاه ليست له ساق بارزة وهو شجر الموز كما أخرج ذلك عبد الرزاق .

وهناد .

وعبد بن حميد .

ابن جرير .

وابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه ، وأخرجه جماعة من طرق عن ابن عباس

ورواه ابن المنذر عن أبي هريرة ، وأبي سعيد الخدري .

وعبد بن حميد عن الحسن ، ومجاهد .

وقتادة ، وعن الحسن أنه قال : ليس بالموز ولكنه شجر طله بارد رطب ، وقال السدى : شجر يشبه طلح الدنيا ولكن له ثمر أحلى من العسل ، وقيل : هو شجر من عظام العضاه ، وقيل : شجر أم غيلان وله نوار كثير طيب الرائحة .

﴿ وَظِلّ مَّمْدُودٍ ﴾ ممتد منبسط لا يتقلص ولا يتفاوت كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ، وظاهر الآثار يقتضي أنه ظل الأشجار .

أخرج أحمد .

والبخاري .

ومسلم .

والترمذي .

وابن ماجه .

وغيرهم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها اقرؤوا إن شئتم ﴿ وَظِلّ مَّمْدُودٍ " وأخرج أحمد .

والبخاري .

ومسلم .

والترمذي .

وابن مردويه .

عن أبي سعيد قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها وذلك الظل الممدود " .

وأخرج ابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : الظل الممدود شجرة في الجنة على ساق ظلها قدر ما يسير الراكب في كل نواحيها مائة عام يخرج إليها أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون في ظلها فيشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا فيرسل الله تعالى ريحا من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا ؛ وعن مجاهد أنه قال : هذا الظل من سدرها وطلحها ، وأخرج عبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن المنذر عن عمرو بن ميمون أنه قال : الظل الممدود مسيرة سبعين ألف سنة .

﴿ وَمَاء مَّسْكُوبٍ ﴾ قال سفيان وغيره : جار من غير أخاديد ، وقيل : منساب حيث شاؤوا لا يحتاجون فيه إلى سانية ولا رشاء وذكر هذه الأشياء لما أن كثيراً من المؤمنين لبداوتهم تمنوها ، أخرج عبد بن حميد .

وابن جرير .

والبيهقي عن مجاهد قال : كانوا يعجبون بوج وظلاله من طلحة وسدره فأنزل الله تعالى : ﴿ وأصحاب اليمين مَا أصحاب اليمين فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ [الواقعة : 72 ، 82] الخ ، وفي رواية عن الضحاك "نظر المسلمون إلى وج فأعجبهم سدره وقالوا : يا ليت لنا مثل هذا فنزلت هذه الآية" .

(196/743)

وقيل : كأنه لما شبه حال السابقين بأقصى ما يتصور لأهل المدن من كونهم على سرر تطوف عليهم خدامهم بأنواع الملاذ شبه حال أصحاب اليمين بأكمل ما يتصور لأهل البوادي من نزولهم في أماكن مخصبة فيها مياه وأشجار وظلال إيذاناً بأن التفاوت بين الفريقين كالتفاوت بين أهل المدن والبوادي ، وذكر الإمام مدعياً أنه مما وفق له أن قوله تعالى : ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ [الواقعة : 28 ، 29] من باب قوله سبحانه : ﴿ رَّبُّ المشرق والمغرب ﴾ [الشعراء : 28] لأن السدر أوراقه في غاية الصغر والصلح يعني الموز أوراقه في غاية الكبر فوقعت الأشارة إلى الطرفين فيراد جميع الأشجار لأنها نظراً إلى أوراقها محصورة بينهما وهو مما لا بأس به ، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه ، وجعفر بن

محمد .

وعبد الله رضي الله تعالى عنهم وطلع بالعين بدل ﴿ وَطَلْحٍ ﴾ بالحاء ، وأخرج ابن الأنباري في المصاحف .

وابن جرير عن قيس بن عباد قال : قرأت على علي كرم الله تعالى وجهه ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ فقال : ما بال الطلح ؟ أما تقرأ وطلع ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [ق : 10] فقيل له : يا أمير المؤمنين أنحكها من المصحف ؟ فقال : لا يهاج القرآن اليوم وهي رواية غير صحيحة كما نبه على ذلك الطيبي ، وكيف يقرأ أمير المؤمنين كرم الله تعالى وجهه تحريفاً في كتاب الله تعالى المتداول بين الناس ، أو كيف يظنّ بأن نقلة القرآن ورواته وكتابه من قبل تعمدوا ذلك أو غفلوا عنه ؟ هذا والله تعالى قد تكفل بحفظه سبحانك هذا بهتان عظيم .

(197/743)

ثم إن الذي يقتضيه النظم الجليل كما قال الطيبي : حمل ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ [الواقعة : 28] الخ على معنى التظليل ، وتكاثف الأشجار على سبيل الترقي لأن الفواكه مستغنى عنها بما بعد وليقابل قوله تعالى : ﴿ وأصحاب الشمال مَا أصحاب الشمال فِى

سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ [الواقعة : 41 43] قوله سبحانه : ﴿ وأصحاب اليمين ﴾ الخ فاذن لا مدخل لحديث الطلع في معنى الظل وما يتصل به لكن قال صاحب الكشف : إن وصف الطلح بكونه منضوداً لا يظهر له كثير ملاءمة لكون المقصود منفعة التظليل وينبغي أن يحمل الطلح على أنه من عظام العضاه على ما ذكره في الصحاح فشجر أم غيلان والموز لا ظل لهما يعتد به ، ثم قال : ولو حمل الطلح على المشموم لكن وجهاً انتهى ، وقد قدمنا لك خبر سبب النزول فلا تغفل .

﴿ وفاكهة كَثِيرَةٌ ﴾ أي بحسب الأنواع والأجناس على ما يقتضيه المقام .

﴿ لاَّ مَقْطُوعَةٍ ﴾ في وقت من الأوقات كفواكه الدنيا ﴿ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ عمن يريد تناولها بوجه من الوجوه ولا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا ، وقرىء ﴿ وفاكهة كَثِيرَةٍ لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ بالرفع في الجميع على تقدير وهناك ﴿ فاكهة ﴾ الخ .

﴿ وَفُرُشٍ ﴾ جمع فراش كسراج وسرج ، وقرأ أبو حيوة بسكون الراء ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ منضدة مرتفعة أو مرفوعة على الأسرة فالرفع حسي كما هو الظاهر ، وققد أخرج أحمد .

والترمذي وحسنه .

والنسائي .

وجماعة عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام ولا تستبعد ذلك من حيث العروج

والنزول ونحوهما فالعالم عالم آخر وراء طور عقلك .

وأخرج هناد عن الحسن أن ارتفاعها مسيرة ثمانين سنة وليس بمثابة الخبر السابق ، وقال بعضهم : أي رفيعة القدر على أن رفعها معنوي بمعنى شرفها وأياً مّا كان فالمراد بالفرش ما يفرش للجلوس عليها .

(198/743)

وقال أبو عبيدة : المراد بها النساء لأن المرأة يكنى عنها بالفراش كما يكنى عنها باللباس ورفعهن في الأقدار والمنازل .

وقيل : على الأرائك وأيد إرادة النساء بقوله تعالى :

﴿ إِنَّا أنشأناهن إِنشَاء ﴾ لأن الضمير في الأغلب يعود على مذكور متقدم وليس إلا الفرش ولا يناسب العود إليه إلا بهذا المعنى والاستخدام بعيد هنا ، وعلى القول في الفرش الضمير للنساء وإن لم يجر لها ذكر لتقدم ما يدل عليها فهو تتميم بياناً لمقدر يدل عليه السياق كأنه قيل وفرش مرفوعة ونساء أو وحور عين ، ثم استؤنف وصفهن بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا أنشأناهن ﴾ تتميماً للبيان زيادة للترغيب لا لتعليل الرفع ، وقيل : إن المرجع مضمر وتقدير المنزل وفرش مرفوعة لأزواجهم أو لنسائهم فإنا الخ استئناف علة للرفع أي وفرش مرفوعة

لأزواجهم لأنا أنشأناهن ، والأول أوفق لبلاغة القرآن العظيم ، والمراد بأنشأناهن أعدنا إنشاءهن من غير ولادة لأن المخبر عنهن بذلك نساء كن في الدنيا .

فقد أخرج ابن جرير .

وعبد بن حميد .

والترمذي .

وآخرون عن أنس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : في الآية إن المنشآت اللاتي كن في الدنيا عجائز عمشاً رمصاً " وأخرج الطبراني .

وابن أبي حاتم .

وجماعة عن سلمة بن مرتد الجعفي قال : " سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أنشأناهن ﴾ الثيب والابكار اللاتي كن في الدنيا " وأخرج الترمذي في الشمائل .

وابن المنذر .

وغيرهما عن الحسن قال : " أتت عجوز فقالت : يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة فقال : يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز فولت تبكي قال : أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا أنشأناهن ﴾ " الخ ، وقال أبو حيان : الظاهر أن

الإنشاء هو الاختراع الذي لم يسبق بخلق ويكون ذلك مخصوصاً بالحور العين فالمعنى إنا ابتدأناهن ابتداءاً جديداً من غير ولادة ولا خلق أول .

(199/743)

﴿ فجعلناهن أبكارا ﴾ تفسير لما تقدم ، والجعل إما بمعنى التصيير ، و﴿ أبكارا ﴾ مفعول ثان ، أو بمعنى الخلق و﴿ أبكارا ﴾ حال أو مفعول ثان ، والكلام من قبيل ضيق فم الركية ، وفي الحديث " إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً " أخرجه الطبراني في الصغير .

والبزار عن أبي سعيد مرفوعاً .

﴿ عُرُباً ﴾ متحببات إلى أزواجهن جمع عروب كصبور وصبر ، وروي هذا عن جماعة من السلف وفسرها جماعة أخرى بغنجات ، ولا يخفى أن الغنج ألطف أسباب التحبب ، وعن زيد بن أسلم العروب الحسنة الكلام ، وفي رواية عن ابن عباس .

والحسن .

وابن جبير .

ومجاهد هن العواشق لأزواجهن ، ومنه على ما قيل قول لبيد

: وفي الخدور (عروب غير فاحشة) . . .

ريا الروادف يعشى دونها البصر

وفي رواية أخرى عن مجاهد أنهن الغلمات اللاتي يشتهين أزواجهن ، وأخرج ابن عدي بسند ضعيف عن أنس مرفوعا خير نسائكم العفيفة الغلمة وقال اسحق بن عبد الله بن الحرث النوافلي : العروب الخفرة المتبذلة لزوجها ، وأنشد

: (يعرين عند بعولهن) إذا خلوا . . .

وإذا (هم خرجوا فهن خفار)

ويرجع هذا إلى التحبب ، وأخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ عُرُباً ﴾ كلامهن عربي ، ولا أظن لهذا صحة ؛ والتفسير بالمتحببات هو الذي عليه الأكثر .

وقرأ حمزة .

وجماعة منها عباس .

والأصمعي عن أبي عمرو ، وأخرى منها خارجة .

وكردم عن نافع ، وأخرى منها حماد .

وأبو بكر .

وأبان عن عاصم ﴿ عُرُباً ﴾ بسكون الراء وهي لغة تميم ، وقال غير واحد : هي

للتغفيف كما في عنق وعنق ﴿ أَتْرَاباً ﴾ مستويات في سن واحد كما قال أنس .

وابن عباس .

ومجاهد .

والحسن .

وعكرمة .

وقتادة .

وغيرهم كأنهن شبهن في التساوي بالترائب التي هي ضلوع الصدر .

أو كأنهن وقعن معاً على التراب أي الأرض وهو بنات ثلاث وثلاثين سنة وكذا أزواجهن .

(200/743)

وأخرج الترمذي عن معاذ مرفوعاً " يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاثين ، أو ثلاث وثلاثين " والمراد بذلك كمال الشباب ، وقوله تعالى :

لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (38)

متعلق بأنشانا أو بجعلنا ، وقيل : متعلق بأترابا كقولك فلان ترب لفلان أي مساولة فهو محتاج إلى التأويل ، وتعقب بأنه مع هذا ليس فيه كثير فائدة وفيه نظر ، وقيل : بمحذوف هو

صفة لأبكاراً أي كائنات لأصحاب اليمين ، وفيه إقامة الظاهر مقام الضمير لطول العهد أو للتأكيد والتحقيق ، وقوله تعالى :

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (39) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (40)

خبر مبتدأ محذوف أي هم ثلة ، أو خبر ثان لهم المقدر مبتدأ مع ﴿ فِى سِدْرٍ ﴾ [الواقعة : 28] أو ﴿ لاصحاب اليمين ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وأصحاب اليمين مَا أصحاب اليمين ﴾ [الواقعة : 17] أو مبتدأ خبره محذوف أي منهم ، أو مبتدأ خبره الجار والمجرور قبله احتمالات اعترض الأخير منها بأن المعنى عليه غير ظاهر ولا طلاوة فيه ، وجعل اللام بمعنى من كما في قوله

: ونحن لكم يوم القيامة أفضل . . .

لا يخفى حاله والأولون والآخرون المتقدمون والمتأخرون إما من الأمم وهذه الأمة ، أو من هذه الأمة فقط على ما سمعت فيما تقدم ، هذا ولم يقل سبحانه في حق أصحاب اليمين جزاءاً بما كانوا يعملون كما قاله عز وجل في حق السابقين رمزاً إلى أن الفضل في حقهم متمحض كأن عملهم لقصوره من عمل السابقين لم يعتبر اعتباره .

ثم الظاهر أن ما ذكر من حال أصحاب اليمين هو حالهم الذي ينتهون إليه فلا ينافي أن يكون منهم من يعذب لمعاص فعلها ومات غير تائب عنها ثم يدخل الجنة ، ولا يمكن أن يقال : إن المؤمن العاصي من أصحاب الشمال لأن صريح أوصافهم الآتية يقتضي أنهم كانوا كافرين

ويلزم من جعل هذا قسما على حدة كون القسمة غير مستوفاة فليتأمل ، والله تعالى أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(201/743)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (27) ﴾

عود إلى نشر ما وقع لفُّه في قوله : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ [الواقعة : 7] كما تقدم عند قوله : ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴾ [الواقعة : 8] .

وعبر عنهم هنا بـ ﴿ أصحاب اليمين ﴾ وهنالك بـ ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ للتفنن .

فجملة ﴿ وأصحاب اليمين ﴾ عطف على جملة ﴿ أولئك المقربون ﴾ [الواقعة : 8] عطف القصة على القصة .

وجملة ﴿ ما أصحاب اليمين ﴾ خبر عن ﴿ أصحاب اليمين ﴾ بإبهام يفيد التنويه بهم كما تقدم في قوله : ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴾ [الواقعة : 8] .

وأتبع هذا الإِبهام بما يبين بعضه بقوله : ﴿ في سدر مخضود ﴾ الخ .

والسدر : شجر من شجر العِضاه ذو ورق عريض مدوَّر وهو صنفان : عُبْرِي بضم العين

وسكون الموحدة وياء نسب نسبة إلى العِبر بكسر العين وسكون الموحدة على غير قياس وهو عِبر النهي ، أي ضفته ، له شوك ضعيف في غصونه لا يضير .

والصنف الثاني الضَّالُ (بضاد ساقطة ولام مخففة) وهو ذُو شوك .

وأجود السدر الذي ينبت على الماء وهو يشبه شجر العُناب ، وورقه كورق العناب وورقه يجعل غسولاً ينظف به ، يخرج مع الماء رغوة كالصابون .

وثمر هذا الصنف هو النبق بفتح النون وكسر الموحدة وقاف يشبه ثمر العناب إلا أنه أصفر مُزّ (بالزاي) يفوح الفم ويفوح الثياب ويتفكه به ، وأما الضال وهو السدر البري الذي لا ينبت على الماء فلا يصلح ورقه للغسول وثمره عَفِصٌ لا يسوغ في الحلق ولا ينتفع به ويخبِط الرعاةُ ورقه للراعية ، وأجود ثمر السدر ثمر سدر هَجَر أشد نَبِق حلاوة وأطيبه رائحة .

(202/743)

ولما كان السدر من شجر البادية وكان محبوباً للعرب ولم يكونوا مستطيعين أن يجعلوا منه في جناتهم وحوائطهم لأنه لا يعيش إلا في البادية فلا ينبت في جناتهم خص بالذكر من بين شجر الجنة إغراباً به وبمحاسنه التي كان محروماً منها من لا يسكن البوادي وبوفرة ظله وتهدل أغصانه ونكهة ثمره .

ووصف بالمخضود ، أي المزال شوكه فقد كملت محاسنه بانتفاء ما فيه من أذًى .

والطلح : شجر من شجر العضاه واحدهُ طلحة ، وهو من شجر الحجاز ينبت في بطون الأودية ، شديد الطُّول ، غليظ الساق .

من أصلب شجر العِضاه عُوداً ، وأغصانه طوال عظام شديدة الارتفاع في الجو ولها شوك كثير قليلةُ الورق شديدة الخُضرة كثيرة الظل من التفاف أغصانها ، وصمغها جيّد وشوكها أقل الشوك أذًى ، ولها نَور طيب الرائحة ، وتسمى هذه الشجرة أمّ غَيلان ، وتسمى في صفاقس غيلان وفي أحواز تونس تسمى مِسْكَ صَنادِق .

والمنضود : المتراصّ المتراكب بالأغصان ليست له سوق بارزة ، أو المنضد بالحمل ، أي النُوَّار فتكثر رائحته .

وعلى ظاهر هذا اللفظ يكون القول في البشارة لأصحاب اليمين بالطلح على نحو ما قرر في قوله : ﴿ في سدر مخضود ﴾ ويعتاض عن نعمة نكهة ثمر السدر بنعمة عَرْف نَوْر الطلح .

وفُسر الطلح بشجر الموز روي ذلك عن ابن عباس وابن كثير ، ونسب إلى علي بن أبي طالب .

والامتنان به على هذا التفسير امتنان بثمره لأنه ثمر طيب لذيذ ولشجره من حسن المنظر ، ولم يكن شائعاً في بلاد العرب لاحتياجه إلى كثرة الماء .

والظل الممدود : الذي لا يتقلص كظل الدنيا ، وهو ظل حاصل من التفاف أشجار الجنة

وكثرة أوراقها .

وسَكْب الماء : صبّه ، وأطلق هنا على جريه بقوة يشبه السّكْب وهو ماء أنهار الجنة .

والفاكهة : تقدمت آنفاً .

ووصفت بـ ﴿ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ وصفاً بانتفاء ضد المطلوب إذ المطلوب أنها دائمة مبذولة لهم .

(203/743)

والنفي هنا أوقع من الإثبات لأنه بمنزلة وصفٍ وتوكيده ، وهم لا يصفون بالنفي إلا مع التكرير بالعطف كقوله تعالى : ﴿ زيتونة لا شَرقيَّة ولا غربية ﴾ [النور : 35] .

وفي حديث أم زرع : "قالت المرأة الرابعة : زوجي كلَيلِ تهامة لاَ حَرّ ولا قُرٌّ ولا مَخافةٌ ولا سآمةٌ" .

ثم تارة يقصد به إثبات حالة وسطى بين حالي الوصفين المنفيين كما في قول أم زرع : "لا حَرّ ولا قَرّ" ، وفي آية : ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ [النور : 35] وهذا هو الغالب وتارة يقصد به نفي الحالين لإثبات ضديهما كما في قوله : ﴿ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ وقوله الآتي : ﴿ لا بارد ولا كريم ﴾ [الواقعة : 44] ، وقول المرأة الرابعة في حديث أمّ زرع :

"ولا مخافة ولا سآمة" .

وجمع بين الوصفين لأن فاكهة الدنيا لا تخلو من أحد ضدي هذين الوصفين فإن أصحابها يمنعونها فإن لم يمنعوها فإن لها إباناً تنقطع فيه .

والفُرُش : جمع فِراش بكسر الفاء وهو ما يفرش وتقدم في سورة الرحمن .

و﴿ مرفوعة ﴾ : وصف ل ﴿ فرش ﴾ ، أي مرفوعة على الأسرة ، أي ليست مفروشة في الأرض .

ويجوز أن يراد بالفُرُش الأسرّة من تسمية الشيء باسم ما يحل فيه .

إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (35)

لما جرى ذكر الفُرُش وهي مما يعد للاتكاء والاضطجاع وقت الراحة في المنزل يخطر بالبال بادىء ذي بدء مصاحبة الحُور العين معهم في تلك الفرش فيتشوف إلى وصفهن ، فكانت جملة : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاءً ﴾ بياناً لأن الخاطر بمنزلة السؤال عن صفات الرفيقات .

فضمير المؤنث من ﴿ أنشأناهن ﴾ عائد إلى غير مذكور في الكلام ولكنه ملحوظ في الأفهام كقول أبي تمام في طالع قصيدة:

هُنّ عوادي يوسفٍ وصواحبه . . .

ومنه قوله تعالى : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ [ص : 32] .

وهذا أحسن وجه في تفسير الآية ، فيكون لفظ ﴿ فرش ﴾ [الواقعة : 34] في الآية مستعملاً في معنييه ويكون ﴿ مرفوعة ﴾ [الواقعة : 34] مستعملاً في حقيقته ومجازه ، أي في الرفع الحسي والرفع المعنوي .

والإِنشاء : الخَلق والإِيجاد فيشمل إعادة ما كان موجوداً وعُدم ، فقد سمّى الله الإِعادة إنشاء في قوله تعالى : ﴿ ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ﴾ [العنكبوت : 20] فيدخل نساء المؤمنين اللاءِ كُنّ في الدنيا أزواجاً لمن صاروا إلى الجنة ويشمل إيجادَ نساء أُنُفاً يُخلقن في الجنة لنعيم أهلها .

وقوله : ﴿ فجعلناهن أبكاراً ﴾ شامل للصنفين .

والعُرُب : جمع عَروب بفتح العين ، ويقال : عَرِبه بفتح فكسر فيجمع على عَرِبات كذلك ، وهو اسم خاص بالمرأة .

وقد اختلفت أقوال أهل اللغة في تفسيره .

وأحسن ما يجمعها أن العَروب : المرأة المتحببة إلى الرجل ، أو التي لها كيفية المتحببة ، وإن لم تقصد التحبّب ، بأن تكثر الضحك بمرأى الرجل أو المزاحَ أو اللهو أو الخضوع في القول أو اللثغ في الكلام بدون علة أو التغزل في الرجل والمساهلة في مجالسته والتدلل وإظهار معاكسة أميال الرجل لعِباً لا جِدّاً وإظهار أذاه كذلك كالمغاضبة من غير غضب بل للتورك على

الرجل ، قال نبيه بن الحجاج:

تلك عريسي غضبى تريد زيالي . . .

أَلَبيْنٍ أردتتِ أم لدلال

الشاهد في قوله : أم لدلال ، قال تعالى : ﴿ فلا تَخْضَعْن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً ﴾ [الأحزاب : 32] ، وقال : ﴿ ولا يضربن بأرجلهن ليُعلم ما يُخفِين من زينتهن ﴾ [النور : 31] .

وإنما فسروها بالمتحببة لأنهم لما رأوا هاته الأعمال تجلب محبة الرجل للمرأة ظنوا أن المرأة تفعلها لاكتساب محبة الرجل .

ولذلك فسر بعضهم : العَروب بأنها المغتلمة ، وإنما تلك حالة من أحوال بعض العروب .

وعن عكرمة العروب : المِلقة .

(205/743)

والعروب : اسم لهذه المعاني مجتمعة أو مفترقة أجرَوْه مجرى الأسماء الدالة على الأوصاف دون المشتقة من الأفعال فلذلك لم يذكروا له فعلاً ولا مصدراً وهو في الأصل مأخوذ من الإِعراب والتعريب وهو التكلم بالكلام الفحش .

والعِرابة : بكسر العين : اسم من التعريب وفعله : عَرَّبت وأعربتْ ، فهو مما يسند إلى ضمير المرأة غالباً .

كأنهم اعتبروه إفصاحاً عما شأنه أن لا يفصح عنه ثم تنوسي هذا الأخذ فعومل العَروب معاملة الأسماء غير المشتقة ، ويقال : عَرِبَة .

مثل عروب .

وجمع العَروب عُرُب وجمع عَرِبة عَرِبات .

ويقال للعروب بلغة أهل مكة العَرِبة والشّكِلَةُ .

ويقال لها بلغة أهل المدينة : الغَنجَة .

وبلغة العراق : الشّكِلة ، أي ذات الشّكَل بفتح الكاف وهو الدلال والتعرُّبُ .

والأَتراب : جمع تِرْب بكسر المثناة الفوقية وسكون الراء وهي المرأة التي ساوى سنها سنّ من تضاف هي إليه من النساء ، وقد قيل : إن الترب خاص بالمرأة ، وأما المساوي في السن من الرجال فيقال له : قرن ولدة .

فالمعنى : أنهن جُعلن في سن متساوية لا تفاوت بينهن ، أي هن في سن الشباب المستوي فتكون محاسنهن غير متفاوتة في جميع جهات الحُسن ، وعلى هذا فنساء الجنة هن الموصوفات بأنهن "أتراب" بعضهن لبعض .

وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم وخلفُ ﴿ عرْبا ﴾ بسكون الراء سكون تخفيف وهو

ملتزم في لغة تميم في هذا اللفظ .

واللام في ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ يتنازعها ﴿ أنشأناهن ﴾ و ﴿ جعلناهن ﴾ لإفادة توكيد الاعتناء بأصحاب اليمين المستفاد من المقام من قوله : ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾ [الواقعة : 27] الآية .

(206/743)

واعلم أن ما أعطي لأصحاب اليمين ليس مخالفاً لأنواع ما أعطي للسابقين ولا أن ما أعطي للسابقين مخالف لما أعطي أصحاب اليمين فإن الظل والماء المسكوب وكون أزواجهم عُرباً أتراباً لم يذكر مثله للسابقين وهو ثابت لهم لا محالة إذ لا يَقْصرون عن أصحاب اليمين ، وكذلك ما ذكر للسابقين من الولدان وأكوابهم وأباريقهم ولحم الطير وكون أزواجهم حوراً عيناً وأنهم لا يسمعون إلا قيلاً سلاماً سلاماً ، لم يذكر مثله لأصحاب اليمين مع أن لأهل الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

وقد ذكر في آيات كثيرة أنهم أعطوا أشياء لم يذكر إعطاؤها لهم في هذه الآية مثل قوله : ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ [يونس : 10] ، فليس المقصود توزيع النعيم ولا قصره ولكن المقصود تعداده والتشويق إليه مع أنه قد علم أن السابقين أعلى مقاماً من أصحاب اليمين

بمقتضى السياق .

وقد أشار إلى تفاوت المقامين أنه ذكر في نعيم السابقين أنه جزاء بما كانوا يعملون للوجه الذي بيناه فيها ولم يذكر مثله في نعيم أصحاب اليمين وجُماع الغرض من ذلك التنويه بكلا الفريقين .

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (39) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (40)

أي أصحاب اليمين : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ ، والكلام فيه كالكلام في قوله : ﴿ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ [الواقعة : 13 ، 14] فاذكره .

وفي "تفسير القرطبي" عن أبي بكر الصديق : أن كلتا الثلتين من الأمة المحمدية ثلة من صدرها وثلة من بقيتها ولم ينبه على سند هذا النقل .

وإنما أخر هذا عن ذكر ما لهم من النعيم للإِشعار بأن عزة هذا الصنف وقلته دون عزة صنف السابقين ، فالسابقون أعز ، وهذه الدلالة من مستتبعات التراكيب المستفادة من ترتيب نظم الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(207/743)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا لأصحاب اليمين ﴾

(208/743)

أعاد الضمير إلى النساء ولم يجر لهن ذكر لان الفرش دلت عليهن اذ هي محلهن 155 - وقيل الفرش في قوله وفرش مرفوعة كناية عن النساء كما يكنى عنهن بالقوارير و الأزر وغيرها ولكن قوله مرفوعة يأبى هذا إلا أن يقال المراد رفعة القدر وقد تقدم تفسير النبي للفرش وارتفاعها فالصواب أنها الفرش نفسها ودلت على النساء لأنها محلهن غالبا قال قتادة وسعيد بن جبير خلقناهن خلقا جديدا وقال ابن عباس يريد نساء الآدميات وقال الكلبي ومقاتل يعني نساء أهل الدنيا العجز الشمط يقول تعالى خلقناهن بعد الكبر والهرم وبعد الخلق الأول في الدنيا ويؤيد هذا التفسير حديث انس المرفوع هن عجائزكم العمش الرمض رواه الثوري عن موسى بن عبيدة عن يزيد الرقاشي عنه ويؤيده ما رواه يحيى الحماني حدثنا ابن إدريس عن ليث عن مجاهد عن عائشة أن رسول دخل عليها وعندها عجوز فقال من هذه فقالت إحدى خالاتي قال إما انه لا يدخل الجنة العجوز فدخل على

العجوز من ذلك ما شاء الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم انا أنشأناهن إنشاء خلقا آخر يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلا واول من يكسى ابراهيم خليل الله ثم قرا النبي صلى الله عليه وسلم انا انشاناهن انشاء قال ادم بن ابي اياس حدثنا شيبان عن الزهري عن جابر الجعفي عن يزيد بن مرة عن سلمة بن يزيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في قوله انا أنشأناهن إنشاء قال يعني الثيب والأبكار اللاتي كن في الدنيا قال ادم وحدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة العجز فبكت عجوز فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اخبروها انها يومئذ ليست بعجوز انها يومئذ شابة ان الله عز وجل يقول انا أنشأناهن إنشاء وقال ابن ابي شيبة حدثنا احمد بن طارق حدثنا مسعدة بن اليسع حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سعيد ابن المسيب عن عائشة

(209/743)

أن النبي صلى الله عليه وسلم أتته عجوز من الأنصار فقالت يا رسول الله ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم إن الجنة لا يدخلها عجوز فذهب نبي الله صلى الله عليه وسلم فصلى ثم رجع إلى عائشة فقالت عائشة لقد لقيت من كلمتك مشقة

وشدة فقال صلى الله عليه وسلم أن ذلك كذلك إن الله تعالى إذا أدخلهن الجنة حولهن أبكارا وذكر مقاتل قولا آخر وهو اختيار الزجاج إنهن الحور العين التي ذكرهن قيل انشأهن الله عز

156 - وجل لأوليائهم لهم يقع عليهن ولادة والظاهر أن المراد أنشأهن الله تعالى في الجنة إنشاء ويدل عليه وجوه أحدها انه قد قال في حق السابقين يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب إلى قوله كأمثال اللؤلؤ المكنون فذكر سردهم و آنيتهم وشرابهم وفاكهتهم وطعامهم و أزواجهم والحور العين ثم ذكر أصحاب الميمنة وطعامهم وشرابهم وفراشهم ونساءهم والظاهر انهن مثل نساء من قبلهم خلقن في الجنة الثاني أنه سبحانه قال أنشأناهن إنشاء وهذا ظاهر انه إنشاء أول لا ثان لانه سبحانه حيث يريد الإنشاء الثاني يقيده بذلك كقوله وان عليه النشأة الأخرى وقوله ولقد علمتم النشأة الأولى الثالث إن الخطاب بقوله وكنتم أزواجا إلى آخر للذكور و الإناث و النشأة الثانية أيضا عامة للنوعين وقوله انا أنشأناهن إنشاء ظاهره اختصاصهن بهذا الإنشاء و تأمل تأكيده بالمصدر والحديث لا يدل على اختصاص العجائز المذكورات بهذا الوصف بل يدل على مشاركتهن للحور العين في هذه الصفات المذكورة فلا يتوهم انفراد الحور العين عنهن بما ذكر من الصفات بل هي احق به منهن فالانشاء واقع على الصنفين والله اعلم وقوله عربا جمع عروب وهن المتحببات إلى ازواجهن قال ابن الاعرابي العروب من النساء المطيعة لزوجها المتحببة اليه وقال ابو عبيدة

العروب الحسنة التبعل قلت يريد حسن مواقعها وملاطفتها لزوجها عند الجماع وقال المبرد هي العاشقة لزوجها وانشد للبيد

(210/743)

وفي الحدوج عروب غير فاحشة . . . ريا الروادف يعشي دونها البصر

وذكر لمفسرون في تفسير العرب انهن العواشق المتحببات الغنجات الشكلات المتعشقات الغلمات المغنوجات كل ذلك من الفاظهم وقال البخاري في صحيحه عربا مثقلة واحدها عروب مثل صبور وصبر وتسميها أهل مكة العربة وأهل المدينة الغنجة وأهل العراق الشكلة والعرب والمتحببات إلى ازواجهن هكذا ذكره في كتاب بدء الخلق وقال في كتاب التفسير في سورة الواقعة عربا مثقلة واحدها عروب مثل صبور وصبر تسميها أهل مكة العربة و أهل المدينة الغنجة وأهل العراق الشكلة قلت فجمع سبحانه بين حسن صورتها وحسن عشرتها وهذا غاية ما يطلب من النساء وبه تكمل لذة الرجل بهن وفي قوله لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان إعلام بكمال اللذة بهن فان لذة الرجل بالمرأة التي لم يطاها سواه 157 – لها فضل على لذته بغيرها وكذلك هي أيضا فصل

قال تعالى إن للمتقين مفازا حدائق و اعنابا وكواعب اترابا فالكواعب جمع كاعب وهي

الناهد قال قتادة ومجاهد والمفسرون قال الكلبي هن الفلكات اللواتي تكعب ثديهن و تفلكت واصل اللفظة من الاستدارة والمراد أن ثديهن نواهد كالرمان ليست متدلية إلى أسفل ويسمين نواهد وكواعب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حادى الأرواح صـ 225 . 228 ﴾

(211/743)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) ﴾

أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة الواقعة بمكة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن الضريس والحرث بن أبي أسامة وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً " .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " سورة الواقعة سورة الغنى فاقرأوها وعلموها أولادكم " .

وأخرج الديلمي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " علموا نساءكم سورة الواقعة فإنها سورة الغنى " .

وأخرج أبو عبيد عن سليمان التيمي قال : قالت عائشة للنساء : لا تعجز إحداكن أن تقرأ سورة الواقعة .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والطبراني في الأوسط عن جابر بن سمرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : " ألظ رسول الله صلى الله عليه وسلم الواقعة والحاقة وعم يتساءلون والنازعات وإذا الشمس كورت وإذا السماء انفطرت فاستطار فيه الفقر فقال له أبو بكر : قد أسرع فيك الفقر ، قال : شيبتني هود وصواحباتها هذه " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ قال : يوم القيامة ﴿ ليس لوقعتها

كاذبة ﴾ قال : ليس لها مرد يرد ﴿ خافضة رافعة ﴾ قال : تخفض ناساً وترفع آخرين .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ خافضة رافعة ﴾ قال : أسمعت القريب والبعيد .

(212/743)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عثمان بن سراقة عن خاله عمر بن الخطاب في قوله : ﴿ خافضة رافعة ﴾ قال : الساعة خفضت أعداء الله إلى النار ، ورفعت أولياء الله إلى الجنة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة عن محمد بن كعب في قوله : ﴿ خافضة رافعة ﴾ قال : تخفض رجالاً كانوا في الدنيا مرتفعين ، وترفع رجالاً كانوا في الدنيا منخفضين .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله : ﴿ خافضة رافعة ﴾ قال : خفضت المتكبرين ، ورفعت المتواضعين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله : ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ قال : نزلت ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ قال : مثنوية ﴿ خافضة رافعة ﴾ قال : خفضت قوماً في

عذاب الله ورفعت قوماً في كرامة الله ﴿ إذا رجت الأرض رجّاً ﴾ قال : زلزلت زلزلة ﴿ وبست الجبال بسّاً ﴾ قال : حتت حتّاً ﴿ فكانت هباء منبثاً ﴾ كيابس الشجر تذروه الرياح يميناً وشمالاً .

وأخرج ابن أبي شيبة عن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ خافضة رافعة ﴾ قال : من انخفض يومئذ لم يرتفع ابداً ، ومن ارتفع يومئذ لم ينخفض ابداً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ إذا رجت الأرض رجّاً ﴾ قال : زلزلت ﴿ وبست الجبال بسّاً ﴾ قال : فتت ﴿ فكانت هباء منبثاً ﴾ قال : كشعاع الشمس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ إذا رجت الأرض رجّاً ﴾ يقول : ترجف الأرض تزلزل ﴿ وبست الجبال بسّاً ﴾ يقول : فتت فتاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله : ﴿ إذا رجت الأرض رجّاً ﴾ قال : زلزلت ﴿ وبست الجبال بسّاً ﴾ قال : فتتت .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فكانت هباء منبثاً ﴾ قال : الهباء الذي يطير من النار إذا اضطرمت يطير منها الشرر فإذا وقع لم يكن شيئاً .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ فكانت هباء منبثاً ﴾ قال : الهباء يثور مع شعاع الشمس ، وانبثاثه تفرقه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال : الهباء المنبث رهج الذوات ، والهباء المنثور غبار الشمس الذي تراه في شعاع الكوّة .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك في قوله : ﴿ هباء منبثاً ﴾ قال : الغبار الذي يخرج من الكوة مع شعاع الشمس .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله : ﴿ هباء منبثاً ﴾ قال : الشعاع الذي يكون في الكوّة .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في قوله : ﴿ هباء منبثاً ﴾ قال : هو الذي تراه في الشمس إذا دخلت من الكوة إلى البيت .

وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (7) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ قال : أصنافاً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ قال : هي التي في سورة الملائكة ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ [فاطر : 32] .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ قال : هذا حين تزايلت بهم المنازل ، هم أصحاب اليمين وأصحاب الشمال والسابقون .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ قال : منازل الناس يوم القيامة ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴾ قال : ماذا لهم وماذا أعد لهم ﴿ وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ﴾ قال : ماذا لهم وماذا أعد لهم ﴿ والسابقون السابقون ﴾ قال : السابقون من كل أمة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير عن الحسن في قوله : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ إلى قوله : ﴿ وثلة من الآخرين ﴾ قال : سوى بين أصحاب اليمين من الأمم الماضية وبين أصحاب اليمين من هذه الأمة ، وكان السابقون من الأولين أكثر من سابقي هذه الأمة .

(214/743)

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ قال : يوشع بن نون سبق إلى موسى ومؤمن آل يس سبق إلى عيسى وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه سبق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " السابقون

يوم القيامة أربعة فأنا سابق العرب ، وسلمان سابق فارس ، وبلال سابق الحبشة ، وصهيب سابق الروم " .

وأخرج أبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ أول من يدخل المسجد وآخر من يخرج منه . "

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عثمان بن أبي سودة مولى عبادة بن الصامت قال : بلغنا في هذه الآية ﴿ والسابقون السابقون ﴾ أنهم السابقون إلى المساجد والخروج في سبيل الله .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ والسابقون السابقون ﴾ قال : من كل أمة .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة مثله .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ قال : نزلت في حزقيل مؤمن آل فرعون ، وحبيب النجار الذي ذكر في يس ، وعلي بن أبي طالب ، وكل رجل منهم سابق أمته ، وعليّ أفضلهم سبقاً .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ وإذا النفوس زوّجت ﴾ قال : الضرباء كل رجل مع قوم كانوا يعملون بعمله ، وذلك بأن الله تعالى يقول : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون ﴾ قال : هم

الضرباء " .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله : ﴿ ثلة ﴾ قال : أمة .

(215/743)

وأخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : لما نزلت ﴿ ثلة من الأوّلين وقليل من الآخرين ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ثلث أهل الجنة بل أنتم نصف أهل الجنة أو شطر أهل الجنة وتقاسمونهم الشطر الثاني " .

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر من طريق عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله قال : " لما نزلت ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ ذكر فيها ﴿ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ قال عمر : يا رسول الله : ﴿ ثلة من الأوّلين وثلة من الآخرين ﴾ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عمر تعالى فاستمع ما قد أنزل الله ﴿ ثلة من الأوّلين وثلة من الآخرين ﴾ ألا وإن من آدم إليّ ثلة ، وأمتي ثلة ولن نستكمل ثلثنا حتى نستعين بالسودان من رعاة الإبل ممن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له " وأخرجه ابن أبي حاتم من وجه آخر عن عروة

بن رويم مرسلاً .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : لما نزلت ﴿ ثلة من الأوّلين وقليل من الآخرين ﴾ حزن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : إذاً لا يكون من أمة محمد إلا قليل ، فنزلت نصف النهار ﴿ ثلة من الأوّلين وثلة من الآخرين ﴾ وتقابلون الناس ، فنسخت الآية ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ ثلة من الأوّلين ﴾ قال : ممن سبق ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ قال : من هذه الأمة .

أخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي في البعث والنشور عن ابن عباس في قوله : ﴿ على سرر موضونة ﴾ قال : مصفوفة .

وأخرج سعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله : ﴿ على سرر موضونة ﴾ قال : مرمولة بالذهب .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ موضونة ﴾ قال : مرمولة بالذهب .

وأخرج هناد عن سعيد بن جبير مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : الموضونة المرملة وهو أوثق الأسِرّة .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل : ﴿ على سرر موضونة ﴾ قال : الموضونة ما توضن بقضبان الفضة عليها سبعون فراشاً ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت حسان بن ثابت وهو يقول :

أعددت للهيجاء موضونة . . . فضفاضة بالنهي بالباقع

وأخرج ابن جرير عن مجاهد ﴿ متكئين عليها متقابلين ﴾ قال : لا ينظر أحدهم في قفا صاحبه .

وأخرج ابن جرير عن ابن إسحق قال في قراءة عبد الله : [متكئين عليها ناعمين] .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ قال : لم يكن لهم حسنات يجزون بها ، ولا سيئات يعاقبون عليها ، فوضعوا في هذه المواضع !

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ قال : لا يموتون ، وفيه قوله : ﴿ بأكواب وأباريق ﴾ قال : الأكواب ليس لها آذان ، والأباريق التي لها آذان ، وفي قوله : ﴿ وكأس من معين ﴾ قال :

خمر بيضاء ﴿ لا يصدّعون عنها ولا ينزفون ﴾ قال : لا تصدع رؤوسهم ولا يقيئونها ، وفي لفظ ، ولا تنزف عقولهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي رجاء قال : سألت الحسن عن الأكواب ، فقال : هي الأباريق التي يصب منها .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : الأكواب الأقداح .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله : ﴿ وكأس من معين ﴾ قال : يعني الخمر وهي هناك جارية ، المعين الجاري ﴿ لا يصدّعون عنها ولا ينزفون ﴾ ليس فيها وجع الرأس ولا يغلب أحد على عقله .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك ﴿ لا يصدّعون عنها ولا ينزفون ﴾ قال : لا تصدع رؤوسهم ولا تذهب عقولهم .

(217/743)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ لا يصدّعون عنها ولا ينزفون ﴾ قال : لا تصدع رؤوسهم ، ولا تنزف عقولهم .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في قوله : ﴿ لا يصدّعون عنها ولا ينزفون ﴾ قال : أهل

الجنة يأكلون ويشربون ولا ينزفون كما ينزف أهل الدنيا إذا أكثروا الطعام والشراب ، يقول : لا يملوا .

وأخرج عبد بن حميد بن عاصم أنه قرأ ﴿ لا يصدّعون عنها ولا ينزفون ﴾ برفع الياء وكسر الزاي .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : إن الرجل من أهل الجنة ليؤتى بالكأس وهو جالس مع زوجته فيشربها ، ثم يلتفت إلى زوجته فيقول : قد ازددت في عيني سبعين ضعفاً .

وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن في قوله : ﴿ ولحم طير مما يشتهون ﴾ قال : لا يشتهي منها شيئاً إلا صار بين يديه ، فيصيب منه حاجته ثم يطير فيذهب .

وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة والبزار وابن مردويه والبهيقي في البعث عن عبد الله بن مسعود قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً "

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : " ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم طير الجنة فقال أبو بكر : إنها لناعمة . قال : ومن يأكل منها أنعم منها وإني لأرجو أن تأكل منها " .

وأخرج الخطيب عن أبي هريرة قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : في هذه الآية ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ قال : " غلظ كل فراش منها كما بين السماء والأرض " " .

وأخرج أحمد والترمذي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما طير الجنة كأمثال البخت ترعى في شجر الجنة ، فقال أبو بكر : يا رسول الله إن هذه الطيور لناعمة ، فقال : " آكلها أنعم منها وإني لأرجو أن تكون ممن يأكلها " " .

(218/743)

وأخرج البهيقي في البعث عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن في الجنة طيراً أمثال البخائي ، قال أبو بكر : إنها لناعمة يا رسول الله ، قال : أنعم منها من يأكلها وأنت ممن يأكلها وأنت ممن يأكل منها " .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن في الجنة طيراً كأمثال البخت تأتي الرجل فيصيب منها ، ثم تذهب كأن لم ينقص منها شيء " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة عن أبي أمامة قال : إن الرجل ليشتهي الطير في الجنة من طيور الجنة فيقع في يده مقلياً نضيجاً .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ميمونة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الرجل ليشتهي الطير في الجنة فيجيء مثل البختي حتى يقع على خوانه لم يصبه دخان ولم تمسه نار ، فيأكل منه حتى يشبع ثم يطير " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن في الجنة طيراً له سبعون ألف ريشة فإذا وضع الخوان قدام وليّ الله جاء الطير فسقط عليه فانتفض فخرج من كل ريشة لون ألذ من الشهد وألين من الزبد وأحلى من العسل ثم يطير " .

وأخرج هناد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إن في الجنة لطيراً فيه سبعون ألف ريشة فيجيء فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنة ، ثم ينتفض ، فيخرج من كل ريشة لون أبيض من الثلج وألين من الزبد وأعذب من الشهد ليس فيه لون يشبه صاحبه ، ثم يطير فيذهب " .

قوله تعالى : ﴿ وحور عين ﴾ الآية .

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن عاصم بن بهدلة قال : أقرأني أبو عبد الرحمن السلمي ﴿ وحور عين ﴾ يعني بالجر .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ وحور عين ﴾ بالرفع فيهما وينوّن .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد في قوله : ﴿ وحور عين ﴾ قال : يحار فيهن البصر .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ قال : الذي في الصدف لم يحور عليه الأيدي .

(219/743)

وأخرج هناد بن السري عن الضحاك في قوله : ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ قال : اللؤلؤ العظام الذي قد أكن من أن يمسه شيء .

قوله تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ الآية .

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ قال : باطلاً ﴿ ولا تأثيماً ﴾ قال : كذباً .

وأخرج هناد عن الضحاك ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ قال : الهدر من القول ، والتأثيم الكذب .

قوله تعالى : ﴿ وأصحاب اليمين ﴾ الآيات .

أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في البعث من طريق حصين عن عطاء ومجاهد قال : لما سأل أهل الطائف الوادي يحمي لهم وفيه عسل ففعل وهو واد معجب ، فسمعوا الناس يقولون في الجنة كذا وكذا ! قالوا : يا ليت لنا في الجنة مثل هذا الوادي ، فأنزل

الله ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في البعث من وجه آخر عن مجاهد رضي الله عنه قال : كانوا يعجبون من وج وظلاله من طلحة وسدرة فأنزل الله ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود ﴾ .

وأخرج أحمد عن معاذ بن جبل " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ﴾ فقبض يديه قبضتين فقال : " هذه في الجنة ولا أبالي وهذه في النار ولا أبالي " " .

(220/743)

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن أبي أمامة قال : "كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إن الله ينفعنا بالأعراب ومسائلهم أقبل أعرابي يوماً ، فقال : يا رسول الله لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وما هي ؟ قال : السدر فإن لها شوكاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أليس يقول الله : ﴿ في سدر مخضود ﴾ يخضده الله من شوكة فيجعل مكان كل شوكة ثمرة إنها تنبت ثمراً يفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين

لوناً من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر " " .

وأخرج ابن أبي داود في البعث والطبراني وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه عن عقبة بن عبد الله السلمي قال : "كنت جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم فجاء أعرابي فقال : يا رسول ، أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكاً منها ، يعني الطلح فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصية التيس الملبود يعني المخصيّ فيها سبعون لوناً من الطعام لا يشبه لون الآخر " " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ في سدر مخضود ﴾ قال : خضده وقره من الحمل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ في سدر مخضود ﴾ قال : المخضود الذي لا شوك فيه .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : المخضود الموقر الذي لا شوك فيه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن يزيد الرقاشي رضي الله عنه ﴿ وسدر مخضود ﴾ قال : نبقها أعظم من القلال .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله تعالى : ﴿ في سدر مخضود ﴾ قال : الذي ليس له شوك . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما

سمعت قول أمية بن أبي الصلت :

إن الحدائق في الجنان ظليلة . . . فيها الكواعب سدرها مخضود

(221/743)

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله : ﴿ وطلح منضود ﴾ قال : هو الموز .

وأخرج الفريابي وهناد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ﴿ وطلح منضود ﴾ قال : الموز .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن وقتادة مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ وطلع منضود ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن الأنباري في المصاحف عن قيس بن عباد قال : قرأت على عليّ ﴿ وطلح منضود ﴾ فقال : عليّ ما بال الطلح ؟ أما تقرأ [وطلع] ثم قال : [وطلع نضيد] فقيل له : يا أمير المؤمنين ، أنحكها من المصاحف ؟ فقال : لا يهاج القرآن اليوم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ منضود ﴾ قال : بعضه على بعض .

وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في البعث عن مجاهد رضي الله عنه في قوله في ﴿ سدر مخضود ﴾ قال : الموقر حملا ﴿ وطلح منضود ﴾ يعني الموز المتراكم .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن حائط الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، وقاع الجنة ذهب ، ورضاضها اللؤلؤ ، وطينها مسك ، وترابها الزعفران ، وخلال ذلك سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب " .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها اقرأوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾ " .

وأخرج أحمد والبخاري والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن في الجنة لشجرة يسير الراكب فيه ظلها مائة عام لا يقطعها ، وإن شئتم فاقرأوا ﴿ وظل ممدود ﴾ وماء مسكوب " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها وذاك الظل الممدود " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الظل الممدود شجرة في الجنة على ساق ظلها قدر ما يسير الراكب في كل نواحيه مائة عام فيخرج إليها أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون في ظلها فيشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا فيرسل الله ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : في الجنة شجر لا يحمل يستظل به .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عمرو بن ميمون ﴿ وظل ممدود ﴾ قال : مسيرة سبعين ألف سنة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ وماء مسكوب ﴾ قال : جار .

وأخرج هناد وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سعف نخل الجنة منها مقطعاتهم وكسوتهم .

وأخرج هناد وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال : عناقيد الجنة ما بينك وبين صنعاء ،

وهو بالشام .

وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (34)

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن حبان وابن جرير وابن أبي حاتم والروياني وابن مردويه وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم : " في قوله ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ قال : ارتفاعها كما بين السماء والأرض مسيرة ما بينهما خمسمائة عام " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الفرش المرفوعة قال : لو طرح فراش من أعلاها لهوى إلى قرارها مائة خريف " .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وابن أبي الدنيا في صفة الجنة عن أبي أمامة في قوله : ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ قال : لو أن أعلاها سقط ما بلغ أسفلها أربعين خريفاً .

(223/743)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رفعه في الفرش المرفوعة " لو طرح من أعلاها شيء ما بلغ قرارها مائة خريف " .

وأخرج هناد عن الحسن في قوله : ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ قال : ارتفاع فراش أهل الجنة

مسيرة ثمانين سنة ، والله أعلم .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وهناد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أنس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ قال : " إن من المنشآت اللاتي كن في الدنيا عجائز شمطاً عمشاً رمصاً " " .

وأخرج الطيالسي وابن جرير وابن أبي الدنيا والطبراني وابن مردويه وابن قانع والبيهقي في البعث " عن سلمة بن زيد الجعفي سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول في قوله : ﴿ إنا أنشأناهنّ إنشاء ﴾ قال : " الثيب والأبكار اللاتي كنّ في الدنيا " " .

وأخرج عبد بن حميد والترمذي في الشمائل وابن المنذر والبيهقي في البعث عن الحسن قال : " أتت عجوز فقالت يا رسول الله : ادع الله أن يدخلني الجنة ، فقال : يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز ، فولّت تبكي ، قال : أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، إن الله يقول : ﴿ إنا أنشأناهنّ إنشاء فجعلناهن أبكاراً ﴾ " .

وأخرج البيهقي في الشعب عن عائشة قالت : " دخل النبي صلى الله عليه وسلم عليّ وعندي عجوز ، فقال : من هذه ؟ قلت : إحدى خالاتي ، قال : أما إنه لا يدخل الجنة العجوز ، فدخل العجوز من ذلك ما شاء الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنا

أنشأناهن خلقاً آخر " " .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ إنا أنشأناهنّ إنشاء ﴾ نخلقهن غير خلقهن الأول .

(224/743)

وأخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة " أن النبي صلى الله عليه وسلم أتته عجوز من الأنصار ، فقالت : يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة ، فقال : إن الجنة لا يدخلها عجوز ، فذهب يصلي ، ثم رجع ، فقالت عائشة : لقد لقيت من كلمتك مشقة ، فقال : إن ذلك كذلك إن الله إذا أدخلهن الجنة حوّلهنّ أبكاراً " .

وأخرج ابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنا أنشأناهنّ إنشاء ﴾ قال : أنبتناهن .

وأخرج الطبراني عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أهل الجنة إذا جامعوا النساء عُدْنَ أبكاراً " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس في قوله : ﴿ فجعلناهن أبكاراً ﴾ قال : عذارى

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي من طريق علي عن ابن عباس في قوله : ﴿ عرباً ﴾ قال : عواشق ﴿ أتراباً ﴾ يقول : مستويات .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس ﴿ عرباً ﴾ قال : عواشق لأزواجهن وأزواجهن لهن عاشقون ﴿ أتراباً ﴾ قال : في سن واحد ثلاثاً وثلاثين سنة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : العرب الملقة لزوجها .

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال : العرب المتحببات المتوددات إلى أزواجهن .

وأخرج هناد من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : العرب الغنجة ، وفي قول أهل المدينة الشكلة .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ عرباً ﴾ قال : هي الغنجة .

وأخرج سعيد بن منصور عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ عرباً ﴾ قال : هن المتغنجات .

وأخرج سفيان وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : ﴿ عرباً ﴾ قال : الناقة التي تشتهي الفحل يقال لها : عربة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن بريدة في قوله : ﴿ عرباً ﴾ قال : هي الشكلة بلغة مكة ، المغنوجة بلغة المدينة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : العربة التي تشتهي زوجها .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ عرباً أتراباً ﴾ قال : هن العاشقات لأزواجهن اللاتي خلقن من الزعفران ، والأتراب المستويات قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت نابغة بني ذبيان وهو يقول :

عهدت بها سعدى وسعدى عزيزة . . . عروب تهادى في جوار خرائد

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ فجعلناهن أبكاراً ﴾ قال : عذارى ﴿ عرباً ﴾ قال : عشقاً لأزواجهن ﴿ أتراباً ﴾ قال : مستويات سناً واحداً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ عرباً ﴾ قال : المغنوجات ، والعربة هي الغنجة .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن عبيد بن عمير أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ عرباً ﴾ قال : أما سمعت أن المحرم يقال له : لا تعربها بكلام تلذ ذها به وهي محرمة .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير عن تيم بن جدلم ، وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : العربة الحسنة التبعل وكانت العرب تقول للمرأة إذا كانت حسنة التبعل : إنها العربة .

وأخرج هناد بن السري وعبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ عرباً ﴾ قال : يشتهين أزواجهن .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ عرباً ﴾ قال : العرب المتعشقات .

وأخرج هناد بن السري وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ عرباً ﴾ قال : عواشق لأزواجهن ﴿ أتراباً ﴾ قال : مستويات .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ عرباً ﴾ قال : المتعشقات لبعولتهن ، والأتراب المستويات في سن واحد .

وأخرج عبد بن حميد عن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال : العرب المتعشقات ، والأتراب المستويات في سن واحد .

(226/743)

وأخرج هناد بن السري وعبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ عرباً ﴾ قال : المتحببات إلى الأزواج ، والأتراب المستويات .

وأخرج سفيان بن عيينة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه

في قوله : ﴿ عرباً ﴾ قال : متحببات إلى أزواجهن ﴿ أتراباً ﴾ قال : أمثالاً .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه قال : العرب المتحببات إلى أزواجهن ، والأتراب الأشباه المستويات .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال : العربة هي الحسنة الكلام .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه ﴿ عرباً ﴾ قال : عواشق ﴿ أتراباً ﴾ قال : أقراناً .

وأخرج وكيع في الغرر وابن عساكر في تاريخه عن هلال بن أبي بردة رضي الله عنه أنه قال لجلسائه : ما العروب من النساء ؟ فماجوا ، وأقبل إسحق بن عبد الله بن الحرث النوفلي رضي الله عنه فقال : قد جاءكم من يخبركم عنها ، فسألوه فقال : الخفرة المتبذلة لزوجها وأنشد :

يعربن عند بعولهن إذا خلوا . . . وإذا هم خرجوا فهن خفار

وأخرج ابن عدي بسند ضعيف عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خير نسائكم العفيفة الغلمة " .

وأخرج ابن عساكر عن معاوية بن أبي سفيان أنه راود زوجته فاختة بنت قرطة فنخرت نخرة شهوة ثم وضعت يدها على وجهها ، فقال : لا سوأة عليك فوالله لخيركن النخارات

والشخارات .

وأخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه رضي الله عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ عرباً ﴾ قال : كلامهنّ عربي " .

وأخرج عبد بن حميد عن ميمون بن مهران رضي الله عنه في قوله : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ قال : كثير من الأولين وكثير من الآخرين .

(227/743)

وأخرج مسدد في مسنده وابن المنذر والطبراني وابن مردويه بسند حسن عن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ قال : هما جميعاً من هذه الأمة .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن عدي وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هما جميعاً من أمتي " .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ قال : الثلّتان جميعاً من هذه الأمة .

وأخرج الحسن بن سفيان وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " إني لأرجو أن يكون من اتبعني من أمتي ربع أهل الجنة " فكبرنا ، ثم قال : " إني لأرجو أن يكون من أمتي الشطر ثم قرأ ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ " " .

(228/743)

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : تحدثنا ذات ليلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ألرنا الحديث ، فلما أصبحنا غدونا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " عرضت علي الأنبياء باتباعها من أممها فإذا النبي معه الثلة من أمته ، وإذا النبي ليس معه أحد ، وقد أنبأكم الله عن قوم لوط ، فقال : أليس منكم رشيد ، حتى مر موسى عليه السلام ومن معه من بني إسرائيل ، قلت : يا رب . فأين أمتي ؟ قال : انظر عن يمينك ، فإذا الظراب ظراب مكة قد سد من وجوه الرجال ، قال : أرضيت يا محمد ؟ قلت : رضيت يا رب ، قال : أنظر عن يسارك فإذا الأفق قد سد من وجوه الرجال قال : أرضيت يا محمد ؟ قلت : رضيت يا رب ، قال : فإن مع هؤلاء سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ، فأتى عكاشة بن محصن الأسدي رضي الله عنه فقال يا رسول الله : ادع

الله أن يجعلني منهم ، قال : اللهم اجعله منهم ، ثم قام رجل آخر فقال يا رسول الله : ادع الله أن يجعلني منهم فقال : سبقك بها عكاشة ، ثم قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : إن استطعتم بأبي أنتم وأمي أن تكونوا من السبعين فكونوا ، فإن عجزتم وقصرتم فكونوا من أصحاب الظراب ، فإن عجزتم وقصرتم فكونوا من أصحاب الأفق ، فإني قد رأيت أناساً يتهارشون كثيراً ، ثم قال : إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة ، فكبر القوم ثم تلا هذه الآية ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ فتذاكروا من هؤلاء السبعون ألفاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون " وعلى ربهم يتوكلون " " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 3 . 20 ﴾

(229/743)

قوله تعالى ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (44) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (45) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (46) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (48) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أتم وصف ما فيه الصنفان المحمودان ، وبه تمت أقسام أصحاب الميمنة الأربعة الذين هم أصحاب القلب واليمين ، أتبعه أضدادهم فقال : ﴿ وأصحاب الشمال ﴾ أي الجهة التي تتشاءم العرب بها وعبر بها عن الشيء الأخس والحظ الأنقص ، والظاهر أنهم أدنى أصحاب المشأمة كما كان أصحاب اليمين دون السابقين من أصحاب الميمنة ، ثم عظم ذمهم ومصابهم فقال : ﴿ ما أصحاب الشمال ﴾ أي إنهم بحال من الشؤم هو جدير بأن يسأل عنه .

ولما ذمهم وعابهم ، ذكر عذابهم ليعلم أن القسم الأشد منهم في الشؤم أشد عذاباً فقال : ﴿ في سموم ﴾ أي ظرفهم المحيط بهم لفح من لفح النار شديد يتخلل المسام ﴿ وحميم ﴾ أي ماء حار بالغ في الحرارة إلى حد يذيب اللحم .

ولما كان للتهكم في القلب من شديد الوقد ما يجل عن الوصف والحد قال : ﴿ وظل ﴾ ثم أتبعه ما صرح بأنه تهكم فقال : ﴿ من يحموم ﴾ أي دخان أسود كالحمم أي الفحم شديد السواد بما أفهمته الزيادة وشبه صيغة المبالغة : ولما كان المعهود من الظل البرد والإراحة ، نفى ذلك عنه فقال : ﴿ لا بارد ﴾ ليروح النفس ﴿ ولا كريم ﴾ ليؤنس به ويلجأ إليه ويرجى خيره ويعول في حال عليه بأن يفعل ما يفعله الواسع الخلق الصفوح من الإكرام ، بل هو مهين ، سماه ظلاً لترتاح النفس إليه ثم نفى عنه نفع الظل وبركته لينضم حرقان : اليأس بعد

الرجاء إلى إخراق اليحموم فتصير الغصة غصتين .

ولما أنتج هذا أنه على خلق اللئيم فهو موضع الحرارة والضيق والخسة والشدة ، علله بقوله : ﴿ إنهم ﴾ أكده وإن كان فيهم أهل الضر لاجتماعهم في الاسترواح إلى منابذة الدين باتباع الشهوات ، ولأن ما مضى لهم بالنسبة إلى هذا العذاب حال ناعم ، وعبر بالكون دلالة على العراقة في ذلك ولو بتهيئهم له جبلة وطبعاً فقال : ﴿ كانوا ﴾ أي في الدنيا .

(230/743)

ولما كان ذلك ملازماً للاستغراق في الزمان بميل الطباع ، نزع الجار فقال : ﴿ قبل ذلك ﴾ أي الأمر العظيم الذي وصلوا إليه ﴿ مترفين ﴾ أي في سعة من العيش منهمكين في الشهوات مستمتعين بها متمكنين فيها لترامي طباعهم إليها فأعقبهم ما في جبلاتهم من الإخلاد إلى الترف عدم الاعتبار والاتعاظ في الدنيا والتكبر على الدعاة إلى الله ، وفي الآخرة شدة الألم لرقة أجسامهم المهيأة للترف بتعودها بالراحة بإخلادها إليها وتعويلها عليها ﴿ وكانوا ﴾ أي مع الترف ﴿ يصرون ﴾ أي يقيمون ويدومون على سبيل التجديد مما لهم من الميل الجبلي إلى ذلك ﴿ على الحنث ﴾ أي الذنب ، ومنه قولهم : بلغ الغلام الحنث ، أي الحلم الذي هو وقت المؤاخذة بالذنب ، ويطلق الحنث على الكذب والميل إلى

الأباطيل واليمين الغموس ونقض العهد المؤكد .

ولما كان ذلك قد يكون من المعهود مما يغتفر بكونه صغيراً أو في وقت يسير قال :

﴿ العظيم ﴾ دالاًّ على أنهم يستهينون العظائم من القبائح والفواحش .

ولما وصفهم بالترف والإصرار على السرف ، وكان ذلك يلازم البطالة ، وكان يلزم عنها الغباوة والفساد الموجب للشقاوة ، ذكر إنكارهم لما لا أبين منه ، فقال عاطفاً على ما أفهمه التعبير عن الإثم بالحنث من نحو : فكانوا يقسمون بالله جهد أيمانهم أنهم لا يبعثون وأن الرسل كاذبون : ﴿ وكانوا يقولون ﴾ أي إنكاراً مجددين لذلك دائماً جلافة أو عناداً : ﴿ أئذاً ﴾ أي أنبعث إذاً ، وحذف العامل لدلالة ﴿ مبعوثون ﴾ عليه ، ولا يعمل هو لأن الاستفهام وحرف التأكيد اللذين لهما الصدر معناه ﴿ متنا ﴾ أي فلم يبق في رد أرواحنا طب بوجه ﴿ وكنا ﴾ أي كوناً ثابتاً ﴿ تراباً وعظاماً ﴾ ولما كان استفهامهم هذا لإنكار أن يكون في شيء من إقامة أبدانهم أو رد أرواحهم طب ، أعاد الاستفهام تأكيداً لإنكارهم فقال : ﴿ أءِنا لمبعوثون ﴾ أي كائن وثابت بعثنا ساعة من الدهر ، وأكدوا ليكون إنكارهم لما دون المؤكد بطريق الأولى .

ولما كانت أفهامهم واقفة مع المحسوسات لجمودهم .

وكان البلى كلما كان أقوى كان ذلك البالي في زعمهم من البعث أبعد ، قالوا مخرجين في جملة فعلية عطفاً على الواو من ﴿ معبوثون ﴾ من غير تأكيد بضمير الفصل بالاستفهام : ﴿ أو آباؤنا ﴾ أي يبعث آباؤنا أي يوجد بعثهم من حين ، وزادوا الاستبعاد على ما أفهموا بقولهم : ﴿ الأولون ﴾ أي الذين قد بليت مع لحومهم عظامهم ، فصاروا كلهم تراباً ولا سيما إن حملتهم السيول ففرقت ترابهم في كل أوب ، وذهبت به في كل صوب ، وسكن نافع وابن عامر الواو على أن العاطف ﴿ أو ﴾ ويجوز أن يكون العطف على محل " إن " واسمها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 411.413 ﴾

(232/743)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما الحكمة في ذكر السموم والحميم وترك ذكر النار وأهوالها ؟ نقول : فيه إشارة بالأدنى إلى الأعلى فقال : هواؤهم الذي يهب عليهم سموم ، وماؤهم الذي يستغيثون به حميم ، مع أن الهواء والماء أبرد الأشياء ، وهما أي السموم والحميم من أضر الأشياء بخلاف الهواء والماء في الدنيا فإنهما من أنفع الأشياء فما ظنك بنارهم التي هي عندنا أيضاً أحر ، ولو قال : هم في نار ، كنا نظن أن نارهم كنارنا لأنا ما رأينا شيئاً أحر من التي رأيناها ، ولا أحر من السموم ، ولا أبرد من الزلال ، فقال : أبرد الأشياء لهم أحرها فكيف حالهم مع أحرها ، فإن قيل : ما السموم ؟ نقول : المشهور هي ريح حارة تهب فتمرض أو تقتل غالباً ، والأولى أن يقال : هي هواء متعفن ، يتحرك من جانب إلى جانب فإذا استنشق الإنسان منه يفسد قلبه بسبب العفونة ويقتل الإنسان ، وأصله من السم كسم الحية والعقرب وغيرهما ، ويحتمل أن يكون هذا السم من السم ، وهو خرم الإبرة ، كما قال تعالى : ﴿ حتى يَلِجَ الجمل فِي سَمّ الخياط ﴾ [الأعراف : 40] لأن سم الأفعى ينفذ في المسام فيفسدها ، وقيل : إن السموم مختصة بما يهب ليلاً ، وعلى هذا فقوله : ﴿ سَمُومٍ ﴾ إشارة إلى ظلمة ما هم فيه غير أنه بعيد جداً ، لأن السموم قد ترى بالنهار بسبب كثافتها .

المسألة الثانية :

الحميم هو الماء الحار وهو فعيل بمعنى فاعل من حمم الماء بكسر الميم ، أو بمعنى مفعول من حمم الماء إذا سخنه ، وقد ذكرناه مراراً غير أن ههنا لطيفة لغوية : وهي أن فعولاً لما تكرر منه الشيء والريح لما كانت كثيرة الهبوب تهب شيئاً بعد شيء خص السموم بالفعول ، والماء الحار لما كان لا يفهم منه الورود شيئاً بعد شيء لم يقل : فيه حموم ، فإن قيل : ما اليحموم ؟ نقول : فيه وجوه أولها : أنه اسم من أسماء جهنم ثانيها : أنه الدخان ثالثها : أنه الظلمة ، وأصله من الحمم وهو الفحم فكأنه لسواده فحم فسموه باسم مشتق منه ، وزيادة الحرف فيه لزيادة ذلك المعنى فيه ، وربما تكون الزيادة فيه جاءت لمعنيين : الزيادة في سواده والزيادة في حرارته ، وفي الأمور الثلاثة إشارة إلى دونهم في العذاب دائماً لأنهم إن تعرضوا لمهب الهواء أصابهم الهواء الذي هو السموم ، وإن استكنوا كما يفعله الذي يدفع عن نفسه السموم بالاستكنان في الكن يكونوا في ظل من يحموم وإن أرادوا الرد عن أنفسهم السموم بالاستكنان في مكان من حميم فلا انفكاك لهم من عذاب الحميم ، ويحتمل أن يقال فيه ترتيب وهو أن السموم يضربه فيعطش وتلتهب نار السموم في أحشائه فيشرب الماء فيقطع أمعاءه ويريد الاستظلال بظل فيكون ذلك الظل ظل اليحموم ، فإن قيل : كيف وجه استعمال (من) في قوله تعالى : ﴿ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ ؟ فنقول : إن قلنا إنه اسم جهنم فهو لابتداء الغاية كما تقول : جاءني نسيم من الجنة ، وإن قلنا : إنه دخان فهو كما في قولنا :

خاتم من فضة ، وإن قلنا : إنه الظلمة فكذلك ، فإن قيل : كيف يصح تفسيره بجهنم مع أنه اسم منصرف منكر فكيف وضع لمكان معرف ، ولو كان اسماً لها ، قلنا : استعماله بالألف واللام كالجحيم ، أو كان غير منصرف كأسماء جهنم يكون مثله على ثلاثة مواضع كلها يحموم .

لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (44)

(234/743)

قال الزمخشري : كرم الظل نفعه الملهوف ، ودفعه أذى الحر عنه ، ولو كان كذلك لكان البارد والكريم بمعنى واحد ، والأقرب أن يقال : فائدة الظل أمران : أحدهما دفع الحر ، والآخر كون الإنسان فيه مكرماً ، وذلك لأن الإنسان في البرد يقصد عين الشمس ليتدفأ بحرها إذا كان قليل الثياب ، فإذا كان من المكرمين يكون أبداً في مكان يدفع الحر والبرد عن نفسه في الظل ، أما الحر فظاهر ، وأما البرد فيدفعه بإدفاء الموضع بإيقاد ما يدفئه ، فيكون الظل في الحر مطلوباً للبرد فيطلب كونه بارداً ، وفي البرد يطلب لكونه ذا كرامة لا لبرد يكون في الظل فقال : ﴿ لَّا بَارِدٍ ﴾ يطلب لبرده ، ولا ذي كرامة قد أعد للجلوس فيه ، وذلك لأن المواضع التي يقع عليها ظل كالمواضع التي تحت أشجار وأمام الجدار يتخذ منها مقاعد فتصير تلك

المقاعد محفوظة عن القاذورات ، وباقي المواضع تصير مزابل ، ثم إذا وقعت الشمس في بعض الأوقات عليها تطلب لنظافتها ، وكونها معدة للجلوس ، فتكون مطلوبة في مثل هذا الوقت لأجل كرامتها لا لبردها ، فقوله تعالى : ﴿ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ يحتمل هذا ، ويحتمل أن يقال : إن الظل يطلب لأمر يرجع إلى الحس ، أو لأمر يرجع إلى العقل ، فالذي يرجع إلى الحس هو برده ، والذي يرجع إلى العقل أن يكون الرجوع إليه كرامة ، وهذا لا برد له ولا كرامة فيه ، وهذا هو المراد بما نقله الواحدي عن الفراء أن العرب تتبع كل منفي بكريم إذا كان المنفي أكرم فيقال : هذه الدار ليست بواسعة ولا كريمة ، والتحقيق فيه ما ذكرنا أن وصف الكمال ، إما حسي ، وإما عقلي ، والحسي يصرح بلفظه ، وأما العقلي فلخفائه عن الحس يشار إليه بلفظ جامع ، لأن الكرامة ، والكرامة عند العرب من أشهر أوصاف المدح ونفيهما نفي وصف الكمال العقلي ، فيصير قوله تعالى : ﴿ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ معناه لا مدح فيه أصلاً لا حساً ولا عقلاً .

إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (45)

وفي الآيات لطائف ، نذكرها في مسائل :

المسألة الأولى :

ما الحكمة في بيان سبب كونهم في العذاب مع أنه تعالى لم يذكر سبب كون أصحاب اليمين في النعيم ، ولم يقل : إنهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين ؟ فنقول : قد ذكرنا مراراً أن الله تعالى عند إيصال الثواب لا يذكر أعمال العباد الصالحة ، وعند إيصال العقاب يذكر أعمال المسيئين لأن الثواب فضل والعقاب عدل ، والفضل سواء ذكر سببه أو لم يذكر لا يتوهم في المتفضل به نقص وظلم ، وأما العدل فإن لم يعلم سبب العقاب ، يظن أن هناك ظلماً فقال : هم فيها بسبب ترفهم ، والذي يؤيد هذه اللطيفة أن الله تعالى قال في حق السابقين : ﴿ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الواقعة : 24] ولم يقل : في حق أصحاب اليمين ، ذلك لأنا أشرنا أن أصحاب اليمين هم الناجون بالفضل العظيم ، وسنبين ذلك في قوله تعالى : ﴿ فسلامٌ لَّكَ ﴾ [الواقعة : 91] وإذا كان كذلك فالفضل في حقهم متمحض فقال : هذه النعم لكم ، ولم يقل جزاء لأن قوله : ﴿ جَزَاء ﴾ في مثل هذا الموضع ، وهو موضع العفو عنهم لا يثبت لهم سروراً بخلاف من كثرت حسناته ، فيقال له : نعم ما فعلت خذ هذا لك جزاء .

المسألة الثانية :

جعل السبب كونهم مترفين وليس كل من هو من أصحاب الشمال يكون مترفاً فإن فيهم من يكون فقيراً ؟ نقول قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ ليس بذم ، فإن المترف هو الذي جعل ذا ترف أي نعمة ، فظاهر ذلك لا يوجب ذماً ، لكن ذلك يبين قبح ما ذكر عنهم بعده وهو قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ ﴾ لأن صدور الكفران ممن عليه غاية الإنعام أقبح القبائح فقال : إنهم كانوا مترفين ، ولم يشكروا نعم الله بل أصروا على الذنب وعلى هذا فنقول : النعم التي تقتضي شكر الله وعبادته في كل أحد كثيرة فإن الخلق والرزق وما يحتاج إليه وتتوقف مصالحه عليه حاصل للكل ، غاية ما في الباب أن حال الناس في الإتراف متقارب ، فيقال في حقل البعض بالنسبة إلى بعض : إنه في ضر ، ولو حمل نفسه على القناعة لكان أغنى الأغنياء وكيف لا والإنسان إذا نظر إلى حالة يجدها مفتقرة إلى مسكن يأوي إليه ولباس الحر والبرد وما يسد جوعه من المأكول والمشروب ، وغير هذا من الفضلات التي يحمل عليها شح النفس ، ثم إن أحداً لا يغلب عن تحصيل مسكن باشتراء أو اكتراء ، فإن لم يكن فليس هو أعجز من الحشرات ، لا تفقد مدخلاً أو مغارة ، وأما اللباس فلو اقتنع بما يدفع الضرورة كان يكفيه في عمره لباس واحد ، كلما تمزق منه موضع يرقعه من أي شيء كان ، بقي أمر المأكول والمشروب ، فإذا نظر الناظر يجد كل أحد في جميع الأحوال غير مغلوب عن كسرة خبز وشربة ماء ، غير أن طلب الغنى يورث الفقر فيريد الإنسان بيتاً

مزخرفاً ولباساً فاخراً ومأكولاً طيباً ، وغير ذلك من أنواع الدواب والثياب ، فيفتقر إلى أن يحمل المشاق ، وطلب الغنى يورث فقره ، وارتياد الارتفاع يحط قدره ، وبالجملة شهوة بطنه وفرجه تكسر ظهره على أننا نقول في قوله تعالى : ﴿كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ لا شك أن أهل القبور لما فقدوا الأيدي الباطشة ، والأعين الباصرة ، وبان لهم الحقائق ، علموا أنهم كانوا

(237/743)

قبلو ذلك مترفين بالنسبة إلى تلك الحالة .

(238/743)

المسألة الثالثة : ما الإصرار على الحنث العظيم ؟ نقول : الشرك ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان : 13] وفيها لطيفة وهي أنه أشار في الآيات الثلاث إلى الأصول الثلاثة فقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ من حيث الاستعمال يدل على ذمهم بإنكار الرسل ، إذ المترف متكبر بسبب الغنى فينكر الرسالة ، والمترفون كانوا

يقولون : ﴿ أَبَشَرٌ مِّنَّا واحدا نَّتَّبِعُهُ ﴾ [القمر : 34] وقوله : ﴿ يُصِرُّونَ عَلَى الحنث العظيم ﴾ [الواقعة : 46] إشارة إلى الشرك ومخالفة التوحيد ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ﴾ إشارة إلى إنكار الحشر والنشر ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى الحنث العظيم ﴾ فيه مبالغات من وجوه أحدها : قوله تعالى : ﴿ كَانُواْ يُصِرُّونَ ﴾ وهو آكد من قول القائل : إنهم قبل ذلك أصروا لأن اجتماع لفظي الماضي والمستقبل يدل على الاستمرار ، لأن قولنا : فلان كان يحسن إلى الناس ، يفيد كون ذلك عادة له ثانيها : لفظ الإصرار فإن الإصرار مداومة المعصية والغلول ، ولا يقال : في الخير أصر ثالثها : الحنث فإنه فوق الذنب فإن الحنث لا يكاد في اللغة يقع على الصغيرة والذنب يقع عليها ، وأما الحنث في اليمين فاستعملوه لأن نفس الكذب عند العقلاء قبيح ، فإن مصلحة العالم منوطة بالصدق وإلا لم يحصل لأحد بقول أحد ثقة فلا يبنى على كلامه مصالح ، ولا يجتنب عن مفاسد ، ثم إن الكذب لما وجد في كثير من الناس لأغراض فاسدة أرادوا توكيد الأمر بضم شيء إليه يدفع توهمه فضموا إليه الأيمان ولا شيء فوقها ، فإذا حنث لم يبق أمر يفيد الثقة فيلزم منه فساد فوق فساد الزنا والشرب ، غير أن اليمين إذا كانت على أمر مستقبل ورأى الحالف غيره جوز الشرع الحنث ولم يجوزه في الكبيرة كالزنا والقتل لكثرة وقوع الأيمان وقلة وقوع القتل والذي يدل على أن الحنث هو الكبيرة

قولهم للبالغ : بلغ الحنث ، أي بلغ مبلغاً بحيث يرتكب الكبيرة وقبله ما كان ينفي عنه الصغيرة ، لأن الولي مأمور بالمعاقبة على إساءة الأدب وترك الصلاة .

المسألة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ العظيم ﴾ هذا يفيد أن المراد الشرك ، فإن هذه الأمور لا تجتمع في غيره .

المسألة الخامسة :

كيف اشتهر ﴿ مِتْنَا ﴾ بكسر الميم مع أن استعمال القرآن في المستقبل يموت قال تعالى عن يحيى وعيسى عليهما السلام : ﴿ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ [مريم : 33] ولم يقرأ أمات على وزن أخاف ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ مُوتُوا ﴾ [آل عمران : 119] ولم يقل : قل ماتوا ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ ﴾ [آل عمران : 102] ولم يقل : ولا تماتوا كما قال : ﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ [فصلت : 30] أقلنا : فيه وجهان أحدهما : أن هذه الكلمة خالفت غيرها ، فقيل فيها : ﴿ أَموت ﴾ والسماع مقدم على القياس والثاني : مات يمات لغة في مات يموت ، فاستعمل ما فيها الكسر لأن الكسر في الماضي يوجد أكثر الأمرين أحدهما : كثرة يفعل على يفعل وثانيهما : كونه على فعل يفعل ، مثل خاف يخاف ، وفي مستقبلها الضم لأنه يوجد لسببين أحدهما : كون الفعل على فعل يفعل ، مثل طال يطول ، فإن وصفه بالتطويل دون الطائل يدل على أنه من باب قصر يقصر ، وثانيهما : كونه على فعل يفعل ، تقول : فعلت في الماضي

بالكسر وفي المستقبل بالضم .

المسألة السادسة :

(240/743)

كيف أتى باللام المؤكدة في قوله : ﴿ لَمَبْعُوثُونَ ﴾ مع أن المراد هو النفي وفي النفي لا يذكر في خبر إن اللام يقال : إن زيداً ليجيء وإن زيداً لا يجيء ، فلا تذكر اللام ، وما مرادهم بالاستفهام إلا الإنكار بمعنى إنا لا نبعث ؟ نقول : الجواب عنه من وجهين أحدهما : عند إرادة التصريح بالنفي يوجد التصريح بالنفي وصيغته ثانيهما : أنهم أرادوا تكذيب من يخبر عن البعث فذكروا أن المخبر عنه يبالغ في الإخبار ونحن نستكثر مبالغته وتأكيده فحكوا كلامهم على طريقة الاستفهام بمعنى الإنكار ، ثم إنهم أشاروا في الإنكار إلى أمور اعتقدوها مقررة لصحة إنكارهم فقالوا أولاً : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا ﴾ ولم يقتصروا عليه بل قالوا بعده : ﴿ وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما ﴾ أي فطال عهدنا بعد كوننا أمواتاً حتى صارت اللحوم تراباً والعظام رفاتاً ، ثم زادوا وقالوا : مع هذا يقال لنا : ﴿ إِنَّكُمْ لَمَبْعُوثُونَ ﴾ بطريق التأكيد من ثلاثة أوجه أحدها : استعمال كلمة إن ثانيها : إثبات اللام في خبرها ثالثها : ترك صيغة الاستقبال ، والإتيان بالمفعول كأنه كائن ، فقالوا لنا : ﴿ إِنَّكُمْ لَمَبْعُوثُونَ ﴾ ثم زادوا وقالوا :

﴿ أَوَءَابَاؤُنَا الأولون ﴾ يعني هذا أبعد فإنا إذا كنا تراباً بعد موتنا والآباء حالهم فوق حال العظام الرفات فكيف يمكن البعث ؟ وقد بينا في سورة والصافات هذا كله وقلنا : إن قوله : ﴿ أَوَءَابَاؤُنَا الأولون ﴾ [الصافات : 17] معناه : أو يقولوا : آباؤنا الأولون ، إشارة إلى أنهم في الإشكال أعظم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 146 .

150 ﴾

(241/743)

وقال الآلوسى :

والكلام في قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) ﴾

على نمط ما سلف في نظيره ، والسموم قال الراغب : الريح الحارة التي تؤثر تأثير السم ، وفي الكشاف حرّ نار ينفذ في المسام والتنوين للتعظيم وكذا في قوله تعالى : ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ وهو الماء الشديد الحرارة .

﴿ وَظِلّ مّن يَحْمُومٍ ﴾ أي دخان أسود كما قال ابن عباس .

وأو مالك .

وابن زيد .

والجمهور وهي على وزن يفعول ، وله نظائر قليلة من الحممة القطعة من الفحم وتسميته ظلا على التشبيه التهكمي ، وعن ابن عباس أيضاً أنه سرادق النار المحيط بأهلها يرتفع من كل ناحية حتى يظللهم ، وقال ابن كيسان : هو من أسماء جهنم فإنها سوداء وكذا كل ما فيها أسود بهيم نعوذ بالله تعالى منها .

وقال ابن بريدة .

وابن زيد أيضاً : هو جبل في النار أسود يفزع أهل النار إلى ذراه فيجدونه أشد شيء ، والجار والمجرور في موضع الصفة لظل وكذا قوله سبحانه :

﴿ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ صفتان له ، وتقديم الصفة الجار والمجرور على الصفة المفردة جائز كما صرح به الرضى وغيره أي لا بارد كسائر الظلال ، ولا نافع لمن يأوى إليه من أذى الحر وذلك كرمه فهناك استعارة ، ونفي ذلك ليمحق توهم ما في الظل من الاسترواح إليه وإن وصف أولا بقوله تعالى : ﴿ مّن يَحْمُومٍ ﴾ والمعنى أنه ظل حار ضار إلا أن للنفي شأنا ليس للإثبات ومن ذلك جاء التهكم والتعريض بأن الذي يستأهل الظل الذي فيه برد وإكرام

غير هؤلاء فيكون أشجى لحلوقهم وأشد لتحسرهم ، وقيل : الكرم باعتبار أنه مرضى في بابه ، فالظل الكريم هو المرضى في برده وروحه ، وفيه أنه لا يلائم ما هنا لقوله تعالى : ﴿ لاَّ بَارِدٍ ﴾ وجوز أن يكون ذلك نفياً لكرامة من يستروح إليه ونسب إلى الظل مجازاً ، والمراد أنهم يستظلون به وهم مهانون ، وقد يحتمل المجلس الرديء لنيل الكرامة ، وفي البحر يجوز أن يكونا صفتين ليحموم ويلزم منه وصف الظل بهما ، وتعقب بأن وصف اليحموم هو والدخان بذلك ليس فيه كبير فائدة ، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ برفعهما أي لا هو بارد ولا كريم على حدّ قوله

: فأبيت لا حرج ولا محروم . . .

أي لا أنا حرج ولا محروم ، وقوله تعالى :

(243/743)

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ تعليل لابتلائهم بما ذكر من العذاب ، وسلك هذا المسلم في تعليل الابتداء بالعذاب اهتماماً بدفع توهم الظلم في التعذيب ، ولما كان إيصال الثواب مما ليس فيه توهم نقص أصلاً لم يسلك فيه نحو هذا ، والمترف هنا بقرينة المقام هو المرتوك يصنع ما يشاء لا يمنع ، والمعنى أنهم عذبوا لأنهم كانوا قبل ما ذكر من العذاب في الدنيا متبعين

هوى أنفسهم وليس لهم رادع منها يردعهم عن مخالفة أوامره عز وجل وارتكاب نواهيه سبحانه كذا قيل ، وقيل : هو العاتي المستكبر عن قبول الحق والاذعان له ، والمعنى أنهم عذبوا لأنهم كانوا في الدنيا مستكبرين عن قبول ما جاءتهم به رسلهم من الإيمان بالله عز وجل وما جاء منه سبحانه ، وقيل : هو الذي أترفته النعمة أي أبطرته وأطغته ، وقريب منه ما قيل : هو المنعم المنهمك في الشهوات ، وعليه قول أبي السعود أي أنهم كانوا قبل ما ذكر من سوء العذاب في الدنيا منعمين بأنواع النعم من المآكل والمشارب والمساكن الطيبة والمقامات الكريمة منهمكين في الشهوات فلا جرم عذبوا بنقائضها ، وتعقب بأن كثيراً من أهل الشمال ليسوا مترفين بالمعنى الذي اعتبره فكيف يصح تعليل عذاب الكل بذلك ولا يرد هذا على ما قدمناه من القولين كما لا يخفى .

ومن الناس من فسر المترف بما ذكر وتفصى عن الاعتراض بأن تعليل عذاب الكل بما ذكر في حيز العلة لا يستدعي أن يكون كل من المذكورات موجوداً في كل من أصحاب الشمال بل وجود المجموع في المجموع وهذا لا يضر فيه اختصاص البعض بالبعض فتأمله ، وقيل : المترف المجعول ذا ترفة أي نعمة واسعة والكل مترفون بالنسبة إلى الحالة التي يكونون عليها يوم القيامة ، وهو على ما فيه لا يظهر أمر التعليل عليه .

﴿ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ ﴾ يتشددون ويمتنعون من الاقلاع ويداومون ﴿ عَلَى الحنث ﴾ أي الذنب ﴿ العظيم ﴾ وفسر بعضهم الحنث بالذنب العظيم لا بمطلق الذنب وأيد بأنه في الأصل العدل العظيم فوصفه بالعظيم للمبالغة في وصفه بالعظم كما وصف الطود وهو الجبل العظيم به أيضاً ، والمراد به كما روي عن قتادة .

والضحاك .

وابن زيد الشرك وهو الظاهر .

وأخرج عبد بن حميد عن الشعبي أن المراد به الكبائر وكأنه جعل المعنى وكانوا يصرون على كل حنث عظيم وفي رواية أخرى عنه أنه اليمين الغموس وظاهره الاطلاق ، وقال التاج السبكي في طبقاته : سألت الشيخ يعني والده تقي الدين ما الحنث العظيم ؟ فقال : هو القسم على إنكار البعث المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيمانهم لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل : 38] وهو تفسير حسن لأن الحنث وإن فسر بالذنب مطلقاً أو العظيم فالمشهور استعماله في عدم البر في القسم ، وتعقب بأنه يأباه قوله تعالى : ﴿ وَكَانُواْ يِقُولُونَ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما ﴾ إلى آخره للزوم التكرار ، وأجيب بأن المراد بالأول وصفهم بالثبات على القسم الكاذب وبالثاني وصفهم بالاستمرار على الإنكار والرمز إلى استدلال ظاهر الفساد مع أنه لا محذور في تكرار ما يدل على الإنكار

وهو توطئة وتمهيد لبيان فساده ، والمراد بقولهم : كنا تراباً وعظاماً كان بعض أجزائنا من اللحم والجلد ونحوهما تراباً وبعضها عظاماً نخرة ، وتقديم التراب لأنه أبعد عن الحياة التي يقتضيها ما هم بصدد إنكاره من البعث ، وإذا متمحضة للظرفية والعامل فيها ما يدل عليه قوله تعالى :

(245/743)

﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ لا مبعوثون نفسه لتعدد ما يمنع من عمل ما بعده فيما قبله وهو نبعث وهو المرجع للإنكار وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيص إنكاره به فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت وإن كان البدن على حاله لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إليه في حالة منافية له بالكلية وهذا كالاستدلال على ما يزعمونه ، وتكرير الهمزة لتأكيد النكير وتحلية الجملة بأن لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد ، وقوله سبحانه :

أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (48)

عطف على محل إن واسمها .

أو على الضمير المستتر في مبعوثون وحسن للفصل بالهمزة إن كانت حرفاً واحداً كما قال الزمخشري ولا يضر عمل ما قبل هذه الهمزة في المعطوف بعدها لأنها مكررة للتأكيد وقد

زحلقت عن مكانها ، وقولهم : الحرف إذا كرر للتأكيد فلا بد أن يعاد معه ما اتصل به أولاً أو ضمير لا يسلم إطراده لورود

.

ولا لما بهم أبداً دواء . . .

وأمثاله ، وجوز أن يكون ﴿ ءَابَاؤُنَا ﴾ مبتدأ وخبره محذوف دل عليه ما قبل أي مبعوثون ، والجملة عطف على الجملة السابقة وهو تكلف يغني عنه العطف المذكور المعنى أيبعث أيضاً آباؤنا على زيادة الاستبعاد يعنون أنهم أقدم فبعثهم أبعد وأبطل ، وقرأ قالون . وابن عامر ﴿ أَوَءَابَاؤُنَا ﴾ بإسكان الواو وعلى هذه القراءة لا يعطف على الضمير إذ لا فاصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(246/743)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) ﴾

إفضاء إلى الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة ، وهم أصحاب المشاقّة .

والقول في جملة : ﴿ ما أصحاب الشمال ﴾ وموقع جملة ﴿ في سموم ﴾ بعدها كالقول

في جملة ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود ﴾ [الواقعة : 27 ، 28] .

والسموم : الريح الشديد الحرارة الذي لا بلل معه وكأنه مأخوذ من السُّمّ ، وهو ما يهلك إذ لاقى البدن .

والحميم : الماء الشديد الحرارة .

واليحموم : الدخان الأسود على وزن يفعول مشتق من الحُمَم بوزن صُرَد اسم للفحم .

والحُممة : الفحمة ، فجاءت زنة يفعول فيه اسماً ملحوظاً فيه هذا الاشتقاق وليس ينقاس .

وحرف ﴿ مِن ﴾ بيانية إذ الظل هنا أريد به نفس اليحموم ، أي الدخان الأسود .

ووصف ﴿ ظل ﴾ بأنه ﴿ من يحموم ﴾ للإِشعار بأنه ظل دخان لَهب جهنم ، والدخان الكثيف له ظل لأنه بكثافته يحجب ضوء الشمس ، وإنما ذكر من الدخان ظله لمقابلته بالظل الممدود المُعدّ لأصحاب اليمين في قوله : ﴿ وظل ممدود ﴾ [الواقعة : 30] ، أي لا ظل لأصحاب الشمال سِوى ظِل اليحموم .

وهذا من قبيل التهكم .

ولتحقيق معنى التهكم وصف هذا الظل بما يفيد نفي البرد عنه ونفي الكرم ، فبرد الظلّ ما يحصل في مكانه من دفع حرارة الشمس ، وكرمُ الظلّ ما فيه من الصفات الحسنة في الظلال مثل سلامته من هبوب السموم عليه ، وسلامة الموضع الذي يظله من الحشرات والأوساخ ، وسلامة أرضه من الحجارة ونحو ذلك إذ الكريم من كل نوع هو الجامع لأكثر محاسن نوعه ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ إني ألقي إليّ كتاب كريم ﴾ في سورة سليمان (29) ، فوُصف ظلّ اليحموم بوصف خاص وهو انتفاء البرودة عنه واتبع بوصف عام وهو انتفاء كرامة الظلال عنه ، ففي الصفة بنفي محاسن الظلال تذكير للسامعين بما حُرم منه أصحاب الشمال عسى أن يحذروا أسباب الوقوع في الحرمان ، ولإفادة هذا التذكير عدل عن وصف الظلّ بالحرارة والمضرّة إلى وصفه بنفي البرد ونفي الكرم .

إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (45)

تعليل لما يلقاه أصحاب الشمال من العذاب ، فيتعيّن أن ما تضمنه هذا التعليل كان من أحوال كفرهم وأنه مما له أثر في إلحاق العذاب بهم بقرينة عطف ﴿ وكانوا يصرون على الحنث . . .

وكانوا يقولون ﴾ الخ عليه .

فأمّا إصرارهم على الحنث وإنكارهم البعث فلا يخفى تسببه في العذاب لأن الله توعدهم

عليه فلم يقلعوا عنه ، وإنما يبقى النظر في قوله : ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ﴾ فإن الترف في العيش ليس جريمة في ذاته وكم من مؤمن عاش في ترف ، وليس كل كافر مُترفاً في عيشه ، فلا يكون الترف سبباً مستقلاً في تسبب الجزاء الذي عوملوا به .

(248/743)

فتأويل هذا التعليل : إما بأن يكون الإتراف سبباً باعتبار ضميمة ما ذُكر بعده إليه بأن كان إصرارهم على الحنث وتكذيبهم بالبعث جريمتين عظمتين لأنهما محفوفتان بكفر نعمة الترف التي خولهم الله إياها على نحو قوله تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ [الواقعة : 82] فيكون الإِتراف جُزءَ سبب وليس سبباً مستقلاً ، وفي هذا من معنى قوله تعالى : ﴿ وذَرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً ﴾ [المزمل : 11] .

وإما بأن يراد أن الترف في العيش عَلّق قلوبهم بالدنيا واطمأنوا بها فكان ذلك مُملياً على خواطرهم إنكار الحياة الآخرة ، فيكون المراد الترف الذي هذا الإِنكار عارض له وشديد الملازمة له ، فوزانه وزان قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ [محمد : 12] .

وفسر ﴿ مترفين ﴾ بمعنى متكبرين عن قبول الحقّ .

والمترف : اسم مفعول من أترفه ، أي جعله ذا ترفة بضم التاء وسكون الراء ، أي نعمة واسعة ، وبناؤه للمجهول لعدم الإحاطة بالفاعل الحقيقي للإتراف كشأن الأفعال التي التزم فيها الإسناد المجازي العقلي الذي ليس لمثله حقيقة عقلية ، ولا يقدّر بنحو : أترفه الله ، لأن العرب لم يكونوا يقدّرون ذلك فهذا من باب : قال قائل ، وسأل سائل .

وإنما جعل أهل الشمال مترَفين لأنهم لا يخلو واحد منهم عن ترف ولو في بعض أحواله وأزمانه من نعم الأكل والشرب والنساء والخمر ، وكل ذلك جدير بالشكر لواهبه ، وهم قد لابسوا ذلك بالإشراك في جميع أحوالهم ، أو لأنهم لما قصروا انظارهم على التفكير في العيشة العاجلة صرفهم ذلك عن النظر والاستدلال على صحة ما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم فهذا وجه جعل الترف في الدنيا من أسباب جزائهم الجزاء المذكور .

(249/743)

والإِشارة في قوله : ﴿ قبل ذلك ﴾ إلى ﴿ سموم وحميم وظل من يحموم ﴾ [الواقعة : 42 ، 43] بتأويلها بالمذكور ، أي كانوا قبل اليوم وهو ما كانوا عليه في الحياة الدنيا .

والحِنث : الذنب والمعصية وما يتخرج منه ، ومنه قولهم : حنث في يمينه ، أي أهمل ما حلف عليه فجر لنفسه حرجاً .

ويجوز أن يكون الحنث حنث اليمين فإنهم كانوا يقسمون على أن لا بَعثَ ، قال تعالى: ﴿ وأقسَموا بالله جَهدَ أيمانهم لا يبعثُ الله من يموت ﴾ [النحل : 38] ، فذلك من الحنث العظيم ، وقال تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليومنن بها ﴾ [الأنعام : 109] وقد جاءتهم آية إعجاز القرآن فلم يؤمنوا به .

والعظيم : القوي في نوعه ، أي الذنب الشديد والحنث العظيم هو الإِشراك بالله .

وفي حديث ابن مسعود أنه قال : " قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تدعو لله نداً وهو خلقك " وقال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] .

ومعنى ﴿ يصرون ﴾ : يثبتون عليه لا يقبلون زحزحة عنه ، أي لا يضعون للدعوة إلى النظر في بطلان عقيدة الشرك .

وصيغة المضارع في ﴿ يصرون ﴾ و ﴿ يقولون ﴾ تفيد تكرر الإصرار والقول منهم .

وذكر فعل ﴿ كانوا ﴾ لإِفادة أن ذلك ديدنهم .

والمراد من قوله : ﴿ وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً ﴾ الخ أنهم كانوا يعتقدون استحالة البعث بعد تلك الحالة .

ويناظرون في ذلك بأن القول ذلك يستلزم أنهم يعتقدون استحالة البعث .

والاستفهام إنكاري كناية عن الإحالة والاستبعاد ، وتقدم نظير : ﴿ أإذا متنا وكنا تراباً ﴾ الخ في سورة الصافات .

وقرأ الجمهور ﴿ أإذا متنا ﴾ بإثبات الاستفهام الأول والثاني ، أي إذا متنا أإنا .

وقرأه نافع والكسائي وأبو جعفر بالاستفهام في ﴿ أإذا متنا ﴾ والإِخبار في ﴿ إنّا لمبعوثون ﴾ .

(250/743)

وقرأ الجمهور : ﴿ أو آباؤنا ﴾ ، بفتح الواو على أنها واو عطف عطفت استفهاماً على استفهام ، وقدمت همزة الاستفهام على حرف العطف لصدارة الاستفهام ، وأعيد الاستفهام توكيداً للاستبعاد .

والمراد بالقول في قوله : ﴿ وكانوا يقولون ﴾ الخ انهم يعتقدون استجابة مدلول ذلك الاستفهام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(251/743)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والأربعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع والأربعون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 49 ﴾ من (سورة الواقعة)

وحتى الآية ﴿ 87 ﴾ من السورة

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (55) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (56) نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (57) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانوا في غاية الجلافة ، رد إنكارهم بإثبات ما نفوه ، وزادهم الإخبار بإهانتهم ثم دل على صحة ذلك بالدليل العقلي لمن يفهمه ، فقال مخاطباً لأعلى الخلق وأوقفهم به لأن هذا المقام لا يذوقه حق ذوقه إلا هو كما أنه لا يقوم بتقريره لهم والرفق بهم إلا هو : ﴿ قل ﴾ أي لهم ولكل من كان مثلهم ، وأكد لإنكارهم : ﴿ إن الأولين ﴾ الذين جعلتم الاستبعاد فيهم أولياً ، ونص على الاستغراق بقوله : ﴿ والآخرين ﴾ ودل على سهولة بعثهم وأنه في غاية الثبات ، منبهاً على أن نقلهم بالموت والبلى تحصيل لا تفويت : ﴿ لمجموعون ﴾ بصيغة اسم المفعول ، في المكان الذي يكون فيه الحساب .

ولما كان جمعهم بالتدريج ، عبر بالغاية فقال : ﴿ إلى ميقات ﴾ أي زمان ومكان ﴿ يوم

معلوم ﴾ أي معين عند الله ، ومن شأنه أن يعلم بما عنده من الأمارات ، والميقات : ما وقت به الشيء من زمان أو مكان أي حد .

(5/744)

ولما كان زمان البعث متراخياً عن نزول القرآن ، عبر بأداته وأكد لأجل إنكارهم فقال : ﴿ ثم ﴾ أي بعد البعث بعد الجمع المدرج ﴿ إنكم ﴾ وأيد ما فهمه من أصحاب الشمال هم القسم الأدنى من أصحاب المشأمة فقال : ﴿ أيها الضالون ﴾ أي الذين غلبت عليه الغباوة فيهم لا يفهمون ، ثم أتبع ذلك ما أوجب الحكم عليهم بالضلال فقال : ﴿ المكذبون ﴾ أي تكذيباً ناشئاً عن الضلال والتقيد بما لا يكذب به إلا عريق في التكذيب بالصدق ﴿ لآكلون من شجر ﴾ منبته النار .

(6/744)

ولما كان الشجر معدن الثمار الشهية كالسدر والطلح ، بينه بقوله : ﴿ من زقوم ﴾ أي شيء هو في غاية الكراهة والبشاعة في المنظر ونتن الرائحة والأذى ، قال أبو عبد الله القزاز

في ديوانه الجامع وعبد الحق في واعيه : الزقم : شوب اللبن والإفراط فيه ، يقال : بات يزقم اللبن زقماً ، ومن هذا الزقوم الذي ذكره الله تبارك وتعالى ، وقالا : قال أبو حنيفة : الزقوم شجرة غبراء صغيرة الورق لا شوك لها زفرة لها كعابر في رؤوسها ولها ورد تجرشه النحل ، ونورها أبيض ورأس ورقها قبيح جداً ، وهي مرعى ، ومنابتها السهل ، وقال في القاموس : في الدفر بالدال المهملة ، الدفر – بالتحريك : وقوع الدود في الطعام والذل والنتن ، ويسكن ، وقال في المعجمة : الذفر – محركة : شدة ذكاء الريح كالذفرة أو يخص برائحة الإبط المنتن ، والنتن وماء الفحل ، والذفراء من الكتائب : السهكة من الحديد ، والكعبرة بضمتين عين وراء مهملتين : عقدة أنبوب الزرع ، وعن السهيلي أن أبا حنيفة ذكر في النبات أن شجرة باليمن يقال لها الزقوم لا ورق لها ، وفروعها أشبه شيء برؤوس الحيات ، وقال البيضاوي : شجرة صغيرة الورق دفرة مرة تكون بتهامة ، وفي القاموس : والزقمة : الطاعون وقال في النهاية : فعول من الزقم : اللقم الشديد والشرب المفرط ، وقال ابن القطاع : زقم زقماً : بلع ، وقد علم من مجموع هذا الكلام تفسيره بالطاعون تارة والشرب المفرط أخرى ، ومن الاشتراط والشجرة المنتنة والبشعة المنظر أنه شيء كريه يضطر آكله إلى التملؤ منه بنهمة وهمة عظيمة ، ومن المعلوم أن الحامل له على هذا مع هذه الكراهة لا يكون إلا في أعلى طبقات الكراهة ، ولذلك حسن جداً موقع قوله مسبباً عن الأكل : ﴿ فمالئون ﴾ أي ملأً هو في غاية الثبات وأنتم في غاية الإقبال عليه مع ما هو عليه من عظيم الكراهة ﴿ منها ﴾

أي الشجر ، أنثه لأنه جمع شجر أو هو اسم جنس ، وهم يكرهون الإناث فتأنيثه – والله أعلم – زيادة في تنفيرهم

(7/744)

منه ﴿ البطون ﴾ أي لشيء عجيب يضطركم إلى تناول هذا الكريه مما هو أشد منه كراهة بطبقات من جوع أو غيره ، وإن فسرت بما قالوا من أنه معروف لهم أنه الزبد بالتمر لم يضر ذلك بل يكون المعنى أنهم يتملؤون منها تملأ من يأكل من هذا في الدنيا مع أنه من المعلوم أنه لا شيء في النار المعدة للعذاب لمن أعدت لعذابه حسن .

ولما كان من يأكل كثيراً يعطش عطشاً شديداً فيشرب ما قدر عليه رجاء تبريد ما به من حرارة العطش ، سبب عنه قوله : ﴿ فشاربون عليه ﴾ أي على هذا المليء أو الأكل ﴿ من الحميم ﴾ أي الماء الذي هو في غاية الحرارة بحث ضوعف إحماؤه وإغلاؤه .

ولما كان شربهم لأدنى قطرة من ذلك في غاية العجب ، أتبعه ما هو أعجب منه وهو شدة تملئهم منه فقال مسبباً عما مضى : ﴿ فشاربون ﴾ أي منه ﴿ شرب ﴾ بالفتح في قراءة الجماعة وبالضم لنافع وعاصم وحمزة ، وقرئ شاذاً بالكسر والثلاثة مصادر ، قال في القاموس : وشرب كسمع شرباً ويثلث أ والشراب مصدر وبالضم والكسر اسمان ،

وبالفتح القوم : يشربون ، وبالكسر : الماء والحظ منه ، والمورد ووقت الشرب ، والكل يصلح هنا ﴿ الهيم ﴾ أي الإبل العطاش لأن بها الهيام وهو داء يشبه الاستسقاء جمع أهيم ، وقال القزاز : جمع هيماء وهو أي – اليهام – بالضم : داء يصيب الإبل فتشرب ولا تروى – انتهى .

وقال : ذو الرمة :

فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد . . .

صداها ولا يقضي عليها هيامها

ويقال : الهيم : الرمل ، ينصب فيه كل ما صب عليه ، والمعنى أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى الأكل ثم من العطش ما يضطرهم إلى الشرب على هذه الهيئة .

(8/744)

ولما كان كأنه قيل : هذا عذابهم كله ، قيل تهكماً بهم ونكاية لهم : ﴿ هذا نزلهم ﴾ أي ما يعد لهم أول قدومهم مكان ما يعد للضيف أول حلوله كرامة له ﴿ يوم الدين ﴾ أي الجزاء الذي هو حكمة القيامة ، وإذا كان هذا نزلهم فما ظنك بما يأتي بعده على طريق من يعتني به فما ظنك بما يكون لمن هو أغنى منهم من المعاندين وهو في طريق التهكم مثل قول أبي

الشعراء الضبي :

وكنا إذا الجبار بالسيف ضافنا . . .

جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

ولما ذكر الواقعة وما يكون فيها للأصناف الثلاثة ، وختم بها على وجه بين فيه حكمتها وكانوا ينكرونها ، دل عليه بقوله : ﴿ نحن ﴾ أي لا غيرنا ﴿ خلقناكم ﴾ أي بما لنا من العظمة ، ولعل هذا الخطاب للدهرية المعطلة من العرب .

ولما كانوا منكرين للبعث عدوا منكرين للابتداء وإن كانوا من المخلصة بالمقريب بالخلق لأنهما لما بينهما من الملازمة لا انفكاك لأحدهما عن الآخر فقال : ﴿ فلولا ﴾ أي فتسبب عن ذلك أن يقال تهديداً ووعيداً : هلا ولم لا ﴿ تصدقون ﴾ أي بالخلق الذي شاهدتموه ولا منازع لنا فيما فيه فتصدقوا بما لا يفرق بينه وبينه إلا بأن يكون أحق منه في مجاري عاداتكم ، وهو الإعادة فتعملوا عمل العبيد لساداتهم ليكون حالكم حال مصدق بأنه مربوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 415.413 ﴾

(9/744)

فصل

قال الفخر :

ثم إن الله تعالى أجابهم ورد عليهم في الجواب في كل مبالغة بمبالغة أخرى فقال :

قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50)

(10/744)

فقوله : ﴿ قُلْ ﴾ إشارة إلى أن الأمر في غاية الظهور ، وذلك أن في الرسالة أسراراً لا تقال إلا للأبرار ، ومن جملتها تعيين وقت القيامة لأن العوام لو علموا لاتَّكلوا والأنبياء ربما اطلعوا على علاماتها أكثر مما بينوا وربما بينوا للأكابر من الصحابة علامات على ما نبين ففيه وجوه أولها : قوله : ﴿ قُلْ ﴾ يعني أن هذا من جملة الأمور التي بلغت في الظهور إلى حد يشترك فيه العوام والخواص ، فقال : قل قولاً عاماً وهكذا في كل موضع ، قال : قل كان الأمر ظاهراً ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] وقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [الكهف : 110] وقال : ﴿ قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء : 85] أي هذا هو الظاهر من أمر الروح وغيره خفي ثانيها : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأولين والأخرين ﴾ بتقديم الأولين على الآخرين في جواب قولهم : ﴿ أَوَءابَاؤُنَا الأولون ﴾ [الواقعة : 48]

فإنهم أخروا ذكر الآباء لكون الاستبعاد فيهم أكثر ، فقال إن الأولين الذين تستبعدون بعثهم وتؤخرونهم يبعثهم الله في أمر مقدم على الآخرين ، يتبين منه إثبات حال من أخرتموه مستبعدين ، إشارة إلى كون الأمر هيناً ثالثها : قوله تعالى : ﴿ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ فإنهم أنكروا قوله : ﴿ لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الواقعة : 47] فقال : هو واقع مع أمر زائد ، وهو أنهم يحشرون ويجمعون في عرصة الحساب ، وهذا فوق البعث ، فإن من بقي تحت التراب مدة طويلة ثم حشر ربما لا يكون له قدرة على الحركة ، وكيف لو كان حياً محبوساً في قبره مدة لتعذرت عليه الحركة ، ثم إنه تعالى بقدرته يحركه بأسرع حركة ويجمعه بأقوى سير ، وقوله تعالى : ﴿ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ فوق قول القائل : مجموعون كما قلنا : إن قول قول القائل : إنه يموت في إفادة التوكيد دون قوله : إنه ميت رابعها : قوله تعالى : ﴿ إلى ميقات يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ فإنه يدل على أن الله تعالى يجمعهم في يوم واحد معلوم ،

(11/744)

واجتماع عدد من الأموات لا يعلم عددهم إلا الله تعالى في وقت واحد أعجب من نفس البعث وهذا كقوله تعالى في سورة والصافات : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ واحدة ﴾ [الصافات : 19] أي أنتم تستبعدون نفس البعث ، والأعجب من هذا أنه يبعثهم بزجرة واحدة أي

صيحة واحدة : ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ أي يبعثون مع زيادة أمر ، وهو فتح أعينهم ونظرهم ، بخلاف من نعس فإنه إذا انتبه يبقى ساعة ثم ينظر في الأشياء ، فأمر الإحياء عند الله تعالى أهون من تنبيه نائم خامسها : حرف ﴿ إلى ﴾ أدل على البعث من اللام ، ولنذكر هذا في جواب سؤال هو أن الله تعالى قال : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجمع ﴾ [التغابن : 9] وقال هنا : ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إلى ميقات يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ ولم يقل : لميقاتنا وقال : ﴿ وَلَمَّا جَاء موسى لميقاتنا ﴾ [التغابن : 143] نقول : لما كان ذكر الجمع جواباً للمنكرين المستبعدين ذكر كلمة ﴿ إلى ﴾ الدالة على التحرك والانتقال لتكون أدل على فعل غير البعث ولا يجمع هناك قال : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ﴾ ولا يفهم النشور من نفس الحرف وإن كان يفهم من الكلام ، ولهذا قال ههنا : ﴿ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ بلفظ التأكيد ، وقال هناك : ﴿ يَجْمَعُكُمْ ﴾ وقال ههنا : ﴿ إلى ميقات ﴾ وهو مصير الوقت إليه ، وأما قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآء موسى لميقاتنا ﴾ فنقول : الموضع هناك لم يكن مطلوب موسى عليه السلام ، وإنما كان مطلوبه الحضور ، لأن من وقت له وقت وعين له موضع كانت حركته في الحقيقة لأمر بالتبع إلى أمر ، وأما هناك فالأمر الأعظم الوقوف في موضعه لا زمانه فقال بكلمة دلالتها على الموضع والمكان أظهر .

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51)

في تفسير الآيات مسائل :

المسألة الأولى :

(12/744)

الخطاب مع من ؟ نقول : قال بعض المفسرين مع أهل مكة ، والظاهر أنه عام مع كل ضال مكذب وقد تقدم مثل هذا في مواضع ، وهو تمام كلام النبي صلى الله عليه وسلم كأنه تعالى قال لنبيه : قل إن الأولين والآخرين لمجموعون ثم إنكم تعذبون بهذه الأنواع من العذاب .

المسألة الثانية :

قال ههنا : ﴿ الضالون المكذبون ﴾ بتقديم الضال وقال في آخر السورة : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضالين ﴾ [الواقعة : 92] بتقديم المكذبين ، فهل بينهما فرق ؟ قلت : نعم ، وذلك أن المراد من الضالين ههنا هم الذين صدر منهم الإصرار على الحنث العظيم ، فضلوا في سبيل الله ولم يصلوا إليه ولم يوحدوه ، وذلك ضلال عظيم ، ثم كذبوا رسله وقالوا : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا ﴾ فكذبوا بالحشر ، فقال : ﴿ أَيُّهَا الضالون ﴾ الذين أشركتم : ﴿ المكذبون ﴾ الذين أنكرتم الحشر لتأكلون ما تكرهون ، وأما هناك فقال لهم : ﴿ أَيُّهَا المكذبون ﴾ الذين كذبتم بالحشر : ﴿ الضالون ﴾ في طريق الخلاص الذين لا يهتدون إلى

النعيم ، وفيه وجه آخر وهو أن الخطاب هنا مع الكفار فقال : يا أيها الذين ضللتم أولاً وكذبتم ثانياً ، والخطاب في آخر السورة مع محمد صلى الله عليه وسلم يبين له حال الأزواج الثلاثة فقال : المقربون في روح وريحان وجنة ونعيم ، وأصحاب اليمين في سلام ، وأما المكذبون الذين كذبوا فقد ضلوا فقدم تكذيبهم إشارة إلى كرامة محمد صلى الله عليه وسلم حيث بين أن أقوى سبب في عقابهم تكذيبهم والذي يدل على أن الكلام هناك مع محمد صلى الله عليه وسلم قوله : ﴿ فسلامٌ لَّكَ مِنْ أصحاب اليمين ﴾ [الواقعة : 91] .

المسألة الثالثة :

(13/744)

ما الزقوم ؟ نقول : قد بيناه في موضع آخر واختلف فيه أقوال الناس ومآل الأقوال إلى كون ذلك في الطعم مراً وفي اللمس حاراً ، وفي الرائحة منتناً ، وفي المنظر أسود لا يكاد آكله يسيغه فيكره على ابتلاعه ، والتحقيق اللغوي فيه أن الزقوم لغية عربية دلنا تركيبه على قبحه ، وذلك لأن زق لم يجتمع إلا في مهمل أو في مكروه منه مزق ، ومنه زمق شعره إذا نتفه ، ومنه القزم للدناءة ، وأقوى من هذا أن القاف مع كل حرف من الحرفين الباقيين يدل على المكروه في أكثر الأمر ، فالقاف مع الميم قمامة وقمقمة ، وبالعكس مقامق ، الغليظ الصوت

والقمقمة هو السور ، وأما القاف مع الزاي فالزق رمي الطائر بذرقه ، والزقزقة الخفة ، وبالعكس القزنوب فينفر الطبع من تركيب الكلمة من حروف اجتماعها دليل الكراهة والقبح ، ثم قرن بالأكل فدل على أنه طعام ذو غضة ، وأما ما يقال بأن العرب تقول : زقمتني بمعنى أطعمتني الزبد والعسل واللبن ، فذلك للمجانة كقولهم : أرشقني بثوب حسن ، وأرجمني بكيس من ذهب ، وقوله : ﴿ مِن شَجَرٍ ﴾ لابتداء الغاية أي تناولكم منه ، وقوله : ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا ﴾ زيادة في بيان العذاب أي لا يكتفى منكم بنفس كما الأكل يكتفي من يأكل الشيء لتحلة القسم ، بل يلزمون بأن تملأوا منها البطون والهاء عائدة إلى الشجرة ، والبطون يحتمل أن يكون المراد منه مقابلة الجمع بالجمع أي يملأ كل واحد منكم بطنه ويحتمل أن يكون المراد أن كل واحد منكم يملأ البطون ، والبطون حينئذ تكون بطون الأمعاء ، لتخيل وصف المعي في باطن الإنسان له ، كيأكل في سبعة أمعاء ، فيملأون بطون الأمعاء وغيرها ، والأول أظهر ، والثاني أدخل في التعذيب والوعيد ، قوله : ﴿ فشاربون عَلَيْهِ ﴾ أي عقيب الأكل تجر مرارته وحرارته إلى شرب الماء فيشربون على ذلك المأكول وعلى ذلك الزقوم من الماء الحار ، وقد تقدم بيان الحميم ، وقوله : ﴿ فشاربون شُرْبَ الهيم ﴾ بيان أيضاً لزيادة العذاب أي لا يكون

أمركم أمر من شرب ماءاً حاراً منتناً فيمسك عنه بل يلزمكم أن تشربوا منه مثل ما تشرب الهيم وهي الجمال التي أصابها العطش فتشرب ولا تروى ، وهذا البيان في الشرب لزيادة العذاب ، وقوله : ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا ﴾ في الأكل ، فإن قيل : الأهيم إذا شرب الماء الكثير يضره ولكن في الحال يلتذ به ، فهل لأهل الجحيم من شرب الحميم الحار في النار لذة ؟ قلنا : لا ، وإنما ذلك لبيان زيادة العذاب ، ووجهه أن يقال : يلزمون بشرب الحميم ولا يكتفي منهم بذلك الشرب بل يلزمون أن يشربوا كما يشرب الجمل الأهيم الذي به الهيام ، أو هم إذا شربوا تزداد حرارة الزقوم في جوفهم فيظنون أنه من الزقوم لا من الحميم فيشربون منه شيئاً كثيراً بناء على وهم الري ، والقول في الهيم كالقول في البيض ، أصله هوم ، وهذا من هام يهيم كأنه من العطش يهيم ، والهيام ذلك الداء الذي يجعله كالهائم من العطش .

هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (56)

يعني ليس هذا كل العذاب بل هذا أول ما يلقونه وهو بعض منه وأقطع لأمعائهم .

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (57)

دليلاً على كذبهم وصدق الرسل في الحشر لأن قوله : ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ إلزام على الإقرار بأن الخالق في الابتداء هو الله تعالى ، ولما كان قادراً على الخلق أولاً كان قادراً على الخلق ثانياً ، ولا مجال للنظر في ذاته وصفاته تعالى وتقدس ، وإن لم يعترفوا به ، بل يشكون ويقولن : الخلق الأول من مني بحسب الطبيعة ، فنقول : المنى من الأمور الممكنة ولا وجود للممكن بذاته بل بالغير على ما عرف ، فيكون المنى من القادر القاهر ، وكذلك خلق الطبيعة وغيرها من الحادثات أيضاً ، فقال لهم : هل تشكون في أن الله خلقكم أولاً أم لا ؟ فإن قالوا : لا نشك في أنه خالقاً ، فيقال : فهل تصدقون أيضاً بخلقكم ثانياً ؟ فإن من خلقكم أولاً من لا شيء لا يعجز أن يخلقكم ثانياً من أجزاء هي عنده معلومة ، وإن كنتم تشكون وتقولون : الخلق لا يكون إلا من مني وبعد الموت لا والده ولا مني ، فيقال لهم : هذا المني أنتم تخلقونه أم الله ، فإن كنتم تعترفون بالله وبقدرته وإرادته وعمله ، فذلك يلزمكم القول بجواز الحشر وصحته ، و (لولا) كلمة مركبة من كلمتين معناها التحضيض والحث والأصل فيه : لم لا ، فإذا قلت : لم لا أكلت ولم ما أكلت ، جاز الاستفهامان ، فإن معناه لا علة لعدم الأكل ولا يمكنك أن تذكر علة له ، كما تقول : لم فعلت ؟ موبخاً ، يكون معناه فعلت أمراً لا سبب له ولا يمكنك ذكر سبب له ثم إنهم تركوا حرف الاستفهام عن العلة وأتوا بحرف الاستفهام عن الحكم ، فقالوا : هلا فعلت ؟ كما يقولون في موضع : لم فعلت هذا وأنت تعلم فساده ، أتفعل هذا وأنت عاقل ؟ وفيه زيادة حث لأن قول القائل : لم

فعلت حقيقته سؤال عن العلة ، ومعناه أن علته غير معلومة وغير ظاهرة ، فلا يجوز ظهور وجوده ، وقوله : أفعلت ، سؤال عن حقيقته ، ومعناه أنه في جنسه غير ممكن ، والسائل عن العلة كأنه سلم الوجود وجعله معلوماً وسأل عن العلة كما يقول القائل : زيد جاء فلم جاء ، والسائل عن

(16/744)

الوجود لم يسلمه ، وقول القائل : لم فعلت وأنت تعلم ما فيه دون قوله : أفعلت وأنت تعلم ما فيه ، لأن في الأول جعله كالمصيب في فعله لعلة خفية تطلب منه ، وفي الثاني جعله مخطئاً في أول الأمر ، وإذا علم ما بين لم فعلت ، وأفعلت ، علم ما بين لم تفعل وهلا تفعل ، وأما (لولا) فنقول : هي كلمة شرط في الأصل والجملة الشرطية غير مجزومة بها كما أن جملة الاستفهام غير مجزوم به لكن لولا تدل على الاعتساف وتزيد نفي النظر والتواني ، فيقول : لولا تصدقون ، بدل قوله : لم لا ، وهلا ، لأنه أدل على نفي ما دخلت عليه وهو عدم التصديق وفيه لطيفة : وهي أن لولا تدخل على فعل ماض على مستقبل قال تعالى :

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ [التوبة : 122] فما وجه اختصاص المستقبل ههنا بالذكر وهلا قال : فلولا صدقتم ؟ نقول : هذا كلام معهم في الدنيا والإسلام فيها

مقبول ويجب ما قبله فقال : لم لا تصدقون في ساعتكم ، والدلائل واضحة مستمر والفائدة حاصلة ، فأما في قوله : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ ﴾ لم تكن الفائدة تحصل إلا بعد مدة فقال : لو سافرتم لحصل لكم الفائدة في الحال وقد فات ذلك ، فإن كنتم لا تسافرون في الحال تفوتكم الفائدة أيضاً في الاستقبال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 150 . 154 ﴾

(17/744)

وقال القرطبى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الشمال مَا أَصْحَابُ الشمال ﴾

ذكر منازل أهل النار وسماهم أصحاب الشمال ، لأنهم يأخذون كتبهم بشمائلهم ، ثم عظّم ذكرهم في البلاء والعذاب فقال : ﴿ مَا أَصْحَابُ الشمال ﴾ ﴿ فِي سَمُومٍ ﴾ والسموم الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن .

والمراد هنا حرّ النار ولفحها .

﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ أي ماء حار قد انتهى حره ، إذا أحرقت النار أكبادهم وأجسادهم فزعوا إلى الحميم ، كالذي يفزع من النار إلى الماء ليطفىء به الحر فيجده حميماً حارًّا في نهاية الحرارة والغليان .

وقد مضى في "القتال" ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد : 15] .

﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ أي يفزعون من السَّموم إلى الظلّ كما يفزع أهل الدنيا فيجدونه ظلاً من يَحْموم ؛ أي من دخان جهنم أسود شديد السواد .

عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

وكذلك اليَحْموم في اللغة : الشديد السواد وهو يَفْعول من الحَمّ ومن الشَّحْم المسودّ باحتراق النار .

وقيل : هو مأخوذ من الحُمَم وهو الفحم .

وقال الضحاك : النار سوداء وأهلها سود وكل ما فيها أسود .

وعن ابن عباس أيضاً : النار سوداء .

وقال ابن زيد : اليَحْموم جبل في جهنم يستغيث إلى ظله أهل النار .

﴿ لاَّ بَارِدٍ ﴾ بل حار لأنه من دخان شفير جهنم .

﴿ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ عذب ؛ عن الضحاك .

وقال سعيد بن المسيّب : ولا حسن منظره ، وكل ما لا خير فيه فليس بكريم .

وقيل : "وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ" أي من النار يُعذَّبون بها ؛ كقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : 16] .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ أي إنما استحقوا هذه العقوبة لأنهم كانوا في الدنيا متنعمين

بالحرام.

والمتَرف المنعَّم؛ عن ابن عباس وغيره.

وقال السديّ: "مُتْرَفِينَ" أي مشركين.

(18/744)

﴿ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى الحنث العظيم ﴾ أي يقيمون على الشرك؛ عن الحسن والضحاك وابن زيد.

وقال قتادة ومجاهد: الذنب العظيم الذي لا يتوبون منه.

الشعبي: هو اليمين الغَمُوس وهي من الكبائر؛ يقال: حَنِث في يمينه أي لم يَبَرَّها ورجع فيها.

وكانوا يقسمون أن لا بعث، وأن الأصنام أنداد الله فذلك حِنْثهم؛ قال الله تعالى مخبراً عنهم: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل: 38].

وفي الخبر: كان يَتحنَّث في حِرَاء؛ أي يفعل ما يسقط عن نفسه الْحِنث وهو الذنب.

﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا ﴾ هذا استبعاد منهم لأمر البعث وتكذيب له؛ فقال الله تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ إِنَّ الأولين ﴾ من آبائكم ﴿ والآخرين ﴾ منكم ﴿

لَمَجْمُوعُونَ إلى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ يريد يوم القيامة .

ومعنى الكلام القسَم ودخول اللام في قوله تعالى : "لَمَجْمُوعُونَ" هو دليل القسم في المعنى ؛ أي إنكم لمجموعون قسَماً حقاً خلاف قسمكم الباطل ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضالّون ﴾ عن الهدى ﴿ المكذبون ﴾ بالبعث ﴿ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ وهو شجر كريه المنظر ، كريه الطّعم ، وهي التي ذكرت في سورة

﴿ والصافات ﴾ [الصافات : 62] .

﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ أي من الشجرة ؛ لأن المقصود من الشجر شجرة .

ويجوز أن تكون "من" الأولى زائدة ، ويجوز أن يكون المفعول محذوفاً كأنه قال : ﴿ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ طعاماً .

وقوله : ﴿ مِّن زَقُّومٍ ﴾ صفة لشجر ، والصفة إذا قدّرت الجار زائداً نصبت على المعنى ، أو جررتَ على اللفظ ، فإن قدرت المفعول محذوفاً لم تكن الصفة إلا في موضع جر .

قوله تعالى : ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ ﴾ أي على الزقوم أو على الأكل أو على الشجر ؛ لأنه يذكر ويؤنث .

(19/744)

﴿ مِنَ الحميم ﴾ وهو الماء المغليّ الذي قد اشتد غليانه وهو صديد أهل النار .

أي يورثهم حَرّ ما يأكلون من الزقوم مع الجوع الشديد عطشاً فيشربون ماء يظنون أنه يزيل العطش فيجدونه حميماً مُغْلًى .

قوله تعالى : ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهيم ﴾ قراءة نافع وعاصم وحمزة "شُرْبَ" بضم الشين . الباقون بفتحها لغتان جيدتان ؛ تقول العرب : شَرِبت شُرْباً وشَرْباً وشِرْباً وشُرُباً بضمتين .

قال أبو زيد : سمعت العرب تقول بضم الشين وفتحها وكسرها ، والفتح هو المصدر الصحيح ؛ لأن كل مصدر من ذوات الثلاثة فأصله فَعْل ، ألا ترى أنك ترده إلى المرة الواحدة ؛ فتقول : فَعْلة نحو شَرْبة وبالضم الاسم .

وقيل : إن المفتوح والاسم مصدران ، فالشَّرْب كالأكل ، والشُّرب كالذُّكْر ، والشِّرْب بالكسر المشروب كالطِّحْن المطحون .

والهِيم الإبل العِطاش التي لا تَرْوى لداء يصيبها ؛ عن ابن عباس وعِكرمة وقَتادة والسُّديّ وغيرهم ؛ وقال عكرمة أيضاً : هي الإبل المِراض .

الضحاك : الهيم الإبل يصيبها داء تعطش منه عطشاً شديداً ، واحدها أَهْيَم والأنثى هَيْماء .

ويقال لذلك الداء الهُيَام ؛ قال قيس بن الملوّح :

يقال بِه داء الهُيَامِ أصابه . . .

وقد عِلمت نفسي مكانَ شِفائِها

وقوم هِيم أيضاً أي عِطاش ، وقد هاموا هُيَاماً .

ومن العرب من يقول في الإبل : هائم وهائمة والجمع هيم ؛ قال لَبِيد :

أَجَزْتُ إلى معارِفها بِشُعْثٍ . . .

وأَطْلاَحٍ مِن العِيدِيِّ هِيم

وقال الضحاك والأخفش وابن عيينة وابن كيسان : الهيم الأرض السهلة ذات الرمل .

وروي أيضاً عن ابن عباس : فيشربون شرب الرمال التي لا ترْوى بالماء .

المهدوي : ويقال لكل ما لا يروى من الإبل والرمل أهيم وهيماء .

وفي الصحاح : والهُيَام بالضم أشد العطش .

والهُيَام كالجنون من العشق .

والهُيَام داء يأخذ الإبل فتهيم في الأرض لا ترعى .

يقال : ناقة هَيْماء .

والهيماء أيضاً المفازة لا ماء بها .

(20/744)

والهَيام بالفتح : الرمل الذي لا يتماسك أن يسيل من اليد لِلينه والجمع هِيم مثل قَذَالٍ وقُذُلٍ .

والهِيَام بالكسر الإبل العطاش الواحد هيمان ، وناقة هيماء مثل عطشان وعطشى .

قوله تعالى : ﴿ هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدين ﴾ أي رزقهم الذي يُعدّ لهم ، كالنزل الذي يعدّ للأضياف تكرمةً لهم ، وفيه تهكُّم ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران : 21] وكقول أبي السّعد الضَّبيّ :

وكنا إذا الْجَبَّارُ بالجيشِ ضَافَنَا . . .

جعلنا القَنَا والمرهفاتِ له نُزْلاَ

وقرأ يونس بن حبيب وعباس عن أبي عمرو "هَذَا نُزْلُهُمْ" بإسكان الزاي ؛ وقد مضى في آخر "آل عمران" القول فيه .

﴿ يَوْمَ الدين ﴾ يوم الجزاء ، يعني في جهنم .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ ﴾ أي فهلاّ تصدّقون بالبعث ؟ لأن الإعادة كالابتداء .

وقيل : المعنى نحن خلقنا رزقكم فهلاّ تصدّقون أن هذا طعامكم إن لم تؤمنوا ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وأصحاب الشمال ﴾

شروعٌ في تفصيلِ أحوالِهم التي أُشير عند التنويعِ إلى هولِها وفظاعتِها بعدَ تفصيلِ حسنِ حالِ أصحابِ اليمينِ . والكلامُ في قولِه تعالى : ﴿ مَا أصحاب الشمال ﴾ عينُ ما فُصِّلَ في نظيرِه وكذا في قولِه تعالى ﴿ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ والسَّمومُ حرُّ نارٍ ينفذُ في المسامِّ والحميمُ المُتناهِي في الحرارةِ . ﴿ وَظِلٍّ مّن يَحْمُومٍ ﴾ منْ دُخانٍ أسودَ بهيمٍ ﴿ لاَّ بَارِدٍ ﴾ كسائرِ الظلالِ ﴿ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ فيه خيرٌ ما في الجملة سُمّيَ ذلكَ ظلاًّ ثم نُفى عنه وصفاهُ البردُ والكرمُ الذي عبر به عن دفع أذى الحر لتحقيقِ أنه ليس بظلَ وقرىءَ لا باردٌ ولا كريمٌ بالرفعِ أي لا هُو باردٌ ولا كريمٌ . وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ تعليلٌ لابتلائِهم بما ذُكِرَ من العذابِ أي إنَّهم كانُوا قبلَ ما ذُكِرَ من سُوءِ العذابِ في الدُّنيا منعّمينَ بأنواعِ النعمِ من المآكلِ والمشاربِ والمساكنِ الطيبةِ والمقاماتِ الكريمةِ منهمكينَ في الشهواتِ فلا جرمَ عُذبُوا بنقائضِها .

﴿ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى الحنث العظيم ﴾

أي الذنبِ العظيمِ الذي هو الشركُ ومنه قولُهم بلغَ الغلامُ الحنثَ أي الحُلُمَ وقتَ المؤاخذةِ بالذنبِ ﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ ﴾ لغايةِ عُتوّهم وعنادِهم ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما ﴾ أي كانَ بعضُ أجزائِنا من اللحمِ والجلدِ تراباً وبعضُها عظاماً نخرةً وتقديمُ الترابِ لعراقتِه في الاستبعادِ وانقلابه من الأجزاء البادية ، وإذا متمحّضة للظرفي والعامل فيها ما دل عليه ، قوله تعالى ﴿ أئنا لمبعثونَ ﴾ لا نفسه لأن مَا بعد أنَّ واللامِ والهمزةِ لا يعملُ فيما قبلَها وهو نُبعثُ وهو المرجعُ للإنكارِ ، وتقييدُه بالوقتِ المذكورِ ليس لتخصيصِ إنكارِه به فإنَّهم منكرون للإحياءِ بعد الموتِ وإن كان البدنُ على حالِه بل لتقويةِ الإنكارِ للبعثِ بتوجيهه إليه في حالةٍ منافيةٍ له بالكليةِ ، وتكريرُ الهمزةِ لتأكيدِ النكيرِ وتحليةُ الجملةِ بأنَّ لتأكيدِ الإنكارِ لا لإنكارِ التأكيدِ كما عسى يتوهمُ من ظاهرِ النظمِ فإن تقديمَ الهمزةِ لاقتضائِها الصدارةَ كما في مثلِ قولِه تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ على رأي الجمهورِ فإن المعنى عندهم تعقيبُ الإنكارِ لا إنكارُ التعقيبِ كما هو المشهورُ وليس مدارُ إنكارِهم كونَهم ثابتينَ في المبعوثية بالفعل في حال كونِهم تراباً وعظاماً بل كونِهم بعرضيةِ ذلك واستعدادِهم ومرجعُه إلى إنكارِ البعثِ بعد تلك الحالةِ ، وفيه من الدلالة على غلوهم في الكفر وتماديهم في الضلال ما لا مزيدَ عليه وتكريرُ الهمزةِ في قولِه تعالى :

(23/744)

﴿ أَوَءابَاؤُنَا الأولون ﴾ لتأكيد النكيرِ والواوُ للعطفِ على المستكنّ في لمبعوثونَ وحسُن ذلك الفصلُ بالهمزة يعنون أنَّ بعثَ آبائهم الأولينَ أبعدُ من الوقوعِ وقرىء أو آباؤنا ﴿ قُلْ ﴾ رداً لإنكارِهم وتحقيقاً للحقِّ ﴿ إِنَّ الأولين والأخرين ﴾ من الأممِ الذين منْ جُملتهم أنتُم وآباؤكم وفي تقديم الأولينَ مبالغةٌ في الردِّ حيث كان إنكارُهم لبعث آبائِهم أشدَّ من إنكارِهم لبعثهم مع مراعاةِ الترتيبِ الوجوديِّ ﴿ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ بعد البعثِ وقُرىءَ لمُجمَعون ﴿ إلى ميقات يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ إلى ما وُقتت به الدُّنيا من يومٍ معلومٍ والإضافةُ بمعنى منْ كخاتم فضةٍ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضالون ﴾ عطفٌ على أن الأولين داخلٌ تحت القولِ وثم للتراخِي زماناً أو رتبةً ﴿ المكذبون ﴾ أي بالبعث والخطابُ لأهلِ مكةَ وأضرابِهم .

(24/744)

﴿ لآكِلُونَ ﴾ بعد البعثِ والجمعِ ودخولِ جهنَم ﴿ مِن شَجَرٍ مّن زَقُّومٍ ﴾ من الأُولى لابتداء الغايةِ والثانيةُ لبيان الشجرِ وتفسيرِه أي مبتدئون الأكلَ من شجرٍ هو زقومٌ وقيل : من

الثانيةُ متعلقةٌ بمضمرٍ هو وصفٌ لشجرٍ أي كائنٍ من زقومٍ ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ أي بطونكُم من شدةِ الجوع ﴿ فشاربون عَلَيْهِ ﴾ عَقيبَ ذلك بلا ريثٍ ﴿ مِنَ الحميم ﴾ أي الماءِ الحارّ في الغايةِ وتأنيثُ ضميرِ الشجرِ أولاً وتذكيرُه ثانياً باعتبارِ المعنى واللفظِ وقُرِئَ من شجرةٍ فضمير عليه حينئذٍ للزقومِ وقيل : للأكلِ وقولُه تعالى : ﴿ فشاربون شُرْبَ الهيم ﴾ كالتفسيرِ لما قبله على طريقة قولِه تعالى : ﴿ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ﴾ أي لا يكونُ شربُكم شرباً معتاداً بل يكونُ مثلَ شربِ الهيمِ وهي الإبلُ التي بها الهيامُ وهو داءٌ يصببها فتشربُ ولا تروى جمعُ أهيمَ وهيماءَ وقيلَ : الهِيمُ الرمالُ على أنه جمعُ الهَيَام بفتحِ الهاءِ وهو الرملُ الذي لا يتماسكُ جُمعَ على فُعُلٍ كسحابٍ وسُحُبٍ ثم حفف وفُعل به ما فُعل بجمعِ أبيضَ والمعنى أنه يسلطُ عليهم من الجوعِ والتهابِ النارِ في أحشائِهم ما يَضطرّهم إلى أكلِ الزقزمِ الذي هو كالمهلِ فإذا ملأوا منه بطونَهم وهو في غايةِ الحرارةِ والمرارةِ سلط عليهم من العطشِ ما يضطرهم إلى شربِ الحميمِ الذي يقطعُ أمعاءَهم فيشربونه شربَ الهيمِ وقرئ شَربَ الهيمِ بالفتحِ وهو أيضاً مصدرٌ وقرئ بالكسرِ على أنه اسمُ المشروبِ . ﴿ هذا ﴾ الذي ذُكرَ من أنواعِ العذابِ ﴿ نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدين ﴾ أي يومَ الجزاءِ فإذا كان ذلك نزلَهم وهو ما يعد للنازلِ مما حضر فما ظنُّك بما لهم بعد ما استقرَّ لهم القرارُ واطمأنتْ بهم الدارُ في النارِ وفيه من التهكمِ بهم ما لا يَخفى وقرئ نُزْلهم بسكونِ الزاي تخفيفاً والجملةُ مسوقةٌ من جهته تعالى بطريقِ الفذلكةِ مقررةٌ لمضمونِ الكلامِ المقنِ غيرُ داخلةٍ تحتَ

(25/744)

القولِ . وقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ خلقناكم فَلَوْلاَ تُصَدّقُونَ ﴾ تلوينٌ للخطابِ وتوجيهٌ له إلى الكفرةِ بطريقِ الإلزامِ والتبكيتِ . والفاءُ لترتيبِ التحضيضِ على ما قبلَها أي فهلَّا تصدقونَ بالخلقِ فإن ما لا يحققه العملُ ولا يساعده بل ينبىءُ عن خلافه ليس من التصديق في شيءٍ وقيل : باللبعث استدلالا عليه بالإنشاء فإن من قدرَ عليه قدرَ على الإعادةِ حتماً والأولُ هو الوجهُ كما ستحيطُ به خُبْراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(26/744)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ ﴾ رداً لإنكارهم وتحقيقاً للحق ﴿ إِنَّ الأولين والآخرين ﴾ من الأمم الذين من جملتهم أنتم وآباؤكم ، وتقديم الأولين للمبالغة في الرد حيث كان إنكارهم لبعث آبائهم أشد من إنكارهم لبعثهم مع مراعاة الترتيب الوجودي .

﴿ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ بعد البعث ، وقرىء ﴿ لمجمعون ﴾ ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إلى ميقات يَوْمٍ

مَّعْلُومٍ ﴾ وهو يوم القيامة ومعنى كونه معلوماً كونه معيناً عند الله عز وجل ، والميقات ما وقت به الشيء أي حد ، ومنه مواقيت الإحرام وهي الحدود التي لا يتجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرماً ، وإضافته ﴿ إلى يَوْمِ ﴾ بيانية كما في خاتم فضة ، وكون يوم القيامة ميقاتاً لأنه وقتت به الدنيا ، و﴿ إلى ﴾ للغاية والانتهاء ، وقيل : والمعنى ﴿ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ منتهين إلى ذلك اليوم ، وقيل : ضمن معنى السوق فلذا تعدى بها .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضالون ﴾ عطف على ﴿ إِنَّ الاولين ﴾ [الواقعة : 49] داخل في حيز القول ، و﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي الزماني أو الرتبي ﴿ المكذبون ﴾ بالبعث ، أو بما يعمه وغيره ويدخل هو دخولاً أولياً للسياق على ما قيل ، والخطاب لأهل مكة وأضرابهم .

﴿ لآكِلُونَ ﴾ بعد البعث والجمع ودخولهم جهنم ﴿ مِن شَجَرٍ مّن زَقُّومٍ ﴾ ﴿ مِنْ ﴾ الأولى لابتداء الغاية والثانية لبيان الشجر وتفسيره أي مبتدءون للأكل من شجر هو زقوم ، وجوز كون الأولى تبعيضية و﴿ مِنْ ﴾ الثانية على حالها ، وجوز كون ﴿ مّن زَقُّومٍ ﴾ بدلاً من قوله تعالى : ﴿ مِن شَجَرٍ ﴾ فمن تحتمل الوجهين ، وقيل : الأولى زائدة ، وقرأ عبد الله من شجرة فوجه التأنيث ظاهر في قوله تعالى :

﴿ فَمَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ أي بطونكم من شدة الجوع فإنه الذي اضطرهم وقسرهم على أكل مثلها مما لا يؤكل ، وأما على قراءة الجمهور فوجهه الحمل على المعنى لأنه بمعنى الشجرة ، أو الأشجار إذا نظر لصدقه على المتعدد ، وأما التذكير على هذه القراءة في قوله سبحانه :

﴿ فشاربون عَلَيْهِ ﴾ أي عقيب ذلك بلا ريث .

﴿ مِنَ الحميم ﴾ أي الماء الحار في الغاية لغلبة العطش فظاهر لا يحتاج إلى تأويل ، وقال بعضهم : التأنيث أولاً باعتبار المعنى والتذكير ثانياً باعتبار اللفظ ، فقيل عليه : إن فيه اعتبار اللفظ بعد اعتبار المعنى على خلاف المعارف فلو أعيد الضمير المذكر على الشجر باعتبار كونه مأكولاً ليكون التذكير والتأنيث باعتبار المعنى كان أولى وفيه بحث ، ووجهه على القراءة الثانية أن الضمير عائد على الزقوم أو على الشجر باعتبار أنها زقوم أو باعتبار أنها مأكول ، وقيل : هو مطلقاً عائد على الأكل ، وتعقب بأنه بعيد لأن الشرب عليه لا على تناوله مع ما فيه من تفكيك الضمائر وكونه مجازاً شائعاً وغير ملبس لا يدفع البعد فتأمل .

﴿ فشاربون شُرْبَ الهيم ﴾ قال ابن عباس .

ومجاهد .

وعكرمة .

والضحاك جمع أهيم وهو الجمل الذي أصابه الهيام بضم الهاء وهو داء يشبه الاستسقاء يصيب الإبل فتشرب حتى تموت ، أو تسقم سقماً شديداً ، ويقال إبل هيماء وناقة هيماء كما يقال : جمل أهيم قال الشاعر

: فأصبحت (كالهيماء لا الماء مبرد . . .

صداها) ولا يقضي عليها هيامها

وجعل بعضهم ﴿ الهيم ﴾ هنا جمع الهيماء ، وقيل : هو جمع هائم أو هائمة ، وجمع فاعل على فعل كبازل وبزل شاذ ، وعن ابن عباس أيضاً .

(28/744)

وسفيان ﴿ الهيم ﴾ الرمال التي لا تروى من الماء لتخلخلها ومفرده هيام بفتح الهاء على المشهور كسحاب وسحب ثم خفف وفعل به ما فعل بجمع أبيض من قلب الضمة كسرة لتسلم الياء ويخف اللفظ فكسرت الهاء لأجل الياء وهو قياس مطرد في بابه ، وقال ثعلب : هو بالضم كقراد وقرد ثم خفف وفعل به ما فعل مما سمعت والعطف بالفاء قيل : لأن الإفراط بعد الأصلي ، وقيل : لأن كلا من المتعاطفين أخص من الآخر فإن شارب الحميم قد لا يكون به داء الهيام ومن به داء الهيام قد يشرب غير الحميم ، والشرب الذي لا يحصل

الري ناشيء عن شرب الحميم لأنه لا يبل الغليل ، والذي اختاره ما قاله مفتي الديار الرومية : إن ذلك كالتفسير لما قبله أي لا يكون شربكم شرباً معتاداً بل يكون مثل شرب الهيم ، والشرب بالضم مصدر ، وقيل : اسم لما يشرب ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى جماعة منهم الحاكم وصححه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ﴿ شُرْبَ ﴾ بفتح الشين وهو مصدر شرب المقيس ، وبذلك قرأ جمع من السبعة .

والأعرج .

وابن المسيب .

وشعيب .

ومالك بن دينار .

وابن جريج ، وقرأ مجاهد .

وأبو عثمان النهدي بكسر الشين وهو اسم بمعنى المشروب لا مصدر كالطحن والرعي .

﴿ هذا ﴾ الذي ذكر من ألوان العذاب ﴿ نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدين ﴾ يوم الجزاء فإذا كان ذلك نزلهم وهو ما يقدم للنازل مما حضر فما ظنك بما لهم بعد ما استقر لهم القرار واطمأنت لهم الدار في النار ، وفي جعله نزلاً مع أنه مما يكرم به النازل من التهكم ما لا يخفى ، ونظير ذلك قوله :

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا . . .

جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

وقرأ ابن محيصن .

وخارجة عن نافع .

ونعيم .

ومحبوب .

وأبو زيد .

وهرون .

وعصمة .

وعباس كلهم عن أبي عمرو نزلهم بتسكين الزاي المضمومة للتخفيف كما في البيت ، والجملة مسوقة من جهته سبحانه وتعالى بطريق الفذلكة مقررة لمضمون الكلام الملقن غير داخلة تحت القول ، وقوله تعالى :

(29/744)

﴿ نَحْنُ خلقناكم فَلَوْلاَ تُصَدّقُونَ ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الكفرة بطريق الإلزام والتبكيت والفاء لترتيب التحضيض على ما قبلها أي فهلا تصدقون بالخلق بقرينة ﴿ نَحْنُ

خلقناكم ﴾ ولما لم يحقق تصديقهم المشعر به قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] عملهم حيث لم يقترن بالطاعة والأعمال الصالحة بل اقترن بما ينبىء عن خلافه من الشرك والعصيان نزل منزلة العدم والإنكار فحضوا على التصديق بذلك ، وقيل : المراد فهلا تصدقون بالبعث لتقدمه وتقدم إنكاره في قولهم : ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الواقعة : 47] فيكون الكلام إشارة إلى الاستدلال بالإبداء على الإعادة فإن من قدر عليه قدر عليها حتماً ، والأول هو الوجه كما يظهر مما بعد إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(30/744)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (27) ﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر أحوال السابقين ، وما أعدّه لهم من النعيم المقيم ، ذكر أحوال أصحاب اليمين ، فقال : ﴿ وأصحاب اليمين مَا أصحاب اليمين ﴾ قد قدّمنا وجه إعراب هذا الكلام ، وما في هذه الجملة الاستفهامية من التفخيم والتعظيم ، وهي خبر المبتدأ ، وهو أصحاب اليمن ، وقوله : ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ خبر ثان ، أو خبر مبتدأ

محذوف ، أي : هم في سدر مخضود ، والسدر : نوع من الشجر ، والمخضود : الذي خضد شوكه ، أي : قطع فلا شوك فيه .

قال أمية بن أبي الصلت يصف الجنة :

إن الحدائق في الجنان ظليلة . . . فيها الكواعب سدرها مخضود

وقال الضحاك ، ومجاهد ، ومقاتل بن حيان : إن السدر المخضود : الموقر حملاً ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ قال أكثر المفسرين : إن الطلح في الآية هو شجر الموز .

وقال جماعة : ليس هو شجر الموز ، ولكنه الطلح المعروف وهو أعظم أشجار العرب .

قال الفراء ، وأبو عبيدة : هو شجر عظام لها شوك .

قال الزجاج : الطلح هو أمّ غيلان ، ولها نور طيب ، فخوطبوا ووعدوا ما يحبون ، إلاّ أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا .

قال : ويجوز أن يكون في الجنة ، وقد أزيل شوكه .

قال السدي : طلح الجنة يشبه طلح الدنيا لكن له ثمر أحلى من العسل ، والمنضود : المتراكب الذي قد نضد أوله وآخره بالحمل ليس له سوق بارزة .

قال مسروق : أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها نضيد ثمر كله ، كلما أخذت ثمرة عاد مكانها أحسن منها ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ أي : دائم باق لا يزول ، ولا تنسخه الشمس .

قال أبو عبيدة : والعرب تقول لكل شيء طويل لا ينقطع : ممدود ، ومنه قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل ﴾ [الفرقان ؛ 45] والجنة كلها ضلّ لا شمس معه .

(31/744)

قال الربيع بن أنس : يعني ظلّ العرش ، ومن استعمال العرب للممدود في الدائم الذي لا ينقطع قول لبيد :

غلب العزاء وكان غير مغلب . . . دهر طويل دائم ممدود

﴿ وَمَاء مَّسْكُوبٍ ﴾ أي : منصبّ يجري بالليل والنهار أينما شاءوا لا ينقطع عنهم ، فهو مسكوب يسكبه الله في مجاريه ، وأصل السكب .

الصبّ ، يقال : سكبه سكباً ، أي : صبه ﴿ وفاكهة كَثِيرَةٍ ﴾ أي : ألوان متنوعة متكثرة ﴿ لاَّ مَقْطُوعَةٍ ﴾ في وقت من الأوقات ، كما تنقطع فواكه الدنيا في بعض الأوقات ﴿ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ أي : لا تمتنع على من أرادها في أي وقت على أيّ صفة ، بل هي معدّة لمن أرادها لا يحول بينه وبينها حائل .

قال ابن قتيبة : يعني : أنها غير محظورة عليها كما يحظر على بساتين الدنيا .

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أي : مرفوع بعضها فوق بعض ، أو مرفوعة على الأسرّة .

وقيل : إن الفرش هنا كناية عن النساء اللواتي في الجنة ، وارتفاعها كونها على الأرائك ، أو كونها مرتفعات الأقدار في الحسن والكمال .

﴿ إِنَّا أنشأناهن إِنشَاء ﴾ أي : خلقناهنّ خلقاً جديداً من غير توالد ، وقيل : المراد نساء بني آدم .

والمعنى : أن الله سبحانه أعادهنّ بعد الموت إلى حال الشباب ، والنساء وإن لم يتقدّم لهنّ ذكر لكنهن قد دخلن في أصحاب اليمين ، وأما على قول من قال : إن الفرش المرفوعة عين النساء ، فمرجع الضمير ظاهر .

﴿ فجعلناهن أبكارا ﴾ ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾ [الرحمن : 56] ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ العرب جمع عروب ، وهي المتحببة إلى زوجها .

قال المبرد : هي العاشقة لزوجها ، ومنه قول لبيد :

وفي الخباء عروب غير فاحشة . . . ريا الروادف يعشي ضوؤها البصرا

وقال زيد بن أسلم : هي الحسنة الكلام .

قرأ الجمهور بضم العين والراء .

وقرأ حمزة ، وأبو بكر عن عاصم بإسكان الراء ، وهما لغتان في جمع فعول ، والأتراب : هنّ اللواتي على ميلاد واحد ، وسنّ واحد .

وقال مجاهد : أتراباً أمثالاً وأشكالاً .

وقال السديّ : أتراباً في الأخلاق لا تباغض بينهن ولا تحاسد .

قوله : ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ متعلق ب ﴿ أنشأناهنّ ﴾ ، أو بجعلنا ، أو ب ﴿ أتراباً ﴾ ، والمعنى : أن الله أنشأهنّ لأجلهم ، أو خلقهنّ لأجلهم ، أو هنّ مساويات لأصحاب اليمين في السنّ ، أو هو خبر لمبتدأ محذوف ، أي : هنّ لأصحاب اليمين ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ هذا راجع إلى قوله : ﴿ وأصحاب اليمين مَا أصحاب اليمين ﴾ أي : هم ثلة من الأوّلين ، وثلة من الآخرين ، وقد تقدم تفسير الثلة عند ذكر السابقين ، والمعنى : أنهم جماعة ، أو أمة ، أو فرقة ، أو قطعة من الأوّلين ، وهم من لدن آدم إلى نبينا صلى الله عليه وسلم ، وجماعة ، أو أمة ، أو فرقة ، أو قطعة من الآخرين ، وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال أبو العالية ، ومجاهد ، وعطاء بن أبي رباح ، والضحاك : ﴿ ثلة من الأوّلين ﴾ يعني : من سابقي هذه الأمة ، ﴿ وثلة من الآخرين ﴾ من هذه الأمة من آخرها .

ثم لما فرغ سبحانه مما أعدّه لأصحاب اليمين شرع في ذكر أصحاب الشمال ، وما أعدّه لهم ، فقال : ﴿ وأصحاب الشمال مَا أصحاب الشمال ﴾ الكلام في إعراب هذا وما فيه من التفخيم ، كما سبق في أصحاب اليمين ، وقوله : ﴿ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ إما خبر ثان

لأصحاب الشمال ، أو خبر مبتدأ محذوف ، والسموم : حرّ النار ، والحميم : الماء الحارّ الشديد الحرارة ، وقد سبق بيان معناه .

وقيل : السموم : الريح الحارة التي تدخل في مسامّ البدن .

﴿ وَظِلّ مّن يَحْمُومٍ ﴾ اليحموم يفعول من الأحم : وهو الأسود ؛ والعرب تقول : أسود يحموم : إذا كان شديد السواد ، والمعنى : أنهم يفزعون إلى الظلّ ، فيجدونه ظلاً من دخان جهنم شديد السواد .

وقيل : وهو مأخوذ من الحم ، وهو الشحم المسودّ باحتراق النار .

وقيل : مأخوذ من الحمم ، وهو : الفحم .

(33/744)

قال الضحاك : النار سوداء ، وأهلها سود ، وكل ما فيها أسود .

ثم وصف هذا الظلّ بقوله : ﴿ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ ليس كغيره من الظلال التي تكون باردة ، بل هو حار لأنه من دخان نار جهنم .

قال سعيد بن المسيب : ﴿ ولا كريم ﴾ أي : ليس فيه حسن منظر ، وكلّ ما لا خير فيه ، فليس بكريم ، وقال الضحاك : ﴿ ولا كريم ﴾ ، ولا عذب .

قال الفراء : العرب تجعل الكريم تابعاً لكلّ شيء نفت عنه وصفاً تنوي به الذم ، تقول : ما هو بسمين ولا بكريم ، وما هذه الدار بواسعة ولا كريمة .

ثم ذكر سبحانه أعمالهم التي استحقوا بها هذا العذاب فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ وهذه الجملة تعليل لما قبلها ، أي : إنهم كانوا قبل هذا العذاب النازل بهم مترفين في الدنيا ، أي : منعمين بما لا يحل لهم ، والمترف : المتنعم .

وقال السدي : مشركين ، وقيل : متكبرين ، والأوّل أولى .

﴿ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى الحنث العظيم ﴾ الحنث : الذنب ، أي : يصرون على الذنب العظيم .

قال الواحدي : قال أهل التفسير : عني به الشرك أي : كانوا لا يتوبون عن الشرك .

وبه قال الحسن ، والضحاك ، وابن زيد .

وقال قتادة ، ومجاهد : هو الذنب العظيم الذي لا يتوبون عنه .

وقال الشعبي : هو اليمين الغموس ، ﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ الهمزة في الموضعين للإنكار والاستبعاد ، وقد تقدّم الكلام على هذا في الصافات ، وفي سورة الرعد .

والمعنى : أنهم أنكروا واستبعدوا أن يبعثوا بعد الموت ، وقد صاروا عظاماً وتراباً ، والمراد : أنه صار لحمهم وجلودهم تراباً ، وصارت عظامهم نخرة بالية ، والعامل في الظرف

ما يدلّ عليه مبعوثون ؛ لأن ما بعد الاستفهام لا يعمل فيما قبله ، أي : أنبعث إذا متنا ؟ إلخ ﴿ أَوَءابَاؤُنَا الأولون ﴾ معطوف على الضمير في ﴿ لمبعوثون ﴾ ؛ لوقوع الفصل بينهما بالهمزة .

(34/744)

والمعنى : أن بعث آبائهم الأوّلين أبعد ؛ لتقدّم موتهم ، وقرىء ، (وآباؤنا) .

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يجيب عليهم ويردّ استبعادهم فقال : ﴿ قُلْ إِنَّ الأولين والآخرين * لَمَجْمُوعُونَ ﴾ أي : قل لهم يا محمد : إن الأوّلين من الأمم ، والآخرين منهم الذين أنتم من جملتهم لمجموعون بعد البعث ﴿ إلى ميقات يوم مَّعْلُوم ﴾ وهو يوم القيامة .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضالون المكذبون ﴾ هذا وما بعده من جملة ما هو داخل تحت القول ، وهو معطوف على ﴿ إِنَّ الاولين ﴾ ، ووصفهم سبحانه بوصفين قبيحين ، وهما الضلال عن الحقّ والتكذيب له ﴿ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مّن زَقُّومٍ ﴾ أي : لآكلون في الآخرة من شجر كريه المنظر كريه الطعم .

وقد تقدّم تفسيره في سورة الصافات ، و " من " الأولى لابتداء الغاية والثانية بيانية ، ويجوز أن تكون الأولى مزيدة والثانية بيانية ، وأن تكون الثانية مزيدة والأولى للابتداء .

﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ أي : مالئون من شجر الزقوم بطونكم ؛ لما يلحقكم من شدّة الجوع .

﴿ فشاربون عَلَيْهِ مِنَ الحميم ﴾ الضمير في ﴿ عليه ﴾ عائد إلى الزقوم ، والحميم : الماء الذي قد بلغ حرّه إلى الغاية ، والمعنى : فشاربون على الزقوم عقب أكله من الماء الحارّ ، ويجوز أن يعود الضمير إلى شجر ؛ لأنه يذكر ويؤنث .

ويجوز أن يعود إلى الأكل المدلول عليه بقوله : ﴿ لآكِلُونَ ﴾ .

وقرىء : (من شجرة) بالإفراد .

﴿ فشاربون شُرْبَ الهيم ﴾ قرأ الجمهور : (شرب الهيم) بفتح الشين ، وقرأ نافع ، وعاصم ، وحمزة بضمها .

وقرأ مجاهد ، وأبو عثمان النهدي بكسرها ، وهي لغات .

قال أبو زيد : سمعت العرب تقول بضم الشين وفتحها وكسرها .

قال المبرد : الفتح على أصل المصدر ، والضم اسم المصدر ، والهيم : الإبل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها .

(35/744)

وهذه الجملة بيان لما قبلها ، أي : لا يكون شربكم شرباً معتاداً بل يكون مثل شرب الهيم التي تعطش ولا تروى بشرب الماء ، ومفرد الهيم أهيم ، والأنثى هيماء .

قال قيس بن الملوّح :

يقال به داء الهُيَامِ أصابه . . . وقد علمت نفسي مكان شفائيا

وقال الضحاك ، وابن عيينة ، والأخفش ، وابن كيسان : الهيم : الأرض السهلة ذات الرمل ، والمعنى : أنهم يشربون ، كما تشرب هذه الأرض الماء ، ولا يظهر له فيها أثره .

قال في الصحاح : الهيام بالضم : أشد العطش ، والهيام كالجنون من العشق ، والهيام : داء يأخذ الإبل تهيم في الأرض لا ترعى ، يقال : ناقة هيماء ، والهيماء أيضاً : المفازة لا ماء بها ، والهيام بالفتح : الرمل الذي لا يتماسك في اليد للينه ، والجمع هيم مثل قذال وقذل ، والهيام بالكسر الإبل العطاش .

﴿ هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدين ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ نزلهم ﴾ بضمتين ، وروي عن أبي عمرو ، وابن محيصن بضمة وسكون ، وقد تقدم أن النزل ما يعدّ للضيف ، ويكون أوّل ما يأكله ، ويوم الدين : يوم الجزاء ، وهو يوم القيامة ، والمعنى : أن ما ذكر من شجر الزقوم ، وشراب الحميم هو الذي يعدّ لهم ويأكلونه يوم القيامة ، وفي هذا تهكم بهم ؛ لأن النزل هو ما يعدّ للأضياف تكرمة لهم ، ومثل هذا قوله : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنشقاق : 24] .

وقد أخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي عن أبي أمامة قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إن الله ينفعنا بالأعراب ومسائلهم ، أقبل أعرابيّ يوماً فقال : يا رسول الله ذكر في القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها قال : " وما هي " ؟ قال : السدر ، فإن لها شوكاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أليس الله يقول : ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ ؟ يخضد الله شوكه ، فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها تنبت ثمراً يتفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام ما منها لون يشبه الآخر " وأخرج ابن أبي داود ، والطبراني ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن مردويه عن عيينة بن عبد السلمي قال : كنت جالساً مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء أعرابي فقال : يا رسول الله أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكاً منها : يعني الطلح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصية التيس الملبود – يعني : الخصيّ منها – فيها سبعون لوناً من الطعام لا يشبه لون آخر " وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ قال : خضده وقره من الحمل .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر من طرق عنه قال : المخضود الذي لا شوك فيه .

وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً قال : المخضود الموقر الذي لا شوك فيه .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وهناد ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ قال : هو الموز .

وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وهناد ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر من طرق عن ابن عباس مثله .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر عن أبي هريرة مثله .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري مثله .

(37/744)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن عليّ بن أبي طالب أنه قرأ (وطلع منضود) .

وأخرج ابن جرير ، وابن الأنباري في المصاحف عن قيس بن عباد قال : قرأت على عليّ بن أبي طالب ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ فقال عليّ : ما بال الطلح ، أما تقرأ وطلع ؟ ثم قال : ﴿

وطَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [ق : 10] ، فقيل له : يا أمير المؤمنين أنحكها في المصحف ؟ قال : لا يهاج القرآن اليوم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ مَّنْضُودٍ ﴾ قال : بعضه على بعض .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرءوا إن شئتم ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ " وأخرج البخاري ، وغيره نحوه من حديث أنس .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما نحوه من حديث أبي سعيد .

وأخرج أحمد ، والترمذي وحسنه ، والنسائي ، وغيرهم عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ في قوله : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ قال : " ارتفاعها ، كما بين السماء والأرض ، ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام " قال الترمذي بعد إخراجه : هذا حديث غريب لا نعرفه إلاّ من حديث رشدين بن سعد انتهى ، ورشدين ضعيف .

وأخرج الفريابي ، وهناد ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴾ قال : " إن المنشئات التي كنّ في الدنيا عجائز عمشاً رمصاً "

قال الترمذي بعد إخراجه : غريب ، وموسى ويزيد ضعيفان .

وأخرج الطيالسي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، وابن قانع ، والبيهقي في البعث عن سلمة بن يزيد الجعفي سمعت النبيّ يقول في قوله : ﴿ إِنَّا أنشأناهن إِنشَاء ﴾ قال : " الثيب والأبكار اللاتي كنّ في الدنيا " وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال : خلقهنّ غير خلقهنّ الأوّل .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه : ﴿ أبكارا ﴾ قال : عذارى .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي في البعث من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ عُرُباً ﴾ قال : عواشق ﴿ أَتْرَاباً ﴾ يقول : مستويات .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه : ﴿ عُرُباً ﴾ قال : عواشق لأزواجهنّ وأزواجهنّ لهنّ عاشقون ﴿ أَتْرَاباً ﴾ قال : في سنّ واحد ، ثلاثاً وثلاثين سنة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : العروب : المَلِقَة لزوجها .

وأخرج مسدد في مسنده ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه بسند حسن عن أبي بكرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ قال : " جميعهما من هذه الأمة " وأخرج أبو داود الطيالسي ، ومسدّد ، وعبد بن حميد ،

وابن المنذر ، وابن مردويه عن أبي بكرة في قوله : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ قال : هما جميعاً من هذه الأمة .

وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن عدي ، وابن مردويه . قال السيوطي : بسند ضعيف عن ابن عباس في قوله : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هما جميعاً من أمتي " وأخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : الثلتان جميعاً من هذه الأمة .

(39/744)

وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ قال : من دخان أسود ، وفي لفظ : من دخان جهنم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ شُرْبَ الهيم ﴾ قال : الإبل العطاش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 152.156 ﴾

(40/744)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50) ﴾

لما جرى تعليل ما يلاقيه أصحاب الشمال من العذاب بما كانوا عليه من كفران النعمة ، وكان المقصود من ذلك وعيد المشركين وكان إنكارهم البعث أدخل في استمرارهم على الكفر أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يخاطبهم بتحقيق وقوع البعث وشموله لهم ولآبائهم ولجميع الناس ، أي أنبئهم بأن الأولين والآخرين ، أي هم وآباؤهم يبعثون في اليوم المعين عند الله ، فقد انتهى الخبر عن حالهم يوم تُرَجُّ الأرض وما يتبعه .

وافتتح الكلام بالأمر بالقول للاهتمام به كما افتتح به نظائره في آيات كثيرة ليكون ذلك تبليغاً عن الله تعالى .

فيكون قوله : ﴿ قل إن الأولين ﴾ الخ استئنافاً ابتدائياً لمناسبة حكاية قولهم : ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً ﴾ [الواقعة : 47] الآية .

والمراد بـ ﴿ الأولين ﴾ : من يصدق عليه وصف (أول) بالنسبة لمن بعدهم ، والمراد بـ ﴿ الآخرين ﴾ : من يصدق عليه وصف آخر بالنسبة لمن قبله .

ومعنى ﴿ مجموعون ﴾ : أنهم يبعثون ويحشرون جميعاً ، وليس البعث على أفواج في أزمان مختلفة كما كان موت الناس بل يبعث الأولون والآخرون في يوم واحد .

وهذا إبطال لما اقتضاه عطف ﴿ أو آباؤنا الأولون ﴾ في كلامهم من استنتاج استبعاد البعث لأنهم عدُّوا سَبْقَ من سبق موتُهم أدل على تعذر بعثهم بعد أن مضت عليهم القرون ولم يبعث فريق منهم إلى يوم هذا القيل ، فالمعنى : أنكم .

وتأكيد الخبر بـ (إن) واللام لرد إنكارهم مضمونَه .

والميقات : هنا لمعنى الوقت والأجل ، وأصله اسم آلة للوقت وتوسعوا فيه فأطلقوه على الوقت نفسه بحيث تعتبر الميم والألف غير دَالّتين على معنًى ، وتوسعوا فيه توسعاً آخر فأطلقوه على مكان لعملٍ مّا .

(41/744)

ولعل ذلك متفرع على اعتبار ما في التوقيت من التحديد والضبط ، ومنه مواقيت الحج ، وهي أماكن يُحرم الحاج بالحج عندها لا يتجاوزها حلالاً .

ومنه قول ابن عباس : "لم يوقت رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في الخمر حَدًّا معيَّناً" .

ويصح حمله في هذه الآية على معنى المكان .

وقد ضمن ﴿ مَجْمُوعون ﴾ معنى مسوقون ، فتعلق به مجرورهُ بحرف ﴿ إلى ﴾ للانتهاء ، وإلا فإن ظاهر ﴿ مجموعون ﴾ أن يعدّى بحرف (في) .

وأفاد تعليق مجروره به بواسطة (إلى) أنه مسير إليه حتى ينتهي إليه ، فدل على مكان .

وهذا من الإِيجاز .

وإضافة ﴿ ميقات ﴾ إلى ﴿ يوم معلوم ﴾ لأن التجمع واقع في ذلك اليوم .

وإذ كان التجمع الواقع في اليوم واقعاً في ذلك الميقات كانت بين الميقات واليوم ملابسة صححت إضافة الميقات إليه لأدنى ملابسة وهذا أدقّ من جعل الإِضافة بيانية .

وهذا تعريض بالوعيد بما يلقونه في ذلك اليوم الذي جحدوه .

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51)

هذا من جملة ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم .

و﴿ ثم ﴾ للترتيب الرتبي فإن في التصريح بتفصيل جزائهم في ذلك اليوم ما هو أعظم وقعاً في النفوس من التعريض الإِجمالي بالوعيد الذي استفيد من قوله : ﴿ إن الأولين والآخرين لمجموعون ﴾ [الواقعة : 49 ، 50] .

وهذا التراخي الرتبي مثل الذي في قوله تعالى : ﴿ قل بلى وربي لتبعثن ثم لَتُنَبّؤنَّ بما عملتم ﴾ [التغابن : 7] بمنزلة الاعتراض بين جملة ﴿ إن الأولين والآخرين ﴾ [الواقعة : 49] وجملة : ﴿ خلقناكم فلولا تصدقون ﴾ [الواقعة : 57] .

والخطاب موجه للمقول إليهم ما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم فليس في هذا الخطاب التفات كما قد يتوهم ، وفي ندائهم بهذين الوصفين إيماء إلى أنهما سبب ما

لحقهم من الجزاء السَّيِّىء ، ووصفهم بأنهم : ضالون مكذّبون ، ناظر إلى قولهم : ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً ﴾ [الواقعة : 47] الخ .

(42/744)

وقدم وصف ﴿ الضالون ﴾ على وصف ﴿ المكذبون ﴾ مراعاة لترتيب الحصول لأنهم ضلّوا عن الحق فكذبوا بالبعث ليحذروا من الضلال ويتدبروا في دلائل البعث وذلك مقتضى خطابهم بهذا الإنذار بالعذاب المتوقع .

وشجر الزقوم : من شجر العذاب ، تقدم في سورة الدخان .

والحميم : الماء الشديد الغليان ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ لهم شراب من حميم ﴾ في سورة الأنعام (70) وتقدم قريباً في هذه السورة .

والمقصود من قوله : ﴿ فمالئون منها البطون ﴾ تفظيع حالهم في جزائهم على ما كانوا عليه من الترف في الدنيا بملء بطونهم بالطعام والشراب ملْئاً أنساهم إقبالهم عليه وشرْبهم من التفكرَ في مصيرهم .

وقد زيد تفظيعاً بالتشبيه في قوله : ﴿ فشاربون شرب الهيم ﴾ ، كما سيأتي ، وإعادة فعل (شاربون) للتأكيد وتكرير استحضار تلك الصورة الفظيعة .

ومعنى ﴿ شاربون عليه ﴾ يجوز أن يكون (على) فيه للاستعلاء ، أي شاربون فوقه الحميم ، ويجوز مع ذلك استفادة معنى (مع) من حرف (على) تعجيباً من فظاعة حالهم ، أي يشربون هذا الماء المحرق مع ما طعموه من شجر الزقوم الموصوفة في آية أخرى بأنها ﴿ يغلي في البطون كغَلي الحميم ﴾ [الدخان : 45 ، 46] فيفيد أنهم يتجرعونه ولا يستطيعون امتناعاً .

و ﴿ مِن ﴾ الداخلة على ﴿ شجر ﴾ ابتدائية ، أي آكلون أكلاً يؤخذ من شجر الزقوم ، و ﴿ من ﴾ الثانية الداخلة على ﴿ زقوم ﴾ بيانية لأن الشجر هو المسمى بالزقوم .

وتأنيث ضمير الشجر في قوله : ﴿ فمالئون منها البطون ﴾ لأن ضمائر الجمع لغير العاقل تأتي مؤنثة غالباً .

وأما ضمير ﴿ عليه ﴾ فإنما جاء بصيغة المذكر لأنه عائد على الأكل المستفاد من قوله : ﴿ لآكلون ﴾ ، أي على ذلك الأكل بتأويل المصدر باسم المفعول مثل الخلق بمعنى المخلوق .

(43/744)

والهِيم : جمع أهيم ، وهو البعير الذي أصابه الهُيام بضم الهاء ، وهو داء يصيب الإبِل يورثها حُمى في الأمعاء فلا تزال تشرب ولا تروَى ، أي شاربون من الحميم شرباً لا ينقطع فهو مستمرة آلامه .

وقرأ نافع وعاصم وحمزة وأبو جعفر ﴿ شُرب ﴾ بضم الشين اسمَ مصدر شرب ، وقرأ الباقون بفتح الشين وهو المصدر لشَرِب .

ورويت عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسند صححه الحاكم ، وخبر الواحد لا يزيد المتواترَ قُوة فكلتا القراءتين متواتر .

والفاء في قوله : ﴿ فشاربون عليه من الحميم ﴾ عطف على ﴿ لآكلون ﴾ لإفادة تعقيب أكل الزقوم بـ ﴿ شرب الهيم ﴾ دون فترة ولا استراحة .

وإعادة ﴿ فشاربون ﴾ توكيد لفظي لنظيره ، وفائدة هذا التوكيد زيادة تقرير ما في هذا الشرب من الأعجوبة وهي أنه مع كراهته يزدادون منه كما ترى الأهيم ، فيزيدهم تفظيعاً لأمعائهم لإفادة التعجيب من حالهم تعجيباً ثانياً بعد الأول ، فإن كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة أمر عجيب ، وشربهم له كما تَشرَب الإبِل الهِيم في الإكثار أمر عجيب أيضاً ، فكانتا صفتين مختلفتين .

هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (56)

اعتراض بين جمل الخطاب موجه إلى السامعين غيرهم فليس في ضمير الغيبة التفات .

والإِشارة بقوله : ﴿ هذا ﴾ إلى ما ذكر من أكل الزقوم وشرب الهيم .

والنُزل بضم النون وضم الزاي وسُكونَها ما يُقدم للضيف من طعام .

وهو هنا تشبيه تهكّمي كالاستعارة التهكمية في قول عمرو بن كلثوم:

نزلتم منزل الأضياف منا . . .

فعجَّلنا القِرى أن تشتمونا

قرينانكم فعجلنا قراكم . . .

قبيل الصبح مرداة طحونا

وقول أبي الشّعر الضبيّ ، واسمه موسى بن سحيم:

وكنا إذا الجبّار بالجيش ضَافنا . . .

جعلنا القَنا والمُرهفات له نُزْلا

و﴿ يوم الدين ﴾ يوم الجزاء ، أي هذا جزاؤهم على أعمالهم نظير قوله آنفاً ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ [الواقعة : 24] .

وجعل يوم الدين وقتاً لنزلهم مؤذن بأن ذلك الذي عبر عنه بالنزل جزاء على أعمالهم .

وهذا تجريد للتشبيه التهكمي وهو قرينة على التهكم كقول عمرو بن كلثوم : "مرداةً طحونا" .

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (57)

أعقب إبطال نفيهم البعث بالاستدلال على إمكانه وتقريب كيفية الإعادة التي أحالوها فاستدل على إمكان إعادة الخلق بأن الله خلقهم أول مرة فلا يبعد أن يعيد خلقهم ، قال تعالى : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ [الأنبياء : 104] لأنهم لم يكونوا ينكرون ذلك ، وليس المقصود إثبات أن الله خلقهم .

وهذا الكلام يجوز أن يكون من تمام ما أمر بأن يقوله لهم ، ويجوز أن يكون استئنافاً مستقلاً .

والخطاب على كلا الوجهين موجّه للسامعين فليس في ضمير ﴿ خلقناكم ﴾ التفات .

وتقدم المسند إليه على المسند الفعلي لإفادة تقوّي الحكم ردّاً على إحالتهم أن يكون الله قادراً على إعادة خلقهم بعد فناء معظم أجسادهم حين يكونون تراباً وعظاماً ، فهذا تذكير لهم بما ذهلوا عنه بأن الله هو خلقهم أول مرة وهو الذي يعيد خلقهم ثاني مرة ، فإنهم وإن كانوا يعلمون أن الله خلقهم لمّا لم يجروا على موجَب ذلك العلم بإحالتهم إعادة الخلق نُزلوا منزلة من يشك في أن الله خلقهم ، فالمقصود بتقوّي الحكم الإفضاء إلى ما سيفرع عنه من قوله : ﴿ أفرأيتم ما تمنون إلى قوله : وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم ﴾ [

الواقعة : 58 61] .

ونظير هذه الآية في نسج نظمها والترتيب عليها قوله تعالى : ﴿ نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً ﴾ في سورة الإنسان (28) .

وموقعها استدلال وعلة لمضمون جملة ﴿ إن الأولين والأخرين لمجموعون ﴾ [الواقعة : 49 ، 50] ولذلك لم تعطف .

وفُرع على هذا التذكير تحضيضهم على التصديق ، أي بالخلق الثاني وهو البعث فإن ذلك هو الذي لم يصدقوا به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(45/744)

قوله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (61) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (62) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما حضضهم على التصديق بالاستدلال بإيجادهم ، وكان البعث إنما هو تحويلهم من صورة بالية إلى الصورة التي كانوا عليها من قبل ، سبب عن تكذيبهم به مع تصديقهم بالخلق عدم النظر في تبديل الصور في تفاصيله ، أو سبب عن قول من عساه يقول من أهل الطبائع : إنما خلقنا من نطفة حدثت بحرارة كامنة ، فقال : ﴿ أفرأيتم ﴾ أي أخبروني هل رأيتم بالبصر أو البصيرة أنا خلقناكم فيهديكم ذلك أنا نقدر على الإعادة كما قدرنا على البداءة فرأيتم ﴿ ما تمنون ﴾ أي تريقون – من النطف التي هي مني في الأرحام بالجماع .

ولما كانت العبرة بالمسبب لا بالسبب ، نبه على ذلك بتجديد الإنكار تنبيهاً على أنهم وإن كانوا معترفين بتفرده بالإبداع ، فإن إنكارهم للبعث مستلزم لإنكارهم لذلك فقال : ﴿ ءأنتم تخلقونه ﴾ أي توجدونه مقدراً على ما هو عليه من الاستواء والحكمة بعد خلقه من صورة النطفة إلى صورة العلقة ثم من صورة العلقة إلى صور المضغة ثم منها إلى صور العظام والأعصاب ﴿ أم نحن ﴾ خاصة .

ولما كان المقام لتقرير المنكرين ذكر الخبر المفهوم من السياق على وجه أفهم أن التقدير : أو أنتم الخالقون له أم نحن ؟ فقال : بل نحن ﴿ الخالقون ﴾ أي الثابت لنا ذلك ، فالآية من الاحتباك : ذكر أولاً ﴿ تخلقون ﴾ دليلاً على حذف مثله له سبحانه ثانياً ، وذكر الاسم ثانياً دليلاً على حذف مثله لهم أولاً ، وسر ذلك أنه ذكر ما هو الأوفق لأعمالهم مما يدل

على وقت التجدد ولو وقتاً ما ، وما هو الأولى بصفاته سبحانه مما يدل على الثبات والدوام .

(46/744)

ولما كان الجواب : أنت الخالق وحدك ، وكان الطبيعي ربما قال : اقتضى ذلك الحرارة المخمرة للنطفة ، وكانت المفاوتة للآجال مع المساواة في اسمية الحياة من الدلائل العظيمة على تمام القدرة على الإفناء والإبداء بالاختيار مبطلة لقول أهل الطبائع دافعة لهم ، أكد ذلك الدليل بقوله : ﴿ نحن ﴾ أي بما لنا من العظمة لا غيرنا ﴿ قدرنا ﴾ أي تقديراً عظيماً ، لا يقدر سوانا على نقض شيء منه ﴿ بينكم ﴾ أي كلكم لم نترك أحداً منكم بغير حصة منه ﴿ الموت ﴾ أي أوجبناه على مقدار معلوم لكل أحد لا يتعداه ، فقصرنا عمر هذا وربما كان في الأوج من قوة البدن وصحة المزاج ، فلو اجتمع الخلق كلهم على إطالة عمره ما قدروا أن يؤخروه لحظة ، وأطلنا عمر هذا وقد يكون في الحضيض من ضعف البدن واضطراب المزاج لو تمالؤوا على تقصيره طرفة عين لعجزوا ، وأنتم معترفون بأنه سبحانه رتب أفعاله على مقتضى الكمال والقدرة والحكمة البالغة ، فلو كانت فائدة الموت مجرد القهر لكانت نقصاً لكونه يعم الغني والفقير والظالم والمظلوم ، ولكان جعل الإنسان مخلداً

أولى وأحكم ، ففائدته غير مجرد القهر وهي الحمل على إحسان العمل للقاهر خوفاً من العرض عليه والمحاسبة بين يديه ثم النقلة إلى دار الجزاء والترقية إلى العلوم التي البدن حجابها من تمييز الخبيث والطيب والعلم بمقادير الثواب والعقاب ، وغير ذلك مما يبصره أولو الألباب .

(47/744)

ولما كان حاصل الموت أنه تغيير الصورة التي كانت إلى غيرها ، وكان من قدر على تحويل صورة إلى شيء قدر على تحويلها إلى شيء آخر مماثل لذلك الشيء قال : ﴿ وما نحن ﴾ أي على ما لنا من العظمة ، وأكد النفي فقال : ﴿ بمسبوقين ﴾ أي بالموت ولا عاجزين ولا مغلوبين ﴿ على أن نبدل ﴾ تبديلاً عظيماً ﴿ أمثالكم ﴾ أي صوركم وأشخاصكم لما تقدم في الشورى من أن المثل في الأصل هو الشيء نفسه ﴿ وننشئكم ﴾ أي إنشاء جديداً بعد تبديل ذواتكم ﴿ في ما لا تعلمون ﴾ فإن بعضهم تأكله السباع أو الحيتان أو الطيور فتنشأ أبدانُها منه ، بعضهم يصير تراباً فربما نشأ منه نبات فأكلته الدواب ، فنشأ منه أبدانها ، وربما صار ترابه من معادن الأرض كالذهب والفضة والحديد والحجر ونحو ذلك ، وقد لمح إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً ﴾ إلى آخرها ، أو

يكون المعنى كما قال البغوي : نأتي بخلق مثلكم بدلاً منكم ونخلقكم فيما لا تعلمون من الصور .

أي بتغيير أوصافكم وصوركم في صور أخرى بالمسخ ، ومن قدر على ذلك قدر على الإعادة .

(48/744)

ولما كان التقدير : فلقد علمتم النشأة الثانية النطفية ، عطف عليه قوله مؤكداً تنبيهاً على أنهم لما كانوا يعملون بخلاف ما يعلمون كانوا كأنهم منكرون لهذا العلم : ﴿ ولقد علمتم ﴾ أي أيها العرب ﴿ النشأة الأولى ﴾ الترابية لأبيه آدم عليه الصلاة والسلام : أو اللحمية لأمكم حواء عليها السلام حيث لم يكن هناك طبيعة تقتضي ذلك ، وإلا لوجد مثل ذلك بعد ذلك ، والنطفية لكم ، وكل منها تحويل من شيء إلى غيره ، فالذي شاهدتم قدرته على ذلك لا يقدر على تحويلكم بعد أن تصيروا تراباً إلى ما كنتم عليه أولاً من الصورة ؟ ولهذا سبب عما تقدم قوله : ﴿ فلولا ﴾ أي فهلا ولم لا ﴿ تذكرون ﴾ أي تذكراً عظيماً تكرهون أنفسكم وإن كان فيه خفاء ما - مما أشار إليه الإدغام من أن الملوم عليه غيب ، وكذا بعض ما قيس به أن من قدر على هذه الوجوه من الإبداءات قدر على الإعادة ، بل هي أهون في

مجاري عاداتكم .

ولما كان علمهم بأمر النبات الذي هو الآية العظمى لإعادة الأموات أعظم من علمهم بجميع ما مضى ، وكان أمره في الحرث وإلقاء البذر فيه أشبه شيء بالجماع وإلقاء النطفة ، ولذلك سميت المرأة حرثاً ، وصل بما مضى مسبباً عنه قوله منكراً عليهم : ﴿ أفرأيتم ﴾ أي أخبروني هل رأيتم بالبصر أو البصيرة ما نبهناكم عليه وفيما تقدم فتسبب عن تنبهكم لذلك أنكم رأيتم ﴿ ما تحرثون ﴾ أي تجددون حرثه على سبيل الاستمرار بتهيئة أرضه للبذر وإلقاء البذر فيه .

ولما كانوا لا يدعون القدرة على الإنبات بوجه ، وكان القادر عليه قادراً على كل شيء ، وهم يعتقدون في أمر البعث ما يؤدي إلى الطعن في قدرته ، كرر الإنكار عليهم فقال : ﴿ ءأنتم تزرعونه ﴾ أي تنبتونه بعد طرحكم البذر فيه وتحفظونه إلى أن يصير مالاً ﴿ أم نحن ﴾ خاصة ، وأكد لما مضى بذكر الخبر المعلوم من السياق فقال : ﴿ الزارعون ﴾ أي المنبتون له والحافظون ، فالآية من الاحتباك بمثل ما مضى في أختها قريباً سواء .

(49/744)

ولما كان الجواب قطعاً : أنت الفاعل لذلك وحدك ؟ قال موضحاً لأنه ما زرعه غيره بأن الفاعل الكامل من يدفع عما صنعه ما يفسده ، ومن إذا أراد إفساده لم يقدر أحد على منعه ﴿ لو نشاء ﴾ أي لو عاملناكم بصفة العظمة ، وأكد لأن فعلهم فعل الآمن من ذلك مع أنهم في غاية الاستبعاد لأن يهلك زرعهم كما زرعوه أو لأن المطعوم أهم من المشروب وأعظم ، فإنه الأصل في إقامة البدن والمشروب تبع له فقال : ﴿ لجعلناه ﴾ أي بتلك العظمة ﴿ حطاماً ﴾ أي مكسراً مفتتاً لا حب فيه قبل النبات حتى لا يقبل الخروج أو بعده ببرد مفرط أو حر مهلك أو غير ذلك فلا ينتفع به ﴿ فظلتم ﴾ أي فأمتم بسبب ذلك نهاراً في وقت الأشغال العظيمة وفي كل وقت وتركتم كل ما يهمكم ﴿ تفكهون ﴾ قال في القاموس : فكههم بملح الكلام : أطرفهم بها وفكه - كفرح فكهاً فهو فكه وفاكه : طيب النفس أو يحدث صحبه فيضحكم ومنه تعجب كتفكه ، والتفاكه : التمازح ، وتفكه : تندم : والأفكوكة : الأعجوبة ، وقال ابن برجان : الفكه هو المتردد في القول الذاهب فيه كل مذهب - انتهى .

(50/744)

فأقمتم دائماً تندمون على العاقكم أو معاصيكم التي سببت ذلك التلف أو تتعجبون أو تحدثون في ذلك ولم تعرجوا على شغل غيره كما تفعلون عند الأشياء السارة التي هي في غاية الإعجاب والملاحة والملاءمة ، ولهذا عبر عما المراد به الإقامة مع الدوام ب ﴿ ظل ﴾ الذي معناه أقام نهاراً إشارة إلى ترك الأشغال التي تهم ومحلها النهار ويمنع الإنسان من أكثر ما يهمه من الكلام لهذا النازل الأعظم ، وحذف إحدى لامي ظل وتاء التفعل من تفكه إشارة إلى ضعف المصابين عن الدفاع في بقائهم وفي كلامهم حال بقائهم الضعيف ، وكون المحذوف عين الفعل وهو الوسط ، إشارة إلى خلع القلب واختراق الجوف والقهر العظيم ، فلا قدرة لأحد منهم على ممانعة هذا النازل بوجه ولا على تبريد ما اعتراه منه من حرارة الصدر وخوف الفقر بغير الشكاية إلى آماله ممن يعلم أنه لا ضر في يده ولا نفع ، ورمبا كان ذلك إشارة إلى أنه عادته سبحانه قرب الفرج من شدائد الدنيا ليكون الإنسان متمكناً من الشكر لا عذر له في تركه ، ويكون المعنى أنكم مع كثرة اعتيادكم للفرج بعد الشدة عن قرب تيأسون أول ما يصدمكم البلاء ، فتقبلون على كثرة الشكاية ، ولا ينفعكم كثرة التجارب لإدرار النعم أبداً .

(51/744)

ولما ذكر تفكههم ، وكان التفكه يطلق على ما ذكر من التعجب والتندم وعلى التنعم ، قال الكسائي : هو من الأضداد ، تقول العرب : تفكهت أي تنعمت ، وتفكهت ، أي حزنت ، بين المراد بقوله حكاية لتفكههم : ﴿ إنا ﴾ وأكد إعلاماً بشدة بأسهم فقال ﴿ لمغرمون ﴾ أي مولع بنا وملازمون بشر دائم وعذاب وهلاك لهلاك رزقنا ، أو مكرمون بغرامة ما أنفقنا ولم ينتفع به ، وقراءة أبي بكر عن عاصم بالاستفهام لإنكار هذا الواقع والاستعظام له والتعجب منه ، وهي منبهة على أنهم لشدة اضطرابهم من ذلك الحادث مذبذبون تارة يجزمون باليأس والشر وتارة يشكون فيه وينسبون الأمر إلى سوء تصرفهم ، وعليه يدل إضرابهم : ﴿ بل نحن ﴾ أي خاصة ﴿ محرمون ﴾ أي حرمنا غيرنا وهو من لا يرد قضاؤه ، فلا حظ لنا في الاكتساب ، فلو كان الزراع ممن له حظ لأفلح زرعه ، قال في القاموس : الغرام : الولوع والشر الدائم والهلاك والعذاب ، والغرامة ما يلزم أداؤه ، وحرمه : منعه ، والمحروم ، الممنوع عن الخير ومن لا ينمى له مال والمحارف – أي بفتح الراء – وهو الممنوع من الخير الذي لا يكاد يكتسب ، وقال الأصبهاني في تفسيره : والمحروم ضد المرزوق ، أي والمرزوق المجرود بالجيم وهو المحظوظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 415 . 419 ﴾

(52/744)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾

من تقرير قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ خلقناكم ﴾ وذلك لأنه تعالى لما قال : ﴿ نَحْنُ خلقناكم ﴾

قال الطبيعيون : نحن موجودون من نطف الخلق بجواهر كامنة وقبل كل واحد نطفة واحد

فقال تعالى رداً عليهم : هل رأيتم هذا المني وأنه جسم ضعيف متشابه الصورة لا بد له من

مكون ، فأنتم خلقتم النطفة أم غيركم خلقها ، ولا بد من الاعتراف بخالق غير مخلوق قطعاً

للتسلسل الباطل وإلى ربنا المنتهى ، ولا يرتاب فيه أحد من أول ما خلق الله النطفة

وصورها وأحياها ونورها فلم لا تصدقون أنه واحد أحد صمد قادر على الأشياء ، فإنه

يعيدكم كما أنشأكم في الابتداء ، والاستفهام يفيد زيادة تقرير وقد علمت ذلك مراراً .

نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60)

وفيه مسائل .

المسألة الأولى :

في الترتيب فيه وجهان أحدهما : أنه تقرير لما سبق وهو كقوله تعالى : ﴿ الذى خَلَقَ الموت والحياة ﴾ [الملك : 2] فقال : ﴿ نَحْنُ خلقناكم ﴾ [الواقعة : 57] ثم قال : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت ﴾ فمن قدر على الإحياء والإماتة وهما ضدان ثبت كونه مختاراً فيمكن الإحياء ثانياً منه بعد الإماتة بخلاف ما لو كان الإحياء منه ولم يكن له قدرة على الإماتة فيظن به أنه موجب لا مختار ، والموجب لا يقدر على كل شيء ممكن فقال : نحن خلقناكم وقدرنا الموت بينكم فانظروا فيه واعلموا أنا قادرون أن ننشئكم ، ثانيهما : أنه جواب عن قول مبطل يقول : إن لم تكن الحياة والموت بأمور طبيعية في الأجسام من حرارات ورطوبات إذا توفرت بقيت حية ، وإذا نقصت وفنيت ماتت لم يقع الموت وكيف يليق بالحكيم أن يخلق شيئاً يتقن خلقه ويحسن صورته ثم يفسده ويعدمه ثم يعيده وينشئه ، فقال تعالى : نحن قدرنا الموت ، ولا يرد قولكم : لماذا أعدم ولماذا أنشأ ، ولماذا هدم ، لأن كمال القدرة يقتضي ذلك وإنما يقبح من الصائغ والباني صياغة شيء وبناؤه وكسره وإفناؤه لأنه يحتاج إلى صرف زمان إليه وتحمل مشقة وما مثله إلا مثل إنسان ينظر إلى شيء فيقطع نظره عنه طرفة عين ، ثم يعاوده ولا يقال له : لم قطعت النظر ولم نظرت إليه ، ولله المثل الأعلى من هذا ، لأن هنا لا بد من حركة وزمان ولو توارد على الإنسان أمثاله لتعب لكن في المرة الواحدة لا يثبت التعب والله تعالى منزه عن التعب ولا افتقار لفعله إلى زمان ولا

زمان لفعله ولا إلى حركة بجرم ، وفيه وجه آخر ألطف منها ، وهو أن قوله تعالى :

﴿ أَفَرَءَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ ﴾ [الواقعة : 58] معناه أفرأيتم ذلك ميتاً لا حياة فيه وهو مني ، ولو تفكرتم فيه لعلمتم أنه كان قبل ذلك حياً متصلاً بحي وكان أجزاء مدركة متألمة متلذذة ثم إذا أمنيتموه لا تستريبون في كونه ميتاً كالجمادات ، ثم إن الله تعالى يخلقه آدمياً ويجعله بشراً سوياً

(54/744)

فالنطفة كانت قبل الانفصال حية ، ثم صارت ميتة ثم أحياها الله تعالى مرة أخرى فاعلموا أنما إذا خلقناكم أولاً ثم قدرنا بينكم الموت ثانياً ثم ننشئكم مرة أخرى فلا تستبعدوا ذلك كما في النطف .

المسألة الثانية :

ما الفرق بين هذا الموضع وبين أول سورة تبارك حيث قال هناك : ﴿ خَلَقَ الموت والحياة ﴾ [الملك : 2] بتقديم ذكر الموت ؟ نقول : الكلام هنا على الترتيب الأصلي كما قال تعالى في مواضع منها قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون : 12] ثم قال بعد ذلك : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيّتُونَ ﴾ [المؤمنون : 15] وأما

في سورة الملك فنذكر إن شاء الله تعالى فائدتها ومرجعها إلى ما ذكرنا أنه قال : خلق الموت في النطف بعد كونها حية عند الاتصال ثم خلق الحياة فيها بعد الموت وهو دليل الحشر ، وقيل : المراد من الموت هنا الموت الذي بعد الحياة ، والمراد هناك الذي قبل الحياة .

المسألة الثالثة :

قال ههنا : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا ﴾ وقال في سورة الملك : ﴿ خَلَقَ الموت والحياة ﴾ فذكر الموت والحياة بلفظ الخلق ، وههنا قال : ﴿ خلقناكم ﴾ وقال : ﴿ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت ﴾ فنقول : كان المراد هناك بيان كون الموت والحياة مخلوقين مطلقاً لا في الناس على الخصوص ، وهنا لما قال : ﴿ خلقناكم ﴾ [الواقعة : 57] خصصهم بالذكر فصار كأنه قال : خلقنا حياتكم ، فلو قال : نحن قدرنا موتكم ، كان ينبغي أنه يوجد موتهم في الحال ولم يكن كذلك ، ولهذا قال : ﴿ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ﴾ وأما هناك فالموت والحياة كانا مخلوقين في محلين ولم يكن ذلك بالنسبة إلى بعض مخصوص .

المسألة الرابعة :

هل في قوله تعالى : ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ بدلاً عن غيره من الألفاظ فائدة ؟ نقول : نعم فائدة جليلة ، وهي تبين بالنظر إلى الألفاظ التي تقوم مقامها فنقول : قدرنا لكم الموت ، وقدرنا فيكم الموت ، فقوله : قدرنا فيكم يفيد معنى الخلق لأن تقدير الشيء في الشيء يستدعي كونه ظرفاً له إما ظرف حصول فيه أو ظرف حلول فيه كما يقال : البياض في الجسم والكحل في العين ، فلو قال : قدرنا فيكم الموت لكان مخلوقاً فينا وليس كذلك ، وإن قلنا : قدرنا لكم الموت كان ذلك ينبىء عن تأخره عن الناس فإن القائل إذا قال : هذا معد لك كان معناه أنه اليوم لغيرك وغداً لك ، كما قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأيام نُدَاوِلُهَا بَيْنَ الناس ﴾ [آل عمران : 140] .

المسألة الخامسة :

(56/744)

قوله : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ المشهور أن المراد منه : وما نحن بمغلوبين عاجزين عن خلق أمثالكم وإعادتكم بعد تفرق أوصالكم ، يقال : فاته الشيء إذا غلبه ولم يقدر عليه ومثله سبقه وعلى هذا نعيد ما ذكرناه من الترتيب ، ونقول : إذا كان قوله : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ﴾ لبيان أنه خلق الحياة وقدر الموت ، وهما ضدان وخالق الضدين يكون قادراً

مختاراً فقال : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ عاجزين عن الشيء بخلاف الموجب الذي لا يمكنه من إيقاع كل واحد من الضدين فيسبقه ويفوته ، فإن النار لا يمكنها التبريد لأن طبيعتها موجبة للتسخين ، وأما إن قلنا بأنه ذكره رداً عليهم حيث قالوا : لو لم يكن الموت من فناء الرطوبات الأصلية وانطفاء الحرارة الغريزية وكان بخلق حكيم مختار ما كان يجوز وقوعه لأن الحكيم كيف يبني ويهدم ويوجد ويعدم فقال : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي عاجزين بوجه من الوجوه التي يستبعدونها من البناء والصائغ فإنه يفتقر في الإيجاد إلى زمان ومكان وتمكين من المفعول وإمكان ويلحقه تعب من تحريك وإسكان والله تعالى يخلق بكن فيكون ، فهو فوق ما ذكرنا من المثل من قطع النظر وإعادته في أسرع حين حيث لا يصح من القائل أن يقول : لم قطعت النظر في ذلك الزمان اللطيف الذي لا يدرك ولا يحس بل ربما يكون مدعى القدرة التامة على الشيء في الزمان اليسير بالحركة السريعة يأتي بشيء ثم يبطله ثم يأتي بمثله ثم يبطله يدلك عليه فعل أصحاب خفة اليد ، حيث يوهم أنه يفعل شيئاً ثم يبطله ، ثم يأتي بمثله إراءة من نفسه القدرة ، وعلى هذا فنقول قوله في سورة تبارك :

﴿ خَلَقَ الموت والحياةِ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ [الملك : 2] معناه أمات وأحيا لتعلموا أنه فاعل مختار ، فتعبدونه وتعتقدون الثواب والعقاب فيحسن عملكم ولو اعتقدتموه موجباً لما عملتم شيئاً على هذا التفسير المشهور ، والظاهر أن المراد من قوله : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ حقيقته وهي أنا ما سبقنا وهو يحتمل شيئين أحدهما : أن يكون معناه أنه هو الأول لم يكن قبله شيء وثانيهما : في خلق الناس وتقدير الموت فيهم ما سبق وهو على طريقة منع آخر وفيه فائدتان أما إذا قلنا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ معناه ما سبقنا شيء فهو إشارة إلى أنكم من أي وجه تسلكون طريق النظر تنتهون إلى الله وتقفون عنده ولا تجاوزونه ، فإنكم إن كنتم تقولون : قبل النطفة أب وقبل الأب نطفة فالعقل يحكم بانتهاء النطف والآباء إلى خالق غير مخلوق ، وأنا ذلك فإني لست بمسبوق وليس هناك خالق ولا سابق غيري ، وهذا يكون على طريقة التدرج والنزول من مقام إلى مقام ، والعاقل الذي هداه الله تعالى الهداية القوية يعرف أولاً والذي دونه يعرف بعد ذلك برتبة ، والمعاند لا بد من أن يعرف إن عاد إلى عقله بعد المراتب ، ويقول : لا بد للكل من إله ، وهو ليس بمسبوق فيما فعله ، فمعناه أنه فعل ما فعل ، ولم يكن لمفعوله مثال ، وأما إن قلنا : إنه ليس بمسبوق ، وأي حاجة في إعادته له بمثال هو أهون فيكون كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] ويؤيده قوله تعالى : ﴿ على أَن نُّبَدِّلَ أمثالكم وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ فإن قيل : هذا لا يصح ، لأن مثل هذا ورد في سؤال سائل ، والمراد ما ذكرنا كأنه قال : وإنا لقادرون على

أن نبدل أمثالكم وما نحن بمسبوقين ، أي لسنا بعاجزين مغلوبين فهذا دليلنا ، وذلك لأن قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لقادرون ﴾ أفاد فائدة انتفاء العجز عنه ، فلا بد من أن يكون لقوله تعالى : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ فائدة ظاهرة ، ثم قال تعالى :

(58/744)

﴿ على أَن نُّبَدّلَ أمثالكم ﴾ في الوجه المشهور ، قوله تعالى : ﴿ على أَن نُّبَدّلَ ﴾ يتعلق بقوله : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي على التبديل ، ومعناه وما نحن عاجزين عن التبديل . والتحقيق في هذا الوجه أن من سبقه الشيء كأنه غلبه فعجز عنه ، وكلمة على في هذا الوجه مأخوذة من استعمال لفظ المسابقة فإنه يكون على شيء ، فإن من سبق غيره على أمر فهو الغالب ، وعلى الوجه الآخر يتعلق بقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا ﴾ وتقديره : نحن قدرنا بينكم على وجه التبديل لا على وجه قطع النسل من أول الأمر ، كما يقول القائل : خرج فلان على أن يرجع عاجلاً ، أي على هذا الوجه خرج ، وتعلق كلمة على هذا الوجه أظهر ، فإن قيل : على ما ذهب إليه المفسرون لا إشكال في تبديل أمثالكم ، أي أشكالكم وأوصافكم ، ويكون الأمثال جمع مثل ، ويكون معناه وما نحن بعاجزين على أن نمسخكم ، ونجعلكم في صورة قردة وخنازير ، فيكون كقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ نَشَاء لمسخناهم على مكانتهم ﴾ [يس : 67] وعلى ما قلت في تفسير المسبوقين ، وجعلت المتعلق لقوله : ﴿ على أَن نُّبَدّلَ أمثالكم ﴾ هو قوله : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا ﴾ فيكون قوله : ﴿ نُّبَدّلَ أمثالكم ﴾ معناه على أن نبدل أمثالهم لا على عملهم ، نقول : هذا إيراد وارد على المفسرين بأسرهم إذا فسروا الأمثال بجمع المثل ، وهو الظاهر كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أمثالكم ﴾ [محمد : 38] وقوله : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أمثالهم تَبْدِيلاً ﴾ [الإنسان : 28] فإن قوله : ﴿ إِذَا ﴾ دليل الوقوع ، وتغير أوصافهم بالمسخ ليس أمراً يقع والجواب أن يقال : الأمثال إما أن يكون جمع مثل ، وإما جمع مثل ، فإن كان جمع مثل فنقول معناه قدرنا بينكم الموت على هذا الوجه ، وهو أن نغير أوصافكم فتكونوا أطفالاً ، ثم شباناً ، ثم كهولاً ، ثم شيوخاً ، ثم يدرككم الأجل ، وما قدرنا بينكم الموت على أن نهلككم دفعة واحدة إلا إذا جاء وقت ذلك فتهلكون بنفخة واحدة وإن قلنا : هو جمع مثل فنقول معنى : ﴿ نُّبَدّلَ أمثالكم ﴾ نجعل أمثالكم بدلاً وبدله بمعنى جعله بدلاً ، ولم يحسن أن يقال : بدلناكم على هذا الوجه ، لأنه يفيد أنا جعلنا بدلاً فلا يدل على وقوع الفناء عليهم ، غاية ما في الباب أن قول القائل : جعلت كذا بدلاً لا تتم فائدته إلا إذا قال : جعلته

بدلاً عن كذا لكنه تعالى لما قال : ﴿ نُّبَدِّلَ أَمثالكم ﴾ فالمثل يدل على المثل ، فكأنه قال : جعلنا أمثالكم بدلاً لكم ، ومعناه على ما ذكرنا أنه لم نقدر الموت على أن نفني الخلق دفعة بل قدرناه على أن نجعل مثلهم بدلهم مدة طويلة ثم نهلكهم جميعاً ثم ننشئهم ، وقوله تعالى : ﴿ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ على الوجه المشهور في التفسير أنه فيما لا تعلمون من الأوصاف والأخلاق ، والظاهر أن المراد : ﴿ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ من الأوصاف والزمان ، فإن أحداً لا يدري أنه متى يموت ومتى ينشأ أو كأنهم قالوا : ومتى

(60/744)

الساعة والإنشاء ؟ فقال : لا علم لكم بهما ، هذا إذا قلنا : إن المراد ما ذكر فيه على الوجه المشهور وفيه لطيفة : وهي أن قوله : ﴿ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ تقرير لقوله : ﴿ أأنتم تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخالقون ﴾ [الواقعة : 59] وكأنه قال : كيف يمكن أن تقولوا هذا وأنتم تنشأون في بطون أمهاتكم على أوصاف لا تعلمون وكيف يكون خالق الشيء غير عالم به ؟ وهو كقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أمهاتكم ﴾ [النجم : 32] وعلى ما ذكرنا فيه فائدة وهي التحريض على العمل الصالح ، لأن التبديل والإنشاء وهو الموت والحشر إذا كان واقعاً في زمان لا يعلمه أحد فينبغي أن لا

يتكل الإنسان على طول المدة ولا يغفل عن إعداد العدة ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة الأولى ﴾ تقريراً لإمكان النشأة الثانية .

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64)

(61/744)

ذكر بعد دليل الخلق دليل الرزق فقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ ﴾ إشارة إلى دليل الخلق وبه الابتداء ، وقوله : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ إشارة إلى دليل الرزق وبه البقاء ، وذكر أموراً ثلاثة المأكول ، والمشروب ، وما به إصلاح المأكول ، ورتبه ترتيباً فذكر المأكول أولاً لأنه هو الغذاء ، ثم المشروب لأن به الاستمراء ، ثم النار للتي بها الإصلاح وذكر من كل نوع ما هو الأصل ، فذكر من المأكول الحب فإنه هو الأصل ، ومن المشروب الماء لأنه هو الأصل ، وذكر من المصلحات النار لأن بها إصلاح أكثر الأغذية وأعمها ، ودخل في كل واحد منها ما هو دونه ، هذا هو الترتيب ، وأما التفسير فنقول : الفرق بين الحرث والزرع هو أن الحرث أوائل الزرع ومقدماته من كراب الأرض ، وإلقاء البذر ، وسقي المبذور ، والزرع هو آخر الحرث من خروج النبات واستغلاظه واستوائه على الساق ، فقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ أي ما تبتدئون منه من الأعمال أأنتم تبلغونها المقصود أم الله ؟ ولا يشك أحد في

أن إيجاد الحب في السنبلة ليس بفعل الناس ، وليس بفعلهم إن كان سوى إلقاء البذر والسقي ، فإن قيل : هذا يدل على أن الله هو الزارع ، فكيف قال تعالى : ﴿يُعْجِبُ الزراع﴾ [الفتح : 29] وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " الزرع للزارع " قلنا قد ثبت من التفسير أن الحرث متصل بالزرع ، فالحرث أوائل الزرع ، والزرع أواخر الحرث ، فيجوز إطلاق أحدهما على الآخر ، لكن قوله : ﴿يُعْجِبُ الزراع﴾ بدلاً عن قوله : يعجب الحراث ، يدل على أن الحارث إذا كان هو المبتدي ، فربما يتعجب بما يترتب على فعله من خروج النبات والزارع لما كان هو المنتهي ، ولا يعجبه إلا شيء عظيم ، فقال : ﴿يُعْجِبُ الزراع﴾ الذين تعودوا أخذ الحراث ، فما ظنك بإعجابه الحراث ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " الزرع للزارع " فيه فائدة ، لأنه لو قال : للحارث فمن ابتدأ بعمل الزرع وأتى بكراب الأرض

(62/744)

وتسويتها يصير حارثاً ، وذلك قبل إلقاء البذرة لزرع لمن أتى بالأمر المتأخر وهو إلقاء البذر ، أي من له البذر على مذهب أبي حنيفة رحمة الله تعالى عليه وهذا أظهر ، لأنه بمجرد الإلقاء في الأرض يجعل الزرع للملقى سواء كان مالكاً أو غاصباً .

لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67)

وهو تدريج في الإثبات ، وبيانه هو أنه لما قال : ﴿ أَأَنتم تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزرعون ﴾ [الواقعة : 64] لم يبعد من معاند أن يقول : نحن نحرث وهو بنفسه يصير زرعاً ، لا بفعلنا ولا بفعل غيرنا ، فقال تعالى : ولو سلم لكم هذا الباطل هذا الباطل ، فما تقولون في سلامته عن الآفات التي تصيبه ، فيفسد قبل اشتداد الحب وقبل انعقاده ، أو قبل اشتداد الحب وقبل ظهور الحب فيه ، فهل تحفظونه منها أو تدفعونها عنه ، أو هذا الزرع بنفسه يدفع عن نفسه تلك الآفات ، كما تقولون : إنه بنفسه ينبت ، ولا يشك أحد أن دفع الآفات بإذن الله تعالى ، وحفظه عنها بفضل الله ، وعلى هذا أعاده ليذكر أموراً مرتبة بعضها على بعض فيكون الأمر الأول : للمهتدين والثاني : للظالمين والثالث : للمعاندين الضالين فيذكر الأمر الذي لا شك فيه في آخر الأمر إقامة للحجة على الضال المعاند .

(63/744)

وفيه سؤال وهو أنه تعالى ههنا قال : ﴿ لَجَعَلْنَاهُ ﴾ بلام الجواب وقال في الماء : ﴿ جعلناه أُجَاجاً ﴾ [الواقعة : 70] من غير لام فما الفرق بينهما ؟ نقول : ذكر الزمخشري عنه

جوابين أحدهما : قوله تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حطاما ﴾ كان قريب الذكر فاستغنى بذكر اللام فيه عن ذكرها ثانياً ، وهذا ضعيف لأن وقوله تعالى : ﴿ لَّوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا على أَعْيُنِهِمْ ﴾ [يس : 66] مع قوله : ﴿ لَّوْ نَشَاء لمسخناهم ﴾ [يس : 67] أقرب من قوله : ﴿ لَجَعَلْنَاهُ حطاما ﴾ و ﴿ جعلناه أُجَاجاً ﴾ [الواقعة : 70] اللهم إلا أن نقول : هناك أحدهما قريب من الآخر ذكراً لا معنى لأن الطمس لا يلزمه المسخ ولا بالعكس والمأكول معه المشروب في الدهر ، فالأمران تقاربا لفظاً ومعنى والجواب الثاني : أن اللام يفيد نوع تأكيد فذكر اللام في المأكول ليعلم أن أمر المأكول أهم من أمر المشروب وأن نعمته أعظم وما ذكرنا أيضاً وارد عليه لأن أمر الطمس أهون من أمر المسخ وأدخل فيهما اللام ، وههنا جواب آخر يبين بتقديم بحث عن فائدة اللام في جواب لو ، فنقول : حرف الشرط إذا دخل على الجملة يخرجها عن كونها جملة في المعنى فاحتاجوا إلى علامة تدل على المعنى ، فأتوا بالجزم في المستقبل لأن الشرط يقتضي جزاء ، وفيه تطويل فالجزم الذي هو سكون أليق بالموضع وبينه وبين المعنى أيضاً مناسبة لكن كلمة لو مختصة بالدخول على الماضي معنى فإنها إذا دخلت على المستقبل جعلته ماضياً ، والتحقيق فيه أن الجملة الشرطية لا تخرج عن أقسام فإنها إذا ذكرت لا بد من أن يكون الشرط معلوم الوقوع لأن الشرط إن كان معلوم الوقوع فالجزاء لازم الوقوع فجعل الكلام جملة شرطية عدول عن جملة إسنادية إلى جملة تعليقية وهو تطويل من غير فائدة فقول القائل : آتيك إن طلعت الشمس تطويل والأولى أن

يقول : آتيك جزماً من غير شرط فإذا علم هذا فحال الشرط لا يخلو من أن يكون معلوم العدم أو مشكوكاً فيه

(64/744)

فالشرط إذا وقع على قسمين فلا بد لهما من لفظين وهما إن ولو ، واختصت إن بالشكوك ، ولو بمعلوم لأمر بيناه في موضع آخر لكن ما علم عدم يكون الآخر فقد أثبت منه فهو ماض أو في حكمه لأن العلم بالأمور يكون بعد وقوعها وما يشك فيه فهو مستقبل أو في معناه لأننا نشك في الأمور المستقبلة أنها تكون أولا تكون والماضي خرج عن التردد ، وإذا ثبت هذا ، فنقول : لما دخل لو على الماضي وما اختلف آخر بالعامل لم يتبين فيه إعراب ، وإن لما دخل على المستقبل بان فيه الإعراب ، ثم إن الجزاء على حسب الشرط وكان الجزاء في باب لو ماضياً فلم يتبين فيه الحال ولا سكون ، فيضاف له حرف يدل على خروجه عن كونه جملة ودخوله في كونه جزء جملة ، إذا ثبت هذا فنقول : عندما يكون الجزاء ظاهراً يستغني عن الحرف الصارف ، لكن كون الماء المذكور في الآية ، وهو الماء المشروب المنزل من المزن أجاجاً ليس أمراً واقعاً يظن أنه خبر مستقل ، ويقويه أنه تعالى يقول : ﴿ جعلناه أُجَاجاً ﴾ على طريقة الإخبار والحرث والزرع كثيراً ما وقع كونه حطاماً فلو قال : جعلناه حطاماً ،

كان يتوهم منه الإخبار فقال هناك : ﴿ لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ ﴾ ليخرجه عما هو صالح له في الواقع ، وهو الحطامية وقال الماء المنزل المشروب من المزن جعلناه أجاجاً لأنه لا يتوهم ذلك فاستغنى عن اللام ، وفيه لطيفة : أخرى نحوية ، وهي أن في القرآن إسقاط اللام عن جزاء لو حيث كانت لو داخلة على مستقبل لفظاً ، وأما إذا كان ما دخل عليه لو ماضياً ، وكان الجزاء موجباً فلا كما في قوله تعالى :

(65/744)

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا ﴾ [السجدة : 13] و ﴿ لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ [إبراهيم : 21] وذلك لأن لو إذا دخلت على فعل مستقل كما في قوله : ﴿ لَوْ نَشَاء ﴾ فقد أخرجت عن حيزها لفظاً ، لأن لو للماضي فإذا خرج الشرط عن حيزه جاز في الجزاء الإخراج عن حيزه لفظاً وإسقاط اللام عنه ، لأن إن كان حيزها المستقبل وتدخل على المستقبل ، فإذا جعل ما دخل إن عليه ماضياً كقولك : إن جئتني ، جاز في الخبر الإخراج عن حيزه وترك الجزم فنقول : أكرمك بالرفع ، وأكرمك بالجزم ، كما تقول في : ﴿ لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ ﴾ وفي : ﴿ لَوْ نَشَاء جعلناه ﴾ [الواقعة : 70] وما ذكرناه من الجواب في قوله : ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاء اللهُ أَطْعَمَهُ ﴾ [يس : 47] إذا نظرت إليه تجده مستقيماً ، وحيث لم يقل : لو شاء

الله أطعمه ، علم أن الآخر جزاء ولم يبق فيه توهم ، لأنه إما أن يكون عند المتكلم ، وذلك غير جائز لأن المتكلم عالم بحقيقة كلامه ، وإما أن يكون عندهم وذلك غير جائز ههنا ، لأن قولهم : لو شاء الله أطعمه رد على المؤمنين في زعمهم يعني أنتم تقولون : إن الله لو شاء فعل فلا نطعم من لو شاء الله أطعمه على زعمكم ، فلما كان أطعمه جزاءاً معلوماً عند السامع والمتكلم استغنى عن اللام ، والحطام كالفتات والجذاذ وهو من الحطم كما أن الفتات والجذاذ من الفت والجذ والفعال في أكثر الأمر يدل على مكروه أو منكر ، أما في المعاني : فكالسبات والفواق والزكام والدوار والصداع لأمراض وآفات في الناس والنبات .

(66/744)

وأما في الأعيان : فكالجذاذ والحطام والفتات وكذا إذا لحقته الهاء كالبرادة والسحالة ، وفيه زيادة بيان وهو أن ضم الفاء من الكلمة يدل على ما ذكرنا في الأفعال فإنا نقول : فعل لما لم يسم فاعله وكان السبب أن أوائل الكلم لما لم يكن فيه التخفيف المطلق وهو السكون لم يثبت التثقيل المطلق وهو الضم ، فإذا ثبت فهو لعارض ، فإن علم كما ذكرنا فلا كلام وإن لم يعلم كما في برد وقفل فالأمر خفي يطول ذكره والوضع يدل عليه في الثلاثي .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ وفيه وجهان : أما على الوجه الأول

: كأنما هو كلام مقدر عنهم كأنه يقول : وحينئذ يحق أن تقولوا : إنا لمعذبون دائمون في العذاب .

وأما على الوجه الثاني : فيقولون : إنا لمعذبون ومحرمون عن إعادة الزرع مرة أخرى ، يقولون : إنا لمعذبون بالجوع بهلاك الزرع ومحرومون عن دفعه بغير الزرع لفوات الماء والوجه الثالث : في الغرم إنا لمكرهون بالغرامة من غرم الرجل وأصل الغرم والغرام لزوم المكروه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 154 . 159 ﴾

(67/744)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ ﴾ أي ما تصبّونه من المَنِيّ في أرحام النساء .

﴿ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ أي تصوّرون منه الإنسان ﴿ أَمْ نَحْنُ الخالقون ﴾ المقدّرون المصوّرون .

وهذا احتجاج عليهم وبيان للآية الأولى ؛ أي إذا أقررتم بأنّا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث .

وقرأ أبو السَّمّال ومحمد بن السَّمَيْقَع وأشهب العقيلي : "تَمْنُونَ" بفتح التاء وهما لغتان أَمْنَى

ومَنى ؛ وأمْذَى ومَذَى ، يُمنِي ويَمنِي ويُمذي ويَمذَي .

الماوردي : ويحتمل أن يختلف معناهما عندي ؛ فيكون أمْنى إذا أَنزل عن جماع ، ومَنَى إذا أنزل عن الاحتلام .

وفي تسمية المنيّ مَنِيًّا وجهان : أحدهما لإمنائه وهو إراقته .

الثاني لتقديره ، ومنه المنَا الذي يوزن به لأنه مقدار لذلك ، كذلك المنيّ مقدار صحيح لتصوير الخلقة .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت ﴾ احتجاج أيضاً ، أي الذي يقدر على الإماتة يقدر على الخلق ، وإذا قدر على الخلق قدر على البعث .

وقرأ مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصن وابن كَثِير "قَدرْنَا" بتخفيف الدال .

الباقون بالتشديد ، قال الضحاك : أي سوينا بين أهل السماء وأهل الأرض .

وقيل : قضينا .

وقيل : كتبنا ، والمعنى متقارب ؛ فلا أحد يبقى غيره عز وجل .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ .

على أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ﴾ أي إن أردنا أن نبدل أمثالكم لم يسبقنا أحد ؛ أي لم يغلبنا .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ معناه بمغلوبين .

وقال الطبريّ : المعنى نحن قدّرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم بعد موتكم بآخرين من

جنسكم ، وما نحن بمسبوقين في آجالكم ؛ أي لا يتقدّم متأخر ولا يتأخر متقدّم .

﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ من الصور والهيئات .

قال الحسن : أي نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بأقوام قبلكم .

(68/744)

وقيل : المعنى ننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا ، فيجمَّل المؤمنُ ببياض وجهه ، ويُقبَّح الكافرُ بسواد وجهه .

سعيد بن جُبير : قوله تعالى : ﴿ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني في حواصل طير سود تكون بَبَرهُوت كأنها الخطاطيف ، وبَرَهُوت وادٍ في اليمن .

وقال مجاهد : ﴿ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ في أي خلق شئنا .

وقيل : المعنى ننشئكم في عالم لا تعلمون ، وفي مكان لا تعلمون .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة الأولى ﴾ أي إذ خُلِقتم من نُطْفة ثم من عَلَقة ثم من مُضْغة ولم تكونوا شيئاً ؛ عن مجاهد وغيره .

قتادة والضحاك : يعني خلق آدم عليه السلام .

﴿ فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي فهلاّ تذكرون .

وفي الخبر : عجباً كلّ العجب للمكذّب بالنشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى ، وعجباً للمصدّق بالنشأة الآخرة وهو لا يسعى لدار القرار .

وقراءة العامة ﴿ النشأة ﴾ بالقصر .

وقرأ مجاهد والحسن وابن كثير وأبو عمرو : "النَّشَاءَةَ" بالمد ؛ وقد مضى في "العنكبوت" بيانه .

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ هذه حجة أخرى ؛ أي أخبروني عما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيها البَذر ، أنتم تنبتونه وتحصّلونه زرعاً فيكون فيه السُّنْبل والحبّ أم نحن نفعل ذلك ؟ وإنما منكم البذر وشقّ الأرض ، فإذا أقررتم بأن إخراج السُّنْبل من الحبّ ليس إليكم ، فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض وإعادتهم ؟ ! وأضاف الحرث إليهم والزرع إليه تعالى ؛ لأن الحرث فعلهم ويجري على اختيارهم ، والزرع من فعل الله تعالى وينبت على اختياره لا على اختيارهم .

وكذلك ما روى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يقولنّ أحدكم زرعتُ وليقلْ حرثتُ فإن الزارع هو الله " قال أبو هريرة : ألم تسمعوا قول الله تعالى : ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون ﴾ .

والمستحب لكل من يُلقي البذر في الأرض أن يقرأ بعد الاستعاذة ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ الآية ، ثم يقول : بل الله الزارع والمنبت والمبلغ ، اللهم صلّ على محمد ، وارزقنا ثمره ، وجنّبنا ضرره ، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين ، ولآلائك من الذاكرين ، وبارك لنا فيه يا ربّ العالمين .

ويقال : إن هذا القول أمان لذلك الزرع من جميع الآفات : الدود والجراد وغير ذلك ؛ سمعناه من ثقة وجُرِّب فوُجِد كذلك .

ومعنى ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ ﴾ أي تجعلونه زرعاً .

وقد يقال : فلان زرّاع كما يقال حراث ؛ أي يفعل ما يؤول إلى أن يكون زرعاً يعجب الزرّاع .

وقد يطلق لفظ الزرع على بذر الأرض وتكريبها تجوُّزاً .

قلت : فهو نهي إرشاد وأدب لا نهي حظر وإيجاب ؛ ومنه قوله عليه السلام : " لا يقولنَّ أحدكم عبدي وأمتي وليقل غلامي وجاريتي وفَتاي وفَتاتي " وقد مضى في "يوسف" القول فيه .

وقد بالغ بعض العلماء فقال : لا يقل حرثت فأصبت ، بل يقل : أعانني الله فحرثت ، وأعطاني بفضله ما أصبت .

قال الماوردي : وتتضمن هذه الآية أمرين ؛ أحدهما الامتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى

عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم .

الثاني البرهان الموجب للاعتبار ؛ لأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشي بذره ، وانتقاله إلى استواء حاله من العَفَن والتتريب حتى صار زرعاً أخضر ، ثم جعله قويًّا مشتدًّا أضعاف ما كان عليه ؛ فهو بإعادة من أمات أخفّ عليه وأقدر ؛ وفي هذا البرهان مقنع لذوي الفِطر السليمة .

ثم قال ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً ﴾ أي متكسراً يعني الزرع .

والحُطام الهشيم الهالك الذي لا يُنتفع به في مطعم ولا غذاء ؛ فنبه بذلك أيضاً على أمرين :

أحدهما ما أولاهم به من النِّعم في زرعهم إذ لم يجعله حطاماً ليشكروه .

الثاني ليعتبروا بذلك في أنفسهم ؛ كما أنه يجعل الزرع حطاماً إذا شاء ، وكذلك يهلكهم إذا شاء ليتعظوا فينزجروا .

(70/744)

﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ أي تعجبون بذهابها وتندمون مما حل بكم ؛ قاله الحسن وقتادة وغيرهم .

وفي الصحاح : وتفكّه أي تعجّب ، ويقال : تندّم ، قال الله تعالى : ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾

أي تندمون .

وتفكهت بالشيء تمتعت به .

وقال يمان : تندمون على نفقاتكم ؛ دليله : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا ﴾ [الكهف : 42] .

وقال عِكرمة : تلاومون وتندمون على ما سلف منكم من معصية الله التي أوجبت عقوبتكم حتى نالتكم في زرعكم .

ابن كَيْسان : تحزنون ؛ والمعنى متقارب .

وفيه لغتان : تفَكَّهون وتَفَكَّنُون : قال الفراء : والنون لغة عُكْل .

وفي الصحاح : التفكّن التندّم على ما فات .

وقيل : التفكّه التكلم فيما لا يعنيك ، ومنه قيل للمزاح فُكَاهة بالضم ؛ فأما الفَكاهة بالفتح فمصدر فكِه الرجلُ بالكسر فهو فَكِهٌ إذا كان طيّب النفس مَزَّاحاً .

وقراءة العامة "فَظَلْتُمْ" بفتح الظاء .

وقرأ عبد الله "فَظِلْتُمْ" بكسر الظاء ورواها هارون عن حسين عن أبي بكر .

فمن فتح فعلى الأصل ، والأصل ظَلَلْتُمْ فحذف اللام الأولى تخفيفاً ، ومن كسر نقل كسرة اللام الأولى إلى الظاء ثم حذفها .

﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ وقرأ أبو بكر والمفضَّل "أَئِنَّا" بهمزتين على الاستفهام ، ورواه عاصم

عن زِرّ بن حُبَيش .

الباقون بهمزة واحدة على الخبر ؛ أي يقولون ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ أي معذبون ؛ عن ابن عباس وقَتَادة قالا : والغرام العذاب ؛ ومنه قول ابن المحلِّم :

وثقت بأن الحفظ منّي سجيّةٌ . . .

وأن فؤادي مُتْبَلٌ بك مغرمُ

وقال مجاهد وعِكرمة : لمولع بنا ؛ ومنه قول النَّمِر بن تَوْلَب :

سَلاَ عن تَذكُّره تُكْتَمَا . . .

وكان رَهيناً بها مُغْرَمَا

يقال : أغرم فلان بفلانة ، أي أولع بها ومنه الغرام وهو الشر اللازم .

وقال مجاهد أيضاً : لملقون شرّاً .

وقال مقاتل بن حيان : مهلكون .

(71/744)

النحاس : "إِنَّا لَمُغْرَمُونَ" مأخوذ من الغَرَام وهو الهلاك ؛ كما قال :

يومُ النِّسَارِ ويومُ الجِفَا . . .

رِكَانَا عَذَابًا وكَانَا غَرَامَا

الضحاك وابن كيسان : هو من الغُرْم ، والمُغْرَم الذي ذهب ماله بغير عوض ؛ أي غِرمنا الحَبّ الذي بذرناه .

وقال مُرَّة الهَمْداني : محاسبون .

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي حرمنا ما طلبنا من الريع .

والمحروم الممنوع من الرزق .

والمحروم ضد المرزوق وهو المحارِف في قول قتادة .

وعن أنس : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم مرّ بأرض الأنصار فقال : "ما يمنعكم من الحرث" قالوا : الجدوبة ؛ فقال : "لا تفعلوا فإن الله تعالى يقول أنا الزارع إن شئت زرعت بالماء وإن شئت زرعت بالريح وإن شئت زرعت بالبذر" " ثم تلا ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون ﴾ .

قلت : وفي هذا الخبر والحديث الذي قبله ما يصحح قول من أدخل الزارع في أسماء الله سبحانه ، وأباه الجمهور من العلماء ، وقد ذكرنا ذلك في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾

أي ما تقذفونه في الأرحام من النطف ، وقرأ ابن عباس .

وأبو الثمال ﴿ تُمْنُونَ ﴾ بفتح التاء من مني النطقة بمعنى أمناها أي أزالها بدفع الطبيعة ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ أي تقدرونه وتصورونه بشراً سوياً تام الخلقة ، فالمراد خلق ما يحصل منه على أن في الكلام تقديراً أو تجوزاً ، وجوز إبقاء ذلك على ظاهره أي ﴿ تَخْلُقُونَهُ أَم ﴾ وتنشئون نفس ذات ما تمنونه ﴿ أَم نَحْنُ الخالقون ﴾ له من غير دخل شيء فيه وأرأيتم قد مر الكلام غير مرة فيه ، ويقال هنا : إن اسم الموصول مفعوله الأول والجملة الاستفهامية مفعوله الثاني ، وكذا يقال فيم بعد من نظائره وما يعتبر فيه الرؤية بصرية تكون الجملة الاستفهامية فيه مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، وجوز في أنتم أن يكون مبتدأ ، والجملة بعده خبره ، وأن يكون فاعلاً لفعل محذوف والأصل أتخلقون فلما حذف الفعل انفصل الضمير ، واختاره أبو حيان ، و ﴿ أَمْ ﴾ قيل : منقطعة لأن ما بعدها جملة فالمعنى بل أنحن الخالقون على أن الاستفهام للتقرير ، وقال قوم من النحاة : متصلة معادلة للهمزة كأنه قيل : ﴿ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الخالقون ﴾ ثم جيء بالخالقون بعد بطريق التأكيد لا بطريق الخبرية أصالة .

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت ﴾ قسمناه عليكم ووقتنا موت كل أحد بوقت معين حسبما تقتضيه مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة ، وقرأ ابن كثير ﴿ قَدَّرْنَآ ﴾ بالتخفيف ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي لايغلبنا أحد .

(73/744)

﴿ على أَن نُّبَدّلَ أمثالكم ﴾ أي على أن نذهبكم ونأتي مكانكم أشباهكم من الخلق فالسبق مجاز عن الغلبة استعارة تصريحية أو مجاز مرسل عن لازمه ، وظاهر كلام بعض الأجلة أنه حقيقة في ذلك إذا تعدى بعلي ، والجملة في وضع الحال من ضمير ﴿ قَدَّرْنَآ ﴾ [الواقعة : 60] وكأن المراد ﴿ قَدَّرْنَآ ﴾ ذلك ونحن قادرون على أن نميتكم دفعة واحدة ونخلق أشباهكم .

﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ من الخلق والأطوار التي لا تعهدونها ، وقال الحسن : من كونكم قردة وخنازير ، ولعل اختيار ذلك لأن الآية تنحو إلى الوعيد ، والمراد ونحن قادرون على هذا أيضاً وجوز أن يكون أمثالكم جمع مثل بفتحتين بمعنى الصفة لا جمع مثل بالسكون بمعنى الشبه كما في الوجه الأول أي ونحن نقدر على أن نغير صفاتكم التي أنتم عليها خَلْقاً وَخُلُقاً وننشئكم في صفات لا تعلمونها ، وقيل : المعنى وننشئكم في البعث عل غير

صوركم في الدنيا ، وقيل : المعنى وما يسبقنا أحد فيهرب من الموت أو يغير وقته الذي وقتناه ، على أن المراد تمثيل حال من سلم من الموت أو تأخر أجله عن الوقت المعين له بحال من طلبه طالب فلم يلحقه وسبقه ، وقوله تعالى : ﴿ على أَن نُّبَدّلَ ﴾ الخ في موضع الحال من الضمير المستتر في مسبوقين أي حال كوننا قادرين أو عازمين على تبديل أمثالكم ، والجملة السابقة على حالها ، وقال الطبري : ﴿ على أَن نُّبَدّلَ ﴾ متعلق بقدّرنا وعلة له وجملة ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ اعتراض ، والمعنى نحن قدرنا بينكم الموت لأن نبدل أمثالكم أي نميت طائفة ونبدلها بطائفة هكذا قرناً بعد قرن .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة الأولى ﴾

(74/744)

من خلقكم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ؛ وقال قتادة : هي فطرة آدم عليه السلام من التراب ولا ينكرها أحد من ولده ﴿ فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ فهلا تتذكرون أن من قدر عليها فهو على النشأة الأخرى أقدر وأقدر فإنها أقل صنعاً لحصول المواد وتخصيص الأجزاء وسبق المثاق ، وهذا على ما قالوا دليل على صحة القياس لكن قيل : لا يدل إلا على قياس الأولى لأنه الذي في الآية ، وفي الخبر " عجباً كل العجب للمكذب بالنشأة الآخرة وهو

يرى النشأة الأولى ، وعجباً للمصدق بالنشأة الآخرة وهو يسعى لدار الغرور " وقرأ طلحة تذكرون بالتخفيف وضم الكاف .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ ما تبذرون حبه وتعملون في أرضه .

﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ ﴾ تنبتونه وتردونه نباتاً يرف وينمي إلى أن يبلغ الغاية ﴿ أَمْ نَحْنُ الزرعون ﴾ أي المنبتون لا أنتم والكلام في أنتم و﴿ أَمْ ﴾ كما مر آنفاً ، وأخرج البزار .

وابن جرير .

وابن مردويه .

وأبو نعيم .

والبيهقي في "شعب الأيمان" وضعفه وابن حبان كما قال الخفاجي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يقولن أحدكم زرعت ولكن ليقل حرثت ، ثم قال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه ألم تسمعوا الله تعالى يقول : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزرعون لَوْ ﴾ " يشير رضي الله تعالى عنه إلى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ النهي من هذه الآية فإنه أسند الحرث إلى المخاطبين دون الزرع ، وقال القرطبي : إنه يستحب للزارع أن يقول بعد الاستعاذة وتلاوة هذه الآية الله تعالى الزارع والمنبت والمبلغ اللهم صل على محمد وارزقنا ثمره وجنبنا ضرره واجعلنا لأنعمك من الشاكرين ، قيل : وقد جرب هذا الدعاء لدفع آفات الزرع كلها وإنتاجه .

﴿ لَوْ نَشَاء لجعلناه حطاما ﴾ هشيماً متكسراً متفتتاً لشدة يبسه بعد ما أنبتناه وصار بحيث طمعتم في حيازة غلاله ﴿ فَظَلْتُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ تَفَكَّهُونَ ﴾ تتعجبون من سوء حاله إثر ما شاهدتموه على أحسن ما يكون من الحال على ما روى عن ابن عباس . ومجاهد .

وقتادة ، وقال الحسن : تندمون أي على ما تعبتم فيه ، وأنفقتم عليه من غير حصول نفع ، أو على ما اقترفتم لأجله من المعاصي ، وقال عكرمة : تلاومون على ما فعلتم ، وأصله التفكه التنقل بصنوف الفاكهة واستعير للتنقل بالحديث وهو هنا ما يكون بعد هلاك الزرع وقد كنى به في الآية عن التعجب ، أو الندم .

أو التلاوم على اختلاف التفاسير ، وفي "البحر" كل ذلك تفسير باللازم ، ومعنى ﴿ تَفَكَّهُونَ ﴾ تطرحون الفكاهة عن أنفسكم وهي المسرة ، ورجل فكه منبسط النفس غير مكترث بشيء وتفكه من أخوات تحرج وتحوب أي إن التفعل فيه للسلب .

وقرأ أبو حيوة .

وأبو بكر في رواية العتكي عنه ﴿ فَظَلْتُمْ ﴾ بكسر الظاء كما قالوا : مست بالكسر

ومست بالفتح ، وحكاها الثوري عن ابن مسعود وجاءت عن الأعمش ، وقرأ عبد الله .

والجحدري فظللتم بلامين أولاهما مكسورة ، وقرأ الجحدري أيضاً كذلك مع فتح اللام

والمشهور ظللت بالكسر ، وقرأ أبو حزام تفكنون بالنون بدل الهاء ، قال ابن خالويه : تفكه

بالهاء تعجب ، وتفكن بالنون تندم .

﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ أي معذبون مهلكون من الغرام وهو الهلاك قال الشاعر

: إن يعذب يكن (غراما) وإن يع . . .

ط جزيلاً فإنه لا يبالي

والمراد مهلكون بهلاك رزقنا ، وقيل : بالمعاصي أو ملزمون غرامة بنقص رزقنا ، وقرأ

الأعمش .

والجحدري .

وأبو بكر أئنا بالاستفهام والتحقيق ، والجملة على القراءتين بتقدير قول هو في حيز النصب

على الحالية من فاعل تفكهون أي قائلين ، أو تقولون ذلك .

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ محدودون لا مجدودون أو محرومون الرزق كأنهم لما قالوا إنا مهلكون لهلاك رزقنا أضربوا عنه وقالوا : بل هذا أمر قدر علينا لنحوسة طالعنا وعدم بختنا ، أو لما قالوا : إنا ملزمون غرامة بنقص أرزاقنا أضربوا فقالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ الرزق بالكلية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(77/744)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) ﴾

تفريع على ﴿ نحن خلقناكم ﴾ [الواقعة : 57] ، أي خلقناكم الخلقَ الذي لم تَروه ولكنكم توقنون بأنا خلقناكم فتدبروا في خلق النسل لتعلموا أن إعادة الخلق تشبه ابتداء الخلق .

وذكرت كائنات خمسة مختلفة الأحوال متحدة المآل إذ في كلها تكوين لموجود مما كان عدماً ، وفي جميعها حصول وجود متدرّج إلى أن تتقوم بها الحياة وابتدىء بإيجاد النسل من ماء ميت ، ولعله مادة الحياة بنسلكم في الأرحام من النطف تكويناً مسبوقاً بالعدم .

والاستفهام للتقرير بتعيين خالق الجنين من النطفة إذ لا يسعهم إلا أن يقرّوا بأن الله خالق

النسل من النطفة وذلك يستلزم قدرته على ما هو من نوع إعادة الخلق .

وإنما ابتدىء الاستدلال بتقديم جملة ﴿ أأنتم تخلقونه ﴾ زيادة في إبطال شبهتهم إذ قاسوا الأحوال المغيبة على المشاهدة في قلوبهم لا نُعاد بعد أن كنا تراباً وعظاماً ، وكان حقهم أن يقيسوا على تخلق الجنين من مبدأ ماء النطفة فيقولوا : لا تتخلق من النطفة الميتة أجسام حية كما قالوا : لا تصير العظام البالية ذواتاً حيّة ، وإلا فإنهم لم يدّعوا قط أنهم خالقون ، فكان قوله : ﴿ أأنتم تخلقونه ﴾ تمهيداً للاستدلال على أن الله هو خالق الأجنة بقدرته ، وأن تلك القدرة لا تقصر عن الخلق الثاني عند البعث .

وفعل الرؤية في "أرأيتم" من باب (ظن) لأنه ليس رؤية عين .

وقال الرضيّ : هو في مثله منقول من رأيت ، بمعنى أبصرت أو عرفتَ ، كأنه قيل : أأبصرت حاله العجيبة أو أعرفتها ، أخبرني عنها ، فلا يستعمل إلا في الاستخبار عن حالة عجيبة لشيء انتهى انتهى . ا هـ ، أي لأن أصل فعل الرؤية من أفعال الجوارح لا من أفعال العقل .

و ﴿ ما تمنون ﴾ مفعول أول لفعل ﴿ أفرأيتم ﴾ .

وفي تعدية فعل "أرأيتم" إليه إجمال إذ مورد فعل العلم على حال من أحوال ما تمنون ، ففعل "رأيتم" غير وارد على نفس ﴿ ما تمنون ﴾ .

فكانت جملة ﴿ أأنتم تخلقونه ﴾ بياناً لجملة ﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾ ، وأعيد حرف الاستفهام ليطابِق البيانُ مبيَّنَه .

وبهذا الاستفهام صار فعل ﴿ أرأيتم ﴾ معلقاً عن العمل في مفعول ثان لوجود موجب التعليق وهو الاستفهام .

قال الرضيّ : إذ صُدر المفعول الثاني بكلمة الاستفهام فالأوْلى أن لا يعلق فعل القلب عن المفعول الأول نحو : علمْت زيداً أي من هو" . اه .

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في ﴿ أأنتم تخلقونه ﴾ لإِفادة التقويّ لأنهم لما نُزلوا منزلة من يزعم ذلك كما علمتَ صيغت جملة نفيه بصيغة دالة على زعمهم تمكن التصرف في تكوين النسل .

وقد حصل من نفي الخلق عنهم وإثباته لله تعالى معنى قصر الخلق على الله تعالى .

و ﴿ أم ﴾ متصلة معادلة الهمزة ، وما بعدها معطوف لأن الغالب أن لا يذكر له خبر اكتفاء بدلالة خبر المعطوف عليه على الخبر المحذوف ، وههنا أعيد الخبر في قوله : ﴿ أم نحن الخالقون ﴾ زيادة في تقرير إسناد الخلق إلى الله في المعنى وللإِيفاء بالفاصلة وامتداد نفس الوقف ، ويجوز أن نجعل ﴿ أم ﴾ منقطعة بمعنى (بل) لأن الاستفهام ليس بحقيقي فليس من غرضه طلب تعيين الفاعل ويكون الكلام قد تم عند قوله : ﴿ تخلقونه ﴾ .

والمعنى : أتظنون أنفسكم خالقين النسمَة مما تمنون .

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت ﴾ .

استدلال بإماتة الأحياء على أنها مقدورة لله تعالى ضرورة أنهم موقنون بها ومشاهدونها ووادُّون دفعها أو تأخيرها ، فإن الذي قدر على خلق الموت بعد الحياة قادر على الإِحياء بعد الموت إذ القدرة على حصول شيء تقتضي القدرة على ضده فلا جرم أن القادر على خلق حيّ مما ليس فيه حياة وعلى إماتته بعد الحياة قدير على التصرف في حالتي إحيائه وإماتته ، وما الإحياء بعد الإِماتة إلا حالة من تينك الحقيقتين ، فوضح دليل إمكان البعث ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإِنسان لكفور ﴾ [الحج : 66] .

(79/744)

هذا أصل المفاد من قوله : ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ ثم هو مع ذلك تنبيه على أن الموت جعله الله طوراً من أطوار الإنسان لحكمة الانتقال به إلى الحياة الأبدية بعد إعداده لها بما تهيئُه له أسباب الكمال المؤهلة لتلك الحياة لتتم المناسبة بين ذلك العالم وبين عامريه .

وقد مضى الكلام على ذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً

وأنكم إلينا لا تُرجعون ﴾ في سورة المؤمنين (115) .

فهذا وجه التعبير بـ ﴿ قدرنا بينكم الموت ﴾ دون : نحن نميتكم ، أي أن الموت مجعول على تقدير معلوم مراد ، مع ما في مادة ﴿ قدرنا ﴾ من التذكير بالعلم والقدرة والإرادة لتتوجه أنظار العقول إلى ما في طيّ ذلك من دقائق وهي كثيرة ، وخاصة في تقدير موت الإنسان الذي هو سبيل إلى الحياة الكاملة إنْ أخذ لها أسبابها .

وفي كلمة ﴿ بينكم ﴾ معنى آخر ، وهو أن الموت يأتي على آحادهم تداولاً وتناوباً ، فلا يفلت واحد منهم ولا يتعين لحلوله صنف ولا عُمُرٌ فآذن ظرف (بين) بأن الموت كالشيء الموضوع للتوزيع لا يدري أحد متى يصيبه قسطه منه ، فالناس كمن دعوا إلى قسمة مال أو ثمر أو نعم لا يدري أحد متى ينادى عليه ليأخذ قسمه ، أو متى يطير إليه قِطُّه ولكنه يوقن بأنه نائله لا محاله .

وبهذا كان في قوله : ﴿ بينكم الموت ﴾ استعارة مكنية إذ شبه الموت بمقسوم ورمز إلى المشبه به بكلمة ﴿ بينكم ﴾ الشائع استعمالها في القسمة ، قال تعالى : ﴿ أن الماء قسمة بينهم ﴾ [القمر : 28] .

وفي هذه الاستعارة كناية عن كون الموت فائدة ومصلحة للناس إما في الدنيا لئلا تضيق بهم الأرض والأرزاق وإما في الآخرة فللجزاء الوفاق .

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي لإفادة تقوّي الحكم وتحقيقه ، والتحقيق راجع إلى

ما اشتمل عليه التركيب من فعل ﴿ قدرنا ﴾ وظرف ﴿ بينكم ﴾ في دلالتهما على ما في خلق الموت من الحكمة التي أشرنا إليها .

وقرأ الجمهور ﴿ قدّرنا ﴾ بتشديد الدال .

(80/744)

وقرأه ابن كثير بالتخفيف وهما بمعنى واحد ، فالتشديد مصدره التقدير ، والتخفيف مصدره القَدر .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * على أَن نُّبَدِّلَ أمثالكم وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ .

هذا نتيجة لما سبق من الاستدلال على أن الله قادر على الإحياء بعد الموت فكان مقتضى الظاهر أن يعطف بفاء التفريع ويترك عطفه فعدل عن الأمرين ، وعطف بالواو عطف الجمل فيكون جملة مستقلة مقصوداً لذاته لأن مضمونه يفيد النتيجة ، ويفيد تعليماً اعتقادياً ، فيحصل الإعلام به تصريحاً وتعريضاً ، فالصريح منه التذكير بتمام قدرة الله تعالى وأنه لا يغلبه غالب ولا تضيق قدرته عن شيء ، وأنه يبدلهم خلقاً آخر في البعث مماثلاً لخلقهم في الدنيا ، ويفيد تعريضاً بالتهديد باستئصالهم وتعويضهم بأمة أخرى كقوله تعالى : ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأتِ بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾ [إبراهيم : 19 ،

20] ولو جيء بالفاء لضاقت دلالة الكلام عن المعنيين الآخرين .

والسبق : مجاز من الغلبة والتعجيز لأن السبق يستلزم ان السابق غالب للمسبوق ، فالمعنى : وما نحن بمغلوبين ، قال الفقعسي مُرّةُ بن عداء :

كأنّك لم تُسبق من الدهر مَرة . . .

إذا أنتَ أدركتَ الذي كنت تطلُب

ويتعلق ﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾ بـ ﴿ مسبوقين ﴾ لأنه يقال : غلبه على كذا ، إذا حال بينه وبين نواله ، وأصله : غلبه على كذا ، أي تمكن من كذا دونه قال تعالى : ﴿ والله غالب على أمره ﴾ [يوسف : 21] .

ويكون الوقف على قوله : ﴿ أمثالكم ﴾ .

(81/744)

ويجوز أن يكون ﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ قدرنا ﴾ [الواقعة : 60] ، أي قدرنا الموت على أن نحييكم فيما بعدُ إدماجاً لإبطال قولهم : ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ﴾ [الواقعة : 47] فتكون (على) بمعنى (مع) وتكون حالاً مقدرة ، وهذا كقول الواعظ : "على شرط النقض رُفع البنيان ، وعلى شرط

الخروج دخلتْ الأرواح للأبدان" ويكون متعلق (مسبوقين) محذوفاً دالاً عليه المقام ، أي ما نحن بمغلوبين فيما قدّرناه من خلقكم وإماتتكم ، ويجعل الوقف على (مسبوقين) .

ويفيد قوله : ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ الخ وراء ذلك عبرة بحال الموت بعد الحياة فإن في تقلب ذيْنك الحالين عبرة وتدبراً في عظيم قدرة الله وتصرفه فيكون من هذه الجهة وزانُه وزان قوله الآتي : ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾ [الواقعة : 65] وقوله : ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ [الواقعة : 70] وقوله : ﴿ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين ﴾ [الواقعة : 73] .

ومعنى : ﴿ أن نبدل أمثالكم ﴾ : نبدل بكم أمثالكم ، أي نجعل أمثالكم بدلاً .

وفعل (بدّل) ينصب مفعولاً واحداً ويتعدى إلى ما هو في معنى المفعول الثاني بحرف الباء ، وهو الغالب أو بـ (مِن) البدلية فإن مفعول (بدّل) صالح لأن يكون مُبدَلاً ومبدَلاً منه ، وقد تقدم في سورة البقرة (61) قوله تعالى : ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى ﴾ وفي سورة النساء (2) عند قوله : ولا تَتَبَدّلوا الخبيث بالطّيب ، فالتقدير هنا : على أن نبدّل منكم أمثالكم ، فحذف ، متعلق نبدل ﴾ وأبقي المفعول لأن المجرور أولى بالحذف .

والأمثال : جمع مِثْل بكسر الميم وسكون المثلثة وهو النظير ، أي نخلق ذوات مماثلة لذواتكم التي كانت في الدنيا ونودع فيها أرواحكم .

وهذا يؤذن بأن الإِعادة عن عدم لا عن تفريق .

وقد تردد في تعيين ذلك علماء السنة والكلام .

(82/744)

ويجوز أن يفيد معنى التهديد بالاستئصال ، أي لو شئنا استئصالكم لما أعجزتمونا فيكون إدماجاً للتهديد في أثناء الاستدلال ويكون من باب قوله تعالى : ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ [إبراهيم : 19] .

﴿ وننشئكم ﴾ عطف على ﴿ نبدل ﴾ ، أي ما نحن بمغلوبين على إنشائكم .

وهذا العطف يحتمل أن يكون عطف مغاير بالذات فيكون إنشاؤهم شيئاً آخر غير تبديل أمثالهم ، أي نحن قادرون على الأمرين جميعاً ، فتبديل أمثالهم خلق أجساد أخرى تودع فيها الأرواح ، وأما إنشاؤهم فهو نفخ الأرواح في الأجساد الميتة الكاملة وفي الأجساد البالية بعد إعادتها بجمع متفرقها أو بإنشاء أمثالها من ذواتها مثل : عَجب الذنب ، وهذا إبطال لاستبعادهم البعث بعد استقرار صور شبهتهم الباعثة على إنكار البعث .

ويحتمل أن يكون عطف مغاير بالوصف بأن يراد من قوله : ﴿ وننشئكم في ما لا تعلمون ﴾ الإِشارة إلى كيفية التبديل إشارة على وجه الإِبهام .

وعطف بالواو دون الفاء لأنه بمفرده تصوير لقدرة الله تعالى وحكمته بعد ما أفاده قوله : ﴿ أن نبدل أمثالكم ﴾ من إثبات أن الله قادر على البعث .

و﴿ ما ﴾ من قوله : ﴿ في ما لا تعلمون ﴾ صادقة على الكيفية ، أو الهيئة التي يتكيّف بها الإنشاء ، أي في كيفية لا تعلمونها إذ لم تحيطوا علماً بخفايا الخلقة .

وهذا الإجمال جامع لجميع الصور التي يفرضها الإمكان في بعث الأجساد لإيداع الأرواح .

والظرفية المستفادة من ﴿ في ﴾ ظرفية مجازية معناها قوة الملابسة الشبيهة بإحاطة الظرف بالمظروف كقوله : ﴿ فعدلك في أي صورة ما شاء ركّبك ﴾ [الانفطار : 7 ، 8] .

ومعنى ﴿ لا تعلمون ﴾ : أنهم لا يعلمون تفاصيل تلك الأحوال .

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (62)

(83/744)

أعقب دليل إمكان البعث المستند للتنبيه على صلاحية القدرة الإلهية لذلك ولسد منافذ الشبهة بدليل من قياس التمثيل ، وهو تشبيه النشأة الثانية بالنشأة الأولى المعلومة عندهم بالضرورة ، فنبهوا ليقيسوا عليها النشأة الثانية في أنها إنشاء من أثر قدرة الله وعلمه ، وفي

أنهم لا يحيطون علماً بدقائق حصولها .

فالعلم المنفي في قوله : ﴿ فيما لا تعلمون ﴾ [الواقعة : 61] ، هو العلم التفصيلي ، والعلم المثبت في قوله : ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى ﴾ هو العلم الإجمالي ، والإجمالي كافٍ في الدلالة على التفصيلي إذ لا أثر للتفصيل في الاعتقاد .

وفي المقابلة بين قوله : ﴿ في ما لا تعلمون ﴾ [الواقعة : 61] بقوله : ﴿ ولقد علمتم ﴾ محسّن الطباق .

ولما كان علمهم بالنشأة الأولى كافياً لهم في إبطال إحالتهم النشأة الثانية رتب عليه من التوبيخ ما لم يرتب مثله على قوله : ﴿ وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون ﴾ [الواقعة : 60 ، 61] فقال : ﴿ فلولا تذكرون ﴾ ، أي هلا تذكرتم بذلك فأمسكتم عن الجحد ، وهذا تجهيل لهم في تركهم قياس الأشباه على أشباهها ، ومثله قوله آنفاً : ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ﴾ [الواقعة : 57] .

وجيء بالمضارع في قوله : ﴿ تذكرون ﴾ للتنبيه على أن باب التذكر مفتوح فإن فاتهم التذكر فيما مضى فليتداركوه الآن .

وقرأ الجمهور ﴿ النشأة ﴾ بسكون الشين تليها همزة مفتوحة مصدر نشأ على وزن المرة وهي مرة للجنس .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وحده بفتح الشين بعدها ألف تليها همزة ، وهو مصدر على وزن

الفَعَالة على غير قياس ، وقد تقدم في سورة العنكبوت .

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64)

انتقال إلى دليل آخر على إمكان البعث وصلاحية قدرة الله له بضرب آخر من ضروب الإِنشاء بعد العدم .

(84/744)

فالفاء لتفريع ما بعدها على جملة : ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ﴾ [الواقعة : 57] كما فرع عليه قوله : ﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾ [الواقعة : 58] ليكون الغرض من هذه الجمل متحداً وهو الاستدلال على إمكان البعث ، فقصد تكرير الاستدلال وتعداده بإعادة جملة ﴿ أفرأيتم ﴾ وإن كان مفعول فعل الرؤية مختلفاً وسيجيء نظيره في قوله بعده ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون ﴾ [الواقعة : 68] وقوله : ﴿ أفرأيتم النار التي تُورُون ﴾ [الواقعة : 71] .

وإن شئت جعلت الفاء لتفريع مجرد استدلال على استدلال لا لتفريع معنى معطوفها على معنى المعطوف عليه ، على أنه لما آل الاستدلال السابق إلى عموم صلاحية القدرة الإِلهية جاز أيضاً أن تكون هذه الجملة مراداً بها تمثيل بنوع عجيب من أنواع تعلقات القدرة

بالإيجاد دون إرادة الاستدلال على خصوص البعث فيصح جعل الفاء تفريعاً على جملة ﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾ من حيث إنها اقتضت سعة القدرة الإلهية .

ومناسبة الانتقال من الاستدلال بخلق النسل إلى الاستدلال بنبات الزرع هي التشابه البيّن بين تكوين الإنسان وتكوين النبات ، قال تعالى : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ [نوح : 17] .

والقول في ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ نظير قوله : ﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾ [الواقعة : 58] .

و ﴿ ما تحرثون ﴾ موصول وصلة والعائد محذوف .

والحرث : شق الأرض ليزرع فيها أو يغرس .

وظاهر قوله : ﴿ ما تحرثون ﴾ أنه الأرض إلا أن هذا لا يلائم ضمير ﴿ تزرعونه ﴾ فتعين تأويل ﴿ ما تحرثون ﴾ بأن يقدر : ما تحرثون له ، أي لأجله على طريقة الحذف والإيصال ، والذي يحرثون لأجله هو النبات ، وقد دل على هذا ضمير النصب في ﴿ أأنتم تزرعونه ﴾ لأنه استفهام في معنى النفي والذي ينفَى هو ما ينبت من الحب لا بذره .

(85/744)

فإن فعل (زرع) يطلق بمعنى : أنبت ، قال الراغب : الزرع : الإِنبات ، لقوله تعالى : ﴿ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾ فنفى عنهم الزرع ونسبه إلى نفسه انتهى انتهى . ا هـ واقتصر عليه ، ويطلق فعل (زرع) بمعنى : بذر الحب في الأرض لقول صاحب "لسان العرب" : زرعَ الحب : بذره ، أي ومنه سمي الحب الذي يبذر في الأرض زريعة لكن لا ينبغي حمل الآية على هذا الإطلاق .

فالمعنى : أفرأيتم الذي تحرثون الأرض لأجله ، وهو النبات ما أنتم تنبتونه بل نحن ننبته .

وجملة ﴿ أأنتم تزرعونه ﴾ الخ بيان لجملة ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ كما تقدم في ﴿ أأنتم تخلقونه ﴾ [الواقعة : 59] والاستفهام في ﴿ أأنتم تزرعونه ﴾ إنكاري كالذي في قوله : ﴿ أأنتم تخلقونه .

والقول في موقع ﴿ أم ﴾ من قوله : ﴿ أم نحن الزارعون ﴾ كالقول في موقع نظيرتها من قوله : ﴿ أم نحن الخالقون ﴾ [الواقعة : 59] أي أن (أم) منقطعة للإضراب .

وكذلك القول في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله : ﴿ أأنتم تزرعونه ﴾ مثل ما في قوله : ﴿ أأنتم تخلقونه ﴾ [الواقعة : 59] .

وكذلك القول في نفي الزرع عنهم وإثباته لله تعالى يفيد معنى قصر الزَّرع ، أي الإِنبات على الله تعالى ، أي دونهم ، وهو قصر مبالغة لعدم الاعتداد بزرع الناس .

ويؤخذ من الآية إيماء لتمثيل خلق الأجسام خلقاً ثانياً مع الانتساب بين الأجسام البالية

والأجسام المجددة منها بنبات الزرع من الحبة التي هي منتسبة إلى سنبلة زرع أخذت هي منها فتأتي هي بسنبلة مثلها .

لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65)

جملة ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾ ، موقعها كموقع جملة : ﴿ نحن قدّرنا بينكم الموت ﴾ [الواقعة : 60] في أنها استدلال بإفنائه ما أوجده على انفراده بالتصرف إيجاداً وإعداماً ، تكلمة لدليل إمكان البعث .

واللام في قوله : ﴿ لجعلناه ﴾ مفيدة للتأكيد .

(86/744)

ويكثر اقتران جواب (لو) بهذه اللام إذا كان ماضياً مثبتاً كما يكثر تجرده عنها كما سيجيء في الآية الموالية لهذه .

والحُطام : الشيء الذي حَطمه حاطم ، أي كَسره ودقّه فهو بمعنى المحطوم ، كما تدل عليه زنة فُعال مثل الفُتات والجُذاد والدُقاق ، وكذلك المقترن منه بهاء التأنيث كالقُصاصة والقُلاَمة والكُناسة والقُمامة .

والمعنى : لو نشاء لجعلنا ما ينبت بعد خروجه من الأرض حُطاماً بأن نسلط عليه ما

يحطمه من بَرَد أو ريح أو حشرات قبل أن تنتفعوا به ، فالمراد جعله حطاماً قبل الانتفاع به .

وأما أن يُؤول إلى الكَون حطاماً فذلك معلوم فلا يكون مشروطاً بحرف (لو) الامتناعية .

وقوله : ﴿ فظلتم تفكهون إنا لمغرمون بل نحن محرومون ﴾ تفريع على جملة ﴿ لجعلناه حطاماً ﴾ أي يتفرع على جعله حطاماً أن تصيروا تقولون : إنا لمغرمون بل نحن محرومون ، ففعل (ظَلْتُم) هنا بمعنى : صرتم ، وعلى هذا حَمَله جميع المفسرين .

وأعضل وَقْع فعل ﴿ تفكهون ﴾ ، فعن ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد : تفكهون تعجبون ، وعن عكرمة : تتلاومون ، وعن الحسن وقتادة : تندمون ، وقال ابن كيسان : تحزنون ، وقال الكسائي : هو تلهف على ما فات ، وهو أي فعل ﴿ تفكهون ﴾ من الأضداد تقول العرب : تفكهت ، أي تنعمت ، وتفكهتُ ، أي حزِنتُ أ هـ .

ذلك أن فعل ﴿ تفكهون ﴾ من مادة فَكِه والمشهور أن هذه المادة تدل على المسرة والفرح ولكن السياق سياق ضد المسرة ، وبيانه بقوله : ﴿ إنا لمغرمون بل نحن محرومون ﴾ يؤيد ذلك ، فالفُكاهة : المسرة والانبساط ، وادعى الكسائي أنها من أسماء الأضداد واعتمده في "القاموس" إذ قال : وتفكه ، أكل الفاكهة وتجنب عن الفاكهة ضده .

(87/744)

قال ابن عطية : وهذا كله أي ما روي عن ابن عباس وغيره في تفسير ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ لا يخص اللفظة (أي هو تفسير بحاصل المعنى دون معاني الألفاظ) والذي يخص اللفظة هو تطرحون الفاكهة (كذا ولعل صوابه الفكاهة) عن أنفسكم وهي المسرة والجذل ، ورجل فَكِه ، إذا كان منبسط النفس غير مكترث بشيء أ هـ .

يعني أن صيغة التفعُّل فيه مطاوعة فعَّل الذي تضعيفه للإزالة مثل قَشَّر العود وقَرَّد البعير وأثبت صاحب "القاموس" هذا القول ونسبه إلى ابن عطية .

وجعلوا جملة ﴿ إنا لمغرمون ﴾ تندماً وتحسراً ، أي تعلمون أن حطم زرعِكُم حرمانٌ من الله جزاء لكفركم ، ومعنى ﴿ مغرمون ﴾ من الغرام وهو الهلاك كما في قوله تعالى : ﴿ إن عَذابها كان غراماً ﴾ [الفرقان : 65] .

وهذا شبيه بما في سورة القلم من قوله تعالى : ﴿ فلما رأوها قالوا إنا لضالّون إلى قوله : إنا كنا طاغين ﴾ [القلم : 26 31] .

فتحصل أن معنى الآية يجوز أن يكون جارياً على ظاهر مادة فعل ﴿ تفكهون ﴾ ويكون ذلك تهكماً بهم حملاً لهم على معتاد أخلاقهم من الهزْل بآيات الله ، وقرينة التهكم ما بعده من قوله عنهم ﴿ إنا لمغرمون بل نحن محرومون .

ويجوز أن يكون محمل الآية على جعل تفكهون ﴾ بمعنى تندمون وتحزنون ، ولذلك كان لفعل ﴿ تفكهون ﴾ هنا وقع يعوضه غيره .

وجملة ﴿ إنا لمغرمون ﴾ مقول قول محذوف هو حال من ضمير ﴿ تفكهون ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ إنا لمغرمون ﴾ بهمزة واحدة وهي همزة (إنّ) ، وقرأه أبو بكر عن عاصم ﴿ أإنا ﴾ بهمزتين همزة استفهام وهمزة (إنِ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(88/744)

قوله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (72) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (73) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (74) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما وقفهم على قدرته في الزرع مع وجود أسبابه ، وقدمهم بشدة إليه ، وكان ربما ألبس نوع لبس لأن لهم فيه سبباً في الجملة ، أتبعه التوقيف على قدرته على التصرف في سببه الذي هو الماء الذي لا سبب لهم في شيء من أمره أصلاً ، فقال مسبباً عما أفادهم هذا التنبيه

مذكراً بنعمة الشرب الذي يحوج إليه الغذاء : ﴿ أفرءيتم ﴾ أي أخبروني هل رأيتم بالبصر أو البصيرة ما نبهنا عليه مما مضى في المطعم وغيره ، أفرأيتم ﴿ الماء ﴾ ولما كان منه ما لا يشرب ، وكانت النعمة في المشروب أعظم ، قال واصفاً له بما أغنى عن وصفه بالعذوبة ، وبين موضع النعمة التي لا محيد عنها فقال : ﴿ الذي تشربون ﴾ ولما كان عنصره في جهة العلو ، قال منكراً عليهم مقرراً لهم : ﴿ أءنتم أنزلتموه ﴾ ولما كان الإنزال قد يطلق على مجرد إيجاد الشيء النفيس ، وكان السحاب من عادته المرور مع الريح لا يكاد يثبت ، عبر بقوله تحقيقاً لجهة العلو وتوقيفاً على موضع النعمة في إثباته إلى أن يتم حصول النفع به : ﴿ من المزن ﴾ أي السحاب المملوء الممدوح الذي شأنه الإسراع في المضي ، وقال الأصبهاني ، وقيل : السحاب الأبيض خاصة ، وهو أعذب ماء ﴿ أم نحن ﴾ أي خاصة ، وأكد بذكر الخبر وهو لا يحتاج إلى ذكره في أصل المعنى فقال : ﴿ المنزلون ﴾ أي له ، رحمة لكم وإحساناً إليكم بتطييب عيشكم على ما لنا من مقام العظمة الذي شأنه الكبر والجبروت وعدم المبالاة بشيء ، والآية من الاحتباك بمثل ما مضى في الآيتين السابقتين سواء .

ولما كان الجواب : أنت وحدك فعلت ذلك على غناك عن الخلق بما لك من الرحمة وكمال الذات والصفات ، قال مذكراً بنعمة أخرى : ﴿ لو نشاء ﴾ أي حال إنزاله وبعده قبل أن ينتفع به .

(89/744)

ولما كانت صيرورة الماء ملحاً أكثر من صيرورة النبت حطاماً ، ولم يؤكد لذلك وللتنبيه على أن السامعين لما مضى التوقيف على تمام القدرة صاروا في حيز المعترفين فقال تعالى : ﴿ جعلناه ﴾ أي بما تقتضيه صفات العظمة ﴿ أجاجاً ﴾ أي ملحاً مراً محرقاً كأنه في الأحشاء لهيب النار المؤجج فلا يبرد عطشاً ولا ينبت نبتاً ينتفع به .

ولما كان هذا مما لا يساغ لإنكاره ، سبب عنه على سبيل الإنكار والتحضيض قوله : ﴿ فلولا تشكرون ﴾ أي فهل لا ولم لا تجددون الشكر على سبيل الاستمرار باستعمال ما أفادكم ذلك من القوى في طاعة الذي أوجده لكم ومكنكم منه وجعله ملائماً لطباعكم مشتهى لنفوسكم نافعاً لكم في كل ما ترونه .

(90/744)

ولما كانت النار سبباً لعنصر ما فيه الماء فيتحلب فيتقاطر كما كان الماء سبباً لتشقيق الأرض بالزرع ، ولم يكن لمخلوق قدرة على التول بنوع سبب ، أتبعه بما كما أتبع الزرع بالماء

لذلك ولبيان القدرة على ما لا سبب فيه لمخلوق في السفل كما كان إنزال الماء عرياً عن سنتهم في العلو ، فقال مسبباً عما مضى تنبيهاً على أنه أهلهم للتأمل في مصنوعاته والتبصر في عجائب آياته فقال : ﴿ أفرءيتم ﴾ أي أخبروني هل رأيتم بالأبصار والبصائر ما تقدم فرأيتم ﴿ النار ﴾ ولما كان المراد ناراً مخصوصة توقفهم على تمام قدرته وتكشف لهم ذلك كشفاً بيناً بإيجاد الأشياء من أضدادها فقال : ﴿ التي تورون ﴾ أي تستخرجون من الزند فتوقدون به سواء كان الزند يابساً أو أخضر بعد أن كانت خفية فيه لا يظن من لم يجرب ذلك أن فيه ناراً أصلاً ، فكان ذلك مثل التورية التي يظهر فيها شيء ويراد غيره ، ثم صار بعد ذلك الخفاء إلى ظهور عظيم وسلطة متزايدة وعظمة ظاهرة تحرق كل ما لابسها حتى ما خرجت منه ، والعرب أعرف الناس بأمر الزند ، وذلك أنهم يقطعون غصناً من شجر المرخ وآخر من العفار ، ويحكون أحدهما على الآخر فتتقدح منها النار على أن النار في كل شجر ، وإنما خص المرخ والعفار لسهولة القدح منهما ، وقد قالوا : في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار .

(91/744)

ولما كان هذا من عجائب الصنع ، كرر التقرير والإنكار تنبيهاً عليه فقال : ﴿ ءأنتم أنشأتم ﴾ أي اخترعتم وأوجدتم وأودعتم وأحييتم وربيتم وأوقعتم ﴿ شجرتها ﴾ أي المرخ والعفار التي تتخذون منها الزناد الذي يخرج منه ، وأسكنتموها النار مختلطة بالماء الذي هو ضدها وخبأتموها في تلك الشجرة لا يعدو واحد منها على الآخر مع المضادة فيغلبه حتى يمحقه ويعدمه ﴿ أم نحن ﴾ أي خاصة ، وأكد بقوله : ﴿ المنشئون ﴾ أي لها بما لنا من العظمة على تلك الهيئة ، فمن قدر على إيجاد النار التي هي أيبس ما يكون من الشجرة الأخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها في كيفيتها ، كان أقدر على إعادة الطرواة والغضاضة في تراب الجسد الذي كان غضاً طرياً فيبس وبلي ، والآية من الاحتباك بمثل ما مضى في أخواتها سواء .

ولما كان الجواب قطعاً : أنت وحدك ، قال دالاًّ على ذلك تنبيهاً على عظم هذا الخبر : ﴿ نحن ﴾ أي خاصة ﴿ جعلناها ﴾ بما اقتضته عظمتنا ، وقدم من منافعها ما هو أولى بسياق البعث الذي هو مقامه فقال : ﴿ تذكرة ﴾ أي شيئاً تتذكرونه وتتذكرون به تذكراً عظيماً جليلاً عن كل ما أخبرنا به من البعث وعذاب النار الكبرى وما ينشأ فيها من شجرة الزقوم وغير ذلك مما ننيره لأولي البصائر والفهوم من العلوم ، قال ابن برجان : فوزان قدح الزناد من الشجر ، والزناد وزان الصيحة بهم ووزان إنشائه الأجسام وزان إنشائه

الشجرة النار ، ويتذكر بإنشائها في الشجر إنشاء الحياة في الأجسام وبإنشائها من غيبها أن النار الكبرى في غيب ما نشاهده ، وهذا من آثار كونها في الجو – انتهى .

(92/744)

وعلق بها سبحانه كثيراً من أسباب المعاش التي لا غنى عنها ليكون مذكراً لهم بما أوقدوا به حاضراً دائماً فيكون أجدر باتعاظهم ﴿ ومتاعاً ﴾ أي إنشاءً وبقاءً وتعميراً ونفعاً وإيصالاً إلى غاية المراد من الاستضائة والاصطلاء والإنضاج والتحليل والإذابة والتعقيد والتكليس ، وهروب السباع وغير ذلك ، والمراد أنها سبب لجميع ذلك ﴿ للمقوين ﴾ أي الجياع الذي أقوت بطونهم – أي خلت – من الفقر والإغناء من النازلين بالأرض القواء ، والقواء بالكسر والمد أي القفر الخالية المتباعدة الأطراف البعيدة من العمران ، وكل آدمي مهيأ للقواء فهو موصوف به وإن لم يكن حال الوصف كذلك ، وقال الرازي : أقوى من الأضداد : اغتنى وافتقر ، وقال أبو حيان : وهذه الأربعة التي ذكرها الله تعالى ووقفهم عليها من أمر خلقهم وما به قوام عيشهم من المطعوم والمشروب ، والنار من أعظم الدلائل على البعث إذ فيها انتقال من شيء إلى شيء إحداث شيء من شيء ، ولذلك أمر في آخرها بتنزيهه – انتهى .

ولما دل سبحانه في هذه الآيات على عجائب القدرة وغرائب الصنع ، فبدأ بالزرع وختم بالنار والشجر ، وأوجب ما نبه التذكر لأمرها والتبصر في شأنها أنها من أسباب ما قبلها ، وأنه سبب لها لكونه سبباً لها لإثبات ما هي له ، وكان مجموع ذلك إشارة إلى العناصر الأربعة ، قال ابن برجان : إلاّ أن الماء والأرض لخلق الأركان ، والأخلاق والصفات للهواء والنار ، وكان ذلك من جميع وجوهه أمراً باهراً ، أشار إلى زيادة عظمته بالأمر بالتنزيه مسبباً عما أفاد ذلك ، فقال معرضاً عمن قد يلم به الإنكار مقبلاً على أشرف خلقه إشارة إلى أنه لا يفهم هذا المقام حق فهمه سواه ولا يعمل به حق عمله غيره : ﴿ فسبح ﴾ أي أوقع التنزيه العظيم عن كل شائبة نقص من ترك البعث وغيره ولا سيما بعد بلوغ هذه الأدلة إلى حد المحسوس تسبيح متعجب من آثار قدرته الدالة على تناهي عظمته وتسبيح شكر له وتعظيم له وإكبار وتنزيه عما يقول الجاحدون وتعجيب منهم مقتدياً بجميع ما في السماوات والأرض ، ومن أعجب ذلك أنه سخر لنا في هذه الدار جهنم ، قال ابن برجان : جعل منها بحرارة الشمس جنات وثمرات وفواكه وزروع ومعايش .

ولما كان تعظيم الاسم أقعد في تعظيم المسمى قال : ﴿ باسم ﴾ أي متلبساً بذكر اسم

﴿ ربك ﴾ أي المحسن بعد التربية إليك بهذا البيان الأعظم بما خصك به مما لم يعطه أحداً غيرك ، وأثبتوا ألف الوصل هنا لأنه لم يكثر دوره كثرته في البسملة منها وحذفوه منها لكثرة دورها وهم شأنهم الإيجاز وتقليل الكثير إذا عرف معناه ، وهذا معروف لا يجهل ، وإثبات ما أثبت من أشكاله مما لا يكثر دليل على الحذف منه ، وكذا لا تحذف الألف مع غير الباء في اسم الله ولا مع الباء في غير الجلالة من الأسماء لما تقدم من العلة .

(94/744)

ولما كان المقام للتعظيم قال : ﴿ العظيم ﴾ الذي ملأ الأكوان كلها عظمة ، فلا شيء منها إلا وهو مملوء بعظمته تنزهاً عن أن تلحقه شائبة نقص أو يفوته شيء من كمال ، قال القشيري : وهذه الآيات التي عددها سبحانه تمهيد لسلوك طريق الاستدلال وكما في الخبر " تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة " هذه الفكرة التي نبه الله عليها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 422.419 ﴾

(95/744)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) ﴾

خصه بالذكر لأنه ألطف وأنظف أو تذكيراً لهم بالإنعام عليهم ، والمزن السحاب الثقيل بالماء لا بغيره من أنواع العذاب يدل على ثقله قلب اللفظ وعلى مدافعة الأمر وهو التزم في بعض اللغات السحاب الذي مس الأرض وقد تقدم تفسير الأجاج أنه الماء المر من شدة الملوحة ، والظاهر أنه هو الحار من أجيج النار كالحطام من الحطيم ، وقد ذكرناه في قوله تعالى : ﴿ هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ [الفرقان : 53] ذكر في الماء الطيب صفتين إحداهما عائدة إلى طعمه والأخرى عائدة إلى كيفية ملمسه وهي البرودة واللطافة ، وفي الماء الآخر أيضاً صفتين إحداهما عائدة إلى طعمه والأخرى عائدة إلى كيفية لمسه وهي الحرارة ، ثم قال تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴾ لم يقل عند ذكر الطعام الشكر وذلك لوجهين أحدهما : أنه لم يذكر في المأكول أكلهم ، فلما لم يقل : تأكلون لم يقل : تشكرون وقال في الماء : ﴿ تَشْرَبُونَ ﴾ فقال : ﴿ تَشْكُرُونَ ﴾ والثاني : أن في المأكول قال : ﴿ تَحْرُثُونَ ﴾ [الواقعة : 63] فأثبت لهم سعياً فلم يقل : تشكرون وقال في الماء : ﴿ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن ﴾ لا عمل لكم فيه أصلاً فهو محض النعمة فقال : ﴿ فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴾ وفيه وجه ثالث : وهو الأحسن أن يقال : النعمة لا تتم إلا عند الأكل والشرب ألا ترى أن في البراري

التي لا يوجد فيها الماء لا يأكل الإنسان شيئاً مخافة العطش ، فلما ذكر المأكول أولاً وأتمه بذكر المشروب ثانياً قال : ﴿ فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴾ على هذه النعمة التامة .

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (72)

(96/744)

وفي شجرة النار وجوه أحدها : أنها الشجرة التي تورى النار منها بالزند والزندة كالمرخ وثانيها : الشجرة التي تصلح لإيقاد النار كالحطب فإنها لو لم تكن لم يسهل إيقاد النار ، لأن النار لا تتعلق بكل شيء كما تتعلق بالحطب وثالثها : أصول شعلها ووقود شجرتها ولولا كونها ذات شعل لما صلحت لإنضاج الأشياء والباقي ظاهر .

نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (73)

في قوله : ﴿ تَذْكِرَةً ﴾ وجهان أحدهما : تذكرة لنار القيامة فيجب على العاقل أن يخشى الله تعالى وعذابه إذا رأى النار الموقدة وثانيهما : تذكرة بصحة البعث ، لأن من قدر على إيداع النار في الشجر الأخضر لا يعجز عن إيداع الحرارة الغريزية في بدن الميت وقد ذكرناه في تفسير قوله تعالى : ﴿ الذى جَعَلَ لَكُم مّنَ الشجر الأخضر نَاراً ﴾ [يس : 80]

والمقوى : هو الذي أوقده فقواه وزاده وفيه لطيفة : وهو أنه تعالى قدم كونها تذكرة على

كونها متاعاً ليعلم أن الفائدة الأخروية أتم وبالذكر أهم .

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (74)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في وجه تعلقه بما قبله ؟ نقول : لما ذكر الله تعالى حال المكذبين بالحشر والوحدانية ذكر الدليل عليهما بالخلق والرزق ولم يفدهم الإيمان قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : أن وظيفتك أن تكمل في نفسك وهو علمك بربك وعملك لربك : ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ ﴾ وقد ذكرنا ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس ﴾ [طه : 130] وفي موضع آخر .

المسألة الثانية :

التسبيح التنزيه عما لا يليق به فما فائدة ذكر الاسم ولم يقل : فسبح بربك العظيم ؟ فنقول الجواب عنه من وجهين أحدهما : هو المشهور وهو أن الاسم مقحم ، وعلى هذا الجواب فنقول : فيه فائدة زيادة التعظيم ، لأن من عظم عظيماً وبالغ في تعظيمه لم يذكر اسمه إلا

وعظمه ، فلا يذكر اسمه في موضع وضيع ولا على وجه الاتفاق كيفما اتفق ، وذلك لأن من يعظم شخصاً عند حضوره ربما لا يعظمه عند غيبته فيذكره باسم علمه ، فإن كان بمحضر منه لا يقول ذلك ، فإذا عظم عنده لا يذكره في حضوره وغيبته إلا بأوصاف العظمة ، فإن قيل : فعلى هذا فما فائدة الباء وكيف صار ذلك ، ولم يقل : فسبح اسم ربك العظيم ، أو الرب العظيم ، نقول : قد تقدم مراراً أن الفعل إذا كان تعلقه بالمفعول ظاهراً غاية الظهور لا يتعدى إليه بحرف فلا يقال : ضربت بزيد بمعنى ضربت زيداً ، وإذا كان في غاية الخفاء لا يتعدى إليه إلا بحرف فلا يقال : ذهبت زيداً بمعنى ذهبت بزيد ، وإذا كان بينهما جاز الوجهان فنقول : سبحته وسبحت به وشكرته وشكرت له ، إذا ثبت هذا فنقول : لما علق التسبيح بالاسم وكان الاسم مقحماً كان التسبيح في الحقيقة متعلقاً بغيره وهو الرب وكان التعلق خفياً من وجه فجاز ادخال الباء ، فإن قيل : إذا جاز الإسقاط والإثبات فما الفرق بين هذا الموضع وبين قوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] فنقول : ههنا تقديم الدليل على العظمة أن يقال : الباء في قوله : ﴿ باسم ﴾ غير زائدة ، وتقريره من وجهين أحدهما : أنه لما ذكر الأمور وقال : نحن أم أنتم ، فاعترف الكل بأن الأمور من الله ، وإذا طولبوا بالوحدانية قالوا : نحن لا نشرك في المعنى وإنما نتخذ أصناماً آلهة في الاسم ونسميها آلهة والذي خلقها وخلق السموات هو الله فنحن ننزهه في الحقيقة

فقال : ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ ﴾ وكما أنك أيها العاقل اعترفت بعدم اشتراكهما في الحقيقة اعترف بعدم اشتراكهما في الاسم ، ولا تقل

(98/744)

لغيره إله ، فإن الاسم يتبع المعنى والحقيقة ، وعلى هذا فالخطاب لا يكون مع النبي صلى الله عليه وسلم بل يكون كما يقول الواعظ : يا مسكين أفنيت عمرك وما أصلحت عملك ، ولا يريد أحداً بعينه ، وتقديره يا أيها المسكين السامع وثانيهما : أن يكون المراد بذكر ربك ، أي إذا قلت : وتولوا ، فسبح ربك بذكر اسمه بين قومك واشتغل بالتبليغ ، والمعنى اذكره باللسان والقلب وبين وصفه لهم وإن لم يقبلوا فإنك مقبل على شغلك الذي هو التبليغ ، ولو قال : فسبح ربك ، ما أفاد الذكر لهم ، وكان ينبىء عن التسبيح بالقلب ، ولما قال : فسبح باسم ربك ، والاسم هو الذي يذكر لفظاً دل على أنه مأمور بالذكر اللساني وليس له أن يقتصر على الذكر القلبي ويحتمل أن يقال : فسبح مبتدئاً باسم ربك العظيم فلا تكون الباء زائدة .

المسألة الثالثة :

كيف يسبح ربنا ؟ نقول : إما معنى ، فبأن يعتقد فيه أنه واحد منزه عن الشريك وقادر

بريء عن العجز فلا يعجز عن الحشر وإما لفظاً فبأن يقال : سبحان الله وسبحان الله العظيم ، وسبحانه عما يشركون ، أو ما يقوم مقامه من الكلام الدال على تنزيهه عن الشريك والعجز فإنك إذا سبحته واعتقدت أنه واحد منزه عن كل ما لا يجوز في حقيقته ، لزم أن لا يكون جسماً لأن الجسم فيه أشياء كثيرة وهو واحد حقيقي لا كثرة لذاته ، ولا يكون عرضاً ولا في مكان ، وكل ما لا يجوز له ينتفي عنه بالتوحيد ولا يكون على شيء ، ولا في شيء ، ولا عن شيء ، وإذا قلت : هو قادر ثبت له العلم والإرادة والحياة وغيرها من الصفات وسنذكر ذلك في تفسير سورة الإخلاص إن شاء الله تعالى .

المسألة الرابعة :

(99/744)

ما الفرق بين ﴿ العظيم ﴾ وبين ﴿ الأعلى ﴾ ، وهل في ذكر ﴿ العظيم ﴾ هنا بدل ﴿ الأعلى ﴾ وذكر ﴿ الأعلى ﴾ في قوله : ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] بدل ﴿ العظيم ﴾ فائدة ؟ نقول : أما الفرق بين العظيم والأعلى فهو أن العظيم يدل على القرب ، والأعلى يدل على البعد ، بيانه هو أن ما عظم من الأشياء المدركة بالحس قريب من كل ممكن ، لأنه لو بعد عنه لخلا عنه موضعه ، فلو كان فيه أجزاء أخر لكان أعظم مما هو

عليه فالعظيم بالنسبة إلى الكل هو الذي يقرب من الكل ، وأما الصغير إذا قرب من جهة فقد بعد عن أخرى ، وأما العلي فهو البعيد عن كل شيء لأن ما قرب من شيء من جهة فوق يكون أبعد منه وكان أعلى فالعلي المطلق بالنسبة إلى كل شيء هو الذي في غاية البعد عن كل شيء ، إذا عرفت هذا فالأشياء المدركة تسبح الله ، وإذا علمنا من الله معنى سلبياً فصح أن نقول : هو أعلى من أن يحيط به إدراكنا وإذا علمنا منه وصفاً ثبوتياً من علم وقدرة يزيد تعظيمه أكثر مما وصل إليه علمنا ، فنقول : هو أعظم وأعلى من أن يحيط به علمنا ، وقولنا : أعظم معناه عظيم لا عظيم مثله ، ففيه مفهوم سلبي ومفهوم ثبوتي وقوله : أعلى ، معناه هو علي ولا علي مثله ، والعلي إشارة إلى مفهوم سلبي والأعلى مثله بسبب آخر ، فالأعلى مستعمل على حقيقته لفظاً ومعنى ، والأعظم مستعمل على حقيقته لفظاً ، وفيه معنى سلبي ، وكأن الأصل في العظيم مفهوم ثبوتي لا سلب فيه فالأعلى أحسن استعمالاً من الأعظم هذا هو الفرق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 162.160 ﴾

(100/744)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) ﴾

إعراب قوله : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ﴾ قد تقدم نظيره . وفي الكلام هنا معنى الإنحاء عليهم وتعظيم مصابهم . والسموم : أشد ما يكون من الحر باليابس الذي لا بلل معه . والحميم : السخن جداً من المائع الذي في جهنم ، والعرب تقول للماء السخن حميماً . واليحموم : الأسود وهو بناء مبالغة .

واختلف الناس في هذا الشيء الأسود الذي يظل أهل النار ما هو فقال ابن عباس ومجاهد وأبو مالك وابن زيد هو الدخان ، وهذا قول الجمهور . وقال ابن عباس أيضاً : هو سرادق النار المحيط بأهلها ، فإنه يرتفع من كل ناحية حتى يظلهم ، وحكى النقاش ، أن اليحموم : اسم من أسماء جهنم ، وقاله ابن كيسان ، وقال ابن بريدة وابن زيد أيضاً في كتاب الثعلبي : هو جبل من نار أسود يفزع أهل النار إلى ذراه فيجدونه أشد شيء وأمره .

وقوله : ﴿ ولا كريم ﴾ قال الطبري وغيره معناه : ليس له صفة مدح في الظلال ، وهذا كما تقول : ثوب كريم ونسب كريم ، يعني بذلك أن له صفات مدح .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن يصفه بعدم الكرم على معنى : ألا كرامة لهم ، وذلك أن المرء في الدنيا قد يصبر على سوء الموضوع لقرينة إكرام يناله فيه من أحد ، فجمع هذا الظل في النار أنه سيئ الصفة وهم فيه مهانون . والمترف : المنعم في سرف وتخوض .

و﴿ يصرون ﴾ معناه : يعتقدون اعتقاداً لا ينوون عنه إقلاعاً ، قال ابن زيد : لا يثوبون ولا يستغفرون . و﴿ الحنث ﴾ : الإثم ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " من مات له ثلاث من الولد لم يبلغوا الحنث " . الحديث ، أراد : لم يبلغوا الحلم فتتعلق بهم الآثام . وقال الخطابي : ﴿ الحنث ﴾ في كلام العرب العدل الثقيل ، شبه الإثم به .

(101/744)

واختلف المفسرون في المراد بهذا الإثم هنا ، فقال قتادة والضحاك وابن زيد : هو الشرك ، وهذا هو الظاهر . وقال قوم في ما ذكر مكي : هو الحنث في قسمهم الذي يتضمنه قوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ [الأنعام : 109 ، النحل : 38 ، النور : 53 ، فاطر : 42] الآية في التكذيب بالبعث ، وهذا أيضاً يتضمن الكفر ، فالقول به على عمومه أولى . وقال الشعبي : ﴿ الحنث العظيم ﴾ : اليمين الغموس .

وقد تقدم ذكر اختلاف القراء في قوله : ﴿ أئذا ﴾ ، و﴿ إنا ﴾ ، ويختص من ذلك بهذا الموضع أن ابن عامر يخالف فيه أصله فيقرأ هذا : " أئذا " . " أئنا " بتحقيق الهمزتين فيهما على الاستفهام ، ورواه أبو بكر عن عاصم في قوله : ﴿ إنا لمبعوثون ﴾ والعامل في قوله : ﴿ أئذا ﴾ فعل مضمر يدل عليه قوله : ﴿ لمبعوثون ﴾ تقديره : أنبعث أو نحشر ، ولا

يعمل فيه ما بعده لأنه مضاف إليه .

وقرأ عيسى الثقفي : " مُتنا " بضم الميم ، وقرأ جمهور الناس : " مِتنا " بكسرها وهذا على لغة من يقول : مت أموت على وزن فعل بكسر العين يفعل بضمها ، ولم يحك منها عن العرب إلا هذه اللفظة وأخرى هو فضل يفضل .

وقرأ بعض القراء : " أوْ " بسكون الواو ومعنى الآية استبعاد أن يبعثوا هم وآباؤهم على حد واحد من الاستبعاد وقرأ الجمهور : " أوَآباؤنا " بتحريك الواو على أنها واو العطف دخل عليها ألف الاستفهام ، ومعناها : شدة الاستبعاد في الآباء ، كأنهم استبعدوا أن يبعثوا ، ثم أتوا بذكر من البعث فيهم أبعد وهذا بين لأهل العلم بلسان العرب .

ثم أمر الله تعالى نبيه أن يعلمهم بأن العالم محشور مبعوث ل ﴿ يوم معلوم ﴾ موقت و ﴿ ميقات ﴾ : مفعال من الوقت ، كميعاد من الوعد .

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51)

(102/744)

وقوله : ﴿ ثم إنكم ﴾ مخاطبة لكفار قريش ومن كان في حالهم ، و ﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ من شجر ﴾ يحتمل أن تكون للتبعيض ويحتمل أن تكون لابتداء الغاية ، و ﴿ من ﴾ في

قوله : ﴿ من زقوم ﴾ لبيان الجنس ، والضمير في : ﴿ منها ﴾ عائد على الشجر ، و" من " للتبعيض أو لابتداء الغاية ، والضمير في : ﴿ عليه ﴾ عائد على المأكول أو على الأكل . وفي قراءة ابن مسعود " لآكلون من شجر " على الإفراد .

و: ﴿ الهيم ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك : هو جمع أهيم ، وهو الجمل الذي أصابه الهُيام ، بضم الهاء ، وهو داء معطش يشرب معه الجمل حتى يموت أو يسقهم سقماً شديداً ، والأنثى : هيماء . وقال بعضهم : هو جمع هيماء كبيض وعين ، وقال قوم آخرون : هو جمع هائم وهائمة ، وهذا أيضاً من هذا المعنى ، لأن الجمل إذا أصابه ذلك الداء هام على وجهه وذهب ، وقال سفيان الثوري وابن عباس : ﴿ الهيم ﴾ هنا الرمال التي لا تروى من الماء ، وذلك أن الهَيام بفتح الهاء هو الرمل الدق الغمر المتراكم ، وقال ثعلب . الهُيام : بضم الهاء : الرمل الذي لا يتماسك .

وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي : " شَرب " بفتح الشين ، وهي قراءة الأعرج وابن المسيب وشعيب بن الحبحاب ومالك بن دينار وابن جريج ، ولا خلاف أنه مصدر ، وقرأ مجاهد : " شِرب " بكسر الشين ، ولا خلاف أنه اسم ، وقرأ أهل المدينة وباقي السبعة : " شُرب " ، بضم الشين ، واختلف فيه ، فقال قوم وهو مصدر ، وقال آخرون هم اسم لما يشرب .

والنزل : أول ما يأكل الضيف . وقرأ عمرو في رواية عباس : " نزْلهم " ساكنة الزاي ، وقرأ

الباقون واليزيدي عن أبي عمرو بضم الزاي وهما لمعنى كالشغل والشغل . و: ﴿ الدين ﴾ الجزاء .

(103/744)

ثم أخبر تعالى أنه الخالق ، وحضض على التصديق على وجه التقريع ثم ساق الحجة الموجبة للتصديق ، كان معترضاً من الكفار قال : ولم أصدق ؟ فقيل له : أفرأيت كذا وكذا الآيات ، وليس يوجد مفطور يخفى عنه أن المني الذي يخرج منه ليس له فيه عمل ولا إرادة ولا قدرة . و﴿ أم ﴾ في قوله : ﴿ أم نحن ﴾ ليست المعادلة عند سيبويه ، لأن الفعل قد تكرر ، وإنما المعادلة عنده : أقام زيد أم عمرو ، وهذه التي في هذه الآية معادلة عند قوم من النحاة ، وأما إذا تغاير الفعلان فليست بمعادلة إجماعاً .

وقرأ الجمهور : " تُمنون " بضم التاء ، وقرأ ابن عباس وأبو السمال " تَمنون " بفتح التاء ، ويقال أمنى الرجل ومنى بمعنى واحد .

وقرأ جمهور القراء : " قدّرنا " بشد الدال . وقرأ كثير وحده : " قدَرنا " بتخفيفها .

والمعنى فيها يحتمل أن يكون بمعنى قضينا وأثبتنا ، ويحتمل أن يكون بمعنى سوينا ، وعدلنا التقدم والتأخر ، أي جعلنا الموت رتباً ، ليس يموت العالم دفعة واحدة ، بل بترتيب لا يعدوه

أحد .

وقال الطبري معنى الآية : " قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم " أي تموت طائفة ونبدلها بطائفة ، هكذا قرناً بعد قرن .

وقوله : ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ على تبديلكم إن أردناه وإن ننشئكم بأوصاف لا يصلها عملكم ولا يحيط بها كفركم . قال الحسن : من كونكم قردة وخنازير .

قال القاضي أبو محمد : تأول الحسن هذا ، لأن الآية تنحو إلى الوعيد ، وجاءت لفظة " السبق " هنا على نحو قوله عليه السلام : " فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا لا تفوتنكم " .

(104/744)

وقرأ جمهور الناس : النشْأة " بسكون الشين . وقرأ قتادة وأبو الأشهب وأبو عمرو بخلاف " النشَأة " بفتح الشين والمد . وقال أكثر المفسرين : أشار إلى خلق آدم ووقف عليه ، لأنه لا تجد أحداً ينكر أنه من ولد آدم وأنه من طين . وقال بعضهم : أراد ب ﴿ النشأة الأولى ﴾ نشأة إنسان إنسان في طفوليته فيعلم المرء نشأته كيف كانت بما يرى من نشأة غيره ، ثم حضض على التذكر والنظر المؤدي إلى الإيمان .

وقرأ الجمهور : " تذّكرون " مشددة الذال . وقرأ طلحة : " تذْكُرون " بسكون الذال وضم الكاف ، وهذه الآية نص في استعمال القياس والحض عليه .

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63)

وقف تعالى الكفار على أمر الزرع الذي هو قوام العيش ، وبين لكل مفطور أن الحراث الذي يثير الأرض ويفرق الحب ليس يفعل في نبات الزرع شيء ، وقد يسمى الإنسان زارعاً ، ومنه قوله عز وجل : ﴿ يعجب الزراع ﴾ [الفتح : 29] لكن معنى هذه الآية : ﴿ أأنتم تزرعونه ﴾ زرعاً يتم ﴿ أم نحن ﴾ . وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تقولن زرعت ، ولكن قل حرثت " ، ثم تلا أبو هريرة هذه الآية .

والحطام : اليابس المتفتت من النبات الصائر إلى ذهاب ، وبه شبه حطام الدنيا . وقيل المعنى : نبتاً لا قمح فيه و: ﴿ تفكهون ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة معناه : تعجبون ، وقال عكرمة : تلامون . وقال الحسن معناه : تندمون وقال ابن زيد : تتفجهون ، وهذا كله تفسير لا يخص اللفظة ، والذي يخص اللفظ ، هو : تطرحون الفاكهة عن أنفسكم وهي المسرة والجدل ، ورجل فكه إذا كان منبسط النفس غير مكترث بالشيء ، وتفكه من أخوات تحرج وتحوب .

وقرأ الجمهور : " فظَلتم " بفتح الظاء ، وروى سفيان الثوري في قراءة عبد الله كسر الظاء . قال أبو حاتم : طرحت عليها حركة اللام المجزومة ، وذلك رديء في القياس ، وهي قراءة أبو حيوة . وروى أحمد بن موسى : " فظَلَتم " بلامين ، الأولى مفتوحة عن الجحدري ، ورويت عن ابن مسعود ، بكسر اللام الأولى .

وقوله : ﴿ إنا لمغرمون ﴾ قبله حذف تقديره : يقولون .

وقرأ الأعمش وعاصم الجحدري : " أإنا لمغرمون " بهمزتين على الاستفهام ، والمعنى يحتمل أن يكون إنا لمعذبون من الغرام وهو أشد العذاب ومنه قوله تعالى : ﴿ إن عذابها كان غراماً ﴾ [الفرقان : 65] ومنه قول الأعشى : [الخفيف]

إن يعذّب يكنْ غراماً وإنْ يُعْ . . . طِ جزيلاً فإنه لا يبالي

ويحتمل أن يكون : إنا لمحملون الغرم أي غرمنا في النفقة وذهب زرعنا ، تقول : غرم الرجل وأغرمته فهو مغرم . وقد تقدم تفسير المحروم وأنه المحدود والمحارب . و: ﴿ المزن ﴾ السحاب بلا خلاف ، ومنه قول الشاعر " السموأل بن عاديا اليهودي] : [الطويل]

ونحن كماء المزن ما في نصابنا . . . كهام ولا فينا يعد بخيل

والأجاج : أشد المياه ملوحة ، وهو ماء البحر الأخضر . و: ﴿ تورون ﴾ معناه : تقتدحون من الأزند ، تقول أوريت النار من الزناد . وروى الزناد نفسه ، والزناد قد يكون

من حجرين ومن حجر وحديدة ومن شجر ، لا سيما في بلاد العرب ، ولا سيما في الشجر الرخو كالمرخ والعفار والكلح وما أشبهه ، ولعادة العرب في أزنادهم من شجر ، قال تعالى : ﴿ أأنتم أنشأتم شجرتها ﴾ وقال بعض أهل النظر : أراد بالشجرة نفس النار ، وكأنه يقول نوعها أو جنسها فاستعار الشجرة لذلك .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول فيه تكلف .

وقرأ الجمهور : " آنتم " بالمد ، وروي عن أبي عمرو وعيسى : " أنتم " بغير مد ، وضعفها أبو حاتم .

(106/744)

و : ﴿ تذكرة ﴾ معناه : تذكر نار جهنم ، قاله مجاهد وقتادة . والمتاع : ما ينتفع به .

والمقوي في هذه الآية : الكائن في الأرض القواء وهي الفيافي ، وعبر الناس في تفسير ﴿ المقوين ﴾ بأشياء ضعيفة ، كقول ابن زيد للجائعين ونحوه .

ولا يقوى منها ما ذكرناه ، ومن قال معناه : للمسافرين ، فهو نحو ما قلناه ، وهي عبارة ابن عباس رضي الله عنه تقول : أصبح الرجل ، دخل في الصباح . وأصحر دخل في الصحراء ، وأقوى دخل في الأرض القواء ، ومنه أقوت الدار ، وأقوى الطلل : أي صار قواء ، ومنه

قول النابغة : [البسيط]

أقوتْ وطال عليها سالفُ الأبدِ . . . وقول الآخر : [الكامل]

أقوى وأقفر بعد أمّ الهيثم . . . والفقير والغني إذا أقوى سواء في الحاجة إلى النار ، ولا شيء يغني غناءها في الصرد ، ومن قال : إن أقوى من الأضداد من حيث يقال : أقوى الرجل إذا قويت دابته فقد أخطأ وذلك فعل آخر كأترب إذا أترب ، ثم أمر نبيه بتنزيه ربه تعالى وتبرئة أسمائه العلى عما يقوله الكفرة الذين حجوا في هذه الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(107/744)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الماء الذي تَشْرَبُونَ ﴾

لتحيوا به أنفسكم ، وتسكنوا به عطشكم ، لأن الشراب إنما يكون تبعاً للمطعوم ، ولهذا جاء الطعام مقدماً في الآية قبلُ ، ألا ترى أنك تسقي ضيفك بعد أن تطعمه .

الزمخشري : ولو عكست قعدت تحت قول أبي العلاء :

إذا سُقِيَتْ ضُيوفُ الناسِ مَحْضاً . . .

سَقَوْا أضيافَهمْ شَبِماً زُلالاَ

وسُقِي بعضُ العرب فقال : أنا لا أشرب إلا على ثَمِيلة .

﴿ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن ﴾ أي السَّحاب ، الواحدة مُزْنة ؛ فقال الشاعر :

فنحنُ كماءِ الْمُزْنِ ما في نِصَابِنَا . . .

كَهَامٌ ولا فينا يُعَدُّ بَخِيلُ

وهذا قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما أن المُزْن السَّحاب .

وعن ابن عباس أيضاً والثوري : المُزْن السّماء والسّحاب .

وفي الصّحاح : أبو زيد : المُزْنة السّحابة البيضاء والجمع مُزْن ، والمُزْنة المَطْرَة ؛ قال :

ألم تَرَ أن الله أَنْزَلَ مُزْنةً . . .

وعُفْرُ الظِّبَاءِ في الكِنَاسِ تَقَمَّعُ

﴿ أَمْ نَحْنُ المنزلون ﴾ أي فإذا عرفتم بأني أنزلته فَلِمَ لا تشكروني بإخلاص العبادة لي ؟

ولِمَ تنكرون قدرتي على الإعادة ؟ .

﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً ﴾ أي ملحاً شديد الملوحة ؛ قاله ابن عباس .

الحسن : مرًّا قُعَاعاً لا تنتفعون به في شرب ولا زرع ولا غيرهما .

﴿ فَلَوْلاَ ﴾ أي فهلاّ تشكرون الذي صنع ذلك بكم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النار التي تُورُونَ ﴾ أي أخبروني عن النار التي تظهرونها بالقَدْح من

الشجر الرَّطْب ﴿ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ ﴾ يعني التي تكون منها الزِّناد وهي المَرْخُ والعَفَار ؛ ومنه قولهم : في كلّ شجرٍ نار ، واستمجد المَرْخُ والعَفَار ؛ أي استكثر منها ، كأنهما أخذا من النار ما هو حَسْبهما .

ويقال : لأنهما يُسرِعان الْوَرْيَ .

يقال : أوْرَيت النار إذا قدحتها .

وورَى الزَّنَدُ يَرِي إذا انقدح منه النار .

(108/744)

وفيه لغة أخرى : ووَرِي الزَّنَدُ يَرِي بالكسر فيهما .

﴿ أَمْ نَحْنُ المنشئون ﴾ أي المخترعون الخالقون ؛ أي فإذا عرفتم قدرتي فاشكروني ولا تنكروا قدرتي على البعث .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ يعني نار الدنيا موعظة للنار الكبرى ؛ قاله قتادة .

ومجاهد : تبصرة للناس من الظلام .

وصح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " "إن ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم" فقالوا يا رسول الله : أن كانت لكافية ؛ قال : "فإنها فضلَت

عليها بتسعة وستين جُزْءاً كلّهنّ مثل حَرّها" " ﴿ وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ ﴾ قال الضحاك : أي منفعة للمسافرين ؛ سمّوا بذلك لنزولهم القَوَى وهو القفر .

الفراء : إنما يقال للمسافرين : مُقْوِين إذا نزلوا القِيّ وهي الأرض القفر التي لا شيء فيها . وكذلك القَوَى والقَوَاء بالمدّ والقصر ، ومنزلٌ قَواء لا أنيس به ؛ يقال : أَقْوت الدارُ وقَوِيت أيضاً أي خلت من سكانها ؛ قال النابغة :

يا دارَ مَيَّةَ بالْعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ . . .

أَقْوَتْ وطال عَليها سَالفُ الأَمَدِ

وقال عنترة :

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ . . .

أَقْوَى وأَقْفَرَ بَعد أُمِّ الْهَيْثَمِ

ويقال : أَقْوَى أي قَوِي وقَوِي أصحابه ، وأَقوى إذا سافر أي نزل القَوَاء والقِيّ .

وقال مجاهد : ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ المستمتعين بها من الناس أجمعين في الطبخ والخبز والاصطلاء والاستضاءة ، ويتذكر بها نار جهنم فيستجار بالله منها .

وقال ابن زيد : للجائعين في إصلاح طعامهم .

يقال : أقويت منذ كذا وكذا ، أي ما أكلت شيئاً ، وبات فلان القَواء وبات القفرَ إذا بات جائعاً على غير طُعْم ؛ قال الشاعر :

وإنّي لأختارُ القَوَى طَاوِيَ الحَشَى . . .
مَحَافَظَةً من أَنْ يقالَ لَئِيمُ

(109/744)

وقال الربيع والسدي : ﴿ الْمُقوِينَ ﴾ المنزلين الذين لا زناد معهم ؛ يعني ناراً يوقدون فيختبزون بها ؟ ورواه العوفي عن ابن عباس .

وقال قُطْرب : المُقْوِي من الأضداد يكون بمعنى الفقير ويكون بمعنى الغني ؛ يقال : أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد ، وأقوى إذا قويت دوابه وكثر ماله .

المهدوي : والآية تصلح للجميع ؛ لأن النار يحتاج إليها المسافر والمقيم والغني والفقير .

وحكى الثعلبي أن أكثر المفسرين على القول الأوّل .

القشيري : وخص المسافر بالانتفاع بها لأن انتفاعه بها أكثر من منفعة المقيم ؛ لأن أهل البادية لا بد لهم من النار يوقدونها ليلاً لتهرب منهم السّباع ، وفي كثير من حوائجهم .

قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ العظيم ﴾ أي فنزّه الله عما أضافه إليه المشركون من الأنداد ، والعجز عن البعث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(110/744)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) ﴾

اليحموم : الأسود البهيم .

الحنث ، قال الخطابي : هو في كلام العرب العدل الثقيل شبه الإثم به .

الهيم : جمع أهيم وهيماء ، والهيام داء معطش يصيب الإبل فتشرب حتى تموت ، أو تسقم سقماً شديداً ، قال :

فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد . . .

صداها ولا يقضي عليها هيامها

والهيم جمع هيام : وهو الرمل بفتح الهاء وهو المشهور .

وقال ثعلب : بضمها قال : هو الرمل الذي لا يتماسك ، فبالفتح كسحاب وسحب ، ثم خفف وفعل به ما فعل بجمع أهيم من قلب ضمته كسرة لتصح الياء ، أو بالضم يكون قد جمع على فعل ، كقراد وقرد ، ثم سكنت ضمة الراء فصار فعلاً ، ثم فعل به ما فعل ببيض .

أمنى الرجل النطفة ومناها : قذفها من إحليله .

المزن : السحاب .

قال الشاعر :

فلا مزنة ودقت ودقها . . .

ولا أرض أبقل أبقالها

أوريت النار من الزناد : قدحتها ، ووري الزند نفسه ، والزناد حجرين أو من حجر وحديدة ، ومن شجر ، لا سيما في الشجر الرخو كالمرخ والعفار والكلح ، والعرب تقدح بعودين ، تحك أحدهما بالأخر ، ويسمون الأعلى الزند والأسفل الزندة ، شبهوهما بالعجل والطروقة .

أقوى الرجل : دخل في الأرض ، القوا ، وهي .

الفقر ، كأصحر دخل في الصحراء ، وأقوى من أقام أياماً لم يأكل شيئاً ، وأقوت الدار : صارت قفراء .

قال الشاعر :

يا دار مية بالعلياء فالسند . . .

أقوت وطال عليها سالف الأمد

أدهن : لاين وهاود فيما لا يحمل عند المدهن ، وقال الشاعر :

الحزم والقوة خير من السادهان والفهه والمهاع . . .

الحلقوم : مجرى الطعام .

الروح : الاستراحة .

الريحان : تقدم في سورة الرحمن .

(111/744)

﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم إنهم كانوا قبل ذلك مترفين وكانوا يصرون على الحنث العظيم وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم هذا نزلهم يوم الدين نحن خلقناكم فلولا تصدقون أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون إنا لمغرمون بل نحن محرومون أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين فسبح باسم ربك العظيم ﴾ .

لما ذكر حال السابقين ، وأتبعهم بأصحاب الميمنة ، ذكر حال أصحاب المشئمة فقال : ﴿ وأصحاب الشمال ﴾ ، وتقدّم إعراب نظير هذه الجملة ، وفي هذا الاستفهام تعظيم مصابهم .

﴿ في سموم ﴾ : في أشدّ حر ، ﴿ وحميم ﴾ : ماء شديد السخونة .

﴿ وظل من يحموم ﴾ ، قال ابن عباس ومجاهد وأبو مالك وابن زيد والجمهور : دخان .

وقال ابن عباس أيضاً : هو سرادق النار المحيط بأهلها ، يرتفع من كل ناحية حتى يظلهم .

وقال ابن كيسان : اليحموم من أسماء جهنم .

وقال ابن زيد أيضاً وابن بريدة : هو جبل في النار أسود ، يفزع أهل النار إلى ذراه ، فيجدونه أشد شيء وأمر .

﴿ لا بارد ولا كريم ﴾ : صفتان للظل نفيتا ، سمي ظلاً وإن كان ليس كالظلال ، ونفي عنه برد الظل ونفعه لمن يأوي إليه .

(112/744)

﴿ ولا كريم ﴾ : تتميم لنفي صفة المدح فيه ، وتحقيق لما يتوهم في الظل من الاسترواح إليه عند شدّة الحر ، أو نفي لكرامة من يستروح إليه .

ونسب إليه مجازاً ، والمراد هم ، أي يستظلون إليه وهم مهانون .

وقد يحتمل المجلس الرديء لنيل الكرامة ، وبدىء أولاً بالوصف الأصلي الذي هو الظل ، وهو كونه من يحموم ، فهو بعض اليحموم .

ثم نفى عنه الوصف الذي يبغي له الظل ، وهو كونه لا بارداً ولا كريماً .

وقد يجوز أن يكون ﴿ لا بارد ولا كريم ﴾ صفة ليحموم ، ويلزم منه أن يكون الظل موصوفاً بذلك .

وقرأ الجمهور : ﴿ لا بارد ولا كريم ﴾ بجرهما ؛ وابن عبلة : برفعهما : أي لا هو بارد ولا كريم ، على حد قوله :

فأبيت لا حرج ولا محروم . . .

أي لا أنا حرج .

﴿ إنهم كانوا قبل ذلك ﴾ : أي في الدنيا ، ﴿ مترفين ﴾ : فيه ذم الترف والتنعم في الدنيا ، والترف طريق إلى البطالة وترك التفكر في العاقبة .

﴿ وكانوا يصرون ﴾ : أي يداومون ويواظبون ، ﴿ على الحنث العظيم ﴾ ، قال قتادة والضحاك وابن زيد : الشرك ، وهو الظاهر .

وقيل : ما تضمنه قوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ الآية من التكذيب بالبعث .

ويبعده : ﴿ وكانوا يقولون ﴾ ، فإنه معطوف على ما قبله ، والعطف يقتضي التغاير ،

فالحنث العظيم : الشرك .

فقولهم : ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون ﴾ : تقدم الكلام عليه في والصافات ، وكرر الزمخشري هنا وهمه فقال : فإن قلت : كيف حسن العطف على المضمر في ﴿ لمبعوثون ﴾ من غير تأكيد بنحن ؟ قلت : حسن للفاصل الذي هو الهمزة ، كما حسن في قوله : ﴿ ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾ الفصل لا المؤكدة للنفي . انتهى .

ورددنا عليه هنا وهناك إلى مذهب الجماعة في أنهم لا يقدرون بين همزة الاستفهام وحرف العطف فعلاً في نحو : ﴿ أفلم يسيروا ﴾ ولا اسماً في نحو : ﴿ أو آباؤنا ﴾ ، بل الواو والفاء لعطف ما بعدهما على ما قبلهما ، والهمزة في التقدير متأخرة عن حرف العطف .

(113/744)

لكنه لما كان الاستفهام له صدر الكلام قدمت .

ولما ذكر تعالى استفهامهم عن البعث على طريق الاستبعاد والإنكار ، أمر نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يخبرهم ببعث العالم ، أولهم وآخرهم ، للحساب ، وبما يصل إليه المكذبون للبعث من العذاب .

والميقات : ما وقت به الشيء ، أي حد ، أي إلى ما وقتت به الدنيا من يوم معلوم ،

والإضافة بمعنى من ، كخاتم حديد .

﴿ ثم إنكم ﴾ : خطاب لكفار قريش ، ﴿ أيها الضالون ﴾ عن الهدى ، ﴿ المكذبون ﴾ للبعث .

وخطاب أيضاً لمن جرى مجراهم في ذلك .

﴿ لآكلون من شجر من زقوم ﴾ : من الأولى لابتداء الغاية أو للتبعيض ؛ والثانية ، إن كان من زقوم بدلاً ، فمن تحتمل الوجهين ، وإن لم تكن بدلاً ، فهي لبيان الجنس ، أي من شجر الذي هو زقوم .

وقرأ الجمهور : من شجر ؛ وعبد الله : من شجرة .

﴿ فمالئون منها ﴾ : الضمير في منها عائد على شجر ، إذ هو اسم جنس يؤنث ويذكر ، وعلى قراءة عبد الله ، فهو واضح .

﴿ فشاربون عليه ﴾ ، قال الزمخشري : ذكر على لفظ الشجر ، كما أنث على المعنى في منها .

قال : ومن قرأ : من شجرة من زقوم ، فقد جعل الضميرين للشجرة ، وإنما ذكر الثانى على تأويل الزقوم لأنه يفسرها ، وهي في معناه .

وقال ابن عطية : والضمير في عليه عائد على المأكول ، أو على الأكل . انتهى .

فلم يجعله عائداً على شجر .

وقرأ نافع وعاصم وحمزة : ﴿ شرب ﴾ بضم الشين ، وهو مصدر .

وقيل : اسم لما يشرب ؛ ومجاهد وأبو عثمان النهدي : بكسرها ، وهو بمعنى المشروب ، اسم لا مصدر ، كالطحن والرعي ؛ والأعرج وابن المسيب وسبيب بن الحبحاب ومالك بن دينار وابن جريج وباقي السبعة : بفتحها ، وهو مصدر مقيس .

والهيم ، قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك : جمع أهيم ، وهو الجمل الذي أصابه الهيام ، وقد فسرناه في المفردات .

وقيل : جمع هيماء .

وقيل : جمع هائم وهائمة ، وجمع فاعل على فعل شاذ ، كباذل وبذل ، وعائذ وعوذ ؛ والهائم أيضاً من الهيام .

(114/744)

ألا ترى أن الجمل أذا أصابه ذلك هام على وجهه وذهب ؟ وقال ابن عباس وسفيان : الهيم : الرمال التى لا تروى من الماء ، وتقدم الخلاف في مفرده ، أهو الهيام بفتح الهاء ، أم بالضم ؟ والمعنى : أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذي كالمهل ، فإذا ملأوا منه البطون ، سلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع

أمعاهم ، فيشربونه شرب الهيم ، قاله الزمخشري .

وقال أيضاً : فإن قلت : كيف صح عطف الشاربين على الشاربين ، وهما لذوات متفقة وصفتان متفقتان ، فكان عطفاً للشيء على نفسه ؟ قلت : ليستا بمتفقتين من حيث أن كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة ، وقطع الأمعاء أمر عجيب ، وشربهم له على ذلك ، كما تشرب الهيم الماء ، أمر عجيب أيضاً ؛ فكانتا صفتين مختلفتين . انتهى .

والفاء تقتضي التعقيب في الشربين ، وأنهم أولاً لما عطشوا شربوا من الحميم ظناً أنه يسكن عطشهم ، فازداد العطش بحرارة الحميم ، فشربوا بعده شرباً لا يقع به ريّ أبداً ، وهو مثل شرب الهيم ، فهما شربان من الحميم لا شرب واحد ، اختلفت صفتاه فعطف ، والمقصود الصفة .

والمشروب منه في ﴿ فشاربون شرب الهيم ﴾ محذوف لفهم المعنى تقديره : فشاربون منه شرب الهيم .

وقرأ الجمهور : ﴿ نزلهم ﴾ بضم الزاي .

وقرأ ابن محيصن وخارجة ، عن نافع ونعيم ومحبوب وأبو زيد وهارون وعصمة وعباس ، كلهم عن أبي عمرو : بالسكون ، وهو أول ما يأكله الضيف ، وفيه تهكم بالكفار ، وقال الشاعر :

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا . . .

جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

﴿ يوم الدين ﴾ : أي يوم الجزاء .

﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ﴾ بالإعادة وتقرون بها ، كما أقررتم بالنشأة الأولى ، وهي خلقهم .

ثم قال : ﴿ فلولا تصدقون ﴾ بالإعادة وتقررن بها كما أقررتم ، فهو حض على التصديق .

(115/744)

﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ أو : ﴿ فلولا تصدقون به ﴾ ، ثم حض على التصديق على وجه تقريعهم بسياق الحجج الموجبة للتصديق ، وكان كافراً ، قال : ولم أصدق ؟ فقيل له : أفرأيت كذا مما الإنسان مفطور على الإقرار به ؟ فقال : ﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾ ، وهو المني الذي يخرج من الإنسان ، إذ ليس له في خلقه عمل ولا إرادة ولا قدرة .

وقال الزمخشري : ﴿ يخلقونه ﴾ : تقدرونه وتصورونه .

انتهى ، فحمل الخلق على التقدير والتصوير ، لا على الإنشاء .

ويجوز في ﴿ أأنتم ﴾ أن يكون مبتدأ ، وخبره ﴿ تخلقونه ﴾ ، والأولى أن يكون فاعلاً بفعل محذوف ، كأنه قال : أتخلقونه ؟ فلما حذف الفعل ، انفصل الضمير وجاء ﴿ أفرأيتم ﴾ هنا مصرحاً بمفعولها الأول .

ومجيء جملة الاستفهام في موضع المفعول الثاني على ما هو المقرر فيها ، إذا كانت بمعنى أخبرني .

وجاء بعد أم جملة فقيل : أم منقطعة ، وليست المعادلة للهمزة ، وذلك في أربعة مواضع هنا ، ليكون ذلك على استفهامين ، فجواب الأول لا ، وجواب الثاني نعم ، فتقدر أم على هذا ، بل أنحن الخالقون فجوابه نعم .

وقال قوم من النحاة : أم هنا معادلة للهمزة ، وكان ما جاء من الخبر بعد نحن جيء به على سبيل التوكيد ، إذ لو قال : أم نحن ، لوقع الاكتفاء به دون ذكر الخبر .

ونظير ذلك جواب من قال : من في الدار ؟ زيد في الدار ، أو زيد فيها ، ولو اقتصر في الجواب على زيد لاكتفى به .

وقرأ الجمهور : ﴿ ما تمنون ﴾ بضم التاء ؛ وابن عباس وأبو السمال : بفتحها .

والجمهور : ﴿ قدرنا ﴾ ، بشد الدال ؛ وابن كثير : يخفها ، أي قضينا وأثبتنا ، أو رتبنا في التقدم والتأخر ، فليس موت العالم دفعة واحدة ، بل بترتيب لا يتعدى .

ويقال : سبقته على الشيء : أعجزته عنه وغلبته عليه ولم تمكنه منه ، والمعنى : ﴿ وما

نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم ﴾ : أي نحن قادرون على ذلك ، لا تغلبوننا عليه ، إن أردنا ذلك .

(116/744)

وقال الطبري : المعنى نحن قادرون ، ﴿ قدرنا بينكم الموت ﴾ ، ﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾ : أي بموت طائفة ونبدلها بطائفة ، هكذا قرناً بعد قرن . انتهى .

فعلى أن نبدل متعلق بقوله : ﴿ نحن قدرنا ﴾ ، وعلى القول الأول متعلق ﴿ بمسبوقين ﴾ ، أي لا نسبق .

﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾ ، وأمثالكم جمع مثل ، ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ من الصفات : أي نحن قادرون على أن نعدمكم وننشىء أمثالكم ، وعلى تغيير أوصافكم مما لا يحيط به فكركم .

وقال الحسن : من كونكم قردة وخنازير ، قال ذلك لأن الآية تنحو إلى الوعيد .

ويجوز أن يكون ﴿ أمثالكم ﴾ جمع مثل بمعنى الصفة ، أي نحن قادرون على أن نغير صفاتكم التي أنتم عليها خلقاً وخلقاً ، ﴿ وننشئكم ﴾ في صفات لا تعلمونها .

﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى ﴾ : أي علمتم أنه هو الذي أنشأكم ، أولاً أنشأنا إنساناً .

وقيل : نشأة آدم ، وأنه خلق من طين ، ولا ينكرها أحد من ولده .

﴿ فلولا تذكرون ﴾ : حض على التذكير المؤدي إلى الإيمان والإقرار بالنشأة الآخرة .

وقرأ الجمهور : تذكرون بشد الذال ؛ وطلحة يخفها وضم الكاف ، قالوا : وهذه الآية دالة على استعمال القياس والحض عليه .

انتهى ، ولا تدل إلا على قياس الأولى ، لا على جميع أنواع القياس .

﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ : ما تذرونه في الأرض وتبذرونه ، ﴿ أأنتم تزرعونه ﴾ : أي زرعاً يتم وينبت حتى ينتفع به ، والحطام : اليابس المتفتت الذي لم يكن له حب ينتفع به .

﴿ فظلتم تفكهون ﴾ ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : تعجبون .

وقال عكرمة : تلاومون .

وقال الحسن : تندمون .

وقال ابن زيد : تنفجعون ، وهذا كله تفسير باللازم .

ومعنى تفكهون : تطرحون الفكاهة عن أنفسكم وهي المسرة ، ورجل فكه : منبسط النفس غير مكترث بشيء ، وتفكه من أخوات تخرج وتحوب .

وقرأ الجمهور : ﴿ فظلتم ﴾ ، بفتح الظاء ولام واحدة ؛ وأبو حيوة وأبو بكر في رواية القيكي عنه : بكسرها .

كما قالوا : مست بفتح الميم وكسرها ، وحكاها الثوري عن ابن مسعود ، وجاءت عن الأعمش .

وقرأ عبد الله والجحدري : فظللتم على الأصل ، بكسر اللام .

وقرأ الجحدري أيضاً : بفتحها ، والمشهور ظللت بالكسر .

وقرأ الجمهور : ﴿ تفكهون ﴾ ؛ وأبو حرام : بالنون بدل الهاء .

قال ابن خالويه : تفكه : تعجب ، وتفكن : تندم .

﴿ إنا لمغرمون ﴾ ، قبله محذوف : أي يقولون .

وقرأ الجمهور : إنا ؛ والأعمش والجحدري وأبو بكر : أئنا بهمزتين ، ﴿ لمغرمون ﴾ : أي معذبون من الغرام ، وهو أشد العذاب ، قال :

إن يعذب يكن غراماً وإن . . .

يعط جزيلاً فإنه لا يبالي

أو لمحملون الغرم في النفقة ، إذ ذهب عنا غرم الرجل وأغرمته .

﴿ بل نحن محرومون ﴾ : محدودون ، لا حظ لنا في الخير .

﴿ الماء الذي تشربون ﴾ : هذا الوصف يغني عن وصفه بالعذاب .

ألا ترى مقابله ، وهو الأجاج ؟ ودخلت اللام في ﴿ لجعلناه حطاماً ﴾ ، وسقطت في قوله

: ﴿ جعلناه أجاجاً ﴾ ، وكلاهما فصيح .

وطول الزمخشري في مسوغ ذلك ، وملخصه : أن الحرف إذا كان في مكان ، وعرف واشتهر في ذلك المكان ، جاز حذفه لشهرة أمره .

فإن اللام علم لارتباط الجملة الثانية بالأولى ، فجاز حذفه استغناء بمعرفة السامع .

وذكر في كلامه أن الثاني امتنع لامتناع الأول ، وليس كما ذكر ، إنما هذا قول ضعفاء المعربين .

والذي ذكره سيبويه : أنها حرف لما كان سيقع لوقوع الأول .

ويفسد قول أولئك الضعفاء قولهم : لو كان إنساناً لكان حيواناً ، فالحيوانية لا تمتنع لامتناع الإنسانية .

ثم قال : ويجوز أن يقال : إن هذه اللام مفيدة معنى التوكيد لا محالة ، وأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب للدلالة على أن أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب ، وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم ، ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب .

والظاهر أن ﴿ شجرتها ﴾ ، المراد منه الشجر الذي يقدح منه النار .

(118/744)

وقيل : المراد بالشجرة نفس النار ، كأنه يقول : نوعها أو جنسها ، فاستعار الشجرة لذلك ، وهذا قول متكلف .

﴿ نحن جعلناها تذكرة ﴾ : أي لنار جهنم ، ﴿ ومتاعاً للمقوين ﴾ : أي النازلين الأرض القوا ، وهي القفر .

وقيل : للمسافرين ، وهو قريب مما قبله ؛ وقول ابن زيد : الجائعين ، ضعيف جداً .

وقدم من فوائد النار ما هو أهم وآكد من تذكيرها بنار جهنم ، ثم أتبعه بفائدتها في الدنيا .

وهذه الأربعة التي ذكرها الله تعالى ووقفهم عليها ، من أمر خلقهم وما به قوام عيشهم من المطعوم والمشروب .

والنار من أعظم الدلائل على البعث ، وفيها انتقال من شيء إلى شيء ، وإحداث شيء من شيء ، ولذلك أمر في آخرها بتنزيهه تعالى عما يقول الكافرون .

ووصف تعالى نفسه بالعظيم ، إذ من هذه أفعاله تدل على عظمته وكبريائه وانفراده بالخلق والإنشاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(119/744)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ أَفَرَءَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ ﴾

أي تقذفونَ في الأرحامِ من النطفِ وقرىء بفتحِ التاءِ من مَنَى النطفةَ بمعنى أمنَاها ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ أي تقدرونَهُ وتصورونَهُ بشراً سوياً ﴿ أَمْ نَحْنُ الخالقون ﴾ له من غيرِ دخلِ شيءٍ فيه ، وأم قيل : منقطعةٌ لأن ما بعدها جملةٌ فالمعنى بل أنحنُ الخالقونَ على أنَّ الاستفهامَ للتقريرِ وقيل : متصلة ومجيءُ الخالقونَ بعد نحن بطريقِ التأكيد لا بطريقِ الخبريةِ أصالةً ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت ﴾ أي قسمنَاهُ عليكم ووقتنا موتَ كلِّ أحدٍ بوقتٍ معينٍ حسبما تقتضيهِ مشيئتنا المبنيةُ على الحكمِ البالغةِ وقرىء قدَرْنا مخففاً ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي إنا قادرونَ ﴿ على أَن نُّبَدِّلَ أمثالكم ﴾ لا يغلبنا أحدٌ على أن نُذهبكم ونأتي مكانَكم بأشباهِكم من الخلقِ ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ من الخلقِ والأطوارِ ولا تعهدون بمثلها قال الحسنُ رحمه الله أي نجعلكم قردةً وخنازيرَ وقيل : المَعْنى وننشئكم في البعثِ على غيرِ صوركم في الدُّنيا فيمن هذا شأنُه كيف يعجزُ عن إعادتِكم وقيلَ : المعنى وما يسبقنا أحدٌ فيهرب من الموت أو بغير وقته وعلى أن نبدل إلخ إما حالٌ من فاعل قدرنا أو علةٌ للتقديرِ وعلى بمعنى اللام وبينهما اعتراضٌ .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة الأولى ﴾ هي خلقُهم من نطفةٍ ثم من علقةٍ ثم من مضغةٍ وقيل : هي فطرةُ آدمَ عليه السلامُ من الترابِ ﴿ فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ فهلا تتذكرون أنَّ من قدرَ عليها قدر

على النشأةِ الأُخرى حتماً فإنه أقلُّ صنعاً لحصولِ الموادّ وتخصيصِ الأجزاءِ وسبقِ المثالِ وفيه دليلٌ على صحةِ القياسِ وقرىء فَلْولاَ تذكُرُون من الثلاثيّ وفي الخبرِ عجباً كلَّ العجبِ للمكذبِ بالنشأةِ الْاخرةِ وهو يرى النشأةَ الأولى وعجباً للمصدق بالنشأة الآخرةِ وهو يسعى لدار الغرور .

(120/744)

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ أي تبذرونَ حبَّه وتعملونَ في أرضِه ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ ﴾ تنبتونَهُ وتردونه نباتاً يرفّ ﴿ أَمْ نَحْنُ الزرعون ﴾ أي المنبتونَ لا أنتمُ والكلامُ في أم كما مر آنفاً ﴿ لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حطاما ﴾ هشيماً متكسراً متفتتاً بعد ما أنبتناهُ وصارَ بحيثُ طمعتم في حيازة غلالِه ﴿ فَظَلْتُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ تَفَكَّهُونَ ﴾ تتعجبونَ من سوءِ حالِه إثر ما شاهدتُموه على أحسن ما يكون من الحالِ أو تندمونَ على ما تعبتُم فيه وأنفقتُم عليه أو على ما اقترفتُم لأجله من المعاصِي فتتحدثون فيه والتفكّه التنقلُ بصنوفِ الفاكهةِ وقد استعير للتنقلِ بالحديثِ وقُرِىءَ تفكَّنُون أن تتندمونَ وقُرِىءَ فظِلتم بالكسرِ وفظِلتُم على الأصل .

﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ أي لملزَمون غرامةَ ما أنفقنا أو مهلكونَ بهلاكِ رزقِنا من الغَرام وهو

الهلاكُ وقُرِىءَ أَئِنَّا على الاستفهامِ والجملةُ على القراءتينِ مقدرة بقول هو في حيز النصبِ على الحاليةِ من فاعل تفكهون أي قائلين أو تقولون إنا لمغرمون ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ حُرمنا رزقَنا أو محارَفون محدودون لا حظَّ لنا ولا بختَ لا مجدودون .

(121/744)

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ الماء الذى تَشْرَبُونَ ﴾ عذباً فراتاً ، وتخصيصُ هذا الوصفِ بالذكرِ مع كثرة منافعهِ لأن الشربَ أهم المقاصدِ المنوطةِ به ﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن ﴾ أي من السحابِ واحدُه مُزْنَةٌ وقيل : هو السحابُ الأبيضُ وماؤه أعذبُ ﴿ أَمْ نَحْنُ المنزلون ﴾ له بقدرتنا ﴿ لَوْ نَشَاء جعلناه أُجَاجاً ﴾ مِلْحاً زُعاقاً لا يمكن شربُه وحذفُ اللامِ ههنا مع إثباتِها في الشرطيةِ الأولى للتعويلِ على علم السامعِ أو الفرقِ بين المطعومِ والمشروبِ في الأهميةِ وصعوبة الفقدِ والشرطيتانِ مستأنفتان مسوقتانِ لبيانِ أن عصمتَهُ تعالى للزرعِ والماءِ عما يُخلُّ بالتمتعِ بهما نعمةٌ أُخرى بعد نعمةِ الإنباتِ والإنزالِ مستوجبةٌ للشكرِ فقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴾ تحضيضٌ على شكرِ الكلِّ ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ النار التى تُورُونَ ﴾ أي تقدحونها وتستخرجونَها من الزنادِ ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا ﴾ التي منها الزنادُ وهي المَرخُ والعَفارُ ﴿ أَمْ نَحْنُ المنشئون ﴾ لها بقدرتنا والتعبيرُ عن خلقِها بالإنشاءِ المنبىءِ عن

بديعِ الصنعِ والمعربِ عن كمالِ القدرةِ والحكمةِ لما فيه من الغرابةِ الفارقةِ بينها وبين سائرِ الشجر التي لا تخلُو عن النارِ حتى قيل : في كل شجرٍ نارٌ واستَمجد المرخَ والعَفار كما أن التعبيرَ عن نفخِ الروحِ بالإنشاءِ في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ لذلك .

وقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ جعلناها تَذْكِرَةً ﴾

(122/744)

استئنافٌ مبينٌ لمنافعِها أي جعلناها تذكيراً لنارِ جهنَم حيثُ علقنا بها أسبابَ المعاشِ لينظروا إليها ويذكروا ما أُعدوا به من نارِ جهنَم أو تذكرةً وأنموذجاً من نارِ جهنَم لما رُويَ عن النبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ : " نارُكم هذه التي يوقِدها بنُو آدمَ جزءٌ من سبعين جُزءاً من حرِّ جهنَم " وقيل : تبصرةً من أمرِ العبثِ فإنه ليسَ بأبدعَ من إخراجِ النار من الشيءِ الرطبِ ﴿ ومتاعا ﴾ ومنفعةً ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ للذين ينزلونَ القَواءَ وهي الفقرُ وتخصيصُهم بذلك لأنهم أحوجُ إليها فإن المقيمينَ أو النازلينَ بقرب منهم ليسوا بمضطرين إلى الاقتداحِ بالزنادِ ، وقد جُوز أن يرادَ بالمقوين الذين خلتْ بطونُهم ومزاودُهم من الطعامِ وهو بعيدٌ لعدم انحصارِ ما يهمهم ويسدُّ خللَهم فيما لا يؤكلُ إلا بالطبخِ وتأخيرُ هذه المنفعةِ للتنبيهِ على أن الأهم هو النفعُ الأخروي . والفاءُ في قوله تعالى ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ العظيم ﴾ لترتيبِ ما بعدَها

على عددٍ من بدائعِ صنعهِ تعالَى وروائعِ نعمِه الموجبةِ لتسبيحهِ تعالى إما تنزيهاً له تعالى عما يقوله الجاحدون بوحدانيةِ الكافرون بنعمتِه مع عظمِها وكثرتِها أو تعجباً من أمرِهم في غمطِ تلك النعمِ الباهرةِ مع جلالةِ قدرِها وظهورِ أمرِها أو شكراً على تلك النعمِ السابقة أي فأحدِثْ التسبيحَ بذكرِ اسمِه تعالى أو بذكرِه فإن إطلاقَ الإسم للشيءِ ذكرٌ له والعظيمُ صفةٌ للاسمِ أو الربِّ. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(123/744)

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ الماء الذى تَشْرَبُونَ ﴾

عذباً فراتاً ، وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعه لأن الشرب أهم المقاصد المنوطة به .

﴿ ءأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن ﴾ أي السحاب واحدته مزنة ، قال الشاعر :

فلا مزنة ودقت ودقها . . .

ولا أرض أبقل إبقالها

وقيل : هو السحاب الأبيض وماؤه أعذب ﴿ أَمْ نَحْنُ المنزلون ﴾ له بقدرتنا .

﴿ لَوْنَشَاء جعلناه أُجَاجاً ﴾ ملحاً ذعاقاً لا يمكن شربه من الأجيج وهو تلهب النار ، وقيل : الأجاج كل ما يلذع الفم ولا يمكن شربه فيشمل الملح والمر والحار ، فإما أن يراد ذلك ، أو الملح بقرينة المقام وحذفت اللام من جواب لو ههنا للقرينة اللفظية والحالية ومتى أجاز حذف لم أر في قول أوس

: حتى إذا الكلاب قال لها . . . (. . .

) كاليوم مطلوباً ولا طلبا

(124/744)

والقرينة حالية فأولى أن يجوز حذفها وحدها لذلك على ما قرره الزمخشري ، وقرر وجهاً آخر حاصله أن اللام لمجرد التأكيد فتناسب مقام التأكيد فأدخلت في آية المطعوم دون المشروب للدلالة على أن أمره مقدم على أمره ، وأن الوعيد بفقده أشدّ وأصعب من قبل أن المشروب تبع له ألا يرى أن الضيف يسقي بعد أن يطعم ، وقد ذكر الأطباء أن الماء مبذرق ، ويؤيد ذلك تقديمه على المشروب في النظم الجليل ، وللإمام في هذا المقام كلام طويل اعترض به على الزمخشري وبين فيه وجه الذكر أولاً والحذف ثانياً ، ولم أره أتى بما يشرح الصدر ، وخير منه عندي قول ابن الأثير في المثل السائل : إن اللام أدخلت في المطعوم

دون المشروب لأن جعل الماء العذب ملحاً أسهل إمكاناً في العرف والعادة والموجود من الماء الملح أكثر من الماء العذب ، وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحاً إلى زيادة تأكيد فلذا لم تدخل لام التأكيد المفيدة لزيادة التحقيق ، وأما المطعوم فإن جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد وإذا وقع يكون عن سخط شديد ، فلذا قرن باللام لتقرير إيجاده وتحقيق أمره انتهى .

﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ تحضيض على شكر الكل لأنه أفيد دون عذوبة الماء فقط كما ذهب إليه البعض .

نعم أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر رضي الله تعالى عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أذا شرب الماء قال : الحمد لله الذي سقانا عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا " .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ النار التى تُورُونَ ﴾ أي تقدحونها وتستخرجونها من الزناد .

﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا ﴾ التي منها الزناد وهي المرخ والعفار ، وقيل : المراد بالشجرة نفس النار كأنه قيل : نوعها أو جنسها فاستعير الشجرة لذلك وهو قول متكلف بلا حاجة .

﴿ أَمْ نَحْنُ المنشئون ﴾ لها بقدرتنا والتعبير عن خلقها بالإنشاء المنبىء عن بديع الصنع المعرب عن كمال القدرة والحكمة لما فيه من الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الأشجار التي لا تخلو عن النار حتى قيل في كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار كما أن التعبير عن نفخ الروح بالإنشاء في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أنشأناه خلقاً آخر ﴾ [المؤمنون : 14] لذلك .

﴿ نَحْنُ جعلناها تَذْكِرَةً ﴾ استئناف معين لمنافعها أي جعلناها تذكيراً لنار جهنم حيث علقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها ويذكروا بها ما أوعدوا به ، أو جعلناها تذكرة وأنموذجاً من جهنم لما في "الصحيحين" وغيرهما عن أبي هريرة عنه صلى الله عليه وسلم : " ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم " وعلى الوجهين التذكرة من الذكر المقابل للنسيان ولم ينظر في الأول إلى أنها من جنس نار جهنم أولاً وفي الثاني نظر إلى ذلك ، وقيل : تبصرة في أمر البعث لأن من أخرج النار من الشجر الأخضر المضاد لها قادر على إعادة ما تفرقت مواده ، وقيل : تبصرة في الظلام يبصر بضوئها ، وفيه أن التذكرة لا تكون بمعنى التبصرة المأخوذة من البصر وكون المراد تذكرة لنار جهنم هو المأثور عن الكثيرين ، ومنهم ابن عباس .

ومجاهد .

وقتادة ﴿ ومتاعا ﴾ ومنفعة ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ للذين ينزلون القواء وهي القفر من أقوى

دخل القواء كأصحر دخل الصحراء وتخصيص المقوين بذلك لأنهم أحوج إليها فإن المقيمين ، أو النازلين بقرب منهم ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح بالزناد .

وقيل : ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ أي المسافرين ، ورواه جمع عن ابن عباس .

وعبد بن حميد عن الحسن ، وهو .

وابن جرير .

(126/744)

وعبد الرزاق عن قتادة بزيادة كم من قوم قد سافروا ثم أرملوا فأججوا ناراً فاستدفئوا وانتفعوا بها ، وكان إطلاق المقوين على المسافرين لأنهم كثيراً ما يسلكون القفراء والمفاوز ، وقيل : ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ للفقراء يستضيئون بها في الظلمة ويصطلون من البرد كأنه تصور من حال الحاصل في القفر الفقر ، فقيل : أقوى فلان أي افتقر كقولهم أترب وأرمل ، وقال ابن زيد : للجائعين لأنهم أقوت أي خلت بطونهم ومزاودهم من الطعام فهم يحتاجون إليها لطبخ ما يأكلون وخصوا على ما قيل لأن غيرهم يتنعم بها لا يجعلها متاعاً ، وتعقب بأنه بعيد لعدم انحصار ما يهمهم ويسدّ خلتهم فيما لا يؤكل إلا بالطبخ ، وقال عكرمة .

ومجاهد : المقوين المستمتعين بها من الناس أجمعين المسافرين والحاضرين يستضيئون بها

ويصطلون من البرد وينتفعون بها في الطبخ والخبز ، قال العلامة الطيبي .

والطبرسي : وعلى هذا القول المقوى من الأضداد يقال للفقير : مقو لخلوه من المال ، وللغنى مقو لقوّته على ما يريد يقال : أقوى الرجل إذا صار إلى حال القوة والمعنى متاعاً للأغنياء والفقراء لأنه لا غنى لأحد عنها انتهى .

وفيه بحث لا يخفى ، ولعل الأقرب عليه أنه أريد بالاقواء الاحتياج والمستمتع بها محتاج إليها فتدبر ، وتأخير هذه المنفعة للتنبيه على أن الأهم هو النفع الأخروي وتقديم أمر الماء على أمر النار لأن الاحتياج إليه أشد وأكثر والانتفاع به أعم وأوفر ، وقال بعضهم : قدم خلق الإنسان من نطفة لأن النعمة في ذلك قبل النعمة في الثلاثة بعد ، ثم ذكر بعده ما به قوام الإنسان من فائدة الحرث وهو الطعام الذي لا يستغنى عنه الجسد الحي وذلك الحب الذي يختبز فيحتاج بعد حصوله إلى حصول الماء ليعجن به فلذا ذكر بعده ثم إلى النار لتصيره خبزاً فلذا ذكرت بعد الماء وهو كما ترى ، واستحسن بعضهم من القارىء أن يقول بعد كل جملة استفهامية من الجمل السابقة : بل أنت يا رب ، فقد أخرج عبد الرزاق .

(127/744)

وابن المنذر .

والحاكم .

والبيهقي في "سننه" عن حجر المروى قال : بت عند عليّ كرم الله تعالى وجهه فسمعته وهو يصلي بالليل يقرأ فمر بهذه الآية ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَخْلُقُونَهُ أَمْ إِن نَّحْنُ الخالقون ﴾ [الواقعة : 58 .

59] فقال : بل أنت يا رب ثلاثاً ، ثم قرأ ﴿ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزرعون لَوْ ﴾ فقال : بل أنت يا رب ثلاثاً ، ثم قرأ ﴿ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون لَوْ ﴾ [الواقعة : 69] فقال : بل أنت يا رب ثلاثاً ، ثم قرأ ﴿ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ المنشئون نَحْنُ ﴾ [الواقعة : 72] فقال : بل أنت يا رب ثلاثاً ، وأنت تعلم أن في استحسان قول مثل ذلك في الصلاة اختلافاً بين العلماء .

﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾

مرتب على ما عدد من بدائع صنعه عز وجل وودائع نعمه سحبانه وتعالى ، والمراد على ما قيل : أحدث التسبيح تنزيلاً للفعل المتعدي منزلة اللازم ، وأريد من إحداثه استمراره لا إيجاده لأنه عليه الصلاة والسلام غير معرض عنه ، وتعقبه الطيبي بأن هذا عكس ما يقتضيه لفظ الإحداث ، فالمراد تجديد التسبيح ، وفي الكلام إضمار أي سبح بذكر اسم ربك ، أو الاسم مجاز عن الذكر فإن إطلاق الاسم للشيء ذكره ، والباء للاستعانة أو

الملابسة وكونها للتعدية كما هو ظاهر كلام أبي حيان ليس بشيء ، والعظيم صفة للاسم ، أو للرب ، وتعقيب الأمر بالتسبيح لما عدد إما لتنزيهه تعالى عما يقولوه الجاحدون لوحدانيته عز وجل الكافرون بنعمه سبحانه مع عظمها وكثرتها ، أو للشكر على تلك النعم السابقة لأن تنزيهه تعالى وتعظيمه جل وعلا بعد ذكر نعمه سبحانه مدح عليها فهو شكر للمنعم في الحقيقة ، أو للتعجب من أمر الكفرة في غمط تلك النعم الباهرة مع جلالة قدرها وظهور أمرها ؛ وسبحان ترد للتعجب مجازاً مشهوراً فسبح بمعنى تعجب ، وأصله فقل سبحان الله للتعجب وفيه بعد وما تقدم أظهر .

(128/744)

هذا وجوز أن لا يكون في ﴿ باسم ربّكَ ﴾ إضمار ولا مجاز بل يبقى على ظاهره فقد قالوا في قوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسم ربّكَ الاعلى ﴾ [الأعلى : 1] : كما يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته سبحانه عن النقائص يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لها عن سوء الأدب وهو أبلغ لأنه يلزمه تقديس ذاته عز وجل بالطريق الأولى على طريق الكناية الرمزية ، وفيه أنه إنما يتأتى لو لم تذكر الباء ، وجعلها زائدة خلاف الظاهر ، وحال كونها للتعدية قد سمعته ، وجعل بعضهم على هذا الخطاب لغير معين فقال : إنه تعالى لما ذكر ما ذكر من الأمور وكان

الكل معترفين بأنها من الله تعالى وكان الكفار إذا طولبوا بالوحدانية قالوا : نحن لا نشرك في المعنى وإنما نتخذ أصناما آلهة وذلك إشراك في الاسم ، والذي خلقنا وخلق السموات والأرض هو الله تعالى فنحن ننزهه في الحقيقة قال سبحانه : ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ ﴾ على معنى كما أنك أيها الغافل اعترفت بعدم اشتراكها في الحقيقة اعترف بعدم اشتراكها في الاسم ولا تقل لغيره تعالى إلهاً فإن الاسم يتبع المعنى والحقيقة ، فالخطاب كالخطاب في قول الواعظ يا مسكين أفنيت عمرك وما أصلحت أمرك لا يريد به أحداً بعينه ، وإنما يريد أيها المسكين السامع وهو كما ترى ، نعم احتمال عموم الخطاب مما لا ينكر لكن لا يتعين عليه هذا التقرير ، ثم الظاهر أن المراد بذكر الرب أو ذكر اسمه سبحانه على ما تقرر سابقاً ما هو المتبادر المعروف .

وفي "الكشف" إن المراد بذلك تلاوته صلى الله عليه وسلم للقرآن أو لهذه السورة الكريمة المتضمنة لإثبات البعث والجزاء ومراتب أهله لينطبق عليه قوله تعالى بعد :

(129/744)

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ [الواقعة : 57] وعلى الأول لا بد من إضمار أي فسبح باسم ربك وامتثل ما أمرت به فأقسم أنه لقرآن ، والغرض تأكيد الأمر بالتسبيح ، وأنا أقول يتأتى

الانطباق على الظاهر أيضاً سوى أنه يعتبر في الكلام إضمار ولا بأس بأن يقال : إنه تعالى لما ذكر ما ذكر من النعم الجليلة الداعية لتوحيده سبحانه ووصفه بما يليق به عز وجل قال سبحانه : ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ ﴾ أي فنزهه تعالى عما يقولون في وصفه سبحانه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(130/744)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ نَحْنُ خلقناكم فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ ﴾

التفت سبحانه إلى خطاب الكفرة تبكيتاً لهم ، وإلزاماً للحجة ، أي : فهلا تصدّقون بالبعث ، أو بالخلق .

قال مقاتل : خلقناكم ولم تكونوا شيئًا ، وأنتم تعلمون ذلك ، فهلا تصدّقون بالبعث ؟ ﴿ أَفَرَءَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ ﴾ أي : ما تقذفون وتصبون في أرحام النساء من النطف ، ومعنى ﴿ أَفَرَءَيْتُم ﴾ : أخبروني ، ومفعولها الأوّل ﴿ ما تمنون ﴾ ، والثاني الجملة الاستفهامية ، وهي ﴿ ءأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخالقون ﴾ أي : تقدّرونه وتصوّرونه بشراً سوياً أم نحن المقدرون المصوّرون له ، و " أم " هي المتصلة ، وقيل : هي المنقطعة ، والأوّل أولى .

قرأ الجمهور (تمنون) بضم الفوقية من أمنى يمني .

وقرأ ابن عباس ، وأبو السماك ، ومحمد بن السميفع ، والأشهب العقيلي بفتحها من منى يمني ، وهما لغتان ، وقيل : معناهما مختلف ، يقال : أمنى إذا أنزل عن جماع ، ومنى إذا أنزل عن احتلام ، وسمي المنيّ منياً ؛ لأنه يمني ، أي : يراق .

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ قدّرنا ﴾ بالتشديد ، وقرأ مجاهد ، وحميد ، وابن محيصن ، وابن كثير بالتخفيف ، وهما لغتان ، يقال : قدرت الشيء وقدّرته ، أي : قسمناه عليكم ، ووقتناه لكل فرد من أفرادكم ، وقيل : قضينا ، وقيل : كتبنا ، والمعنى متقارب .

قال مقاتل : فمنكم من يموت كبيراً ، ومنكم من يموت صغيراً .

وقال الضحاك : معناه أنه جعل أهل السماء وأهل الأرض فيه سواء ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ بمغلوبين ، بل قادرين .

﴿ على أَن نُّبَدّلَ أمثالكم ﴾ أي : نأتي بخلق مثلكم .

قال الزجاج : إن أردنا أن نخلق خلقاً غيركم لم يسبقنا سابق ولا يفوتنا .

قال ابن جرير : المعنى نحن قدّرنا بينكم الموت على أن نبدّل أمثالكم بعد موتكم بآخرين من جنسكم ، وما نحن بمسبوقين في آجالكم ، أي : لا يتقدّم متأخر ، ولا يتأخر متقدّم ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ من الصور والهيئات .

قال الحسن أي : نجعلكم قردة وخنازير ، كما فعلنا بأقوام قبلكم ، وقيل المعنى : ننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا .

وقال سعيد بن المسيب : ﴿ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني : في حواصل طيور سود تكون ببرهوت كأنها الخطاطيف ، وبرهوت واد باليمن .

وقال مجاهد : ﴿ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني : في أيّ خلق شئنا ، ومن كان قادراً على هذا فهو قادر على البعث ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة الأولى ﴾ وهي ابتداء الخلق من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ولم تكونوا قبل ذلك شيئاً .

وقال قتادة ، والضحاك : يعني : خلق آدم من تراب ﴿ فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : فهلا تذكرون قدرة الله سبحانه على النشأة الأخيرة ، وتقيسونها على النشأة الأولى .

قرأ الجمهور ﴿ النشأة ﴾ بالقصر ، وقرأ مجاهد ، والحسن ، وابن كثير ، وأبو عمرو بالمد ، وقد مضى تفسير هذا في سورة العنكبوت .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ أي : أخبروني ما تحرثون من أرضكم ، فتطرحون فيه البذر ﴿ ءأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ ﴾ أي : تنبتونه وتجعلونه زرعاً ، فيكون فيه السنبل والحبّ ﴿ أَمْ نَحْنُ

الزرعون ﴾ أي : المنبتون له الجاعلون له زرعاً لا أنتم .

قال المبرد : يقال زرعه الله أي : أنماه ، فإذا أقررتم بهذا ، فكيف تنكرون البعث ﴿ لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حطاما ﴾ أي : لو نشاء لجعلنا ما تحرثون حطاماً ، أي : متحطماً متكسراً ، والحطام : الهشم الذي لا ينتفع به ، ولا يحصل منه حبّ ، ولا شيء مما يطلب من الحرث ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ أي : صرتم تعجبون .

قال الفرّاء : تفكهون تتعجبون فيما نزل بكم في زرعكم .

قال في الصحاح : وتفكه : تعجب ، ويقال : تندّم .

(132/744)

قال الحسن ، وقتادة ، وغيرهما : معنى الآية : تعجبون من ذهابها ، وتندمون مما حلّ بكم .

وقال عكرمة : تلاومون وتندمون على ما سلف منكم من معصية الله .

وقال أبو عمرو ، والكسائي : هو التلهف على ما فات .

قرأ الجمهور ﴿ فظلتم ﴾ بفتح الظاء مع لام واحدة .

وقرأ أبو حيوة ، وأبو بكر في رواية عنه بكسر الظاء .

وقرأ ابن عباس ، والجحدري ﴿ فظللتم ﴾ بلامين : أولاهما مكسورة على الأصل ،

وروي عن الجحدري فتحها ، وهي لغة .

وقرأ الجمهور (تفكهون) وقرأ أبو حزام العكلي (تفكنون) بالنون مكان الهاء أي : تندمون .

قال ابن خالويه : تفكه : تعجب ، وتفكن : تندم .

وفي الصحاح التفكن : التندم ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ قرأ الجمهور بهمزة واحدة على الخبر ، وقرأ أبو بكر ، والمفضل ، وزرّ بن حبيش بهمزتين على الاستفهام ، والجملة بتقدير القول أي : تقولون إنا لمغرمون ، أي : ملزمون غرماً بما هلك من زرعنا ، والمغرم : الذي ذهب ماله بغير عوض ، قاله الضحاك ، وابن كيسان .

وقيل المعنى : إنا لمعذبون ، قاله قتادة ، وغيره .

وقال مجاهد ، وعكرمة : لمولع بنا ، ومنه قول النمر بن تولب :

سَلاَ عن تَذكَّره تكتما . . . وكان رَهيناً بها مُغْرَمَاً

يقال : أغرم فلان بفلان ، أي : أولع .

وقال مقاتل : مهلكون .

قال النحاس : مأخوذ من الغرام ، وهو الهلاك ، ومنه قول الشاعر :

ويوم النسّارِ ويومُ الجبار . . . كان عليكم عذاباً مقيماً

والظاهر من السياق المعنى الأول ، أي : إنا لمغرمون بذهاب ما حرثناه ، ومصيره حطاماً ،

ثم أضربوا عن قولهم هذا ، وانتقلوا فقالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي : حرمنا رزقنا بهلاك زرعنا ، والمحروم : الممنوع من الرزق الذي لا حظ له فيه ، وهو المحارف .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ الماء الذى تَشْرَبُونَ ﴾ ، فتسكنون به ما يلحقكم من العطش ، وتدفعون به ما ينزل بكم من الظمأ .

(133/744)

واقتصر سبحانه على ذكر الشرب مع كثرة فوائد الماء ومنافعه ؛ لأنه أعظم فوائده ، وأجلّ منافعه ﴿ ءأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن ﴾ أي : السحاب .

قال في الصحاح : قال أبو زيد : المزنة : السحابة البيضاء ، والجمع مزن ، والمزنة : المطر .

قال الشاعر :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مُزْنَة . . . وعُفْرُ الظِّبَاءِ في الكِنَاس تَقَمَّعُ

ومما يدل على أنه السحاب قول الشاعر :

فنحنُ كماءِ المزْنِ ما في نصابنا . . . كَهَام ولا فينا يُعدّ بَخيلُ

وقول الآخر :

فلا مزنة ودقت ودقها . . . ولا أرض أبقل إبقالها

﴿ أَمْ نَحْنُ المنزلون ﴾ له بقدرتنا دون غيرنا ، فإذا عرفتم ذلك ، فكيف لا تقرّون بالتوحيد ، وتصدّقون بالبعث .

ثم بيّن لهم سبحانه أنه لو يشاء لسلبهم هذه النعمة فقال : ﴿ لَوْ نَشَاء جعلناه أُجَاجاً ﴾ الأجاج : الماء الشديد الملوحة الذي لا يمكن شربه ، وقال الحسن : هو الماء المرّ الذي لا ينتفعون به في شرب ، ولا زرع ، ولا غيرهما ﴿ فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : فهلا تشكرون نعمة الله الذي خلق لكم ماءً عذباً تشربون منه وتنتفعون به ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ النار التى تُورُونَ ﴾ أي : أخبروني عنها ، ومعنى ﴿ تورون ﴾ : تستخرجونها بالقدح من الشجر الرطب ، يقال : أوريت النار إذا قدحتها ﴿ ءأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا ﴾ التي يكون منها الزنود ، وهي المرخ والعفار ، تقول العرب : في كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار ﴿ أَمْ نَحْنُ المنشئون ﴾ لها بقدرتنا دونكم ، ومعنى الإنشاء : الخلق ، وعبر عنه بالإنشاء للدلالة على ما في ذلك من بديع الصنعة ، وعجيب القدرة .

﴿ نَحْنُ جعلناها تَذْكِرَةً ﴾ أي : جعلنا هذه النار التي في الدنيا تذكرة لنار جهنم الكبرى .

(134/744)

قال مجاهد ، وقتادة : تبصرة للناس في الظلام ، وقال عطاء : موعظة ليتعظ بها المؤمن ﴿ ومتاعا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ أي : منفعة للذين ينزلون بالقواء ، وهي الأرض القفر كالمسافرين ، وأهل البوادي النازلين في الأراضي المقفرة ، يقال : أرض قواء بالمد والقصر ، أي : مقفرة ، ومنه قول النابغة :

يا دار مية بالعلياء فالسند . . . أقوت وطال عليها سالف الأمد

وقال عنترة :

حييت من طلل تقادم عهده . . . أقوى وأقفر بعد أمّ الهيثم

وقول الآخر :

ألم تسأل الربع القواء فينطق . . . وهل يخبرنك اليوم بيداء سملق

ويقال : أقوى إذا سافر ، أي : نزل القوى .

وقال مجاهد : المقوين : المستمتعين بها من الناس أجمعين في الطبخ ، والخبز ، والاصطلاء ، والاستضاءة ، وتذكر نار جهنم .

وقال ابن زيد : للجائعين في إصلاح طعامهم ، يقال : أقويت منذ كذا وكذا ، أي : ما أكلت شيئًا ، وبات فلان القوى ، أي : بات جائعاً ، ومنه قول الشاعر :

وإني لأختار القوى طاوي الحشا . . . محافظة من أن يقال لئيم

وقال قطرب : القوى من الأضداد يكون بمعنى الفقر ، ويكون بمعنى الغنى ؛ يقال : أقوى

الرجل إذا لم يكن معه زاد ، وأقوى : إذا قويت دوابه وكثر ماله .

وحكى الثعلبي عن أكثر المفسرين القول الأوّل ، وهو الظاهر ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربّكَ العظيم ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها من ذكر الله سبحانه ، وتنزيهه على ما قبلها مما عدّده من النعم التي أنعم بها على عباده ، وجحود المشركين لها ، وتكذيبهم بها .

وقد أخرج البزار ، وابن جرير ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي في الشعب ، وضعفه عن أبي هريرة .

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يقولنّ أحدكم زرعت ، ولكن يقول حرثت " قال أبو هريرة : ألم تسمعوا الله يقول : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ . ءأَنتُمْ * تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزرعون ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ تَفَكَّهُونَ ﴾ قال : تعجبون .

(135/744)

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس .

قال : ﴿ المزن ﴾ .

السحاب .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس ﴿ نَحْنُ جعلناها تَذْكِرَةً ﴾ قال : تذكرة للنار الكبرى ﴿ ومتاعا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ قال : للمسافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 156.159 ﴾

(136/744)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) ﴾

هذا على طريقة قوله : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ [الواقعة : 63] الآية ، تفريعاً واستفهاماً ، وفعل رؤية .

ومناسبةُ الانتقال أن الحرث إنما ينبت زرعه وشجره بالماء فانتقل من الاستدلال بتكوين النبات إلى الاستدلال بتكوين الماء الذي به حياة الزرع والشجر .

ووصفُ ﴿ الماء ﴾ بـ ﴿ الذي تشربون ﴾ إدماجٌ للمنة في الاستدلال ، أي الماء العذب الذي تشربونه ، فإن شرب الماء من أعظم النعم على الإنسان ليقابَل بقوله بعده : ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ﴾ [الواقعة : 70] .

والمراد ماء المطر ولذلك قال : ﴿ أأنتم أنزلتموه من المزن ﴾ ، والمراد : أنزلتموه على

بلادكم وحروثكم .

وماء المطر هو معظم شراب العرب المخاطبين حينئذٍ ولذلك يقال للعرب : بنو ماء السماء .

والمزن : اسم جمع مُزنة وهي السحابة .

ووجه الاستدلال إنشاء ما به الحياة بعد أن كان معدوماً بأن كوّنه الله في السحاب بحكمة تكوين الماء .

فكما استُدل بإيجاد الحي من أجزاء ميتة في خلق الإنسان والنبات استُدل بإيجاد ما به الحياة عن عدم تقريباً لإعادة الأجسام بحكمة دقيقة خفية ، أي يجوز أن يمطر الله مطراً على ذوات الأجساد الإنسانية يكون سبباً في تخلقها أجساداً كاملة كما كانت أصولها ، كما تتكوّن الشجرة من نواةِ أصلِها ، وقد تم الاستدلال على البعث عند قوله : ﴿ أم نحن المنزلون ﴾ .

وقوله : ﴿ أأنتم أنزلتموه من المزن ﴾ جعل استدلالاً منوطاً بإنزال الماء من المزن ، على طريقة الكناية بإنزاله ، عن تكوينه صالحاً للشراب ، لأن إنزاله هو الذي يحصل منه الانتفاع به ولذلك وصف بقوله : ﴿ الذي تشربون ﴾ .

وأعقب بقوله ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ [الواقعة : 70] فحصل بين الجملتين احتباك كأنه قيل : أأنتم خلقتموه عَذْباً صالحاً للشرب وأنزلتموه من المزن لو نشاء جعلناه أجاجاً ولأمسكناه في سحاباته أو أنزلناه على البحار أو الخلاء فلم تنتفعوا به .

لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70)

موقعها كموقع جملة ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾ [الواقعة : 65] والمعنى : لو نشاء جعلناه غير نافع لكم .

فهذا استدلال بأنه قادر على نقض ما في الماء من الصلاحية للنفع بعد وجود صورة المائية فيه .

فوزان هذا وزانُ قوله : ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ [الواقعة : 60] وقوله : ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾ [الواقعة : 65] .

وتخلص من هذا التتميم إلى الامتنان بقوله : ﴿ فلولا تشكرون ﴾ تحْضيضاً لهم على الشكر ونبذ الكفر والشرك .

وحذفت اللام التي شأنها أن تدخل على جواب ﴿ لو ﴾ الماضي المثبت لأنها لام زائدة لا تفيد إلا التوكيد فكان حذفها إيجازاً في الكلام .

وذكّر الشيخ محمد بن سعيد الحجري التونسي في حاشيته على شرح الأشموني للألفية

المسماة "زواهر الكواكب" عن كتاب "البرهان في إعجاز القرآن" هذا الاسم سمي به كتابان أحدهما لكمال الدين محمد المعروف بابن الزملكاني والثاني : لابن أبي الأصبع أنه قال : فإن قيل لِمَ أكد الفعل باللام في الزرع ولم يؤكد ، في الماء ؟ قلت : لأن الزرع ونباته وجفافه بعد النضارة حتى يعود حطاماً مما يحتمل أنه من فعل الزارع أو أنه من سَقي الماء ، وجفافه من عدم السقي ، فأخبر سبحانه أنه الفاعل لذلك على الحقيقة وأنه قادر على جعله حُطاماً في حال نموه لو شاء ، وإنزالُ الماء من السماء مما لا يتوهم أن لأحد قدرة عليه غير الله تعالى أهـ .

(138/744)

وحذفُ هذه اللام قليل إلا إذا وقعت ﴿ لو ﴾ وشرطها صلة لموصول فيكثر حذف هذه اللام للطول وهو الذي جزم به ابن مالك في "التسهيل" وتبعه الرضي كقوله تعالى : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم ﴾ [النساء : 9] وإن قال المرادي والدماميني في "شرحيهما" : إن هذا لا يعرف لغير المصنف ، قال الرضي : وكذلك إذا طال الشرط بذيوله كقوله تعالى : ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ [لقمان : 27] ، أي وأما في غير ذلك

فحذف اللام قليل ولكنه تكرر في القرآن في عدة مواضع منها هذه الآية .

وللفخر كلام في ضابط حذف هذه اللام ، ليس له تمام .

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71)

هو مثل سابقه في نظم الكلام .

ومناسبةُ الانتقال من الاستدلال بخلق الماء إلى الاستدلال بخلق النار هي ما تقدم في مناسبة الانتقال إلى خلق الماء من الاستدلال بخلق الزرع والشجر ، فإن النار تخرج من الشجر بالاقتداح وتذكى بالشجر في الاشتعال والالتهاب .

وهذا استدلال على تقريب كيفية الإحياء للبعث من حيث إن الاقتداح إخراج والزند الذي به إيقاد النار يخرج من أعواد الاقتداح وهي ميتة .

وفي قوله : ﴿ التي تورون ﴾ إدماج للامتنان في الاستدلال بما تقدم في قوله : ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون ﴾ [الواقعة : 68] .

وهو أيضاً وصف للمقصود من الدليل وهو النار التي تقتدح من الزند لا النار الملتهبة .

وضمير شجرتها عائد إلى النار .

وشجرة النار : هي جنس الشجر الذي فيه حُرَّاق ، أي ما يقتدح منه النار وهو شجر الزَّنْد أو الزِّنَاد وأشجار النار كثيرة منها المَرْخ (بفتح فسكون) والعَفار (بفتح العين)

والعُشَر (بضم ففتح) والكَلْخ (بفتح فسكون) ومن الأمثال "في كل شجر نار ، واستَمْجَدَ المَرْخُ والعفار" أي أكثر من النار .

(139/744)

و ﴿ تُورُون ﴾ : مضارع أورى الزَّنْد إذا حكَّه بمثله يستخرج منه النار كانوا يضعون عوداً من شجر النار ويحكّونه من أعلاه بعود مثله فتخرج النار من العود الأسفل ويسمى العُودُ الأعلى زَنداً (بفتح الزاي وسكون النون) وزناداً (بكسر الزاي) ويسمى الأسفل زَندة بهاء تأنيث في آخره ، شبّهوا العود الأعلى بالفحل وشبهوا العود الأسفل بالطروقة وقد تابع ذو الرمة هذا المعنى في وصفه الاقتداح للنار فقال على شبه الإلغاز :

وسِقطٍ كعين الديك عاورتُ صاحبي . . .

أَباها وهيَّأْنا لموقعها وكْرا

مشهَّرة لا تُمكنُ الفحل أُمَّها . . .

إذا نَحن لم نمسك بأطرافها قسرا

وحذف العائد على الموصول لأن ضمير النصب يكثر حذفه من الصلة ، وتقديره : التي تورونها .

وتعدية ﴿ تورون ﴾ إلى ضمير ﴿ النار ﴾ تعدية على تقدير مضاف ، أي تورون شجرتها كما دل عليه قوله : ﴿ أأنتم أنشأتم شجرتها ﴾ ، وقد شاع هذا الحذف في الكلام فقالوا : أورى النار كما قالوا : أورى الزناد .

وجملة ﴿ أأنتم أنشأتم شجرتها ﴾ الخ بيان لجملة ﴿ أفرأيتم النار ﴾ الخ كما تقدم في قوله : ﴿ أأنتم تخلقونه ﴾ [الواقعة : 59] .

نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (73)

الجملة بدل اشتمال من جملة ﴿ أم نحن المنشئون ﴾ [الواقعة : 72] ، أي أنَّ إنشاء النار كان لفوائد وحِكماً منها أن تكون تذكرة للناس يذكرون بها نار جهنم ويوازنون بين إحراقها وإحراق جهنم التي يعلمون أنها أشد من نارهم .

والمتاع : ما يُتمتع ، أي ينتفع به زماناً ، وتقدم في قوله : ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ في سورة النساء (77) .

والمُقوِي : الداخل في القَواء (بفتح القاف والمد) وهي القفر ، ويطلق المُقوي على الجائع لأن جوفه أقوت ، أي خلقت من الطعام إذ كلا الفعلين مشتق من القَوى وهو الخلاء .

وفراغ البطن : قواء وقوى .

فإيثار هذا الوصف في هذه الآية ليجمع المعنيين فإن النار متاع للمسافرين يستضيئون بها في مناخهم ويصطلون بها في البَرد ويراها السائر ليلاً في القَفر فيهتدي إلى مكان النُّزَّل فيأوي إليهم ، ومتاع للجائعين يطبخون بها طعامهم في الحضر والسفر ، وهذا إدماج للامتنان في خلال الاستدلال .

واختير هذان الوصفان لأن احتياج أصحابهما إلى النار أشد من احتياج غيرهما .

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (74)

رتب على ما مضى من الكلام المشتمل على دلائل عظمة القدرة الإلهية وعلى أمثال لتقريب البعث الذي أنكروا خبره ، وعلى جلائل النعم المدمجة في أثناء ذلك أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن ينزهه تنزيهاً خاصاً معقّباً لما تفيضه عليه تلك الأوصاف الجليلة الماضية من تذكر جديد يكون التنزيه عقبه ضرباً من التذكر في جلال ذاته والتشكر لآلائه فإن للعبادات مواقع تكون هي فيها أكمل منها في دونها ، فيكون لها من الفضل ما يجزل ثوابه فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يخلو عن تسبيح ربه والتفكرِ في عظمة شأنه ولكن لاختلاف التسبيح والتفكر من تجدد ملاحظة النفس ما يجعل لكل حال من التفكر مزايا تكسبه خصائص وتزيده ثواباً .

فالجملة عطف على جملة ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى قوله : ومتاعاً للمقوين

﴿ [الواقعة : 49 73] ، وهي تذييل .

والتسبيح : التنزيه ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ونحن نسبح بحمدك ﴾ في سورة البقرة (30) .

واسم الرب : هو ما يدل على ذاته وجُماع صفاته وهو اسم الجلالة ، أي بأن يقول : سبحان الله ، فالتسبيح لفظ يتعلق بالألفاظ .

(141/744)

ولما كان الكلام موضوعاً للدلالة على ما في النفس كان تسبيح الاسم مقتضياً تنزيه مُسماه وكان أيضاً مقتضياً أن يكون التسبيح باللفظ مع الاعتقاد لا مجرد الاعتقاد لأن التسبيح لما علق بلفظ اسم تعين أنه تسبيح لفظي ، أي قُلْ كلاماً فيه معنى التنزيه ، وعلّقه باسم ربك ، فكل كلام يدل على تنزيه الله مشمول لهذا الأمر ولكن محاكاة لفظ القرآن أولى وأجمع بأن يقول : سُبحان الله .

ويؤيد هذا ما قالته عائشة رضي الله عنها إنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره ﴾ [النصر : 3] كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في سجوده : " سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن " أي يتأوله على إرادة ألفاظه .

والباء الداخلة على ﴿ اسم ﴾ زائدة لتوكيد اللصوق ، أي اتصالِ الفعل بمفعوله وذلك لوقوع الأمر بالتسبيح عقب ذكر عدة أمور تقتضيه حسبما دلت عليه فاء الترتيب فكان حقيقاً بالتقوية والحث عليه ، وهذا بخلاف قوله : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] لوقوعه في صدر جملته كقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ [الأحزاب : 41 ، 42] .

وهذا الأمر شامل للمسلمين بقرينة أن القرآن متلوّ لهم وأن ما تفرع الأمر عليه لا يختص علمه بالنبي صلى الله عليه وسلم فلما أُمر بالتسبيح لأجله فكذلك من عَلمه من المسلمين .

والمعنى : إذ علمتم ما أنزلنا من الدلائل وتذكرتم ما في ذلك من النعم فنزهوا الله وعظّموه بقُصارى ما تستطيعون .

و ﴿ العظيم ﴾ صَالح لأن يجعل وصفاً ل ﴿ ربك ﴾ ، وهو عظيم بمعنى ثبوت جميع الكمال له وهذا مجاز شائع ملحق بالحقيقة ؛ وصالح لأن يكون وصفاً ل ﴿ اسم ﴾ والاسم عظيم عظمة مجازية ليُمْنه ولعظمة المسمّى به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(142/744)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾

فائدة الاسم والمسمى

الاسم غير المسمى

اللفظ المؤلف من الزاي والياء والدال مثلا له حقيقة يوضع له لفظ يدل عليه لأنه شيء موجود في اللسان مسموع بالآذان فاللفظ المؤلف من همزة الوصل والسين والميم عبارة عن اللفظ المؤلف من الزاي والياء والدال مثلا واللفظ المؤلف من الزاي والياء والدال عبارة عن الشخص الموجود في الأعيان والأذهان وهو المسمى واللفظ الدال عليه الذي هو الزاي والياء والدال هو الإسم وهذا اللفظ أيضا قد صار مسمى من حيث كان لفظ الهمزة والسين والميم عبارة عنه فقد بان لك أن الاسم في أصل الوضع ليس هو المسمى ولهذا تقول سميت هذا الشخص بهذا الإسم كما تقول حليته بهذه الحلية والحلية غير المحلى فكذلك الإسم غير المسمى

صرح بذلك سيبويه وأخطأ من نسب إليه غير هذا وادعى أن مذهبه اتحادهما والذي غر من ادعى ذلك قوله الأفعال أمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء وهذا لا يعارض نصه قبل هذا فإنه نص على أن الإسم غير المسمى فقال اسم وفعل وحرف فقد صرح بأن

الإسم كلمة فكيف تكون الكلمة هي المسمى والمسمى شخص ثم قال بعد هذا تقول سميت زيدا بهذا الإسم كما تقول علمته بهذه العلامة وفي كتابه قريب من ألف موضع أن الإسم هو اللفظ الدال على المسمى ومتى ذكر الخفض أو النصب أو التنوين أو اللام أو جميع ما يلحق الإسم من زيادة ونقصان وتصغير وتكسير وإعراب وبناء فذلك كله من عوارض الإسم لا تعلق لشيء من ذلك بالمسمى أصلا

هل الإسم عين المسمى

(143/744)

لم يقل نحوي قط ولا عربي أن الإسم هو المسمى ويقولون أجل مسمى ولا يقولون أجل اسم ويقولون مسمى هذا الإسم كذا ولا يقول أحد اسم هذا الإسم كذا ويقولون هذا الرجل مسمى بزيد ولا يقولون هذا الرجل اسم زيد ويقولون بسم الله ولا يقولون بمسمى الله وقال رسول الله لي خمسة أسماء // رواه البخاري ومسلم // ولا يصح أن يقال لي خمس مسميات وتسموا باسمي // رواه مسلم // ولا يصح أن يقال تسموا بمسمياتي ولله تسعة وتسعون اسما // رواه البخاري ومسلم وأحمد // ولا يصح أن يقال تسعة وتسعون مسمى وإذا ظهر الفرق بين الإسم والمسمى بقيت ههنا التسمية وهي التي اعتبرها من قال باتحاد

الإسم المسمى

التسمية

والتسمية عبارة عن فعل المسمى ووضعه الإسم للمسمى كما أن التحلية عبارة عن فعل المحلي ووضعه الحلية على المحلى فهنا ثلاث حقائق اسم ومسمى وتسمية كحلية ومحلى وتحلية وعلامة ومعلم وتعليم ولا سبيل إلى جعل لفظين منها مترادفين على معنى واحد لتباين حقائقهما وإذا جعلت الإسم هو المسمى بطل واحد من هذه الحقائق الثلاثة ولا بد فإن قيل فحلوا لنا شبه من قال باتحادهما ليتم الدليل فإنكم أقمتم الدليل فعليكم الجواب عن المعارض

فمنها أن الله وحده هو الخالق وما سواه مخلوق فلو كانت أسماؤه غيره لكانت مخلوقة وللزم أن لا يكون له اسم في الأزل ولا صفة لأن أسماءه صفات وهذا هو السؤال الأعظم الذي قاد متكلمي الإثبات إلى أن يقولوا الإسم هو المسمى فما عندكم في دفعه

(144/744)

الجواب أن منشأ الغلط في هذا الباب من إطلاق ألفاظ مجملة محتملة لمعنيين صحيح وباطل فلا ينفصل النزاع إلا بتفصيل تلك المعاني وتنزيل ألفاظها عليها ولا ريب أن الله تبارك وتعالى

لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال المشتقة أسماؤه منها فلم يزل بأسمائه وصفاته وهو إله واحد له الأسماء الحسنى والصفات العلى وأسماؤه وصفاته داخلة في مسمى اسمه وإن كان لا يطلق على الصفة أنها إله يخلق ويرزق فليست صفاته وأسماؤه غيره وليست هي نفس الإله

وبلاء القوم من لفظة الغير فإنه يراد بهما معنيين أحدهما المغاير لتلك الذات المسماة بالله وكل ما غاير الله مغايرة محضة بهذا الإعتبار فلا يكون إلا مخلوقا ويراد به مغايرة الصفة للذات إذا خرجت عنها فإذا قيل علم الله وكلام الله غيره بمعنى أنه غير الذات المجردة عن العلم والكلام كان المعنى صحيحا ولكن الإطلاق باطل وإذا أريد أن العلم والكلام مغاير لحقيقته المختصة التي امتاز بها عن غيره كان باطلا لفظا ومعنى وبهذا أجاب أهل السنة المعتزلة القائلين بخلق القرآن وقالوا كلامه تعالى داخل في مسمى اسمه فالله تعالى اسم الذات الموصوفة بصفات الكمال ومن تلك الصفات صفة الكلام كما أن علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره غير مخلوقة وإذا كان القرآن كلامه وهو صفة من صفاته فهو متضمن لأسمائه الحسنى فإذا كان القرآن غير مخلوق ولا يقال إنه غير الله فكيف يقال إن بعض ما تضمنه وهو أسماؤه

مخلوقة وهي غيره فقد حصحص الحق بحمد الله وانحسم الإشكال وأن أسماءه الحسنى التي في القرآن من كلامه وكلامه غير مخلوق ولا يقال هو غيره ولا هو هو

وهذا المذهب مخالف لمذهب المعتزلة الذين يقولون أسماؤه تعالى غيره وهي مخلوقة ولمذهب من رد عليهم ممن يقول اسمه نفس ذاته لا غيره وبالتفصيل تزول الشبه ويتبين الصواب والحمد لله

(145/744)

حجة ثانية لهم قالوا قال تبارك وتعالى تبارك اسم ربك الرحمن 78 واذكر اسم ربك المزمل 8 سبح اسم ربك الأعلى الأعلى 1 وهذه الحجة عليهم في الحقيقة لأن النبي امتثل هذا الأمر وقال سبحان ربي الأعلى سبحان ربي العظيم ولو كان الأمر كما زعموا لقال سبحان اسم ربي العظيم ثم إن الأمة كلهم لا يجوز لأحد منهم أن يقول عبدت اسم ربي ولا سجدت لاسم ربي ولا ركعت لاسم ربي ولا باسم ربي ارحمني وهذا يدل على أن الأشياء متعلقة بالمسمى لا بالإسم

وأما الجواب عن تعلق الذكر والتسبيح المأمور به بالإسم فقد قيل فيه إن التعظيم والتنزيه إذا وجب للمعظم فقد تعظم ما هو من سببه ومتعلق به كما يقال سلام على الحضرة العالية والباب السامي والمجلس الكريم ونحوه وهذا جواب غير مرض لوجهين

أحدهما أن رسول الله لم يفهم هذا المعنى وإنما قال سبحان ربي فلم يعرج على ما ذكرتموه

الثاني أنه يلزمه أن يطلق على الإسم التكبير والتحميد والتهليل وسائر ما يطلق على المسمى فيقال الحمد لاسم الله ولا إله إلا اسم الله ونحوه وهذا مما لم يقله أحد بل الجواب الصحيح أن الذكر الحقيقي محله القلب لأنه ضد النسيان والتسبيح نوع من الذكر فلو أطلق الذكر والتسبيح لما فهم منه إلا ذلك دون اللفظ باللسان والله تعالى أراد من عباده الأمرين جميعا ولم يقبل الإيمان وعقد الإسلام إلا باقترانهما واجتماعهما فصار معنى الآيتين سبح ربك بقلبك ولسانك واذكر ربك بقلبك ولسانك فأقحم الإسم تنبيها على هذا المعنى حتى لا يخلو الذكر والتسبيح من اللفظ باللسان لأن ذكر القلب متعلقه المسمى المدلول عليه بالإسم دون ما سواه والذكر باللسان متعلقه اللفظ مع مدلوله لأن اللفظ لا يراد لنفسه فلا يتوهم أحد أن اللفظ هو المسبح دون ما يدل عليه من المعنى

(146/744)

وعبر لي شيخنا أبو العباس ابن تيمية قدس الله روحه عن هذا المعنى بعبارة لطيفة وجيزة فقال المعنى سبح ناطقا باسم ربك متكلما به وكذا سبح اسم ربك المعنى سبح ربك ذاكرا اسمه وهذه الفائدة تساوي رحلة لكن لمن يعرف قدرها فالحمد لله المنان بفضله ونسأله تمام نعمته

حجة ثالثة قالوا قال تعالى ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها يوسف 4 وإنما عبدوا مسمياتها

والجواب : أنه كما قلتم إنما عبدوا المسميات ولكن من أجل أنهم نحلوها أسماء باطلة كاللات والعزى وهي مجرد أسماء كاذبة باطلة لا مسمى لها في الحقيقة فإنهم سموها آلهة وعبدوها لاعتقادهم حقيقة الإلهية لها وليس لها من الألوهية إلا مجرد الأسماء لا حقيقة المسمى فما عبدوا إلا أسماء لا حقائق لمسمياتها وهذا كمن سمى قشور البصل لحما وأكلها فيقال ما أكلت من اللحم إلا اسمه لا مسماه وكمن سمى التراب خبزا وأكله يقال ما أكلت إلا اسم الخبز بل هذا النفي أبلغ في آلهتهم فإنه لا حقيقة لإلهيتها بوجه وما الحكمة ثم إلا مجرد الإسم فتأمل هذه الفائدة الشريفة في كلامه تعالى

(147/744)

فإن قيل فما الفائدة في دخول الباء في قوله فسبح باسم ربك العظيم الواقعة 74 96 ولم تدخل في قوله سبح اسم ربك الأعلى الأعلى 1 قيل التسبيح يراد به التنزيه والذكر المجرد دون معنى آخر ويراد به ذلك مع الصلاة وهو ذكر وتنزيه مع عمل ولهذا تسمى الصلاة تسبيحا فإذا أريد التسبيح المجرد فلا معنى للباء لأنه لا يتعدى بحرف جر لا تقول سبحت

بالله وإذا أردت المقرون بالفعل وهو الصلاة أدخلت الباء تنبيها على ذلك المراد كأنك قلت سبح مفتتحا باسم ربك أو ناطقا باسم ربك كما تقول صل مفتتحا أو ناطقا باسمه ولهذا السر والله أعلم دخلت اللام في قوله تعالى سبح لله ما في السموات والأرض الحديد 1 والمراد التسبيح الذي هو السجود والخضوع والطاعة ولم يقل في موضع سبح الله ما في السموات والأرض كما قال ولله يسجد من في السموات والأرض الرعد 15 وتأمل قوله تعالى إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون الأعراف 206 فكيف قال ويسبحونه لما ذكر السجود باسمه الخاص فصار التسبيح ذكرهم له وتنزيههم إياه

حجة رابعة قالوا قد قال الشاعر

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما . . . ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وكذلك قول تحول الأعشى

داع يناديه باسم الماء مبغوم . . .

وهذه حجة عليهم لا لهم

أما قوله ثم اسم السلام عليكما فالسلام هو الله تعالى والسلام أيضا التحية فإن أراد الأول فلا إشكال فكأنه قال ثم اسم السلام عليكما أي بركة اسمه وإن أراد التحية فيكون المراد بالسلام المعنى المدلول وباسمه لفظه الدال عليه والمعنى ثم اسم هذا المسمى عليكما فيراد

بالأول اللفظ وبالثاني المعنى كما تقول زيد بطة ونحوه مما يراد بأحدهما اللفظ وبالآخر المدلول فيه وفيه نكتة حسنة كأنه أراد ثم هذا اللفظ باق عليكما جار لا ينقطع مني بل أنا مراعيه دائما

(148/744)

وقد أجاب السهيلي عن البيت بجواب آخر وهذا حكاية لفظه فقال لبيد لم يرد إيقاع التسليم عليهم لحينه وإنما أراد بعد الحول ولو قال السلام عليكما كان مسلما لوقته الذي نطق فيه بالبيت فكذلك ذكر الإسم الذي هو عبارة عن اللفظ أي إنما اللفظ بالتسليم بعد الحول وذلك أن السلام دعاء فلا يتقيد بالزمان المستقبل وإنما هو لحينه

ألا ترى أنه لا يقال بعد الجمعة اللهم ارحم زيدا ولا بعد الموت اللهم اغفر لي إنما يقال اللهم اغفر لي بعد الموت فيكون بعد ظرفا للمغفرة والدعاء واقع لحينه

فإن أردت أن تجعل الوقت ظرفا للدعاء صرحت بلفظ الفعل فقلت بعد الجمعة أدعو بكذا أو أسلم أو ألفظ بكذا لأن الظروف إنما يريد بها الأحداث الواقعة فيها خبرا أو أمرا أو نهيا وأما غيرها من المعاني كالطلاق واليمين والدعاء والتمني والإستفهام وغيرها من المعاني فإنما هي واقعة لحين النطق بها وكذلك يقع الطلاق ممن قال بعد يوم الجمعة أنت طالق

وهو مطلق لحينه ولو قال بعد الحول والله لأخرجن انعقدت اليمين في الحال ولا ينفعه أن يقول أردت أن لا أوقع اليمين إلا بعد الحول فإنه لو أراد ذلك لقال بعد الحول أحلف أو بعد الجمعة أطلقك فأما الأمر والنهي والخبر فإنما تقيدت بالظروف لأن الظروف في الحقيقة إنما يقع فيها الفعل المأمور به والمخبر به دون الأمر والخبر فإنهما واقعان لحين النطق بهما

فإذا قلت اضرب زيدا يوم الجمعة فالضرب هو المقيد بيوم الجمعة وأما الأمر فأنت في الحال آمر به وكذلك إذا قلت سافر زيد يوم الجمعة فالمتقيد باليوم المخبر

به لا الخبر كما أن في قوله اضربه يوم الجمعة المقيد بالظرف المأمور به لا أمرك أنت فلا تعلق للظرف إلا بالأحداث فقد رجع الباب كله بابا واحدا

(149/744)

فلو أن لبيدا قال إلى الحول ثم السلام عليكما لكان مسلما لحينه ولكنه أراد أن لا يوقع اللفظ بالتسليم والوداع إلا بعد الحول وكذلك ذكر الإسم الذي هو بمعنى اللفظ بالتسليم ليكون ما بعد الحول ظرفا له وهذا الجواب من أحد أعاجيبه وبدائعه رحمه الله

وأما قوله باسم الماء والماء المعروف هنا هو الحقيقة المشروبة ولهذا عرفه تعريف الحقيقة الذهنية والبيت لذي الرمة وصدره لا ينعش الطرف إلا ما تخونه . . .

ثم قال داع يناديه باسم الماء فظن الغالط أنه أراد حكاية صوت الظبية وأنها دعت ولدها بهذا الصوت وهو ماما وليس هذا مراده وإنما الشاعر ألغز لما وقع الإشتراك بين لفظ الماء المشروب وصوتها به فصار صوتها كأنه هو اللفظ المعبر عن الماء المشروب فكأنها تصوت باسم هذا الماء المشروب وهذا لأن صوتها ماما وهذا في غاية الوضوح فائدة اسم الله والإشتقاق

زعم أبو القاسم السهيلي وشيخه ابن العربي أن اسم الله غير مشتق لأن الإشتقاق يستلزم مادة يشتق منها واسمه تعالى قديم والقديم لا مادة له فيستحيل الإشتقاق ولا ريب أنه إن أريد بالإشتقاق هذا المعنى وأنه مستمد من أصل آخر فهو باطل

ولكن الذين قالوا بالإشتقاق لم يريدوا هذا المعنى ولا ألم بقلوبهم وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية كسائر أسمائه الحسنى كالعليم والقدير والغفور والرحيم والسميع والبصير فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب وهي قديمة والقديم لا مادة له فما كان جوابكم عن هذه الأسماء فهو جواب القائلين باشتقاق اسم الله ثم الجواب عن الجميع أننا لا نعني بالإشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى لا أنها متولدة منها تولد الفرع من أصله

وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه أصلا وفرعا ليس معناه أن أحدهما تولد من الآخر وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة

(150/744)

وقول سيبويه إن الفعل أمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء هو بهذا الإعتبار لا أن العرب تكلموا بالأسماء أولا ثم اشتقوا منها الأفعال فإن التخاطب بالأفعال ضروري كالتخاطب بالأسماء لا فرق بينهما

فالاشتقاق هنا ليس هو اشتقاق مادي وإنما هو اشتقاق تلازم سمي المتضمن بالكسر مشتقا والمتضمن بالفتح مشتقا منه ولا محذور في اشتقاق أسماء الله تعالى بهذا المعنى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بدائع الفوائد حـ 1 صـ 16 . 23 ﴾

(151/744)

– تأملات في سورة الواقعة

أ . د . سلامه عبد الهادي

أستاذ في علوم إدارة الطاقة وعميد سابق للمعهد العالي للطاقة بأسوان

القرآن الكريم هو كتاب الله الذي جاء نوراً وهداية بما يواكب عصرا تتقدم فيه العلوم

وتزدهر . . . جاء ليؤكد ما تكتشفه هذه العلوم أن الكون إنما انتظم بالحق لخالقه ومدبر أمره . . .

جاء بمنطق علمي فريد ليقرر أن ما نراه وتدركه أبصارنا وعقولنا وعلومنا هو الشاهد على أنه " لا إله إلا الله " . . . جاء هذا في القرآن لكريم بما يعجز أن يأتي بمثله البشر ولو اجتمعوا له .

تعالوا نتدبر الآيات من الآية 57 إلى الآية 75 في سورة الواقعة، وتقدم هذه الآيات أروع منهج بحثي يثبت لنا أننا مخلوقون وأن وجودنا واستمرار حياتنا يعتمد على إرادة خالق واحد أحد وهب الحياة وأوجد مقوماتها وعناصر استمرارها ، وكما أحكم الله صنعته فقد أحكم آياته التي أرسلها إلينا لتدلنا عليه وعلى وحدانيته ، كما ترشدنا هذه الآيات إلى أن حياتنا ورزقنا وطعامنا وشرابنا وقوتنا من تدبيره ورحمته، وأن حرماننا من كل هذا في قدرته ورهن مشيئته ، وهذا بإشارات علميه تعرضها هذه الآيات في سهولة ويسر ، وسنحاول أن نتدبر هذه الإشارات بما يسره لنا الخالق من علم .

(152/744)

تبدأ الآيات الكريمة بتحديد هدف البحث بقوله سبحانه وتعالى "نحن خلقناكم فلولا تصدقون" : إنه تعجب يعتمد على إثارة الحقائق فينا بدلاً من أن يضعها في شكل تقريري، وهذا ما تتبعه المدارس التربوية الحديثة في شرح الحقائق . . . فهو تعجب ممن لا يصدق أننا مخلوقون وأن لنا خالقاً هو منزل هذا القرآن هداية منه ورحمة، ثم تأتى الآيات التالية لتضع من لا يصدق أمام الحقائق المؤكدة لهذا بكل بيان لنقر بأنفسنا صدق هذا القول . . . ويأتي عرض هذه الحقائق بحسب ترتيبها المنطقي وأهميتها معتمدة على الرؤية العلمية والعملية التي تزداد وضوحاً يوماً بعد يوم . . ولهذا تبدأ كل آية وكل برهان أو استفسار بكلمة أفرأيتم . . . استفسار من الخالق يهدينا إلى صدق القول (نحن خلقناكم) .

(153/744)

يأتي أول استفسار بقول الحق (أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) . . . . استفسار يعقبه سؤال . . . استفسار تتأتى إجابته بالرؤية المتفحصة والمتدبرة فيما نمنيه . . . وقد تحققت هذه الرؤية في العصر الحديث تحت مجهر يسمى المجهر الإلكتروني حيث استطعنا أن نرى تركيب الحيوان المنوي والخلية الحية عندا يصل التكبير إلى مليارات المرات، إن هذا المنى يعد جزءاً من خلية حية تؤدى دوراً هاماً في حياة البشر وحياة كل

المخلوقات، فهي المسئولة عن حفظ وبقاء النوع البشرى وكل الأنواع التي خلقها الله الواحد الأحد . . . فهي خلية تقوم بتوريث الصفات التي تنتقل من الآباء إلى الأبناء . . . إنها دليلا على عظمة الخالق ووحدانيته، وهي كخلية من خلايا الجسم تعد آية من آيات الإعجاز في تركيبها وتكوينها ووظائفها وتنفسها وغذائها وتكاثرها وانقسامها ، يعجز الإنسان عن تخيل خلية واحدة بهذا الحجم تقوم بكل هذه الوظائف . . . فكيف بخلقها . . . وهذه الخلية التي يمنيها الرجل أو تمنيها المرأة لها أيضاً دوراً متميزاً عن أي خلية أخرى . . . فهي تتكاثر وتنقسم بقوانين محددة بعد استكمال جزئيها عند اتحاد ما يمنيه الذكر (نصف خلية) مع ما تمنيه المرأة (نصف الخلية الآخر) داخل رحم المرأة . . . وعند تدقيق الرؤية كما تنص الآية الكريمة في هذه الخلايا التي نمنيها ، فسنجد أن هذا النصف من الخلية له نواة تحتوى على عدداً من الإنشاءات يصل عددها إلى 23 منشأ تسمى "كروموزومات" وتحتوى هذه الكروموزمات على جينات تعد سجلاً كاملاً للمواصفات البشرية وكذلك صفات السلالة التي ينتمي إليها الإنسان بدءاً من آدم وحتى آخر الأجيال . . .

(154/744)

و هناك شكلا خاصا للكروموزم الثالث والعشرون يكون على شكلين x و y ، كذلك فإن البويضة التي تمنيها المرأة أيضا تحتوى على نفس هذا التكوين ولها نواة بنفس العدد من الكروموزمات وكروموزم يكون على شكل y ، وعند التخصيب يتحد منى الرجل مع مني المرأة ليكونا خلية كاملة تحتوى نواتها على 46 كروموزم مثل باقي خلايا الجسم البشرى وبها خواص وراثية جاءت من الرجل والمرأة أو الزوج والزوجة وفق قوانين الوراثة التي تمتلئ بها المجلدات ، ويكون المولود ذكراً إذا أخذ من منى الرجل الكروموزم x ويكون أنثى إذا أخذ من الرجل الكروموزم y ، فخلايا الأنثى بها الكرموزومين المتشابهين y + y وخلايا الذكر بهما الكروموزومين المختلفين y + x ثم تتكاثر وتتوالد هذه الخلية الأولى ،ويخرج منها ملايين وبلايين من الخلايا المتماثلة جميعا في تكوينها وكروموزوماتها وجيناتها ، ولكن كل خلية لها وظيفتها وعملها ،وكل نسيج يتكامل مع الأنسجة الأخرى لتكوين الأعضاء والأجهزة التي تتكامل لإعطاء الجسم البشرى قدراته على الحركة والاستمتاع بالحياة . . . كل هذا يتم من خلال برامج علمية متكاملة ووفقا لمعايير وقوانين ما زال العلماء يعكفون على دراستها . . . قواعد ثابتة يسير عليها ويخضع لها ما نمنيه في أداء معجز حتى تتكون الخلية الأولى الكاملة وبها النواة الأولى، ثم يتفرع منها هذه البلايين من الخلايا في رحم الأم لتكون الوليد . . . قوانين وقواعد سنها الخالق بحكمته لينشأ منها كل إنسان جديد . . . وكل إنسان ومخلوق على وجه الأرض قد نشأ هكذا بنفس القوانين والقواعد والأسس

ودون اختلاف . . . ألا يدل هذا على وحدانية الخالق . . . والآن بعد أن رأينا هذا الذي نمنيه . . . . هل نستطيع أن نخلق منى مثل هذا أو نقول أنه قد جاء بغير خالق بحيث يؤدى كل هذه الأدوار ويحتفظ بكل هذه المواصفات والصفات ويسير على هذه القواعد . . .

(155/744)

إن الرجل في جماعه في كل مرة يقذف أكثر من بليون خلية حية . . أي يمكنه تخصيب عددا من البويضات يعادل عدد سكان الصين أو الهند . . . أي دقة في خلق هذا المني وفي الإشارة إليه بهذا القول السديد والكامل والمعجز . . . هل لدينا أي فضل في هذا الخلق وهذه القوانين التي يعمل بها حتى نرد بالنفي على هذا السؤال الرباني (أأنتم تخلقونه أم نحن الخالون) . . . إنه الاحتكام إلي المنطق العلمي في كل أمور الدين والدنيا ولا شيء سواه . . . هل يمكن أن يكون لدينا رداً غير التسليم بأنه ليس لنا أي فضل في خلق هذا المنى وأن لهذا المنى حالقا واحدا ولهذا جاء تشابه الخلق كلهم في منيهم وفيما يؤديه . . . وكيف لا نقر هذا والعلم ما زال يجهل كل أسرار هذه الخلايا التي تستفسر عنها هذه لآية وإن كنا قد رأينا بعض معالمها . . وما زال كل يوم يأتي بجديد في هذه الرؤى .

صورة لحيوانات منوية ذكرية بالمجهر الإلكتروني

إننا أمام صرح علمي أرسله الخالق منذ أربعة عشرة قرناً ليدحض ما ادعاه مأفون في القرن الماضي أن خلية حية بها هذا الأعجاز الذي نراه تحت المجهر قد جاءت بالصدفة، ولجهله لم يكن قد اكتشف المجهر الذي يجعله يرى ما نراه الآن كما يبصرنا الخالق في هذه الآية بما يمكن أن نراه من أعجاز داخل كل خلية من خلايا مخلوقات الله، فيدعى هذا الأعمى أن خلية واحدة جاءت صدفة في البداية وأنها قد تطورت من تلقاء نفسها لينشأ منها سلالات الحشرات والحيوانات والطيور والأسماك، فالزرافة جاءت من الحمار والنمر جاء من القط والإنسان جاء في نهاية هذا التطور من القرد، أي هراء هذا، أولو استمع منشئ هذه النظرية إلى هذه الآية وتدبر في معانيها ثم رأى مني القط والفأر والإنسان والقرد، لكان قد وجد أن لكل مخلوق من هذه المخلوقات مني خاص بها وسجل معنى بتكوينها وصفاتها استقرت معالمه منذ البداية

(156/744)

كل مني به أعداداً مختلفة من الكروموزومات لكل نوع تحدد الصفات الوراثية والخصائص المحددة لكل مخلوق بحسب هذا النوع، كل حيوان أو حشرة أو طير قد جاء وله تكوينه

الخاص بالمهمة التي حددها الخالق له وسخر القوانين الطبيعية التي تحقق له هذه المهمة، فهل يستطيع هذا . . . أن يوضح لنا كيف يمكن أن يتطور شكل هذه السجلات بحيث يكون عدد الكروموزومات في منى القط أقل من عددها في الفأر رغم أن سلم التطور حسب هذه النظرية يأتي بالفأر قبل القط والإنسان بعد القط . . هل ينقص العدد مع التطور أو يزداد، وما الذي يمكن أن يغير عدد هذه السجلات وأنواعها في كل خلية أو منى . . كيف تغير الخلية سجلاتها من تلقاء نفسها بحيث تتوافق مع ما ينتجه كل مني مع الظروف المحيطة به حتى يستطيع الطير أن يسبح في الهواء والأسماك أن تسبح في البحار وتتنفس في الماء والجمل أن يعيش في جفاف الصحراء ويخزن الماء . . . إنها بكل منطق جاءت بإرادة خالق هذا المنى بسجلاته . . خالق يعلم ما يصنع وينتج من كل منى خلقه بحيث يتوافق ما ينتج منه مع أداء المهمة التي خلق من أجلها . . هل هي الأمطار أو الرمال أو العواصف والحرارة والبرودة هي التي صنعت وحددت وسجلت وتراصت واختارت وسنت القوانين التي تحدد كثافة الهواء بحيث يرفع الطير وكمية الهواء المذاب في الماء بحيث تكفى تنفس الأسماك وحاجة الجمل من الماء بحيث يختزنه أثناء رحلته في الصحراء . . أو جنون صاحب هذه النظرية، هل يستطيع أن يدعى هذا لو كان قد استمع إلي هذه الآية واستطاع أن يأتي في عصره بمجهر ليرى إعجاز الخالق في خلق كل منى كما نراه الآن . .

الإجابة معروفة والتفسير الوحيد جاء في أول هذه الآيات بهذا النص الحق الذي أرسله الله منذ أربعة عشرة قرنا من الزمان : (أفرأيتم ما تمنون) و(نحن خلقناكم فلولا تصدقون) .

(157/744)

و بعد خلقنا بهذه القدرة وضع الله لنا أقدارنا أيضاً التي تحدد متى تنتهي حياة المخلوق الذي جاء من هذا المني، وكما نعجز عن أن نأتي بخلية واحدة أو بنصف خلية كالتي نمنيها ، فنحن نعجز بالرغم من تطور علومنا أن نمد أعمارنا ولو لحظة واحدة، فالموت هو لحظة قدرها الله لكل منا كما جاء في استكمال هذه الآية بهذا النص الإلهي المعجز الدال عليه وعلى قدرته (نحن قدرنا بينكم الموت) ، فالذي بيديه الخلق يكون بيديه نهاية مخلوقة ولا أحد سواه يعلم منتهاه، فقلوبنا تعمل بأمره، وأرواحنا تستقر بأمره، ولا أحد له السيطرة على هذا أو ذاك أو إذا ما توقف أي شيء بأمره، عند هذه اللحظة لن يستطيع أحد أن يمد عمره لحظة واحدة إذا جاء أجلها .

(158/744)

وتستكمل الآية بهذا القول الحق (وما نحن بمسبوقين، على أن نبدل أمثالكم وننشأكم فيما لا تعلمون، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) ، إنه المنطق العلمي الإلهي الدال على صدق الرسالة، فقد اكتشفنا كيف جاءت نشأتنا الأولى داخل الأرحام من هذا الانقسام الهائل للخلية الأولى في نظام دقيق فتتكون الأعضاء والأجهزة والأطراف والعظام والعضلات والحواس والأعصاب من خلية واحدة تكاثرت بهذا النظام بأمر خالقها . . . هل يكون من الصعب على خالق نشأتنا الأولى بهذه القدرة والحكمة والعلم أن ينشأ مثلها مرة أخرى أو يبدل في هذه النشأة كيف يشاء . . هل من العسير على خالق الأصل أن ينشأ مثيلاً أو بديلاً له مرة أخرى كيف يشاء . . . هذا ما جاء به قول الحق نبدل أمثالكم وننشأكم فيما لا تعلمون، إنه الاحتكام إلى المنطق العلمي مرة أخرى لتأكيد وقوفنا في الآخرة بين يديه . . . ثم يأتي هذا الاستفسار المنطقي في نهاية الآية بعد معرفتنا بخلقنا الأول وكيف جاءت نشأتنا بإعجاز خالق واحد قادر (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) . . نعم سنتذكر قي عمن لا يذكر الله دائما بعد رؤية إعجازه في خلق نشأته الأولى بحيث لا يحتمل سوى رد واحد . . . نعم سنتذكر هذه الحقائق دائما يا الله . . . أنت حقاً الإله الخالق الذي خلقتنا والقادر على أن يبعثنا كما نحن وأن تبدلنا كيف تشاء . . فلا قدرة سوى قدرتك ولا إله سواك وما نحن إلا مخلوقون ولا خالق إلا أنت تبعثنا بأمرك ومشيئتك كيف تشاء .

(159/744)

ثم نأتي إلى الدليل المادي التالي على أن لنا خالقا . . . بعد أن خلقنا من منى يمنى فصار نطفة، أوجد لهذه النطفة أو الطفل الذي يأتي من هذه النطفة الغذاء الذي يحيا به وينمو، وهذا بما وفره لنا من غذاء يأتي خلقه من عناصر الأرض ومكوناتها . . . كلا . ل نستطيع أن نتناول هذه العناصر مباشرة . . كلا . . ولكن خالق الإنسان خلق ما يعد له الطعام الذي يغذيه من هذه العناصر . . كما جاء في قول الحق (أفرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) استفسار آخر يعقبه سؤال عمن أعد للإنسان ما يغذيه . . . إن الإنسان الذي جعل هذه الحبوب التي يضعها أثناء الحرث تنبت زرعا هكذا بهذه الطريقة المرتبة والمعجزة بحيث تعد له حاجته من الطعام والغذاء ووفر في الأرض العناصر التي تحتاجها هذه الحبوب لتنبت . . .

(160/744)

إن الإنسان رغم عقله وتدبره واعتقاده بأنه سيد هذا الكون يعجز أن يعد لنفسه طعاماً من الأرض بدون هذا الزرع . . . فهل هو الذي علم البذور أن تأخذ بعض العناصر أو الأملاح من الأرض ويسر لها الماء لتذيب هذه لأملاح لتعد له حاجته للنمو . . . لا فضل للإنسان في كل هذا ودوره يقتصر على إلقاء البذور أثناء حرث الأرض وتقليبها . . . وتظل البذور هكذا ساكنة . . . ثم تنمو جميعها في توقيت واحد فتخترق بزرعها سطح الأرض مرتفعة في السماء وبجذورها باطن الأرض متغلغلة في أجواقها وكأنها جميعا على موعد لتقدم للإنسان الخير والغذاء . . . من أودع في هذه البذور أو الحبوب تلك القدرة العجيبة في تحديد الوقت والتعامل مع الزمان . . من علمها جميعا وجعلها تنسجم في نسق واحد لتنمو معا في كل اتجاه وتخضر أوراقها في وقت واحد . . من أودع في كل حبة هذه الأسرار بحيث تؤدى كل هذه الأدوار . . . إننا لو نظرنا كما تأمرنا هذه الآية الكريمة إلى الحبوب التي نرميها أثناء الحرث تحت المجهر لرأينا كل العجب . . . نرى مركزا ضخما للمعلومات مليئا بالشفرات والأوامر المبرمجة داخل حمض نووي عملاق قابع داخل كل حبة يحدد كل ما يتصل بتلك الحبة . . إننا عندما أي مدى تنمو وكم تعطى وما تعطى . . . إننا عندما ننظر إلى ما يخرج من هذه الحبة من زرع يستخرج من الأرض والهواء العناصر المختلفة وفقا لشفراتها المخزونة بحيث تحدد طعم ثمراته ولونها وعددها نقر أن هذا لا يتم إلا بإرادة أسمى وأعلى . . . إرادة خالق أودع في كل بذرة هذه السجلات الكاملة لما عليها أن تؤديه

حتى يخرج كل نبات بالمحتوى الذي يعطى للإنسان ما يحتاجه لكي ينمو ولكي يعيش . . .

حقا إنزراعة تعد مصنعا كاملا يؤدى أدوارا رائعة رسمت بإتقان وبتدبير خالق الإنسان سبحانه وتعالى الذي يعلم ما يحتاجه لكي يحيا . . . حقا إن كل نبتة تعد سرا من أسرار الخالق ترى فيها إعجازه ومعجزاته . . .

(161/744)

ثم إن ما نراه في هذا النبات من جذور يندفع الماء إليها مذيبا من الأرض بعض العناصر والأملاح التي يحتاجها كل زرع ليعد ما ينتجه ثم نرى كيف يتم دخول هذا الماء إلى جذور النبات بقانون ألهى يسمى قانون الضغط الاسم وزى نتيجة لاختلاف نسبة تركيز بعض العناصر داخل جذور النبات عن نسبتها في الأرض فتمتص ما رتبه الخالق لها من أملاح وعناصر . . ثم كيف تصعد المياه حاملة أملاحها إلى سيقان النبات التي تمتد إلى الهواء، وترتفع المياه في السيقان داخل أنابيب ضيقة شقها الخالق بحكمته داخل هذه السيقان

(162/744)

كيف يصعد الماء في هذه الأنابيب الضيقة عكس اتجاه الجاذبية الأرضية بقانون آخر يسمى قانون الأنابيب الشعرية . . . ثم كيف تصل المياه إلى فروع النبات الذي يصنع ما يقدمه لنا من ثمار فيها كل ما نبتغيه من وجبات . . . من شق هذه القنوات وسن هذه القوانين وضبط هذا التركيز وأعد هذه الإنشاءات بحيث تمتد الجذور لتثبته في الأرض فتصعد بسيقانه في الهواء حاملة الفروع والأوراق والثمار، من أعد لكل نبات هذا الإعداد بحيث يصبح مصنعاً يأخذ من الأرض التي نحرثها منتجاً قادراً على غزو الأسواق بمحتوى متكامل من الفيتامينات والبروتينات والنشويات والطعم المقبول والرائحة الشهية لكل البشر . . . يغذيهم وينميهم ويقيم أودهم، هل نحن القائمون على أن تأتي زراعته بهذه الحكمة والقوانين وهذا الترتيب والتركيبي . . . إن دقة التوجيه إلى النظر إلى ما نحرثه وهو الحب بأسراره والأرض بعطائها والذين يكونان معاً نظاماً متكاملاً يقوم بكل هذا العمل تحدد الإجابة على هذا السؤال المنطقي أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . . . بحيث لا يكون له سوى رد واحد . . لالا مشيئة في هذا الزرع إلا فضلك يا الله . . ولا مشيئة إلا مشيئتك . . ولا قدرة إلا قدرتك . . ولا حول ولا قوة إلا بك يا واحد في سننك . . . في كل ما تخرجه الأرض من زرع يسير كله على نهج واحد وبقوانين واحدة وبماء واحد ومن أرض واحدة تسبح جميعها بوحدانيتك . . ثم يأتي البرهان الآخر على أنه لا مشيئة إلا مشيئته إذا ما سلط الله على هذا الزرع مرض أو فطر . . أو عاصفة أو حر قائظ . . فلا

راد لقضائه ولا دافع لنقمته . . فيأتي قول القادر لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . . . كلا . در على إحياء هذا الزرع لو مات أو تحطم بفعل الحشرات أو الآفات أو الجفاف أو أمر الله . . كلا . . وسيكون الندم وتأتى الحسرة والاعتراف بالقهر ويظهر العجز البشرى أمام قدرة الخالق عندما نعترف ونقر بهذا القول إنا لمغرمون . . بل نحن محرومون . . .

(163/744)

إنه اعتراف بالعجز نقر به دائما عند نزول غضب الله . . . وهكذا نرى في هذه الآيات إقرار بقدرة الخالق على الخلق والفناء ، على المنح والمنع ، على العطاء والسلب . . . تأتى بهذا الإعجاز وهذا البيان الذي لا يمكن أن يأتي من أحد سواه في كلمات محددة أوعت كل المفاهيم بكل العلوم التي ندركها حتى يومنا هذا .

(164/744)

ثم يأتي دليل مادي ومرئي آخر على أننا مخلوقون وأن لنا خالق دبر لنا بحكمته كل شيء . . . فدبر لنا هذا الماء الذي يعد عماد الحياة على الأرض . . . فيقول الحق أفرأيتم الماء الذي تشربون . . إنها إشارة إلى الماء وهو سر من أسرار الحياة، هكذا يقر العلم الحديث . . فبدون الماء لن يكون هناك أثراً للحياة على الأرض . . والكواكب من حولنا خلت من كل حياة لأنها تخلو من الماء الذي أنعم به الخالق على أرضنا . . والماء هو الماء في كل أنحاء الأرض . . . إذا امتنع حياة النبات والإنسان والحيوان . . إذا امتنع جف النبات ونفق الإنسان والحيوان . . من ساوى بين كل المخلوقات فجعل الماء عماد حياتهم جميعهم كما يكون أكثر من 70 % من أجسامهم . . . يشربه الإنسان فيرتوي والحيوان فينشط ونروى به النبات فينمو ويعطى الثمار، إنه خالق واحد أحد وفر لجميع مخلوقاته ماءا واحدا فأصبحت له كل هذه الأسرار . . إننا حقاً لو نظرنا وتدبرنا هذا الماء وأسراره كما تنص هذه الآية القرآنية لأقررنا بوحدانية الله دون دليل آخر . . . ثم رأينا كيف طوع الخالق هذه الأرض بجوها وطوع السماء بشمسها وحملها وطوع البحار بملحها ومخزونها حتى تكون لنا في النهاية هذه النعمة التي لا نحيا بدونها . . إن البحار تحتفظ بمخزون هائل من الماء الأجاج أو المالح وهذه الأملاح تمنع نمو أي بكتيريا أو طفيل يفسد المياه الراكدة في البحار . . ويسلط الله على هذه البحار التي تغطى أربعة أخماس مساحة سطح الكرة الأرضية قدرا مناسبا من أشعة الشمس . . . فيتحول جزءا من مياهها إلى بخار الماء

العذب الذي يتصاعد إلى طبقات الجو العليا لأن كثافته أقل من كثافة الهواء الملامس لسطح الأرض . . وكلما ارتفعنا إلى أعلى كلما قلت كثافة الهواء . . ويقف البخار عند الارتفاع الذي تتزن فيه كثافته مع كثافة الهواء فتتجمع جزيئات البخار مكونه هذا الحجم الهائل من السحب التي تتحرك بفعل الرياح في اتزان متكامل . .

(165/744)

ويحدث هذا الاتزان بتساوي قوى الجذب الأرض للسحاب إلي أسفل مع الدفع الهواء للسحاب إلى أعلى نتيجة أن كثافة الهواء أكبر من كثافة بخار الماء . . . لهذا جاء هذا الاسم القرآني المعجز للسحاب وهو المزن . . . إنه اسم يعبر عما تمثله حالة السحب وهي الاتزان الكامل في سكونها وحركتها . . وكما نرى أن هذا الاسم قد استوعب كل هذه المعاني الخاصة بما يعبره عن اتزان السحب بإعجاز علمي وبلاغي . . وعند مقابلة هذه السحب لظروف جوية وطبيعية مغايرة تفقد السحب هذا الاتزان فتنتقل من حالة الاتزان إلى حالة لا أتزان فتتحول إلى أمطار . . وفي هذا يأتي القول الإلهي بهذا النص القرآني الكامل

أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون

إنه استفسار عمن يكون قد هيأ لهذا السحاب مصادره واتزانه في السماء ثم نقله من الاتزان إلى لا اتزان عندما تنزل أمطارا عند مصبات الأنهار أو لأقوام أراد الله لهم هذا الرزق . . إنه إعجاز علمي وبلاغي آخر في اختيار هاتين الكلمتين المتتاليتين : من المزن فيما تمثلانه من انتقال السحاب وخروجه من حالة الاتزان إلى حالة اللا اتزان عند نزول الأمطار، ثم اختيار الكلمتين المزن . . المنزلون وما احتوت عليه من تشابه حروفهما وتتابع مهامهما . .

صورة لسحابة ممطرة مع قصف الرعد

ولا نجد أيضا رداً على السؤال الذي جاء في هذه الآية إلا أن نقول أنه لا فضل لنا أيها الخالق العظيم في أية مرحلة من مراحل هذا المزن سوى فضلك، فبرحمتك سلطت أشعة الشمس بقدر معلوم على الماء الأجاج في البحار فجاء السحاب . . وبفضلك حملته الرياح في اتزان . . وبفضلك أفقدته هذا الاتزان عند كل مصب اخترته بحكمتك . . وبفضلك أنزلته إلينا أمطاراً من ماء عذب تجرى في أنهار شققتها برحمتك فتظل عذبة سائغة للشاربين من خلقك الذين خلقتهم برحمتك وتعلم ما يقيم حياتهم وأين يقيمون .

ثم يأتي برهان آخر . . فالقادر على منح هذا الماء العذب لنا قادر أيضا على منعه . . إنها مشيئته ولا دخل لأحد بها . . ولكن ماذا يحدث إذا منع عنا هذا الماء العذب . . لن نجد سوى ماء البحار الأجاج . . هل نستطيع أن نحيا به . . الرد معروف . . فملوحة مياه البحار تحول دون استفادة البشر منها . . . فهل لنا إلا أن نشكر الله على هذا الفضل الذي تفضل به علينا لنشرب ماءا عذبا ساقه إلينا حتى نرتوي ونروى النبات فنطعم به وتشرب الدواب فتخدمنا ونأكل لحومها . . وفي هذا يأتي هذا النص القرآني المعبر عن قدرة الخالق ومشيئته في العطاء والمنع لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون . . من يتدبر كلمتي جعلناه في هذه الآية وفي الآية السابقة، لوجد الحرف (ل) قد سبق هذه الكلمة في الآية السابقة ولم يأتي سابقا لها في هذه الآية . . ففي الآية السابقة إشارة إلى أنه إذا أراد الله أن يصيب الزرع سلط عليه ما يبيده فجاء الحرف (ل) ليؤكد مشيئته في هذا الحرمان بفعل يغاير المألوف وهو المعطى دائماً . . . أما في هذه الآية فلا حاجة للتأكيد حيث أن مشيئته تحول الماء الأجاج إلى ماء عذب بفعل الشمس والسحاب المسخرين، فإذا أوقف الله هذه الأسباب، فلن نجد أمامنا سوى ماء البحار لنشرب منه، فلا حاجة إذن في تأكيد هذا لأن الماء الأجاج أمامنا دواما وعند حرماننا من الماء العذب فلا مفر لنا من الذهاب إليه . . . هل في قدرة بشر أن يأتي بكل هذه الحكم والبلاغة والعلم في كل كلمة بل وفي كل حرف .

ثم تتوالى الأدلة على أننا مخلوقون، فقد خلق الله الإنسان على الأرض ليتحرك ويسعى . . وسعيه وحركته في حاجة إلى طاقة . . . مثل محرك السيارة الذي لن يتمكن من الحركة دون مصدر للطاقة وهو الوقود الذي يحترق داخل السيارة لتسير . وبدون أن يكتشف البترول ما كان لأحد أن يخترع السيارة . . . كيف تم إعداد مصدرا للطاقة لهذا الإنسان الذي جاء إلى الأرض، مصدرا يتناسب مع تكوينه وخلقه وأجهزته المختلفة . . . لم يكن هناك بترول على الأرض حين جاء إليها أو كحول أو شمع . . . إن التفسير الوحيد هو أن الخالق الذي خلق الإنسان لابد أنه دبر له مصدرا يستمد منه طاقته . . لقد سخر له الشمس لتحترق وترسل أشعتها إلي النبات ليختزنها ثم ليحولها إلى طاقة تنطلق في أجسامنا عندما نتغذى على ثمار هذا النبات باحتراق يتوارى عن أعيننا وبالقدر الذي نحتاجه للحركة وبآليات تعجز العقول عن فهمها . . . ولولا الشمس ولولا النبات ولولا حكمة الخالق ما كان للإنسان من سبيل إلى الحركة والسعي والاستمتاع بقوة عضلاته في الجهاد والسيطرة على الكون من حوله . . . أي لولا الشجرة التي تختزن طاقة الشمس بعملية تعد من أعقد العمليات تسمى عملية التمثيل الكلوروفيللى حيث يقوم ورق الشجر

الأخضر أثناء هذه العملية بتكوين المواد النشوية أو الكربوهيدراتيه التي تمثل وقودا هيدروكربونيا مثل البترول، وهذا بأن يمتص الورق الأخضر أشعة الشمس وثاني أكسيد الكربون من الجو والماء من جذور النبات . . . ومنها جميعا تتوفر لنا مصادر طاقتنا . . . وحين نأكل ثمار هذه الأشجار، تحترق المواد النشوية التي تحوى طاقة الشمس داخل خلايا أجسامنا البشرية . . .

(168/744)

فتنطلق هذه الطاقة في احتراق متوار كما تشير الآية الكريمة بهذا الوصف الكامل النار التي تورون حيث يستخدم الجسم في هذا الاحتراق الأكسيجين الذي يحمله الدم من الرئة إلى الخلايا، وتعد عملية احتراق المواد الكربوهيدراتية داخل الخلايا من أعقد العمليات التي يحار العقل البشرى في فهمها والتي تحتاج إلى مجلدات لسرد تفاعلاتها . . ولكنه احتراق كآي احتراق يستخدم فيه أكسيجين الهواء وينتج عنه الطاقة وثاني أكسيد الكربون وبخار الماء . . وبهذه الطاقة تتمكن خلايا الجسم من أداء وظائفها ويتمكن الإنسان من الحركة والاستمتاع بحياته وعضلاته وقوته . . هل للإنسان فضل في هذه الشجرة التي صنعت للإنسان حاجته من الطاقة ليحيا . . وهل يعي الإنسان ما بداخله

من نيران تتواري عن العيون كتلك التي تنطلق داخل محرك السيارة

كل هذا جاء في هذا الاستفسار الإلهي

(169/744)

أفرأيتم النار التي تورون . . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . . هل لنا رداً أيضا على هذا الاستفسار ثم هذا السؤال إلا أن نقول أن لا يمكن أن يكون هناك فضلا لنا في شيء من هذا سوى أنه تدبيرك أيها الخالق الواحد وأن هذا خلقك وصناعتك وترتيبك الشاهد على وحدانيتك، فالكل يسير على نفس الناموس . . . وإذا نظرنا إلي كل كلمة سنجد فيها إشارات إلى أشياء ندرك البعض منها بعلومنا المحدودة ويغيب عنا الكثير . . ننظر إلي كلمتي أفرأيتم وتورون والأولى تدعونا إلى أن نرى حكمة الخالق في النار التي هي مصدر الطاقة في أجسامنا والثانية تدلنا أن هذه النار قد واراها الخالق عن عيوننا ولكن نشعر بدفء نيرانها والقدرة على الحركة . . . وكلمة تذكرة قد ترمز إلى وجوب تذكر عظمة الخالق في تسخير هذه الشجرة لتخزن لنا كل هذه الطاقة وفيما دبره بحيث تنطلق هذه الطاقة داخل أجسامنا دون أن تراها عيوننا . . . إن هذه متاعا للمقوين إشارة إلى أننا استطعنا بهذه الطاقة أن نستمتع بقوة

عضلاتنا وأجسامنا ويدونها لن تكون لنا أي قدرة على شيء . . إن هذه الكلمات المحددة قد أوعت كل ما اكتشفناه وستستوعب أيضا ما لم نكتشفه من علوم الطاقة والاحتراق والنبات والطب والإنسان والبيان والبلاغة والإعجاز إذا ما تولى المتخصص المدرك لكل جانب من جوانب هذا الإعجاز . . . هل يمكن أن يتأتى كل هذا البيان من غير الخالق الذي يعلم كل شيء ؟ ؟ ؟

(170/744)

تعالوا ننظر نظرة شاملة إلى هذا المنهج الرباني الذي يخاطب البشر منذ أربعة عشر قرنا بأرقي ما يمكن أن تصل إليه علومهم ليؤكد أنه خالقهم ومدبر أمرهم ويحدد لهم بعض الآليات التي أوجدها بعلمه ورحمته حتى نحيا على هذه الأرض بمشيئته . . . لقد بدأت هذه لآيات بالدعوة إلى رؤية هذا الحيوان المنوي الذي يبدأ به خلق كل إنسان وتكوينه . . . فلا تأتى الدعوقد بعد أن رأيناه في أن يدعى أنه جاء بغير خالق أو أن لنا أي فضل في خلقه بهذا الإعجاز . . . ثم تأتى الدعوة إلى رؤية ما يتغذى عليه الإنسان لكي ينمو ويمارس شئون حياته . . . ولا قدرة لأحد أيضا على ادعاء أن هذا الزرع قد جاء بغير خالق

بحيث يوفر ما يتوافق مع تكوين وتصميم هذا الإنسان . . . أو أن الذي خلق الإنسان ليس هو الذي خلق هذا الزرع لينمو به وليعتمد عليه بحيث لا تستمر الحياة إلا به . . .

(171/744)

ثم نأتي إلى الآية التالية وفيها الدعوة إلى رؤية الماء الذي يسقي النبات والإنسان وفيه سر الحياة واستمرارها . . لا قدرة لأحد أيضا على ادعاء أنه جاء بغير خالق أو أن الذي خلق الإنسان والنبات ليس هو أيضا الذي دبر لهما هذا الماء بدورته المعقدة من مخازن تحفظه إلى أنهار يسوقها الخالق إليه في أماكنه بحيث يكون بهذه الوفرة وهذا التكوين . . ثم نأتي إلى دعوة الخالق إلى رؤية الطاقة التي يحتاجها الإنسان . . . ولا قدرة لأحد أيضاً على ادعاء أنها دبرت هكذا بدون خالق أو أن الذي دبرها ليس هو الذي خلق الإنسان ودبر له هذا العطاء وهذا المعين الذي لا ينضب من الطاقة ومصادرها الطبيعية من شمس وخصائص . . إذا نحن مخلوقون ومدبر لنا كل شيء بيد خالق واحد رتب لنا كل شيء . . بدايتنا وغذائنا ومائنا ومصدر طاقتنا في دورة وحد ذات أركان متصلة . . وأن ليس لنا فضل في أي من هذه الأمور سوى حرث الأرض ببذورها ، ولكن المنى والماء والنماء والطاقة كلها من أمور وشئون الخالق وحده في منحها ومنعها كما تبينه هذه

الآيات . . . هل هناك منطق يحتكم إليه العقل البشرى أعلى من هذا المنطق حتى نقر بخالقنا أو أن لنا خالق واحد أحد . . . وهل لنا بعد هذا المنطق وهذه الرسالة إلا أن نقر بآيات القرآن ونسبح بعظمة منزلها . . وهكذا تنتهي هذه الآيات أو الإثباتات والدلالات أو الاستفسارات الأربع بوجوب هذا التسليم والتسبيح لرب العالمين الخالق العظيم

(فسبح باسم ربك العظيم)

. . .

(172/744)

إنه إعلان رباني لا يتطاول إليه أحد ، جاء في خاتم الرسالات ولن تراه في زبور أو توراة أو إنجيل أو أي كتاب، إن المسلم حين ينحني أمام الله في ركوعه أثناء صلاته ويقول سبحان ربى العظيم، عليه أن يستشعر عظمة الله التي جاءت بها هذه الآيات، فهو منشئه من مني معجز ومقدر حياته وموته، وهو الذي هيئ له طعامه من حبوب وضع أسرارها وأرض سن لها قوانينها ، وهو الذي وفر له هذا الماء العذب بعد رحلة دبرها بقدرته وحكمته، وهو الذي وفر له الطاقة التي يحتاجها ليستمتع بقوته . . هو الواجد لكل هذا وما لنا في كل هذا التدبير من شيء . . ثم هو القادر على حرمانه من كل هذا . . . فلهذا يقول بكل

الإيمان والعلم . . سبحان ربى العظيم .

ويلي هذه الآيات قسم من الخالق بما نراه في خلقه أيضاً على صدق هذه الرسالة وأن هذا الكتاب قد جاء من عنده بقول الحق .

فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم، في كتاب مكنون، لا يمسه إلا المطهرون، تنزيل من رب العالمين .

(173/744)

نقف عند قسم الخالق بمواقع النجوم، فالنجوم أجسام غازيه تجرى بها تفاعلات شتى منذ نشأتها من إشعاع يتحول إلى مادة أو مادة تتحول إلى طاقة وإشعاع بحسب مراحل عمرها وتكوينها . . . وتقف العلوم الطبيعية عاجزة عن معرفة وتفسير نشأة هذه النجوم إلا أنه من المفترض أن يكون لهذه النجوم عند نضجها نفس تكوين الشمس من غاز الهيدروجين . . وفي مرحلة نشاط النجم تنطلق منه طاقة هائلة حيث يحدث اندماج ذرات الهيدروجين لتكون ذرات غاز الهليوم الخامل ذو الكتلة الأقل ويتحول فرق الكتلة إلى تلك الطاقة الهائلة التي تظهر النجم مضيئًا رغم بعده السحيق عنا . . وتأخذ كتلة النجم في التناقص حتى يتلاشى وينتهي النجم بعد عمر محدود . . وفي الكون الآن بلايين البلايين من هذه النجوم

التي قد يصل حجم بعضها إلي ملايين المرات مثل حجم الشمس وهي نجم مجموعتنا التي ندور حولها وتعطينا دفئها . . وتعتمد رؤيتنا ليلاً لهذه النجوم على الطاقة الصادرة منها والتي تصل إلينا على هيئة ضوء يخترق السماء بسرعته . . كما نرى الشمس نهارا بالضوء الصادر منها والذي يستغرق وصوله إلينا من الشمس عشر دقائق . . . ولأن النجوم من حولنا أبعد كثيرا من الشمس، فنرى أن ضوءها يستغرق زمناً أكثر من هذا ونجد أقرب نجم إلينا يستغرق وصول ضوءه إلينا عدة سنوات، وهناك نجوم يستغرق وصول ضوءها إلينا ملايين من السنوات، بل وآلاف الملايين من السنوات، هذا لأنها على أبعاد شاسعة وأن الضوء سرعته محدودة وتقدر بحوالي 300 ألف كيلومتر في الثانية الواحدة . . . والآن ما معنى أن الضوء الصادر من نجم ما يستغرق وصوله إلينا سنة . . معنى هذا أن هذا النجم يبعد عنا مسافة تساوى هذه السرعة مضروبة في عدد الثواني في السنة أي : 300 ألف كيلومتر × 365 × 24 × 60 × 60 . . ويطلق العلماء على هذه المسافة تعبير (سنة ضوئية) . .

(174/744)

فمعنى أن يبعد النجم عنا مليون سنة ضوئية هو أن هذا النجم كان في هذا الموقع منذ مليون عام عندما أرسل إلينا ضوءه واستغرق الضوء هذه الفترة ليصل إلى عيوننا . . . أما عن موقع النجم في اللحظة التي وصل ضوءه إلينا فلن تصل إليه علومنا وقدراتنا . . .

وهناك نجوم يستغرق وصول ضوءها بلايين السنين . . فلا قبل لنا أن نعرف مواقع هذه النجوم بالنسبة لبعضها لأن رؤيتنا لها تعتمد على ما وصلنا الآن كل بحسب بعده وتوقيت إرسال ضوئه إلينا وإن تزامن وصول ضيائها جميعا إلينا في اللحظة الراهنة . . ومن الممكن أن تكون معظم هذه النجوم قد تلاشت أو تبدلت أو بعدت أو اقتربت . . ولكن قدرتنا محدودة لاعتمادنا على ما تراه أبصارنا على ضوء يسير بسرعة محددة

إن معرفة مواقع نجوم في أي لحظة وهي على هذه المسافات الشاسعة والمختلفة شيء بعيد عن قدرة البشر، ولهذا جاء الحرف لو للدلالة على قصور قدرة البشر عن العلم بمواقع النجوم وهذا في قوله سبحانه (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) . . فالحرف لو هو حرف يفيد التمني فقط وقد جاء بعلم خالق الإنسان الذي يعرف خلقه . . . فهي تمثل بالنسبة للإنسان الغيب والحاضر في آن واحد . . ولكن الله يرى خلقه ولهذا يقسم بما يعلمه وهو أعلم بعظمته . . فهو عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . .

إن التدبر في هذا القسم وبحدود ما وصلت إليه علومنا في التعرف إلى بعض الأسرار في هذا الكون . . . نجد في مواقع النجوم على تلك الأبعاد الشاسعة التي لا يمكن أن يعيها أو يستوعبها عقل البشر إعجاز وإعجاز . . . وكيف يستوعب العقل بلايين السنوات الضوئية زمناً وأبعاداً . . إن أعمارنا بل وعمر الأرض التي نحيا عليها ثم أبعادنا بل وأبعاد الأرض التي نحيا عليها ونتصارع من أجل بضعة أمتار عليها لا تمثل إلا أتفه الكسور التي لا تذكر من تلك الأبعاد والأزمان . . . ثم كيف تنتظم هذه النجوم في هذا الشكل البديع الذي نراه في هذا الكون فيخيل لنا أننا نراها هادئة مستقرة متراصة وحقيقتها لا يعلمها أحد إلا خالقها . . من منها انتقل من أقصى الشرق إلى الغرب ومن منها انتهى عمره فتبدد ومن منها اصطدم بغيره فتوالد عنهما نجوم أخرى وكواكب ومذنبات وأعاصير كونيه لا نعلم عنها شيئًا . . . لهذا جاء هذا القسم الإلهي ليدلنا على صدق المقسوم به كما يضعنا أمام حقيقة أننا بعلومنا قاصرين عن أن نعرف كل شيء . . ولهذا وجب علينا التسليم فيما لا تستطيع أن تستوعبه أبصارنا وعقولنا لقول الله الذي يأتي في الآيات التالية بأمور غيبية عن الروح والجنة والنار . . . هذا القرآن جاء تنزيل ممن سبق علمه ورؤيته كل العلوم والأزمان والأكوان . . . لمن هم قاصرين في علومهم ورؤيتهم ومحدودين بزمانهم وأبعادهم وقدراتهم حتى يتيقنوا من هذا البيان

و الآن، هل نستطيع بعد أن وصلت علومنا إلى ما وصلت إليه، أن نأتي بكلمات مثل هذه الكلمات الواضحة في إشاراتها وتعبيرها وعلمها وشمولها وبساطتها ومغزاها ومنطقها وبيانها وبلاغتها وقوتها وترتيبها بحيث يفهمها الجميع ويؤمن بها الجميع . . . على تفاوت علومهم ومداركهم وتخصصاتهم وعصورهم . . الإجابة معروفة

فبأي حديث بعده يؤمنون

يمكن المراسلة على البريد التالي :

salama_abdelhady@hotmail.com

.

.

.

0-الله والعلاج الطبي (*)

بول إرنست أدولف طبيب وجراح

(176/744)

لإجابة عن السؤال الذي هو موضوع هذا الكتاب أحب أن أقول إنني أؤمن بالله إيمانا راسخاً لا ريب فيه ، وليس إيماني به نتيجة خبرة روحية فحسب ، ولكن اشتغالي بالطب قد دعم ذلك الإيمان . لقد درست ـ عندما كنت أتعلم الطب أحد المبادئ المادية الأساسية التي تفسر ما يحدث من تغيرات داخل الجسم عندما يصيبها عطب أو تلف ، تفسيراً مادياً صرفاً ، كما فحصت قطاعات مجهرية لهذه الأنسجة ، وتبينت أن الظروف المناسبة تعينها على أن تلتئم بسرعة وتتقدم نحو الشفاء . وعندما اشتغلت جراحاً في أحد المستشفيات بعد ذلك ، كنت أستخدم المبدأ السابق استخداما يتسم بالثقة فيه والاطمئنان إليه . ولم يكن عليّ إلا أن أهيئ الظروف المادية والطبية المناسبة ، ثم أدع الجرح يلتئم وكلي ثقة بالنتيجة المرتقبة .

ولكنني لم ألبث غير قليل حتى اكتشفت أنني قد فاتني أن أُضِّمن علاجي وأفكاري الطبية أهم العناصر وأبعدها أثراً في إتمام الشفاء ألا وهو الاستعانة بالله .

وعندما كنت أعمل جراحاً في أحد المستشفيات ، جاءتني ذات يوم جدة جاوزت السبعين تكشو من شدخ في عظام ردفها ، وبعد أن وضعت فترة تحت العلاج أدركت من فحص سلسلة الصور التي أخذت لها على فترات تحت الأشعة أنها تتقدم بسرعة عجيبة نحو الشفاء ، ولم تمض أيام قليلة حتى تقدمت مهنئاً بما تم لها من شفاء نادر عجيب ، عندئذ استطاعت السيدة أن تتحرك فوق المقعد ذي العجلات ، ثم سارت وحدها

متوكئة على عصاها ، وقررت أن تخرج تلك السيدة في مدى أربع وعشرين ساعة وتذهب إلى بيتها ، فلم يعد بها حاجة إلى البقاء في المستشفى .

وكان صباح اليوم التالي هو الأحد ، وقد عادتها ابنتها في زيارة الأحد المعتادة حيث أخبرتها أنها تستطيع أن تأخذ والدتها في الصباح إلى المنزل لأنها تستطيع الآن أن تسير متوكئة على عصاها .

(177/744)

ولم تذكر لي ابنتها شيئاً مما جال في خاطرها ولكنها انتحت بأمها جانباً وأخبرتها أنها قد قررت بالاتفاق مع زوجها أن يأخذا الأم إلى أحد ملاجئ العجزة لأنهما لا يستطيعان أن يأخذاها إلى المنزل . ولم تكد تنقضي بضع ساعات على ذلك حتى استدعيت على عجل لإسعاف السيدة العجوز . ويا للهول ما رأيت . لقد كانت المرأة تحتضر ،ولم تمضي ساعات قليلة حتى أسلمت الروح . إنها لم تمت من كسر في عظام ردفها ولكنها ماتت من انكسار في قلبها . لقد حاولت دون جدوى أن أقدم لها أقصى ما يمكن من وسائل الإسعاف وضاعت كل الجهود سدى . قد شفيت من مرضها بسهولة ولكن قلبها الكسير لم يمكن شفاؤه برغم ما كانت قد تناولته في أثناء العلاج من الفيتامينات والعقاقير المقوية وما

تهيأ لها من أسباب الراحة ومن الاحتياجات التي كانت تتخذ لتعينها على المرض وتعجل لها الشفاء . لقد التأمت عظامها المكسورة التئاماً تاماً ومع ذلك فإنها ماتت . لماذا ؟ إن أهم عامل في شفائها لم يكن الفيتامينات ولا العقاقير ولا التئام العظام ، ولكنه كان الأمل وعندما ضاع الأمل تعذر الشفاء .

أثرت هذه الحادثة في نفسي تأثيراً عميقاً ، وقلت في نفسي : لو أن هذه السيدة وضعت أملها في الله ما ضيعها وما انهارت ولما حدث لها ما حدث . وبرغم أنني كنت أؤمن بالله خالق كل شيء بحكم اشتغالي بالعلوم الطبية ، فإنني كنت أوفق بين معلوماتي الطبية والمادية وبين اعتقادي في وجود الله كما لو لم تكن هنالك صلة بين هذين الأمرين .

(178/744)

ولكن هل يوجد ما يدعو إلى هذا الانفصال بين هاتين الناحيتين ؟ ها هي ذي السيدة العجوز التي تم لها الشفاء وسلامة الجسد فقدت روحها ونظرة التفاؤل إلى الحياة . لقد عقدت كل آمالها حول ابنتها الوحيدة ، وعندما تخلت عنها ابنتها انهارت آمالها فواجهت الموت بدلاً من أن تواجه الحياة . ولقد صدق عيسى عليه الصلاة والسلام عندما قال : "كيف ينتفع الإنسان بهذه الدنيا إذا ملكها كلها وفقد روحه" .

لقد أيقنت أن العلاج الحقيقي لابد يشمل الروح والجسم معاً وفي وقت واحد ،و أدركت أن من واجبي أن أطبق معلوماتي الطبية والجراحية إلى جانب إيماني بالله وعلمي به ، ولقد أقمت كلتا الناحيتين على أساس قويم . بهذه الطريقة وحدها استطعت أن أقدم لمرضاي العلاج الكامل الذي يحتاجون إليه . ولقد وجدت بعد تدبر عميق أن معلوماتي الطبية وعقيدتي في الله هما الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه الفلسفة الطبية الحديثة .

و الواقع أن النتيجة التي وصلت إليها تتفق كل الاتفاق مع النظرية الطبية الحديثة عن أهمية العنصر السيكولوجي في العلاج الحديث ، فقد دلت الإحصائيات الدقيقة على أن 80% من المرضى بشتى الأمراض في جميع المدن الأمريكية الكبرى ترجع أمراضهم إلى حد كبير إلى مسببات نفسية ،و نصف هذه النسبة من الأشخاص الذين ليس لديهم مرض عضوي في أية صورة من الصور . وليس معنى ذلك أن هذه الأمراض مجرد أوهام خيالية حقيقة ، وليست أسبابها خيالية ولكنها موجودة فعلاً ويمكن الوصول إليها عندما يستخدم الطبيب المعالج بصيرته بها .

فما هي الأسباب الرئيسية لما نسميه الأمراض العصبية ؟

إن من الأسباب الرئيسية لهذا الأمراض الشعور بالإثم والخطيئة والحقد والقلق والكبت والتردد والشك والغيرة والأثرة والسأم . ومما يؤسف له أن كثيراً ممن يشتغلون بالعلاج النفسي قد ينجحون في تقصي أسباب الاضطراب النفسي الذي يسبب المرض ، ولكنهم يفشلون في معالجة هذه الاضطرابات لأنهم لا يلجأون في علاجها إلى بث الإيمان بالله في نفوس هؤلاء المرضى .

ونحب فوق ذلك أن نتساءل عن هذه الاضطرابات الانفعالية والعوامل التي تسبب تلك الأمراض ، إنها هي ذاتها الاضطرابات التي جاءت الأديان لكي تعمل على تحريرنا منها . فلقد أحاط الله بقدرته وحكمته حاجاتنا النفسية ودبر لها العلاج الكامل . ولقد وصف الأخصائيون النفسيون القفل الذي يغلق باب الصحة ، وأدنا الله بالمفتاح الذي يفتح هذا الباب . ولا يمكن أن يقودنا التخبط الأعمى إلى فتح هذا القفل المعقد ، بل إنه لا يستطيع أن يمدنا بالمفتاح الذي يفتح باب الروح الإنسانية ، فالله وحده هو الذي يستطيع أن يهدينا طريق الصواب ،ويقول الشاعر كوبر في هذا المعنى :

الجحود الأعمى يوقعنا في الأخطاء

ويجعلنا نبعثر آياته ونكفر بها

استعن بالله على فهم الأمور

وسوف يوضح لك كل غامض عليك

فماذا يخبرنا الله ـ المستعان على فهم الأمور ـ عن هذه المفاتيح ؟ إن ذلك يتلخص في أننا نركب الإثم والذنوب ونحتاج إلى عفو الله ومغفرته ، حتى نعود إلى رحابه ونعفو عن غيرنا إن المذنبين الذين ينالهم هذا الصفح تتجلى في نفوسهم روح الله فيذهب عنهم الخوف القلق ،ولا يكون هنالك سبيل إلى إصابتهم بالكبت والغيرة والأثرة .

فعندما تحل محبته في القلب ، تفارقها الشرور والآثام ، ولا ينتابها السأم وتفيض بالآمال الحية التي تنبعث منها الحياة .

(180/744)

لقد وجدت في أثناء ممارستي للطب أن تسلحي بالنواحي الروحية إلى جانب إلمامي بالمادة العلمية يمكناني من معالجة جميع الأمراض علاجاً يتسم بالبركة الحقيقة ،أما إذا أبعد الإنسان ربه عن هذا المحيط ، فإن محاولاته لا تكون إلا نصف العلاج ، بل قد لا تبلغ هذا القدر .

فمعظم القرح المعدية لا ترجع إلى ما يأكله الناس كما يقال ، وإنما إلى ما تأكل قلوبهم ، ولابد لعلاج المريض بها من علاج قلبه وأحقاده أولاً ، وليكن لنا أسوة بالأنبياء الذين كانوا يصلون من أجل أعدائهم ويدعون لهم بالخير . فإذا تطهرت قلوبنا وصرنا مخلصين ، فإننا نشق

طريقنا نحو الشفاء ،و بخاصة إذا كان العلاج الروحي مصحوباً بتناول المواد ضد الحامضية وغيرها من العقاقير التي تساعد على الشفاء من هذه القرح .

و هنالك كثير من الحالات النفسية التي يلعب الخوف والقلق دوراً هاماً فيها ، فإذا عولج الخوف والقلق على أساس تدعيم إيمان الإنسان بالله ، فإن الصحة والشفاء يعودان إلى الإنسان بصورة كأنها السحر في كثير من الحالات .

و لا يتسع المقام لذكر كثير من الحالات التي تم فيها الشفاء فوراً بسبب الالتجاء إلى الله والثقة به ، وقد وصفت كثيراً من هذه الحالات في أحد الكتب التي ألفتها وهو كتاب " الصحة تتدفق " ، وبينت في هذا الكتاب كيف كان الإيمان بالله جزءاً هاماً من العلاج النفسي والطبي ، وكيف أدى إلى نتائج تدعو إلى العجب .

إن الجسم الإنساني يصبح على أفضل ما يمكن عندما يكون على وفاق مع صانعه وخالقه ، وبدون ذلك يصيبنا الاضطراب والمرض .

نعم هنالك إله . ولقد عرفته في مواطن كثيرة ، وهو الذي يشفي العظام المكسورة والقلوب المحطمة .

(*) حاصل على درجة الماجستير والدكتوراه من جامعة بنسفانيا عضو الإرسالية الطبية بالصين ـ عضو جمعية الجراحين الأمريكية ـ

مؤلف عدة كتب في رسالة الطب .

المصدر :

عن كتاب "الله يتجلى في عصر العلم . ."

جمعها : جون كلوفر مونسما

(181/744)

ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان

الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع القاهرة

.

.

.

0-دورة حياة النباتات الزهرية

Life cycle of Flowaring plants

بقلم الدكتور نظمي خليل أبو العطا

تتميز النباتات الزهرية بالعديد من المميزات النباتية فهي نباتات بذرية (Seed

plants) تنتج البذور (Seeds) ، وهي نباتات زهرية تنتج الأزهار (Flowers) ، وهي كاسية البذور (Angiosperms) أي أن بويضاتها مغطاة بنسيج يحجبها عن الوسط الخارجي , وأن المشيج المذكر (Male gamet) وهو حبة اللقاح (Pollen grain) لا يسقط مباشرة على المشيج المؤنث (Female gomet) أي البويضة (Egg) بل يسقط على تركيب معين ثم تنبث حبة اللقاح لتعطي أنبوبة لقاح (Pollen tube) تصل الأنبوبة المذكرة في حبة اللقاح إلى الأنبوبة المؤنثة في المبيض (ovary) . كما تتميز النباتات الزهرية بالتخصيب الثنائي (Binary fertilization) وفيه يتم تخصيب الخلية البيضية (Egg cell) بإحدى أنوية حبوب اللقاح وهي النواة الذكرية (Malenuculus) ، وفي الوقت نفسه يتم اتحاد نواة أخرى من حبة اللقاح بنواة الأندوسيرم (Indosperm nucleus) في المبيض .

.وتتميز النباتات الزهرية كما قلنا بوجود الزهرة (Flower) ، والزهرة عبارة عن ساق (Stem) تقاربت عقدها (Nodes) وسلامياتها (Internodes) وتحورت أوراقها لتعطي التراكيب والأوراق الزهرية المكونة للزهرة مثل السبلات (Sepals) والبتلات (Petals) والكرابل (Carbels) المشتملة على المبيض (ovary) والقلم (Style) والمتاع (Stigma) وأعضاء التذكير (Stemen) المكونة من

الخيط (Filament) والمتك (Anther) وقد تكون الأزهار مفردة , أو تتجمع في مجموعة أزهار تسمى بالنورة (Inflorecence) كسنابل القمح .

الشكل التالي يبين أقسام الزهرة

(182/744)

وهي تنتج الثمار ومنها الحبوب (Groins) وبداخل الثمار توجد البذور (Seeds) وقد فرق الله سبحانه وتعالى بين الحبوب والبذور بقوله :) إن الله فالق الحب والنوى (الأنعام (59) فالنواة هي البذرة، وخصص الحبوب بالذكر عندما قال :) مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة (البقرة (261) .

.وهناك النباتات الزهرية المؤنثة , والنباتات الزهرية المذكرة، وهناك النباتات الحاملة لأعضاء التذكير والتأنيث مثل الذرة (Zea mays) وهناك الأزهار المذكرة والأزهار المؤنثة والأزهار الخناث (Herma frodite Flowers) التي تحمل أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث .

.وتبدأ دورة حياة النبات الزهري بإنبات البذور والحبوب الناضجة في وجود الماء[1]

والتي تنبت لتعطي البادرات (Seedling) المكونة من الجذير (Radical)

والرويشة (Plumule) .

.تنبت البادرات لتعطي النبات الزهري الجرثومي (n2) الذي يحمل الأزهار حاملة

للمشيج المذكر (Male gamet) وهو حبة اللقاح (Pollen grain) والمشيج

المؤنث (Female gametes) الممثل بالبويضة (Egg) .

.تسقط حبة اللقاح بعد انتقالها بالهواء أو الحيوان أو الإنسان أو الماء أو التلقيح الذاتي إلى

الميسم (Stigma) وبذلك تتم عملية التلقيح (Pollination) .

.وإذا تم انتقال حبوب اللقاح من متك الزهرة إلى ميسم نفس الزهرة أو أي زهرة على نفس

النبات سمي بالتلقيح الذاتي (Pollination Silf) .

.أما إذا انتقلت حبوب اللقاح من متك زهرة إلى ميسم زهرة أخرى على نبات آخر سمي

ذلك بالتلقيح الخلطي (Pollination Cross) .

.تنبت حبة اللقاح على الميسم ويخرج منها أنبوبة اللقاح (pollen tube) وتنتقل

أنبوبة من حبة اللقاح إلى أنبوبة اللقاح التي تخترق أنسجة القلم لتصل إلى البويضة والأنوية

الاندوسيرمية لتتم عملية التخصيب .

.ولا تنبت حبة اللقاح وتدخل أنبوبتها إلى أنسجة الميسم (Stigma tissues) أو القلم (Style) إلا إذا كان هناك توافقاً وراثياً كيميائياً حيوياً بين أنسجة حبة اللقاح وأنسجة الزهرة المؤنثة , فملايين حبوب اللقاح تسقط على آلاف المياسم ولكن لا يتم التخصيب إلا بين النباتات المتوافقة وراثياً , وبذلك تحفظ الأجناس والأنواع من الخلط العشوائي، وتحتفظ النباتات بخصائصها الحيوية , وهذا من بديع صنع الله، ومن دلائل قدرته وتقديره وعلمه وحكمته .

.بعد الإخصاب يبدأ تكوين الثمار والبذور والحبوب التي تحمل في داخلها جميع الصفات الوراثية اللازمة لحياة النبات والحافظة لخصائصه العامة والخاصة , وقد جاءت هذه الصفات من خلط صفات النبات المذكر وصفات النبات المؤنث في عملية الانقسام الاختزالي (Miosis) والاقتران (Synapsis) والخلط بين الكروموسومات بالتلقيح والإخصاب، وكل هذه العمليات المعقدة والمقدرة والمحسوبة تتم في النبات البسيط في الصحراء القاحلة بعيداً عن معاهد العلم والعلماء ومراكز البحوث والجامعات ومع ذلك فكل شيء بحساب عجيب مقدر .

.فمن قدر هذا ؟ !

– ومن خلق هذا ؟ ! !

(قال ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى) (طه : 50)

الصدفة العمياء ، والطفرة المعيبة، والانتخاب الطبيعي العاجز كما يدعي الداروينيون ؟ !

أم الواحد الأحد الخالق القادر المقدر الذي خلق الخلق بقدرته وعظمته وقدر كل شيء

فيه بعظمته القادر على كل شيء صاحب الخلق والأمر سبحانه القائل :) ألا له الخلق

والأمر تبارك الله رب العالمين ([الأعراف : 54] .

[1] -انظر موضوع (ما كان لكم أن تنبتوا شجرة) وموضوع (إن الله فالق الحب والنوى)

في كتابنا آيات معجزات من القرآن الكريم وعالم النبات .

.

.

.

0-معجزة التألق الحيوي

بقلم الباحث عبد الدائم الكحيل

عندما ذهب سيدنا موسى إلى فرعون ليدعوه إلى الإيمان بالله قال له فرعون : ومن هو الله ؟ فقال موسى عليه السلام : (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه : 50] .

لقد كانت هذه الكلمات تكفي لإثبات صدق موسى عليه السلام ولكن فرعون لم يفقه كلام الله عز وجل . هذه الكلمات تحوي معجزة عظيمة . ففي كل يوم تصدر الأبحاث العلمية وتكشف أشياء جديدة تثبت أن المخلوقات لا يمكنها أن تطور أجهزتها للتأقلم مع البيئة، بل هنالك برنامج دقيق في داخلها يتحكم بكل حركة من حركاتها .

ومن الأشياء العجيبة التي رأيتها تلك المخلوقات التي تعيش على عمق آلاف الأمتار تحت مياه المحيطات والبحار، وقد زوّدها الله تعالى بأجهزة تستطيع من خلالها أن تصدر الأشعة الضوئية ! على عمق 3000 متر تعيش سمكة لم يعرف عنها الإنسان شيئاً إلا منذ سنوات قليلة .

هذه السمكة خلقها الله بشكل عجيب . فهي تختلف عن باقي الكائنات بأن في جسمها تجري تفاعلات كيميائية تؤدي لإطلاق كميات من النور . وبالرغم من أن ضغط الماء على هذا العمق يكون بحدود 300 ضعفاً للضغط الجوي على سطح البحر !

وهذا يعني بأن كل سنتمتر مربع من جسم السمكة يوجد عليه ضغط مقداره 300 كيلو غرام ! ! ! كيف تتحمل هذه السمكة الضعيفة كل تلك الضغوط ؟ ومن الذي هيّأها

لتعيش على هذا العمق وبالرغم من الظلمات التي تحيط بها ، فإن الله لم ينسها أبداً بل سخر لها رزقها وطعامها وحتى هداها إلى طريقها !

فهي لا تستخدم أجهزة الإنارة ولا ترتدي اللباس الواقي من الضغط العالي، ولا يوجد لديها مكيفات لتجنبها برودة الماء، كل ما لديها دماغ بسيط، قد أودع الله فيه البرامج التي لا تتعطل ولا تختل وليس هنالك فيروسات تهددها ، إنها هداية الله تعالى الذي قدّر فهدى !

(185/744)

وتحدث هذه الإنارة الحيوية نتيجة تفاعلات داخل خلايا السمكة، عندما تتحد ذرات من مواد معينة بمشاركة ذرات من الأكسجين والكالسيوم، وتتحرك بنتيجتها الإلكترونات من مدار داخلي إلى مدار خارجي في الذرة وبالتالي تطلق الفوتونات الضوئية .

شكل (1) سمكة مضيئة ! هذه السمكة تعيش على أعماق كبيرة تحت سطح البحر، وبالرغم من الضغط العالي للماء وبرودته، فقد سخر الله لها نظاماً متطوراً للإنارة تعجز عن تقليده أحدث وسائل القرن الواحد والعشرين ! لم ينس الله من فضله هذا المخلوق وهو غير عاقل، فكيف ينسى إنساناً يقول (لا إله إلا الله) ! ! !

قد تعجب عزيزي القارئ عندما تعلم بأن القرآن قد أشار إشارة خفيفة ولطيفة إلى هذه المخلوقات التي جعل الله لها نوراً بتقديره وكرمه ورحمته . فقد تحدث القرآن عن الظلمات في البحر اللجي فقال : (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا) [النور : 40] .

وبالرغم من هذه الظلمات والتي تشبه أعمال الكافر الذي يحارب الله ورسوله، إلا أن الله قد أنار الطريق للمخلوقات التي تعيش تحت الماء وفي ظلام البحار، بل وقال : (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) [النور : 40] .

وكأن الله تعالى يريد أن ينبهنا إلى أنه قد جعل لبعض مخلوقاته نوراً ، ولكن هل هنالك أجمل من نور القرآن ومن نور كلام الله تبارك وتعالى ؟ وهل نتدبر كلام الله تعالى ونتأمل ما فيه من معجزات ؟ إذا كان فرعون قد رفض نداء الحق، فهل نقبله نحن ؟ ولكن الكلام لا يكفي، بل يجب أن نستجيب لنداء الله في تدبر القرآن وأن نعطيه أفضل أوقاتنا ولا نجعله على هامش أعمالنا .

(186/744)

وتأمل عزيزي القارئ كيف أن الحديث عن أعماق البحر ارتبط بالحديث عن ظلمات البحر، وكذلك ارتبط بالحديث عن النور الذي يجعله الله لمن يشاء من خلقه، وعطاء الله تعالى لا يقتصر على البشر بل رحمته وسعت كل شيء من خلقه.

وصدق الله تعالى عندما قال على لسان نبيه موسى عليه السلام: (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه: 50]. فتبارك الله خالق كل شيء، ونرجو من الله تعالى أن يهدينا ويجعل لنا نوراً نمشي به في ظلمات هذا الزمن.

يقول الشاعر:

لله في الآفاق آيات لعلّ

أقلها هو ما إليه هداكا

ولعل ما في النفس من آياته

عجبٌ عجابٌ لو ترى عيناكا

والكون مشحون بأسرار إذا

حاولت تفسيراً لها أعياكا

قل للطبيب تخطفته يد الردى

من يا طبيب بطبه أرداكا

قل للمريض نجا وعوفي بعد ما

عجزت فنون الطب من عافاكا

قل للصحيح يموت لا من علة

من بالمنايا يا صحيح دهاكا

قل للبصير وكان يحذر حفرةً

فهوى بها من ذا الذي أهواكا

بل سائل الأعمى خطا بين الزحـ

ام بلا اصطدام من يقود خطاكا

قل للجنين يعيش معزولاً بلا راعٍ

ومرعى ما الذي يرعاكا

قل للوليد بكى وأجهش بالبكا

لدى الولادة ما الذي أبكاكا

وإذا ترى الثعبان ينفث سمه

فاسأله من ذا با لسموم حشاكا

واسأله كيف تعيش يا ثعبان

أو تحيا وهذا السم يملأُ فاكا

واسأل بطون النحل كيف تقاطرت

شهداً وقل للشهد من حلاّكا

بل سائل اللبن المصفى كان

بين دمٍ وفرثٍ من الذي صفّاكا

وإذا رأيت الحي يخرج من حنايا ميت

فاسأله من يا حي قد أحياكا

قل للنبات يجف بعد تعهدٍ

ورعايةٍ من بالجفافِ رماكا

وإذا رأيت النبت في الصحراء

يربو وحد فاسأله من أرباكا

وإذا رأيت البدر يسري ناشراً

أنواره فاسأله من أسراكا

واسأل شعاع الشمس يدنو وهي

أبعد كل شيء ما الذي أدناكا

قل للمرير من الثمار من الذي

بالمر من دون الثمار غذاكا

وإذا رأيت النخل مشقوق النوى

فاسأله من يا نخل شق نواكا

(187/744)

وإذا رأيت النار شب لهيبها

فاسأل لهيب النار من أوراكا

وإذا ترى الجبل الأشم مناطحاً

قمم السحاب فسله من أرساكا

وإذا ترى صخراً تفجر بالمياه

فسله من بالماء شق صفا كا

وإذا رأيت النهر بالعذب الزلال

سرى فسله من الذي أجرا كا

وإذا رأيت البحر بالماء الأجاج طغى

فسله من الذي أطغا كا

وإذا رأيت الليل يغشي داجياً

فاسأله من يا ليل حاك دجا كا

وإذا رأي الصبح يسفر ضاحكاً

فاسأله من يا صبح صاغ ضحا كا

ستجيب ما في الكون من آياته

عجبٌ عجابٌ لو ترى عيناكا

ربي لك الحمد العظيم لذاتك

حمداً وليس لواحدٍ إلاّكا

يا مدرك الأبصار والأبصار

لا تدري له ولكنهه إدراكا

إن لم تكن عيني تراك فإنني

في كل شيء أستبين علاكا

يا منبت الأزهار عاطرة الشذى

ما خاب يوماً من دعا ورجاكا

يا مجري الأنهار عاذبة الندى

ما خاب يوماً من دعا ورجاكا

يا أيها الإنسان مهلاً ما الذي

با لله جل جلاله أغراكا

اللهم نوّر قلوبنا بنور القرآن الكريم

الباحث عبد الدائم الكحيل

للتواصل والتعارف على البريد الإلكتروني

kaheel7@yahoo.com

المراجع

انظر بعض المقالات باللغة الإنكليزية :

http : //en.wikipedia.org/wiki/Bioluminescence0-column-one

http : //www.rain.org/homeschool/ocean-studies-bioluminescence-intro.html

انظر أيضاً مقالة للمؤلف بعنوان : الأمواج العميقة في المحيطات على الرابط :

http : //55a.net/firas/arabic/index.php?page=show_det&page=11_select&id=606

.

.

.

0-دورات البناء الضوئي

Cycles Of Photosynthesis

بقلم الدكتور نظمي خليل أبو العطا

دورات البناء الضوئي من أهم الدورات التي تتم على الأرض , ففيها يتم تحويل الطاقة الضوئية الشمسية الهائلة من طاقة كهرومغناطيسية Electromognatic Energy)) يصعب على الكائنات الحية الاستفادة منها إلى طاقة كيميائية Chemoenergy)) مخزنة في روابط الجلوكوز وفق المعادلة التالية (1) :

(188/744)

$CO_2 + 12\ H_2O + ligh + energ\ chlorophyy = 2C_6\ 6\ H_{12}O_6 + 6H_2O$

ورغم بساطة هذه المعادلة في وضعها السابق ولكنها تتم في خطوات معجزة ومعقدة

ومقدرة .

- تتم هذه المعادلة في نوعين من الدورات المتباينة والمختلفة .

- الأولى تسمى تفاعلات الضوء (ligh reactions) أو التفاعلات المعتمدة على الضوء The light Dependent reactions)) وهي تفاعلات تعتمد على وجود الضوء وتعمل عليه .

- الثانية تسمى تفاعلات الظلام (Dark reactions) أو التفاعلات المعتمدة على الظلام Independent reactions)) أو تفاعلات دورة كالفن (Calven cycle reactions) وهي تفاعلات تعمل ليلاً وفي الظلام استغلالاً للمنتجات الصباحية (النهارية) التي أنتجت في الضوء .

- وهنا تظهر أهمية الليل في الحياة , لذلك جعل الله الليل والنهار آيتين, وقدم الله الليل على النهار في كل آيات القرآن الكريم في الذكر لأهميته في الحياة .

- وقد سميت تفاعلات الظلام باسم مكتشفها كالفن, وتعمل تفاعلات دورة كالفن في النباتات ذوات الفلقتين (Dicot) أو (Dicotyledon) وهي مركبات ثلاثية الكربون ولذلك تسمى دورة الكربون الثلاثي .

- وهناك دورة هاتس سلاك (Hatch slak) وهي تعمل في النباتات ذوات الفلقة الواحدة (Monocot) or Monoctyledon) .

*وتبدأ عملية البناء الضوئي بسقوط الضوء على مجموعة من الخلايا النباتية المتجاورة مكونة لنظام ضوئي داخل البلاستيدات الخضراء .

* عندما يسقط الضوء تحدث إثارة للالكترونات الخارجية في الخلايا ، ترفع هذه الطاقة طاقة الهيدروجين وتدفعه إلى داخل الثلاكويدات (2) (Thallachoids) ، وبذلك يزداد تركيز أيونات الهيدروجين المحمل بالطاقة داخل الثلاكويدات عن تركيزها في الحشوة (Stroma) المحيطة بالثلاكويدات في البلاستيدات، هذا الفارق يحدث منحدراً أيونياً كهربائياً بين فارق التركيز داخل الثلاكويدات وخارجها .

(189/744)

.يتم نفاذ طاقة أيون الهيدروجين في هذا المنحدر الأيوني عبر جزيئات (ADP) ة (3) والتيترتفع طاقتها لتتحول إلى (ATP) ة (4) .

.تنتقل بعض هذه الطاقة الالكترونية عبر جزيئات (NADP) ة (5) منخفض الطاقة ليعطي NADPH+ مرتفع الطاقة وبذلك يتكون مركبين مرتفعين القيمة الطاقية هما (ATP) وNADPH .

.يستغل جزء من الطاقة الضوئية المنتقلة إلى الالكترونات في شطر (Spliting)

جزيئات الماء (HO2) إلى أيونات الهيدروجين وأيونات الأكسجين .

.يدخل أيون الهيدروجين في العمليات الحيوية التالية، وينطلق الأكسجين .

الشكل التالي يبين عملية التركيب الضوئي المعقدة التي تتم في أوراق النبات الحي

.ولذلك فإن مصدر الأكسجين الناتج في عملية البناء الضوئي ناتج من الماء المشطور، أي أنه أكسجين الماء بعد نزع الهيدروجين منه، وبذلك يتحقق قول الله تعالى :) وجعلنا من الماء كل شيء حي ([الأنبياء : 30] .

.وهذا سبق علمي اكتشفته في فبراير 2005م والحمد لله .

.حيث أننا نتنفس أكسجين الماء، وتتنفسه الكائنات الحية هوائية التنفس (Arobic respiration) علاوة على وظائف الماء الحيوية الأخرى في أجسام الكائنات الحية .

.عمليات دورة كالفن Calven cycle :

دورة كالفن هي إحدى الدورات الحيوية المهمة في عملية تثبيت الطاقة خاصة في النباتات ذوات الفلقتين (Dicot plants) وفيها يتم تثبيت الكربون الموجود في ثاني أكسيد الكربون لتكوين أول مركب كربوهيدراتي ثابت أمكن فصله يسمى جلسرالدهيد ثلاثي الفوسفات (6) وهي تتم في حشوة (Stroma) البلاستيده الخضراء خارج التلاكويدات .

.وفيها يتم استغلال الطاقة سابقة التخزين في التفاعلات الضوئية في عملات الطاقة من جزيئات (ATP) و(NADPH) .

.يبدأ ذلك باتحاد ثاني أكسيد الكربون (CO2) والماء مع (RUBP) ء (7)

(190/744)

يتم بعد ذلك تحويل (PGA) ء (9) إلى (PGL) ء (10) باستخدام طاقة (ATP) ت (11) أو (NADPH) ء (12)

.يمكن استخدام (PGAL) لتخليق الجزيئات العضوية مثل الجلوكوز (Glucose) ويتحول (NADPH) إلى (NADP+) .

.كما يتحول (ATP) إلى (ADP) .

.وبذلك تخزن الطاقة الضوئية في الروابط الكيميائية بين ذرات المركبات الكربوهيدرائية الناتجة، ويثبت الكربون الموجود في ثاني أكسيد الكربون الجوي، كما يثبت الهيدروجين الموجود في الماء, وفي النهاية يتكون الجلوكوز (Glucose) الذي ينتقل إلى دورات تحرير الطاقة لتعاد دورة العناصر والمركبات والطاقة من جديد .

.أهم شيء في هذه الدورات هو تثبيت ثاني أكسيد الكربون لتكوين الجلوكوز، وهذه

العملية تتم في عمليات معقدة يمكن تيسيرها فيما يلي .

. تتفاعل كل ست جزيئات من (RUBP) ء (13) مع ست جزيئات من ثاني أكسيد الكربون (CO2) وست جزيئات من الماء (H2O) لتكوين 12 جزيء (PGA) ء (14) وبذلك يثبت الكربون .

. تستغل طاقة (12) جزيء (ATP) والكترونات وهيدروجينات (12) جزيء NADPH2 لتحويل (12) جزيء من (PGA) إلى (12) جزيء (PGALs) .

. تستغل طاقة (6) جزيئات (ATP) لإعادة ترتيب (10) جزيئات (PGALs) ليتكون (6) جزيئات (RUBPs) ، وبذلك تتم دورة واحدة من دورات كالفن (أي دورة تثبيت الكربون الثلاثي) .

. هناك دورة أخرى تسمى دورة ها تش . سلاك (Hatch slak pathway) لتثبيت ثاني أكسيد الكربون في النباتات ذوات الفلقة الواحدة عن طريق الكربون الرباعي (C4) .

الشكل التالي يبين دورة كالفن أثناء عملية التركيب الضوئي

. وبذلك تتم أهم عملية على سطح الكرة الأرضية وهي عملية تكوين المواد

الكربوهيدرائية من ثاني أكسيد الكربون والماء وتخزن الطاقة الشمسية في الروابط الكيميائية في تلك المواد الكربوهيدائية وينطلق الأكسجين إلى الجو بعملية البناء الضوئي .

(191/744)

- بعد ذلك يحول النبات المواد الكوبوهيدرائية إلى مواد دهنية, ومواد بروتينية , والمركبات النباتية الأخرى .

- يتغذى الحيوان والكائنات الحية الدقيقة الفطرية والبكتيريا على المنتجات النباتية .

- ويتغذى الإنسان على المنتجات النباتية, والمنتجات الحيوانية , ومنتجات الكائنات الحية الدقيقة الصالحة للأكل البشري .

وهذه أضخم عملية في العالم فكل :

- كربوهيدرات العالم تكون بها .

- دهن العالم تكون بها .

- بترول العالم تكون بها . .

- فحم العالم تكون بها .

- أكسجين العالم نتج منها .

.خلصت الإنسان من النسب الزائدة والمحررة من ثاني أكسيد الكربون .

.فهل هناك مصنع في العالم يقدر على ذلك ؟ ! .

.وهل هذه العمليات تمت بالصدفة والعشوائية ؟ .

.وماذا لو عرضنا عليكم كل مركبات هذه الدورات، وتركيبها الكيميائي والفيزيائي,

وكيف تكونت، وما فوائدها الحيوية لاحتجنا إلى مجلدات ضخمة وصدق الله العظيم :)

قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله

مدداً ([الكهف : 19] .

.وكل هذه الدورات من كلمات الله التي أنعم الله بها على عباده .

[1] –انظر موضوعنا مجمع مصانع تنبيت الطاقة وتحريرها وتخزينها .معجزة علمية .

.وكذلك موضوع أسواق الطاقة الحيوية .معجزة علمية في كتابنا معجزات حيوية .

[2] –انظر تركيبها الدقيق في موضوعنا مجمع مصانع الطاقة .

([3] – Adenosine diphoshate = ADP

([4] – Adenosine Triphosphate = ATP

([5] – NADP Nicotinamid Adenine Dinucleiotide

=Phosphate

Nicotinamid Adenine Dinucleiotide Hydro –[6])

Phosphate =NADPH

Rubp) : Riblose Biphosphate)–[7])

PGA= Phosphoglyceric acid –[8])

PGAL= Phosphoglyceraldehed –[9])

ATP= Adinosine Triphosphate –[10])

NADPH= Nicotinamid Adenine Dinucleiotide –[11])

Hydro Phosphate

RUBP= Riblose Biphosphate –[12])

PGA= Phosphoglyceric acid –[13])

.

.

.

0-سمكة منقوش عليها لفظ الجلالة واسم محمد

قال الله تعالى : (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) [سورة الرعد]

في خضم الاحتجاجات التي عمت البلاد الإسلامية استنكارا لنشر الصحف الأوروبية رسوما تسيء إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، نشرت صحيفة ذي غارديان البريطانية صورة سمكة من نوع أوسكار تحمل على حراشفها لفظ الجلالة (الله) واسم الرسول صلى الله عليه وسلم (محمد) .

وقالت الصحيفة إن حشودا تجمهرت في محل لبيع الحيوانات الأليفة في مدينة بيري البريطانية بشمال البلاد الأسبوع الماضي عقب رؤية لفظ الجلالة على أحد جانبي السمكة التي جيء بها من سنغافورة، واسم رسوله "محمد" على الجانب الآخر .

سمكة أوسكار وعليها لفظ الجلالة واسم محمد (صحيفة غارديان)

ونقلت الصحيفة عن محمد رضا شاهد (38 عاما) الذي يملك مطعما بالقرب من هذا المحل، قوله "ما من شك في أنها رسالة من الله ورسوله" .

وأضاف قائلا "إن اليهود والنصارى يؤمنون بالله، لذا فإن الله بعث بها كإشارة للجميع بأنه موجود" .

ووافقه الرأي بيتر هيترز (17 عاما) الذي قال "إنها إشارة، بدون أدنى شك قد تكون من الله، إنه لأمر مذهل خاصة في هذه الظروف"

وقالت الصحيفة إن أكثر الزائرين ذهولا كان ذلك الرجل الذي جاء من قرية قريبة وقد طلب عدم ذكر اسمه، حيث زعم أنه رأى في منامه الليلة السابقة حوتا يحمل كلمتي "الله" و"محمد" على رأسه.

وأضاف في دهشة عارمة "إن هذا حقيقي، وحالما سمعت بهذا الخبر جئت عدوا، لم أكن متأكدا من حلمي حتى رأيت السمكة على التلفاز".

المصدر: جريدة الغاردين البريطانية اليومية تحت عنوان (A fish called Allah)

على الرابط التالي:

http : //www.guardian.co.uk/uk_news/story/0,,1700465,00.html0-article_continue

(193/744)

http : //www.guardian.co.uk/uk_news/story/0,,1700465,00.html

.

.

.

0–حقيقة الحياة الدنيا

بقلم هارون يحيى

تأمل صورة هذه الرجل يقدر عمره بسبعين عاما . ترى ماذا يدور في خلده حول الأيام التي مضت من عمره ؟

هذا وغيره من الناس من الذين عاشوا قرابة سبعين أو ثمانين عاما يصابون بالدهشة والاستغراب ويتساءلون في أنفسهم : كيف مرت كل هذه الأعوام الطويلة بهذه السرعة دون أن يشعروا بها ؟ بل سيقولون لك : "لم أفهم شيئا يذكر من هذه الحياة التي مرت في لمح البصر" ! .

وعندما كانت هذه الرجل في العشرين من عمره وفي ريعان شبابه لم يكن يتصور أبدا أن يد الشيخوخة سوف تطاله في يوم من الأيام ولم يدر ذلك في خياله .

ولو طلبنا من هذه الرجل أن يلخص لنا كتابة حياته التي عاشها فسوف يقول لك : "أجل ! . . . لقد مرت كل هذه الأعوام في لمح البصر وإذا أردت مني أن أدونها لك فلا أستطيع سوى كتابة خمسة أو ستة أسطر, أو إذا أردت فيمكن أن أتكلم عنها لمدة ست ساعات . . . هذا كل ما في الأمر" ! .

إن الشخص الذي عاش في خضم كل هذه الأعوام ستتبادر إلى ذهنه بعض الأسئلة المهمة :

- ما غاية هذه الحياة التي مرت كلمح البصر ؟

- لأي غاية عشت هذه الأعوام السبعين ؟

- حسنا ! . . . ماذا سيحدث بعد الآن ؟

لاشك بأننا سنسمع رأيين مختلفين لو طرحنا هذا السؤال على مجموعتين من الناس . المجموعة الأولى هي المجموعة غير المؤمنة بالله والمجموعة الثانية هم الأشخاص الذين يؤمنون إيمانا صادقاً لا يعتريه الشك بوجود الله . إن إجابة أي شخص من المجموعة الأولى -على الأغلب - ستكون كالأتي :

" لقد مرت معظم سنين حياتي لغايات تافهة وفارغة, فلم أفهم بوضوح لأي غاية عشت هذه السنين السبعين . بداية كنت أعيش من أجل أمي وأبي ومن ثم من أجل زوجتي ومن ثم لأجل أولادي . . . أما الآن فإن الموت بدأ يقترب مني وسأرحل قريبا عن هذه الدنيا . . . وماذا بعد ذلك ؟ . . . ماذا سيحدث بعد ذلك ؟ لا أدري . . . ولكن بالتأكيد سينتهي كل شيء . "

إن أسباب هذا الفراغ الذي يقع فيه أمثال هؤلاء هي عدم إدراكهم غاية خلق جميع الموجودات والأحياء, وهذه الغاية هي وراء خلق جميع هذه الكائنات . إن الإنسان العاقل الذي إذا ألقى نظرة من حوله سيدرك أن هذا النظام المدهش والفريد من نوعه الذي يحيط به قد أوجده وصوره خالق ينفرد بعلم لانهائي وبقدرة غير محدودة . إن عدم ظهور هذه الموجودات والكائنات بشكل اعتباطي أو عشوائي أو نتيجة مصادفات، بل ضمن مخطط زمني منظم غاية النظام يجسد الغاية التي خلقت من أجلها . وإن هذه الغاية قد دلنا عليها رب العالمين من خلال كتابه العزيز وهو القرآن الكريم المرسل هدى للناس أجمعين .

إن الشخص المؤمن بالله عز وجل والذي يضع نصب عينيه هذه الحقائق سيجيب على هذه الأسئلة السابقة بصورة صحيحة وسيقول :

" لقد خلقني الله رب العالمين وأرسلني إلى هذه الدنيا , وكلفني أن أقضي هذه المدة في العبودية له وبأحسن وجه, وقد أختبرني لهذا الغرض وأمتحنني . وكنت أعلم مسبقا بأن

هذه الحياة قصيرة وزائلة وستمر في لمح البصر, لذا بذلت جهدي لكي أكون عبداً مطيعاً لا ينخدع بمباهج هذه الحياة الفانية وبملذاتها .

ثم تسألني : ماذا بعد ذلك ؟ . . . لقد حاولت طوال حياتي أن أكون عبدا صالحا أقوم بجميع ما أمرني الله به على أكمل وجه، لأن طموحي وأملي كان هو الفوز بالسعادة الأبدية بالدخول إلى الجنة، والفوز بها . وأنا انتظر بفارغ الصبر اليوم الذي أمثل فيه أمام رب العالمين" .

(195/744)

ولاستعراض الفرق بشكل أفضل بين هاتين المجموعتين التي ورد ذكرهما أعلاه يستحسن أن نركز على هاتين النقطتين :

إن إيمان أكثرهم بوجود الله لا يمثل الإيمان الحقيقي, فكثير منهم يؤمنون بوجوده ولكنهم لا يدركون الأهمية الكبرى لهذه الحقيقة العظمى, فالفكرة الباطلة والسائدة بين أغلبية الناس هي أن الله خلقهم وتركهم يتصرفون كما يحلو لهم، وترك حبلهم على غاربهم . وقد نبه القرآن المنزل لإرشاد الإنسانية إلى أنه عندما يطرح سؤال من خلق السماوات والأرض على الناس لأجابوا : الله . ولكنهم مع هذا لا يستفيدون من هذا ولا يعتبرون .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (لقمان 25)

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (زخرف 87)

لهذا فإننا نرى في حياتنا اليومية أن انقياد هؤلاء البشر إلى هذا التفكير الخاطئ قد أدى إلى انعدام تواصلهم الروحي مع الله تعالى، وهم يحسبون أنهم قد تحلوا بصفات حميدة في الحياة الدنيا ستكون كفيلة بأن تأخذ بأيديهم إلى الجنة بعد أن يقضوا فترة قصيرة من الزمان في عذاب جهنم . وبجانب هذا فإن هناك قسماً كبيراً يعتقدون بأن الله خلق لهم هذه النعم وأنه يجب أن يتنعموا بها إلى أقصى حد ممكن دون أي اعتبارات أخرى . وبمثل هذا المنطق الناقص والتفكير الساذج يستمرون في ممارسة حياتهم اليومية بشكل عادي دون الالتفاف إلى حكمة وغاية هذه النعم الربانية . ولكن الحقيقة عكس هذا بالتأكيد ، لأن هؤلاء الذين نسوا الله يعيشون في الحقيقة في غفلة كبيرة وعميقة وهذا ما أشار إليه الله في كتابه العزيز :

يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ (الروم 7)

فمثل هؤلاء البشر الذين يعيشون في غفلة تامة لا يدركون حقيقة هذه الحياة، ولا ماهيتها حق الإدراك, ولا يخطر على بالهم بأن هذه الحياة قصيرة جداً لدرجة إنها تمر كلمح البصر . ويمكن أن ندرك هذه الحقيقة إن أجلنا طرفنا فيما حوالينا . ومن المفارقات الغريبة أننا كثيرا ما نسمع من الذين يتندرون بإطلاق بعض الأمثال الشعبية المعروفة والتي تشير إلى تفاهة هذه الحياة وزوالها منها :

(دنيا فانية) . . . أو (آه من هذه الدنيا الزائلة) . . . . أو (ماحدش واخد منها حاجة) ! ! . . . . إلخ

ولكن عندما نمعن النظر في هذه العبارات نرى أنها ليست في الحقيقة سوى عبارات وشعارات جوفاء لا تعكس وجهة نظرهم الحقيقية . لأن مثل هذه العبارات ما هي إلا عبارات شعبية مأثورة يتداولها الناس فيما بينهم دون فهم صحيح لمدلولاتها ولا لمعانيها الحقيقية . والغريب أنه بعد طرح عبارات مثل : "دنيا فإنية" أو "كم مرة يعيش الإنسان ؟" . . . . نرى تكملة لهذه العبارات إجابات تنم عن منطق ضحل مثل : "لذا علينا أن نعيش هذه الحياة بشكل مكثف ولا نهدر هذه الفرصة" .

ولكن كون هذه الحياة قصيرة وفانية والموت هو نهايتها الحتمية، والإنسان يأتي إليها لمرة واحدة فقط . كان من المفروض أن يعد هذا الأمر من أهم الحقائق بالنسبة إلى الإنسان . قد لا ينتبه معظم الناس إلى هذه الحقيقة إلا بعد أن يصلوا إلى عمر متقدم . ولكن ما أن

ينتبهوا إليها عليهم أن يراجعوا أنفسهم ويعيدوا النظر في طراز حياتهم فينظمونها من جديد وحسب مرضاة الله وما يريده منهم . إن الحياة قصيرة ولكن الروح يظل بمشيئة الله –خالدا إلى الأبد . وماذا تعني حياة قصيرة أمدها بين ستين إلى سبعين عاما بجانب الحياة الأبدية التي ليست لها حدود ؟ ! ! .

أليست من الحماقة أن يضحي الإنسان بكل شيء من أجل متعة قصيرة وفانية ؟ .

(197/744)

ولكننا نرى أن المنكرين يسعون طوال حياتهم من أجل غايات فارغة وتافهة ويستنفدونها في سبيل هذه الأهداف الفارغة ناسين الله تعالى . وعلى الرغم من كل هذا فإنهم لا ينجحون – في الغالب – في تحقيق هذه الغايات الفارغة رغم كل هذا الجري واللهاث لأن نفوسهم لا تشبع بل هي جائعة على الدوام . لأنهم وببساطة يطلبون المزيد ثم المزيد ولا يكتفون ولا تشبع نفوسهم أبداً . فإذا وصلوا إلى غاية ما تراهم يحاولون الوصول إلى غاية أكبر منها . ولأنهم إن حصلوا على وضع أو مرتبة ما يحاولون الوصول إلى مرتبة أعلى، ثم مرتبة أعلى . . . وهكذا يقضون حياتهم في الجري لإشباع رغباتهم التي لا تعرف الشبع حتى يدركهم الموت . إنّ رغباتهم في الحصول على الشهرة والمال والمتعة تظل ناقصة

بالمعايير الدنيوية, لأنه ستظهر أمامهم بالتأكيد أشياء أحسن مما موجود لديهم .

فعلى سبيل المثال نرى أحدهم يحلم دوما باقتناء إحدى السيارات ذات الطراز الرياضي الحديث, فنراه بعد محاولات كثيرة وصعبة يحصل على هذه السيارة الغالية ويحقق حلمه هذا الذي طالما سعى لتحقيقه . ولكن ماذا نرى ؟ لقد ظهرت وستظهر أنواع أخرى من هذه السيارات التي تحتوي على ميزات أحسن وأفضل وأحدث . أو لنفكر في شخص قد قضى زمنا طويلا في جمع النقود اللازمة لشراء بيت طالما حلم أن يقتنيه ويعيش فيه . ولكننا نراه بعد تحقيقه لحلمه واقتنائه ذلك البيت بعد كل هذا التعب والعناء – يصادف بيتا آخر أجمل بكثير من بيته, فنراه وقد تملكه الإحباط والحزن، وبدأ بيته يفقد في نظره جاذبيته السابقة . بالإضافة إلى الألم الذي ينتاب الذين يرون ما يعتري ممتلكاتهم من اندثار بسبب القدم وما تجريه السنوات عليها من آثار سلبية .

(198/744)

إن التقدم العلمي المدهش يقدم للإنسان دوما أجهزة أحدث وأجمل وأحسن، فتفقد ما لدى هؤلاء من هذه الممتلكات رونقها وجاذبيتها وتبدو قديمة في أعينهم . ويستمرون طوال حياتهم في الدوران في هذه الدائرة المفرغة فلا تسكن نفوسهم أبدا ويظلون في لهاث

دائم للحصول على الأجمل وعلى الأحسن . . وبعد الحصول عليه يعتق هذا الشيء عنده ويفقد قيمته فيبدأ البحث عن الجديد مرة أخرى، وعن الأجمل . . . هذه هي الدائرة المفرغة التي عاش فيها الإنسان طوال التاريخ . لذا فإن الإنسان العاقل يجب أن يقف وأن يراجع نفسه في هذا الأمر ويعلم أن هذا الجري الأعمى لن يؤدي إلى نتيجة وان يقول لنفسه : " لا بد وأن هناك خطأ كبيراً في هذا الطراز من التفكير" .

لكن نرى مع الأسف أن أغلبية الناس لا يملكون مثل هذا المنطق ويظلون يجرون وراء أحلام وخيالات لا يمكن أن تتحقق, بينما لا يستطيع أحد منا أن يضمن حياته حتى لبضع دقائق قادمة فالتعرض إلى حادثة سيارة، والتحول إلى شخص معاق، أو التعرض حتى للموت من الأمور السهلة والاعتيادية . والشخص الذي يتذكر الموت للحظة واحدة يدرك تمام الإدراك أنه عندما يثوى في قبره فلن يجديه نفعاً لا المال ولا الأولاد ولا المنصب أو الجاه ولا أي شخص من الأشخاص الذين كانوا موجودين حواليه . وسواء أكان غنياً أم فقيراً, جميلاً أم قبيحاً ، فكل إنسان سيلف ببضعة أمتار من الكفن ويدفن في القبر .

لهذا فإن هذا الكتاب سيتناول عدم أمان هذه الدنيا الفانية التي لا تعطي الضمان لأي إنسان، والتي تمر كلمح البصر، مشيرا إلى أنها حياة خادعة تغر الإنسان، وذلك بنشر جميع أسرارها أمام أعينكم . لهذا فإن الله أوصى المؤمنين أن يحذروا الناس جميعا وينذروهم

وأن يطرحوا أمامهم هذه الحقائق . كذلك فقد أمر الله جميع البشر ألا ينخدعوا بهذه الحياة الدنيا وأن يطيعوا أوامره, وهو في هذه الآية يحذر الناس :

(199/744)

يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (فاطر 5)

الحياة الدنيا

إن الكون من حولنا موجود ضمن نظام دقيق، وتناغم فريد . وهو يضم 300 مليار مجرة وكل مجرة منها تحتوي في المعدل على 300 مليار نجمة . ويتجلى النظام المدهش الموجود في الكون في أن هذه المجرات والنجوم والكواكب والأقمار تدور حول نفسها من جهة، وتدور ضمن نظامه الفلكي في مدارات معينة من جهة أخرى . ولا يمكن بأي حال من الأحوال تفسير نشوء كل هذا النظام الرائع والترتيب المذهل، والحساب الدقيق عن طريق المصادفة .

وبالإضافة إلى هذا فإن أخذنا بنظر الاعتبار سرعة الكون فإن أمر النظام والتصميم البديع يأخذ أبعادا لا يصدقه العقل البشري, فأوزان النجوم, والكواكب, والمجرات وعناقيد المجرات والتي تصل أوزانها إلى البلايين وملايين البلايين من الأطنان تتحرك في الفضاء

بسرعات مدهشة . فالأرض مثلاً تدور حول محورها بسرعة تصل إلى 1670 كم /ساعة وتدور حول الشمس بسرعة 108000 كم/ساعة, بينما تدور المجموعة الشمسية حول مركز المجرة بسرعة تصل إلى 720000 كم/ساعة . كذلك تتحرك مجرة درب التبانة– أي مجرتنا – في الفضاء بسرعة تصل إلى 950000كم/ساعة .

إن استمرار هذه الحركة والتي لا تعرف السكون وبهذه السرعة تجعل كلا من الأرض والشمس تبتعد كل سنة عن موقعهما في السنة الماضية بنحو 500 مليون كم ! لذلك فنحن نعيش فوق أحد هذه الأجرام السماوية التي تتحرك بسرعة فلكية مخيفة .

وبالإضافة إلى هذا فإن كوكبنا يعد كوكباً صغيراً وعادياً فيما إذا قورن مع بقية الكواكب الموجودة في هذا الكون الواسع المترامي الأطراف .

(200/744)

إن هذه الدرجة التي لا تصدق من الدقة في التوازن الموجود في نظام الكون تشير إلى حقيقة لا مفر منها وهي, أن حياتنا على كوكبنا الأرضي مرتبطة بقيد شعرة ! . لأن الأجرام السماوية إذا تزحزحت أو تحركت أو انحرفت ببضع ميليمترات فقط خارج أفلاكها فإنه من الممكن أن تتولد نتائج وخيمة تجعل الحياة فوق كوكبنا مستحيلة . لقد كان من الممكن

حدوث حوادث اصطدامات مروعة ضمن هذا القدر الكبير من السرعات المختلفة وهذا القدر الكبير من التوازن الموجود داخل هذا النظام, ولكن الحياة لا تزال مستمرة على كوكبنا ، ولا زلنا مستمرين في العيش مما يشير إلى أن احتمال وقوع الكوارث فيه أمر نادر, فالنظام فيه مستمر ويسير دون أي خلل أو اضطراب . ونحن البشر نعيش على هذا الكوكب ونستمر في هذا العيش بأمان من دون أي قلق دون أن نشعر حتى بسرعة دوران الأرض .

(201/744)

أكثر الناس لا يفكرون كثيرا في كيفية استمرار هذه الحياة على الأرض، ونظرا لأنهم لا يفكرون، فهم لا يدركون أن حياتهم مرتبطة في الحقيقة بتوفر شروط غير اعتيادية تفوق الخيال . ولا ينتبهون إلى هذه الحقائق, لذا نرى أن أغلبية الناس الذين يعيشون على هذا الكوكب لا يدركون لأي غاية محددة خلق هذا الكون, فهم يستمرون في حياتهم دون أن يعبئوا كثيرا بسبب ولا بغاية وجودهم على هذا الكوكب ولا يعيرون أي اهتمام إلى هذه الدرجة العالية من التوازن والنظام العجيب الموجود في كل زاوية من زوايا هذا الكون العظيم . بينما العقل والتأمل هو الذي يجعل الإنسان إنساناً ويميزه عن باقي المخلوقات وهو

أثمن العطايا التي منحها الله لبني البشر . والإنسان الذي لا يفكر ولا يستخدم ملكة العقل عنده لا يمكن أن يصل إلى الحقائق حول العديد من الأمور مثل : لماذا ولأي سبب يعيش الإنسان ؟ لماذا خلقت الدنيا ؟ . ومن قبل من وضع كل هذا النظام الرائع في الكون . إن الشخص الذي إذا فكر واستوعب ما استعرضناه آنفا سيصل إلى الحقيقة التي ستسطع أمامه كالنور ومفادها :

أن الكون الذي نعيش فيه والذي يحوي كل هذا التوازن الحساس قد أوجده خالق يملك علما لا حد له, وأن كرتنا الأرضية رغم صغرها مقارنة مع بقية الكواكب قد خلقت لغايات كبرى, ولا يوجد أي عبث في شأن من شؤون الإنسان . ولو تأملنا الكون من حولنا بدقة لوجدنا أن في كل ركن من أركانه دليلا قوياً على وجود خالق يمتلك قوةً وعلماً لا نهائيين قد خلق الإنسان لغايات معينة ولم يتركه على هواه يفعل ما يشاء, وقد ذكر الله في كتابه المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلّم الغاية من وجود الإنسان على الأرض، فيقول :

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (سورة الملك 2)

(202/744)

إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (سورة الإنسان 2)

وقد أخبرنا القرآن الكريم بأن الله لم يخلق أي شيء على الأرض عبثا من دون غاية .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَأَتخذناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (سورة الأنبياء 16-17)

كل شيء في الطبيعة يتعرض إلى التلف مع الزمن . وهذه هي حقيقة الحياة الدنيا .

ماهية الدنيا

لقد خلق الله حياة الدنيا ليختبر فيها الإنسان ويمتحنه ولكي يرى أيهم سيتحلى بالأخلاق الحميدة ويبدي له إخلاصاً حقيقياً وعبودية كاملة . بمعنى آخر, فإن هذه الدنيا هي دار امتحان للتمييز بين الإنسان الذي يجتنب معصية الله وبين من يجحد به . ففي دار الامتحان هذه والتي تحوي القبح والجمال, الكمال والنقصان معا يمتحن العبد ضمن نظام لا يعتريه أي نقص . فالإنسان يمكن أن يظهر إيمانه بأن يسلك طرقا متنوعة في هذه السبيل, وفي النهاية فالذين يؤمنون بالله إيمانا لا يعتريه الشك أو التردد سيتميزون عن الملحدين والمنكرين وسيصلون إلى بر النجاة . وقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة في قوله :

أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُون وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فليعلمن اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِين (سورة العنكبوت 2-3)

ولكي نفهم ماهية هذا الامتحان, بداية يجب أن نتعرف بصورة جيدة على خالق ومدبر هذا الكون, فهو الله خالق السماوات والأرض وما بينهما من العدم، والذي يحتاج إليه كل كائن وكل موجود, بينما هو تعالى المنزه عن النقص لا يحتاج إلى أحد, وهو خالق الإنسان من العدم قد أنعم عليه نعماً لا تعد ولا تحصى .

(203/744)

فليس بمقدور الإنسان أن ينظم بنفسه الفعاليات الحيوية العديدة داخل جسمه كعملية السمع والبصر والمشي وعملية التنفس . . . إلخ, ومع أن الإنسان لم يستطيع أن يدرك حق الإدراك كيفية عمل هذه الأعضاء والأجهزة فإن الله قد شكلها وصورها ووضعها في جسمه, ومقابل كل هذه النعم فإن الله لا يطلب من عبده سوى الإخلاص له في العبودية . ولكن وحسب ما تذكر العديد من الآيات نرى أن الكثير من البشر يتميزون بخاصية الجحود والظلم، فبدلاً من أن يشكروا ربهم ويحمدوه ويخضعوا له تراهم ينسون هذا ويتصرفون بكل ظلم وجحود ويتعدون الحدود الموضوعة أمامهم، متوهمين بأنهم يمتلكون قوة كبيرة, وبأنهم لن يفارقوا هذه الدنيا إلا بعد زمن طويل . لهذا السبب فإن غايتهم الوحيدة تكون متوجهة فقط لهذه الحياة الدنيا . فهم يتناسون الموت ولا يقومون بإعداد

أنفسهم بأي شكل من الأشكال لما بعده, فشغلهم وشاغلهم هو أن يوفروا لإنفسهم حياة أفضل, وأن يستمتعوا بجميع اللحظات التي يعيشونها إلى أقصى حد ممكن، وأن يشبعوا جميع أهوائهم ورغباتهم .

وقد ذكر الله في آياته الكريمة حول مدى ارتباط الإنسان بهذه الدنيا بقوله :

إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (سورة الإنسان- 27)

ويغيب عن بال معظم هؤلاء المنكرين والذين يلهثون وراء هذه الدنيا سر في غاية الأهمية, إلا وهو الانقضاء السريع لهذه الدنيا . وهذا موضوع ينساه الوالهون بالدنيا ولا يفكرون فيه ويحاولون تناسيه ما استطاعوه إليه سبيلاً .

ولكن مهما حاولوا فلن يستطيعوا الفرار من هذه الحقيقة .

بضع ثوانٍ أم بضع ساعات ؟

(204/744)

دعنا نفترض بأنكم في يوم عطلة وأنكم- وبعد رحلة دامت ساعتين- وصلتم إلى القرية السياحية التي طالما حلمتم بالذهاب إليها, حيث المكان يعج بالزوار من حولكم . وفي صالة الانتظار التقيتم ببعض الأصدقاء وبعد تبادل التحيات معهم توجهتم إلى غرفتكم

ولكي لا تضيعوا المزيد من الوقت أسرعتم في تغيير ملابسكم وانطلقتم إلى ساحل البحر . وإذا بمياه زرقاء صافية تمتد أمامكم, وساحل رملي يشع مثل الذهب, والجو الحار يدعوكم لكي تستعجلوا في النزول إلى البحر, وبدأتم بالسباحة, وفجأة سمعتم صوتا يقول لكم "انهض ! لقد بلغت الساعة الثامنة صباحا" . ولكنكم لم تفهموا شيئًا ، ولم تعطوا تفسيرا لهذا الصوت . وفي تلك اللحظة ستحاولون أن تجدوا حلقة وصل بين ما تسمعونه وبين المكان الذي أنتم فيه . في النهاية بدأتم تفتحون أعينكم شيئًا فشيئًا وتستردون وعيكم, وإذا بجدران غرفتكم تتراءى أمام ناظركم . . . آه ! . . . لقد كان ذلك حلما إذن ! ! وفعلا وبعدما أفقتم أدركتم أن كل ما رأيتموه كان عبارة عن حلم جميل . ولكن كيف ؟ ! . . . . يا الهي ! . . . لقد كان كل شيء حقيقيا إلى أبعد الحدود ! . . . . لقد أمضينا قرابة الساعتين في الطريق إلى القرية السياحية ولقد التقينا العديد من المعارف والأصدقاء في تلك القرية السياحية, وكذلك كان هناك ذلك الساحل الجميل والبحر الجميل, وماذا أقول عن ذلك الجو ؟ ذلك الجو الذي كان رائعا بل وما زلت أشعر بحرارته في جسمي على الرغم من الطقس الشتوي السائد حولي وأنا أحاول القيام من الفراش . . . . أنه شيء محير حقاً .

إذن فعلى الرغم من تخيلكم بأنكم قضيتم فترة طويلة, إلا أن هذا الزمن الطويل المتخيل لم

يكن سوى ثوان معدودات مرت بكم في الحلم . ومهما حاولتم إثبات عكس هذا , ففي النهاية يجب القبول بالحقيقة الواقعة .

(205/744)

ومثل هذا الذهول والدهشة هو ما سيصيب المنكرين الذين يأتون إلى الآخرة بعد الانقضاء السريع لحياتهم الدنيوية بعد ما خدعتهم هذه الحياة القصيرة وظنوا بأنهم ماكثون فيها ألف عام . بل إن البعض منهم كان يخيل إليه أنه سيعيش فيها آلاف السنين . ولكن بعد بعثهم وحشرهم بعد الموت سيدركون بأن حياتهم الدنيا كانت قصيرة جدا .

وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله :

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تعلَمُون أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (سورة المؤمنون 112- 114)

وسيحسب الذين عمروا في الدنيا عشرة أعوام أو مائة عام بأنهم لم يلبثوا فيها سوى يوم واحد فقط . تماما مثل الشخص الذي ينتبه من نومه بعد حلم طويل فيكتشف أن ما رآه من حلم حول عطلة طويلة كان عبارة في الحقيقة عن عدة ثوان فقط . . بل ستبدو هذه

الحياة التي عاش سنواتها طولاً وعرضاً وبكل حرص وتشبث بها وتمسك بأهدابها . . . ستبدو له وكأنها كانت عبارة عن ساعة واحدة فقط، وهو مستعد لأن يقسم ويحلف على هذا :

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (سورة الروم 55)

(206/744)

فكما هو معلوم لدى الجميع وبصورة أكيدة أن الحياة الدنيا محدودة يمكن أن تمتد إلى بضع ساعات أو إلى يوم واحد أو إلى أسبوع أو إلى ثلاثين عاما أو إلى سبعين عاماً . وككل شيء محدود فإنها ستنتهي في يوم من الأيام . لذا فإن الشخص الذي يعيش 80 عاما أو حتى 100 عام, فإن كل يوم يمر من عمره هذا يعني اقترابه شيئاً فشيئاً من النهاية المحتومة والتي لا مفر منها على الإطلاق . ويعرف كل واحد منا أمثلة على هذا من حياته . فكم من خطة طويلة الأمد رتبتها في حياتك ثم إذا بك ترى أن المدة الطويلة قد انقضت تماما ، وعندها نلتفت إلى الوراء ونقول : " رباه . . . كيف انقضت كل هذه المدة بهذه السرعة ؟ " .

لنأخذ مثالاً آخر ولنتصور في ماذا يفكر الشاب وهو يخطو خطواته الأولى في مرحلة

الثانوية . فعندما كان في الصف الأول ثانوي فإنه يتصور بأن بلوغ المرحلة الأخيرة من الثانوية حلمُ بعيد المنال ولن يأتي, وأن أمامه مشوارا طويلا . ولكننا نراه ينهي الثانوية ويدخل الجامعة ويتخرج حتى يكاد لا يتذكر ما كان يفكر به أيام السنة الأولى من الثانوية لأنه في هذا الوقت لديه خطط أخرى يفكر في إنجازها , فربما يخطط للزواج بعد عدة أشهر وهو يجر تلك الأيام ويرى إنها لا تنتهي ويستبطئ وصول ذلك اليوم الموعود . ولكن ذلك اليوم سيأتي أيضاً وسينقضي أيضاً وبدون أن يشعر تأخذه دوامة الحياة فلا يرى نفسه إلا وقد أصبح أبا وجدا له أبناء وأحفاد ، وإذا به قد أصبح رجلا مسناً وشيخاً . . . . إذن فقد أو شك العمر على الأنتهاء ، ولم يبق على موعد اللقاء مع ذلك اليوم الكبير سوى بضعة أعوام، وربما بضعة أسابيع بل ربما بضع دقائق . . . من يدري ؟ .

(207/744)

هذا علماً بأن الله قد وضح لنا منذ فجر التاريخ حقيقة كون هذه الحياة مجرد محطة انتقالية ومؤقتة وقصيرة نمر من خلالها إلى الدار الحقيقية، إلى دار الإقامة الدائمة وهي دار الآخرة التي هي "دار المقام" . وشرح لنا عن طريق الوحي جميع التفاصيل المتعلقة بالحياة الخالدة في الجنة وفي جهنم . وعلى الرغم من كل هذا نجد الإنسان يوجه جلّ اهتمامه لهذه الدنيا

القصيرة محاولا إشباع نزواته وأهوائه وشهواته . ولكن لو حاول الإنسان أن يستوعب الأمر بجميع تفاصيله وأن يحكم العقل والمنطق لوجد أنه لا وجه للمقارنة بين حياة أبدية ونعم لا تزول وعدنا بها رب العالمين وبين هذه الحياة القصيرة الفانية, وأن عليه أن يعمل من أجل الفوز بالجنة وما تحويها من نعم لا مثيل لها , حيث فيها لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطرت على قلب بشر . وهذا يتم عندما يكون توجهه خالصا إلى الله .

أما الذين لا يفكرون في هذه النهاية ولا يرون بأنها واقعة بهم, فإنهم ولاشك سيستحقون العذاب الذي أعدّه الله لهم, حيث ذكر الله في قرآنه الكريم النهاية المحتومة لهؤلاء البشر الذين يهربون من أداء العبودية لرب العالمين في قوله :

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَد خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (يونس 45)

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (الأحقاف 35)

الحرص الذي لا يؤدي إلى نتيجة

لقد استعرضنا فيما سبق قصر هذه الحياة الدنيا , وكيف إنها تمر بنا كلمح البصر . هنا يجب الإشارة إلى نقطة مهمة تغفل عنها عيون الكثير من الذين وضعوا جلّ اهتمامهم هذه الدنيا , وهي أنه لا يمكن لأي شخص مهما امتلك من إمكانيات وقوة وثروة أن يصل إلى الطمأنينة الحقيقية وإلى الراحة النفسية من دون الإيمان بالله .

إن الإنسان ما إن يبدأ بالوعي وبإدراك الأشياء من حواليه حتى تبدأ وتظهر مطالبه ورغباته التي لا تعرف لها أي نهاية، وهو يحاول تلبية جميع هذه الرغبات وإشباعها . ولكن الإنسان مقابل هذه الرغبات التي لا تنتهي لا يملك الإمكانيات التي تحققها جميعا ، لأن إمكانياته محدودة . وحتى لو فرضنا أنه يستطيع ذلك فلا يغير هذا من الأمر شيئًا ، لأنه حتى وإن أصبح أغنى أغنياء العالم فهذا الغنى زائل، لأنه إن كان متوسط العمر يتراوح بين سبعين إلى ثمانين سنة وما إن تنتهي هذه المدة حتى يفقد كل شيء بالموت .

لذا فإن الإنسان الذي لا يعرف حدوداً لرغباته يظل يعيش – كجزاء وعقاب من الله – في حالة من "الجوع وعدم الاكتفاء النفسي"، وتتملكه في كل فترة من فترات حياته رغبة عارمة في تملك أشياء معينة . وهو في سبيل تحقيق رغباته تلك نراه يجري ويعمل بكل جهد حتى وإن أدّى به ذلك إلى أن يسلك في هذه السبيل طرقا ملتوية, ويكون مستعدا في هذا الخصوص لكي يعادي أقرب الناس إليه : عائلته وأقرباءه وأصدقاءه إن ظن أنهم سيكونون حجر عثرة أمام تحقيق رغباته, والغريب في الأمر أنه ما إن يحصل على بغيته حتى يبطل

سحر ذلك الشيء لديه ويفقد قيمته وينطفئ بريقه مهما كان ذلك الشيء ثمينا . وكأنه لم يبذل في سبيله كل تلك الأشهر والسنوات . ثم إذا بنا نراه يبدأ مجدداً في السعي لإمتلاك شيء آخر وقعت عيناه عليه ويبدأ كما فعل سابقا العمل بكل جهد من أجل ذلك الهدف الجديد . . . وهكذا يستمر في سعيه دون انقطاع .

(209/744)

إن الشخص المنكر يستمر حتى وفاته في السعي من أجل امتلاك الجاه والمال وكل ما تقع عيناه عليه دون أن يفتر . ولا يسعد أبدا بما تملكه وحصل عليه, فلا يكون قنوعاً بما لديه لأنه لا يوجد في نيته كسب رضى الله بل العكس فهو يسعى من أجل إرضاء روح الأنانية التي تتملّكه, وهذا بالطبع يؤدي إلى أن يكون مختالاً ومغروراً بنفسه ولهذا فإن رب العالمين لا يمنح الطمأنينة الحقيقية وراحة البال لأمثال هؤلاء من الذين أصبحوا عبيدا لشهواتهم ولنزواتهم ولأنانيتهم .

ونجد هنا أن الله ذكر في قرآنه الكريم أن الذين يتوجهون إلى الله ويذكرونه باستمرار هم الذين يعيشون حياةً ملؤها الطمأنينة وراحة البال .

الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ إِلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (الرعد 28)

الانخداع بالحياة الدنيا

(210/744)

إذا أجال الإنسان بصره فيما حوله رصد الكثير من أنواع ومن صور الجمال التي تبهج النفس والفؤاد وتسر الأعين وهو يراقب كل هذه الأشياء بإعجاب كبير, فالتصميم الدقيق والدقيقة المصممة بكل جمال في جسم الإنسان . . . ملايين الأنواع من النباتات والزهور الجميلة . . . , انتشار قطع الغيوم الكبيرة وتناثرها على مساحات شاسعة في سماء رحب . . . بالإضافة إلى الكثير من المخلوقات والأشياء التي صممت بشكل دقيق تبعث في النفوس البهجة والسرور . بالإضافة إلى ما تشاهده الأعين فإن هناك حواساً أخرى تمنح الإنسان فرصة الاستمتاع بأشياء أخرى . مثلا حاسة التذوق التي تمنحنا فرصة تذوق الأطعمة المختلفة, وحاسة السمع التي تمنحنا فرصة الاستماع إلى مقطوعة موسيقية عذبة تخترق شغاف القلب, وحاسة الشم التي تجعلنا نشم رائحة وردة عطرة . فكم هو جميل ومبهج أن نشاهد منظر فاكهة متدلية من غصن شجرة وأن نشم رائحتها ثم أن نستمتع بطعمها اللذيذ ؟ . وكذلك ما نراه من اختلاف الألوان وتناغمها في الأزهار

وأشكالها وصورها العديدة الجميلة والتي تمنحنا الإحساس بالبهجة والانشراح والمتعة, وكذلك منظر وجه جميل لإنسان، أو منظر بيت جميل أو سيارة حديثة . . . قائمة يطول الحديث عنها وهي تجعل بني البشر يجرون طوال حياتهم من أجل أن يظفروا بها . ولكن ما أن يلتفت إلى هذه الأشياء بعد مرور فترة من الوقت عليها حتى يقع في حيرة كبيرة لأنه سيرى أن كل هذه الأشياء قد فقدت جاذبيتها وجمالها, وانقلبت إلى حال لا يرغب أحد حتى في إلقاء نظرة عليها .

(211/744)

فالفاكهة اليانعة التي قطفت حديثا من الشجر والتي كانت نضرة وزاهية تفوح بعطر أخاذ نراها بعد فترة وقد فقدت نضارتها وبدأت علامات التلف تظهر فيها ، وتبدأ تدريجيا في التعفن وتنبعث منها روائح كريهة . ثم ما بال تلك الأزهار الحمراء التي قطفناها من الحديقة والتي كانت تضفي على البيت جمالا ؟ لقد فقدت رونقها ونضارتها بعد أيام معدودات وبدأت تذبل . . لنتأمل وجه إنسان حسن الطلعة فبعد 60 عاما عندما تتطلع إليه ترى أن التجاعيد والخطوط العميقة قد أخذت مكانها في وجهه واشتعل رأسه شيباً حتى لا نكاد نعرفه . وذلك البيت الذي طالما حلمت به تراه بعد سنين وقد أصبح بيتا بالياً,

ونفس المصير سيواجه سيارتكم الحديثة حيث ستفقد جاذبيتها بعد بضع سنين، ويكون الصدأ قد انتشر في أجزائها المختلفة . والنتيجة التي نخلص إليها أن كل شيء موجود حول الإنسان يميل إلى الفساد والتحلل والبلى وإلى فقد جاذبيته وجماله وجدته .

قد يعتبر معظمنا هذه الأمور " نتيجة طبيعية أو مرحلة طبيعية" لا غرابة فيها . ولكن توجد هنا دون شك عبرة كبيرة ومعنى عميق . , لأن كل شيء عندما يواجه مصيره من العطب والقدم والتآكل يرسل لنا إشارة ورسالة مهمة هي : إن هذه الدنيا ما هي إلا سراب ووهم وخدعة كبيرة ! وأن جميع الموجودات الحية من نبات وحيوان وإنسان مصيره إلى الفناء والزوال, وأن السبب الكامن وراء عدم إدراك هذه الحقيقة لدى الكثيرين منا يكمن وراء ولادة أجيال جديدة من الكائنات تأخذ مكان الذين أدركهم الموت, لذا فإن الإنسان الذي لا يدرك حقيقة الموت نراه يعطي أهمية كبيرة في هذه الدنيا للأشياء الفانية بينما الله تعالى هو صاحب كل شيء ومالكه، والأحياء يحيون ويموتون بإرادته وبقدرته وحسب مشيئته .

وقد حذرنا الله من خلال العديد من الأمثلة الموجودة في القرآن الكريم من الانخداع بزيف هذه الحياة ودعانا إلى التفكير بعمق في هذه الحقيقة :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخذ تْ الأَرْض زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنهم قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَو نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (يونس 24)

(213/744)

فكما تذكر الآية الكريمة فإن كل شيء جميل وحسن, سيأتي يوم يفقد فيه نضارته وحسنه بل حتى يفنى ويختفي من الوجود . ولكن معرفة هذا لا تكفي بل يجب التفكير بعمق في هذه الحقيقة الكبيرة, والله يقول بأنه يضرب الأمثال للذين يفكرون ويتأملون ويتعظون . وبما أن الإنسان كائن عاقل إذن عليه أن يفكر وأن يصل إلى نتيجة معينة من تفكيره . لأن الإنسان الذي لا يفكر ولا يتدبر ولا يعقل ولا يحمل مثل هذه الأوصاف المهمة لا يبقى هناك فرق كبير بينه وبين الحيوانات . ولا يميزه شيء عن سائر المخلوقات الأخرى، لأن هذه المخلوقات الأخرى تتوالد وتكبر وتتكاثر أيضاً وتستمر في الحياة ضمن القوانين التي تسيّرها , وطبيعي فهي لا تفكر كيف ولماذا خلقت, وأنها ستموت يوماً ما , وهي لا تكلف

نفسها عناء البحث عن حقيقة هذه الحياة الفانية . وهذا شيء طبيعي بالنسبة إلى مثل هذه المخلوقات لأنها لم تخلق ككائنات مدركة أو صاحبة عقل . لأنها ليست مكلفة في البحث عن غاية الخلق وإدراك سر وجود الخالق, لكن الأمر يختلف مع الإنسان لأنه يكون مسؤولاً عن معرفة خالقه والعمل بما أمره به وهو مسؤول بأن يدرك بأن هذه الحياة ليست دار بقاء ، بل هي مجرد دار زائلة يعيش فيها لفترة قصيرة قبل أن ينتقل إلى دار الآخرة .

واجب عليه أن يدرك هذه الحقيقة ويبدأ بإعداد نفسه بأن يسلك جميع الطرق التي تجعله ينال مرضاة الله قبل أن ينتقل إلى دار الآخرة, ولكن أي تصرف عكس هذا سوف يؤدي به لا محالة إلى مواجهة متاعب كبيرة في الدنيا وإلى عذاب شديد في الآخرة .

أمثلة من القرآن حول زوال الدنيا

ضرب الله لنا في القرآن أمثلة عديدة على زوال الحياة الدنيا . فقد استعرض العديد من المجتمعات الإنسانية التي عاشت في السابق وما أصابها من كوارث وما صب فوق رؤوسها من صنوف العذاب . كما أوضحت الآيات القرآنية الوجه الحقيقي للحياة الدنيا وصاحب الجنة وحواره مع صديقه الوارد ذكرهما في سورة الكهف مثال على هذا :

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ
فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ
مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا
مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ
رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ
إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِي أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا
حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا
لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا هُنَالِكَ
الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ
السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
مُقْتَدِرًا الْمَالُ

(215/744)

وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (الكهف 32-46)

تشير هذه الآية الكريمة إلى مدى الخطأ الذي يقع فيه الإنسان عندما يغتر بماله وبقوته، وكيف أن الله يستطيع في لحظة واحدة سلب كل شيء عنه. وإلى الحقيقة نفسها تشير آية أخرى:

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (القلم 17-33)

فقد يكون الإنسان غنياً ولا يكون سعيدا بغناه. وقد تكون المرأة حسناء ويكون هذا الحسنُ وبالاً عليها. قد يكون الإنسان مشهوراً ولكن في يوم ما يعيش وحيداً ثم يموت وحيداً في إحدى الغرف دون أنيس ولا قريب. وقد ضرب الله لنا مثالا لهؤلاء قارون وكان من قوم سيدنا موسى عليه السلام, فهنا يشير الله إلى قارون وإلى الذين على شاكلته

ممن خدعوا بزينة هذه الدنيا وهم ظاهراً يؤمنون بالله ولكنهم نسوا الله بانخداعهم بسحر هذه الدنيا .

يقول الله تعالى :

(216/744)

إن قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُو
لِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخرة وَلَا
تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأرض إِنَّ اللَّهَ لَا
يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ
القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشد مِنْهُ قُوَّةً وأكثر جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ
فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيم
وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُون
فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ الْمُنْتَصِرِين
وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ تِلْكَ الدَّارُ الآخرة نَجْعَلُهَا

لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (القصص 84 - 76)

(217/744)

وكما رأينا فإن الخطأ الذي وقع فيه قارون لا يتعلق بإنكاره وجود الله, ولكن خطئه يكمن في تحركه

بصورة مستقلة عن إرادة الله وبإحساسه بامتلاك قدرة منفصلة ذاتية, وأن هذه القوة التي منحه إياها الله تعالى قد فسرها على أنها حق طبيعي لإحساسه بتفوقه على باقي البشر . لكن يجب معرفة أن الجميع هم عباد الله، ولا يحق لهم المطالبة بأي حق منه, وأن ما منحه الله لعباده هو فقط ناتج عن الكرم الإلهي وعلى الذين يعون هذه الحقيقة أن لا يتمردوا أمام ما أنعم الله عليهم ولا يعصوا ولا يفرحوا بهذا الشكل المبالغ به لما منحهم رب العالمين من نعم, بل عليهم أن يشكروه وأن يفرحوا بهذا الإحساس, وأن هذا السرور الذي يجب أن يعيشوه هو أعظم وأرفع إحساس في الدنيا .

أما الذين أتخذوا قارون وأمثاله قدوة لهم في حياتهم فسوف يواجهون بالخسران والفشل,

وإذا استمروا في عدم الاتعاظ بما أصابهم من محن ومصائب جراء سلوكهم هذا عندها سيكون مأواهم الخلود في نار جهنم, وهذه الحقيقة عبرت عنها هذه الآية الكريمة :

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَولادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ (الحديد 20)

قال الله تعالى : (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا)

عجز الإنسان

(218/744)

لقد خلق الله الإنسان على أحسن صورة, ومنحه صفات عليا , وفضله على كثير من مخلوقاته بما وهب له من إمكانية اتخاذ القرارات وإمكانية تطبيق ذلك عمليا ، ووضع الخطط واستنباط الحلول إضافة إلى القدرات الذهنية الأخرى .

لكن يا ترى هل فكرتم لماذا يحتاج مثل هذا المخلوق الذي يمتلك كل هذه الصفات العليا إلى بدن خاص لكي يحميه ؟ لماذا توجد هناك مخلوقات لا ترى بالعين المجردة بل باستعمال المجاهر الإلكترونية مثل البكتريا والفيروسات التي يمكن أن تسبب ضرراً قاتلا للإنسان ؟ لماذا يضطر الإنسان أن يحافظ على نظافة بدنه طوال حياته ؟ ولماذا يعاني جسم الإنسان من الشيخوخة والهرم ؟ .

قد يعتبر البعض كل هذه الأمور أشياء طبيعية, فيما نرى أن هناك غاية خاصة لكل شيء تم إستعراضه حتى الآن وقد أوجد الله جميع التفاصيل التي من خلالها نرى عجز الإنسان وضعفه , ففي سورة النساء الآية 28 يسترعي انتباهنا إلى هذه الحقيقة بقوله : (وخلق الإنسان ضعيفاً . . . .) أي أن كل هذه الأمور موجودة لكي يعلم الإنسان بأنه خلق ضعيفاً ويدرك مقدار ضعفه وعجزه أمام رب العالمين, وليعرف بأن هذه الدنيا لا يطول الأنتظار فيها .

فالإنسان لا يعرف متى وأين سيولد وأين ومتى سيموت, وهو مهما عاش حياة سعيدة فإن هناك عوامل يمكن أن تؤثر سلباً على سير حياته، وهو لا يملك أي آلية تمكنه من السيطرة على هذه السلبيات .

أجل ! . . . إن جسم الإنسان يحتاج باستمرار إلى العناية به والمحافظة عليه لأنه لا يستطيع التكهن بما يمكن أن يتعرض له في هذه الدنيا حتى ولو كان يعيش في أي بقعة من بقاع الأرض سواء أكان يعيش في إحدى المدن الصناعية أم على بعد آلاف الكيلومترات من أقرب مدينة حضرية، أو في مكان يخلو من الماء والكهرباء في قرية نائية، فمن الممكن ومن المحتمل أن يتعرض هذا الشخص إلى مصيبة لم تكن في حسبانه أو يتعرض إلى مرض مميت أو إلى حادث يفقد به قوته أو سلطانه أو أحد أعضاء جسمه الذي طالما كان يفتخر به . إ وهذا الأمر يسري على الجميع وعلى كل شخص مهما اختلف موقع هذا الشخص من الناحية الاجتماعية أو المادية, بمعنى ان كل شخص سواء أكان راعيا يصحب حيواناته إلى المرعى أو نجما مشهوراً على المستوى العالمي فهو معرض للمرور بتجارب وحوادث تغير مجرى حياته بشكل لا يتصوره .

إن معدل وزن الشخص يتراوح بين 70-80 كغم وهو عبارة عن كتل من لحم وعظم, وهناك طبقة خفيفة من الجلد تغطي هذا اللحم . وهذا الجلد الرقيق إذا تعرض إلى ضربة ظهرت عليه الكدمات، ويمكن أن يخدش ويجرح بسهولة, وهذا الجلد لا يتحمل التعرض للشمس لفترات طويلة، فإذا تجاوز هذا التعرض الحد الطبيعي احمر في البداية الأمر ثم انتفخ . وبإختصار فإن الشخص الذي يتعرض إلى جو حار يجب أن يتخذ احتياطاته

اللازمة لكي يحمي نفسه .

لقد خلق الله الإنسان على أحسن صورة وجهزه بنظام متكامل، ولكن الحكمة الإلهية قضت أن يكون

(220/744)

جسم الإنسان عبارة عن لحم ودهن، وهي مواد قابلة للتلف بسرعة، وذلك من أجل إبراز حقيقة فناء هذه الدنيا وبأن هذه الحياة ما هي سوى رحلة قصيرة . وإذا تخيلنا أن جسم الإنسان خلق من مادة أخرى قوية شبيهة بالدرع, حينذاك لا يمكن لأي جرثومة أو فيروس أن يخترق بدنه فلا تصيبه مختلف الأمراض المعروفة . فالمكونات الأساسية لجسم الإنسان هي الدهن واللحم وهي مواد قابلة للتلف بسرعة كبيرة . فإذا قمنا بتجربة وتركنا هاتين المادتين في العراء نلاحظ فساد وتلف هاتين المادتين بسرعة كبيرة . إن الحكمة من جعل اللبنات الأساسية لجسم الإنسان من هذه المواد القابلة للتلف هي إثبات عجز هذا الإنسان وضعفه . إن إحساس الإنسان بعجزه بشكل مستمر هو تذكير دائم من الله تعالى للإنسان . مثال على ذلك نلاحظ كيف إن تيارا هوائياً بارداً يترك آثاراً سلبيةً واضحةً على جسم الإنسان والذي يبين عجز جسم الإنسان . حيث بإمكان هذا التيار البارد أن

يشل شيئًا فشيئًا أجهزة مناعة الجسم الفيزيولوجية .

لهذا فإن تثبيت درجة حرارة جسم الإنسان في مثل هذه الظروف وبصورة مستمرة في حدود 37 درجة مئوية ضروري جدا للمحافظة على صحته (1) . ولكن في حالة تعرض جسم الإنسان إلى تيار هوائي بارد جدا فهذا سيؤدي إلى الانهيار التدريجي للجسم .

(221/744)

في البداية تتسارع دقات القلب ويبدأ جسم الإنسان في الارتعاش لكي يدفئ نفسه (2) ، فإذا هبطت درجة حرارة الجسم إلى 35 مئوية فهذه علامة خطرة وستؤدي إلى نتائج وخيمة، إذ تبدأ ضربات القلب بالتباطؤ، وينخفض ضغط الجسم, وتبدأ الشرايين (ولا سيما في كل من الأذرع والأفخاذ والأصابع) في التقلص . والملاحظ أنه عند هبوط درجة الحرارة إلى 35 م يبدأ إحساس الشخص بالتبلد ويعاني أيضاً من عدم الدقة في تعيين الاتجاهات ويغلب عليه النعاس ويتشتت انتباهه, كما يعاني من شرود ذهني . وإذا استمر في تعرضه لموجة البرد هذه فترة أطول تهبط درجة حرارة الجسم إلى 33 درجة مئوية, وهذا يؤدي به إلى فقدانه الذاكرة والوعي . وعندها تهبط حرارة الجسم إلى 24 درجة

مئوية يتوقف الجسم عن التنفس . وعند درجة حرارة 20 مئوية يتوقف الدماغ وتقف دقات القلب وهذا يؤدي بالنتيجة إلى وفاة الشخص . المثال المذكور أعلاه إحدى الأمثلة, وسوف نتناول في الصفحات القادمة من هذا الكتاب أمثلة أخرى وبشكل تفصيلي توضح عجز الإنسان وضعفه من الناحية الجسدية . إن غايتنا من هذا العرض هو إظهار أن العجز الذي هو صفة من صفات جسم الإنسان يحول دون وصوله إلى الإشباع الحقيقي في هذه الدنيا ويحول دون الجري الأعمى خلف هذه الرغبات الفانية، ويذكره بالحقيقة الواضحة التي لا جدال فيها وهي أن الجنة هي دار البقاء ، لذا عليه أن يوجه جل اهتمامه للظفر بها . وفي الصفحات القادمة سنستعرض كيف أن الجنة هي المكان الذي يخلو من جميع أنواع العجز الجسدي وضعفه، ومن كل أنواع النقص والعيوب، حيث سيجد الإنسان هناك كل ما يطلبه ويشتهيه، ويكون بعيدا عن كل ما يعكر صفو حياته من جوع أو عطش أو مرض أو شيخوخة أو تعب . . . . . إلخ . إن هذا يظهر حقيقة أن هناك عظمة تفوق الإنسان وان هناك حقيقة واضحة وهي أن الإنسان بحاجة ماسة إلى الله تعالى في جميع الأوقات .

(222/744)

ويؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة من خلال آيات عديدة منها الآية الكريمة :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (فاطر 15)

متطلبات الجسد

هناك الكثير من النواقص في جسد الإنسان، فالإنسان بداية يضطر لأن يحافظ على نظافة محيطه, ويأخذ الوقت الذي يصرفه في هذا السبيل نصيبا وافراً من حياته . فالكثير من الاستطلاعات المنشورة تبرز الوقت المبذول في عملية الغسل في الحمام كالحلاقة وغسل اليدين والرجلين والشعر والجلد . . . الخ . نلاحظ هنا طول المدة الزمنية المستغرقة من عمره وهو يقوم بهذه الأعمال التي نندهش عند القيام بحساب طول المدة الزمنية لها ، فهي مدة لا تخطر على بال الإنسان .

إذا حولنا نظرنا إلى ما يحيط بنا سنرى أناساً من مختلف الصنوف من البشر ، سنجد أن الكثير منهم يهتم بنظافة جسمه وملابسه, ونرى السيدات اللائى يضعن المكياج ويصففن شعورهن بشكل دقيق، ويلبسن ملابس مكوية بشكل جيد . ترى هل يفكر أحد من الرجال أو النساء كم يصرف من الوقت لكي يظهر بهذا المنظر المناسب ؟

كما نعلم فإن المعتاد عند الكثيرين هو القيام بعمليات التنظيف المعتادة عند النهوض صباحا من النوم لحين توجههم إلى النوم مساء ، وتشمل غسل جميع أعضاء الجسم . فأول عمل يقوم به الإنسان بعد الاستيقاظ في الصباح هو التوجه إلى الحمام ليقوم بغسل أسنانه نتيجة للترسبات المتراكمة في فمه من الجراثيم التي تتسبب في انبعاث روائح كريهة غير مستحبة . كذلك إلى عمليات أخرى يقوم بها الإنسان عند نهوضه صباحا . فلأن الدهون المتراكمة في وجهه وشعره وتكاثر القشرة بين بصلات شعره وما يفرزه جسمه من عرق كريه الرائحة غير مرغوبة بها ، يضطره للإستحمام، وإذا لم يقم بالإستحمام فإن الدهون المتراكمة على جسمه وعلى شعره سيجعل من الصعب عليه أن يخالط الناس . والملاحظ أن كثرة مواد تنظيف الجسم وتنوعها تجعلنا نفكر إلى مدى الحاجة الماسة لهذه العملية . فبالإضافة إلى المواد التقليدية المعروفة كالماء والصابون فإن هناك مواداً أخرى يجب استخدامها لإزالة طبقات الجلد الميتة المتراكمة على جسم الإنسان . وعلاوة على تنظيف الجسم، فإن كل إنسان يخصص وقتا طويلا أيضاً في الاهتمام بنظافة ملابسه ونظافة بيته وبيئته التي تحيط به . وإلا فإنه يصعب الاقتراب من شخص انقضى على لبس ملابسه زمن طويل, أو ترك بيته دون تنظيف . وبإختصار فإن الإنسان يخصص من حياته زمناً مهما للقيام بأعمال التنظيف والصيانة المختلفة وهو يستعين بمعدات ومواد كيماوية مختلفة للقيام بهذه الأعمال .

عندما خلق الله جسم الإنسان ضعيفاً وعاجزاً، وهب له إمكانية ستر هذا العجز وعدم إظهاره ولو بشكل مؤقت, كما وهبه القدرة على التفكير التي يستطيع من خلالها إخفاء هذا العجز وتنظيف جسده. ولكن البعض ممن لا يفكرون بشكل سليم ولا يستعملون الوسائل التي زودهم الله بها يظهرون بمظهر سيئ أمامنا، ولاسيما عندما لا يستعملون مواد التنظيف اللازمة, لذا يبدون بصورة مزرية ومنفرة جدا. ولكن مهما اجتهد الإنسان في عمليات التنظيف والعناية بجسمه فإنها ستكون مؤقتة. فإذا قمت بتنظيف أسنانك فبعد مرور ساعة واحدة فقط سيبدو وكأنك لم تقم بغسلها, وإذا أستحم أحدهم في الصيف مثلا، فإنه وبعد ساعة أو ساعتين سيبدو وكأنه لم يستحم, كذلك فكروا في حال امرأة قضت ساعات طويلة أمام المرآة لكي تبدوا بصورة جميلة بعد وضعها المكياج بشكل متقن ودقيق على وجهها، إذ لن يمر وقت طويل حتى لا يبقى أي أثر لهذا المكياج حتى وإن ظلت بقايا من هذه المواد فإنها تأخذ في الوجه شكلا غير مرغوب به.

أما الرجل الذي يحلق وجهه بعناية كبيرة – وهذا يستدعي أن يخصص زمنا لا باس به من وقته – فسيضطر بعدما ينهض في صباح اليوم التالي أن يعيد مجددا العملية نفسها. !!

المهم هنا هو الإدراك بأن هذا الضعف الجسدي يشير إلى غاية معينة، وان هذا العجز أو النقص قد وضع بصورة خاصة فينا ، وهي ليست عيوب جبرية .

دعونا نتأمل هذا المثال : إن الشخص الذي ترتفع درجة حرارة جسمه سيعاني بعد فترة من التعرق وهذا شئ طبيعي وان الرائحة المنبعثة من هذا التعرق ستكون كريهة للغاية . إن كل فرد يعيش على وجه الأرض يواجه باستمرار مثل هذا الوضع .

(225/744)

ولكن الأمر مختلف عند النباتات : فمثلا إن الوردة يمكن أن تنبت في أراض مختلفة، فالزهرة التي تنبت بشكل طبيعي في إحدى الأزقة أو في شارع من الشوارع تكون معرضة لمختلف أنواع التلوث والأوساخ، ولكن هذا لا يؤثر على عدم نشرها لرائحتها الزكية . وهي مهما تعرضت لأي درجة من درجات التلوث والقذارة فهذا لا يجعلها تفوح بروائح كريهة، بل تظل تحتفظ دوماً برائحتها الزكية, وهي لا تحتاج إلى من يقوم يومياً بتنظيفها وبرعايتها . ولكن الأمر مختلف مع الإنسان, فالله تعالى منح الإنسان مختلف صنوف النقص لكي يحس بعجزه وبضعفه، فهو على الرغم من استعماله لمختلف وسائل التنظيف ومواد التجميل والروائح المعطرة لا يستطيع أن يجعل رائحته زكية وفواحة بصورة مستمرة ومن جميع أنحاء جسده .

وبالإضافة إلى هذا العجز الجسدي فإنه يحتاج إلى الغذاء لكي يستمر في الحياة، ويجب أن تكون تغذيته هذه على مستوى عال من التنظيم . فجسم الإنسان يحتاج إلى أن يتناول في الوقت نفسه مواد غذائية تحوي فيتامينات وبروتينيات وسكر وكربوهيدرات ومختلف الأنواع من الأملاح. فإذا حدث وان كانت الكمية المأخوذة من المواد التي ذكرناها غير كافية, فإن الأعضاء الداخلية لجسم الإنسان ستعاني من أضرار كبيرة، وكذلك أنسجة الجلد ستعاني هي الأخرى من أضرار كبيرة، وكذلك ستضعف منظومة المقاومة في جسمه . ولهذا السبب فبقدر اهتمامه بنظافة جسمه عليه أن يبدي نفس الأهتمام بنظام تغذيته . هناك حاجة ملحة أخرى للإنسان حتى إنها تعتبر أهم من الغذاء، لأنه يمكنه العيش لمدة من الزمن دون تناول للطعام، ولكن لا يستطيع العيش أكثر من بضعة أيام دون شرب الماء . لأنه إذا لم يدخل الماء جسمه بأي شكل من الأشكال خلال هذه الفترة فإنه سيموت لا محالة, لأن جسم الإنسان بحاجة ماسة للماء على الدوام، فجميع الفعاليات الكيماوية الحياتية التي تتم داخل جسم الإنسان والتي تديم الحياة تتم من خلال الماء الذي يلعب دورا حيويا .

(226/744)

أن ما تم استعراضه هنا يمثل النقص والعجز الذي يصاحب كل فرد من بني البشر . ولكن هل جميع البشر يدركون بأن هذا يمثل نقصاً أو عجزاً ؟ هل يستوعب الجميع هذا الأمر ؟ أم لكون الجميع مشتركون بهذا العجز والنقص يجعلهم يعتبرون الموضوع شيئا طبيعيا ؟ إن ما تم أستعراضه هنا من أوجه النقص والعجز شاملةً لجميع البشر، ولكن ما يجب تذكره وعدم نسيانه هو أن الله تعالى لو شاء ما جعل هذا النقص والعجز موجوداً عند الإنسان، ولجعله نظيفا يفوح دوما برائحة طيبة مثل الورود .

إذن يجب التذكر بأنه لو شاء الله ما جعل هذا النقص والعجز موجودا لدى الإنسان، ولكن لحكمة معينة خلق الله تعالى الإنسان بكل هذه النواقص . والإنسان الذي يشاهد بجلاء هذا العجز أمام خالقه عليه أن يسير في الطريق الذي رسمه الله تعالى له ودعاه أن يسير فيه وألا يحيد عنه, وألا يربط نفسه بهذه الدنيا الزائلة والناقصة, وان يستعد بكل جد ويتأهب لدار الخلود .

خمسة عشر عاما من عدم الوعي

على كل إنسان أن يأخذ في كل يوم قسطاً من النوم لفترة زمنية معينة مهما كان مشغولاً أو حتى ولو لم يكن راغبا في النوم, فلا مفر أمامه من قضاء ربع يومه في النوم لكي يريح جسده وعقله، وإلا يصبح من غير الممكن أن يستمر على قيد الحياة . ففي اليوم الواحد نراه يقضي 18 ساعة وهو في أتم وعيه، والمتبقي من الزمن وهو 6 ساعات يكون غائبا عن وعيه

تماماً . وإذا نظرنا إلى الموضوع من هذه الناحية نرى نتيجة مثيرة, وهي أننا لو اعتبرنا معدل عمر الفرد 60 عاما وحسبنا أنه يقضي ربع يومه في النوم فهذا معناه إن كل شخص يقضي 15 سنة من عمره وهو غائب عن الوعي . ونحن نلاحظ بجلاء كيف أن عيون الشخص الذي لم ينم لمدة يومين تصبح حمراء كالدم، ويبدو جلده وكأنه قد فقد حيويته وبهت لونه, وإذا استمر على هذه الحالة فسيفقد وعيه لا محالة .

(227/744)

فالإنسان لا بد له أن يغمض جفنيه ويغيب عن الوعي وينام خلال يومه سواء أراد ذلك أم أبى, فهذه قاعدة لا تتغير ولا مفر منها سواء أكان الشخص غنيا أم فقيراً, جميلاً أم قبيحاً . فإذا أستسلم أحدنا إلى النوم فسيبدو كأنه شخص ميت لا يحس بأي شئ، ولا يقوم بأي رد فعل . فعلى الرغم من سلامة الأذنين (اللتان كانتا تسمعان وتفهمان الأصوات الصادرة قبل قليل) تصبحان عاجزتين عن أداء فعالياتهما المعتادة على الرغم من عدم وجود خلل ما في نظام الجسم الفيسيولوجي، حيث تهبط جميع الفعاليات البدنية إلى أدنى حد ممكن . ونلاحظ أن تركيز نظام الجسم ودقته يهبطان إلى أدنى مستوى لهما , وهذا يعد نوعا من أنواع الموت . لأن الجسد يرقد في الفراش بينما روحه تتجول في أماكن أخرى ويشعر بأنه

يعيش حوادث مختلفة, فقد يرى نفسه وهو على شاطئ بحر ويحس بحرارة الجو، ولكن الحقيقة هي أنه مازال راقدا في فراشه ويغط في نوم عميق . ويحدث الموت التأثير نفسه فهو يأخذ روحنا من بدننا هذا الذي نعيش به في هذه الدنيا وينقلنا إلى عالم جديد . والقرآن الكريم يتطرق إلى هذا التشابه بين الموت والنوم بقوله :

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (سورة الأنعام 60)

هناك آية أخرى تصف التشابه الموجود بين الموت والنوم بقوله تعالى :

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (سورة الزمر 42)

(228/744)

وأكثر الناس لا يفكرون أبدا في مفهوم غيابهم عن الوعي والإدراك وعدم قيام أجسامهم بالفعاليات المعتادة لفترة تأخذ ربع مساحة يومهم وبالتالي ربع سنوات حياتهم الدنيوية, حيث يبدون خلالها وكأنهم موتى، ولا يخطر على بالهم أنهم خلال استغراقهم في نومهم مضطرون لترك كل شيء جانبا مهما كان الأمر عاجلاً, حيث تصبح بعض الأعمال التي

قاموا بها وبعض الفعاليات التي أجروها خلال يومهم هذا لا تحمل أي معنى خلال نومهم وغيابهم عن الوعي, مثل ما ربحوا من نقود, أو دخولهم لإمتحان مهم, أو شرائهم هدية ثمينة, لأنهم دخلوا إلى عالم انقطع من خلاله ارتباطهم بهذه الدنيا .

لقد استعرضنا سابقا من خلال بعض الأمثلة مدى قصر هذه الحياة الدنيا ، ومدى انشغال الإنسان لإنجاز هذه الأعمال الضرورية، فإذا تم طرح الزمن الذي تم قضاؤه في هذه الحياة لإنجاز هذه الأعمال الضرورية, فسيجد أن المتبقي من الزمن الذي سيقضيه الإنسان لكي يلهو ويعمل ما يحلو له ويحقق رغباته لكي يستطيع أن يقول لنفسه ``إنني أعيش في هذه الدنيا كما يحلو لي`` . . . سيجد أن هذا الزمن قليل جداً . لأن الزمن الذي يقضيه لإنجاز أعمال ضرورية مثل النظافة والتنظيف والنوم, وكذلك الزمن المهدر في ذهابه إلى عمله وإيابه منه لكي يضمن العيش في ظروف حياتية أحسن . . . كل هذه الفعاليات تأخذ مساحة واسعة من الزمن المتبقي من حياته .

(229/744)

ومما لاشك فيه فإنّ الحسابات والأرقام المتعلقة بمقدار الزمن الذي يقضيه الإنسان وهو يعيش أوضاعاً وأحوالا مختلفة تدعو إلى الدهشة . فكما نوهنا سابقا بأننا لو فرضنا بأن

معدل عمر الإنسان هو 60 عاما فإنه يقضي ما لا يقل من 15 إلى 20 سنة في النوم، والمتبقي هو 40 سنة إلى 45 سنة يقضي منها 5 إلى 10 سنوات في مرحلة الطفولة التي لم يتكامل بعد فيها وعيه وشعوره تماما . وهذا يعني أن الإنسان الذي يعيش قرابة 60 عاما يقضي نصف عمره تقريبا في حالة من عدم الوعي . أما المتبقي من عمره فيمكن التطرق إليه من خلال إعطاء بعض الأرقام . مثال ذلك الزمن الطويل الذي يقضيه في إعداده الطعام والأكل، وتنظيف جسمه وبيئته من حوله، والزمن المهدر في الطريق لكي يتنقل من مكان إلى مكان آخر . وطبعا نستطيع أن نزيد من عدد هذه الأمثلة .

وفي النهاية نرى أنه لم يبق من عمره الطويل سوى ما بين ثلاث إلى خمس سنوات لكي يشبع رغباته وحاجاته الطبيعية . حسنا ! . . . . ما هو وجه المقارنة الأن بين حياة أبدية وخالدة وبين هذه الحياة القصيرة جدا ؟ .

في هذه النقطة الفاصلة يظهر الفرق الكبير بين أصحاب الإيمان الحقيقي وبين المنكرين والعصاة .

إن الإنسان العاصي والمنكر يحسب أن الحياة هي الفترة الزمنية التي يقضيها على وجه الأرض فقط، وهو يتعب من دون جدوى لكي يستمتع بطعم هذه الحياة الفانية التي تمر كلمح البصر، لأنه كما ذكرنا منذ البداية فالحياة الدنيا هذه قصيرة جدا وهي تشتمل على نواقص عديدة, ونتيجة لعدم اعتمادهم وتوكلهم على الله فإنهم يجترعون طوال حياتهم

الآلام الناتجة عن المصاعب الدنيوية من القلق والتفكير فيما سيحدث في الغد .

أما أصاحب الإيمان الحقيقي فهم يعملون طوال حياتهم لكسب رضا الله تعالى, وهم يعيشون حياتهم بطمأنينة وسكينة، بمنأى عن جميع المخاوف والأحزان نتيجة لانقيادهم لله تعالى، وهو ما يقودهم في النهاية إلى الفوز بدار النعيم الخالد ألا وهي الجنة .

(230/744)

والحقيقة أن غاية وجود الإنسان على وجه الأرض هي إمتحان لتصرفاته وسلوكه . لأن الله جل شأنه وعد الذين يتحلون بالأخلاق الحميدة والصفات الجميلة بالسعادة في الدنيا وفي الآخرة :

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (سورة نوح 31 - 30)

الأمراض والحوادث

الأمراض هي إحدى العلامات التي تذكر بعجز الإنسان، فنلاحظ أن الجسم المحصن والمحمي بشكل جيد يتأثر سلباً وبشكل جدي بالفيروسات والجراثيم التي لا ترى بالعين

المجردة . ففي الوهلة الأولى فإنه من الصعب التصديق بأن بدن الإنسان يمكن أن يقع فريسة في أيدي هذه المخلوقات المجهرية بعد ما زوده الله تعالى وعلى أكمل وجه بمختلف أنظمة وأجهزة الحماية المدهشة وبالأخص النظام الدفاعي المدهش والمناعة الموجودة في جسم الإنسان .

(231/744)

لكن رغم كل هذه النظم الدفاعية والتحصينات الموجودة في جسم الإنسان نراه يتعرض لمختلف الأمراض والعلل . فالنقطة التي يجب التفكير فيها هنا هي أن الله تعالى الذي منح الإنسان كل هذا النظام المذهل لو شاء ما جعل الإنسان يصاب بمثل هذه الأمراض ولا يتأثر مطلقا بهذه الجراثيم والفيروسات والبكتريا ، بل لو شاء ما خلق هذه الجراثيم . لكن الملاحظ أن الإنسان يمكن أن يتعرض لخطر حقيقي من أصغر وأتفه الأسباب . ومثال على ذلك, أنه لو وجد في الجلد جرح صغير فإن فيروساً واحداً يستطيع إختراق الجسم من خلال هذه الفتحة الصغيرة ويتكاثر وينتشر في جميع أنحاء الجسم . فمهما تقدمت التكنولوجيا فإن أبسط جرثومة زكام يمكنها وبكل سهولة أن تسبب إزعاجاً جدياً للإنسان . والتاريخ يقدم لنا شواهد كثيرة على مثل هذه الحوادث, فمثلا نلاحظ كيف أن

إحدى أنواع أو بئة الزكام التي انتشرت في إسبانيا عام 1918م قضت على أكثر من 25 مليون إنسان، وفي ألمانيا أنتشر وباء تسبب في وفاة 30 ألف شخص . إن ما ذكرناه ليست إحدى الأخطار البعيدة عنا ، بل يمكن أن يتعرض لها كل إنسان وفي أي لحظة . وبالطبع فمن الخطأ المرور على هذا الموضوع دون تفكير فيه، واعتباره أمراً طبيعياً .

إن الأمراض من ضمن عوامل الضعف الأخرى التي وضعها الله تعالى في الإنسان لكي يدرك المتكبرون منهم مدى ضعفهم وعجزهم، ويجعلهم يستوعبون أيضاً الوجه الحقيقي لهذه الدنيا الفانية .

(232/744)

بالإضافة إلى الأمراض فإن هناك مخاطر أخرى يواجهها الإنسان في حياته ألا وهي الحوادث المختلفة . فعلى سبيل المثال حوادث المرور التي اعتدنا مشاهدتها في التلفزيونات وقراءتها من الصحف . فالإنسان لا يفكر كثيرا باحتمال تعرضه يوما ما لمثل هذه الحوادث . كما يمكن للإنسان أن يتعرض خلال ساعات يومه إلى حوادث أبسط بكثير من حوادث المرور وما أكثرها . فكثير ما نسمع أن أحدهم كان يمشي في طريق مستو وإذا بقدمه تصطدم بشيء ما فيقع على رأسه فيحصل عنده نزيف دماغي . أو نسمع عن

شخص فقد توازنه وهو ينزل من سلم البيت ووقع فانكسرت قدماه ورقد في الفراش أشهر عديدة . أو عن شخص انسد مجرى التنفس عنده عندما كان يتناول الطعام مما أدى إلى حدوث عملية إختناق لديه . فكل هذه الحوادث ما هي إلا نتيجة أسباب بسيطة, ويمكن أن يتعرض لها بكل سهوله الآف الناس في مختلف بقاع الأرض .

وأمام استعراضنا لمثل هذه الحقائق فإنه يجب على الإنسان أن يفكر في معنى عدم الإرتباط بهذه الدنيا . فيجب عليه أن يدرك بأن كل شئ منح له بشكل مؤقت من أجل اختباره، فهو لا يستطيع أن يقاوم جرثومة واحدةً دخلت جسمه وعرضت حياته لخطر حقيقي, كذلك لا يأمن انزلاق قدمه عند عدم دقته في حساب خطواته التي يمشيها ، لذا فكيف يجوز له أن يتجاهل كل هذا العجز ويتكبر تجاه خالقه ؟

(233/744)

لا شك أن الله تعالى الذي خلق الإنسان قادر وحده على أن يحميه من جميع المخاطر . ولا يملك الإنسان حماية نفسه من مختلف الأضرار والمخاطر المحيطة به مهما توهم نفسه كبيراً ومهما اغتر بقوته ولا أن ينفع نفسه بعيدا عن قدرة الله تعالى . ولكي يتذكر عجزه فإن الله تعالى قادر على أن يجعل في جسمه مختلف أنواع الأمراض, وإذا شاء الله تعالى جعل في

بدنه الكثير من العاهات . وأخيراً – وكما بينا في البداية – فإن الله تعالى خلق الدنيا لكي يمتحن عباده, وكل إنسان مكلف أن يعمل الأعمال الصالحة لكي ينال رضا الله تعالى، وعليه أن يتبع مختلف الطرق لتحقيق هذه الغاية الكبيرة . وستكون الجنة من نصيب الذين يتحلون بهذه الأخلاق الحميدة من الذين يتبعون ما أمرهم به ربهم وينتهون عما نهى عنه . أما الذين يعاندون ويتكبرون ويطغون ويؤثرون هذه الحياة القصيرة الزائلة فسيتجرعون الكثير من الأحزان والآلام .

النتائج المتولدة من الأمراض والعاهات

كما ذكرنا سابقا فإن الأمراض والحوادث ما هي إلا بعض الوسائل التي خلقها الله لكي يختبر بها الإنسان في هذه الدنيا . فالإنسان المؤمن والصادق في إيمانه إذا ألم به أي حادث لجأ إلى الله بالتضرع والبكاء ، لأنه يعلم جيدا بأنه ليست هناك أي قوة على وجه الأرض تستطيع إنقاذه سوى الله تعالى .

وبالطبع فإن الله تعالى الذي يختبر إيمان الإنسان وصبره وتوكله في مثل هذه الحوادث سيمنح هؤلاء المؤمنين مقابل هذا الإحسان سعادة لا نهائية، وكما ذكر القرآن الكريم كان سيدنا إبراهيم عليه السلام نموذجاً مثالياً من خلال حسن تصرفاته وصدقه في توجهه ودعائه إلى الله تعالى . لذا فحري بالمؤمنين أن يحتذوا حذو سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي كان

دعاؤه :

وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (الشعراء 79-81)

(234/744)

ومثال آخر هو سيدنا أيوب عليه السلام الذي لجأ إلى الله تعالى في كربته, حيث نجاه من الأمراض والآلام الشديدة التي أصيب بها وصبر عليها سنوات طويلة، وبذلك أضحى أنموذجاً للصبر يحتذي به من قبل المؤمنين :

ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (سورة ص 41)

إن أمثال هذه المعاناة لا تزيد المؤمنين إلا نضجاً وتعد خيراً بالنسبة إليهم, بينما كل كارثة أو مرض يعد للملحد نوعاً من أنواع البلاء, لذا نراه يتقلب بين جوانح الألم لأنه لا يدرك بأنه قد خلق لحكمة معينة, وأنه في الآخرة سيحصل على مكافأة مقابل هذه الآلام إن توكل على الله تعالى وصبر عليها . وعلاوة على هذه الآلام المادية فهناك بجانبها الآلام المعنوية . لأن القيم السائدة في مجتمع ونظام ينكر الله تعالى هي قيم مادية بحتة . فإذا تعرض شخص معروف ومحبوب لدى الكثير من الناس لحادثة أقعدته عن الحركة وأصبح لا يقوى على مزاولة نشاطه المعتاد نرى بأن معظم أصحابه القدماء يتركونه وحده ولا يبدون الأهتمام

السابق به، أو يهملون حتى السؤال عنه، فإذا كان جميلاً وفقد جماله, أو إذا كان شخصاً قوياً وفقد قوته فإن الاهتمام به يقل عما كان عليه قبل ذلك, والسبب يعود إلى أن المجتمعات التي تعيش بعيدة عن قيم الدين نرى أن الأفراد فيها يقَيمون بعضهم البعض بروابط مادية فقط, لذا فإن حصل لأحدهم ضيق مادي فإن قيمة هذا الإنسان تنتهي . فمثلا نرى زوجة وأقرباءً الشخص الذي يصاب بعاهة جسدية يبدءون بإظهار تذمرهم وضيقهم منه، ويبدأ المصاب بعاهة جسدية بشرح سوء حظه هذا لأصدقائه وأقربائه، فمنهم من يتحسر على شبابه وبأنه مازال في ربيع عمره وأنه لا يستحق أن يقع في مثل هذه الحال، ويظل نادباً حظه العاثر .

(235/744)

في النهاية فإن عدم إظهار الأهتمام اللازم بهذا الشخص المصاب سيدفعه لكي يطلب المزيد من الأهتمام والرعاية من أفراد عائلته وأقربائه . ويتمنى معظم المحيطين به والقريبين منه أن يتركوا مثل هذا الإنسان العاجز المريض لشأنه ويبتعدوا عنه، ولكنهم لا يجرأون على مثل هذا التصرف خوفاً من الناس ولومهم وخوفاً من تنديد المجتمع بهم وما سيقولونه عنهم إن تصرفوا على ذلك النحو .

والغريب أننا نرى أن الأفكار والأفعال والعبارات التي تنم عن الأنانية والمصالح الشخصية تحل محل كلمات وعبارات الوفاء والثناء عندما كان هذا الإنسان في أتم غناه وصحته .

وفي الحقيقة فليس من الغريب على الذين يعيشون ضمن هذا النظام الجاهلي والمادي أن يكون مفهوم الصداقة والوفاء قصيراً بهذا الشكل وغير دائم، فليس من الممكن أن تنتظر من الشخص الذي يخلو قلبه من مخافة الله والذي يقيم جميع علاقاته البشرية على المعايير المادية فقط أن يدرك معنى الصداقة الحقيقية, لأنه يعتبر حسب منطقه أن من الحمق أن يتصرف الإنسان بشكل جيد وقويم ما دام لا يؤمن بوجود أي آلية تقوم بمعاقبته إن اقترف أعمالا غير صالحة، كما يرى أنه من العبث قيام أي شخص – حسب المنطق الجاهلي الذي يؤمن به– بأي تضحية لشخص آخر، أو إظهار وفاء غير مبرر ما دام يعتقد أنه بعد سنوات سيموت وسيفنى إلى الأبد . ولكون كل فرد في مثل هذا المجتمع الجاهلي يؤمن بنفس المنطق وهو أنه سيذهب إلى ظلمة العدم بالموت، وسينتهي به الأمر إلى عالم الفناء ففي هذه الحالة نجد أن كل فرد منهم يفكر في مصلحته وفي راحته الشخصية فقط .

(236/744)

ولكن الوضع يختلف مع المؤمنين، فالذين يؤمنون بالله ويعترفون بعجزهم وبضعفهم ويخافون الله تعالى ويحبونه، فإنهم يُقيمون علاقاتهم الشخصية ويبنونها على ضوء ما أمرهم الله تعالى به . فأهم الخصال التي يجب أن يمتلكها المؤمن هي التقوى, التي تعني مخافة الله تعالى وخشيته وهذا ما يجعله يمتلك خلقا أصيلا وصفات حسنة وحميدة .

فإذا امتلك شخص ما في هذه الحياة مثل هذه الصفات الحميدة – وإن كان يعاني من بعض العاهات الجسدية – فإن مآله سوف يكون الجنة خالدا في نعيمها . وهذا ما وعده الله تعالى للمؤمنين به . لذا فإن المؤمنين ومن هذا المنطلق يكونون فيما بينهم على درجة عالية من الوفاء والحب والصداقة الحميمة والستر على عيوب الآخرين ونقائصهم، ومعاملتهم بالرحمة والشفقة . وهذا الاختلاف الكبير ما هو إلا عقاب للمجتمع الجاهلي الذي يعيش بلاءً كبيراً في الحياة الدنيا سلّطه الله على هؤلاء المنكرين وغير المنكرين .

إن الذين عاشوا في هذه الدنيا كما يحلو لهم، وتصرفوا كيفما شاءوا دون محاسبة سيعيشون في الآخرة رعباً كبيراً لأنهم سيحاكمون على ما اقترفوه من أعمال وأفعالٍ قبيحة من ظلمٍ وجحود وأخلاق دنيئة . وتشير الآية الكريمة على إن الكفار الذين تخلقوا بالأخلاق والتصرفات السيئة ستكون وبالاً عليهم في الحياة الدنيا بقوله :

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأنفسهم إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ

مُهِينٌ (آل عمران 178)

الشيخوخة

(237/744)

نرى بوضوح التأثير السلبي للعامل الزمني في كل شئ . فالسيارة حديثة الطراز بعد مرور بضع سنين ستبدأ بالتعرض لمختلف الأعطال والخدوش, وهذا ما سيؤدي إلى قدمها , وهي نتيجة لا مفر منها . كذلك الحال للبيت الذي إذا ترك خمس أو عشر سنوات (من دون القيام بالأهتمام اللازم به) فإنه سيبدو بمظهر قديم نتيجة لفقدان أصباغ البيت ورونقه, ولكن الأهم من كل هذا هو مشاهدة الإنسان نفسه بصمات الزمن على جسده . فمع تقدم العمر تظهر آثار سلبية على مختلف أنحاء جسمه والتي لا يمكن تلافيها ولا إخفاءها مع أن الإنسان يحاول الحفاظ على جسمه من هذه التأثيرات الخارجية المضرة . ولقد ذكر القرآن الكريم هذه التغيرات التي تطرأ على جسم الإنسان خلال فترة زمنية معينة بقوله :

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (سورة الروم 54)

وعند التفكير في وضع الخطط المستقبلية فإن فترة الشيخوخة هي الفترة التي لا تؤخذ في الحسبان في كثير من الأحيان . فالإنسان يحاول بقدر المستطاع الابتعاد عن التفكير في هذه الفترة من عمره التي سيعاني فيها بسبب الشيخوخة من العجز والضعف الجسدي، فنلاحظ الخوف والقلق الذي يعتري الوجوه بين فترة وأخرى عند التكلم حول مثل هذه المواضيع, ولكن سرعان ما ينسون هذه المواضيع وكأن شيئا لم يكن، ويرجعون إلى مزاولة حياتهم الأعتيادية وبشكل طبيعي . ولعل السبب الرئيسي الذي يدفعهم إلى عدم التفكير في شبح الشيخوخة هو أن الشيخوخة تذكرهم بعدم الخلود في هذه الدنيا وبالموت والزوال، ولهذا السبب ومن هذا المنطلق فهم لا يحبذون التفكير كثيراً في مثل هذه المواضيع التي تبدو لهم مزعجة والتي ستواجههم عاجلاً أم أجلاً . وهم يحسبون بأن العمر أمامهم ما زال طويلاً ولا يزال هناك وقت طويل جداً على الشيخوخة والموت . لقد بين القرآن الكريم وبشكل واضح الوهم الكبير الذي يقع فيه مثل هؤلاء الناس بقوله :

بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمْ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرض نَنقُصُهَا مِنْ أطرافهَا أَفَهُمْ الْغَالِبُونَ (الأنبياء 44)

إن الوهم الذي يقع فيه أمثال هؤلاء وهم كبير, لأن كل إنسان مهما كان عمره إذا رجع إلى الوراء فأنه سيلاحظ وجود ذكريات واضحة وذكريات غير واضحة المعالم . ففي فترة الطفولة والشباب حيث مرت به ذكريات وحوادث مؤلمة وسعيدة, كان البعض منها يبعث على الفرح والغبطة, كذلك مرت عليه أوقات كان عليه اتخاذ قرارات حاسمة, وكانت هناك سنوات وجهود أهدرها عند محاولاته الوصول إلى غاياته وأهدافه . كل هذه الذكريات وإن صعب عليه تذكرها بوضوح ستبدو وكأنها لحظات سريعة جداً مرت به . لذا فإن طلب من أحدهم أن يشرح حياته التي عاشها , فسنرى أنه يحتاج إلى بضع ساعات فقط كي يلخصها لنا . إن الوقوف على هذه الحقيقة واستيعابها لا يحتاج سوى إلى بضع ثوان, فمثلاً الشخص الذي عمره 40 عاماً والذي يأمل بالعيش حتى 65 عاماً عليه أن يدرك جيداً أنه كما مضت الأربعون عاماً بهذه السرعة كذلك فالمتبقي وهو 25 عاماً سيمضي بنفس السرعة التي مرت بها الأعوام الأربعون السابقة .

ويمكن قول الشيء نفسه للشخص الذي سيعيش حوالي 90 عاماً . فليس هناك من فرق, لأنه لو كان المتبقي من عمره سنوات طويلة أو قصيرة فإنه في النهاية ستنقضي وتنتهي

لا محالة . إن شيخوخة الإنسان ما هي إلا تنبيه بأن هذه الدنيا ما هي إلا محطة انتظار، وأنه مهما عمل فعليه أن يحزم حقائبه ويرحل من غير رجعة إلى دار البقاء الأبدي . لذا يجب على الإنسان أن يكون أكثر واقعية وأن يترك الأحكام المسبقة جانبا , وعليه أن يدرك أولاً أن الزمن يمر بسرعة كبيرة وأن انقضاء كل يوم من حياة الإنسان لا يجعله أكثر شباباً وقوة, بل على العكس هو خطوة أخرى نحو الشيخوخة .

وبإختصار فإن الشيخوخة ما هي إلا دلالة واضحة على عجز الإنسان . ومع تقدم عمر الإنسان تتولد أمارات وعلامات العجز البدني حيث تكون واضحة للعيان .

والقرآن الكريم يتناول العجز والضعف الذي يلف الإنسان وهو يتقدم بخطوات إلى فترة الشيخوخة بقوله تعالى :

(240/744)

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (سورة النحل 70)

وبطبيعة الحال فيمكن القول بأن الشيخوخة تمثل فترة الطفولة الثانية، لأن الإنسان في مثل هذه الفترة يحتاج إلى الرعاية والحماية التي يحتاجها الطفل . حيث تظهر في الإنسان في هذه

المرحلة صفات بدنية وذهنية تجعله وكأنه عاد إلى فتره الطفولة . فلم يعد يملك تلك القوة والمقدرة على إنجاز الأعمال التي كان يقوى عليها وبكل سهولة في فترة شبابه . وعندما كان شاباً كان يمتلك ذاكرة قوية ومع تقدم العمر سيظهر بشكل طبيعي تراجع وضعف في ذاكرته .

ويمكن الإكثار من سرد هذه الأمثلة وفي كل المواضيع, ولكن كنتيجة نهائية يمكن القول بأن الأنهيار الذهني والجسماني الذي يظهر على الإنسان في فترة زمنية معينة تمثل نوعاً من أنواع الرجوع إلى فترة الطفولة .

وبإختصار يمكن القول بأن الإنسان كما بدأ حياته من فترة الطفولة, فإن حياته تنتهي بعدما يعود كي يمر بهذه الفترة مرة ثانية . ومما لاشك فيه أن هذه الفترة لم تظهر بشكل عشوائي . إن الله تعالى لو شاء لجعل الإنسان يتمتع بشبابه حتى يدركه الموت، وما جعله يعاني من أي مرض أو عجز جسماني, ولكن الحكمة الإلهية قضت أن يتذكر الإنسان بأن هذه الدنيا فانية وزائلة، وذلك من خلال خلق سلسلة من الأمراض والمشاكل الصحية له .

وفي الوقت نفسه فإن الغاية من إظهار هذه النواقص في الحياة الدنيا هو من أجل زيادة ولعه وشغفه بالآخرة دار البقاء الحقيقية . وقد بينت الآية الكريمة أدناه وبشكل واضح للعيان الحكمة من وصول الإنسان لفترة الشيخوخة وجعل الدنيا زائلة فانية بقوله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (سورة الحج 5)

العوارض البدنية المتأتية من الشيخوخة

مهما كان الإنسان غنيا ومشهوراً وقوياً فأنه لا يستطيع إن ينقذ جسده من العوارض السلبية التي ستواجهه مع تقدم العمر . حيث يمكن استعراض قسمً من هذه العوارض على النحو التالي :

إن جلد الإنسان يلعب دورا مهما جدا في جماله، فإذا رفعت هذه الطبقة التي يقدر سمكها ببضع ملليمترات سنلاحظ مشهداً غير مفزعا ، وبعيداً كل البعد عن أي مقياس من مقاييس الحسن والجمال، وهذا الأمر يشمل كل الكائنات الحية . بل يصل إلى درجة أنه يصعب حتى النظر إلى هذا المنظر ، لأن الجلد علاوة على قيامه بوظيفة الحفاظ والحماية لجسم الإنسان فهو يعطي منظراً مستوياً وخالياً من النتوءات والتعرجات, لذا فهو يقوم بوظيفة جمالية مهمة جداً .

وهنا يمكن القول بأن حسن الإنسان الذي طالما يتفاخر به بين أقرانه ما هو إلا كيلوغرامين من الجلد الذي يغطي كل جزء من أجزاء جسده، ويمكن القول بأنه ولحكمة ما فإن أكثر المناطق التي تعاني من التشوه مع تقدم العمر هي جلد الإنسان .

(242/744)

ومع تقدم العمر يبدأ الجلد تدريجيا بفقدان مرونته ويقل سُمكه نتيجة لإنهيار طبقة البروتينيات التي تشكل النواة الرئيسة لتركيبة الجلد ، حيث تزداد هشاشته مع تقدم العمر، وهذا يؤدي بالنتيجة إلى ترهل الجلد . لذا فتقدم العمر يؤدي عند الكثير إلى زيادة المخاوف من ظهور التجاعيد والخطوط على الوجه الذي يحدث لنفس الأسباب التي ذكرناها .

كذلك ونتيجة لقلة الإفرازات الدهنية – التي تغطي الطبقة الخارجية من الجلد وتمنحها نعومة وطراوة طبيعية – يبدأ الجلد بالتيبس والتقشر, ومع زيادة التيبس يزداد تساقط الطبقة الخارجية من الجلد والذي يؤدي في النهاية إلى سهولة تأثر الجلد بالعوامل الخارجية المحيطة به حيث يسهل اختراقه .

وبالاستناد إلى هذا فإن من الأعراض التي تظهر على الشخص في فترة الشيخوخة هي حكة الجلد ، جروح في الأظافر ، الأرق . . . الخ, وبنفس الشكل يحدث هدم كبير في

الطبقات الداخلية للجلد كما أن آلية تجديد ونقل المواد داخل أنسجة الجلد عند كبار السن تشهد تراجعاً ملحوظاً ، ولهذا السبب نلاحظ نشوء الأورام الخبيثة وبشكل مستمر عند كبار السن .

(243/744)

إن متانة العظام تحمل أهمية قصوى من كل النواحي لجسم الإنسان, فكما أنه من السهولة للإنسان الشاب أن يمشي وهو منتصب القامة فإن هذا الشيء يبدو صعباً من الناحية البدنية للشخص المسن . فمع تقدم العمر تبدأ أعراض حدوث إنحناء طبيعي في العمود الفقري, وهذا يحمل في طياته رسالة مفادها أنه حان الوقت لترك جميع أشكال الكبرياء والتعالي جانباً . لأنه من الطبيعي لشخص لا يملك القدرة على الوقوف على قدميه أن يفقد جميع صفات التكبر والتعالي على باقي البشر . فهو لا يستطيع مهما حاول أن يخفي عمن حوله عجزه وضعفه . وفي هذه الأثناء ومع تقدم العمر فإن أعضاء الحواس المختلفة ستبدأ بفقدان فعالياتها تدريجياً لعدم تجدد خلايا الأجهزة العصبية, حيث ينشأ ضعف في أعضاء هذه الحواس . فمع تقدم العمر تفقد العين القدرة على تعيير شدة الضوء مما يقلل قابلية الرؤية وصفاء ووضوح رؤية الألوان، ووضوح شكل الأجسام وأوضاعها . وقوة

الإبصار تعد شيئاً في غاية الأهمية ، ولكنها تنخفض مع تقدم العمر . وهذا يعد من الأشياء الصعبة التي يجب أن يتعود عليها كبار السن .

إن مرور الإنسان بفترة الشيخوخة يؤدي إلى فقدان الكثير من المهارات البدنية والذهنية عنده وهذا أمر يسترعي الوقوف عنده وتأمله جلياً . فكما ذكرنا سابقا انه لو شاء الله ما جعل الإنسان يخلق مع هذا العجز والضعف . وقد كان من الممكن إن تتقوى قابلية أعضائه بشكل أكبر وأحسن وكان من الممكن أن تضيف السنين التي قضاها الإنسان في الحياة الدنيا إلى صحته صحةً أكثر وعلى قوته قوةً أكبر . وكان من الممكن أن تسير الحياة على الدوام مع تقدم السن على نمط التجديد وليس على نمط الهدم والتخريب, إلا إن الحكمة الإلهية اقتضت أن يعيٍّ جسم الإنسان ضمن نظام يضعف ويشيخ . فكما إن كل شئ على وجه الأرض مصيره الفناء والاضمحلال فإن المصير نفسه سيلاقي الإنسان على وجه الأرض .

(244/744)

وهكذا يتضح مرة أخرى عدم فائدة هذه الدنيا وعدم استمرارها وسرعة زوالها , وستبدو حياة الدنيا شيئاً تافهاً لا يحمل أي قيمة مقارنة مع حياة الآخرة . ومن الجدير

بالذكر أن الله تعالى أكد على هذه الحقيقة وأخبرنا مراراً أن هذه الحياة الدنيا تتسم بالصفات التي تجعلها مؤقتة وغير دائمة، وأمر الإنسان أن يفكر ويتدبر هذا الموضوع، ويستخرج منه الدروس والعبر اللازمة .

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرض مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الأَنعَامُ حَتَّى إذا أخذ تْ الأرض زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أنهم قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أو نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (سورة يونس 24)

مما تم استعراضه حتى الأن يمكن ملاحظة أن الإنسان بعد ولادته ينمو ويصل إلى عمر معين, وبعد فترة سيصل إلى مرحلة يكون في أوج قوته, عندها يخالجه إحساس بأن هذا الجسم ملك له ويرى نفسه محط أنظار الجميع، ولكن بعد فترة زمنية يفاجأ بأن جميع ما أوتي من قوة وجمال ينتهي ويضمحل لتحل الشيخوخة محلها , وهو حيال هذا الأمر لا يملك أن يفعل أي شئ . لأن الله قد خلق هذه الدنيا على أساس أنها دار فناء, لذلك خلق الإنسان ومعه كل صفات وعلامات الضعف والعجز لكي يجعله يستعد لشد الرحال إلى دار الآخرة .

أمثلة عن الشيخوخة ذات عبر

ذكرنا حقيقة أن الشيخوخة هي مصير الجميع دون استثناء، ولا مفر منها, ولكن الشيخوخة التي تصيب المشهورين الذين يملكون المال والجمال والجاه لها دلالات خاصة, حيث تترك على بقية الناس أثراً كبيراً . ففي المجتمع الجاهلي هناك الكثير ممن يتخذ مثل هؤلاء الناس كقدوة لهم إما لشهرتهم أو مالهم أو لحسنهم, وشيخوخة ومثل هؤلاء الناس وعجزهم يرمز بشكل مهم جداً إلى مدى تفاهة وقصر هذه الدنيا . ويمكن مشاهدة المئات من هذه الأمثلة من حولنا . فيمكن مشاهدة أحد هؤلاء الأشخاص إما في التلفزيون أو في إحدى صفحات الجرائد وهو يعاني من عجز جسدي وذهني فاقدا لحيويته وقوته بعد ما كان في يوم ما يتمتع بكامل ذكائه، وكان صاحب بدن صحيح وجميل بحيث أوصله إلى عالم الشهرة والأضواء . طبعا إن مثل هذا الشيء هو مصير جميع البشر، ولكن الأمر هنا يختلف لكون مثل هؤلاء الناس لهم مكانة خاصة جدا في عقول الناس وان مشاهدتهم بهذه الصورة من العجز والشيخوخة سوف تترك أثراً لا يمحى في ذاكرة الناس .

وفي الصفحات الآتية سنقدم أمثلة على مثل هؤلاء الناس وسنرى بأنهم مهما كانوا مشهورين، ومهما اتصفوا بالحسن والشباب في يوم من الأيام فإن مصيرهم هو الشيخوخة التي لا مفر منها .

موت الإنسان

هل انتم تدركون بأنكم في كل يوم تقتربون شيئاً فشيئاً من الموت ؟

هل تعلمون بأن الموت قريب جدا منكم كباقي البشر ؟

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (سورة العنكبوت 57)

هذه الآية التي تذكر بأن الذين عاشوا على وجه الأرض والذين يعيشون الآن والذين سيعيشون في الغد دون استثناء قد ماتوا أو سيموتون . ولكن رغم هذه الحقيقة الواضحة، فالغريب أن أكثر الناس يرون أنفسهم بمنأى عن هذه الحقيقة الثابتة .

(246/744)

دعونا نتأمل هذا المثال لشخصين : الأول يولد ويفتح عينيه ويستقبل الدنيا ، والثاني يغمض عينيه للمرة الأخيرة ليودع هذه الدنيا . فلا الوليد الذي ولد استطاع أن يتدخل في ولادته، ولا الشخص الذي مات استطاع التدخل في موته . لأن الله وحده الذي يملك هذه المقدرة والقوة، يخلق من يشاء ويقبض روح من يشاء . فكل البشر خلقوا ليعيشوا لزمن معين، وبعدها سيموتون . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله :

قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنه مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (سورة الجمعة 8)

فأكثر من الناس لا يرغبون في التفكير في الموت كثيراً، في نفس الوقت نرى انشغال الإنسان بأعماله اليومية يلهيه ويدفعه للتفكير بأشياء أخرى. فأمور مثل: في أي مدرسة سيدرس، وفي أي عمل سيشتغل، ماذا سيلبس، ماذا سيأكل. . . الخ. كل هذه الأشياء تعتبر من أهم القضايا عند معظم الناس، لأنهم يحسبون أن الحياة عبارة عن مثل هذه الأشياء فقط، وعند ذكر الموت أمامهم يحاولون التهرب والاختباء خلف كلمات لا تحمل أي معنى ولا تستطيع منع الموت أو تأخيره فيقولون مثلا: (ما هذا ؟. . لماذا لا تبدأ كلامك بالخير ؟) وهم يقدرون أنهم لن يموتوا إلا بعد وقت طويل من الشيخوخة، أي يحسبون أن هناك مدة لا تقل عن خمسين أو ستين سنة أو حتى أكثر، لذا نراهم لا يشغلون أنفسهم بمثل هذه المواضيع الكئيبة التي تنفر منها نفوسهم، بينما لا يملك أي أحد أي ضمان بأنه سيعيش بعد ثانية واحدة فقط.

(247/744)

في كل يوم يمكن لكل شخص أن يقرأ كل شخص في الصحف ويرى من خلال شاشات التلفزيون العديد من حوادث الموت وبشكل كثيف, ويشاهد وفاة الأقرباء, ولكنه لا يفكر أنه في يوم ما سيشهد الناس موته ونهاية حياته. وعندما يواجه الإنسان الموت فإن جميع

الحقائق والأمور المرتبطة بالحياة ستنهار، ولا يبقى منها شيء . فكروا الآن في حالكم . .

. . فتح وغلق أعينكم، القدرة على الحركة في أجسامكم، تكلمكم، ضحككم وبإختصار كل فعالياتكم الحيوية، ولكن حاولوا أن تجسدوا أمام أعينكم منظركم وبأي حال ستكونون عقب وفاتكم .

ستكونون في وضع لا تقدرون فيه على الحركة حيث ستتمددون وانتم لا تدركون ماذا يجري من حولكم، أما جسدكم الذي هو عبارة عن كتلة من اللحم والعظم فسيحمل من قبل أشخاص آخرين . فبينما يقوم أحدهم بغسل جسدكم لكي يكفن بالكفن الأبيض فإن المقبرة التي سيوضع فيها تابوتكم يتم حفرها وإعدادها لكم، حيث يوضع جسدكم في تابوت خشبي, وبعد الانتهاء من المراسيم في الجامع سيذهبون بكم إلى المقبرة، وسيكتب على لوح حجري أسمكم وتاريخ ولادتكم ووفاتكم، بعدها تخرجون من التابوت وتوضعون مع الكفن داخل تلك الحفرة، وبعدها ينهال التراب على الحفرة وتنتهي المراسيم بعدما يغطيكم التراب بشكل كامل . في البداية تكون الزيارات متعددة لقبركم, ثم تصبح زيارة واحدة في السنة، ومن بعدها ستنقطع هذه الزيارات . وعلاوة على هذا لن يكون لديكم خبرٌ أو أي علم عن هذه الزيارات .

سيغدو فراشكم وغرفتكم التي استعملتموها لسنين عديدة فارغة، وكذلك سيتم توزيع ممتلكاتكم الشخصية والخاصة لجهات مختلفة . سيذهب أقرباؤكم إلى دائرة الأحوال المدنية للتبليغ عن وفاتكم، وبالتالي مسح أسمكم من هذه الدنيا . سيكون هناك من سيبكي من خلفكم وستكونون في ذاكرتهم، ولكن مع تقدم الأيام والسنين فإن عامل النسيان يزداد تأثيره, لذلك فبعد مرور عشر سنين فلن يظل هناك من يتذكركم على الرغم من هذه السنين الطويلة التي عشتموها معاً . ومع هذا يجب إدراك حقيقة أن الذين تركتموهم من ورائكم من أقرباء وأصدقاء سيبدأون في ترك هذه الدنيا تدريجيا , لهذا فإن بقاء ذكراكم أو عدم بقائه لا يشكل أي معنى أو أي أهمية .

وبينما يتم كل هذا في الدنيا ، فإن جسدكم سيمر وبشكل سريع بمرحلة التفسخ والانحلال . فعند دفنكم في التراب تبدأ البكتيريا والحشرات الأرضية مباشرة بمهامها . وتؤدي الغازات المتراكمة في البطن إلى انتفاخ الجسم، وينتشر هذا الانتفاخ إلى سائر أجزاء الجسم حتى يصل الجسم إلى حالة يصعب معها التعرف عليه . ونتيجة للضغط المتولد من هذه الغازات سيندفع الدم من فمك وأنفك بشكل رغوة دموية, ومع تقدم عملية تفسخ الجسد فإن كلا من الأظافر والشعر وراحة اليد وباطن القدم ينفصلون شيئا فشيئا عن

أماكنهم . وبالإضافة إلى التغيرات التي تطرأ على المظهر الخارجي للجسد فإن الأعضاء الداخلية تمر أيضاً بعملية التفسخ والانحلال .

(249/744)

نأتي الآن إلى النقطة التي تعتبر أفظع حادثة : إن البطن سينفجر من إحدى المناطق الأكثر ضعفاً نتيجة لامتلائه بالغازات، حيث ستنبعث رائحة كريهة يصعب تحملها . وخلال هذه الفترة أيضاً تبدأ عملية انفصال أجزاء الجسم الأخرى ابتداءً من منطقة الرأس، حيث تبدأ العضلات بالانفصال من أماكنها ، ويبدأ الجلد والمناطق الهشة من الجسد بالتساقط, ونتيجة لهذا يبدأ الهيكل العظمي بالظهور تدريجياً , ويأخذ الدماغ بعد تفسخه تماما منظر التراب أو الصلصال، وتبدأ مناطق اتصال العظام بالتفكك والانفصال, ويتبعها انفصال أجزاء الهيكل العظمي, وهكذا تستمر هذه العمليات حيث يتحول الجسد بكامله إلى كومة من العظام والتراب . وهكذا لا يمكن الرجوع ولو لثانية واحدة للحياة قبل الموت ومشاهدة العائلة، أو أي لقاء مع الأصدقاء والأحبة من أجل التسامر . ولن يبقى أمامه فرصة اعتلاء المناصب العليا ، لأن جسده سيتفسخ ويتحول إلى هيكل عظمي .

والخلاصة أن الجسد الذي نحسب أنه هو جوهرنا ينتظره مصير مرعب وهو الفناء ، ولكن

الروح يبقى، وهذا الروح سيكون قد ترك ورحل عن هذا الجسد . أما هذا الجسد الذي تركته وراءك فسيتحلل ويتفسخ بشكل مخيف .

حسنا ! . . . ما سبب كل هذا ؟

لو أراد الله ما جعل جسد الإنسان بعد موته يصل إلى هذه الحالة المزرية, ولكن هناك معنى كبيرا ومغزى عميقا لهذا الأمر . قبل كل شي على الإنسان أن يعلم أنه ليس عبارة عن جسد فقط, وأن هذا الجسد قد أعطى له كهيكل خارجي, فعليه أن يفهم هذا عندما ينظر إلى هذا المصير المرعب, ويعلم أن له وجوداً يتجاوز هذا البدن . وأن ينظر الإنسان ويتدبر مصير موت جسده الذي طالما انحنى أمام شهواته ونزواته، وكأنه سيعيش ببدنه هذا إلى الأبد . وأن هذا الجسد لا بد له في يوم ما أن يدفن تحت التراب، ويتفسخ ويتحلل، وتأكله الديدان، ويتحول إلى هيكل عظمي, ولربما لا يكون هذا اليوم ببعيد ، بل قد يكون على بعد خطوة واحدة قادمة فقط .

(250/744)

على الرغم من كل هذه الحقائق فإن هناك ميلا في روح الإنسان للرفض وعدم التفكير في القضايا التي تنفر منها نفسه ولا تميل إليها . وتتوضح هذه الحقيقة بصورة جلية عندما يتعلق

الأمر في موضوع الموت . وكما ذكرنا سابقا فإن الموت يتذكر عند مرور الذكرى السنوية الأولى لأحدهم إن كان من الأقرباء أو الأصدقاء ، ولكن الأغلبية من الناس ترى الموت شيئاً بعيداً عنهم على الدوام . فهل للإنسان الذي يستبعد الموت وضع يختلف عن الذي يموت وهو يمشي في الطريق ؟ أو من الذي يموت وهو نائم في فراشه ؟ أم يحسب نفسه أكثر شباباً وأنه سيعيش لسنين طويلة ؟ نفس هذه الأفكار نفسها ستكون قد وردت إلى ذهن أحدهم وهو يمشي في الطريق لكي يصل إلى مدرسته, أو شخص تأخر في الوصول إلى اجتماع مهم في شركة فاضطر إلى قيادة السيارة بسرعة عالية مما تسبب في وقوع حادث مروري له, أو شخص أصيب بمرض لم يكن ينتظره وفي وقت غير متوقع . وسيصاب قراء الجرائد بذهول وهم يطالعون خبر وفاة شخص كان بالأمس فقط برفقتهم . ومن الغريب أنه قد لا يخطر على بال أحدهم احتمال تعرضه للموت بعد فترة قصيرة من قراءته هذا الخبر على الرغم من وجود الكثير من الأعمال التي يجب إنجازها وإكمالها من قبله والتي بسببها قد يعتقد أن الموت ما زال مبكرا ولم يحن وقته بعد . قد يكون نمط تفكيرهم هذا هو السبب . ولكن هذا يعني الهروب من الحقيقة . ويذكر الله تعالى عدم جدوى هذا الهروب :

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ الْمَوْتِ أَو الْقَتْلِ وَإِذا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (سورة الأحزاب 16)

ويجب ألا يغيب عن بالنا بأن الإنسان جاء إلى الدنيا عارياً وسيغادرها عارياً ، ولكن بعد ولادته فإنه من أجل قضاء حاجاته يقوم باستعمال هذه النعم المسخّرة له بشكل مسرف وجاهل، وينقلب موضوع الظفر بهذه الحاجات إلى أهم غاية في حياته . بينما من المعروف أنه لا يأخذ معه عند موته ما كان يملكه من ثروات ونقود ، بل مجرد قطعة قماش بيضاء طولها بضعة أمتار حتى يدفن فيها .

(ولد الإنسان عاريا وسيغادرها عاريا) ، فالشيء الوحيد الذي سيرافقه في الآخرة هو عمله وإيمانه أو عدم إيمانه .

بعد الموت مباشرة

صورة لجسم الإنسان قبل تفت أجزاء جسده

صورة توضح تآكل وجه إنسان ميت من قبل الحشرات الأرضية في القبر

زينة الحياة الدنيا

يسعى الإنسان طوال حياته لتحقيق أهداف وغايات منها ماهو مادي ومنها ماهو معنوي . مثل الغنى والمال والمركز الاجتماعي وزوجة وأولاد . وهي تعتبر من الزينات التي لا يستطيع الإنسان التخلي عنها في هذه الحياة, فجميع الطاقات والجهود توجه من أجل الحصول على هذه الأشياء .

وعلى الرغم من معرفة الإنسان أن كل هذه الأشياء تأتى وتذهب، وأن كل شئ على وجه الأرض يفقد قيمته ويبلى مع الزمن، بل ويفنى . . . على الرغم من كل هذا فإن الإنسان يظل مرتبطاً بشدة بهذه الأشياء، ولا يستطيع التخلي عنها بسهولة . فعلى الرغم من معرفتهم إن أغراضهم وممتلكاتهم ستبلى وأن مزارعهم لن تبقى دائما بنفس الخصوبة, وأن زوجته التي طالما كأن يوليها كل الاهتمام سيأتي يوم تفقد فيه جمالها وحسنها، والأهم من كل هذا وعلى الرغم من كل هذا فهو يعرف أنه سيأتي يوم يترك فيه كل ما كان يملكه وسيرحل إلى غير رجعة، . . . مع كل هذا فإنه يظل مرتبطاً بزينة الحياة بهذا الشكل القوي .

(252/744)

سيدرك هؤلاء بعد موتهم أنهم قضوا حياتهم في سبيل الحصول على شئ واحد فقط, وأنهم خدعوا بهذه الدنيا التي سحرتهم وبهرتهم بزينتها وجاذبيتها الزائلة, وأنهم قد أعطوا للأشياء الفانية قيمةً أكبر مما تستحق . وسيدركون أن ما كان يجب عليهم أن يعملوه في الدنيا هو إظهار العبودية لله تعالى وليس الانشغال عنه واللهث وراء ما كانوا يظنونه ملكا وحاجة من حاجاتهم, بينما الله تعالى هو المالك الحقيقي لهذه الأشياء, والقرآن الكريم يشير إلى هذه الرغبة الملحة في تملك زينة الحياة الدنيا بقوله :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) (آل عمران 14)

(253/744)

فجميع القيم الدنيوية من ثروة وزوجة وأولاد وتجارة تحاول أن تلهي الإنسان عن الله عز وجل وعن الآخرة, وتغريه كي يعيش فقط من أجل الدنيا . لكن الذين يدركون عظمة الله ويقدرونها حق قدرها يعلمون أن كل شيء في الدنيا متاع زائل، وما هو إلا وسيلة امتحان للإنسان وأختبار له, ويعلمون بأن واجبهم هو القيام بوظيفة العبودية والحمد والشكر لربهم

الذي وهب لهم جميع هذه النعم والخيرات, بينما الذين لا يؤمنون بالله حق الإيمان يتعلقون بأهداب الدنيا تعلقاً شديداً يؤدي بهم إلى ضعف إدراكهم وتمييزهم للأمور، وهذا يؤدي بهم إلى اعتبار أن هذه الدنيا –بكل ما فيها من نواقص – وكل القيم المتعلقة بها أشياء مهمة, رغم أن الله تعالى وعد الإنسان بإعطائه أشياء أفضل وأثمن وأجمل وأحسن في دار الآخرة, ونبهه إلى أنه لكي يحصل على هذه النعم والعطايا الأخروية فما عليه سوى القيام بوظيفة العبودية كما يجب والعمل على كسب رضاه . لكن الغريب أن الإنسان يحول نظره إلى الدنيا ويركز اهتمامه عليها قانعاً بما تحويها من نعم زائلة ! وحتى لو كان ذلك الشخص لا يؤمن بتاتاً بأي دين, وحتى لو كان ملحداً فإن عليه –على الأقل– أن يضع في حسبانه احتمال أن يبعث بعد الموت, وهذا الأمر ينبغي أن يدفعه كي يتصرف بطريقة عقلانية أكثر . أمّا المؤمنون فهم على قناعة كاملة بأن ذلك البعث ليس مجرد احتمال، بل هو حقيقة ثابتة لا شك فيها . ولكونهم يعُون هذه الحقيقة ويدركونها حق الإدراك فهم يجتهدون طوال حياتهم للابتعاد عن الأعمال التي توصلهم إلى جهنم, وفي الوقت نفسه يسعون بكل جهدهم في سبيل الظفر بالجنة . فهم يعلمون بأن الذين يقضون حياتهم في سبيل مصالحهم ومتعهم الدنيوية ويضعون جل جهدهم في هذا السبيل سوف يصابون يوم القيامة بخيبة أمل شديدة تبعث على ندم كبير وحسرة أليمة .

فما جمعه من مال وما كنزه من ذهب ونقود في البنوك, وما اشتراه من بيوت وأراض وسيارات لن تكون له طوق نجاة يوم القيامة, ولن تحميه ولن تحمي عائلته ولا عشيرته التي كانت دوما مصدر ثقته, بل إن جميع هؤلاء سوف يديرون وجوههم عنه . لكن ورغم كل هذه الحقائق يظل الكثير من البشر يرون أنه لا بديل عن هذا النّوع من الحياة، ويستمرون في ارتباطهم الأعمى بالدنيا متجاهلين الآخرة . ولقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله تعالى :

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (سورة التكاثر 1 – 2)

ما تم استعراضه حتى الآن من وسائل الزينة والإغراء ما هي إلا إحدى خفايا الامتحان, فلقد خلق الله الإنسان ومنحه جميع الخيرات التي يحتاج إليها ، وهي خيرات مغرية وجذابة . ولكن هذه الحياة الدنيا مؤقتة وقصيرة في الآن نفسه، وهي تمكن الإنسان من عقد مقارنة بين الحياتين (بين حياة الدنيا وبين حياة الجنة) ، وهنا يكمن السر . فالحقيقة أن حياة الدنيا جميلة جداً ، وعظيمة ومتنوعة تليق بعظمة الله . فالعيش فيها والتمتع بها من النعم التي ترجى من الله, لكنها لن تكون بحال من الأحوال أهم من الآخرة وأهمّ من كسب رضى الله تعالى, ولهذا يجب على البشر ألا ينسوا الغاية من هذه النعم وهم يتمتعون بها , والله تعالى يحذر الإنسان في القرآن الكريم بقوله :

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ

(سورة القصاص 60)

(255/744)

أجل ! . . . نرى البشر متعلقين بالقيم الدنيوية وغافلين عن الآخرة، ولكن ثمة حقيقة أخرى مهمة يتناسونها وهي أن ارتباطهم بالمباهج الدّنوية وسعيهم المستمر من أجل الحصول على هذه المتع لا يمنحهم في هذه الدنيا السعادة الحقيقية . ويرجع السبب في هذا إلى النفس البشرية التي لا تقنع بما لديها أبدا ، بل تحاول باستمرار وبمختلف الوسائل الحصول على الأفضل والأحسن, فالإنسان يحاول باستمرار أن يحصل على الأفضل، ولكنه لا يمكن أن يحصل على جميع مايريد نظراً لطبيعة هذه الدنيا . لأنه مهما امتلك من أشياء, فإن هناك بالتأكيد أشياء أفضل وأحسن وأجمل مما يملكه، لذا فالإنسان في هذه الدنيا لا يستطيع الحصول على الطمأنينة وراحة البال التامة .

هل الغنى الحقيقي في هذه الدنيا ؟

يعتقد الكثير من الناس بأنه يمكنهم أن يؤمنوا لأنفسهم حياةً مثالية رائعة خالية من النواقص، تلبي احتياجاتهم إذا صرفوا جهداً أكبر، وحاولوا تحقيق أهدافهم بشكل جدي، وهم

يتصورون أن الثروات والإمكانيات المادية تلعب دوراً رئيسياً في تحقيق هذا, وبذلك يمكنهم أن ينشئوا عائلة سعيدة، ويعيشوا حياة مريحة, ويكسبوا مركزاً اجتماعياً جيداً ومكانة عالية بين الناس . وفي الحقيقة فإن إهدار الإنسان لعمره، وصرفه أكثر وقته في سبيل تحقيق هذه الأهداف هو خطأ كبير . فالناس يتناسون تماماً الحياة الأبدية الحقيقية ألا وهي الآخرة، لأنهم قضوا أعمارهم في هذه الحياة الدنيا وهم يفكرون فقط في راحتهم وسعادتهم .

فعلى الرغم من أن أهم وظائفهم هي العبودية التامة لله تعالى, نراهم وقد أنشغلوا بهذه الدنيا , ونراهم يغفلون عن شكر الله تعالى –الذي خلقهم ومنحهم هذا الغنى والمال – على هذه النعم ويجعلون جل هدفهم كسب رضى الآخرين واستحسانهم . بينما بيّن الله في قرآنه الكريم بأن القيم الدنيوية زائلة وخادعة وليست لها أهمية كبيرة :

(256/744)

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالأولاد كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (سورة الحديد 20)

فالخطأ الذي يقع فيه الكثير من البشر هو اعتقادهم بأن الآخرة شيء بعيد , أو عدم إيمانهم أصلاً بوجودها مما يجعلهم يعتبرون أنّ الدنيا "أرفع مكانةً وأسمى من الآخرة, وهؤلاء الأشخاص يتوهّمون عدم فناء الثراء الذي حصلوا عليه, وهم بذلك يعرضون صورة واضحة للجهل والتكبر عند تحويل وجوههم عن النعم التي وعدها الله تعالى لهم في الآخرة مكتفين بما لديهم من متاع زائل . ولقد عرفّ الله تعالى في قرآنه الكريم أحوال مثل هؤلاء الناس ومصيرهم بقوله :

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (سورة يونس 7-8)

لقد ظهرت أمثال هذه الحالة النفسية طوال التاريخ، فمنذ القدم كان الملوك والأمراء والحكام والفراعنة يحسبون بأن الغنى سيجعلهم يعيشون مخلدين، حتى أن البعض منهم كان يدفن جزءً من ماله في قبره، وذلك لعدم إعطائهم أي احتمال لوجود قيمة أعلى من قيمة النقود والأموال التي يملكونها , وقد توهّم بعض الناس بأن هؤلاء الأشخاص هم في الطريق الصحيح وظنوا بأنهم هم الفائزون .

والحقيقة أن أمثال هؤلاء الناس الذين يبدو أنهم قضوا حياتهم وهم يتمتعون بها قد واجهتهم نهاية غير النهاية التي كانوا يتوقعونها , والقرآن الكريم يخبرنا عن أمثال هؤلاء فيقول :

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ (سورة المؤمنون 55-56)

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أولادهم إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أنفسهم وَهُمْ كَافِرُونَ (سورة توبة 55)

لكن هناك شيئًا مهما يجب ألا يغيب في أي وقت عن أذهان هؤلاء الأشخاص، وهي أن الغنى كله ملك لله تعالى وحده، وأن صاحب الملك الحقيقي هو الله تعالى وهو يوزع حصصاً من ملكه على من يشاء من عباده . وفي مقابل هذه النعم يريد من عباده أن يشكروه، وأن يؤدوا له فروض العبودية على الوجه الصحيح, لذا فإن الشخص الذي منحه الله الغنى لا يستطيع أحد أن يسلبه منه, كما لا يستطيع أي أحد أن يعاونه ويساعده على استعادة ثروته إلا هو، وكل هذا عبارة عن جزء من طبيعة الابتلاء الذي جعله الله للعباد في هذه الدنيا . والمؤمن الواعي والعاقل يدرك هذا الأمر، بينما الشخص الغافل هو الذي ينسى أنه سيأتي يوم يقدم فيه حسابه للذي خلقه :

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخرة إِلَّا مَتَاعٌ (سورة الرعد 26)

أضغط هنا لقراءة المزيد

.

.

.

0–حقيقة الحياة الدنيا الجزء الثاني

بقلم الكاتب التركي هارون يحيى

هل الغنى والمكانة الاجتماعية في هذه الدنيا مهمة حقا ؟

(258/744)

يحسب الكثير من الناس أنهم إن أكملوا نواقص مطالب العيش فإنهم سوف يجنون من هذه الدنيا حياة مثالية خالية من العيوب . وعلى هذا الأساس فإنهم بعد أن يملكوا أسباب الغنى التي طالما حلموا بها سوف تكسبهم تقديرا ومكانة في المجتمع، بالإضافة إلى السعادة التي تغمرهم بفضل ذلك النعيم . والحال أن الشخص الذي ينسى الله واليوم الآخر لن يعيش الحياة التي طالما حلم بها وتمنى أن يعيشها ، لأنه سيحاول الحصول على المزيد وعلى الأحسن مما يملك بعد ما حصل في البداية على مطالبه الأولى . سوف يحصل على المال

ولكن لن يكتفي بشيء منه، وسيعمل من أجل الظفر بالمزيد منه . سيملك بيتاً ولكنه سيرى بالتأكيد بيتاً أجمل من الذي يملكه، لذا سيبذل المزيد من الجهد لكي يحصل عليه . ومع تغير ذوقه سنويا فإنه سوف يسعى لتغيير أثاث بيته وديكوره, وكذلك شراء الملابس الجميلة، لهذا فالآية الكريمة توضح بجلاء الحالة النفسية لمثل هؤلاء المنكرين :

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (سورة المدثر 11 - 15)

(259/744)

فعلى الشخص العاقل أن يفكر تفكيرا سليما : فالذي يملك عدداً كبيراً من البيوت ويملك أحدث السيارات، والذي يملك أكبر قدر من الملابس, وباختصار؛ فحتى لو كان أغنى إنسان، فإنه سيكون محددا بلبس ملابسه، وباستعمال سيارته . فالشخص وإن كان لديه قصر فاره، فهو لا يستطيع أن يسكن في غرفه العديدة في آن واحد ، ويأكل في قاعاته كلها في لحظة واحدة . أو الذي يملك أجمل الملابس ترى كم قطعة من هذه القطع يمكن أن يلبسها فوق بعضها البعض في آن واحد ؟ . وإذا نظرنا إلى حياة هؤلاء الناس نرى أنّ الذي يملك قصراً كبيراً وواسعاً ومتكونا من عشرات الغرف لا يمكنه استعمال جميع الغرف فلا يتسنى

له سوى السكن في غرفة واحدة أو في غرفتين أو ثلاث فقط . وحتى لو كانت خزانة الملابس مليئة بمختلف أنواع الملابس, فإنه لا يسعه سوى ارتداء بدلة واحدة . وحتى لو كانوا يملكون آلاف الأنواع من الأطعمة التي خلقها الله فإنه لا يسعهم سوى أكل وجبة أو ثلاثة وجبات، ولو حاولوا أكل المزيد من الطعام فسيتحول هذا إلى عذاب . ويمكن الإكثار من سرد مثل هذه الأمثلة .

ولكن مما لاشك فيه أن هناك أمرا مهما يتمثل في أن تقدم الإنسان في العمر، وتوجهه بسرعة إلى النهاية الحتمية التي لا مفر منها يصبح مانعاً أمام استمرار تلذذ الشخص بكل هذه الطيبات . ولكن الشخص الغافل يظل طوال حياته غير مدرك لهذه الحقيقة، ويحسب أن ماله سيخلده (سورة الهمزة 3) .

إن أمثال هؤلاء الأشخاص يكونون مرتبطين بشكل أعمى بمثل هذا الاعتقاد المنحرف حتى أنهم يوم الحساب وأمام رب العالمين عندما يرون أن العذاب واقع بهم لا محالة سيعرضون ما يملكونه فداء لأنفسهم، بل يكونون مستعدين لأن يفتدوا بأولادهم وبأزواجهم، بل حتى بعشيرتهم لتخليص أنفسهم, ولكن بالطبع فإن يوم الحساب قد أزف، ولن ينفعهم أي شئ، ولن يقبل منهم أي شئ بعد الآن :

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (سورة المعراج 11-15)

لذلك فإن الذين يدركون بأن كل الغنى عائد لله سبحانه وتعالى, ويدركون بأن ما جمعوه من مال ومركز اجتماعي سيظل في هذه الدنيا الزائلة، لذا لا يجرون خلفها في أي وقت بهذا الشكل المحموم, كما لن يشعروا بالغرور عندما يملكون أسباب الغنى، ولا ينسون ربهم, ويقومون بشكر وحمد الله على هذه النعم، ويكتفون بما لديهم من مال . وقد وعد الله تعالى مثل هؤلاء الناس الذين لا يرتبطون بالأطماع الدنيوية بحياة كريمة ومريحة .

إن الذين يقدرون الله حق قدره، ويؤمنون به يدركون جيدا زوال هذه الدنيا , وأن المال والموقع لا يؤمن لصاحبه إلا منفعة وفائدة مؤقتة، لذا يدركون أنه لا وجه للمقارنة أبدا بين هذه الحياة الدنيا الزائلة وبين الحياة الأبدية في دار الآخرة .

لذلك فإن الشخص المؤمن الذي يملك مقومات الغنى لا يستعمل هذه المقومات من أجل ظلم الناس وسلب حقوقهم, ولا تجعله أسباب الغنى مرتبطا بشكل أكبر بهذه الدنيا ، بل على العكس تجعله يقترب أكثر من الله تعالى فيحمده ويشكره على هذه النعم . وهو لا يأكل حق أحد , ويحاول جهده استثمار هذه الأموال في أعمال الخير, ويعرف بأن الرتبة

العالية، والمكانة اللائقة به هي عند الله عز وجل . لذا فبدلاً من الجري خلف غنى دنيوي سوف يهتم بالتخلق بالأخلاق الرفيعة، والعيش بهذه الأخلاق من أجل كسب الغنى الحقيقي في يوم الآخرة . ولعل أجمل مثال لنا في هذا الخصوص هو تصرف سيدنا سليمان عليه السلام، فعلى الرغم من حصوله بفضل الله تعالى على غنى كبير، وملك عظيم، فإن سيدنا سليمان عليه السلام يبين لنا بوضوح غايته من طلب هذا الغنى :

(261/744)

فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (سورة ص 32)

فالذين لا يملكون مثل هذا الإدراك يعتبرون أنه لا قيمة لما ربحوه، بل يعتبرون أن جميع ما لديهم من مال وثروة شيء قليل لا يشبع نهمهم . ولعله يغيب عن بالهم بأنهم لن يستطيعوا استخدام هذه الثروة التي حصلوا عليها أكثر من 60 – إلى 70 سنة . وينسون حقيقة بأنه سيأتي يوم يتركون وراءهم في الدنيا كلا من أولادهم وبيوتهم وسياراتهم، وجميع ثرواتهم وسوف يموتون ويدفنون تحت التراب .

ومع ذلك يمضون عمرهم وهم يلهثون للوصول إلى الشهرة وإلى الغنى الذي يطمحون في الحصول عليه, وعليه فإن الشخص الذي ينسى خالقه رب العالمين معتقدا بأن أمواله

ستكون مصدر أمنه وخلاصه وسعادته فإنه في النهاية سيلاقي الخسران في الدنيا والآخرة

:

أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ

(سورة آل عمران 10)

ويوضح القرآن الكريم الشخص الذي تنحصر غايته في جمع المال وعده :

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ إِنها عَلَيْهِمْ مُوصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ

(سورة الهمزة 2- 9)

(262/744)

إن إدراك المعنى الحقيقي للغنى – الذي يدركه المؤمنون –يجعلهم لا يعيرون اهتماما كبيرا لزينة الدنيا , ولا يعطونها أكبر من حجمها , ويدركون أن كل شئ هو من عند الله تعالى, وهم الذين يختارون حياة الآخرة, ويفضلونها على هذه الدنيا الزائلة . إن المؤمنين الذين فضلوا شراء الآخرة عن حياة الدنيا هم ولاشك قد اختاروا الغنى الأبدي والتجارة الرابحة .

وهذه الحقيقة قد ذكرها القرآن الكريم :

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفسهم وَأَمْوَالَهُمْ بِأَن لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ والقرآن وَمَنْ أَوفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (سورة التوبة 111)

والذين يهملون هذه الحقيقة ويرتبطون بشكل وثيق بهذه الدنيا سوف يرون بجلاء من سيكون هو الرابح الحقيقي .

الزواج

(263/744)

لعل من أهم المواضيع التي تربط الإنسان بالحياة الدنيا هي الزواج, ولعل من أهم الأهداف التي ينشدها كل شاب وفتاة هو إنشاء زواج ناجح, ولهذا السبب فإن الإنسان يبدأ وهو في مطلع شبابه بوضع هدف البحث عن نصفه الثاني . ولكن نرى الآن في مجتمع الجاهلية أن العلاقات التي تربط الرجل والمرأة تكون مبنية على أسس خاطئة ومنحرفة . وأن هذه العلاقات تكون مبنية على أساس الرومانسية والعواطف والمنافع المتبادلة . بالأخص فإن ما تأمله النساء في أغلب الأحيان هو الحصول على زوج غني، حيث نلاحظ أن هناك من

الفتيات من تسعى في هذا السبيل وتتزوج من رجل حتى وإن كانت لا تحبه، وكذلك نجد في الوقت نفسه شابا يختار شريكة حياته لكونها تمتلك جسماً جميلا . ولكن أفراد مجتمع الجاهلية هذا قد غابت عن أعينهم حقيقة مهمة ألا وهي أن جميع ما يتعلق بالخواص المادية لأي شئ يمكن أن ينتهي ويتلاشى، وأن الله تعالى قادر في أي لحظة على سلب ممتلكات أي شخص وغناه, وأن جميع الصفات الجسمانية الجميلة سيأتي يوم تنتهي فيه وتتلاشى . وأن الصفات مثل الصحة والقوة والجمال سينتهي بعد الزواج عاجلا أم آجلا خلال فترة الشيخوخة إلى غير رجعة, ولا يمكن اكتسابها مجدداً .

وفي بعض الأحيان ليس شرطاً انتظار مرور الأعوام لكي يشيخ المرء, بل يمكن أن يتعرض هذا الشخص إلى حادث كأن يتعوق أو يصاب بالشلل أو يصاب بمرض قاتل .

ترى ماذا سيحصل لهذا النظام المبني على أسس ومنافع مادية ؟ على سبيل المثال، ماذا سيعمل رجل تزوج من امرأة من أجل حسنها وجمال وجهها ، ثم فقدت زوجته هذه حسنها وجمالها نتيجة لتعرضها لحادث, أو فقدته لتقدم عمرها إذ تبدأ مظاهر الكبر في تغيير ملامح وجهها .

سيدرك لا محالة أن زواجه الذي كان من أهم غاياته في الحياة قد أسس على دعائم خاطئة. ما نريد قوله هنا هو أن الزواج لكي يكون ناجحاً يجب أن يكون مبنياً على أسس ودعائم صحيحة متى ما كانت غايته الوحيدة هو كسب رضى الله تعالى, ومتى ما كان باستقامة الأحكام والقواعد التي وضعها الله تعالى, وأي اتجاه أو العمل بعكس هذا لن يمنح ذلك الفرد السعادة والاستقرار لا في الدنيا ولا في الآخرة. وفي يوم الآخرة سيدرك هذا الشخص الذي أسس حياته وخططها وفق نظام دنيوي ومادي بحت، وضحى بكل حياته في هذه السبيل. . . سيدرك مدى تفاهتها وقصرها, ولكن الوقت سيكون قد فات عند إدراك هذه الحقيقة.

ونراه يتهرب يوم القيامة من زوجته التي كانت أقرب الناس إليه في الدنيا حتى أنه لا يرغب حتى في رؤيتها, بل ويصل الأمر به أنه يكون مستعدا لتقديم زوجته فدية لكي ينجو من عذاب القيامة, والله تعالى يوضح حال مثل هؤلاء الناس فيقول:

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ

(سورة المعراج 13-11)

نرى من خلال هذه الآية الكريمة كيف أن الشخص المنكر العاصي يمكن أن يضحي بأخيه وزوجته وباقي أفراد عائلته الذين لا يمثلون له أية أهمية أو قيمة يوم القيامة. كما إن هؤلاء

الناس الذين هم على استعداد للتضحية ببعضهم البعض لم يكونوا ليستروا أخطاء بعضهم البعض في الحياة الدنيا سيقومون بلعن بعضهم البعض عند دخولهم إلى جهنم, وسيكون مصير الذين أسسوا في هذه الدنيا الزائلة علاقات خارجة عن رضى الله تعالى وعن الحدود التي رسمها لهم الإحباط والخسران المبين يوم القيامة . وهنا يستعرض القرآن الكريم لنا مثالا آخر في هذا الخصوص مثال أبي لهب وزوجته الذين ألقيا في نار جهنم :

(265/744)

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (سورة المسد 1 – 5)

أما إذا كانت هناك نية خالصة لكسب رضى الله تعالى, فإن هذه الرابطة المتبادلة والحب المتبادل سيكونان مبنيين على أسس مختلفة تماما . لذا فإن أمورا أخرى مثل الغنى والشهرة والجمال لن تكون العامل الأساسي الذي يحدد هذه الرابطة المشتركة . فالمؤمن الحقيقي الذي يؤمن بزوال هذه الحياة سيكون ميزانه وقسطاسه هو التقوى . وبدرجة ارتباطه بالله تعالى وحبه وخوفه منه عاليا بمعنى متى ما كانت درجة تقواه عالية سيكون شعور الحب تجاه ذلك الإنسان عاليا أيضاً .

لذا فإن على المؤمن أن يكون أساس اختياره لشريكة حياته هو التقوى أي محاولة كسب رضى الله تعالى وحبه، عندها سيكون هذا الزواج على قدر كبير من الطمأنينة والأمن لأصحابه . وذكر الله تعالى في قرآنه الكريم ما يتعلق بهذه المسألة :

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (سورة الروم 21)

بالإضافة إلى هذا فإن المؤمنين الذين يرتبطون في الدنيا بروابط التقوى سيكونون هم الرابحون في يوم القيامة, وسيكون هؤلاء المؤمنون الذين قضوا جل حياتهم وهم يدعون إلى الجنة بتصرفاتهم الجميلة والخيرة من أقرب الأصدقاء لبعضهم البعض في الآخرة . والله تعالى يخبرنا من خلال آياته الكريمة ما يخص المؤمنين والمؤمنات في يوم القيامة فيقول :

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

(سورة التوبه 71)

الأولاد

يوجد في فطرة كل إنسان الرغبة في إدامة ذريته ونسله وأن يخلف أحدا من صلبه في هذه الحياة الدنيا بجانب رغبة التملك والحصول على الثروات وهي رغبة لا تعرف الشبع أبدا . وكما بين القرآن الكريم فإن هذه الرغبة إن لم توضع قواعدها على أساس كسب رضى الله تعالى فستؤدي به إلي الابتعاد عن ذكر الله والانشغال عنه . والأهم من هذا أنه يمكن أن تأخذ طريقا منحرفاً . بل يمكن أن تكون عنصراً يجعله ينحرف عن طريقه الصحيح حيث قد يجعله يشرك مع الله شريكاً آخراً . إن الله تعالى يمتحن الإنسان في الأولاد ليرى فيما إذا كانت تصرفاته تدخل ضمن دائرة كسب رضى الله تعالى أم لا . ونحن نرى هذا الأمر بوضوح من خلال الآية الآتية :

إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (سورة التغابن 15)

والملفت للنظر استعمال كلمة "فتنة" في هذه الآية للأولاد والأموال, فالكثير من الناس تراودهم فكرة إنجاب الأطفال – الذين يعدون من زينة الحياة الدنيا – هدفا مهما لهم في هذه الحياة, ولهذا السبب ذكر الله تعالى في قرآنه الكريم أن الأطفال هم موضع امتحان كبير لبني البشر في هذه الدنيا ، وأنه يجب أن تكون نية إنجاب الأطفال خالصة لوجه الله تعالى, وعكس هذا الأمر سيخفي في طياته شركاً خفياً . وقد أعطى الله تعالى في قرآنه الكريم مثالاً على هذا النوع من العائلات والأسر التي نست الله وجعلت من هذا الأمر (أي أن

يكونوا أصحاب أطفال) غايتها الوحيدة في هذه الحياة وعد هذا الأمر نوعا من الشرك بالله تعالى :

(267/744)

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (سورة الاعراف 189 - 191)

والتصرف الصحيح هو أن يكون طلب الأولاد من أجل كسب رضى الله تعالى . إذا ألقينا نظرة على القصص المذكورة في القرآن الكريم وجدنا أن طلب الأنبياء للذرية كان دوماً ضمن حدود الرضى الإلهي . وهناك الكثير من الأمثلة والقصص تتناول هذا الموضوع :

إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

(سورة آل عمران 35)

وكذلك كان دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام :

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

(سورة البقرة 128)

فإذا كانت رغبة إنجاب الأطفال وفق الأسس المذكورة في الآية الكريمة, فإن هذا سيؤدي ولا شك إلى نتيجة طيبة, لأنه من أنشأ مؤمنا معتمدا على أخلاق القرآن الكريم وكان في نيته كسب رضى الله تعالى فإنه بهذا العمل يدخل ولاشك في نطاق العبادة, وخلاف هذه النية فإن ذلك يقود الإنسان إلى عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة .

(268/744)

وإذا غفل أحدهم أن هذا الطفل لطف ونعمة من الله تعالى أنعمها عليه, وأنه أمانة أودعها الله عنده, وحاول أن يتفاخر ويتباهى به على غيره وعلى من حوله، وأنه عائد له وملك له, عندها سيكون قد انحرف عن الطرق القويم . إن ثمن هذا التصرف سيكون فادحاً يوم الآخرة, وفي ذلك اليوم سوف ينسى أولاده الذين كانوا من أهم المناصرين له في الحياة الدنيا , بل سيكون على استعداد تام للتضحية بهم كي ينجو من العذاب الأليم . ولكن لن يكون هناك أي مفر من عذاب ذلك اليوم . وفي الحقيقة فإن الأطفال سيكونون سبباً للمشاكل،

ليس في الآخرة فقط بل حتى في الحياة الدنيا . . . . سيكونون مصدرا للكثير من المشاكل لأفراد مجتمع الجاهلية . فبعد ولادة الطفل فإن العائلة تقضي زمنا طويلا وتبذل جهداً كبيراً من أجل تربية وتنشئة الطفل, وهذه الصعوبات تبدو ظاهرة للعيان في الأشهر الأولى للحمل . لأن على الأم الشروع في تنظيم حياتها كلها على أساس طفلها الذي تحمله في بطنها , فعليها أن تبدي عناية بما تأكله وتشربه, وتكون حريصة كل الحرص في حركاتها وسكناتها , وألا تقوم بأي حركة مفاجئة قد تؤذي بها جنينها , وفي الأشهر الأخيرة للحمل فإن حركات الأم تبدأ في التثاقل بشكل مطرد حيث تكون تلك الحركات غير متوازنة . كذلك فبعد الولادة فإن الطفل يشكل وحده شغلا شاغلا كبيرة للأبوين حيث تبدو الأم وكأنها مقيدة بجانب ولدها ، لأنها تكون بجانب وليدها على الدوام . وهي إلى جانب انتظارها كي يكبر وليدها بأسرع وقت, تمر السنين متتابعة لدرجة أنها لا تشعر بمرورها .

دعنا ننظر إلى الموضوع من ناحيتين :

الأولى : أنه إذا كان الصبر على كل هذه المشاق هو من أجل كسب رضى الله تعالى فإنه يدخل ضمن حدود العبادات الكبرى .

الثانية : هنا يكون الوضع مختلفاً مع الشخص الذي يتحلى بالثقافة الجاهلية . فحسب تلك الثقافة فإن كل هذه المشاق التي يتكبدها الشخص تمثل له عناء لا داعي لها , ولا تحمل في طياتها أي هدف . ويعيش أفراد الثقافة الجاهلية أكبر خيبة أمل عندما يكبر أولادهم . فمن الطبيعي أن يتبنى هذا الطفل الأفكار الخاطئة والتصرفات البعيدة عن معايير الأخلاق –والتي هي نتاج المجتمع الجاهلي – عندما لا ينشأ على الأخلاق وعلى أسس التربية الفاضلة التي أمر بها الله تعالى, وتكون نتيجة هذه التربية الخاطئة والأخلاق الفاسدة نشوء جيل من الأولاد يعصون آباءهم وأمهاتهم, وهذا يؤدي بطبيعة الحال إلى نشوء أفراد لا يحملون معاني الوفاء والإخلاص، لأن الآباء والأمهات يرون في أولادهم نوعاً من الضمان لهم في المستقبل، فهم يظنون بأنهم سيكونون عونا كبيراً لهم في فترة شيخوختهم, ولكن الشخص الذي ينشأ وفق أخلاق يشوبها التمرد والجحود, يكون بعيدا كل البعد عن مثل هذا التوقع وهذا الظن ولا يخطر ذلك على باله، ويكون بعيدا عن مثل هذا الخلق الفاضل . فهو يعمل في الحقيقة على الحفاظ على مصالحه وعلى رغباته الشخصية, وهو مستعد لتنفيذ رغبات والديه إن كانت هذه الرغبات متوازية ومتماشية مع خططه ومصالحه الشخصية فقط, وليس لهما مكان عنده خارج هذا النطاق . لذا ليس من الصدف النادرة أن تكون نهاية الوالدين عند مثل هؤلاء الأولاد في إحدى غرف دار العجزة .

بينما الطفل الذي ينشأ على أخلاق القرآن الكريم تكون تصرفاته غير هذه التصرفات

تماما . لأن القرآن الكريم يذكر بجهد الأبوين في تنشئة أطفالهم ويلزم الأبناء باحترامهما وعدم القيام بأي تصرف يؤلمهما أو يحزنهما . فالله تعالى يقول :

(270/744)

وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (سورة الإسراء 23 – 24)

ونفهم من هذه الآية أن تنشئة الإنسان وتربيته على ضوء هذه الحقائق تعتبر من المهام الأصيلة . ولكن إن تمت تنشئة الطفل على أسس دنيوية وما توفره من فوائد ومنافع مؤقتة وزائلة, فستكون كالأعمال الدنيوية الزائلة الأخرى التي لا تحمل هدفاً نبيلا ولا غاية فاضلة . وعلاوة على هذا فإن الشخص الذي يربي أولاده من أجل كسب رضى الله تعالى لن يخسر شيئا حتى وإن لم يلتزم أولاده بالأسس الأخلاقية الإسلامية وبأخلاق المؤمنين الصالحين . لأنه إنما يقوم بأداء ما عليه ويترك الباقي لرب العالمين . وبما أن الله تعالى ولي أمر الناس جميعا ، فإن الشخص الذي يقوم بتربية أولاده حسب ما يرضاه الله تعالى فإنه سيحصل في النهاية على أجر ويكتب له في حسانته .

أما الذي يكون جل تفكيره محصورا في الدنيا ويربي طفله على هذا الأساس فإنه إضافة إلى أنه لن يجد في ولده ما كان يطمح إليه في الدنيا , فإنه في الآخرة لن تكون له أي فائدة لولده، ولا أي فائدة لولده له . ويشير القرآن الكريم إلى هذه المسألة بقوله تعالى :

فإذا جَاءَتْ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (سورة عبس 33 - 37)

(271/744)

فكما ذكرنا سابقا فإن الإنسان خلق فقط من أجل أن يؤدي فروض العبودية الحقة لله رب العالمين, وجميع مظاهر الزينة التي وفرت له في الحياة الدنيا ليست سوى وسيلة اختبار له فيما إذا كان سيقوم بفروض العبودية إذاء الله تعالى أو فيما إذا كان سيعيش حياة مناسبة من أجل كسب رضى الله تعالى أم لا .

لهذا لاشك أن الإنسان بعد موته سوف يحاسب على العبادات التي أداها في الحياة الدنيا أو على ما اقترفه من عصيان وجحود وتمرد, وعلى حسب هذه الأفعال فإنه سوف يكافأ مكافأة سخية بأن يفوز بالسعادة الأبدية ويدخل الجنة أو أن يخسر خسراناً مبينا ويدخل عذاب جهنم .

ولهذا السبب, فإن كل أنواع هذه الزينة والتي تخلب لُباب البشر لا تحمل أي قيمة تذكر عند الله تعالى . إن الذي يقرب الإنسان من الله تعالى ويجعله ينجو من عذاب جهنم يوم الحساب ليس ما يمتلكه من أولاد وأموال، بل ما يملكه من تقوى وإيمان ثابت لا يتزحزح, وهذا هو ما توضحه الآيات الكريمة بشكل واضح :

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَولَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ

(سورة سبأ 37)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أولادهم مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (سورة آل عمران 116)

لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أولادهم مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أولئك أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

(سورة المجادلة 17)

الكوارث

إن الدنيا التي نعيش فيها هي مليئة بالكثير من الأخطار الداخلية والخارجية وإن كنا لا نعي ذلك كثيرا مثل النيازك والثقوب السوداء والنجوم المذنبة, وهذا يمثل جزأً صغيراً من تلك الأخطار . وإذا نزلنا إلى أعماق الأرض نصادف وجود طبقة سائلة تصل درجة حرارتها إلى آلاف الدرجات المئوية, وليس من الغريب أن نقول بأن هناك كرة نارية تغلي تحت أقدامنا ، وبالإضافة إلى هذا , فإن هناك غلافا جويا يحيط من كل جهة بكرتنا الأرضية وتقوم بوظيفة الحماية . وبالإضافة إلى وظيفة الحماية التي يقوم بها الغلاف الجوي, فإن هناك حوادث جوية يكون مصدرها الغلاف الجوي والتي تحمل تأثيراً قويا جداً مثل العواصف والأعاصير .

كل عناصر التهديد هذه تكون فعالة بين الحين والآخر, وتكون هناك خسائر مادية وبشرية نتيجة لهذه الحوادث والتي تسمى باسم الكوارث الطبيعية, وتأتي الزلازل وانفجارات البراكين والفيضانات والأمواج البحرية العملاقة والعواصف والأعاصير والحرائق الكبيرة في مقدمة هذه الحوادث حيث أن كل من هذه الآفات الطبيعية لها تاثيرات مختلفة . والعامل المشترك لكل هذه الآفات الطبيعية هو أنه في زمن قصير يمكنها أن تدمر مدناً ومافيها من أناس ومخلوقات حية, وتكون هذه الخسائر فادحة وجسيمة . والإنسان لايملك أي إمكانية وقوة تجعله يحول دون وقوع هذه الحوادث, وما دام الإنسان لا يواجه هذه الكوارث فإنه لا يريد التفكير فيها مع علمه بإمكانية حدوثها في كل لحظة .

إن الحياة على وجه الأرض تسير وفق ميزان دقيق جداً, لهذا فإن هذه الأشكال من الحوادث الكبيرة لا تكون فعالة على مساحات شاسعة, وبأخذ جميع أنواع الأحياء على وجه الأرض ومن ضمنها الإنسان فإن هناك حماية خاصة لهم, لكن الله تعالى يريد تبصرة الإنسان من حين إلى آخر إلى إمكانية كون المكان الذي يعيش عليه غير آمن . كما أن الله تعالى يدفع الإنسان لكي يدرك من خلال هذه الكوارث التي استعرضناها فقدان القدرة على التحكم في الكوكب الذي يعيش عليه, ويجعلهم يشهدون عجزهم وضعفهم بأنفسهم, وأن يأخذوا العبر والعظات من خلال تفكيرهم بعدما شهدوا كل هذه الكوارث . حسناً, فيما عدا هذا, ترى أي نوع من أنواع العبر والعظات يكون الإنسان قد استفادها من كل هذا ؟

كما استعرضنا في بداية الكتاب بأن هذه الدنيا هي المكان الذي خلقه الله تعالى لكي يمتحن به الإنسان ولكي يميز بين الصالح والطالح, وأن الله تعالى قد بين هذه الحقيقة بقوله تعالى :

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأرض فِي سِتَّةِ أيام وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ

أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (سورة هود 7)

إن هذا الامتحان الخاص بالدنيا قد هيئ بشكل كامل خالي من أي نقص إلى درجة أن كل أمر وكل حادث يحدث في هذه الدنيا يعود إلى سبب معين . وكل تفصيل من تفاصيل هذه الحوادث يقع ضمن قاعدة السبب – النتيجة . فمثلا إن إمكانية وقوف الإنسان وسيره على وجه الأرض يعود إلى قانون الجاذبية الأرضية والتي تمنحه هذه الإمكانية وتساقط الأمطار تحدث نتيجة الغيوم والرياح والموت والحوادث والأمراض لابد وأن تحدث لسبب ما .

(274/744)

ومما لاشك فيه أنه يمكن ملء صفحات عديدة تزخر بأمثلة توضح علاقات السبب – النتيجة, ولكن المهم هنا هو كون هذا النظام غاية في الكمال والاتساق, وإحدى خصائص هذا النظام كونه في كل حادثة يساير منطق البشر . فالله تعالى يحذر وينذر البشر بين الحين والآخر بإرساله الكوارث الطبيعية ولنأخذ مثلاً لإحدى هذه الكوارث, ففي الزلازل, تموت أعداد كبيرة من البشر من شيوخ وشباب، رجال ونساء وحتى أطفال صغار .

فكثير من الناس الذين تغلب عليهم الغفلة ينظرون إلى هذه الكوارث ويعتبرونها شيئاً طبيعياً, ولا يفكرون في أن كل هذا قد خلق من أجل غاية معينة . والآن لنتأمل جيدا ماذا كان سيحدث لو أن هذه المصيبة قد حلت فقط بالذين اقترفوا الآثام والذين هم خارجون عن الطريق الذي رسمه الله تعالى للبشر ؟

لاشك أن مفهوم الامتحان يكون قد انتهى تماما, ولكن الله تعالى لم يكن ليسمح بهذا . وكما ذكرنا أعلاه فجميع الحوادث التي تحدث على وجه الأرض قد هيئت إلى حد كبير بشكل طبيعي ضمن ميزان دقيق لا يقبل الخطأ . والإنسان المؤمن الذي يدرك وجود الله والذي يكون صاحب فهم عميق يدرك أن هذه الحوادث والتي تحمل هذا الشكل الطبيعي قد حصلت لحكمة معينة, وكما ورد في الآية الكريمة :

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (سورة الأنبياء 35)

فإن الله تعالى قد أشار إلى أنه يمتحن بني البشر بين الحين والآخر بحوادث سيئة وطيبة . فقد يقع حدث ما يذهب ضحيته كثير من الناس، فيحزن أناس لكثرة هؤلاء الضحايا ، لكن ينبغي ألا يغيب عن أذهاننا أن الله تعالى صاحب العدالة الأبدية سوف لن يحرم يوم القيامة أحدا من أخذ حقه .

إن كل ما يواجه الإنسان في هذه الدنيا من حوادث هو بمثابة التجربة والامتحان, وسوف يلاقي الجميع يوم القيامة جزاءهم وما كسبت أيديهم سواء أكانوا من الصابرين, أم كانوا من الغافلين عن هذا الامتحان . لذا نرى أن الذين يدركون عظمة الله حق الإدراك, والمرتبطين من أعماق قلوبهم بالله تعالى هم المدركون لسر هذه الدنيا . فإذا أصابتهم مصيبة يهرعون إلى الله تعالى تضرعا وخيفة ويطلبون عفوه ومغفرته, لأنهم يعرفون أن الله تعالى قد وعدهم في قرآنه الكريم بقوله تعالى :

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ أولئك عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ (سورة البقرة 155- 157)

فكما ورد في الآية الكريمة، فإن جميع البشر, المؤمنين وغير المؤمنين سيتم اختبارهم من خلال بعض الحوادث, فبعضهم من خلال الآفات الطبيعية, وبعضهم من خلال حوادث تقع في حياتهم اليومية, والبعض الآخر من خلال بعض الأمراض والمحن وهي حقائق ليست ببعيدة في هذه الدنيا عن الإنسان . وهذه المصائب التي تلحق ببعض الأفراد يمكن أن يشمل تأثيرها نواحي مادية ونواحي معنوية من حياة الإنسان .

على سبيل المثال, قد يلحق الإفلاس بشخص كان في يوم ما يعيش حياة مرفهةً، وقد تفقد إمراة حسناء جمالها إلى غير رجعة أو أن يتعرض الإنسان إلى مرض ليس له دواء أو علاج, ومثال ذلك أيضا تعرض بعض المدن بين الحين والآخر إلى عاصفة مفاجئة تسبب دمارا واسعا غير متوقع، وهذا يكشف أن حياة الإنسان مرهونة ببعض اللحظات القصيرة .

المهم من كل هذا أن يستوعب الإنسان الدروس اللازمة ويستنتج منها العبر والعظات .

والله تعالى يريد أن يرسل رسالة إلى بني البشر من خلال هذه الكوارث التي تحدث كل هذه الأضرار المادية والمعنوية لكي يعوا ما هم فيه وأن يعودوا عن ضلالهم وانحرافهم إلى الطريق المستقيم الذي رسمه الله تعالى لجميع البشر في هذه الدنيا .

وكما هو الحال بالنسبة لبقية الأشياء التي لم يخلقها الله عبثاً في هذه الدنيا, فإن الله تعالى الذي ابتلى البشر بهذه الكوارث كي تكون لهم إحدى وسائل الإنذار والتنبيه . وبين الله تعالى قد بين في قرآنه الكريم بأن ليس هناك أي شيء يمكن أن يحدث في هذا الكون من دون إذن من الله بقوله تعالى :

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (سورة

التغابن 11)

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (سورة آل عمران 145)

وإلى جانب جميع هذه الكوارث والصعاب فإن هناك حكمةً وغايةً وراء كل هذا :

(277/744)

إن الإنسان الذي يرى نفسه في هذه الدنيا صاحب قوة وجبروت، سيدرك مدى عجزه وضعفه أمام الكوارث التي يمكن أن تحدث في أي لحظة بمشيئة الله, فيكون بلا حول ولا قوة لكي يساعد نفسه أو حتى يقدم المساعدة للآخرين, ولأن كل شيء بيد الله تعالى فليس هناك قوة غير الله سبحانه وتعالى الذي يمكن أن تقدم الفائدة أو الضرر . وهذه الحقيقة تبينها الآية التالية :

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (سورة الأنعام 17)

في هذا القسم سوف نقوم باستعراض جميع أنواع الكوارث, والآفات الطبيعية, وتأثيراتها والتي وقعت إلى الآن على سطح الأرض, لكي يدرك الذين يرتبطون بهذه الدنيا ارتباطا

كليا أنها ليست المكان الذي يستحق كل هذا الاهتمام, والتذكير بأهمية كون حياة الآخرة هي المكان المثالي الذي يستحق العيش فيه .

فالذي نستعرضه أمام أنظار القراء الكرام هي حقائق تظهر كيفية وقوع الإنسان في حالة من العجز المطلق أثناء وقوع هذه الكوارث وحتى بعد انتهائها . إن هذا العجز الذي يعيش فيه الإنسان آية تعبير على أن قوة الإنسان ليست لها أية أهمية أمام قوة وعظمة رب العالمين, وأن الله وحده هو الذي يجب اللجوء إليه لطلب الحماية والمساعدة .

الزلازل

(278/744)

وهي تمثل أكبر الحوادث الطبيعية تدميراً ، فعند وقوعها تخلف أضراراً فادحة, وهي أكثر ما تهدد بني البشر بالمقارنة مع بقية الكوارث الطبيعية الأخرى, وحسب الإحصاءات الرسمية المتوفرة فإنه يحدث يحدث زلزال واحد في كل دقيقتين على الكرة الأرضية, وإذا قمنا بحساب عدد هذه الزلازل الواقعة خلال السنة الواحدة على الكرة الأرضية نجد أن الأرقام تصل إلى ملايين الهزات الأرضية، فمن بين 300000 هزة أرضية تكون 20 هزة منها مدمرة, حيث إن قوتها التدميرية يمكن أن تدمر مدينة بكاملها ، وهذه الزلازل لا

تقع باستمرار في أماكن آهلة بالسكان, لذا فإن نتائج مثل هذه الهزات الأرضية لا تكون دوماً مصحوبة بخسائر بشرية . ومجموع الزلازل السنوية فإن هناك مايقارب الخمس هزات التي تقع في مختلف انحاء الكرة الأرضية تحمل معها الموت والدمار .

ومن خلال إلقاء الضوء على المعطيات العلمية السابقة نفهم أن الناس لايواجهون الزلازل بشكل مستمر, حيث تقع في كل دقيقتين هزة أرضية في بقاع متفرقة من الكرة الأرضية ولكن أغلبية البشر لايحسون حتى بوقوعها , لأن شدة هذه الزلازل محسوب بدقة كبيرة . هذا لاشك يمثل دليلاً واضحا على الحماية التي يوفرها الله تعالى لجميع البشر ، ففي أيامنا هذه إذا وقع زلزال ما فإن المدينة وأطراف المدينة التي تعرضت لزلزال يمكنها أن تحس بوقوع هذا الزلزال . ويمكن لله تعالى إن شاء ، وبكل سهولة أن يرسل زلزالاً تكون قوته التدميرية تلف جميع أنحاء الكرة الأرضية وأن تقضي على جميع معالم الكرة الأرضية . وطبقا للأبحاث العلمية فإن التركيبة الجويولوجية للكرة الأرضية تجعلها من الطبيعي أن تتعرض لهذا الزلزال, فتكون خطوط الزلزال والفراغات المتكونة بين الطبقات الأرضية . . . . إلخ تجعل حقيقة وقوع الزلزال شيئا طبيعيا لامفر منه . وبالاطلاع على أحد المصادر العلمية الذي يتناول احتمالية وقوع الزلزال نراه يورد مايلي :

إن القوة الكامنة في أعماق الكرة الأرضية تستطيع كسر الطبقة الصلبة من القشرة الأرضية, وعندما لاتستطيع صخور القشرة الأرضية مقاومة هذه القوة فإنها تتكسر مولدة بذلك طاقة تدميرية كبيرة, ونتيجة لهذه الهزة العنيفة فإنه يمكن أن تكون النتيجة هو دمار شامل لجميع مباني تلك المدينة مخلفة أنقاضاً ضخمة تدفن تحتها إلى غير رجعة جميع سكان تلك المدينة .

(الكوراث الطبيعية, Readers Digest, 1996)

مما لاشك فيه أنه لو أراد الله تعالى إحداث هزة أرضية في مكان ما فليس من الشرط أن تكون ظروف الطبقات الأرضية مناسبة أو غير مناسبة لحدوث مثل هذه الهزة . فلو شاء الله تعالى لأحدث هذه الهزة وفي أي وقت يشاء , وإن كانت مغايرة لكافة القوانين الطبيعية . لكن الله تعالى يجعل الظروف الطبيعية على وجه الأرض في غاية عدم الأمان والاستقرار كي يذكر الإنسان بأن حياته في هذه الدنيا مرتبطة بخيط رفيع جداً, وعلى هذا الأساس فإن القرآن الكريم يحذر البشر فيما يتعلق بموضوع الكوارث بقوله تعالى :

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمْ الأرض أو يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ

أَوْ يَأخذ هُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أو يَأخذ هُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فإن رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ

(سورة النحل 45 – 47)

فلو شاء الله لجعل هذه الهزات التي تستمر بضع ثوان متواصلة لساعات أو حتى لمدة أسابيع ويمكن أن يجعلهم يعيشون في خوف مستمر . لكن الله تعالى يحمي البشر برحمته, وبهذا الشكل فإن الله تعالى يذكر البشر بعظمته وعدم إمكانية تحدي مشيئته, ويذكر الإنسان أيضاً بأن انشغالهم بهذه الدنيا سوف لن يكون جزاءه أي مكافاة وفوز, ومن الأهمية بمكان أن نذكر بالهزات الأرضية التي وقعت في القرن العشرين .

زلزال كوبي : هزيمة التكنلوجيا

(280/744)

إن امتلاك الإنسان للتكنولوجيا المتقدمة تمنحه في كثير من الأحيان شعوراً بأنه يمتلك أسباب القوة للتحكم في الطبيعة, ولكن الذين يسيطر عليهم هذا الإحساس يصابون في فترة قصيرة بشعور بالخيبة، ذلك أن نفسها التكنولوجيا هي إحدى النعم التي منحها الله للإنسان من أجل رفاهيته, وهي تحت حكم الله تعالى . وكما هو ملاحظ من خلال مختلف الحوادث التي تؤكد أن الإنسان حتى وإن امتلك أحدث التكنولوجيا وأرقاها لايستطيع التحكم في الطبيعة, ومثال على ذلك فعلى الرغم من دقة تطبيق اليابانيين لتكنلوجية ((

سبل الوقاية من الزلزال)) فإنهم لم ينجوا من الهزيمة أمام الزلزال الكبير الذي أصاب مدينة كوبي اليابانية سنة 1995 . فقد انهارت معظم الأبنية التي تم إنشاؤها وفق أحدث التقنيات العلمية وكأنها أبنية مصنوعة من الورق ! ولقد أنفقت الحكومة اليابانية وجامعاتها وخلال 30 عاماً الماضية ما يقارب المليار دولار من أجل إنشاء نظام يخبر عن قرب وقوع الزلزال قبل حدوثه, ولكنهم لم ينجحوا في ذلك لأنه من غير الممكن إنشاء نظام يعمل بدقة بحيث تستطيع أن تصف الهزات الواقعة في الطبقات الأرضية .

(281/744)

والزلزال الذي وقع في مدينة كوبي يشكل أحسن دليل على هذه الحقيقة, ولقد كان الناس يحسون بالأمان نتيجة الدراسات والبحوث التي كانت من المنتظر أن تعطي الإنذار قبل وقوع الزلزال ببضع ساعات أو قبل بضعة أيام , ولكن الذي حصل هو عكس هذا , حيث لم يقم أي نظام بالإخبار عن وقوع الزلزال الذي قلب هذه المدينة الساحلية رأساً على عقب وهذا الزلزال كان يبعد قرابة 25 كيلومتر من مركز مدينة كوبي على عمق 15 كيلومتر تحت سطح البحر . لقد ظهر للعيان أن ما ادعاه اليابانيون بأن أبنيتهم قد صممت لكي تصمد أمام أعنف الزلازل لم تتمكن من الصمود كثيرا أمام هذا الزلزال . كما أن الزلزال

ضرب مدينة كوبي وآوساكي اليابانيتين التين تمثلان أهم المراكز التجارية والصناعية في اليابان . ولهذا تجاوزت الخسائر المادية بعد هذا الزلزال المليارات من الدولارات (3) , لقد كان وقع هذا الزلزال كبيراً وعميقا في نفوس أولئك الذين تعودوا العيش حياة مرفهة وهو ماجعلهم لايعرفون كيف يتصرفون في تلك اللحظات، إذ لم يكونوا يعتقدون أن الفاجعة سوف تحل بهم مرة أخرى .

تحتل مدينة كوبي اليابانية المرتبة الثانية بعد العاصمة طوكيو من حيث كثافة السكان, لكونها منطقة صناعية . لقد وصل تأثير الزلزال مدينة أوساكا التي تقع جنوبي البلاد إضافة إلى مدينة كوبي ذات العشرة ملايين نسمة . ولقد استمر هذا الزلزال قرابة عشرين ثانية في 17 تشرين الثاني من عام 1995 في تمام الساعة السادسة إلا الربع صباحا , حيث شعرت بهذه الهزة العنيفة العديد من المدن اليابانية الأخرى والتي تعرضت في الوقت نفسه إلى خسائر فادحة لقد كانت هذه الثواني العشرين كافية لتدمير ومحو عمل وجهود سنين عديدة .

الأعاصير الاستوائية والعواصف

إن الحوادث الجوية مثل العواصف والأعاصير هي أيضاً من الآفات الطبيعية التي نشهد حدوثها باستمرار . إن الهواء الناتج من هذه العواصف يمتلك القوة اللازمة لتشتيت المباني والبيوت والسقوف والأشجار وأعمدة الكهرباء وحتى الإنسان والالقاء به إلى مسافات بعيدة . والأعاصير القوية تستطيع إثارة البحار وتهيجها بصورة مفاجئة, وتكون أمواجاً بحرية عملاقة, وتضرب هذه الأمواج العاتية المتولدة من الأعاصير المدن الساحلية, وهو مايؤدي إلى غمر الأراضي الساحلية بالكامل بالماء . وإضافة إلى هذا فإن الأمطار المصاحبة لهذه الأعاصير تعمل على زيادة منسوب المياه في الأنهار .

فالرياح التي نحس بنفحاتها الرقيقة يمكن أن تتحول بقدرة الله تعالى إلى عواصف قوية تستطيع أن تقتلع بقوتها الأشجار وتدمر البشر والحيوانات والأحجار بل وحتى البيوت . فلو شاء الله تعالى لجعل هذه الحوادث الجوية مثل العواصف والأعاصير تهب بشكل أعنف وأشد مما هي عليه بشكل مستمر . بحيث أن الإنسان قبل أن يتلافى أضرار الإعصار الأول يلحق به إعصار آخر . وقد نبه القرآن الكريم إلى حقيقة أن الرياح هي تحت أمر الله تعالى بقوله :

أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرض فإذا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (

سورة الملك 16 - 18)

فالله تعالى يظهر حمايته للإنسان في كل مصيبة تلحق به فهو يرسل بين الحين والآخر هذه العواصف والأعاصير ينذره ويوقظه من غفلته، فهو يتعهده بهذه الوسائل من حين لآخر حتى يعرفه بعجزه وضعفه أمام قوة وعظمة الله تعالى, وأنه سوف يأتي اليوم الذي يحاسب أمام رب العالمين .

البراكين

(283/744)

لقد استعرضنا كيف أن حركة القشور الأرضية تصاحبها حركات أرضية تدعى بالزلازل, فإن هناك كوارث طبيعية لاتقل خطورة عنها , الا وهي الانفجارات المتولدة في الجبال وتدعى البراكين .

تنتشر في الكرة الأرضية مايقرب من 1500 بركان، منها 550 بركاناً على سطح الأرض (4) والباقي في أعماق البحار, ومن السهولة لأي واحد من هذه البراكين أن يثور في أية لحظة وفي فترة قصيرة يمكنها أن تؤثر على ما بجوارها من مناطق .

عندما تثار تلك الجبال البركانية لن تستطيع أي تكنولوجيا مهما كانت متقدمة أن تكون

حائلاً تمنع حدوثها . فإذا نظرنا إلى التاريخ نرى آثاراً تدل على وقوع حوادث بركانية كبيرة . فقد محيت مدن كانت موجودة من قبل من على خارطة الوجود, كذلك اندثرت نتيجة لمثل هذه الكوارث مجتمعات بشرية بكاملها . فقد دمرت مزروعات وتحولت مزارع إلى رماد, وغطت السماء بغيوم من الغبار, وقد أزال أحد هذه البراكين مدينة بومبي الإيطالية الكبيرة . وهذا الانفجار البركاني لم يعط الفرصة لأهالي هذه المدينة للفرار, وقد كانوا يعيشون حياة ملؤها الفجور والانحراف عن الخلق القويم لاشك يمثل درساً يجب الوقوف عليه .

ويمكن أن تثار هذه الجبال البركانية في يومنا هذا وبشكل مفاجئ وأن تسبب خسائر فادحة حيث يمكن أن يشمل نطاق تأثيرها مسافات بعيدة .

(284/744)

وبالإضافة إلى التأثير المدمر للحمم البركانية فإن مزيجاً من الغازات والرماد تشكل رياحاً تملك تأثيراً فعالاً, لأنها تحرق وتبتلع أي شيء تصادفه، وتصل سرعة الرياح في بعض الأحيان إلى 160 كم/ساعة, وبالإضافة إلى تأثيرها الحارق، فإن مسافة الرؤية أثناء هبوبها تكاد تنعدم . فأندونيسيا التي يوجد فيها 200 بركان نشيط جعلت أهالي مدينة

كاراكاتو يتعرضون سنة 1883 إلى غازات منبعثة من جبالها البركانية, حيث دمرت أكثر من 160 قرية, وأختنق نتيجة هذه الغازات البركانية العملاقة حوالي 36000 شخص, وقد تساقط غبار هذه الانفجارات بعد 10 أيام على مسافة حوالي 3000 ميل (6) .

ومن الخصائص الأخرى لهذه البراكين هي أنها تبدأ نشاطها في زمن غير متوقع, ومثال على ذلك ما حصل مع بركان جبل نشادر دل ريوز والذي كان خامداً منذ 150 عاماً حتى انفجر عام 1985, فعلى الرغم من كون الانفجار كان صغيراً, فقد تسبب في مقتل المئات من الأشخاص . فقد كان انفجار جبل سانت هيليبز يمثل % 3 فقط من شدته الأصلية .

ونعود إلى الانفجار البركاني في جبل نفادو دل ريوز، فقد أدت الحرارة المنبعثة نتيجة هذا الانفجار إلى إذابة كتل الجليد حول أطراف الجبل وأدى إلى تكون سيول من الطين والماء محت مدينة آرمرو من الوجود, ويمكن اعتبار الكارثة التي نجمت عن انفجار جبل بيل والذي وقع في جزيرة كاريب عام 1902 وخلف 30000 قتيل من أكبر الحوادث البركانية والتي حدثت إلى حد الأن، حيث دفن من مجموع 25000 شخص الذين كانوا يتهيئون للنوم 23000 شخص تحت الطين الناتج من هذا الانفجار البركاني ونجى 2000 شخص فقط (7) . ومن خلال استعراضنا لهذه الحوادث, يريد الله تعالى أن

يري البشر كيف أن الموت سهل وقريب من الإنسان, ويريد أن يدعوهم لكي يتفكروا لأي غاية وجدوا في هذه الحياة .

(285/744)

إن الواجب الذي يقع على عاتق الإنسان الذي يشاهد القدرة اللامتناهية لله تعالى هو أن لاينسى أن حياته الأبدية في الآخرة وهو يعيش حياته الدنيوية والتي يتراوح معدلها ما بين 50 أو 60 عاماً وأن لاينخدع فيعتبرها مدة طويلة, ويجب أن لا ينسى قطعاً بأنه سيموت في يوم ما , وأنه سيحاسب على ما عمله طوال حياته الدنيوية أمام رب العالمين .

يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرض غَيْرَ الأَرض وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (سورة إبراهيم 48)

توسنامات

وهي كلمة يابانية تحمل معنى أمواج الموانئ، وهذه الأمواج العملاقة تنشأُ في الغالب في البحار بعد حدوث الهزات الأرضية, والمثير هنا أن الدمار الذي تخلفه مثل هذه الأمواج العملاقة يعادل دمار القنبلة الذرية ! !

السيول

لاشك أن تعرض الكثير من المناطق على وجه الأرض لمثل هذا التهديد الكبير يحمل في

طياته حقيقة مهمة هي أن الله تعالى قادر على استرجاع جميع ما وهبه الله تعالى للناس من نعيم وسلطان خلال ثوانٍ معدودات بإرساله العذاب لهم من كل جهة . وهذا يمثل برهاناً ساطعاً على أن الإنسان الذي تتربص به الكوارث في أي بقعة من بقاع الأرض لن يكون بأمان إلا بمشيئة الله تعالى، فهو سبحانه قادر على إرسال عذابه من تحت الأرض ومن فوق الأرض وفي اليابسة، في البحر وفي أي مكان, وقد حذر الله تعالى البشر بأن لا يتغافلوا عن هذه الحقيقة بقوله تعالى :

أَفَأَمِنَ أَهل الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَو أَمِنَ أَهل الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُون أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ

(سورة الأعراف 97 - 99)

وهكذا , فيمكن أن يتحول الماء الذي أرسله الله تعالى نعمةً للناس إلى عذاب وبلاءٍ شديدين . ومن الغريب أن يرى الإنسان هذه الكوارث ويظن أنه بمنأى عنها .

عبر من التاريخ

إن التاريخ البشري مليء بالكثير من الحوادث التي يمكن اعتبارها عبراً لمن كان يثق بما يملكه من قوة وتقدم علمي متناسيا قدرة الله تعالى وعظمته . وكل واحدة من هذه الحوادث تحمل في طياتها أهمية كبرى بتذكير الإنسان أنه لا الغنى ولا القوة ولا العلم ولا المعرفة، وباختصار كل شيء يمكن أن يقف ضد إرادة وتقدير الله تعالى وقوته وعظمته التي هي فوق كل شئ في هذا الكون .

ويمكن ذكر عدد لا يحصى من هذه الحوادث ولكن يمكن الإشارة إلى إحدى أهم هذه الحوادث والتي وقعت لسفينة تحمل اسم تايتانك قبل قرابة 86 عاما في المحيط الاطلسي والتي تعتبر من أكبر الكوارث البحرية إلى حد الآن .

فقد كانت تايتانك هذه السفينة العملاقة المدهشة والتي صممت لنقل المسافرين عبر المحيطات هي ثمرة جهود 15 ألف عامل، حيث كانت تعتبر في ذلك التاريخ من أعظم وأكبر سفن نقل المسافرين، إذ صممت لكي تكون بطول 275 مترا وارتفاع 55 مترا . فقد جعلوا يصدقون أنفسهم أنهم ببناء هذه السفينة وفق أحدث تكنلوجيا ذلك العصر ستكون تماما بمأمن عن الغرق مهما كانت الظروف . ولكن كانت هناك حقيقة مهمة يبدوا أنها قد غابت عن بال هؤلاء الناس ألا وهي أنه ليس هناك أي حد يمكن أن يقف ضد ما قدره الله تعالى .

وهكذا فإن ثقباً صغيراً قد تسبب على نحو لم يكن في الحسبان في إغراق هذه السفينة

وفي وقت قصير, حيث لم تستطع كل هذه التكنولوجيا أن تنقذها من مصيرها المحتوم .

وقد ذكر الذين نجوا من هذه الحادثة أنه بعد ما تأكد للجميع بأن السفينة على وشك الغرق، توجه الركاب إلى مقدمة السفينة وأخذوا يتضرعون بالدعاء .

وقد ذكر القرآن في كثير من آياته كيف أن الإنسان إذا وقع في مصيبة توجه بالدعاء إلى الله تعالى لكي ينقذه, ولكن حال زوال هذه المصيبة عنه ينسى ما قام به من دعاء ورجاء لله تعالى :

(287/744)

رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسان كَفُورًا أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (سورة الإسراء 66 – 69)

فيجب على الإنسان أن لاينسى ربه سواء تعرض لمثل هذه الحوادث أو لم يتعرض لها . فكل

شئ في هذه الدنيا زائل, وإن القوة جميعاً هي لله تعالى، لأن الإنسان عندما يواجه مثل هذه الحوادث والمصائب فإنه لايملك فرصة لتلافي أخطائه السابقة لأن الله تعالى قد يفاجئه بالموت في أية لحظة :

أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ والأرض وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (سورة الأعراف 185)

رحمة من الله تعالى

فَكُلًّا أخذ نَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أرسلنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أخذ تْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أنفسهم يَظْلِمُونَ (سورة العنكبوت 40)

كانت غايتنا إلى حد الآن بيان حقيقة مهمة حول الغاية من خلق الإنسان . فكل شئ له علاقة وارتباط بالله سبحانه وتعالى .

(288/744)

وكما تشير الآية الكريمة الآتية فإنه لاتوجد أية قوة تستطيع أن تتحدى ما قدره الله تعالى وما قضى به :

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

(سورة يوسف 21)

ولكن، وكما بينت الآية الكريمة فإن أغلب البشر لايعرفون هذه الحقيقة, فهم يعيشون في هذه الدنيا ظناً منهم أنه سوف لن تصيبهم أية مصيبة حتى أنه لايدور في خلدهم أنهم قد يواجهون في يوم ما إحدى هذه الكوارث التي تحيط بهم, ولكنهم يرون أن تلك الحوادث بعيدة عنهم كل البعد إذ أنها لا تمسهم بشكل مباشر . فهم عند سماعهم لإحدى هذه الكوارث يتأثرون لفترة قصيرة بهذه الحادثة ولكنهم ينسونها بعد فترة قصيرة .

نحن نعلم من تذكير الله تعالى لنا أنه من الخطإ الاعتقاد بأن عد الأيام الجديدة القادمة ستكون على نفس منوال اليوم الحالي . وبالإضافة إلى ما استعرضناه سابقا ، فعلى الأشخاص الذين عاشوا تجارب كارثية، أن لايغيب عن بالهم بأن الأيام التي يعيشونها الآن لن تكون مختلفة عن باقي الأيام التي عاشوها , ولكن الفرق الوحيد هنا أن الله تعالى قد جعلهم يواجهون حادثة فقدوا من خلالها وفي لحظة واحدة جميع ما كانوا يملكونه .

هناك عدد غفير من الناس يعيشون في غفلة عن هذه الحقيقة فهم يتناسون كون الدنيا دار مؤقتة للبقاء، ويغفلون كذلك عن حقيقة كونهم سوف يحاسبون أمام الله تعالى . فهم بضلالهم هذا ينشغلون في حياتهم الدنيا بأشياء لن تجلب لهم أي نفع بدلا من العيش من أجل كسب رضى الله تعالى .

(289/744)

ومن هذه الناحية فإن الصعاب التي تحل بالإنسان تمثل رحمة من الله تعالى للذين يعيشونها وكذلك الذين يشهدون هذه الصعاب . وإن الله تعالى يحث البشر من أجل السعي في الطريق الذي رسمه الله تعالى لهم, وأن يجعلهم يشهدون بأن هذه الدنيا الزائلة عبارة عن خدعة كبيرة .

ولهذا السبب فإن الله تعالى في الحقيقة يقدم الفرصة للبشر من خلال ما يتعرضون له من مصائب ومحن, وهذه المصائب تمنحهم الفرصة كي يتوبوا ويعدلوا من تصرفاتهم .

وقد بين الله تعالى من خلال قرآنه الكريم مايجب أخذه من دروس وعبر من كل هذه الحوادث بقوله تعالى :

أَوَلَا يَرَوْنَ أَنهم يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَو مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ

(سورة التوبة 126)

الحضارات البائدة

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا

(سورة مريم 98)

لقد اختار الله تعالى الدنيا كمكان خاص لكي يختبر فيه الإنسان وأسكنه إياها . وطوال التاريخ أرسل الله تعالى كتب الحق بواسطة رسله لكي يدعوا البشر إلى طريق الحق, وأيضاً لكي ينذرهم ويخيفهم فيما إذا انحرفوا عن هذا الطريق . واليوم يوجد لدينا كتاب الحق يرشدنا إلى الهداية، وقد أرسله الله تعالى للمؤمنين، وهذا الكتاب يدعى القرآن الكريم وهو يفرق بين الخطإ والصواب والحلال والحرام ويخبرنا عما أصاب الأقوام الغابرة نتيجة لكفرهم وضلالهم . وينذرنا بأننا سوف نلقى المصير نفسه إذا سلكنا طريق الضلال .

(290/744)

وقد ذكر الله تعالى في قرآنه الكريم أنه أرشد جميع الأقوام عبر التاريخ للطريق الصحيح مذكراً إياهم بواسطة رسله بأن دار الآخرة هي دار البقاء الحقيقي, وأن هذه الدنيا زائلة

لامحالة . ولكن، ورغم ذلك نرى أن القرآن يخبرنا بأن أكثرية البشر ضلوا في عنادهم وعدم استجابتهم لنداء هؤلاء الرسل, ونتيجة لهذا فإن الله تعالى قد سلط عليهم عذاباً لم يكونوا يتوقعونه أبدا ومحى بعضهم تماما من خارطة الوجود كما ذكر في القرآن الكريم بقوله تعالى :

وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا

(سورة الفرقان 38 – 40)

إن الدروس والعبر التي يجب أن نستقيها من خلال مراجعة ما حل بمصير الأقوام الغابرة قد عبر عنها القرآن الكريم بقوله تعالى :

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ

(سورة الأنعام 6)

وهناك آية أخرى في هذا الموضوع تحذر الناس وتخوفهم وتعظهم :

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (سورة ق 36 – 37)

وكما رأينا في الآيات السابقة فمن أهم أسباب نقل أخبار ما عاشته المجتمعات الغابرة هو تحذير الإنسان اليوم حتى لا يقع فيما وقعت فيه الأمم السابقة من أخطاء .

(291/744)

من الخطإ النظر إلى المصائب وإلى الكوارث وآثارها التي حلت بالأمم السابقة من الزاوية التاريخية فقط :

فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (سورة البقرة 66)

وهذه الحوادث التي كما وردت في الآية الكريمة بمثابة عبرة وتذكرة للآخرين . ولكن من المفيد أيضاً القول هنا : إن الله تعالى بدلاً من أن يرسل العذاب فورا على الذين يظلون على كفرهم وضلالهم, فإنه يرسل المنذرين لعل تلك الأقوام ترجع عن غيها وفسادها .

بالإضافة إلى هذا أشار القرآن الكريم إلى حقيقة الذين يلاقون الصعاب في الدنيا إذ هي ليست سوى تذكرة إلى ما سيلاقيونه من عذاب أليم في الآخرة بقوله تعالى :

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (السجدة 21)

ولكن الهلاك سيصيب تلك الأقوام والذين لم ينتهوا من خلال ما جاءهم من نذير ووعيد , والذين استمروا وازدادوا في طغيانهم . ولقد عاقب الله تعالى الأقوام التي نشرت الفساد

بأن أزالهم وجاء بأقوام آخرين لأنهم قضوا أعوامهم وأشهرهم وأيامهم في السعي خلف أهداف فارغة بعدما منحهم الله تعالى الغنى والعيش داخل بيوت جميلة, فلم يكونوا يدركون أن كل مالديهم من أغراض سيصيبها التلف والبلى, ولم يكونوا يعقلون بأن الذي يملكونه بين أيديهم سوف يزيل يوما ويختفي, فهم عاشو يومهم من دون التفكير في غدهم، وعاشوا دنياهم دون الاستعداد لآخرتهم, فقد ظنوا أن حياتهم الدنيوية دائمة لا تنتهي على الرغم من كون حياتهم الأبدية التي تبدأ بعد وفاتهم قريبة جداً منهم . وهذه الخديعة لم تمنحهم أي فائدة حيث أصبحت هذه الكوارث التي حلت بهم,عبرا لاتنسى على الرغم من مرور آلاف السنين حيث انتقلت من جيل إلى آخر .

قوم ثمود

قوم ثمود هو أحد الأقوام التي دمرها الله تعالى لكفرهم وطغيانهم والصد عن سبيل الله .

(292/744)

وكما أشار القرآن الكريم فقد كان أهل ثمود وقومه أغنياء وأقوياء, وكانوا يشتهرون كثيراً بأعمال الحرف الفنية, وقد بينت الآيات الكريمة مهارة قوم ثمود حيث قال الله تعالى :

وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ

(الأعراف 74)

وآية أخرى تبين حال معيشة قوم ثمود :

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (سورة الشعراء 146 - 149)

وقد بعث الله تعالى سيدنا صالح عليه السلام رسولا لكي ينذر قوم ثمود ويخيفهم من عذاب الله الشديد حيث ملكهم الغرور نتيجة عيشهم حياة مرفهة ومريحة .

وكان سيدنا صالح عليه السلام شخصا معروفا بين قومه, وقد ذهلوا حين دعاهم لكي يبتعدوا عما هم فيه من ضلال وانحراف . فالأكثرية من قومه لم يقبلوا دعوته لهم إلا قلة من قومه أذعنوا لما دعاهم إليه, ولقد اتخذ الأغنياء وأصحاب النفوذ والقوة عند قوم صالح عليه السلام موقفا عدائياً إذاء دعوته حيث كان هؤلاء الأشخاص هم الأكثر عنادا وإنكاراً لسيدنا صالح عليه السلام ولدعوته, وقد عمد هؤلاء المعاندون والمنكرون إلى الضغط على الذين أذعنوا لرسالة سيدنا صالح عليه السلام من خلال التضييق عليهم وعرقلة مسعاهم . وحينما كان سيدنا صالح عليه السلام يدعوهم لعبادة الله تعالى كانوا

يظهرون غضبهم الشديد . وفي الحقيقة فإن هذا الصد والغضب لم يكن شيئا خاصا بقوم ثمود , بل هم وقعوا في الخطإ نفسه الذي وقع فيه قبلهم كل من قوم نوح وقوم عاد .

والقرآن الكريم أشار إلى الأقوام الثلاثة هذه بقوله تعالى :

(293/744)

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ

(سورة إبراهيم 9)

وقد كانوا قوما جادين في الوقوف ضد صالح عليه السلام بل وضعوا الخطط لقتله . وقد حذرهم نبي الله صالح عليه السلام من خلال ما ورد في الآيات التالية :

أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (سورة الشعراء الآية 146_149)

حيث خاطب أشراف ثمود الذين كانوا يظنون بأن هذا النعيم الذي هم فيه سوف لن يزول أبدا , بعدما خدعوا بالمظاهر الدنيوية الكذابة وزينتها الزائلة وقد ازداد طغيان قوم ثمود

وظلمهم لأنهم كانوا غير مؤمنين بأن هناك عذابا شديدا سيلحق بهم . وقد وصل الأمر بمكابرة قوم ثمود وضلالهم بأن تحدوا سيدنا صالح عليه السلام وقالوا له :

فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ

(سورة الأعراف 77)

ومقابل هذا أخبرهم نبي الله صالح عليه السلام بعد ما أوصى الله تعالى له بأن الهلاك واقع بهم لامحالة خلال ثلاثة أيام :

فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ

(سورة هود 65)

وهكذا هلك قوم ثمود وتحقق إنذار سيدنا صالح عليه السلام :

وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ

(سورة هود 67 – 68)

ومن هنا يتبين أنه ما من قوم عاشوا على وجه الأرض عاندوا وتكبروا إلا أصابهم الله تعالى بالعذاب غير آبه بما كانوا يملكونه من عظمة وثروة .

واليوم نرى بأنه ليس هناك أي أثر لقوم ثمود وما كانوا يملكونه من مال وقوة, والذين تمادوا في طغيانهم وكفرهم حتى أنهم كانوا مستعدين لقتل رسول الله صالح عليه السلام . لقد كان مصير هؤلاء البشر الذين لم تعرف حتى أسماءهم مثل مصير بقية الكفار والمعاندين، نار جهنم خالدين فيها , وهذه النهاية هي عبرة ينبغي على البشر أن يتدبروها ويفكروا فيها .

أهل سبأ

تناول القرآن الكريم أهل سبأ :

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (سورة سبأ 15 - 17)

فوفقا لهذه الآية الكريمة فإن أهل سبأ كانوا يعيشون حياة مرفهة، حدائق وبساتين وافرة, وكل ما كان الله تعالى يطلبه من قومه هو أن يشكروه على هذه النعم التي أسبغها عليهم, ولكن هؤلاء كذبوا بذلك وحسبوا بأنهم يملكون القوة والقدرة الكبيرتين, واغتروا بما لديهم,

فكان العذاب هو مصيرهم الحتمي .

السومريون العظماء

(295/744)

عندما نبتعد عن شواطئ دجلة والفرات في جنوب العراق تمتد أمامك قفار شبيهة بالصحراء, تبدوا هنا وهناك تلال عديدة في هذه القفار الواسعة, لأن بقايا وآثار مدن كبيرة توجد تحت التلال المغطاة بالرمال, وقد أنشئت قبل 45 قرنا ، وكانت تنبض بالحياة, محاطة بالقنوات والجداول والبساتين والحدائق الغناء . ولم يتبق من هذه المدن الآن سوى الرمال التي تنثرها العواصف وتاوى إليها بنات آوى والعقبان, ويخيم عليها صمت الموت . بينما كان يعيش فيها في يوم ما مجتمع حقيقي وحياً كمجتمعاتنا المعاصرة . وقد عاش أناس ذلك الزمان كما نعيش نحن في هذا العصر, وأسسوا وبنوا مدنا عظيمة ومدهشة .

هذه الجمل تعود إلى عالم الآثار الشهير "Guy Rachet" .

لقد كانت الجنازة التي تم إعدادها لملكة ذلك العهد ، وتدعى بوابي حقا ملفتة للنظر . فقد تم نقل معلومات من مصادر مختلفة فيما يخص هذه الجنازة . فقد تم تزيين جسم الملكة الميت بشكل مدهش لامثيل له, فقد تم تزيين فالقسم العلوي من جسدها زين بغطاء

وقلائد مصنوعة من الفضة والحجر الأزرق والعقيق الأحمر وعشرات الأنواع المختلفة من الأحجار الثمينة, بالإضافة إلى طبقة إضافية من أحجار اللؤلؤ الثمينة والعقيق الأبيض، بينما القسم الأسفل للجسد وحسب ما نقلت عنه المصادر التاريخية فقد كانت مغطاة بغطاء وأهداب هذا الغطاء كانت تحوي على أحجار اللؤلؤة المحفورة, وكذلك نفس مجموعة الأحجار الثمينة والتي كانت تغطي القسم العلوي من الجسد . وكذلك كانت هناك باروكة شعر ثقيلة تغطي رأس الملكة وفوقها تاج على شكل ورود وأوراق من الذهب الخالص, وتزين أذنيها بأقراط تحوي أحجارا ثمينة وكانت توضع قرب راس الملكة مجوهرات ثمينة لها خاصية اللمعان الشديدة عند سقوط الضوء عليها حسب ما نقلته لنا المصادر التاريخية (11) .

(296/744)

ولكن رغم دخول الملكة قبرها مع كل هذه الكنوز, فإنها لم تحفظها من أن لا تتحول في النهاية إلى هيكل عظمي حالها حال كل البشر الذين دفنوا تحت التراب .

فقد دفنت تحت التراب حالها حال الفقير والضعيف والذي اعتبرته حقيرا لايعني عندها شيئا فإن بدنها قد أصبح غذاء تتغذى عليها الحشرات الأرضية والبكتيريا حيث تتعفن

شيئًا فشيئًا , وينتهي بها الأمر إلى أن تكون هيكلاً عظمياً .

إن هذا المشهد المثير يمثل عبرة لنا , ومفاده أنه مهما كانت درجة الغنى ومهما عاش الإنسان حياة مملؤها الأبهة والعظمة فإن كل هذه سوف لن توفر له أي فائدة تذكر .

حضارة كريت

هذه الحضارة التي اختفت فجأة كانت تمثل أولى أكبر الحضارات في القارة الأوروبية التي كانت مهدها مدينة كريت القرن الرابع عشر قبل الميلاد . فقد أنشأ القادمون من آسيا واليونان الذين سكنوا فيها قبل 2000 سنة قبل الميلاد , القصور الفخمة والعظيمة .

ولكن أهم ما كان ما يلفت النظر عند هذا الشعب هو مفهوم الهوى المنحرف .

لذلك فقد كان الله تعالى يرسل لهم بين الحين والآخر هزات أرضية خفيفة الشدة كي ينذرهم وينبههم لكي يبتعدوا عن هذا الانحراف ولكي يتذكروا يوم القيامة . ولكن في النهاية حدثت كارثة كبيرة . فقد انفجر بركان في جزيرة ثيرا التي هي جزء من مجموعة جزر كيكلادس التي تقع في شمال جزيرة كريت، ونتيجة لهذا الانفجار الهائل حدثت هزة أرضية عنيفة (12) دمرت القصور العظيمة في جزيرة كريت، وقد غطت السحب البركانية الرمادية سماء المدينة وغرقت المدينة في ظلام دامس, كما أن الرماد غطى أنقاض القصور المتهدمة . فقد حدث في البحر هيجان عظيم لم يشهد له مثيل من قبل, فقد دفن ميناء

كانوسوس تحت مياه البحر . لقد كان انهيار قصور كريت شيئاً يبعث على الرعب, فقد غطت الأمواج البحرية العملاقة في وقت واحد جميع المدن الساحلية ودفنتها تحت المياه .

(297/744)

لم تكن حضارة كريت التي كانت في العديد من النواحي من أهم الحضارات في تلك الفترة أن تعتقد بأن نهايتها ستكون على هذه الشاكلة المرعبة، حيث أن هذه الكارثة المرعبة كانت السبب الرئيسي في هلاك أغلبية سكانها وتدمير قصورها العظيمة, فمن ورائهم لم يبق هناك أناس يتباهون بغناهم, وكذلك لم يبق ما كانوا يحلمون به من حياة خالدة . وما تبقى هو مجرد أطلال حضارة اندثرت ومجرد أبنية متهدمة متناثرة هنا وهناك . ويشير القرآن الكريم إلى وجوب اتخاذ مصير مثل هذه الحضارات القديمة عبرة للإنسان المعاصر بقوله تعالى :

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ

(سورة السجدة 26)

كارثة بومبي

حسب ما تورده المصادر التاريخية فقد كانت مدينة بومبي (تقع الآن في إيطاليا) قبل 2000 عام من أكثر المدن التي تتمتع بحياة رغيدة . وقد كانت المدن في العصور القديمة تعرف من خلال ما تشتهر به من ترف وبهجة لا تعرف الحدود ، لذلك كانت مدينة بومبي إحدى هذه المدن . والزائر الآن لايجد في هذه المدينة سوى خرائب هنا وهناك حيث كانت في يوم ما محلا تنتشر فيه محلات بيع الخمور وبيوت الدعارة, وكانت هذه المدينة التي كان يقصدها الأغنياء من أهل روما ويفضلونها تقع في وسط تحدها من جهة غابات جبال فينوس والبحر من جهة أخرى . ولكن نتيجة لانفجار إحدى أهم براكينها في التاريخ أدت إلى طمس معالم هذه المدينة الجميلة، ويمكن اليوم رؤية جميع تفاصيل حياة أهل روما بعد ما تحولوا إلى أحجار بفعل الحمم البركانية التي انبعثت نتيجة ذلك الانفجار الهائل .

(298/744)

لقد وقعت الكارثة في صباح 24 آب من سنة 79 ميلادية حيث جاء أغنياء الرومان لقضاء الصيف في القصور الفخمة المبنية على سفوح جبل فيزرف في مدينة بومبي (13) . فقد بدأت في بادي الأمر بهزة أرضية انطلقت بعدها أصوات انفجارات مدوية منطلقة من الجبل هزت السماء . وحسب ما نقلته المصادر التاريخية فإن أعمدة من النيران كانت

تنطلق باتجاه السماء والتي كان يعقبها دخان عظيم . وفي الوقت نفسه كانت السماء ترتج بفعل الانفجارات الجديدة, وبدأت وابل من الأحجار والرماد والتراب والحمم البركانية في التساقط على المدينة على شكل قطع صلبة . وقد تملك سكان مدينة بومبي الرعب الشديد لكونهم كانوا أقرب من جبل فزوف البركاني فأخذوا في الفرار بعدما تملكهم الخوف الشديد نتيجة لتقدم سيل من الطين الحار الملتهب والذي تحرك باتجاه المدينة على شكل أمواج متدفقة, وأما الذين لم ينجحوا في الهرب فقد دفنوا تحت أنقاض البنايات المتهدمة وتحت الحمم البركانية المنصهرة ولكن الشئ الذي يبعث على الحيره بل ويجب أن يتخذ عبرة هو ما وجده وما شاهده علماء الآثار من معلومات نتيجة الحفريات التي أجروها هو تردد أكثرية أهالي المدينة في ترك المدينة خلال الكارثة . فقد لجأ الأغنياء والذين لم يفكروا في ترك أموالهم وممتلكاتهم إلى بيوتهم كي يحتموا من تساقط الرماد الحارق عليهم إحساسا منهم بإمكانية ان يجدوا الملاذ الآمن, ولكن الوقت قد فات لكي يفروا وماتوا .

فقد انمحت من التاريخ خلال يوم واحد جميع أشكال الحياة في كل من مدينة بومبي وبعض القرى المحيطة بها . وقد ذكر القرآن الكريم أخبار الذين لاقوا حتفهم على هذه الشاكلة بقوله تعالى :

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (سورة هود 100)

بعد إجراء الحفريات والبحوث تبين أن سكان بومبي كانوا وكأنما قد تجمدوا فجأة , فقد ظهر شكل الأهالي وهم متحجرون أثناء لفظهم أنفاسهم الأخيرة,فقد دهمتهم الكارثة فجأة . وحسب ما أخبر عن ذلك القرآن الكريم :

وَكَذَلِكَ أَخذ رَبِّكَ إِذا أَخذ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخذ هُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (سورة هود 102)

لقد دمرت مدينة بومباي ذات العشرين ألف نسمة وقتل معظم سكانها مع جميع ما كانت تمتلكها من آثار فنية جميلة . ولقد دمر الزلزال هذه المدينة الجميلة وقضى على آثارها الجميلة .

إن ما نشاهده اليوم من آثار تعود إلى حضارات عاشت قبل مئات الآلاف السنين تظهر بوضوح أنه على الرغم من كل ما كانوا يتمتعون به من غنى, فإن هذا لم يمنحهم أي فائدة تذكر . وإن كل شئ تركوه من خلفهم أضحى ميراثا للذين أتوا من بعدهم, وتجدر الإشارة هنا إلى أن أكبر وهم وقع فيه أولئك الذين عاشوا في مثل هذه المجتمعات واندثروا هو اعتقادهم بأنهم سيملكون النعم الدنيوية إلى الأبد , وما صنعوه من أبنية سوف تجعلهم مخلدين إلى الأبد ، وهذا الوهم نراه واضحاً في يومنا هذا ، فالملاحظ أن الإنسان يحاول أن

يجعل ذكراه تعيش إلى الأبد بقيامه بعمل مختلف الآثار الفنية لترسيخ هذه الفكرة, والقسم الآخر منهم من يضحي بالكثير كي يقوم بجمع المزيد من الأموال ظناً منه أنها ستعود عليهم بالفوائد الكبيرة.

(300/744)

وهؤلاء قد تجاوزوا الذين سبقوهم من قبل لما أبدوه من الزيغ والضلال وحتى عدم اكتراثهم لجميع أنواع الإنذارات التي أرسلها الله تعالى لهم ليكفوا عن ما هم عليه. ولكن هناك حقيقة مهمة جداً يجب على هؤلاء الأشخاص أن لاينسوها, وهي أخذ عبرة خلفتها شواهد وآثار عظيمة لمجتمعات وجدت من قبل ثم اندثرت فلم يبق في هذه الدنيا أحد منهم مخلدا. والذين سعوا إلى تخليد ذكراهم قبل موتهم في هذه الدنيا بما قام به من أعمال وما تركه من آثار لم تجلب لأجسامهم المتآكلة أي منفعة تذكر, ولكن بقايا الآثار الموجودة تمثل عبرة للذين يريدون أن يستخلصوا العبر والدروس من هذه الدنيا, ولكي لا ينسوا ويتذكروا ما سيحل بهم من عذاب إلهي أليم. ولهذا فإن الله تعالى من خلال هذه الأمثلة ينذر الذين يتعلقون برغبة شديدة بهذه الدنيا. ومما لاشك فيه أن الذين يتدبرون ويأخذون الدروس من هذه الحوادث سيعلمون أن الله تعالى قد أوجد هذه الحوادث, وأنه قادر في أي

لحظة أن يمتحن البشر بإرسال أشد أنواع العذاب . إن الدنيا هي فقط مكان الاختبار والامتحان . فالذي يؤدي هذا الامتحان حسب ما يطلب منه فإنه سيكون رابحا . أما الذين يرون هذه الدنيا دار بقاء ، فإنهم سيواجهون خسارة مماثلة كما هو الحال بالنسبة للأقوام التي مر ذكر أحوالها في الأمثلة السابقة . وهذا بالتأكيد ناتج عما جنته أيديهم وأنهم في الآخرة سيحاسبون على ما اقترفته أيديهم وما قاموا به من الأعمال ولاشك أن الله تعالى هو الذي يعرف المحسن من المخطئ .

الآخرة هي دار البقاء

(301/744)

يحسب العديد من الناس أن بإمكانهم تأسيس حياة كاملة لاينقصها شئ في هذه الدنيا ، لأنهم يظنون أنهم حازوا على الثروة المادية الضرورية, فإن حياتهم في هذه الدنيا تكون كافية لإشباع جميع حاجات الإنسان وتطلعاته، وكافية لإسعاده . وحسب القناعة السائدة فإن الإنسان يكون قد أسس حياة كاملة لايشوبها أي نقص ان حصل على ثروة مادية وعلى بيت سعيد أو حاز على شهرة وصيت ذائع يجعله محترما في عيون الآخرين . . هذا هو مايحسبونه .

بينما لا نعثر في كتاب الله تعالى على مثل هذه النظرة ولا على ما يؤيدها . بل على النقيض فالقرآن الكريم يقول بأن الحياة الدنيا لايمكن أن تكون كاملة ومثالية دون نقص لأنها صممت على قاعدة وعلى أساس النقص وعدم الكمال .

إن اشتقاق كلمة الدنيا يحمل إيماءة مهمة في هذا الموضوع، لأنها مشتقة في اللغة العربية من " الدناءة " وهي صفة للشيء الذي لايملك قيمة . والدنيا هي محل وضع هذه الصفة . لذا وكما مر بنا في فصول هذا الكتاب فقد كرر القرآن عدم أهمية هذه الحياة الدنيوية، وأشار إلى أن جميع أشكال الزينة الموجودة في هذه الحياة كالغنى وحياة العمل والزواج والأولاد والنجاح لا قيمة لها وهي من المتاع الزائل :

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالأولاد كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (الحديد 20) .

وفي آية أخرى :

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالآخرة خَيْرٌ وَأَبْقَى (الأعلى 16 - 17)

والحقيقة أن المشكلة تبدأ – كما تذكر الآية أعلاه – عند إيثار الحياة الدنيا على الآخرة، لأن الإنسان عندما يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة يكون قد أدار ظهره لله تعالى هو الذي يقول في كتابه :

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (يونس 7)

وينذرهم بأن مصيرهم إلى النار . إن نقص الحياة الدنيا وعدم كمالها لايعني طبعا عدم وجود أشياء جميلة فيها . فقد ملأ الله تعالى الدنيا بنعم عديدية لا تذكر . ولكن بجانب أو جه الجمال هذه . فقد تم وضع أوجه قبح وأوجه نقص وقصور فيها تذكر بجهنم وبعذابها . وبسبب ما تقتضية حكمة الابتلاء والامتحان في الحياة الدنيا فقد وضعت الصفات العائدة للجنة مختلطة مع الصفات العائدة لجهنم، وهكذا يستطيع المؤمنون أخذ فكرة واضحة عن الجنة وعن جهنم من جهة، ويتوجهون نحو الآخرة وهي الدار الخالدة والكاملة البريئة عن أي نقص بدلا من التوجه للحياة الفانية القصيرة للدنيا والانخداع بها . والدار الآخرة هي الدار التي يرتضيها الله تعالى لعباده . ويشير القرآن إلى أن الدار الآخرة هي الدار الأبدية للإنسان والدار الحقيقة وهي دار القرار لهم . لذا كان من الواجب ومن الضروري بذل كل الجهد للفوز بالدار الآخرة والفوز بنعيم الجنة وهذا هو ما يأمر به الله

تعالى عباده :

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (آل عمران 133) .

وضع المتنافسين للفوز بالجنة

(303/744)

لقد بشر القرآن الكريم المؤمنين بأجر كريم وبمغفرة وبثواب وسعادة لاحد لها ، ولكن هناك أمراً كثيراً ما يغيب عن البال وهو أن المؤمن يعيش هذه البشارة ضمن شريط الزمن اللانهائي الممتد إلى الجمال اللامحدود وهو لايزال في الحياة الدنيا ، لأن المؤمن علاوة على أنه مبشر بالجنة في الآخرة فلم يترك محروما من ألطاف الله تعالى ونعمه في هذه الدنيا . ويذكر القرآن الكريم أن المؤمنين الصالحين سيحيون حياة طيبة في هذه الحياة الدنيا :

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (النحل / 97)

إن قيام الله تعالى بمنح عباده الصالحين ألطافا دون أي مقابل كتشويق وحث وصوراً

عديدية من الإحسان والإنعام قانون لايتغير . ونظرا لكون الغنى والعظمة والجمال من أخص صفات الجنة ومن أسسها ، لذا يخلق الله تعالى في هذه الدنيا لعباده المصطفين الأخيار ، ولعباده الذين يحبهم ويرضى عنهم نعما تذكرهم بنعم الجنة وتشير إليها ليزيد من شوقهم إلى الجنة . لذا فكما يبدأ العذاب اللانهائي للمنكرين والملحدين في هذه الحياة الدنيا كذلك يبدأ الجمال اللانهائي في الموعود للمؤمنين والصالحين في حياتهم الدنيوية . وقد يبتلي الله المؤمنين في هذه الحياة بصور من الضيق والمصاعب والآلام ولكن المؤمنين الصابرين لوجه الله تعالى يتذوقون من هذه المحن والآلام لذائذ معنوية لايمكن أن تخطر على بال المنكر .

(304/744)

إن المؤمن يعيش في هذه الحياة الجديدة بعيدا عن أي هم أو حزن أو ضيق نفسي طوال حياته في الدنيا لأنه يعلم بأنه باتباعه أوامر ونواهي خالقه وبعيشة شكل الحياة الذي يحدده الدين الذي اختاره له سيعيش افضل حياة . وهو يحمل بعد وفاته آمالا كبيرة حول حياته الأخروية، ويتوقع أفضالاً عديدة من ربه، فهو يعلم قبل كل شئ بأن عون ربه وتأييده له على الدوام . ومثل هذا الأمن والطمأنينة والسكينة التي يشعر بها المؤمنون ناشئة من علمهم بأن

كل صلاة وعمل صالح يقومون به طالبين رضا الله تعالى يسجل في دفاتر حسناتهم من قبل الملائكة, كما يعلمون بأن الله تعالى يؤيدهم ويحفظهم بملائكة لا يرونها .

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (الرعد 11)

ويعلم المؤمنون بأن النصر حليفهم في كل كفاح يدخلونه في سبيل الله, وأنهم هم الموعودون بالجنة، وهذا يعطيهم شعوراً بالثقة وبالأمل لعلمهم بأن الله تعالى قد أمر ملائكته بنصر المؤمنين وتثبيتهم .

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (الأنفال 12)

المؤمنون هم الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم :

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (فصلت 30)

وهم يعلمون مع هذا أن الله لا يكلف أحداً فوق طاقته :

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

(الأعراف 42)

ولأنهم يؤمنون بالقدر وأن الله تعالى هو فاعل كل شيء, لذا يعلمون أن كل ما يصيبهم هو من عند الله:

قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (التوبة 51)

لذا يتوكلون عليه ويرضون بحكمه:

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

(آل عمران 173- 174)

لذا لا يصيبهم أي مكروه. ولكن بما أن الدنيا دار امتحان وابتلاء فمن الممكن أن تظهر العديد من الصعوبات أمام المؤمن كالجوع والمرض والأرق وحوادث السير والخسائر المالية.... إلخ.

وقد يمتحن بالفقر والبأساء والضراء. والآية الكريمة الآتية تسجل بعض هذه الابتلاءات:

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ

وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (البقرة 214)

ولاشك أن هذه البأساء والضراء والمصاعب التي ظهرت أمام الرسول وأمام المؤمنين معه لم تزدهم إلا عبودية لله تعالى وخشية منه ورضاً بقضائه, وزادت أشواقهم الى الجنة . علماً بأن الله تعالى يبشرهم في نهاية الآية بأن نصر الله قريب, وفي النتيجة :

وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (الزمر 61)

(306/744)

ولما كان المؤمن يعلم بأن المصاعب هي لامتحان إيمانه أنها وأوجدت لهذا الغرض فإن أظهر صبراً وتوكلاً فسينال ثواباً كبيراً في الآخرة, وستكون عاملاً لنضوجه وفرصة لكماله, لذا فلا يفقد شيئاً من أمنه وطمأنينته وسكينة نفسه . ولا تستطيع هذه المصاعب النيل من سكينة نفسه بل سيزداد شوقه وحماسته .

بينما يكون الوضع على النقيض بالنسبة إلى الكافر الذي يتعذب لا جسدياً فقط بل نفسياً وروحياً .

إن المشاعر السلبية كالخوف والحزن والأسى والقلق والتشاؤم من المشاعر الرئيسية

الملازمة واللصيقة بمشاعر الملحد والمنكر . وهذه المشاعر السلبية تعد بداية مصغرة للجانب المعنوي من العذاب الذي سيتجرعونه في جهنم ويشبه الله تعالى هؤلاء الضالين والمنحرفين كما يأتي :

فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (الأنعام / 125)

ومقابل هذا يخبرنا الله تعالى في آيات أخرى كيف أنه يحسن لعباده المؤمنين الصالحين الذين يستغفرونه ويتوبون إليه ويؤتهم من فضله في هذه الحياة الدنيا :

وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (هود / 3)

وآية أخرى يعرف القرآن الكريم الحياة الدنيوية للمؤمن :

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (النحل / 30)

(307/744)

إن الدار الآخرة خير من دار الدنيا هذه وأفضل، وعندما يتم قياس صور الجمال الموجودة في هذه الدنيا بالموجود في الآخرة نرى أنها تتضاءل حتى تفقد كل قيمتها . لذا فإذا تعين علينا تعيين هدف لنا ، لكان من الضروري أن تكون الدار الآخرة هي الهدف . والمؤمنون الذين يسعون الدار الآخرة يغمرهم الله تعالى بأفضاله في حياتهم الدنيا هذه .

الجنة : الوطن الحقيقي للمؤمنين

لقد وعد الله الجنة لعباده المؤمنين . ووعد الله حق لاريب فيه أبداً . والذين يؤمنون بأن هذا الوعد سيتحقق حتما ، لايحملون في جوانحهم أي شبهة أو قلق أو ريبة . وعندما يسلمون أرواحهم كمؤمنين يعلمون بأن ذنوبهم ستغفر لهم وبأن أبواب الجنة ستفتح لهم وسيدخلونها

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (مريم /61)

وأخيرا تقبل تلك اللحظة المرتقبة، وتكون الجنة – التي هي الدار الحقيقة للمؤمن ودار القرار له التي تمناها المؤمن طوال حياته وعمل كل ما في جهده للفوز بها ونيلها – قد تهيأت للمؤمنين . والقرآن الكريم يرسم صورة رائعة لدخول المؤمنين الجنة .

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى (الرعد 23 –24)

صور الجمال في الجنة

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا

وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (الرعد 35)

(308/744)

قبل الولوج في الموضوع هناك نقطة مهمة يجب بيانها : إن الفكرة الشائعة من أن الجنة تحتوي فقط على مناظر طبيعية جميلة وعلى بساتين وأنهار جارية . . . هذه الفكرة ليست فكرة قرآنية . لاشك أن جمال الطبيعة والبساتين والأشجار والأنهار تكمل الجو الساحر للجنة . وهذه هي الحكمة من وجود القصور في الضلال والبساتين التي تجري من تحتها العيون والأنهار . ولكن هذه البساتين والمساحات الخضراء لا تكفي لتعريف الجنة تعريفا شاملا وكافيا .

إن صور الجمال في الجنة ونعمها خارج نطاق كل التصورات وخيالات الإنسان وخارج قدرة الإنسان في التعبير عنها فقسم منها تذكر بما كان موجودا في الدنيا وقسم منها جديد

كل الجدة ولم يعرفه الإنسان من قبل :

ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (الرحمن / 48)

ويجب أن يكون معلوما لدينا بأن صورا عديدة من الجمال ومن المفاجات أعدها الله تعالى بعلمه اللانهائي للمؤمنين في الجنة وجعلها في انتظارهم، وفي الآية الآتية يخبرنا الله تعالى بأن كل شيء سيتحقق حسب مشيئة المؤمن وإرادته وطلبه للجنة .

تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (الشورى / 22)

أي أن قوة خيال الإنسان ستؤدي بإذن الله ولطف منه إلى تشكيل صور جمال عديدة في الجنة علاوة على صور الجمال الموصوفة في القرآن الكريم .

الجو الذي سيعيش فيه المؤمنون في الجنة

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة 72)

البيوت التي عاش فيها المؤمنون في الحياة الدنيا هي بيوت طاهرة .

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (النور 36)

وستكون بيوت الجنة مشابهة لهذه البيوت يذكر فيها المؤمنون الله سبحانه وتعالى ويشكرونه على أفضاله ونعمه . فكما أن المساكن الجميلة الطاهرة التي يعيش فيها المؤمنون من قصور ومنازل يمكن أن تكون ضمن جو الجمال الذي ذكرناه في السابق، كذلك يمكن أن تكون ضمن مدن حديثة جدا ذات هندسة معمارية راقية، وتملك لمسات جمالية عديدة .

المساكن المذكورة في القرآن مقامة ضمن أجواء من الجمال الطبيعي، فمثلا تذكر إحدى الآيات القرآنية :

لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (الزمر 20)

قد يكون لهذه المساكن العالية المذكورة في هذه الآية نوافذ واسعة للإشراف على هذه المناظر، فيها صالونات واسعة تحيط بها النوافذ من جهاتها الأربع . وهكذا يتمتع المؤمن بمساكن موثثة بأجمل ديكور يتمناه الإنسان، وعندما يسترخي على كراسي ناعمة ويرزق بأطيب الفواكه والأشربة يتطلع من مكانه العالي على أجمل المناظر التي تخلب الألباب . يكون تصميم هذه القصور وتأثيثها بأفضل الأثاث وأجوده وبألوان متناغمة، فيها كراسي

مريحة وأسرة متقابلة يذكرها القرآن الكريم في عدة آيات :

عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (الواقعة 15 - 16)

مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهم بِحُورٍ عِينٍ (الطور 20)

وكما يتبين من هذه الآيات فالسرر هنا رمز للغنى والعظمة والقدرة . والله تعالى رأى المؤمنين مستحقين لمثل هذه النعم في الجنة . والمؤمنون - وهم متكئون على هذه السرر - يذكرون الله ويشكرونه ويحمدونه :

(310/744)

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (فاطر 33 -35)

والشئ الغالب في مواد الجنة أنواع عديدة من عناصر الأناقة وصور الجمال التي هي انعكاس للفن وللعلم اللا محدود لله تعالى, مثلاً فالأسرة المحلاة بالجواهر موضوعة في أماكن عالية ومرتبة ومؤثثة بعناية، والملابس من الحرير ومن الاطلس مزينة بقلائد من الفضة والذهب . ومع ورود تفاصيل عديدة فالله تعالى استعمل في وصف الجنة عبارات تترك مجالاً للخيال أيضاً . وبإمكان المؤمن أن يختار ما يعجبه من أنواع الزينة والأثاث . ولاشك

أن الله تعالى هيأ لعباده المؤمنين الذين استحقوا الفوز بالجنة مفاجآت عديدة لا يمكن أن تخطر على بال أحد ولا على خياله .

الجنة تفوق جميع الخيالات

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

(الزخرف 71)

إن الشروح الواردة في القرآن حول الجنة وتصويرها وتقديم الأمثال عنها تنطلق من كونها ليست غريبة تماما عن الموجود في الدنيا بل تحمل بصمات من الشبه بها لذا يقول الله تعالى :

وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (محمد 6)

لذا نستطيع بإذن الله معرفة الحياة في الجنة ونحن لا نزال في الحياة الدنيا ، وأن نملك حولها المعلومات، وهذه المعلومات هي المعلومات التي علمها الله لنا لكي تكون وسيلة للتفكر في الجنة والشوق إليها . ولكن لا يمكننا القول بأن هذه المعلومات تصف الجنة تماما ومن جميع جوانبها وأوجه النعم فيها ، ففي بعض الآيات تمت الإشارة إلى نقطة مهمة وهي أن أوصاف الجنة هذه هي لتحريك قوة الخيال عندنا . وقبل تقديم هذه الآيات علينا أن نذكر أمرا مهما وهي أن آيات مثل :

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (محمد / 15)

فهذه الآية تشير إلى أن الجنة مكان يفوق الخيال الإنساني، وإلى أنها دار المفاجآت التي لا تخطر على قلب أحد . والآية الآتية تصور الجنة كمكان ضيافة واحتفال :

لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (آل عمران 198)

ولاشك أن الفوز في امتحان الحياة الدنيا والوصول إلى دار المقامة حسب تعريف القرآن للجنة أي إلى الموطن الحقيقي والباقي للمؤمن أمر يستحق الاحتفال به . ولاشك أن مثل هذا الاحتفال سيكون من العظمة ومن الأبهة بحيث لا يمكن قياسه بأي احتفال لأي قوم في الدنيا منذ خلقها وحتى فنائها .

وهذه الاحتفالات في الحياة الأبدية، والتمتع بأنواع لاتعد ولاتحصى من النعم والمسرات سمة خاصة بالجنة التي لا يصاب فيها المؤمن بأي نوع من أنواع التعب أو الملل أو النصب، لذا نرى

المؤمنين يقولون وهم يحمدون الله تعالى :

الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (فاطر 35)

ولاشك أن التعب الذهني أو النفسي أو المعنوي يندرج في هذه الآية .

(312/744)

الإنسان في ظروف الحياة الدنيا يتعب بسرعة لأنه خلق ضعيفاً . وعندما يتعب يتكدر ذهنه ويضعف عنده التركيز، ويضعف عنده التفكير السليم . بينما لايوجد هذا الأمر في الجنة، فذهن المؤمن يكون هناك صافياً وشعوره حاداً على الدوام لكي يستطيع إدراك نعم خالقه تمام الإدراك ودون أي نقص . ونظراً لانتفاء الشعور بالتعب في الجنة، هذا التعب الذي يعد من نقائص الحياة الدنيا يكون بإمكان المؤمن هناك الاستفادة القصوى ودون أي حدود من النعم اللانهائية الموجودة في الجنة . ويكون الشعور باللذة هناك دون أي انقطاع، بل يكون هناك انتقال من نعمة إلى أخرى، ومن لذة لأخرى . وقد تم التعهد من قبل الله تعالى على عدم حدوث أي ملل أو سأم هناك .

والله تعالى يسبغ على المؤمنين في الجنة نعمه في جو يخلو من التعب ومن النصب ومن السأم ومن الضجر، فيخلق لهم كل ما يشتهونه :

لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (ق / 35)

أي أن الله تعالى يهب لهم حتى ما لا يخطر على بالهم ولا يبلغه خيالهم، فيحصل المؤمنون هناك على أضعاف وأضعاف ما كانوا يتمنونه .

ويجب ألا ينسى أحد بأن أهم نعمة في الجنة – التي هي دار المقامة – هو الصيانة والحفظ من نار جهنم . (أنظر سورة الدخان / 56) فلا يسمعون حسيسها (سورة الأنبياء / 102) ولكنهم يستطيعون مشاهدة أهل جهنم والتحدث معهم أن شاؤا وهذا الأمر يكون وسيلة لحمد وشكر عظيمين .

قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (الطور 26 – 28)

الجنة مكان في الذروة من العظمة والفخامة حتى إن القرآن يقول عنها :

وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (الإنسان 20)

(313/744)

ولا يوجد في الجنة مكان يمكن أن تقع عليه العين ولا يثير الإحساس بالجمال وبالنشوة، ففي كل شبر في الجنة ترى نعما منعكسة عن العلم اللانهائي لله تعالى، وهي نعم مهداة من الرحمة

الإلهية وخاصة للمؤمنين في الجنة :

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (الحجر 47)

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (الكهف 108)

أعظم نعمة في الجنة وافضلها : رضوان الله تعالى

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة 72)

أشرنا في الصفحات السابقة إلى نعم الجنة التي تبهر الأبصار، وكانت النتيجة التي خلصنا إليها أن الله تعالى أفاض على المؤمنين في الجنة أنواعاً عديدة من النعم تخاطب حواسه الخمسة .

ولكن هناك نعمة تفوق كل النعم وتفضلها وهي : رضوان الله تعالى . وهي السعادة العظمى التي يشعر بها المؤمن في الجنة عندما يعلم أنه نال رضوان الله تعالى، وهي سعادة ما بعدها سعادة . وهذه السعادة نابعة من إحساس المؤمن بأنه في موضع شكر لكل نعمة يهبها له الله تعالى . وعندما يصف القرآن الكريم أهل الجنة يقول :

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أبدا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (المائدة 119)

والحقيقة أن رضوان الله تعالى هو الذي يهب القيمة للنعم الأخرى للجنة . لأن هذه النعم يمكن أن توجد في الدنيا وإن كانت بمقياس أقل كثيراً . ولكن إن لم تكن ضمن رضوان الله تعالى فلا تحمل أي أهمية بالنسبة للمؤمن .

(314/744)

هذه النقطة الأخيرة مهمة جدا ويجب التفكير فيها جيدا ، والقاعدة الأساسية هي :

إن الذي يجعل النعمة شيئًا ذا بال ليس ما تحمله من لذة، بل هو شيء وراء هذا بكثير .

القيمة الحقيقة تكمن في ان تلك النعمة " هبة " من قبل الله تعالى . والمؤمن الذي يستعمل تلك النعمة ويحمد ويشكر الله يعلم أنه مخاطب من قبل الله وأنه تعالى يحبه ويحفظه ويصونه، ويذيقه من رحمته، وهذا هو سر اللذة الأصلية والحقيقية للمؤمن .

لذا فقلب الإنسان لا يشبع تماما الا بالجنة . فقد خلق الإنسان لكي يعبد الله تعالى ، لذا فلا يتلذذ الا بهباته وأفضاله . وهو لا يجد الأمن والطمأنينة إلا في الأجواء التي تذكره بالجنة، أي أن الأجواء التي تستعمل فيها هذه الأفضال والهبات في شكر الله تعالى والإحساس بكرمه . أما أمنية " المدينة الفاضلة " في الدنيا والتي جالت في أذهان المنكرين فهي مستحيلة لهذا السبب . فلو قمت بجمع كل صور الجمال المادية الموجودة في الجنة فلا

تساوي شيئا إن لم يكن هناك رضوان الله تعالى . لأن الله قد يمحق كل تلك النعم وكل صور الجمال تلك وكل اللذات المصاحبة لها .

والخلاصة أن الجنة نعمة وفضل وكرم من الله تعالى ولهذا السبب فلها قيمة كبيرة . وكما ورد في سورة (الأنبياء 26) فلكون الجنة هي مكافأة لأهلها فإنهم سيعيشون بسعادةٍ وفرحٍ أبدي . وأن أحكم ما يمكن قوله هنا هو ما ورد في القرآن الكريم : تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (الرحمن 78)

جهنم هي ماوى الكافرين

(315/744)

إن جهنم هي المكان الخاص الذي خلقه الله ليكون مثوى أبدياً للكافرين لكي يذوقوا فيها العذاب بدنياً وروحياً . ولأن الكفار هنا مذنبون, فإن العدالة الإلهية تقتضي أن يعاقب كل شخص اقترف ذنبا . إن من أكبر الذنوب وأقبحها في هذا الكون على الإطلاق هو قيام الإنسان بالعصيان والجحود بحق الله تعالى الذي خلقه ومنحه الحياة . ولكون هذا الذنب المقترف بحق رب العالمين يعتبر ذنبا كبيرا فإن ذلك يقتضي بالمقابل جزاءً كبيراً . لهذا فإن

جهنم قد وجدت لتحقيق هذه العدالة والاقتصاص من المذنب . لقد خلق الله تعالى الإنسان لكي يقوم بحقوق العبودية الحقة تجاه رب العالمين . لذا فإنه سوف يواجه عواقب إنكاره . والله تعالى يقول في إحدى آياته :

وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ

(غافر 60)

فما دام أكثر البشر سوف يدخلون جهنم وليس هناك أي ضمان أكيد حول خروجهم من جهنم، لذا فيجب أن يحتل هذا الموضوع لدى الناس كلهم الأولوية الكبرى . ولاشك أن أكبر تهديد يواجهنا هو جهنم, وليس هناك شيء أهم من محاولة حماية أنفسنا منها , وليس هناك عمل أهم على وجه الأرض من العمل على تفادي الوقوع في نار جهنم . وأمام هذه الحقيقة الواضحة نرى غالبية البشر وكأنهم سكارى, فهم يشغلون أنفسهم بمشاكل أخرى, وينشغلون حيث يعملون أشهر وسنين من أجل تحقيق تلك الغايات الفانية ويتناسون أكبر خطر يهددهم ألا وهو عذاب جهنم .

فهم عمي لدرجة أنهم لا ينتبهون للنار التي هي قرب رؤوسهم . والقرآن الكريم يتناول حال هؤلاء الغارقين حتى أذقانهم في الضلالة فيقول :

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (الأنبياء 1 – 3)

(317/744)

إن الإنسان ينغمس غالبا في رغباته وأهوائه، ويستهلك عمره كله في أشياء تافهة. فمنهم من يجري خلف مناصب عالية, ومنهم من يحاول أن يؤسس عائلة سعيدة, وغيره يدافع عن أيديولوجيات فارغة, والبعض يصرف جلّ وقته في كسب المزيد من الأموال. وهكذا يحاولون أن يجعلوا هدفهم في الحياة تحقيق هذه الأشياء, ولا يقدرون حجم الخطورة الماثلة أمامهم. بل يرى معظمهم أن جهنم تصور لمكان وهمي. لكن جهنم هي أكثر حقيقة من هذه الدنيا التي يرتبطون بها بكل هذه الشدة. فجهنم ستظل إلى الأبد, بينما الدنيا زائلة. فالله تعالى خالق جهنم ويوم الآخرة هو خالق السماوات والأرض والبشر حسب موازين في غاية الدقة، يكشف عظمة الله تعالى وقدرته, وأن جهنم قد أعدت لتكون مأوى الكافرين والمشركين والمنافقين. وهذا المكان المخيف الذي لا يكاد يستوعبه العقل يمثل

مصدراً مرعباً للعذاب ومصدراً مخيفاً للآلام يعادل أضعاف أضعاف أكبر الآلام الموجودة في الدنيا . وقد خلقت لكي تتناسب مع عظمة وجلال الله تعالى . وهناك حقيقة ثانية تصدم الإنسان ألا وهي استمرار العذاب لجميع الذين يدخلون نار جهنم إلى ما لا نهاية . هناك قول شائع ينتشر بين أفراد مجتمع الجاهلية مفاده إن الذين سيدخلون جهنم سيعذبون إلى أجل مسمى، وبعدها يتم العفو عنهم ويخرجون منها . وهذا الاعتقاد ينتشر بالأخص بين من يعتبرون أنفسهم مسلمين، ولكن لا يقومون بأداء فروض العبادات بالشكل التام والصحيح . فهم يظنون أنهم سيبقون في جهنم لفترة ما ثم يتم العفو عنهم بعدها بعدما عاشوا حسب أهوائهم في الدنيا . ولكن ما سوف يلاقونه من مصير سيكون مؤلماً أضعاف أضعاف ما كانوا يتخيلونه . لأن جهنم هي المكان الذي يستمر العذاب فيه إلى ما لا نهاية . والقرآن الكريم لم يتطرق في أي آية من آياته إلى دخول أناس إلى جهنم وتعرضهم إلى عذاب قليل، ومن ثم أخذهم إلى الجنة .

(318/744)

بل على العكس، فإن جميع الآيات القرآنية الكريمة تتطرق إلى حقيقة كون عذاب جهنم يستمر إلى ما لانهاية، وإن جهنم قد خلقت لتكون مثوى خاصا بالكافرين, ولا مجال هناك

للخلاص منها . وسيستحق العذاب الأبدي أولئك الذين أظهروا لله تعالى جحوداً وعصياناً بعدما منحهم الله تعالى من النعم والخيرات الشيء الكثير . يقول تعالى :

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

(سورة النحل 78)

لن تكون هناك أي فائدة للذين يقدمون المغالطات والمقاييس الفاسدة لإلهاء أنفسهم، فالحكم قد تحقق وصدر في حق هؤلاء الذين قضوا حياتهم الدنيا في الجحود والضلال، وما أظهروه من حقد دفين وعدم مبالاة تجاه دين الله تعالى, وسيتم مخاطبة أولئك الذين كانوا يتكبرون على الله تعالى :

فَادْخُلُوا أبواب جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (سورة النحل 29)

وإحدى أهم الصفات المخيفة لجهنم هي عدم انقطاع عذابها أبداً . فليس هناك مجال للعودة والخروج منها بعد الدخول إليها ، فهناك حقيقة واحدة هي استمرار عذاب نار جهنم إلى الأبد . ومن أهم صفات الله تعالى في الأسماء الحسنى صفة (القهار) وتتجلى في هذه النقطة . وسيلاقي الذين سيكونون وجهاً لوجه مع هذه الحقيقة انهياراً نفسياً ، لأنه لن يبق لهم أي أمل في النجاة, والقرآن الكريم يشرح لنا الوضع البائس لأصحاب النار فيقول :

وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهم النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا

عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (السجدة 20)

بيئة العذاب في جهنم

(319/744)

فبعد محاسبة الكفار أمام الله تعالى يستلمون كتب أعمالهم بشمالهم، وهذا يمثل لحظة سوقهم إلى جهنم التي سيبقون فيها إلى الأبد ، حيث لن يجد الكفار وسيلة للهرب، فلن يوفر تجمع المليارات من البشر يوم الحساب الفرصة لهؤلاء الكفار كي يهربوا ويختفوا عن الأنظار، ولا يستطيع أحد الاستفادة من هذا الأزدحام كي يختفي أو يجعل نفسه شخصا منسيا .

وكل فرد من أفراد أهل النار سيرافقه سائق وشاهد من الملائكة :

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيد أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيب الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (سورة ق 20 – 26)

وهكذا فإن الكفار سيتم سحبهم على وجوههم باتجاه ذلك المكان المخيف . وكما أفاد القرآن الكريم فإن هؤلاء الكفار سيساقون زمراً إلى جهنم, وقبل وصولهم إلى هذا

المكان وهم في الطريق إلى جهنم سيصاب هؤلاء الكفار بالخوف وبالرعب الشديد وبالهلع، حيث يسمعون ومن مسافات بعيدة أصوات شهيق جهنم وهي تتلظى بالنار : .

إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنْ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (سورة الملك 7 – 8)

وكما تبين الآية الكريمة, فإن إحساس الكفار بما سيصيبهم من عذاب جهنم سيكون واضحاً حال بعثهم من الموت حيث سيدركون أي عاقبة ستكون بانتظارهم فتكون أعناقهم مطأطأة من شدة الخجل والمذلة .

(320/744)

فهم بعد انكسار كبريائهم سيكونون في حالة انهيار تام، حيث تكون رؤوسهم منحنية, فقد أصبحوا دون حول ولا قوة، وبلا مساعدة وبلا صديق . وهم لشدة خجلهم لا يرفعون رؤوسهم، بل يكتفون بالنظر من طرف أعينهم, وفي آية كريمة تتوضح لنا هذه الحالة :

وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنْ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفسهم وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (سورة الشورى 45)

إن جهنم مكان تنبض بالكراهية الشديدة, فهي متعطشة لتعذيب البشر ولا تشبع أبدا من التهام الكافرين :

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (سورة ق 30)

عندما تتلقف جهنم أحد الكفار من أهل جهنم فإنها تبقيه فيها إلى الأبد . والقرآن الكريم يصف لنا جهنم بقوله تعالى :

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (سورة المدثر 26 – 29)

الحياة الأبدية خلف الأبواب المغلقة

سيجابه الكفار الذين سيدخلون جهنم بعد غلق الأبواب عليهم منظراً مخيفاً للغاية . فهم سيدركون أنهم بعد قليل سوف يتم رميهم في نار جهنم إلى الأبد . فغلق الأبواب من خلفهم سيجعلهم يدركون أنه ليس هناك مفر ولا خروج من هذا المكان المخيف . ويخبر الله تعالى عن وضع الكفار هذا فيقول :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُوصَدَةٌ

(سورة البلد / 19 – 20)

وحسب الآيات الكريمة

(عذاب كبير) سورة آل عمران 176) و

(عذاب شديد) (سورة آل عمران 40) و

(عذاب أليم) (سورة آل عمران 77)

وهكذا يبين القرآن الكريم العذاب المرعب والأليم الذي سيواجهه الكفار .

(321/744)

إن المقياس الذي يملكه الإنسان في الحياة الدنيا لا يستطيع فهم واستيعاب عذاب جهنم بشكل كامل .

فالإنسان الذي لا يتحمل التعرض إلى الماء الحار أو النار لثوان معدودات لا يستطيع تجسيم منظر عذاب النار في ذهنه والذي سيستمر إلى الأبد ولا حتى تخيله . لأن شدة الألم في نار جهنم لا يمكن مقارنتها بأي ألم ناتج من أي نار موجودة على الأرض, لأنه ليس هناك شبيه لعذاب الله تعالى :

فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَد وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (سورة الفجر 25 – 26)

وكما يوضح القرآن الكريم فإن في جهنم حياة بمعنى الكلمة, ولكن هذه الحياة يملؤها العذاب في كل آن ومن كل جهة, والحياة في جهنم تحوي مختلف صنوف الإهانة والخزي

والمهانة والذل . وكذلك فهناك عذاب جسدي وعذاب نفسي، ولا يمكن مطلقا قياس أي عذاب واقع في الأرض مع العذاب الحاصل في جهنم . فأهل النار سيحسون بعذاب جهنم بحواسهم الخمسة . فعيونهم ستشاهد أفظع وأقذر المناظر وآذانهم ستسمع أفظع الأصوات وأكثرها رهبة من دمدمات وضجيج وصياح وتآوهات وصراخ. وستملأ أنوفهم روائح قذرة وكريهة لا يمكن تحملها , وستذوق ألسنتهم أفظع المذاقاتً وأكثرها إيلاماً . وستحترق جلودهم وجميع أجزاء أجسامهم بحيث لا ينجو من هذا الحرق حتى خلية واحدة من خلايا جسده, وسيتلوون من شدة هذا العذاب . فهم لا يموتون ولا يفنون ليتخلصوا من هذا العذاب . وهذا العذاب سيستمر إلى ما لانهاية، لأن جلودهم ستتجدد , ولن يخفف العذاب عنهم ولن ينقطع عنهم أبداً . وكما جاء في القرآن الكريم :

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ

(سورة البقرة 175)

وسيقال للكفار حسب التعبير القراني :

اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

(سورة الطور 16)

وهناك عذاب نفسي شديد ومؤلم بجانب العذاب الجسدي, فهم يهانون ويحقرون، فيندمون, وكلما فكروا في وضعهم اليائس وعدم وجود أي بصيص من الأمل أمامهم ستبكي قلوبهم دماً, وكلما خطر ببالهم أن وضعهم سيستمر إلى الأبد تضاعفت آلامهم إلى درجة أنه لو يعلمون بأن هذا العذاب سينتهي بعد مليون سنة أو بليار سنة أو حتى بعد مليارات من السنين فسيشكل هذا لهم مصدر أمل كبير, ولكن علمهم بأن العذاب لن ينتهي بل سيستمر إلى أبد الآبدين سيولد عندهم شعوراً شديدا بالاحباط واليأس لا يمكن مقارنتهما بأي شعور بالاحباط واليأس في هذه الدنيا . وحسب التصوير القرآني لجهنم فهي مكان قذر، تفوح بمختلف صنوف الروائح الكريهة، ضيقة يعلوها الضوضاء، مظلمة، كريهة، كل زاوية وحجرة تغلي من شدة وهول الحرارة، تحتوي على أمقت المأكولات والمشروبات . وملابس من نار يلبسونها تظل عليهم إلى الأبد ، إضافة إلى مختلف صنوف العذاب . كل هذا وأكثر من هذا يشير إلى نوع المكان الأبدي الذي سيكون مأوى الكافرين والضالين من أهل النار, ويمكن تصوير بيئة جهنم من خلال ما يمكن رويته في بعض الأفلام التي تصور انفجار قنبلة نووية وما تخلفها من ظلمة، وقذارة إلى أبعد ما يمكن تصورها ، وسط ممقوت, وسط ملؤه الذهول . وطبعا ومما لاشك فيه أن هناك حياة تتلاءم مع هذه البيئة . فأهل جهنم يكونون في وعيهم التام حيث يسمعون، ويتكلمون، ويتناقشون،

ويحاولون الهرب، يحرقون في النار، يتضرعون ويطلبون تخفيف العذاب عنهم، يعطشون، يجوعون، يحسون بالندم القاتل . لهذا فإن أهل جهنم يعيشون في بيئة قذرة ممقوته كالحيوانات . فهم يجدون فقط شجرة الزقوم كمأكل لهم وأشواك الأشجار، أما شرابهم فمن دم وصديد ومن ماء مغلي لا غير . وفي هذه الأثناء فإن النار تحيط بهم من كل جانب . حيث تبدل جلودهم المحترقة بأخرى جديدة وهكذا . حيث يستمر هذا العذاب من دون تخفيف من حدتها وشدتها .

(323/744)

وهم علاوة على تساقط جلودهم ولحومهم المحترقة، واندفاع وخروج أعضائهم الداخلية إلى الخارج، واحتراق كامل جسدهم, وعلى الرغم من كونهم في وسط يملؤه الدم والصديد فأنه يتم ضربهم وجلدهم بسلاسل من حديد . ويتم ربطهم من أعناقهم وربط أيديهم إلى أعناقهم حيث يتم جرهم ورميهم في أماكن ضيقة من جهنم . ويمددون من قبل زبانية جهنم على أسرة من نار . حيث يقومون بتغطيتهم بأغطية من نار . فلن تكون هناك آذان صاغية لصراخهم ولجميع توسلاتهم المستمرة . فهم يطلبون أن يخفف عنهم العذاب ولو ليوم واحد ولكن العذاب والإهانة سيكون الجواب الموجه إليهم, فاليوم الواحد لهم من أيام جهنم لا

يشبه بأي شكل من الأشكال يوما من أيام الدنيا .

فكل مايجري في جهنم من حوادث هي حوادث حقيقية، فهي حقيقية بل وأكثر حقيقية من حياتنا هذه والتي نعيشها في هذه الدنيا . وهذا هو أيضا مصير الذين لايعبدون الله كماينبغي بل يؤدون عبادتهم بشكل ناقص :

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فإن أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخرة ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (الحج 11)

كذلك فهذا هو مصير الذين يقترفون الآثام ويقولون بأن الله تعالى سيغفر لنا في نهاية الأمر, والذين يحسبون أنهم لن يبقوا في جهنم إلا أياما معدودات :

ذَلِكَ بأنهم قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أيام ا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (آل عمران 24)

(324/744)

والذين يتخذون الهاً غير الله, ولا يهدفون في الحياة إلا الحصول على الثروة وعلى الصيت والشهرة, والذين يغيرون دين الله حسب أهوائهم ورغباتهم, والذين يشوهون تفسير القرآن حسب مصالحهم ومنافعهم الشخصية أو الذين يرتدون من بعد إيمانهم كفاراً . والخلاصة

أن جميع الكفار والمشركين والمنافقين سيملؤون جهنم . فهذا الوعد القاطع لله تعالى قد أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى :

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ

(سورة السجدة 13)

ومقابل هذا ، فليس هناك أحد يستطيع أن يتألم لحال أهل جهنم وأن يخلصهم من عذاب النار وحتى أن يساعدهم . والله تعالى لن يكلمهم إلى الأبد . فهم سيقاسون آلام الاهمال والنبذ والنسيان .

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (سورة الحاقة 35)

وزبانية جهنم، وهم من الملائكة الموكلين بتطبيق أسوإ العذاب وأقساه على واردي جهنم لايملكون ذرة من الرحمة والشفقة سيذيقونهم سوء العذاب ومختلف صنوف الآلام والتعذيب وإلى ما لا نهاية . وهم على درجة عالية من الشدة وعدم الرحمة والقوة ويكونون مخيفين جدا . فهم مكلفون بأن يقتصوا من الكفار والمشركين الذين تجاسروا بكفرهم بالله رب العالمين حيث يقومون بأداء واجبهم على أتم وجه . فليس من الممكن أن يقدموا التماساً وأن يؤدوا بشكل ناقص واجب التعذيب أو أن يجعلوا الكافرين يهربون من أمام أعينهم، ولهذا فإن الإنسان يجابه خطرا حقيقياً . فالإنسان سيعاقب بهذا العقاب إذا قام

بجحود وعصيان تجاه رب العالمين، وهذا يعني اقترافه أعظم الذنوب، لهذا فإن الله تعالى ينبه الإنسان كي لا يقع في مثل هذه الأخطار وأن لا يقترف تلك الذنوب :

(325/744)

يَاأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (سورة التحريم 6)

كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَ بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَه سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ

(سورة العلق 15 – 18)

تضرعات يائسة لا طائل من ورائها

إن أهل جهنم يعيشون حالة من الإحباط الشديد ، فالعذاب المسلط عليهم يكون أبديا من جهة وأيضاً يكون أليماً جداً من جهة اخرى, فالتوسل وإصدار أصوات تنم عن ألم كبير سيكون طريقهم وأملهم الوحيد . فهم يتوسلون لكل من يرونه، يرون أهل الجنة فيطلبون منهم قليلا من الماء والطعام . يتوسلون إلى الله تعالى ويأملون رحمة منه، ولكن كل هذا لا يجدي . وحراس جهنم وهم الزبانية يكونون ضمن الذين يتوسلون بهم، أي يصل الأمر بهم

بأن يتوسلوا إلى زبانية جهنم الذين يقومون بإذاقتهم مختلف صنوف العذاب والذين لا يخطر ببالهم أن يقوموا بالتوسط لدى الله تعالى لكي يخفف عن هؤلاء العذاب حيث يكون العذاب شديدا لدرجة أنهم يتوسلون كي يخفف عنهم ولو ليوم واحد فقط . ولكنهم لا يأخذون أي رد .

وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنْ الْعَذَابِ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (سورة غافر 50 - 49)

وهم بجانب هذا يعملون من أجل الحصول على رحمة من الله تعالى ولكن أيضاً تبوء جميع محاولاتهم بالفشل .

(326/744)

قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فإن عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِي إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمْ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أنهم هُمْ الْفَائِزُونَ (سورة المؤمنون 111 - 106)

ويفهم من هذه الآية الكريمة أن هذا هو الخطاب الأخير الذي يوجهه الله تعالى لأهل جهنم . لأن الله تعالى عندما قال لهم " اخسأوا ولاتكلمون " فلم يعد هناك أي مجال لأي حديث أو كلام بعد . وبعد هذا لن يخاطبهم الله تعالى إلى أبد الأبدين وهذا وضع مؤلم لا يمكن حتى تصوره وتخيله . وبينما يقاسي أهل جهنم العذاب ويصطرخون في النار يكون المؤمنون الفائزون والواصلون إلى السعادة في أحضان النعيم . وهناك عذاب معنوي آخر لأهل جهنم وهو الحوار الذي يجري بينهم وبين أهل الجنة . . فعندما يعاني أهل جهنم من أصناف العذاب المهول ييسر لهم الله إمكانية رؤية الجنة ومشاهدة أنواع النعم الموجودة فيها ، حيث يرون المؤمنين الذين كانوا يستهزئون بهم في الدنيا في بحبوحة من العيش وفي قصور فخمة ومراتب عالية ومع نساء حسناوات وحور عين يخطف حسنهن الأبصار ، يتناولون ألذ أنواع الأطعمة والمشروبات فيقارنون بين العذاب الذي يعيشون فيه والهوان والخزي الذي يلاقونه مع هذه النعم الكبيرة والسعادة اللامحدودة الموجودة هناك في الجنة, وهذا سيزيد من عذابهم أضعافا مضاعفة ويبلغ شعور الندامة عندهم درجة لا يمكن تحملها ويغرقون في بحر من الندامة الممضة الموجعة لأنهم – على العكس من المؤمنين – لم يؤمنوا بالله ولم

يخضعوا لأحكام الله, وفي لجة هذه المشاعر يحاولون إجراء حوار مع أهل الجنة وطلب المعونة منهم فيتوسلون إليهم ولكن هيهات هيهات, وفي هذه الأثناء يرى أهل الجنة حال أهل النار فيزدادون سعادة ويزداد شكرهم لله تعالى, ويخبرنا القرآن الكريم عن هذا الحوار الذي سيجري بين أهل النار واهل الجنة :

(328/744)

فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنْ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (سورة المدثر 40 – 48)

تذكير من أجل الخلاص من العذاب الأبدي

قمنا هنا بتلخيص حال الإنسان (الذي لم يخلقه الله عبثا ولم يترك حبله على غاربه) سواء المؤمن منهم بالله تعالى أو المنكر منهم، ولكن يجب أن لا يغرب عن البال بأن الغاية من شرحنا هذا يختلف تماما عن هدف تقديم قصة الجنة وجهنم بالشكل الذي اعتاد الناس على سماعه منذ ولادته . فليس من هدفنا إعطاء معلومات دينية فقط بل التذكير وللمرة الأخيرة بأن مايقاسونه من آلام وضيق في حياتهم الدنيا نتيجة إنكارهم وعدم إيمانهم

سيستمر في الآخرة ولن يجدوا منه خلاصا .

ولاشك أن الإنسان حر في اختيار نمط عيشه في الحياة الدنيا ، ولا يستطيع أي شخص أن يكره شخصا آخرا بأي شكل من أشكال الإكراه . ولكننا كمؤمنين بالله تعالى وبعدالته غير المحدودة نرى أن من واجبنا تنبيه الضالين والغافلين في حياتهم الدنيا عن الحقيقة لكي يخافوا وتخشع قلوبهم لأن الله تعالى يشرح مدى وخامة الوضع الذي يعيش فية هؤلاء فيقول تعالى :

أَفَمَنْ أسس بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أسس بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (التوبه 109)

(329/744)

إن الذين يديرون ظهورهم لآيات الله وينكرون الله تعالى دون أي وعي أو شعور ، لايوجد لهم أي خلاص في الآخرة ولا أي نجاة . إذن فالواجب على كل إنسان عندما يرى الحقائق التحول عن الطريق المنحرف الذي يسير فيه دون إضاعة أي وقت وتسليم نفسه لله تعالى فإن لم يفعل هذا فسيعيش الندم الكبير الذي تشرحه الآية الآتية :

رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمْ الأمل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

(سورة الحجر 2 - 3)

أما طريق الخلاص من العذاب ومن الندم وكسب رضى الله تعالى وجنته فواضح وبين !

الإيمان بالله تعالى من صميم القلب ومن دون أي تأخير، وإفناء العمر في السعي للحصول على رضا الله تعالى .

.

.

.

0-دورة حياة طحلب الكلاميد وموناس

life cycle of Chlamydomonas

بقلم الدكتور نظمي خليل أبو العطا

.طحلب الكلاميد وموناس Chlamydomonas من الطحالب الخضراء وحيدة الخلية (Unicellulas Green Algae) ذات خلية كمثرية الشكل أو بيضاوية الشكل ذات طرف أمامي مدبب يتصل به هدبان متساويان يتوسط الخلية نواة (nucleus) ، وبه بلاستيده خضراء (Chloroplast) كبيرة فنجانية الشكل بها مركز النشا (Pyronoid) وله بقعة عينيه (Stigma) أو (eye spot)

وفجوتان متقبضان (Controctile vacuoles) .

.ويتكاثر الطحلب بالتكاثر اللاجنسي (Asexual reproduction) وبالتكاثر الجنسي (Sexual reproduction) .

أولاً : التكاثر اللاجنسي (Asexual reproduction) :

يحدث هذا النوع من التكاثر في ظروف رغد العيش وعدم وجود مشكلات بيئية خارجية , حيث تفقد الخلية الخضرية للطحلب أهدابها ، وتتحول إلى الشكل الكروي، وتنقسم محتوياتها الداخلية إلى قسمين , أو أربعة أقسام , أو ثمانية وتنمو لتشابه الخلية الأم , ثم لا تلبث أن تخرج من جدار الخلية وتنمو كل واحدة لتعطي طحلباً جديداً .

(330/744)

ثانياً : التكاثر الجنسي (Sexual reproduction) :

عندما تقل المواد الغذائية في الوسط المحيط بالطحلب، أو يقترب موعد جفاف المياه في الوسط الذي يعيش فيه، أو تتغير العوامل البيئية الخارجية , يستشعر الطحلب الخطر ويلتقي طحلبان رأساً لرأس أو جنباً لجنب، ويفقدان أهدابهما , ثم تندمج محتوياتهما الداخلية لتكون الزيجوت (Zygot) ثنائي المجموعة الضبغية (n2) ذات جدار سميك

مقاوم للعوامل البيئية الخارجية، وتظل هكذا إلى أن يأذن الله للظروف البيئية الخارجية أن تتحسن , فتبدأ اللاقحة في الانقسام عدة انقسامات متتالية , أولها انقسام اختزالي , لتكون وحدات طحلبية جديدة كل واحد منها أحادي المجموعة الصبغية (n) تتحرر إلى البيئة الجديدة، وتبدأ في التغذية والنمو والتكاثر بالتكاثر اللاجنسي الميتوزي (or mitosis Asexual reproduction) وهكذا يعيد الطحلب دورة حياته .

.فمن أعلم هذا الطحلب أن المياه ستجف مثلاً من البركة أو الترعة أو الحقل وأن على الوحدات الخضرية أن تتجمع لمجابهة هذه المصيبة وتبدأ التكاثر الجنسي ؟ ! ! .

.ومن أعلم اللاقحة أن الظروف المواتية قد حانت وعليها أن تبدأ في الانقسام مبتدأة بالانقسام

الاختزالي لتعود لسيرتها الأولى وتبدأ الحياة من جديد ؟ ! .

.ومن أعلم هذا الطحلب الصغير أن الحياة رغدة وعليه إنتاج الذرية بالطريقة الخضرية في التكاثر الخضري vegetative reproduction ؟ ! .

.ومن خلق له الأهداب للحركة والبقع العينية (eye spot) لاستقبال الضوء إنه كما قال سيدنا موسى :) قال ربنا الذي أعطى كل شيء خَلقه ثم هدى ([طه : 50] .

الشكل التالي يبين دورة حياة طحلب الكلاميدوموناس

.

.

.

0–جديد الشيخ الزنداني حول أصوات المعذبين

هذا الشريط هو عبارة عن تصريح قام به الشيخ عبد المجيد الزنداني مؤخراً حول شريط المعذبين أو السعير مدة الشريط 57 دقيقة ونظراً لأهمية الشريط والتصريح قمنا بنشره على موقعنا

"نار وصراخ"

(331/744)

لتحميل الشريط أضغط هنا

روابط ذات صلة :

محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة والأنجيل باسم " الفارقليط "

مخطوطات البحر الميت

القرآن وزعم صلب المسيح – الشيخ عبد المجيد الزنداني

البشارة بالنبي صلى الله عليه وسلم

عُجب الذنب أصل الإنسان الذي لا يبلى

مراحل خلق الإنسان على ضوء الكتاب والسنة

إعجاز القرآن في الناصية

التوازن والتطابق العددي بين القرآن والكون

النظام الزراعي في القرآن والسنة ومظاهر إعجازه

غيث الاستسقاء

القمر كان كوكباً مشتعلاً

تكون المطر والبرد

منطقة المصب والحواجز بين البحار والأنهار

أمواج البحر اللّجي

الخوف والمطر

البرزخ المائي بين البحرين

والجبال أوتاداً

أما كتب الشيخ عبد المجيد الزنداني متوفرة على الموقع وجاهزة للتحميل المباشر أضغط على الصورة

http : //www.55a.net/firas/arabic/index.php?page=m_o&id=9&sr=addr&isEmpty=

.

.

.

0-دورة الكربون في الطبيعة

Corbon cycle

بقلم الدكتور نظمي خليل أبو العطا

.الكربون (Corbon) من العناصر المهمة على الأرض , فهو يكون الهيكل الكربوني لكل المركبات الحيوية مثل الجلوكوز (Glucose) , والتريوز (Triose) ، والبنتوز (Pentose) ، واللاكتوز (Loctose) ، والنشا (Starch) ، والجليكوجين (Glycogen) ، والسليلوز (Cellulose) وباقي آلاف وملايين المركبات

الكربوهيدرات .

.وهو يكون الهيكل الكربوني للدهون والشموع والأحماض الأمينية , وهو مكون أساسي ورئيس في الخشب والفحم والبترول والأحماض النووية (Nucleic acids) ومركبات الطاقة , فنحن نعيش في الكرة الأرضية الكربونية مع نباتاتها وحيواناتها وكائناتها الحية الدقيقة وبشرها , ومع كل هذا فنسبته في الهواء الجوي قليلة إذا ما قورنت بالأكسجين (20 % من الهواء الجوي) والنيتروجين حوالي (75 %) أما الكربون (0.3%) فقط والباقي محبوس في جميع المركبات الحيوية المحتوية على الكربون .

(332/744)

.وإذا درست دورة الكربون وقارنتها بدورة النيتروجين (Nitrogen cycle) ، ودورة الأكسجين (Oxygen cycle) ، ودورة الفوسفور (Phosphorus cycle) ودورة الكبريت (Sulfur cycle) وغيرها من دورات العناصر في الكون تجد العجب العجاب في الدورات السابقة تكاد تتساوى أسهم التصعيد والتحرير مع أسهم الإنزال والتثبيت .

.فالكل ينفث الكربون في الجو والهواء : المصانع، والمزارع، والمنازل، والمدارس،

والسيارات، والطائرات، والحيوان، النبات , والكائنات الحية الدقيقة .

دورة الكربون

والنبات فقط هو وبعض الطلائعيات والأوليات الذي يصفي الجو وينقيه من الكميات الزائدة من الكربون بعملية البناء الضوئي Photosynthesis .

.وعندما تختل كمية الكربون في البيئة تظهر ظاهرة الدفيئة أو الاحتباس الحراري أو ظاهرة البيوت الخضراء (The Greenhouse effect) أو الصوب التي نزرع فيها النباتات حيث تحتبس كميات من الحرارة في جو الأرض كما يحبس البيت الزجاجي الحرارة لتدفئة النبات وهذا سيترتب عليه ذوبان كميات من الجليد ظلت متجمدة لملايين السنين في الأقطاب الباردة على الأرض وفي سفوح الجبال الشاهقة , ولحظتها تغرق الجزر والعديد من البلدان الشاطئية في ظاهرة خطيره .

.والكل يحرق الوقود الكربوني , والكل ينفث مركبات الكربون إلى الجو, ويقوم النبات وبعض الكائنات الحية الأولية والطلائعية الأخرى بتثبيت ثاني أكسيد الكربون لإنتاج الغذاء والخشب والأكسجين والمركبات الكربونية الأخرى .

صورة تبين دورة حياة الكربون في الطبيعة

.إذا زاد ثاني أكسيد الكربون مرض الإنسان والحيوان والكائنات الحية الدقيقة , واختل

ميزان العدل والاتزان الحيوي , وكانت الطامة الكبرى التي قال الله عنها :) ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ([الروم : 41] .

(333/744)

.والله أمرنا بالإصلاح في الأرض وعدم الإفساد فيها بعد إصلاحها قال تعالى :) ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ([الأعراف : 85] . فالله سبحانه وتعالى خلق الأرض صالحة لحياة الإنسان والحيوان والكائنات الحية الدقيقة والنبات، وجعل النبات رئات تنتج الأكسجين وتحرره من الماء، وتثبت الكربون في المواد النباتية، ويساعده في ذلك بعض الأوليات (Monera) والطلائعيات (Protista) فماذا فعلنا في النبات ؟ !

.قطعنا الغابات .

.استهلكنا الفحم والخشب والبترول بلا نظام وحساب .

.لوثنا البيئة الأرضية بملوثات قضت على النبات والكائنات الحية الدقيقة والطلائعيات .

ولذلك كان فهم دورة الكربون من الواجبات المهمة لكل مسلم ومسلمة مثلها مثل دورة الماء، والبناء الضوئي (Photosynthesis) وهذا ما قصدناه بتيسير هذا المعلومات .

.

.

.

0-مكانة الميكروبات عند خالق الأرض والسماوات

أ.د/مختار صالح عمار

أستاذ ورئيس قسم النبات والميكروبيولوجي : كلية العلوم جامعة الأزهر (بالقاهر)

(334/744)

" الميكروبات "كلمة قد تجذب انتباه الشخص العادي، ولكنها تحمل في طياتها معاني كثيرة لدى الدارسين بها ، فعلي الرغم من أن الميكروبات هي أصغر مخلوقات الله الحية قاطبة، إلا إنها تنطوي على أسرار غنية بآيات الإعجاز العلمي الإلهي، والذي يتمثل في قول الله تعالى : (. . وفوق كل ذي علم عليم) [سورة يوسف]، والدارس لهذه الكائنات غير المرئية لابد من أن تنتهي دراسته إلى مزيد من الإيمان بالله والثقة به، من أن تنتهي دراسته إلى مزيد من الإيمان بالله والثقة به، قال تعالى : (. . والراسخون في العلم يقولون آمنا به . .

) [سورة آل عمران]، نعم . . كيف لا تؤدي دراستها إلى مزيد من الإيمان بعد أن أقسم الله بها في كتابه حيث يقول تعالى : (والنجم والشجر يسجدان) [سورة الرحمن]، فالنجم هو : كل ما أنجم من الأرض مما ينبسط عليها وليس له ساق (مثل الميكروبات) ، أما الشجر فهو ما أقام على ساق . وكيف لا يرسخ إيمان العالم بخالق العوالم الميكروبية وصانعها ، بعد أن حظي برؤيتها تحت المجهر (الميكروسكوب) ، وآمن بوجودها ، كما نؤمن بالله خالق السماوات والأرض وما بينها دون أن نراه : (فلا أقسم بما تبصرون* وما لا تبصرون) [سورة الحاقة] .

ولعل أعظم مثال يوضح ما نقوله هو ما جاء على لسان أحد علماء الغرب، وهو يصنف الأشكال الميكروبية تحت المجهر (الميكروسكوب) : أنظر إلى هذه الأشكال وتأمل دقة صنعتها وقمة الهندسة في خلقها . . إنني واثق أنه مهما اجتمع صناع الطبيعة ورساموها وفنانوها على أن يصمموا صورة صادقة لمحاكاة ما أراه من أشكال تفوق الوصف والخيال لفشلوا جميعاً ، مما يدل على أن هناك قوة كبيرة وراء صنع الكائنات . . وهو الرب بكل تأكيد . أليس في هذا القول ما يؤكد أن هذا العالم الغربي قد عرف الله من خلال دراسته للميكروبات ؟ حقا (. . إنما يخشى الله من عباده العلماء . .) [سورة فاطر] .

من المدهش ـ حقاً ـ أن معرفة الإنسان بالميكروب بدأت منذ أكثر من ثلاث آلاف سنة قبل الميلاد على أيدي المصريين القدماء الذين استخدموا في صناعتهم التخمرية لإنتاج الخبز والجعة (البيرة) .

صورة لإحدى المستعمرات الجرثومية

وقد ظلت هذه الحقيقة غائبة حتى تم اكتشاف اللغة الصينية القديمة وفك رموزها وأسرارها . وبالرغم من هذا، فإن غير المنصفين من علماء الغرب يسمونه بعلم مجهول النسب .

لقد ظل الجهل بالميكروب حتى ظهر (أنتوني فان ليفينهوك) منذ حوالي 300سنة (1676م) ، وهو مكتشف الحياة الميكروبية الحقيقية، إذ وجد المنظر قد جاء من أجلى أنا . . فمن بين كل العجائب التي رأيتها في الطبيعة . . يجب أن أؤكد أن من أعجب العجائب جمعاء ـ على الأقل بالنسبة لي ـ أنه لم يقع بصري على مشهد طبع في نفسي سروراً أكثر من هذه الآلاف العديدة لتلك المخلوقات الحية . . والعجيب أنها كلها تحيا في قطرة ماء) .

وتوضيحاً لما وصفه هذا العالم الكبير، تعالوا نتأمل كيف تعيش مئات الآلاف من الخلايا

البكتيرية في قطرة ماء ؟ كيف تعيش بلا مشاكل . . بلا صدام . . بل نزاع . . بلا ضجيج . . بلا شكوى . . الكل يعرف طريقه الصحيح نحو البقاء . إذاً لا بد وأن هناك قوة كبرى وراء هذا الحشد الهائل من الميكروبات التي تحيا بسلام وتتحلى بالصمت الهادئ والصبر الجميل . سبحان الله الخالق البارئ المصور ! ! أليس هذا مثلاً رائعاً للتأمل في حياة الميكروب يؤدي إلى المزيد من الإيمان بالله : (قالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) [سورة البقرة] .

ومن فضل الله على العالمين أن العلم الحديث أسهم في كشف أسرار الكثير من الميكروبات، فبعد أن كانت النظرة العامة للميكروبات قديماً تنحصر في كونها كائنات ضارة شريرة وأعداء للإنسان، وذلك بسبب عجز الإنسان عن التعامل معها وفهم طبيعتها ، أصبحت النظرة الحديثة للميكروبات مختلفة تماماً .

(336/744)

ففي ظل التكنولوجيا الحديثة للميكروبات أصبحت هذه الكائنات مفيدة وصديقة للإنسان، بحيث أصبح الإنسان يعتمد على كثير من الميكروبات في صناعاته الدوائية والغذائية وغيرها ، وأكثر من هذا ، فقد أصبحت الميكروبات تمثل أدق أسرار الصناعات

الحديثة لبعض الدول .

وسبحان مغير الأحوال . . فبعد أن كانت الميكروبات تمثل مصدراً للخوف والإزعاج أصبحت تمثل مصدراً للربح والثروة والتقدم والرفاهية . . وبعد أن كانت في نظر الإنسان مصدراً للمرض والموت، أصبحت سلاحاً سرياً يستخدمه الإنسان في الحرب والسلام .

ويرجع ذلك إلى التغير الجذري في مفاهيم الإنسان عن الميكروب بفضل التقدم السريع في مجالات العلوم الحديثة الخاصة بالميكروبات : (. . وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) [سورة النساء] .

إن المفهوم العلمي الحديث عن الميكروب يتجلى في كلمات الراحل (بيرل مان) (1978م) وهو يصف الميكروب بأنه : (خير صديق - لا يكذب ابداً - أعظم ماكينة خلقها الله - خير مثال للصبر والجلد والعطاء - لا يؤذي الإنسان إلا إذا فشل الأخير في التعامل معه - يمكنه بناء أي مادة يريدها الإنسان - خير معلم للإنسان) .

أليس في هذا الوصف ما يزيد إيماننا بقدرة الله في خلق أدنى مخلوقاته ؟

فإذا علمنا أن الميكروب يساعد على وصول دورات الحياة ويخلص الإنسان من فضلاته ولآمه وجثث أحبائه . . ألا يرسخ من إيماننا وعقيدتنا بالله ؟ ألا يدل هذا على أن الله لم يخلق شيئاً عبثاً ؟ وإنما خلق كل شيء لحكمة يعلمها سبحانه : (. . قد جعل الله لكل شيء قدراً) [سورة الطارق] .

يوضح لنا (أرنولد دى مين، 1979م) الدور العظيم للميكروب في مجال الصناعة الميكروبية بقوله: (إن أولئك الذين نجحوا في إجبار الميكروب للعمل في إنتاج مركبات مفيدة، من أجل رفاهية الإنسان،يحق لهم الفخر بمنجزاتهم. . . فمنذ فجر التاريخ استخدم الميكروب في صناعة بعض أنواع الغذاء (مثل: اللبن الزبادي، الجبن الروكفورت، الخبز، الكحول، المخللات، الخل) . . وكذلك في صناعة الأمصال، والمضادات الأحيائية، والأحماض العضوية، والأحماض الأمينية، ومنظمات النمو، ومضادات الطفيليات، ومحسنات الطعم، والهرمونات الجنسية، ومعالجة مياه الصرف الصحي، وتنقية المواد الخام، وكل هذه المعلومات تدل على أننا نجحنا فقط في خدش سطح القوة الميكروبية.

والآن، وبعد أن كانت ـ وربما مازالت ـ كلمة "ميكروب" تعني الشخص الطفيلي الكسول في المجتمع، أصبحنا نرى في ظل العلم الحديث مدى النشاط الهائل للميكروب الذي يثبت براءته من هذه الصفة، حيث إنه لو سمح لخلية بكتيرية واحدة للتكاثر تحت أمثل الظروف، لغطت سطح الأرض جميعاً في ظرف 24 ساعة فقط بارتفاع 30سم.

وهنا يأتي دور التكنولوجيان الحديثة التي تسخر هذا النشاط الميكروبي إلى أعلى مراتب الإستغلال، فمع بداية القرن الحادي والعشرين، وباستخدام المعلومات الحاضرة في مجال الهندسة الوراثية، يمكن الوصول إلى قمة الصناعات في مجال الهندسة البيوكميائية خلال السنوات القادمة، مثل التحول الجذري من الصناعات الكيماوية إلى طاقة الصناعات الميكروبية، التحول الجذري في مجال الطاقة المعتمدة على البترول إلى طاقة معتمدة على الاثيانول الناتج من السليلوز باستخدام الميكروب، التخلي عن الأسمدة التخليقية باستخدام ميكروبات مثبتة للنتيروجين بالتربة، إنتاج بروتين ميكروبي ذي قيمة عالية، القضاء على التلوث الصناعي والبيئي وتهديد السموم الفطرية، اكتشاف نواتج ميكروبية نشطة ضد السرطان وارتفاع ضغط الدم والتهاب المفاصل، المقاومة البيولوجية (1) بدلاً من المبيدات الحشرية الكيماوية . . وأخيراً إنتاج مواد ميكروبية جديدة لم يسمع عنها الإنسان من قبل، ربما تؤدي إلى قيام ثورة علمية تزيد من إيماننا بقدرة الله في خلقه .

ويتضح من هذا كله وجود الكثير أمامنا لعمله من أجل رفاهية الإنسان باستخدام القوى الخارقة التي أودعها الله في الميكروب صديق الإنسان دائماً ، والكائن المجدد لدورات الحياة

.وحتى آخر الزمان . . فلا تستهزيء .عزيزي القارىء .أبداً بقوة الميكروب .أصغر مخلوقات الله .فهو دليل من أدلة إعجاز الخالق في الخلق .

أ .د / مختار صالح عمار

(1) المقاومة البولوجية ترجمة غير دقيقة للمصطلح BIOLOGICAL CONTROL أما الترجمة الصحيحة فهي " المكافحة الأحيائية " (المحرر العلمي) .

.

.

.

0-بركان بومباي وعقاب الله

بقلم الكاتب التركي هارون يحيى

يخبرنا الله في الآيات الآتية أن سنن الله وقوانينه لا تتغير :

)

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً * اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً) (فاطر : 42-43)

نعم (لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً) فكل من يعارض قوانينه ويعلن العصيان عليه ستطبق عليه نفس القوانين السماوية . بومبي (1) "Pompii" ، رمز انحلال الامبراطورية الرومانية، لقد كانت هذه المدينة تمارس ممارسات قوم لوط . . . فكانت نهايتها مشابهة لنهاية قوم لوط .

يقترن بركان فيزوف باسم إيطاليا وخاصة نابولي، بقي هذا البركان هادئاً ألفي سنة، سمي هذا البركان " بجبل النذير " ، ولم يسم كذلك عبثاً ، لقد كانت الكارثة التي دمرت سدوم وغومورا (أسماء قرى قوم لوط) شبيهة جداً بهذه التي دمرت بومبي .

إلى اليمين من فيزوف تقع مدينة نابولي، وإلى الشرق تقع بومبي، بركان ضخم أخذ سكان هذه المدينة بحممه ورماده منذ ألفي سنة، كانت الفاجعة مفاجئة جداً لدرجة أنها أصابتهم وهم يمارسون نشاطهم اليومي . . . في منتصف النهار، وبقيت المدينة على حالها منذ ألفي سنة وحتى يومنا هذا، وكأن الزمان فيها قد توقف .

لم تمح بومبي عن وجه الأرض هكذا دونما سبب، لاشك أن في محوها من الوجود عبر وعظات تشير السجلات التاريخية إلى أن هذه المدينة كانت مركزاً لممارسة الشهوات الشاذة، كانت مشهورة بالبِغاء، لدرجة أنه لم يكن من الممكن عد وإحصاء عدد بيوت الدعارة فيها لم يكن يحصى، كانت الأعضاء الذكرية والعياذ بالله، تعلق على أبواب المواخير بحجمها الطبيعي، وحسب هذه التقاليد التي تعود جذورها إلى الديانة الميثرية (نسبة إلى الإله ميثرا الفارسي) ، فإن الأعضاء الجنسية وحتى الممارسة الجنسية يجب أن تكون على الملأ . . .

إلا أن الحمم البركانية التي أرسلها فيزوف محت المدينة عن سطح الأرض، والمثير في الموضوع هو أنه لم ينجُ أحد من هذه الكارثة بالرغم من الانفجار العظيم الذي أحدثه البركان فيزوف، لقد بدا وكأنهم لم يلحظوا الكارثة، بل كأن المفاجأة قد صعقتهم وأذهلتهم، لقد تحجرت عائلة بكاملها كانت تتناول طعامها تماماً في تلك اللحظة، عدد كبير من الأزواج تحجروا أثناء تزاوجهم . . . كما لوحظ وجود أزواج من نفس الجنس وأزواجاً من فتيان وفتيات في سن مبكرة ! ! بعض الوجوه التي استخرجت من تحت الأرض كانت كاملة لم يصبها البلى، أما التعابير التي ظهرت على الوجوه فقد كانت الذهول المطلق .

وهذا هو الجانب المذهل في الكارثة ! كيف أنتظر الآلاف من الناس أن يفاجئهم الموت دون أن يروا أو يسمعوا شيئا ؟

تفسير ذلك أن اختفاء مدينة بومبي كان شبيهاً بالدمار الذي ذكره القرآن، لأن القرآن يذكر " الإبادة المباغتة" عند رواية مثل هذه الأحداث، ففي سورة يس تقول لنا الآيات أن أهل المدينة ماتوا جملة في دقيقة واحدة :

(إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ) (يس : 29) .

وفي الآية 31 من سورة القمر مرة أخرى نجد تركيزاً على "الإبادة اللحظية" عندما ذكر هلاك ثمود :

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ) (القمر : 31) .

لقد وقع الموت على سكان بومبي تماماً كما جاء في الآيات السابقة .

بالرغم من كل هذا لم يطرأ الكثير من التغيير على منطقة بومبي اليوم، فمناطق الفسق والفجور في نابولي لا تقل عن فسق مدينة بومبي، جزيرة كابري هي القاعدة التي يقيم فيها الشاذون جنسياً والعراة، في الإعلانات التجارية تظهر كابري على أنها "جنة الشاذين" .

وليست كابري الإيطالية هي الوحيدة في العالم، فالانحلال الأخلاقي آخذ بالانتشار، والناس يُصِرُّونَ على عدم الاعتبار من تجارب الأوّلين المخيفة ونهاياتهم المفجعة.

صورة توضح حياة الازدهار والرخاء التي كانت تتمتع بها مدينة بومبي قبل هلاكها

أمثلة أخرى عن الجثث الإنسانية المتحجرة والتي ظهرت في بومبي

الهوامش:

)

---

1) بومبي مدينة رومانية كان يعيش فيها 20.000 نسمة 40% منهم عبيد ,ويقع في المدينة جبل بركان فيزوف الي يرتفع حاليا 1.200 متر . تقع بالقرب من خليج نابلس في إيطاليا , دمرت أثناء الثوران الهائل لبركان فيزوف التي حدثت عام 79 وأدت إلى تدمير بومبي ومدينة هركولانيوم . البركان طمر المدينة بالرماد لمدة 1.600 سنة حت تم أكتشافها في القرن الثامن عشر . بدأ البركان بالثوران في ظهيرة 24 أغسطس عام 79

محدثا سحبا متصاعدة من الدخان كشجرة الصنوبر غطت الشمس وحولت النهار إلى ظلام دامس , حاولا سكان القرية الفرار ولجأو إلى بيوتهم لحمايتهم . ذلك اليوم كان معدا لعيد إله النار عند الرومان , شاهد العيان الوحيد كان بليني الصغير الذي وصف سحب متصاعدة والبركان يقذف نيران هائلة وتساقط رماد سميك وهزات مصاحبة وأرتفاع لمستوى سطح البحر أو مايعرف اليوم ب تسونامي , وتحول النهار إلى ليل معتم في المدينة , وقد قام عمه بليني الأكبر بالتوجه عبر البحر لرصد الظاهرة وتوفي من الغازات المتصاعدة . المدينة فقدت حتى عام 1738 حيث أكتشفت هركولانيوم وفي عام 1748 أكتشفت بومبي . وأكتشف فيها الضحايا موتى في أوضاعهم التي كانوا عليها , وأكتشف طابع المدينة الغني والترف وفترة الإمبراطورية الرومانية والعمارة والحياة الاجتماعية وغيرها .

.

.

.

0-دورة حياة الفيوناريا

Life cycle of Funaria

بقلم الدكتور نظمي خليل أبو العطا

التنوع في الخلق بين الممالك الخمس للكائنات الحية، وآلاف الأجناس (Genera) والأنواع (Specieses) والأصناف (Varaites) تدل دلاله قاطعة على مقدرة الخالق البالغ وإبداعه وتقديره .

ودورة حياة نبات الفيوناريا Funaria التابع للنباتات الحزازية (Bryophyto) من النباتات الأرشيجونية (Archogoniata) التابعة للنباتات اللابذرية غير الوعائية (Seedless monvascular plants) .

(343/744)

ودورة حياته مثالاً للنباتات الحزازية القائمة (Mossersor Musci) .

ـ تبدأ حياة نبات الفيوناريا بسقوط الجراثيم أحادية المجموعة الصبغية (n) على الأرض الرطبة الظليلة لتنبت وينتج فيها طوراً خيطياً مميزاً للحزازيات القائمة يسمى الخيط الأولي (Protonema) البروتونيما الذي يعطي أشباه الجذور (Rhizoids) لأسفل وتعطي النبات المشيجي الأولى Protogametophte)) الذي يفقد صلته بعد ذلك بالخيط الأولي (Protonema) ليعطي النبات المشيجي (

Gametophyte) وهو الطور السائد في دورة الحياة، وهو مميز خارجياً إلى شبه ساق يحمل مجموعة من أشباه الأوراق تتكون من طبقة واحدة لها عرق وسطي مميز وللساق أشباه جذور .

.بعض النباتات المشيجية تحمل أزهار حزازية مذكرة (Male Moss Flower) بها العديد من الأنثريدات (Antheridia) .

.والبعض الآخر يحمل أزهار حزازية مؤنثة (Femal moss flower) تحمل الأرشيجونيات (Archogonium) ذات الشكل الدورقي لها عنق وبطن بداخله الخلية البيضية .

صورة تبين بعض أجزاء من الفوناريا وبعض مراحل حياته

.وبعض النباتات يحمل زهرة حزازية (Moss Flower) بها الأنثريدات والأرشيجونيات بجوار بعضهما .

.عندما تنضج الأنثريدات فإنها تعطي السايحات الذكرية (Spermes) التي تسبح لتصل إلى عنق الأرشيجونة ثم تنتقل إلى بطن الأرشجونة حيث تخصب البويضة (Egg) لتعطي الزيجوت (Zygote) ، الذي ينقسم بعد ذلك ليعطي الجنيف (Emberyo) الذي ينمو ليعطي النبات الجرثومي الصغير (Young sporophyte) الذي ينمو ليعطي الطور الجرثومي (Sporophyte) الذي ينضج لعطي الطور الجرثومي الناجح (Sporophyte rotare) المكون من قدم (Foot) متصل بالنبات المشيجي وحامل طويل (Seta) ينتهي بالعلبة (Copsule) أو الحافظة الجرثومية (Sporongium) ذات الغطاء (Operculum) والأسنلن البيرستومية (Peristome teeth) وبداخلها الجراثيم أحادية المجموعة الصبغية التي تسقط باندفاعها للخارج بواسطة الأسنان البيريستومية والغطاء والطوق (Annuls) .

.عندما تسقط الجراثيم في البيئة المناسبة فإنها تنبت ليعطي طور البروتونيما (Protonema) الخيطي وتعاد دورة الحياة .

.ويلاحظ هنا وجود آلية لانتشار الجراثيم .

.وأن النبات الجرثومي يعتمد على النبات الجرثومي في الغذاء مع استقلالية جزئية .

.وهذا النبات يؤكد التقدير والحكمة في الخلق كالنبات السابقة له .

دورة التكاثر

المراجع :

http : //www.bio.utexas.edu

.

.

.

0-هدم نظرية التطور في عشرين سؤالا

بقلم هارون يحيى

محتويات الكتاب

مقدمة

1 لماذا لا تعتبر نظرية التطور نظرية صحيحة من الناحية العلمية ؟

2 كيف يثبت انهيار نظرية التطور حقيقة الخلق ؟

3 إلى أي مدى تمتد آثار الإنسان ؟ ولماذا لا تدعم هذه الآثار نظرية التطور ؟

4 لماذا لا تعد نظرية التطور "الأساس لعلم الأحياء" ؟

5 لماذا لا يعد وجود أجناس مختلفة دليلا على نظرية التطور ؟

6 لماذا يعد الادعاء بوجود تشابه بين جينوم البشر وجينوم القردة بنسبة 99 في المائة وبأن هذا يؤكد نظرية التطور ادعاءً خاطئًا ؟

(345/744)

---

7 لماذا يعد الادعاء بأن الدينا صورات تطورت إلى طيور خرافة غير علمية ؟

8 إلى أي تزييف علمي تستند خرافة أن "للأجنة البشرية خياشيم" ؟

9 لماذا يعد وصف الاستنساخ بأنه "دليل على التطور" ضربا من الخداع ؟

10 هل يمكن أن تكون الحياة قد أتت من الفضاء الخارجي ؟

11 لماذا لا تدعم حقيقة أن عمر الأرض أربعة ملايين سنة نظرية التطور ؟

12 لماذا لا تعد ضروس العقل دليلا على التطور ؟

13 كيف تقوض التراكيب المعقدة الموجودة في أقدم الكائنات نظرية التطور ؟

14 لماذا يُصوَّر رفض نظرية التطور وكأنه نبذ للتطور والتقدم ؟

15 ما هو الخطأ في الاعتقاد بأن من الممكن أن يكون الله قد خلق الكائنات الحية بواسطة التطور ؟

16 ما هو الخطأ في الاعتقاد بأن التطور يمكن أن يتأكد في المستقبل ؟

17 لماذا لا يعد تحول الشكل دليلا على التطور ؟

18 لماذا يستحيل تفسير جزيء (د ن أ) بواسطة المصادفة ؟

19 لماذا لا تعتبر المقاومة البكتيرية للمضادات الحيوية مثالا على التطور ؟

20 ما هو نوع العلاقة بين الخلق والعلم ؟

الهوامش

حمل الكتاب مجاناً

لتحميل الكتاب على شكل ملف ورد

لتحميل الكتاب على شكل ملف ورد مضغوط

.

.

.

0-دورة حياة فطر عفن الخبز الأسود

Live cycle of black bread mold

بقلم الدكتور نظمي خليل أبو العطا

فطر عفن الخبز الأسود Rhizopus nigricans من الأعفان المشهورة في حياة

البشرية (1)

وهو يتكاثر بنوعين من التكاثر، التكاثر اللاجنسي (Asexual reproduction) بالجراثيم (Spors) أحادية المجموعة الصبغية (n) ، الناتجة من الحافظة الجرثومية (Sporangiam) ويتكاثر بالتكاثر الجنسي (Sexual reproduction) بالجراثيك الناتجة عن الحافظة الجرثومية (Sporangia) المتكونة عن اتحاد خيطين (+) ، (–) بالتكاثر الجنسي التزاوجي .

(346/744)

.وتبدأ دورة الحياة بسقوط الجراثيم أحادية المجموعة الصبغية الناتجة من الحافظة الجرثومية بعد الانقسام الاختزالي أولاً ثم الانقسام غير الاختزالي .

صورة لعفن الخبز الأسود أثناء عملية الإنشطار أو التكاثر اللاجنسي

.عندما تسقط الجرثومة على الخبز المندى أو الأرز المندى فإنها تنبت لتعطي الخيط الفطري (Mycelleun) أو الغزل الفطري الدقيق أبيض الشكل الذي يحلل المادة الغذائية بالأنزيمات المحللة التي ينتجها خارج الخيط فينمو الفطر إلى أن يغطي المنطقة المتاحة

والملائمة لنموه من الخبز ويرسل الغزل الفطري أشباه جذور Rhyzoids داخل الوسط الغذائي ثم يخرج لأعلى العديد من الخيوط الرأسية التي تنتهي بعد ذلك بحافظة جرثومية (Sporangia) لتسمى الخيوط الرأسية بسببها بالحامل الحافظي (Sporangiophore) .

.وعندما يقترب الغذاء على النفاد والجراثيم على النضوج يتحول اللون إلى اللون الأسود .

ثم يلتقي خيطان أحدهما (+) والثاني (-) ناتجان من جرثومتان مختلفتان ليتم التزاوج بينهما واندماج أنبوبتهما ليعطيا الجرثومة الزيجوية (Zygospores) التي تظل كامنة ومقاومة للعوامل القاسية الخارجية إلى أن تحين الظروف المناسبة فتنقسم داخلياً انقسامات أولها اختزالياً وتنبت لتعطي الحامل الحافظي (Sporangio phore) الذي يحمل الحافظة الجرثومية Sporangia

التي تعطي آلاف الجراثيم التي تخرج بتمزيق جدار الحافظة نتيجة ضغط العويميد (Collumella) على الجراثيم فتنتشر في الهواء لتطير لخفتها إلى مسافات بعيدة حيث الرزق والمادة دورة الحياة .

صورة تبين دورة حياة فطر عفن الخبز الأسود حيث توضح الصورة عمليات التكاثر الجنسية واللاجنسية

.فمن علم هذه القطرة الضعيفة غير العاقلة كل هذه العمليات الحيوية المعجزة والمعقدة ؟ّ .

.ومن أعطاها الإذن بالإنبات على الخبو المندي، والإنبات ؟ّ

.ومن وهبها الأنزيمات المتخصصة المحللة للخبز ؟ !

(347/744)

.ومن أعطاها الأنزيمات والخصائص المنتجة للأحماض العضوية التي تنتجها .

.ومن حول لها هذا الكربون والدهن والبروتين إلى خلايا فطرية وسيتوبلازم حي وتراكيب تكاثرية ؟ !

.ومن أمر الخيطين (+) ، (–) بالندماج والتزاوج، والانقسام ؟ !

إن هذه العمليات التي تتم على قطعة الخبز في آنية متروكة في بعض الأماكن الرطبة الدافئة تعجز كل مختبرات الدنيا عن إتمامها .

فأين المختبر الذي يحول النشاء إلى بروتين، ودهن، وفيتامينات، وأحماض عضوية، ومضادات للحيوية بعيداً عن الخلاية الحية ؟ !

.وأين من يستطيع إنبات جرثومة ,إنمائها لتملأ المكان بغزلها (خيطها) الفطري وجراثيمها ومنتجاتها .

.ولماذا تعطي جرثومة عفن الخبز، فطر عفن الخبز بخصائصه المعلومة ولا تعطي فطراً آخر ؟ ! .

.ومن حفظ الصفات الوراثية لهذا الكائن وكتبها على جهازه الوراثي الدقيق ؟ !

إنها أسئلة تقدح العقل العلم وتجعله في حيرة من أمره إن لم يعلم أن لهذا الكون خالق لكل شيء ومقدره، قال تعالى :) وخلق كل شيء فقدره تقديراً ([الفرقان : 2] .

(1) . انظر كتابنا الأعفان في خدمة الإنسان، وموضوع الأعفان في خدمة الإنسان معجزة علمية .

.

.

.

0-النخل عطاء بلا حدود

بقلم : علاء الدين حسن

هبَّت نسمة من هواء الصحراء القوي على مجموعة من نخيل، فأخذت تتمايل يمنة ويسرة تهز ضفائرها في طرب، ومالت نخلة برأسها على زميلة لها ، تسرّ لها بكلمات كحفيف لا يمكن تبيّن معناه، ولكن زميلتها سمعته وفهمته؛ فأبعدت رأسها بسرعة معاتبة وهي ترسل

أصواتاً رقيقة مرحة، بينما انهمكت أسرة مترابطة من الأشجار في رقصة مبتكرة . .

أسرار كالبحر

(348/744)

إنها رمز للحياة، وأوّل القاطنين على الأرض، استضافت الإنسان وأعطته مفردات اللغة . . حياتها سكينة وهدوء، ولها سحرها الأخّاذ، تنمو بصمت، ولا تموت إلا بعد عمر مديد . . النظر إليها اطمئنان، والبعد عنها مكابدة، خضرتها تمنح الصفاء والنقاء، والوفاء والهناء . . أسرارها كالبحر زاخرة بوابل الحكمة والمعرفة، وما أدركنا روعة الألوان إلا بها . . لها معانٍ بعيدة لم يُكشَف بعد إلا طلائعها . . هي صديقة الغيث، وهي شفاء . . وإنه لفرق كبير بين أن يرى أحدنا نفسه في صحراء تلفُّها الأعاصير ولا تحيط بها إلا الأودية الشاحبة، وبين أن يرى نفسه في رياض نضرة ملأى بأشجار باسقات واخضرار كالموج ينساب .

والتشجير عبادة يثاب عليها الإنسان . . ولو قامت القيامة وفي يد الإنسان فسيلة ـ كما في الحديث ـ فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليفعل .

أشجارنا هي نعمة فلنحمها هذا العطاء الزاهر الوضاء

أبداً هي الأشجار ظلٌّ وارفٌ نُعمى تجمّل أرضنا وغذاء

وكان من وصية السابقين للمجاهدين : "لا تقطعوا شجراً " . فالشجر يسجد لله وينقاد لعظمته : (والنجم والشجر يسجدان) . الرحمن / 6 . والنجم هنا هو النبات الصغير الذي لا ساق له . وقال تعالى : (هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون %ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إنّ في ذلك لآية لقوم يتفكرون) . النحل / 10 - 11 . وتمت بيعة الرضوان تحت الشجرة، ووصفت شجرة الزيتون في القرآن بالبركة .

باسقة في علياء السماء

وهنا نقف عند تلك الشجرة الباسقة في علياء السماء، الضاربة بجذورها في عمق الأرض . . نقف عند الشجرة التي حنَّ جذعها إلى الرسول الله صلى الله عليه وسلم لما فارقه حين صُنِعَ له المِنبر، الشجرة المثلى في عطائها واستقامتها ودوام ظلها وطيب ثمرها ووجوده على الدوام .

(349/744)

يقول ابن القيم [رحمه الله] عن ثمرها بأنه من أكثر الثمار تغذية للبدن . . هو فاكهة وغذاء ودواء وشراب . وفي الحديث : ((بيت لا تمر فيه جياع أهله)) . وفي رواية البخاري : ((من تصبَّح بسبع تمرات، لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر)) . وذلك ببركة دعوة النبي [صلى الله عليه وسلم] لتمر المدينة، فالذي يتصبح بسبع تمرات إيماناً وتصديقاً، فإن يقينه يزيده توكلاً على الله، وبذلك تقوى معنوياته الجسدية والنفسية، فلا يبقى مجال للوساوس والمخاوف وحدوث سحر أو دس سم من قِبَل عدو يكيد له؛ لأن من شروط انتفاع المريض بالدواء اعتقاده النفع به .

وجاء الحثّ على الإفطار على التمر : ((إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر؛ فإنه بركة، فإن لم يجد تمراً فالماء)) . فالتمر يُمتَص في فترة قصيرة جداً؛ ليعوض الدم عن نقص السكر . وكان الرسول الكريم يمكث ثلاثة أهلّة في شهرين وطعامه وطعام أهل بيته : التمر والماء .

ومعروف أنه كان أكمل الناس في الخلق والخليقة والصحة والعافية .

وبالوقوف على ما طالعنا العلم الحديث عن مخازن الغذاء في التمر؛ لن نستغرب كيف كانت جيوشنا تفتح الأمصار بجنود لا يقتاتون إلا بضع تمرات .

تأريخ يتحدث :

يمتد موطن النخيل من غرب إفريقيا حتى حوض السند ، ومن تلك المناطق انتشر النخيل

إلى الهند والشرق الأقصى، وثمة آراء تفيد بأن الخليج العربي هو الموطن الأصلي الذي نشأ فيه النخيل .

وتعود زراعة النخيل إلى أكثر من عشرة آلاف عام، وأهم البلاد التي تعنى بزراعة النخيل : العراق والسعودية ومصر وإيران والجزائر والمغرب . . حيث تنتج هذه البلاد 85% من الإنتاج العالمي .

ويتوقف نجاح زراعة النخيل على كمية الماء المقدمة له، وتتمثل عملية الري حديثاً بالنافورات، أما السماد فتتوقف كميته على نوع التربة وعمر الأشجار .

(350/744)

ويتكاثر النخيل إما بواسطة البذور، وإما بواسطة الشتلات التي يتم اختيارها عادة من أفضل الأصناف، على أن لا تقل المسافة بين الواحدة والأخرى عن مترين . . وتأتي الأمطار رحمة من الله سبحانه؛ لتكون كفيلة بغسل النخيل ورفع البلاء عنه .

أنسنة النخلة

النخلة مستقيمة معتدلة تماماً كالإنسان، إذا قُطع رأسها ماتت، وتتأثر بموت من جاورها، وكذلك بموت زارعها، وهي تعشق كرام الناس، وتعوِّض بأكثر مما يكرمها الإنسان، لها

قبائل وأصلها واحد ، وثمرها مختلف في الطعم واللون، تعبّرِ عن الضيق والعطش، وتعيش عمراً كعمر الإنسان .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي) . فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله : ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله ؟ قال : (هي النخل) متفق عليه .

ولقد قيل :

كن كالنخيل عن الأحقاد مرتفعاً يُرمى بصخرٍ فيعطي أطيب الثمرِ

من أوجه المقاربة

النخيل من أطول الأشجار ، والجمل من الحيوانات الكبيرة، والنخيل من أرقى النباتات، والجمل من أرقى الحيوانات، وكلاهما ذو منظر جميل :]والنخلَ باسقات لها طلع نضيد [. ق / 10 . وتظهر الأزهار في أشجار النخيل حوالي السنة الخامسة، وهي السنّ نفسها التي تبدأ الناقة فيها بالإنتاج، ويشترك النخيل والإبل في بيئة تقاوم الحرارة والملوحة . ولا تزهر شجرة النخيل إلا إذا تجاوزت الحرارة 18 %، وترتبط زراعتها بتوفر مائي جيد ، فهي تحتاج حوالي 170 م3 من الماء كل عام .

في الشعر العربي

تثير النخلة في النفس شجوناً وذكريات، فقد رويت عن عبد الرحمن الداخل " صقر قريش " أبيات شجية أثارتها نخلة حديقة قصره بالرصافة :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخلِ

فقلت شبيهي بالتغرب والنوى وطول التنائي عن بني وعن أهلي

ويصف ابن الرومي التمر فيقول :

(351/744)

ألذّ من السلوى وأحلى من المنّ وأعذب من وصل الحبيب على الصدّ

وفي الشعر الجاهلي علاقة وثيقة بين النخلة والناقة والخيل والمرأة في صور تفرض نفسها على الخيال الواقعي؛ فالنخل توغل جذورها في الأرض، وتطاول بقاماتها قمم الجبال، تهب عليها الريح فتنجذب الفروع إلى الفروع، ويتشابك السعف والجريد ، ومن كثافتها كأنها ذوائب الجواري المهفهفة في مهب الريح .

ومما قاله المعري :

شربنا ماء دجلة خير ماء وزرنا أشرف الشجر النخيلا

وقود أولى

إن التمر غني بسكر العنب والفاكهة والقصب، ونسبتها 75 %، وهو بذلك وقود من الدرجة الأولى . وثبت أن جسم الإنسان لا يستغني عن المواد السكرية كمبعث للطاقة . وينصح الأطباء بالإفطار على التمر امتثالاً لهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يقتصر على تمرات أو شيء من الماء ، يقوم بعد ذلك إلى الصلاة ليعود لتناول طعام خفيف . ولو امتثلنا هذا الهدي الحكيم لحققنا البعد الطبي في حديث رسول الله : ((صوموا تصحّوا)) .

ومن فوائد السكر الموجود في التمر :

_ منح النشاط والرشاقة، وتنقية الرئة، وتقوية البصر، وحفظ الصحة .

_ تأخير مظاهر الشيخوخة والحفاظ على جهاز التنفس .

_ الوقاية من الوهن العام وأمراض الجلد ، وتقوية الذاكرة والأعصاب .

_ منح السكينة والهدوء : (وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا . فكلي واشربي وقرّي عينا) . مريم : 24- 25 .

ارتفاع الضغط

ارتفاع ضغط الدم مرض شائع جداً ، وقد ثبت أنه ينبغي على المصابين به أن يخففوا كثيراً من تناول الملح، وعلى العكس من ذلك فإن الأغذية الغنية بالبوتاسيوم تفيد في الوقاية من ارتفاع ضغط الدم ومعالجته .

ويؤكد الأطباء أن هذا الإجراء وحده كافٍ للشفاء . . وثبت من خلال البحث في تركيب الملح من قِبَل المختصين أنه غذاء مناسب للمصابين بارتفاع ضغط الدم، فهو فقير بالصوديوم، غني بالبوتاسيوم والمغنزيوم، وهذه عوامل تتضافر على خفض ضغط الدم المرتفع .

(352/744)

ويؤكد الأطباء أن التمر لا داء فيه، ولا تعيش فيه الجراثيم، وهذا مصداق الحديث : ((التمر يذهب الداء، ولا داء فيه)) .

و بعد :

انظر لتلك الشجرة ذات الغصون النضرة

كيف نمت من حبة وكيف صارت شجرة

فابحث وقل من ذا الذي يخرج منها الثمرة

و انظر إلى الغيم فمن أنزل منه مطره

فصيَّر الأرض به بعد اصفرار خضره

ذاك هو الله الذي أنعمه منهمره

ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدره

والأشجار تعطي كل يوم آلاف الأطنان من الأوكسجين، وتحافظ على الرطوبة، وتحفظ التربة من الانجراف، وتخفف من سرعة الريح وارتفاع الحرارة، وتعطي الفحم والحطب والخشب، ولها قيمة جمالية وترفيهية هامة، ولها دعاء تقول فيه :

رويدك يا من ترفع فأسك لتهوي به عليَّ فتقتلني . . استمع إليَّ قبل أن تؤذيني فأنا ظلك الظليل في أيام الشمس المحرقة، وأنا أساس بيتك، وباب دارك، ومسند ظهرك . . أنا قلمك الذي به تكتب، وقاربك الذي به تبحر . . أنا شجر الفاكهة التي منها تأكل، وأنا أدويتك التي بها تشفى . . أنا زهرة البستان . . أنا البهجة والسرور .

المراجع

1 _ روائع الطب الإسلامي –د . محمد نزار الدقر –الجزء الأول .

2 .الإعجاز العلمي في القرآن –سامي علي .

3_ الأغذية في القرآن –رافدة الحريري .

4_ ثمرة مباركة –علاء الدين حسن –مجلة الحرس –رمضان 1420 هـ .

5– حكمة الإفطار على التمر –صلاح شهاب الدين –مجلة الفيصل –العدد 279 .

6– بين النخيل والإبل –كمال خليفة –مجلة القافلة –شوال 1418 .

7– كيف تعيش النخلة ؟ –د . عطا الله أحمد –المجلة العربية –ربيع الأول 1406 .

8 – الشجرة ودورها البيئي –مروان شيخو –مجلة نهج الإسلام –ذو الحجة 1420 .

9 –النخلة بين الشعر والأسطورة –مصطفى سليمان –مجلة الكويت –العدد 103 .

10–أسرار جديدة للتمر –سيد عثمان "حديث الجمعة" 14 جمادى الآخرة 1412 .

11–التمر أول طعام الصائمين –دون اسم –صحيفة الرياض –1 رمضان 1421 .

(353/744)

12–أهمية زراعة النخيل –غصوب عبود –صحيفة الثورة ا 25/ 6/ 2000 .

* علاء الدين حسن – مدرِّس وكاتب إسلامي –

البريد الإلكتروني : ala – h @ scs – net . org

سوريا –الحسكة_ص . ب 197

فاكس : 227475

هاتف : 092577262

.

.

.

0–محدودية حواس الإنسان

أ . د . / عبد الباسط محمد سيد

يتميز الإنسان عن غيره، ليس بغرائزه، ولا بحاجاته العضوية ولا بقدراته البدنية، ولكن بما فيه من (روح) وهو هدف دائم للغزو من أصغر الكائنات على الأرض من بكتريا وفيروسات وطفيليات، كما أنه لقمة سائغة للشرس من الوحوش والأسماك .

الإنسان جسد ضعيف محدود القدرات والإمكانيات، حواسه مقيدة محدودة، ولكنه مع كل ذلك استطاع أن يصبح بآلاته أقوى المخلوقات وأسرع المخلوقات وأحدها بصراً وأقواها سمعاً تحملاً وأبعدها انطلاقاً ، كل حيوان تقيده إمكانياته البدنية، فهذا يعيش في الصحراء وذاك في الماء وآخر في الهواء ، ولكن الإنسان أصبح يوجد في كل مكان من الأرض بما آتاه الله من إمكانيات حين نفخ فيه من روحه) فتبارك الله أحسن الخالقين ([آية 14 / سورة المؤمنون] .

فالإنسان ذو بصر محدود ، إذ لا يمكنه الرؤية إلا في حدود مكونات الضوء الأبيض وهي الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي والبنفسجي، وما ينتج عن اختلاطها ببعضها من ألوان متعددة، أما ما تعدى حدود ذلك من موجات ضوئية فلا

يستطيع الإنسان أن يميزها ، فالأشعة تحت الحمراء والأشعة فوق البنفسجية والأشعة السينية (أشعة إكس) وأشعة جاما وغيرها لا تدركها العين البشرية، بينما تستطيع بعض الطيور والحيوانات أن ترى الأشياء عن طريق الأشعة تحت الحمراء مثلاً، مما يمنحها القدرة على الرؤية في الظلام الدامس .

(354/744)

مما لا يتوفر للإنسان، فالبومة والصقر والحصان مثلاً كل منهم يستطيع تمييز الأشياء في الظلام، فترى البومة الحشرات والحيوانات الصغيرة في ظلمة الليل بسهولة ويسر، ويستطيع الحصان أن يسير في ظلمة الليل ملتزماً طريقه، بينما يتمتع الصقر ببصر تلسكوبي حاد يمكنه من تمييز هدفه بين الأعشاب على بعد مئات الأمتار، بينما ترى نحلة العسل الأزهار بالضوء فوق البنفسجي مما يجعلها أكثر جمالاً وأزهى ألواناً في نظرها .

والإنسان وإن كان له عينان فقط إلا أن كل عين تستقبل صور الأشياء بواسطة عدد كبير من الخلايا المتخصصة، والتي تأخذ الشكل المخروطي أو الشكل العصوي، إذ لا تحتوي العين البشرية الواحدة على حوالي مئة وخمس وعشرين مليوناً من الخلايا العصوية (rods) بالإضافة إلى حوالي ستة ملايين من الخلايا المخروطية (cones) وهي خلايا مهيأة

لاستقبال الضوء في حدود موجات الضوء وفي حدود ضيقة من قوة الإضاءة.

وبالمقارنة بالحيوانات والحشرات والطيور فإن المعروف أن عدد عيون الحيوانات تتراوح بين عينين إلى عدة آلاف، فالعنكبوت مثلاً له ثمانية عيون، ومع ذلك فبصره ضعيف جداً بالنسبة لغيره.

أما الثعبان: فله عينان قصيرتا النظر تحتوي كل عين منهما على عدسة جامدة تتحرك للأمام أو للخلف لتركيز الصورة على شبكة العين، بينما تتركب عين الحشرة المسماة بالرعاش من خمس وعشرين ألف عدسة، وهكذا تتفاوت حدة النظر وإمكانيات كل حيوان بقدر ما أودع الخالق سبحانه وتعالى في تركيبه من إمكانيات، ويقف الإنسان بينها موقفاً وسطاً فلا هو بأحدها بصراً ولا هو بأضعفها بصراً، ولكن إمكانياته في هذا المجال تتناسب تماماً مع احتياجاته وتلائم قدراته الأخرى.

(355/744)

وأما بالنسبة للسمع فإن الأذن البشرية ذات إمكانيات محدودة، حيث لا تستطيع الأذن البشرية تمييز الأصوات ذات التردد أو الذبذبات التي تقل عن حوالي عشرين ذبذبة في الثانية، أو التي تزيد عن حوالي عشرين ألف ذبذبة في الثانية، كما أن قوة الصوت أو شدته

تؤثر تأثيراً ضاراً على أذن الإنسان إذا تعدت حدوداً معينة .

ولذلك : فإن كثيراً من العاملين في مجالات ذات درجة ضوضاء عالية وبعض الموسيقيين يصابون بالصمم نتيجة تعرضهم للأصوات الشديدة لفترة طويلة .

وتستطيع معظم الحيوانات أن تسمع الأصوات التي يكون كثير منها خارج المدى المسموع بواسطة الأذن البشرية، فالكلب مثلاً يستطيع أن يسمع الأصوات ذات التردد المنخفض بواسطة أجزاء حساسة عند الخطوط الجانبية من جسمه، وتستطيع الأسماك في الأحواض الزجاجية أن تسمع صدى حركتها منعكساً على زجاج الحوض فلا ترتطم به .

كما تتميز الطيور عموماً بسمع حاد قوي، أما الخفاش فلديه قدرة خاصة على استقبال الموجات الصوتية ذات الترددات العالية (ultrasounds) بواسطة أذنيه الكبيرتين، واللتين تتحركان في مختلف الاتجاهات بصورة مستمرة كأنها جهاز رادار يبحث عن تلك الموجات الصوتية .

فالخفاش لا يرى ولكنه يصدر أصواتاً ذات ترددات عالية (تصطدم) بكافة الأجسام من حوله ثم ترتد فيستقبلها بأذنيه، ويحدد بذلك أماكن الأجسام من حوله وأبعادها واتجاه حركتها وموقعه منها ، مما يعتبر جهاز للاستشعار فائق الحساسية يمكن الخفاش من الطيران بسرعة في كل اتجاه دون أن يصطدم بشيء ودون الحاجة إلى ضوء يسترشد به .

وحين اهتدى الإنسان إلى هذا السر الذي أودعه الخالق سبحانه وتعالى في الخفاش، كان

ذلك فتحاً علمياً كبيراً، وطفرة في عالم الصوتيات وتطبيقاتها المختلفة في السلم والحرب، فقد أدى إلى اكتشاف الرادار تقليداً ومحاكاة لذلك المخلوق الصغير الذي يعتبر كغيره آية من آيات الله سبحانه وتعالى في خلقه.

(356/744)

وتقف تلك القدرات العجيبة للبصر والسمع بجانب غيرها من القوى غير المعروفة لدينا وراء تلك القدرات العجيبة لكثير من الطيور والحشرات والحيوانات على الاتصال والحركة والهجرة والاستدلال على المواطن، مما تعجز قوى الإنسان عنه.

فالحمام الزاجل لا يضل طريقه ليلاً أو نهاراً، ولو ذهبنا به بعيداً عن موطنه مئات الأميال فإنه يعود إلى مكانه الأصلي بدقة متناهية، وهي قدرة كان لها من الأهمية درجة كبيرة كوسيلة للاتصال قديماً وحديثاً، وها هي الطيور المهاجرة لآلاف الأميال تعبر خلالها السهول والجبال والبحار وتقطع القارات ذهاباً وإياباً دون أن تضل طريقها أو تحيد عنه، وتستطيع النحلة أن تجد خليتها مهما طمستها الرياح في هبوبها وأخفتها الأتربة بين الأعشاب.

أما رحلة ثعبان الماء فهي من الغرابة بمكان، وذلك: أن ثعابين الماء تنطلق في رحلة تقدر

أحياناً بالآلاف الأميال، منطلقة من كل بحار العالم إلى مكان تجمعها في جنوب برمودا، حيث تغوص إلى الأعماق السحيقة هناك وتتكاثر وتنطلق صغارها عائدة إلى نفس الموطن الأصلي لأمهاتها، فلا الثعبان الأمريكي يعود إلى غير أمريكا، ولا الأوروبي إلى غير أوروبا، ولا تضل الثعابين الكبيرة أو الصغيرة طريقها في رحلة الذهاب أو العودة.

إنها ملاحية إلهية وهدى من الله لتلك المخلوقات العجيبة وآية من آياته التي لا تعد ولا تحصى.

إن أسماك السلمون الصغيرة تمضي سنوات في البحر ثم تعود كل منها إلى النهر الخاص بها، حتى إنها تصعد جانب النهر الذي يصب عند النهير الذي ولدت فيه، وإذا انتقلت إلى نهير آخر فإنها تشق طريقها ضد التيار قاصدة موطنها الأصلي.

(357/744)

هناك نوع من أنواع السلمون يدعوا سلمون المحيط يفقس في جداولِ الماء العذبِ ثم يهاجر إلى المحيطِ للنُضُوج. بعد أن ينضج، يَعُودونَ إلى موطنهم الأصلي في رحلة طويلة تمد مئات وربما آلاف الأميال ليقوموا بوضع البيوض ثم يموتون بعد ذلك، صورة لأحد أسماك السلمون وهو يسبح بعكس أتجاه النهر ليعود إلى موطنه الأصلي.

كما أن وسائل الاتصال بين الحيوانات والطيور وغيرها معددة وكثير منها حار الإنسان في فهمه وإدراك أسراره، فذكر الفراشة يستطيع أن يميزها وأن يجيبها من مسافات طويلة بطريقة لا نعرفها ، وعندما تحرك حشرة (النطيط) الأمريكية ساقيها فيحتكان ببعضهما أو حين تحك جناحيها معاً فإن رفيقها يستجيب لها من مسافات تصل إلى نصف الميل .

إنها تهز (آلاف الأطنان) من الهواء ليصل نداءها إلى رفيقها .

إنها قدرات خارقة أودعها الخالق في مخلوقاته، وشاءت قدرته أن نطلع على أنواع منها لندرك عظمته وجلات خلقه، ولنعلم موقعنا بين المخلوقات، ولندرك فضل الله علينا إذ جعلنا خلفاء الأرض .

وقد يتميز الإنسان على كثير من مخلوقات الأرض ببعض قدراته، إلا أن الكثير منها يفوق الإنسان في نواحي عديدة فالإنسان القوي قد يستطيع أن يحمل ما يعادل وزنه مثلاً، إلا أنه لا يقارن بقوة النملة مثلاً والتي تستطيع أن تحمل ما يوازي وزنها خمساً وعشرين مرة .

فتخيل إنساناً وزنه ثمانون كيلو جراماً يحمل ما وزنه ألفان من الكيلو جرامات ! ! .

لا شك إن ذلك لم يحدث ولن يحدث .

وقال : إن العنكبوت لو كان في حجم الإنسان لاستطاع أن يحمل حوالي ستين طناً وحده دون مساعدة .

ولا تسل عن قوة الحيوانات الأكبر حجماً من الإنسان، فالفيل العادي تعادل قوته مئة

وخمسين رجلاً أو يزيد .

فالإنسان بذلك ليس أقوى من المخلوقات ولا يعد من بين الأقوياء فيها .

(358/744)

كذلك فليس الإنسان من أكثر المخلوقات تحملاً لظروف البيئة أو غيرها ، فالإنسان لا يتحمل الجوع أو العطش إلا أياماً معدود بعدها ، كما أنه لا يصمد للتغيرات الشديدة في درجات حرارة الجو المحيط به، وبالمقارنة بمخلوقات الأرض الأخرى .

نرى أن الكثير من الحيوانات في المناطق الباردة تظل أشهراً مدفونة تحت الثلوج فيما يعرف بالبيات الشتوي تعود بعده إلى سابق نشاطها وحيويتها ، كما يستطيع الجمل أن يقاوم العطش ويتحمله أسابيع طويلة، ويمكن أن يظل الحصان أسابيع بدون طعام، كما يعيش العنكبوت ما يقرب من العام بدون طعام، بل إن مقدرة الإنسان على أن يستعيض ما يفقد من خلاياه محدودة جداً ومقصورة على الجروح البسيطة والتئام الكسور ولكن جسم الإنسان إذا فقد جزءاً من إصبعه أو عضواً من أعضائه فلا يمكنه استعاضته بالمرة، بينما يستطيع البرص مثلاً حين يفقد ذيله أن ينمو له ذيل غيره وبسرعة، وهي ظاهرة تتميز بها السحالي عموماً ، كما تسارع دودة الأرض بصنع رأس لها إذا قطع رأسها ، وإذا قطعت

الدودة إلى نصفين .

عندما يحل الشتاء تلجأ الدببة الأمريكية السوداء إلى بعض الكهوف والجحور ويذهب إلى عملية نور طويلة تسمى بالسبات حيث يحصل على الطاقة من حرق الدهن المخزون في أجسادهم

فإن كل نصف منهما ينمو ليصبح دودة كاملة ! ! ويستطيع سرطان البحر عند فقد أحد مخالبه أن ينشط خلاياه ليتم استعاضة المخلب المفقود بآخر جديد في نفس مكانه وله نفس تركيبته، وهي كلها وغيرها قدرات يفتقدها الجسم البشري .

(359/744)

ورغم إمكانيات الإنسان وما يفعل لتنميتها بالرياضة والتدريب إلا أنها تظل محدودة وإن بدت لنا متطورة ومتميزة . فما وصل إليه الإنسان من سرعة في الجري، كما تدل مسابقات المائة متر وكسر حاجز العشر ثوان فيها ، فإنها لا تقارن بسرعة النمر، الأمريكي التي تصل إلى ثمانين كيلو متراً في الساعة، أو إلى سرعة الصقر المنقض من السماء على فريسته والتي تصل إلى ثلاث مئة وثمانين كيلو متراً في الساعة، بل إن ما وصل إليه الإنسان من أرقام قياسية في القفز لا يمكن مقارنتها بقفزة بعض أنواع الضفادع التي تستطيع القفز مسافة عشرة

أمتار أي : حوالي طولها مئة مرة، فتخيل إنساناً يستطيع أن يحقق قفزة طويلة طولها مئة وخمسون متراً، ناهيك عما تقوم به بعض الحشرات مثل الجراد والحشرات الصغيرة كالبراغيث من قفزات عملاقة بالنسبة لطولها وحجمها .

لقد أودع الله تعالى في الفيل قوة قد تعادل قوة أكثر من قوة مئة رجل

وقد يمكن مقارنة مقدرة الإنسان على التكاثر بمقدرة بعض الثدييات، مثل البقرة التي تستمر مدة الحمل عندها حوالي واحد وأربعين أسبوعاً، أو الفرسة حيث تستمر مدة الحمل عندها ثمانية وأربعين أسبوعاً، أو بأنثى الحوت أو أنثى الفيل حيث تطول تلك المدة إلى حوالي عشرين شهراً لتضع كل منها مولوداً في العادة .

إلا أن معظم الحيوانات والطيور والحشرات لها قدرة أكبر بكثير جداً على التكاثر حيث تقصر لديها مدة الحمل، ويزداد عدد المواليد أو البويضات، فمدة الحمل مثلاً عند الفأرة ثلاثة أسابيع فقط، وعند الأرنبة شهر واحد، وعند القطة حوالي شهرين، وكذلك عند الكلبة، وكل منها تضع أكثر من مولود في كل مرة .

أما في الكائنات الأصغر فالأصغر فإن الصورة تختلف تماماً حيث تضع تلك الكائنات آلاف البويضات يومياً، ولو تركت حرة التكاثر لغطت سطح الأرض في بضعة أيام .

إن الدودة المدورة كمثال تضع بضعة آلاف بيضة يومياً .

بينما تضع الأسماك ملايين من البويضات كل مرة، ولكنها مع ذلك لم تتكاثر بالدرجة التي تغطي على غيرها وتغير من توازن المخلوقات على الأرض .

ورغم قوة تحمل الكثير من المخلوقات وقدرتها على التكاثر والتحمل بدرجات تفوق إمكانيات البشر، فإن وجودها على الأرض لم يتفوق على الوجود البشري، ورغم ضخامة الكثير منها وطول أعمارها إلا أن السيادة للإنسان منذ أن انتقلت إليه بنزوله إلى الأرض لخلافتها وعمارتها، فلم تقدر الأحياء العملاقة على الأرض أن تجاري الإنسان أو تكون نداً له لذلك أخضعها لسلطانه، فلا الحوت الأزرق الذي يصل طوله إلى ثلاثة وثلاثين متراً ووزنه عشرات الأطنان، ولا ثعابين الأناكوندا التي بلغ طول الواحد منها عشرة أمتار، ولا التماسيح التي تتراوح أطوالها بين المتر والثمانية أمتار، ولا السلاحف العملاقة التي يصل وزن الواحدة منها إلى الطن وطولها إلى المترين، ولا استطاعت الأفيال العملاقة هي أو غيرها أن تساير الإنسان في عمارته للأرض وسيطرته على كل ما فيها تحقيقاً لخلافته لها .

أكثر من مليون نوع من الكائنات على الأرض استطاع الإنسان أن يتعرف عليها، ولا يعلم أعداد كل نوع منها إلا الله سبحانه وتعالى .

ستة آلاف من الزواحف، وثمانية آلاف نوع من المفصليات، وحوالي سبع مئة ألف نوع من الحشرات وأكثر من مئة ألف نوع من الرخويات، وأكثر من تسعة آلاف نوع من الطيور، وآلاف وآلاف غيرها من الأنواع لا يعلمها إلى الله، تسكن الأرض وتنتشر في جنباتها وتغوص في أعماقها ومائها، ويحملها هواؤها ونوع واحد فقط من الإنسان يقارب عدد أفراده ثلاثة ىلاف مليون، ويقف شامخاً بين تلك الأنواع جميعاً، صغيرها وكبيرها، قويها وضعيفها، قليلها وكثيرها، يقف بينها متميزاً قوياً بضعفه، مسيطراً بإمكانياته المحدودة وقدراته البدنية القاصرة، سيداً للجميع مسخراً للكثير منها بما آتاه الله من فضل تميز به عنهم جميعاً وميزه وتفرد به عنهم، ألا وهي الروح الإنسانية التي منحته القدرة الفريدة ليصير بحق ويستحق عن جدارة خلافة الأرض.

تلك الروح التي سيطرت على الجسم بغرائزه وإمكانياته وحاجاته، تلك الروح التي أعطت للجسم قوة الاستمرار حياً عاقلاً مفكراً مدبراً، تلك الروح التي حارت في كنهها العقول، والتي استأثر الخالق سبحانه وتعالى بأمرها كآية من آياته الكبرى.

إن ما وصل إليه الإنسان من علم ومعارف، وما أنجزه من أعمال، وما يتوقع أن يصل إليه من

قدرات مستقبلية قد أشار إلى القرآن الكريم من ألف عام قرآناً يتلى في كل وقت، فهو في قوله تعالى :) يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران (سورة الرحمن / الآيات : 33 . 35 .

وكذلك في قوله تعالى :) وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء (سورة العنكبوت / الآية : 22 .

ويشير إلى مكتشفات العلم التي لا تنتهي في تركيب الإنسان :) وفي أنفسكم أفلا تبصرون (سورة الذاريات / الآية : 21 .

(362/744)

إضافة إلى ما في الكون المحيط من آيات :) سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق (سورة فصلت : الآية : 21 .

كما يشير إلى ما يحدث من جراحات ودراسات هندسة الأجنة وغيرها :) وقال : لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله (سورة النساء الآيتان : 118 . 119 . .

وأخيراً يشير إلى ما سيصل إليه الإنسان من قدرات يظن عندها أنه أصبح الآمر الناهي المتحكم في الأرض ولكن :) حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس (.

[1] – محاضرة ألقيت بالموسم الثقافي لعام 2000م الذي تقيمه جمعية الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

.

.

.

0–دورة حياة عديد الأرجل

Live cycle of polypodium

بقلم الأستاذ الدكتور نظمي خليل أبو العطا

نبات عديد الأرجل polypodiumsp من النباتات السرخسية (Ferens)

التابعة للنباتات التريدية. Pteridophyta من النباتات الأرشوجوتية (

Archogoniata) التابعة للنباتات اللابذرية الوعائية Seedless

vascular plants.

صورة لنبات عديد الأرجل

.ودورة حياته مثالاً للنباتات السرخسية عندما تسقط جراثيم (Spores) النبات أحادية المجموعة الصبغية (n) على التربة المناسبة تبدأ في الإنبات فيخرج منها شبه جذر (Rizoid) وتستمر الجرثومة في الإنبات لتعطي نباتاً أخضراً قلبي الشكل مفلطحاً هو الثالوث الأولى (Prothallus) أو الطور المشيجي غير الناجح (Young Gametophyte) الذي ينمو ويتغذى ليعطي الطور المشيجي الكامل (Rotare gametophyte) الذي يحمل أشباه الجذور (Rizoids) كثيف الأسفل تثبت النبات في الأرض.

(363/744)

ويحمل النبات الأرشيجونيات (Archegoniums) الحاملة والحامية للبويضات المؤنثة (Eggs) كما يحمل الانثريدات (Antheridiums) التي تعطي السايحات الذكرية (Sperms) .

ـ تسبح السايحات الذكرية في المياة الموجودة في أخاديد معينة على النبات المشيجي لتصل إلى عنق الأرشيجونة ثم تصل إلى البويضة وتخصبها لتعطي الزيجوت (Zygot 2n) الذي ينمو ليعطي النبات الجرثومي غير الناجح (Sporophytes Young) المعتمد جزئياً في امتصاص الماء والأملاح من التربة والذي ينمو ليعطي الطور الجرثومي الناجح (Sporophytes Rotare) الذي يحمل الجرثومية (Copsules) الحاوية للجراثيم أحادية المجموعة الصبغية الناتجة من انقسامات أولها انقسام اختزالي (Meiosis) .

ـ تنفتح الحافظة في الأجواء الجافة بآلية خاصة تعمل على انتثار الجراثيم بعيداً عن النبات الجرثومي (1) والتي تنبت في الظروف البيئية المواتية لتعيد دورة الحياة .

شكل توضيحي لدورة حياة عديد الأرجل

ـ آلية انتثار معجزة في الحافظة الجرثومية :

تتخذ الحافظة الجرثومية شكل مضرب كرة المضرب لها عنق أعلاه على هيئة عدسة غليظة محدبة الوجهين يتكون جدارها الخارجي العقيم من طبقة واحدة من الخلايا يتكون الجزء الأكبر منها من خلايا تتغلظ جدرها المحيطية الداخلية والقطرية، أما جدرها المحيطية الخارجية والجانبية فهي رقيقة الجدار، ويعرف هذا الجزء المغلظ من الحافظة

بالطوق (Annulus) أما الجزء الباقي غير المغلظ فيعرف بالشق (Stomium) .

.وعندما يكتمل نضج الحافظة الجرثومية وتتعرض للجفاف وفقد الماء يتم فتحها لنثر الجراثيم على مرحلتين متتاليتين .

.في المرحلة الأولى تتمزق الحافظة الجرثومية في منطقة الشق .

.يأخذ الطوق المغلظ الجدر في الانحناء للخلف حاملاً معه غالبية الجراثيم .

(364/744)

.في المرحلة الثانية يرتد الطوق إلى وضعه الأصلي بشده قاذفاً بالجراثيم الناضجة أحادية المجموعة الضبغية إلى مسافات بعيدة عن النبات الجرثومي .

.فمن علم هذا النبات هذه الآلية في انتثار الجراثيم ؟ .

.من زود الطوق بهذه التركيبة المعجزة من تغلظ الجدر ورقتها وبها الشق ؟ !

.كيف علم هذا النبات أن سقوط الجراثيم بجوار النبات الجرثومي الأصلي سوف يتسبب في تزاحم النباتات في مساحة صغيرة يصعب فيها حصول النباتات العديدة من الحصول على الماء والمعادن والأملاح والضوء ؟ ! .

.من جعل للسايحات الذكرية (Sperms) أسواطاً للسباحة والاتجاه نحو

الأرشجونة ؟ !

لقد فسر الباحثون هذه الآلية بالجذب الكيميائي وغيرها من الآليات، ولكن ستظل هذه الآلية من آليات الاعجاز في الخلق .

.من وحد خصائص الحافظة الجرثومية (Sporangium) في جميع النباتات السرخسية ؟ ! .

.وما العلاقة بين هذه النباتات ليحدث بينها جميعاً هذا التشابه ؟ ! .

أسئلة عديدة تطرح نفسها على الباحثين الذين لا يجدوا إجابة علمية عقلية مقنعة سوى أن هذه الكائنات خلقت بتدبير وتقدير وعلم يدلل على علم الخالق سبحانه وتعالى العليم القدير اللطيف الخبير ونقول للعلمانيين والداروينين والمرجفين) هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلالٍ مبين ([لقمان : 11] .

المرجع :

http : //io.uwinnipeg.ca/~simmons/2153/lb5pg4.htm

[1] –انظر موضوعنا من دلائل القدرة الإلهية في آليات الانتثار النباتية .

.

.

.

0-الانفتاق الكوني العظيم

القشة التي قصمت ظهر الملحدين

بقلم الأستاذ عبد الرحيم الشريف

تعبّد الله سبحانه وتعالى الناس بالتفكر في آياته " قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ " [يونس : 101]

(365/744)

بل خص الأمر بالنظر في كيفية بدء الخلق " أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ " [العنكبوت : 19] . فالقرآن الكريم لا يخشى ما يخشاه الدجالون المشعوذون كتبة الكُتُب بأيديهم زاعمين أنها من عند الله . فكرر الطلب مرة ثانية : " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " [العنكبوت : 20] .

فكان كل جيل من الأجيال . . وكل طائفة من طوائف علماء الناس يخاطَبون بذات الخطاب : الاستدلال من كتاب الله المنظور (وهو الكون) ، على صحة ما في كَوْن الله

المسطور (وهو القرآن الكريم) .

بكل ثقة تحدى القرآن الكريم الكفار . .

هذا التحدي الذي لا يستطيع راعٍ في زمن الجهل ببدهيات علم الفلك، أن يتحدى به أكبر علماء الفلك . . زمن اختراع التلسكوبات العملاقة وقوانين الفيزياء ومركبات الفضاء . . . . كما قال أحد الإخوة في رسالة أرسلها متحدياً نصرانياً يزعم كذب القرآن . .

" أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ " [الإنبياء : 30] .

ونتج عن هذا الفتق بعد الرتق توسع الكون " وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ " [الذريات : 47] .

لقد شكلت الأدلة على صحة نظرية (الانفتاق الكوني) قاصمة للإلحاد الذي يزعم أزلية مادة الكون .

يقول (ستيفن هوكنج) العالم الفيزيائي المرموق (يدعى : نيوتن العصر الحديث) : " لم تكن المادة هي وحدها التي خلقت أثناء الانفجار العظيم، بل إن الزمان والمكان أيضاً خلقا . . إن للمكان بداية، إذن : للزمان بداية " . [1]

ولا بد لهذا الانفجار من إله حكيم خبير كان قبل الكون، يقول هوكنج : " لو أن معدل التمدد بعد ثانية واحدة من الانفجار العظيم كان أقل ولو بجزء واحد من مائة ألف مليون مليون جزء لعاد الكون فتقوَّض قبل أن يصل إلى حجمه الحالي " . [2]

إذاً : المادة ليست أزلية بل حادثة .

بعد ظهور نظرية الانفتاق الكوني ضاق الملحدون بها ذرعاً [3]

بل حتى آينشتاين قال : " إن مسألة كون متمدد تقلقني " . وفي رسالة بعَثها إلى صديقه (دي ستر) قال له : " فكرة الكون الذي ينفجر تزعجني، لأن لازمها ان يكون للكون بداية " . [4]

ويقول (وتكر) : " ليس من أساس لافتراض أن المادة والطاقة كانت موجودة ثم أثيرت فجأة . . . . بل الأبسط من هذا أن نفترض الخلق من العدم، والإرادة الإلهية هي التي تفعل ذلك " . [5]

إن فكرة حدوث شيء من غير محدِث هي فكرة متناقضة يستحيل التعبير عنها بعبارة مستقيمة، فالإحداث المسبب لذلك الحدث، لابد من محدِثٍ لها .

فالعدم هو نقيض الوجود، وكيف يوجِد المعدوم ؟ !

والشيء القادم من العدم بدون محدِث، يكون كأنه مختفٍ داخل الفراغ . . . .

ولكن : كيف يختفي (شيء) في (فراغ) ؟ !

إن نظرية الانفجار الكوني كانت ككابوس يقض مضاجع الملحدين . .

يقول جون تيلر : " تقتضي نظرية الانفجار العظيم، أنه في وقت ما من الزمان الماضي، خلق الكون فجأة . ثم إنه تمدد بعد ذلك بطريقة يمكن استكشافها بالتفصيل، لكن قبل ذلك الوقت لم يكن هنالك وقت ولم يكن هنالك زمان . من الوسائل التي يمكن أن نتفادى بها المشكلات العظيمة التي يأتي بها هذا الانفجار العظيم، أن ندَّعي أنه لم يحدث قط " . [6]

هذا الشكل يوضح عملية توسع الكون منذ الانفجار العظيم وخلق الكون

سبحان الله ، يا له من قلق واضطراب يصاحب الملحد أينما حلَّ . . . .

ولا راحة إلا بالإيمان . . ولا أحلى من الإيمان بعد علم

(367/744)

فالعلم يدعو إلى الإيمان " وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " [الحج : 54] .

بتصرف عن الفصل الرابع من كتاب : الفيزياء ووجود الخالق، أد . جعفر إدريس .

أخوكم : عبد الرحيم الشريف

rhim75@hotmail.com

[1] انظر : الكون، بوزلو، ص46 .

[2] انظر : تاريخ الزمان، هوكنج، ص1222

[3] انظر تفصيله في كتاب : الخالق والفلكيون، جاسترو، ص15 وما بعدها .

[4] المرجع السابق،ص29 .

[5] المرجع السابق، ص122 .

[6] عندما دقت الساعة صفراً، جون تيلر، ص103 .

.

.

.

0-صورة لأربع نخلات ترسم اسم الجلالة في صحراء الجوف

دائماً ما تفاجئنا الصحافة بمناظر عديدة في أماكن مختلفة تشكلت وكأنها كلمات متنوعة مثل كلمة (الله أكبر) داخل خلية النحل أو كلمة (لا إله إلا الله) في اشجار غابة كثيفة . . وبصراحة

كنا نشك في مدى صحة تلك الصور ونعتقد انه في الغالب تلاعب في الصور باستخدام تقنيات الكمبيوتر والفوتوشب . . لكن هذه المرة وجدنا كلمة . . (الله) . . واضحة وطبيعية وقد تكونت حروفها من (أربع نخلات) في وسط الصحراء ! !

ولا تستطيع قراءة الكلمة بصورة واضحة إلا من زاوية معينة والأغرب من هذا أن النخلات يغرقن

في بحور الرمال الواقعة بجانب ميدان الخيل بالجوف . .

بالفعل وأنت تشاهد المنظر تتأمل قدرة الله وتتساءل هل الصدفة هي التي شكلت النخلات

بهذا المنظر ؟ ! أم أنها حكمة إلهية تدعونا إلى التأمل والتفكر وأن الله تعالى قادر على كل شي ؟ !

وهنا تجب الإشارة إلى أن الناس يختلفون في طريقة تفكيرهم ونظرتهم للأشياء

وليس كل شخص قادر على التأمل والملاحظة الدقيقة وكم هي الأشياء الهامة التي نمر أمامها بدون توقف ولا تأمل ,,

.

.

.

0-تصنيف الكائنات الحية والتقدير الإلهي في الخلق

الدكتور نظمي خليل أبوالعطا

(368/744)

يدعي الدارونيون العلمانيون الدهريون أن الحياة بدأت على الأرض بالمصادفة، وتطورت بالطفرة والانتخاب الطبيعي, وأن الحاجات الحيوية هي التي دفعت الكائنات الحية إلى التطور والتكيف مع البيئة (1) .

إنهم بهذا الفهم المادي البحت للحياة يلغون التدبير الإلهي, والإتقان في الخلق, والهداية في الحياة . وقد رد عليهم سيدنا موسى عليه السلام رداً بليغاً عندما سأله فرعون (قال فمن ربكما يا موسى ؟) طه 49 . (قال : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) طه50 .

وخلْقه : أي صورته اللائقة بخاصيته ومنفعته (2) .

ثم هدى : أي أرشده إلى ما يصلح له .

وهذه إجابة غاية في البلاغة, والعلم, والإعجاز, فالله خلق كل شيء وهداه لما خُلق له .

قال الشيخ عبد الرحمن بن السعدي رحمه الله (3) :

قال فرعون لموسى على وجه الإنكار (فمن ربكما يا موسى) فأجاب موسى بجواب شاف كاف واضح فقال : (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) أي : ربنا الذي خلق جميع المخلوقات, وأعطى كل مخلوق خلْقه اللائق به, على حسن صنعه من خلقه, من كبر الجسم وصغره, وتوسطه, وجميع صفاته (ثم هدى) : كل مخلوق إلى ما خلقه له, وهذه, الهداية الكاملة المشاهدة في جميع المخلوقات, تجده يسعى لما خلق له من المنافع, وفي دفع المضار عنه, حتى أن الله أعطى الحيوان البهيم, من العقل, ما يتمكن به من ذلك .

وهذا كقوله تعالى : (الذي أحسن كل شيء خلقه) السجدة (7) . فالذي خلق المخلوقات وأعطاها الحسن الذي لا تقترح العقول فوق حسنه, وهداها لمصالحها , هو الرب على الحقيقة, فإنكاره إنكار لأعظم (اليقينات الكونية) وجوداً وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب, فلو قدر أن الإنسان أنكر الأمور المعلومة, ما أنكر, كان إنكاره لرب العالمين, أكبر من ذلك .

(369/744)

ولهذا لما لم يمكن فرعون, أن يعاند هذا الدليل القاطع, عدل إلى المشاغبة, وحاد عن المقصود فقال لموسى (فما بال القرون الأولى) طه 51 , فقال موسى (علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) طه 52 .

فما أعظم هذا الحوار القرآني الذي تدلل عليه كل المخلوقات, والتي يؤيدها تصنيف الكائنات الحية .

فالتصنيف (Taxonomy) للكائنات الحية يدلل أن الكائنات مرتبة بنظام بديع يدل على القدرة والتقدير في خلقها .

وقد بدأت معرفة الإنسان لتصنيف الأشياء , ومنها الكائنات الحية, مع تمام خلق آدم عليه السلام (4) , فقد علم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها , وصنف له الأحياء المحيطة به, فهذه الملائكة, وهذه زوجك, وهذا إبليس, وهذه أشجار الجنة, عرفه عليها , وصنفها له, وأمره أن يأكل منها رغداً إلا شجرة واحدة, فقال تعالى : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) البقرة 35 .

وعندما هبط آدم إلى الأرض, كانت الأرض قد تهيأت لاستقبال المخلوق الجديد عليها , وكان على آدم أن يعمل ليأكل, فبدأ يتعرف المخلوقات في البيئة الجديدة بالنسبة له, وظهر الجيل الأول من الأبناء لآدم وحواء , وأخذ آدم يعلم أبناءه مما علمه الله سبحانه وتعالى .

وكانت الحاجة ماسة إلى تصنيف الكائنات الحية بسبب التباين والتنوع والتشابه في هذه الكائنات .

فالنباتات الزهرية (plants Flowering) يزيد عدد أنواعها على ثلث المليون, والبكتيريا والطحالب والفطريات حوالي المليونين, علاوة على ثلاثة ملايين نوع (Species) حيواني .

وتعرف هذه الكائنات الحية ودراستها يحتاجان إلى وضع نظام يسهل عملية التعرف, والتسمية, والتصنيف, والدراسة والبحث .

(370/744)

وهذه القابلية للتصنيف دليل قاطع على التنظيم في الخلق, حيث استطاع الباحثون والعلماء تصنيف الكائنات الحية إلى ممالك (Kingdomes) بناء على الوحدة العامة بين جميع أجناس (Genes) وأنواع (Species) هذه الممالك .

ففي مملكة البدائيات (Kingdom Monera) : جميع الكائنات الحية فيها أولية النواه (Prokaryotic) فالمادة النووية غير محاطة بغشاء يفصلها عن سيتوبلازم الخلية, وهي جميعها ذات أفراد وحيدة الخلية (Unicellular) , وتتغذى

بالامتصاص (Absorbtion) , وبعضها يتغذى بالبناء الضوئي (Photosynthesise) , ولها جدار خلوي (Cell wall) , وتتكاثر بالتكاثر اللاجنسي (Asexual Reproduction) عادة, ونادراً ما تتكاثر جنسياً (Sexual Reproduction) ومن أمثلتها : البكتيريا (Bacteria) والطحالب الخضراء المزرقة (Blue green algae) .

أما مملكة الطلائعيات (Kingdom Protista) : فجميع أجناسها حقيقية النواة (Eukaryotic) ,أي أن نواتها محاطة بغشاء مزدوج يفصلها عن السيتوبلازم وهي وحيدة الخلايا (Unicellular) ,وتمتص الغذاء الجاهز, أو تقوم بعملية البناء الضوئي, والجدار الخلوي (Cell wall) موجود في الأشكال الطحلبية, وتتكاثر بالتكاثر الجنسي واللاجنسي, ومن أمثلتها : اليوجلينا Euglena, والأميبا Amoebaprotus, والبراميسيوم Pramecium وغيرها .

وفي مملكة الفطريات (Kingdom Fungi) : الخلايا حقيقية النواة, عديدة الخلايا (ما عدا في الخميرة) , وتتغذى بالهضم الخارجي الإنزيمي بالإنزيمات التي تفرزها خارج خلاياها , وتمتص الغذاء المهضوم, ولها جدار خلوي, وتتكاثر بالتكاثر الجنسي واللاجنسي ومن أمثلتها البنسيليوم Penicillium, وعيش الغراب Agaricus, والخميرة Saccharomyces .

صورة لفطر البنسلين المعروف والذي يستعمل كمضاد فعال ضد الالتهاب

(371/744)

أما المملكة الحيوانية (Kingdom Animalia) فهي : حقيقية النواة, عديدة الخلايا (Multicellular) , وتتغذى بالبلع (Ingest) للغذاء الجاهز, والجدار الخلوي غائب, وتتكاثر بالتكاثر الجنسي والتكاثر اللاجنسي وأمثلتها معروفة .

أما في المملكة النباتية (Plantae Kingdom) : فجميع أجناسها حقيقية النواة, عديدة الخلايا , تتغذى بالبناء الضوئي, ما عدا الأجناس النادرة المتطفلة, والجدار الخلوي (Cell Wall) موجود, وتتكاثر بالتكاثر اللاجنسي والجنسي وأمثلتها معروفة .

وقد قسمت الممالك السابقة إلى أقسام (Divisions) في المملكة النباتية, ومملكة الفطريات, يجمعها قواسم مشتركة وإلى شعب (Phylums) مشتركة الصفات في المملكة الحيوانية, وقسمت الشعب والأقسام إلى طوائف (Classes) والطوائف إلى رتب (Orders) , والرتب إلى عائلات (Families) والعائلات تحتوي الأجناس (Genera) , والأجناس تقسم إلى أنواع (Specieses) وتحتوي بعض الأنواع

أصنافاً (Varieties) مختلفة .

وهذه الخصائص المشتركة بين الممالك, والأقسام, والشعب, والطوائف, والرتب, والعائلات, والأجناس, والأنواع, والأصناف تؤكد أن هذه الكائنات خلقت بتقدير خالق واحد , عليم, خبير, مدبر, بديع, خلق الخلق, وأعطى كل مخلوق خصائصه وما يصلح عليه حياته, فأين العشوائية في ذلك التصنيف ؟ ! ! .

ولقد كان الباحثون يظنون أن مملكة الأوليات (Monera) أقل تطوراً من الممالك التالية, ولكن ثبت بالدليل العلمي أن أسس برمجة تلك المخلوقات والأجناس والأصناف تماثل تماماً البرمجة في باقي الكائنات الحية, فجميعها يحتوي المادة الوراثية (DNA) (ما عدا بعض الفيروسات التي تحتوي RNA) ولكنها تظل مادة وراثية, وجميعها تستخدم الجينات,

(372/744)

جميع الكائنات الحية التي خلقها الله تعالى لها أسس برمجة نفسها , فجميعها يحتوي المادة الوراثية (DNA) ما عدا بعض الفيروسات التي تحتوي RNA والأخيرة هو قطع من (DNA) تحتوي ترتيب معين لتلك القواعد

وهي قطع من (DNA) تحتوي ترتيب معين لتلك القواعد , وجميعها تحتوي الأدنين (Adenin) , والجوانين (Guanine) , والثيامين (Thymine) , والسيتوسين (Cytosine) , والسكر الخماسي منقوص الاكسجين (Deoxyribose) , والفوسفات (Phosphate) , وجميعها تحمل الصفات الوراثية من جيل إلى جيل, وهذه البرمجة تدلل على أن (DNA) هو أصغر وأعقد وأعظم حاسوب حيوي (5) (Biomicro Computer) وهو موجود في كل الكائنات الحية مما يدلل على وحدة المخلوقات وخصائصها الخاصة بها , ووحدانية الخالق العليم الخبير وصفاته الحسنى, وأسمائه العليا التي لايشابهه فيها أحد من خلقه (ليس كمثله شيء وهو السميع العليم) الشورى 11 , وهو سبحانه بائن عن خلقه, مستو على عرشه, في السماء العلى (وهو القاهر فوق عباده) الأنعام 182 , معنا بعلمه وبتدبيره وقدرته, (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) غافر 19 , (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) الأنعام 59 .

وقد حوى القرآن الكريم إشارات علمية في تصنيف الكائنات الحية كما في قوله تعالى : (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم

من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير) النور 45 . فهو خالق كل شيء, ومدبر كل شيء, وهادي كل مخلوق .

(373/744)

والعلماء هم الذين يعلمون ذلك علم اليقين, وهم أشد الناس خشية لله على علم, قال الله تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود 0 ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ إن الله عزيز غفور) فاطر 27- . 28

أما الذين علموا هذه العلوم وأنكروا وجود الله, ولم يصلوا إلى خشية الله بعلمهم الكوني فقد قال الله تعالى فيهم (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون 0 وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون 0 وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين 0 قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون 0 ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون) الجاثية 23-27 .

فهؤلاء عندهم علم مادي من : تصنيف, وتشريح, ووظائف أعضاء, ووراثة, وجينات, ولكن هذا العلم لا يصلهم إلى الحقيقة لأنهم لا يرون الحقيقة, وما يبصرون إلا التراكيب والوظائف المادية, أما علم الوظائف الإيماني (6) فلا يعلمون عنه شيئاً .

هؤلاء يقولون : إننا خُلقنا في هذه الحياة نحن والكائنات الحية بالمصادفة والعشوائية, وتطورنا بالطفرة والانتخاب الطبيعي, وما هي إلا أرحام تدفع, وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر, ولكن خصائص الكائنات الحية وتنظيمها المبدع يكذبهم ويدلل على قدرة الخالق سبحانه وتعالى وإبداعه .

الهوامش :

(1) – انظر نظرية التطور بين المؤيدين والمعارضين, نظمي خليل أبو العطا موسى, حيث الأدلة العقلية والعلمية والشرعية المفندة للنظرية .

---

(2) – انظر كلمات القرآن تفسير وبيان للشيخ حسنين محمد مخلوف رحمه الله .

(3) – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان, عبد الرحمن بن ناصر السعدي, مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بلبنان 1998م .

(4) – انظر كتاب الكائنات الحية والبيئة (2) , نظمي خليل أبو العطا موسى وخاتون حميد صنقور, البحرين : إدارة المناهج (ص13) .

(5) – انظر موضوعنا الميكروحاسوب الحيوي – معجزة حيوية .

– انظر كتاب الخلية والوراثة, نظمي خليل أبو العطا موسى وآخرون, البحرين : إدارة المناهج .

(6) – كتب الصديق والزميل الحبيب الأستاذ عبد الرحمن علي البنفلاح سلسلة مقالات في الملحق الاسلامي بأخبار الخليج في مملكة البحرين الذي يحرره عن علم وظائف الأعضاء الإيماني, وهي فكرة ذكية يجب تعميمها على الطلاب والمعلمين في كليات الطب والعلوم والزراعة والتربية

.

.

.

0–الحاسة السادسة منحة ربانية

بقلم الدكتور محمد السقا عيد

استشاري في أمراض العيون وجراحتها

إن ثمة أمراً عجيباً يباغتنا حينما نتعرض للخطر، وهو ظهور فجائي لقوة خارقة تقذف بنا بعيداً عن مكمن الخطر، هذا الأمر يعطي مدلولاً ثابتاً ألا وهو أن بداخلنا قوة خارقة لا تظهر إلا عند الخطر . . . هذه القوى التي تنشط وتخمد حسب مقتضيات الانفعالات والتفاعلات الطارئة .

وبما أن هناك شفافية في بعض الناس يكتشفون من خلالها حقائق كلغة العيون وعلم (التلباثي) ، وهو الشعور عن بعد بما يحدث لمن تحب ومبادلة من تحب نفس المشاعر والأحاسيس، ولذا نقول في المثل الشعبي : (القلوب عند بعضها) و(من القلب للقلب رسول) ولو عن بعد وهذا أمر خاضع لتلاقي الأرواح وصفاء النفوس .

وصدق رسول الله "صلى الله عليه وسلم" : "الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف" رواه مسلم .

(375/744)

فتلاقي الأرواح أمر بيد الله سبحانه وتعالى، وهذه المقدرات والمنح الربانية للإنسان لا تصطدم بمعرفة الغيب لأنها تقرر مواقف وتستبصر أشياء خارجة عن نطاق الغيبيات وهي صفات ثابتة يعرفها صاحبها وبعضاً ممن حوله مع علم التوسم كتوقعات بحدس

الحاسة السادسة .

وقد كان العالم الألماني "رودلف تستشنر" هو أول من تناول ظاهرة الإدراك الحسي الخارق بدراسة جادة أوائل العشرينات، وأطلق عليها مصطلح E.S.P المنسوب مجازاً إلى الحاسة السادسة، صنفها إلى فروع : الاستبصار، والتنبؤ، ونفاذ البصيرة إلى الأشياء والأشخاص والأحداث، وقراءة الأفكار والمشاعر، وإدراك لمحات من الماضي والمستقبل وتحت هذا العنوان قدم الباحث "جي . بي . راين" أول دراسة جادة تالية إلى جامعة "ديوك" عام 1934 .

وأصدر "رينيه سودر" في عام 1960م كتاباً عنوانه : "بحث عن البارسيكولوجي" ذكر فيه أن المعلومات التي تلتقطها المدارك الخارقة التي لا تصدر بالضرورة عن نفاذ البصيرة، وإنما تتولد في العقل الباطن كالذكريات، وهي في نفس الوقت حاسة، لتكن السادسة، ما دامت لم تستخدم إحدى قنوات الحواس الخمس للتوصل إلى المعلومات، وفي كل الأحوال تنتقل المعلومات من اللاوعي إلى العقل الواعي .

أما "آرثر كوستلار" فقد ذكر أن الحاسة السادسة إحدى اثنتين :

إما أن تكون نابعة من قوى وقدرات ووظائف روح الإنسان، وهي بذلك قدرة تتجلى وتتفتح تدريجياً مثلما ينمو الحس والضمير والوعي درجة بعد درجة تصاعدياً على سلم النمو والتطور .

وإما أن تكون على عكس ذلك حاسة بدائية قديمة من خصائص الإنسان البدائي القديم، كان في أمس الحاجة إليها كوسيلة للاتصال، ثم ضمرت وتلاشت وحلت محلها أشكال الإدراك والاتصال الحسية الأخرى، وفي كلتا الحالتين ينطوي الاحتمالان على احتمال ثالث، وهو احتمال بعث الحاسة السادسة من جديد، عن طريق روحانية الإنسان، أي عن طريق تدريب وتقوية قواه الروحية.

(376/744)

وتفسير "كوستلار" السابق – على ما فيه من حيرة – يؤكد أهمية متابعة دراسة ظواهر البارا سيكولوجي عامة، والحاسة السادسة بصفة خاصة على وجه مكثف.

أغلب الناس لديهم الحاسة السادسة:

هذا ما تقوله "جيرترود شميدلر" أستاذة علم النفس بجامعة نيويورك، فقد استخلصت من دراسات أجرتها أن أغلب الناس لديهم الحاسة السادسة، وعن طريقها تتحقق تخميناتهم أو استبصاراتهم بشكل أو بآخر خلال حياتهم اليومية. ليس من الضروري أن يتنبأ الشخص بحادث خطير أو أمر بالغ الأهمية حتى يقال: إنه موهوب الحاسة السادسة، بل يكفي أن يدق جرس الهاتف ويخطر على البال أن المتحدث صديق قديم لم يتصل بك منذ

أمد طويل، وما أن ترفع السماعة حتى تسمع صوته ويتحقق حدسك، وهذا مظهر من مظاهر الحاسة السادسة.

وقد تتعرف أحياناً على شخص وسيم لبق رقيق، لكنك لا تشعر بارتياح إليه، وعلى العكس تحس بهاجس لا تدرك مصدره، ولا تعرف له سبباً ينفرك منه، أو كأنما هاتف من أعماقك يطالبك بأن تتجنبه وتتقي منه شراً مرتقباً، فإذا ما توطدت علاقتك به أثبتت لك الأيام صدق إحساسك الخفي الذي حذرك من صداقته، وهذا أيضاً مظهر من مظاهر الحدس أو الاستبصار أو التنبؤ. وكلها جوانب من عملية تواصل حسي صافية، مبعثها الحاسة السادسة، أقلها أن تشعر بعدم الارتياح لشخص أو شئ أو قرار، ويتحقق فيما بعد سبب لهذا الشعور.

الحاسة تنشط وتخبو:

وأكدت دراسات الدكتورة "جيرترود" أن الحاسة السادسة تنشط في الشخص ذاته أحياناً وتخبو وتصاب بالخمول أحياناً أخرى، والسبب هو أن كافة مظاهر الإدراك الحسي الخارق ترتبط وفق الارتباط بمحيط نفسي أخر قوامه: صفاء الذهن، وهدوء الأعصاب، واعتدال المزاج، وعناصر شخصية ونفسية أخرى متشابهة حتى هؤلاء الذين يتمتعون بحاسة سادسة قوية لابد لهم من شرط أساسي يتيح لحاستهم استقبال الإشارات دون تشويش، هذا الشرط هو توفر حد أدنى من صفاء الذهن واعتدال

المزاج.

متى تقوى ؟ ومتى تضعف ؟

(377/744)

وفي جامعة كاليفورنيا أجريت دراسات مطولة أثبتت أن الإنسان يستطيع أن يرسل إشارات حسية للغير، كما يستقبل من الغير إشارات، أو يحس بأحداث أثناء وقوعها في مكان بعيد ، بل حتى قبل وقوعها ، وأثبتت أيضاً أن بعض الموهوبين يستطيعون التأثير على أفكار الغير، فيوحون إليهم بفكرة ما أو سلوك معين عن طريق الاتصال الخاطري الحسي البحت، كما يستطيع بعضهم قراءة أفكار الغير والشعور بالأخطار التي تحدق بهم .

وأبسط مثال لذلك في حياتنا اليومية أن هؤلاء الذين يتورطون في مأزق خطير أو يقعون في ضيق أو تنتابهم الأمراض والآلام، يتذكرون أحب الناس إليهم من الأقرباء ، وقد يستغيثون بهم ويستحضرونهم في مخيلاتهم، يشعر هؤلاء الأقرباء بغصة، أو تطرأ عليهم ظواهر عضوية كخفقان القلب ورفيف الجفون، والانقباض النفسي، وقد يصارحون المحيطين بهم آنذاك بمخاوفهم، وبأنهم يستشعرون خطراً يحيط بهم من الناس .

ولعل في تفسير العامة لأسباب الغصة "الشرقة" ورفيف الجفون ما يساير هذا الرأي، علماً

بأنه تفسير قديم يتصف بالعمومية في معظم المجتمعات المحلية، ويعتبر من الموروثات الشعبية .

هذا إن دل على شئ في جملته فإنما يدل على أن الإنسان يمكن أن يكون مثيراً للحاسة السادسة عند غيره، مثلما هو مستقبل بها لإشارات حسية يستبصرها . . . ويكون الإنسان في أقصى حالات القدرة على الإرسال أو الإيحاء، كلما اشتدت انفعالاته وهياجه الوجداني، بينما يكون في أقصى حالات الاستقبال والاستبصار عندما يكون راقداً مسترخياً على قدر كبير من الراحة وهدوء الأعصاب .

والحاسة السادسة ليست ثابتة، أي أنها ليست إرادية مثل الحواس الخمس الأخرى، إنها حاسة لا إرادية تحضر لحظة وتغيب أياماً – باستثناء بعض الموهوبين الأفذاذ، أمثال : هيزكس، وجين ديكسون، واليكس، تانوس، وهيلين هيل، وبول زيفين، وغيرهم ممن خضعوا لاختبارات العلماء .

خصائص الموهوبين :

الدراسات التي أجريت في جامعة أكسفورود تشير إلى أن لدى بعض الناس نوعاً من العتامة تقاوم وتحجب الانطباعات الاستبصارية من الظهور على شاشة الوعي، وأثبتت من ناحية أخرى أن فريقاً من الناس يسجلون سيلاً لا ينقطع من الاستبصار وصدق التنبؤ، حتى تكاد تكون حياتهم سلسلة من الرؤى الصادقة، وأتضح بعد فحص عدد كبير من الفئة الأخيرة، ودراسة شخصيات منهم، أنهم جميعاً يشتركون في عدة خصائص مميزة، أهمها :

- حسن التكيف الاجتماعي .
- الاستقرار الوجداني .
- نفسية منبسطة .
- الثقة بالنفس .
- حسن العلاقة مع الآخرين .
- اتساع شبكة العلاقات .
- الإيمان بالله ودماثة الخلق .

إضافة محرر الموقع :

أثر العبادة على تقوية الحاسة السادسة :

لقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أحاديثه الشريفة إلى قدرات خارقة

مكتسبة بالعبادة واستحضار عظمة الله تعالى وذكر النار والجنة وهي رؤية أحد بعض عوالم الغيب

(379/744)

عن حَنْظَلَةَ الأَسَيْدِيّ وَكَانَ مِنْ كُتّاب رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم أَنّهُ مَرّ بأَبي بَكْرٍ وَهُوَ يَبْكي : فَقَالَ مَالَكَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا أَبَا بَكْرٍ ، نَكُونَ عِنْدَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، يُذَكّرُنَا بالنّارِ وَالْجَنّةِ كأَنّا رَأْيَ عَيْنٍ ، فَإِذَا رَجَعْنَا عافَسْنَا الْأَزْوَاجَ والضّيْعَةَ وَنَسِينَا كَثِيراً قال فَوَالله إنا لكَذَلِكَ انْطَلِقْ بنَا إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فَانْطَلَقْنَا فَلَمّا رَآهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم قال : "مَالَكَ يَا حَنْظَلَةُ ؟" قَالَ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسولَ الله ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكّرُنَا بالنّارِ وَالْجَنّةِ حَتّى كَأَنّا رَأْيَ عَيْن : فَإِذَا رَجَعْنَا عافسنَا الأَزوَاجَ وَالضّيْعَةَ وَنَسِينَا كَثِيراً ، قال : فقال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : "لَوْ تَدُومُونَ عَلَى الْحَالِ الّذي تَقُومُونَ بهَا مِنْ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلائِكَةُ في مَجَالِسِكُمْ وَعَلَى فُرُشِكُمْ وَفي طُرُقكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةَ سَاعَةَ وَسَاعَةَ" . قال أبو عيسى : هذا حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ [تحفة الأحوزي ـ رياض الصالحين ـ سنن ابن ماجه ـ سنن الترمذي ـ صحيح مسلم ـ مجمع الزوائد ـ مسند أحمد ـ معجم الطبراني] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته : كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه . . .) [صحيح البخاري] .

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال، قال رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم : (لقد كان

(380/744)

فيما قبلكم من الأمم ناس محدَّثون؛ فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر) [رَوَاهُ البُخَارِيُّ. ورَوَاهُ مُسلِمٌ من رواية عائشة] .

شواهد من تاريخنا الإسلام :

يا سارية الجبل الجبل :

عن ابن عمر عن أبيه أنه كان يخطب يوم الجمعة فعرض في خطبته أن قال "يا سارية الجبل ! من استرعى الذئب ظلم" . فالتفت الناس بعضهم لبعض، فقال لهم علي : ليخرجن مما قال . فلما فرغ سألوه فقال : وقع في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا ، وأنهم يمرون بجبل

فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجه واحد ، وإن جاوزوا هلكوا ، فخرج مني ما تزعمون أنكم سمعتموه . فجاء البشير بعد شهر وذكر أنهم سمعوا صوت عمر في ذلك اليوم . قال : فعدلنا إلى الجبل ففتح الله علين[كشف الخفاء للعجلوني] .

روي عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان :

يروى أنه دخل رجل على سيدنا عثمان فقال : "أيدخل علينا رجل وأثر الزنا في عينيه ؟ فقالوا : أوحي بعد رسول الله ؟ ! قال : لا ، ولكنها فراسة صادقة" .

المصادر :

1- محمد عزت محمد عارف، لغة العيون، دار الفضيلة، مصر

2-محمد السقا عيد ، المخ بين عجز الخلق وإعجاز الخالق "تحت الطبع"

http : //www.laurienadel.com/sixth_sense.htm

http : //www.randi.org/jr/121704no.html

د . محمد السقا عيد

ماجستير وأخصائى جراحة العيون

عضو الجمعية الرمدية المصرية

جمهورية مصر العربية

دمياط – الزرقا –ش طارق بن زياد

ت : 851395 عيادة

854754 منزل

.

.

.

0-دورات الانقسام الخلوي معجزة علمية

(Cell Divisions cycles)

الدكتور نظمي خليل أبو العطا

دورات الانقسام الخلوي في الكائنات الحية من أعظم وأعجز وأدق دورات الحياة الدالة على أن هذه الكائنات خلقت بعلم وعلى علم, فكيف للصدفة أن تجعل لكل كائن دورته الخاصة ولجميع أقاربه دورة خاصة، فللبكتيريا دورات انقسام، وللفيروسات دورات انقسام, وللطحالب والفطريات, والحيوانات والنبات دورات انقسام منظمة ودقيقة وثابتة .

وتبدأ دورات الانقسام الخلوي في الكائنات الحية بعد أن يصل الكائن إلى عمر معين يختلف من كائن لآخر، وبعد أن يصل الكائن الحي إلى حجم معين, حيث يتم تجديد الحياة واستمرارها بين الضعف والقوة والتكاثر, ثم الضعف والموت لتبدأ الذرية الجديدة دورة الحياة بضعف وقوة وتكاثر ثم الضعف والموت, وهكذا جعل الله الانقسام الخلوي والتكاثر ودورات الحياة تجديداً للحياة وتقوية لها إلى أن يأتي يوم يأذن الله فيها بتوقف الحياة الدنيا ولتبدأ الحياة الأخرى الباقية بخصائصها المخالفة لتلك التي عشناها على الأرض.

وتشمل دورات انقسام الخلايا إلى الأقسام التالية:

أولاً: الانشطار الثنائي (Binary fission):

وهو يتم في البكتيريا، وخلايا الفطريات المنقسمة بالتكاثر الخضري ويبدأ هذا الانقسام باستطالة الخلايا في البكتيريا ثم التخصر في وسطها تدريجياً إلى أن يتم انقسامها إلى خليتين متماثلتين ويطلق على هذه العملية [1] أيضاً اسم الانشطار (Fission) أو الإنشطار البسيط (Simple Fission).

وغالباً ما يتكون غشاء مستعرض مزدوج داخل الخلية يمتد من حافتيها تدريجياً متجهاً نحو مركزها قبل أن يحدث التخصر، ثم يبدأ بعد ذلك ترسيب الجدر الفاصل بين طبقتي الغشاء ممتداً من الخارج تجاه المركز، ويتزامن مع هذا الانقسام المادة الوراثية.

وهذه الدورة تتم في البكتيريا كل 20 دقيقة وإذا استمر هذا المعدل من الانقسام وبقيت

الذرية جميعاً لغطت البكتيريا سطح الكرة الأرضية خلاياها البكتيرية الزلقة لارتفاع نصف متر في أيام معدودة .

فلو كانت الصدفة والعشوائية هي الحاكمة لهذه العمليات الانقسامية لتحولت الكرة الأرضية إلى كره بكتيرية يستحيل العيش عليها ، ولكن العليم الخبير اللطيف جعل هناك من العوامل الداخلية في البكتريا والعوامل الخارجية ما يؤدي للحد من هذه العملية، حتى تصبح الحياة كما أراد لها الله نظيفة منظمة دقيقة متزنة .

(382/744)

وإذا توقفت دورة الانقسام الثنائي البسيط (Simple Binary Fission) للبكتيريا والفطريات لامتلأت الكرة الأرضية بالبقايا والنفايات الحيوانية والنباتية والآدمية، ورأينا الناس من آدم إلى الآن، وملأت جثث الحيوان وأعضاء النبات كل مكان، فسبحان من سخر لنا دورة الانقسام الخلوي البسيط في البكتيريا والفطريات لنظافة الأرض وحمايتها من التلوث والهلاك وتسخيرها في تحرير المواد العضوية الكربونية والهيدروجين والأوكسجين وباقي العناصر من أنحباسها في هذه المركبات العضوية ونفادها , ولكن البكتريا والفطريات بما زودها الله من خصائص محلله هي التي تدفع دورة هذه المركبات

وتعيدها إلى الحياة .

ثانياً : الانقسام غير المباشر والانقسام الاختزالي[2] : (Mitosis and Meiois) :

الانقسام غير المباشر (Mitosis) هو الانقسام الشائع في الخلايا الجمسية للكائنات الحية حقيقة النواة (Eukaryotic) وهو يؤدي إلى نمو النبات والحيوان والفطريات والطلائعيات (Protista) .

وهو يتم في دورة منتظمة في مراحل محددة هي :

1 . الطور التمهيدي Prophase

2 . الطور الاستوائي Metaphase

3 . الطور الانفصالي Anaphase

4 . Telophase الطور النهائي

5 . الطور البيني Interphase

1 . في الطور التمهيدي (Prophase) يتم تمهيد الخلية للانقسام وتتجمع المادة الوراثية وتأخذ الكروموسومات في الظهور في النواة ويغلظ, وتختفي النويات بالتدريج, ويختفي الغشاء النووي .

تتكون خيوط المغزل (Spindle Fibers) التي تكون المغزل (Spindle) الذي

يتصل بالكروموسومات عند الميرالمركزي (Center mere) .

2 . الطور الاستوائي (Metaphase) :

حيث تتجه الكروموسومات إلى خط استواء الخلية (Cell equatorial plane) ، ويتصل كل واحد بخيط من خيوط المغزل من عند السنترومير (Ceneromere) .

3 . الطور الانفصالي (Anaphase) :

حيث ينفلق السنترومير إلى نصفين وتنفصل كل كروماتيدة من الكروموزوم وتنسخ كل كوماتيدة زميلة لها لتكون كروموزوم جديد .

تنفصل الكروموزومات الجديدة وتتحرك نحو أحد الأقطاب لتكون النواة البنوية (Daugher Nucleus)

يبدأ السيتوبلازم في التخصر والاختناق من المنتصف في الخلية الحيوانية، ويبدأ تكوين الصفيحة الوسطية (Midell lanella) وتتكون نواتان جديدتان .

4 . في الطور النهائي Telophase)) :

في هذا الطور تحدث مجموعة من التغييرات العكسية يترتب عليها تكوين صبغيات كامله مغلفه متساوية العدد مع الخلية الأم وتتكون خيوط نووية ثم شبكة نووية ثم تتكون خليتان جديدتان مستقلتان بكل واحدة منها نفس عدد كروموسومات الخلية الأم .

وتدخل الخلية في الطور البيني (Interphase) وهي الحالة التي لا تكون الخلية فيها في حالة انقسام أو استعداد للانقسام واستعداد للانقسام .

في هذا الانقسام يعطي كل كروموسوم كروماتيدتين متماثلتين، كل كروماتيده تنسخ لها صورة من الكروماتيدة التي فارقتها .

يتوقف معدل هذا النوع من الانقسام على موضع الخلايا في الجسم وحالتها حيث يكثر في الخلايا الجنينية والمرستيمية والخلايا السرطانية .

هذه العملية موزونة وإذا اختلت حدثت حالة سرطانية .

فهل هذا النظام البديع خلق بالصدفة والعشوائية كما يدعي الداروينيون ؟

ومن وقت لهذا الانقسام ؟

ومن حسب المواد الداخلة في الانقسام ؟

إذا حدث خلل في هذا النوع من الانقسام أصيبت الخلية بالجنون الانقسامي ودخلت في أطوار السرطان أي الانقسام غير المحكوم .

كما أنه إذا اختل هذا النظام تتضاعف الصبغيات إذا لم تنفصل ويحدث التضاعف الصبغي (Polyploidy) ، وقد أستغل الإنسان هذه الصفة في إنتاج ثمار متضاعفة الحجم .

وقد يحدث تثبيط لتكوين المغزل فلا تتحرك الكروموسومات من منتصف الخلية ويحدث التضاعف الصبغي أيضاً .

ثالثاً : الانقسام الاختزالي (Meiosis) :

(384/744)

يحدث هذا النوع من الانقسام في الكائنات الحية التي تتكاثر بالتزاوج بالأمشاج المذكرة، أو الممثلة للذكورة (+) ، والأمشاج المؤنثة, أو الممثلة للأنوثة (–) .

ويختلف هذا النوع من الانقسام عن الانقسام غير الاختزالي (Mitosis) في أن كل خلية ناتجة عن الانقسام الاختزالي (Mitosis) تحتوي نصف عدد الصبغيات (الكروموسومات) الموجودة في خلايا الأم الجسدية والمولدة للأمشاج قبل انقسامها .

فإذا كانت الخلية الأم تحتوي (n2) ، فإن الخلية الناتجة منها بالانقسام الاختزالي تحتوي فقط (n) أي نصف عدد الصبغيات في الخلية الأم، أي أحادية المجموعة الصبغية ومن هنا عرف هذا الانقسام بالانقسام الاختزالي (Reductional Divis) ويشمل هذا النوع من الانقسام على انقسامين متتاليين هما :

1 . Firist Meiotic Division الانقسام الميوزي الأول :

2 . Second Meiotic Division الانقسام الميوزي الثاني : .

والمرحلة التمهيدية في الانقسام الميوزي الأول تشمل مراحل خمس وهي :

1 _ 1 الطور القلاوي (Liptonema or Leptotene Stage) :

ويتميز هذا الطور بظهور حبيبات تسمى الكروموميرات (Chromomeres) وبذلك تشبه الصبغيات القلادة أو المسبحة ومن هنا سمي بالطور القلاوي (Leptotene) .

1_2 الطور التزاوجي (Zygonema or Zygotene Stage) في هذا الطور يقترب كل صبغيين متماثلين (Homologus Chromosames) من بعضهما البعض

في عملية تشابك (Synapsis) ليتكون الصبغيات المزدوجة (Bivalant) .

1_3 : الطور الانضمامي (Bachynema or Pachytene Stage)

حيث يزداد الانضمام بشدة بين كل صبغيين متشابهين حتى يظهرا كأنهما صبغي واحد وتحدث عملية عبور (Crossing over) للصفات الوراثية بين الكروموسومات، وتتوزع الصفات الوراثية .

(385/744)

1_4 : الطور الانفراجي : (Diplonema or Diplotene Stage) يبدأ ابتعاد كل كروموسومين متبادلين للصفات الوراثية عن بعضهما بعملية الانزلاق (Terminalization) .

1_5 : الطور التشتتي (Diakinesis) :

حيث يبتعد الكروموسومان عن بعضهما وينشق السنترومين ويبدأ ظهور المغزل استعداداً للطور الاستوائي الأول (Prophase _II) .

)

1) .الطور البدائي الثاني (Prophase _II) .

(2)

(3)

(2) .الطور الاستوائي الأول (Metaphase_II) حيث تترتب الكروموزومات عند خط استواء الخلية .

(4) الطور الانفصالي الأول (Anaphase_II) حيث يتجه كل صبغيين متماثلين إلى قطبين مختلفين .

(5)

(4) .الطور النهائي الأول (Telephase_II) : حيث يتكون غشاء حول كل مجموعة لتتكون نواتان بنويتان تحتوي كل منها نصف العدد الأصلي للصبغيات في الخلية الأم أي (n) .

ثم تدخل الخلية بعد مدة قصيرة في الانقسام الاختزالي الثاني (Second Meiosis

Division) لتكون 4 خلايا كل واحدة منهم (n) .

هذا ما يحدث في أمتاك (Anthers) ومبايض (Ovules) الزهرة (Flower) لتكوين حبوب اللقاح (Pollen Grains) والخلايا البيضية (Egg Cells) ، ويحدث في الحيوان لتكوين الحيوانات المنوية (Sperms) والبويضات الأنثوية (Ovuis) ويحدث كذلك في الإنسان .

وهذا التشابه والإيقاع المنتظم في عملية الانقسام، وتبادل الصفات الوراثية يدلل على أن كل شيء خلق بقدر معلوم قال تعالى : (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) الفرقان (2) .

فأين العشوائية والصدفة في هذه الخطوات المحسوبة والمنظمة والمقدرة ؟

وما العلاقة بين الحيوان والنبات حتى تتم نفس العملية في أماكن التكاثر الجنسي في كل منها أنها وحدانية الخالق سبحانه وتعالى .

الانقسام غير المباشر والانقسام الاختزالي ودورة الحياة في الكائنات حقيقية النواة (Mitosis , Meiosis and Eukaryotic life cycle) :

(386/744)

الدارس لدورات حياة جميع الكائنات الحية حقيقة النواة (Eukaryotic) مثل الطلائعيات (Protists) والطحالب (Algae) والفطريات (Fangi) والحيوان (Animals) والنباتات (Plants) يجد أن هناك تبادل في دورات الحياة بين كل من التكاثر غير المباشر (Mitosis) والانقسام الاختزالي (Meiosis) .

وتبدأ دورة الحياة باندماج خليتان بنويتان بعملية الإخصاب (Fertilization) لإعطاء الزيجون (Zygot) ثنائي المجموعة الصبغية (n2) .

والمرحلة الثانية في دورة الحياة تبدأ بحدوث انقسام اختزالي (Meiosis) لتكوين خليتين بنويتين كل واحدة منها (n) تندمجان ثانية بعملية الإخصاب ليتكون الزيجون وهكذا تعاد دورة الحياة في عملية تبادل للأجيال (Alternation of Generation) بين الأطوار أحادية المجموعة الصبغية (n) والأطوار ثنائية المجموعة الصبغية (n2) وعلى حسب الكائن الحي تكون هناك سيادة في دورة الحياة للطور أحادي المجموعة الصبغية أو الطور ثنائي المجموعة الصبغية .

ففي المملكة النباتية يسود الطور المشيجي (Gametophyte) في الحزازيات (Brayophyta) ويتدرج سيادة الطور الجرثومي (Sporophyte) إلى أن يسود في النباتات الزهرية (Flowaring Plants) .

وفي الإنسان يسود الطور الجرثومي أما الطور المشيجي فهو ممثل بالحيوانات المنوية

والبويضات .

فأين الصدفة والعشوائية في هذا التبادل للأجيال في تلك الكائنات الحية ؟ !

وأين العشوائية والطفرة والانتخاب الطبيعي في تلك الدورات المنتظمة والمنظمة والموازنة ؟

[1] أنظر كتاب النبات أحمد مجاهد وآخرون القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية (من 325)

[2] انظر الخلية والوراثية، نظمي خليل أبو العطا موسى وآخرون مملكة البحرين : إدارة المناهج (2000م) .

.

.

.

0-أسرار ربانية فى عيون الكائنات الحية

بقلم الدكتور محمد السقا عيد

استشاري أمراض العيون وجراحتها

إذا تأملت مخلوقات الله على اختلاف أشكالها وأنواعها ، وجدت أن الخالق المبدع قد هيأها لما قدر لها من شأنها ، فأودع فيها من القدرات ما تتم به مصلحة معاشها .

ومن عجائب الخلق أن جهز الخالق المبدع الحيوانات تجهيزاً محكماً يحفظ حياتها ويحقق مآربها . ففي مجال النظر مثلاً أمد الله سبحانه مخلوقاته بعيون توافق الحاجة الدقيقة لكل صنف منها . فجعل فى الطائر ما لم يجعل فى السابح وفى الزاحف ما ليس فى الماشي وفى الليلي غير ما فى النهاري فكانت الأعين مختلفة أشكالها وأعدادها ومواضعها وألوانها وأحجامها وحركاتها . أغرب العيون ولا أحسنها . . . . بل فى الكائنات الحية عيوناً أقدر من عين الإنسان .

- فمنها ما حباها الله تعالى بنظارات شمسية كالطيور والجمال .
- ومنها ما حباها الخالق سبحانه بتلسكوب مركب على عينيها .
- ومنها ما زوده جلت حكمته بفرشاة لإزالة ما يهبط عليها من غبار ، كما حباها بعيون مركبة مشكلة من مئات الوحدات المتشابهة المتراصة بحيث ترى كل واحدة نقطة من الشئ المرئي وتجتمع النقط فيجتمع الشئ المرئي كما هو الحال فى الذباب المنزلي .

o ومنها ما يرى الأشعة فوق البنفسجية ولو غابت الشمس كالنحل .

o ويرى البوم الفأر فى الظلام الدامس بواسطة الأشعة الحرارية التى تشع من جسمه الدافئ .

o كما أن عيون بعض الحشرات فى أرجلها .

o ويرى دود الأرض تحت التراب بجلد مبصر .

o وهناك بعض الحيوانات تنظر فى اتجاه واحد إلى الأمام ولكنها مزودة بعينين إحداهما أمامية والأخرى خلفيه فتستطيع أن ترى الاتجاهين فى وقت واحد .

o وعين الضفدع محددة فى عالم ذي حركات معينة لا تستجيب لغيرها وفقاً لمتطلبات حياتها .

كما أن الإنسان أكثر ما تكون حساسية في وسط الشبكية ، لذا فإن الإنسان ينظر مباشرة إلى الشئ الذي يود رؤيته ، أما حساسية عين الحيوان فهي موزعة بطريقة أكثر توازناً فهي ترى بطريقة أكثر توازناً فهي ترى جيداً كل شئ يقع في حقل رؤيتها .

(388/744)

وهكذا فإن عين الإنسان ترى مدركات . . . فى البر والبحر والفضاء لكنها لا ترى مدركات كالذرة وجسيماتها والضوء وأمواجه والصوت وأمواجه والكهرباء . . . . الخ . فالبوم يرى عالماً مشعاً والنحل يرى عالماً كله أمواج قصيرة الضفدع يرى عالماً كله قفزات لأن عيونه لا تستجيب لشئ ساكن أو متحرك حركة متواصلة . . . ولا يصيد إلا أشياء تقفز .

إنها عوالم حاضرة تستغرب تبيانها . . . . عوالم ترى وعوالم لا ترى . . . لغاية وهدف وضرورة واحتياج وإكمال دور .

"فتبارك الله أحسن الخالقين . وسبحان من خلق فسوي وقدر فهدى"

نظر . . . فى النظر

تعد العين تُعد بحق من أعجب الأعضاء وأدقها فى جسم الإنسان وجميع الكائنات الحية ، وتختلف أوضاع العيون فى الأجسام باختلاف أجناس المخلوقات وطبقاً للغرض منها والتى جعلها البارئ لتتم بها مصلحة المخلوقات وكيفها حسب حاجة كل مخلوق منها .

فعيون الإنسان جعلت فى وضعها المعروف ليبصر بها ما أمامه .

وعيون بعض الزواحف مركبة فى رؤسها على ساق متحركة تستطيع رفعها وخفضها بما يتناسب مع وضع المرئيات .

وهناك أنواع من الحيوانات تتخذ عيونها أوضاعاً تمكنها من رؤية ما يحيط بها من جميع

الجهات دون أن تضطر إلى الالتفات إلى الوراء .

ولعل أعجب الأوضاع بالنسبة للعيون هو الوضع الذي تتخذه عيون نوع من السمك يعيش فى المناطق الاستوائية ، حيث تسبح السمكة فى الماء والنصف العلوي من عينيها فوق سطحه في حين أن النصف الأدنى فى الماء .

وقد أوجد الخالق الكائنات بقدرته ، وأتقنها بحكمته ، وأمدها على كثرة أجناسها واختلاف أشكالها بما فيه قوامها ، فخلق لذلك مالا يحصى من الأدوات والآلات العجيبة ودبر لكل كائن ما يناسبه .

والبصر من هذه الأدوات العجيبة التى جعلها البارئ لتتم به مصلحة المخلوقات وكيفها حسب حاجة كل مخلوق منها ، ولنلق نظرة على عيون بعض الأسماك لنرى ما تنطوي عليه من الآيات المحكمة والأسرار المدهشة .

عيون الأسماك :

(389/744)

– هناك أسماك ترى فى اتجاهين فى وقت واحد .

– وبالنسبة لنا فإن أعيننا لا ترى فى الظلام ولكن الأسماك فى البحار المظلمة مزودة

بمصابيح (مرآة مرعبة) تضئ لها ما تريد ، وذلك لأنها تحمل أعيناً متوهجة سطحها الداخلي مبطن بطبقة لامعة تشبه المرآة تسمى (الطراز المتألق) تعكس الضوء الذي يسقط عليها جيداً ، وهى قادرة حتى على تركيز نور النجوم الخافت أو القمر أو النيران البعيدة، ولهذا السبب أيضاً تضئ أعين القطط والنمور ليلاً .

ووجود مثل هذه المرآة يجعل العين قادرة على الاستخدام التام ولأقصى حد بأي قدر من الضوء لرؤية الأشياء ، ويحاول الإنسان تقليد هذه الأعين لتطوير أجهزة الرؤية فى الظلام .

وتلجأ أسماك الأعماق إلى كشافات ضوئية تضعها فوق رأسها ، ووسيلتها فى هذا السبيل أن تحمل بعض الطفيليات المضيئة من نباتات أو حيوانات ، كما أن بعضها مزود بقوة كهربائية غريبة لم يكشف عن سرها بعد .

وما دمنا نتجول فى عالم البحار وجب علينا أن نتعرف على أكبر الأعين على الإطلاق ، وهى أعين رخويات المياه العميقة التي يصل قطرها إلى 40 سم .

وهذه واحدة من عجائب الله تعالى فى كائنات المياه العميقة فكثير منها تمتلك أعيناً تلسكوبية الشكل وحدقة كبيرة جداً ، وجميع هذه التحورات موجهة لتجميع أكبر كمية من الأشعة الضوئية داخل العين وتركيزها على الخلايا المستقبلة للضوء التي تتميز بالحساسية الشديدة له .

ذوات الأربع عيون :

هناك نوع من السمك أيضاً يسمى ذوات الأربع عيون فإذا عام فوق سطح الماء شاهد ما فوقها ، فى حين تبحث عيونه السفلى فى الماء عن فريسة يلتهمها .

عيون الحيتان :

نلاحظ أن وضع العين فى جسم الحيوان يوسع نطاق الرؤية أو يجده ، فأنت ترى الأمام والجانبين، ولكن موقع (عين الحوت) يسمح له برؤية ما يجرى خلفه أيضاً بعين كما يرى ما هو أمامه بالعين الأخرى .

(390/744)

ولكن ما تراه عين لا تراه الأخرى ، فكل منهما ثابتة فى موضعها واتجاهها . فإذا أراد الحوت مهاجمة فريسة له اتجه إليها من الأمام مباشرة وإذا أراد استطلاع ما حوله وقف فى الماء ودار بكل جسمه .

وللعيون فى الأحياء المائية تطورات غريبة فتولد بعض أسماكها بعيون عادية على الجانبين ولكنها لا تلبث أن تنمو حتى تزحف العينان وتستقر فى ناحية واحدة وعندئذ تتحول السمكة كلها وتسبح فى الماء وعيناها إلى فوق . ويشاركها فى اتجاه العيون أسماك فى أعماق البحار فهي غالباً ما تجد غذاءها فى العالم العلوي .

قال تعالى : " فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ " (الروم – 50)

تختلف الرؤية فى الماء عن الرؤية فى الهواء لأن الماء أقل شفافية من الهواء وكلما زاد عمق الماء نقصت شفافيته تدريجياً حتى يصبح معتماً ، لذلك تستطيع عين البشر أن ترى فى النور على بعد كيلو مترات أما عيون الأسماك فليس بمقدورها أن ترى أبعد من 15 متراً ، هذا إذا كان الماء صافياً والأشياء المنظورة فى نفس مستواها .

وإذا كان الماء عكراً فلا تزيد رؤيتها على مترين . بيد أن عيون الأسماك تفوق عين البشر فى حدة الرؤية فى الماء لأنها أبدعت على غاية الكمال لتناسب الرؤية فى الوسط الذي تسكنه .

ومع هذه القدرة الفذة على الرؤية فى الماء لا تزيد عيون الأسماك فى تركيبها عما فى عيون سائر الفقاريات من ثدييات وزواحف وطيور . لكن الخالق ببالغ حكمته وعظيم قدرته تصرف فى بعض أجزائها لتستطيع الرؤية فى الماء : فلم يجعل بلورة عينها مثل حبة العدس كما عند الإنسان ، بل جعلها على شكل كرة، ولم يجعلها خلف الحدقة كما عند الإنسان ، بل جعلها تدخل إلى الحدقة وتبرز من خلالها فوق سطح الرأس ، وتلك طرق يشهد علماء المرئيات بحسن ملاءمتها للرؤية الواضحة فى الماء وجعل العين كلها بارزة على سطح الرأس كهيئة فص الخاتم ليتمكن السمك من سبر مجال للرؤية أوسع لأنه عدم الرقبة .

ومما يميز عين السمك أن تكيف الإبصار مع المسافات (ويسمى التبئير) (1) يتم لديها بإبعاد أو تقريب البلورة من الشبكية ، بينما يكون فى سائر العيون بزيادة أو إنقاص تحدب البلورة ، ولو تأملنا فى سر هذه الخاصية لأخذنا العجب كل مأخذ .

فالإبقاء على الشكل الكروي للبلورة ضروري للرؤية الواضحة فى الماء ، سواء أكانت العين تنظر إلى شئ قريب أم بعيد ، ولو قامت البلورة بتغيير تحدبها كما يتم ذلك فى عيون سائر الحيوانات ، لفقدت شكلها الكروي ولتشوشت الرؤية فى الماء ، ولذا فإن الخالق جعل بلورة عين السمك مشدودة بعضلات تتحكم فى تحريكها بحيث يكون التبئير لديها بزيادة أو إنقاص المسافة بين البلورة والشبكية ، من غير أن يتبدل شكل البلورة الكروي فتبارك الله الذي أحسن كل شئ خلقه .

" مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ " (الأنعام – 46)

ومن أشد الأمور إثارة للدهشة أن من السمك ما عدم البصر لكن ليس فيه ما هو أصم ، لأن السمع أعظم الحواس وأنسبها لمن كان يعيش فى الماء ، ذلك أن السمع يتم بواسطة الصوت ، والصوت ينتقل فى الماء أسرع وأبعد وأفضل منه فى الهواء بعكس الضوء فكان الاعتماد على السمع فى إدراك المحسوسات أساسياً لدى الأسماك .

وإنه ليأخذك العجب فى قدرة آذان الأسماك على التقاط أخفت صوت وأدنى حركة فى

الماء، حتى إن بعضاً منها، كالدلفين والبال، يستعمل الأذن لتحديد مواقع الفرائس وليهتدي سواء السبيل بواسطة جهاز "سونار" (2) يفوق فى دقته أقوى "سونار" اصطناعي.

ومن حكمة الباري أن جعل فى السمك خاصية تعينه على الاهتداء لأن الرؤية محدودة فى الماء فجهزه بحاسة سادسة حيرت الإنسان طويلاً ولم يفهمها إلا أخيراً، وهى حاسة اللمس عن بعد، وهذا الإحساس يحصل عن طريق عضو دقيق جداً يظهر على شكل خط فى جنبي السمك ويلتقط كل حركة اهتزازية فى الماء وتبلغ حساسيته درجة كبيرة بحيث تمكن السمك من التوجه إلى ما يريد حتى لو فقئت عيناه.

(392/744)

ومما يسترعى النظر أن عيون الأسماك عاطلة من الأجفان، وما ذلك إلا من حسن التدبير. لأن الخالق لما أسكنها الماء أغناها عن عملية ترطيب العين، فتظل مفتوحة العين حتى وهى نائمة.

"يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ" (فاطر – 1)

ومن الغريب أن هناك سمكاً فريداً فى نوعه يعيش فى المستنقعات الاستوائية المالحة فى غرب افريقيا وفى أقصى الشرق ويقضى نصف حياته فى الماء والنص*9" له عينان

جاحظتان جحوظاً كبيراً ، وهما عاطلتان من الأجفان لكنهما رطبتان على الدوام وإن لم يكن السمك فى الماء فقد جعل الله فيه خاصية عجيبة إذ تغور عيناه داخل رأسه فى تجاويف ندية تحفظهما من الجفاف .

ولعل أشد العيون غرابة هي عيون سمك "الأنبلابس" الذى يعيش فى أنهار أمريكا الوسطي والجنوبية فإن هذا السمك يرى على السواء ما يجرى فى الماء والهواء فى الوقت نفسه بعينين تنقسم كل واحدة منهما إلى جزئين : جزء سفلى فيه عدسة سميكة تجعل السمك يرى فى الماء كسائر الحيتان ، وجزء علوي رقيق يجعله يرى فى الهواء لاختلاف الكثافة الضوئية للماء عن كثافة الهواء ، وهذا من بديع الصنع لأن الضوء ينكسر مساره عند انتقاله من الماء إلى الهواء لاختلاف الكثافة الضوئية للماء عن كثافة الهواء الضوئية فيتطلب الإبصار فى الماء عدسة ذات بعد بؤري طويل بينما يتطلب الإبصار فى الهواء عدسة ذات بعد بؤري قصير ، ولذلك فإنه لما يطفو هذا السمك على سطح الماء يستعمل الحدقة العليا لرصد ما يجرى فوق الماء لاقتناص ما يقتات به من الحشرات ولاجتناب آكلات الأسماك من الطيور ، ويستعمل الحدقة السفلى لمراقبة أعدائه من الأسماك .

وبهذه العطية الغريبة يضاعف سمك "الأنبلابس" من حظه فى العثور على قوته ، وفى الهروب من أعدائه وليس بإمكان أي عين بشرية أو أي عين حيوان آخر أن تفعل مثل ذلك .

(3)

" الَّذِي خَلَقَ فسوي " (الأعلى – 2)

(393/744)

ومما يبعث على العجب أن نوعاً آخر من السمك يتغذى على الحشرات الجوية له قدرة مدهشة على تسديد نظره إلى ما يراه فى الهواء عبر الماء ، ذلك أن الضوء كما ذكرت آنفا ينحرف عند انتقاله من وسط شفاف إلى وسط آخر شفاف مختلف عنه ، فعندما تنظر أيها القارئ إلى ملعقة فى كأس ماء يخيل إليك أنها انكسرت ، وإذا نظرت إلى شئ ما تحت الماء بدا لك مرتفعاً عن موضعه الحقيقي ، لذلك إذا أردت أن ترمى هدفاً تحت الماء فإن عليك القيام بحساب معقد لتصويب نظرك وسمك "النبال" تعترضه نفس المشكلة لكن فى اتجاه مضاد فحين يرى حشرة على غصن متدل يقترب من سطح الماء ويرمى الحشرة بقذفة مائية دقيقة قلما تخطئها .

وبوسع سمك (النبال) أن يصيب هدفه على بعد يقارب المترين ولا أحد يدرى كيف اهتدى هذا السمك إلى معرفة قانون انكسار الضوء ولا كيف استطاع أن يصوب رميته تصويباً يعجز الإنسان عنه . . إنما هي قدرة الله الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى .

وقضت حكمة الخلاق العليم إعطاء الأحياء على اختلاف أصنافها وأجناسها كل ما تحتاج إليه من أعضاء ، وما يناسبها ويلائم بيئتها من المؤهلات اللازمة للحياة . فأنشأ لها ما لا يحصى من الأعضاء وأبدع من العضو الواحد ضروباً مختلفة تبعاً لظروف حياة كل موجود .

والعين من هذه الأعضاء التي ابتدعها الخالق وعدلها تعديلاً يناسب صاحب العين فكانت آية فى الصنع والإتقان وقد رأينا بعض ما أبدع الخالق من أعاجيب فى عيون الزواحف وبعض الأسماك ، ونتابع الآن النظر فى أسرار عيون أصناف أخرى من أحياء عالم البحار .

" ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ " (فصلت – 12)

(394/744)

من حكمة الخالق أن أسماك القاع، كسمك موسى والشفنين، لها عيون يختلف موقعها من الرأس عن عيون الأسماك، فإنه سبحانه لما جعلها لا تجيد السباحة خلقها على صورة فريدة ، فجعل لها جسماً مفلطحاً بحيث تستطيع ملازمة قعر البحر والانبطاح فيه ، وجعل عينيها فى ظهرها حفظاً لبصرها ، وجعلهما بارزتين لتستطيع الرؤية وهى مختبئة فى

الرمل .

ومن الغريب أن هذه الأسماك المسطحة الجسم تبدو كأترابها عند خروجها من البيضة . فلها جانبان متناظران لا يختلف أحدهما عن الأخر ، وعين فى كل جانب ، لكن سرعان ما يتغير شكلها فيتفلطح جسمها تدريجياً ، وتقترب العين اليسرى من اليمنى فى بعض الأنواع ، واليمنى من اليسرى فى البعض الآخر حتى تصبح العينان فى الجانب الأعلى من الرأس .

ويتجلى حسن الصنعة فى عيون سمك القرش المطرقى فهذا السمك الغريب الشكل له رأس عريضة ممتدة من الجانبين كأنها مطرقة ، وتوجد كل عين على جانب من هذه المطرقة فلولا هذا الموقع لم يتمكن من رؤية ما أمامه أو ما وراءه .

" إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ " (الحجر – 86)

وإذا نظرنا إلى الرخويات مثل الإخطبوط والحبار ، وجدنا أن أجسامها لما كانت هشة لا تحميها أصداف ، وهبها الخالق عيوناً كبيرة إلا أن بصرها حسير ، فهي لا ترى بوضوح إلا وهى على بعد متر واحد ، ولا يضرها ألا ترى رؤية واضحة وهى أدنى من ذلك ، لأن فريستها تكون عندئذ فى متناول مجساتها القوية العديدة . ولا ضير فى عدم رؤيتها أبعد من ذلك لأن الذى شمل مخلوقاته بعنايته ، قد خصها بقدرة فذة على التحرك المباغت للتخلص من أعدائها والانقضاض على فرائسها مع القدرة على تغيير لونها . وعلاوة على

ذلك فقد زودها سبحانه بسلاح عجيب تدرؤ به عن نفسها الخطر . فكلما شعرت بما يؤذيها ضخت فى الماء سائلاً أسود كالحبر واندفعت حي لا يراها عدوها .

(395/744)

ومن عجيب ما يلاحظ فى الأحياء البحرية بالنسبة للعيون ، عين السرطان (أبو جلمبو) . فقد رفعها الخالق فوق قرن دقيق فى مقدمة رأسه . والحكمة فى ذلك أنه حيوان رخو أعزل . ليس له صدفة تحميه ، فأُعين على مراقبة كل ما يدب حوله بعينين كشافتين . فإذا أحس بالخطر توارى بنفسه فى الرمل ثم نصب عينيه فوق الرمل مثل منظار الغواصة لاستكشاف ما حوله ، وله من حدة الرؤية ما يمكنه من رؤية جسم طوله 1.80 متراً من مسافة 18 متراً .

" فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ " (المؤمنون – 14)

ولنحاول الآن أن تنزل إلى أعماق البحر لنرى كيف خص الخالق بعضاً من مخلوقاته بقدرة خارقة على الرؤية فى أشد ظلمات البحر ظلمة .

من المعروف أن درجة الإضاءة فى قاع البحر تختلف عنها فى سطحه لأن الضوء يتناقص تدريجياً كلما غار فى الأعماق ، فإذا نزلنا فى الماء 100 متر لم نجد من الضوء إلا قليلاً .

وإذا نزلنا مسافة 800 متر فما تحتها لم نجد للضوء أثراً . ولذلك قسمت البحار إلى ثلاث طبقات حسب درجة الإضاءة ، طبقة سطحية مضاءة ، وطبقة عميقة مظلمة بينهما طبقة وسطي ليس فيها غير بصيص من نور . وإنه لعجيب أن يكون لكل طبقة منها أجناس وأنواع من الأسماك مقسومة وأعجب من ذلك أن تتمايز عيون الأسماك بين طبقة وأخرى ، فعيون أسماك الطبقة العليا صغيرة إذ أن مقدار ما يصل إليها من الضوء كبير ، وعيون أكثر أسماك الطبقة الوسطي بالغة الكبر إذ أن كمية النور النافذة إليها ضئيلة ، فأعينت على التقاط مزيد من الضوء بكبر العيون ، ولو كانت عيونها صغيرة للاقت عناء عظيماً فى أن تبصر (4) ولما كانت الإشعاعات الزرقاء هي الإشعاعات الضوئية الوحيدة التى تستطيع أن تنفذ إلى أعمق من 100 متر داخل الماء ، فقد زود سبحانه وتعالى عيون أسماك هذه الطبقة بشبكية تحوى عناصر حساسة للأشعة الزرقاء من دون الأشعة الأخرى ، ومن حكمة الخالق أن جعل عيون هذه الأسماك أشد عيون الفقريات حساسية للنور .

"يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاء " (فاطر – 1)

والآن هل خطر ببالك كيف يتسنى لمخلوقات قيعان البحار والمحيطات اللجية أن ترى ما دامت الرؤية لا تتم بواسطة النور وما دام نور الشمس لا يلج أبعد من عمق 800 متر ؟ لقد جهز القادر المدبر بعضاً منها بغدد جلدية يشع منها ضياء يبدد الظلام الدامس فى الأعماق السحيقة . (5) أما البعض الآخر فقد جعل له بكتيريات تعشش فى أماكن من جسمه تولد له بصيصاً من نور يهتدي به فى سبحه .

(397/744)

وإذا فحصت الغدد المضيئة وجدتها مبدعة إبداعاً عجيباً ، وهذه المصابيح الفسفورية الطبيعية كروية الشكل وتتركب من ثنايات عديدة منتظمة على شكل أشعة الدولاب ، تحتوى كل ثنية منها على خلايا مخاطية مضيئة ، ويحيط بالغدة غشاء باطنه مفضض وظاهره فيه صبغة سوداء بحيث يعمل تماماً كالمرآة العاكسة ، وفى مقدمة الغدة توجد عدسة محدبة تلم الأشعة الضوئية فتجعلها أكثر إشعاعاً .

وهذه المصابيح عجيبة فى مواقعها وأعدادها وأحجامها ففي بعض أنواع السمك تكون كثيرة ودقيقة ، وتنظم فى صفوف على جانبى السمكة وعلى بطنها كأنها عقود فى اللآلئ وقد تكون زوجاً مستقراً على كتفي السمكة كأنه منارة سيارة كما فى "السمكة الفانوس"

وقد تكون واحدة كالتي عند السمك المصنر (أبو الشص) وهو سمك غريب له شوكة طويلة تشبه إلى حد بعيد قصبة الصيد تنبت فوق خطمه وفى نهايتها نفاخة كبيرة مضيئة ، وله قدرة على إدارة هذه الشوكة وتلويحها إلى الأمام حتى إذا اقتربت منه الأسماك الصغيرة المنجذبة بضوء النفاخة فغرفاه الكبير وسفطها سفطة واحدة .

ولا تنس السمك الذى يستعين فى الرؤية بنور الجراثيم المضيئة المعششة تحت لحافه فقد وظفها الخالق لخدمته مقابل نصيب مفروض من الأكسجين والغذاء تأخذه منه .

" وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ " (الذاريات -20)

وأخيراً دعنا نلق نظرة على أسماك الكهوف حيث لا أثر للنور فيها ، ومن بينها الكهوف المنتشرة فى العراق وإيران واندونيسيا والمكسيك وأستراليا ، فإننا نجد فيها مجارى مياة جوفية تعيش فيها أسماك عجيبة غريبة أخذ الله بصرها وطمس أعينها لكن عماها لا يصدها عن أن تهتدي إلى سبيلها فقد أوتيت من قوة الشم والسمع ومن "حس اللمس عن بعد" ما لا يدانيها فيه أي سمك آخر فسبحان الذى وهب لها تلك القوة عوضاً لها عما فقدته من نور البصر .

كذلك أسماك المياة العكرة والموحلة ، لما كانت رؤيتها محدودة ، زودها الخالق بمولدات تبعث بموجات كهربائية ضعيفة تنعكس على كل ما تصطدم به فتُمكن السمكة أن تكشف عما يحيط بها وأن تهتدي سواء السبيل .

عيون فى عين :

لعلك شاهدت (فرس النهر) أو بعض تلك الديدان التي نراها فوق سطح الماء فإن عينها الواحدة مقسمة عدة عيون بحواجز إلى عدة اتجاهات ، وفى عينيها أصباغ خاصة تقسم حدقة العين ، ففي الوقت ذاته فى إمكان العين الواحدة أن تنظر فوقها وتحتها ، كما أن بعض الحشرات تشاهد ما تحت أرجلها وما فوق رأسها فى وقت واحد .

ترى بدون عيون :

وتعال معي إلى بعض الديدان التي لا تجد فيها عيوناً على الإطلاق وألق عليها ظل أى ضوء تجد أنها تهرب وتنزوي لأن جسمها شديد الحساسية يشعرها بأي اختلاف فى الضوء ومن يدرى لعلها ترى بجلدها ما لا تراه بعينك .

عيون النمل :

ومن الأمثلة البارزة أيضاً (النمل) الذي نراه كل يوم ، فعيناه لا ترى الأشياء ولكنها تفرق فقط بين الضوء والظلام ، وله حواس قوية جداً مثل الراديو تنقل إليه مظاهر العالم البعيدة والقريبة .

عيون الطيور :

أنت تستخدم النظارة الطبية لتقي بها عينيك وهج الشمس ولكن عيون الطيور مزودة بنظارات طبيعية تغطى بها عدسات عيونها ، ثم تحدق فى وهج الشمس فترى كل ما أمامها دون أن تتأثر . هذا الغطاء الشفاف يقي عيونها أيضاً من الغبار والتراب فيوفر عليها عناء الذهاب إلى طبيب العيون للعلاج من أمراض اللحمية والحبوب وغيرها . . . .

فسبحان من هذا خلقه .

عيون الصقر :

إن عيني الصقر هما أقوى عضوين للإبصار فى جميع المخلوقات .

يقول العلماء : يستطيع الصقر أن يلمح فريسته من بعد يزيد على كيلو مترين ، وترجع قوة الإبصار فى الصقر إلى ضخامة مقلتيه ، كما أن سمك شبكية عينيه (وهى الأنسجة التى تسقط عليها صور المرئيات خلف العين) يبلغ ضعف سمك شبكية عين الإنسان .

(399/744)

وعلاوة على هذا نرى أن شبكية عين الصقر تحتوى على ملايين من خلايا الضوء ولمعانه ، وذلك لأنها مبطنة بنقط صغيرة من الزيت لونها أصفر وهذه النقط تؤدى الوظيفة نفسها

التي يؤديها مرشح (فلتر) آلة التصوير مع فارق التشبيه ، فهذا للتقريب فقط .

وعلى هذا فإن الإنسان يعد قصير النظر إذا ما قورن بمثل هذه الحيوانات وهذه فى حد ذاتها تعد نعمة من الله تعالى ، لأن الإنسان بذلك يستطيع قراءة وتمييز الحروف التى يستخدمها فى الكتابة وتبادل المعلومات فلسنا فى حاجة إلى هذه القدرة المعجزة على الإبصار فالله سبحانه وتعالى خلق لنا عينين مناسبتين تماماً للأنشطة التي خلقنا لها ، ووهب كل نوع من الكائنات على هذه الأرض الأعين المثلي للرؤية فى الوسط الذي يعيش فيه .

عين البومة :

وما دمنا نتكلم عن حدة الإبصار فلا يمكننا أن نتجاهل ذلك الكائن الغامض الذى نطلق عليه اسم (البوم) .

إن البوم يرى الأشياء على مقدار من الضوء يقل مائة مرة عما يحتاج إليه الإنسان للرؤية ، فعيناه المتجهتان للأمام خُلقتا للتحديق إلى ظلمة دامسة ، وعلى غرار البشر يتمتع البوم بنظر مزدوج .

تقول الأساطير : إنك إذا أردت أن تقتل بومة على شجرة فما عليك إلا أن تدور حول الشجرة لأن البومة فى هذه الحالة ستظل تتابعك بعينها وهى تدير رأسها حتى تتم دورة كاملة فينقطع عنقها ، وهذا ليس صحيحاً ، إلا أن حركة الارتداد لدى البوم سريعة

خاطفة ، ولذلك يبدو وكأن رأسها دارت دورة كاملة ، والبوم يرى أمواج الأشعة الحرارية تحت الحمراء .

ذبابة بأربع عشرة عيناً :

توصل فريق مشترك من الباحثين البلجيكيين والسويسريين برئاسة البروفيسور (وولتر غيرسرينغ) مدير المختبر البيولوجى الحكومي فى جامعة بال لاكتشاف ذبابة تحتوى على أربع عشرة عيناً متموضعة فى أماكن مختلفة ، فمنها على الأجنحة وبعضها على القائمين وأخرى على قرون الاستشعار ، وذلك بعد أربع سنوات من الأبحاث والتجارب .

(400/744)

وقد يصاب المرء لأول وهله بالدهشة والاستغراب لهذا النبأ ، إلا أن الأمر يصبح عادياً عندما يعلم أن خلايا الكائنات الحية ، سواء منها الإنسان أو الذبابة أو دودة الأرض تمتلك فى نواتها جميع الجينات التي تسمح بنمو كائن مشابه ، وهى لا تقوم بهذا العمل لأنها تبقى فى حالة سبات .

فخلية البنكرياس على سبيل المثال لا تنشط فيها سوى الجينات المخصصة لأجلها وهى الجينات التى تشترك فى إنتاج الأنسولين والجلوكاجون ، فى حين تبقى الجينات الأخرى فى

حالة سبات .

ولقد ركز هذا الفريق أعماله على الجينة الرئيسية التى تقود عملية تشكيل العين والرؤية ، وهذه الجينة لا تؤدى عملها بشكل طبيعي سوى فى الخلايا المتواجدة فى مكان العيون وقد توصل هؤلاء الباحثون إلى تحريضها على العمل فى أماكن أخرى من الجسم ، وذلك بالمداخلة فى المرحلة الجينية كذبابة الخل ، ولكن يبرز السؤال الهام التالى : –

هل هذه العيون المستشكلة بهذه الطريقة تقوم بعمل العين الطبيعية أم لا ؟

هذا ما يحاول العلماء معرفته ، خاصة وأنه يستوجب على هذه العيون لتقوم بعملها أن تكون متصلة الدماغ عن طريق الأعصاب البصرية .

ويقول البروفيسور (وولتر غير سرينغ) أن لهذه التجربة تطبيقات تخص بعض الحالات المرضية فى الإنسان ، حين يصاب بعض الأشخاص بالعمى أو ببعض التشوهات الوظيفية

الجمل أول من عرف النظارات :

قبل أن يعرف الإنسان النظارات الشمسية بمدة طويلة عرفها الجمل ، ففي عينيه جفن ثالث شفاف يسدله عليها فيقيهما وهج الشمس .

عيون الزواحف

وتعال لننظر إلى دقة الخالق العظيمة ، وروعة الهندسة الحكيمة ، وعجائب الصنعة فى

عيون بعض الزواحف .

"يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ" (فاطر – 1)

(401/744)

إذا نظرت إلى الحرباء مثلاً ، وجدت أن البارئ خلقه بطئ الحركة ، فأعطاه مع القدرة على التلون والسكون عينين بارزتين كبيرتين تدوران إلى كل جهة من الجهات ليتسع مجال رؤيته ، بالإضافة إلى القدرة على تحريك كل عين على حدة . فيستطيع أن يرصد كل ما يحيط به فى زاوية 180 درجة عمودياً و90 درجة أفقياً دون أن يتحرك قيد شعرة وهذه لعمري قدرة مدهشة لا يدانيه فيها أي حيوان .

وإذا لمحت عين من العينين فريسته ، تأبرت (6) العينان معاً لتحديد موقعها ، بينما يدور الرأس فى اتجاهها بحيث يكون فى متناول لسان الحرباء الطويل اللزج الذى ينطلق فى ربع ثانية نحو الفريسة فيخطفها ويرتد بمنتهى السرعة إلى داخل الفم .

وإذا نظرت إلى الحيات رأيتها تحدق دائماً تحديقاً منوماً ، ويرجع ذلك إلى أنها لا تملك أجفاناً ، لكن الخالق جعل على سطح مقلتها قشوراً صلبة شفافة كأنها العدسات البلاستيكية اللاصقة، تغطيها لتقيها أذى الغبار والأعواد وهى تسعى على الأرض أو

تنساب بين أغصان الشجر .

ومن العجب أن الحية إذا انسلخت من غشائها لتجديده ، تتخلق لها عدسات جديدة مكان العدسات البالية التي تطرح مع الغشاء القديم .

"وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا" (الفرقان -2)

وهناك أنواع من السحالي جهزها الخالق بنظارات شفافة كالتي عند الثعابين ووهبها لساناً طويلاً تستعمله لتنظيفها ، ومن السحالي ما يملك جفنين معهما غشاء شفاف رامش يقي العين من شدة الحر والضوء ، ومنها ما له جفنان ، جفن أعلى وجفن أسفل يحتوى فى وسطه على شباك شفاف .

(402/744)

وتتكيف الغدد الدمعية بمقتضى حاجة الزواحف ، فالحيات بخلاف الزواحف الأخرى ، لها غدد دمعية ضامرة أو معدومة تماماً بما أن الخالق كفاها مؤونة تنظيف العين بأن جعل لها تلك القشرة الشفافة أما سلاحف البحر فلها غدد دمعية عظيمة لكن ليس لها قناة دمعية تصرف الدمع من الأنف كما عند التماسيح والسحالي وعند الإنسان ، لذلك ترى أعينها تفيض من الدمع وقد ظلت هذه الخاصة تحير العلماء إلى أن تبينوا أخيراً أن سلحفاة

البحر تتخلص فى دمعها من كميات كبيرة من الملح تزيد زيادة مفرطة عن حاجة جسمها .

(7)

وفى كل شئ له أية

وإذا نظرنا إلى شكل حدقة العين فى الزواحف وجدناه يختلف اختلافاً كبيراً بين نوع وآخر ، ففي الزواحف التى تنشط فى النهار تكون الحدقة دائرية . أما الزواحف الليلية فلها حدقة مستطيلة ، وذلك من حسن التقدير .

فالحدقة ، (وهى الثقب الذى يعبر منه النور إلى داخل العين) ، تضيق وتتسع حسب درجة الإضاءة ، فإذا كان الضوء باهتاً انفتحت ، وإذا كان باهراً انقبضت حتى لا يدخل العين إلا ما يلزم من الضوء لرؤية أفضل ، وإنقباض الحدقة مهم أيضاً لكي لا يؤذى النور الباهر عصيات الشبكية ، (وهى نهايات عصبية حساسة تمكن من الإبصار فى الضوء الخافت أو فى الليل) وبما أن الزواحف ، بخلاف الطيور والثدييات ، حيوانات ذوات دم بارد لا تنشط إلا فى الحر ، ولا ترتفع حرارتها إلا إذا اصطلت بأشعة الشمس التى تتعرض لها طويلاً لخزن الحرارة ، ولما كان الشكل المستطيل أنسب من المستدير لتضييق الحدقة ولحد كمية النور الداخلة فقد جعله الخالق فى الزواحف الليلية .

"صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ " (النمل – 88)

ومن أغرب أشكال الحدقات عند الزواحف ، تلك التي عند وزغ "الجيكو" وعند بعض ثعابين الأشجار .

(403/744)

أما وزغ "الجيكو" فله حدقة بشكل شق عمودي به فتحات دقيقة مستديرة ، والصور المتفرقة المتكونة عبر كل فتحة تجتمع على قاع العين لتكون صورة واحدة أوضح من تلك التى تتكون لو كانت هناك فتحة واحدة مساحتها مجموع مساحات الفتحات الدقيقة ، وبهذه الكيفية يحافظ الوزغ على حدة إبصاره حتى لو قلل إلى حد بعيد كمية النور الداخلة عبر البؤبؤ .

وأما الثعابين الشاجرة فإن لبعضها حدقات مستطيلة أفقياً فى شكل قفل ، وهذا الشكل فى غاية الإبداع فأوسع فتحتي القفل واقعة فى الجانب الخارجي من العين بحيث تكون هي وحفرة الخطم الجانبية وقاع العين على خط مستقيم واحد ، مما يزيد مجال الرؤية

عيون البرمائيات :

ومما يلاحظ أن البرمائيات ، وهى الحيوانات التى تعيش تارة فى البر وتارة أخرى فى الماء كالضفدع والتمساح لها عينان جاحظتان وفى السطح العلوي من الرأس ، تعينها على

الرؤية خارج الماء وهى غاطسة ، فالتمساح مثلاً يترصد فريسته وهو ساكن تحت الماء حتى يبدو وكأنه خشبة طافية ولا يظهر منه إلا عيناه وفتحتا أنفه فإذا اقتربت منه فريسته انقض عليها .

والضفدع عيناه بارزتان عن رأسه وتتحركان فى كل الاتجاهات ليتمكن من رؤية "بانورامية" لأنه عُدم الرقبة ، والملاحظ أن عين الضفدع مغطاة بجفنين ، الأعلى جلدي ، والأسفل رقيق شفاف لا يكاد يكف عن الرمش ليرطب العين باستمرار . (8)

عين . . أم شاشة تليفزيون ؟

(404/744)

ولتقف الآن أمام آية أخرى من آيات الإبصار الباهرة هي تكيف عين الضفادع حسب ما يلائم حياتها فى الماء ثم فى الهواء ذلك أن الضفدعة تضع بيضها فى الماء ثم تخرج منه حيوانات دقيقة لا تشبهها ولا تعيش إلا فى الماء لكن سرعان ما تكبر بقدر معلوم وتتحول إلى ضفادع فتية فتترك الماء لتعيش فى اليابسة هذا الانتقال من الحياة فى الماء إلى الحياة فى البر تسبقه تغيرات عجيبة فى صورة الضفدع ، من أعجبها تلك التى تطرأ على الجهاز البصري ، فالرؤية فى الماء غير الرؤية فى الهواء ولعلك لاحظت أيها القارئ ، أن عينك

التى خلقت لتبصر فى الهواء ، تنقص قدرتها على الرؤية حين تكون فى الماء ، حتى إنك لا تستطيع عد أصابع يدك وذراعك ممدودة .

لذلك تتكيف عين الضفدع بحيث تكون قادرة على الرؤية الواضحة فى الهواء فيتبدل تحدب عدسة العين وتنقص المسافة بين العدسة والشبكية بقدر مناسب ، وتبرز العين ويخلق لها عضلات تحركها إلى أعلى حتى تكون الرؤية واسعة كما يخلق لها جفنان لتقيها ، وغدد دمعية لتطهرها بعد أن كانت فى غنى عن ذلك وهى منغمسة فى الماء .

ومن أغرب الأساليب ذلك الأسلوب الذي تعمل به عين الضفدعة ، فالعالم الذي تشاهده الضفادع فى منتهى الغرابة ، عالم لا يظهر فيه إلا كل ما هو متحرك ، أما ما هو ساكن فلا وجود له فى عالمها ، فكأن الضفدعة جالسة أمام شاشة تلفاز مظلمة فإذا تحرك شئ من حولها ظهر على الشاشة حتى يقف عن الحركة ، وعندئذ تظلم الشاشة مرة أخرى .

(405/744)

وهذه العين العجيبة مناسبة جداً لحياة الضفدعة فهي لا تأكل إلا الحشرات الحية وتستطيع بها أن تكتشف مكان ذبابة متحركة على مرمى لسانها ، فالذبابة عندما تقف على فرع حشيشة تهتز صورتها فى الحال على (شاشة) الضفدعة ، وكيف لا تلحظها وهى

الوحيدة على الشاشة من العالم كله ، لذلك لا تفلت أية فريسة من مثل هذه الأعين اليقظة .

وفى استطاعتك أن تحيط الضفدعة بعدد من الذباب الميت الذى لا يتحرك ، وعندئذ لن تعرف الضفدعة أبداً أن الذباب الميت موجود حولها وذلك لأن عينيها لا تبلغا المخ كل ما تراه بل تخطره فقط بما تحتاج إلي رؤيته من أجل البقاء .

تلك لمحات سريعة لما تنطوي عليه أعين بعض الكائنات الحية من أسرار عرضتها عليك لتعلم كيف يدبر الله لكل نوع ما يليق به . فسبحان الخالق جل جلاله .

كلمة أخيرة :

إننا لو درسنا عين كل كائن حي فسنرى فيها مميزات غريبة وإعجازات ربانية تفوق الوصف واختلافات متباينة تتناسب مع البيئة التى تعيش فيها مما ييسر له سبل الحياة مع باقي الكائنات الحية الأخرى المتباينة .

وكما رأينا فإن كل مخلوق على هذه الأرض ميسر لما خلق له ، وكل عضو فى كل كائن صممه الخالق المبدع جل وعلا بحيث يؤدى المهمة المطلوبة منه ليسير كل شئ بقدر معلوم .

فالجرثومة فى أمعاء الإنسان لا ترى الإنسان ولا تعرف له شكلاً ، والبوم يرى الفأر فى الظلام الدامس بواسطة الأشعة الحرارية التى تشع من جسمه الدافئ ، ويرى النحل الأشعة فوق البنفسجية ولو غابت الشمس ، وعين الضفدع محددة فى عالم ذي حركات معينة لا تستجيب لغيرها وفقاً لمتطلبات الحياة الخاصة بها . انتهى انتهى

د . محمد السقا عيد

ماجستير وأخصائى جراحة العيون

عضو الجمعية الرمدية المصرية

جمهورية مصر العربية

دمياط - المياسرة (34731)

ت : 851395 عيادة

854754 منزل

Dr_mohamed_60@hotmail.com

المصادر :

1- سحر العيون . . . بين الجمال والحب والغزل - سيد صديق عبد الفتاح - الدار المصرية اللبنانية

2- مجلة "المجاهد" المصرية - العدد (188) - السنة السادسة عشرة - ذو الحجة 1416هـ - أبريل مايو 1996م .

3 مجلة "الكويت" الكويتية - العدد (149) شوال 1416 هـ - مارس 1996م .

4- مجلة "منار الإسلام" الظبيانية - العدد السادس - السنة الحادية عشرة - جمادي

الآخرة 1406هـ -فبراير 1986م.

5- "المجلة العربية" السعودية - عدد جمادي الثانية 1406هـ - مارس 1989م.

6- مجلة "البصريات" المصرية - العدد الثامن - جمعية البصريين المصرية.

(406/744)

قوله تعالى ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (80) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي:

ولما كان من العظمة الباهرة ما ظهر في هذه السورة من أفانين الإنعام في الدارين، وبدأ بنعمة الآخرة لكونها النتيجة، ثم دل عليها بإنعامه في الدنيا فكان تذكيراً بالنعم لتشكر، ودلالة على النتيجة لتذكر، وفي كل حالة تستحضر فلا تكفر، فوصلت الدلالة إلى حد هو أوضح من المحسوس وأضوأ من المشموس، وكان مع هذه الأمور الجليلة في مظهر أعجز الخلائق على أن يأتوا بمثله من كل وجه، أما من جهة الجواب عن تشبههم وتعنتهم فلكونه

يطابق ذلك مطابقة لا يمكن أن يكون شيء مثلها ، ويزيد على ذلك بما شاء الله من المعارف من غير أن يدع لبساً ، وأما من جهة المفردات فلكونها النهاية في جلالة الألفاظ ورشاقة الحروف وجمع المعاني ، فيفيد ذلك أنه لا تقوم كلمة أخرى مقام كلمة منه أصلاً ، وأما من جهة التركيب فلكون كل كلمة منها أحق في مواضعها بحيث إنه لو قدم شيء منها أو أخر لاختل المعنى المراد في ذلك السياق بحسب ذلك المقام ، وأما من جهة الترتيب في الجمل والآيات والقصص في المبادئ والغايات فلكونه مثل تركيب الكلمات ، كل جملة منتظمة بما قبلها انتظام الدر اليتيم في العقد المحكم النظيم ، لأنها إما أن تكون علة لما تلته أو دليلاً أو متممة بوجه من الوجوه الفائقة على وجه ممتع الجناب جليل الحجاب لتكون أحلى في فمه ، وأجلى بعد ذوقه في نظمه وسائر علمه ، فكان ثبوت جميع ما أخبر به على وجه لا مغتمر فيه ولا وقفة في اعتقاد حسنه ، فثبت أن الله تعالى أرسل الآتي بهذا القرآن ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالهدى وبالحق ، لا أنه آتاه كل ما ينبغي له ، فآتاه الحكمة وهي البراهين القاطعة واستعمالها على وجوهها ، والموعظة الحسنة ، وهي الأمور المرققة للقلوب المنورة للصدور ، والمجادلة التي هي على أحسن الطرق في نظم معجز موجب للإيمان ، فكان من سمعه ولم يؤمن لم يبق له من الممحلات إلا أن يقول : هذا البيان ليس لظهور المدعى وثبوته بل لقوة عارضة المدعي وقوته على

تركيب الأدلة وصوغ الكلام وتصريف وجوه المقال ، وهو يعلم أنه يغلب لقوة جداله لا لظهور مقاله ، كما أنه ربما يقول أحد المتناظرين عند انقطاعه لخصمه : أنت تعلم أن الحق معي لكنك تستضعفني ولا تنصفني ، فحينئذ لا يبقى للخصم جواب إلا الإقسام بالإيمان التي لا مخرج عنها أنه غير مكابر وأنه منصف ، وإنما يفزع إلى الإيمان لأنه لو أتى بدليل آخر لكان معرضاً لمثل هذا ، فيقول : وهذا غلتني فيه لقوة جدالك وقدرتك على سوق الأدلة ببلاغة مقالك ، فلذلك كانوا إذا أفحمهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا : إنه يريد أن يتفضل علينا فيما نعلم خلافه ، فلم يبق إلا الإقسام ، فأنزل الله أنواعاً من الأقسام بعد الدلائل العظام ، ولهذا كثرت الآيات في أواخر القرآن ، وفي السبع الأخيرة خاصة أكثر ، فلذلك سبب عن هذه الأدلة الرائعة والبراهين القاطعة قوله : ﴿ فلا أقسم ﴾ بإثبات " لا " النافية ، إما على أن يكون مؤكدة بأن ينفي ضد ما أثبته القسم ، فيجمع الكلام بين إثبات المعنى المخبر به ونفي ضده ، وإما على تقدير أن هذا المقام يستحق لعظمته وإنكارهم له أن يقسم عليه بأعظم من هذا على ما له من العظمة لمن له علم – والله أعلم .

(408/744)

ولما كان الكلام السابق في الماء الذي جعله سبحانه مجمعاً للنعيم الدنيوية الظاهرة وقد رتب سبحانه لإنزاله الأنواء على منهاج دبره وقانون أحكمه ، وجعل إنزال القرآن نجوماً مفرقة وبوارق متلالئة متألقة قال : ﴿ بمواقع النجوم ﴾ أي بمساقط الطوائف القرآنية المنيرة النافعة المحيية للقلوب ، وبهبوطها الذي ينبني عليه ما ينبني من الآثار الجليلة وأزمان ذلك وأماكنه وأحواله ، وبمساقط الكوكب وأنوائها وأماكن ذلك وأزمانه في تدبيره على ما ترون من الصنع المحكم والفعل المتقن المقوم ، الدال بغروب الكواكب على القدرة على الطي بعد النشر والإعدام بعد الإيجاد ، وبطلوعها الذي يشاهد أنها ملجأة إليه إلجاء الساقط من علو إلى سفل لا يملك لنفسه شيئاً ، لقدرته على الإيجاد بعد الإعدام ، وبآثار الأنواء على مثل ذلك بأوضح منه – إلى غير ذلك من الدلالات التي يضيق عنها العبارات ، ويقصر دون علياها مديد الإشارات ، ولمثل هذه المعاني الجليلة والخطوب العظيمة جعل في الكلام اعتراضاً بين القسم وجوابه ، وفي الاعتراض اعتراضاً بين الموصوف وصفته تأكيداً للكلام ، وهزاً لنافذ الأفهام تنبيهاً على أن الأمر عظيم والخطب فادح جسيم ، فقال موضحاً له بالتأكيد رحمة للعبيد بالإشارة إلى أنهم جروا على غير ما يعلمون من عظمتنا فعدوا غير عالمين : ﴿ وإنه ﴾ أي هذا القسم على هذا المنهج ﴿ لقسم لو تعلمون ﴾ أي لو تجدد لكم في وقت علم لعلمتم أنه ﴿ عظيم ﴾ وإقسامه لنا على ذلك ونحن أقل قدراً وأضعف أمراً إعلاماً بما له من الرحمة التي من عظمها أنه لا يتركنا سدى – كل ذلك ليصلح أنفسنا باتباع

أمره والوقوف عند زجره ، قال ابن برجان : ومن إتقانه جل جلاله في خليقته وحكمه في بريته أن جعل لكل واقع من النجوم الفلكية طالعاً يسمى بالإضافة إلى الواقع الرقيب دون تأخر ، وذلك هو المشار إليه بقوله تعالى :

(409/744)

﴿ رب المشرقين ورب المغربين فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ [الرحمن : 18] يجمع ذلك الشمس والقمر والنجوم وهي نجوم منازل القمر عددها ثمانية وعشرون منزلة سوى تحجبها الشمس فتمت تسع وعشرون منزلة يشتشرفها القمر ، فربما استتر ليلة وربما استتر ليلتين ، فالقمر ينزل في هذه المنازل كل ليلة منزلة حتى يتمها لتمام الشهر ، وإما الشمس فإنها تقيم فيها أربعة عشر يوماً ويسمى حلولها في هذه المحال ثم طلوع المنزلة التي تليها لوقوع هذا رقيب لها نوء – انتهى ، وهو يعني أن من تأمل هذه الحكم علم ما في هذا القسم من العظم ، وأشبع القول فيها أبو الحكم ، وبين ما فيها من بدائع النعم ، ثم قال : ويفضل الله بفتح رحمته كما يشاء فينزل من السماء ماء مباركاً يكسر به من برد الزمهرير فيرطبه ويبرد من حر السعير فيعدله ، وقسم السنة على أربعة فصول أتم فيها أمره في الأرض بركاتها وتقدير أقواتها ، قال ﴿ وبارك فيها وقدر بها أقواتها في أربعة أيام ﴾ [

فصلت : 10] في قراءتنا (فيها) بدل (بها) ا .

.ه

ثم قال : وجعل هذه الدنيا على هذا الاعتبار الجنة الصغرى ، ولو أتم القسم على هذا الوجه ثم على الاعتبار تخفيفه الفيح وإنارته الزمهرير والسعير هي جهنم الصغرى .

ولما أتم القسم على هذا الوجه الجليل ، أجابه بقوله مؤكداً لما لهم من ظاهر الإنكار : ﴿ إنه ﴾ أي القرآن الذي أفهمته النجوم بعموم أفهامها ﴿ لقرآن ﴾ أي جامع سهل قريب مفقه مبين للغوامض ذو أنواع جليلة ﴿ كريم ﴾ ظهرت فيه أفانين إنعامه سبحانه فيما دق من أمور هذه الدنيا وجل من أمور الدارين بما ذكر في هذه السورة وما تقدمها من إصلاح المعاش والمعاد ، فهو بالغ الكرم منزه عن كل شائبة نقص ولؤم ودناءة ، من كرمه كونه من الملك الأعلى إلى خير الخلق بسفارة روح القدس وبلسان العرب الذين اتفق الفرق على أن لسانهم أفصح الألسن وعلى وجه أعجز العرب .

(410/744)

ولما ذكر المعنى ، ذكر محل النظم الدال عليه بلفظ دال على نفس النظم فقال : ﴿ في كتب ﴾ أي خط ومخطوط فيه جامع على وجه هو في غاية الثبات ﴿ مكنون ﴾ أي هو في

ستر مصون لما له من النفاسة والعلو في السماء في اللوح المحفوظ ، وفي الأرض في الصدور المشرفة ، وفي السطور في المصاحف المكرمة المطهرة ، محفوظاً مع ذلك من التغيير والتبديل .

ولما كان ما هو كذلك قد يحصل له خلل يسوء خدامه قال : ﴿ لا يمسه ﴾ أي الكتاب الذي هو مكتوب الذي هو مكتوب فيه أعم من أن يكون في السماء أو في الأرض أو القرآن أو المكتوب منه فضلاً عن أن يتصرف فيه ﴿ إلا المطهرون ﴾ أي الطاهرون الذين بولغ في تطهيرهم وهم رؤوس الملائكة الكرام ، ولم يكن السفير به إلاّ هم ولم ييسر الله حفظه إلا لأطهر عباده ، ولم يعرف معناه إلا لأشرف حفاظه وأطهرهم قلوباً ، ومن عموم ما يتحمله اللفظ من المعنى بكونه كلام العالم لكل شيء فهو لا يحمل لفظاً إلا وهو مراد له أنه يحرم منه على من لم يكن له في غاية الطهارة بالبعد عن الحدثين الأكبر والأصغر ، فهو على هذا نفي بمعنى النهي وهو أبلغ ، قال البغوي : وهو قول أكثر أهل العلم ، وروي بإسناد من طريق أبي مصعب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو ابن حزم أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله لعمرو بن حزم ـ رضى الله عنه ـ (أن لا يمس القرآن إلا طاهر) والمراد به المصحف للجوار كما في النهي أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو .

ومما يحتمله أيضاً التعبير باللمس أنه لا يقرأه بلسانه إلا طاهر ، فإن أريد الجنابة كان النهي للحرمة أو للأكمل .

ولما ذكر الذي منه صيانته ، أتبعه شرفه بشرف منزله وإنزاله على حال هو في غاية العظمة مسمياً له باسم المصدر للمبالغة ولأن هذا المصدر أغلب أحواله ، ولذلك غلب عليه هذا الأسم : ﴿ تنزيل ﴾ أي وصوله إليكم بالتدريج بحسب الوقائع والتقريب للأفهام والتأني والترقية من حال إلى حال وحكم بواسطة الرسل من الملائكة .

(411/744)

ولما كان هذا في غاية الاتفاق واليسر ذكر من صفاته ما يناسبه فقال : ﴿ من رب العالمين ﴾ من الخالق العالم بتربيتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 422 . 426 ﴾

(412/744)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في الترتيب ووجهه هو أن الله تعالى لما أرسل رسوله بالهدى ودين الحق آتاه كل ما ينبغي له وطهره عن كل مالا ينبغي له فآتاه الحكمة وهي البراهين القاطعة واستعمالها على وجوهها ، والموعظة الحسنة وهي الأمور المفيدة المرققة للقلوب المنورة للصدور ، والمجادلة التي هي على أحسن الطرق فأتى بها وعجز الكل عن معارضته بشيء ولم يؤمنوا والذي يتلى عليه ، كل ذلك ولا يؤمن لا يبقى له غير أنه يقول : هذا البيان ليس لظهور المدعى بل لقوة ذهن المدعى وقوته على تركيب الأدلة وهو يعلم أنه يغلب بقوة جداله لا بظهور مقاله وربما يقول أحد المناظرين للآخر عند انقطاعه أنت تعلم أن الحق بيدي لكن تستضعفني ولا تنصفني وحينئذ لا يبقى للخصم جواب غير القسم بالأيمان التي لا مخارج عنها أنه غير مكابر وأنه منصف ، وذلك لأنه لو أتى بدليل آخر لكان له أن يقول : وهذا الدليل أيضاً غلبتني فيه بقوتك وقدرتك ، فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم لما آتاه الله جل وعز ما ينبغي قالوا : إنه يريد التفضل علينا وهو يجادلنا فيما يعلم خلافه ، فلم يبق له إلا أن يقسم فأنزل الله تعالى عليه أنواعاً من القسم بعد الدلائل ، ولهذا كثرت الأيمان في أوائل التنزيل وفي السبع الأخير خاصة .

المسألة الثانية :

في تعلق الباء ، نقول : إنه لما بين أنه خالق الخلق والرزق وله العظمة بالدليل القاطع ولم يؤمنوا قال : لم يبق إلا القسم فأقسم بالله إني لصادق .

المسألة الثالثة :

ما المعنى من قوله .

(413/744)

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ مع أنك تقول : إنه قسم ؟ نقول : فيه وجوه منقولة ومعقولة غير مخالفة للنقل ، أما المنقول فأحدها : أن (لا) زائدة مثلها في قوله تعالى : ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ ﴾ [الحديد : 29] معناه ليعلم ثانيها : أصلها لأقسم بلام التأكيد أشبعت فتحتها فصارت لا كما في الوقف ثالثها : لا ، نافية وأصله على مقالتهم والقسم بعدها كأنه قال : لا ، والله لا صحة لقول الكفار أقسم عليه ، أما المعقول فهو أن كلمة لا هي نافية على معناها غير أن في الكلام مجازاً تركيبياً ، وتقديره أن نقول : لا في النفي هنا كهي في قول القائل لا تسألني عما جرى علي ، يشير إلى أن ما جرى عليه أعظم من أن يشرح فلا ينبغي أن يسأله فإن غرضه من السؤال لا يحصل ولا يكون غرضه من ذلك النهي إلا بيان عظمة الواقعة ويصير كأنه قال : جرى على أمر عظيم .

ويدل عليه أن السامع يقول : له ماذا جرى عليك ولو فهم من حقيقة كلامه النهي عن السؤال لما قال : ماذا جرى عليك ، فيصح منه أن يقول : أخطأت حيث منعتك عن السؤال ، ثم سألتني وكيف لا ، وكثيراً ما يقول ذلك القائل الذي قال : لا تسألني عند سكون صاحبه عن السؤال ، أو لا تسألني ، ولا تقول : ماذا جرى عليك ولا يكون للسامع أن يقول : إنك منعتني عن السؤال كل ذلك تقرر في أفهامهم أن المراد تعظيم الواقعة لا النهي ، إذا علم هذا فنقول في القسم : مثل هذا موجود من أحد وجهين إما لكون الواقعة في غاية الظهور فيقول : لا أقسم بأنه على هذا الأمر لأنه أظهر من أن يشهر ، وأكثر من أن ينكر ، فيقول : لا أقسم ولا يريد به القسم ونفيه ، وإنما يريد الإعلام بأن الواقعة ظاهرة ، وإما لكون المقسم به فوق ما يقسم به ، والمقسم صار يصدق نفسه فيقول لا أقسم يميناً بل ألف يمين ، ولا أقسم برأس الأمير بل برأس السلطان ويقول : لا أقسم بكذا مريداً لكونه في غاية الجزم والثاني : يدل عليه أن هذه الصيغة لم ترد في القرآن والمقسم به هو الله تعالى أو صفة من صفاته ، وإنما جاءت أمور مخلوقة والأول لا يرد عليه إشكال إن قلنا إن المقسم به في جميع المواضع رب الأشياء كما في قوله :

﴿ والصافات ﴾ [الصافات : 1] المراد منه رب الصافات ورب القيامة ورب الشمس إلى غير ذلك فإذاً قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بمواقع النجوم ﴾ أي الأمر أظهر من أن يقسم عليه ، وأن يتطرق الشك إليه .

المسألة الرابعة :

مواقع النجوم ما هي ؟ فنقول : فيه وجوه الأول : المشارق والمغارب أو المغارب وحدها ، فإن عندها سقوط النجوم الثاني : هي مواضعها في السماء في بروجها ومنازلها الثالث : مواقعها في اتباع الشياطين عند المزاحمة الرابع : مواقعها يوم القيامة حين تنتثر النجوم ، وأما مواقع نجوم القرآن ، فهي قلوب عباده وملائكته ورسله وصالحي المؤمنين ، أو معانيها وأحكامها التي وردت فيها .

المسألة الخامسة :

هل في اختصاص مواقع النجوم للقسم بها فائدة ؟ قلنا : نعم فائدة جليلة ، وبيانها أنا قد ذكرنا أن القسم بمواقعها كما هي قسم كذلك هي من الدلائل ، وقد بيناه في الذاريات ، وفي الطور ، وفي النجم ، وغيرها ، فنقول : هي هنا أيضاً كذلك ، وذلك من حيث إن الله تعالى

لما ذكر خلق الآدمي من المني وموته ، بين بإشارته إلى إيجاد الضدين في الأنفس قدرته واختياره ، ثم لما ذكر دليلاً من دلائل الأنفس ذكر من دلائل الآفاق أيضاً قدرته واختياره ، فقال : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ [الواقعة : 63] ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ الماء ﴾ [الواقعة : 68] إلى غير ذلك ، وذكر قدرته على زرعه وجعله حطاماً ، وخلقه الماء فراتاً عذباً ، وجعله أجاجاً ، إشارة إلى أن القادر على الضدين مختار ، ولم يكن ذكر من الدلائل السماوية شيئاً ، فذكر الدليل السماوي في معرض القسم ، وقال : مواقع النجوم ، فإنها أيضاً دليل الاختيار ، لأن كون كل واحد في موضع من السماء دون غيره من المواضع مع استواء المواضع في الحقيقة دليل فاعل مختار ، فقال : ﴿ بمواقع النجوم ﴾ ليس إلى البراهين النفسية والآفاقية بالذكر كما قال تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءاياتنا فِي الآفاق وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت : 53] وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَفِي الأرض ءايات لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : 20 ، 21] ﴿ وَفِي السماء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات : 22] حيث ذكر الأنواع الثلاثة كذلك هنا ، ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ والضمير عائد إلى القسم الذي يتضمنه قوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ فإنه يتضمن ذكر المصدر ، ولهذا توصف المصادر التي لم تظهر بعد الفعل ، فيقال : ضربته قوياً ، وفيه مسائل نحوية ومعنوية ، أما

النحوية :

فالمسألة الأولى :

(416/744)

هو أن يقال : جواب ﴿ لَّوْ تَعْلَمُونَ ﴾ ماذا ، وربما يقول بعض من لا يعلم : إن جوابه ما تقدم وهو فاسد في جميع المواضع ، لأن جواب الشرط لا يتقدم ، وذلك لأن عمل الحروف في معمولاتها لا يكون قبل وجودها ، فلا يقال : زيداً إن قام ولا غيره من الحروف والسر فيه أن عمل الحروف مشبه بعمل المعاني ، ويميز بين الفاعل والمفعول وغيرهما ، فإذا كان العامل معنى لا موضع له في الحس فيعلم تقدمه وتأخر مدرك بالحس ، جاز أن يقال : قائماً ضربت زيد ، أو ضرباً شديداً ضربته ، وأما الحروف فلها تقدم وتأخر مدرك بالحس فلم يمكن بعد علمنا بتأخرها فرض وجودها متقدمة بخلاف المعاني ، إذا ثبت هذا فنقول : عمل حرف الشرط في المعنى إخراج كل واحدة من الجملتين عن كونها جملة مستقلة ، فإذا قلت : من ، وأن ، لا يمكن إخراج الجملة الأولى عن كونها جملة بعد وقوعها جمل ، ليعلم أن حرفها أضعف من عمل المعنى لتوقفه على عمله مع أن المعنى أمكن فرضه متقدماً ومتأخراً ، وعمل الأفعال عمل معنوي ، وعمل الحروف عمل مشبه بالمعنى ، إذا ثبت هذا فنقول في

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى ﴾ [يوسف : 24] قال بعض الوعاظ متعلق بلولا ، فلا يكون الهم وقع منه ، وهو باطل لما ذكرنا ، وهنا أدخل في البطلان ، لأن المتقدم لا يصلح جزاء للمتأخر ، فإن من قال : لو تعلمون إن زيداً لقائم ، لم يأت بالعربية ، إذا تبين هذا فالقول يحتمل وجهين أحدهما : أن يقال : الجواب محذوف بالكلية لم يقصد بذلك جواب ، وإنما يراد نفي ما دخلت عليه لو ، وكأنه قال : وإنه لقسم لا تعلمون ، وتحقيقه أن لو تذكر لامتناع الشيء لامتناع غيره ، فلا بد من انتفاء الأول ، فإدخال لو على تعلمون أفادنا أن علمهم منتف ، سواء علمنا الجواب أو لم نعلم ، وهو كقولهم في الفعل المتعدي فلان يعطى ويمنع ، حيث لا يقصد به مفعول ، وإنما يراد إثبات القدرة ، وعلى هذا إن قيل : فما فائدة

العدول إلى غير الحقيقة ، وترك قوله : إنه لقسم ولا تعلمون ؟ فنقول : فائدته تأكيد النفي ، لأن من قال : لو تعلمون كان ذلك دعوى منه ، فإذا طولب وقيل : لم قلت إنا لا نعلم يقول : لو تعلمون لفعلتم كذا ، فإذا قال في ابتداء الأمر : لا تعلمون كان مريداً للنفي ، فكأنه قال : أقول : إنكم لا تعلمون قولاً من غير تعلق بدليل وسبب وثانيهما : أن يكون له جواب تقديره : لو تعلمون لعظمتموه لكنكم ما عظمتموه ، فعلم أنكم لا تعلمون ، إذ لو تعلمون لعظم في أعينكم

، ولا تعظيم فلا تعلمون .

المسألة الثانية :

إن قيل قوله : ﴿ لَّوْ تَعْلَمُونَ ﴾ هل له مفعول أم لا ؟ قلنا : على الوجه الأول لا مفعول له ، كما في قولهم : فلان يعطي ويمنع ، وكأنه قال : لا علم لكم ، ويحتمل أن يقال : لا علم لكم بعظم القسم ، فيكون له مفعول ، والأول أبلغ وأدخل في الحسن ، لأنهم لا يعلمون شيئاً أصلاً لأنهم لو علموا لكان أولى الأشياء بالعلم هذه الأمور الظاهرة بالبراهين القاطعة ، فهو كقوله : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ ﴾ [البقرة : 18] وقوله : ﴿ كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف : 179] وعلى الثاني أيضاً يحتمل وجهين أحدهما : لو كان لكم علم بالقسم لعظمتموه وثانيهما : لو كان لكم علم بعظمته لعظمتموه .

المسألة الثالثة :

كيف تعلق قوله تعالى : ﴿ لَّوْ تَعْلَمُونَ ﴾ بما قبله وما بعده ؟ فنقول : هو كلام اعتراض في أثناء الكلام تقديره : وإنه لقسم عظيم لو تعلمون لصدقتم ، فإن قيل : فما فائدة الاعتراض ؟ نقول : الاهتمام بقطع اعتراض المعترض ، لأنه لما قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ ﴾ أراد أن يصفه

بالعظمة بقوله : عظيم والكفار كانوا يجهلون ذلك ويدعون العلم بأمور النجم ، وكانوا يقولون : لو كان كذلك فما باله لا يحصل لنا علم وظن ، فقال : لو تعلمون لحصل لكم القطع ، وعلى ما ذكرنا الأمر أظهر من هذا ، وذلك لأنا قلنا : إن قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ ﴾ معناه الأمر واضح من أن يصدق بيمين ، والكفار كانوا يقولون : أين الظهور ونحن نقطع بعدمه ، فقال : لو تعلمون شيئاً لما كان كذلك ، والأظهر منه أنا بينا أن كل ما جعله الله قسماً فهو في نفسه دليل على المطلوب وأخرجه مخرج القسم ، فقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ ﴾ معناه عند التحقيق ، وإنه دليل وبرهان قوي لو تعلمون وجهه لاعترفتم بمدلوله ، وهو التوحيد والقدرة على الحشر ، وذلك لأن دلالة اختصاص الكواكب بمواضعها في غاية الظهور ولا يلزم الفلاسفة دليل أظهر منه ، وأما المعنوية :

فالمسألة الأولى :

ما المقسم عليه ؟ نقول : فيه وجهان الأول : القرآن كانوا يجعلونه تارة شعراً وأخرى سحراً وغير ذلك وثانيهما : هو التوحيد والحشر وهو أظهر ، وقوله : ﴿ لقرآن ﴾ ابتداء كلام وسنبين ذلك .

المسألة الثانية :

ما الفائدة في وصفه بالعظيم في قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ ﴾ فنقول : لما قال : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ وكان معناه : لا أقسم بهذا لوضوح المقسم به عليه .

قال : لست تاركاً للقسم بهذا ، لأنه ليس بقسم أو ليس بقسم عظيم ، بل هو قسم عظيم ولا أقسم به ، بل بأعظم منه أقسم لجزمي بالأمر وعلمي بحقيقته .

المسألة الثالثة :

(419/744)

اليمين في أكثر الأمر توصف بالمغلظة ، والعظم يقال : في المقسم حلف فلان بالأيمان العظام ، ثم تقول في حقه يمين مغلظة لأن آثامها كبيرة .

وأما في حق الله عز وجل فبالعظيم وذلك هو المناسب ، لأن معناه هو الذي قرب قوله من كل قلب وملأ الصدر بالرعب لما بينا أن معنى العظيم فيه ذلك ، كما أن الجسم العظيم هو الذي قرب من أشياء عظيمة وملأ أماكن كثيرة من العظم ، كذلك العظيم الذي ليس بجسم قرب من أمور كثيرة ، وملأ صدوراً كثيرة .

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الضمير في قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ﴾ عائد إلى ماذا ؟ فنقول : فيه وجهان أحدهما : إلى معلوم

وهو الكلام الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان معروفاً عند الكل ، وكان الكفار يقولون : إنه شعر وإنه سحر ، فقال تعالى رداً عليهم : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءانٌ ﴾ عائد إلى مذكور وهو جميع ما سبق في سورة الواقعة من التوحيد ، والحشر ، والدلائل المذكورة عليهما ، والقسم الذي قال فيه : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ ﴾ [الواقعة : 76] وذلك لأنهم قالوا : هذا كله كلام محمد ومخترع من عنده ، فقال : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ .

المسألة الثانية :

(420/744)

القرآن مصدر أو اسم غير مصدر ؟ فنقول : فيه وجهان أحدهما : مصدر أريد به المفعول وهو المقروء ومثله في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْاناً سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ [الرعد : 31] وهذا كما يقال في الجسم العظيم : أنظر إلى قدرة الله تعالى أي مقدوره وهو كما في قوله تعالى : ﴿ هذا خَلْقُ الله فَأَرُونِى ﴾ [لقمان : 11] ثانيهما : اسم لما يقرأ كالقربان لما يتقرب به ، والحلوان لما يحلى به فم المكاري أو الكاهن وعلى هذا سنبين فساد قول من رد على الفقهاء قولهم في باب الزكاة : يعطى شيئاً أعلى مما وجب ويأخذ الجبران أو يعطى شيئاً دونه ، ويعطى الجبران أيضاً ، حيث قال : الجبران مصدر لا يؤخذ ولا يعطى ، فيقال

له هو كالقرآن بمعنى المقروء ، ويجوز أن يقال : لما أخذ جابر أو مجبور أو يقال : هو اسم لما يجبر به كالقربان .

المسألة الثالثة :

إذا كان هذا الكلام للرد على المشركين فهم ما كانوا ينكرون كونه مقروءاً فما الفائدة في قوله : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ ﴾ ؟ نقول فيه وجهان أحدهما : أنه إخبار عن الكل وهو قوله : قرآن كريم فهم كانوا ينكرون كونه قرآناً كريماً وهم ما كانوا يقرون به وثانيهما : وهو أحسن من الأول ، أنهم قالوا : هو مخترع من عنده وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إنه مسموع سمعته وتلوته عليكم فما كان القرآن عندهم مقروءاً ، وما كانوا يقولون : إن النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن وفرق بين القراءة والإنشاء ، فلما قال : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ ﴾ أثبت كونه مقروءاً على النبي صلى الله عليه وسلم ليقرأ ويتلى فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ ﴾ سماه قرآناً لكثرة ما قرئ ، ويقرأ إلى الأبد بعضه في الدنيا وبعضه في الآخرة .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿كَرِيمٌ﴾ فيه لطيفة ؟ وهي أن الكلام إذا قرىء كثيراً يهون في الأعين والآذان ، ولهذا ترى من قال : شيئاً في مجلس الملوك لا يذكره ثانياً ، ولو قيل فيه : يقال لقائله لم تكرر هذا ، ثم إنه تعالى لما قال : ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ﴾ أي مقروء قرىء ويقرأ ، قال : ﴿كَرِيمٌ﴾ أي لا يهون بكثرة التلاوة ويبقى أبد الدهر كالكلام الغض والحديث الطري ، ومن هنا يقع أن وصف القرآن بالحديث مع أنه قديم يستمد من هذا مدداً فهو قديم يسمعه السامعون كأنه كلام الساعة ، وما قرع سمع الجماعة لأن الملائكة الذين علموه قبل النبي بألوف من السنين إذا سمعوه من أحدنا يتلذذون به التذاذ السامع بكلام جديد لم يذكر له من قبل ، والكريم اسم جامع لصفات المدح ، قيل : الكريم هو الذي كان طاهر الأصل ظاهر الفضل ، حتى إن من أصله غير زكي لا يقال له كريم مطلقاً ، بل يقال له : كريم في نفسه ، ومن يكون زكي الأصل غير زكي النفس لا يقال له : كريم إلا مع تقييد ، فيقال : هو كريم الأصل لكنه خسيس في نفسه ، ثم إن السخي المجرد هو الذي يكثر عطاؤه للناس ، أو يسهل عطاؤه ويسمى كريماً ، وإن لم يكن له فضل آخر لا على الحقيقة ولكن ذلك لسبب ، وهو أن الناس يحبون من يعطيهم ، ويفرحون بمن يعطى أكثر مما يفرحون بغيره ، فإذا رأوا زاهداً أو عالماً لا يسمونه كريماً ، ويؤيد هذا أنهم إذا رأوا واحداً لا يطلب منهم شيئاً يسمونه كريم النفس لمجرد تركه الاستعطاء لما أن الأخذ منهم صعب عليهم وهذا كله في العادة الرديئة ، وأما في الأصل فيقال : الكريم هو الذي استجمع فيه ما ينبغي من طهارة الأصل وظهور الفضل ،

ويدل على هذا أن السخي في معاملته ينبغي أن لا يوجد منه ما يقال بسببه إنه لئيم ، فالقرآن أيضاً كريم بمعنى طاهر الأصل ظاهر الفضل لفظه فصيح ، ومعناه صحيح لكن القرآن أيضاً كريم على مفهوم العوام فإن كل من طلب منه شيئاً أعطاه ، فالفقيه يستدل به ويأخذ منه ، والحكيم يستمد به

(422/744)

ويحتج به ، والأديب يستفيد منه ويتقوى به ، والله تعالى وصف القرآن بكونه كريماً ، وبكونه عزيزاً ، وبكونه حكيماً ، فلكونه كريماً كل من أقبل عليه نال منه ما يريده فإن كثيراً من الناس لا يفهم من العلوم شيئاً وإذا اشتغل بالقرآن سهل عليه حفظه ، وقلما يرى شخص يحفظ كتاباً يقرؤه بحيث لا يغير منه كلمة بكلمة ، ولا يبدل حرفاً بحرف وجميع القراء يقرأون القرآن من غير توقف ولا تبديل ، ولكونه عزيزاً أن كل من يعرض عنه لا يبقى معه منه شيء ، بخلاف سائر الكتب ، فإن من قرأ كتاباً وحفظه ثم تركه يتعلق بقلبه معناه حتى ينقله صحيحاً ، والقرآن من تركه لا يبقى معه منه شيء لعزته ولا يثبت عند من لا يلزمه بالحفظ ، ولكونه حكيماً من اشتغل به وأقبل عليه بالقلب أغناه عن سائر العلوم .

وقوله تعالى : ﴿ فِى كتاب ﴾ جعله شيئاً مظروفاً بكتاب فما ذلك ؟ نقول فيه وجهان

أحدهما : المظروف : القرآن ، أي هو قرآن في كتاب ، كما يقال : فلان رجل كريم في بيته ، لا يشك السامع أن مراد القائل : أنه في الدار قاعد ولا يريد به أنه كريم إذا كان في الدار ، وغير كريم إذا كان خارجاً ولا يشك أيضاً أنه لا يريد به أنه كريم في بيته ، بل المراد أنه رجل كريم وهو في البيت ، فكذلك ههنا أن القرآن كريم وهو في كتاب ، أو المظروف كريم على معنى أنه كريم في كتاب ، كما يقال : فلان رجل كريم في نفسه ، فيفهم كل أحد أن القائل لم يجعله رجلاً مظروفاً فإن القائل : لم يرد أنه رجل في نفسه قاعد أو نائم ، وإنما أراد به أنه كريم كرمه في نفسه ، فكذلك قرآن كريم فالقرآن كريم في اللوح المحفوظ وإن لم يكن كريماً عند الكفار

ثانيهما : المظروف هو مجموع قوله تعالى : (لقرآن كريم) أي هو كذا في كتاب كما يقال :

(423/744)

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ [المطففين : 19] في كتاب الله تعالى ، والمراد حينئذ أنه في اللوح المحفوظ نعته مكتوب : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ والكل صحيح ، والأول أبلغ في التعظيم بالمقروء السماوي .

المسألة الخامسة :

ما المراد من الكتاب ؟ نقول فيه وجوه الأول : وهو الأصح أنه اللوح المحفوظ ويدل عليه قوله

تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : 20 ، 21] الثاني : الكتاب هو المصحف الثالث : كتاب من الكتب المنزلة فهو قرآن في التوراة والإنجيل وغيرهما فإن قيل كيف سمي الكتاب كتاباً والكتاب فعال ، وهو إذا كان للواحد فهو إما مصدر كالحساب والقيام وغيرهما ، أو اسم لما يكتب كاللباس واللثام وغيرهما ، فكيفما كان فالقرآن لا يكون في كتاب بمعنى المصدر ، ولا يكون في مكتوب ، وإنما يكون مكتوباً في لوح أو ورق ، فالمكتوب لا يكون في الكتاب ، إنما يكون في القرطاس ، نقول : ما ذكرت من الموازين يدل على أن الكتاب ليس المكتوب ولا هو المكتوب فيه أو المكتوب عليه ، فإن اللثام ما يلثم به ، والصوان ما يصان فيه الثوب ، لكن اللوح لما لم يكن إلا الذي يكتب فيه صح تسميته كتاباً .

المسألة السادسة :

المكتوب هو المستور قال الله تعالى : ﴿ كَأَمْثَالِ اللؤلؤ المكنون ﴾ [الواقعة : 23] ، قال : ﴿ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصافات : 49] فإن كان المراد من الكتاب اللوح فهو ليس بمستور وإنما الشيء فيه منشور ، وإن كان المراد هو المصحف فعدم كونه مكتوباً مستوراً ، فكيف

الجواب عنه ؟ فنقول : المكنون المحفوظ إذا كان غير عزيز يحفظ بالعين ، وهو ظاهر للناس فإذا كان شريفاً عزيزاً لا يكتفي بالصون والحفظ بالعين بل يستر عن العيون ، ثم كلما تزداد عزته يزداد ستره فتارة يكون مخزوناً ثم يجعل مدفوناً ، فالستر صار كاللازم للصون البالغ فقال : ﴿ مَّكْنُون ﴾ أي محفوظ غاية الحفظ ، فذكر اللام وأراد الملزوم وهو باب من الكلام الفصيح تقول مثلاً : فلان كبريت أحمر ، أي قليل الوجود والجواب الثاني : إن اللوح المحفوظ مستور عن العين لا يطلع عليه إلا ملائكة مخصوصون ، ولا ينظر إليه إلا قوم مطهرون ، وأما القرآن فهو مكتوب مستور أبد الدهر عن أعين المبدلين ، مصون عن أيدي المحرفين ، فإن قيل : فما فائدة كونه ﴿ فِى كتاب ﴾ وكل مقروء في كتاب ؟ نقول : هو لتأكيد الرد على الكفار لأنهم كانوا يقولون : إنه مخترع من عنده مفترى ، فلما قال : مقروء عليه اندفع كلامهم ، ثم إنهم قالوا : إن كان مقروءاً عليه فهو كلام الجن فقال : ﴿ فِى كتاب ﴾ أي لم ينزل به عليه الملك إلا بعد ما أخذه من كتاب فهو ليس بكلام الملائكة فضلاً أن يكون كلام الجن ، وأما إذا قلنا : إذا كان كريماً فهو في كتاب ، ففائدته ظاهرة ، وأما فائدة كونه في كتاب مكنون فيكون رداً على من قال : إنه أساطير الأولين في كتب ظاهرة ، أي فلم لا يطالعها الكفار ، ولم لا يطلعون عليه لا بل هو ﴿ فِى كتاب مَّكْنُونٍ * لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ ، فإذا بين فيما ذكرنا أن وصفه بكونه قرآناً صار رداً على من قال : يذكره من عنده ، وقوله : ﴿ فِى كتاب ﴾ رد على من قال : يتلوه عليه الجن حيث اعترف بكونه مقروءاً ونازع في

شيء آخر ، وقوله : ﴿ مَّكْنُون ﴾ رد على من قال : إنه مقروء في كتاب لكنه من أساطير الأولين .

المسألة السابعة :

﴿ لاَّ يَمَسُّهُ ﴾ الضمير عائد إلى الكتاب على الصحيح ، ويحتمل أن يقال : هو عائد إلى ما عاد إليه المضمر من قوله : ﴿ إِنَّهُ ﴾ ومعناه : لا يمس القرآن إلا المطهرون ، والصيغة إخبار ، لكن الخلاف في أنه هل هو بمعنى النهي ، كما أن قوله تعالى : ﴿ والمطلقات يَتَرَبَّصْنَ ﴾ [البقرة : 228] إخبار بمعنى الأمر ، فمن قال : المراد من الكتاب اللوح المحفوظ ، وهو الأصح على ما بينا ، قال : هو إخبار معنى كما هو إخبار لفظاً ، إذا قلنا : إن المضمر في ﴿ يَمَسُّهُ ﴾ للكتاب ، ومن قال : المراد المصحف اختلف في قوله ، وفيه وجه ضعيف نقله ابن عطية أنه نهي لفظاً ومعنى وجلبت إليه ضمة الهاء لا للإعراب ولا وجه له .

المسألة الثامنة :

إذا كان الأصح أن المراد من الكتاب اللوح المحفوظ ، فالصحيح أن الضمير في ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ ﴾ للكتاب ، فكيف يصح قول الشافعي رحمة الله تعالى عليه : لا يجوز مس

المصحف للمحدث ، نقول : الظاهر أنه ما أخذه من صريح الآية ولعله أخذه من السنة فإن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى عمرو بن حزم : " لا يمس القرآن من هو على غير طهر " أو أخذه من الآية على طريق الاستنباط ، وقال : إن المس يطهر صفة من الصفات الدالة على التعظيم والمس بغير طهور نوع إهانة في المعنى ، وذلك لأن الأضداد ينبغي أن تقابل بالأضداد ، فالمس بالمطهر في مقابلة المس على غير طهر ، وترك المس خروج عن كل واحدة منهما فكذلك الإكرام في مقابلة الإهانة وهناك شيء لا إكرام ولا إهانة فنقول : إن من لا يمس المصحف لا يكون مكرماً ولا مهيناً وبترك المس خرج عن الضدين ففي المس عن الطهر التعظيم ، وفي المس على الحدث الإهانة فلا تجوز وهو معنى دقيق يليق بالشافعي رحمه الله ومن يقرب منه في الدرجة .

(426/744)

ثم إن ههنا لطيفة فقهية لاحت لهذا الضعيف في حال تفكره في تفسير هذه الآية فأراد تقييدها هنا فإنها من فضل الله فيجب علي إكرامها بالتقييد بالكتاب ، وهي أن الشافعي رحمه الله منع المحدث والجنب من مس المصحف وجعلهما غير مطهرين ثم منع الجنب عن قراءة القرآن ولم يمنع المحدث وهو استنباط منه من كلام الله تعالى ، وذلك لأن الله تعالى منعه

عن المسجد بصريح قوله : ﴿ وَلاَ جُنُباً ﴾ [النساء : 43] فدل ذلك على أنه ليس أهلاً للذكر لأنه لو كان أهلاً للذكر لما منعه من دخول المسجد لأنه تعالى أذن لأهل الذكر في الدخول بقوله تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ [النور : 36] الآية ، والمأذون في الذكر في المسجد مأذون في دخول المسجد ضرورة فلو كان الجنب أهلاً للذكر لما كان ممنوعاً عن دخول المسجد والمكث فيه وأنه ممنوع عنهما وعن أحدهما ، وأما المحدث فعلم أنه غير ممنوع عن دخول المسجد فإن من الصحابة من كان يدخل المسجد وجوز النبي صلى الله عليه وسلم نوم القوم في المسجد وليس النوم حدثاً إذ النوم الخاص يلزمه الحكم بالحدث على اختلاف بين الأئمة وما لم يكن ممنوعاً من دخول المسجد لم يثبت كونه غير أهل للذكر فجاز له القراءة ، فإن قيل : وكان ينبغي أن لا يجوز للجنب أن يسبح ويستغفر لأنه ذكر ، نقول : القرآن هو الذكر المطلق قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] وقال الله تعالى : ﴿ والقرءان ذِى الذكر ﴾ [ص : 1] وقوله : ﴿ يُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ مع أنا نعلم أن المسجد يسمى مسجداً ، ومسجد القوم محل السجود ، والمراد منه الصلاة والذكر الواجب في الصلاة هو القرآن ، فالقرآن مفهوم من قوله : ﴿ يُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ ، ومن حيث المعقول هو أن غير القرآن ربما يذكر مريداً به معناه فيكون كلاماً غير ذكراً ، فإن من قال : أستغفر الله أخبر عن نفسه بأمر ، ومن قال : لا حول ولا قوة

(427/744)

إلا بالله العلي العظيم كذلك أخبر عن أمر كائن بخلاف من قال : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] فإنه ليس بمتكلم به بل هو قائل له غير آمر لغيره بالقول ، فالقرآن هو الذكر الذي لا يكون إلا على قصد الذكر لا على قصد الكلام فهو المطلق وغيره قد يكون ذكراً ، وقد لا يكون ، فإن قيل : فإذا قال :

(428/744)

﴿ ادخلوها بِسَلامٍ ﴾ [الحجر : 46] وأراد الإخبار ينبغي أن لا يكون قرآناً وذكراً ، نقول : هو في نفسه قرآن ، ومن ذكره على قصد الإخبار ، وأراد الأمر والإذن في الدخول يخرج عن كونه قارئاً للقرآن ، وإن كان لا يخرج عن كونه قرآناً ، ولهذا نقول نحن ببطلان صلاته ولو كان قارئاً لما بطلت ، وهذا جواب فيه لطف ينبغي أن يتنبه له المطالع لهذا الكتاب ، وذلك من حيث إني فرقت بين أن يقال ليس قول القائل : ﴿ ادخلوها بِسَلامٍ ﴾ على قصد الإذن قرآناً ، وبين قوله : ليس القائل ﴿ ادخلوها بِسَلامٍ ﴾ على غير قصد بقارىء للقرآن ، وأما

الجواب من حيث المعقول فهو أن العبادة على منافاة الشهوة ، والشهوة إما شهوة البطن ، وإما شهوة الفرج في أكثر الأمر ، فإن أحداً لا يخلو عنهما ، وإن لم يشته شيئاً آخر من المأكول والمشروب والمنكوح ، لكن شهوة البطن قد لا تبقى شهوة بل تصير حاجة عند الجوع وضرورة عند الخوف ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة : 21] أي لا يكون لحاجة ولا ضرورة بل لمجرد الشهوة وقد بيناه في هذه السورة ، وأما شهوة الفرج فلا تخرج عن كونها شهوة وإن خرجت تكون في محل الحاجة لا الضرورة ، فلا يعلم أن شهوة الفرج ليست شهوة محضة ، والعبادة فيها منضمة للشهوة ، فلم تخرج شهوة الفرج عن كونها عبادة بدنية قط بل حكم الشارع ببطلان الحج به ، وبطلان الصوم والصلاة ، وأما قضاء شهوة البطن فلما لم يكن شهوة مجردة بطل به الصلاة والصوم دون الحج ، وربما لم تبطل به الصلاة أيضاً ، إذا ثبت هذا فنقول : خروج الخارج دليل قضاء الشهوة البطنية ، وخروج المني دليل قضاء الشهوة الفرجية ، فواجب بهما تطهير النفس ، لكن الظاهر والباطن متحاذيان ، فأمر الله تعالى بتطهير الظاهر عند الحدث والإنزال لموافقه الباطن ، والإنسان إذا كان له بصيرة وينظر في تطهير باطنه عند الاغتسال للجنابة ، فإنه يجد خفة ورغبة في الصلاة والذكر وهنا تتمة

لهذه اللطيفة وهي أن قائلاً لو قال : لو صح قولك للزم أن يجب الوضوء بالأكل كما يجب بالحدث لأن الأكل قضاء الشهوة ، وهذا كما أن الاغتسال لما وجب بالإنزال ، لكونه دليل قضاء الشهوة ، وكذا بالإيلاج لكونه قضاء بالإيلاج ، فكذلك الإحداث والأكل فنقول : ههنا سر مكنون وهو ما بيناه أن الأكل قد يكون لحاجة وضرورة فنقول : الأكل لا يعلم كونه للشهوة إلا بعلامة ، فإذا أحدث علم أنه أكل ولا يعلم كونه للشهوة وأما الإيلاج فلا يكون للحاجة ولا يكون للضرورة فهو شهوة كيفما كان ، فناط الشارع إيجاب التطهير بدليلين أحدهما : قوله صلى الله عليه وسلم : " إنما الماء من الماء " فإن الإنزال كالإحداث ، وكما أن الحدث هو الخارج وهو أصل في إيجاب الوضوء ، كذلك ينبغي أن يكون الإنزال الذي هو الخروج هو الأصل في إيجاب الغسل فإن عنده يتبين قضاء الحاجة والشهوة فإن الإنسان بعد الإنزال لا يشتهي الجماع في الظاهر وثانيهما : ما روي عنه صلى الله عليه وسلم : الوضوء من أكل ما مسته النار فإن ذلك دليل قضاء الشهوة كما أن خروج الحدث دليله ، وذلك لأن المضطر لا يصبر إلى أن يستوي الطعام بالنار بل يأكل كيفما كان ، فأكل الشيء بعد الطبخ دليل على أنه قاض به الشهوة لا دافع به الضرورة ، ونعود إلى الجواب عن السؤال ونقول : إذا تبين هذا فالشافعي رضي الله عنه قضى بأن شهوة الفرج شهوة محضة ، فلا تجامع العبادة الجنابة ، فلا ينبغي أن يقرأ الجنب القرآن ، والمحدث يجوز له أن يقرأ لأن الحدث ليس يكون

عن شهوة محضة .

المسألة التاسعة :

(430/744)

قوله : ﴿ إِلاَّ المطهرون ﴾ هم الملائكة طهرهم الله في أول أمرهم وأبقاهم كذلك طول عمرهم ولو كان المراد نفي الحدث لقال : لا يمسه إلا المطهرون أو المطهرون ، بتشديد الطاء والهاء ، والقراءة المشهورة الصحيحة ﴿ المطهرون ﴾ من التطهير لا من الإطهار ، وعلى هذا يتأيد ما ذكرنا من وجه آخر ، وذلك من حيث إن بعضهم كان يقول : هو من السماء ينزل به الجن ويلقيه عليه كما كانوا يقولون في حق الكهنة فإنهم كانوا يقولون : النبي صلى الله عليه وسلم كاهن ، فقال : لا يمسه الجن وإنما يمسه المطهرون الذين طهروا عن الخبث ، ولا يكونون محلاً للإفساد والسفك ، فلا يفسدون ولا يسفكون ، وغيرهم ليس بمطهر على هذا الوجه ، فيكون هذا رداً على القائلين : بكونه مفترياً ، وبكونه شاعراً ، وبكونه مجنوناً بمس الجن ، وبكونه كاهناً ، وكل ذلك قولهم والكل رد عليهم بما ذكر الله تعالى ههنا من أوصاف كتاب الله العزيز .

المسألة العاشرة :

قوله : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ مصدر ، والقرآن الذي في كتاب ليس تنزيلاً إنما هو منزل كما قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الامين ﴾ [الشعراء : 193] نقول : ذكر المصدر وإرادة المفعول كثير كما قلنا في قوله تعالى : ﴿ هذا خَلْقُ الله ﴾ [لقمان : 11] فإن قيل : ما فائدة العدول عن الحقيقة إلى المجاز في هذا الموضع ؟ فنقول : التنزيل والمنزل كلاهما مفعولان ولهما تعلق بالفاعل ، لكن تعلق الفاعل بالمصدر أكثر ، وتعلق المفعول عبارة عن الوصف القائم به ، فنقول : هذا في الكلام ، فإن كلام الله أيضاً وصف قائم بالله عندنا ، وإنما نقول : من حيث الصيغة واللفظ ولك أن تنظر في مثال آخر ليتيسر لك الأمر من غير غلط وخطأ في الاعتقاد ، فنقول : في القدرة والمقدور تعلق القدرة بالفاعل أبلغ من تعلق المقدور ، فإن القدرة في القادر والمقدور ليس فيه ، فإذا قال : هذا قدرة الله تعالى كان له من العظمة ما لا يكون في قوله : هذا مقدور الله ، لأن عظمة الشيء بعظمة الله ، فإذا جعلت الشيء قائماً بالتعظيم غير مباين عنه كان أعظم ، وإذا ذكرته بلفظ يقال مثله فيما لا يقوم بالله وهو المفعول به كان دونه ، فقال : ﴿ تَنزِيلَ ﴾ ولم يقل : منزل ، ثم إن ههنا : بلاغة أخرى وهي أن المفعول قد يذكر ويراد به المصدر على ضد ما ذكرنا ، كما في قوله :

﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء : 80] أي دخول صدق أو إدخال صدق وقال تعالى : ﴿ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ [سبأ : 7] أي تمزيق ، فالممزق بمعنى التمزيق ، كالمنزل بمعنى التنزيل ، وعلى العكس سواء ، وهذه البلاغة هي أن الفعل لا يرى ، والمفعول به يصير مرئياً ، والمرئي أقوى في العلم ، فيقال : مزقهم تمزيقاً وهو فعل معلوم لكل أحد علماً بيناً يبلغ درجة الرؤية ويصير التمزق هنا كما صار الممزق ثابتاً مرئياً ، والكلام يختلف بمواضع الكلام ، ويستخرج الموفق بتوفيق الله ، وقوله : ﴿ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ أيضاً لتعظيم القرآن ، لأن الكلام يعظم بعظمة المتكلم ، ولهذا يقال لرسول الملك هذا كلام الملك أو كلامك وهذا كلام الملك الأعظم أو كلام الملك الذي دونه ، إذا كان الرسول رسول ملوك ، فيعظم الكلام بقدر عظمة المتكلم ، فإذا قال : ﴿ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ تبين منه عظمة لا عظمة مثلها وقد بينا تفسير العالم وما فيه من اللطائف ، وقوله : ﴿ تَنزِيلَ ﴾ رد على طائفة أخرى ، وهم الذين يقولون : إنه في كتاب ولا يمسه إلا المطهرون وهم الملائكة ، لكن الملك يأخذ ويعلم الناس من عنده ولا يكون من الله تعالى ، وذلك أن طائفة من الروافض يقولون : إن جبرائيل أنزل على علي ،

فنزل على محمد ، فقال تعالى : هو من الله ليس باختيار الملك أيضاً ، وعند هذا تبين الحق فعاد إلى توبيخ الكفار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 162 . 171 ﴾

(433/744)

وقال القرطبى :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ "لا" صلة في قول أكثر المفسرين ، والمعنى فأقسم ؛ بدليل قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ ﴾ .

وقال الفراء : هي نفي ، والمعنى ليس الأمر كما تقولون ، ثم استأنف "أُقْسِمُ" .

وقد يقول الرجل : لا والله ما كان كذا فلا يريد به نفي اليمين ، بل يريد به نفي كلام تقدّم .

أي ليس الأمر كما ذكرت ، بل هو كذا .

وقيل : "لا" بمعنى أَلَا للتنبيه كما قال :

أَلَا عِمْ صَبَاحاً أَيُّها الطَّلَلُ الْبَالِي . . .

ونبه بهذا على فضيلة القرآن ليتدبروه ، وأنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة كما زعموا .

وقرأ الحسن وحميد وعيسى بن عمر "فَلأُقْسِمُ" بغير ألف بعد اللام على التحقيق وهو فعل حالٍ ويقدر مبتدأ محذوف ، التقدير : فلأنا أقسم بذلك .

ولو أريد به الاستقبال للزمت النون ، وقد جاء حذف النون مع الفعل الذي يراد به الاستقبال وهو شاذ .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ بِمَوَاقِعِ النجوم ﴾ مواقع النجوم مساقطها ومغاربها في قول قتادة وغيره .

عطاء بن أبي رَبَاح : منازلها .

الحسن : انكدارها وانتثارها يوم القيامة .

الضحاك : هي الأنواء التي كان أهل الجاهلية يقولون إذا مُطِروا قالوا مُطِرنا بنَوْء كذا .

الماوردي : ويكون قوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ مستعملاً على حقيقته من نفي القسم .

القشيري : هو قسم ، ولله تعالى أن يقسم بما يريد ، وليس لنا أن نقسم بغير الله تعالى وصفاته القديمة .

قلت : يدل على هذا قراءة الحسن "فَلأُقْسِمُ" وما أقسم به سبحانه من مخلوقاته في غير موضع من كتابه .

وقال ابن عباس : المراد بمواقع النجوم نزول القرآن نجوماً ، أنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ من السماء العليا إلى السَّفَرة الكاتبين ، فنجّمه السفرة على جبريل عشرين ليلة ، ونجمه جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام عشرين سنة ، فهو ينزله على الأحداث من أمته ؛ حكاه الماوردي عن ابن عباس والسّدي .

وقال أبو بكر الأنباري : حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي حدثنا حجّاج بن المِنهال حدثنا همّام عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : نزل القرآن إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم نزل إلى الأرض نجوماً ، وفرق بعد ذلك خمس آيات خمس آيات وأقل وأكثر ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ .

وحكى الفراء عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن .

وقرأ حمزة والكِسائي "بِمَوْقِعِ" على التوحيد ، وهي قراءة عبد الله بن مسعود والنَّخَعي والأعمش وابن مُحيصن ورُوَيس عن يعقوب .

الباقون على الجمع ؛ فمن أفرد فلأنه اسم جنس يؤدي الواحد فيه عن الجمع ، ومن جمع فلاختلاف أنواعه .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ قيل : إن الهاء تعود على القرآن ؛ أي إن القرآن

لقسم عظيم ، قاله ابن عباس وغيره .

وقيل : ما أقسم الله به عظيم ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ ذكر المقسم عليه ؛ أي أقسم بمواقع النجوم إن هذا القرآن قرآن كريم ، ليس بسحر ولا كهانة ، وليس بمفترى ، بل هو قرآن كريم محمود ، جعله الله تعالى معجزة لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وهو كريم على المؤمنين ، لأنه كلام ربّهم ، وشفاء صدورهم ؛ كريم على أهل السماء ؛ لأنه تنزيل ربّهم ووَحْيه .

وقيل : ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أي غير مخلوق .

وقيل : ﴿ كَرِيمٌ ﴾ لما فيه من كريم الأخلاق ومعاني الأمور .

وقيل : لأنه يُكرِم حافظه ، ويُعظّم قارئه .

(435/744)

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ مصون عند الله تعالى .

وقيل : مكنون محفوظ عن الباطل .

والكتاب هنا كتاب في السماء ؛ قاله ابن عباس .

وقال جابر بن زيد وابن عباس أيضاً : هو اللوح المحفوظ .

عِكرمة : التوراة والإنجيل فيهما ذكر القرآن ومن ينزل عليه .

السّديّ : الزبور .

مجاهد وقتادة : هو المصحف الذي في أيدينا .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ لاَّيَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ اختلف في معنى ﴿ لاَّيَمَسُّهُ ﴾ هل هو حقيقة في المسّ بالجارحة أو معنًى ؟ وكذلك اختلف في "الْمُطَهَّرُونَ" من هم ؟ فقال أنس وسعيد بن جُبير : لا يمسّ ذلك الكتاب إلا المطهَّرون من الذنوب وهم الملائكة .

وكذا قال أبو العالية وابن زيد : إنهم الذين طُهِّروا من الذنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بني آدم ؛ فجبريل النازل به مُطهَّر ، والرسل الذين يجيئهم بذلك مُطهَّرون .

الكلبيّ : هم السَّفَرة الكرام البرَرَة .

وهذا كله قول واحد ، وهو نحو ما اختاره مالك حيث قال : أحسن ما سمعت في قوله ﴿ لاَّيَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ أنها بمنزلة الآية التي في "عَبَسَ وَتَوَلَّى" : ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ . فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس : 12-16] يريد أن المطهَّرين هم الملائكة الذين وصفوا بالطهارة في سورة "عبس" .

وقيل : معنى "لاَيَمَسُّهُ" لا ينزل به "إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ" أي الرسل من الملائكة على الرسل من

الأنبياء .

وقيل : لا يمسّ اللوح المحفوظ الذي هو الكتاب المكنون إلا الملائكة المطهّرون .

وقيل : إن إسرافيل هو الموكّل بذلك ؛ حكاه القشيري .

ابن العربي : وهذا باطل لأن الملائكة لا تناله في وقت ولا تصل إليه بحال ، ولو كان المراد به ذلك لما كان للاستثناء فيه مجال .

وأما من قال : إنه الذي بأيدي الملائكة في الصحف فهو قول محتمل ؛ وهو اختيار مالك .

(436/744)

وقيل : المراد بالكتاب المصحف الذي بأيدينا ؛ وهو الأظهر .

وقد روى مالك وغيره أن في كتاب عمرو بن حزم الذي كتبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسخته : (من محمد النبيّ إلى شُرَحْبيل بن عبد كُلاَل والحرث بن عبد كُلاَل ونُعَيْم بن عبد كُلاَل قَيْل ذي رُعَين ومَعَافر وهَمْدان أما بعد) وكان في كتابه : ألا يمسّ القرآن إلا طاهر .

وقال ابن عمر : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم :

" لا تمسّ القرآن إلا وأنت طاهر " وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه وقد دخل عليها

ودعا بالصحيفة : ﴿ لاَّيَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ فقام واغتسل وأسلم .

وقد مضى في أول سورة "طه" .

وعلى هذا المعنى قال قتادة وغيره : ﴿ لاَّيَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ من الأحداث والأنجاس .

الكلبي : من الشرك .

الربيع بن أنس : من الذنوب والخطايا .

وقيل : معنى ﴿ لاَّيَمَسُّهُ ﴾ لا يقرؤه ﴿ إِلاَّ المطهرون ﴾ إلا الموحِّدون ؛ قاله محمد بن فضيل وعبدة .

قال عِكرمة : كان ابن عباس ينهى أن يُمكَّن أحد من اليهود والنصارى من قراءة القرآن .

وقال الفراء : لا يجد طعمَه ونفعَه وبركته إلا المطهرون ؛ أي المؤمنون بالقرآن .

ابن العربي : وهو اختيار البخاريّ ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًّا " وقال الحسين بن الفضل : لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهَّره الله من الشرك والنفاق .

وقال أبو بكر الورّاق : لا يوفق للعمل به إلا السّعداء .

وقيل : المعنى لا يمسّ ثوابه إلا المؤمنون .

ورواه معاذ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

ثم قيل : ظاهر الآية خبر عن الشرع ؛ أي لا يمسّه إلا المطهّرون شرعاً ، فإن وجد خلاف ذلك فهو غير الشرع ؛ وهذا اختيار القاضي أبي بكر بن العربي .

وأبطل أن يكون لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر .

وقد مضى هذا المعنى في سورة "البقرة" .

(437/744)

المهدويّ : يجوز أن يكون أمراً وتكون ضمة السين ضمة إعراب .

ويجوز أن يكون نهياً وتكون ضمة السين ضمة بناء والفعل مجزوم .

السادسة : واختلف العلماء في مسّ المصحف على غير وضوء ؛ فالجمهور على المنع من مسّه لحديث عمرو بن حزم .

وهو مذهب عليّ وابن مسعود وسعد بن أبي وقّاص وسعيد بن زيد وعطاء والزّهري والنَّخعيّ والحكم وحمّاد ، وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي .

واختلفت الرواية عن أبي حنيفة ؛ فروي عنه أنه يمسّه المحدِث ، وقد روي هذا عن جماعة من السَّلف منهم ابن عباس والشعبي وغيرهما .

وروي عنه أنه يمسّ ظاهره وحواشيه وما لا مكتوب فيه ، وأما الكتاب فلا يمّسه إلا

طاهر .

ابن العربي : وهذا إن سلَّمه مما يقوي الحجة عليه ؛ لأن حريم الممنوع ممنوع .

وفيما كتبه النبيّ صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم أقوى دليل عليه .

وقال مالك : لا يحمله غير طاهر بِعلاَقة ولا على وِسادة .

وقال أبو حنيفة : لا بأس بذلك .

ولم يمنع من حَمْله بِعلاَقة أو مسّه بحائل .

وقد روي عن الحكم وحماد وداود بن عليّ أنه لا بأس بحمله ومسّه للمسلم والكافر طاهراً أو محدِثاً ، إلا أن داود قال : لا يجوز للمشرك حمله .

واحتجوا في إباحة ذلك بكتاب النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى قيصر ، وهو موضع ضرورة فلا حجة فيه .

وفي مس الصبيان إياه على وجهين : أحدهما المنع اعتبارا بالبالغ .

والثاني الجواز ؛ لأنه لو منع لم يحفظ القرآن ؛ لأنّ تعلمه حال الصغر ؛ ولأن الصبيّ وإن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة ؛ لأن النية لا تصح منه ، فإذا جاز أن يحمله على غير طهارة كاملة جاز أن يحمله محدِثاً .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ أي منزل ؛ كقولهم : ضَرْبُ الأميرِ ونَسْج اليمنِ .

وقيل : ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ صفة لقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ .

وقيل : أي هو تنزيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(438/744)

وقال الآلوسى :

وأقبل على إنذارهم بالقرآن والاحتجاج عليهم به بعد الاحتجاج بما ذكرنا فأقسم أنه لقرآن كيت وكيت فلا في قوله عز وجل :

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ مزيدة للتأكيد مثلها في قوله تعالى : ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ [الحديد : 29] أو هي لام القسم أشبعت فتحتها فتولدت منها ألف نظير ما في قوله : أعوذ بالله من العقراب . . .

واختاره أبو حيان ثم قال : وهو وإن كان قليلاً فقد جاء نظيره في قوله تعالى : ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تَهْوِى إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم : 37] بياء بعد الهمزة وذلك في قراءة هشام . ويؤيد قراءة الحسن .

وعيسى .

فلا قسم وهو مبني على ما ذهب إليه تبعاً لبعض النحويين من أن فعل الحال يجوز القسم

عليه فيقال : والله تعالى ليخرج زيد وعليه قول الشاعر

: ليعلم ربي أن بيتي واسع . . .

وحينئذ لا يصح أن يقرن الفعل بالنون المؤكدة لأنها تخلصه للاستقبال خلاف المراد ، والذي اختاره ابن عصفور .

والبصريون أن فعل الحال كما هنا لا يجوز أن يقسم عليه ومتى أريد من الفعل الاستقبال لزمت فيه النون المؤكدة فقيل : لأقسمن وحذفها ضعيف جداً ، ومن هنا خرجوا قراءة الحسن .

وعيسى على أن اللام لام الابتداء والمبتدا محذوف لأنها لا تدخل على الفعل والتقدير فلأنا أقسم ، وقيل : نحوه في قراءة الجمهور على أن الألف قد تولدت من الاشباع ، وتعقب بأن المبتدا إذا دخل عليه لام الابتداء يمتنع أو يقبح حذفه لأن دخولها لتأكيده وهو يقتضي الاعتناء به وحذفه يدل على خلافه ، وقال سعيد بن جبير .

(439/744)

وبعض النحاة : لا نفي وردّ لما يقوله الكفار في القرآن من أنه سحر وشعر وكهانة كأنه قيل : فلا صحة لما يقولون فيه ثم استؤنف فقيل : ﴿ أُقْسِمُ ﴾ الخ ، وتعقبه أبو حيان بأنه لا يجوز

لما فيه من حذف اسم لا وخبرها في غير جواب سؤال نحو لا في جواب هل من رجل في الدار ، وقيل : الأولى فيما إذا قصد بلا نفي لمحذوف واستئناف لما بعدها في اللفظ الإتيان بالواو نحو لا وأطال الله تعالى بقاءك ، وقال : بعضهم إن لا كثيراً ما يؤتى بها قبل القسم على نحو الاستفتاح كما في قوله

: (لا وأبيك) ابنة العامري . . .

لا يدّعي القوم إني أفرّ

وقال أبو مسلم وجمع : إن الكلام على ظاهره المتبادر منه ، والمعنى لا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم أي لا يحتاج إلى قسم مّا فضلاً عن أن هذا القسم العظيم ، فقول مفتي الديار الرومية أنه يأباه تعيين المقسم به وتفخيمه ناشيء عن الغفلة على ما لا يخفى على فطن ﴿ بمواقع النجوم ﴾ أي بمساقط كواكب السماء ومغاربها كما جاء في رواية عن قتادة .

والحسن على أن الوقوع بمعنى السقوط والغروب وتخصيصها بالقسم لما في غروبها من زوال أثرها ، والدلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير ، ولذا استدل الخليل عليه السلام بالأفول على وجود الصانع جل وعلا ، أو لأن ذلك وقت قيام المتهدين والمبتهلين إليه تعالى وأوان نزول الرحمة والرضوان عليهم .

وقد أخرج البخاري .

ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً " ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له " وعن الحسن أيضاً المراد مواقعها عند الانكدار يوم القيامة قيل : وموقع عليه مصدر ميمي أو اسم زمان ولعل وقوعها ذلك اليوم ليس دفعة واحدة والتخصيص لما في ذلك من ظهور عظمته عز وجل وتحقق ما ينكره الكفار من البعث ، وعن أبي جعفر .

(440/744)

وأبي عبد الله على آبائهما وعليهما السلام المراد مواقعها عند الانقضاض إثر المسترقين السمع من الشياطين ، وقد مرّ لك تحقيق أمر هذا الانقضاض فلا تغفل ، وقيل : مواقع النجوم هي الأنواء التي يزعم الجاهلية أنهم يمطرون بها ، ولعله مأخوذ من بعض الآثار الواردة في سبب النزول وسنذكره إن شاء الله تعالى وليس نصاً في إرادة الأنواء بل يجوز عليه أن يراد المغارب مطلقاً .

وأخرج عبد الرزاق .

وابن جرير عن قتادة أنها منازلها ومجاريها على أن الوقوع النزول كما يقال : على الخبير سقطت وهو شائع والتخصيص لأن له تعالى في ذلك من الدليل على عظيم قدرته وكمال

حكمته ما لا يحيط به نطاق البيان ، وقال جماعة منهم ابن عباس : النجوم نجوم القرآن

ومواقعها أوقات نزولها .

وأخرج النسائي .

وابن جرير .

والحاكم وصححه .

والبيهقي في "الشعب" عنه أن قال : " أنزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم فرق في السنين " وفي لفظ " ثم نزل من السماء الدنيا إلى الأرض نجوماً ثم قرأ فلا أقسم بمواقع النجوم " وأيد هذا القول بأن الضمير في قوله تعالى بعد : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ ﴾ يعود حينئذٍ على ما يفهم من مواقع النجوم حتى يكاد يعدّ كالمذكور صريحاً ولا يحتاج إلى أن يقال يفسره السياق كما في سائر الأقوال ، ووجه التخصيص أظهر من أن يخفى ، ولعل الكلام عليه من باب

: وثناياك إنها إغريض . . .

وقرأ ابن عباس .

وأهل المدينة .

وحمزة .

والكسائي ﴿ بمواقع ﴾ مفرداً مراداً به الجمع .

﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ مشتمل على اعتراض في ضمن آخر فقوله تعالى : ﴿ أَنَّهُ لَقَسَمٌ ﴾ ﴿ عظِيمٌ ﴾ معترض بين القسم والمقسم عليه وهو قوله سبحانه :

(441/744)

﴿ إِنَّهُ لَقُرْءانٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو تعظيم للقسم مقرر مؤكد له ، وقوله عز وجل : ﴿ لَّوْ تَعْلَمُونَ ﴾ معترض بين الصفة والموصوف وهو تأكيد لذلك التعظيم وجواب ﴿ لَوْ ﴾ إما متروك أريد به نفي علمهم أو محذوف ثقة بظهوره أي لعظمتموه أو لعملتم بموجبه ، ووجه كون ذلك القسم عظيماً قد أشير إليه فيما مر ، أو هو ظاهر بناءاً على أن المراد ﴿ بمواقع النجوم ﴾ [الواقعة : 75] ما روي عن ابن عباس .

والجماعة ، ومعنى كون القرآن كريماً أنه حسن مرضي في جنسه من الكتب أو نفاع جم المنافع ، وكيف لا وقد اشتمل على أصول العلوم المهمة في إصلاح المعاش ، والمعاد ، والكرم على هذا مستعار كما قال الطيبي من الكرم المعروف .

وقيل : الكرم أعم من كثرة البذل والإحسان والاتصاف بما يحمد من الأوصاف ككثرة النفع فإنه وصف محمود فكونه كرماً حقيقة ، وجوز أن يراد كريم على الله تعالى قيل : وهو يرجع لما تقدم ، وفيه تقدير من غير حاجة وأياً ما كان فمحط الفائدة الوصف المذكور قيل : إن

مرجع الضمير هو القرآن لا من حيث عنوان كونه قرآناً فبمجرد الإخبار عنه بأنه قرآن تحصل الفائدة أي إنه لمقروء على نلا أنه أنشأه كما زعمه الكفار ، وقوله تعالى :

﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ وصف آخر للقرآن أي كائن في كتاب مصون عن غير المقربين من الملائكة عليهم السلام لا يطلع عليه من سواهم ، فالمراد به اللوح المحفوظ كما روي عن الربيع بن أنس وغيره ، وقيل : أي في كتاب مصون عن التبديل والتغيير وهو المصحف الذي بأيدي المسلمين ويتضمن ذلك الإخبار بالغيب لأنه لم يكن إذ ذاك مصاحف ، وأخرج عبد بن حميد .

وابن جرير عن عكرمة أنه قال : في كتاب أي التوراة والإنجيل ، وحكي ذلك في "البحر" ثم قال : كأنه قال : ذكر في كتاب مكنون كرمه وشرفه ، فالمعنى على هذا الاستشهاد بالكتب المنزلة انتهى .

(442/744)

والظاهر أنه أريد على هذا بالكتاب الجنس لتصح إرادة التوراة والإنجيل ، وفي وصف ذلك بالمكنون خفاء ولعله أريد به جليل الشأن عظيم القدر فإن الستر كاللازم للشيء الجليل ، وجوز إرادة هذا المعنى المجازي على غير هذا القول من الأقوال ، وقيل : الكتاب المكنون

قلب المؤمن وهو كما ترى .

وقيل : المراد من كونه في كتاب مكنون كونه محفوظاً من التغيير والتبديل ليس إلا كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ [الحجر : 9] والمعول عليه ما تقدم ، وجوز تعلق الجار بكريم كما يقال زيد كريم في نفسه ، والمعنى إنه كريم في اللوح المحفوظ وإن لم يكن كريماً عند الكفار ، والوصفية أبلغ كما لا يخفى ، وقوله تعالى :

﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ إما صفة بعد صفة لكتاب مراداً به اللوح ، فالمراد بالمطهرون الملائكة عليهم السلام أي المطهرون المنزهون عن كدر الطبيعة ودنس الحظوظ النفسية ، وقيل : عن كدر الأجسام ودنس الهيولى والطهارة عليهما طهارة معنوية ، ونفى مسه كناية عن لازمه وهو نفي الاطلاع عليه وعلى ما فيه ، وإما صفة أخرى لقرآن .

(443/744)

والمراد بالمطهرون المطهرون عن الحدث الأصغر والحدث الأكبر بحمل الطهارة على الشرعية ، والمعنى لا ينبغي أن يمس القرآن إلا من هو على طهارة من الناس فالنفي هنا نظير ما في قوله تعالى : ﴿ الزانى لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً ﴾ [النور : 3] وقوله صلى الله عليه وسلم : " المسلم أخو المسلم لا يظلمه " الحديث وهو بمعنى النهي بل أبلغ من النهي الصريح ،

وهذا أحد أوجه ذكروها للعدول عن جعل لا ناهية ، وثانيها : أن المتبادر كون الجملة صفة والأصل فيها أن تكون خبرية ولا داعي لاعتبار الإنشائية وارتكاب التأويل ، وثالثها : أن المتبادر من الضمة أنها إعراب فالحمل على غيره فيه إلباس ، ورابعها : أن عبد الله قرأ ما يمسه وهي تؤيد أن لا نافية وكون المراد بالمطهرين الملائكة عليهم السلام مروى من عدة طرق عن ابن عباس ، وكذا أخرجه جماعة عن أنس .

وقتادة .

وابن جبير .

ومجاهد .

وأبي العالية .

وغيرهم إلا أن في بعض الآثار عن بعض هؤلاء ما هو ظاهر في أن الضمير في ﴿ لَّا يَمَسُّهُ ﴾ مع كون المراد بالمطهرين الملائكة عليهم السلام راجع إلى القرآن .

أخرج عبد بن حميد .

وابن جرير عن قتادة أنه قال : في الآية ذاك عند رب العالمين لا يمسه إلا المطهرون من الملائكة فأما عندكم فيمسه المشرك والنجس ، والمنافق الرجس ، وأخرجاهما .

وابن المنذر .

والبيهقي في المعرفة عن الحبر قال : في الآية الكتاب المنزل في السماء لا يمسه إلا الملائكة ،

ويشير إليه ما أخرج ابن المنذر عن النعيمي قال : قال مالك : أحسن ما سمعت في هذه الآية ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ أنها بمنزلة الآية التي في عبس ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس : 11 16] وكون المراد بهم المطهرين من الأحداث مروى عن محمد الباقر على آبائه وعليه السلام .

وعطاء .

وطاوس .

وسالم .

(444/744)

وأخرج سعيد بن منصور .

وابن أبي شيبة في "المصنف" .

وابن المنذر .

والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن زيد قال : كنا مع سلمان يعني الفارسي رضي الله تعالى عنه فانطلق إلى حاجة فتوارى عنا فخرج إلينا فقلنا لو توضأت فسألناك عن أشياء من القرآن ؟ فقال : سلوني فإني لست أمسه إنما يمسه المطهرون ثم تلا ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ

المطهرون ﴾ ، وقيل : الجملة صفة لقرآن ، والمراد بالمطهرون المطهرون من الكفر ، والمس مجاز عن الطلب كاللمس في قوله تعالى :

﴿ أَنَّا لَمَسْنَا السماء ﴾ [الجن : 8] أي لا يطلبه إلا المطهرون من الكفر ، ولم أر هذا مروياً عن أحد من السلف ، والنفي عليه على ظاهره ، ورجح جمع جعل الجملة وصفاً للقرآن لأن الكلام مسوق لحرمته وتعظيمه لا لشأن الكتاب المكنون ، وإن كان في تعظيمه تعظيمه .

وصحح الإمام جعلها وصفاً للكتاب وفيه نظر وعلى الوصفية للقرآن ذهب من ذهب إلى اختيار تفسير المطهرين بالمطهرين عن الحدث الأكبر والأصغر .

وفي "الأحكام" للجلال السيوطي استدل الشافعي بالآية على منع المحدث من مس المصحف وهو ظاهر في اختيار ذلك ، والاحتمال جعل الجملة صفة للكتاب المكنون أو للقرآن ، وكون المراد بالمطهرين الملائكة المقربين عليهم السلام على ما سمعت عن ابن عباس .

وقتادة عدل الأكثرون عن الاستدلال بها على ذلك إلى الاستدلال بالأخبار ، فقد أخرج الإمام مالك .

وعبد الرزاق .

وابن أبي داود .

وابن المنذر عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه قال في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يمس القرآن إلا طاهر " إلى غير ذلك ، وقال بعضهم : يجوز أن يؤخذ منع مس غير الطاهر القرآن من الآية على الاحتمالين الآخرين أيضاً ، وذلك لأنها أفادت تعظيم شأن القرآن وكونه كريماً ، والمس بغير طهر مخل بتعظيمه فتأباه الآية وهو كما ترى ، وأطال الإمام الكلام في هذا المقام بما لا يخفى حاله على من راجعه ، نعم لا شك في دلالة الآية على عظم شأن القرآن ومقتضى ذلك الاعتناء بشأنه ولا ينحصر الاعتناء بمنع غير الطاهر عن مسه بل يكون بأشياء كثيرة كالإكثار من تلاوته والوضوء لها وأن لا يقرأه الشخص وهو متنجس الفم فإنه مكروه .

وقيل : حرام كالمس باليد المتنجسة ، وكون القراءة في مكان نظيف ، والقارىء مستقبل القبلة متخشعاً بسكينة ووقار مطرقاً رأسه ، والاستياك لقراءته ، والترتيل ، والتدبر ، والبكاء ، أو التباكي ، وتحسين الصوت بالقراءة وأن لا يتخذه معيشة ، وأن يحافظ على أن لا ينسى آية أوتيها منه ، فقد أخرج أبو داود وغيره "عرضت عليّ ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها ، وأن لا يجامع بحضرته فإن أراد

ستره ، وأن لا يضع غيره من الكتب السماوية وغيرها فوقه ، وأن لا يقلب أوراقه بأصبع عليها بزاق ينفصل منه شيء فقد قيل : بكفر من يفعل ذلك ، إلى أمور أخر مذكورة في محالها ، وفي وجوب كون القارىء طاهراً من الأحداث خلاف ، فعن ابن عباس في رواية أنه يجوز للجنب قراءة القرآن ، وروي ذلك أيضاً عن الإمام أبي حنيفة ، وعن ابن عمر أحبّ إلي أن لا يقرأ إلا طاهر وكأنهم اعتبروه كسائر الأذكار والفرق مثل الشمس ظاهر .

وقرأ عيسى ﴿ المطهرون ﴾ اسم مفعول مخففاً من أطهر ، ورويت عن نافع .

(446/744)

وأبي عمرو ، وقرأ سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه ﴿ المطهرون ﴾ بتخفيف الطاء وتشديد الهاء وكسرها اسم فاعل من طهر أي ﴿ المطهرون ﴾ أنفسهم ، أو غيرهم بالاستغفار لهم والإلهام ، وعنه أيضاً ﴿ المطهرون ﴾ بتشديدهما وأصله المتطهرون فأدغم التاء بعد إبدالها في الطاء ؛ ورويت عن الحسن .

وعبد الله بن عون ، وقرىء المتطهرون على الأصل .

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ صفة أخرى للقرآن أي منزل ، أو وصف بالمصدر لأنه ينزل نجوماً من بين سائر كتب الله تعالى فكأنه في نفسه تنزيل ولذلك أجري مجرى بعض أسمائه

فقيل جاء في التنزيل كذا ونطق به التنزيل .

وجوز كونه خبر مبتدأ محذوف أي هو تنزيل على الاستئناف ، وقرىء تنزيلاً بالنصب على نزل تنزيلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(447/744)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) ﴾

[الأقسام المنفية فى القرآن . . ودلالاتها] أكثر المفسرين على أن « لا » فى قوله تعالى : « فَلا أُقْسِمُ » زائدة ، وأن التقدير : أقسم بمواقع النجوم . . ولم يذكروا لهذه الزيادة وجها مقبولا ، حتى لكأنها زيادة مقحمة لضرورة كضرورة الشعر . .

ويرى الزمخشري - مثلا - أن زيادة « لا » تقتضى أن يكون النظم هكذا :

« فلأنا أقسم بمواقع النجوم » .

. وعلى هذا يكون أصل النظم جملة من مبتدأ وخبر ، وأن لام الابتداء دخلت على المبتد ، وهو وإن كان نادرا ، إلا أن ذلك ورد ، فى لسان العرب ، كقول الشاعر :

خالى لأنت ومن جرير خاله ينل العلاء ويكرم الأخوالا وهذا تكلف بعيد ، وركوب

ضرورات كثيرة لا يلجأ إليها إلا عند العجز وضيق مجال الكلام . . وهذا ما ينتزه عنه كلام اللّه .

ثم إن الموجود هنا « لا » لا ، لام الابتداء ، التي تحولت بهذه الصناعة المتكلفة إلى « لأنا » ثم حذفت أنا ، وبقيت منها الهمزة التي لصقت بلام الابتداء ، فأعطتها هذه الصورة الزائفة ! ! وكلام اللّه تعالى منزه عن النقص ، متعال عن الوقوع تحت حكم الضرورة ، وإن كل حرف منه ليرجح الوجود كله كمالا ، وجلالا . .

فما هى « لا » هذه ؟ وما مفهومها ؟ .

هى - واللّه أعلم - « لا » النافية . . وهى تجىء غالبا فى معرض

القسم تنزيها للمقسم به ، وإجلالا لقدره ، أن يقسم به على أمور واضحة بينة ، لا تحتاج إلى سند يسندها من قسم أو نحوه . .

فالقسم - عادة - إنما يرد لإثبات أمر من الأمور التي يستبعد المخاطب وقوعها أو لتقرير حقيقة من الحقائق ، وتوكيدها ، وإزالة الشبهة عنها عند المقسم له ، حتى يقبلها ويطمئن إليها . .

وإنه ـ والأمر كذلك ـ من الاستخفاف بقدر المقسم به ، بل والامتهان له ، أن يستدعى عند كل أمر وإن صغر ، وأن يبرر به كل شأن وإن حقر أو ظهر ، فذلك من شأنه أن يرخص هذا المقسم به ، وأن يذهب بجلاله ، وينزل من قدره ، فلا يكون له وقعه على النفوس ، إذا هو استدعى للقسم به فى حال تحتاج إلى تبرير وتوكيد ! وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : « وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ » .

(224 : البقرة) فتعريض اسم اللّه سبحانه وتعالى للقسم به ، حتى فى مقام البرّ بهذا القسم ، ورعاية حقه ، وحتى فى مقام الصلح بين الناس ـ هو مما ينبغى للمؤمن أن يتحاشاه ، وألا يجىء إليه إلا فى قصد ، عند ما تدعو الضرورة إليه ! فقوله تعالى : « فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ » ـ هو تعريض وتلويح بالقسم بمواقع النجوم ، دون القسم بها ، لأنها ذات شأن عظيم ، فلا يقسم بها إلا لتقرير الحقائق المشكوك فيها ، والمرتاب فى أمرها . . أما جليّات الأمور وبدهياتها فلا يقسم لها ، لأن القسم لها ، هو تشكيك فيها ، ووضعها موضع ما يكون من شأنه أن يثير المماراة ، والخلاف . .

وقد كثر فى القرآن الكريم هذا الضرب من التلويح بالقسم عن طريق

النّفى ، وذلك حين يكون المقسم هو اللّه سبحانه وتعالى ، والمقسم به ، ذات من ذوات المخلوقات العظيمة المكرمة عند اللّه ، وحين يكون المقسم عليه أمرا جليّا ، بينا لا يحتاج إلى بيان . .

ومن ذلك قوله تعالى : « فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ، وَاللَّيْلِ وَما وَسَقَ ، وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ، لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ » (16 ـ 19 الانشقاق) وقوله سبحانه : « لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ ، وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ، أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ ، بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ » (1 ـ 4 : القيامة) وقوله جلّ شأنه : « فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوارِ الْكُنَّسِ ، وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ ، وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ ، إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ » (15 ـ 20 التكوير) فهذه الأقسام واقعة على أمور عظيمة ، محققة الوقوع على الصورة المعروضة فيها ، وعلى الصفة الموصوفة بها ، بحيث لا يصح أن تقع موقع الإنكار ، من ذى مسكة من عقل أو فهم . . فإذا كان هناك من يشك أو يرتاب ، فإنه لا معتبر لشكّه أو ارتيابه ، ولا جدوى من وراء القسم له بأى مقسم به ، إذ كان لا يجدى معه ـ فى هذا الصبح المشرق بين يديه ـ أن تضاء له المصابيح ، وتقام له الحجج والبراهين . « وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ » (40 : النور) .

فالأقسام هنا ـ كما ترى ـ واقعة على أحوال الإنسان ، وتنقله من حال إلى حال ، ومن وجود إلى وجود ، أو على قدرة اللّه سبحانه وتعالى ، على بعث الموتى من القبور ، وعلى إعادة

هذه العظام البالية ، وإلباسها لباس الحياة من جديد ، أو على قول اللّه سبحانه ، وما تحمل كلماته من أخبار صادقة ، محققة الوقوع . .

وهذه كلها أمور لا تحتاج إلى قسم ، وفى القسم لها - كما قلنا - تشكيك فيها ، وفتح لباب الجدل والمماراة فى شأنها . .

أما هذا التلويح بتلك الأقسام ، فيما يبدو من نفى القسم - فهو وضع

الأمر المقسم عليه فى ضمانة حقيقة من الحقائق الكبرى ، حيث يعتدل ميزانه مع ميزانها فى مقام الإعظام والإجلال ، بمعنى أنه لو احتاج هذا الأمر إلى قسم لما أقسم له إلا بهذه الحقائق العظيمة الجليلة ، المناسبة لعظمته وجلاله . . فإن العظائم كفؤها العظماء ، كما يقولون .

ومواقع النجوم ، التي يلوّح بالقسم بها ، قد تكون أفلاكها التي تدور فيها ، وقد تكون منازلها التي تأخذها من النظام العام للفلك . . وعلى أي فإن النجوم حيث تكون هى كائنات عظيمة ، وأن أي نجم منها - على ما يبدو من صغره - هو أكبر من شمسنا التي هى أقرب النجوم إلينا ، والتي يبلغ حجمها مليونا وربع مليون من حجم الأرض ! ولم يقع التلويح بالقسم

على النجوم ، بل على مواقعها ، لأن مواقعها تشير إلى أكثر من أمر . . تشير إلى هذا البعد الشاسع الذي بيننا وبينها ، والذي تبلغ المسافة فيه بيننا وبين بعضها ملايين السنين الضوئية ! ! وتشير هذه المواقع إلى المسافات التي بين هذه النجوم التي يبدو لنا بعضها مجاورا البعض . . فهذه المسافات التي تبدو متقاربة ، هى فى الواقع ملايين من السنين الضوئية كذلك . .

كما تشير هذه المواقع إلى أن النجوم ليست على علو واحد كما يبدو ، وإنما هى فى أفلاك بعضها فوق بعض . .

وعلى هذا ، فإن النظر إلى مواقع النجوم يكشف عن النجوم نفسها ، كما يكشف عن هذه العوالم الرحيبة التي تسبح فيها ، تلك العوالم التي إن أمكن ضبطها بالأرقام العددية ، وبالصور الحسابية ، فإن الخيال لا يتسع لتصور أفق واحد من آفاق تلك العوالم التي تسبح فيها النجوم .

قوله تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » .

هذا هو الأمر الذي لا يحتاج إلى قسم ، وتلك هى الحقيقة التي لا تحتاج إلى تبرير وتوكيد . .

فهذا الذي يتلوه النبي على الناس ، هو قرآن كريم ، فى كتاب مكنون أي محفوظ ، عند اللّه سبحانه ، وإنه ـ لمقامه العظيم ـ لا يدنو منه ، ولا يطوف بحماه ، إلا المطهرون من عباد اللّه ، من ملائكة ، أو بشر . وفى وصف القرآن بالكرم ، إشارة إلى ما ينال الذين يمدون أيديهم إليه من عطايا ومنن به .

ومعنى المس للقرآن الكريم هنا ـ واللّه أعلم ـ هو التلبّس به ، والمباشرة له ، والإفادة منه . .

فمن مسّ هذا القرآن الكريم وطاف بحماه ملتمسا الهدى منه ـ وجب أن يكون على صفة تناسب هذا القرآن ، من الطهارة ، والكرم ، والنقاء . فمن كان طاهرا ، لم يجد معاناة فى الامتزاج والتجاوب معه ، سواء كان طاهرا بالقوة والفعل كالملائكة ، أم كان طاهرا بالقوة ، كمن كان فى الناس سليم الفطرة ، معافى من الآفات التي تعرض لهذه الفطرة ، فتفسدها ، وتحول بينها وبين تقبّل الخير ، والتجاوب معه ، فمن كان من الناس ذا فطرة سليمة ، قرب من هذا القرآن ، واتصل به ، وأصاب من خيره ، فطهر من دنس الشرك ، والكفر . . وكان من المؤمنين الطاهرين . .

فالمسّ هنا ، ليس لمس المصحف باليد ، كما يذهب إلى ذلك كثير من المفسرين ، الذين اشتد خلافهم حول الحال التي يكون عليها من يمس المصحف ، وهل ينبغى أن يكون على طهارة مطلقة من الحدثين الأصغر والأكبر ، وهل ذلك على سبيل الاستحباب والندب ، أم

أنه على سبيلى الوجوب والحتم . ! !

وإنما المسّ الذي تشير إليه الآية الكريمة ـ والله أعلم ـ مسّ كلمات الله ومخالطتها للقلوب والعقول ، ذلك المس الذي يتأثر به الماسّ ، فيجد من أثر هذا المسّ فى كيانه ، ما يجد ـ على بعد ما بين المشبه والمشبه به ـ من مسّ طيبا أو نحوه ،

(452/744)

مما تطيب به النفوس ، وتستروح الأرواح . . وكما أن كثيرا من النفوس تختنق بالريح الطيب ، أو تنفر منه ، فكذلك كثير من النفوس ما تتأذى بكلمات الله ، وتنفر من سماعها ، فلا تسمح لها بأن تنفذ إلى مشاعرها ووجداناتها ، بلى تجعل أصابعها فى آذانها ، كما يجعل من يتأذى بالطيب أصبعيه على أنفه ! ! .

ويرى « ابن قيّم الجوزيّة » أن المراد بالكتاب المكنون ، هو الصحف التي بأيدى الملائكة . .

ويعلل لذلك بوجوه :

منها : أنه وصفه ـ أي الله ـ بأنه مكنون ، والمكنون : المستور عن العيون ، وهذا إنما فى الصحف التي بأيدى الملائكة . .

ومنها : أنه قال : « لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » وهم الملائكة ، ولو أراد المؤمنين المتوضئين لقالى

: لا يمسه إلا المتطهرون . . . فالملائكة مطهّرون ، والمؤمنون المتوضئون متطهرون .

ومنها : أن هذا إخبار ، ولو كان نهيا لقال : لا يمسسه ، بالجزم . . .

ومنها : أن هذا رد على من قال إن الشيطان جاء بهذا القرآن ، فأخبر تعالى أنه فى كتاب مكنون لا تناله الشياطين ، ولا وصول لها إليه ، كما قال فى « آية الشعراء » : « وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ وَما يَنْبَغِي لَهُمْ وَما يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ » (212.210) وإنما تناله الأرواح المطهرة ، وهم الملائكة . .

ومنها : أن هذا نظير قوله تعالى : مَنْ شاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ، كِرامٍ بَرَرَةٍ »

(16.12 : عبس) . .

(453/744)

ومنها : أن الآية مكية ، فى سورة مكية ، تتضمن تقرير التوحيد ، والنبوة والمعاد ، وإثبات الصانع ، والردّ على الكفار ، وهذا المعنى أليق بالمقصود ، من فرع عملىّ ، وهو حكم مس المحدث المصحف « 1 » » .

هذا ، ويتسع معنى « المطهّرين » التطهر عند لمس المصحف ، وعند التلاوة منه ، فهذا .

وإن لم يمكن على سبيل الإلزام.أدب مع كتاب اللّه ، وتوفير لكل ما يتصل به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 14 صـ 732.738 ﴾

(454/744)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) ﴾

تفريع على جملة ﴿ قل إن الأولين والأخرين لمجموعون ﴾ [الواقعة : 49 ، 50] يُعرِب عن خطاب من الله تعالى موجه إلى المكذبين بالبعث القائلين : ﴿ أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إنّا لمبعوثون ﴾ [الواقعة : 47] ، انتقل به إلى التنويه بالقرآن لأنهم لما كذبوا بالبعث وكان إثباتُ البعث من أهم ما جاء به القرآن وكان مما أغراهُم بتكذيب القرآن اشتمالُه على إثبات البعث الذي عَدُّوه محالاً ، زيادة على تكذيبهم به في غير ذلك مما جاء به من إبطال شركهم وأكاذيبهم ، فلما قامت الحجة على خطئهم في تكذيبهم ، فقد تبين صدق ما أنبأهم به القرآن فثبت صدقه ولذلك تهيّأ المقام للتنويه بشأنه .

والفاء لتفريع القَسم على ما سبق من أدلة وقوع البعث فإن قوله : ﴿ قل إن الأولين والأخرين لمجموعون ﴾ [الواقعة : 49 ، 50] ، إخبار بيوم البعث وإنذار لهم به وهم قد

أنكروه ، ولأجل استحالته في نظرهم القاصر كذبوا القرآن وكذّبوا من جاء به ، ففرع على تحقيق وقوع البعث والإِنذار به تحقيق أن القرآن منزه عن النقائص وأنه تنزيل من الله وأن الذي جاء به مبلغ عن الله .

فتفريع القسم تفريع معنويٌّ باعتبار المقسم عليه ، وهو أيضاً تفريع ذِكري باعتبار إنشاء القسم إن قالوا لكم : أقسم بمواقع النجوم .

وقد جاء تفريع القَسم على ما قبله بالفاء تفريعاً في مجرد الذكر في قول زهير:

فأقسمت بالبيت الذي طَافَ حوله . . .

رجال بَنَوْه من قريش وجُرهم

عقب أبيات النسِيب من معلَّقته ، وليس بين النسيب وبين ما تفرع عنه من القسم مناسبة وإنما أراد أن ما بعد الفاء هو المقصود من القصيد ، وإنما قدم له النسيب تنشيطاً للسامع وبذلك يظهر البَون في النظم بين الآية وبين بيت زهير .

(455/744)

و ﴿ لا أقسم ﴾ بمعنى : أقسم ، و (لا) مزيدة للتوكيد ، وأصلها نافية تدل على أن القائل لا يقدم على القسم بما أقسم به خشية سوء عاقبة الكذب في القسم .

وبمعنى أنه غير محتاج إلى القسم لأن الأمر واضح الثبوت ، ثم كثر هذا الاستعمال فصار مراداً تأكيد الخبر فساوى القسم بدليل قوله عقبه : ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ ، وهذا الوجه الثاني هو الأنسب بما وقع من مثله في القرآن .

وعلى الوجهين فهو إدماج للتنويه بشأن ما لو كان مُقسِماً لأقسم به .

وعلى الوجه الثاني يكون قوله : ﴿ وإنه لقسم ﴾ بمعنى : وإن المذكور لشيء عظيم يُقسم به المقسمون ، فإطلاق قسم عليه من إطلاق المصدر وإرادة المفعول كالخلق بمعنى المخلوق .

وعن سعيد بن جبير وبعض المفسرين : أنهم جعلوا (لا) حرفاً مستقلاً عن فعل ﴿ أقسم ﴾ واقعاً جواباً لكلام مقدر يدل عليه بعده من قوله : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ ردّاً على أقوالهم في القرآن أنه شعر ، أو سحر ، أو أساطير الأولين ، أو قول كاهن ، وجعلوا قوله : ﴿ أقسم ﴾ استئنافاً .

وعليه بمعنى الكلام مع فاء التفريع أنه تفرع على ما سَطع من أدلة إمكان البعث ما يبطل قولكم في القرآن فهو ليس كما تزعمون بل هو قرآن كريم الخ .

و ﴿ مواقع النجوم ﴾ جمع موقع يجوز أن يكون مكان الوقوع ، أي محالُّ وقوعها من ثوابت وسيارة .

والوقوع يطلق على السقوط ، أي الهوى ، فمواقع النجوم مواضع غُروبها فيكون في معنى

قوله تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ [النجم : 1] والقسم بذلك مما شمله قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب ﴾ [المعارج : 40] .

وجعل ﴿ مواقع النجوم ﴾ بهذا المعنى مقسماً به لأن تلك المساقط في حال سقوط النجوم عندها تذكِّر بالنظام البديع المجعول لسير الكواكب كلَّ ليلة لا يختل ولا يتخلف ، وتذكِّر بعظمة الكواكب وبتداولها خِلفة بعد أخرى ، وذلك أمر عظيم يحق القسم به الراجع إلى القسم بمُبدعه .

(456/744)

ويطلق الوقوع على الحلول في المكان ، يقال : وقعت الإِبل ، إذا بركت ، ووقعت الغنم في مرابضها ، ومنه جاء اسم الواقعة للحادثة كما تقدم ، فالمواقع : محالُّ وقوعها وخطوط سيرها فيكون قريباً من قوله : ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ [البروج : 1] .

والمواقع هي : أفلاك النجوم المضبوطة السير في أفق السماء ، وكذلك بروجها ومنازلها .

وذكر (مواقع النجوم) على كلا المعنيين تنويه بها وتعظيم لأمرها لدلالة أحوالها على دقائق حكمة الله تعالى في نظام سيرها وبدائع قدرته على تسخيرها .

ويجوز أن يكون (مواقع) جمع موقع المصدر الميمي للوقوع .

ومن المفسرين من تأول النجوم أنها جمع نجم وهو القِسط الشيء من مال وغيره كما يقال : نجومُ الديات والغرامات وجعلوا النجوم ، أي الطوائف من الآيات التي تنزل من القرآن وهو عن ابن عباس وعكرمة فيؤول إلى القسم بالقرآن على حقيقته على نحو ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾ [الزخرف : 2 ، 3] .

وجملة ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ معترضة بين القسم وجوابه .

وضمير ﴿ إنه ﴾ عائد إلى القَسم المذكور في ﴿ لا أقسم بمواقع النجوم ﴾ ، أو عائداً إلى مواقع النجوم بتأويله بالمذكور فيكون قسم بمعنى مقسم به كما علمت آنفاً .

ويجوز أن يعود إلى المقسم عليه وهو ما تضمنه جواب القسم من قوله : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ .

وجملة ﴿ لو تعلمون ﴾ معترضة بين الموصوف وصفته وهي اعتراض في اعتراض .

(457/744)

والعلْمُ الذي اقتضى شرطُ ﴿ لو ﴾ الامتناعية عدمَ حصوله لهم إن جعلت ضمير ﴿ إنه ﴾ عائداً على القسم هو العِلم التفصيلي بأحوال مواقع النجوم ، فإن المشركين لا يخلون من علم إجمالي متفاوت بأن في تلك المواقع عبرة للناظرين ، أو نُزّل ذلك العلم الإجمالي منزلة

العدم لأنهم بكفرهم لم يجروا على موجَب ذلك العلم من توحيد الله فلو عِلموا ما اشتملت عليه أحوال مواقع النجوم من متعلقات صفات الله تعالى لعلموا أنها مواقع قدسية لا يَحْلف بها إلا بارٌّ في يمينه ولكنهم بمعزل عن هذا العلم ، فإن جلالة المقسم به مما يزع الحالف عن الكذب في يمينه .

ودليل انتفاء علمهم بعظمته أنهم لم يدركوا دلالة ذلك على توحيد الله بالإلهية فأثبوا له شركاء لم يخلقوا شيئاً من ذلك ولا ما يدانيه فتلك آية أنهم لم يدركوا ما في طي ذلك من دلائل حتى استوى عندهم خالق ما في تلك المواقع وغير خالقها .

فأما إن جعلت ضمير ﴿ وإنه لقسم ﴾ عائداً إلى المقسم عليه فالمعنى : لو تعلمون ذلك لما احتجتم إلى القسم .

وقرأ الجمهور ﴿ بمواقع ﴾ بصيغة الجمع بفتح الواو وبعدها ألف ، وقرأه حمزة والكسائي وخلق ﴿ بموقع ﴾ سكون الواو دون ألف بعدها بصيغة المفرد على أنه مصدر ميمي ، أي بوقوعها ، أي غروبها ، أو هو اسم لجهة غروبها كقوله : ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ [المزمل : 9] .

ومفعول ﴿ تعلمون ﴾ محذوف دل عليه الكلام ، أي لو تعلمون عظمته ، أي دلائل عظمته ، ولك أن تجعل فعل ﴿ تعلمون ﴾ منزّلاً منزلة اللازم ، أي لو كان لكم علم لكنكم لا تتصفون بالعلم .

وضمير ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ راجع إلى غير مذكور في الكلام لكونه معلوماً مستحضراً لهم .

والقرآن : الكلام المقروء ، أي المتلوّ المكرر ، أي هو كلام متعظ به محل تدبر وتلاوة ، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ﴾ في سورة يونس (61) .

(458/744)

والكريم : النفيس الرفيع في نوعه كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إني ألقي إلي كتاب كريم ﴾ في سورة النمل (29) .

وهذا تفضيل للقرآن على أفراد نوعه من الكُتب الإلهية مثل التوراة والإنجيل والزبور ومجلة لقمان ، وفضلُه عليها بأنه فاقها في استيفاء أغراض الدين وأحوال المعاش والمعاد وإثبات المعتقدات بدلائل التكوين .

والإبلاغ في دحض الباطل دحضاً لم يشتمل على مثله كتاب سابق ، وخاصة الاعتقاد ، وفي وضوح معانيه ، وفي كثرة دلالته مع قلة ألفاظه ، وفي فصاحته ، وفي حسن آياته ، وحسن مواقعها في السمع وذلك من آثار ما أراد الله به من عموم الهداية به ، والصلاحية

لكل أمة ، ولكل زمان ، فهذا وصف للقرآن بالرفعة على جميع الكتب حقاً لا يستطيع المخالف طعناً فيه .

وبعد أن وصف القرآن بكريم ﴾ ، وصف وصفاً ثانياً بأنه ﴿ في كتاب مكنون ﴾ وذلك وصف كرامة لا محالة ، فليس لفظ ﴿ كتاب ﴾ ولا وصف ﴿ مكنون ﴾ مراداً بهما الحقيقة إذ ليس في حمل ذلك على الحقيقة تكريم ، فحرف (في) للظرفية المجازية .

والكتاب المكنون : مستعار لموافقة ألفاظ القرآن ومعانيه ما في علم الله تعالى وإرادته وأمرِه الملك بتبليغه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وتلك شؤون محجوبة عنّا فلذلك وصف الكتاب بالمكنون اشتقاقاً من الاكتنان وهو الاستتار ، أي محجوب عن أنظار الناس فهو أمر مغيّب لا يعلم كنهه إلا الله .

وحاصل ما يفيده معنى هذه الآية : أن القرآن الذي بلَغَهم وسمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم هو موافق لما أراد الله إعلام الناس به وما تعلقت قدرته بإيجاد نظمه المعجز ، ليكمل له وصف أنه كلام الله تعالى وأنه لم يصنعه بشر .

ونظير هذه الظرفية قوله تعالى : ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها إلى قوله : ﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ في سورة الأنعام (59) ، وقوله : ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ [فاطر : 11] أي إلا جارياً على وفق ما علمه الله وجَرى به قَدَره ، فكذلك قوله هنا : ﴿ في كتاب مكنون ﴾ ، فاستعير حرف الظرفية لمعنى مطابقةِ ما هو عند الله ، تشبيهاً لتلك المطابقة باتحاد المظروف بالظرف .

وقريب منه قوله تعالى : ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ﴾ [الأعلى : 18 ، 19] وهذا أولى من اعتبار المجاز في إسناد الوصف بالكون في كتاب مكنون إلى قرآن كريم على طريقة المجاز العقلي باعتبار أن حقيقة هذا المجاز وصف مماثل القرآن ومطابقه لأن المماثل ملابس لمماثله .

واستعير الكتاب للأمر الثابت المحقق الذي لا يقبل التغيير ، فالتأم من استعارة الظرفية لمعنى المطابقة ، ومن استعارة الكتاب للثابت المحقق معنى موافقة معاني هذا القرآن لما عند الله من متعلّق علمه ومتعلّق إرادته وقدرته وموافقة ألفاظه لما أمر الله بخلقه من الكلام الدال على تلك المعاني على أبلغ وجه ، وقريب من هذه الاستعارة قول بشر بن أبي حازم أو الطرمَّاح:

وجدنا في كتاب بني تميم . . .

أحق الخيل بالركض المعار

وليس لبني تميم كتاب ولكنه أطلق الكتاب على ما تقرر من عوائدهم ومعرفتهم .

وجملة ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ صفة ثانية ل ﴿ كتاب ﴾ .

و ﴿ المطهّرون ﴾ : الملائكة ، والمراد الطهارة النفسانية وهي الزكاء .

وهذا قول جمهور المفسرين وفي "الموطأ" قال مالك : أحسن ما سمعت في هذه الآية ﴿ ا يمسه إلا المطهرون ﴾ أنها بمنزلة هذه الآية التي في عبس وتولى (1611) قول الله تبارك وتعالى : ﴿ لكلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة أ هـ .

يريد أن المطهرون ﴾ هم السفرة الكرام البررة وليسوا الناس الذين يتطهرون .

(460/744)

ومعنى المسّ : الأخذ وفي الحديث : "مَس من طيبة" ، أي أخذ .

ويطلق المسّ على المخالطة والمطالعة قال يزيد بن الحكم الكلابي:

مسِسْنا من الآباء شيئاً فكلُّنا . . .

إلى حسَب في قومه غير واضع

قال المرزوقي في شرح هذا البيت من "الحماسة" : "مسسنا" يجوز أن يكون بمعنى أصبنا

واختبرنا لأن المس باليد يقصد به الاختبار .

ويجوز أن يكون بمعنى طلبنا ا ه .

فالمعنى : أن الكتاب لا يباشر نقل ما يحتوي عليه لتبليغه إلا الملائكة .

والمقصود من هذا أن القرآن ليس كما يزعم المشركون قول كاهن فإنهم يزعمون أن الكاهن يتلقى من الجن والشياطين ما يسترِقونه من أخبار السماء بزعمهم ، ولا هو قول شاعر إذ كانوا يزعمون أن لكل شاعر شيطاناً يملي عليه الشعر ، ولا هو أساطير الأولين ، لأنهم يعنون بها الحكايات المكذوبة التي يَتلهى بها أهلُ الأسمار ، فقال الله : إن هذا القرآن مطابق لما عند الله الذي لا يشاهده إلا الملائكة المطهرون .

وجملة ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ مبينة لجملة ﴿ في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون ﴾ فهي تابعة لصفة القرآن ، أي فبلوغه إليكم كان بتنزيل من الله ، أي نزل به الملائكة .

وفي معنى نظم هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين ﴾ [الحاقة : 41 43] .

وإذ قد ثبتت هذه المرتبة الشريفة للقرآن كان حقيقاً بأن تعظم تلاوته وكتابته ، ولذلك كان من المأمور به أن لا يَمس مكتوبَ القرآن إلا المتطهِّرُ تشبهاً بحال الملائكة في تناول القرآن بحيث يكون ممسك القرآن على حالة تطهر ديني وهو المعنى الذي تومىء إليه مشروعية الطهارة لمن يريد الصلاة نظير ما في الحديث " المصلي يناجي ربه " .

وقد دلت آثار على هذا أوضحها ما رواه مالك في "الموطأ" مرسلاً "أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أقيال ذي رعين وقعافر وهمذان وبعثها به مع عمرو بن حزم " أن لا يمس القرآن إلا طاهر " .

وروى الطبراني عن عبد الله بن عُمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمس القرآن إلا طاهر" ، قال المناوي : وسنده صحيح وجعله السيوطي في مرتبة الحسن .

وفي كتب السيرة أن عمر بن الخطاب قبل أن يُسلم دخل على اخته وهي امرأة سعيد بن زيد فوجدها تقرأ القرآن من صحيفة مكتوب فيها سورة طه فدعا بالصحيفة ليقرأها فقالت له : لا يمسه إلا المطهّرون فقام فاغتسل وقرأ السورة فأسلم ، فهذه الآية ليست دليلاً لحكم مسّ القرآن بأيدي الناس ولكن ذكر الله إياها لا يخلو من إرادة أن يقاس الناسُ على الملائكة في أنهم لا يمسّون القرآن إلا إذا كانوا طاهرين كالملائكة ، أي بقدر الإِمكان من طهارة الآدميين .

فثبت بهذا أن الأمر بالتطهر لمن يمسك مكتوباً من القرآن قد تقرر بين المسلمين من صدر الإِسلام في مكة .

وإنما اختلف الفقهاء في مقتضى هذا الأمر من وجوب أو ندب ، فالجمهور رأوا وجوب أن يكون ممسك مكتوب القرآن على وضوء وهو قول علي وابن مسعود وسعد وسعيد وعطاء والزهري ومالك والشافعي ، وهو رواية عن أبي حنيفة ، وقال فريق : إن هذا أمر ندب وهو قول ابن عباس والشعبي ، وروي عن أبي حنيفة وهو قول أحمد وداود الظاهري .

قال مالك في "الموطأ" " ولا يحمل أحد المصحف لا بعلاقته ولا على وسادة إلا وهو طاهر إكراماً للقرآن وتعظيماً له " .

(462/744)

وفي سماع ابن القاسم من كتاب الوضوء من "العتبية" في المسألة السادسة "سئل مالك عن اللوح فيه القرآن أيمس على غير وضوء ؟ فقال : أما للصبيان الذين يتعلمون فلا رأى به بأساً ، فقيل له : فالرجل يتعلم فيه ؟ قال : أرجو أن يكون خفيفاً ، فقيل لابن القاسم : فالمُعلِّمُ يشكِّل ألواح الصبيان وهو على غير وضوء ، قال : أرى ذلك خفيفاً " .

قال ابن رشد في "البيان والتحصيل" : "لما يلحقه في ذلك من المشقة فيكون ذلك سبباً إلى المنع من تعلمه .

وهذه هي العلة في تخفيف ذلك للصبيان .

وأشار الباجي في "المنتقى" إلى أن إباحة مسّ القرآن للمتعلم والمعلم هي لأجل ضرورة التعلم .

وقد اعتبروا هذا حكماً لما كتب فيه القرآن بقصد كونه مصحفاً أو جزءاً من مصحف أو لَوحاً للقرآن ولم يعتبروه لما يكتب من آي القرآن على وجه الاقتباس أو التضمين أو الاحتجاج ومن ذلك ما يكتب على الدنانير والدراهم وفي الخواتيم .

والمراد بالطهارة عند القائلين بوجوبها الطهارة الصغرى ، أي الوضوء ، وقال ابن عباس والشعبي : يجوز مسّ القرآن بالطهارة الكبرى وإن لم تكن الصغرى .

ومما يلتحق بهذه المسألة مسألة قراءة غير المتطهّر القرآن وليست مما شملته الآية ظاهراً ولكن لمّا كان النهي عن أن يمسّ المصحف غير متطهّر لعله أن المس ملابسة لمكتوب القرآن فقد يكون النهي عن تلاوة ألفاظ القرآن حاصلاً بمفهوم الموافقة المساوي أو الأحرى ، إذ النطق ملابسة كملابسة إمساك المكتوب منه أو أشد وأحسب أن ذلك مثار اختلافهم في تلاوة القرآن لغير المتطهّر .

وإجماع العلماء على أن غير المتوضىء يقرأ القرآن مع اختلافهم في مسّ المصحف لغير المتوضىء يشعر بأن مس المصحف في نظرهم أشدُّ ملابسة من النطق بآيات القرآن .

قال مالك وأبو حنيفة والشافعي : لا يجوز للجنب قراءة القرآن ويجوز لغير المتوضىء .

وقلت : شاع بين المسلمين من عهد الصحابة العمل بأن لا يتلو القرآن من كان جنباً ولم يُوثر عنهم إفتاء بذلك .

(463/744)

وقال أحمد وداود : تجوز قراءة القرآن للجنب .

ورخص مالك في قراءة اليسير منه كالآية والآيتين ، ولم يشترط أحد من أهل العلم الوضوء على قارىء القرآن .

واختلف في قراءته للحائض والنفساء .

وعن مالك في ذلك روايتان ، وأحسب أن رواية الجواز مراعى فيها أن انتقاض طهارتهما تطول مدته فكان ذلك سبباً في الترخيص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(464/744)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾

قال : والصحيح في الآية أن المراد به : الصحف التي بأيدي الملائكة لوجوه عديدة منها : أنه وصفه بأنه مكنون و المكنون المستور عن العيون وهذا إنما هو في الصحف التي بأيدي الملائكة ومنها : أنه قال : لا يمسه إلا المطهرون وهم الملائكة ولو أراد المتوضئين لقال : لا يمسه إلا المتطهرون كما قال تعالى : إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين البقرة : 222 فالملائكة مطهرون والمؤمنون متطهرون ومنها : أن هذا إخبار ولو كان نهيا لقال : لا يمسسه بالجزم والأصل في الخبر : أن يكون خبرا صورة ومعنى

ومنها : أن هذا رد على من قال : إن الشيطان جاء بهذا القرآن فأخبر تعالى : أنه في كتاب مكنون لا تناله الشياطين ولا وصول لها إليه كما قال تعالى في آية الشعراء : وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون الشعراء : 21021 وإنما تناله الأرواح المطهرة وهم الملائكة

ومنها : أن هذا نظير الآية التي في سورة عبس : فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة عبس : 1216

قال مالك في موطئه : أحسن ما سمعت في تفسير قوله : لا يمسه إلا المطهرون أنها مثل هذه

الآية التي في سورة عبس ومنها : أن الآية مكية من سورة مكية تتضمن تقرير التوحيد والنبوة والمعاد وإثبات الصانع والرد على الكفار وهذا المعني أليق بالمقصود من فرع عملي وهو حكم مس المحدث المصحف ومنها : أنه لو أريد به الكتاب الذي بأيدي الناس : لم يكن في الإقسام على ذلك بهذا القسم العظيم كثير فائدة إذ من المعلوم : أن كل كلام فهو قابل لأن يكون في كتاب حقا أو باطلا بخلاف ما إذا وقع القسم على أنه في كتاب مصون مستور عن العيون عند الله لا يصل إليه شيطان ولا ينال منه ولا يمسه إلا الأرواح الطاهرة الزكية فهذا المعنى أليق وأجل وأخلق بالآية وأولى بلا شك فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : لكن تدل

(465/744)

الآية بإشارتها على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر لأنه إذا كانت تلك الصحف لا يمسها إلا المطهرون لكرامتها على الله فهذه الصحف أولى أن لا يمسها إلا طاهر

وسمعته يقول في قول النبي : لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة إذا كانت الملائكة المخلوقون يمنعها الكلب والصورة عن دخول البيت فكيف تلج معرفة الله عز وجل ومحبته وحلاوة ذكره والأنس بقربه في قلب ممتلىء بكلاب الشهوات وصورها فهذا من إشارة

اللفظ الصحيحة

ومن هذا : أن طهارة الثوب الطاهر والبدن إذا كانت شرطا في صحة الصلاة والاعتداد بها فإذا أخل بها كانت فاسدة فكيف إذا كان القلب نجسا ولم يطهره صاحبه فكيف يعتد له بصلاته وإن أسقطت القضاء وهل طهارة الظاهر إلا تكميل لطهارة الباطن ومن هذا : أن استقبال القبلة في الصلاة شرط لصحتها وهي بيت الرب فتوجه المصلي إليها ببدنه وقالبه شرط فكيف تصح صلاة من لم يتوجه بقلبه إلى رب القبلة والبدن بل وجه بدنه إلى البيت ووجه قلبه إلى غير رب البيت وأمثال ذلك من الإشارات الصحيحة التي لا تنال إلا بصفاء الباطن وصحة البصيرة وحسن التأمل والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 416.418 ﴾

(466/744)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾

يقتضي أنه لم يقسم بهذا القسم .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ يدل على خلاف ذلك .

والجواب من وجهين:

الأول _ أن (لا) النافية يتعلق نفيها بكلام الكفار فمعناها إذا ليس الأمر كما يزعمه الكفار المكذبون للرسول وعليه أقسم إثبات مؤتنف .

الثاني _ أن لفظة (لا) صلة وقد وعدنا ببيان ذلك بشواهده في الجمع بين قوله تعالى: ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ مع قوله تعالى: ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 284 ﴾

(467/744)

قوله تعالى ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (81) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (82) فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (87) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أفصح من وصف هذا الكتاب العظيم ما يقتضي أن يكون بمجرده مثبتاً لما لا تدركه

العقول من كماله وكافياً في الإذعان لاعتقاده فكيف إذا كان ما تحكم العقول وتقضي بفساد ما سواه ، فكيف إذا كان مما يتذكر الإنسان مثله في نفسه ، عجب منهم في جعله سبباً لإنكار البعث الذي إذا ذكر الإنسان أحوال نفسه كفاه ذلك في الجزم به فقال منكراً تعجباً : ﴿ أفبهذا ﴾ ولما كان الإنسان مغرماً بما يجدد له من النعم ولو هان فكيف إذا كان أعلى النعم قال : ﴿ الحديث ﴾ أي الذي تقدمت أوصافه العالية وهو متجدد إليكم إنزاله وقتاً بعد وقت ﴿ أنتم ﴾ أي وأنتم العرب الفصحاء والمفوهون البلغاء ﴿ مدهنون ﴾ أي كذابون منافقون بسببه تظهرون غير ما تبطنون أنه كذاب وأنتم تعلمون صدقه بحسن معانيه ، وعجزكم عن مماثلته في نظومه ومبانيه ، وتقولون : لو شئنا لقلنا مثل هذا : وجميع أفعالكم تخالف هذا فإنكم تصبرون لوقع السيوف ومعانقة الحتوف ، ولا تأتون بشيء يعارضه يبادئ شيئاً منه أو يناقضه أو تلاينون أيها المؤمنون من يكذب به ويطعن في علاه أو يتوصل ولو على وجه خفي إلى نقض شيء من عراه ، تهاوناً به ولا يتصلبون في تصرفه تعظيماً لأمره حتى يكونوا أصلب من الحديد ، قال في القاموس : دهن : نافق ، والمداهنة : إظهار خلاف ما تبطن كالإدهان والغش ، وقال البغوي رحمه الله : هو الإدهان وهو الجري في الباطن على خلاف الظاهر ، وقال الرازي : والفرق بين المداراة والمداهنة يرجع إلى القصد ، فما قصد به غرض سوى الله فهو المداهنة ، وما قصد به أمر يتعلق بالدين فهو

المداراة ، وقال ابن برجان : الإدهان والمداهنة : الملاينة في الأمور والتغافل والركون إلى التجاوز – انتهى .

(468/744)

فهو على هذا إنكار على من سمع أحداً يتكلم في القرآن بما لا يليق ثم لا يجاهره بالعداوة ، وأهل الاتحاد كابن عربي الطائي صاحب الفصوص وابن الفارض صاحب التائية أول من صوبت إليه هذه الآية ، فإنهم تكلموا في القرآن على وجه يبطل الدين أصلاً ورأساً ويحله عروة عروة ، فهم أضر الناس على هذا الدين ، ومن يؤول لهم أو ينافح عنهم ويعتذر لهم أو يحسن الظن بهم مخالف لإجماع الأمة أنجس حالاً منهم فإن مراده إبقاء كلامهم الذي لا أفسد للإسلام منه من غير أن يكون لإبقائه مصلحة ما بوجه من الوجوه .

ولما كان هذا القرآن متكفلاً بسعادة الدارين ، قال تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم ﴾ أي حظكم ونصيبكم وجميع ما تنتفعون به من هذا الكتاب وهو نفعكم كله ﴿ أنكم تكذبون ﴾ أي توجدون حقيقة التكذيب في الماضي والحال ، وتجددون ذلك في كل وقت به وبما أرشد إليه من الأمور الجليلة وهي كل ما هو أهل للتصديق به وتصفونه بالأوصاف المتناقضة ، ومن ذلك ما أرشد إليه من أنه لا فاعل إلا الله تعالى فتقولون أنتم إذا أمطركم ما

يرزقكم به : هذا بنوء كذا ، معتقدين تأثير ذلك النوء ، وإنما هو بالله تعالى ، فجعلتم جزاء الرزق وبذل الشكر على الرزق التكذيب ، وقال ابن برجان : وتجعلون رزقي إياكم من قرآن عظيم أنزلته ، وكلام عظيم نزلته ، ونور إيمان بينته ، وضياء يقين جليته ، وما أنزلته من السماء من بركات قدرتها ومن رياح أرسلتها ، وسحب ألفتها ، تجعلون مكان الشكر على ذلك التكذيب .

(469/744)

ولما أنكر عليهم هذا الإنكار ، وعجب منهم هذا التعجيب في أن ينسبوا لغيره فعلاً أو يكذبوا له خبراً ، سبب عن ذلك تحقيقاً لأنه لا فاعل سواه قوله : ﴿ فلولا ﴾ وهي أداة تفهم طلباً بزجر وتوبيخ وتقريع بمعنى هل لا ولم لا ﴿ إذا بلغت ﴾ أي الروح منكم ومن غيركم عند الاحتضار ، أضمرت من غير ذكر لدلالة الكلام عليها دلالة ظاهرة ﴿ الحلقوم ﴾ وهو مجرى الطعام في الحلق ، والحلق مساغ الطعام والشراب معروف ، فكان الحلقوم أدنى الحلق إلى جهة اللسان لأن الميم لمنقطع التمام ، ﴿ وأنتم ﴾ أي والحال أنكم أيها العاكفون حول المحتضر المتوجعون له ﴿ حينئذٍ ﴾ أي حين إذ بلغت الروح ذلك الموضع . ولما كان بصرهم لكونه لا ينفذ في باطن كالعدم قال : ﴿ تنظرون ﴾ أي ولكم وصف

التحديق إليه ولا حيلة لكم ولا فعل بغير النظر ، ولم يقل : تبصرون ، لئلا يظن أن لهم إدراكاً بالبصر لشيء من البواطن من حقيقة الروح وغيرها نحوها ﴿ ونحن ﴾ أي والحال أنا نحن بما لنا من العظمة ﴿ أقرب إليه ﴾ أي المحتضر حقيقة بعلمنا وقدرتنا التامة وملائكتنا ﴿ منكم ﴾ على شدة قربكم منه ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ أي مع تحديقكم إليه لا يتأثر عن ذلك التحديق غايته ، وهو الإبصار لقربنا منه ، ولا ملائكتنا الموكلين بقبض روحه ، لتعلموا أن الفعل لنا لا لغيرنا ، فلا يتجدد لكم شيء من هذا الوصف لتدركوا به حقيقة ما هو فيه ، فثبت ما أخبرنا به من الاختصاص بباطن العلم والقدرة اللذين عبرنا عنهما بالقرب الذي هو أقوى أسبابها .

(470/744)

ولما كان الكلام لإثبات هذه الأغراض المهمة قبل جواب " لولا " أعادها تأكيداً لها وتبيناً فقال : ﴿ فلولا إن كنتم ﴾ أيها المكذبون بالبعث وغيره ﴿ غير مدينين ﴾ أي مقهورين مملوكين مجريين محاسبين بما عملتم في دار البلاء التي أقامكم فيها أحكم الحاكمين بامتناعكم بأنفسكم عن أن يجازيكم أو يمنع غيركم لكم منه ، وأصل تركيب (دان) للذل والانقياد - قاله البيضاوي ﴿ ترجعونها ﴾ أي الروح إلى ما كانت عليه ﴿ إن كنتم ﴾ أي كوناً ثابتاً

﴿ صادقين ﴾ أي في أنكم غير مقهورين على الإحضار على الملك الجبار الذي أقامكم في هذه الدار للابتلاء والاختبار ، وأنه ليس لغيركم أمركم ، وفي تكذيبكم لما يخبر به من الأمور الدنيوية بذل شكركم ، وهذا دليل على أنه لا حياة لمن بلغت روحه الحلقوم أصلاً وهذا إلزام لهم بالبعث حاصله أنه سبحانه إن كان لا يعيدكم فليس هو الذي قدر الموت عليكم ، وإن كان لم يقدره فما لكم لا ترفعونه عنه لأنه من الفوادح التي لا يدرك علاجها ، وأنتم تعالجون مقدماته .

(471/744)

وإن قلتم : إنه مقدر لا يمكن علاجه ، لزمكم الإقرار بأن البعث مقدر لا يمكن علاجه ، فإن أنكرتم أحدهما فأنكروا الآخر ، وإن أقررتم بأحدهما فأقروا بالآخر ، وإلا فليس إلا العناد ، فإن قلتم : نحن لا نعلم أنه قدره فاعلموا أنه لو لم يكن بتقديره لأمكنت مقاومته وقتاً ما لا سيما والنفوس مجبولة على كراهته ، وفي الموتى الحكماء والملوك ، وتقريبه أنكم قد بالغتم في الجحود بآيات الله تعالى وأفعاله في كل شيء إن أرسل إليكم رسولاً قلتم : ساحر كذاب ، وإن صدقه مرسله بكتاب معجز قلتم : سحر وافتراء وأمر عجاب ، وإن رزقكم من الماء الذي به حياة كل شيء مطراً ينعشكم به قلتم : صدق نوء كذا ، على حال مؤد إلى

التعطيل والإهمال والعبث ، فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن عند بلوغه الحلقوم إن لم يكن ثم مدبر لهذا الكون بالإرسال والإنزال وإفاضة الأرواح وقبضها وبعث العباد لدينونتهم على ما فعلوا فيما أقامهم فيه ، تمثيل بأفعال الملوك على ما يعهد ، فكما أن ملوك الدنيا لا يرسل أحد منهم إلى أحد من رعيته فيأخذه قهراً إلا للدينونة فكيف يظن بملك الملوك غير ذلك ، فتكون ملوك الدنيا أحكم منه ، فإن كان ليس بتمام القدرة فافعلوا برسله كما تفعلون برسل الملوك ، فإنه ربما خلص المطلوب منهم بنوع من أنواع الخلاص بعد بلوغه إلى باب الملك فإرساله سبحانه هو مثل إرسال الملوك غير أنه لتمام قدرته يأخذ أخذاً لا يقدر أحد على رده ، ولا أن يتبع مأخوذه أصلاً لا ليخدمه بعد الأخذ ولا ليخفف عنه شيئاً مما هو فيه بغير ما أمر به سبحانه على ألسنة رسله من الدعاء والصدقة ولا ليعلم حاله بوجه من الوجوه بل الأمر كما قيل :

إذا غيب المرء استسر حديثه . . .

ولم يخبر الأفكار عنه بما يغني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 426 .

429 ﴾

(472/744)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (81) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(473/744)

(هذا) إشارة إلى ماذا ؟ فنقول : المشهور أنه إشارة إلى القرآن وإطلاق الحديث في القرآن على الكلام القديم كثير بمعنى كونه اسماً لا وصفاً فإن الحديث اسم لما يتحدث به ، ووصف يوصف به ما يتجدد ، فيقال : أمر حادث ورسم حديث أي جديد ، ويقال : أعجبني حديث فلان وكلامه وقد بينا أن القرآن قديم له لذة الكلام الجديد ، والحديث الذي لم يسمع الوجه الثاني : أنه إشارة إلى ما تحدثوا به من قبل في قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَاؤُنَا الأولون ﴾ [الواقعة : 47 ، 48] وذلك لأن الكلام مستقل منتظم فإنه تعالى رد عليهم ذلك بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الأولين والآخرين ﴾ [الواقعة : 49] وذكر الدليل عليهم بقوله : ﴿ نَحْنُ خلقناكم ﴾ [

الواقعة : 57] وبقوله : ﴿ أَفَرَءَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ ﴾ [الواقعة : 58] ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ [الواقعة : 63] وأقسم بعد إقامة الدلائل بقوله : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ [الواقعة : 75] وبين أن ذلك كله إخبار من الله بقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءانٌ ﴾ [الواقعة : 77] ثم عاد إلى كلامهم ، وقال : ﴿ أفبهذا الحديث ﴾ الذي تتحدثون به ﴿ أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴾ لأصحابكم تعلمون خلافه وتقولونه ، أم أنتم به جازمون ، وعلى الإصرار عازمون ، وسنبين وجهه بتفسير المدهن ، وفيه وجهان أحدهما : أن المدهن المراد به المكذب قال الزجاج : معناه أفبالقرآن أنتم تكذبون ، والتحقيق فيه أن الإدهان تليين الكلام لاستمالة السامع من غير اعتقاد صحة الكلام من المتكلم كما أن العدو إذا عجز عن عدوه يقول له أنا داع لك ومثن عليك مداهنة وهو كاذب ، فصار استعمال المدهن في المكذب استعمالاً ثانياً وهذا إذا قلنا : إن الحديث هو القرآن والوجه الثاني : المدهن هو الذي يلين في الكلام ويوافق باللسان وهو مصر على الخلاف فقال : ﴿ أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴾ فمنهم من يقول : إن

النبي كاذب ، وإن الحشر محال وذلك لما هم عليه من حب الرياسة ، وتخافون أنكم إن صدقتم ومنعتم ضعفاءكم عن الكفر يفوت عليكم من كسبكم ما ترجونه بسببهم فتجعلون

رزقكم أنكم تكذبون الرسل ، والأول عليه أكثر المفسرين ، لكن الثاني مطابق لصريح اللفظ فإن الحديث بكلامهم أولى وهو عبارة عن قولهم : ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الواقعة : 47] والمدهن يبقى على حقيقته فإنهم ما كانوا مدهنين بالقرآن ، وقول الزجاج : مكذبون جاء بعده صريحاً .

وأما قوله : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ ففيه وجوه الأول : تجعلون شكر النعم أنكم تقولون مطرنا بنوء كذا ، وهذا عليه أكثر المفسرين ، الثاني : تجعلون معاشكم وكسبكم تكذيب محمد ، يقال : فلان قطع الطريق معاشه ، والرزق في الأصل مصدر سمي به ما يرزق ، يقال للمأكول رزق ، كما يقال للمقدور قدرة ، والمخلوق خلق ، وعلى هذا فالتكذيب مصدر قصد به ما كانوا يحصلون به مقاصدهم ، وأما قوله : ﴿ تُكَذِّبُونَ ﴾ فعلى الأول المراد تكذيبهم بما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : 6] وغير ذلك ، وعلى الثاني المراد جميع ما صدر منهم من التكذيب ، وهو أقرب إلى اللفظ .

فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

المراد من كلمة : ﴿ لَوْلاَ ﴾ معنى هلا من كلمات التحضيض وهي أربع كلمات : لولا ، ولوما ، وهلا ، وألا ويمكن أن يقال : أصل الكلمات لم لا ، على السؤال كما يقول القائل : إن كنت صادقاً فلم لا يظهر صدقك ، ثم إنما قلنا : الأصل لم لا لكونه استفهاماً أشبه قولنا : هلا ، ثم إن الاستفهام تارة يكون عن وجود شيء وأخرى عن سبب وجوده ، فيقال : هل جاء زيد ولم جاء ، والاستفهام بهل قبل الاستفهام بلم ، ثم إن الاستفهام قد يستعمل للإنكار وهو كثير ، ومنه قوله تعالى ههنا : ﴿ أفبهذا الحديث أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴾ [الواقعة : 81] وقوله : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ ﴾ [الصافات : 125] وقوله تعالى : ﴿ أَءِفْكاً ءَالِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ ﴾ [الصافات : 86] ونظائرها كثيرة ، وقد ذكرنا لك الحكمة فيه ، وهي أن النافي والناهي لا يأمر أن يكذب المخاطب فعرض بالنفي لئلا يحتاج إلى بيان النفي ، إذا ثبت هذا فالاستفهام "بهل" لإنكار الفعل ، والاستفهام "بلم" لإنكار سببه ، وبيان ذلك أن من قال : لم فعلت كذا ، يشير إلى أنه لا سبب للفعل ، ويقول : كان الفعل وقع من غير سبب الوقوع ، وهو غير جائز ، وإذا قال : هل فعلت ، ينكر نفس الفعل لا الفعل من غير سبب ، وكأنه في الأول يقول : لو وجد للفعل سبب لكان فعله أليق ، وفي الثاني يقول : الفعل غير لائق ولو وجد له سبب .

المسألة الثانية :

إن كل واحد منهما يقع في صدر الكلام ، ويستدعي كلاماً مركباً من كلامين في الأصل ، أما في "هل" فلأن أصلها أنك تستعملها في جملتين ، فتقول : هل جاء زيد أو ما جاء ، لكنك ربما تحذف أحديهما ، وأما في (لو) فإنك تقول : لو كان كذا لكان كذا ، وربما تحذف الجزاء كما ذكرنا في قوله تعالى : ﴿ لَّوْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة : 76] لأنه يشير بلو إلى أن المنفي له دليل ، فإذا قال القائل : لو كنتم تعلمون ، وقيل له لم لا يعلمون ، قال : إنهم لو يعلمون لفعلوا كذا ، فدليله مستحضر إن طولب به بينه وإذا ثبت أن النفي بلو ، والنفي بهل ، أبلغ من النفي بلا ، والنفي بقوله : لم ، وإن كان بينهما اشتراك معنى ولفظاً وحكماً وصارت كلمات التحضيض وهي : لو ما ، ولولا ، وهلا وألا ، كما تقول : لم لا فإذن قول القائل : هل تفعل وأنت عنه مستغن ، كقوله : لم تفعل وهو قبي ، وقوله : وهلا تفعل وأنت إليه محتاج ، وألا تفعل وأنت إليه محتاج ، وقوله : لولا ، ولوما ، كقوله : لم لا تفعل ، ولم لا فعلت ، فقد وجد في ألا زيادة نص ، لأن نقل اللفظ لا يخلو من نص ، كما أن المعنى صار فيه زيادة ما ، على ما في الأصل كما بيناه ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ أي لم لا يقولون عند الموت وهو وقت ظهور الأمور وزمان اتفاق الكلمات ، ولو كان ما يقولونه حقاً ظاهراً كما

يزعمون لكان الواجب أن يشركوا عند النزع ، وهذا إشارة إلى أن كل أحد يؤمن عند الموت لكن لم يقبل إيمان من لم يؤمن قبله ، فإن قيل : ما سمع منهم الاعتراف وقت النزع بل يقولون : نحن نكذب الرسل أيضاً وقت بلوغ النفس إلى الحلقوم ونموت عليه ؟ فنقول : هذه الآية بعينها إشارة وبشارة ، أما الإشارة فإلى الكفار ، وأما البشارة فللرسل ، أما الإشارة وهي أن الله تعالى ذكر للكفار حالة لا يمكنهم إنكارها وهي حالة الموت فإنهم وإن كفروا بالحشر وهو الحياة بعد الموت لكنهم لم ينكروا الموت ، وهو أظهر

(477/744)

من كل ما هو من مثله فلا يشكون في حالة النزع ، ولا يشكون في أن في ذلك الوقت لا يبقى لهم لسان ينطق ، ولا إنكار بعمل فتفوتهم قوة الاكتساب لإيمانهم ولا يمكنهم الإتيان بما يجب فيكون ذلك حثاً لهم على تجديد النظر في طلب الحق قبل تلك الحالة ، وأما البشارة فلأن الرسل لما كذبوا وكذب مرسلهم صعب عليهم ، فبشروا بأن المكذبين سيرجعون عما يقولون ، ثم هو إن كان قبل النزع فذلك مقبول وإلا فعند الموت وهو غير نافع ، والضمير في ﴿ بَلَغَتِ ﴾ للنفس أو الحياة أو الروح ، وقوله : ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ تأكيد لبيان الحق أي في ذلك الوقت تصير الأمور مرئية مشاهدة ينظر إليها كل من بلغ إلى تلك الحالة ،

فإن كان ما ذكرتم حقاً كان ينبغي أن يكون في ذلك الوقت ، وقد ذكرنا التحقيق في ﴿ حِينَئِذٍ ﴾ في قوله :

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ [الطور : 11] في سورة والطور واللفظ والمعنى متطابقان على ما ذكرنا لأنهم كانوا يكذبون بالرسل والحشر ، وصرح به الله في هذه السورة عنهم حيث قال : إنهم ﴿ كَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى الحنث العظيم * وَكَانُواْ يِقُولُونَ أَءِذَا مِتْنَا ﴾ [الواقعة : 46 ، 47] وهذا كالتصريح بالتكذيب لأنهم ما كانوا ينكرون أن الله تعالى منزل لكنهم كانوا يجعلون أيضاً الكواكب من المنزلين ، وأما المضمر فذكره الله تعالى عند قوله : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ الماء الذي تَشْرَبُونَ ﴾ [الواقعة : 68] ثم قال : ﴿ أَأَنتُم أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون ﴾ [الواقعة : 69] بالواسطة وبالتفويض على ما هو مذهب المشركين أو مذهب الفلاسفة .

(478/744)

وأيضاً التفسير المشهور محتاج إلى إضمار تقديره أتجعلون شكر رزقكم ، وأما جعل الرزق بمعنى المعاش فأقرب ، يقال : فلان رزقه في لسانه ، ورزق فلان في رجله ويده ، وأيضاً فقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ متصل بما قبله لما بينا أن المراد أنكم تكذبون الرسل فلم لا تكذبونهم وقت النزع لقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّن نَّزَّلَ مِنَ السماء مَاءً

فَأَحْيَا بِهِ الأَرض مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [العنكبوت : 63] فعلم أنهم كذبوا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : "كذب المنجمون ورب الكعبة" ولم يكذبوا وهذا على قراءة من يقرأ ﴿ تُكَذِّبُونَ ﴾ بالتخفيف ، وأما المدهن فعلى ما ذكرنا يبقى على الأصل ويوافقه : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم : 9] فإن المراد هناك ليس تكذب فيكذبون ، لأنهم أرادوا النفاق لا التكذيب الظاهر .

فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (87)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أكثر المفسرين على أن (لولا) في المرة الثانية مكررة وهي بعينها هي التي قال تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ [الواقعة : 83] ولها جواب واحد ، وتقديره على ما قاله الزمخشري : فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم ، أي إن كنتم غير مدينين ، وقال بعضهم : هو كقوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ [البقرة : 38] حيث جعل ﴿ فَلاَ خَوْفٌ ﴾ جزاء شرطين ، والظاهر خلاف ما قالوا ، وهو أن يقال : جواب لولا في قوله : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ هو ما يدل عليه ما سبق يعني تكذبون مدة حياتكم جاعلين التكذيب رزقكم ومعاشكم فلولا تكذبون وقت النزع وأنتم في ذلك

الوقت تعلمون الأمور وتشاهدونها ، وأما لولا في المرة الثانية فجوابها : ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ .

المسألة الثانية :

(479/744)

في ﴿ مَدِينِينَ ﴾ أقوال منهم من قال : المراد مملوكين ، ومنهم من قال : مجزيين ، وقال الزمخشري : من دانه السلطان إذا ساسه ، ويحتمل أن يقال : المراد غير مقيمين من مدن إذا أقام ، هو حينئذ فعيل ، ومنه المدينة ، وجمعها مدائن ، من غير إظهار الياء ، ولو كانت مفعلة لكان جمعها مداين كمعايش بإثبات الياء ، ووجهه أن يقال : كان قوم ينكرون العذاب الدائم ، وقوم ينكرون العذاب ومن اعترف به كان ينكر دوامه ، ومثله قوله تعالى : ﴿ لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة : 80] قيل : إن كنتم على ما تقولون لا تبقون في العذاب الدائم فلم لا ترجعون أنفسكم إلى الدنيا إن لم تكن الآخرة دار الإقامة ، وأما على قوله : (مجزيين) فالتفسير مثل هذا كأنه قال : ستصدقون وقت النزع رسل الله في الحشر ، فإن كنتم بعد ذلك غير مجزيين فلم لا ترجعون أنفسكم إلى دنياكم ، فإن التعويق للجزاء لا غير ، ولولا الجزاء لكنتم مختارين كما كنت في دنياكم التي ليست دار الجزاء مختارين تكونون حيث تريدون من الأماكن ، وأما على قولنا : مملوكين من الملك ، ومنه المدينة للملوكة ،

فالأمر أظهر بمعنى أنكم إذا كنتم لستم تحت قدرة أحد ، فلم لا ترجعون أنفسكم إلى الدنيا كما كنتم في دنياكم التي ليست دار جزاء مع أن ذلك مشتهى أنفسكم ومنى قلوبكم ، وكل ذلك عند التحقيق راجع إلى كلام واحد ، وأنهم كانوا يأخذون بقول الفلاسفة في بعض الأشياء دون بعض ، وكانوا يقولون بالطبائع ، وأن الأمطار من السحب ، وهي متولدة بأسباب فلكية ، والنبات كذلك ، والحيوان كذلك ، ولا اختيار لله في شيء وسواء عليه إنكار الرسل والحشر ، فقال تعالى : إن كان الأمر كما يقولون فما بال الطبيعي الذي يدعى العلم لا يقدر على أن يرجع النفس من الحلقوم ، مع أن في الطبع عنده إمكاناً لذلك ، فإن عندهم البقاء بالغذاء وزوال الأمراض بالدواء ، وإذا علم هذا فإن قلنا : ﴿ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾

(480/744)

معناه غير مملوكين رجع إلى قولهم من إنكار الاختيار وقلب الأمور كما يشاء الله ، وإن قلنا : غير مقيمين فكذلك ، لأن إنكار الحشر بناء على القول بالطبع ، وإن قلنا : غير محاسبين ومجزيين فكذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 171 . 174 ﴾

(481/744)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أفبهذا الحديث ﴾

يعني القرآن ﴿ أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴾ أي مكذبون ؛ قاله ابن عباس وعطاء وغيرهما .

والمُدْهِن الذي ظاهره خلاف باطنه ، كأنه شبِّه بالدُّهن في سهوله ظاهره .

وقال مقاتل بن سليمان وقتادة : مُدْهِنون كافرون ؛ نظيره : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم : 9] .

وقال المؤرِّج : المدهِن المنافق أو الكافر الذي يُلين جانبه ليُخْفِي كفره ، والإدهان والمداهنة التكذيب والكفر والنفاق ، وأصله اللِّين ، وأن يُسِرَّ خلاف ما يظهر ؛ وقال أبو قيس بن الأَسْلَت :

الحَزْمُ والْقُوَّةُ خيرٌ مِنَ . . .

الإدهان والفَهَّةِ والهَاعِ

وأدهن وداهن واحد .

وقال قوم : داهنت بمعنى واريت وأدهنت بمعنى غَشَشْتَ .

وقال الضحاك : "مُدْهِنُونَ" معرضون .

مجاهد : ممالئون الكفار على الكفر به .

ابن كيسان : المدهن الذي لا يعقل ما حقّ اللَّهِ عليه ويدفعه بالعلل .

وقال بعض اللغويين : مدهنون تاركون للجزم في قبول القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ قال ابن عباس : تجعلون شكركم التكذيب .

وذكر الهيثم بن عديّ : أن من لغة أزد شنوءة ما رِزق فلان ؟ أي ما شكره .

وإنما صلح أن يوضع اسم الرزق مكان شكره ؛ لأن شكر الرزق يقتضي الزيادة فيه فيكون الشكر رزقاً على هذا المعنى .

فقيل : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ أي شكر رزقكم الذي لو وجد منكم لعاد رزقاً لكم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ بالرزق أي تضعون الكذب مكان الشكر ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ البيت إِلاَّ مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال : 35] أي لم يكونوا يُصلُّون ولكنهم كانوا يصفِّرون ويُصفِّقون مكان الصلاة .

(482/744)

ففيه بيان أن ما أصاب العباد من خير فلا ينبغي أن يروه من قبل الوسائط التي جرت العادة بأن تكن أسباباً ، بل ينبغي أن يروه من قِبل الله تعالى ، ثم يقابلونه بشكرٍ إن كان نعمة ، أو

صبرٍ إن كان مكروهاً تعبّداً له وتذلُّلاً .

وروي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ "وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ" حقيقة .

وعن ابن عباس أيضاً : أن المراد به الاستسقاء بالأنواء ، وهو قول العرب : مُطِرنا بنَوْء كذا ؛ رواه عليّ بن أبي طالب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وفي صحيح مسلم " عن ابن عباس قال : مُطِر الناسُ على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أصبح من الناس شاكر ومنهم كافرٌ" قالوا هذه رحمة الله وقال بعضهم لقد صَدَق نَوْءُ كذا وكذا ، قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم ﴾ حتى بلَغ ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ " وعنه أيضاً : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج في سفر فعطشوا فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أرأيتم إن دعوت الله لكم فسُقِيتم لعلكم تقولون هذا المطر بِنَوْء كذا" فقالوا : يا رسول الله ما هذا بحين الأَنواء .

فصلّى ركعتين ودعا ربه فهاجت ريح ثم هاجت سحابة فمُطِروا ؛ فمرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعه عصابة من أصحابه برجل يغترف بقدح له وهو يقول سُقِينا بِنَوْء كذا ، ولم يقل هذا من رزق الله فنزلت : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ "

أي شكركم لله على رزقه إياكم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ بالنعمة وتقولون سُقِينا بنَوْء كذا ؛ كقولك : جعلَت إحساني إليك إساءة منك إليّ ، وجعلَت إنعامي لديك أن اتخذتني عدوًّا .

(483/744)

وفي الموطأ " عن زيد بن خالد الجُهَنيّ أنه قال : صلىّ بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحُدَيْبية على إثرِ سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أَقْبَلَ على الناس وقال : "أتدرون ماذا قال ربكم" قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : "أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بالكوكب فأما من قال مُطِرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال مُطِرنا بنَوْء كذا وكذا فذلك مؤمن بالكوكب كافر بي" " قال الشافعي رحمه الله : لا أحبّ أحداً أن يقول مُطِرنا بنَوْء كذا وكذا ، وإن كان النَّوْء عندنا الوقت المخلوق لا يضر ولا ينفع ، ولا يمطر ولا يحبس شيئاً من المطر ، والذي أحبّ أن يقول : مُطِرنا وقت كذا كما تقول مُطِرنا شهر كذا ، ومن قال : مُطِرنا بنَوْء كذا ، وهو يريد أن النَّوْء أنزل الماء ، كما عنى بعض أهل الشرك من الجاهلية بقوله فهو كافر ، حلال دمه إن لم يتب .

وقال أبو عمر بن عبد البر : وأما قوله عليه الصلاة والسلام حاكياً عن الله سبحانه : " أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر " فمعناه عندي على وجهين : أما أحدهما فإن المعتقِد

بأن النَّوْء هو الموجب لنزول الماء ، وهو المنشىء للسحاب دون الله عز وجل فذلك كافر كفراً صريحاً يجب استتابته عليه وقتله إن أبى لنبذه الإسلام ورده القرآن .

والوجه الآخر أن يعتقد أن النَّوْء يُنزِل الله به الماءَ ، وأنه سبب الماء على ما قدّره الله وسبق في علمه ؛ وهذا وإن كان وجهاً مباحاً ، فإن فيه أيضاً كفراً بنعمة الله عز وجل ، وجهلاً بلطيف حكمته في أنه ينزل الماء متى شاء ، مرة بنَوْء كذا ، ومرة بَنْوء كذا ، وكثيراً ما ينوء النَّوْء فلا ينزل معه شيء من الماء ، وذلك من الله تعالى لا من النَّوْء .

(484/744)

وكذلك كان أبو هريرة يقول إذا أصبح وقد مُطِر : مطِرنا بنَوْء الفتح ؛ ثم يتلو : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهِ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [فاطر : 2] قال أبو عمر : وهذا عندي نحو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مُطِرنا بفضل الله ورحمته " ومن هذا الباب قول عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب حين استسقى به : يا عمّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم كم بقي من نَوْء الثريا ؟ فقال العباس : العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق سبعاً بعد سقوطها .

فما مضت سابعة حتى مطروا ؛ فقال عمر : الحمد لله هذا بفضل الله ورحمته .

وكأنّ عمر رحمه الله قد علم أن نَوْء الثُّرَيا وقت يُرْجى فيه المطر ويؤمَّل فسأله عنه أخَرج أم بقيت منه بقية ؟ .

وروى سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أمية " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً في بعض أسفاره يقول : مُطرنا ببعض عَثَانين الأسد ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كذبت بل هو سُقْيا الله عز وجل" " قال سفيان : عَثَانين الأسد الذراع والجبهة .

وقراءة العامة ﴿ تُكَذِّبُونَ ﴾ من التكذيب .

وقرأ المفضّل عن عاصم ويحيى بن وَثّاب "تَكْذِبُونَ" بفتح التاء مخففاً .

ومعناه ما قدمناه من قول من قال : مطِرنا بنَوْء كذا .

وثبت من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث لن يزلن في أمتي التفاخر في الأحساب والنِياحة والأَنْواء " ولفظ مسلم في هذا : " أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهنّ الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة "

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ أي فهلا إذا بلغت النفس أو الروح الْحُلْقوم .

ولم يتقدم لها ذكر ؛ لأن المعنى معروف ؛ قال حاتم :

أَمَاوِيّ ما يُغْنِي الثَّرَاءُ عنِ الفتى . . .

إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وضاقَ بِها الصَّدْرُ

وفي حديث : " إنّ مَلَك الموت له أعوان يقطعون العروق ويجمعون الروح شيئاً فشيئاً حتى ينتهي بها إلى الحُلْقوم فيتوفاها مَلَك الموت " ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ أمري وسلطاني .

وقيل : تنظرون إلى الميّت لا تقدرون له على شيء .

وقال ابن عباس : يريد من حضر من أهل الميت ينتظرون متى تخرج نفسه .

ثم قيل : هو ردٌّ عليهم في قولهم لإخوانهم ﴿ لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ ﴾ [آل عمران : 156] أي فهل ردّوا رُوح الواحد منهم إذا بلغت الحلقوم .

وقيل : المعنى فهلاّ إذا بلغت نفس أحدكم الحلقوم عند النزع وأنتم حضور أمسكتم روحه في جسده ، مع حرصكم على امتداد عمره ، وحبكم لبقائه .

وهذا ردّ لقولهم : ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدهر ﴾ [الجاثية : 24] .

وقيل : هو خطاب لمن هو في النزع ؛ أي إن لم يك ما بك من الله فهّلا حفظت على نفسك الروح .

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ أي بالقدرة والعلم والرؤية .

قال عامر بن عبد القيس : ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله تعالى أقرب إليّ منه .

وقيل : أراد ورسلنا الذين يتولَّون قبضه ﴿ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ ﴿ ولكن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾ أي لا ترونهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أي فهلاّ إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين بأعمالكم ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ [الصافات : 53] أي مجزيون محاسبون .

وقد تقدم .

وقيل : غير مملوكين ولا مقهورين .

قال الفراء وغيره : دِنْتُه ملكته ؛ وأنشد للحطيئة :

لقد دُيِّنْتِ أَمْرَ بَنِيكِ حَتَّى . . .

تَرَكْتِهِمُ أَدَقَّ مِن الطَّحِينِ

يعني مُلِّكْتِ .

ودانه أي أذله واستعبده ؛ يقال : دنته فدان .

وقد مضى في "الفاتحة" القول في هذا عند قوله تعالى : ﴿ يَوْمِ الدين ﴾ .

﴿ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ ترجعون الروح إلى الجسد .

﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي ولن ترجعوها فبطل زعمكم أنكم غير مملوكين ولا محاسبين .

و﴿ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ جواب لقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ ولقوله : ﴿ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أجيبا بجواب واحد ؛ قاله الفراء .

وربما أعادت العرب الحرفين ومعناهما واحد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : 38] أجيبا بجواب واحد وهما شرطان .

وقيل : حذف أحدهما لدلالة الآخر عليه .

وقيل : فيها تقديم وتأخير ، مجازها : فلولا وهلاَّ إن كنتم غير مَدِينين تَرجِعونها ؛ تردُّون نَفْس هذا الميّت إلى جسده إذا بلغت الحلقوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(487/744)

وقال الآلوسى :

﴿ أفبهذا الحديث ﴾

أي أتعرضون فبهذا الحديث الذي ذكرت نعوته الجليلة الموجبة لإعظامه وإجلاله والإيمان بما تضمنه وأرشد إليه وهو القرآن الكريم ﴿ أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴾ متهاونون به كمن يدهن في الأمر أي يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاوناً به ، وأصل الإدهان كما قيل : جعل الأديم ونحوه مدهوناً بشيء من الدهن ولما كان ذلك ملينا ًلينا ًمحسوسا ًيراد به اللين المعنوي على أنه تجوز به عن مطلق اللين أو استعير له ، ولذا سميت المداراة مداهنة وهذا مجاز معروف ولشهرته صار حقيقة عرفية ، ولذا تجوز به هنا عن التهاون أيضا ًلأن المتهاون بالأمر لا يتصلب فيه ، وعن ابن عباس .

والزجاج ﴿ مُّدْهِنُونَ ﴾ أي مكذبون ، وتفسيره بذلك لأن التكذيب من فروع التهاون .

وعن مجاهد أي منافقون في التصديق به تقولون للمؤمنين آمنا به وإذا خلوتم إلى إخوانكم قلتم إنا معكم والخطاب عليه للمنافقين وما قدمناه أولى ، والخطاب عليه للكفار كما يقتضيه السياق .

وجوز أن يراد بهذا الحديث ما تحدثوا به من قبل في قوله سبحانه : ﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَءَابَاؤُنَا الاولون ﴾ [الواقعة : 47 ، 48]

فالكلام عود إلى ذلك بعد رده كأنه قيل : أفبهذا الحديث الذي تتحدثون به في إنكار البعث أنتم مدهنون أصحابكم أي تعلمون خلافه وتقولونه مداهنة أم أنتم به جاذمون وعلى الإصرار عليه عازمون ، ولا يخفى بعده ، وفيه مخالفة لسبب النزول وستعلمه قريبا ًإن

شاء الله تعالى :

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ شكركم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا ، أخرج ذلك الإمام أحمد .

والترمذي وحسنه .

والضياء في "المختارة" .

(488/744)

وجماعة عن علي كرم الله تعالى وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو إما إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى أن في الكلام مضافاً مقدراً أي شكر رزقكم أو إشارة إلى أن الرزق مجاز عن لازمه وهو الشكر ، وحكى الهيثم بن عدي أن من لغة ازد شنوءة ما رزق فلان فلاناً بمعنى شكره ، ونقل عن الكرماني أنه نقل في "شرح البخاري" أن الرزق من أسماء الشكر واستبعد ذلك ولعله هو ما حكاه الهيثم ، وفي "البحر" وغيره أن علياً كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس قرءا شكركم بدل ﴿ رِزْقَكُمْ ﴾ وحمله بعض شراح البخاري على التفسير من غير قصد للتلاوة وهو خلاف الظاهر ، وقد أخرج ابن مردويه عن أبي عبد الرحمن

السلمي قال : قرأ علي كرم الله تعالى وجهه ﴿ الواقعة ﴾ في الفجر فقال : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ فلما انصرف قال : إني قد عرفت أنه سيقول قائل لِمَ قرأها هكذا إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ كذلك كانوا إذا أمطروا قالوا : أمطرنا بنوء كذا وكذا فأنزل الله تعالى وتجعلون شكركم أنكم إذا مطرتم تكذبون ومعنى جعل شكرهم التكذيب جعل التكذيب مكان الشكر فكأنه عينه عندهم فهو من باب

: تحية بينهم ضرب وجيع . . .

ومنه قول الراجز

: وكان شكر القوم عند المنن . . .

(كي الصحيحات وفقء الأعين)

وأكثر الروايات أن قوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ ﴾ الخ نزل في القائلين : مطرنا بنوء كذا من غير تعرض لما قبل .

وأخرج مسلم .

وابن المنذر .

وابن مردويه عن ابن عباس قال : "مطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي عليه الصلاة والسلام : أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر قالوا : هذه رحمة

وضعها الله وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا فنزلت هذه الآية ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بمواقع النجوم ﴾ حتى بلغ ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة : 75 82] .

(489/744)

وأخرج نحوه ابن عساكر في تاريخه عن عائشة رضي الله تعالى عنها وكان ذلك على ما أخرج ابن أبي حاتم عن أبي عروة رضي الله تعالى عنه في غزوة تبوك نزلوا الحجر فأمرهم صلى الله عليه وسلم أن لا يحملوا من مائه شيئاً ثم ارتحلوا ونزلوا منزلاً آخر وليس معهم ماء فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام عليه الصلاة والسلام فصلى ركعتين ثم دعا فأمطروا وسقوا فقال رجل من الأنصار يتهم بالنفاق : إنما مطرنا بنوء كذا فنزل ما نزل ، ولعل جمعاً من الكفار قالوا نحو ذلك أيضاً بل هم لم يزالوا يقولون ذلك ، والأخبار متضافرة على أن الآية في القائلين بالأنواء ، بل قال ابن عطية : أجمع المفسرون على أنها توبيخ لأولئك ، وظاهر مقابلة الشكر بالكفر في الحديث السابق أن المراد بالكفر كفران النعمة إذا أضيفت لغير موجدها جل جلاله ؛ وقد صح ذكره مع الإيمان ، أخرج البخاري .

ومسلم .

وأبو داود .

والنسائي .

وغيرهم عن زيد بن خالد الجهني قال : " صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح بالحديبية في إثر سماء كانت من الليل فلما سلم أقبل علينا فقال : هل تدرون ما قال ربكم في هذه الليلة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم فقال : قال : ما أنعمت على عبادي نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين فأما من آمن بي وحمدني على سقياي فذلك الذي آمن بي وكفر بالكوكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك الذي آمن بالكوكب وكفر بي " والآية على القول بنزولها في قائلين ذلك ظاهرة في كفرهم المقابل للإيمان فكأنهم كانوا يقولونه عن اعتقاد أن الكواكب مؤثرة حقيقة موجدة للمطر وهو كفر بلا ريب بخلاف قوله مع اعتقاد أنه من فضل الله تعالى ، والنوء ميقات وعلامة له فإنه ليس بكفر ، وقيل : تسميته كفراً لأنه يفضي إليه إذا اعتقد أنه مؤثر حقيقة .

(490/744)

هذا وقيل : معنى الآية وتجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به ، ويشير إلى ذلك ما رواه قتادة عن الحسن بئس ما أخذ القوم لأنفسهم لم يرزقوا من كتاب الله تعالى إلا

التكذيب .

وفي "الإرشاد" أنه الأوفق لسياق النظم الكريم وسباقه ، وأقول ما قدمناه تفسير مأثور نطقت به السنة المقبولة ، وذهب إليه الجمهور وليس فيه ما يأبى إرادة معنى مطابق لسبب النزول وموافق لسياق النظم الكريم وسباقه ، وذلك بأن يقال : إنه عز وجل بعد أن وصف القرآن بما دل على جلالة شأنه وعزة مكانه وأشعر باشتماله على ما فيه تزكية النفوس وتحليتها بما يوجب كمالها من العقائد الحقة ونحوها حيث قال سبحانه : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ [الواقعة : 80] فعبر جل وعلا عن ذاته سبحانه بلفظ الرب الدال على التربية وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً .

(491/744)

وقد يستفاد ذلك من وصفه بكريم بناءاً على أن المراد به نفاع جم المنافع فإنه لا منفعة أجل مما ذكر وكان قد ذكر عز وجل غير بعيد ما يدل على أنه تعالى هو المنزل لماء المطر لا غيره سبحانه استقلالاً ولا اشتراكاً قال عز قائلاً : أفبهذا القرآن الجليل الشأن المشتمل على العقائد الحقة المرشد إلى ما فيه نفعكم أنتم متهاونون فلا تشكرون الله تعالى عليه وتجعلون بدل شكركم أنكم تكذبون به ، ومن ذلك أنكم تقولون إذا مطرتم مطرنا بنوء كذا وكذا

فتسندون إنزال المطر إلى الكواكب وقد أرشدكم غير مرة إلى ما يأبى ذلك من العقائد وهداكم إلى أنه تعالى هو المنزل للمطر لا الكواكب ولا غيرها أصلاً فما جاء من تفسير تكذبون بتقولون مطرنا بنوء كذا وكذا ليس المراد منه إلا بيان نوع اقتضاه الحال من التكذيب بالقرآن المنعوت بتلك النعوت الجليلة وكون ذلك على الوجه الذي يزعمه الكفار تكذيباً به مما لا ينتطح فيه كبشان ، وهذا لا تمحل فيه ، وقد يقال على تقدير أن يراد بالرزق المطر وكون ﴿ تُكَذِّبُونَ ﴾ على معنى تكذبون بكونه أي المطر من الله تعالى حيث تنسبونه إلى الأنواء وإن لم أقف على التصريح به في أثر يعول عليه ، المعنى أفبهذا القرآن الجليل المرشد إلى أن كل نعمة منه تعالى لا غير المصرح عن قريب بأنه المنزل للمطر وحده أنتم مدهنون أي تكذبون على ما سمعت عن ابن عباس .

(492/744)

والزجاج ومن ذلك أنكم ﴿ تجعلون ﴾ موضع شكر ما يرزقكم من المطر وينزله لكم أنكم تكذبون بكونه من الله تعالى وتنسبونه إلى الأنواء ، والتبكيت الآتي مبني على تكذيبهم بالقرآن المفهوم من ﴿ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أو من قوله سبحانه : ﴿ أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴾ [الواقعة : 81] لكن التكذيب به باعتبار التكذيب ببعض ما نطق به بما سبق وتوقف المراد بالآية

على الخبر غير بدع في القرآن الكريم ، وحال عطف ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة : 82] على ما قبله لا يخفى على نبيه ، فتأمل والله تعالى الموفق لفهم كتابه الكريم .

وقرأ المفضل عن عاصم ﴿ تكذنون ﴾ بالتخفيف من الكذب وهو قولهم في القرآن إنه وحاشاه افتراء ويرجع إلى هذا قولهم في المطر : إنه من الأنواء لأن القرآن ناطق بخلافه ،

وقوله تعالى :

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ الخ

(493/744)

تبكيت كما سمعت وذلك باعتبار تكذيبهم بما نطق به قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ خلقناكم ﴾ [الواقعة : 57] الخ أعني الآيات الدالة على كونهم تحت ملكوته تعالى من حيث ذواتهم ومن حيث طعامهم وشرابهم وسائر أسباب معايشهم ولولا للتحضيض بإظهار عجزهم ، و ﴿ إِذَا ﴾ ظرفية ، و ﴿ الحلقوم ﴾ مجرى الطعام ؛ وضمير ﴿ بَلَغَتِ ﴾ للنفس لانفهامها من الكلام وإن لم يجر لها ذكر قبل ، والمراد بها الروح بمعنى البخار المنبعث عن القلب دون النفس الناطقة فإنها لا توصف بما ذكر وكأنه مبني على القول بتجرد النفس الناطقة وهي

المسماة بالروح الأمرية ، وأنها لا داخل البدن ولا خارجه ولا تتصف بصفات الأجسام كالصعود والنزول وغيرهما على ما اختاره حجة الإسلام الغزالي وجماعة من المحققين ، ومذهب السلف أن النفس الناطقة وهي الروح المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء : 85] جسم لطيف جداً سار في البدن سريان ماء الورد في الورد وهو حي بنفسه يتصف بالخروج والدخول وغيرهما من صفات الأجسام ، وقد رد العلامة ابن القيم قول الغزالي ومن وافقه بأدلة كثيرة ذكرها في كتابه الروح ، ووصفها ببلوغ الحلقوم عليه ظاهر .

وأما على القول بالتجرد وعدم التحيز فقيل : المراد به ضعف التعلق بالبدن وقرب انقطاعه عنه فكأنه قيل : فلولا إذا حان انقطاع تعلق الروح بالبدن .

﴿ وَأَنتُمْ ﴾ أيها الحاضرون حول صاحبها ﴿ حِينَئِذٍ ﴾ أي حين إذ بلغت الحلقوم ووصلت إليه أو حان انقطاع تعلقها ﴿ تَنظُرُونَ ﴾ إلى ما يقاسيه من الغمرات ، وقيل : ﴿ تَنظُرُونَ ﴾ حالكم ووجهه أنهم يعلمون أن ما جرى عليه يجري عليهم فكأنهم شاهدوا حال أنفسهم وليس بذاك .

وقرأ عيسى حينئذٍ بكسر النون اتباعاً لحركة الهمزة في إذ .

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ أي المحتضر المفهوم من الكلام ﴿ مِّنكُمْ ﴾ والمراد بالقرب العلم وهو من إطلاق السبب وإرادة المسبب فإن القرب أقوى سبب للاطلاع والعلم ، وقال غير واحد : المراد القرب علماً وقدرة أي نحن أقرب إليه في كل ذلك منكم حيث لا تعرفون من حاله إلا ما تشاهدونه من آثار الشدّة من غير أن تقفوا على كنهها وكيفيتها وأسبابها الحقيقية ولا أن تقدروا على مباشرة دفعها إلا بما لا ينجع شيئاً ونحن المستولون لتفاصيل أحواله بعلمنا وقدرتنا أو بملائكة الموت ﴿ ولكن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾ لا تدركون كوننا أقرب إليه منكم لجهلكم بشؤوننا وقد علمت أن الخطاب للكفار ، وقيل : لا تدركون كنه ما يجري عليه على أن الاستدراك من ﴿ تنظرون ﴾ [الواقعة : 84] ؛ والإبصار من البصر بالعين تجوّز به عن الإدراك أو هو من البصيرة بالقلب ، وقيل : أريد بأقربيته تعالى إليه منهم أقربية رسله عز وجل أي ورسلنا الذين يقبضون روحه ويعالجون إخراجها أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرونهم .

﴿ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أي غير مربوبين من دان السلطان الرعية إذا ساسهم وتعبدهم ، ومنه قيل للعبد : مدين وللأمة مدينة قال الأخطل

: ربت وربا في حجرها ابن "مدينة" . . .

تراه على مسحاته يتركل

والكلام ناظر إلى قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ خلقناكم فَلَوْلاَ تُصَدّقُونَ ﴾ [الواقعة : 57] ، وقيل : هو من دان بمعنى انقاد وخضع ، وتجوز به عن الجزاء كما في قولهم كما تدين تدان أي فلولا إن كنتم غير مجزيين وجعل ناظراً لإنكارهم البعث وليس بشيء

﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ أي الروح إلى مقرها والقائلون بالتجرد يقولون أي ترجعون تعلقها كما كان أولاً .

(495/744)

﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في اعتقادكم عدم خالقيته تعالى فإن عدم تصديقهم بخالقيته سبحانه لهم عبارة عن تصديقهم بعدمها على مذهبهم ، وفي "البحر" وغيره إن كنتم صادقين في تعطيلكم وكفركم بالمحيي والمميت المبدىء المعيد ونسبتكم إنزال المطر إلى الأنواء دونه عز وجل ، وترجعون المذكور هو العامل بإذا الظرفية في ﴿ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ [الواقعة : 83] وهو المحضض عليه بلولا الأولى ، و ﴿ لَوْلاَ ﴾ الثانية تكرير للتأكيد ، و ﴿ لَوْلاَ ﴾ الأولى مع ما في حيزها دليل جواب الشرط الأول أعني ﴿ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ [الواقعة : 86] والشرط الثاني مؤكد للأول مبين له ، وقدم أحد الشرطين على ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ للاهتمام والتقدير فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير

مربوبين صادقين فيما تزعمونه من الاعتقاد الباطل فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم وحاصل المعنى أنكم إن كنتم غير مربوبين كما تقتضيه أقوالكم وأفعالكم فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن إذا بلغت الحلقوم وتردونها كما كانت بقدرتكم أو بواسطة علاج للطبيعة ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ [الواقعة : 84] جملة حالية من فاعل ﴿ بَلَغَتِ ﴾ [الواقعة : 83] والاسمية المقترنة بالواو لا تحتاج في الربط للضمير لكفاية الواو فلا حاجة إلى القول بأن العائد ما تضمنه حينئذٍ لأن التنوين عوض عن جملة أي فلولا ترجعونها زمان بلوغها الحلقوم حال نظركم إليه وما يقاسيه من هول النزع مع تعطفكم عليه وتوفركم على إنجائه من المهالك ، وقوله سبحانه : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ ﴾ [الواقعة : 85] الخ اعتراض يؤكد ما سيق له الكلام من توبيخهم على صدور ما يدل على سوء اعتقادهم بربهم سبحانه منهم ، وفي جواز جعله حالاً مقال .

وقال أبو البقاء : ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ جواب ﴿ لَوْلاَ ﴾ الأولى ، وأغني ذلك عن جواب الثانية ، وقيل : عكس ذلك .

وقيل : ﴿ إِن كُنتُمْ ﴾ شرط دخل على شرط فيكون الثاني مقدماً في التقدير أي إن كنتم صادقين إن كنتم غير مربوبين فارجعوا الأرواح إلى الأبدان وما ذكرناه سابقاً اختيار جار الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

(497/744)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (81) ﴾

الفاء تفريع على ما سِيق لأجله الكلام الذي قبلها في غرضه من التنويه بشأن القرآن ، وهو الذي بِحذو الفاء ، أو من إثبات البعث والجزاء وهو الذي حواه معظم السورة ، وكان التنويهُ بالقرآن من مسبَّبَاته .

وأطبق المفسرون عدا الفخر على أن اسم الإشارة وبيانه بقوله : ﴿ فبهذا الحديث ﴾ مشير إلى القرآن لمناسبة الانتقال من التنويه بشأنه إلى الإِنكار على المكذبين به .

فالتفريع على قوله : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ [الواقعة : 77] الآية .

والمراد بـ ﴿ الحديث ﴾ إخبار الله تعالى بالقرآن وإرادة القرآن من مثل قوله : ﴿ أفبهذا الحديث ﴾ واردة في القرآن ، أي في قوله في سورة القلم (44) ﴿ فذرني ومن يكذب

بهذا الحديث ﴾ وقوله في سورة النجم (59) ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون ﴾ ويكون العدول عن الإضمار إلى اسم الإشارة بقوله : ﴿ أفبهذا الحديث ﴾ دون أن يقول : أفَبِهِ أنتم مُدْهنون ، إخراجاً للكلام على خلاف مقتضى الظاهر لتحصل باسم الإشارة زيادة التنويه بالقرآن .

وأما الفخر فجعل الإِشارة من قوله : ﴿ أفبهذا الحديث ﴾ إشارة إلى ما تحدثوا به من قبل في قوله تعالى : ﴿ وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون ﴾ [الواقعة : 47 ، 48] ، فإن الله رد عليهم ذلك بقوله : ﴿ قل إن الأولين والآخرين ﴾ [الواقعة : 49] الآية .

وبين أن ذلك كله إخبار من الله بقوله : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ [الواقعة : 77] ثم عاد إلى كلامهم فقال : أفبهذا الحديث الذي تتحدثون به أنتم مدهنون لأصحابكم انتهى انتهى . ا هـ ، أي على معنى قوله تعالى : ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ﴾ [العنكبوت : 25] .

وإنه لكلام جيّد ولو جَعل المراد من (هذا الحديث) جميع ما تقدم من أول السورة أصلاً وتفريعاً ، أي من هذا الكلام الذي قرع أسماعكم ، لكان أجود .

وإطلاق الحديث على خبر البعث أوضح لأن الحديث يراد به الخبر الذي صار حديثاً للقوم .

والتعريف في ﴿ الحديث ﴾ على كلا التفسيرين تعريف العهد .

والمُدهِن : الذي يُظهر خلاف ما يبطن ، يقال : أدهن ، ويقال : دَاهنَ ، وفسر أيضاً بالتهاون وعدم الأخذ بالحزم ، وفسر بالتكذيب .

والاستفهام على كل التفاسير مستعمل في التوبيخ ، أي كلامكم لا ينبغي إلا أن يكون مداهنة كما يقال لأحد قال كلاماً باطلاً : أتهزأ ، أي قد نهض برهان صدق القرآن بحيث لا يكذب به مكذب إلا وهو لا يعتقد أنه كذب لأن حصول العلم بما قام عليه البرهان لا يستطيع صاحبُه دفعه عن نفسه ، فليس إصراركم على التكذيب بعد ذلك إلا مداهنة لقومكم تخشون إن صدّقتم بهذا الحديث أن تزول رئاستكم فيكون في معنى قوله تعالى : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ [الأنعام : 33] .

وعلى تفسير ﴿ مدهنون ﴾ بمعنى الإِلانة ، فالمعنى : لا تتراخوا في هذا الحديث وتدبروه وخذوا بالفور في اتباعه .

وإن فسر ﴿ مدهنون ﴾ بمعنى : تكذبون ، فالمعنى واضح .

وتقديم المجرور للاهتمام ، وصوغ الجملة الاسمية في ﴿ أنتم مدهنون ﴾ لأن المقرّر عليه

إدْهان ثابت مستمرّ .

وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (82)

إذا جرينا على ما فَسر به المفسرون تكون هذه الجملة عطفاً على جملة ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ﴾ [الواقعة : 81] عطفَ الجملة على الجملة فتكون داخلة في حيّز الاستفهام ومستقلة بمعناها .

والمعنى : أفتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ، وهو تفريع على ما تضمنه الاستدلال بتكوين نسل الإنسان وخلق الحَب ، والماء في المزن ، والنار من أعواد الاقتداح ، فإن في مجموع ذلك حصول مقومات الأقوات وهي رزق ، والنسل رزق ، يقال : رُزق فلان ولَداً ، لأن الرزق يطلق على العطاء النافع ، قال لبيد :

رُزقتْ مرابيعَ النجومِ وصَابها . . .

وَدْقُ الرواعد جَوْدُها فرهامها

(499/744)

أي أعطيتْ وقال تعالى : ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾ [الذاريات : 57] فعطف الإِطعام على الرزق والعطف يقتضي المغايرة .

والاستفهام المقدر بعد العاطف إنكاري ، وإذ كان التكذيب لا يصح أن يجعل رزقاً تعين بدلالة الاقتضاء تقدير محذوف يفيده الكلام فقدره المفسرون : شُكْر رزقكم ، أو نحوه ، أي تجعلون شكر الله على رزقه إياكم أن تكذبوا بقدرته على إعادة الحياة ، لأنهم عدلوا عن شكر الله تعالى فيما أنعم به عليهم فاستنقصوا قدرته على إعادة الأجسام ، ونسبوا الزرع لأنفسهم ، وزعموا أن المطر تمطره النجوم المسماة بالأنواء فلذلك قال ابن عباس : نزلت في قولهم : مُطرنا بنوء كذا ، أي لأنهم يقولونه عن اعتقاد تأثير الأنواء في خَلْق المطر ، فمعنى قول ابن عباس : نزلت في قولهم : مطرنا بنوء كذا ، أنه مراد من معنى الآية .

قال ابن عطية : أجمع المفسرون على أن الآية توبيخ للقائلين في المطر الذي ينزله الله رزقاً : هذا بنوء كذا وكذا أ هـ .

أشار هذا إلى ما روي في "الموطأ" عن زيد بن خالد الجهني قال : صلّى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثْر سماء فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قالَ : قَال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بِنَوْءِ كذا ونوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب ، وليس فيه زيادة فنزلت هذه الآية ولو كان نزولها يومئذٍ لقاله الصحابي الحاضر ذلك اليوم .

ووقع في "صحيح مسلم" عن ابن عباس أنه قال : "مطر الناس على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر ، قالوا : هذه رحمة الله ، وقال بعضهم : لقد صَدق نَوْء كذا وكذا .

(500/744)

قال فنزلت : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ [الواقعة : 75] حتى بلغ ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ فزاد على ما في حديث زيد بن خالد قوله فنزلت : ﴿ فلا أقسم ﴾ الخ .

وزيادة الراوي مختلف في قبولها بدون شرط أو بشرط عدم اتحاد المجلس ، أو بشرط أن لا يكون ممن لا يغفل مثلُه عن مثل تلك الزيادة عادةً وهي أقوال لأئمة الحديث وأصول الفقه ، وابن عباس لم يكن في سن أهل الرواية في مدة نزول هذه السورة بمكة فعل قوله : فنزلت تأويل منه ، لأنه أراد أن الناس مُطروا في مكة في صدر الإسلام فقال المؤمنون قولاً وقال المشركون قولاً فنزلت آية ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ تنديداً على المشركين منهم بعقيدة من العقائد التي أنكرها الله عليهم وأن ما وقع في الحديبية مطر آخر لأن السورة نزلت قبل الهجرة .

ولم يروا أن هذه الآية ألحقت بالسورة بعد نزول السورة .

ولعل الراوي عنه لم يحسن التعبير عن كلامه فأوهم بقوله فنزلت ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ [الواقعة : 75] بأن يكون ابن عباس قال : فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ، أو نحو تلك العبارة .

وقد تكرر مثل هذا الإِيهام في أخبار أسباب النزول ويتأكد هذا صيغة تكذبون ﴾ لأن قولهم : مطرنا بنوء كذا ، ليس فيه تكذيب بشيء ، ولذلك احتاج ابن عطية إلى تأويله بقوله : "فإن الله تعالى قال : ﴿ ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحبَّ الحصيد والنخلَ باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد ﴾ [ق : 119] فهذا معنى ﴿ أنكم تكذبون ﴾ أي تكذبون بهذا الخبر .

(501/744)

والذي نحاه الفخر منحى آخر فجعل معنى ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ تكملة للإِدهان الذي في قوله تعالى : ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ﴾ [الواقعة : 81] فقال : "أي تخافون أنكم إن صدّقتم بالقرآن ومنعتم ضعفاءكم عن الكفر يفوت عليكم من كسبكم ما ترجونه بسببهم فتجعلون رزقكم أنكم تكذّبون الرسول أي فيكون عطفاً على ﴿

مدهنون ﴾ [الواقعة : 81] عطف فعل على اسم شبيه به ، وهو من قبيل عطف المفردات ، أي أنتم مدهنون وجاعلون رزقكم أنكم تكذّبون ، فهذا التكذيب من الإدهان ، أي أنهم يعلمون صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ولكنهم يظهرون تكذيبه إبقاء على منافعهم فيكون كقوله تعالى : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ [الأنعام : 33] .

وعلى هذا يقدر قوله : ﴿ أنكم تكذبون ﴾ مجروراً بباء الجر محذوفة ، والتقدير : وتجعلون رزقكم بأنكم تكذبون ، أي تجعلون عوضه بأن تكذّبوا بالبعث" .

﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ولكن لاَّ تُبْصِرُونَ * فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ .

مقتضى فاء التفريع أن الكلام الواقع بعدها ناشىء عما قبله على حسب ترتيبه وإذ قد كان الكلام السابق إقامة أدلة على أن الله قادر على إعادة الحياة للناس بعد الموت ، وأعقب ذلك بأن تلك الأدلة أيدت ما جاء في القرآن من إثبات البعث ، وأنحى عليهم أنهم وضحت لهم الحجة ولكنهم مكابرون فيها ومظهرون الجحود وهم موقنون بها في الباطن ، وكل ذلك راجع إلى الاستدلال بقوة قدرة الله على إيجاد موجودات لا تصل إليها مدارك الناس ، انتقل الكلام إلى الاستدلال على إثبات البعث بدليل لا محيص لهم عن الاعتراف بدلالته .

فالتفريع على جملة ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ [الواقعة : 62] وهو أن عجزهم عن إرجاع الروح عند مفارقتها الجسد ينبههم على أن تلك المفارقة مقدَّرة في نظام الخلقة وأنها لحكمة .

فمعنى الكلام قد أخبركم الله بأنه يجازي الناس على أفعالهم ولذلك فهو محييهم بعد موتهم لإِجراء الجزاء عليهم ، وقد دلكم على ذلك بانتزاع أرواحهم منهم قهراً ، فلو كان ما تزعمون من أنكم غير مجزيين بعد الموت لبقيتْ الأرواح في أجسادها ، إذ لا فائدة في انتزاعها منها بعد إيداعها فيها لولا حكمة نقلها إلى حياة ثانية ، ليجري جزاؤها على أفعالها في الحياة الأولى .

وهذا نظير الاستدلال على تفرد الله بالإِلهية بأنّ في كينونة الموجودات دلائل خِلقية على أنها مخلوقة لله تعالى وذلك قوله تعالى : ﴿ ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ [الرعد : 15] .

ومرجع هذا المعنى إلى أن هذا استدلال بمقتضى الحكمة الإِلهية في حالة خَلْق الإنسان فإن إيداع الأرواح في الأجساد تصرف من تصرف الله تعالى ، وهو الحكيم ، فما نزع الأرواح من الأجساد بعد أن أودعها فيها مدة إلا لأن انتزاعها مقتضى الحِكمة أن تنتزع ، وانحصر ذلك في أن يجري عليها الحساب على ما اكتسبته في مدة الحياة الدنيا .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ [المؤمنون : 115] ، فالله تعالى جعل الحياة الدنيا والآجال مُدَدَ عمل ، وجعل الحياة الآخرة دار جزاء على الأعمال ، ولذلك أقام نظام الدنيا على قاعدة الانتهاء لآجالِ حياة الناس .

أما موت من كان قريباً من سن التكليف ومَن دونه وموت العَجَماوات فذلك عارض تابع لإِجراء التكوين للأجساد الحية على نظام التكوين المتماثل ، وكذلك ما يعرض لها من عوارض مهلكة اقتضاها تعارض مقتضيات الأنظام وتكوين الأمزجة من صحة ومرض ، ومسالمة وعدوان .

(503/744)

فبقي الإِشكال في جعل ﴿ ترجعونها ﴾ من جملة جواب شرط ﴿ إن ﴾ إذ لا يلزم من عدم قدرتهم على صد الأرواح عن الخروج ، أن يكون خروجها لإجراء الحساب .

ودفع هذا الإشكال وجوب تأويل ﴿ ترجعونها ﴾ بمعنى تحاولون إرجاعها ، أي عدمُ محاولتكم إرجاعها منذ العصور الأولى دليل على تسليمكم بعدم إمكان إرجاعها ، وما ذلك إلا لوجوب خروجها من حياة الأعمال إلى حياة الجزاء .

وأصل تركيب هذه الجملة : فإذا كنتم صادقين في أنكم غير مدينين فلولا حاولتم عند كل

محتضر إذا بلغت الروح الحلقوم أن ترجعوها إلى مواقعها من أجزاء جسده فما صرفكم عن محاولة ذلك إلا العلم الضروري بأن الروح ذاهبة لا محالة .

فإذا علمت هذا اتضح لك انتظام الآية التي نُظمت نظماً بديعاً من الإِيجاز ، وأدمج في دليلها ما هو تكملة للإعجاز .

و(لولا) حرف تحْضيض مستعمل هنا في التعجيز لأن المحضوض إذا لم يفعل ما حُضّ على فعله فقد أظهر عجزه والفعل المحضوض عليه هو ﴿ ترجعونها ﴾ ، أي تحاولون رجوعها .

و ﴿ إذا بلغت ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿ ترجعونها ﴾ مقدم عليه لتهويله والتشويق إلى الفعل المحضوض عليه .

والضمير المستتر في ﴿ بلغت ﴾ عائد على مفهوم من العبارات لظهور أن التي تبلغ الحلقوم هي الروح حذف إيجازاً نحو قوله تعالى : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ [ص : 32] أي الشمس .

و(ال) في ﴿ الحلقوم ﴾ للعهد الجنسي .

وجملة ﴿ وأنتم حينئذٍ تنظرون ﴾ حال من ضمير ﴿ بلغت ﴾ ومفعول ﴿ تنظرون ﴾ محذوف تقديره : تنظرون صاحبها ، أي صاحب الروح بقرينة قوله بعده ﴿ ونحن أقرب إليه ﴾ ، وفائدة هذه الحال تحقيق أن الله صرفهم عن محاولة إرجاعها مع شدة أسفهم

لموْت الأعِزَّة .

وجملة ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ في موضع الحال من مفعول ﴿ تنظرون ﴾ المحذوف ، أو معترضة والواو اعتراضية .

وأيّاً ما كانت فهي احتراس لبيان أن ثمة حضوراً أقرب من حضورهم عند المحتضر وهو حضور التصريف لأحواله الباطنة .

(504/744)

وقربُ الله : قربُ علمٍ وقدرة على حد قوله : ﴿ وجاء ربك ﴾ [الفجر : 22] أو قرب ملائكته المرسلين لتنفيذ أمره في الحياة والموت على حد قوله : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب ﴾ [الأعراف : 52] ، أي جاءهم جبريل بكتاب ، قال تعالى : ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ﴾ [الأعراف : 37] .

وجملة ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ معترضة بين جملة ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ وجملة ﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين ﴾ وكلمة ﴿ فلولا ﴾ الثانية تأكيد لفظي لنظيرها السابق أعيد لتُبنى عليه جملة ﴿ ترجعونها ﴾ لطول الفصل .

وجملة ﴿ إن كنتم غير مدينين ﴾ معترضة أو حال من الواو في ﴿ ترجعونها ﴾ .

وجواب شرط ﴿ إن ﴾ محذوف دل عليه فعل ﴿ ترجعونها ﴾ .

قال ابن عطية : وقوله : ﴿ ترجعونها ﴾ سدّ مسدّ الأجوبة والبيانات التي تقتضيها التحضيضات ، و ﴿ إذا ﴾ من قوله : ﴿ فلولا إذا بلغت ﴾ و (إن) المتكررة وحمل بعض القول بعضاً إيجاز أو اقتضابات" أ هـ .

وجملة ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ بيان لجملة ﴿ إن كنتم غير مدينين ﴾ وعلى التفسير الأول لمعنى ﴿ مدينين ﴾ يكون وجه إعادة هذا الشرط مع أنه مما استفيد بقوله : ﴿ إن كنتم غير مدينين ﴾ هو الإيماء إلى فرض الشرط في قوله : ﴿ إن كنتم غير مدينين ﴾ بالنسبة لما في نفس الأمر وأن الشرط في قوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ هو فرض وتقدير لا وقوع له نفي البعث ، وعلى الوجه الثاني يرجع قوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ إلى ما أفاده التحضيض ، وموقع فاء التفريع من إرادة أن قبض الأرواح لتأخيرها إلى يوم الجزاء ، أي إن كنتم صادقين في نفي البعث والجزاء .

وضمير التأنيث في قوله : ﴿ ترجعونها ﴾ عائد إلى الروح الدال عليه التاء في قوله : ﴿ إذا بلغت الحلقوم ﴾ .

ومعنى الاستدراك في ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ لرفع توهم قائل : كيف يكون أقرب إلى المحتضر من العوّاد الحافين حوله وهم يرون شيئاً غيرهم يدفع ذلك بأنهم محجوبون عن رؤية أمر الله تعالى .

وجملة ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ معترضة ، والواو اعتراضية .

ومفعول ﴿ تبصرون ﴾ محذوف دلّ عليه قوله : ﴿ ونحن أقرب إليه ﴾ .

ومعنى ﴿ مدينين ﴾ مُجَازَيْنَ على أعمالكم .

وعلى هذا المعنى حمله جمهور المتقدمين من المفسرين ابن عباس ومجاهد وجابر بن زيد والحسن وقتادة ، وعليه جمهور المفسرين من المتأخرين على الإِجمال ، وفسره الفراء والزمخشري ﴿ مدينين ﴾ بمعنى : عبيد لله ، من قولهم : دَان السلطان الرعية ، إذا ساسهم ، أي غير مرْبوبين وهو بعيد عن السياق .

واعلم أن قوله : ﴿ إن كنتم غير مدينين ﴾ فرض وتقدير فَ ﴿ إنْ ﴾ فيه بمنزلة (لو) ، أي لو كنتم غير مدينين ، أي غير مجزيين على الأعمال .

وأسند فعل ﴿ إن كنتم غير مدينين ﴾ إلى المخاطبين بضمير المخاطبين ، دون أن يقول : إن كان الناس غير مدينين لأن المخاطبين هم الذين لأجل إنكارهم البعث سيق هذا الكلام .

والمعنى : لو كنتم أنتم وكان الناس غير مدينين لما أخرجت الأرواح من الأجْساد إذ لا فائدة

تحصل من تفريق ذينك الإلفين لولا غرض سامٍ ، وهو وضع كل روح فيما يليق بها من عالم الخلود جزاء على الأعمال ، ولذلك أوثر لفظ ﴿ غير مدينين ﴾ دون أن يقال : غير مبعوثين ، أو غير مُعادين ، وإن كان لا يلزم من نفي الإدانة نفي البعث فإنه يجوز أن يكون بعث بلا جزاء لكن ذلك لا يدَعى لأنه عبث .

فقوله : ﴿ إن كنتم غير مدينين ﴾ إيماء إلى أن الغرض من سوق هذا الدليل إبطال إنكارهم البعث الذي هو لحكمة الجزاء .

(506/744)

ومن مستتبعات هذا الكلام أن يفيد الإيماء إلى حكمة الموت بالنسبة للإنسان لأنه لتخليص الأرواح من هذه الحياة الزائلة المملوءة باطلاً إلى الحياة الأبدية الحق التي تجري فيها أحوال الأرواح على ما يناسب سلوكها في الحياة الدنيا ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ [المؤمنون : 115] فيقتضي أنه لولا أنكم مدينون لما انتزعنا الأرواح من أجسادها بعد أن جعلناها فيها ولأبقيناها لأن الروح الإنساني ليس كالروح الحيواني ، فتكون الآية مشتملة على دليلين : أحدهما بحاقِّ التركيب ، والآخر بمستتبعاته التي أومأ إليها قوله : ﴿ إن كنتم غير مدينين ﴾ .

والغرض الأول هو الذي ذيل بقوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ .

هذا تفسير الآية الذي يحيط بأوفر معانيها دلالة واقتضاء ومستتبعات .

وجعل في "الكشاف" معنى الآية يصب إلى إبطال ما يعتقده الدهريون ، أي الذين يقولون ﴿ نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية : 24] ، لأنهم نفوا أن يكونوا عباداً لله .

وجعل معنى ﴿ مدينين ﴾ مملوكين لله ، وبذلك فسره الفراء وقال ابن عطية : "إنه أصح ما يقال في معنى اللفظة هنا ، ومن عبر بمجازَى أو بمحاسب ، فذلك هنا قلق" .

وقلت : في كلامه نظر ظاهر .

وجعل الزمخشري تفريعه على ما حكي من كلامهم السابق مبنياً على أن ما حكي من كلامهم في الأُنواء والتكذيب يفضي إلى مذهب التعطيل ، فاستدل عليهم بدليل يقتضي وجود الخالق وهو كله ناء عن معنى الآية لأن الدهرية لا ينتحلها جميع العرب بل هي نحلة طوائف قليلة منهم وناء عن متعارف ألفاظها وعن ترتيب استدلالها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(507/744)

وقال الشيخ الصابونى فى الآيات السابقة :

﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم (75) وإنه لقسم لو تعلمون عظيم (76) ﴾

سورة الواقعة

[1] حرمة مس المصحف

التحليل اللفظي

﴿ بمواقع النجوم ﴾ : المواقع جمع موقع وهو المسقط الذي يسقط فيه الشيء ، قال في " اللسان " : والموقع والموقوعة : موضع الوقوع ، ويقال : وقع الشيء موقعه ، ومواقع الغيث : مساقطه .

والمراد بمواقع النجوم : مواضعها ومنازلها من بروجها ، فلكل نجم مدار يدور فيه ، وموضع لا يتعداه ﴿ كل في فلك يسبحون ﴾ [الأنبياء : 33] .

﴿ مكنون ﴾ : المكنون : المستور قال تعالى : ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ [الواقعة : 23] والمراد أنه مصون مستور عن غير الملائكة المقربين لا يطلع عليه من سواهم ، أو مصون محفوظ عن التبديل والتغيير بحفظ الله تعالى له : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر : 9] .

قال ابن عباس : هو اللوح المحفوظ .

وقال مجاهد وقتادة : هو المصحف الذي في أيدينا .

﴿ المطهرون ﴾ : الملائكة الأطهار ، أو المطهرون من الأحداث ، من الجنابة والبول والغائط وأشباهها مما يمنع من الصلاة ، والمراد على الثاني أنه لا يمس القرآن إلا طاهر من الجنابة والحدث .

﴿ مدهنون ﴾ : متهاونون مكذبون ، قال القرطبي : والمدهن الذي ظاهره خلاف باطنه ، كأنه شبه بالدهن في سهولة ظاهره ولهذا يقال للرجل المتهاون أو المتلاين في أمر الدين " مداهن " أي أنه يلين جانبه .

قال في " اللسان " : والمداهنة والإدهان : المصانعة واللين ، وقيل : المداهنة إظهار خلاف ما يضمر .

﴿ بلغت الحلقوم ﴾ : أي بلغت النفس أو الروح الحلقوم ، ولم يتقدم لها ذكر لدلالة الكلام عليه ولأن المعنى معروف ، وأنشدوا في ذلك :

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى . . . إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

(508/744)

﴿ وبست الجبال بسا ﴾ [الواقعة : 5] : أي محاسبين أو مجزيين بأعمالكم ، مأخوذ من دان بمعنى جازى ومنه الحديث الشريف : " اعمل ما شئت كما تدين تدان " أي كما تفعل

تجزى .

وقال ابن قتيبة : غير مدينين أي غير مملوكين ولا مقهورين من قولهم : دنت له بالطاعة .

وقال الفراء : دنته أي ملكته وأنشد للحطيئة :

لقد دينت أمر بنيك حتى . . . تركتهم أدق من الطحين

﴿ ترجعونها ﴾ : ترجعون الروح إلى الجسد ، والمعنى : إن جحدتم الإله الذي يحاسبكم ويجازيكم فهلا تردون هذه الروح إلى الجسد ؟ فإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر بيد الله تعالى .

وجه الارتباط بالآيات السابقة

ذكر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة الأدلة والبراهين على (الوحدانية) وعلى البعث والنشور ، ثم أعقب ذلك بذكر الأدلة على (النبوة) ومصدر الرسالة ، وصدق هذا القرآن الذي نزل على خاتم المرسلين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، فكان معجزة خالدة له على مدى الزمان .

وقد بين تعالى أن هذا القرآن ليس – كما يزعم المشركون – من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم وإنما هو تنزيل الحكيم العليم ، وقد أقسم على ذلك بهذا القسم العظيم ، وهذا هو وجه الارتباط بين الآيات السابقة وبين هذه الآيات الكريمة .

المعنى الإجمالي

يقول جل ثناؤه ما معناه : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ لا أقسم بهذه الأفلاك ، لا أقسم بمواضعها ومنازلها ، بمداراتها التي تدور فيها ، فإن الأمر أوضح وأجلى من أن يحتاج إلى قسم ، والقسم بها – لو علمتم – شيء عظيم ، لما فيه من الدلائل الباهرة على قدرة خالقها جل وعلا ، ومع ذلك أقسم بأن هذا القرآن كتاب كريم ، ليس بسحر ولا كهانة ، وليس بمفترى ، بل هو تنزيل الحكيم العليم ، في كتاب مصون عند الله تعالى ، محفوظ عن الباطل ، محفوظ عن التبديل والتغيير .

(509/744)

وهذا الكتاب العزيز لم تتنزل به الشياطين ، فالشياطين لا تمس هذا الكتاب المكنون في علم الله وحفظه ، وإنما تنزلت به الملائكة الأطهار ، ولا ينبغي أن يمسه إلا من كان مثلهم طاهرا ، لأنه كلام رب العزة جل وعلا ، ومن تعظيم كلام الله ألا يمسه إلا من كان طاهرا مطهرا .

أفبهذا القرآن – أيها الناس – تكذبون وتكفرون ؟ وتجعلون شكر النعم أنكم تنكرون فضل الله المنعم المتفضل عليكم ؟ فماذا أنتم فاعلون حين تبلغ الروح الحلقوم ، وتقفون في مفرق الطريق المجهول ؟

هل تملكون العودة إلى الدنيا أو دفع الموت عنكم ؟ أو تستطيعون أن تردوا إلى أحد روحه

بعد أن تنفصل عن جسده ؟

فلو كنتم غير محاسبين ، أو كان الأمر كما تقولون : لا حساب ولا جزاء ، ولا بعث ولا نشوز ، فأنتم حينئذ طلقاء غير مدينين ولا محاسبين ، فدونكم إذن فلترجعوها – وقد بلغت الحلقوم – لتردوها عما هي ذاهبة إليه من حساب وجزاء ، وأنتم حولها تنظرون ، وملائكتنا أقرب إليها منكم ولكن لا تبصرون ، وهي ماضية إلى (الدينونة الكبرى) وأنتم ساكنون عاجزون ، وهناك تلقون الجزاء الأوفى من أحكم الحاكمين .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : السر في القسم بمواقع النجوم هو الإشارة إلى عظيم قدرة الله ، وكمل حكمته ، وبديع صنعه ، بما لا يحيط به نطاق البيان ، فإن عظمة الصنعة تدل على عظمة الصانع فالسماء بما حوته من شموس وأقمار ، أثر من آثار قدرة الله ، التي تدل على وجود الخالق ، المبدع ، الحكيم ، وهي آية على الوحدانية كما قال أبو العتاهية :

وفي كل شيء له آية . . . تدل على أنه واحد

اللطيفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ جاءت هذه الجملة الاعتراضية (لو تعلمون) بين الصفة والموصوف ، وفائدة هذا الاعتراض هي التهويل من شأن القسم ، والتنبيه إلى عظمة الكون كما قال تعالى : ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [غافر : 57] .

والمقسم عليه هو (القرآن العظيم) وأصل الكلام : (وإنه لقسم عظيم ، إنه لقرآن كريم) فاعترض بين الصفة والموصوف لهذا السر الدقيق .

اللطيفة الثالثة : فإن قيل : أين جواب (لو) في الجملة الاعتراضية ؟

نقول : لا جواب لها لأنه أريد به نفي علمهم وكأنه قال : وإنه لقسم ولكن لا تعلمون ، أو إنه محذوف ثقة بظهوره أي لو تعلمون حق العلم لعظمتموه ، أو لعملتم بموجبه ، والفعل المضارع (تعلمون) ليس له مفعول على حد قولهم : فلان يعطي ويمنع ، وهو أبلغ وأدخل في الحسن مما لو كان له مفعول فتدبره .

اللطيفة الرابعة : قال الإمام الفخر : رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ : " القرآن مصدر أريد به المفعول وهو المقروء ، كما في قوله تعالى ﴿ هذا خلق الله ﴾ [لقمان : 11] أي مخلوق الله ، ووصفه بالكريم فيه لطيفة ، وهي أن الكلام إذا قرئ كثيرا يهون في الأعين ، والآذان ، ولهذا ترى من قال شيئا في مجلس الملوك ، لا يذكره ثانيا ، ولو قيل لقائله لم تكرر هذا ؟

اللطيفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ﴾ إطلاق الحديث على

القرآن الكريم ، كثير بمعنى كونه (اسما) لا (وصفا) فإن الحديث اسم لما يتحدث به ، وهو وصف يوصف به ما يتجدد ، فيقال : أمر حادث ، ورسم حديث أي جديد ، ويقال : أعجبني حديث فلان بمعنى كلامه ، والقرآن قديم له لذة الكلام الجديد ، فصح أن يسمى (حديثا) .

والإدهان : تليين الكلام لاستمالة السامع ، من غير اعتقاد صحة الكلام ، كما يقول العدو لعدوه : أنا أدعو لك ، وأثني عليك ، مداهنة منه وهو كاذب ، فصار استعمال المدهن في المكذب من هذا القبيل .

قال الزجاج : معناه : أفبهذا القرآن أنتم تكذبون ؟ .

(511/744)

اللطيفة السادسة : المناسبة بين المقسم به وهو (النجوم) ، وبين القسم عليه وهو (القرآن) أن النجوم جعلها الله ليهتدي بها في ظلمات البر والبحر ، وآيات القرآن يهتدي بها في ظلمات الجهل والغواية ، وتلك ظلمات حسية ، وهذه ظلمات معنوية ، فالقسم هنا قد جمع فيه بين الهدايتين (الحسية) للنجوم ، و (المعنوية) للقرآن فتدبر هذا السر الدقيق .

اللطيفة السابعة : قوله تعالى : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ ظاهر الكلام النفي ، ومعناه

النهي كقوله تعالى : ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية ﴾ [النور : 3] يراد منه النهي ، وكقوله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربصن ﴾ [البقرة : 228] خبر بمعنى الأمر ، والمراد بالآية أنهم المطهرون من الأحداث .

قال ابن كثير : قوله تعالى : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ قال بعضهم : أي من الجنابة والحدث ، قالوا : ولفظ الآية خبر ، ومعناه الطلب ، قالوا : والمراد بالقرآن هاهنا المصحف ، كما روى مسلم في " صحيحه " عن ابن عمر : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو " مخافة أن يناله العدو ، واحتجوا بما رواه مالك في الموطأ أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن حزم : " ألا يمس القرآن إلا طاهر " .

اللطيفة الثامنة : قوله تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم ﴾ هو على حذف مضاف أي وتجعلون شكر رزقكم تكذيبكم بالقرآن ، أي تضعون الكفر مكان الشكر ، فهو على حد قول القائل :

" تحية بينهم ضرب وجيع " . . . قال ابن عباس : في تفسير الآية : وتجعلون شكركم التكذيب .

قال الألوسي : " إن في الكلام مضافا مقدرا أي شكر رزقكم ، أو إشارة إلى أن الرزق مجاز عن لازمه وهو الشكر " .

وقال الثعلبي المعنى : وتجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون .

وجوه القراءات

(512/744)

1- قرأ الجمهور ﴿ فلا أقسم ﴾ بمد (لا) على أنها نافية ، وقرأ الحسن ﴿ فلأقسم ﴾ بغير ألف بين اللام والهمزة فتكون اللام (لام القسم) وهذا مبني على رأي بعض النحاة الذن يجوزون القسم على فعل الحال فيقال : والله ليخرج زيد ، وعليه قول الشاعر : " ليعلم ربي أن بيتي واسع " .

2- قرأ الجمهور ﴿ بمواقع ﴾ على الجمع ، وقرأ حمزة والكسائي ﴿ بموقع ﴾ على الإفراد لأنه اسم جنس .

3- قرأ الجمهور ﴿ المطهرون ﴾ اسم مفعول من (طهر) مشددا ، وقرأ نافع ﴿ المطهرون ﴾ مخففا من أطهر ، وقرأ سلمان الفارسي ﴿ المطهرون ﴾ بشد الطاء والهاء أصله ﴿ المتطهرون ﴾ فأدغمت التاء في الطاء .

وجوه الإعراب

1- قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم ﴾ لا زائدة والمعنى فأقسم ، وهذا مذهب سعيد بن جبير

، وقيل إنها (لام القسم) ومعناه فلأقسم وقد رده في " الكشاف " .

قال الزمخشري : " ولا يصح أن تكون اللام (لام القسم) لأمرين :

أحدهما : أن حقها أن تقرن بها النون المؤكدة ، والإخلال بها ضعيف قبيح .

والثاني : أن لأفعلن في جواب القسم للاستقبال ، وفعل القسم يجب أن يكون للحال .

2- قوله تعالى : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ جملة (لا يمسه) صفة ل (قرآن كريم) وقيل صفة ل (كتاب مكنون) وعلى كلا القولين تكون (لا) نافية ، وقيل إنها ناهية ، بمعنى (لا يمسسه) مثل قوله عليه السلام : " المسلم أخو المسلم لا يظلمه . . . " الحديث .

قال ابن عطية : " والقول بأن (لا يمسه) نهي قول فيه ضعف ، وذلك أنه إذا كان خبرا فهو في موضع الصفة ، وقوله بعد ذلك ﴿ تنزيل ﴾ صفة ، فإذا جعلناه نهيا جاء معناه أجنبيا معترضا بين الصفات ، وذلك لا يحسن في وصف الكلام فتدبره .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل في قسم حقيقي ؟ وما هي طريقة هذا القسم ؟

اختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم ﴾ وكيف نجمع بين هذا اللفظ الذي صورته " نفي القسم " وبين قوله : ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ الذي هو صريح في إثبات القسم ؟ على عدة أقوال :

1 – قال بعضهم : وهم الجمهور إن (لا) زائدة زيدت للتأكيد ، مثلها في قوله تعالى : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ [الحديد : 29] أي ليعلم ، وقول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة . . . وكان نياط القلب لا يتقطع

أي كاد يتقطع .

ب – وقال آخرون : إن (لا) هنا هي لام القسم أشبعت فتحتها فتولدت الألف نظير الألف في قول الشاعر : " أعوذ بالله بمن العقراب " ويكون معنى الآية : " لأقسم " .

وهذا الرأي ضعيف لأن النحاة يقولون : إذا كان الفعل مستقبلا في حيز القسم وجب اتصال نون التوكيد به وحذفها ضعيف جدا تقول مثلا " لأفعلن " ومثله قوله تعالى : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم ﴾ [الأنبياء : 57] ولا تقول : لأفعل .

ج – وقال آخرون : هي (للنفي) وهو نفي لمحذوف هو ما كان يقوله الكفار : إن القرآن سحر ، أو شعر ، أو كهانة ، ويكون حاصل لمعنى : لا صحة لما يقولون ، أقسم بمواقع النجوم ، ويكون الأمر فيه نفيا لكلام سابق ، وابتداء بكلام مستأنف .

وهذا الرأي ضعيف أيضا لأن النحاة يقولون : إن اسم (لا) وخبرها لا يصح حذفهما إلا

إذا كانا في جواب سؤال ، ثم إنه في مثل هذه الحالة يتعين العطف بالواو كما يقال : هل شفي فلان من مرضه ؟ فيقال : لا وشفاه الله . . . إلخ .

د- واختار الفخر الرازي رأيا آخر خلاصته : أن (لا) نافية باقية على معناها ، وأن في الكلام " مجازا تركيبيا " وخلاصة المعنى أن نقول : لا حاجة إلى القسم لأن الأمر أظهر وأوضح من أن يقسم عليه ، وهذا الرأي جميل لأنه لا يراد به نفي القسم حقيقة بل الإشارة إلى أنه من الجلاء والوضوح بحيث لا يحتاج إلى قسم .

الحكم الثاني : ما المراد بالكتاب المكنون في الآية الكريمة ؟

اختلف الفسرون في المراد بالكتاب المكنون .

(514/744)

فقيل : هو (اللوح المحفوظ) ومعنى أنه مكنون أي أنه مستور عن الأعين ، لا يطلع عليه إلا بعض الملائكة ، كجبريل وميكائيل عليهما السلام .

وقيل إن الكتاب : لا يراد به اللوح المحفوظ ، وإنما يراد به القرآن الكريم " المصحف " فهذا القرآن العظيم كما أنه محفوظ في الصدور ، كذلك هو مسجل في السطور كما قال تعالى : ﴿ في صحف مكرمة ﴾ [عبس : 13] وعلى هذا التفسير يكون معنى ﴿ مكنون

﴾ أي أنه محفوظ من التبديل والتغيير ، ويكون على حد قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر : 9] .

الحكم الثالث : ما المراد من قوله تعالى : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ ؟

اختلف المفسرون في الضمير في هذه الآية الكريمة وهو قوله تعالى : ﴿ لا يمسه ﴾ هل هو راجع إلى القرآن العظيم ؟ أم إلى الكتاب الذي هو على رأي بعضهم (اللوح المحفوظ) فإذا أعيد الضمير على القرآن الكريم يكون المراد من قوله تعالى : ﴿ لا يمسه ﴾ أي لا يمس هذا القرآن إلا طاهر من الحدثين : الأصغر والأكبر . ويكون النفي على معنى أنه لا ينبغي أن يمسه كما في قوله تعالى : ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية ﴾ [النور : 3] .

ويرى البعض أن (لا) ناهية وليست نافية ، والضمة التي فيه للإتباع لا للإعراب ، والذين قالوا إن المراد باللفظ هو اللوح المحفوظ فسروا المطهرين بالملائكة واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام بررة ﴾

[عبس : 13 - 16] فقالوا هذه الآية تشبه تلك فالمراد بها إذا الملائكة .

الحكم الرابع : ما هو حكم مس المصحف الشريف ؟

القرآن الكريم كتاب الله المقدس يجب تعظيمه واحترامه ، ومن تعظيمه وإجلاله ألا يمسه إلا طاهر ، ومسألة عدم جواز مس المصحف للمحدث أمر يكاد يجمع عليه الفقهاء ، ومن

أجازه من الفقهاء فإنما أجازه لضرورة (التعلم والتعليم) فالمحدث والجنب ، والحائض ، والنفساء ، كل هؤلاء يحرم عليهم مس المصحف لعدم الطهارة .

(515/744)

رأي ابن تيمية رحمه الله : استدل ابن تيمية على الحكم الشرعي من وجه لطيف فقال : إن الآية تدل على الحكم من باب " الإشارة " فإذا كان الله تبارك وتعالى يخبر أن الصحف المطهرة في السماء لا يمسها إلا المطهرون فالصحف التي بأيدينا كذلك ينبغي ألا يمسها إلا طاهر " انتهى .

أقول : هذا هو الحق الذي ينبغي التعويل عليه ، وهو ما اتفق عليه الفقهاء من حرمة مس المصحف الشريف بدون طهارة .

تنبيه هام

قلنا إن مس المصحف لغير المتطهر حرام ، وهذا الحكم لا اعتراض عليه ، إنما الاختلاف بين الفقهاء هل هو مستنبط من الآية الكريمة ؟ أم مأخوذ من دليل آخر ؟

فيرى بعض الفقهاء أن الحكم الشرعي بحرمة مس القرآن مأخوذ من نفس هذه الآية الكريمة ، لأنه (خبر) يقصد به (النهي) فكأنه تعالى يقول : " لا تمسوه إلا إذا كنتم على طهارة " .

وقال آخرون الحكم ثبت من السنة لا من الآية الكريمة وقد ذكروا بعض الوجوه التي يرجح بها هذا الرأي منها :

أ- " إن الآيات ها هنا مكية ، ومعلوم أن القرآن في مكة كانت عنايته موجهة إلى أصول الدين لا إلى فروعه .

ب- قالوا الآية خبر وتأويلكم لها يخرجها عن (الخبر) إلى (الإنشاء) الذي يراد به النهي ، والأصل أن يحمل اللفظ على الحقيقة .

ج- قالوا إن لفظ " المطهرون " يشير إلى ما قلنا وهو الذي تكون طهارته ذاتية وهم (الملائكة) وأما المتطهرين فهم الذين تكون طهارتهم بعملهم نظرا لقوله تعالى : ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ [البقرة : 222] فلو أراد الله سبحانه الإخبار عن وجوب الطهارة لقال : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ ! ! .

والخلاصة : فإن السنة والآثار تنص على وجوب الطهارة لمس القرآن فقد ثبت فيما رواه ابن حبان وأصحاب السنن أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب كتابا إلى أهل اليمن وجاء فيه : " وألا يمس القرآن إلا طاهر " .

(516/744)

وبهذا قال الجمهور من الفقهاء منهم : (مالك وأبو حنيفة والشافعي) رحمهم الله وقد كان كثير من الصحابة يأمرون أولادهم بالوضوء لمس المصحف ، وقصة عمر معروفة وفي هذا القدر كفاية وغنية عن التطويل .

الحكم الخامس : ما هي الحكمة من القسم ؟

جرت العادة عند العرب أن يستعملوا القسم عند إرادة توكيد الكلام ، والقرآن الكريم نزل بلغة العرب ، وقد كانت آياته الكريمة تحوي أنواعا من القسم وضروريا من التفنن البديع في توكيد الكلام ، وليس المراد من القسم إثبات الدعوى ، فالدعاوى لها ما يثبتها من الأدلة القطعية التي ثبتت عن طريق الحجة والبرهان .

ثم إن المخاطب أحد رجلين : إما مؤمن بالقرآن ، أو مكذب به ، فالمؤمن لا يحتاج إلى قسم فهو مصدق بما أخبر عنه الله تعالى بدون يمين ، والمكذب الذي لم تغنه الآيات والنذر لن يصدق بمجرد القسم بعد أن لم يؤثر فيه الدليل ، فثبت أن المراد بالقسم إنما هو توكيد الكلام ليس إلا ولفت النظر إلى أهمية الموضوع ، وأهمية الأمر ، فحين يقسم الله تعالى بشيء من الأشياء تتوجه النفس إلى سر هذا القسم بهذا المخلوق متسائلة ما سره ؟ وما معناه ؟ ولم أقسم به دون غيره ؟ وحينئذ تبحث عن الحكمة والسر في ذلك القسم ! !

الحكم السادس : ما هي أنواع القسم المذكورة في القرآن الكريم ؟

ورد القسم في القرآن الكريم على أنواع عديدة ، وضروب شتى ، إما من ناحية القسم نفسه

، أو من ناحية المقسم عليه .

1- فجاء القسم بالذات العلية مثل قوله تعالى : ﴿ فورب السمآء والأرض إنه لحق مثل مآ أنكم تنطقون ﴾ [الذاريات : 23] وقوله : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ﴾ [الحجر : 92] .

2- وجاء القسم بأشياء من خلقه سبحانه مثل : ﴿ والتين والزيتون ﴾ [التين : 1] ﴿ والشمس وضحاها ﴾ [الشمس : 1] ﴿ والفجر * وليال عشر ﴾ [الفجر : 1 - 2] .

(517/744)

3- وجاء القسم بالقرآن الكريم مثل : ﴿ ص والقرآن ذي الذكر ﴾ [ص : 1] ﴿ حم * والكتاب المبين ﴾ [الزخرف : 1 - 2] ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ [ق : 1] .

4- وجاء أيضا على الشكل الذي معنا في الآيات الكريمة بلا النافية وفعل القسم مثل قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس ﴾ [التكوير : 15 - 16] وقوله : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ [القيامة : 1] وقوله : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ [البلد : 1] هذا من ناحية القسم .

أما من ناحية المقسم عليه فإما أن يكون .

1- أصول الإيمان كوحدانية الله سبحانه مثل قوله تعالى : ﴿ والصافات صفا . . . إن إلهكم لواحد ﴾ [الصافات : 1 - 4] .

2- أو يكون المراد إثبات أن القرآن حق مثل الآية التي معنا ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم . . . إنه لقرآن كريم ﴾ . 3- أو يكون المراد إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم مثل قوله تعالى : ﴿ يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين ﴾ [يس : 1 - 3] .

4- أو يكون المراد نفي صفة ذميمة أتهم بها المشركون الرسول صلى الله عليه وسلم مثل قوله : ﴿ ن والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ [القلم : 1 - 2] .

الحكم السابع : هل يجوز القسم بغير الله سبحانه ؟

أجمع العلماء على حرمة القسم بغير الله سبحانه ، أو صفة من صفاته تعالى لقوله صلى الله عليه وسلم : " من كان حالفا فليحلف بالله أو فليذر " هذا بالنسبة للخلق ، أما بالنسبة للخالق فله أن يقسم بما شاء من خلقه ، لأن في القسم بالشيء تنبيها إلى عظمته وأهميته ، والله سبحانه وتعالى قد أقسم بكثير من الآيات كما مر معنا تنبيها إلى شرفها وما حوت من إبداع وإتقان ليكون ذلك دليلا على عظمة خالقها جل وعلا .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفا فليحلف

بالله أو فليذر " .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

(518/744)

أولا : القسم بالنجوم والأفلاك تنبيه على عظمة الخالق ، المدبر الحكيم الذي أبدع هذا الكون .

ثانيا : القرآن كلام الله ليس بشعر ، ولا بسحر ، ولا كهانة ، بل تنزيل الحكيم العليم .

ثالثا : الكتاب العزيز لم تتنزل به الشياطين ، وإنما تنزلت به الملائكة الأطهار ، فلا ينبغي أن يمسه إلا طاهر .

رابعا : القرآن مصون عن التبديل والتغيير ، محفوظ عن الباطل ، لأن الله تعالى قد تكفل بحفظه .

خامسا : ينبغي أن تقابل النعمة بالشكر والثناء لا بالجحود ، والإنكار ، والتكذيب .

سادسا : لو كان الإنسان غير مجازى بعمله لاستطاع أن يدفع عن نفسه شبح الموت .

سابعا : لا بد من دار الجزاء وراء هذه الدنيا ليلقى فيها الإنسان نتيجة عمله .

خاتمة البحث :

حكمة التشريع

القرآن الكريم كتاب الله المجيد ، ودستوره إلى عباده ، ووحيه المنزل على خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وهو آخر الكتب السماوية نزولا ، وأشرفها مكانة ومنزلة ، أودع فيه منزله هداية البشرية ، وسعادة الإنسانية ، وجعله نورا وضياء للعالمين .

ومن حق هذا القرآن المجيد أن يعظم ، ومن واجب المسلمين أن يطبقوه في حياتهم ، وأن يحلوه محل الصدارة من أنفسهم ، تلاوة ، وعملا وتطبيقا ؛ ليسعدوا كما سعد آباؤهم من قبل .

ومن تعظيم القرآن الكريم ألا يمسه الإنسان إلا على طهارة ، لأنه كلام الله ، وكلام الله عظيم بعظمة الله ، فلا يصح للمؤمن أن يتساهل في أمره ، وأن يمسه بدون وضوء ، فقد كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصيته لعمرو بن حزم " وألا يمس القرآن إلا طاهر " وكفى بتعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم لأمر القرآن تعظيما ، وكفى ببيانه بيانا ! !

(519/744)

وإذا كان القرآن الكريم قد عظم الله شأنه ، فأنزله في أفضل الشهور (شهر رمضان) وفي أفضل الليالي (ليلة القدر) واختار الواسطة له الروح الأمين (جبريل) عليه السلام ، وأخبر

أنه ﴿ في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام بررة ﴾ [عبس : 13 - 16] أفلا يكون من واجب المسلمين أن يعظموا هذا الكتاب المبين غاية التعظيم ، ويجلوه غاية الإجلال ؟ !

وإذا كان الملائكة الأطهار ، والسفرة الأبرار هم الذين تشرفوا بمس هذه الصحف المطهرة ، فأولى بأهل الأرض ألا يمسوه إلى على طهارة ، تشبها بالملائكة الأطهار ، وتفخيما لشأن هذا الكتاب العظيم الذي حفظه الله وصانه من التحريف والتبديل وصدق الله : ﴿ وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ [فصلت : 41 - 42] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روائع البيان حـ 2 صـ 496 . 511 ﴾

(520/744)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والأربعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/745)

الجزء الخامس والأربعون بعد السبعمائة

من الآية ﴿ 88 ﴾ من (سورة الواقعة)

وحتى الآية ﴿ 96 ﴾ آخر السورة

(4/745)

قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (89) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (91) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : لا يقدر أحد أصلاً على ردها بعد بلوغها إلى ذلك المحل لأنا نريد جمع الخلائق للدينونة بما فعلوا فيما أقمناهم فيه وأمرناهم به ولا يكون إلا ما تريد ، فكما أنكم مقرون بأنه خلقكم من تراب وبأنه يعيدكم قهراً إلى التراب يلزمكم حتماً أن تقروا بأنه قادر على أن يعيدكم من التراب فإن أنكرتم هذا اللازم لزمكم إنكار ملزومه ، وذلك مكابرة في الحس فليكن الآخر مثله ، فثبت أنا إنما نعيد الخلائق إلى التراب لنجمعهم فيه ثم نبعثهم منه لنجازي كلاًّ بما يستحق ونقسمهم إلى أزواج ثلاثة ﴿ فأما إن كان ﴾ أي الميت منهم ﴿ من المقربين ﴾ أي السابقين الذين اجتذبهم الحق من أنفسهم فقربهم منه فكانوا مرادين قبل أن يكونوا مريدين ، وليس القرب قرب مكان لأنه تعالى منزهه عنه ، وإنما هو بالتخلق بالصفات الشريفة على قدر الطاقة البشرية ليصير الإنسان روحاً خالصاً كالملائكة لا سبيل للحظوظ والشهوات عليه ، فإن قربهم إنما هو بالانخلاع من الإرادة أصلاً ورأساً ،

وذلك أنه لا شهوات لهم فلا أغراض فلا فعل إلا أمروا به فلا إرادة ، إنما الإرادة للمولى سبحانه وهو معنى ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ [النحل : 90] أي مطلق الإرادة في غير أمر من الله ، لأن المملوك الذي هو لغيره لا ينبغي أن يكون له شيء لا إرادة ولا غيرها – وفقنا الله تعالى لذلك ﴿ فروح ﴾ أي فله راحة ورحمة ما ينعشه من نسيم الريح ومعنى قراءة يعقوب بالضم طمأنينة في القلب وسكينة وحياة لا موت بعدها

﴿ وريحان ﴾ أي رزق عظيم ونبات حسن بهج وأزاهير طيبة الرائحة .

ولما ذكر هذه اللذاذة ، ذكر ما يجمعها وغيرها فقال : ﴿ وجنات ﴾ أي بستان جامع للفواكه والرياحين وما يكون عنها وتكون عنه .

(5/745)

ولما كان جنان الدنيا قد يكون فيها نكد ، أضاف هذه الجنة إلى المراد بهذه الجنان إعلاماً بأنها لا تنفك عنه فقال : ﴿ نعيم ﴾ أي ليس فيها غيره بل هي مقصورة عليه ﴿ وأما إن كان ﴾ أي الميت منهم ﴿ من أصحاب اليمين ﴾ أي الذين هم الدرجة الثانية من أصحاب الميمنة ﴿ فسلام ﴾ أي سلامة ونجاة وأمر وقول دال عليه .

ولما كان ما يواجه به الشريف من ذلك أعلى قال : ﴿ لك ﴾ أي يا أعلى الخلق أو يا أيها

المخاطب .

ولما كان من أصاب السلام على وجه من الوجوه فائزاً ، فكيف إذا كان مصدراً للسلام ومنبعاً منه قال : ﴿ من أصحاب اليمين ﴾ أي أنهم في غاية من السلامة وإظهار السلام ، لا يدرك وصفها ، وهو تمييز فيه معنى التعجيب ، فإن إضافته لم تفده تعريفاً ، وفي اللام و ﴿ من ﴾ مبالغة في ذلك ، فالمعنى : فأما هم فعجباً لك وأنت أعلى الناس في كل معنى ، وأعرفهم بكل أمر غريب منهم في سلامتهم وسلامهم وتعافيهم وملكهم وشرفهم وعلو مقامهم ، وذلك كله إنما أعطوه لأجلك زيادة في شرفك لاتباعهم لدينك ، فهو مثل قول القائل حيث قال :

فيا لك من ليل كأن نجومه . . .

بكل مغار العمل شدت يذبل

وقول القائل أيضاً حيث قال :

لله در أنوشروان من رجل . . .

ما كان أعرفه بالدون والسفل

أي عجباً لك من ليل وعجباً من أنوشروان .

ولما ذكر الصنفين الناجيين ، أتبعهما الهالكين جامعاً لهم في صنف واحد لأن من أريدت له السعادة يكفيه ذلك ، ومن ختم بشقائه لا ينفعه ذلك الإغلاظ والإكثار فقال ﴿ وأما إن

كان ﴾ أي ذلك الذي أخذناه من أصحاب المشأمة وأنتم حوله تنقطع أكبادكم له ولا تقدرون له على شيء أصلاً ﴿ من المكذبين ﴾ .

(6/745)

ولما كان المكذب تارة يكون معانداً ، وتارة يكون جاهلاً مقتصراً ، قال : ﴿ الضالين ﴾ أي أصحاب الشمال الذين وجهوا وجهة هدى فزاغوا عنها لتهاونهم في البعث ﴿ فنزل ﴾ أي لهم وهو ما يعد للقادم على ما لاح ﴿ من حميم ﴾ أي ماء متناه في الحرارة بعد ما نالوا من العطش كما يرد أصحاب الميمنة الحوض كما يبادر به القادم ليبرد به غلة عطشه ويغسل به وجهه ويديه ﴿ وتصلية جحيم ﴾ أي لهم بعد النزل يصلوا النار الشديدة التوقد صلياً عظيماً .

ولما تم ما أريد إثبات البعث على هذا الوجه المحكم البين ، وكانوا مع البيان يكذبون به ، لفت الخطاب عنهم إلى أكمل الخلق ، وأكد تسميعاً لهم فقال سائقاً له مساق النتيجة : ﴿ إن هذا ﴾ أي الذي ذكر في هذه السورة من أمر البعث الذي كذبوا به في قولهم ﴿ إننا لمبعوثون ﴾ ومن قيام الأدلة عليه .

ولما كان من الظهور في حد لا يساويه فيه غيره .

زاد في التأكيد على وجه التخصيص فقال : ﴿ لهو حق اليقين ﴾ أي لكونه لما عليه من الأدلة القطعية المشاهدة كأنه مشاهد مباشر ، قال الأصبهاني : قال قتادة في هذه الآية : إن الله عز وجل ليس تاركاً أحداً من الناس حتى يوقفه على اليقين من هذا القرآن ، فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك ، وأما المنافق فأيقن يوم القيامة حيث لا ينفعه – انتهى .

(7/745)

ولما تحقق له هذا اليقين ، سبب عنه أمره بالتنزيه له سبحانه عما وصفوه به مما يلزم منه وصفه بالعجز بعد تقسيمه للأزواج الثلاثة على طريق الإيجاز كما أمره بذلك بعد الفراغ من تقسيمهم على طريق الإطناب إشارة إلى أن المفاوتة بينهم مع ما لهم من العقول من أعظم الأدلة على الفعل بالاختيار وعلى فساد القول بالطبيعة : ﴿ فسبح ﴾ أي أوقع التنزيه كله عن كل شائبة نقص بالاعتقاد والقول والفعل والصلاة وغيرها بأن تصفه بكل ما وصف به نفسه من الأسماء الحسنى وتنزهه عن كل ما نزه عنه نفسه المقدس ، ولقصره الفعل لإفادة العموم أثبت الجار بقوله : ﴿ باسم ربك ﴾ أي المحسن إليك بما خصك به مما لم يعطه أحداً غيرك عما وصفه به الكفرة من التكذيب بالواقعة ، وإذا كان هذا لاسمه فكيف بما له وهو ﴿ العظيم ﴾ الذي ملأت عظمته جميع الأقطار والأكوان ، وزادت على ذلك بما لا يعلمه

حق العلم سواه لأن من له هذا الخلق على هذا الوجه المحكم ، وهذا الكلام الأعز الأكرم ، لا ينبغي لشائبة نقص أن تلم بجنابه ، أو تدنو من فناء بابه ، وقد انطبق آخر السورة على أولها في الإخبار بالبعث وتصنيف الخلائق فيه إلى الأصناف المذكورة في أولها أيّ انطباق ، وزاد هذا الآخر بأن اعتنق بدليله أي اعتناق ، واتفق مع أول التي بعدها أيّ اتفاق ، وطابقه أجلَّ طباق ، وختمت بصفتي الرحمة والعظمة ، وجلت عن الاسم الجامع كاللتين قبلها لما ذكره في أواخر القمر من أنه لم يذكر في واحدة من الثلاث أحد من أهل المعصية المصاحبة للإيمان ، ليخاطب بالاسم الجامع للإهانة والإحسان ، وإنما ذكر أهل الكفران المستوجبين للهوان بالخلود في النيران ، وأهل الإيمان المتأهلين للإحسان بتأبيد الإمكان في أعلى الجنان - انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 7 صـ 429. 431﴾

(8/745)

فصل

قال الفخر :

ثم لما بين أن الموت كائن والحشر بعده لازم ، بين ما يكون بعد الحشر ليكون ذلك باعثاً للمكلف على العمل الصالح ، وزاجراً للمتمرد عن العصيان والكذب فقال :

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (89)

هذا وجه تعلقه معنى ، وأما تعلقه لفظاً فنقول : لما قال : ﴿ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا ﴾ [الواقعة : 86 ، 87] وكان فيها أن رجوع الحياة والنفس إلى البدن ليس تحت قدرتهم ولا رجوع لهم بعد الموت إلى الدنيا صار كأنه قال : أنتم بعد الموت دائمون في دار الإقامة ومجزيون ، فالمجزى إن كان من المقربين فله الروح والريحان ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في معنى الروح وفيه وجوه الأول : هو الرحمة قال تعالى : ﴿ وَلَا تَايْئَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ ﴾ [يوسف : 87] أي من رحمة الله الثاني : الراحة الثالث : الفرح ، وأصل الروح السعة ، ومنه الروح لسعة ما بين الرجلين دون الفحج ، وقرىء ، ﴿ فَرُوحٌ ﴾ بضم الراء بمعنى الرحمة .

المسألة الثانية :

في الكلام إضمار تقديره : فله روح أفصحت الفاء عنه لكونه فاء الجزاء لربط الجملة بالشرط فعلم كونها جزاء ، وكذلك إذا كان أمراً أو نهياً أو ماضياً ، لأن الجزاء إذا كان مستقبلاً يعلم كونه جزاء بالجزم الظاهر في السمع والخط ، وهذه الأشياء التي ذكرت لا تحتمل الجزم ، أما غير الأمر والنهي فظاهر ، وأما الأمر والنهي فلأن الجزم فيهما ليس لكونهما جزاءين فلا علامة للجزاء فيه ، فاختاروا الفاء فإنها لترتيب أمر على أمر ،

والجزاء مرتب على الشرط.

المسألة الثالثة:

(9/745)

في الريحان، وقد تقدم تفسيره في قوله تعالى: ﴿ذُو العصف والريحان﴾ [الرحمن: 12] ولكن ههنا فيه كلام، فمنهم من قال: المراد ههنا ما هو المراد ثمة، إما الورق وإما الزهر وإما النبات المعروف، وعلى هذا فقد قيل: إن أرواح أهل الجنة لا تخرج من الدنيا إلا ويؤتى إليهم بريحان من الجنة يشمونه، وقيل: إن المراد ههنا غير ذلك وهو الخلود، وقيل: هو رضاء الله تعالى عنهم فإذا قلنا: الروح هو الرحمة فالآية كقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ ورضوان وجنات لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: 21] وأما: ﴿جَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ فقد تقدم القول فيها عند تفسير السابقين في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ المقربون * فِي جنات النعيم﴾ [الواقعة: 11، 12] وذكرنا فائدة التعريف هناك وفائدة التنكير ههنا.

المسألة الرابعة:

(10/745)

ذكر في حق المقربين أموراً ثلاثة ههنا وفي قوله تعالى : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم ﴾ [التوبة : 21] وذلك لأنهم أتوا بأمور ثلاثة وهي : عقيدة حقة وكلمة طيبة وأعمال حسنة ، فالقلب واللسان والجوارح كلها كانت مرتبة برحمة الله على عقيدته ، وكل من له عقيدة حقة يرحمه الله ويرزقه الله دائماً وعلى الكلمة الطيبة وهي كلمة الشهادة ، وكل من قال : لا إله إلا الله فله رزق كريم والجنة له على أعماله الصالحة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وأموالهم بِأَنَّ لَهُمُ الجنة يقاتلون فِى سَبِيلِ الله ﴾ [التوبة : 111] وقال : ﴿ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى * فَإِنَّ الجنة هِىَ المأوى ﴾ [النازعات : 40 ، 41] فإن قيل : فعلى هذا من أتى بالعقيدة الحقة ، ولم يأت بالكلمة الطيبة ينبغي أن يكون من أهل الرحمة ولا يرحم الله إلا من قال : لا إله إلا الله ، نقول : من كانت عقيدته حقة ، لا بد وأن يأتي بالقول الطيب فإن لم يسمع لا يحكم به ، لأن العقيدة لا اطلاع لنا عليها فالقول دليل لنا ، وأما الله تعالى فهو عالم الأسرار ، ولهذا ورد في الأخبار أن من الناس من يدفن في مقابر الكفار ويحشر مع المؤمنين ، ومنهم من يدفن في مقابر المسلمين ويحشر مع الكفار لا يقال : إن من لا يعمل الأعمال الصالحة لا تكون له الجنة على ما ذكرت ، لأنا نقول : الجواب عنه من وجهين أحدهما : أن عقيدته الحقة وكلمته الطيبة لا يتركانه بلا عمل ، فهذا أمر غير واقع وفرض غير جائز وثانيهما : أنا نقول من حيث الجزاء ، وأما من قال : لا إله إلا الله فيدخل الجنة ،

وإن لم يعمل عملاً لا على وجه الجزاء بل بمحض فضل الله من غير جزاء ، وإن كان الجزاء أيضاً من الفضل لكن من الفضل ما يكون كالصدقة المبتدأة ، ومن الفضل مالا كما يعطي الملك الكريم آخر والمهدي إليه غير ملك لا يستحق هديته ولا رزقه .

(11/745)

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (91)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في السلام وفيه وجوه أولها : يسلم به صاحب اليمين على صاحب اليمين ، كما قال تعالى من قبل : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً * إِلَّا قِيلاً سلاما سلاما ﴾ [الواقعة : 25 ، 26] ، ثانيها : ﴿ فسلام لَّكَ ﴾ أي سلامة لك من أمر خاف قلبك منه فإنه في أعلى المراتب ، وهذا كما يقال لمن تعلق قلبه بولده الغائب عنه ، إذا كان يخدم عند كريم ، يقول له : كن فارغاً من جانب ولدك فإنه في راحة .

ثالثها : أن هذه الجملة تفيد عظمة حالهم كما يقال : فلان ناهيك به ، وحسبك أنه فلان ، إشارة إلى أنه ممدوح فوق الفضل .

المسألة الثانية :

الخطاب بقوله : ﴿ لَكَ ﴾ مع من ؟ نقول : قد ظهر بعض ذلك فنقول : يحتمل أن يكون المراد من الكلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وحينئذ فيه وجه وهو ما ذكرنا أن ذلك تسلية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم فإنهم غير محتاجين إلى شيء من الشفاعة وغيرها ، فسلام لك يا محمد منهم فإنهم في سلامة وعافية لا يهمك أمرهم ، أو فسلام لك يا محمد منهم ، وكونهم ممن يسلم على محمد صلى الله عليه وسلم دليل العظمة ، فإن العظيم لا يسلم عليه إلا عظيم ، وعلى هذا ففيه لطيفة : وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم مكانته فوق مكانة أصحاب اليمين بالنسبة إلى المقربين الذين هم في عليين ، كأصحاب الجنة بالنسبة إلى أهل عليين ، فلما قال : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أصحاب اليمين ﴾ كان فيه إشارة إلى أن مكانهم غير مكان الأولين المقربين ، فقال تعالى : هؤلاء وإن كانوا دون الأولين لكن لا تنفع بينهم المكانة والتسليم ، بل هم يرونك ويصلون إليك وصول جليس الملك إلى الملك والغائب إلى أهله وولده ، وأما المقربون فهم يلازمونك ولا يفارقونك وإن كنت أعلى مرتبة منهم .

(12/745)

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال ههنا : ﴿ مِنَ المكذبين الضالين ﴾ وقال من قبل : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضالون المكذبون ﴾ [الواقعة : 51] وقد بينا فائدة التقديم والتأخير هناك .

المسألة الثانية :

ذكر الأزواج الثلاثة في أول السورة بعبارة وأعادهم بعبارة أخرى فقال : ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ [الواقعة : 8] ثم قال : ﴿ وأصحاب اليمين ﴾ [الواقعة : 27] وقال : ﴿ وأصحاب المشئمة ﴾ [الواقعة : 9] ثم قال : ﴿ وأصحاب الشمال ﴾ [الواقعة : 41] وأعادهم ههنا ، وفي المواضع الثلاثة ذكر أصحاب اليمين بلفظ واحد أو بلفظين مرتين ، أحدهما غير الآخر ، وذكر السابقين في أول السورة بلفظ السابقين ، وفي آخر السورة بلفظ المقربين ، وذكر أصحاب النار في الأول بلفظ ﴿ وأصحاب المشئمة ﴾ ثم بلفظ ﴿ الشمال ﴾ ثم بلفظ ﴿ المكذبين ﴾ فما الحكمة فيه ؟ نقول : أما السابق فله

حالتان إحداهما في الأولى ، والأخرى في الآخرة ، فذكره في المرة الأولى بماله في الحالة الأولى ، وفي الثانية بماله في الحالة الآخرة ، وليس له حالة هي واسطة بين الوقوف للعرض وبين الحساب ، بل هو ينقل من الدنيا إلى أعلى عليين ، ثم ذكر أصحاب اليمين بلفظين متقاربين ، لأن حالهم قريبة من حال السابقين ، وذكر الكفار بألفاظ ثلاثة كأنهم في الدنيا ضحكوا عليهم بأنهم أصحاب موضع شؤم ، فوصفوهم بموضع الشؤم ، فإن المشأمة مفعلة وهي الموضع ، ثم قال : ﴿ أصحاب الشمال ﴾ فإنهم في الآخرة يؤتون كتابهم بشمالهم ، ويقفون في موضع هو شمال ، لأجل كونهم من أهل النار ، ثم إنه تعالى لما ذكر حالهم في أول الحشر بكونهم من أصحاب الشمال ذكر ما يكون لهم من السموم والحميم ، ثم لم يقتصر عليه ، ثم ذكر السبب فيه ، فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ ﴾ [الواقعة : 45 ، 46] فذكر سبب العقاب لما بينا مراراً أن العادل يذكر للعقاب سبباً ، والمتفضل لا يذكر للإنعام والتفضل سبباً ، فذكرهم في الآخرة ما عملوه في الدنيا ، فقال : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المكذبين ﴾ ليكون ترتيب العقاب على تكذيب الكتاب فظهر العدل ، وغير ذلك ظاهر .

(14/745)

إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

﴿ هذا ﴾ إشارة إلى ماذا ؟ نقول : فيه وجوه أحدها : القرآن ثانيها : ما ذكره في السورة ثالثها : جزاء الأزواج الثلاثة .

المسألة الثانية :

(15/745)

كيف أضاف الحق إلى اليقين مع أنهما بمعنى واحد ؟ نقول : فيه وجوه أحدها : هذه الإضافة ، كما أضاف الجانب إلى الغربي في قوله : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربى ﴾ [القصص : 44] وأضاف الدار إلى الآخرة في قوله : ﴿ وَلَدَارُ الأخرة ﴾ [الأنعام : 32] غير أن المقدر هنا غير ظاهر ، فإن شرط ذلك أن يكون بحيث يوصف باليقين ، ويضاف إليه الحق ، وما يوصف باليقين بعد إضافة الحق إليه وثانيها : أنه من الإضافة التي بمعنى من ، كما يقال : باب من ساج ، وباب ساج ، وخاتم من فضة ، وخاتم فضة ، فكأنه قال : لهو الحق من اليقين ثالثها : وهو أقرب منها ما ذكره ابن عطية أن ذلك نوع تأكيد يقال : هذا من

حق الحق ، وصواب الصواب ، أي غايته ونهايته التي لا وصول فوقه ، والذي وقع في تقرير هذا أن الإنسان أظهر ما عنده الأنوار المدركة بالحس ، وتلك الأنوار أكثرها مشوبة بغيرها ، فإذا وصل الطالب إلى أوله يقول : وجدت أمر كذا ، ثم إنه مع صحة إطلاق اللفظ عليه لا يتميز عن غيره ، فيتوسط الطالب ويأخذ مطلوبه من وسطه ، مثاله من يطلب الماء ، ثم يصل إلى بركة عظيمة ، فإذا أخذ من طرفه شيئاً يقول : هو ماء ، وربما يقول قائل آخر : هذا ليس بماء ، وإنما هو طين ، وأما الماء ما أخذته من وسط البركة ، فالذي في طرف البركة ماء بالنسبة إلى أجسام أخرى ، ثم إذا نسب إلى الماء الصافي ربما يقال له شيء آخر ، فإذا قال : هذا هو الماء حقاً قد أكد ، وله أن يقول : حق الماء ، أي الماء حقاً هذا بحيث لا يقول أحد فيه شيء ، فكذلك ههنا كأنه قال : هذا هو اليقين حقاً لا اليقين الذي يقول بعض إنه ليس بيقين ، ويحتمل وجهاً آخر ، وهو أن يقال : الإضافة على حقيقتها ، ومعناه أن هذا القول لك يا محمد وللمؤمنين ، وحق اليقين أن تقول كذا ، ويقرب من هذا ما يقال : حق الكمال أن يصلي المؤمن ، وهذا كما قيل في قوله صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ،

(16/745)

فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها " أن الضمير راجع إلى الكلمة أي إلا بحق الكلمة ، ومن حق الكلمة أداء الزكاة والصلاة ، فكذلك حق اليقين أن يعرف ما قاله الله تعالى في الواقعة في حق الأزواج الثلاثة ، وعلى هذا معناه : أن اليقين لا يحق ولا يكون إلا إذا صدق فيما قاله بحق ، فالتصديق حق اليقين الذي يستحقه ، وأما قوله : ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ فقد تقدم تفسيره ، وقلنا إنه تعالى لما بين الحق وامتنع الكفار ، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم هذا هو حق ، فإن امتنعوا فلا تتركهم ولا تعرض عنهم وسبح ربك في نفسك ، وما عليك من قومك سواء صدقوك أو كذبوك ، ويحتمل أن يكون المراد فسبح واذكر ربك باسمه الأعظم ، وهذا متصل بما بعده لأنه قال في السورة التي تلي هذه : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السموات ﴾ [الحديد : 1] فكأنه قال : سبح الله ما في السموات ، فعليك أن توافقهم ولا تلتفت إلى الشرذمة القليلة الضالة ، فإن كل شيء معك يسبح الله عز وجل .

تم تفسير السورة ، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 29 صـ 174 .

178 ﴾

(17/745)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) ﴾

اختلف الناس في : " لا " ، من قوله : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ فقال بعض النحويين : هي زائدة والمعنى فأقسم ، وزيادتها في بعض المواضع معروف كقوله تعالى : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ [الحديد : 29] وغير ذلك ، وقال سعيد بن جبير وبعض النحويين : هي نافية ، كأنه قال : ﴿ فلا ﴾ صحة لما يقوله الكفار ، ثم ابتدأ ﴿ أقسم بمواقع النجوم ﴾ .

وقال بعض المتأولين هي مؤكدة تعطي في القسم مبالغة ما ، وهي كاستفتاح كلام مشبه في القسم ألا في شائع الكلام القسم وغيره ، ومن هذا قول الشاعر : [الطويل]

" فلا وأبي أعدائها لا أخونها " . . . والمعنى : فوأبي اعدائها ، ولهذا نظائر .

وقرأ الحسن والثقفي : " فلأقسم " بغير ألف ، قال أبو الفتح ، التقدير : فلأنا أقسم .

وقرأ الجمهور من القراء " بمواقع " على الجمع ، وقرأ عمر بن الخطاب وابن عباس وابن مسعود وأهل الكوفة وحمزة والكسائي : " بموقع " على الإفراد ، وهو مراد به الجمع ، ونظير هذا كثير ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ [لقمان : 19] جمع من حيث لكل حمار صوت مختص وأفرد من حيث الأصوات كلها نوع .

واختلف الناس في : ﴿ النجوم ﴾ هنا ، فقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهم :

هي نجوم القرآن التي نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه روي أن القرآن نزل من عند الله في ليلة القدر إلى السماء الدنيا ، وقيل إلى البيت المعمور جملة واحدة ، ثم نزل بعد ذلك على محمد نجوماً مقطعة في مدة من عشرين سنة .

(18/745)

قال القاضي أبو محمد : ويؤيد هذا القول عود الضمير على القرآن في قوله : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ ، وذلك أن ذكره لم يتقدم إلا على هذا التأويل ، ومن لا يتأول بهذا التأويل يقول : إن الضمير يعود على القرآن وإن لم يتقدم ذكر لشهرة الأمر ووضوح المعنى كقوله تعالى : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ [ص : 32] ، و ﴿ كل من عليها فان ﴾ [الرحمن : 26] وغير ذلك . وقال جمهور كثير من المفسرين : ﴿ النجوم ﴾ هنا : الكواكب المعروفة . واختلف في موقعها ، فقال مجاهد وأبو عبيدة هي : مواقعها عند غروبها وطلوعها ، وقال قتادة : مواقعها مواضعها من السماء ، وقيل : مواقعها عند الانقضاض إثر العفاريت ، وقال الحسن : مواقعها عند الانكدار يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ وإنه لقسم ﴾ تأكيد للأمر وتنبيه من المقسم به ، وليس هذا باعتراض بين الكلامين ، بل هذا معنى قصد التهمم به ، وإنما الاعتراض قوله : ﴿ لو تعلمون ﴾ وقد قال

قوم : إن قوله : ﴿ وإنه لقسم ﴾ اعتراض ، وإن ﴿ لو تعلمون ﴾ اعتراض في اعتراض ، والتحرير هو الذي ذكرناه .

وقوله : ﴿ إنه لقرآن ﴾ هو الذي وقع القسم عليه ، ووصفه بالكرم على معنى إثبات صفات المدح له ودفع صفات الحطيطة عنه .

واختلف المتأولون في قوله تعالى : ﴿ في كتاب مكنون ﴾ بعد اتفاقهم على أن المكنون : المصون ، فقال ابن عباس ومجاهد : أراد الكتاب الذي في السماء .

وقال عكرمة : أراد التوراة والإنجيل ، كأنه قال : إنه لكتاب كريم ، ذكر كرمه وشرفه ﴿ في كتاب مكنون ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : فمعنى الآية على هذا الاستشهاد بالكتب المنزلة ، وهذا كقوله عز وجل : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله ﴾ [التوبة : 36] .

وقال بعض المتأولين : أراد مصاحف المسلمين ، وكانت يوم نزلت الآية لم تكن ، فهي على هذا إخبار بغيب ، وكذلك هو في كتاب مصون إلى يوم القيامة ، ويؤيد هذا لفظة المس ، فإنها تشير إلى المصاحف أو هي استعارة في مس الملائكة .

(19/745)

واختلف الناس في معنى قوله : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ وفي حكمه فقال من قال : إن الكتاب المكنون هو الذي في السماء . ﴿ المطهرون ﴾ هنا الملائكة قال قتادة : فأما عندكم فيمسه المشرك المنجس والمنافق قال الطبري : ﴿ المطهرون ﴾ : الملائكة والأنبياء ومن لا ذنب له ، ولي في الآية على هذا القول حكم مس المصحف لسائر بني آدم ، ومن قال بأنها مصاحف المسلمين ، قال إن قوله : ﴿ لا يمسه ﴾ إخبار مضمنه النهي ، وضمة السين على هذا ضمة إعراب ، وقال بعض هذه الفرقة : بل الكلام نهي ، وضمة السين ضمة بناء ، قال جميعهم : فلا يمس المصحف من جميع بني آدم إلا الطاهر من الكفر والجنابة والحدث الأصغر . قال مالك : لا يحمله غير طاهر بعلاقته ولا على وسادة . وفي كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم : " ولا يمس المصحف إلا الطاهر " ، وقد رخص أبو حنيفة وقوم بأن يمسه الجنب والحائض على حائل غلاف ونحوه ، ورخص بعض العلماء في مسه بالحدث الأصغر ، وفي قراءته عن ظهر قلب ، منهم ابن عباس وعامر الشعبي ، ولا سيما للمعلم والصبيان ، وقد رخص بعضهم للجنب في قراءته ، وهذا الترخيص كله مبني على القول الذي ذكرناه من أن المطهرين هم الملائكة أو على مراعاة لفظ اللمس فقد قال سليمان : لا أمس المصحف ولكن أقرأ القرآن .

وقرأ جمهور الناس : " المطَهّرون " بفتح الطاء والهاء المشددة . وقرأ نافع وابو عمرو بخلاف عنهما " المطْهَرون " بسكون الطاء وفتح الهاء خفيفة ، وهي قراءة عيسى الثقفي . وقرأ

سلمان الفارسي : " المطَهِّرون " بفتح الطاء خفيفة وكسر الهاء وشدها على معنى الذين يطهرون أنفسهم ، ورويت عنه بشد الطاء والهاء . وقرأ الحسن وعبد الله بن عون وسلمان الفارسي بخلاف عنه : المطّهرون بشد الطاء بمعنى المتطهرون .

(20/745)

قال القاضي أبو محمد : والقول بأن ﴿ لا يمسه ﴾ نهي قول فيه ضعف وذلك أنه إذا كان خبراً فهو في موضع الصفة ، وقوله بعد ذلك : ﴿ تنزيل ﴾ : صفة أيضاً ، فإذا جعلناه نهياً جاء معنى أجنبياً معترضاً بين الصفات ، وذلك لا يحسن في رصف الكلام فتدبره .

وفي حرف ابن مسعود : " ما يمسه " وهذا يقوي ما رجحته من الخبر الذي معناه : حقه وقدره أن لا يمسه إلا طاهر .

وقوله عز وجل : ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ﴾ مخاطبة للكفار ، و ﴿ الحديث ﴾ المشار إليه هو القرآن المتضمن البعث ، وإن الله تعالى خالق الكل وإن ابن آدم مصرف بقدره وقضائه وغير ذلك و : ﴿ مدهنون ﴾ معناه : يلاين بعضكم بعضاً ويتبعه في الكفر ، مأخوذ من الدهن للينه وإملاسه . وقال أبو قيس بن الأسلت : الحزم والقوة خير من الإدهان والفهة والهاع وقال ابن عباس : هو المهاودة فيما لا يحل . والمداراة هي المهاودة

فيما يحل ، وقال ابن عباس : ﴿ مدهنون ﴾ مكذبون .

وقوله عز وجل : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ أجمع المفسرون على أن الآية توبيخ للقائلين في المطر الذي ينزله الله للعباد هذا بنوء كذا وكذا وهذا ب " عثانين " الأسد ، وهذا بنوء الجوزاء وغير ذلك . والمعنى : وتجعلون شكر رزقكم ، كما تقول لرجل : جعلت يا فلان إحساني إليك أن تشتمني المعنى : جعلت شكر إحساني . وحكى الهيثم بن عدي أن من لغة أزد شنوءة : ما رزق فلان ؟ بمعنى ما شكره . وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقرؤها : " وتجعلون شكركم إنكم تكذبون " ، وكذلك قرأ ابن عباس ، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، إلا أن ابن عباس ضم التاء وفتح الكاف ، وعلي رضي الله عنه : فتح التاء وسكن الكاف وخفف الذال ، ومن هذا المعنى قول الشاعر : [السريع]

وكان شكر القوم عند المنى . . . كي الصحيحات وفقء الأعين

(21/745)

وقد أخبر الله تعالى أنه أنزل من السماء ماء مباركاً فأنبت به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد فهذا معنى قوله : ﴿ إنكم تكذبون ﴾ ، أي

بهذا الخبر .

وقرأ عاصم في رواية المفضل عنه : " تَكْذبون " بفتح التاء وسكون الكاف وتخفيف الدال كقراءة علي بن أبي طالب . وكذبهم في مقالتهم بين ، لأنهم يقولون هذا بنوء كذا وذلك كذب منهم وتخرص ، وذكر الطبري أن النبي عليه السلام سمع رجلاً يقول : مطرنا ببعض عثانين الأسد ، فقال له : "كذبت ، بل هو رزق الله " .

قال القاضي أبو محمد : والنهي عنه المكروه هو أن يعتقد أن للطالع من النجوم تأثيراً في المطر ، وأما مراعاة بعض الطوالع على مقتضى العادة ، فقد قال عمر للعباس وهما في الاستسقاء : يا عباس ، يا عم النبي عليه السلام كم بقي من نوء الثريا ، فقال العباس : العلماء يقولون إنها تتعرض في الأفق بعد سقوطها سبعاً . قال ابن المسيب : فما مضت سبع حتى مطروا .

وقوله تعالى : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ توقيف على موضع عجز يقتضي النظر فيه أن الله تعالى ملك كل شيء ، والضمير في : ﴿ بلغت ﴾ لنفس الإنسان والمعنى يقتضيها وإن لم يتقدم لها ذكر .

و: ﴿ الحلقوم ﴾ مجرى الطعام ، وهذه الحال هي نزاع المرء للموت .

وقوله : ﴿ وأنتم ﴾ إشارة إلى جميع البشر ، وهذا من الاقتضاب كقوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [النساء : 29] .

وقرأ عيسى بن عمر : " حينِئذ " بكسر النون . و: ﴿ تنظرون ﴾ معناه إلى المنازع في الموت .

(22/745)

وقوله تعالى : ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ يحتمل أن يريد ملائكته ورسله ، ويحتمل أن يريد بقدرتنا وغلبتنا ، فعلى الاحتمال الأول يجيء قوله : ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ من البصر بالعين ، وعلى التأويل الثاني يجيء من البصر بالقلب . وقال عامر بن عبد قيس : ما نظلت إلى شيء إلا رأيت الله أقرب إليه مني ، ثم عاد التوقيف والتقرير ثانية بلفظ التحضيض ، والمدين : المملوك هذا أصح ما يقال في معنى اللفظة هنا ، ومن عبر عنها بمجازي أو بمحاسب فذلك هنا قلق والمملوك يقلب كيف يشاء المالك ، ومن هذا الملك قول الأخطل : [الطويل]

ربت وربا في حجرها ابن مدينة . . . تراه على مسحاته يتركّلُ

أراد ابن أمة مملوكة وهو عبد يخدم الكرم ، وقد قيل في معنى هذا البيت : أراد أكاراً حضرياً لأن الأعراب في البادية لا يعرفون الفلاحة وعمل الكرم ، فنسبه إلى المدينة لما كان من أهلها ، فبمعنى الآية فلولا ترجعون النفس البالغة الحلقوم إن كنتم غير مملوكين مقهورين

ودين الملك حكمه وسلطانه ، وقد نحا إلى هذا المعنى الفراء ، وذكره مستوعباً النقاش .

وقوله : ﴿ ترجعونها ﴾ سدت مسد الأجوبة والبيانات التي يقتضيها التحضيضات ، و﴿ إذا ﴾ من قوله : ﴿ فلولا إذا ﴾ و﴿ إن ﴾ المتكررة وحمل بعض القول بعضاً إيجازاً واقتضاباً .

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88)

ذكر الله تعالى في هذه الآية حال الأزواج الثلاثة المذكورين في أول السورة وحال كل امرئ منهم ، فأما المرء من السابقين المقربين فيلقى عند موته روحاً وريحاناً ، والروح : الرحمة والسعة والفرح ، ومنه ﴿ روح الله ﴾ [يوسف : 87] والريحان وهو دليل النعيم ، وقال مجاهد ، الريحان : الرزق . وقال أبو العالية وقتادة والحسن ، الريحان : هذا الشجر المعروف في الدنيا يلقى المقربين ريحاناً من الجنة .

(23/745)

وقرأ الحسن وابن عباس وجماعة كثيرة " فرُوح " بضم الراء . وقال الحسن ومعناه : روحه يخرج في ريحانه وقال الضحاك ، الريحان : الاستراحة .

قال القاضي أبو محمد : الريحان ، ما تنبسط إليه النفوس . وقال الخليل : هو طرف كل بقلة

طيبة فيها أوائل النور ، وقد قال عليه السلام في الحسن والحسين : " هما ريحانتاي من الدنيا " ، وقال النمر بن تولب : [المتقارب]

سلام الإله وريحانه . . . ورحمته وسماء درر

وقالت عائشة رضي الله عنها : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ : " فرُوح " بضم الراء .

وقوله تعالى : ﴿ فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ عبارة تقتضي جملة مدح وصفة تخلص وحصول في عال من المراتب ليس في أمرهم إلا السلام والنجاة من العذاب ، وهذا كما تقول في مدح رجل : أما فلانة فناهيك به ، أو فحسبك أمره ، فهذا يقتضي جملة غير مفصلة من مدحه ، وقد اضطربت عبارات المتأولين في قوله تعالى : ﴿ فسلام لك ﴾ فقال قوم : المعنى : فيقال له مسلم لك إنك من أصحاب اليمين ، وقال الطبري المعنى : ﴿ فسلام لك ﴾ أنت ﴿ من أصحاب اليمين ﴾ ، وقيل المعنى ﴿ فسلام لك ﴾ يا محمد ، أي لا ترى فيهم إلا المسالمة من العذاب ، فهذه الكاف في ذلك إما أن تكون للنبي عليه السلام وهو الأظهر ، ثم لكل معشر فيها من أمته وإما أن تكون لمن يخاطب من أصحاب اليمين ، وغير هذا مما قيل تكلف .

و " المكذبون الضالون " : هم الكفار أصحاب الشمال والمشأمة ، و" النزل " : أول شيء يقدم للضيف ، والتصلية : أن يباشر بهم النار وحيث تراكمها ، ولما كمل تقسيم أحوالهم وانقضى الخبر بذلك ، أكد تعالى الاخبار بأن قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم مخاطبة تدخل معه أمته فيها ، إن هذا الذي أخبرنا به ﴿ لهو حق اليقين ﴾ . وإضافة الحق إلى ﴿ اليقين ﴾ عبارة فيها مبالغة ، لأنهما بمعنى واحد ، فذهب بعض الناس إلى أنه من باب دار الآخرة ومسجد الجامع ، وذهبت فرقة من الحذاق إلى أنه كما تقول في أمر تؤكده : هذا يقين اليقين أو صواب الصواب ، بمعنى أنه نهاية الصواب ، وهذا أحسن ما قيل فيه ، وذلك لأن دار الآخرة وما أشبهها يحتمل أن تقدر شيئاً أضفت الدار إليه وصفته بالآخرة ثم حذفت واقمت الصفة مقامه ، كأنك قلت : دار الرجعة أو النشأة أو الخلقة ، وهنا لا يتجه هذا ، وإنما هي عبارة مبالغة وتأكيد معناه أن هذا الخبر هو نفس اليقين وحقيقته .

(25/745)

وقوله تعالى : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ عبارة تقتضي الأمر بالإعراض عن أقوال الكفار وسائر أمور الدنيا المختصة بها وبالإقبال على أمور الآخرة وعبادة الله تعالى

والدعاء إليه . وروى عقبة بن عامر أنه لما نزل ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم : " اجعلوها في ركوعكم ، " فلما نزلت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] قال : اجعلوها في سجودكم . ويحتمل أن يكون المعنى : سبح لله بذكر أسمائه العلى ، والاسم هنا بمعنى الجنس ، أي بأسماء ربك . و: ﴿ العظيم ﴾ صفة للرب وقد يحتمل أن يكون الاسم هنا واحداً مقصوداً ، ويكون ﴿ العظيم ﴾ صفة له ، فكأنه أمره أن يسبحه باسمه الأعظم وإن كان لم ينص عليه ، ويؤيد هذا ويشير إليه أيصال سورة الحديد أولها ففيه التسبيح وجملة من أسماء الله تعالى ، وقد قال ابن عباس : اسم الله الأعظم موجود في ست آيات من أول سورة الحديد ، فتأمل هذا فإنه من دقيق النظر ، ولله تعالى في كتابه العزيز غوامض لا تكاد الأذهان تدركها .

كمل تفسير سورة الواقعة والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(26/745)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المقربين ﴾

ذكر طبقات الخلق عند الموت وعند البعث ، وبيّن درجاتهم فقال : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ ﴾ هذا المتوفَّى ﴿ مِنَ المقربين ﴾ وهم السابقون .

﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّاتُ نَعِيمٍ ﴾ وقراءة العامة "فَرَوْحٌ" بفتح الراء ومعناه عند ابن عباس وغيره : فراحة من الدنيا .

وقال الحسن : الرَّوْح الرحمة .

الضحاك : الرَّوْح الاستراحة .

القُتَبِيّ : المعنى له في القبر طيب نسيم .

وقال أبو العباس بن عطاء : الرّوح النظر إلى وجه الله ، والريحان الاستماع لكلامه ووحيه ، ﴿ وَجَنَّاتُ نَعِيمٍ ﴾ هو ألا يُحجب فيها عن الله عز وجل .

وقرأ الحسن وقتادة ونصر بن عاصم والجَحْدريّ ورُوَيس وزيد عن يعقوب "فَرُوحٌ" بضم الراء ، ورويت عن ابن عباس .

قال الحسن : الرُّوح الرحمة ؛ لأنها كالحياة للمرحوم .

وقالت عائشة رضي الله عنها : قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم "فَرُوحٌ" بضم الراء ومعناه فبقاء له وحياة في الجنة وهذا هو الرحمة .

"وَرَيْحَانٌ" قال مجاهد وسعيد بن جبير : أي رزق .

قال مقاتل : هو الرزق بلغة حمير ؛ يقال : خرجت أطلب ريحان الله أي رزقه ؛ قال النَّمِر بن

تَوْلَب :

سَلاَمُ الإله ورَيْحَانُ . . .

ورحمتُه وسَمَاءٌ دِرَرْ

وقال قتادة : إنه الجنة .

الضحاك : الرحمة .

وقيل هو الريحان المعروف الذي يشم .

قاله الحسن وقتادة أيضاً .

الربيع بن خَيْثم : هذا عند الموت والجنة مخبوءة له إلى أن يبعث .

أبو الجوزاء : هذا عند قبض روحه يتلقَّى بضَبَائر الرَّيحَان .

أبو العالية : لا يفارق أحد رُوحه من المقرّبين في الدنيا حتى يؤتى بغصنين من ريحان

فيشمهما ثم يقبض روحه فيهما ، وأصل ريحان واشتقاقه تقدم في أوّل سورة "الرحمن"

فتأمله .

وقد سرد الثعلبي في الرَّوْحِ والرَّيحْان أقوالاً كثيرةً سوى ما ذكرنا من أرادها وجدها هناك .

(27/745)

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين ﴾ أي "إِنْ كَانَ" هذا المتوفَّى ﴿ مِنْ أَصْحَابِ اليمين ﴾ ﴿ فَسَلاَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين ﴾ أي لست ترى منهم إلا ما تحبّ من السلامة فلا تهتم لهم ، فإنهم يسلمون من عذاب الله .

وقيل : المعنى سلام لك منهم ؛ أي أنت سالم من الاغتمام لهم .

والمعنى واحد .

وقيل : أي إن أصحاب اليمين يدعون لك يا محمد بأن يصلّي الله عليك ويسلم .

وقيل : المعنى إنهم يسلمون عليك يا محمد .

وقيل : معناه سلمت أيها العبد مما تكره فإنك من أصحاب اليمين ؛ فحذف إنك .

وقيل : إنه يُحيَّا بالسلام إكراماً ؛ فعلى هذا في محل السلام ثلاثة أقاويل : أحدها عند قبض روحه في الدنيا يسلّم عليه مَلَك الموت ؛ قاله الضحاك .

وقال ابن مسعود : إذا جاء مَلَك الموت ليقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام .

وقد مضى هذا في سورة "النحل" عند قوله تعالى : ﴿ الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة طَيِّبِينَ ﴾ [النحل : 32] .

الثاني عند مساءلته في القبر يسلّم عليه منكر ونكير .

الثالث عند بعثه في القيامة تسلّم عليه الملائكة قبل وصوله إليها .

قلت : وقد يحتمل أن تسلّم عليه في المواطن الثلاثة ويكون ذلك إكراماً بعد إكرام .

والله أعلم .

وجواب "إنّ" عند المبرّد محذوف التقدير مهما يكن من شيء ﴿ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين ﴾ إن كان من أصحاب اليمين ﴿ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين ﴾ فحذف جواب الشرط لدلالة ما تقدّم عليه ، كما حذف الجواب في نحو قولك أنت ظالم إن فعلت ؛ لدلالة ما تقدّم عليه .

ومذهب الأخفش أن الفاء جواب "أَمَّا" و "إِنْ" ، ومعنى ذلك أن الفاء جواب "أَمَّا" وقد سدّت مسدّ جواب "إِنْ" على التقدير المتقدّم ، والفاء جواب لهما على هذا الحد .

ومعنى "أَمَّا" عند الزجاج : الخروج من شيء إلى شيء ؛ أي دع ما كنا فيه وخذ في غيره .

(28/745)

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المكذبين ﴾ بالبعث ﴿ الضآلين ﴾ عن الهدى وطريق الحقّ ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ أي فلهم رزق من حميم ، كما قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضآلون المكذبون .

لآكِلُونَ ﴾ وكما قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ﴾ [الصافات : 67] ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ إدخال في النار .

وقيل : إقامة في الجحيم ومقاساة لأنواع عذابها ؛ يقال : أصلاه النار وصلاه ؛ أي جعله يصلاها والمصدر ههنا أضيف إلى المفعول ؛ كما يقال : لفلان إعطاء مالٍ أي يُعطَى المال .

وقرىء : "وَتَصْلِيَةِ" بكسر التاء أي ونزلٌ من تصلية جحيم .

ثم أدغم أبو عمرو التاء في الجيم وهو بعيد .

﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ أي هذا الذي قصصناه محض اليقين وخالصه .

وجاز إضافة الحقّ إلى اليقين وهما واحد لاختلاف لفظهما .

قال المبرِّد : هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين ؛ فهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه عند الكوفيين .

وعند البصريين حقّ الأمر اليقين أو الخبر اليقين .

وقيل : هو توكيد .

وقيل : أصل اليقين أن يكون نعتاً للحقّ فأضيف المنعوت إلى النعت على الاتساع والمجاز ؛ كقوله : ﴿ وَلَدَارُ الآخرة ﴾ [يوسف : 109] وقال قتادة في هذه الآية : إن الله ليس بتارِكٍ أحداً من الناس حتى يَقِفه على اليقين من هذا القرآن ، فأمَّا المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة ، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين .

﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ أي نَزِّه الله تعالى عن السوء .

والباء زائدة أي سبّح اسم ربك ، والاسمُ المسمَّى .

وقيل : ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ أي فصلّ بذكر ربك وبأمره .

وقيل : فاذكر اسم ربك العظيم وسبّحه .

(29/745)

وعن عقبة بن عامر قال : " لما نزلت ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اجعلوها في ركوعكم" ولما نزلت ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اجعلوها في سجودكم" " خرجه أبو داود .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 17 صـ ﴾

(30/745)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) ﴾

قرأ الجمهور : ﴿ فلا أقسم ﴾ ، فقيل : لا زائدة مؤكدة مثلها في قوله : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ والمعنى : فاقسم .

وقيل : المنفي المحذوف ، أي فلا صحة لما يقول الكفار .

ثم ابتدأ أقسم ، قاله سعيد بن جبير وبعض النحاة ؛ ولا يجوز ، لأن في ذلك حذف اسم لا وخبرها ، وليس جواباً لسائل سأل ، فيحتمل ذلك ، نحو قوله ﴿ لا ﴾ لمن قال : هل من رجل في الدار ؟ وقيل : توكيد مبالغة ما ، وهي كاستفتاح كلام شبهه في القسم ، إلا في شائع الكلام القسم وغيره ، ومنه .

فلا وأبي أعدائها لا أخونها . . .

والأولى عندي أنها لام أشبعت فتحتها ، فتولدت منها ألف ، كقوله :

أعوذ بالله من العقراب . . .

وهذا وإن كان قليلاً ، فقد جاء نظيره في قوله : ﴿ فاجعل أفئيدة من الناس ﴾ بياء بعد الهمزة ، وذلك في قراءة هشام ، فالمعنى : فلأقسم ، كقراءة الحسن وعيسى ، وخرج قراءة الحسن أبو الفتح على تقدير مبتدأ محذوف ، أي فلأنا أقسم ، وتبعه على ذلك الزمخشري .

وإنما ذهبا إلى ذلك لأنه فعل حال ، وفي القسم عليه خلاف .

فالذي اختاره ابن عصفور وغيره أن فعل الحال لا يجوز أن يقسم عليه ، فاحتاجوا إلى أن يصوروا المضارع خبراً لمبتدأ محذوف ، فتصير الجملة اسمية ، فيقسم عليها .

وذهب بعض النحويين إلى أن جواز القسم على فعل الحال ، وهذا الذي اختاره فتقول : والله ليخرج زيد ، وعليه قول الشاعر :

ليعلم ربي أن بيتي واسع . . .

وقال الزمخشري : في قراءة الحسن ، ولا يصح أن تكون اللام لام قسم لأمرين ، أحدهما : أن حقها أن تقرن بها النون المؤكدة ، والإخلال بها ضعيف قبيح ؛ والثاني : أن لأفعلنّ في جواب القسم للاستقبال ، وفعل القسم يجب أن يكون للحال . انتهى .

أما الأمر الأول ففيه خلاف ، فالذي قاله قول البصريين ، وأما الكوفيون فيختارون ذلك ، ولكن يجيزون تعاقبهما ، فيجيزون لأضربن زيداً ، واضربن عمراً .

(31/745)

وأما الثاني فصحيح ، لكنه هو الذي رجح عندنا أن تكون اللام في لا أقسم لام القسم ، وأقسم فعل حال ، والقسم قد يكون جواباً للقسم ؛ كما قال تعالى : ﴿ وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ﴾ فاللام في ﴿ وليحلفن ﴾ جواب قسم ، وهو قسم ، لكنه لما لم يكن حلفهم حالاً ، بل مستقبلاً ، لزمت النون ، وهي مخلصة المضارع للاستقبال .

وقرأ الجمهور : ﴿ بمواقع ﴾ جمعاً ؛ وعمر وعبد الله وابن عباس وأهل المدينة وحمزة والكسائي : بموقع مفرداً ، مراداً به الجمع .

قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهم : هي نجوم القرآن التي أنزلت على رسول الله (

صلى الله عليه وسلم) ، ويؤيد هذا القول قوله : ﴿ إنه لقرآن ﴾ ، فعاد الضمير على ما يفهم من قوله : ﴿ بمواقع النجوم ﴾ ، أي نجوم القرآن .

وقيل : النجوم : الكواكب ومواقعها .

قال مجاهد وأبو عبيدة : عند طلوعها وغروبها .

وقال قتادة : مواقعها : مواضعها من السماء .

وقال الحسن : مواقعها عند الانكدار يوم القيامة .

وقيل : عند الانفضاض أثر العفاري ، ومن تأول النجوم على أنها الكواكب ، جعل الضمير في إنه يفسره سياق الكلام ، كقوله : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ وفي إقسامه تعالى بمواقع النجوم سر في تعظيم ذلك لا نعلمه نحن ، وقد أعظم ذلك تعالى فقال : ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ .

والجملة المقسم عليها قوله : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ ، وفصل بين القسم وجوابه ؛ فالظاهر أنه اعتراض بينهما ، وفيه اعتراض بين الصفة والموصوف بقوله : ﴿ لو تعلمون ﴾ .

وقال ابن عطية : ﴿ وإنه لقسم ﴾ تأكيد للأمر وتنبيه من المقسم به ، وليس هذا باعتراض بين الكلامين ، بل هذا معنى قصد التهمم به ، وإنما الاعتراض قوله : ﴿ لو تعلمون ﴾ . انتهى .

وكريم : وصف مدح ينفي عنه ما لا يليق به .

وقال الزمخشري : ﴿ كريم ﴾ : حسن مرضي في جنسه من الكتب ، أو نفاع جم المنافع ، أو كريم على الله تعالى .

﴿ في كتاب مكنون ﴾ : أي مصون .

قال ابن عباس ومجاهد : الكتاب الذي في السماء .

(32/745)

وقال عكرمة : التوراة والإنجيل ، كأنه قال : ذكر في كتاب مكنون كرمه وشرفه ، فالمعنى على هذا الاستشهاد بالكتب المنزلة .

وقيل : ﴿ في كتاب مكنون ﴾ : أي في مصاحف للمسلمين مصونة من التبديل والتغيير ، ولم تكن إذ ذاك مصاحف ، فهو إخبار بغيب .

والظاهر أن قوله : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ وصف لقرآن كريم ، فالمطهرون هم الملائكة .

وقيل : ﴿ لا يمسه ﴾ صفة لكتاب مكنون ، فإن كان الكتاب هو الذي في السماء ، فالمطهرون هم الملائكة أيضاً : أي لا يطلع عليه من سواهم ، وكذا على قول عكرمة : هم الملائكة ، وإن أريد بكتاب مكنون الصحف ، فالمعنى : أنه لا ينبغي أن يمسه إلا من هو

على طهارة من الناس .

وإذا كان ﴿ المطهرون ﴾ هم الملائكة ، ﴿ فلا يمسه ﴾ نفي ، ويؤيد المنفي ما يمسه على قراءة عبد الله .

وإذا عنى بهم المطهرون من الكفر والجنابة ، فاحتمل أن يكون نفياً محضاً ، ويكون حكمه أنه لا يمسه إلا المطهرون ، وإن كان يمسه غير المطهر ، كما جاء : " لا يعضد شجرها " ، أي الحكم هذا ، وإن كان قد يقع العضد .

واحتمل أن يكون نفياً أريد به النهي ، فالضمة في السين إعراب .

واحتمل أن يكون نهياً فلو فك ظهر الجزم ، ولكنه لما أدغم كان مجزوماً في التقدير ، والضمة فيه لأجل ضمة الهاء ، كما جاء في الحديث : " إنا لم نرده عليك " ، إلا إنا جزم ، وهو مجزوم ، ولم يحفظ سيبويه في نحو هذا من المجزوم المدغم المتصل بالهاء ضمير المذكر إلا الضم .

قال ابن عطية : والقول بأن لا يمسه نهي ، قول فيه ضعف ، وذلك أنه إذا كان خبراً ، فهو في موضع الصفة وقوله بعد ذلك ﴿ تنزيل ﴾ صفة ، فإذا جعلناه نهياً ، جاء معناه أجنبياً معترضاً بين الصفات ، وذلك لا يحسن في وصف الكلام فتدبره .

وفي حرف ابن مسعود ما يمسه ، وهذا يقوي ما رجحته من الخبر الذي معناه حقه وقدره أن لا يمسه إلا طاهر .

انتهى .

ولا يتعين أن يكون ﴿ تنزيل ﴾ صفة ، بل يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، فيحسن إذ ذاك أن يكون ﴿ لا يمسه ﴾ نهياً .

وذكروا هنا حكم مس المصحف ، وذلك مذكور في الفقه ، وليس في الآية دليل على منع ذلك .

وقرأ الجمهور : ﴿ المطهرون ﴾ اسم مفعول من طهر مشدّداً ؛ وعيسى : كذلك مخففاً من أطهر ، ورويت عن نافع وأبي عمرو .

وقرأ سلمان الفارسي : المطهرون ، بخف الطاء وشد الهاء وكسرها : اسم فاعل من طهر ، أي المطهرين أنفسهم ؛ وعنه أيضاً المطهرون بشدهما ، أصله المتطهرون ، فأدغم التاء في الطاء ، ورويت عن الحسن وعبد الله بن عوف .

وقرىء : المتطهرون .

وقرىء : تنزيلاً بالنصب ، أي نزل تنزيلاً ، والإشارة في : ﴿ أفبهذا الحديث ﴾ للقرآن ، و﴿ أنتم ﴾ : خطاب للكفار ، ﴿ مدهنون ﴾ ، قال ابن عباس : مهاودون فيما لا يحل .

وقال أيضاً : مكذبون .

﴿ وتجعلون رزقكم ﴾ : أي شكر ما رزقكم الله من إنزال القرآن عليكم تكذيبكم به ، أي تضعون مكان الشكر التكذيب ، ومن هذا المعنى قول الراجز :

مكان شكر القوم عند المنن . . .

كي الصحيحات وفقء الأعين

وقرأ عليّ وابن عباس : وتجعلون شكركم ، وذلك على سبيل التفسير لمخالفته السواد .

وحكى الهيثم بن عدي أن من لغة أزد شنؤه ما رزق فلان فلاناً ، بمعنى : ما شكره .

قيل : نزلت في الأنواء ، ونسبة السقيا إليها ، والرزق : المطر ، فالمعنى : ما يرزقكم الله من الغيب .

وقال ابن عطية : أجمع المفسرون على أن الآية توبيخ للقائلين في المطر ، هذا بنوء كذا وكذا ، وهذا بنوء الأسد ، وهذا بنوء الجوزاء ، وغير ذلك .

وقرأ الجمهور : ﴿ تكذبون ﴾ من التكذيب ؛ وعليّ والمفضل عن عاصم : من الكذب ، فالمعنى من التكذيب أنه ليس من عند الله ، أي القرآن أو المطر ، حيث ينسبون ذلك إلى النجوم .

ومن الكذب قولهم : في القرآن سحر وافتراء ، وفي المطر من الأنواء .

﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ﴾ ، قال الزمخشري : ترتيب الآية : فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين ، فلولا الثانية مكررة للتوكيد ، والضمير في ترجعونها للنفس .

وقال ابن عطية : توقيف على موضع عجز يقتضي النظر فيه أن الله مالك كل شيء .

﴿ وأنتم ﴾ : إشارة إلى جميع البشر ، ﴿ حينئذ ﴾ : حين إذ بلغت الحلقوم ، ﴿ تنظرون ﴾ : أي إلى النازع في الموت .

وقرأ عيسى : حينئذ بكسر النون اتباعاً لحركة الهمزة في إذ ، ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ بالعلم والقدرة ، ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ : من البصيرة بالقلب ، أو ﴿ أقرب ﴾ : أي ملائكتنا ورسلنا ، ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ : من البصر بالعين .

ثم عاد التوقيف والتقدير ثانية بلفظ التخصيص .

والمدين : المملوك .

قال الأخطل :

ربت وربا في حجرها ابن مدينة . . .

قيل : ابن مملوكة يصف عبداً ابن أمة ، وآخر البيت :

تراه على مسحانة يتوكل . . .

والمعنى : فلولا ترجعون النفس البالغة إلى الحلقوم إن كنتم غير مملوكين وغير مقهورين .

﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في تعطيلكم وكفركم بالمحيي المميت المبدىء المعيد ، إذ كانوا فيما ذهبوا إليه من أن القرآن سحر وافتراء ، وأن ما نزل من المطر هو بنوء ، كذا تعطيل للصانع وتعجيز له .

وقال ابن عطية : قوله ﴿ ترجعونها ﴾ سد مسد جوابها ، والبيانات التي تقتضيها التخصيصات ، وإذا من قوله : ﴿ فلولا إذا ﴾ ، وإن المتكررة ، وحمل بعض القول بعضاً إيجازاً واقتصاراً . انتهى .

وتقول : ﴿ إذا ﴾ ليست شرطية ، فتسد ﴿ ترجعونها ﴾ مسد جوابها ، بل هي ظرف غير شرط معمول لترجعونها المحذوف بعد فلولا ، لدلالة ترجعونها في التخصيص الثاني علي ، فجاء التخصيص الأول مقيداً بوقت بلوغ الحلقوم ، وجاء التخصيص الثاني معلقاً على انتفاء مربوبيتهم ، وهم لا يقدرون على رجوعها ، إذ مربوبيتهم موجودة ، فهم مقهورون لا قدرة لهم .

﴿ فأما إن كان ﴾ : أي المتوفى ، ﴿ من المقرّبين ﴾ : وهم السابقون .

(35/745)

وقرأ الجمهور : ﴿ فروح ﴾ ، بفتح الراء ؛ وعائشة ، عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، ونوح القارىء ، والضحاك ، والأشهب ، وشعيب بن الحبحاب ، وسليمان التيمي ، والربيع بن خيثم ، ومحمد بن عليّ ، وأبو عمران الجوني ، والكلبي ، وفياض ، وعبيد ، وعبد الوارث عن أبي عمرو ، ويعقوب بن صيان ، وزيد ، ورويس عنه : بضمها .

قال الحسن : الروح : الرحمة ، لأنها كالحياة للمرحوم .

وقال أيضاً : روحه تخرج في ريحان .

وقيل : الروح : البقاء ، أي فهذان له معاً ، وهو الخلود مع الرزق .

وقال مجاهد : الريحان : الرزق .

وقال الضحاك : الاستراحة .

وقال أبو العالية وقتادة والحسن أيضاً : الريحان ، هذا الشجر المعروف في الدنيا ، يلقى المقرب ريحاناً من الجنة .

وقال الخليل : هو ظرف كل بقلة طيبة فيها أوائل النور .

وقال (صلى الله عليه وسلم) ، في الحسن والحسين ، رضي الله تعالى عنهما : " هما ريحانتاي من الدنيا " .

وقال ابن عطية : الريحان : مما تنبسط به النفوس ، ﴿ فروح ﴾ : فسلام ، فنزل الفاء

جواب أما تقدم .

أما وهي في تقدير الشرط ، وإن كان من المقربين ، وإن كان من أصحاب اليمين ، وإن كان من المكذبين الضالين شرط ؛ وإذا اجتمع شرطان ، كان الجواب للسابق منهما .

وجواب الثاني محذوف ، ولذلك كان فعل الشرط ماضي للفظ ، أو مصحوباً بلم ، وأغنى عنه جواب أما ، هذا مذهب سيبويه .

وذهب أبو عليّ الفارسي إلى أن الفاء جواب إن ، وجواب أما محذوف ، وله قول موافق لمذهب سيبويه .

وذهب الأخفش إلى أن الفاء جواب لأمّا ، والشرط معاً ، وقد أبطلنا هذين المذهبين في كتابنا المسمى بالتذييل والتكميل في شرح التسهيل ، والخطاب في ذلك للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أي لا ترى فيهم يا محمد إلا السلامة من العذاب .

ثم لكل معتبر من أمّته (صلى الله عليه وسلم) قبل لمن يخاطبه : ﴿ من أصحاب اليمين ﴾ .

فقال الطبري : المعنى : فسلام لك أنت من أصحاب اليمين .

(36/745)

وقال قوم : المعنى : فيقال لهم : مسلم لك إنك من أصحاب اليمين .

وقيل : فسلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين ، أي يسلمون عليك ، كقوله : ﴿ إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ .

والمكذبون الضالون هم أصحاب المشأمة ، أصحاب الشمال .

وقرأ الجمهور : وتصلية رفعاً ، عطفاً على ﴿ فنزل ﴾ ؛ وأحمد بن موسى والمنقري واللؤلؤي عن أبي عمرو : بجر عطفاً على ﴿ من حميم ﴾ .

ولما انقضى الإخبار بتقسيم أحوالهم وما آل إليه كل قسم منهم ، أكد ذلك بقوله : ﴿ إن هذا ﴾ : أي إن هذا الخبر المذكور في هذه السورة ﴿ هو حق اليقين ﴾ ، فقيل : هو من إضافة المترادفين على سبيل المبالغة ، كما تقول : هذا يقين اليقين وصواب الصواب ، بمعنى أنها نهاية في ذلك ، فهما بمعنى واحد أضيف على سبيل المبالغة .

وقيل : هو من إضافة الموصوف إلى صفته جعل الحق مبايناً لليقين ، أي الثابت المتيقن .

ولما تقدم ذكر الأقسام الثلاثة مسهباً الكلام فيهم ، أمره تعالى بتنزيهه عن ما لا يليق به من الصفات .

ولما أعاد التقسيم موجزاً الكلام فيه ، أمره أيضاً بتنزيهه وتسبيحه ، والإقبال على عبادة ربه ، والإعراض عن أقوال الكفرة المنكرين للبعث والحساب والجزاء .

ويظهر أن سبح يتعدى تارة بنفسه ، كقوله : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ويسبحوه ؛

وتارة بحرف الجر ، كقوله : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ ، والعظيم يجوز أن يكون صفة لاسم ، ويجوز أن يكون صفة لربك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(37/745)

وقال الثعالبى :

وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المقربين ﴾ الآية ،

ذكر سبحانه في هذه الآيةِ حال الأزواج الثلاثةَ المذكورين في أَولِ السورة ، وحال كُلِّ امرىءٍ منهم ، فَأَمَّا المرءُ من السابقين المقربين ، فَيَلْقَى عند موته رَوْحاً وريحاناً ، والرَّوْحَ : الرحمة والسعة والفرح ؛ ومنه : ﴿ وَلاَ تَايْئَسُواْ مِن رَّوْحِ الله ﴾ [يوسف : 87] والريحان : الطيب ، وهو دليل النعيم ، وقال مجاهد : الريحان : الرزق ، وقال الضَّحَّاكُ : الريحان الاستراحة ، قال *ع* : الريحان ما تنبسط إليه النفوس ، ونقل الثعلبيُّ عن أبي العالية قال : لا يفارق أحد من المقربين الدنيا حتى يُؤْتَى بغصنٍ من ريحان الجنة فَيَشُمُّهُ ، ثم يُقْبَضُ روحه فيه ، ونحوه عن الحسن ، انتهى .

فإنْ أردت يا أخي اللحوق بالمقربين ؛ والكون في زمرة السابقين ، فاطرح عنك دنياك ؛ وأقبلْ على ذكر مولاك ، واجعل الآن الموت نصب عينيك ، قال الغزاليُّ : وإنَّما علامةُ

التوفيق أَنْ يكون الموت نصبَ عينيك ، لا تغفل عنه ساعة ، فليكنِ الموتُ على بالك يا مسكين ؛ فإنَّ السير حاثٌّ بك ، وأنت غافل عن نفسك ، ولعلك قد قاربت المنزلَ ، وقطعت المسافة فلا يكن اهتمامُك إلاَّ بمبادرة العمل ، اغتناماً لكل نَفَسٍ أمهلتَ فيه ، انتهى من «الإحياء» ، قال ابن المبارك في «رقائقه» : أخبرنا سفيان ، عن ليث ، عن مجاهد قال : ما مِنْ مَيِّتٍ يموت ، إلاَّ عرض عليه أهل مجلسه : إنْ كان من أهل الذِّكْرِ فمن أهل الذكر ، وإنْ كان من أهل اللهو فمن أهل اللهو ، انتهى .

(38/745)

وقوله تعالى : ﴿ فسلامٌ لَّكَ مِنْ أصحاب اليمين ﴾ : عبارة تقتضي جملةَ مدحٍ وصفةَ تخلُّصٍ ، وحصولَ عالٍ من المراتب ، والمعنى : ليس في أمرهم إلاَّ السلامُ والنجاةُ من العذاب ؛ وهذا كما تقول في مدح رجل : أَمَّا فلان فناهيك به ، فهذا يقتضي جملةً غيرَ مفصلة من مدحه ، وقدِ اضطربت عباراتُ المُتَأَوِّلِينَ في قوله تعالى : ﴿ فسلامٌ لَّكَ ﴾ فقال قوم : المعنى : فيقال له سلام لك إنَّكَ من أصحاب اليمين ، وقال الطبريُّ : ﴿ فسلامٌ لَّكَ ﴾ : أنت من أصحاب اليمين ، وقيل : المعنى : فسلام لك يا محمد ، أي : لا ترى فيهم إلاَّ السلامة من العذاب .

ت : ومن حصلت له السلامةُ من العذاب فقد فاز دليله ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : 185] قال *ع* : فهذه الكاف في ﴿ لَّكَ ﴾ إمَّا أنْ تكونَ للنبي صلى الله عليه وسلم وهو الأظهر ، ثم لكل مُعْتَبِرٍ فيها من أُمَّتِهِ ، وإمَّا أَنْ تكونَ لمن يخاطب من أصحاب اليمين ، وغيرُ هذا مِمَّا قيل تَكَلُّفٌ ، ونقل الثعلبيُّ عن الزَّجَّاج : ﴿ فسلامٌ لَّكَ ﴾ أي : إنَّك ترى فيهم ما تحب من السلامة ، وقد علمتَ ما أَعَدَّ اللَّه لهم من الجزاء بقوله : ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ الآيات . . .

والمكذبون الضالُّون : هم الكفار ، أصحابُ الشمال والمشأَمة ، والنُّزُلُ : أول شيء يقدم للضيف ، والتصلية : أنْ يباشر بهم النار ، والجحيم معظم النار وحيث تراكمها .

﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ المعنى : إنَّ هذا الخبرَ هو نفس اليقين وحقيقتُه .

وقوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ عبارة تقتضي الأمر بالإِعراض عن أقوال الكفار وسائر أمور الدنيا المختصة بها ، وبالإقبال على أمور الآخرة وعبادة اللَّه تعالى ، والدعاء إليه .

(39/745)

* ت * : وعن جابر بن عبد اللَّه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ [الْعَظِيمِ] وَبِحَمْدِهِ ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ " رواه الترمذي ، والنسائيُّ ، والحاكم ، وابن حبان في «صحيحيهما» ، وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ، وعند النسائِيّ : «شَجَرَةٌ» بدل «نَخْلَةٌ» ، وعن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قال : قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم : " إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلاَلِ اللَّهِ التَّسْبِيحَ ، وَالتَّهْلِيلَ ، وَالتَّحْمِيدَ يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ ، تُذَكِّرُ بِصَاحِبِهَا ، أَمَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ أَوْ لاَ يَزَالَ لَهُ مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ " ، ورواه أيضاً ابن المبارك في «رقائقه» عن كعب ، وفيه أيضاً عن كعب أَنَّهُ قال : «إِنَّ لِلْكَلاَمِ الطَّيِّبِ حَوْلَ الْعَرْشِ دَوِيًّا كَدَوِيِّ النَّحْلِ يُذَكِّرْنَ بِصَاحِبِهِنَّ» انتهى ، وعن أبي هريرة " أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم مَرَّ بِهِ وَهُوَ يَغْرِسُ غَرْساً فَقَالَ : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، مَا الَّذِي تَغْرِسُ ؟ قُلْتُ : غِرَاساً ، قَالَ : أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى غِرَاسٍ خَيْرٍ مِنْ هذا ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ؛ يُغْرَسْ لَكَ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ "

(40/745)

روى هذين الحديثين ابن ماجه واللفظ له ، والحاكم في «المستدرك» ، وقال في الأول : صحيح على شرط مسلم ، انتهى من «السلاح» ، وروَى عُقْبَةُ بن عامر قال : " لَمَّا نزلتْ : ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ العظيم ﴾ قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : اجْعَلُوهَا في رُكُوعِكُمْ ؛ فَلَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ سَبِّحِ اسم ربِّكَ الأعلى ﴾ قَالَ : اجْعَلُوهَا في سُجُودِكُمْ " ، فيحتمل أنْ يكونَ المعنى : سبح اللَّه بذكر أسمائه العلا ، والاسم هنا بمعنى : الجنس ، أي : بأسماء ربك ، والعظيم : صفة للرب سبحانه ، وقد يحتمل أَنْ يكون الاسم هنا واحداً مقصوداً ، ويكون «العظيم» صفة له ، فكأَنَّه أمره أَنْ يسبِّحَهُ باسمه الأعظم ، وإنْ كان لم يَنُصَّ عليه ، ويؤيِّدُ هذا ويشير إليه اتصالُ سورة الحديد وأوَّلُها فيها التسبيح ، وجملة من أسماء اللَّه تعالى ، وقد قال ابن عباس : اسم اللَّه الأعظم موجود في سَتِّ آيات من أَوَّلِ سورة الحديد ، فتأمَّل هذا ، فإِنَّهُ من دقيق النظر ، وللَّه تعالى في كتابه العزيز غوامضُ لا تكاد الأذهانِ تدركها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(41/745)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾

أي فأقسمُ ولا مزيدةٌ للتأكيد كما في قوله تعالى : ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ ﴾ أو فَلأنا أقسمُ فحذف المبتدأ وأُشيع فتحةَ لام الابتداء ، ويعضده قراءةُ من قرأَ فلأقسمُ أو فلا ردَّ لكلامٍ يخالفُ المقسمَ عليه ، وأما ما قيلَ : من أنَّ المعنى فلا أقسمُ إذاً لأمرٍ أوضحَ من أنْ يحتاجَ إلى قسمٍ فيأباه تعيينُ المقسَمِ به وتفخيمُ شأنِ القسمِ به ﴿ بمواقع النجوم ﴾ أي بمساقطِها وهي مغاربُها وتخصيصُها بالقسم لما في غروبها من زوالِ أثرِها والدلالةِ على وجودِ مؤثرٍ دائمٍ لا يتغيرُ أو لأن ذلكَ وقتُ قيامِ المتهجدينَ والمبتهلينَ إليه تعالى وأوانُ نزولِ الرحمةِ والرضوانِ عليهم أو بمنازلها ومجاريها فإنَّ له تعالَى في ذلك من الدليلِ على عظمِ قُدرتِه وكمالِ حكمتِه ما لا يحيطُ به البيانُ وقيل : النجومُ نجومُ القرآنِ ومواقعُها أوقاتُ نزولِها وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ اعتراضٌ في اعتراضٍ قُصدَ به المبالغةُ في تحقيق مضمونِ الجملةِ والقسيمةِ وتأكيدِه حيث اعترضَ بقوله وإنه لقسمٌ بين القسمِ وجوابِه الذي هُو قولُه تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءانٌ كَرِيمٌ ﴾ أي كثيرُ النفعِ لاشتمالِه على أصولِ العلومِ المهمةِ في صلاحِ المعاشِ والمعادِ أو حسنٌ مرضيٌّ أو كريمٌ عند الله تعالى وقوله تعالى لو تعلمونَ وُسّط بينَ الموصوفِ وصفتِه ، وجوابُ لو إما متروكٌ أُريدَ به نفيُ علمِهم أو محذوفٌ ثقةً بظهورِه أي لعظمتموه أو لعملتُم بموجبِه .

﴿ فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ أي مصونٍ من غيرِ المقربين من الملائكةِ لا يطلعُ عليه مَنْ سواهم وهو اللوحُ ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ إمَّا صفةٌ أُخرى لكتاب فالمرادُ بالمطهرين الملائكةُ المنزهون عن الكدوراتِ الجُسمانيةِ وأوضارِ الأوزارِ أو للقرآنِ فالمرادُ بهم المطهرون من الأحداثِ فيكون نفياً بمعنى النهي أي لا ينبغي أنْ يمسَّه إلا من كان على طهارةٍ من الناسِ على طريقةِ قولِه عليه الصلاةُ والسلامُ : " المسلمُ أخُو المسلمِ لا يظلمُه ولا يُسلمُه " أي لا ينبغي له أن يظلَمه أو يُسلَمه إلى مَنْ يظلمُه وقيلَ : لا يطلبه إلا المطهرون من الكفرِ وقرىء المُتطهرونَ والمُطَّهرونَ بالإدغامِ والمُطْهرون من أطهرَهُ بمعنى طهَّره والمطَّهرونَ أي أنفسهَم أو غيرَهم بالاستغفارِ أو غيرِه ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ صفةٌ أُخرى للقرآن وهو مصدرٌ نعت به حتى جرى مجرى اسمِه وقُرىء تنزيلاً ﴿ أفبهذا الحديث ﴾ الذي ذكرتُ نعوتُه الجليلةُ الموجبةُ لإعظامِه وإجلالِه وهو القرآنُ الكريمُ ﴿ أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴾ أي متهاونونَ به كمن يُدْهِنُ في الأمرِ أي يُلينُ جانبه ولا يتصلبُ فيه تهاوناً به ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ أي شكرَ رزقكم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي تضعونَ التكذيبَ موضعَ الشكرِ وقرىء وتجعلون شُكركم أنَّكم تكذبونَ أي تجعلون شكركم لنعمةِ القرآن أنكم تكذبونَ به وقيل : الرزقُ المطرُ والمعنى وتجعلونَ شكرَ ما يرزقكم الله تعالى من الغيثِ أنكم تكذبونَ بكونِه من الله

تعالى حيثُ تنسُبونه إلى الأنواءِ والأولُ هو الأوفقُ لسباق النظم الكريمِ وسياقهِ فإنَّ قولَه عزَّ وجلَّ :

(43/745)

﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ إلخ تبكيتٌ مبنيٌّ على تكذيبِهم بالقرآنِ فيما نطقَ به قولُه تعالى نحنُ خلقناكُم إلى هُنا من القوارعِ الدالةِ على كونِهم تحتَ ملكوتِه تعالى من حيثُ ذواتُهم ومن حيث طعامُهم وشرابُهم وسائرُ أسبابِ معايشِهم كما ستقفُ عليه ، ولولا للتحضيضِ لإظهارِ عجزِهم وإذَا ظرفيةٌ أي فهلاَّ إذَا بلغتْ النفسُ أي الروحُ وقيل : نفسُ أحدِكم الحلقومِ وتداعتْ إلى الخروجِ .

﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ ﴾ أيها الحاضرونَ حولَ صاحبِها ﴿ تَنظُرُونَ ﴾ إلى ما هُو فيه من الغمراتِ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ علماً وقدرةً وتصرفاً ﴿ مّنكُمْ ﴾ حيثُ لا تعرفون من حالِه إلا ما تشاهدونَهُ من آثارِ الشدةِ من غيرِ أن تقفوا على كُنهِها وكيفيتِها وأسبابِها ولا أنْ تقدرُوا على دفع أدنى شيءٍ منها ونحنُ المتولونَ لتفاصيل أحوالِه بعلمنا وقدرتنا أو بملائكة الموتِ ﴿ ولكن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾ لا تدركونَ ذلكَ لجهلِكم بشؤونِنا . وقولُه تعالى :

﴿ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أي غيرَ مربوبينَ من دانَ السلطانُ رعيتَهُ إذا ساسَهم

واستعبدَهم ناظرًا إلى قولِه تعالى نحن خلقناكُم فلولا تصدقونَ فإن التحضيضَ يستدعي عدمَ المحضض عليه حتماً وقوله تعالى : ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ أي النفسُ إلى مقرّها هو العاملُ في إذَا والمحضض عليه بلولا الأُولى والثانيةُ مكررةٌ للتأكيد وهيَ مع ما في حيزها دليلُ جوابِ الشرطِ والمعنى إنْ كنتُم غير مربوبينَ كما ينبىءُ عنه عدمُ تصديقِكم بخلقنا إياكم فهلا ترجعونَ النفسَ إلى مقرّها عند بلوغِها الحلقومَ ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في اعتقادكم فإن عدمَ تصديقِهم بخالقيتِه تعالى لهم عبارةٌ عن تصديقِهم بعدمِ خالقيتِه تعالى بوجبِ مذهبِهم . وقوله تعالى :

(44/745)

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المقربين ﴾ إلخ شروعٌ في بيان حالِ المُتوفي بعد المماتِ إثرَ بيانِ حالِه عند الوفاةِ أي فأما إن كانَ الذي بُيّن حالُه من السابقينَ من الأزواج الثلاثةِ عبر عنهم بأجلِّ أوصافِهم ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ أي فله استراحةٌ وقرىء فرُوحٌ بضمّ الراء وفسّر بالرحمة لأنها سببٌ لحياة المرحومِ وبالحياة الدائمةِ ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ ورزقٌ ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ أي ذاتُ تنعمٍ ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أصحاب اليمين ﴾ عبر عنهم بالعنوانِ السابقِ إذا لم يذكر لهم فيما سبقَ وصفٌ واحدٌ ينبىءُ عن شأنِهم سواهُ كما ذكرَ للفريقينِ الآخرينِ .

وقوله تعالى : ﴿ فسلامٌ لَّكَ مِنْ أصحاب اليمين ﴾ إخبارٌ من جهته تعالى بتسليمِ بعضهم على بعضٍ كما يُفصح عنه اللامُ لا حكايةُ إنشاءِ سلامِ بعضِهم على بعض وإلا لقيل عليك والالتفاتُ إلى خطاب كل واحدٍ منهم للتشريفِ ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضالين ﴾ وهم أصحابُ الشمال عبر عنهم بذلكَ حسبما وصفوا به عند بيانِ أحوالِهم بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضالون المكذبون ﴾ ذماً لهم بذلك وإشعاراً بسببِ ما ابتُلوا به من العذابِ ﴿ فَنُزُلٌ ﴾ أي فله نزلٌ كائنٌ ﴿ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ يُشرب بعد أكل الزقومِ كما فُصل فيما قبلُ . ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أي إدخالٌ في النارِ وقيل : إقامةٌ فيها ومقاساةٌ لألوان عذابها وقيل : ذلك ما يجده في القبر من سَمومِ النارِ ودخانِها ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي الذي ذُكرَ في السورةِ الكريمةِ ﴿ لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ أي حقُّ الخبرِ اليقينِ وقيل : الحقُّ الثابتُ من اليقين والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ لترتيبِ التسبيحِ أو الأمر به على ما قبلها فإن حقيةَ ما فُصل في تضاعيفِ السورةِ الكريمةِ مِمَّا يوجبُ تنزيهَه تعالى عمَّا لا يليقُ بشأنه الجليلِ من الأمورِ التي من جُملتِها الإشراكُ به والتكذيبُ بآياتِه الناطقةِ بالحقِّ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المقربين ﴾ إلى آخره

شروع في بيان حال المتوفى بعد الممات إثر بيان حاله عند الوفاة وضمير ﴿ كَانَ ﴾ للمتوفى المفهوم مما مر أي فأما إن كان المتوفى الذي بين حاله من السابقين من الأزواج الثلاثة عبر عنهم بأجل أوصافهم .

﴿ فَرَوْحٌ ﴾ أي فله روح على أنه مبتدأ خبره محذوف مقدم عليه لأنه نكرة ، وقيل : خبر مبتدأ محذوف أي فجزاؤه روح أي استراحة ، والفاء واقعة في جواب أما ، قال بعض الأجلة : تقدير هذا الكلام مهما يكن من شيء فروح الخ إن كان من المقربين فحذف مهما يكن من شيء ، وأقيم أما مقامه ولم يحسن أن يلي الفاء أما ، فأوقع الفصل بين أما والفاء بقوله سبحانه : ﴿ إِن كَانَ مِنَ المقربين ﴾ [الواقعة : 88] لتحسين اللفظ كما يقع الفصل بينهما بالظرف والمفعول ، والفاء في ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ وأخويه جواب أما دون ﴿ إن ﴾ ، وقال أبو البقاء : جواب أما ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ ، وأما ﴿ إن ﴾ فاستغنى بجواب أما عن جوابها لأنه يحذف كثيراً ، وفي "البحر" أنه إذا اجتمع شرطان فالجواب للسابق منهما ،

وجواب الثاني محذوف ، فالجواب ههنا لأما ، وهذا مذهب سيبويه .

وذهب الفارسي إلى أن المذكور جواب ﴿ إن ﴾ وجواب أما محذوف ، وله قول آخر موافق لمذهب سيبويه .

وذهب الأخفش إلى أن المذكور جواب لهما معاً ، وقد أبطلنا المذهبين في شرح التسهيل انتهى ، والمشهور أنه لا بد من لصوق الاسم لأما وهو عند الرضي وجماعة أكثري لهذه الآية ، والذاهبون إلى الأول قالوا : هي بتقدير فأما المتوفى ﴿ إِن كَانَ ﴾ وتعقب بأنه لا يخفى أن التقدير مستغنى عنه ولا دليل عليه إلا اطراد الحكم ، ثم إن كون أما قائمة مقام مهما يكن أغلبي إذ لا يطرد في نحو أما قريشاً فأنا أفضلها إذ التقدير مهما ذكرت قريشاً فأنا أفضلها ، وتمام الكلام في هذا المقام يطلب من كتب العربية .

وأخرج الإمام أحمد .

والبخاري في تاريخه .

وأبو داود .

والنسائي .

والترمذي وحسنه .

والحاكم وصححه .

وآخرون عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ بضم الراء ، وبه قرأ ابن عباس .

وقتادة .

ونوح القارىء .

والضحاك .

والأشهب .

وشعيب .

وسليمان التيمي .

والربيع بن خيثم .

ومحمد بن علي .

وأبو عمران الجوني .

والكلبي .

وفياض .

وعبيد .

وعبد الوارث عن أبي عمرو .

ويعقوب بن حسان .

وزيد .

ورويس عنه .

والحسن وقال : ﴿ الروح ﴾ الرحمة لأنها كالحياة للمرحوم ، أو سبب لحياته الدائمة فإطلاقه عليها من باب الاستعارة أو المجاز المرسل ، وروي هذا عن قتادة أيضاً ، وقال ابن جني : معنى هذه القراءة يرجع إلى معنى الروح فكأنه قيل : فله ممسك روح وممسكها هو الروح كما تقول : الهواء هو الحياة وهذا السماع هو العيش ، وفسر بعضهم الروح بالفتح الرحمة أيضاً كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَايْئَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ ﴾ [يوسف : 87] وقيل : هو بالضم البقاء ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ أي ورزق كما روي عن ابن عباس .

ومجاهد .

والضحاك ، وفي رواية أخرى عن الضحاك أنه الاستراحة ، وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه قال : هو هذا الريحان أي المعروف .

وأخرج ابن جرير عنه أنه قال : تخرج روح المؤمن من جسده في ريحانة ؛ ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ ﴾ [الواقعة : 88] الخ .

وأخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : لم يكن أحد من المقربين يفارق الدنيا حتى يؤتى بغصنين من ريحان الجنة فيشمهما ثم يقبض ﴿ وجنات نَعِيمٍ ﴾ أي ذات تنعم فالإضافة لامية أولادنى ملابسة ، وهذا إشارة إلى مكان المقربين بحيث يلزم منه أن يكونوا أصحاب نعيم .

وأخرج الإمام أحمد في الزهد .

وابن أبي شيبة .

وعبد بن حميد .

(48/745)

وابن المنذر عن الربيع بن خيثم قال في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المقربين فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ : هذا له عند الموت ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةِ نَعِيمٍ ﴾ تخبأ له الجنة إلى يوم يبعث ولينظر ما المراد بالريحان على هذا ، وعن بعض السلف ما يقتضي أن يكون الكل في الآخرة .

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أصحاب اليمين ﴾ عبر عنهم بالعنوان السابق إذ لم يذكر لهم فيما سبق وصف ينبىء عن شأنهم سواه كما ذكر للفريقين الأخيرين ، وقوله تعالى :

﴿ فسلام لَّكَ مِنْ أصحاب اليمين ﴾ قيل : هو على تقدير القول أي فيقال لذلك المتوفى

منهم سلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين أي يسلمون عليك كقوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً إِلاَّ قِيلاً سلاما سلاما ﴾ [الواقعة : 25 ، 26]

فالخطاب لصاحب اليمين ولا التفات فيه مع تقدير القول ، و﴿ مِنْ ﴾ للابتداء كما تقول سلام من فلان على فلان وسلام لفلان منه .

وقال الطبري : معناه فسلام لك أنت من أصحاب اليمين ، فمن أصحاب اليمين خبر مبتدأ محذوف والكلام بتقدير القول أيضاً ، وكأن هذا التفسير مأخوذ من كلام ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

أخرج ابن جرير .

وابن المنذر عنه أنه قال في ذلك : تأتيه الملائكة من قبل الله تعالى تسلم عليه وتخبره أنه من أصحاب اليمين ، والظاهر أن هذا على هذا المعنى عند الموت ، وأنه على المعنى السابق في الجنة .

(49/745)

وجوز أن يكون المعنى فسلامة لك عما يشغل القلب من جهتهم فإنهم في خير أي كن فارغ البال عنهم لا يهمك أمرهم ، وهذا كما تقول لمن علق قلبه بولده الغائب وتشوش فكره لا

يدري ما حاله كن فارغ البال من ولدك فإنه في راحة ودعة ، والخطاب لمن يصلح له أو لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم ، وعليه قيل : يجوز أن يكون ذلك تسلية له عليه الصلاة والسلام على معنى أنهم غير محتاجين إلى شفاعة وغيرها ، ولا يخفى أن كون جميع أصحاب اليمين غير محتاجين إلى ما ذكر غير مسلم فالشفاعة لأهل الكبائر أمر ثابت عند أهل السنة ولا جائز أن يكونوا من أصحاب الشمال فصرائح الآيات أنهم كفار ﴿ مَا للظالمين مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر : 18] وكونهم من أصحاب اليمين أقرب من كونهم من السابقين وجعلهم قسماً على حدة قد علمت حاله فتذكر فما في العهد من قدم . وذكر بعض الأجلة أن هذه الجملة كلام يفيد عظمة حالهم كما يقال فلان ناهيك به وحسبك أنه فلان إشارة إلى أنه ممدوح فوق حد التفصيل ، وكأني بك تختار ذلك فإنه حسن لطيف .

(50/745)

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضالين ﴾ وهم أصحاب الشمال عبر عنهم بذلك حسبما وصفوا به عند بيان أحوالهم بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضالون المكذبون ﴾ [الواقعة : 51] ذمّاً لهم بذلك وإشعاراً بسبب ما ابتلوا به من العذاب ، ولما وقع هذا الكلام بعد

تحقق تكذيبهم ورده على أتم وجه ولم يقع الكلام السابق كذلك قدم وصف التكذيب هنا على عكس ما تقدم ، ويجوز أن يقال في ذلك على تقدير عموم متعلق التكذيب بحيث يشمل تكذيبه صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة إن هذا الكلام إخبار من جهته سبحانه بأحوال الأزواج الثلاثة لم يؤمر عليه الصلاة والسلام بأن يشافه بكل جملة منه من هي فيه فقدم فيه وصف التكذيب الشامل لتكذيبه عليه الصلاة والسلام المشعر بسبب الابتلاء بالعذاب كرامة له صلى الله عليه وسلم وتنويهاً بعلو شأنه ، ولما كان الكلام السابق داخلاً في حيز القول المأمور عليه الصلاة والسلام بأن يشافه به أولئك الكفرة لم يحسن التقديم للكرامة إذ يكون حينئذٍ من باب مادح نفسه يقرئك السلام ، ويجوز أن يقال أيضاً إن الكلام في حال الكافر المحتضر والتكذيب لكونه مقابل التصديق لا يكون إلا بالقلب وهو لم يتعطل منه تعطل سائر أعضائه فلذا قدم هنا ، ويرشد إلى هذا ما قالوه في دعاء صلاة الجنازة اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان من وجه تخصيص الإسلام بالإحياء والإيمان بالإماتة .

(51/745)

وقال الإمام في ذلك : إن المراد من الضلال هناك ما صدر عنهم من الإصرار على الحنث العظيم فضلوا عن سبيل الله تعالى ولم يصلوا إليه ثم كذبوا رسله ، ﴿ وَقَالُوا أَءِذَا مِتْنَا ﴾ الخ فكذبوا بالحشر فقال تعالى : ﴿ أَيُّهَا الضالون ﴾ الذين أشركتم المكذبون الذين أنكرتم الحشر لآكلون ما تكرهون ، وأما هنا فقال سبحانه لهم : أيها المكذبون الذين كذبتم بالحشر الضالون من طريق الخلاص الذين لا يهتدون إلى النعيم ، وفيه وجه آخر وهو أن الخطاب هناك مع الكفار فقال سبحانه : أيها الذين أشركتم أولاً وكذبتم ثانياً ، والخطاب هنا مع النبي صلى الله عليه وسلم يبين له عليه الصلاة والسلام حال الأزواج الثلاثة كما يدل عليه . فسلام لك فقال سبحانه : المقربون في روح وريحان وجنة ونعيم وأصحاب اليمين في سلامة ، وأما المكذبون الذين كذبوك وضلوا فقدم تكذيبهم إشارة إلى كرامته صلى الله عليه وسلم حيث بين أن أقوى سبب في عقابهم تكذيبهم انتهى .

وعليك بالتأمل والإنصاف والنظر لما قال دون النظر لمن قال ، وقوله تعالى :

﴿ فَنُزُلٌ ﴾ بتقدير فله نزل أو فجزاؤه نزل كائن ﴿ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ قيل : يشرب بعد أكل الزقوم كما فصل فيما قبل .

﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أي إدخال في النار ، وقيل : إقامة فيها ومقاساة لألوان عذابها وكل ذلك مبني على أن المراد بيان ما لهم يوم القيامة ، وقيل : هذا محمول على ما يجده في القبر من حرارة النار ودخانها لأن الكلام في حال التوفي وعقب قبض الأرواح والأنسب بذلك

كون ما ذكر في البرزخ ، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في الآية : لا يخرج الكافر حتى يشرب كأساً من حميم ، وقرأ أحمد بن موسى .

والمنقري .

واللؤلؤي عن أبي عمرو ﴿ وَتَصْلِيَةُ ﴾ بالجر عطفاً على ﴿ حَمِيمٍ ﴾ [الواقعة : 93] ﴾ .

(52/745)

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي الذي ذكر في السورة الكريمة كما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ اليقين على ما يفهم من كلام الزمخشري في الجاثية اسم للعلم الذي زال عنه اللبس وبذلك صرح صاحب المطلع وذكر أنه تفسير بحسب المعنى وهو مأخوذ من المقام وإلا فهو العلم المتيقن مطلقاً والإضافة بمعنى اللام والمعنى لهو عين اليقين فهو على نحو عين الشيء ونفسه ولا يخفى أن الإضافة من إضافة العام إلى الخاص وكونها بمعنى اللام قول لبعضهم ، وقال بعض آخر : إنها بيانية على معنى من ، وقدر بعضهم هنا موصوفاً أي لهو حق الخبر اليقين وكونه لا يناسب المقام غير متوجه ، وفي "البحر" قيل : إن الإضافة من إضافة المترادفين على سبيل المبالغة كما تقول هذا يقين اليقين وصواب الصواب بمعنى أنه

نهاية في ذلك فهما بمعنى أضيف أحدهما إلى الآخر للمبالغة وفيه نظر ، والفاء في قوله تعالى :

﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ العظيم ﴾ لترتيب التسبيح أو الأمر به ، فإن حقية ما فصل في تضاعيف السورة الكريمة مما يوجب التسبيح عما لا يليق مما ينسبه الكفرة إليه سبحانه قالاً أو حالاً تعالى عن ذلك علواً كبيراً وأخرج الإمام أحمد .

وأبو داود .

وابن ماجه .

وابن حبان .

والحاكم وصححه .

وغيرهم عن عقبة بن عامر الجهني قال : " لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبح باسم ربك العظيم قال : اجعلوها في ركوعكم ولما نزلت سبح اسم ربك الأعلى قال : اجعلوها في سجودكم " .

(53/745)

ومما قاله السادة أرباب الإشارة : متعلقاً ببعض هذه السورة الكريمة أن ﴿ الواقعة ﴾ اسم لقيامة الروح كما أن ﴿ الازفة ﴾ اسم لقيامة الخفي ، و ﴿ الحاقة ﴾ اسم لقيامة السر ، و ﴿ الساعة ﴾ اسم لقيامة القلب ، وقالوا : إن الواقعة إذا وقعت ترفع صاحبها طوراً وتخفضه طوراً وتشعل نيران الغيرة وتفجر أنهار المعرفة وتحصل للسالك إذا اشتغل بالسلوك والتصفية ووصل ذكره إلى الروح وهي في البداية مثل ستر أسود يجيء من فوق الرأس عند غلبة الذكر وكلما زاد في النزول يقع على الذاكر هيبة وسكينة وربما يغمى عليه في البداية ويشاهد إذا وقع على عينيه عوالم الغيب فيرى ما شاء الله تعالى أن يرى وتكشف له العلوم الروحانية ويرى عجائب وغرائب لا تحصى ، وإذا أفاق فليعرض ما حصل له لمسلكه ليرشده إلى ما فيه مصلحة وقته ويعبر له ما هو مناسب لحوصلته ويقوي قلبه ويأمره بالذكر والتوجه الكلي حتى يكمل بصفو سر الواقعة فيكون سراً منوراً فربما يصير السالك بحيث إذا فتح عينيه بعد نزولها في عالم الشهادة يشاهد ما كان مشاهداً له فيها وهي حالة سنية معتبرة عند أرباب السلوك فليس لوقعتها كاذبة بل هي صادقة لأن الشيطان يفر عندها والنفس لا تقدر أن تلبس على صاحبها وهي اليقظة الحقيقية وما يعده الناس يقظة هو النوم كما يشير إليه قول أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، ثم أنهم تكلموا على أكثر ما في السورة الجليلة بما يتعلق بالأنفس ، وقالوا في مواقع النجوم : إنها إشارة إلى اللطائف المطهرة لأنها مواقع نجوم الواردات القدسية

الخفية من السماء الجبروتية اللاهوتية ، وقيل : في قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ [الواقعة : 79] إن فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي لمن لم يكن طاهر النفس من حدث الميل إلى صغائر الشهوات وهو الحدث الأصغر ومن حدث الميل إلى كبائر الشهوات وهو الحدث الأكبر أن يمس بيد نفسه وفكره معاني القرآن

(54/745)

الكريم كما لا ينبغي لمن لم يكن طاهر البدن من الحدثين المعروفين في البدن أن يمس بيد بدنه وجسده ألفاظه المكتوبة ، وقيل : أيضاً يجوز أن يقال المعنى لا يصل إلى أدنى حقائق أسرار القرآن الكريم إلا المطهرون من أرجاس الشهوات وأنجاس المخالفات .

وإذا كانت هذه الجملة صفة للكتاب المكنون المراد منه اللوح المحفوظ وأريد بالمطهرين الملائكة عليهم السلام ، وكان المعنى لا يطلع عليه إلا الملائكة عليهم السلام كان في ذلك ردّ على من يزعم أن الأولياء يرون اللوح المحفوظ ويطلعون على ما فيه ، وحمل المطهرين على ما يعم الملائكة والأولياء الذين طهرت نفوسهم وقدست ذواتهم حتى التحقوا بالملائكة عليهم السلام لا ينفع في البحث مع أهل الشرع فإن مدار استدلالاتهم على الأحكام الشرعية الظواهر على أنه لم يسمع عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو هو أنه نظر يوماً وهو بين

أصحابه إلى اللوح المحفوظ واطلع على شيء مما فيه ، وقال لهم : إني رأيت اللوح المحفوظ واطلعت على كذا وكذا فيه ، وكذلك لم يسمع عن أجلة أصحابه الخلفاء الراشدين أنه وقع لهم ذلك ، وقد وقعت بينهم مسائل اختلفوا فيها وطال نزاعهم في تحقيقها إلى أن كاد يغم هلال الحق فيها ولم يراجع أحد منهم لكشفها اللوح المحفوظ .

وذكر بعض العلماء أن سدرة المنتهى ينتهي علم من تحتها إليها وأن اللوح فوقها بكثير ، وبكل من ذلك نطقت الآثار ، وهو يشعر بعدم اطلاع الأولياء على اللوح ، ومع هذا كله من ادعى وقوع الاطلاع فعليه البيان وأنى به ، وهذا الذي سمعت مبني على ما نطقت به الأخبار في صفة اللوح المحفوظ وأنه جسم كتب فيه ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة ، وأما إذا قيل فيه غير ذلك انجر البحث إلى وراء ما سمعت ، واتسعت الدائرة .

(55/745)

ومن ذلك قولهم : إن الألواح أربعة ، لوح القضاء السابق على المحو والإثبات وهو لوح العقل الأول ، ولوح القدر أي لوح النفس الناطقة الكلية التي يفصل فيها كليات اللوح الأول وهو المسمى باللوح المحفوظ ، ولوح النفس الجزئية السماوية التي ينتقش فيها كل ما في هذا العالم شكله وهيئته ومقداره وهو المسمى بالسماء الدنيا وهو بمثابة خيال العالم كما أن الأول

بمثابة روحه ، والثاني بمثابة قلبه ، ولوح الهيولى القابل للصورة في عالم الشهادة ويقولون أيضاً ما يقولون وينشد المنتصر له قوله

: وإذا لم تر الهلال فسلم . . .

لأناس رأوه بالأبصار

هذا ولا تظنن أن نفي رؤيتهم للوح المحفوظ نفي لكراماتهم الكشفية وإلهاماتهم الغيبية معاذ الله تعالى من ذلك ، وطرق اطلاع الله تعالى من شاء من أوليائه على من شاء من علمه غير منحصر بإراءته اللوح المحفوظ ثم إن الإمكان مما لا نزاع فيه وليس الكلام إلا في الوقوع ، وورود ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وأجلة أصحابه كالصديق .

والفاروق .

وذي النورين .

وباب مدينة العلم .

والنقطة التي تحت الباء رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، والله تعالى أعلم .

وقالوا في قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ولكن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة : 85] ما بنوه على القول بوحدة الوجود والكلام فيها شائع وقد أشرنا إليه في هذا الكتاب غير مرة ولهم في اليقين .

وعين اليقين .

وحق اليقين عبارات شتى ، منها اليقين رؤية العيان بقوة الإيمان لا بالحجة والبرهان ، وقيل : مشاهدة الغيوب بصفاء القلوب وملاحظة الاسرار بمحافظة الأفكار ، وقيل : طمأنينة القلب على حقيقة الشيء من يقن الماء في الحوض إذا استقر ، وحق اليقين فناء العبد في الحق والبقاء به علماً وشهوداً وحالاً لا علماً فقط فعلم كل عاقل الموت علم اليقين فإذا عاين الملائكة فهو عين اليقين ، وإذا ذاق الموت فهو حق اليقين ، وقيل : علم اليقين ظاهر الشريعة ، وعين اليقين الإخلاص فيها ، وحق اليقين المشاهدة فيها ، ﴿ وَقِيلَ وَقِيلَ ﴾ ونحن نسأل الله تعالى الهداية إلى أقوم سبيل ، وأن يشرح صدورنا بأنوار علوم كتابه الكريم الجليل . وهو سبحانه حسبنا في الدارين ونعم الوكيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 27 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾

ذهب جمهور المفسرين إلى أن " لا " مزيدة للتوكيد ، والمعنى : فأقسم ، ويؤيد هذا قوله بعد : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ ﴾ وقال جماعة من المفسرين : إنها للنفي ، وإن المنفيّ بها محذوف ، وهو كلام الكفار الجاحدين .

قال الفراء : هي نفي ، والمعنى : ليس الأمر كما تقولون .

ثم استأنف ، فقال : أقسم ، وضعف هذا بأن حذف اسم لا وخبرها غير جائز ، كما قال أبو حيان ، وغيره .

وقيل : إنها لام الابتداء ، والأصل : فلا أقسم ، فأشبعت الفتحة ، فتولد منها ألف ، كقول الشاعر :

أعوذ بالله من العقراب .

. . . وقد قرأ هكذا : (فلأقسم) بدون ألف الحسن ، وحميد ، وعيسى بن عمر ، وعلى هذا القول ، وهذه القراءة يقدّر مبتدأ محذوف ، والتقدير : فلأنا أقسم بذلك .

وقيل : إن لا هنا بمعنى ألا التي للتنبيه ، وهو بعيد .

وقيل : لا هنا على ظاهرها ، وإنها لنفي القسم ، أي : فلا أقسم على هذا ؛ لأن الأمر أوضح من ذلك ، وهذا مدفوع بقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ مع تعيين المقسم

به ، والمقسم عليه ، ومعنى قوله : ﴿ بمواقع النجوم ﴾ مساقطها ، وهي مغاربها كذا قال قتادة ، وغيره .

وقال عطاء بن أبي رباح : منازلها .

وقال الحسن : انكدارها وانتثارها يوم القيامة ، وقال الضحاك : هي الأنواء التي كان أهل الجاهلية يقولون مطرنا بنوء كذا .

وقيل : المراد بمواقع النجوم : نزول القرآن نجوماً من اللوح المحفوظ ، وبه قال السديّ ، وغيره ، وحكى الفراء عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن .

قرأ الجمهور : ﴿ مواقع ﴾ على الجمع ، وقرأ ابن مسعود ، والنخعي ، وحمزة ، والكسائي ، وابن محيصن وورش عن يعقوب " بموقع " على الإفراد .

قال المبرد : موقع هاهنا مصدر ، فهو يصلح للواحد والجمع .

(58/745)

ثم أخبر سبحانه عن تعظيم هذا القسم وتفخيمه ، فقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ هذه الجملة معترضة بين المقسم به ، والمقسم عليه ، وقوله : ﴿ لَّوْ تَعْلَمُونَ ﴾ جملة معترضة بين جزأي الجملة المعترضة ، فهو اعتراض في اعتراض .

قال الفراء ، والزجاج : هذا يدل على أن المراد بمواقع النجوم نزول القرآن ، والضمير في ﴿ إنه ﴾ على القسم الذي يدل عليه أقسم ، والمعنى أن القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون .

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ أي : كرّمه الله وأعزّه ، ورفع قدره على جميع الكتب ، وكرّمه عن أن يكون سحراً أو كهانة أو كذباً ، وقيل : إنه كريم لما فيه من كرم الأخلاق ومعالي الأمور ، وقيل : لأنه يكرم حافظه ، ويعظم قارئه .

وحكى الواحدي عن أهل المعاني أن وصف القرآن بالكريم لأن من شأنه أن يعطي الخير الكثير بالدلائل التي تؤدّي إلى الحق في الدين .

قال الأزهري : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة .

﴿ فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ أي : مستور مصون ، وقيل : محفوظ عن الباطل ، وهو اللوح المحفوظ قاله جماعة ، وقيل : هو كتاب .

وقال عكرمة : هو التوراة والإنجيل فيهما ذكر القرآن ، ومن ينزل عليه ، وقال السديّ : هو الزبور .

وقال مجاهد ، وقتادة : هو المصحف الذي في أيدينا .

﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ قال الواحدي : أكثر المفسرين على أن الضمير عائد إلى

الكتاب المكنون ، أي : لا يمس الكتاب المكنون إلاّ المطهرون ، وهم الملائكة وقيل : هم الملائكة والرسل من بني آدم ، ومعنى ﴿ لاَّيَمَسُّهُ ﴾ : المسّ الحقيقي ، وقيل : معناه لا ينزل به إلاّ المطهرون ، وقيل : معناه لا يقرؤه ، وعلى كون المراد بالكتاب المكنون هو القرآن ، فقيل : ﴿ لاَّيَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ من الأحداث والأنجاس .

(59/745)

كذا قال قتادة ، وغيره : وقال الكلبي : المطهرون من الشرك .

وقال الربيع بن أنس : المطهرون من الذنوب والخطايا .

وقال محمد بن الفضل وغيره : معنى ﴿ لاَّيَمَسُّهُ ﴾ : لا يقرؤه إلاّ المطهرون ، أي : إلاّ الموحدون .

وقال الفراء : لا يجد نفعه وبركته إلاّ المطهرون ، أي : المؤمنون .

وقال الحسين بن الفضل : لا يعرف تفسيره وتأويله إلاّ من طهره الله من الشرك والنفاق .

وقد ذهب الجمهور إلى منع المحدث من مسّ المصحف ، وبه قال عليّ ، وابن مسعود ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعطاء ، والزهري ، والنخعي ، والحكم ، وحماد وجماعة من الفقهاء منهم مالك ، والشافعي .

وروي عن ابن عباس ، والشعبي ، وجماعة منهم أبو حنيفة ، أنه يجوز للمحدث مسه ، وقد أوضحنا ما هو الحق في هذا في شرحنا للمنتقي ، فليرجع إليه .

قرأ الجمهور : ﴿ المطهرون ﴾ بتخفيف الطاء وتشديد الهاء مفتوحة اسم مفعول .

وقرأ سلمان الفارسي بكسر الهاء على أنه اسم فاعل ، أي : المطهرون أنفسهم .

وقرأ نافع ، وابن عمر في رواية عنهما ، عيسى بن عمر بسكون الطاء وفتح الهاء خفيفة ، اسم مفعول من أطهر ، وقرأ الحسن ، وزيد بن عليّ ، وعبد الله بن عوف بتشديد الطاء وكسر الهاء ، وأصله المتطهرون ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ قرأ الجمهور بالرفع ، وقرىء بالنصب ، فالرفع على أنه صفة أخرى لقرآن ، أو خبر مبتدأ محذوف ، والنصب على الحال .

﴿ أفبهذا الحديث أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴾ الإشارة إلى القرآن المنعوت بالنعوت السابقة ، والمدهن والمداهن : المنافق .

كذا قال الزجاج وغيره .

وقال عطاء وغيره : هو الكذاب .

وقال مقاتل بن سليمان ، وقتادة : مدهنون : كافرون ، كما في قوله : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم : 9] وقال الضحاك : مدهنون .

معرضون ، وقال مجاهد : ممالئون للكفار على الكفر ، وقال أبو كيسان : المدهن : الذي لا يعقل حق الله عليه ، ويدفعه بالعلل .

(60/745)

والأوّل أولى ؛ لأن أصل المدهن الذي ظاهره خلاف باطنه ؛ كأنه يشبه الدهن في سهولته .

قال المؤرج : المدهن المنافق الذي يلين جانبه ؛ ليخفي كفره ، والإدهان والمداهنة : التكذيب ، والكفر ، والنفاق ، وأصله اللين ، وأن يسر خلاف ما يظهر ، وقال في الكشاف : مدهنون : أي : متهاونون به كمن يدهن في الأمر ، أي : يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاوناً به انتهى .

قال الراغب : والإدهان في الأصل مثل التدهين ؛ لكن جعل عبارة عن المداراة والملاينة ، وترك الجدّ : كما جعل التقريد : وهو نزع القراد عبارة عن ذلك ، ويؤيد ما ذكره قول أبي قيس بن الأسلت :

اَلحزْمُ والقُوّة خُيرٌ مِنَ ال . . . إدهان والفهّة والهَاعِ

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ في الكلام مضاف محذوف ، كما حكاه الواحدي عن المفسرين ، أي : تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون بنعمة الله ، فتضعون التكذيب

موضع الشكر .

وقال الهيثم : إن أزد شنوءة يقولون : ما رزق فلان ، أي : ما شكر ؛ وعلى هذه اللغة لا يكون في الآية مضاف محذوف بل معنى الرزق الشكر .

ووجه التعبير بالرزق عن الشكر أن الشكر يفيض زيادة الرزق ، فيكون الشكر رزقاً تعبيراً بالسبب عن المسبب ، ومما يدخل تحت هذه الآية قول الكفار إذا سقاهم الله ، وأنزل عليهم المطر : سقينا بنوء كذا ، ومطرنا بنوء كذا .

قال الأزهري : معنى الآية : وتجعلون بدل شكركم رزقكم الذي رزقكم الله التكذيب بأنه من عند الله الرّزاق .

وقرأ عليّ وابن عباس : (وتجعلون شكركم) وقرأ الجمهور ﴿ أنكم تكذبون ﴾ بالتشديد من التكذيب ، وقرأ عليّ ، وعاصم في رواية عنه بالتخفيف من الكذب ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ أي : فهلا إذا بلغت الروح ، أو النفس الحلقوم عند الموت ، ولم يتقدّم لها ذكر ؛ لأن المعنى مفهوم عندهم إذا جاءوا بمثل هذه العبارة ، ومنه قول حاتم طي :

أماويّ ما يغني الثراء عن الفتى . . . إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ إلى ما هو فيه ذلك الذي بلغت نفسه أو روحه الحلقوم .

قال الزجاج : وأنتم يا أهل الميت في تلك الحال ترون الميت قد صار إلى أن تخرج نفسه ، والمعنى : أنهم في تلك الحال لا يمكنهم الدفع عنه ، ولا يستطيعون شيئًا ينفعه ، أو يخفف عنه ما هو فيه ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ أي : بالعلم ، والقدرة ، والرؤية ، وقيل : أراد ورسلنا الذين يتولون قبضه أقرب إليه منكم ﴿ ولكن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾ أي : لا تدركون ذلك ؛ لجهلكم بأن الله أقرب إلى عبده من حبل الوريد ، أو لا تبصرون ملائكة الموت الذين يحضرون الميت ويتولون قبضه ﴿ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ .

تَرْجِعُونَهَا ﴾ يقال : دان السلطان رعيته : إذا ساسهم واستعبدهم .

قال الفراء : دنته : ملكته ، وأنشد للحطيئة :

لقد دنت أمر بنيك حتى . . . تركتهم أدق من الطحين

أي : ملكت ، ويقال : دانه إذا أذله واستعبده ، وقيل : معنى ﴿ مدينين ﴾ : محاسبين ، وقيل : مجزيين ، ومنه قول الشاعر :

ولم يبق سوى العدوا . . . ن دناهم كما دانوا

والمعنى الأوّل ألصق بمعنى الآية ، أي : فهلا إن كنتم غير مربوبين ومملوكين ترجعونها ، أي : النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مقرّها الذي كانت فيه ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ ولن

ترجعوها ، فبطل زعمكم إنكم غير مربوبين ولا مملوكين ، والعامل في قوله : ﴿ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ هو قوله : ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ ، و " لولا " الثانية تأكيد للأولى قال الفراء : وربما أعادت العرب الحرفين ومعناهما واحد .

ثم ذكر سبحانه طبقات الخلق عند الموت وبعده فقال : ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المقربين ﴾ أي : السابقين من الثلاثة الأصناف المتقدّم تفصيل أحوالهم ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ روح ﴾ بفتح الراء ، ومعناه : الراحة من الدنيا ، والاستراحة من أحوالها .

وقال الحسن : الروح : الرحمة .

وقال مجاهد : الروح : الفرح .

(62/745)

وقرأ ابن عباس ، وعائشة ، والحسن ، وقتادة ، ونصر بن عاصم ، والجحدري : (فروح) بضم الراء ، ورويت هذه القراءة عن يعقوب ، قيل : ومعنى هذه القراءة : الرحمة لأنها كالحياة للمرحوم ، والريحان : الرزق في الجنة ، قاله مجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومقاتل .

قال مقاتل : هو الرزق بلغة حمير ، يقال : خرجت أطلب ريحان الله أي : رزقه ، ومنه قول

النمر بن تولب :

سلام الإله وريحانه . . . ورحمته وسماء درر

وقال قتادة : إنه الجنة .

وقال الضحاك : هو الرحمة .

وقال الحسن : هو الريحان المعروف الذي يشمّ .

قال قتادة ، والربيع بن خيثم : هذا عند الموت ، والجنة مخبوءة له إلى أن يبعث ، وكذا قال أبو الجوزاء ، وأبو العالية ، ومعنى ﴿ وجنة نعيم ﴾ أنها ذات تنعم ، وارتفاع روح ، وما بعده على الابتداء ، والخبر محذوف أي : فله روح .

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ ﴾ ذلك المتوفى ﴿ مِنْ أصحاب اليمين ﴾ وقد تقدّم ذكرهم ، وتفصيل أحوالهم ، وما أعدّه الله لهم من الجزاء ﴿ فسلامٌ لَّكَ مِنْ أصحاب اليمين ﴾ أي : لست ترى فيهم إلاّ ما تحبّ من السلامة ، فلا تهتم بهم ، فإنه يسلمون من عذاب الله ، وقيل : المعنى : سلام لك منهم أي : أنت سالم من الاغتمام بهم ، وقيل المعنى : إنهم يدعون لك ، ويسلمون عليك ، وقيل : إنه صلى الله عليه وسلم يحيى بالسلام إكراماً ، وقيل : هو إخبار من الله سبحانه بتسليم بعضهم على بعض ، وقيل المعنى : سلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين .

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضالين ﴾ أي : المكذبين بالبعث الضالين عن الهدى ، وهم

أصحاب الشمال المتقدّم ذكرهم ، وتفصيل أحوالهم .

﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ أي : فله نزل يعدّ لنزوله من حميم ، وهو الماء الذي قد تناهت حرارته ، وذلك بعد أن يأكل من الزقوم كما تقدم بيانه : ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ يقال : أصلاه النار وصلاه ، أي : إذا جعله في النار ، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول ، أو إلى المكان .

(63/745)

قال المبرد : وجواب الشرط في هذه الثلاثة المواضع محذوف ، والتقدير : مهما يكن من شيء فروح .

. .

إلخ ، وقال الأخفش : إن الفاء في المواضع الثلاثة هي جواب أما ، وجواب حرف الشرط .

قرأ الجمهور : ﴿ وتصلية ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿ فنزل ﴾ .

وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بالجر عطفاً على ﴿ حميم ﴾ أي : فنزل من حميم ، ومن تصلية جحيم ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ الإشارة إلى ما ذكر في هذه السورة ، أو إلى المذكور قريباً من أحوال المتفرّقين لهو حق اليقين ، أي : محض اليقين وخالصه ، وإضافة

حق إلى اليقين من باب إضافة الشيء إلى نفسه .

قال المبرد : هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين ، هذا عند الكوفيين وجوّزوا ذلك ؛ لاختلاف اللفظ ؛ وأما البصريون ، فيجعلون المضاف إليه محذوفاً ، والتقدير : حق الأمر اليقين ، أو الخبر اليقين ، والفاء في : ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ العظيم ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أي : نزهه عما لا يليق بشأنه ، والباء متعلقة بمحذوف ، أي : فسبح ملتبساً باسم ربك للتبرك به ، وقيل المعنى : فصلّ بذكر ربك ، وقيل : الباء زائدة ، والاسم بمعنى الذات .

وقيل : هي للتعدية ؛ لأن سبح يتعدّى بنفسه تارة ، ويتعدّى بالحرف أخرى ، والأوّل أولى .

وقد أخرج النسائي ، وابن جرير ، ومحمد بن نصر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال : أنزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة ، ثم فرّق في السنين ، وفي لفظ : ثم نزل من السماء الدنيا إلى الأرض نجوماً ، ثم قرأ : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بمواقع النجوم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، ومحمد بن نصر ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه عنه ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بمواقع النجوم ﴾ قال : القرآن ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ قال : القرآن .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال : نجوم القرآن حين ينزل .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي في المعرفة من طرق عن ابن عباس أيضاً ﴿ لاَّيَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ قال : الكتاب المنزل في السماء لا يمسه إلاّ الملائكة .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر عن أنس ﴿ لاَّيَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج عبد الرّزاق ، وابن المنذر عن علقمة قال : أتينا سلمان الفارسي ، فخرج علينا من كنيف ، فقلنا له : لو توضأت يا أبا عبد الله ، ثم قرأت علينا سورة كذا ، وكذا ، قال : إنما قال الله : ﴿ فِى كتاب مَّكْنُونٍ * لاَّيَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ وهو الذي في السماء لا يمسه إلاّ الملائكة ، ثم قرأ علينا من القرآن ما شئنا .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن أبي داود ، وابن المنذر ، عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم عن أبيه قال : في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم : " لا تمس القرآن إلاّ على طهر " وأخرجه مالك في الموطأ عن عبد الله بن أبي بكر .

وأخرجه أبو داود في المراسيل من حديث الزهري قال : قرأت في صحيفة عبد الله بن أبي

بكر بن عمرو بن حزم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" لا يمس القرآن إلاّ طاهر " وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم ، وعبد الله بن عمر ، وعثمان بن أبي العاص ، وفي أسانيدها نظر .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر أنه كان لا يمس المصحف إلاّ متوضئاً .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة في المصنف ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن زيد قال : كنا مع سلمان فانطلق إلى حاجة ، فتوارى عنا ، ثم خرج إلينا ، فقلنا : لو توضأت ، فسألناك عن أشياء من القرآن ، فقال : سلوني ، فإني لست أمسه إنما يمسه المطهرون ، ثم تلا : ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ .

(65/745)

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يمس القرآن إلاّ طاهر " وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن كتب له في عهده : " أن لا يمس القرآن إلاّ طاهر " وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴾ قال : مكذبون .

وأخرج مسلم ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : مطر الناس على عهد

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر " ، قالوا : هذه رحمة وضعها الله .

وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا ، وكذا ، فنزلت هذه الآية : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بمواقع النجوم ﴾ حتى بلغ ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ وأصل الحديث بدون ذكر أنه سبب نزول الآية ثابت في الصحيحين من حديث زيد بن خالد الجهني ، ومن حديث أبي سعيد الخدري ، وفي الباب أحاديث .

وأخرج أحمد ، وابن منيع ، وعبد بن حميد ، والترمذي وحسنه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والضياء في المختارة عن عليّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ قال : شكركم ، تقولون : " مطرنا بنوء كذا ، وكذا ، وبنجم كذا وكذا " وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن عائشة قالت : ما فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن إلاّ آيات يسيرة .

قوله ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ قال : "شكركم" .

وأخرج ابن مردويه عن عليّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ : " وتجعلون شكركم " .

وأخرج أبو عبيد في فضائله ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ : (وتجعلون شكركم) قال : يعني : الأنواء ، وما مطر قوم إلاّ أصبح بعضهم كافراً كانوا ، يقولون مطرنا بنوء كذا ، وكذا ، فأنزل الله : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن أبي عبد الرحمن السلمي عن عليّ أنه قرأ : (وتجعلون شكركم) وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها كذلك .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله .

﴿ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ قال : غير محاسبين .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد في الزهد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر عن الربيع بن خيثم ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المقربين ﴾ الآية قال : هذا له عند الموت ﴿ وَجَنَّةَ نَعِيم ﴾ تخبأ له الجنة إلى يوم يبعث ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضالين * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ قال : هذا عند الموت ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ قال : تخبأ له الجحيم إلى يوم يبعث .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ قال : رائحة ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ قال : استراحة .

وأخرج ابن جرير عنه قال : يعني بالريحان : المستريح من الدنيا ﴿ وَجَنَّةَ نَعِيم ﴾ يقول :

مغفرة ورحمة .

وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال : الريحان : الرزق .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله ﴿ فسلامٌ لَّكَ مِنْ أصحاب اليمين ﴾ قال : تأتيه الملائكة بالسلام من قبل الله تسلم عليه ، وتخبره أنه من أصحاب اليمين .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ قال : ما قصصنا عليك في هذه السورة .

وأخرج عنه أيضاً ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ العظيم ﴾ قال : فصلّ لربك .

(67/745)

وأخرج سعيد بن منصور ، وأحمد ، وأبو داود ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن عقبة بن عامر الجهني قال : لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ العظيم ﴾ قال : " اجعلوها في ركوعكم " ، فلما نزلت ﴿ سَبِّحِ اسم ربِّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] قال : " اجعلوها في سجودكم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 159.164 ﴾

(68/745)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ » .

وهذا المحتضر ، قد نفذ فيه قضاء اللّه ، وأصبح فى عالم الموتى . .

ولكنه لا يترك كهذا ليد الفناء - كما يظنون - ، بل إنه سينقل إلى العالم الآخر ، وتلبسه الحياة

هناك مرة أخرى ، ويأخذ منزله فى هذا العالم ، حسب عمله فى الدنيا . .

فإن كان من المقربين إلى اللّه ، ومن أولياء اللّه فى الدنيا ، فاللّه سبحانه هو وليّه فى الآخرة ،

يلقاه لقاء الأولياء الأحباب بالروح والريحان وجنة النعيم . .

والروح : ما تستروحه النفوس ، وتطيب به ، وتسعد فيه . . وقرىء :

« فروح » أي حياة جديدة تلبسه . .

(69/745)

قوله تعالى : «وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ »

وأصحاب اليمين ، هم ممن أرادهم اللّه « سبحانه » ليكونوا من أصحاب الجنة ، فيسّر لهم

العمل بعمل أهل الجنة . .

وقوله تعالى : « فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » ، أي أنهم فى سلام وأنهم يتهادون التحية والسلام فيما بينهم ، ويبعثون بتحاياهم إلى إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم ممن لا يزالون فى هذه الدنيا . .

فالضمير فى « لك » يراد به كل مؤمن بالله ، طامع فى أن يكون من أصحاب اليمين ! . .

وهى تحية من أهل اليمين فى العالم الآخر ، ينقلها الله سبحانه وتعالى ، إلى المؤمنين فى الدنيا ، حتى يلقوا إخوانهم فى العالم الآخر ، ويردوا هذه التحية الطيبة بأحسن منها أو مثلها .

قوله تعالى : « وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ » أي وأما إن كان هذا الميت من هؤلاء المدهنين المكذبين ، فمنزله الحميم ، الذي تختنق النفوس بسمومه ، وداره الجحيم التي يشوى على جمرها . .

وهكذا الناس بعد الموت ، حيث ينقلون إلى الدار الآخرة ، فيكونون أزواجا ثلاثة . .

السابقون ، وهم المقربون . .

وأصحاب اليمين . .

وأصحاب الشمال . .

ولكلّ منزله الذي ينزله فى هذه الدار ، وجزاؤه الذي يجزاه فيها . .

قوله تعالى :

« إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ . فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » .

بهذا الحكم تختم السورة الكريمة ، وبهذا التنزيه لله سبحانه ، والحمد لله ، يعقّب على هذا الحكم ، ويلفت إلى ما ينبغى أن يستقبل به من النبي ، ومن المؤمنين . .

وحق اليقين ، أي الحق المطلق ، الذي لا يعلق به شىء من دخان الباطل وسحبه . .

فهو الحق الذي ينبغى أن ينزل من القلوب والعقول منزلة اليقين ، فتطمئن به القلوب ، وتسكن إليه العقول . .

واليقين المشار إليه ، هو اليقين الوارد من تلك الآيات ، التي تحدث عن قدرة اللّه ، وعن البعث ، والحساب ، والجزاء . . فهذا الحديث هو حديث حق مستيقن ، لا شك فيه . .

وفى إضافة الحق إلى اليقين ، إشارة إلى أن هذا الحق ، هو الحق الذي يقيم اليقين فى النفوس ، لأنه حق خالص من كل شائبة . . أما غيره فقد يكون حقّا ، ولكنه قد يتلبس به ما يحجبه عن الأبصار ، فيثير حوله سحبا من ضباب الشك والارتياب . . أما هذا الحق ، فهو حق صراح ، ونور مبين . .

لا يحجبه شىء .

وقوله تعالى « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » - هو كما قلنا - تعقيب على هذه الحكم ، واستقبال لهذا الحق المشرق ، الذي يملأ القلوب طمأنينة وأمنا - استقبال له ، بتنزيه اللّه

سبحانه والتسبيح بحمده ، شكرا له على هذا الهدى الذي يهدى به من يشاء من عباده

. .

والمراد بالتسبيح باسم اللّه ، تسبيح لذات اللّه ، وحمد لذات اللّه ، ولهذا إذا

(71/745)

سبّح المؤمن ربه قال : سبحان ربى العظيم ، سبحان ربى الأعلى . . ولم يقل سبحان اسم ربى العظيم ، أو سبحان اسم ربى الأعلى . .

يقول ابن تيمية فى معنى : « فسبح باسم ربك العظيم » أي سبح ناطقا باسم ربك ، متكلما به .

ويعلق ابن القيم على هذا الذي يقول به شيخه ابن تيمية : هذه فائدة تساوى « رحلة » ! ! .

وهذا هو قدر العلم ، وتقدير العلماء له . . فرضى اللّه عن الأستاذ وعن التلميذ .

إنه من أجل هذه الكلمة التي تفيد علما ، وتشع هدى ، ليس بالقليل عليها أن تشد لها الرحال ، وتقطع فى سبيل الوصول إليها الفيافي والقفار ! ولكم احتمل سلفنا الصالح ، رضوان اللّه عليهم ، من أعباء الجهاد فى طلب العلم ، فكان الواحد منهم يقطع ما بين

الشرق والغرب ـ على قلة الزاد ، وخشونة المركب ، حيوانا ، أو قدما ـ في سبيل أن يلقى رجلا من أهل العلم بلغه عنه أنه يحفظ حديثا لرسول اللّه ، أو قراءة لآية من آيات اللّه . .

إنهم قدروا العلم قدره ، وبذلوا له المهر الذي يستحقه . .

وإنه على قدر المشقة كان الثواب والجزاء من اللّه سبحانه ، فوقع هذا العلم من قلوبهم موقع الغيث من الأرض الطيبة ، فأزهر ، وأثمر ، وأخرج من كل زوج بهيج . . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 14 صـ 741 . 744 ﴾

(72/745)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) ﴾

لما اقتضى الكلام بجذافره أن الإِنسان صاحب الروح صائر إلى الجزاء فرع عليه إجمال أحوال الجزاء في مراتب الناس إجمالاً لما سبق تفصيله بقوله : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة إلى قوله : لا بارد ولا كريم ﴾ [الواقعة : 7 44] ليكون هذا فذلكة للسورة وردّاً لعجزها على صدرها .

فضمير ﴿ إن كان ﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ إليه ﴾ من قوله : ﴿ ونحن أقرب

إليه منكم ﴾ [الواقعة : 85] .

والمقربون هم السابقون الذين تقدم ذكرهم في قوله تعالى : ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ [الواقعة : 85] وأصحاب اليمين قد تقدم والمكذبون الضالون : هم أصحاب الشمال المتقدم ذكرهم .

وقد ذكر لكل صنف من هؤلاء جزاء لم يُذكر له فيما تقدم ليضم إلى ما أعدّ له فيما تقدم على طريقة القرآن في توزيع القصة .

والرَّوْح : بفتح الراء في قراءة الجمهور ، وهو الراحة ، أي فرَوْح له ، أي هو في راحة ونعيم ، وتقدم في قوله : ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ في سورة يوسف (87) .

وقرأه رويس عن يعقوب بضم الراء .

ورويت هذه القراءة عن عائشة عن النبي عند أبي داود والترمذي والنسائي ، أي أن رسول الله روي عنه الوجهان ، فالمشهور روي متواتراً ، والآخر روي متواتراً وبالآحاد ، وكلاهما مراد .

ومعنى الآية على قراءة ضم الراء : أن روحه معها الريحان وهو الطيب وجنة النعيم .

وقد ورد في حديث آخر : أن رُوح المؤمن تخرج طيبة .

وقيل : أطلق الرُّوح بضم الراء على الرحمة لأن من كان في رحمة الله فهو الحيّ حقاً ، فهو ذو روح ، أما من كان في العذاب فحياته أقل من الموت ، قال تعالى : ﴿ لا يموت فيها ولا يحيى

﴿ [الأعلى : 13] ، أي لأنه يتمنى الموت فلا يجده .

والريحان : شجر لورقة وقضبانه رائحة ذكية شديد الخضرة كانت الأمم تزين به مجالس الشراب .

(73/745)

قال الحريري "وطوراً يستبزل الدنان ، ومرة يستنثق الريحان" وكانت ملوك العرب تتخذهُ ، قال النابغة:

يُحَيَّوْن بالريحان يوم السباسب . . .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ والحب ذو العصف والريحان ﴾ في سورة الرحمن (12) ، فتخصيصه بالذكر قبل ذكر الجنة التي تحتوي عليه إيماء إلى كرامتهم عند الله ، مثل قوله : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ [الرعد : 23 ، 24] .

وجملة ﴿ فروح وريحان ﴾ جواب (أما) التي هي بمعنى : مهما يكن شيء .

وفُصل بين (ما) المتضمنة معنى اسم شرط وبين فعل شرط وبين الجواب بشرط آخر هو ﴿ إن كان من المقربين ﴾ لأن الاستعمال جرى على لزوم الفصل بين (أمّا) وجوابها

بفاصل كراهية اتصال فاء الجواب بأداة الشرط لما التزموا حذف فعل الشرط فأقاموا مقامه فاصلاً كيفَ كان .

وجواب (إن) الشرطية محذوف أغنى عنه جواب (أمَّا) .

وكذلك قوله : ﴿ فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ .

والسلام : اسم للسلامة من المكروه ، ويطلق على التحية ، واللام في قوله : ﴿ لك ﴾ للاختصاص .

(74/745)

والكلام إجمال للتنويه بهم وعلوّ مرتبتهم وخلاصهم من المكدرات لتذهب نفس السامع كل مذهب .

واختلف المفسرون في قوله : ﴿ فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ فقيل : كاف الخطاب موجهة لغير معين ، أي لكل من يسمع هذا الخبر .

والمعنى : أن السلامة الحاصلة لأصحاب اليمين تسر من يبلغه أمرها .

وهذا كما يقال : ناهيك به ، وحسبك به ، و (من) ابتدائية ، واللفظ جرى مجرى المثل فطوي منه بعضه ، وأصله : فلهم السلامة سلامة تسرّ من بلغه حديثها .

وقيل : الخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم وتقرير المعنى كما تقدم لأن النبي صلى الله عليه وسلم يُسرّ بما يناله أهل الإسلام من الكرامة عند الله وهم ممن شملهم لفظ ﴿ أصحاب اليمين ﴾ .

وقيل : الكلام على تقدير القول ، أي فيقال له : سلام لك ، أي تقول له الملائكة .

و ﴿ من أصحاب اليمين ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أي أنت من أصحاب اليمين ، و ﴿ من ﴾ على هذا تبعيضية ، فهي بشارة للمخاطب عند البعث على نحو قوله تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ [الرعد : 23 ، 24] .

وقيل : الكاف خطاب لمن كان من أصحاب اليمين على طريقة الالتفات .

ومقتضى الظاهر أن يقال : فسلام له ، فعدل إلى الخطاب لاستحضار تلك الحالة الشريفة ، أي فيسلم عليه أصحاب اليمين على نحو قوله تعالى : ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ [يونس : 10] أي يبادرونه بالسلام ، وهذا كناية عن كونه من أهل منزلتهم ، و ﴿ من ﴾ على هذا ابتدائية .

فهذه محامل لهذه الآية يستخلص من مجموعها معنى الرفعة والكرامة .

والمكذبون الضالون : هم أصحاب الشمال في القسم السابق إلى أزواج ثلاثة .

وقدم هنا وصف التكذيب على وصف الضلال عكس ما تقدم في قوله : ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ﴾ [الواقعة : 51] ، لمراعاة سبب ما نالهم من العذاب وهو التكذيب ، لأن الكلام هنا على عذاب قد حان حينه وفات وقت الحذر منه فبُيِّنَ سبب عذابهم وذكروا بالذي أوقعهم في سببه ليحصل لهم ألم التندم .

والنزل : ما يُقدم للضيف من القرى ، وإطلاقه هنا تهكم ، كما تقدم قريباً في هذه السورة كقوله تعالى : ﴿ هذا نزلهم يوم الدين ﴾ [الواقعة : 56] .

والتصلية : مصدر صلاَّه المشدّد ، إذا أحرقه وشواه ، يقال : صلى اللحم تصلية ، إذا شواه ، وهو هنا من الكلام الموجه لإيهامه أنه يُصلّى له الشواء في نزله على طريقة التهكم ، أي يحرّق بها .

والجحيم : يطلق على النار المؤججة ، ويطلق عَلَماً على جهنّم دار العذاب الآخرة .

إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95)

تذييل لجميع ما اشتملت عليه السورة من المعاني المثبتة .

والإشارة إلى ذلك بتأويل المذكور من تحقيق حق وإبطال باطل .

والحق : الثابت .

و﴿ اليقين ﴾ : المعلوم جزماً الذي لا يقبل التشكيك .

وإضافة ﴿ حق ﴾ إلى ﴿ اليقين ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أي لهو اليقين الحق .

وذلك أن الشيء إذا كان كاملاً في نوعه وصُف بأنه حقّ ذلك الجنس ، كما في الحديث : " لأبعثن مَعكم أميناً حقّ أمين " .

فالمعنى : أن الذي قصصنا عليك في هذه السورة هو اليقين حقُّ اليقين ، كما يقال : زيد العالم حقُ عالم .

ومآل هذا الوصف إلى توكيد اليقين ، فهو بمنزلة ذكر مرادف الشيء وإضافة المترادفين تفيد معنى التوكيد ، فلذلك فسروه بمعنى : أن هذا يقينُ اليقين وصوابُ الصواب .

نريد : أنه نهاية الصواب .

قال ابن عطية : وهذا أحسن ما قيل فيه .

ويجوز أن تكون الإِضافة بيانية على معنى (مِن) ، وحقيقته على معنى اللام بتقدير : لهو حق الأمر اليقين ، وسيجيء نظير هذا التركيب في سورة الحاقة .

وسأبين هنالك ما يزيد على ما ذكرته هنا فانظره هنالك .

وقد اشتمل هذا التذييل على أربعة مؤكدات وهي : (إن) ، ولام الابتداء ، وضمير الفصل ، وإضافة شبه المترادفين .

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)

تفريع على تحقيق أن ما ذكر هو اليقين حقاً فإن ما ذكر يشتمل على عظيم صفات الله وبديع صنعه وحكمته وعدله ، ويبشر النبي صلى الله عليه وسلم وأمته بمراتب من الشرف والسلامة على مقادير درجاتهم وبنعمة النجاة مما يصير إليه المشركون من سوء العاقبة ، فلا جرم كان حقيقاً بأن يؤمر بتسبيح الله تسبيحاً استحقه لعظمته ، والتسبيح ثناء ، فهو يتضمن حمداً لنعمته وما هدى إليه من طرق الخير ، وقد مضى تفصيل القول في نظيره من هذه السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ ﴾

(77/745)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ﴾ قال : ماذا لهم وماذا أعد لهم ؟

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وظل من يحموم ﴾ قال : من دخان أسود ، وفي لفظ : من دخان جهنم .

وأخرج هناد وعبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وظل من يحموم ﴾ قال : من دخان جهنم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وظل من يحموم ﴾ قال : من دخان .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي مالك رضي الله عنه ﴿ وظل من يحموم ﴾ قال : الدخان .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك رضي الله عنه قال : النار سوداء وأهلها سود وكل شيء فيها أسود .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ لا بارد ولا كريم ﴾ قال : لا بارد المنزل ولا كريم المنظر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿

إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ﴾ قال : منعمين ﴿ وكانوا يصرون على الحنث العظيم ﴾ قال : على الذنب العظيم .

وأخرج عبد بن حميد عن الشعبي رضي الله عنه ﴿ وكانوا يصرون على الحنث العظيم ﴾ قال : هي الكبائر .

وأخرج ابن عدي والشيرازي في الألقاب والحاكم وصححه وابن مردويه والخطيب في تالي التلخيص وابن عساكر في تاريخه عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في الواقعة ﴿ فشاربون شرب الهيم ﴾ بفتح الشين من شرب .

وأخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ شرب الهيم ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ شرب الهيم ﴾ قال : الإِبل العطاش .

(78/745)

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عزوجل : ﴿ فشاربون شرب الهيم ﴾ قال : الإِبل يأخذها داء يقال له الهيم ، فلا

تروى من الماء ، فشبه الله تعالى شرب أهل النار من الحميم بمنزلة الإِبل الهيم ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت لبيد بن ربيعة وهو يقول :

أجزت إلى معارفها بشعب . . . واطلاح من العبديّ هيم

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبي مجلز رضي الله عنه ﴿ فشاربون شرب الهيم ﴾ قال : كان المراض تمص الماء مصّاً ولا تروى .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ فشاربون شرب الهيم ﴾ قال : الإِبل المراض تمصّ الماء مصّاً ولا تروى .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ فشاربون شرب الهيم ﴾ قال : ضراب الإِبل دواب لا تروى .

وأخرج سفيان بن عيينة في جامعه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فشاربون شرب الهيم ﴾ قال : هيام الأرض يعني الرمال . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه قال ﴿ الهيم ﴾ الإِبل العطاش .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ﴿ شرب الهيم ﴾ قال : الإِبل الهيم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ شرب الهيم ﴾ قال : داء يأخذ فإذا أخذها لم ترو .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ شرب الهيم ﴾ برفع الشين .

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58)

أخرج عبد الرزاق وابن المنذر والحاكم والبيهقي في سننه عن حجر المرادي رضي الله عنه قال : كنت عند عليّ رضي الله عنه فسمعته وهو يصلي بالليل يقرأ فمر بهذه الآية ﴿ أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ قال : بل أنت يا رب ثلاثاً ثم قرأ ﴿ أأنتم تزرعونه ﴾ قال : بل أنت يا رب ثلاثاً ، ثم قرأ ﴿ أأنتم أنزلتموه من المزن ﴾ قال : بل أنت يا رب ثلاثاً ، ثم قرأ ﴿ أأنتم أنشأتم شجرتها ﴾ قال : بل أنت يا رب ثلاثاً .

(79/745)

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن الضحاك رضي الله عنه في قوله : ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ قال : تقدير أن جعل أهل الأرض وأهل السماء فيه سواء شريفهم وضعيفهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ قال : المتأخر والمعجل وأي في قوله : ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ قال : في خلق شئنا وفي قوله : ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى ﴾ إذ لم تكونوا شيئاً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله

: ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى ﴾ قال : خلق آدم عليه السلام .

وأخرج البزار وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في شعب الإِيمان وضعفه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يقولن أحدكم زرعت ولكن ليقل حرثت ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : ألم تسمعوا الله يقول : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي عبد الرحمن رضي الله عنه أنه كره أن يقول : زرعت ، ويقول : حرثت .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ أأنتم تزرعونه ﴾ قال : تنبتونه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ قال : تعجبون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن رضي الله عنه ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ قال : تندمون .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ إنا لمغرمون ﴾ قال : ملقون للشر ﴿ بل نحن محرومون ﴾ قال : محدودون ، وفي قوله : ﴿ أأنتم أنزلتموه من المزن ﴾ قال : السحاب .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ أأنتم

أنزلتموه من المزن ﴾ قال : السحاب .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن وقتادة رضي الله عنهما مثله .

(80/745)

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر رضي الله عنه " عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا شرب الماء قال : الحمد لله الذي سقانا عذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا " .

وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ نحن جعلناها تذكرة ﴾ قال : هذه لنا تذكرة للنار الكبرى ﴿ ومتاعاً للمقوين ﴾ قال : للمستمتعين الناس أجمعين وفي لفظ للحاضر والبادي .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ نحن جعلناها تذكرة ﴾ قال : تذكرة للنار الكبرى ﴿ ومتاعاً للمقوين ﴾ قال : للمسافرين .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ نحن جعلناها تذكرة ﴾ قال : تذكرة للنار الكبرى ﴿ ومتاعاً للمقوين ﴾ قال : للمسافرين ، كم من قوم قد سافروا ثم

أرملوا فأحجبوا ناراً فاستدفؤوا بها ، وانتفعوا بها .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه ﴿ ومتاعاً للمقوين ﴾ قال : للمسافرين .

وأخرج الطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تمنعوا عباد الله فضل الله الماء ولا كلأ ولا ناراً ، فإن الله تعالى جعلها متاعاً للمقوين وقوة للمستضعفين ، ولفظ ابن عساكر وقواماً للمستمتعين " .

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75)

أخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ فلا أقسم ﴾ ممدودة مرفوعة الألف ﴿ بمواقع النجوم ﴾ على الجماع .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ على الجماع .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ قال : نجوم السماء .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ قال : بمساقطها ، قال : وقال الحسن رضي الله عنه : مواقع النجوم انكدارها وانتثارها يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ قال : بمغايبها .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ قال : بمنازل النجوم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ قال : القرآن ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ قال : القرآن .

وأخرج النسائي وابن جرير ومحمد بن نصر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أنزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم فرق في السنين ، وفي لفظ : ثم نزل من السماء الدنيا إلى الأرض نجوماً ، ثم قرأ ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ بألف ،

قال : نجوم القرآن حين ينزل .

وأخرج ابن المنذر وابن الأنباري في كتاب المصاحف وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أنزل القرآن إلى السماء الدنيا جملة واحدة ، ثم أنزل إلى الأرض نجوماً ثلاث آيات وخمس آيات وأقل وأكثر ، فقال : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ .

وأخرج الفريابي بسند صحيح عن المنهال بن عمرو رضي الله عنه قال : قرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ قال : بمحكم القرآن ، فكان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم نجوماً .

وأخرج ابن نصر وابن الضريس عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ قال : بمحكم القرآن .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ قال : مستقر الكتاب أوله وآخره .

(82/745)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع بن أنس رضي الله عنه في قوله : ﴿ إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون ﴾ قال : القرآن الكريم ، والكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ ﴿ لا

يمسه إلا المطهرون ﴾ قال : الملائكة عليهم السلام هم المطهرون من الذنوب .

وأخرج آدم ابن أبي إياس وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في المعرفة عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون ﴾ قال : القرآن في كتابه والمكنون الذي لا يمسه شيء من تراب ولا غبار ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ قال : الملائكة عليهم السلام .

وأخرج عبد حميد وابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ في كتاب مكنون ﴾ قال : التوراة والإنجيل ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ قال : حملة التوراة والإنجيل .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : في قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : " ما يمسه إلا المطهرون " .

وأخرج آدم وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في المعرفة من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ قال : الكتاب المنزل في السماء لا يمسه إلا الملائكة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أنس رضي الله عنه ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ قال : الملائكة عليهم السلام .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ قال : ذاكم عند رب العالمين ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ من الملائكة فاما عندكم فيمسه

المشرك والنجس والمنافق الرجس .

وأخرج ابن مردويه بسند رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون ﴾ قال : عند الله في صحف مطهرة ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ قال : المقربون .

(83/745)

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن علقمة رضي الله عنه قال : أتينا سلمان الفارسي رضي الله عنه فخرج علينا من كن له فقلنا له : لو توضأت يا أبا عبد الله ثم قرأت علينا سورة كذا وكذا قال : إنما قال الله : ﴿ في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون ﴾ وهو الذي في السماء لا يمسه إلا الملائكة عليهم السلام ، ثم قرأ علينا من القرآن ما شئنا .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي داود في المصاحف وابن المنذر عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله : ﴿ في كتاب مكنون ﴾ قال : في السماء ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ قال : الملائكة عليهم السلام .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن أبي العالية رضي الله عنه في قوله : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ قال : الملائكة عليهم السلام ليس أنتم يا أصحاب الذنوب .

وأخرج ابن المنذر عن النعيمي رضي الله عنه قال : قال مالك رضي الله عنه : أحسن ما سمعت في هذه الآية ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ أنها بمنزلة الآية التي في عبس ﴿ في صحف مكرمة ﴾ [عبس : 13] إلى قوله : ﴿ كرام بررة ﴾ [عبس : 16] .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان لا يمس المصحف إلا متوضئاً .

(84/745)

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي داود وابن المنذر عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه قال : " في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم : لا تمس القرآن إلا على طهور " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن زيد قال : كنا مع سلمان فانطلق إلى حاجة فتوارى عنا ، فخرج إلينا فقلنا : لو توضأت فسألناك عن أشياء من القرآن ، فقال : سلوني فإني لست أمسّه إنما يمسه المطهرون ، ثم تلا ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يمس القرآن إلا طاهر " .

وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعثه

إلى اليمن كتب له في عهده " أن لا يمس القرآن إلا طاهر " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن حزم الأنصاري عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إليه : " لا يمس القرآن إلا طاهر " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ﴾ قال : مكذبون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ﴾ قال : تريدون أن تمالئوا فيه وتركنوا إليهم .

قوله تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ .

أخرج مسلم وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أصبح من الناس شاكر ، ومنهم كافر ، قالوا : هذه رحمة وضعها الله وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا ، فنزلت هذه الآية ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ حتى بلغ ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ " .

وأخرج أبو عبيد في فضائله وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ " وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون " قال : يعني الأنواء وما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافرًا وكانوا يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فأنزل الله تعالى ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ قال : " بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سافر في حر شديد ، فنزل الناس على غير ماء فعطشوا ، فاستسقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : " فلعلّي لو فعلت فسقيتم قلتم هذا بنوء كذا وكذا " ، قالوا : يا نبيّ الله ما هذا بحين أنواء ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بماء فتوضأ ثم قام فصلى ، فدعا الله تعالى ، فهاجت ريح وثاب سحاب ، فمطروا ، حتى سال كل واد ، فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر برجل يغرف بقدحه ويقول : هذا نوء فلان ، فنزل ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي حزرة رضي الله عنه قال : نزلت الآية في رجل من الأنصار في غزوة تبوك ، ونزلوا بالحجر فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يحملوا من مائها شيئاً ثم ارتحل ثم نزل منزلاً آخر ، وليس معهم ماء ، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام يصلي ركعتين ، ثم دعا فأرسل سحابة فأمطرت عليهم حتى استقوا منها

، فقال رجل من الأنصار لآخر من قومه يتهم بالنفاق : ويحك قد ترى ما دعا النبي صلى الله عليه وسلم فأمطر الله علينا السماء فقال : إنما مطرنا بنوء كذا وكذا ، فأنزل الله ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ .

(86/745)

وأخرج أحمد وابن منيع وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والخرائطي في مساوىء الأخلاق وابن مردويه والضياء في المختارة عن عليّ رضي الله عنه " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ قال : شكركم تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا ، وبنجم كذا وكذا " .

وأخرج ابن جرير عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما مطر قوم من ليلة إلا أصبح قوم بها كافرين ، ثم قال : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ يقول قائل : مطرنا بنجم كذا وكذا " .

وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن عائشة رضي الله عنها قالت : مطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر ، قالوا هذه رحمة وضعها الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا فنزلت

هذه الآية ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ حتى بلغ ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ ".

وأخرج أبو عبيد في فضائله وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ قال : يعني الأنواء ، وما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافراً ، وكانوا يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فأنزل الله ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ .

وأخرج ابن مردويه قال : " ما فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن إلا آيات يسيرة قوله : ﴿ وتجعلون رزقكم ﴾ قال : شكركم " .

وأخرج ابن مردويه عن عليّ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ " وتجعلون شكركم " .

(87/745)

وأخرج ابن مردويه عن أبي عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه قال : قرأ عليّ رضي الله عنه الواقعات في الفجر ، فقال : " وتجعلون شكركم أنكم تكذبون " فلما انصرف قال : إني قد عرفت أنه سيقول قائل : لم قرأها هكذا ؟ إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقرؤها كذلك ، كانوا إذا مطروا قالوا : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فأنزل الله " وتجعلون شكركم أنكم إذ مطرتم تكذبون " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي عبد الرحمن رضي الله عنه قال : كان عليّ رضي الله عنه يقرأ " وتجعلون شكركم أنكم تكذبون " .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ فقال : أما الحسن فقال : بئس ما أخذ القوم لأنفسهم لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب ، قال : وذكر لنا أن الناس أمحلوا على عهد نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا يا نبي الله : لو استسقيت لنا ؟ فقال : عسى قوم إن سقوا أن يقولوا سقينا بنوء كذا وكذا ، فاستسقى نبي الله ، فمطروا ، فقال رجل : إنه قد كان بقي من الأنواء كذا وكذا ، فأنزل الله ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ قال : قولهم : في الأنواء مطرنا بنوء كذا وكذا ، فيقول : قولوا : هو من عند الله تعالى وهو رزقه .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ قال : الاستسقاء بالأنواء .

وأخرج عبد بن حميد عن عوف عن الحسن رضي الله عنه في قوله : ﴿ وتجعلون رزقكم

أنكم تكذبون ﴾ قال : تجعلون حظكم منه أنكم تكذبون ، قال عوف رضي الله عنه : وبلغني أن مشركي العرب كانوا إذا مطروا في الجاهلية قالوا مطرنا بنوء كذا وكذا .

(88/745)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والدارمي والنسائي وأبو يعلى وابن حبان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لو أمسك الله المطر عن الناس ثم أرسله لأصبحت طائفة كافرين ، قالوا : هذا بنوء الذبح يعني الدبران " .

وأخرج مالك وعبد الرزاق وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والبيهقي في الأسماء والصفات عن زيد بن خالد الجهني قال : " صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح زمن الحديبية في أثر سماء ، فلما أقبل علينا فقال : " ألم تسمعوا ما قال ربكم في هذه الآية : ما أنعمت على عبادي نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين . فأما من آمن بي وحمدني على سقياي فذلك الذي آمن بي ، وكفر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك الذي آمن بالكوكب وكفر بي " " .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال

يوماً لأصحابه : " هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : إنه يقول : إن الذين يقولون نسقى بنجم كذا وكذا فقد كفر بالله وآمن بذلك النجم ، والذين يقولون سقانا الله فقد آمن بالله وكفر بذلك النجم " .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن محيريز أن سليمان بن عبد الملك دعاه فقال : لو تعلمت علم النجوم فازددت إلى علمك ، فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أخوف ما أخاف على أمتي ثلاث : حيف الأئمة وتكذيب بالقدر وإيمان بالنجوم " .

وأخرج عبد بن حميد عن رجاء بن حيوة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "مما أخاف على أمتي التصديق بالنجوم والتكذيب بالقدر وظلم الأئمة " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن جابر السوائي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أخاف على أمتي ثلاثاً استسقاء بالأنواء وحيف السلطان وتكذيباً بالقدر " .

(89/745)

وأخرج أحمد عن معاوية الليثي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يكون الناس مجدبين ، فينزل الله عليهم رزقاً من رزقه فيصبحون مشركين ، قيل له : كيف

ذاك يا رسول الله ؟ قال : يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا " .

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله ليصبح القوم بالنعمة أو يمسيهم بها فيصبح بها قوم كافرين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : " وتجعلون شكركم " يقول : على ما أنزلت عليكم من الغيث والرحمة ، يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، وكان ذلك منهم كفراً بما أنعم الله عليهم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافراً يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما " وتجعلون شكركم أنكم تكذبون " .

وأخرج ابن جرير عن عطاء الخراساني رضي الله عنه في قوله : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ قال : كان ناس يمطرون فيقولون مطرنا بنوء كذا وكذا .

قوله تعالى : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ الآيات .

أخرج ابن ماجة عن أبي موسى رضي الله عنه قال : " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : متى تنقطع معرفة العبد من الناس قال : إذا عاين " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

احضروا موتاكم وذكروهم فإنهم يرون ما لا ترون .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأبو بكر المروزي في كتاب الجنائز عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : احضروا موتاكم ولقنوهم لا إله إلا الله فإنهم يرون ويقال لهم .

وأخرج سعيد بن منصور والمروزي عن عمر رضي الله عنه قال : لقنوا موتاكم لا إله إلا الله ، واعقلوا ما تسمعون من المطيعين منكم ، فإنه يجلي لهم أمور صادقة .

(90/745)

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت وأبو يعلى من طريق أبي يزيد الرقاشي عن تميم الداري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يقول الله لملك الموت : انطلق إلى وليي فائتني به فإني قد جربته بالسراء والضراء فوجدته حيث أحب ، فائتني به لأريحه من هموم الدنيا وغمومها . فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة معهم أكفان وحنوط من حنوط الجنة ومعهم ضبائر الريحان ، أصل الريحانة واحد وفي رأسها عشرون لوناً ، لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه ، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك الأذفر ، فيجلس ملك الموت عند رأسه ، وتحتوشه الملائكة ويضع كل ملك منهم يده على عضو من أعضائه ، ويبسط ذلك الحرير الأبيض والمسك الأذفر تحت ذقنه ، ويفتح له باب إلى الجنة ، فإن

نفسه لتعلل عنده ذلك بطرف الجنة مرة بأزواجها ومرة بكسوتها ومرة بثمارها ، كما يعلل الصبيّ أهله إذا بكى ، وإن أزواجه ليبتهشن عند ذلك ابتهاشاً ، وتنزو الروح نزواً ، ويقول ملك الموت : أخرجي أيتها الروح الطيبة إلى سدر مخضود وطلح ممدود وماء مسكوب ، وملك الموت أشد تلطفاً به من الوالدة بولدها ، يعرف أن ذلك الروح حبيب إلى ربه ، كريم على الله فهو يلتمس بلطفه تلك الروح رضا الله عنه ، فسلّ روحه كما تسل الشعرة من العجين ، وإن روحه لتخرج والملائكة حوله يقولون : ﴿ سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ [النحل : 32] وذلك قوله : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ﴾ [النحل : 32] قال : فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ، قال : روح من جهد الموت وروح يؤتى به عند خروج نفسه وجنة نعيم أمامه . فإذا قبض ملك الموت روحه يقول الروح للجسد : لقد كنت بي سريعاً إلى طاعة الله بطيئاً عن معصيته ، فهنيئاً لك اليوم فقد نجوت وأنجيت ، ويقول الجسد للروح : مثل ذلك ، وتبكي عليه بقاع الأرض التي كان يطيع الله عليها ، كل باب من السماء كان يصعد منه عمله

(91/745)

وينزل منه رزقه أربعين ليلة ، فإذا اقبضت الملائكة روحه أقامت الخمسمائة ملك عند جسده لا يقلبه بنو آدم لشق إلا قلبته الملائكة عليهم السلام قبلهم ، وعلته بأكفان قبل أكفانهم وحنوط قبل حنوطهم ، ويقوم من باب بيته إلى باب قبره صفان من الملائكة يستقبلونه بالاستغفار ، ويصيح إبليس عند ذلك صيحة يتصرع منها بعض أعظام جسده ، ويقول لجنوده : الويل لكم كيف خلص هذا العبد منكم ؟ فيقولون : إن هذا كان معصوماً . فإذا صعد ملك الموت بروحه إلى السماء يستقبله جبريل في سبعين ألفاً من الملائكة كلهم يأتيه من ربه ، فإذا انتهى ملك الموت إلى العرش خرت الورح ساجدة لربها ، فيقول الله لملك الموت : انطلق بروح عبدي فضعه ﴿ في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب ﴾ [الواقعة : 28] فإذا وضع في قبره جاءت الصلاة فكانت عن يمينه ، وجاء الصيام فكان عن يساره ، وجاء القرآن والذكر فكانا عند رأسه ، وجاء مشيه إلى الصلاة فكان عند رجليه ، وجاء الصبر فكان ناحية القبر ، ويبعث الله عتقاً من العذاب فيأتيه عن يمينه ، فتقول الصلاة : وراءك والله ما زال دائباً عمره كله وإنما استراح الآن حين وضع في قبره ، فيأتيه عن يساره فيقول الصيام مثل ذلك . ، فيأتيه من قبل رأسه فيقول له مثل ذلك ، فلا يأتيه العذاب من ناحية فيلتمس هل يجد لها مساغاً إلا وجد ولي الله قد أحرزته الطاعة ، فيخرج عنه العذاب عندما يرى ، ويقول الصبر لسائر الأعمال : أما إنه لم يمنعني أن أباشره بنفسي إلا أني نظرت ما عندكم ، فلو عجزتم كنت أنا صاحبه ،

فأما إذا أجزأتم عنه فأنا ذخر له عند الصراط وذخر له عند الميزان ، ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف وأصواتهما كالرعد القاصف وأنيابهما كالصياصي وأنفاسهما كاللهب يطآن في أشعارهما بين منكبي كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا ، قد نزعت منهما الرأفة والرحمة إلا بالمؤمنين ، يقال لهما : منكر ونكير ، وفي يد كل واحد منهما مطرقة لو اجتمع

(92/745)

عليها الثقلان لم يقلوها . فيقولان له : اجلس فيستوي جالساً في قبره فتسقط أكفانه في حقويه . فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول : ربي الله وحده لا شريك له ، والإِسلام ديني ، ومحمد نبي ، وهو خاتم النبيين . فيقولان له : صدقت ، فيدفعان القبر فيوسعانه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن يساره ومن قبل رأسه ومن قبل رجليه ، ثم يقولان له : أنظر فوقك ، فينظر ، فإذا هو مفتوح إلى الجنة ، فيقولان له : هذا منزلك يا وليّ الله ، لم أطعت الله فوالذي نفس محمد بيده إنه لتصل إلى قلبه فرحة لا ترتد أبداً ، فيقال له : أنظر تحتك فينظر تحته فإذا هو مفتوح إلى النار ، فيقولان : يا ولي الله نجوت من هذا فوالذي نفسي بيده إنه لتصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبداً ، ويفتح له سبعة وسبعون باباً إلى

الجنة يأتيه ريحها وبردها حتى يبعثه الله تعالى من قبره إلى الجنة وأما الكافر فيقول الله لملك الموت : ويفتح الله لملك الموت انطلق إلى عبدي فائتني به فإني قد بسطت له رزقي وسربلته نعمتي فأبى إلا معصيتي فأئتني به لأنتقم منه اليوم ، فينطلق إليه ملك الموت في أكره صورة رآها أحد من الناس قط ، له اثنتا عشرة عيناً ومعه سفود من النار كثير الشوك ، ومعه خمسمائة من الملائكة معهم نحاس وجمر من جمر جهنم ، ومعهم سياط من النار تأجج فيضربه ملك الموت بذلك السفود ضربة يغيب أصل كل شوكة من ذلك السفود في أصل كل شعرة وعرق من عروقه ، ثم يلويه ليّاً شديداً ، فينزع روحه من أظفار قدميه ، فيلقيها في عقبيه ، فيسكر عدوّ الله عند ذلك سكرة وتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط ، ثم كذلك إلى حقويه ، ثم كذلك إلى صدره ، ثم كذلك إلى حلقه ، ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذقنه ، ثم يقول ملك الموت : أخرجي أيتها النفس اللعينة الملعونة إلى ﴿ سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم ﴾ [الواقعة : 43] فإذا قبض ملك الموت روحه قالت الروح

(93/745)

للجسد : جزاك الله عني شرّاً فقد كنت بي سريعاً إلى معصية الله بطيئاً بي عن طاعة الله ، فقد هلكت وأهلكت ، ويقول الجسد للروح مثل ذلك ، وتلعنه بقاع الأرض التي كان يعصي الله تعالى عليها ، وتنطلق جنود إبليس إليه يبشرونه بأنهم قد أوردوا عبداً من بني آدم النار ، فإذا وضع في قبره ضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فتدخل اليمنى في اليسرى واليسرى في اليمنى ويبعث الله إليه حيات دهماء تأخذ بأرنبته وإبهام قدميه ، فتغوصه حتى تلتقي في وسطه ، ويبعث الله إليه الملكين فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ فيقول : لا أدري فيقال له : لا دريت ولا تليت ، فيضربانه ضربة يتطاير الشرار في قبره ، ثم يعود ، فيقولان له : انظر فوقك ، فينظر ، فإذا باب مفتوح إلى الجنة فيقولان له عدو الله لو كنت أطعت الله تعالى ، هذا منزلك فوالذي نفسي بيده إنه ليصل إلى قلبه حسرة لا ترتد أبداً ، ويفتح له باب إلى النار ، فيقال : عدوّ الله هذا منزلك لما عصيت الله ، ويفتح له سبعة وسبعون باباً إلى النار يأتيه حرها وسمومها حتى يبعثه من قبره يوم القيامة إلى النار ".

فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86)

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ غير مدينين ﴾ قال : غير محاسبين

وأخرج عبد حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله تعالى عنه ﴿ فلولا إن

كنتم غير مدينين ﴾ قال : غير محاسبين ﴿ ترجعونها ﴾ قال : النفس .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير رضي الله عنه والحسن وقتادة مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : ﴿ غير مدينين ﴾ قال : غير موقنين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن رضي الله عنه ﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين ﴾ قال : غير مبعوثين يوم القيامة .

(94/745)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع بن خيثم في قوله : ﴿ فأما إن كان من المقربين فروح وريحان ﴾ قال : هذا له عند الموت ﴿ وجنة نعيم ﴾ قال : تخبأ له الجنة إلى يوم يبعث ﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم ﴾ قال : هذا عند الموت ﴿ وتصلية جحيم ﴾ قال : تخبأ له الجحيم إلى يوم يبعث .

وأخرج أبو عبيد في فضائله وأحمد وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي والحكيم الترميذي في نوادر الأصول والحاكم وصححه وأبو

نعيم في الحلية وابن مردويه عن عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ فروح وريحان ﴾ برفع الراء .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : " قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الواقعة فلما بلغت ﴿ فروح وريحان ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فروح وريحان ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد عن عوف عن الحسن أنه كان يقرأها ﴿ فروح وريحان ﴾ برفع الراء .

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر عن قتادة أنه كان يقرأ ﴿ فروح ﴾ قال : رحمة ، قال : وكان الحسن يقرأ ﴿ فروح ﴾ يقول : راحة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فروح ﴾ قال : راحة ﴿ وريحان ﴾ قال : استراحة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : يعني بالريحان المستريح من الدنيا ﴿ وجنة نعيم ﴾ يقول : مغفرة ورحمة .

وأخرج مالك وأحمد وعبد بن حميد في مسنده والبخاري ومسلم والنسائي عن أبي قتادة قال : "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مرت جنازة فقال : مستريح ومستراح منه ، فقلنا يا رسول الله : ما المستريح وما المستراح منه ؟ قال : العبد المؤمن يستريح من

نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله سبحانه وتعالى ، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب " .

(95/745)

وأخرج القاسم بن مندة في كتاب الأحوال والإِيمان بالسؤال عن سلمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إن أول ما يبشر به المؤمن عند الوفاة بروح وريحان وجنة نعيم ، وإن أول ما يبشر به المؤمن في قبره أن يقال : أبشر برضا الله تعالى والجنة ، قدمت خير مقدم قد غفر الله لمن شيعك إلى قبرك وصدق من شهد لك واستجاب لمن استغفر لك " .

وأخرج هناد بن السري وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ فروح وريحان ﴾ قال : الروح الفرح ، والريحان الرزق .

وأخرج ابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي في قوله : ﴿ فروح وريحان ﴾ . قال : فرج من الغم الذي كانوا فيه ، واستراحة من العمل ، لا يصلون ولا يصومون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير الضحاك قال : الروح الاستراحة ، والريحان الرزق .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو القاسم بن منده في كتاب السؤال عن الحسن في قوله :

﴿ فروح وريحان ﴾ قال : ذاك في الآخرة فاستفهمه بعض القوم فقال : أما والله إنهم ليسرون بذلك عند الموت .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ فروح وريحان ﴾ قال : الريحان الرزق .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : الروح الرحمة ، والريحان هو هذا الريحان .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ فروح وريحان ﴾ قال : الروح الرحمة والريحان يتلقى به عند الموت .

وأخرج المروزي في الجنائز وابن جرير عن الحسن قال : تخرج روح المؤمن من جسده في ريحانة ، ثم قرأ ﴿ فأما إن كان من المقربين فروح وريحان ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذكر الموت وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي عمران الجوني في قوله : ﴿ فأما إن كان من المقربين فروح وريحان ﴾ قال : بلغني أن المؤمن إذا نزل به الموت تلقى بضبائر الريحان من الجنة فيجعل روحه فيها .

(96/745)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : لم يكن أحد من المقربين يفارق الدنيا حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيشمه ثم يقبض .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت عن بكر بن عبد الله قال : إذا أمر ملك الموت بقبض روح المؤمن أتى بريحان من الجنة ، فقيل له : اقبض روحه فيه ، وإذا أمر بقبض روح الكافر أتى ببجاد من النار فقيل له : أقبضه فيه .

وأخرج البزار وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن المؤمن إذا حضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر ريحان ، فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين ، ويقال : أيتها النفس الطيبة أخرجي راضية مرضيّاً عنك إلى روح الله وكرامته ، فإذا خرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة وذهب به إلى عليين ، وإن الكافر إذا حضر أتته الملائكة بمسح فيه جمر فتنزع روحه انتزاعاً شديداً ، ويقال : أيتها النفس الخبيثة أخرجي ساخطة مسخوطاً عليك إلى هوان الله وعذابه ، فإذا خرجت روحه وضعت على تلك الجمرة ، فإن لها نشيشاً ويطوى عليها المسح ويذهب به إلى سجين " .

وأخرج أبن أبي الدنيا في ذكر الموت عن إبراهيم النخعي قال : بلغنا أن المؤمن يستقبل عند موته بطيب من طيب الجنة ، وريحان من ريحان الجنة ، فتقبض روحه فتجعل في حرير الجنة ، ثم ينضح بذلك الطيب ، ويلف في الريحان ثم ترتقي به ملائكة الرحمة حتى يجعل في عليين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ فسلام لك من أصحاب اليمين

﴿ قال : تأتيه الملائكة بالسلام من قبل الله تسلم عليه وتخبره أنه من أصحاب اليمين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ قال : سلام من عذاب الله ، وسلمت عليه ملائكة الله .

(97/745)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم ﴾ قال : لا يخرج الكافر من دار الدنيا حتى يشرب كأساً من حميم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في الآية قال : من مات وهو يشرب الخمر شج في وجهه من جمر جهنم .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : " ﴿ فأما إن كان من المقربين فروح وريحان ﴾ قال : هذا في الدنيا ﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم ﴾ قال : هذا في الدنيا " .

وأخرج أحمد وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : حدثني فلان بن فلان سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره الله لقاءه ، فأكب القوم يبكون فقالوا : إنا نكره الموت ، قال : ليس ذاك ، ولكنه إذا

حضر ﴿ فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ﴾ فإذا بشر بذلك أحب لقاء الله والله للقائه أحب ﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم ﴾ فإذا بشر بذلك كره لقاء الله والله للقائه أكره " .

وأخرج آدم ابن أبي اياس عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : " تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ إلى قوله : ﴿ فروح وريحان وجنة نعيم ﴾ إلى قوله : ﴿ فنزل من حميم وتصلية جحيم ﴾ ثم قال : إذا كان عند الموت قيل له هذا فإن كان من أصحاب اليمين أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ، وإن كان من أصحاب الشمال كره لقاء الله وكره الله لقاءه " .

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(98/745)

" من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فقالت عائشة رضي الله عنها : إنا لنكره الموت ، فقال : ليس ذاك ، ولكن المؤمن إذا حضر الموت بشر برضوان الله وكرامته ، فليس شيء أحب إليه مما أمامه ، وأحب لقاء الله ، وأحب الله لقاءه ، وإن

الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه وكره لقاء الله وكره الله لقاءه " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من ميت يموت إلا وهو يعرف غاسله ويناشد حامله إن كان بخير ﴿ فروح وريحان وجنة نعيم ﴾ أن يعجله وإن كان بشر ﴿ فنزل من حميم وتصلية جحيم ﴾ أن يحبسه " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ إن هذا لهو حق اليقين ﴾ قال : ما قصصنا عليك في هذه السورة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ إن هذا لهو حق اليقين ﴾ قال : إن الله عز وجل ليس تاركاً أحداً من خلقه حتى يقفه على اليقين من هذا القرآن فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة ، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ إن هذا لهو حق اليقين ﴾ قال : الخبر اليقين .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مسروق رضي الله عنه قال : من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين ، ونبأ الدنيا والآخرة ، ونبأ الجنة والنار ، فليقرأ ﴿ إذا

وقعت الواقعة ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ قال : فصل لربك .

(99/745)

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وأبو داود وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال : " لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ قال : اجعلوها في ركوعكم ، ولما نزلت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ قال : اجعلوها في سجودكم " .

(100/745)

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " قالوا يا رسول الله كيف نقول في ركوعنا ؟ فأنزل الله الآية التي في آخر سورة الواقعة ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ فأمرنا أن نقول : سبحان ربي العظيم وتراً . قال ابن مردويه : حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم

الشافعي ، أنبأنا الحسين بن عبد الله بن يزيد ، أنبأنا محمد بن عبد الله بن سابور ، أنبأنا الحكم بن ظهير عن السدي عن أبي مالك ، أو عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ قال : الساعة ليس لوقعتها كاذبة يقول : من كذب بها في الدنيا فإنه لا يكذب بها في الآخرة إذا وقعت ﴿ خافضة رافعة ﴾ قال : القيامة خافضة ، يقول : خفضت فأسمعت الأذنين ، ورفعت فأسمعت الأقصى ، كان القريب والبعيد فيها سواء ، قال : وخفضت أقواماً قد كانوا في الدنيا مرتفعين ، ورفعت أقواماً حتى جعلتهم في أعلى عليين ﴿ إذا رجت الأرض رجّاً ﴾ قال : هي الزلزلة ﴿ وبست الجبال بسّاً ﴾ ﴿ فكانت هباء منبثّاً ﴾ قال : الحكم والسدي قال : على هذا الهرج هرج الدواب الذي يحرك الغبار ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ قال : العباد يوم القيامة على ثلاثة منازل ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴾ هم : الجمهور جماعة أهل الجنة ﴿ وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ﴾ هم أصحاب الشمال يقول : ما لهم وما أعد لهم ﴿ والسابقون السابقون ﴾ هم مثل النبيين والصديقين والشهداء بالأعمال من الأولين والآخرين ﴿ أولئك المقربون ﴾ قال : هم أقرب الناس من دار الرحمن من بطنان الجنة وبطنانها وسطها في جنات النعيم ﴿ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين على سرر موضونة ﴾ قال : الموضونة الموصولة بالذهب المكللة بالجوهر والياقوت ﴿ متكئين عليها متقابلين ﴾ قال ابن عباس : ما ينظر الرجل منهم في قفا صاحبه ، يقول : حلقاً حلقاً ﴿

يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ قال : خلقهم الله في الجنة كما خلق الحور العين لا يموتون لا يشيبون ولا يهرمون ﴾

(101/745)

بأكواب وأباريق ﴾ والأكواب التي ليس لها آذان مثل الصواع والأباريق التي لها الخراطم والأعناق ﴿ وكأس من معين ﴾ قال : الكأس من الخمر بعينها ولا يكون كأس حتى يكون فيها الخمر ، فإذا لم يكن فيها خمر فإنما هو إناء والمعين يقول : من خمر جار ﴿ لا يصدعون عنها ﴾ عن الخمر ﴿ ولا ينزفون ﴾ لا تذهب بعقولهم ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ﴾ يقول : مما يشتهون يقول : يجيئهم الطير حتى يقع فيبسط جناحه فيأكلون منه ما اشتهوا نضجاً لم تنضجه النار ، حتى إذا شبعوا منه طار فذهب كما كان ﴿ وحور عين ﴾ قال : الحور البيض ، والعين العظام الأعين حسان ﴿ كأمثال اللؤلؤ ﴾ قال : كبياض اللؤلؤ التي لم تمسه الأيدي ولا الدهر المكنون الذي في الأصداف ، ثم قال ﴿ جزاء بما كانوا يعملون لا يسمعون فيها لغواً ﴾ قال : اللغو الحلف لا والله ، وبلى والله ﴿ ولا تأثيماً ﴾ قال : قال لا يموتون ﴿ إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ يقول : التسليم منهم وعليهم ، بعضهم على بعض قال : هؤلاء المقربون ، ثم قال ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾ وما أعد لهم ﴿ في

سدر مخضود ﴾ والمخضود الموقر الذي لا شوك فيه ﴿ وطلح منضود وظل ممدود ﴾ يقول : ظل الجنة لا ينقطع ممدود عليهم أبداً ﴿ وماء مسكوب ﴾ يقول : مصبوب ﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ قال : لا تنقطع حيناً وتجيء حيناً مثل فاكهة الدنيا ، ولا ممنوعة كما تمنع في الدنيا إلا بثمن ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ يقول : بعضها فوق بعض ثم قال ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ قال : هؤلاء نساء أهل الجنة وهؤلاء العجز الرمص يقول : خلقهم خلقاً ﴿ فجعلناهن أبكاراً ﴾ يقول : عذارى ﴿ عرباً أتراباً ﴾ والعرب المتحببات إلى أزواجهن ، والأتراب المصطحبات اللاتي لا تغرن ﴿ لأصحاب اليمين ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ يقول : طائفة من الأولين وطائفة من الآخرين ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ﴾ ما لهم وما أعد لهم ﴿ في سموم ﴾ قال : فيح نار جهنم ﴿ وحميم ﴾ الماء

(102/745)

الجار الذي قد انتهى حره ، فليس فوقه حر ﴿ وظل من يحموم ﴾ قال : من دخان جهنم ﴿ لا بارد ولا كريم ﴾ إنهم كانوا قبل ذلك مترفين قال : مشركين جبارين ﴿ وكانوا يصرون ﴾ يقيمون ﴿ على الحنث العظيم ﴾ قال : على الإِثم العظيم ، قال : هو الشرك

﴿ وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً ﴾ إلى قوله ﴿ أو آباؤنا الأوّلون ﴾ قال : قل يا محمد إن الأولين والآخرين لمجموعون ﴿ إلى ميقات يوم معلوم ﴾ قال : يوم القيامة ﴿ ثم إنكم أيها الضالون ﴾ قال : المشركون المكذبون ﴿ لآكلون من شجر من زقوم ﴾ قال : والزقوم إذا أكلوا منه خصبوا والزقوم شجرة ﴿ فمالئون منها البطون ﴾ قال : يملأون من الزقوم بطونهم ﴿ فشاربون عليه من الحميم ﴾ يقول : على الزقوم الحميم ﴿ فشاربون شرب الهيم ﴾ هي الرمال لو مطرت عليها السماء أبداً لم ير فيها مستنقع ﴿ هذا نزلهم يوم الدين ﴾ كرامة يوم الحساب ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ﴾ يقول : أفلا تصدقون ﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾ يقول : هذا ماء الرجل ﴿ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ في المتعجل والمتأخر ﴿ وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم ﴾ فيقول : نذهب بكم ونجيء بغيركم ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ يقول : نخلقكم فيها لا تعلمون ، إن نشأ خلقناكم قردة وإن نشأ خلقناكم خنازير ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ يقول : فهلا تذكرون ، ثم قال ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ يقول : ما تزرعون ﴿ أم نحن الزارعون ﴾ يقول : أليس نحن الذي ننبته أم أنتم المنبتون ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون ﴾ يقول : تندمون ﴿ إنا لمغرمون ﴾ يقول : إنا لمواريه ﴿ بل نحن محرومون أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن ﴾ يقول : من السحاب ﴿ أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ يقول : مرّاً ﴿ فلولا تشكرون ﴾ يقول :

فهلا تشكرون ﴿ أفرأيتم النار التي تورون ﴾ يقول : تقدحون ﴿ أأنتم أنشأتم ﴾ يقول : خلقتم ﴾

(103/745)

شجرتها أم نحن المنشئون ﴾ قال : وهي من كل شجرة إلا في العناب وتكون في الحجارة ﴿ نحن جعلناها تذكرة ﴾ يقول : يتذكر بها نار الآخرة العليا ﴿ ومتاعاً للمقوين ﴾ قال : والمقوي هو الذي لا يجد ناراً فيخرج زنده فيستنور ناره فهي متاع له ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ يقول : فصل لربك العظيم ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ قال : أتى ابن عباس علبة بن الأسود ، أو نافع بن الحكم فقال له : يا ابن عباس إني أقرأ آيات من كتاب الله أخشى أن يكون قد دخلني منها شيء .

(104/745)

قال ابن عباس : ولم ذلك ؟ قال : لأني أسمع الله يقول : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ [القدر : 2] ويقول : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ﴾ [الدخان : 3] ويقول

في آية أخرى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ [البقرة : 185] وقد نزل في الشهور كلها شوال وغيره . قال ابن عباس : ويلك إن جملة القرآن أنزل من السماء في ليلة القدر إلى ﴿ بمواقع النجوم ﴾ يقول : إلى سماء الدنيا فنزل به جبريل في ليلة منه وهي ليلة القدر المباركة ، وفي رمضان ، ثم نزل به على محمد صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة الآية والآيتين والأكثر ، فذلك قوله : ﴿ لا أقسم ﴾ يقول : أقسم ﴿ بمواقع النجوم ﴾ ﴿ وإنه لقسم ﴾ والقسم قسم وقوله ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ وهم السفرة والسفرة هم الكتبة ، ثم قال ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ﴾ يقول : تولون أهل الشرك وتجعلون رزقكم قال ابن عباس رضي الله عنهما : سافر النبي صلى الله عليه وسلم في حر ، فعطش الناس عطشاً شديداً حتى كادت أعناقهم أن تنقطع من العطش ، فذكر ذلك له قالوا : يا رسول الله لو دعوت الله فسقانا ، قال لعلّي إن دعوت الله فسقاكم لقلتم هذا بنوء كذا وكذا قالوا : يا رسول الله ما هذا بحين أنواء ، ذهبت حين الأنواء ، فدعا بماء في مطهرة فتوضأ ثم ركع ركعتين ، ثم دعا الله فهبت رياح وهاج سحاب ، ثم أرسلت فمطروا حتى سال الوادي ، فشربوا وسقوا دوابهم ، ثم مر النبي صلى الله عليه وسلم برجل وهو يغترف بقعب معه من الوادي وهو يقول : نوء كذا وكذا سقطت الغداة ، قال : نزلت هذه الآية ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ يقول : النفس ﴿ وأنتم حينئذ تنظرون ﴾ ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ يقول : الملائكة

﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ يقول : لا تبصرون الملائكة ﴿ فلولا ﴾ يقول : هلا ﴿ إن كنتم غير مدينين ﴾ غير محاسبين ﴿ ترجعونها ﴾ يقول : إن ترجعوا النفس ﴿ إن كنتم صادقين

(105/745)

فأما إن كان من المقربين ﴾ مثل النبيين والصديقين والشهداء بالأعمال ﴿ فروح ﴾ الفرح مثل قوله : ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ [يوسف : 87] ﴿ وريحان ﴾ الرزق قال ابن عباس : لا تخرج روح المؤمن من بدنه حتى يأكل من ثمار الجنة قبل موته ﴿ وجنة نعيم ﴾ يقول : حققت له الجنة والآخرة ﴿ وأما إن كان من أصحاب اليمين ﴾ يقول : جمهور أهل الجنة ﴿ فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين ﴾ وهم المشركون ﴿ فنزل من حميم ﴾ قال : ابن عباس رضي الله عنهما لا يخرج الكافر من بيته في الدنيا حتى يسقى كأساً من حميم ﴿ وتصلية جحيم ﴾ يقول : في الآخرة ﴿ إن هذا لهو حق اليقين ﴾ يقول : هذا القول الذي قصصنا عليك لهو حق اليقين يقول القرآن الصادق ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 20 . 44 ﴾

(106/745)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾

يعني : قامت القيامة ، وإنما سميت القيامة ﴿ الواقعة ﴾ لثبوتها ، وهي النفخة الآخرة .

وقال قتادة : هي الصيحة أسمعت القريب ، والبعيد ، ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ يعني : ليس لها مثوبة ، ولا ارتداد .

ويقال : ليس لقيامها تكذيب .

ثم وصف القيامة فقال : ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ يعني : خفضت أقواماً بأعمالهم ، فأدخلتهم النار ، ورفعت أقواماً بأعمالهم ، فأدخلتهم الجنة .

وقال قتادة في قوله : ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ يعني : خفضت أقواماً في عذاب الله ، ورفعت أقواماً في كرامات الله .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأرض رَجّاً ﴾ يعني : زلزلت الأرض زلزلة ، وحركت تحريكاً شديداً ، لا تسكن حتى تلقي جميع ما في بطنها على ظهرها .

ثم قال : ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ يعني : فتتت الجبال فتاً .

ويقال : قُلِعت الجبال قَلْعاً .

ويقال : كُسِرت الجبال كسراً .

﴿ فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً ﴾ يعني : تراباً وهو ما يسطع من سنابك الخيل .

ويقال : الغبار الذي في شعاع الكوة .

وقال القتبي : ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ يعني : فتتت حتى صارت كالدقيق ، والسويق المبثوث .

ثم وصف حال الخلق في يوم القيامة وأخبر أنهم ثلاثة أصناف .

اثنان في الجنة ، وواحدة في النار .

ثم نعت كل صنف من الثلاثة على حدة ، فقال : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثلاثة ﴾ يعني : تكونون يوم القيامة ثلاثة أصناف ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ يعني : الذين يعطون كتابهم بأيمانهم ﴿ مَا أصحاب الميمنة ﴾ يعني : ما تدري ما لأَصْحاب الميمنة من الخير ، والكرامات : ﴿ وأصحاب المشئمة ﴾ يعني : الذين يعطون كتابهم بشمالهم ﴿ مَا أصحاب المشئمة ﴾ يعني : ما تدري ما لأصحاب المشئمة من الشرب ، والعذاب .

(107/745)

ويقال : ﴿ الميمنة مَا ﴾ يعني : الذين كانوا يوم الميثاق على يمين آدم عليه السلام ، ويقال : على يمين العرش ﴿ وأصحاب المشئمة ﴾ الذين كانوا على شمال آدم عليه السلام .

ويقال : على شمال العرش .

ويقال : ﴿ الميمنة مَا ﴾ الذين يكونون يوم القيامة على يمين العرش ، ويأخذون طريق الجنة ﴿ وأصحاب المشئمة ﴾ الذين يأخذون طريق الشمال ، فيفضي بهم إلى النار .

ثم قال عز وجل : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ يعني : السابقين إلى الإيمان ، والجهاد ، والطاعات ﴿ السابقون ﴾ يعني : هم السَّابِقُونَ إلى الجنة .

فذكر الأصناف الثلاثة .

أحدها أصحاب اليمين ، الثاني أصحاب الشمال ، والثالث السابقون .

ثم وصف كل صنف منهم بصفة ، فبدأ بصفة السابقين فقال : ﴿ أُوْلَئِكَ المقربون ﴾ يعني : المقربين عند الله في الدرجات ﴿ فِي جنات النعيم ﴾ يعني : في جنات عدن ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الاولين وَقَلِيلٌ مِّنَ الاخرين ﴾ يعني : إن السابقين تكون جماعة من الأولين .

يعني : من أول هذه الأمة مثل الصحابة ، والتابعين ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الاخرين ﴾ يعني : إن السابقين في آخر هذه الأمة يكون قليلاً .

وقال بعضهم : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الاولين ﴾ يعني جميعاً من الأمم الخالية ، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الاخرين ﴾ يعني : من هذه الأمة .

فحزن المسلمون بذلك حتى نزلت ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الاولين وَثُلَّةٌ مِّنَ الاخرين ﴾ فطابت أنفسهم .

والطريق الأول أصح .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كِلْتَا الثُّلَّتَيْنِ مِنْ أُمَّتِي " .

وروي عن عبد الله بن يزيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أَهْلَ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةَ صِنْفٍ هذه الأُمَّةِ مِنْهَا ثَمَانُونَ صِنْفاً " .

ثم قال : ﴿ على سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ يعني : إن السابقين في الجنة على سرر منسوجة بالدر والياقوت .

وقال مجاهد : ﴿ مَّوْضُونَةٍ ﴾ بالذهب .

وقال القتبي : ﴿ مَّوْضُونَةٍ ﴾ أي : منسوجة .

(108/745)

كأن بعضها أدخل في بعض ، أو نضد بعضها على بعض ، ومنه قيل للدرع ﴿ مَّوْضُونَةٍ ﴾ .

ثم قال : ﴿ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا متقابلين ﴾ يعني : ناعمين على سرر متقابلين في الزيادة .

وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ : ﴿ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا ﴾ ناعمين .

وقال مجاهد : ﴿ متقابلين ﴾ يعني : لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض .

ثم قال عز وجل : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : في الخدمة ﴿ ولدان مُّخَلَّدُونَ ﴾ يعني : غلماناً خلدوا في الجنة .

ويقال : على سن واحد لا يتغيرون ، لأنهم خلقوا للبقاء و من خلق للبقاء ، لا يتغير .

ويقال : ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ يعني : لا يكبرون .

ويقال : هم أولاد الكفار لم يكن لهم ذنب يعذبون ، ولا طاعة يثابون ، فيكونون خداماً لأهل الجنة .

قوله تعالى : ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾ هي التي لها عرى .

ثم قال : ﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ يعني : خمراً بيضاء من نهر جار ﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ يعني : لا يصدع رؤوسهم بشرب الخمر في الآخرة ﴿ وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ يعني : لا تذهب عقولهم ، ولا ينفد شرابهم .

ثم قال : ﴿ وفاكهة مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ يعني : ما يتمنون ، ويختارون من ألوان الفاكهة ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ يعني : إن شاء مشويّاً ، وإن شاء مطبوخاً .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي ﴿ وَحُورٍ عِينٍ ﴾ بالكسر عطفاً على قوله : ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾ والباقون ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ بالضم .

ومعناها : ولهم حور عين ، والحور : البيض ، والعين : الحسان الأعين ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ يعني : اللؤلؤ الذي في الصدف ، لم تمسه الأيدي ، ولم تره الأعين ، ﴿ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ يعني : هذه الجنة مع هذه الكرامات ، ثواباً لأعمالهم .

(109/745)

ثم قال : ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾ يعني : في الجنة حلفاً ، وكذباً ، ﴿ وَلاَ تَأْثِيماً ﴾ يعني : كلاماً فيها عند الشرب كما يكون في الدنيا ويقال ولا تأثيماً يعني : ولا إثم عليهم فيما شربوا ﴿ إِلاَّ قِيلاً سلاما سلاما ﴾ يعني : إلا قولاً وكلاماً يسلم بعضهم على بعض ، ويبعث الله تعالى إليهم الملائكة بالسلام ، فهذا كله نعت السابقين .

ثم ذكر الصنف الثاني فقال : ﴿ وأصحاب اليمين مَا أصحاب اليمين ﴾ يعني : ما لأصحاب اليمين من الخير ، والكرامة ، على وجه التعجب .

ثم وصف حالهم فقال : ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ يعني : لا شوك له كالدر الذي يكون في الدنيا .

وقال قتادة : ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ يعني : كثير الحمل .

أي : ليس له شوك .

وقال القتبي : كأنه نضد شوكه .

يعني : قطع .

وروي في الخبر : أنه لما نزل ذكر السدر ، قال أهل الطائف : إنها سِدْرنا هذا .

فنزل ﴿ مَّخْضُودٍ ﴾ يعني : موقر بلا شوك .

ثم قال : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ وقال مقاتل : يعني : الموز المتراكم بعضه على بعض .

وقال قتادة : هو الموز ، وهذا روي عن ابن عباس .

والمنضود الذي نضد بالحمل من أوله إلى آخره .

ويروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قرأ : ﴿ سِجّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ يعني : دائماً لا يزول .

وروي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال : في الجنة شجرة يسير الراكب ، في ظلها مائة عام ، ما يقطعها اقرؤوا إن شئتم ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَمَاء مَّسْكُوبٍ ﴾ يعني : منصباً كثيراً .

(110/745)

ويقال : يعني منصباً من ساق العرش ﴿ وفاكهة كَثِيرَةٍ ﴾ يعني : الفاكهة كثيرة ﴿ لاَّ مَقْطُوعَةٍ ﴾ يعني : ﴿ لاَّ مَقْطُوعَةٍ ﴾ يعني : لا تنقطع عنهم في حين كما يكون في فواكه الدنيا ، بل توجد في جميع الأوقات ﴿ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ يعني : لا تمنع منهم ، والممنوعة أن ينظر إليها ، ولا يقدر أن يأكلها كأشجار الدنيا .

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ بعضها فوق بعض مرتفعة .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّا أنشأناهن إِنشَاء ﴾ يعني : الجواري ، والزوجات .

يقال : نساء الدنيا خلقناهن خلقاً بعد خلق الدنيا .

ويقال : إنهن أفضل ، وأحسن من حور الجنة ، لأنهن عملن في الدنيا ، والحور لم يعملن .

وعن أنس بن مالك ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّا أنشأناهن إِنشَاء ﴾ قال : " إِنَّ مِنَ المُنْشِآتِ الَّتِي كُنَّ فِي الدُّنْيَا عَجائِزَ عُمْشاً رُمْصاً زُمْناً " .

ثم قال : ﴿ فجعلناهن أبكارا ﴾ يعني : خلقناهن أبكاراً عذارى .

﴿ عُرُباً ﴾ يعني : محبات ، عاشقات ، لأزواجهن ، لا يردن غيرهم قرأ حمزة ، وعاصم ، في إحدى الروايتين ﴿ عُرُباً ﴾ بجزم الراء .

والباقون بالضم .

ومعناهما واحد .

وقال أبو عبيد : نقرأ بالضم لأنها أقيس في العربية ، لأن واحدتها عَرُوب ، وجمعها عرب ،

مثل صَبُور وصُبُر ، وشكور وشكر .

ثم قال :

﴿ أَتْرَابًا ﴾ يعني : مستويات في السن ، كأنهن على ميلاد واحد ، بنات ثلاث وثلاثين .

وروي عن عكرمة أنه قال : أهل الجنة ميلاد ثلاثين سنة ، رجالهم ونساؤهم ، قامة أحدهم ستون ذراعاً على قامة أبيهم آدم عليه السلام ، شباب جرد مكمولون ، أحسنهم يرى كالقمر ليلة البدر ، وآخرهم كالكوكب الدري في السماء ، يبصر وجهه في وجهها ، وكبده في كبدها ، وفي مخ ساقها ، وتبصر هي وجهها في وجهه ، وفي كبده وفي مخ ساقه ، ولا يبزقون ، ولا يتمخطون ، وما كان فوق ذلك من الأذى فهو أبعد ، ﴿ لاصحاب اليمين ﴾ يعني : هذا الذي ذكر كرامة لأصحاب اليمين .

(111/745)

ثم قال عز وجل : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الاولين وَثُلَّةٌ مِّنَ الاخرين ﴾ يعني : جماعة من أول هذه الأمة ، وجماعة من الآخرين .

فذكر في السابقين أنهم جماعة من الأولين ، وقليل من الآخرين ، لأن السابق في أخر الأمة قليل ، وأما أصحاب اليمين يكون جماعة من أول الأمة ، وجماعة من آخر الأمة .

ثم ذكر الصنف الثالث فقال : ﴿ وأصحاب الشمال مَا أصحاب الشمال ﴾ يعني : ما لأصحاب الشمال من شدة ، وشر ، وهوان .

ثم وصف حالهم فقال : ﴿ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ والسموم : الزمهرير يقطع الوجوه وسائر الجسوم .

ويقال : السموم : النار الموقدة .

والحميم : الماء الحار الشديد ، ﴿ وَظِلّ مّن يَحْمُومٍ ﴾ واليحموم الدخان يعني : دخان جهنم أسود ﴿ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ يعني : ﴿ لاَّ بَارِدٍ ﴾ شرابهم ﴿ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ منقلبهم .

ثم بين أعمالهم التي استحقوا بها العقوبة بأعمالهم الباطلة فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ يعني : كانوا في الدنيا متكبرين في ترك أمر الله تعالى .

ويقال : كانوا مشركين ﴿ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى الحنث العظيم ﴾ يعني : يثبتون على الذنب العظيم ، وهو الشرك .

وإنما سمّي الشرك حنثاً ، لأنهم كانوا يحلفون بالله ، لا يبعث الله من يموت ، وكانوا يصرون على ذلك .

وقال القتبي : ﴿ الحنث العظيم ﴾ اليمين الغموس .

وقال مجاهد : الذنب العظيم .

وقال ابن عباس : ﴿ الحنث العظيم ﴾ هو الشرك ﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ ﴾ مع شركهم ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ يعني : بعدما صرنا تراباً ، وعظاماً بالية ، صرنا أحياء بعد الموت ﴿ وَءَابَاؤُنَا الاولون ﴾ الذين : مضوا قبلنا ، وصاروا تراباً .

(112/745)

قال الله تعالى : قل يا محمد ﴿ قُلْ إِنَّ الاولين والاخرين ﴾ يعني : الأمم الخالية ﴿ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ وهذه الأمة لمجموعة ﴿ إلى ميقات يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ في يوم القيامة يجتمعون فيه ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضالون المكذبون ﴾ بالبعث ﴿ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ يعني : يملؤون من طلعها البطون ، ﴿ فشاربون عَلَيْهِ مِنَ الحميم ﴾ يعني : على إثره يشربون من الحميم ﴿ فشاربون شُرْبَ الهيم ﴾ يعني : كشرب الهيم ، وهي الإبل التي يصيبها داء ، فلا تروى من الشراب .

ويقال : الأرض التي أصابتها الشمس وهي أرض سهلة من الرملة .

قرأ نافع ، وعاصم ، وحمزة ﴿ شُرْبَ الهيم ﴾ بضم الشين .

والباقون : بالنصب .

فمن قرأ بالضم ، فهو اسم .

ومن قرأ : بالنصب ، فهو المصدر .

ويقال : كلاهما مصدر شربت .

ثم قال : ﴿ هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدين ﴾ يعني : جزاءهم يوم الجزاء .

ويقال : معناه هو الذي ذكرناه من الزقوم والشراب طعامهم وشربهم يوم الحساب .

ثم قال : ﴿ نَحْنُ خلقناكم ﴾ يعني : خلقناكم ، ولم تكونوا شيئاً ، وأنتم تعلمون ﴿ فَلَوْلاَ تُصَدّقُونَ ﴾ يعني : أفلا تصدقون بالبعث وبالرسل .

ثم أخبر عن صنعه ليعتبروا فقال : ﴿ أَفَرَءَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ ﴾ يعني : ما خرج منكم من النطفة ، ويقع في الأرحام ﴿ تَخْلُقُونَهُ أَم ﴾ يعني : منه بشراً في بطون النساء ذكراً أو أنثى ﴿ أَم نَحْنُ الخالقون ﴾ يعني : بل نحن نخلقه ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت ﴾ يعني : نحن قسمنا بينكم الآجال ، فمنكم من يموت صغيراً ، ومنكم من يموت شاباً ، ومنكم من يموت شيخاً .

قرأ ابن كثير : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا ﴾ بالتخفيف وقرأ الباقون : ﴿ قَدَّرْنَآ ﴾ بالتشديد ، ومعناهما واحد لأن التشديد للتكثير .

(113/745)

ثم قال : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ على أَن نُّبَدِّلَ أمثالكم ﴾ يعني : وما نحن بعاجزين إن أردنا أن نأتي بخلق مثلكم ، وأمثل منكم ، وأطوع لله تعالى : ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني : ونخلقكم سوى خلقكم من الصور فيما لا تعلمون من الصور ، مثل القردة ، والخنازير .

ويقال : وما نحن بعاجزين على أن نرد أرواحكم إلى أجسامكم بعد الموت .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة الاولى ﴾ يعني : علمتم ابتداء خلقكم إذ خلقناكم في بطون أمهاتكم ، ثم أنكرتم البعث ﴿ فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ يعني : فهل لا تتعظون ، وتعتبرون بالخلق الأول ، أنه قادر على أن يبعثكم كما خلقكم أول مرة ، ولم تكونوا شيئاً .

ثم قال : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ يعني : فهل لا تعتبرون بالزرع الذي تزرعونه في الأرض ﴿ ءأَنتُم تَزْرَعُونَهُ ﴾ يعني : تنبتونه ﴿ أَمْ نَحْنُ الزرعون ﴾ يعني : أم نحن المنبتون .

يعني : بل الله تعالى أنبته ﴿ لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حطاما ﴾ يعني : يابساً ، هالكاً ، بعدما بلغ ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ يعني : فصرتم تندمون .

ويقال : يعني : تتعجبون من يبسه بعد خضرته ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ يعني : معذبون ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ يعني : حرمنا منفعة زرعنا .

قرأ عاصم في رواية أبي بكر : ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ بهمزتين على الاستفهام وقرأ الباقون : بهمزة واحدة على معنى الخبر .

ثم قال : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ الماء الذى تَشْرَبُونَ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ ﴾ يعني : من السماء ﴿ أَمْ نَحْنُ المنزلون ﴾ يعني : بل نحن المنزلون عليكم ﴿ لَوْ نَشَاء جعلناه أُجَاجاً ﴾ يعني : مرّاً ، مالحاً ، لا تقدرون على شربه ﴿ فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴾ يعني : هلا تشكرون رب هذه النعمة ، وتوحدونه حين سقاكم ماء عذباً .

(114/745)

ثم قال عز وجل : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ النار التى تُورُونَ ﴾ يعني : تقدحون ، والعرب تقدح بالزند والزند خشبة يحك بعضه على بعض ، فيخرج منه النار ﴿ ءأَنتُم أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا ﴾ يعني : خلقتم شجرها ﴿ أَمْ نَحْنُ المنشئون ﴾ يعني : الخالقون .

يعني : الله أنشأها ، وخلقها لمنفعة الخلق ، ﴿ نَحْنُ جعلناها تَذْكِرَةً ﴾ يعني : النار موعظة وعبرة في الدنيا من نار جهنم .

وقال مجاهد : ﴿ نَحْنُ جعلناها تَذْكِرَةً ﴾ يعني : النار الصغرى للنار الكبرى ﴿ ومتاعا لّلْمُقْوِينَ ﴾ يعني : منفعة لمن كان ساخراً .

وقال قتادة : المقوي الذي قد فني زاده .

وقال الزجاج : المقوي الذي قد نزل بالقوى ، وهي الأرض الخالية .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ العظيم ﴾ يعني : اذكر التوحيد باسم ربك يا محمد صلى الله عليه وسلم الرب العظيم .

ويقال : صل بأمر ربك .

ويقال : سبح لله ، واذكره .

قوله عز وجل : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ قال بعضهم : يعني : أقسم و (لا) زيادة في الكلام .

وقال بعضهم : ﴿ لا ﴾ رد لقول الكفار .

ثم قال : ﴿ بمواقع النجوم ﴾ يعني : بنزول القرآن ، نزل نجوماً آية بعد آية ، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ﴿ بمواقع النجوم ﴾ يعني : بحكم القرآن ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ يعني : القسم بالقرآن عظيم ﴿ لَّوْ تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

ويقال : ﴿ لَّوْ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني : لو تصدقون ذلك .

قرأ حمزة ، والكسائي : ﴿ بمواقع النجوم ﴾ بغير ألف .

وقرأ الباقون : ﴿ بمواقع النجوم ﴾ بلفظ الجماعة .

فمن قرأ : ﴿ بمواقع ﴾ فهو واحد دل على الجماعة .

ويقال : ﴿ بمواقع النجوم ﴾ يعني : بمساقط النجوم .

يعني : الكواكب .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ يعني : الذي يقرأ عليك يا محمد ، لقرآن شريف ، كريم على ربه ، ﴿ فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ يعني : مستور من خلق الله ، وهو اللوح المحفوظ ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ يعني : اللوح المحفوظ .

ويقال : لا تمسه إلا الملائكة المطهرون من الذنب ، ولا يقرؤه إلا الطاهرون .

ويقال : لا يمس المصحف إلا الطاهر .

وروى معمر ، عن محمد بن عبد الله بن أبي بكر ، عن أبيه رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب كتاباً فيه " لاَ يُمَسُّ القُرْآنُ إِلاَّ عَلَى طُهُورٍ " .

وروى إبراهيم عن عبد الرحمن بن يزيد قال : "كنا مع سلمان فخرج ، يقضي حاجته ، ثم جاء ، فقلنا : يا عبد الله لو توضأت ، لعلنا نسألك عن آيات الله ؟ فقال : إني لست أمسه ، لأنه لا يمسه إلا المطهرون .

فقرأ علينا ما نسينا .

يعني : يجوز للمحدث أن يقرأ ، ولا يجوز أن يمس المصحف .

وأما الجنب لا يجوز له أن يمس المصحف ، ولا يقرأ آية تامة .

ثم قال : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ يعني : أنزل الله تعالى جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن يقرؤه عليه من رب العالمين .

ثم قال عز وجل : ﴿ أفبهذا الحديث أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴾ يعني : تكفرون .

وقال الزجاج : المدهن والمداهن : الكذاب المنافق .

وقال بعض أهل اللغة : أصله من الدهن ، لأنه يلين في دينه .

يعني : ينافق ، ويرى كل واحد أنه على دينه .

ويقال : ﴿ أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴾ يعني : مكذبون ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ يعني : شكر رِزْقكُمْ ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ يعني : تقولون للمطر إذا مطرتم مُطِرْنا بنوء كذا .

وروي عن عاصم في بعض الروايات : ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ بالتخفيف .

يعني : تجعلون شكر رزقكم الكذب ، وهو أن يقولوا : مُطِرنا بنوء كذا .

وقرأ الباقون : ﴿ تُكَذِّبُونَ ﴾ بالتشديد .

(116/745)

يعني : تجعلون شكر رزقكم التكذيب ، ولا تنسبون السقيا إلى الله تعالى الذي رزقكم .

ثم قال : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ يعني : بلغ الروح الحلقوم ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ إلى الميت ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ يعني : أمر الله تعالى وهو ملك الموت أقرب إليه منكم ، حين أتاه لقبض روحه ﴿ ولكن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾ ما حضر الميت ﴿ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ

غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ يعني : غير محاسبين .

ويقال : غير مملوكين ، أذلاء عن قولك : دِنْتُ له بالطاعة ، وإنما سمي ﴿ يَوْمِ الدين ﴾ لأنه يوم الإذلال ، والهوان .

ويقال : ﴿ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ يعني : غير مجزيين ﴿ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ يعني : إنكم غير محاسبين ، فهلا رددتم عنه الموت ؟

ثم ذكر الأصناف الثلاثة الذين ذكرهم في أول السورة فقال : ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المقربين ﴾ يعني : إذا كان هذا الميت من المقربين عند الله من السابقين ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ قرأ الحسن : ﴿ فَرُوحٌ ﴾ بضم الراء المهملة ، وقراءة العامة : بالنصب .

وقال أبو عبيد : لولا خلاف الأمة لقرأته بالضم .

وروت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قرأ : بالضم .

وقال القتبي : ﴿ الروح ﴾ يعبر عن معان .

(117/745)

فالروح روح الأجسام الذي يقبض عند الممات وفيه حياة النفس ، والروح جبريل ، وكلام الله روح ، لأنه حياة من الجهل ، وموت الكفر ، ورحمة الله روح كقوله ﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً

يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانوا ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إخوانهم أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أولئك كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإيمان وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا رَضِىَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أولئك حِزْبُ الله أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الله هُمُ المفلحون ﴾ [المجادلة: 22] أي: برحمة.

والروح: الرحمة، والرزق.

ويقال: ﴿ الروح ﴾ حياة دائمة لا موت فيها ﴿ والريحان ﴾ الرزق.

ويقال: هي النبات بعينها.

ومن قرأ: بالنصب.

فهو الفرح.

ويقال: الراحة.

ويقال: هي الرحمة.

ثم قال: ﴿ وَجَنَّةِ نَعِيمٍ ﴾ يعني: لا انقطاع ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أصحاب اليمين ﴾ يعني: إن كان الميت من أصحاب اليمين ﴿ فسلام لَّكَ مِنْ أصحاب اليمين ﴾ يعني: سلام الله لهم.

ويقال: يسلمون عليك من الجنة.

ويقال: سلام عليك منهم.

ويقال : ترى منهم ما تحب من السلام .

ويقال : ﴿ فسلامٌ لَّكَ ﴾ يعني : يقال له ثوابه عند الموت ، وفي القبر ، وعلى الصراط ، وعند الميزان ، بشارة لك إنك من أهل الجنة .

(118/745)

ثم قال عز وجل : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المكذبين ﴾ يعني : إن كان الميت ﴿ مِنَ المكذبين ﴾ بالبعث ﴿ الضالين ﴾ عن الهدى ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ يعني : جزاؤهم ، وثوابهم ، من حميم ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ يعني : يدخلون الجحيم وهي ما عظم من النار ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ يعني : إن هذا الذي قصصنا عليك في هذه السورة من الأقاصيص ، وما أعد الله لأوليائه وأعدائه ، وما ذكر مما يدل على وحدانيته ، ﴿ لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ يعني : اذكر اسم ربك بالتوحيد .

ويقال : نزه الله تعالى عن السوء .

يعني : قل سبحان الله .

ويقال : أثن على الله تعالى .

ويقال : صل لله تعالى .

وروي عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الوَاقِعَةِ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ " .

والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 369 . 378 ﴾

(119/745)

وقال الثعلبى :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾

أي إذا نزلت صبيحة القيامة وتلك النفخة الأخيرة ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ تكذيب ذكره سيبويه ، وهو اسم كالعافية والنازلة والعاقبة ، عن الفراء . قال الكسائي : هي بمعنى الكذب كقوله ﴿ لاَّ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ [الغاشية : 11] أي لغواً ، ومنه قول العامة : عائذ بالله أي معاذ الله ، وقم قائماً أي قياماً .

ولبعض نساء العرب ترقص إبنها :

قم قائماً قم قائماً . . . أصبت عبداً نائماً

﴿ خَافِضَةٌ ﴾ أي هي خافضة ﴿ رَّافِعَةٌ ﴾ تخفض قوماً إلى النار وترفع آخرين إلى الجنة .

وقال عكرمة والسدي ومقاتل : خفضت الصوت فأسمعت من دنا ورفعت الصوت فأسمعت من نأى يعني أنها أسمعت القريب والبعيد ، ورفعت قوماً كانوا مذللين فرفعتهم إلى أعلى عليين ووضعت قوماً كانوا في الدنيا مرتفعين فوضعتهم إلى أسفل سافلين .

بن عطاء : خفضت قوماً بالعدل ورفعت قوماً بالفضل .

﴿ إِذَا رُجَّتِ الأرض رَجّاً ﴾ أي رجفت وزلزلت وحُركت تحريكاً من قولهم : السهم يرتجّ في الغرض ، بمعنى يهتز ويضطرب .

قال الكلبي : وذلك أن الله عزّوجل إذا أوحى إليها إضطربت فرقاً .

وقال المفسرون : ترجّ كما يُرّج الصبي في المهد حتى ينهدم كل ما عليها ، وينكسر كل شيء عليها من الجبال وغيرها .

وأصل الرجّ في اللغة التحريك يقال : رججته فإرتجّ [فارتضى عنقه] ورجرجته فترجرج .

﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ أي حثّت حثّاً وفتت فتاً فصارت كالدقيق المبسوس ، وهو المبلول والبسبسة عند العرب الدقيق أو السويق يُلتّ ويتخذ زاداً .

وذكر عن لصَ من غطفان أنه أراد أن يخبز فخاف أن يعجّل عن الخبز فقال لا تخبزا خبزاً وبسّا بسّاً ولا تطيلا بمناخ حبساً .

وقال عطاء : أُذهبت إذهاباً قال سعيد بن المسيب والسدي : كسرت كسراً .

الكلبي : سيّرت عن وجه الأرض تسييراً . مجاهد : لتّت لتّاً .

الحسن : قلعت من أصلها فذهبت بعد ما كانت صخراً صماء : نظيرها ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴾ [طه : 105] .

عطية : بسطت بسطاً كالرمل والتراب .

ابن كيسان : جُعلت كثيباً مهيلا بعد أن كانت شامخة طويلة .

﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثّاً ﴾ قال ابن عباس : شعاع الشمس حين يدخل من الكوّة .

علي رضي الله عنه : رهج الدوابّ .

عطية : ما تطاير من شرر النار ، قتادة : حطام الشجر .

وقراءة العامة : ﴿ مُّنبَثّاً ﴾ بالثاء أي متفرقاً ، وقرأ النخعي بالتاء أي منقطعاً .

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ﴾ أصنافاً ﴿ ثَلاَثَةً ﴾ ثم بيّن من هُم فقال عز من قائل : ﴿ فَأَصْحَابُ الميمنة ﴾ وهم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة .

وقال ابن عباس : وهم الذين كانوا على يمين آدم حين أُخرجت الذرية من صلبه . وقال الله (إن) هؤلاء في الجنة ولا أبالي .

وقال الضحّاك : هم الذين يعطون كتبهم بإيمانهم .

وقال الحسن والربيع : هم الذين كانوا ميامين مباركين على أنفسهم ، وكانت أعمارهم في طاعة الله عزّوجل ، وهم التابعون بإحسان .

ثم عجّب نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ مَآ أَصْحَابُ الميمنة ﴾ وهذا كما يقال : زيد ما زيدٌ ، يراد زيد شديد .

﴿ وَأَصْحَابُ المشأمة ﴾ أي الشمال ، والعرب تسمي اليد اليسرى شؤمى .

قال الشاعر :

السهم والشرى في شوءمى يديك لهم . . . وفي يمينك ماء المزن والضرب

ومنه الشام واليمن لأن اليمن عن يمين الكعبة والشام عن شمالها إذا [دخل الحجر] تحت الميزاب .

وهم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار .

وقيل : هم الذين كانوا على شمال آدم عند إخراج الذرية ، وقال الله لهم هؤلاء في النار ولا أُبالي .

وقيل : هم الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم .

وقال الحسن : هم المشائيم على أنفسهم ، وكانت أعمارهم في المعاصي .

﴿ مَآ أَصْحَابُ المشأمة * والسابقون السابقون ﴾ قال ابن سيرين : هم الذين صلوا القبلتين دليله قوله ﴿ والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين والأنصار ﴾ [التوبة : 100] .

أخبرني ابن فنجويه ، حدّثنا ابن حمران ، حدّثنا أُبي ، حدّثنا محمد بن داود الدينوري ، حدّثنا [. . . . .] عن ابن بن الجارود عن عبد الغفور ابن أبي الصباح عن ابن علي ، عن كعب في قول الله عزّوجل : ﴿ والسابقون السابقون * أولئك المقربون * فِي جَنَّاتِ النعيم ﴾ قال : هم أهل القرآن وهم المتوجون يوم القيامة .

وأخبرني الحسين ، حدّثنا موسى بن محمد بن علي ، حدّثنا أبو شعيب ، حدّثنا عبد الله بن الحسن الحراني ، حدّثنا يحيى بن عبد الله البابلتي ، حدّثنا الأوزاعي قال : سمعت عثمان بن أبي سودة يقول : السابقون أولهم رواحاً إلى المسجد وأولهم خروجاً في سبيل الله عزّوجل .

وأخبرني ابن فنجويه ، حدّثنا ابن ماجة ، حدّثنا ابن أيوب ، حدّثنا عبد الله بن أبي زياد ، حدّثنا سياد بن حاتم ، حدّثنا عبد الله بن شميط قال : سمعت أُبي يقول : الناس ثلاثة : فرجل إبتكر الخير في حداثة سنهِ ثم داوم عليه حتى خرج عن الدنيا فهذا السابق المقري ، ورجل ابتكر عمره بالذنوب وطول الغفلة ثم تراجع بتوبة فهذا صاحب يمين ، ورجل ابتكر الشر في حداثته ثم لم يزل عليه حتى خرج من الدنيا فهذا صاحب الشمال .

وقال ابن عباس : السابقون إلى الهجرة هم السابقون في الآخرة . وقال علي بن أبي طالب : إلى الصلوات الخمس .

عكرمة : إلى الإسلام . الضحاك : إلى الجهاد . القرظي : إلى كل خير . سعيد بن جبير : هم المسارعون إلى التوبة وإلى أعمال البر . نظيره ﴿ وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران : 133] ﴿ سابقوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الحديد : 21] .

(122/745)

ثم أثنى عليهم فقال عزّ من قائل ﴿ أولئك يُسَارِعُونَ فِي الخيرات وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون : 61] الربيع عن أنس : السابقون إلى إجابة الرسول في الدنيا ، وهم السابقون إلى الجنة في العقبى .

ابن كيسان : السابقون إلى كل ما دعا الله سبحانه وتعالى إليه .

﴿ أولئك المقربون ﴾ إلى الله ﴿ فِي جَنَّاتِ النعيم ﴾ .

أخبرني الحسين ، حدّثنا علي بن إبراهيم بن موسى الموصلي ، حدّثنا محمد بن مخلد العطار ، محمد بن إسماعيل ، حدّثنا وكيع ، حدّثنا شعبة ومسعر عن سعد بن أبراهيم عن عروة بن الزبير قال : كان يقال : تقدموا تقدموا .

وأخبرني ابن فنجويه ، حدّثنا ابن ماجة ، حدّثنا ابن أيوب ، حدّثنا القطواني ، حدّثنا سيار ، حدّثنا جعفر حدّثني عوف حدّثني رجل من أهل الكوفة قال : بلغني أنه إذا خرج رجل من السابقين المقربين من مسكنه في الجنة كان له ضوء يعرفه مَن دونه فيقول : هذا ضوء رجل من السابقين المقربين .

﴿ ثُلَّةٌ ﴾ جماعة ﴿ مِّنَ الأولين ﴾ أي الأمم الماضية ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين ﴾ أُمّة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ على سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ مرمولة منسوجة مشبكة بالذهب والجواهر ، قد إتّصل بعضها في بعض ، كما توضن حلق الدرع [. . . . .] بعضها في بعض مضاعفة .

ومنه قول الأعشى :

ومن نسج داود موضونة . . . تساق مع الحيّ عيراً فعيرا

وقال أيضاً :

وبيضاء كالنهي موضونة لها . . . قونس فوق جيب البدن

ومنه وضين الناقة وهو البطان من السيور إذا نسج بعضه على بعض مضاعفاً كحلق الدرع .

قال الكلبي : طول كل سرير ثلاثمائة ذراع ، فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت فإذا جلس عليها إرتفعت .

وقال الضحاك : موضونة مصفوفة ، وهي رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . يقال : آجر موضون إذا صفَّ بعضها على بعض .

(123/745)

﴿ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ في الزيارة لا ينظر بعضهم في قفا بعض ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ للخدمة ﴿ وِلْدَانٌ ﴾ غلمان ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي لا يموتون عن مجاهد ، وقال الكلبي : لا يهرمون ولا يكبرون ولا ينقصون ولا يتغيرون ، وليس كخدم الدنيا يتغيرون من حال إلى حال .

ابن كيسان : يعني [ولداناً مخلدين] لا يتحولون من حالة إلى حالة ، عكرمة : منعمون .

سعيد بن جبير : مقرّطون .

قال المؤرّخ : ويقال للقرط الخلد .

قال الشاعر :

ومخلدات باللجين كأنما . . . أعجازهن أفاوز الكثبان

وقال علي والحسن : " هم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيئات فيعاقبوا عليها ، لأن الجنة لا ولادة فيها " .

وفي الحديث : " أطفال الكفار خدم أهل الجنة " .

﴿ بِأَكْوَابٍ ﴾ جمع كوب ﴿ وَأَبَارِيقَ ﴾ جمع إبريق ، سمي بذلك لبريق لونه ﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ خمر جارية ﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ لا تصدّع رؤوسهم عن شربها ﴿ وَلاَ يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ يختارون ويشتهون .

أخبرني ابن فنجويه ، حدّثنا ابن حبش ، حدّثنا ذكّار ، حدّثنا هناد ، حدّثنا أبو معونة عن عبيد الله بن الوليد عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن في الجنة لطيراً فيه سبعون ألف ريشة ، فيجيء فيقع على صحيفة الرجل من أهل الجنة ثم ينتفض ، فيخرج من كل ريشة لون أبيض من الثلج والبرد وألين من الزبد وأعذب من الشهد ليس فيه لون يشبه صاحبه ثم يطير فيذهب " .

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي والمفضل بكسر الواو والنون أي وبحور عين ، أتبعوا الآخر الأول في الإعراب على اللفظ وإن اختلفا في المعنى ، لأن الحور لا يطاف بهنَّ ، كقول الشاعر :

إذا ما الغانيات برزن يوماً . . . وزججن الحواجب والعيونا

والعين لا تزجج وإنما تكحل .

وقال الآخر : متقلداً سيفاً ورمحاً ، ومثله كثير .

وقرأ إبراهيم النخعي واشهب العقيلي : (وحوراً عيناً) بالنصب ، وكذلك هو في مصحف أُبيّ ، على معنى : ويزوّجون حوراً عيناً .

وقال الأخفش : رفع بخبر الصفة ، أي لهم حور عين .

وقيل : هو ابتداء وخبره فيما بعده .

أخبرنا الحسين ، حدّثنا محمد بن الحسن بن صقلاب ، حدّثنا أبو عبد الله محمد بن بشير ابن يوسف بن النضر ، حدّثنا بكر بن سهل الدمياطي ، حدّثنا عمرو بن هاشم ، حدّثنا سليمان بن أبي كرعة ، عن هشام بن حسان ، عن الحسن ، عن أمه ، عن أُم سلمة قالت : قلت : " يا رسول الله أخبرني عن قول الله عزّوجل ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ ؟ قال : " حور بيض عين ضخام العيون " " .

أخبرنا ابن فنجويه ، حدّثنا ابن صقلاب ، حدّثنا أبو بكر بن أبي الخصيب حدّثني محمد بن غالب حدّثنا الحرث بن خليفة ، حدّثنا إسماعيل بن إبراهيم ، عبد العزيز بن صهيب ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خلق الحور العين من الزعفران " .

وأخبرني ابن فنجويه ، حدّثنا ابن يودة ، حدّثنا عبيد بن عبد الواحد بن شريك البزاز ، حدّثنا سليمان بن عبد الرحمن ابن بنت شرحبيل ، حدّثنا خالد بن يزيد ، عن أبي مالك ، عن أبيه عن خالد بن معدان ، عن أبي أُمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "

ما من عبد يدخل الجنة إلاّ وهو يزوّج ثنتين وسبعين زوجة ، ثنتين من الحور العين وسبعين من ميراثه من أهل النار ، وليس منهن امرأة إلاّ ولها قُبل شهيّ وله ذكر لا ينثني " .

وأخبرني ابن فنجويه ، حدّثنا أحمد بن محمد بن علي ، حدّثنا عثمان بن نصر البغدادي ، حدّثنا محمد بن مهاجر أبو حنيف ، حدّثنا حلبس بن محمد الكلابي ، حدّثنا سفيان الثوري ، عن منصور أو المغيرة ، عن أبي وائل ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يسطع نور في الجنة فقالوا : ما هذا ؟ قالوا : ضوء ثغر حوراء ضحكت في وجه زوجها " .

(125/745)

وروي أن الحوراء إن مشت سُمع تقديس الخلاخيل من ساقيها وتمجيد الأسورة من ساعديها ، وإن عقد الياقوت يضحك من نحرها ، وفي رجليها نعلان من ذهب شراكها من لؤلؤ تصرّان بالتسبيح .

وكان يحيى بن معاذ الرازي يقول : اخطب زوجة (لا تسلبها) منك المنايا ، وأعرس بها في دار لا يخربها دوران البلايا وشبّك لها حجله لا تحرقها نيران الرزايا .

وقال مجاهد : سميت حوراً لأنه يحار فيهن الطرف .

﴿ كَأَمْثَالِ اللؤلؤ المكنون ﴾ المخزون في الصدف الذي لم تمسّه الأيدي ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً * إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً ﴾ في نصبهما وجهان :

أحدهما : إتباع للقيل .

والثاني : على (يسمعون سلاماً) ، ثم رجع إلى ذكر منازل أصحاب الميمنة فقال ﴿ وَأَصْحَابُ اليمين مَآ أَصْحَابُ اليمين * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ لا شوك فيه ، كأنه خضّد شوكها أي قطع ونزع .

ومنه الحديث في المدينة : " لا يخضد شوكها ولا يعصر شجرها " وهذا قول ابن عباس وعكرمة وقسامة بن زهير .

وقال الحسن : لا تعقر الأيدي . قتادة : هو الذي لا يرد اليد منها شوك ولا بعد .

وقال الضحّاك ومجاهد ومقاتل بن حيان : هو الموقر حملا .

قال سعيد بن جبير : ثمرها أعظم من الفلال . وقال ابن كيسان : هو الذي لا أذى فيه .

قال : وليس شيء من ثمر الجنة في غلف كما تكون في الدنيا من الباقلاء وغيره ، بل كلها مأكول ومشروب ومشموم ومنظور إليه .

قال أبو العالية والضحّاك : نظر المسلمون إلى وجّ وهو واد مخصب بالطائف ، وأعجبهم سدرها .

وقالوا : يا ليت لنا مثل هذا ، فأنزل الله عزّوجل ﴿ وَطَلْحٍ ﴾ وموز واحدتها طلحة ، عن

أكثر المفسرين .

وقال الحسن : ليس هو موزاً ولكنه شجر له ظلّ بارد طيب .

وقال الفراء وأبو عبيدة : الطلح عند العرب شجر عظام لها شوك .

قال بعض الحداة :

بشرها دليلها وقالا . . . غداً ترين الطلح والجبالا

(126/745)

وأخبرني ابن فنجويه ، حدّثنا ابن حيان ، حدّثنا ابن مروان ، حدّثنا أُبي ، حدّثنا إبراهيم بن عيسى ، حدّثنا علي بن علي قال : زعم أبو حمزة الثمالي عن الحسن مولى الحسن بن علي أن علياً قرأ : وطلعٌ منضود .

وأنبأني عقيل ، أنبأنا المعافي محمد بن جرير ، حدّثنا سعيد بن يحيى ، حدّثنا أُبي ، حدّثنا مجالد عن الحسن بن سعد عن قيس بن سعد قال : قرأ رجل عند علي رضي الله عنه ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ فقال علي : " وما شأن الطلح ؟ إنما هو طلع منضود " ثم قرأ " طلع منضود " .

فقلت : إنها في المصحف بالحاء فلا تحوّلها ؟ فقال : " إن القرآن لا يهاج [اليوم] ولا يحوّل

".

والمنضود : المتراكم الذي قد نُضد بأكمله من أوله إلى آخره ، ليست له سوق بارزة .

قال مسروق : أشجار الجنة من عروقها إلى أغصانها ثمر كله .

﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ دائم لا تسخنه الشمس .

قال الربيع : يعني ظل العرش . عمرو بن ميمون : مسيرة سبعين ألف سنة .

قال أبو عبيدة : تقول العرب للدهر الطويل والعمر الطويل ، وللشيء الذي لا ينقطع : ممدود .

قال لبيد :

غلب العزاء وكنت غير مقلب . . . دهر طويل دائم ممدود

حدّثنا أبو محمد مهدي بن عبد الله بن القاسم بن الحسن العلوي إملاءً في شهر ربيع الأول سنة تسع وثمانين وثلاثمائة ، حدّثنا أبو بكر جعفر بن محمد الحجاج حدّثني محمد بن يونس الكديمي ، حدّثنا أبو عامر العقدي ، حدّثنا زمعة بن صالح عن سلمة عن عكرمة عن ابن عباس في قوله ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ قال : شجرة في الجنة على ساق يخرج إليها أهل الجنة ، أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون في أصلها ويتذكر بعضهم ويشتهي بعضهم لهو الدنيا فيرسل الله عزّوجل عليها ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان في الدنيا .

وأخبرني ابن فنجويه ، حدّثنا محمد بن حبيش بن عمر المقريء ، حدّثنا ذكار بن الحسن ، حدّثنا هناد بن السري ، حدّثنا عبدة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها ، إقرؤوا إن شئتم قول الله عزّوجل : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ " .

﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ مصبوب يجري دائماً في غير إخدود لا ينقطع .

أخبرني الحسين ، حدّثنا عبد الله بن يوسف ، حدّثنا محمد بن موسى الحلواني ، حدّثنا خزيمة بن أحمد الباوردي ، حدّثنا إسحاق بن إسماعيل ، حدّثنا الحسين بن علي الجعفي ، حدّثنا مزاحم بن داود بن عُلبة قال : مات أخ لي وكان باراً بأمّه فرأيته فيما يرى النائم فقلت له : أي أخي إن أخاك يحب أن يعلم إلى أي شيء صرت ؟ فقال لي : أنا في سدر مخضود وطلح منضود ، وظل ممدود وماء مسكوب .

﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَّ مَقْطُوعَةٍ ﴾ بالأزمان ﴿ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ بالأثمان .

وقال القتيبي : لا محظور عليها كما يحظر على بساتين الدنيا . وقيل : لا تنقطع الثمرة إذا جُنيت ، بل تخرج مكانها مثلها .

أخبرني ابن فنجويه ، حدّثنا ابن شيبة ، حدّثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، حدّثنا محمد بن حسان الأزرق ، حدّثنا ريحان بن سعيد ، حدّثنا عباد بن كثير عن أيوب عن أبي قلابة

عن أبي أسماء الرحبي عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما قطعت من ثمار الجنة إلاّ أبدل الله مكانها ضعفين " .

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أخبرنا أبو علي بن أبي عمرو الجيري الجرشي ، حدّثنا أُبي ، حدّثنا الحسن بن هارون ، حدّثنا عمار بن عبد الجبار ، حدّثنا رشيد ، ح.

وأخبرني ابن فنجويه ، حدّثنا ابن حبش ، حدّثنا أبو عبد الرحمن الشائي ، حدّثنا أبو كريب ، حدّثنا رشد بن سعد عن عمرو بن الحرث عن دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة قالا :

(128/745)

" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ قال : " إن ارتفاعها لكما بين السماء والأرض ، وإن ما بين السماء والأرض لمسيرة خمسمائة عام " " .

وقال أبو امامة الباهلي : لو طرح فراش من أعلاها إلى أسفلها لم يستقر إلاّ بعد سبعين خريفاً . وقال علي بن أبي طالب : مرفوعة على الأسرة .

وقيل : إنه أراد بالفرش النساء ، والعرب تسمي المرأة فراشاً ولباساً وإزارا على الاستعارة ، لأن الفرش محل للنساء ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ رفعن بالجمال والفضل على نساء أهل الدنيا .

ودليل هذا التأويل قوله في عقبه ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً ﴾ عذارى ﴿ عُرُباً ﴾ عرائس متحببات إلى أزواجهن . قاله الحسن وقتادة وسعيد بن جبير وهي رواية الوالبي عن ابن عباس وعكرمة عنه مَلقة . وقال عكرمة : غنجة .

ابن بريدة : الشركلة بلغة مكة . والمغنوجة بلغة المدينة .

وأخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد الحافظ ، حدّثنا أحمد بن إبراهيم بن شاذان ، حدّثنا عبيد الله بن ثابت بن أحمد ، حدّثنا أبو سعيد الأشج ، حدّثنا ابن يمان عن اسامة بن زيد عن أبيه ﴿ عُرُباً ﴾ قال : حسنات الكلام .

وأخبرني أبو عبد الله الحافظ أحمد بن محمد بن إسحاق السنيّ ، حدّثنا حامد بن شعيب البلخي ، حدّثنا سريج بن يونس ، هشام ، حدّثنا مغيرة عن عثمان عن تيم بن حزام قال : هي الحَسَنَة التبعل وكانت العرب تقول للمرأة إذا كانت حسنة التبعل إنها لعربة واحدتها عروب . ﴿ أَتْرَاباً ﴾ مستويات في السنّ .

عن ابن فنجويه ، حدّثنا ابن شنبة ، الفراتي ، حدّثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدّثنا يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يدخل أهل الجنةِ الجنةَ مرداً بيضاً جعاداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين على خلق آدم ، طوله ستون ذراعاً في سبعة أذرع " .

قال المفسرون : هذه صفات نساء الدنيا ومعنى قوله ﴿ أَنشَأْنَاهُنَّ ﴾ خلقناهن بعد الخلق الأول ، وبهذا جاءت الأخبار .

أخبرني الحسين ، محمد بن الحسن الثقفي ، حدّثنا محمد بن الحسن بن علي اليقطيني ، حدّثنا أحمد بن عبد الله بن يزيد العقيلي ، حدّثنا صفوان بن صالح ، حدّثنا الوليد بن مسلم ، حدّثنا عبد العزيز بن الحصين عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : " دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة وعندها عجوز من بني عامر فقال : " من هذه العجوز عندك يا عائشة ؟ " قالت : إحدى خالاتي يا رسول الله فقال : " إن الجنة لا تدخلها عجوز " فبلغ ذلك من العجوز كل مبلغ ، فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم ذكرت له عائشة ما لقيت العجوز فقال : " إنها إذا دخلت الجنة أُنشئت خلقاً آخر " " .

وأخبرني الحسين ، حدّثنا أبو زرعة أحمد بن الحسين بن علي الرازي ، حدّثنا أبو علي الحسين بن إسماعيل الفارسي نزيل بخارى ، حدّثنا عيسى بن عمرو بن [ميمون] البخاري حدّثنا المسيب بن إسحاق ، حدّثنا عيسى بن موسى غنجار ، حدّثنا إسماعيل بن أبي زياد عن يونس بن عبيد عن الحسن " عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم إنها قالت : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً ﴾ . فقال : " يا أم سلمة ، هن اللواتي قُبضن في دار

الدنيا عجائز شمطاً عمشاً رمصاً جعلهن الله عزّوجل بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد في الاستواء " " .

وأخبرني الحسين بن محمد ، حدّثنا موسى بن محمد ، حدّثنا الحسن بن علوية ، حدّثنا إسماعيل بن عيسى ، حدّثنا المسيب بن شريك ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً ﴾ .

(130/745)

قال : " هنَّ عجائز الدنيا أنشأهن الله عزّوجل خلقاً جديداً ، كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً ، فلما سمعت عائشة قالت : وا وجعا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليس هناك وجع " " .

وأخبرني الحسين ، حدّثنا محمد بن علي بن الحسن الصوفي أبو مسلم الكجّي ، حدّثنا حجاج ، حدّثنا مبارك ، حدّثنا الحسن بن أبي الحسن " إن إمرأة عجوزاً [كبيرة] أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة . قال : " يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها العجائز " فولت وهي تبكي .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إخبروها ليست يومئذ بعجوز فإن الله عزّوجل قال

﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً ﴾ " " .

وبإسناد المسيب ، حدّثنا عبد الرحمن الأفريقي عن سعد بن مسعود قال : إذا دخلت الجنة نساء الدنيا فضّلن على الحور العين بصلاتهن في الدنيا .

وأخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن الطيب ، حدّثنا أبو سعيد عمرو بن محمد بن منصور ، حدّثنا أبو بكر محمد بن سليمان بن الحرث الواسطي ببغداد ، حدّثنا خلاد بن يحيى بن صفوان السلمي ، حدّثنا سفيان الثوري عن يزيد بن ابان عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً ﴾ قال : " عجائز كُنَّ في الدنيا عمشاً رمصاً فجعلهن إبكاراً " .

وقيل هي الحور العين .

أخبرنا ابن فنجويه ، حدّثنا عمر بن الخطاب ، حدّثنا محمد بن عبد العزيز بن عبد الملك العثماني ، حدّثنا العباس ، حدّثنا الوليد عبد الله بن هارون عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خلق الحور العين من تسبيح الملائكة فليس فيهن أذىً " قال الله عزّوجل ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً ﴾ عواشق لأزواجهن ﴿ أَتْرَاباً ﴾ .

﴿ لأَصْحَابِ اليمين * ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين ﴾ يعني من الأمم الماضية ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أخبرني الحسين ، حدّثنا عبد الله بن عبد الرحمن الدقاق ، حدّثنا محمد بن الوليد القرشي وعيسى بن المساور واللفظ له قالا : حدّثنا الوليد بن مسلم ، حدّثنا عيسى بن موسى أبو محمد وغيره ، عن عروة بن دويم قال : " لما أنزل الله عزّوجل على رسوله ثلة من الأولين وقليل من الآخرين بكى عمر رضي الله عنه فقال : يا نبي الله ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ؟ آمنا برسول الله وصدقناه ومن ينجو منّا قليل فأنزل الله عزّوجل ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ فدعا رسول الله عمر فقال : " يا ابن الخطاب قد أنزل الله عز وجل فيما قلت ، فجعل : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ " .

فقال عمر : رضينا عن ربنا ونصدق نبينا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من آدم إلينا ثلة ومني إلى [يوم] القيامة ثلة ولا يستتمها إلاّ سودان من رعاة الإبل من قال لا إله إلاّ الله " .

وأخبرني عقيل أن أبا الفرج أخبرهم عن محمد بن جرير ، حدّثنا بشر ، حدّثنا يزيد ، حدّثنا سعيد عن قتادة قال الحسن : حدّثني عمر بن أبي حصين عن عبد الله بن مسعود قال : تحدثنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة حتى أكرينا الحديث ثم رجعنا

إلى أهلنا فلما أصبحنا غدونا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " عُرضت عليَّ الأنبياء الليلة بأتباعها من أُمتها ، وكان النبي يجيء معه الثلاثة من أُمته والنبي معه العصابة من أمّته والنبي معه النفر من أُمّته والنبي معه الرجل من أُمته والنبي ما معه من أُمّته أحد حتى أتى موسى في كبكبة بني إسرائيل ، فلما رأيتهم أعجبوني فقلت : أي رب من هؤلاء ؟ قيل : هذا أخوك موسى بن عمران ومن حفه من بني اسرائيل .

(132/745)

قلت : ربي فأين أُمتي ؟ قيل : انظر عن يمينك فإذا ظراب مكة قد سدّت بوجوه الرجال .

فقلت : من هؤلاء ؟ فقيل : هؤلاء أُمّتك أرضيت ؟ فقلت : رب رضيت ، قيل : انظر عن يسارك فإذا الأُفق قد سدّ بوجوه الرجال .

فقلت : رب من هؤلاء ؟ قيل : هؤلاء أُمتك أرضيت ؟ قلت : رب رضيت ، فقيل : إن مع هؤلاء سبعين ألفاً من امتك يدخلون الجنة . لا حساب عليهم . قال : فأنشأ كاشة بن محصن رجل من بني أسد بن خزيمة فقال : يا نبي الله إدع ربك أن يجعلني منهم فقال : " اللهم إجعله منهم " ثم أنشأ رجل آخر فقال : يا نبي الله ادع ربك أن يجعلني منهم . قال : " سبقك

بهما عكاشة " .

فقال صلى الله عليه وسلم " فداكم أبي وامي إن استطعتم أن تكونوا من السبعين فكونوا ، وإن عجزتم وقصرتم فكونوا من أهل الظراب ، فإن عجزتم وقصرتم فكونوا من أهل الأفق ، فإني قد رأيت ثم أناساً يتهاوشون كثيراً " .

قال : فقلت : من هؤلاء السبعون ألفاً ؟ فاتفق رأينا على أنهم أُناس ولدوا في الإسلام فلم يزالوا يعملون به حتى ماتوا عليه فنُهي حديثهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ليس كذلك ولكنهم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون " .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني لأرجو أن يكون من تبعني من امتي ربع أهل الجنة " فكبّرنا ثم قال : " إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة " فكبّرنا . ثم قال : " إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ " .

وقال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رباح والضحّاك ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين ﴾ يعني من سابقي هذه الأمة ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين ﴾ من هذه الأمة في آخر الزمان .

(133/745)

يدل عليه ما أخبرنا الحسين بن محمد ، حدّثنا أحمد بن محمد بن اسحاق السني ، حدّثنا أبو خليفة الفضل بن الحباب محمد بن كثير ، حدّثنا سفيان عن أبان بن أبي عياش عن سعيد بن جبير " عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هما جميعاً من أُمتي " .

﴿ وَأَصْحَابُ الشمال مَآ أَصْحَابُ الشمال * فِي سَمُومٍ ﴾ ريح حارة ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ ماء حار ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ دخان شديد السواد . تقول العرب : أسود يحموم إذا كان شديد السواد .

وأنشد قطرب :

وما قد شربت ببطن [مكة] . . . فراتاً لمد كاليحموم جاري

وقال ابن بريدة : اليحموم جبل في جهنم يستغيث إلى ظله أهل النار

﴿ لاَّ بَارِدٍ ﴾ بل حار لأنه من دخان سعير جهنم ﴿ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ ولا عذب عن الضحّاك ، سعيد ابن المسيب والحسن : نظيره : ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء : 7] . مقاتل : طيب . قتادة : ﴿ لاَّ بَارِدٍ ﴾ المنزل ﴿ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ المنظر .

قال الفراء : يجعل الكريم تابعاً لكل شيء نفت عنه فعلا فيه ذم .

وقال ابن كيسان : اليحموم اسم من أسماء النار . وقال الضحّاك : النار سوداء وأهلها سود وكل شيء فيها أسود .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ في الدنيا ﴿ مُتْرَفِينَ ﴾ منّعمين ﴿ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ ﴾ يقيمون ﴿ عَلَى الحنث العظيم ﴾ على الذنب الكبير ، وهو الشرك .

وقال أبو بكر الأصم : كانوا يُقسمون أن لا بعث ، وأن الأصنام أنداد لله وكانوا يقيمون عليه فذلك حنثهم .

(134/745)

﴿ وَكَانُواْ يقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ لحق ﴿ أَوَآبَآؤُنَا الأولون * قُلْ إِنَّ الأولين والآخرين * لَمَجْمُوعُونَ إلى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ ثم يقال لهم : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضآلون المكذبون * لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الحميم * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهيم ﴾ .

قرأ أهل المدينة وعاصم وحمزة والأعمش وأيوب : (شرب) بضم الشين ، واختاره أبو حاتم ، وقرأ الباقون : بفتحه ، واختاره أبو عبيد .

وروي عن الكسائي عن يحيى بن سعيد عن جريج إنه قال : ذكرت لجعفر بن محمد قراءة أصحاب عبد الله (شرب الهيم) بفتح الشين ، فقال : " أما بلغك إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بديل بن ورقاء الخزاعي إلى أهل مِنى في أيام التشريق فقال : " إنها أيام أكل

وشرب " .

ويقال هي بفتح الشين [و . . . . .] وهما لغتان جيدتان .

تقول العرب : شربت شَرباً وشُرباً وشُرُباً بضمتين .

وقال أبو زيد الأنصاري : سمعت العرب تقول : شربت شِرباً ، بكسر الشين .

وأما (الهيم) فالإبل العطاش . وقال عكرمة وقتادة : هو داء بالإبل لا تروى [معه] ولا تزال تشرب حتى تهلك ويقال لذلك الداء الهيام ، ويقال : حمل أَهْيم وناقة هيماء وإبل هيم .

قال لبيد :

أُجزت على معارفها بشعث . . . وأطلاح من المهري هيم

وقال الضحّاك وابن عيينة وابن كيسان : الهيم الأرض السهلة ذات الرمل .

﴿ هذا نُزُلُهُمْ ﴾ رزقهم وغذاؤهم وما أُعدّ لهم ﴿ يَوْمَ الدين * نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ ﴾ بالبعث ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ ﴾ تصبون في الأرحام من النطف ؟ .

وقرأ أبو السماك : (تمنون) بفتح التاء وهما لغتان .

﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الخالقون * نَحْنُ قَدَّرْنَا ﴾ [قرأ مجاهد وحميد وابن محيصن (قدرنا) بتخفيف الدال] ، الباقون بالتشديد ﴿ بَيْنَكُمُ الموت ﴾ فمنكم من يعيش إلى أن يبلغ الهرم ، ومنكم من يموت شاباً وصبياً صغيراً ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ عاجزين عن إهلاككم ﴿ على أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ﴾ أو إبدالكم بامثالكم ﴿ وَنُنشِئَكُمْ ﴾ ونخلقكم ﴿ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ من الصور . قال مجاهد : في أي خلق شئنا .

وقال سعيد بن المسيب ﴿ فيما لا تعلمون ﴾ يعني في حواصل طير تكون ببرهوت كأنها الخطاطيف ، وبرهوت واد باليمن . وقال الحسن ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي نبدل صفاتكم ونجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بمن كان قبلكم .

وقال السدي : نخلقكم في سوى خلقكم .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة ﴾ الخلقة ﴿ الأولى ﴾ ولم تكونوا شيئاً ، ﴿ فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي قادر على إعادتكم كما قدرت على إبدائكم .

وقال الحسين بن الفضل في هذه الوجوه : وإن كانت غير مردودة ، فالذي عندي في هذه الآية ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة الأولى ﴾ أي خلقتكم للبعث بعد الموت من حيث لا تعلمون كيف شئت وذلك أنكم علمتم النشأة الأولى كيف كانت في بطون الأمهات وليست الأخرى كذلك .

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ أي تثيرون الأرض وتعملون فيها وتطرحون البذر ﴿ أَأَنتُمْ

تَزْرَعُونَهُ ﴾ تنبتونه ﴿ أَمْ نَحْنُ الزارعون ﴾ ؟ .

أخبرني الحسين ، حدّثنا عمر بن محمد بن علي الزيات ، حدّثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن بن مرزوق ، حدّثنا مسلم بن أبي مسلم الجرمي ، حدّثنا مخلد بن الحسين عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يقولن أحدكم : زرعت وليقل حرثت " .

(136/745)

قال أبو هريرة : ألم تسمعوا قول الله عزّوجل ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون ﴾ .

﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً ﴾ هشيماً لا ينتفع به في مطعم وغذاء . وقال مرة : يعني نبتاً لا قمح فيه .

﴿ فَظَلْتُمْ ﴾ قرأت العامة بفتح الظاء . وقرأ عبد الله بكسره : والأصل ظللتم ، فحذف إحدى اللامين تخفيفاً ، فمن فتحه فعلى الأصل ومن كسره نقل حركة اللام المحذوفة إلى الظاء .

﴿ تَفَكَّهُونَ ﴾ قال يمان : تندمون على نفقاتكم ، نظيره ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَآ

أَنفَقَ فِيهَا ﴾ [الكهف: 42].

قتادة: تعجبون. عكرمة: تلاومون. الحسن: تندمون على ما سلف منكم من معصية الله التي أوجبت لكم عقوبته حتى نالكم في زرعكم ما نالكم. ابن زيد: تتفجّعون. ابن كيسان: تحزنون.

قال: وهو من الأضداد. تقول العرب: تفكهت: أي تنعّمت، وتفكهت: أي حزنت.

قال الفراء: تفكهون وتفكنون واحد، والنون لغة عكل.

وقيل: التفكه التكلم فما لا يعنيك، ومنه قيل للمزاح: فكاهة.

﴿ إِنَّا ﴾ قرأ عاصم برواية أبي بكر والمفضل بهمزتين. الباقون على الخبر. ومجاز الآية ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ وتقولون ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ قال مجاهد وعكرمة: لمولَع بنا. قال ابن عباس وقتادة: يعذبون، والغرام: العذاب.

ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: ملقون للشر. مقاتل بن حيان: مهلكون.

وقال الضحّاك: غرّمنا أموالنا وصار ما أنفقنا غرمنا عليه. مُرة الهمداني: محاسبون.

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ محدودون [ممنوعون] محارفون، والمحروم ضد المرزوق.

قال أنس بن مالك : " مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأرض الأنصار فقال : " ما يمنعكم من الحرث ؟ قالوا : الجدوبة . قال : " فلا تفعلوا فإن الله عزّوجل يقول : أنا الزارع إن شئت زرعت بالماء وإن شئت زرعت بالريح وإن شئت زرعت بالبذر " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ " الآيات .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الماء الذي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن ﴾ السحاب ، واحدتها مزنة .

قال الشاعر :

فنحن كماء المزن ما في نصابنا . . . كهام ولا فينا يعدّ بخيل

﴿ أَمْ نَحْنُ المنزلون * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً ﴾ قال ابن عباس : شديد الملوحة . وقال الحسن : قعاعاً مُراً .

﴿ فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النار التي تُورُونَ ﴾ تقدحون وتستخرجون من زندكم ﴿ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ ﴾ التي تقدح منها النار وهي المرخ والعفار ﴿ أَمْ نَحْنُ المنشئون ﴾ المخترعون ؟

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا ﴾ يعني نار الدنيا ﴿ تَذْكِرَةً ﴾ للنار الكبرى .

أخبرنا ابن سعيد بن حمدون ، حدّثنا ابن الشرقي ، حدّثنا محمد بن يحيى وعبد العزيز بن بشير وأحمد بن يوسف قالوا : حدّثنا عبد الرزاق ، حدّثنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدّثنا أبو هريرة عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" ناركم هذه التي توقِد بنو آدم جزءاً من سبعين جزءاً من حرّ جهنم " . قالوا : والله إن كانت لكافيتنا برسول الله . قال : " فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرّها " .

﴿ وَمَتَاعاً ﴾ بلغة ومنفعة ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ المسافرين النازلين في الأرض القيّ والقوى ، وهي القفر الخالية البعيدة من العمران والأهلين ، يقال : أقوت الدار إذا دخلت من سكانها .

قال الشاعر :

أقوى وأقفر من نعُم وغيّرها . . . هوُج الرياح بها بي الترب موار

وقال النابغة :

يا دار ميّة بالعلياء فالسند . . . بها أقوت وطال عليها سالف الأبد

(138/745)

هذا قول أكثر المفسرين ، وقال مجاهد ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ يعني للمستمتعين من الناس أجمعين ، المسافرين والحاضرين يستضيء بها في الظلمة ويصطلي بها في البرد وينتفع بها في الطبخ والخبز وتتذكر بها نار جهنم فنستجير الله منها .

وقال الحسن : بُلغَة المسافرين يبلغون بها إلى أسفارهم يحملونها في الخرق والجواليق .

وقال الربيع والسدي : يعني للمرملين المعترين الذين لا زاد معهم ، ناراً يوقدون فيختبزون بها ، وهي رواية العوفي عن ابن عباس . قال ابن زيد : للجائعين . تقول العرب : أقويت مذ كذا وكذا أي ما أكلت شيئاً .

قال قطرب : المقوي من الأضداد يكون بمعنى الفقر ويكون بمعنى الغنى . يقال : أقوى الرجل إذا قويت دوابّه ، وإذا كثر ماله .

﴿ فَسَبِّحْ باسم ربِّكَ العظيم * فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ قال أكثر المفسرين : معناه : أُقسم ، و ﴿ لا ﴾ صلة ، وتصديقه قراءة عيسى بن عمر : (فلا أقسم) على التحقيق .

وقال بعض أهل العربية : معناه فليس الأمر كما يقولون ، ثم استأنف القسم فقال : ﴿ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم ﴾ يعني نجوم القرآن التي كانت تنزل على انكدارها وانتشارها يوم القيامة .

واختلف القراء فيه فقرأ حمزة والكسائي وخلف : ﴿ بموقع ﴾ على الواحد ، غيرهم : (بمواقع) على الجمع . وهو الاختيار .

﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ ﴾ يعني هذا الكتاب ، وهو موضع القسم ﴿ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ [حصين] عزيز مكرم .

وقال عبد العزيز بن يحيى الكناني : غير مخلوق ، وقيل : سُمي كريماً لأن يُسره يغلب عُسره .

﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ مصون . عند الله سبحانه محفوظ عن الشياطين وعن جميع ما يشين .

﴿ لاَّ يَمَسُّهُ ﴾ أي ذلك الكتاب ﴿ إِلاَّ المطهرون ﴾ من الذنوب وهم الملائكة .

(139/745)

أخبرنا عبد الله بن حامد ، أنبأنا ابن الشرقي ، حدّثنا محمد بن الحسين بن طرحان ، حدّثنا سعيد بن منصور ، حدّثنا أبو الأحوص عن عاصم الأحول عن أنس في قوله عزّوجل ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ قال : الملائكة .

وأخبرنا أبو بكر بن عبدوس ، أنبأنا أبو الحسن بن محفوظ ، حدّثنا عبد الله بن هاشم ، حدّثنا عبد الرحمن عن سفيان عن الربيع عن سعيد بن جبير ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ قال : الملائكة الذين في السماء .

وقال أبو العالية وابن زيد : ليس أنتم أصحاب الذنوب إنما هم الذين طهروا من الذنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بني آدم ، فجبرئيل الذي ينزل به مطهّر والرسل الذين يجيئهم به مطهّرون .

وقال ابن عباس : من الشرك . عكرمة : هم حملة التوراة والإنجيل .

قتادة : ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ ﴾ عند الله ﴿ إِلاَّ المطهرون ﴾ فأما في الدنيا فيمسّه الكافر النجس والمنافق الرجس .

حبان عن الكلبي : هم السفرة الكرام البررة . محمد بن فضيل عنه لا يقرؤه إلاّ الموحدون .

قال عكرمة : وكان ابن عباس ينهى أن يمكن اليهود والنصارى من قراءة القرآن .

الفراء : لا يجد طعمه ونفعه إلاّ من آمن به .

الحسين بن الفضل : لا يعرف تفسيره وتأويله إلاّ من طهّره الله من الشرك والنفاق .

أبو بكر الوراق : لا يوفق للعمل به إلاّ السعداء .

أبو العباس بن عطاء : لا يفهم حقائق القرآن إلاّ من طهر سرّه عند الأنوار من الأقذار .

جنيد : هم الذين طهر سرّهم عما سوى الله .

وقال قوم : معناه ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ من الأحداث والجنابات والنجاسات ، وردّوا الكناية في قوله ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ ﴾ إلى القرآن .

وقالوا : أراد بالقرآن المصحف ، سماه قرآناً على قرب الجوار والإتساع ، كالخبر الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو .

(140/745)

قالوا : وظاهر الآية نفي ومعناها نهي كقوله عزّ وجل : ﴿ والمطلقات يَتَرَبَّصْنَ ﴾ [البقرة : 228] ونحوها واستدلوا بهذه الآية على منع الجنب والحائض والمحدث من مس المصحف وحمله ، وقالوا : لا يجوز لأحد حمل المصحف ولا مسّه حتى يكون على صفة يجوز له الصلاة . قال : هذا مذهب جمهور الفقهاء إلاّ إن أبا حنيفة لا يمنع من حمله بعلاّقة ومسّه بحائل . والاختيار أنه ممنوع منه ، لأنه إذا حمله في جلده فإنما حمله بحائل ومع هذا يُمنع منه .

وذهب الحكم وحماد وداود بن علي إلى أنه لا بأس بحمل المصحف ومسّه على أي صفة كانت سواء كان طاهراً أو غير طاهر ، مؤمناً أو كافراً . إلاّ أن داود قال : لا يجوز للمشرك حمل المصحف .

والدليل على أنه لا يحمل المصحف ولا يمسّه إلاّ طاهراً ما روى أبو بكر محمد بن عمرو ابن جرم عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن كتب في كتابه ألاّ يحمل المصحف ولا يمسّه إلاّ طاهرٌ .

وروى سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا تمس القرآن إلاّ وأنت طاهر " .

ولأن به إجماع الصحابة .

وروي أن علياً سُئل : أيمس المحدث المصحف ؟ قال : " لا " .

وروي أن مصعب بن سعد بن أبي وقاص كان يقرأ من المصحف فأدخل يده فحك ذكره فأخذ أبوه المصحف من يده . وقال : قم فتوضأ ثم خذه ، ولا مخالف لهما في الصحابة .

وقال عطاء ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ قال : لا يقلب الورق من المصحف إلاّ المتوضىء .

واستدل المبيحون بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قيصر وفيه ﴿ بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ * قُلْ يا أهل الكتاب تَعَالَوْاْ إلى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ الآية .

وأجاز الفقهاء ذلك إذا دعته ضرورة أو حمله عذر عليه ، وأما الصبيان فلأصحابنا فيه وجهان :

أحدهما : أنهم يمنعون منه كالبالغين .

(141/745)

والثاني : أنهم لا يُمنعون ، لمعنيين : أحدهما : أن الصبي لو منع ذلك أدّى إلى ألاّ يتلقن القرآن ولا يتعلمه ولا يحفظه ، لأن وقت تعلمه وحفظه حال الصغر .

والثاني : أن الصبي وإن كانت له طهارة فليست بكاملة لأن النية لا تصحّ منه ، فإذا جاز أن يحمله على طهر غير كامل جاز أن يحمله محدثاً والله أعلم .

﴿ تَنزِيلٌ ﴾ أي منزل ﴿ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ فسمي المنزّل تنزيلا على اتّساع اللغة ، كما

تقول للمقدور قدر وللمخلوق خلق ، وهذا الدرهم ضرب الأمير ووزن سبعة ، ونحوها

﴿ أفبهذا الحديث ﴾ يعني القرآن ﴿ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾ قال ابن عباس : مكذبون .

مقاتل بن حيان : كافرون ، ونظيره ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم : 1] .

وقال ابن كيسان : المدهن الذي لا يفعل ما يحق عليه ويدفعه بالعلل .

وقال المؤرخ : المدهن المنافق الذي ليّن جانبه ليخفي كفره . وادّهن وداهن واحد وأصله من الدهن . وقال مجاهد : تريدون أن تمالئوهم فيه وتركنوا إليهم .

وقال بعض أئمّة اللغة : مدهنون أي تاركون للحزم في قبول هذا القرآن والتهاون بأمره ، ومداهنة العدو وملاينته مكان ما يجب من مغالظته ، وأصله من اللين والضعف .

قال أبو قيس بن الأسلت :

الحزم والقوة خير من الإ . . . دهان والفكّة والهاع

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ حظكم ونصيبكم من القرآن ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

قال الحسن : في هذه الآية خسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلاّ التكذيب به .

وقال آخرون : هذا في الاستسقاء بالأنواء . أنبأني عبد الله بن حامد ، أنبأنا محمد بن الحسن ، حدّثنا أحمد بن يوسف ، حدّثنا النضر بن محمد ، عكرمة ، حدّثنا أبو زميل حدّثني ابن عباس قال : " مُطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم " أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر ، قالوا : هذه رحمة وضعها الله

، وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا "

قال : فنزلت هذه الآية .

(142/745)

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم ﴾ حتى ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ ، وشرح قول ابن عباس هذا في سبب نزول هذه الآية ما روي عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج في سفر فنزلوا فأصابهم العطش وليس معهم ماء فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : " أرأيتم إن دعوت لكم فسقيتم فلعلكم تقولون سُقينا هذا المطر بنوء كذا " . فقالوا : يا رسول الله ما هذا بحين الأنواء .

قال فصلى ركعتين ودعا ربه فهاجت ريح ثم هاجت سحابة فمطروا حتى سالت الأودية وملؤا الأسقية فثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فمرَّ برجل يغترف بقدح له وهو يقول : سُقينا بنوء فلان ، ولم يقل : هذا من رزق الله ، فأنزل الله عزّوجل ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ " أي شكركم لله على رزقه إياكم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ بالنعمة وتقولون : سُقينا بنوء كذا ، وهذا كقول القائل : جعلت العطاء إليك إساءة منك إليَّ ، وجعلت شكر إكرامي لك أنك اتخذتني عدواً ، فمجاز الآية : وتجعلون شكر رزقكم ، فحذف

المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، كقوله ﴿ وَسْئَلِ القرية ﴾ [يوسف : 82] ونحوها .

قال الشاعر :

وكان شكر القوم عند المنن . . . كنَّ الصحيحات وقفا الأعين

ودليل هذا التأويل ما أخبرنا عبد الله بن حامد ، أخبرنا عمر بن الحسن ، حدّثنا أحمد ، حدّثنا أُبي ، حدّثنا حصين عن هارون بن سعد عن عبد الأعلى عن أبي عبد الرحمن عن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ : (وتجعلون شكركم أنكم تكذبون) .

وذكر الهيثم عن عدي أن من لغة أزد شنوءة : ما رزق فلان ، بمعنى ما شكر .

وأنبأني عقيل ، المعافي ، محمد بن جرير حدّثني يونس ، سفيان عن محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم بن الحرث التيمي عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " " ان الله سبحانه وتعالى ليصبح عباده بالنعمة أو يمسيهم بها فيصبح قوم كافرين يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا " .

(143/745)

قال محمد : فذكرت هذا الحديث لسعيد بن المسيب فقال : ونحن قد سمعنا من أبي هريرة ، وقد أخبرني من شهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يستسقي فلما إستسقى

التفت إلى العباس فقال : يا عم رسول الله كم بقي من نؤء الثريا ؟ فقال : " العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق بعد سقوطها سبعاً " قال : فما مضت سابعة حتى مطروا " .

أخبرنا عبد الله بن حامد ، أخبرنا محمد بن خالد ، أخبرنا داود بن سليمان ، حدّثنا عبد بن حميد ، حدّثنا هاشم بن القاسم ، حدّثنا محمد بن طلحة ، عن طلحة عن عبد الله بن محيريز قال : دعاه سليمان بن عبد الملك فقال : لو تعلّمت علم النجوم فازددت إلى علمك . فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ان أخوف ما أخاف على أمتي ثلاث : حيف الأئمة وتكذيباً بالقدر وإيماناً بالنجوم " .

ثم خاطبهم خطاب التحذير والترهيب فقال عزّ من قائل : ﴿ فَلَوْلاَ ﴾ فهّلا ﴿ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ يعني النفس ﴿ الحلقوم ﴾ عند خروجها من الجسد فأختزل النفس لدلالة الكلام عليه .

كقول الشاعر :

أماويَّ ما يغني الثراء عن الفتى . . . إذا حشرجت يوماً وضاق به الصدر

﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ إلى أمري وسلطاني .

وقال ابن عباس : يريد : من حضر الميت من أهله ينظرون إليه متى تخرج نفسه .

قال الفراء : وذلك معروف من كلام العرب أن يخاطبوا الجماعة بالفعل كانهم أهله وأصحابه ، والمراد به بعضهم غائباً كان أو شاهداً فيقولوا : قتلتم فلاناً والقاتل منهم واحد

. ويقولون لأهل المسجد إذا آذوا رجلا بالازدحام : اتقوا الله فإنكم تؤذون المسلمين ونحن أقرب إليه منكم بالقدرة والعلم ولا قدرة لكم على دفع شيء عنه .

قال عامر بن عبد قيس : ما نظرت إلى شيء إلاّ رأيت الله سبحانه أقرب إليَّ منه .

وقال بعضهم : أراد : ورسلنا الذين يقبضون .

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ولكن لاَّ تُبْصِرُونَ * فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ مملوكين ومحاسبين ومجزيين .

(144/745)

فإن قيل : فأين جواب قوله ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ وقوله ﴿ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ ﴾ ؟

قلنا : قال الفراء : إنهما أُجيبا بجواب واحد ، وهو قوله ﴿ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ وربما أعادت العرب الحرفين ومعناهما واحد فهذا من ذلك ، ومنه قوله ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ [البقرة : 38] . أجيبا بجواب واحد ، وهما جزآن ومن ذلك قوله و ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الذين يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوْاْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ ﴾ [آل عمران : 188] .

وقيل : في الآية تقديم وتأخير مجازها ﴿ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ أي تردّون

نفس هذا الميت إلى جسده إذا بلغت الحلقوم ، ثم ذكر طبقات الخلق عند الموت وفي البعث ، وبيّن درجاتهم فقال ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المقربين ﴾ وهم السابقون ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ قرأ الحسن وقتادة ويعقوب : بضم الراء على معنى أن روحه تخرج في الريحان . قاله الحسن . وقال قتادة : الروح الرحمة ، وقيل : معناه فحياة وبقاء لهم ، وذكر أنها قراءة النبي صلى الله عليه وسلم أخبرنا محمد بن نعيم ، أخبرنا الحسين بن أيوب ، أخبرنا علي بن عبد العزيز ، أخبرنا أبو عبيد ، حدّثنا مروان بن معاوية عن أبي حماد الخراساني عن بديل بن ميسرة عن عبد الله بن شقيق عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هذا الحرف : (فروح وريحان) بضم الراء .

وباسناده عن أبي عبيد ، حدّثنا حجاج عن هارون وأخبرنا عبد الله بن حامد ، أخبرنا عمر ابن الحسن ، أخبرنا أحمد ، حدّثنا أبي ، حدّثنا الحسين عن عبيد الله البصري عن هارون بن موسى المعلم أخبرني بديل بن ميسرة عن عبد الله بن شقيق عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ (فروح وريحان) بضم الراء .

وقرأ الآخرون : بفتح الراء .

واختلفوا في معناه ، فقال ابن عباس ومجاهد : فراحة . سعيد بن جبير : فرح . الضحّاك : مغفرة ورحمة .

﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ قال ابن عباس : مستراح . مجاهد وسعيد بن جبير : رزق . قال مقاتل : هو بلسان حمير ، يقال : خرجت أطلب ريحان الله أي رزقه .

قال الربيع بن خثيم وابن زيد : (فروح) عند الموت (وريحان) يخبّأ له في الآخرة .

وقال الآخرون : هو الريحان المعروف الذي يُشمّ .

قال أبو العالية : لا يفارق أحد من المقربين الدنيا حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيشمّه ثم يقبض .

و﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ قال أبو بكر الوراق : الرّوح : النجاة من النار ، والريحان : دخول دار القرار .

الترمذي : الروح : الراحة في القبر ، والريحان : دخول الجنة .

بسام بن عبد الله : الروح : السلامة ، والريحان : الكرامة .

شعر :

الروح معانقة الأبكار والريحان موافقة الأبرار . . . بحران الروح كشف الغطاء والريحان الروية واللقاء .

وقيل : الروح : الراحة ، والريحان : النجاة من الآفة ، وقيل : الروح : الموت على الشهادة ، والريحان : نداء السعادة ، وقيل : الروح : كشف الكروب ، والريحان : غفران الذنوب ، وقيل : الروح : الثبات على الايمان ، والريحان : نيل الأمن والأمان .

وقيل : الروح فضلة ، والريحان : (فضالة) . وقيل : الروح تخفيف الحساب ، والريحان : تضعيف الثواب .

وقيل : الروح عفو بلا عتاب ، والريحان : رزق بلا حساب .

ويقال : ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ للسابقين ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ للمقتصدين ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ للطالبين .

وقيل : الروح لأرواحهم ، والريحان لقلوبهم والجنة لأبدانهم والحق لأسرارهم .

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين * فَسَلَامٌ لَّكَ ﴾ رفع على معنى : فلك سلام ، وهو سلام لك ، أي سلامة لك يا محمد منهم فلا تهتمّ لهم فإنهم سلموا من عذاب الله .

(146/745)

وقال الفراء : مُسلّم لك أنهم من أصحاب اليمين . أو يقال لصاحب اليمين : إنه مسلم لك أنك ﴿ مِنْ أَصْحَابِ اليمين ﴾ وقيل : فسلام عليك ﴿ مِنْ أَصْحَابِ اليمين ﴾ .

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضالّين ﴾ وهم أصحاب المشأمة ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ *

وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ وإدخال النار ﴿ إِنَّ هذا ﴾ الذي ذكروا ﴿ لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ أي الحق اليقين فأضافه إلى نفسه ، وقد ذكرنا نظائره .

قال قتادة : في هذه الآية : إن الله عزّ وجل ليس تاركاً أحداً من الناس حتى يقفَه على اليقين من هذا القرآن ، فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة ، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه .

﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ ﴾ فصلّ بذكر ربك وأمره . وقيل : فاذكر اسم ربك العظيم وسبّحه .

أخبرنا ابن فنجويه ، حدّثنا ابن شنبه ، حدّثنا حمزة بن محمد الكاتب ، حدّثنا نعيم بن حماد ، حدّثنا عبد الله بن المبارك عن موسى بن أيوب الغافقي عن عمّه وهو اياس بن عامر عن عقبة بن عامر الجهني قال :

" لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ قال : " اجعلوها في ركوعكم " ولما نزلت ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اجعلوها في سجودكم " " .

أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد المقرىء ، حدّثنا أبو محمد عبد الله بن محمد الحافظ أخبرنا أبو بكر بن أبي عاصم النبيل ، حدّثنا الحوصي ، حدّثنا بقية ، عن يحيى بن سعيد ، عن خالد بن معدان عن أبي بلال عن العرباض بن سارية " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

كان يقرأ بالمسبّحات قبل أن يرقد ويقول : " إن فيهن آية أفضل من ألف آية " " .

قال : يعني بالمسبحات : الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 9 صـ 199. 226 ﴾

(147/745)

وقال الزمخشرى :

سورة الواقعة

مكية [إلا آيتي 81 و82 فمدنيتان] وآياتها 96 وقيل 97 آية [نزلت بعد طه] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الواقعة (56) : الآيات 1 إلى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ (2) خافِضَةٌ رافِعَةٌ (3) إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4)

وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا (5) فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا (6) وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً (7)

وَقَعَتِ الْواقِعَةُ كقولك : كانت الكائنة ، وحدثت الحادثة ، والمراد القيامة : وصفت

بالوقوع لأنها تقع لا محالة ، فكأنه قيل : إذا وقعت التي لا بدّ من وقوعها ، ووقوع الأمر : نزوله .

يقال : وقع ما كنت أتوقعه ، أى : نزل ما كنت أترقب نزوله . فإن قلت : بم انتصب إذا ؟ قلت : بليس . كقولك يوم الجمعة ليس لي شغل . أو بمحذوف ، يعنى : إذا وقعت كان كيت وكيت : أو بإضمار اذكر كاذِبَةٌ نفس كاذبة ، أى : لا تكون حين تقع نفس تكذب على اللّه وتكذب في تكذيب الغيب ، لأنّ كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدّقة ، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذبات ، كقوله تعالى فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ ، وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً واللام مثلها في قوله تعالى يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي أو : ليس لها نفس تكذبها وتقول لها : لم تكوني كما لها اليوم نفوس كثيرة يكذبنها ، يقلن لها : لن تكوني . أو هي من قولهم : كذبت فلانا نفسه في الخطب ، بعظيم ، إذا شجعته على مباشرته وقالت له : إنك تطيقه وما فوقه فتعرّض له ولا تبال به ، على معنى : أنها وقعة لا تطاق شدّة وفظاعة . وأن لا نفس حينئذ تحدث صاحبها بما تحدثه به عند عظائم الأمور وتزين له احتمالها وإطاقتها ، لأنهم يومئذ أضعف من ذلك وأذل . ألا ترى إلى قوله تعالى كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ والفراش مثل في الضعف . وقيل كاذِبَةٌ مصدر كالعاقبة بمعنى التكذيب ، من قولك : حمل على قرنه فما كذب ، أى : فما جبن وما ثبط . وحقيقته :

فما كذب نفسه فيما حدثته به . من إطاقته له وإقدامه عليه . قال زهير :

. . . . . إذا ما اللّيث كذّب عن أقرانه صدقا «1»

أى : إذا وقعت لم تكن لها رجعة ولا ارتداد خافِضَةٌ رافِعَةٌ على : هي خافضة رافعة ، ترفع أقواما وتضع آخرين : إما وصفا لها بالشدّة ، لأنّ الواقعات العظام كذلك : يرتفع فيها ناس إلى مراتب ويتضع ناس ، وإما لأنّ الأشقياء يحطون إلى الدركات ، والسعداء يرفعون إلى الدرجات ، وإما أنها تزلزل الأشياء وتزيلها عن مقارّها ، فتخفض بعضا وترفع بعضا :

حيث تسقط السماء كسفا وتنتثر الكواكب وتنكدر وتسير الجبال فتمرّ في الجوّ مرّ السحاب ، وقرئ : خافضة رافعة بالنصب على الحال رُجَّتِ حرّكت تحريكا شديدا حتى ينهدم كل شيء فوقها من جبل وبناء وَبُسَّتِ الْجِبالُ وفتت «2» حتى تعود كالسويق ، أو سيقت من بس العنم إذا ساقها ، كقوله وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ ، مُنْبَثًّا متفرقا . وقرئ بالتاء أى :

منقطعا . وقرئ : رجت وبست ، أى : ارتجت وذهبت . وفي كلام بنت الخس «3» :

عينها هاج، وصلاها راج. وهي تمشى وتفاج. فإن قلت: بم انتصب إذا رجت؟ قلت: هو بدل من إذا وقعت. ويجوز أن ينتصب بخافضة رافعة. أى: تخفض وترفع وقت رج الأرض، وبس الجبال لأنه عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ويرتفع ما هو منخفض أَزْواجاً أصنافا، يقال للأصناف التي بعضها مع بعض أو يذكر بعضها مع بعض: أزواج.

[سورة الواقعة (56): الآيات 8 إلى 9]

فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ (9)

فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ الذين يؤتونها بشمائلهم. أو أصحاب المنزلة السنية وأصحاب المنزلة الدنية، من قولك: فلان منى باليمين، فلان منى بالشمال: إذا وصفتهما بالرفعة عندك والضعة، وذلك لتيمنهم بالميامن وتشاؤمهم بالشمائل،

---

(1) ليث يعثر يصطاد الرجال إذا ما الليث كذب عن أقرانه صدقا

لزهير يمدح شجاعا، فاستعار له اسم الأسد على طريق التصريحية، والاصطياد ترشيح. وعثر: اسم موضع، أى شجاع في عثر يقتل الرجال إذا كذب أى جبن وضعف الفارس الشديد عن أقرانه في الحرب، صدق هو ونفذ عزمه وقتل قرنه، وفي البيت الطباق بين الصدق والكذب، وهو من بديع الكلام.

(2) . قوله «وفتت حتى تعود كالسويق» عبارة النسفي : وفتتت . (ع)

(3) . قوله «وفي كلام بنت الخس» في الصحاح : الخس بالفتح : بقلة . والخس بالضم : اسم رجل . ومنه :

هند بنت الخس . وعين هاجة : أي غائرة . والصلا : ما عن يمين الذنب ويساره .

وفججت ما بين رجلي أفجهما : إذا فتحت . يقال : هو يمشي مفاجا . (ع)

(149/745)

ولتفاؤلهم بالسانح «1» وتطيرهم من البارح ، ولذلك اشتقوا لليمين الاسم من اليمن ، وسموا الشمائل الشؤمى . وقيل : أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة : أصحاب اليمن والشؤم ، لأنّ السعداء هيامين على أنفسهم بطاعتهم ، والأشقياء مشائيم عليها بمعصيتهم . وقيل : يؤخذ بأهل الجنة ذات اليمين وبأهل النار ذات الشمال .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 10 إلى 26]

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14)

عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ

(17) بِأَكْوابٍ وَأَبارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُونَ (19)
وَفاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثالِ
اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (24)
لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً (25) إِلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً (26)

وَالسَّابِقُونَ المخلصون الذين سبقوا إلى ما دعاهم اللّه إليه وشقوا الغبار في طلب مرضاة اللّه عز وجل وقيل: الناس ثلاثة فرجل ابتكر الخير في حداثة سنه، ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا، فهذا السابق المقرّب، ورجل ابتكر عمره بالذنب وطول الغفلة، ثم تراجع بتوبة، فهذا صاحب اليمين، ورجل ابتكر الشر في حداثة سنه، ثم يزل عليه حتى خرج من الدنيا، فهذا صاحب الشمال ما أصحاب الميمنة. ما أصحاب المشأمة؟ تعجيب من حال الفريقين في السعادة والشقاوة «2».

---

(1). قوله «لتفائلهم بالسانح» هو ما مر من يسارك إلى يمينك من ظبى أو طائر. والبارح: عكسه. أفاده الصحاح. (ع)

(2). قال محمود: «ما» تعجيب من حال الفريقين... الخ» قال أحمد: اختار ما هو المختار، لأنه أقعد بالفصاحة، لكن بقي التنبيه على المخالفة بين المذكورين في السابقين وفي أصحاب اليمين، مع أن كل واحد منهما إنما أريد به التعظيم والتهويل لحال المذكورين، فنقول: التعظيم المؤدى بقوله السَّابِقُونَ أبلغ من قرينه، وذلك أن مؤدى هذا: أن أمر

السابقين وعظمة شأنه ما لا يكاد يخفى ، وإنما تحير فهم السامع فيه مشهور . وأما المذكور في قوله فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ فانه تعظيم على السامع بما ليس عنده منه علم سابق . ألا ترى كيف سبق بسط حال السابقين بقوله أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فجمع بين اسم الاشارة المشار به إلى معروف ، وبين الاخبار عنه بقوله الْمُقَرَّبُونَ معرفا بالألف واللام العهدية ، وليس مثل هذا مذكورا في بسط حال أصحاب اليمين ، فانه مصدر بقوله فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ .

(150/745)

والمعنى : أى شيء هم ؟ والسابقون السابقون ، يريد : والسابقون من عرفت حالهم وبلغك وصفهم ، كقوله وعبد اللّه عبد اللّه . وقول أبى النجم : وشعري شعري «1» ، كأنه قال : وشعري ما انتهى إليك وسمعت بفصاحته وبراعته ، وقد جعل السابقون تأكيدا . وأولئك المقرّبون :

خبرا وليس بذاك . ووقف بعضهم على : والسابقون ، وابتدأ السابقون أولئك المقرّبون ، والصواب أن يوقف على الثاني ، لأنه تمام الجملة ، وهو في مقابلة : ما أصحاب الميمنة ، وما أصحاب المشأمة الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ الذين قربت درجاتهم في الجنة من العرش

وأعليت مراتبهم .

وقرئ : في جنة النعيم . والثلة : الأمة من الناس الكثيرة . قال :

وجاءت إليهم ثلّة خندفيّة بجيش كتيّار من السّيل مزبد «2»

وقوله عز وجل وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ كفى به دليلا على الكثرة ، وهي من الثل وهو الكسر ، كما أنّ الأمّة من الأمّ وهو الشج ، كأنها جماعة كسرت من الناس وقطعت منهم . والمعنى : أنّ السابقين من الأوّلين كثير ، وهم الأمم من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلى اللّه عليه وسلم وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ وهم أمّة محمد صلى اللّه عليه وسلم . وقيل مِنَ الْأَوَّلِينَ من متقدّمى هذه الأمة ، ومِنَ الْآخِرِينَ من متأخريها . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «الثلثان جميعا من أمّتى» «3» . فإن قلت : كيف قال : وقليل من الآخرين ، ثم قال : وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ؟

---

(1) أنا أبو النجم وشعري شعري للّه درى ما أجن صدري

تنام عينى وفؤادي يسرى مع العفاريت بأرض قفر

لأبى النجم العجلى . يريد : أنا المعروف بالبلاغة بين الناس كالعلم المشهور . وشعري : هو البليغ المعروف بأنه شعر أبى النجم ، لأنه إذا اتحد المبتدأ والخبر أو الشرط والجزاء : دل الكلام على المبالغة في التعظيم أو في التحقير . وما هنا من الأول بدليل السياق . وفيه ادعاء أن نهاية العظمة في الرجل المسمى بأبى النجم ، ونهاية البلاغة في الشعر المنسوب

إليه . والدر : اللبن ، لكن المراد به العمل والصنع ، أى : للّه صنيعي ، يعنى : أنه عظيم .

وجن الليل : أظلم .

والنبت : طال والتف . والذباب : كثرت أصواته . وجنه الليل : ستره ، وأجنه الصدر : أكنه . وما تعجبية .

وأجن : فعل تعجب ، أى : شيء عظيم جعل صدري محيطا بالمعاني الغريبة ، ويحتمل أن «ما» بدل من درى .

وأجن : فعل ماض صلة أو صفة له ، ومؤادى : قلبي أو عقلى . يسرى : يسير ليلا . أى : يبيت فكرى كأنه ذاهب مع العفاريت بأرض فضاء لا نبات بها ، لا بعاده في المعاني .

والبيت الثاني بيان للأول .

(2) وجاءت إليهم ثلة خندفية بجيش كتيار من السيل مزيد

يقول : وجاءت اليهم جماعة من الناس منسوبة إلى خندف امرأة إلياس بن مضر . وقوله «بجيش» من باب التجريد ، كأنه انتزع من الثلة جيشا غيرها مبالغة في الكثرة . ويحتمل أن الباء بمعنى مع ، أو في ، لان الجيش أوسع من الثلة ، وهو من جاش إذا تحرك واضطرب ، كأنه يغلى ، والتيار : الماء الشديد الجري ، ومن بيانية أو تبعيضية . والمزيد : المرتفع زبده على وجهه لكثرته وفوراته .

(3) . أخرجه الطبري وابن عدى من رواية أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال في

هذه الآية ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «هما جميعا من أمتى» وأبان هو ابن أبى عياش متروك . ورواه إسحاق وسنده إلى الطيالسي وإبراهيم الحربي والطبراني من رواية زيد بن صهبان عن أبى بكرة مرفوعا وموقوفا . والموقوف أولى بالصواب . وعلى ضعيف .

(151/745)

قلت : هذا في السابقين وذلك في أصحاب اليمين ، وأنهم يتكاثرون من الأولين والآخرين جميعا .

فإن قلت : فقد روى أنها لما نزلت شق ذلك على المسلمين ، فما زال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يراجع ربه حتى نزلت ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ . قلت : هذا لا يصح لأمرين ، أحدهما : أنّ هذه الآية واردة في السابقين ورودا ظاهرا ، وكذلك الثانية في أصحاب «1» اليمين .

ألا ترى كيف عطف أصحاب اليمين ووعدهم ، على السابقين ووعدهم ، والثاني : أنّ النسخ في الأخبار غير جائز . وعن الحسن رضى اللّه عنه : سابقو الأمم أكثر من سابقي أمّتنا ، وتابعو الأمم مثل تابعي هذه الأمّة . وثلة : خبر مبتدإ محذوف ، أى : هم ثلة

مَوْضُونَةٍ مرمولة بالذهب ، «2» مشبكة بالدرّ والياقوت ، قد دوخل بعضها في بعض كما توضن حلق الدرع .

قال الأعشى :

ومن نسج داود موضونة «3»

وقيل : متواصلة ، أدنى بعضها من بعض . مُتَّكِئِينَ حال من الضمير في على ، وهو العامل فيها ، أى : استقرّوا عليها متكئين مُتَقَابِلِينَ لا ينظر بعضهم في أقفاء بعض . وصفوا بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق والآداب مُخَلَّدُونَ مبقون أبدا على شكل الولدان وحدّ الوصافة ، «4» لا يتحوّلون عنه . وقيل : مقرّطون ، والخلدة : القرط . وقيل : هم أولاد أهل الدنيا : لم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها ، ولا سيئات فيعاقبوا عليها . روى عن على رضى اللّه عنه وعن الحسن .

وفي الحديث : «أولاد الكفار خدّام أهل الجنة» «5» . الأكواب : أوان بلا عرى وخراطيم ،

---

(1) . قوله «وكذلك الثانية في أصحاب اليمين» أى ظاهرة الورود . (ع) [. . . . .]

(2) . قوله «مرمولة بالذهب» في الصحاح : رملت الحصير ، أى : سففته . وفيه أيضا : سففت الخوص : أى نسجته . (ع)

(3) ومن نسج داود موضونة تساق مع الحي عيرا فعيرا

للأعشى ، يصف الدروع ، وجعلها من نسج سيدنا داود مبالغة في حسن صنعتها ، لأنه نسجها بأمر من اللّه وتعليمه له . موضونة : أى مدخل بعضها في بعض ، فهي محكمة النسج لتساق ، أى : أصحابها مع الحي . والعير بالفتح :

السيد ، أى سيدا بعد سيد متربين ، ويطلق العير على طائر يطير فوق القافلة السائرة ، وتبعد إرادته هنا .

(4) . قوله «وحد الوصافة» هي بلوغ الغلام حد الخدمة . أفاده الصحاح . (ع)

(5) . أخرجه البزار والطبراني في الأوسط من رواية عباد بن منصور عن أبى رجاء العطاردي عن سمرة بن جندب قال «سألنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال هم خدم أهل الجنة» ورواه البزار من براية على بن زيد بن جدعان والطيالسي والطبراني وأبو يعلى من رواية يزيد الرقاشي كلاهما عن أنس بهذا وأتم منه قلت : قد يعارضه حديث سمرة في صحيح البخاري . فقيه أنه رأى أولاد الناس تحت شجرة يكفلهم إبراهيم عليه السلام قال فقلنا : وأولاد المشركين ؟ قال : وأولاد المشركين» أخرجه بهذا اللفظ . ويمكن الجمع بينهما بأن لا منافاة بينهما لاحتمال أن يكونوا في البرزخ كذلك ، ثم بعد الاستقرار يستقرون في الجنة خدما لأهلها .

والأباريق ، ذوات الخراطيم لا يُصَدَّعُونَ عَنْها أى بسببها ، وحقيقته : لا يصدر صداعهم عنها . أو لا يفرّقون عنها . وقرأ مجاهد : لا يصدعون ، بمعنى : لا يتصدعون لا يتفرقون ، كقوله يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ويصدعون ، أى : لا يصدع بعضهم بعضا ، لا يفرّقونهم يَتَخَيَّرُونَ يأخذون خيره وأفضله يَشْتَهُونَ يتمنون . وقرئ : ولحوم طير . قرئ : وحور عين ، بالرفع على : وفيها حور عين ، كبيت الكتاب :

إلّا رواكد جمرهنّ هباء ومشجّج . . . . . «1» . .

أو للعطف على ولدان ، وبالجر : عطفا على جنات النعيم ، كأنه قال : هم في جنات النعيم ، وفاكهة ولحم وحور . أو على أكواب ، لأن معنى يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوابٍ ينعمون بأكواب ، وبالنصب على : ويؤتون حورا جَزاءً مفعول له ، أى : يفعل بهم ذلك كله جزاء بأعمالهم سَلاماً سَلاماً إما بدل من قِيلًا بدليل قوله لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلَّا سَلاماً وإما مفعول به لقيلا ، بمعنى : لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا سلاما سلاما . والمعنى : أنهم يفشون السلام بينهم ، فيسلمون سلاما بعد سلام . وقرئ سلام سلام ، على الحكاية .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 27 إلى 40]

وَأَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ (27) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (28) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (29) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (30) وَماءٍ مَسْكُوبٍ (31)

وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (33) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (34) إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً (35) فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً (36)

عُرُباً أَتْراباً (37) لِأَصْحابِ الْيَمِينِ (38) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (39) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (40)

---

(1) بادت وغير آيهن مع البلى إلا رواكد جمرهن هباء

ومشجج إما سواء قذاله فبدا وغير ساره المغراء

الشماخ، وقيل: لذي الرمة، وهي من أبيات الكتاب. وباد يبيد: هلك يهلك. والآي: اسم جمع آية وهي علامة والرواكد: الأثافى. وهي الأحجار التي توضع عليها للقدر. والهباء: الرماد المختلط بالتراب. والمشجج: صفة جرت مجرى الاسم لوتد الخباء الذي تشجج رأسه من الدق. فبرز حول رأسه أطراف تشبه القذال، وهو شعر جوانب الرأس. وسواء الشيء. وسطه. ويروى: غيب، بدل: غير. والسار بالهمز وتركه: البقية. والمغراء:

أرض يخالط ترابها حجارة وحصى، يقول هلكت لك الديار وبليت آثارها، ولم يبق إلا محل النار وبقية وتد الخباء. ويروى: رواكد بالنصب، فعطف المرفوع على المنصوب اعتمادا على المعنى.

السدر : شجر النبق . والمخضود : الذي لا شوك له ، كأنما خضد شوكه «1» . وعن مجاهد :

الموقر الذي تثنى أغصانه كثرة حمله ، من خضد الغصن إذا ثناء وهو رطب . والطلح : شجر الموز . وقيل : هو شجر أم غيلان ، وله نوار كثير طيب الرائحة . وعن السدى : شجر يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل . وعن على رضى اللّه عنه أنه قرأ : وطلع ، وما شأن الطلح ، «2» وقرأ «3» قوله لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ فقيل له : أو نحوّلها ؟ فقال : آي القرآن لا تهاج اليوم ولا تحوّل . وعن ابن عباس نحوه . والمنضود : الذي نضد «4» بالحمل من أسفله إلى أعلاه ، فليست له ساق بارزة وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ممتدّ منبسط لا يتقلص ، كظلّ ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس مَسْكُوبٍ يسكب لهم أين شاءوا وكيف شاءوا لا يتعنون فيه . وقيل : دائم الجرية لا ينقطع . وقيل : مصبوب يجرى على الأرض في غير أخدود لا مَقْطُوعَةٍ هي دائمة لا تنقطع في بعض الأوقات كفواكه الدنيا وَلا مَمْنُوعَةٍ لا تمنع عن متناولها بوجه ، ولا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا . وقرئ : وفاكهة كثيرة ، بالرفع على : وهناك فاكهة ، كقوله : وحور عين وَفُرُشٍ جمع فراش . وقرئ : وفرش ، بالتخفيف مَرْفُوعَةٍ نضدت حتى ارتفعت . أو مرفوعة على الأسرة . وقيل : هي النساء ، لأن المرأة يكنى عنها بالفراش مرفوعة على الأرائك . قال اللّه تعالى هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي

ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ ، ويدل عليه قوله تعالى إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً وعلى التفسير الأول أضمر لهنّ ، لأنّ ذكر الفرش وهي المضاجع دلّ عليهن أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً أى ابتدأنا خلقهن ابتداء جديدا من غير ولادة ، فإما أن يراد . اللاتي ابتدئ إنشاؤهن ، أو اللاتي أعيد إنشاؤهن . وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «5» . أنّ أمّ سلمة رضى اللّه عنها سألته عن قوله اللّه تعالى . إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ فقال : يا أم سلمة

---

(1) . قوله «كأنما خضد شوكه» في الصحاح «خضدت الشجر» قطعت شوكه ، وخضدت العود ، أى : ثنيته من غير كسر . (ع)

(2) . قوله «و ما شأن الطلح» لعله : وقال ما شأن الطلح . (ع)

(3) . قوله «و قرأ» أى : استشهادا على قراءته . (ع)

(4) . قوله «و المنضود الذي نضد» في الصحاح : أنه المرصوص بعضه فوق بعض . (ع)

(5) . أخرجه الثعلبي بتمامه من طريق الحسن بن علوية القطان عن إسماعيل بن عيسى عن المسيب بن شريك فذكره ولم يرفع إلا قصة عائشة . ومن طريق غنجار حدثنا إسماعيل بن أبى الباد عن يونس عن الحسن عن أم سلمة مرفوعا دون قصة عائشة . وروى الطبري والطبراني وابن مردويه من طريق عمر بن هاشم البيروتى عن سليمان بن أبى كريمة عن هشام عن الحسن عن أمه عن أم سلمة قالت : قلت يا رسول اللّه ، أخبرنى عن قوله تعالى عُرُباً أَتْراباً فذكره . وفيه «فجعلهن عذارى عربا متعشقات متحببات إلى أزواجهن ،

أترابا على ميلاد واحد» وروى الترمذي من طريق موسى بن عبيدة عن يزيد الزقاش طرفا منه واستضعفه.

(154/745)

هنّ اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شمطاء رمصاء «1»، جعلهنّ اللّه بعد الكبر أَتْراباً على ميلاد واحد في الاستواء «2»، كلما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكارا، فلما سمعت عائشة رضى اللّه عنها ذلك من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قالت: وأوجعاه فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: ليس هناك وجع. وقالت عجوز لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: ادع اللّه أن يدخلني الجنة، لقال: إنّ الجنة لا تدخلها العجائز، فولت وهي تبكى، فقال عليه الصلاة السلام: «أخبروها أنها ليست يومئذ بعجوز» «3» وقرأ الآية عُرُباً وقرئ: عربا، بالتخفيف جمع عروب وهي المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل أَتْراباً مستويات في السن بنات ثلاث وثلاثين، وأزواجهنّ أيضا كذلك. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: يدخل أهل الجنة الجنة جردا مردا بيضا جعادا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين» «4» واللام فِي لِأَصْحابِ الْيَمِينِ من صلة أنشأنا وجعلنا.

[سورة الواقعة (56): الآيات 41 إلى 56]

وَأَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ
(43) لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (44) إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ (45)
وَكانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (46) وَكانُوا يَقُولُونَ أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ (47) أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (48) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلى
مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50)
ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52) فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ
(53) فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (55)
هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (56)

---

(1) . قوله «عجائز شمطاء رمصا» في الصحاح «الشمط» : بياض شعر الرأس يخالط سواده ، والرجل أشمط ، والمرأة شمطاء . وفيه : الرمص : وسخ يجتمع في الموق ، وقد رمصت عينه ، والرجل أرمص اه ، أى : والمرأة رمصاء ، والجمع شمط ورمص . (ع)

(2) . قوله «ميلاد واحد في الاستواء» لعله متعلق بمعنى التشبيه ، أى : كأنهن على ميلاد واحد في استواء الخلق . (ع)

(3) . أخرجه الترمذي في الشمائل من رواية مبارك بن فضالة عن الحسن بهذا مرسلا وسياقه أتم . وله طرق أخرى . منها في البعث البيهقي من رواية ليث بن أبى سليم عن مجاهد عن عائشة . ومنها في الأوسط من رواية مسعدة ابن اليسع عن سعيد عن قتادة

عن سعيد بن المسيب عن عائشة . ورواه خارجة بن مصعب عن سعيد عن قتادة عن أنس . وكلها ضعيفة .

(4) . أخرجه أحمد وابن أبى شبية وأبو يعلى والطبراني في الأوسط من رواية حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة بهذا . وزاد على خلق آدم ستون ذراعا عرض سبعة أذرع . وذكر ابن أبى حاتم في العلل أن أباه قال : رواه أبو سلمة عن حماد مرسلا ولم يذكر فيه أبا هريرة وكذا أخرجه ابن سعد عن يحيى بن السكن عن حماد . وعلى بن زيد ضعيف . وفي الباب عن معاذ بن جبل . أخرجه الترمذي وقال : غريب .

وبعض أصحاب قتادة أرسلوه . وأخرجه البيهقي موصولا ، ثم أخرجه موقوفا على قتادة . [. . . . .]

(155/745)

فِي سَمُومٍ في حر نار ينفذ في المسام وَحَمِيمٍ وماء حار متناه في الحرارة وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ من دخان أسود بهيم لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ نفى لصفتى الظل عنه ، يريد : أنه ظل ، ولكن لا كسائر الظلال : سماه ظلا ، ثم نفى عنه برد الظل وروحه ونفعه لمن يأوى إليه من أذى الحر وذلك

كرمه ليمحق ما في مدلول الظل من الاسترواح إليه . والمعنى أنه ظل حارّ ضارّ إلا أنّ للنفي في نحو هذا شأنا ليس للإثبات . وفيه تهكم بأصحاب الشأمة ، وأنهم لا يستأهلون الظل البارد الكريم الذي هو لأضدادهم في الجنة . وقرئ : لا بارد ولا كريم بالرفع ، أى : لا هو كذلك والْحِنْثِ الذنب العظيم . ومنه قولهم : بلغ الغلام الحنث ، أى : الحلم ووقت المؤاخذة بالمآثم .

ومنه : حنث في يمينه ، خلاف : برّ فيها . ويقال : تحنث إذا تأثم وتحرج أَوَآباؤُنَا دخلت همزة الاستفهام على حرف العطف . فإن قلت : كيف حسن العطف على المضمر في لَمَبْعُوثُونَ من غير تأكيد بنحن ؟ قلت : حسن للفاصل الذي هو الهمزة ، كما حسن في قوله تعالى ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا لفصل لا المؤكدة النفي . وقرئ : أو آباؤنا . وقرئ : لمجمعون «1» إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ إلى ما وقتت به الدنيا من يوم معلوم ، والإضافة بمعنى من ، كخاتم فضة . والميقات :

ما وقت به الشيء ، أى : حدّ . ومنه مواقيت الإحرام : وهي الحدود التي لا يتجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرما أَيُّهَا الضَّالُّونَ عن الهدى الْمُكَذِّبُونَ بالبعث ، وهم أهل مكة ومن في مثل حالهم مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ من الأولى لابتداء الغاية ، والثانية لبيان الشجر وتفسيره . وأنث ضمير الشجر على المعنى ، وذكره على اللفظ في قوله مِنْهَا وعَلَيْهِ ومن قرأ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فقد جعل الضميرين للشجرة ، وإنما ذكر الثاني على تأويل الزقوم ، لأنه تفسيرها

وهي في معناه شُرْبَ الْهِيمِ قرئ بالحركات الثلاث ، فالفتح والضم : مصدران .

وعن جعفر الصادق رضى اللّه عنه ، أيام أكل وشرب ، بفتح الشين . وأما المكسور فبمعنى المشروب ، أى : ما يشربه الهيم وهي الإبل التي بها الهيام ، وهو داء تشرب منه فلا تروى :

جمع أهيم وهيماء . قال ذو الرمّة :

---

(1) . قوله «و قرئ : لمجمعون إلى ميقات» في الصحاح : أجمعت الشيء : جعلته جميعا . (ع)

فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد صداها ولا يقضى عليها هيامها «1»

وقيل الهيم : الرمال . ووجهه أن يكون جمع الهيام بفتح الهاء وهو الرمل الذي لا يتماسك ، جمع على فعل كسحاب وسحب ، ثم خفف وفعل به ما فعل بجمع أبيض . والمعنى : أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرّهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل ، فإذا ملؤوا منه البطون يسلط عليهم من العطش ما يضطرّهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم ، فيشربونه شرب الهيم . فإن قلت : كيف صحّ عطف الشاربين على الشاربين ، وهما لذوات متفقة ،

وصفتان متفقتان ، فكان عطفا للشيء على نفسه ؟ قلت : ليسنا بمتفقتين ، من حيث إنّ كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه : من تناهى الحرارة وقطع الأمعاء : أمر عجيب ، وشربهم له على ذلك كما تشرب الهيم الماء :

أمر عجيب أيضا ، فكانتا صفتين مختلفتين . النزل : الرزق الذي يعدّ للنازل تكرما له . وفيه تهكم ، كما في قوله تعالى فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ وكقول أبى الشعر الضبي .

وكنّا إذا الجبّار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والموهفات له نزلا «2»

وقرئ : نزلهم بالتخفيف .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 57 إلى 62]

نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ (57) أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ (59) نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ (61)

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (62)

---

(1) وقد زودت مى على النأى قبلة علاقات حاجات طويل سقامها

فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد صداها ولا يقضى عليها هيامها

لذي الرمة ، يقول : وقد زودتنا ، أى جعلت زادنا مى عند الرحيل قبلة ، فكانت القبلة علاقات الحاجات وأسباب التطلع إلى الوصال ، فعلاقات : خبر مرفوع ، أو بدل منصوب .

والسقام ككلام ، وسقم كتعب ، وسقم كبخل :

مصدر سقم كتعب تعبا ، أى : عناؤها طويل المدة لا يبرأ . ويقال للجمل : أهيم . وللناقة هيماء ، إذا أصابهما الهيام بالضم : وهو داء تغلى منه قلوب الإبل كالعطش الشديد ، أى : فأصبحت كالناقة الهيماء . وقوله «لا الماء مبرد» استئناف مبين لوجه الشبه فيها . أو حال منها ، أى : لا يبرد الماء ظمأها ولا يقضى عليها ، أى : لا يمينها هيامها ، فأنا كذلك لا وصال فيشفينى ، ولا التلهف يميتني . ويروى : ولا يقضى على هيامها ، ولعل معناه : لا الماء يبرد الحرقة التي حصلت لي منها ، ولا يميتني الهيام الذي حصل لي منها ، ولكن الأولى أقعد وأجود معنى .

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 458 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(157/745)

فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ تحضيض على التصديق : إما بالخلق لأنهم وإن كانوا مصدّقين به ، إلا أنهم لما كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق ، فكأنهم مكذبون به . وإما بالبعث ، لأنّ من خلق أولا لم يمتنع عليه أن يخلق ثانيا ما تُمْنُونَ ما تمنونه ، أى : تقذفونه في الأرحام من

النطف . وقرأ أبو السمال بفتح التاء ، يقال : أمنى النطفة ومناها . قال اللّه تعالى مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى . تَخْلُقُونَهُ تقدرونه وتصوّرونه قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ تقديرا وقسمناه عليكم قسمة الرزق على اختلاف وتفاوت كما تقتضيه مشيئتنا ، فاختلفت أعماركم من قصير وطويل ومتوسط .

وقرئ : قدرنا بالتخفيف . سبقته على الشيء : إذا أعجزته عنه وغلبته عليه ولم تمكنه منه ، فمعنى قوله وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ أنا قادرون على ذلك لا تغلبوننا عليه ، وأمثالكم جمع مثل : أى على أن نبدل منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق ، وعلى أن نُنْشِئَكُمْ

في خلق لا تعلمونها وما عهدتم بمثلها ، يعنى : أنا نقدر على الأمرين جميعا : على خلق ما يماثلكم ، وما لا يماثلكم ، فكيف نعجز عن إعادتكم . ويجوز أن يكون أَمْثالَكُمْ جمع مثل ، أى : على أن نبدل ونغير صفاتكم التي أنتم عليها في خلقكم وأخلاقكم ، وننشئكم في صفات لا تعلمونها .

قرئ النشأة والنشاءة . وفي هذا دليل على صحة القياس حيث جهّلهم في ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 63 إلى 67]

أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً

فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67)

أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ من الطعام ، أى : تبذرون حبه وتعملون في أرضه أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ تنبتونه وتردونه نباتا ، يرف وينمى «1» إلى أن يبلغ الغاية . وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

«لا يقولن أحدكم : زرعت ، وليقل : حرثت» «2» قال أبو هريرة : أرأيتم إلى «3» قوله :

---

(1) . قوله «نباتا يرف وينمى» في الصحاح : رف لونه يرف - بالكسر - برق وتلألأ . وشجر رفيف : إذا تندت أوراقه . (ع)

(2) . أخرجه ابن حبان والبزار والطبراني من طريق مخلد بن حسين عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة بهذا قال : ثم قرأ أبو هريرة أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ .

(3) . قوله «قال أبو هريرة : أرأيتم» أى استشهد على الحديث بالآية ، وهي قوله تعالى أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ وقوله «أ رأيتم» خطاب لمن يسمع منه ، وأراد معنى النظر ، فعداء بإلى كقوله أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ . (ع)

أَفَرَأَيْتُمْ . . . الآية. والحطام: من حطم، كالفتات والجذاذ من فت وجذ: وهو ما صار هشيما وتحطم فَظَلْتُمْ وقرئ بالكسر. وفظللتم على الأصل تَفَكَّهُونَ تعجبون. وعن الحسن رضى اللّه عنه: تندمون على تعبكم فيه وإنفاقكم عليه. أو على ما اقترفتم من المعاصي التي أصبتم بذلك من أجلها. وقرئ: تفكنون. ومنه الحديث «مثل العالم كمثل الحمة يأتيها البعداء «1» ويتركها القرباء فبيناهم إذ غار ماؤها فانتفع بها قوم وبقي قوم يتفكنون» «2» أى:

يتندمون إِنَّا لَمُغْرَمُونَ لملزمون غرامة ما أنفقنا. ومهلكون لهلاك رزقنا، من الغرام: وهو الهلاك بَلْ نَحْنُ قوم مَحْرُومُونَ محارفون محدودون، لاحظ لنا ولا بخت لنا، ولو كنا مجدودين، لما جرى علينا هذا. وقرئ: أئنا.

[سورة الواقعة (56): الآيات 68 إلى 70]

أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (70)

الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ يريد: الماء العذب الصالح للشرب. والْمُزْنِ السحاب: الواحدة مزنة. وقيل: هو السحاب الأبيض خاصة، وهو أعذب ماء أُجاجاً ملحا زعاقا «3» لا يقدر على شربه. فإن قلت: لم أدخلت اللام على جواب لَوْ في قوله لَجَعَلْناهُ حُطاماً ونزعت منه هاهنا؟ قلت: إنّ «لو» لما كانت داخلة على جملتين معلقة ثانيتهما بالأولى تعلق الجزاء

بالشرط ، ولم تكن مخلصة للشرط كإن ولا عاملة مثلها ، وإنما سرى فيها معنى الشرط اتفاقا من حيث إفادتها في مضمونى جملتيها أنّ الثاني امتنع لامتناع الأوّل : افتقرت في جوابها إلى ما ينصب علما على هذا التعلق ، فزيدت هذه اللام لتكون علما على ذلك ، فإذا حذفت بعد ما صارت علما مشهورا مكانه ، فلأن الشيء إذا علم وشهر موقعه وصار مألوفا ومأنوسا به : لم يبال بإسقاطه عن اللفظ ، استغناء بمعرفة السامع . ألا ترى إلى ما يحكى عن رؤبة أنه كان يقول : خير ، لمن قال له : كيف أصبحت ؟ فحذف الجار لعلم كل أحد بمكانه . وتساوى حالى حذفه وإثباته لشهرة أمره . وناهيك بقول أوس :

حتى إذا الكلّاب قال لها كاليوم مطلوبا ولا طلبا «4»

---

(1) . قوله «كمثل الحمة يأتيها البعداء» في الصحاح «الحمة» : العين الحارة يستشفى بها الأعلاء والمرضى . وفي الحديث : «العالم كالحمة» اه . (ع)

(2) . لم أجده

(3) . قوله «ملحا زعاقا» في الصحاح «الماء الزعاق» : الملح . وطعام مزعوق : إذا كثر ملحه . (ع)

(4) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 288 فراجعه إن شئت اه مصححه .

وحذفه «لم أر» فإذن حذفها اختصار لفظي وهي ثابتة في المعنى ، فاستوى الموضعان بلا فرق بينهما ، على أن تقدّم ذكرها والمسافة قصيرة مغن عن ذكرها ثانية ونائب عنه .

ويجوز أن يقال : إنّ هذه اللام مفيدة معنى التوكيد لا محالة ، فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب ، للدلالة على أن أمر المطعوم مقدّم على أمر المشروب ، وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب ، من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعا للمطعوم . ألا ترى أنك إنما تسقى ضيفك بعد أن تطعمه ، ولو عكست قعدت تحت قول أبى العلاء :

إذا سقيت ضيوف النّاس محضا سقوا أضيافهم شبما زلالا «1»

وسقى بعض العرب فقال : أنا لا أشرب إلا على ثميلة ، ولهذا قدّمت آية المطعوم على آية المشروب .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 71 إلى 74]

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (72) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ (73) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (74)

تُورُونَ تقدحونها وتستخرجونها من الزناد والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر

، ويسمون الأعلى : الزند ، والأسفل : الزندة ، شبهوهما بالفحل والطروقة «2» شَجَرَتَها التي منها الزناد تَذْكِرَةً تذكيرا لنار جهنم ، حيث علقنا بها أسباب المعايش كلها ، وعممنا بالحاجة إليها البلوى لتكون حاضرة للناس ينظرون إليها ويذكرون ما أوعدوا به . أو جعلناها تذكرة وأنموذجا من جهنم ، لما روى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزأ من حرّ جهنم» «3» وَمَتاعاً ومنفعة لِلْمُقْوِينَ للذين ينزلون القواء وهي القفر . أو للذين خلت بطونهم أو مزاودهم من الطعام . يقال : أقويت من

---

(1) . لأبى العلاء يمدح سعد الدولة أبا الفضائل ، وعيب عليه حيث مدح بسقى الضيوف الماء قبل ذكر الطعام .

والمخض - بمعجمتين - : اللبن المنزوع زبده ، فهو بمعنى الممخوض . ويروى : محضا ، بالحاء المهملة ، أى : خالصا حلوا أو حامضا . والشبم - كحذر - : البارد . والزلال : العقب . هذا وحيث جعل علماء البلاغة للمقام مدخلا في الدلالة على المراد فنقول : إن معنى البيت : إذا عجلت الناس اللبن لأضيافهم واكتفوا به عن الاسراع بالطعام : عجلوا هم بالطعام لضيوفهم لاستعدادهم للضيفان ، فيحتاجون لشرب الماء ، فيسقونهم ماء قبل إطعام غيرهم الضيفان ، فسقيهم الماء يفيد تعجيل الطعام قبله بمعونة المقام ، لأنه يلزمه عادة فلا عيب فيه .

(2) . قوله «بالفحل والطروقة» أنثى الفحل ، كما في الصحاح. (ع)

(3) . متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(160/745)

أيام ، أى لم آكل شيئا فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ فأحدث التسبيح بذكر اسم ربك ، أو أراد بالاسم : الذكر ، أى : بذكر ربك . والْعَظِيمِ صفة للمضاف أو للمضاف إليه . والمعنى : أنه لما ذكر ما دل على قدرته وإنعامه على عباده قال : فأحدث التسبيح وهو أن يقول : سبحان اللّه ، إمّا تنزيها له عما يقول الظالمون الذين يجحدون وحدانيته ويكفرون نعمته ، وإما تعجبا من أمرهم في غمط آلائه «1» وأياديه الظاهرة ، وإما شكرا للّه على النعم التي عدّها ونبه عليها .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 75 إلى 80]

فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ (78) لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79)

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (80)

فَلا أُقْسِمُ معناه فأقسم . ولا مزيدة مؤكدة مثلها في قوله لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ وقرأ الحسن :

فلأقسم . ومعناه : فلأنا أقسم : اللام لام الابتداء «2» دخلت على جملة من مبتدإ وخبر ، وهي : أنا أقسم ، كقولك «لزيد منطلق» ثم حذف المبتدأ ، ولا يصح أن نكون اللام لام القسم لأمرين ، أحدهما : أن حقها أن يقرن بها النون المؤكدة ، والإخلال بها ضعيف قبيح . والثاني : أن «لأفعلن» في جواب القسم للاستقبال ، وفعل القسم يجب أن يكون للحال بِمَواقِعِ النُّجُومِ بمساقطها ومغاربها ، لعل للّه تعالى في آخر الليل إذا انحطت النجوم إلى المغرب أفعالا مخصوصة عظيمة ، أو للملائكة عبادات موصوفة ، أو لأنه وقت قيام المتهجدين والمبتهلين إليه من عباده الصالحين ، ونزول الرحمة والرضوان عليهم ، فلذلك أقسم بمواقعها ، واستعظم ذلك بقوله وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ أو أراد بمواقعها : منازلها ومسايرها ، وله تعالى في ذلك من الدليل على عظيم القدرة والحكمة ما لا يحيط به الوصف .

وقوله وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ اعتراض في اعتراض ، لأنه اعترض به بين المقسم والمقسم «3» عليه ، وهو قوله إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ واعترض ب لَوْ تَعْلَمُونَ بين الموصوف وصفته .

---

(1) . قوله «في غمط آلائه» أي تحقير نعمه . أفاده الصحاح . (ع) [. . . . .]

(2) . قال محمود : «لا زائدة مؤكدة مثلها في قوله لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ قال : وقرأ الحسن فلأقسم» واللام في هذه للابتداء . . . الخ» قلت : تلخيص الرد بهذا الوجه الثاني : أن سياق الآية يرشد إلى أن القسم بمواقع النجوم واقع ، ويدل عليه القراءة الأخرى على زيادة

لا : ومقتضى جعلها جوابا لقسم محذوف أن لا يكون القسم بمواقع النجوم واقعا ، بل مستقبلا ، فتتنافس القراءتان إذا ، والله الموفق للصواب .

(3) . قال محمود : «قوله وإنه لقسم لو تعلمون عظيم : اعتراض في اعتراض فالجملة الكبرى اعتراض بين القسم والجواب . . . الخ» قال أحمد : وعلى هذا التفسير يكون جواب القسم مناسبا للمقسم ، مثل قوله حم وَالْكِتابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا ومن واديه :

وثناياك إنها إغريض

كما تقدم .

(161/745)

وقيل : مواقع النجوم : أوقات وقوع نجوم القرآن ، أى : أوقات نزولها كريم حسن مرضى في جنسه من الكتب . أو نفاع جم المنافع . أو كريم على اللّه فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ مصون من غير المقربين من الملائكة ، لا يطلع عليه من سواهم ، وهم المطهرون من جميع الأدناس أدناس الذنوب وما سواها : إن جعلت الجملة صفه لكتاب مكنون وهو اللوح . وإن جعلتها صفة للقرآن ، فالمعنى لا ينبغي أن يمسه إلا من هو على الطهارة من الناس ، يعنى مس المكتوب

منه . ومن الناس من حمله على القراءة أيضا ، وعن ابن عمر أحب إلىّ أن لا يقرأ إلا وهو طاهر ، وعن ابن عباس في رواية أنه كان يبيح القراءة للجنب ، ونحوه قول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» «1» أى لا ينبغي له أن يظلمه أو يسلمه .

وقرئ : المتطهرون ، والمطهرون بالإدغام . والمطهرون ، من اطهره بمعنى طهره . والمطهرون بمعنى : يطهرون أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار لهم والوحى الذي ينزلونه تَنْزِيلٌ صفة رابعة للقرآن ، اى : منزل من رب العالمين . أو وصف بالمصدر ، لأنه نزل نجوما من بين سائر كتب اللّه تعالى ، فكأنه في نفسه تنزيل ، ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه ، فقيل : جاء في التنزيل كذا ، ونطق به التنزيل . أو هو تنزيل على حذف المبتدإ . وقرئ : تنزيلا ، على : نزل تنزيلا

،

[سورة الواقعة (56) : الآيات 81 إلى 82]

أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (81) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (82)

أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ يعنى القرآن أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ اى : متهاونون به ، كمن يدهن في الأمر ، أى يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاونا به وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ على حذف المضاف ، يعنى : وتجعلون شكر رزقكم التكذيب ، أى : وضعتم التكذيب موضع الشكر .

وقرأ على رضى اللّه عنه : وتجعلون شكركم أنكم تكذبون . وقيل : هي قراءة رسول اللّه

صلى اللّه عليه وسلم . والمعنى وتجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به . وقيل : نزلت في الأنواء ونسبتهم السقيا إليها . والرزق : المطر ، يعنى : وتجعلون شكر ما يرزقكم اللّه من الغيث أنكم تكذبون بكونه من اللّه ، حيث تنسبونه إلى النجوم . وقرئ : تكذبون وهو قولهم في القرآن : شعر وسحر وافتراء . وفي المطر : وهو من الأنواء ، ولأنّ كل مكذب بالحق كاذب .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 83 إلى 96]

فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (87) فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (89) وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (91) وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92)

فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94) إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)

---

(1) . متفق عليه من حديث ابن عمر . ولمسلم من طريق أبى هريرة بعضه .

ترتيب الآية : فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين . وفَلَوْلا الثانية مكررة للتوكيد ، والضمير في تَرْجِعُونَها للنفس وهي الروح ، وفي أَقْرَبُ إِلَيْهِ للمحتضر غَيْرَ مَدِينِينَ غير مربوبين ، من دان السلطان الرعية إذا ساسهم . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ «1» يا أهل الميت بقدرتنا وعلمنا ، أو بملائكة الموت . والمعنى : إنكم في جحودكم أفعال اللّه تعالى وآياته في كل شيء إن أنزل عليكم كتابا معجزا قلتم : سحر وافتراء . وإن أرسل إليكم رسولا قلم : ساحر كذاب ، وإن رزقكم مطرا يحييكم به قلتم : صدق نوء كذا ، على مذهب يؤدى إلى الإهمال والتعطيل فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم إن لم يكن ثم قابض وكنتم صادقين في تعطيلكم وكفركم بالمحيى المميت المبدئ المعيد فَأَمَّا إِنْ كانَ المتوفى مِنَ الْمُقَرَّبِينَ من السابقين من الأزواج الثلاثة المذكورة في أوّل السورة فَرَوْحٌ فله استراحة . وروت عائشة رضى اللّه عنها عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : فروح ، «2» بالضم . وقرأ به الحسن وقال :

الروح الرحمة ، لأنها كالحياة للمرحوم . وقيل : البقاء ، أى : فهذان له معا ، وهو الخلود مع الرزق «3» والنعيم . والريحان : الرزق فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ أى : فسلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين ، أى : يسلمون عليك ، كقوله تعالى إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً .

فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ كقوله تعالى هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ وقرئ بالتخفيف وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ قرئت بالرفع والجر عطفا على نزل وحميم إِنَّ هذا الذي أنزل في هذه السورة لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ أى الحق الثابت من اليقين .

---

(1) . قوله «و نحن أقرب إليه منكم» لم يظهر وجه لتأخير هذا عما قبله إلا بالنظر للترتيب الذي ذكره فليحرر . (ع)

(2) . أخرجه الترمذي والنسائي وإسحاق والحاكم من رواية بديل بن ميسرة عن عبد اللّه بن شقيق عن عائشة ، زاد إسحاق «برفع الراء» .

(3) . قوله «و هو الخلود مع الرزق» لعله : وهما . (ع)

(163/745)

عن رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وعلى آله وسلم : «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم نصبه فاقة أبدا» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 455. 471﴾

---

(1) . أخرجه ابن وهب في جامعه حدثني السرى بن يحيى أن شجاعا حدثه عن أبى ظبية عن عبد اللّه بن مسعود تابعه يزيد بن أبى حكيم وعباس بن الفضل البصري كلاهما

عن السرى . أخرجه البيهقي في الشعب من طريقهما .

وكذا رواه أبو يعلى من رواية محمد بن حبيب عن السرى . ورواه البيهقي في الشعب من رواية حجاج بن منهال عن السرى فقال : عن شجاع عن ابن فاطمة عن ابن مسعود .

وكذا رواه أبو عبيد في فضائل القرآن من رواية السرى فقال : عن أبى ظبية ، فاختلف أصحاب السرى . هل شيخه شجاع أو أبو شجاع . وكذا اختلفوا في شيخ شجاع هل هو أبو فاطمة أو أبو ظبية . ثم اختلفوا في ضبط أبى ظبية فعند الدارقطني بالطاء المهملة بعدها تحتانية ، ثم موحدة وإنه عيسى بن سليمان الجرجاني . وأن روايته عن ابن مسعود منقطعة . ويؤيده أن الثعلبي أخرجه من طريق أبى بكر العطاردي عن السرى عن شجاع عن أبى ظبية الجرجاني . وعند البيهقي أنه بالمعجمة بعدها موحدة ، ثم تحتانية ، وأنه مجهول . وقال أحمد بن حنبل : هذا حديث منكر . وشجاع لا أعرفه .

(164/745)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾

فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : الصيحة ، قاله الضحاك .

الثاني : الساعة وقعت بحق فلم تكذب ، قاله السدي .

الثالث : أنها القيامة ، قاله ابن عباس ، والحسن .

وسميت الواقعة لكثرة ما يقع فيها من الشدائد .

﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ فيها أربعة أوجه :

أحدها : ليس لها مردود ، قاله ابن عباس .

الثاني : لا رجعة فيها ولا مشورة ، قاله قتادة .

الثالث : ليس لها مكذب من مؤمن ولا من كافر ، قاله ابن كامل .

الرابع : ليس الخبر عن وقوعها كذباً .

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : تخفض رجالاً كانوا في الدنيا مرتفعين ، وترفع رجالاً كانوا في الدنيا مخفوضين ، قاله محمد بن كعب .

الثاني : خفضت أعداء الله في النار ، ورفعت أولياء الله في الجنة ، قاله عمر بن الخطاب .

الثالث : خفضت الصوت فأسمعت الأدنى ، ورفعت فأسمعت الأقصى ، قاله عكرمة .

ويحتمل رابعاً : أنها خفضت بالنفخة الأولى من أماتت ، ورفعت بالنفخة الثانية من أحيت .

﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : رجفت وزلزلت ، قاله ابن عباس ، قاله رؤبة بن العجاج :

أليس يوم سمي الخروجا . . . أعظم يوم رجه رجوجاً

يوماً يرى مرضعة خلوجاً . . . الثاني : أنها ترج بما فيها كما يرج الغربال بما فيه ، قاله الربيع بن أنس فيكون تأويلها على القول الأول أنها ترج بإماتة ما على ظهرها من الأحياء ، وتأويلها على القول الثاني أنها ترج لإخراج من في بطنها من الموتى .

﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : سالت سيلاً ، قاله مجاهد .

الثاني : هدت هداً ، قاله عكرمة ،

الثالث : سيرت سيراً ، قاله محمد بن كعب ، ومنه قول الأغلب العجلي :

نحن بسسنا بأثر أطاراً . . . أضاء خمساً ثمت سارا

الرابع : قطعت قطعاً ، قاله الحسن . .

الخامس : إنها بست كما يبس السويق أي بلت ، البسيسة هي الدقيق يلت ويتخذ زاداً ، قال لص من غطفان :

لا تخبزا خبزاً وبسا بسا . . . ولا تطيلا بمناخ حبسا

﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثّاً ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه رهج الغبار يسطع ثم يذهب ، فجعل الله أعمالهم كذلك ، قاله علي .

الثاني : أنها شعاع الشمس الذي من الكوة ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه الهباء الذي يطير من النار إذا اضطربت ، فإذا وقع لم يكن شيئاً ، قاله ابن عباس .

الرابع : أنه ما يبس من ورق الشجر تذروه الريح ، قاله قتادة .

وفي المنبث ثلاثة أوجه :

أحدها : المتفرق ، قاله السدي .

الثاني : المنتشر .

الثالث : المنثور .

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً ﴾ يعني أصنافاً ثلاثة ، قال عمر بن الخطاب : اثنان في الجنة وواحد في النار .

وفيهما وجهان :

أحدهما : ما قاله ابن عباس أنها التي في سورة الملائكة : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ .

الثاني : ما رواه النعمان بن بشير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" وكنتم أزوجاً ثلاثة " الآية .

ويحتمل جعلهم أزواجاً وجهين :

أحدهما : أن ذلك الصنف منهم مستكثر ومقصر ، فصار زوجاً .

الثاني : أن في كل صنف منهم رجالاً ونساء ، فكان زوجاً .

﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ فيهم خمسة تأويلات :

أحدها : أن أصحاب الميمنة الذين أخذوا من شق آدم الأيمن ، وأصحاب المشأمة الذين أخذوا من شق آدم الأيسر ، قاله زيد بن أسلم .

الثاني : أن أصحاب الميمنة من أوتي كتابه بيمينه ، وأصحاب المشأمة من أوتي كتابه بيساره ، قاله محمد بن كعب .

الثالث : أن أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات ، وأصحاب المشأمة هم أهل السيئات ، قاله ابن جريج .

الرابع : أن أصحاب الميمنة الميامين على أنفسهم ، وأصحاب المشأمة المشائيم على أنفسهم ، قاله الحسن .

الخامس : أن أصحاب الميمنة أهل الجنة ، وأصحاب المشأمة أهل النار ، قاله السدي .

وقوله : ﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ لتكثير ما لهم من العقاب .

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ فيهم خمسة أقاويل :

أحدها : أنهم الأنبياء ، قاله محمد بن كعب .

الثاني : أنهم الاسبقون إلى الإيمان من كل أمة ، قاله الحسن ، وقتادة .

الثالث : أنهم الذين صلوا إلى القبلتين ، قاله ابن سيرين .

الرابع : هم أول الناس رواحاً إلى المساجد وأسرعهم خفوفاً في سبيل الله ، قاله عثمان بن أبي سوادة .

الخامس : أنهم أربعة : منهم سابق أمة موسى وهو حزقيل مؤمن آل فرعون ، وسابق أمة عيسى وهو حبيب النجار صاحب أنطاكية ، وسابقان من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهما : أبو بكر وعمر ، قاله ابن عباس .

ويحتمل سادساً : أنهم الذي أسلموا بمكة قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وبالمدينة قبل هجرته إليهم لأنهم سبقوا بالإسلام قبل زمان الرغبة والرهبة .

وفي تكرار قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ قولان :

أحدهما : السابقون في الدنيا إلى الإيمان ، السابقون في الآخرة إلى الجنة هم المقربون ، قاله الكلبي .

الثاني : يحتمل أنهم المؤمنون بالأنبياء في زمانهم ، وسابقوهم بالايمان هم المقربون المقدمون منهم .

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم الجماعة ، ومنه قول الشاعر :

ولست ذليلاً في العشيرة كلها . . . تحاول منها ثلة لا يسودها

الثاني : الشطر وهو النصف ، قاله الضحاك .

الثالث : أنها الفئة ، قاله أبو عبيدة ، ومنه قول دريد بن الصمة :

ذريني أسير في البلاد لعلني . . . ألاقي لبشر ثلة من محارب

وفي قوله تعالى : ﴿ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴾ قولان :

أحدهما : أنهم أَصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله أبو بكرة .

الثاني : أنهم قوم نوح ، قاله الحسن .

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله الحسن .

الثاني : أنهم الذين تقدم إسلامهم قبل أن يتكاملوا ، روى أبو هريرة أنه لما نزلت ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ فقال عليه السلام : " إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ بَلْ ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ بَلْ أَنْتُم نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَتُقَاسِمُونَهُم فِي النِّصْفِ الثَّانِي " .

﴿ عَلَى سُرُرٍ مَّوضُونَةٍ ﴾ يعني الأسرة ، واحدها سرير ، سميت بذلك لأنها مجلس السرور .

وفي الموضونة أربعة أوجه :

أحدها : أنها الموصولة بالذهب ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنها المشبكة النسج ، قاله الضحاك ، ومنه قول لبيد :

إن يفزعوا فسرا مع موضونة . . . والبيض تبرق كالكواكب لامها

الثالث : أنها المضفورة ، قاله أبو حرزة يعقوب بن مجاهد ، ومنه وضين الناقة وهو البطان العريض المضفور من السيور .

الرابع : أنها المسندة بعضها إلى بعض .

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ الولدان : جمع وليد وهم الوصفاء .

وفي قوله تعالى : ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ قولان :

أحدهما : [مسورون] بالأسورة ، [مقرطون] بالأقراط ، قاله الفراء ، قال الشاعر :

ومخلدات باللجين كأنما . . . أعجازهن أقاوز الكثبان

الثاني : أنهم الباقون على صغرهم لا يموتون ولا يتغيرون ، قاله الحسن ، ومنه قول امرىء القيس :

وهل ينعمن إلا سعيد مخلد . . . قليل الهموم ما يبيت بأوجال

ويحتمل ثالثاً : أنهم الباقون معهم لا يبصرون عليهم ولا ينصرفون عنهم بخلافهم في الدنيا .

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾ فيهما قولان :

أحدهما : أن الأكواب : التي ليس لها عُرى ، قاله الضحاك .

الثاني : أن الأكواب : مدورة الأفواه ، والأباريق : التي يغترف بها ، قاله قتادة ، قال الشاعر :

(168/745)

فعدوا عليّ بقرقف . . . ينصب من أكوابها

﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ والكأس اسم للإناء إذا كان فيه شراب ، والمعين الجاري من ماء أو

خمر ، غير أن المراد به في هذا الموضوع الخمر ، وصف الخمر بأنه الجاري من عينه بغير عصر كالماء المعين .

﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : معناه لا يمنعون منها ، قاله أبو حرزة يعقوب بن مجاهد .

الثاني : لا يفرّقون عنها ، حكاه ابن قتيبة ، واستشهد عليه بقول الراجز :

صد عنه فانصدع . . . الثالث : لا ينالهم من شربها وجع الرأس وهو الصداع ، قاله ابن جبير ، وقتادة ، ومجاهد ، والسدي .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ أربعة أوجه :

أحدها : لا تنزف عقولهم فيسكرون ، قاله ابن زيد ، وقتادة .

الثاني : لا يملون ، قاله عكرمة .

الثالث : لا يتقيئون ، قاله يحيى بن وثاب .

الرابع : وهو تأويل من قرأ بكسر الزاي لا يفنى خمرهم ، ومنه قول الأبيرد :

لعمري لئن أنزفتم أو صحوتم . . . لبئس الندامى أنتم آل أبجرا

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : في الخمر أربع خصال : السكر ، والصداع ، والقيء ، والبول ، وقد ذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال .

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ والحور البيض سمين لبياضهن ، وفي العين وجهان :

أحدهما : أنهن كبار الأعين ، كما قال الشاعر :

إذا كبرت عيون من النساء . . . ومن غير النساء فهن عين

الثاني : أنهن اللاتي سواد أعينهن حالك ، وبياض أعينهن نقي ، كما قال الشاعر :

إذا ما العين كان بها احورار . . . علامتها البياض على السواد

﴿ كَأَمْثَالِ اللؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : في نضارتها وصفاء ألوانها .

الثاني : أنهن كأمثال اللؤلؤ في تشاكل أجسادهن في الحسن من جميع جوانبهن ، كما قال الشاعر :

كأنما خلقت في قشر لؤلؤة . . . فكل أكنافها وجه لمرصاد

﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

(169/745)

أحدها : لا يسمعون في الجنة باطلاً ولا كذباً ، قاله ابن عباس .

الثاني : لا يسمعون فيها خُلفاً ، أي لا يتخالفون عليها كما يتخالفون في الدنيا ، ولا يأثمون بشربها ، كما يأثمون في الدنيا ، قاله الضحاك .

الثالث : لا يسمعون فيها شتماً ولا مأثماً ، قاله مجاهد .

يحتمل رابعاً : لا يسمعون مانعاً لهم منها ، ولا مشنعاً لهم على شربها .

﴿ إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لكن يسمعون قولاً ساراً وكلاماً حسناً .

الثاني : لكن يتداعون بالسلام على حسن الأدب وكريم الأخلاق .

الثالث : يعني قولاً يؤدي إلى السلامة .

ويحتمل رابعاً : أن يقال لهم هنيئاً .

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ فيه ستة أقاويل :

أحدها : أنهم أصحاب الحق ، قاله السدي .

الثاني : أنهم دون منزلة المقربين ، قاله ميمون بن مهران .

الثالث : أنهم من أعطي كتابه بيمينه ، قاله يعقوب بن مجاهد .

الرابع : أنهم التابعون بإحسان ممن لم يدرك الأنبياء من الأمم ، قاله الحسن .

الخامس : ما رواه أسباط عن السدي : أن الله تعالى مسح ظهر آدم فمسح صفحة ظهره اليمنى فأخرج ذرية كهيئة الذر بيضاء فقال لهم ادخلوا الجنة ولا أبالي ، ومسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج ذرية كهيئة الذر سوداء ، فقال لهم ادخلوا النار ولا أبالي ، فذلك هو قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ .

السادس : ما رواه جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أصحاب اليمين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ثم تابوا بعد ذلك وأصلحوا . "

﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ والسدر النبق ، وفي مخضود ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه اللين الذي لا شوك فيه ، قاله عكرمة ، وقال غيره لا عجم لنبقه ، يقال خضدت الشجرة إذا حذفت شوكها .

الثاني : أنه الموقر حملاً ، قاله مجاهد .

(170/745)

الثالث : المدلاة الأغصان ، وخص السدر بالذكر لأن ثمره أشهى الثمر إلى النفوس طعماً وألذه ريحاً .

﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الطلح الموز ، قاله ابن عباس ، وابو سعيد الخدري ، وأبو هريرة ، والحسن ، وعكرمة .

الثاني : أنها شجرة تكون باليمن وبالحجاز كثيراً تسمى طلحة ، قاله عبد الله بن حميد ،

وقيل إنها من أحسن الشجر منظراً ، ليكون بعض شجرهم مأكولاً وبعضه منظوراً ، قال الحادي :

بشرها دليلها وقالا . . . غداً ترين الطلح والأحبالا

الثالث : أنه الطلع ، قاله علي ، وحكى أنه كان يقرأ : ﴿ وَطَلْعٍ مَّنضُودٍ ﴾ ، وفي المنضود قولان :

أحدهما : المصفوف ، قاله السدي .

الثاني : المتراكم ، قاله مجاهد .

﴿ وَظِلٍ مَّمْدُودٍ ﴾ أي دائم .

ويحتمل ثانياً : أنه التام .

﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ أي منصب في غير أخدود .

ويحتمل آخر : أنه الذي ينسكب عليهم من الصعود والهبوط بخلاف الدنيا ، قال الضحاك : من جنة عدن إلى أهل الخيام .

﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لا مقطوعة بالفناء ولا ممنوعة من اليد بشوك أو بعد .

وفيه وجه ثالث : لا مقطوعة بالزمان ولا ممنوعة بالأشجار .

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أنها الحشايا المفروشة للجلوس والنوم ، مرفوعة بكثرة حشوها زيادة في الاستمتاع بها .

الثاني : أنهم الزوجات لأن الزوجة تسمى فراشاً ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " الوَلَدُ لِلْفرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ " قاله ابن بحر . فعلى هذا يحتمل وجهين :

أحدهما : مرفوعات في القلوب لشدة الميل إليهن .

الثاني : مرفوعات عن الفواحش والأدناس .

﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً ﴾ يعني نساء أهل الدنيا ، وفي إنشائهن في الجنة قولان :

أحدهما : يعني إنشاءهن في القبور ، قاله ابن عباس .

(171/745)

الثاني : إعادتهن بعد الشمط والكبر صغاراً أبكاراً ، قاله الضحاك ، وروته أم سلمة مرفوعاً :

﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : عذارى بعد أن كن غير عذارى ، قاله يعقوب بن مجاهد .

الثاني : لا يأتيها إلا وجدها بكراً ، قاله ابن عباس .

ويحتمل ثالثاً : أبكاراً من الزوجات ، وهن الأوائل لأنهن في النفوس أحلى والميل إليهن أقوى ، كما قال الشاعر :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى . . . فصادف قلباً فارغاً فتمكنا

قوله تعالى ﴿ عُرُباً أَتْرَاباً ﴾ فيه سبعة تأويلات :

أحدها : أن العرب المنحبسات على أزواجهن المتحببات إليهم ، قاله سعيد بن جبير ، والكلبي .

الثاني : أنهن المتحببات من الضرائر ليقفن على طاعته ويتساعدن على إشاعته ، قاله عكرمة .

الثالث : الشكلة بلغة أهل مكة ، والغنجة بلغة أهل المدينة ، قاله ابن زيد ، ومنه قول لبيد :

وفي الخباء عروب غير فاحشة . . . ريا الروادف يعشى دونها البصر

الرابع : هن الحسنات الكلام ، قاله ابن زيد . [أيضاً] .

الخامس : أنها العاشقة لزوجها لأن عشقها له يزيده ميلاً إليها وشغفاً بها .

السادس : أنها الحسنة التبعُّل ، لتكون ألذ استمتاعاً .

السابع : ما رواه جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عُرُباً كَلاَمُهُنَّ عَرَبِي "

﴿ أَتْراباً ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني أقران ، قاله عطية .

وقال الكلبي : على سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة ، يقال في النساء أتراب ، وفي الرجال أقران ، وأمثال ، وأشكال ، قاله مجاهد .

الثالث : أتراب في الأخلاق لا تباغض بينهن ولا تحاسد ، قاله السدي .

﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ فيه قولان :

أحدهما الدخان ، قاله أبو مالك .

الثاني : أنها نار سوداء ، قاله ابن عباس .

﴿ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لا بارد المدخل ، ولا كريم المخرج ، قاله ابن جريج .

الثاني : لا كرامة فيه لأهله .

(172/745)

ويحتمل ثالثاً : أن يريد لا طيب ولا نافع .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : منعمين ، قاله ابن عباس .

الثاني : مشركين ، قاله السدي .

ويحتمل وصفهم بالترف وجهين :

أحدهما : التهاؤهم عن الإعتبار وشغلهم عن الإزدجار .

الثاني : لأن عذاب المترف أشد ألماً .

﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه الشرك بالله ، قاله الحسن ، والضحاك ، وابن زيد .

الثاني : الذنب العظيم الذي لا يتوبون منه ، قاله قتادة ، ومجاهد .

الثالث : هو اليمين الموس ، قاله الشعبي .

ويحتمل رابعاً : أن يكون الحنث العظيم نقض العهد المحصن بالكفر .

﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنها الأرض الرملة التي لا تروى بالماء ، وهي هيام الأرض ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنها الإبل التي يواصلها الهيام وهو داء يحدث عطشاً فلا تزال الإبل تشرب الماء حتى تموت ، قاله عكرمة ، والسدي ، ومنه قول قيس بن الملوح :

يقال به داء الهيام أصابه . . . وقد علمت نفسي مكان شفائيا

الثالث : أن الهيم الإبل الضوال لأنها تهيم في الأرض لا تجد ماءً فإذا وجدته فلا شيء أعظم منها شرباً .

الرابع : أن شرب الهيم هو أن تمد الشرب مرة واحدة إلى أن تتنفس ثلاث مرات ، قاله خالد بن معدان ، فوصف شربهم الحميم بأنه كشرب الهيم لأنه أكثر شرباً فكان أزيد عذاباً .

﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أي طعامهم وشرابهم يوم الجزاء ، يعني في جهنم .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : نحن خلقنا رزقكم أفلا تصدقون أن هذا طعامكم .

الثاني : نحن خلقناكم فلولا تصدقون أننا بالجزاء : بالثواب والعقاب اردناكم .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾ يعني نطفة المني ، قال الفراء ، يقال أمنى يمني ومنى يمني بمعنى واحد .

(173/745)

ويحتمل عندي أن يختلف معناهما فيكون أمنى إذا أنزل عن جماع ، ومني إذا عن احتلام .

وفي تسمية المني منياً وجهان :

أحدهما : لإمنائه وهو إراقته .

الثاني : لتقديره ومنه المناء الذي يوزن به فإنه مقدار لذلك فكذلك المني مقدار صحيح لتصوير الخلقة .

﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أي نحن خلقنا من المني المهين بشراً سوياً ، فيكون ذلك خارجاً مخرج الإمتنان .

الثاني : أننا خلقنا مما شاهدتموه من المني بشراً فنحن على خلق ما غاب من إعادتكم أقدر ، فيكون ذلك خارجاً مخرج البرهان ، لأنهم على الوجه الأول معترفون ، وعلى الوجه الثاني منكرون .

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : قضينا عليكم بالموت .

الثاني : كتبنا عليكم الموت .

الثالث : سوينا بينكم الموت .

فإذا قيل بالوجه الأول بمعنى قضى ففيه وجهان :

أحدهما قضى بالفناء ثم الجزاء .

الثاني : ليخلف الأبناء الآباء .

وإذا قيل بالوجه الثاني أنه بمعنى كتبنا ففيه وجهان :

أحدهما : كتبنا مقداره فلا يزيد ولا ينقص ، قاله ابن عيسى .

الثاني : كتبنا وقته فلا يتقدم عليه ولا يتأخر ، قاله مجاهد .

وإذا قيل بالوجه الثالث أنه بمعنى سوينا ففيه وجهان :

أحدهما : سوينا بين المطيع والعاصي .

الثاني : سوينا بين أهل السماء وأهل الأرض ، قاله الضحاك .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وما نحن بمسبوقين على ما قدرنا بينكم الموت حتى لا تموتوا .

الثاني : وما نحن بمسبوقين على أن تزيدوا في مقداره وتؤخروه عن وقته .

والوجه الثاني : أنه ابتداء كلام يتصل به ما بعده من قوله تعالى : ﴿ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فعلى هذا في تأويله وجهان :

أحدهما : لما لم نسبق إلى خلق غيركم كذلك لا نعجز عن تغيير أحوالكم بعد موتكم .

(174/745)

الثاني : كما لم نعجز عن خلق غيركم كذلك لا نعجز عن تغيير أحوالكم بعد موتكم كما لم نعجز عن تغييرها في حياتكم .

فعلى هذا التأويل يكون في الكلام مضمر محذوف ، وعلى التأويل الأول يكون جميعه مظهراً .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ الآية . فأضاف الحرث إليهم والزرع إليه تعالى لأن الحرث فعلهم

ويجري على اختيارهم ، والزرع من فعل الله وينبت على إختياره لا على إختيارهم ، وكذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : " لاَيَقُولَنَّ أَحَدُكُم زَرَعْتُ وَلَكِن لِيَقُلْ حَرَثْتُ " .

وتتضمن هذه الآية أمرين :

أحدهما : الإمتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم .

الثاني : البرهان الموجب للإعتبار بأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشي بذوره وإنتقاله إلى إستواء حاله ، [من العفن إلى الترتيب] حتى صار زرعاً أخضر ، ثم جعله قوياً مشتداً أضعاف ما كان عليه ، فهو بإعادة من مات أحق وعليه أقدر ، وفي هذا البرهان مقنع لذوي الفطر السليمة .

ثم قول تعالى ﴿ لَوْنَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً ﴾ يعني الزرع ، والحطام الهشيم الهالك الذي لا ينتفع به ، فنبه بذلك على أمرين :

أحدهما : ما أولاهم من النعم في زرعهم إذ لم يجعله حطاماً ليشكروه .

الثاني : ليعتبروا بذلك في أنفسهم ، كما أنه يجعل الرزع حطاماً إذا شاء كذلك يهلكهم إذا شاء ليتعظوا فينزجروا .

﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ بعد مصير الزرع حطاماً ، وفيه أربعة أوجه :

أحدها : تندمون ، وهو قول الحسن وقتادة ، ويقال إنها لغة عكل وتميم .

الثاني : تحزنون ، قاله ابن كيسان .

الثالث : تلاومون ، قاله عكرمة .

الرابع : تعجبون ، قاله ابن عباس . وإذا نالكم هذا في هلاك زرعكم كان ما ينالكم في هلاك أنفسكم أعظم .

﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لمعذبون ، قاله قتادة ، ومنه قول ابن المحلم :

وثقت بأن الحفظ مني سجية . . . وأن فؤادي مبتلى بك مغرم

(175/745)

الثاني : مولع بنا ، قاله عكرمة ، ومنه قول النمر بن تولب :

سلا عن تذكره تكتما . . . وكان رهيناً بها مغرماً

أي مولع .

الثالث : محرومون من الحظ ، قاله مجاهد ، ومنه قول الشاعر :

يوم النسار ويوم الجفا . . . ركانا عذاباً وكانا غراماً

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ أي تستخرجون بزنادكم من شجر أو حديد أو حجر ،

ومنه قول الشاعر :

فإن النار بالزندين تورى . . . وإن الشر يقدمه الكلام

﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ ﴾ أي أخذتم أصلها .

﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ يعني المحدثون .

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تذكرة لنار [الآخرة] الكبرى ، قاله قتادة .

الثاني : تبصرة للناس من الظلام ، قاله مجاهد .

﴿ وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : منفعة للمسافرين قاله الضحاك ، قال الفراء : إنما يقال للمسافرين إذا نزلوا القِيّ وهي الأرض القفر التي لا شيء فيها .

الثاني : المستمتعين من حاضر ومسافر ، قاله مجاهد .

الثالث : للجائعين في إصلاح طعامهم ، قاله ابن زيد .

الرابع : الضعفاء والمساكين ، مأخوذ من قولهم قد أقوت الدار إذا خلت من أهلها ، حكاه ابن عيسى .

والعرب تقول قد أقوى الرجل إذا ذهب ماله ، قال النابغة :

يقوى بها الركب حتى ما يكون لهم . . . إلا الزناد وقدح القوم مقتبس

الخامس : أن المقوي الكثير المال ، مأخوذ من القوة فيستمتع بها الغني والفقير .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه إنكار أن يقسم الله بشيء من مخلوقاته ، قال الضحاك : إن الله لا يقسم بشيء من خلقه ولكنه استفتاح يفتتح به كلامه .

الثاني : أنه يجوز أن يقسم الخالق بالمخلوقات تعظيماً من الخالق لما أقسم به من مخلوقاته .

فعلى هذا في قوله : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ وجهان :

أحدهما : أن "لا" صلة زائدة ، ومعناه أقسم .

(176/745)

الثاني : أن قوله : ﴿ فَلاَ ﴾ راجع إلى ما تقدم ذكره ، ومعناه فلا تكذبوا ولا تجحدوا ما ذكرته من نعمة وأظهرته من حجة ، ثم استأنف كلامه فقال : ﴿ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ .

وفيها ستة أقاويل :

أحدها : أنها مطالعها ومساقطها ، قاله مجاهد .

الثاني : إنتشارها يوم القيامة وإنكدارها ، قاله الحسن .

الثالث : أن مواقع النجوم السماء ، قاله ابن جريج .

الرابع : أن مواقع النجوم الأنواء التي كان أهل الجاهلية إذا مطروا قالوا : مطرنا بنوء كذا ، قاله الضحاك ، ويكون قوله : ﴿ فلا أقسم ﴾ مستعملاً على حقيقته في نفي القسم بها .

الخامس : أنها نجوم القرآن أنزلها الله من اللوح المحفوظ من السماء العليا إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا ، فنجمه السفرة على جبريل عشرين ليلة ، ونجمه جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم عشرين سنة ، فهو ينزله على الأحداث في أمته ، قاله ابن عباس والسدي .

السادس : أن مواقع النجوم هو محكم القرآن ، حكاه الفراء عن ابن مسعود .

﴿ وَإِنَّهُ قَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن القرآن قسم عظيم ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن الشرك بآياته جرم عظيم ، قاله ابن عباس ، والضحاك .

ويحتمل ثالثاً : أن ما أقسم الله به عظيم .

﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ ﴾ يعني أن هذا القرآن كريم ، وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : كريم عند الله .

الثاني : عظيم النفع للناس .

الثالث : كريم بما فيه من كرائم الأخلاق ومعالي الأمور .

ويحتمل أيضاً رابعاً : لأنه يكرم حافظه ويعظم قارئه .

﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ وفيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه كتاب في السماء وهو اللوح المحفوظ ، قاله ابن عباس ، وجابر بن زيد .

الثاني : التوراة والإنجيل فيهما ذكر القرآن وذكر من ينزل عليه ، قاله عكرمة .

الثالث : أنه الزبور .

الرابع : أنه المصحف الذي في أيدينا ، قاله مجاهد ، وقتادة .

وفي ﴿ مَّكْنُونٍ ﴾ وجهان :

(177/745)

أحدهما : مصون ، وهو معنى قول مجاهد .

الثاني : محفوظ عن الباطل ، قاله يعقوب بن مجاهد .

ويحتمل ثالثاً : أن معانيه مكنونة فيه .

﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ تأويله يختلف بإختلاف الكتاب ، فإن قيل : إنه كتاب في السماء ففي تأويله قولان :

أحدهما : لا يمسه في السماء إلا الملائكة المطهرون ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير .

الثاني : لا ينزله إلا الرسل من الملائكة إلى الرسل من الأنبياء ، قاله زيد بن أسلم .

وإن قيل إنه المصحف الذي في أيدينا ففي تأويله ستة أقاويل :

أحدها : لا يمسه بيده إلا المطهرون من الشرك ، قاله الكلبي .

الثاني : إلا المطهرون من الذنوب والخطايا قاله الربيع بن أنس .

الثالث : إلا المطهرون من الأحداث والأنجاس ، قاله قتادة . الرابع : لا يجد طعم نفعه إلا المطهرون أي المؤمنون بالقرآن ، حكاه الفراء .

الخامس : لا يمس ثوابه إلا المؤمنون ، رواه معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم .

السادس : لا يلتمسه إلا المؤمنون ، قاله ابن بحر .

﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾ يعني بهذا الحديث القرآن الذي لا يمسه إلا المطهرون .

وفي قوله مدهنون أربعة تأويلات :

أحدها : مكذبون ، قاله ابن عباس .

الثاني : معرضون ، قاله الضحاك .

الثالث : ممالئون الكفار على الكفر به ، قاله مجاهد .

الرابع : منافقون في التصديق به حكاه ابن عيسى ، ومنه قول الشاعر :

لبعض الغشم أبلغ في أمور . . . تنوبك من مداهنة العدو

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه الإستسقاء بالأنواء وهو قول العرب مطرنا بنوء كذا ، قاله ابن عباس ورواه علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الثاني : الاكتساب بالسحر ، قاله عكرمة .

(178/745)

الثالث : هو أن يجعلوا شكر الله على ما رزقهم تكذيب رسله والكفر به ، فيكون الرزق الشكر ، وقد روي عن علي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ : ﴿ وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُم أَنَّكُم تُكَذِّبُونَ ﴾ .

ويحتمل رابعاً : أنه ما يأخذه الأتباع من الرؤساء على تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم والصد عنه .

﴿ فَلَوْلاَ إِن كُنْتُم غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ فيه سبعة تأويلات :

أحدها : غير محاسبين ، قاله ابن عباس .

الثاني : غير مبعوثين ، قاله الحسن .

الثالث : غير مصدقين ، قاله سعيد بن جبير .

الرابع : غير مقهورين ، قاله ميمون بن مهران .

الخامس : غير موقنين ، قاله مجاهد .

السادس : غير مجزيين بأعمالكم ، حكاه الطبري .

السابع : غير مملوكين ، قاله الفراء .

﴿ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ أي ترجع النفس بعد الموت إلى الجسد إن كنتم صادقين أنكم غير مذنبين .

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ فيهم وجهان :

أحدهما : أنهم أهل الجنة ، قاله يعقوب بن مجاهد .

الثاني : أنهم السابقون ، قاله أبو العالية .

﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ في الرَّوْح ثمانية تأويلات :

أحدها : الراحة ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه الفرح ، قاله ابن جبير .

الثالث : أنه الرحمة ، قاله قتادة .

الرابع : أنه الرخاء ، قاله مجاهد .

الخامس : أنه الرَوح من الغم والراحة من العمل ، لأنه ليس في الجنة غم ولا عمل ، قاله محمد بن كعب .

السادس : أنه المغفرة ، قاله الضحاك .

السابع : التسليم ، حكاه ابن كامل .

الثامن : ما روى عبد الله بن شقيق عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ ﴿ فَرُوحٌ ﴾ بضم الراء ، وفي تأويله وجهان :

أحدهما : بقاء روحه بعد موت جسده .

الثاني : ما قاله الفراء أن تأويله حياة لا موت بعدها في الجنة .

وأما الريحان ففيه ستة تأويلات :

أحدها : أنه الإستراحة عند الموت ، قاله ابن عباس .

الثاني : الرحمة ، قاله الضحاك .

الثالث : أنه الرزق ، قاله ابن جبير .

(179/745)

الرابع : أنه الخير ، قاله قتادة .

الخامس : أنه الريحان المشموم يُتَلَقَّى به العبد عند الموت ، رواه عبد الوهاب .

السادس : هو أن تخرج روحه ريحانة ، قال الحسن .

واختلف في محل الرَوْح على خمسة أقوال .

أحدها : عند الموت .

الثاني : قبره ما بين موته وبعثه .

الثالث : الجنة زيادة على الثواب والجزاء ، لأنه قرنه بذكر الجنة فاقتضى أن يكون فيها .

الرابع : أن الروح في القبر ، والريحان في الجنة .

الخامس : أن الروح لقلوبهم ، والريحان لنفوسهم ، والجنة لأبدانهم .

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه سلامته من الخوف وتبشيره بالسلامة .

الثاني : أنه يحيا بالسلام إكراماً ، فعلى هذا في محل السلام ثلاثة أقاويل :

أحدها : عند قبض روحه في الدنيا يسلم عليه ملك الموت ، قاله الضحاك .

الثاني : عند مساءلته في القبر ، يسلم عليه منكر ونكير .

الثالث : عند بعثه في القيامة تسلم عليه الملائكة قبل وصوله إليها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ 445 . 467 ﴾

(180/745)

وقال ابن الجوزى :

سورة الواقعة

قوله تعالى : ﴿ إذا وقَعَتِ الواقعةُ ﴾

قال أبو سليمان الدمشقي : لمّا قال المشركون : متى هذا الوعد ، متى هذا الفتح ؟ ! نزل قوله : ﴿ إِذا وَقَعَتِ الواقعةُ ﴾ ، فالمعنى : يكون إذا وقعت الواقعة .

قال المفسرون : والواقعة : القيامة ، وكل آتٍ يتوقع ، يقال له إذا كان : قد وقع ، والمراد بها هاهنا : النَّفخة في الصُّور لقيام الساعة .

﴿ ليس لِوَقْعَتِها ﴾ أي : لظُهورها ومَجيئها ﴿ كاذبةٌ ﴾ أي : كذب ، كقوله : ﴿ لا تَسْمَعُ فيها لاغيةً ﴾ [الغاشية : 11] أي : لغواً .

قال الزجاج : و"كاذبة" مصدر ، كقولك : عافاه الله عافيةً ، وكَذَب كاذبةً ، فهذه أسماء في موضع المصدر .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : لا رجعةَ لها ولا ارتداد ، قاله قتادة .

والثاني : ليس الإخبار عن وقوعها كذباً ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ خافضةٌ ﴾ أي : هي خافضة ﴿ رافعةٌ ﴾ وقرأ أبو رزين ، وأبو عبد الرحمن ، وأبو العالية ، والحسن ، وابن أبي عبلة ، وأبو حيوة ، واليزيدي في اختياره :

"خافضةً رافعةً" بالنصب فيهما .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : أنها خفضتْ فأسمعتِ القريبَ ، ورفعتْ فأسمعتِ البعيدَ ، رواه العوفي عن ابن عباس .

وهذا يدل على أن المراد بالواقعة : صيحة القيامة .

والثاني : أنها خفضت ناساً ، ورفعت آخرين ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

قال المفسرون : تخفض أقواماً إلى أسفل السافلين في النار ، وترفع أقواماً إلى عِلّيِّين في الجنة .

قوله تعالى : ﴿ إذا رُجَّتِ الأرض رَجّاً ﴾ أي : حُرِّكتْ حركةً شديدةً وزلزلتْ ، وذلك أنها ترتجُّ حتى ينهدم ما عليها من بناءٍ ، ويتفتَّت ما عليها من جبل .

وفي ارتجاجها قولان .

أحدهما : أنه لإماتة مَن عليها من الأحياء .

والثاني : لإخراج من في بطنها من الموتى .

قوله تعالى : ﴿ وبُسَّتِ الجبالُ بَسّاً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : فُتِّتت فَتّاً ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

قال ابن قتيبة : فُتِّتتْ حتى صارت كالدَّقيق والسَّويق المبسوس .

والثاني : لُتَّتْ ، قاله قتادة .

وقال الزجاج : خُلِطتْ ولُتَّت .

قال الشاعر :

لا تَخْبِزوا خَبْزاً وبُسَّا بَسَّا . . .

وفي "الهَباء" أقوال قد ذكرناها في [الفرقان : 23] .

وذكر ابن قتيبة أن الهَباء المُنْبَثّ : ما سطع من سنابك الخيل ، وهو من "الهَبْوَة" والهَبْوَة : الغُبار .

والمعنى : كانت تراباً منتشراً .

قوله تعالى : ﴿ وكنتم أزواجاً ﴾ أي : أصنافاً ﴿ ثلاثةً ﴾ .

﴿ فأصحابُ الميمنة ﴾ فيهم ثمانية أقوال .

أحدها : [أنهم] الذين كانوا على يمين آدم حين أُخرجت ذُرِّيَّتُهُ مِنْ صُلبه ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم الذين يُعْطَون كتبهم بأيمانهم ، قاله الضحاك ، والقرظي .

والثالث : أنهم الذين كانوا ميامين على أنفُسهم ، أي : مباركين ، قاله الحسن ، والربيع .

والرابع : أنهم الذين أُخذوا من شِقِّ آدم الأيمن ، قاله زيد بن أسلم .

والخامس : أنهم الذين منزلتهم عن اليمين ، قاله ميمون بن مهران .

والسادس : أنهم أهل الجنة ، قاله السدي .

والسابع : أنهم أصحاب المنزلة الرفيعة ، قاله الزجاج .

والثامن : أنهم الذين يؤخذ [بهم] ذاتَ اليمين إلى الجنة ، ذكره علي بن أحمد النيسابوري .

(182/745)

قوله تعالى : ﴿ ما أصحابُ المَيْمَنة ﴾ قال الفراء : عجَّب نبيَّه صلى الله عليه وسلم منهم ؛ والمعنى : أيُّ شيء هُمْ ؟ ! قال الزجاج : وهذا اللفظ في العربية مجراه مجرى التعجب ، ومجراه من الله عز وجل في مخاطبة العباد ما يعظم به الشأن عندهم ، ومثلُه : ﴿ ما الحاقّة ﴾ [الحاقة : 2] ﴿ ما القارعة ﴾ [القارعة : 2] ؛ قال ابن قتيبة : ومثلُه أن يقول : زَيدٌ ما زَيدٌ ! أي : أيُّ رجُل هو ! ﴿ وأصحابُ المشأمة ما أصحابُ المشأمة ﴾ [أي : أصحاب] الشمال ، والعرب تسمِّي اليدَ اليسرى : الشُّؤمَى ، والجانبَ الأيسر : الأشأم ، ومنه قيل : اليُمْن والشُّؤم ، فاليُمْن : كأنه [ما] جاء عن اليمين ، والشؤم [ما جاء] عن الشمال ، ومنه سمِّيت "اليَمَن" و"الشّأم" لأنها عن يمين الكعبة وشمالها .

قال المفسرون : أصحاب الميمنة : هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين ، ويعطَون كتبهم بأيمانهم ؛ وتفسير أصحاب المشأمة على ضد تفسير أصحاب الميمنة سواء ؛ والمعنى : أيُّ قوم هم ؟ ! ماذا أُعِدَّ لهم من العذاب ؟ ! .

قوله تعالى : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ فيهم خمسة أقوال .

أحدها : أنهم السابقون إلى الإيمان من كل أُمَّة ، قاله الحسن ، وقتادة .

والثاني : أنهم الذين صلّوا [إلى] القِبلتين ، قاله ابن سيرين .

والثالث : أهل القرآن ، قاله كعب .

والرابع : الأنبياء ، قاله محمد بن كعب .

والخامس : السابقون إلى المساجد وإلى الخروج في سبيل الله ، قاله عثمان بن أبي سودة .

وفي إِعادة ذِكْرهم قولان .

أحدهما : أن ذلك للتوكيد .

والثاني : أن المعنى : السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله ذكرهما الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ أولئك المقرَّبون ﴾ قال أبو سليمان الدمشقي : يعني عند الله في ظل عرشه وجواره .

قوله تعالى : ﴿ ثُلَّة من الأوَّلين ﴾ الثُّلَّة : الجماعة غير محصورة العدد .

وفي الأوّلين والآخِرين ها هنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الأوّلين : الذين كانوا من زمن آدم إلى زمن نبيّنا صلى الله عليه وسلم ، والآخِرون : هذه الأمة .

والثاني : [أن الأولين] : أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والآخرين : التابعون .

والثالث : أن الأولين [والآخِرين : من] أصحاب نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم .

فعلى الأول يكون المعنى : إن الأولين السابقين جماعة من الأُمم المتقدّمة الذين سبقوا بالتصديق لأنبيائهم مَنْ جاء بعدهم مؤمناً ، وقليلٌ من أُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الذين عاينوا الأنبياء أجمعين وصدّقوا بهم أكثر ممّن عاين نبيّنا وصدّق به .

وعلى الثاني : أن السابقين : جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم الأوّلون من المهاجرين والأنصار ، وقليل من التابعين وهم الذين اتَّبعوهم باحسان .

وعلى الثالث : أن السابقين : الأوّلون من المهاجرين والأنصار ، وقليل ممَّن جاء بعدهم لعجز المتأخّرين أن يلحقوا الأوّلين ، فقليل منهم من يقاربهم في السَّبق .

وأمّا "الموضونة" ، فقال ابن قتيبة : هي المنسوجة ، كأن بعضها أُدخِلَ في بعض ، أو نُضِّد بعضُها على بعض ، ومنه قيل للدِّرع : مَوْضونة ، ومنه قيل : وَضِينُ النّاقة ، وهو بِطانٌ من

سُيور يُدْخَل بعضُه في بعض .

قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : الآجُرُّ موضونٌ بعضُه على بعض ، اي : مُشْرَج .

وللمفسرين في معنى "مَوْضُونةٍ" قولان .

أحدهما : مرمولة بالذهب ، رواه مجاهد عن ابن عباس .

وقال عكرمة : مشبّكة بالدُّرِّ والياقوت ، وهذا مَعنى ما ذكرناه عن ابن قتيبة ، وبه قال الأكثرون .

والثاني : مصفوفة ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

وما بعد هذا قد تقدم بيانه [الكهف : 30] إلى قوله : ﴿ وِلْدانٌ مخلَّدونَ ﴾ الوِلْدان : الغِلْمان .

وقال الحسن البصري : هؤلاء أطفال لم يكن لهم حسنات فيُجْزَون بها ، ولا سيِّئات فيعاقبون عليها ، فوضُعوا بهذا الموضع .

وفي المخلَّدين قولان .

أحدهما : أنه من الخُلد ؛ والمعنى : أنهم مخلوقون للبقاء لا يتغيَّرون ، وهم على سنٍّ واحد .

قال الفراء : والعرب تقول للإنسان إذا كَبِر ولم يَشْمَط : أو لم تذهب أسنانه عن الكِبَر : إنه لمخلَّد ، هذا قول الجمهور .

والثاني : أنهم المُقَرَّطُون ، ويقال : المُسَوَّرون ، ذكره الفراء ، وابن قتيبة ، وانشدوا في ذلك :

ومُخْلَّداتٌ باللُّجَيْنِ كأنَّما . . .

أعجازُهُنَّ أَقاوِزُ الكُثْبانِ

قوله تعالى : ﴿ بأكوابٍ وأباريقَ ﴾ الكوب : إناء لا عروة له ولا خُرطوم ، وقد ذكرناه في [الزخرف : 72] ؛ والأباريق : آنية لها عُرىً وخراطيم ؛ وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال : الإبريق : فارسيّ معرَّب ، وترجمتُه من الفارسية أحدُ شيئين ، إمّا أن يكون : طريقَ الماء ، أو : صبَّ الماءِ على هينة ، وقد تكلمتْ به العربُ قديماً ، قال عديُّ بن زيد :

ودَعَا بالصَّبُوحِ يوماً فجاءتْ . . .

قَيْنَةٌ في يمينها إبريقُ

وباقي الآيات في [الصافات : 46] .

قوله تعالى : ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عنها ولا يُنْزِفُونَ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : لا يَلْحَقُهم الصُّداع الذي يلحق شاربي خمر الدنيا .

و"عنها" كناية عن الكأس المذكور ، والمراد بها : الخمر ، وهذا قول الجمهور .

والثاني : لا يتفرَّقون عنها ، من قولك : صدَّعْتُه فانْصَدَع ، حكاه ابن قتيبة .

ولا "يُنْزِفُونَ" مفسر في [الصافات : 47] .

قوله تعالى : ﴿ ممّا يتخيَّرون ﴾ أي : يختارون ، تقول : تخيَّرتُ الشيءَ : إذا أخذتَ خيره .

قوله تعالى : ﴿ ولحمِ طيرٍ ﴾ قال ابن عباس : يخطُر على قلبه الطير ، فيصير ممثَّلاً بين يديه على ما اشتهى .

وقال مغيث بن سمي : تقع على أغصان شجرة طوبى طير كأمثال البُخْت ، فإذا اشتهى الرجل طيراً دعاه ، فيجيء حتى يقع على خوانه ، فيأكل من أحد جانبيه قديداً والآخرِ شِواءً ، ثم يعود طيراً فيطير فيذهب .

(185/745)

قوله تعالى : ﴿ وحُورٌ عِينٌ ﴾ قرأ ابن كثير ، وعاصم ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "وُحورٌ عِينٌ" بالرفع فيهما .

وقرأ أبو جعفر ، وحمزة ، والكسائي ، والمفضل عن عاصم : بالخفض فيهما .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وعائشة ، وأبو العالية ، وعاصم الجحدري : "وحُوراً عِيناً" بالنصب فيهما .

قال الزجاج : والذين رفعوا كرهوا الخفض ، لأنه معطوف على قوله : ﴿ يطوف عليهم ﴾ ، قالوا : والحُور ليس ممّا يطاف به ، ولكنه مخفوض على غير ما ذهب إليه هؤلاء ، لأن المعنى : يطوف عليهم ولدانٌ مخلَّدون بأكوابٍ ينعمون بها ، وكذلك ينعمون بلحم طير ، فكذلك ينعمون بحُورٍ عِينٍ ، والرفع أحسن ، والمعنى : ولهم حُورٌ عِينٌ ؛ ومن قرأ "وحُوراً عِيناً" حمله على المعنى ، لأن المعنى : يُعطَون هذه الأشياء ويُعطَون حُوراً عِيناً ، إلاّ أنها تُخالِف المصحف فتُكْرَه .

ومعنى ﴿ كأمثال اللُّؤلؤ ﴾ أي : صفاؤهُنَّ وتلألؤهُنّ كصفاء اللُّؤلؤ وتلألئه .

والمكنون : الذي لم يغيّره الزمان واختلاف أحوال الاستعمال ، فهُنّ كاللؤلؤ حين يخرج من صدفه .

﴿ جزاءً ﴾ منصوب مفعول له ؛ والمعنى : يُفعل بهم ذلك جزاءً بأعمالهم ، ويجوز أن يكون منصوباً على أنه مصدر ، لأن معنى "يطوف عليهم وِلدانٌ مخلَّدون" : يُجازَون جزاءً بأعمالهم ؛ وأكثر النحويّين على هذا الوجه .

قوله تعالى : ﴿ لا يَسْمَعون فيها لَغْواً ﴾ قد فسرنا معنى اللَّغو والسلام في سورة [مريم : 62] ومعنى التأثيم في [الطور : 23] ومعنى "ما أصحابُ اليمين" في أول هذه السورة [الواقعة : 9] .

فإن قيل : التأثيم لا يُسمع فكيف ذكره مع المسموع ؟

فالجواب : أن العرب يُتْبِعون آخرَ الكلام أوَّلَه ، وإن لم يحسُن في أحدهما ما يحسُن في الآخر ، فيقولون : أكلتُ خبزاً ولبَناً ، واللَّبَن لا يؤكل ، إنما حَسُن هذا لأنه كان مع ما يؤكل ، قال الفراء : أنشدني بعض العرب :

إذا ما الغانِياتُ بَرَزْنَ يَوْماً . . .

(186/745)

وَزَجَّجْنَ الْحَواجِبَ والعُيُونا

قال : والعَيْنُ لا تُزَجَّج إنما تُكَحَّل ، فردَّها على الحاجب لأن المعنى يُعْرَف ، وأنشدني آخر :

ولَقِيتُ زَوْجَكِ في الوغى . . .

متقلِّداً سَيْفاً ورُمْحاً

وأنشدني آخر :

عَلَفْتُها تِبْناً وماءً بارداً . . .

والماء لا يُعْلَف وإنما يُشْرَب ، فجعله تابعاً للتِّبن ؛ قال الفراء : وهذا هو وجه قراءة من قرأ ، "وحُورٍ عِينٍ" بالخفض ، لإتباع آخر الكلام أوَّله ، وهو وجه العربيَّة .

وقد شرحنا معنى قوله : ﴿ وأصحابُ اليمين ﴾ في قوله : ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ [الواقعة : 9] وقد روي عن علي رضي الله عنه أنه قال : أصحاب اليمين : أطفال المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ في سِدْرٍ مخضود ﴾ سبب نزولها أن المسلمين نظروا إلى وَجٍّ ، وهو وادٍ بالطائف مخصبٌ .

فأعجبهم سِدْرُه ، فقالوا : يا ليت لنا مثل هذا ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله أبو العالية ، والضحاك .

وفي المخضود ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الذي لا شَوْكَ فيه ، رواه أبو طلحة عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة ، وقسامة بن زهير .

قال ابن قتيبة : كأنه خُضِدَ شوكُه ، أي : قلع ، ومنه " قول النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة : "لا يُخْضَدُ شوكُها" " .

والثاني : أنه المُوقَر حملاً ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، والضحاك .

والثالث : أنه المُوقَر الذي لا شوك فيه ، ذكره قتادة .

وفي الطَّلْح قولان .

أحدهما : أنه الموز ، قاله عليّ ، وابن عباس ، وأبو هريرة ، وأبو سعيد الخدري ، والحسن ،

وعطاء ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة .

والثاني : أنه شجر عظام كبار الشوك ، قال أبو عبيدة : هذا هو الطَّلْح عند العرب ، قال الحادي :

بَشَّرَها دليلُها وقالا . . .

غَداً تَرَيْنَ الطَّلْحَ والجِبالا

فإن قيل : ما الفائدة في الطَّلْح ؟

فالجواب أن له نَوْراً وريحاً طيِّبة ، فقد وعدهم ما يعرفون ويميلون إليه ، وإن لم يقع التساوي بينه وبين ما في الدنيا .

(187/745)

وقال مجاهد : كانوا يُعْجَبون ب "وَجٍّ" وظِلاله من طلحه وسدره .

فأمّا المنضود ، فقال ابن قتيبة : هو الذي قد نُضِدَ بالحَمْل أو بالورق والحَمْل من أوّله إلى آخره ، فليس له ساق بارزة ، وقال مسروق : شجر الجنة نضيد من أسفلها إلى أعلاها .

قوله تعالى : ﴿ وظلٍّ ممدودٍ ﴾ أي : دائم لا تنسخه الشمس .

﴿ وماءٍ مسكوبٍ ﴾ أي : جارٍ غير منقطع .

قوله تعالى : ﴿ لا مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لا مقطوعة في حين دون حين ، ولا ممنوعة بالحيطان والنواطير ، إنما هي مُطْلَقة لمن أرادها ، هذا قول ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة .

ولخصه بعضهم فقال : لا مقطوعة بالأزمان ، ولا ممنوعة بالأثمان .

والثاني : لا تنقطع إذا جُنِيَتْ ، ولا تُمْنع من أحد إذا أريدت ، روي عن ابن عباس .

والثالث : لا مقطوعة بالفَناء ، ولا ممنوعة بالفساد ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ وفُرُشٍ مرفوعةٍ ﴾ فيها قولان .

أحدهما : أنها الحشايا المفروشة للجلوس والنوم .

وفي رفعها قولان .

أحدهما : أنها مرفوعة فوق السُّرر .

والثاني : أن رفعها : زيادة حشوها ليطيب الاستمتاع بها .

والثاني : أن المراد بالفِراش : النساء ؛ والعرب تسمِّي المرأة : فِراشاً وإزاراً ولباساً ؛ وفي معنى رفعهن ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهن رُفِعْن بالجمال على نساء أهل الدنيا ، والثاني : رُفِعْن عن الأدناس .

والثالث : في القلوب لشِدَّة الميل إليهن .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴾ يعني النساء .

قال ابن قتيبة : اكتفى بذِكْر الفُرُش لأنها محل النساء عن ذكرهن .

وفي المشار إليهن قولان .

أحدهما : أنهن نساء أهل الدنيا المؤمنات ؛ ثم في إنشائهن ، قولان .

أحدهما : أنه إنشاؤهن من القبور ، قاله ابن عباس .

والثاني : إعادتهن بعد الشَّمَط والكِبَر أبكاراً صغاراً ، قاله الضحاك .

والثاني : أنهن الحُور العين ، وإنشاؤهن : إيجادهن عن غير ولادة ، قاله الزجاج .

(188/745)

والصواب أن يقال : إن الإنشاء عمَّهُنَّ كُلَّهن ، فالحُور أُنشئن ابتداءً ، والمؤمنات أُنشئن بالإعادة وتغيير الصفات ؛ وقد روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنَّ من المنشَآت اللاّتي كُنَّ في الدنيا عجائزَ عُمْشاً رُمْصاً " .

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً ﴾ أي : عذارى .

وقال ابن عباس : لا يأتيها زوجها إلاّ وجدها بِكْراً .

قوله تعالى : ﴿ عُرُباً ﴾ قرأ الجمهور : بضم الراء .

وقرأ حمزة ، وخلف : بإسكان الراء ؛ قال ابن جرير : هي لغة تميم وبكر .

وللمفسرين في معنى "عُرُباً" خمسة أقوال .

أحدها : أنهن المتحبّبات إلى أزواجهن ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، وابن قتيبة ، والزجاج .

والثاني : أنهن العواشق ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وقتادة ، ومقاتل ، والمبرّد ؛ وعن مجاهد كالقولين .

والثالث : الحسنة التبعُّل ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال أبو عبيدة .

والرابع : الغَنِجات ، قاله عكرمة .

والخامسة : الحسنة الكلام ، قاله ابن زيد .

فأمّا الأتراب فقد ذكرناهن في [ص : 52] .

قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ من الأوَّلين ، وثُلَّةٌ من الآخِرِينَ ﴾ هذا من نعت أصحاب اليمين .

وفي الأولين والآخرين خلاف ، وقد سبق شرحه [الواقعة : 13] وقد زعم مقاتل أنه لمّا نزلت الآية الأولى ، وهي قوله : "وقليلٌ من الآخِرِين" وجد المؤمنون من ذلك وَجْداً شديداً حتى أُنزلت "وثُلَّةٌ من الآخِرِين" فنسختْها .

وروي عن عروة بن رُويم نحو هذا المعنى .

قلت : وادِّعاء النَّسخ هاهنا لا وجه له لثلاثة أوجه .

أحدها : أن علماء الناسخ والمنسوخ لم يوافقوا على هذا .

والثاني : أن الكلام في الآيتين خبر ، والخبر لا يدخله النسخ ، [فهو ها هنا لا وجه له] .

والثالث : أن الثُّلَّة بمعنى الفِرْقة والفئة ؛ قال الزجاج : اشتقاقهما من القِطعة ، والثَّلُّ : الكسر والقطع .

(189/745)

فعلى هذا قد يجوز أن تكون الثُّلَّة في معنى القليل .

قوله تعالى : ﴿ ما أصحابُ الشِّمال ﴾ قد بيَّنّا أنه بمعنى التعجُّب من حالهم ؛ والمعنى : ما لهم ، وما أُعدَّ لهم من الشَّرِّ ؟ ! ثم بيَّن لهم سوء مُنْقَلَبهم فقال : ﴿ في سَموم ﴾ قال ابن قتيبة : هو حَرُّ النّار .

قوله تعالى : ﴿ وظِلٍّ من يَحْموم ﴾ قال ابن عباس : ظِلّ من دخان .

قال الفراء : اليَحْموم : الدُّخان الأسود ، ﴿ لا باردٍ ولا كريمٍ ﴾ فوجه الكلام الخفض تبعاً لما قبله ، ومثله ﴿ زَيْتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيَّةٍ ﴾ [النور : 35] ، وكذلك قوله : ﴿ وفاكهةٍ كثيرةٍ ، لا مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ ﴾ ، ولو رفعتَ ما بعد "لا" كان صواباً ، والعرب تجعل الكريم تابعاً لكل شيء نفت عنه فعلاً يُنوي [به] الذم ، فتقول : ما هذه الدار بواسعة ولا كريمة ، وما هذا بسمين ولا كريم .

قال ابن عباس : لا بارد المدخل ولا كريم المنظر .

قوله تعالى : ﴿ إِنهم كانوا قَبْلَ ذلك ﴾ أي : في الدنيا ﴿ مُتْرَفِينَ ﴾ أي : متنعّمين في ترك أمر الله ، فشغلهم تَرفُهم عن الاعتبار والتعبُّد .

﴿ وكانوا يُصِرُّونَ ﴾ أي : يُقيمون ﴿ على الحِنْث ﴾ وفيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه الشِّرك ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والضحاك ، وابن زيد .

والثاني : الذَّنب العظيم الذي لا يتوبون منه ، قاله مجاهد .

وعن قتادة كالقولين .

والثالث : أنه اليمين الغموس ، قاله الشعبي .

والرابع : الشِّرك والكفر بالبعث ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ أَوَآباؤنا الأوّلون ﴾ قال أبو عبيدة : الواو متحركة لأنها ليست بواو "أو" ، إنما هي "وآباؤنا" ، فدخلت عليها ألف الاستفهام فتُركتْ مفتوحة .

وقرأ أهل المدينة ، وابن عامر : "أَوْآباؤنا" بإسكان الواو .

(190/745)

وقد سبق بيان ما لم يُذْكَر هاهنا [هود : 103 ، الصافات : 62 ، الأنعام : 70] إلى قوله : ﴿ فشاربونَ شُربَ الهِيمِ ﴾ قرأ أهل المدينة ، وعاصم ، وحمزة : "شُرْبَ" بضم الشين ؛ والباقون بفتحها .

قال الفراء : والعرب تقول : شَرِبْتُه شُرْباً ، وأكثر أهل نجد يقولون : شَرْباً بالفتح ، أنشدني عامَّتهم :

تَكْفيهِ حَزَّةُ فِلْذٍ إنْ أَلَمَّ بها . . .

من الشِّواءِ ويَكْفِي شَرْبُهُ الغُمَرُ

وزعم الكسائي أن قوماً من بني سعد بن تميم يقولون : "شِرْبَ الهِيم" بالكسر .

وقال الزجاج : "الشَّرْب" المصدر ، و"الشُّرْب" بالضم : الاسم ، قال : وقد قيل : إنه مصدر أيضاً .

وفي "الهِيم" قولان .

أحدهما : الإبل العِطاش ، رواه ابن أبي طلحة والعوفيُّ عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، وعطاء ، والضحاك ، وقتادة .

قال ابن قتيبة : هي الإبل يُصيبها داءٌ فلا تَرْوَى من الماء ، يقال : بعيرٌ أَهْيَمُ ، وناقةٌ هَيْماءُ .

والثاني : أنها الأرض الرَّملة التي لا تَرْوَى من الماء ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً .

قال أبو عبيدة : الهِيم : ما لا يَرْوَى من رَمْل أو بعير .

قوله تعالى : ﴿ هذا نُزُلُهم ﴾ أي : رزقهم .

ورواه عباس عن أبي عمرو : "نُزْلُهم" بسكون الزاي ، أي : رزقهم وطعامهم .

وفى "الدِّين" قولان قد ذكرناهما فى "الفاتحة" .

قوله تعالى : ﴿ نحن خَلَقْناكم ﴾ أي : أوجدناكم ولم تكونوا شيئاً ، وأنتم تُقِرُّونَ بهذا ﴿ فلولا ﴾ أي : فهلاّ ﴿ تصدّقونَ ﴾ بالبعث ؟ !

ثم احتجَّ على بعثهم بالقدرة على ابتدائهم فقال : ﴿ أفرأيتم ما تُمْنونَ ﴾ قال الزجاج : أي : ما يكون منكم من المَنِيِّ ، يقال : أمنى الرجل يُمْني ، ومَنى يَمني ، فيجوز على هذا "تَمْنونَ" بفتح التاء إن ثبتت به رواية .

قوله تعالى : ﴿ أأنتم تَخْلُقونه أَمْ نحن الخالقون ﴾ أي : تخلُقون ما تُمنون بَشَراً ؟ ! وفيه تنبيه على شيئين .

أحدهما : الامتنان ، إذا خلق من الماء المَهين بَشَراً سوياً .

(191/745)

والثاني : أن من قَدَرَ على خَلْق ما شاهدتموه من أصل وجودكم كان أقدَرَ على خَلْق ما غاب عنكم من إعادتكم .

قوله تعالى : ﴿ نحن قَدّرْنا بينَكم المَوْتَ ﴾ وقرأ ابن كثير : "قَدَرْنا" بتخفيف الدال .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : قضينا عليكم بالموت .

والثاني : سوّينا بينكم في الموت ﴿ وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدّل أمثالكم ﴾ قال الزجاج : المعنى : إن أردنا أن نخلُق خَلْقاً غيركم لم يسبقنا سابق ، ولا يفوتنا ذلك .

وقال ابن قتيبة : لسنا مغلوبين على أن نَستبدل بكم أمثالكم .

قوله تعالى : ﴿ ونُنْشِئَكم في ما لا تعلمون ﴾ وفيه أربعة أقوال .

أحدها : نبدّل صفاتكم ونجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بمن كان قبلكم ، قاله الحسن .

والثاني : ننشئكم في حواصل طير سود تكون ب "برهوت" كأنها الخطاطيف ، قاله سعيد بن المسيب .

والثالث : نخلقكم في أيّ خَلْق شئنا ، قاله مجاهد .

والرابع : نخلقكم في سوى خلقكم ، قاله السدي .

قال مقاتل : نخلقكم سوى خلقكم في ما لا تعلمون من الصور .

قوله تعالى : ﴿ ولقد عَلِمْتم النَّشْأة الأُولى ﴾ وهي ابتداء خَلقكم من نُطفة وعَلَقة ﴿ فلولا تَذَكَّرونَ ﴾ أي : فهلاّ تَعتبِرون فتعلموا قُدرة الله فتُقِرُّوا بالبعث .

﴿ أفرأيتم ما تحرُثونَ ﴾ أي : ما تعملون في الأرض من إثارتها ، وإلقاء البذور فيها ، ﴿

أأنتم تزرعونه ﴾ أي : تُنبتونه ؟ ! وقد نبَّه هذا الكلام على أشياء منها إحياء الموتى ، ومنها الامتنان بإخراج القُوت ، ومنها القدرة العظيمة الدالة على التوحيد .

قوله تعالى : ﴿ لجَعَلْناه ﴾ يعني الزرع ﴿ حُطاماً ﴾ قال عطاء : تبناً لا قمح فيه .

وقال الزجاج : أبطلْناه حتى يكون محتطماً لا حنطة فيه ، ولا شيء .

قوله تعالى : ﴿ فظَلْتُم ﴾ وقرأ الشعبي ، وابو العالية ، وابن أبي عبلة : "فظِلْتُم" بكسر الظاء ؛ وقد بيناه في قوله : ﴿ ظَلْتَ عليه عاكفاً ﴾ [طه : 97] .

(192/745)

قوله تعالى : ﴿ تَفَكَّهونَ ﴾ وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وابن السميفع ، والقاسم بن محمد ، وعروة : "تَفَكَّنونَ" بالنون .

وفي المعنى أربعة أقوال .

أحدها : تَعَجَّبون ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء ، ومقاتل .

قال الفراء : تتعجَّبون ممّا نَزَل بكم في زرعكم .

والثاني : تَندَّمون ، قاله الحسن ، والزجاج .

وعن قتادة كالقولين .

قال ابن قتيبة : يقال : "تفكَّهون" تَندَّمون ، ومثلها : تَفَكَّنونَ ، وهي لغة لعُكْلٍ .

والثالث : تتلاومون ، قاله عكرمة .

والرابع : تتفجَّعون ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ إنّا لَمُغْرَمونَ ﴾ قال الزجاج : أي : تقولون : قد غَرِمْنا وذهب زرعنا .

وقال ابن قتيبة : "لَمُغْرَمونَ" أي : لَمُعَذَّبون .

قوله تعالى : ﴿ بل نحن محرومون ﴾ أي : حُرِمْنا ما كنّا نطلبه من الرّيع في الزرع .

وقد نبّه بهذا على أمرين .

أحدهما : إنعامه عليهم إذ لم يجعل زرعهم حُطاماً .

والثاني : قدرته على إهلاكهم كما قدر على إهلاك الزرع .

فأمّا المُزْن ، فهي السَّحاب ، واحدتها : مُزْنة .

وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : ﴿ تُورُونَ ﴾ قال أبو عبيدة : تستخرجون ، من أَوْرَيت ، وأكثر ما يقال : وَرَيت .

وقال ابن قتيبة : التي تَستخرجون من الزُّنود .

قال الزجاج : "تورون" أي : تقدحون ، تقول : أَوريتُ النّار : إذا قدحتَها .

قوله تعالى : ﴿ أأنتم أنشأتم شَجَرَتَها ﴾ في المراد بشجَرَتها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الحديد ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنها الشجرة التي تُتَّخذ منها الزُّنود ، وهو خشب يُحَكُّ بعضُه ببعض فتخرج منه النار ، هذا قول ابن قتيبة ، والزجاج .

والثالث : أن شجرتها : أصلُها ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ نحن جَعَلْناها تَذْكِرَةً ﴾ قال المفسرون : إذا رآها الرائي ذكر نار جهنم ، وما يخاف من عذابها ، فاستجار بالله منها ﴿ ومتاعاً ﴾ أي : منفعة ﴿ للمقوين ﴾ وفيهم أربعة أقوال .

(193/745)

أحدها : أنهم المسافرون ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك .

قال ابن قتيبة : سموا بذلك لنزلهم القَوَى ، وهو القفر .

وقال بعض العلماء : المسافرون أكثر حاجة إليها من المقيمين ، لأنهم إذا أوقدوها هربت منهم السباع واهتدى به الضال .

والثاني : أنهم المسافرون والحاضرون ، قاله مجاهد .

والثالث : أنهم الجائعون ، قال ابن زيد : المقوي : الجائع في كلام العرب .

والرابع : أنهم الذين لا زاد معهم ولا مردَّ لهم ، قاله أبو عبيدة .

قوله تعالى : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ قال الزجاج : لما ذكر ما يدل على توحيده ، وقدرته ، وإنعامه ، قال : "فسبح" أي : برِّء الله ونزّهه عما يقولون في وصفه .

وقال الضحاك : معناه : فصل باسم ربك ، أي : استفتح الصلاة بالتكبير .

وقال ابن جرير : سبح بذكر ربك وتسميته .

وقيل : الباء زائدة .

والاسم يكون بمعنى الذات ، والمعنى : فسبح ربك .

قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم ﴾ في "لا" قولان .

أحدهما : أنها دخلت توكيداً .

والمعنى : فأقسم ، ومثله ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ [الحشر : 29] قال الزجاج : وهو مذهب سعيد بن جبير .

والثاني : أنها على أصلها .

ثم في معناها قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى ما تقدم ، ومعناها : النهي ، تقدير الكلام : فلا تكذبوا ، ولا تجحدوا ما ذكرته من النعم والحجج ، قاله الماوردي .

والثاني : أنَّ "لا" ردّ لما يقوله الكفار في القرآن : إنه سحر ، وشعر ، وكهانة .

ثم استأنف القسم على أنه قرآن كريم ، قاله علي بن أحمد النيسابوري .

وقرأ الحسن : فلأقسم بغير ألف بين اللام والهمزة .

قوله تعالى : ﴿ بمواقع ﴾ وقرأ حمزة ، والكسائي : "بموقع" على التوحيد .

قال أبو علي : مواقعها : مساقطها .

ومَنْ أَفْرَدَ ، فلأنه اسم جنس .

ومَنْ جَمَعَ ، فلاختلاف ذلك .

وفي "النجوم" قولان .

أحدهما : نجوم السماء ، قاله الأكثرون .

فعلى هذا في مواقعها ثلاثة أقوال .

أحدها : انكدارها وانتثارها يوم القيامة ، قاله الحسن .

(194/745)

والثاني : منازلها ، قاله عطاء ، وقتادة .

والثالث : مغيبها في المغرب ، قاله أبو عبيدة .

والثاني : أنها نجوم القرآن ، رواه ابن جبير عن ابن عباس .

فعلى هذا سميت نجوماً لنزولها متفرقة ، ومواقعها : نزولها ﴿ وإنه لَقَسَمٌ ﴾ الهاء كناية

عن القسم .

وفي الكلام تقديم وتأخير ، تقديره : وإنه لقسم عظيم لو تعلمون عِظَمَهُ .

ثم ذكر المقسم عليه فقال تعالى : ﴿ إِنه لقرآن كريم ﴾ والكريم : اسم جامع لما يحمد ، وذلك أن فيه البيان ، والهدى ، والحكمة ، وهو مُعَظَّم عند الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ في كتاب ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه اللوح المحفوظ ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه المصحف الذي بأيدينا ، قاله مجاهد ، وقتادة .

وفي "المكنون" قولان .

أحدهما : مستور عن الخلق ، قاله مقاتل ، وهذا على القول الأول .

والثاني : مصون ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ من قال : إنَّه اللوح المحفوظ .

فالمطهرون عنده : الملائكة ، وهذا قول ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير .

فعلى هذا يكون الكلام خبراً .

ومن قال : هو المصحف ، ففي المطهرين أربعة أقوال .

أحدها : أنهم المطهرون من الأحداث ، قاله الجمهور .

فيكون ظاهر الكلام النفي ، ومعناه النهي .

والثاني : المطهرون من الشرك ، قاله ابن السائب .

والثالث : المطهرون من الذنوب والخطايا ، قاله الربيع بن أنس .

والرابع : أن معنى الكلام : لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به ، حكاه الفراء .

قوله تعالى : ﴿ تنزيل ﴾ أي : هو تنزيل .

والمعنى : هو منزل ، فسمي المنزل تنزيلاً في اتساع اللغة ، كما تقول للمقدور : قدر ، وللمخلوق : خلق .

قوله تعالى : ﴿ أفبهذا الحديث ﴾ يعني : القرآن ﴿ أنتم مدهنون ﴾ فيه قولان .

أحدهما : مكذّبون ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، والفراء .

والثاني : ممالئون الكفار على الكفر به ، قاله مجاهد .

قال أبو عبيدة : المدهن ، المداهن ، وكذلك قال ابن قتيبة : "مدهنون" أي : مداهنون .

(195/745)

يقال : أدهن في دينه ، وداهن ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ روى مسلم في "صحيحه" من حديث ابن عباس قال : مطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

" أصبح من الناس شاكر ، ومنهم كافر " قالوا : هذه رحمة وضعها الله حيث شاء .

وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا ، وكذا ، فنزلت هذه الآية "فلا أقسم بمواقع النجوم" حتى بلغ "أنكم تكذبون" .

وروى البخاري ومسلم في "الصحيحين" من حديث زيد بن خالد الجهني ، قال " صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بالحديبية على إثْرِ سماءٍ كانت من الليل .

فلما انصرف أقبل على الناس ، فقال : "هل تدرون ماذا قال ربكم" ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : "قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر .

فأما المؤمن فقال : مطرنا بفضل الله وبرحمته فذلك مؤمن بي ، كافر بالكواكب .

وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكواكب" " .

وللمفسرين في معنى هذه الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الرزق ها هنا بمعنى الشكر .

روت عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ﴿ وتجعلون رزقكم ﴾ قال : "شكركم" ، وهذا قول علي بن أبي طالب ، وابن عباس ، وكان علي يقرأ "وتجعلون شكركم" .

والثاني : أن المعنى : وتجعلون شكر رزقكم تكذيبكم ، قاله الأكثرون .

وذلك أنهم كانوا يمطرون ، فيقولون : مطرنا بنوء كذا .

والثالث : أن الرزق بمعنى الحظ ، فالمعنى : وتجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون ، ذكره الثعلبي .

وقرأ أبي بن كعب ، والمفضل عن عاصم "تَكْذِبون" بفتح التاء ، وإسكان الكاف ، مخفَّفة الذال .

قوله تعالى : ﴿ فلولا ﴾ أي : فهلاَّ ﴿ إذا بلغت الحلقوم ﴾ يعني : النَّفْس ، فترك ذِكرها لدلالة الكلام ، وأنشدوا من ذلك :

إِذا حَشْرَجَتْ يَوْمَاً وضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ . . .

قوله تعالى : ﴿ وأنتم ﴾ يعني أهل الميت ﴿ تنظرون ﴾ إلى سلطان الله وأمره .

(196/745)

والثاني : تنظرون إلى الإنسان في تلك الحالة ، ولا تملكون له شيئاً ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ فيه قولان .

أحدهما : ملك الموت أدنى إليه من أهله ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ الملائكة ، رواه أبو صالح

عن ابن عباس .

والثاني : ونحن أقرب إليه منكم بالعلم والقدرة والرؤية ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ أي : لا تعلمون ، والخطاب للكفار ، ذكره الواحدي .

قوله تعالى : ﴿ غير مدينين ﴾ فيه خمسة أقوال .

أحدها : محاسبين ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وابن جبير ، وعطاء ، وعكرمة .

والثاني : موقنين ، قاله مجاهد .

والثالث : مبعوثين ، قاله قتادة .

والرابع : مجزيين .

ومنه يقال : دِنته ، وكما تدين تدان ، قاله أبو عبيدة .

والخامس : مملوكين أذلَّاء من قولك : دِنت له بالطاعة ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ ترجعونها ﴾ أي : تردُّون النَّفْس .

والمعنى : إن جحدتم الإله الذي يحاسبكم ويجازيكم ، فهلاَّ تردُّون هذه النَّفْس ؟ ! فإذا لم يمكنكم ذلك ، فاعلموا أن الأمر لغيركم .

قال الفراء : وقوله تعالى : ﴿ ترجعونها ﴾ هو جواب لقوله تعالى : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ ولقوله تعالى : ﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين ﴾ فإنهما أجيبتا بجواب واحد .

ومثله قوله تعالى : ﴿ فإما يأتينّكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ﴾ [البقرة : 38] ثم ذكر طبقات الخلق عند الموت فقال تعالى : ﴿ فأما إِن كان ﴾ يعني : الذي بلغت نَفْسه الحلقوم ﴿ من المقربين ﴾ عند الله .

قال أبو العالية : هم السابقون ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ أي : فَلَهُ رَوْحٌ .

والجمهور يفتحون الراء .

وفي معناها ستة أقوال .

أحدها : الفرح ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : الراحة ، رواه أبو طلحة عن ابن عباس .

والثالث : المغفرة والرحمة ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والرابع : الجنة ، قاله مجاهد .

والخامس : رَوْحٌ من الغَمّ الذي كانوا فيه ، قاله محمد بن كعب .

والسادس : رَوْح في القبر ، أي : طيب نسيم ، قاله ابن قتيبة .

(197/745)

وقرأ أبو بكر الصديق ، وأبو رزين ، والحسن ، وعكرمة ، وابن يعمر ، وقتادة ، ورويس عن يعقوب ، وابن أبي سُريج عن الكسائي : "فَرُوْحٌ" برفع الراء .

وفي معنى هذه القراءة قولان .

أحدهما : أن معناها : فرحمة ، قاله قتادة .

والثاني : فحياة وبقاءٌ ، قاله ابن قتيبة .

وقال الزجاج : معناه : فحياة دائمة لا موت معها .

وفي "الريحان" أربعة أقوال .

أحدها : أنه الرزق ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : أنه المستراح ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أنه الجنة ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والرابع : أنه الريحان المشموم .

وقال أبو العالية : لا يخرج أحد من المقربين من الدنيا حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة ، فيشمه ، ثم تقبض فيه روحه ، وإلى نحو هذا ذهب الحسن .

وقال أبو عمران الجوني : بلغنا أن المؤمن إذا قبض روحه تلقى بضبائر الريحان من الجنة ، فتجعل روحه فيه .

قوله تعالى : ﴿ فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : فسلامة لك من العذاب ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : تسلِّم عليه الملائكة ، وتخبره أنه من أصحاب اليمين ، قاله عطاء .

والثالث : أن المعنى : أنك ترى فيهم ما تحب من السلامة .

وقد علمت ما أُعدَّ لهم من الجزاء ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ وأما إن كان من المكذّبين ﴾ أي : بالبعث ﴿ الضّالّينَ ﴾ عن الهدى ﴿ فنُزل ﴾ وقد بيَّناه في هذه السورة [الواقعة : 56] .

قوله تعالى : ﴿ إن هذا ﴾ يعني : ما ذكر في هذه السورة ﴿ لهو حق اليقين ﴾ أي : هو اليقين حقاً ، فأضافه إلى نفسه ، كقولك : صلاة الأولى ، وصلاة العصر ، ومثله : ﴿ ولَدَار الآخرة ﴾ [يوسف : 109] وقد سبق هذا المعنى وقال قوم : معناه : وإنه للمتقين حقاً .

وقيل للحق : اليقين .

قوله تعالى : ﴿ فسبح باسم ربك ﴾ قد ذكرناه في هذه السورة [الواقعة : 74] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 8 صـ 130 . 159 ﴾

(198/745)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾

يعني إذا قامت القيامة وقيل إذا نزلت صيحة القيامة وهي النفخة الأخيرة وقيل الواقعة اسم للقيامة كالآزفة ، ﴿ ليس لوقعتها ﴾ يعني لمجيئها ﴿ كاذبة ﴾ يعني ليس لها كذب والمعنى أنها تقع حقاً وصدقاً وقيل معناه ليس لوقعتها قصة كاذبة أي كل ما أخبر الله عنها وقص من خبرها قصة صادقة غير كاذبة وقيل معناه ليس لوقعتها نفس كاذبة أي إن كل من يخبر عن وقوعها صادق غير كاذب لم تكذب نفس أخبرت عن وقوعها ، ﴿ خافضة رافعة ﴾ أي تخفض أقواماً إلى النار وترفع أقواماً إلى الجنة وقال ابن عباس تخفض أقواماً كانوا في الدنيا مرتفعين وترفع أقواماً كانوا في الدنيا مستضعفين وقيل تخفض أقواماً بالمعصية وترفع أقواماً بالطاعة ، ﴿ إذا رجت الأرض رجاً ﴾ أي إذا حركت وزلزلت زلزالاً وذلك أن الله إذا أوحى إليها اضطربت فرقاً وخوفاً قال المفسرون ترج كما يرج الصبي في المهد حتى ينهدم كل بناء عليها وينكسر كل ما فيها من جبال وغيرها وهو قوله تعالى : ﴿ وبست الجبال بسا ﴾ أي فتتت حتى صارت كالدقيق المبسوس وهو المبلول وقيل صارت كثيباً مهيلاً بعد أن كانت شامخة وقيل معناه قلعت من أصلها وسيرت على وجه الأرض حتى ذهب بها ﴿ فكانت هباء منبثاً ﴾ أي غباراً متفرقاً كالذي يرى في شعاع الشمس إذا دخل الكوة وهو الهباء ، ﴿ وكنتم أزواجاً ﴾ أي أصنافاً ﴿ ثلاثة ﴾ ثم

فسر الأزواج فقال تعالى : ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ يعني أصحاب اليمين .

والميمنة ناحية اليمين وهم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة وقال ابن عباس هم الذين كانوا على يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه وقال الله تعالى : " هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي " وقيل هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم وقيل هم الذين كانوا ميامين أي مباركين على أنفسهم وكانت أعمالهم صالحة في طاعة الله وهم التابعون بإحسان ﴿ ما أصحاب الميمنة ﴾ تعجيب من حالهم في السعادة .

والمعنى أي شيء هم .

(199/745)

﴿ وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ﴾ يعني أصحاب الشمال وهم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار وقال ابن عباس هم الذين كانوا على شمال آدم عند إخراج الذرية وقال الله تعالى لهم : " هؤلاء إلى النار ولا أبالي " وقيل هم الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم وقيل هم المشائيم على أنفسهم وكانت أعمالهم في المعاصي لأن العرب تسمي اليد اليسرى الشؤمى ، ﴿ والسابقون السابقون ﴾ قال ابن عباس هم السابقون إلى الهجرة السابقون في الآخرة إلى الجنة وقيل هم السابقون إلى الإسلام وقيل هم الذين صلوا إلى القبلتين من

المهاجرين والأنصار وقيل هم السابقون إلى الصلوات الخمس وقيل إلى الجهاد وقيل هم المسارعون إلى التوبة وإلى ما دعا الله إليه من أعمال البر والخير وقيل هم أهل القرآن المتوجون يوم القيامة .

فإن قلت لِمَ أخر ذكر السابقين وكانوا أولى بالتقديم عن أصحاب اليمين .

(200/745)

قلت فيه لطيفة وذلك أن الله تعالى ذكر في أول السورة من الأمور الهائلة عند قيام الساعة تخويفاً لعباده فإما محسن فيزداد رغبة في الثواب وإما مسيء فيرجع عن إساءته خوفاً من العقاب فلذلك قدم أصحاب اليمين ليسمعوا ويرغبوا ثم ذكر أصحاب الشمال ليرهبوا ثم ذكر السابقين وهم الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ليجتهد أصحاب اليمين في القرب من جهنم ثم أثنى على السابقين فقال تعالى : ﴿ أولئك المقربون ﴾ يعني من الله في جواره وفي ظل عرشه ودار كرامته وهو قوله : ﴿ في جنات النعيم ﴾ قوله تعالى : ﴿ ثلة ﴾ أي جماعة غير محصورة العدد ، ﴿ من الأولين ﴾ يعني من الأمم الماضية من لدن آدم إلى زمن نبينا ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ يعني من هذه الأمة وذلك لأن الذين عاينوا جميع الأنبياء وصدقوهم من الأمم الماضية أكثر ممن عاين النبي (صلى الله عليه وسلم) وآمن به وقيل إن الأولين هم

أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقيل من الآخرين أي ممن جاء بعدهم من الصحابة ، ﴿ على سرر موضونة ﴾ أي منسوجة من الذهب والجوهر وقيل موضونة يعني مصفوفة ﴿ متكئين عليها ﴾ أي على السرر ﴿ متقابلين ﴾ يعني لا ينظر بعضهم في قفا بعض وصفوا بحسن العشرة في المجالسة وقيل لأنهم صاروا أرواحاً نورانية صافية ليس لهم أدبار وظهور .

(201/745)

﴿ يطوف عليهم ﴾ أي للخدمة ﴿ ولدان ﴾ أي غلمان ﴿ مخلدون ﴾ لا يموتون ولا يهرمون ولا يتغيرون ولا ينتقلون من حالة إلى حالة وقيل مخلدون مفرطون والخلد القرط وهو الحلقة تعلق في الأذن واختلفوا في هؤلاء الولدان فقيل هم أولاد المؤمنين الذين ماتوا أطفالاً وفيه ضعف لأن الله أخبر أنه يلحقهم بآبائهم ولأن من المؤمنين من لا ولد له فلو خدمه ولد غيره كان منقصة بأبي الخادم وقيل هم صغار الكفار الذين ماتوا قبل التكليف وهذا القول أقرب من الأول لأنه قد اختلف في أولاد المشركين على ثلاثة مذاهب فقال الأكثرون هم في النار تبعاً لآبائهم وتوقف فيهم طائفة والمذهب الثالث وهو الصحيح الذي ذهب إليه المحققون أنهم من أهل الجنة ولكل مذهب دليل ليس هذا موضعه ، وقيل هم أطفال ماتوا لم

يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيئات فيعاقبوا عليها ومن قال بهذه الأقوال يعلل بأن الجنة ليس فيها ولادة والقول الصحيح الذي لا معدل عنه إن شاء الله إنهم ولدان خلقوا في الجنة لخدمة أهل الجنة كالحور وإن لم يولدوا ولم يحصلوا عن ولادة أطلق عليهم اسم الولدان لأن العرب تسمي الغلام وليداً ما لم يحتلم والأمة وليدة وإن أسنت ، ﴿ بأكواب ﴾ جمع كوب وهي الأقداح المستديرة الأفواه لا آذان لها ولا عرا ﴿ وأباريق ﴾ جمع إبريق وهي ذوات الخراطيم والعرا سميت أباريق لبريق لونها من الصفاء وقيل لأنها يرى باطنها كما يرى ظاهرها ، ﴿ وكأس من معين ﴾ أي من خمرة جارية ﴿ لا يصدعون عنها ﴾ أي لا تصدع رؤوسهم من شربها وعنها كناية عن الكأس وقيل لا يتفرقون عنها ﴿ ولا ينزفون ﴾ أي لا يغلب على عقولهم ولا يسكرون منها وقرىء بكسر الزاي ومعناه لا ينفد شرابهم ، ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ﴾ أي يأخذون خيارها ﴿ ولحم طير مما يشتهون ﴾ قال ابن عباس يخطر على قلبه لحم الطير فيطير ممثلاً بين يديه على ما اشتهى وقيل إنه يقع على صحفة الرجل فيأكل منه ما يشتهي ثم يطير .

(202/745)

فإن قلت هل في تخصيص الفاكهة بالتخير واللحم بالاشتهاء بلاغة ؟ .

قلت نعم وكيف لا وفي كل حرف من حروف القرآن بلاغة وفصاحة والذي يظهر فيه أن اللحم والفاكهة إذا حضرا عند الجائع تميل نفسه إلى اللحم وإذا حضرا عند الشبعان تميل نفسه إلى الفاكهة فالجائع مشته والشبعان غير مشته بل هو مختار وأهل الجنة إنما يأكلون لا من جوع بل للتفكه فميلهم إلى الفاكهة أكثر فيتخيرنها ولهذا ذكرت في مواضع كثيرة من القرآن بخلاف اللحم وإذا اشتهاه حضر بين يديه على ما يشتهيه فتميل نفسه إليه أدنى ميل ولهذا قدم الفاكهة على اللحم والله أعلم ، ﴿ وحور عين ﴾ أي ويطوف عليهم حور عين وقيل لهم حور عين وجاء في تفسير حور أي بيض عين أي ضخام العيون ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ أي المخزون في الصدف المصون الذي لم تمسه الأيدي ولم تقع عليه الشمس والهواء فيكون في نهاية الصفاء روي " أنه سطع نور في الجنة فقيل ما هذا ؟ قيل ضوء ثغر حوراء ضحكت " وروي " أن الحوراء إذا مشت يسمع تقديس الخلاخل من ساقيها وتمجيد الأسورة من ساعديها وإن عقد الياقوت يضحك من نحرها وفي رجليها نعلان من ذهب شراكها من لؤلؤ يصران بالتسبيح " .

﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أي فعلنا ذلك بهم جزاء بما كانوا يعملون في الدنيا بطاعتنا ﴿ لا يسمعون فيها ﴾ أي في الجنة ، ﴿ لغواً ﴾ قيل اللغو ما يرغب عنه من الكلام ويستحق أن يلغى وقيل هو القبيح من القول والمعنى ليس فيها لغو فيسمع ﴿ ولا تأثيماً ﴾ قيل معناه

أن بعضهم لا يقول لبعض أثمت لأنهم لا يتكلمون بما فيه إثم كما يتكلم به أهل الدنيا وقيل معناه لا يأتون تأثيماً أي ما هو سبب التأثيم من قول أو فعل قبيح ﴿ إلا قيلاً ﴾ معناه لكن يقولون قيلاً أو يسمعون قيلاً ﴿ سلاماً سلاماً ﴾ يعني يسلم بعضهم على بعض وقيل تسلم الملائكة عليهم أو يرسل الرب بالسلام إليهم وقيل معناه أن قولهم يسلم في اللغو .

(203/745)

ثم ذكر أصحاب اليمين وعجب من شأنهم فقال تعالى : ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾ لما بين حال السابقين شرع في بيان حال أصحاب اليمين فقال تعالى : ﴿ في سدر مخضود ﴾ أي لا شوك فيه كأنه خضد شوكه أي قطع ونزع منه وهذا قول ابن عباس وقيل هو الموقر حملاً قيل ثمرها أعظم من القلال وهو النبق قيل لما نظر المسلمون إلى وج وهو واد مخصب بالطائف فأعجبهم سدره فقالوا ليت لنا مثل هذا فأنزل الله هذه الآية ﴿ وطلح ﴾ قيل هو الموز عند أكثر المفسرين وقيل هو شجر له ظل بارد طيب وقيل هو شجر أم غيلان له شوك ونور طيب الرائحة فخوطبوا ووعدوا بمثل ما يحبون ويعرفون إلا أن فضله على شجر الدنيا كفضل الجنة على الدنيا ﴿ منضود ﴾ أي متراكم قد نضد بالحمل من أوله إلى آخره ليست له سوق بارزة بل من عروقه إلى أغصانه ثمر وليس شيء من ثمر الجنة

في غلاف كثمر الدنيا مثل الباقلاء والجوز ونحوهما بل كلها مأكول ومشروب ومشموم ومنظور إليه ، ﴿ وظل ممدود ﴾ أي دائم لا تنسخه كظل أهل الدنيا وذلك لأن الجنة ظل كلها لا شمس فيها .

(ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة واقرؤوا إن شئتم وظل ممدود " وعن ابن عباس في قوله وظل ممدود قال شجرة في الجنة على ساق يخرج إليها أهل الجنة فيتحدثون في أصلها فيشتهي بعضهم لهو الدنيا فيرسل الله ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا ﴿ وماء مسكوب ﴾ أي مصبوب يجري دائماً في غير أخدود ولا ينقطع .

(204/745)

﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ قال ابن عباس لا تنقطع إذا جنيت ولا تمتنع من أحد إذا أراد أخذها وقيل لا مقطوعة بالأزمان ولا ممنوعة بالأثمان كما تنقطع ثمار الدنيا في الشتاء ولا يوصل إليها إلا بالثمن وقيل لا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا وجاء في الحديث " ما قطعت ثمرة من ثمار الجنة إلا أبدل الله مكانها ضعفين " ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ قال علي مرفوعة على الأسرة وقيل بعضها فوق بعض فهي مرفوعة عالية عن أبي

سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وسلم) " في قوله : وفرش مرفوعة قال ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب قال الترمذي قال بعض أهل العلم معنى هذا الحديث ارتفاعها كما بين السماء والأرض يقول ارتفاع الفرش المرفوعة في الدرجات والدرجات ما بين كل درجتين بين السماء والأرض وقيل أراد بالفرش النساء والعرب تسمي المرأة فراشاً ولباساً على الاستعارة فعلى هذا القول يكون معنى مرفوعة أي رفعن بالفضل والجمال على نساء الدنيا ويدل على هذا التأويل قوله في عقبه ، ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ أي خلقناهن خلقاً جديداً قال ابن عباس يعني الآدميات العجائز الشمط يقول خلقناهن بعد الكبر والهرم خلقاً آخر ، ﴿ فجعلناهن أبكاراً ﴾ يعني عذارى .

(205/745)

عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن أنشأناهن إنشاء قال إن من المنشآت اللاتي كن في الدنيا عجائز عمشاً رمصاً " أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وضعف بعض رواته وروى البغوي بسنده عن الحسن قال " أتت عجوز النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالت يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة فقال يا

أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز قال فولت تبكي قال أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز إن الله تعالى قال ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً ﴾ " هذا حديث مرسل وروي بإسناد الثعلبي عن أنس بن مالك عن النبي (صلى الله عليه وسلم) في قوله ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ قال " عجائزكن في الدنيا عمشاً رمصاً " ﴿ فجعلناهن أبكاراً ﴾ وقال المسيب بن شريك هن عجائز الدنيا أنشأهن الله بقدرته خلقاً جديداً كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً وقيل إنهن فضلن على الحور العين بصلاتهن في الدنيا وقيل هن الحور العين أنشأهن الله لم تقع عليهن ولادة فجعلناهن أبكاراً عذارى وليس هناك وجع .

(206/745)

﴿ عرباً ﴾ جمع عروب وهي المتحببة إلى زوجها قاله ابن عباس في رواية عنه وعنه أنها الملقة وقيل الغنجة وعن أسامة بن زيد عن أبيه عرباً قال حسان الكلام ﴿ أترابا ﴾ يعني أمثالاً في الخلق وقيل مستويات في السن على سن واحد بنات ثلاث وثلاثين ، عن معاذ بن جبل عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاثين أو قال ثلاث وثلاثين سنة " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب ﴿

لأصحاب اليمين ﴾ يعني أنشأهن لأصحاب اليمين وقيل هذا الذي ذكرنا لأصحاب اليمين ﴿ ثلة من الأولين ﴾ يعني من المؤمنين الذين هم قبل هذه الأمة ﴿ وثلة من الآخرين ﴾ يعني من مؤمني هذه الأمة يدل عليه ما روى البغوي بإسناد الثعلبي عن عروة بن رويم قال " لما أنزل الله على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثلة من الأولين وقليل من الآخرين بكى عمر فقال يا نبي الله آمنا برسول الله وصدقناه ومن ينجو منا قليل فأنزل الله وثلة من الأولين وثلة من الآخرين فدعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عمر فقال قد أنزل الله تعالى فيما قلت فقال رضينا عن ربنا وتصديق نبينا فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من آدم إلينا ثلة ومنا إلى يوم القيامة ثلة ولا يستتمها الأسودان من رعاة الإبل ممن قال لا إله إلا الله " ، (ق) عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد إذ رفع إلى سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم نهض فدخل منزله فخاض القوم في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب قال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال بعضهم فلعلهم

الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال ما الذي تخوضون فيه فأخبروه فقال هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام عكاشة بن محصن فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال أنت منهم فقام رجل آخر فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال سبقك بها عكاشة " الرهيط تصغير رهط وهم دون العشرة وقيل إلى الأربعين .

(208/745)

﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ﴾ قد تقدم أنه بمعنى التعجب من حالتهم وهم الذين يعطون كتبهم بشمائلهم ثم بين منقلبهم وما أعد لهم من العذاب فقال تعالى : ﴿ في سموم ﴾ أي في حر النار وقيل في ريح شديد الحرارة ﴿ وحميم ﴾ أي ماء حار يغلي ، ﴿ وظل من يحموم ﴾ يعني في ظل من دخان شديد السواد قيل إن النار سواد وأهلها سود وكل شيء فيها أسود وقيل اليحموم اسم من أسماء النار ﴿ لا بارد ولا كريم ﴾ يعني لا بارد المنزل ولا كريم المنظر وذلك لأن فائدة الظل ترجع إلى أمرين أحدهما دفع الحر والثاني حسن المنظر وكون الإنسان فيه مكرماً وظل أهل النار بخلاف هذا لأنهم في ظل من دخان

أسود حار ، ثم بين بما استحقوا ذلك فقال تعالى : ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك ﴾ يعني في الدنيا ، ﴿ مترفين ﴾ يعني منعمين ﴿ وكانوا يصرون على الحنث العظيم ﴾ يعني على الذنب الكبير وهو الشرك وقيل الحنث العظيم اليمين الغموس وذلك أنهم كانوا يحلفون أنهم لا يبعثون وكذبوا في ذلك يدل عليه سياق الآية وهو قوله تعالى : ﴿ وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون ﴾ فرد الله تعالى عليهم بقوله ﴿ قل إن الأولين والآخرين ﴾ يعني الآباء والأبناء ، ﴿ لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ يعني أنهم يجمعون ويحشرون ليوم الحساب ﴿ ثم إنكم أيها الضالون ﴾ يعني عن الهدى ﴿ المكذبون ﴾ أي بالبعث والخطاب لكفار مكة وقيل إنه عام مع كل ضال مكذب ، ﴿ لآكلون من شجر من زقوم ﴾ تقدم تفسيره ﴿ فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم ﴾ يعني الإبل العطاش قيل إن الهيام داء يصيب الإبل فلا تروى معه ولا تزال تشرب حتى تهلك وقيل الهيم الأرض ذات الرمل التي لا تروى بالماء قيل يلقى على أهل النار العطش فيشربون من الحميم شرب الهيم فلا يروون ﴿ هذا نزلهم ﴾ يعني ما ذكر من الزقوم والحميم أي رزقهم وغذاؤهم وما أعد لهم ﴿ يوم الدين ﴾ يعني يوم يجازون بأعمالهم

ثم احتج عليهم في البعث

﴿ نحن خلقناكم ﴾ يعني ولم تكونوا شيئاً وأنتم تعلمون ذلك ﴿ فلولا ﴾ أي فهلا ﴿ تصدقون ﴾ يعني بالبعث بعد الموت .

(210/745)

قوله : ﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾ يعني ما تصبون في الأرحام من النطف ﴿ أأنتم تخلقونه ﴾ أي أنتم تخلقون ما تمنون بشراً ﴿ أم نحن الخالقون ﴾ أي إنه خلق النطفة وصورها وأحياها فلم لا تصدقون بأنه واحد قادر على أن يعيدكم كما أنشأكم احتج عليهم في البعث بالقدرة على ابتداء الخلق ، ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ يعني الآجال فمنكم من يبلغ الكبر والهرم ومنكم من يموت صبياً وشاباً وغير ذلك من الآجال القريبة والبعيدة وقيل معناه إنه جعل أهل السماء وأهل الأرض فيه سواء شريفهم ووضيعهم فعلى هذا القول يكون معنى قدرنا قضينا ، ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ يعني لا يفوتني شيء أريده ولا يمتنع مني أحد وقيل معناه وما نحن بمغلوبين عاجزين عن إهلاككم وإبدالكم بأمثالكم وهو قوله تعالى : ﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾ أي نأتي بخلق مثلكم بدلاً منكم في أسرع حين ﴾

وننشئكم ﴾ أي نخلقكم ﴿ فيما لا تعلمون ﴾ أي من الصور والمعنى نغير حليتكم إلى ما هو أسمج منها من أي خلق شئنا وقيل نبدل صفاتكم فنجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بمن كان قبلكم أي إن أردنا أن نفعل ذلك بكم ما فاتنا ، وقال سعيد بن المسيب فيما لا تعلمون في حواصل طيور سود كأنها الخطاطيف تكون ببرهوت وهو واد باليمن وهذه الأقوال كلها تدل على المسخ وعلى أنه لو شاء أن يبدلهم بأمثالهم من بني آدم قدر ولو شاء أن يمسخهم في غير صورهم قدر ، وقال بعض أهل المعاني هذا يدل على النشأة الثانية يكونها الله تعالى في وقت لا يعلمه العباد ولا يعلمون كيفيته كما علموا الإنشاء الأول من جهة التناسل ويكون التقدير على هذا وما نحن بمسبوقين على أن ننشئكم في وقت لا تعلمونه يعني وقت البعث والقيامة ، وفيه فائدة وهو التحريض على العمل الصالح لأن التبديل والإنشاء هو الموت والبعث وإذا كان ذلك واقعاً في الأزمان ولا يعلمه أحد فينبغي أن لا يتكل الإنسان على طول المدة ولا يغفل عن إعداد العدة ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى ﴾ أي الخلقة

(211/745)

الأولى ولم تكونوا شيئاً وفيه تقرير للنشاة الثانية يوم القيامة ﴿ فلولا تذكرون ﴾ أي بأني قادر على إعادتكم كما قدرت على إبدائكم أول مرة .

قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ لما ذكر الله تعالى ابتداء الخلق وما فيه من دلائل الوحدانية ذكر بعده الرزق لأن به البقاء وذكر أموراً ثلاثة المأكول والمشروب وما به إصلاح المأكول والمشروب ورتبه ترتيباً حسناً فذكر المأكول أولاً لأنه هو الغذاء وأتبعه المشروب لأن به الاستمراء ثم النار التي بها الإصلاح وذكر من أنواع المأكول الحب لأنه هو الأصل ومن المشروب الماء لأنه أيضاً هو الأصل وذكر من المصلحات النار لأن بها إصلاح أكثر الأغذية ، فقوله أفرأيتم ما تحرثون أي ما تثيرون من الأرض وتلقون فيه البذر ﴿ أأنتم تزرعونه ﴾ أي تنبتونه وتنشئونه حتى يشتد ويقوم على سوقه ﴿ أم نحن الزارعون ﴾ معناه أأنتم فعلتم ذلك أم الله ولا شك في أن إيجاد احب في السنبل ليس بفعل أحد غير الله تعالى وإن كان إلقاء البذر من فعل الناس ، ﴿ لو نشاء لجعلناه ﴾ يعني ما تحرثونه وتلقون فيه من البذر ، ﴿ حطاماً ﴾ أي تبناً لا قمح فيه وقيل هشيماً لا ينتفع به في مطعم ولا غيره وقيل هو جواب لمعاند يقول نحن نحرثه وهو بنفسه يصير زرعاً لا بفعلنا ولا بفعل غيرنا فرد الله عليّ هذا المعاند بقوله لو نشاء لجعلناه حطاماً فهل تقدرون أنتم على حفظه أو هو يدفع عن نفسه بنفسه تلك الآفات التي تصيبه ولا يشك أحد في أن دفع الآفات ليس إلا بإذن الله وحفظه ، ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ أي تتعجبون مما نزل بكم في زرعكم وقيل تندمون على

نفقاتكم وقيل تندمون على ما سلف منكم من المعاصي التي أوجبت تلك العقوبة وقيل تتلاومون وقيل تحزنون وقيل هو تلهف على ما فات .

(212/745)

﴿ إنا لمغرمون ﴾ أي وتقولون فحذف القول ومعنى الغرم ذهاب المال بغير عوض وقيل معناه لموقع بنا وقال ابن عباس لمعذبون يعني أنهم عذبوا بذهاب أموالهم بغير فائدة والمعنى إنا غرمنا الحب الذي بذرناه فذهب بغير عوض ، ﴿ بل نحن محرومون ﴾ أي ممنوعون والمعنى حرمنا الذي كنا نطلبه من الريع في الزرع ، ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ﴾ ذكرهم الله تعالى نعمه عليهم بإنزال المطر الذي لا يقدر عليه إلا الله : ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ قال ابن عباس شديد الملوحة وقيل مراً لا يمكن شربه ﴿ فلولا ﴾ أي فلا ﴿ تشكرون ﴾ يعني نعمة الله عليكم ﴿ أفرأيتم النار التي تورون ﴾ يعني تقدحون من الزند ﴿ أأنتم أنشأتم شجرتها ﴾ يعني التي تقدح منها النار وهي المرخ والعفار وهما شجرتان تقدح منهما النار وهما رطبتان وقيل أراد جميع الشجر الذي توقد منه النار ﴿ أم نحن المنشئون نحن جعلناها ﴾ يعني نار الدنيا ﴿ تذكرة

﴿ أي للنار الكبرى إذا رأى الرائي هذه النار ذكر بها نار جهنم فيخشى الله ويخاف عقابه وقيل موعظة يتعظ بها المؤمن .

(213/745)

(ق) عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله قال فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها " ﴿ ومتاعاً ﴾ أي بلغة ومنفعة ﴿ للمقوين ﴾ يعني للمسافرين والمقوي النازل في الأرض القواء وهي القفر الخالية البعيدة من العمران والمعنى أنه ينتفع بها أهل البوادي والسفار فإن منفعتهم أكثر من المقيم فإنهم يوقدونها بالليل لتهرب الشماع ويهتدي بها الضال إلى غير ذلك من المنافع هذا قول أكثر المفسرين وقيل المقوين الذين يستمتعون بها في الظلمة ويصطلون بها من البرد وينتفعون بها في الطبخ والخبز إلى غير ذلك من المنافع وقيل المقوي من الأضداد يقال للفقير مقو لخلوه من المال ويقال للغني مقو لقوته على ما يريد والمعنى أن فيها متاعاً ومنفعة للفقراء والأغنياء جميعاً لا غنى لأحد عنها .

﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ لما ذكر الله ما يدل على وحدانيته وقدرته وإنعامه على

سائر الخلق خاطب نبيه (صلى الله عليه وسلم) ويجوز أن يكون خطاباً لكل فرد من الناس فقال تعالى فسبح باسم ربك أي برِّىء الله ونزهه عما يقول المشركون في صفته والاسم يكون بمعنى الذات والمعنى فسبح بذات ربك العظيم .

قوله : ﴿ فلا أقسم ﴾ قال أكثر المفسرين معناه فأقسم ولا صلة مؤكدة وقيل لا على أصلها وفي معناها وجهان أحدهما أنها ترجع إلى ما تقدم ومعناها النهي وتقديره فلا تكذبوا ولا تجحدوا ما ذكرته من النعم والحجج .

(214/745)

الوجه الثاني : أن لا رد لما قاله الكفار في القرآن من أنه سحر وشعر وكهانة والمعنى ليس الأمر كما تقولون ثم استأنف القسم فقال أقسم والمعنى لا والله لا صحة لقول الكفار وقيل إن لا هنا معناها النفي فهو كقول القائل لا تسأل عما جرى وهو يريد تعظيم الأمر لا النهي عن السؤال ، ﴿ بمواقع النجوم ﴾ قال ابن عباس أراد نجوم القرآن فإنه كان ينزل على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) متفرقاً وقيل أراد مغارب النجوم ومساقطها وقيل أراد منازلها وقيل انكدارها وانتثارها يوم القيامة وقيل مواقعها في اتباع الشياطين عند الرجم ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ قيل هذا يدل على أن المراد بمواقع النجوم نزول القرآن

والمعنى إن القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم لو تعلمون عظمته لانتفعتم بذلك وقيل معنى لو تعلمون أي فاعلموا عظمته وقيل إنه اعتراض بين القسم والمقسم عليه والمعنى فأقسم بمواقع النجوم ، ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ أي إن الكتاب الذي أنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) لقرآن كريم أي عزيز مكرم لأنه كلام الله تعالى ووحيه إلى نبيه (صلى الله عليه وسلم) وقيل الكريم الذي من شأنه أن يعطي الكثير وسمي القرآن كريماً لأنه يفيد الدلائل التي تؤدي إلى الحق في الدين وقيل الكريم اسم جامع لما يحمد والقرآن الكريم لما يحمد فيه من الهدى والنور والبيان والعلم والحكم فالفقيه يستدل به ويأخذ منه والحكيم يستمد منه ويحتج به والأديب يستفيد منه ويتقوى به فكل عالم يطلب أصل علمه منه وقيل سمي كريماً لأن كل أحد يناله ويحفظه من كبير وصغير وذكي وبليد بخلاف غيره من الكتب ، وقيل إن الكلام إذا كرر مراراً يسأمه السامعون ويهون في الأعين وتمله الآذان والقرآن عزيز كريم لا يهون بكثرة التلاوة ولا يخلق بكثرة الترداد ولا يمله السامعون ولا يثقل على الألسنة بل هو غض طري يبقى أبد الدهر كذلك ﴿ في كتاب مكنون ﴾ أي مصون مستور عند الله تعالى في اللوح المحفوظ من الشياطين

(215/745)

من أن يناله بسوء وقيل المراد بالكتاب المصحف ومعنى مكنون مصون محفوظ من التبديل والتحريف والقول الأول أصح ، ﴿ لا يمسه ﴾ أي ذلك الكتاب المكنون ﴿ إلا المطهرون ﴾ وهم الملائكة الموصوفون بالطهارة من الشرك والذنوب والأحداث يروى هذا القول عن ابن عباس وأنس وهو قول سعيد بن جبير وأبي العالية وقتادة وابن زيد وقيل هم السفرة الكرام البررة وعلى القول الثاني من أن المراد بالكتاب المصحف فقيل معنى لا يمسه إلا المطهرون أي من الشرك وكان ابن عباس ينهى أن تمكن اليهود والنصارى من قراءة القرآن قال الفراء لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به وقيل معناه لا يقرأه إلا الموحدون وقال قوم معناه لا يمسه إلا المطهرون من الأحداث والجنابات وظاهر الآية نفي ومعناها نهي قالوا لا يجوز للجنب ولا للحائض ولا للمحدث حمل المصحف ولا مسه وهو قول عطاء وطاوس وسالم والقاسم وأكثر أهل العلم وبه قال مالك والشافعي وأكثر الفقهاء يدل عليه ما روى مالك في الموطأ عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم إن في الكتاب الذي كتبه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لعمرو بن حزم

﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ صفة للقرآن أي القرآن منزل من عند رب العالمين سمي المنزل تنزيلاً على اتساع اللغة يقال للمقدور قدر وللمخلوق خلق وفيه رد على من قال إن القرآن شعر أو سحر أو كهانة فقال الله تعالى بل القرآن تنزيل من رب العالمين .

قوله : ﴿ أفبهذا الحديث ﴾ يعني القرآن ﴿ أنتم ﴾ أي يا أهل مكة ﴿ مدهنون ﴾ قال ابن عباس مكذبون وقيل كافرون والمدهن والمداهن الكذاب والمنافق والإدهان الجري في الباطل على خلاف الظاهر هذا أصله ثم قيل للمكذب والكافر مدهن وإن صرح بالتكذيب والكفر ، ﴿ وتجعلون رزقكم ﴾ أي حظكم ونصيبكم من القرآن ﴿ أنكم تكذبون ﴾ قال الحسن في هذه الآية خسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب وقال جماعة من المفسرين معناه وتجعلون شكركم أنكم تكذبون أي بنعمة الله عليكم وهذا في الاستسقاء بالأنواء وذلك أنهم كانوا إذا مطروا يقولون مطرنا بنوء كذا ولا يرون ذلك المطر من فضل الله عليهم فقيل لهم أتجعلون رزقكم أي شكركم بما رزقكم التكذيب فمن نسب الإنزال إلى النجم فقد كذب برزق الله تعالى ونعمه وكذب بما جاء به القرآن والمعنى أتجعلون بدل الشكر التكذيب ، (ق) عن يزيد بن خالد الجهني قال " صلى بنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب " رواه مسلم وفيه عن ابن عباس عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بمعناه وزاد فنزلت هذه الآية

فلا أقسم بمواقع النجوم إلى قوله وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ، وفيه عن أبي هريرة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ينزل الله الغيث فيقولون الكوكب كذا وكذا وفي رواية بكوكب كذا وكذا " عن علي بن أبي طالب قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون قال شكركم تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا " وفي رواية " بكوكب كذا وكذا " أخرجه

(217/745)

الترمذي وقال حديث حسن غريب .

قوله في أثر سماء أي أثر مطر والنوء الكوكب يقال ناء النجم ينوء إذا سقط وغاب وقيل ناء إذا نهض وطلع واختلف العلماء في معنى الحديث وكفر من قال مطرنا بنوء كذا على قولين أحدهما أنه كفر بالله تعالى سالب لأصل الإيمان مخرج عن ملة الإسلام وذلك فيمن قال ذلك معتقداً أن الكوكب فاعل مدبر منشىء للمطر كما كان بعض الجاهلية يزعم فمن اعتقد هذا فلا شك في كفره ، وهذا القول هو الذي ذهب إليه جماهير العلماء منهم الشافعي وهو ظاهر الحديث وعلى هذا لو قال مطرنا بنوء كذا وكذا وهو معتقد أن إيجاد المطر من الله

ورحمته وأن النوء ميقات له ومراده إنا مطرنا في وقت طلوع نجم كذا ولم يقصد إلى فعل النجم كما جاء عن عمر أنه استسقى بالمصلى ثم نادى العباس كم بقي من نوء الثريا ؟ فقال إن العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق سبعاً بعد وقوعها فوالله ما مضت تلك السبع حتى غيث الناس وإنما أراد عمركم بقي من الوقت الذي جرت العادة أنه إذا تم أتى الله بالمطر فهذا جائز لا كفر فيه واختلفوا في كراهية هذا والأظهر أنها كراهية تنزيه لا إثم فيها ولا تحريم وسبب هذه الكراهة أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره فيساء الظن بقائلها ولأنها من شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم ، والقول الثاني في تأويل أصل الحديث أن المراد بالكفر كفر النعمة لله تعالى لاقتصاره على إضافة الغيث إلى الكواكب وهذا جار فيمن لا يعتقد تدبير الكواكب ويؤيد هذا التأويل حديث أبي هريرة

(218/745)

﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ أي بالعلم والقدرة والرؤية وقيل ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إلى الميت منكم ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ أي الذين حضروه من الملائكة لقبض روحه وقيل لا تبصرون أي لا تعلمون ذلك ﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين ﴾ أي مملوكين وقيل محاسبين ومجزيين ﴿ ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ أي تردون نفس هذا

الميت إلى جسده بعد ما بلغت الحلقوم فأجاب عن قوله فلولا إذا بلغت الحلقوم وعن قوله فلولا إن كنتم غير مدينين بجواب واحد وهو قوله ترجعونها والمعنى إن كان الأمر كما تقولون إنه لا بعث ولا حساب ولا إله يجازي فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم وإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله تعالى فآمنوا به ثم ذكر طبقات الخلق عند الموت وبين درجاتهم فقال تعالى : ﴿ فأما إن كان من المقربين ﴾ يعني السابقين .

﴿ فروح ﴾ أي فله روح وهو الراحة وقيل فله فرح وقيل رحمة ﴿ وريحان ﴾ أي وله استراحة وقيل رزق وقيل هو الريحان الذي يشم قال أبو العالية لا يفارق أحد من المقربين الدنيا حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيشمه فتقبض روحه ﴿ وجنة نعيم ﴾ أي وله جنة النعيم يفضي إليها في الآخرة قال أبو بكر الوراق الروح النجاة من النار والريحان رضوان دار القرار ﴿ وأما إن كان ﴾ يعني المتوفى ﴿ من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ أي فسلامة لك يا محمد منهم والمعنى فلا تهتم لهم فإنهم سلموا من عذاب الله أو إنك ترى فيهم ما تحب من السلامة وقيل هو أن الله يتجاوز عن سيئاتهم ويقبل حسناتهم وقيل معناه مسلم لك أنهم من أصحاب اليمين أو يقال لصاحب اليمين مسلم لك أنك من أصحاب اليمين وقيل فسلام عليك من أصحاب اليمين ، ﴿ وأما إن كان من المكذبين ﴾ أي بالبعث ﴿ الضالين ﴾ أي عن الهدى وهم أصحاب الشمال .

﴿ فنزل من حميم ﴾ أي الذي يعد لهم حميم جهنم ﴿ وتصلية جحيم ﴾ أي وإدخال نار عظيمة ﴿ إن هذا ﴾ يعني ما ذكر من قصة المحتضرين ﴿ لهو حق اليقين ﴾ أي لا شك فيه وقيل إن هذا الذي قصصناه عليك في هذه السورة من الأقاصيص وما أعد الله لأوليائه من النعم وما أعد لأعدائه من العذاب الأليم وما ذكر مما يدل على وحدانيته يقين لا شك فيه ، ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ أي فنزه ربك العظيم عن كل سوء وقيل معناه فصل بذكر ربك العظيم وبأمره .

عن عقبة بن عامر الجهني قال " لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اجعلوها في ركوعكم ولما نزلت سبح اسم ربك الأعلى قال اجعلوها في سجودكم " أخرجه أبو داود عن حذيفة أنه صلى مع النبي (صلى الله عليه وسلم) فكان يقول في ركوعه " سبحان ربي العظيم وفي سجوده سبحان ربي الأعلى وما أتى على آية رحمة إلا وقف وسأل وما أتى على آية عذاب إلا وقف وتعوذ " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وله عن جابر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة " (م) عن أبي ذر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله تعالى قال سبحان الله وبحمده " (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " كلمتان خفيفتان على اللسان

ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم " هذا الحديث آخر حديث في صحيح البخاري والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 14.29 ﴾

(220/745)

وقال النسفى :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾

قامت القيامة .

وقيل : وصفت بالوقوع لأنها تقع لا محالة فكأنه قيل : إذا وقعت الواقعة التي لا بد من وقوعها .

ووقوع الأمر نزوله يقال : وقع ما كنت أتوقعه أي نزل ما كنت أترقب نزوله .

وانتصاب ﴿ إِذَا ﴾ بإضمار "اذكر" ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ نفس كاذبة أي لا تكون حين تقع نفس تكذب على الله وتكذب في تكذيب الغيب لأن كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدقة ، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذبات .

واللام مثلها في قوله تعالى : ﴿ ياليتنى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ [الفجر : 24] ﴿ خَافِضَةٌ

رَّافِعَةٌ ﴾ أي هي خافضة رافعة ترفع أقواماً وتضع آخرين ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأرض رَجّاً ﴾ حركت تحريكاً شديداً حتى ينهدم كل شيء فوقها من جبل وبناء ، وهو بدل من ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ﴾ ، ويجوز أن ينتصب ب ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ أي تخفض وترفع وقت رجّ الأرض وبسّ الجبال ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ وفتتت حتى تعود كالسويق أو سيقت من بس الغنم إذا ساقها كقوله : ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال ﴾ [النبأ : 20] ﴿ فَكَانَتْ هَبَاء ﴾ غباراً ﴿ مُّنبَثّاً ﴾ متفرقاً ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ﴾ أصنافاً يقال للأصناف التي بعضها من بعض أو يذكر بعضها من بعض أزواج ﴿ ثلاثة ﴾ صنفان في الجنة وصنف في النار .

ثم فسر الأزواج فقال ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ مبتدأ وهم الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم ﴿ مَا أصحاب الميمنة ﴾ مبتدأ وخبر وهما خبر المبتدأ الأول ، وهو تعجيب من حالهم في السعادة وتعظيم لشأنهم كأنه قال : ما هم وأي شيء هم ؟ ﴿ وأصحاب المشئمة ﴾ أي الذين يؤتون صحائفهم بشمائلهم أو أصحاب المنزلة السنية وأصحاب المنزلة الدنية الخسيسة من قولك : فلان مني باليمين وفلان مني بالشمال إذا وصفتهما بالرفعة عندك والضعة ، وذلك لتيمنهم بالميامن وتشاؤمهم بالشمائل .

وقيل : يؤخذ بأهل الجنة ذات اليمين وبأهل النار ذات الشمال ﴿ مَا أصحاب المشئمة ﴾ أي أيُّ شيء هم ؟ وهو تعجيب من حالهم بالشقاء ﴿ والسابقون ﴾ مبتدأ ﴿ السابقون ﴾ خبره تقديره السابقون إلى الخيرات السابقون إلى الجنات .

وقيل : الثاني تأكيد للأول والخبر ﴿ أُوْلَئِكَ المقربون ﴾ والأول أوجه ﴿ فِي جنات النعيم ﴾ أي هم في جنات النعيم ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين ﴾ أي هم ثلة ، والثلة الأمة من الناس الكثيرة ، والمعنى أن المسابقين كثير من الأولين وهم الأمم من لدن آدم إلى نبينا محمد عليهما السلام ، وقليل من الآخرين وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل : من الأولين من متقدمي هذه الأمة ، ومن الآخرين من متأخريها .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " الثلثان جميعاً من أمتي " .

﴿ على سُرُرٍ ﴾ جمع سرير ككثيب وكثب ﴿ مَّوْضُونَةٍ ﴾ مرمولة ومنسوجة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ حال من الضمير في ﴿ على ﴾ وهو العامل فيها أي استقروا عليها متكئين ﴿ عَلَيْهَا متقابلين ﴾ ينظر بعضهم في وجوه بعض ولا ينظر بعضهم في أقفاء بعض ، وصفوا بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق وصفاء المودة و ﴿ متقابلين ﴾ حال أيضاً ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ يخدمهم ﴿ ولدان ﴾ غلمان جمع وليد ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ مبقّون أبداً على شكل الولدان لا يتحولون عنه .

وقيل : مقرّطون والخلدة القرط .

قيل : هم أولاد أهل الدنيا لم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيئات فيعاقبوا عليها ، وفي الحديث : " أولاد الكفار خدام أهل الجنة " ﴿ بِأَكْوَابٍ ﴾ جمع كوب وهي آنية لا عروة لها ولا خرطوم ﴿ وَأَبَارِيقَ ﴾ جمع إبريق وهو ماله خرطوم وعروة ﴿ وَكَأْسٍ ﴾ وقدح فيه شراب وإن لم يكن فيه شراب فليس بكأس ﴿ مِّن مَّعِينٍ ﴾ من خمر تجري من العيون ﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ أي بسببها وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها أو لا يفرقون عنها ﴿ وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ ولا يسكرون .

(222/745)

نزف الرجل ذهب عقله بالسكر .

﴿ وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ بكسر الزاي : كوفي أي لا ينفد شرابهم .

يقال : أنزف القوم إذا فني شرابهم ﴿ وفاكهة مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ يأخذون خيره وأفضله .

﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ يتمنون ﴿ وَحُورٌ ﴾ جمع حوراء ﴿ عِينٌ ﴾ جمع عيناء أي وفيها حور عين أو ولهم حور عين ، ويجوز أن يكون عطفاً على ﴿ ولدان ﴾ ﴿ وَحُورٌ ﴾ : يزيد وحمزة وعلي عطفاً على ﴿ جنات النعيم ﴾ كأنه قال : هم في جنات النعيم وفاكهة ولحم وحورٍ ﴿ كأمثال اللؤلؤ ﴾ في الصفاء والنقاء ﴿ المكنون ﴾

المصون .

وقال الزجاج : كأمثال الدر حين يخرج من صدفه لم يغيره الزمان واختلاف أحوال الاستعمال ﴿ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ جزاء مفعول له أي يفعل بهم ذلك كله لجزاء أعمالهم أو مصدر أي يجزون جزاء .

﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا ﴾ في الجنة ﴿ لَغْواً ﴾ باطلاً ﴿ وَلاَ تَأْثِيماً ﴾ هذياناً ﴿ إِلاَّ قِيلاً سلاما سلاما ﴾ إلا قولاً ذا سلامة .

والاستثناء منقطع و ﴿ سَلاَماً ﴾ بدل من ﴿ قِيلاً ﴾ أو مفعول به ل ﴿ قِيلاً ﴾ أي لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا سلاماً سلاماً .

والمعنى أنهم يفشون السلام بينهم فيسلمون سلاماً بعد سلام ﴿ وأصحاب اليمين مَا أصحاب اليمين * فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ السدر شجر النبق والمخضود الذي لا شوك له كأنما خضد شوكه ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ الطلح شجر الموز والمنضود الذي نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه فليست له ساق بارزة ﴿ وَظِلّ مَّمْدُودٍ ﴾ ممتد منبسط كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ جار بلا حد ولا خد أي يجري على الأرض في غير أخدود ﴿ وفاكهة كَثِيرَةٍ ﴾ أي كثيرة الأجناس ﴿ لاَّ مَقْطُوعَةٍ ﴾ لا تنقطع في بعض الأوقات كفواكه الدنيا بل هي دائمة ﴿ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ لا تمنع عن متناولها بوجه .

وقيل : لا مقطوعة بالأزمان ولا ممنوعة بالأثمان ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ رفيعة القدر أو نضدت حتى ارتفعت أو مرفوعة على الأسرة .

وقيل : هي النساء لأن المرأة يكنى عنها بالفراش مرفوعة على الأرائك قال الله تعالى : ﴿ هُمْ وأزواجهم فِى ظلال عَلَى الأرائك مُتَّكِئُونَ ﴾ [يس : 56] .

ويدل عليه قوله .

﴿ إِنَّا أنشأناهن إِنشَاء ﴾ ابتدأنا خلقهن ابتداء من غير ولادة ، فإما أن يراد اللاتي ابتدىء انشاؤهن أو اللاتي أعيد انشاؤهن ، وعلى غير هذا التأويل أضمر لهن لأن ذكر الفرش وهي المضاجع دل عليهن ﴿ فجعلناهن أبكارا ﴾ عذارى كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً ﴿ عُرُباً ﴾ ﴿ عرْباً ﴾ حمزة وخلف ويحيى وحماد جمع عروب وهي المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل ﴿ أَتْرَاباً ﴾ مستويات في السن بنات ثلاث وثلاثين وأزواجهن كذلك ، واللام في ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ من صلة ﴿ أَنشَأْنَا ﴾ ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ أي أصحاب اليمين ثلة ﴿ مّنَ الأولين وَثُلَّةٌ مّنَ الآخرين ﴾ فإن قلت : كيف قال قبل هذا ﴿ وَقِيلَ مَنْ الآخرين ﴾ ثم قال هنا ﴿ وَثُلَّةٌ مّنَ الآخرين ﴾ ؟ قلت : ذاك في السابقين

وهذا في أصحاب اليمين ، وأنهم يتكاثرون من الأولين والآخرين جميعاً .

وعن الحسن : سابقوا الأمم أكثر من سابقي أمتنا ، وتابعوا الأُمم مثل تابعي هذه الأمة .

(224/745)

﴿ وأصحاب الشمال مَا أصحاب الشمال ﴾ الشمال والمشأمة واحدة ﴿ فِى سَمُومٍ ﴾ في حر نار ينفذ في المسام ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ وماء حار متناهي الحرارة ﴿ وَظِلّ مّن يَحْمُومٍ ﴾ من دخان أسود ﴿ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ نفي لصفتي الظل عنه يريد أنه ظل ولكن لا كسائر الظلال سماه ظلا ، ثم نفى عنه برد الظل وروحه ونفعه من يأوي إليه من أذى الحر وذلك كرمه ليمحق ما في مدلول الظل من الاسترواح إليه ، والمعنى أنه ظل حار ضار ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ أي في الدنيا ﴿ مُتْرَفِينَ ﴾ منعمين فمنعهم ذلك من الانزجار وشغلهم عن الاعتبار ﴿ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ ﴾ يداومون ﴿ عَلَى الحنث العظيم ﴾ أي على الذنب العظيم أو على الشرك لأنه نقض عهد الميثاق ، والحنث نقض العهد المؤكد باليمين أو الكفر بالبعث بدليل قوله ﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أيمانهم لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل : 38] ﴿ وَكَانُواْ يِقُولُونَ * أَءذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما أَءنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ تقديره : أنبعث إذا متنا ؟ وهو العامل في الظرف ، وجاز حذفه إذ ﴿ مَّبْعُوثُونَ ﴾ يدل عليه ، ولا يعمل

فيه ﴿ مَّبْعُوثُونَ ﴾ لأن "إن" والاستفهام يمنعان أن يعمل ما بعدهما فيما قبلهما ﴿ أَوَءابَاؤُنَا الأولون ﴾ دخلت همزة الاستفهام على حرف العطف وحسن العطف على المضمر في ﴿ لَمَبْعُوثُونَ ﴾ من غير توكيد ب "نحن" للفاصل الذي هو الهمزة كما حسن في قوله ﴿ مَا أَشْرَكْنَا وَلآ ءَابَآؤُنَا ﴾ [الأنعام : 148] لفصل لا المؤكدة للنفي .

﴿ أَوَءابَاؤُنَا ﴾ مدني وشامي .

(225/745)

﴿ قُلْ إِنَّ الأولين والآخرين لَمَجْمُوعُونَ إلى ميقات يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ إلى ما وقتت به الدنيا من يوم معلوم ، والإضافة بمعنى "من" كخاتم فضة ، والميقات ما وقت به الشيء أي حد ومنه مواقيت الإحرام وهي الحدود التي لا يجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرماً ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضالون ﴾ عن الهدى ﴿ المكذبون ﴾ بالبعث وهم أهل مكة ومن في مثل حالهم ﴿ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ ﴾ "من" لابتداء الغاية ﴿ مّن زَقُّومٍ ﴾ "من" لبيان الشجر ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون فشاربون عَلَيْهِ مِنَ الحميم ﴾ أنث ضمير الشجر على المعنى وذكره على اللفظ في منها وعليه .

﴿ فشاربون شُرْبَ ﴾ بضم الشين : مدني وعاصم وحمزة وسهل ، وبفتح الشين : غيرهم

وهما مصدران ﴿ الهيم ﴾ هي إبل عطاش لا تروى جمع أهيم وهيماء ، والمعنى أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل ، فإذا ملئوا منه البطون سلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم فيشربونه شرب الهيم .

وإنما صح عطف الشاربين على الشاربين وهما لذوات متفقة وصفتان متفقتان لأن كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة ، وقطع الأمعاء أمر عجيب وشربهم له على ذلك كما يشرب الهيم الماء أمر عجيب أيضاً فكانتا صفتين مختلفتين ﴿ هذا نُزُلُهُمْ ﴾ هو الرزق الذي يعد للناس تكرمة له ﴿ يَوْمِ الدين ﴾ يوم الجزاء ﴿ نَحْنُ خلقناكم فَلَوْلاَ ﴾ فهلا ﴿ تُصَدّقُونَ ﴾ تحضيض على التصديق فكأنهم مكذبون به ، وإما بالبعث لأن من خلق أولاً لم يمتنع عليه أن يخلق ثانياً .

(226/745)

﴿ أَفَرَءَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ ﴾ ما تمنونه أي تقذفونه في الأرحام من النطف ﴿ ءأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ تقدرونه وتصورونه وتجعلونه بشراً سوياً ﴿ أَم نَحْنُ الخالقون نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت ﴾ تقديراً قسمناه عليكم قسمة الأرزاق على اختلاف وتفاوت كما تقتضيه مشيئتنا

فاختلفت أعماركم من قصير وطويل ومتوسط ﴿ قَدَّرْنَآ ﴾ بالتخفيف : مكي سبقته بالشيء إذا أعجزته عنه وغلبته عليه ، فمعنى قوله ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * على أَن نُّبَدّلَ أمثالكم ﴾ إنا قادرون على ذلك لا تغلبوننا عليه .

و ﴿ أمثالكم ﴾ جمع مثل أي على أن نبدل منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وعلى أن ننشئكم في خلق لا تعلمونها وما عهدتم بمثلها يعني أنا نقدر على الأمرين جميعاً : على خلق ما يماثلكم وما لا يماثلكم ، فكيف نعجز عن إعادتكم ؟ ويجوز أن يكون ﴿ أمثالكم ﴾ جمع مثل أي على أن نبدل ونغير صفاتكم التي أنتم عليها في خلقكم وأخلاقكم وننشئكم في صفات لا تعلمونها ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة الأولى ﴾ ﴿ النشاءة ﴾ مكي وأبو عمرو ﴿ فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أن من قدر على شيء مرة لم يمتنع عليه ثانياً ، وفيه دليل صحة القياس حيث جهلهم في ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى .

(227/745)

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ ما تحرثونه من الطعام أي تثيرون الأرض وتلقون فيها البذر ﴿ ءأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ ﴾ تنبتونه وتردونه نباتاً ﴿ أَمْ نَحْنُ الزرعون ﴾ المنبتون وفي الحديث : " لا

يقولن أحدكم زرعت وليقل حرثت " ﴿ لَّوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حطاما ﴾ هشيماً متكسراً قبل إدراكه ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ تعجبون أو تندمون على تعبكم فيه وإنفاقكم عليه ، أو على ما اقترفتم من المعاصي التي أصبتم بذلك من أجلها ﴿ إِنَّا ﴾ أي تقولون إنا ﴿ أئنا ﴾ أبو بكر ﴿ لَمُغْرَمُونَ ﴾ لملزمون غرامة ما أنفقنا أو مهلكون لهلاك رزقنا من الغرام وهو الهلاك ﴿ بَلْ نَحْنُ ﴾ قوم ﴿ مَحْرُومُونَ ﴾ محارفون محدودون لا مجدودون لا حظ لنا ولا بخت لنا ولو كنا مجدودين لما جرى علينا هذا .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ الماء الذى تَشْرَبُونَ ﴾ أي الماء العذب الصالح للشرب ﴿ ءأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن ﴾ السحاب الأبيض وهو أعذب ماء ﴿ أَمْ نَحْنُ المنزلون ﴾ بقدرتنا ﴿ لَوْ نَشَاء جعلناه أُجَاجاً ﴾ ملحاً أو مراً لا يقدر على شربه ﴿ فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴾ فهلا تشكرون .

(228/745)

ودخلت اللام على جواب لو في قوله ﴿ لَجَعَلْنَاهُ حطاما ﴾ ونزعت منه هنا ، لأن "لو" لما كانت داخلة على جملتين معلقة ثانيتهما بالأولى تعلق الجزاء بالشرط ولم تكن مخلصة الشرط كـ "إن" ولا عاملة مثلها وإنما سرى فيها معنى الشرط اتفاقاً من حيث إفادتها في مضموني جملتيها ، أن الثاني امتنع لامتناع الأول افتقرت في جوابها إلى ما ينصب علماً على

هذا التعلق ، فزيدت هذه اللام لتكون علماً على ذلك ، ولما شهر موقعه لم يبال بإسقاطه عن اللفظ لعلم كل أحد به وتساوي حالي حذفه وإثباته ، على أن تقدم ذكرها والمسافة قصيرة مغنٍ عن ذكرها ثانية ، ولأن هذه اللام تفيد معنى التأكيد لا محالة فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب للدلالة على أن المطعوم مقدم على أمر المشروب ، وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم ، ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ النار التى تُورُونَ ﴾ تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ، والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر ويسمون الأعلى الزند والأسفل الزندة شبهوهما بالفحل والطروقة ﴿ ءأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا ﴾ التي منها الزناد ﴿ أَمْ نَحْنُ المنشئون ﴾ الخالقون لها ابتداء ﴿ نَحْنُ جعلناها ﴾ أي النار ﴿ تَذْكِرَةً ﴾ تذكيراً لنار جهنم حيث علقنا بها أسباب المعاش وعممنا بالحاجة إليها البلوى لتكون حاضرة للناس ينظرون إليها ويذكرون ما أوعدوا به ﴿ ومتاعا ﴾ ومنفعة ﴿ لّلْمُقْوِينَ ﴾ للمسافرين النازلين في القواء وهي القفر ، أو للذين خلت بطونهم أو مزاودهم من الطعام من قولهم "أقوت الدار" إذا خلت من ساكنيها .

بدأ بذكر خلق الإنسان فقال ﴿ أَفَرَءَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ ﴾ لأن النعمة فيه سابقة على جميع النعم ، ثم بما فيه قوامه وهو الحب فقال ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ ثم بما يعجن به ويشرب عليه وهو الماء ، ثم بما يخبز به وهو النار ، فحصول الطعام بمجموع الثلاثة ولا يستغني عنه الجسد ما دام حياً ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ ﴾ فنزه ربك عما لا يليق به أيها المستمع المستدل ، أو أراد بالاسم الذكر أي فسبح بذكر ربك ﴿ العظيم ﴾ صفة للمضاف أو للمضاف إليه .

وقيل : قل سبحان ربي العظيم وجاء مرفوعاً أنه لما نزلت هذه الآية قال : اجعلوها في ركوعكم .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ أي فأقسم و"لا" مزيدة مؤكدة مثلها قوله ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ [الحديد : 29] وقرىء ﴿ فلأقسم ﴾ ومعناه فلأنا أقسم ، اللام لام الابتداء دخلت على جملة من مبتدأ وخبر وهي "أنا أقسم" ، ثم حذف المبتدأ .

ولا يصح أن تكون اللام لام القسم لأن حقها أن تكون اللام لام القسم لأن حقها أن تقرن بها النون المؤكدة ﴿ بمواقع النجوم ﴾ بمساقطها ومغاربها ﴿ بموقع ﴾ حمزة وعلي ، ولعل لله تعالى في آخر الليل إذا انحطت النجوم إلى المغرب أفعالاً مخصوصة عظيمة أو للملائكة عبادات موصوفة ، أو لأنه وقت قيام المتهجدين ونزول الرحمة والرضوان عليهم فلذلك أقسم بمواقعها واستعظم ذلك بقوله ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ وهو اعتراض في اعتراض لأنه اعترض به بين القسم والمقسم عليه وهو قوله ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ حسن مرضي أو نفاع جم المنافع أو كريم على الله ، واعترض ب ﴿ لَّوْ تَعْلَمُونَ ﴾ بين الموصوف وصفته ﴿ فِى كِتَابٍ ﴾ أي اللوح المحفوظ ﴿ مَّكْنُونٍ ﴾ مصون عن أن يأتيه الباطل أو من غير المقربين من الملائكة لا يطلع عليه من سواهم ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ من جميع الأدناس أدناس الذنوب وغيرها إن جعلت الجملة صفة ل ﴿ كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ وهو اللوح ، وإن جعلتها صفة للقرآن فالمعنى لا ينبغي أن يمسه إلا من هو على الطهارة من الناس والمراد مس المكتوب منه ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ صفة رابعة للقرآن أي منزل ﴿ مِن رَّبِّ العالمين ﴾ أو وصف بالمصدر لأنه نزل نجوماً من بين سائر كتب الله فكأنه في نفسه تنزيل ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه فقيل : جاء في التنزيل كذا ونطق به التنزيل ، أو هو تنزيل على حذف المبتدأ .

﴿ أفبهذا الحديث ﴾ أي القرآن ﴿ أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴾ متهاونون به كمن يدهن في بعض

الأمر أي يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاوناً به ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي تجعلون شكر رزقكم التكذيب أي وضعتم التكذيب موضع الشكر .

وفي قراءة علي رضي الله عنه وهي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي تجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به .

(231/745)

وقيل : نزلت في الأنواء ونسبتهم السقيا إليهم والرزق المطر أي وتجعلون شكر ما يرزقكم الله من الغيث أنكم تكذبون بكونه من الله حيث تنسبونه إلى النجوم .

﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ النفس أي الروح عند الموت ﴿ الحلقوم ﴾ ممر الطعام والشراب ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ الخطاب لمن حضر الميت تلك الساعة ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ إلى المحتضر ﴿ مِنكُمْ ولكن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾ لا تعقلون ولا تعلمون ﴿ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ مربوبين من دان السلطان الرعية إذا ساسهم ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ تردون النفس وهي الروح إلى الجسد بعد بلوغ الحلقوم ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أنكم غير مربوبين مقهورين .

﴿ فَلَوْلا ﴾ في الآيتين للتحضيض يستدعي فعلاً وذا قوله ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ واكتفى بذكره

مرة ، وترتيب الآية فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين ، و ﴿ فَلَوْلا ﴾ الثانية مكررة للتأكيد ونحن أقرب إليه منكم يا أهل الميت بقدرتنا وعلمنا أو بملائكة الموت ، والمعنى أنكم في جحودكم آيات الله في كل شيء ، إن أنزل عليكم كتاباً معجزاً قلتم سحر وافتراء ، وإن أرسل إليكم رسولاً صادقاً قلتم ساحر كذاب ، وإن رزقكم مطراً يحييكم به قلتم صدق نوء كذا على مذهب يؤدي إلى الإهمال والتعطيل ، فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم إن لم يكن ثمة قابض وكنتم صادقين في تعطيلكم وكفركم بالمحيي المميت المبدىء المعيد ؟ .

(232/745)

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ ﴾ المتوفي ﴿ مِنَ المقربين ﴾ من السابقين من الأزواج الثلاثة المذكورة في أول السورة ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ فله استراحة ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ ورزق ﴿ وجنات نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أصحاب اليمين * فسلامٌ لَّكَ مِنْ أصحاب اليمين ﴾ أي فسلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين أي يسلمون عليك كقوله ﴿ إِلاَّ قِيلاً سلاما سلاما ﴾ ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضالين ﴾ هم الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة وهم الذين قيل لهم في هذه السورة ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضالون المكذبون ﴾ ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ *

وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أي إدخال فيها .

وفي هذه الآيات إشارة إلى أن الكفر كله ملة واحدة ، وأن أصحاب الكبائر من أصحاب اليمين لأنهم غير مكذبين ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ الذي أنزل في هذه السورة ﴿ لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ أي الحق الثابت من اليقين ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ رُوي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دخل على ابن مسعود رضي الله عنه في مرض موته فقال له : ما تشتكي ؟ فقال : ذنوبي .

فقال : ما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي .

قال : أفلا تدعو الطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني .

فقال : ألا نأمر بعطائك ؟ قال : لا حاجة لي فيه .

قال : ندفعه إلى بناتك .

قال : لا حاجة لهن فيه قد أمرتهن أن يقرأن سورة الواقعة فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً " وليس في هذه السور الثلاث ذكر الله : اقتربت ، الرحمن ، الواقعة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفي حـ 4 صـ 222.214 ﴾

وقال ابن جزى :

سورة الواقعة

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾

يعني إذا قامت القيامة فالواقعة اسم من أسماء القيامة ، تدل على هولها كالطامة والصاخة وقيل : ﴿ الواقعة ﴾ الصيحة وهي النفخة في الصور ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه : الأول : أن تكون الكاذبة مصدر كالعافية والمعنى ليس لها كذب ولا رد . الثاني أن تكون كاذبة صفة محذوف كأنه قال : ليس لها حالة كاذبة أي هي صادقة الوقوع ولا بدّ ، وهذا المعنى قريب من الأول . الثالث أن يكون التقدير : ليس لها نفس كاذبة أي تكذيب في إنكار البعث ، لأن كل نفس تؤمن حنيئذ ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ تقديره : هي خافضة رافعة ، فينبغي أن يوقف على ما قبله لبيان المعنى ، والمراد بالخفض والرفع أنها تخفض أقواماً إلى النار وترفع أقواماً إلى الجنة ، وقيل : ذلك عبارة عن هولها ، لأن السماء تنشق والأرض تتزلزل وتمر ، والجبال تنسف فكأنها تخفض بعض هذه الأجرام وترفع بعضها .

﴿ إِذَا رُجَّتِ الأرض رَجّاً ﴾ أي زلزلت وحركت تحريكاً شديداً وإذا هنا بدل من إذا وقعت ويحتمل أن يكون العامل فيه خافضة رافعة ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ أي فتت

وقيل : سيرت ﴿ هَبَآءً مُّنبَثّاً ﴾ الهباء ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة ، ولا تكاد ترى إلا في الشمس إذا دخلت على كوّة قاله ابن عباس . وقال عليّ بن أبي طالب : هو ما يتطاير من حوافر الدواب من التراب ، وقيل : ما تطاير من شرر النار ، فإذا طفى لم يوجد شيئاً والمنبث المتفرق .

(234/745)

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً ﴾ هذا خطاب لجميع الناس لأنهم ينقسمون يوم القيامة إلى هذه الأصناف الثلاثة : وهم السابقون ، وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، فأما السابقون فهم : أهل الدرجات العلى في الجنة ، وأما أصحاب اليمين فهم سائر أهل الجنة ، وأما أصحاب الشمال فهم أهل النار ﴿ فَأَصْحَابُ الميمنة مَآ أَصْحَابُ الميمنة ﴾ هذا ابتداء خبر فيه معنى التعظيم ، كقولك : زيد ما زيد ، والميمنة يحتمل أن تكون مشتقة من اليمن وهو ضد الشؤم وتكون المشأمة به مشتقة من الشؤم أو يكون الميمنة من ناحية اليمين والمشأمة من ناحية الشمال ، واليد الشؤمى هي الشمال ، وذلك لأن العرب تجعل الخير من اليمين ، والشر من الشمال ، أو لأن أهل الجنة يحملون إلى جهة اليمين ، وأهل النار يحملون إلى جهة الشمال ، أو يكون من أخذ الكتاب باليمين أو الشمال ﴿ والسابقون

السابقون ﴾ الأول متبدأ والثاني خبره على وجه العظيم كقولك : أنت أنت أو على معنى أن السابقين إلى طاعة الله هم السابقون إلى الجنة ، وقيل : إن السابقون الثاني صفة للأول أو تأكيداً ، والخبر ﴿ أولئك المقربون ﴾ ، والأرجح أن يكون الثاني خبر الأول لأنه في مقابلة قوله : ﴿ فَأَصْحَابُ الميمنة مَآ أَصْحَابُ الميمنة ﴾ ، ﴿ وَأَصْحَابُ المشأمة مَآ أَصْحَابُ المشأمة ﴾ ، وعلى هذا يوقف على السابقون الثاني ويبتدئ بما بعده .

(235/745)

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين ﴾ الثلة الجماعة من الناس ، فالمعنى أن السابقين من الأولين أكثر من السابقين من الآخرين ، والأولون هم أول هذه الأمة والآخرون المتأخرون من هذه الأمة ، والدليل على ذلك ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الفرقتان في أمتي . وذلك لأن صدر هذه الأمة خير ممن بعدهم فكثر السابقون من السلف الصالح ، وقلوا بعد ذلك ويشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم " وقيل إن الفرقتين في أمة كل نبيّ فالسابقون في كل أمة يكثرون في أولها ويقلون في آخرها ، وقيل : إن الأولين هم من كان قبل هذه الأمة ، والآخرين هم هذه الأمة ، فيقتضي هذا أن السابقين من الأمم المتقدمة أكثر من السابقين من

هذه الأمة وهذا بعيد ، وقيل : إن السابقين يراد بهم الأنبياء ، لأنهم كانوا في أول الزمان أكثر مما كاوا في آخره : ﴿ على سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ السرر جمع سرير والموضونة المنسوجة وقيل : المشبكة بالدر والياقوت ، وقيل معناه متواصلة قد أدنى بعضها من بعض ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض ﴿ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ الولدان صغار الخدم ، والمخلدون الذين لا يموتون ، وقيل المقرطون بالخلدات وهي ضرب من الأقراط ، والأول أظهر ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾ الأكواب جمع كوب ، وهو الإناء وهو الذي لا أذن له ولا خرطوم يمسك به ، والأباريق جمع إبريق وهو الإناء الذي له خرطوم أو أذن يمسك ﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ ذكر في [الصافات : 45] .

﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ أي لا يلحق رؤوسهم الصداع الذي يصيب من خمر الدنيا ، وقيل لا يفرقون عنها فهو من الصدع وهو الفرقة ، ومعنى لا يُنْزَفون لا يسكرون .

﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ قيل : يتخيرون ما شاؤوا لكثرتها ، وقيل : مخيرة مرضية .

﴿ حُورٌ عِينٌ ﴾ قدمنا معناه ، والقراءة بالرفع على تقدير فيها حور ، أو عطف على الضمير في متكئين ، أو على ولدان وقرأ حمزة والكسائي حور بالخفض عطف على المعنى

كأنه قال : ينعمون بهذا كله وبحور عين ، وقيل : خفض على الجوار .

﴿ كَأَمْثَالِ اللؤلؤ المكنون ﴾ شبههن باللؤلؤ في البياض ووصفه بالمكنون ؛ لأنه أبعد عن تغيير حسنه ، وسألت أم سلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا التشبيه فقال : صفاؤهن كصفاء الدر من الأصداف الذي لا تمسه الأيدي .

﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً ﴾ اللغو الكلام الساقط كالفحش وغيره ، والتأثيم مصدر بمعنى لا يؤثم أحد هناك نفسه ولا غيره ﴿ إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً ﴾ انتصب سلاماً على أنه بدل من قيلاً أو صفة له أو مفعول به لقيلا ، لأن معناه قولاً ، ومعنى السلام على هذا التحية ، والمعنى أنهم يفشون السلام فيسلمون سلاماً بعد سلام ، ويحتمل أن يكون معناه السلامة ، فينتصب بفعل مضمر تقديره إسلموا سلاماً .

(237/745)

﴿ وَأَصْحَابُ اليمين مَا أَصْحَابُ اليمين ﴾ هذا مبتدأ وخبره قصد به التعظيم فيوقف عليه ، ويبتدأ بما بعده ويحتمل أن يكون الخبر في ﴿ سِدْرٍ ﴾ ، ويكون ﴿ مَا أَصْحَابُ اليمين ﴾ اعتراضاً ، والأول أحسن ، وكذلك إعراب أصحاب الشمال ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ السدر شجر معروف ، قال ابن عطية هو الذي يقال له شجر أم غيلان النبق

وهو كثير في بلاد المشرق وهي في بعض بلاد الأندلس دون بعض ، والمخضود الذي لا شوك له كأنه خضد شوكه ، وذلك أن سدر الدنيا له شوك ، فوصف سدر الجنة بضد ذلك وقيل : المخضود هو الموقَر الذي انثنت أغصانه من كثرة حمله ، فهو على هذا من خضد الغصن إذا ثناه ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ الطلح شجر عظيم كثير الشوك ، قاله ابن عطية وقال الزمخشري هو شجر الموز ، وحكى ابن عطية هذا عن علي بن أبي طالب وابن عباس وقرأ على بن أبي طالب : وطلح منضود بالعين فقيل له إنما هو ، وطلح بالحاء فقال : ما للطلح والجنة فقيل له أنصلحها في المصحف فقال : المصحف فقال : المصحف اليوم لا يغيّر ، والمنضود الذي تنضد بالثمر من أعلاه إلى أسفله ، حتى لا يظهر له ساق ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ أي منبسط لا يزول لأنه لا تنسخه الشمس ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها " إقرؤوا إن شئتم ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ . ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ : أي مصبوب ، وذلك عبارة عن كثرته وقيل : المعنى أنه جار في غير أخاديد وقيل : المعنى أنه يجري من غير ساقية ولا دلو ولا تعب .

﴿ لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ أي لا ينقطع إبَّانُها كفاكهة الدنيا ، فإن شجر الجنة يثمر في كل وقت ، ولا تمتنع ببعد تناوُلها ولا بغير ذلك من وجوه المنع .

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ هي الأسرة ، وقد روى ارتفاع السرير منها مسيرة خمسمائة عام وقيل : هي النساء وهذا بعيد .

﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ ﴾ الضيمر لنساء الجنة ، فإن سياق الكلام يقتضي ذلك ، وإن لم يتقدم ذكرهن ، ولكن تقدّم ذكر الفرش وهي تدل على النساء وأما من قال : إن الفرش هي النساء فالضمير عائد عليها وقيل : يعود على الحور العين المذكورة قبل هذا وذلك بعيد ، فإن ذلك في وصف جنات السابقين ، وهذا في وصف جنات أصحاب اليمين ، ومعنى إنشاء النساء أن الله تعالى يخلقهن في الجنة خلقاً آخر في غاية الحسن ، بخلاف الدنيا فالعجوز ترجع شابة والقبيحة ترجع حسنة ﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً ﴾ جمع عروب وهي المتوددة إلى زوجها بإظهار محبته ، وعبَّر عنهن ابن عباس بأنهن العواشق لأزواجهن ، وقيل هي الحسنة الكلام ﴿ أَتْرَاباً * لأَصْحَابِ اليمين ﴾ أي مستويات في السن مع أزواجهن ، وروي أنهن يكونون في سن أبناء ثلاثة وثلاثين عاماً ولأصحاب اليمين يتعلق بقوله : ﴿ أَنشَأْنَاهُنَّ ﴾ على ما قاله الزمخشري : ويحتمل أن يتعلق بأتراباً ، وهذا هو الذي يقتضيه المعنى أي أتراباً لأزواجهن .

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ أي جماعة من أول هذه الأمة وجماعة من آخرها ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الفرقتان من أمتي ، وفي ذلك رد على من قال

إنهما من غير هذه الأمة . وتأمل كيف جعل أصحاب اليمين ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، بخلاف السابقين فإنهم قليل في الآخرين وذلك لأن السابقين في أول هذه الأمة أكثر منهم في آخرها لفضيلة السلف الصالح ، وأما أصحاب اليمين فكثير من أولها وآخرها .

﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ السموم الحر الشديد والحميم الماء الحار جداً واليحموم هو الأسود ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ هو الدخان في قول الجمهور ، وقيل : سرادق النار المحيط بأهلها فإنه يرتفع من كل جهة حتى يظلهم وقيل : هو جبل في جهنم .

(239/745)

﴿ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى الحنث العظيم ﴾ معنى يصرون يدومون من غير إقلاع والحنث هو الإثم ، وقيل : هو الشرك ، وقيل : هو الحنث في اليمين أو اليمين الغموس ﴿ أَإِذَا مِتْنَا ﴾ الآية معناها أنهم أنكروا البعث بعد الموت ، وقد ذكرنا قراءة الاستفهامين في الرعد ، وآباؤنا في الصافات .

﴿ أَيُّهَا الضآلون المكذبون ﴾ خِطاب لكفار قريش وسائر الكفار .

﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ ﴾ الضمير للمأكول ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهيم ﴾ وزن الهيم فُعُل بضم الفاء ، وكسرت الهاء لأجل الياء وهو جمع أهيم ، وهو الجمل الذي أصابه الهيام بضم الهاء

. وهو داء معطش يشرب معه الجمل حتى يموت أو يسقم ، والأنثى هيماء ، وقيل : جمع هائم وهائمة ، وقيل : الهيم الرمال التي لا تروى من الماء ، وهو على هذا جمع هيام بفتح الهاء ، وقرئ ﴿ شُرْبَ ﴾ بضم الشين واختلف هل هو مصدر أو اسم المشروب وقرئ بالفتح وهو مصدر فإن قيل : كيف عطف قوله : ﴿ فَشَارِبُونَ ﴾ على ﴿ شَارِبُونَ ﴾ ومعناهما واحد ، فالجواب أن المعنى مختلف لأن الأول يقتضي الشرب مطلقاً ، والآخر يقتضي الشرب الكثير المشبه لشرب الهيم ﴿ هذا نُزُلُهُمْ ﴾ النزل أو ما يأكله الضيف فكأنه يقول : هذا أول عذابهم فما ظنك بسائره ﴿ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ ﴾ تحضيض على التصديق إما بالخالق تعالى ، وإما بالبعث لأن الخلقة الأولى دليل عليه .

(240/745)

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ ﴾ هذه الآية وما بعدها تتضمن إقامة براهين على الوحدانية ، وعلى البعث وتتضمن أيضاً وعيداً وتعديدَ نِعم . ومعنى تمنون : تقذفون المني ﴿ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخالقون ﴾ هذا توقيف يقتضي أن يجيبوا عليه بأن الله هو الخالق لا إله إلا هو ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت ﴾ أي جعلناه مقدراً بآجال معلومة وأعمار منها طويل وقصير ومتوسط ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * على أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾

المسبوق على الشيء هو المغلوب عليه ؛ بحيث لا يقدر عليه ﴿ نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ﴾ : معناه نهلككم ونستبدل قوماً غيركم ، وقيل : نمسخكم قردة وخنازير ﴿ وَنُنشِئَكُمْ ﴾ معناه نبعثكم بعد هلاككم و ﴿ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ معناه ننشئكم في خلقة لا تعلمونها على وجه لا تصل عقولكم إلى فهمه . فمعنى الآية أن الله قادر على أن يهلكهم وعلى أن يبعثهم ففيها تهديد واحتجاج على البعث ﴿ فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ تحضيض على التذكير والاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة ، وفي هذه دليل على صحة القياس .

(241/745)

﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون ﴾ المراد بالزراعة هنا إنبات ما يزرع وتمام خلقته ، لأن ذلك مما انفرد الله به ولا يدعيه غيره ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يقولنّ أحدكم زرعت ولكن يقول حرثت " والمراد بالحرث قلب الأرض وإلقاء الزريعة فيها وقد يقال لهذا زرع ومنه قوله : ﴿ يُعْجِبُ الزراع ﴾ [الفتح : 29] ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ الحطام اليابس المفتت وقيل : معناه تبن بلا قمح ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ أي : تطرحون الفاكهة وهي المسرة ، يقال : رجل فكه إذا كان مسروراً منبسط النفس ويقال : تفكه إذا زالت عنه الفكاهة فصار حزيناً ، لأن صيغة تفاعل تأتي

لزوال الشيء كقولهم : تحرج وتأثم إذا زال عنه الحرج والإثم . فالمعنى : صرتم تحزنون على الزرع لو جعله الله حطاماً . وقد عبر بعضهم عن تفكهون بأن معناه : تتفجعون وقيل : تندمون وقيل : تعجبون وهذه معان متقاربة والأصل ما ذكرنا ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ تقديره : تقولون ذلك لو جعل الله زرعكم حطاماً والمُغرم المعذب . لأن الغرام هو أشد العذاب ، ويحتمل أن يكون من الغُرم أي مثقلون بما غرمنا من النفقة على الزرع ، والمحروم الذي حرمه الله الخير .

﴿ مِنَ المزن ﴾ هي السحاب ، والأُجاج الشديد الملوحة ، فإن قيل : لم تثبت اللام في قوله : ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً ﴾ [الواقعة : 65] وسقطت في قوله : ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً ﴾ ؟ فالجواب من وجهين أحدهما أنه أغنى اثباتها أولاً عن إثباتها ثانياً مع قرب الموضعين . والآخر أن هذه اللام تدخل للتأكيد ، فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب للدلالة على أن الطعام أوكد من الشراب ، لأن الإنسان لا يشرب إلا بعد أن يأكل .

﴿ النار التي تُورُونَ ﴾ أي تقدحونها من الزناد ، والزناد قد يكون من حجرين ومن حجر وحديدة ، ومن شجر وهو المرخ والعفار ولما كانت عادة العرب في زنادهم من شجر ، قال الله تعالى ﴿ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ ﴾ أي الشجرة التي توقد النار منها . وقيل : أراد بالشجرة نفس النار كأنه يقول : نوعها أو جنسها فاستعار الشجرة لذلك وهذا بعيد ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ أي تذكر بنار جهنم ﴿ وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ ﴾ المتاع ما يتمتع به ، ويحتمل المقوين أن يكون من الأرض القواء وهي الفيافي ، ومعنى المقوين الذين دخلوا في القواء ، ولذلك عبر ابن عباس عنه بالمسافرين ، ويحتمل أن يكون من قولهم : أقوى المنزل إذا خلال فمعناه الذين خلت بطونهم أو موائدهم من الطعام ، ولذلك عبّر بعضهم عنه بالجائعين .

(243/745)

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم ﴾ لا في هذا الموضع وأمثاله زائدة ، وكأنها زيدت لتأكيد القسم ، أو لاستفتاح الكلام نحو ألا . وقيل : هي نافية لكلام الكفار كأنه يقول : لا صحة لما يقول الكفار وهذا ضعيف والأول حسن ، لأن زيادة لا كثيرة معروفة في كلام العرب ، و ﴿ مَوَاقِعِ النجوم ﴾ فيه قولان : أحدهما قال ابن عباس : إنها نجوم القرآن إذ نزل على النبي

صلى الله عليه وسلم الكواكب ومواقعها مغاربها ومساقطها ، وقيل : مواضعها من السماء وقيل : أنكادرها يوم القيامة . ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ هذه جملة اعتراض بين القسم وجوابه ، وقوله : ﴿ لَّوْ تَعْلَمُونَ ﴾ اعتراض بين الموصوف وصفته فهو اعتراض في اعتراض ، والمقصود بذلك تعظيم المقسوم به وهو ﴿ مَوَاقِعِ النجوم ﴾ وجواب القسم : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ وأعاد الضمير على القرآن لأن المعنى يقتضيه ، أو لأنه مذكور على قول من قال إن مواقع النجوم نزول القرآن ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ أي مصون ، والمراد بهذا الكتاب المكنون المصاحف التي كتب فيها القرآن ، أو صحف القرآن بأيدي الملائكة عليهم السلام .

(244/745)

﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ الضمير يعود على الكتاب ، المكنون ويحتمل أن يعود على القرآن المذكور قبله إلا أن هذا ضعيف لوجهين أحدهما : أن مسَّ الكتاب حقيقة ومس القرآن مجاز ، والحقيقة أولى من المجاز والآخر أن الكتاب أقرب والضمير يعود على أقرب مذكور فإذا قلنا : إنه يعود على الكتاب المكنون فإن قلنا إن الكتاب المكنون هو الصحف التي بأيدي الملائكة ، فالمطهرون يراد بهم الملائكة ، لأنهم مطهرون من الذنوب والعيوب

والآية إخبار بأنه لا يمسه إلا هم دون غيرهم ، وإن قلنا إن الكتاب المكنون هو الصحف التي بأدي الناس ، فيحتمل أن يريد بالمطهرين المسلمين ، لأنهم مطهرون من الكفر أو يريد المطهرين من الحدث الأكبر ، وهي الجنابة أو الحيض ، فالطهارة على هذا الاغتسال أو المطهرين من الحدث الأصغر ، فالطهارة على هذا الوضوء ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ ﴾ خبراً أو نهياً . على أنه قد أنكر بعض الناس أن يكون نهياً وقال لو كان نهياً لكان بفتح السين . وقال المحققون : إن النهيَ يصح مع ضم السين لأن الفعل المضاعف إذا كان مجزوماً أو اتصل به ضمير المفرد المذكر ضُمَّ عند التقاء الساكنين إتباعاً لحركة الضمير ، وإذا جعلناه خبراً فيحتمل أن يقصد به مجرد الإخبار ، أو يكون خبراً بمعنى النهي . وإذا كان لمجرّد الإخبار فالمعنى أنه : لا ينبغي أن يمسه إلا المطهرون . أي هذا حقه وإن وقع خلاف ذلك واختلف الفقهاء فيمن يجوز له مس المصحف على حسب الاحتمالات في الآية ، فأجمعوا على أنه لا يجوز أن يمسه كافر ؛ لأنه إن أراد بالمطهرين المسلمين ، فذلك طاهر ؛ وإن أراد الطهارة من الحدث فالإسلام حاصل مع ذلك .

(245/745)

وأما الحدث ففيه ثلاثة أقوال : الأول أنه لا يجوز أن يمسه الجنب ولا الحائض و لا المحدث حدثاً أصغر وهو قول مالك وأصحابه ، ومنعوا أيضاً أن يحمله بعلاقة أو وسادة . وحجتهم الآية على أن يراد بالمطهرين الطهارة من الحدث الأكبر والأصغر . وقد احتج مالك في الموطأ بالآية على المسألة . ومن حجتهم أيضاً كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمرو بن حزم " أن لا يمس القرآن إلا طاهر " ، الثاني أنه يجوز مسه للجنب والحائض والمحدث حدثاً أصغر وهو مذهب أحمد بن حنبل والظاهرية وحملوا المطهرون على أنهم مسلمون والملائكة أو جعلوا لا يمسه لمجرد الاخبار ، والقول الثالث أنه يجوز مسه بالحدث الأصغر دون الأكبر ، ورخص مالك في مسه على غير وضوء للمعلم والصبيان ، لأجل المشقة . واختلفوا في قراءة الجنب للقرآن فمنعه الشافعي وأبو حنيفة مطلقاً ، وأجازه الظاهرية مطلقاً ، وأجاز مالك قراءة الآية اليسيرة . واختلف في قراءة الحائض والنفساء للقرآن عن ظهر قلب فعن مالك في ذلك رويتان ، وفرق بعضهم بين اليسير والكثير .

(246/745)

﴿ أفبهذا الحديث أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴾ هذا خطاب للكفار ، والحديث المشار إليه هو القرآن ، ومدهنون معناه متهاونون ، وأصله من المداهنة وهي لين الجانب والموافقة بالظاهر لا بالباطن قال ابن عباس معناه مكذبون ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ قال ابن عطية : أجمع المفسرون على أن الآية توبيخ للقائلين في المطر إنه نزل بنوء كذا وكذا ، والمعنى تجعلون شكر رزقكم التكذيب ، فحذف شكر أنكم تَكْذِبون وكذلك قرأ ابن عباس إلا أنه قرأ تكذّبون بضم التاء والتشديد كقراءة الجماعة وقراءة علي بفتح التاء وإسكان الكاف من الكذب أي يكذبون في قولهم : نزل الطر بنوء كذا ومن هذا المعنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى يقول أصبح من عبادي مؤمن بي كافر بالكواكب وكافر بي مؤمن بالكواكب فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب واما من قال مطرنا بنوء كذا وكوكب كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب " والمنهي عنه في هذا الباب أن يعتقد أن للكواكب تأثيراً في المطر ، وأما مراعة العوائد التي أجراها الله تعالى فلا بأس به لقوله صلى الله عليه وسلم : " إذا أنشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة " ، وقد قال عمر للعباس وهما في الاستسقاء : كم بقي من نوء الثريا فقال العباس : العلماء يقولون إنها تعترض في الأوفق بعد سقوطها سبعاً ، قال ابن الطيب : فما مضت سبع حتى مطروا ، وقيل : إن معنى الآية تجعلون سبب رزقكم تكذيبكم للنبي صلى الله عليه سلم فإنهم كانوا يقولون : إن آمنا به حرمنا الله الرزق ، كقولهم : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ

مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ [القصص : 57] فأنكر الله عليهم ذلك . وإعراب أنكم على هذا القول مفعول بتجعلون على حذف مضاف تقديره : تجعلون سبب رزقكم التكذيب ، ويحتمل أن يكون معفولاً من أجله تقديره : تجعلون رزقكم حاصلاً من أجل أنكم تكذبون ، وأما على القول الأول

(247/745)

فإعراب أنكم تكذبون مفعول لا غيره .

﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ لولا هنا عرض والضمير في بلغت للنفس ، لأن سياق الكلام يقتضي ذلك وبلوغها للحلقوم حين الموت ، والفعل الذي دخلت عليه لولا هو قوله ﴿ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ أي : هلا رددتم النفس حين الموت ، ومعنى الآية احتجاج على البشر وإظهار لعجزهم لأنهم إذا حضر أحدهم الموت لم يقدروا أن يردوا روحه إلى جسده ، وذلك دليل على أنهم عبيد مقهورون ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ هذا خطاب لمن يحضر الميت من أقاربه وغيرهم ، يعني تنظرون إليه ولا تقدرون له على شيء ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ يحتمل أن يريد قرب نفسه تعالى بعلمه واطلاعه ، أو قرب الملائكة الذين يقبضون الأرواح ، فيكون من قرب المسافة ﴿ ولكن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾ إن أراد بقوله (نحن

أقرب الملائكة) فقوله : ﴿ لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾ من رؤية العين ، وإن أراد نفسه تعالى فهو من رؤية القلب .

﴿ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ لولا هنا عرض كالأولى وكررت للتأكيد والبيان لما طال الكلام ، والفعل الذي دخلت عليه لولا الأولى والثانية قوله ﴿ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ أي : هلا رددتم النفس إلى الجسد إذا بلغت الحلقوم ؛ إن كنتم غير مدينين ، وغير مربوبين ومقهورين ، فافعلوا ذلك إن كنتم صادقين في كفركم . وترتيب الكلام : فلولا ترجعون النفس إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين فارجعوا إن كنتم صادقين .

(248/745)

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المقربين ﴾ الضمير في كان للمتوفي وكرر هنا ما ذكره في أول السورة من تقسيم الناس إلى ثلاثة أصنام السابقين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال فالمراد بالمقربين هنا السابقون المذكورون هناك ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ الروح الاستراحة وقيل : الرحمة روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ فَرُوحٌ بضم الراء ومعناه الرحمة وقيل : الخلود أي بقاء الروح وأما الريحان فقيل : إنه الرزق وقيل : الاستراحة وقيل : الطيب وقيل الريحان المعروف وفي قوله : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ ضرب من ضروب التجنيس .

﴿ فَسَلاَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين ﴾ معنى هذا على الجملة نجاة أصحاب اليمين وسعادتهم ، والسلام هنا يحتمل أن يكون بمعنى السلامة أو التحية ، والخطاب في ذلك يحتمل أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم أو لأحد من أصحاب اليمين ؛ فإن كان للنبي صلى الله عليه وسلم فالسلام بمعنى السلامة والمعنى : سلام لك يا محمد منهم أي لا ترى منهم إلا السلامة من العذاب ، وإن كان الخطاب لأحد من أصحاب اليمين فالسلام بمعنى التحية والمعنى : سلام لك أي تحية لك يا صاحب اليمين من إخوانك ، وهم أصحاب اليمين ، أي يسلمون عليك فهو كقوله : ﴿ إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً ﴾ [الواقعة : 26] ، أو يكون بمعنى السلامة والتقدير : سلامة لك يا صاحب اليمين ، ثم يكون قوله : ﴿ مِنْ أَصْحَابِ اليمين ﴾ خبر ابتداء مضمر تقديره أنت من أصحاب اليمين .

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضالين ﴾ يعني الكفار وهم أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ النزل أول شيء يقدّم للضيف .

(249/745)

﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ الإشارة إلى تضمنته هذه السورة من أحوال الخلق في الآخرة ، وحق اليقين معناه : الثابت من اليقين ، وقيل : إن الحق واليقين بمعنى واحد ، فهو من

إضافة الشيء إلى نفسه كقوله : مسجد الجامع ، واختار ابن عطية أن يكون كقولك في أمر توكده : هذا يقين اليقين أو صواب الصواب ، بمعنى أنه نهاية الصواب .

" ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعلوها في ركوعكم فلما نزلت ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ قال عليه السلام : اجعلوها في سجودكم " فلذلك استحب مالك وغيره أن يقول في السجود سبحان ربي الأعلى وفي الركوع سبحان ربي العظيم وأوجبه الظاهرية ، ويحتمل أن يكون المعنى تسبيح الله بذكر أسمائه ، والاسم هنا جنس الأسماء والتعظيم صفة للرب أو يكون الاسم هنا واحداً والعظيم صفة له ، وكأنه أمره أن يسبح بالاسم الأعظم . ويؤيد هذا ويشير إليه اتصال سورة الحديد بها وفي أولها التسبيح وجملة من أسماء الله وصفاته ، قال ابن عباس : اسم الله العظيم الأعظم موجود في ست آيات من أول سرة الحديد ، وروي أن الدعاء عند قراءتها مستجاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 87.95 ﴾

(250/745)

وقال البيضاوى :

سورة الواقعة

مكية وآيها ست وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾

إذا حدثت القيامة ، سماها واقعة لتحقق وقوعها وانتصاب ﴿ إِذَا ﴾ بمحذوف مثل اذكر أو كان كيت وكيت .

﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ أي لا يكون حين تقع نفس تكذب على الله تعالى ، أو تكذب في نفيها كما تكذب الآن ، واللام مثلها في قوله تعالى : ﴿ قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ أو ليس لأحد في وقعتها كاذبة فإنه من أخبر عنها صدق ، أو ليس لها حينئذ نفس تحدث صاحبها بإطاقة شدتها واحتمالها وتغريه عليها من قولهم : كذبت فلاناً نفسه في الخطب العظيم ، إذا شجعته عليه وسولت له أنه يطيقه .

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ تخفض قوماً وترفع آخرين ، وهو تقرير لعظمتها فإن الوقائع العظام كذلك ، أو بيان لما يكون حينئذ من خفض أعداء الله ورفع أوليائه ، أو إزالة الأجرام عن مقارها بنثر الكواكب وتسيير الجبال في الجو ، وقرئتا بالنصب على الحال .

﴿ إِذَا رُجَّتِ الأرض رَجّاً ﴾ حركت تحريكاً شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل ، والظرف متعلق ب ﴿ خَافِضَةٌ ﴾ أو بدل من ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ﴾ .

﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ أي فتتت حتى صارت كالسويق الملتوت من بس السويق إذا

لته ، أو سيقت وسيرت من بس الغنم إذا ساقها .

﴿ فَكَانَتْ هَبَاء ﴾ غباراً . ﴿ مُّنبَثّاً ﴾ منتشراً .

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ﴾ أصنافاً . ﴿ ثلاثة ﴾ وكل صنف يكون أو يذكر مع صنف آخر زوج.

(251/745)

﴿ فأصحاب الميمنة مَا أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة مَا أصحاب المشئمة ﴾ فأصحاب المنزلة السنية وأصحاب المنزلة الدنيئة من تيمنهم بالميامن وتشاؤمهم بالشمائل ، أو ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ و ﴿ وأصحاب المشئمة ﴾ الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم والذين يأتونها بشمائلهم ، أو أصحاب اليمن والشؤم فإن السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم والأشقياء مشائيم عليها بمعصيتهم . والجملتان الاستفهاميتان خبران لما قبلهما بإقامة الظاهر مقام الضمير ومعناهما التعجب من حال الفريقين .

﴿ والسابقون السابقون ﴾ والذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة بعد ظهور الحق من غير تلعثم وتوان ، أو سبقوا في حيازة الفضائل والكمالات ، أو الأنبياء فإنهم مقدموا أهل الأديان هم الذين عرفت حالهم وعرفت مآلهم كقول أبي النجم :

أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي . . . أو الذين سبقوا إلى الجنة ﴿ أُوْلَئِكَ المقربون فِي جنات النعيم ﴾ الذين قربت درجاتهم في الجنة وأعليت مراتبهم .

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين ﴾ أي هم كثير من الأولين يعني الأمم السالفة من لدن آدم إلى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين ﴾ يعني أمة محمد عليه الصلاة والسلام ولا يخالف ذلك قوله عليه الصلاة والسلام " إن أمتي يكثرون سائر الأمم " لجواز أن يكون سابقو سائر الأمم أكثر من سابقي هذه الأمة ، وتابعو هذه أكثر من تابعيهم ، ولا يرده قوله في أصحاب اليمين ، ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ . لأن كثرة الفريقين لا تنافي أكثرية أحدهما ، وروي مرفوعاً أنهما من هذه الأمة ، واشتقاقها من الثل وهو القطع .

﴿ على سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ خبر آخر للضمير المحذوف ، وال ﴿ مَّوْضُونَةٍ ﴾ المنسوجة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت ، أو المتواصلة من الوضن وهو نسج الدرع .

﴿ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا متقابلين ﴾ حالان من الضمير في ﴿ على سُرُرٍ ﴾ .

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ للخدمة. ﴿ ولدان مُّخَلَّدُونَ ﴾ مبقون أبداً على هيئة الولدان وطراوتهم.

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾ حال الشرب وغيره، والكوب إناء بلا عروة ولا خرطوم له، والإبريق إناء له ذلك. ﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ من خمر.

﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ بخمار. ﴿ وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ ولا تنزف عقولهم، أو لا ينفد شرابهم. وقرأ الكوفيون بكسر الزاي ﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ ﴾ بمعنى لا يتصدعون أي لا يتفرقون.

﴿ وفاكهة مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ أي يختارون.

﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ يتمنون.

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ عطف على ﴿ ولدان ﴾، أو مبتدأ محذوف الخبر أي وفيها أو ولهم حور، وقرأ حمزة والكسائي بالجر عطفاً على ﴿ جنات بتقدير مضاف أي هم في جنات ومصاحبة حور، أو على أكواب لأن معنى ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ولدان مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ ﴾ ينعمون بأكواب، وقرئتا بالنصب على ويؤتون حوراً.

﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ المصون عما يضربه في الصفاء والنقاء.

﴿ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي يفعل ذلك كله بهم جزاء بأعمالهم.

﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾ باطلاً. ﴿ وَلاَ تَأْثِيماً ﴾ ولا نسبة إلى الإثم أي لا يقال لهم

أثمتم.

﴿ إِلاَّ قِيلاً ﴾ أي قولاً. ﴿ سلاما سلاما ﴾ بدل من ﴿ قِيلاً ﴾ كقوله تعالى: ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سلاما ﴾ أو صفته أو مفعوله بمعنى إلا أن يقولوا سلاماً، أو مصدر والتكرير للدلالة على فشو السلام بينهم. وقرىء "سلام سلام" على الحكاية.

﴿ وأصحاب اليمين مَا أصحاب اليمين فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ لا شوك فيه من خضد الشوك إذا قطعه، أو مثني أغصانه من كثرة حمله من خضد الغصن إذا ثناه وهو رطب.

﴿ وَطَلْحٍ ﴾ وشجر موز، أو أم غيلان وله أنوار كثيرة طيبة الرائحة، وقرىء بالعين. ﴿ مَّنْضُودٍ ﴾ نضد حمله من أسفله إلى أعلاه.

(253/745)

﴿ وَظِلّ مَّمْدُودٍ ﴾ منبسط لا يتقلص ولا يتفاوت.

﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ يسكب لهم أين شاؤوا وكيف شاؤوا بلا تعب، أو مصبوب سائل كأنه لما شبه حال السابقين في التنعم بأعلى ما يتصور لأهل المدن شبه حال أصحاب اليمين بأكمل ما يتمناه أهل البوادي إشعاراً بالتفاوت بين الحالين.

﴿ وفاكهة كَثِيرَةٍ ﴾ كثيرة الأجناس.

﴿ لاَّ مَقْطُوعَةٍ ﴾ لا تنقطع في وقت . ﴿ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ لا تمنع عن متناولها بوجه .

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ رفيعة القدر أو منضدة مرتفعة . وقيل الفرش النساء وارتفاعها أنها على الأرائك ، ويدل عليه قوله :

﴿ إِنَّا أنشأناهن إِنشَاءً ﴾ أي ابتدأناهن ابتداء جديداً من غير ولادة إبداء أو إعادة . وفي الحديث " هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شمطاً رمصاً ، جعلهن الله بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد ، كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً " ﴿ فجعلناهن أبكارا ﴾ . ﴿ عُرُباً ﴾ متحببات إلى أزواجهن جمع عروب ، وسكن راءه حمزة وأبو بكر وروي عن نافع وعاصم مثله . ﴿ أَتْرَاباً ﴾ فإن كلهن بنات ثلاث وثلاثين وكذا أزواجهن .

﴿ لأصحاب اليمين ﴾ متعلق ب ﴿ أَنشَأْنَا ﴾ أو "جعلنا" ، أو صفة ل ﴿ أَبكاراً ﴾ أو خبر لمحذوف مثل هن أو لقوله :

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ وهي على الوجه الأول خبر محذوف .

﴿ وأصحاب الشمال مَا أصحاب الشمال فِى سَمُومٍ ﴾ في حر نار ينفذ في المُسام . ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ وماء متناه في الحرارة .

﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ من دخان أسود يفعول من الحممة .

﴿ لاَّ بَارِدٍ ﴾ كسائر الظل . ﴿ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ ولا نافع ، نفى بذلك ما أوهم الظل من الاسترواح .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ منهمكين في الشهوات .

﴿ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى الحنث العظيم ﴾ الذنب العظيم يعني الشرك ، ومنه بلغ الغلام الحنث أي الحلم ووقت المؤاخذة بالذنب ، وحنث في يمينه خلاف بر فيها وتحنث إذا تأثم .

(254/745)

﴿ وَكَانُواْ يقُولُونَ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وعظاما أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ كررت الهمزة للدلالة على إنكار البعث مطلقاً وخصوصاً في هذا الوقت كما دخلت العاطفة في قوله :

﴿ أَوَءَابَاؤُنَا الأولون ﴾ للدلالة على ذلك أشد إنكاراً في حقهم لتقادم زمانهم وللفصل بها حسن العطف على المستكن في ﴿ لَمَبْعُوثُونَ ﴾ ، وقرأ نافع وابن عامر ﴿ أَوْ ﴾ بالسكون وقد سبق مثله ، والعامل في الظرف ما دل عليه "مبعوثون" لا هو للفصل بأن والهمزة .

﴿ قُلْ إِنَّ الأولين والآخرين لَمَجْمُوعُونَ ﴾ . وقرىء "لمجمعون" . ﴿ إلى ميقات يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ إلى ما وقت به الدنيا وحدث من يوم معين عند الله معلوم له .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضالون المكذبون ﴾ أي بالبعث والخطاب لأهل مكة وأضرابهم .

﴿ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مّن زَقُّومٍ ﴾ ﴿ مِنْ ﴾ الأولى للابتداء والثانية للبيان .

﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ﴾ من شدة الجوع .

﴿ فشاربون عَلَيْهِ مِنَ الحميم ﴾ لغلبة العطش ، وتأنيث الضمير في منها وتذكيره في ﴿ عَلَيْهِ ﴾ على معنى الشجر ولفظه ، وقرىء "من شجرة" فيكون التذكير لل ﴿ زَقُّومٍ ﴾ فإنه تفسيرها .

﴿ فشاربون شُرْبَ الهيم ﴾ الإبل التي بها الهيام وهو داء يشبه الاستسقاء ، جمع أهيم وهيماء قال ذو الرمة :

فَأَصْبَحَتْ كَالهَيْمَاءِ لاَ المَاءُ مُبْرِدٌ . . . صَدَاهَا وَلاَ يَقْضِي عَلَيْهَا هَيَامُهَا

وقيل الرمال على أنه جمع هيام بالفتح وهو الرمل الذي لا يتماسك جمع على هيم كسحب ، ثم خفف وفعل به ما فعل بجمع أبيض وكل من المعطوف والمعطوف عليه أخص من الآخر من وجه فلا اتحاد ، وقرأ نافع وحمزة وعاصم ﴿ شُرْبَ ﴾ بضم الشين .

(255/745)

﴿ هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدين ﴾ يوم الجزاء فما ظنك بما يكون لهم بعد ما استقروا في الجحيم ، وفيه تهكم كما في قوله : ﴿ فَبَشّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لأن النزل ما يعد للنازل تكرمة له ،

وقرىء "نُزُلُهُمْ" بالتخفيف .

﴿ نَحْنُ خلقناكم فَلَوْلاَ تُصَدّقُونَ ﴾ بالخلق متيقنين محققين للتصديق بالأعمال الدالة عليه ، أو بالبعث فإن من قدر على الإبداء قدر على الإعادة .

﴿ أَفَرَءَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ ﴾ أي ما تقذفونه في الأرحام من النطف ، وقرىء بفتح التاء من منى النطفة بمعنى أمناها .

﴿ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ تجعلونه بشراً سوياً . ﴿ أَم نَحْنُ الخالقون ﴾ .

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت ﴾ قسمناه عليكم وأقتنا موت كل بوقت معين ، وقرأ ابن كثير بتخفيف الدال . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ لا يسبقنا أحد فيهرب من الموت أو يغير وقته ، أو لا يغلبنا أحد من سبقته على كذا إذا غلبته عليه .

﴿ على أَن نُّبَدّلَ أمثالكم ﴾ على الأول حال أو علة ل ﴿ قَدَّرْنَآ ﴾ وعلى بمعنى اللام ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ اعتراض وعلى الثاني صلة ، والمعنى على أن نبدل منكم أشباهكم فنخلق بدلكم ، أو نبدل صفاتكم على أن أمثالكم جمع مثل بمعنى صفة . ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ في خلق أو صفات لا تعلمونها .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة الأولى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ أن من قدر عليها قدر على النشأة الأخرى فإنها أقل صنعاً لحصول المواد وتخصيص الاجزاء وسبق المثال ، وفيه دليل على صحة القياس .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ تبذرون حبه .

﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ ﴾ تنبتونه . ﴿ أَمْ نَحْنُ الزرعون ﴾ المنبتون .

(256/745)

﴿ لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حطاما ﴾ هشيماً . ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ تعجبون أو تندمون على اجتهادكم فيه ، أو على ما أصبتم لأجله من المعاصي فتتحدثون فيه ، والفكه التنقل بصنوف الفاكهة وقد استعير للتنقل بالحديث ، وقرىء "فَظَلْتُمْ" بالكسر و" فظللتم" على الأصل .

﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ لملزمون غرامة ما أنفقنا ، أو مهلكون لهلاك رزقنا من الغرام ، وقرأ أبو بكر "أئنا لمغرمون" على الاستفهام .

﴿ بَلْ نَحْنُ ﴾ قوم . ﴿ مَحْرُومُونَ ﴾ حرمنا رزقنا ، أو محدودون لا مجدودون .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ الماء الذى تَشْرَبُونَ ﴾ أي العذب الصالح للشرب .

﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن ﴾ من السحاب واحده مزنة ، وقيل ﴿ المزن ﴾ السحاب الأبيض وماؤه أعذب . ﴿ أَمْ نَحْنُ المنزلون ﴾ بقدرتنا والرؤية إن كانت بمعنى العلم فمتعلقة بالاستفهام .

﴿ لَوْنَشَاءُ جعلناه أُجَاجاً ﴾ ملحاً أو من الأجيج فإنه يحرق الفم ، وحذف اللام الفاصلة بين جواب ما يتمحض للشرط وما يتضمن معناه لعلم السامع بمكانها ، أو الاكتفاء بسبق ذكرها أو يختص ما يقصد لذاته ويكون أهم وفقده أصعب بمزيد التأكيد . ﴿ فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴾ أمثال هذه النعم الضرورية .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ النار التى تُورُونَ ﴾ تقدحون .

﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ المنشئون ﴾ يعني الشجرة التي منها الزناد .

﴿ نَحْنُ جعلناها ﴾ جعلنا نار الزناد . ﴿ تَذْكِرَةً ﴾ تبصرة في أمر البعث كما مر في سورة "يس" ، أو في الظلام أو تذكيراً وأنموذجاً لنار جهنم . ﴿ ومتاعا ﴾ ومنفعة . ﴿ لّلْمُقْوِينَ ﴾ الذين ينزلون القواء وهي القفر ، أو للذين خلت بطونهم أو مزاودهم من الطعام ، من أقوت الدار إذا خلت من ساكنيها .

(257/745)

﴿ فَسَبّحْ باسم ربّكَ العظيم ﴾ فأحدث التسبيح بذكر اسمه تعالى أو بذكره فإن إطلاق اسم الشيء ذكره والعظيم صفة للاسم أو الرب ، وتعقيب الأمر بالتسبيح لما عدد من بدائع صنعه وإنعامه إما لتنزيهه تعالى عما يقول الجاحدون لوحدانيته الكافرون لنعمته ، أو

للتعجب من أمرهم في غمط نعمه ، أو للشكر على ما عدها من النعم .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم ، أو فأقسم و"لا" مزيدة للتأكيد كما في ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ ﴾ أو فلأنا أقسم فحذف المبتدأ وأشبع فتحة لام الابتداء ، ويدل عليه قراءة ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ أو ﴿ فَلا ﴾ رد لكلام يخالف المقسم عليه . ﴿ بمواقع النجوم ﴾ بمساقطها ، وتخصيص المغارب لما في غروبها من زوال أثرها والدلالة على وجود مؤثر لا يزول تأثيره ، أو بمنازلها ومجاريها . وقيل النجوم نجوم القرآن ومواقعها أوقات نزولها ، وقرأ حمزة والكسائي بموقع .

﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ لما في المقسم به من الدلالة على عظم القدرة وكمال الحكمة وفرط الرحمة ، ومن مقتضيات رحمته أن لا يترك عباده سدى ، وهو اعتراض في اعتراض فإنه اعتراض بين القسم والمقسم عليه ، و ﴿ لَّوْ تَعْلَمُونَ ﴾ اعتراض بين الموصوف والصفة .

﴿ إِنَّهُ لَقُرْءانٌ كَرِيمٌ ﴾ كثير النفع لاشتماله على أصول العلوم المهمة في إصلاح المعاش والمعاد ، أو حسن مرضي في جنسه .

﴿ فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ مصون وهو اللوح المحفوظ .

﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ﴾ لا يطلع على اللوح إلا المطهرون من الكدورات الجسمانية وهم الملائكة ، أو لا يمس القرآن ﴿ إِلاَّ المطهرون ﴾ من الأحداث فيكون نفياً بمعنى النهي ، أو

لا يطلبه ﴿ إِلاَّ المطهرون ﴾ من الكفر ، وقرىء "المَتَطَهِرُونَ" و"المطهرون" من أطهره بمعنى طهره و"المطهرون" أي أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار لهم والإِلهام .

(258/745)

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ صفة ثالثة أو رابعة للقرآن ، وهو مصدر نعت به وقرىء بالنصب أي نزل تنزيلاً .

﴿ أفبهذا الحديث ﴾ يعني القرآن . ﴿ أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴾ متهاونون به كمن يدهن في الأمر أي يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاوناً به .

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ أي شكر رزقكم . ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي بمانحه حيث تنسبونه إلى الأنواء ، وقرىء "شكركم" أي تجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به وتكذبون أي بقولكم في القرآن أنه سحر وشعر ، أو في المطر أنه من الأنواء .

﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ أي النفس .

﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ حالكم ، والخطاب لمن حول المحتضر والواو للحال .

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ ﴾ أي ونحن أعلم . ﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلى المحتضر . ﴿ مِّنكُمْ ﴾ عبر عن العلم بالقرب الذي هو أقوى سبب الاطلاع . ﴿ ولكن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾ لا تدركون كنه ما يجري

عليه .

﴿ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أي مجزيين يوم القيامة أو مملوكين مقهورين من دانه إذا أذله واستعبده ، وأصل التركيب للذل والانقياد .

﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ ترجعون النفس إلى مقرها وهو عامل الظرف والمحضض عليه ب ﴿ فَلَوْلَا ﴾ الأولى والثانية تكرير للتوكيد وهي بما في حيزها دليل جواب الشرط ، والمعنى إن كنتم غير مملوكين مجزيين كما دل عليه جحدكم أفعال الله وتكذيبكم بآياته . ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في أباطيلكم ﴿ فَلَوْلَا ﴾ ترجعون الأرواح إلى الأبدان بعد بلوغها الحلقوم .

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المقربين ﴾ أي إن كان المتوفى من السابقين .

﴿ فَرَوْحٌ ﴾ فله استراحة وقرىء "فَرَوْحٌ" بالضم وفسر بالرحمة لأنها كالسبب لحياة المرحوم وبالحياة الدائمة . ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ ورزق طيب . ﴿ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ ذات تنعم .

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أصحاب اليمين فسلام لَّكَ ﴾ يا صاحب اليمين . ﴿ مِنْ أصحاب اليمين ﴾ أي من إخوانك يسلمون عليك .

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضالين ﴾ يعني أصحاب الشمال ، وإنما وصفهم بأفعالهم زجراً عنها وإشعاراً بما أوجب لهم ما أوعدهم به .

﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ وذلك ما يجد في القبر من سموم النار ودخانها .

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي الذي ذكر في السورة أو في شأن الفرق . ﴿ لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ أي حق الخبر اليقين .

﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ فنزهه بذكر اسمه تعالى عما لا يليق بعظمه شأنه .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً " . (1)

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 283 . 294 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) ﴾

التفسير : ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ نظير قولك حدثت الحادثة " وكانت الكائنة " وهي القيامة التي تقع لا محالة . يقال : وقع ما كنت أتوقعه أي نزل ما كنت أترقب نزوله . واللام في

﴿ لوقعتها ﴾ للوقت أي لا يكون حين تقع نفس تكذب على الله لأن الإيمان حينئذ بما هو غائب الآن ضروري إلا أنه غير نافع لأنه إيمان اليأس . ويجوز أن يراد ليس لها وقتئذ نفس تكذبها وتقول لها لم تكوني لأن إنكار المحسوس غير معقول . وجوز جار الله أن يكون من قولهم "كذبت فلاناً نفسه في الخطب العظيم" إذا شجعته على مباشرته . وقالت له : إنك تطيقه . فيكون المراد أن القيامة واقعة لا تطاق شدة وفظاعة وأن الأنفس حينئذ تحدث صاحبها بما تحدثه به عند عظائم الأمور . وقيل : هي مصدر كالعافية فيؤل المعنى إلى الأول . وقال في الكشاف : هو بمعنى التكذيب من قولهم "حمل على قرنه فما كذب" أي فما جبن وما تثبط ، وحقيقته فما كذب نفسه فيما حدثته به من طاقته له . والحال من هذا التوجيه أنها إذا وقعت لم تكن لها رجعة ولا ارتداد ﴿ خافضة رافعة ﴾ أي هي تخفض أقواماً وترفع آخرين إما لأن الواقعات العظام تكون كذلك كما قال :

وما إن طبنا جبن ولكن . . . منايات ودولة آخرينا

(261/745)

وإما لإن للأشقياء الدركات وللسعداء الدرجات وإما لأن زلزلة الساعة تزيل الأشياء عن مقارها فتنتثر الكواكب وتسير الجبال في الجو يؤيده قوله ﴿ إذا رجت الأرض ﴾ أي

حركت تحريكاً عنيفاً حتى ينهدم كل بناء عليها ﴿ وبست الجبال بساً ﴾ أي فتتت حتى تعود كالسويق أو سيقت من بس الغنم إذا ساقها ﴿ فكانت ﴾ أي صارت غباراً متفرقاً . ثم ذكر أحوال الناس يومئذ قائلاً ﴿ وكنتم ﴾ لفظ الماضي لتحقق الوقوع ﴿ أزواجاً ﴾ أي أصنافاً ﴿ ثلاثة ﴾ ثم فصلها فقال ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴾ وهو تعجب من شأنهم كقولك " زيد ما زيد " سموا بذلك لأنهم يؤتون صحائفهم بأيمانهم ، أو لأنهم آهل المنزلة السنية من قولهم " فلان مني باليمين " إذا وصفته بالرفعة عندك وذلك لتيمنهم بالميامن دون الشمائل وتبركهم بالسانح دون البارح ، ولعل اشتقاق اليمين من اليمن والشمال من الشؤم ، والسعداء ميامين على أنفسهم والأشقياء مشائيهم عليها . روي أهل الجنة يؤخذ بهم إلى جانب اليمين وأهل النار يؤخذ بهم في الشمال ﴿ والسابقون ﴾ عرف الخبر للمبالغة كقوله الذين سبقوا إلى ما دعاهم الله إليه من التوحيد والإخلاص والطاعة ﴿ هم السابقون ﴾ عرف الخبر للمبالغة كقوله " وشعري شعري " يريد والسابقون من عرف حالهم وبلغك وصفهم ، وعلى هذا يحسن الوقف ﴿ السابقون ﴾ ﴿ أولئك المقربون ﴾ إلى مقامات لا يكشف المقال عنها من الجمال والعارفون يقولون لهم إنهم أهل الله ، وفي لفظ السبق إشار إلى ذلك ﴿ في جنات النعيم ﴾ إخفاء حالهم وبيان محل إجسادهم أو هي الجنة الروحانية النورانية ﴿ ثلة من الأولين ﴾ أي جماعة كثيرة من لدن آدم إلى أول زمان نبينا صلى الله عليه وسلم .

قال أهل الاشتقاق : أصل الثلة من الثل وهو الكسر كما أن الأمة من الأم وهو الشج كأنها جماعة كسرت من الناس وقطعت منهم ، ثم اشتق الإمام منه إذ به يحصل الأمة المقتدية به . ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ أي من هذه الأمة . قال الزجاج : الذين عاينوا جميع النبيين وصدقوا بهم أكثر ممن عاين النبي صلى الله عليه وسلم وههنا سؤال وهو أنه كيف قال ههنا ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ وفيما بعده قال ﴿ وثلة من الآخرين ﴾ والجواب أن الثلتين في آية أصحاب اليمين هما جميعاً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . جواب آخر وهو أن يقال : الخطاب في قوله ﴿ وكنتم أزواجاً ﴾ لأمة محمد صلى الله عليه وسلم والأولون منهم هم الصحابة والتابعون كقوله ﴿ والسابقون الأولون ﴾ [التوبة : 1] والآخرون منهم هم الذين يلونهم إلى يوم الدين ، ولا ريب أن السابقين يكونون في الأولين أكثر منهم في الآخرين . وأما أصحاب اليمين فيوجدون في كلا القبيلين كثيراً وعلى هذا يكون الترتيب المذكور ساقطاً ولا نسخ لإمكان اجتماع مضموني الخبرين في الواقع . قال الزجاج وهو قول مجاهد والضحاك يعني جماعة ممن تبع النبي صلى الله عليه وسلم وعاينه وجماعة ممن آمن به وكان بعده . وروى الواحدي في تفسيره بإسناده عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه

وسلم قال " جميع الثلثين من أمتي " وأجاب بعضهم بأنه لما نزلت الآية الأولى شق على المسلمين فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجع ربه حتى نزلت ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ وزيفت هذه الرواية بظهور ورود الآية الأولى في السابقين والثانية في أصحاب اليمين ، وبأن النسخ لا يتضح بل لا يصح في الأخبار ، وبأن الآية الأولى لا توجب الحزن ولكنها تقتضي الفرح من حيث إنه إذا كان السابقون في هذه الأمة موجودين وإن كانوا قليلين وقد صح أنه لا نبي بعد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لزم أن يكون بعض الأمة مع محمد صلى الله عليه وسلم سابقين فيكونون في درجة

(263/745)

الأنبياء والرسل الماضين ، ولعل في قوله " علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل " إشارة إلى هذا .

وأقول : عندي أن الجواب الصحيح هو أن السابقين في الأمم الماضية يجب أن يكونوا أكثر لأن فيض الله سبحانه المقدر للنوع الإنساني إذا وزع على أشخاص أقل يكون نصيب كل منهم أوفر مما لو قسم على أشخاص أكثر ، ولعلنا قد كتبنا في هذا المعنى رسالة وعسى أن يكون هذا سبباً لخاتمة نبينا صلى الله عليه وسلم أما أصحاب اليمين وهم أهل الجنة كما

قلنا فإنهم كثيرون من هذه الأمة لأنهم كل من آمن بالله ورسوله وعمل صالحاً هذا ما سنح في الوقت والله تعالى أعلم بمراده .

(264/745)

ثم وصف حال المقربين بقوله ﴿ على سرر موضونة ﴾ قال المفسرون : أي منسوجة بقضبان الذهب مشبكة بالدر والياقوت وقد دوخل بعضها في بعض كما توضن حلق الدرع أي استقروا على السرر ﴿ متكئين ﴾ وقوله ﴿ ولدان مخلدون ﴾ أي غلمان لا يهرمون ولا يغيرون قال الفراء : والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط إنه لمخلد . قال : ويقال مخلدون مقرطون من الخلدة وهو القرط . وقيل : هم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ، ولا سيئات فيعاقبوا عليها . قال جار الله : روي هذا عن علي رضي الله عنه . والحسن قال الحديث " أولاد الكفار خدام أهل الجنة " والأكواب الأقداح المستديرة الأفواه ولا آذان لها ولا عري ، والأباريق ذوات الخراطيم الواحد إبريق وهو الذي يبرق لونه من صفائه . والباقي مفسر في " الصافات " إلى قوله ﴿ مما يتخيرون ﴾ أي يختارون تخيرت الشيء أخذت خيره ، قال ابن عباس : يخطر على قلبه الطير فيصير ممثلاً بين يديه على ما اشتهى . ومن قرأ ﴿ وحور عين ﴾ بالرفع فمعناه ولهم أو عندهم حور .

ومن خفضهما فعلى العطف المعنوي أي يكرمون أو يتنعمون بأكواب وبكذا وكذا .

والكاف في قوله ﴿ كأمثال ﴾ للمبالغة في التشبيه . قوله ﴿ جزاء ﴾ مفعول له أي يفعل بهم ذلك لأجل الجزاء . قوله ﴿ ولا تأثيماً ﴾ أي لا يقول بعضهم لبعض أثمت لأنهم لا يتكلمون بما فيه إثم . وانتصب ﴿ سلاماً ﴾ على البدل من ﴿ قليلاً ﴾ أو على أنه مفعول به أي لا يسمعون بها إلا أن يقولوا سلاماً عقيبه سلام . ثم عجب من شأن أصحاب اليمين . والسدر شجر النبق والمخضود الذي لا شوك له كأنه خضد شوكه . وقال مجاهد : هو من خضد الغصن إذا ثناه وهو رطب كأنه من كثرة ثمره ثنى أغصانه والطلح شجر الموز أو أم غيلان كثير النور طيب الرائحة وعن السدي : شجر يشبه طلح الدنيا ولكن له ثمر أحلى من العسل . وفي الكشاف أن علياً عليه السلام أنكره وقال : ما شأن الطلح إنما هو طلع وقرأ قوله ﴿ لها طلع نضيد ﴾ فقيل : أو نحولها ؟

(265/745)

قال : آي القرآن لا تهاج اليوم ولا تحول قال : وعن ابن عباس نحوه . قلت : وفي هذه الرواية نظر لا يخفى . والمنضود الذي نضد بالحمل من أوله إلى آخره فليست له ساق بارزة ﴿

وظل ممدود ﴾ أي ممتد منبسط كظلي الطلوع والغروب لا يتقلص . ويحتمل أن يراد أنه دائم باقٍ لا يزول ولا تنسخه الشمس ، والعرب تقول لكل شيء طويل لا ينقطع إنه ممدود .

(266/745)

والمسكوب المصبوب يسكب لهم أين شاؤا وكيف شاؤا ، أو يسكبه الله في مجاريه من غير انقطاع ، أو أراد أنه يجري على الأرض في خير أخدود ﴿ لا مقطوعة ﴾ في بعض الأوقات ﴿ ولا ممنوعة ﴾ عن طالبيها بنحو حظيرة أو لبذل ثمن كما هو شأن البساتين والفواكه في الدنيا ﴿ مرفوعة ﴾ أي نضدت حتى ارتفعت أو مرفوعة على الأسرة قاله علي رضي الله عنه . وقيل : هي النساء المرفوعة على الأرائك . والمرأة يكنى عنها بالفراش يدل على هذا قوله ﴿ إنا أنشأناهن ﴾ وعلى التفسير الأول جعل ذكر الفرش وهي المضاجع دليلاً عليهن . ومعنى الإنشاء أنه ابتدأ خلقهن من غير ولادة أو أعاد خلقهن إنشاء . روى الضحاك عن ابن عباس أنهن نساؤنا العجز الشمط يخلقهن الله بعد الكبر والهرم ﴿ أبكاراً عرباً ﴾ جمع عروب وهي المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل ﴿ أتراباً ﴾ مستويات في السن بنات ثلاث وثلاثين كأزواجهن كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً من غير وجع . وقوله ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ متعلق بأنشأنا وجعلنا . ثم عجب من أصحاب الشمال .

ومعنى ﴿ في سموم ﴾ في حر نار ينفذ في المسام . والحميم الماء الكثير الحرارة . واليحموم الدخان الأسود " يفعول " من الأحم وهو الأسود . ثم نعت الظل بأنه حار ضار لا منفعة فيه ولا روح لمن يأوي إليه . قال ابن عباس : لا بارد المدخل ولا كريم المنظر . قال الفراء : العرب تجعل الكريم تابعاً لكل شيء ينوي به المدح في الإثبات أو الذم في النفي تقول : هو سمين كريم وما هذه الدار بواسعة ولا بكريمة . ثم ذكر أعمالهم الموجبة لهذا العقاب فقال ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك ﴾ أي في الدنيا ﴿ مترفين ﴾ متنعمين متكبرين عن التوحيد والطاعة والإخلاص ﴿ وكانوا يصرون على الحنث ﴾ وهو الذنب الكبير ووصفه بالعظم مبالغة على مبالغة تقول : بلغ الغلام الحنث أي الحلم ووقت المؤاخذة بالمآثم وحنث في يمينه خلاف بر فيها . وخص جمع من المفسرين فقالوا . أعني به الشرك . وعن الشعبي : هو اليمين الغموس وذلك أنهم

(267/745)

كانوا يحلفون أنهم لا يبعثون يدل عليه ما بعده وقد مر مثله في " الصافات " . واعلم أنه سبحانه ذكر في تفصيل الأزواج الثلاثة نسقاً عجيباً وأسلوباً غريباً . وذلك أنه لم يورد في التفصيل إلا ذكر صنفين . أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة . ثم بعد ما عجب منهما

بين حال الثلاثة السابقين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال فأقول وبالله التوفيق : هذا كلام موجز معجز فيه لطائف خلت التفاسير عنها منها : أنه طوى ذكر السابقين في أصحاب الميمنة لأن كلاً من السابقين ومن أصحاب اليمين أصحاب اليمن والبركة كما أن أصحاب الشمال أهل الشؤم والنكد ، وكأن في هذا الطي إشارة إلى الحديث القدسي " أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري " ومنها أن ذكر السابقين وقع في الوسط باعتبار وخير الأمور أوسطها ، وفي الأول باعتبار والأشراف بالتقديم أولى ، وفي الآخر باعتبار ليكون إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم " نحن الآخرون السابقون " ومنها أن مفهوم السابق متعلق بمسبوق ، فما لم يعرف ذات المسبوق لم يحسن ذكر السابق من حيث هو سابق . فهذا ما سنح للخاطر وسمح به والله تعالى أعلم بمراده .

(268/745)

ثم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقرر لهم ما شكوا فيه فقال ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات ﴾ أي ينتهي أمر جميعهم إلى وقت ﴿ يوم معلوم ﴾ عند الله وفيه رجوع إلى أول السورة . ولما كرر ذكر المعاد بعبارات شتى ذكر طرفاً من حال المكذبين المعاصرين ومن ضاهاهم فقال ﴿ ثم إنكم أيها الضالون ﴾ عن الهدى ﴿ المكذبون ﴾

بالبعث ﴿ لآكلون ﴾ أي في السموم المذكور ﴿ من شجر ﴾ هو للابتداء ﴿ من زقوم ﴾ هو للبيان ﴿ فمالئون منها البطون ﴾ آنث الضمير بتأويل الشجرة قال جار الله : عطف الشاربين على الشاربين لاختلافهما اعتباراً وذلك أن شرب الماء المتناهي الحرارة عجيب وشربه كشرب الهيم أعجب . والهيم الإبل التي بها الهيام وإذا شربت فلا تروى واحدها أهيم والمؤنث هيماء وزنه " فعل " كبيض . وجوز أن يكون جمع الهيام بفتح الهاء وهو الرمل الذي لا يتماسك كسحاب وسحب . ثم خفف وفعل به ما فعل بنحو جمع أبيض والمعنى أنه يسلط عليهم الجوع حتى يضطروا إلى أكل الزقوم . ثم يسلط عليهم العطش إلى أن يضطروا إلى شرب الحمم كالإبل الهيم ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ﴾ بالبعث بعد الخلق فإن من قدر على البدء كان على الإعادة أقدر . ثم برهن أنه لا خالق إلا هو فقال ﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾ أي تقذفونه في الأرحام . يقال : أمنى النطفة ومناها وقد مر في قوله ﴿ من نطفة إذا تمنى ﴾ [النحم : 46] ﴿ أءنتم تخلقونه ﴾ تقدّرونه وتصورونه . ووجه الاستدلال أن المني إنما يحصل من فضلة الهضم الرابع وهو كالطل المنبث في جميع الأعضاء ولهذا تشترك كل الأعضاء في لذة الوقاع ويجب اغتسال كلها لحصول الانحلال عنها جميعاً . فالذي قدر على جمع تلك الأغذية في بدن الإنسان ثم على جمع تلك الأجزاء الطلية في أوعيتها ثم على تمكينها في الرحم إلى أن تتكون إنساناً كاملاً

يقدر على جمعها بعد تفريقها بالموت المقدر بينهم بحيث لا يفوته شيء منها وإلى هذا أشار بقوله ﴿ وما نحن بمسبوقين على أن نبدل ﴾

(269/745)

أي نحن قادرون على ذلك لا يغلبنا عليه أحد . يقال : سبقته على الشيء إذا أعجزته عنه وغلبته عليه . والأمثال جمع المثل أي على أن نبدل مكانكم أشباهكم من الخلق و ﴿ فيما لا تعلمون ﴾ أي في خلق ما لا تعلمونها وما عهدتم بمثلها ، يريد بيان قدرته على إنشائنا في جملة خلق تماثلنا أو خلق لا تماثلنا .

(270/745)

وجوز جار الله أن يكون جمع مثل بفتحتين والمعنى إنا قادرون على تغيير صفاتكم التي أنتم عليها وإنشاء صفات لا تعلمونها . ثم ذكرهم النشأة الأولى ليكون تذكيراً بعد تذكير فقال ﴿ ولقد علمتم ﴾ الآية . ثم دل على كمال عنايته ورحمته ببريته مع دليل آخر على قدرته قائلاً ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ من الطعام أي تبذرون حبه ﴿ أءنتم تزرعونه ﴾ أي

تجعلونه بحيث يكون نباتاً كاملاً يستحق اسم الزرع . وفي الكشاف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يقولن أحد زرعت وليقل حرثت " والحطام ما تحطم وتكسر من الحشيش اليابس . وقوله ﴿ فظلتم ﴾ أصله فظللتم حذفت إحدى اللامين للتخفيف وهو مما جاء مستعملاً غير مقس عليه . ومعنى ﴿ تفكهون ﴾ تعجبون كأنه تكلف الفكاهة . وعن الحسن : تندمون على الإنفاق عليه التعب فيه أو على المعاصي التي تكون سبباً لذلك . من قرأ ﴿ أنا ﴾ بالخبر فواضح ويحسن تقدير القول أو لا بد منه ، ومن قرأ بالاستفهام فللتعجب ولا بد من تقدير القول أيضاً . ومعنى ﴿ لمغرمون ﴾ لمهلكون من الغرام الهلاك لهلاك الرزق ، أو من الغرامة أي لملزمون غرامة ما أنفقنا ﴿ بل نحن ﴾ قوم ﴿ محرومون ﴾ لا حظ لنا ولو كنا مجدودين لما جرى علينا ما جرى ورفضوا العجب من حالهم ، ثم أسندوا ذلك إلى ما كتب عليهم في الأزل من الإدبار وسوء القضاء نعوذ الله منهما . ثم ذكر دليلاً آخر مع كونه نعمة أخرى وهو إنزال الماء من المزن وهو السحاب الأبيض خاصة . والأجاج الماء الملح اكتفى باللام الأولى في جواب " لو " عن إشاعة الثانية وهي ثابتة في المعنى لأن " لو " شرطية غير واضحة ليس إلا أن الثاني امتنع لامتناع الأول وهذا أمر وهمي فاحتيج في الربط إلى اللام التوكيدي . ويمكن أن يقال : إن المطعوم مقدم على أمر المشروب والوعيد بفقده أشد وأصعب فلهذا خصت آية المطعوم باللام المفيدة

للتأكيد . وإنما ختم الآية بقوله ﴿ فلولا تشكرون ﴾ لأنه وصف الماء بقوله ﴿ الذي تشربون ﴾ ولم يصف المطعوم

(271/745)

بالأكل أو لأنه قال ﴿ أءنتم أنزلتموه من المزن ﴾ وهذا لا عمل للآدمي فيه أصلاً بخلاف الحرث أو لأن الشرب من تمام الأكل فيعود الشكر إلى النعمتين جميعاً ثم عد نعمة أخرى من قبيل ما مر . ومعنى ﴿ تورون ﴾ تقدحونها وتستخرجونها من الشجر وقد سبق ذكرها في آخر "يس" .

وأعلم أنه سبحانه بدأ في هذه الدلائل بذكر خلق الإنسان لأن النعمة فيه سابقة على جميع النعم . ثم أعقبه بذكر ما فيه قوام الناس وقيام معايشهم وهو الحب ، ثم أتبعه الماء الذي به يتم العجين ، ثم ختم بالنار التي بها يحصل الخبز ، وذكر عقيب كل واحد ما يأتي عليه ويفسده فقال في الأولى ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ وفي الثانية ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾ وفي الثالثة ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ ولم يقل في الرابعة ما يفسدها بل قال ﴿ نحن جعلناها تذكرة ﴾ تتعظون بها ولا تنسون نار جهنم كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

" ناركم هذه التي يوقدها بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من جهنم " ﴿ ومتاعاً ﴾ وسبب تمتع ومنفعة ﴿ للمقوين ﴾ للذين ينزلون القواء وهي القفر أو للذين خلت بطونهم أو مزاودهم من الطعام في السفر من أقوى الرجل إذا لم يأكل شيئاً من أيام . وفي نسق هذه الآيات بشارة للمؤمنين وذلك أنه سبحانه بدأ بالوعيد الشديد وهو تغيير ذات الإنسان بالكلية في قوله ﴿ وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم ﴾ ثم ترك ذلك المقام إلى أسهل منه وهو تغير قوته ذاتاً فقال ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾ ثم عقبه بأسهل وهو تغيير مشروبه نعتاً لا ذاتاً ولهذا حذف اللام في قوله ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ ويحتمل عندي أن يكون سبب حذف اللام هو كون " لو " بمعنى " أن " وذلك أن الماء باقٍ ههنا فيكون التعليق حقيقة بخلاف الزرع فإنه بعد أن حصد صار التعليق المذكور وهمياً فافهم . ثم ختم بتذكير النار وفيه وعد من وجه ووعيد من وجه . أما الأول فلأنه لم يبين ما يفسدها كما قلنا يدل على أن الختم وقع على الرأفة والرحمة . وأما الثاني فلأن عدم ذكر مفسدها يدل على بقائها في الآخرة . وفي قوله ﴿ تذكرة ﴾ إشارة إلى ما قلنا . ثم أمر بإحداث التسبيح بذكره أو بذكر اسمه العظيم تنزيهاً له عما يقول الكافرون به وبنعمته

وبقدرته على البعث ، ثم عظم شأن القرآن بقوله ﴿ فلا أقسم ﴾ أي فأقسم والعرب تزيد لا قبل فعل أقسم كأنه ينفي ما سوى المقسم عليه فيفيد التأكيد . ومواقع النجوم مساقطعها ومغاربها ولا ريب أن لأواخر الليل خواص شريفة ولهذا قال سبحانه ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ [آل عمران : 17] وعن سفيان الثوري : إن الله تعالى ريحاً تهب وقت الأسحار وتحمل الأذكار والاستغفار إلى الملك الجبار . وقوله ﴿ وأنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ اعتراض فيه اعتراض . ومواقعها منازلها ومسايرها في أبراجها أو هي أوقات نزول نجوم القرآن الكريم الحسن المرضي من بين جنس الكتب . أو كرمه نفعه للمكلفين . أو هو كرامته على

(273/745)

الله عز وجل ﴿ في كتاب مكنون ﴾ مستوراً على من أراد الله تعالى اطلاعه على أسراره من ملائكته المقربين وهو اللوح ﴿ لا يمسه ﴾ إن كان الضمير للكتاب فالمعنى أنه لا يصل إلى ما فيه ﴿ إلا ﴾ عبيده ﴿ المطهرون ﴾ من الأدناس الجسمية وهم الكروبيون ، وإن كان للقرآن فالمراد أنه لا ينبغي أن يمسه إلا من هو على الطهارة الباطنة والظاهرة ، فلا يمسه كافر ولا جنب ولا محدث .

ومن الناس من حرم قراءة القرآن عند الحدث الأصغر أيضاً . وعن ابن عباس في رواية وهو مذهب الإمامية إباحة قراءته في الجنابة إلا في أربع سور فيها سجدة التلاوة لأن سجدتها واجبة عندهم . ثم وبخ المتهاونين بشأن القرآن فقال ﴿ أفبهذا الحديث ﴾ أي بالقرآن أو بهذا الكلام الدال على حقيقة القرآن ﴿ أنتم مدهنون ﴾ متهاونون من أدهن في الأمر إذا لان جانبه ولا يتصلب فيه ﴿ وتجعلون رزقكم ﴾ أي شكر رزقكم ﴿ أنكم تكذبون ﴾ بالبعث وبما دل عليه القرآن ، ومن أظلم ممن وضع التكذيب موضع الشكر كأنه عاد إلى ما انجر منه الكلام وهو ذكر تعداد النعم من قوله ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ إلى قوله ﴿ للمقوين ﴾ وقيل : نزلت في الأنواء ونسبتهم الأمطار إليها يعني وتجعلون شكر ما يرزقكم الله من الغيث أنكم تكذبون بكونه من الله عز وجل وتنسبونه إلى النجوم . ثم زاد في توبيخ الإنسان على جحد أفعال الله وآياته . وترتيب الآية بالنظر إلى أصل المعنى هو أن يقال : فلولا ترجعون الأرواح إلى الأبدان إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين فزاد في الكلام توكيدات منها تكرير ﴿ فلولا ﴾ التحضيضية لطول الفصل كما كرر قوله ﴿ فلا تحسبنهم ﴾ بعد قوله ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون ﴾ [آل عمران : 188] ومنها تقديم الظرف وهو قوله

﴿ إذا بلغت الحلقوم ﴾ أي النفس . وإنما أضمرت للعلم بها كقوله ﴿ ما ترك على ظهرها ﴾ [فاطر : 45] وإنما قدم الظرف للعناية فإنه لا وقت لكون الإنسان أحوج إلى التصرف والتدبير منه ، ولأنه أراد أن يرتب الاعتراضات عليه . ومنها زيادة الجمل المعترضة وهي قوله ﴿ وأنتم ﴾ يا أهل الميت ﴿ حينئذ تنظرون ﴾ إليه ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ بالقدرة والعلم أو بملائكة الموت ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ لا بالبصر ولا بالبصيرة . ومعنى مدينين مربوبين مملوكين مقهورين من دان السلطان الرعية إذا ساسهم . ومنها قوله ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فإنه شرط زائد على شرط أي إن كنتم صادقين إن كنتم غير مدينين

فارجعوا أرواحكم إلى أبدانكم متمنعين عن الموت ، والحلقوم الحلق وهو مجرى النفس ، والواو والميم زائدان ، ووزنه " فعلوم " ويمكن أن يقال : إن فعل ﴿ فلولا ﴾ الأول محذوف يدل عليه ما قبله والمعنى تكذبون مدة حياتكم جاعلين التكذيب رزقكم ومعاشكم . فلولا تكذبون وقت الموت وأنتم في ذلك الوقت تعلمون الأحوال وتشاهدونها ؟ ويحتمل أن يكون معنى مدينين مقيمين من مدن إذا أقام ، والمعنى إن كنتم على ما تزعمون من أنكم لا تبقون في العذاب إلا أياماً معدودة فلم لا ترجعون أنفسكم إلى الدنيا إن لم تكن الآخرة دار

الإقامة . ويجوز أن يكون من الدين بمعنى الجزاء والمعنى يؤول إلى الأول لأن الجزاء نوع من القهر والتسخير . ويحتمل عندي أن يكون الضمير في ﴿ ترجعونها ﴾ عائداً إلى ملائكة الموت بدليل قوله ﴿ ونحن أقرب ﴾ والمعنى فلولا تردون عن ميتكم ملائكة الموت إن كنتم غير مقهورين تحت قدرتنا وإرادتنا .

(276/745)

وحين بين أن لا قدرة لهم على رجع الحياة والنفس إلى البدن وأنهم مجزيون في دار الإقامة فصل حال المكلف بعد الموت قائلاً ﴿ فأما إن كان ﴾ المتوفى ﴿ من المقربين ﴾ أي من السابقين من الأزواج الثلاثة ﴿ فروح ﴾ أي فله استراحة وهذا أمر يعم الروح والبدن ﴿ وريحان ﴾ أي رزق وهذا للبدن ﴿ وجنة نعيم ﴾ وهذا للروح يتنعم بلقاء المليك المقتدر . ويروى أن المؤمن لا يخرج من الدنيا إلا ويؤتى إليه بريحان من الجنة يشمه ﴿ وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك ﴾ أيها النبي ﴿ من أصحاب اليمين ﴾ أي أنت سالم من شفاعتهم . هذا قول كثير من المفسرين . وقال جار الله : فسلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين كقوله ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ [يونس : 10] ﴿ إن هذا ﴾ القرآن أو الذي أنزل في هذه السورة ﴿ لهو حق اليقين ﴾ أي الحق الثابت من

اليقين وهو علم يحصل به ثلج الصدر ويسمى ببرد اليقين . وقد يسمى العلم الحاصل بالبرهان فالإضافة بمعنى " من " كقولك " خاتم فضة " وهذا في الحقيقة لا يفيد سوى التأكيد كقولك " حق الحق " . " وصواب الصواب " أي غايته ونهايته التي لا وصول فوقه . أو المراد هذا هو اليقين حقاً لا اليقين الذي يظن أنه يقين ولا يكون كذلك في نفس الأمر . هذا ما قاله أكثر المفسرين . وقيل : الإضافة كما في قولنا " جانب الغربي " و " مسجد الجامع " أي حق الأمر اليقين . ويحتمل أن تكون الإضافة كما في قولنا " حق النبي أن يصلي عليه " و " حق المال أن تؤدى زكاته " ومنه قوله صلى الله عليه وسلم " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها " أي إلا بحق هذه الكلمة . ومن حقها أداء الزكاة والصلاة فكذلك حق اليقين الاعتراف بما قال الله سبحانه في شأن الأزواج الثلاثة . وعلى هذا يحتمل أن يكون اليقين بمعنى الموت كقوله ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ [الحجر : 92] وقال أهل اليقين : للعلم ثلاث مراتب : أولها

علم اليقين وهو مرتبة البرهان ، وثانيها عين اليقين وهو أن يرى المعلوم عياناً فليس الخبر كالمعاينة ، وثالثها حق اليقين وهو أن يصير العالم والمعلوم والعلم واحداً . ولعله لا يعرف حق

هذه المرتبة إلا من وصل إليها كما أن طعم العسل لا يعرفه إلأ من ذاقه بشرط أن لا يكون مزاجه ومذاقه فاسدين . روى جمع من المفسرين أن عثمان بن عفان دخل على ابن مسعود في مرضه الذي مات فيه فقال له : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي . قال : ما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي . قال : أفلا ندعو الطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني . قال : افلا نأمر بعطائك ؟ قال : لا حاجة لي فيه . قال : تدفعه إلى بناتك . قال : لا حاجة لهن فيه قد أمرتهن أن يقرأن سورة الواقعة فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " من قرأ سورة الواقعة كل يوم لم تصبه فاقة أبداً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 247.238 ﴾

(278/745)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الواقعة

مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء ؛ وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ وقال الكلبي : مكية إلا أربع آيات ؛ منها آيتان ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾

نزلتا في سفره إلى مكة ؛ وقوله تعالى : ﴿ ثلة من الأوّلين وثلة من الآخرين ﴾ نزلتا في سفره إلى المدينة ، وقدّمنا أنّ في المدني والمكي اصطلاحين ، وأنّ المشهور أنّ المكي ما نزل قبل الهجرة ؛ والمدني ما نزل بعدها وهي ست وتسعون آية ؛ قال الجلال المحلي : وهي ست أو سبع أو تسع وتسعون آية وثلاثمئة وثمان وتسعون كلمة ، وألف وسبع مئة وثلاثة أحرف .

﴿ بسم الله ﴾ الذي له الكمال كله ففاوت بين الناس في الأحوال ﴿ الرحمن ﴾ الذي عم بنعمة البيان وفاضل في قبولها بين أهل الإدبار وأهل الإقبال ﴿ الرحيم ﴾ الذي قرب أهل حزبه ففازوا بمحاسن الأقوال والأفعال .

ولما قسم سبحانه الناس في تلك السورة إلى ثلاثة أصناف مجرمين وسابقين ولاحقين ، شرح أحوالهم في هذه السورة وبين الوقت الذي يظهر فيه إكرامه وانتقامه بقوله تعالى:

﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ أي : التي لا بد من وقوعها ولا واقع يستحق أن يسمى الواقعة بلام الكمال وتاء المبالغة غيرها ، وهي النفخة الثانية التي يكون عنها البعث الأكبر الذي هو القيامة الجامعة لجميع الخلق ، فسميت واقعة لتحقق وقوعها ، وقيل : لكثرة ما يقع فيها من الشدائد ، وانتصاب إذا بمحذوف مثل اذكر أو كان كيت وكيت ، وقال الجرجاني : إذا صلة كقوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ (القمر :)

و ﴿ أتى أمر الله ﴾ (النحل :)

وهو كما يقال : جاء الصوم أي دنا وقرب وقوله تعالى : ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ مصدر

بمعنى الكذب والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضع المصدر كقوله تعالى : ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ (الغاشية :)

(279/745)

أي : لغو والمعنى : ليس لها كذب قاله الكسائي ، أو صفة والموصوف محذوف أي : ليس لوقعتها حال كاذبة ، أي : كل من يخبر عن وقعتها صادق ، أو نفس كاذبة بأن تنفيها كما نفتها في الدنيا وقال الزجاج : ليس لوقعتها كاذبة أي : لا يردها شيء ، وقيل : إنّ قيامها جد لا هزل وقوله تعالى : ﴿ خافضة رافعة ﴾ تقرير لعظمتها وهو خبر لمبتدأ محذوف أي : هي ، قال عكرمة ومقاتل : خفضت الصوت فأسمعت من دنا ، ورفعت الصوت فأسمعت من نأى يعني : أسمعت القريب والبعيد . وعن السدى خفضت المتكبرين ورفعت المستضعفين .

وقال قتادة : خفضت أقواماً في عذاب الله تعالى ورفعت أقواماً إلى طاعة الله تعالى . وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : خفضت أعداء الله تعالى في النار ورفعت أولياء الله تعالى في الجنة . وقال ابن عطاء : خفضت قوماً بالعدل ورفعت آخرين بالفضل . ولا مانع أنّ كل ذلك موجود فيها والرفع والخفض يستعملان عند العرب في المكان والمكانة

والعز والإهانة ؛ ونسب سبحانه وتعالى الخفض والرفع إلى القيامة توسعاً ومجازاً على عادة العرب في إضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما مما لا يمكن منه الفعل ، يقولون : ليل قائم ونهار صائم وفي التنزيل : ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ (سبأ :)

والخافض والرافع في الحقيقة هو الله تعالى ، واللام في قوله تعالى : ﴿ لوقعتها ﴾ إمّا للتعليل أي : لا تكذب نفس في ذلك اليوم لشدّة وقعتها ، وإمّا للتعدية كقولك ليس لزيد ضارب ، فيكون التقدير إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها أمر يوجد لها كاذب إذا أخبر عنه .

(280/745)

قال الرازي : وعلى هذا لا تكون ليس عاملة في إذا وهي بمعنى ليس لها كاذب ﴿ إذا رجت الأرض ﴾ أي : كلها على سعتها وثقلها بأيسر أمر ﴿ رجاً ﴾ أي : حركت تحريكاً شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل ، قال بعض المفسرين : ترتج كما يرتج الصبي في المهد حتى ينهدم ما عليها وينكسر كل شيء عليها من الجبال وغيرها ، والرجرجة : الاضطراب ، وارتج البحر وغيره واضطرب وفي الحديث : "من ركب البحر حين يرتج فلا ذمة له" . يعني إذا اضطربت أمواجه والظرف متعلق بخافضة أو بدل من إذا وقعت .

ولما ذكر حركتها المزعجة أتبعها غايتها بقوله تعالى : ﴿ وبست الجبال بساً ﴾ أي : فتتت

حتى صارت كالسويق الملتوت من بس السويق إذا لتّه ؛ قال ابن عباس ومجاهد : كما يبس الدقيق أي : يلت ، والبسيسة السويق ، أو الدقيق يلت بالسمن أو الزيت ثم يؤكل ولا يطبخ وقد يتخذ زاداً قال الراجز:

*لا تخبزا خبزاً وبسا بسا ** ولا تطيلا بمناخ حبساً *

أو سيقت وسيرت من بس الغنم إذا ساقها وبست الأبل وأبسستها لغتان إذا زجرتها ، وقلت : بس بس قاله أبو زيد ؛ وقال الحسن : بست قلعت من أصلها فذهبت ، ونظيرها ينسفها ربي نسفاً ؛ وقال عطية : بسطت بالرمل والتراب ﴿ فكانت ﴾ أي : بسبب ذلك ﴿ هباء ﴾ أي : غباراً هو في غاية الانسحاق وإلى شدّة لطافته أشار بصفته فقال تعالى : ﴿ منبثاً ﴾ أي : منتشر متفرّقاً بنفسه من غير حاجة إلى هواء يفرقه ، فهو كالذي يرى في شعاع الشمس إذا دخل من كوّة ؛ وعن ابن عباس : هو ما تطاير من النار إذا أضرمت يطير منها شرر ، فإذا وقع لم يكن شيئاً ﴿ وكنتم ﴾ أي : قسمتم بما كان في جبلاتكم وطبائعكم في الدنيا ﴿ أزواجاً ﴾ أي : أصنافا ﴿ ثلاثة ﴾ كل صنف يشاكل ما هو منه كما يشاكل الزوج الزوجة ؛ قال البيضاوي : وكل صنف يكون أو يذكر مع صنف آخر زوج.

(281/745)

ثم بين من هم بقوله تعالى : ﴿ فأصحاب الميمنة ﴾ وهم الذين يؤتون كتبهم بإيمانهم مبتدأ ، وقوله تعالى : ﴿ ما ﴾ استفهام فيه تعظيم مبتدأ ثان ، وقوله تعالى : ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ خبر المبتدأ الثاني والجملة خبر الأوّل ، وتكرير المبتدأ بلفظه مغن عن الضمير ، ومثله ﴿ الحاقة ما الحاقة ﴾ (الحاقة : ـ)

﴿ القارعة ما القارعة ﴾ (القارعة : ـ)

ولا يكون ذلك إلا في مواضع التعظيم .

ولما ذكر الناجين بقسميهم أتبعهم أضدادهم بقوله تعالى : ﴿ وأصحاب المشأمة ﴾ أي : الشمال وهم الذي يؤتون كتبهم بشمائلهم وقوله تعالى : ﴿ ما أصحاب المشأمة ﴾ تحقير لشأنه بدخولهم النار ، وقال السدي : ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، ﴿ وأصحاب المشأمة ﴾ هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ، والمشأمة الميسرة وكذا الشامة والعرب تقول لليد الشمال : الشؤمي ، قال البغوي : ومنه سمى الشأم واليمن ، لأنّ اليمن عن يمين الكعبة ، والشام عن شمالها ؛ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذرّية من صلبه ، فقال الله تعالى لهم : هؤلاء في الجنة ولا أبالي ؛ وقال زيد بن أسلم : هم الذين أخذوا من شق آدم الأيمن ؛ وقال ابن جريج : ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ هم أصحاب الحسنات ﴿ وأصحاب المشأمة ﴾ هم ﴿ أصحاب السيئات ﴾ . d

وفي صحيح مسلم من حديث الإسراء عن أبي ذر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "فلما علونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة قال : فإذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى قال : فقال : مرحباً بالنبيّ الصالح والابن الصالح ، قال : قلت : يا جبريل من هذا ؟ قال : آدم عليه السلام وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه ، فأهل اليمين أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار" . وذكر الحديث وقال المبرّد : أصحاب الميمنة : أصحاب التقدّم وأصحاب المشأمة : أصحاب التأخر والعرب تقول اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك ، أي : اجعلني من المتقدّمين ، ولا تجعلني من المتأخرين .

تنبيه : الفاء في قوله تعالى : ﴿ فأصحاب ﴾ تدل على التقسيم وبيان ما ورد عليه التقسيم ، كأنه قال : أزواجاً ثلاثة أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقون ، ثم بين حال كل قسم فقال : فأما أصحاب الميمنة وترك التقسيم أولاً واكتفى بما يدل عليه بأنّ ذكر الأقسام الثلاثة مع أحوالها ، فإن قيل : ما الحكمة في اختيار لفظ المشأمة في مقابلة الميمنة مع أنه قال في بيان أحوالهم : وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ؟

أجيب : بأنّ اليمين وضع للجانب المعروف ، واستعملوا منه ألفاظاً في مواضع ، فقالوا : هذا ميمون تيمناً به ، ووضعوا مقابلة اليمين اليسار من الشيء اليسير إشارة إلى ضعفه ، واستعملوا منه ألفاظاً تشاؤماً به فذكر المشأمة في مقابلة الميمنة ، وذكر الشمال في مقابلة اليمين ، فاستعمل كل لفظ مع مقابلة .

(283/745)

ولما ذكر تعالى القسمين وكان كل منهما قسمين ذكر أعلى أهل القسم الأوّل ترغيباً في حسن حالهم ولم يقسم أهل المشأمة ترهيباً في سوء حالهم فقال تعالى : ﴿ والسابقون ﴾ أي : إلى أعمال الطاعة مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ السابقون ﴾ تأكيد عن المهدوي أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "السابقون الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سُئِلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم" . وقال محمد بن كعب القرظي : هم الأنبياء عليهم السلام ، وقال الحسن وقتادة : السابقون إلى الإيمان من كل أمّة ؛ وقال محمد بن سيرين : هم الذين صلوا إلى القبلتين قال تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﴾ (التوبة :) وقال مجاهد والضحاك : هم السابقون إلى الجهاد وأوّل الناس رواحاً إلى الصلاة ؛ وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : هم السابقون إلى الصلوات الخمس ؛ وقال سعيد بن

جبير : إلى التوبة وأعمال البرّ ، قال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ (آل عمران :)

﴿ ثم أثنى عليهم فقال تعالى أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾ (المؤمنون :)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هم أربعة : منهم سابق أمّة موسى عليه السلام وهو حزقيل مؤمن آل فرعون ، وسابق أمّة عيسى عليه السلام وهو حبيب النجار صاحب أنطاكية ، وسابقا أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهما : أبو بكر وعمر رضي الله عنهما .

وقال سميط بن عجلان : الناس ثلاثة : رجل ابتكر الخير في حداثة سنه ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا هو السابق المقرب ، ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم طول الغفلة ثم رجع بتوبته حتى ختم له بها فهذا من أصحاب اليمين ، ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم لم يزل عليها حتى ختم له بها فهذا من أصحاب الشمال . وروي عن كعب قال : هم أهل القرآن المتوجون يوم القيامة ، وقيل : هم أوّل الناس رواحاً إلى المسجد وأولهم خروجاً في سبيل الله .

(284/745)

وخبر المبتدأ ﴿ أولئك ﴾ أي : العالو الرتبة جداً ﴿ المقرّبون ﴾ أي : الذين قربت درجاتهم في الجنة من العرش وأعليت مراتبهم واصطفاهم الله تعالى للسبق ، فأرادهم لقربه ولولا فضله في تقريبهم لم يكونوا سابقين ؛ قال الرازي في اللوامع : المقرّبون تخلصوا من نفوسهم وأعمالهم كلها الله تعالى ديناً ودنيا من حق الله تعالى ، وحق الناس وكلاهما عندهم حق الله تعالى ، والدنيا عندهم آخرتهم لأنهم يراقبون ما يبدو لهم من ملكوته فيتلقونه بالرضا والإنقياد ، وهم صنفان : صنف قلوبهم في جلاله وعظمته هائمة قد ملكتهم هيبته فالحق يستعملهم في وصف آخر قد أرخى من عنانه والأمر عليه أسهل لأنه قد جاوز بقلبه هذه الخطة ، ومحله أعلى فهو أمين الله تعالى في أرضه فيكون عليه أوسع ا . ه .

ثم بين تقريبه لهم بقوله تعالى : ﴿ في جنات النعيم ﴾ أي : الذي لا كدر فيه بوجه ولا منغص ولما ذكر السابقين فصلهم بقوله تعالى : ﴿ ثلة ﴾ أي : جماعة وقيدها الزمخشري بالكثيرة وأنشد :

*وجاءت إليهم ثلة خندفية ** تجيش كتيار من السيل مزبد *

(285/745)

قال ابن عادل : ولم يقيدها غيره بل صرّح بأنها الجماعة ؛ قلت : أو كثرت ثم قال : والكثرة التي فهمها الزمخشري قد تكون من السياق ا . ه . لكن قال البغوي : والثلة جماعة غير محصورة العدد ﴿ من الأولين ﴾ أي : من الأمم السابقة من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم من النبيين عليهم السلام ومن آمن بهم ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ وهم من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد كان الأنبياء عليهم السلام مئة ألف ونيفاً وعشرين ألفاً ، وكان من خرج مع موسى عليه السلام من مصر وهو مؤمن به من الرجال المقاتلين ممن هو فوق العشرين ودون الثمانين ست مئة ألف ، فما ظنك بمن عداهم من الشيوخ ومن دون العشرين من البالغين الصبيان ومن النساء ، فكيف بمن عداه من سائر النبيين عليهم السلام المجدّدين من بني إسرائيل وغيرهم . قال البيضاوي : ولا يخالف ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : "أمتي يكثرون سائر الأمم" . لجواز أن يكون سابقو سائر الأمم أكثر من سابقي هذه الأمة ، وتابعوا هذه الأمّة أكثر من تابعيهم .

(286/745)

قيل : لما نزلت هذه الآية شق على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿ ثلة من الأوّلين وثلة من الآخرين ﴾ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم "إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل

الجنة بل نصف أهل الجنة وتقاسمونهم في النصف الثاني" . رواه أبو هريرة رضي الله عنه . ذكره الماوردي وغيره ومعناه ثابت في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود وكأنه أراد أنها منسوخة ؛ قال الرازي : وهذا في غاية الضعف لأنّ عدد أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان في ذلك الزمان بل إلى آخر الزمان بالنسبة إلى ما مضى في غاية القلة والمراد بالأولين الأنبياء وكبار أصحابهم وهم إذا اجتمعوا كانوا أكثر من السابقين من هذه الأمّة ولأنّ هذا خبر والخبر لا ينسخ ، وقال الحسن : سابقوا من مضى أكثر من سابقينا فلذا قال تعالى : ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ وقال في أصحاب اليمين : وهم سوى السابقين ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ ولذا قال صلى الله عليه وسلم "إني لأرجو أن تكون أمتي شطر أهل الجنة ثم تلا ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾" . وروى الطبراني : أنّ الثلة والقليل كلاهما من هذه الأمة فتكون الصحابة كلهم من هذه الثلة ، وكذا من تبعهم بإحسان إلى رأس القرن الثالث وهم لا يحصيهم إلا الله تعالى ؛ ومن المعلوم أنه تناقص الأمر بعد ذلك إلى أن صار السابق في الناس أقل من القليل لرجوع الإسلام إلى الحال التي بدأ عليها من الغربة ، "بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء أي وهم الذين إذا فسد الناس صلحوا ، كما فسر به النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك ، وقال أبو بكر : كلا الثلتين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فمنهم من هو في أول أمته ، ومنهم من هو في آخرها ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ (فاطر :)

وقيل : المراد بالأولين ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وبالآخرين ﴿ ذرياتهم ﴾ الملحقون بهم في قوله تعالى : ﴿ وأتبعتهم ذريتهم بإيمان ﴾ (الطور :) ألحقنا بهم ذرياتهم ، واشتقاق الثلة وهي مبتدأ من الثل وهو القطع والخبر ﴿ على سرر ﴾ جمع سرير وهو ما يجعل الإنسان من المقاعد العالية المصنوعة للراحة والكرامة ﴿ موضونة ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : منسوجة بالذهب ، وقال عكرمة : مشبكة بالدرّ والياقوت ؛ وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً : موضونة ، أي : مصفوفة لقوله تعالى في موضع آخر : ﴿ على سرر مصفوفة ﴾ وقيل : منسوجة بقضبان الذهب مشبكة بالدرّ والياقوت ، والموضونة المنسوجة ، وأصله : من وضنت الشيء أي : ركبت بعضه على بعض ، ومنه قيل للدرع موضونة لتركب حلقها قال الأعشى:

*ومن نسج داود موضونة ** تسير مع الحيّ عيراً فعيراً*

ومنه أيضاً وضين الناقة وهو حزامها لتراكب طاقاته ، قال عمر رضي الله عنه : وهو مار بواد محسر .

*إليك تعد وقلقاً وضينها ** معترضاً في بطنها جنينها*

*مخالفاً دين النصارى دينها

رواه البيهقي . ومناه أن ناقتي تعدو إليك مسرعة في طاعتك قلقاً ، وضينها وهو حبل كالجزام من كثرة السير والإقبال التام والاجتهاد البالغ في طاعتك ؛ والمراد : صاحب الناقة فيسنّ للمار بوادي محسر أن يقول هذا الكلام الذي قاله عمر رضى الله تعالى عنه .

ولما ذكر تعالى السرر وبين عظمتها ذكر غايتها فقال سبحانه : ﴿ متكئين عليها ﴾ أي : السرر على الجنب أو غيره كحال من يكون على كرسي فيوضع تحته شيء آخر للإتكاء عليه ﴿ متقابلين ﴾ فلا ينظر بعضهم إلى قفا بعض ، وقال مجاهد وغيره : هذا في المؤمن وزوجته وأهله أي : يتكؤون متقابلين ، قال الكلبي طول كل سرير ثلث مئة ذراع ، فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت فإذا جلس عليها ارتفعت وقيل : إنهم صاروا أرواحاً نورانية صافية ليس لهم أدبار ولا ظهور .

(288/745)

تنبيه : ﴿ متكئين عليها متقابلين ﴾ حالان من الضمير في على سرر ، ويجوز أن تكون حالاً متداخلة فيكون متقابلين حالاً من ضمير متكئين ، ثم بين تعالى أنهم في غاية الراحة بقوله تعالى:

﴿ يطوف عليهم ﴾ أي : لكفاية كل ما يحتاجون إليه ﴿ ولدان ﴾ أي : على أحسن صورة وزي وهيئة ﴿ مخلدون ﴾ قد حكم الله تعالى ببقائهم على ما هم عليه من الهيئة على شكل الأولاد قال الحسن والكلبي : لا يهرمون ولا يتغيرون ، ومنه قول امرئ القيس :

*وهل ينعمن إلا سعيد مخلد ** قليل الهموم ما يبيت بأوجال*

وقال سعيد بن جبير : مخلدون مقرّطون ، يقال للقرط : الخلد ، والقرط ما يجعل في الأذنين من الحلق ؛ وقيل : مقرطقون أي ممنطقون من المناطق والمنطقة ما يجعل في الوسط ؛ وأكثر المفسرين أنهم على سن واحد أنشأهم الله تعالى لأهل الجنة ، يطوفون عليهم نشؤاً من غير ولادة فيها لأنّ الجنة لا ولادة فيها ؛ وقال عليّ بن أبي طالب والحسن البصري رضى الله عنهم : الولدان ههنا ولدان المسلمين الذي يموتون صغاراً ولا حسنة لهم ولا سيئة ؛ وقال سلمان الفارسي : أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة ؛ قال الحسن : لم تكن لهم حسنات يجازون بها ولا سيآت يعاقبون عليها فوضعوا هذا الموضع . والمقصود أن أهل الجنة على أتم السرور والنعمة وقوله تعالى : ﴿ بأكواب ﴾ متعلق بيطوفون ، والأكواب جمع كوب وهي كيزان مستديرة الأفواه بلا عرى ولا خراطيم ، لا يعوق الشارب منها عائق عن شرب من أي موضع . أراد منها ، فلا يحتاج أن يحول الإناء عن الحالة التي تناوله بها ليشرب ، وقوله تعالى : ﴿ وأباريق ﴾ جمع إبريق ، وهي أوان لها عرى وخراطيم فيها من أنواع المشارب ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، سمى بذلك لبريق لونه من صفائه ﴿ وكأس ﴾ أي : إناء

شراب الخمر ﴿ من معين ﴾ أي : خمر صافية صفاء الماء ليس يتكلف عصرها جارية من منبع لا ينقطع أبداً .

فإن قيل : كيف جمع الأكواب والأباريق وأفرد الكأس ؟

(289/745)

أجيب : أنّ ذلك على عادة أهل الشرب فإنهم يعدون الخمر في أوان كثيرة ويشربون بكأس واحد ، وفيها مباينتهم أهل الدنيا من حيث أنهم يطوفون بالأكواب والأباريق ولا تثقل عليهم بخلاف أهل الدنيا ﴿ لا يصدّعون عنها ﴾ أي : بسببها قال الزمخشري وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها ، والصداع : هو الداء المعروف الذي يلحق الإنسان في رأسه ، والخمر تؤثر فيه ؛ قال علقمة بن عبدة في وصف الخمر :

*تشفى الصداع ولا يؤذيك صالتها ** ولا يخالطها في الرأس تدويم*

قال أبو حيان : هذه صفة خمر الجنة كذا قال لي الشيخ أبو جعفر بن الزبير ؛ والمعنى : لا تتصدّع رؤوسهم من شربها فهي لذة بلا أذى بخلاف خمر الدنيا ؛ وقيل : لا يتفرقون عنها ﴿ ولا ينزفون ﴾ أي : تذهب بعقولهم بوجه من الوجوه أي : يفرغ شرابهم من نزفت البئر إذا نزح ماؤها كله ؛ وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بكسر الزاي والباقون بفتحها ﴿ وفاكهة

مما يتخيرون ﴾ أي : يختارون ما يشتهون من الفواكه لكثرتها ؛ وقيل : المعنى : وفاكهة متخيرة مرضية والتخير الاختيار ﴿ ولحم طير مما يشتهون ﴾ أي : يتمنون ؛ قال ابن عباس رضى الله عنهما : يخطر على قلبه لحم الطير فيصير ممثلاً بين يديه على ما اشتهى ، ويقال : إنه يقع على صحفة الرجل فيأكل منه ما يشتهي ثم يطير فيذهب ؛ فإن قيل : ما الحكمة في تخصيص الفاكهة بالتخيير ، واللحم بالاشتهاء ؟

أجيب : بأنّ اللحم والفاكهة إذا حضرا عند الجائع تميل نفسه إلى اللحم ، وإذا حضرا عند الشبعان تميل نفسه إلى الفاكهة ، فالجائع مشته ، والشبعان غير مشته بل هو مختار ، وأهل الجنة إنما يأكلون لا من جوع بل للتفكه فميلهم للفاكهة أكثر فيتخيرونها ، ولهذا ذكرت في مواضع كثيرة في القرآن بخلاف اللحم ، وإذا اشتهاه حضر بين يديه على ما يشتهيه فتميل نفسه إليه أدنى ميل ، ولهذا قدم الفاكهة على اللحم .

فإن قيل : الفاكهة واللحم لا يطوف بهما الولدان ، والعطف يقتضي ذلك ؟

(290/745)

أجيب : بأنّ الفاكهة واللحم في الدنيا يطلبان في حال الشرب فجاز أن يطوف بهما الولدان فينا ولونهم الفواكه الغريبة واللحوم العجيبة لا للأكل بل للإكرام كما يضع المكرم للضيف أنواع

الفواكه بيده ، أو يكون معطوفاً على المعنى في قوله : ﴿ جنات النعيم ﴾ أي : مقرّبون في جنات النعيم وفاكهة ولحم ، أي : في هذا النعيم يتقلبون .

ولما لم يكن بعد الأكل والشراب أشهى من النساء قال تعالى : ﴿ وحور ﴾ أي : نساء شديدات سواد العيون وبياضها ﴿ عين ﴾ أي : ضخام العيون وقرأ حمزة والكسائي بخفض الاسمين عطفاً على سرر ، فإنّ النساء في معنى المتكأ لأنهن يسمين فراشاً ، والباقون بالرفع عطفاً على ولدان ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ أي : المخزون في الصدف المصون الذي لم تمسه الأيدي ولم تقع عليه الشمس والهواء ، فيكون في نهاية الصفاء ؛ قال البغوي : ويروى أنه يسطع نور في الجنة فيقولون : ما هذا ؟ فيقال : ثغر حوراء ضحكت في وجه زوجها ويروى أنّ الحوراء إذا مشت يسمع تقديس الخلاخل من ساقها ، وتمجيد الأسورة من ساعديها ، وأنّ عقد الياقوت يضحك في نحرها ، وفي رجليها نعلان من ذهب شراكهما من لؤلؤ يصران بالتسبيح . ولما بالغ في وصف جزائهم بالحسن والصفاء دل على أنّ أعمالهم كانت كذلك لأنّ الجزاء من جنس العمل فقال تعالى : ﴿ جزاء ﴾ أي : فعل ذلك لهم لأجل الجزاء ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ أي : يجدّدون عمله على جهة الاستمرار ، قالت المعتزلة : هذا يدل على أنّ إيصال الثواب واجب على الله تعالى ، لأنّ الجزاء لا يجوز الإخلال به ، وأجيبوا بأنه لو صح ما ذكروه لما كان في الوعد بهذه الأشياء فائدة ، لأنّ العقل إذا حكم بأنّ ترك الجزاء قبيح ، وعلم بالعقل أنّ القبيح من الله تعالى لا يوجد علم أنّ الله

تعالى يعطى هذه الأشياء لأنها جزاؤه ، وإيصال الجزاء واجب ، فكان لا يصح التمدح به

﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ أي : شيئاً مما لا ينفع واللغو

(291/745)

الساقط ﴿ ولا تأثيماً ﴾ أي : ما يحصل به الإثم أو النسبة إلى الأثم بل حركاتهم وسكناتهم كلها في رضا الله تعالى ؛ وقال ابن عباس رضى الله عنهما : باطلاً وكذباً ؛ قال محمد بن كعب : ولا تأثيماً أي : لا يؤثم بعضهم بعضاً ؛ وقال مجاهد : لا يسمعون شتماً ولا مأثماً

وقوله تعالى : ﴿ إلا قيلاً ﴾ فيه قولان أحدهما : أنه استثناء منقطع وهذا واضح لأنه لم يندرج تحت اللغو والتأثيم ، والثاني : أنه متصل وفيه بعد ؛ قال

ابن عادل فكان هذا رأى أنّ الأصل لا يسمعون فيها كلاماً فاندرج عنده فيه ؛ ثم بين تعالى ذلك بقوله : ﴿ سلاماً سلاما ﴾ أي قولاً سلاماً ، قال عطاء : يحيى بعضهم بعضاً بالسلام ، أو تحيهم الملائكة ، أو يحييهم ربهم ؛ ودل على دوامه بتكريره فقال تعالى : ﴿ سلاما ﴾ ففيه إشارة إلى كثرة السلام عليهم ولهذا لم يكرر في قوله تعالى ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ (يس :)

وقال القرطبي : السلام الثاني بدل من الأوّل ، والمعنى : إلا قولاً يسلم فيه من اللغو .

ولما بين حال السابقين شرع في بيان حال أصحاب اليمين فقال تعالى:

﴿ وأصحاب اليمين ﴾ ثم فخم أمرهم وأعلى مدحهم لتعظيم جزائهم فقال تعالى : ﴿ ما أصحاب اليمين ﴾ فإن قيل : ما الحكمة في ذكرهم بلفظ أصحاب الميمنة عند تقسيم الأزواج الثلاثة وبلفظ أصحاب اليمين عند ذكر الإنعام ؟

(292/745)

أجيب : بأن ذلك تفنن في العبارة والمعنى واحد ﴿ في سدر ﴾ أي : شجر نبق ﴿ مخضود ﴾ أي : لا شوك فيه كأنه خضد شوكه أي : قطع ونزع منه ؛ قال ابن المبارك : أخبرنا صفوان عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم يقولون : إنا لينفعنا الأعراب ومسائلهم ؛ قال : أقبل أعرابي يوماً فقال : يا رسول الله لقد ذكر الله تعالى في القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذى صاحبها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "وما هي ؟" قال : السدر فإن له شوكاً مؤذياً ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أو ليس يقول سدر مخضود خضض الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها تنبت ثمراً على اثنين وسبعين لوناً من الطعام ما فيه لون يشبه الآخر" ؛ وقال أبو العالية والضحاك : نظر المسلمون إلى وج وهو واد بالطائف مخصب فأعجبهم

سدره فقالوا يا ليت لنا مثل هذا فنزلت . قال أمية بن أبي الصلت يصف الجنة وما فيها :

*إن الحدائق في الجنان ظليلة ** فيها الكواعب سدرها مخضود *

(293/745)

قال مجاهد : ﴿ في سدر مخضود ﴾ هو الموقر حملاً الذي تنثني أغصانه كثرة حمله من خضض الغصن إذا ثناه وهو رطب ؛ وقال سعيد بن جبير : ثمرها أعظم من القلال ﴿ وطلح منضود ﴾ أي : منظوم بالحمل من أعلاه إلى أسفله ليست له ساق بارزة متراكم يتركب بعضه على بعض على ترتيب هو في غاية الإعجاب ، والطلح جمع الطلحة ؛ قال عليّ وابن عباس رضى الله عنهم وأكثر المفسرين : الطلح شجر الموز واحده طلحة ؛ وقال الحسن : ليس هو موزاً ولكنه شجر له ظل بارد رطب ؛ وقال الفرّاء وأبو عبيدة : شجر عظيم كثير الشوك والطلح كل شجر عظيم له شوك ؛ وقال الزجاج : هو شجر أم غيلان ؛ قال مجاهد : ولكن ثمرها أحلى من العسل ، وقال الزجاج : لها نور طيب جدّاً خوطبوا ووعدوا بما يحبون مثله إلا أنّ فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا ؛ وقال السدي : طلح الجنة يشبه طلح الدنيا لكن له ثمر أحلى من العسل ؛ وقال مسروق : أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها نضيدة ثمر كله كلما أكلت ثمرة عاد مكانها

أحسن منها ﴿ وظل ممدود ﴾ أي : دائم لا يزول ولا تنسخه الشمس لقوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظلّ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾ (الفرقان :)

كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ؛ وقيل : الظل ليس ظلّ أشجار بل ظلّ يخلقه الله تعالى ، قال الربيع بن أنس رضى الله عنه : يعني ظلّ العرش ؛ وقال عمرو بن ميمون رضى الله عنه : مسيرة سبعين ألف سنة ؛ وقال أبو عبيدة : تقول العرب للدهر الطويل والعمر الطويل والشيء الذي لا ينقطع ممدود قال الشاعر :

*غلب العزاء وكان غير مغلب ** دهر طويل دائم ممدود *

(294/745)

وفي صحيح الترمذي وغيره ، عن أبي هريرة رضى الله عنه : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها ، واقرؤوا إن شئتم ﴿ وظلّ ممدود ﴾ " في هذا الحديث ردّ على من يقول : إنّ الأشجار لا ظل لها وقد سئل السبكي عن الرجل الذي هو آخر أهل الجنة دخولاً إذا تراءت له شجرة يقول : يا رب أدنني من هذه لأستظل في ظلها ، الحديث من أيّ شيء يستظل والشمس قد كورت ؟ أجاب بقوله تعالى : ﴿ وظلّ ممدود ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ هم وأزواجهم في ظلال ﴾ (يس :)

إذ لا يلزم من تكوير الشمس عدم الظل لأنه مخلوق لله تعالى وليس بعدم بل أمر وجودي له نفع بإذن الله تعالى في الأبدان وغيرها . فليس الظل عدم الشمس كما قد يتوهم ؛ وروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وظلّ ممدود ﴾ قال شجرة في الجنة يخرج إليها أهل الجنة فيتحدّثون ، ويشتهي بعضهم لهو الدنيا فيرسل الله تعالى عليهم ريحاً من الجنة فتتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا ﴿ وماء مسكوب ﴾ أي : جار في منازلهم في غير أخدود لا يحتاجون فيه إلى جلب ماء من الأماكن البعيدة ولا إدلاء في بئر كأهل البوادي ، فإن العرب كانت أصحاب بادية وبلاد حارّة ، وكانت الأنهار في بلادهم عزيزة لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء فوعدوا في الجنة خلاف ذلك ﴿ فاكهة كثيرة ﴾ أي : أجناسها وأنواعها وأشخاصها ﴿ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : لا تنقطع إذا جنيت ، ولا تمتنع من أحد إذ أراد أخذها ، وقال بعضهم : لا مقطوعة بالأزمان ولا ممنوعة بالأثمان كما تنقطع أكثر ثمار الدنيا إذا جاء الشتاء ، ولا يتوصل إليها إلا بالثمن ؛ وقيل : لا يمنع من أرادها شوك ولا بعد ولا حائط بل إذا اشتهاها العبد دنت منه حتى يأخذها ، قال تعالى ﴿ قطوفها دانية ﴾ (الحاقة :)

وجاء في الحديث : "ما قطع من ثمار الجنة إلا أبدل الله تعالى مكانها ضعفين" .

ولما كان التفكه لا يكمل الإلتذاذ به إلا مع الراحة قال تعالى : ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ أي : رفيعة القدر يقال : ثوب رفيع ، أي : عزيز مرتفع القدر والثمن بدليل قوله تعالى : ﴿ متكئين على فرش بطائنها من استبرق ﴾ (الرحمن :)

فكيف ظهائرها أو مرفوعة فوق السرر بعضها فوق بعض ؛ روى الترمذي عن أبي سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ قال : "ارتفاعها كما بين السماء والأرض مسيرة خمس مئة عام" . قال : حديث غريب ؛ وقيل : هي كناية عن النساء كما كنى عنهن باللباس ، أي : ونساء مرتفعات الأقدار في حسنهن وكمالهن ، والعرب تسمى المرأة فراشاً ولباساً على الاستعارة .

(296/745)

دليل هذا التأويل قوله تعالى : ﴿ إنا ﴾ أي : بمالنا من العظمة التي لا يتعاظمها شيء ﴿ أنشاناهن ﴾ أي : الفرش التي معناها النساء من أهل الدنيا بعد الموت بالبعث وزاد في التأكيد فقال تعالى : ﴿ إنشاء ﴾ أي : خلقاً جديداً من غير ولادة بل جمعناهن من التراب كسائر بني آدم ، ليكونوا كأبيهم آدم عليه السلام في خلقه من تراب ، لتكون الإعادة كالبداءة

ولذلك يكون الكل عند دخول الجنة على شكله عليه السلام ، وروى النحاس بإسناده أن أم سلمة سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ فقال : "هن اللواتي قبضن في الدنيا عجائز شمطاً عمشاً رمصاً جعلهن الله تعالى بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد في الاستواء" . وروى أنس بن مالك رضى الله عنه يرفعه في قوله تعالى ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ قال : هن العجائز العمش الرمص كنّ في الدنيا عمشاً رمصاً . وعن المسيب بن شريك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ قال : "هن عجائز الدنيا أنشأهن الله تعالى خلقاً جديداً كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً" فلما سمعت عائشة رضى الله عنها ذلك قالت واوجعاه فقال النبي صلى الله عليه وسلم "ليس هناك وجع" . وعن الحسن رضى الله عنه قال : أتت عجوز النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة فقال : "يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز ، قال : فولت تبكي ، فقال : أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز إن الله تعالى يقول ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ " ﴿ فجعلناهن ﴾ أي : الفرش المنشآت وغيرهن بعظمتنا المحيطة بكل شيء ﴿ أبكاراً ﴾ أي عذارى كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن عذارى ولا وجع ؛ وذكر المسيب عن غيره : أنهن فضلن على الحور العين بصلاتهن في الدنيا ؛ وقال مقاتل وغيره : هن الحور العين أنشأهن الله تعالى لم تقع عليهن

الولادة وقوله تعالى : ﴿ عرباً ﴾ جمع عروب كصبور وصبر وهي الغنجة المحببة إلى زوجها ، وقال الرازي في

(297/745)

اللوامع : الفطنة

بمراد الزواج كفطنة العرب ؛ وقيل : الحسناء ؛ وقيل : المحسنة لكلامها ؛ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هن العواتق . وأنشدوا

*وفي الخباء عروب غير فاحشة **ريا الروادف يعشى دونها البصر*

وقرأ حمزة وشعبة : بسكون الراء والباقون بضمها كرسل ورسل وفرش وفرش وقوله تعالى : ﴿ أتراباً ﴾ جمع ترب ، وهو المساوي لك في سنك لأنه يمس جلدهما التراب في وقت واحد ، وهو آكد في الأئتلاف ، وهو من الأسماء التي لا تتعرّف بالإضافة ، لأنه في معنى الصفة إذ معناه مساويك ، ومثله : خدنك لأنه بمعنى مصاحبك ؛ قال القرطبي : سن واحد وهو ثلاث وثلاثون سنة ؛ يقال في النساء : أتراب ، وفي الرجال : أقران ؛ وكانت العرب تميل إلى من جاوزت حدّ الفتى من النساء ، وانحطت عن الكبر ؛ وقال مجاهد : الأتراب الأمثال والأشكال . وقال السدّي : أتراب في الأخلاق لا تباغض فيهن ولا تحاسد

، وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً بيضاً محجلين أبناء ثلاثين أو قال ثلاثاً وثلاثين على خلق آدم عليه السلام ستون ذراعاً في سبعة أذرع" . وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من مات من أهل الجنة من صغير وكبير يردون بنى ثلاثين سنة في الجنة لا يزيدون عليها أبداً وكذلك أهل النار" . وعن أبي سعيد الخدري : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم ، واثنان وسبعون ألف زوجة ، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية وصنعاء ، ينظر وجهه في خدّها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها تضئ ما بين المشرق والمغرب ، وأنه ليكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك" . وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن أدنى أهل الجنة منزلة وما منهم دنيء لمن يغدو عليه ويروح عشرة آلاف خادم مع كل واحد منهم ظريفة ليست مع صاحبه .

(298/745)

"وفي تعلق اللام في قوله تعالى : ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ وجهان أحدهما : أنّها متعلقة بأنشأناهن أي : لأجل أصحاب اليمين والثاني : أنها متعلقة بأتراباً كقولك : هذا ترب لهذا

أي : مساو له .

ثم بينهم بقوله تعالى : ﴿ ثلة من الأولين ﴾ أي : من أصحاب اليمين ﴿ وثلة ﴾ أي : منهم ﴿ من الآخرين ﴾ فلم يبين فيهم قلة ولا كثرة ، قال البقاعي : والظاهر أنّ الآخرين أكثر فإن وصف الأولين بالكثرة لا ينافي كون غيرهم أكثر ليتفق مع قول النبيّ صلى الله عليه وسلم "أن هذه الأمة ثلثا أهل الجنة فإنهم عشرون ومئة صف هذه الأمة منهم ثمانون صفاً وأربعون من سائر الأمم" . وعن عروة بن رويم قال : لما نزل قوله تعالى : ﴿ ثلة من الأوّلين وقليل من الآخرين ﴾ بكى عمر وقال : يا نبيّ الله آمنا برسول الله وصدقناه ومن ينجو منّا قليل فأنزل الله تعالى : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر فقال : قد أنزل الله تعالى فيما قلت فقال عمر : رضينا عن ربنا وتصديق نبينا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من آدم إلينا ثلة ومنا إلى يوم القيامة ثلة ولا يستتمها الأسود من رعاة الإبل ممن قال لا إله إلا الله" .

(299/745)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه : قال : "عرضت عليّ الأمم فجعل يمر النبي معه الرجل والنبي معه الرجلان ، والنبي معه الرهط ، والنبي ليس معه أحد ، ورفع إلي سواد

عظيم فقلت إنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فتفرق الناس ، ولم يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : أما نحن فولدنا في الشرك ولكنّا آمنا بالله ورسوله ، ولكن هؤلاء هم أبناؤنا ، فبلغ النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك فقال : "هم الذين لا يتطيرون ، ولا يسترقون ، ولا يكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة ابن محصن فقال : ادع الله تعالى أن يجعلني منهم ، فقال : أنت منهم ثم قام رجل آخر فقال ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : سبقك بها عكاشة" . والرهط دون العشرة وقيل إلى الأربعين . وعن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "عرضت عليّ الأنبياء الليلة باتباعها حتى أتى على موسى في كبكبة بني إسرائيل فلما رأيتهم أعجبوني فقلت : أي رب من هؤلاء ؟ قيل : هو أخوك موسى ومن معه من بني إسرائيل ، قلت : يا رب وأين أمتي ؟ قيل : انظر عن يمينك فنظرت فإذا ظراب مكة قد سدّ بوجوه الرجال ، فقال : هؤلاء أمتك أرضيت ؟ فقلت : رضيت رب ، قيل : انظر عن يسارك فنظرت فإذا الأفق قد سد بوجوه الرجال ، فقيل : هؤلاء أمتك أرضيت ؟ قلت : رب رضيت فقيل : إن مع هؤلاء سبعين ألفاً يدخلون الجنة لا حساب عليهم ، فقال صلى الله عليه وسلم إن استطعتم أن تكونوا من السبعين فكونوا ، وإن عجزتم وقصرتم فكونوا من أهل الظراب ، فإن عجزتم فكونوا من أهل الأفق ، فإني قد

رأيت أناساً يتها وشون كثيراً" . وعن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبة نحواً من أربعين فقال : "أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة ؟ قلنا : نعم ، قال : أترضون أن

(300/745)

تكونوا ثلث أهل الجنة ؟

قلنا : نعم ، قال : والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر" . وتقدم في الحديث المار أنهم ثلثا أهل الجنة ولا منافاة لأنه صلى الله عليه وسلم أخبر أولاً بالقليل ثم أطلعه الله تعالى على الزيادة

ولما أتم وصف أصحاب الجنة أتبعه أضدادهم بقوله تعالى:

(301/745)

﴿ وأصحاب الشمال ﴾ أي : الجهة التي تتشاءم العرب بها ويعبر بها عن الشيء الأخس والحظ الأنقص قال البقاعي : والظاهر أنهم أدنى أصحاب المشأمة كما أن أصحاب اليمين دون السابقين من أصحاب الميمنة ثم عظم ذمهم ومصابهم فقال تعالى : ﴿ ما أصحاب الشمال ﴾ أي : أنهم بحال من الشؤم هو جدير بأن يسأل عنه وسماهم بذلك لأنهم يأخذون كتبهم بشمالهم ثم بين متقلبهم وما أعدّ لهم من العذاب فقال تعالى : ﴿ في سموم ﴾ أي : ريح حارة من النار تنفذ في المسام ﴿ وحميم ﴾ أي : ماء حار بالغ في الحرارة إلى حدّ يذيب اللحم ﴿ وظل من يحموم ﴾ أي : دخان أسود كالحمم أي الفحم شديد السواد ؛ وقيل : النار سوداء وأهلها سود وكل شيء فيها أسود ؛ وقيل : اليحموم اسم من أسماء النار ؛ قال الرازي : وفي الأمور الثلاثة إشارة إلى كونهم في العذاب دائماً لأنهم إن تعرضوا لمهب الهواء أصابهم السموم ، وإن استكنوا كما يفعل الذي يدفع عن نفسه السموم بالاستكنان بالكن يكونون في ظلّ من يحموم ، وإن أرادوا التبرّد بالماء من حرّ السموم يكون الماء من حميم فلا إنفكاك لهم من العذاب ؛ أو يقال : أن السموم تضربه فيعطس وتلتهب نار السموم في أحشائه فيشرب الماء فيقطع أمعاءه فيريد الاستظلال بظل فيكون ذلك الظل اليحموم ؛ وذكر السموم والحميم دون النار تنبيهاً بالأدنى على الأعلى كأنه قال أبرد الأشياء في الدنيا حارّ عندهم فكيف أحرّها ؟ وقوله تعالى ﴿ لا بارد ﴾ أي : ليروح النفس ﴿ ولا كريم ﴾ أي : ليؤنس به ويلجأ إليه صفتان للظل كقوله تعالى : ﴿ من يحموم ﴾ وقال الضحاك : لا

بارد أي : كغيره من الظلال بل حار لأنه من دخان شفير جهنم ولا كريم عذب ؛ وقال سعيد بن المسيب : ولا حسن منظره وكل شيء لا خير فيه ليس بكريم فسماه ظلاً ونفى عنه برد الظل وروحه ونفعه من يأوي إليه من أذى الحرّ ، وذلك كرمه ليمحو ما في مدلول الظن من الاسترواح إليه ، والمعنى : أنه ظل حارّ ضارّ إلا أن للنفي في نحو هذا شأناً ليس للإثبات وفيه تهكم

(302/745)

بأصحاب المشأمة

وأنهم لا يستأهلون الظل البارد الكريم الذي هو لأضدادهم في الجنة .

ثم بين استحقاقهم لذلك بقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا ﴾ أي : في الدنيا قبل ذلك أي الأمر العظيم الذي وصلوا إليه ﴿ مترفين ﴾ أي : أنهم إنما استحقوا هذه العقوبة لأنهم كانوا في الدنيا في سعة من العيش متمكنين في الشهوات مستمتعين بها متمكنين منها ﴿ وكانوا يصرّون ﴾ أي : يقيمون ويديمون على سبيل التجديد لما لهم من الميل الجبلي إلى ذلك ﴿ على الحنث ﴾ أي : الذنب ويعبر بالحنث عن البلوغ ومنه قولهم : لم يبلغوا الحنث ، وإنما قيل ذلك لأنّ الإنسان عند بلوغه إليه يؤاخذ بالحنث أي : الذنب ، وتحنث فلان أي :

جانب الحنث ، وفي الحديث : "كان يتحنث بغار حراء" أي : يتعبد لمجانبة الإثم نحو خرج فتفعل في هذه كلها للسلب .

ولما كان ذلك قد يكون من الصغائر التي تغفر قال تعالى : ﴿ العظيم ﴾ أي : وهو الشرك قاله الحسن والضحاك ؛ وقال مجاهد : هو الذنب الذي لا يتوبون منه ؛ وقال الشعبي : هو اليمين الغموس وهو من الكبائر يقال حنث في يمينه ، أي : لم يبرها ورجع فيها ، وكانوا يقسمون أن لا بعث وأنّ الأصنام أنداد الله تعالى فذلك حنثهم ، فإن قيل : الترفه هو التنعم وذلك لا يوجب ذمّاً ؟

(303/745)

أجيب : بأنّ الذمّ إنما حصل بقوله تعالى : ﴿ وكانوا يصرّون على الحنث العظيم ﴾ فإن صدور المعاصي ممن كثرت النعم عليه أقبح القبائح وفي الآية مبالغات ، لأنّ قوله تعالى : ﴿ يصرون ﴾ يقتضي أنّ ذلك عادتهم والإصرار مداومة المعصية ولأنّ الحنث أبلغ من الذنب لأن الذنب يطلق على الصغيرة ويدل على ذلك قولهم : بلغ الحنث أي : بلغ مبلغاً تلحقه فيه الكبيرة ، ووصفه بالعظيم يخرج الصغائر فإنها لا توصف بذلك ؛ قال الرازي : والحكمة في ذكره سبب عذابهم ولم يذكر في أصحاب اليمين سبب ثوابهم فلم يقل إنهم كانوا

قبل ذلك شاكرين مذعنين وذلك تنبيه على أنّ الثواب منه فضل والعقاب منه عدل ، والفضل سواء ذكر سببه أو لم يذكر يتوهم بالتفضل نقص وظلم ، وأما العدل إن لم يعلم سبب العقاب يظن أنّ هناك ظلماً ، ويدل على ذلك أنه تعالى لم يقل في حق أصحاب اليمين ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ كما قال في السابقين لأنّ أصحاب اليمين نجوا بالفضل العظيم لا بالعمل بخلاف من كثرت حسناته يحسن إطلاق الجزاء في حقه .

(304/745)

﴿ وكانوا ﴾ أي : زيادة على ما ذكر ﴿ يقولون ﴾ أي : إنكاراً مجددين لذلك دائماً عناداً ﴿ أئذا ﴾ أي أنبعث إذا ﴿ متنا وكنا ﴾ أي كوناً ثابتاً ﴿ تراباً وعظاماً ﴾ ثم أعادوا الاستفهام تأكيداً لإنكارهم فقالوا : ﴿ أئنا لمبعوثون ﴾ أي : كائن وثابت بعثنا ساعة من الدهر وأكدوا ليكون إنكارهم لما دون ذلك بطريق الأولى وقرأ قالون أئذا بتحقيق الهمزة الأولى ، المفتوحة وتسهيل الثانية المكسورة وإدخال ألف بينهما وكسر الميم من متنا وهمزة واحدة مكسورة في أئناء ، وقرأ ورش بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية ولا إدخال بينهما وكسر ميم متنا وهمزة واحدة مكسورة في أئنا مع النقل عن أصله ؛ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : بالاستفهام فيهما مع تسهيل الثانية إلا أنّ أبا عمرو يدخل بينهما ألفاً فيهما وابن كثير لا

يدخل ألفاً وضما ميم متنا ﴿ أو آباؤنا ﴾ أي : أو تبعث آباؤنا ﴿ الأولون ﴾ أي : الذين قد بليت مع لحومهم عظامهم فصاروا كلهم تراباً ولا سيما أن حملتهم السيول ففرّقت أعضاءهم وذهبت بها في الآفاق ؛ فإن قيل : كيف حسن العطف على المضمر في لمبعوثون من غير تأكيد بنحن ؟

أجيب بأنه حسن للفاصل الذي هو الهمزة كما حسن في قوله تعالى : ﴿ ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾ (الأنعام :)

لفصل لا المؤكدة للنفي ، وقرأ قالون وابن عامر : بسكون الواو من أو والباقون بفتحها .

ثم ردّ الله تعالى عليهم قولهم ذلك بقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم

(305/745)

﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء ولكل من كان مثلهم وأكد لإنكارهم ﴿ إن الأولين ﴾ أي : الذين جعلتم الاستبعاد فيهم وهم الآباء ﴿ والآخرين ﴾ وهم الأبناء ﴿ لمجموعون ﴾ أي : في المكان الذي يكون فيه الحساب ﴿ إلى ميقات يوم ﴾ أي : زمان ﴿ معلوم ﴾ أي : معين عند الله تعالى وهو يوم القيامة إذ هو من شأنه أن يعلم بما عليه من الأمارات والميقات ما وقت به الشيء من زمان أو مكان إلى حد ﴿ ثم إنكم ﴾ أي : بعد هذا الجمع ﴿ أيها

الضالون ﴾ أي : الذين غلبت عليهم الغباوة فهم لا يفهمون فضلوا عن الهدى ثم اتبع ذلك ما أوجب الحكم عليهم بالضلال فقال تعالى : ﴿ المكذبون ﴾ بالبعث والخطاب لأهل مكة ومن في مثل حالهم ﴿ لآكلون من شجر من زقوم ﴾ وهو من أخبث الشجر المر بتهامة ينبتها الله تعالى في الجحيم فهو في غاية الكراهة وبشاعة المنظر ونتن الرائحة وقد مرّ الكلام على ذلك في الصافات

تنبيه : من الأولى لابتداء الغاية والثانية لبيان الشجر ﴿ فمالئون ﴾ أي : ملأهو في غاية الثبات وأنتم في غاية الإقبال عليه مع ما هو عليه من عظيم الكراهة ﴿ منها ﴾ أي : الشجر وأنثه لأنه جمع شجرة وهو اسم جنس ، قال البقاعي : وهم يكرهون الإناث فتأنيثه والله أعلم زيادة في تنفيرهم ؛ وقال الزمخشري : أنت ضمير الشجر على المعنى وذكره على اللفظ في قوله : ﴿ منها ﴾ وعليه وهو لف ونشر مرتب ﴿ البطون ﴾ أي : يضطركم إلى تناول هذا الكريه حتى تملؤا بطونكم منه .

(306/745)

ثم لما بين أكلهم أتبعه مشربهم فقال تعالى : ﴿ فشاربون عليه ﴾ أي : الأكل أو الزقوم ﴿ من الحميم ﴾ لأجل مرارته وحرارته يحتاجون إلى شرب الماء فيشربون من الماء الحار

﴿ فشاربون ﴾ أي : منه ﴿ شرب الهيم ﴾ أي : الإبل العطاش وهو جمع هيمان للذكر وهيمى للأنثى كعطشان وعطشى ، والهيام : داء معطش تشرب الإبل منه إلى أن تموت أو تسقم سقماً شديداً ؛ وقيل : إنه جمع هائم وهائمة من الهيام أيضاً إلا أن جمع فاعل وفاعلة على فعل قليل نحو نازل ونزل وعائد وعود ؛ وقيل : إنه جمع هيام بفتح الهاء وهو الرمل غير المتماسك الذي لا يروى من الماء أصلاً فيكون مثل سحاب وسحب بضمتين ثم خفف بإسكان عينه ثم كسرت فاؤه لتصح الباء كما فعل بالذي قبله ، والمعنى : أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرّهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل فإذا ملؤوا منه البطون سلط عليهم من العطش ما يضطرّهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاؤهم فيشربون منه شرب الهيم .

فإن قيل : كيف صح عطف الشاربين على الشاربين وهما لذوات متفقة وصفتان متفقتان فكان عطفاً للشيء على نفسه ؟

أجيب : بأنهما ليستا بمتفقتين من حيث أن كونهم شاربين الحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة وقطع أمعائهم أمر عجيب فشربهم له على ذلك كما يشرب الهيم الماء أمر عجيب أيضاً فكانتا صفتين مختلفتين ؛ وقرأ نافع وعاصم وحمزة : بضم الشين والباقون بفتحها .

﴿ هذا ﴾ أي : ما ذكر ﴿ نزلهم ﴾ أي : ما يعدّ لهم أول قدومهم مكان ما يعد للضيف أول حلوله كرامة له ﴿ يوم الدين ﴾ أي : الجزاء الذي هو حكمة القيامة وإذا كان هذا نزلهم

فما ظنك بما يأتي بعد ما استقرّوا في الجحيم وفي هذا تهكم كما في قوله تعالى : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ (آل عمران :)

(307/745)

فإن النزل ما يعد للنازل تكرمة له ثم استدل على منكري البعث بقوله تعالى : ﴿ نحن ﴾ أي : لا غيرنا ﴿ خلقناكم ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ فلولا ﴾ تحضيض ، أي : فهلا ﴿ تصدقون ﴾ أي : بالبعث فإن الإعادة أسهل من الابتداء ؛ وقيل : نحن خلقنا رزقكم فهلا تصدقون أن هذا طعامكم إن لم تؤمنوا ؛ ومتعلق التصديق محذوف تقديره : فلولا تصدّقون بخلقنا ﴿ أفرأيتم ﴾ أي : أخبروني هل رأيتم بالبصر والبصيرة ﴿ ما تمنون ﴾ أي : تصبون من المنيّ في أرحام النساء ﴿ أأنتم تخلقونه ﴾ أي : توجدونه مقدراً على ما هو عليه من الإستواء ، والحكمة بعد خلقه من صورة النطفة إلى صورة العلقة ثم من صورة العلقة إلى صورة المضغة ثم منها إلى صورة العظام والأعصاب ﴿ أم نحن ﴾ أي : خاصة ﴿ الخالقون ﴾ أي الثابت لنا ذلك وقرأ أفرأيتم في الثلاثة مواضع نافع بتسهيل الهمزة التي هي عين الكلمة ، ولورش وجه ثان وهو أبدالها ألفاً ، وأسقطها الكسائي ، والباقون بالتحقيق ، وقرأ أأنتم في الثلاثة المواضع نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بتحقيق الأولى

وتسهيل الثانية بخلاف عن هشام ، وأدخل بينهما ألفاً ، قالون وأبو عمرو وهشام ، ولم يدخل بينهما ورش وابن كثير ولورش وجه ثان وهو إبدال الثانية ألفا والباقون بتحقيقهما مع عدم الإدخال بينهما .

ولما كان الجواب قطعاً أنت الخالق وحدك أكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ نحن ﴾ أي : بما لنا من العظمة لا غيرنا ﴿ قدرنا ﴾ أي : تقديراً عظيماً لا يقدر سوانا على نقص شيء منه ، ﴿ بينكم الموت ﴾ أي قسمنا عليكم فلم نترك أحداً منكم بغير حصة منه ، وأقتنا موت كل بوقت معين لا يتعداه ، فقصرنا عمر هذا وربما كان في الأوج من قوّة البدن وصحة المزاج فلو اجتمع الخلق لهم على إطالة عمره ما قدروا أن يؤخروه لحظة ، وأطلنا عمر هذا وربما كان في الحضيض من ضعف البدن واضطراب المزاج فلو تمالؤا على تقصيره طرفة عين لعجزوا .

(308/745)

وقرأ ابن كثير بتخفيف الدال والباقون بالتشديد ﴿ وما نحن ﴾ أي : على ما لنا من العظمة ﴿ بمسبوقين ﴾ أي : بالموت أي : لا عاجزين ولا مغلوبين ﴿ على ﴾ أي : عن ﴿ أن نبدّل ﴾ أي تبديلاً عظيماً ﴿ أمثالكم ﴾ أي : صوركم وأشخاصكم

﴿ وننشئكم ﴾ أي إنشاء جديداً بعد تبديل ذواتكم ﴿ في ما لا تعلمون ﴾ فإنّ بعضكم تأكله الحيتان أو السباع أو الطيور فننشئ أبدانه منها ، وبعضهم يصير تراباً فربما نشأ منه نبات فأكلته الدواب فنشأت منه أبدانها وربما صار ترابه من معادن الأرض الذهب والفضة والحديد والنحاس والحجر ونحو ذلك وقد لمح إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ قل كونوا حجارة أو حديداً ﴾ (الإسراء :)

إلى آخرها ويكون المعنى كما قال البغوي : نأت بخلق مثلكم بدلاً منكم ونخلقكم فيما لا تعلمون من الصور أي : بتغيير أوصافكم وصوركم إلى صور أخرى بالمسخ ومن قدر على ذلك قدر على الإعادة وقال الطبري : معنى الآية نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم بعد موتكم بآخرين من جنسكم ، وما نحن بمسبوقين في آجالكم أي : لا يتقدّم متأخر ولا يتأخر متقدم ، وننشئكم فيما لا تعلمون من الصور وقال الحسن : أي نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بأقوام قبلكم ، وقيل : المعنى : ننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا فنجعل المؤمن ببياض وجهه ونقبح الكافر بسواد وجهه "فائدة" في ما مقطوعة في الرسم . H

(309/745)

﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى ﴾ أي : الترابية لأبيكم آدم عليه السلام ، واللحمية لأمكم حواء رضى الله عنها والنطفية لكم وكل منها تحويل من شيء إلى آخر غيره ، فما الذي شاهدتم قدرته على ذلك لا يقدر على تحويلكم بعد أن تصيروا تراباً إلى ما كنتم عليه أولاً من الصور ولهذا سبب عما تقدم قوله تعالى : ﴿ فلولا ﴾ أي : فهلا ولم لا ﴿ تذكرون ﴾ أي تذكراً عظيماً تكرهون أنفسكم عليه فتعلمون أن من قدر على النشأة الأولى قدر على الثانية فإنها أقل ضعفاً لحصول المواد وتخصيص الأجزاء وسبق المثال وفيه دليل على صحة القياس ، وفي الخبر عجباً كل العجب للمكذب بالنشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى ، وعجباً للمصدق بالنشأة الآخرة وهو يسعى لدار الغرور ؛ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو النشأة بفتح الشين وبعدها ألف قبل الهمزة والباقون بسكونها ولا ألف بعدها ، فإذا وقف حمزة نقل حركة الهمزة إلى الشين وخفف ذال تذكرون حمزة والكسائي وحفص ، وشدّدها الباقون .

ثم ذكر لهم حجة أخرى بقوله تعالى : ﴿ أفرأيتم ﴾ أي : أخبروني هل رأيتم بالبصر والبصيرة ما نبهناكم عليه فيما تقدم فتسبب عن تنبيهكم لذلك أنكم رأيتم ﴿ ما تحرثون ﴾ أي : تجددون حرثه على الاستمرار من أراضيكم فتطرحون فيه البذر ﴿ أأنتم تزرعونه ﴾ أي : تنشئونه بعد طرحكم وتجعلونه زرعاً فيكون فيه السنبل والحب ﴿ أم نحن ﴾ خاصة ﴿ الزارعون ﴾ أي : المنبتون له والحافظون ؛ روى أنه عليه الصلاة

والسلام قال : "لا يقولنّ أحدكم زرعت وليقل حرثت" . قال أبو هريرة أرأيتم إلى قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم ﴾ الآية .

(310/745)

ولما كان الجواب قطعاً أنت الفعال لذلك وحدك قال تعالى موضحاً لأنه ما زرعه غيره ﴿ لو نشاء ﴾ أي : لو عاملناكم بصفة العظمة ﴿ لجعلناه ﴾ أي : بتلك العظمة ﴿ حطاما ﴾ أي : مكسوراً مفتتاً لا حب فيه قبل النبات حتى لا يقبل الخروج أو بعده ببرد مفرط أو حر مهل أو غير ذلك فلا ينتفع به ﴿ فظلتم ﴾ أي فأقمتم بسبب ذلك نهاراً في وقت الأشغال العظيمة وتركتم ما يهمكم ﴿ تفكهون ﴾ حذفت منه إحدى التائين في الأصل تخفيفاً أي تتعجبون مما نزل بكم في زرعكم وقيل : تندمون على ما سلف منكم من المعاصي التي أوجبت تلك العقوبة قال الزمخشري : ومنه الحديث : "مثل العالم كمثل الحمة يأتيها البعداء ويتركها القرباء فبينما هم إذ غار ماؤها فانتفع بها قوم وبقي قوم يتفكهون" . أي : يتندمون . وقال الكسائي : التفكة التلهف على ما فات من الأضداد ، تقول العرب : تفكهت أي تنعمت وتفكهت أي حزنت وتقولون : ﴿ أنا لمغرمون ﴾ بحذف القول ومعنى الغرم ذهاب المال بغير عوض من الغرام وهو الهلاك ومن مجيء الغرام بمعنى الهلاك قول القائل:

*أن يعذب يكن غراماً وإن يع **ط جزيلاً فإنه لا يبالي*

وقال ابن عباس : الغرام العذاب ، أي : عذبوا بذهاب أموالهم ، والمعنى : أن غرمنا الحب الذي بذرناه فذهب بغير عوض ومن الغرام بمعنى العذاب قول القائل :

*وثقت بأنّ الحلم منك سجية

**وأنّ فؤادي مبتلى بك مغرم

(311/745)

وقرأ شعبة : أئنا بهمزة مفتوحة بعدها همزة مكسورة على الاستفهام والباقون بهمزة واحدة مكسورة على الخبر ﴿ بل نحن ﴾ أي : خاصة ﴿ محرومون ﴾ أي : ممنوعون رزقنا حرمنا من لا يرد قضاؤه فلا حظ لنا في الاكتساب فلو كان الزارع ممن له خط لأفلح زرعه ثم ذكر تعالى لهم حجة أخرى بقوله تعالى : ﴿ أفرأيتم الماء ﴾ أي : أخبروني هل رأيتم بالبصر والبصيرة ما نبهنا عليه فيما مضى من المطعم وغيره فرأيتم الماء ﴿ الذي تشربون ﴾ فتحيوا به أنفسكم وتسكنوا به عطشكم ، ذكرهم بنعمه التي أنعم بها عليهم بإنزال المطر الذي لا يقدر عليه أحد إلا الله عز وجل ﴿ أأنتم أنزلتموه من المزن ﴾ أي : السحاب وهو اسم جنس واحد مزنة قال القائل :

*فلا مزنة ودقت ودقها

**ولا أرض أبقل إبقالها

وعن ابن عباس والثوري : المزن السماء والسحاب ، وقال أبو زيد : المزنة : السحابة البيضاء أي خاصة وهي أعذب ماء والجمع مزن والمزنة المطرة ﴿ أم نحن ﴾ أي : خاصة ﴿ المنزلون ﴾ أي : له بمالنا من العظمة ﴿ لو نشاء ﴾ أي : حال إنزاله وبعده قبل أن ينتفع به ﴿ جعلناه ﴾ أي بما تقتضيه صفة العظمة ﴿ أجاجاً ﴾ أي : ملحاً مراً محرقاً كأنه في الأحشاء لهيب النار المؤجج فلا يبرد عطشاً ولا ينبت نبتاً ينتفع به ، وقال ابن عادل : الأجاج المالح الشديد الملوحة ﴿ فلولا ﴾ أي : فهلا ولم لا ﴿ تشكرون ﴾ أي : تجددون الشكر على سبيل الاستمرار باستعمال ما أفادكم ذلك من القوى في طاعة الله الذي أوجده لكم ومكنكم منه .

(312/745)

ثم ذكر تعالى لهم حجة أخرى بقوله تعالى : ﴿ أفرأيتم النار ﴾ أي : أخبروني هل رأيتم بالبصر والبصيرة ما تقدم فرأيتم النار ﴿ التي تورون ﴾ أي : تخرجون من الشجر الأخضر ﴿ أأنتم أنشأتم ﴾ أي : اخترعتم وأوجدتم وأحييتم وربيتم ورفعتم ﴿ شجرتها ﴾ أي :

التي يقدح منها النار وهي المرخ والعفار وهما شجرتان قدح منهما النار وهما رطبتان ، وقيل : أراد جميع الشجر الذي توقد به النار ﴿ أم نحن ﴾ أي : خاصة وأكد بقوله تعالى : ﴿ المنشؤن ﴾ أي : لها بمالنا من العظمة على تلك الهيئة فمن قدر على إيجاد النار التي هي أيبس ما يكون في الشجر الأخضر مع ما فيه من المائية المضادّة لها كان أقدر على إعادة الطراوة في تراب الجسد الذي كان غضاً طرياً فيبس .

(313/745)

ولما كان الجواب قطعاً أنت وحدك قال تعالى دالاً على ذلك تنبيهاً على عظم هذا الخبر ﴿ نحن ﴾ أي : خاصة ﴿ جعلناها ﴾ أي : لما اقتضته عظمتنا ﴿ تذكرة ﴾ أي : شيئاً يتذكر به تذكراً عظيماً جليلاً كما أخبرنا به من البعث وعذاب النار الكبرى وما ينشأ فيها من شجرة الزقوم وغير ذلك ، وقيل : موعظة يتعظ بها المؤمن ؛ وعن أبي هريرة رضى الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ناركم التي توقدون جزء من سبعين جزأ من نار جهنم ، قالوا : والله إن كانت لكافية يا رسول الله قال : فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزأ كلها مثلها مثل حرّها" . ﴿ ومتاعاً ﴾ أي : بلغة ومنفعة ﴿ للمقوين ﴾ أي : المسافرين والمقوى النازل في أرض القوا بالكسر والقصر والمدّ وهي القفر البعيدة من

العمران ، والمعنى : أنه ينتفع بها أهل البوادي والأسفار فإن منفعتهم بها أكثر من المقيم فإنهم يوقدونها بالليل لتهرب السباع ويهتدي الضال إلى غير ذلك من المنافع ؛ وقال مجاهد : للمقوين أي : المنتفعين بها من الناس أجمعين يستضيئون بها في الظلمة ويصطلون بها من البرد وينتفعون بها في الطبخ والخبز إلى غير ذلك من المنافع ، ويتذكر بها نار جهنم فيستجار بالله تعالى منها ؛ وقال ابن زيد : للجائعين في إصلاح طعامهم يقال : أقويت منذ كذا وكذا أي : ما أكلت شيئاً قال الشاعر :

*وإني لاختار القوا طاوي الحشى ** محافظة من أن يقال لئيم*

وقال قطرب : المقوي من الأضداد يقال للفقير : مقو لخلوه من المال ويقال للغني : مقو لقوته على ما يريد ، والمعنى : فيها متاعاً ومنفعة للفقراء والأغنياء لا غنى لأحد عنها ، وقال المهدوي : الآية تصلح للجميع لأنّ النار يحتاج إليها المسافر والمقيم والغني والفقير .

(314/745)

ولما ذكر تعالى ما يدل على وجوب وحدانيته وقدرته وإنعامه على سائر الخلق خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم أو كل أحد من الناس بقوله تعالى : ﴿ فسبح ﴾ أي : أوقع التنزيه العظيم من كل شائبة نقص من ترك البعث وغيره ولا سيما بعد بلوغ هذه الأدلة ﴿ باسم ﴾

أي : ملتبساً بذكر اسم ﴿ ربك ﴾ أي : المحسن إليك بهذا البيان الأعظم .

فائدة : أثبتوا ألف الوصل هنا في اسم ربك لأنه لم يكثر دوره كثرته في البسملة وحذفوه منها لكثرة دورها وهم شأنهم الإيجاز وتقليل الكثير إذا عرف معناه وهذا معروف لا يجهل ، وإثبات ما أثبت من أشكاله مما لا يكثر دليل على الحذف منه ، ولذا لا تحذف مع غير الباء في اسم الله ولا مع الباء في غير الجلالة الكريمة من الأسماء وقد أوضحت ذلك في مقدمتي على البسملة والحمدلة .

ولما كان المقام للعظمة قال الله تعالى : ﴿ العظيم ﴾ أي : الذي ملأ الأكوان كلها عظمة فلا شيء منها إلا وهو مملوء بعظمته تنزيهاً عن أن يلحقه شائبة نقص أو يفوته شيء من كمال ، فالعظيم صفة للإسم أو الرب ، والاسم قيل : بمعنى الذات وقيل : زائد أي : فسبح ربك واختلف في "لا" في قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم ﴾ فقال أكثر المفسرين : معناه فاقسم ولا صلة مؤكدة بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وإنه لقسم ﴾ ومثلها في قوله تعالى : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ (الحديد :)

(315/745)

والتقدير : ليعلم وقال بعضهم أنها حرف نفي وإنّ المنفي بها محذوف وهو كلام الكافر الجاهل والتقدير فلا حجة بما يقوله الكافر ؛ ثم ابتدأ قسماً بما ذكر وضعف هذا بأنّ فيه حذف اسم لا وخبرها قال أبو حيان : ولا ينبغي فإنّ القائل بذلك مثل سعيد بن جبير تلميذ حبر القرآن وهو عبد الله بن عباس ، ويبعد أن يقول سعيد إلا بتوقيف ، وقال بعضهم : إنها لام الابتداء والأصل : فلأقسم فأشبعت الفتحة فتولد منها ألف كقول بعضهم : أعوذ بالله من العقراب قال الزمخشري : ولا يصح أن تكون اللام لام القسم لأمرين : أحدهما : أن حقها أن تقرن بها النون المؤكدة والإخلال بها ضعيف قبيح ، والثاني : أن لأفعلنّ في جواب القسم للاستقبال وفعل القسم يجب أن يكون للحال .

واختلف أيضاً في معنى قوله عز وجلّ : ﴿ بمواقع النجوم ﴾ فقال أكثر المفسرين : بمساقطها لغروبها ، قال الزمخشري : ولعل الله تعالى في آخر الليل إذا انحطت النجوم إلى المغرب أفعالاً عظيمة مخصوصة وللملائكة عبادات موصوفة ، أو لأنه وقت قيام المجتهدين والمبتهلين إليه من عباده الصالحين ونزول الرحمة والرضوان عليهم ، فلذلك أقسم بمواقعها واستعظم ذلك بقوله تعالى : ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ وقال عطاء بن رباح : أراد بمواقعها منازلها ، قال الزمخشري : وله في ذلك من الدليل على عظيم القدرة والحكمة ما لا يحيط به الوصف ، وقال الحسن : مواقعها انكدارها وانتثارها يوم القيامة ؛ وقال ابن عباس والسدي : المراد نجوم القرآن أي أوقات نزولها ؛ وقال الضحاك : هي الأنواء التي

كانت الجاهلية تقول إذا مطروا : مطرنا بنوء كذا ، وقال القشيري : هو قسم ولله أن يقسم بما يريد وليس لنا أن نقسم بغير الله تعالى وصفاته القديمة فإن قيل لو تعلمون جوابه ماذا ؟

(316/745)

أجيب : بأنه مقدّر تقديره لعظمتموه أي : لو كنتم من ذوي العلم لعلمتم عظم هذا القسم ولكنكم ما علمتموه فعلم أنكم لا تعلمون ، وقرأ بموقع حمزة والكسائي بسكون الواو ولا ألف بعدها والباقون بفتح الواو ألف بعدها .

وقوله تعالى : ﴿ إنه ﴾ أي : القرآن الذي أفهمته النجوم بعموم إفهامها ﴿ لقرآن ﴾ أي : جامع سهل ذو أنواع جليلة ﴿ كريم ﴾ أي : بالغ الكرم منزه عن كل شائبة لؤم ودناءة هو المقسم عليه ، وفي الكلام اعتراضان أحدهما : الاعتراض بقوله تعالى : ﴿ وإنه لقسم ﴾ بين القسم والمقسم عليه ، والثاني الاعتراض بقوله تعالى : ﴿ لو تعلمون ﴾ بين الصفة الموصوف .

(317/745)

تنبيه : من كرم هذا القرآن العظيم كونه من الملك الأعلى إلى خير الخلق بسفارة روح القدس ، مشتملاً على أصول العلوم المهمة في إصلاح المعاش والمعاد وبلسان العرب الذين اتفقت علماء الفرق على أنّ لسانهم أفصح الألسن ، وعلى وجه أعجز العرب كافة وبقية الخلق أجمعين واختلف في معنى قوله تعالى : ﴿ في كتاب ﴾ أي : مكتوب ﴿ مكنون ﴾ أي : مصون فالذي عليه الأكثر أنه المصحف سمي قرآنا لقرب الجوار على الاتساع ولأنّ النبي صلى الله عليه وسلم "نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدوّ" . أراد به المصحف وقوله تعالى : ﴿ لا يمسه ﴾ خبر بمعنى النهي ولو كان باقياً على خبرتيه لزم منه الخلف لأنّ غير المطهر يمسه وخبر الله تعالى لا يقع فيه خلف لأنّ المراد بقوله تعالى : ﴿ إلا المطهرون ﴾ لا المحدثون وهو قول عطاء وطاوس وسالم والقاسم وأكثر أهل العلم وبه قال مالك والشافعي رضى الله عنهما ؛ وقال ابن عادل : والصحيح أنّ المراد بالكتاب : المصحف الذي بأيدينا لما روى مالك وغيره أن كتاب عمرو بن حزم "لا يمس القرآن إلا طاهر" ، وقال ابن عمر قال النبيّ صلى الله عليه وسلم "لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر" وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه وقد دخل عليها ودعا بالمصحف ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ فقام فاغتسل وأسلم ، وعلى هذا قال قتادة وغيره معناه لا يمسه إلا المطهرون من الأحداث والأنجاس انتهى .

وقال ابن عباس : ﴿ مكنون ﴾ محفوظ عن الباطل والكتاب هنا كتاب في السماء ، وقال

جابر : هو اللوح المحفوظ ، أي : لقوله تعالى : ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ (البروج : ـ)

(318/745)

وقال عكرمة : التوراة والإنجيل فيهما ذكر القرآن ، وقال السدي : الزبور وقيل : لا من "لا يمسه" نافية والضمة في لا يمسه ضمة إعراب وعلى هذا ففي الجملة وجهان : أحدهما : أن محلها الجرّ صفة لكتاب ، والمراد به : إمّا اللوح المحفوظ والمطهرون حينئذ الملائكة ، أو المراد به المصحف والمراد بالمطهرون الملائكة كلهم ، والثاني : محلها رفع صفة لقرآن والمراد بالمطهرين : الملائكة فقط أي : لا يطلع عليه ، لأنّ نسبة المس إلى المعاني متعذرة وقيل : إنها ناهية والفعل بعدها مجزوم لأنه لوفك عن الإدغام لظهر ذلك فيه كقوله تعالى : ﴿ لم يمسسهم سوء ﴾ (آل عمران :)

ولكنه أدغم ، ولما أدغم حرّك بالضم لأجل هاء ضمير المذكر الغائب ، وفي الحديث : "إنا لم نرده عليكما إلا أنا حرم" بضم الدال ، وإن كان القياس يقتضي جواز فتحها تخفيفاً ، وبهذا ظهر فساد رد من رد بأنّ هذا لو كان نهياً كان يقال لا يمسه بالفتح لأنه خفي عليه وانضم ما قبل الهاء في هذا التحويل لا يجوّز سيبويه غيره .

واختلفوا في المس المذكور في الآية فقال أنس وسعيد بن جبير : لا يمس ذلك إلا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة وقال أبو العالية وابن زيد : هم الذين طهروا من الذنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بني آدم ، وقال الكلبي : هم السفرة الكرام البررة وهذا كله قول واحد وهو اختيار مالك ، وقال الحسن : هم الملائكة الموصوفون في سورة عبس في قوله تعالى : ﴿ صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة ﴾ (عبس : ـ)

وقيل : معنى لا يمسه لا ينزل به إلا المطهرون أي : إلا الرسل من الملائكة على الرسل من الأنبياء ولا يمس اللوح المحفوظ الذي هو الكتاب المكنون إلا الملائكة المطهرون ، ولو كان المراد طهر الحدث لقال المتطهرون أو المطهرون بتشديد الطاء ومن قال بالأوّل قال : المطهرون يعني المتطهرون .

(319/745)

تنبيه : اختلف العلماء في مس المصحف وحمله على غير وضوء فالجمهور على المنع من مسه على غير طهارة لحديث عمرو بن حزم وهو مذهب عليّ وابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعطاء والزهري والنخعي والحكم وحماد وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي ، وأما الحمل فلأنه أبلغ من المس سواء حمله بعلاقته أم في كمه أم على رأسه

وسواء مس نفس الأسطر أم ما بينها أم الحواشي أم الجلد أم العلاقة أم الخريطة أم الصندوق إذا كان المصحف فيهما ، وسواء مس بأعضاء الوضوء أم بغيرها ؛ وقال جماعة بجواز مسه وحمله واحتجوا بأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كتب إلى هرقل كتاباً فيه قرآن ، وهرقل محدث يمسه هو وأصحابه ، وبأنّ الصبيان يحملون الألواح محدثين بلا إنكار ، وبأنه إذا لم تحرم القراءة فالحمل والمس أولى ، وبأنه يجوز حمله في أمتعة .

وأجيب عن الأوّل : بأنّ ذلك الكتاب كان فيه آيتان ولا يسمى مصحفاً ولا ما في معناه وبأنه لو كان كتاباً قد تضمن مع القرآن دعاء إلى الإسلام فلم يكن القرآن بانفراده مقصوداً فجاز تغليباً للمقصود فيه ، وعن الثاني : بأنه أبيح للصبيان للضرورة لأنهم غير مكلفين ، وعن الثالث : بأن القراءة أبيحت للحاجة وعسر الوضوء لها كل وقت وبأنا لا نسلم الأولوية المذكورة بدليل أن الكافر لا يمنع من القراءة ويمنع من حمل المصحف ومسه ، وعن الرابع : بأن جواز حمل المصحف في الأمتعة محله إذا لم يكن المصحف مقصود بالحمل .

(320/745)

وقال آخرون بحرمة المس دون الحمل واحتجوا بأنّ المحرم يحرم عليه مس الطيب دون حمله ، وأجيب عنه : بأنه غير صحيح لأنّ حمل المصحف أبلغ في الاستيلاء عليه من مسه ،

فلما حرم الأدنى كان تحريم الأعلى أولى ولأن تحريم المصحف إنما هو لحرمته فاستوى فيه مسه وحمله بخلاف طيب المحرم فإنّ تحريمه مقصور على الاستمتاع به وليس في حمله استمتاع به ، ولو لف كمه على يده وقلب به أوراق المصحف حرم عليه لأنّ القلب يقع باليد لا بالكم بخلاف قلب ذلك بعود ، ويحرم كتب شيء من القرآن أو من أسماءه تعالى بنجس أو على نجس ومسه به إذا كان غير معفو عنه ، ولو خاف على المصحف من حرق أو غرق أو وقوع نجاسة عليه أو وقوعه في يد كافر جاز حمله مع الحدث بل يجب ذلك صيانة للمصحف ، ولو لم يجد من يودعه المصحف وعجز عن الوضوء فله حمله مع الحدث ويلزمه أن يتيمم إن وجد التراب ولا يجوز المسافرة بالمصحف إلى أرض الكفار إذا خيف وقوعه في أيديهم للنهي عنه في الصحيحين ، وخرج المصحف غيره نحو كتب الفقه والحديث وكتب التفسير ، فلا يحرم حملها ولا مسها إلا أن يكون القرآن أكثر من التفسير أو مساوياً له فيحرم الحمل والمس لأنه حينئذ في معنى المصحف وفي ذلك زيادة ذكرتها في شرح المنهاج وغيره .

وقوله تعالى : ﴿ تنزيل ﴾ أي : منزل إليكم بالتدريج بحسب الوقائع والتقريب للإفهام والتأني والترقية من حال إلى حال وحكم إلى حكم بوسائط الرسل من الملائكة ﴿ من رب العالمين ﴾ أي : الخالق العالم بتربيتهم صفة القرآن أي : القرآن منزل من عند رب العالمين سمى المنزل تنزيلاً على اتساع اللغة كقوله تعالى : ﴿ هذا خلق الله ﴾ (لقمان :)

وأوثر المصدر لأن تعلق المصدر بالفاعل أكثر ، وفي ذلك رد على قول من قال : بأن القرآن شعر أو سحر أو كهانة .

(321/745)

﴿ أفبهذا الحديث ﴾ أي : القرآن الذي تقدمت أوصافه العالية وهو يتجدد إليكم إنزاله وقتاً بعد وقت ﴿ أنتم مدهنون ﴾ أي : متهاونون كمن يدهن في الأمر أي : يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاوناً به ، قال ابن برّجان : الأدهان والمداهنة : الملاينة في الأمور والتغافل والركون إلى التجاوز ا . ه .

قال البقاعي : فهو على هذا إنكار على من سمع أحداً يتكلم في القرآن بما لا يليق ثم لا يجاهره بالعداوة ، وأهل الاتحاد كابن عربي الطائي صاحب الفصوص ، وابن الفارض صاحب التائية ، أول من صوبت إليه هذه الآية فإنهم تكلموا في القرآن على وجه يبطل الدين أصلاً ورأساً ويحله عروة عروة ، فهم أضر الناس على هذا الدين ومن يتأوّل لهم أو ينافح عنهم أو يعتذر لهم أو يحسن الظنّ بهم مخالف لإجماع الأمّة أنجس حالاً منهم فإنّ مراده إبقاء كلامهم الذي لا أفسد للإسلام منه من غير أن يكون لإبقائه مصلحة ما بوجه من الوجوه ا . ه . وجرى ابن المقري في روضه على كفر من شك في كفر طائفة ابن العربي الذين

ظاهر كلامهم عند غيرهم الاتحاد ، وهو بحسب ما فهمه من ظاهر كلامهم ، ولكن كلام هؤلاء جار على اصطلاحهم إذا اللفظ المصطلح عليه حقيقة في معناه الاصطلاحي مجاز في غيره ، والمعتقد منهم لمعناه معتقد لمعنى صحيح ؛ وأمّا من اعتقد ظاهره من جهلة الصوفية الذين لا علم عندهم بل أكثرهم يدعي أنّ العلم حجاب ومدعي ذلك هو المحجوب فإنه يعرّف فإن استمرّ على ذلك بعد معرفته صار كافراً . فنسأل الله تعالى التوفيق والعصمة .

ولما كان هذا القرآن متكفلاً بسعادة الدارين قال تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم ﴾ أي : حظكم ونصيبكم وجميع ما تنتفعون به من هذا الكتاب وهو نفعكم كله ﴿ أنكم تكذبون ﴾ فتضعون الكذب مكان الشكر كقوله تعالى : ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾ (الأنفال :)

(322/745)

أي : لم يكونوا يصلون ولكنهم كانوا يصفرون ويصفقون مكان الصلاة ، قال القرطبي : وفيه بيان أنّ ما أصاب العباد من خير فلا ينبغي أن يروه من قبل الوسائط التي جرت العادة بأن تكون أسباباً بل ينبغي أن يروه من قبل الله تعالى ثم يقابلونه بشكر إن كان نعمة أو صبر إن

كان مكروهاً تعبداً له وتذللاً ، وعن ابن عباس : أنّ المراد به الاستسقاء بالأنواء ، وهو قول العرب مطرنا بنوء كذا ؛ ورواه علي بن أبي طالب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال : "مطر الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر فقال بعضهم : هذه رحمة الله تعالى وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا قال : فنزلت هذه الآية ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ حتى بلغ ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ " .

(323/745)

وفيه أيضاً "أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج في سفر فعطشوا فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم أرأيتم إن دعوت الله تعالى لكم فسقيتم لعلكم أن تقولوا هذا المطر بنوء كذا فقالوا : يا رسول الله ما هذا بحين الأنواء فصلى ركعتين ودعا الله تعالى ، فهاجت ريح ثم هاجت سحابة فمطروا ، فمر النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعه عصابة من أصحابه برجل يغترف بقدح له وهو يقول سقينا بنوء كذا ولم يقل هذا من رزق الله تعالى فنزلت ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ " . أي : شكراً الله على رزقه إياكم أنكم تكذبون بالنعمة ، وتقولون : سقينا بنوء كذا كقول القائل : جعلت إحساني إليك إساءة منك إليّ وجعلت

إنعامي لديك أن اتخذتني عدوّاً ، قال الشافعي : لا أحب لأحد أن يقول مطرنا بنوء كذا وإن كان النوء عندنا الوقت لا يضرّ ولا ينفع ولا يمطر ولا يحبس شيئاً من المطر ، والذي أحب أن يقول : مطرنا وقت كذا كما يقول مطرنا شهر كذا ، ومن قال مطرنا بنوء كذا وهو يريد أن النوء أنزل الماء كما يقول أهل الشرك فهو كافر حلال دمه إن لم يتب . وحاصله إن اعتقد أنّ النوء هو الفاعل حقيقة فهو كافر وإلا فيكره له ذلك كراهة تنزيه ، وسبب الكراهة : أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره فيساء الظنّ بقائلها ولأنها من شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم

(324/745)

ثم بين سبحانه أنه لا فاعل لشيء في الحقيقة سواه بقوله تعالى : ﴿ فلولا ﴾ وهي : أداة تفهم طلباً بزجر وتوبيخ وتقريع بمعنى فهلا ولم لا ﴿ إذا بلغت الحلقوم ﴾ أي : بلغت الروح منكم ومن غيركم عند الاحتضار الحلقوم ، أضمرت من غير ذكر لدلالة الكلام عليها دلالة ظاهرة ، وفي الحديث : "أن ملك الموت له أعوان يقطعون العروق ويجمعون الروح شيئاً فشيئاً حتى تنتهي إلى الحلقوم فيتوفاها ملك الموت" . والحلقوم مجرى الطعام في الحلق والحلق مساغ الطعام والشراب معروف فكان الحلقوم أدنى الحلق إلى جهة اللسان ﴿ وأنتم ﴾ أي :

والحال أنكم أيها العاكفون حول المحتضر المتوجعون له ﴿ حينئذ ﴾ أي : بلغت الروح ذلك الموضع ﴿ تنظرون ﴾ أي : إلى أمري وسلطاني ، أو إلى الميت ولا حيلة لكم ولا فعل بغير النظر ولم يقل : تبصرون لئلا يظنّ أنّ لهم إدراكاً بالبصر لشيء من البواطن من حقيقة الروح ونحوها ﴿ ونحن ﴾ أي : والحال أنا نحن بما لنا من العظمة ﴿ أقرب إليه ﴾ أي : المحتضر بعلمنا وقدرتنا ﴿ منكم ﴾ على شدّة قربكم منه ، قال عامر بن قيس : ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله أقرب إليّ منه ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ من البصيرة أي : لا تعلمون ذلك ﴿ فلولا ﴾ أي : فهلا ﴿ إن كنتم ﴾ أيها المكذبون بالعبث ﴿ غير مدينين ﴾ أي : مربوبين من دان السلطان الرعية إذا ساسهم ، أو مقهورين مملوكين مجزيين محاسبين بما عملتم في دار البلاء التي أقامكم فيها أحكم الحاكمين ، من دانه إذا ذله واستعبده ، وأصل تركيب دان للذل والإنقياد قاله البيضاوي ﴿ ترجعونها ﴾ أي : الروح إلى ما كانت عليه ﴿ إن كنتم ﴾ كوناً ثابتاً ﴿ صادقين ﴾ فيما زعمتم فلولا الثانية تأكيد للأولى ، وإذ ظرف لترجعون المتعلق به الشرطان ؛ والمعنى : أنكم في جحودكم أفعال الله تعالى وآياته في كل شيء أن أنزل عليكم كتاباً معجزاً قلتم سحر وافتراء ، وإن أرسل إليكم رسولاً صادقاً قلتم ساحر كذاب ، وإن رزقكم مطراً يحييكم به قلتم صدق نوء كذا على مذهب يؤدي إلى الإهمال والتعطيل ،

فما لكم لا

ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم إن لم يكن ثم قابض وكنتم صادقين في تعطيلكم وكفركم بالمحيي المميت المبدئ المعيد .

ثم ذكر تعالى طبقات الخلق عند الموت وبين درجاتهم فقال عز من قائل : ﴿ فأما إن كان ﴾ المتوفى ﴿ من المقرّبين ﴾ السابقين الذين اجتذبهم الحق من أنفسهم فقرّبهم منه فكانوا مرادين قبل أن يكونوا مريدين ، وليس القرب قرب مكان لأنه تعالى منزه عنه وإنما هو بالتخلق بالصفات الشريفة على قدر الطاقة البشرية ليصير الإنسان روحاً خالصاً كالملائكة لا سبيل إلى الحظوظ والشهوات عليها وقوله تعالى : ﴿ فروح ﴾ مبتدأ خبره مقدّر قبله أي : فله روح ، أي : راحة ورحمة وما ينعشه من نسيم الريح . وقال سعيد بن جبير : فله فرج ، وقال الضحاك : مغفرة ورحمة ﴿ وريحان ﴾ أي : رزق عظيم ونبات حسن بهيج وأزاهير طيبة الرائحة ، وقال مقاتل : هو بلسان حمير رزق ، يقال : خرجت أطلب ريحان الله أي : رزقه ؛ وقيل : هو الريحان الذي يشم ؛ قال أبو العالية : لا يفارق أحد من المقربين الدنيا حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيشمه ثم تقبض روحه ؛ وقال أبو بكر الوراق : الروح النجاة من النار والريحان دخول دار القرار ﴿ وجنت ﴾ أي : بستان جامع الفواكه والرياحين ﴿ نعيم ﴾ أي : ذات تنعم ليس فيها غيره وأهله مقصورة عليهم .

تنبيه : جنت هنا مجرورة التاء ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ، فالكسائي بالأمالة في الوقف على أصله ، والباقون بالتاء على المرسوم .

(326/745)

﴿ وأما إن كان ﴾ المتوفى ﴿ من أصحاب اليمين ﴾ أي : الذين هم في الدرجة الثانية من أصحاب الميمنة ﴿ فسلام لك ﴾ أي : يا صاحب اليمين ﴿ من ﴾ إخوانك ﴿ أصحاب اليمين ﴾ أي : يسلمون عليك كقوله تعالى : ﴿ إلا قيلاً سلاماً سلاما ﴾ وقال القرطبي : فسلام لك من أصحاب اليمين أي : لست ترى منهم إلا ما تحبّ من السلامة فلا تهتم لهم فإنهم يسلمون من عذاب الله تعالى ؛ وقيل المعنى : سلام لك منهم ، أي : أنت سالم من الاعتمام لهم والمعنى واحد ؛ وقيل : أصحاب اليمين يدعون لك يا محمد بأن يصلي الله عليك ويسلم ؛ وقيل معناه : سلمت أيها العبد مما تكره فإنك من أصحاب اليمين فحذف إنك ؛ وقيل : إنه يحيى بالسلام تكرّماً ؛ وعلى هذا في محل السلام ثلاثة أقوال : أحدها : عند قبض روحه في الدنيا يسلم عليه ملك الموت قاله الضحاك ، وقال ابن مسعود : إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام ، الثاني : عند مسألته في القبر يسلم عليه منكر ونكير ، الثالث : عند بعثه في القيامة تسلم عليه الملائكة قبل وصوله إليها

؛ قال القرطبي : ويحتمل أن يسلم عليه في المواطن الثلاثة ويكون ذلك إكراماً بعد إكرام .

ولما ذكر تعالى الصنفين الناجيين أتبعهما الهالكين جامعاً لهم في صنف واحد لأنّ من أريدت له السعادة يكفيه ذلك ومن ختم له بالشقاوة والعياذ بالله تعالى لا ينفعه الإغلاظ والإكثار فقال تعالى : ﴿ وأما إن كان ﴾ المتوفى ﴿ من المكذبين ﴾ الذين أخذناه من أصحاب المشأمة وأنتم حوله تتقطع أكبادكم له ولا تقدرون له على شيء أصلاً ﴿ الضالين ﴾ أي : عن الهدى وطريق الحق ﴿ فنزل من حميم ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ﴾ إلى أن قال : ﴿ فشاربون شرب الهيم ﴾ وقال تعالى : ﴿ ثم إنّ لهم عليها لشوباً من حميم ﴾ (الصافات :)

(327/745)

أي : ماء متناه في الحرارة بعد ما نالوا من العطش كما يرد أصحاب الميمنة الحوض كما يبادر به للقادم ليبرد به غلة عطشه ويغسل به وجهه ويديه ﴿ وتصلية جحيم ﴾ أي : ونزل من تصلية جحيم ، والمعنى : إدخال في النار ؛ وقيل : إقامة في الجحيم ومقاساة لأنواع عذابها ، يقال : أصلاه النار وصلاه أي : جعله يصلاها والمصدر هنا مضاف إلى المفعول كما يقال : لفلان إعطاء ما له أي : يعطي المال ﴿ إن هذا ﴾ أي : الذي ذكر في هذه السورة من أمر

البعث الذي كذبوا به في قولهم : إننا لمبعوثون ومن قيام الأدلة عليه ﴿ لهو حق اليقين ﴾ أي : حق الخبر اليقين أي : لما عليه من الأدلة القطعية المشاهدة كأنه مشاهد مباشر ، وقيل : إنما جاز إضافة الحق إلى اليقين وهما واحد لاختلاف لفظهما وذلك من باب إضافة المترادفين

(328/745)

ولما حقق له تعالى إلى هذا اليقين سبب عن أمره لنبيه صلى الله عليه وسلم بالتنزيه عما وصفوه به مما يلزم منه وصفه بالعجز فقال تعالى : ﴿ فسبح ﴾ أي : أوقع التنزيه كله عن كل شائبة نقص بالاعتقاد والقول والفعل بالصلاة وغيرها بأن تصفه بكل ما وصف به نفسه من الأسماء الحسنى وتنزهه عن كل ما نزه نفسه عنه ﴿ باسم ربك ﴾ أي : المحسن إليك بما خصك به مما لم يعطه أحداً غيرك وإذا كان هذا لاسمه فكيف بما هو له ﴿ العظيم ﴾ الذي ملأت عظمته جميع الأقطار والأكوان وزادت على ذلك بما لا يعلمه حق العلم سواه ، لأنّ من له هذا الخلق على هذا الوجه المحكم وهذا الكلام الأعز الأكرم لا ينبغي لشائبة نقص أن تلم بجنابه أو تدنو من فناء بابه ، وعن عقبة بن عامر قال : "لما نزلت ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم اجعلوها في ركوعكم ، ولما نزلت ﴿ سبح اسم

ربك الأعلى ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم اجعلوها في سجودكم" . خرجه أبو داود وعن أبي ذر قال : "قال لي عليه الصلاة والسلام : ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله تعالى سبحان الله وبحمده" . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم" هذا الحديث آخر حديث في البخاري وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال : "سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة" . "روى أبو طيبة عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً" ورواه البيهقي وغيره وكان أبو طيبة لا يدعها أبداً وأخرجه ابن الأثير في كتابه جامع الأصول ولم يعزه . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ السراج المنير حـ 7 صـ 271.304 ﴾

(329/745)

وقال القاسمى :

سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾

أي : نزلت وجاءت . و ﴿ الْوَاقِعَةُ ﴾ علم بالغلبة على القيامة ، أو منقول سميت بذلك لتحقق وقوعها ، وكأنه قيل : إذا وقعت التي لا بد من وقوعها ، واختيار ﴿ إِذَا ﴾ مع صيغة المضي ، للدلالة على ما ذكر .

﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ أي : كذب وتكذيب . وقد جاء المصدر على زنة فاعلة كالعاقبة ، والعافية . واللام للاختصاص . أو المعنى : ليس حين وقعتها نفس كاذبة ، أي : تكذب على الله ، أو تكذب في نفيها . واللام للتوقيت .

قال الشهاب : و ﴿ الْوَاقِعَةُ ﴾ السقطة القوية ، وشاعت في وقوع الأمر العظيم ، وقد تخص بالحرب ، ولذا عبر بها هنا .

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ أي : تخفض الأشقياء إلى الدركات ، وترفع السعداء إلى الدرجات . وقيل ، الجملة مقررة لعظمة الواقعة على طريق الكناية ؛ لأن من شأن الوقائع العظام أنها تخفض قوماً وترفع آخرين .

﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً ﴾ [4 -6]

﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً ﴾ أي : زلزلت زلزالاً شديداً .

﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً ﴾ أي : فتّتت ، أو سيقت وأذهبت ، كقوله : ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ ﴾ [النبأ : 20] ﴿ فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً ﴾ أي : متفرقاً . قال قتادة : الهباء ما

تذروه الريح من حطام الشجر . وقال غيره : هو ما يرى من الكوة كهيئة الغبار .

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [7 - 12]

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أي : أصنافا ثلاثة .

(330/745)

﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ تقسيم وتنويع للأزواج الثلاثة ، مع الإشارة الإجمالية إلى أحوالهم قبل تفصيلها .

وإطلاق ﴿ الْمَيْمَنَةِ ﴾ و ﴿ الْمَشْأَمَةِ ﴾ اللتين هما الجهتان المعروفتان على منزلة السعداء الذين هم الأبرار والمصلحون من الناس ، وعلى دركة الأشقياء الذين هم الأشرار والمفسدون من الناس ، أصله من تيمُّنِ العرب باليمين ، وتشاؤمهم بالشمال ، كما في السانح والبارح ، وقولهم للرفيع : هو منى باليمين ، وللوضيع : هو منى بالشمال ، تجوزاً به ، أو كناية به عما ذكر .

وقيل : الميمنة والمشأمة بمعنى اليمين والشؤم ، فليس بمعنى الجهة ، بل بمعنى البركة

وضدها ، لما عاد عليهم من أنفسهم وأفعالهم . وفي جملتي الاستفهام إشارة إلى ترقّي أحوالهما في الخير والشر ، تعجُّباً منه .

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ أي : الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة ، بعد ظهور الحق ، وأوذوا لأجله ، وصبروا على ما أصابهم ، وكانوا الدعاة إليه .

فإن قيل : لم خولف بين المذكورين في السابقين ، وفي أصحاب اليمين ، مع أن كل واحد منهما إنما أريد به التعظيم والتهويل لحال المذكورين ؟

فنقول : التعظيم المؤدي بقوله : ﴿ السَّابِقُونَ ﴾ أبلغ من قرينه ، وذلك أن مؤدى هذا أن أمر السابقين ، وعظمة شأنه ، مسابق . كاد يخفى . وإنما تحير فهم السامع فيه مشهور . وأما المذكور في قوله : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ فإنه تعظيم على السامع بما ليس عنده منه علم سابق ، ألا ترى كيف سبق بسط حال السابقين بقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ فجمع بين اسم الإشارة المشار به إلى معروف ، وبين الإخبار عنه بقوله : ﴿ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ معرفاً بالألف واللام العهدية ؟ وليس مثل هذا مذكوراً في بسط حال أصحاب اليمين ، فإنه مصدر بقوله :

﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ أفاده الناصر .

و﴿ السَّابِقُونَ ﴾ الثاني إما خبر ، أي : الذين عرفت حالهم واشتهرت أوصافهم على حدّ : وشعري شعري ، أو تأكيد ، والخبر قوله :

﴿ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أي : الذين يقربهم الله منه بإعلاء منازلهم ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ [13- 14]

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي : هم جماعة كثيرة من الذين سبقوا ، لرسوخ إيمانهم وظهور أثره في أعمالهم من العمل الصالح ، والدعوة إلى الله ، والصبر على الجهاد في سبيله ، إلى غير ذلك من المناقب التي كانت ملكات لهم .

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ أي : الذين جاؤوا من بعدهم في الأزمنة التي حدثت فيها الغير ، وتبرّجت الدنيا لخطّابها ، ونسي معها سر البعثة ، وحكمة الدعوة ؛ فما أقلّ الماشين على قدّم النبي صلى الله عليه وسلم وصحابه ! لا جَرَمَ أنهم وقتئذ الغُرَباء ، لقلّتهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [15 -26]

﴿ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ أي : مصفوفة ، أو مشبكة بالدرِّ والياقوت أو الذهب . و الوَضْنُ التشبيك والنسج .

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ أي : بوجوههم ، متساوين في الرتب ، لا حجاب بينهم أصلاً .

(332/745)

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : للخدمة ﴿ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي : مبْقَونَ على سنّ واحدة لا يموتون .

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾ أي : حال الشرب . والكوب إناء لا عروة ولا خرطوم له ، والإبريق : إناء له ذلك .

﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ أي : خمر جارية .

ثم أشار إلى أنها لَذّة كلها ، لا ألم معها ولا خمار ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ أي : لا يصدر عنها صداعهم لأجل الخمار ، كخمور الدنيا ، والصداع : وجع الرأس . وقرئ بالتشديد من التفعل ، أي : لا يتفرقون ﴿ وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ بكسر الزاي وفتحها أي : لا تذهب عقولهم بسكرها .

﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ أي : يختارون ويرتضون ، وأصله أخذ الخيار والخير .

قال ابن كثير : وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخيّر لها ، ثم استشهد له بحديث عكراش لما أتي النبي صلى الله عليه وسلم بثريد ، وأقبل عكراش يخبط بيده في جوانبه فقبض النبي صلى الله عليه وسلم بيده وقال : < يا عكراش ! كل من موضع واحد ، فإنه طعام واحد > . ثم أتي بطبق فيه تمر أو رطب ، فجعل عكراش يأكل من بين يديه ، وجالت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطبق فقال : < يا عكراش ! كل من حيث شئت ، فإنه لون واحد > رواه الترمذي واستغربه .

﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي : يتمنون ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ أي : وأزواج بيض واسعة الأعين . عطف على ﴿ وِلْدَانٍ ﴾ أو مبتدأ محذوف الخبر . أي : وفيها . أو ولهم حور . وقرئ بالجرّ عطف على ﴿ بِأَكْوَابٍ ﴾ قال الشهاب : وحينئذ إما أن يقال :

﴿ يَطُوفُ ﴾ بمعنى ينعمون مجازاً أو كناية . على حد قوله :

~وزَجّجْنَ الحَوَاجِبَ والْعُيُونا

(333/745)

أو يبقى على حقيقته ، وظاهره وأن الولدان تطوف عليهم بالحور أيضاً ، لعرض أنواع اللذات عليهم من المأكول والمشروب والمنكوح ، كما تأتي الخدام بالسراري للملوك ويعرضونهم عليهم . وإلى هذا ذهب أبو عمرو وقطرب وجوّز جعله من الجر الجواري . قيل : والفصل يأباهُ ويضعفه . وأما عطفه على ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ بتقدير مضاف أي : هم في جنات .

ومصاحبة حور فقال أبو حيّان : هو فهم أعجمي ، فيه بُعد وتفكيك للكلام المرتبط ، وهو ظاهر . ومن عصّبهُ فقد تعصّب .

﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ أي : صفاؤهن كصفاء الدرّ في الأصداف الذي لا تمسّه الأيدي وأصل ﴿ الْمَكْنُونِ ﴾ الذي صين في كنّ .

﴿ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : من الصالحات .

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾ أي : هذياناً وكلاماً غير مفيد ، باطلاً من القول .

﴿ وَلَا تَأْثِيماً ﴾ أي : ما يؤثم من الفحش والكذب والغيبة وأمثالها .

﴿ إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً ﴾ قال القاشاني : أي : قولاً هو سلام في نفسه منزّه عن النقائص ، مبرأ عن الفضول والزوائد ، أو قولاً يفيد سلامة السامع من العيوب والنقائص ، ويوجب سروره وكرامته ، ويبين كماله وبهجته ، لكون كلامهم كله معارف وحقائق ، وتحايا ولطائف ، على اختلاف وجهي الإعراب ، أي : من كون ﴿ سَلَاماً ﴾ بدلاً من ﴿ قِيلاً

﴿ أو مفعوله . والتكرير للدلالة على فشوّ السلام بينهم وكثرته ، لأن المراد : سلاماً بعد سلاماً ، كقرأت النحو باباً باباً ، فيدلّ على تكرّره وكثرته .

(334/745)

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاء مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ [27 - 40]

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ أي : أي : شيء هم ! أي : هم شرفاء ، عظماء كرماء ، يتعجب من أوصافهم في السعادة .

﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ أي : لا شوك له ، أو موقَر بالثمار .

﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ يعني شجر الموز الذي نضد ثمره من أسفله إلى أعلاه . قال مجاهد : كانوا يعجبون بوجّ من طلحه وسدره . وشجرة الموز ثمرتها حلوة دسمة لذيذة لا نوى لها .

﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ أي : ممتد منبسط لا يتقلّص .

﴿ وَمَاء مَّسْكُوبٍ ﴾ أي : مصبوب دائم الجريان .

﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ﴾ أي : لا تنقطع عنهم متى أرادوها ، لكونها غير متناهية ، ﴿ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ أي : لا تمنع عن طالبها . والقصد مباينتها لفاكهة الدنيا ، فإنها تنقطع أحياناً ، كفاكهة الصيف في الشتاء ، وتمتنع أحياناً لعزتها أو جدبها .

(335/745)

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أي : مرتفعة في منازلها ، أو على الأرائك للرقود والمضاجعة . وقد يؤيده تأثره بوصف من يضاجعهن فيها . وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء ﴾ أي : بديعاً فائق الوصف . فالضمير يعود على ما فهم من السياق والسباق . وقيل : قد يكنى عن الحور بالفرش ، كما يكنى عنهن باللباس ، فالضمير المذكور على طريق الاستخدام ، إذ عاد إلى الفرش بمعنى النساء ، بعد إرادة معناها المعروف منها . وقيل : على طريق الحقيقة ، أي : مرفوعة على الأرائك . كآية ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ ﴾ [يس : 56] .

﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً ﴾ أي : لم يطمثن .

﴿ عُرُباً ﴾ جمع عروب ، وهي المتحببة إلى زوجها المحبوبة لتبعلها ﴿ أَتْرَاباً ﴾ أي : على سن واحدة .

﴿ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ ، متعلق بـأنشأنا ، أو جعلنا ، أو صفة لـ ﴿ أَبْكَاراً ﴾ أو خبر لمحذوف ، مثل هن .

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ أي : جماعة وأمّة من المتقدمين في الإيمان ، وممن جاء بعدهم من التابعين لهم بإحسان من هذه الأمة . والكثرة ظاهرة لوفرة أصحاب اليمين في أواخرهم دون السابقي ، كما بينا أولاً .

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ [41 - 48]

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ أي : حر نار ينفذ في المسامّ .

﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ أي : ماء متناهي الحرارة .

(336/745)

﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ أي : من دخان أسود ، طبق أهويتهم المردية ، وعقائدهم الفاسدة ، وهيئات نفوسهم المسودة ، بالصفات المظلمة ، والهيئات السود الرديئة .

﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ أي : ليس له صفتا الظل الذي يأوي إليه الناس من الروح ، ونفع من يأوي إليه بالراحة ، بل له إيذاء وإيلام وضرّ ، بإيصال التعب واللهب والكرب .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ أي : منهمكين في اللذات والشهوات ، منغمسين في الأمور الطبيعية ، والغواشي البدنية ، فبذلك اكتسبوا هذه الهيئات الموبقة ، والتبعات المهلكة .

﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ أي : الذنب العظيم من الأقاويل الباطلة والعقائد الفاسدة ، التي استحقوا بها العذاب المخلد ، والعقاب المؤبد . وفسرهُ السبكي بالقسم على إنكار البعث المشار إليه بقوله تعالى :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل : 38] ، قال الشهاب : وهو تفسير حسن ، لأن الحنث ، وإن فسر بالذنب مطلقاً أو الذنب العظيم ، فالمعروف استعماله في عدم البر بالقسم ، ولذا تأثره بما كانوا يعتقدونه من إنكار البعث بقوله : ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾

﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [49 – 56]

﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي : معين عنده تعالى ، وهو يوم القيامة .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴾ أي : الجاهلون المصرُّون على جهالاتهم ، والجاحدون للبعث .

﴿ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ وهو من أخبث شجر البادية في المرارة ، وبشاعة المنظر ، ونتن الريح .

﴿ فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ أي : من ثمراتها الوبيئة البشعة المرقة .

﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾ أي : الماء الذي انتهى حرهُ وغليانهُ . قال الزمخشري : وأنث ضمير الشجر على المعنى ، وذكّره على اللفظ في قوله : ﴿ مِنْهَا ﴾ و ﴿ عَلَيْهِ ﴾

﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ أي : الإبل التي بها الهيام ، وهو داء لا ريّ معه ، لشدة الشغف والكلب بها .

﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أي : جزاؤهم في الآخرة ، وفيه مبالغة بديعة ، لأن النزل ما يعدّ للقادم عاجلاً إذا نزل ، ثم يؤتى بعده بما هو المقصود من أنواع الكرامة ، فلما جعل هذا ، مع أنه أمر مهول ، كالنزل ، دلّ على أن بعده ما لا يطيق البيان شرحه ، وجعله نزلاً مع أنه ما يكرم به النازل متهكماً ، كما في قوله :

~وكنا إذا الجبارُ بالجيش ضافَنا جعلنا القَنَا والمرْهَفَاتِ لهُ نُزْلاً

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [57 - 62]

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ أي : معشر قريش والمكذبين بالبعث ، فأوجدناكم بشراً ، ولم تكونوا شيئا ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ أي : بالخلق ، وهم وإن كانوا مقرين به لقوله :

(338/745)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان : 25] إلا أنه نزل منزلة العدم والإنكار ؛ لأنه إذا لم يقترن بالطاعة والأعمال الصالحة ، لا يعد تصديقاً ، أو المعنى : فلولا تصدقون البعث ، فإن من قدر على الإبداء ، قدر على الإعادة .

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾ أي : ما تقذفونه في الرحم من النطف .

﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ أي : بجعله بشراً سويّاً .

﴿ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ أي : بإفاضة الصورة الْإِنْسَانية عليه .

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾ أي : كتبنا على كل نفس ذوقه ، أي : ومن سبيله ذلك

فشأنه أن يرهب من نزوله ، ويتأهب لما يخوّف به من بعده ، والجملة مقررة لما قبلها بإيذان أنهم في قبضة القدرة ، فلا يغترون بالإمهال ، بدليل ما قدره عليهم من الموت . وفي قوله تعالى :

﴿ بَيْنَكُم ﴾ زيادة تنبيه ، كأنه بين ظهرانيهم ، ثم أكد ما قرره بقوله تعالى :

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي : بمغلوبين .

﴿ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ﴾ أي : بعد مهلككم ، فنجيء بآخرين من جنسكم ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من صور وأشكال أخرى ، فكيف نعجز عن إعادتكم ؟

قال الشهاب : والظاهر أن قوله :

﴿ وَنُنشِئَكُمْ ﴾ المراد به إذا بدلناكم بغيركم ، لا في الدار الآخرة ، كما توهم ، وهذا كقوله تعالى :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ [النساء : 133] ، ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى ﴾ أي : أنه أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : فتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة ، وهي البداءة قادر على النشأة الأخرى ، وهي الإعادة ، وأنها أهون عليه .

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [63 – 67]

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ أي : ما تحرثون الأرض لأجله ، وهو الحب . والحرث : شق الأرض للزراعة ، وإثارتها ، وإلقاء البذر فيها .

﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ ﴾ أي : تنبتونه ﴿ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ أي : المنبتون ، وعن بعض السلف أنه كان إذا قرأ هذه الآية وأمثالها يقول : بل أنت يل ربّ ! ﴿ لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً ﴾ أي : أيبسناه قبل استوائه واستحصاده . وأصل الحطام ما تحطم وتفتت لشدة يبسه .

﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ أي : تعجبون من هلاكه ويبسه بعد خضرته . أو تندمون على اجتهادكم فيه الذي ضاع وخسر . أو تفكهون على ما أصبتم لأجله من المعاصي ، فتتحدثون فيه . والتفكه : التنقل بصنوف الفاكهة ، وقد استعير للتنقل بالحديث ، لأنه ذو شجون .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ مقول قول مقدّر ، هو حال ، أي : قائلين ، أو يقولون : إنا لمغرمون ، أي : ملزمون غرامة ما أنفقن ، أو مهلكون لهلاك رزقنا . من الغرام بمعنى الهلاك قال :

~إن يعذّب يكن غراماً وإن يعط جزيلاً فإنه لا يُبالي

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي : حرمنا رزقنا .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [68 - 70]

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ يعني العذب الصالح للشرب .

﴿ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾ أي : السحاب المعبر عنه بالسماء في غير ما آية ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ أي : لكم إلى قرار الأرض ، ومسلكوه ينابيع فيها .

(340/745)

﴿ لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً ﴾ أي : ملحاً لا يصلح لشرب ولا زرع ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ أي : نعمة الله عليكم في جعله عذباً فراتاً ، لشربكم وزرعكم ، وصلاح معايشكم ومنافعكم .

لطيفة :

قال الإمام ابن الأثير في " المثل السائر " في النوع الحادي عشر من المقالة الثانية ، في بحث ورود لام التوكيد في الكلام ، وأنها لا تجيء إلا لضرب من المبالغة ، في سر مجيء اللام في قوله

تعالى : ﴿ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً ﴾ دون قوله : ﴿ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً ﴾ ما مثاله :

أدخلت اللام في آية المطعوم ، دون آية المشروب ، وإنما جاءت كذلك ؛ لأن جعل الماء العذب ملحاً أسهل إمكاناً في العرب والعادة ، والموجود من الماء الملح ، أكثر من الماء العذب ، وكثيراً ما إذا جرت المياهُ العذبة على الأراضي المتغيرة التربة ، أحالتها إلى الملوحة ؛ فلم يحتج في جعل الماء العذب ملحاً إلى زيادة تأكيد ؛ فلذلك لم تدخل عليه لام التأكيد المفيدة زيادة التحقيق . وأم المطعوم فإنه جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد ، وإذا وقع فلا يكون إلا عن سخط من الله شديد ؛ فلذلك قرن بلام التأكيد ، زيادة في تحقيق أمره ، وتقرير إيجاده . انتهى .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [71 - 74]

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ أي : تقدحون ، أي : تستخرجونها من الزند ، وهو العود الذي تقدح منه .

﴿ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُونَ ﴾ أي : بل نحن جعلناها مودعة في موضع . وللعرب شجرتان : إحداهما المرخ ، والأخرى العفار ، إذا أخذ منهما غصنان أخضران فَحُك أحدهما بالآخر ، تباين من بينهما شرر النار . وقد تقدم بيانه في آخر سورة يس .

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ أي : جعلنا نار الزناد تبصرة في أمر البعث ؛ لأن من أخرج النار من الشجر الأخضر المضاد لها ، قادر على إعادة ما تفرقت مواده ، أو تذكيراً لنار جهنم ﴿ وَمَتَاعاً ﴾ أي : منفعة ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ أي : المسافرين الذين ينزلون القواء ، وهي القفر . يقال : أقوى إذا نزل القواء ، كأصحر إذا دخل الصحراء ، فإن الإفعال يكون للدخول في معنى مصدر مجرده . وعن مجاهد : المقوين المستمتعين ، المسافر والحاضر . وعن ابن زيد : هم الجائعون ، تقول العرب : أقويت منه كذا وكذا ، أي : ما أكلت منه . وأقوت الدار : خلت من ساكنيها وانتفاعهم بها ، لأنهم يطبخون بها . ولشدة احتياجهم له ، خصوا بالذكر مع انتفاع غيرهم بها .

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أي : سبّح اسمه ، قال الزمخشري : بأن تقول : سبحان الله ، إما تنزيهاً له عما يقول الظالمون الذين يجحدون وحدانيته ، ويكفرون نعمته ، وإما تعجباً من أمرهم في غمط آلائه وأياديه الظاهرة ، وإما شكراً لله على النعم التي عدها ونبه عليها .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [75 – 79]

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ أي : منازل الكواكب ومركزها البهيجة في السماء . أو

بمساقطها ومغاربها ، وهي أوقات غيبتها عن الحواس ، أو بمساقطها وانتشارها يوم القيامة . و ﴿ لا ﴾ في ﴿ لَا أُقْسِمُ ﴾ إما مزيدة للتأكيد . وتقوية الكلام ، وقد عهدت زيادتها في كلامهم ، كما أوضحه في " فقه اللغة " وإما لا أقسم بتمامها صيغة من صيغ القسم ، على ما ارتضاه بعض المحققين .

﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ أي : لما في القسم من الدلالة على عظيم القدرة ، وكمال الحكمة .

(342/745)

﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ أي : له كرم وشرف وقدر رفيع لاشتماله على أمهات الحكم والأحكام ، وما تنطبق عليه حاجات الأنام على الدوام .

﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ أي : محفوظ مصون ، لا يتغير ولا يتبدل . أو محفوظ عن ترداد الأيدي عليه ، كغيره من الكتب ، بل هو كالدر المصون إلا عن أهله ، كما قال : ﴿ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ اعلم أن في الآية أقوالاً عديدة مرجعها إلى أن المس مجاز أو حقيقة ، وأن الضمير عائد للكتاب بمعنى الوحي المتلقى ، أو المصحف ، وأن ﴿ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ هم الملائكة ، أو المتطهرون من الأحداث والأخباث ؛ وذلك لاتساع ألفاظهما الكريمة ، لما ذكر

بطريق الاشتراك أو الحقيقة والمجاز ، وهاك ملخص ذلك ولبابه :

فأما أكثر المفسرين ، فعلى أنه عني بالآية الملائكة . فنفي مسّه كناية عن لازمه ، وهو نفي الاطلاع عليه ، وعلى ما فيه . والمراد بالمطهرين حينئذ إما جنس الملائكة ، أو من نزل به وهو روح القدس . وطهارتهم نقاء ذواتهم عن كدورات الأجسام ، ودنس الهيولى ، أو عن المخالفة والعصيان .

وقال ابن زيد : زعمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه : ﴿ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ كما قال :

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ [الشعراء : 210 - 212] . انتهى . قال ابن كثير : وهذا القول قول جيد .

وقال الفرّاء : لا يجد طعمه ولا نفعه إلا من آمن به . ومثله قول محمد بن الفضل : لا يقرؤه إلا الموحدون .

فنفي مسّه كناية عن ترك تقبّله ، والاهتداء به ، والعناية به ، فإن مسّ الشيء سبب حب الملموس ، وأثر الإقبال عليه ، ورائد الانصياع له ، والطهارة حينئذ هي نظافة القلب من دنس الشرك والنفاق ، والملكات الرديئة ، والغرائز الفاسدة .

وقال آخرون : عني بـالمطهرين المتطهرون من الجنابة والحدث ، قالوا : ولفظ الآية خبر ، ومعناها النهي ، إشارة إلى أن تلك الصفة طبيعة من طبائعه ، ولازم من لوازمه ، لشرفه وعظم شأنه .

قالوا : والمراد بـالكتاب المصحف ، واحتجوا بما رواه الإمام مالك في " موطئه " عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم : < أن لا يمس القرآن إلا طاهر > . وبما روى الدارقطني في قصة إسلام عمر ، أن أخته قالت له قبل أن يسلم : إنه رجس و ﴿ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ إلا أن فيهما مقالاً بيَّنه الحافظ ابن حجر في " تلخيص الحبير " وأشار له ابن كثير أيضاً . ومع ذلك فالدلالة ليست قطعية ، وقد أوضح ذلك الشوكاني في " نيل الأوطار " وعبارته :

(344/745)

الطاهر يطلق بالاشتراك على المؤمن ، والطاهر من الحدث الأكبر والأصغر ، ومن ليس على بدنه نجاسة . ويدل لإطلاقه على الأول قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة : 28] ، وقوله صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة : < المؤمن لا ينجس > . وعلى

الثاني : ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ ﴾ [المائدة : 6] ، وعلى الثالث : قوله صلى الله عليه وسلم في المسح على الخفين : < دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين > ، وعلى الرابع : الإجماع على أن الشيء الذي ليس عليه نجاسة حسية ولا حكمية يسمى طاهراً . وقد ورد إطلاق ذلك في كثير . فمن أجاز حمل المشترك على جميع معانيه ، حمله عليه هنا . والمسألة مدونة في الأصول ، وفيها مذاهب ، والذي يترجح أن المشترك مجمل فيها ، فلا يعمل به حتى يبين . وقد وقع الإجماع على أنه لا يجوز للمحدث حدثاً أكبر أن يمس المصحف ، وخالف في ذلك داود ، واستدل المانعون للجنب بقوله تعالى : ﴿ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ وهو لا يتم إلا بعد جعل الضمير راجعاً إلى القرآن ، والظاهر رجوعه إلى الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ ، لأنه الأقرب . و ﴿ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ الملائكة . ولو سلم عدم الظهور ، فلا أقل من الاحتمال ، فيمتنع العمل بأحد الأمرين ، ويتوجه الرجوع إلى البراءة الأصلية . ولو سلم رجوعه إلى القرآن على التعيين ، لكانت دلالته على المطلوب ، وهو منع الجنب من مسه ، غير مسلمة ؛ لأن المطهر من ليس بنجس ، والمؤمن ليس بنجس دائماً ، لحديث : < المؤمن لا ينجس > وهو متفق عليه ؛ فلا يصح حمل المطهر على من ليس بجنب أو حائض أو محدث أو متنجس بنجاسة عينية ، بل تعين حمله على من ليس بمشرك ، كما في قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ لهذا الحديث ، ولحديث النهي عن السفر بالقرآن إلى أرض العدوّ . ولو سلم صدق اسم الطاهر على من ليس بمحدث حدثاً أكبر أو أصغر ، فقد عرفت أن الراجح كون المشترك مجملاً في معانيه ، فلا يعين حتى يبين ، وقد دل الدليل ها هنا أن المراد به غيره لحديث < المؤمن لا ينجس > ، ولو سلم عدم وجود دليل يمنع من إرادته ، لكان تعيينه لمحل النزاع ترجيحاً بلا مرجح ، وتعيينه لجميعها استعمالاً للمشترك في جميع معانيه ، وفيه الخلاف ، ولو سلم رجحان القول بجواز الاستعمال في جميع معانيه ، لما صح ، لوجود المانع ، وهو حديث : < المؤمن لا ينجس > . واستدلوا أيضاً بحديث عمرو بن حزم المتقدم ، وأجيب بأنه غير صالح للاحتجاج ؛ لأنه من صحيفة غير مسموعة ، وفي رجال إسناده خلاف شديد ، ولو سلم صلاحيته للاحتجاج ، لعاد البحث السابق في لفظ طاهر ، وقد عرفته .

قال السيد العلامة محمد بن إبراهيم الوزير : إن إطلاق اسم النجس على المؤمن الذي ليس بطاهر من الجنابة أو الحيض أو الحدث الأصغر ، لا يصح حقيقة ولا مجازاً ولا لغةً . صرح بذلك في جواب سؤال ورد عليه . فإن ثبت هذا فالمؤمن طاهر دائماً ، فلا يتناوله الحديث ، سواء كان جنباً أو حائضاً أو محدثاً ، أو على بدنه نجاسة . فإن قلت : إذا تم ما تريد من حمل الطاهر على من ليس بمشرك ، فما جوابك فيما ثبت في المتفق عليه من حديث ابن

عباس أنه صلى الله عليه وسلم كتب إلى هرقل عظيم الروم : < أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين . و ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ﴾ إلى قوله ﴿ مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 64] > ، مع كونهم جامعين بين نجاستي الشرك والاجتناب ووقوع اللمس منهم له معلوم ؟

(346/745)

قلت : أجعله خاصة بمثل الآية والآيتين ، فإنه يجوز تمكين المشرك من مس ذلك المقدار لمصلحة ، كدعائه إلى الإسلام . ويمكن أن يجاب عن ذلك بأنه قد صار باختلاطه بغيره لا يحرم لمسه ، ككتب التفسير ، فلا تخصص به الآية والحديث . إذا تقرر لك هذا عرفت عدم انتهاض الدليل على منع من عدا المشرك . وقد عرفت الخلاف في الجنب . وأما المحدث حدثاً أصغر ، فذهب ابن عباس والشعبي والضحاك وزيد بسلف ، والمؤيد بالله والهادوية وقاضي القضاة وداود إلى أنه يجوز له مس المصحف . وقال القاسم وأكثر الفقهاء والإمام يحيى : لا يجوز واستدلوا بما سلف ، وقد سلف ما فيه . انتهى كلام الشوكانيّ .

تنبيه في لطف دلالة هذه الآية وما تشير إليه من العلم المكنون :

قال الإمام ابن القيم في " إعلام الموقعين " في مباحث أمثال القرآن الكريم ، ما مثاله : الواجب فيما علق عليه الشارع الأحكام من الألفاظ والمعاني أن لا يتجاوز بألفاظها ومعانيها ، ولا يقصّر بها ، ويعطي اللفظ حقه ، والمعنى مدح الله تعالى أهل الاستنباط في كتابه ، وأخبر أنهم أهل العلم ، ومعلوم أن الاستنباط إنما هو استنباط المعاني ، والعلل ونسبة بعضها إلى بعض ، فيعتبر ما يصح منها بصحة مثله وشبهه ونظيره ، ويلغى ما لا يصح ، هذا الذي يعقله الناس من الاستنباط .

(347/745)

قال الجوهري : الاستنباط كالاستخراج . ومعلوم أن ذلك قدر زائد على مجرد فهم اللفظ فإن ذلك ليس طريقة الاستنباط ؛ إذ موضوعات الألفاظ لا تنال بالاستنباط ، وإنما تنال به العلل والمعاني والأشباه والنظائر ، ومقاصد المتكلم . والله سبحانه ذم من سمع ظاهراً مجرداً فأذاعه وأفشاه ، وحمد من استنبط من أولي العلم حقيقة ومعناه يوضحه أن الاستنباط استخراج الأمر الذي من شأنه أن يخفى على غير مستنبطه ، ومنه استنباط الماء من أرض البئر والعين . ومن هذا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد سئل : هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء دون الناس ؟ فقال : لا ، والذي فلق

الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه ! ومعلوم أن هذا الفهم قدر زائد على معرفة موضوع اللفظ وعمومه أو خصوصه ، فإن هذا قدر مشترك بين سائر من يعرف لغة العرب ، وإنما هذا فهم لوازم المعنى ونظائره ، ومراد المتكلم بكلامه ، ومعرفة حدود كلامه ، بحيث لا يدخل فيها غير المراد ولا يخرج منها شيء من المراد . وأنت إذا تأملت قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ وجدت الآية من أظهر الأدلة على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن القرآن جاء من عند الله ، وأن الذي جاء به روح مطهرة ، فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل . ووجدت الآية أخت قوله : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [الشعراء : 210 - 211] ، ووجدتها دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر ، ووجدتها دالة أيضاً بألطف الدلالة على أنه لا يجد حلاوته وطعمه إلا من آمن به وعمل به ، كما فهمه البخاري من الآية ، فقال في صحيحه في باب : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا ﴾ [آل عمران : 93] ، ﴿ لَا يَمَسُّهُ ﴾ لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن ، ولا

يحمله بحقه إلا المؤمن لقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [الجمعة : 5] ، وتجد تحته أيضاً لا ينال معانيه ويفهمه كما ينبغي ، إلا القلوب الطاهرة ، وإن القلوب النجسة ممنوعة من فهمه ، مصروفة عنه ، فتأمل هذا السبب القريب ، وعقد هذه الأخوة بين هذه المعاني وبين المعنى الظاهر من الآية ، واستنباط هذه المعاني كلها من الآية بأحسن وجه وأبينه ، فهذا من الفهم الذي أشار إليه عليّ رضي الله عنه . انتهى .

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [80 - 82]

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : الذي رباهم بالكمالات ، وهداهم إليها بتنزيلها منه .

﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعني القرآن الذي قص عليكم فخامة شأنه ، وعظمة مقداره ﴿ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾ قال ابن جرير : أي : تلينون القول للمكذبين ، مما لأة منكم لهم على التكذيب به والكفر . وأصل الادهان - كما قال الشهاب - جعل الأديم ونحوه مدهوناً بشيء من الدهن ، ولما كان ذلك ملينا له محسوساً ، أريد به اللين المعنويّ ، على أنه تجوز به عن مطلق اللين ، أو استعير لهُ ؛ ولذا سميت المداراة والملاينة مداهنة . وهذا مجاز معروف ، ولشهرته صار حقيقة عرفيه ، فلذا تجوز به هنا عن التهاون أيضاً ؛ لأن المتهاون بالأمر لا يتصلب فيه .

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي : شكر رزقكم إياه تكذيبكم به ، كفراً لنعمته ، وجحداً لمنته .

قال ابن جرير : أي : وتجعلون شكر الله على رزقه إياكم التكذيب ، وذلك كقول القائل للآخر :

~ جعلت إحساني إليك إساءة منك إليّ

بمعنى جعلت شكر إحساني أو ثواب إحساني إليك ، إساءة منك إليّ .

(349/745)

وقد ذكر عن الهيثم بن عديّ : أن من لغة أزدشنوءة : ما رزق فلان ، بمعنى ما شكر . انتهى .

وقد حمل بعضهم الرزق هنا على النعمة مطلقاً ، والأظهر أنه نعمة القرآن ، للسياق .

وقال القاشانيّ : أي : وتجعلون قُوتَكُمُ القلبيّ ورزقكم الحقيقيّ ، تكذيبه ، لاحتجابكم بعلومكم ، وإنكاركم ما ليس من جنسه ، كإنكار رجل جاهل ما يخالف اعتقاده كأن علمه نفس تكذيبه . أو رزقكم الصوريّ ، أي : لمداومتكم على التكذيب ، كأنكم تجعلون التكذيب غذاءكم ، كما تقول للمواظب على الكذب : الكذب غذاؤه .

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [83 - 85]

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ ﴾ أي : النفس ، لدلالة الكلام عليها ﴿ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ أي : حالة نزعه ، أو تنتظرون لفظة النفس الأخير . والخطاب لمن حول المحتضر : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ قال جمهور السلف : يعني ملك الموت أدنى إليه من أهله ، ولكن لا تبصرون الملائكة . أو لا تدركون كنه ، وترجيحيه . وبعضهم فسَّر القرب بالعلم والقدرة . وتقدم بسط الأقوال ، وترجيح الأول في تفسير آية : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : 16] ، في سورة ق ، فارجع إليه فإنه مهم . وهذه الجملة معترضة ، أو حالية كالتي قبلها .

(350/745)

﴿ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [86 - 96]

﴿ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أي : غير مجزيين يوم القيامة . أو مملوكين مقهورين . من دانه أذله واستعبده ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ أي : تردون النفس إلى مقرّها عند بلوغها الحلقوم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي : في أنكم غير مسوسين ، مربوبين مقهورين .

يعني : أنكم مجبرون عاجزون تحت قهر الربوبية ، وإلا لأمكنكم دفع ما تكرهون أشد الكراهية ، وهو الموت ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ ﴾ أي : الميت ﴿ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي : السابقين من الأصناف الثلاثة المذكورة في أول السورة .

﴿ فَرَوْحٌ ﴾ أي : فله راحة ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ أي : رزق طيب ، أو شجر ناضر يتفيأ ظلاله ﴿ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ أي : يتنعم فيها مما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين .

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ قال ابن كثير : أي : تبشرهم الملائكة بذلك تقول لأحدهم : سلام لك ، أي : لا بأس عليك أنت في سلامة ، أنت من أصحاب اليمين .

(351/745)

وقال قتادة وابن زيد : سلم من عذاب الله ، وسلّمت عليه ملائكة الله ، كما قال عكرمة : تسلم عليه الملائكة ، وتخبره أنه من أصحاب اليمين . وهذا معنى حسن . ويكون ذلك

كقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ الآيات [فصلت : 30] . انتهى .

وقال الرازيّ : في السلام وجوه :

أولها : يسلم به صاحب اليمين على صاحب اليمين كما قال تعالى من قبل :

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً ﴾ [الواقعة : 25] .

ثانيها : ﴿ فَسَلَامٌ لَّكَ ﴾ أي : سلامة لك من أمرٍ خاف قلبك منه ، فإنه في أعلى المراتب ، وهذا كما يقال لمن تعلق قلبه بولده الغائب عنه ، إذا كان يخدم عند كريم : كن فارغاً من جانب ولدك ، فإنه في راحة . ثالثها : أن هذه الجملة تفيد عظمة حالهم ، كما يقال : فلان ناهيك به ، وحسبك أنه فلان . إشارة إلى أنه ممدوح فوق حد الفضل . انتهى .

ثم قال الرازيّ :

والخطاب بقوله :

﴿ لَكَ ﴾ يحتمل أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم ، وحينئذ فيه وجه ، وهو ما ذكرنا أن ذلك تسلية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنهم غير محتاجين إلى شيء من الشفاعة وغيرها ؛ فسلام لك يا محمد منهم ، فإنهم في سلامة وعافية ، لا يهمك أمرهم ، أو فسلام لك يا محمد منهم ، وكونهم ممن يسلم على محمد صلى الله عليه وسلم دليل العظمة ، فإن العظيم لا يسلم عليه إلا عظيم . انتهى .

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي : بآيات الله ﴿ الضَّالِّينَ ﴾ أي : الجائرين عن سبيله

.

﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ أي : ماء انتهى حره ، فهو شرابه .

﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ أي : إحراق بالنار .

(352/745)

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي : المذكور من أحوال الفرق الثلاثة وعواقبهم ﴿ لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أي : حقيقة الأمر ، وجلية الحال ، لا لبس فيه ولا ارتياب . والإضافة إما من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أي : الحق اليقين : كما يقال : دار الآخرة ، أو بالعكس ، أي : اليقين الحق . أو من إضافة العام للخاص ، أي : كعلم الأمر اليقين . فالإضافة حينئذ لامية ، أو بمعنى من .

تنبيه :

في " الإكليل " : استدل بالآيات هذه على أن الروح بعد مفارقة البدن منعّمة أو معذّبة ، وعلى أن مقر أرواح المؤمنين في الجنة ، وأرواح الكافرين في النار .

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أي : نزهه عما يصفونه به من الأباطيل ، وما يتفوهون به من الأضاليل ، قولاً وعملاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 16 صـ 5.23 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) ﴾

هذا المطلع واضح فيه التهويل في عرض هذا الحدث الهائل . وهو يتبع أسلوبا خاصا يلحظ فيه هذا المعنى , ويتناسق مع مدلولات العبارة . فمرتين يبدأ بإذا الشرطية يذكر شرطها ولا يذكر جوابها . (إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة) . . ولا يقول: ماذا يكون إذا وقعت الواقعة وقعة صادقة ليس لها كاذبة , وهي خافضة رافعة . ولكن يبدأ حديثا جديدا : (إذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا .) . . ومرة أخرى لا يقول: ماذا يكون إذا كان هذا الهول العظيم . . فكأنما هذا الهول كله مقدمة , لا يذكر نتائجها , لأن نتائجها أهول من أن يحيط بها اللفظ , أو تعبر عنها العبارة !

هذا الأسلوب الخاص يتناسب مع الصورة المروعة المفزعة التي يرسمها هذا المطلع بذاته . فالواقعة بمعناها وبجرس اللفظ ذاته – بما فيه من مد ثم سكون – تلقى في الحس كأنما هي ثقل ضخم ينقض من عل ثم يستقر , لغير ما زحزحة بعد ذلك ولا زوال ! (ليس لوقعتها

كاذبة) . .

ثم إن سقوط هذا الثقل ووقوعه , كأنما يتوقع له الحس أرجحة ورجرجة يحدثها حين يقع . ويلبي السياق هذا التوقع فإذا هي: (خافضة رافعة) . . وإنها لتخفض أقدارا كانت رفيعة في الأرض , وترفع أقدارا كانت خفيضة في دار الفناء , حيث تختل الاعتبارات والقيم ; ثم تستقيم في ميزان الله .

ثم يتبدىء الهول في كيان هذه الأرض . الأرض الثابتة المستقرة فيما يحس الناس . فإذا هي ترج رجا – وهي حقيقة تذكر في التعبير الذي يتسق في الحس مع وقع الواقعة – ثم إذا الجبال الصلبة الراسية تتحول – تحت وقع الواقعة – إلى فتات يتطاير كالهباء . . (وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا) . . فما أهول هذا الهول الذي يرج الأرض رجا , ويبس الجبال بسا , ويتركها هباء منبثا . وما أجهل الذين يتعرضون له وهم مكذبون بالآخرة , مشركون بالله , وهذا أثره في الأرض والجبال !

(354/745)

وهكذا تبدأ السورة بما يزلزل الكيان البشري , ويهول الحس الإنساني , تجاه القضية التي ينكرها المنكرون ,

وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (7) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (9) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (14) عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16)

ويكذب بها المشركون . وينتهي هذا المشهد الأول للواقعة لنشهد آثارها في الخفض والرفع , وفي أقدار البشر ومصائرهم الأخيرة:

(وكنتم أزواجا ثلاثة . فأصحاب الميمنة . ما أصحاب الميمنة ؟ وأصحاب المشأمة . ما أصحاب المشأمة ؟ والسابقون السابقون . . .)

ونجد الناس هنا أصنافا ثلاثة – لا صنفين اثنين كما هو السائد في مشاهد الاستعراض القرآنية – ويبدأ بالحديث عن أصحاب الميمنة – أو أصحاب اليمين – ولكنه لا يفصل عنهم الحديث إنما يصفهم باستفهام عنهم للتهويل والتضخيم: (فأصحاب الميمنة . ما أصحاب الميمنة ؟) . وكذلك يذكر أصحاب المشأمة بنفس الأسلوب . ثم يذكر الفريق الثالث , فريق السابقين , يذكرهم فيصفهم بوصفهم: (والسابقون السابقون) . . كأنما ليقول إنهم هم هم . وكفى . فهو مقام لا يزيده الوصف شيئًا !

ومن ثم يأخذ في بيان قدرهم عند ربهم , وتفصيل ما أعده من النعيم لهم , وتعديد أنواعه التي يمكن أن يدركها حس المخاطبين , وتتناوله معارفهم وتجاربهم:

(355/745)

(أولئك المقربون . في جنات النعيم . ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين . على سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون . بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزاء بما كانوا يعملون . لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا: سلاما سلاما) . .

إنه يبدأ في بيان هذا النعيم , بالنعيم الأكبر . النعيم الأسنى . نعيم القرب من ربهم: (أولئك المقربون في جنات النعيم) . . وجنات النعيم كلها لا تساوي ذلك التقريب , ولا تعدل ذلك النصيب .

(356/745)

ومن ثم يقف عند هذه الدرجة ليقول من هم أصحابها . . إنهم: (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) . . فهم عدد محدود . وفريق منتقى . كثرتهم في الأولين وقلتهم في الآخرين .

واختلفت الروايات في من هم الأولون ومن هم الآخرون . فالقول الأول: إن الأولين هم السابقون إلى الإيمان ذوو الدرجة العالية فيه من الأمم السابقة قبل الإسلام . وإن الآخرين هم السابقون إلى الإسلام ذوو البلاء فيه . . والقول الثاني: إن الأولين والآخرين هم من أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) فالأولون من صدرها , والآخرون من متأخريها . وهذا القول الثاني رجحه ابن كثير . وروى في ترجيحه للحسن وابن سيرين: قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد ابن الصباح, حدثنا عفان, حدثنا عبد الله بن أبي بكر المزني, سمعت الحسن أتى على هذه الآية: (والسابقون السابقون أولئك المقربون) فقال: "أما السابقون فقد مضوا ولكن اللهم اجعلنا من أصحاب اليمين" . . ثم قال: حدثنا أبي, حدثنا أبو الوليد, حدثنا السري بن يحيى . قال: قرأ الحسن: (والسابقون السابقون . أولئك المقربون في جنات النعيم . ثلة من الأولين) . . قال: " ثلة ممن مضى من هذه الأمة" . . وحدثنا أبي, حدثنا عبد العزيز بن المغيرة المنقري, حدثنا أبو هلال, عن محمد بن سيرين, أنه قال في هذه الآية: (ثلة من الأولين, وقليل من الآخرين) . . قال: كانوا يقولون, أو يرجون, أن يكونوا كلهم من هذه الأمة .

وبعد بيان من هم يأخذ في تفصيل مناعم الجنة التي أعدت لهم . وهي بطبيعة الحال المناعم التي في طوقهم أن يتصوروها ويدركوها ; ووراءها مناعم أخرى يعرفونها هنالك يوم يتهيأون لإدراكها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر !

(على سرر موضونة) . . مشبكة بالمعادن الثمينة . (متكئين عليها متقابلين) . في راحة وخلو بال من الهموم

(357/745)

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (18) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (19) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً (25) إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً (26) وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (27) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (28) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (29) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (30) وَمَاء مَّسْكُوبٍ (31) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (33) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (34) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء (35) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً (36) عُرُباً أَتْرَاباً (37) لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ (38) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (39) وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (40)

(358/745)

والمشاغل , وفي طمأنينة على ما هم فيه من نعيم , لا خوف من فوته ولا نفاده وفي إقبال بعضهم على بعض يتسامرون . . (يطوف عليهم ولدان مخلدون) . . لا يفعل فيهم الزمن , ولا تؤثر في شبابهم وصباحتهم السن كأشباههم في الأرض . يطوفون عليهم(بأكواب وأباريق وكأس من معين) . . من خمر صافية سائغة(لا يصدعون عنها ولا ينزفون) . . فلا هم يفرقون عنها ولا هي تنفد من بين أيديهم . فكل شيء هنا للدوام والأمان . (وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون) . . فهنا لا شيء ممنوع , ولا شيء على غير ما يشتهي السعداء الخالدون . (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون) . . واللؤلؤ المكنون هو اللؤلؤ المصون , الذي لم يتعرض للمس والنظر , فلم تثقبه يد ولم تخدشه عين ! وفي هذا كناية عن معان حسية ونفسية لطيفة في هؤلاء الحور الواسعات العيون . وذلك كله: (جزاء بما كانوا يعملون) . . فهو مكافأة على عمل كان في دار العمل . مكافأة يتحقق فيها الكمال الذي كان ينقص كل المناعم في دار الفناء . ثم هم بعد ذلك كله يحيون في هدوء وسكون , وفي ترفع وتنزيه عن كل لغو في الحديث , وكل جدل وكل مؤاخذة: (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا: سلاما سلاما) . . حياتهم كلها سلام . يرف عليها السلام . ويشيع فيها السلام . تسلم عليهم الملائكة في ذلك الجو الناعم الآمن ; ويسلم بعضهم على بعض . ويبلغهم السلام من الرحمن . فالجو كله سلام سلام . .

فإذا انتهى الحديث عن ذلك الفريق السابق المختار , بدأ الحديث عن الفريق الذي

يليه:فريق أصحاب اليمين:

(وأصحاب اليمين . ما أصحاب اليمين ? في سدر مخضود , وطلح منضود . وظل ممدود . وماء مسكوب . وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة . وفرش مرفوعة . إنا أنشأناهن إنشاء . فجعلناهن أبكارا . عربا أترابا . لأصحاب اليمين . ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين) . .

(359/745)

وأصحاب اليمين هم أصحاب الميمنة الذين أشار إليهم تلك الإشارة المجملة في أول السورة . ثم أخر تفصيل نعيمهم , إلى موعده هنا بعد السابقين المقربين . وهو يعيد السؤال عنهم بتلك الصيغة التي تفيد التفخيم والتهويل: (ما أصحاب اليمين ?) . .

ولأصحابنا هؤلاء نعيم مادي محسوس , يبدو في أوصافه شيء من خشونة البداوة , ويلبي هواتف أهل البداوة حسبما تبلغ مداركهم وتجاربهم من تصور ألوان النعيم !

إنهم(في سدر مخضود) . . والسدر شجر النبق الشائك . ولكنه هنا مخضود شوكه ومنزوع . (وطلح منضود) . . والطلح شجر من شجر الحجاز من نوع العضاة فيه شوك . ولكنه هنا منضود معد للتناول بلا كد ولا مشقة . (وظل ممدود , وماء مسكوب) . .

وتلك جميعا من مراتع البدوي ومناعمه , كما يطمح إليها خياله وتهتف بها أشواقه

!(وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة) . . تركها مجملة شاملة بغير تفصيل بعد ما ذكر

الأنواع المعروفة لسكان البادية بالتعيين . (وفرش مرفوعة) . . وهي هنا لا موضونة ولا

ناعمة . وبحسبها أنها مرفوعة . وللرفع في الحس معنيان . مادي ومعنوي يستدعي

أحدهما الآخر , ويلتقيان عند الارتفاع في المكان والطهارة من الدنس . فالمرفوع عن

الأرض أبعد عن نجسها . والمرفوع في المعنى أبعد عن دنسها . ولهذا ينتقل السياق من

الفرش المرفوعة إلى ذكر من فيها من الأزواج: (إنا أنشأناهن إنشاء) إما ابتداء وهن الحور .

وإما استئنافا وهن الزوجات المبعوثات شواب: (فجعلناهن أبكارا) لم يمسسن (عربا) . .

متحببات إلى أزواجهن (أترابا) متوافيات السن والشباب . (لأصحاب اليمين) . .

مخصصات لهم . ليتسق ذلك مع (الفرش المرفوعة) . .

فأما أصحاب اليمين هؤلاء فهم (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) . . فهم أكثر عددا من

السابقين المقربين .

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ
(43) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (44) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (45) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى
الْحِنثِ الْعَظِيمِ (46) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47) أَوَ
آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (48) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ
(50) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (52) فَمَالِئُونَ
مِنْهَا الْبُطُونَ (53) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (55) هَذَا
نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (56) نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (57) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (58) أَأَنتُمْ
تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59)

على الاعتبارين الذين ذكرناهما في معنى الأولين والآخرين .

وهنا يصل بنا السياق إلى أصحاب الشمال – وهم أصحاب المشأمة الذين سبقت الإشارة إليهم في مطلع السورة:

وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ؟ في سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم . إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون: أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ قل: إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم . ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم .

فمالئون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم . هذا نزلهم يوم الدين . .

(361/745)

فلئن كان أصحاب اليمين في ظل ممدود وماء مسكوب . . فأصحاب الشمال (في سموم وحميم . وظل من يحموم , لا بارد ولا كريم) . . فالهواء شواظ ساخن ينفذ إلى المسام ويشوي الأجسام . والماء متناه في الحرارة لا يبرد ولا يروي . وهناك ظل ! ولكنه (ظل من يحموم) . . ظل الدخان اللافح الخانق . . إنه ظل للسخرية والتهكم . ظل (لا بارد ولا كريم) . . فهو ظل ساخن لا روح فيه ولا برد ; وهو كذلك كز لا يمنح وراده راحة ولا إنعاشا ! . . هذا الشظف كله جزاء وفاق: (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين) . . وما آلم الشظف للمترفين ! (وكانوا يصرون على الحنث العظيم) . . والحنث الذنب . وهو هنا الشرك بالله . وفيه إلماع إلى الحنث بالعهد الذي أخذه الله على فطرة العباد أن يؤمنوا به ويوحدوه . (وكانوا يقولون: أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ? أو آباؤنا الأولون ?) كانوا . . . هكذا يعبر القرآن , كأنما الدنيا التي فيها المخاطبون قد طويت وانتهت فإذا هي ماض . والحاضر هو هذا المشهد وهذا العذاب ! ذلك أن الدنيا كلها ومضة . وهذا

الحاضر هو العقبى والمآب .

وهنا يلتفت السياق إلى الدنيا في أنسب الأوقات لهذه اللفتة ليرد على سؤالهم ذاك: (قل: إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) . . هو هذا اليوم الحاضر المعروض المشهود !

ثم يعود إلى ما ينتظر المكذبين . فيتم صورة العذاب الذي يلقاه المترفون:

(362/745)

(ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم) . . ولا يدري أحد ما شجرة الزقوم إلا ما وصفها الله به في سورة أخرى من أن طلعها كرؤوس الشياطين . ورؤوس الشياطين لم يرها أحد ولكنها تلقي في الحس ما تلقيه ! على أن لفظ (الزقوم) نفسه يصور بجرسه ملمسا خشنا شائكا مدببا يشوك الأكف – بله الحلوق – وذلك في مقابل السدر المخضود والطلح المنضود – ومع أن الزقوم كرؤوس الشياطين ! فإنهم لآكلون منها (فمالئون منها البطون) . . فالجوع طاغ والمحنة غالبة . . وإن الشوك الخشن ليدفع إلى الماء لتسليك الحلوق وري البطون ! وإنهم لشاربون (فشاربون عليه من الحميم) . . الساخن الذي لا يبرد غله ولا يروي ظمأ . (فشاربون شرب الهيم) . . وهي الإبل المصابة بداء الاستسقاء

لا تكاد ترتوي من الماء !(هذا نزلهم يوم الدين) . . والنزل للراحة والاستقرار . ولكن أصحاب الشمال هذا نزلهم الذي لا راحة فيه ولا قرار ! هذا نزلهم في اليوم الذي كانوا يشكون فيه , ويتساءلون عنه , ولا يصدقون خبر القرآن به . كما كانوا يشركون بالله ولا يخافون وعيده بذلك اليوم المشهود . .

بهذا ينتهي استعراض المصائر والأقدار , يوم تقع الواقعة . الخافضة الرافعة . وينتهي كذلك الشوط الأول من السورة .

فأما الشوط الثاني في السورة فيستهدف بناء العقيدة بكليتها , وإن كان التوكيد البارز فيه على قضية البعث والنشأة الأخرى . وفيه تتجلى طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية , وفي تناول الدلائل الإيمانية , وفي التلطف إلى النفوس في بساطة ويسر , وهو يتناول أكبر الحقائق في صورها القريبة الميسورة . .

(363/745)

إن هذا القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة , قضايا كونية كبرى ; يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود ; وينشيء بها عقيدة ضخمة شاملة وتصورا كاملا لهذا الوجود . كما يجعل منها منهجا للنظر والتفكير ; وحياة للأرواح والقلوب , ويقظة في

المشاعر والحواس . يقظة لظواهر هذا الوجود التي تطالع الناس صباح مساء وهم غافلون عنها ; ويقظة لأنفسهم وما يجري من العجائب والخوارق فيها !

إنه لا يكل الناس إلى الحوادث الفذة الخارقة والمعجزات الخاصة المعدودة . كذلك لا يكلفهم أن يبحثوا عن الخوارق والمعجزات والآيات والدلائل بعيدا عن أنفسهم , ولا عن مألوف حياتهم , ولا عن الظواهر الكونية القريبة منهم المعروفة لهم . . إنه لا يبعد لهم في فلسفات معقدة , أو مشكلات عقلية عويصة , أو تجارب علمية لا يملكها كل أحد . . لكي ينشئ في نفوسهم عقيدة , وتصورا للكون والحياة قائما على هذه العقيدة .

إن أنفسهم من صنع الله ; وظواهر الكون حولهم من إبداع قدرته . والمعجزة كامنة في كل ما تبدعه يده . وهذا القرآن قرآنه . ومن يأخذهم إلى هذه المعجزات الكامنة فيهم والمبثوثة في الكون من حولهم . يأخذهم إلى هذه الخوارق المألوفة لهم , التي يرونها ولا يحسون حقيقة الإعجاز فيها . لأنهم لطول ألفتهم لها غفلوا عن مواضع الإعجاز فيها . يأخذهم إليها ليفتح عيونهم عليها ; فتطلع على السر الهائل المكنون فيها . سر القدرة المبدعة , وسر الوحدانية المفردة , وسر الناموس الأزلي الذي يعمل في كيانهم هم أنفسهم كما يعمل في الكون من حولهم ; والذي يحمل دلائل الإيمان , وبراهين العقيدة , فيبثها في كيانهم , أو يوقظها في فطرتهم بتعبير أدق .

وعلى هذا المنهج يسير في هذا الشوط من السورة ; وهو يعرض عليهم آيات القدرة المبدعة في خلقهم هم أنفسهم . وفي زرعهم الذي تزاوله أيديهم . وفي الماء الذي يشربون . وفي النار التي يوقدون – وهي أبسط ما يقع تحت أبصارهم من مألوفات حياتهم – كذلك يصور لهم لحظة النهاية . نهاية الحياة على هذه الأرض وبدء الحياة في العالم الآخر . اللحظة التي يواجهها كل أحد , والتي تنتهي عندها كل حيلة , والتي تقف الأحياء وجها لوجه أمام القدرة المطلقة المتصرفة وقفة فاصلة , لا محاولة فيها ولا مجال ! حيث تسقط جميع الأقنعة , وتبطل جميع التعلات .

إن طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية تدل بذاتها على مصدره . . إنه المصدر الذي صدر منه الكون . فطريقة بنائه هي طريقة بناء الكون . فمن أبسط المواد الكونية تنشأ أعقد الأشكال , وأضخم الخلائق . . الذرة يظن أنها مادة بناء الكون , والخلية يظن أنها مادة بناء الحياة . . والذرة على صغرها معجزة في ذاتها . والخلية على ضآلتها آية في ذاتها . . وهنا في القرآن يتخذ من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر مادة لبناء أضخم عقيدة دينية وأوسع تصور كوني . . المشاهدات التي تدخل في تجارب كل إنسان: النسل . والزرع . والماء . والنار . والموت . . أي إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات في تجاربه ? أي ساكن كهف لم يشهد نشأة حياة جنينية , ونشأة نبتة .

ومسقط ماء . وموقد نار . ولحظة وفاة ? . . من هذه المشاهدات التي رآها كل إنسان ينشئ القرآن العقيدة , لأنه يخاطب كل إنسان في كل بيئة . . وهذه المشاهدات البسيطة الساذجة هي بذاتها أضخم الحقائق الكونية , وأعظم الأسرار الربانية – بالإضافة إلى الإشارة إلى مواقع النجوم – فهي في بساطتها تخاطب فطرة كل إنسان . وهي في حقيقتها موضوع دراسة أعلم العلماء إلى آخر الزمان:

مواقع النجوم تعني هندسة الكون .

نشأة الحياة الإنسانية . . وهي سر الأسرار .

(365/745)

نشأة الحياة النباتية . . وهي كالحياة الحيوانية معجزة المعجزات .

والماء . . أصل الحياة .

والنار . . المعجزة التي صنعت الحضارة الإنسانية .

هذه الطريقة في تناول الأشياء , وبناء العقيدة والتفكير , ليست طريقة البشر . فالبشر حين يخوضون في هذه المجالات لا يلتفتون إلى هذه المواد الأولية التي هي بذاتها المواد الكونية . وإذا التفتوا إليها لم يتناولوها بهذا اليسر وبهذه البساطة . بل يحاولون وضع المسألة في

قالب فلسفي تجريدي معقد , لا يصلح إلا لخطاب طبقة خاصة من الناس !

أما الله فطريقته هي هذه . . تناول المواد الأولية التي هي بذاتها المواد الكونية . وبناء العقيدة بها في يسر وسهولة . تماما كما يصنع – سبحانه – في تناول المواد الأولية التي هي مواد كونية ويصنع منها الكون . .

هذا من ذاك . وعلامة الصنعة واحدة , واضحة هنا وهناك !

الدرس الثاني: 57 – 62 خلق الناس دليل على البعث والله الخالق

نحن خلقناكم فلولا تصدقون ! أفرأيتم ما تمنون ? أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ? نحن قدرنا بينكم الموت , وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ! . .

إن هذا الأمر أمر النشأة الأولى ونهايتها . أمر الخلق وأمر الموت . إنه أمر منظور ومألوف وواقع في حياة الناس . فكيف لا يصدقون أن الله خلقهم ? إن ضغط هذه الحقيقة على الفطرة أضخم وأثقل من أن يقف له الكيان البشري أو يجادل فيه: (نحن خلقناكم فلولا تصدقون !) . .

(أفرأيتم ما تمنون ? أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ?) . .

إن دور البشر في أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يودع الرجل ما يمني رحم امرأة . ثم ينقطع عمله وعملها . وتأخذ يد القدرة في العمل وحدها في هذا الماء المهين . تعمل وحدها في خلقه وتنميته , وبناء هيكله , ونفخ الروح فيه . ومنذ اللحظة الأولى وفي كل لحظة تالية تتم المعجزة , وتقع الخارقة التي لا يصنعها إلا الله . والتي لا يدري البشر كنهها وطبيعتها ; كما لا يعرفون كيف تقع . بله أن يشاركوا فيها !

وهذا القدر من التأمل يدركه كل إنسان . وهذا يكفي لتقدير هذه المعجزة والتأثر بها .

ولكن قصة هذه الخلية الواحدة منذ أن تمنى , إلى أن تصير خلقا , قصة أغرب من الخيال . قصة لا يصدقها العقل لولا أنها تقع فعلا , ويشهد وقوعها كل إنسان !

هذه الخلية الواحدة تبدأ في الانقسام والتكاثر , فإذا هي بعد فترة ملايين الملايين من الخلايا . كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة ذات خصائص تختلف عن خصائص المجموعات الأخرى ; لأنها مكلفة أن تنشيء جانبا خاصا من المخلوق البشري ! فهذه خلايا عظام . وهذه خلايا عضلات . وهذه خلايا جلد . وهذه خلايا أعصاب . . ثم . . هذه خلايا لعمل عين . وهذه خلايا لعمل لسان . وهذه خلايا لعمل إذن . وهذه خلايا لعمل غدد . . وهي أكثر تخصصا من المجموعات السابقة . . وكل منها تعرف مكان عملها , فلا تخطئ خلايا العين

نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (61) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (62) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65)

(367/745)

مثلا , فتطلع في البطن أو في القدم . مع أنها لو أخذت أخذا صناعيا فزرعت في البطن مثلا صنعت هنالك عينا ! ولكنها هي بإلهامها لا تخطئ فتذهب إلى البطن لصنع عين هناك ! ولا تذهب خلايا الأذن إلى القدم لتصنع أذنا هناك ! . . إنها كلها تعمل وتنشيء هذا الكيان البشري في أحسن تقويم تحت عين الخالق , حيث لا عمل للإنسان في هذا المجال . هذه هي البداية . أما النهاية فلا تقل عنها إعجازا ولا غرابة . وإن كانت مثلها من مشاهدات البشر المألوفة:

(نحن قدرنا بينكم الموت , وما نحن بمسبوقين) . .

هذا الموت الذي ينتهي إليه كل حي . . ما هو ؟ وكيف يقع ؟ وأي سلطان له لا يقاوم ؟ إنه قدر الله . . ومن ثم لا يفلت منه أحد , ولا يسبقه فيفوته أحد . . وهو حلقة في سلسلة النشأة التي لا بد أن تتكامل . .

(على أن نبدل أمثالكم) . .

لعمارة الأرض والخلافة فيها بعدكم . والله الذي قدر الموت هو الذي قدر الحياة . قدر الموت على أن ينشئ أمثال من يموتون , حتى يأتي الأجل المضروب لهذه الحياة الدنيا . .

فإذا انتهت عند الأجل الذي سماه كانت النشأة الأخرى:

وننشئكم فيما لا تعلمون . .

في ذلك العالم المغيب المجهول , الذي لا يدري عنه البشر إلا ما يخبرهم به الله . وعندئذ تبلغ النشأة تمامها , وتصل القافلة إلى مقرها .

هذه هي النشأة الآخرة . . (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون !) . . فهي قريب من قريب . وليس فيها من غريب .

بهذه البساطة وبهذه السهولة يعرض القرآن قصة النشأة الأولى والنشأة الآخرة . وبهذه البساطة وهذه السهولة يقف الفطرة أمام المنطق الذي تعرفه , ولا تملك أن تجادل فيه . لأنه مأخوذ من بديهياتها هي , ومن مشاهدات البشر في حياتهم القريبة . بلا تعقيد . ولا تجريد . ولا فلسفة تكد الأذهان , ولا تبلغ إلى الوجدان . .

إنها طريقة الله . مبدع الكون , وخالق الإنسان , ومنزل القرآن . . .

الدرس الثالث: 63 – 67 ما يزرعونه ويأكلونه فهو من الله لا منهم

ومرة أخرى في بساطة ويسر يأخذ بقلوبهم إلى أمر مألوف لهم , مكرر في مشاهداتهم , ليريهم يد الله فيه ; ويطلعهم على المعجزة التي تقع بين أيديهم , وعلى مرأى من عيونهم , وهم عنها غافلون:

(أفرأيتم ما تحرثون ? أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ? لو نشاء لجعلناه حطاما , فظلتم تفكهون:إنا لمغرمون . بل نحن محرومون) . .

هذا الزرع الذي ينبت بين أيديهم وينمو ويؤتي ثماره . ما دورهم فيه ? إنهم يحرثون ويلقون الحب والبذور التي صنعها الله . ثم ينتهي دورهم وتأخذ يد القدرة في عملها المعجز الخارق العجيب .

تأخذ الحبة أو البذرة طريقها لإعادة نوعها . تبدؤه وتسير فيه سيرة العاقل العارف الخبير بمراحل الطريق !

إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ (72)

الذي لا يخطيء مرة كما يخطيء الإنسان في عمله , ولا ينحرف عن طريقه , ولا يضل الهدف المرسوم ! إن يد القدرة هي التي تتولى خطاها على طول الطريق . . في الرحلة

العجيبة . الرحلة التي ما كان العقل ليصدقها , وما كان الخيال ليتصورها , لولا أنها حدثت وتحدث ويراها كل إنسان في صورة من الصور , ونوع من الأنواع . . وإلا فأي عقل كان يصدق , وأي خيال كان يتصور أن حبة القمح مثلا يكمن فيها هذا العود وهذا الورق , وهذه السنبلة , وهذا الحب الكثير ؟ ! أو أن النواة تكمن فيها نخلة كاملة سامقة بكل ما تحتويه ؟ !

(369/745)

أي عقل كان يمكن أن يتطاول به الخيال إلى تصور هذه العجيبة . لولا أنه يراها تقع بين يديه صباح مساء ؟ ولولا أن هذه القصة تتكرر على مرأى ومسمع من جميع الناس ؟ وأي إنسان يمكنه أن يدعي أنه صنع شيئا في هذه العجيبة سوى الحرث وإلقاء البذور التي صنعها الله ؟

ثم يقول الناس: زرعنا ! ! وهم لم يتجاوزوا الحرث وإلقاء البذور . أما القصة العجيبة التي تمثلها كل حبة وكل بذرة . وأما الخارقة التي تنبت من قلبها وتنمو وترتفع فكلها من صنع الخالق الزارع . ولو شاء لم تبدأ رحلتها . ولو شاء لم تتم قصتها . ولو شاء لجعلها حطاما قبل أن تؤتي ثمارها . وهي بمشيئته تقطع رحلتها من البدء إلى الختام !

ولو وقع هذا لظل الناس يلونون الحديث وينوعونه يقولون: (إنا لمغرمون): غارمون (بل نحن محرومون) . . ولكن فضل الله يمنحهم الثمر , ويسمح للنبتة أن تتم دورتها , وتكمل رحلتها , وهي ذاتها الرحلة التي تقوم بها الخلية التي تمنى . . وهي صورة من صور الحياة التي تنشئها القدرة وترعاها .

فماذا في النشأة الأخرى من غرابة . وهذه هي النشأة الأولى ? . .

الدرس الرابع: 68 – 70 الماء بيد الله لا بيد الناس

(أفرأيتم الماء الذي تشربون ? أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ? لو نشاء جعلناه أجاجا . فلولا تشكرون) !

وهذا الماء أصل الحياة , وعنصرها الذي لا تنشأ إلا به كما قدر الله . ما دور الإنسان فيه ? دوره أنه يشربه . أما الذي أنشأه من عناصره , وأما الذي أنزله من سحائبه , فهو الله سبحانه . وهو الذي قدر أن يكون عذبا فكان (لو نشاء جعلناه أجاجا) . مالحا لا يستساغ , ولا ينشئ حياة . فهلا يشكرون فضل الله الذي أجرى مشيئته بما كان ?

والمخاطبون ابتداء بهذا القرآن كان الماء النازل من السحائب , في صورته المباشرة , مادة حياتهم , وموضع احتفالهم , والحديث الذي يهز نفوسهم , وقد خلدته قصائدهم وأشعارهم . . ولم تنقص قيمة الماء بتقدم الإنسان الحضاري , بل لعلها تضاعفت . والذين يشتغلون بالعلم ويحاولون تفسير نشأة الماء الأولى أشد شعورا بقيمة هذا الحدث من سواهم . فهو مادة اهتمام للبدائي في الصحراء , وللعالم المشتغل بالأبحاث سواء .

الدرس الخامس: 71 – 73 الله ينشيء الأشجار والثمار

(أفرأيتم النار التي تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين) . .

ولقد كان كشف الإنسان للنار حادثا عظيما في حياته . ربما كان أعظم حادث بدأت منه حضارته . ولكنها أصبحت أمرا مألوفا لا يثير الاهتمام . . والإنسان يوري النار: أي يوقدها . ولكن من الذي أنشأ وقودها ؟ من الذي أنشأ الشجر الذي توقد به النار ؟ لقد مر حديث الزرع . والشجر من هذا الزرع . . على أن هناك لفتة أخرى في ذكر (شجرتها) . فمن احتكاك فرع من شجرة بفرع آخر من شجرة أخرى كان العرب يوقدون

نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ (73) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (74) فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75)

نارهم . على الطريقة البدائية التي لا تزال مستعملة في البيئات البدائية حتى الآن . فالأمر أظهر وأقرب إلى تجاربهم المعروفة . أما معجزة النار وسرها عند العلماء الباحثين فهو مجال للبحث والنظر والاهتمام . وبمناسبة ذكر النار يلمع السياق إلى نار الآخرة: (نحن جعلناها تذكرة) تذكر بالنار الأخرى . . كما جعلناها (متاعا للمقوين) . . أي للمسافرين . وكان لهذه الإشارة وقعها العميق في نفوس المخاطبين , لما تمثله في واقع حياتهم من مدلول حي حاضر في تجاربهم وواقعهم .

الدرس السادس: 74 تسبيح الله العظيم المنعم

(371/745)

وحين يبلغ السياق إلى هذا الحد من عرض هذه الحقائق والأسرار , الناطقة بدلائل الإيمان . الميسرة للقلوب والأذهان . يلتفت إلى الحقيقة التي تنتهي إليها هذه الحقائق . حقيقة وجود الله وعظمته وربوبيته . وهي حقيقة تواجه الفطرة مواجهة ذات قوة وسلطان . فيهيب بالرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يحيي هذه الحقيقة ويؤدي حقها ; ويلمس القلوب بها في حينها :

(فسبح باسم ربك العظيم) . .

الدرس السابع: 75 – 80 القسم بمواقع النجوم على مصدر القرآن العظيم

ثم يلتفت التفاتة أخرى إلى المكذبين بهذا القرآن ; فيربط بينه وبين هذا الكون في قسم عظيم من رب العالمين:

(فلا أقسم بمواقع النجوم – وإنه لقسم لو تعلمون عظيم – إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين) . .

ولم يكن المخاطبون يومذاك يعرفون عن مواقع النجوم إلا القليل , الذي يدركونه بعيونهم المجردة . ومن ثم قال لهم: (وإنه لقسم – لو تعلمون – عظيم) . . فأما نحن اليوم فندرك من عظمة هذا القسم المتعلقة بالمقسم به , نصيبا أكبر بكثير مما كانوا يعلمون . وإن كنا نحن أيضا لا نعلم إلا القليل عن عظمة مواقع النجوم . . .

وهذا القليل الذي وصلنا إليه بمراصدنا الصغيرة , المحدودة المناظير , يقول لنا: إن مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التي لا تحصى في الفضاء الهائل الذي لا نعرف له حدودا . مجموعة واحدة – هي المجرة التي تنتسب إليها أسرتنا الشمسية – تبلغ ألف مليون نجم !

[ويقول الفلكيون إن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم , ما يمكن رؤيته بالعين المجردة , وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة , وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه . هذه كلها تسبح في الفلك الغامض ; ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر , أو يصطدم بكوكب آخر , إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي , يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة . وهو احتمال بعيد , وبعيد جدا . إن لم يكن مستحيلا] .

وكل نجم في موقعه المتباعد عن موقع إخوته , قد وضع هناك بحكمة وتقدير . وهو منسق في آثاره وتأثراته مع سائر النجوم والكواكب , لتتوازن هذه الخلائق كلها في هذا الفضاء الهائل .

فهذا طرف من عظمة مواقع النجوم , وهو أكبر كثيرا جدا مما كان يعلمه المخاطبون بالقرآن أول مرة , وهو في الوقت ذاته أصغر بما لا يقاس من الحقيقة الكلية لعظمة واقع النجوم !

وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (78) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (80) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (81) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (82) فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (84)

(فلا أقسم بمواقع النجوم) . . فالأمر أوضح وأجلى من أن يحتاج إلى قسم . . (وإنه لقسم

لو تعلمون عظيم) . . وهذا التلويح بالقسم والعدول عنه أسلوب ذو تأثير في تقرير الحقيقة التي لا تحتاج إلى القسم لأنها ثابتة واضحة . . (إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين) . .

(373/745)

إنه لقرآن كريم . وليس كما تدعون قول كاهن , ولا قول مجنون , ولا مفترى على الله . من أساطير الأولين . ولا تنزلت به الشياطين ! . . . إلى آخر هذه الأقاويل . إنما هو قرآن كريم . كريم بمصدره , وكريم بذاته , وكريم باتجاهاته .

(في كتاب مكنون) . . مصون . . وتفسير ذلك في قوله تعالى بعدها : (لا يمسه إلا المطهرون) . . فقد زعم المشركون أن الشياطين تنزلت به . فهذا نفي لهذا الزعم . فالشيطان لا يمس هذا الكتاب المكنون في علم الله وحفظه . إنما تنزل به الملائكة المطهرون . . وهذا الوجه هو أظهر الوجوه في معنى (لا يمسه إلا المطهرون) . ف(لا) هنا نافية لوقوع الفعل . وليست ناهية . وفي الأرض يمس هذا القرآن الطاهر والنجس . والمؤمن والكافر , فلا يتحقق النفي على هذا الوجه . إنما يتحقق بصرف المعنى إلى تلك الملابسة . ملابسة قولهم: تنزلت به الشياطين . ونفي هذا الزعم إذ لا يمسه في كتابه

السماوي المكنون إلا المطهرون . .

ومما يؤيد هذا الاتجاه قوله تعالى بعد هذا: (تنزيل من رب العالمين) . . لا تنزيل من الشياطين !

وقد روي حديثان يقرران معنى آخر وهو أن لا يمس القرآن إلا طاهر . . ولكن ابن كثير قال عنهما: "وهذه وجادة جيدة قد قرأها الزهري وغيره . ومثل هذا لا ينبغي الأخذ به . وقد أسنده الدارقطني عن عمرو ابن حزم وعبد الله بن عمر وعثمان بن أبي العاص . وفي إسناد كل منهما نظر والله أعلم" .

الدرس الثامن: 81 - 87 مشهد الإحتضار والعجز عن إعادة الدم للجسم

ثم يأتي الإيقاع الأخير في السورة . . لحظة الموت . . اللمسة التي ترجف لها الأوصال . واللحظة التي تنهي كل جدال . واللحظة التي يقف فيها الحي بين نهاية طريق وبداية طريق . حيث لا يملك الرجوع ولا يملك النكوص:

(أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ? وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون . فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين

. ترجعونها إن كنتم صادقين) . .

أفأنتم شاكون في هذا الحديث الذي يقال لكم عن النشأة الآخرة ; مكذبون بالقرآن وما يقصه عليكم من شأن الآخرة , وما يقرره لكم من أمور العقيدة ؟(وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) . . فإذا التكذيب هو رزقكم الذي تحصلون عليه في حياتكم وتدخرونه لآخرتكم ؟ وما أسوأه من رزق !

فماذا أنتم فاعلون إذ تبلغ الحلقوم , وتقفون في مفرق الطريق المجهول ؟

ثم يصور الموقف التصوير القرآني الموحي , الذي يرسم ظلال الموقف كلها في لمسات سريعة ناطقة بكل ما فيه , وبكل ما وراءه , وبكل ما يوحيه .

(فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون) . .

لنكاد نسمع صوت الحشرجة , ونبصر تقبض الملامح , ونحس الكرب والضيق من خلال قوله:(فلولا إذا بلغت الحلقوم) . . كما نكاد نبصر نظرة العجز وذهول اليأس في ملامح الحاضرين من خلال قوله:(وأنتم حينئذ تنظرون) . .

هنا . في هذه اللحظة . وقد فرغت الروح من أمر الدنيا . وخلفت وراءها الأرض وما فيها . وهي تستقبل

وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا

إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (87) فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (89) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (91) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94)

عالما لا عهد لها به , ولا تملك من أمره شيئًا إلا ما أدخرت من عمل , وما كسبت من خير أو شر .

(375/745)

هنا . وهي ترى ولا تملك الحديث عما ترى . وقد انفصلت عمن حولها وما حولها . الجسد هو الذي يراه الناظرون . ولكنهم ينظرون ولا يرون ما يجري ولا يملكون من الأمر شيئًا .

هنا تقف قدرة البشر , ويقف علم البشر , وينتهي مجال البشر .

هنا يعرفون – ولا يجادلون – أنهم عجزة عجزة . قاصرون قاصرون .

هنا يسدل الستار دون الرؤية . ودون المعرفة . ودون الحركة .

هنا تتفرد القدرة الإلهية , والعلم الإلهي . ويخلص الأمر كله لله بلا شائبة ولا شبهة ولا جدال ولا محال:

(ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون) !

وهنا يجلل الموقف جلال الله , ورهبة حضوره – سبحانه وتعالى – وهو حاضر في كل وقت . ولكن التعبير يوقظ الشعور بهذه الحقيقة التي يغفل عنها البشر . فإذا مجلس الموت تجلله رهبة الحضور وجلاله . فوق ما فيه من عجز ورهبة وانقطاع ووداع .

وفي ظل هذه المشاعر الراجفة الواجفة الآسية الآسفة يجيء التحدي الذي يقطع كل قول وينهي كل جدال:

(فلولا إن كنتم غير مدينين: ترجعونها إن كنتم صادقين !)

فلو كان الأمر كما تقولون: إنه لا حساب ولا جزاء . فأنتم إذن طلقاء غير مدينين ولا محاسبين . فدونكم إذن فلترجعوها – وقد بلغت الحلقوم – لتردوها عما هي ذاهبة إليه من حساب وجزاء . وأنتم حولها تنظرون . وهي ماضية إلى الدينونة الكبرى وأنتم ساكنون عاجزون !

هنا تسقط كل تعلة . وتنقطع كل حجة . ويبطل كل محال . وينتهي كل جدال . ويثقل ضغط هذه الحقيقة على الكيان البشري , فلا يصمد له , إلا وهو يكابر بلا حجة ولا دليل !

الدرس التاسع: 88 – 94 مصائر الأصناف الثلاثة في الآخرة

ثم يمضي السياق في بيان مصير هذه الروح الذي يتراءى لها من بعيد حين تبلغ الحلقوم ,

وتستدبر الحياة الفانية , وتستقبل الحياة الباقية . وتمضي إلى الدينونة التي يكذب بها المكذبون:

(فأما إن كان من المقربين , فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين , فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم) .

وقد مرت بنا في أول السورة صور من نعيم المقربين . فالروح هنا ترى علائم هذا النعيم الذي ينتظرها :روح وريحان وجنة نعيم . والألفاظ ذاتها تقطر رقة ونداوة . وتلقي ظلال الراحة الحلوة , والنعيم اللين والأنس الكريم .

(وأما إن كان من أصحاب اليمين) . . فيلتفت بالخطاب إليه . . يبلغه سلام إخوانه من أصحاب اليمين . وما أندى السلام ساعتئذ وما أحبه . حين يتلقاه وقد بلغت الحلقوم ! فيطمئن باله ويشعر بالأنس في الصحبة المقبلة مع أصحاب اليمين .

(وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم) . . وما أسوأه نزلا ومثوى ذلك الحميم

إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)

الساخن . وما أشده عذابا ذلك الجحيم , يتراءى له ويعلم أنه ملاقيه عن يقين !

الدرس العاشر: 95 - 96 الواقعة حق اليقين وتسبيح الله

والآن وقد بلغ الموقف ذروته تجيء الخاتمة في إيقاع عميق رزين:

(إن هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم) . .

فتلتقي رجاحة اليقين وثقله في ميزان الحق , بالواقعة التي بدأت بها السورة . وتختم بما

يوحيه هذا اليقين الثابت الجازم من اتجاه إلى الله بالتسبيح والتعظيم . . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 3462 . 3473 ﴾

(377/745)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) ﴾

الذي يظهر لي صوابه أن إذا هنا هي الظرفية المضمنة معنى الشرط ، وأن قوله الآتي : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرض رَجّاً ﴾ [الواقعة : 4] بدل من قوله : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾ وأن جواب بإذا هو قوله : ﴿ فَأَصْحَابُ الميمنة ﴾ [الواقعة : 8] وهذا هو اختيار أبي حيان

خلافاً لمن زعم أنها مسلوبة معنى الشرط هنا ، وأنها منصوبة بأذكر مقدرة أو أنها مبتدأ ، وخلافاً لمن زعم أنها منصوبة بليس المذكورة بعدها .

والمعروف عند جمهور النحويين أن إذا ظرف مضمن معنى الشرط منصوب بجزائه ، وعليه فالمعنى : إذا قامت القيامة وحصلت هذه الأحوال العظيمة ظهرت منزلة أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾ أي قامت القيامة ، فالواقعة من أسماء القيامة كالطامة والصاخة والآزفة والقارعة .

وقد بين جل وعلا أن الواقعة هي القيامة في قوله : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الواقعة وانشقت السمآء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الحاقة : 13 - 16] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ فيه أوجه من التفسير معروفة عند العلماء كلها حق ، وبعضها يشهد له قرآن .

الوجه الأول : أن قوله كاذبة مصدر جاء بصفة اسم الفاعل ، فالكاذبة بمعنى الكذب كالعافية بمعنى المعافاة ، والعاقبة بمعنى العقبى ، ومنه قوله تعالى عند جماعات من العلماء ﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ [الغاشية : 11] قالوا معناه لا تسمع فيها لغواً ، وعلى هذا القول ، فالمعنى ليس لقيام القيامة كذب ولا تخلف بل هو أمر واقع يقيناً لا محالة .

ومن هذا المعنى ، قولهم : حمل الفارس على قرنه فما كذب ، أي ما تأخر ولا تخلف ولا جبن .

(378/745)

ومنه قول زهير :

ليث يعثر يصطاد الرجال إذا . . . ما كذب الليث عن أقرانه صدقا

وهذا المعنى قد دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ اللهُ لا إله إلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يَوْمِ القيامة لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [النساء : 87] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الساعة آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا ﴾ [الحج : 7] ، وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ الناس لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [آل عمران : 9] ، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الشورى في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الشورى : 7] .

الوجه الثاني : أن اللام في قوله : ﴿ لِوَقْعَتِهَا ﴾ ظرفية ، و ﴿ كَاذِبَةٌ ﴾ اسم فاعل صفة لمحذوف أي ليس في وقعة الواقعة نفس كاذبة بل جميع الناس يوم القيامة صادقون بالاعتراف بالقيامة مصدقون بها ليس فيهم نفس كاذبة بإنكارها ولا مكذبة بها .

وهذا المعنى تشهد له في الجملة آيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ حتى يَرَوُاْ

العذاب الأليم ﴾ [الشعراء : 201] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حتى تَأْتِيَهُمُ الساعة بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ [الحج : 55] .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ بَلِ ادارك عِلْمُهُمْ فِي الآخرة بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل : 66] ، وباقي الأوجه قد يدل على معناه قرآن ولكنه لا يخلو من بعد عندي ، ولذا لم أذكره ، وأقربها عندي الأول .

خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3)

خبر مبتدأ محذوف أي هي خافضة رافعة ، ومفعول كل من الوصفين محذوف .

(379/745)

قال بعض العلماء : تقديره هي خافضة أقواماً في دركات النار ، رافعة أقواماً على الدرجات العلى إلى الجنة ، وهذا المعنى قد دلت عليه آيات كثيرة كقوله : ﴿ إِنَّ المنافقين فِي الدرك الأسفل مِنَ النار ﴾ [النساء : 145] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصالحات فأولئك لَهُمُ الدرجات العلى جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [طه : 75 - 76] وقوله تعالى : ﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء :

21] والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة .

وقال بعض العلماء : تقديره خافضة أقواماً كانوا مرتفعين في الدنيا رافعة أقواماً كانوا منخفضين في الدنيا ، وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله تعالى ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ [المطففين : 29 - 30] - إلى قوله - ﴿ فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين : 34 - 35] إلى غير ذلك من الآيات .

وقال بعض العلماء : تقديره ، خافضة بعض الأجرام التي كانت مرتفعة كالنجوم التي تسقط وتتناثر يوم القيامة ، وذلك خفض لها بعد أن كانت مرتفعة ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا الكواكب انتثرت وَإِذَا الكواكب انتثرت ﴾ [الإنفطار : 2] وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا النجوم انكدرت ﴾ [التكوير : 2] رافعة : أي رافعة بعض الأجرام التي كانت منخفضة كالجبال التي ترفع من أماكنها وتسير بين السماء والأرض كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال وَتَرَى الأرض بَارِزَةً ﴾ [الكهف : 47] ، فقوله : ﴿ وَتَرَى الأرض بَارِزَةً ﴾ لأنها لم يبق على ظهرها شيء من الجبال ، وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل : 88] .

وقد قدمنا أن التحقيق الذي دل عليه القرآن ، أن ذلك يوم القيامة ، وأنها تسير بين السماء والأرض كسير السحاب الذي هو المزن .

وقد صرح بأن الجبال تحمل هي والأرض أيضاً يوم القيامة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال ﴾ [الحاقة : 13 - 14] الآية .

وعلى هذا القول ، فالمراد تعظيم شأن يوم القيامة ، وأنه يختل فيه نظام العالم ، وعلى القولين الأولين ، فالمراد الترغيب والترهيب ، ليخاف الناس في الدنيا من أسباب الخفض في الآخرة فيطيعوا الله ويرغبوا في أسباب الرفع فيطيعوه أيضاً ، وقد قدمنا مراراً أن الصواب في مثل هذا حمل الآية على شمولها للجميع .

إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (5) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (6)

قد قدمنا أن الأظهر عندنا أن قوله ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأرض رَجّاً ﴾ . بدل من قوله ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾ ﴿ الواقعة : 1] ، والرج : التحريك الشديد ، وما دلت عليه هذه الآية من أن الأرض يوم القيامة تحرك تحريكاً شديداً جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة : 1] ، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في أول سورة الحج في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : 1] وقوله تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ في معناه لأهل العلم أوجه متقاربة ، لا يكذب

بعضها بعضاً وكلها حقن وكلها يشهد له قرآن .

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك ان الآية الكريمة قد يكون فيها أوجه كلها حق وكلها يشهد له قرآن ، فنذكر جميع الأوجه وأدلتها القرآنية .

(381/745)

قال أكثر المفسرين ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ أي فتت تفتيتاً حتى صارت كالبسيسة ، وهي دقيق ملتوت بسمن ، ومنه قول لص من غطفان أراد ان يخبز دقيقاً عنده فخاف أن يعجل عنه ، فأمر صاحبيه أن يلتاه ليأكلوه دقيقاً ملتوتاً ، وهو البسيسة .

لا تخبزا خبزاً بوسا بسا . . . ولا تطيلا بمناخ حبسا

وهذا الوجه يشهد له قرآن كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض والجبال وَكَانَتِ الجبال كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾ [المزمل : 14] ، فقوله : ﴿ كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾ أي رملاً متهايلاً ، ومنه قول امرئ القيس :

ويوماً على ظهر الكثيب تعذرت . . . علي وآلت حلفة لم تحلل

ومشابهة الدقيق المبسوس بالرمل المتهايل واضحة ، فقوله : ﴿ وَكَانَتِ الجبال كَثِيباً مَّهِيلا ﴾ مطابق في المعنى لتفسير ﴿ وَبُسَّتِ الجبال ﴾ بأن بسها هو تفتيتها وطحنها كما

ترى .

وما دلت عليه هذه الآية من أنها تسلب عنها قوة الحجرية وتتصف بعد الصلابة والقوة باللين الشديد الذي هو كلين الدقيق ، والرمل المتهايل يشهد له في الجملة تشبيهها في بعض الآيات بالصوف المنفوش الذي هو العهن ، كقوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش ﴾ [القارعة : 5] ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السمآء كالمهل وَتَكُونُ الجبال كالعهن ﴾ [المعارج : 8 – 9] وأصل العهن أخص من مطلق الصوف لأنه الصوف المصبوغ خاصة .

ومنه قول زهير بن أبى سلمى في معلقته :

كأن فتاة العهن في كل منزل . . . نزلن به حب الفنا لم يحطم

وقال بعضهم : الجبال منها جدد بيض وحمر ومختلف ألوانه وغرابيب سود ، فإذا بست وفتتت يوم القيامة وطيرت في الجو أشبهت العهن إذا طيرته الريح في الهوى ، وهذا الوجه يدل عليه ترتيب كينونتها هباء منبثاً بالفاء على قوله : ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ لأن الهباء هو ما ينزل من الكوة من شعاع الشمس إذا قابلتها : ﴿ مُّنبَثّاً ﴾ أي متفرقاً ، ووصفها بالهباء المنبث أنسب لكون البس بمعنى التفتيت والطحن .

الوجه الثانيك أن معنى قوله : ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ أي سيرت بين السماء والأرض ، وعلى هذا فالمراد ببسها سوقها وتسييرها من قول العرب : بسست الإبل أبسها ، بضم الباء وأبستها أبسها بضم الهمزة وكسر الباء ، لغتان بمعنى سقتها ، ومنه حديث : " يخرج أقوام من المدينة إلى اليمن والشام ، والعراق يبسون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون " وهذا الوجه تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال ﴾ [الكهف : 47] الآية ، وقوله ﴿ وَتَسِيرُ الجبال سَيْراً ﴾ [الطور : 10] .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة النمل في الكلام على قوله : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل : 88] .

الوجه الثالث : أن معنى قوله : ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ نزعت من أماكنها وقلعت ، وقد أوضحنا أن هذا الوجه راجع للوجه الأول مع الإيضاح التام لأحوال الجبال يوم القيامة ، وأطوارها ، بالآيات القرآنية ، وفي سورة طه في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴾ [طه : 105] وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثّاً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ [النبأ : 20] والهباء إذا انبث ، أي تفرق ، واضحمل وصار لا شيء ، والسراب قد قال الله تعالى فيه : ﴿ حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ [النور : 39] .

وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (7) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ

مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (9)

قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً ﴾ .

أي صرتم أزواجاً ثلاثة ، والعرب تطلق كان بمعنى صار ، ومنه ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة فَتَكُونَا مِنَ الظالمين ﴾ [البقرة : 35] أي فتصيرا من الظالمين .

ومنه قول الشاعر :

(383/745)

بتيهاء قفر والمطي كأنها . . . قطا الحزن قد كانت فراخاً بيوضها

وقوله : ﴿ أَزْوَاجاً ﴾ : أي أصنافاً ثلاثة ، ثم بين هذه الأزواج الثلاثة بقوله : ﴿ فَأَصْحَابُ الميمنة مَآ أَصْحَابُ الميمنة وَأَصْحَابُ المشأمة مَآ أَصْحَابُ المشأمة السابقون السابقون أولئك المقربون فِي جَنَّاتِ النعيم ﴾ [الواقعة : 8 - 12] أما أصحاب الميمنة فهم أصحاب اليمين ، كما أوضحه تعالى بقوله : ﴿ وَأَصْحَابُ اليمين مَآ أَصْحَابُ اليمين فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ [الواقعة : 27 - 28] الآيات ، وأصحاب المشأمة هم أصحاب الشمال كما أوضحه تعالى : بقوله ﴿ وَأَصْحَابُ الشمال مَآ أَصْحَابُ الشمال فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ [الواقعة : 41 - 42] الآيات .

قال بعض العلماء : قيل لهم أصحاب اليمين لأنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم .

وقيل : لأنهم يذهب بهم ذات اليمين إلى الجنة .

وقيل : لأنهم عن يمين أبيهم آدم ، كما رأهم النبي صلى الله عليه وسلم كذلك ليلة الإسراء .

وقيل سموا أصحاب اليمين ، وأصحاب الميمنة لأنهم ميامين ، أي مباركون على أنفسهم ، لأنهم أطاعوا ربهم فدخلوا الجنة ، واليمن البركة .

وسمي الآخرون أصحاب الشمال ، وقيل : لأنهم يؤتون كتبهم بشمائلهم .

وقيل : لأنهم يذهب بهم ذات الشمال إلى النار ، والعرب تسمي الشمال شؤماً ، كما تسمي اليمين يميناً ، ومن هنا قيل لهم أصحاب المشأمة أو لأنهم مشائيم على أنفسهم : فعصوا الله فأدخلهم النار ، والمشائيم ضد الميامين ، ومنه قول الشاعر :

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة . . . ولا ناعب إلا بين غرابها

(384/745)

وبين جل وعلا أن السابقين هم المقربون ، وذلك في قوله : ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ [الواقعة : 10 - 11] ، وهذه الأزواج الثلاثة المذكورة هي وجزاؤها في أول هذه السورة الكريمة جاءت هي وجزاؤها أيضاً في آخرها ، وذلك في قوله : ﴿ فَأَمَّآ

إِن كَانَ مِنَ المقربين فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّاتُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضالين فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [الواقعة : 88 – 94] .

والمكذبون هم أصحاب المشأمة وهم أصحاب الشمال .

وذكر تعالى بعض صفات أصحاب الميمنة والمشأمة في البلد في قوله تعالى : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ [البلد : 13 – 15] – إلى قوله تعالى – ﴿ أولئك أَصْحَابُ الميمنة والذين كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ المشأمة عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ [البلد : 18 – 20] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ مَا أَصْحَابُ الميمنة ﴾ [الواقعة : 8] ، وقوله : ﴿ مَا أَصْحَابُ المشأمة ﴾ [الواقعة : 9] استفهام أريد به التعجب من شأن هؤلاء في السعادة ، وشأن هؤلاء في الشقاوة ، والجملة فيهما مبتدأ وخبر ، وهي خبر المبتدأ قبله ، وهو أصحب الميمنة في الأول وأصحاب المشأمة في الثاني .

وهذا الأسلوب يكثر في القرآن نحو

﴿ الحاقة مَا الحآقة ﴾ [الحاقة : 1 – 2] ، ﴿ القارعة مَا القارعة ﴾ [القارعة : 1 – 2] . والرابط في جملة الخبر في جميع الآيات المذكورة هو إعادة لفظ المبتدأ في جملة الخبر

كما لا يخفى ، وقوله : ﴿ والسابقون ﴾ لم يذكر فيه استفهام تعجب كما ذكره فيما قبله ، ولكنه ذكر في مقابلة تكرير لفظ السابقين .

(385/745)

والأظهر في إعرابه أنه مبتدأ وخبر على عادة العرب في تكريرهم اللفظ وقصدهم الإخبار بالثاني عن الأول ، يعنون أن اللفظ المخبر عنه هو المعروف خبره الذي لا يحتاج إلى تعريف ومنه قول أب النجم :

أنا أبو النجم وشعري شعري . . . لله دري ما أجن صدري

فقوله : وشعري شعري يعني شعري هو الذي بلغك خبره ، وانتهى إليك وصفه .

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14)

وقوله : ثلة : خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير ، هم ثلة ، والثلة الجماعة من الناس ، وأصلها القطعة من الشيء وهي الثل ، وهو الكسر .

وقال الزمخشري : والثلة من الثل ، وهو الكسر ، كما أن الأمة من الأم وهو الشبح ، كأنها جماعة كسرت من الناس ، وقطعت منهم . اه . منه .

واعلم أن الثلة تشمل الجماعة الكثيرة ، ومنه قول الشاعر :

فجاءت إليهم ثلة خندفية . . . بجيش كتيار من السيل مزبد

لأن قوله : تيار من السيل : يدل على كثرة هذا الجيش المعبر عنه بالثلة .

وقد اختلف أهل العلم في المراد بهذه الثلة من الأولين ، وهذا القليل من الآخرين المذكورين هنا ، كما اختلفوا في الثلتين المذكورتين في قوله : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ [الواقعة : 39 - 40] . فقال بعض أهل العلم : كل هؤلاء المذكورين من هذه الأمة ، وأن المراد بالأولين منهم الصحابة .

وبعض العلماء يذكر معهم القرون المشهود لهم بالخير في قوله صلى الله عليه وسلم " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم " الحديث . والذين قالوا : هم كلهم من هذه الأمة ، قالوا : إنما المراد بالقليل ، وثلة من الآخرين ، وهم من بعد ذلك إلى قيام الساعة .

وقال بعض العلماء : المراد بالأولين في الموضعين الأمم الماضية قبل هذه الأمة ، والمراد بالآخرين فيهما هو هذه الأمة .

(386/745)

قال مقيده عفا الله عنه ، وغفر له : ظاهر القرآن في هذه المقام : أن الأولين في الموضعين من الأمم الماضية ، والآخرين فيهما من هذه الأمة ، وأن قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ

مِّنَ الآخرين ﴾ في السابقين خاصة ، وأن قوله : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ [الواقعة : 39 - 40] في أصحاب اليمين خاصة .

وإنما قلنا : إن هذا هو ظاهر القرآن في الأمور الثلاث ، التي هي شمول الآيات لجميع الأمم ، وكون قليل من الآخرين في خصوص السابقين ، وكون ثلة من الآخرين في خصوص أصحاب اليمين لأنه واضح من سياق الآيات .

أما شمول الآيات لجميع الأمم فقد دل عليه أول السورة ، لأن قوله : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الواقعة ﴾ [الواقعة : 1] - إلى قوله - ﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثّاً ﴾ [الواقعة : 6] لا شك أنه لا يخص أمة دون أمة ، وأن الجميع مستوون في الأهوال والحساب والجزاء .

فدل ذلك على أن قوله : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً ﴾ [الواقعة : 7] عام في جميع أهل المحشرن فظهر أن السابقين وأصحاب اليمين منهم من هو من الأمم السابقة ، ومنهم من هو من هذه الأمة .

وعلى هذا ، فظاهر القرآن ، أن السابقين من الأمم الماضية أكثر من السابقين من هذه الأمة ، وأن أصحاب اليمين من الأمم السابقة ليست أكثر من أصحاب اليمين من هذه الأمة ، لأنه عبر في السابقين من هذه الأمة بقوله : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين ﴾ وعبر عن أصحاب اليمين من هذه الأمة ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ .

ولا غرابة في هذا ، لأن الأمم الماضية أمم كثيرة . وفيها أنبياء كثيرة ورسل ، فلا مانع من أن يجتمع من سابقيها من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم أكثر من سابقي هذه الأمة وحدها .

أما أصحاب اليمين من هذه الأمة فيحتمل أن يكونوا أكثر من أصحاب اليمين جميع الأمم ، لأن الثلة تتناول العدد الكثير ، وقد يكون أحد العددين الكثيرين أكثر من الآخر ، مع أنهما كلاهما كثير .

ولهذا تعلم أن ما دل عليه ظاهر القرآن واختاره ابن جرير ، لا ينافي ما جاء من أن نصف أهل الجنة من هذه الأمة .

فأما كون قوله ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين ﴾ دل ظاهر القرآن على أنه في خصوص السابقين ، فلأن الله قال ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون فِي جَنَّاتِ النعيم ﴾ [الواقعة : 10 - 12] ثم قال تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ .

وأما كون قوله : ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ [الواقعة : 40] في خصوص أصحاب اليمين ، فلأن الله تعالى قال ﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً لأَصْحَابِ اليمين ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ﴾ [الواقعة : 36 - 40] ، والمعنى هم أصحاب اليمين : ثلة من الأولين

وثلة من الآخرين ، وهذا واضح كما ترى .

عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16)

السرر جمع سرير ، وقد بين تعالى : أن سررهم مرفوعة في قوله : في الغاشية ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ [الغاشية : 13] وقوله تعالى ﴿ مَّوْضُونَةٍ ﴾ منسوجة بالذهب ، وبعضهم يقول بقضبان الذهب مشبكة بالدر والياقوت ، وكل نسج أحكم ودخل بعضه في بعض ، تسميه العرب وضنا ، وتسمى المنسوج به موضونا ووضينا ، ومنه الدرع الموضونة غذا أحكم نسجها ودوخل بعض حلقاتها في بعض .

ومنه قول الأعشى :

ومن نشج داود موضونة . . . تساق مع الحي عيرا فعيرا

وقوله أيضاً :

وبيضاء كالنهى موضونة . . . لها قونس فوق جيب البدن

ومن هذا القبيل تسمية البطان الذي ينسج من السيور ، مع إدخال بعضها في بعض وضينا .

ومه قول الراجز :

ليتك تعدو قلقا وضينها . . . معترضا في بطنها جنينها

مخالفاً دين النصارى دينها . . . وهذه السرر المزينة ، هي المعبر عنها بالأرائك في قوله ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَآئِكِ ﴾ [الكهف : 31] وقوله : ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأَرَآئِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾ [يس : 56] وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ مُّتَّكِئِينَ ﴾ حال من الضمير في قوله ﴿ على سُرُرٍ ﴾ والتقدير : استقروا على سرر في حال كونهم متكئين عليها .

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من كونهم على سرر متقابلين ، أي ينظر بعضهم إلى وجه بعض ، كلهم يقابل الآخر بوجهه ، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى في الحجر ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً على سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر : 47] وقوله في الصافات ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ فِي جَنَّاتِ النعيم على سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الصافات : 41 – 44] .

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الطور في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الطور : 14] .

بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ (19)

قوله تعالى : ﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الطور في الكلام على قوله تعالى ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور : 23] وفي المائدة في الكلام على قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الخمر والميسر ﴾ [المائدة : 90] .

(389/745)

وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21)

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الطور ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الطور : 22] .

وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [البقرة : 25] الآية ، وفي الصافات في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطرف عِينٌ ﴾ [الصافات : 48] وفي غير ذلك من المواضع .

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (25) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (26)

قد قدمنا الكلام عليه بإيضاح في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا

لَغْواً إِلاَّ سَلاَماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [مريم : 62] وتكلمنا هناك على الاستثناء المنقطع وذكرنا شواهده من القرآن وكلام العرب ، وبينا كلام أهل العلم في حكمه شرعاً .

وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (30) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (31) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (33)

أما قوله ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [النساء : 57] وأما قوله ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ فقد دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى ﴿ فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ [محمد : 15] وقوله ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الحجر : 45] وقوله ﴿ ونادى أَصْحَابُ النار أَصْحَابَ الجنة أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ المآء ﴾ [الأعراف : 50] الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

(390/745)

والمسكوب اسم مفعول سكب الماء ونحوه إذا صبه بكثر ، والمفسرون يقولون : إن أنهار الجنة تجري في غير أخدود ، وأن الماء يصل إليهم أينما كانوا كيف شاءوا ، كما قال تعالى

﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ [الإنسان : 6] وأما قوله ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ الآية : فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الطور في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الطور : 22] .

إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (35) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (36) عُرُبًا أَتْرَابًا (37) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (38)

الضمير في أنشأناهن : قال بعض أهل العلم : هو راجع إلى مذكور ، وقال بعض العلماء . هو راجع إلى غير مذكور ، إلا أنه دل عليه المقام .

فمن قال إنه راجع إلى مذكور ، قال هو راجع إلى قوله ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : 34] قال : لأن المراد بالفرش النساء والعرب تسمي المرأة لباساً وإزاراً وفراشاً ونعلاً ، وعلى هذا فالمراد بالرفع في قوله ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ رفع المنزلة والمكانة .

ومن قال : إنه راجع إلى غير مذكور ، قال : إنه راجع إلى نساء لم يذكرن ، ولكن ذكر الفرش دل عليهن . لأنهن يتكئن عليها مع أزواجهن .

وقال بعض العلماء : المراد بهن الحور العين ، واستدل من قال ذلك بقوله ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴾ لأن الإنشاء هو الاختراع والابتداع .

وقالت جماعة من أهل العلم : أن المراد بهن بنات آدم التي كن في الدنيا عجائز شمطاً رمصاً ، وجاءت في ذلك آثار مرفوعة عنه صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا القول : فمعنى

أنشأناهن إنشاء أي خلقناهن خلقاً جديداً .

وقوله تعالى ﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ ﴾ أي فصيرناهن أبكاراً ، وهو جمع بكر ، وهو ضد الثيب .

(391/745)

وقوله ﴿ عُرُباً ﴾ قرأه عامة القراء السبعة غير حمزة وشعبة عن عاصم ﴿ عُرُباً ﴾ بضم العين والراء ، وقرأ حمزة وشعبة ﴿ عُرُباً ﴾ بسكون الراء ، وهي لغة تميم ، ومعنى القراءتين واحدة ، وهو جمع عروب ، وهي المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل ، وهذا هو قول الجمهور ، وهو الصواب إن شاء الله .

ومنه قول لبيد :

وفي الخباء عروب غير فاحشة . . . ريا الروادف يعشى دونها البصر

وقوله تعالى : ﴿ أَتْرَاباً ﴾ جمع ترب بكسر التاء ، والترب اللذة . وإيضاحه أن ترب الإنسان ما ولد معه في وقت واحد ، ومعناه في الآية : أن نساء أهل الجنة على سن واحدة ليس فيهن شابة وعجوز ، ولكنهن كلهم على سن واحدة في غاية الشباب .

وبعض العلماء يقول : إنهن ينشأن مستويات في السن على قدر بنات ثلاثة وثلاثين سنة ، وجاءت بذلك آثار مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكون الأتراب بمعنى المستويات

في السن مشهور في كلام العرب .

ومنه قول عمر بن أبي ربيعة :

أبرزوها مثل المهاة تهادى . . . بين خمس كواعب أتراب

وهذه الأوصاف الثلاثة التي تضمنتها هذه الآية الكريمة من صفات نساء أهل الجنة ، جاءت موضحة في آيات أخر .

أما كونهن يوم القيامة أبكاراً ، فقد أوضحه يف سورة الرحمن في قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : 56] في الموضعين لأن قوله : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ نص في عدم زوال بكارتهن ، وأما كونهن عرباً أي متحببات إلى أزواجهن ، فقد دل عليه قوله في الصفات : ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطرف عِينٌ ﴾ [الصافات : 48] لأن معناه أنهن قاصرات العيون على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم لشدة محبتهن لهم واقتناعهن بهم ، كما قدمنا إيضاحه ، ولا شك أن المرأة التي لا تنظر إلى غير زوجها متحببة إليه حسنة التبعل معه .

(392/745)

وقوله في ص : ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطرف أَتْرَابُ ﴾ [ص : 52] ، وقوله في الرحمن : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطرف لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : 56] ، وأما كونهن أترابا فقد بينه تعالى في قوله في آية ص هذه ، ﴿ ﴾ ، وفي سورة النبأ في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً حَدَآئِقَ وَأَعْنَاباً ﴾ [النبأ : 31 – 33] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ لأَصْحَابِ اليمين ﴾ [الواقعة : 38] يتعلق بقوله : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَهُنَّ ﴾ ، وقوله ﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ ﴾ أي : أنشأناهن وصيرناهن أبكاراً لأصحاب اليمين .

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43)

قد قدمنا معنى أصحاب الشمال في هذه السورة الكريمة ، وأوضحنا معنى السموم في الآيات القرآنية التي يذكر فيها في سورة الطور ، في الكلام على قوله تعالى ﴿ فَمَنَّ الله عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السموم ﴾ [الطور : 27] .

وقد قدمنا صفات ظل أهل النار وظل أهل الجنة في سورة لانساء في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [النساء : 57] وبينا هناك أن صفات ظل أهل النار هي المذكورة في قوله هنا ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ وقوله في المرسلات ﴿ انطلقوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ لاَّ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللهب ﴾ [المرسلات : 30 – 31] .

وقوله : ﴿ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ أي من دخان أسود شديد السواد ووزن اليحموم يفعول ، وأصله من الحمم وهو الفحم ، وقيل : من الحم ، وهو الشحم المسود لاحتراقه بالنار .

إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (45) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (46)

(393/745)

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الطور في الكلام على قوله : ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ [الطور : 26 – 27] الآية .

وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47)

لما ذكر جل وعلا ما أعد لأصحاب الشمال من العذاب ، بين بعض أسبابه ، فذكر منها أنهم كانوا قبل ذلك في دار الدنيا مترفين أي متنعمين ، وقد قدمنا أن القرآن دل على أن الإتراف والتنعم والسرور في الدنيا من أسباب العذاب يوم القيامة ، لأن صاحبه معرض عن الله لا يؤمن به ولا برسله ، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، وقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً ويصلى سَعِيراً إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ [الانشقاق : 11 –13] ، وقد أوضحنا هذا في الكلام على آية الطور المذكور آنفاً .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كون إنكار البعث سبباً لدخول النار ، لأن قوله تعالى لما

ذكر أنهم في سموم وحميم وظل من يحموم ، بين أن من أسباب ذلك أنهم قالوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ الآية جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أولئك الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغلال في أَعْنَاقِهِمْ وأولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدونَ ﴾ [الرعد : 5] .

(394/745)

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعِيراً ﴾ [الفرقان : 11] ، وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من إنكارهم بعث آبائهم الأولين في قوله ﴿ أَوَآبَآؤُنَا الأولون ﴾ وأنه تعالى بين لهم أنه يبعث الأولين والآخرين في قوله ، ﴿ قُلْ إِنَّ الأولين والآخرين لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة : 49 – 50] جاء موضحاً في غير هذا الموضع ، فبينا فيه أن البعث الذي أنكروا ، سيتحقق في حال كونهم أذلاء صاغرين ، وذلك في قوله تعالى في الصافات ﴿ وقالوا إِن هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَآؤُنَا الأولون قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الصافات : 15 – 19] . وقوله : ﴿ أَوَآبَآؤُنَا الأولون ﴾ ، قرأه عامة القراء السبعة ، غير ابن عامر وقالون عن

نافع : ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ﴾ بفتح الواو على الاستفهام والعطف ، وقد قدمنا مراراً أن همزة الاستفهام إذا جاءت بعدها أداة عطف كالواو والفاء ، وثم نحو ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ﴾ ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى ﴾ [الأعراف : 97] ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ﴾ [يونس : 51] ، أن في ذلك وجهين لعلماء العربية ولمفسرين الأول منهما أن أداة العطف عاطفة للجملة المصدرة بالاستفهام على ما قبلها ، وهمزة الاستفهام متأخرة رتبة عن حرف العطف ، ولكنها قدمت عليه لفظاً لا معنى لأن الأصل في الاستفهام التصدير به كما هو معلوم في محله .

(395/745)

والمعنى على هذا واضح وهو أنهم أنكروا بعثهم أنفسهم بأداة الإنكار التي هي الهمزة ، وعطفوا على ذلك بالواو إنكارهم بعث آبائهم الأولين ، بأداة الإنكار التي هي الهمزة المقدمة عن محلها لفظاً لا رتبة ، وهذا القول هو قول الأقدمين من علماء العربية ، واختاره أبو حيان في البحر المحيط وابن هشام في مغني اللبيب ، وهو الذي صرنا نميل إليه أخيراً بعد أن كنا نميل إلى غيره .

الوجه الثاني : هو أن همزة الاستفهام في محلها الأصلي ، وأنها متعلقة بجملة محذوفة ، والجملة المصدرية بالاستفهام معطوفة على المحذوف بحرف العطف الذي بعد الهمزة ،

وهذا الوجه يميل إليه الزمخشري في أكثر المواضع من كشافه ، وربما مال إلى غيره .

وعلى هذا القول ، فالتقدير : أمبعوثون نحن وآباؤنا الأولين ؟ وما ذكره الزمخشري هنا من أن قوله : ﴿ ءَابَآؤُنَا ﴾ [الواقعة : 48] معطوف على واو الرفع في قوله : ﴿ لَمَبْعُوثُونَ ﴾ ، وأنه ساغ العطف على ضمير رفع متصل منغير توكيد بالضمير المنفصل لأجل الفصل بالهمزة لا يصح ، وقد رده عليه أبو حيان وابن هشام وغيرهما .

وهذا الوجه الأخير مال إليه ابن مالك في الخلاصة في قوله :

وحذف متبوع بدا هنا استبح . . . وعطفك الفعل على الفعل يصح

وقرأ هذا الحرف قالون وابن عامر أو آباؤنا بسكون الواو ، والذي يظهر لي على قراءتهما أو بمعنى الواو العاطفة ، وأن قوله : ﴿ ءَابَآؤُنَا ﴾ ، معطوف على محل المنصوب الذي هو اسم إن ، لأن عطف المرفوع على منصوب إن بعد ذكر خبرها جائز بلا نزاع ، لأن اسمها وإن كان منصوباً فأصله الرفع لأنه مبتدأ في الأصل ، كما قال ابن مالك في الخلاصة :

وجائز رفعك معطوفاً على . . . منصوب إن بعد أن تستكملا

وإنما قلنا إن أو بمعنى الواو ، لأن إتيانها بمعنى الواو معروف في القرآن وفي كلام العرب ، فمنه في القرآن : ﴿ فالملقيات ذِكْراً عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ [المرسلات : 5 – 6] لأن الذكر الملقى للعذر ، والنذر معاً لا لأحدهما ، لأن المعنى أنها أتت الذكر إعذاراً وإنذاراً ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 24] أي ولا كفوراً ، وهو كثير في كلام العرب ، ومنه قول عمرو بن معد يكرب :

قوم إذا سمعوا الصريخ رأيتهم . . . ما بين ملجم مهرة أو سافع

فالمعنى ما بين الملجم مهره وسافع : أي آخذ بناصيته ليلجمه ، وقول نابغة ذبيان :

قالت ألا ليت ما هذا الحمام لنا . . . إلى حمامتنا أو نصفه فقد

فحسبوه فألفوه كما زعمت . . . ستا وستين لم تنقص ولم تزد

فقوله : أو نصفه بمعنى ونصفه كما هو ظاهر من معنى البيتين المذكورين ، لأن مرادهما أنهما تمنت أن يكون الحمام المار بها هو ونصفه معه لها مع حمامتها التي معها ، ليكون الجميع مائة حمامة ، فوجدوه ستاً وستين ونصفها ثلاث وثلاثون ، فيكون المجموع تسعاً وتسعين ، والمروي في ذلك عنها أنها قالت :

ليت الحمام ليه . . . إلى حمامتيه

ونصفه فديه . . . تم الحمام مايه

وقول توبة بن الحمير :

قد زعمت ليلى بأني فاجر . . . لنفسي تقاها أو عليها فجورها

وقوله تعالى : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الواقعة : 47] جمع عامة القراء على ثبات همزة الاستفهام في قوله : ﴿ أَءِنَّا مِتْنَا ﴾ وأثبتها أيضاً عامة السبعة غير نافع والكسائي في قوله : ﴿ أَءِنَّا ﴾ وقرأه نافع والكسائي ﴿ أَءِنَّا لَبَعْوُثُونَ ﴾ ، بهمزة واحدة مكسورة على الخبر ، كما عقده صاحب الدرر اللوامع في أصل مقرأ الإمام نافع بقوله :

فصل واستفهام إن تكررا . . . فصير الثاني منه خبرا

واعكسه في النمل وفوق الروم . . . إلخ . . . . . .

(397/745)

والقراءات في الهمزتين في ﴿ أَئِذَا ﴾ و ﴿ أَإِنا ﴾ معروفة ، فنافع يسهل الهمزة الثانية بين بين . ورواية قالون عنه هي إدخال ألف بين الهمزتين الأولى المحققة والثانية المسهلة . ورواية قالون هذه عن نافع بالتسهيل والإدخال مطابقة لقراءة أبي عمرو ، فأبو عمرو وقالون عن نافع يسهلان ويدخلان ، ورواية ورش عن نافع هي تسهيل الأخيرة منها بين بين من غير إدخال ألف . وهذه هي قراءة ابن كثير وورش فابن كثير وورش يسهلان ولا

يدخلان .

وقرأ هشام عن ابن عامر بتحقيق الهمزتين ، وبينهما ألف الإدخال .

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وابن ذكوان عن عامر بتحقيق الهمزتين من غير ألف الإدخال ، هذه هي القراءات الصحيحة ، في مثل ﴿ أإذا ﴾ و ﴿ أَءِنَّا ﴾ ونحو ذلك في القرآن .

تنبيه

اعلم وفقني الله وإياك أن ما جرى في الأقطار الافريقية من إبدال الأخيرة من هذه الهمزة المذكورة وأمثالها في القرآن هاء خالصة من أشنع وأعظم الباطل ، وهو انتهاك لحرمة القرآن العظيم ، وتعد لحدود الله ، ولا يعذر فيه إلا الجاهل الذي لا يدري ، الذي يظن أن القراءة بالهاء صحيحة ، وإنما قالا هذا لأن إبدال الهمزة فيما ذكر هاء خالصة لم يروه أحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينزل عليه به جبريل ألبتة ، ولم يرو عن صحابي ولم يقرأ به أحد من القراء ، ولا يجوز بحال من الأحوال ، فالتجرؤ على الله بزيادة حرف في كتابه ، وهو هذه الهاء التي لم ينزل بها الملك من السماء ألبتة ، هو كما ترى ، وكون اللغة العربية قد سمع فيها إبدال الهمزة هاء لا يسوغ التجرؤ على الله بإدخال حرف في كتابه . لم يأذن بإدخاله الله ولا رسوله .

ودعوى ان العمل جرى بالقراءة بالهاء لا يعول عليها ، لأن جريان العمل بالباطل باطل ، ولا

أسوة في الباطل بإجماع المسلمين ، وإنما الأسوة في الحق ، والقراءة سنة متبعة مروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا لا خلاف فيه .

(398/745)

وقوله تعالى : ﴿ مِتْنَا ﴾ وقرأه ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو وشعبة عن عاصم متنا بضم الميم وقرأه نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ مِتْنَا ﴾ بكسر الميم ، وقد قدمنا مسوغ كسر الميم لغة في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ياليتني مِتُّ قَبْلَ هذا ﴾ [مريم : 23] .

قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50)

لما أنكر الكفار بعثهم وآباءهم الأولين في الآية المتقدمة ، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم خبراً مؤكداً بأن الأولين والآخرين كلهم مجموعون يوم القيامة للحساب والجزاء بعد بعثهم .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من بعث الأولين والآخرين وجمعهم يوم القيامة جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجمع ذَلِكَ يَوْمُ التغابن ﴾ [التغابن : 9] ، وقوله تعالى ﴿ الله لا إله إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ [النساء : 87] وقوله تعالى : ﴿

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران : 9] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ ﴾ [هود : 103] وقوله تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ ﴾ [المرسلات : 38] ، وقوله تعالى : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ [الكهف : 47] .

وقد قدمنا هذا موضحاً في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [الحجر : 17] .

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (55)

(399/745)

قد قدمنا إيضاح هذا وتفسيره في سورة الصافات في الكلام على قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ﴾ [الصافات : 67] .

هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (56)

النزل بضمتين : هو رزق الضيف الذي يقدم له نزوله إكراماً له ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾ [الكهف : 107] ،

وربما استعملت العرب النزول في ضد ذلك على سبيل التهكم والاحتقار ، وجاء القرآن باستعمال النزول فيما يقدم لأهل النار من العذاب كقوله هنا : في عذابهم المذكور في قولهم : ﴿ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ [الواقعة : 52] - إلى قوله - ﴿ شُرْبَ الهيم هذا نُزُلُهُمْ ﴾ [الواقعة : 55 - 56] أي هذا العذاب المذكور هو ضيافتهم ورزقهم المقدم لهم عند نزولهم في دارهم التي هي النار ، كقوله تعالى للكافر الحقير الذليل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من إطلاق النزول على عذاب أهل النار ، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله في آخر هذه السورة الكريمة : ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [بالواقعة : 93 - 94] ، وقوله تعالى في آخر الكهف : ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴾ [الكهف : 102] ونظير ذلك من كلام العرب قول أبي السعد الضبي :

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا . . . جعلنا القنا والمرهفات له نزلاً

وقوله : ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أي يوم الجزاء كما تقدم مراراً .

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (57)

لما أنكر الكفار بعثهم وآباءهم الأولين ، وأمر الله رسوله أن يخبرهم أنه تعالى باعث جميع الأولين والآخرين ، وذكر جزاء منكري البعث بأكل الزقوم وشرب الحميم ، أتبع ذلك بالبراهين القاطعة الدالة على البعث فقال : نحن خلقناكم هذا الخلق الأول فلولا تصدقون . أي فهل لا تصدقون بالبعث الذي هو الخلق الثاني ، لأن إعادة الخلق لا يمكن أن تكون أصعب من ابتدائه كما لا يخفى .

وهذا البرهان على البعث بدلالة الخلق الأول على الخلق الثاني ، جاء موضحاً في آيات كثيرة جداً كقوله تعالى ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] ، وقوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : 104] ، وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج : 5] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس : 79] ، وقوله تعالى : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء : 51] ، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة ، وقد ذكرناها بإيضاح وكثرة في مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبارك في سورة البقرة والنحل والحج والجاثية ، وغير ذلك من المواضع وأحلنا عليها كثيراً .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَلَوْلاَ تُصَدِقُونَ ﴾ لولا حرف تحضيض ، ومعناه الطلب بحث وشدة ، فالآية تدل على شدة حث الله للكفار وحضه لهم على التصديق

بالبعث لظهور برهانه القطع الذي هو خلقه لهم أولاً .

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59)

(401/745)

قد قدمنا قريباً كلام أهل العلم في همزة الاستفهام المتبوعة بأداة عطف ، وذكرناه قبل هذا مراراً ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ ﴾ يعني أفرأيتم ما تصبونه من المني في أرحام النساء ، فلفظة ما موصولة ، والجملة الفعلية صلة الموصول ، والعائد على الصفة محذوف ، لأنه منصوب بفعل ، والتقدير : أفرأيتم ما تمنونه ، والعرب تقول : أمنى النطفة بصيغة الرباعي ، يمنيها بضم حرف المضارعة ، إذا أرقها في رحم المرأة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾ [النجم : 46] ومنى يمنى بصيغة الثلاثي لغة صحيحة . إلا ان القراءة بها شاذة .

وممن قرأ تمنون بفتح مضارع في الثلاثي المجرد ، أبو السمال وابن السميقع ، وقوله تعالى : ﴿ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخالقون ﴾ استفهام تقرير ، فإنهم لا بد أن يقولوا : أنتم الخالقون ، فيقال لهم : إذا كنا خلقنا هذا الإنسان الخصيم المبين من تلك النطفة التي تمنى في الرحمن ، فكيف تكذبون بقدرتان على خلقه مرة أخرى ، وأنتم تعلمون أن الإعادة لا يمكن أن تكون

أصعب من الابتداء ، والضمير المنصوب في تخلقونه عائد إلى الموصول أي تخلقون ما تمنونه من النطف علقاً ، ثم مضغاً إلى آخر أطواره .

وهذا الذي تضمنته هذه الآية من البراهين القاطعة على كمال قدرة الله على البعث وغيره ، وعلى أنه المعبود وحده ، ببيان أطوار خلق الإنسان ، جاء موضحاً في آيات أخر ، وقد قدمنا الكلام على ذلك مستوفىً بالآيات القرآنية ، وبينا ما يتعلق بكل طور من أطواره من الأحكام الشرعية في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج : 5] الآية .

وذركنا أطوار خلق الإنسان في سورة الرحمن أيضاً في الكلام على قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسان عَلَّمَهُ البيان ﴾ [الرحمن : 3 - 4] وفي غير ذلك من المواضع .

(402/745)

وبينا الآيات الدالة على أطوار خلقه جملة وتفصيلاً في الحج .

تنبيه .

هذا البرهان الدال على البعث الذي هو خلق الإنسان من نطفة منى تمنى ، يجب على كل إنسان النظر فيه ، لأن الله جل وعلا وجه صفة الأمر بالنظر فيه إلى مني الإنسان ، والأصل

في صيغة الأمر على التحقيق الوجوب إلا لدليل صارف عنه ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق : 5 – 6] الآية ، وقد قدمنا شرحها في أول سورة النحل ، وقرأ هذا الحرف نافع ، ﴿ أَفَرَءَيْتُم ﴾ بتسهيل الهمزة بعد الراء بين بين .

والرواية المشهورة التي بها الأداء عن ورش عن إبدال الهمزة ألفاً وإشباعها لسكون الياء بعدها .

وقرأه الكسائي : ﴿ ءَأَنتُمْ ﴾ بحذف الهمزة ، وقرأه باقي السبعة بتحقيق الهمزة .

وقوله تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ ﴾ قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر في إحدى الروايتين بتسهيل الهمزة الثانية ، والرواية المشهورة التي بها الأداء عن ورش عن نافع إبدال الثانية ألفاً مشبعاً مدها لسكون النون بعدها ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وهشام عن ابن عامر في الرواية الأخرى بتحقيق الهمزتين ، وقالون ، وأبو عمرو وهشام بألف الإدخال بين الهمزتين والباقون بدونها .

نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (61)

قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير ابن كثير ﴿ قَدَّرْنَا ﴾ بتشديد الدال ، وقرأه ابن كثير بتخفيفها ، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية الكريمة قد يكون فيها

وجهان أو أكثر من التفسير ، ويكون كل ذلك صحيحاً ، وكله يشهد له قرآن ، فنذكر الجميع وأدلته من القرآن ، ومن ذلك هذه الآية الكريمة .

(403/745)

وإيضاح ذلك أن قوله ﴿ قَدَّرْنَا ﴾ وجهين من التفسير وفيما تتعلق به ﴿ على أَن نُّبَدِّلَ ﴾ وجهان أيضاً ، فقال بعض العلماء : وهو اختيار ابن جرير أن قوله ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت ﴾ أي قدرنا لموتكم آجالاً مختلفة وأعماراً متفاوتة فمنكم من يموت صغيراً ومنكم من يموت شباباً ، ومنكم من يموت شيخاً .

وهذا المعنى دلت عيله آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لتبلغوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر ﴾ [الحج : 5] وقوله تعالى ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً وَمِنكُمْ مَّن يتوفى مِن قَبْلُ ولتبلغوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [غافر : 67] وقوله تعالى ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ [فاطر : 10] وقوله تعالى : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ الله نَفْساً إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ ﴾ [المنافقون : 11] وقوله ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي ما نحن بمغلوبين ، العرب تقول : سبقه على كذا أي غلبه عليه وأعجزه عن إدراكه أي وما نحن مبغلوبين على ما قدرنا من آجالكم وحددناه

من أعماركم فلا يقدر أحد أن يقدم أجلاً أخرناه ولا يؤخر أجلاً قدمناه .

وهذا المعنى دلت عليه آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الاعراف : 34] وقوله تعالى ﴿ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [نوح : 4] الآية ، وقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً ﴾ [آل عمران : 145] إلى غير ذلك من الآيات .

(404/745)

وعلى هذا القول ، فقوله تعالى : ﴿ على أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ﴾ ليس متعلقاً بمسبوقين بل بقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت ﴾ والمعنى : نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم ، أي نبدل من الذين ماتوا أمثالاً لهم نوجدهم .

وعلى هذا ، فمعنى تبديل أمثالهم إيجاد آخرين من ذرية أولئك الذين ماتوا وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُمْ مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُمْ مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ [الأنعام : 133] إلى غير ذلك من الآيات .

وهذا التفسير هو اختيار ابن جرير ، وقراءة قدرنا بالتشديد مناسبة لهذا الوجه ، وكذلك لفظة بينكم .

الوجه الثاني : أن قدرنا بمعنى قضينا وكتبنا أي كتبنا الموت وقدرناه على جميع الخلق ، وهذا الوجه تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] ، وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت ﴾ [آل عمران : 185] ، وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ ﴾ [الفرقان : 85] ، وعلى هذا القول فقوله : ﴿ على أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ﴾ : متعلق بمسبوقين أي ما نحن مغلوبين والمعنى وما نحن بمغلوبين على أن نبدل أمثالكم إن أهلكناهم لو شئنا فنحن قادرون على إهلاككم ، ولا يوجد أحد يغلبنا ويمنعنا من خلق أمثالكم بدلاً منكم .

(405/745)

وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا الناس وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ الله على ذلك قَدِيراً ﴾ [النساء : 133] وقوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُمْ مَّا يَشَآءُ ﴾ [الأنعام : 133] ، وقوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذلك عَلَى الله بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم : 19 – 20] وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد : 38] وقد قدمنا هذا في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ﴾ الآية ، وقوله تعالى في هذه

الآية الكريمة : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا الناس ﴾ ، فيه للعلماء أقوال متقاربة .

قال بعضهم : ننشئكم بعد إهلاككم فيما لا تعلمونه من الصور والهيئات ، كأن ننشئكم قردة وخنازير ، كما فعلنا ببعض المجرمين قبلكم .

وقال بعضهم : ننشئكم فيما لا تعلمونه من الصفات ، فنغير صفاتكم ونجعل المؤمنين ببياض الوجوه ، ونقبح الكافرين بسواد الوجوه وزرقة العيون . إلى غير ذلك من الأقوال .

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65)

(406/745)

تضمنت هذه الآية الكريمة برهاناً قاطعاً ثانياً على البعث وامتناناً عظيماً على الخلق بخلق أرزاقهم لهم ، فقوله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتُمْ مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ ، يعني أفرأيتم البذر الذي تجعلونه في الأرض بعد حرثها أي تحريكها وتسويتها أأنتم تزرعونه ، أي تجعلونه زرعاً ، ثم تمنونه إلى أن يصير مركاً صالحاً للأكل أم نحن الزارعون له ، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب غيره هو أن يقال : أنت يا ربنا هو الزراع المنبت ، ونحن لا قدرة لنا على ذلك ، فيقال لهم : كل عاقل : كل عاقل يعلم أن من أنبت هذا النسبل من هذا البذر الذي تعفن في باطن الأرض قادر

على أن يبعثكم بعد موتكم ، وكون إنبات النبات بعد عدمه من براهين البعث ، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأرض خَاشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ إِنَّ الذي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الموتى ﴾ [فصلت : 39] وقوله تعالى : ﴿ فانظر إلى آثَارِ رَحْمَةِ الله كَيْفَ يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الموتى وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم : 50] ، وقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ المآء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثمرات كذلك نُخْرِجُ الموتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : 75] .

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة ، وقد قدمناها مستوفاة مع سائر آيات براهين البعث في مواضع كثيرة في سورة البقرة والنحل والجاثية ، وغير ذلك من المواضع ، وأحلنا عليها مراراً .

تنبيه

اعلم أنه يجب على كل إنسان إن ينظر في هذا البرهان الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة ، لأن الله جل وعلا وجه في كتابه صيغة أمر صريحة عامة في كل ما يصدق عليه مسمى

الإنسان بالنظر في هذا البرهان العظيم المتضمن للامتنان ، لأعظم النعم على الخلق ، وللدلالة على عظم الله وقدرته على البعث وغيره ، وشدة حاجة خلقه إليه مع غناه عنهم ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَآئِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبّاً مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس : 24 - 32] .

والمعنى : انصر أيها الإنسان الضعيف إلى طعامك كالخبز الذي تأكله ولا غنى لك عنه ، من هو الذي خلق الماء الذي صار سبباً لإنباته هل يقدر أحد غير الله على خلق الماء ؟ أي إبرازه من أصل العدم إلى الوجود . ثم هب أن الماء خلق ، هل يقدر أحد غير الله أن ينزله على هذا الأسلوب الهائل العظيم الذي يسقى به الأرض من غير هدم ولا غرق ؟ ثم هب أن الماء نزل في الأرض من هو الذي يقدر على شق الأرض عن مسار الزرع ؟ ثم هب أن الزرع طلع ، فمن هو الذي يقدر على إخراج النسبل منه ؟ ثم هب أن النبل خرج منه ، فمن هو الذي يقدر على إنبات الحب فيه وتنميته حتى يدرك صالحاً للأكل ؟

(408/745)

﴿ انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : 99] ، والمعنى : انظروا إلى الثمر وقت طلوعه ضعيفاً لا يصلح للأكل ، وانظروا إلى ينعه ، أي انظروا إليه بعد أن صار يانعاً مدركاً صالحاً للأكل ، تعلموا أن الذي رباه ونماه حتى صار كما ترونه وقت ينعه قادر على كل شيء منعم عليكم عظيم الإنعام ، ولذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، فاللازم أن يتأمل الإنسان وينظر في طعامه ويتدبر قوله تعالى : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ ﴾ أي عن النبات شقاً إلى آخر ما بيناه ، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ يعني لو نشاء تحطيم ذلك الزرع لجعلناه حطاماً ، أي قتاتاً وهشيماً ، ولكنا لم نفعل ذلك رحمة بكم ، ومفعول فعل المشيئة محذوف للاكتفاء عنه بجزاء الشرط ، وتقديره كما ذكرنا ، وقوله ، ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ .

قال بعض العلماء : المعنى فظلتم تعجبون من تحطيم زرعكم .

وقال بعض العلماء : تفكهون بمعنى تندمون على ما خسرتم من الإنفاق عليه كقوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾ [الكهف : 42] .

وقال بعض العلماء : تندمون على معصية الله التي كانت سبباً لتحطيم زرعكم ، والأول من الوجهين في سبب الندم هو الأظهر .

أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70)

(409/745)

تضمنت هذه الآية الكريمة امتناناً عظيماً على خلقه بالماء الذي يشربونه ، وذلك أيضاً آية من آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته وشدة حاجة خلقه إليه ، والمعنى : أفرأيتم الماء الذين تشربون الذي لا غنى لكم عنه لحظة ولو أعدمناه لهلكتم جميعاً في أقرب وقت : ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون ﴾ .

والجواب الذي لا جواب غيره هو أنت يا ربنا هو منزله من الزمن ، ونحن لا قدرة لنا على ذلك فيقال لهم : إذا كنتم في هذا القدر من شدة الحاجة إليه تعالى فلم تكفرون به وتشربون ماءه وتأكلون رزقه وتعبدون غيره ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الامتنان على الخلق بالماء وأنهم يلزمهم الإيمان بالله وطاعته شكراً لنعمة هذا الماء ، كما أشار له هنا بقوله : ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ جاء في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السماء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر : 22] وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَنْزَلَ مِنَ السماء مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل : 10] وقوله تعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً طَهُوراً لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهِ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾ [الفرقان : 48 – 49] . وقوله تعالى : ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّآءً فُرَاتاً ﴾ [المرسلات : 27] إلى غير ذلك من الآيات . وقوله هنا : ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً ﴾ أي لو نشاء جعله أجاجاً فعلنا ، ولكن جعلناه عذاباً فراتاً سائغاً شرابه ، وقد قدمنا في سورة الفرقان أنا لماء الأجاج هو الجامع بين الملوحة والمرارة الشديدتين .

(410/745)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كونه تعالى . لو شاء لجعل الماء غير صالح للشراب . جاء معناه في آيات أخر كقوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك : 30] وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا على ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ [بالمؤمنون : 18] لأن الذهاب بالماء وجعله غوراً لم يصل غليه وجعله أجاجاً ، كل ذلك في المعنى سواء بجامع عدم تأتي شرب الماء ، وهذه الآيات المذكورة تدل على شدة حاجة الخلق إلى خالقهم كما ترى . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن ﴾ يدل على أن جميع الماء الساكن في الأرض النابع من العيون والآبار ونحو ذلك ، أن أصله كله نازل من المزن ، وأن الله أسكنه في الأرض وخزنه

فيها لخلقه .

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأرض ﴾ وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأرض ﴾ [الزمر : 21] وقد قدمنا هذا في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَآ أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر : 22] وفي سورة سبأ في الكلام على قوله تعالى

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ [سبأ : 2] الآية وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴾ فلولا بمعنى هلا ، وهي حرف تحضيض ، وهو الطلب بحث وحض والمعنى أنهم يطلب منهم شكر هذا المنعم العظيم بحث وحض .

واعلم أن الشكر يطلق من العبد لربه ومن الرب لعبده .

(411/745)

فشكر العبد لربيه ، ينحصر معناه في استعماله جميع نعمه فيما يرضيه تعالى ، فشكر نعمة العين ألا ينظر بها إلا ما يرضي من خلقها ، وهكذا في جميع الجوارح ، وشكر نعمة المال أن يقيم فيه أوامر ربه ويكون مع ذلك شاكر القلب واللسان ، وشكر العبد لربه جاء في آيات

كثيرة كقوله تعالى هنا : ﴿ فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ فاذكرونيا أَذْكُرْكُمْ واشكروا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة : 152] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وأما شكر الرب لعبده فهو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 158] وقوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : 34] إلى غير ذلك من الآيات .

تنبيه لغوي

اعلم أن مادة الشكر تتعدى إلى النعمة وإلى المنعم أخرى ، فإن عديت إلى النعمة تعدت إليها بنفسها دون حرف الجر كقوله تعالى ﴿ رَبِّ أوزعني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ [النحل : 19] الآية ، وإن عديت إلى المنعم تعدت إليه بحرف الجر الذي هو اللام كقولك : نحمد الله ونشكر له ، ولم تأت في القرآن معداة إلا باللام ، كقوله ﴿ وَاشْكُرُواْ لِى وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾ وقوله ﴿ أَنِ اشكر لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ [لقمان : 14] وقوله ﴿ واشكروا للَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : 172] وقوله ﴿ فابتغوا عِندَ اللهِ الرزق واعبدوه واشكروا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت : 17] إلى غير ذلك من الآيات .

وهذه هي اللغة الفصحى ، وتعديتها للمفعول بدون اللام لغة لا لحن ، ومن ذلك قول أبي نخيلة :

شكرتك إن الشكر حبل من اتقى . . . وما كل من أوليته نعمة يقضى

وقول جميل بن معمر :

خليلي عوجا اليوم حتى تسلما . . . على عذبة الأنياب طيبة النشر

فإنكما إن عجتما لي ساعة . . . شكرتكما حتى أغيب في قبري

(412/745)

وهذه الآيات من سورة الواقعة قد دلت على أن اقتران جواب لو باللام ، وعدم اقترانه بها كلاهما سائغ ، لأنه تعالى قال ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ [الواقعة : 65] باللام ثم قال ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً ﴾ بدونها .

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (72) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (73)

قوله تعالى : ﴿ التي تُورُونَ ﴾ أي توقدونها من قولهم : أورى النار إذا قدحها وأوقدها ، والمعنى : أفرأيتم النار التي توقدونها من الشجر أأنتم أنشأتم شجرتها التي توقد منها ، أي أوجدتموها من العدم ؟

(413/745)

والجواب الذي لا جواب غيره : أنت يا ربنا هو الذي أنشأت شجرتها ، ونحن لا قدرة لنا بذلك فيقال : كيف تنكرون البعث وأنتم تعلمون أن من أنشأ شجرة النار وأخرجها منها قادر على كل شيء ؟ وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون خلق النار من أدلة البعث ، وجاء موضحاً في يس في قوله تعالى ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عليما الذي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشجر الأخضر نَاراً فَإِذَآ أَنتُم مِّنْه تُوقِدُونَ ﴾ [يس : 79 – 80] فقوله في آخر يس ﴿ تُوقِدُونَ ﴾ هو معنى قوله في الواقعة : ﴿ تُورُونَ ﴾ وقوله في آية يس ﴿ الذي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشجر الأخضر نَاراً ﴾ بعد قول ﴿ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ دليل واضح على أن خلق النار من أدلة البعث ، وقوله هنا ﴿ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ ﴾ أي الشجرة التي توقد منها كالمرخ والعفار ، ومن أمثال العرب في كل شجر نار ، واستنجد المرخ والعفار ، لأن المرخ والعفار هما أكثر الشجر نصيباً في استخراج النار منهما ، يأخذون قضيباً من المرخ ويحكمون به عوداً من العفار فتخرج من بينهما النار ، ويقال كل شجر فيه نار إلا العناب .

وقوله : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ أي تذكر الناس بها في دار الدنيا إذا أحسوا سدة حرارتها . نار الآخرة التي هي أشد منها حراً لينزجروا عن الأعمال المقتضية لدخول النار ، وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم : أن حرارة نار الآخرة مضاعفة على حرارة نار

الدنيا سبعين مرة . فهي تفوقها بتسع وستين ضعفاً كل واحد منها مثل حرارة نار الدنيا .

وقوله تعالى ﴿ وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ ﴾ أي منفعة للنازلين بالقواء من الأرض ، وهو الخلاء والفلاة التي ليس بها أحد ، وهم المسافرون ، لأنهم ينتفعون بالنار انتفاعاً عظيماً في الاستدفاء بها والاستضاءة وإصلاح الزاد .

(414/745)

وقد تقرر في الأصول أن من موانع اعتبار مفهوم المخالفة كون اللفظ وارداً للامتنان . وبه تعلم أنه لا يعتبر مفهوماً للموقين ، لأنه جيء بهللامتنان أي وهو متاع أيضاً لغير المقوين من الحاضرين بالعمران ، وكل شيء خلا من الناس يقال له أقوى ، فالرجل إذا كان في الخلا قيل له : أقوى . والدار إذا خلت من أهلها قيل لها أقوت .

ومنه قول نابغة ذبيان :

يا دار مية بالعلياء فالسند . . . أقوت وطال عليها سالف الأبد

وقول عنترة :

حيث من طلل تقادم عهده . . . أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

وقيل للمقوين : أي للجائعين ، وقيل غير ذلك ، والذي عليه الجمهور هو ما ذكرنا .

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76)

قد قدمنا الكلام عليه في أول سورة النجم .

إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)

أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة ، وأكد إخباره بأنهذا القرآن العظيم هو حق اليقين ، وأمر نبيه بعد ذلك بأن يسبح باسم ربه العظيم .

وهذا الذي تضمنته هذه الآية ذكره الله جل وعلا في آخر سورة الحاقة في قوله في وصفه للقرآن ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكافرين وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليقين فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ [الحاقة : 50 – 52] ، والحق هو اليقين .

وقد قدمنا أن إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين أسلوب عربي ، وذكرنا كثرة وروده في القرآن وفي كلام العرب ، ومنه في القرآن قوله تعالى ﴿ وَلَدَارُ الآخرة ﴾ [يوسف : 109] ولدار هي الآخرة وقوله ﴿ وَمَكْرَ السيىء ﴾ [فاطر : 43] ، والمكر هو السيىء بدليل قوله بعده : ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : 43] .

وقوله : ﴿ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ [ق : 16] والحبل هو الوريد ، وقوله : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانُ ﴾ [البقرة : 185] والشهر هو رمضان .

ونظير ذلك من كلام العرب قول امرئ القيس .

كبكر المقانات البياض بصفرة . . . غذاها نمير الماء غير المخلل

والبكر هي المقانات .

وقول عنترة :

ومشك سابغة هتكت فروجها . . . بالسيف عن حامي الحقيقة معلم

لأن مراده بالمشك هنا الدرع بدليل قوله : هتكت فروجها ، يعني الدرع ، وإن كان أصل المشك لغة السير الذي تشد به الدرع ، لأن السير لا تمكن إرادته في بيت عنترة هذا خلافاً لما ظنه صاحب تاج العروس ، بل مراد عنترة بالمشك الدرع ، وأضافه إلى السابغة التي هي الدرع كا ذكرنا ، وإلى هذا يشير ما ذكروه في باب العلم : وعقده في الخلاصة بقوله :

وإن يكونا مفردين فأضف . . . حتماً وإلا أتبع الذي ردف

لأن الإضافة المذكورة من إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين ، وقد بينا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب أن قوله في الخلاصة :

ولا يضاف اسم لما به اتحد . . . معنى وأول موهما إذا ورد

أن الذي يظهر لنا من استقراء القرآن والعربية أن ذلك أسلوب عربي ، وأن الاختلاف بين اللفظين كاف في المغايرة بين المضاف والمضاف إليه ، وأنه لا حاجة إلى التأويل مع كثرة ورود ذلك في القرآن والعربية .

ويدل له تصريحهم بلزوم إضافة الاسم إلى اللقب إن كانا مفردين نحو سعيد كرز ، لأن ما لا بد له من تأويل لا يمكن أن يكون هو اللازم كما ترى ، فكونه أسلوباً أظهر .

وقوله ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ التسبيح : أصل الإبعاد عن السوء ، وتسبيح الله وتنزيهه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله ، وذلك التنزيه واجب له في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، والظاهر أن الباء في قوله ﴿ باسم رَبِّكَ ﴾ داخلة على المفعول ، وقد قدمنا في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى ﴿ وهزي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة ﴾ [مريم : 25] أدلة كثيرة من القرآن وغيره على دخول الباء على المفعول الذي يتعدى إليه الفعل بنفسه ، كقوله ﴿ وهزي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة ﴾

[مريم : 25] والمعنى : وهزي جذع النخلة .

(416/745)

وقوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ ﴾ [الحج : 25] أي إلحاداً إلى آخر ما قدمنا من الأدلة الكثيرة ، وعليه ، فالمعنى : سبح اسم ربك العظيم كما يوضحه قوله في الأعلى ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] .

وقال القرطبي : الاسم هنا بمعنى المسمى ، أي سبح ربك ، وإطلاق بمعنى المسمى

معروف في كلام العرب ، ومنه قول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما . . . ومن يبن حولاً كاملاً فقد اعتذر

ولا يلزم في نظري أن الاسم بمعنى المسمى هنا لإمكان كون المراد نفس الاسم ، لأن أسماء الله ألحد فيها قوم ونزهها آخرون عن كل ما لا يليق ، ووصفها الله بأنها بالغة غاية الحسن ، وفي ذلك أكمل تنزيه لها لأنها مشتملة على صفاته الكريمة ، وذلك في قوله ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَآءُ الحسنى فادعوه بِهَا ﴾ [الإسراء : 180] وقوله تعالى : ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَآءُ الحسنى ﴾ [الإسراء : 111] .

ولسنا نريد أن نذكر كلام المتكلمين في الاسم والمسمى ، هل الاسم هو المسمى أولا ؟ لأن مرادنا هنا بيان معنى الآية ، والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(417/745)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَوْله تَعَالَى - : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ .

رُوِيَ عَنْ سَلْمَانَ أَنَّهُ قَالَ : " لَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ " فَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، وَلَمْ يَمَسَّ الْمُصْحَفَ حِينَ لَمْ يَكُنْ عَلَى وُضُوءٍ .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فِي حَدِيثِ إِسْلَامِ عُمَرَ قَالَ : فَقَالَ لِأُخْتِهِ : أَعْطُونِي الْكِتَابَ الَّذِي كُنْتُمْ تَقْرَءُونَ فَقَالَتْ : إنَّك رِجْسٌ ، وَإِنَّهُ لَا يَمَسُّهُ إلَّا الْمُطَهَّرُونَ فَقُمْ فَاغْتَسَلَ أَوْ تَوَضَّأَ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ أَخَذَ الْكِتَابَ فَقَرَأَهُ ؛ وَذَكَرَ الْحَدِيثَ .

وَعَنْ سَعْدٍ أَنَّهُ أَمَرَ ابْنَهُ بِالْوُضُوءِ لِمَسِّ الْمُصْحَفِ وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ مِثْلُهُ وَكَرِهَ الْحَسَنُ وَالنَّخَعِيُّ مَسَّ الْمُصْحَفِ عَلَى غَيْرِ وُضُوءٍ وَرُوِيَ عَنْ حَمَّادٍ أَنَّ الْمُرَادَ الْقُرْآنُ الَّذِي فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ قَالَ : " هُوَ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَيْسَ أَنْتُمْ مِنْ أَصْحَابِ الذُّنُوبِ " ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ " الْمُطَهَّرُونَ الْمَلَائِكَةُ " وَقَالَ قَتَادَةُ : " لَا يَمَسُّهُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ فَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يَمَسُّهُ الْمَجُوسِيُّ وَالنَّجِسُ وَالْمُنَافِقُ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : إنْ حُمِلَ اللَّفْظُ عَلَى حَقِيقَةِ الْخَبَرِ فَالْأَوْلَى أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الْقُرْآنَ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ وَالْمُطَهَّرُونَ الْمَلَائِكَةُ ، وَإِنْ حُمِلَ عَلَى النَّهْيِ ، وَإِنْ كَانَ فِي صُورَةِ الْخَبَرِ كَانَ عُمُومًا فِينَا ؛ وَهَذَا أَوْلَى ؛ لِمَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَخْبَارٍ مُتَظَاهِرَةٍ أَنَّهُ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ لِعَمْرِو بْنِ حَزْمٍ : ﴿ وَلَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إلَّا طَاهِرٌ ﴾ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ نَهْيُهُ ذَلِكَ بِالْآيَةِ ؛ إذْ فِيهَا احْتِمَالٌ لَهُ .

آخِرُ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(419/745)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

[فِيهَا آيَةٌ وَاحِدَةٌ]

قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى [هَلْ] هَذِهِ الْآيَةُ مُبَيِّنَةٌ حَالَ الْقُرْآنِ فِي كُتُبِ اللَّهِ أَمْ هِيَ مُبَيِّنَةٌ فِي كُتُبِنَا ؟ فَقِيلَ : هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ .

وَقِيلَ : هُوَ مَا بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ ؛ فَهَذَا كِتَابُ اللَّهِ .

وَقِيلَ : هِيَ مَصَاحِفُنَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : ﴿ لَا يَمَسُّهُ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ الْمَسُّ بِالْجَارِحَةِ حَقِيقَةً .

وَقِيلَ : مَعْنَاهُ لَا يَجِدُ طَعْمَ نَفْعِهِ إلَّا الْمُطَهَّرُونَ بِالْقُرْآنِ ؛ قَالَهُ الْفَرَّاءُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ : ﴿ إلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ الْمَلَائِكَةُ طُهِّرُوا مِنْ الشِّرْكِ وَالذُّنُوبِ .

الثَّانِي : أَنَّهُ أَرَادَ الْمُطَهَّرِينَ مِنْ الْحَدَثِ ، وَهُمْ الْمُكَلَّفُونَ مِنْ الْآدَمِيِّينَ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ هَلْ قَوْلُهُ : ﴿ لَا يَمَسُّهُ ﴾ نَهْيٌ أَوْ نَفْيٌ ؟ فَقِيلَ : لَفْظُهُ لَفْظُ الْخَبَرِ ، وَمَعْنَاهُ النَّهْيُ .

وَقِيلَ : هُوَ نَفْيٌ .

وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَقْرَؤُهَا : مَا يَمَسُّهُ إلَّا الْمُطَهَّرُونَ ، لِتَحْقِيقِ النَّفْيِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ فِي تَنْقِيحِ الْأَقْوَالِ : أَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ : إنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ فَهُوَ بَاطِلٌ ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَنَالُهُ فِي وَقْتٍ ، وَلَا تَصِلُ إلَيْهِ بِحَالٍ ؛ فَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ ذَلِكَ لَمَا كَانَ لِلِاسْتِثْنَاءِ فِيهِ مَحَلٌّ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : أَنَّهُ الَّذِي بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ مِنْ الصُّحُفِ فَإِنَّهُ قَوْلٌ مُحْتَمَلٌ ؛ وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ مَالِكٌ قَالَ : أَحْسَنُ مَا سَمِعْت فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ أَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ الْآيَةِ الَّتِي فِي ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ : ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ يُرِيدُ أَنَّ الْمُطَهَّرِينَ هُمْ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ وُصِفُوا بِالطَّهَارَةِ فِي سُورَةِ " عَبَسَ "

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ أَمْرٌ بِالتَّوَضُّؤِ [بِالْقُرْآنِ] إذَا أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَمَسَّ صُحُفَهُ ، فَإِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّ لَفْظَهُ لَفْظُ الْخَبَرِ وَمَعْنَاهُ الْأَمْرُ ، وَقَدْ بَيَّنَّا فَسَادَ ذَلِكَ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ ، وَفِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ كَلَامِنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ ، وَحَقَّقْنَا أَنَّهُ خَبَرٌ عَنْ الشَّرْعِ ، أَيْ لَا يَمَسُّهُ إلَّا الْمُطَهَّرُونَ شَرْعًا ، فَإِنْ وُجِدَ بِخِلَافِ ذَلِكَ فَهُوَ غَيْرُ الشَّرْعِ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّ مَعْنَاهُ لَا يَجِدُ طَعْمَهُ إلَّا الْمُطَهَّرُونَ مِنْ الذُّنُوبِ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ فَهُوَ صَحِيحٌ ، اخْتَارَهُ الْبُخَارِيُّ ؛ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ ذَاقَ طَعْمَ الْإِسْلَامِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا ﴾ ؛ لَكِنَّهُ عُدُولٌ عَنْ الظَّاهِرِ لِغَيْرِ ضَرُورَةِ عَقْلٍ وَلَا دَلِيلِ سَمْعٍ .

وَقَدْ رَوَى مَالِكٌ وَغَيْرُهُ أَنَّ فِي كِتَابِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ الَّذِي كَتَبَهُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنُسْخَتُهُ ﴿ : مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ إلَى شُرَحْبِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ ، وَالْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ ، وَنُعَيْمِ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ ، قِيلَ ذِي رُعَيْنٍ وَمَعَافِرَ وَهَمْدَانَ : أَمَّا بَعْدُ وَكَانَ فِي كِتَابِهِ أَلَّا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إلَّا طَاهِرٌ ﴾ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ دَخَلَ عَلَى أُخْتِهِ وَزَوْجِهَا سَعِيدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ ، وَهُمَا يَقْرَآنِ طَهَ ، فَقَالَ : مَا هَذِهِ الْهَيْنَمَةُ ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ إلَى أَنْ قَالَ : هَاتُوا الصَّحِيفَةَ . فَقَالَتْ لَهُ أُخْتُهُ : إنَّهُ لَا يَمَسُّهُ إلَّا الْمُطَهَّرُونَ فَقَامَ وَاغْتَسَلَ وَأَسْلَمَ .

وَقَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يَرْثِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَقَدْنَا الْوَحْيَ إذْ وَلَّيْت عَنَّا وَوَدَّعَنَا مِنْ اللَّهِ الْكَلَامُ سِوَى مَا قَدْ تَرَكْت لَنَا قَدِيمًا تَوَارَثَهُ الْقَرَاطِيسُ الْكِرَامُ وَأَرَادَ صُحُفَ الْقُرْآنِ الَّتِي كَانَتْ

بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُمْلِيهَا عَلَى كَتَبَتِهِ .

وَقَدْ قَالَ أَهْلُ الْعِرَاقِ مِنْهُمْ إبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ .

وَلَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إلَّا طَاهِرٌ .

وَاخْتَلَفَتْ الرِّوَايَةُ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ ؛ فَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ يَمَسُّهُ الْمُحْدِثُ ، وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ يَمَسُّ

ظَاهِرَهُ وَحَوَاشِيَهُ وَمَا لَا مَكْتُوبَ فِيهِ .

وَأَمَّا الْكِتَابُ فَلَا يَمَسُّهُ إلَّا الْمُطَهَّرُونَ .

(422/745)

وَهَذَا إنْ سُلِّمَ مِمَّا يُقَوِّي الْحُجَّةَ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ حَرِيمَ الْمَمْنُوعِ مَمْنُوعٌ ، وَفِيمَا كَتَبَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَمْرِو بْنِ حَزْمٍ أَقْوَى دَلِيلٍ عَلَيْهِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(423/745)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الواقعة

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2)

قوله : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ﴾ : فيها أوجهٌ أحدها : أنها ظرفٌ محْضٌ ليس فيه معنى الشرط

والعامل فيها "ليس" . والثاني : أنَّ العاملَ فيها اذْكُر مقدراً . قال الزمخشري : "فإنْ قلتَ : بم انتصبت "إذا" ؟ قلت : بليس ، كقولك : "يومَ الجمعة ليس لي شُغْلٌ" ثم قال : "أو بإضمارِ اذكُرْ" . قال الشيخ : "ولا يقول هذا نَحْوِيٌّ ، ولا مَنْ شدا شيئاً مِنْ صناعةِ النحوِ" . قال : "لأن "لَيْسَ" مثل "ما" النافية ، فلا حَدَثَ فيها ، فكيف يعملُ في الظرف مِنْ غير حَدَثٍ ؟ وتَسْمِيتُها فِعْلاً مجازٌ . فإنَّ حَدَّ الفعل غير مُنْطَبِقٍ عليها" ، وكَثَّرَ الشيخُ عليه من هذا المعنى . ثم قال : "وأما المثال الذي نَظَّر به فالظرف ليس معمولاً لـ "ليس" بل للخبر ، وتقدَّمَ معمولُ خبرِها عليها ، وهي مسألةُ خلاف" انتهى . قلت : الظروفُ تعملُ فيها روائحُ الأفعالِ . ومعنى كلامِ الزمخشريِّ : أنَّ النفي المفهومَ مِنْ "ليس" هو العاملُ في "إذا" كأنه قيل : ينفي كَذِبُ وقوعِها إذا وَقَعَتْ . ويدلُّ على ما قُلْتُه قولُ أبي البقاء : "والثاني ظرفٌ لِما دَلَّ عليه ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ ، أي : إذا وقعت لم تكذبْ" فإنْ قيل فَلْيَجُزْ ذلك في "ما" النافية أيضاً ، فالجواب : أنَّ الفعلَ أقربُ إلى الدلالةِ على الحَدَثِ من الحرفِ .

الثالث : أنَّها شرطيةٌ . وجوابُها مقدرٌ ، أي : إذا وقعَتْ كان كيتَ وكيتَ ، وهو العاملُ فيها . والرابع : أنها شرطيةٌ ، والعاملُ فيها الفعلُ الذي بعدَها ويليها ، وهو اختيارُ الشيخ ، وتبَع في ذلك مكيّاً . قال مكي : " والعاملُ فيها " وَقَعَتْ " لأنها قد يُجازى بها ، فعَمِل فيها الفعلُ الذي بعدها كما يَعْمل في " ما " و " مَنْ " اللتَيْن للشرط في قولك : ما تفعَلْ أُفعَلْ ، ومَنْ تُكرِمْ أُكْرِمْ " ، ثم ذكر كلاماً كثيراً . الخامس : أنها مبتدأٌ ، و " إذا رُجَّتْ " خبرُها ، وهذا على قولِنا : إنها تَتَصرَّفُ ، وقد مَضَى القولُ فيه مُحرَّراً ، إلاَّ أن هذا الوجهَ إنما جوَّزه الشيخُ ، جمالُ الدين ابن مالك وابن جني وأبو الفضل الرازي على قراءةِ مَنْ نصب " خافضةً رافعةً " على الحالِ . وحكاه بعضُهم عن الأخفش ، ولا أدري اختصاص ذلك بوجه النصب .

السادس : أنه ظرفٌ ل " خافضة " أو " رافعة " ، قاله أبو البقاء ، أي : إذا وَقَعَتْ خَفَضَتْ ورفعَتْ . السابع : أَنْ يكونَ ظرفاً ل " رُجَّتْ " " وإذا " الثانيةُ على هذا إمَّا بدلٌ من الأولى أو تكريرٌ لها . الثامن : أنَّ العاملَ فيه ما دلَّ عليه قوله : ﴿ فأصحابُ المَيْمَنَةِ ﴾ ، أي : إذا وَقَعَتْ باتَتْ أحوالُ الناسِ فيها .

التاسع : أنَّ جوابَ الشرطِ قولُه : ﴿ فأصحابُ المَيْمنةِ ﴾ إلى آخره .

و "لِوَقْعَتِها" خبرٌ مقدمٌ و "كاذبة" اسم مؤخرٌ . و "كاذبة" يجوز أَنْ يكونَ اسم فاعل وهو الظاهرُ ، وهو صفةٌ لمحذوف ، فقَدَّره الزمخشريُّ : "نفسٌ كاذبةٌ ، أي : إنه ذلك اليومَ لا يَكْذِبُ على الله أحدٌ ، ولا يُكَذِّبُ بيوم القيامةِ أحد " ثم قال : "واللامُ مثلُها في قولِه ﴿ قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر : 24] إذ ليس لها نفسٌ تُكَذِّبها وتقول : لم تكوني كما لها نفوسٌ كثيرةٌ يُكَذِّبْنَها اليومَ يَقُلْنَ لها : لم تكوني ، أو هو مِنْ قولهم : كَذَّبَتْ فلاناً نفسُه في الخطر العظيم إذا شَجَّعَتْهُ على مباشرته وقالَتْ له : إنَّك تُطيقه وما فوقه فَتَعَرَّضْ له ، ولا تبال به على معنى أنها وقعةٌ لا تُطاقُ شدةً وفظاعةً ، وأنْ لا نفس حينئذٍ تُحدِّث صاحبَها بما تُحَدِّثه به عند عظائمِ الأمورِ ، وتزيِّن له احتمالها وإطاقتها ؛ لأنهم يومئذٍ أضعفُ مِنْ ذلكَ وأَذلُّ . ألا ترى إلى قولِه تعالى ﴿ كالفراش المبثوث ﴾ [القارعة : 4] والفَراشُ مَثَلٌ في الضعف " . وقَدَّره ابن عطية : "حالٌ كاذبةٌ" قال : "ويَحتمل الكلامُ على هذا معنيين ، أحدهما : كاذبة ، أي : مكذوبة فيما أَخْبر به عنها فسَمَّاها كاذبةً لهذا ، كما تقول : هذه قصةٌ كاذبةٌ ، أي : مكذوبٌ فيها . والثاني : أي : / لا يَمْضي وقوعُها كقولك : فلانٌ إذا حَلَّ لم يكذِبْ . والثاني : أن كاذبة مصدرٌ بمعنى التكذيب نحو : خائنة الأعين . قال الزمخشري : "مِنْ قولِك حَمَلَ فلانٌ على قرْنه فما كَذَبَ ، أي : فما جَبُنَ ولا تَثَبَّط . وحقيقتُه فما كَذَّب نفسَه فيما حَدَّثَتْه به من إطاقتِه له وإقدامِه عليه وأنشد لزهير :

4200 لَيْثٌ بعَثَّرَ يَصْطادُ الرجالُ إذا . . . ما الليثُ كَذَّب عن أقرانِه صَدَقا

أي : إذا وَقَعَتْ لم يكن لها رَجْعَةٌ ولا ارْتدادٌ " ، انتهى . وهو كلامٌ حسنٌ جداً .

(426/745)

ثم لك في هذه الجملةِ وجهان ، أحدُهما : أنها لا محلَّ لها من الإعراب : إمَّا لأنَّها ابتدائيةٌ ولا سيما على رَأْيِ الزمخشري ، حيث جَعَلَ الظرفَ مُتَعَلِّقاً بها وإمَّا لأنَّها اعتراضيةٌ بين الشرطِ وجوابِه المحذوف . والثاني : أنَّ مَحَلَّها النصبُ على الحال ، قاله ابن عطية ، ولم يُبَيِّن صاحب الحال ماذا ؟ وهو واضحٌ إذا لم يكُنْ هنا إلاَّ الواقعةُ ، وقد صَرَّحَ أبو الفضل بذلك .

وقرأ العامَّةُ برفعِ " خافضةٌ رافعةٌ " على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ ، أي : هي خافضةٌ قوماً إلى النار ورافعةٌ آخرين إلى الجنةِ ، فالمفعولُ محذوفٌ لفَهْمِ المعنى ، أو يكونُ المعنى : أنَّها ذاتُ خَفْضٍ ورَفْعٍ كقوله : ﴿ يُحْيِي ويُمِيتُ ﴾ [آل عمران : 156] ﴿ وكُلُواْ واشربوا ﴾ [البقرة : 187] وقرأ زيد بن علي وعيسى والحسن وأبو حيوة وابن مقسم واليزيدي بنصِبها على الحالِ ، ويُروى عن الكسائيِّ أنه قال : " لولا أنَّ اليزيديَّ سَبَقَني إليه لقَرَأْتُ به " انتهى . ولا أظنُّ مثلَ هذا يَصِحُّ عن مثل هذا .

واخْتُلف في ذي الحال ، فقال أبو البقاء : " من الضمير في "كاذبة" أو في " وَقَعَتْ " ، وإصلاحُه أن يقولَ : أو فاعل " وقعَتْ " إذ لا ضميرَ في " وقعَتْ " . وقال ابن عطية وأبو الفضل مِنْ " الواقعة " ، ثم قرَّرا مجيءَ الحالِ متعددةً من ذي حالٍ واحدةٍ كما تجيءُ الأخبارُ متعددةً . وقد بَيَّنْتُ لك هذا فيما تقدَّم فاستغْنَيْت عن كلامِهما . قال أبو الفضل : " وإذا جُعِلَتْ هذه كلُّها أحوالاً كان العامل في " إذا وَقَعَتْ " محذوفاً يَدُلُّ عليه الفحوى ، أي : إذا وقعتْ يُحاسَبون .

إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4)

(427/745)

قوله : ﴿ إِذَا رُجَّتِ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ " إذا " الأولى ، أو تأكيداً لها أو خبراً لها على أنها مبتدأةٌ كما تقدَّم تحريرُ هذا جميعِه ، وأَنْ يكونَ شرطاً ، والعامل فيها : إمَّا مقدَّرٌ وإمَّا فِعْلُها الذي يليها كما تقدَّم في نظيرِتها . وقال الزمشخري : " ويجوز أَنْ تنتصِب بخافضة رافعة ، أي : تَخْفِضُ وترفعُ وقتَ رَجِّ الأرض وبَسِّ الجبالِ ، لأنه عند ذلك ينخفضُ ما هو مرتفعٌ ويرتفعُ ما هو منخفضٌ " . قال الشيخ : " ولا يجوز أَنْ تنتصِبَ بهما معاً بل بأحدِهما ، لأنه لا يجتمعُ مؤثِّران على أثرٍ واحد " . قلت : معنى كلامِه أنَّ كلاً منهما

متسلِّطٌ عليه من جهة المعنى ، وتكونُ المسألة من التنازع ، وحينئذٍ تكون العبارةُ صحيحةً إذ يَصْدُقُ أنّ كلاً منهما عاملٌ فيه ، وإن كان على التعاقُب .

والرَّجُّ : التحريكُ الشديدُ بمعنى زُلزلت . وبُسَّت الجبالُ : سُيِّرت مِنْ قولهم : بَسَّ الغنمَ ، أي : ساقَها أو بمعنى فُتِّتَتْ كقوله : ﴿ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴾ [طه : 105] يدلُّ عليه ﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثّاً ﴾ . وقرأ زيد بن علي " رَجَّتْ " و " بَسِّتْ " مبنيين للفاعل على أنّ رجَّ وبَسَّ يكونان لازمَيْن ومُتَعَدِّيَيْن ، أي : أُزيحت وذهَبَتْ . وقرأ النخعي " مُنْبَتّاً " بنقطتين مِنْ فوق ، أي : متقطعاً من البَتِّ . ومعنى الآية يَنْبو عنه .

فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8)

(428/745)

قوله : ﴿ فَأَصْحَابُ الميمنة مَآ أَصْحَابُ الميمنة ﴾ : " أصحاب " الأولى مبتدأٌ ، و " ما " استفهامٌ فيه تعظيمٌ مبتدأٌ ثانٍ ، و " أصحاب " الثاني خبرُه والجملةُ خبرُ الأولِ ، وتكرارُ المبتدأ هنا بلفظِه مُغْنٍ عن الضمير ومثلُه ﴿ الحاقة مَا الحآقة ﴾ [الحاقة : 1-2] ﴿ القارعة مَا القارعة ﴾ [القارعة : 1-2] ولا يكون ذلك إلاَّ في مواضعِ التعظيم . وهنا سؤالٌ : وهو أنَّ " ما " نكرةٌ وما بعده معرفةٌ ، فكان ينبغي أَنْ يقال " ما " خبر مقدمٌ ، "

وأصحاب " الثاني وشبهُه مبتدأٌ ؛ لأن المعرفة أحقُّ بالابتداء من النكرةِ . وهذا السؤال واردٌ على سيبويه من مثل هذا ، وفي قولك : "كم مالُك " و " مَرَرْتُ برجل خيرٌ منه أبوه " ، فإنه يُعْرِبُ ما الاستفهامية و "كم " و " أَفْعَل " مبتدأ ، وما بعدها خبرُها . والجوابُ : أنه كَثُرَ وقوعُ النكرةِ خبراً عن هذه الأشياء كثرةً متزايدةً ، فاطَّردَ البابُ ليجريَ على سَنَنٍ واحدٍ . هكذا أجابوا ، وهذا لا ينهضُ مانعاً مِنْ جوازِ أَنْ تكونَ " ما " و "كم " وأفعلُ خبراً مقدماً . ولو قيل به لم يكنْ خطأً بل أقربُ إلى الصوابِ .

والمَيْمَنَةُ : مَفْعَلَةٌ من لفظِ اليُمْن وكذلك المَشْأَمَة من اليدِ الشُّؤمى وهي الشِمالُ لتشاؤمِ العربِ بها ، أو من الشُّؤْم .

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10)

قوله : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ : فيه أوجهٌ : أحدُها : أنهما مبتدأٌ وخبرٌ . وفي ذلك تأويلان ، أحدهما : أنه بمعنى السابقون ، هم الذي اشْتُهِرَتْ حالُهم بذلك كقولِهم : أنت أنت ، والناسُ الناسُ ، وقولِه :

4201 أنا أبو النجمِ وشِعْري شِعْري . . . وهذا يُقال في تعظيمِ الأمرِ وتفخيمِهِ ، وهو مذهبُ سُيبويه .

التأويل الثاني : أنَّ مُتَعلَّقَ السَّبْقَتَيْنِ مختلفٌ ، إذ التقدير : والسابقونَ إلى الإيمانِ السابقونَ إلى الجنة ، / أو السابقونَ إلى طاعةِ اللَّهِ السابقون إلى رحمتِه ، أو السابقون إلى الخيرِ السابقون إلى الجنة .

الوجه الثاني : أَنْ يكونَ " السابقون " الثاني تأكيداً للأول تأكيداً لفظيّاً ، و " أولئك المقرَّبون " جملةٌ ابتدائيةٌ في موضوع خبرِ الأولِ ، والرابطُ اسمُ الإشارةِ ، كقولِه تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ التقوى ذلك خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : 26] في قراءة مَنْ قرأ برفع " لباسُ " في أحد الأُوجه .

الثالث : أَنْ يكونَ " السابقون " نعتاً للأول ، والخبرُ الجملةُ المذكورةُ . وهذا ينبغي أَنْ لا يُعَرَّجَ عليه ، كيف يُوْصَفُ الشيءُ بلفظه وأيُّ فائدةٍ في ذلك ؟ والأقربُ عندي إنْ وَرَدَتْ هذه العبارةُ مِمَّن يُعتبر أَنْ يكون سَمَّى التأكيدَ صفةً ، وقد فعل سيبويه قريباً من هذا .

الرابع : أَنْ يكونَ الوقفُ على قولِه " والسابقون " ويكونَ قولُه " السابقون ، أولئك المقرَّبون " ابتداءً وخبراً ، وهذا يقتضي أن يُعْطَفَ " والسابقون " على ما قبلَه ، لكنْ لا يليق عَطْفُه على ما قبلَه ويليه ، وإنما يليقُ عطفُه على " أصحابُ المَيْمنة " كأنه قيل : وأصحابُ الميمنة ما أصحابُ الميمنة ، والسابقون ، أي : ما السابقون تعظيماً لهم ، فيكون شركاءَ لأصحابِ الميمنة في التعظيم ، ويكون قولُه على هذا " وأصحابُ المَشْأَمَةِ ، ما أصحابُ المشأمة " اعتراضاً بين المتعاطفَيْن . وفي هذا الوجهِ تكلُّفٌ كثير جداً .

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12)

قوله : ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ : خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أي : هم . ويجوزُ أَنْ يكونَ مبتدأ خبرُه مضمرٌ ، أي : منهم ثُلَّةٌ ، أي : من السابقين يعني : أن التقسيمَ وقع في السابقين ، وأَنْ يكونَ مبتدأً خبرُه ﴿ فِي جَنَّاتِ النعيم ﴾ أو قولُه " على سُرُر " فهذه أربعةُ أوجهٍ .

(430/745)

والثُّلَّة : الجماعةُ من الناس . وقَيَّدها الزمخشريُّ بالكثيرة وأنشد :

4202 وجاءَتْ إليهم ثُلَّةٌ خِنْدِفِيَّةٌ . . . بجيشٍ كَتَيَّارٍ مِنْ البحرِ مُزْبِدِ

ولم يُقَيِّدْها غيرُه ، بل صَرَّح بأنها الجماعة قلَّت أو كَثُرَتْ . وقال الراغب : " الثُّلَّةُ قطعةٌ مجتمعةٌ من الصوف ، ولذلك قيل للغنم : ثَلَّة . قلت : يعني بفتح الثاء ، ومنه قولُه :

4203 أَمْرَعَتِ الأرضُ لَوَأَنَّ مالا . . . لَوْأن نُوْقاً لك أو جِمالا

أو ثَلَّةً مِنْ غنم إمَّا لا . . . انتهى . ثم قال الراغب : " ولاعتبار الاجتماع قيل : " ثُلَّة من الأوَّلين ، وثُلَّة من الآخِرين " ، أي : جماعة وثَلَّلْتُ كذا : تناوَلْتُ ثُلَّةً منه . وثَلَّ عرشَه : أسقط ثُلَّة منه . والثَّلَلُ : قِصَرُ الأسنانِ لسُقوط ثُلَّةٍ منها . وأَثَلَّ فَمُه سَقَطَتْ أسنانُه . وتَثَلَّلَتِ الرَّكِيَّةُ : تَهَدَّمَتْ " انتهى . فقد أطلق أنها الجماعة من غيرِ قَيْدٍ بِقِلَّة ولا كثرةٍ ،

والكثرةُ التي فهمها الزمخشريُّ قد تكونُ من السِّياق . و " مِنْ الأوَّلين " صفةٌ لثُلَّة ، وكذلك " مِنْ الآخِرين " صفةٌ لقليل .

عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15)

وقرأ زيد بن علي وأبو السَّمَّال " سُرَر " بفتح الراء الأولى وقد تقدَّم أنها لغةٌ لبعضِ كلبٍ وتميم . والمَوْضونة : المَنْسوجة وأصلُه مِنْ : وضَّنْتُ الشيءَ ، أي : ركَّبْتُ بعضَه على بعض . ومنه قيل للدِّرْعِ : مَوْضونة لتراكُبِ حِلَقِها . قال الأعشى :

4204 ومِن نَسْجِ داودَ مَوْضُونَةً . . . تسيرُ مع الحيِّ عِيْراً فَعِيْرا

ومنه أيضاً " وَضِين الناقة ، وهو حِزامُها لتراكُبِ طاقاته قال الراجز :

4205 إليك تَعْدُو قِلقاً وضِيْنُها . . . مُعْتَرِضاً في بَطْنِها جنينُها

مُخالفاً دينَ النَّصارى دينُها . . . وقال الراغب : " الوَضْنُ : نَسْيجُ الدِّرعِ . ويُسْتعار لكل نَسْجٍ مُحْكَم " ، فجعله أصلاً في نَسْج الدَّرْع . قال الشاعر :

(431/745)

4206 تقولُ وقد دَرَأْتُ لها وَضِيْني . . . أهذا دينُه أبداً وديني

أي : حِزامي .

مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16)

قوله : ﴿ مُّتَّكِئِينَ ، مُتَقَابِلِينَ ﴾ : حالان من الضمير في " على سُرُر " ويجوز أَنْ تكونَ حالاً متداخلةً ، فيكون " متقابلين " حالاً من ضمير " متَّكئين " .

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17)

قوله : ﴿ يَطُوفُ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ حالاً ، وأنْ يكون استئنافاً .

بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18)

و" بأكْواب " متعلقٌ ب "يَطُوف " . والأباريق : / جمع إبْريق ، وهو مِنْ آنيةِ الخَمْر قال :

4207 أَفْنى تِلادي وما جَمَّعْتُ مِنْ نَشَبٍ . . . قَرْعُ القواقيزِ أَفْواهَ الأباريقِ

وقال عدي بن زيد :

4208 وتداعَوا إلى الصَّبوحِ فجاءتْ . . . قَيْنةٌ في يمينِها إبْريقُ

وقال آخر :

4209 كأن إبْريقَهم ظبيٌ على شَرَفٍ . . . مُفَدَّمٍ بسَبا الكَتَّانِ مَلْثُوْمُ

ووزنُه إفْعيل لاشتقاقِه مِنْ البَريق والإِبريقُ ما له خُرطومٌ . قال بعضهم : وأُذُنٌ . وتقدَّم تفسيرُ الأكواب .

لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (19)

قوله : ﴿ لاَّ يُصَدَّعُونَ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ مستأنفة أخبر عنهم بذلك ، وأن تكونَ حالاً من

الضمير في " عليهم " ومعنى لا يُصَدَّعون عنها أي : بسببها . قال الزمخشري : " وحقيقتُه : لا يَصْدُرُ صُداعُهم عنها " والصُّداع : هو الداءُ المعروفُ الذي يَلْحَقُ الإنسانَ في رأسِه ، والخمر تؤثّر فيه . قال علقمة بن عبدة في وصف الخمر :

4210 تَشْفي الصُّداعَ ولا يُؤْذِيك صالبُها . . . ولا يخالِطُها في الرأس تدويمُ

(432/745)

ولما قرأت هذا الديوان على الشيخ أثير الدين أبي حيان رحمه الله قال لي : هذه صفةُ خمر الجنة . وقال لي : لَمَّا قرأتُه على الشيخ أبي جعفر ابن الزبير قال لي : هذه صفةُ خمر الجنة . وقيل : لا يُصَدَّعون : لا يُفَرَّقون كما يتفرَّق الشَّربُ عن الشَّراب للعوارض الدنيوية . ومِنْ مجيء تَصَدَّعَ بمعنى تَفَرَّق قولُه : " فتصدَّع السحابُ عن المدينة " ، أي : تفرَّق . ويُرَجِّحه قراءةُ مجاهد " لا يَصَّدَّعون " بفتح الياءِ وتشديد الصادِ . والأصلُ : يَتَصَدَّعون ، أي : يتفرَّقون كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : 43] . وحكى الزمخشري قراءةً وهي " لا يُصَدِّعون " بضم الياء وتخفيفِ الصادِ وكسرِ الدال مشددةً . قال : أي لا يُصَدِّعُ بعضُهم بعضاً ، أي : لا يُفَرِّقُونهم . وتقدَّم الخلافُ بين السبعة في " يُنزِفُونَ " وتفسيرُ ذلك . وقرأ ابن أبي إسحاق بفتح الياء وكسر الزاي مِنْ نَزَفَ البِئْرُ ، أي : اسْتُقِيَ ما فيها . والمعنى

: لا تَنْفَدُ خمرُهم . قال الشيخ : " وابن أبي إسحاق أيضاً ، وعبد الله والجحدريُّ والأعمش وطلحة وعيسى ، بضمِّ الياء وكسر الزاي أي : لا يَفْنى لهم شراب " . قلت : وهذا عجيبٌ منه فإنَّه قد تقدَّم في الصافات أن الكوفيين يَقْرَؤون في الواقعة بكسر الزاي ، وقد نقل هو هذه القراءة في قصيدته .

وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20)

قوله : ﴿ وَفَاكِهَةٍ ﴾ : العامَّةُ على جَرِّ " فاكهة ولحم " نَسَقاً على " أكواب " أي : يطوفون عليهم بهذه الأشياء : المأكول والمشروبِ والمتفكَّهِ به ، وهذا كمالُ العِيشةِ الراضيةِ . وقرأ زيد بن علي وأبو عبد الرحمن برفعهما ، على الابتداء ، والخبرُ مقدَّرٌ أي : ولهم كذا .

وَحُورٌ عِينٌ (22)

(433/745)

قوله : ﴿ وَحُورٌ ﴾ قرأ الأخَوان بجرِّ " حور عين " . والباقون برفعِهما . والنخعيُّ : " وحِيرٍ عين " بقلب الواو ياءً وجرِّهما ، وأُبَيٌّ وعبد الله " حُوْراً عيناً " بنصبهما . فأمَّا الجرُّ فمن أوجه ، أحدها : أنه عطفٌ على ﴿ جَنَّاتِ النعيم ﴾ [الواقعة : 12] كأنه قيل : هم في جنات وفاكهة ولحمٍ وحورٍ ، قاله الزمخشري . قال الشيخ : " وهذا فيه بُعْدٌ

وتفكيكُ كلامٍ مرتبطٍ بعضُه ببعض ، وهو فُهْمُ أعجمي " . قلت : والذي ذهب إليه معنى حسنٌ جداً ، وهو على حَذْفِ مضافٍ أي : وفي مقاربة حور ، وهذا هو الذي عناه الزمخشري . وقد صرَّح غيرُه بتقدير هذا المضاف . الثاني : أنه معطوفٌ على " بأكواب " وذلك بتجوُّزٍ في قوله : " يطُوفُ " إذ معناه : يُنَعَّمُوْن فيها باكواب وبكذا وبُحور ، قاله الزمخشري . الثالث : أنه معطوفٌ عليه حقيقةً ، وأن الوِلْدانَ يَطُوفون عليهم بالحور أيضاً ، فإن فيه لذةً لهم ، طافُوا عليهم بالمأكولِ والمشروبِ والمُتَفَكَّهِ بعد المنكوحِ ، وإلى هذا ذهب أبو عمرو بن العلاء وقطرب . ولا التفات إلى قولِ أبي البقاء : " عطفاً على أكواب في اللفظ دون المعنى ؛ لأنَّ الحورَ لا يُطاف بها " .

وأمَّا الرفعُ فمِنْ أوجهٍ أيضاً ، عطفاً على " ولْدانٌ " ، أي : إنَّ الحورَ يَطُفْنَ عليهم بذلك ، كما الوَلائدُ في الدنيا . وقال أبو البقاء : " أي : يَطُفْنَ عليهم للتنعُّمِ لا للخدمة " قلت : / وهو للخدمةِ أبْلَغُ ؛ لأنهم إذا خدمهم مثلُ أُولئك ، فما الظنُّ بالمَوْطوءات ؟ الثاني : أَنْ يُعطفَ على الضمير المستكنِّ في " مُتَّكِئين " وسَوَّغ ذلك الفصلُ بما بينهما . الثالث : أَنْ يُعْطفَ على مبتدأ وخبر حُذِفا معاً تقديرُه : لهم هذا كلُّه وحورٌ عين ، قاله الشيخ ، وفيه نظر ؛ لأَنَّه إنما عُطِف على المبتدأ وحدَهُ ، وذلك الخبرُ له ولِما عُطِف هو عليه .

الرابع : أَنْ يكونَ مبتدأً ، خبرُه مضمرٌ تقديرُه : ولهم ، أو فيها ، أو ثَمَّ حورٌ . وقال الزمخشري " على وفيها حُوْرٌ كبيت الكتاب :

4211 . . . . . إلاَّ رَواكدَ جَمْرُهُنَّ هَباءُ

الخامس : أن يكونَ خبراً لمبتدأ مضمر ، أي : نساؤهم حورٌ ، قاله أبو البقاء . وأمَّا النصبُ ففيه وجهان ، أحدهما : أنه منصوبٌ بإضمارِ فِعْل ، أي : يَعْطَوْن ، أو يَرِثُون حُوْراً ، والثاني : أن يكونَ محمولاً على معنى : يَطوف عليهم ؛ لأن معناه يُعْطَوْن كذا وكذا فعطف عليه هذا . وقال مكي : " ويجوز النصبُ على أَنْ يُحْمَلَ أيضاً على المعنى ؛ لأنَّ معنى يَطوفُ وِلْدانٌ بكذا وكذا يُعْطَوْن كذا وكذا ، ثم عطف حوراً على معناه " فكأنه لم يَطَّلِعْ عليها قراءةً .

وأمَّا قراءةُ " وحِيْرٍ " فلمجاورتها " عين " ولأنَّ الياءَ أخفُّ من الواو ، ونظيرُه في التغيير للمجاورة : " أَخَذَه ما قَدُم وما حَدُث " بضم دال " حَدُث " لأجل " قَدُم " وإذا أُفْرِد منه فَتَحْتَ دالَه فقط ، وقوله عليه السلام :

" وربِّ السماوات ومَنْ أَظْلَلْنَ ورَبِّ الشياطين ومَنْ أَضْلَلْنَ " وقوله عليه السلام : " أيتكنَّ صاحبةُ الجمل الأَرْبَب تَنْبَحُها كلابُ الحَوْءَب " فكَّ " الأَرْبَبَ " لأجل " الحَوْءَب " .

وقرأ قتادة " وحورُ عينٍ " بالرفع والإِضافة ل " عين " وابن مقسم بالنصب والإِضافةِ وقد تقدَّم توجيهُ الرفع والنصب . وأمَّا الإِضافةُ فمِنْ إضافة الموصوف لصفته مؤولاً . وقرأ عكرمةُ " وحَوْراءَ عَيْناءَ " بإفرادِهما على إرادةِ الجنس . وهذه القراءةُ تحتمل وجهَيْن : أحدهما : أَنْ تكونَ نصباً كقراءة أُبَيّ وعبد الله ، وأن تكونَ جرَّاً ، كقراءة الأخوَيْن ؛ لأن هذين الاسمَيْن لا ينصرفان فهما محتملان للوجهَيْن . وتقدَّم الكلام في اشتقاق العِين .

(435/745)

كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24)

و﴿ كَأَمْثَالِ ﴾ صفةٌ أو حالٌ . و " جزاءً " مفعول من أجله ، أو مصدر ، أي : يُجْزَوْن جزاءً .

إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (26)

قوله : ﴿ إِلاَّ قِيلاً ﴾ : فيه قولان ، أحدهما : أنه استثناءٌ منقطعٌ وهذا واضحٌ ؛ لأنه لم يندرِجْ تحت اللَّغْو والتأثيم . والثاني : أنه متصلٌ وفيه بُعْدٌ ، وكأن هذا رأى أن الأصل لا يَسْمعون فيها كلاماً فاندرَج عنده فيه . وقال مكي : " وقيل : منصوبٌ بيَسْمعون " وكأنه أرادَ هذا القول .

قوله : ﴿ سَلاَماً سَلاَماً ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه بدلٌ مِنْ " قيلاً " أي : لا يسمعُون فيها إلاَّ سلاماً سلاماً . الثاني : أنه نعتٌ لِقيلا . الثالث : أنه منصوبٌ بنفس " قيلاً " أي : إلاَّ أَنْ يقولوا : سلاماً سلاماً ، هو قولُ الزجَّاج . الرابع : أَنْ يكونَ منصوباً بفعلٍ مقدرٍ ، ذلك الفعلُ مَحْكِيٌّ ب " قيلاً " تقديره : إلاَّ قيلاً اسْلَموا سَلاماً .

وقُرِىء " سَلامٌ " بالرفع قال الزمخشري : " على الحكاية " . قال مكي : " ويجوزُ في الكلام الرفعُ على معنى : سلامٌ عليكم ، ابتداءٌ وخبرٌ " وكأنه لم يَعْرِفْها قراءةً .

فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (28)

قوله : ﴿ مَّخْضُودٍ ﴾ : المخضودُ : الذي قُطِع شَوْكُه ، مِنْ خَضَدْتُه أي : قَطَعْتُه . وقيل المُوْقَرُ من الحَمْل حتى لا يَتَبَيَّن ساقُه وتَنْثَنِي أغصانُه مِنْ خَضَدْت الغصنَ أي ثنيْتُه . قال أمية بن أبي الصلت :

4212 إن الحَدائقَ في الجِنانِ ظليلةٌ . . . فيها الكواعِبُ سِدْرُها مَخْضُوْدُ

(436/745)

والطَّلْحُ : جمع الطلحة وهي العظيمةُ من العِضاه . وقيل : هي أم غَيْلان . قال مجاهد : ولكنَّ ثمرَها أَحْلى من العسل . وقيل : هو المَوْزُ . ومعنى مَنْضود أي : متراكبٌ . وفي

التفسير : لا يُرى له ساقٌ مِنْ كثرةِ ثمرِه . وقرأ علي رضي الله عنه وعبد الله وجعفر بن محمد " وطَلْع " بالعين ، ولمَّا قرأها علي رضي الله عنه قال : وما شَأْنُ الطَّلْح ؟ واستدلَّ بقولِه : ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [ق : 10] فقيل له : أنُحَوِّلُها ؟ فقال : آيُ القرآنِ لا تُهاجُ اليومَ ولا تُحَوَّلُ . ويُرْوى عن ابن عباس مثلُه . ومَسْكوب : أي مَصْبُوبٌ بكثرةٍ . وقُرِئَ برفع " فاكهة " أي : وهناك ، أولهم ، أو فيها ، أو ثَمَّ فاكهة .

لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (33)

قوله : ﴿ لاَّ مَقْطُوعَةٍ ﴾ : فيه وجهان ، أظهرهُما : أنه نعتٌ لفاكهة " ولا " للنفي ، كقولك : " مَرَرْتُ برجلٍ لا طويلٍ ولا قصير " ولذلك لزم تكرارُها . والثاني : هو معطوفٌ على فاكهة ، / و " لا " عاطفةٌ قاله أبو البقاء . وحينئذٍ لا بُدَّ مِنْ حَذْفِ موصوفٍ أي : لا فاكهةٍ مقطوعةٍ ؛ لئلا تُعْطَفَ الصفةُ على موصوفِها .

وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (34)

قوله : ﴿ وَفُرُشٍ ﴾ : العامَّةُ على ضمِّ الراء جمع فِراش . وأبو حيوة بسكونها وهي مخففةٌ من المشهورة . والفُرُشُ قيل : هي القماشُ المعهودُ . ومرفوعة على الأَسِرَّة . وقيل : هي كنايةٌ عن النساءِ ، كما كُنِي عنهنَّ باللِّباس ، قاله أبو عبيدة وغيرُه . قالوا : ولذلك أعاد الضميرَ عليهنَّ في قوله : " إنَّا أنشأناهنَّ " . وأجاب غيرُهم : بأنه عائدٌ على النساءِ الدالِّ عليهنَّ الفُرُشُ . وقيل : يعودُ على " حُور " المتقدمة . وعن الأخفش : هُنَّ ضميرٌ لِمَنْ

لمَيَجْرِ له ذِكْرٌ ، يعني يدلُّ عليه السِّياقُ .

عُرُبًا أَتْرَابًا (37)

(437/745)

قوله : ﴿ عُرُباً ﴾ : جمع عَروب كصَبور وصُبُر . والعَرُوْب : المتحبِّبة إلى بَعْلِها . وقيل : الحسناءُ . وقيل : المُحْسِنة لكلامها . وقرأ حمزة وأبو بكر بسكونِ الراء ، وهذا كرسُل ورُسْل ، وفُرُش وفُرْش ، وقال ابن عباس : " هي العواتِقُ " . وأنشد للبيد :

4213 وفي الخُدورِ عَروبٌ غيرُ فاحِشةٍ . . . رَيَّا الرَّوادِفِ يَعْشى دونَها البصَرُ

قوله : ﴿ أَتْرَاباً ﴾ جمع تِرْب وهو المساوي لك في سِنّك ؛ لأَنَّه يَمَسُّ جِلْدَهما الترابُ في وقتٍ واحد ، وهو آكد في الائتلافِ ، وهو من الأسماءِ التي لا تتعرَّفُ بالإِضافةِ لأنه في معنى الصفةِ ، إذ معناه : مُساويك ، ومثلُه " خِدْنُك " لأَنَّه في معنى صاحبك .

لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (38)

قوله : ﴿ لأَصْحَابِ اليمين ﴾ : في هذه اللامِ وجهان ؛ أحدهما : أنها متعلِّقةٌ ب " أَنْشَأْنَاهُنَّ " أي : لأجل . والثاني : أنها متعلقةٌ ب " أَتْراباً " كقولك : هذا تِرْبٌ لهذا أي : مُساوٍ له .

وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43)

واليَحْموم وزنه فَيْعول . قال أبو البقاء : " مِنْ الحِمَم أو الحَميم " واليَحْموم قيل : هو الدُّخان الأسود البهيم . وقيل : وادٍ في جهنم . وقيل : اسمٌ من أسمائها ، والأول أظهرُ .

لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (44)

قوله : ﴿ لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ : صفتان للظلِّ كقوله : " من يَحْموم " . وفيه أنه قد قَدَّم غيرَ الصريحة على الصريحة ، فالأَوْلَى أن يُجْعَلَ صفةً ليَحْموم ، وإن كان السياق يُرْشِدُ إلى الأول

.

وقرأ ابنُ أبي عبلة " لا باردٌ ولا كريمٌ " برفعهما أي : هو لا باردٌ كقوله :

4214 . . . . . فأَبِيْتُ

لا حَرِجٌ ولا مَحْرومُ

وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (46)

(438/745)

قوله : ﴿ الحنث ﴾ : هو في أصلِ كلامهم العِدْلُ الثقيل ، وسُمِّي به الذنبُ والإِثم لثقلِهما ، قاله الخطابي : وفلانٌ حَنَثَ في يمينه أي : لم يَفِ بها ؛ لأنه يَأْثَمُ غالباً ، ويُعَبَّرُ بالحِنْث عن

البلوغِ ومنه " لم يَبْلُغوا الحنث " وإنما قيل ذلك لأنَّ الإنسانَ عند بلوغِه إياه يُؤَاخذ بالحِنْث أي بالذنب . وتَحَنَّثَ فلانٌ أي : جانَبَ الحِنْثَ . وفي الحديث : " كان يَتَحَنَّثُ بغار حراء " أي يتعبَّد لمجانبته الإثمَ نحو : تَحَرَّجَ ف تَفَعَّلَ في هذه كلِّها للسَلْب .

وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47)

قوله : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا ﴾ : قد تقدَّم تقرير هذا كلِّه في الصافات . وتقدَّم الكلامُ على الاستفهامَيْن في سورة الرعد فأغنى ذلك عن إعادةِ كلِّ ذلك ولله الحمد .

لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52)

(439/745)

قوله : ﴿ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ : فيه أوجه ، أحدها : أَنْ تكونَ " مِنْ " الأولى لابتداء الغاية ، والثانية للبيان أي : مُبْتَدِئون الأكلَ من شجرٍ هو زَقُّوم . الثاني : أَنْ تكونَ " مِنْ " الثانيةُ صفةً لشجر ، فتتعلَّقَ بمحذوفٍ أي : مستقرٍ . والثالث : أَنْ تكونَ " مِنْ " الأولى مزيدةً أي : لآكلون شجراً ، و " مِنْ " الثانيةُ على ما تقدَّم فيها من الوجهَيْن . الرابع : عكسُ هذا ، وهو أَنْ تكونَ الثانيةُ مزيدةً أي : لآكلون زَقُّوماً ، و " مِنْ " الأُولى للابتداء ، أو في محلِّ نصبٍ على الحال مِنْ " زَقُّوم " أي : كائناً مِنْ شجرٍ ، ولو تأخَّر لكان صفةً . الخامس : أنَّ "

مِنْ شجر " صفةٌ لمفعولٍ محذوفٍ أي : لآكلون شيئاً مِنْ شجرٍ ، " ومِنْ زَقُّوم " على هذا نعتٌ لشجر ، أو لشيء المحذوفِ . السادس : أنَّ الأولى للتبعيض ، والثانيةَ بدلٌ منها ، والضميرُ في " منها " عائدٌ على الشجر . وفي " عليه " للشجر أيضاً ، وقد تقدَّم أنه يجوزُ تذكيرُ اسم الجنس وتأنيثُه ، وأنهما لغتان . وقيل : في " عليه " عائدةٌ على الزقوم . وقال أبو البقاء : " للمأكول " . وقال ابن عطية : " للمأكول أو الأكل " . انتهى وفي قوله : " الأكل " بُعْدٌ . وقال الزمخشري : " وأَنَّثَ ضميرَ الشجر على المعنى ، وذكَّره على اللفظ في " منها " و " عليه " . ومَنْ قرأ ﴿ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ فقد جعل الضميرين للشجرةِ ، وإنما ذكَّر الثاني على تأويلِ الزَّقُّوم لأنه تفسيرُها " .

فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (55)

(440/745)

قوله : ﴿ شُرْبَ الهيم ﴾ : قرأ نافعٌ وعاصمٌ وحمزةُ بضم الشين ، وباقي السبعة بفتحِها ، ومجاهد وأبو عثمان النهدي بكسرِها فقيل : الثلاثُ لغاتٌ في مصدر شَرِب ، والمقيسُ منها إنما هو المفتوحُ . وقيل : المصدرُ هو المفتوحُ والمضموم والمكسورُ اسمانِ لِمَا يُشْرَبُ كالرِّعْي والطِّحْن . / وقال الكسائي : يُقال شَرِبْتُ شُرباً وشَرْباً . ويروى قولُ جعفر : " أيامُ مِنى

أيامُ أكلٍ وشُرْبٍ وبعال " بفتح الشين . والشَّرْب في غيرِ هذا اسمٌ للجماعة الشاربين قال :

4215 كأنَّه خارجٌ من جَنْبِ صَفْحَتِهِ . . . سَفُّوْدُ شَرْبٍ نَسُوْهُ عند مُفْتَأَدِ

والمعنى : مثلَ شُرْبِ الهِيم . والهِيْمُ فيه أوجهٌ ، أحدها : أنه جَمْعُ أَهْيَمَ أو هَيْماء ، وهو الجَمَلُ والناقةُ التي أصابها الهُيامُ وهو داءٌ مُعْطِشٌ تشرب الإبلُ منه إلى أن تموتَ أو تَسْقُمُ سُقْماً شديداً ، والأصلُ : هُيْم بضمِّ الهاءِ كأَحْمر وحُمْراء وحُمْر ، فقُلِبت الضمةُ كسرةً لتصِحَّ الياءُ ، وذلك نحو : بِيْض في أبيض . وأُنْشد لذي الرمة :

4216 فأصبَحْتُ كالهَيْماءِ لا الماءُ مُبْرِدٌ . . . صَداها ولا يَقْضي عليها هُيامُها

(441/745)

الثاني : أنه جمع هائِم وهائِمة من الهُيام أيضاً ، إلاَّ أنَّ جَمْعَ فاعِل وفاعِلة على فُعْل قليلٌ نادرٌ نحو : بازِل وبُزْل وعائِذ وعُوْذ ومنه : العُوْذُ المَطافيل . وقيل : هو من الهُيام وهو الذَّهابُ ؛ لأنَّ الجملَ إذا أصابه ذلك هامَ على وَجْهه . الثالث : أنه جمع هَيام بفتح الهاء وهو الرَّمْلُ غيرُ المتماسكِ الذي لا يُرْوَى من الماء أصلاً ، فيكونُ مثلَ سَحاب وسُحُب بضمتين ، ثم خُفِّف بإسكان عينه ثم كُسِرَتْ فاؤه لتصِحَّ الياء ، كما فُعِلَ بالذي قبله . الرابع : أنَّه جمعُ " هُيام " بضم الهاء وهو الرَّمْل غيرُ المتماسكِ أيضاً لغةً في " الهَيام " بالفتح ، حكاها ثعلب ،

إلاَّ أن المشهورَ الفتحُ ثم جُمع على فُعْل نحو : قُراد وقُرْد ، ثم خُفِّفَ وكُسِرَتْ فاؤُه لتصِحَّ الياء والمعنى : أنَّه يُصيبهم من الجوع ما يُلجِئُهم إلى أَكْلِ الزَّقُّوم ، ومن العطشِ ما يَضْطرُّهم إلى شُرْب الحميم مثلَ شُرْبِ الهِيْم . وقال الزمخشري : " فإن قلتَ : كيف صَحَّ عَطْفُ الشاربين على الشاربين ، وهما لذواتٍ واحدةٍ ، وصفتان متفقتان ، فكان عطفاً للشيء على نفسِه ؟ قلت : لَيْستا بمتفقتَيْن من حيث إنَّ كونَهم شاربين على ما هو عليه مِنْ تناهي الحرارة وقَطْع الأمعاء أمرٌ عجيبٌ ، وشُرْبُهم له على ذلك كما تَشْرَبَ الهِيم أمرٌ عجيب أيضاً ، فكانتا صفتَيْن مختلفتَيْن " انتهى يعنى قولَه : " فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون " وهو سؤالٌ حسنٌ ، وجوابُه مثلُه .

وأجاب بعضُهم عنه بجواب آخر : وهو أنَّ قولَه : ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهيم ﴾ تفسيرٌ للشُرْب قبلَه ، ألا ترى أنَّ ما قبلَه يَصْلُح أن يكونَ مثلَ شُرْبِ الهيمِ ومثلَ شُرْبِ غيرِها ففَسَّره بأنه مثلُ شُرْبِ هؤلاء البهائم أو الرِّمالِ .

(442/745)

وفي ذلك فائدتان ، إحداهما : التنبيهُ على كثرةِ شُرْبهم منه والثاني : عَدمُ جَدْوَى الشُّرْب ، وأن المشروبَ لا يَنْجَعُ فيهم كما لا يَنْجَعُ في الهِيْم على التفسيرَين .

وقال الشيخ : " والفاءُ تقتضي التعقيبَ في الشُّرْبَيْنِ ، وأنهم أولاً لَمَّا عَطِشوا شَرِبوا من الحميم ، ظَنّاً منهم أنه يُسَكِّنُ عَطَشَهُم ، فازداد العطشُ بحرارةِ الحميمِ ، فشربوا بعده شُرْباً لا يقع بعدَه رِيٌّ أبداً . وهو مِثْلُ شُرْبِ الهيم فهما شُربان مِنَ الحَميم لا شُرْبٌ واحدٌ ، اختلفَتْ صفتاه فعَطف . والمشروبُ مِنْه في ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهيم ﴾ محذوفٌ لفَهْمِ المعنى تقديرُه : فشاربون منه " انتهى . والظاهرُ أنه شُرْبٌ واحدٌ بل الذي نعتقدُ هذا فقط ، وكيف يُناسِبُ أَنْ تكونَ زيادتُهم العطشَ بشُرْبِه مقتضيةً لشُرْبِهم منه ثانياً ؟

هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (56)

وقرأ العامَّةُ " نُزُلُهم " بضمتين . ورُوي عن أبي عمرو من طُرُق ، وعن نافعٍ وابنِ محيصنٍ بضمةٍ وسكونٍ ، وهو تخفيفٌ . وقد تقدَّم أن النُّزُلَ ما يُعَدُّ للضيفِ . وقيل : هو أولُ ما يأكُله فسُمِّي به هذا تهكُّماً بمَنْ أُعِدَّ له ، وهو في المعنى كقولِ أبي السعر الضَّبِّي :

4217 وكُنَّا إذا الجبَّارُ أَنْزَلَ جَيْشَه . . . جَعَلْنَا القَنا والمُرْهَفاتِ له نُزْلا

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (57)

قوله : ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ : تحضيضٌ . ومتعلَّقُ التصديقِ محذوفٌ تقديرُه : فلولا تُصَدِّقُون بخَلْقِنا .

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58)

وقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ : هي بمعنى أَخْبِرْني . ومفعولُها الأولُ " ما تُمْنُوْن " ، والثاني :

الجملةُ الاستفهاميةُ ، وقد تقدَّم تقريرُ هذا .

أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59)

(443/745)

و ﴿ أَأَنْتُمْ ﴾ : يجوزُ فيه وجهان ، أحدُهما : أنه فاعل/ فعلٍ مقدرٍ أي : أتخلقونه ، فلَمَّا حُذِفَ الفعل لدلالةِ ما بعدَه عليه انفصل الضميرُ ، وهذا من بابِ الاشتغال . والثاني : أنَّ " أنتم " مبتدأٌ ، والجملةُ بعده خبرُه . والأولُ أرجحُ لأجلِ أداةِ الاستفهام .

وقوله : ﴿ أَم ﴾ يجوز فيها وجهان ، أحدهما : أنها منقطعةٌ ؛ لأن بعدها جملةً ، وهي إنما تَعْطِفُ المفرداتِ . والثاني : أنها متصلةٌ . وأجابوا عن وقوعِ الجملةِ بعدها : بأنَّ مجيءَ الخبرِ بعد " نحن " أُتي به على سبيلِ التوكيدِ إذ لو قال : " أم نحنُ " لاكتُفِيَ به دونَ الخبرِ . ونظيرُ ذلك جوابُ مَنْ قال : [مَنْ] في الدار ؟ زيدٌ في الدار ، أو زيدٌ فيها ، ولو اقْتُصِر على " زيد " لكان كافياً . قلت : ويؤيِّد كونَها متصلة أنَّ الكلامَ يَقْتَضي تأويلَه : أيُّ الأمرَيْن واقعٌ ؟ وإذا صَلَحَ ذلك كانت متصلةً إذ الجملةُ بتأويلِ المفردِ .

ومفعولُ " الخالقون " محذوفٌ لفَهْمِ المعنى أي : الخالِقوه .

وقرأ العامَّةُ " تُمْنُوْن " بضمِّ التاء مِنْ أَمْنَى يُمْني . وابن عباس وأبو السَّمَّال بفتحِها مِنْ مَنَى

يَمْنِي . وقال الزمخشري : يقال : " أَمْنَى النُّطْفَةَ ومَناها . قال اللَّهُ تعالى : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تمنى ﴾ [النجم : 46] انتهى . فظاهرُ هذا أنه استشهادٌ للثلاثي ، وليس فيه دليلٌ له ؛ إذ يُقال من الرباعي أيضاً " تُمْنَى " كقول : " أنت تُكْرَم " وهو مِنْ أَكْرَم .

نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60)

وقرأ ابن كثير " قَدَرْنا " بتخفيفِ الدال . والباقون بالتشديد هنا ، وهما لغتان بمعنىً واحدٍ في التقدير الذي هو القضاءُ .

عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (61)

(444/745)

قوله : ﴿ على أَن نُّبَدِّلَ ﴾ : يجوز أَنْ يتعلَّقَ ب " مَسْبوقين " وهو الظاهرُ ، ولم يَسْبِقْنا أحدٌ على تبديلِنا أمثالَكم أي : يُعْجِزْنا يُقال : سبقَه على كذا أي : أَعْجَزه عنه وغَلَبه عليه .

والثاني : أنه متعلِّقٌ بقوله : " قَدَّرنا " أي : قَدَّرْنا بينكم على أَنْ نُبَدِّلَ أي : نُموِّت طائفةً ونَخْلُقَها طائفةً أخرى ، قال معناه الطبري . فعلى هذا يكون قولُه : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ معترضاً ، وهو اعتراضٌ حسنٌ .

ويجوز في " أمثالَكم " وجهان ، أحدهما : أنه جمعُ " مِثْل " بكسر الميم وسكون الثاء ، أي :

نحن قادرون على أن نُعدِمَكم ونَخْلُقَ قوماً آخرين أمثالَكم ، ويؤيِّده : " إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكم أيها الناسُ ويَأْتِ بآخرين " والثاني : أنه جمع " مَثَل " بفتحتين ، وهو الصفةُ أي : نُغَيِّرُ صفاتِكم التي أنتم عليها خَلْقاً وخُلُقاً ، ونُنْشِئُكم في صفاتٍ غيرِها .

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (62)

وتقدَّم قراءتا " النشأة " في العنكبوت .

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63)

قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُم ﴾ : وما بعده قد تَقَدَّم نظيرُه . وأُتي هنا بجواب " لو " مقروناً باللام وهو الأكثرُ ؛ لأنه مُثْبَتٌ وحُذف في قولِه : " جَعَلْناه أُجاجاً " لأنَّ المِنَّةَ بالمأكولِ أعظمُ منها بالمشروب .

وقرأ طلحة " تَذْكُرُون " بسكون الذال وضمِّ الكاف .

لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65)

قوله : ﴿ فَظَلْتُمْ ﴾ : هذه قراءةُ العامَّةِ أعني فتحَ الظاء مع لامٍ واحدة . وقد تقدَّم الكلامُ عليها مستوفى في طه . وأبو حيوة وأبو بكرٍ في روايةٍ بكسرِ الظاء . وعبد الله والجحدريُّ " فظَلِلْتُمْ " على الأصل بلامَيْن ، أُولاهما مكسورةٌ . ورُوي عن الجحدري فتحُها ، وهي لغةٌ أيضاً .

والعامةُ " تَفَكَّهون " بالهاء ، ومعناه : تَنْدَمون ، وحقيقتُه : تُلْقُون الفُكاهةَ عن أَنْفسِكم ، ولا تُلْقَى الفُكاهةُ إلاَّ من الخِزْيِ فهو من بابِ : تَحَرَّج وتَأَثَّم وتَحَوَّب . وقيل : تَفَكَّهون : تَعْجَبون . وقيل : تَلاومون ، وقيل : تَتَفَجَّعون ، وهذا تفسيرٌ باللازم .

وقرأ أبو حرام العكلي " تَفَكَّنون " بالنون مثل تَتَنَدَّمون . قال ابن خالويه : " تَفَكَّهَ تَعَجَّب ، وتَفَكَّن تندَّمَ " . وفي الحديث : " مَثَلُ العالِمِ مَثَلُ الحَمَّةِ يَأْتيها البُعَداء ويتركُها القُرَباء . فبينا هُمْ إذ غار ماؤها فانتفع بها قومٌ وبقي قومٌ يَتَفَكَّنون " أي : يَتَنَدَّمون .

إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66)

قوله : ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ : قرأ أبو بكر " أإنا " بالاستفهام وهو على أصلِه في تحقيقِ الهمزتَيْن وعَدَمِ إدْخال ألفٍ بينهما والباقون بالخبر . وقبلَ هذه الجملةِ قولٌ مقدرٌ على كلتا القراءتين . وذلك في محلِّ نصب على الحالِ تقديرُه : فَظَلْتُم تَفَكَّهون قائلين أو تقولون : إنا لمُغْرَمون أي : لَمُلْزَمون غَرامةَ ما أَنْفَقْنا أو مُهْلَكون لهلاكِ رِزْقِنا ، من الغَرام وهو الهلاكُ . قاله الزمخشري . ومن الغَرام بمعنى الهَلاك قولُه :

4218 إن يُعَذِّبْ يَكُنْ غَراماً وإنْ يُعْ . . . طِ جَزيلاً فإنَّه لا يُبالي

أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70)

قوله : ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً ﴾ : / قد تقدَّم عدمُ دخولِ اللامِ في جواب " لو " هذه .

وقال الزمشخري : " فإن قلتَ : لِمَ أُدخِلَتِ اللامُ في جواب " لو " في قوله : ﴿ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً ﴾ [الواقعة : 65] ونُزِعَتْ منه ههنا ؟ قلت : إنَّ " لو " لَمَّا كانَتْ داخلةً على جملتَيْن ، مُعَلَّقةٍ ثانيتُهما بالأولى تعليقَ الجزاءِ بالشرط ، ولم تكن مُخَلِّصةً للشرط كـ " إنْ " ولا عاملةً مثلَها ، وإنما سَرَى فيها معنى الشرطِ اتفاقاً ، من حيث إفادتُها في مضمونَيْ جملتَيْها أنَّ الثاني امتنع لامتناع الأول ، افتقرَتْ في جوابِها إلى ما يَنْصَبُّ عَلَماً على هذا التعليق ، فزِيْدَتْ هذه اللامُ لتكونَ عَلَماً على ذلك ، فإذا حُذِفَتْ بعدما صارَتْ عَلَماً مشهوراً مكانُه فلأنَّ الشيءَ إذا عُلِمَ وشُهِر مَوْقِعُه وصار مَأْلوفاً ومَأْنوساً به لم يُبالَ بإسقاطِه عن اللفظِ ، استغناءً بمعرفةِ السامع . ألا ترى إلى ما يُحْكى عن رؤبةَ أنه كان يقول : " خير " لمَنْ يقولُ له : كيف أصبحْتَ ؟ فحَذَفَ الجارَّ لِعلْمِ كلِّ أحدٍ بمكانِه وتَساوي حالَيْ إثباتِه وحَذْفِه لشُهْرةِ أَمْرِه . وناهِيك بقول أوس :

4219 حتى إذا الكَلاَّبُ قال لها . . . كاليومِ مَطْلوباً ولا طَلَبا

فحذفَ " لم أَرَ " حَذْفُها اختصارٌ لفظي ، وهي ثابتةٌ في المعنى فاستوى الموضعان بلا فرقٍ بينهما . على أن تَقَدُّمَ ذِكْرِها والمسافةُ قصيرةٌ مُغْنٍ عن ذِكْرِها ثانيةً . ويجوزُ أَنْ يُقال : إنَّ هذه اللامَ مفيدةٌ معنى التوكيدِ لا مَحالةَ ، فأُدْخِلَتْ في آيةِ المطعوم دونَ آيةِ المَشْروبِ ، للدلالةِ على أنَّ أَمْرَ المطعومِ مُقَدَّمٌ على أَمْرِ المشروبِ ، وأنَّ الوعيدَ بفَقْدِهِ أشدُّ وأصعبُ من قِبَلِ أنَّ المشروبَ إنما يُحتاجُ إليه تَبَعاً للمطعوم ، ألا ترى أنك إنما تَسْقي ضيفَك بعدما تُطْعِمُهُ ، ولو عَكَسْتَ قَعَدْتَ تحت قولِ أبي العلاءِ :

4220 إذا سُقِيَتْ ضُيوفُ الناس مَحْضاً . . . سَقَوْا أضيافَهم شَبِماً زُلالا

وسُقِي بعضُ العربِ فقال : أنا لا أَشْرَبُ إلاَّ على ثَمِيلة ، ولهذا قُدِّمَتْ آيةُ المطعومِ على آيةِ المشروب " انتهى .

قال الشيخ : " وقد طوَّلَ الزمخشريُّ " فلم يَذْكُرْ هذا الكلامَ الحسنَ ، ثم ذَكَرَ بعض كلامِه ، وواخَذَه في قولِه : " إنَّ الثاني امتنع لامتناعِ الأول " وجعلها عبارةَ بعض ضعفاءِ المُعْرِبين ، ثم ذكر عبارةَ سيبويه ، وهي : حرفٌ لِما كان سيقعُ لوقوعِ غيرِه ، وذكر أنَّ قولَ مَنْ قال : " امتناع لامتناع " فاسدٌ بقولك : لو كان هذا إنساناً لكان حيواناً ، يعني أنه لا يَلْزَمُ مِن امتناع الإنسانية امتناعُ الحيوانية . ومِثْلُ هذه الإيراداتِ سهلةٌ وإذا تَبِعَ الرجلُ الناسَ في عبارتهم لا عليه . على أنها عبارةُ المتقدِّمين من النحاة ، نَصَّ على ذلك غيرُ واحدٍ .

وقوله : ﴿ مِنَ المزن ﴾ : السحاب وهو اسم جنس واحدُه مُزْنة . قال الشاعر :

4221 فلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَها . . . ولا أرضَ أَبْقَلَ إِبْقالَها

وقال الآخر :

4222 ونحن كماءِ المُزْنِ ما في نِصابِنا . . . كَهامٌ ولا فينا يُعَدُّ بخيلُ

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71)

(448/745)

قوله : ﴿ تُورُونَ ﴾ : مِنْ أَوْرَيْتُ الزَّنْدَ أي : قَدَحْتَه فاستخرجتَ نارَه ، ووَرِي الزَّنْدُ يَرِي أي : خَرَجَتْ نارُه . وأصل تُوْرُوْن تُوْرِيُون .

نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (73)

قوله : ﴿ لِلْمُقْوِينَ ﴾ : يُقال : أَقْوَى الرجلُ : إذا حلَّ في الأرض القِواءِ ، وهي القَفْرُ ، كأَصْحَرَ : دَخَلَ في الصحراء . وأَقْوَتِ الدار : خَلَتْ ، مِنْ ذلك لأنها تصير قَفْراً . قال النابغة :

4223 يا دارَمَيَّةَ بالعَلْياءِ فالسَّنَدِ . . . أَقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأَبَدِ

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75)

قوله : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ ﴾ : قرأه العامَّةُ " فلا " ، لامَ ألفٍ ، وفيها أوجهٌ ، أحدُها : أنها حرفُ نفي ، وأنَّ المنفيَّ بها محذوفٌ ، وهو كلامُ الكافرِ الجاحدِ تقديرُه : فلا حُجَّةَ لِما يقولُ الكافرُ ، ثم ابتدأ قَسَماً بما ذَكَر ، وإليه ذهب جماعةٌ من المفسِّرين والنَّحْويين . وضُعِّفَ هذا : بأنَّ فيه حَذْفَ اسمِ " لا " وخبرِها . قال الشيخ : " ولا يجوز " ولا ينبغي ؛ فإن القائلَ بذلكَ مثلُ سعيدِ بنِ جُبير تلميذِ حَبْرِ القرآنِ وبحرِه عبدِ اللَّهِ ابن عباس رضي الله عنهما ، ويَبْعُدُ أَنْ يقولَه سعيدٌ إلاَّ بتوقيف .

الثاني : أنها زائدةٌ للتوكيدِ ، مِثْلُها في قولِه تعالى : ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ ﴾ [الحديد : 29] والتقدير : فأُقْسِمُ ، وليَعْلَمَ ، وكقولِه :

4224 . . . . . فلا وأَبي أعدائِها لا أَخُوْنُها

الثالث : أنَّها لامُ الابتداءِ . والأصلُ : فَلأُقْسِمُ فأُشْبِعَتْ الفتحةُ فتولَّد منها ألفٌ ، كقولِه :

(449/745)

4225 أَعوذُ باللَّهِ من العَقْرابِ . . . قاله الشيخُ ، واستشهدَ بقراءةِ هشام " أَفْئِيْدَة " . قلت . وهذا ضعيفٌ جداً ، واستند أيضاً لقراءةِ الحسن وعيسى / " فَلأُقْسِمُ " بلامٍ

واحدةٍ . قلت : وفي هذه القراءةِ تخريجان أحدُهما : أنَّ اللامَ لامُ الابتداءِ ، وبعدَها مبتدأٌ محذوفٌ ، والفعلُ خبرُه ، فلمَّا حُذِفَ المبتدأُ اتصلَتْ اللامُ بخبرِه وتقديرُه : فلأنا أُقْسِمُ نحو : لَزيدٌ منطلقٌ ، قاله الزمخشري وابن جني . والثاني : أنها لامُ القسمِ دخَلَتْ على الفعل الحالي . ويجوز أَنْ يكونَ القسم جواباً للقسمِ كقوله : ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا ﴾ [التوبة : 107] فنفسُ " لَيَحْلِفُنَّ " قسمٌ جوابُه " إنْ أرَدْنَا " وهو جوابٌ لقسمٍ مقدرٍ ، كذلك هذا ، وهو قولُ الكوفيين : يُجيزون أَنْ يُقْسَم على فعلِ الحالِ . البصريُّون يَأْبَوْنه ويُخَرِّجون ما يُوهم ذلك على إضمار مبتدأ فيعود القسم على جملةٍ اسمية . ومنع الزمخشري أن تكونَ لامَ القسمِ قال : " لأمرَيْن ، أحدهما : أنَّ حَقَّها أَنْ تُقْرَنَ بالنونِ المؤكدةِ ، والإخلالُ بها ضعيفٌ قبيحٌ . والثاني : أنَّ لأفعلنَّ في جواب القسم للاستقبالِ ، وفعلُ القسمِ يجب أَنْ يكونَ للحال " وهذا كما تقدَّم أنه يرى مذهبَ البَصريْين ، ومعنى قولِه : " وفعلُ القَسَمِ يجبُ أنْ يكونَ للحال " يعني أنَّ فِعْلَ القسمِ إنشاءٌ والإنشاءُ حالٌ . وإمَّا قولُه : " أَنْ يُقْرن بها النونُ " هذا مذهبُ البصريين . وأمَّا الكوفيون فيجيزون التعاقبَ بين اللام والنونِ نحو : واللَّهِ لأَضْرِبُ زيداً كقولِه :

4226 لَئِن تَكُ قد ضاقَتْ عليكم بيوتُكمْ . . . لَيَعْلَمُ ربِّي أنَّ بيتيَ واسعُ

وواللَّهِ اضربَنَّ زيداً كقولِه :

4227 وقتيل مُرَّةَ أثْأَرَنَّ . . . . . .

. . . . . .

(450/745)

وقد تقدَّم قريبٌ من هذه الآية في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حتى يُحَكِّمُوكَ ﴾ [النساء : 65] ولكن هناك ما لا يُمْكن القولُ به هنا كما أنَّ هنا ما لا يمكن القولُ به هناك ، وسيأتي قريبٌ منه في القيامةِ في قراءةِ ابن كثير ﴿ لأُقْسِمُ بيوم القيامة ﴾ [القيامة : 1] .

وقرأ العامَّة " بمواقِع " جمعاً ، والأخَوان " بموقع " مفرداً بمعنى الجمع لأنَّه مصدرٌ فوُحِّدَ ، ومواقعُها : مَساقِطُها ومَغاربُها .

وقيل : سُقوطُها يوم تَنْكَدِرُ . وقيل : النجومُ للقرآن ، ويؤيِّدُه " وإنَّه لَقَسَمٌ " ، و ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ والمُقْسَمُ عليه قولُه : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ وعلى هذا فيكونُ في الكلام اعتراضان ، أحدُهما : الاعتراضُ بقوله : " وإنه لَقَسَمٌ " بين القسمِ والمُقْسَم عليه ، والثاني : الاعتراضُ بقولِه : " لو تعلمون " بين الصفةِ والموصوفِ . وأبى ابنُ عطية أَنْ يُجْعَلَ قولُه : " وإنَّه لَقَسَمٌ " اعتراضاً فقال : " وإنه لَقَسَمٌ " تأكيدٌ للأمرِ وتنبيهُ المُقْسَم به ، وليس هذا باعتراضٍ بين الكلامَيْن ، بل هذا معنىً قُصِدَ التَّهَمُّمُ به ، وإنما الاعتراضُ قولُه : " لو تعلمون "

قلت : وكونُه تأكيداً ومُنَبِّهاً على تعظيمِ المُقْسَمِ به لا يُنافي الاعتراضَ بل هذا معنى الاعتراض وفائدتُه .

لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79)

(451/745)

قوله : ﴿ لاَّيَمَسُّهُ ﴾ : في "لا" هذه وجهان ، أحدهما : أنها نافيةٌ فالضمةُ في "لا يَمَسُّه" ضمةُ إعرابٍ ، وعلى هذا القولِ ففي الجملةِ وجهان ، أحدهما : أنَّ محلَّها الجرُّ صفةً لـ "كتاب" والمرادُ بـ "كتاب" : إمَّا اللوحُ المحفوظُ ، والمُطَهَّرون حينئذٍ الملائكةُ أو المرادُ به المصاحف ، والمرادُ بالمُطَهَّرين المكلَّفون كلُّهم . والثاني : أن محلَّها الرفعُ صفةً لقرآنٍ ، والمرادُ بالمطهَّرينِ الملائكةُ فقط أي : لا يَطَّلع عليه أو لا يَمَسُّ لَوْحَه . لا بُدَّ من أحد هَذَيْن التجوُّزَيْن ؛ لأن نسبةَ المسِّ إلى المعاني حقيقةً متعذِّرٌ . ويؤيِّد كونَ هذه نفياً قراءةُ عبد الله "ما يَمَسُّه" بـ "ما" النافيةِ .

والثاني من الوجهين الأوَّلَيْن : أنها ناهيةٌ ، والفعلُ بعدها مجزومٌ ؛ لأنه لو فُكَّ عن الإدغامِ لظهر ذلك فيه كقولِه : ﴿ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سواء ﴾ [آل عمران : 174] ولكنه أُدْغم ، ولَمَّا أُدْغِمَ حُرِّك آخرُه بالضمِّ لأجلِ هاء ضميرِ المذكرِ الغائبِ ، ولم يَحْفَظْ سيبويه في نحوِ هذا إلاَّ

الضمَّ . وفي الحديث : " إنَّا لم نَرُدُّه عليك إلاَّ أننا حُرُمٌ " وإن كان القياسُ يَقْتضي جوازَ فَتْحِه تخفيفاً ، وبهذا الذي ذكرْتُه يظهر فسادُ رَدِّ/ مَنْ رَدَّ : بأنَّ هذا لو كان نَهْياً لكان يُقال : " لا يَمَسَّه " بالفتح ؛ لأنه خَفي عليه جوازُ ضَمِّ ما قبل الهاءِ في هذا النحوِ ، لا سيما على رأيِ سيبويه فإنه لا يُجيز غيرَه . وقد ضَعَّفَ ابنُ عطية كونَه نهياً : بأنه إذا كان خبراً فهو في موضعِ الصفةِ ، وقولُه بعد ذلك " تنْزيلٌ " صفةٌ فإذا جعلناه نَهْياً كان أجنبياً معترضاً بين الصفاتِ وذلك لا يَحْسُن في رَصْفِ الكلامِ فتدبَّرْه . وفي حرف ابن مسعود " ما يمسُّه " انتهى .

(452/745)

وليس فيما ذكرَه ضَعْفٌ لهذا القول ؛ لأنَّا لا نُسَلِّم أنَّ " تنزيل " صفةٌ ، بل هو خبرُ مبتدأ محذوفٍ ، أي : هو تنزيلٌ فلا يَلْزَم ما ذَكَرَه من الاعتراضِ . ولَئِنْ سَلَّمْنَا أنه صفةٌ ف " لا يَمَسُّه " صفةٌ أيضاً ، فيُعْترض علينا : بأنه طلبٌ . فيُجاب : بأنه على إضمارِ القولِ أي : مقولٌ فيه : لا يمسُّه ، كما قالوا ذلك في قوله : " فتنةً لا تصيبَنَّ " على أنَّ " لا تصيبنَّ " نَهْيٌ وهو كقولِه :

4228 جاؤوا بمَذْقٍ هل رأيتَ الذئبَ قطّ . . . وقد تقدَّم تحقيقُه في الأنفال ، وهذه

المسألةُ يتعلَّقُ بها خلافُ العلماء في مَسِّ المُحْدِث المصحفَ ، وهو مبنيٌّ على هذا ، وسيأتي تحقيقُه بأشبعَ مِنْ هذا في كتاب " أحكام القرآن " إن شاء الله تعالى إتمامَه .

وقرأ العامَّةُ " المُطَهَّرون " بتخفيف الطاء وتشديد الهاء مفتوحةً اسمَ مفعول ، وعن سلمان الفارسي كذلك ، إلاَّ أنه بكسرِ الهاء اسمَ فاعلٍ أي : المُطَهِّرون أنفسَهم ، فحذف مفعولَه .

ونافع وأبو عمروٍ في رواية عنهما وعيسى بسكون الطاء وفتح الهاء خفيفة اسم مَفعول من أطهر . وزيد والحسن وعبد الله بن عون وسلمان أيضاً " المُطَّهِّرُوْن " بتشديدِ الطاءِ والهاءِ المكسورةِ ، وأصلُه المتطهِّرون فأُدْغِم . وقد قُرِىءَ بهذا الأصلِ أيضاً .

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (80)

وقرِىء " تنزيلاً " بالنصب على أنه حال من النكرة . وجاز ذلك لتخصُّصِها بالصفةِ ، أو أَنْ يكونَ مصدراً لعاملٍ مقدر أي : نُزِّل تنزيلاً ، وغَلَب التنزيلُ على القرآن .

و " من ربِّ " يجوز أَنْ يتعلَّقَ به على الأول لا الثاني ؛ لأن المؤكَّد لا يعملُ ، فيتعلَّقُ بمحذوفٍ لأنه صفةٌ له ، وأمَّا على قراءةِ " تنزيل " بالرفعِ فيجوز الوجهان .

أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (81)

قوله : ﴿ أفبهذا ﴾ : متعلّقٌ بالخبر ، وجازَ تقديمُه على المبتدأ ؛ لأنَّ عامله يجوزُ فيه ذلك . والأصل : أفأنتم مُدْهِنون بهذا الحديث وهو القرآنُ . ومعنى " مُدْهِنون " : مُتهاونون كمن يُدْهِنُ في الأمر أي : يُلَيِّنُ جانبَه ولا يتصلَّب فيه تهاوُناً به يقال : أَدْهَن فلانٌ أي : لاَنَ وهاوَدَ فيما لا يُحْمَلُ عند المُدْهَنِ . قال الشاعر :

4229 الحَزْمُ والقُوَّةُ خيرٌ من الْـ . . . إدْهانِ والفَهَّةِ والهاعِ

وقال الراغب : " والإدهانُ في الأصل مثلُ التدهين لكن جُعِل عبارةً عن المُداراة والمُلاينة وتَرْكِ الجدّ ، كما جُعِل التقريدُ وهو نَزْعُ القُراد ، عبارةً عن ذلك " .

وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (82)

قوله : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنَّه على التهكُّم بهم ؛ لأنهم وَضَعوا الشيءَ غيرَ موضعِه كقولك : " شَتَمني حيث أَحْسَنْتُ إليه " أي : عَكَسَ قضيةَ الإحسانِ ومنه :

4230 كأن شُكْرَ القَوْمِ عند المِنَنِ . . . كيُّ الصَحيحاتِ وفَقْءُ الأعينِ

أي : شُكْرَ رِزْقِكم تكذيبَكم ، الثاني : أنَّ ثَمَّ مضافَيْنِ محذوفَيْنِ ، أي : بَدَلَ شُكْرِ رِزْقكم ليَصِحَّ المعنى قاله جمال الدين بن مالك ، وقد تقدَّم لك في قوله : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ [النجم : 9] أكثرُ من هذا . الثالث : أنَّ الرِّزْقَ هو الشُّكْرُ في لغةِ أزدِ شنوءة : ما رَزَقَ فلانٌ فلاناً أي : ما شكره ، فعلى هذا لا حَذْفَ البتةَ ، ويُؤَيِّدُهُ قراءةُ علي بنِ أبي طالب

وتلميذِه عبد الله بن عباس رضي الله عنهم " وتَجْعَلون شُكْرَكم " مكان " رِزْقَكم " .

وقرأ العامَّةُ " تُكَذِّبون " من التكذيب . وعلي رضي الله عنه وعاصمٌ في رواية المفضل عنه " تَكْذِبون " مخففاً من الكَذِب .

فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83)

(454/745)

قوله : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ : ترتيبُ الآيةِ/ الكريمة : فلولا تَرْجِعُونها أي النفسَ إذا بلغت الحلقومَ إن كنتم غيرَ مَدِيْنين . و " فلولا " الثانيةُ مكررةٌ للتوكيدِ . قاله الزمخشريُّ .

قلت : فيكونُ التقدير : فلولا فلولا تَرْجعونها ، من باب التوكيد اللفظي ، وتكون " إذا بَلَغَت " ظرفاً ل " تَرْجِعونها " مقدَّماً عليه ؛ إذ لا مانعَ مِنْه ، أي : فلولا تَرْجِعون النفسَ في وقتِ بُلوغها الحلقومَ . وقوله : ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ جملةٌ حالية مِنْ فاعل بَلَغَتْ ، والتنوينُ في " حينئذٍ " عِوَضٌ من الجملة المضافِ إليها " إذا " ، أي : إذا بلغَتْ الحلقومَ خلافاً للأخفش حيث زعمَ أن التنوينَ للصَّرْفِ والكسرَ للإعرابِ ، وقد مضى تحقيقُه .

وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84)

وقرأ العامَّةُ بفتحِ نونِ " حينئذٍ " لأنَّه منصوبٌ على الظرفِ ناصبُه " تَنْظُرون " وعيسى

بكسرها ، وهي مُشْكِلَةٌ لا تَبْعُدُ عن الغَلَطِ عيله ، وخُرِّجَتْ على الإتباع لحركة الهمزة ، ولا غَرْوَ في ذلك فليسَتْ بأبعدَ من قراءةِ " الحمد للَّهِ " [الفاتحة : 1] بكسر الدال لتلازمِ المتضايفَيْنِ ولكثرةِ دَوْرِهما على الخصوص .

وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (85)

قوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ حالاً أي : تَنْظُرون في هذه الحالِ التي تَخْفَى عليكم ، وأن تكونَ مستأنفةً ، فتكونَ اعتراضاً ، والاستدراكُ ظاهرٌ . والبَصَرُ : يجوز أَنْ يكونَ من البصيرة ، وأَنْ يكونَ من البَصَرِ أي : لا تَنْظُرون أعوانَ مَلَكِ الموتِ .

فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86)

(455/745)

و ﴿ إِن كُنتُمْ ﴾ : شرطٌ جوابُه محذوفٌ عند البَصْريين لدلالةِ " فلولا " عليه أو مقدَّمٌ عند مَنْ يرى ذلك ، كما تقدَّمَ تقريرُه . والحُلْقُومُ : مَجْرى الطعامِ . و " مَدِيْنين " أي : مَسُوسين ، أو محاسَبين ، أو مجازِين . وقد تقدَّم ذلك أولَ الفاتحة ولله الحمدُ . وهذا ما تلخص في الآية الكريمة محرَّراً . وقال أبو البقاء : " وتَرْجعونها جوابُ " لولا " الأولى ، وأغنى ذلك عن جوابِ الثانية وقيل عكسُ ذلك . وقيل : لولا الثانيةُ تكريرٌ " انتهى . وتسميةُ مثلِ هذا

جواباً ليس بصحيح البتَة ؛ لأنَّ هذه تحضيضيةٌ لا جوابَ لها ، إنما الجوابُ للامتناعيةِ لوجودٍ نحو : ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ ﴾ [النساء : 83] .

وقال ابن عطية : " وقولُه : " تَرْجعونها " سَدَّ مَسَدَّ الأجوبةِ والبياناتِ التي تَقْتَضيها التَّحْضيضاتُ ، و " إذا " مِنْ قولِه : " فلولا إذا " و " إنْ " المكررة ، وحَمَلَ بعضُ القولِ بعضاً إيجازاً " واقتضاباً " انتهى . فجعل " إذا " شرطيةً . وقولُه : " الأجوبة " يعني ل " إذا " ول " إنْ " ول " إنْ " في قولِه : ﴿ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ ، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

والبياناتُ يعني الأفعالَ التي حَضَّض عليها ، وهي عبارةٌ قَلِقَةٌ ، ولذلك فَسَّرْتُها .

قال الشيخ : " وإذا ليسَتْ شرطاً ؛ بل ظرفاً يعمل فيها " تَرْجعونها " المحذوفُ بعد " لولا " لدلالةِ " تَرْجعونها " في التحضيض الثاني عليه ، فجاء التحضيضُ الأولُ مقيَّداً بوقتِ بلوغِ الحُلْقومِ . وجاء التحضيضُ الثاني مُعَلَّقاً على انتفاء مَرْبُوْبِيَّتهم وهم لا يَقْدرون على رَجْعِها إذ مَرْبُوبِيَّتُهم موجودةٌ ، فهم مقْهورون لا قُدْرَةَ لهم " انتهى . فجعل " تَرْجعونها " المذكورَ ل " لولا " الثانية ، وهو دالٌّ على محذوفٍ بعد الأولى ، وهو أحد الأقوالِ التي نَقَلَها أبو البقاء فيما تقدم .

تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (87) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88)

قوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ : شرطٌ آخرُ ، وليس هذا من اعتراضِ الشرطِ على الشرطِ نحو : " إنْ ركبتِ إنْ لَبِسْتِ فأنتِ طالق " حتى يجيءَ فيه ما قَدَّمْتُه في هذه المسألةِ ؛ لأنَّ المرادَ هنا : إنْ وُجِد الشرطان كيف كانا فهلا رَجَعْتُمْ بنفسِ الميتِ .

قوله : ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ ﴾ قد تقدَّم الكلامُ في " إمَّا " في أولِ هذا الموضوعِ مستوفىً ولله الحمدُ . وهنا أمرٌ زائدٌ وهو وقوعُ شرطٍ آخرَ بعدها . واختلف النحاةُ في الجوابِ المذكورِ بعدها : هل هو لـ " أمَّا " أو لـ " إنْ " ، وجوابُ الأخرى محذوفٌ لدلالةِ المنطوقِ عليه ، أو الجوابُ لهما معاً ؟ ثلاثةُ أقوالٍ ، الأولُ لسيبويه والثاني للفارسيِّ في أحدِ قولَيْه ، وله قولٌ آخرُ كسيبويهِ ، والثالث للأخفش ، وهذا كما تقدَّم في الجوابِ بعد الشرطَيْن المتواردَيْن .

وقال مكي : " ومعنى " أمَّا " عند أبي إسحاقَ الخروجُ مِنْ شيءٍ إلى شيءٍ ، أي : دَعْ ما كُنَّا فيه وخُذْ في غيره " . قلت : وعلى هذا فيكونُ الجوابُ لـ " إنْ " فقط لأنَّ " أمَّا " ليسَتْ شرطاً . ورجَّح بعضُهم أنَّ الجوابَ لـ " أمَّا " ؛ لأنَّ " إنْ " كَثُرَ حَذْفُ جوابها / منفردةً ، فادِّعاءُ ذلك مع شرطٍ آخرَ أَوْلَى . والضميرُ في " كان " و " كان " للمتوفَّى لدلالةِ قولِه : " فلولا تَرْجِعُونَها " .

فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (89)

والرَّوْحُ : الاستراحةُ ، وقد تقدَّم ذلك في يوسف . وقرأ ابن عباس وعائشة والحسن

وقتادة في جماعةٍ كثيرة بضمّ الراءِ ، وتُرْوَى عن النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم . قال الحسن : الرَّوْحُ : الرحمةُ ؛ لأنها كالحياة للمرحومِ . وعنه أيضاً : رُوْحُه تَخْرُجُ في رَيْحان . وقد تقدَّم الكلامُ على ﴿ رَيْحَانٌ ﴾ والخلافُ فيه وكيفيةُ تصريفِه في السورةِ قبلها .

(457/745)

و [قوله] : ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ مبتدأٌ ، خبرُه مقدَّر قبلَه أي : فله رَوْحٌ . ويجوز أَنْ يُقَدَّر بعدَه لاعتمادِه على فاءِ الجزاءِ .

فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (91)

قوله : ﴿ فَسَلَامٌ لَّكَ ﴾ : مبتدأٌ وخبرٌ . و " مِنْ أصحاب " . قال الزمخشري : " فسلامٌ لك يا صاحبَ اليمين من إخوانك إصحابِ اليمينِ ، أي : يُسَلِّمون عليك " . وقال ابن جرير : " معناه فسلامٌ لكَ أنت مِنْ أصحابِ " . وهذا يَحْتمل أَنْ يكونَ كقولِ الزمخشريِّ ، ويكونَ " أنت " تأكيداً للكافِ في " لك " ، ويَحْتمل أَنْ يكونَ أراد أنَّ " أنت " مبتدأٌ و " من أصحابِ " خبرُه ، ويؤيِّدُ هذا ما حكاه قومٌ مِنْ أنَّ المعنى : فيُقال لهم : سلامٌ لك إنَّك من أصحاب اليمين . وأولُ هذه الأقوالِ هو الواضحُ البيِّن ؛ ولذلك لم يُعرِّجْ أبو القاسمِ على غيرِه .

وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94)

قوله : ﴿ وَتَصْلِيَةُ ﴾ : عطفٌ على " فَنُزُل " أي : فله نُزُلٌ وتَصْلِيَةٌ . وقرأ أبو عمرو في روايةِ اللُّؤْلؤي عنه وأحمد بن موسى والمنقري بجرِّ التاءِ عَطْفاً على " مِنْ حميمٍ " .

إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95)

قوله : ﴿ حَقُّ اليقين ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : هو من إضافةِ الموصوفِ لصفتِه . والثاني : أنه من باب إضافةِ المترادفَيْن على سبيل المبالغةِ . وسهَّلَ ذلك تخالُفُ لفظِهما . وإذا كانوا فعلوا ذلك في اللفظِ الواحدِ فقالوا : صوابُ الصوابِ ، ونفس النفس ، مبالغةً فَلأَنْ يَفْعلوه عند اختلافِ اللفظِ أَوْلَى .

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)

(458/745)

قوله : ﴿ باسم ربِّكَ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ الباءُ للحال أي : فسَبِّحْ مُلْتَبِساً باسمِ ربك على سبيلِ التبرُّكِ كقوله : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ [البقرة : 30] ، وأَنْ تكونَ للتعديةِ ، على أنَّ " سَبَّح " يتعدَّى بنفسه تارةً كقولِه : ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ ﴾ [الأعلى : 1] وبحرفِ الجرِّ تارةً كهذه الآيةِ ، وادعاءُ زيادتها خلافُ الأصلِ .

و" العظيم " يجوز أَنْ يكونَ صفةً للاسم ، وأَنْ يكونَ لربك ؛ لأنّ كلاً منهما مجرورٌ . وقد وُصِفَ كلٌّ منهما في قوله : " تَبَارَكَ اسم رَبِّكَ ذُو الجلال " [الرحمن : 78] و ﴿ ذي الجلال ﴾ . ولتغايُرِ المتضايفَيْن في الإِعراب ظهر الفرقُ في الوصف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 10 صـ 189. 233 ﴾

(459/745)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الواقعة

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم) " بسم الله " : اسم جبار من اعتنى بشأنه أحضره بإحسانه ، فإن أبى إلا تماديا في عصيانه حال بينه وبيت اختياره بقهر سلطانه ، وإن لم يلازم هذه الطاعة ألجأه بالبلاء فيأتيها باضطراره .

اسم عزيز أزلي ، جبار صمدي ، قهار أحدى ، للمؤمنين ولي ، وبالعاصين حفي ، ليس لجماله كفي ، ولا في جلاله سمي ، لكنه للعصاة من المؤمنين ولي .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعِتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ .

إذا قامت القيامة لا يردُّها شيءٌ .

﴿ كَاذِبَةٌ ﴾ ها هنا مصدر : كالعافية ، والعاقبة : أي : هي حقَّةٌ لا يدرها شيءٌ ، وليس في وقوعها كذب .

ويقال : إذا وقعت الواقعة فَمَنْ سَلَكَ منهاج الصحة والاستقامة وَصَلَ إلى السلامة ولقي الكرامة ، ومَنْ حادَ عن نهج الاستقامة وَقَعَ في الندامة والغرامة ، وعند وقوعها يتبين الصادق من المماذق :

إذا اشتبكت دموعٌ في خدودٍ . . . تَبَيَّنَ مَنْ بكى مِمَّن تباكى

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ .

﴿ خَافِضَةٌ ﴾ لأهل الشقاوة ، ﴿ رَّافِعَةٌ ﴾ : لأهل الوفاق .

﴿ خَافِضَةٌ ﴾ : للنفوس ، ﴿ رَّافِعَةٌ ﴾ : للقلوب .

﴿ خَافِضَةٌ ﴾ لأهل الشهوة ، ﴿ رَّافِعَةٌ ﴾ : لأهل الصفوة .

﴿ خَافِضَةٌ ﴾ : لمن جَحَد ، ﴿ رَّافِعَةٌ ﴾ : لمن وَحَدَ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً ﴾ .

حُرِّكت حركةً شديدة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثّاً ﴾ .

فُتَّتَت فكانت كالهباء الذي يقع في الكوّة عند شعاع الشمس .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّبِقُونَ ﴾ .

(460/745)

﴿ مَآ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ ؟ على جهة التفخيم لشأنهم والتعظيم لقَدْرهم وهم أصحاب اليمن والبركة والثواب .

﴿ مَآ أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ ﴾ : على جهة التعظيم والمبالغة في ذَمّهم ، وهم أصحاب الشؤم على أنفسهم ويقال : أصحاب الميمنة هم الذين كانوا في جانب اليمين من آدم عليه السلام يومَ الذَّرِّ ، وأصحاب المشأمة هم الذين كانوا على شماله .

ويقال : الذين يُعْطَوْن الكتابَ بأَيْمانهم ، والذين يُعْطَوْن الكتاب بشمائلهم .

ويقال : هم الذين يُؤْخَذُ بهم ذات اليمين . . إلى الجنة ، والذين يُؤْخَذُ بهم ذات الشمال . . إلى النار .

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ : وهم الصف الثالث . وهم السابقون إلى الخصال الحميدة ، والأفضال الجميلة .

ويقال : السابقون إلى الهجرة . ويقال : إلى الإسلام . ويقال : إلى الصلوات الخمس .

ويقال : السابقون بصدْق القَدَم . ويقال : السابقون بعُلُوِّ الهِمَم . ويقال : السابقون إلى كل خير . ويقال السابقون المتسارعون إلى التوبة من الذنوب فيتسارعون إلى النَّدمَ إن لم يتسارعوا بصدق القَدَم .

ويقال : الذين سبقت لهم من الله الحسنى فسبقوا إلى ما سبق إليه :

﴿ أُوْلَئِكَ المُقَرَّبُونَ ﴾ .

ولم يقل : ﴿ المتقربون ﴾ بل قال : أولئك المُقَرَّبون – وهذا عين الجَمْع ، فعَلِمَ الكافة أنهم بتقريب ربهِّم سبقوا – لا بِتقَرُّبهم .

﴿ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ .

أي : في الجنة . ويقال : مقربون إلا من الجنة فمحال أن يكونوا في الجنة ثم يُقَرَّبون من الجنة ، وإنما يُقَرَّبون إلى غير الجنة : يُقَرَّبون من بِساط القربة . .

وأنَّى بالبساط ولا بساط ؟ ! مقربون . . . ولكن من حيث الكرامة لا من حيث المسافة ؛

مُقَرَّبَةٌ نفوسُهم من الجنة وقلوبهُم إلى الحقّ .

مُقَرَّبَةٌ قلوبهُم من بساط المعرفة ، وأرواحُهم من ساحات الشهود – فالحقُّ عزيز . . لا قُرْبَ ولا بُعْدَ ، ولا فَصْلَ ولا وَصْلَ .

ويقال : مقربون ولكن من حظوظِهم ونصيبِهم . وأحوالُهم – وإنْ صَفَتْ – فالحقُّ وراء الوراء .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الأَخِرِينَ ﴾ .

الثُّلّة : الجماعة . ويقال : ثلة من الأولين الذين شاهدوا أنبياءَهم وقليل من الآخرين الذين شاهدوا نبيَّنا صلى الله عليه وسلم .

ويقال : ثُلّةٌ من الاولين : من السلف وقليل من المتأخرين : من الأمة .

﴿ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ .

أي منسوخة نسيج الدرع من الذهب . جاء في التفسير : طول كُل سريرٍ ثلاثمائة ذراع ، إنْ أراد الجلوسَ عليه تواضع ، وإن استوى عليه ارتفع .

﴿ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ .

أي لا يرى بعضُهم قفا بعضٍ . وَصَفهم بصفاء المودة وتَهَذُّب الأخلاق .

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ .

يطوف عليهم وهم مقيمون لا يبرحون ولدانٌ في سِنٍّ واحدة . . . لا يهرمون .

وقيل : مُقَرَّطون (الخَلدة . القُرْط) .

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ .

﴿ بِأَكْوَابٍ ﴾ جمع كوب وهي آنية بلا عروة ولا خرطوم ، ﴿ وَأَبَارِيقَ ﴾ : جمع إبريق وهو عكس الكوب (أي له خرطوم وعروة) .

ولا صداع لهم في شربهم إياها ، كما لا تذهب عقولهم بسببها .

ولهم كذلك فاكهة مما يتخيرون ، ولحم طيرٍ مما يشتهون ، وحُورٌ عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، أي : المصون ، جزاءً بما كانوا يعملون .

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (25) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (26)

اللغو : الباطل من القول ، والتأثيم : الإثم والهذيان .

ولا يسمعون إلا قيلاً سلاماً ، وسلاماً : نعت للقيل

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ : لا شوك فيه ، ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ والطلح شجر الموز ، متراكم نضيد بعضه على بعض .

(462/745)

﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ كما بين الإسفار إلى طلوع الشمس . وقيل : ممدود أي دائم .

﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ : جارٍ لا يتعبون فيه .

﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ : لا مقطوعة عنهم ولا ممنوعة منهم .

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ لهم. وقيل: أراد بها النساء.

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ لهم. وقيل: أراد بها النساء.

﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ أي الحُور العين.

﴿ عُرُبًا ﴾ جمع عَرُوب وهي الغَنِجَةُ المتحببةُ إلى زَوْجِها. ويقال عرباً: أي مُتَشَهِّيَات إلى أزواجهن.

﴿ أَتْرَابًا ﴾: جمع تِرْب، أي: هُنَّ على سِنٍّ واحدة.

﴿ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾: أي خلقناهن لأصحاب اليمين.

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾: أي: ثلة من أُولَى هذه الأمة، وثُلة من أُخْراها.

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾: والسَّموم فيحُ جهنم وحَرُّها. والحميم: الماءُ الحار.

﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾، وهو الدُّخان الأُسود.

﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾: لا بارد: أي لا راحةَ فيه. ولا كريمٍ: ولا حَسَنٍ لهم؛ (حيث لا نفع فيه).

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ أيك كانوا في الدنيا مُمَتَّعين.

﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ أي الذَّنب العظيم.

﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾؟ أي: أنهم يُكَذِّبون

بالبعث .

- ثم يقال لهم : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴾ اليومَ ﴿ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ وجاء في التفسير : أن الزقوم شجرة في أسفل جهنم إذا طُرِحَ الكافرُ في جهنم لا يصل إليها إلا بعد أربعين خريفاً .

(463/745)

﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمَ ﴾ شرابٌ لا تهنأون به ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ وهي الإبل العِطاش . ويقال : الهيم أي الرَّمْل ينضب فيه كلُّ ما يُصَبُّ عليه .

﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ : يوم القيامة .

ثم يقال لهم : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴾ اليومَ ﴿ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ وجاء في التفسير : أن الزقوم شجرة في أسفل جهنم إذا طُرِحَ الكافرُ جهنم لا يصل إليها إلا بعد أربعين خريفاً .

﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾ شرابٌ لا تهنأون به ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ : وهي الإبل العِطاش . ويقال : الهيم أي الرَّمْل ينضب فيه كلُّ ما يُصَبُّ

عليه .

﴿ هَذَا نُزُولُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ : يوم القيامة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ .

نحن خلقناكم : يا أهلَ مكة – فهلاّ آمَنْتُم لتتخلصوا ؟ توبَّخون وتُعَاتَبون . . واليومَ تَعْتَذِرون ! ولكن لا ينفعكم ذلك ولا يُسْمَعُ منكم شيء .

وإن أشدّ العقوبات عليهم يومئذٍ أنهم لا يتفرّغون من آلامِ نفوسِهم وأوجاعِ أعضائهم إلى التَحسُّر على ما فاتهم في حقِّ الله .

ويقال : أشدُّ البلاء – اليوم – على قلوب هذه الطائفة خوفُهم من أَنْ يَشْغَلَهم – غداً – بمقاساة آلامهم عن التحسُّر على ما تكدَّرَ عليهم من المشارب في هذا الطريق . وهذه محنة لا شيءَ أعظمُ على الأصحاب منها . وإنَّ أصحابَ القلوب – اليوم – يبتهلون إليه ويقولون : إنْ حَرَمْتَنا مشاهدَ الأُنس فلا تَشْغَلْنا بلذَّاتٍ تشغلنا عن التحسُّر على ما فاتنا ، ولا بآلامٍ تشغلنا عن التأسُّف على ما عَدِمْنا منك .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ .

يقال : مَنىَ الرجلُ وأَمْنَى . والمعنى : هل إذا باشَرْتُم وأنزلتم وانعقد الولد . . . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ والخَلْقُ ها هنا : التصوير ؛ أي : أأنتم تجمعون صُوَرَ المولود وتُركِّبون أعضاءَه . . . أم نحن ؟

وهم كانوا يُقِرُّون بالنشأة الأولى فاحتجَّ بهذا على جواز النشأة الأخرى عند البعث الذي كانوا ينكرونه . وهذه الآية أصلٌ في إثبات الصانع ؛ فإن أصلَ خِلْقَةِ الإنسان من قطرتين : قطرة من صُلْبِ الأب وهو المني وقطرة من تربية الأم ، وتجتمع القطرتان في الرَّحِم فيصير الولد . وينقسم الماءان المختلطان إلى هذه الأجزاء التي هي أجزاء الإنسان من العَظْم والعَصَبِ والعرقِ والجِلْدِ والشَّعْر . . . ثم يركبها على هذه الصور في الأعضاء الظاهرة وفي الأجزاء الباطنة حيث يُشَكِّل كل عضوٍ بشكلٍ خاص ، والعِظام بكيفية خاصة . . . إلى غير ذلك .

وليس يخلو : إمَّا أَنْ يكونَ الأبوَان يصنعانه – وذلك التقديرُ محالٌ لتقاصر عِلْمِها وقُدْرتهما عن ذلك وتمَنّيهما الولدَ ثم لا يكون ، وكراهتهما الولدَ ثم يكون !

والنُّطفة أو القَطْرةُ مُحَالٌ تقديرُ فِعْلها في نَفْسِها على هذه الصورة لكونها من الأموات بَعْدُ ، ولا عِلْمَ لها ولا قدرة .

أو مِنْ غيرِ صانعٍ . . . وبالضرورة يُعْلَمُ أنه لا يجوز .

فلم يَبْقَ إلاَّ أن الصانعَ القديمَ المَلِكَ العليمَ هو الخالق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

يكون الموتُ في الوقت الذي يريده ؛ منكم مَنْ يموت طفلاً ومنكم من يموت شابّاً ، ومنكم من يموت كهلاً ، وبعللٍ مختلفة وبأسبابٍ متفاوتةٍ وفي أوقاتٍ مختلفة .

(465/745)

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ في تقديرنا فيفوتنا شيءٌ ولَسْنا بعاجزين عن أن نَخْلُقَ أمثالَكم ، ولا بعاجزين عن تبديلِ صُوَركم التي تعلمون ؛ إن أردنا مَسْخَكُم وتبديلَ صُوَركم فلا يمنعنا عن ذلك أحدٌ .

ويقال : وننشئكم فيما لا تعلمون من حكم السعادة والشقاوة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

أي : أنتم أقررتم بالنشأة الأولى . . فهلاَّ تذكرّون لتعلموا جَوَازَ الإعادة ؛ إذ هي في معناها .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ .

أي : إذا ألقيتم الحَبَّ في الأرض . . أأنتم تُنْبِتُونه أم نحن المُنبتون ؟ وكذلك وُجوهُ الحكمةِ في إنبات الزَّرْع ، وأنقسام الحَبَّةِ الواحدةِ على الشجرة النابتةِ منها في قِشْرِها ولحائها وجِذْعِها

وأغصاناها وأوراقها وثمارها – كل هذا :

﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ .

لو نشاء لجعناه حطاماً يابساً بعد خُضْرَته ، فصِرْهُم تتعجبون وتندمون على تعبكم فيه ، وإنفاقكم عليه ، ثم تقولون :

﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ .

أي : لَمُلْزَمون غرامةَ ما أنفقنا في الزَّرع ، وقد صار ذلك غُرْماً علينا – فالمغرم مَنْ ذَهَبَ إنفاقُه بغير عِوَضٍ .

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ بل نحن محرومون بعد أن ضاع مِنَّا الرزق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴾ .

أأنتم أنزلتموه من السحاب . . . أم نحن نُنْزِلُهُ متى نساء أَنَّى نشاء كما نشاء على من نشاء وعلى ما نشاء ؟ ونحن الذين نجعله مختلفاً في الوقت وفي المقدار وفي الكيفية ، في القِلَّة وفي الكثرة .

ولو نشاء لجعناه ملحاً . . أفلا تشكرون عظيمَ نعمةِ اللَّهِ – سبحانه – عليكم في تمكينكم من الانتفاع بهذه الأشياء التي خَلَقها لكم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ ﴾ .

وَرَى الزَّنْدَ يُرِى فهو وارٍ . . وأَوْراه يُورِيه أي يَقْدَحُه .

يعني : إذا قدحتم الزند . . أرأيتم كيف تظهر النار – فهل أنتم تخلقون ذلك ؟

أأنتم أنشأتم شجرتها – يعني المَرْخ والعَفَار – أم نحن المنشئون ؟

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ : أي يمكن الاستدلال بها .

﴿ وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ ﴾ : يقال : أقوى الرجل إذا نزل بالقواء أي : الأرض الخالية .

فالمعنى : أن هذه النار ﴿ تَذْكِرَةً ﴾ يتذكَّر بها الإنسان ما توعده به في الآخرة من نار جهنم ، و ﴿ وَمَتَاعاً ﴾ : يستمتع بها المسافر في سفره في الانتفاع المختلفة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ .

أي : اسبحْ بفكرك في بحار عقلك ، وغُصْ بقوة التوحيد فيها تَظْفَرْ بجواهر العلم ، وإيَّاك أَنْ تُقَصِّرَ في الغوص لسببٍ أولآخَر ، وإياك أن تتداخلَكَ الشُّبَهُ فيتلفَ رأسَ مالِك ويخرجَ من يدك وهو دينُك واعتقادك . . وإلاَّ غرقتَ في بحار الشُّبَه ، وضَلَلْتَ .

وهذه الآيات التي عَدَّها الله – سبحانه – تُمَهِّدُ لسلوكِ طريقِ الاستدلالِ ، فكما في الخبر "

فِكْرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ سَنَةٍ " – وقد نبّه الله سبحانه بهذا إلى ضرورة التفكير .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

(467/745)

قيل : هي مواقع نجوم السماء . ويقال : موقع نجوم القرآن على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم .

﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ : والكَرَمُ نَفْيُ الدناءة – أي : أنه غير مخلوق ويقال : هو ﴿ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ : لأنه يدل على مكارم الأخلاق .

ويقال هو قرآن كريمٌ أنه من عند ربٍّ كريم على رسولٍ كريم ، على لسانَ مَلَكٍ كريم . ﴿ فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ : يقال : في اللوح المحفوظ . ويقال : في المصاحفَ . وهو محفوظ عن التبديل . ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ عن الأدناس والعيوب والمعاصي .

ويقال : هو خَبَرٌ فيه معنى الأمر : أي لا ينبغي أَنْ يَمَسَّ المصحفَ إلا مَنْ كان مُتَطَهِّراً من الشِّرْكِ وعن الأحداث .

ويقال : لا يجد طَعْمَه وبَرَكَته إلاَّ مَنْ آمَنَ به .

ويقال : لا يقربه إلاَّ الموَحّدون ، فأمَّا الكفَّار فيكرهون سماعَه فلا يقربونه .

وقرئ المُطَهّرون : أي الذين يُطَهّرون نفوسَهم عن الذنوب والخُلُقِ الدَّنيّ .

ويقال : لا يَمَسُّ خبره إلاَّ من طُهِّر يومَ القسمة عن الشقاوة .

ويقال : لا يَمَسُّ خبره إلاَّ مَنْ طَهَّر سِرَّه عن الكون .

ويقال : المطهّرون سرائرَهم عن غيره .

ويقال : إلا المُحْتَرِمون له القائمون بحقّه .

ويقال : مَنْ طُهِّرَ بماء السعادة ثم بماء الرحمة .

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : مُنَزَّل من قِبَلِهِ – سبحانه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَبِهَذَا الحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

أبهذا القرآن أنتم تُنافِقون ، وبه تُكَذّبون .

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ : كانوا إذا أُمْطِروا يقولون أُمْطِرْنا بنَوْءٍ كذا .

يقول : أتجعلون بَدَلَ إنعامِ اللَّهِ عليكم بالمطر الكفرانَ به ، وتتوهمون أن المطرَ – الذي هو نعمةٌ من الله – من الأنواء والكواكب ؟ ! .

ويقال : أتجعلون حظَّكم ونصيبَكم من القرآنِ التكذيبَ ؟

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾ .

يخاطِبُ أولياء الميت فيقول : هَّلا إذا بَلَغتْ روحُه الحلقوم ، وأنتم تنظرون إلى هذا المريض ، رجعتم إلى الله تعالى وتحققتم به ؟ فنحن أقرب إليه منكم بالعلم والرؤية والقدرة . . . ولكن لا تبصرون !

ويقال : أقرب ما يكون العبدُ من الحقِّ عندما يتم استيلاءُ ذِكْرِه وشهودِه عليه ، فينتفِي إحساسُ العبدِ بغيره ، وعلى حسب انتفاءِ العلمِ والإحساسِ بالأغيار – حتى عن نفسه – يكون تحقُّق العبد في سِرِّه حتى لا يرى غير الحَقّ .

فالقرب والبعد معناهما : أنَّ العبد في أوان صحوه وأنه لم يُؤْخَذْ – بَعْدُ – عن نفسه ؛ فإذا أُخِذَ عنه فلا يكون إلا الحق . . . لأنه حينئذٍ لا قُرْب ولا بُعْدِ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِنَ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

ليس لكم من أمر الموت شيءٍ .

﴿ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ أي : تردُّون الروح إلى الجسد .

﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ : في أنه لا بعث .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ .

المقَرَّبون هم الذين قرَّهم اللَّهُ بفضله ، فلهم ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ .

ويقال : الرَّوْح الاستراحة ، والريحانُ الرزقُ .

وقيل : الرَّوح في القبر ، والريحانُ : في الجنة .

ويقال : لا يخرج مؤمِنٌ في الدنيا حتى يُؤْتَى بريحانٍ من رياحين الجنة فيشمه قبل خروج روحه ، فالرُّوْح راحةٌ عند الموت ، والريحان في الآخرة .

وقيل : كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم " الرُّوح " بضم الراء أي لهم فيها حياة دائمة .

ويقال : الرَّوْحُ لقلوبهم ، والرياح لنفوسهم ، والجنَّةُ لأبدانهم .

ويقال : رَوْحٌ في الدنيا ، وريحانٌ في الجنة ، وجنَّةُ نعيمٍ في الآخرة .

(469/745)

ويقال : رَوْحٌ وريحان مُعَجَّلان ، وجنة نعيم مؤجلة .

ويقال : رَوْحٌ للعابدين ، وريحان للعافين ، وجَنَّةُ نعيم لعوام المؤمنين .

ويقال : رَوْحٌ نسيم القرب ، وريحان كما البسط ، وجنة نعيمٍ في محل المناجاة .

ويقال : رَوْح رؤية الله ، وريحانُ سماع كلامه بلا واسطة ، وجنة نعيم أن يدوم هذا ولا

ينقطع .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينَ ﴾ .

أن نخبرك بسلامة أحوالهم .

ويقال : سترى فيهم ما تحب من السلامة .

ويقال : أمانٌ لك في بابهم ؛ فلهم السلامة . ولا تُشْغِلْ قلبَكَ بهم .

ويقال : فسلامٌ لك – أيها الإنسان – إنك من أصحاب اليمين ، او أيها الإنسانُ الذي من أصحاب اليمين .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّآلِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيهُ جَحِيمٍ ﴾ .

إن كان من المكذبين لله ، الضالّين عن دين الله فله إقامةٌ في الجحيم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ .

هذا هو الحق اليقين الذي لا محالةَ حاصلٌ .

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ .

أي قَدِّسْ اللَّهَ عَمَّا لا يجوز في وصفه .

ويقال : صلِّ لله . ويقال : اشكرْ اللَّهَ على عصمة أُمَّتِكَ من الضّلال ، وعلى توفيقهم في اتّباعِ سُنّتِكَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 516.529 ﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ (2) خافِضَةٌ رافِعَةٌ (3)

الإعراب :

(إذا) أداة فيها احتمالات أظهرها أنّها ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب المقدّر " 1 " ، (لوقعتها) متعلّق بخبر ليس (خافضة ، رافعة) خبران لمبتدأ محذوف تقديره هي جملة : " وقعت الواقعة . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . وجواب الشرط محذوف تقديره خفضت أقواما ورفعت أقواما وجملة : " ليس لوقعتها كاذبة " لا محلّ لها استئنافيّة – أو اعتراضيّة – وجملة : " (هي) خافضة . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تفسير للجواب –

---

(1) ومن أوجه إعرابها : 1 – هي ظرف مجرّد من الشرط متعلّق بالنفي الذي تضمّنه ليس أي ليس تكذيب بوقوعها إذا وقعت ، أي ينتفي التكذيب . 2 – هي ظرف متعلّق باسم الفاعل رافعة أي هي رافعة خافضة إذا وقعت – قاله أبو البقاء – 3 – جوابها

رجّت الآتي فهي متعلّقة به ، و(إذا) فيه بدل أو توكيد 4 - هي اسم ظرفيّ مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر - وهو رأي ضعيف -

(471/745)

الصرف :

(الواقعة) ، القيامة جاءت على وزن اسم الفاعل ، والتاء للمبالغة (وقعة) ، مصدر مرّة من الثلاثيّ وقع ، وزنه فعلة بفتح فسكون (خافضة) ، مؤنّث خافض ، اسم فاعل من الثلاثي خفض ، وزنه فاعل

[سورة الواقعة (56) : الآيات 4 إلى 7]

إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4) وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا (5) فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا (6) وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً (7)

الإعراب :

(إذا) ظرف بدل من الأول ومتعلّق بما تعلّق به (رجّا) مفعول مطلق منصوب ، وكذلك (بسّا) ، (الفاء) عاطفة ، واسم (كانت) ضمير يعود على الجبال (الواو) عاطفة (ثلاثة) نعت لأزواج منصوب . . .

جملة : " رجّت الأرض . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : " بسّت الجبال . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة رجّت وجملة : "كانت هباء . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة بسّت وجملة : "كنتم أزواجا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة رجّت

الصرف :

(رجّا) ، مصدر سماعي للثلاثيّ رجّ ، وزنه فعل بفتح فسكون ، وقد جاءت عينه ولامه من حرف واحد (بسّا) ، مصدر سماعي للثلاثيّ بسّ أي فتّت وزنه فعل بفتح فسكون ، وقد جاءت عينه ولامه من حرف واحد (منبثّا) ، اسم مفعول من الخماسيّ انبثّ ، وزنه منفعل بضمّ الميم وفتح العين ، وعين الفعل ولامه من حرف واحد (ثلاثة) ، اسم للعدد المعروف ، جاء مؤنّثا لأن المعدود أزواج مذكّر ، وزنه فعالة بفتح الفاء

[سورة الواقعة (56) : الآيات 8 إلى 26]

فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ (9) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14) عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْها

مُتَقابِلِينَ (16) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ (17)

بِأَكْوابٍ وَأَبارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُونَ (19) وَفاكِهَةٍ مِمَّا

يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٌ عِينٌ (22)

كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (24) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً

(25) إِلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً (26)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة للتفريع (ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ ثان خبره (أصحاب) التي بعدها وذلك في الآيتين . . .

(473/745)

جملة : " أصحاب الميمنة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " ما أصحاب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ أصحاب وجملة : " أصحاب المشأمة . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " ما أصحاب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ أصحاب (الثاني) 10

- 16 - (الواو) عاطفة (السابقون) مبتدأ خبره جملة أولئك

المقرّبون " 1 " ، (السابقون) الثاني توكيد للأول مرفوع (المقرّبون) خبر المبتدأ (أولئك) " 2

" ، (في جنّات) متعلّق بخبر ثان للمبتدأ (أولئك) " 3 " ، (ثلّة) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم أي السابقون " 4 " ، (من الأوّلين) متعلّق بنعت لثلّة (من الآخرين) نعت لقليل (على سرر) متعلّق بخبر ثان للمبتدأ هم (متّكئين) حال منصوبة من ضمير الاستقرار الذي هو خبر في قوله (على سرر) ، (عليها) متعلّق بـ (متّكئين) (متقابلين) حال ثانية منصوبة وجملة : " السابقون . . . أولئك المقرّبون " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : " أولئك المقرّبون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (السابقون) وجملة : " (هم) ثلّة . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 5 " 17 – 18 – (عليهم) متعلّق بـ (يطوف) ، (بأكواب) متعلّق بـ (يطوف) " 6 " ، (من معين) نعت لكأس . . .

وجملة : " يطوف عليهم ولدان . . " في محل نصب حال من الضمير في متقابلين .

19 – 23 – (لا) نافية ، و(الواو) في (يصدّعون) نائب الفاعل (عنها) متعلّق بـ (يصدّعون) والجارّ للسببيّة (لا) نافية ، و(الواو) في (ينزفون) فاعل ، (فاكهة) معطوفة على أكواب بالواو مجرور (ممّا) متعلّق بنعت

---

(1) قيل خبره السابقون الثاني أي : السابقون إلى الخير السابقون إلى الجنّة أو ما في معنى ذلك . . . ولكنّ الكلام بذلك يحتاج إلى كثير من التأويل ، فالإعراب على هذا مفضول

(2) أو بدل من اسم الإشارة ، والخبر (في جنّات)

(3) أو متعلّق بحال من الضمير في (المقرّبون) . . . ويجوز أن يكون خبرا مقدّما للمبتدأ ثلّة

(4) أو هو مبتدأ خبره (على سرر . . .)

(5) أو في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (السابقون)

(6) أو متعلّق بحال من ولدان [. . . . .]

(474/745)

ل (فاكهة) ، وفي الثاني بنعت لـ (لحم) ، (الواو) عاطفة (حور) مبتدأ مرفوع خبره محذوف مقدّم تقديره لهم " 1 " ، (كأمثال) متعلّق بنعت ثان لـ (حور) . . .

وجملة : " لا يصدّعون عنها . . . " في محلّ نصب حال من كأس " 2 " وجملة : " لا ينزفون . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا يصدّعون وجملة : " يتخيّرون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول وجملة : " يشتهون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني 24 - (جزاء) مفعول لأجله منصوب " 3 " ، (ما) حرف مصدري " 4 " والمصدر المؤوّل (ما كانوا . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (جزاء) وجملة : " كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) وجملة : " يعملون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا 25 - 26 - (لا) نافية (فيها) متعلّق بـ (يسمعون) ، (لا) الثانية زائدة لتأكيد النفي (تأثيما) معطوف على (لغوا) منصوب (إلّا) للاستثناء (قيلا) منصوب على الاستثناء المنقطع (سلاما) بدل

من (قيلا) " 5 " منصوب (سلاما) الثاني توكيد لفظيّ للأول منصوب مثله .

وجملة : " لا يسمعون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة

الصرف :

(8) الميمنة : مصدر ميميّ منته بالتاء للمبالغة ، من الثلاثيّ يمن ، وزنه مفعلة بفتح الميم والعين

---

(1) أو معطوف على (ولدان)

(2) أو بحال من الضمير في (عليهم) أو لا محلّ لها استئنافيّة

(3) أو مفعول مطلق لفعل محذوف أي يجزون جزاء

(4) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف ، والجملة بعده صلة

(5) أو مفعول به للمصدر قيل . . . أو مفعول مطلق لفعل محذوف ، والجملة مقول القول

---

(9) المشأمة : مصدر ميميّ منته بالتاء للمبالغة ، من الثلاثي شأم ، وزنه مفعلة بفتح الميم والعين (13) ثلّة : اسم جمع بمعنى الجماعة أو الكثير ، وزنه فعلة بضمّ فسكون ، والجمع ثلل بكسر الثاء (15) موضونة : مؤنّث موضون ، اسم مفعول من الثلاثيّ وضن بمعنى ثنى

بعضه على بعض وضاعف نسجه ، والدرع الموضونة المتقاربة النسج ، أو المنسوجة حلقتين حلقتين (17) ولدان : كصبيان ، جمع وليد بمعنى مولود ، وهم مخلوقون في الجنّة ابتداء على أصحّ الأقوال . . .

(مخلّدون) ، جمع مخلّد ، اسم مفعول من الرباعيّ خلّد ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين المشدّدة (18) أباريق : جمع إبريق ، مشتقّ من البريق لصفاء لونه ، وزنه إفعيل ، إناء له عروة وخرطوم

البلاغة

التشبيه المرسل المجمل : في قوله تعالى كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ .

حيث شبههم سبحانه وتعالى باللؤلؤ ، أي في الصفاء ، وقيد بالمكنون - أي المستور - لأنه أصفي وأبعد من التغير . وفي الحديث صفاؤهن كصفاء الدر الذي لا تمسه الأيدي .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 27 إلى 40]

وَأَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ (27) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (28) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (29) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (30) وَماءٍ مَسْكُوبٍ (31)

وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (33) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (34) إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً (35) فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً (36)

عُرُباً أَتْراباً (37) لِأَصْحابِ الْيَمِينِ (38) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (39) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (40)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما أصحاب اليمين) مثل ما أصحاب الميمنة " 1 " ، (في سدر) متعلّق بخبر لمبتدأ محذوف تقديره هم " 2 " ، (لا) نافية (مقطوعة) نعت لفاكهة مجرور (لا) الثانية زائدة لازمة (ممنوعة) معطوف على مقطوعة بالواو مجرور . .

جملة : " أصحاب اليمين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما أصحاب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أصحاب) وجملة : " (هم) في سدر . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 3 " (إنشاء) مفعول مطلق منصوب (أبكارا) مفعول به ثان منصوب (عربا ، أترابا) نعتان لـ (أبكارا) منصوبان مثله (لأصحاب) متعلّق بـ (أنشأهنّ) " 4 " ، (ثلّة) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم (من الأولين) متعلّق بنعت لـ (ثلّة) ، (من الآخرين) متعلّق بنعت لثلة الثاني .

وجملة : " انّا أنشأناهنّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 5 " وجملة : " أنشأناهنّ . . . " في محلّ رفع خبر إنّ

---

(1) في الآية (8) من هذه السورة

(2) أو متعلّق بخبر ثان لأصحاب الأول

(3) أو في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ أصحاب

(4) أو متعلّق بـ (جعلناهنّ) . . . أو متعلّق بـ (أترابا) بمعنى مساويات لهم في العمر

(5) ضمير الغائب يعود على نساء الجنّة المكنى عنهنّ بالفرش . . . ويجوز أن تكون الجملة في محلّ جرّ نعت لفرش

(476/745)

وجملة : " جعلناهنّ . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أنشأناهنّ وجملة : " (هم) ثلة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة

الصرف :

(28) مخضود : اسم مفعول من الثلاثيّ خضد الشجر بمعنى قطع شوكة ، وزنه مفعول (29) طلح : اسم لشجر الموز وزنه فعل بفتح فسكون (30) ممدود : اسم مفعول من الثلاثي مدّ ، وزنه مفعول (31) مسكوب : اسم مفعول من الثلاثيّ سكب وزنه مفعول (33) ممنوعة : مؤنّث ممنوع ، اسم مفعول من الثلاثي منع ، وزنه مفعول (35) إنشاء : مصدر قياسيّ للرباعيّ أنشأ ، وزنه إفعال (37) عربا : جمع عروب بفتح العين ، اسم للمرأة المتحبّبة إلى زوجها ، ووزن عرب فعل بضمّتين

[سورة الواقعة (56) : الآيات 41 إلى 48]

(477/745)

وَأَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43) لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (44) إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ (45) وَكانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (46) وَكانُوا يَقُولُونَ أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47) أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (48)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما أصحاب . . .) مثل الأولى " 1 " ، (في سموم) مثل في سدر " 2 " ، (من يحموم) متعلّق بنعت لـ (ظلّ) ، (لا) نافية (بارد)

---

(1) في الآية (8) من السورة

(2) في الآية (28) من السورة

نعت لظلّ مجرور (لا) الثانية زائدة لازمة (كريم) معطوف على بارد بالواو مجرور .

جملة : " أصحاب الشمال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " ما أصحاب . . . " في

محلّ رفع خبر المبتدأ (أصحاب) الأول وجملة : " (هم) في سموم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " 45 – 48 – (قبل) ظرف زمان منصوب متعلّق بالخبر (مترفين) ، (على الحنث) متعلّق بـ (يصرّون) ، (الهمزة) للاستفهام الإنكاري في المواضع الثلاثة (إذا) ظرف للزمن المستقبل في محلّ نصب متعلّق بمحذوف هو الجواب يفسّره خبر إن أي : أ إذا متنا . . . نبعث " 2 " ، (اللام) المزحلقة للتوكيد (آباؤنا) مبتدأ مرفوع خبره محذوف تقديره مبعوثون " 3 " .

وجملة : " إنّهم كانوا . . . " لا محلّ لها تعليليّة للعذاب المتقدّم وجملة : "كانوا . . . مترفين " في محلّ رفع خبر إنّ وجملة : "كانوا يصرّون " في محلّ رفع معطوفة على جملة كانوا . . . مترفين وجملة : "كانوا يقولون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كانوا . .

مترفين وجملة : " يصرّون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا وجملة : " يقولون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا الثالث وجملة : " الشرط وفعله وجوابه . . . " في محلّ نصب مقول القول

---

(1) أو في محلّ رفع خبر ثان لأصحاب

(2) لا يجوز تعليقه بـ (مبعوثون) – وبالتالي الجملة الاسميّة ليست جوابا لـ (إذا) – لأن ما بعد (إنّ) لا يعمل بما قبلها [. . . . .]

(3) صاحب الكشّاف عطف (آباؤنا) على محلّ (إنّ واسمها) ومحلّه الرفع ، فلا حاجة لتقدير الخبر

وجملة : " متنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه وجملة : "كنّا ترابا . . . " في محل جرّ معطوفة على جملة متنا وجملة : " إنّا لمبعوثون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 "

وجملة : " آباؤنا . . . (مبعوثون) " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّا لمبعوثون

الصرف :

(43) يحموم : اسم للدخان الشديد وزنه يفعول ، وقال العكبري هو من الحمم أو من الحميم (46) الحنث : اسم للذنب ، والتحنّث التعبد لمجانبة الإثم ، وزنه فعل بكسر فسكون ، والحنث العظيم هو الشرك

البلاغة

فن الاحتراس : في قوله تعالى لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ .

عند ما قال سبحانه وتعالى وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ أوهم أن الظل ربما جلب لهم شيئا من الراحة ، بعد التعب ، فنفي سبحانه صفتي الظل عنه ، يريد : أنه ظل ، ولكن لا كسائر الظلال ، سماه ظلا ثم نفى عنه برد الظل وروحه ونفعه لمن يأوي إليه من أذى الحرّ ، وذلك ليمحق ما في مدلول الظل من الاسترواح إليه والمعنى أنه ظل حارّ ضارّ . وفيه تهكم بأصحاب الشأن

، وأنهم لا يستأهلون الظل البارد الكريم الذي هو لأضدادهم في الجنة .

الفوائد :

متى يجب تكرار (لا) .

ورد في هذه الآية قوله تعالى وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ فقد تكررت (لا) وسنوضح فيما يلي متى يجب تكرارها :

إن كان ما بعدها جملة اسمية ، صدرها معرفة أو نكرة ، ولم تعمل فيها (أي عمل إن أو كان) ، أو كان ما بعدها جملة صدرها فعل ماض ، لفظا وتقديرا ، وجب تكرارها

---

(1) أو تفسيريّة لجواب الشرط المقدّر

مثال المعرفة لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

ومثال الفعل الماضي قوله تعالى فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى وفي الحديث " فإنّ المنبّت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى " .

- وإن كان المراد من الكلام الدعاء ترك التكرار ، كما في قولنا : لا شلّت يداك ، ولا فضّ

اللَّه فاك.

- وكذلك يجب تكرارها، إذا دخلت على مفرد خبر أو صفة أو حال، نحو: (زيد لا شاعر ولا كاتب) و(جاء زيد لا ضاحكا ولا باكيا) وكقوله تعالى: إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَلا بِكْرٌ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ.

أما إن كان ما دخلت عليه فعلا مضارعا، فلا يجب تكرارها، كقوله تعالى: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً

[سورة الواقعة (56): الآيات 49 إلى 56]

قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52) فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53) فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (55) هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (56)

الإعراب:

(اللام) المزحلقة للتوكيد (إلى ميقات) متعلّق بـ (مجموعون) بتضمينه معنى مساقون

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " إنّ الأولين . . . لمجموعون " في محلّ نصب مقول القول 51 – 56 – (أيها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (الضالّون) بدل من أي – أو عطف بيان عليه – تبعه في الرفع لفظا – (لآكلون) مثل لمجموعون (من شجر) متعلّق بـ (آكلون) ، (من زقّوم) متعلّق بنعت لشجر (الفاء) عاطفة في المواضع الثلاثة (منها) متعلّق بـ (مالئون) ، (البطون) مفعول به لاسم الفاعل مالئون (عليه) متعلّق بـ (شاربون) وكذلك (من الحميم) ، (شرب) مفعول مطلق عامله اسم الفاعل شاربون ، منصوب . . . (يوم) ظرف منصوب متعلّق بحال من نزلهم) وجملة : " إنّكم . . . لآكلون " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول وجملة : " النداء أيها الضّالون " لا محلّ لها اعتراضيّة وجملة : " هذا نزلهم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ

الصرف :

(51) المكذّبون : جمع المكذّب ، اسم فاعل من الرباعيّ كذّب ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وكسر العين مشدّدة (55) شرب : مصدر سماعيّ للثلاثيّ شرب ، وزنه فعل بضمّ فسكون (الهيم) ، جمع أهيم – وهو الجمل المصاب بالعطش – وجمع هيماء . . . والأصل في جمعه أن يكون على فعل بضمّ فسكون ، ولكنّ الهاء كسرت لمناسبة الياء

البلاغة

التشبيه التمثيلي : في قوله تعالى ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ، لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ

، فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ . فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ، فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ " .

شبههم في شرابهم بالإبل العطاش ، التي لا يرويها الماء ، لداء يصيبها يشبه الاستسقاء ، فلا تزال تعب في الشراب حتى تهلك ، أو تسقم سقما شديدا . ووجه الشبه أن كلا منهما يشرب ولا يرتوي ، مما يحثه على طلب المزيد من الشراب .

(482/745)

فن التهكم : في قوله تعالى هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ حيث سمّى أنواع العذاب وضربوا الأهوال نزلا ، تهكما بهم ، لأن النزل في الحقيقة : الرزق الذي يعدّ للنازل تكريما له ، وهذا التهكم كما في قوله تعالى فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ وكقول أبي الشعراء الضبي :

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزولا

الفوائد :

- الفاء المفردة . .

ترد على ثلاثة أوجه . .

1 - أن تكون عاطفة وتفيد ثلاثة أمور :

1 - الترتيب ، وهو نوعان : معنوي كما في (قام زيد فعمرو) وذكري ، وهو عطف مفصّل

على مجمل ، كقوله تعالى : فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ وفَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذِلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .

2 - التعقيب : وهو في كل شيء بحسبه ، ألا ترى أنه يقال : (تزوّج فلان فولد له) إذا لم يكن بينهما إلا مدة الحمل . وقال تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً .

3 - السببيّة : وذلك غالب في العاطفة جملة أو صفة . فالجملة مثل قوله تعالى فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ والصفة : كقوله تعالى : لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ .

2 - الوجه الثاني للفاء : أن تكون رابطة للجواب ، كقوله تعالى وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

ويجب اقتران جواب الشرط بالفاء إذا كان جملة اسمية ، أو فعلية ، فعلها طلبي أو جامد ، أو مقترن بما أو لن أو قد أو السين أو سوف ، كقوله تعالى إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ .

3 - الوجه الثالث للفاء : أن تكون زائدة ، دخولها في الكلام كخروجها ، وهذا لا يثبته سيبويه ، وأجاز الأخفش زيادتها في الخبر مطلقا ، وضرب مثالا " أخوك فوجد " . وقيّد الفراء والأعلم وجماعة الجواز بكون الخبر أمرا أو نهيا كقوله تعالى هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وقولنا (زيد فلا تضربه) .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 57 إلى 62]

نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ (57) أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ (59) نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ (61)

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (62)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة لربط المسبب بالسبب (لولا) حرف تحضيض (الفاء) الثانية استئنافيّة (الهمزة) للاستفهام (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به أوّل (الهمزة) الثانية للاستفهام الإنكاري (أم) منقطعة بمعنى بل " 1 " . . .

جملة : " نحن خلقناكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " خلقناكم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (نحن)

---

(1) يجوز أن تكون عاطفة جملة على جملة بإعراب (أنتم) فاعلا لفعل محذوف يفسّره المذكور لترجيح مجيء الفعلية بعد همزة الاستفهام . . . وهذا الإعراب مرجوح

وجملة : " تصدّقون " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر مسبّب عما قبله أي : تنبّهوا فصدّقوا وجملة : " رأيتم . . . " لا محلّ لها استئناف مقرّر لما سبق وجملة : " تمنون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " أأنتم تخلقونه . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل الرؤية وجملة : " تخلقونه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) وجملة : " نحن الخالقون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة 60 - 61 - (بينكم) متعلّق بـ (قدّرنا) ، (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (مسبوقين) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما (أن) حرف مصدري ونصب (الواو) عاطفة (ننشئكم) مضارع منصوب معطوف على (نبدّل) ، (ما) موصول في محلّ جرّ .

والمصدر المؤوّل (أن نبدّل) في محلّ جرّ بـ (على) متعلّق بـ (مسبوقين) " 1 " وجملة : " نحن قدّرنا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " قدّرنا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (نحن) وجملة : " ما نحن بمسبوقين . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة وجملة : "

نبدّل . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) وجملة : "ننشئكم . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة نبدّل وجملة : "لا تعلمون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) 62 - (الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق

---

(1) يجوز تعليقة بـ (قدّرنا) ، أي قدّرنا بينكم الموت على أن نبدّل . وجملة ما نحن بمسبوقين اعتراضيّة

(الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (لولا تذكّرون) مثل لولا تصدّقون وجملة : "علمتم . . . "لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : "تذكّرون . . . "لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر مسبّب عما سبق أي تنبهوا فتذكّروا

الصرف :

(58) تمنون : فيه إعلال بالحذف ، حذفت لام الفعل - الياء - لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة (60) مسبوقين : جمع مسبوق ، اسم مفعول من الثلاثّي سبق ، وزنه مفعول (أمثال) (61) : يحتمل أن يكون جمع مثل بكسر فسكون ، اسم للنظير ، ويحتمل أن يكون

جمع مثل - بفتحتين - اسم بمعنى الصفة

[سورة الواقعة (56) : الآيات 63 إلى 67]

أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (أرأيتم . . . الزارعون) مثل أرأيتم . . .

الخالقون " 1 " ، (لو) حرف شرط غير جازم (اللام) واقعة في جواب لو (حطاما) مفعول به ثان منصوب (الفاء) عاطفة (ظلتم) ماض حذف منه احدى اللامين تخفيفا (اللام) المزحلقة للتوكيد (بل) للإضراب الانتقاليّ . . .

وجملة : " رأيتم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة

---

(1) في الآيتين (58 ، 59) من هذه السورة

وجملة : " تحرثون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وجملة : " أنتم تزرعونه . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل الرؤية وجملة : " تزرعونه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ

(أنتم) وجملة : " نحن الزارعون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " نشاء . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ وجملة : " جعلناه . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم وجملة : " ظلتم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلناه وجملة : " تفكّهون . . . " في محلّ نصب خبر ظلتم " 1 " وجملة : " إنّا لمغرمون . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر هو حال من فاعل تفكّهون وجملة : " نحن محرومون . . . " لا محلّ له استئناف في حيّز القول

الصرف :

---

(1) جعل بعضهم فعل (ظلتم) تاما بمعنى أقمتم نهارا - من الظلّ - فجملة تفكّهون هي حال من الفاعل

---

(46) الزارعون : جمع الزارع ، اسم فاعل من الثلاثيّ زرع ، وزنه فاعل (65) ظلتم : فيه حذف إحدى اللامين تخفيفا أصله ظللتم . . . وزنه فلتم بفتح الفاء وسكون اللام

(تفكّهون) : فيه حذف إحدى التاءين قياسيا (66) مغرمون : جمع مغرم اسم مفعول من الرباعيّ أغرم ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين

[سورة الواقعة (56) : الآيات 68 إلى 70]

أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (70)

الإعراب :

(أفرأيتم الماء . نحن المنزلون) ، مثل أفرأيتم ما تمنون . . .

الخالقون " 1 " ، (من المزن) متعلّق بـ (أنزلتموه) ، و(الواو) في (أنزلتموه) زائدة إشباع حركة الميم (لو . . . أجاجا) مثل لو نشاء . . . حطاما " 2 " (فلولا تشكرون) مثل لولا تصدّقون " 3 "

الصرف :

(المزن) ، جمع مزنة ، اسم بمعنى السحابة ، وزنه فعلة بضمّ فسكون ، وكذلك المزن فعل

[سورة الواقعة (56) : الآيات 71 إلى 74]

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ (72) نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ (73) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (74)

الإعراب :

(أفرأيتم . . . المنشئون) مثل أفرأيتم . . . الخالقون " 4 " (تذكرة) مفعول به ثان منصوب (للمقوين) متعلّق بـ (متاعا) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (باسم) متعلّق بحال من فاعل سبّح . . .

وجملة : " نحن جعلناها . . . " لا محلّ لها استئناف بياني

---

(1) في الآيتين (58 ، 59) من السورة مفردات وجملا

(2) في الآية (65) من السورة

(3) في الآية (57) . . .

(4) في الآيتين (58 ، 59) من السورة مفردات وجملا .

وجملة : " جعلناها . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (نحن) وجملة : " سبّح . . . " جواب شرط مقدّر أي : إن كانت قدرة اللّه في الخلق والإنشاء والتنظيم كما ذكر فسبّح باسم

الصرف :

(71) تورون : فيه إعلال بالحذف بعد الإعلال بالتسكين . . . أصله توريون – بياء بعد الراء – ثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت الحركة إلى الراء قبلها – إعلال بالتسكين – ثمّ حذفت الياء لالتقاء الساكنين فأصبح تورون – إعلال بالحذف – وزنه تفعون .

(72) المنشئون : جمع المنشئ ، اسم فاعل من الرباعيّ أنشأ ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين (73) المقوين : جمع المقوي بمعنى المسافر الذي ينزل بالقوى أو القواء بكسر

القاف في كليهما ، وهي الأرض الخالية البعيدة عن العمران ، اسم فاعل من الرباعيّ أقوى . . . فيه إعلال بالحذف أصله المقويين - بياءين - التقى ساكنان حذفت الياء لام الكلمة فأصبح المقوين ، وزنه المفعين . . .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 75 إلى 80]

فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ (78) لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79)

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (80)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (لا) زائدة " 1 " ، (بمواقع) متعلّق بـ (أقسم) ، (الواو) اعتراضيّة (اللام) للتوكيد (لو) حرف شرط غير جازم (عظيم) نعت

---

(1) هذا أوضح الأعاريب . . . وقيل هي نافية والمنفيّ محذوف أي فلا صحة لقول الكافر ، أقسم . . . وقيل هي لام الابتداء

لقسم مرفوع (لقرآن) مثل لقسم (في كتاب) متعلّق بنعت ثان لـ (قرآن) ، (لا) نافية (إلّا) للحصر (تنزيل) نعت لقرآن مرفوع مثله " 1 " ، (من ربّ) متعلّق بتنزيل . . .

جملة : " أقسم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " إنّه لقسم . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة بين القسم وجوابه وجملة : " لو تعلمون . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة بين النعت والمنعوت . . .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله وجملة : " انّه لقرآن . . . " لا محلّ لها جواب القسم وجملة : " لا يمسّه إلّا المطهّرون " في محلّ رفع نعت لقرآن

الصرف :

(75) مواقع : جمع موقع ، اسم مكان من الثلاثيّ وقع ، وزنه مفعل بفتح الميم وكسر العين لأنه معتلّ مثال ، ووزن مواقع مفاعل . . .

(76) قسم : اسم مصدر من الرباعيّ أقسم ، وزنه فعل بفتحتين (79) المطهّرون : جمع المطهّر . . . اسم مفعول من الرباعي طهّر ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين المشدّدة

الفوائد :

- (لا) الزائدة . . .

وهي تدخل في الكلام لمجرد تقويته وتوكيده ، كقوله تعالى ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ويوضحه الآية الأخرى ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ومن زيادتها قوله تعالى لِئَلَّا

يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أي ليعلموا . . .

وقد اختلف علماء النحو في (لا) الواردة في التنزيل في مثل قوله تعالى : لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ

فقيل : هي نافية ، واختلف هؤلاء في منفيها على

---

(1) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ، والجملة استئناف بيانيّ

(490/745)

وجهين : أحدهما ، هو شيء مقدم ، وهو جحودهم وإنكارهم . فقيل لهم : ليس الأمر كذلك ، ثم استؤنف القسم . أما الوجه الثاني : أن منفيّها أقسم ، وذلك على أن يكون إخبارا لا إنشاء ، واختاره الزمخشري ، قال : والمعنى في ذلك أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظاما له ، بدليل فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ فكأنه قيل : إن إعظامه بالإقسام به كلا إعظام ، أي إنه يستحق إعظاما فوق ذلك .

(491/745)

- وقيل : هي زائدة ، واختلف هؤلاء في فائدتها على قولين :

1 - أنها زيدت تمهيدا لنفي الجواب ، والتقدير : لا أقسم بيوم القيامة لا يتركون سدى ، ومثله قوله تعالى فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ .

2 - أنها زيدت لمجرد التوكيد وتقوية الكلام ، كما في قوله تعالى لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ .

الموضع الثاني : قوله تعالى : قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً قيل : إنّ (لا) نافية . وقيل : ناهية وقيل : زائدة . والجميع محتمل .

حكم مس القرآن . .

كان ابن عباس ينهى أن يمكّن غير المسلم من مس القرآن وقراءته . قال الفراء لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به ، وقال قوم : معنى الآية : لا يمسه إلا المطهرون من الأحداث والجنابات . وظاهر الآية نفي ، ومعناها نهي . قالوا : لا يجوز للجنب ولا للحائض ولا للمحدث (غير المتوضئ) حمل المصحف ولا مسه . وهذا قول عطاء وطاووس وسالم والقاسم وأكثر أهل العلم . وبه قال مالك والشافعي وأكثر الفقهاء ، ويدل عليه ما روى مالك في الموطأ ، عن عبد اللّه بن أبي بكر ، أن في الكتاب الذي كتبه رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) لعمرو بن حزم : (أن لا تمس القرآن إلا طاهرا) أخرجه مالك مرسلا . وقد جاء هذا الحديث موصولا ، عن أبي بكر بن محمد عن أبيه عن جده ، أن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) كتب إلى أهل اليمن بهذا .

والصحيح الإرسال ، وقد نهى رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلّم) أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو وقال الحكم وحماد وأبو

(492/745)

حنيفة : يجوز للمحدث والجنب حمل المصحف ومسه بغلافه ، وقد أجاز الفقهاء للمحدث والجنب والحائض حمل تفسير للمصحف إذا كان كلام التفسير أكثر من كلام المصحف . وعلى هذا يجوز لهؤلاء حمل تفسير (الجلالين) أو (تفسير وبيان مفردات القرآن) لأن كلام التفسير أكثر من كلام المصحف .

كما أنه لا يجوز للجنب والحائض قراءة القرآن ولو غيبا دون مسه ، ويجوز لهما إجراؤه على ذهنهما وفكرهما ، دون النطق وتحريك اللسان والأصح عند الحنفية أنه لا بأس للحائض والنفساء بتعلم القرآن ، إذا كان كلمة كلمة . أما عند المالكية ، فقد أجازوا للحائض والنفساء قراءة القرآن ومسّ المصحف للقراءة ، لحاجة التعليم ، أو لخوف النسيان أما غير المتوضئ ، فيجوز له قراءة القرآن ، ما لم يمسّه .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 81 إلى 82]

أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (81) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (82)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاري (الفاء) استئنافيّة (بهذا) متعلّق بالخبر (مدهنون) ،

(رزقكم) مفعول به أول منصوب بحذف مضاف أي شكر رزقكم . . .

والمصدر المؤوّل (أنكم تكذّبون) في محلّ نصب مفعول به ثان . . .

جملة : " أنتم مدهنون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " تجعلون . . . " في محلّ رفع معطوفة على الخبر (مدهنون) وجملة : " تكذّبون . . . " في محلّ رفع خبر أنّ

الصرف :

(مدهنون) ، جمع مدهن ، اسم فاعل من الرباعيّ أدهن بمعنى داهن وداري ولاين ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 83 إلى 87]

فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (87)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (لولا) حرف تحضيض ، وفاعل (بلغت) محذوف دلّ عليه سياق الآية الكريمة أي الروح أو النفس (إذا) ظرف مجرّد من الشرط على الأرجح متعلّق بفعل مقدّر أي ترجعونها (الواو) حاليّة (حينئذ) ظرف مضاف إلى ظرف مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (تنظرون) ، (الواو) حاليّة – أو اعتراضيّة – (إليه) متعلّق بـ (أقرب) وكذلك (منكم) ، (الواو) عاطفة (لكن) للاستدراك لا عمل لها (لا) نافية (الفاء) استئنافيّة (لولا) مثل الأول (كنتم) ماض مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط في الموضعين " 1 " . . .

جملة : " بلغت الحلقوم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه " 2 " وجملة : " أنتم . . . تنظرون " في محلّ نصب حال وجملة : " تنظرون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) وجملة : " نحن أقرب . . . " في محلّ نصب حال " 3 " وجملة : " لا تبصرون " في محلّ رفع معطوفة على جملة تنظرون وجملة : " كنتم غير مدينين " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " ترجعونها . . . " لا محلّ لها تفسيريّة لجواب الشرط المقدّر الأول أي : إن كنتم غير مدينين فأرجعوا الروح المحتضرة " 4 "

---

(1) ملخص معنى الآية الكريمة : إن صدقتم في نفي البعث فردّوا روح المحتضر إلى جسده لينتفي عنه الموت فينتفي البعث . . .

(2) يجوز أن يكون (إذا) متضمنا معنى الشرط فيكون الجواب محذوفا دلّ عليه جواب (إن) الآتي [. . . . .]

(3) أو اعتراضيّة

(4) يجوز أن تكون جملة الشرط وجوابها اعتراضيّة ، وجملة ترجعونها جواب الشرط (إذا) إن ضمّن معنى الشرط

(494/745)

وجملة : "كنتم صادقين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي إن كنتم صادقين في ما تزعمون من عدم البعث فردّوا روح المحتضر إلى جسده لينتفي عنه الموت .

الصرف :

(83) الحلقوم : اسم للعضو المعروف ، وزنه فعلول بضمّ الفاء واللام بينهما ساكن (86) مدينين : جمع مدين ، اسم مفعول من (دان ، يدين) فهو على وزن مبيع ، فيه إعلال بالحذف ، حذفت واو مفعول لالتقاء الساكنين بعد نقل ضمّة الياء إلى الدال ، ثمّ كسرت الدال للمناسبة . . .

البلاغة

الاستعارة المكنية : في قوله تعالى فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ .

حيث شبه الروح بشيء مجسم يبلغ الحلقوم في حركة محسوسة.

[سورة الواقعة (56) : الآيات 88 إلى 91]

فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (89) وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (91)

الإعراب:

(الفاء) استئنافيّة تفريعيّة (أمّا) حرف شرط وتفصيل (كان) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط لـ (إن) واسمه ضمير مستتر تقديره هو أي الميّت (من المقرّبين) متعلّق بخبر كان (الفاء) رابطة لجواب الشرط " 1 "،

---

(1) وهو الشرط الأول (أمّا) . . . ذلك لأنه إذا اجتمع شرطان ولم يذكر إلّا جواب واحد فالجواب للأول . . . وسبب آخر لجعله جواب (أمّا) هو أن شرطها محذوف فإذا حذف الجواب حصل إجحاف بها . والأمير في حاشيته على المغني يقول: " يمكن أن يكون الجواب للثاني أي (إن)، هو الثاني وجوابه جواب أمّا والأصل: أمّا فإن كان من المقرّبين فروح . . . فلما زحلقت الفاء اجتمع فاءان، فحذفت إحداهما تخلّصا من الاستثقال " أ ه

(روح) مبتدأ مرفوع خبره محذوف مقدّم عليه أي له روح " 1 " ، (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (أمّا إن . . . اليمين) مثل نظيرها (الفاء) رابطة لجواب الشرط " 2 " ، (سلام) مبتدأ مرفوع خبره (لك) ، (من أصحاب) متعلّق بالاستقرار المقدّر .

جملة : "كان من المقرّبين . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " له روح . . . " لا محلّ لها جواب الشرط (أمّا) " 3 " . . . وجواب إن محذوف دلّ المذكور عليه وجملة : "كان من أصحاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كان من المقرّبين .

(496/745)

وجملة : " سلام لك . . . " لا محلّ لها جواب الشرط أمّا " 4 " . . . وجواب إن محذوف دلّ عليه المذكور

الصرف :

(89) روح : مصدر بمعنى الاستراحة ، وزنه فعل بفتح فسكون ، وفي القاموس : الروح بالفتح الراحة والرحمة ونسيم الريح (الريحان) ، اسم بمعنى الرحمة والرزق – كما في المختار – وزنه فعلان بقلب الواو ياء على غير قياس . . . أو فيعلان أي ريوحان لأنّ تصغيرها

رويحين ، فلمّا اجتمعت الياء والواو ، والأول ساكن قلبت الواو ياء ، ثمّ أدغمت في الياء الثانية فأصبح ريّحان – بتشديد الياء – ثمّ خفّفت الياء لتسهيل اللفظ فأصبح ريحان – وقال بعضهم إن الكلمة لا تشتمل إلا على ياء واحدة وليس هناك قلب أو إدغام بدليل جمعها على رياحين وتصغيرها ريحين

---

(1) أو هو خبر لمبتدأ محذوف أي فجزاؤه روح

(2 ، 3 ، 4) كما في الحاشية الواردة في الصفحة السابقة رقم (1) .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 92 إلى 94]

وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (أمّا إن كان . . . من حميم) مرّ اعراب نظيرها " 1 " ، (من حميم) متعلّق بنعت لـ (نزل) ، (الواو) عاطفة . . .

الصرف :

(تصلية) ، مصدر قياسيّ من الرباعيّ صلّى بمعنى احترق :

و(التاء) فيه عوض من ياء تفعيل المحذوفة للثقل ، وزنه تفعلة

[سورة الواقعة (56) : الآيات 95 إلى 96]

إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)

الإعراب :

(497/745)

(اللام) المزحلقة للتوكيد (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (سبّح . . . العظيم) مرّ إعرابها " 2 " ، (العظيم) نعت لاسم ، أو لربّك ، مجرور جملة : " إنّ هذا لهو . . . " لا محلّ لها استئنافيّة وجملة : " هو حقّ . . . " في محلّ رفع خبر إنّ وجملة : " سبّح . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن كان أمر اللّه في الثواب والعقاب كما ذكر فسبّح باسم . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 27 صـ 109. 134 ﴾

---

(1) في الآيتين (88 ، 89) من هذه السورة

(2) في الآية (74) من هذه السورة . . . وفعل سبّح يتعدّى بنفسه تارة كقوله تعالى : سبّح اسم ربّك الأعلى (الأعلى - 1) ، وبحرف الجرّ تارة كهذه الآية ، فليس من مسوّغ لادّعاء زيادة الباء . . . وقد تكون الباء للملابسة .

(498/745)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(56) سورة الواقعة

مكيّة وآياتها ستّ وتسعون

[سورة الواقعة (56) : الآيات 1 إلى 16]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ (2) خافِضَةٌ رافِعَةٌ (3) إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4)

وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا (5) فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا (6) وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً (7) فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ (9)

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14)

عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ (16)

اللغة :

(الْواقِعَةُ) القيامة وصفت بأنها تقع لا محالة أو كأنها واقعة في نفسها .

(بُسَّتِ) فتتت ، وفي المصباح : بسست الحنطة وغيرها بسّا من باب قتل وهو الفتّ فهي

بسيسة فعيلة بمعنى مفعوله .

(هَباءً) الهباء غبار كالشعاع في الرقة وكثيرا ما يخرج شعاع الشمس من الكوّة النافذة .

(مُنْبَثًّا) منتشرا متفرقا بنفسه من غير حاجة إلى هواء يفرقه .

(أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ) الذين يعطون كتبهم بأيمانهم من اليمن والبركة .

(أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ) الذين يعطون كتبهم بشمالهم المشائيم على أنفسهم .

(ثُلَّةٌ) جماعة .

(مَوْضُونَةٍ) منسوجة متداخلة كصفة الدرع ، قال الأعشى :

ومن نسج داود موضونة تساق إلى الحيّ عيرا فعيرا

الإعراب :

(إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ) في إذا أوجه :

---

1 - ظرف محض ليس فيها معنى الشرط والعامل فيها ما في ليس من معنى النفي كأنه قيل ينتفي التكذيب بوقوعها إذا وقعت ، وقد ذهب إلى هذا الوجه الزمخشري فقال : " فإن قلت بم انتصب إذا ؟ قلت بليس كقولك يوم الجمعة ليس لي شغل " وردّه أبو حيان فقال : "

أما نصبها بليس فلا يذهب نحوي ولا من شدا شيئًا من صناعة الإعراب إلى مثل هذا لأن " ليس " في النفي كما وما لا تعمل فكذلك ليس وذلك أن

"

ليس " مسلوبة الدلالة على الحدث والزمان والقول بأنها فعل هو على سبيل المجاز لأن حدّ الفعل لا ينطبق عليها والعامل في الظرف إنما هو ما يقع فيه من الحدث فإذا قلت يوم الجمعة أقوم فالقيام واقع في يوم الجمعة و" ليس " لا حدث لها فكيف يكون لها عمل في الظرف ، والمثال الذي شبّه به وهو يوم الجمعة ليس لي شغل لا يدل على أن يوم الجمعة منصوب بليس بل هو منصوب بالعامل في خبر ليس وهو الجار والمجرور فهو من تقديم الخبر على ليس وتقديم ذلك مبني على جواز تقديم الخبر الذي لليس عليها وهو مختلف فيه ولم يسمع من لسان العرب قائما ليس زيد ، وليس إنما تدل على الحكم الخبري عن المحكوم عليه فقط فهي كما ولكنه لما اتصلت بها ضمائر الرفع جعلها ناس فعلا وهي في الحقيقة حرف نفي كما النافية ، ويظهر من تمثيل الزمخشري إذا بقوله يوم الجمعة أنه سلبها الدلالة على الشرط الذي هو غالب فيها ولو كانت شرطا وكان الجواب الجملة المصدّرة بليس لزمت الفاء إلا أن حذفت في شعر إذ ورد ذلك فتقول إذا أحسن إليك زيد فلست تترك مكافأته ولا يجوز ، " لست " بغير فاء إلا إن اضطر إلى ذلك " .

2- أن العامل فيها اذكر مقدّرا .

3- أنها شرطية وجوابها مقدّر أي إذا وقعت الواقعة كان كيت وكيت وهو العامل فيها .

(500/745)

4- أنها شرطية والعامل فيها الفعل الذي بعدها ويليها وهو اختيار أبي حيان وتبع في ذلك مكيا ، قال مكّي : والعامل فيها وقعت لأنها قد يجازى بها فعمل فيها الفعل الذي بعدها كما يعمل في ما ومن اللتين للشرط في قولك ما تفعل أفعل ومن تكرم أكرم .

5- أنها مبتدأ وإذا رجت خبرها وهذا على القول أنها تتصرف .

6- أنها ظرف لخافضة رافعة قاله أبو البقاء أي إذا وقعت خفضت ورفعت .

7- أنها ظرف لرجت وإذا الثانية إما بدل من الأولى أو تكرير لها .

8- إن العامل فيها ما دلّ عليه قوله فأصحاب الميمنة أي إذا وقعت بانت أحوال الناس فيها .

9- أن جواب الشرط قوله فأصحاب الميمنة .

10- قال الجرجاني : إذا صلة أي وقعت الواقعة مثل اقتربت الساعة وأتى أمر اللّه وهو كما يقال قد جاء الصوم أي دنا واقترب .

ووقعت الواقعة فعل وفاعل .

(لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ) ليس فعل ماض جامد ناقص ولوقعتها خبرها مقدّم واللام بمعنى في على تقدير المضاف أي ليس كاذبة توجد في وقت وقوعها وكاذبة اسم ليس وكاذبة صفة لموصوف محذوف أي نفس كاذبة ، وقيل "كاذبة" مصدر جاء بلفظ اسم الفاعل بمعنى الكذب (خافِضَةٌ رافِعَةٌ) خافضة خبر لمبتدأ محذوف ورافعة خبر ثان (إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا) يجوز أن تكون إذا بدلا من إذا الأولى أو تأكيدا لها أو خبرا لها على أنها مبتدأ وقد تقدم هذا مفصلا ويجوز أن تكون شرطا والعامل فيها إما مقدّر وإما فعلها الذي يليها كما تقدم في نظيرتها ، وعبارة الزمخشري : " ويجوز أن ينتصب بخافضة رافعة أي تخفض وترفع وقت رجّ الأرض وبسّ الجبال لأنه عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ويرتفع ما هو منخفض " ، ورجّا مفعول مطلق (وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا) الجملة معطوفة على الجملة السابقة (فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا) الفاء عاطفة وكانت فعل ماض ناقص واسمها مستتر تقديره هي وهباء خبرها ومنبثّا صفة لهباء (وَكُنْتُمْ

أَزْواجاً ثَلاثَةً)

عطف على رجّت وكان واسمها وخبرها وثلاثة نعت لأزواجا (فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ) الفاء عاطفة تفريعية للشروع في تفصيل وشرح أحوال الأزواج الثلاثة وأصحاب الميمنة مبتدأ وما استفهامية في محل رفع مبتدأ ثان والمقصود بالاستفهام التعظيم وأصحاب الميمنة الثاني خبر ما والجملة خبر المبتدأ الأول وتكرير المبتدأ هنا بلفظه أغنى عن الرابط وهو الضمير ومثله " الحاقة ما الحاقة " و" القارعة ما القارعة " ولا يكون إلا في مواطن التعظيم والتحقير وهذا هو القسم الأول من الأزواج (وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ) عطف على ما تقدم والمقصود هنا تحقير شأنهم وهم القسم الثاني من الأزواج (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) الواو عاطفة والسابقون مبتدأ والسابقون تأكيد وهم القسم الثالث من الأزواج وأكثرهم عراقة في الفضل (أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) أولئك مبتدأ والمقربون خبره والجملة خبر السابقون واسم الإشارة أغنى عن الرابط وهو الضمير ، واختار الزمخشري أن يكون السابقون خبرا وليس تأكيدا قال " والسابقون من عرفت حالهم وبلغك وصفهم كقوله : وعبد اللّه عبد اللّه وقول أبي النجم " وشعري شعري " كأنه قال وشعري ما انتهى إليك وسمعت بفصاحته وقد جعل السابقون تأكيدا وأولئك المقربون خبرا وليس بذاك " هذا ما ذكره الزمخشري وليس بعيدا بل لعلّه أقعد بالفصاحة ، ألا ترى

كيف سبق بسط حال السابقين بقوله : أولئك المقربون فجمع بين اسم الإشارة المشار به إلى معروف وبين الإخبار عنه بقوله المقربون المعرّف بالألف واللام العهدية .

(502/745)

و ننقل فيما يلي نص ما أورده أبو حيان قال : " والسابقون السابقون جوّزوا أن يكون مبتدأ وخبرا نحو قولهم أنت أنت وقوله : أنا أبو النجم وشعري شعري ، أي الذين انتهوا في السبق أي الطاعات وبرعوا فيها وعرفت حالهم وأن يكون السابقون تأكيدا لفظيا والخبر فيما بعد ذلك " . وعبارة أبي البقاء " قوله تعالى والسابقون الأول مبتدأ والثاني خبره أي السابقون بالخير السابقون إلى الجنة وقيل الثاني نعت للأول أو تكرر توكيدا والخبر أولئك " (فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) خبر ثان أو حال من الضمير في المقربون أو متعلق به أي قربوا إلى رحمة اللّه في جنات النعيم ، وإضافة الجنات إلى النعيم من إضافة المكان إلى ما يكون فيه كما يقال : دار الضيافة ودار الدعوة ودار العدل (ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ) ثلّة خبر لمبتدأ محذوف أي هم ثلّة من الأولين ومن الأولين نعت وقليل عطف على ثلّة ومن الآخرين نعت لقليل واختار الجلال أن يرتفع ثلّة على الابتداء لوصفه والخبر على سرر الآتية (عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ) إما خبر على القول بأن ثلّة مبتدأ أو نعت ثان لثلّة على القول بأنها

خبر لمبتدأ مضمر (مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ) حالان من الضمير في عليها أي استقروا عليها متكئين متقابلين لا ينظر بعضهم إلى بعض .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 17 إلى 26]

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوابٍ وَأَبارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُونَ (19) وَفاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (24) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً (25) إِلَّا قِيلاً سَلاماً سَلاماً (26)

اللغة :

)

(503/745)

مُخَلَّدُونَ) باقون لا يموتون ولا يهرمون ولا يتغيرون وقيل من الخلد وهو القرط ، قال امرؤ القيس :

وهل ينعمن إلا سعيد مخلد قليل الهموم ما يبيت بأوجال

والولدان جمع وليد كصبيان بمعنى مولود والولد يجمع على أولاد .

(مَعِينٍ) خمر جارية من منبع لا يفيض ولا ينقطع أبدا .

(لاَ يُصَدَّعُونَ) لا يحصل لهم صداع بسببها قال الزمخشري :

" وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها " والصداع هو الداء المعروف الذي يلحق الإنسان في رأسه والخمر تؤثر قال علقمة في وصف الخمر :

تشفي الصداع ولا يؤذيك صالبها ولا يخالطها في الرأس تدويم

(يُنْزِفُونَ) بفتح الزاي وكسرها من نزف الشارب وأنزف يقال نزف الرجل بالبناء للمجهول أي ذهب عقله سكرا ونزف الرجل دما : رعف فخرج دمه كله وكلاهما وارد .

الإعراب :

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ) الجملة مستأنفة ويجوز أن تكون حالية وعليهم متعلقان بيطوف وولدان فاعل ومخلدون نعت ولدان ، والمعنى : يدور حولهم للخدمة غلمان لا يهرمون ولا يتغيرون بل شكلهم شكل الولدان دائما (بِأَكْوابٍ وَأَبارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ) بأكواب متعلقان بيطوف ما وبعده عطف عليه ومن معين صفة لكأس (لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلاَ يُنْزِفُونَ) الجملة مستأنفة أو حال من الضمير في عليهم ولا نافية ويصدعون بالبناء للمجهول والواو نائب فاعل وعنها متعلقان به ولا ينزفون عطف على لا يصدعون (وَفاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ) عطف على ما تقدم أي وكأس ، ومما نعت لفاكهة وجملة يتخيرون صلة (وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ) عطف على ما تقدم أيضا (وَحُورٌ عِينٌ) يقرأ

بالرفع ، وفيه أوجه : أحدها هو معطوف على ولدان أي يطفن عليهم للتنعيم لا للخدمة ، والثاني هو مبتدأ خبره محذوف أي لهم حور أو وثم حور ، والثالث هو خبر لمبتدأ محذوف أي ونساؤهم حور ، ويقرأ بالنصب على تقدير يعطون أو يجازون حورا ، ويقرأ بالجر عطفا على أكواب في اللفظ دون المعنى لأن الحور لا يطاف بهنّ ، وقيل هو معطوف على جنات أي في جنات وفي حور . وعين صفة لحور (كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ) كأمثال نعت ثان لحور واللؤلؤ مضاف إليه والمكنون نعت (جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ) جزاء مفعول من أجله أي يفعل بهم ذلك كله جزاء أو مفعول مطلق لفعل محذوف أي جزيناهم جزاء وبما متعلقان بجزاء وجملة كانوا صلة وكان واسمها وجملة يعملون خبرها (لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً) لا نافية ويسمعون فعل مضارع والواو فاعله وفيها متعلقان بيسمعون ولغوا مفعول به والواو حرف عطف ولا نافية وتأثيما عطف على لغوا أي فاحشا من القول أو مما يؤثم (إِلَّا قِيلاً سَلاماً سَلاماً) إلا أداة استثناء والاستثناء منقطع وقيلا مستثنى منقطع واجب النصب وسلاما سلاما فيه أوجه أحدها أنه بدل من قيلا أي لا يسمعون فيها إلا سلاما سلاما ، والثاني أنه نعت قيلا ، والثالث أنه منصوب بقيلا لأنه مصدر أي إلا أن يقولوا سلاما سلاما

واختاره الزجّاج، والرابع أن يكون مفعولا مطلقا لفعل محذوف أي سلّموا سلاما .

البلاغة :

1- في قوله "كأمثال اللؤلؤ المكنون" تشبيه مرسل مجمل، ووجه الشبه محذوف وهو الصون، قال الشاعر يصف امرأة بالصون وعدم الابتذال فشبّهها بالدرّة المكنونة في صدفتها فقال :

قامت تراءى بين سجفي كلة كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

أو درّة صدفية غوّاصها بهج متى يرها يهلّ ويسجد

2- وفي قوله "لا يصدعون عنها ولا ينزفون" فن الإيجاز وقد تقدم، فجمع في هاتين الكلمتين جميع عيوب الخمر في الدنيا .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 27 إلى 40]

وَأَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ (27) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (28) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (29) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (30) وَماءٍ مَسْكُوبٍ (31)

وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (33) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (34) إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ

إِنْشاءً (35) فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً (36)

عُرُباً أَتْراباً (37) لِأَصْحابِ الْيَمِينِ (38) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (39) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (40)

اللغة :

(سِدْرٍ) السدر شجر النبق .

(مَخْضُودٍ) أصل الخضد عطف العود اللين فمن ها هنا المخضود الذي لا شوك له لأن الغالب أن الرطب اللين لا شوك له وفي المختار :

" خضد الشجر قطع شوكة وبا به ضرب فهو خضيد ومخضود " ، وقال أمية بن أبي الصلت يصف الجنة :

إن الحدائق في الجنان ظليلة فيها الكواعب سدرها مخضود

(طَلْحٍ) الطلح : شجر الموز ، وقال أبو عبيدة : هو كل شجر عظيم كثير الشوك ، قال بعض الحداة :

بشرها دليلها وقالا غدا ترين الطلح والجبلا

وقال الزجّاج : الطلح شجر أم غيلان فقد يكون على أحسن حال .

(مَنْضُودٍ) اسم مفعول من نضدت المتاع أي جعلت بعضه فوق بعض .

(أَبْكاراً) البكر التي لم يفترعها الرجل فهي على خلقتها الأولى من حال الإنشاء ، ومنه البكرة لأول النهار والباكورة لأول الفاكهة والبكر الفتى من الإبل وجمعه بكار وبكارة وجاء

القوم على بكرتهم وبكرة أبيهم .

(عُرُباً) جمع عروب وهي المتحببة إلى زوجها عشقا له .

(أَتْراباً) جمع ترب وهو اللذة الذي ينشأ مع مثله في حال الصبا وهو مأخوذ من لعب الصبي بالتراب أي هم كالصبيان الذين هم على سنّ واحدة ، قال عمر بن أبي ربيعة :

أبرزوها مثل المهاة تهادى بين عشر كواعب أتراب

الإعراب :

(506/745)

(وَأَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ) كلام مستأنف مسوق للشروع في تفصيل ما أجمل أولا ، وأصحاب مبتدأ وما اسم استفهام للتعظيم في محل رفع مبتدأ وأصحاب اليمين خبر ما والجملة خبر أصحاب والرابط إعادة المبتدأ بلفظه كما تقدم (فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ) خبر ثان لأصحاب أو خبر لمبتدأ محذوف أي هم في سدر ومخضود نعت لسدر

(وَظِلٍّ مَمْدُودٍ وَماءٍ مَسْكُوبٍ وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ)

عطف على وله في سدر ولا في لا مقطوعة للنفي كقولك مررت برجل لا طويل ولا قصير

ولذلك لزم تكرارها (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً) إن واسمها وجملة أنشأناهنّ خبر وإنشاء مفعول مطلق وعبارة الكشاف " إنّا أنشأناهنّ إنشاء : ابتدأنا خلقهنّ ابتداء جديدا من غير ولادة فإما أن يراد اللاتي ابتدئ إنشاؤهنّ أو اللاتي أعيد إنشاؤهنّ ، وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن أم سلمة سألته عن قوله تعالى :

إنّا أنشأناهنّ إنشاء ، فقال : يا أم سلمة هنّ اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شمطا رمصا جعلهنّ اللّه بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد في الاستواء كلما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكارا فلما سمعت عائشة من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ذلك قالت : وأوجعاه فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ليس هناك وجع (فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا) الفاء عاطفة وجعلناهنّ فعل ماض وفاعل ومفعول به أول وأبكارا مفعول به ثان وعربا أترابا نعتان لأبكارا (لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ) لأصحاب اليمين متعلقان بأنشأناهنّ (ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ) ثلّة خبر لمبتدأ محذوف ومن الأولين نعت لثلّة وثلّة من الآخرين عطف على ما تقدم.

البلاغة :

1- في قوله " وفرش مرفوعة " إن فسرت الفرش بأنها جمع فراش كان معناها على حقيقته أي مرفوعة على السرر وإن أريد بها النساء كانت كناية عن موصوف والعرب تسمي المرأة فراشا ولباسا ويدل على هذا التأويل قوله " إنّا أنشأناهنّ إنشاء " .

2- وفي قوله " عربا أترابا " كناية أيضا عن عودتهنّ أو نشأتهنّ في سنّ صغيرة ، قالت عجوز لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ادع اللّه أن يدخلني الجنة ، فقال : إن الجنة لا تدخلها العجائز ، فولّت وهي تبكي

فقال عليه الصلاة والسلام أخبروها أنها ليست بعجوز ، وعنه أيضا صلى اللّه عليه وسلم : يدخل أهل الجنة الجنة جردا مردا بيضا جعادا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين " والعرب جمع عروب وهي المتحببة إلى زوجها ، قال المبرد : هي العاشقة لزوجها ، وقال زيد بن أسلم : هي الحسنة الكلام والأتراب : هنّ اللواتي على ميلاد واحد وسنّ واحدة .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 41 إلى 56]

وَأَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43) لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (44) إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ (45)

وَكانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (46) وَكانُوا يَقُولُونَ أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47) أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (48) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50)

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (55)

هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (56)

اللغة :

)

(508/745)

سَمُومٍ) السموم : الريح الحارّة التي تدخل في مسام البدن ، ومسام البدن خروقه ومنه أخذ السمّ الذي يدخل في المسام .

(يَحْمُومٍ) اليحموم هو الدخان الأسود البهيم ، وفي المختار :

" وحممه تحميما سخم وجهه بالفحم والحمم الرماد والفحم وكل ما احترق من النار الواحدة حممة واليحموم الدخان " .

(الْحِنْثِ) الذنب ويعبّر بالحنث عن البلوغ ومنه قولهم : لم يبلغوا الحنث ، وإنما قيل ذلك لأن الإنسان عند بلوغه يؤاخذ بالحنث أي الذنب ، وتحنث فلان أي جانب الحنث وفي الحديث : كان صلى اللّه عليه وسلم يتحنث بنار حراء ، أي يتعبد لمجانبته الإثم ، فتفعّل في

هذه كلها للسلب .

(الْهِيمِ) الإبل العطاش التي لا تروى من الماء لداء يصيبها والواحد أهيم والأنثى هيماء ، وأصل هيم هيم بضم الهاء بوزن حمر ، لكن قلبت الضمة كسرة لمناسبة الياء ، وعبارة السمين : " والهيم جمع أهيم وهيماء وهو الجمل والناقة التي أصابها الهيام وهو داء معطش تشرب الإبل منه إلى أن تموت أو تسقم سقما شديدا " .

الإعراب :

(وَأَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ) تقدم إعراب نظيرها قريبا فجدّد به عهدا والكلام مستأنف مسوق للشروع في تفصيل ما أجمله من أحوالهم بعد أن فصّل حال أصحاب اليمين (فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ) خبر ثان أو خبر لمبتدأ مضمر وقد تقدم نظيره (وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ) عطف على ما تقدم (إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ) الجملة تعليلية لا محل لها من الإعراب وإن واسمها وجملة كانوا خبرها وكان واسمها والظرف متعلق بمحذوف حال أو بمترفين ومترفين خبر كانوا (وَكانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ) عطف على ما تقدم وكان واسمها وجملة يصرّون خبرها وعلى الحنث متعلقان بيصرّون والعظيم نعت (وَكانُوا

يَقُولُونَ أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُرابًا وَعِظامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)

عطف أيضا وكان واسمها وجملة يقولون خبرها والهمزة للاستفهام وإذا ظرف للشرط متعلق بشيء دلّ عليه قوله أإنا لمبعوثون ، ألا ترى أن إذا ظرف من الزمان فلا بدّ له من فعل أو معنى فعل يتعلق به ولا يجوز أن يتعلق بقوله متنا لأنه مضاف إليه والمضاف إليه لا يعمل في المضاف وإذا لم يجز حمله على هذا الفعل ولا على ما بعد إن من حيث لم يعمل ما بعد إن فيما قبلها كما لا يعمل ما بعد لا فيما قبلها فكذلك لا يجوز أن يعمل ما بعد الاستفهام فيما قبله علمت أنه يتعلق بشيء دلّ عليه قوله أإنا لمبعوثون وذلك نحشر أو نبعث ونحوهما مما يدلّ عليه هذا الكلام .

(510/745)

و متنا فعل وفاعل وكنّا عطف على متنا وكان واسمها وترابا خبرها وعظاما عطف على ترابا والهمزة للاستفهام وإن واسمها واللام المزحلقة ومبعوثون خبرها (أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ) الهمزة للاستفهام والواو حرف عطف وآباؤنا معطوف على الضمير المستكن في مبعوثون وحسن العطف على الضمير من غير تأكيد نحن لوجود الفاصل الذي هو الهمزة وقيل

المعطوف عليه محل إن واسمها بعد ملاحظة تقدم المعطوف على الخبر والتقدير أإنا أو آباؤنا مبعوثون والأولون نعت لآباؤنا (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ) كلام مستأنف مسوق للردّ على إنكارهم وتحقيقا للحق ، وإن واسمها والآخرين عطف على الأولين واللام المزحلقة ومجموعون خبر إن ، وإن واسمها وخبرها في محل نصب مقول القول وإلى ميقات يوم متعلقان بمجموعون ومعلوم نعت ليوم ، وقد ضمن الجمع معنى السوق فعدّي بإلى وإلا فكان الظاهر تعديته بفي (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي داخل في حيز القول وإن واسمها وأيها منادى نكرة مقصودة والضالون بدل من أيها والمكذبون نعت للضالون (لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ) اللام المزحلقة وآكلون خبر إنكم ومن شجر متعلقان بآكلون ومن زقوم بدل

(511/745)

من قوله من شجر أو عطف بيان أو نعت (فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ) الفاء حرف عطف ومالئون معطوف على آكلون ومنها متعلقان بمالئون والبطون مفعول لاسم الفاعل وأنت ضمير الشجر لأنه اسم جنس واسم الجنس يجوز تذكيره وتأنيثه (فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ) الفاء حرف عطف وشاربون معطوف على آكلون وعليه متعلقان بمحذوف حال

ومن الحميم متعلقان بشاربون (فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ) الفاء حرف عطف وشاربون عطف على ما تقدم وشرب الهيم مفعول مطلق وصحّ عطف الشيء على نفسه لأنهما في الحقيقة مختلفان فالأول شرب للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة وقطع الأمعاء وهو أمر عجيب في حدّ ذاته والثاني شرب للحميم على ذلك كما تشرب الهيم الماء وهو أمر أعجب وأشد غرابة . وفي هذا التشبيه فائدتان : إحداهما التنبيه على شربهم منه والثانية عدم جدوى الشرب وأن المشروب لا ينجع فيه كما ينجع في الهيم (هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ) هذا مبتدأ ونزلهم خبر ويوم الدين الظرف متعلق بمحذوف حال أي كائنا في ذلك اليوم العصيب .

البلاغة :

1- في قوله " لا بارد ولا كريم " فن الاحتراس وقد تقدم تعريفه ، وهنا لمّا قال وظل من يحموم أوهم أن الظل ربما جلب لهم شيئًا من الراحة بعد التعب فنفي عنه صفتي الظل يريد أنه ظل ولكن لا كسائر الظلال التي تنشر البرد والروح وتجلب النفع لمن يأوي إليه ويتفيأ تحته ليمحق ما في مدلول الظل من الاسترواح إليه فقوله لا بارد ولا كريم صفتان للظل لا لقوله من يحموم ، وهنا يرد اعتراض بأن الفاء تفيد الترتيب مع التعقيب ، ونقول نصّ الرضي على أنه غير واجب مع أنه هنا يفضي إلى عدم توازن الفاصلتين وجعلهما نعتين ليحموم لا يلائم

البلاغة القرآنية كما أن فيه فن التعريض وهو أن الذين يستأهلون الظل الذي فيه برد وإكرام غير هؤلاء فيكون أشجى لحلوقهم وأدعى لتحسرهم ، ولهذه النكت جميعها علل استحقاقهم هذه العقوبة بقوله " إنهم كانوا قبل ذلك مترفين " قال الرازي : " والحكمة في ذكره سبب عذابهم ولم يذكر في أصحاب اليمين سبب ثوابهم فلم يقل أنهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين وذلك للتنبيه على أن الثواب منه تعالى فضل والعقاب منه عدل والفضل سواء ذكر سببه أم لم يذكر لا يوهم بالمتفضل نقصا ولا ظلما وأما العدل فإنه إن لم يذكر سبب العقاب يظن أنه ظالم ويدل على ذلك أنه تعالى لم يقل في حق أصحاب اليمين جزاء بما كانوا يعملون كما قال في السابقين لأن أصحاب اليمين نجوا بالفضل العظيم لا بالعمل بخلاف من كثرت حسناته يحسن إطلاق الجزاء بحقه " وهذا كلام جميل جدا فتدبره ولا تنس المقابلة الخفيّة الكامنة فيما بين سطور هذا الكلام العجيب فهؤلاء الذين أمسّوا بهذه المثابة كانوا في الدنيا يعيشون غارقين في الترف ، متقلبين في أعطافه فإذا بهم وقد لفّهم السموم واليحموم يتذكرون ما كانوا فيه ويقابلون بينه وبين حالتهم الراهنة والتجسيد والتخييل حاضران مهيآن أمامهم ، تتقراهما أيديهم بلمس على حدّ قول البحتري .

2- وفي الآية " هذا نزلهم يوم الدين " فن التهكم وقد مرّ أيضا ، فقد سمّى الجحيم وما فيه من صنوف العذاب وضروب الأهوال نزلا تهكما بهم لأن النزل ما يعدّ للنازل تكرمة له كما

في قوله تعالى " فبشّرهم بعذاب أليم " وكقول أبي الشعراء الضبّي :

وكنّا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

أي إذا نزل بنا الجبار مع جيشه نزول الضيف ، وفيه تهكم به

حيث جاء محاربا فشبهه بمن جاء للمعروف طالبا ورشح ذلك التشبيه بجعل الرماح

والسيوف المرهفة المسنونة نزلا له وهو الطعام المعدّ للضيف .

]

سورة الواقعة (56) : الآيات 57 إلى 74]

(513/745)

نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ (57) أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ
الْخالِقُونَ (59) نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ
وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ (61)
وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (62) أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ
نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66)
بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67) أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ

الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (70) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71)

أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ (72) نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ (73) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (74)

اللغة :

(تُمْنُونَ) أمنى يمني ومنى يمني : قذف المني في الرحم وهو

النطفة ، وقرأ ابن السماك تمنون بفتح التاء والأصل من المني وهو التقدير ، قال الشاعر :

لا تأمنّ وإن أمسيت في حرم حتى تلاقي ما يمني لك الماني

ومنه المنية لأنها مقدّرة تأتي على مقدار وفي المختار : " وقد منى من باب رمى وأمنى أيضا " .

(قَدَّرْنا) بالتشديد والتخفيف قال :

ومفرهة عنس قدرت لساقها فخرت كما تتابع الريح بالقفل

والمعنى قدرت ضربي لساقها فضربتها فخرت ، ومثله في المعنى :

وإن تعتذر بالمحلّ من ذي ضروعها على الضيف يجرح في عراقيبها نصلي

)

حُطاماً) الحطام : الهشيم الذي لا ينتفع به في مطعم ولا غذاء وأصل الحطم الكسر ، والحطم السوّاق بعنف يحطم بعضها على بعض ، قال :

قد لفّها الليل بسواق حطم ليس براعي إبل ولا غنم

ولا بجزار على ظهر وضم (تَفَكَّهُونَ) التفكّه أصله تناول ضروب الفواكه للأكل والفكاهة المزاح ومنه حديث زيد : كان من أفكه الناس مع أهله ، ورجل فكه طيب النفس ، وقد استعير هنا للتنقل في الحديث ، وقيل معناه تندمون ، وحقيقته تلقون الفكاهة عن أنفسكم ولا تلقى الفكاهة إلا من الحزن فهو من باب تحرّج وتأثم ، وقيل تفكهون : تعجبون وقيل تتلاومون وقيل تتفجعون وكله من باب التفسير باللازم .

(لَمُغْرَمُونَ) جمع مغرم ، والمغرم هو الذي ذهب ماله بغير عوض وأصل الباب اللزوم والغرام العذاب اللازم قال الأعشى :

إن يعاقب يكن غراما وإن يع ط جزيلا فإنه لا يبالي

(تُورُونَ) الإيراء إظهار النار بالقدح يقال أورى يوري ووريت بك زنادي أي أضاء بك أمري ويقال : قدح فأورى إذا ظهرت النار فإذا لم يور يقال قدح فأكبى ، وفي المصباح : " ورى الزند يري وريا من باب وعى وفي لغة وري يري بكسرهما وأورى بالألف وذلك إذا أخرج ناره " وفي المختار : " وأوراه غيره أخرج ناره " وفي معاجم اللغة : تستخرجون النار من

الزناد وهو جمع زند والزند العود الذي يقدح به النار وهو الأعلى والزندة السفلى فيها ثقب وهي الأنثى فإذا اجتمعتا قيل زندان والجمع زناد والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر .

(الْمُزْنِ) السحاب جمع مزنة وفي القاموس : " المزن بالضم السحاب أو أبيضه أو ذو الماء ، القطعة مزنة " .

(أُجاجاً) في المختار : " ماء أجاج مرّ شديد الملوحة ، وقد أجّ الماء يؤج أجوجا بالضم " .

)

(515/745)

لِلْمُقْوِينَ) للمسافرين أي جعلناها ينتفع بها المسافرون وخصّوا بالذكر لأن منفعتهم بها أكثر من المقيمين ، وقال قطرب : " المقوي من الأضداد يقال للفقير مقو لخلوّه من المال ويقال للغني مقو لقوته على ما يريده " وقيل المقوي النازل بالقواء من الأرض ليس بها أحد وأقوت الدار خلت من أهلها ، قال النابغة :

أقوى وأقفر من نعم وغيّرها هوج الرياح بها بي الترب موار

وقال عنترة :

حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

الإعراب :

)

(516/745)

نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ) نحن مبتدأ وجملة خلقناكم خبر والفاء حرف عطف ولولا حرف تحضيض وتصدقون فعل مضارع مرفوع والواو فاعله (أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء عاطفة ورأيتم فعل ماض وفاعله ومعناه أخبروني وما اسم موصول بمعنى الذي مفعول رأيتم الأول وجملة تمنون صلة (أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ) الجملة الاستفهامية في موضع المفعول الثاني لرأيتم وأنتم مبتدأ وجملة تخلقونه خبر ويجوز إعراب أنتم فاعلا لفعل مقدّر أي أتخلقونه أنتم فلما حذف الفعل لدلالة ما بعده عليه انفصل الضمير وهو من باب الاشتغال ولعله من جهة القواعد أمكن لأجل أداة الاستفهام وأم حرف عطف وهي منقطعة لأن بعدها جملة والمنقطعة تقدّر ببل وهمزة الاستفهام فيكون الكلام مشتملا على استفهامين الأول أأنتم تخلقونه وجوابه لا والثاني مأخوذ من أم أي بل نحن الخالقون وجوابه نعم ، ويجوز أن تكون أم متصلة فهي معادلة ويؤيد هذا الوجه أن

الكلام يئول إلى أي الأمرين واقع والجملة بعدها في تأويل المفرد ، ونحن مبتدأ والخالقون خبر (نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) نحن مبتدأ وجملة قدرنا خبر وقدرنا فعل وفاعل والظرف متعلق بقدرنا والموت مفعول به أي أوجبناه وكتبناه عليكم والواو عاطفة أو اعتراضية وما نافية حجازية ونحن اسمها والباء حرف جر زائد ومسبوقين مجرور لفظا منصوب محلا لأنه خبر ما (عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ)

على حرف جر وأن نبدل في تأويل مصدر مجرور بعلى والجار والمجرور متعلقان بمسبوقين أي ولم يسبقنا أحد على تبديلنا أمثالكم ويجوز تعليقهما بقدّرنا بينكم أي قدّرنا بينكم الموت على أن نبدل أي يموت أناس ويخلفهم أناس آخرون فتكون جملة وما نحن بمسبوقين اعتراضية ،

(517/745)

و ننشئكم عطف على نبدل وفيما متعلقان بننشئكم وجملة لا تعلمون صلة أي ننشئكم في صور لا تعلمونها من الحيوانات الممتهنة المرتطمة بالأقذار كالقردة والخنازير (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ) الواو استئنافية واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وعلمتم فعل وفاعل والنشأة مفعول به والأولى نعت ، فلولا : الفاء عاطفة ولولا

حرف تحضيض وتذكرون فعل مضارع وفاعل (أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) تقدم إعراب نظيرها فجدد به عهدا (لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ) لو شرطية ونشاء فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره نحن واللام واقعة في جواب لو وجعلناه فعل وفاعل ومفعول به وحطاما مفعول جعل الثاني والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم وظلتم فعل ماض ناقص وأصله ظللتم بكسر اللام حذفت العين تخفيفا والتاء اسمها وجملة تفكهون خبرها وتفكهون فعل مضارع حذفت منه إحدى تاءيه (إِنَّا لَمُغْرَمُونَ) إن واسمها واللام المزحلقة ومغرمون خبرها وجملة إن واسمها وخبرها مقول قول محذوف في محل نصب على الحال تقديره فظللتم تفكهون قائلين أو تقولون إنّا لمغرمون أي لملزمون غرامة ما أنفقنا أو مهلكون لهلاك رزقنا (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) بل حرف إضراب وعطف ونحن مبتدأ ومحرومون خبر والجملة معطوفة على سابقتها (أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ، أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ) تقدم إعراب نظيرها والذي صفة للماء وجملة تشربون صلة والعائد محذوف (لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْ لا تَشْكُرُونَ) تقدم إعرابها ، وسيأتي سر حذف اللام في هذه الآية وذكرها في الآية الأولى في باب البلاغة (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَ

أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ) تقدم إعراب نظيرها (نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ) نحن مبتدأ وجملة جعلناها خبر وتذكرة مفعول به ثان ومتاعا عطف على تذكرة وللمقوين متعلقان بمتاعا أو

صفة له (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) الفاء الفصيحة أي إن عرفت هذه العوارف والآلاء الباهرة فسبّح ، وسبّح فعل أمر وفاعله أنت وباسم متعلق بسبّح أو بمحذوف حال أي متبركا وقيل اسم مقحم والعظيم صفة لربك .

البلاغة :

1- في الآيات الآنفة الذكر فن صحة الأقسام وقد سبق ذكره في هذا الكتاب وأنه عبارة عن استيفاء المتكلم جميع الأقسام للمعنى المذكور الآخذ فيه بحيث لا يغادر منه شيئا ، فقد عدل عن لفظ الحرمان والمنع إلى لفظ هو ردفه وتابعه وهو لفظ الجعل إذ قال " أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما " وكذلك جاء لفظ الاعتداد بالماء حيث قال " لو نشاء جعلناه أجاجا " بلفظ الجعل عند ذكر الحرمان وما هو في معناه وجاء العطاء بلفظ الزرع في الحرث وفي الماء بلفظ الإنزال ، فإن قيل : لم أكد الفعل باللام في قوله في الزرع : " لو نشاء لجعلناه حطاما " ولم يؤكده في الماء حيث قال : (لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً) ؟ قلت : لأن الزرع ونباته وجفافه بعد النضارة حتى يعود حطاما فما

يحتمل أن يتوهم أنه من فعل الزراع ولهذا قال سبحانه :

"

(519/745)

أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون " أو يتوهم أن خصبه من سقي الماء وأن جفافه من حرارة الشمس وعدم السقي أو تواتر مرور الإعصار فأخبر سبحانه أنه الفاعل لذلك كله على الحقيقة وأنه قادر على جعله لو شاء حطاما في حالة نموّه وزمن شبيبته ونضارته فلما كان هذا التوهم محتملا أوجبت البلاغة توكيد فعل الجعل فيه وإسناده لزارعه على الحقيقة ومنشئه لرفع هذا التوهم ، ولما كان إنزال الماء من السماء محالا بما لا يتطرق احتمال توهم متوهم أن أحدا من جميع الخلق قادر عليه لم

يحتج إلى توكيد الفعل في جعله أجاجا فإنه لا يمكن أن يتوهم أحد أن أحدا ينزل الماء من السماء أجاجا ولا عذبا الذي هو أسهل من الأول وأهون .

وعبارة الزمخشري في هذا الصدد هذا نصها : " فإن قلت لم أدخلت اللام على جواب لو في قوله لجعلناه حطاما ونزعت منه ها هنا ؟

قلت : إن لو لما كانت داخلة على جملتين معلقة ثانيتهما بالأولى تعلق الجزاء بالشرط ولم

تكن مخلصة للشرط كإن ولا عاملة مثلها وإنما سرى فيها معنى الشرط اتفاقا من حيث إفادتها في مضموني جملتيهما أن الثاني امتنع لامتناع الأول افتقرت في جوابها إلى ما ينصب علما على هذا التعلق فزيدت هذه اللام لتكون علما على ذلك ، فإذا حذفت بعد ما صارت علما مشهورا مكانه فلأن الشيء إذا علم وشهر موقعه وصار مألوفا ومأنوسا به لم يبال بإسقاطه عن اللفظ استغناء بمعرفة السامع ، ألا ترى إلى ما يحكى عن رؤبة أنه كان يقول خير لمن قال له : كيف أصبحت ؟ فحذف الجار لعلم كل أحد بمكانه وتساوي حالي حذفه وإثباته لشهرة أمره وناهيك بقول أوس :

حتى إذا الكلّاب قال لها كاليوم مطلوبا ولا طلبا "

(520/745)

أقول وفي بيت أوس بن حجر أو للنمر بن تولب حذف لا يستقيم إلا به أي قال لها لم أنظر كاليوم مطلوبا والضمير لكلبة الصيد والكلّاب معلّم الكلاب أو الصياد أي ليس المطلوب والطلب في هذا اليوم مثلها في غيره بل أعظم ، ثم يتابع الزمخشري : " ويجوز أن يقال إن هذه اللام مفيدة معنى التوكيد لا محالة فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب للدلالة على أن أمر المطعوم مقدّم على أمر المشروب وأن الوعيد بفقده أشدّ وأصعب من قبل أن المشروب

إنما يحتاج إليه تبعا للمطعوم ، ألا ترى أنك إنما تسقي ضيفك بعد أن تطعمه ولو عكست قعدت تحت قول أبي العلاء :

إذا سقيت ضيوف الناس محضا سقوا أضيافهم شبما زلالا

وسقي بعض العرب فقال أنا لا أشرب إلا على ثميلة ، ولهذا قدّمت آية المطعوم على آية المشروب " والثميلة : اللبن الخالص .

ونعود إلى بيت أبي العلاء فنقول هو من قصيدة يمدح بها سعد الدولة أبا الفضائل ، وعيب عليه حيث مدح بسقي الضيوف الماء قبل ذكر الطعام والمخض اللبن المنزوع زبده فهو بمعنى الممخوض ويروي محضا بالحاء المهملة أي خالصا حلوا أو حامضا والشبم البارد والزلال العذب .

هذا وحيث جعل علماء البلاغة للمقام مدخلا في الدلالة على المراد نقول إن معنى البيت إذا عجّلت الناس اللبن لأضيافهم واكتفوا به عن الإسراع بالطعام عجّلوا هم بالطعام لاستعدادهم للضيفان فيحتاجون لشرب الماء فيسقونهم ماء قبل إطعام غيرهم الضيفان فسقيهم الماء يفيد تعجيل الطعام قبله بمعونة المقام لأنه يلزمه عادة فلا عيب فيه .

(521/745)

2- وفي هذه الآيات أيضا فن التسهيم وهو أن يكون ما تقدم من الكلام دليلا على ما يتأخر منه أو بالعكس ، فقوله " أفرأيتم ما تحرثون " إلى قوله " أفرأيتم النار التي تورون " تقتضي أوائل هذه الآيات أن أواخرها اقتضاء لفظيا ومعنويا كما ائتلفت الألفاظ فيها بمعانيها المجاورة الملائم بالملائم والمناسب بالمناسب لأن ذكر الحرث يلائم ذكر الزرع والاعتداد بكونه سبحانه لم يجعله حطاما ملائم لحصول التفكّه به وعلى هذه الآية يقاس نظم أختها .

[سورة الواقعة (56) : الآيات 75 إلى 87]

فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ (78) لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79)

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (80) أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (81) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (82) فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84)

وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (87)

اللغة :

(بِمَواقِعِ النُّجُومِ) بمساقطها ومغاربها وقيل بمنازلها وقيل بانكدارها وانتثارها وسيأتي مزيد تفسير لها في باب الإعراب .

(مُدْهِنُونَ) قال الراغب : " والإدهان في الأصل مثل التدهين لكن جعل عبارة عن المداراة

والملاينة وترك الجدّ " وقال المؤرج : المدهن المنافق أو الكافر الذي يلين جانبه ليخفي كفره ، والإدهان والمداهنة التكذيب والنفاق وأصله اللين وأن يضمر خلاف ما يظهر .

الإعراب :

(فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ) الفاء استئنافية ولا زائدة والمعنى فاقسم ولا تزاد في القسم فيقال لا واللّه ولا أفعل قال امرؤ القيس :

(522/745)

لا وأبيك ابنة العامري لا يدعي القوم أني أفر

والمعنى وأبيك وإنما زيدت للتأكيد وتقوية الكلام . وقيل نافية .

والمنفي محذوف وهو كلام الكافر والجاحد تقديره فلا صحة لما يقول الكافر ثم ابتدأ فقال أقسم ، وقيل هي لام الابتداء دخلت على جملة من مبتدأ وخبر وهي أنا أقسم كقولك لزيد منطلق ثم حذف المبتدأ فاتصلت اللام بخبره تقديره فلأقسم باللام فقط ، وقال أبو حيان : والأولى عندي أنها لام أشبعت فتحتها فتولدت منها ألف كقوله " أعوذ باللّه من العقارب " وسيرد مزيد من هذا البحث في كتابنا ، وأقسم فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره أنا وبمواقع النجوم متعلقان بأقسم (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) الواو اعتراضية وإن واسمها

واللام المزحلقة وقسم خبرها ولو شرطية وتعلمون فعل مضارع مرفوع وعظيم صفة قسم وجملة لو تعلمون معترضة بين الموصوف وصفته وجملة إنه لقسم لو تعلمون عظيم لا محل لها لأنها معترضة بين القسم وجوابه فهما اعتراضان متعاقبان وجواب لو محذوف والتقدير لو كنتم من ذوي العلم لعلمتم (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) الجملة جواب القسم لا محل لها وإن واسمها واللام المزحلقة وقرآن خبر إنه وكريم صفة أولى لقرآن (فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) في كتاب صفة ثانية لقرآن ومكنون صفة لكتاب (لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) لا نافية ويمسّه فعل مضارع ومفعوله وإلا أداة حصر والمطهرون فاعل يمسّه والجملة صفة ثالثة لقرآن ، وقيل لا ناهية ويمسّه فعل مضارع مجزوم بلا ولكنه لما أدغم حرّك آخره لأجل الإدغام وكانت الحركة ضمة اتباعا الهاء ولا داعي لهذا التكلف فالأولى ما ذكرناه وهو الأشبه بتناسق الصفات ويؤيد ما ذهبنا إليه قراءة عبد اللّه بن مسعود ما يمسّه بما النافية وفي مسّه كناية عن لازمه وهي نفي الاطّلاع عليه وعلى ما فيه (تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ

الْعالَمِينَ) صفة رابعة ومن رب العالمين نعت لتنزيل (أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي ، والفاء عاطفة وبهذا متعلقان بمدهنون والحديث بدل من

اسم الإشارة وأنتم مبتدأ ومدهنون خبر (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ) الواو حرف عطف

(524/745)

و تجعلون رزقكم فعل مضارع والواو فاعل ورزقكم مفعول تجعلون الأول وأن واسمها وجملة تكذبون خبرها وأن وما في حيزها في موضع المفعول الثاني ولا بدّ من تقدير مضاف أي شكر رزقكم (فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ) الفاء استئنافية ولولا حرف تحضيض بمعنى هلّا ولا يقع بعدها الفعل فيكون التقدير فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم فالعامل في إذا هو الفعل الواقع بعد لولا وهو ترجعونها ، وبلغت فعل ماض وفاعله مستتر تقديره النفس أي إذا بلغت النفس الحلقوم عند الموت (وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ) الواو حالية وأنتم مبتدأ وحين ظرف أضيف إلى مثله وهو إذ والتنوين فيه عوض عن الجملة المضافة إليها أي إذا بلغت النفس الحلقوم وجملة تنظرون خبر أنتم وجملة وأنتم حينئذ تنظرون حال من فاعل بلغت (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ) الواو حالية ونحن مبتدأ وأقرب خبر وإليه ومنكم متعلقان بأقرب والواو عاطفة ولكن مخفّفة مهملة للاستدراك ولا نافية وتبصرون فعل مضارع مرفوع من البصيرة أي العلم (فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ

صادِقِينَ) الفاء عاطفة ولو لا حرف تحضيض مؤكد للولا الأولى وإن شرطية وكنتم كان واسمها وغير مدينين خبر أي غير مجزيين بأن تبعثوا أي غير مبعوثين وترجعونها هو العامل في إذا فقدم الظرف على عامله المتعلق به الشرطان وهما إن كنتم غير مدينين وإن كنتم غير صادقين ومعنى تعلقهما به أنه جزاء لهما أي لكلّ منهم ففي الكلام قلب والمعنى هلّا ترجعونها إن نفيتم البعث صادقين في نفيه . وملخص الكلام : إن صدقتم في نفي البعث فردّوا روح المحتضر إلى جسده لينتفي عنه الموت فينتفي البعث .

البلاغة :

الاستعارة المكنية في قوله " فإذا بلغت الحلقوم " كأنما الروح شيء مجسم يبلغ الحلقوم في حركة محسوسة .

]

سورة الواقعة (56) : الآيات 88 إلى 96]

فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (89) وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (91) وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ

(92)

فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94) إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)

اللغة :

(فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ) الروح بالفتح الراحة والرحمة ونسيم الريح والريحان الرحمة والرزق كما في المختار وفي القاموس : " والريحان نبت طيب الرائحة أو كل نبت كذلك أو أطرافه أو ورقه والولد والرزق " .

(تَصْلِيَةُ) احتراق .

الإعراب :

(فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ) كلام مستأنف مسوق للشروع في بيان حال المتوفى بعد الممات إثر بيان حاله عند الوفاة ، وأما حرف شرط

وتفصيل وإن شرطية وكان فعل ماض ناقص واسمها مستتر أي المتوفّى ومن المقربين خبر كان .

(فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ) الفاء رابطة لجواب أما وجواب إن محذوف لدلالة المذكور عليه ، وحذف جواب إن شائع كثيرا ، وروح مبتدأ خبره محذوف مقدّم عليه أي فله روح وما بعده عطف عليه (وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ) عطف على ما تقدم مساو له في إعرابه ، وسلام مبتدأ لما فيه من معنى الدعاء ولك خبر سلام ومن أصحاب اليمين نعت أو حال (وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ) عطف على جملة فأما إن كان ، والإعراب هو نفسه فجدّد به عهدا (فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ) الفاء رابطة لجواب أما ونزل مبتدأ حذف خبره المقدم ومن حميم نعت لنزل وتصلية جحيم عطف على نزل (إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ) إن واسمها واللام المزحلقة وهو ضمير فصل أو مبتدأ وحق اليقين خبر إن أو خبر هو والجملة الاسمية خبر إن وإضافة حق إلى اليقين من إضافة الموصوف إلى صفته (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) تقدم إعرابه ونعيده لإضافة بعض الفوائد عليه ، فسبّح فعل أمر بمعنى نزّه ولفظ اسم زائد أي نزّه ربك العظيم ويجوز أن تكون الباء للحال أي فسبّح ملتبسا باسم ربك أو متبركا ويجوز أن تكون الباء للتعدية بناء على أن سبّح يتعدى تارة بنفسه وتارة أخرى بحرف الجر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 9 صـ 422. 450﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والأربعون بعد السبعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السادس والأربعون بعد السبعمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الحديد)

(4/746)

(سورة الحديد)

(5/746)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

(سورة الحديد)

مقصودها بيان أن عموم الرسالة لعموم الإلهية بالبعث إلى الأزواج الثلاثة المذكورة في السورتين الماضيتين من الثقلين تحقيقا لأنه سبحانه مختص بجميع صفات الكمال تحقيقا لتنزهه عن طكل شائبة نقص المبدوء به هذه السورة المختوم به ما قبلها الراد لقولهم) أئنا

لمبعوثون أو آباؤنا الأولون) [الواقعة : 47 - 48] المقتضي لجهاد من يحتاج إلى الجهاد ممن عصى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالسيف وما ترتب عليه من النفقة ردا لهم عن النقائص الجسمانية وإعلاء إلى الكلمات الروحانية التي دعا إليها الكتاب حذرا من سواء الحساب يوم التجلي للفصل بين العباد بالعدل ليدخل أهل الكتاب وغيرهم في الدين طوعا أو كرها ، ويعلم أهل الكتاب الذين كانوا يقولون : ليس أحد أفضل منه ، فضيلة هذا الرسول (صلى الله عليه وسلم) على جمكيع من تقدمه من الرسل عليهم الصلاة والسلام بعموم رسالته وشمول خلافته ، وانتشار دعوته وكثرة أمته تحقيقا لأنه لا حد لفائض رحمته سبحانه لتكون هذه السورة التي هي آخر النصف الأول والتي بعدها التي هي أول النصف الثاني من حيث العدد غاية للمقصود من السورة التي هي أوله عند الالتفات والرد كما كانت السورة التي غاية النصف الأول يفي المقدار وهي الإسراء ، وكذا السورة التي هي أول النصف الثاني وهي الكهف كاشفتين لمقصد الأولى فيما دعت إليه من الهداية وشدت إليه من الإنذار ، على ذلك دل اسمها الحديد يتأمل آياته وتدبر سر ما ذكر فيه وغاياته ، أسند صاحب الفردوزس عن جابر رضي الله عنه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " لا تحتجموا يوم الثلاثاء فإن سورة الحديد أنزلت يوم الثلاثاء " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 7 صـ 432 ﴾

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . سبح . . . الحديد)

السّورة مدنية ، وقيل : مكّيّة .

وآياتها تسع وعشرون فى عدّ الكوفة والبصرة ، وثمان فى عدّ الباقين .

وكلماتها خمسمائة وأَربع وأَربعون .

وحروفها أَلفان وأَربعمائة وستّ وسبعون .

المختلف فيها آيتان : ﴿ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ و ﴿ الإِنجِيلَ ﴾ مجموع فواصل آياتها (من بزَّ ردّ) على الزاءِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ وعلى الدّال ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ سمّيت سورة الحديد لقوله تعالى فيها : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ .

معظم مقصود السّورة : الإِشارة [إلى] تسبيح جملة المخلوقين والمخلوقات فى الأَرض والسّموات ، وتنزيهُ الحقّ تعالى فى الذَّات والصفات ، وأَمر المؤمنين بإِنفاق النفقات والصّدقات ، وذكر حيرة المنافقين فى صحراءِ العَرَصَات وبيان خِسّة الدّنيا وعزّ الجَنَّات ، وتسلية الخَلْق عند هجوم النكبات والمصيبات ، فى قوله : ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴾ بهذه الآيات .

والسّورة محكمة : ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ وكذلك فى الحَشْر ، والصَّفِّ ، ثمّ ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ فى الجمعة والتَّغابن .

هذه كلمة استأْثرت الله بها ، فبدأَ بالمصدر فى بنِ إسرائيل ؛ لأَنه الأَصل ، ثمّ بالماضى ؛ لأَنَّه أَسبق الزَّمانين ، ثمَّ بالمستقبل ، ثم بالأَمر فى سورة الأَعلى ؛ استيعاباً لهذه الكلمة مِن جميع جهاتها .

وهى أَربع : المصدر ، والماضى ، والمستقبل ، والأَمر للمخاطب .

قوله : ﴿ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وفى السّور الخمس ﴿ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ إِعادة (ما) هو الأَصل .

وخُصّت هذه السّورة بالحذف ؛ موافقة لما بعدها .

وهو ﴿ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وبعدها ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ، لأَنَّ التَّقدير فى هذه السّورة : سبَح لله خَلْق السموات والأَرض .

(7/746)

ولذلك قال فى آخر الحشر بعد قوله : ﴿ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى خَلْقُها .

قوله : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وبعده ﴿ لَهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ليس بتكرار ؛ لأَنَّ الأُولى فى الدّنيا ؛ لقوله : ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ والثَّانية فى العقبى ؛ لقوله : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ .

قوله : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ بزيادة ﴿ هُوَ ﴾ لأَن ﴿ بُشْرَاكُمُ ﴾ مبتدأ ﴿ جَنَّاتٌ ﴾ خبره ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ صفة لها ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حال ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما قبله .

و ﴿ هُوَ ﴾ تنبيه على عظم شأْن المذكور ﴿ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ خبره .

قوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ابتداء كلام ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ عَطْف عليه .

﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ﴾ سبق .

قوله : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ ، وفى التَّغابن ﴿ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فصّل فى هذه السّورة ، وأَجمل هناك ؛ موافقة لما قبلها فى هذه السّورة ، فإِنَّه فصّل أَحوال الدّنيا والآخرة فيها ، بقوله : ﴿ اعْلَمُواْ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ الآية .

فضل السّورة

فيه الحديث الضعيف عن أُبىّ : مَن قرأَ سورة الحديد كُتِب من الذين آمنوا بالله ورسوله ،

وحديث عليّ : يا عليّ من قرأَها شرّكه الله فى ثواب المجاهدين ، ولا يغلُّه بأَغلال النَّار ، وله بكل آية قرأَها مثلُ ثوابِ القائم بما أَمر الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 453.455 ﴾

(8/746)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الحديد

427 - مسألة :

قوله تعالى هنا : (سَبَّحَ لِلَّهِ) وفى الحشر والصف كذلك بصيغة الماضي وفى الجمعة والتغابن : (يُسَبِّحُ) بصيغة المضارع ؟ .

جوابه :

لما أخبر أولا بأنه سبح له ما في السموات وما في الأرض أخبر أن ذلك التسبيح دائم لا ينقطع ، وبأنه باق ببقائه ، دائم بدوام صفاته الموجبات لتسبيحه .

428 - مسألة :

قوله تعالى هنا : (مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

وفى بواقيها : (وَمَا فِي الْأَرْضِ) بزيادة (مَا) .

جوابه :

لعل ذلك لتشاكل ما بعده من الآيات الثلاث وهو قوله تعالى (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ)

429 ـ مسألة :

قوله تعالى (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) ثانيا . ما فائدة ذلك ؟ .

جوابه :

أن الأول : للدلالة له على قدرته بخلقها على البعث ، ولذلك قال تعالى : (يُحْيِي وَيُمِيتُ) ، وختمه بقوله تعالى : (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

والثاني : للدلالة على أن مصير الأمور كلها إليه ، وأنه المجازى عليها على ما أحاط علمه من أحوال السموات والأرض ، وأعمال الخلق ، ولذلك قال بعد ذلك : (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

وختمه بقوله تعالى : (وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) .

430 ـ مسألة :

قوله تعالى : (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ)

تقدم في الأعراف .

31 ، - مسألة :

قوله تعالى : (ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا) وفى الزمر : (ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا) بإضافته إليه تعالى ؟ .

جوابه :

(9/746)

لما افتتح في الزمر نسبة إنزال الماء وسلوكه ينابيع في الأرض وإخراج ما ينبت به إليه ، ناسب ذلك نسبة جعله حطاما إليه . وههنا لم ينسبه إليه ، بل قال تعالى : (كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ) فنسب الأفعال كلها إلى الزرع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 350.352 ﴾

(10/746)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الحديد

هذه السورة تسمى من عهد الصحابة (سورة الحديد) ، فقد وقع في حديث إسلام عمر بن الخطاب عند الطبراني والبزار أن عمر دخل على أخته قبل أن يسلم فإذا صحيفة فيها أولُ سورة الحديد فقرأه حتى بلغ) آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فأسلم ، وكذلك سُميت في المصاحف وفي كتب السنة ، لوقوع لفظ الحديد فيها في قوله تعالى : وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ((الحديد : 25) .

وهذا اللفظ وإن ذُكر في سورة الكهف في قوله تعالى : (آتوني زبر الحديد وهي سابقة في النزول على سورة الحديد على المختار ، فلم تسم به لأنها سميت باسم الكهف للاعتناء بقصة أهل الكهف ، ولأن الحديد الذي ذكر هنا مراد به حديد السلاح من سيوف ودروع وخُوذ ، تنويهاً به إذ هو أثر من آثار حكمة الله في خلق مادته وإلهام الناس صنعه لتحصل به منافع لتأييد الدين ودفاع المعتدين كما قال تعالى : فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ((الحديد : 25) .

وفي كون هذه السورة مدنية أو مكية اختلاف قوي لم يختلَف مثلَه في غيرها ، فقال الجمهور : مدنية . وحَكى ابن عطية عن النقاش : أن ذلك إجماع المفسرين ، وقد قيل : إن

صدرها مكي لما رواه مسلم في (صحيحه) والنسائي وابنُ ماجه عن عبد الله بن مسعود أنه قال : (ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية) ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله إلى قوله : وكثير منهم فاسقون ((الحديد : 16) إلا أربع سنين . عبد الله بن مسعود من أول الناس إسلاماً ، فتكون هذه الآية مكية .

وهذا يعارضه ما رواه ابن مردويه عن أنس وابنِ عباس : أن نزول هذه الآية بعد ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة من ابتداء نزول القرآن ، فيصار إلى

(11/746)

الجمع بين الروايتين أو الترجيح ، ورواية مسلم وغيره عن ابن مسعود أصح سنداً ، وكلامُ ابن مسعود يرجّح على ما رُوي عن أنس وابن عباس لأنه أقدم إسلاماً وأعلم بنزول القرآن ، وقد علمت آنفاً أن صدر هذه السورة كان مقروءاً قبل إسلام عمر بن الخطاب . قال ابن عطية (يشبه صدرها أن يكون مكياً والله أعلم ، ولا خلاف أن فيها قرآناً مدنياً) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 27 صـ 353.354 ﴾

(12/746)

وقال الشيخ سيد قطب :

تقديم لسورة الحديد

هذه السورة بجملتها دعوة للجماعة الإسلامية كي تحقق في ذاتها حقيقة إيمانها . هذه الحقيقة التي تخلص بها النفوس لدعوة الله ; فلا تضن عليها بشيء , ولا تحتجز دونها شيئا . . لا الأرواح ولا الأموال ; ولا خلجات القلوب ولا ذوات الصدور . . وهي الحقيقة التي تستحيل بها النفوس ربانية بينما تعيش على الأرض . موازينها هي موازين الله , والقيم التي تعتز بها وتسابق إليها هي القيم التي تثقل في هذه الموازين . كما أنها هي الحقيقة التي تشعر القلوب بحقيقة الله , فتخشع لذكره , وترجف وتفر من كل عائق وكل جاذب يعوقها عن الفرار إليه .

وعلى أساس هذه الحقيقة الكبيرة تدعو السورة الجماعة الإسلامية إلى البذل في سبيل الله . بذل النفس وبذل المال: (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير , وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين . هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور , وإن الله بكم لرؤوف رحيم . وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله , ولله

ميراث السماوات والأرض . لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا . وكلا وعد الله الحسنى . والله بما تعملون خبير) .

(13/746)

وعلى أساس هذه الحقيقة الكبيرة كذلك تدعو الجماعة الإسلامية إلى الخشوع لذكر الله وللحق الذي أنزله الله ليجيء البذل ثمرة لهذا الخشوع المنبعث من الحقيقة الإيمانية الأولى: (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق , ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل , فطال عليهم الأمد , فقست قلوبهم , وكثير منهم فاسقون) . . وكذلك تضع قيم الدنيا وقيم الآخرة في ميزان الحق ; وتدعو الجماعة الإسلامية لاختيار الكفة الراجحة , والسباق إلى القيمة الباقية: (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد , كمثل غيث أعجب الكفار نباته , ثم يهيج فتراه مصفرا , ثم يكون حطاما . وفي الآخرة عذاب شديد , ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور: سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) . .

وظاهر من سياق السورة - إلى جانب عمومية الدعوة الدائمة إلى تلك الحقيقة - أنها كانت تعالج كذلك حالة واقعة في الجماعة الإسلامية عند نزول هذه السورة في المجتمع المدني في فترة تمتد من العام الرابع الهجري إلى ما بعد فتح مكة .

فإلى جانب السابقين من المهاجرين والأنصار , الذين ضربوا أروع مثال عرفته البشرية , في تحقيق حقيقة الإيمان في نفوسهم , وفي البذل والتضحية بأرواحهم وأموالهم , في خلوص نادر , وتجرد كامل , وانطلاقمن أوهاق الأرض وجوانب الغريزة ومعوقات الطريق إلى الله .

. .

إلى جانب هذه الفئة الممتازة الفذة , كانت هناك - في الجماعة الإسلامية - فئة أخرى ليست في هذا المستوى الإيماني الخالص الرفيع - وبخاصة بعد الفتح عندما ظهر الإسلام , ودخل فيه الناس أفواجا , وكان من بينهم من لم يدركوا بعد حقيقة الإيمان الكبيرة , ولم يعيشوا بها ولها كما عاشت تلك الفئة السابقة الخالصة المخلصة لله .

(14/746)

هؤلاء المسلمون من الفئة الأخرى كان يصعب عليهم البذل في سبيل الله ; وتشق عليهم تكاليف العقيدة في النفس والمال ; وتزدهيهم قيم الحياة الدنيا وزينتها ; فلا يستطيعون

الخلاص من دعائها وإغرائها .

وهؤلاء - بصفة خاصة - هم الذين تهتف بهم هذه السورة تلك الهتافات الموحية التي أسلفنا نماذج منها , لتخلص أرواحهم من تلك الأوهاق والجواذب , وترفعها إلى مستوى الحقيقة الإيمانية الكبرى , التي تصغر معها كل قيم الأرض , وتذوب في حرارتها كل عوائقها !

كذلك كانت هنالك طائفة أخرى - غير هؤلاء وأولئك - هي طائفة المنافقين , مختلطة غير متميزة . وبخاصة حين ظهرت غلبة الإسلام , واضطر المنافقون إلى التخفي والإنزواء ; مع بقاء قلوبهم مشوبة غير خالصة ولا مخلصة يتربصون الفرص وتجرفهم الفتن . وهؤلاء تصور السورة مصيرهم يوم يميزون ويعزلون عن المؤمنين: (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا: انظرونا نقتبس من نوركم . قيل: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب , ينادونهم: ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ! ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني , حتى جاء أمر الله , وغركم بالله الغرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا , مأواكم النار هي مولاكم . وبئس المصير) . .

وهذا إلى جانب من بقي في الجزيرة من أهل الكتاب من اليهود والنصارى . والسورة تشير إلى شيء من أحوالهم ومواقفهم السابقة والحاضرة في ذلك الأوان ; كالإشارة السابقة إلى قسوة قلوبهم عند تحذير الذين آمنوا أن يكونوا (كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم) . . وهي إشارة إلى اليهود خاصة في الغالب . . وكالإشارة إلى النصارى قرب نهاية السورة في قوله: (ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل , وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله . فما رعوها حق رعايتها . فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم , وكثير منهم فاسقون) . .

ولما كان مدار السورة على تحقيق حقيقة الإيمان في القلب ; وما ينبثق عن هذه الحقيقة من خشوع وتقوى , ومن خلوص وتجرد , ومن بذل وتضحية , فقد سارت في إقرار هذه الحقيقة في النفوس التي كانت تواجهها - والتي توجد في كل مجتمع إسلامي - على نسق مؤثر , أشبه ما يكون بنسق السور المكية , حافل بالمؤثرات ذات الإيقاع الآسر للقلب والحس والمشاعر !

وكان مطلعها خاصة مجموعة إيقاعات بالغة التأثير ; تواجه القلب البشري بمجموعة من صفات الله سبحانه . فيها تعريف به مع الإيحاء الآسر بالخلوص له , نتيجة للشعور بحقيقة الألوهية المتفردة , وسيطرتها المطلقة على الوجود , ورجعة كل شيء إليها في نهاية المطاف , مع نفاذ علمها إلى خبايا القلوب وذوات الصدور , واتجاه كل شيء إليها بالعبادة والتسبيح: (سبح لله ما في السماوات والأرض . وهو العزيز الحكيم . له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام , ثم استوى على العرش , يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها , وما ينزل من السماء وما يعرج فيها , وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير . له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل , وهو عليم بذات الصدور) . .

وهذا المطلع بذاته وبإيقاعاته كاف وحده ليهز القلوب هزا . ويوقع فيها الرهبة والخشية والارتعاش , كما يوقع فيها الرغبة الحية في الخلوص لله والالتجاء إليه , والتجرد من العوائق والأثقال المعوقة عن تلبية الهتاف إلى الخلاص من الشح بالأنفس والأموال . ولكن سياق السورة تضمن كثيرا من المؤثرات تتخلل ذلك الهتاف وتؤكده في مواضع شتى . كتلك

الصورة الوضيئة للمؤمنين والمؤمنات (يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) . . وتلك الصورة التي تقرر ضآلة الحياة الدنيا وقيمها إلى جانب قيم الآخرة وما يتم فيها من الأمور الكبار .

(17/746)

كذلك جاءت لمسة أخرى ترد القلوب إلى حقيقة القدر المسيطرة على الوجود: ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير . لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم . والله لا يحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل , ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد . . كي تستقر النفس وتطمئن لما يصيبها من خير أو شر , وهي في طريقها إلى الله . فلا تطير جزعا , ولا تبطر فرحا , وهي تواجه الضراء والسراء . ولا تشرك بالله سببا ولا ظرفا ولا حادثا . فكله بقدر مقسوم لأجل معلوم . ومرد الأمر كله في النهاية إلى الله .

وقد سار سياق السورة في علاج موضوعها في شوطين اثنين أثبتنا أولهما في صدر هذا التقديم . وجاءت فقرات كثيرة من الشوط الثاني في خلاله . وهما مترابطان مطردان . فنكتفي بهذا القدر ، لنسير مع سياق السورة بالتفصيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الظلال حـ 6 صـ 3475 . 3477﴾

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الحديد

مدنية وآياتها تسع وعشرون آية

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية ، التي تعنى بالتشريع والتربية والتوجيه ، وتبنى المجتمع الإسلامي على أساس العقيدة الصافية ، والخلق الكريم ، والتشريع الحكيم .

* وقد تناولت السورة الكريمة " سورة الحديد " ثلاثة مواضيع رئيسية هي :

أولا : أن الكون كله لله جل وعلا ، هو خالقه ومبدعه ، والمتصرف فيه بما يشاء .

ثانيا : وجوب التضحية بالنفس والنفيس ، لإعزاز دين الله ، ورفع منار الإسلام ، الذي ختم الله به الرسالات السماوية . ثالثا : تصوير حقيقة الدنيا بما فيها من بهرج ومتاع خادع ، حتى لا يغتر بها الإنسان ، وينسى الآخرة .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن عظمة الخالق جل وعلا ، الذي سبح له كل ما في الكون ، من شجر ، وحجر ، ومدر ، وإنسان ، وحيوان ، وجماد ، فالكل ناطق بعظمته ،

شاهد بوحدانيته [سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم] الآيات .

* ثم ذكرت صفات الله الحسنى ، وأسماءه العليا ، فهو الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية ، والظاهر بآثار مخلوقاته ، والباطن الذي لا يعرف كنه حقيقته أحد ، وهو الخالق للإنسان ، والمدبر للأكوان [له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير هو الأول والآخر والظاهر والباطن . .] الآيات .

* ثم تلتها الآيات وهي تدعو المسلمين إلى البذل والسخاء والإنفاق في سبيل الله ، بما يحقق عزة الإسلام ورفعة شأنه ، فلابد للمؤمن من الجهاد بالنفس والمال لينال السعادة في الدنيا ، والمثوبة في الآخرة [آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير] الآيات .

(19/746)

---

* وتحدثت السورة عن أهل الإيمان ، وأهل النفاق ، فالمؤمنون يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، والمنافقون يتخبطون في الظلمات ، كما كانوا في الدنيا يعيشون كالبهائم ، في ظلمات الجهل والغي والضلال [يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . .] الآيات .

* وتحدثت السورة عن حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة ، وصورتهما أدق تصوير ، فالدنيا دار الفناء ، فهي زائلة فانية ، كمثل الزرع الزاهي الخصيب ، الذي ينبت بقوة بنزول الغيث ، ثم يصفر ويذبل ، حتى يصير هشيما وحطاما تذروه الرياح ، بينما الآخرة دار الخلود ، والبقاء ، التي لا نصب فيها ولا تعب ، ولا هم ولا شقاء [اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد . .] الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بالغاية من بعثة الرسل الكرام ، والأمر بتقوى الله عز وجل ، والاقتداء بهدي رسله وأنبيائه [يا أَيُّهَا الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته . . .] الآيات إلى نهاية السورة الكريمة .

التسمية :

سميت السورة " سورة الحديد " لذكر الحديد فيها ، وهو قوة الإنسان فى السلم والحرب ، وعدته في البنيان والعمران ، فمن الحديد تبنى الجسور الضخمة ، وتشاد العمائر ، وتصنع الدروع ، والسيوف والرماح ، وتكون الدبابات والغواصات والمدافع الثقيلة إلى غير ما هنالك من منافع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 318.319 ﴾

(20/746)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الحديد

جاء فى الكتاب الكريم سبّح ويسبّح وسبّح ، ويقال : سبّحته وسبّحت له كما يقال : نصحته ونصحت له ، وتسبيح العقلاء أن يقولوا ما يدل على تنزيهه من كل نقص ، وإبعاده عما لا يليق به من صفات المحدثات ، كإثبات شريك له أو ندّ ، وكون الملائكة بنات له ، وكون عيسى ابنا له ، وتسبيح غيرهم دلالة وجوده على عظم خالقه ، وانقياده له فى كل آن .

وما مثل هذا إلا مثل إشارتك لصاحبك على وضع خاص يفهم منها تأنّ واصبر ، وإشارتك له على هيئة أخرى يفهم منها أنك لا تفعل هذا .

فهذه الدلالة فى الحالين أفهمت صاحبك إفهاما كإفهام الكلام ، بل أقوى وأبلغ أثرا ، وكم للانسان فى حركاته من معان يفهمها الآخرون بطريق لا لبس فيها .

وإذا كان هذا حال الإنسان المحدود العلم والإدراك ، فما بالك بما أطلعنا اللّه عليه من بدائع القدرة والعلم والحكمة ، وقد فهمنا منها ما لا نفهم بالقول ، فلو أنك وقفت فى الخلوات ، وراقبت المزارع والجنات ، والأشجار مترنحات ، وأنواع الكلأ متحركات ، والأوراق تغنّى بموزون الأصوات ، وقد أرخى الليل سدوله ، وأرسل من الخافقين جحافل جنوده ، تلمع

من بينها الكواكب ، فتضىء من بينها السباسب لتجلت لك العبر ، وقرأت علوم المبتدإ والخبر ، ولعلمت أنها تحت قبضة ذى الملك والملكوت ، الحي الذي لا يموت ، الفرد الصمد ، المنزّه عن الصاحبة والولد ، سبّوح قدوس ، رب الملائكة والروح .

(21/746)

العزيز : أي الذي لا ينازعه فى ملكه شىء ، الحكيم : أي الذي يفعل أفعاله وفق الحكمة والصواب ، يحيى ويميت : أي يحيى النطف فيجعلها أشخاصا عقلاء فاهمين ناطقين ، ويميت الأحياء ، وهو على كل من الإحياء والإماتة قدير ، وهو الأول : أي السابق على سائر الموجودات ، والآخر : أي الباقي بعد فنائها ، والظاهر والباطن : أي وهو الذي ظهرت دلائل وجوده وتكاثرت ، وخفيت عنا ذاته فلم ترها العيون ، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله ، وباطن بذاته ، ومشرق بجماله وكماله ، وهو ظاهر بغلبته على مخلوقاته وتسخيرها لإرادته وباطن بعلمه بما خفى منها ، فلا تخفى عليه خافية ، والمراد بستة الأيام ستة الأطوار ، كما تقدم ذلك فى سورة الأعراف ، والاستواء على العرش تقدم تفسيره فى سورتى يونس وهود ، يلج فى الأرض : أي يدخل فيها من كنوز ومعادن وبذور ، وما يخرج منها : كالزرع والمعادن لمنفعة الناس ، وما ينزل من السماء : كالمطر والملائكة ونحوهما ،

وما يعرج فيها : كالأبخرة المتصاعدة والأعمال والدعوات ، يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل تقدم تفسير هذا فيما تقدم ، ذات الصدور : أي مكنونات النفوس وخفيات السرائر

مستخلفين فيه : أي جعلكم سبحانه خلفاء عنه فى التصرف من غير أن تملكوه أخذ الميثاق : نصب الأدلة فى الأنفس والآفاق والتمكين من النظر فيها ، والآيات البينات : هى القرآن ، والفتح : هو فتح مكة ، والحسنى : أي المثوبة الحسنى ، وهى النصر والغنيمة فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة ، يقرض اللّه : أي ينفق ماله فى سبيله رجاء ثوابه .

المراد بالنور هنا : ما يوجب نجاتهم وهدايتهم إلى الجنة من علم وعمل ، بشراكم :

(22/746)

أي ما تبشرون به ، انظرونا : أي انتظرونا ، وأصل الاقتباس طلب القبس : أي الجذوة من النار ، والسور : الحاجز ، من قبله : أي من جهته ، بلى : أي كنتم معنا ، فتنتم أنفسكم : أي أهلكتموها بالمعاصي والشهوات ، وتربصتم : أي انتظرتم بالمؤمنين مصايب الزمان ، وارتبتم : أي شككتم فى أمر البعث ، والأمانى : الأباطيل من طول الآمال والطمع فى انتكاس الإسلام واحدها أمنية ، والغرور (بالفتح) الشيطان ، والفدية والفداء : ما يبذل

لحفظ النفس أو المال من الهلاك ، مأواكم : أي منزلكم الذي تأوون إليه ، مولاكم : أي أولى بكم ، والمصير : المآل والعاقبة .

ألم يأن : ألم يجيء وقت ذلك من قولهم أنى الأمر أنيا وأناء وإناء إذا جاء أناه أي وقته ، والخشوع : الخشية والخوف ، وذكر اللّه : مواعظه ، والحق : هو القرآن ، والذين أوتوا الكتاب : هم اليهود والنصارى ، والأمد : الزمان ، وطال عليهم الأمد :

أي طال العهد بينهم وبين أنبيائهم ، فقست قلوبهم : أي صلبت وصارت كالحجارة أو أشد قسوة ، فاسقون : أي خارجون عن حدود دينهم ، رافضون لما جاء فيه من أوامر ونواه ، والأرض الميتة : هى التي لا تنبت شيئا ، والآيات : هى البينات والحجج ، تعقلون : أي تتدبرون .

المصدقين : أي المتصدقين بأموالهم على البائسين وذوى الحاجة ، والقرض الحسن :

هو الدفع بنية خالصة ابتغاء مرضاة اللّه ، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ، يضاعف لهم :

أي يضاعف اللّه لهم ثواب أعمالهم ، والصدّيق : من كثر منه الصدق وصار سجية له ، والشهداء من قتلوا فى سبيل اللّه ، واحدهم شهيد .

اللعب : ما لا ثمرة له كلعب الصبيان ، واللهو : ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه ، وزينة :

أي كالملابس الفاخرة ، وتفاخر : أي بالأنساب والعظام البالية ، وتكاثر فى الأموال

والأولاد : أي مباهاة بكثرة العدد والعدد ، والغيث : المطر ، والكفار :

الزراع ، يهيج : أي يبتدئ في اليبس والجفاف بعد أن كان أخضر ناضرا ، حطاما :

(23/746)

أي هشيما متكسرا من يبسه ، والغرور : الخديعة .

في الأرض : أي كالجدب والفاقة ، واحتلال الأجانب الظالمين ، واستيلاء الحكام الفاسقين

، في أنفسكم : أي كالمرض والفاقة ، في كتاب : هو اللوح المحفوظ ، نبرأها :

أي نخلقها ، وتأسوا : أي تحزنوا ، ما فاتكم : أي من نعيم الدنيا ، ما آتاكم : أي ما أعطاكم ،

والمختال : المتكبر بسبب فضيلة تراءت له من نفسه ، والفخور : هو المباهي بالأشياء

العارضة كالمال والجاه .

البينات : المعجزات والحجج ، والكتاب : أي كتب التشريع ، والميزان : العدل ، والقسط :

الحق ، وأنزلنا الحديد : أي خلقناه ، والبأس : القوة ، وليعلم اللّه : أي ليعلمه علم مشاهدة

ووجود في الخارج

قفاه : اتبعه بعد أن مضى ، والإنجيل : الكتاب الذي أنزل على عيسى وفيه شريعته ،

والمراد من الرأفة : دفع الشر ، ومن الرحمة : جلب الخير ، وبذا يكون بينهم مودة ،

والرهبانية : ترهبهم فى الجبال فارّين بدينهم من الفتنة ، مخلصين أنفسهم للعبادة ، محتملين المشاق من الخلوة واللباس الخشن والاعتزال عن النساء والتعبد فى الغيران والكهوف ، وقوله ابتدعوها : استحدثوها ولم تكن فى دينهم ، ابتغاء رضوان اللّه : أي طلبا لرضاه ومحبته ، فما رعوها : أي ما حافظوا عليها .

قال المؤرّج السدوسي : الكفل : النصيب بلغة هذيل ، وقال غيره بل بلغة الحبشة ، وقال المفضل الضبي : أصل الكفل كساء يديره الراكب حول سنام البعير ليتمكن من القعود عليه ، لئلا يعلم : أي لكى يعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 27 صـ 157 . 187 ﴾ . باختصار .

(24/746)

وقال الفراء :

سورة (الحديد)

﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ . . . ﴾ .

يريد : قبل كل شىء . ﴿ وَالْآخِرُ . . . ﴾ بعد كل شىء .

﴿ وَالظَّاهِرُ . . . ﴾ على كل شيء علما ، وكذلك ﴿ وَالْبَاطِنُ . . . ﴾ على كل شيء علما .

﴿ آمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ . . . ﴾ مملكين فيه ، وهو رزقه وعطيته .

القراء جميعا على: ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ . . . ﴾ ولو قرئت: وقد أُخِذَ ميثاقكم . لكان صواباً .

﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ . . . ﴾ .

يقرأ بالرفع والنصب: فمن رفعه جعل الفاء عطفا ليست بجواب كقولك: من ذا الذى يحسن ويجمل ؟ ومن نصب جعله جوابا للاستفهام ، والعرب تصل (مَن) فى الاستفهام بـ (ذا) حتى تصير كالحرف الواحد . ورأيتها فى بعض مصاحف عبد الله: منذا متصلة فى الكتاب ، كما وصل فى كتابنا وكتاب عبد الله ﴿ يَابْنَ أُمَّ ﴾ .

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

وقوله: ﴿يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ . . . ﴾ أى: يضىء بين أيديهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، والباء فى "بأيمانهم" فى معنى فى، وكذلك: عن.

وقوله: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ . . . ﴾.

(25/746)

ترفع البشرى، والجنات، ولو نويت بالبشرى النصبَ توقع عليها تبشير الملائكة، كأنه قيل لهم: أبشروا ببشراكم، ثم تنصب جناتٍ، توقع البشرى عليها.

وإن شئت نصبتها على القطع؛ لأنها نكرة من نعتِ معرفةٍ، ولو رفعتَ البشرى باليوم كقولك: اليوم بشراكم اليوم سروركم، ثم تنصب الجنات على القطع، ويكون فى هذا المعنى رفع اليوم ونصبه كما قال الشاعر:

زَعم البوارِحُ أنَّ رِحلتنا غدا * وبذاك خبرنا الغُدافُ الأسود

وقوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ . . . ﴾ وهى فى قراءة عبد الله: "ذلك الفوز العظيم" بغير هو.

وفى قراءتنا "ذلك هو الفوز العظيم": كما كان فى قراءتنا "فإنَّ اللهَ هُو الغَنِىّ الحميد" وفى كتاب أهل المدينة: "فإن الله الغنى الحميد".

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ

فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾

وقوله: ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا . . . ﴾ وقرأها يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة (أَنْظِرُونا) . ومن أنظرت ، وسائر القراء على (انْظُرُونَا) بتخفيف الألف ، ومعنى: انظرُونا . انتظِرونا ، ومعنى أنظِرونا ، أخرونا كما قال: ﴿ أَنْظِرْنِى إلى يوم يُبعثون ﴾ ، وقد تقول العرب: "انظِرْنى" وهم يريدون: انتظرنى تقويةٌ لقراءة يحيى ، قال الشاعر:

أبا هندٍ فلا تَعْجَل علينا * وأَنْظِرنا نُخَبِّرْكَ اليقِينا

فمعنى هذه: انتظرنا قليلاً نخبرك ؛ لأنه ليس ها هنا تأخير ، إنما استماع كقولك للرجل: اسمع منى حتى أخبرك:

وقوله: ﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَآءَكُمْ . . . ﴾ .

قال المؤمنون للكافرين: ارجعوا إلى الموضع الذى أَخذنا منه [/ب] النور ، فالتمسوا النور منه ، فلما رجعوا ضرب الله عز وجل بينهم: بين المؤمنين والكفار بسور ، وهو السور الذى يكون عليه أهل الأعراف .

(26/746)

وقوله: ﴿ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ الجنة ، ﴿ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ . . . ﴾ النار ، وفى قراءة عبد الله: ظاهرة من تلقائه العذاب .

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَاكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾

وقوله: ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ . . . ﴾ على دينكم فى الدنيا ، فقال المؤمنون: ﴿ بَلَى وَلَاكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ . . . ﴾ إلى آخر الآية .

﴿ فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

وقوله: ﴿ فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ . . . ﴾ .

القراء على الياء ، وقد قال بعض أهل الحجاز [لا] تؤخذ والفدية مشتقة من الفداء ، فإذا تقدم الفعل قبل الفدية والشفاعة والصيحة والبينة وما أشبه ذلك ، فإنك مؤنث فعله وتذكّره ، قد جاء الكتاب بكل ذلك .

وقوله عز وجل: ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ . . . ﴾ أى: هى أولى بكم .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُواْ كَالَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

وقوله: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُواْ أَن تَخْشَعَ . . . ﴾ .

وفى يأن لغات: من العرب من يقول: ألم يأن لك ، وأَلم يئن لك مثل: يَعِنْ ، ومنهم من يقول: أَلم يَنَلْ لك باللام ، ومنهم من يقول: أَلَمْ يُنلْ لك ، وأَحسنهن التى أَتى بها القرآن وقوله: ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقّ . . . ﴾ .

(27/746)

قرأها عاصم ، وبعض أهل المدينة (نزَل) مشددة ، وقرأها بعضهم: "وما نَزَل مخففة" وفى قراءة عبدالله: وما أنزل من الحق ، فهذا قوةٌ لمن قرأ: نَزّل .

وقوله: ﴿ وَلاَ يَكُونُواْ . . . ﴾ .

فى موضع نصب ، معناه: ألم يأنِ لهم أن تخشع قلوبهم ، وألا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب ، ولو كان جزما كان صوابا على النهى .

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُواْ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ . . . ﴾ .

قرأها عاصم: إنّ المصَدّقين والمصَدّقات بالتخفيف للصاد ، يريد : الذين صدّقوا الله ورسوله ، وقرأها آخرون: إن المصَّدّقين يريدون: المتصدقين بالتشديد ، وهى فى قراءة أُبى: إن المتصدقين والمتصدقات بتاءٍ ظاهرة ، فهذه قوة لم قرأ إن المصّدّقين بالتشديد .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

وقوله: ﴿ أُوْلَائِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ . . . ﴾ انقطع الكلام عند صفة الصديقين .

ثم قال: ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ . . . ﴾ يعنى: النبيين لهم أجرهم ونورهم ، فرفعتَ الصديقين بهم ، ورفعت الشهداء بقوله: ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ . . . ﴾ .

﴿ اعْلَمُواْ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾

(28/746)

وقوله: ﴿ وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرِضْوَانٌ . . . ﴾ .

ذكر ما فى الدنيا ، وأنه على ما وصف ، وأما الآخرة فإنها إما عذاب ، وإما جنة ، والواو فيه واو بمنزلة واحدة ؛ كقولك: ضع الصدقة فى كل يتيم وأرملة ، وإن قلت: فى كل يتيم أو أرملة ، فالمعنى واحد والله أعلم .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ

عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

وقوله: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ . . . ﴾ .

أى ما أصاب الآدمى فى الأرض من مصيبة مثل: ذهاب المال ، والشدة ، والجوع ، والخوف ﴿ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ الموت فى الولد ، وغير الولد ، والأمراض ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ يعنى: فى العلم الأول ، مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرأَ تلك النفس أى: نخلقها ، إن ذلك على الله يسير ، ثم يقول: إن حفظ ذلك من جميع [/1] الخلق على الله يسير ، ثم أدّب عباده ، فقال: هذا ﴿ لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ . أى: لا تحزنوا: ﴿ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَا آتَاكُمْ . . . ﴾ ، ومن قرأ: بما أتاكم بغير مد يجعل الفعل ـ لما .

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

وقوله: ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ . . . ﴾ .

هذه اليهود بخلت حسدا أن تُظهِر صفة النبى صلى الله عليه وسلم حسداً للإسلام ؛ لأنه يُذهب ملكهم .

وقوله: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . . . ﴾ .

وفى قراءة أهل المدينة بغير ـ هو ـ دليل على ذلك .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ . . . ﴾ .

ذكر أن الله عز وجل أنزل: القلاة والكلْبَتين والمِطرقة . قال الفراء : القلاة: السِّندان .

وقوله: ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ . . . ﴾ .

يريد : السلاح للقتال ، ومنافع للناس مثل: السكين ، والفأس ، والمزوما أشبه ذلك .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

وقوله: ﴿ النُّبُوَّةَ . . . ﴾ .

وفى مصحف عبد الله بالياء بياءين: النّبيّة بياءين والهمزة فى كتابه تثبت بالألف فى كل نوع ، فلو كانت همزة لأثبتت بالألف ، ولو كانت الفعولة لكانت بالواو ، ولا تخلو أن تكون مصدر النبأ أو النبيّية مصدرا فنسبت إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

والعرب تقول: فعَل ذلك فى غُلوميته ، وفى غلومته ، وفى غلاميته ، وسمع الكسائى العرب تقول: فعل ذلك فى وليديته يريد : وهو وليد أى: مولود ، فما جاءك من مصدر لاسم موضوع

، فلك فيه: الفُعولة ، والفُعولية ، وأن تجعله منسوباً على صورة الاسم ، من ذلك أن تقول: عبد بين العبودية ، والعبودة والعبدية ، فقس على هذا .

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وقوله: ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ . . . ﴾ .

(30/746)

الكفل: الحظ ، وهو فى الأصل ما يكتفل به الراكب فيحبسه ويحفظه عن السقوط ، يقول: يحصنكم الكِفل من عذاب الله ، كما يحصّن هذا الراكب الكفلُ من السقوط .

﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

وقوله: ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ . . . ﴾ .

وفى قراءة عبد الله: لكى يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون ، والعرب تجعل لا صلة فى كل كلام دخل فى آخره جحد ، أو فى جحد غير مصرح ، فهذا مما دخل آخره الجحد ، فجعلت (لا) فى أوله صلة . وأما الجحد السابق الذى لم يصرح به فقوله عز وجل: ﴿ ما مَنَعكَ ألاّ

تسجُدَ ﴾ .

وقوله: ﴿ ومَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذَا جاءَتْ لا يُؤمِنُون ﴾ .

وقوله: ﴿ وَحَرَامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناهَا أَنَّهُم لا يَرْجِعُون ﴾ .

وفى الحرام معنى الجحد والمنع ، وفى قوله: (وما يشعركم) فلذلك جعلت (لا) بعده صلة معناها السقوط من الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 132 . 138 ﴾

(31/746)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الحديد

(وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) [7] أي: ورثكم من قبلكم وجعلكم خلفاء عنهم . وقيل: معناه يخلف بعض عن بعض ، ولا يبقى لأحد ، وفي معناه: 1246 - الرمح لا أملأ كفي به واللبد لا [أ]تبع تزواله 1247 - والدرع لا أبغي به ثروة كل امرئ مستودع ماله ومثله لتميم بن مقبل: 1248 - فأتلف وأخلف إنما المال عارة وكله مع الدهر الذي هو آكله 1249 - فأيسر مفقود وأهون هالك على الحي من لا يبلغ الحي نائله . فقوله: عارة ،

كالقول: خلفة. (ولله ميراث السموات والأرض) [10] أي: فيم لا تنفقون، وأنتم ميتون وتاركون ما تجمعون. (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح) [10] أي: هم على سبقهم لغيرهم متفاوتون في الدرجات. (من ذا الذي يقرض الله) [11]

كل عمل خير أو شر، إذا كان بمثابة الجزاء، فهو قرض عند العرب، فلذلك وصفه بالحسن، [إذ] كان فيما يجزى ما ليس بحسن/. قال الشنفري: 1250- جزينا سلامان بن مفرج قرضها بما قدمت أيديهم وأزلت 1251- سقينا بعبد الله بعض غليلنا وعوف لدى المعدى أوان استهلت. (يسعى نورهم بين أيديهم) [12] نور أعمالهم المقبولة. أو نور الإيمان. (وبأيمانهم) [12] وهو نور آخر عن أيمانهم بما أنفقته أيمانهم.

(بشراكم اليوم) [12] أي: النور بشراهم بالجنات. (انظرونا) [13] انتظرونا كما شوى واشتوى، وحفر واحتفر. قال الشاعر فجمع بين اللغتين: 1252- ما زلت مذ أشهر السفار أنظرهم مثل انتظار المضحي راعي الغنم. (قيل ارجعوا وراءكم) [13] [إذ] لم يتقدم بهم الإيمان. (فضرب بينهم بسور) [13] وهو الأعراف.

قال عبد الله بن عمرو [بن] العاص: "هو سور بالمسجد الأقصى، وراءه وادي جهنم".

وعن كعب: "أن السور هو الباب الذي يسمى باب الرحمة في المسجد الأقصى". (فتنتم أنفسكم) [14] أهلكتم وأضللتم. يقال: فتنه وأفتنه. قال الشاعر -فجمع بين اللغتين-:

1253 - لئن فتنتني لهي بالأمس أفتنت سعيداً فأمسى قد قلى كل مسلم . وقيل: فتنتم: ادعيتم الفتنة ، لتقعدوا عن الجهاد ، أي: قلتم: إئذن لي ولا تفتني . (وتربصتم) [14] قلتم: (نتربص به ريب المنون) . (الغرور) [14] الشيطان . وقيل: الدنيا .

(هي مولاكم) [15] أولى بكم . (ألم يأن) [16] يقال: أنى يأني ، وآن يئين ، بمعنى: حان . فجمع بين اللغتين: 1254 - ألم يأن لي أن تجلى [عما يتي] وأقصر عن ليلى ؟ بلى قد أنى ليا . (إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله) [18] أي: الذين تصدقوا ، وأقرضوا الله بتلك الصدقة ، [فلذلك] عطف بالفعل .

ومن خفف الصاد ، كان المعنى قوله تعالى: (إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات) ، لأن التصديق إيمان ، وإقراض الله من العمل/الصالح . (أعجب الكفار) [20] الزراع . ويجوز الكافرين ، لأن [الدنيا] أفتن لهم وأعجب عندهم . (من قبل أن نبرأها) [22] نخلقها ، أي: الأرض والأنفس ، ولما حمل سعيد بن جبير إلى الحجاج ، بكى بعض أصحابه ، فسلاه سعيد بهذه الآية . (لكيلا تأسوا على ما فاتكم) [23] أي: أعلمناكم بذلك لتسلوا عن الدنيا ، إذا علمتم أن ما ينالكم في كتاب قد سبق ، لا سبيل إلى تغييره .

قال ابن مسعود: "لجمرة على لساني تحرقه جزءاً جزءاً ، أحب إلي من أن أقول لشيء كتبه الله: ليته لم يكن" . وحدث قتيبة [بن] سعيد قال: هبطت وادياً ، فإذا أنا بفضاء مملوء من

جيف الإبل ، لا يحصى عدداً ، وشيخ على تل كأفرح ما يكون ، فقلت: أكانت كلها لك ؟ فقال: كان باسمي فارتجعها مالكها ، وأنشد : 1255- لا والذي أنا عبد في عبادته والمرء في الدهر نصب الرزء والمحن 1256- ما سرني أن إبلي في مباركها وأن شيئاً قضاه الله لم يكن .

(33/746)

(فإن الله هو الغني) [24] "هو" في مثل هذا الموضع فصل في عبارة البصريين ، [وعماد] في عبارة الكوفيين . قال سيبويه: إنما يدخل ، ليعلم أن الاسم قبله قد تم ، ولم يبق نعت ولا بدل ، فينتظر الخبر . ومثله: (إني أنا ربك) ، (أنهم هم الفائزون) ، (إنا نحن نزلنا الذكر) ، فكلها فصول مؤكدة لا موضع لها من الإعراب . وهذا أصوب وأقرب ممن قال: إنه مبتدأ ، و"الغني": خبره ، و"الحميد": خبر بعد خبر ، والجملة من المبتدأ والخبر ، خبر ، لأن كونهما خبري إن من

غير واسطة أقصد [وأقسط] من أن [يجعلا خبرا] مبتدأ ، ثم "هو" وهما: خبر "إن" .

(وأنزلنا الحديد) [25] قيل: إن آدم هبط إلى الأرض بالسندان والمطرقة والكلبتين/وقيل: إنها من الأرض ، ومعنى الإنزال: الإظهار ، [فالماء] ينزل من السماء ، ثم يغور في الأرض ،

ثم ينعقد في المعادن جواهر ، مثل: الكبريت والزئبق ، فيكون بامتزاجهما على الأيام الحديد ونحوه ، ومثلها قوله: (وأنزل لكم [من] الأنعام) .

(وليعلم الله من ينصره ورسله) [25] أي: أزيحت العلل في خلق الأشياء وتيسير المنافع والمصالح ، ليعلم الله من ينصره . (بالغيب) [25] أي: سره مثل علانيته . (رهبانية) [27] تقديره: وابتدعوا رهبانية . (ما كتبناها عليهم) [27] [أي: ما كتبنا عليهم] غير ابتغاء رضوان الله . (كفلين من رحمته) [28] نصيبين ، أحدهما لإيمانهم بالرسل الأولين ، والثاني لإيمانهم بخاتم النبيين . (لئلا يعلم أهل الكتاب) [29] قيل: إن يعلم هنا بمعنى: "يظن" كما جاء "الظن" في مواضع بمعنى "العلم" .

وقيل: معناه: لأن يعلم ، قال الراجز: 1257 - ولا ألوم البيض ألا تسخرا 1258 - وقد رأين الشمط القفندرا انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1466 . 1478 ﴾

(34/746)

وقال الأخفش :

سورة (الحديد)

﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾

وقال ﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ وليس ذا مثل الاستقراض من الحاجة ولكنه مثل قول العرب: "لِي عندكَ قَرْضُ صِدْقٍ" و"قَرْضُ سَوءٍ" اذا فعل به خيرا او شرا .

قال الشاعر: [من الطويل وهو الشاهد التاسع والستون بعد المئتين]:

سَأَجْزِي سَلاَمانَ بنَ مُفْرِجَ قَرْضَهُم * بما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وأَزَلَّتِ

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

قال ﴿ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ يريد : عَنْ أيمانِهم – و الله أعلم – كما قال ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ يقول "بطرْفٍ" .

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُواْ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُواْ نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾

وقال ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ لأنه من "نَظَرْتُه" يريد "نَظَرْتُ" فـ"أَنَا أَنْظُرُه" ومعناه: أَنْتَظِرُه .

وقال ﴿ بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ ﴾ معناه: "وَضُرِبَ بَيْنَهُم سُورٌ" .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

وقال ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ يريد – والله أعلم – "إلاَّ هُوَ فِي كِتَابٍ" فجاز فيها الاضمار . وقد تقول: "عِنْدِي هذا لَيسَ إلاَّ" [174 ب] تريد : ليس إلاَّ هُوَ .

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

وقال ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

واستغنى بالاخبار التي في القرآن كما قال ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ ولم يكن في ذا الموضع خبر ، والله أعلم بما ينزل هو كما أنزل وكما أراد ان يكون .

﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

وقال ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ ﴾ يقول: لأن يعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 535.536 ﴾

(36/746)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الحديد

مدنية كلها

4 - يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ أي يدخل فيها .

13 - فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ ، يقال : هو السور الذي يسمى الأعراف «1» .

14 - فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ : أنمتموها ، . . . وَارْتَبْتُمْ : شككتم .

15 - مَأْواكُمُ النَّارُ ، هِيَ مَوْلاكُمْ أي هي أولى بكم . قال لبيد :

فغدت كلا الفرجين تحسب انه مولي المخافة خلفها وامامها

16 - أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ؟ ! أي ألم يحن . يقال : اني الشيء يأني ، إذا حان .

فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ يعني : الغاية .

20 - كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ أي الزراع . يقال للزارع :

كافر ، لأنه إذا القى البذر في الأرض : كفره ، أي غطّاه «2» .

(1 - 2) وهو قول مجاهد وقتادة .

---

21 - عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أي سعتها كسعة السماء والأرض . وقد تقدم ذكر هذا .

22 - مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها أي نخلقها .

23 - لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ أي لا تحزنوا .

25 - لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ أي بالعدل .

وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ذكروا : «أن اللّه انزل العلاة - وهي :

السّندان - والكلبتين والمطرقة» .

فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ للقتال ، وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ : مثل السكين ، والفأس ، والمر ، والإبرة .

27 - وَرَهْبانِيَّةً . . . : اسم مبني من «الرّهبة» ، لما [فضل عن المقدار و] أفرط فيه .

وهو ما نهي اللّه عنه إذ يقول : لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ [سورة النساء آية : 171 وسورة المائدة آية : 77] . ويقال : دين اللّه بين المقصر والغالي .

ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ أي ما امرناهم بها الا ابتغاء رضوان اللّه ، أي أمرنا منها بما يرضي اللّه عز وجل ، لا غير ذلك .

28 - يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ : نصيبين وحظين .

29 - لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ [أَلَّا يَقْدِرُونَ] أي ليعلموا انهم لا يقدرون عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 390. 391 ﴾

وقال الغزنوى :

سورة الحديد

1 سَبَّحَ لِلَّهِ تسبيح ما لا يعقل تنزيه اللّه بما فيه من الآيات «1» .

3 هُوَ الْأَوَّلُ قبل كل شيء ، وَالْآخِرُ بعد كل شيء ، الظاهر بأدلته ، الباطن عن إحساس خلقه .

4 ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ بالاستيلاء على التدبير «2» من جهته ليتصوّر العبد منشأ التدبير من أعلى مكان .

10 وَلِلَّهِ مِيراثُ : أي فيم لا تنفقون وأنتم ميّتون وتاركون «3» ؟ ! .

لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ : لما نالهم من كثرة المشاق ، ولأنّ بصائرهم كانت أنفذ ، وما أنفقوا كان أعظم غناء وأنفع .

12 يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ : نور أعمالهم المقبولة «4» ، أو نور الإيمان .

وَبِأَيْمانِهِمْ : وهو نور آخر بما أنفقته أيمانهم «5» .

13 قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ إذ لم يتقدّم بكم الإيمان .

---

(1) في «ك» : لما فيه من الآيات ، والأولى إجراء الآية على ظاهرها وإثبات التسبيح

للجمادات الذي أثبته القرآن ، وقد تقدم بيان ذلك ص 453 . [. . . . .]

(2) تقدم التعليق على تأويل المؤلف لمثل هذه ص 79 .

(3) ينظر تفسير البغوي : 4/ 294 ، وزاد المسير : 4/ 163 ، وتفسير القرطبي : 17/ 239 .

(4) ذكر نحوه الماوردي في تفسيره : 4/ 187 .

(5) المصدر السابق .

(39/746)

فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ وهو الأعراف «1» .

14 فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ : أهلكتم وأضللتم «2» .

وَتَرَبَّصْتُمْ : قلتم : نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ «3» .

15 هِيَ مَوْلاكُمْ : أولى بكم .

16 أَلَمْ يَأْنِ أنى يأني وآن يئين : حان «4» .

18 إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ : أي الذين تصدقوا وأقرضوا بتلك الصدقة .

20 أَعْجَبَ الْكُفَّارَ : الزّراع «5» ، ويجوز الكافرين لأنّ الدنيا أمسّ «6» لهم وأعجب عندهم «7» .

22 مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها : نخلقها «8» . ولما حمل سعيد بن جبير إلى الحجاج بكى بعض أصحابه فسلّاه سعيد بهذه الآية «9» .

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 27/ 225 عن مجاهد ، وابن زيد .

ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 8/ 166 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

واختاره الطبري في تفسيره : 12/ 449 ، وصححه الحافظ ابن كثير في تفسيره : 8/ 43 .

(2) تفسير البغوي : 4/ 296 ، وتفسير القرطبي : 17/ 246 .

(3) من آية : 30 سورة الطور .

(4) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 453 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 125 ، وإعراب القرآن للنحاس : 4/ 359 .

(5) هذا قول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 454 ، وقال أيضا : «يقال للزارع : كافر لأنه إذا ألقى البذر في الأرض : كفره ، أي : غطاه» .

وانظر هذا القول في إعراب القرآن للنحاس : 4/ 362 ، وتفسير البغوي : 4/ 298 ، وزاد المسير : 8/ . 171

(6) في «ج» : أفتن بهم .

(7) ذكره الزجاج في معانيه : 5/ 127 .

(8) معاني القرآن للفراء : 3/ 136 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 254 ، وتفسير الطبري :

27/ 233 ، ومعاني الزجاج : 5/ 128 ، واللسان : 1/ 31 (برأ) .

(9) ورد هذا المعنى في أثر أورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 63 ، وعزا إخراجه إلى ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر عن أبي صالح .

وانظر تفسير القرطبي : (17/ 257 ، 258) . [. . . . .]

(40/746)

---

23 لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ أي : أعلمناكم بذلك لتتسلّوا عن الدنيا إذا علمتم/ أن ما ينالكم في كتاب قد سبق لا سبيل إلى تغييره . [97/ أ] قال ابن مسعود «1» : «لجمرة على لساني تحرقه جزءا جزءا أحبّ إليّ من أن أقول لشيء كتبه اللّه : ليته لم يكن» .

27 وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها : رفض النساء ، واتخاذ الصوامع «2» . وقيل «3» : الانقطاع عن النّاس .

ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ أي: ما كتبنا عليهم غير ابتغاء رضوان اللّه، فيكون بدلا من «ها» «4» الذي يشتمل عليه المعنى.

28 كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ: نصيبين «5» لإيمانهم بالرسل الأولين، ثم لإيمانهم بخاتم النّبيّين.

29 لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ: لئلا يظن، كما جاء الظن في مواضع بمعنى العلم «6». انتهى انتهى. اهـ ﴿معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 803. 805﴾

---

(1) لم أقف على هذا القول، وذكره المؤلف - رحمه اللّه - في كتابه وضح البرهان: 2/ 385. وانظر نحوه في المعجم الكبير للطبراني: 9/ 273.

(2) نص هذا القول في تفسير الماوردي: 4/ 195 عن قتادة، وكذا في تفسير القرطبي: 17/ 263.

(3) ذكره الماوردي في تفسيره: 4/ 195 دون عزو.

(4) في قوله تعالى: كَتَبْناها، ينظر إعراب هذه الآية في معاني الزجاج: 5/ 130، وإعراب القرآن للنحاس: 4/ 368، ومشكل إعراب القرآن لمكي: 2/ 720.

(5) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 2/ 254، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 455، ومعاني الزجاج: 5/ 131.

قال الزجاج: «وإنما اشتقاقه من اللغة من «الكفل»، وهو كساء يجعله الراكب تحته إذا

ارتدف لئلا يسقط ، فتأويله : يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصي» .

(6) مثّل الدامغاني له في كتابه الوجوه والنظائر : 311 بقوله تعالى : وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ .

(41/746)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الحديد

عدد 8 - 94 - 57

نزلت بالمدينة بعد الزلزلة ، وهي تسع وعشرون آية ، وخمسمائة وأربع وأربعون كلمة ، وألفان وأربعمائة وستة وسبعون حرفا ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها ، ومثلها في عدد الآي التكوير والفتح وتقدم بيان السّور المبدوءة بما بدئت فيه في سورة الأعلى ، والتي ختمت به في سورة الواقعة ج 1 .

مطلب أنواع التسبيح والقرض الحسن وما نزل في أبي بكر رضي اللّه عنه والفتلة في طريقة المولوية والقرض الحسن :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ 1 لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ

وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (2) تقدم تفسير مثلها غير مرة واعلم أن التسبيح أقسام : تسبيح العقلاء وهو تنزيه اللّه تعالى عن كلّ شيء ، وعما لا يليق بجنابه وجلاله ، وتسبيح النّاميات من ذوات الأرواح قولها بلغتها قال تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) الآية 45 من سورة الإسراء ج 1 ، فالأول بلسان القال والثاني بلسان الحال ، والثالث بلسان الهيئة جلت عظمته ، وسيأتي لهذا البحث صلة أول سورة الجمعة الآتية فراجعه .

وهذا المسبح في كلّ لسان قالي أو حالي أو هيئتي "هُوَ الْأَوَّلُ" بلا ابتداء قبل كلّ شيء "وَالْآخِرُ" بلا انتهاء بعد كلّ شيء "وَالظَّاهِرُ" الذي لا يرى في الدّنيا لكمال ظهوره على كلّ شيء ، قال الأبوصيري رحمه اللّه :

واختفى منهم على قرب مرآه ومن شدة الظّهور الخفاء

(42/746)

"وَالْبَاطِنُ" في كلّ شيء ولا يدركه شيء "وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (3) خفية وجلية جهره وسره كتمه وعلانيته ، روى مسلم عن سهل بن أبي صالح قال كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول اللهم رب السّموات والأرض ورب

العرش العظيم ربنا ورب كلّ شيء ، أنت الأوّل فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظّاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدّين وأغننا من الفقر وهذا يروى عن أبي هريرة عن النّبي صلى اللّه عليه وسلم فيستحب لكل أحد قراءته عند النّوم وقراءة آية الكرسي والإخلاص لما فيهما من الحفظ والبركة .

قال تعالى "هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ" راجع الآية 4 من سورة طه في ج 1 والآية 7 من سورة يونس ج 2 تجد ما يتعلق في بحث العرش والآية 10 من سورة فصلت ج 2 أيضا في بحث الأيام السّتة

(43/746)

بصورة مفصلة "يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ" ويتغلغل فيها من البذور والجذور والقطر والثلج والموتى والكنوز "وَما يَخْرُجُ مِنْها" من النّبات والمعادن والسّوائل وغيرها "وَما يَخْرُجُ مِنْها" من النّبات والمعادن والسّوائل وغيرها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ" من الأمطار والصّواعق والخير والشّر والأمر والنّهي وغيرها "وَما يَعْرُجُ فِيها" من الملائكة ويصعد إليها من أعمال الخلق ودعواتهم "وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ" يكاؤكم ليل نهار صباح مساء أيقاظا ونياما "وَاللَّهُ بِما

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" (4) لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأقوالكم ونياتكم "لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ" (5) كلها إن التكرار في جملة السّموات والأرض لكل منها مغزى غير الأوّل ومناسبة ومعنى ظاهرين لمن تدبر "يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ" فيدخل أحدهما في الآخر تداخلا ظاهرا غير مرئي محسوسا غير مشهود كالهواء والقوة الكهربائية وحركة الظّل وفلكة المضخات والطّواحين وفلكة المغزل والمهواية حال دورانها وشبهها فإنها كلها موجودة غير مشاهدة "وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ" (6) لا يخفى عليه شيء من دخائلها قال تعالى في 285 من البقرة المارة (وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ) فيا أيها النّاس "آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ" إيمانا خالصا "وَأَنْفِقُوا" في سبيله ابتغاء مرضاته "مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ" من المال الذي هو بأيديكم لأنه مال اللّه ، وقد كان بيد غيركم فأهلكهم ونقله إليكم ، فأنتم الآن خلفاء اللّه عمن مضى من قبلكم ووكلاؤه على ما أودعه لديكم ، فأنفقوا على من بقي من أبناء جنسكم من عيال اللّه قبل أن يسلبه منكم لأنه مسلوب لا محالة كما قيل :

ويكفيك قول النّاس فيما ملكته لقد كان هذا مرة لفلان

وقول الآخر :

وما المال والأهلون إلّا وديعة ولا بد يوما أن ترد الودائع

وهذه الآية عامة كغيرها وما قيل إنها نزلت في غزوة ذي العشيرة أي غزوة تبوك فبعيد ، لأنها كانت سنة لتسع كما سيأتي بيانها في سورة التوبة إن شاء اللّه "فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ" أيها النّاس إيمانا كاملا "وَأَنْفَقُوا" من أموالهم

(45/746)

لوجه اللّه على الفقراء والمساكين "لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ" أكبر من كلّ شيء عدا الإيمان الخالص "وَما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ" وتنفقون مما من به عليكم "وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ" وتخلصوا له العبادة ، فأي عذر لكم في عدم إجابته "وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ" على الإيمان به ورسله وكتبه والبعث بعد الموت يوم قال (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) واعترفتم له بذلك راجع الآية 171 من الأعراف في ج 1 ، فأوفوا أيها النّاس بعهدكم هذا ولا تنقضوا ميثاق ربكم "إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" (8) يوما ما لموجب ما فأحرى بكم أن تؤمنوا حالا إذ قامت الحجج على بعثة رسولكم محمد ووجوده كاف للايمان به وبربه ، فلا عذر لمن يريد الإيمان بعد بعثته

لدليل آخر لأنه برهان لا مزيد عليه واعلموا أن اللّه الذي أرسله إليكم "هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ" المشار إليه محمد "آياتٍ بَيِّناتٍ" من كلامه القديم الأزلي "لِيُخْرِجَكُمْ" بها إذا اتبعتموها "مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ" من الكفر إلى الإيمان "وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ" (9) ولذلك يحب إيمانكم رأفة بكم لخلاصكم من النّار وإدخالكم الجنّة "وَما لَكُمْ" أيها النّاس وأي عذر يمنعكم "أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ" مما خولكم به من النّعم والحبوب والذهب والفضة دون حول منكم ولا قوة ، وأي شيء حدا بكم حتى بخلتم بالعفو من أموالكم على إخوانكم وأقاربكم وفقرائكم ولم تحصلوا على الثواب العظيم عند ربكم في آخرتكم والثناء الجزيل في الدّنيا من أمثالكم قبل أن تموتوا فتحرموا هذا الثناء والثواب ، لأنكم لا بد ميتون وتاركون أموالكم ميراثا لغيركم "وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" وما فيها لا يأخذ أحد منه شيئا واعلموا يا عباد اللّه أنه "لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ" ومن لم ينفق كما لا يستوون عندكم

(46/746)

فلا يستوون عند اللّه بل بينهما بون شاسع "مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ" الظفر الأوّل الذي هو مبدأ الفتوحات وهو صلح الحديبية الذي رأى المسلمون فيه حيفا وميلا لما فيه من الشّروط

المجحفة ولم يعلموا أن عاقبته خير وأن الانفجار لا يحصل إلّا من الضّيق وأن الفرج لا يكون غالبا إلّا بعد الشّدة واليسر بعد العسر ولذلك سماء اللّه فتحا وفيه بشارة إلى فتح مكة له صلى اللّه عليه وسلم وهو الفتح العظيم ، ولهذا قال

بعضهم إن هذه الآية تشير إلى فتح مكة اعلموا أنه لا يستوي منكم من قام بالإنفاق "وَقاتَلَ" قبله ممن أنفق وقاتل بعده إذ قد لا تكون حاجة ماسة بعد الفتح بسبب ما يفتحه اللّه عليهم من البلاد ويفيض عليهم من أبواب الرّزق وما يفيضه عليهم من المال بعد ذلك فلم يحتاجوا إليكم "أُولئِكَ" المقاتلون المنفقون حال الضّيق والشّدة والقلة والحاجة "أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا" بعد الظّفر وكثرة المسلمين والمال "وَكُلًّا" من الفريقين "وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى" المنزلة الحسنة التي لا أحسن منها وهي الجنّة ولكنها درجات متفاوتة بحسب الأعمال "وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" (10) نزلت هذه الآية في أبي بكر الصّديق لأنه أول من أسلم وأول من أنفق وأول من ذب عن رسول اللّه بنفسه وماله وأولها في حادثة الغار وآخرها في واقعة تبوك .

(47/746)

روى البغوي بإسناد التغلبي عن ابن عمر قال كنت عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها في صدره بخلال ، فنزل جبريل فقال مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها في صدره بخلال فقال أنفق ماله عليّ قبل الفتح ، قال فإن اللّه عز وجل يقول اقرأ عليه السّلام وقل له أرضا أنت عني في فقرك هذا أم ساخط يا أبا بكر فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يا أبا بكر إن اللّه يقرؤك السّلام ويقول لك أراض أنت عني في فقرك هذا أم ساخط ؟ فقال أبو بكر أأسخط على ربي إني على ربي راض إني على ربي راض ، وهنا يقول المولوية إنه رضي اللّه عنه قام وقتل على رجل واحدة فرحا بما سمعه عن ربه ولذلك جعلوا الفتلة بطريقتهم ولكن لم أقف على ما يؤيده .

قال تعالى "مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً" عن طيب نفس .

والمراد في هذا القرض الإنفاق في سبيل اللّه وسمي قرضا ليدل على التزام الجزاء "فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ" (11) زيادة على المضاعفة والأجر الكريم المفضي لدخول صاحبه إلى دار الكرامة عند ربه مع الشّهداء والصّالحين .

وأعلم أن القرض لا يكون حسنا إلّا إذا جمع فيه أحد عشر خصلة 1 - أن يكون في المال الحلال 2 - أن يقرضه وهو محتاج إليه على حبه 3 - أن يكون للأحوج 4 - أن يكتمه ولا يتبعه بمن ولا أذى 5 - أن يقصد به وجه اللّه ابتغاء مرضاته 6 - أن

لا يرائي به النّاس ولا يقصد به السّمعة والصّيت 7 أن يستحقر ما يقرضه للّه مهما كان كثيرا بالنسبة لما أعده اللّه لما بمقابلته من الثواب 8 أن يكون من أحسن ماله لقوله تعالى (لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) الآية 92 من آل عمران المارة 9 - أن لا يرى حين تصدق غنى لنفسه وذلا للفقير 10 - أن يكون عن طيب نفس ورغبة فيما أعده اللّه لمثله 11 - أن يحب أن يرزقه اللّه أكثر مما عنده لينفق أكثر مما أنفق 12 - على اللّه أن يتقبلها منه ويثيب عليها ثوابا مضاعفا .

(49/746)

واعلم أن الخلل الذي يحصل في الثلاثة الأوّل لا لعدم ثوابه بل لكونه يكون أقل أجرا لأن من أقرض من أحسن ماله أو أقرض وهو محتاج إليه أو أقرض غير الأحوج فله الجزاء الحسن عند اللّه أيضا لما فيه من قضاء حاجة المستقرض وهو المقصود من القرض قال تعالى أنظر أيها الإنسان "يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ" يوم القيامة "يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ" على الصّراط المستقيم جزاء أعمالهم الحسنة وتقول لهم الملائكة "بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ" تدخلونها حال كونكم مكرمين "تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ" وتكونون أبدا "خالِدِينَ فِيها ذلِكَ

هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ 12 " في ذلك اليوم العظيم "يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ" لهم من قبل الملائكة "ارْجِعُوا وَراءَكُمْ" لا تدنسوا للمؤمنين ارجعوا إلى الدّنيا واعملوا صالحا ليكون لكم مثل نورهم وهذا على سبيل الهتكم إذ لا سبيل إلى الرّجوع ارجعوا "فَالْتَمِسُوا نُوراً" لأنفسكم فيرجعون إلى الموقف وهو المحل الذي صاحب المؤمنين منه نورهم ليطلبوا مثله وعند وصولهم صد كلّ منهم "فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ" وبين المؤمنين "بِسُورٍ" عظيم بدلالة التنكير فيه وهو لا أعظم منه في الآخرة كما يقولون الآن (سور ماجينو) لا أعظم منه في الدّنيا وهو الذي عملته فرنسا وتحصنت به من أعدائها الألمان ، وقد بالغوا في تحصينه حتى اتكلوا عليه وهو مهما كان في القوة فلا يشبه أو يقاس بسور الآخرة ، لأن هذا قد يأتي يوم ينهار بنفسه أو بقوة الأعداء المحاربين لهم وهم الآن الألمان ولا ندري بعد ذلك من هم ، أما ذاك فلأنه من أعمال الآخرة وهي بما فيها باقية ثابتة ، وهذا

من أعمال الدّنيا وهي بما فيها فانية .

(50/746)

وهذا السّور العظيم "لَهُ بابٌ" عظيم بنسبة عظمه "باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ" الجنّة لأنها من رحمة اللّه "وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ" (13) النّار لأنها من عذاب اللّه ، فلما رأى ذلك المنافقون صاروا "يُنادُونَهُمْ" أي المؤمنين يقولون لهم "أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ" في الدّنيا "قالُوا بَلى وَلكِنَّكُمْ" أيها المنافقون "فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ" فيها بالكفر "وتماديتم في الطّغيان وَتَرَبَّصْتُمْ" تأخرتم عن الإيمان والتوبة "وَارْتَبْتُمْ" في نبوة محمد وكتابه في هذا اليوم "وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ" الباطلة التي كنتم تنتظرونها أن تقع بالمؤمنين "حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ" (14) الشيطان بخداعه حتى متم على ما كنتم عليه من النّفاق "فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ" عن أنفسكم مثل الدّنيا إذ يجوز فيها الفداء عن النّفس بالمال ، لأن حالة الآخرة غير حالة الدّنيا ولا يقبل منكم الآن إيمان أيضا ولا توبة لفوات وقتهما "وَلا" يقبل أيضا فدية ولا توبة "مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ" أنتم أيها المنافقون والكافرون والمشركون "النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ" جميعا لأنكم في الكفر سواء ، وعذابكم مختلف ، المنافق أشد من الكافر ، والكافر أخف من المشرك ، فهي دركات متفاوتة كما أن الجنّة درجات يا لها من درجات متفاوتة أيضا ، يقول أهلها حينما يرى أولئك الخبثاء ادخلوها فهي مثواكم "وَبِئْسَ الْمَصِيرُ" (15) النار لأهلها ، قال تعالى بعد هذا البيان لذي بينه من أحوال أهل الجنّة وأهل النّار "أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا" بألسنتهم "أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ" المتلو عليهم فيؤمنوا إيمانا حقيقيا خالصا

محضا تنشرّ به قلوبهم عن رغبة ويقين ، لأن الايمان إذا لم تخالط بشاسته الظّاهرة اعتقادا جازما وإيقانا

(51/746)

قلبيا لا يعتد به ولا ينفع به صاحبه لهذا يقول اللّه تعالى أما حان لهم أن يخشعوا لذكري "وَ" يخضعوا إلى "ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ" على رسولهم من قبلي بعد ما أرادوا من الآيات البينات الموجبة لخشوعهم وخضوعهم ، ألا فلينقادوا ويخبتوا

"وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ" إرسال الرّسول إليهم وإنزال الكتاب عليهم وهم اليهود والنّصارى الّذين سوّفوا وأسرفوا "فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ" فيما بينهم وبين

أنبيائهم حتى زالت عنهم الرّوعة التي كانوا يجدونها عند سماع تلاوة كتابهم ، وقد خلت قلوبهم من الخشوع الذي كانوا يحسون به فاتبعوا الأهواء "فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ" فلم يبق يؤثر فيها الوعظ ولا التذكير "وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ" (16) متجاوزون حدود اللّه بسبب تلك القسوة التي ألبست قلوبهم فمنعتها من أن تخضع لسماع ذكر اللّه ، فيا أيها النّاس "اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها" كما أنه يحيي الإنسان والحيوان بعد الموت فلأن يحيي القلوب التي أماتتها القسوة من باب أولى إذا رجعت إلى اللّه وأنابت إليه "قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ" الدالة

على ذلك فيما تقدم من الذكر وفصّلنا لكم كيفية إحياء الأرض الميتة بالمطر ، وإحياء القلوب بالذكر "لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" (17) حكمتنا فتركنون إليها وتعملون بما يفضي إليها ، قال الكلبي ومقاتل إن هذه الآية نزلت في المنافقين ، وذلك أنهم قالوا لسلمان الفارسي حدثنا في التوراة ، فنزل أولا نحن نقص عليك أحسن القصص الآية الثالثة من سورة يوسف ج 2 ، فكفوا عنه ، ثم سألوه ثانيا فأنزل اللّه (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ) الآية 23 من الزمر ج 2 أيضا ، ثم سألوه ثالثا فنزلت هذه الآية .

(52/746)

قال محمود الآلوسي رحمه اللّه يكاد يصح نزولها في المنافقين ، ثم صوّب نزولها في المؤمنين حينما قدموا المدينة وأصابوا لين العيش وفتروا عما كانوا عليه من العبادة ، فعوتبوا فى هذه الآية على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن .

وعليه يكون نزول هذه الآية بالسنة الأولى من الهجرة ، فتكون من أول ما نزل في المدينة ، وليس بسديد ، لأن أول ما نزل سورة البقرة وبعدها الأنفال فآل عمران فالأحزاب إلخ ما أثبتناه هنا ، أو الثالثة عشرة من البعثة التي هي آخر نزول القرآن في مكة فتكون السّورة أو الآية وحدها مكية وليس كذلك لأن السّورة كلها مدنية نزلت في المدينة يوم الثلاثاء في السّنة

السّابعة من الهجرة ووضعت في محلها من القرآن بإشارة من الرّسول ودلالة من الأمين جبريل عليهما الصلاة والسّلام وفاقا لما هو عند اللّه في لوحه المحفوظ وعلمه الأزلي ، لذلك يبعد الركون إلى ما صوبه الآلوسي رحمه اللّه .

قال تعالى "إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقاتِ" الّذين صدقوا اللّه ورسوله وكتابه وتصدقوا بفضول أموالهم "وَأَقْرَضُوا اللَّهَ

قَرْضاً حَسَناً"

(53/746)

على الصّورة المبينة آنفا ف "يُضاعَفُ لَهُمْ" عملهم الحسن أضعافا كثيرة "وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ" (18) عند اللّه في الآخرة "وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ" وافيا جزاء أعمالهم الحسنة "وَنُورُهُمْ" مشرق على الصّراط ، وفي طليعة هؤلاء العشرة المبشرون بالجنة "وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ" (19) في الآخرة تجحم أي تسخم فيها وجوه أهلها بدخانها أعاذنا اللّه منها وحمانا فيا أيها النّاس "اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ" فمثلها "كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ" ييبس وبعد خضرته

"فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً" هشيما متكسرا "وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ" لمن كانت حياته على هذه الصّفة التي قصها اللّه عن الكفار وفي مقدمتهم النّمرود وفرعون وأبو جهل وأضرابهم ، أما من يصرف أوقاته وأمواله في طاعة اللّه ورسوله والعمل الصالح فلهم عفو عام "وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ" شامل في الآخرة "وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ" (20) لمن كرس نفسه لها وأعرض عن الآخرة لقد عدّ اللّه تعالى في هذه الآية من زخارف الدّنيا خمسة ، وقد عدها في الآية 14 من آل عمران المارة سبعة ، وفي غيرها ثلاثة وأقل ، فالسعيد من اعتبر وترك قليلها وكثيرها رغبة فيما عند اللّه .

واعلم أن الغرور هو كلّ ما يمتع به الإنسان من مال أو جاه أو ولد ، وكلّ ما يغره وجوده لديه فيأمل دوامه وهو فان لا محالة فهو غرور .

ثم اعلم أن كلّ آية مصدرة بلفظ اعلموا أو اعلم تدل على أهمية ما تدعو إليه ووجوب أخذ ما فيها بعين الاعتبار والنّظر إليها بالتفكر والتدبر والتروي .

(54/746)

قال تعالى "سابِقُوا" أيها المؤمنون وتسابقوا "إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ" ففي مثل هذا تكون المسابقة أيها النّاس

وفي مثله تطلب المنافسة والتفاخر ويرغب بالتزايد والتكاثر لا في لعب الصّبيان ولهو الفتيات وزينة النساء وعذاب الأموال ووبال الأولاد ، راجع الآية 133 من آل عمران المارة

فيما يتعلق بقوله تعالى (عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ) لأنها نظيرتها إلّا أنها مصدرة بلفظ سارعوا ، وإلّا فأكثر ألفاظها تشابه هذه "ذِلكَ" الغفران والجنّة "فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ" من عباده فضلا منه "وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ 21" واعلم أنه يوجد في القرآن ستّ وخمسون آية مبدوءة بحرف السّين واعلموا أيها النّاس إن "ما أَصابَ" اللّه عباده وخلقه "مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ" من جدب وقلة ثمر وآفات للزروع والفروع "وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ" من الأمراض وفقد الأولاد والأموال وجمع الأكدار "إِلَّا" وهو ثابت مدون "فِي كِتابٍ" اللّه الأزلي مقصور وقوعه عليكم في الزمان والمكان "مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها" قبل خلق الأرض لأنها خلقت قبل البشر والجن وغيرهما وقبل خلق الأنفس ، لأن كلّ ما هو مقدر على الخلق من المصائب مدون عليهم قبل خلقهم ، وهذا يقول اللّه تعالى "إِنَّ ذِلكَ" أي إثباته في اللّوح المحفوظ قبل إيجاده للعيان مع كثرته "عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" (22) هين إذ لا يعسر عليه شيء ، وقد أخبركم بتقدير ذلك كله "لِكَيْلا تَأْسَوْا" تحزنوا وتهتموا "عَلى ما فاتَكُمْ" من الدّنيا ، لأن فواته محتم ، ولا يمكنكم الحصول عليه مهما طلبتموه "وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ" لأنه مقطوع

بوصوله إليكم ولو لم تطلبوه ، وهو لا يستوجب الفرح ، لأنه فإن وأنتم فانون ، وإن لم تتركوه يترككم .

(55/746)

وكثيرا ما يجر هذا الحطام إلى الفخر والخيلاء "وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ" (23) هذا والمراد بالحزن المذموم وهو المخرج صاحبه عن دائرة الصّبر والتسليم لأمر اللّه لا مطلق الحزن ، إذ لا يخلو إنسان منه ، كما ان المراد بالفرح الملهي عن الشّكر لا مطلق الفرح الذي تنبسط منه النّفس بالطبع ، فهذان لا بأس بهما وكذلك لا يحبّ "الَّذِينَ يَبْخَلُونَ" بأموالهم على فقراء اللّه التي منحهم اللّه إياها "وَ" مع هذا فإنهم "يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ" ويعرض عما أراده اللّه منه "فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ" عنه "الْحَمِيدُ" (24) لمن أطاعه .

قال تعالى "لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا" محمدا فمن قبله "بِالْبَيِّناتِ" الحجج الواضحة والبراهين السّاطعة الدّالة على رسالتهم "وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ" المتضمن

الشرائع التي أمروا بتبليغها لأقوامهم "وَالْمِيزانَ" أنزلناه معهم ليقيموا العدل بين أممهم ، لأن المراد بالميزان هنا العدل الذي به قوام مصالح النّاس وملاك أمورهم وجماع تآلفهم وتواددهم ، بدليل قوله "لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ" ولا يتظالموا فيما بينهم ، فيعتدي القوي على الضّعيف

والشّريف على الحقير لأنها فيه سواسية ، والتفاضل إنما يكون بالأعمال ، وقد يكون بالأموال والجاه والرّياسة المراعى فيها التقوى التي هي أساس كلّ خير من هذه الأشياء وغيرها .

مطلب في الحديد ومنافعه وكونه من معجزات القرآن وما يعمل منه وما يستخرج فيه ويحتاج إليه :

"وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ" أحد بركات الأرض الأربع التي منحها اللّه عباده من هباته الجليلة وتخصيصاته العظيمة ، والثاني الملح ، والثالث الماء ، والرّابع النّار ، أي أصلها وهو عنصر الأوكسجين ، وهذا من معجزات القرآن إذ تحقق لأهل هذا العصر أنه ينزل من السّماء .

(56/746)

قال الأستاذ الشّهير (ونودر فشلد) انه رأى ذرات الحديد في الثلج في شمالي سيبريا وأخبر عنه .

ومما يدل على عظمته إعادة العامل مع إمكان الاكتفاء بأداة العطف ووصفه بقوله جل قوله "فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ" ويطلق البأس على الحرب وعلى الموت ، وهذا أعظم الآلات المؤثرة فيها بتأثير اللّه تعالى ، وإنما نعته اللّه بهذا لما هو ثابت في علمه الأزلي المخبر عنه بقوله (وَيَخْلُقُ ما

لا تَعْلَمُونَ) الآية 8 من سورة النّحل في ج 2 ، أي ما لا تعلمونه من آلات الحرب والرّكوب التي ظهرت في هذا الزمن مما قد ينكرها العقل لو لا بروزها للعيان كالبرق والهاتف والرّاد والقطر والبواخر التي تسيرها قوة الكهرباء (والبوصلة) الإبرة المغناطيسية التي لولاها لما تمكن أصحاب البواخر من التوغل في البحار ، ولم يتسنّ لهم السّير في النّهار وقت الضّباب وتلبد الغيوم ، والإبرة الدّالة على ترطب الجو وحدوث الأمطار والعواصف وغيرها من العجائب والغرائب من سرعة سير بعض السّيارات الذي هو فوق العقل ، فضلا عن القذائف والصّواريخ والذرة وغيرها وما ندري ما يحدث بعد .

وللحديد دخل في العلاجات المهمة ومنافعه لا تعد ولا تدخل تحت الحصر ، ولولاه لاستحال اختراع الأشياء المار ذكرها وغيرها كالقطر

والبواخر التي هي كالجبال ، ولا شيء يقوم مقامه من المعادن وإن كانت أثمن منه ، كالفضة والذهب والأحجار الكريمة لأنها لا تصير سلاحا ، ولا دبابات ، ولا طائرات ولا ولا .

(57/746)

وخصوصا ما يتعلق بالكهرباء الذي لا يستغنى عنه في كثير من ذلك ، والذي هو سر من أسرار اللّه الذي لم يدرك البشر ماهيته ولا كيفيته حتى الآن ، ولهذا يقول اللّه تعالى

"وَمَنافِعُ" كثيرة فيه "لِلنَّاسِ" لا تحصى من الإبرة فما فوقها ، ولا غنى لأحد عنه ، وفي التعميم بعد التخصيص دلالة على عظيم حاجة البشر إليه "وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ" أي أنه أنزل هذه الأشياء ، لتلك الغايات المارة ولغيرها مما يظهره الزمان ، ويظهر للناس "مَنْ يَنْصُرُهُ" ويقيم دينه من خلقه باستعمال العدل الذي يمكن إجراؤه أولا برسائل النّصح والإرشاد والوعظ والزجر ، وثانيا باستعمال السّيف والرّمح والنّبل التي يقل فيها القتل وتؤثر في إجبار الباغي على إقامة العدل ، وثالثا بالبنادق والمدافع والقذائف والصّواعق ، ورابعا بالمدمرات الذرية والمهلكات الأخرى التي سيظهرها الزمن بما هو أعظم وأعظم ولا يقبله العقل مما سيعمله هذا البشر الذي انطوى فيه العالم الأكبر ، وسخر له اللّه الحجر والمدر والماء والنّار والهواء ، وجميع معادن الأرض الجامدة والسّائلة والقوية والرّخوة ليستخدمها فيما يظهره اللّه على يديه في إصلاح العالم وإفساده وإعماره وإبادته "وَ" يعلم من ينصر "رُسُلَهُ" الداعين إلى طريقه السّوي "بِالْغَيْبِ" أي ليؤمنوا به عن غير رؤية ويؤمنوا بالآخرة من غير مشاهدة ، فهؤلاء الكرام الّذين آمنوا باللّه ورسله وبذلوا نفوسهم لإقامة العدل بين النّاس وطهارة الأرض ممن يكفر باللّه وهو يأكل رزقه ، ويفسد ولا يصلح ، قبل أن يروه في الآخرة ، وقبل أن يشاهدوا ما وعدهم به على لسان رسلهم القائمين بتنفيذ أوامره ونواهيه في الدنيا ، الطائعين له الطّاعة المحمودة

المرجو ثوابها عنده .

واعلم أني كثيرا ما أستشهد بما يكون من غير المسلمين كما هي الحال هنا ولكن فيما يتعلق بأمور الدّنيا فقط لقوله تعالى (يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ) الآية 7 من سورة الروم في ج 2 تدبر وتيقن "إِنَّ اللَّهَ" على نصر هؤلاء وأمثالهم "قَوِيٌّ" قادر على توفيقهم لما يريدون وعلى نصرهم على أعدائهم وإظهار كلمتهم وإيقاع الخذلان بهم وإلقاء الرّعب في قلوب مناوئيهم "عَزِيزٌ" (25) غالب لا يقاوم منيع لا يحاط به قادر على قهر أعدائه دون تكليف خلقه ، وإنما أراد أن يكون النّصر على أيدي أوليائه ليكافئهم على ذلك في الآخرة .

قال تعالى "وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَإِبْراهِيمَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ" فلا نبي من بعدهما إلا وهو من نسلهما وإن من تقدمهما

كان من ذرية آدم "فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ" بهداية اللّه تعالى مقتف آثار أصوله الكرام "وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ" (26) خارجون عن الطّاعة ، وذلك بمقتضى ما هو مقدر في الأزل إذ جعل من ذريتهما من هو صالح لخلافته في أرضه ، ومن هو لايق لعبادته وخدمته ، ومن هو كافر مفسد لخلقه ولنفسه جاحد لربه ورسله وكتبه "ثُمَّ قَفَّيْنا" أتبعنا "عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا" واحدا تلو الآخر "وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ" الذي هو آخر أنبياء بني إسرائيل "وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ" ومشوا على دينه الحق في زمنه وإلى بعثة محمد صلى اللّه عليه وسلم "رَأْفَةً وَرَحْمَةً" وهاتان الخلتان من صفات أصحاب محمد الآتية في آخر سورة الفتح "وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها" من تلقاء أنفسهم ، وهذه الكلمة لم تكرر في القرآن ، وهذه الجملة غير معطوفة على ما قبلها ، كما أن جملة (ما كَتَبْناها) معترضة بينها وبين ما بعدها أي أن الرّهبانية جاؤا بها وألزموها أنفسهم "ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ" في الإنجيل الذي أنزلناه على رسولهم "إِلَّا" أنهم اخترعوها عفوا "ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ" عليهم ، وذلك لكمال زهدهم في الدّنيا وتشبههم برسولهم ، لأنه لم يتزوج وهو أزهد الأنبياء والرّسل عدا محمد صلوات اللّه عليهم وسلامه ، والرّاهب هو الخائف الخاشي الخاشع لربه الفار بدينه عن الافتتان مبالغة في ترك الدّنيا وإعراضهم عن شهواتها ، ولكنهم بعد أن أوجبوها على أنفسهم ومن بعدهم لم يقوموا بها كما ينبغي لها لقوله تعالى "فَما رَعَوْها" خلفهم من بعدهم "حَقَّ رِعايَتِها" كما أراد مبتدعوها لأن القصد منها التباعد عن الشّهوات والتجافي عن

الملذات والعكوف على العبادات ، وهؤلاء مع الأسف صار أكثرهم على العكس ، لأنهم انهمكوا في الدّنيا وانكبوا بكليتهم عليها وتوغلوا في الملاهي والمناهي ورغبوا في

(60/746)

زينة الدّنيا وزخارفها وحب المال والجاه والرّياسة ، واستحلوا لحوم الخنازير والخمرة ، وقد ذمّ سيدنا عيسى عليه السّلام الخنزير بقوله تجعلون الدّراري في أعناق الخنازير وقال لا أشرب بنت الكرم بعد اليوم .

وكان عيسى عليه السّلام لا يشربها أبدا ، وكان لا يأتي النّساء مع قدرته ترهبا وهضما لنفسه ، وهو أول من سن المعمودية راجع الآية 7 فما بعدها من سورة مريم ج 2 تقف على مزاياه عليه السّلام ، وقال عيسى عليه السّلام : من نظر إلى امرأة أجنبية يشتهيها فهو يزني ، والآن اختلطت نساؤهم برجالهم وتركوا الختان وهو سنة ابراهيم ، والغسل من الجنابة وهو من سنن الأنبياء وحرموا الطّلاق وهو ما لم يحرمه افقهم لما يحبه ويرضاه من الأعمال .

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثلاثة لهم أجران رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ، والعبد المملوك الذي أدى حق مواليه وحق اللّه ، ورجل كانت عنده أمة يطأها فأدبها وأحسن تأديبها وعلمها

وأحسن

تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران .

ولما سمع أهل الكتاب هذه الآية قالوا للمسلمين من آمن بكتابكم فله أجران ومن لم يؤمن فله أجر واحد مثلكم فما فضلكم علينا ؟

حينئذ أنزل اللّه تعالى "لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ" أي على تخصيص شيء من فضل اللّه ان لم يؤمنوا بمحمد ، لأن لهم جرين إذا آمنوا وإلّا فلا أجر لهم البتة "وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ" (29) الذي لا أعظم منه .

(61/746)

واعلم أن "لا" هنا ليست بزائدة ولم يؤت بها لتحسين الكلام فقط ، بل هي نافية ، لان الضّمير في قوله لا يقدرون عائد إلى الرسول وأصحابه ، والتقدير هو إنما فعلنا ذكر لئلا يعتقد أهل الكتاب أنهم يقدرون على حصر فضل اللّه وإحسانه بأقوام معينين ، وليعتقدوا (أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ) إلخ الآية ، وهذا التأويل على هذا والتفسير به أولى من جعل لا زائدة ، لأن فيها إضمار كلمة (وليعتقدوا) وفي تلك حذف كلمة (تخصيص شيء من فضل

اللّه) والإضمار أوفى للمعنى من الحذف ، لأن الكلام إذا افتقر للاضمار لم يوهم ظاهره باطلا أصلا ، أما إذا افتقر إلى الحذف كان ظاهره موهما ذلك .

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد موسى الأشعري عن النّبي صلى اللّه عليه وسلم قال مثل المسلمين واليهود والنّصارى كمثل رجل استأجر قوما يعملون له إلى اللّيل على أجر معلوم ، فعملوا إلى نصف النّهار فقالوا لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا وما عملناه باطل ، فقال لهم اعملوا بقية يومكم لكم وخذوا أجركم كاملا ، فأبوا واستأجر آخرين بعدهم ، فقال اعملوا بقية يومكم لكم الذي شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان صلاة العصر قالوا ما عملناه باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه ، فقال أكملوا بقية يومكم فإن ما بقي من النهار يسير ، فأبوا فاستأجر قوما أن يعملوا بقية يومهم ، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين كليهما ، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النّور اى أن اليهود والنّصارى لم ينفعهم عملهم لا متناعهم من إكماله ، وإن المسلمين أكملوا عملهم الذي أمروا به ففازوا بنفعه كله في الآخرة .

هذا واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلّا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه وسلم على محمد وآله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 6 صـ 5 . 19 ﴾

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الحديد

مكية أو مدنية

الحكيم تام وكذا قدير وعلم وعلى العرش وما يعرج فيها وكذا أينما كنتم بصير تام والأرض كاف الامور حسن بذات الصور تام بالله كاف وكذا مستخلفين فيه كبير حسن مؤمنين تام وكذا إلى النور رحيم حسن وكذا والأرض وقاتل تام وكذا وقاتلوا والحسنى وخبير وكل من الاخيرين أتم مما قبيله وبأيمانهم كاف خالدين فيها صالح العظيم وكذا فالتمسوا نورا من قبله العذاب كاف معكم صالح الغرور كاف من الذين كفروا حسن هي مولاكم كاف المصير تام وكذا فاسقون وتعقلون كريم حسن الصديقون تام وكذا ونورهم والجحيم حطاما حسن ورضوانا تام وكذا الغرور ورسله كاف وكذا من يشاء العظيم تام أن نبرأها كاف وليس بجيد حتى تأتي بقوله لكيلا تأسوا بما آتاكم حسن كل مختا فخور كاف ام جعل ما بعده مبتدأ لخبر محذوف ولا يوقف عليه إن جعل صفة له بالبخل حسن الحميد تام بالقسط كاف وكذا ورسله بالغيب عزيز تام فاسقون كاف وكذا الإنجيل رأفة ورحمة تام ورضوان

الله صالح منهم أجرهم كاف فاسقون تام ويغفر لكم كاف وكذا من يشاء آخر السورة تام .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(63/746)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الحديد

مكية أو مدنية كلمها خمسمائة وأربع وأربعون كلمة وعلى قراءة نافع وابن عامر ثلاثة وأربعون كلمة وحروفها ألفان وأربعمائة وست وسبعون حرفاً وآيها ثمان أو تسع وعشرون آية 0

والأرض (حسن)

الحكيم (تام)

والأرض (حسن) إن جعل يحيي ويميت مستأنفاً خبر مبتدأ محذوف وليس بوقف إن جعل حالاً من المجرور في له والجار عاملاً فيه أي له ملك السموات والأرض محيياً ومميتاً ومعنى يحيي أي يحيي النطف بعد أن كانت أمواتاً ثم يميتها بعد أن أحياها 0

يحيي ويميت (كاف) ومثله قدير والباطن وعليم والعرش على استئناف ما بعده 0

وما يعرج فيها (حسن)

أينما كنتم (أحسن) مما قبله 0

بصير (تام)

والأرض (حسن)

وإلى الله ترجع الأمور (كاف) على استئناف ما بعده وجائزان جعل حالاً ومعنى يولج

ينقص الليل ويزيد في النهار حتى يصير النهار خمس عشرة ساعة ويصير الليل تسع ساعات

ويولج النهار في الليل وكذلك يفعل بالنهار حتى يصير تسع ساعات 0

في الليل (كاف)

بذات الصدور (تام)

بالله ورسوله (كاف) ومثله فيه وقال نافع تام

كبير (تام)

بالله ليس بوقف لأنَّ الواو في والرسول للحال لا للعطف فهو مبتدأ في موضع الحال من تؤمنون

لتؤمنوا بربكم (جائز)

مؤمنين (تام)

إلى النور (حسن)

رحيم (كاف)

في سبيل الله ليس بوقف لأنَّ الواو في والله واو الحال 0

والأرض (حسن)

وقاتل (كاف) ومثله وقاتلوا وكذا الحسنى 0

خبير (تام)

حسناً (حسن) لمن قرأ فيضاعفه بالرفع أي فهو يضاهفه وهو أبو عمرو ونافع وحمزة

والكسائي وليس بوقف لمن قرأه بالنصب على جواب الاستفهام وبه قرأ عاصم وابن عامر

كقولك أتقوم فأحدّثك بالنصب أي أيكون منك قيام فحديث مني 0

كريم (كاف) إن جعل العامل في يوم مصمراً وليس بوقف إن جعل متصلاً بما قبله أي ولهم

أجر كريم في ذلك اليوم ولا يوقف على المؤمنات لأنَّ المعنى في يسعى وبأيمانهم 0

خالدين فيها (جائز)

(64/746)

العظيم (كاف) إن نصب الظرف بعده بفعل مضمر وليس بوقف إن نصب بدلاً من الظرف

قبله ومثله في عدم الوقف إن نصب بالفوز ونصبه به لا يجوز لأنَّه مصدر قد وصف قبل

أخذ متعلقاته فلا يجوز إعماله لأنَّ من شرطه أن لا يتبع قبل العمل لأنَّ معمول المصدر من

تمامه ويلزم عليه الفصل بأجنبي ومثله اسم الفاعل فلو أعمل وصفه وهو العظيم لجاز أي الفوز الذي عظم قدره يوم يقول المنافقون والمنافقات والشرط في عمله النصب للمفعول به لا في عمله في الظرف والجار والمجرور لأنَّ الجوامد قد تعمل فيه مع عمل المتعلق

من نوركم (جائز)

فالتمسوا نوراً (حسن) وقيل بسور وفيه نظر لأنَّه نكرة وما بعده صفتها وقال نافع باب وفيه نظر أيضاً لأنَّ ما بعده متعلق به وقيل يجوز وما بعده من صفة السور لا من صفة الباب وقال ابن نصير النحوي 0

العذاب (كاف)

ألم نكن معكم (جائز) ومثله أنفسكم

بلى ليس بوقف وإن وجد مقتضى الوقف وهو تقدّم الاستفهام على بلى لتكون جواباً له إلاَّ أنَّ الفعل المضمر بعدها قد أبرز فصارت هي مع ما بعدها جواباً لما قبلها كما يأتي نظيره في قوله ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا 0

حتى جاء أمر الله (جائز)

الغرور (كاف)

ولا من الذين كفروا (حسن)

هي مولاكم (أحسن) منه

المصير (تام)

لذكر الله ليس بوقف لأنَّ ما بعده عطف على ما قبله 0

وما نزل من الحق (جائز) إن كانت لا ناهية وإن كانت عاطفة كان متصلاً فلا يقع عما قبله 0

فقست قلوبهم (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل في موضع الحال 0

فاسقون (تام)

بعد موتها (حسن)

تعقلون (تام)

كريم (كاف) والذين مبتدأ وأولئك مبتدأ ثان وهم مبتدأ ثالث والصديقون خبر عن هم وهو مع خبره خبر الثاني والثاني وخبره خبر الأول ويجوز أن يكون هم فصلاً وأولئك وخبره خبر الأول والشهداء عطف على ما قبله 0

(65/746)

والشهداء (تام) لأنَّه أخبر عن الذين آمنوا أنَّهم صديقون شهداء وإن جعل قوله والشهداء مبتدأ خبره عند ربهم أولهم كان الوقف على الصديقون تاماً

ونورهم (تام) لانتقاله من وصف الشهداء إلى وصف أهل النار 0

الجحيم (تام) ولا وقف من قوله اعلموا إلى حطاماً لاتصال الكلام بعضه ببعض فلا يوقف

على بينكم ولا على الأولاد ولا على كمثل غيث ولا على نباته ولا على مصفراً لأنَّ

العطف صيرها كالشيء الواحد 0

حطاماً (حسن)

عذاب شديد ليس بوقف لأنَّ ما بعده عطف على ما قبله

ورضوان (تام) ومثله متاع الغرور بضم الغين المعجمة الباطل وما تقدم بفتحها الشيطان

كعرض السماء والأرض ليس بوقف لأنَّ أعدت من صفة الجنة فلا يقطع 0

بالله ورسله (كاف) ومثله من يشاء 0

العظيم (تام)

أن نبرأها (كاف)

يسير ليس بوقف لتعلق اللام بما قبلها أي جعلنا هذا الشيء يسيراً لكي لا تأسوا فإذا علم

العبد ذلك سلم الأمر لله تعالى فلا يحزن على ما فات وإن علقت اللام بمحذوف أي ذلك

لكي لا جاز الوقف على يسير والابتداء بقوله لكي لا

بما أتاكم (كاف)

فخور (تام) إن رفع الذين بالابتداء وما بعده الخبر وإن رفع خبر مبتدأ محذوف أو نصب

بتقدير أعني كان كافياً وليس بوقف إن جعل بدلاً من كل مختال وكذا لو جعل صفة له

بالبخل (حسن)

الحميد (تام)

بالبينات (جائز)

بالقسط (حسن)

بأس شديد ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله

ومنافع للناس (تام) عند نافع إن علق ما بعده بفعل مقدر وليس بوقف إن عطف على ليقوم

بالغيب (كاف)

عزيز (تام)

والكتاب (جائز) ومثله مهتد

فاسقون (تام)

برسلنا (جائز) ومثله بعيسى ابن مريم وكذا آتيناه الإنجيل

(66/746)

ورحمة (تام) ويبتدئ ورهبانية ابتدعوها أي وابتدعوا رهبانية ابتدعوها فهو من باب اشتغال الفعل بضميره فالرهبانية لم تكتب عليهم وإنَّما ابتدعوها ليتقربوا بها إلى الله تعالى ومن عطفها على ما قبلها وقف على رضوان الله والرهبانية التي ابتدعوها هي رقص النساء واتخاذ الصوامع ما كتبناها عليهم ولا أمرناهم بها فرهبانية منصوبة بابتدعوها لا بجعلنا وجعل ابتدعوها صفة أي وجعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة

رضوان الله (جائز) ومثله حق رعايتها

منهم أجرهم (كاف)

فاسقون (تام) ولا وقف من قوله يا أيها الذين آمنوا إلى قوله ويغفر لكم فلا يوقف على برسوله ولا على من رحمته ولا على تمشون به لعطفها على وآمنوا برسوله

يغفر لكم (كاف)

غفور رحيم ليس بوقف لأنَّ قوله لئلا يعلم متصل بيؤتكم أي أعطاكم نصيبين من رحمته وغفر لكم لأن يعلم أهل الكتاب أنَّهم لا يقدرون على شيء من فضل الله فعلى هذا لا يوقف على يغفر لكم

بيد الله (جائز)

من يشاء (كاف)

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الحديد :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ : "بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم1" ، بكسر الهمزة – سهل بن شعيب النهمي .

قال أبو الفتح : قوله "وَبِأَيْمَانِهِمْ" معطوف على قوله : "بَيْنَ أَيْدِيهِمْ" .

فإن قلت : فإن قوله : "بَيْنَ أَيْدِيهِمْ" ظرف ، وقوله : "بِأَيْمَانِهِمْ" ليس ظرفا . ألا ترى أنه ليس معناه يسعر في إيمانهم ؟ فكيف يجوز أن يعطف على الظرف ما ليس ظرفا ، وقد علمت أن العطف بالواو نظير التثنية ، والتثنية توجب تماثل الشيء ؟

قيل : الظرف الذي هو بين أيديهم معناه الحال ، وهو متعلق بمحذوف ، أي : يسعى كائنا بين أيديهم ، وليس بين أيديهم متعلقا بنفس يسعى ، كقولك : سعيت بين القوم ، وسعيت في حاجتي . وإذا كان الظرف هنا في موضع الحال جاز أن يعطف عليه الباء وما جرته ، حتى كأنه قال : يسعى كائنا بين أيديهم ، وكائنا بإيمانهم ؛ أي : إنما حدث السعى كائنا بإيمانهم ،

كقول الله "تعالى" : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ2 ﴾ ، أي : ذلك كائن بذلك .

فعلى هذا التقدير يجب أن يكون قوله : "وبإيمانهم" . فأما أن يعلق "بين" بنفس "يسعى" يعطف عليه "بإيمانهم" فلا ؛ لما تقدم .

ومن ذلك قراءة سماك بن حرب3 : "وَغَرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ4" ، بضم الغين .

---

1 سورة الحديد : 12 .

2 سورة الحج : 10 .

3 هو سماك بن حرب بن أوس البكري الذهلي أبو المغيرة الكوفي ، أحد الأعلام التابعين . روى عن جابر بن سمرة والنعمان بن بشير وغيرهما ، وروى عنه الأعمش وشعبة وإسرائيل وخلق . وثقة أبو حاتم وابن معين . مات سنة 123 . الخلاصة : 132 .

4 سورة الحديد : 14 .

قال أبو الفتح : هو كقوله : وغركم بالله الاغترار ، وتقديره على حذف المضاف ، أي : وغركم بالله سلامة الاغترار ، ومعناه سلامتكم منه مع اغتراركم .

ومن ذلك قراءة الحسن : "أَلَمْا يَأْنِ لِلَّذِينَ" ، مثقلة .

قال أبو الفتح : أصل "لما" لم ، زيد عليها ما ، فصارت نفيا لقوله : قد كان كذا ، و"لم" ونفي فعل . تقول : قام زيد ، فيقول المجيب بالنفي : لم يقم . فإن قال : قد قام . قلت : لما يقم ، لما زاد في الإثبات "قد" – زاد في النفي "ما" ، إلا أنهم لما ركبوا "لم" مع "ما" – حدث لها معنى ولفظ .

أما المعنى فإنها صارت في بعض المواضع ظرفا ، فقالوا : لما قمت قام زيد ، أي : وقت قيامك قام زيد .

وأما اللفظ . فلأنها جاز أن يقف عليها دون مجزومها ، كقولك : جئت ولما ، أي : ولما تجئ . ولو قلت : جئت ولم – لم يجز .

فإن قلت : فقد علمنا أن أصل لما – على ما وصفت – "لم" و"ما" – حدث لها معنى ولفظ .

أما المعنى فإنها صارت في بعض المواضع ظرفا ، فقالوا : لما قمت قام زيد ، أي : وقت قيامك قام زيد .

وأما اللفظ . فلأنها جاز أن يقف عليها دون مجزومها ، كقولك : جئت ولما ، أي : ولما تجيء . ولو قلت : جئت ولم – لم يجز .

فإن قلت : فقد علمنا أن أصل لما – على ما وصفت – "لم" و"ما" ، وهما حرفان2 ، وأما الظرف فاسم ، فكيف جاز للحرف أن يستحيل ، فيصير اسما ؟

قيل : كما استحال الاسم لما ركب مع الحرف ، فاعتد مجموعهما حرفا في قولهم : إذ ما تقم أقم . ألا ترى أن سيبويه ذكر "إذ ما" في الحرف ، وقرنها بإن [157و] في الشرط ؟ وذلك أن التركيب يحدث للمركبين حكما مستأنفا ، ويخلقه خلقا مرتجلا . ألا ترى إلى قولهم : بأبأت الصبي : إذا قلت له : بأبي أنت ، والباء في أوله مزيدة للجر ، والثانية أيضا قد يمكن أن تكون للجر كررت ، إلا أنك إذا مثلت قلت : هو فعللت ، فجعلت الباء الزائدة للجر مقابلة للفاء ؟ وكذلك قولهم : بسملت ، فالباء من قولهم : "بسم الله" ، والسين فاء "اسم" ، واللام عين إله ، ثم إنك إذا مثلت بسملت قلت : هو فعللت ، ومثله حوقلت : إذا قلت : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ومثال حرقلت : فوعلت ، والواو – كما ترى – زائدة ،

---

1 سورة الحديد : 16 .

2 في ك : ولما ، وهو تحريف .

وهي عين حول في الأصل . أفلا ترى إلى استحالة أحوال الحروف من الزيادة إلى الأصل ، ومن الأصل إلى الزيادة ؟ وهذا كقول الله سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ 1 ﴾ .

ومن ذلك قراءة الحسن : "وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيل2" ، بفتح الهمزة .

قال أبو الفتح : هذا مثال لا نظير له ؛ لأنه أفعيل ، وهو عندهم من تجلت الشيء : إذا استخرجته ؛ لأنه حال الحرام من الحلال ، كما قيل لنظيره : التوراة ، وهي فوعلة من ورى الزند يرى : إذا أخرج النار ، ومثله الفرقان ، وهو فعلان من فرق بين الشيئين .

قال أبو النجم :

تنجل أيديهن كل منجل3

يصف أيدي الإبل ، وإنها في سيرها تثير الأرض ، وتستخرج باطنها . فعلى هذا لا يجوز فتح الهمزة ؛ لأنه لا نظير له . وغالب الظن وأحسنه به – أن يكون ما قرأه . إلا عن سماع ، فإن يكن كذلك فشاذ شذ ، كما قال بعضهم في البرطيل : البرطيل ، ونحو منهما ما حكاه أبو زيد من قولهم : السكينة بفتح السين ، وتشديد الكاف . وربما ظن "الأنجيل" أعجميا فأجرى عليه بتحريف مثاله .

ومن ذلك قراءة الحسن : "لِيلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ4" ، بنصب اللام5 ، وبجزم الياء ، ولا يهمز .

قال أبو الفتح : حكاه قطرب – فيما رويناه عنه – "ليلا" ، بكسر اللام ، وسكون الياء ، وقال : حذف همزة "أن" ، وأبدل "النون" ياء ، هكذا قال .

والذي حكاه ابن مجاهد : بفتح اللام ، وسكون الياء .

وما ذكره قطرب من الكسر أقرب ؛ وذلك أنه إذا حذف "الهمزة" بقى بعد ذلك "لئلا" ،

1 سورة المؤمنون : 14 .

2 سورة الحديد : 27 .

3 تنجل أيديهن : تثير أخفافها الكمأة ، وتظهرها . وانظر الصفحة 152 من الجزء الأول .

4 سورة الحديد : 29 .

5 في ك : يفتح .

فيجب إدغام النون في اللام ، فيصير اللفظ "للا" ، فتجتمع اللامات ، فتبدل الوسطى لإدغامها وانكسار ما قبلها ، فتصير "ليلا" ، كما أبدلوا راء قراط ، ونو دنار لذلك ، فقالوا : قيراط ، ودينار – وميم دماس ، فقالوا كذلك : ديماس 1 ، فيمن قال : دماميس وباء دباج ، فقالوا : ديباج ، فيمن قال دبابيج .

وأما فتح اللام من "ليلا" فجائز هو البدل جميعا ، وذلك أن منهم من يفتح لام الجر مع الظاهر .

حكى أبو الحسن عن أبي عبيدة أن بعضهم قرأ : "وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ 2" ،

وحسن ذلك أيضا مع "أن" لمشابهتها المضمر، كما يشبه المضمر الحرف، فيبنى. وعليه اختاروا: "وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا3"، فجعلوا اسم كان "أن قالوا"، لأنه ضارع المضمر بالامتناع من وصفه، كالامتناع من وصف المضمر. والمضمر أعرف من "جواب قومه". وإذا كان أعرف كان بكونه اسم كان [157ظ] أجدر؟

وأما إبداله أحد المثلين مع الفتح فقد جاء ذلك، ألا ترى إلى قوله سعد بن قرط:

يا ليتما أمنا شالت نعامتها أيما إلى جنة أيما إلى نار4؟

يريد: أما بالفتح.

ومثله ما رويناه عن قطرب أيضا من قول الراجز:

لا تفسدوا آبالكم أيما لنا أيما لكم5

فاجتمع من ذلك أن صار اللفظ إلى "ليلا"، وعليه قال الخليل: في لن: إن أصلها لا أن، فحذف الهمزة تخفيفا، والألف لالتقاء الساكنين. انتهى انتهى. اهـ ﴿المحتسب حـ2 صـ310.313﴾

---

1 الديماس – بفتح الدال وتكسر –: الكن، والسرب، والحمام.

2 سورة إبراهيم: 46.

3 سورة الأعراف: 82.

4 انظر الصفحة 42 من الجزء الأول .

5 انظر الصفحة 284 من الجزء الأول .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الحديد

مدنية وقيل مكية وآيها عشرون وثمان غير عراقي وتسع فيه خلافها ثنتان من قبله العذاب كوفي وآتيناه الإنجيل بصري مشبه الفاصلة خمسة نورا بسورة الصديقون عذاب شديد بأس شديد القراآت قرأ ( ) وهو معكم ( ) بسكون الهاء قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر

وقرأ ( ) ترجع الأمور ( ) الآية 5 بفتح التاء وكسر الجيم ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب واختلف في ( ) أخذ ميثاقكم (الآية 8 فأبو عمرو بضم الهمزة وكسر الخاء مبنيا للمفعول وميثاقكم بالرفع على النيابة وافقه اليزيدي والحسن والباقون بفتح الهمزة والخاء مبنيا للفاعل وهو الله تعالى وميثاقكم بالنصب على المفعولية والجملة في موضع الحال من مفعول يدعوكم

وقرأ (ينزل) الآية 9 بسكون النون وتخفيف الزاي ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب ومر بالبقرة وقصر همز رؤف أبو عمرو وابو بكر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف وأما تسهيل همزة فقد تقدم أنها انفرادة للحنبلي عن ابن وردان فلا يقرأ بها حمزة في الوقف على أصله من التسهيل بين بين وحكي إبدالها واوا ولا يصح

واختلف في ﴿ (وكل وعد الله) ﴾ الآية 10 هنا فابن عامر برفع اللام على أنه مبتدأ ووعد الله الخبر والعائد محذوف أي وعده الله قال أبو حيان وقد أجازه القراء وهشام وورد في السبعة فوجب قبوله انتهى والبصريون لا يجيزون هذا إلا في الشعر قال السمين لكن نقل ابن مالك إجماع الكوفين والبصرين عليه إذا كان المبتدأ كلا أو ما أشبهها في الافتقار والعموم والباقون بالنصب مفعولا أول لوعد تقدم على فعله أي وعد الله كلهم الحسنى وخرج بالتقييد بهنا موضع النساء المتفق على نصبه لإجماع المصاحف عليه

وقرأ (فيضاعفه) الآية 11 بألف بعد الضاد ورفع الفاء على الاستئناف نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وقرأ ابن كثير وأبو جعفر بغير ألف وتشديد العين ورفع

الفاء وقرأ ابن عامر ويعقوب كذلك لكن بنصب الفاء على إضمار أن وقرأ عاصم بالألف وتخفيف العين ونصب الفاء كما مر بالبقرة

وأمال ( ) ترى المؤمنين ( ) الآية 12 وصلا السوسي بخلفه وقرأ الباقون بالفتح وبه قرأ السوسي في وجهه الثاني وأماله وقفا أبو عمرو وحمزة والكسائي وكذا خلف وابن ذكوان من طريق الصوري ووافقهم الأعمش وقرأ ورش من طريق الأزرق بالتقليل واختلف في (انظرونا) الآية 13 فحمزة بقطع الهمزة المفتوحة في الحالين وكسر الظاء من الإنظار أي أمهلونا وافقه المطوعي والباقون بوصل الهمزة وضم الظاء من نظر بمعنى انتظر كالقراءة الأولى وذلك أنه يسرع بالخلص إلى الجنة على نجب فيقول المنافقون انتظرونا لأنا مشاة ولا نستطيع لحوقكم ويجوز أن يكون من النظر وهو الإبصار وأشم قيل هشام والكسائي ورويس

وأمال بلى حمزة والكسائي وخلف وشعبة بخلفه وبالفتح والصغرى الأزرق وأبو عمرو من روايتيه كما مر وأن قصر الخلاف في الطيبة على الدوري

وقرأ (الأماني) الآية 14 بتخفيف الياء مع سكونها أبو جعفر وتقدم اتفاقهم على فتح حتى وأسقط الأولى من جاء أمر قالون والبزي وأبو عمرو ورويس بخلفه وسهل ورش وقنبل وأبو جعفر ورويس في ثانية وللأزرق أيضا إبدالها ألفا مع إشباع المد وكذا قنبل وله ثالث إسقاط الأولى كالبزي والباقون بتحقيقهما

واختلف في) لا يؤخذ (الآية 15 فابن عامر وابو جعفر ويعقوب بالتاء من فوق لتأنيث فاعله لفظا وافقهم الحسن والباقون بالياء من تحت لكونه مجازيا وعن الحسن ألما يأن بفتح الميم مشددة وبعدها ألف

واختلف في ( ) وما نزل ( ) الآية 16 فنافع وحفص ورويس من طريق أبي الطيب عن التمار عنه بتخفيف الزاي ثلاثيا لازما مبنيا للفاعل وهو الضمير العائد لما الموصولة والباقون بتشديدها معدى بالتضعيف مسندا لضمير اسم الله تعالى وعن الأعمش بضم النون وكسر الزاي مشددة مبنيا للمفعول

(73/746)

واختلف في ( ) ولا يكونوا (الآية 16 فرويس بالتاء من فوق على الخطاب للالتفات والباقون بياء الغيب على السياق وتقدم الخلف عن الأزرق في تغليظ لام فطال للفصل بالألف وإن رجح التغليظ كما في النشر

واختلف في ( ) المصدقين والمصدقات (الآية 18 فابن كثير وأبو بكر بتخفيف الصاد فيهما من التصديق أي صدقوا الرسول أي آمنوا بما جاء به وافقهما ابن محيصن والباقون بالتشديد فيهما من تصدق أعني الصداقة والأصل المتصدقين والمتصدقات أدغم التاء في

الصاد

وقرأ ﴿ يضعف ﴾ الآية 18 بتشديد العين بلا ألف ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب والباقون بالألف مع التخفيف

وأمال (الدنيا) حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق وابو عمرو وعن الدوري عنه تمحيضها وقرأ رضوان بضم الراء أبو بكر

واختلف في ﴿ بما أتاكم ﴾ الآية 23 فأبو عمرو بقصر الهمزة من الإتيان أي بما جاءكم وفاعله ضمير ما وافقه الحسن والباقون بالمد من الإيتاء أي بما أعطاكم الله إياه ففاعله ضمير اسم الله المقدم والمراد الفرح الموجب للبطر والاختيال ولذا عقبه بقوله ( ) لا يحب كل مختال فخور ( ) وأمالها حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق بخلفه ويتحصل له من تثليث مد البدل مع ذلك خمس طرق تقدم بيانها في الإمالة وغيرها

وقرأ (البخل) الآية 24 بفتح الباء والخاء وحمزة والكسائي وخلف والباقون بالضم والسكون واختلف في إثبات (وهو) في ( ) فإن الله هو الغني الحميد (فنافع وابن عامر وأبو جعفر بحذفها على جعل الغني خبر إن والباقون بإثباتها فصلا بين الاسم والخبر كما هو الأكثر ويسميه البصريون فصلا أي بفصل الخبر عن الصفة والكوفيون عمادا وأعرب بعضهم هو مبتدأ وخبره الغني والجملة خبر إن واستحسن أبو علي كونه فصلا فقط لا مبتدأ

لأن حذف المبتدأ غير سائغ أي رجح فصليته لحذف في القراءة الأخرى وأسكن أبو عمرو سين رسلنا

(74/746)

وقرأ ﴿ إبراهام) ﴾ الآية 26 بالألف مكان الياء ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان

وقرأ (النبوة) بالهمزة نافع وفتح همز (رأفة) ممدودة على وزن رعافة قنبل من طريق ابن شنبوذ وسكنها كالباقين من طريق ابن مجاهد كما مر بالنور وأبدل همزها الأصبهاني وأبو عمرو بخلفه وأبو جعفر وأمال هاءها مع الفتحة قبلها الكسائي وقفا كحمزة بخلفه وتقدم ضم راء ( ) رضوان الله (لشعبة وأبدل همز لئلا ياء مفتوحة الأزرق

المرسوم في المدني والشامي فإن الله الغني بغير هو وفي المكي والعراقي بإثباتها وفي الشامي وكل وعد الله بلا ألف واتفقوا على وصل ياء لكي بلا لكيلا تأسوا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(75/746)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الحديد "

" وهو " كله والآخر ، والظاهر ميراث ، قيل ، وظاهره ، جاء أمر ، مأواكم ، وبئس ، كله واضح .

" ترجع الأمور " قرأ الشامي ويعقوب والأخوان وخلف بفتح التاء وكسر الجيم والباقون بضم التاء وفتح الجيم .

" وقد أخذ ميثاقكم " قرأ أبو عمرو بضم الهمزة وكسر الخاء ورفع القاف وغيره بفتح الهمزة والخاء ونصب القاف .

" ينزل " قرأ المكي والبصريان بالتخفيف وغيرهم بالتشديد .

" لرءوف " قصر الهمزة البصريان وشعبة والأخوان وخلف ومدها غيرهم ولا يخفى ما فيه من ثلاثة البدل لورش وما فيه لحمزة وقفا من التسهيل .

" وكلا وعد الله الحسنى " قرأ ابن عامر برفع لام وكلا وغيره بنصبها .

" فيضاعفه " قرأ ابن كثير وأبو جعفر بحذف الألف وتشديد العين ورفع الفاء . وابن عامر ويعقوب كذلك ولكن مع نصب الفاء وعاصم بالألف وتخفيف العين ونصب الفاء ونافع وأبو عمرو والأخوان وخلف كذلك ولكن مع رفع الفاء .

" انظرونا " قرأ حمزة . بقطع الهمزة مفتوحة في الحالين مع كسر الظاء وغيره بهمزة وصل

ساقطة في الدرج ثابتة مضمومة في الابتداء مع ضم الظاء .

" الأماني " قرأ أبو جعفر بتخفيف الياء ساكنة وغيره بتشديها مضمومة .

" يؤخذ " قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بالتاء الفوقية وغيرهم بالياء التحتية .

" المصير " آخر الربع .

الممال

استوى ويسعى وبلى ومأواكم ومولاكم بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ولا تقليل للبصري في مأواكم ولا في مولاكم لأن كلا على وزن مفعل . النهار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش . الحسنى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، ترى المؤمنين لدى الوقف عليه وبشراكم بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش ، وإن وصا ترى بما بعده فللسوسي الإمالة والفتح . جاء لحمزة وخلف وابن ذكوان

المدغم

" الكبير " أقسم بمواقع . وتصلية جحيم . يعلم ما ، فضرب بينهم .

" نزل " قرأ نافع وحفص بتخفيف الزاي وغيرهما بتشديدها .

" ولا يكونوا " قرأ رويس بتاء الخطاب وغيره بياء الغيبة .

" فطال " فيه تغليظ اللام لورش وترقيقها :

" عليهم الأمد " وكثير . ومغفرة ، فيه . بأس ، النبوة ، وكثير . اتبعوه ، يقدرون ، كله جلي .

" المصدقين والمصدقات " قرأ ابن كثير وشعبة بتخفيف الصاد فيهما وغيرهما بالتشديد واتفقوا على تشديد الدال .

" يضاعف " قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بحذف الألف وتشديد العين والباقون بإثبات الألف وتخفيف العين ولا خلاف بينهم في رفع الفاء .

" ورضوان " ضم الراء شعبة وكسرها غيره .

" نبرأها " وقف عليه حمزة بتسهيل الهمزة فحسب .

" تأسوا " أبدل الهمزة مطلقا ورش ، وأبو جعفر والسوسي . وفي الوقف حمزة .

" آتاكم " قصر الهمزة أبو عمرو ومدها غيره . ولا تخفى الأوجه الأربعة لورش .

" بالبخل " قرأ الأخوان وخلف بفتح الباء الموحدة والخاء والباقون بضم الباء وإسكان الخاء .

" فإن الله هو الغني " قرأ المدنيان وابن عامر بحذف لفظ " هو " والباقون بإثباته .

" رسلنا " معا أسكن السين أبو عمرو وضمها غيره .

" وإبراهيم " قرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها وغيره بكسر الهاء وياء بعدها .

" رأفة " اتفق العشرة على قراءته بإسكان الهمزة فالمكي كغيره ، وأبدل همزه مطلقا السوسي وأبو جعفر وفي الوقف حمزة .

" رضوان " تقدم حكمه آنفا .

" لئلا " قرأ ورش بإبدال الهمزة ياء خالصة مكسورة في الحالين ، وكذلك قرأ حمزة إن وقف له فيها التحقيق أيضاً والباقون بتحقيقها في الحالين .

" العظيم " آخر السورة وآخر الربع .

الممال

الدنيا معا بعيسى لدى الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . فتراه بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش . آتاكم بالإمالة للأصحاب والتقليل ورش بخلف عنه . للناس لدوري البصري .

" آثارهم " بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش .

المدغم

" الصغير " ويغفر لكم للبصري بخلف عن الدوري .

" الكبير " العظيم ما . فإن الله هو . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 322.320 ﴾

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الحديد

قوله تعالى ﴿ وقد أخذ ميثاقكم ﴾ يقرأ بفتح الهمزة ونصب ميثاقكم وبضم الهمزة ورفع ميثاقكم فالحجة لمن فتح انه جعله فعلا لفاعل فنصب ميثاقكم بتعدي الفعل اليه والحجة لمن ضم انه بنى الفعل لما لم يسم فاعله فدل بالضمة عليه ورفع ميثاقكم باسم ما لم يسم فاعله والالف في الوجهين الف اصل

قوله تعالى ﴿ وكلا وعد الله الحسنى ﴾ يقرأ بالنصب والرفع فالحجة لمن نصب كلا انه اعمل فيه وعد مؤخرا كما يعملها مقدما والحجة لمن رفع انه ابتدأ كلا وجعل الفعل بعده خبرا عنه وعداه الى الضمير بعده يريد وكل وعده الله الحسنى ثم خزل الهاء تخفيفا لانها كناية عن مفعول وهو فضلة في الكلام قال الشاعر

ثلاث كلهن قتلت عمدا

فأخزى الله رابعة تعود

اراد قتلتهن

قوله تعالى ﴿ فيضاعفه ﴾ يقرأ بإثبات الالف والتخفيف وبحذفها والتشديد فالحجة لهما مذكورة فيما تقدم

قوله تعالى ﴿ انظرونا ﴾ يقرأ بوصل الالف وضم الظاء وبقطعها وكسر الظاء الحجة لمن وصل انه جعله من الانتظار والحجة لمن قطع انه جعله بمعنى التأخير

قوله تعالى ﴿ وما نزل من الحق ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف وقد ذكر فيما مضى

قوله تعالى ﴿ إن المصدقين والمصدقات ﴾ يقرآن بتشديد الصاد وتخفيفها فالحجة لمن شدد انه اراد المتصدقين فأسكن التاء وادغمها في الصاد فالتشديد لذلك والحجة لمن خفف انه حذف التاء تخفيفا واختصارا

قوله تعالى ﴿ فإن الله هو الغني الحميد ﴾ يقرأ بإثبات هو بين الاسم والخبر وبطرحه فالحجة لمن اثبته انه جعله فاصلة عند البصريين وعمادا عند الكوفيين ليفصل بين النعت والخبر وله وجه آخر في العربية وهو ان يجعل هو اسما مبتدأ والغني خبر فيكونا جملة في موضع رفع خبر ان ومثله ان ﴿ شانئك هو الأبتر ﴾

وما ورد عليك من امثال هذا فأجره على احد هذيه الوجهين والحجة لمن طرحه انه جعل الغني خبر ان بغير فاصلة والحميد نعتا له

قوله تعالى ﴿ لا يؤخذ منكم فدية ﴾ اجمع القراء فيه على الياء الا ابن عامر فإنه قرأه بالتاء وقد ذكرت علله فيما تقدم

قوله تعالى ﴿ بما آتاكم ﴾ بالمد والقصر فالحجة لمن مد وهو الأكثر انه جعهله من الاعطاء والحجة لمن قصر وهو اختيار ابي عمرو انه لما تقدم قبله ما فاتكم رد عليه ولا تفرحوا بما جاءكم لانه بمعناه أليق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 341 . 343 ﴾

(79/746)

وقال ابن زنجلة :

57 - سورة الحديد

وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثقكم 8

قرأ أبو عمرو وقد أخذ ميثاقكم بضم الألف والقاف على

ما لم يسم فاعله وحجته إجماع الجميع على قوله ألم يؤخذ عليكم ميثاق الكتاب

وقرأ الباقون بفتح الألف والقاف وحجتهم أنه قرب من ذكر الله في قوله لتؤمنوا بربكم

فأجروا الفعل إلى الله أي وقد أخذ ربكم ميثاقكم . . . وكلا وعد الله الحسنى 10

قرأ ابن عامر وكل وعد الله الحسنى بالرفع جعله ابتداء وعدى الفعل إلى ضميره والتقدير وكل وعده ومن حجته أن الفعل إذا تقدم عليه مفعوله لم يقو عمله فيه قوته إذا تأخر ألا ترى أنهم قالوا زيد ضربت

وقرأ الباقون وكلا وعد الله الحسنى نصبا على أنه مفعول به وحجة النصب بينة لأنه بمنزلة زيدا وعدت خيرا فهو مفعول وعدت وتقول ضربت زيدا وزيدا ضربت سواء

أصل هذا الباب أن تقول زيد ضربته هذا حد الكلام لأنك إذا شغلت ضربت عن زيد بضمير تم الفعل والفاعل ومفعوله وصار زيد مرفوعا بالابتداء ويجوز أن تقول زيدا ضربته فتنصبه بإضمار فعل هذا الذي ذكرته تفسيره كأنك قلت ضربت زيدا ضربته تنصب زيدا فتقول زيدا ضربت فتشغل الفعل بمفعوله المذكور مقدما لأنه

إذا افتقر الفعل إلى مفعوله وذكر ذلك المفعول كان تعليقه به أولى من قطعه عنه فتقول زيدا ضربت وعلى هذا قوله وكلا وعد الله الحسنى فإن رفعت زيدا جاز على ضعف وهو أن تضمر الهاء كأنك قلت زيد ضربته ثم تحذف الهاء من الخبر فتقول زيد ضربت وعلى هذا قراءة ابن عامر وكل وعد الله الحسنى

من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضعفه له 11

قرأ ابن كثير وابن عامر فيضعفه بالتشديد إلا أن ابن كثير رفع الفاء ونصبها ابن عامر وقرأ عاصم فيضاعفه بالألف وفتح الفاء

(80/746)

وقرأ الباقون بالألف والرفع ضاعف وضعف بمعنى واحد فأما الرفع في فيضاعفه فهو الوجه لأنه محمول على يقرض أو على الانقطاع من الأول فكأنه قال فهو يضاعف ومن نصب فعلى جواب الاستفهام ويحمله على المعنى لأنه إذا قال من ذا الذي يقرض الله فكأنه قال أيقرض الله أحد قرضا فيضاعفه

يوم يقول المنفقون والمنفقت للذين ءامنوا انظرونا نقتبس من نوركم 13

قرأ حمزة للذين آمنوا أنظرونا بقطع الألف أي أمهلونا كما تقول أنظرني حتى أصنع كذا وكذا يقول أنظرتك أي أمهلتك وقال الفراء وقد قيل إن معنى أنظرونا أي انتظرونا أيضا قال والعرب تقول أنظرني وهو يريد انتظرني

وقرأ الباقون للذين آمنوا انظرونا أي بوصل الألف أي انتظرونا كما قال غير ناظرين إناه أي غير منتظرين إدراكه

فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا 15

قرأ ابن عامر فاليوم لا تؤخذ منكم فدية بالتاء لتأنيث الفدية وسقط السؤال

وقرأ الباقون لا يؤخذ منكم بالياء للفصل الواقع بين الفعل والفدية فصار الفعل عوضا عن التأنيث وقيل إن التأنيث ليس بحقيقي إنما أراد الفداء كقوله وأخذ الذين ظلموا الصيحة ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق 16

قرأ نافع وحفص وما نزل من الحق بالتخفيف بمعنى وما جاء من الحق يعنون القرآن الذي نزل من عند الله تعالى

وحجتهما قوله وبالحق نزل فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى

وقرأ الباقون وما نزل من الحق بالتشديد وحجتهم ذكر الله قبله في قوله أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل أي وما نزل الله من الحق

إن المصدقين والمصدقت وأقرضوا الله قرضا حسنا 18

قرأ ابن كثير وابو بكر إن المصدقين والمصدقات بتخفيف الصاد فيهما أي المؤمنين والمؤمنات الذين صدقوا الله ورسوله

(81/746)

وقرأ الباقون إن المصدقين والمصدقات بتشديد الصاد فيهما أرادوا المتصدقين والمتصدقات فأدغموا التاء في الصاد وحجتهم أن في حرف أبي إن المتصدقين والمتصدقات بتاء ظاهرة فهي حجة لمن قرأ بالتشديد وأخرى وهي في قوله وأقرضوا الله قرضا حسنا وذلك أن القرض هو أشبه بالصدقة من التصديق وحجة من خفف هي أن التخفيف في قوله المصدقين أعم من التشديد ألا ترى أن المصدقين بالتشديد مقصورة على الصدقة و المصدقين بالتخفيف يعم التصديق والصدقة لأن الصدقة من الإيمان فهو أوجب في باب المدح لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما ءاتكم 23

قرأ أبو عمرو ولا تفرحوا بما أتاكم قصرا أي جاءكم وحجته في ذلك أن فاتكم معادل به أتاكم فكما أن الفعل للغائب في قوله فاتكم كذلك يكون الفعل للآتي في قوله بما أتاكم قال أبو عمرو وتصديقها في آل عمران ولا ما أصابكم قال ف اصابكم وجاءكم سواء

وقرأ الباقون بما آتاكم بالمد أي أعطاكم وحجتهم في ذلك أن في حرف ابي وابن مسعود بما أوتيتم أي أعطيتم الذين يبخلون ويأمرون بالناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد 24

قرأ حمزة والكسائي ويأمرون الناس بالبخل بفتح الباء والخاء وقرأ الباقون بالبخل وهما لغتان مثل الرشد والرشد

قرأ نافع وابن عامر فإن الله الغني الحميد ليس فيها هو وكذلك في مصاحفهما وقرأ الباقون

فإن الله هو الغني الحميد فمن أسقط فإنه جعل الغني خبر إن و الحميد نعت ومن زاد هو فله مذهبان في النحو أحدهما أن يجعل هو عمادا أو فاصلة والمذهب الثاني أن يجعل هو ابتداء و الغني خبره وتكون الجملة في موضع خبر إن ومثله إن شانئك هو الأبتر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 702.697 ﴾

(82/746)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الحديد 57

مدنية وقد ذكر نظيرتها في الكوفي وفي البصري ونظيرتها في غيرهما الجن وفي عدد أبي جعفر الجن وكورت

وكلمها خمس مئة وأربع وأربعون كلمة

وحروفها ألفان وأربع مئة وستة وسبعون حرفا

وهي عشرون وتسع آيات في الكوفي والبصري وثمان في عدد الباقين

اختلافها آيتان (﴿ من قبله العذاب ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ وآتيناه

الإنجيل ﴾) عدها البصري ولم يعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس بها خمسة مواضع (﴿ فالتمسوا نورا ﴾ بينهم بسور) (

﴿ هم الصديقون ﴾ عذاب شديد) (﴿ بأس شديد ﴾) ورؤوس الآي

الحكيم

1 قدير

2 عليم

3 بصير

4 الأمور

5 الصدور

6 كبير

7 مؤمنين

8 رحيم

9 خبير

10 كريم

11 العظيم

12 الغرور

14 المصير

15 فاسقون

16 تعقلون

17 كريم

18 الجحيم

19 الغرور

20 العظيم

21 يسير

22 فخور

23 الحميد

24 عزيز

25 فاسقون

26 فاسقون

27 رحيم

28 العظيم

29 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 241 ﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الحديد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (يحيى) يجوز أن يكون حالا من الضمير المجرور ، والعامل الاستقرار وأن يكون مستأنفا .

قوله تعالى (والرسول يدعوكم) الجملة حال من الضمير في تؤمنون .

قوله تعالى (وقد أخذ) بالفتح: أي الله أو الرسول ، وبالضم على ترك التسمية .

قوله تعالى (من أنفق) في الكلام حذف تقديره: ومن لم ينفق ، ودل على المحذوف قوله تعالى " من قبل الفتح " .

قوله تعالى (وكلا وعد الله الحسنى) قد ذكر في النساء .

قوله تعالى (يوم ترى) هو ظرف ليضاعف ، وقيل التقدير: يؤجرون يوم ترى ، وقيل العامل (يسعى) ويسعى حال ، و (بين أيديهم) ظرف ليسعى ، أو حال من النور ، وكذلك

(بأيمانهم) وقرئ بكسر الهمزة ، والتقدير : بأيمانهم استحقوه ، أو وبأيمانهم يقال لهم

(بشراكم) وبشراكم مبتدأ ، و (جنات) خبره أي دخول جنات .

قوله تعالى (يوم يقول) هو بدل من يوم الأول ، وقيل التقدير : يفوزون وقيل التقدير : اذكر

(انظرونا) انتظرونا وأنظرونا : أخرونا ، و (وراءكم) اسم الفعل فيه ضمير الفاعل : أي

ارجعوا ارجعوا ، وليس بمعروف لقلة فائدته ،

لأن الرجوع لا يكون إلا إلى وراء ، والباء في (بسور) زائدة ، وقيل ليست زائدة .

قوله تعالى (باطنه) الجملة صفة لباب أو لسور ، و (ينادونهم) حال من الضمير في بينهم ، أو مستأنف .

قوله تعالى (هي مولاكم) قيل المعنى أولى بكم ، وقيل هو مصدر مثل المأوى ، وقيل هو مكان .

قوله تعالى (أن تخشع) هو فاعل يأن ، واللام للتبيين ، و (ما) بمعنى الذى ، وفي (نزل) ضمير يعود عليه ، ولا تكون مصدرية لئلا يبقى الفعل بلا فاعل .

قوله تعالى (وأقرضوا الله) فيه وجهان : أحدهما هو معترض بين اسم إن وخبرها ، وهو يضاعف لهم ، وإنما قيل ذلك لئلا يعطف الماضي على اسم الفاعل والثانى أنه معطوف عليه لأن الألف واللام بمعنى الذى : أي إن الذين تصدقوا .

قوله تعالى (يضاعف لهم) الجار والمجرور هو القائم مقام الفاعل ، فلا ضمير في الفعل ، وقيل فيه ضمير: أي يضاعف لهم التصدق: أي أجره .

قوله تعالى (عند ربهم) هو ظرف للشهداء ، ويجوز أن يكون أولئك مبتدأ وهم مبتدأ ثان ، أو فصل ، والصديقون مبتدأ ، والشهداء معطوف عليه ، وعند ربهم الخبر ، وقيل الوقف على الشهداء ، ثم يبتدئ عند ربهم لهم .

قوله تعالى (كمثل غيث) الكاف في موضع نصب من معنى ما تقدم: أي ثبت لها هذه الصفات مشبهة بغيث ، ويجوز أن يكون في موضع رفع: أي مثلها كمثل غيث ، و (أعدت) صفة لجنات .

قوله تعالى (في الأرض) يجوز أن يتعلق الجار بمصيبة لأنها مصدر ، وأن يكون صفة لها على اللفظ أو الموضع ، ومثله (ولا في أنفسكم) ويجوز أن يتعلق بأصاب ، و (في كتاب) حال: أي إلا مكتوبة ، و (من قبل) نعت لكتاب أو

متعلق به .

قوله تعالى (لكيلا) كي هاهنا هي الناصبة بنفسها لأجل دخول اللام عليها كان الناصبة ، والله أعلم .

قوله تعالى (الذين يبخلون) هو مثل الذي في النساء .

قوله تعالى (فيه بأس) الجملة حال من الحديد .

قوله تعالى (ورسله) هو منصوب بينصره: أي وينصر رسله ، ولايجوز أن يكون معطوفا على من لئلا يفصل به بين الجار والمجرور وهو قوله " بالغيب " وبين ما يتعلق به وهو ينصره .

قوله تعالى (ورهبانية) هو منصوب بفعل دل عليه (ابتدعوها) لا بالعطف على الرحمة ، لأن ما جعله الله تعالى لا يبتدعونه ، وقيل هو معطوف عليها ، وابتدعوها نعت له ، والمعنى: فرض عليهم لزوم رهبانية ابتدعوها ولهذا قال تعالى (ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله) .

قوله تعالى (لئلا يعلم) لا زائدة ، والمعنى: ليعلم أهل الكتاب عجزهم ، وقيل ليست زائدة ، والمعنى: لئلا يعلم أهل الكتاب عجز المؤمنين ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(85/746)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الحديد

[سورة الحديد (57) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1)

"سَبَّحَ لِلَّهِ" ماض ولله متعلقان بالفعل "ما" فاعل والجملة ابتدائية لا محل لها "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات ، "وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" الواو حالية ومبتدأ وخبران والجملة الاسمية حالية .

[سورة الحديد (57) : آية 2]

لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2)

"لَهُ" خبر مقدم "مُلْكُ" مبتدأ مؤخر مضاف "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات والجملة استئنافية لا محل لها . "يُحْيِي" مضارع فاعله مستتر والجملة حال "وَيُمِيتُ" معطوف على يحيي "وَهُوَ" الواو حالية هو مبتدأ "عَلى كُلِّ" متعلقان بقدير "شَيْءٍ" مضاف إليه "قَدِيرٌ" خبر المبتدأ والجملة حالية .

[سورة الحديد (57) : آية 3]

هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3)

"هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ" مبتدأ وخبره والجملة حال وما بعده معطوف عليه "وَهُوَ" مبتدأ "بِكُلِّ" متعلقان بعليم "شَيْءٍ" مضاف إليه "عَلِيمٌ" خبر والجملة معطوفة على

ما قبلها .

[سورة الحديد (57) : آية 4]

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4)

(86/746)

"هُوَ الَّذِي" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها "خَلَقَ" ماض فاعله مستتر "السَّماواتِ" مفعول به "وَالْأَرْضَ" معطوف على السموات والجملة صلة الذي "فِي سِتَّةِ" متعلقان بخلق "أَيَّامٍ" مضاف إليه "ثُمَّ" حرف عطف "اسْتَوى" ماض فاعله مستتر "عَلَى الْعَرْشِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر "ما" مفعول به والجملة حالية "يَلِجُ" مضارع فاعله مستتر "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة ما "وَما يَخْرُجُ مِنْها" معطوفة على ما قبلها "وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها" الجملتان معطوفتان على ما قبلهما ، "وَهُوَ" الواو واو الحال ومبتدأ "مَعَكُمْ" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر المبتدأ والجملة حالية . "أَيْنَ ما" اسم شرط جازم في محل نصب على

الظرفية المكانية متعلق بمحذوف خبر كان المقدم "كُنْتُمْ" ماض ناقص واسمه وهو في محل جزم فعل الشرط وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله والجملة استئنافية لا محل لها ، "وَاللَّهُ" الواو حرف استئناف ولفظ الجلالة مبتدأ "بِما" متعلقان ببصير "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة ما "بَصِيرٌ" خبر والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

[سورة الحديد (57) : آية 5]

لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5)

"لَهُ" خبر مقدم "مُلْكُ" مبتدأ مؤخر مضاف "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات والجملة استئنافية لا محل لها ، "وَإِلَى اللَّهِ" متعلقان بترجع "تُرْجَعُ" مضارع مبني للمجهول "الْأُمُورُ" نائب فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الحديد (57) : آية 6]

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (6)

"يُولِجُ" مضارع فاعله مستتر "اللَّيْلَ" مفعول به "فِي النَّهارِ" متعلقان بالفعل والجملة حالية "وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ" معطوف على ما قبله "وَهُوَ" الواو حالية ومبتدأ "عَلِيمٌ" خبره

والجملة حال "بِذاتِ" متعلقان بعليم "الصُّدُورِ" مضاف إليه .

[سورة الحديد (57) : آية 7]

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7)

"آمِنُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل والجملة استئنافية لا محل لها "وَرَسُولِهِ" معطوف على ما قبله "وَأَنْفِقُوا" معطوف على آمنوا "مِمَّا" متعلقان بالفعل "جَعَلَكُمْ" ماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر "مُسْتَخْلَفِينَ" مفعوله الثاني "فِيهِ" متعلقان بما قبلهما والجملة صلة ما "فَالَّذِينَ" حرف استئناف ومبتدأ "آمِنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "مِنْكُمْ" متعلقان بالفعل "وَأَنْفِقُوا" معطوف على آمنوا "لَهُمْ" خبر مقدم "أَجْرٌ" مبتدأ مؤخر "كَبِيرٌ" صفة أجر والجملة الاسمية خبر المبتدأ وجملة الذين . . استئنافية لا محل لها .

[سورة الحديد (57) : آية 8]

وَما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8)

"وَما" الواو حرف استئناف وما استفهامية في محل رفع مبتدأ "لَكُمْ" خبره والجملة استئنافية لا محل لها "لا" نافية "تُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة حال "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل "وَالرَّسُولُ" الواو حالية ومبتدأ "يَدْعُوكُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية حالية "لِتُؤْمِنُوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعله والمصدر المؤول في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بيدعوكم "بِرَبِّكُمْ" متعلقان بالفعل "وَقَدْ" الواو حالية وحرف تحقيق "أَخَذَ" ماض فاعله مستتر "مِيثاقَكُمْ" مفعوله والجملة حال "إِنْ" شرطية "كُنْتُمْ" كان واسمها "مُؤْمِنِينَ" خبرها والجملة ابتدائية لا محل لها وجواب الشرط محذوف.

[سورة الحديد (57) : آية 9]

هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (9)

"هُوَ الَّذِي" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها "يُنَزِّلُ" مضارع فاعله مستتر "عَلى عَبْدِهِ" متعلقان بالفعل "آياتٍ" مفعول به "بَيِّناتٍ" صفة آيات والجملة صلة الذي "لِيُخْرِجَكُمْ" مضارع منصوب بأن مضمرة

بعد لام التعليل ومفعوله والفاعل مستتر والمصدر المؤول في محل جر باللام والجار والمجرور

متعلقان بينزل "مِنَ الظُّلُماتِ" متعلقان بالفعل "إِلَى النُّورِ" متعلقان بالفعل أيضا . "وَإِنَّ اللَّهَ" الواو حالية وإن واسمها "بِكُمْ" متعلقان بما بعدهما "لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ" اللام المزحلقة ورؤوف رحيم خبران والجملة الاسمية حال .

[سورة الحديد (57) : آية 10]

(89/746)

وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10)

"وَما" الواو حرف استئناف وما استفهامية في محل رفع مبتدأ "لَكُمْ" خبر المبتدأ والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "أَلَّا تُنْفِقُوا" حرف مصدري ونصب ولا نافية ومضارع منصوب بأن والواو فاعله والمصدر المؤول في محل نصب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بما لأنها تضمنت معنى الفعل "فِي سَبِيلِ" متعلقان بالفعل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَلِلَّهِ" خبر مقدم "مِيراثُ" مبتدأ مؤخر مضاف "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على ما قبله والجملة حالية . "لا" نافية "يَسْتَوِي" مضارع "مِنْكُمْ"

متعلقان بالفعل "مَنْ" فاعل يستوي والجملة استئنافية لا محل لها "أَنْفَقَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "مِنْ قَبْلِ" متعلقان بالفعل "الْفَتْحِ" مضاف إليه "وَقاتَلَ" معطوف على ما قبله "أُولئِكَ أَعْظَمُ" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها "دَرَجَةً" تمييز "مِنَ الَّذِينَ" متعلقان بدرجة "أَنْفَقُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "مِنْ بَعْدُ" متعلقان بالفعل "وَقاتَلُوا" معطوف على أنفقوا . "وَكُلًّا" الواو حرف استئناف وكلا مفعول به أول مقدم "وَعَدَ" ماض "اللَّهِ" لفظ الجلالة فاعله "الْحُسْنى" مفعول به ثان والجملة استئنافية لا محل لها . "وَاللَّهُ" الواو استئنافية ولفظ الجلالة مبتدأ "بِما" متعلقان بخبير "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة ما "خَبِيرٌ" خبر المبتدأ والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الحديد (57) : آية 11]

(90/746)

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (11)

"مَنْ ذَا" مبتدأ وخبره "الَّذِي" اسم الموصول بدل من اسم الإشارة "يُقْرِضُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به والجملة صلة والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "قَرْضاً" مفعول مطلق "حَسَناً" صفته "فَيُضاعِفَهُ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد

فاء السببية "لَهُ" متعلقان بالفعل والمصدر المؤول من أن والفعل معطوف بالفاء على فعل يدل عليه الفعل السابق "وَلَهُ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "أَجْرٌ" مبتدأ مؤخر "كَرِيمٌ" صفة أجر والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

[سورة الحديد (57) : آية 12]

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)

"يَوْمَ" ظرف زمان "تَرَى" مضارع مرفوع فاعله مستتر "الْمُؤْمِنِينَ" مفعول به "وَالْمُؤْمِناتِ" معطوف على المؤمنين والجملة في محل جر بالإضافة "يَسْعى " مضارع مرفوع "نُورُهُمْ" فاعله والجملة في محل نصب

حال "بَيْنَ" ظرف مكان مضاف "أَيْدِيهِمْ" مضاف إليه "وَبِأَيْمانِهِمْ" معطوف على أيديهم .

"بُشْراكُمُ" مبتدأ "الْيَوْمَ" ظرف زمان "جَنَّاتٌ" خبر والجملة مقول قول محذوف "تَجْرِي" مضارع مرفوع "مِنْ تَحْتِهَا" متعلقان بالفعل "الْأَنْهارُ" فاعل والجملة صفة جنات .

"خالِدِينَ" حال "فِيها" متعلقان بخالدين . "ذلِكَ" مبتدأ "هُوَ" ضمير فصل لا محل له "الْفَوْزُ" خبر المبتدأ "الْعَظِيمُ" صفة الفوز والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

[سورة الحديد (57) : آية 13]

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ (13)

"يَوْمَ" بدل من يوم ترى "يَقُولُ الْمُنافِقُونَ" مضارع وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "وَالْمُنافِقاتُ" معطوف على ما قبله "لِلَّذِينَ" متعلقان بالفعل "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة لا محل لها "انْظُرُونا" أمر وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول "نَقْتَبِسْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب والفاعل مستتر "مِنْ نُورِكُمْ" متعلقان بالفعل "قِيلَ" ماض مبني للمجهول "ارْجِعُوا" أمر وفاعله والجملة مقول القول "وَراءَكُمْ" ظرف مكان "فَالْتَمِسُوا" أمر وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "نُوراً" مفعول به "فَضُرِبَ" ماض مبني للمجهول والجملة معطوفة على ما قبلها "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان "بِسُورٍ" الباء زائدة وسور نائب فاعل "لَهُ" خبر مقدم "بابٌ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية صفة سور "باطِنُهُ" مبتدأ "فِيهِ" خبر مقدم "الرَّحْمَةُ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر باطنه وجملة باطنه فيه الرحمة صفة باب ، "وَظاهِرُهُ" مبتدأ "مِنْ قِبَلِهِ" خبر مقدم "الْعَذابُ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر ظاهره وجملة وظاهره . . معطوفة على ما قبلها .

[سورة الحديد (57) : آية 14]

يُنادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلى وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14)

(92/746)

"يُنادُونَهُمْ" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة استئنافية لا محل لها "أَلَمْ نَكُنْ" الهمزة للاستفهام ولم نكن مضارع ناقص مجزوم بلم واسمه مستتر "مَعَكُمْ" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر نكن والجملة مفسرة لا محل لها "قالُوا" ماض وفاعله "بَلى" حرف جواب. "وَلكِنَّكُمْ" لكن واسمها والجملة معطوفة على ما قبلها "فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر لكن "وَتَرَبَّصْتُمْ، وَارْتَبْتُمْ" الكلام معطوف على ما قبله والإعراب واضح. "وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ" ماض ومفعوله وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها. "حَتَّى" حرف غاية وجر "جاءَ أَمْرُ" ماض وفاعله المضاف "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَغَرَّكُمْ" ماض ومفعوله "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل "الْغَرُورُ" فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة الحديد (57) : آية 15]

فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

(15)

"فَالْيَوْمَ" الفاء استئنافية واليوم ظرف زمان "لا" نافية "يُؤْخَذُ" مضارع مبني للمجهول "مِنْكُمْ" متعلقان بالفعل "فِدْيَةٌ" نائب فاعل "وَلا مِنَ الَّذِينَ" معطوف على ما قبله "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مَأْواكُمُ النَّارُ" مبتدأ وخبره والجملة استئنافية لا محل لها "هِيَ مَوْلاكُمْ" مبتدأ وخبره "وَبِئْسَ" ماض جامد لإنشاء الذم "الْمَصِيرُ" فاعله.

[سورة الحديد (57) : آية 16]

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (16)

(93/746)

"أَلَمْ يَأْنِ" الهمزة حرف استفهام ومضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره "لِلَّذِينَ" متعلقان بالفعل "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة، "أَنْ تَخْشَعَ" مضارع منصوب بأن "قُلُوبُهُمْ" فاعله، والمصدر المؤول فاعل يأن "لِذِكْرِ" متعلقان بالفعل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَما" اسم موصول معطوف على ما قبله "نَزَلَ" ماض "مِنَ الْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال والجملة صلة "وَلا" نافية "يَكُونُوا" مضارع ناقص واسمه والجملة

معطوفة على تخشع "كَالَّذِينَ" متعلقان بمحذوف خبر يكونوا "أُوتُوا الْكِتَابَ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل ومفعوله الثاني "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بالفعل "فَطَالَ" معطوف على أوتوا "عَلَيْهِمُ" متعلقان بالفعل "الْأَمَدُ" فاعله. "فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها. "وَكَثِيرٌ" مبتدأ "مِنْهُمْ" متعلقان بكثير "فَاسِقُونَ" خبر والجملة حال.

[سورة الحديد (57) : آية 17]

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (17)

"اعْلَمُوا" أمر وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "أَنَّ اللَّهَ" أن واسمه لفظ الجلالة "يُحْيِي" مضارع فاعله مستتر "الْأَرْضَ" مفعوله والجملة خبر أن "بَعْدَ" ظرف زمان "مَوْتِها" مضاف إليه وأن وما بعدها سد مسد مفعولي اعلموا "قَدْ" حرف تحقيق "بَيَّنَّا" ماض وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "لَكُمُ" متعلقان بالفعل "الْآياتِ" مفعول به، "لَعَلَّكُمْ" لعل واسمها "تَعْقِلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر لعل.

[سورة الحديد (57) : آية 18]

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (18)

"إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ" إن واسمها "وَالْمُصَّدِّقاتِ" معطوف على المصدقين "وَأَقْرَضُوا" ماض وفاعله "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعوله والجملة معطوفة على معنى الفعل في المصدقين "قَرْضاً" مفعول مطلق "حَسَناً" صفة "يُضاعَفُ" مضارع مبني للمجهول "لَهُمْ" جار ومجرور قام مقام نائب الفاعل والجملة الفعلية خبر إن "وَلَهُمْ" خبر مقدم "أَجْرٌ" مبتدأ مؤخر "كَرِيمٌ" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الحديد (57) : آية 19]

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (19)

"وَالَّذِينَ" حرف استئناف ومبتدأ "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل "وَرُسُلِهِ" معطوف على لفظ الجلالة "أُولئِكَ" مبتدأ "هُمُ" ضمير فصل لا محل له "الصِّدِّيقُونَ" خبر أولئك والجملة الاسمية خبر الذين وجملة الذين . . استئنافية لا محل لها "وَالشُّهَداءُ" معطوف على الصديقون "عِنْدَ" ظرف مكان مضاف "رَبِّهِمْ" مضاف إليه ، "لَهُمْ" خبر مقدم "أَجْرُهُمْ" مبتدأ مؤخر "وَنُورُهُمْ" معطوف على ما قبله والجملة الاسمية خبر ثان لأولئك "وَالَّذِينَ" حرف استئناف ومبتدأ "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "وَكَذَّبُوا" معطوف على كفروا "بِآياتِنا" متعلقان بكفروا "أُولئِكَ أَصْحابُ" مبتدأ وخبره "الْجَحِيمِ" مضاف إليه والجملة الاسمية خبر الذين وجملة الذين استئنافية لا محل

لها .

[سورة الحديد (57) : آية 20]

(95/746)

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ (20)

"اعْلَمُوا" أمر وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "أَنَّمَا" كافة ومكفوفة "الْحَياةُ" مبتدأ "الدُّنْيا" صفة "لَعِبٌ" خبر "وَلَهْوٌ" معطوف على لعب "وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ" معطوفان أيضا وأن وما بعدها في تأويل مصدر سد مسد مفعولي اعلموا "بَيْنَكُمْ" ظرف مكان "وَتَكاثُرٌ" معطوف على ما قبله "فِي الْأَمْوالِ" متعلقان بتكاثر "وَالْأَوْلادِ" معطوف على الأموال "كَمَثَلِ" متعلقان بخبر لمبتدأ محذوف "غَيْثٍ" مضاف إليه "أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ" ماض ومفعوله وفاعله والجملة صفة غيث "ثُمَّ" حرف عطف "يَهِيجُ" مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها . "فَتَراهُ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "مُصْفَرًّا" حال. "ثُمَّ" حرف عطف "يَكُونُ" مضارع ناقص اسمه مستتر

"حُطاماً" خبره والجملة معطوفة على ما قبلها "وَفِي الْآخِرَةِ" خبر مقدم "عَذابٌ" مبتدأ مؤخر "شَدِيدٌ" صفة والجملة استئنافية لا محل لها "وَمَغْفِرَةٌ" معطوف على عذاب "مِنَ اللَّهِ" متعلقان بمغفرة "وَرِضْوانٌ" معطوف على مغفرة "وَمَا" الواو حرف عطف وما نافية "الْحَياةُ" مبتدأ "الدُّنْيا" صفة "إِلَّا" حرف حصر "مَتاعُ" خبر مضاف "الْغُرُورِ" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الحديد (57) : آية 21]

(96/746)

سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21)

"سابِقُوا" أمر وفاعله "إِلى مَغْفِرَةٍ" الجار والمجرور متعلقان بالفعل "مِنْ رَبِّكُمْ" متعلقان بمغفرة والجملة استئنافية لا محل لها . "وَجَنَّةٍ" معطوف على مغفرة "عَرْضُها" مبتدأ "كَعَرْضِ" جار ومجرور خبر مضاف "السَّماءِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السماء والجملة صفة جنة "أُعِدَّتْ" ماض مبني للمجهول والجملة صفة ثانية لجنة "لِلَّذِينَ" متعلقان بالفعل "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل "وَرُسُلِهِ" معطوف على بالله

"ذِلكَ فَضْلُ اللَّهِ" مبتدأ وخبره ولفظ الجلالة مضاف إليه والجملة استئنافية لا محل لها "يُؤْتِيهِ" مضارع ومفعوله الأول والفاعل مستتر "مِنْ" مفعوله الثاني "يَشاءُ" مضارع والجملة صلة وجملة يؤتيه حال "وَاللَّهُ ذُو" مبتدأ وخبره "الْفَضْلِ" مضاف إليه "الْعَظِيمِ" صفة الفضل والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الحديد (57) : آية 22]

ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22)

"ما" نافية "أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ" ماض فاعله مصيبة على اعتبار من زائدة "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل "وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ" معطوف على في الأرض "إِلَّا" حرف حصر "فِي كِتابٍ" حال "مِنْ قَبْلِ" متعلقان بمحذوف حال "أَنْ نَبْرَأَها" مضارع منصوب بأن والها مفعوله والفاعل مستتر وأن والفعل في تأويل مصدر في محل جر بالإضافة . "إِنَّ ذلِكَ" إن واسمها "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بيسير "يَسِيرٌ" خبر إن والجملة استئنافية لا محل لها .

(97/746)

[سورة الحديد (57) : آية 23]

لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (23)

"لِكَيْلا" اللام حرف جر وكي حرف مصدري ونصب ولا نافية "تَأْسَوْا" مضارع منصوب والواو فاعله والمصدر المؤول من كي والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف "عَلى ما" متعلقان بالفعل "فاتَكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة ، "وَلا تَفْرَحُوا" معطوف على ما قبله "بِما" متعلقان بالفعل "آتاكُمْ" ماض ومفعوله والجملة صلة "وَاللَّهُ" الواو حرف استئناف ولفظ الجلالة مبتدأ "لا" نافية "يُحِبُّ" مضارع "كُلَّ" مفعوله والفاعل مستتر "مُخْتالٍ" مضاف إليه "فَخُورٍ" صفة والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها .

[سورة الحديد (57) : آية 24]

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24)

"الَّذِينَ" بدل من كل مختال "يَبْخَلُونَ" مضارع وفاعله والجملة صلة "وَيَأْمُرُونَ" معطوف على يبخلون "النَّاسَ" مفعول به "بِالْبُخْلِ" متعلقان بالفعل ، "وَمَنْ يَتَوَلَّ" الواو حرف استئناف ومن اسم شرط جازم مبتدأ ومضارع مجزوم لأنه فعل الشرط "فَإِنَّ اللَّهَ" الفاء واقعة في جواب الشرط وإن واسمها "هُوَ" ضمير فصل "الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ" خبران والجملة في محل جزم جواب الشرط .

[سورة الحديد (57) : آية 25]

لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)

(98/746)

"لَقَدْ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله "رُسُلَنا" مفعول به والجملة جواب القسم المقدر لا محل لها ، "بِالْبَيِّناتِ" متعلقان بالفعل "وَأَنْزَلْنا" ماض وفاعله

والجملة معطوفة على ما قبلها . "مَعَهُمُ" ظرف مكان "الْكِتابَ" مفعول به "وَالْمِيزانَ" معطوف على الكتاب "لِيَقُومَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل "النَّاسُ" فاعل "بِالْقِسْطِ" متعلقان بالفعل والمصدر المؤول من أن والفعل جار ومجرور متعلقان بأرسلنا "وَأَنْزَلْنا" ماض وفاعله "الْحَدِيدَ" مفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "فِيهِ بَأْسٌ" خبر مقدم ومبتدأ مؤخر "شَدِيدٌ" صفة ، والجملة حال "وَمَنافِعُ" معطوف على ما قبله "لِلنَّاسِ" متعلقان بمنافع . "وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ولفظ الجلالة

فاعله "مَنْ" اسم موصول مفعول به "يَنْصُرُهُ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة من والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور معطوفان على ليقوم "وَرُسُلَهُ" معطوف على الضمير المنصوب "بِالْغَيْبِ" متعلقان بالفعل قبلهما "إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ" إن واسمها وخبراها والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة الحديد (57) : آية 26]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَإِبْراهِيمَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (26)

"وَلَقَدْ" الواو حرف عطف واللام واقعة في جواب القسم المحذوف وقد حرف تحقيق "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله "نُوحاً" مفعوله "وَإِبْراهِيمَ" معطوف على نوحا والجملة جواب القسم لا محل لها "وَجَعَلْنا" معطوف على أرسلنا "فِي ذُرِّيَّتِهِمَا" متعلقان بالفعل "النُّبُوَّةَ" مفعول به "وَالْكِتابَ" معطوف على النبوة .

(99/746)

فمنهم الفاء تفريعية والجار والمجرور خبر مقدم "مُهْتَدٍ" مبتدأ مؤخر والجملة استئنافية لا محل لها "وَكَثِيرٌ" مبتدأ "مِنْهُمْ" متعلقان بكثير "فاسِقُونَ" خبر والجملة معطوفة على ما

قبلها .

[سورة الحديد (57) : آية 27]

ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (27)

"ثُمَّ قَفَّيْنا" حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "عَلى آثارِهِمْ" متعلقان بالفعل "بِرُسُلِنا" مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به "وَقَفَّيْنا" معطوف على قفينا الأولى "بِعِيسَى" مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به "ابْنِ" صفة عيسى مضاف "مَرْيَمَ" مضاف إليه ، "وَآتَيْناهُ" ماض ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "الْإِنْجِيلَ" مفعول به ثان "وَجَعَلْنا" ماض وفاعله "فِي قُلُوبِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "الَّذِينَ" اسم الموصول مضاف إليه "اتَّبَعُوهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة الذين "رَأْفَةً" مفعول به "وَرَحْمَةً" معطوف على رأفة "وَرَهْبانِيَّةً" معطوفة على رأفة ورحمة "ابْتَدَعُوها" ماض وفاعل ومفعول به والجملة صفة رهبانية "ما" نافية "كَتَبْناها" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صفة رهبانية . "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "إِلَّا" حرف حصر "ابْتِغاءَ" مفعول لأجله

"رِضْوانِ" مضاف إليه "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه. "فَما" الفاء استئنافية وما نافية "رَعَوْها" ماض وفاعله ومفعوله والجملة استئنافية لا محل لها "حَقَّ" مفعول مطلق "رِعايَتِها" مضاف إليه، "فَآتَيْنَا الَّذِينَ" ماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة استئنافية لا محل لها "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْهُمْ" متعلقان بمحذوف حال "أَجْرَهُمْ" مفعول به ثان. "وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ" سبق إعرابها في الآية السابقة.

[سورة الحديد (57) : آية 28]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (28)

"يا أَيُّهَا" منادى مبني على الضم في محل نصب والها للتنبيه "الَّذِينَ" بدل "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة، "اتَّقُوا اللَّهَ" أمر وفاعله ولفظ الجلالة مفعول به والجملة ابتدائية لا محل لها "وَآمِنُوا" معطوف على اتقوا "بِرَسُولِهِ" متعلقان بآمنوا "يُؤْتِكُمْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب فاعله مستتر والكاف مفعول به أول "كِفْلَيْنِ" مفعول به ثان "مِنْ رَحْمَتِهِ" صفة كفلين "وَيَجْعَلْ" معطوف على يؤتكم "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "نُوراً" مفعول به "تَمْشُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة نورا "بِهِ" متعلقان بالفعل. "وَيَغْفِرْ" معطوف على يجعل "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" مبتدأ وخبران والجملة استئنافية لا محل

لها .

[سورة الحديد (57) : آية 29]

لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

(101/746)

"لِئَلَّا يَعْلَمَ" اللام للتعليل وأن حرف مصدري ونصب ولا زائدة ومضارع منصوب بأن "أَهْلُ" فاعل مضاف "الْكِتابِ" مضاف إليه "أن" مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف "لا" نافية "يَقْدِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر أن وأن المخففة وما بعدها في تأويل مصدر سد مسد مفعولي يعلم "عَلى شَيْءٍ" متعلقان بالفعل "مِنْ فَضْلِ" صفة شيء "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه ، "وَأَنَّ الْفَضْلَ" أن واسمها "بِيَدِ" خبرها "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "يُؤْتِيهِ" مضارع ومفعوله الأول والفاعل مستتر "مِنْ" مفعوله الثاني والجملة استئنافية لا محل لها "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة . "وَاللَّهُ" مبتدأ "ذُو" خبره والجملة استئنافية لا محل لها "الْفَضْلِ" مضاف إليه "الْعَظِيمِ" صفة الفضل .

انتهى انتهى . اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 307. 315﴾

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الْحَدِيد

ذكر فِيهَا أَرْبَعَة أَحَادِيث

1296 - الحَدِيث الأول قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لو أنْفق أحدكُم ملْء أحد ذَهَبا مَا بلغ مد أحدهم وَلَا نصيفه)

قلت رَوَاهُ الْأَئِمَّة السِّتَّة فِي كتبهمْ فَرَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم فِي الْفَضَائِل وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ فِي المناقب وَأَبُو دَاوُد وَابْن ماجة فِي السّنة كلهم من حَدِيث الْأَعْمَش عَن أبي صَالح عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَا تسبوا أَصْحَابِي فَلَو أَن أحدكُم أنْفق مثل أحد ذَهَبا مَا بلغ مد أحدهم وَلَا نصيفه)

انْتَهَى

وَنسخ الْكَشَّاف مُطَابقَة عَلَى ملْء أحد وَكَأن التَّصْحِيف من الْمُصَنّف

وَرَوَاهُ مُسلم من حَدِيث أبي هُرَيْرَة قَالَ شَيخنَا الْمزي فِي أَطْرَافه وَهُوَ وهم وَقع مِنْهُ فِي

حَال الْكِتَابَة بِدَلِيل أَنه ذكر أَولا حَدِيث أبي مُعَاوِيَة ثمَّ ثنى بِحَدِيث جرير وَذكر الْمَتْن وَبَقِيَّة الْإِسْنَاد عَن كل وَاحِد مِنْهُمَا ثمَّ ثلث بِحَدِيث وَكِيع ثمَّ ربع بِحَدِيث شُعْبَة وَلم يذكر الْمَتْن وَلَا بَقِيَّة السَّنَد عَنْهُمَا بل قَالَ عَن الْأَعْمَش بِإِسْنَاد جرير وَأبي مُعَاوِيَة بِمثل حَدِيثهمَا إِلَى آخر كَلَامه فلولا أَن إِسْنَاد جرير وَأبي مُعَاوِيَة وَاحِد لما جَمعهمَا جَمِيعًا فِي الْحِوَالَة عَلَيْهِمَا قَالَ وَالوهم تَارَة يكون فِي الْحِفْظ وَتَارَة فِي القَوْل وَتَارَة يكون فِي الْكِتَابَة وَالوهم هُنَا وَقع فِي الْكِتَابَة وَقد وَقع فِي بعض نسخ ابْن ماجة عَن أبي هُرَيْرَة وَهُوَ وهم أَيْضا

انْتَهَى

(103/746)

1297 - قَوْله عَن ابْن مَسْعُود قَالَ مَا كَانَ بَين إِسْلَامنَا وَبَين أَن عُوتِبْنَا بِهَذِهِ الْآيَة إِلَّا أَربع سِنِين يَعْنِي قَوْله تَعَالَى أَلم يَأْن للَّذين آمنُوا الْآيَة

قلت أخرجه مُسلم فِي التَّفْسِير عَنهُ قَالَ مَا كَانَ بَين إِسْلَامنَا وَبَين أَن عَاتَبَنَا الله بِهَذِهِ الْآيَة أَلم يَأْن للَّذين آمنُوا إِلَّا أَربع سِنِين

انْتَهَى

وَوهم الْحَاكِم فَرَوَاهُ فِي الْمُسْتَدْرك وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجاهُ

انْتَهَى

1298 - الْحَدِيث الثَّانِي عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (إِن الله تَعَالَى أنزل أَربع بَرَكَات من السَّمَاء إِلَى الأَرْض أنزل الْحَدِيد وَالْمَاء وَالنَّار وَالْملح)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره أخبرنَا أَبُو سُفْيَان الْحُسَيْن بن عبد الله الدهْقَان ثَنَا الْحسن بن إِسْمَاعِيل بن خلف الْخياط ثَنَا أَبُو بكر مُحَمَّد بن الْحسن بن الْفرج الْعدْل ثَنَا مُحَمَّد بن عبيد بن عبد الْملك بن مَالك التَّمِيمِي عَن عبد الله بن خَلِيفَة عَن ابْن عمر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِن الله تَعَالَى أنزل) إِلَى آخِره

وَهُوَ فِي الفردوس كَذَلِك من حَدِيث ابْن عمر

1299 - الْحَدِيث الثَّالِث رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بعث جعفرا رَضِيَ اللَّهُ عَنْه فِي سبعين رَاكِبًا إِلَى النَّجَاشِيّ يَدعُوهُ فَقدم عَلَيْهِ فَدَعَاهُ فَاسْتَجَاب لَهُ فَقَالَ نَاس مِمَّن آمن من أهل مَمْلَكَته وهم أَرْبَعُونَ رجلا ائْذَنْ لنا فِي الْوِفَادَة عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأذن لَهُم فقدموا مَعَ جَعْفَر وَقد تهَيَّأ لِوَقْعَة أحد فَلَمَّا رَأَوْا مَا بِالْمُسْلِمين من خصَاصَة اسْتَأْذَنُوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَرَجَعُوا

(104/746)

وَقدمُوا بِأَمْوَالِهِمْ فآسوا بهَا الْمُسلمين فَأَنْزل الله الَّذين آتَيْنَاهُم إِلَى قَوْله وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفقُونَ فَلَمَّا سمع من لم يُؤمن من أهل الْكتاب قَوْله يُؤْتونَ أجرهم مرَّتَيْنِ فَخَروا عَلَى الْمُسلمين وَقَالُوا من آمن بِكِتَابِكُمْ وَكِتَابنَا فَلَهُ اجْرِ مرّة وَمن لم يُؤمن بِكِتَابِكُمْ فَلَهُ أجر كأجركم فَمَا فَضلكُمْ علينا فَنزلت

(105/746)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره ثَنَا ابْن حميد ثَنَا مهْرَان ثَنَا يَعْقُوب عَن جَعْفَر بن أبي الْمُغيرَة عَن سعيد بن جُبَير قَالَ بعث النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم جَعْفَر فِي سبعين رَاكِبًا إِلَى النَّجَاشِيّ يَدعُوهُ فَقدم عَلَيْهِ فَدَعَاهُ فَاسْتَجَاب لَهُ وآمن بِهِ فَلَمَّا كَانَ عِنْد انْصِرَافه قَالَ نَاس مِمَّن آمن بِهِ من أهل مَمْلَكَته وهم أَرْبَعُونَ رجلا ائْذَنْ لنا فِي الْوِفَادَة عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فقدموا مَعَ جَعْفَر عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَقد تهَيَّأ لِوَقْعِهِ أحد فَلَمَّا رَأَوْا بِالْمُسْلِمين من الْخَصَاصَة وَشدَّة الْحَال اسْتَأْذنُوا النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالُوا يَا نَبِي الله إِن لنا أَمْوَالًا وَنحن نرَى مَا بِالْمُسْلِمين من الْخَصَاصَة فَإِن أَذِنت لنا انصرفنا فَجِئْنَا بِأَمْوَالِنَا فواسينا الْمُسلمين بهَا فَأذن لَهُم فانصرفوا فَأتوا بِأَمْوَالِهِمْ فَوَاسَوْا بهَا الْمُسلمين فَأَنْزل الله فيهم الَّذين آتَيْنَاهُم الْكتاب من قبله هم بِهِ مُؤمنُونَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفقُونَ وَكَانَت

النَّفَقَة الَّتِي وَاسَوْا بهَا الْمُسلمين فَلَمَّا سمع أهل الْكتاب مِمَّن لم يُؤمن بقوله يُؤْتونَ أجرهم مرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا فَخَروا عَلَى الْمُسلمين فَقَالُوا يَا معشر الْمُسلمين أما من آمن منا بِكِتَابكُمْ وَكِتَابنَا فَلَهُ أجره مرَّتَيْنِ وَمن لم يُؤمن بِكِتَابكُمْ فَلَهُ أجر كأُجُورِكُمْ فَمَا فَضلكُمْ علينا فَأنْزل الله (يأيها الَّذين آمنُوا اتَّقوا الله وآمنوا بِرَسُولِهِ يُؤْتكُم كِفْلَيْنِ من رَحمته) فَجعل لَهُم أَجْرَيْنِ وَزَادَهُمْ النُّور وَالْمَغْفِرَة

وَهَذَا مُرْسل

(106/746)

وَذكر الثَّعْلَبِيّ عَن سعيد بن جُبَير باللَّفْظِ الْمَذْكُور من غير سَنَد

1300 - الْحَدِيث الرَّابِع عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قَرَأَ سُورَة الْحَدِيد كتب من الَّذين آمنُوا بِاللَّه وَرُسُله)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم الْمَدَائِنِي بِسَنَدِهِ الْمَعْرُوف

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه الْمُتَقَدّمين فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 417.420﴾

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الحديد

قوله تعالى : (لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ) ، الآية/ 10 .

عنى به فتح الحديبية ، ودل به على أن فضيلة العمل على قدر رجوع منفعته إلى الإسلام والمسلمين ، أو لكثرة المحنة به لقلة المسلمين وكثرة الكفار ، وهو مثل قوله تعالى : (الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ) «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 401﴾

(1) سورة التوبة آية 117 .

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الحديد» (57)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«هِيَ مَوْلاكُمْ» (15) أولى بكم «1» قال لبيد :

مولى المخافة خلفها وأمامها

«2» [902].

«وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ» (16) يقع خبره على لفظ الجميع وعلى الواحد . .

«ثُمَّ يَهِيجُ» (20) ييبس . .

«مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها» (22) نخلقها ، الخالق البارئ . .

«ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ» (27) أتبعناه . .

«ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ» (27) ما كلّفنا هموها . .

«يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ» (28) أي مثلين . .

«لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ» (29) مجازها ليعلم أهل الكتاب «3» . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 254 ﴾

---

(1) . - 3 «أولى بكم» : كما فى البخاري ذكره ابن حجر وقال وكذا قال أبو عبيدة وفى

بعض نسخ البخاري : هو أولى بكم ، وكذا هو كلام أبى عبيدة أيضا (فتح الباري 8/ 482) .

(2) . - 902 : هذا عجز بيت من معلقته صدره : فعدت كلا الوجهين تحسب أنه

انظره فى شرح العشر ص 79 والقرطين 2/ 165 .

(3) . - 11 «لئلا يعلم . . . الكتاب» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 482 .

(109/746)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة القنوجى :

سورة الحديد

تسع وعشرون آية

كلها مدنية . قال القرطبي : في قول الجميع «1» .

[الآية الأولى]

ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ

الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (27) .

وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً : الذين اتبعوه هم . الحواريون ، جعل اللّه في قلوبهم مودة لبعضهم البعض .

وَرَحْمَةً : يتراحمون بها بخلاف اليهود فإنهم ليسوا كذلك .

أصل الرأفة : اللين .

والرحمة : الشفقة .

وقيل : الرأفة : أشد الرحمة .

وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها : أي ابتدعوا رهبانية . ورجحه أبو علي الفارسي على العطف على ما قبلها .

والرهبانية : بفتح الراء وضمها ، وهي بالفتح الخوف من الرهب ، وبالضم منسوبة إلى الرهبان وذلك لأنهم غلوا في العبادة وحملوا على أنفسهم المشقات في الامتناع من

---

(1) انظره في «تفسيره» (17/ 235) .

المطعم والمشرب والمنكح ، وتعلقوا بالكهوف والصوامع ، لأن ملوكهم غيروا وبدلوا وبقي منهم نفر قليل فترهبوا وتبتلوا . ذكر معناه قتادة والضحاك وغيرهما .

ما كَتَبْناها : أي ما فرضناها .

عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ : استثناء منقطع ، أي ما كتبناها عليهم رأسا ولكن ابتدعوها ابتغاء .

رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها أي هذه الرهبانية التي ابتدعوها من جهة أنفسهم .

حَقَّ رِعايَتِها ، بل ضيعوها وكفروا بدين عيسى ودخلوا في دين الملوك الذين غيروا وبدلوا وتركوا الترهب ولم يبق على دين عيسى إلا قليل منهم وهم المرادون بقوله :

فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ الذي يستحقونه بالإيمان ، وذلك لأنهم آمنوا بعيسى وثبتوا على دينه حتى آمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم لما بعثه اللّه .

وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (27) : خارجون عن الإيمان بما أمروا أن يؤمنوا به «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نيل المرام صـ 430. 431﴾

---

(1) انظر : الطبري (27/ 138) ، زاد المسير (8/ 176) ، القرطبي (7/ 263) ، والبحر المحيط (8/ 228) .

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الحديد»

[سورة الحديد (57) : آية 3]

هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3)

قوله تعالى : هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ، وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [3] .

وهذه استعارة عليه سبحانه ، كإطلاقنا لذلك على غيره ، لأنه سبحانه لا يأتى بالكلام المستعار والمجاز عليه- كما قلنا فى أول هذا الكتاب- ولكن لأن ذلك اللفظ أبعد فى البلاغة منزعا ، وأبهر فى الفصاحة مطلعا .

والواحد منّا - فى الأكثر - إنما يستعير أغلاق الكلام ، ويعدل عن الحقائق إلى المجازات ، لأن طرق القول ربما ضاق بعضها عليه فخالف إلى «1» . . . . بقية الكلام ، وربما استعصى بعضها على فكره فعدل إلى المطاوعة .

معنى قوله تعالى : هُوَ الْأَوَّلُ أي الذي لم يزل قبل الأشياء كلها ، لا عن انتهاء مدة ، وَالْآخِرُ أي الذي لا يزال بعد الأشياء كلّها ، لا إلى انتهاء غاية .

وَالظَّاهِرُ المتجلى للعقول بأدلّته ، وَالْباطِنُ أي الذي لا تدركه «2» أبصار بريّته .

وقال بعضهم : قد يجوز أن يكون معنى الظاهر هاهنا أي العالم بالأشياء كلها . من قولهم :

ظهرت على أمر فلان أي علمته. ويكون الظاهر مخصوصا بما كان فى الوجود والجهر، ويكون الباطن مخصوصا بما كان فى العدم والسر «3».

---

(1) هنا لفظة غير واضحة.

(2) فى الأصل (لا يدركه).

(3) فى الأصل «والستر» وهو تحريف. [.....]

(112/746)

وتلخيص معنى الظاهر والباطن أنه العالم بما ظهر وما بطن، وما استسرّ وما علن.

[سورة الحديد (57): آية 10]

وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10)

وقوله سبحانه: وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ [10] وهذه استعارة على ما تقدم فى كلامنا من نظير ذلك. والمعنى أن الخلائق إذا فنوا وانقرضوا خلّوا ما كانوا يسكنونه، وزالت أيديهم عما كانوا يملكونه «1» ..... إلا اللّه سبحانه، وصار تعالى كأنه قد

ورث عنهم ما تركوه «2» . . . . خلفوه. لأنه الباقي بعد فنائهم، والدائم بعد انقضائهم.

[سورة الحديد (57) : آية 12]

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12)

وقوله سبحانه: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ [12] وهذه استعارة على أحد التأويلين «3» . . . .

[سورة الحديد (57) : آية 15]

فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (15)

وقوله سبحانه: مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [15] وهذه استعارة. ومعنى مولاكم: أي أملك بكم، وأولى بأخذكم. وهذا بمعنى المولى «4» من طريق الرق، لا المولى من جهة العتق. فكأنّ النار- نعوذ باللّه منها- تملكهم رقا، ولا تحررهم عتقا.

[سورة الحديد (57) : آية 29]

لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

وقوله سبحانه: وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [29] وهذه

استعارة.

ومعنى بيد اللّه ، أي فى ملك اللّه وقدرته ، يبسطه إذا شاء على حسب المصالح والمفاسد ، والمغاوى والمراشد . وقد مضى الكلام على نظائرها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تلخيص البيان صـ 326. 327 ﴾

(1 - 2) هنا ألفاظ ممحوة.

(3) هنا بضعة أسطر مبتورة الأطراف غير واضحة المعالم.

(4) فى الأصل «بمعنى أولى» وهو تحريف واضح.

(113/746)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الحديد

(114/746)

سورة الحديد مدنية كلها فيما نرى ، والحديث فيها يتجه إلى الدولة والجمهور معا ! فإن للمجتمع الإسلامى خاصة يعرف بها ، أنه ربانى النشاط والوجهة ، فمن قبل طلوع الفجر إلى ما بعد غياب الشفق ، يهرع المسلمون إلى المساجد حاكمهم ومحكومهم ، وتسمع صيحات الأذان فى كل حى تدعو المسلمين إلى الصلاة ، وتنبه إلى حق الله فى التكبير والتمجيد ، وتنزهه عما لا يليق به ! إن الدولة الإسلامية وإن رفعت شعار لا إكراه فى الدين إلا أنها حريصة على طاعة الله وإنفاذ حكمه والظهور فى الميدان العالمى بأن ولاءها لله الواحد القائم بالقسط الرحيم بالخلق ! فلا عجب إذا افتتحت سورة الحديد بهذا الشعار " سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم * له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير " إن العصر الذى نعيش فيه يوسم بأنه عصر العلم . ولا عجب ، فقد استطاع الإنسان غزو الفضاء ووضع قدمه على القمر ، وهو الآن يدرس كواكب أخرى من أسرة الشمس يحاول الوصول إليها . وقد جزم بأن الشمس وأفراد أسرتها حبات رمال فى فضاء زاخر بالنجوم والشموس . إن العالم ضخم كبير الحجم ذاهب فى الطول والعرض مضبوط بنظام محكم يسيطر على الزفير والشهيق فى أجسامنا ، وعلى المد والجزر فى البحار والمحيطات ، وعلى الكسوف والخسوف بين الكواكب ، وعلى مساحات تنحسر دونها الأبصار والآلات فى ملكوت فخم مهيب يهيمن عليه رب كل شىء ومليكه " سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة

عرشه ومداد كلماته " . ألا يسأل المرء نفسه: هل الدجاجة خلقت البيضة التى تضعها ؟ هل البقرة صنعت اللبن الذى يخرج منها ؟ هل الأم أنشأت الولد الذى يتخلق فى أحشائها ؟ هل الفلاح هو الذى سوى الحبوب والفواكه التى يزرعها ؟ إن هذه كلها أسباب شفافة عن القدرة العليا والحكمة العليا اللتين تبدعان كل شىء " هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل

(115/746)

من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير " .

وظيفة الأمة الإسلامية بين الناس أن تعرف الله وأن تعرف به ، وأن تعبده وتيسر للآخرين عبادته . فهى تجاهد لتحمى حق العبادة ، وتمنع الفتانين من فرض ضلالهم على غيرهم ! فإذا وجد من يقول للمستضعفين " لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا " ، قال المسلمون له والأرض لك ولغيرك ، ومن حقه أن يبقى فيها بالعقيدة التى اختارها ، ونحن مع المضطهد حتى يطمئن ! وتبدأ السورة فى رسم الطريق للأمة الإسلامية حتى تؤدى رسالتها العالمية . فنقرأ قوله تعالى: "آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير " . الإيمان والإنفاق عنصران رئيسان كى تنجح

الأمة فى بلوغ غايتها ، ثم يعقب هذا الإجمال تفصيل ، لا عذر للمسلمين فى الاستمساك بدينهم والعيش به إلى آخر الدهر ، فقد جاءهم نبى أخرجهم من الظلمات إلى النور ، وختم بهم الوحى السماوى وجعلهم خير أمة أخرجت للناس ، فهل يجوز أن يستبدلوا بدينهم مذهبا آخر من أهواء الناس ؟ إن الحضارة الحديثة "تعرض" عليهم أن يتركوا الإسلام وأن يعتنقوا أى نزعة قومية ، أو فكرة البعث العربى ، أو أى دين آخر ! ! المهم أن يتركوا كتاب ربهم وسنة نبيهم ! وقد استجاب البعض لهذه العروض الحديثة وقدموها على الإسلام ، وأخرجوا الألوف المؤلفة من الأجناس التى رضيت الله ربا والإسلام دينا ، وأحدثوا فتنا هائلة أساءت إلى الأتراك والأكراد والفرس والبربر والهنود والزنوج . إنها وثنيات جديدة يمنع منها قوله تعالى " وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين * هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم " . "والغريب أن الأمة العربية التى وعى لسانها القرآن من أغنى أمم الأرض ، فأحشاء الدنيا فى يدها ، وأرضها الخصبة تفيض سمنا وعسلا ، وصحراؤها

العفراء ملأى بالكنوز والمعادن ، فهل سخرت غناها فى نصرة رسالتها ؟ أم غلبتها الشهوات العاجلة فى هذه الدار الفانية ؟ إن ثروات المسلمين يستفيد الآخرون منها أكثر مما يستفيد المسلمون أنفسهم . وكان الواجب أن تدعم عقيدة التوحيد وحقائق الوحى كما قال تعالى " وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير * من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم "

(117/746)

وحسن التصرف فى المال لخدمة الإيمان شيمة الصادقين من أهل اليقين . أما عبيد الحياة وأهل النفاق ، فلهم مسالك سوء ، ولذلك يقال لهم يوم القيامة " فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير " . الإيمان المقبول أساسه عرفان الله ونكران الذات ورحمة الخلق ورقة القلب ! وهناك قوم ينتمون إلى الإيمان وفى صدورهم صلف وأثرة تستغرب قساوة قلوبهم وخشونة جوانبهم ! قد يكون اليهود - بعد نقضهم مواثيق الله - نماذج لهذا الإيمان الكريه ، وفيهم يقول الله " فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم

وجعلنا قلوبهم قاسية . . " . وقد نهانا الله ورسوله عن متابعة هؤلاء الناس . ومع ذلك فإن التدين السطحى ينتشر بيننا . ترى الرجل يتشبث برأى فى فروع الفقه لا يقدم ولا يؤخر ويحسب أنه ملك دون غيره مفاتيح الجنة ، وينظر إلى الناس من عل ويعاملهم بجفاء ! ! يعظ القرآن هؤلاء " ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم . . . " . هذا المرض يحبط أعمال الأفراد ، ويحول بين الأمة الإسلامية وأداء رسالتها . إن التواضع والرحمة يزرعان القبول والحب ، أما العجب والفظاظة فلا يثمران إلا الخصام والقتال .

وقد عادت السورة تشرح ميزات الأمة التى تحمل رسالة الخير والحق ، فأكدت ما جاء فى صدرها من حث على الإيمان والإنفاق ، فقال تعالى " إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم * والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم . . . " . قد يكون الشهداء قتلى معارك الجهاد . . وقد يكونون رجال الدعوة الماشين فى أقدام الأنبياء يدلون على الله ، ويشرحون الوحى . . ! " فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا " كلا المفهومين صحيح . وشارة الصدق فى الإيمان بالله ضبط الموقف من الدنيا . فمن بات واستيقظ مشغولا بها باكيا

كلى ما فات منها فلا اعتداد به . إن الناس فى عصرنا يذهلون عن الآخرة ، والحضارة الغالبة تجهل بها وتصد عنها ، والأديان السماوية فاشلة فى إدارة المعركة تحسب أن الفشل فى الأرض طريق النجاح

فالسماء . ولا أدرى كيف يصح ذلك فى دين يبنى الإيمان بالله على التأمل فى الكون ودراسة قوانينه ؟ انعقد أخيرا مؤتمرا للمياه فى دول الخليج حضرته دولة إسرائيل (؟ !) لماذا ؟ لأن الدولة اليهودية تملك الخبرة ! أما نحن فخبرتنا محدودة . . . يظهر أننا خبراء فى حب المال والجاه وحسب ! وسورة الحديد تنبه إلى أن المسلمين شركاء فى سباق عالمى محموم لا ينجح فيه إلا من استعد له وتهيأ لمراحله وقدر الفروق بين خطواته وخطوات خصومه . . " سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله . . " . ما هذا السباق ؟ إن أهل الإيمان يعرضون ما لديهم وينصرونه ، وأهل الكفر يعرضون ما لديهم وينصرونه . هكذا شاء الله أن تدور رحى النشاط فى الأرض " ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض . . . " . .

والناظر الآن إلى الأطراف المتخاصمة يرى عجبا . فعلى سطح الماء من المحيط الشمالى إلى المحيط الجنوبى ، لا ترى بارجة عليها علم التوحيد على حين ترى البوارج والطائرات والغواصات تخدم كل ملة وتنصر كل حزب . يقول الله تعالى . " لقد أرسلنا رسلنا بالبينات

وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز" . خلق الله الحديد ذا خصائص عظيمة فى صناعات الحرب والسلام معا ، فهل درسنا هذه الخصائص وانتفعنا بها فى نشاطنا المدنى والعسكرى ؟ وأرينا الله من نشاطنا ما يرضيه ؟ إن أمتنا الإسلامية عالة على غيرها فى ذلك الميدان ، فلما أردنا أن نصنع شيئا اتجهنا إلى صناعة أسياخ نسلح بها المبانى لا إلى صناعة أسلحة نحمى بها الحق ونصون العقائد ! ! إن تعلقنا بمتاع الدنيا

(119/746)

شديد ، أما تعلقنا بالآخرة فوهم ، ولو كان حقا ما أجدانا ، فإن علومنا الأرضية تتذبذب عند درجة الصفر . وكيف يسود الأرض من لا يعى شيئا من قوانينها ؟ إننا نلمح الشعرة فى تفاوت الناس من حظوظ الدنيا ، ولا نلمح الخشبة عندما يكون التفاوت فى حقوق الله . واليوم يجد المسلمون أنفسهم فى موقع عصيب ، فاليهود – وعددهم فى العالم أقل من سكان سوريا – يريدون الاستيلاء على مقدرات العالم الإسلامى الذى يزيد على خمس سكان

الأرض ! وأتباع الملل الأخرى من كتابيين ووثنيين يجتاحوننا فى جبهات كثيرة ، فهل الذين نزلت عليهم سورة الحديد يشعرون الآن بما تقول ؟ وختمت السورة بآيتين توصيان المسلمين بالعودة إلى الله والاقتداء برسوله . والحق أن السلف الأول انتقلوا من السفح إلى القمة ، عندما التفوا حول هذا القرآن وتدبروا آياته . كانوا نفرا يعد على الأصابع ، ثم حزبا يشق طريقه بجهد جهيد ، وفى سنوات معدودات أضحوا دولة عظمى اختفت أمامها دول حكمت العالمين قرونا . ولا مانع بتة أن يعيد التاريخ نفسه ، إذا أعاد المسلمون علاقتهم بكتابهم ومشوا وراء نبيهم . . يقول تعالى خاتما هذه السورة " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم * لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله . . . . " . انتهى انتهى . اهـ

﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 441.445 ﴾

(120/746)

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman Bin Mohammed AL-QAMMASH

37